منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

منهاج البراعة

شرح

نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الأول

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأعزّ المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد: فقد أتحفت المكتبة العربية والإسلامية بكثير من الكتب وبمختلف مجالات العلوم، التفسير والتأويل والتاريخ والسير والاقتصاد والسياسة والنحو والبلاغة والأدب والآداب والأخلاق وما شأن ذلك، وقد شمرّ علماؤنا الأعلام ومصنفينا الأعزاء عن ساعدهم فأفرجوا لنا كثيراً من هذه الكتب بالشكل المناسب والكيفية المطلوبة.

بيد أن «**نهج البلاغة**» والذي هو من تصنيف إمام معصوم لا يستطيع الكثير من الناس أن يحيطوا بعلمه كما قال (ع): «بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة».

كتاب شمل الآداب والأخلاق وتهذيب النفس، والتاريخ والسير، والاقتصاد والسياسة، والبلاغة والأدب، وتحدث عن أسرار كتاب الله العزيز وشرح وفسّر بعض آياته.

قد جمع «**نهج البلاغة**» الكثير من العلوم وأصولها، بأفضل أسلوب وأدق ألفاظ، ببلاغة تفوق بلاغة العرب منذ عصر أمير المؤمنين عليه السلام وحتى هذا العصر. وقد اعترف بذلك الكثير من المفكرين وأصحاب التواريخ، من المسلمين وغيرهم. فأصبح من يريد الأخلاق والآداب ينهل من معين «**نهج البلاغة**»، ومن يريد أسرار الصلاة والصوم والحج والعبادة والطاعة يأتي إلى الكلام الإلهي في نهج البلاغة.

وكذلك من يريد التاريخ والسياسة فإن مراده في الفيض الرباني والمنح الملكوتي في كلام النور الثاني نور علي بن أبي طالب صلوات المصلين عليه.

لذا كان العلماء الأعلام مهتمين بشرح هذا العطاء العلوي والنور المطلبي، فبيّنوا مقصود الإمام عليه السلام وأزالوا عنه ما أُبهِمْ، وقرّبوا لنا البعيد من معانيه بربط كلامه بعضه ببعض أو الإتيان عليه بشاهد قرآني، أو تأييده برواية عن رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين

المعصومين، وقاموا بشرح ألفاظه التي باتت غريبة على الناس بسبب بعدهم عن حقيقة اللغة وبلاغتها، وأزاحوا عن كلامه الشريف ما يتوهمه الذهن من المعاني الباطلة والبعيدة. وكان هذا الشرح من الحجة السند حبيب الله الخوئي لكلام الإمام عليه السلام من أروع الشروح وأفضلها وأكملها، وامتاز بكثرة الروايات والأحاديث التي أتى بها والآيات القرآنية من أجل شرح مراد الإمام عليه السلام أو من أجل تأييد كلامه وتبيين مقصوده الشريف.

وقد قمنا بتقويم النص والأحاديث وتبريزها ثم تخريجها من المصادر المعتبرة والأصول الموثقة، إضافة إلى التخريجات التي يشير المصنف إلى إسم مصدرها في المتن. كما وقمنا بتخريج الآيات القرآنية وبعض الأقوال على حسب ما تيسر من مصادر.

وكنا أحياناً نعلق على بعض المطالب لأهميتها أو لدفع توهم محتمل حفاظاً على الأمانة العلمية ودفعاً للشبهات التي تطرح على مذهب الشيعة.

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل المتواضع، وأن يهدينا لما فيه الصلاح والحمد لله رب العالمين.

علي عاشور

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة علي أصغر بن مجتبى بن صادق الحسيني الخوئي

الحمد لله الذي لا شريك له في خلقه ولا شبيه له في عظمته والصّلاة والسّلام على أمينه وحبيبه وصفيّه محمد عبده ورسوله، وعلى الأئمة المعصومين الطيبين الطاهرين من آله وعترته، وبعد إنّ كتاب **(نهج البلاغة)** الذي جمعه الإمام الهمّام العلامة الفهامة شمس فلك الفصاحة قطب رحى البلاغة: الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي تغمدهما الله برحمته، كتاب في الإتقان يتلو الفرقان لكونه حاوياً لكلمات وصيّ من نزل إليه القرآن، فلذلك لا يسع لأحد وصف ما فيه من فنون الفصاحة، ووجوه البلاغة والحِكَم الإلهيّة، والمواعظ الحسنة الشافية كما هو حقه، كما قال صاحب الكتاب الذي ضاق نطاق الوصف عن التبسط في شخصيته في سبب تأليفه: (علماً أنّ ذلك يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربيّة وثواقب الكلم الدينية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين ﷺ مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه ﷺ ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وتقدّم وتأخروا).

مع ذلك اجتهد جماعة من العلماء المتبحرين من المتقدمين والمتأخرين كل على قدر بضاعته في تفسير جمله، وتبيين مشكلاته وتوضيح معضلاته، ولكن لم يأت أحد منهم فيما رأيته مثل ما أتى به السيّد السند والحبر المعتمد، فقيه آل الرسول وشرف ابناء البتول جامع المعقول والمنقول فخر المحققين وزبدة المجتهدين (الحاج مير حبيب الله الهاشمي الموسوي الخوئي) طاب الله ثراه، فإنه رحمه الله بعد عوده من النجف الأشرف إلى بلدة خوى شمّر ذيوله وصرف برهاً من زمانه وعمدة أيام شبابه في تأليف كتاب **(منهاج البراعة)** في شرح نهج البلاغة، فأتى بكتاب على نهج غريب ونمط عجيب، لم أرَ مثله قط في زبر الأوّلين ولم يسمح به قريحة أحد من المتأخرين، ينتفع منه كل أحد على قدر رتبته ويستضيء به كل من أراد دفع ظلمته، فتأليفه هذا وسائر تآليفه الغير المطبوعة يوقف القارىء على تبحره في العلوم المتنوعة، وبسط يده في المعارف الإلهية.

حياة المؤلف

هو العلاّمة المؤيد المسدّد المتبحر الأديب الحاج مير حبيب الله بن السيّد محمد الملقب بأمين الرعايا ابن السّيد هاشم ابن السّيد عبد الحسين رضوان الله عليهم أجمعين.

ميلاده

ولد في بلدة خوى من بلاد آذربايجان صانها الله عن الحدثان وفيها نشأ وتربى، والذي يظهر ممّا هو مشهور بين عشيرته وأحفاده من أنه رحمه الله سافر إلى النجف الأشرف مع مصاحبة ابن عمّه العلاّمة الآية الحاج السيد محمّد حسين الهاشمي الموسوي رضوان الله عليه، وأنّ عمره كان خمس وعشرين سنة، ومن تاريخ مسافرته الذي كتب والده السّيد محمّد أمين الرعايا رحمه الله بخطه في ظهر الصفحة الأولى من كتاب حق اليقين وهذا عين عبارته: مشرف شدن نور العيونى آقاى ميرحبيب الله حفظه الله تعالى بعتبات عاليات عرش درجات بعزم تحصيل كه در دوازدهم شهر جمادى الآخر بهمراهى نورديده جناب آقاى مير محمد حسين ازخوى حركت نمود وروانه شده جناب بارى بحق مقربان دركاه خودهر دورا حفظ فرموده درغربت ناساز نفرموده از شر شيطان جنّ وإنس ومن شر الأعداء نكه داشته بسلامتى وتندرستى بوطن مألوف عالم وفاضل باعمل بركرداندا إنشاء الله سنة (١٢٨٦) هو انطباق ولادته تقريباً على سنة (١٢٦١) والله العالم.

أساتيذه

والذي رأيته من تدويناته أصولاً وفقهاً ومنها تعليقته على فرائد الأصول من أوله إلى آخر حجيّة الظن، كلها بخطه أغلبه دراسات العلامة الآية آقا سيد حسين الحسيني الكوه كمرى رضوان الله عليه، لكن ذكر العلامة الحجة الشيخ آقا بزرك الطهراني دامت بركاته في طبقات أعلام الشيعة الجزء الأول (نقباء البشر في القرن الرابع عشر ص ٣٦٢ رقم الاسم ٧٢١) تلمذه من الآيتين: الشيخ ميرزا حبيب الله الرشتى، والمجدد الشيرازى أيضاً.

تأليفاته

١ ـ شرح العوامل في النحو قرب ٤١٢ صفحة، ألفه قبل تشرفه بالنجف الأشرف في أوائل شبابه وكتبه بخطه.غير خط غيره من مصنفاته وفرغ من كتابته في غرة شهر رمضان سنة ١٢٨٣ وأرّخ في آخر الكتاب بما هذا لفظه: ليلة يوم الثالث وهي غرّة الشهر التاسع من السنة الثالثة من العشر التاسع من المائة الثالثة من الألف الثاني.

٢ ـ تقريرات درس أستاذه العلامة الآية السيد حسين الحسيني قدس سره بخطه علّقه

على فرائد الأصول من أوله إلى آخر حجية الظن، ألفه في النجف الأشرف قيدنا عين ألفاظ تاريخه (وقد وقع الفراغ منه بيد مؤلفه الفقير المحتاج إلى ربّه الغني حبيب الله بن محمّد بن هاشم الموسوي يوم الجمعة وهو الرابع عشر من شهر صفر المظفر، وقد مضى من الهجرة النبوية تسعة وثمانون ومائتان بعد الألف، وقد كان شروعي فيه يوم الأحد ثامنُ عشر ربيع الآخر من شهور السبعة والثمانين، ويتلوه الكلام في مسألة البراءة إن شاء الله، وعن الله سبحانه أسأل أن يوفقني لإتمامه ويمنَّ علينا بمجاورة أحسن بلاده ومؤانسة أكرم عباده، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمّد وآله وأصحابه وأحبائه صلاة كثيرة كثيرة، سنة ١٢٨٩ .

٣ ـ رسائل كثيرة شتى في الأصول والفقه بخطه لا اسم لها ولا تاريخ إلاّ أن كلها مباحث دروس أساتيذه.

٤ ـ كتاب **«تحفة الصائمين في شرح الأدعية الثلاثين»** قرب ١٥٢ صفحة بخطه، **ألفه في** أوائل مراجعته من النجف الأشرف في بلدة خوى، أرخ في آخره وهذا عين عبارته: (وكان الفراغ من كتابته في ليلة التاسع عشر من شهر ربيع المولود سنة ١٢٩١).

٥ ـ رسالة في رد الصوفية ألفها في بلدة خوى، أفردها من محتويات المجلد السادس من كتاب «منهاج البراعة» لأهمّيته وبسط الكلام فيها بمناسبة المائتين والثامن من المختار في باب الخطب واستنسخه في خوى وكتب تاريخه بخطه وهذا نصّه: (وكان الفراغ منه في شهر شعبان المعظم من شهور سنة ١٣٢١).

٦ ـ كتاب **«منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة»** بخطه في سبع مجلدات الى الخطبة المائتين والثامنة والعشرين وشرح جملاً قلائل من أوّل هذه الخطبة وهي آخر ما وفق رحمه الله بشرحها، كما كتبه ناسخ الطبع في آخر المجلد السابع بأمر ولده العالم الفاضل الحجة الحاج السيّد أبو القاسم الهاشمي الموسوي الملقب بأمين الإسلام رضوان الله عليه في سنة ١٣٢٨ المطبوع من مؤلفاته رحمه الله هذا الدّر الثمين فقط في سبع مجلدات، شَخَصَ من خوى إلى طهران لطبعه وطبع مقداراً منه وأدركه الأجل، وطبع الباقي بأمر ولده العالم المذكور وسائر أولاده الكرام في سنة ١٣٥١.

وحيث صارت نسخة الطبعة الأولى ـ مع ما فيها من عدم مطبوعيّة أسلوب طبعها ـ قليلة الوجود حثنا بعض الأفاضل من أصدقائنا وولده السعيد السيّد نعمة الله الهاشمي سلمه الله تعالى، وسبطه العالم الفاضل الحجة السيد عبد الحميد الهاشمي الموسوي نزيل طهران دامت إفاضاته، على تجديد طبعه ونشره على أسلوب جديد، عرضنا وأظهرنا هذا النظر لذوي الرغبة في نشر الكتب الدينية الإسلامية وفق بحمد الله من بينهم السيد الجليل الحاج السيد

إسماعيل مدير المكتبة الإسلامية بطهران شارع بوذرجمهري، ومؤسسة المطبوعات الدّينية بقم.

فإنه وفقه الله وجماعة المؤسسة لا يزالون يشمرون أذيالهم ويواصلون جهدهم في نشر الكتب الإسلامية فللّه درّهم وعليه أجرهم.

وقد طبع هذا الأثر الخالد بحمد الله باهتمامهم على أسلوب جديد، وورق جيّد وحروف طباعيّة حديثة وباشر مقابلته على الأصل الذي بخطه (ره) مع معاونة جمع من الفضلاء سبطه العالم المذكور الذي كان نسخ الأصل من مؤلفاته (ره) كلها عنده.

وفاته

توفي أعلى الله مقامه في شهر صفر من شهور سنة ١٣٢٤ في عاصمة طهران، ونقل جنازته إلى مشهد عبد العظيم الحسني سلام الله عليه، ودفن في الحجرة الأخيرة الواقعة في طرف الغربي من الصحن الشريف كما حكاه سبطه العلاّمة السيد عبد الحميد أدام الله توفيقاته.

هذا نبذ من تاريخ حياته السعيدة وآثاره الثمينة على سبيل الاختصار، والمرجو من إخواننا المؤمنين أن يذكروني بدعاء الخير لأنني محتاج إليه في حياتي وبعد مماتي.

وأنا الراجي عفو ربّه الكريم الغفور وشفاعة أجداده الطيبين الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين:

علي أصغر بن مجتبى بن صادق الحسيني الخوئي في ٢٢ صفر الخير سنة ١٣٧٨.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَجَزَتْ عَنْ إِدْرَاكِهِ الْمَشاعِرُ وَالْعُيُونُ بِمُشاهَدَةِ الْعَيَانِ، وَعَقَدَتْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ الضَّمَائِرُ والْقُلُوبُ بِعَزِيمات الإِيمانِ، الْمُتَقَدِّسِ في عِزِّ جَلالِهِ عَنِ الْكَوْنِ وَالْمَكَانِ، وَالْمُتَعَالي في عُلُوِّ كَمالِهِ مِنَ الأَيْنِ وَالآنِ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَكْرَمَنَا بِدائِعَ الأَيادِي وَرَوائِعِ الإِحْسانِ، وَآثَرَنا بِفَهْمِ حَقَائِقِ الْمَعانِي وَدَقَائِقِ الْبَيانِ، حَمْداً وَشُكْراً مُتَطابِقاً عَلَيْهِ الْجَوارِحُ وَالأَعْضاءُ وَالْجَنانُ، وَلَهُ الثَّناءُ على ما سَهَّلَ لَنا ارْتِقاءَ مَدارِجِ الْكَمالِ وَمَعارِجِ الْيَقِينِ، بِالتَّمَسُّكِ بالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَالْحَبْلِ الْمَتِينِ، وَأَبْلَجَ لَنا «نَهجَ الْبَلاغَةِ وَمِنهَاجَ الْبَرَاعَةِ» بِمَنارِ كَلامِ الْوَلِيِّ الأَمِينِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْمُجْتَبىٰ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِياءِ، وَالْمُرْتَضى مِن سُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَالْمُصْطَفَىٰ مِنْ مِشْكَاةِ الضِّياءِ، الَّذِي أَسْرَىٰ بِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الأَقْصى، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَىٰ السَّماواتِ الْعُلَى، فَانْتَهَىٰ إِلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، ثُمَّ دَنَىٰ فَتَدَلّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ في وَلِيِّه ما أَوْحَىٰ، وَعَلىٰ آلِهِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلامُ التُّقىٰ، وَأَرْكَانُ الْهُدَىٰ وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقى، لاَسِيَّما وَصِيِّه وَوَزِيرِهِ، وَحافِظِ شَرْعِهِ وَحامِي دِينِه، وَمَوْضِعِ سِرِّه وَمَلْجَإِ أَمْرِهِ، الَّذِي آتاهُ مِنَ الْعِلْمِ أَلْفَ بابٍ، فَانفَتَحَ مِنْ كُلِّ بابٍ أَلْفُ بابٍ، بِغَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ وَلاَ اكْتِسابٍ، بَلِ اخْتِصاصٌ مِنَ الْمُفَضِّلِ الْوَهّابِ، فَبِذَلِكَ صارَ كَلامُهُ ﷺ جامِعاً لِلْعَجَبِ الْعُجابِ، مُنْحَدِراً عَنْهُ السَّيْلُ وَالْعُبابُ، بَلْ كَانَ بَحْراً مُتَلاطِمَ التَّيّارِ، مُتَراكِمَ الزَّخارِ، فَهُوَ أَعْظَمُ شَأْناً، وَأَمْنَعُ جانِباً، وَأَجَلُّ قَدْراً، وَأَبْعَدُ قَعْراً، مِنْ أَنْ يَنالَهُ غَوْصُ الأَفْهَامِ، أَوْ يَبْلُغَ غَوْرَهُ الْعُقُولُ وَالأَوْهَامُ، هَيْهاتَ هَيْهاتَ، ضَلَّتِ الْعُقُولُ، وَتاهَتِ الْحُلُومُ، وَحَصَرَتِ الْخُطَباءُ، وَعَجَزَتِ الأُدَباءُ، وَكَلَّتِ الْفُصَحاءُ، وَعَيِيَتِ الْبُلَغاءُ، وَتَحَيَّرَتِ الْحُكَماءُ، وَتَصاغَرَتِ الْعُظَماءُ عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شَأْنِهِ، أَوْ إِدْراكِ فَضِيلَةٍ مِنْ فَضَائِلِهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِداهُ، وَمَنَحَنِي اتِّباعَ آثارِهِ وَهُداهُ، وَشَرَحَ صَدْرِي لِفَهْمِ كَلامِهِ وَمُناهُ، وَهٰذِهِ غايَةُ مَسْأَلَتِي في دُنْيايَ وَآخِرَتِي، وَهُوَ سُبْحانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِالإِجابَةِ حَقِيقٌ جَدِيرٌ.

وبعد: فيقول العبد المفتاق إلى رحمة ربّه الغني حبيب الله بن محمد بن هاشم الهاشمي

العلويّ الموسويّ الخوئيّ الآذربيجاني، عفا الله عن جرائمهم بجاه أجدادهم الطاهرين، وآتاهم صحائفهم بأيمانهم يوم حشر الأوّلين والآخرين: إنّ أحقّ ما ينبغي أن ينفق فيه نقود الأعمار، وأشرف ما يحقّ أن يصرف له سهود الأبصار، وأفضل ما يليق أن يبذل به كنوز الأفكار، هو العلم الموصل إلى السّعادة الأبديّة، والمحصّل للعناية السّرمديّة، وهو علم الأحاديث والأخبار، المأثورة عن النبي ﷺ وعترته الأطهار الأخيار، إذ به تدرك سعادة الدّارين، ويخلص من كلّ عار وشين، وبه يعرف الربّ ويُوحّد، ويطاع الله ويُعبد، وبه يوصل الأرحام، ويعرف الحلال والحرام، وهو المؤنس في الوحدة، والمصاحب في الوحشة، وشفاء القلوب من الأسقام والعيوب، وبه قوام السياسة المدنيّة، وانتظام الطاعات الماليّة والبدنيّة، وتعلّمه لله سبحانه حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، وتعليمه صدقة والعمل به جهاد، وبذله قربة، واتّصافه بتلك الأوصاف، لكونه مقتبساً من السّادة الأشراف، من فروع عبد مناف، المؤيدين المسدّدين بروح القدس، المهذّبين المطهرين من الدنس والرّجس، الذين هم خزّان أسرار التنزيل، ومنار أنوار التأويل، وحفظة الكتاب المبين، وورثة علم النبيّين، المعصومون عن الخطأ والنسيان، والمبرّؤون من السهو والنقصان، المهديون المقربون، وعباد الله المكرمون، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وأهل الذكر الذين عنهم يسألون، بقوله:

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فمن استقى من منهل علومهم فقد ارتوى بالكأس الأوفى، ومن اقتبس من أنوار آثارهم فقد فاز بقدحي الرقيب والمعلّى، لأنّهم لا يقولون فيما ينطقون عن الهوى، وما يؤثر عنهم فليس إلا وحياً يوحى.

شعر

مُطَهَّرُون نَقِيّاتٌ ثِيَابُهُمْ ... تَجْرِي الصَّلاةُ عَلَيْهِمْ أَيْنَمَا ذُكِرُوا
اللّهُ لَمّا بَرَى خَلْقاً وأَتْقَنَهُ ... صَفَاكُمُ وَاصْطَفَاكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ
فَأَنْتُمُ الْمَلأَ الأَعْلَىٰ وَعِنْدَكُمْ ... عِلْمُ الْكِتَابِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ السُّوَرُ[١]

ولله درّ مَن قال:

إذا شِئْتَ أَنْ تَرْضَىٰ لِنَفْسِكَ مَذْهَباً ... يُنَجِّيكَ يَوْمَ الْبَعْثِ مِنْ لَهَبِ النَّارِ
فَدَعْ عَنْكَ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ ... وأَحْمَدَ وَالْمَرْوِيَّ عَنْ كَعْبِ أَحْبَارِ
وَوَالِ أُناساً قَوْلُهُمْ وَحَدِيثُهُمْ ... رَوَىٰ جَدُّنَا عَنْ جَبْرَئِيلَ عَنِ الْبَارِي[٢]

---

(١) عيون أخبار الرضا: ١/١٥٥، ومناقب آل أبي طالب: ٣/ ٤٧٤.

(٢) بحار الأنوار: ١٠٥/١١٧، وعوالي اللئالي: ١/ ٣٠١.

ثم إنّ أحسن الرّوايات المنشورة، وأبهى الكلمات المنثورة، هو ما دونه السّيد السّند والركن المعتمد الشريف الرضيّ أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الموسوي قدّس الله سرّه ونوّر ضريحه، في «**نهج البلاغة**» من شرايف الكلام والخطب، ولطائف الوصايا والكتب والأدب، المأثورة من باب مدينة العلم والحكمة، والمتلقّاة من قطب دائرة الطهارة والعصمة، حجة لله في عباده وخليفة لله في بلاده.

ولعمري إنّه كتاب شرع المناسك للناسك، وشرح المسالك للسالك، وهو خلاص المتورّطين في الهلكات، ومناص المتحيّرين في الفلوات، ملاذ كلّ بائس فقير، ومعاذ كلّ خائف مستجير، مدينة المآرب، وغنية للطالب، لأنّ ما أودع فيه كلام عليه مسحة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي ﷺ، ظاهره أنيق وباطنه عميق، مشتمل على أمر ونهي، ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب، وجدل ومثل وقصص، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، يدلّ على الجنة طالبها، وينجي من النار هاربها، شفاء من الدّاء العضال، ونجاة من ظلمة الضلال، دواء لكلّ عليل، ورواء لكلّ غليل، وأمل لكلّ آمل، وبحر ليس له ساحل، وكنز مشحون بأنواع الجواهر والدّرر، تفوح من نفحاته المسك الأذفر والعنبر.

ومع ذلك قد احتوى من حقائق البلاغة ودقائق الفصاحة ما لا يبلغ قعره الفكر، وجمع من فنون المعان وشؤون البيان ما لا ينال غوره النظر، وتضمّن من أسرار العربيّة والنكات الأدبيّة والمحاسن البديعيّة ما يعجز عن تقريره لسان البشر، ولنعم ما قيل:

نَهْجُ الْبَلاَغَةِ نَهْجُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ... فَاسْلُكْهُ يَا صَاحِ تَبْلُغْ غَايَةَ الأَمَلِ

كَمْ فِيهِ مِنْ حِكَمٍ بِالْحَقِّ مُحْكَمَةٍ ... تُحْيِي الْقُلُوبَ وَمِنْ حُكْمٍ وَمِنْ مَثَلِ

أَلْفَاظُهُ دُرَرٌ أَغْنَتْ بِحُلْيَتِهَا ... أَهْلَ الْفَضَائِلِ عَنْ حَلْيٍ وَعَنْ حُلَلِ

وَمِنْ مَعَانِيهِ أَنْوارُ الْهُدَىٰ سَطَعَتْ ... فَانْجَابَ عَنْهَا ظَلاَمُ الزَّيغِ وَالزَّلَلِ

وَكَيْفَ لاَ وَهُوَ نَهْجٌ طَابَ مُنْهِجُهُ ... أَهْدَى إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي[1]

وهذا الكتاب المستطاب قد اشتهر بين علماء الأمصار وفضلاء الأعصار، اشتهار الشمس في رابعة النهار، وشرحه من قبل جماعة من أولي الألباب، من دون أن يميّزوا بين القشر واللّباب، فهم فيه كحاطب ليل، أو جالب رجل وخيل.

منهم: الشيخ سعيد الدين هبة الله القطب الراوندي قدّس سرّه، وما ظفرت بعد على شرحه، وإنّما يحكي عنه الشارح المعتزلي في تضاعيف شرحه أحياناً، ولعله لم يتعاط منه إلا القليل، من غير تحقيق وتفصيل.

---

(١) الذريعة: ١٤/١١١.

ومنهم: الفاضل البارع الأديب عزّ الدّين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي البغدادي، وقد شرحه في نيف وأربعين وستمائة، وهو أبسط الشروح إلا أنه عند الناقد البصير، والمتتبّع الخبير، جسد بلا روح، لأنّه قد أتى فيه بما قويت فيه مُنّته، وترك ما لا معرفة له به ممّا قصرت عنه همّته، حيث اكتفى بتفسير غرائب الألفاظ وما زعمه مشكلاً من النحو والتصريف والاشتقاق ونحوها ممّا يدور على القشر دون اللباب، وأطنب بذكر القصص والحكايات، وإيراد الأَمثال والأَنساب والمناسبات، ونحوها ممّا ليس له كثير فائدة في شرح الكتاب، ولا له ثمرة تعتدّ بها عند أولي الألباب، وإنّما هي وظيفة أصحاب التواريخ والسّير، لا أهل الدّرايات والأَثر، ومع ذلك فليته يقنع بذلك ولم يجتز بعد على الله، ولم يؤوّل بمقتضى رأيه الفاسد ونظره الكاسد وظواهر كلام وليّ الله، فإنّه لفساد الاعتقاد، ولانحرافه عن منهج الرشاد، سلك مسلك العصبيّة والعناد، وأكثر من اللجاج في شرح الخطب المتضمّنة للاحتجاج، وأوّل الكلمات المسوقة لإظهار التظلم والشكاية، عن الغاصبين للخلافة، بتأويلات بعيدة تشمئزّ عنها الطباع، وتنفرّ عنها الأسماع، ويصرفها عن ظواهرها بغير دليل، فأضلّ كثيراً وضلّ عن سواء السبيل، حسبما تطلع عليه في مقدمات الخطبة الشقشقيّة وغيرها على تحقيق وتفصيل.

ومنهم: الشيخ الفقيه الحكيم المتكلّم ميثم بن عليّ بن ميثم البحراني قدّس الله روحه، وكان ختام شرحه في سنة سبع وسبعين وستمائة، وشرحه أحسن الشروح خال عن الحشو والزّوائد، منظم بدرر الفوائد، ومنتظم بغرر الفرائد، إلا أنّه (ره) لما كان عمدة فنه المطالب الحكميّة، والمسائل الكلاميّة، سلك في الشرح مسلك أهل المعقول، وفاته فوائد المنقول، وحيث اقتضى الحال والمقام ذكر رواية اعتضاداً أو استناداً اعتمد فيه على رواية عاميّة وليس لها اعتبار، وقصرت يده عن التمسّك بذيل أخبار الأئمة الأَطهار، واقتصر في اللغات ببيان موادّ الكلمات، من دون تحقيق للهيئات.

فحيث لم يكن له شرح يليق به، عزمت بعد الاستعانة والاستمداد من ربّ العالمين، والتمسّك بالعروة الوثقى والحبل المتين، والتعلق بأذيال أجدادي الطّيبين سلام الله عليهم أجمعين، على تهذيب شرح يذلل صعابه للطالبين، ويرفع حجابه للراغبين، مُسفراً عن وجوه خرائده[١] النقاب، مفصّلاً بين اللغة والترجمة والإعراب، مفصحاً عمّا تضمّنه من دقائق المعان وحقائق البيان، مبيّناً لمشكلات معانيه بأحسن البيان، مفسّراً لمعضلات مبانيه بأتقن التبيان، مرشّحة أصوله بآيات محكم الكتاب، وموشّحة فصوله بروايات الأئمّة الأطياب، متضمّناً لفضائل دثرة، وفوائد جمّة خلت عنها أو عن جُلّها سائر الشروح.

يسود إحداها أنّي ضبطت في الشرح أعداد ما في المتن من الخطب المختارة والكلام

(١) الخرائد: جمع خريدة: اللؤلؤة.

المختار وغيرهما، والداعي لذلك الضبط والتعداد تسهيل الأمر للطالبين، وسهولة الحوالة والتناول للمتناولين، فإنّه ربّما يذكر في شرح كلام له ﷺ آيات شريفة، وروايات لطيفة، وتحقيقات عميقة، ونكات أنيقة؛ ثمّ يجيء كلام آخر له ﷺ على نسق كلامه السابق يقتضي شرحه ذكر ما تقدّم ذكره استظهاراً أو استشهاداً. وربّما يكون أحد كلاميه تفسيراً لكلامه الآخر، أو يكون الكلامان كلاهما ملتقطين من كلام واحد، فتمس الحاجة إلى الإحالة إلى ما تقدّم تارة، وإلى الإشارة إلى ما تأخّر أُخرى، إذ إعادة ما تقدّم في السابق، وتقديم ما يأتي في اللاّحق يوجب الإطناب والتكرار، المستهجن عند أولي الأبصار.

الثانية: أنّي رمت أن أفصّل مباسط خطبه ﷺ ومفصّلات كلامه بفصول معدودة مضبوطة، وربّما ذيلتها بتذييلاتٍ رائقة، وأردفتها بتنبيهاتٍ فائقة، حسبما اقتضته الحال والمجال، والغرض من تقطيع الأصول في ضمن تلك الفصول، سهولة الإحاطة بأقطار ما نذكرها في الشرح، وغيرة على عقائل كلامه سلام الله عليه وآله، كيلا يبعد العهد بها بطول الشّرح فتنسى، وفيه أيضاً من تسهيل الحوالة والتعاطي ما لا يخفى.

الثالثة: أنّي فصّلت بين اللّغة والمعنى والإعراب، وميّزت بين القشر واللباب وأشرت في اللغات إلى المواد وما عساه يشكل من الهيئات، ليتّضح مباني الكلمات، وأوردت في الإعراب من النكات العربية، واللّطائف الأدبية ما فيه تشحيذ[1] للأذهان وتقريب للأَفهام، وأتيت في بيان المعنى لكلّ من الفقَر، بما يناسبها من الآيات والروايات والأثر، استناداً واستدلالاً، أو لمحض المناسبة والارتباط، والغرض بذلك سوق ماء العلم الفرات، من جداول تلك الفقرات، وما يتلوها من الآيات والروايات، إلى أراضي القلوب الزكيّة، ليخرج به من الثمرات ما هي أغذية الأَرواح والقلوب، وفواكه الألباب والعقول.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

فإنّ كلام الله وكلام النبيّ والأئمة عليهم السلام كلّها من نبع واحد، يمدّ بعضها بعضاً ويكشف بعضها عن بعض.

الرابعة: أنّي مزجت الشرح بالمتن مبالغة في توضيح المعنى وإيضاح المرام حتى صارا بمنزلة واحدة من الكلام، على أحسن نظام وانتظام. ولكن أنىٰ لي ولأمثالي أن ينسب كلامه إلى كلام الإمام، وكيف يمزج الغثّ بالسمين، واللّجين باللجين[2]؛ وأين مطلع السهيل من موقع السيل، وأيّ نسبة من الدرّ والحصى، وبين السيف والعصا، وأنّى يقاس الذهب

---

(١) التشحيذ: التنهيد.

(٢) اللجين: الفضة، واللجين الخبط وهو ما سقط من الورق عند الخبط.

بالنحاس، والفضّة بالرصاص، ويسوّى بين القطر والعباب[١]، أم بين السراب والشراب.

الخامسة: أنّ كلّ فصل طغى فيه قلم الشارح المعتزلي أو زلت به قدمه ودعاه سوء العقيدة إلى العدول عن النهج القويم، والصراط المستقيم، أوردت كلام الشارح بتمامه، وأردفته بالتنبيه على هفواته وآثامه.

السادسة: أنّ كلّ كلام أشار ﷺ فيه إلى ملحمة أو واقعة أو حادثة أوردت في الشرح بيان تلك الواقعة واقتصاص هذه الملحمة بسند أضبط، على طريق أوسط، معرضاً عن الإيجاز المفرّط، والإطناب المفرط.

السابعة: أنّ السيد قد أتى بما أورده في هذا الكتاب على نحو الإرسال، وحذف الإسناد والرجال، ومع ذلك فحيث كان غرضه على زعمه إيراد النكت واللمع، لا التتالي والنسق، اختار من كلام طويل أو خطبة طويله له ﷺ فقرة أو فقرات، وسلك فيهما مسلك التقطيع والالتقاط، وربّما أورد شطراً من خطبة في أوائل الكتاب، وسطراً منها في أواخر الكتاب، فأوجب ذلك القلق والاضطراب، في فهم المعنى والإعراب، فبنيت في الشرح على ذكر سلسلة السند وإيراد تمام الخبر، حيثما ظفرت به في أصل معتبر، كالكافي والفقيه والبحار والوسائل والتّوحيد والإرشاد وغيرها من كتب الأخبار.

وكثيراً ما أورد الرواية بطريق غيرما أورده السيّد، لما بين الطريقين من التفاوت والاختلاف، وتغاير الأحفة والأطراف.

والغرض من ذلك كلّه أنّ أشقّ للإخوان الصالحين تلك الأصداف السمينة وأُخرج للخلاّن السالكين دُررها الثّمينة، ولولا سوء الأدب لقلت للسّيد (ره) أنّى لك الفرق بين فقرات كلام الإمام الذي هو إمام الكلام، وكيف اجترأت على الحذف والإسقاط، والتقطيع والالتقاط، في كلام هو تالي كلام الملك العلام، وكلام سيّد الأنام، وهل له ﷺ في باب الخطابة كلام غير فصيح والفصحآء كلهم عياله، أو خطبة غير فصيحة والبلغآء كلهم متمسّكون بأذياله.

وهذا كله مع اعترافي بأنّي قصير الباع، وقاصر الذّراع، ولست ممّن يعدّ في عداد من يؤسّس هذا البنيان، أو يقدر على السّباق في ذلك الميدان، إلاّ أنّ عمومات كرم واهب المواهب غير مدفوعة، وفيوضات فيضه الواسع لا مقطوعة ولا ممنوعة، فلا غرو أن يشرق نور فضله العميم، على مرآة من لا يرى نفسه أهلاً لهذا التكريم، فهو بحمد الله سبحانه

(١) العباب بالضم: معظم الماء وكثرته وارتفاعه.

للمبتدي جناح وللمنتهي نجاح، وللفصيح مفتاح، وللبليغ مصباح، وللسّالك بصيرة، وللناسك ذخيرة، وللشّريعة محجّة، وللشّيعة حجة، وللمناظر دلالة، وللواعظ آلة.

وسميته منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة

وجعلته هدية إلى حضرة من دون فنائه يحطّ مطايا الآمال، وببابه تقرع أيادي السّؤال، حجّة الله على العالمين، وآية الله في الأرَضين المتشرّف بمنقبة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] والمخصوص بكرامة ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩].

نعمة الله على الأبرار، ونقمته على الفجّار، الحائز قصب السّبق في مضمار الفخار، الجامع من بدائع الفضل للوامع الافتخار، صاحب المواهب الزّاهرة، وحاوي المناقب الباهرة، سيدي ومولاي ومولى الكونين، ووصيّ رسول الثّقلين أبي الحسنين، يعسوب الدّين، أمير المؤمنين، أسد الله الغالب، عليّ بن أبي طالب صلوات الله وسلامه وتحيّاته عليه وعلى أولاده الطّاهرين، ونفسي وروحي فداه مع أرواح العالمين.

أَهْدَتْ سُلَيْمَانَ يَوْمَ الْعَرْضِ نَمْلَتُهُ ... رِجْلَ الْجَرَادِ الَّتي قَدْ كانَ في فيها
تَرَنَّمَتْ بِفَصِيحِ الْقَوْلِ وَاعْتَذَرَتْ ... أَنَّ الْهَدَايَا عَلَىٰ مِقْدَارِ مُهْدِيهَا

وأنا أرجو من فضله العظيم، وكرمه العميم، أن يكون صلتي قبال هديّتي: الشّفاعة لي عند الله سبحانه في غفران ذنوبي التي تحبس الدّعاء، وتغيّر الآلاء، والمعاصي التي تهتك العصم وتنزل النّقم، وأن يرزقني عزّ وجلّ سعادة الدّارين، والتّوفيق في النّشأتين، إنّه تعالى وليّ الإحسان والكرم والامتنان.

وقبل الشّروع في المقصود لا بدّ من تقديم مقدّمة وجملة من المطالب المهمة يستعان بها على ما يذكر في الشّرح وتوجب زيادة البصيرة في المباحث الآتية.

أما المقدمة

ففي تقسيم اللفظ بالنّسبة إلى المعنى، وفيه أبحاث:

البحث الأول

اللفظ والمعنى إمّا أن يتّحدا أو يتكثّرا، أو يتّحد اللفظ ويتكثّر المعنى، أو بالعكس، فالأقسام أربعة.

الأوّل: أن يتحدّا معاً والظّاهر عدم وجود مثال لهذا القسم، وإن ذكره العلامة الحلي (ره) في النّهاية وتبعه الأكثرون في هذا المقام وقسّموه إلى الجزئي كالعلم والمضمر والمبهم، وإلى الكلي من المتواطئ والمشكك. وذلك لأنّ مرادهم بالمعنى في المقسم إن كان خصوص المعنى الحقيقي فيبطل التقسيم في الأقسام الآتية، وإن كان الأعمّ من الحقيقة والمجاز فيشكل القسمة إلى هذا القسم، إذ ما من حقيقة إلاّ وله مجاز، فليس لنا لفظ متّحد المعنى ظاهراً، فتأمّل.

الثاني: أن يتكثرا معاً أي يتعدّد كلّ واحد من اللفظ والمعنى، فالألفاظ متباينة سواء تصادق المفاهيم كلياً كما في: إنسان وضاحك، أو جزئياً كأن يكون النّسبة بينهما عموماً مطلقاً أو من وجه، أو تعاندت كما في المتقابلين بالتّضادّ، أو بالتضايف أو بالإيجاب والسّلب أو بالعدم والملكة.

الثالث: أن يتكثر اللفظ ويتّحد المعنى فالألفاظ مترادفة سواء كانت من لغة واحدة كالليث والأسد، أو من لغتين.

الرّابع: أن يتّحد اللفظ ويتكثّر المعنى، وهو على أقسام لأنّ اللفظ إما أن يكون موضوعاً لأحد المعنيين أو يكون موضوعاً لهما جميعاً. وعلى الأوّل فإن كان موضوعاً لمعنى ثم استعمل في الثّاني لعلاقة بينه وبين الموضوع له وقرينة صارفة عنه إليه سمي بالنّسبة إلى الأوّل حقيقة، وبالنّسبة إلى الثّاني مجازاً مرسلاً إن كانت العلاقة غير المشابهة، واستعارة إن كانت هي المشابهة.

وإن كان موضوعاً لمعنى ثم نقل إلى الثّاني ولم يكن النّقل لعلاقة يسمّى مرتجلاً، كجعفر المنقول إلى العلم بعد وضعه للنّهر الصّغير.

وإن كان النّقل لوجود العلاقة والمناسبة بين المعنيين يسمّى اللفظ بالنّسبة إلى الثّاني منقولاً لغوياً إن كان النّاقل أهل اللغة، كالغائط لفضلة الإنسان بعد وضعه للمكان المنخفض من الأرض، وعرفياً عاماً إن كان النّاقل أهل العرف كالدّابّة لذات القوائم بعد وضعه لما يدبّ في الأرض، وعرفيّاً خاصاً إن كان النّقل من طائفة مخصوصة كالفعل والحرف في اصطلاح النّحاة، والموضوع والمحمول في اصطلاح المنطقيين، ونحو ذلك. ويخصّ ما كان ناقله الشّارع بالمنقول الشّرعي كالصّلاة والزكاة والحجّ ونحوها.

ثم إن النّقل قد يكون بالتّخصيص والتّعيين، وقد يكون بالتخصّص والتعيّن بأن يستعمل اللفظ في الثاني مجازاً مع القرينة ويكثر الاستعمال إلى أن يشتهر اللفظ في الثّاني ويهجر الأوّل ويحصل الاستغناء عن القرينة، والظّاهر أنّ المنقولات في العرف العام كلها من هذا القبيل كبعض المنقولات في العرف الخاصّ.

وعلى الثاني وهو ما كان اللفظ موضوعاً لهما جميعاً يسمّى اللفظ بالنّسبة إليهما معاً مشتركاً، وبالنّسبة إلى أحدهما مجملاً، وتعدّد الوضع قد يحصل بتعدد الواضِعين وعدم اطّلاع أحدهم على الآخر، وقد يحصل باتّحاده وعدم تذكره حين الوضع الثّاني للوضع الأوّل، وربّما قيل بحصوله أيضاً بأن يكون متذكراً للوضع الأوّل إلاّ أنّه لم يلاحظ المناسبة بينه وبين الثاني، وعلى ذلك فيشكل الفرق بينه وبين المرتجل، إلاّ أن يقال باشتراط الاشتهار في المعنى الثّاني في الارتجال، وهو الحقّ، وبذلك يظهر: أنّ جعل الفاضل القمي المرتجل داخلاً في المشترك كصاحب القسطاس ليس في محله، فافهم جيّداً.

البحث الثاني

اللفظ إمّا أن يكون دلالته على المعنى بتوسط وضعه له، فيكون الدلالة مطابقة، كالإنسان الموضوع لمجموع الحيوان النّاطق، أو يكون دلالته عليه بتوسط دخوله في المعنى الموضوع له ذلك اللفظ فيكون الدّلالة عليه تضمّناً، كدلالة لفظ الإنسان على الحيوان وحده، أو على النّاطق وحده، أو يكون دلالته عليه بتوسّط كونه لازماً في الذّهن للمعنى الموضوع له اللفظ، فيكون الدّلالة عليه التزاماً، كدلالة لفظ الإنسان على قابل العلم وصنعة الكتابة، وتسمّى الأولى ـ أعني الدلالة على تمام الموضوع له في اصطلاح البيانيين ـ وضعيّة، وكلّ من الآخريين عقلية، لكون دلالة اللفظ عليهما بعلاقة عقلية بينهما وبين الموضوع له، وهو استلزام فهم الموضوع له المركب لفهم جزئه، وفهم الموضوع له الملزوم لفهم لازمه استلزاماً عقلياً.

وأمّا المنطقيون فيسمّون الثلاثة وضعيّة، من جهة أن للوضع مدخلاً فيها، ويخصّون العقلية بالعقليّة الصّرفة المقابل للوضعيّة والطبعية، كدلالة الدّخان على النّار، واللفظ المسموع من وراء الجدار على وجود اللافظ، ولا مشاحة في ذلك(١).

وإذا عرفت ذلك فنقول: اللفظ الدّالّ بالمطابقة إمّا مفرد وإمّا مركب، لأنّه إن لم يقصد بجزئه الدلالة على جزء معناه فمفرد، وإلاّ فمركب، فالمفرد على أقسام أربعة:

الأوّل: ما لا جزء له أصلاً، كـ (ن) و(ع) إذا جعل علماً.

الثاني: ما لا جزء لمعناه، كلفظ الله لذات الباري سبحانه.

الثالث: ما لا دلالة لجزئه على جزء معناه، كمحمّد علي، وحسن علي، ونحوهما من الأعلام المركبة بالتركيب المزجي.

الرّابع: ما يكون لجزئه دلالة على جزء معناه لكن دلالة غير مقصودة، كالحيوان النّاطق إذا جعل علماً للشّخص الإنساني.

والمركب قسم واحد، وهو ما يدلّ جزؤه على جزء معناه دلالة مقصودة، سواء كان التّركيب تقييد كيا كغلام زيد والحيوان النّاطق، أم لا كخمسة عشرة، تاماً أي يصحّ السّكوت عليه كضرب زيد وزيد قائم، أو غير تامّ كما مرّ، والمراد بالجزء هنا أي في تعريف المركب الأعمّ من المحقق والمقدر، ليدخل مثل قُم حال كونه أمراً فإنّ له جزء مقدراً وهو أنت، كما أنّ المراد به ما لا يخرج بالاتّصال عن الاستقلال ليخرج منه نحو مسلمان ومسلمون وليضرب، وسائر الأفعال المضارعة، فإن جزء لفظ كلّ واحد منها يدلّ على جزء معناه، إذ الألف تدلّ على التّثنية، والواو على الجمعيّة، وحروف المضارعة على معنى في المضارع، ومثلها لام التّعريف وتنوين التنكير وتاء التأنيث ونحوها ممّا يدلّ على معنى فيما دخل عليه أو لحق به، إلا أنها كلّها مع المدخولات عليها والملحقات بها صارتا بشدة الامتزاج بمنزلة كلمة واحدة، وخرجتا عن التركيب إلى الإفراد، وعوملت معهما في الحركات الإعرابيّة معاملة اللّفظ المفرد.

نعم يبقى الاشكال في الفعل الماضي حيث إنّه بمادّته يدلّ على الحدث، وبهيئته على حصول ذلك الحدث في الزّمن الماضي، والهيئة جزء اللفظ، إذ هو عبارة عن عدد الحروف مع مجموع الحركات والسّكنات الموضوعة وضعاً معيّناً والحركات ممّا يتلفّظ به، ولا يمكن أن يُدّعى هنا أنّ الهيئة الطارئة صارت كجزء كلمة حسبما قلنا في الكلمة المتقدّمة، فلا بدّ من

(١) لأنه مجرد إصطلاح في التسمية.

دخوله في المركب مع أنّهم يجعلونه من المفرد، اللهم إلا أن يقال: المراد بالجزأين في تعريف المركب ما يكون أحدهما معقباً للآخر، وفي الماضي الجزءان مسموعان معاً.

البحث الثالث

اللفظ المفرد إن كان نفس تصور مفهومه مانعاً من وقوع الشّركة يسمّى ذلك اللفظ جزئياً، تسمية للدّال باسم المدلول كزيد العلم، وإن لم يكن نفس تصور مفهومه مانعاً من وقوع الشّركة يسمّى كلياً، سواء امتنع وقوع الشّركة فيه لا لنفسه بل لدليل خارج كواجب الوجود، أم لم يمتنع كالإنسان الذي يشترك فيه زيد وعمرو وخالد، وسواء تعدّدت أفراده في الخارج كالإنسان، أم لا كالشّمس.

وقد يطلق الجزئي على الأخصّ المندرج تحت الأعمّ، وإن كان أعمّ في نفسه، وهو أعم من الجزئي بالمعنى الأوّل، ويخصّ ذلك باسم الإضافي، كالأول بالحقيقي.

ثم الكلي إن تساوى صِدْقه على أفراده كالإنسان يسمّى متواطئاً، لتواطىء أفراده وتوافقه فيه، وإن تفاوت صدقه على أفراده، بأن يكون بعضها أولى به من البعض الآخر كالوجود بالنّسبة إلى الجوهر والعرض، فإن الجوهر أولى به من العرض، أو يكون بعضها أقدم في ثبوته له من الآخر، كالوجود بالنّسبة إلى العلة والمعلول، أو يكون ذلك في بعضها أشدّ من البعض الآخر، كالبياض بالنّسبة إلى الثّلج والعاج. ففي جميع ذلك يسمّى اللفظ مشكّكاً، لأنه من جهة أن أفراده مشتركة في أصل معناه ومختلفة بالأولوية وغيرها؛ يوجب تشكيك النّاظر إليه، حيث إنّه إن نظر إلى جهة الاشتراك يظنّ أنّه متواطئ، لتوافق أفراده، وإن نظر إلى جهة الاختلاف يخيّله أنّه مشترك لفظي، لأنّه لفظ واحد موضوع لمعان مختلفة وهو معنى المشترك.

قال الفاضل القمّي (ره) في قوانين الأصول[1]: هذا التّقسيم أي تقسيم اللفظ إلى الكلية والجزئية والتواطئ والتّشكيك واضح، وأما الفعل والحرف فلا يتّصفان بالكلية والجزئية في الاصطلاح. ولعل السّر فيه أن نظرهم في التقسيم إلى المفاهيم المستقلة التي يمكن تصوّرها بنفسها، والمعنى الحرفي غير مستقل بالمفهوميّة، بل هو أمر نسبي رابطيّ وآلة الملاحظة حال الغير في الموارد المشخّصة المعيّنة، ولا يتصوّر انفكاكها أبداً عن تلك الموارد، فهي تابعة لمواردها. وكذلك الفعل بالنّسبة إلى الوضع النّسبي، فإنّ له وضعين فبالنّسبة إلى الحدث كالاسم، وبالنّسبة إلى نسبته إلى فاعل ما كالحرف.

---

(١) قوانين الأصول: ١٠.

أقول: يعني أن نظرهم لما كان في مقام التّقسيم إلى المفاهيم المستقلة المختصة بالاسم، لم يحكموا بجريان هذه الأقسام في الحرف والفعل بالنّسبة إلى معناه النّسبي، فالمانع لهم من وصف الحرف والفعل بالكلية والجزئية مجرّد كون المقسم عندهم هي المفاهيم المستقلة، ولما لم يكن الفعل والحرف مستقلين بالمفهوميّة، لم يحكموا باتصافهما بهما، رعاية لما بنوا عليه من ملاحظة الاستقلال في المقسم، فكأنهم جعلوه اصطلاحاً خاصاً بينهم، ومع قطع النّظر عن هذا الاصطلاح فلا بعد في القول باتّصاف الحرف بالجزئية للخصوصيّة الملحوظة في معناه، كما أنّ الفعل يتّصف بها باعتبار النّسبة إلى فاعل مخصوص؛ فلنا في المقام ثلاث دعاوي:

الأولى: أن الحرف والفعل لا يستقلان بالمفهوميّة. **الثانية**: أنهما نظرا إلى عدم استقلالهما لا يتّصفان بالكلية والجزئية. **الثالثة**: أنهما مع قطع النّظر عن ذلك يجوز اتصافهما بهما. وتحقيق المرام يحتاج إلى بسط الكلام فيها.

فأقول: أمّا الدّعوى الأولى وهو عدم استقلال الحرف والفعل فيظهر توضيحه في الحرف بما حقّقه المحقق الشّريف في حواشي **«شرح التّلخيص»**، حيث قال: اعلم أن نسبة البصيرة إلى مدركاتها كنسبة البصر إلى مبصراته، وأنت إذا نظرت للمرآة وشاهدت صورة فيها فلك هناك حالتان: **إحداها**: أن تكون متوجهاً إلى تلك الصّورة، مشاهداً إيّاها قصداً جاعلاً للمرآة حينئذٍ آلة لمشاهدتها. ولا شك أن المرآة وإن كانت مُبْصَرَة في هذه الحالة لكنها ليست بحيث يقتدر بابصارها على هذا الوجه أن يحكم عليها ويلتفت إلى أحوالها.

و«الثانية» أن تتوجه إلى المرآة نفسها، وتلاحظها قصداً فتكون صالحة لأَن يحكم عليها، وتكون الصورة حينئذٍ مشاهدة تبعاً غير ملحوظة قصداً وغير ملتفت إليها.

فظهر أن من المبصرات ما يكون تارة مبصراً بالذّات، وأخرى آلة لإبصار الغير، فقس على ذلك المعاني المدركة بالبصيرة أعني القوى الباطنة، واستوضح ذلك من وقولك: قام زيد، وقولك: نسبة القيام إلى زيد، إذ لا شك أنك تدرك فيهما نسبة القيام إلى زيد، إلا أنها في الأول مدركة من حيث إنها حالة بين زيد والقيام وآلة لتعرف حالهما، فكأنها مرآة تشاهدهما مرتبطاً أحدهما بالآخر، ولذلك لا يمكنك أن تحكم عليها أو بها ما دامت مدركة على هذا الوجه، وفي **الثاني**: مدركة بالقصد ملحوظة في ذاتها بحيث يمكنك أن تحكم عليها أو بها. فهي على الوجه الأول معنى غير مستقل بالمفهومية، وعلى الثاني معنى مستقل. وكما يحتاج إلى التعبير عن المعاني المحلوظة بالذّات المستقلة بالمفهومية، كذلك يحتاج إلى التعبير عن المعاني المحلوظة بالغير التي لا يستقل بالمفهومية.

إذا تمهد هذا فاعلم أنّ الابتداء مثلاً معنى هو حالة لغيره ومتعلق به، فإذا لاحظه العقل

قصداً وبالذات كان معنى مستقلاً معه ملحوظاً في ذاته صالحاً لأن يحكم عليه وبه، ويلزمه إدراك متعلقه اجمالاً وتبعاً، وهو بهذا الاعتبار مدلول لفظ الابتداء، ولك بعد ملاحظته على هذا الوجه أن تقيده بمتعلق مخصوص، فتقول مثلاً: ابتداء السير البصرة، ولا يخرجه ذلك عن الاستقلال وصلاحية الحكم عليه وبه، وإذا لاحظه العقل من حيث هو حالة بين السير والبصرة، وجعله آلة لتعرف حالهما كان معنى غير مستقل بنفسه، لا يصلح أن يكون محكوماً عليه ولا محكوماً به، وهو بهذا الاعتبار مدلول لفظة: من، وهذا معنى ما قيل: إنّ الحرف وضع باعتبار معنى عام، وهو نوع من النّسبة كالابتداء مثلاً لكلّ ابتداء معين بخصوصه، والنّسبة لا تتعين إلاّ بالمنسوب إليه، فما لم يذكر متعلق الحرف لا يتحصّل فرد من ذلك النوع الذي هو مدلول الحرف، لا في العقل، ولا في الخارج، وإنّما يتحصّل بمتعلّقه فيتعقّل بتعقّله.

ثم قال: وهو أيضاً محصول ما ذكره ابن الحاجب في «**إيضاح المفصّل**»، حيث قال: الضّمير في ما دلّ على معنى في نفسه يرجع إلى معنى، أي ما دلّ على معنى باعتباره في نفسه وبالنّظر إليه في نفسه لا باعتبار أمر خارج عنها، ولذلك قيل: الحرف ما دلّ على معنى في غيره، أي حاصل في غيره باعتبار متعلّقه لا باعتباره في نفسه، فقد اتّضح أن ذكر متعلّق الحرف، إنّما وجب لتحصيل معناه في الذّهن، إذ لا يمكن إدراكه إلاّ بإدراك متعلّقه، إذ هو آلة لملاحظته، فعدم استقلال الحرف بالمفهوميّة لقصور ونقصان في معناه، وأما الفعل فيدلّ على شيئين: **أحدهما**: مستقلّ بالمفهوميّة وهو الحدث. **والثاني**: غير مستقلّ وهو النّسبة الحكميّة الملحوظة فيه من حيث إنها حالة بين طرفيها، وآلة لتعرّف حالهما مرتبطاً أحدهما بالآخر، ولمّا كانت هذه النّسبة التي هي جزء مدلول الفعل لا يتحصّل إلاّ بالفاعل وجب ذكره كما وجب ذكر متعلّق الحرف، فكما أنّ لفظة «من» موضوعة بالوضع العام لكلّ ابتداء معين بخصوصه، فكذلك لفظة ضرب موضوعة بالوضع العام لكلّ نسبة للحدث الذي دلت عليه إلى فاعلها بخصوصها. لكنّ الفرق بينهما أنّ الحرف لمّا لم يدلّ إلاّ على معنى غير مستقلّ بالمفهوميّة لم يقع محكوماً عليه ولا به، والفعل لمَا اعتبر فيه الحدث وضمّ إليه غيره أعني النّسبة إلى الفاعل، وجب ذكر الفاعل، ووجب أن يكون مسنداً باعتبار الحدث، لعدم إمكان جعل الحدث مسنداً إليه لأنه خلاف وضعه، وأمّا مجموع معناه المركب من الحدث والنّسبة المخصوصة، فهو أيضاً غير مستقلّ بالمفهوميّة، فلا يصلح لأن يقع محكوماً به، فضلاً عن أن يقع محكوماً عليه.

هذا كله على ما ذهب إليه بعض المحقّقين من أنّه موضوع للنّسبة إلى فاعل معيّن.

وأمّا على المذهب الحقّ الموافق للتحقيق: من كونه موضوعاً للنسبة إلى فاعل ما، فمعناه المطابقي أيضاً مستقلّ، إذ هذا الفاعل مفهوم من الفعل فالنّسبة موقوفة على جزء الفعل، وذكر الفاعل المخصوص لخصوصيّة في الاستعمال، ولا دخل له في الموضوع له،

وعلى القول الأوّل يلزم وجود الدّلالة التّضمنيّة بدون المطابقة، وهو خلاف ما اتّفقوا عليه، بيان الملازمة: أنّ من سمع لفظ ضرب فهم منه الحدث والزّمان مع أنّه لم يفهم المعنى المطابقي، إذ من جملته النّسبة إلى الفاعل المعين، فقد ظهر بما ذكرنا: أنّ الفعل بالنّسبة إلى الحدث مستقلّ بنفسه، وبالنّسبة إلى نسبته إلى فاعل ما غير مستقلّ كالحرف، وبالنّسبة إلى المجموع المركب من الحدث والفاعل والنّسبة والزّمان أيضاً مستقلّ.

وأمّا الدّعوى الثانية، فلا غبار عليها بعد المعرفة بما تقدّم، لأنّ اتّصاف شيء بشيء فرع تصوّر الموصوف في حدّ ذاته مع قطع النّظر عن الخارج حتى يحكم عليه بوصفه، فبعد ما كانت المعاني الحرفية غير مستقلة بالمفهوميّة كعدم استقلالها في التصوّر والتعبير لأجل المرآتية والآليّة، فلا يمكن اتّصافها بشيء من الكلية والجزئية، ولا الحكم بهما عليها، إذ الحكم على الشّيء أو به يستلزم تحصيل نسبة تامّة بينه وبين غيره، وذلك فرع كون الطّرفين متحصّلين ومقصودين باللحاظ، وكذلك الكلام في الفعل، فإنّه وإن كان بالنّسبة إلى الحدث مستقلاً قابلاً للاتّصاف بالكلية والجزئية، إلاّ أنّه بالنّسبة إلى النّسبة إلى فاعل ما كالحرف حسبما عرفت.

وأمّا الدّعوى الثالثة فنقول: إنّ عدم اتصاف الحرف بالكلية والجزئية بنفسها باعتبار عدم الاستقلال لا ينافي اتّصافها تبعاً لمواردها، ويتّضح ذلك بما ذكره صاحب **«الفوائد الضيائية»** حيث قال: والحاصل أن لفظ الابتداء موضوع لمعنى كليّ، ولفظة «من» موضوعة لكلّ واحد من جزئياته المخصوصة المتعلقة من حيث إنّها حالات لمتعلقاتها وآلات لتعرّف أحوالها اه.

لا يقال: فعلى ذلك يلزم أن يكون معناها جزئياً دائماً، وأن لا يوصف بالكلية أصلاً.

لأنا نقول: وضعها للجزئيات المخصوصة، والمعاني المتعيّنة بالمتعلقات لا ينافي الاتّصاف بها، لأن الجزئي أعمّ من الحقيقي والاضافي، فإنّ الاستعلاء المتعين بذكر المتعلق في قولنا: كن على السّطح، قد استعمل فيه لفظة على، مع أنّه صادق على أفراد- كثيرة.

والحاصل أنّ لفظة **(على)** جعلت مرآتاً لملاحظة حال الكون الكلي بالنّسبة إلى السّطح، وهو تابع له في الكليّة وإن كان ذلك جزئياً إضافياً بالنّسبة إلى مطلق الاستعلاء، وكذلك الفعل يصحّ اتصافها بالجزئية باعتبار نسبته إلى فاعل مخصوص، كما صحّ اتصافه بهما بالنّسبة إلى الحدث، فافهم جيّداً.

البحث الرابع

اللفظ المركب التام ـ أعني الذي يصحّ السّكوت عليه ـ لا بدّ من اشتماله على نسبة تامّة بين الطّرفين قائمة بنفس المتكلم، فهذه النّسبة إن كان لها خارج في أحد الأزمنة يسمّى

الكلام المشتمل عليها خبراً، كقام زيد وزيد قائم وسيقوم زيد، وإلاّ فإنشاء، كالأمر والنّهي والالتماس والسؤال والتّمني والترجي والاستفهام والقسم والنداء والتعجّب، ومثلها الجملات الاخباريّة المرادة بها الإنشاء، إمّا بالنّقل كأفعال المدح والذّم مثل نِعِمَ زيد وبئس زيد، وَصِيَغ العقود من: بعت واشتريت وأنكحت وزوّجت ونحوها، أم لا، كقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] الآية، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وما يضاهي ذلك.

وبالجملة النّسبة الخبريّة لها وجود في اللفظ، ووجود في الذّهن، ووجود في الخارج، والنّسبة الانشائية لها وجود في الأوّلين فقط، دون الثّالث.

ثمّ الخبر إن كان نسبته اللفظية مطابقة لنسبته الخارجيّة بأن تكونا ثبوتيّتين أو سلبيّتين، يسمّى الخبر صدقاً، باعتبار مطابقته للواقع، وحقاً باعتبار مطابقة الواقع له. وإن لم تكن نسبته اللفظية مطابقة لنسبته الخارجيّة بأن يكون إحدهما ثبوتيه والأخرى سلبية، يسمى الخبر كذباً باعتبار مخالفته للواقع، وباطلاً باعتبار مخالفة الواقع له، فالصّدق والحقّ كالكذب والباطل متحدان بالذّات، متغايران بالاعتبار.

ثمّ قصد المخبر بخبر إفادة المخاطب إمّا الحكم أعني وقوع النّسبة أو لا وقوعها، أو كونه أي المخبر عالماً به، فالأوّل كقولك: زيد قائم، لمن لا يعرف قيامه، والثاني كقولك: زيد قائم لمن يعرف قيامه، ويسمّى الأوّل فائدة الخبر والثّاني لازمها، وقد ينزّل المخاطب العالم بهما منزلة الجاهل، فيلقى إليه الخبر، وإن كان عالماً بالفائدتين لعدم جريه على موجب علمه، فإن من لا يعمل بعلمه هو والجاهل سواء، كما تقول للعالم التّارك للصّلاة: الصّلاة واجبة، وهذا المعنى ـ أعني تنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل لأغراض الخطابيّة ـ كثير في كلام أمير المؤمنين ﷺ مثل قوله ﷺ: في الخطبة (كط)[1] في توبيخ أهل العراق بتقاعدهم عن قتال أهل الشام:

(القَوْمُ رجالٌ أمْثالُكُمْ).

وفي الخطبة (سج)[2]

(فاستعدوا للموت فقد أظلكم).

---

(١) وهي الخطبة: ٣٢١.

(٢) وهي الخطبة: ٢٩.

إلى غير ذلك ممّا يعرفه المتتبع المحيط بأقطار كلامه عليه السلام هذا.

وإذا كان قصد المخبر بخبره إفادة المخاطب، فينبغي أن يقتصر في إخباره على قدر الحاجة، فإن كان المخاطب خالي الذّهن عن الحكم والتردّد فيه، استغنى عن مؤكّدات الحكم، وإن كان متردّداً فيه طالباً له حسن تقويته بمؤكد، وإن كان منكراً، وجب توكيده بحسب الانكار، وأسباب التّوكيد هي: إنّ، واللاّم، واسميّة الجملة، وتكريرها، ونون التأكيد، وحروف الصّلة، وأمّا الشّرطية، وحرف التنبيه والقسم.

ويسمّى الضّرب الأوّل ـ أعني إتيان الكلام في صورة خلوّ ذهن المخاطب خالياً عن المؤكدّات ـ ابتدائياً مثل قوله عليه السلام في الخطبة:

«وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ».

والضرب الثاني طلبياً مثل قوله عليه السلام في الخطبة (ع)[1] :

«أما وَاللهِ ما أَتَيْتُكُمْ إخْتِياراً وَلٰكِنْ جِئْتُ إلَيْكُمْ سَوْقاً»

والضرب الثالث انكاريّاً مثل قوله عليه السلام في الكلام (م)[2]:

«وَإِنَّهُ لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ».

ويشتدّ التوكيد بشدّة الانكار كما قال الله تعالى حكاية عن رسل عيسى عليه السلام إذ كذّبوا في المرّة الأولى:

﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤] وفي المرّة الثّانية: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٦].

ويسمى إخراج الكلام على هذه الوجوه المذكورة، وهي الخلوّ عن التأكيد في الضّرب الأوّل، والتقوية بمؤكد استحساناً في الثاني، ووجوب التوكيد بحسب الإنكار في الثالث، إخراجاً على مقتضى الظاهر.

وكثيراً ما يخرج الكلام على خلافه، فيجعل غير المنكر كالمنكر إذا لاح عليه شيء من إمارات الإنكار، مثل قوله عليه السلام في الخطبة (كح)[3]:

«أمّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وآذَنَتْ بِوِدَاعٍ، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلاَعٍ».

---

(١) وهي الخطبة: ١٦.

(٢) وهي الخطبة: ١٣.

(٣) وهي الخطبة: ١١٨.

فإنّهم لم يكونوا منكرين لإدبار الدّنيا وإقبال الآخرة، لكنّهم باشتغالهم بالدّنيا، وغفلتهم عن الآخرة، كأنّهم كانوا منكرين. فنزّلهم منزلة المنكر بظهور إمارة الإنكار منهم، وأتى بالكلام مؤكداً إلى آخر الخطبة، ونحو ذلك كثير في الخطب المسوقة للتّنفير عن الدّنيا، والتّرغيب إلى الآخرة، وستعرف في شرح قوله ﷺ.

«فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الجِدُّ لاَ اللَّعَبُ وَالْحَقُّ لاَ الْكِذْبُ وَمَا هُوَ إلاَّ الْمَوْتُ».

في الخطبة (قلب)[1] أنّ فيه عشرة أنواع من التّوكيد، وهو من خصائص كلامه ﷺ، ويجعل المنكر كغير المنكر إذا كان له من الدّلائل والشّواهد ما إن تأمّله ارتدع عن انكاره مثل قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

فإنّ نفي الرّيب في القرآن ليس بمعنى أنّه لا يرتاب فيه أحد، بل بمعنى أنّه لا ينبغي أن يرتاب فيه، لأنّه من وضوح الدّلالة وسطوع البرهان، ليس محلاً لوقوع الارتياب، فكأنّه قيل: هو ممّا لا ينبغي أن يرتاب في أنّه من عند الله، وهذا حكم صحيح لكن ينكره كثير من الأشقياء، فينبغي أن يؤكد، لكن ترك تأكيده، لأنّهم جعلوا كغير المنكر، لما معهم من الدلائل المزيلة لهذا الإنكار لو تأمّلوها، وهو أنّه كلام معجز أتى به من دلّ على نبوّته بالمعجزات الباهرة، ومثله من كلام أمير المؤمنين ﷺ قوله في الخطبة (ب)[2]:

«وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلاَيَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِراثَةُ».

فإنّ ترك التأكيد مع كثرة وجود المنكرين، لاختصاص الولاية والوصاية والوراثة بآل محمد عليهم السّلام تنزيلاً لهم منزلة غير المنكر على نحو ما ذكرناه في الآية.

---

(١) وهي الخطبة: ٦٤.

(٢) وهي الخطبة الثانية.

وأما المطالب فثلاثة: المطلب الأول

في الحقيقة والمجاز والاشتراك وفيه فصول.

الفصل الأول

في الحقيقة وفيه مسائل، المسألة الأولى: في اشتقاق لفظ الحقيقة فنقول: هو في الأصل فعيل من حقّ الشيء يحقّ إذا ثبت، أو حقّقت الشّيء أي أثبتّه، فعلى الأوّل الفعيل بمعنى الفاعل كالعليم والرّحيم، وعلى الثّاني فبمعنى المفعول كالجريح والقتيل، فنقل إلى الكلمة الثّابتة أو المثبتة في مكانها الأصلي، والتّاء فيها للنقل من الوصفية إلى الإسميّة، كما صرّح به العلامة الحلي (ره) في «**نهاية الأصول**»، والتّفتازاني في «**شرح التّلخيص**»، وقال بعض شرّاحه: معنى كونها للنّقل أنّ اللفظ إذا صار بنفسه اسماً لغلبة الاستعمال بعد ما كان وصفاً، كان اسميّته فرعاً لوصفيّته، فيشبه المؤنّث لكونه فرعاً للمذكر، فتجعل التّاء علامة للفرعيّة كما جعلت علامة لها في رجل علاّمة، لكثرة العلم بناء على أنّ كثرة الشيء فرع تحقق أصله.

المسألة الثانية: اعلم أنّ الحقيقة قد يوصف بها المفرد، فيقال له: الحقيقة اللغوية، وقد يوصف بها الجملة، فيقال لها: الحقيقة العقليّة، وحدّ إحديهما غير حدّ الأخرى، وأنا أبدأ بحدّ الحقيقة في المفرد **فأقول:** قال الشيخ عبد القاهر: كلّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة، كالأسد للبهيمة، و«من» لابتداء الغاية في الأمكنة، وكلّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأوّل فهي مجاز، كقولك للشّجاع: أسد، وللنّعمة: يد، **وفيه:** أنه يلزم على ما ذكره خروج الحقائق العرفيّة والشّرعية التي ثبت الوضع فيها بالنّقل من الحقيقة ودخولها في المجاز، لأنها إنّما وضعت للمعاني الثانويّة بملاحظة المناسبة بينها وبين المعاني الأول، فيفسد حدّ الحقيقة عكساً، وحدّ المجاز طرداً، فإنّ المراد بالحقيقة المحدودة في المقام أعمّ من اللّغوية بالمعنى الخاصّ أعني المقابل للعرفي والشّرعي.

فالأولى أن يقال: إن الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له من حيث هو كذلك، فالكلمة بمنزلة الجنس، وخرج بوصف الاستعمال: الكلمة التي لم تستعمل بعد،

فإنّها لا تسمّى حقيقة كما لا تسمّى مجازاً حسبما تعرفه تفصيلاً فيما سيأتي، وبقولنا فيما وضعت له: ما استعملت في غير ما وضعت له، سواء كان استعمالها فيه على وجه صحيح لوجود العلاقة المصحّحة كالمجازات، أم لا، كما لو كان غلطاً مثل أن تقول: خذ هذا الفرس مشيراً إلى الكتاب بين يديك، فإن لفظ الفرس هنا مستعمل في غير ما وضع له، وليس بحقيقة ولا مجاز، وخرج بقيد الحيثيّة: مثل لفظ الصّلاة إذا استعمله المتشرّع في الدّعاء، فإنّه وإن كان يصدق عليه أنّه لفظ استعمل فيما وضع له ولو بالنّسبة إلى لغة العرب، إلاّ أنّ استعماله فيه ليس من حيث إنّه موضوع له، بل من حيث وجود العلاقة والمناسبة بينه وبين المعنى الشّرعي، ومثله ما لو استعمله اللّغوي في الأركان المخصوصة. وهكذا لفظ الدّابة إذا استعمله اللغوي في ذات القوائم وأهل العرف فيما يدبّ في الأرض، فإنّ هذه كلها مجازات. وبدلّ بعضهم قيد الحيثية بقوله: في اصطلاح به التّخاطب، لحصول الاحتراز عن المجازات المذكورة به أيضاً.

وفيه: إنّه وإن كان يخرج به المجازات المذكورة، إلاّ أنّه لا يطرد، لصدقه على اللفظ المشترك في اصطلاح واحد المستعمل في أحد معانيه باعتبار معناه الآخر مجازاً لوجود العلاقة بينهما، كالأمر على القول باشتراكه لغة بين الوجوب والنّدب، فإنّه إذا استعمل في الوجوب مجازاً باعتبار مناسبته للنّدب في كون كلّ منهما مشتملاً على الرّجحان، يصدق عليه أنّه لفظ استعمل فيما وضع له في اصطلاح به التخاطب، مع أنّه ليس من أفراد المحدود، فالأولى ما قلناه، وإن كان يستشكل فيه أيضاً بعدم انعكاسه، لخروج الحقائق المركبة الموضوعة بالأوضاع النّوعية مثل المعرّف باللام والتّثنية والجمع ونحوها عنه، ولذلك عرّفه بعضهم بأنّه اللفظ المستعمل في ما وضع له، اهـ إلاّ أنّه يذبّ عنه بما قدمناه في البحث الثّاني من المقدّمة من أنها لشدّة الامتزاج خرجت منْ التركيب إلى الافراد، ومنزّلة منزلة الكلمة الواحدة فافهم وتدبّر، هذا كله في الحقيقة اللغويّة.

المسألة الثالثة: في الحقيقة العقلية، وعرّفها الشّيخ عبد القاهر بأنّها كلّ جملة وضعتها على أنّ الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه، مثل خلق الله الخلق، وأنشأ العالم، وربّما يورد عليه بعدم انعكاسه، لخروج مثل قول الدّهري: أنبت الرّبيع البقل، وقول الجاهل: شفى الطبيب المريض، منه، لأنّ الحكم هٰهنا ليس على ما هو عليه في العقل، وأجيب بأنّ قوله: واقع موقعه، تفسير لما سبقه، ولا شكّ أن الحكم في هذين القولين واقع موقعه في زعم القائل.

والأحسن ما عرفها به في **(التلخيص)**، حيث قال: هي اسناد الفعل أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظّاهر، قال التّفتازاني: المراد بمعنى الفعل: المصدر، واسم الفاعل،

والمفعول، والصّفة المشبّهة، واسم التفضيل، والظّرف، والمراد بما هو له: الشّيء الذي يكون ذلك الفعل أو معناه له كالفاعل في المبني للفاعل، والمفعول في المبني للمفعول، مثل ضرب زيد عمراً، وضرب عمرو، فإن الضّاربية لزيد والمضروبيّة لعمرو. وقوله: عند المتكلم، لادخال ما طابق الاعتقاد دون الواقع. وقوله: في الظّاهر، لادخال ما خالف الاعتقاد، سواء طابق الواقع أم لا، إذ المراد به إسناد الفعل أو معناه إلى ما يكون هو له عند المتكلم فيما يفهم من ظاهر كلامه، بأن لا ينصب قرينة على أن ذلك خلاف معتقده.

فدخل في التعريف ما طابق الواقع والاعتقاد، كقول المؤمن: أنبت الله البقل، وما طابق الاعتقاد فقط، كقول الدّهري: أنبت الرّبيع البقل، وما خالف الاعتقاد دون الواقع، كقول الدّهري لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه: أنبت الله البقل، وما خالف الاعتقاد والواقع جميعاً، كقولك: جاء زيد، وأنت خاصّة تعلم أنّه لم يجيء دون المخاطب، إذ لو علم المخاطب أيضاً عدم مجيئه لما تعيّن كونه حقيقة، لجواز أن يكون المتكلم قد جعل علم المخاطب بعدم مجيئه قرينة على عدم إرادته ظاهره، فلا يكون الإسناد إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر.

المسألة الرابعة: اعلم أنّ معرفة المعاني الحقيقيّة والتفرقة بينها وبين المعاني المجازيّة إنّما يحصل بالرّجوع إلى أهل اللغة، وذلك يكون على وجوه: **(أحدها)**: أن يقول أهل اللغة: هذا اللفظ حقيقة في هذا المعنى ومجاز في ذلك. **(الثاني)**: أن يقول إنّ اللفظ الفلاني موضوع للمعنى الفلاني وإنّ استعماله في الفلاني خلاف وضعه. **(الثالث)**: أن يقول هذا المعنى متبادر من هذا اللفظ أو سلبه عنه غير صحيح، وذلك المعنى غير متبادر، أو سلبه صحيح، أو نحو ذلك من طرق التّعبير والافهام.

ثم إنّ اللغوي الذي يُرجع إليه لتشخيص الأوضاع إن كان واحداً فهو، وإلاّ فإن اتّحد قولهما فلا إشكال فيه أيضاً. ولو اختلفا فإن كان مع أحدهما مرجّح فهو المتّبع، كما لو وقع الاختلاف بين **(الصحاح)** و**(القاموس)**، فأخذ الأوّل متعيّن لأنّه من أهل اللّسان، وإن لم يكن مع أحدهما مرجّح فإن كان بين قوليهما تباين كما لو قال أحدهما: العين موضوع للذّهب وقال الآخر: انّه موضوع للفضّة فيحمل حينئذٍ على الاشتراك اللفظي، وكذلك لو كان بين القولين عموم من وجه، كما لو قال أحدهما: الغناء هو الصّوت المطرب، وقال الآخر: هو الصّوت المشتمل على التّرجيع، ولو كان بينهما عموم مطلق كأن يقول أحدهم: الصّعيد هو وجه الأرض، وقال الآخر: التّراب الخالص، فاللازم حينئذٍ الأخذ بقول مدّعي الإطلاق خلاف ما ثبت في الأصُول من الأخذ بالمقيّد، لأنّ التّعارض بينهما تعارض، أدري ولا أدري، والأوّل مقدّم، وهذا كله بعد البناء على حجيّة قول أهل اللغة، والظّاهر أنّه لا غبار عليه مع كون اللغوي من أهل الخبرة، بل لا خلاف يظهر وقد ادّعي عليه الاجماع في عبائر

جماعة من أصحابنا الأصوليّين، وتردّد بعض مشايخنا قدّس الله أرواحهم فيه مع كون بنائه في فقهه عليه ليس في محله.

المسألة الخامسة: إذا تميّز المعنى الحقيقي من المعنى المجازي واستعمل اللفظ في كلام خالياً عن القرينة الدّالة على إرادة أحد المعنيين، فلا بدّ من حمله على المعنى الحقيقي، وهو معنى قول الأصوليّين: الأصل في الاستعمال الحقيقة، والدّليل على ذلك وجوه:

الأوّل: الاجماع كما ذكره جماعة من الأصوليين منهم العلامة الحلي في **(النهاية)** والسّيد الصّدر في «**شرح الوافية**»، والفاضل القميّ (ره) معبّراً بنفي الخلاف.

الثاني: استمرار طريقة أهل اللسان في محاوراتهم على ذلك.

الثالث: أن المعنى الحقيقي هو الظّاهر من اللفظ عند الإطلاق، وراجح بالنّسبة إلى غيره، فيتعيّن إرادته خصوصاً في كلام الحكيم، لأنّ إطلاق ماله ظاهر وإرادة خلافه من دون نصب قرينة مستلزم للاغراء بالجهل والتكليف بما لا يطاق، وهو قبيح، وأيضاً لو لم يرد ظاهره لزم انتفاء الفائدة في إرسال الرّسل وإنزال الكتب، لأنّ الفائدة العظمى حصول النّظام بتبليغ الأحكام الموقوفة على المخاطبة والأفهام.

الرّابع: أنّ اللفظ إذا تجرّد عن القرينة كما هو المفروض فإمّا أن يحمل على حقيقته، أو على مجازه، أو عليهما معاً، أو لا على شيء منهما، والرّابع مستلزم لتعطيل اللفظ وإلحاقه بالألفاظ المهملة، والثّالث مستلزم لكون اللفظ حقيقة في مجموع الحقيقة والمجاز، أو مشتركاً بينهما وهو باطل، والثّاني غير ممكن، إذ من شرط المجاز وجود القرينة، والمفروض انتفاؤها، فتعيّن الأوّل، وهو المطلوب.

الخامس: أنّه لو لم يحمل على الحقيقة لوجب التّوقف، أو الحمل على المجاز، وكلاهما باطل، أمّا الأول فلأن التّوقف إنّما يجب لإجمال اللفظ وتردّد أهل العرف في تعيين المراد منه، والحكم بأنّ جميع الألفاظ مجملة متردّدة بين حقائقها ومجازاتها دائماً ممّا يكذّبه الوجدان، وأمّا الثّاني فلأنّه يقتضي كون المجاز أصلاً، وفساده ظاهر، إذ من الممتنع أن يعيّن الواضع لفظاً لمعنى ثم يكون استعماله فيما لم يوضع له أصلاً في تلك اللغة.

فقد تلخّص ممّا ذكرنا أنه لا خلاف ولا إشكال في حمل اللفظ على معناه الحقيقي عند الشّك في كونه هو المراد، وليكن هذا الأصل على ذلك منك تنتفع به في تضاعيف الشرح، وتعرف توهّمات الشّارحين المعتزلي والبحراني في غير واحد من المقامات، حيث صرف كلام الإمام ﷺ عن ظاهره في موارد كثيرة من غير دليل، وأوّلاه عن رأيهما وانحرفا عن وضح السّبيل.

الفصل الثاني

في المجاز وفيه مسائل.

المسألة الأولى: المجاز في الأصل مفعل من الجواز والعبور اللذين هما من صفات الأجسام التي يصحّ عليها الانتقال من حيّز إلى حيّز، واطلاقه على المجاز اللفظي للمشابهة، فإنّه جاز وتعدّى عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي، فكأنّه جاز موضعه وتعدّاه، قال الشّيخ عبد القاهر في محكي كلامه عن **«أسرار البلاغة»**: إنّه مفعل من جاز المكان يجوزه إذا تعداه، نقل إلى الكلمة الجائزة أي المتعدّية مكانها الأصلي، أو الكلمة المجوّز بها على معنى أنّهم جازوا بها مكانها الأَصلي، انتهى[(١)].

والظّاهر أنّه يريدانه مصدر إمّا بمعنى الفاعل، أو بمعنى المفعول، هذا ويجوز جعله اسم مكان بمعنى محلّ الجواز، سمّي به الكلمة المخصوصة لكونها بمنزلة محلّ انتقال الذّهن وعبوره من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي فتأمل.

المسألة الثانية: المجاز في الاصطلاح على ما يفهم بالقياس إلى الحقيقة، هي الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له من حيث هو كذلك لعلاقة، فخرج بقيد الاستعمال ما لم يستعمل، فإنّه لا يسمى مجازاً، كما لا يسمّى حقيقة، وبقولنا: في غير ما وضع له، الحقيقة، وبقيد الحيثيّة مثل لفظ الصّلاة إذا استعملها المتشرّع في الأَركان المخصوصة، فإنه وإن كان يصدق عليه أنّه لفظ استعمل في غير ما وضع له لغة، إلاّ أن استعماله ليس من هذه الحيثيّة، بل من حيث وضعه لها عندهم، وخرج بالقيد الأَخير الغلط، فإنّ استعماله ليس من أجل حصول العلاقة، وربّما أمكن الاستغناء بذلك عن قيد الحيثيّة لإخراج مثل لفظ الصّلاة، لأَن استعماله للوضع لا لوجود العلاقة، ولذلك أسقطه بعضهم عن الحدّ.

المسألة الثالثة: المجاز إن كان الموصوف به اللفظ المفرد يسمّى بالمجاز اللغوي، وحده ما قدّمناه، وإن كان الموصوف به الجملة يسمّى بالمجاز العقلي واتّصاف الجملة به إنّما هو باعتبار الاسناد والحكم الذي فيها، ولذلك يسمّى أيضاً مجازاً حكمياً، وإسناداً مجازيّاً، فعند التحقيق اتّصاف الإسناد والحكم بالحقيقة والمجاز بالذّات من دون واسطة، واتّصاف الجملة بهما بالواسطة، أي لاشتمالها على الحكم، وبذلك الإعتبار اختلف الأَنظار في تعريفه، أي تعريف المجاز العقلي، كاختلافهم في تعريف الحقيقة العقليّة حسبما عرفت سابقاً.

فعرّفه الشيخ عبد القاهر بأنّه كلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأويل، مثاله قوله تعالى:

---

(١) راجع مختصر المعاني: ٢١٨.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الأعراف: ٢٧] .

وقال في (التلخيص): هو إسناده أي الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأوّل، أي بنصب قرينة صارفة للإسناد عن أن يكون إلى ما هو له، لفظيّة كانت أو معنوية، كاستحالة قيام المسند بالمذكور عقلاً، إذ من البيّن أن الأرض لا تتّصف باخراج الأثقال، لأنّ الإخراج فعل القادر المختار، فالمسند إليه في الحقيقة هو الله سبحانه، وإنّما أسند إلى الأرض لكونه محلاً له، والحاكم بذلك هو العقل.

قال عبد القاهر: فإذا قلنا مثلاً: خطّ أحسن ممّا وشاه الرّبيع وصنعه، كنّا قد ادّعينا في ظاهر اللفظ، أنّ للرّبيع فعلاً، وأنّه شارَكَ الحيّ القادر في صحة الفعل منه، وذلك تجوّز من حيث المعقول لا من حيث اللغة، وقال: إنّ التّأليف اسناد فعل إلى اسم، أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم لا بواضع اللغة، والذي يعود إلى واضعها أنه ضرب لإثبات الضرب لغير معين، لا لإثبات الخروج مثلاً، وأنّه لإثباته في زمان ماض، لا لإثباته في زمان مستقبل، فأمّا تعيين من يثبت له، فذاك أمر يتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين بالأمور المعبّرين عن ودايع الصدّور، الكاشفين عن المقاصد والدّعاوي، صادقة كانت تلك الدّعاوي أو كاذبة.

إذا عرفت ذلك فنقول: أنه أي المجاز العقلي والتجوّز في الإسناد في كلام أمير المؤمنين ﵁ كثير كما في الكتاب العزيز.

فمن الكتاب قوله تعالى:

﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الزلزلة: ٢] وقوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [المزمل: ١٧] وقوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [الطارق: ٥] وقوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [النساء: ٣٥] وقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

إلى غير ذلك، فإنّ الإسناد في كلّ ذلك إلى غير ما هو له في الحقيقة، ألا ترى أنّ راضية مبنيّة للفاعل، ولكن أسندت إلى المفعول، فإنّ العيشة مرضيّة لا راضية، والنّزع فعل الله سبحانه نسب إلى إبليس اللعين، باعتبار كونه سبباً للأكل من الشجرة السّبب للنّزع، ونسبة الجعل إلى اليوم مع كونه من فعل الله سبحانه، من باب النّسبة إلى الزّمان، وإسناد الإرادة إلى الجدار تشبيهاً له بالفاعل المريد، وإسناد الزّيادة إلى الآيات مع أنّه من فعل الحقّ تعالى باعتبار أنّها سبب لها، ونسبة الرّبح إلى التّجارة باعتبار أنّها محلّ له، والأصل فما ربحوا في تجارتهم.

ومن كلام أمير المؤمنين ﷺ في الخطبة (ج)[1]: **«وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ»**

وفي الكلام (يز): **«تَصْرَخُ مِنْ جَوْرِ قَضَآئِهِ الدِّمَآءُ، وَتَعُجُّ مِنْهُ الْمَوارِيثُ»**

وفي الكلام (يط): **«لَقَدْ أَسَرَكَ الْكُفرُ مَرَّةً وَالإِسْلاَمُ أُخرىٰ فَما فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مالُكَ وَلاَ حَسَبُكَ»**

وفي الخطبة (لب): **«إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا في دَهْرٍ عَنُودٍ وَزَمنٍ كَنُودٍ»** وفي الخطبة (فب): **«أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنايا دُونَ الآمَالِ وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الآجَالِ»**

وفيها أيضاً: **«وأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهَ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ، وَأَظْمَأَ الرَّجآءُ هَواجِرَ يَوْمِهِ، وَأَظْلَفَ الزُّهْدُ شَهَواتِهِ»**.

إلى غير ذلك ممّا يطّلع عليه المتتبّع الخبير، وبالتأمّل فيما قدّمنا تعرف وجوه التّجوز فيما ذكر هذا، وينبغي أن يعلم أنّ المجاز العقلي كما يجري في النّسبة الإسناديّة، كذلك يجري في غيرها من النّسبة الإضافيّة والإيقاعيّة، قال الله سبحانه:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [سبا: ٣٣] و﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦] و﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

ونحو أجريت النّهر، ونوّمت الليل، ونحوها.

المسألة الرابعة: اختلفوا في أنّ المجازات هل يلزم فيها نقل الآحاد، أم الاعتبار بوجود العلاقة، وبعبارة أخرى هل اللازم في المجاز نقل خصوصياته من العرب، أم يكفي حصول العلم أو الظن من استقراء كلامهم برخصتهم لملاحظة نوع العلاقة في استعمال اللفظ فيما يناسب المعنى الحقيقي فيقاس عليه كما ورد من المجازات الحادثة ولا يحتاج إلى النقل.

ذهب جماعة منهم: الفخر الرّازي والاسفرايني على ما حكي عنهما إلى الأول.

وذهب الأكثرون ومنهم: العلامة الحلي (قده) في **(التّهذيب)** و**(النّهاية)**، والعميدي والتّفتازاني والمرتضى في محكي الذّريعة، والشيخ البهائي وتلميذه الشّارح الجواد والحاجبي والعضدي والفاضل القمي (ره) إلى الثّاني.

قال التّفتازاني: العلاقة يجب أن تكون ممّا اعتبرت العرب نوعها، ولا يشترط النّقل عنهم في كلّ جزئي من الجزئيات، لأن أئمة الأدب كانوا يتوقّفون في الإطلاق المجازي على أن ينقل من العرب نوع العلاقة، ولم يتوقّفوا على أن يسمع آحادها وجزئياتها، مثلاً يجب أن

(١) وهي الخطبة الثالثة.

يثبت أن العرب يطلقون اسم السّبب على المسبّب، ولا يجب أن يسمع اطلاق الغيث على النّبات، وهذا معنى قولهم المجاز موضوع بالوضع النّوعي[1]، وذهب جمع إلى أنّ المدار على المناسبة بين المعنيين بحيث لا يستهجن عرفاً استعماله فيه.

وحاصله أنّه كلما وجد المناسبة يصحّ الاستعمال وإن لم يكن شيء من العلائق المعهودة، وإلا فلا، ولو كانت هناك علاقة موجودة منها، فالمتّبع هي الحلاوة العرضيّة، فحيثما حصلت يجوز الاستعمال، وهذا هو المختار الموافق للتحقيق.

واستدلّ القائلون بالأوّل بوجوه:

الأول: أنّ ما لم ينقل من المجاز خارج عن اللغة لأَن اللغة منحصرة في الحقائق، والمجازات اللغوية، وغير المنقول ليس من الأوّل قطعاً، ولا من الثاني لأَن المجاز اللغوي ما كان المتجوز فيه صاحب اللغة وأهلها، كما أنّ المجاز الشرعي ما كان المتجوز فيه أهل الشّرع، والعرفي أهل العرف، وإذا لم يكن النّقل شرطاً فلم يكن المتجوّز صاحب اللغة، فلا يكون عربياً، وهو باطل قطعاً، لاشتمال القرآن على المجازات مع أنّه عربيٌ مبين، وقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف : ٢].

وفيه: **أوّلاً**: منع كون ما لم ينقل غير عربي، لأَنّ نصّ العرب نصّاً كلياً على جواز اطلاق اسم الحقيقة على كلّ ما يكون بينها وبينه علاقة معتبرة كاف في العربيّة، **وثانياً**: سلمنا ولكن غاية ما ذكر لزوم النّقل في مجازات القرآن، لا مطلق المجازات. **وثالثاً**: لا نسلم كون القرآن بسبب الاشتمال على غير العربي غير عربي، لأن المراد كونه عربي النّظم والأسلوب. **ورابعاً** أن هذا مسلم لو كان مرجع الضّمير في ﴿إنّا أنزلناه﴾ هو القرآن، لم لا يكون المراد البعض المعهود كالسّورة التي هذه الآية فيها بتأويلها بالمنزل، أو المذكور.

الثاني: أنّه لو جاز التّجوز بلا نقل لكان اختراعاً، أو قياساً، وذلك لأنّ المفروض أنّ أهل اللغة لم يصرّحوا به، فهو إثبات ما لم يثبت منهم، فإن كان بجامع مشترك بينه وبين ما صرّح به مستلزم للحكم، فهو القياس، وإلاّ فهو إثبات ما لم يثبت من العرب، لا هو ولا ما يسلتزمه، وهو الاختراع، وكلاهما باطل كما صرّحوا به في مقامه، والجواب: أنا لا نسلم أنّه إذا لم يكن بجامع يستلزمه أن يكون اختراعاً، وإنّما يكون اختراعاً لو لم تكن العلاقة المعتبرة عندهم موجودة، وأمّا إذا علمنا بالاستقراء تجويزهم وترخيصهم في الاستعمال بملاحظة

(١) راجع حاشية ردّ المختار لابن عابدين: ١٨/٣.

العلاقة، فيجوز لنا الاستعمال في كلّ مورد وجد العلاقة، بإذاً الإذن الإجمالي كالإذن التفصيلي، وهو في معنى الوضع، وليس من الاختراع في شيء.

الثّالث: أنّه لو لم يكن النقل شرطاً للتجوز وكان وجود العلاقة كافياً فيه لجاز التّجوز في كلّ صورة وجدت العلاقة بين المعنيين، والتّالي باطل، فالمقدّم مثله، والملازمة ظاهرة، أمّا بطلان التّالي فلأنّ العلاقة موجودة بين النّخلة والجبل، وبينها وبين الحائط، وهي المشابهة في الارتفاع، وكذلك بين الشبكة والصّيد، وهي المجاورة، وهكذا بين الأب والابن، لكون وجود الأوّل سبباً للثاني مع عدم تجويزهم للتجوّز في شيء من ذلك وأجيب عنه بأنّ العلاقة كافية في الصّحة ومقتضية لها، وعدم الجواز في الأمثلة المذكورة إنّما هو لمنع أهل اللغة، وهو لا يقدح في اقتضاء المقتضي.

قال العلامة (ره) في (**النهاية**) لا يقال: التّعارض بين المقتضي للجواز وهو وجود العلاقة وبين المقتضي للمنع وهو منعهم، لأنّا نقول: جاز أن يكون المتقضي للجواز مشروطاً بعدم ظهور المنع، ومع الظهور ينتفي المقتضي، وردّ بأن مرجعه إلى تسليم المقتضي وإبداء المانع مع أنّه لم يقم دليل عليه، إذ لم يصل إلينا نصّ من أهل اللغة يفيد المنع، وهو كافٍ في الحكم بعدمه، عملاً بمقتضى الأصل، غاية الأمر أنّهم لم يتجوّزوا بها وهو لا يفيد ان ذلك مستند إلى المانع، بل لعله مستند إلى عدم نقل الآحاد كما يراه الخصم.

فالصّواب في الجواب أن يقال: إن العلاقة المصحّحة للتّجوز ليست مطلق العلاقة، بل العلاقة التي اعتبرت العرب نوعها، فالحقّ أنّ المقتضي في المقام غير معلوم.

وتوضيحه أنّ المقتضي للتّجوز ليس مطلق المشابهة والمجاورة والسّببية بل نوع خاصّ منها يقبلها الذّوق السّليم والطبع المستقيم، وهو ما كان مأنوساً في نظر العرف، وهو انما يكون إذا كان بين المعنيين ارتباطٌ خاصّ وعلاقة مخصوصة، كما يشعر به قولهم: إنّ المجاز ما ينتقل فيه عن الملزوم إلى اللازم، وهذا المعنى مفقود بين النّخلة والحائط والجبل، لانتفاء التّناسب في القطر وإن وجد المشابهة في الارتفاع، وأما الشبكة والصّيد فالمجاورة إتفاقيّة ليست معهودة في نظر العرف، بل المعهود في نظرهم تنافر الصّيد من الشبّاك، وأمّا الأب والابن فأقرب العلاقات بينهما وآنسها عرفاً هو التّربية والعطوفة، والرّياسة والمرؤسيّة، لا السّببيّة كما هو ظاهر.

واستدلّ القائلون بالثّاني أيضاً بوجوه:

أحدها: أنه لو كان النّقل شرطاً لوجب أن يكون أهل اللسان من أئمة الأدب وغيرهم متوقفين في محاوراتهم، واستعمالاتهم حتّى يثبت لهم النّقل من الواضع، والتّالي باطل فكذلك

المقدّم، ووجه الملازمة واضح، والدّليل على بطلان التّالي هو الاستقراء، فإنّه يظهر من تتبّع كلامهم نظماً ونثراً أنّهم يحدثون مجازات في محاوراتهم من دون تخطئة، بل كلما كان أبدع كان أوقع، ويعدّونه في محلّ من القبول، ويزيدون في تحسينه، ويثنون على صاحبه كما هو غير خفيّ.

الثّاني: أنّه لو كان محتاجاً إلى النّقل لحصل الاستغناء عن النظر إلى العلاقة، ولما افتقر في التّجوز إليها، واللازم باطل. بيان الملازمة: أنّ النّقل دون العلاقة حينئذٍ مستقلّ بتصحيحه، والعلاقة بدون النّقل غير مصحح على زعم الخصم، فاستوى في الحالين وجود العلاقة وعدمها، فلا يحتاج إلى النظر إليها، وأمّا بطلان التّالي فلإطباق أهل العربية على افتقاره إليه.

الثالث: أنه لو كان النّقل شرطاً لما وجد التجوّز من دون نقل ضرورة امتناع وجود المشروط بدون شرطه، مع أنّه موجود واقع، ألا ترى إلى استعمال لفظ الصّلاة والزكاة والحجّ في المعاني المحدثة الشّرعيّة التي هي مجازات لغوية، ومن المعلوم أنّ أهل اللغة لم يستعملوها فيها مطلقاً لا حقيقة ولا مجازاً، لعدم تعقلهم لها ومعرفتهم بها، فكيف يتصوّر النّقل منهم فيما لا معرفة لهم به.

أقول: هذه الأدلة إنّما هي نافعة في رد القائلين باشتراط النقل إلاّ أنّها غير ناهضة لإثبات ما هو الظاهر من كلام أكثر القائلين بهذا القول المستدلين بهذه الأدلة، من كون المدار في صحّة التّجوز على العلاقات المعهودة حسبما تطلع عليه بعيد ذلك.

وأمّا القول الثّالث: فهو الحقّ الصّواب في هذا الباب، وفاقاً لجمع من أولي الألباب، ويمكن تنزيل كلمات القائلين بالقول الثّاني. أعني القول بثبوت الوضع النوعي للمجازات على ذلك، حيث إنّهم قالوا بأنّ المجاز ما ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم، وذكروا أنّ اللفظ المراد به لازم ما وضع له إن قامت قرينة على عدم إرادته فمجاز، وإلاّ فكناية، فإنّ الظاهر أنّ مرادهم باللزوم هنا ليس اللزوم المصطلح، أعني عدم الانفكاك ذهناً أو خارجاً، ولا من كون المعنى المجازي لازماً للمعنى الحقيقي هو استحالة انفكاكه عنه، ضرورة أنّه لا يجري إلاّ في قليل من المجازات، بل مقصودهم كما صرّح به غير واحد منهم ويستفاد من أمثلتهم أيضاً: الاتّصال والربط التام بين المعنيين بحيث ينتقل الذّهن من المعنى الحقيقي، ولو بمعاونة القرائن إلى المعنى المجازي، وبعبارة أخرى: هو أن يكون بين المعنيين علقة شديدة أوجبت كونهما في نظر العقل كالمتّحدين بالذّات، فهذا كله مفيد لكون المدار في صحة التجوّز على حصول العلقة والربط مطلقاً، ولو لم تكن من العلاقات المعهودة.

لكنه قد تكرّر القول من الفاضل القميّ (ره) في القوانين كغيره بعدم جواز التّعدي من أنواع المجازات المشتملة على العلائق المعتبرة المعهودة إلى غيرها لعدم ثبوت الرّخصة فيه.

وقال العلامة التّفتازاني: وأنواع العلائق كثيرة ترتقي ما ذكروه إلى خمسة وعشرين، اهـ[١]. وظاهرهما كما ترى كون المدار على تلك العلائق المحصورة.

وكيف كان فإن أمكن ارجاع كلام القائلين به إلى ما ذكرنا، وإلاّ فهي دعوى لا تفي بإثباتها بيّنة، لأنّ الدّليل في المقام منحصر في الاستقراء، وغاية ما تحصّل لنا منه أنهم استعملوا الألفاظ في غير معانيها لمناسبة وارتباط بينهما، يقبله الطبع من غير مدخلية لخصوص العلائق، والعلاقات المذكورة إنّما تعتبر إذا تضمّنت تلك المناسبة.

ونزيدك توضيحاً ونقول: إنّه لو كان المدار في صحة التّجوز وعدمها على وجود العلائق المعهودة وعدمه، لجاز المجاز كلما وجد شيء منها، ولم يجز لو لم يوجد. مع أنّا نرى غالباً عدم جوازه مع وجودها، ونرى جوازه مع العدم. ألا ترى أنّهم عدّوا من جملة العلائق تسمية الكلّ باسم جزئه وتسمية الجزء باسم كله، مع أنّه لا إطراد في شيء منهما.

ولما رأى بعضهم ذلك ضيق المجال وضاق به الخناق إلى الإطلاق فاشترط في الأوّل أن يكون للكلّ تركب حقيقي خارجي وكان الجزء ممّا له قوام في تحقق الكلّ، كالرّقبة في الإنسان، والعين في الرؤية، ومنع من جواز استعمال سائر الأجزاء في المركبات الحقيقية، وجميع الأجزاء في المركبات الاعتبارية، واشترط في الثّاني أن يكون بين الجزء والكلّ تركب حقيقي، كالأصابع في الأنامل في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ [الحج: ١٠].

واليد في الأصابع إلى نصف الكف في آية السرقة، وإلى المرفق في آية الوضوء، وإلى الزند في آية التيمّم، ومنع من التّعدي إلى غير المركبات الحقيقية.

مع أنه يتجه على شرطه الأوّل وجود المجاز في الجزء والكلّ الذي ليس فيه هذا الشرط أيضاً، فإنّا نرى اطلاقهم لليد على الإنسان مع أنه لا ينتفي الإنسان بانتفائها قال سبحانه:

﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩] و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [المسد: ١] و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [البقرة: ١٩٥].

أي خسرت نفسه كما عن مقاتل، وفي الحديث المشهور:

«عَلَى الْيَدِ ما أَخَذَتْ حَتَّى تُؤَدِّي»[٢] وقال الشاعر:

خَليلي أملكُ مِنّي بالّذي كَسَبَتْ يَدي وَما لي فيما يَقْتَني طَمَعُ

(١) راجع حاشية ردّ المختار: ٣/ ٣٢٥.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٤/٨، وعوالي اللئالي: ١/ ٢٢٤.

وعلى شرطه الثاني إنّا نرى كثيراً عدم تجويزهم للاطلاق مع وجود هذا الشّرط، فهل تجد أحداً يقول قطعت إنساناً إذا قطع يده ؟ أو قلعت انساناً إذا قلع عينه ونحو ذلك، وأوضح من ذلك أنّهم جعلوا من جملة العلائق علاقة المحل والحال كما في جري النّهر، وسال الميزاب، وعلاقة المجاورة كما في ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] مع أنّه لا تأتي لك أن تقول: جمعت النّهر والميزاب بإرادة مائهما، أو ضربت القرية أو ضحكت القرية بإرادة أهلها، للاستهجان العرفي، وهذا كله دليل على صحة التّجوز كلما وجد العلاقات المعهودة. ويدلّ على صحتها مع عدمها تجويزهم للتّجوز بأسباب مجهولة العناوين كما في مجازات الحروف التي منها ما تطرق إلى أدوات الاستفهام، كالاستبطاء في قولهم: كم دعوتك، والتعجب في مثل: ﴿مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ والتّنبيه على الضّلال في نحو: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

وقد صرّح العلامة التّفتازاني عند الكلام على هذه المعاني: بأن تحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنّه من أيّ نوع من أنواعه، ممّا لم يحم أحد حوله، فاستبان لك ممّا حققنا كلّه أنّ المدار في المجاز ليس على العلاقات المعهودة وجوداً ولا عدماً، بل على الارتباط والعلاقة التي يحلوها الطبع، ويقبلها الذّوق السليم والفهم المستقيم.

المسألة الخامسة

يظهر لك بالتّأمّل فيما حققناه في المسألة السّالفة أنّ العلائق المسوّغة للتّجوز لا تنحصر في عدّ، ولا تنتهي إلى حدّ، لأنّه بعدما كان المدار في المجاز على المناسبة والاستحسان عرفاً، فوجوه التّناسب غير مضبوطة، وجهات الحسن غير محصورة، كما هو ظاهر، ولعلّ ذلك هو السّر في عدم مبالغة الأكثرين في حصر أنواع العلاقات وضبطها، إلاّ أنّ جمعاً منهم حام حول الضّبط، وذكر عدّة منها، وادّعى حصرها فيها بالاستقراء، وتريهم مع دعواهم هذه أنّهم في تعيين أصل النّوع مختلفون، وفي العدد المعدود أيضاً غير متّفقين، حيث قلّله بعضهم، وكثّره آخرون، وغاية ما قيل أنّها خمسة وعشرون.

قال شارح (المفتاح) في المحكي عن كلامه: إعلم أنّ العلماء قد حصروا العلاقة المعتبرة في المجاز بناء على الاستقراء في خمسة وعشرين نوعاً:

الأوّل: اطلاق اسم السّبب على المسبّب كقوله ﷺ.

«بلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلاَمِ»[1].

أي صلوا، فإنّ العرب لمّا رأت بعض الأشياء يتّصل بالبلّ استعاروا البلّ بمعنى الوصل.

---

(١) راجع البحار: ٧١/ ٧٥، ١١١، وروي بلفظ: «صلوا».

الثاني: بالعكس كقوله: بالعطيّة منّ، لأنّ من أعطى فقد منّ.

الثالث: اطلاق اسم الجزء على الكلّ كقوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٣٨] أي ذاته.

الرّابع: عكسه كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾ [الأنعام: ١٦٣].

الخامس: إطلاق اسم الملزوم على اللازم كقوله تعالى:

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [البقرة ١٩].

سمّيت الدّلالة كلاماً لأنّها من لوازمه.

السّادس: عكسه قال الشاعر:

قَوْمٌ إذا حَارَبُوا شَدُّوا إِزارَهُمُ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ طالَتْ بِآمِلِهَا

أُريد بشدّ الإزار الاعتزال عن النّساء، لأنّ شدّ الإزار من لوازم الاعتزال.

السّابع: اطلاق أحد المتشابهين على الآخر، كإطلاق الإنسان على الصّورة المنقوشة، لتشابههما في الشكل.

الثامن: اطلاق المطلق على المقيّد كقول الشّاعر:

وَيَالَيْتَ كُلَّ اثْنَيْنِ بَيْنَهُمَا هَوَى مِنَ النَّاسِ قَبْلَ اليَوْمِ يَلْتَقِيَانِ

بمعنى يوم القيامة.

التاسع: عكسه كقوله شريح: أصبحت ونصف الخلق عليّ غضبان، يريد أنّ النّاس محكوم به ومحكوم عليه، فالمحكوم عليه غضبان لا أنّ نصف النّاس على السّوية كذلك.

العاشر: اطلاق اسم الخاص على العام كقوله تعالى:

﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [يوسف: ٨٢].

الحادي عشر: عكسه كقوله تعالى حكاية عن رسول الله ﷺ:

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فاطر: ٤٠] **فلم يرد الكلّ لأنّ الأنبياء كانوا مسلمين قبله.**

الثاني عشر: حذف المضاف سواء أقيم المضاف إليه مقامه كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [الشورى: ١١] أي أهلها، أولا كقول أبي داوُد:

أَكُلُّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَءً وَنُوراً تُوقَدُ بِاللَّيْلِ نَاراً

وسمّيت هذا مجازاً بالنّقصان، ونحو قوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [النساء: ٦٩] **مجاز بالزّيادة**.

الثّالث عشر: عكسه كقول الشاعر:

أَنَا ابْنُ جَلا وَطَلاَّعِ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعُ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

أي أنا ابن رجل جلا.

الرّابع عشر: تسمية الشيء باسم ماله تعلق المجاورة، كتسميتهم قضاء الحاجة الذي هو في المكان المطمئن من الأرض بالغائط.

الخامس عشر: تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه. قال الله تعالى حكاية عن صاحب يوسف:

﴿إِنِّيَ أَرَىٰنِيَ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦].

السادس عشر: تسمية الشيء باسم ما كان، كقولنا للإنسان بعد فراغه من الضرب أنّه ضارب.

السابع عشر: اطلاق اسم المحلّ على الحال، قال ﷺ: **(لا يفضض الله فاك)**، أي أسنانك إذْ الفم محلّ الأسنان، وقول ابن الحاجب وللمجاورة يشمل هذا وما بعده والرّابع عشر أيضاً.

الثامن عشر: عكسه، قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

أي في الجنة، لأنّها محل الرحمة.

التاسع عشر: اطلاق اسم آلة الشيء عليه كقوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﷺ:

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

أي ذكراً حسناً، أطلق اللسان وأراد به الذكر. واللسان آلته.

العشرون: إطلاق اسم الشيء على بدله يقال: فلان أكل الدم، أي الدية.

الحادي والعشرون النكرة، تذكر للعموم كقوله تعالى:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤].

أي كلّ نفس، ومنه دَع أمرء ونفسه، أي كل أمرء.

الثاني والعشرون: اطلاق اسم أحد الضّدين على الآخر، كقوله تعالى:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤].

الثالث والعشرون: إطلاق المعرّف باللام وإرادة واحدة، كقوله تعالى:

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة: ٣].

أي باباً من أبوابها نقلاً عن أئمة التفسير.

الرّابع والعشرون: الحذف، كقوله:

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: ١٧٦].

الخامس والعشرون: الزيادة، كقوله:

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

وهذه الأنواع معلومة بالاستقراء، ولا يخفى عليك تداخل بعضها.

أقول: ولا يخفى عليك أيضاً المناقشة في كثير من أمثلتها إلاّ أنّ المناقشة في المثال ليست من دأب المحصّلين.

المسألة السادسة

اختلفوا في سبك المجاز عن المجاز، وهو أن يستعمل اللّفظ في معنى مجازي لعلاقة بينه وبين المعنى الحقيقي، ثم يستعمل في معنى آخر لعلاقة بينه وبين المجاز الأوّل. ولم أظفر بعد بمن أفرد هذه المسألة استقلالاً بالبحث، ولم أجد عنوانها مستقلاً في كلام من تقدّم، وإنّما يوجد الإشارة إليها في كلامهم، ويذكرونها استطراداً إذا مست حاجتهم إليها من دون أن يكشفوا عن وجهها النّقات، ويرفعوا عنها الحجاب، والحق فيها هو الجواز، وفاقاً لجمع من الأصحاب منهم العلامة الحلي في (**النهاية**)، والعميدي في (**المنية**)، والفاضل القمي (ره) في «**القوانين في تعريف الفقه**» وذهب قوم إلى المنع منهم صاحب (**الفصول**) وصاحب (**المصابيح**).

قال الأوّل: إعلم أن العلاقة المعروفة إنّما تعتبر إذا كانت بين المعنى المجازي وبين المعنى الموضوع له، فلا تعتبر إذا كانت بينه وبين معنى مجازي آخر إلاّ إذا كانت بحيث توجب العلاقة بينه وبين المعنى الحقيقي، فتعتبر من هذه الحيثيّة، ولهذا تراهم يمنعون سبك المجاز من المجاز، والدّليل عليه عدم مساعدة الطبع، أو الرخصة على الاعتداد بمثل تلك العلاقة لبعدها عن الاعتبار.

وأمّا صاحب (**المصابيح**) فإنّه كتب إلى الفاضل القمي (ره) في جملة إعتراضاته التي أوردتها في حاشية «**القوانين مشروحة**»: أنّ في القوانين جوّزتم سبك المجاز من المجاز مع أن المجاز لا يتجوّز منه اجماعاً تحصيلاً ونقلاً من العلامة في بحث النّسخ من النّهاية، وقد صرّح بذلك جماعة في بحث مفاسده ومحاسنه.

فكتب إليه الفاضل القمي (قده): لا يحضرني (**النّهاية**) ولا غيره من كلمات من نسبتم هذا الكلام إليه، والذي يحضرني في الجواب عمّا ذكرت: إنّي لا أجد مانعاً منه، وناهيك في ذلك ما يوجد في كلام الملك العلام الذي هو في منتهى البلاغة مثل قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

إذ الظاهر ان كلمة الرّب مجاز عن رحمته وثوابه، ورحمته وثوابه مجاز عن آثار رحمته من الجنة والحور والقصور والثمار والأنهار، ولو لم نقل بذلك فلا بدّ من إرتكاب المجاز في كلمة الناظرة أيضاً، وكذلك قوله تعالى:

﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢].

فإنّ الظاهر أنّ كلمة الرّب مجاز عن حكمه ومشيئته، والحكم والمشيئة تصيران مستقرّاً للإنسان بسبب مقتضياتهما.

وأمّا ما تمسكت به من قول العلماء فلا يحضرني كلامهم لأفهم مرامهم، ولو فرض صحّة النّقل فلا حجّة فيه، ولعلّهم أرادوا شيئاً آخر، فهل يمكنهم إنكار أن يقول أحد: رأيت أسداً يرمي مع أنّه رأى رأسه فقط حين الرميّ.

وأورد عليه صاحب (**المصابيح**) (ره) بقوله: ولا يخفى عليك أن ما ذكره من تجويز المجاز عن المجاز مستشهداً بالآيات وعدم المنع من أرباب اللّغة في الكتب والمحاورات مردود من جهات.

أما أولاً: فلأن حمل تلك الآيات على سبك المجاز عن المجاز تكلّف لا حاجة إليه أصلاً، بل المجاز الظاهر منها غيره كما هو ظاهر.

وأما ثانياً: فلأن ما ذكره من عدم كون قول العلماء حجّة لو فرض صحّة النّقل مردود: بأنّ الكلام في المقام في الأمر اللغوي، والمدار فيه على التّوقيف من صاحب (**اللغة**)، فإذا صرّح أهل اللغة بشيء يكون قولهم حجّة بلا إشكال، لحصول الظن منه، والمدار فيه على الظن والظهور، لاسيّما إذا كان مشهوراً كما فيما نحن فيه.

وأما ثالثاً: فلأَن المجاز الذي ذكره في قولهم: رأيت أسداً يرمي، حيث رأى رأسه فقط، فإنما هو من باب المجاز في الإسناد لا المجاز في الكلمة، وكلامنا في الثّاني لا الأوّل، انتهى كلامه.

وأنت خبير بما فيه أما أولاً: فلأَن دعواه الإجماع المحصّل في المقام أوّلاً مع إدّعائه الشّهرة في آخر كلامه كما ترى. وأما ثانياً: فلأَن نسبة دعوى الإجماع إلى العلامة في **(النهاية)** سهو فاحش، بل الموجود في **(النهاية)** هو أنّ العلامة بعدما ذكر الخلاف في أنّ لفظ النّسخ هل هو حقيقة في خصوص الإزالة كما في قولهم: نسخت الشّمس الظلّ، أي إزالته، أو حقيقة في النّقل والتّحويل، كما في قولهم: نسخت الكتاب، أي نقلت ما فيه إلى كتاب آخر، ومنه تناسخ القرون وتناسخ المواريث، يراد تحويلها ونقلها من وارث إلى آخر، واختار الأَوّل تبعاً لأبي الحسين البصري.

قال (ره) في جملة أدلته: الثاني إطلاق إسم النّسخ على النّقل في قولهم: نسخت الكتاب مجاز لأنّ ما في الكتاب لم ينقل حقيقة وإذا كان اسم النّسخ مجازاً في النّقل كان حقيقة في الإزالة، لعدم استعماله فيما سواهما، قال: وهو حجّة أبي الحسين، ثم تنظّر فيه، وقال بعده: واعترض أيضاً بأن اطلاق اسم النّسخ في الكتاب إن كان حقيقة بطل كلامكم، وإن كان مجازاً امتنع أن يكون التحوّل مستعاراً من الإزالة، لأنّه غير مزال، ولا يشبه الإزالة، فلا بدّ من استعارته من آخر، وليس إلاّ النّقل فكان مستعاراً منه، ووجه استعارته منه أنّ تحصّل مثل ما للمنسوخ في المنقول إليه يجري مجرى نقله وتحويله، فكان منه بسبب من أسباب التجّوز، وإذا كان مستعاراً من النّقل كان اسم النّسخ حقيقة في النّقل، لأنّ المجاز لا يتجوّز من غيره بإجماع أهل اللغة، هذا كلامه، ومفاده كما ترى أنّ دعوى الاجماع من قائل مجهول، ومجرّد ذكر العلامة (ره) له وسكوته لا يدلّ على رضاه به وثبوت حقيقته عنده، كيف وقد قال (ره) في باب الحقيقة والمجاز: إنّ الحقيقة مأخوذة من الحقّ وهو الثّابت، ثم نقل إلى العقد المطابق، لأنّه أولى بالوجود من العقد الغير المطابق، ونقل إلى القول المطابق، ثم نقل الى إستعمال اللفظ في موضوعه الأصلي، فإنّ إستعماله فيه تحقيق لهذا الوضع، فهو مجاز في المرتبة الثالثة من الوضع، هذا بحسب اللغة وإن كان حقيقة بحسب العرف، انتهى.

وهو ظاهر بل نصّ في أن استعمال لفظ الحقيقة عنده في المعنى المصطلح من باب سبك المجاز، ومثله العميدي في **(المنية)**. ومع ذلك فكيف ينسب دعوى الاجماع إليه، وعلى فرض التنزّل والتّسليم لصحّة النّقل نمنع حجيّة الاجماع لعدم دليل على إعتباره بالخصوص في باب اللغات، وإنّما حجيّته منوطة على تمامية دليل الانسداد الذي عنونه علماء

الأصول المفيد لحجيّة مطلق الظنون التي من جملة أفرادها ذلك، لحصول الظن منه بقول اللغوي، لكنّه يتمّ حجة على ما يقول بحجيّة الظنون المطلقة بشرط أن لا يقوم الظن على خلافه، وأمّا مع قيامه على خلافه كما اتفق للفاضل القمي (ره) حيث ظن بالجواز عن وجه الآيات السابقة وإن كانت غير خالية عن المناقشة، فلا ينهض الاجماع المنقول دليلاً عليه، لأنه أمرٌ إجتهادي لا دليل تعبدي.

وبالجملة فالإجماع المدّعى مع كونه فاسداً في أصله، حيث لم يثبت نقله في كلام عالم يعتدّ به، لا ينهض دليلاً على مثل الفاضل القمي (ره) مع ظنه بخلافه فضلاً عن غيره ممّن لا يرى الاجماع المنقول حجة أصلاً، فافهم جيّداً.

وأمّا ثانياً فلأن قوله: بأنّ المجاز في قولهم: رأيت أسداً يرمي، من باب المجاز العقلي لا اللغوي ممّا فساده غني عن البيان، لأنّ الأسد استعارة للرّجل الشّجاع، وأريد به رأسه بعلاقة الجزء والكلّ فيكون من باب سبك المجاز، وإسناد الرّؤية إليه ليس إلى غير ملابسه حتى يكون مجازاً في الإسناد على ما مرّ تحقيقه في المسألة الثالثة، نعم في إسناد الرّمي إلى ضمير الأسد المراد به الرأس التّجوّز عقلي إلاّ أنّه مشكل بل غير صحيح، لأنّ الرمي لا يتصوّر من الرّأس، فلو بدّل الرأس باليد كان سليماً من العيب والإشكال، فتأمّل فإنّه دقيق.

وأمّا ثالثاً: فلأنّه قد صرّح جماعة من اللغويّين بتجويز هذا المجاز، منهم الفيروزآبادي في **«البصائر»** على ما حكى عنه في **(الأوقيانوس)**، والزمخشري في **«أساس البلاغة»** في مادّة النّطح حيث روي عنهما ما محصّله: أن النّطح هو تقابل الكبش ذي القرن مع مثله للمضاربة، يقال: نطحه الكبش إذا أصابه بقرنه والنّطيح يقال: للكبش المستقبل مثله للمضاربة والتّناطح، ثم أطلق مجازاً على الصّيد المظاهر على الصّياد المواجه له بعلاقة المشابهة، فكأنّه يستقبل الصّياد لينطحه بقرنه وهو مشوم عند الصّيادين، ثم إستعمل في الرّجل المشوم بعنوان الاستعارة فيكون مجازاً بمرتبتين.

ومنهم شارح **(القاموس)** في مادة الرسالة، فإنّه بعد ما ذكر أن الرّسالة هو السّفارة قال: ويطلق بالتّوسع على المكتوب المحمول للسّفير ثم يطلق مجازاً على الكتاب الصّغير فهو مجاز بمرتبتين. ومنهم شارح **(القاموس)** أيضاً في لفظ الرّكوع حيث ذكر أنّه موضوع لمطلق الانحناء، ثم استعمل مجازاً في عرف الشّرع في الرّكن المخصوص، وربّما يطلق بعلاقة الجزئية والكليّة على نفس الصلاة، إلى غير ذلك ممّا يشتمل عليه كلمات القوم، وأكثرها احتواء لذلك **«أسرار البلاغة»** للزّمخشري فراجع إليها تعرف صدق ما قلناه، فإنّ ذكر علماء اللغة له وإرسالهم له إرسال المسلّمات وحكاية أحدهم عن الآخر من دون قدح واعتراض بأن

المجاز لا يتجوّز يدلّ على صحّة التجوّز وثبوت ذلك عندهم، وإن كان يمكن المناقشة في بعض الأَمثلة بارجاع المجاز فيه إلى نفس الحقيقة دون المجاز الأوّل وإبداء العلاقة والمناسبة بينها وبين المجاز الثّاني من دون حاجة إلى توسيط المجاز الأوّل.

وأوضح من الكلّ كلام الخرّيت الماهر البارع أو المظفّر المطرّزي في شرح «**مقامات الحريري**» في شرح لفظ المقامة ما نصّ عبارته: المقامة هي المفعلة من المقام يقال: مقام ومقامة كمكان ومكانة ومنزل ومنزلة، وهما في الأَصل إسمان لموضع القيام إلاّ أنّهم اتّسعوا فيها فاستعملوها إستعمال المكان والمجلس، قال الله تعالى:

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقال ابن علس:

وَكالمسك ترب مقاماتهم وَتربُ قبورهم أطيَبُ

ثم كثر حتّى سمّوا الجالسين في المقامة مقامة كما سمّوهم مجلساً قال زهير:

وفيهم مقامات حسان وجُوهُهم.

وقال مهلهل:

نبئت أنَّ النّارَ بعدَك أوقُدَت وَاستب بعدك يا كليب المجلس

إلى أن قيل لما يقام فيها من خطبة أو عظة أو ما أشبهها: مقامة كما يقال له: المجلس يقال: مقامات الخطباء ومجالس القصّاص، وهذا من باب إيقاعهم الشيء على ما يتّصل به ويتكثّر ملابسته إياه، أو يكون منه تسبّب ومن ذلك تسميتهم السّحاب سماء، قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ثم كثر حتّى قيل للمطر: سماء، قال الشّاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناهُ وَإن كانوا غضاباً

وقالوا: ما زلنا نطا السّماء حتّى أتيناكم.

ومنه الحياء في قول الرّاعي:

فقلت لرَب النّاب خذها ثنية وناب عليها مثل نابك في الحيا

وذلك انّ الحياء إسم للمطر لأنّه يحيي البلاد والعباد، ثمّ سمّوا النّبات حيّاً لأنّه يكون بالمطر، ثم اتّسعوا فسمّوا الشّحم والسّمن حيّاً، لأنّهما يكونان من النّبات، وهو الذي أراده الرّاعي في قوله: وهذا باب واسع المجال طويل الأذيال، انتهى كلامه.

ومثله أبو البقاء قال عند بيان معنى الحقيقة والمجاز ما عبارته: ولفظة الحقيقة مجاز في معناها فإنّها فعيلة مأخوذة من الحقّ، والحقّ بحسب اللّغة الثّابت، لأنّه نقيض الباطل المعدوم، والفعيل المشتق من الحقّ إن كان بمعنى الفاعل كان معناه الثّابت، وإن كان بمعنى المفعول كان معناه المثبت، نقل من الأمر الذي له ثبات إلى العقد المطابق للواقع، لأنّه أولى بالوجود من العقد الغير المطابق، ثم نقل من العقد إلى القول المطابق لهذه العلّة بعينها، ثم نقل إلى المعنى المصطلح وهو اللفظ المستعمل فيما وضع له في إصطلاح التخاطب، والتّاء الدّاخلة على الفعيل المشتق من الحقّ لنقل اللّفظ من الوصفية إلى الإسميّة الصّرفة، قال: وكذا المجاز مجاز في معناه فإنه مفعل من الجواز بمعنى العبور، وهو حقيقة في الأجسام، واللفظ عرض يمتنع عليه الإنتقال من محل إلى آخر، وبناء مفعل مشترك بين المصدر والمكان، لكونه حقيقة فيهما، ثم نقل من المصدر أو المكان إلى الفاعل الذي هو الجائز، ثم من الفاعل إلى المعنى المصطلح، وهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له يناسب المعنى المصطلح بحسب التخاطب، انتهى، فافهم واغتنم.

المسألة السابعة

إعلم أن المجاز بالذّات لا يدخل إلاّ على أسماء الأجناس، ونعني بها ما وضع لمفهوم غير مشخص ولا يتعلق معناه بغيره، سواء كان إسم عين كأسد ورجل، أو إسم معنى كقتل وقيام وقعود، وأمّا غيرها فلا يتّصف بالمجاز بالذّات.

أمّا الأعلام الشّخصية، فلأنّ المجاز مشروط بالعلاقة بين الأصل والفرع، وليست موجودة في الأعلام ولذلك قالوا في باب الاستعارة: إنّها لا تكون علماً من حيث إنها تقتضي إدخال المشبه في جنس المشبّه به بجعل أفراده قسمين: متعارفاً وغير متعارف، ولا يمكن ذلك في العلم، لأنّه يقتضي التشخّص ومنع الاشتراك المنافي للجنسيّة المعتبرة في الإستعارة، نعم لو تضمّن العلم نوع جنسيّة تأويلاً بسبب اشتهاره في وصف من الأوصاف، يجوز حينئذٍ إستعارته، كحاتم المتضمّن للإتّصاف بالجود، فإنّه يجوز أن يشبّه شخص بحاتم في جوده ويتأوّل في حاتم فيجعل كأنّه موضوع للجواد المطلق، سواء كان ذلك الفرد المعروف أو غيره، فيكون اطلاقه على الفرد المتعارف حقيقة، وعلى غيره استعارة، كما تقول: رأيت اليوم حاتماً.

وأمّا الأسماء المشتقّة من الفاعل والمفعول والصّفة المشبّهة والزّمان والمكان والآلة فإنّما يدخل فيها المجاز باعتبار المشتقّ منها، وكذلك الأفعال، ومن هنا قالوا: إنّ الاستعارة في الأفعال وسائر المشتقات تبعيّة، كما في قولهم نطقت الحال بكذا، فإنّه استعير النّطق أوّلاً للدّلالة بعلاقة المشابهة في إيضاح المعنى وإيصاله إلى الذّهن، أو تجوّز به عنها بعلاقة

اللزوم، إذ الدلالة لازمة للنطق فيكون مجازاً مرسلاً، ثم اشتق منه نطقت بمعنى دلت، فيكون الاستعارة والمجازية في المصدر أصليّة، وفي الفعل تبعيّة، وإن كان لا تجوز في الفعل بالذّات، لبقاء النّسبة على حالها، وقرينة المجاز هو الفاعل، إذ الحال ليس من شأنها النطق، بل الدلالة، ويجري ما ذكرناه كله في قولنا: الحال ناطقة بكذا، وهكذا سائر المشتقّات.

وأمّا الحروف فلما لم تكن معانيها مستقلة بالمفهوميّة لم يدخلها الحقيقة والمجاز بالذّات، لأنّهما من أوصاف المعاني المستقلة وعوارضها، وإنّما تدخلان فيها باعتبار متعلقاتها، والمراد بمتعلقاتها ما للحروف تعلق بها باعتبار معانيها.

قال صاحب **(المفتاح)**: المراد بمتعلقات معاني الحروف ما يعبّر بها عنها عند تفسير معانيها، مثل قولنا: «من»، معناها ابتداء الغاية و«في»، ومعناها الظرفية و«كي»، معناها الغرض، فهذه ليست معاني الحروف، وإلاّ لما كانت حروفاً بل أسماء، لأنّ الاسميّة والحرفيّة، إنّما هي باعتبار المعنى، وإنّما هي متعلقات لمعانيها أي إذا أفادت هذه الحروف معاني رجعت تلك المعاني إلى هذه بنوع استلزام، فالمقصود أنّ الحروف تتّصف بالحقيقيّة والمجازية باعتبار متعلقات معانيها تبعاً إياها، فقولنا: زيد في الدّار حقيقة، وقولنا: زيد في نعمة، مجاز، وكذلك: ضربته للتّأديب حقيقة، وقوله تعالى:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

مجاز، حيث شبّه ترتب كونه عدوّ أو حزناً على الالتقاط بترتب العلة الغائية للالتقاط عليه، ثم استعمل في المشبّه اللام الموضوعة للدّلالة على ترتب العلة الغائية الذي هو المشبّه به، فجرت الاستعارة أولاً في العلية والغرضيّة، وبتبعيّتها في اللام كما مرّ في: نطقت الحال، فاللام إستعارة لما يشبه العلية.

خاتمة لمباحث الحقيقة والمجاز

إعلم أنّك بعدما احطت خبراً بما قدّمناه في تعريف الحقيقة، والمجاز تعرف جواز الواسطة بينهما نظراً إلى أنّهما لما كانا أمرين وجوديين غير مجتمعين في محل واحد من جهة واحدة ولم يكونا متضايفين، يكون التّقابل بينهما تقابل التّضاد، ومقتضاه جواز خلوّ المحلّ عن الضدّين كما لا يخفى، فعلى هذا يجوز عدم اتّصاف اللفظ بشيء من الحقيقة والمجاز بلا إشكال، وقد اشتهر التّمثيل لذلك في كلام الأصوليّين باللفظ قبل أن يكون مستعملاً في الموضوع له وغيره، فإنه لا يكون حقيقة ولا مجازاً لظهور اعتبار الاستعمال في حدّيهما.

قال بعض المحققين: إنّ المراد من ذلك أنّ اللفظ حين الوضع قبل أن يكون مستعملاً ليس بحقيقة ولا مجاز، لا أنّ المستعمل حال عدم الاستعمال خارج عنهما بل هو حينئذٍ

حقيقة ومجاز حقيقة بالنّسبة إلى ما وضع له واستعمل فيه، مجاز بالنسبة إلى ما استعمل فيه ولم يوضع له، ألست تقول في الأسد إنّه حقيقة في الحيوان المفترس مجاز في الرّجل الشجاع وهكذا في كلّ لفظ لفظ، فعلى هذا فما من حقيقة ولا مجاز إلا وقد كان قبل الاستعمال واسطة انتهى.

وربّما عدّ منها الألفاظ التي يقصد بها أنفسها ولا معانيها الموضوعة لها، كما يقال: ضرب فعل ماض و«من» حرف جرّ و«أين» حرف استفهام، فإنّها ليست بحقيقة ولا مجاز، لانتفاء الوضع والتّأويل فيها، بل إنّما أطلق اللفظ ليحضر في ذهن السّامع ثم يحكم عليه بشيء من لوازمه.

قال السّيد المحقق الكاظمي في شرح (**الوافية**) فهو بهذا الاستعمال لا يتّصف باسميّة ولا فعليّة ولا إفراد ولا تركيب ولا حقيقة ولا مجاز، لأخذ المعنى في ذلك كله، اه.

وربّما يعدّ منها الأعلام الشّخصيّة كما عده العلامية الحلي (قده) في (**النّهاية**)، والمحقق الكاظمي والأمدي وربّما حكى عن الرّازي والبيضاوي وغيرهما، واستدلوا عليه بأنّ الحقيقة إنّما يكون عند استعمال اللفظ فيما وضع له أوّلاً، والمجاز في غير ما وضع له أولاً، وذلك يستدعي كون الإسم الحقيقي والمجازي موضوعاً في وضع اللغة لشيء قبل هذا الاستعمال، وأسماء الأعلام ليست كذلك فإن مستعملها لم يستعملها فيما وضعها أهل اللغة له أوّلاً، ولا في غيره، لأنّها ليس لها وضع سابق، مضافاً إلى أنّ مستعملها لم يلاحظ في مسمّياتها علاقتها لمسمّياتها اللغوية، فلا تتّصف بشيء من الحقيقية والمجازية.

أقول: والانصاف أن ذلك لا يخلو عن إشكال، لأن مقتضى حصرهم الأقسام الحقيقة في الثّلاثة المشهورة ـ أعني اللغوية والشرعيّة والعرفية ـ وإن كان يفيد خروجها عنها كخروجها عن المجاز.

أما الشرعية: فواضح. **وأما اللغوية**: فلأن واضعها واضع اللغة ومعلوم أنّ الأعلام ليست كذلك، إذ لكلّ منها واضع مخصوص، على أنّ الحقيقة اللغوية إنّما وضعها واضع اللغة لتأليف محاورات أهل اللغة، ولا يختصّ بأُناس دون أناس، وهذه ليست كذلك، مع أنّها لا تختصّ بلغة دون لغة ولا تزال تتجدّد.

وأمّا العرفية العامة فلأنّها بالاشتهار والتعيّن والإعلام بالتشخيص والتعيين والعرفية ليس لها واضع معيّن بخلاف الإعلام.

وأما العرفية: الخاصّة فلتصريحهم بأنّ الوضع فيها من قوم أو فريق يشتركون في فنّ أو صنعة، والأعلام ليست كذلك، لكون الوضع فيها من واحد غالباً مضافاً إلى أنّ العرفية الخاصّة

إنّما تكون حقيقة لو كان المستعمل لها من أهل ذلك الاصطلاح، فإن الفعل مثلاً إذا استعمله غير النّحاة فيما يقابل الاسم والحرف يكون مجازاً، لكونه مستعملاً في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب، بخلاف الأعلام فإنّها لا تختص باصطلاح دون اصطلاح، ولكنّها مع ذلك كله لا يبعد القول بكونها حقيقة لصدق حدّه عليها، فلا بدّ أن تجعل قسماً رابعاً وتسمّى بالحقيقة العلميّة.

ولذلك أورد العميدي في «**شرح التهذيب**» على القائلين بالخروج بأن أكثر الأَعلام منقولة عن معان وضعها لها أهل اللغة، وما مثّل به وهو زيد وعمرو موضوعان لغة فإنّ زيداً مصدر زاد وعمراً مصدر عمر، وكونها مستعملة لا فيما وضعها له أهل اللغة ولا في غيره محال، لاستحالة ثبوت واسطة بين هذين القسمين.

قال: والحقّ إنّ الأَعلام بعد استعمالها حقائق بالنّظر إلى وضعها الجديد، وأمّا بالنّظر إلى اللغة فليس حقائق ولا مجازات وإن كانت منقولات عن معان وضعها لها أهل اللغة، لأن واضعها أعلاماً لم يستعملها في معانيها اللغوية، ولم يلاحظ في مسمّياتها علاقتها بالمسمّيات اللغوية، وقبل استعمالها ليست حقائق ولا مجازات فيما هي أعلام عليه مطلقاً انتهى.

مع أنّه يمكن ادخالها في العرفيّة الخاصّة، إذ الظاهر أنّه لا يعتبر فيها صدور الوضع عن قوم أو طائفة كما توهمه بعضهم، بل يكفي صدوره من بعض ولو واحداً، كيف والحقيقة الشّرعيّة على القول بثبوتها ليست إلاّ من العرفية الخاصّة، مع أنّ واضعها ليس إلاّ الشّارع.

وأمّا القول بأنّ العرفيّة الخاصّة إنّما تكون حقيقة إذا كان المستعمل من أهل الاصطلاح فممنوع، بل الظاهر أنّه إذا استعمله في كلام أهل ذلك الاصطلاح غيرهم ممن تابعهم في ملاحظة ذلك الوضع كان حقيقة كما هو الشّأن في جميع الحقائق، من غير فرق هذا كله في الأعلام الشّخصيّة، وأمّا الأعلام المغلبة في العرف العام كالبيت والنّجم، أو في العرف الخاصّ كالكتاب لكتاب سيبويه فمن العرفيّة العامّة والخاصّة بلا ريب، كما أن الأعلام الجنسيّة كأُسامة وثعالة لا كلام في أنّها من الحقائق اللغوية.

الفصل الثالث

في المشترك وفيه مسائل:

المسألة الأولى

في تعريفه، وقد عرّف بوجوه أسدّها ما في (**النهاية**) قال: هو اللفظ المتناول لعدّة معانٍ من حيث هي كذلك بطريق الحقيقة على السّواء، فبالقيد الأول خرجت الألفاظ المتباينة،

وبالثاني العلم، وبالثالث المتواطئ، وبالرّابع ما تناوله للبعض حقيقة وللبعض مجازاً، وبالخامس المنقول، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: والظاهر أنه لا حاجة في إخراج المتواطئ إلى قيد الحيثيّة، لكفاية القيد الثاني مؤنته، إذ المتواطئ إنّما وضع لمعنى واحد كلي متناول لأفراد عديدة مندرجة تحته، وليس له معانٍ متعددة حتّى يدخل في هذا القيد ويخرج بالقيد الثالث، اللهمّ إلاّ أن يراد بالمعاني المتعددة تلك الأفراد العديدة ويكون المقصود حينئذٍ أن المتواطئ لفظ متناول لأفراد متعددة لكن تناوله لها ليس من حيث إنّها متعددة بل من حيث اندراجها تحت مفهومه العام، وهو مع ما فيه من التكلف كما ترى موجب لانتقاض الحدّ بالتّثنية والجمع كرجلين ورجال، فلا بدّ على ذلك أن يضمّ إليه ما يدلّ على كون التناول على سبيل البدل، وبعد اللتيا والّتي فالأولى أن يعرّف بأنّه: اللفظ الواحد الموضوع لمعان متعددة من غير ملاحظة النّسبة في الوضع الثّاني مع الوضع الأوّل ولا اشتهار فيه مع هجر الأوّل. فيخرج بالقيد الأول الألفاظ المتباينة، وبالقيد الثّاني العلم والمتواطئ فإنّ معناهما واحد وإن كان للثاني أفراد عديدة، واللفظ الذي حقيقة في معنى ومجاز في آخر كلفظ الأسد، وبالقيد الثالث المنقول، وبالرّابع المرتجل، ويمكن الاستغناء بالرّابع عن الثالث، لأنّ المعنى الأوّل فيه أيضاً مهجور كما أنّ الثّاني مشهور فافهم جيداً.

المسألة الثانية

اختلفوا في إمكان الاشتراك وعدمه والحق هو الإمكان، لأنّه واقع فيكون ممكناً، أمّا الكبرى فظاهر، وأمّا الصّغرى فلما سنبينة في المسألة الآتية، وأيضاً لا امتناع في أن يضع قوم لفظاً لمعنى ثم يضعه آخرون لآخر، ويشيع الوضعان فيحصل الاشتراك، هذا فيما لو تعدد الواضعون، وأمّا في صورة الاتحاد فربّما يكون غرض المخاطِب ـ بالكسر ـ إعلام المخاطب ما في ضميره على سبيل الاجمال كما يتعلق غرضه بالاعلام على سبيل التّفصيل، فاقتضت الحكمة وضع المشترك طلباً لفائدة العلم الاجمالي كما اقتضت وضع المنفرد طلباً لفائدة العلم التّفصيلي.

واحتجّ القائلون بالامتناع بأنّه مع ذكر القرينة يكون تطويلاً بلا طائل، وإلاّ كان مخلاً بالتّفاهم المقصود من وضع الألفاظ، توضيحه: انّ القصد بالوضع إعلام ما في الضمير وهو إنّما يحصل لو كان اللفظ الواحد له معنى واحد، ومع تعدد المعاني لا يفهم المخاطب فيختل الفائدة.

وفيه: انّا لا نسلم اختلال التّفاهم والعراء عن الفائدة مع الخلو عن القرينة، لما مرّ من أنّه ربّما يكون الغرض من إلقاء الكلام هو الإعلام على سبيل الاجمال دون التّفصيل، فلا ينتفي

الفائدة في إطلاقه رأساً، ولا نسلم استلزام القرينة التطويل بلا طائل، إذ ربّما يتعلق للمتكلم غرض بذلك، كأن تكون القرينة معلومة عند من يطلب المتكلم إفهامه بالخطاب مجهولة عند غيره من السّامعين الذين لا يريد إفهامهم وهو واضح.

فقد ثبت منه ضعف القول بالامتناع، وأضعف منه ما حكي عن شرذمة من القول بالوجوب، مستدلاً بما وَهْنه أبين ممّا مرّ، نعم قد يقال: بالوجوب بمعنى كون الاشتراك مقتضي الحكمة لقضائها بوجود المجملات في اللغة نظراً إلى مسيس الحاجة إليها في بعض الأحوال، ولما فيه من فوائد أخر لفظيّة أو معنويّة ولا بأس به.

المسألة الثالثة

اختلف المجوّزون للاشتراك في وقوعه والحقّ هو الوقوع، لنا أنّ القرء موضوع للطهر والحيض، واللون للأبيض والأسود معاً على البدل من غير ترجيح، ويدل عليه أن المخاطَب إذا سمعه يبقى متردّداً ولم يسبق ذهنه إلى أحدهما، ولا إليهما فكان مشتركاً إذ لو كان حقيقة في أحدهما مجازاً في الآخر أو متواطئاً لم يكن له تردّد.

احتج المانع بما تقدّم من اختلال الفهم، وما يدّعي كونه من هذا القبيل فهو إمّا متواطء أو حقيقة ومجاز كالعين، فإنّه وضع أوّلاً للجارحة المخصوصة، ثم اطلق مجازاً على الدّينار بعلاقة الصفاء والعزة، ثم على الشمس بعلاقة الصفاء، ثم على الماء بتلك العلاقة وهكذا. وجوابه يعلم ممّا مرّ مضافاً إلى التعسّف والتكليف في تأويل الواقع بغيره، لعدم الدّاعي إليه، وعدم وجود العلاقة المعتبرة في أكثر الموارد، وعلى تقدير وجودها كما في المثال المذكور على تقدير تسليمها فهو مستلزم لسبك المجاز عن المجاز، وقد علمت فيما سبق إنكار الأكثر له، والظاهر أنّ القائل بجوازه لا أراهم يجوّزونه بهذا المقدار، لأنّ القول بجواز سبك سبعين مجازاً ممّا يشمئز منه الطباع، وغاية ما ثبت من الأدلة في مقامه هو جواز سبك المجاز عن المجاز، وأمّا سبك المجاز عن المجاز عن المجاز وهكذا فلم يدل عليه دليل، ومع عدمه فيحكم بالعدم بمقتضى توقيفيّة اللغات واحتياجها إلى الإذن والتّرخيص من صاحب اللغة.

المسألة الرابعة

بعد ما قلناه بثبوت الاشتراك في اللغة هل هو ثابت في القرآن؟ الحق ذلك لقوله سبحانه:

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ، ووَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧].

أي أقبل وأدبر. وخالف فيه شاذّ مستدلاً بمثل ما مرّ من أن المقصود منه إن كان هو الإفهام فإمّا أن يكون مع القرينة المتعينة للمراد أم لا، والأوّل تطويل بلا فائدة لأنّه يكفي أداء المقصود والتّعبير عنه بمنفرد، والثّاني تكليف بما لا يطاق إذ طلب فهم معنى من لفظ يدلّ عليه وعلى غيره بالسّوية تكليف بالمحال، وإن كان المقصود منه عدم الافهام كان عبثاً قبيحاً على الحكيم المتعال.

والجواب: باختيار الشقّ الأوّل ومنع لزوم التطويل بلا فائدة، فإن ذكر الشيء مجملاً ثم مبيّناً يكون أوقع في النفس كما تقرّر في **(البلاغة)**، ثم باختيار الشّق الثّاني ومنع لزوم التكليف بما لا يطاق، لأنّه إنّما يلزم لو كان مكلفاً بالمعرفة التّفصيليّة لا مطلقاً، كما في أسماء الأجناس، هذا فيما لو كان المشترك الغير المبيّن متعلقاً بغير الأحكام، وإذا كان متعلقاً بها فيفيد استعداد المكلف للامتثال إذا بين يطيع بالعزم على الامتثال ويعصي بالعزم على خلافه، كذا قيل، ولكنّه مبني على المحازاة بالعزم مثوبة وعقوبة، وفي بعض الأخبار دلالة عليه إلاّ أنه بعد محل كلام ويأتي تحقيقه في شرح الخطبة الشقشقية.

المسألة الخامسة

اختلف الأصوليّون في جواز استعمال اللّفظ المشترك في أكثر من معنى واحد، وبعبارة أخرى: اختلفوا في أنه هل يجوز إرادة أكثر من معنى من معاني المشترك في إطلاق واحد بأن يقال: رأيت عيناً ويراد عين جارية وعين باكية، أو يقال: القرءُ من صفات النّساء ويراد أنّ الطهر والحيض من صفاتهنّ فذهب قوم إلى الجواز منهم العلاّمة الحلي قدس الله روحه والشّارح البحراني وصاحب المعالم وسلطان العلماء وحكي عن البيضاوي والعبري وصاحب **«جمع الجوامع»** ونسبه العلاّمة في **(النهاية)** إلى الشّافعي والقاضي أبي بكر والجبائي والقاضي عبد الجبار والسّيد المرتضى، وقال آخرون: بالعدم بمعنى أنه لا يجوز مطلقاً أي مفرداً وتثنية وجمعاً لا نفياً ولا إثباتاً ولا حقيقة ولا مجازاً. وهو الحقّ وإليه ذهب المحقّقون منهم الفاضل القمي وصاحب الفصول وشريف العلماء والسّيد إبراهيم القزويني وشيخنا السّيد السّند السّيد حسين قدس الله رمسه، وحكي عن أبي هاشم والكرخي وأبي حنيفة والغزالي وأبي الحسين وأبي عبد الله البصريّين وفخر الدّين الرّازي.

ثم اختلف المجوّزون على أقوال: **أحدها**: أنّه بطريق الحقيقة وهو مقتضى إطلاق الأكثر، و**(ثانيها)** أنّه بطريق المجاز وهو اختيار العلاّمة في **(التهذيب)** والشارح البحراني، **وثالثها**: كونه مجازاً في المفرد وحقيقة في التثنية والجمع وهو مختار صاحب **(المعالم)**، ويظهر من العلاّمة في **(النهاية)** جنوحه إليه حيث فرق بين المفرد والجمع مع جريان دليله الذي استدل به للجمع في التثنية حسبما تعرفه بعد ذلك ان شاء الله.

وأما التّفصيل بين النّفي والإثبات بالجواز في الأوّل والمنع في الثّاني فهو المحكي في **(النهاية)** وغيره عن بعض الأصوليّين.

لنا على عدم جوازه في المفرد مطلقاً حقيقة أن الحقيقة حسبما عرفت سابقاً عبارة عن استعمال اللّفظ فيما وضع له أي فيما عيّن وخصّص اللّفظ بإزائه، فإذا وضع لفظ لمعنيين مثلاً فمقتضى كلّ وضع أن لا يستعمل إلاّ في المعنى الذي وضع اللّفظ بإزائه فإذا أُطلق اللّفظ وأريد أحدهما صحّ الاستعمال على ما هو قضيّة أحد الوضعين وإن أطلق وأريد به كلاهما لم يصحّ، لأنّ قضيّة كلّ من الوضعين أن لا يراد منه المعنى الآخر، وبعبارة أخرى: الاستعمال إنّما هو تابع للوضع، والواضع إنّما وضع اللفظ لمعنى ثم وضعه هو أو غيره لمعنى آخر فاستعماله فيهما كليهما خلاف وضعه.

وربّما يستدل أيضاً بأن عدم الوجدان دليل على عدم الوجود فيما كان مظنّة له، فإنّ الاستعمال فيهما لو كان جائزاً لوجد في نظم أو نثر أو كتاب أو سنّة أو خطاب أو محاورة، ولا أقل من مثال واحد، فحيث لم يوجد بعد الاستقراء التّام حصل منه الظن القوي بعدم الجواز، وهو حجّة في مباحث الألفاظ.

لا يقال: هذا كله مسلم في الإثبات، وأمّا النّفي فلا، لظهور أن النكرة المنفيّة مفيدة للعموم، فتشمل المعنيين فصاعداً.

لأنا نقول: إنّ النّفي متوجه إلى الإثبات فإن أريد من المثبت معنى واحد يفيد النفي عموم نفي إفراد ذلك المعنى الواحد، وإن أريد معنى متعدد يفيد عموم نفي إفراد المتعدد، وإذا ثبت أن المشترك معناه أحد المعاني لا المعنيان لم يكن أثر النّفي راجعاً إلاّ إليه.

وبعبارة أخرى: العموم الذي يفيده النّفي غير العموم المتنازع فيه إذ ما يفيده هو عموم جميع مصاديق مسمّى واحد، والمتنازع فيه هو جميع المسمّيات وبينهما بون بعيد.

ولنا على عدم جوازه في المفرد مجازاً انتفاء العلاقة المعتبرة المصحّحة للتجوّز، ويتضح ذلك بإبطال ما زعموه من العلاقة حسبما سنشير إليه إن شاء الله.

ولنا على عدم جوازه في التثنية والجمع حقيقة أن المتبادر المنساق إلى الأذهان من التثنية والجمع مثلاً هو فردان أو أفراد من ماهيّة واحدة، فإذا سمعنا قول القائل رجلان أو عالمان مثلاً تبادر إلى أذهاننا فردان من ماهيّة المفرد المذكر العاقل المتّصف بالرجولية أو العلم، وأمّا كون الفردين من ماهيّتين باعتبار اتفاقهما في مجرّد الاسم فغير متبادر، بل المتبادر غيره، وقد مرّ أن التبادر علامة الحقيقة وتبادر الغير علامة المجاز فعلى هذا يكون قولنا: عينان حقيقة في فردين من ماهية واحدة.

لا يقال: إن التّبادر في المثال المذكور من جهة كون الوضع فيه واحداً.

لأنا نقول: نفرض الكلام فيما تعدّد فيه الوضع مثل مسلمين، فإنّ لفظ مسلم له وضعان علميّ ووصفيّ ومع ذلك فالمتبادر عند إطلاق لفظ مسلمين فردان من الماهيّة الواحدة، أي الشّخصان المتّصفان بالإسلام، لا المسمّيان بمسلم، وبذلك ظهر فساد ما توهّمه صاحب **(المعالم)** من أن الظاهر اعتبار الاتفاق في اللفظ دون المعنى في المفردات، مضافاً إلى أنّ الأمر في المقام دائر بين المجاز والاشتراك اللفظي لأن التثنية حقيقة في المتفقين في المعنى اتفاقاً، وليس قدر جامع بينه وبين المتّفقين في اللفظ يكون مناط الاستعمال، فلا بدّ إمّا من القول بكونها مشتركة بينهما بالاشتراك اللفظي، وإمّا من القول بكونها مجازاً في الثاني وحقيقة في الأوّل فقط، والمجاز خير من الاشتراك على ما برهن في **(الأصول)**، وبما ذكرنا يظهر الكلام في الجمع حرفاً بحرف.

ولنا على عدم جوازه فيهما مجازاً ما نبّه به بعض الأفاضل من أن ذلك إمّا بالتّصرف في مدلول المادة أعني المفرد وقد ظهر فساده فيما قدمنا، أو بالتّصرف في الأداة باستعمالها مجازاً في إفادة التعدّد في لفظ المفرد، فيزاد بحسب كلّ معنى أو في إفادته بالنّسبة إلى ما أريد من المادّة وما لم يرد منها، وكلاهما ممّا لا يساعد الطبع والاستعمال على جوازه، فإن معاني الحروف إنّما تعتور[1] على المعنى الذي أريد من مدخولها، دون لفظه أو معنى آخر لم يرد من مدخولها، ألا ترى انّ اللام مثلاً في قولك العين للإشارة إلى ما أريد من لفظ العين كالباصرة، ولا يصحّ أن يراد بها الإشارة إلى اللفظ أو إلى معنى آخر لم يقصد في الاستعمال كالجارية، وكذلك التّنوين في قولك: عين، وعلى هذا القياس بقية اللواحق.

وأمّا حجج سائر الأقوال وفسادها فتظهر بإيراد ما أورده الشّارح البحراني واتباعه بما يلوح عليه من وجوه النّظر.

فأقول: قال الشّارح بعدما ذكر الخلاف في المسألة:

حجّة المجوّزين من وجهين: **أحدهما**: أن الصّلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار، ثم إنّ الله تعالى أراد بهذه كِلَيْ معنييها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

الثاني: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

والسّجود هنا مشترك بين الخشوع، لأنّه هو المتصوّر من الملائكة وبين وضع الجبهة

(١) تعتور: تدل.

على الأرض في حق الناس، وبين شهادة الحال بالحاجة إلى الصّانع، لأنّه هو المتصوّر من الجمادات، ثم إنّ الله تعالى أراد كلّ معانيه في هذه الآية.

حجّة المانعين أنّ المجموع غير كلّ واحد واحد، فالواضع إذا وضع لفظاً لمعنيين على الانفراد فإمّا أن يضعه مع ذلك لمجموعهما أو لا يضعه، فإن لم يضعه له كان استعماله فيه استعمالاً للفظ في غير ما وضع له وإنّه غير جائز، وإن وضعه له فإذا استعمله فيه فإمّا أن يستعمله فيه لإفادته بانفراده فيكون ذلك استعمالاً للّفظ في أحد مفهوماته لا في كلها، وإن استعمله لإفادته مع إفادة الأفراد فهو محال، لأن استعماله لإفادة المجموع يستلزم عدم الاكتفاء بكلّ واحد من الأفراد واستعماله لإفادة الإفراد يستلزم الاكتفاء بكلّ واحد من الافراد والاكتفاء بكلّ واحد من الافراد، مع عدم الاكتفاء بكلّ واحد منها ممّا لا يجتمعان.

ثم قال الشارح: أقول: إن محل النّزاع في هذا البحث غير ملخّص، فإنه إن أريد أنّه يجوز استعماله في مدلولاته على الجمع مطابقة فليس بحقّ لما يلزم المستعمل له كذلك من التناقض في القصد إلى المجموع وإلى الأفراد، وإن أريد أنّه يجوز استعماله فيها على الجمع لإفادتها كيف اتفق فذلك جائز، إذ يصحّ استعماله في المجموع مطابقة مع دلالتها على الأفراد تضمّنا، وقول المانع إنه إذا لم يكن الواضع وضع اللفظ للمجموع كما وضعه للأفراد امتنع فيه، إن أراد به حقيقة فهو حقّ، وإن أراد أنّه يمتنع استعماله فيه مجازاً فهذا ممّا لا يقتضيه حجّته.

وأمّا حجج المجوّزين فضعيفة، **أما الأولى**: فلأن ضمير الجمع في قوله: يصلون، بمنزلة الضمائر المتعدّدة المقتضية للأفعال المتعددة التي يراد بكلّ واحد منها معنى غير ما يراد بالآخر، والتقدير، إن الله يصلي وملائكته تصلي.

وأما الثانية: فلأن العطوف المتعددة تستدعي تعدد الأفعال فتقدير قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي ويسجد مَنْ في الأرض، وكذا الباقي، والمراد بكلّ منها المعنى الذي تقتضيه القرينة، ثم لو سلمنا أنها استعملت في كلّ مفهوماتها لكنّه يكون مجازاً وإلاّ لزم التّناقض كما هو مذكور في حجّة المانعين، انتهى كلام الشّارح.

أقول: ويتوجه عليه وجوه من الكلام وضروب من الملام. **أحدها**: أن استدلال المجوزين على الجواز بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ﴾ الآية فيه: أنا لا نسلم أن الصّلاة هنا مستعملة في المعنيين، بل المراد بها معنى عام شامل للمعنيين من باب عموم الاشتراك وهو الاعتناء بإظهار الشرف والتعظيم كما فسّرها به الطبرسي والبيضاوي وغيرهما، فيكون معنى الآية: إنّ الله وملائكته يعتنون بإظهار شرف النبي ﷺ وتعظيمه، فلا داعي إلى حمل الصّلاة على المعنيين، مضافاً إلى إمكان أن يقال: بحذف الفعل بقرينة المذكور، والتقدير إن الله يصلي وملائكته يصلّون على حدّ قوله:

نحن بما عندنا وَأنتَ بما . عندَكَ راض وَالرأي مختلف

وأمّا استدلالهم بقوله: إنّ الله يسجد، ففيه أن المراد بالسّجود هنا هو المعنى الأخير الذي ذكروه أعني شهادة الحال بالافتقار إلى الصّانع، وهو معنى عام شامل لجميع الموجودات، فليس من باب الاستعمال في المعنيين أو المعاني.

فإن قلت: لو كان المراد به ذلك لا يكون وجه للتخصيص بكثير من النّاس، لظهور أن جميع النّاس وكلهم محتاجون إلى صانعهم كسائر المخلوقات.

قلنا: وإن كان جميع الناس مفتقرين إلى الصّانع بالافتقار الذاتي، خاضعين له بالخضوع التكويني إلاّ أن بعضهم لما كابروا بالظاهر وتمرّدوا وتكبّروا لا جرم لم يعبأ بهم وخصّ غيرهم بالذكر لمزيّتهم وشرفهم وخضوعهم ظاهراً وباطناً، وإظهارهم الحاجة والافتقار والذلّ بظاهرهم، مضافاً إلى باطنهم وإن اندرجوا مع غيرهم في عموم ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الثاني: أنّ استدلال المانعين على المنع بما أورده الشّارح، فيه انّا نختار الشق الأخير أعني استعماله لإفادة المجموع مع إفادة الإفراد، وقولهم: إنّ ذلك محال ممنوع، لأنّ محصّل ما ذكروه في وجه الاستحالة أنّ إرادة المجموع مع إرادة الأفراد مستلزم للتناقض، من حيث إن إرادة المجموع تقتضي عدم الاكتفاء بفرد من أفراده، وإرادة الأفراد تقتضي الاكتفاء بفرد من أفراده بها، وإرادة كلّ واحد من الأفراد مع عدم إرادة المجموع متناقضة، ويتوجه عليه أن محلّ النّزاع في هذا المبحث هو استعمال اللفظ في نفس المجموع لا المجموع من حيث المجموع، وعلى ذلك فالتّناقض ممنوع، لأنّ إرادة المجموع مستلزم لإرادة كلّ فرد فكيف يكون إرادة كلّ فرد متناقضة لإرادة المجموع، وكذلك إرادة كلّ واحد من الأفراد تقتضي الاكتفاء به لو لم يكن غيره مراداً أيضاً، وأمّا مع إرادته فلا.

الثّالث: أنّ ما حقّقه الشّارح في تلخيص محلّ النزاع وتحريره بقوله: وأقول: إنّ محلّ النّزاع - إلى قوله - فهذا ممّا لا يقتضيه حجّته، فيه أنّه غفلة عن محلّ النّزاع، لأنّ نزاعهم في هذه المسألة كما صرّح به غير واحد من الأصوليّين في استعمال اللّفظ في هذا المعنى وهذا المعنى، لا في مجموع المعنيين من حيث هو مجموع، والفرق بينهما ظاهر، لأنّ المتكلم في الأوّل يقصد كل واحد واحد قصداً أوّلاً وبالذّات، وفي الثّاني إنّما يقصد بالذّات والقصد الأوّل المجموع من حيث هو مجموع، وقصده كل واحد إنّما هو بالعرض والقصد الثاني، وعلى ذلك يكون دلالة اللفظ على كل واحد واحد من المعاني بالمطابقة لا بالتضمّن، نعم لو كان كلامهم في استعماله في المجموع من حيث هو مجموع لكان لما ذكره وجه. لأنّه يكون حينئذٍ اندراج أحد المعنيين في المجموع نظير اندراج الواحد في العشرة، إلاّ أنّك قد عرفت تنصيص جماعة من الأصوليّين على خروج الاستعمال المذكور من محلّ الكلام، وهو الموافق

للتّحقيق، ضرورة كون الاستعمال المذكور على تقدير صحّته مجازاً قطعاً كما ذهب إليه الشارح، مع أنّ من أرباب الأقوال من يقول بكون استعمال المشترك في أكثر من معنى حقيقة، ومحلّ النّزاع لا بدّ أن يتوارد عليه الأقوال.

فإن قلت: سلمنا خروج الاستعمال على النّهج المذكور أعني المجموع من حيث المجموع عن معقد الكلام، ولكن نريد أن تبيّن لنا مقتضى التّحقيق في جواز هذا الاستعمال وعدمه.

قلت: الحقّ فيه هو الجواز ولكن مجازاً في الجملة، وقد حكي عن الباغنوي دعواه الاتفاق على ذلك، أعني الجواز بالمجاز، ومنعه الفاضل القمي مطلقاً لانتفاء الوضع والعلاقة المصحّحة، ومنهم من منعه أيضاً مدّعياً عليه الوفاق وهو سهو بين، وقال صاحب **(الفصول)**: لا نزاع في جوازه في الجملة فمع ثبوت الوضع يكون حقيقة ومع انتفائه يتبع العلاقة فيجوز مجازاً، كلفظ الشمس المشترك بين الجرم والنّور إذا استعمل في المجموع حقيقة أو مجازاً.

أقول: وهذا هو الحقّ الذي لا ريب فيه، وحيث إنّ الوضع لم يثبت فالجواز إنما يكون مجازاً، وعليه فالمدار على العلاقة فقد توجد في بعض **(الموارد)** علاقة وحلاوة تفي بتجويز ذلك الاستعمال، كما في لفظ البيع، فإنّه موضوع في اللغة لكلّ واحد من النّقل والانتقال. قال في **(القاموس)**: باعه يبيعه بيعاً ومبيعاً والقياس مباعاً إذا باعه وإذا اشتراه ضدّ انتهى. وقد استعمل في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

في الإيجاب والقبول معاً، وعليه فيجوز استعمال القرء في مجموع الطهر والحيض، والعين في مجموع الذّهب والفضّة لعدم الاستهجان العرفي وحصول الرّبط بينهما في نظرهم، بخلاف اطلاق العين على مجموع الجاسوس وكفّة الميزان، أو الرّكبة والينبوع، لعدم الرّبط عرفاً بين الكلّ وكل واحد من المعنيين وهو واضح.

الرّابع: أنّ ما أورده الشّارح على استدلال المجوّزين بأن ضمير الجمع في قوله: يصلون بمنزلة الضّمائر المتعددة، فيه أنّه مبني على كون الجمع حقيقة في الآحاد المتّفقة في اللفظ لا المعنى أيضاً، وقد عرفت فساده وأنّ المتبادر من الجمع والتّثنية هو الإفراد أو الفردان من ماهيّة واحدة، مضافاً إلى أن أداة التّثنية والجمع إنّما تفيد التّعدد فيما لحقت به أعني المفرد، فإذا لم يكن المراد من المفرد إلاّ ماهيّة واحدة فلا تفيد الأداة إلاّ تعدد أفراد تلك الماهيّة، وقد وقع مثل هذا التوهم للعلاّمة الحلي (قده) في **(النهاية)** حيث قال: جوز بعض المانعين من إرادة المعنيين من المشترك المفرد إرادة ذلك في الجمع، أمّا في جانب الإثبات فكقوله: اعتدّي بالأقراء، ومنعه فخر الدّين الرّازي، لأنّ معناه اعتدي بقرء وقرء، وإذا لم يصحّ أن يفاد بلفظ القرء كلا

المدلولين لم يصحّ ذلك أيضاً في الجمع الذي لا يفيد إلاّ عين فائدة الأفراد وليس بجيّد.

أمّا أوّلاً فلأن الجمع تعديد الإفراد وكما جاز أن يراد به الكلّ مع الإفراد بأن يراد بالأوّل الطهر وبالثاني الحيض فكذا مع الجمع.

وأمّا ثانياً فلأن الجمع لا يستدعي اتحاد أفراده في المعنى بل في اللفظ، فإنّك لو رأيت عين الذّهب وعين الشّمس وعين الرّكبة وعين الماء صحّ أن تقول رأيت عيوناً، وكذا يجمعون الأعلام المفيدة للأشخاص المختلفة انتهى كلامه رفع مقامه. وقد ظهر لك فساده، وأمّا الأعلام الشّخصيّة فلا نسلم أن جمعها وتثنيتها باعتبار الاتفاق في اللفظ فقط، وإنّما هو باعتبار قصد التنكير في المفردات بتأويلها بالمسمّى كما صرّح به غير واحد من علماء الأدبيّة، فقولهم: زيدان وزيدون يريدون به المسمّين بهذا الاسم.

الخامس: أنّ ما ذكره في الاعتراض على الحجّة الثّانية للمجوّزين بقوله: ثم لو سلمنا أنّها استعملت في كلّ مفهوماتها لكنّه يكون مجازاً وإلا لزم التّناقض. فيه أولاً منع التّناقض حسبما عرفت سابقاً. وثانياً: منع صحّة ذلك المجاز لانتفاء العلاقة المصحّحة.

فإن قيل: إذا كان اللفظ موضوعاً لكلّ من المعنيين على الانفراد يكون استعماله فيهما معاً من قبيل استعمال اللفظ الموضوع للكلّ في الجزء حسبما صرّح به صاحب **(المعالم)** حيث قال في مقام الاستدلال على جواز الاستعمال في المفرد مجازاً ما لفظه: ولنا على كونه مجازاً في المفرد تبادر الوحدة منه عند إطلاق اللفظ فيفتقر في إرادة الجميع منه إلى الغاء قيد الوحدة فيصير اللفظ مستعملاً في خلاف موضوعه لكن وجود العلاقة المصحّحة للتجوّز أعني علاقة الكلّ والجزء يجوّزه وقال أيضاً في آخر كلامه: المراد أنّ اللفظ لما كان حقيقة في كلّ من المعنيين لكن مع قيد الوحدة كان استعماله في الجميع مقتضياً لإلغاء اعتبار قيد الوحدة كما ذكرناه في اختصاص اللفظ ببعض الموضوع له أعني ما سوى قيد الوحدة، فيكون من باب إطلاق اللفظ الموضوع للكلّ وإرادة الجزء.

قلت: كون اللفظ موضوعاً للمعنى منفرداً بأن يكون قيد الوحدة والانفراد جزء للموضوع له ممنوع، لأنّ المتبادر من اللفظ عند سماعه ليس إلا ذات المعنى لا هي مع الوحدة كما توهّمه صاحب **(المعالم)**، مضافاً إلى انّا نرى العارفين باللسان المتصدّين لترجمة الألفاظ لا يذكرون عند ترجمة اللفظ العربي باللغة العجميّة ونحوها إلا ما يفيد ذات المعنى في تلك اللغة من دون ذكر ما يفيد الوحدة، فلو كانت جزء الموضوع له لزم الاتيان بما يفيده، وليس فليس فافهم.

وبعد التنزل والمماشاة نقول: إنّ المعتبر في علاقة الكلّ والجزء حسبما صرّح به

الفاضل القمي أن يكون بين أجزاء الكلّ تركب حقيقي فحينئذٍ يجوز استعمال لفظ الكل في الجزء كاستعمال الأصابع في الأنامل في قوله تعالى:

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: ١٩] واليد في الأصابع إلى نصف الكفّ في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] وإلى الزّند في قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣].

ونحو ذلك، وأمّا إذا كان بين أجزائه تركب اعتباري كما فيما نحن فيه فلا يجوز الاستعمال لثبوت الرّخصة والإذن في الصّنف الأول من نوع هذه العلاقة وعدم ثبوتهما في الصّنف الثّاني منه، هذا كله مضافاً إلى أن غاية ما ثبت من الاستقراء هو أنّهم يستعملون اللّفظ مع وجود العلاقة والقرينة في معنى مجازي واحد ولم يثبت استعمالهم له في أكثر من واحد، فإذا شككنا في الجواز فالأصل العدم لتوقيفيّة اللّغات وتوظيفيّتها، ومجرّد عدم العلم بالمنع لا يكفي في التّجوز، بل لا بدّ من العلم أو الظن بالرّخصة هذا.

وإنّما أطنبت الكلام في هذه المسألة مع كونها من المسائل المعروفة المعنونة في الكتب الأصولية تنبيهاً على خطأ الشّارح البحراني حيث إنه (ره) عنون هذه المسألة في مقدّمات شرحه، وبعد اختياره جواز الاستعمال هنا جرى في الشّرح في غير مقام واحد على مقتضى ذلك الأصل الفاسد الذي أسّسه وشرح كثيراً من كلام الإمام ﷺ على ما بنى عليه هناك، وارشدك من خطاياه على موضع واحد، وهو ما ذكره في شرح قوله ﷺ: كلّ شيء خاضع له، وهو مفتتح الخطبة المائة والثّامنة وسنورد كلامه ثمّة وننبّه على هفوته إن شاء الله.

المطلب الثاني

في ذكر نبذ من فنون البلاغة ممّا هو كثير الدّوران في كلام الإمام ﷺ، وهو التّشبيه والاستعارة والكناية وفيه فصول ثلاثة.

الفصل الأول

في التّشبيه قال المطرزي: هو ركن من أركان البلاغة لإخراجه الخفي إلى الجليّ وإدنائه البعيد من القريب، وهو توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتّمثيل، لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له، وقال المبرد: لو قال قائل: هو أكثر كلام العرب لم يبعد، ولهم في تعريفه عبارات أظهرها ما عرّفه بها صاحب (**التلخيص**) وجماعة من أنّه الدّلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنى. ويعتمد البحث فيه على أركان أربعة:

الركن الأول

في طرفيه أعني المشبّه والمشبّه به، وهما إمّا محسوسان وإمّا معقولان، أو المشبّه

عقلي والمشبّه به حسّي، أو بالعكس، **أما الأول**: فكقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ يج (١٣) «كأنّي بمسجدكم هذا كجؤجؤ سفينة»، وقوله ﷺ في المخ لز (٢٧): «فطرت بعنانها واستبددت برهانها كالجبل لا تحركه القواصف، والمراد بالمحسوس ما كان مدركاً بإحدى الحواس الخمس أعني حسّ البصر والسّمع والشمّ والذّوق واللّمس».

وأما الثاني: فكقوله ﷺ في المخ ص ز (٩٧): «حتّى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، فإنّ المتشابهين هيهنا هو انتقامهم من بني أمية وانتقام العبد من مولاه، والانتقام معنى إضافيّ معقول، ووجه الشّبه ذلتهم وذلة العبد».

وأما الثالث: فكقوله ﷺ في المخ كج (٢٣): فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر، فإنّ نزول سائر الأمورات معقول، ونزول المطر محسوس، وقوله ﷺ في المخ مب (٢٣): فلم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الاناء، فإن البقيّة من الدنيا معقولة والبقيّة في الإناء محسوسة.

وأما الرابع: فكقول الشاعر:

كأن ابيضاض البدر من بعد غيمه   نجاة من البأسآء بعد وقوع

ومنع بعضهم من جواز هذا القسم نظراً إلى أنّ العلوم العقليّة مستفادة من الحواس ومنتهية إليها فكان المحسوس أصلاً لذلك المعقول فتشبيهه به يوجب جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً وهو غير جائز، ولذلك لو حاول محاول المبالغة في وصف الشمس في الظهور والمسك في الطيب فقال الشّمس كالحجّة أي في الظهور والمسك كخلق فلان أي في الطيب كان سخيفاً من القول. وردّ بأنّ الحواس وإن كانت طرقاً للعلم إلاّ أنّها ليست كلّ الطرق له، سلمنا ولكن نقول: الممنوع انما هو جعل الفرع أصلاً من جهة ما هو فرع لذلك الأصل لا مطلقاً، لجواز جعله أصلاً والأصل فرعاً في التشبيه والملاحظات الذهنيّة قال العلاّمة التّفتازاني: والوجه في تشبيه المحسوس بالمعقول أن يقدر المعقول محسوساً ويجعل كالأصل لذلك المحسوس على طريق المبالغة.

فرع: لما كان من المشبّه والمشبّه به ما لم يكن داخلاً في المحسوسات أي المدركات بالحواس الظاهرة ولا في المعقولات أي المدركات بالقوة العاقلة مثل الخياليّات والوهميّات والوجدانيات ألجأهم تقليل الأقسام إلى ارتكاب التجوّز والتّوسعة في المحسوس والمعقول لإدخال ما كانت خارجة، فقالوا: المراد بالحسي المدرك هو أو مادّته بإحدى الحواس الخمس فيعم الخيالي وهو المعدوم الذي فرض مجتمعاً من أمور كلّ واحد منها مدرك بالحسّ، كتشبيه محمّر الشقيق بأعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد، فإن الأعلام الياقوتيّة المنشورة على

الرّماح الزّبرجديّة غير مدركة بالحسّ، لعدم وجودها، والحسّ إنّما يدرك ما هو موجود في المادّة حاضر عند المدرك على هيئة مخصوصة، ولكن المادّة التي تركب ذلك المركب منها كالأعلام والياقوت والرّماح والزّبرجد، كل منها محسوس بحسّ البصر، وقالوا أيضاً المراد بالعقلي ما لا يكون مدركاً هو ولا مادته بإحدى الحواس الخمس المذكورة، فيدخل فيه الوهمي وهو ما لا يدرك بها ولكنّه لو أدرك لكان مدركاً بها، كتشبيه السّهام المسنونة الزرق بأنياب الأغوال، فإن أنياب الأغوال ممّا لا يدركه الحسّ، لعدم تحققها إلاّ أنّها لو أدركت لم تدرك إلاّ بحسّ البصر، وعليه قوله تعالى:

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥].

ويدخل فيه أيضاً الوجداني كالشبع والجوع والغضب والسرور واللذة والألم الحسيّين.

ثمّ التّشبيه باعتبار طرفيه ينقسم إلى أقسام أربعة:

أحدها: تشبيه المفرد بالمفرد وهو على أربعة أقسام: **الأول**: تشبيههما وهما غير مقيّدين، مثل تشبيه الخدّ بالورد، ومثل التشبيه الواقع في قوله ﷺ في المخ عز (٧٧): المنجم كالكاهن والكاهن كالسّاحر والساحر كالكافر، **الثاني**: تشبيه المفرد بالمفرد وهما مقيّدان، كقولهم لمن يفعل ما لا يفيد: هو كالرّاقم على الماء، فإن المشبّه هو الفاعل المقيّد بأن لا يحصل من فعله منفعة، والمشبّه به هو الرّاقم المقيّد بكون رقمه على الماء، لأنّ وجه الشّبه هو التّسوية بين الفعل وعدمه، وهو موقوف على اعتبار هذين القيدين، ومثله قوله ﷺ في المخ يط (١٩): فإنّ العالم العامل بغير علمه كالجاهل الذي لا يستفيق من جهله، هذا والتّقييد قد يكون بالوصف، وقد يكون بالإضافة، وقد يكون بالمفعول، وقد يكون بالحال، وقد يكون بغير ذلك كما هو غير خفيّ على المتتبّع. **الثالث**: تشبيه المفرد الغير المقيّد بالمفرد المقيّد، كقوله: والشّمس كالمرآة في كفّ الأشل.

فإن المشبّه وهو الشّمس غير مقيّد، والمشبّه به وهو المرآة مقيّد بكونه في كفّ الأشلّ، ومثله قوله ﷺ في المخ (و٦): «والله لا أكون كالضّبع تنام على طول اللّدم حتى يصل إليها طالبها».

الرابع: عكسه كتشبيه المرآة في كفّ الأشل بالشّمس.

ثانيها: تشبيه المفرد بالمركب كتشبيه الشّقيق بأعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد، ومثل التّشبيه في قوله ﷺ في المخ ع (٧٠): يا أهل العراق فإنّما أنتم كالمرأة الحامل حملت فلمّا أتمّت املصت ومات قيّمها وطال تأيّمها وورثها أبعدها.

ثالثها: تشبيه المركب بالمفرد كقول أبي تمام:

يا صاحبيّ تقصّيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصوّر
تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الرّبا فكأنّما هو مقمر

شبّه النّهار المشمس الذي اختلط به أزهار الرّبوات فنقّصت باخضرارها من ضوء الشّمس حتّى صارت تضرب إلى السّواد بالليل المقمر، فالمشبّه مركب والمشبه به مفرد.

رابعها: تشبيه المركب بالمركب كقوله ﷺ في المخ[1]: «والنّاس مجتمعين حولي كربيضة الغنم»، والرّبيضة الغنم برعاتها المجتمعة في مرابضها، لا يريد به تشبيه اجتماعهم على الانفراد بل الهيئة الخاصة الحاصلة من الاجتماع حوله وازدحامهم عليه بالهيئة الحاصلة للغنم المجتمعة مع راعيها في مرابضها. قال العلامة التّفتازاني: والفرق بين المركب والمفرد المقيّد أحوج شيء إلى التّأمل، فالمشبّه به في قوله: هو كالرّاقم على الماء، إنّما هو الرّاقم بشرط أن يكون رقمه على الماء، وفي تشبيه الشّقيق هو المجموع المركب من الأمور المتعددة بل الهيئة الحاصلة منها، انتهى[2].

ومحصّله أنّ ما كان شرطاً كان خارجاً، وما ليس بشرط ليس بخارج.

ثمّ تشبيه المركب بالمركب قد يكون بحيث يحسن تشبيه كلّ جزء من إجزاء أحد طرفيه، بما يقابله من الطرف الآخر كقوله:

وكان أجرام النّجوم طوالعاً درر نشرن على بساط أزرق

فإنّك لو قلت كانّ النّجوم دُرر وكأنّ السّماء بساط أزرق كان تشبيهاً مقبولاً حسناً، ولكن أين هو من المقصود من التشبيه، وهو الهيئة التي تملأ القلوب سروراً وعجباً من طلوع النّجوم مؤتلفة متفرقة صغارها وكبارها في أديم السّماء وهي زرقاء زرقتها الصّافية، ونظيره قوله ﷺ في المخ فه (٨٥): فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب، وقد لا يكون بهذه الحيثيّة مثل قوله:

كأنّما المرّيخ والمشتري قدّامه في شامخ الرّفعة
منصرف باللّيل عن دعوة قد اسرجت قدّامهُ شمعة

فإنّه لو قيل: المرّيخ كمنصرف من الدعوة لم يكن شيئاً.

(١) وهي الخطبة الثالثة حسب ترتيب حروف أبجد هوز.

(٢) مختصر المعاني: ٢٠٥.

تقسيم آخر

وينقسم أيضاً باعتبار تعدد الطرفين وعدمه إلى أقسام أربعة أخرى **أحدها**: أن يتعدد طرفه الأوّل أعني المشبّه، ويسمّى تشبيه التّسوية كقول الشاعر:

صدغ الحبيب وحالي كلاهما كالليالي وثغره في صفآء وادمعي كاللئالي

ثانيها: أن يتعدّد طرفه الثّاني أعني المشبّه به ويسمّى تشبيه الجمع كقول الصاحب:

اتتني بالأمس أبياته تعلل روحي بروح الجنان

كبرد الشّباب وبرد الشّراب وظل الأمان ونيل الأماني

وعهد الصّبي ونسيم الصّباء وصفو الدّنان ورجع القيان

ثالثها: أن يتعدد الطرفان كلاهما وهو على قسمين: **أحدهما**: أن يؤتى بالمشبهات أوّلاً بطريق العطف أو غيره ثم بالمشبّه به، ويسمّى بالملفوف مثل قول امرء القيس:

كانّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

ثانيهما: أن يؤتي بمشبّه ومشبّه به ثم آخر وآخر ويسمّى المفروق كقول الشاعر:

الخدّ ورد الصّدغ غالية والرّيق خمر والثّغر من بَرَد

الركن الثاني

في وجه التّشبيه وهو المعنى الذي قصد اشتراك الطرفين فيه بمعنى أن يكون لذلك المعنى مزيد اختصاص بهما وقصد بيان اشتراكهما فيه، سواء كان ذلك الاشتراك تحقيقاً بأن يكون ذلك المعنى المشترك ثابتاً فيهما على التحقيق كالشجاعة في قولك زيد كالأسد، وسوء الخلق في قوله ﷺ في المخ صب (٩٢): «لتجدن بني أُميّة لكم أرباب سوء بعدي كالنّاب الضروس» والنّاب النّاقة المسنّة، والضّروس سيئة الخلق، أو تخييلاً بأن لا يوجد ذلك المعنى في أحد الطرفين أو كليهما إلاّ على سبيل التخييل والتأويل مثل قوله ﷺ في المخ ق (١٠١): «فتن كقطع الليل المظلم» فإنّ ما به التشبيه وهو الظلمة غير موجود في المشبّه إلاّ تخييلاً، وذلك لأن الفتنة لجعلها الواقع فيها والمبتلي بها كمن يمشي في الظلمة لا يهتدي الطريق ولا يأمن من أن ينال مكروهاً خيّل إنّها شيء لها ظلام كقطع الليل فصحّ التّشبيه، وعكسه قول الشاعر:

أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحرّ كيف انصاع منطلقاً

فانهض بنار إلى فحم كأنّهما في العين ظلم وانصاف قد اتّفقا

فإنّه لما كان العدل والانصاف من شؤون الحقّ الذي يوصف بالنّور ويقال إنّه منير واضح فيستعار لهما صفة الأجسام المنيرة، وكان الظلم خلاف ذلك، ويستعار له صفة الأجسام المسودة المظلمة خيّلهما شيئين لهما إنارة وإظلام، فشبّه النّار والفحم بهما مجتمعين، فوجه الشّبه غير موجود في المشبّه به إلاّ تخييلاً، ومثله قول آخر:

وأرض كأخلاق الكرام قطعتها وقد كحل اللّيل السّماك فأبصرا

حيث تخيّل أخلاق الكرام شيئاً له سعة وجعله أصلاً فيها فشبّه الأرض الواسعة بها.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن وجه الشّبه ينقسم إلى أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة وينقسم التّشبيه أيضاً باعتبار ذلك الاختلاف في وجه الشبه.

التقسيم الأول

أنّ وجه الشّبه إمّا غير خارج عن حقيقة الطرفين بأن يكون تمام ماهيّتهما النّوعيّة أو جنساً لهما أو فصلاً، مثل أن يقال: هذا القميص مثل ذلك في كونهما كرباساً أو ثوباً أو من الكتان، وإمّا خارج قائم بهما، وعلى الثّاني فإمّا أن يكون صفة حقيقيّة أي هيئة متقرّرة في الذّات متمكّنة فيها، أو إضافيّة، والأوّل إمّا كيفيّة جسمانية مختصّة بالأجسام مدركة بالحسّ، أو نفسانية مختصّة بذوات الأنفس مدركة بالعقل، والأوّل إمّا محسوسة أولاً أو ثانياً، **فالأول**: إمّا محسوسة بحسّ البصر كالحمرة في تشبيه الخدّ بالورد والضّوء في تشبيه الوجه بالنّهار والسّواد في تشبيه الصّدغ بالليل، أو بحسّ السّمع كتشبيه الأغاني الحسنة بالأوتار وألحان بعض الطيور، وتشبيه الصّوت المنكر بصوت الحمار، أو بحسّ الذّوق كتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالسّكر والعسل، والمرّة بالعلقم والحنظل، أو بحسّ الشمّ كتشبيه بعض الرّياحين بالمسك والعنبر في الطيب، وبعض ذوات الرّوائح المنتنة بالميتة والخنفساء في النّتن، أو بحس اللمس كتشبيه الجسم اللّيّن النّاعم بالخز، والخشن بالمسح، **والثاني**: وهو المحسوسة ثانياً فهي الأشكال والمقادير والحركات، والأشكال إمّا مستقيمة أو مستديرة، مثال التّشبيه في الاستقامة تشبيه الرّجل المعتدل القامة بالرّمح، ومثال التّشبيه في الاستدارة تشبيه المستدير بالكرة تارة وبالحلقة أخرى.

أقول: هكذا قسم البحراني الأشكال إلى المستقيمة والمستديرة ولم يزد عليهما، والحقّ أن التّشبيه في الشكل قد يكون بغير ذلك، مثل ما في قوله ﷺ في المخ فكح (١٢٨): «والدّور المزخرفة التي لها أجنحة كأجنحة النّسور، وخراطيم كخراطيم الفيلة» لظهور أن شكل جناح النّسر وخرطوم الفيلة خارج عن الاستقامة والاستدارة هذا، ومثال التشبيه في المقادير تشبيه عظيم الجثة بالجمل والفيل، وقد اجتمع التشبيه في الشكل والمقدار

في قوله ﷺ في المخ فكح (١٢٨): «كأن وجوههم المجان المطرقة» ومثال التشبيه في الحركة تشبيه السّريع بالسّهم، ومنه تشبيه الدّنيا بالظل في قوله ﷺ في المخ سب (٦٢): «فإنّها عند ذوي العقول كفيء الظل بينا تراهُ سابغاً حتّى قلص وزائداً حتّى نقص».

وأمّا الاشتراك في الكيفيّة النفسانيّة المدركة بالعقل فكالاشتراك في الغرائز والأخلاق كالعلم والحلم والذّكاء والفطنة والكرم والشجاعة ونحوها، وأمّا الاشتراك في الصّفة الإضافية وهي ما لا تكون متقرّرة في الذّات بل تكون معنى متعلقاً بشيئين فكقولهم: هذه الحجّة كالشّمس، أي في إزالة الحجاب، فإنّ الإزالة ليست هيئة متقرّرة في ذات الحجّة أو الشّمس ولا في ذات الحجاب.

التقسيم الثاني

أنّ وجه الشّبه إما أن يكون مذكوراً في الكلام وإمّا أن لا يكون مذكوراً وعلى الأول: فإمّا أن يكون مذكوراً بنفسه أو بما يستلزمه أي ما يكون وجه الشّبه لازماً له تابعاً في الجملة، فمثال المذكور بنفسه كقوله:

وثغرهُ في صفاء وادعمي كاللئالي

وقوله:

يا شبيه البدر حسناً وضياء ومنالا وشبيه الغصن ليناً وقواماً واعتدالاً
أنت مثل الورد لوناً ونسيماً وملالاً زارنا حتّى إذا ما سرّنا بالقرب زالا

ومثال المذكور ما يسلتزمه كقولهم للكلام الفصيح: هو كالعسل في الحلاوة أو الماء في السّلاسة أو النّسيم في الرّقة، فإنّ وجه الشّبه فيه هو لازمها أعني ميل الطبع، ويسمّى التّشبيه بهذا الاعتبار أي باعتبار ذكر وجه شبهه بنفسه أو بما يستتبعه: مفصّلاً، وعلى الثاني وهو ما لا يكون وجه الشّبه مذكوراً يسمّى: مجملاً، وعليه فإمّا أن يكون ظاهراً يفهمه كلّ أحد، وإمّا أن يكون خفيّاً، فالأوّل نحو زيد كالأسد، والثّاني نحوهم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها، أي هم متناسبون في الشّرف كما أنّها متناسبة الأجزاء، ونحو قوله ﷺ في المخ عب (٧٢): «أنّ له امرة كلعقة الكلب أنفه».

ثم المجمل إما أن لا يذكر فيه وصف أحد الطرفين، أعني الوصف الذي فيه ايماء إلى وجه الشّبه كما مرّ في مثل زيد كالأسد وفي مثل قوله: له امرة كلعقة الكلب أنفه، أو يذكر فيه وصف المشبّه به وحده كما مرّ أيضاً في مثل هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها، ونحوه قوله ﷺ في المخ لز (٣٧): «واستبدت برهانها كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف» وقوله الآتي في باب الكتب: «فإنّما مثل الدّنيا مثل الحيّة ليّن مسّها قاتل

سمها» فإنّ في قوله: ليّن مسّها اه، ايماء إلى وجه الشّبه وهو حسن الظاهر مع قبح الباطن، أو يذكر فيه وصفهما كما في قول الشّاعر:

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه عنّي وعاوده ظنّي فلم يخب
كالغيث إن جئته وافاك ريّقهُ وَان ترحلت عنه لجّ في الطلب

وصف المشبّه أعني الممدوح بأنّ عطاياه فايضة عليه أعرض أو لم يعرض، وكذا وصف المشبّه به أعني الغيث بأنه يصيبك جئته أو ترحّلت عنه، والوصفان مشعران بوجه الشّبه وهو الإفاضة حالتي الطلب وعدمه وحالتي الإقبال والإعراض، ونحوه قوله ﷺ في المخ لا (٣١): «لا تلقينّ طلحة فإنك إن تلقه تجدهُ كالثّور عاقصاً قرنه يركب الصّعب ويقول هو الذّلول» فإنّ عقص القرن وهو اعوجاجه من صفات الثور المشبّه به، وركوب الصّعب مع القول إنّه الذّلول من وصف المشبّه، وفيهما إشارة إلى وجه الشّبه وهو الكبر والنّخوة والاعجاب بالنّفس.

التقسيم الثالث

وجه الشبّه إمّا أن يكون منتزعاً من متعدد أي هيئة تركيبيّة منتزعة من أمور مجتمعة، أو لا يكون كذلك، وعلى الأول فيسمّى التّشبيه المشتمل عليه تمثيلاً كما في قوله:

كأنّ مثار النّقع فوق رُؤوسنا وَأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فإنّ وجه الشّبه هي الهيئة الحاصلة من هويّ أجرام مشرقة متناسبة مستطيلة متناسبة المقدار متفرّقة في جوانب شيء مظلم، فوجه الشّبه مركب كما ترى، وقوله:

الشمس كالمرآة في كفّ الأشلْ

وعلى الثاني يسمّى غير تمثيل.

التقسيم الرابع

الهيئة المعتبرة في التّشبيه بماله وجود في الأعيان إما أن توجد كثيراً لكثرة تكرّر المشبّه به على الحسّ كقولهم: هو في السّواد كالفحم وفي البياض كالثلج، ويسمّى التشبيه المتضمّن لها قريباً مبتذلاً، لظهور وجهه في بادىء النّظر وإما أن توجد قليلاً ويسمّى التشبيه المشتمل عليها بعيداً غريباً، لعدم ظهور وجهه إلاّ بعد فكر وتدقيق نظر، وكلما كان الشيء عن الوقوع أبعد كان أغرب فكان التّشبيه حينئذٍ ألذّ وأعجب، ولذلك إذا قايست بين قول أبي نواس:

كأنّ صغرى وكبرى من فواقعها حصباء دُرّ على أرض من الذّهب

وبين قول ذي الرّمة:

كحلاء في برج صفراء في دعج كأنها فضّة قد مسّها ذهب

عرفت أنّ الأوّل أغرب من الثاني وأعذب، لأنّ الدرّ المنثور على أرض من الذّهب أقلّ وقوعاً ووجوداً، بخلاف الثّاني، فإنّ النّاس كثيراً ما يرون في الصّياغات فضّة قد موّهت بذهب.

التقسيم الخامس

وجه التّشبيه امّا واحد أو متعدد أو مركب بأن يكون هيئة اجتماعيّة أو منتزعة من أمور متعددة، وقد ظهر لك مثاله فيما مرّ، وأما الأوّل فهو إمّا واحد حسّي كتشبيه الخدّ بالورد في الحمرة ونحو ذلك من المحسوسات، وإمّا واحد عقلي كتشبيه العلم بالنّور في **الهداية**، وأمّا الثّاني وهو ما كان متعدداً فإمّا أن يكون كله حسيّاً كاللّون والطعم والرائحة في تشبيه فاكهة بأخرى، وإمّا أن يكون عقليّاً كحدّة النّظر وكمال الحذر وإخفاء السّفاد في تشبيه طائر بالغراب، وقد يكون بعضه حسّياً وبعضه عقليّاً كحسن الطلعة ونباهة الشّأن في تشبيه إنسان بالشمس.

تنبيهات

الأول: التّشبيه بالوجه العقلي أعم من التّشبيه بالوجه الحسّي، لأن الوجه الحسّي لا يكون طرفاه إلاّ حسيّين كتشبيه الخدّ بالورد، لامتناع أن يدرك بالحسّ من غير الحسيّ شيء بخلاف العقلي فيجوز أن يكون طرفاه حسّيين أو عقليّين أو أحدهما حسّياً والآخر عقلياً، لجواز أن يدرك بالعقل من الحسّي شيء إذ لا امتناع في قيام المعقول بالمحسوس، بل كلّ محسوس فلها أوصاف بعضها حسّي وبعضها عقلي وقد ظهر لك أمثلتها آنفاً.

الثاني: قد ينتزع وجه الشّبه من التّضاد الذي بين الضّدين ثم ينزل التّضاد منزلة التّناسب بواسطة تمليح أو تهكّم واستهزاء، كما يقال للجبان: ما أشبهه بالأسد وللبخيل هو حاتم، فإنّ الحاصل في المشبّه هو ضدّ الجرئة والجود اللذين في المشبّه به أعني الجبن والبخل لكن نزّلا منزلة الجرئة والجود بواسطة التمليح أو التهكّم، لاشتراكتهما في الضّدية، ومن هذا الباب قوله ﷺ في المخ ب (٢): «يومهم سهود وكحلهم دموع». وفي المخ صو (٩٦): «أشهود كغيّاب وعبيد كأرباب».

الثالث: من حق وجه الشبه أن يكون شاملاً للطرفين، كما إذا جعل وجه الشّبه في قولهم: النّحو في الكلام كالملح في الطعام، الاصلاح والإفساد، أي كما أن الطعام لا يصلح إلاّ بالملح وبدونه يفسد فكذلك الكلام لا يصلح إلاّ باستعمال القواعد النّحوية، وأمّا ما زعمه

بعضهم من أنّه كون القليل مصلحاً والكثير مفسداً، ففيه أنّ النّحو لا يحتمل القلّة والكثرة بخلاف الملح.

الركن الثالث

في أداة التّشبيه وهي ما يتوصّل به إلى وصف المشبّه بمشاركته للمشبّه به في الوجه، وهي: الكاف وكأنّ ومثل وشبه ونظير وما يقتطع منها ممّا يدلّ على المماثلة والمشابهة والمناظرة وما يؤدّي معناها من المساواة والمحاكاة والمضاهاة، والأصل في الكاف ونحوها مما يدخل على المفرد كلفظ نحو ومثل وشبه لا نحو كأن وتشابه وتماثل ممّا يدخل على الجملة أن يليه المشبّه به إما لفظاً كقولك زيد كالأسد أو مثل الأسد وقوله تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

فإنّ المشبّه به مثل المستوقد أي حاله وصفته وقصّته العجيبة الشأن، ومنه قوله ﷺ في الكتاب الذي كتبه إلى سلمان على ما رواه السّيد في باب الكتب: «فإنّما مثل الدّنيا مثل الحيّة ليّن مسّها قاتل سمّها»، فإنّه من التّشبيه البليغ، وقد حذف الكاف مبالغة، أي كمثل الحيّة، وإما تقديراً كقوله تعالى:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

أي كمثل ذوي صيّب، فحذف ذوي لدلالة قوله ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ عليه، لأنّ هذه الضّمائر لا بدّ لها من مرجع، وحذف مثل لقيام القرينة أعني عطفه على قوله ﴿كمثل الذي استوقد ناراً﴾ فالمثل المشبّه به قد ولي الكاف، لأن المقدّر في حكم الملفوظ، ومنه قوله ﷺ في المخ صح (٩٨): «فإنّما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلاً» أي كمثل المسافرين السّالكين سبيلاً، لظهور أنّ المقصود تشبيه حال أهل الدّنيا وقصّتهم بحال المسافرين، لا نفس المسافرين، فقد حذف المشبّه به بقرينة المشبّه كما لا يخفى هذا.

وقد يلي الكاف ونحوها غير المشبّه به وذلك إذا وليها مفرد لا يتأتي التّشبيه به، وذلك إذا كان المشبّه به مركباً كقوله ﷺ في المخ قي (١١٠): «لا تعدو أي الدّنيا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرّغبة فيها والرّضا بها أن تكون كما قال الله تعالى:

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

أقول: ولا يكاد ينقضي عجبي من فصاحة الإمام ﷺ وبلاغته في هذا الكلام،

فسبحان الله ما أفصحه وأبلغه حيث أورد تشبيهين للدّنيا أحدهما من كلامه وهو قوله: كما قال الله، والثاني: من كلام الله وهو قوله: ﴿كماء أنزلناه﴾، وكلاهما من باب التّشبيه الذي ذكرناه، إلاّ أنّ الأوّل من قبيل ما ولي المشبه به الكاف تقديراً، والثّاني من قبيل ما لم يقع المشبّه به بعد الكاف لا لفظاً ولا تقديراً، لظهور أن ليس المراد تشبيه حال الدّنيا بقول الله تعالى على ما هو ظاهر التّشبيه الأوّل، ولا بالماء على ما هو ظاهر التّشبيه الثّاني بل المراد أن الدّنيا لا تتجاوز إذا بلغت إلى غاية ما يريده الرّاغبون فيها والرّاضون بها عن كون حالها مثل المثل الذي مثله الله تعالى لها بقوله: ﴿كماء أنزلناه﴾، والمراد بهذا المثل تشبيه حالها في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء، بحال النبات الحاصل من الماء، يكون شديد الخضرة ثم ييبس فتطيّره الرّياح كأن لم يكن، ولعلّنا نشير إلى تفصيل ذلك في مقامه إن شاء الله.

ولا يذهب عليك أن ما ذكرناه من كون التّشبيهين كليهما مثالاً لما نحن فيه إنّما هو إذا جعلنا كلمة ما في قوله ﷺ كما قال الله مصدريّة كما هو الظاهر، وأما إن جعلناها موصولة كناية عن المثل أي لا تعدو عن كونها مثل المثل الذي قاله الله تعالى ﴿كماء أنزلناه﴾ اه، فيكون حينئذٍ من القسم الأوّل أعني ما ولي الكاف المشبّه به لفظاً فافهم جيّداً هذا.

وقد اجتمع القسمان الأوّلان في قوله ﷺ في المخ قي (١١٠) أيضاً في وصف حال أهل الدّنيا وانتقالهم منها إلى الآخرة: فجاؤها كما فارقوها حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدّار الباقية، كما قال سبحانه:

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فإن التّشبيه في قوله: كما قال سبحانه، من قبيل القسم الثّاني أعني ما ولي الكاف المشبّه به تقديراً على ما هو الأظهر من كون ما مصدرية، وفي قوله ﷺ: كما فارقوها وقوله تعالى ﴿كما بدأنا﴾ من قبيل القسم الأوّل أما الأوّل فظاهر، وأمّا الثّاني فكذلك لأنّ المراد أن إعادتنا مثل إبدائنا أوّل خلق.

فإن قلت: ما الدّليل على كون التّشبيه في «كما» اه، على تقدير جعل ما مصدرية في الموضعين من قبيل القسم الثاني لا القسم الثالث.

قلت: لأنّهم قد صرّحوا بأنّ حرف التّشبيه إذا أمكن أن يقع بعدها مفرد يتمحّل لتقديره فهو من قبيل ما ولي المشبّه به الكاف، قال صاحب (**التلخيص**) في محكي كلامه من (**الإيضاح**): إنّ قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

ليس من قبيل ما لا يلي المشبّه به الكاف، لأنّ التقدير ككون الحواريّين أنصار الله وقت قول عيسى من أنصاري إلى الله، على أنّ ما مصدريّة والزّمان مقدّر كقولهم: آتيك خفوق النّجم أي زمان خفوقه، فالمشبّه به وهو كون الحواريّين أنصار الله مقدّر يلي الكاف، كمثل ذوي صيّب لدلالة ما أقيم مقامه عليه، إذ لا يخفى أن ليس المراد تشبيه كون المؤمنين أنصاراً بقول عيسى للحواريّين من أنصاري إلى الله انتهى فتأمّل جيّداً.

تنبيهان

الأوّل قد يذكر فعل ينبىء عن التّشبيه في القرب والبعد والقوّة والضّعف، فإن أردت تقوية التّشبيه وتقريبه قلت: علمت زيداً أسداً، وإن أردت ضعفه وتبعيده قلت: ظننت أو حسبت زيداً أسداً قال صاحب **(المفتاح)**: فإنّ علمت وما في معناه لما كان لتحقيق النّسبة يدلّ على أن نسبة الأسد إلى زيد محقّقة، فيكون النّسبة قريباً، بخلاف الظنّ فإنه يدل على الرّجحان الغير الجازم، فيدلّ على ضعف التّشبيه، فلذلك استعمل العلم وما في معناه فيما قرب التشبيه فيه، واستعمل الظن وما في معناه فيما بعد فيه التشبيه انتهى.

أقول: وممّا قرب فيه التشبيه وقصد تقويته قوله ﷺ في المخ قز (١٠٧): «ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح، وأرواحاً بلا أشباح، ونسّاكاً بلا صلاح، وتجاراً بلا أرباح، وايقاظاً نوّما، وشهوداً غيّباً، وناظرة عمياً، وسامعة صمّاً، وناطقة بكماً».

الثاني: ينقسم التّشبيه باعتبار ذكر أداته إلى المؤكد والمرسل أما المؤكد فهو ما حذفت أداته فقد يجعل حينئذٍ المشبّه به خبراً عن المشبه كما تقول زيد أسد ومنهم من يسمّيه استعارة كما ستطلع عليه إن شاء الله، ومنه قوله ﷺ في المخ قيز (١١٧): «وإنّما أنا قطب الرّحى تدور عليّ وأنا بمكاني»، وقد يكون في حكم الخبر كخبر باب كان وإنّ والمفعول الثّاني لباب علمت والحال والصّفة، وقد يكون مفعولاً كقوله تعالى:

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النحل: ٨٨].

أي مثل مرّ السّحاب، وقوله في المخ و(٦): « لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي[١] البعيدة» وقوله ﷺ في المخ لط (٣٩): «فجرجرتم جرجرة الجمل الأسرّ وتثاقلتم تثاقل النّضو[٢] الأدبر» وقد يكون المشبّه به مضافاً إلى المشبّه، مثل قولهم: لجين الماء، أي

(١) الأرشية: الحبل، والطوي: البئر، فإن الحبل إذا نزل في بئر عميق فارغ يتلوح الحبل يميناً وشمالاً كالحيران بالنسبة لعلم أمير المؤمنين.

(٢) النضو بالكسر البعير المزول.

ماء كاللجين وقوله ﷺ في المخ ص (٩٠): «وناط بهازينتها من خفيات دراريها، ومصابيح كواكبها»، أي علّق سبحانه بالسّماء ما يزينها من الكواكب الدريّة الخفيّة، ومن كواكبها التي كالمصابيح، وأما المرسل فهو بخلافه أي ما ذكر أداته فصار مرسلاً من التّأكيد المستفاد من حذف الأداة المشعر ظاهراً بأن المشبّه هو المشبّه به.

الركن الرابع

في الغرض من التّشبيه وهو ما يقصده المتكلم من إيراد التّشبيه، وهو إمّا عائد إلى المشبّه وهو الأغلب، أو عائد إلى المشبّه به، أمّا الأوّل فعلى وجوه:

أحدها: بيان إمكان أي إمكان أنّ المشبّه أمر ممكن الوجود، وذلك في كلّ أمر غريب لا يكون بيّناً يمكن أن يخالف فيه ويدّعي امتناعه، فيؤتي بالتّشبيه لبيان أنّه ممكن كقوله:

وكم أب قد علا بابن ذرى حسب كما علت برسول الله عدنان

وقول الآخر:

فإن تفق الأنام وَأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فإنّه أراد أن يقول: إن الممدوح فاق الأنام بحيث لم يبق بينه وبينهم مشابهة بل صار أصلاً بنفسه، ولما كان هذا في الظاهر كالممتنع لبعد أن يتناهى إنسان في الفضائل النّفسانية إلى أن يخرج من آحاد نوعه احتجّ لدعواه بأنّ المسك وإن كان بعض دم الغزال في أصله إلاّ أنه خرج عن صفة الدّم، وحقيقته لا يعدّ دماً لما فيه من الأوصاف الشريفة فشبهه بالمسك تشبيهاً ضمنيّاً لرفع البعد والغرابة وإثبات الأمكان، وهذا الوجه يستلزم كون المشبّه به مسلم الحكم فيكون أعرف به لا محالة.

وثانيها بيان وجوده كما إذا شبه معقول في الذّهن بأحد أفراده في الخارج دلالة على وجوده كما تقول: الإنسان كزيد ويسمّى مثلاً، وهذا كسابقه في استلزامه كون المشبّه به مسلّماً وأعرف أيضاً.

وثالثها: بيان حاله وإظهار أنه على أيّ وصف من الأوصاف، كما في تشبيه ثوب بالثّلج في البياض ومنه التّشبيه الواقع في قوله ﷺ في المخ (١):

«يَأْلِهُونَ إِلَيْهِ وَلُوهَ الحَمامِ وَيَرِدُونَهُ وُرُودَ الأَنْعامِ»

وهذا أيضاً يقتضي كون المشبّه به أعرف بوجه الشّبه.

ورابعها: بيان مقدار حال المشبّه في القوة والضّعف والصّغر والكبر والزيادة والنّقصان كما في تشبيه شيء أسود بخافية الغراب، قال الشاعر:

مــــداد مـــثــــل خـــافـــيـــة الـــغـــراب | واقـــلام كـــمـــرهـــفـــة الـــحـــراب

وتشبيه الشيء العظيم بالجبل أو الجمل كما قال ﷺ في المخ ص (٩٠) في وصف الملائكة:

«مِنْهُمْ مَنْ هُوَ في خَلْقِ ٱلْغَمامِ الدُّلحِ، وَفي عِظَمِ ٱلْجِبالِ الشُّمَّخِ، وَفي قُتْرَةِ الظَّلامِ الأَيْهَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدامُهُمْ تُخُومَ ٱلْأَرْضِ السُّفْلى فَهِيَ كَراياتٍ بيضٍ قَدْ نَفَذَتْ في مَخارِقِ ٱلْهَواءِ.»

وهذا الوجه يقتضي كون المشبّه به أخصّ بوجه الشّبه من المشبّه مساوياً له في المقدار حقيقة أو ادّعاء.

وخامسها: تقرير حال المشبّه في نفس السّامع وتقوية شأنه كما إذا شبّهت من لا يحصل من سعيه على طائل بمن يرقم على الماء، وكقوله ﷺ في باب الحكم:

«الدَّاعِي بِلاَ عَمَلٍ كَالرَّامي بِلاَ وَتَرٍ».

فإنك تجد فيه من تقرير عدم الفائدة وتقوية شأنه ما لا تجده في غيره، لأن القك بالحسيات أتم منه بالعقليات لتأخر كثير من العلوم العقلية عن الحسيّة وتقدّم الحسّيات عليها، فإذا ذكرت المعنى العقلي ثم عقبته بالتمثيل الحسّي فقد نقلت النّفس من الغريب إلى القريب، ومنه التشبيه الواقع في قوله ﷺ في المخ ج (٣):

«لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحافَةٍ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلَّ القُطْبِ مِنَ الرَّحىٰ».

وهذا يستلزم كون وجه الشّبه في المشبّه به أتم وهو به أشهر.

وسادسها: إظهار تزيينه إمّا للترغيب فيه كما في تشبيه وجه أسود بمقلة الظبي أو بالمسك وعليه قول الشّاعر:

ربّ ســوداء وهــي بــيــضــاء مــعــنــى | يــحــســد الــمــسك عــنــدهــا الــكــافــور
مــثــل حــبّ الــعــيــون يــحــســبــه الــنــاس | ســـــواداً وإنّـــــمـــــا هـــــو نـــــور

وقول الآخر:

يــقــولــون لــيــلــى ســودة حــبــشــيــة | ولــولا ســوادُ الــمــسك مــا كــان غــالــيــاً

وتشبيه الثّغر باللؤلؤ المنضد في قوله:

كـــإنّـــمـــا يـــبـــســـم عـــن لـــؤلـــؤ | مـــنـــضـــد أو بـــرد أو اقـــاح

وإمّا لغير التّرغيب ومن أبدع هذا النّوع قوله ﷺ في المخ قد (١٠١): في وصف الطاوس:

تَخالُ قَصَبَهُ مَدارِيَ مِنْ فِضَّةٍ وَما أُنبِتَتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيب واراتِهِ وَشُمُوسِهِ خالِصَ الْعِقْيانِ وَفِلِذَ الزَّبَرْجَدِ فَإِن شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الأَرْضُ قُلْتَ جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبيع، وَإِنْ ضاهَيْتَهُ بِالْمَلاَبِسِ فَهُوَ كَمُوَشي الحُلَلِ أَوْ مُونِقِ عَصَبِ اليَمَنِ، وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذاتِ أَلْوانٍ قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ.

وسابعها: إظهار التّشويه والتقبيح للتّنفير عنه كما في تشبيه وجه مجدور بسلجة قد نقرتها الدّيكة، ومنه قول الحريري في ذم الدّينار:

تـبّـاً لـهُ مـن خـادق مـمـاذق ... أصـفـر ذي وجـهـيـن كـالـمـنـافـق

وقوله ﷺ في كتاب كتبه إلى سلمان الفارسي:

«فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّها قاتِلٌ سَمُّها».

ومنه تشبيه الدّنيا بالعجوز الشّمطاء الهمّاء الشّوهاء على ما ورد في غير واحدة من الرّوايات.

وثامنها: الاستطراف أي عدّ المشبّه طريفاً بديعاً، وذلك بأن يكون المشبّه به أمراً غريباً نادراً لحضور في الذّهن مطلقاً فيكتسي المشبّه غرابة منه فيستطرق، كما في تشبيه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذّهب لإبرازه في صورة الممتنع عادة قال الشّاعر:

انـظـر إلـى الـفـحـم فـيـه الـجـمـر مـتـقـد ... كـأنّـه بـحـر مـسـك مـوجـهُ الـذّهـب

أو يكون نادر الحضور عند ذكر المشبّه كما في قول ابن المعتز في وصف البنفسج:

ولا زور ديـة تـزهـو بـزرقـتـهـا ... بـيـنَ الـرّيـاض عـلـى حـمـر الـيـواقـيـت

كـأنّـهـا فـوق قـامـات ضـعـفـن بـهـا ... أوائـل الـنّـار فـي أطـراف كـبـريـت

فإنّ صورة اتّصال النّار بأطراف الكبريت لا يندر حضورها في الذّهن ندرة حضور بحر من المسك موجه الذّهب وإنّما النّادر حضُورها عند حضور البنفسج، فإذا أحضر مع صحّة التشبيه استطرف لمشاهدة عناق بين صورتين لا يتعانقان في الخيال أبداً، مضافاً إلى بعد التّماثل وغرابته بين أوراق رطبة طريّة خضرة نضرة وجسم ذابل يابس واستولى عليه لهب نار.

وأما الثاني: أعني عود الغرض في التّشبيه إلى المشبّه به فعلى وجهين. **أحدهما**: إيهام أنّ المشبّه به أتمّ من المشبّه في وجه الشّبه قصداً للمبالغة كما في التّشبيه المقلوب الذي يشبّه فيه الزّائد بالنّاقص قصداً إلى إعلاء شأن ذلك النّاقص ادّعاء لكونه بالغاً إلى حيث صار أصلاً للشيء الكامل الزّائد في ذلك الوصف كقوله:

وَبَــدَا الــصّــبــاح كــأنّ غــرّتــه　　وجــهُ الــخــلــيــفــة حــيــن يــمــتــدح

ألا ترى أنّه جعل وجه الخليفة أعرف وأتمّ، وأوهم أنّه أكمل في النّور والضّياء من الصّباح حتّى شبّه الصباح به.

وثانيهما: بيان الاهتمام بالمشبّه به كتشبيه الجائع وجهاً مثل البدر في الإشراق والاستدارة بالرّغيف، فإنّ تشبيهه به دون البدر، لاهتمامه بشأن الرّغيف بمقتضى جوعه لا بقصد أنّ الرّغيف أتم في الحسن والاستدارة من ذلك الوجه، وبعبارة أخرى: ليس النّظر فيه إلى الاستدارة والحسن، بل استلذاذ النّفس بالرّغيف أوجب التّشبيه.

تنبيه

الغرض من التشبيه إن كان إلحاق النّاقص بالزّائد في وجه الشّبه سواء كان النّقصان حقيقياً كما في زيد كالأسد، أو ادّعائياً كما في تشبيه غرّة الصّباح بوجه الخليفة، فاللاّزم حينئذٍ التشبيه وجعل النّاقص مشبّهاً والزّائد مشبها به، وإن كان مجرّد الجمع بين المتشابهين في مطلق الهيئة أو الصورة أو الشكل ونحوها من غير نظر إلى زيادة أحدهما ونقصان الآخر سواء وجدت الزّيادة والنّقصان أو لم يوجد أصلاً فالأحسن حينئذٍ ترك التشبيه والإتيان بالتّشابه احترازاً من ترجيح أحد المتشابهين على الآخر قال الشّاعر:

تــشــابــه دَمــعــي إذ جــرى ومــدامــتــي　　فمن مثل ما في الكاس عيني تسكبُ

فــوالله مــا أدري أبــا الــخــمــر أسبــلــت　　جــفــونــي أم مــن عــبــرتــي كــنــت أشربُ

وقال آخر:

رَقّ الــزّجــاج وَرَقّــت الــخــمــر　　فــتــشــابــهــا وتــشــاكــلَ الأمــرُ

فــكــأنّــمــا خــمــر ولا قــدح　　وكــأنّــمــا قــدح ولا خــمــر

ويجوز حينئذٍ التّشبيه أيضاً بأن تجعل أحد الطرفين أيّهما شئت مشبّهاً والآخر مشبّهاً به، فتقول: غرّة الفرس كالصّبح والصّبح كغرة الفرس إذا أردت إظهار منير في مظلم أكثر منه، ووجه الخليفة كالصّباح والصّباح كوجه الخليفة، وهذا القسم هو التّشبيه الذي يصحّ فيه العكس وتبديل أحد الطرفين بالآخر، بخلاف القسم الأوّل الذي كان الغرض فيه إلحاق النّاقص بالزّائد.

خاتمة

في تقسيم التّشبيه بحسب القوة والضّعف في المبالغة باعتبار ذكر الأركان وحذف بعضها، قال صاحب **(التلخيص)** وشارحه ما محصّله: إنّ أركان التّشبيه أربعة أي المشبّه

والمشبّه به ووجه الشّبه وأداة التّشبيه، فالمشبّه به مذكور قطعاً والمشبّه إمّا مذكور أو محذوف، وعلى التّقديرين فوجه الشّبه إما مذكور أو محذوف، وعلى التّقادير الأربعة فالأداة إما مذكورة أو محذوفة فالأقسام ثمانية.

الأوّل: أن يذكر المشبّه مع ذكر الوجه والأداة مثل زيد كالأَسد في الشّجاعة.

الثاني: أن يذكر المشبّه أيضاً مع حذفهما نحو زيد أسد.

الثالث: أن يذكر أيضاً مع ذكر الوجه وحذف الأَداة نحو زيد أسد في الشّجاعة.

الرّابع: ذكره أيضاً مع العكس نحو زيد كالأَسد.

الخامس: حذف الجميع نحو أسد في مقام الأخبار عن زيد.

السّادس: حذف المشبّه مع ذكر الوجه والأداة نحو كالأَسد في الشّجاعة.

السّابع: حذفه أيضاً مع الأَداة فقط نحو أسد في الشّجاعة في الأخبار عن زيد.

الثّامن: حذفه أيضاً مع الوجه فقط نحو كالأَسد.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ أقوى هذه الأقسام وأعلاها من حيث المبالغة القسم الثّاني والخامس، ويتلوهما في القوة القسم الثالث والرّابع والسّابع والثامن، والاثنان الباقيان وهما الأوّل والسّادس لا قوة فيهما، قال العلاّمة التّفتازاني: فالمرتبتان الأوليان متساويتان في القوة، والأخريان متساويتان في عدم القوة، والأربعة الباقية متوسطة بينهما، وذلك لأن القوّة إمّا بعموم وجه الشّبه في الظاهر أو بإجراء المشبّه به على المشبّه بأنّه هو هو نظراً إلى الظاهر، فما اشتمل عليهما كالأوّلين فهو في غاية القوّة، وما خلا عنهما كالأخيرين فلا قوة له، وما اشتمل على أحدهما فقط فهو متوسّط في القوّة والضّعف، ثم لا يبعد أن يفرق بين الأربعة المتوسطة بأن حذف الأداة أقوى من حذف وجه الشّبه لجعل المشبّه عين المشبّه به من حيث الظاهر.

تنبيه وتحقيق

اختلف أرباب البلاغة في التّشبيه المحذوف الوجه والأداة سواء ذكر المشبّه وجعل المشبّه به خبراً عنه نحو زيد أسد، أو في حكم الخبر نحو إنَّ زيداً أسد وكان زيد أسداً أو علمته أسداً ونحو ذلك، أو حذف القرينة دالة عليه نحو صمٌ بكم عميٌ، فالمحققون على أنّه تشبيه بليغ، ولا بأس بذكر كلامهم حتّى يتّضح المرام، فأقول: قال الشّارح البحراني: الفرق بين الاستعارة والتشبيه أن التّشبيه، حكم إضافي يستدعي مضافين وليس الاستعارة كذلك، فإنك إذا قلت: رأيت أسداً ولم تذكر شيئاً آخر حتّى تشبهه بالأسد فلم يكن ذلك تشبيهاً بل

أعطى المعنى لفظاً له لأجل المشابهة بينه وبين معناه الأصلي وما هو لأجل شيء آخر لا يكون نفس ذلك، وقال المطرّزي: الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشّيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبّه وتجريه عليه مع طرح ذكره من البين لفظاً وتقديراً.

وقال صاحب (**المفتاح**) في محكي كلامه: إذا كان المشبّه مذكوراً أو مقدراً فهو تشبيه لا استعارة، وقال صاحب (**التّلخيص**) بعدما عرف التّشبيه بأنّه الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنى: فدخل فيه نحو قولنا زيد أسد ونحو قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال العلامة التّفتازاني في إبداء الفرق بين نحو لقيني أسد يرمي، ولقيت في الحمام أسداً، وبين نحو زيد أسد أو أسد في مقام الأخبار عن زيد حيث يعدّ الأوّل استعارة والثّاني تشبيهاً ما لفظه: وتحقيق ذلك أنّه إذا أجرى في الكلام لفظة ذات قرينة دالة على تشبيه شيء بمعناها فهو على وجهين: **أحدهما**: أن لا يكون المشبّه مذكوراً ولا مقدّراً كقولك لقيت في الحمام أسداً أي رجلاً شجاعاً، ولا خلاف في أنّ هذا استعارة لا تشبيه.

والثاني: أن يكون المشبّه مذكوراً أو مقدّراً وحينئذٍ فاسم المشبه به إن كان خبراً عن المشبّه أو في حكم الخبر كخبر باب كان وإنّ والمفعول الثّاني لباب علمت والحال والصّفة فالأَصحّ أنّه يسمّى تشبيهاً لا استعارة، لأَن اسم المشبّه به إذا وقع في هذه المواقع كان الكلام مصوغاً لإثبات معناه لما أجرى عليه أو نفيه عنه، فإذا قلت: زيد أسد فصوغ الكلام في الظاهر لإثبات معنى الأَسد لزيد وهو ممتنع على الحقيقة فيحمل على أنه لإثبات شبيه من الأَسد له، فيكون الإتيان بالأسد للتشبيه فيكون خليقاً بأن يسمّى تشبيهاً، لأَن المشبّه به إنّما جيء لإفادة التّشبيه بخلاف نحو لقيت أسداً فإنّ الإتيان بالمشبّه به ليس لإثبات معناه لشيء، بل صوغ الكلام لإثبات الفعل واقعاً على الأَسد، فلا يكون لإثبات التّشبيه فيكون قصد التشبيه مكنوناً في الضمير لا يعرف إلاّ بعد نظر وتأمّل، وإذا افترقت الصورتان هذا الافتراق ناسب أن يفرق بينهما في الاصطلاح والعبارة بأن تسمّي احديهما تشبيهاً والأخرى استعارة، قال: هذا خلاصة كلام الشيخ في «**أسرار البلاغة**» وعليه جميع المحققين قال: ومن النّاس من ذهب إلى أنّ الثّاني أيضاً ـ أعني زيد أسد ـ استعارة لإجرائه على المشبّه مع حذف كلمة التّشبيه والخلاف لفظي راجع إلى تفسير التّشبيه والاستعارة المصطلحين انتهى.

وقال الزّمخشري في تفسير قوله سبحانه:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فإن قلت: هل يسمّى ما في الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون والاستعارة إنّما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام كقول زهير:

لدي أسد شاكي السّلاح مقذف ... له لبد أظفارهُ لم تقلّم

ومن ثم ترى المفلقين السّحرة منهم كأنّهم يتناسون التّشبيه ويضربون عن توهمه صفحاً قال أبو تمام:

ويصعد حتّى يظنّ الجهول ... بأنّ له حاجة في السمآء

ولبعضهم لا تحسبوا أنّ في سرباله رجلاً ... ففيه غيث وَليث مسبل مشبل

وليس لقائل أن يقول: طوى ذكرهم عن الجملة لحذف المبتدأ فانسلق بذلك إلى تسميته استعارة، لأنّه في حكم المنطوق به نظيره قول من يخاطب الحجاج:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصّافر

انتهى[١].

وعلّله السكاكي على ما نقل عنه بأنّ من شرط الاستعارة إمكان حمل الكلام على الحقيقة في الظاهر وتناسي التشبيه، وزيد أسد لا يمكن كونه حقيقة فلا يجوز كونه استعارة، وتابعه صاحب **(الإيضاح)** وأورد عليهما صاحب عروس الأفراح بأن ما قالاه ممنوع وليس من شرط الاستعارة صلاحيّة الكلام لصرفه إلى الحقيقة في الظاهر، بل لو عكس ذلك وقيل لا بدّ من عدم صلاحيّته لكان أقرب، لأنّ الاستعارة مجاز لا بدّ له من قرينة، فإن لم تكن قرينة امتنع صرفه إلى الاستعارة وصرفناه إلى حقيقته، وإنّما نصرفه إلى الاستعارة بقرينة إمّا لفظية أو معنويّة نحو زيد أسد، فالأخبار به عن زيد قرينة صارفة عن إرادة حقيقته قال: والذي نختاره أنّ نحو زيد أسد قسمان، تارة يقصد به التشبيه فيكون أداة التشبيه مقدّرة، وتارة يقصد به الاستعارة فلا تكون مقدّرة، ويكون الأسد مستعملاً في حقيقته وذكر زيد والأخبار عنه بما لا يصلح له حقيقة قرينة صارفة إلى الاستعارة دالة عليها، فإن قامت قرينة على حذف الأداة صرنا إليه وإن لم تقم فنحن بين إضمار واستعارة، والاستعارة أولى فيصار إليها، انتهى.

وممن صرّح بهذا الفرق عبد اللّطيف البغدادي في قوانين البلاغة.

أقول: ولا يخفى أن ما أورده على صاحبي **(المفتاح)** و**(الإيضاح)** غير وارد، لأن

(١) شرح النهج للمعتزلي: ٦/١٠٨.

مرادهما أنّ شرط الاستعارة هو إمكان الحمل على الحقيقة مع قطع النّظر عن القرائن اللّفظية والمعنويّة كما مرّ التصريح به في كلام الزّمخشري، لا مع وجودها، ولما لم يوجد هذا الشرط في نحو زيد أسد لعدم إمكان حمل الأسد فيه على معناه الحقيقي بوجود القرينة التي هي وجود زيد وكون الأسد مخبراً به عنه وعدم إمكان قطع النظر عن هذه القرينة والغضّ عنها لكونها ركناً أعظم في الكلام وسقوط الكلام بدونها عن الكلامية لا جرم تعين المصير إلى حذف الأداة، وأمّا سائر القرائن مثل يرمي في نحو رأيت أسداً يرمي، وفي الحمام في نحو رأيت أسداً في الحمّام ونحوها لما كانت من الفضلات والتوابع أمكن الغضّ عنها والإسقاط لها، ويمكن معه الحمل على الحقيقة فيحصل شرط الاستعارة فافهم جيداً هذا.

وفصّل الشّيخ عبد القاهر في محكي «**أسرار البلاغة**» في هذا الباب ـ أعني التشبيه المحذوف ـ الأداة تفصيلاً غير خالٍ من الحُسن، ومحصله أنه إن حسن دخول جميع أدوات التشبيه لا يحسن إطلاق اسم الاستعارة عليه وذلك بأن يكون اسم المشبه به معرفة نحو زيد الأسد وهو شمس النهار، فإنه يحسن زيد كالأسد وهو كشمس النهار، لأنّ دخول جميع الأدوات يرجّح جانب التشبيه وإن حسن دخول بعضها دون بعض سهل الخطب في إطلاق اسم الاستعارة، لأن دخول بعضها يورث نقصاً في عده شبيهاً، وذلك بأن يكون نكرة غير موصوفة كقولك: زيد أسد، فإنه لا يحسن أن يقال: كأسد ويحسن أن يقال: كأن زيداً أسد أو وجدته أسداً، وإن لم يحسن دخول شيء من الأداة إلاّ بتغيير صورة الكلام كان إطلاق اسم الاستعارة أقرب لغموض تقدير أداة التّشبيه فيه، وذلك بأن يكون نكرة موصوفة بصفة لا تلائم المشبّه به نحو فلان بدر يسكن الأرض وشمس لا تغيب، فإنّه لا يحسن دخول الكاف إلا بتغيير الصّورة نحو هو كالبدر، إلاّ أنه يسكن الأرض وكالشّمس إلاّ أنه لا تغيب، وعلى هذا القياس، وقد يكون في الصّفات والصّلات التي تجيء في هذا القبيل ما يحيل تقدير أداة التشبيه فيه فيقرب من إطلاق اسم الاستعارة أكثر إطلاقٍ وزيادة قرب كقوله:

أسد دم الأَسد الهزبر خضابه موت فريسُ الموت منهُ يرعدُ

فإنّه لا سبيل إلى أن يقال: المعنى أنّه كالأسد وكالموت لما في ذلك من التّناقض لأنّ تشبيهه بجنس السّبع المعروف دليل على أنّه دونه أو مثله، وجعل دم الهزبر الذي هو أقوى الجنس خضاب يده دليل على أنه فوقه وكذا الموت، انتهى.

أقول: وأنت بعدما أحطت خبراً بما أوردنا عرفت أنّه ليس للخلاف في هذا الباب عمدة طائل يعتدُ به، فلك الخيار في إطلاق اسم التّشبيه أو الاستعارة فيما جاز فيه دخول الأَداة وإن كان التّفصيل الأخير الذي حكيناه عن عبد القاهر أحسن وألطف هذا.

وبقي الكلام في التّشبيه المحذوف المشبّه والأداة مثل رأيت أسداً في الشّجاعة،

والظاهر أنّه لا خلاف في أنّه تشبيه لا استعارة، لأنّ قولنا: في الشّجاعة يقتضي تقدير المشبّه أي رأيت رجلاً مثل الأسد في شجاعته، ولا يصحّ أن لا يقدّر المشبّه ويصار إلى الاستعارة إذ لا يصحّ وقوع اسم المشبّه مفعولاً، فإنّه لو قيل: رأيت رجلاً في الشّجاعة لكان لغواً من الكلام.

الفصل الثاني في الاستعارة

وهي من معظم فنون البلاغة وقد أطلق فيها البيانيّون أعنّة الأقلام حتّى أفردها بعضهم بالتّأليف، وليس الغرض هنا استقصاء الكلام فيها وإنّما المقصود تقريبها إلى الأفهام بتعريف يزيل الإبهام والإشارة إلى أقسامها إجمالاً مع إثبات شيء ممّا وقع من محاسنها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وفي غيره نظماً ونثراً قالوا: زوّج المجاز بالتّشبيه فتولّد بينهما الاستعارة لأنّه اللّفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة كأسد في قولنا: رأيت أسداً يرمي، فإنّه استعمل في الرّجل الشّجاع المشبّه بالحيوان المفترس الذي هو المعنى الحقيقي لذلك اللّفظ، وكثيراً ما يستعمل الاستعارة في المعنى المصدري أعني فعل المتكلم الذي هو استعمال اسم المشبّه به في المشبّه، فالمتكلم مستعير واللّفظ مستعار والمعنى المشبّه به مستعار منه والمعنى المشبّه مستعار له ويسمّى وجه الشّبه هنا جامعاً.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن الاستعارة تنقسم إلى أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة.

التقسيم الأول

أنها باعتبار المستعار له والمستعار منه والجامع ستّة أقسام.

أحدها: أن يكون الطرفان حسيّين ويكون الجامع أيضاً حسيّاً مثل قوله سبحانه:

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [طه: ٨٨].

فإنّ المستعار منه ولد البقرة والمستعار له الحيوان الذي خلقه الله من حليّ القبط والجامع الشكل والصّورة والجميع حسّي، ومثله قوله عليه السلام في المخ (١):

«فَأَجْرَىٰ فِيها سِراجاً مُسْتَطِيراً».

فإنّ المستعار منه المصباح والمستعار له الشّمس والجامع الضّياء.

وثانيها: أن يكونا حسيّين ويكون الجامع عقليّاً كقوله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧].

فإنّ المستعار منه كَشْط الجلد وإزالته عن الشّاة ونحوها والمستعار له كشف الضّوء عن

مكان اللّيل وهما حسيّان، والجامع ما يعقل من ترتّب أمر على آخر وحصوله عقيب حصوله كترتّب ظهور اللّحم على الكشط وظهور الظلمة على كشف الضّوء والترتّب أمر عقلي، ونحو قوله ﷺ في المخ سو (٦٦):

«إِحتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ وَأَضاعُوا الثَّمَرَةَ».

استعار لفظ الثّمرة لنفسه الشّريف باعتبار مزيد اختصاص له ﷺ بالنبي ﷺ كاختصاص الثّمر بالشّجر والاختصاص معنى معقول.

وثالثها: أن يكونا حسيّين ويكون الجامع بعضه حسيّاً وبعضه عقليّاً كقولك رأيت شمساً وأنت تريد إنساناً في حسن الطلعة وعلوّ الشّأن فحسن الطلعة حسّي وعلوّ الشّأن عقليّ.

ورابعها: أن يكون الطرفان عقليّين والجامع أيضاً عقليّاً مثل قوله تعالى:

﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا﴾ [يس: ٥٢].

فإنّ المستعار منه الرّقاد أي النّوم والمستعار له الموت والجامع بينهما عدم ظهور الفعل والجميع عقليّ.

وخامسها: أن يكون المستعار منه حسيّاً والمستعار له عقليّاً ولا بدّ أن يكون الجامع أيضاً عقليّاً كقوله تعالى:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

فإن المستعار منه صدع الزّجاجة وهو كسرها وهو حسّي، والمستعار له تبليغ الرّسالة وهو عقليّ والجامع لهما وهو التّأثير أيضاً عقليّ، وكقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ ج (٣): «يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ» استعار السّيل للعلوم الفائضة منه ﷺ على الموادّ القابلة، والجامع أن الأوّل فيه حياة الأجسام والثّانية فيها حياة الأرواح والحياة معنى معقول، وكقوله ﷺ في هذا المختار أيضاً:

«وَطَفِقْتُ أَرْتَأي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَىٰ طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ».

فقد استعار اليد الجذاء لعدم النّاصر والجامع عدم التمكّن من التصرف والصّولة بهما وكذلك استعار لفظ الطخية وهو الظلمة لاقتباس الأمور بجامع أنّ الظلمة كما لا يهتدي فيها للمطلوب كذلك لا يهتدي حين التباس الأمور واختلاطها إلى نهج الحقّ.

وسادسها: عكس السّابق والجامع أيضاً عقليّ كقوله سبحانه:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

فإنّ المستعار له كثرة الماء وهو حسّي والمستعار منه التكبّر والجامع الاستعلاء المفرط وهما عقليّان، ونظيره قول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ ص (٩٠) في وصف دحو الأرض على الماء:

«وَسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً في لُجَّةِ تَيَّارِهِ وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَاعْتِلائِهِ وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوائِهِ».

فقد استعار نخوة بأد الماء وشموخ أنفه لكثرة تلاطمه وتراكم أمواجه والمستعار منه الافتخار والتكبّر والترفّع وهو عقلي والجامع الاستعلاء المفرط أيضاً.

التقسم الثاني

أن اللّفظ المستعار إن كان اسم جنس كأسد وقيام وقعود ونحوها سمّيت الاستعارة أصلية، وإلاّ فتبعيّة كالفعل وسائر المشتقات والحرف وقد تقدّم تحقيق ذلك في المسألة السّابعة من مسائل المجاز فتذكر، إلاّ أنّه ينبغي أن يعلم أن التشبيه إن قدّر لمعنى المصدر في المشتقات ولمتعلّق معنى الحروف فحينئذٍ يتحقّق الاستعارة التّبعيّة، وإن قدّر فيما أسند إليه الفعل وفي مدخول الحرف فيكون حينئذٍ استعارة مكنيّة، مثلاً إذا قلت: نطقت الحال بكذا فإن قدّرت تشبيه دلالة الحال بنطق النّاطق فهي استعارة تبعيّة، وإن قدّرت تشبيه الحال بالإنسان المتكلم وجعلت نطقت قرينة فالاستعارة مكنيّة، وإثبات النّطق تخييل كالأظفار في أظفار المنيّة وهكذا في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

إن قدّر التشبيه في متعلق معنى الحرف كالعلية والعرضيّة فالاستعارة تبعيّة، وإن قدر في المجرور بأن اضمر تشبيه العداوة بالعلة الغائية ودلّ عليه بذكر ما يخص المشبّه به ـ وهو لام التّعليل ـ فالاستعارة مكنيّة، إذ لم يذكر من أركان التشبيه سوى المشبّه ودلّ على التّشبيه بذكر ما يخص المشبّه به وهو معنى الاستعارة المكنية، حسبما تعرفه إن شاء الله.

التقسيم الثالث

أنّ طرفيها أعني المستعار منه والمستعار له إن أمكن اجتماعهما تسمّى وفاقيّة، لما بين الطرفين من الوفاق مثل قوله تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أي ضالاً فهديناه، فقد استعير الأحياء من معناه الحقيقي وهو جعل الشيء حيّاً للهداية التي هي الدّلالة على طريق يوصل إلى المطلوب والاحياء والهداية ممّا يمكن اجتماعها في شيء، ونحو قوله عليه السلام في المخ قلج (١٣٣):

«وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَىٰ بَصَرِ الأَعْمَىٰ لاَ يُبْصِرُ مِمَا وَرائَها شَيْئاً، وَالْبَصِيرُ يَنفُذُهَا بَصَرُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرائَها، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شاخِصٌ، والأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شاخِصٌ، وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتزَوِّدٌ، وَالأَعْمَىٰ لَها مُتزَوِّدٌ» .

فقد استعار لفظ البصير للعاقل، والأعمى للجاهل، واجتماع البصر والعقل كالعمى والجهل ممكن والجامع واضح، وإن لم يمكن اجتماعهما تسمّى عناديّة لتعاند الطرفين، وذلك كاستعارة الموجود للمعدوم، إذا فقد الموجود وبقيت آثاره الجميلة التي تحيي ذكره، وتديم في النّاس اسمه، وكاستعارة المعدوم للموجود لعدم غنائه وانتفاء منفعته، ومنه استعارة اسم الميّت للحيّ الجاهل كما في قوله ﷺ في المخ فو (٨٦): **«فَذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيآءِ»**.

فإن الموت والحياة ممّا لا يمكن اجتماعهما في شيء هذا.

ومن العناديّة التهكميّة والتّمليحيّة، وهما ما استعمل في ضدّه أو نقيضه تنزيلاً للتّضاد والتناقض منزلة التّناسب بواسطة تهكم أو تمليح على ما مرّ في باب التّشبيه نحو قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] أي أنذرهم.

استعيرت البشارة التي هي الأخبار بما يسرّ للإنذار الذي هو ضدّه بإدخاله في جنسها على سبيل التّهكم، وكذلك قوله: رأيت أسداً وأنت تريد جبانا على سبيل التمليح والظرافة والاستهزاء.

التقسيم الرابع

أنّ الجامع بين طرفيها إمّا داخل في مفهومهما مثل قول النبي ﷺ.

«خَيْرُ النّاسِ رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعَنانِ فَرَسِهِ كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً طَار إِلَيْهَا، أَوْ رَجُلٌ في شَعَفةٍ في غُنيمَةٍ وَيَعْبُدُ اللَّهَ حَتّى يأْتِيَهُ الْمَوْتُ».

فقد استعار الطيران للعدو والجامع بينهما وهو قطع المسافة بسرعة داخل في مفهومهما وإن كان في الطيران أقوى منه في العدو، وإمّا غير داخل كما في استعارة الأسد للرّجل الشّجاع.

التقسيم الخامس

أنّها باعتبار الجامع إمّا عاميّة وهي المبتذلة، لظهور الجامع فيها نحو رأيت أسداً يرمي، أو خاصيّة وهي الغريبة التي لا يظفر بها إلاّ من ارتفع عن طبقة العامة، والاستعارات الواردة في التّنزيل وفي كلام أمير المؤمنين ﷺ كلها أو جلها من هذا القبيل، ثم الغرابة قد تكون في نفس الشّبه بأن يكون تشبيهاً فيه نوع غرابة، كقول يزيد بن مسلمة في وصف الفرس

بأنّه مؤدّب، وأنّه إذا نزل عنه وألقي عنانه في قربوس سرجه وقف مكانه إلى أن يعود إليه.

وإذا احتبى قربوسهُ بعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزّائر

شبّه هيئة وقوع العنان في موقعه من قربوس السّرج بهيئة وقوع الثّوب في موقعه من ركبتي المحتبي، فاستعار الاحتباء وهو أن يجمع الرّجل ظهره وساقيه بثوب أو غيره لوقوع العنان في موقعه فجاءت الاستعارة غريبة لغرابة الشّبه، وقد تحصل الغرابة بتصرف في الاستعارة العاميّة كما في قوله:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وَسالت بأعناق المطيّ الأباطح

استعار سيلان السّيول الواقعة في الأباطح لسير الإبل سيراً حثيثاً في غاية السّرعة المشتملة على لين وسلاسة، والشّبه فيها ظاهر عامي لكنّه قد تصرف فيه بما أفاد اللطف والغرابة إذ أسند الفعل أعني: سالت إلى الأباطح دون المطيّ وأعناقها، حتّى أفاد أنّه امتلأت الأباطح من الإبل، وأدخل الأعناق في السّير لأن السّرعة والبطؤ في سير الإبل يظهران غالباً في الأعناق ويتبيّن أمرهما في الهوادي وسائر الأجزاء ليستند إليها في الحركة ويتبعها في الثقل والخفة.

التقسيم السادس

أنّها إمّا مطلقة أو مرشحة أو مجرّدة.

فالمطلقة ما لم تقترن بصفة ولا تفريع يلائم المستعار منه أو المستعار له نحو عندي أسد، والمراد بالصّفة الصّفة المعنوية لا النّعت النحوي الذي هو أحد التّوابع.

والمرشحة ما قرن بما يلائم المستعار منه كقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

استعير الاشتراء للاستبدال، ثمّ فرّع عليها ما يلائم الاشتراء من الرّبح والتجارة ومثل قوله عليه السلام في المخ ج (٣): «يَنحَدِرُ عَنّي السَّيلُ» فقد استعار السّيل للعلم وقرنه بما يلائم المستعار منه أعني الانحدار، وقوله عليه السلام في المخ هـ (٥):

«أفلَحَ مَن نَهَضَ بِجَناحٍ».

استعير الجناح للأعوان والأنصار، وقرن بما يلائم المستعار منه وهو النّهوض.

والمجرّدة ما قرن بما يلائم المستعار، كقوله عليه السلام في المخ ب (٢): في وصف النبي صلى الله عليه وآله:

«أرْسَلَهُ بِالدّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأثُورِ».

فقد استعار العلم وهو الجبل ونحوه يستدل به على الطريق ويهتدي به إليه للدين باعتبار الاهتداء به إلى حظائر القدس، وقرنه بما يلائم المستعار له حيث وصفه بالمأثور أي المنقول قرناً بعد قرن، أو المختار المقدّم على سائر الأديان، وقد يجتمع التجريد والترشيح، كقوله زهير:

لدي أسد شاكي السّلاح مقذّف   له البد أظفارهُ لم تقلم

فقوله: شاكي السّلاح تجريد لأنّه ملائم للمستعار له أعني الرّجل الشجاع، وقوله: مقذّف إلى آخر البيت ترشيح لأنه ملائم للمستعار منه أعني الأسد الحقيقي هذا.

والترشيح أبلغ من الإطلاق والتجريد ومن جمع التجريد والترشيح، لاشتماله على تحقيق المبالغة في التّشبيه لأن في الاستعارة مبالغة في التشبيه، فترشيحها وتزيينها بما يلائم المستعار منه تحقيق لذلك وتقوية له، ومبنى الاستعارة على تناسي التشبيه وادّعاء أن المستعار له عين المستعار منه لا شيء مشبه به حتى إنّه يبني على علوّ القدر ما يبني على علوّ المكان، كقول أبي تمام:

ويصعدُ حتّى يظن الجهول   بأنّ له حاجة في السّمآء

فإنّه استعار الصّعود لعلوّ القدر، ثم بنى عليه ما يبني على علوّ المكان والارتقاء إلى السّماء من ظن الجهول أنّ له حاجة في السّماء، فلولا أن قصده أن يتناسى التشبيه ويصرّ على إنكاره فجعله صاعداً في السّماء من حيث المسافة المكانية لما كان لهذا الكلام وجه، ومن هذا الباب قوله:

قامت تظلّلني ومن عجب   شمس تظلّلني من الشّمس

فلولا أنّه أنسى نفسه أنّ هيهنا استعارة لما كان لهذا التعجب معنى.

التقسيم السابع

الجامع في الاستعارة إن كان أمراً واحداً كما في قولك: رأيت أسداً فهي استعارة في المفرد، وإن كان منتزعاً من أمور متعددة يتقيد بعضها ببعض فهي استعارة تمثيلية، كما يقال للمتردّد في أمر: إنّي أراك تقدّم رِجْلاً وتؤخر أخرى، فإنّه شبه صورة تردّده بصورة تردّد من قام ليذهب في أمر فتارة يريد الذّهاب فيقدّم رجلاً وتارة لا يريد فيؤخر أخرى، فاستعمل الكلام الدّال على هذه الصّورة في تلك الصّورة، والجامع وهو الإقدام تارة والإحجام أخرى منتزع من عدة أمور، ومثله قوله ﷺ في المخ سه (٦٥):

«فَإِنَّ الشَّيطَانَ كامِنٌ في كِسْرِهِ قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً».

شبّه ﷺ هيئة تردّد معاوية أو عمرو بن العاص في الإقدام في القتال لطمع الخلافة أو طمع مصر، والإحجام أخرى بما فيهما من الجبن والفشل بهيئة تردّد من يريد أمراً فيثب تارة وينكص أخرى.

التقسيم الثامن

إذ تحقق معنى الاستعارة حسّاً أو عقلاً سمّيت تحقيقية، لتحقق معناها في الحسّ أو العقل.

فالأول كقوله: لدي أسد شاكي السّلاح مقذّف فإن الأسد استعارة للرّجل الشجاع وهو أمر متحقق حسّاً، وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ (١):

«فَأَجْرَىٰ فِيها سِرَاجاً مُسْتَطِيراً».

استعار السّراج للشّمس وهي حسيّة أيضاً.

والثاني كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء: ١٧٤].

فإنّ النّور مستعار للبيان الواضح وهو أمر متحقق عقلاً، وكقوله أيضاً:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

أي الدّين الحقّ وهو ملة الإسلام، وهذا أمر عقلي أيضاً، ومثله قوله ﷺ في المخ ب (٢):

«أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ، وَالعَلَمِ المَأْثُورِ، وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللاَّمِعِ، وَالأَمْرِ الصَّادِعِ».

فقد استعار العلم للدّين والنّور والضّياء لعلم النبوّة، والصّادع من صدع الزّجاجة وهو كسرها للفصل بين الحقّ والباطل، وجميعها أمور محقّقة عقلاً.

وقد يضمر التشبيه في النّفس فلا يصرّح بشيء من أركان التّشبيه سوى المشبّه، ويدلّ على ذلك التشبيه المضمر في النّفس بأن يثبت للمشبّه أمر مختصّ بالمشبّه به من غير أن يكون هناك أمر متحقّق حسّاً أو عقلاً فيسمّى ذلك التشبيه المضمر استعارة بالكناية، ويسمّى ذلك الأمر المختصّ بالمشبّه به للمشبّه استعارة تخييلية، لأنّه يخيل أنّه من جنس المشبّه به، ثم ذلك الأمر المختص بالمشبّه به على قسمين:

أحدهما: ما لا يكمل وجه التشبيه في المشبّه به بدونه، **والثاني**: ما يكون قوام وجه الشبه في المشبّه به.

فالأوّل كقول أبي ذويب الهذلي:

وَإِذ المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفعُ

شبّه المنيّة في نفسه بالسّبع في اغتيال النّفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقه بين نفّاع وضرار ولا رقة لمرحوم ولا بقيا على ذي فضيلة، فأثبت لها الأظفار التي لا يكمل ذلك الاغتيال في السّبع بدونها تحقيقاً للمبالغة في التشبيه، فتشبيه المنيّة بالسّبع استعارة بالكناية، وإثبات الاظفار للمنيّة استعارة تخييليّة، ومثله قوله ﷺ في المخ فد (٨٣):

«فكَأنَ قَدْ عَلَقِتْكُمْ مَخالِبُ الْمَنِيّةِ». وفي المخ رب (٢٠٢).

«وَاعْلَمُوا أنَ مَلاَحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَآئِبَةٌ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِها وَقَدْ نَشِبَتْ فيكُمْ». والثاني كقوله:

فلئن نطقت بشكر برّك مفصحاً فلسانُ حالي بالشكاية أنطق

شبه الحال بإنسان متكلم في الدّلالة على المقصود، وهذا هو الاستعارة بالكناية، ثم أثبت للحال اللسان الذي به قوام الدّلالة في الإنسان المتكلم، وهذا هو الاستعارة التّخييلية، ومثله قوله ﷺ في المخ قب (٨٢):

«حَتى إذَا أَنِسَ نافِرُها، وَاطْمَئَنَّ ناكِرُها، قَمَصَتْ بِأرْجُلِهَا وَقَنَصَتْ بأَحْبُلِها، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا».

فإنّه شبّه الدّنيا تارة بالدّابة القامصة الممتنعة من الرّكوب، فأثبت لها الأرجل التي بها تحقق القمص والامتناع، وشبّهها أخرى بالقنّاص الصّياد، فأثبت لها الأحبل التي لا يمكن الصّيد إلاّ بها، وشبّهها ثالثة بالرّامي فأضاف إليها السّهم الذي به قوام الرّمي وتحقّقه.

تنبيهات الأول

أنّ ما ذكرناه في تفسير الاستعارة بالكناية والتخييليّة إنّما هو على مذهب صاحب **(الإيضاح)**، وقد خالف في ذلك صاحب **(المفتاح)** وغيره، ولا بأس بالإشارة الإجماليّة إلى ذلك وإن كانت كتب البيان كافلة به.

فأقول: لا خلاف بين أرباب البلاغة وقد اتفقت كلمتهم على أنّه إذا شبّه أمر بآخر من غير تصريح بشيء من أركان التّشبيه سوى المشبه ودلّ على التّشبيه بذكر ما يخصّ بالمشبّه به كان هناك استعارة بالكناية، لكن اضطرب أقوالهم، فذهب السّلف ومنهم الشيخ عبد القاهر والزّمخشري إلى أنّ الاستعارة بالكناية هو المشبّه به المتروك المرموز إليه بذكر لوازمه وقد استعير للمشبّه في النّفس.

قال العلامة التّفتازاني: ومعناها المأخوذ من كلام السّلف هو أن لا يصرّح بذكر المستعار، بل يذكر رديفه ولازمه الدّال عليه، فالمقصود بقولنا: أظفار المنيّة استعارة السّبع للمنيّة كاستعارة الأسد للرّجل الشّجاع، إلاّ أنّا لم نصرّح بذكر المستعار أعني السّبع بل اقتصرنا على ذكر لازمه لينتقل منه إلى المقصود كما هو شأن الكناية، فالمستعار هو لفظ السّبع الغير المصرّح به، والمستعار منه هو الحيوان المفترس، والمستعار له هو المنيّة[1].

وقال الشّارح البحراني: وأما الاستعارة بالكناية فهو أن يذكر بعض لوازم المستعار للتنبيه عليه دون التصريح بذكره كقول أبي ذويب:

«وإِذِ الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَها»، فكأنه حاول استعارة السّبع للمنيّة، لكنّه لم يصرّح بها بل ذكر بعض لوازمها تنبيهاً بها على المقصود هذا.

وذهب السّكاكي إلى أنّها أي الاستعارة بالكناية هو لفظ المشبه المستعمل في المشبّه به بادّعاء أنّه عينه، فعلى هذا المستعار في بيت الهذلي هو لفظ المنيّة، والمستعار منه الموت، والمستعار له هو السّبع، فقد دار يد بالمنيّة السّبع بادّعاء السّبعيّة لها بقرينة إضافة الأظفار التي هي من خواص السّبع إليها.

وذهب الخطيب صاحب **(الإيضاح)** إلى أنّها التّشبيه المضمر في النفس فوجه تسميتها بالاستعارة على هذا القول غير ظاهر، وأمّا الكناية فلأنّه لم يصرّح بالمشبه به، بل إنّما دُلّ عليه بذكر خواصّه ولوازمه، وقد يقال: إنّما سمّي استعارة بناء على أنّه شبّه الاستعارة في صفة وهي ادّعاء دخول المشبّه في جنس المشبّه به، وأمّا على القولين الأولين فجهة التّسمية واضحة هذا.

وتحقيق الحقّ من هذه الأقوال مع ما يتفرّع عليها من الفروع والثّمرات ممّا لا يساعده المجال، وإنّما ينبغي أن يعلم أنّ الاستعارة المكنى عنها والاستعارة التّخييليّة متلازمان في الكلام على مذهب صاحب **(الإيضاح)** لا يتحقّق أحدهما بدون الآخر، لأن التخييليّة لا بدّ أن تكون قرينة للمكنيّة، والمكنيّة لا بدّ أن تكون قرينتها التّخييلية.

وقد حكى في **«شرح التلخيص»** عن السّكاكي أنّه صرّح بأن عدم انفكاك المكنّى عنها عن التّخييلية هو مذهب السّلف.

وأمّا الزّمخشري فالمستفاد من كلامه عدم استلزام المكنّية للتّخييليّة، وجواز كون قرينتها استعارة تحقيقية تبعيّة، قال في تفسير قوله تعالى:

---

(١) البرهان للزركشي: ٤٣٨، ومختصر المعاني: ٢٤٠.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧].

النّقض الفسخ وفك التركيب، فإن قلت: من أين ساغ النّقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين، ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة:

يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها فنخشى أن الله إن أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك(١).

وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشّيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه فينبّهوا بتلك الرّمزة على مكانه، ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه النّاس، ولم تقل هذا إلا وقد نبّهت على الشّجاع والعالم بأنّهما أسد وبحر انتهى.

فقد دلّ كلامه على أنّ قرينة الاستعارة المكنيّة في عهد الله هي الاستعارة التّحقيقية أعني استعارة النقض لإبطال العهد.

وأمّا السّكاكي فقد قال التفتازاني في «شرح التلخيص» أنه لا تلازم عنده بينهما أصلاً، بل توجد التخييليّة بدونها ولهذا مثّل لها بنحو أظفار المنيّة الشّبيهة بالسّبع، ولسان الحال الشّبيهة بالمتكلّم، وزمام الحكم الشّبيهة بالنّاقة، فصرّح بالتّشبيه لتكون الاستعارة في الأظفار فقط من غير استعارة بالكناية، وتوجد هي أي الاستعارة بالكناية بدون التّخييليّة كما صرّح به في المجاز العقلي حيث قال: إن قرينة المكنى عنها إما أمر مقدّر وهميّ كالأظفار في أظفار المنيّة، ونطقت في نطقت الحال، أو أمر محقق كالإنبات في قولك أنبت الرّبيع البقل، والهزم في هزم الأَمير الجند.

التنبيه الثاني

المستفاد من كلام صاحب (الإيضاح) أنّ لفظ الأظفار والمنيّة في قوله: أنشبت المنيّة أظفارها، حقيقة مستعملة في المعنى الموضوع له، وليس في الكلام مجاز لغوي، وإنّما المجاز إثبات شيء لشيء ليس هو له، وهذا عقلي كاثبات الإنبات للرّبيع، وعلى هذا فلا يجوز عدّ الاستعارة بالكناية والتّخييليّة في عداد أقسام الاستعارة بقول مطلق إلاّ استطراداً، لأنّ الاستعارة حسبما تقدم تعريفها مجاز علاقتها المشابهة، ويستفاد من الشيخ عبد القاهر أيضاً كون الاستعارة التّخييلية في معناها الحقيقي حيث قال في قول لبيد:

(١) غريب الحديث: ١/ ٩١، وتفسير جوامع الجامع: ١/ ٨٩.

وغـداة ريـح قـد كـشـفـت وقـرّة إذ أصـبـحـت بـيـد الـشـمـال زمـامـهـا

لا خلاف في أنّ لفظ اليد استعارة مع أنه لم ينقل عن شيء إلى شيء، إذ ليس المعنى على أنه شبّه شيئاً باليد وإنّما المعنى على أنّه أراد أن يثبت للشّمال يداً.

وأمّا صاحب (**المفتاح**) فمذهبه أن المكنية والتّخييليّة كليهما من المجاز اللغوي لأنّه على ما حكى عنه في (**التلخيص**) وشرحه قد قسم المجاز اللّغوي إلى الاستعارة وغيرها، وقسّمها إلى المصرّح بها والمكنّى عنها، وعنى بالمصرّح بها أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبّه به، وجعل منها تحقيقيّة وتخييليّة، وفسّر التّحقيقية بأن يكون المشبّه المتروك محقّقاً حسّاً أو عقلاً، والتّخييلية بما لا تحقق لمعناه حسّاً ولا عقلاً، بل هو صورة وهميّة محضة كلفظ الأظفار في قول الهذلي، فإنّه لما شبّه المنيّة بالسّبع في الاغتيال أخذ الوهم في تصويرها بصورته، واختراع لوازمه لها، واخترع لها مثل صورة الأظفار المحققة، ثم أطلق عليه لفظ الأظفار فيكون استعارة مصرّحة، لأنه قد أطلق اسم المشبّه به وهو الأظفار المحققة على المشبّه وهو صورة وهميّة شبيهة بصورة الأظفار المحقّقة، والقرينة إضافتها إلى المنية، وعنى بالمكنّى عنها أن يكون الطرف المذكور هو المشبّه، على أنّ المراد بالمنيّة السّبع بادّعاء السّبعيّة لها بقرينة إضافة الأظفار إليها، فقد ذكر المشبّه أعني المنيّة وأُريد به المشبّه به وهو السّبع، فقد ظهر بذلك أنّهما عنده مجازان لغويان وإن رده صاحب (**الإيضاح**) بما لا مهمّ بنا إلى نقله.

التنبيه الثالث

إذا اجتمع لازمان في الكلام للمشبّه به فأيّهما كان أقوى اختصاصاً وتعلّقاً به فإثباته تخييل، وأيّهما كان دونه فإثباته ترشيح، فعلى هذا ففي قوله:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها يكون إثبات الأظفار للمنيّة تخييلاً لكونها أقوى اختصاصاً وتعلقاً بالسّبع، وإثبات الإنشاب ترشيحاً لأنّه دونها، وينبغي أن يعلم أنّ التّرشيح لا يختصّ بالاستعارة بالكناية، بل قد يكون ترشيحاً للاستعارة المحقّقة كما في قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

على ما قدّمنا في التّقسيم السّادس للاستعارة.

وقد يكون ترشيحاً للمجاز العقلي وهو ذكر ما يلائم ما هو له كالإنشاب لإثبات الأظفار للمنيّة في: أنشبت المنيّة أظفارها على مذهب صاحب (**الإيضاح**).

وقد يكون ترشيحاً للمجاز اللّغوي وهو ذكر ما يلائم المعنى الحقيقي كما في قوله صلى الله عليه وآله:

«أَسْرَعُكُنَّ لُحُوقاً بي أَطْوَلُكُنَّ يَداً»(١).

فإن «أطولكنّ» ترشيح للمجاز أعني اليد المستعملة في النّعمة.

وقد يكون ترشيحاً للتّشبيه وهو ذكر ملائم للمشبّه به مثل أظفار المنيّة الشبيهة بالسّبع أهلكت فلاناً.

وقد يكون ترشيحاً للتّورية وهو ذكر ما يلائم الموريّ به وستعرف تفصيله إن شاء الله في بحث التّورية.

وقد يكون ترشيحاً للطباق وهو أن تأتي بلفظ يؤهل غيره لإبداع المطابقة بينه وبينه، كقول أبي الطيب:

وَخفُوقُ قلبي لو رَأَيتَ لهيبهُ ... يا جنّتي لرأيت فيه جهنّما

فقوله: يا جنّتي رشّحت لفظة جهنّم للمطابقة.

قيل: وقد يكون ترشيحاً للاستخدام، كقول أبي العلا في صفة الدّرع:

تلك ماذية وما لذباب الصّيف ... وَالسّيف عندها من نصيب

فإن ذكر السّيف رشح الذّباب لاستخدامه بمعنى طرف السّيف، لولاه لانحصر في معنى الطائر المعروف.

أقول: وفيه نظر، لأنه ليس من الإستخدام في شيء، لعدم صدق تعريف الإستخدام عليه حسبما تعرفه في بحث الإستخدام، إذ لم يرد بالذّباب إلا الطائر المعروف، وليس هنا ضمير يعود إليه باعتبار معناه الآخر أعني طرف السّيف فإن قلت: قد عطف السّيف على الصّيف فأريد من الذّباب بالنّسبة إلى المعطوف عليه أحد المعنيين وبالنّسبة إلى المعطوف المعنى الآخر، قلت: هذا توهم فاسد، لاستلزامه استعمال اللفظ المشترك في معنييه وهو غير جائز على مذهب المحقّقين حسبما قدمناه فيما سبق، فاللازم عطف السّيف على الذّباب فافهم جيّداً.

الفصل الثالث

في الكناية وفيها بحثان.

(١) كنز العمال: ٦/ ٣٤٢، والطبقات الكبرى: ٨/ ١٠٨.

البحث الأول

في حقيقتها، فاعلم أنّها في اللّغة مصدر كنيت بكذا عن كذا وكنوت إذا تركت التّصريح به، وفي الاصطلاح تطلق تارة على فعل المتكلم أعني ذكر الملزوم وإرادة اللازم مع جواز إرادة الملزوم معه، وأخرى على نفس اللّفظ المراد به لازم معناه كذلك، كقولك: فلان طويل النجاد، المراد به طول القامة الذي هو لازمه مع جواز أن يراد حقيقة طول النّجاد أيضاً وهذه هي الكناية في المفرد.

وأمّا في المركب فهو أن يقصد إثبات معنى من المعاني لشيء فيترك التّصريح بإثباته له ويثبت لمتعلقه كقوله:

إنّ المروّة والسّماحة والنّدى في قبّة ضربت على ابن الحشرج

أراد إثبات اختصاص الممدوح بهذه فترك التّصريح بأن يقول: إنّه مختص بها أو نحوه إلى الكناية، بأن جعلها في قبّة ضربت عليه، ونحوه قولهم: المجدبين ثوبيه والكرم بين برديه، ومثاله في جانب النّفي قول من يصف الخمر:

صفراء لا تنزل الأَحزان ساحتها لو مسّها حجر مسّته سرّاءِ

حيث كنّى عن نفي الحزن عنها بنفيه عن ساحتها وفضاها، وقول الآخر يصف امرأة بالعفّة:

تبيت بمنجاة من اللّوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت

فتوصل إلى نفي اللوم عنها بنفيها عن بيتها، وينبغي أن يعلم أنّ المراد بالملازمة في باب الكناية ليس استحالة الانفكاك أي الملازمة العقلية، وإنّما التعلق والارتباط في الجملة، وإلاّ لانتقض بكثير ممّا جعلوه منها.

ثم الكناية إن لم يكن الانتقال منها إلى المطلوب بواسطة، فقريبة كقولك كناية عن طول القامة: طويل النّجاد، وإن كان بواسطة فبعيدة كقولهم كناية عن المضياف: كثير الرّماد، فإنّه ينتقل من كثرة الرّماد إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدر، ومنها إلى كثرة الطبايخ، ومنها إلى كثرة الأكلة، ومنها إلى كثرة الضّيفان، ومنها إلى المقصود وهو المضياف، وبحسب قلة الوسائط وكثرتها تختلف الدلالة على المقصود وضوحاً وخفاءً، والموصوف فيها قد يكون مذكوراً كما مرّ، وقد يكون محذوفاً كما يقال في التّعريض بمن يؤذي المسلمين:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[1].

---

(١) السرائر: ٣/٦١٨، وأمالي الطوسي: ٢٧١.

فإنّه كناية عن نفي صفة الإسلام عن الموذي، وهو غير مذكور في الكلام.

قال بعض الأفاضل: ولا يعدل من التّصريح إلى الكناية إلاّ بسبب، ولها أسباب.

أحدها: قصد المدح كأكثر الأَمثلة المتقدّمة.

الثاني: قصد الذّم كقولهم كناية عن الأبله: عريض القفا، فإن عرض القفا وعظم الرّأس ممّا يستدلّ به على بلاهة الرّجل.

الثالث: ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه كقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣].

فكنّى بالنّعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك الأنّ ترك التّصريح بذكر النساء أجمل، ولذا لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلاّ مريم عليها السّلام.

قال السّهيلي: وإنّما ذكرت باسمها على خلاف عادة الفصحاء لنكتة، وهي أنّ الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملاء ولا يبتذلون أسمائهن، بل يكتفون عن الزّوجة بالعرس والعيال ونحو ذلك، فإذا ذكروا الإماء لم يكنّوا عنهنّ ولم يصونوا أسمائهن عن الذّكر، فلما قالت النّصارى في مريم ما قالوا صرّح الله سبحانه باسمها ولم يكنّ تأكيداً للعبوديّة التي هي صفة لها، وتأكيداً لأنّ عيسى ﷺ لا أب له وإلاّ نُسب إليه.

الرّابع: أن يكون التّصريح ممّا يستهجن ذكره كما كنّى الله تعالى عن الجماع بالملامسة والمباشرة والافضاء والسرّ والدّخول والغشيان، وكنّى عن طلبه بالمراودة في قوله:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيۡتِهَا﴾ [يوسف: ٢٣].

وكنى عنه أو عن المعانقة باللباس في قوله:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وكنى عن البول ونحوه بالغائط في قوله:

﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣].

وأصله المكان المطمئن من الأرض، وكنّى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام في قوله في مريم وابنها:

﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وكنّى عن الاستاه بالأدبار في قوله:

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

الخامس: قصد المبالغة كقوله تعالى:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

كناية عن اشتداد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأنّ من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعضّ يده غمّاً فتصير يده مسقوطاً فيها لأنّ فاه قد وقع فيها.

السّادس: قصد الاختصار كالكناية عن ألفاظ متعدّدة بلفظ فعل نحو:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤].

إلى غير ذلك من الأسباب التي لا يضبطها الحصر انتهى[١].

أقول: ما ذكره من الأسباب لا بأس به إلاّ أن أكثر ما مثل به من قبيل الاستعارة أو التشبيه البليغ أو المجاز المرسل، وليس من باب الكناية كما هو غير خفيّ على النّاقد البصير.

البحث الثاني

في الفرق بينها وبين المجاز والتّعريض، أمّا الأوّل فقد قال البيانيّون: إن الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وأريد بها لازم معناها مع جواز إرادة أصل معناها معه، والمجاز أن تطلق لفظة وأريد بها معناها الموضوع له، فالفرق بينهما من جهة جواز إرادة المعنى الأصلي في الكناية وعدم جوازها في المجاز، وذلك لأن المجاز مستلزم لقرينة مانعة عن إرادة المعنى الحقيقي بخلاف الكناية، فلوجود القرينة المانعة في المجاز امتنعت إرادة المعنى الحقيقي، ولعدمها في الكناية جاز إرادته.

وأمّا الثّاني فقد فرق بينهما بوجوه: الأوّل ما عن صاحب **(الكشاف)** وهو أن الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتّعريض أن تذكر شيئاً تدلّ به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئت لأُسلّم عليك فكأنّه إمالة الكلام إلى عرض يدلّ على المقصود، ويسمّى التّلويح لأنّه يلوح منه ما يريده.

الثّاني: ما عن ابن الأثير في المثل السّائر وهو أنّ الكناية ما دلّ على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بينهما، وتكون في المفرد والمركب، والتّعريض هو

(١) البرهان للزركشي: ٢/٣٠٩.

اللّفظ الدّال على معنى لا من جهة الوضع الحقيقي أو المجازي، بل من جهة التلويح والإشارة، فيختص باللّفظ المركب، كقول من يتوقع صلة: والله إني محتاج، فإنّه تعريض بالطلب مع أنّه لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، وإنّما فهم منه المعنى من عرض اللفظ أي جانبه قال بعض الأفاضل في شرح قوله: فيختص باللفظ المركب: لأنّ الدّلالة على المعنى المعرّض به لما لم يكن من جهة الوضع الحقيقي والمجازي تعيّن أن يكون بالسّياق، فيظهر من ذلك الاختصاص.

الثالث: ما قاله السّكاكي حيث قال: الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، والمناسب للعرضيّة التّعريض، ولغيرها إن كثرت الوسائط التلويح، وإن قلّت مع خفاء الرّمز وبلا خفاء الإيماء والإشارة، يعني أنّ المطلوب بالكناية إن كان العرضيّة أي إثبات صفة لموصوف غير مذكور في الكلام أو نفيها عنه كقولك تعريضاً لمن يؤذي المسلمين: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، فإنّه كناية عن نفي صفة الإسلام عن المؤذي وهو غير مذكور في الكلام وكقولك في عُرض من يعتقد حلّ الخمر وأنت تريد تكفيره: أنا لا أعتقد حلّ الخمر، وهو كناية عن إثبات صفة الكفر له باعتقاده حلّ الخمر وهو غير مذكور أيضاً، فالمناسب حينئذٍ أن يطلق عليها اسم التّعريض، والمناسب لغير العُرضيّة مع كثرة الوسائط بين اللاّزم والملزوم كما في: كثير الرّماد وجبان الكلب التّلويح، لأنّ التّلويح أن تشير إلى غيرك من بُعد، ومع قلّة الوسائط وخفائها في اللزوم كعريض القفا وعريض الوسادة الرّمز، لأنّ الرّمز أن تشير إلى قريب منك بالخفية، لأنّه الإشارة بالشّفة والحاجب، ومع قلّتها ووضحها كما في قوله:

أَوَ مَا رَأَيتَ المَجدَ ألقَى رحلَهُ ... في آل طلحة ثمّ لم يتحوّل

الإيماء والإشارة.

الرّابع: ما ظهر لي من تتبع كلامهم وهو أظهر الوجوه: أنّ النّسبة بينهما هو العموم من وجه، فمادّة الاجتماع كقولك لمن يؤذي المسلمين: المسلم من سلم المسلمون آه، ومادة الافتراق من جانب الكناية كقولك: زيد كثير الرّماد أو طويل النّجاد، أو قلت: المؤمن هو غير المؤذي وأردت نفي الإيمان عن المؤذي مطلقاً من غير قصد تعريض بمؤذ معيّن، فهذه كلها كنايات من دون تعريض، ومادة الافتراق من جانب التّعريض هو أنّ التّعريض قد يكون بالمجاز كما نبّه عليه السّكاكي حيث قال: والتّعريض قد يكون مجازاً كقولك: آذيتني فستعرف، وأنت تريد إنساناً مع المخاطب دونه أي دون المخاطب وإن أردتهما أي جميعاً كان كناية: لأنك أردت ما للفظ المعنى الأصلي وغيره معاً، والمجاز ينافي إرادة المعنى الأصلي.

قال العلامة التّفتازاني: وتحقيق ذلك أنّ قولك: آذيتني فستعرف، كلام دالّ على تهديد

المخاطب بسبب الإيذاء، فإن استعملته وأردت به تهديد المخاطب وغيره من المؤذين كان كناية، وإن أردت تهديد غير المخاطب بسبب الإيذاء لعلاقة اشتراكه للمخاطب في الإيذاء إمّا تحقيقاً وإمّا فرضاً وتقديراً مع قرينة دالة على عدم إرادة المخاطب كان مجازاً هذا ولكثرة فوائد التّعريض ومزيد دورانه في كلام الإمام ﷺ نفرده بالبحث في المطلب الثّالث في ضمن المحسنات البديعيّة إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق.

المطلب الثالث

في ذكر بعض أقسام البديع للتّنبيه على ما لكلامه ﷺ من القدر الرّفيع، فأردت أن أعطيك محك النّقد وأرمي إليك زمام حلّ العقد حتى تعرف أنّ كلامه ﷺ مضافاً إلى أنّه منبت غصون الفصاحة، ومنبع عيون البلاغة، متضمّن لأنواع البديع كأنوار الرّبيع، وتظهر لك علوّ الجوهر والاعتبار بما نذكره من العيار، وتسهل لك العبور بسفينة المعرفة إلى ساحل بحر محسنات كلامه إذا خضت في غمار عمانه، وغصت على لآلئه وجمانه، واذكر لكلّ قسم منها مثالاً نثراً ونظماً من كلام الفصحاء والبلغآء البارعين، مشفوعاً بمثال من كلام أمير المؤمنين ﷺ.

فأقول: إن البديع علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة، وأقسام الوجوه المحسنة كثيرة، بعضها معنوية راجعة إلى تحسين المعنى بالأصالة وإن كان فيها مالاً يخلو من تحسين اللفظ، وبعضها لفظية كذلك.

فمنها حسن الابتداء والتخلص والانتهاء

قال أهل البيان ومشايخ البلاغة: ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيما يورده من كلامه في ثلاثة مواضع:

أحدها: الابتداء، فاللاّزم له أن يفتح كلامه بأعذب الألفاظ وأجزلها وأرقّها وأسلسها وأحسنها نظماً وسبكاً وأصحّها مبنى وأوضحها معنى وأخلاها من الحشو والركاكة والتعقيد والتّقديم والتّأخير الملبس، وذلك لأنّ مفتتح الكلام أوّل ما يقرع السّمع ويصافح الذّهن فإن كان حسناً جامعاً لما ذكرناه من الشروط أقبل السّامع على الكلام، فوعى جميعه، وإلاّ مجّه السمع وزجه القلب وإن كان الباقي في غاية الحسن، قالوا: وقد أتت جميع فواتح سور القرآن على أحسن الوجوه من البلاغة وأكملها كالتحميدات وحروف الهجاء والنّداء مثل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ويَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فإن مثل هذا الابتداء يوقظ السّامع للإصغاء إليه.

أقول: وأنت خبير بأنّ مطلع خطب أمير المؤمنين ﷺ ومفتتحها تالي كلام الرّب تعالى في هذا المعنى، فإنك إذا نظرت إلى فواتح خطبه وكلامه ﷺ جملها ومفرداتها رأيت من البلاغة والتفنّن وأنواع الإشارة ما يقصر عن بيانه وصف الواصفين، ونعت الناعتين هذا ومن حسن الابتداء في النّظم قول امرء القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل لسقط اللوى بين الدّخول فحومل

قالوا: وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في نصف بيت عذب اللفظ سهل السّبك إلا أنّه لم يتأتّ له ذلك في النصّف الثّاني، بل أتى فيه بمعان قليلة في ألفاظ غريبة، وأحسن من ذلك قول أبي الطيب المتنبي:

فديناك من ربع وَان زدتنا كرباً فانك كنت الشرق للشمس والغربا

وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرّسوم ولالباً

نزلنا من الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه ان نلمّ به ركباً

ثم اعلم أنّهم فرّعوا على حسن الابتداء براعة الاسهلال وهو أن يكون أوّل الكلام دالاً على ما يناسب حال المتكلم، متضمناً لما سيق الكلام لأجله من غير تصريح بل بألطف إشارة يدركها الذّوق السّليم والطبع المستقيم.

قال ابن المقفّع: ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشّعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته.

قال الجاحظ: كأنّه يقول: فرق بين صدر خطبة النّكاح وخطبة العيد وخطبة الصّلح حتّى يكون لكلّ فنّ من ذلك صدر يدلّ على عجزه، فإنّه لا خير في كلام لا يدلّ على معناك، ويشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت.

قالوا: والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن، فإنّها مشتملة على جميع مقاصده، وكذلك أوّل سورة اقرء، فإنّها مشتملة على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من البراعة، لكونها أوّل ما أنزل من القرآن، فإنّ فيها الأمر بالقراءة والبدأ فيها باسم الله، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرّب وإثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفة فعل، وفيها ما يتعلق بالأحكام، وما يتعلق بالأخبار، من قوله:

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

ولهذا قيل: إنّها جديدة أن تسمّى عنوان القرآن، لأنّ عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارات وجيزة في أوّله، فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ براعة الاستهلال في مطلع الكلام هو كونه

دالاً على ما بني الكلام عليه من مدح أو هجاء أو تهنئة أو عتاب أو توبيخ وتقريع أو بشارة أو نعي أو غير ذلك، فلو جمع المطلع بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان هو الغاية التي لا يدركها إلا مضلي هذه الجلبة والحالب من أشطر البلاغة أوفر حلبة، وهو كثير في كلام أمير المؤمنين ﷺ وأرشدك إلى موضع واحد وهو قوله ﷺ في المخ له(٢٥):

«الحَمدُ للهِ وإن أتى الدَّهرُ بالخطْبِ الْفادِحِ والْحَدثِ الجليلِ».

فإن هذا المطلع ينبئك عن عظم ما يتلوه من النبأ، وفي هذا المختار أنواع من البديع يكاد أن يكون سحراً حسبما أنبئك عليها، وفيه شهادة عظيمة على عظم شأن قائله سلام الله عليه، ومنه في النّظم قول أبي تمام يهنّي المعتصم بفتح قلعة عمورية وكان المنجمون زعموا أنها لا تفتح في هذا الوقت:

السّيفُ أصدَقُ إنباء من الكتب — في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعب
بيضُ الصّفائح لا سود الصّحائف في — متونهنّ جلاء الشّكّ والرّيب

وثانيها التخلص

وهو الخروج والانتقال ممّا افتتح به الكلام إلى المقصود على وجه سهل برابطة ملائمة وجهة جامعة يختلس به المقصود اختلاساً رشيقاً بحيث لا يتفطن السّامع للإنتقال من المعنى الأوّل إلاّ وقدر سخت ألفاظ المعنى الثّاني في السّمع وقرّ معناه في القلب، وإنّما كان ذلك من المواضع الثلاثة التي ينبغي للمتكلّم أن يتأنق فيها، لأن السّامع مترقب للإنتقال إلى المقصود كيف يكون، فإذا كان حسناً متلائم الطرفين حرّك من نشاط السّامع وأعان على إصغاء ما بعده وإلاّ فبالعكس.

وقد ينتقل من مفتتح الكلام إلى المقصود من غير ملائمة ويسمّى ذلك اقتضاباً وارتجالاً، ومنه ما يشبه التخلص في أنّه يشوبه شيء من الملائمة، كقولهم بعد الخطب: أما بعد، فإنّه اقتضاب من جهة أنّه انتقل من حمد الله والثّناء على رسوله إلى كلام آخر من غير رعاية ملائمة بينهما، لكنّه يشبه التخلص من جهة أنّه لم يؤت بالكلام الآخر فجأة من غير قصد إلى ارتباط وتعلّق بما قبله، بل قال: أمّا بعد، أي مهما يكن من شيء بعد الحمد فإنه كان كذا وكذا قصداً إلى ربط هذا الكلام بما سبق عليه.

إذا عرفت ذلك فأقول: إنّ الأقسام الثلاثة كلّها موجودة في كلام أمير المؤمنين ﷺ كثيرة فيه كما هو غير خفي على المتتبّع الخبير والنّاقد البصير، فمن حسن التخلص قوله ﷺ في المخ (١): «أنشأ الخَلْقَ إنشاءً» اه.

حيث إنه ﷺ بعدما افتتح الكلام بحمد الله وثنائه وذكر جملة من صفات الجلال

والجمال تخلص منه بما ذكرنا، وهو من صفات الفعل إلى كيفيّة ابتداء خلق المخلوقات المسوق له الكلام، فانظر فيه من الحسن ماذا ترى.

ومن الاقتضاب قوله ﷺ في المخ ق (١٠٠).

«الأوَّل قَبْلَ كُلِّ أوَّلٍ، وَالآخر بَعْدَ كُلِّ آخَرٍ بِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أنْ لاَ أوَّلَ لَهُ، وَبِآخَرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ آخَرَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إله إِلاَّ اللَّهُ شَهادَةً يُوافِقُ فيها السِرُّ الإعْلاَنَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ، أَيُّها النَّاسُ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقي» اه.

فإنّ الإنتقال من أوصاف الكمال والشّهادة بتوحيد الملك المتعال إلى قوله ﷺ: أيّها النّاس، انتقال من باب الارتجال.

ومن الاقتضاب الشّبيه بالتخلص قوله ﷺ في المخ له: (٣٥).

«أمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النّاصِحِ الشَّفِيقِ» اهـ. هذا.

ومن حسن التخلص في النّظم قول مسلم بن الوليد:

يقول صحبي وقد جدّوا على عجل ... والخيل تستنّ بالرّكبان في اللجم
أمغربُ الشمس تنوي أن تؤمّ بنا ... فقلتُ كلاّ ولكن مطلع الكرم

قال الصّفدي: وهذا في غاية الحسن التي تكبو الفحول دون بلوغها، وتعجز الشّعراء عن الظفر بحصونها، والتّحلي بموضوعها، ويقابل ذلك قبح التخلص، ومثاله ما حكي أن قيس بن ذريح حين طلق زوجته لُبْنَى فتزوّجت غيره، ثم ندم على طلاقها وكان مشغوفاً بها، فشبّب بها وما زال يشكو لوعة فراقها في أشعاره حتّى رحمه ابن أبي عتيق، فسعى في طلاقها من زوجها وأعادها إلى قيس فقال يمدحه ويشكره:

جزى الرَّحمنُ أَحسن ما يجازي ... على الإحسان خيراً من صديق
وقد جرّبت إخواني جميعاً ... فما ألفيتُ كابن أبي عتيق
سعى في جمع شملي بعد صدع ... وَرأي حدت فيه عن الطريق
وَأطفى لوعة كانت بقلبي ... أغصتني حرارتها بريق

فلما سمعها ابن أبي عتيق قال لقيس يا حبيبي: أمسك عن مدحك هذا فما يسمعه أحد إلاّ ظنّني قوّاداً.

ومن الاقتضاب في النّظم قول البختريّ:

ويوماً تثنت للوداع وسلمت ... بعينين موصول بلحظيهما السّحرُ

توهّمتها ألوي بأجفانها الكرى كرى النّوم ومالت بأعطافها الخمرُ
لعمرك ما الدّنيا بناقصة الجدى إذا بقي الفتح بن خاقان والبحرُ

وأما الانتهاء

فهو ثالث المواضع التي يلزم التّأنق فيها، وهو عبارة عن أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه الخطيب أو المترسّل أو الشّاعر مستعذباً حسناً، وأحسنه ما آذن بانتهاء الكلام حتّى لا يبقى للنّفس تشوّق إلى ما ورائه، وإنّما ينبغي التّأنق فيه، لأنّه آخر ما يقرع السّمع ويرتسم في النّفس، فإن كان مختاراً حسناً تلقاه السّمع واستلذّه حتّى جبر ما وقع فيما سبق من التقصير لو كان، كالطعام اللذيذ الذي يُتناول بعد الأطعمة التّفهة، وإن كان بخلاف ذلك كان على العكس، حتّى ربّما أنسى المحاسن الموردة فيما سبق، وجميع خواتم السّور كفواتحها وإردة على أحسن الوجوه من البلاغة وأكملها، فإنك إذا نظرت إليها وجدتها في غاية الحسن ونهاية الكمال، لكونها بين أدعيّة ووصايا ومواعظ وتحميد ووعد ووعيد، إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى للنّفوس بعدها تطلع وتشوّق إلى شيء آخر.

أقول: وتالي السّور الشّريفة في حسن الخاتمة الخطب الكريمة لأمير المؤمنين ﷺ ومن أحسن براعات الختام خاتمة المخ (١) حيث إنّه بعد ذكر وصف الحجّ ووجوبه ختمه بذكر آية الحج أعني قوله:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] الآية.

وكذلك خاتمة المخ له (٣٥) حيث إنّه ﷺ بعد توبيخ أصحابه على الخطأ في التحكيم، وتمرّدهم عن أمره مع عظم ما ترتّب على ذلك من الدّواهي ختمه بالتمثيل ببيت أخي هوازن، وهو قوله:

أمرتكمُ أمري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النّصح إلاّ ضحى الغد

وناهيك حسناً مختتم المخ مط (٣٩) المسوق لأوصاف الجمال والجلال حيث ختمه بقوله:

«تَعالَى الله عَمّا يقُولُ ٱلْمشَبِهونَ بِهِ والجاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبيراً.»

ومختتم المخ سه (٦٥) المسوق لحضّ أصحابه على الجهاد في صفّين، حيث ختمه بقوله:

«واللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَترِكُمْ أعْمالَكُم»

وأحسن ما آذن بالختام خاتمة المخ ص (٩٠): «فانظر ماذا ترى ثمة» ومن حسن

الخاتمة في النّظم ختام آخر قصيدة من القصائد العلويّات للشّارح المعتزلي:

سمعاً أمير المؤمنين قصائداً يعنو لها بشر ويخضع جرول
الدرّ من ألفاظها لكنّه دُر له ابن أبي الحديد مفصّل
هي دون مدح الله فيك وفوق ما مدح الورى وعلاك منها أكمل

ومنها الطباق

ويسمّى المطابقة والتّطبيق والتّضاد والتّكافؤ، وهو في اللغة مصدر طابق الفرس في جريه طباقاً ومطابقة إذا وضع رجليه مكان يديه، وفي الاصطلاح هو الجمع بين متضادّين أي معنيين متقابلين في الجملة، أعم من أن يكون تقابلهما تقابل التّضادّ، أو تقابل الإيجاب والسّلب، أو تقابل العدم والملكة، أو تقابل التّضايف، أو ما يشبه شيئاً من ذلك حسبما تعرفه في الأمثلة.

قالوا: ولا مناسبة بين معنى الطباق لغة ومعناه اصطلاحاً، لأنّ الجمع بين الضدّين ليس موافقة، والموافقة مأخوذة في معناه اللغوي.

وأبدى وجه المناسبة السّعد التّفتازاني، في شرح (المفتاح) حيث قال في محكي كلامه: وإنّما سمّي هذا النّوع مطابقة، لأن في ذكر المعنيين المتضادّين معاً توفيقاً وإيقاع توافق بين ما هو في غاية التّخالف كذكر الأحياء مع الإماتة والإبكاء مع الضّحك ونحو ذلك.

وكيف كان فهو على أقسام لأن الطباق إمّا بين المعنيين الحقيقيّين، أو المجازيّين، وإمّا لفظيّ أو معنويّ، وإما طباق إيجاب أو طباق سلب، وإمّا طباق جليّ أو طباق خفي.

الأوّل: الطباق بين الحقيقيين سواء كانتا اسمين كقوله تعالى:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ (١):

«ثُمّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأرضِ وَسَهْلِها وسَبْخِهَا وَعَذْبِها».

ومن النّظم قول أبي الحسن التّهامي:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيّام ضدّ طباعها متطلب في الماء جذوة نار

أو فعلين كقوله سبحانه:

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ يز (١٧):

«إِلَى اللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً وَيَمُوتُونَ ضُلاَّلاً».

ومن النّظم قول أبي صخر الهذلي:

أما والذّي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيى والذي أمره الأمر

أو حرفين كقوله تعالى:

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ يو (١٦) مخاطباً للأشعث:

«ما يُدْريكَ ما عَلَيَّ مِمّا لي».

ومن النّظم قول الشاعر:

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا عليّ ولا ليا

وقد اجتمع طباق الكلم الثلاث في قوله ﷺ في المخ نه (٥٥):

«لَكَانَ قَليلاً فيما أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ».

الثّاني: الطباق بين المجازيين، مثل قوله سبحانه:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أي ضالاً فهديناه، فإنّ الموت والأحياء معنييهما المجازيين متقابلان كتقابل معنييهما الحقيقيّين، وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قلج (١٣٣):

«فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شاخِصٌ، وَالأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شاخِصٌ، وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالأَعْمَىٰ لَها مُتَزَوِّدٌ».

فإنّ المراد بالأعمى الجاهل، وبالبصير العارف العاقل، وتقابل معنييهما المجازيين كالحقيقيّن واضح، ومثاله من النّظم قول التّهامي:

لقد أحيا المكارم بعد موت وشاد بنائها بعد انهدام

فإنّ الأحياء والموت والشّيد والانهدام متقابلة معانيها الحقيقية والمجازيّة، إذ المراد أنّه أعطى بعد أن منع النّاس كلهم.

الثّالث: الطباق المعنوي، وهو مقابلة الشّيء بضدّه في المعنى لا في اللفظ كقوله تعالى:

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥ ـ ١٦].

معناه ربّنا يعلم إنّا لصادقون، وقوله تعالى أيضاً:

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

قال أبو علي الفارسي: لما كان البناء رفعاً للمبني قوبل بالفراش الذي هو خلاف البناء، ونظيره قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ (١):

«مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٌ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٌ».

فإنّ المهاد لما كان عبارة عمّا يتهيأ للصّبي أعني المهد ولا يكون إلاّ تحته حسن مقابلة السّقف به الذي لا يكون إلاّ في الفوق، نعم إن فسّر المهاد بالفراش كما هو أحد معانيه لغة فهو حينئذٍ من الطباق اللفظي، ومثاله في النّظم قول هدبة بن الحشرم:

فإن تقتلوني في الحديد فإنّني ... قتلت أخاكم مطلقاً لم يقيّد

أي إن تقتلوني مقيداً، وهو ضد المطلق فطابق بيهما في المعنى.

الرّابع طباق السّلب وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد أحدهما مثبت والآخر منفي، أو أحدهما أمر والآخر نهي، فالأوّل كقوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ كز (٢٧):

«يُغارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ» وفي المخ لد (٣٢): « تُكَادُونَ وَلاَ تَكِيدُونَ».

ومن النّظم قول بعضهم:

خلقوا وما خلقوا لمكرمة ... فكأنّهم خلقوا وما خُلقوا

رزقوا وما رزقوا سماح يد ... فكأنّهم رزقوا وما رُزقوا

والرابع: نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ مب (٢٢):

«فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ ٱلآخِرَةِ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيا».

الخامس: الطباق الخفي وهو الجمع بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق، مثل السّببيّة واللزوم، نحو قوله سبحانه:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

فإنّ الرّحمة وإن لم تكن مقابلة للشدة، لكنّها مسبّبة عن اللين الذي هو ضدّ الشّدّة، وقوله أيضاً:

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

فإن ابتغاء الفضل وإن لم يكن مقابلاً للسّكون، لكنّه يسلتزم الحركة المضادّة للسّكون، ونظيرهما قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ ب (٢):

«فَالْهُدَى خائِلٌ، وَالْعَمىٰ شامِلٌ».

فإنّ العَمى ليس مقابل للهدى لكنّه سبب للضّلال المقابل له، وقوله ﷺ في المخ ق لب (١٣٢) : «**فَإِنَّهُ وَاللهِ الجدُّ لاَ اللّعِبُ. والحَقُّ لاَ الكَذِبُ**»

فإنّه لا تقابل بين الحقّ والكذب إلاّ أنّ الحقّ لما كان ملازماً للصّدق المقابل للكذب والكذب ملازماً للباطل المقابل للحقّ حسن المقابلة بينهما، ومثاله من النّظم قول أبي الطيب:

لمن تطلب الدّنيا إذا لم ترد بها ... سرور محبّ أو إساءة مجرم

فإنّ السّرور يتسبّب عن الإحسان المقابل للإساءة، فالحق بالطباق، وأمّا المطابقة بين المحبّ والمجرم فمن فساد الطباق، لأن ضدّ المحب هو المبغض لا المجرم، وقول الطغرائي:

وشان صدقك عند النّاس كذبهم ... وهل يطابق معوجّ بمعتدل

لأنّ المعوجّ إنّما يطابقه المستقيم والمعتدل يقابله المائل، لكن الاعتدال لازم للمستقيم المطابق للمعوج، ومن أملح الطباق وأخفاه قوله تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ومنها المقابلة

وهي أن يؤتَ بلفظين متوافقين معنى أو ألفاظ متوافقة المعاني ثم يؤتَ بما يقابلهما أو يقابلها على التّرتيب، والمراد بالتّوافق خلاف التقابل، لا أن يكونا متناسبين ومتماثلين، فإنّ ذلك غير مشروط كما تعرفه في الأمثلة، وجعلها صاحب «**التلخيص**» داخلة في الطباق لأنّها

جمع بين معنيين متقابلين في الجملة، وفرق بينهما زكي الدّين بن أبي الأصبع بوجهين: أحدهما أن الطباق لا يكون إلاّ بالأضداد والمقابلة تكون بالأضداد وبغيرها، ولكن الأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعاً، والثاني أنّ الطباق لا يكون إلاّ بين ضدّين فقط، والمقابلة لا تكون إلاّ بما زاد من الأربعة إلى العشرة.

أقول: محصّل الوجه الأوّل أنّ النّسبة بينهما عموم مطلق وأنّ المقابلة أعمّ، ومحصّل الوجه الثّاني أنّهما ضدّان، ويتوجه على الأوّل أنّه إن أراد بقوله: إنّ الطباق لا يكون إلاّ بالأضداد الأضداد الاصطلاحية فقد علمت في تعريف الطباق أنّه لا يختصّ بذلك، وإن أريد المتقابلات في الجملة ارتفع الفرق بينهما، وعلى الوجه الثّاني أن تخصيص مورد الطباق بالضدّين فقط لا وجه له، كما يشعر به كلمات البيانيين تصريحاً وتلويحاً، فقد عدّ المطرزي في «**شرح المقامات**» للحريري من أمثلة التّطبيق قوله سبحانه:

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢].

وقول بعض البلغاء: من أقعدته نكاية اللّئام أقامته إغاثة الكرام، ومن ألبسه اللّيل ثوب ظلماته نزعه النّهار بضيائه.

والتحقيق أن يقال: إنّ المتكلم إن أتى بلفظ ثم أتى بما يقابله ضدّاً كان أو غيره فهو مختصّ بأن يسمّىٰ بالطباق، وإن أتى بلفظين أو ألفاظ ثم بمقابلتها على التّرتيب فيجوز أن يطلق عليه اسم الطباق، وأن يطلق عليه اسم المقابلة إلاّ أنّ الثّاني أكثر.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن المقابلة قد تكون بين اثنين وقد تكون بين أزيد، قال الشّيخ صفيّ الدّين: وكلما كثر عددها كانت أبلغ وتضاف إلى العدد الذي وقع عليه المقابلة كمقابلة الاثنين بالاثنين، والثلاثة بالثلاثة، وهكذا.

فمن مقابلة الاثنين بالاثنين من الكتاب الكريم الآية المتقدّمة، حيث أتى فيها بالضّحك والقلة المتوافقين، ثم بالبكاء والكثرة المتقابلين لهما، ومن كلام أمير المؤمنين ﷺ قوله في المخ فا (٨١) في صفة الدّنيا:

«ما أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُها عَنَآءٌ وَآخِرُهَا فَنَآءٌ، في حَلالِها حِسابٌ وَفي حَرامِها عِقابٌ، مَنِ اسْتَغْنَى فيها فُتِنَ وَمَنِ افْتَقَرَ فيها حَزِنَ، وَمَنْ ساعاها فاتَتْهُ وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ»، اهـ.

فإنّ التّقابل في كلّ من الفقر من مقابلة الاثنين بالاثنين لكنّها في بعضها بالأضداد وفي بعضها بغيرها، ومن النظم قول الذّبياني:

فتى تمّ فيه ما يسرّ صديقه على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا

ومن مقابلة الثلاثة بالثلاثة في النّثر قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ كح (٢٨):

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَداعٍ، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلاَعٍ».

وفي النّظم قول الشاعر:

يفرّ جبان القوم من ابن امّه ... ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

ويرزق معروف الكريم عدوّه ... ويحرم معروف البخيل أقاربه

ومن مقابلة الأربعة بالأربعة نثراً قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

والمراد بالاستغناء الاستغناء عمّا عند الله ولذلك حسن تقابله بالاتّقاء، وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ ق كط (١٢٩):

«لَعَنَ اللَّهُ الآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ لِلْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ».

والمقابلة الرّابعة بين له وبه وإلاّ أنّ الأظهر الأقوى أن يجعل ذلك من أمثلة مقابلة الثّلاثة بالثّلاثة، لأن اللام والباء صلتان لشبه الفعل، فهما من تمامهما، وبه يظهر أنّ قول المتنبّي:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وأنثني وبياض الصّبح يغري بي

من مقابلة الأربعة بالأربعة لا من مقابلة الخمسة بالخمسة كما زعمه جمع من البيانيّين لأنّ لي وبي صلتان للفعلين ومتمّمان لهما.

ومن مقابلة الخمسة بالخمسة نثراً قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ رب (٢٠٢):
«فَخُذُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً، وَلاَ تُخَلِّفُوا كُلاًّ فَيَكُونُ عَلَيْكُمْ كَلاًّ».

كما في بعض نسخ المتن ومن النّظم قول الثّعالبي:

عذيري من الأيام مدت صروفها ... إلى وجه من أهوى يد النسخ والمحو

وأبدت بوجهي طالعات أرى بها ... سهام أبي يحيى يسدّدها نحوي

فذاك سواد الخط ينهى عن الهوى ... وهذا بياض الخطّ يأمر بالصّحو

ومقابلة الستّة بالستّة ما أنشده الصاحب شرف الدّين مستوفي اربل لغيره وهو:

على رأس عبد تاج عزّ يزينه ... وفي رجل حرّ قيد ذلّ يشينه

قال الصّفدي: هذا أبلغ ما يمكن أن ينظم في هذا المعنى، فإنّ أكثر ما عدّ النّاس في

باب المقابلة قول أبي الطيب، لأنّه قابل فيه بين خمسة وهذا قابل فيه بين ستّة انتهى.

وقد مرّ أنّ بيت أبي الطيب وهو المتنبّي من مقابلة الأربعة بالأربعة، لا الخمسة بالخمسة.

تنبيه

زاد صاحب (**المفتاح**) في تعريف المقابلة قيداً آخر، فإنّه بعد ما عرّفه بقوله: هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضدّيهما قال: وإذا شرط هيهنا أي فيما بين المتوافقين أو أكثر أمر شرط ثمة أي فيما بين الضدّين أو الأضداد ضدّه أي ضدّ ذلك الأمر المشروط كما في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥] الآيتين فإنّه لما جعل التّيسير مشتركاً بين الإعطاء والاتّقاء والتّصديق جعل ضدّه وهو التّعسير المعبر عنه بقوله: ﴿فسنيسره للعسرى﴾ مشتركاً بين أضدادها وهي البخل والاستغناء والتكذيب.

أقول: ونظيره في كلام أمير المؤمنين ﷺ قوله في المخ هـ (٥):

«فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ».

فإنّه لما جعل قولهم بأنّه حريص على الملك مرتّباً على قوله وتكلمه، جعل قولهم بأنّه جزع من الموت مرتّباً على ضدّه وهو السّكوت، والتّقابل فيه بين القول والسّكوت، وبين قوليهما باعتبار المقول فافهم هذا، ولكن الأكثرين لم يعتبروا ما اعتبره صاحب «**المفتاح**»، فإنّهم عدّوا من المقابلة قول أبي دلامة:

ما أحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرّجل

مع أنّه اشترط في الدّين والدّنيا الاجتماع، ولم يشترط في الكفر والإفلاس المقابل لهما ضدّه، وهو الافتراق.

ومنها مراعاة النظير

ويسمّى التّناسب والتّوفيق والائتلاف والتلفيق أيضاً، وهو جمع الأمور المتناسبة المتوازنة، وبعبارة أخرى: هو أن يضمّ إلى الشيء ما يشابهه ويليق به، وقال السّكاكي: هي عبارة عن الجمع بين المتشابهات.

وكيف كان فقد يكون ذلك الجمع بأمرين كقوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٥].

فإنّ الشّمس والقمر متناسبان لاشتراكهما في الإضاءة، ومثله قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ فط (٨٩):

«وَالشَّمسُ وَالْقَمَرُ دائِبانِ في مَرْضاتِهِ».

ومثال من النّظم قول ابن قلاقس يصف الإبل:

خوص كأمثال القسيّ نواحلاً فإذا سما طلب فهنّ سهام

شبّه الإبل في شكلها ودقّة أعضائها بالقوس، ثم شبّهها في السّبق بالسّهام لمناسبتها بالقسيّ.

وقد يكون بجمع أمور ثلاثة كقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ فح (٨٨):

«وَالدُّنيا كاسِفَةُ النُّورِ، ظاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اصْفِرارٍ مِنْ وَرَقِها وَإِياسٍ مِنْ ثَمَرِهَا وَاغْوِرارٍ مِنْ مَائِها».

حيث ناسب بين الورق والثّمر والماء، ونحوه في النّظم قوله:

كأن الثريا علقت في جبينه وفي نحره الشعري وفي خده القمر

وقد يكون بائتلاف أمور أربعة كقوله ﷺ في المخ (١):

«ثُمَّ زَيَّنَها بِزِينَةِ الْكَواكِبِ، وَضِياءِ الثَّواقِبِ، وَأَجْرىٰ فيها سِراجاً مُسْتَطِيراً وَقَمَراً مُنيراً».

وفي المخ فب (٨٢): « فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَواباً وَنَوالاً، وَكَفَىٰ بِالنَّارِ عِقاباً وَوَبَالاً، وَكَفَى بِاللّٰهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً، وَكَفَىٰ بِالْكِتابِ حَجِيماً وَخَصِيماً».

ومثله من النّظم قول أبي الحسن السّلامي:

والنّقع ثوب بالسّيوف مطرز والأرض فرش بالجياد مخمّل

وسطور خيلك إنّما ألفاتها سمر تنقط بالدّماء أو تشكل

ناسب بين الثّوب والتّطريز والفرش والتّخميل، وكذلك بين السّطور والألفات والنّقط والشّكل.

وقد يكون الإئتلاف بأزيد من ذلك كقوله ﷺ في المخ فب (٨٢) أيضاً في صفة خلق الإنسان:

«أَمْ هٰذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ في ظُلُماتِ الأَرْحَامِ نُطْفَةً دِهاقاً، وَعَلَقَةً مِحاقاً، وَجَنِيناً، وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً، وَيافِعاً، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حافِظاً، وَلِساناً لافِظاً، وَبَصَراً لاحِظاً».

وفي المخ فط (٨٩):

«الَّذِي لَمْ يَزَلْ قائِماً دائِماً إِذْ لاَ سَمَآءٌ ذاتُ أَبْرَاجٍ، وَلاَ حُجُبٌ ذاتُ أَرتاجٍ، وَلاَ لَيْلٌ

داجٍ، وَلاَ بَحْرٌ ساجٍ، وَلاَ جَبَلٌ ذُو فِجاجٍ، وَلاَ فَجٌّ ذُو اعْوِجاجٍ، وَلاَ أَرْضٌ ذاتُ مِهادٍ، وَلاَ خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ».

ومن محاسن هذا النّوع في النّظم قول السّيد الرّضي جامع النّهج (ره).

حيّرني روض على خدّه ويلي من ذاك وويلي عليه
أيّ جنى يقطف من حسنه وكلّ ما فيه حبيب إليه
نرجستي عينيه أم وردتي خدّيه أم ريحانتي عارضيه

فقد قيل فيه: إنّه الشعر الذي أرق أنفاساً من نسيم السّحر، وأدق اختلاساً من النّفاث إذا سحر، ومن أعجب هذا النّوع أيضاً قول ابن زيلاق في مليح محروس بخادم:

ومن عجب أن يحرسوك بخادم وخدّام هذا الحسن من ذاك أكثر
عذارك ريحان وثغرك جوهر وخالك ياقوت وخدّك عنبر

فانّه أتى بالتّشبيه العجيب وحسن المناسبة العديمة النّظير في مراعاته مع حلاوة الانسجام ولطف المعنى، فإنّ ريحان وجوهر وياقوت وعنبر يسمّى الخدّام بها غالباً، وما أحسن قول الزّعازي وأبدعه في هذا النّوع:

كأن السحاب الغرّ لما تجمّعت وقد فرّقت عنّا الهموم بجمعها
نياق ووجه الأرض قعب وثلجها حليب وكف الرّيح حالب ضرعها

ومن محاسنه أيضاً قول بعضهم في آل البيت عليهم السّلام:

أنتم بنو طه ونون والضّحى وبنو تبارك والكتاب المحكم
وبنو الأباطح والمشاعر والصّفا والرّكن والبيت العتيق وزمزم

ومن أكثر ما أبدع فيه الإئتلاف قول ابن الخشّاب:

ورد الورى سلسال جودك فارتووا ووقفت دون الورد وقفة حآئم
ظمآن أطلب خفّة من زحمة والورد لا يزداد غير تزاحم

قال صاحب «التّبيان»: انظر إلى هذين البيتين، فانّهما كادا يجريان مع الماء في السّلاسة مع أنّ قائلهما لم يتجانف فيهما عن حكاية الماء وما يناسبه حتّى عدّ فيها ائتلاف عشر انتهى.

أي ائتلاف الورد، والسّلسال، والارتواء، والورد، والحائم، والظماء، والخفة، والزّحمة، ثم الورد مرّة أخرى، والتزاحم.

ومنها تشابه الأطراف

وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوّله في المعنى سمّاه الخطيب في **(التلخيص)** و**(الإيضاح)** كبعضهم بهذا الاسم وجعله قسماً من مراعاة النّظير، قال: ومن مراعاة النّظير ما يسمّيه بعضهم تشابه الأطراف[1] اه، وسمّاه الآخرون بتناسب الأطراف ولعلّه أولى لمناسبة هذه التّسمية ومطابقته للمسمّى، وهؤلاء جعلوا تشابه الأطراف مرادفاً للتّسبيغ الذي نذكره بعد ذلك النّوع ولا مشاحة في الاصطلاح، ومثاله من الكتاب الكريم قوله سبحانه:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فإنّ اللّطيف يناسب كونه غير مدرك بالأبصار، والخبير يناسب كونه مدركاً للأشياء، لأنّ مدرك الشّيء يكون خبيراً به، ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قوله في المخ قز (١٠٧):

«طَبِيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّه، قَدْ أَحْكَمَ مَراهِمَهُ، وأَحْمَىٰ مَواسِمَهُ، يَضَعُ مِنْ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، وأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَواضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ».

فإن قوله عليه السلام: متتبع بدوائه، يناسب قوله: دوّار بطبّه، وقوله: مواضع الغفلة ومواطن الحيرة، يناسب قوله: من قلوب عميّ وآذان صمّ.

ومنها التسبيغ

وسمّاه بعضهم تشابه الأطراف وهو في النّثر أن يعيد النّاثر سجعة القرينة الأولى في أوّل القرينة التي تليها، وفي النّظم إعادة القافية في أوّل البيت الذي يليها، فيكون الأطراف متشابهة. فمثاله في النّثر من الكتاب العزيز قوله سبحانه:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦ - ٧].

حيث أعيد فاصلة الآية الأولى في أوّل الآية الثّانية، ووقع في غير الفواصل أيضاً مثل قوله تعالى:

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: ٣٥].

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قوله في المخ عج (٧٣):

---

(١) راجع مختصر المعاني: ٢٦٨.

«أَلْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكافِرِ، وَالْكَافِرُ في النَّارِ».

وفي المخ ق يج (١١٣):

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْواصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ، وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ».

وقوله الآتي في باب المخ من حكمه في أواخر النّهج:

«أَلظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ بِإِجالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الأَسْرَارِ».

وفي هذا الباب أيضاً: «الإِسْلَامُ هُوَ التَّسْليمُ، والتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ الإِقْرَارُ، وَالإِقْرَارُ هُوَ الأَداءُ، وَالأَداءُ هُوَ الْعَمَلُ».

وفي النّظم قول أبي نواس:

خزيمة خير بني حازم ... وحازم خير بني دارم

ودارم خير تميم وما ... مثل تميم في بني آدم

وقال آخر:

تشابهت فيهم أطراف وصفهم ... ووصفهم لم يطقه ناطق بفم

ومن عجيب هذا النّوع ما رواه في زهر الرّبيع، قال: وحكي عن الأصمعي قال: مررت في يوم شديد المطر في بعض الطرقات فرأيت رجلاً وعليه فرو مقلوب والمطر قد غمره، فقلت لأصحابي: ألا أضحككم على هذا الأعرابي؟ قالوا: نعم، فقلت له: تدري كيف أنت يا أعرابي؟ قال: لا، فقلت:

كأنك كعكة في وسط رش ... أصاب الرّش رشّ بعد رشّ

فقال لي: أتدري كيف أنت؟ قلت: لا، قال:

كأنّك بعرة في ثقب كبش ... مدلدلة وذاك الكبش يمشي

فضحكت وقلت له: لعلّك تحفظ شيئاً من شعر العرب، قال: بل العرب تحفظ من شعري، فقلت له: أنشدني شيئاً من شعرك، فقال: على أيّ قافية شئت، فلم أجد أصعب من قافية الواو المجزوم فقال:

قوم بخاقان عهدناهم ... سقيهم الله من النو

فقلت: نو ماذا؟ فقال:

نوء السّماكين وريّاهما ... برق ترى ايماضه ضوم

فقلت: ضو ماذا؟ فقال:

ضوء تلالا في دجى ليلة مظلمة مغيمة لو

فقلت: لو ماذا؟ فقال:

لو مرّ فيها سائر مدلج على هضيم الكشح منطو

فقلت: منطو ماذا؟ فقال:

منطوي الظهر هضيم الحشا كالباز ينقض من الجوّ

قلت: جوّ ماذا؟ فقال:

جوّ السّما والرّيح تهوي به مثل رجال الحيّ يدعو

قلت: يدعو ماذا؟ فقال:

يدعو جميعاً والقنا شرّعاً كفيت ما لاقوا ويلقوا

فقلت: يلقوا ماذا؟ فقال:

إن كنت لا تفهم ما قلته فإن عندي صنعة البر

فقلت: بو ماذا؟ فقال وقد قبض مقبض سيفه:

البرّ لا يحجب عن أمّه يا ألف قرنان تقم أو

قال الأصمعي: فسكتّ فأخذته إلى منزلي فذبحت أربع دجاجات، فلما نضجن جئت بهنّ إليه، فقلت له: اقسمهنّ عليّ وعليك وعلى زوجتي وولدي، فقال: اقسمهنّ زوجاً أو فرداً؟ فقلت: زوجاً، فقال: أنت وولدك وزوجتك ودجاجة أربعة والأربعة زوج، فأخذت الدّجاجة ومضيت، فلمّا كان في الليلة الثّانية أتيت إليه بثلاث دجاجات، وقلت: ورد عليّ ولد آخر، فاقسمهنّ فرداً فقال: ولدان وأنت وأمّهما ودجاجة خمسة، والخمسة فرد، وأنا ودجاجتان ثلاثة، والثلاثة فرد، فأخذت الدّجاجة ومضيت، فلما كان في الليلة الثالثة أحضرت إليه دجاجة، فقال: الجناحان للجناحين، وناولهما للولدين، ثم قال، العجز للعجوز، والرّأس للرّأس، وأنت رأس يا أصمعي، والصّدر للصّدر، فلما كان وقت الانصراف خرجت لأودّعه، فقال: ارجع فخذ ما تركته في مكاني، فرجعت فوجدته قد ترك لي دنانير كثيرة، فأخذتها، فقيل لي بعد ذلك: إنّه من أولاد الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السّلام.

ومنها العكس

وهو أن تقدّم في الكلام جزء وتؤخر جزء آخر ثم تعكس فتؤخر ما قدمت وتقدّم ما أخرت ويسمّى التّبديل أيضاً وهو على ما يستقرء من أمثلته على وجوه كثيرة.

منها: أن يقع بين أحد طرفي جملة وما أضيف إليه مثل قولهم: عادات السّادات سادات العادات، وأوصاف الأشراف أشراف الأوصاف، وكتب الأحباب أحباب الكتب، وشيم الأحرار أحرار الشيم، وكلام الملوك ملوك الكلام، فإنّ العادات أحد طرفي الجملة، والسّادات مضاف إليه لذلك الطرف وقد وقع العكس فيما بينهما بأن قدّم أوّلاً العادات على السّادات، ثم عكس فقدّم السّادات على العادات، وهكذا باقي الأمثلة.

ومنها: أن يقع بين متعلقي فعل واحد مثل قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قز (١٠٧):

«ما لي أَراكُمْ أَشْباحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ وَأَرْواحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ».

وفي المخ قيج (١١٣):

«تَرَى الْمَرحُومَ مَغْبُوطاً، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً».

ومنها أن يقع بين متعلقي عاملين في جملتين مثل قوله سبحانه:

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ﴾ [آل عمران: ٢٧].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قيج (١١٣):

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ ما أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلِحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لانْقِطاعِهِ عَنْهُ».

فإنّ الحيّ والميّت متعلقان لأقرب وأبعد، وقدّم أولاً الحيّ على الميّت وثانياً الميت على الحيّ.

ومنها: أن يقع بين متعلقي فعلين مع توسّط الفعل بين المتعلقين مثل قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قنه (١٥٥):

«فَبِالإِيْمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الإِيْمَانِ».

ومنها: أن يقع بين لفظين في طرفي الجملتين مثل قوله تعالى:

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ [الممتحنة: ١٠].

قدّم أوّلاهنّ على هم، وثانياً هم على هنّ، وهما لفظان وقع أحدهما في جانب المسند إليه والآخر في جانب المسند، وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ يز (١٧):

«فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ».

فإنّ أصاب وأخطأ فعلان وقع أحدهما في جانب الشّرط والآخر في جانب الجزاء وتعاكسا.

ومنها: أن يقع بين جملتين في طرفي قرينتين، مثل قوله ﷺ في المخ قفز (١٨٧):
«أَوْحَشُوا ما كانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا ما كانُوا يُوحِشُونَ».

ومنها: أن يقع بين طرفي الجملة، مثل قولهم: الجنون فنون والفنون جنون، قال التّفتازاني:

طويت بأحراز الفنون ونيلها ... ردآء شبابي والجنون فنون
فلما تعاطيت الفنون وحظها ... تبيّن لي أنّ الفنون جنون

ومن العكس في النّظم أيضاً قول أبي هلال العسكري في وصف الرّبيع:

لبس السماء والهواء صفاء ... واكتسى الرّوض بهجة وبهاء
فتخال السماء باللّيل أرضاً ... وترى الأرض في النّهار سماء

وقال آخر:

فلا مجد في الدّنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدّنيا لمن قل مجده

وقال الاضبط:

قد يجمع المال غير آكله ... ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه ... ويلبس الثوب غير من قطعه

ومنها رد العجز على الصدر

وهو أن تجيء بكلام يلاقي آخره أوّله لفظاً بوجه من الوجوه نثراً أو نظماً، أمّا في النّثر فهو على أربعة أقسام، لأنّ اللّفظين الواقعين في أوّل الفقرة وآخرها إمّا أن يكونا مكرّرين أي متّفقين لفظاً ومعنى، أو يكونا متجانسين أي متشابهين لفظاً لا معنى، أو ملحقين بالمتجانسين وهما اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه.

فالأوّل: أن يكونا مكرّرين كقوله سبحانه:
﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

والثّاني: أن يكونا متجانسين نحو قولهم: سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل.

والثّالث: أن يجمعهما الاشتقاق كقوله تعالى:

﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ فب (٨٢):

«وأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هادِياً»، وفي المخ قفز (١٨٧): «وَكَيْفَ غَفَلْتُكُمْ عَمّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وفيه أيضاً: حُمِلُوا إِلى قُبُورِهِمْ غَيْرَ راكِبِينَ وَأُنْزِلُوا فيها غَيرَ نازِلِينَ».

والرّابع: أن يجمعهما شبه الاشتقاق نحو قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨].

أقول: ويعجبني أن الحقّ بهذه الأربعة قسماً خامساً، وهو أن يكون أحد اللفظين المكررين قريباً من أوّل الكلام والآخر في الآخر نحو قوله ﷺ الآتي في أواخر النّهج في باب المخ من حكمه:

«الْكَلاَمُ في وَثاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ فَإِذَا تَكَلَّمْتَ صِرْتَ في وَثاقِهِ».

لعدّهم نظير ذلك في النّظم من أمثال النّوع حسبما تعرفه.

وأمّا في النّظم فعلى أربعة أقسام، وهي أن يقع أحد اللفظين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأوّل أو حشوه أو عجزه أو صدر المصراع الثّاني، وعلى كلّ من هذه التّقادير فاللفظان إمّا مكرّران أو متجانسان أو ملحقان بهما، فتصير الأقسام اثنى عشر حاصلة من ضرب أربعة في ثلاثة وباعتبار أن الملحقين قسمان لأنّه إمّا أن يجمعهما الاشتقاق أو شبهه تصير الأقسام ستّة عشر حاصلة من ضرب أربعة في أربعة.

فالأوّل: وهو أفضل أقسام النوع وأشهرها أن يقع أحد اللفظين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأوّل مع تكرّر اللفظين، نحو قوله:

سكران سكر هوى وسكر ندامة ... أنّى يفيق فتى به سكران

وقوله:

سريع إلى ابن العمّ يلطم وجهه ... وليس إلى داع النّدى بسريع

والثّاني: أن يقع أحد اللفظين في آخر البيت والثّاني حشو المصراع الأوّل مع تكرّرهما أيضاً كقوله:

تمتّع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشيّة من عرار

والثّالث: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في آخر المصراع الأوّل مع التكرّر أيضاً كقوله:

ومن كان بالبيض الكواعب مغرماً فما زلت بالبيض القواضب مغرماً

والرّابع: أن يقع أحدهما مع تكرّرهما في آخر البيت والآخر في أوّل المصراع الآخر نحو قول ابن جابر:

صفحوا عن محبّهم وأقالوا من عثار الهوى ومنّوا بوصل
لست أستوجب الوصال ولكن أهل تلك الخيام أكرم أهل

والخامس: أن يقع أحد اللفظين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأوّل واللفظان متجانسان، قال المطرّزي: وهو أحسن من الأوّل، أقول: وهو غير معلوم ومثاله قوله:

ذوآئب سود كالعناقيد أرسلت فمن أجلها منّا النفوس ذوآئب

والسّادس: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في حشو المصراع الأوّل مع تجانسهما كقوله:

لا كان انسان تيمم قاصداً صيد المها فاصطاده انسانها

والسّابع: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في آخر المصراع الأوّل مع تجانسهما أيضاً كقول الحريري:

فمشغوف بآيات المثاني ومفتون برنات المثاني

المثاني الأوّل القرآن، والثّاني جمع مثنى وهو من أوتار العود ما كان بعد الأوّل.

والثّامن: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في أول المصراع الآخر مع التجانس أيضاً كقول الأرجاني:

أملتهم ثمّ تأمّلتهم فلاح لي أن ليس فيهم فلاح

والتّاسع: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأوّل وهما مشتقان كقول البختري.

ضرب الجبال بمثلها من عزمه غضبان يطعن بالحمام ويضرب

والعاشر: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في حشو المصراع الأول مع اشتقاقهما أيضاً كقول امرء القيس:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان

والحادي عشر: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في آخر المصراع الأوّل مع الاشتقاق أيضاً كقوله:

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أطنين اجنحة الذباب يضير[١]

والثاني عشر: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في أوّل المصراع الآخر مع الاشتقاق أيضاً كقول أبي تمام:

ثوى في الثرى من كان يحيى به الورى ويغمر صرف الدّهر نائله الغمر
وقد كانت البيض القواضب في الوغى بواتر فهي الآن من بعده بتر

والثالث عشر: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأوّل وبينهما شبه الاشتقاق كقول الحريري:

ولاح يلحي على جري العنان إلى ملهى فسحقاً له من لائح لاح

فالأوّل ماضي يلوح والثّاني اسم فاعل من لحاه.

والرّابع عشر: أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في حشو المصراع الأوّل وبينهما شبه الاشتقاق أيضاً كقوله:

لعمري لقد كان الثريا مكانه ثراه فأضحى الآن مثواه في الثرى

والخامس عشر: أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في آخر المصراع الأوّل وهما شبيهان بالمشتقّ كقول الحريري:

ومضطلع بتلخيص المعاني ومطلع إلى تخليص عاني

والسّادس عشر: أن يقع أحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الثاني ويجمعهما شبه الاشتقاق أيضاً كقول التّهامي:

طيف ألمّ فزاد في آلامي ألماً ولم أعهده ذا إلمام

ومنها الرجوع

وهو العود إلى الكلام السّابق بنقضه وإبطاله لنكتة، وليس المراد أنّ المتكلم أخطأ ثم عاد، لأنّ ذلك يكون غلطاً لا بديع فيه، وإنّما المراد أنّه أوهم الخطأ وإن كان قاله عن عمد إشارة إلى تأكد الأخبار بالثّاني، لأن الشيء المرجوع إليه يكون تحققه أشدّ ومثاله في النّثر قوله ﷺ في المخ ج (٢):

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَآئِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَىٰ، وَفَسَقَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ

---

(١) راجع مختصر المعاني: ٢٩٣.

تَعَالَىٰ يَقُولُ: «تِلْكَ الدارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْها، وَلٰكِنَّهُ زُخْرِفَتِ الدُّنْيَا في أَعْيُنِهِمْ وَراقَهُمْ زِبْرُجُهَا».

فإنّه ﷺ لما أشار إلى بغي النّاكثين، والقاسطين، والمارقين، أتبعه بقوله: كأنّهم لم يسمعوا الله تعالى، ا ه، تنبيهاً على أنّ لازم سماع هذه الآية والتدبّر فيها ترك البغي والفساد في الأرض، فحيث لم يتركوه جعلوا بمنزلة غير السّامع ثم رجع إليه ونقضه لنكتة، وأبطل عدم السّماع بقوله: بلى والله لقد سمعوها ووعوها، مؤكداً بالقسم البارّ والنكتة تأكيد التّقريع والتّوبيخ وتشديد اللّوم والذّم بإظهار أنّ عدم انتفاعهم بالسّماع إنّما هو لشدّة افتتانهم بالدّنيا وما فيها، واغترارهم بزخارفها، فاستحقّوا بذلك الخزي العظيم، والعذاب الأليم، ومن النّظم قول زهير بن أبي سلمى:

قف بالدّيار التي لم يعفها القدم بلى وغيّرها الأرواح والدّيم

فإنّ أوّل الكلام دلّ على أن تطاول الزّمان وتقادم العهد، لم يعف الدّيار، ثم عاد إليه ونقضه لنكتة، وهي إظهار الكآبة والحزن والحيرة والدّهش كأنّه لما وقف على الدّيار تسلطت عليه كآبة أذهلته فأخبر بما لم يتحقّق، ثم رجع إليه عقله وأفاق بعض الأفاقة، فتدارك كلامه السّابق بقوله: بلى عفاها القدم، وغيرها الأرواح والدّيم.

ومنها الارصاد

وهو مأخوذ من رصدته بمعي رقبته كان السّامع يرصد ذهنه لعجز الكلام بما دلّ عليه ممّا قبله، وفي الاصطلاح أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو من البيت ما يدلّ على العجز أعني آخر كلمة من البيت أو الفقر، وإنّما يدلّ عليه ويفهم منه إذا عرف الرّوى أي الحرف الذي يبنى عليه أواخر الأبيات أو الفقر مع تكرّره، ويقال له: التّسهيم أيضاً مأخوذ من البرد المسهم أي المخطط، وهو الذي يدلّ أحد سهامه على الذي يليه، لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص بمجاورة اللّون الذي قبله أو بعده منه.

وكيف كان فمثاله من النّثر قوله سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ ص (٩٠):

«وَأَجْريها ـ أي الكواكب ـ على إِذْلاَلِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثُباتِ ثابِتِها، وَمَسيرِ سائِرِها، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِها».

ومن النّظم قول البختري:

أحلّت دمي من غير جرم وحرّمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي
فليس الذي حللته بمحلل وليس الذي حرّمته بحرام

وقول ابن هاني الأندلسي:

وإذا حللت فكلّ واد ممرع وإذا ظعنت فكلّ شعب ما حل
وإذا بعدت فكلّ شيء ناقص وإذا قربت فكلّ شيء كامل

ومنها إرسال المثل

وهو عبارة عن أن يأتي المتكلم في كلامه والشّاعر في بيت أو بعضه بما يجري مجرى المثل السّائر من نعت أو حكمة أو غير ذلك ممّا يحسن التمثيل به.

قال الزّمخشري في محكي كلامه من **(الكشاف)**: المثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النّظير يقال: مِثل ومَثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه، ثم قيل للقول الممثل مضربه بمورده: مثل، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنّظائر شأن ليس بالخفي في خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق حتّى تريك المخيّل في صورة المحقّق، والمتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كأنّه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألدّ، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء عليهم السّلام والحكماء، قال الله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ومن سورة الإنجيل سورة الأمثال، ولم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتيسّر، ولا جديراً بالقبول، إلاّ قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثمّ حوفظ عليه، وحمي عن التغيّر انتهى(١).

إذا عرفت ذلك فأقول: إنّ أمثلة هذا النّوع نثراً ونظماً كثيرة مطردة. فمن النّثر في الكتاب العزيز قوله سبحانه:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المزمنون: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]، ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ٩٩]، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١] إلى غير ذلك.

(١) راجع تفسير ابن كثير: ١/ ٥٦، والبرهان: ١/ ٤٩٠.

وفي الحديث النّبوي ﷺ قوله:

«خَيْرُ الأُمُورِ أَوْساطُهَا، وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَالشَاهِدُ يَرَىٰ مَا لاَ يَراهُ الغائِبُ»[1]، ونحو ذلك.

وفي كلام أمير المؤمنين ﷺ قوله في المخ ج (٣):

«فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَىٰ، وَفِي الْحَلْقِ شَجىٰ»، وقوله ﷺ في المخ يد (١٢): «فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصائِلٍ»، وفي المخ كز (٢٧): وَلٰكِنَّهُ لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطاعُ، وفي المخ قلد (١٣١): وَالَّذِي نَصَرَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لاَ يَمُوتُ»، وفي باب المخ من حكمه:

«مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَهُ، وَتَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسانِهِ، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ، وَمَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرابَةٌ بَيْنَ الأَبْناءِ، وَقِلَّةُ الْعِيالِ أَحَدُ الْيَسارَيْنِ، وَقِيْمَةُ كُلِّ امْرَءٍ ما يُحْسَنُ». وهو فيه كثير جدّاً.

ومن النّظم قول امرء القيس بن حجر الكندي:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ... فليس على شيء سواه بخزان

وقول عدّي بن زيد العبادي:

كفى واعظاً بالمرء أيّام دهره ... تروح له بالواعظات وتغتدي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فإنّ القرين بالمقارن مقتدي

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة ... على الحرّ من وقع الحسام المهند

وقول لبيد بن ربيعة:

وما المال والأهلون إلاّ وديعة ... ولا بدّ يوماً أن تردّ الودآئع

وما المرء إلاّ كالشهاب وضوئه ... يحوز رماداً بعد إذ هو ساطع

لعمرك ما يدري المسافر هل له ... نجاح ولا يدري متى هو راجع

أتجزع ممّا أحدث الدّهر للفتى ... وأيّ كريم لم تصبه القوارع

ومنها الجمع

وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين مختلفين فصاعداً في حكم واحد بأن يثبت لهما جهة جامعة يتحدّان بها كقوله ﷺ في المخ كج (٢٣):

(١) راجع تفسير فرات: ٦٠٠، و أمالي الصدوق: ٢٥٢، وعوالي اللئالي: ١/ ٢٩٦.

إنَّ الْمالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلُ الصَّالِحَ حَرْثُ الآخِرَةِ.

جمع المال والبنين وهما نوعان متباينان في جهة واحدة وهو الحرث. ومن النّظم قول السّيد علي صدر الدّين:

إنّ المكارم والفضائل والندى ... طبع جبلت عليه غير تطبّع
والمجد والشّرف المؤمّل والعلى ... وقف عليك وليس بالمستودع

ومنها التفريق

وهو ضدّ الجمع أي ايقاع تباين بين أمرين من نوع واحد في المدح أو غيره، فمثاله في النّثر قوله ﷺ في المخ صو (٩٦):

«صاحِبُكُمْ يُطيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ وصاحِبُ أَهْلِ الشّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطيعُونَهُ»، وقوله ﷺ في باب المخ من حكمه: «غَيرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ، وَغَيرَة الرَّجُلِ إِيمانٌ».

وفي النّظم قول رشيد الوطواط:

ما نوال الغمام وقت ربيع ... كنوال الأمير يوم سخآء
فنوال الأمير بدرة عين ... ونوال الغمام قطرة مآء

وقول الأديب يعقوب النّيسابوري:

رأيت عبيد الله يضحك معطياً ... ويبكي أخوه الغيث عند عطائه
وكم بين ضحّاك يجود بماله ... وآخر بكّآء يجود بمآئه

ومنها الجمع مع التفريق

وهو أن يدخل المتكلم شيئين في معنى ثم يفرّق بين جهتي الإدخال فمثاله في النّثر قوله ﷺ في المخ ص ز (٩٧):

«حَتّىٰ يَقُومَ الْباكِيانِ يَبْكِيانِ، باكٍ يَبْكي لِدينِهِ وَباكٍ يَبْكي لدُنْياهُ».

وقوله ﷺ في المخ قكز (١٢٧): «وسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفانِ مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَىٰ غَيرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَىٰ غَيرِ الْحَقِّ. جمع بين الصّنفين في الهلكة ثم فرّق بين جهتي الهلاك»، ومثله قوله ﷺ في باب المخ من حكمه:

«هَلَكَ فِيَّ رَجُلاَنِ مُحِبٌّ غالٍ، وَمُبْغِضٌ قالٍ».

وفي النّظم قول الرّشيد الوطواط:

فوجهك كالنّار في ضوئها وقلبي كالنّار في حرّها

وقول السّيد علي صدر الدّين:

ما بين قلبي وبرق المنحني نسب كلاهما من سعير الوجد يلتهب
قلبي لما فاته من وصل ساكنه والبرق إذ فاته من ثغرة الشّنب

ومنها التقسيم

وهو في اللغة التّجزية والتّفريق، وفي الاصطلاح يطلق على معان ثلاثة.

أحدها: أن يذكر متعدّد، وبعبارة أخرى: أن يذكر قسمة ذات جزئين أو أكثر، ثم أضيف ما لكلّ واحد من الأقسام إليه على التعيين، وبهذا القيد يتميّز عن اللف والنّشر، إذ لا تعيين فيه حسبما تطلع عليه، ومثاله في النثر قوله ﷺ في المخ فد (١٠٣):

«وَكُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ سائِقٌ يَسُوقُهَا إِلىٰ مَحْشَرِهَا، وشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِها».

ومن النّظم قول المتلمس:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلاّ الأذلاّن عير الحيّ والوتد
هذا على الخسف مربوط برمّته وذا يشجّ فلا يرثي له أحد

ذكر العير والوتد ثمّ أضاف إلى الأوّل الرّبط مع الخسف، وإلى الثّاني الشجّ.

وثانيها: أن تذكر أحوال الشيء مضافاً إلى كلّ من تلك الأحوال ما يليق به، كقوله ﷺ في المخ كج (٢٣):

«أَلْمَرءُ الْمُسْلِمِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ، إِمّا دَاعِيَ اللَّهِ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ»، وقوله ﷺ في المخ صح (٩٨): «أَوَلَسْتُم تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنيا يُمْسُونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَىٰ أحوالٍ شَتّى فَمَيِّتٌ يُبْكى، وَآخر يُعَزّىٰ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلىً، وَعائِدٌ يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ».

ومن النّظم قوله:

سأطلب حقّي بالقنا ومشايخ كأنّهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدّوا قليل إذا عدّوا

ذَكَر أحوال المشايخ، وأضاف إلى كلّ منها ما يناسبه.

وثالثها: استيفاء أقسام الشيء، وبعبارة أخرىٰ أن يتقصىٰ تفصيل ما ابتدأ به ويستوفي جميع الأقسام الذي يقتضيها ذلك المعنى، فمثاله نثراً من الكتاب العزيز قوله سبحانه:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠] وقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ٨].

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قوله في المخ يو (١٦):

«شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنّارُ أَمامَه ساعٍ سَرِيعٌ نَجا، وَطالِبٌ بَطيءٌ رَجا، وَمُقصِّرٌ في النّارِ هَوىٰ».

وهذا التّقسيم موافق للتّقسيم في الآية الأخيرة، فإنّ السّاع السّريع مساوق للسّابقين والطالب البطيء مساوق لأصحاب الميمنة، والمقصر الهاوي مساوق لأصحاب المشئمة، ونظماً قول صفي الدّين في مدح النبي صلى الله عليه وآله:

أفنى جيوش العدى غزواً فلست ترى ... سوى قتيل ومأسور ومنهزم

ومنها الجمع مع التقسيم

وهو عبارة عن جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه كقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ (١):

«ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمٰواتِ الْعُلى، فَمَلأَهُنَّ أَطْواراً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لاَ يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لاَ يَنْتَصِبُونَ، وَصافُّونَ لاَ يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لاَ يَسْأَمُونَ» اه.

ولك أن تجعل ما مثّلنا به من كلامه عليه السلام للتّقسيم بالمعنى الأخير مثالاً لهذا النّوع أيضاً أعني التّقسيم والجمع.

فإن قلت: فعلى هذا لا يبقى فرق بين النّوعين.

قلت: كلاّ فإنّ استيفاء الأقسام شرط فيما سبق وليس بشرط هنا فافهم جيّداً.

وأمّا الفرق بين ذلك وبين التّقسيم بالمعنيين الأوّلين فواضح لا يخفى، ومن النّظم قول أبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدّولة:

قاد المقانب أقصى شربها نهل ... على الشكيم وأدنى سيرها سرع

لا يعتقي بلداً مسراه عن بلد كالموت ليس له ريّ ولا شبع
حتى أقام على أرباض خرشفة تشقى به الرّوم والصّلبان والبيع
للسّبي ما نكحوا، والقتل ما ولدوا والنّهب ما جمعوا، والنّار ما زرعوا

فجمع أوّلا شقاء الرّوم بالممدوح الشّامل للسبي والقتل والنّهب والإحراق، ثم قسم ثانياً وفصّله.

ومنها الجمع مع التفريق والتقسيم

وهو عبارة عن أن يجمع المتكلم متعدداً تحت أمر ثم يفرّق ثم يضيف إلى كلّ ما يناسبه، ومثاله في النّثر من الكتاب الكريم قوله سبحانه:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٥ ـ ١٠٨].

قد جمع الأنفس في عدم التكلم بقوله: لا تكلم نفس، ثم فرّق بأن أوقع التّباين فينها بان بعضها شقيّ وبعضها سعيد، ثم قسّم وأضاف إلى السّعداء ما لهم من بنعيم الجنة، وإلى الأشقياء مالهم من عذاب النّار، ومن كلام أمير المؤمنين ﷺ قوله في المخ قح (١٠٨) في شرح حال الأموات:

«فَجَعَلَهُمْ فَريقَينِ أنعَمَ عَلَىٰ هٰؤُلاءِ، وَانْتَقَمَ مِنْ هٰؤُلاءِ، فَأَمّا أهْلُ الطّاعَةِ فَأَثابَهُمْ في جَوارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ في دَارِهِ، إلى قوله: فَأَمّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دارٍ، وَغَلَّ الأَيْدِي إِلَى الأَعْنَاقِ».

فقد جمع الأموات في ضمير الجمع في جعلهم، ثم فرّقهم فريقين، أحدهما المنعم عليهم، وثانيهما المنتقم منهم، ثم قسّمهم بقوله: فأمّا أهل الطاعة، فأمّا أهل المعصية فإن أهل الطاعة يساوق من أنعم عليهم، وأهل المعصية يساوق من انتقم منهم فافهم، وفي النّظم قول ابن شرف القيرواني:

لمختلفي الحاجات جمع ببابه فهذا له فنّ وهذا له فنّ
فللخامل العليا وللمعدم الغني وللمذنب العتبي وللخائف الأمن

ومنها الافتنان

وهو الإتيان بفنّين مختلفين من فنون الكلام في بيت واحد فأكثر، مثل النّسيب،

والحماسة، والمدح، والهجو، والتهنية، والتّعزية، ولا يختصّ بالنّظم بل يكون في النّثر أيضاً فمنه قوله سبحانه:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٧].

فإنّه جمع بين الفخر والتّعزية، فعزّى سبحانه جميع المخلوقات من الإنس والجنّ والملائكة وسائر أصناف ما هو قابل للحياة، وتمدّح بالبقآء بعد فنآء الموجودات في عشر لفظات، مع وصف ذاته بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام. وقول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ ب (٢):

«زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبُور، لاَ يُقاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلاَ يُسَوَّىٰ بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً».

فإنّ ذيل الكلام مسوق لمدح آل محمد صلى الله عليه وآله، وصدره مسوق لهجو المبغضين لهم وقدحهم. ومن الافتنان بالهجو والمدح في النّظم قول أبي ربيعة في يزيد بن حاتم يفضّله على يزيد بن أسيد وكان في لسانه تمتمة فعرّض بها في هذه الأبيات:

لشتان ما بين اليزيدين في النّدى ... يزيد سليم والأعزّ ابن حاتم

فهمّ الفتى الأزديّ اتلاف ماله ... وهمّ الفتى القيسي جمع الدّراهم

فلا يحسب التّمتام أنّي هجوته ... ولكنني فضّلت أهل المكارم

ومنه بالجمع بين التهنئة والتّعزية قول أبي نواس يعزّي الفضل عن الرّشيد ويهنّيه بالأمين:

تعز أبا العبّاس عن خير هالك ... بأكرم حيّ كان أو هو كائن

حوادث أيّام تدور صروفها ... لهنّ مساو مرّة ومحاسن

وفي الحيّ بالميت الذي غيب الثرى ... فلا الملك مغبون ولا الموت غابن

ومنها المذهب الكلامي

وهو عبارة عن أن يأتي البليغ بحجة على ما يدّعيه على طريقة المتكلّمين، وهي أن تكون بعد تسليم المقدّمات مستلزمة للمطلوب.

فمثاله نثراً من الكتاب العزيز قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

أي القمر آفل وربّي ليس بآفل، فالقمر ليس بربّي، ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما في

المخ سو (٦٦) من احتجاجه على أولويته بالخلافة وإبطال دعوى المهاجرين والأنصار حسبما تعرفه إن شاء الله تعالى هناك تفصيلاً، وقوله ﷺ في المخ قز (١٠٧):

«خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيرِ رَوِيَّةٍ إذْ كَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إلاَّ بِذَوِي الضَّمَائِرِ وَلَيْسَ بِذي ضَميرٍ في نَفْسِهِ».

وهذا النّوع كثير في خطبة ﷺ المسوقة للتّوحيد كما هو غير خفيّ على الخبير. ونظماً قول الشّيخ صفيّ الدّين في مدح النبيّ صلى الله عليه وآله:

كم بين من أقسم الله العليّ به وبين من جاء باسم الله في القسم

فإنّ مطلوبه تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء، واحتجّ على ذلك بقسم الله سبحانه به في قوله:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ولم يقسم بغيره منهم بل هو أقسموا به سبحانه، وشتّان بين المنزلتين.

ومثله قول بعضهم في وصف أمير المؤمنين ﷺ وتفضيله على أبي بكر وغيره وهو من أبدع ما قيل:

كم بين من شك في خلافته وبين من قيل إنه الله

ومنها المبالغة

وتسمّى بالتبليغ، وسمّاه بعضهم بالإفراط في الصّفة، وهو أن تثبت لشيء وصفاً وتدّعي بلوغ ذلك الوصف في الشدّة والضّعف حدّاً هو مستبعد جدّاً، لكنه ممكن عقلاً وعادة، مثل قوله تعالى في الكتاب الكريم:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢].

والمعنى أنّ هول القيامة إذا فاجأ المرضعة وقد ألقمت الصّبي ثديها نزعته من فيه، لما يلحقها من الدّهشة عن الذي أرضعته، وعن الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام.

فالذّهول والوضع المذكور ان مبالغة في وصف يوم القيامة بالشدّة، وهما ممكنان عقلاً وعادة. ومن كلام أمير المؤمنين ﷺ في المخ له (٣٥):

«فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ».

فإنّ ارتياب النّاصح بنصحه، وضنّ الزّند بقدحه، مبالغة في وصف إبائهم وتمرّدهم بالشدّة، وهما أمران ممكنان عقلاً وعادة. ومن النّظم قوله:

وكم لك نعماً لو تصدّى لشكرها ... لسان معدّ لاعتراه كلول
أكلف نفسي أن أقابل عفوها ... بجهدي وهل يجزي الكثير قليل

ومنها الاغراق

وهو أنّ تدعي لشيء وصفاً بالغاً حدّ الإمكان عقلاً، والاستحالة عادة، كقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ ج (٢):

«يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلاَ يَرْقَىٰ إِلَيَّ الطَّيرُ».

فإنّ عدم رقي الطير إلى مكان يكون فيه الإنسان ممتنع عادة، ولكنّه ممكن عقلاً بالنّظر إلى مقامات الإمام النّورانية، ومعجزاته الخارقة للعادة. ومن النّظم قول أبي الطيب المتنبّي:

روح تردّد في مثل الخلال إذا ... أطارت الرّيح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحو لا أنني رجل ... لولا مخاطبتي إيّاك لم ترني

فدعوى نحول الشّخص حتّى يصير مثل الخلال ولا يستدل عليه إلاّ بالكلام أمر ممتنع عادة، إلاّ أنّه ممكن عقلاً إذ الشيء الدقيق إذا كان بعيداً لا يرى بخلاف الصّوت ومنه قوله:

ونكرم جارنا مادام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث مالا

ومنها الغلو

وهو أن تدّعي لشيء وصفاً هو ممتنع عقلاً وعادة، ومنه يعلم أنّ المبالغة دون الإغراق، والإغراق دون الغلوّ، وأحسنه ما دخل عليه ما يقربه إلى الصّحة ككاد ولولا ولو وحرف التّشبيه، كقوله تعالى:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ [النور: ٣٥].

فانّ إضاءة الزّيت مع عدم مسيس النّار مستحيلة عقلاً وعادة، وبدخول يكاد خرج عن الامتناع، لأنها دلت على مقاربة الإضاءة لا وقوعها الذي هو المستحيل. وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قح (١٠٨):

«فَكَأَنَّ ما هُوَ كائِنٌ مِنَ الدُّنْيا عَنْ قَليلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ ما هُوَ كائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمّا قَليلٍ لَمْ يَزَلْ».

فإنّ كون ما هو كائن غير موجود أبداً، وكون ما يكون بعد موجوداً أزلاً أي ثابتاً في

الماضي مستحيلان عقلاً وعادة، إذ تنافي الوجود والعدم والاستقبال مع الماضي ضروريّ، إلاّ أنّه بدخول كانّ للتقريب والتشبيه ارتفعت الاستحالة، والمقصود الإشارة إلى سرعة زوال الدّنيا وفنائها، وسرعة لحوق الآخرة وبقائها، وسيأتي له مزيد توضيح في مقامه إن شاء الله، ومن النّظم قول نصر السّفاقسي:

أذابه الحبّ حتّى لو تمثّله بالوهم خلق لأعياهم توهّمه
لولا الأنين ولوعات تحرّكه لم يدره بعيان من يكلّمه

والبيت الأوّل من الغلوّ، والثّاني من الاغراق، وقول أبي العلاء المعرّي:

يكاد قسيّه من غير رمى تمكّن في قلوبهم النّبالا
يكاد سيوفه من غير سلّ يجدن إلى رقابهم انسلالا

ومن الغلوّ بغير حرف التّقريب قوله:

كم سابح أعدوته فوجدته عند الكريهة وهو نسر طائر
لم يرم قطّ بطرفه في غاية إلاّ وسابقه إليها الحافر

ومنها تجاهل العارف

وسمّاه صاحب **(المفتاح)** بسوق المعلوم مساق غيره لنكتة، قال: ولا أحبّ تسميته بالتّجاهل، لوروده في كلام الله تعالى، وخصّه بعضهم بأن يكون على طريق التّشبيه ليوهم أن شدّة الشّبه بين المشبّه والمشبّه به أحدثت التباس أحدهما بالآخر والمشهور الأوّل، والنكتة فيه إمّا المبالغة في المدح، أو الذّم، أو التّعظيم، أو التّحقير، أو التّوبيخ، أو التّقرير، أو التّعريض، أو التّأسف، أو التّعجب، أو غير ذلك.

قال العلاّمة التّفتازاني: ونكت التّجاهل أكثر من أن يضبطها العالم، فمن أمثلته نثراً للمبالغة في التوبيخ والتنبيه على الضّلال قول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ فب (٨٢):

«فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ، أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ، أَمْ بِمَاذا تَغْتَرُّونَ».

وللمبالغة في التّقرير قوله عليه السلام في المخ فب (٨٢) أيضاً:

«أَوَلَسْتُمْ أَبْناءَ الْقَوْمِ وَالآبَاءَ وَإِخْوَانَهُمْ وَالأَقْرِبَاءَ».

وللمبالغة في التّعجب قوله عليه السلام في المخ قز (١٠٧):

«ما لي أَراكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ».

وللمبالغة في التّحقير قوله عليه السلام في المخ كب (٢٢):

«يا خَيْبَةَ الدّاعي مَنْ دَعَا وَإلَى مَا أُجِيبَ»، وقوله رضي الله عنه في المخ قلو (١٣٦) «أنْتَ تَكْفِيني فَوَاللَّهِ ما أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ ناصِرُهُ».

وللمبالغة في التعظيم قوله رضي الله عنه في المخ قسد (١٦٣):

«فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَىٰ صِفَةِ هٰذَا عَمَآئِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَآئِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوالُ الْوَاصِفينَ».

وللمبالغة في التحسّر قوله رضي الله عنه في المخ قفا (١٨١):

«أَيْنَ اخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ، أَيْنَ عَمّارُ وَأَيْنَ ٱبْنُ التَّيْهَانِ، وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَينِ، وَأَيْنَ نُظَراؤهُمُ».

إلى غير ذلك مما يجده المتتبّع البصير بأقطار كلامه.

ومن أمثلته نظماً للمبالغة في المدح قول القاضي الفاضل يمدح الملك العادل:

أهذه سير في المدح أم سور وهذه أنجم في السّعد أم غرر

وأنمل أم بحار والسّيوف لها موج وافر ندها في لجّها درر

وأنت في الأرض أم فوق السّماء وفي يمينك البحر أم في وجهك القمر

وفي التّحقير قوله:

يقولون هذا عندنا ليس ثابتاً ومن أنتم حتّى تكون لكم عند

وفي لتّوبيخ قوله:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

وفي التّقرير قوله:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وفي النّحول قول الثعالبي:

لي فاتن سيّد يعلّمني بحسنه كيف يعبد الصّنم

لمّا رآني وفي يدي قلم لم يدر مولاي أيّنا القلم

ومنها الاعتراض

وسمّاه قوم بالحشو، وهو أن يؤتى في أثناء كلام، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام، والمراد بالكلام ليس هو المسند

إليه والمسند فقط بل مع جميع ما يتعلّق بهما من الفضلات والتّوابع، والمراد بالكلامين المتّصلين أن يكون الثّاني منهما بياناً للأوّل، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه ونحوه، وخرج بقولنا سوى الإبهام الاحتراس، وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، كقول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها حلوب الرّبيع وديمة تهمي

فقوله: غير مفسدها، احتراس أتى به لدفع كون المطر مفسداً، لأنّ نزوله قد يكون سبباً لفساد الدّيار وخرابها.

والنكتة في الاعراض قد يكون التوكيد، مثل قوله عليه السلام في المخ قصب (١٨٢):

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ».

فإن المقصود به توكيد تنزيه الله سبحانه عن صفات النّقص والافتقار في الأزل كما في الأبد، والإشارة إلى أنّ غرضه من الخلق والإيجاد لم يكن تكميل ذاته بجلب المنفعة أو دفع المضرّة كما في سائر الصنّاع، يصنعون الصّنائع لافتقارهم إليها ويريدون منها تحصيل كمال ليس لهم، لما في ذواتهم من النّقص والحاجة.

وقد تكون التّنبيه على عظم الرزيّة مثل قوله عليه السلام في المخ كب (٢٢):

«فَيَا عَجَباً وَاللَّهِ يُميتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنْ إجْتِمَاعِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ».

وقد تكون التّعظيم مثل قوله ﷺ في المخ قلح (١٣٨):

«ألاَ وفي غَدٍ وَسَيَأْتي غَدٌ بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ يَأْخُذُ الْوالي» اه.

فإنّ قوله: في غد متعلّق بقوله يأخذ، والجملة بين الظرف والمظروف اعتراض لتعظيم شأن الغد الموعد بمجيئه.

وقد تكون توكيد التّوبيخ، مثل قوله ﷺ في المخ كب (٢٢) أيضاً:

«وَلَمْ أَرَكُمْ مَعْرِفَةً وَاللهِ جَرَّتْ نَدَماً».

فإنّ جملة القسم في الكلامين فيه اعتراضية اتى بها لما ذكرناها من النكتة.

وقد تكون التنفير، مثل قوله ﷺ في المخ كج (٢٣):

«فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَها إذا ذُكِرَتْ وَتُغْرَىٰ بِها لِئَامُ النَّاسِ كانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ».

فإنّ قوله: كان كالفالج، خبر إنّ، وإدراج جملة: فيخشع في البين من باب الاعتراض وقد يكون التّنزيه، مثل قوله تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

فإنّ قوله سبحانه: جملة لكونه بتقدير الفعل وقعت بين المعطوف والمعطوف عليه لقصد تقديسه سبحانه عمّا ينسبونه إليه. ونظيره قوله ﷺ في المخ قصا (١٨١):

فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمِراتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوباتِ الْغُيُوبِ، إِنّي خالِقٌ بَشَراً.

فجملة: وهو العالم، اهـ[1]، معترضة بين قال ومقوله وهو قوله: إنّي خالق، جيء بها لقصد التنزيه حسبما تعرفه إن شاء الله في مقامه.

ومن الاعتراض في النّظم قوله:

أتجزع من دمعي وأنت أسلته ومن نار أحشائي ومنك لهيبها
وتزعم أنّ النفس غيرك علّقت وأنت ولا منّ عليك حبيبها

فإنّ جملة: ولا منّ عليك، اعتراضيّة، والنكتة فيها الاستعطاف، وأن لا يشمئز قلبه منه.

وممّا جاء بين كلامين متّصلين وهو أكثر من جملة قوله ﷺ في المخ قكب (١٢٠):

«أَما وَاللَّهِ لَوْ أَنّي حينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فيهِ خَيراً، فَإِن اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِن اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدارَكْتُكُمْ لَكانَتِ الْوُثْقىٰ».

فإنّ جملة: حين أمرتكم بما أمرتكم به، اعتراض بين اسم أنّ وخبرها جيء بها للتّوكيد، وجملة: فإن استقمتم هديتكم مع الجملتين الشّرطيّتين بعدها اعتراض بين لو وجوابها أعني لكانت الوثقى، والفاء في قوله: فإن استقمتم، اعتراضية، على حد قوله:

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتي كلّ ما قدرا

ومنها التكرار

وهو عبارة عن تكرير كلمة فأكثر باللفظ والمعنى لنكتة، والنكت فيه كثيرة. منها التّوكيد مثل قوله تعالى:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ٣، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ٤﴾ [التكاثر: ٣ ـ ٤].

(١) هذه العلامة «اهـ» تعني: إلى آخره، يأتي بها المصنف عادة إذا نقل قسماً من القول.

فالتكرار لتأكيد الرّدع، ومثل قوله ﷺ في المخ قعه (١٧٥):

«أَلْعَمَلَ الْعَمَلَ ثُمَّ النِّهايَةَ النِّهايَةَ، وَالإِسْتِقامَةَ الإِسْتِقامَةَ ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ».

فإنّ الغرض توكيد التّرغيب والتحضيض بهذه الأمور، ومثله قوله ﷺ في المخ قفا (١٨١): «الجهاد الجهاد» وفي المخ قفب (١٨٢): «فَاللَّهَ أللّه مَعْشَرَ الْعِبادِ».

فإنّه لتأكيد المراقبة.

ومنها زيادة الاستبعاد، كقوله تعالى:

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦].

ومنها التّنبيه والإيقاظ، وقد اجتمعت هذه النّكتة مع سابقته في قوله ﷺ في المخ قص (١٩٠).

«هَيْهَاتَ قَدْ فَاتَ ما فَاتَ وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ».

ومنها التّحذير كقوله ﷺ في المخ قصا (١٩١):

«فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طاعَةِ ساداتِكُمْ وَكُبَرائِكُمُ الَّذينَ تَكَبَّرُوا».

ومنها التّهويل والإنذار، نحو قوله تعالى:

﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١].

ومنها تذكر ما قد بَعُدَ بسبب طول الكلام، سواء كان التّكرار مجرّداً عن رابط، كما في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

أو مع رابط، كقوله سبحانه:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

ومنها زيادة التّوجع والتحسّر كقوله:

فيا قبر معن أنت أوّل حفرة ... من الأرض خطت للسّماحة مضجعاً

ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البرّ والبحر مترعاً

ومنها التّعظيم كقوله:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧].

ومنها الإنكار والتّوبيخ كتكرار قوله:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [ص: ٣٢].

ومنها الاعتناء والاهتمام بشأن المكرّر وإظهار كماله، مثل قوله ﷺ في المخ قنط (١٥٩):

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وتُعْطِي، وعَلَى ما تُعافي وَتَبْتَلي حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ، حَمْداً يَمَلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ ما أَرَدْتَ، حَمْداً لاَ يُحْجَبُ عَنْكَ وَلا يَقْصُرُ دُونَكَ، حَمْداً لاَ يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ وَلاَ يَفْنَىٰ مَدَدُهُ».

ومنها زيادة المدح مثل قوله ﷺ:

أَلْكَرِيمُ بْنُ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيم ... يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْن إِسْحٰقَ ابْن إِبْرَاهِيمَ

ومنها التّلذذ كقوله:

تالله يا ظبيات القاع قلن لنا ... ليلاي منكنّ أم ليلى من البشر

وقوله:

سقى الله نجداً والسّلام على نجد ... ويا حبّذا نجد على النّاي والبعد

نظرت إلى نجد وبغداد دونه ... لعلّي أرى نجداً وهيهات من نجد

فكرّر لفظ نجد خمس مرّات لتلذّذه بذكرها.

أقول: هذه النكت للتكرار أكثرها ذكره أرباب البديع في كتبهم، والانصاف أن الفائدة في أغلب ما ذكروه هو التّوكيد، والنكتة التي أوردوها مستفادة من سايق الكلام، أو قرينة المقام فافهم جيّداً.

ومنها شجاعة الفصاحة

وهو عبارة عن حذف شيء من لوازم الكلام اعتماداً على معرفة السّامع به، قال السّيد الرضي (ره): كان شيخنا أبو الفتح يسمّي هذا الجنس شجاعة الفصاحة، لأن الفصيح لا يكاد يستعمله إلاّ وفصاحته جريئة الجنان غزيرة المواد، مثل قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [الرحمٰن: ١٣].

أي الشّمس ولم يجر لها ذكر، وقوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]].

أي القرآن وقوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ أي الرّوح، ونحو ذلك، وفي كلام أمير المؤمنين ﷺ في المخ ج (٣):

«أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبي قحافَةَ وإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلّي مِنْهَا مَحَلَّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحىٰ».

فإنّ الضّميرين راجعان إلى الخلافة، ولم يسبق لها ذكر في الكلام، وقوله ﷺ في المخ ركد (٢٢٢):

«دَارٌ بِالْبَلاَءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَوْصُوفَةٌ».

أيّ الدّنيا، فقد حذف المبتدأ للعلم به، ونحو ذلك كثير في كلامه ﷺ، ومن النّظم قول حاتم الطائي:

لعمرك ما يغني الثّراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً فضاق بها الصّدر

يريد النّفس.

أقول: هكذا قالوا، والانصاف أنّ هذا ليس من الحذف في شيء، وإنّما وضع المضمر موضع المظهر في الأمثلة المذكورة تعويلاً على علم السّامعين، نعم المثال الثّاني الذي أوردناه من كلامه ﷺ من أمثلة الباب.

ومنها الاستخدام

وهو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً به أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر، أو بضميرين مراداً بأحدهما أحد المعاني وبالآخر المعنى الآخر. فالأوّل كقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾، ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنين: ١٢ - ١٣].

فقد أراد بالإنسان آدم ﷺ وبالضّمير الرّاجع إليه في: جعلناه ولده، وربّما فسّر الإنسانِ بولد آدم أيضاً فلا يكون من باب الاستخدام. ومثله في النّظم قول جرير:

إذا نزل السّمآء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فإنّه أراد بالسّمآء المطر، وبالضّمير الرّاجع إليه في رعيناه، النّبات الحاصل منه بعلاقة السّببيّة.

والثّاني كقوله تعالى:

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ، وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء: ٤٣].

قال أبو البقاء: استخدم سبحانه بلفظة الصّلاة لمعنيين أحدهما إقامة الصّلاة بقرينة حتّى تعلموا، والآخر موضع الصّلاة بقرينة ولا جنباً إلى آخره انتهى، ولا يخلو عن تأمّل، والأوضح قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ كو (٢٦):

«فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَها، وَأَعِدُّوا لَها عُدَّتَها، فَقَدْ شُبَّ لظاها، وَعَلاَ سَناها».

فإنّ الضّمائر الثّلاثة الأول راجعة إلى الحرب باعتبار معناها الحقيقي، والضّميران الأخيران راجعان إليها باعتبار المجاز، أي نار الحرب، وقوله ﷺ في المخ ص (٩٠):

«وَخَلَقَ الآجَالَ فَأَطَالَها، وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَها، وَأَخَّرَها».

فإنّ الأجل قد يطلق على مدّة الشّيء، وقد يطلق على زمان حلول الموت، فضمير أطالها وقصّرها، راجع إليه باعتبار المعنى الأوّل، والضّميران الآخران راجعان إليه باعتبار المعنى الثّاني، ومثله في النّظم قوله:

فسقى الفضا والسّاكنيه وإن هم ... شبّوه بين جوانحي وضلوعي

أراد بأحد الضّميرين الرّاجعين إلى الفضا وهو المجرور في السّاكنيه المكان، وبالآخر المنصوب في شبّوه النّار، أي أوقدوا بين جوانحي نار الهوى التي تشبه نار الفضاء، وقوله:

وربّ غزالة طلعت بقلبي وهو مرعاها ... نصبت لها شباكاً من نضار ثم صدناها

وقالت لي وقد صرنا إلى عين قصدناها ... بذلت العين فاكحلها بطلعتها ومجراها

ففي البيت الأوّل استخدام، لأن الغزالة قد تطلق على الشّمس، وقد تطلق على الصّنف المخصوص من الوحش، فاراد بالضّمير الرّاجع إليها في طلعت، معناها الأوّل، وبالضّمير في مرعاها ولها وصدناها معناها الثّاني، وفي البيت الأخير أربعة استخدامات، ومعناه بذلت الذّهب فاكحل عينك بطلعة الشّمس ومجرى العين من الماء، لأنّه وطاء لهذه المعاني في الأبيات المتقدّمة وأتى بالبيت الرّابع.

قال الصّفدي: وهذا أبلغ ما سمعته في الاستخدام، وما عرفت لغيره هذه العدّة في هذا الوزن القصير، وهذا يدلّ على الفكر الصّحيح، والتخيّل التّام.

ومنها التفسير

وهو أن يأتي المتكلّم في كلامه نثراً أو نظماً ما لا يستقلّ الفهم بمعرفة فحواه دون أن

يفسّر، وبعبارة أخرى: أن يكون في الكلام لبس وخفاء فيؤتى بما يزيله ويفسّره، وربّما يسمّى بالتّبيين. ومثاله في النّثر قوله عليه السلام في المخ مب (٣٢):

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِثْنَتَانِ، إِتِّبَاعُ الْهَوىٰ وَطُولُ الأَمَلِ، فَأَمَّا إِتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسي الآخِرَةَ».

وقوله عليه السلام في وصف الإسلام في المخ قه (١٠٥):

«فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ، وَأَوْضَحُ الْوَلاَئِجِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُشْرِقُ الْجَوادِّ، مُضيءُ الْمَصابيحِ، كَريمُ الْمِضْمَارِ، رَفيع الْغَايَةِ، جامِعُ الْحَلْبَةِ، مُتَنَافِسُ السَّبْقَةِ، شَريفُ الْفُرْسَانِ، التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنارُهُ، وَالْمَوْتُ غايَتُهُ، وَالدُّنْيا مِضْمَارُهُ، وَالْقِيامَةُ حَلْبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سَبْقَتُهُ». وقوله عليه السلام في المخ قيج (١١٣): «أُوصيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ الَّتي هِيَ الزّاد، وَبِهَا الْمَعَادُ، زادٌ مُبَلِّغٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ».

وفي النّظم قوله:

ثلاثة تشرق الدّنيا ببهجتها … شمس الضّحى وأبو إسحاق والقمر

وقوله:

غيث وليث فغيث حين تسأله … عرفاً وليث لدى الهيجآء ضرغام

ومنها التورية

وتسمّى بالإيهام والتّوجيه والتّحبير والتّخييل أيضاً قال أبو البقاء: والتّورية أولى بالتّسمية، لقربها من مطابقة المسمّى، لأنّها مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره، فكأن المتكلّم يجعله وراءه بحيث لا يظهر، وهو أن يذكر لفظ له معنيان أحدهما قريب ودلالة اللّفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفيّة، فيقصد المتكلم المعنى البعيد لقرينة خفيّة ويورّي عنه بالقريب فيوهم السّامع أوّل وهلة أنّه يريد القريب، ولهذا سمّي إيهاماً عند بعض البيانيّين، وهذا التّعريف أولى ممّا قاله بعضهم: من أنّها عبارة عن أن يذكر لفظ له معنيان مثلاً أحدهما قريب والآخر غريب، وإذا سمعه الإنسان سبق فهمه إلى القريب ومراد المتكلم تفهّم الغريب.

وممّا قاله آخر: من أنها أن يكون للّفظ ظاهر وتأويل، فيسبق إلى فهم السّامع الظاهر مع أنّ المراد هو التّأويل لأنّ أوّلهما ظاهر فيما كان المعنيان المفروضان حقيقيّين للّفظ فقط على نحو الاشتراك اللفظي، غاية الأمر أن يكون استعماله في أحدهما أكثر وأشهر فيحصل القرب بذلك الاعتبار، كما أنّ ثانيهما يفيد الاختصاص بما كان من قبيل الحقيقة والمجاز، لأنّ المتبادر من التّأويل هو المجاز.

فالأولى ما عرّفناها به، لكونه أشمل فعليه قد يكون المعنيان أعني المورّى به والمورّى عنه كلاهما حقيقيّين، وقد يكون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً.

وكيف كان فقد قال صاحب «**الكشاف**»: ولا نرى باباً في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى وكلام الأنبياء[١].

إذا عرفت ذلك فأقول: إنّها على أقسام ثلاثة.

أحدها: التّورية المجرّدة وهي التي لا تجامع شيئاً ممّا يلائم المورّى به والمورّى عنه ومثلوا لها بقوله تعالى:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

فإنّه أراد بالاستواء معناه البعيد وهو الاستيلاء، وورّى عنه بالقريب وهو الاستقرار مع عدم اقترانه بشيء يلائم أحد المعنيين، وربّما أشكل فيه بأنّه اقترن بما يلائم المعنى القريب وهو العرش، لأنّه يلائم الاستقرار؛ ومثل أيضاً بقوله ﷺ:

«**إِنَّمَا نَحنُ حَفنَةٌ مِن حَفَناتِ رَبِّنا**»[٢].

فإنّ المعنى القريب للحفنة هو ملء الكفّ، وأراد المعنى البعيد أي نحن على كثرتنا قليلون عند الله، أو نحن قليلون بالإضافة إلى ملكه ورحمته. ونحوه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قوله فيّ المخ يط (١٩) للأشعث بن قيس: «حائك بن حائك، ومنافق ابن كافر». فإنّ المعنى القريب للحائك هو النّاسج للبرد ونحوه، لكنّه ورّى به عن حائك الكذب أي المفتري، ومن النّظم قول القاضي عياض:

كأنّ كانون أهدى من ملابسه	لشهر تموز أنواعاً من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت	فما تفرّق بين الجدى والحمل

فقد أراد بالغزالة المعنى البعيد، وورّى عنه بالقريب أعني الرّشاء مع عدم اقترانها بشيء يلائم المورّى به، كسواد المقلة والعين وحسن الجيد وسرعة النّفور، ولا بشيء يلائم المورّى عنه كالإشراق والطلوع والأفول.

فإن قيل: لا نسلم كونها من التّورية المجرّدة بل هي مرشّحة لاقترانها بالجدي والحمل

---

(١) راجع البرهان للزركشي: ٣/ ٤٤٠.

(٢) راجع المصنف لابن أبي شيبة: ٧/ ٤٣٢، ولسان العرب: ١٣/ ١٢٥ وفيها: حفنات الله.

المناسبان للمعنى القريب الذي ليس بمراد كما صرّح به العلاّمة التّفتازاني في «**المطوّل**».

قلت: قد أجيب عنه بأن اللاّزم في لوازم التّورية أن لا يكون لفظاً مشتركاً، والجدي والحمل ليسا كذلك، لأنّهما يطلقان على الحيوان المعروف وعلى بعض البروج.

والثاني: المرشّحة وهي التي تجامع شيئاً يلائم المورّى به، سواء كان ذلك الشّيء قبل التّورية أو بعدها فهي قسمان: **أحدهما** أن يكون الملائم قبل التّورية، كقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

فإنه أراد بأيد معناها البعيد أعني القدرة مع اقترانها بما يلائم القريب أعني الجارحة المخصوصة، وهو بنيناها، وقوله ﷺ في المخ صط (٩٩):

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ النَّاشِرِ في الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ».

فقد أريد النّعمة مع اقترانها بما يلائم معناها القريب وهو البسط فتدبّر.

ومن النّظم قول يحيى بن منصور من شعراء الحماسة:

وجدنا أبانا كان حلّ ببلدة سوى بين قيس قيس غيلان والفزر
فلما نأت عنّا العشيرة كلّها أنخنا فحالفنا السّيوف على الدّهر
فلما اسلمتنا عند يوم كريهة ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

فإنّ لفظ أغضينا قبل الجفون رشحة للتورية ورجّحه في الظاهر لإرادة إغماض جفون العيون على إغماض السّيوف بمعنى اغمادها، لأنّ السّيف إذا اغمد انطبق الجفنة عليه، لكن دلّ سياق كلامه على إرادة أنّهم لا يغمدون سيوفهم ولهم وتر عند أحد.

وثانيها: أن يكون الملائم بعد التّورية، كقول الصّاحب عطاء الملك في امرأة اسمها شجر:

يا حبّذا شجر وطيب نسيمها لو أنها تسقى بماء واحد

فقد رشّح الشّجر المراد به المرأة الموصوفة بما يلائم المورىّ به القريب بعده وهو طيب النّسيم والسّقي بماء واحد.

أقول: وهنا قسم آخر، وهو أن يكون الملائم قبل التّورية وبعدها كليهما، كقوله ﷺ في باب المخ من حكمه: «من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة». فإنّ اليدين عبارتان عن النّعمة مع ظهورهما في الجارحة المخصوصة واقترانهما بما يلائم القريب أعني الإعطاء والقصر والطول، واليد القصيرة هي نعمة العبد، واليد الطويلة هي نعمة الرّب سبحانه.

الثالث: التّورية المبيّنة وهي التي تجامع شيئاً ملائماً للمعنى البعيد المورّى عنه إمّا قبلها كقوله ﷺ في المخ (١): «فأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمراً منيراً» فإنه ورّى بالسّراج عن الشمس وقرنه بما يلائمها أعني أجرى، لأن الجريان أعني الحركة إنّما يتصور فيها دون السّراج الحقيقي فتدبر. وإمّا بعدها كقوله:

أمــا والله لــولا خــوف ســخــطــك لــهــان عــلــيّ مــا ألــقــى بــرهــطــك

مــلــكــت الــخــافــقــيــن فــتــهــت عــجــبــاً ولــيــس هــمــا ســوى قــلــبــي وقــرطــك

فإنّ الخافقين ظاهران في المشرق والمغرب، وأراد بهما قلبه وقرط محبوبته، وهو المعنى البعيد المورّى عنه، وقد بيّنه بالنصّ عليه في المصراع الأخير، وأوضح منه قوله:

أرى ذنــب الــسّــرحــان فــي الأفــق ســاطــعــاً فــهــل مــمــكــن أن الــغــزالــة تــطــلــع

أراد بذنب السّرحان ضوء الفجر وهو المعنى البعيد، وقد بيّنه بذكر لازمه بعده وهو قوله ساطعاً، وكذا أراد بالغزالة الشّمس وهو المعنى البعيد، وقد بيّنه بذكر لازمه بعده وهو تطلع، والمعنى القريب في كِلّاَ الموضعين الحيوان المعروف.

تنبيه

قد ظهر لك ممّا قدمنا في رسم التّورية الفرق بينها وبين الكناية، لأنّ الكناية هو ذكر الملزوم وإرادة اللازم مع جواز إرادة الملزوم، فإن معنى زيد طويل النّجاد أنّه طويل القامة، فيشترط في الكناية التّلازم بين المعنيين، ولا يعتبر ذلك في التّورية، كما أنّه يعتبر الاشتهار في التّورية ولا يعتبر ذلك في الكناية.

وأمّا الفرق بينها وبين الاستعارة فمن وجوه:

أحدها: أنّ الاستعارة قسم من أقسام المجاز، فلابدّ فيها أن يكون المستعار له معنى مجازيّاً للّفظ المستعار، والمستعار منه معنى حقيقيّاً له دائماً، وأمّا التّورية فقد يكون المعنيان فيها حقيقيّين وقد يكون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً، سواء كان المورّى به حقيقة والمورّى عنه مجازاً أو بالعكس، وإنّما يتصوّر العكس في المجاز المشهور، فيورّى بالمعنى المجازي لاشتهاره ويراد الحقيقة بقرينة خفية أو بملاحظة ترجيح الوضع على ما فصّل في علم الأصول.

ثانيها: أنّ علاقة التّجوز في الاستعارة لابدّ وأن يكون هي المشابهة، ولا يشترط ذلك في التّورية فيما كان أحد المعنيين فيها حقيقة والآخر مجازاً، بل قد تكون من سائر أنواع العلاقات.

وثالثها: أن اشتهار أحد المعنيين شرط في التّورية دون الاستعارة.

إذا عرفت ذلك فأقول: لو كان لفظ له معنيان أحدهما حقيقة والآخر مجاز، وكان كثير الاستعمال ومشهورة في الحقيقة وعلاقة التجوّز بينهما المشابهة، فأُطلق ذلك اللّفظ وأُريد به معناه المجازي فلك أن تجعله من قبيل الاستعارة، ولك أن تجعله من باب التّورية وتسمّيه باسم أيّهما شئت، وذلك لاجتماع شرائط النّوعين فيه، مثاله ما قدّمناه من كلام أمير المؤمنين ﷺ من قوله: «فأجرى فيها سراجاً مستطيراً»، وقوله ﷺ: «حائك ابن حائك»، فإنّه يجوز لك أن تقول إن السّراج استعارة للشّمس والحائك استعارة للمفتري لو لم يكن تشبيهاً بليغاً، ومثل ذلك قوله:

بدا وجهه من فوق أسمر قده وقد لاح من فوق الذوائب في جنح

فقلت عجيب كيف لم يذهب الرّجا وقد طلعت شمس النهار على رمح

فإنّه ورّى شمس النّهار عن وجه المحبوب، والرّمح عن قامته، ولك أن تقول إنّهما استعارة لهما.

فقد تلخص ممّا ذكرنا كله أنّ المدار في التّورية على الاشتهار، وفي الكناية على الملازمة، وفي الاستعارة على المشابهة، وأنّه لا منافاة بين كون اللفظ استعارة وتورية إذا اجتمعت فيه شرائط النّوعين، وأمّا اجتماع الكناية مع التّورية فغير ممكن، لأنّ التّورية مشروطة بقرينة دالة على أنّ المراد فيها المورّى عنه لا المورّى به، والكناية مشروطة بعدم القرينة على عدم جواز إرادة الملزوم، وإلاّ لم يمكن إرادة الملزوم كما لا يمكن إرادة المعنى الحقيقي مع المعنى المجازي فيرتفع بذلك الفرق بين الكناية والمجاز، وهو خلاف ما نصّ عليه علماء الأصول والبيان فافهم جيّداً.

ومنها التوجيه

وسمّاه بعضهم بالإبهام ومحتمل الضّدين، وهو عبارة عن أن يقول المتكلم كلاماً محتملاً لمعنيين متضادّين، كالمديح والهجاء، وغيرهما، ولا يأتي بعده بما يميّز المراد منه قصداً للابهام، وإخفاء للمرام، وأحسن أمثلته قول أمير المؤمنين ﷺ في معنى قتل عثمان في المخ ل (٣٠):

«لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ ناصِراً».

فإنّه محتمل لكونه في عداد القاتلين، ولكونه في عداد النّاصرين فقد أبهم المرام لاقتضاء الحال والمقام، حسبما تعرفه إن شاء الله في شرح هذا الكلام، ولذلك قال شاعر الشّام:

إذا سئل عنه حذا شبهة وعمّى الجواب على السّائلينا

فليس براض ولا ساخط ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا سرّه ولا بدّ من بعض ذا أن يكونا

ومن النّظم قول بشار لخيّاط أعور:

خاط لي عمرو قبا ليت عينيه سواء قلت شعراً ليس يدري أمديح أم هجاء

فإنّه يحتمل قصد التّساوي بين عينيه في العمى، وقصد التّساوي بينهما في الأبصار، ومنه قوله:

تفرّقت غنمي يوماً فقلت لها يا ربّ سلط عليها الذئب والضبعا

ومنها التوشيع

وهو أن يؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين ثانيهما معطوف على الأوّل.

قال العلاّمة التّفتازاني: ويسمّى هذا توشيعاً لأنّ التّوشيع لفّ القطن المندوف، وكأنّه يجعل التّعبير عن المعنى الواحد بالمثنى المفسّر باسمين بمنزلة لفّ القطن بعد النّدف، وهذا النّوع كثير في كلام أمير المؤمنين ﷺ، مثل قوله في المخ مب (٢٢):

«إِنَّ أَخوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ وَطُولُ الأَمَلِ».

وقد أوردنا هذا المثال في أمثلة التّفسير أيضاً ولا بأس به، لصدق تعريفه عليه كصدق تعريف التّوشيع عليه، وقوله في المخ قكز (١٢٧):

«وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلى غَيرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِّطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلىٰ غَيرِ الْحَقِّ».

وفي باب المخ من حكمه: «لا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثِقَ بِخِصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةِ وَالْغِنَىٰ بَيْنَا تَراهُ مُعَافاً إِذْ سَقِمَ، وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيًّا إِذا افْتَقَرَ».

وفيه أيضاً: «يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ مُطْرٍ، وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ».

وفيه أيضاً: «يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلاَنِ: مُحِبٌّ غالٍ، وَمُبْغِضٌ قالٍ».

ومن النّظم قوله:

أمسى وأصبح من تذكاركم قلقاً يرثي لي المشفقان الأهل والولد
وغاب عن مقلتي نومي لغيبتكم وخانني المسعدان الصبر والجلد
لا غرو للدّمع أن يجري غواربه وتحته المظلمان القلب والكبد

كأنّما مهجتي شلو بمسبعة ينتابه الضّاريان الذّئب والأسد
لم يبق غير خفي الروح في جسدي فدى لك الباقيان الرّوح والجسد

ومنها التعديد

وسمّاه قوم سياقة الأعداد، وهو إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد، فإن رُوعي في ذلك ازدواج، أو تجنيس، أو تطبيق، أو مقابلة، أو نحوها فذلك الغاية في الحسن واللّطافة، مثاله من النثر قولهم: فلان إليه الحلّ والعقد، والقبول والرّد، والأمر والنّهي، والإثبات والنّفي، والإبرام والنّقض، والبسط والقبض والهدم والبنآء، والمنع والإعطاء، وقول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ فكح (١٢٨):

«فَيَعْلَمُ سبُحَانَهُ ما في الأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثىٰ، وَقَبيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ».

وفي المخ قفا (١٨١): «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ، أو عَرْشٌ، أَوْ سَمَآءٌ، أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ، أَوْ إِنْسٌ».

وفي المخ قفد (١٨٢): «وَمَا الْجَلِيلِ، وَاللَّطِيفُ، والثَّقِيلُ، وَالْخَفِيفُ، والْقَوِيُّ، وَالضَّعِيفُ، في خَلِقِهِ إلاَّ سَواءٌ، وَكَذٰلِكَ السَّمَاءُ، وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ، وَالْمَاءُ، فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، والنَّبَاتِ، وَالشَّجَرِ، وَالْمَآءِ، وَالْحَجَرِ».

ومن النّظم قوله:

الخيل واللّيل والبيدآء تعرفني والسّيف والرّمح والقرطاس والقلم

ومنها حسن النسق

وهو يطلق على معنيين أحدهما ما يسمّى بتنسيق الصّفات وهو أن يذكر للشيء صفات متتالية، كقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] الآية.

وقول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ قى (١١٠) في وصف الدنيا:

«غَرَّارَةٌ، ضَرّارَةٌ، حَائِلَةٌ، زَائِلَةٌ، نافِدَةٌ، بائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ، غَوّالَةٌ».

وفي المخ قيد (١١١) في الإستسقاءِ: «اللَّهُمَّ سَقْياً مِنْكَ مُحْيِيَةً، مَرْوِيَةً، تَامَّةً، عَامَّةً، طَيِّبَةً، مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً، مَرِيعَةً، مَرِيئَةً، زَاكِياً نبْتُها، ثامِراً فَرْعُها، ناضِراً وَرَقُها».

ومثاله في النّظم قوله:

دَانٍ، بعيد، محبّ، مبغض، بهج   أعزّ حلو، ممرّ، ليّن، شرس

وثانيهما: أن يؤتى بكلمات متتاليات معطوفات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً بحيث إذا أفردت كلّ جملة منه قامت بنفسها واستقل معناها بلفظها، مثل قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ، وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي، وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ، وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ، وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ، وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ (١):

«أَوَّلُ الدّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاَصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلاَصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، إلى قوله: فَمَنْ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزّاهُ، وَمَنْ جَزّاهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ فيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ عَلاَمَ فَقَدْ أَخْلَىٰ مِنْهُ».

ومن النّظم قول أبي الطيب:

سرى النوم عني في سراي إلى الذي   صنائعه تسري إلى كلّ نائم

إلى مطلق الأسرى، ومخترم العدى   ومشكي ذوي الشكوى ورغم المراغم

ومنها الالتفات

وعرّف بأنّه العدول من مساق الكلام إلى مساق آخر غير مناف للأوّل في المعنى بل متمّم له. وأوضح منه ما في **(التلخيص)** من أنه التّعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاث أي التكلّم والخطاب والغيبة بعد التّعبير عنه بآخر منها، وقيّده التّفتازاني بأن يكون التّعبير الثّاني على خلاف مقتضى الظاهر ويكون مقتضى ظاهر سوق الكلام أن يعبر عنه بغير هذا الطريق، ونسبه إلى المشهور والجمهور، وظاهره كما ترى أن يكون كلا التّعبيرين ثابتين في اللّفظ، وبعبارة أخرى: أن يكون المعدول عنه والمعدول إليه كلاهما مذكورين في الكلام، ويظهر من صاحبي **(المفتاح)** و**(الكشّاف)** عدم اشتراط ذلك، فإن المستفاد منهما أنّ الالتفات إمّا هو ذلك، أو أن يكون مقتضى الظاهر التّعبير عنه بطريق من الطرق الثّلاث، فعدل إلى الآخر من غير أن يعبّر بالطريق الأوّل فكل التفات عند الجمهور التفات عندهما من دون عكس، فعلى قولهما يكون قول امرء القيس: نطاول ليلك بالاثمد، مخاطباً لنفسه من باب الالتفات، لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: ليلي بالتكلم، فعدل إلى الخطاب، وكيف كان فهو على ستّة

أقسام، حاصله من ضرب الطرق الثّلاث في الاثنين، لأنّ كلاّ من الطرق الثّلاث ينقل إلى الآخرين.

أحدها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢] فإن مقتضى الظاهر أن يقال: أنا، وقول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ ح (٨):

«فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ، هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي، وَاللَّهِ لابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّه».

ومقتضى السّوق أن يقول: لأنّي آنس، ومن النّظم قول عبد الله بن طاهر:

وإذا سئلت رشف ريقك قلت لي ... أخشى عقوبة مالك الأملاك
ماذا عليك دفنت قبلك في الثرى ... من أن أكون خليفة المسواك
أيجوز عندك أن يكونا متيّماً ... دنفاً بحبّك دون عود أراك

الثاني: الالتفات من التكلم إلى الخطاب، مثل قوله تعالى:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

فإن مقتضى مساق الكلام أن يقال: أرجع مكان ترجعون، ولم أجد لهذا القسم مثالاً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن النّظم قوله:

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
وأذكر أيّام الحمى ثمّ أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدّعا
فليست عشيّات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا

الثالث: الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩].

والأصل فساقه، وقول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ ح (٨):

«وَاللَّهِ لابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّه، وَلَكِنِّي قَدِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ، لاضْطَرَبْتُمْ؟»

ومقتضى الأصل أن يقول: ولكنّه قد اندمج على مكنون علم لو باح به اهـ وفي المخ قكب (١٢٢):

«وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيْتَةٍ عَلَى فِرَاشٍ».

ومن النّظم قول شرف الدّين التلعفري:

لا تقولوا سلا وملّ هوانا وتسلى عنّا بحبّ سوانا

كيف يسلوكم ويصبر عنكم من يرى سيئاتكم احسانا

قسماً بعد بعدكم وجفاكم لم يفارق لي الجفا أجفاناً

الرّابع: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، مثله قوله تعالى:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤ ـ ٥].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ كه (٢٥):

«مَا هِيَ إِلاَّ الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا، إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلاّ أَنْتِ تَهَبُّ أعاصيرُكَ فَقَبَّحَكِ اللَّهُ».

وفي المخ قح (١٠٨): «وَمَنْ عاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ ماتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ، لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ».

ومن النّظم قول أبي العلاء المعرّي:

هي قالت لما رأت شيب رأسي وأرادت تنكراً وازوراراً

أنا بدر وقد بدا الصّبح في رأ سك والصّبح يطرد الأقمارا

لست بدراً وإنّما أنت شمس لا ترى في الدّجى وتبدوا نهاراً

الخامس: الالتفات من الخطاب إلى التكلم، ولم يقع له مثال في الكتاب العزيز، ولم أجد له مثالاً أيضاً في كلام الإمام ﷺ، ومثاله في النّظم قول أبي فراس بن حمدان:

وقوفك بالدّيار عليك عار وقد ردّ الشّباب المستعار

أبعد الأربعين محرّمات تماد في الصّبابة واغترار

نزعت عن الصّبا إلاّ بقايا يحقّرها على الشيب الوقار

وطال اللّيل بي ولربّ دهر نعمت به لياليه قصار

السّادس: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، مثل قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

مكان بكم، وقد شذّ عني مثال هذا القسم أيضاً من كلام أمير المؤمنين ﷺ، وعسى أن يظهر لنا بعد الغموض؛ ويصل إلينا بعد الشذوذ.

ومثاله من النّظم قول السّيد الرّضي (ره) يخاطب الخلفاء العباسية:

ردّوا تــراث مـــحـــمـــد ﷺ ردّوا	لـيـس الـقـضـيـب لـكـم ولا الـبـرد
هـل اعـرقـت فـيـكـم كـفـاطـمـة	أم هـل لـكـم كـمـحـمـد جـدّ
جـل افـتـخـارهـم بـأنّـهـم	عـنـد الـخـصـام مـصـاقـع لـدّ
إنّ الـخـلائـف والأولـى فـخـروا	بـهـم عـلـيـنـا قـبـل أو بـعـد
شـرفـوا بـنـا ولـجـدّنـا خـلـقـوا	فـهـم صـنـائـعـنـا إذا عـدّوا

أقول: وقد وجدت للالتفات قسماً سابعاً وثامناً، وهو العدول من المتكلم وحده إلى المتكلم مع غيره، وعكسه، وقد اجتمعا في قوله ﷺ في المخ لز (٣٧):

«لَمْ يَكُنْ لأحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَلاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ، أَلذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتّىٰ آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضينا عَنِ اللَّهِ قَضَائَهُ، وَسَلَّمْنَا لِلَّهِ أَمْرَهُ، أَتَرانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لأنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ».

هذا ووجه كون الالتفات من المحسّنات أنّ الكلام إذا نقل عن أسلوب إلى أسلوب آخر، كان أحسن تطرية لنشاط السّامع، وأكثر أيقاظاً للإصغاء إليه.

قال صاحب (**المفتاح**): ليس قرى الأضياف سجيّة العرب، ونحر العشار للضّيف دأبهم، أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون، وطعم وطعم، ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون بين أسلوب وأسلوب، وإيراد وإيراد؟ فإنّ الكلام عند الإنسان، لكنى بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه، وأطيب قرى لها، انتهى.

وهذه هي الفائدة العامّة لهذا النّوع، وقد يختص مواقعه بلطائف خاصة، ونكت مخصوصة مناسبة للمقام، كما هو غير خفيّ على ذوي الأذواق والأفهام.

ومنها المشاكلة

وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، كقوله تعالى:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [المائدة: ١١٦].

فإنّ الثّانية لكونها حقّةً لا تكون سيّئة، لكن وقوعها في صحبة الأولى أوجب التّعبير عنها بالسّيئة، وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ [الشورى: ٤٠] ومثله قوله ﷺ في المخ قيب (١١٢):

«وَاسْئَلُوهُ مِنْ أداءِ حَقِّهِ ما سَئَلَكُمْ».

أي أمركم وفرضه لكم، لأنّ السّؤال وظيفة الأدنى من الأعلى ووظيفة الأعلى من الأدنى هو الأمر والإلزام، لكنه عبّر بلفظ السّؤال، لوقوعه في صحبة الأوّل وقوله ﷺ في المخ فكد (١٢٢).

«وأَيْمُ اللَّهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لاَ تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الآخِرَةِ». فإنّ الآخرة لا سيف فيها وإنّما عَبّر به للمشاكلة، والمراد النّار وغضب الجبّار، ومثاله في النّظم قوله:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

أي خيطوا، وقد يجيء المصاحب متأخراً عن المستصحب، مثل قول أبي تمام:

من مبلغ أفناء يعرب كلّها آني بنيت الجار قبل المنزل

فبناء الجار إنّما جاز لبناء المنزل، وهو متأخّر عنه.

ومنها تأكيد المدح بما يشبه الذم

وهو ضربان، **أحدهما**: أن يستثنى من صفة ذمّ منفيّة عن شيء صفة مدح لذلك الشيء بتقدير دخولها فيها، كقوله تعالى:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥].

وقول النّابغة الذّبياني:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

والثّاني: أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى له، نحو قوله ﷺ:

«أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنّي مِنْ قُرَيْشٍ»[1].

أي غير أنّي من قريش، ونظيره قول أمير المؤمنين ﷺ في باب المخ من حكمه لما بلغه ﷺ قتل محمّد بن أبي بكر:

«إِنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إِلاّ أَنَّهُمْ نُقِصُوا بَغِيضاً، وَنُقِصْنَا حَبِيباً».

ومن النّظم قول النّابغة الجعدي:

فتى كملت أخلاقه غير أنّه جواد فما يبقى من المال باقياً

(١) عوالي اللئالي: ٤/ ١٢٠، ومسالك الأفهام: ٧/ ٢٤١.

وإفادتها للتّأكيد والمبالغة من حيث إنّ الأصل في الاستثناء هو الاتّصال، فذكر أداته قبل ذكر ما يليها يوهم إخراج شيء ممّا قبلها، فإذا وليها صفة مدح جاء التأكيد لما فيه من المدح على المدح، وللاشعار بأنّه لم يجد فيه صفة ذمّ حتّى يستثنيها، فاضطرّ إلى استثناء صفة مدح.

ومنها التجريد

وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصّفة مبالغة لكمالها فيه، أي لكمال هذه الصّفة في ذلك الأمر ذي الصّفة كأنّه بلغ في الاتّصاف بها إلى مقام صحّ أن ينتزع منه موصوف آخر بتلك الصّفة وهو على أقسام.

أحدها: أن يكون بمن التّجريديّة الدّاخلة على المنتزع منه، كقولك لي من فلان صديق حميم، يعني أنّ فلاناً بلغ في الصّداقة مبلغاً صحّ معه أن يستخلص منه صديق آخر مثله في الصّداقة، ونحوه قول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ صو (٩٦):

«يَا أَهْلَ الكُوفَةِ مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ وَإِثْنَتَيْنِ، صُمٌّ ذَوُو أَسْماعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلاَمٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصارٍ، لا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقاءِ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلاءِ».

فإنّه قد انتزع واستخلص من أهل الكوفة الصمّ والبكم والعمي مبالغة في اتّصافهم بتلك الأوصاف، ومن النّظم قوله:

جزيل الندى ذو أياد غدت ... يحدّث عنهنّ في كلّ ناد

يلاقيك منه إذا جئته ... كثير الرّماد طويل النّجاد

الثاني: أن يكون بالباء التّجريديّة، نحو قولهم لئن سألت فلاناً لتسألنّ به بحراً، مبالغة في اتّصافه بالجود والسّماحة، حتّى انتزع منه بحراً مثله في الجود. ومن النّظم قول الشّاعر:

دعوت كليباً دعوة فكأنّما ... دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

جرّد من كليب ابن الطود، وهو الصّدى والحجر إذا تدهده مبالغة في سرعة الإجابة.

الثّالث: أن يكون بدخول باء المصاحبة في المنتزع، كقوله:

وشوهاء تعدو بي إلى صارخ الوغا ... بمستلئم مثل الفنيق المرحّل

المستلئم لابس اللأمة، وهي الدّرع، والفنيق وزان أمير، الفحل المكرّم عند أهله، والمرحّل من رحّل البعير أرسله عن مكانه، أي تعدو بي ومعي من نفسي لابس درع، لكمال استعدادي للحرب مسرعاً إلى الحرب مثل الفحل المكرّم عند أهله إذا أرسل.

الرّابع: أن يكون بدخول (في) على المنتزع منه، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾(١)، وقوله:

افاتت بنو مروان ظلماً دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

فجرّد منه سبحانه حكماً عدلاً وهو هو.

الخامس: أن يكون بدون وساطة حرف، كقول قتادة بن مسلم:

فلئن بقيت لأرحلنّ بغزوة تحوي الغنائم أو يموت كريم

يعني بالكريم نفسه، فكأنّه انتزع من نفسه كريماً مبالغة في كرمه.

السّادس: أن يكون بطريق الكناية، كقول الأعشى:

يا خير من يركب المطيّ ولا يشرب كأساً بكفّ من بخلا

أي يشرب الكأس بكفّ جواد، فقد انتزع من الممدوح جواداً يشرب هو الكأس بكفه على طريق الكناية، لأنّه إذا نفى عنه الشرب بكفّ البخيل، فقد أثبت له الشّرب بكفّ الجواد، ومعلوم أنّه لا يشرب إلاّ بكفّه، فإذاً هو ذلك الكريم.

ومنها حسن التعليل

وهو أن يدّعي لوصف علّة مناسبة له، باعتبار لطيف غير حقيقي بحيث لا يكون علّة له في الواقع، وإلاّ لما عدّ عن محسّنات الكلام، لعدم التّصرف فيه، كقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قيب (١١٢):

«دَارٌ هانَتْ عَلَىٰ رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلاَلَها بِحَرَامِهَا، وَخَيرَها بِشَرِّهَا».

ومن النّظم قول أبي هلال:

زعم البنفسج أنّه كعذاره حسناً فسلّوا عن قفاه لسانه

ومنها الاحتراس

وقد مرّ تفسيره في تعريف الاعتراض، وذكرنا هناك أنّه عبارة أن يؤتى في كلام موهم خلاف المقصود، بما يدفع ذلك الوهم، مثل قوله تعالى:

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

(١) كتاب سليم بن قيس: ٢٤٦.

ومثل قول أمير المؤمنين عليه السلام في المخ (١):

«كَائِنٌ لاَ عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُقَارَنَةٍ، وَغيرُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لاَ بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ». وفيه أيضاً: «أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ أجالَها، وَلاَ تَجْرِبَةٍ إِسْتَفَادَها، وَلاَ حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا». وفي المخ فعح (١٧٨):

«قَرِيبٌ مِنَ الأَشْيَاءِ غَيرُ مُلاَمِسٍ، بَعيدٌ مِنْهَا غَيْرُ مُبَايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لاَ بَرَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ بِلاَ هِمَّةٍ، صَانِعٌ لاَ بِجَارِحَةٍ».

وهذا النّوع كثير في كلامه عليه السلام المسوق للتّوحيد. ومن النّظم قول الفرزدق:

لعن إلاله بني كليب انّهم لا يعذرون ولا يفون لجار

فقوله: لا يفون احتراس لئلاّ يتوهم أن عدم عذرهم من الوفاء، وقد مرّ مثال له من النّظم في الاعتراض.

ومنها اللف والنشر

وهو أن يذكر متعدّد ويلفّ على التّفصيل بالنّص على كلّ واحد أو على الإجمال، بأن يؤتى بلفظ يشمل المتعدّد، وهذا هو اللف، ثم يذكر ما لكلّ واحد من ذلك المتعدد على عدده، ويرجع إلى ما تقدّم من غير تعيين، ثقة بأنّ السّامع يردّ إلى كلّ ما يناسبه ويليق به، وهو النّشر.

فالأوّل ـ أعني ما يكون اللف على سبيل التّفصيل ـ: ضربان، لأنّ النّشر إمّا على ترتيب اللف، بأن يكون الأوّل من النّشر للأوّل من اللف، والثّاني للثّاني، وهكذا، ويسمّى باللف والنّشر المرتّب، وإما على غير ترتيبه، ويسمّى اللف والنّشر الغير المرتّب، فالضّرب الأوّل كقوله تعالى:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

ذكر الليل والنّهار على التّفصيل، ثمّ ذكر ما للّيل وهو السّكون فيه، وما للنّهار وهو الابتغاء من فضل الله على التّرتيب، وقول أميرالمؤمنين عليه السلام في المخ ص (٩٠):

«وَلَوْ ذَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعادِنُ الْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ، مِنْ فِلِزِّ اللُّجَينِ وَالْعِقْيَانِ، ونُثَارَةِ الدُّرِّ وحَصِيدِ الْمَرْجَانِ، ما أَثَّرَ ذَلِكَ في جُودِهِ».

فإنّ فلزّ اللجين والعقيان، ممّا تنفّست عنه المعادن، ونثارة الدّر وحصيد المرجان ممّا ضحكت عنه الأصداف. وفيه أيضاً:

«وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّها وَفَقيرِها».

وفي المخ صبح (٩٣): «فَاسْتَوْدَعَهُمْ في أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَأَقَرَّهُمْ في خَيرِ مُسْتَقَرٍّ، تَناسَخَتْهُمْ كَرائِمُ الأَصْلاَبِ، إِلىٰ مُطَهَّراتِ الأَرْحَامِ».

ومن النّظم قول ابن الرّومي:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم — في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح — تجلو الدّجى والأخريات رجوم

وقول صّدر الدّين السّيد علي:

الصبّح والليل وشمس الضّحى — والدّهر والذرّ ولين القضيب
في الفرق والطرّة والوجه وال — خدّين والثغر وقد الحبيب

والضّرب الثّاني وهو ما كان النّشر على غير ترتيب اللف، مثل قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قصا (١٩١):

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ».

لما ذكر الغنى والأمن على التفصيل علل الغني بعدم منفعة الطاعة، والأمن بعدم مضرّة المعصية على عكس الترتيب في المعلولين.

ومن النّظم قول ابن حيّوس:

كيف أسلو وأنت حقف وغصن — وغزال لحظاً وقداً وردفاً

والثاني: وهو ما يكون اللف على سبيل الإجمال، نحو قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً، وقالت النّصارى: لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصارى، فلف بين الفريقين أو قوليهما اجمالاً في قالوا، لعدم الالتباس، وللعلم بتضليل كلّ فريق صاحبه، واعتقاد أنّه إنّما يدخل الجنة هو لا صاحبه، ومن النّظم قول أبي حيّان النحوي:

أما إنّه لولا ثلاث أحبّها — تمنّيت أنّي لا أعدّ من الأحيا
فمنها رجائي أن أفوز بتوبة — تكفر لي ذنباً وتنجح لي سعياً
ومنهن صون النّفس عن كل جاهل — لئيم فلا أمشي إلى بابه مشياً

ومنهن أخذي للحديث إذا روي نسوا سنّة المختار واتّبعوا الرّأيا
أتترك نصّاً للرّسول ﷺ وتقتدي بشخص لقد بدّلت بالرشد الغيّا

أقول: وقد وجدت في كلام أمير المؤمنين ﷺ ما جامع بين قسمي هذا النّوع أعني ما يكون اللفّ على سبيل التّفصيل والإجمال كليهما، والنّشر فيه على ترتيب المفصّل، وهو قوله ﷺ في المخ صو (٩٦):

«يَا أَهْلَ الكُوفَةِ مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ واثْنَتَيْنِ، صُمٌّ ذَوُو أَسْماعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلاَمٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلاَ إِخْوانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلاَءِ».

فإنّه لفّ بين الثّلاث والاثنتين وهو لفّ تفصيلي، وفي كلّ منهما لفّ على نحو الاجمال، ثمّ ذكر ما للثّلاث، وهو الصمّ والبكم والعمي، ثم ما للاثنتين، وهو قوله: لا أحرار صدق، ولا إخوان ثقة، وهو من خصائص كلامه ﷺ، ومزاياه المختصّة به.

ومنها الاقتباس

وهو أن يضمّن الكلام كلمة أو آية من القرآن لا على أنّه منه، توشيحاً للكلام وتزييناً له، وخرج بقولنا: لا على أنّه منه، ما لو كان في الكلام تصريح أو إشعار بأنّه من القرآن، كما في قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ (١):

«فَرَضَ حَجَّهُ وَأَوْجَبَ حَقَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وَفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] الآية». وفي المخ ج (٣):

«كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] الآية».

فذلك لا يسمّى اقتباساً في الاصطلاح:

إذا عرفت ذلك فأقول: تضمين الكلمة كما في قوله ﷺ في المخ قصح (١٩٨): «تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا»، فإنه مقتبس من قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وتضمين الآية، كما في قوله ﷺ في المخ سه (٦٥): «وَأَنْتُم الأَعْلَوْنَ، وَاللَّه مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ».

وفي المخ ع (٧٠): «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ».

وهو كثير في كلامه ﷺ ومن النّظم قول أبي الفضائل أحمد بن يوسف بن يعقوب في قصيدة حسنة، اقتبس فيها أكثر سورة مريم عليها السلام:

ليت أنسى الأحباب ما دمت حيّاً إذ نووا للنوى مكاناً قصيّاً

وتلوا آية الدّموع فخرّوا ... خيفة البين سجّداً وبكيّاً
وبذكراهم يسبّح دمعي ... كلّما اشتقت بكرة وعشيّاً
وأناجي الإله من فرط حزني ... كمناجاة عبده زكريّا
واختفى نورهم فناديت ربّي ... في ظلام الدّجى نداًء خفيّاً
وهن العظم بالبعاد فهب لي ... ربّ بالقرب من لدنك وليّاً
واستجب في الهوى دعآئي فإنّي ... لم أكن بالدّعآء منك شقيّاً
قد فرى قلبي الفراق وحقّاً ... كان يوم الفراق شيئاً فريّاً
ليتني متّ قبل هذا فإنّي ... كنت نسياً يوم الهوى منسيّاً

هذا ولا بأس بالتّغيير اليسير في اللّفظ المقتبس، كما صرّح به أرباب البلاغة، مثل قوله ﷺ في المخ د (٣):

«لَمْ يُوجِسْ مُوسَىٰ خيفَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ»، فإنّه مقتبس من قوله سبحانه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧].

وقال بعض المغاربة:

قد كان ما خفت أن يكونا ... إنا إلى الله راجعونا

اقتبسه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

ومنها التلميح

وهو أن يشار في فحوى الكلام إلى حديث مشهور، أو مثل سائر، أو قصّة مشهورة، من غير أن يذكر شيء من ذلك صريحاً، وأحسنه وأبلغه ما حصل به زيادة في المعنى المقصود، فمن التلميح إلى الحديث نثراً قول أمير المؤمنين ﷺ في المخ فو (٨٦):

«أَلَمْ أَعْمَلْ فيكُمْ بِالثَّقْلِ الأَكْبَرِ، وَأَتْرُكُ فيكُمُ الثَّقْلَ الأَصْغَرَ».

فإنّ فيه ملامحة إلى حديث الثّقلين المعروف بين الفريقين، ونظماً قول بعضهم مع التّورية:

يا بدر أهلك جاروا ... وعلّموك التّجري
وقبّحوا لك وصلي ... وحسّنوا لك هجري
فليفعلوا ما أرادوا ... لأنّهم أهل بدر

ففيه تلميح إلى ما روته العامّة عن النّبي صلى الله عليه وآله قوله لعمر حين سأله قتل

حاطب: «لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[١]»، ومن التلميح إلى المثل نثراً قوله ﷺ في المخ له (٣٥):

«وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيي لَوْ كَانَ يُطاعُ لِقَصيرٍ أَمْرٌ».

وفي المخ صو (٩٦): «فَما أَتَى عَلَيَّ آخِرُ قَوْلِيَ حَتَّى أريكم متَفَرِّقينَ أيادي سَبا».

ويظهر توضيح التلميح فيهما بالرّجوع إلى شرح الكلامين، ونظما قول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً   وما مواعيدها إلاّ الأباطيل

قال المطرزي في «**شرح المقامات**» للحريري: عرقوب رجل من خيبر يهودي كان كذوباً يعدو لا يفي، قال: قال حمزة الأصبهاني: هو رجل من ساكني يترب، يضرب به المثل في الخلف فيقال: أخلف من عرقوب، قال: وفي أمثال أبي عبيد في باب الخلف مواعيد عرقوب، قال: قال ابن الكلبي: هو رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله شيئاً، فقال له عرقوب: إذا اطلعت هذه النّخلة فلك طلعها، فلما اطلعت أتاه للعدة، فقال: دعها حتى تصير رطباً، فلما أرطبت قال: دعها حتّى يصير بلحاً، فلما أبلحت، قال دعها حتّى يصير زهواً، فلما أزهت أتاه، فقال: دعها حتّى يصير تمراً، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب، فجذّها ليلاً ولم يعط أخاه منها شيئاً، فصار مثلاً للعرب في الخلف، وفيه قال الأعشى:

وعدت وكان الخلف منك سجيّة   مواعيد عرقوب أخاه بيترب

وقال المتلمس:

الغدر والآفات شيمته   فافهم فعرقوب له مثل

وقال الرّاجز:

وأكذب من عرقوب يترب لهجة   وأبين شؤماً في الحوآئج من زحل

ومن التّلميح إلى القصّة نثراً قوله ﷺ في المخ يط (١٩):

«وَإِنَّ امْرَءَ دَلَّ على قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقتَهُ الأَقْرَبُ، وَلاَ يَأْمَنُهُ الأَبْعَدُ»، وقوله ﷺ في المخ قيه (١١٥): «أَيْهٍ أَبا وَذَحَةٍ».

فإنّ الأوّل إشارة إلى قصّة للأشعب اللعين مع قومه، والثّاني إشارة إلى قصّة للحجّاج الملعون مع الخنفسآء، على ما تطلع عليه إن شآء الله في شرح الكلامين، ونظماً قول أبي تمام:

---

(١) كتاب سليم بن قيس: ٢٤٦.

فوالله ما أدري ءأحلام نائم ألمت بنا أم كان في الرّكب يوشع

أشار إلى قصّة يوشع بن نون فتى موسى ﷺ، واستيقافه الشّمس، فإنّه روي أنّه قاتل الجبّارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن يغيب قبل أن يفرغ منهم ويدخل السّبت فلا يحلّ له قتالهم فيه، فسأل من الله سبحانه أن يوقف له الشمس فردّت حتّى فرغ من قتالهم.

ومنها التعريض

وهو أن يؤتى بكلام دال على معنى، وإيهام أنّ الغرض منه معنى آخر، قال سبحانه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

والمراد به إما تنويه جانب الموصوف وإظهار علوّ مقامه ورفعة شأنه، كما يقال: أمر المجلس السّامي نفذ، تعريضاً بأنّ المعبّر عنه أرفع قدراً من أن يسع الذاكر له التّصريح باسمه قال الشاعر:

فعرّض إذا ما شئت بالبان والحمى وإيّاك أن تنسى فتذكر زينباً

سيكفيك من ذاك المسمّى إشارة فدعه مصوناً بالجلال محجّباً

ومن ذلك قوله عليه السلام في المخ صط (٩٩):

«دَليلُها مَكيثُ الْكَلاَمِ، بَطيءُ الْقِيَامِ، سَريعٌ إِذَا قَامَ».

فلا يخفى ما في هذا التّعبير والكناية من التفخيم والإجلال، ولا نسبة له إلى أن يصرّح بنفسه الشّريف، وإمّا التّرغيب في النكاح بالملاطفة، كما تقول لامرأة تريد نكاحها: ربّ راغب فيك، أو حريص عليك، أو أنّك لجميلة صالحة لا تبقينّ بلا زوج، ونحو ذلك، وإمّا الاستعطاف كما يقول المحتاج: جئت لأسلم عليك، وأزورك، وقد يجيء لأعراض أخر، ومن أحسنه وأظهره قوله ﷺ في المخ قلا (١٣١):

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوالي عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَآءِ وَالْمَغَانِمِ وَالأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمينَ الْبَخِيلَ، فَيَكُونُ في أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلاَ الْجَاهِلَ، فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلاَ الْجَافِي، فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلاَ الْحَائِفَ لِلدُّوَلِ، فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْم، وَلاَ الْمُرْتَشي في الْحُكْمِ، فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقاطِعِ، وَلاَ الْمُعَطِّلَ لِلسُّنَّةِ، فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ».

فإنّ ذلك تعريض على الغاصبين للخلافة، بما فيهم من الأوصاف الذّميمة، والأخلاق الرّذيلة وفي المخ قلو (١٣٦):

«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً».

فإنّه تعريض على بيعة أبي بكر، وأنّها كانت فلتة كما قاله عمرو في المخ ريب (٢١٢):

«لَمْ يُشْهِمْ فِيهِ عاهِرٌ، وَلاَ ضُرِبَ فيهِ فَاجِرٌ».

فإنّه تعريض على جمع من المنافقين بسوء النّسب. ومن النّظم قول أبي فراس بن حمدان من قصيدة يمدح بها العلويّين ويعرّض بني العبّاس:

ما في ديارهم للخمر معتصر ولا بيوتهم للسوء معتصم

ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ولا يرى لهم قرد له حشم

أراد بالخنثى عبادة نديم المتوكل، وبالقرد قرداً كان لزبيدة، طالبت النّاس بالسّلام عليه وجعلت له حشماً وأتباعاً حتى قتله يزيد بن مزيد الشّيباني.

تنبيه

أجمع العلماء على أنّ التّعريض أرجح من التّصريح لوجوه، **أحدها**: أنّ النّفس الفاضلة لميلها إلى استنباط المعاني تميل إلى التّعريض شعفاً باستخراج معناه بالفكر، **وثانيها**: أنّ التّعريض لا ينهتك معه سجف الهيبة، ولا يرتفع به ستر الحشمة، **وثالثها**: أنّ النّهي صريحاً يدعو إلى الإغراء بخلاف التّعريض، كما يشهد به الوجدان، **ورابعها**: أنّ التّصريح له وجه واحد، والتّعريض له وجوه وطرق عديدة.

ومنها الإيغال

وهو ختم الكلام نثراً أو نظماً بما يفيد نكتة يتمّ المعنى بدونها، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١ - ٢٢] فإنّ قوله: وهم مهتدون، إنّما يتمّ المعنى بدونه، لأنّ الرّسول مهتد لا محالة، لكنّه إيغال أفاد زيادة حثّ على الاتّباع، وترغيب في الرّسل، أي لا تخسرون معهم شيئاً في دنياكم، وتربحون صحّة دينكم، فينتظم لكم خير الدّنيا والآخرة، ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قوله في المخ قمو (١٢٦):

«وَنَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ اللّهِ، وَاللّهُ مُنْجِزُ وَعْدِهِ، وَنَاصِرُ جُنْدِهِ»، فإنّ قوله: والله منجز وعده، من الإيغال، وتعرف النكتة فيه في مقامه إن شاء الله، ومن النّظم قولها:

وإنّ صخراً لتأتم الهداة به كأنّه علم في رأسه نار

فإنّ قولها: كأنّه علم، واف بالمقصود، وهو تشبيه بما هو معروف للهداية، لكنّها أتت بقولها: في رأسه نار، إيغالاً لزيادة المبالغة.

ومنها الإيجاز

وعرّف بأنّه عبارة عن بيان المعنى بأقل ما يمكن، وسبب حسنه، أنّه يدلّ على التمكّن التّام في الفصاحة، وهو على ضربين:

أحدهما: إيجاز قصر، وهو تقليل اللّفظ وتكثير المعنى كقوله تعالى:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

من ثلاث كلمات اشتملت على شرائط الرّسالة، وقوله:

﴿خُذِ الْعَفْوَ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

جمع فيه مكارم الأخلاق، قال الصّادق عليه السلام: إنّ الله أمر نبيّه ﷺ في هذه الآية بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها. وقوله سبحانه:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: جعل الزّهد كلّه بين كلمتين من القرآن، قال سبحانه: ﴿لكيلا تأسوا﴾ اه، ومن لم يأسَ على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزّهد بطرفيه، ورواه السّيد (ره) عنه عليه السلام في أواخر الكتاب[١]، ونظيرها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في المخ كا (٢١):

«فَإِنَّ الْغَايَةَ أَمامَكُمْ، وَإِنَّ وَرَآئَكُمُ السَّاعَةُ تَحْدُوكُمْ، تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّما يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ».

فانظر إلى وجازة هذا الكلام، وعظم خطر معناه، حيث أُشير فيه إلى فناء الدّنيا وزوالها، وإلى اجتماع الخلائق وحشرها، وكفى بقوله: تخفّفوا، عن الزّهد في الدّنيا وما فيها، ولذلك قال السّيد (ره) ثمة: قوله عليه السلام: تخفّفوا تلحقوا، فما سمع كلام أقل منه مسموعاً، ولا أكثر محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة، وأنقع نطفتها من حكمة، ومن أحسن هذا النّوع أيضاً قوله عليه السلام في العلم الإلهي في باب المخ من حكمه وكلامه القصير وقد سئل عن التّوحيد والعدل فقال:

«أَلتَّوْحِيدُ أَنْ لاَ تَتَوَهَّمَهُ، وَالْعَدْلُ أَنْ لاَ تَتَّهِمَهُ».

وفي التّنفير عن الدّنيا في ذلك الباب أيضاً:

---

(١) وسائل الشيعة: ١٩/١٦، وشرح النهج للمعتزلي: ١١/١٨٨.

«إِذَا كُنْتَ في إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ في إِقْبَالٍ فَما أَسْرَعَ الْمُلْتَقىٰ». وفي القناعة فيه أيضاً: «أَشْرَفُ الْغِنَى تَرْكُ الْمُنَىٰ».

إلى غير ذلك ممّا يأتي إن شاء الله في ذلك الباب، ولا حاجة هنا إلى الإطالة والإطناب. ومن النّظم قول الفرزدق في مديح عليّ بن الحسين عليهما السّلام.

ما قال لا قط إلاّ في تشهّده لولا التّشهد كانت لاءه نعم

لأنّ هذا الكلام على وجازته، دالّ على اتّصافه ﷺ بملكة السّخاء بجميع أطرافه وحافاته، وأنّه لم يشذّ منه ﷺ شيء من آثارها، ولا يتصوّر لفظ فوق هذا اللّفظ، أدلّ على هذا المرام، وأوجز منه وأبعد قعراً وأجل قدراً.

والثاني: إيجاز الحذف، وله فوائد.

منها: مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث، لظهور المحذوف كقوله ﷺ في باب المخ من حكمه:

«مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ، مَكْتُومُ الأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ». حذف المسند إليه لظهوره.

ومنها: التّنبيه على أنّ الزّمان متقاصر عن الاتيان بالمحذوف، وأنّ الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت الأهمّ، وهذه هي فائدة باب التّحذير والإغرآء، وهو كثير في كلام أمير المؤمنين ﷺ، فمن التحذير قوله ﷺ في المخ قعه (١٧٥):

«فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ في دِينِ اللَّهِ». ومن الاغراءِ قوله ﷺ فيه أيضاً: «أَلْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهايَةَ، أَوِ الإِسْتِقَامَةَ الإِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ».

قال في **«منهاج البلغاء»**: إنّما يحسن الحذف لقوّة الدّلالة عليه، أو يقصد تعديد أشياء فيكون في تعدادها طول وسامة، فيحذف، ويكتفي بدلالة الحال، ويترك النّفس تجول في الأشياء المكتفي بالحال عن ذكرها[1]، وقد اجتمع التّحذير والإغراء في قوله ﷺ في المخ قلب (١٣٢):

«فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمْتِعُ، وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغافِلُ».

ومنها: التخفيف لكثرة دورانه في الكلام، كما في حذف حرف النّداء.

---

(١) البرهان للزركشي: ٣/ ١٠٦.

ومنها: إيهام التعظيم، كصون المسند إليه عن لسانك تعظيماً له وإفخاماً.

ومنها: إيهام صون لسانك عن المحذوف تحقيراً وإهانة، كقوله ﷺ في المخ يط (١٩) مخاطباً للأشعث بن قيس:

«عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللاّعِنينَ، حائِكُ ابْنُ حَائِكٍ، وَمُنَافِقٌ ابْنُ كافِرٍ». فقد حذف المسند إليه للإهانة، وقوله ﷺ في المخ فح (٨٨):

«عَجَباً لابْنِ النّابِغَةِ، يَزْعَمُ لأَهْلِ الشّامِ أَنَّ فِيَّ دُعابَةً».

فقد حذف موصوف ابن لقصد التّحقير.

ومنها المحافظة على الوزن والفاصلة، كقوله ﷺ في باب المخ من حكمه معزّيا للأشعب بن قيس:

إِنْ صَبَرْتَ صَبْرَ الأَكَارِمِ وَإِلاَّ سَلَوْتَ سُلُوَّ الْبَهَائِمِ

فقد حذف جواب الشّرط وجزائه، لما ذكرناه، إلى غير ذلك من الفوائد التي أوردها أرباب البلاغة في باب حذف المسند إليه وغيره، ومن النّظم قوله:

أنا ابن جلا وطلاّع الثّنايا متى أضع العمامة تعرفوني

أي أنا ابن رجل جلا الأمور، أي كشفها.

ومنها الجناس

ويقال له التّجنيس والمجانسة والتّجانس، كلها ألفاظ مشتقّة من الجنس، يقال: جانس يجانس مجانسة وجناساً وجنست تجنيساً، أبديت الجنسيّة بينهما، وتجانس الشّيئآن إذا تشابها ودخلا تحت جنس واحد، وفي الاصطلاح تشابه الكلمتين في اللفظ أو الخط أي التلفّظ أو الكتابة، وله شعب كثيرة نذكر منها ما يكثر دورانه بين أرباب البلاغة، وفي كلام أمير المؤمنين ﷺ.

فمنها الجناس التام

ويسمّى الكامل، وهو أن يتّفق اللفظان في أنواع الحروف وفي هيئاتها أي حركاتها وسكناتها، وفي أعدادها وفي ترتيبها، فإن كانا ـ أي اللفظان ـ من نوع واحد كاسمين أو فعلين سمّي مماثلاً، أو من نوعين كاسم وفعل، أو اسم وحرف، أو فعل وحرف، يسمّى مستوفاً، وحسن هذا النّوع حسن الإفادة، مع أنّ صورتها صورة الإعادة، كقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

وقد مثل به غير واحد من البيانيّين لهذا القسم. وقيل: إنّه ليس في القرآن مثال له غير ذلك، وربّما يمثل أيضاً بقوله:

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ، يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [النور: ٤٣ ـ ٤٤].

لأنّ الأبصار في الآية الأولى جمع البصر الذي هو النّظر، وفي الآية الثّانية جمع البصر الذي هو العقل، ومثله من كلام أمير المؤمنين ﷺ في المخ فا (٨١):

«وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ».

أي من تعقّل بها وجعلها آلة لبصيرتها بصّرته، ومن نظر إليها أعمته وفي المخ قلج (١٣٣):

«فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شاخِصٌ، وَالأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شَاخِصٌ».

فالشّاخص الأوّل الرّاحل، والثّاني من شخص بصره إذا فتح عينه نحو الشّيء متقابلاً له هذا.

وقال الشّارح المعتزلي في شرح هذا الكلام بعد حكاية التّمثيل للجناس التّامّ بالآية الأولى عن أرباب الصّناعة ما لفظه: وعندي أنّ هذا ليس بتجنيس أصلاً، لأنّ السّاعة في الموضعين بمعنى واحد، والتّجنيس أن يتّفق اللفظان ويختلف المعنى، ولا يكون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً، بل يكونا حقيقتين، وأنّ زمان القيامة وإن طال، لكنّه عند الله في حكم السّاعة الواحدة، لأنّ قدرتها لا يعجزها شيء، ولا يطول عندها زمان، فيكون إطلاق لفظ السّاعة على أحد الموضعين حقيقة، وعلى الآخر مجازاً، وذلك يخرج الكلام عن حد التجنيس، كما لو قلت: ركبت حماراً ولقيت حماراً، وأردت بالثّاني البليد، وأيضاً فَلِمَ لا يجوز أن يكون أراد بقوله: ويوم تقوم السّاعة، السّاعة الأولى خاصّة من زمان البعث، فيكون السّاعة مستعملاً في الموضعين حقيقة بمعنى واحد، فيخرج عن التّجنيس، وعن مشابهة التّجنيس بالكلية انتهى[1].

ومحصّل مرامه أن المراد بالسّاعة في قوله ﴿ويوم تقوم السّاعة﴾ إمّا تمام يوم القيامة، أو السّاعة الأولى منها خاصّة، أعني الجزء الأوّل من النّهار، فعلى الأوّل يكون إطلاق السّاعة عليه من باب الاستعارة والمجاز، لكونه عند الله بمنزلة السّاعة الواحدة، وعلى الثّاني فيكون إطلاقها عليها من باب الحقيقة، وعلى التّقديرين، فيخرج عن حدّ الجناس، لأن

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٨/ ٢٧٧.

الجناس مشروط بأمرين، أحدهما أن يكون المتجانسان حقيقيّين، وثانيهما تغاير معناهما، فعلى التقدير الأوّل ينتفي الشّرط الأوّل، وعلى الثّاني ينتفي الثّاني، وبانتفاء الشّرط ينتفي المشروط.

وفيه أولاً: أنّ اشتراط حقيقية اللّفظين ممنوع، لأنّه خلاف ظاهر إطلاق البيانيين بل صريح بعضهم، وقد انفرد به مع عدم دليل عليه، والعجب أنه مع اشتراطه ذلك، مثّل للتجنيس بأمثلة كثيرة، منها قول أبي تمام:

فأصبحت غرر الإسلام مشرقة ... بالنّصر يضحك عن أيامك الغرر

وقال: فالغرة الأولى مستعارة عن غرة الوجه، والثّانية من غرّة الشيء وهو أكرمه، ومثّل أيضاً بقول أبي البختري:

إذا العين راحت وهي عين على الهوى ... فليس بسرّ ما تسرّ الأضالع

قال: فالعين الثّانية الجاسوس، والأولى المبصرة، وأنت خبير بأنّ هٰذين المثالين مبطلان لما ادّعاه من الشّرط، لظهور أنّ لفظي الغرّة بعد كونهما استعارتين حسبما صرّح به أيضاً يكونان مجازين لا حقيقتين، ولفظ العين إذا أطلق على الجاسوس أيضاً مجاز باعتبار لزوم الآلة المبصرة له، فيكون استعمال العينين في المعنيين من باب الحقيقة والمجاز فافهم.

وثانياً: بعد التّنزل والمماشاة، وتسليم شرطية الحقيقيّة، نمنع كون استعمال السّاعة في يوم القيامة من باب المجاز والاستعارة، بل إطلاقها عليه حقيقة، لكونها مع اللاّم علماً بالغلبة ومنقولاً، كالنّجم للثريا، والمدينة للطيبة، نعم لو ناقش بعدم اتّحاد اللّفظين، لكون أحدهما باللاّم، والآخر بدونها، لكان له وجه.

وثالثاً: أنّ ما ذكره من اشتراط تغاير المعنيين مسلّم، إلاّ أنّ ما ذكره من جواز إرادة أوّل ساعة من زمان البعث، وعليه فيتّحد المعنيان، ويكون إطلاقهما عليهما من باب الحقيقة ممنوع، لأنّها بعدما كانت منقولاً حسبما ذكرنا، لا يجوز إرادة أوّل السّاعة خاصّة منها، لكونه خلاف الظاهر، وإطلاق ما له ظاهر وإرادة خلافه من غير نصب قرينة غير جائز، ولو أغمضنا عنه وقلنا بجواز إرادته، يكون استعمالها فيه مجازاً لا محالة، من باب إطلاق اسم الكلّ على الجزء، كما تقول: رأيت زيداً يوم الجمعة، وقد رأيته في جزء منه، ولا يكون حقيقة كما توهمه، ومن أمثلة هذا النّوع نظماً مضافاً إلى ما مر قوله:

أقول لظبي مرّ بي وهو راتع ... ءأنت أخو ليلى فقال يقال
فقلت يقال المستقيل من الهوى ... إذا مسّه ضرّ فقال يقال

وقول الآخر:

مضى عصر الشباب كلمح برق وعصر الشيب بالأكدار شيبا
وما أعددت قبل الموت زاداً ليوم يجعل الولدان شيباً

ومنها الجناس المحرف

وهو أن يتفق اللّفظان في الحروف، وأعدادها، وترتيبها، ويختلفا في الهيئة، والاختلاف فيها إما بالحركة، كقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢، ـ الكهف: ٧٣].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ سو (٦٦):

«عَجزَ الْمُقَوِّمُ وأعْضَلَ الْمُقَوَّمُ». وفي المخ قنا (١٥١): «بَينَ قَتيلٍ مَطْلُولٍ، وخائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يُخْتَلُونَ بِعَقْدِ الأيمانِ، وبِغُرُورِ الإِيمَانِ».

فإنّ الإيمان الأوّل بفتح الهمزة جمع اليمين، وهو القسم، والثّاني بكسرها مساوق الإسلام وفي المخ قص (١٩٠):

«فَإِنَّ التَّقْوىٰ في الْيَوْمِ الْحِرزُ وَالْجُنَّةُ، وفي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ».

ومن النّظم قول أبي العلاء المعري:

لغيري زكاة من جمال فإن يكن زكاة جمال فاذكري ابن سبيل

وقوله أيضاً:

والحُسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشَّعر أو بيت من الشِّعر

فلفظ الجمال والشّعر الأوّلين، بكسر الأوّل، والآخرين بفتحهما. وإمّا بالحركة والسّكون، بأن يكون أحد المتجانسين متحرّكاً، والآخر ساكناً، كقوله ﷺ في باب المخ من حكمه:

«لاَ تَرَى الْجَاهِلَ إلاّ مُفْرِطاً، أَوْ مُفَرِّطاً».

والأوّل بسكون الفاء، والثّاني بفتحها، ولا عبرة بالتشديد في هذا الباب كما صرّح به العلاّمة التّفتازاني وغيره، وربّما يكون الاختلاف بالحركة والسّكون معاً، بأن يكون أحدهما متحرّكاً، والآخر ساكناً، ويقع الاختلاف في حركة المتحركات منهما أيضاً كقوله ﷺ في المخ قص (١٩٠):

«فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَها وَحَمَلَها حَقَّ حَمْلِها». وقولهم: رَطْبُ الرُّطَبِ، ضَرْبٌ مِنَ الضَّرَبِ.

ومن النّظم قوله:

ليلي وليلى نفي يومي اختلافهما ... بالطول والطول، يا طوبى لو اعتدلا
يجود بالطول ليلي كلما بخلت ... بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

ولك أن تجعل ما قدّمنا التّمثيل به من قوله ﷺ: بعقد الأيمان، وبغرور الإيمان، مثالاً لهذا القسم، لأنّه نظير لهذا البيت كما هو غير خفي.

ومنها الجناس الناقص

وهو أن يتفق اللفظان في الحروف والتّرتيب والهيئة، ويختلفا في أعداد الحروف بأن يكون حرف أحدهما أكثر عدداً من الآخر بحيث لو حذف الزائد ارتفع الاختلاف، وتلك الزّيادة إمّا في الأول، أو في الوسط، أو الآخر.

وعلى الأوّل فإمّا أن تكون في أوّل اللفظ الأوّل، كقوله ﷺ في المخ قلب (١٣٢):

«كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً».

ومن النّظم قول الرّشيد الوطواط:

يا خلي البال قد بلبلت بالبلبال بال ... بالنّوى زلزلتني والعقل في الزّلزال زال
يا رشيق القد قد قوّست قدي فاستقم ... في الهوى فافرغ وقلبي شاغل الأشغال غال
يا أسيل الخدّ خدّ الدّمع خذي في النوى ... عبرتي ودق وعيني منك يا ذا الخال خال

أو في أول اللفظ الثّاني، مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٩ ـ ٣٠].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ نه (٥٥):

«وأَيْمُ اللَّهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً، وَلَتَتْبِعُنَّها نَدَماً».

ومن النّظم قول جابر الأندلسي:

صاد قلبي وصدّ عنّي صدوداً ... وانثني يسحب الذّوائب سوداً
فرأيت الصّباح في الليل يبدو ... وشهدت الرّشا يصيد الأسودا

وعلى الثّاني فالزّيادة أيضاً إما في وسط اللفظ الأوّل، كقوله ﷺ في المخ ص (٩٠):

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لا يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ، وَلاَ يُكْديهِ الإِعْطاءُ والْجُودُ». وفي باب المخ من حكمه:

«إِنَّ كَلاَمَ الْحُكَماَءِ إِذا كانَ صَواباً كان دَواءً، وإِذَا كان خَطأً كانَ دَآءً»، وإمّا في وسط اللفظ الثّاني، كقوله ﷺ في المخ قصا (١٩١):

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّويل، وَجُهْدَهُ الْجَهِيدَ».

وعلى الثّالث فيخص باسم المذيّل لكون الزّيادة الموجودة في الآخر بمنزلة الذّيل له، ومثاله من النّثر قولهم: فلان سال من أحزانه، سالم من زمانه، حام لعرضه حامل لفرضه. وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قنا (١٥١):

«ومَدَارِ رَحاها تَبْدُو في مَدَارِجَ خَفِيَّة».

ومن النّظم قوله:

فيا يومها كم من مناف منافق ويا ليلها كم من مواف موافق

وقد تكون الزّيادة في آخر المذيّل بحرفين، ويخصّه بعضهم باسم المرقّل كقوله:

فيا لك من عزم وحزم طواهما جديد الرّدى بين الصّفا والصّفائح

ومنها: أن يتفق اللفظان في أعداد الحروف، وترتيبها، وهيئتها، ويختلفا في أنواعها، بأن يكون أحد حروف أحدهما مغايراً لأحد حروف الآخر، ثم الحرفان المختلفان إن كانا متقاربين في المخرج، أو كلاهما من مخرج واحد، سمّي الجناس المضارع، وإلاّ فيسمّى باللاّحق.

أمّا المضارع فعلى ثلاثة أقسام، لأنَّ الحرفين المختلفين إمّا في أوّل المتجانسين، كقوله ﷺ في المخ قب (١٠٢):

«في قَرَارِ خِبْرَةٍ، ودارِ عِبْرَةٍ».

فإنّ الخاء والعين كليهما من حروف الحلق، والأولى من وسط الحلق، والثّانية من أدناه إلى الفم، وقوله ﷺ في المخ قصب (١٩٢):

«وحِرْصاً في عِلْمٍ، وعِلْماً في حِلْمٍ».

فإنّ العين والحاء مخرجهما وسط الحلق.

وإمّا في وسطهما، كقوله تعالى:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٩] وقوله ﷺ في المخ فب (٨٢):

«عِبادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِداراً، ومَرْبُوبُونَ اقْتِساراً».

فإنّ الدّال والسّين كليهما من طرف اللسان، إلاّ أنّ الأولى بينه وبين فويق الثّنايا،

والثّانية بينه وبين أطراف الثّنايا وقوله ﷺ في المخ قيد (١١١):

«أَللَّهُمَّ سُقْياً مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تامَّةً عامَّةً، طَيِّبَةً مُبارَكَةً، هَنيئَةً مَريئَةً مَريعَةً».

فإنّ الهمزة والعين في الأخيرين كليهما من حرف الحلق، ومن النّظم قوله:

وما خلقت عيون العين إمّا نظرن سوى بلايا للبرايا

قال قطرب اللاّم والرّاء من مخرج واحد.

وإمّا في آخرهما كقوله ﷺ في المخ يه (١٥):

«وَلاَ يَغْلِبَنَّكُمْ فيهَا الأَمَلُ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ».

فإنّ اللاّم والدّال متقاربا المخرج، وقوله ﷺ في المخ قص (١٩٠):

«أَلْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ».

ومن النّظم قوله:

سأكسوك من مكنون نظمي وشائعاً تناط بجيد الدّهر منها وشائح

وأما الجناس اللاحق

فهو أيضاً ثلاثة أقسام مثل السّابق.

أحدها: أن تكون الحرفان المختلفان في أوّل اللّفظين، كقوله ﷺ في المخ سه (٦٥):

فَعاوِدُوا الْكَرَّ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإِنَّهُ عارٌ في الأَعْقاب، ونارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ.

ومن النّظم قول الشّيخ صفي الدين الحلي:

أبيت والدّمع هام هامل سرب والجسم من أضم لحم على وضم

والثّاني أن تكونا في وسطهما، كقوله ﷺ في المخ فب (٨٢):

«فَظَلَّ سادِراً، وباتَ ساهِراً». وفي المخ قكو (١٢٦):

«وهُوَ دينُ اللّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ».

ومن النّظم قول البديع الهمداني:

يا غلام الكاس فاليأس من النّاس مريح

وقول الصّفي الحلي:

بيض دعاهنّ الغبيّ كواعباً ولو استبان الرّشد قال كواكباً

والثّالث أن تكونا في آخرهما كقوله عليه السلام في باب المخ من حكمه:

«وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شاخِصاً إِلاّ في ثَلاَثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعاشٍ، أو خَطْوَةٍ في مَعادٍ، أَوْ لَذَّةٍ في غَيرِ مُحَرَّمٍ».

ومن النّظم قوله:

يكفي الأنام بسيبه وبسيفه عند المكارم والمكاره دائماً

هذا ومن النّاس من يسمّي هذا النّوع من الجناس ـ أعني ما اختلف بالحرف ـ جناس التّصريف، سواء كان من المخرج أو غيره، ثم اللفظان المتجانسان بأيّ أنواع التّجنيس كان إن يكونا في أواخر الأسجاع، أو الفواصل، منضمّاً أحدهما إلى الآخر، مثل قولهم:

مَنْ قَرَعَ باباً وَلَجَّ وَلَجَ، ومَنْ طَلَبَ شَيْئاً وَجَدَّ وَجَدَ.

ونحو ذلك، ممّا تقدّم ذكره في تضاعيف أمثلة الأنواع السّالفة، يسمّى هذا النّوع من الجناس مردّداً، ومزدوجاً، ومكرّراً، ومن أحسن أمثلته في النّظم قول البستي:

أبا العبّاس لا تحسب بأنّي لشيبي من حلى الأشعار عار

فلي طبع كسلسال معين زلال من ذرى الأحجار جار

إذا ما اكبت الأدوار زنداً فلي زند على الأدوار وار

ومنها الجناس المقلوب

ويسمّى جناس القلب، وهو أن يتفق اللفظان في الحروف، وأنواعها، وهيئاتها، ويختلفا في التّرتيب، وهو ضربان.

أحدهما: قلب الكلّ، وهو أن يكون الحرف الآخر من اللّفظة الأولى أوّلا من الثّانية، والذي قبله ثانياً وهكذا، ولم أجد له مثالاً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام نعم لا يبعد أن يجعل منه قوله عليه السلام في المخ ره (٢٠٥):

«حَتّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ»، فإنّ الجهل واللهج مقلوبان إلاّ أنّ في جهله ضمير لو كان مانعاً، ومن النّظم قوله:

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك منه للأعداء حتف

وثانيهما: قلب البعض، وهو كثير في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، مثل قوله في كتاب كتبه إلى سلمان الفارسي:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّما مَثَلُ الدُّنْيا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّها، قاتِلٌ سَمُّها».

وقوله ﷺ في باب المخ من حكمه: «أَلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ».

ومن النّظم قول أبي تمام:

بيض الصّفائح لا سود الصّحائف في ... متونهنّ جلاء الشّك والرّيب

وقول ابن حيّوس:

تلفى بها الرّوّاد روضاً زاهراً ... وتصادف الورّاد حوضاً مفعماً

هذا، وبعضهم عرّف الجناس المقلوب بأنّه ما تساوت حروف ركنيه عدداً، وتخالفت ترتيباً، فيعمّ المتساوي هيئة كما قدّمناه في الأمثلة، والمتخالف فيها أيضاً كقوله ﷺ في المخ قعب (١٧٢):

«وَلاَ يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ إِلاّ أَهْلُ الْبَصَرِ والصَّبْرِ». وفي المخ قصب (١٩٢):

«يَمْزَجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ».

وعلى التّعميم فيكون قوله ﷺ: العلم مقرون، اه، مثالاً لكلا القسمين، ومن أمثلته على التّعميم في النّظم قوله:

حكاني بهار الرّوض لمّا ألفته ... وكلّ مشوق للبهار مصاحب

فقلت له ما بال لونك شاحباً ... فقال لأنّي حين أقلب راهب

وقوله:

رقّت شمائل قاتلي فلذلك روحي لا تقرّ ... ردّ الحبيب جوابه فكأنّه في اللحظ درّ

ومنها الجناس المصحف

ويقال له جناس الخط أيضاً، وهو أن تأتي بكلمتين متشابهتين خطاً لا لفظاً، كقوله تعالى:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قسا (١٦١):

«فَإِنَّها كانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْها نُفُوسُ قَوْمٍ، وسَخَتْ عَنْها نُفُوسُ آخَرينَ».

وفي المخ قصا (١٩١): «وكانَ قَدْ عَبَدَ اللّٰه سِتَّةَ آلافِ سَنَةٍ». وفيه أيضاً: «فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَلَهُ جِدَّكُمْ».

وقوله عليه السلام فيما كتب إلى معاوية: «غَرَّكَ عِزُّكَ، فَصارَ قِصارُ، ذٰلِكَ ذُلُّكَ، فَاخْشَ فَاحِشَ فِعْلِكَ فَعَلَّكَ تُهْدَا بِهذَا».

ومن النّظم قول أبي الطيب المتنبي:

جرى الخلف إلا فيك انّك واحد وانّك ليث والملوك ذئاب
وانّك ان قويست صحّف قارىء ذئاباً فلم يخطىء وقال ذباب

هذا، وعرّف بعضهم جناس الخط بأنّه توافق اللفظين في الكتابة، وبعضهم بأنّه ما تماثل ركناه في الحروف وتخالفا في النقط، وعلى ذلك فيكون أعم، لشمولها المتجانسين بالخط واللفظ معاً أيضاً كقوله عليه السلام في باب المخ من حكمه:

«صِحَّةُ الْجَسَدِ، مِنْ قِلَّةِ الْحَسَدِ».

ونظير ذلك من أفراد الجناس اللاّحق، كقوله عليه السلام في المخ فب (٨٢):

«يُونِقُ مَنْظَرُها، ويُوبِقُ مَخْبَرُها». وفيه أيضاً: «لاَ تُقْلِعُ الْمَنِيَّة إخْتِراماً، وَلاَ يَرْعَوِي الْباقُونَ إجْتِرَاماً». وقوله عليه السلام في المخ قه: (١٠٥) «وَلاَ ناكِبِينَ، وَلاَ ناكِثِينَ».

إلى غير ذلك، ومثل قول أبي نواس:

من بحر شعرك أغترف وبفضل علمك أعترف

ومثل الحبرة والخبرة، والعار والنّار، ونحو ذلك من أمثلة المضارع، كما هو ظاهر، ثم إن بعض المتأخّرين قد أضافوا إلى أقسام الجناس أقساماً أخُر، طوينا عنها كشحاً لندرتها وعدم خلوّ بعضها من التكلف والرّكاكة، يكاد أن يخرج من حدّ الفصاحة، فلنعد إلى ذكر باقي أنواع البديع ممّا رمنا إيراده فأقول:

ومنها الاشتقاق

وهو أن تجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة، كقوله سبحانه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣].

فإنّهما مشتقان من قام يقوم، وقوله تعالى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

فإنّهما مشتقان من ربا يربو بمعنى زاد، وقوله:

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ﴾، ﴿ويا أسَفا عَلَىٰ يُوسُفُ﴾، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾.

ومن كلام أمير المؤمنين ﷺ قوله في المخ قفو (١٨٦):

«فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ».

وهذا النّوع كثير في كلامه ﷺ، ومن النّظم قول ابن حجة:

محمّد أحمد المحمود مبعثه كلّ من الحمد تبيين اشتقاقهم

وقول الآخر:

ونرتاب بالأيّام عند سكونها وما ارتاب بالأيّام غير مريب

وما الدّهر في حال السّكون بساكن ولكنّه مستجمع لوثوب

ومنها شبه الاشتقاق

وهو أن يوجد في كلّ من اللفظين جميع ما يوجد في الآخر من الحروف أو أكثرها، لكن لا يرجعان إلى أصل واحد، قال المطرّزي في «**شرح المقامات**»: وكلا النّوعين ـ أي الاشتقاق وشبه الاشتقاق ـ من شعب التجنيس، وإنّما عدُ الأوّل قسماً على حِدَة، لزيادة فضيلة له في باب الإبداع، وجعلهما صاحب (**التلخيص**) من لواحق باب الجناس، والأكثرون على جعل الأوّل قسماً مستقلاً من أنواع البديع، والثّاني من أقسام الجناس، وسمّوه تجنيس المشابهة والجناس المطلق، وعرّفه بعضهم بأنّه ما اختلف ركناه في الحروف والحركات، وجمع بين لفظيهما المشابهة وهو ما يشبه الاشتقاق، لعدم رجوعهما إلى أصل واحد.

وكيف كان فمثاله من القرآن قوله سبحانه:

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] وقال ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء ١٦٨].

فإن قال من القول والقالين، من القلى. ومن كلام أمير المؤمنين ﷺ قوله في المخ قص (١٩٠): «وأَهْلُها عَلى سَاقٍ وَسياقٍ».

فإنّ السّاق ما بين الكعب والركبة، وسياق مصدر ساق يسوق، ومن النّظم قوله في وصف الرّبيع:

إنّ فصل الرّبيع فصل مليح تضحك الأرض من بكآء السّمآء

ذهب حيثما ذهبنا ودز حيث درنا وفضّة في الفضآء

ومنها السجع

وهو مأخوذ من سجع الحمامة، وهو هديرها، وترديدها صوتها، تشبيهاً به لتكرّره على نمط واحد، وهو على ما قيل توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد، كالتقفيه في

النّظم، وقد يطلق الأسجاع على نفس الألفاظ المتواطي عليها في أواخر الفقر، وهي التي يقال الفواصل في القرآن، والقوافي في الشّعر، وكيف كان فهو على أقسام.

الأوّل السّجع المطرّف، وهو في النثر أن يختلف الفاصلتان في الوزن، مثل قوله تعالى:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣ - ١٤].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ ز (٧):

«إِتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لأَمْرِهِمْ مِلاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً».

ومن النّظم اختلاف القافيتين كقوله:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

الثّاني: السّجع المرصّع وهو أن تكون القرينتان مع اتّفاق أعجازهما وزناً وتقفية متفقة الأوزان، كلا أو كثيراً، وبعبارة أخرى: ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثره مثل ما يقابله من الألفاظ في القرينة الأخرى في الوزن والتّقفيه. فالأوّل مثل قوله عليه السلام في المخ ب (٢):

«أَحْمَدُهُ إِسْتِتْماماً لِنِعْمَتِهِ، وَاسْتِسْلاَماً لِعِزَّتِهِ». وفي المخ فب: (٨٢)

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلاَ بِحَوْلِهِ، ودَنا بِطَوْلِهِ». والثاني كقوله ﷺ في المخ فب (٨٢) أيضاً: «مانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ، وكاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وأَزْلٍ».

وأمّا التّرصيع في النّظم، فهو أن يقابل النّاظم كلّ لفظة في صدر البيت، بلفظ مثلها وزنا وتقفية في عجز البيت، هكذا عرّفه بعض أرباب البديع، ولعلّه مبنيّ على التّسامح، إذ أواخر الأبيات التي بعد البيت الأوّل من القصيدة، لا يلزم فيها المطابقة لما في صدر تلك الأبيات، وإنّما يلزم مطابقتها وزنا وتقفية، لآخر البيت الأوّل منها.

وكيف كان فقد قال نجم الدّين الكرماني في «**قلائد العقيان**»: ولم يبلغ في هذا النّوع أحد سوى الإمام رشيد الدّين المشتهر بالوطواط، فإنّ له قصائد باللّسانين التزم فيها التّرصيع من أوّلها إلى آخرها، فمنها قوله من قصيدة يمدح بعض أكابر عصرها:

جناب ضياء الدّين للبرّ مرقع وباب ضياء الدّين للحرّ مربع

وسيرته الزّهراء للحق معلم وسدّته الشماء للخلق مجمع

فجدّد منه للمراشد أرسم وشيّد منه للمحامد أربع

وعـلـيـاه فـيـهـا لـلـخـواطـر مـسـرح ولـقـيـاه فـيـهـا لـلـنـواظـر مـرتـع
فـمـنـهـل مـن يـروي ثـنـاءك مـفـعـم ومـنـزل مـن يـنـوي جـفـاءك بـلـقـع
وصـولـك لـلأشـرار مـتـو ومـتـلـف وطـولـك لـلأخـيـار مـرو ومـشـبـع

الثّالث: السّجع المتوازي، وهو مقابل المرصّع، أي ما لا يكون في إحدى القرينتين ولا أكثره مثل ما يقابله من القرينة الأخرى، سوى الإعجاز والفواصل، فإنّه لا يشترط فيها الاتفاق في الوزن والتّقفية كما في المرصّع، وهو على ثلاثة أضرب:

أحدها: أن يكون كلّ ما في إحدى القرينتين مخالفاً لمقابله وزناً وتقفية، كقوله ﷺ في المخ قصز (١٩٧):

«جَعَلَهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمآءِ، وَرَبيعا لِقُلُوبِ الْفُقَهآءِ، ومَحاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحآءِ».

الثاني: أن يكون المخالفة في الأكثر، والموافقة في الأقل.

الثالث: أن يكون النصف مخالفاً والنّصف الآخر موافقاً، كقوله تعالى:

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [الغاشية: ١٣ ـ ١٤].

وقوله ﷺ في المخ فب (٨٢): «غُرُورٌ حائِلٌ، وضَوْءٌ آفِلٌ، وظِلٌّ زائِلٌ، وسِنادٌ مائِلٌ».

ثم الاختلاف في الضّروب الثلاثة قد يكون في الوزن والتّقفية معاً، كما في الأمثلة المتقدّمة، أو في الوزن فقط، كقوله تعالى:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۞ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات: ١ ـ ٢] وقوله ﷺ في المخ فب (٨٢) أيضاً: «حَتّىٰ إذا تَصَرَّمَتِ الأُمُورُ، وتَقَضَّتِ الدُّهُورُ».

أو في التّقفية فقط، كقوله ﷺ فيه أيضاً:

«مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاقِهِمْ، ومُسْتَفْسَحِ خَناقِهِمْ».

قال التّفتازاني في «**شرح التّلخيص**»: أو لا يكون لكلّ كلمة من إحدى القرينتين مقابل من الأخرى، نحو:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢].

أقول: جعل ذلك من أقسام المتوازي لا يخلو من إشكال، لأنه بعد تصريحه باشتراط اتفاق الفواصل في المتوازي والمرصّع في الوزن والتّقفية تبعاً لصاحب (**التلخيص**)، كيف يجعل الآية من المتوازي، مع أنّ الفاصلتين مختلفتان وزناً، فإنّ الفاصلة الأولى على وزن فوعل، والثّاني على وزن افعل، فالأولى أن يدخل ذلك في المطرف، اللّهم إلاّ أن يقال: إن

الثّانية مع انضمام واو العطف ودرج الهمزة تصير في الوزن شبيهة بالفاصلة الأولى، وهو كما ترى.

تنبيهات

الأوّل: لم يشترط بعضهم في السّجع الاتفاق في الفاصلتين في التّقفية، بل اكتفى بالاتفاق في الوزن فقط، ومنهم المطرّزي في «شرح المقامات»، حيث عدّ من أقسام السّجع قسماً سمّاه المتوازن، ومثله الشّارح البحراني، وعرّفه الثّاني بأن يتّفقا في عدد الحرف الأخير، وجعله قسيماً للمطرف، وعرّفه بأن يختلفا في العدد، ويتفقا في الحرف الأخير، وعرّفه الأوّل بأن تُراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن، مع اختلاف الحرف الأخير منهما، كقوله تعالى:

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝﴾ [الغاشية: ١٥ ـ ١٦].

فإنّ لفظي مصفوفة ومبثوثة، متساويان وزناً لا تقفية، إذ الأوّل على الفاء، والثّاني على الثّاء، ولا عبرة بتاء التّأنيث كما بيّن في علم القوافي، ومثله قوله عليه السلام في المخ فب (٨٢):

وداعِيَةٍ بالْوَيْلِ جَزَعاً، ولاَدِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً.

ثم إن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثرها، مثل ما يقابله من ألفاظ القرينة الأخرى في الوزن، خصّ باسم المماثلة، فالمماثلة في الكلّ كالمثال الذي أوردناه، والمماثلة في الأكثر، كما في قوله تعالى:

﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧ ـ ١١٨].

الثّاني: كلمات الأسجاع مبنيّة على سكون الإعجاز موقوفاً عليها، لأنّ الغرض من السّجع أن يزاوج بين الفواصل، ولا يتمّ ذلك في كلّ صورة إلاّ بالوقف والبناء على السّكون، إذ ربّما يختلف حركات الإعجاز، وبدون الوقف يسقط التّزاوج، مثل قولهم: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت، فإنّ التّاء من فات، مفتوحة ومن آت، مكسورة منوّنة، فلو حركتا ارتفع التّواطؤ، ومثله قوله عليه السلام في المخ صط (٩٩):

«دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلاَمِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ».

فإنّ الميمين الأوليين مكسورتان، والثّالثة مفتوحة، ومع التّحريك ارتفع التّسجيع، قال المطرّزي: وإذا رأيتهم يخرجون الكلم عن أوضاعها للازدواج والتّشاكل، فيقولون: آتيك بالغدايا والعشايا، وهناني الطعام ومراني، وأخذهم ما قدم وحدث، يريدون الغداوة، وأمراني وحدث مع أنّ فيه ارتكاباً لما يخالف اللغة، فما ظنك بهم في ذلك.

الثّالث: حسن الاسجاع أقصرها، لقرب فواصل السّجعة من سمع السّامع، وأيضاً هو أوعر مسلكاً، إذ المعنى إذا صيغ بألفاظ قليلة، عسر مواطأة السّجع فيه، فيكشف عن طول يد المتكلم في باب البلاغة والإبداع، مثل قوله ﷺ في المخ يج (١٣):

«أَخْلاَقُكمْ دِقاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقاقٌ، ودِيُنكُمْ نِفاقٌ، وماؤُكُمْ زُعاقٌ».

الرّابع: قال ابن النّفيس، يكفي في حسن السّجع ورود القرآن به، قال: ولا يقدح في ذلك خلوه في بعض الآيات، لأن الحسن قد يقتضي المقام الانتقال إلى أحسن منه، وقال حازم: إنّما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع في كلامهم، وإنّما لم تجيء على أسلوب واحد لأنه لا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون مستمرّاً على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل، ولأنّ الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد، فلهذا أوردت بعض آي القرآن متماثلة المقاطع، وبعضها غير متماثل.

ومنها التشطير

وعرفوه بأن يقسّم الشّاعر كلاًّ من صدر بيته وعجزه شطرين، ثم يسجع كلّ شطر منهما، لكنّه يأتي بالصّدر مخالفاً للعجز في التّسجيع، كقوله:

تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتعب في الله مرتقب

وقول البوصيري:

كالزّهر في ترف والبدر في شرف ... والبحر في كرم والدّهر في همم

أقول: إن أغمضنا عن اختصاصه بالنّظم على ما اصطلحوا، فجريانه في النثر أيضاً ممكن، كقوله ﷺ في المخ فب (٨٢):

«وَأَعْظَمُ ما هُنالِكَ بَلِيَّةً نُزُلُ الْحَميمِ، وتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ، وفَوْرَاتُ السَّعيرِ، وسَوْراتُ الزَّفيرِ، لا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ، وَلاَ دَعَةٌ مُزيحَةٌ، وَلاَ قُوَّةٌ حاجِزَةٌ، وَلاَ مَوْتَةٌ ناجِزَةٌ».

ومنها تضمين المزدوج

وهو أن يأتي المتكلم في أثناء قرائن النّثر أو أحد شطري البيت بلفظين مسجّعين، بعد مراعاة حدود الاسجاع والقوافي، كقوله تعالى:

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقول أمير المؤمنين ﷺ في المخ قح (١٠٨): «في نارٍ لَهَا كَلَبٌ ولَجَبٌ، ولَهَبٌ

ساطِعٌ، وقَصيفٌ هائِلٌ». وفي المخ قصا (١٩١): «والْجَحُودُ الْكَنُودُ، والْعَنُودُ الصَّدُودُ، والْحَيُودُ الْمَيُودُ». وفيه أيضاً: «دارُ حَرَبٍ وسَلَبٍ، ونَهَبٍ وَعَطَبٍ، أَهْلُهَا عَلَى ساقٍ وسِياقٍ، ولِحاقٍ وفِراقٍ».

ومن النّظم قوله يرثي الصّاحب بن عبّاد:

مضى الصّاحب الكافي ولم يبق بعده ... كريم يروّي الأرض فيض غمامه

فقدناه لما تمّ واعتمّ بالعلى ... كذاك خسوف البدر عند تمامه

ومنها لزوم ما لا يلزم

ويقال له: الالتزام، والتّشديد، والتضييق، والاعنات، وهو أن يؤتى في النّثر أو النّظم قبل الفاصلة أو حرف الرّوي بحرف أو حرفين، مع عدم كون الاتيان بها أو بهما واجباً في السّجع، كقوله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾، وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ٩ ـ ١٠].

فقد جيء بالهاء قبل الفاصلتين، مع عدم لزوم الاتيان بها، لتحقّق السّجع بدونها، بأن يقال: فلا تسخر، فلا تزجر، وقوله سبحانه أيضاً:

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٢٩].

ومن كلام أمير المؤمنين ﷺ في المخ ب (٢):

«فَإِنَّهُ أَرْجَحُ ما وُزِنَ، وَأَفْضَلُ ما خُزِنَ».

بلزوم الزّاء المكسورة، وقد كان السّجع يتحقّق بدونها، بأن يقال بدل خزن: ركن، ومن النّظم قوله:

سأشكر عمرواً إن تراخت منيّتي ... أيادي لم تمنن وإن هي جلّت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

رأى خلّتي من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيه حتّى تجلّت

فحرف الرّوي هي التّاء، وقد جيء قبلها في الأبيات بلام مشدّدة، وهو ليس بلازم في مذهب التّسجيع.

ومنها الحذف

وهو عبارة عن أن يحذف المتكلّم من كلامه حرفاً فأكثر من حروف الهجاء، أو يؤلف

كلامه من حروف خالية عن النّقط، وينظمه من حروف لم يعجمن قط، بشرط حسن الائتلاف وعدم التكلّف، وعليّ أمير المؤمنين ﷺ هو الحائز لقصب السّبق في هذا المضمار، والجامع للوامع الفخار وبدائع الافتخار، فقد أتى بالارتجال وعلى الاستعجال خطبته المسمّاة: بالمونقة، المتضمّنة لعبارات مهذبة، وكلمات مستعذبة، وتجنيسات موشّحة، وتسجيعات مستملحة، وعظات تشفي العليل، ونصائح تروي الغليل، يكاد أن يقال: إنّه ليس من كلام البشر، أو أنّه ليس إلاّ سحر يؤثر، وأتبعها بخطبة أخرى، خالية عن الإعجام، على أحسن السجام، ولم يوردهما السّيد في الكتاب، فأحببت ايرادهما هنا، تشحيذاً لأذهان أولي الألباب ودلالة على أنّه البارع المقدم في كلّ باب.

فأقول: قد روى المخالف والمؤالف، عن هشام بن محمّد السّائب الكلبي، أنّه اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، فتذاكروا أيّ الحروف أدخل في الكلام، فأجمعوا على أنّ الألف أكثر دخولاً، فخطب علي ﷺ، بهذه الخطبة ارتجالاً، وسمّاها المونقة، وهي:

«حَمِدْتُ مَنْ عَظُمَتْ مِنَّتُهُ، وسَبَغَتْ نِعْمَتُهُ، وسَبَقَتْ رَحْمَتُهُ وتَمَّتْ كَلِمَتُهُ، ونَفَذَتْ مَشِيَّتُهُ، وبَلَغَتْ حُجَّتُهُ، وَعَدَلَتْ قَضِيَّتُهُ، حَمِدْتُهُ حَمْدَ مُقِرٍّ بِرُبُوبِيَّتِهِ، مُتَخَضِّعٍ لِعُبُودِيَّتِهِ، مُتَنَصِّلٍ مِنْ خَطِيئَتِهِ، مُعْتَرِفٍ بِتَوْحِيدِهِ، مُؤَمِّلٍ مِنْ رَبِّه، رَحْمَةً تُنْجِيهِ، يَوْمَ يَشْغَلُ كُلٌّ عَنْ فَصِيلَتِهِ وبَنِيهِ، ونَسْتَعِينُهُ، ونَسْتَرْشِدُهُ، ونَسْتَهْدِيهِ، ونُؤْمِنُ بِهِ، ونَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وشَهِدْتُ لَهُ شُهُودَ مُخْلِصٍ مُوقِنٍ، وفَرَّدْتُهُ تَفْرِيدَ مُؤْمِنٍ مُتْقِنٍ، وَوَحَّدْتُهُ تَوْحِيدَ عَبْدٍ مُذْعِنٍ، لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ في مُلْكِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ في صُنْعِهِ، جَلَّ عَنْ مُشِيرٍ ووَزِيرٍ، وتَنَزَّهَ عَنْ مِثْلٍ ونَظِيرٍ، عَلِمَ فَسَتَرَ، وبَطَنَ فَخَبَرَ، ومَلَكَ فَقَهَرَ، وَعُصِيَ فَغَفَرَ، وعُبِدَ فَشَكَرَ، وحَكَمَ فَعَدَلَ، (وَتَكَرَّمَ وتَفَضَّلَ، لَنْ يَزُولَ وَلَمْ يَزَلْ خ ل) لَمْ يَزَلْ، وَلَنْ يَزُولَ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، رَبٌّ مُتَفَرِّدٌ بِعِزَّتِهِ، مُتَمَلِّكٌ بِقُوَّتِهِ، مُتَقَدِّسٌ بِعُلُوِّهِ، مُتَكَبِّرٌ بِسُمُوِّهِ، لَيْسَ يُدْرِكُهُ، بَصَرٌ، وَلَمْ يُحِطْ بِهِ نَظَرٌ، قَوِيٌّ مَنِيعٌ، بَصِيرٌ سَمِيعٌ، حَلِيمٌ حَكِيمٌ، رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، عَجَزَ في وَصْفِهِ مَنْ يَصِفُهُ، وَضَلَّ في نَعْتِهِ مَنْ يَعْرِفُهُ، قَرُبَ فَبَعُدَ، وَبَعُدَ فَقَرُبَ، يُجِيبُ دَعْوَةَ مَنْ يَدْعُوهُ، وَيَرْزُقُ عَبْدَهُ وَيَحْبُوهُ، ذُو لُطْفٍ خَفِيٍّ، وبَطْشٍ قَوِيٍّ، ورَحْمَةٍ مُوسِعَةٍ، وَعُقُوبَةٍ مُوجِعَةٍ، رَحْمَتُهُ جَنَّةٌ عَرِيضَةٌ مونقةٌ، وعُقُوبَتُهُ جَحِيمٌ مُؤْصَدَةٌ مُوبِقَةٌ، وشَهِدْتُ بِبَعْثِ مُحَمَّدٍ عَبْدِه، ورَسُولِهِ، وصَفِيِّه، وحَبِيبِهِ، وخَلِيلِه، بَعَثَهُ في خَيْرِ عَصْرٍ، وفي حِينِ فَتْرَةٍ وكُفْرٍ، رَحْمَةً لِعَبِيده، ومِنَّةً لِمَزِيدِهِ، خَتَمَ بِهِ نُبُوَّتَهُ، وقَوّىٰ بِهِ حُجَّتَهُ، فَوَعَظَ ونَصَحَ، وبَلَّغَ وكَدَحَ، رَؤُوفٌ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ، وَلِيٌّ، سَخِيٌّ، زَكِيٌّ، رَضِيٌّ، عَلَيْهِ رَحْمَةٌ وتَسْلِيمٌ، وبَرَكَةٌ وتَكْرِيمٌ، مِنْ رَبٍّ غَفُورٍ رَحِيمٍ، قَرِيبٍ مُجِيبٍ، وَصَّيْتُكُمْ مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَنِي: بِتَقْوىٰ رَبِّكُمْ، وذَكَّرْتُكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِرَهْبَةٍ تُسَكِّنُ قُلُوبَكُمْ، وَخَشْيَةٍ تُذْرِيءُ دُمُوعَكُمْ، وتَقِيَّةٍ تُنْجِيكُمْ، يَوْمَ يُذْهِلُكُمْ وتُبْلِيكُمْ، يَوْمَ يَفُوزُ فيهِ مَنْ ثَقُلَ وَزْنُ حَسَنَتِهِ، وَخَفَّ وَزْنُ سَيِّئَتِهِ، وَلْتَكُنْ مَسْئَلَتُكُمْ مَسْئَلَةَ ذُلٍّ وخُضُوعٍ، وشُكْرٍ وخُشُوعٍ، وتَوْبَةٍ ونُزُوعٍ، ونَدَمٍ

ورُجُوعٍ، وَلْيَغْتَنِمْ كُلُّ مُغْتَنِمٍ مِنْكُمْ، صِحَّتَهُ قَبْلَ سُقْمِهِ، وشَبِيبَتَهُ قَبْلَ هِرَمِهِ، وسِعَتَهُ قَبْلَ فَقْرِهِ، وخَلْوَتَهُ قَبْلَ شُغْلِهِ، وحَضَرَهُ قَبْلَ سَفَرِهِ، قَبْلَ هُوَ يَكْبُرُ ويَهْرُمُ، ويَمْرُضُ ويَسْقُمُ، ويَمُلُّهُ طَبِيبُهُ، ويُعْرِضُ عَنْهُ حَبِيبُهُ، ويَتَغَيَّرُ عَقْلُهُ، ويَنْقَطِعُ عُمْرُهُ، ثُمَّ قِيلَ هُوَ مَوْعُوكٌ، وجِسْمُهُ مَنْهُوكٌ، ثُمَّ جَدَّ فِي نَزْعٍ شَدِيدٍ، وحَضَرَهُ كُلُّ قَرِيبٍ وبَعِيدٍ، فَشَخِصَ بِبَصَرِه، وطَمَحَ بِنَظَرِهِ، ورَشَحَ جَبِينُهُ، وسَكَنَ حَنِينُهُ، وجُذِبَتْ نَفْسُهُ، وبَكَتْهُ عِرْسُهُ، وحُفِرَ رَمْسُهُ، ويَتِمَ وَلَدُهُ، وتَفَرَّقَ عَنْهُ عَدَدُهُ، وقُسِّمَ جَمْعُهُ، وذَهَبَ بَصَرُهُ وسَمْعُهُ، وغُمِّضَ وَمُدِّدَ، ووُجِّهَ وجُرِّدَ، وغُسِّلَ ونُشِّفَ، وسُجِيَ وبُسِطَ لَهُ، وهُيِّءَ ونُشِرَ عَلَيْهِ كَفَنُهُ؛ وشُدَّ مِنْهُ ذَقَنُهُ، وقُمِّصَ وعُمِّمَ، ولُفَّ ووُدِّعَ وسُلِّمَ، وحُمِلَ فَوْقَ سَرِيرٍ، وصُلِّيَ عَلَيْهِ بِتَكْبِيرٍ، ونُقِلَ مِنْ دُورٍ مُزَخْرَفَةٍ، وقُصُورٍ مُشَيَّدَةٍ، وحُجَرٍ مُنَضَّدَةٍ، فَجُعِلَ فِي ضَرِيحٍ مَلْحُودٍ، ولَحَدٍ ضَيِّقٍ مَرْصُوصٍ، بِلَبِنٍ مَنْضُودٍ، مُسَقَّفٍ بِجُلْمُودٍ، وَهِيلَ عَلَيْهِ عَفَرُهُ، وَحُثِيَ عَلَيْهِ مَدَرُهُ، فَتَحَقَّقَ حَذَرُهُ، ونُسِيَ خَبَرُهُ، وَرَجَعَ عَنْهُ وَلِيُّهُ ونَسِيبُهُ، وتَبَدَّلَ بِهِ قَرِيبُهُ وحَبِيبُهُ، وصَفِيُّهُ ونَدِيمُهُ، فَهُوَ حَشْوُ قَبْرٍ، ورَهِينُ قَفْرٍ، يَسْعَىٰ فِي جِسْمِهِ دُودُ قَبْرِهِ، ويَسِيلُ صَدِيدُهُ مِنْ مِنْخَرِهِ، ويُسْحَقُ بَدَنُهُ ولَحْمُهُ، ويَنْشِفُ دَمُهُ، ويَرُمُّ عَظْمُهُ، ويُقِيمُ فِي قَبْرِهِ، حَتَّىٰ يَوْمِ حَشْرِهِ، فَيُنْشَرُ مِنْ قَبْرِهِ حِينَ يُنْفَخُ فِي صُورٍ، ويُدْعَىٰ بِحَشْرٍ ونُشُورٍ، فَثَمَّ بُعْثِرَتْ قُبُورٌ، وحُصِّلَتْ سَرِيرَةُ صُدُورٍ، وَجِيءَ بِكُلِّ نَبِيٍّ وصِدِّيقٍ، وشَهِيدٍ ونَطِيقٍ، وتَوَلَّىٰ لِفَصْلٍ عِنْدَ رَبٍّ قَدِيرٍ، بِعَبْدِهِ خَبِيرٍ بَصِيرٍ، فَكَمْ مِنْ زَفْرَةٍ تُضْنِيهِ، وحَسْرَةٍ تُنْضِيهِ، فِي مَوْقِفٍ مَهُولٍ عَظِيمٍ، ومَشْهَدٍ جَلِيلٍ جَسِيمٍ، بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ كَرِيمٍ، بِكُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ عَلِيمٍ، فَحِينَئِذٍ يُلْجِمُهُ عَرَقُهُ، ويَحْفِزُهُ قَلَقُهُ، عَبْرَتُهُ غَيْرُ مَرْحُومَةٍ، وصَرْخَتُهُ غَيْرُ مَسْمُوعَةٍ، وحُجَّتُهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، وقُوبِلَ صَحِيفَتُهُ، وتَبَيَّنَ جَرِيرَتُهُ، ونَطَقَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ بِسُوءِ عَمَلِهِ، فَشَهِدَتْ عَيْنُهُ بِنَظَرِهِ، ويَدُهُ بِبَطْشِهِ، ورِجْلُهُ بِخَطْوِهِ، وجِلْدُهُ بِمَسِّه، وفَرْجُهُ بِلَمْسِهِ، وَيُهَدِّدُهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، وَكُشِفَ عَنْهُ بَصِيرٌ، فَسُلْسِلَ جِيدُهُ، وغُلَّتْ يَدُهُ، وسِيقَ بِسَحْبٍ وحِدَةٍ، فَوَرَدَ جَهَنَّمَ بِكَرْبٍ وشِدَّةٍ، فَظَلَّ يُعَذَّبُ فِي جَحِيمٍ، ويُسْقَىٰ شَرْبَةً مِنْ حَمِيمٍ، تَشْوِي وَجْهَهُ. وتَسْلَخُ جِلْدَهُ، يَضْرِبُهُ زِينَتُهُ بِمِقْمَعٍ مِنْ حَدِيدٍ، ويَعُودُ جِلْدُهُ بَعْدَ نُضْجِهِ بِجِلْدٍ جَدِيدٍ، يَسْتَغِيثُ فَتُعْرِضُ عَنْهُ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ، وَيَسْتَصْرِخُ فَيَلْبَثُ حُقْبَةً بِنَدَمٍ، نَعُوذُ بِرَبٍّ قَدِيرٍ، مِنْ شَرِّ كُلِّ مَصِيرٍ، ونَسْأَلُهُ عَفْوَ مَنْ رَضِيَ عَنْهُ، ومَغْفِرَةَ مَنْ قَبِلَ مِنْهُ، فَهُوَ وَلِيُّ مَسْأَلَتِي، ومُنْجِحُ طَلَبَتِي، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ تَعْذِيبِ رَبِّه، سَكَنَ فِي جَنَّتِهِ بِقُرْبِهِ. وخُلِّدَ فِي قُصُورٍ مُشَيَّدَةٍ، ومَلَكَ حُورَ عِينٍ وَحَفَدَةً، وطِيفَ عَلَيْهِ بِكُؤُوسٍ، وسَكَنَ حَظِيرَةَ فِرْدَوْسٍ، وتَقَلَّبَ فِي نَعِيمٍ، وسُقِيَ مِنْ تَسْنِيمٍ، وشَرِبَ مِنْ عَيْنِ سَلْسَبِيلٍ، مَمْزُوجَةٍ بِزَنْجَبِيلٍ. مَخْتُومَةٍ بِمِسْكٍ وعَبِيرٍ، مُسْتَدِيمٌ لِلْحُبُورِ، مُسْتَشْعِرٌ لِلسُّرُورِ، يَشْرَبُ مِنْ خُمُورٍ، فِي رَوْضٍ مُغْدِقٍ، لَيْسَ يُصَدَّعُ مِنْ شُرْبِهِ ولَيْسَ يَنْزِفُ، هٰذِهِ مَسْأَلَةُ مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ، وحَذَّرَ نَفْسَهُ، وتِلْكَ عُقُوبَةُ مَنْ جَحِدَ مُنْشِئَهُ، وسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ مَعْصِيَةَ مُبْدِئِهِ، ذَلِكَ قَوْلٌ فَصْلٌ، وحُكْمٌ عَدْلٌ، خَيْرُ قَصَصٍ قُصَّ، ووَعْظٍ نُصَّ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، نَزَلَ بِهِ رُوحُ قُدُسٍ مُبِينٍ، عَلَىٰ قَلْبِ نَبِيٍّ مُهْتَدٍ مَكِينٍ، صَلَّتْ

عَلَيْهِ رُسُلٌ سَفَرَةٌ، مُكَرَّمُونَ بَرَرَةٌ، عُذْتُ بِرَبٍّ رَحيم، مِنْ شَرِّ كُلِّ رَجيمٍ، فَلْيَتَضَرَّعْ مُتَضَرِّعُكُمْ، وَلْيَبْتَهِلْ مُبْتَهِلُكُمْ، فَنَسْتَغْفِرُ رَبَّ كُلِّ مَرْبُوبٍ لي وَلَكُمْ»[١].

أقول: هذه الخطبة مرويّة بطرق عديدة ورواها العلاّمة المجلسي (ره) في المجلّد السّابع عشر من (البحار) من «مصباح الكفعمي» باختلاف شديد تعرّضنا لموارد الاختلاف في الهامش، وقال في المجلّد التّاسع منه: وروى الكلبي عن أبي صالح وأبو جعفر بن بابويه باسناده عن الرّضا عن آبائه عليهم السّلام، أنه اجتمعت الصّحابة فتذاكروا: أنّ الألف أكثر دخولاً في الكلام، فارتجل عليه السلام الخطبة المونقة التي أوّلها: «حمدت من عظمت منّته، وسبغت نعمته» إلى آخرها، ثم ارتجل إلى خطبة أخرى من غير النّقط التي أوّلها:

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلَ الْحَمْدِ وَمَأْوَاهُ، وأَوْكَدَ الْحَمْدِ وأَحْلاَهُ، وَأَسْرَعَ الْحَمْدِ وأَسْرَاهُ، وأَطْهَرَ الْحَمْدِ وأَسْماهُ، وأَكْرَمَ الْحَمْدِ وأَوْلاَهُ».

إلى آخرها وقد أوردتهما في المخزون المكنون انتهى كلامه[٢].

أقول: وما ظفرت بعد على تمامها والمرجوّ من الله سبحانه أن تظهر لنا بعد الغموض، وتصل إلينا بعد الشّذوذ.

قال السيد الشارح: عفى الله عن جرائمه: وقد أوردت نيّفاً وستّين نوعاً من أنواع البديع، واستخرجت أمثلتها من كلام الإمام عليه السلام، وقدّمت لك هذه المقدّمة، وجعلتها أحق بالتّقدمة، وفصّلت لك فيها هذه الأجناس، لأُونسك بها بعض الايناس، حتّى تقف على فائق كلامه ورائقه، وسابقه ولاحقه، وتتنبه على مواقع النّكت فيه، ولطائف البدائع وما روعي في ترتيبه ونظمه من الرّوائع، مع اعترافي بأنّي ما أتيت إلاّ بنبذ من كثير، ويسير من غزير، فإنّ محاسن كلامه عليه السلام أغزر من قطر المطر، وأكثر من عدد النّجم والشّجر، ومن أين يتصدّى المتصدّي لجمعها، على الإحاطة بأقطارها، والخوض كما ينبغي في غمارها، فإنّها متجاوزة عن حدّ الإحصاء، خارجة عن طور الاستقصاء، ولن يطلع على بعضها إلاّ الفارس في علمي المعاني والبيان، المبرز على أقران هذا الميدان، زادنا الله توفيقاً على اتقان هذه الحقائق، وجعل لنا قدم صدق في إيقان هذه الدّقائق، ووفّقنا للسّداد، في القول والعمل، ونعوذ به من الهفوة والخطأ والخطل.

قال الشارح: ورأيت بعد ذلك كله، أن أتبرّك بذكر جملة من مكارم أخلاق أمير

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٩/١٤١ ـ ١٤٣، وبحار الأنوار: ٧٤/٣٤٣.

(٢) بحار الأنوار: ٤٠/١٦٣، ونهج السعادة: ١/٩٦.

المؤمنين، ومحاسن خصال سيّد الوصيّين ﷺ، وأورد لمعاً من مناقبه الفاضلة الزاهرة، وأقتدح بزناد مآثره الثاقبة، وأقتبس من قبسات أنواره اللاّمعة.

شعر

مآثر صافحت شهب النّجوم علا   مشيدة قد سمت قدراً على زحل
وسنّة شرعت سبل الهدى وندى   أقام للطالب الجدوى على السّبل

فأقول وبالله التّوفيق.

نور في ميلاده عليه السلام

ولد بمكّة بيت الله الحرام: يوم الجمعة الثّالث عشر من شهر الله الأصمّ رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة، وقد خصّه الله بهذه الفضيلة على سائر الأنام، ولم يولد في البيت أحد قبله ولا بعده، وفي ذلك يقول أبوه أبو طالب ﷺ:

أنت الذي فرض الإله ولاءه   ونطقت حقاً بالجواب الصّائب
أنت الذي رفع الإله محلّه   وعلا علاك على الشّهاب الثّاقب
وولدت في البيت الحرام وخصك   الباري بكلّ مكارم ومواهب
جاءت نساء المصطفين جميعهم   يستبشرون إذ جئتهم بعجائب

روى في (**البحار**) من (**التّهذيب**) للشيخ أنّه ﷺ ولد بمكة في البيت الحرام يوم الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة وقبض ﷺ قتيلاً بالكوفة ليلة الجمعة لتسع ليال بقين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة وله يومئذٍ ثلاث وستّون سنة.
ومن «**مصباح الزائر**» عن عتاب بن أسيد، أنه قال: ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ بمكة في بيت الله الحرام يوم الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من رجب، وللنّبي ﷺ ثمان وعشرون سنة، قبل النّبوة باثنتي عشرة سنة[١].

أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر يأتي إن شاء الله في شرح الخطبة المائة والإحدى والثلاثين.

وفيه أيضاً من علل الشّرائع، ومعاني الأخبار، وأمالي الصّدوق، وروضة الواعظين، عن يزيد بن قعنب، قال: كنت جالساً مع العبّاس بن عبد المطلب وفريق من عبد العزى بإزاء

---

(١) المقنعة للشيخ المفيد: ٤٦١، والبحار: ٣٥/٥، وتهذيب الأحكام: ٦/١٩.

بيت الله الحرام، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين ﷺ، وكانت حاملة به لتسعة أشهر، وقد أخذها الطلق، فقالت:

رَبِّ إنّي مُؤْمِنَةٌ بِكَ وبِما جاءَ مِنْ عِنْدِكَ مِنْ رُسُلٍ وكُتُبٍ وَإنّي مُصَدِّقَةٌ لِكَلامِ جَدّي إبْراهيمَ الْخَليلِ، وأَنَّهُ بَنَى الْبَيْتَ الْعَتيقَ، فَبِحَقِّ الَّذي بَنَى الْبَيْتَ، وبِحَقِّ الْمَوْلُودِ الَّذي في بَطْني، لَما يَسَّرْتَ عَلَيَّ ولادَتي.

قال يزيد بن قعنب: فرأينا البيت وقد انفتح عن ظهره، ودخلت فاطمة فيه، وغابت عن أبصارنا، والتزق الحائط، فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب، فلم ينفتح، فعلمنا أن ذلك أمر من أمر الله عزّ وجلّ، ثم خرجت بعد الرّابع وبيدها أمير المؤمنين ﷺ، ثم قالت: إني فضّلت على من تقدّمني من النّساء، لأنّ آسية بنت مزاحم عبدت الله عزّ وجلّ سرّاً في موضع لا يحبّ أن يعبد الله إلاّ اضطراراً، وإنّ مريم بنت عمران هزّت النّخلة اليابسة بيدها، حتّى أكلت منها رطباً جنيّاً، وإني دخلت بيت الله الحرام، فأكلت من ثمار الجنّة وأوراقها، فلما أردت أن أخرج، هتف بي هاتف سمّيه عليّاً، فهو عليّ والله العلي الأعلى يقول: إني شققت اسمه من اسمي، وأدبته بأدبي ووقفته على غامض علمي، وهو الذي يكسر الأصنام في بيتي، وهو الذي يؤذّن فوق ظهر بيتي، ويقدّسني ويمجدني، فطوبى لمن أحبّه وأطاعه، وويل لمن أبغضه وعصاه[١].

ورواه في كشف الغمة من بشائر المصطفى مرفوعاً إلى يزيد بن قعنب مثله، وزاد في آخره قالت: فولدت عليّاً ولرسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثون سنة، وأحبّه رسول الله ﷺ حبّاً شديداً، وقال لها: اجعلي مهده بقرب فراشي، وكان صلى الله عليه وآله يلي أكثر تربيته، وكان يطهر عليّاً ﷺ في وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرّك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره ورقبته، ويقول: هذا أخي، ووليي، وناصري، وصفيي، وذخري، وكهفي، وصهري، ووصيّي، وزوج كريمتي، وأميني على وصيّتي، وخليفتي، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحمله دائماً، ويطوف به جبال مكة وشعابها، وأوديتها وفجاجها[٢]، صلى الله على الحامل والمحمول، قال الأسكافي:

نطقت دلآئله بفضل صفاته ... بين القبآئل وهو طفل يرضع[٣]

وقال محمد بن منصور السّرخسي:

(١) علل الشرائع: ١/ ١٣٦ ح٣، وأمالي الصدوق: ١٩٥ ح٢٠٦.

(٢) علل الشرائع: ١/ ١٣٦ ح٣، وأمالي الصدوق: ١٩٥.

(٣) كشف الغمة: ١/ ٦١، والعمدة: ٩.

ولدته منجبة وكان ولادها في جوف كعبة أفضل الأكنان
وسقاة ريقته النبيّ ويا لها من شربة تغني عن الألبان
حتّى تزعزع سيّداً سنداً رضي أسداً شديد القلب غير جبان
عبد الإله مع النّبيّ وانّه قد كان بعد يعدّ في الصّبيان
فلذاك زوّجه الرّسول بتوله وغدا وصي الإنس ثمّ الجان
شهدت له آيات سورة هل أتى بمناقب جلت عن التّبيان[1]

نور في اسمه السامي

والمعروف أنّه عليّ، مشتق من اسم الله الأعلى قال أبو طالب:

سمّيته بعليّ كي يدوم له عزّ العلوّ وفخر العزّ أدومه[2]

وفي (**البحار**) من (**المناقب**) لابن شهر آشوب، عن أبي عليّ بن همّام، رفعه أنّه لما ولد عليّ ﷺ أخذ أبو طالب ﷺ بيد فاطمة وعليّ على صدره، وخرج إلى الأبطح ونادى:

يا ربّ يا ذا الغسق الدّجيّ والقمر المبتلج المضيء
بيّن لنا من حكمك المضيّ ماذا ترى في اسم ذا الصّبي

قال: فجاء شيء يدب على الأرض كالسّحاب، حتّى حصل في صدر أبي طالب، فضمّه مع عليّ إلى صدره، فلما أصبح إذا هو بلوح أخضر، فيه مكتوب:

خصصتما بالولد الزّكيّ والطاهر المنتجب الرّضي
فاسمه من شامخ عليّ عليّ اشتق من العليّ

قال: فعلّقوا اللوح في الكعبة، وما زال هناك حتّى أخذه هشام بن عبد الملك، فاجتمع أهل البيت أنّه في الزّاوية الأيمن من ناحية البيت، قال: فالولد الطاهر من النّسل الطاهر، ولد في الموضع الطاهر، فأين توجد هذه الكرامة لغيره، فأشرف البقاع الحرم، وأشرف الحرم المسجد، وأشرف بقاع المسجد الكعبة، ولم يولد فيه مولود سواه، فالمولود فيه يكون في غاية الشّرف، وليس المولود في سيّد الأيّام يوم الجمعة، في الشّهر الحرام، في البيت الحرام، سوى أمير المؤمنين عليه السلام[3].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٥/١٨.

(٢) شجرة طوبى: ٢/٢١٦، والأنوار العلوية: ٢٤.

(٣) بحار الأنوار: ٣٥/٣١، وكشف الغمة: ١/٨٥.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ٢/٢٣، وبحار الأنوار: ٣٥/١٩.

وقال الشّارح المعتزلي: وكان اسمه الأوّل الذي سمّته به أمّه حيدرة، باسم أبيها أسد بن هاشم، والحيدرة: الأسد فغير أبوه اسمه، وسمّاه عليّاً، وقيل حيدرة اسم كانت قريش تسمّيه به، والقول الأوّل أصحّ، يدل عليه قوله عليه السلام:

«أَنَا الَّذي سَمَّتْني أُمّي حَيْدَرَةً»[1].

ويستفاد من الرّواية الآتية، أنّ اسمه زيد، ولا منافاة لأنّ تعدد الأسمآء، دليل على كمال المسمّى.

نور في نسبه الشريف

قال أخطب خوارزم:

نسب المطهر بين أنساب الورى	كالشمس بين كواكب الأنساب
والشّمس إن طلعت فما من كوكب	إلاّ تغيّب في نقاب حجاب

فإنّ آبائه آباء رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأُمّهاته أمّهات رسول الله ﷺ، وهو مسوط بلحمه ودمه، طينته طينته، وفطرته فطرته، ونوره نوره، كلاهما من شجرة واحدة، لها فروع طوال، وثمرة لا تنال، نبتت في حرم، وسبقت في كرم، خلقهما الله نوراً واحداً قبل أن يخلق عالم وآدم، ثم نقل ذلك النّور في ظهور الأخيار من الرّجال، وأرحام الخيرات المطهرات المهذّبات من النّسآء، من عصر إلى عصر إلى أنّ قسّمه في عبد المطلب بين ابنيه عبد الله وأبي طالب، فجعل من الأوّل سيّد النبيّين، ومن الآخر سيّد الوصيّين، هذا الأوّل، وهذا التّالي، وهذا المنذر، وهذا الهادي[2].

روى في **«غاية المرام»** عن الصدوق مسنداً عن الحسن البصري، قال: صعد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام منبر البصرة، فقال: أيّها النّاس انسبوني، فمن عرفني فينسبني، وإلاّ فأنا أنسب نفسي، أنا زيد بن عبد مناف بن عامر بن عمرو بن المغيرة بن زيد بن كلاب، فقام إليه ابن الكوّا فقال: يا هذا ما نعرف لك نسباً غير عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.

فقال عليه السلام، يا لكع إن أبي سمّاني زيداً باسم جدّه قصيّ، وإن اسم أبي عبد مناف، فغلبت الكنية على الاسم، وإنّ اسم عبد المطلب عامر، فغلب اللقب على الاسم، واسم عبد

---

(١) الأنوار العلوية: ٤.

(٢) بحار الأنوار: ٤١/١٥١.

مناف المغيرة، فغلب اللّقب على الاسم، وإن اسم قصيّ زيد فسمّته العرب مجمعاً، لجمعه إيّاها من البلد الأقصى إلى مكة. فغلب اللقب على الاسم(١).

ذكر الخوارزمي في كتاب (**المناقب**): إنّ أبا طالب ولد طالباً ولا عقب له، وعقيلاً وجعفراً وعليّاً، كلّ واحد أسن من الآخر بعشر سنين، وعليّ أصغرهم سنّاً، وأمّهم جميعاً عليهم السلام مع اختهم امّ هاني فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، أوّل هاشميّة ولدت لهاشمي(٢).

قال الشّارح المعتزلي: أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشر من المسلمين، فكانت الحادي عشر، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرمها، ويعظمها، ويدعوها أمي، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة، فقبل وصيّتها، وصلى عليها، ونزل في لحدها، واضطجع معها، بعد أن ألبسها قميصه، فقال له أصحابه: إنّا ما رأيناك صنعت يا رسول الله بأحد ما صنعت بها، فقال ﷺ: إنّه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنّما ألبستها قميصي لتكسي من حلل الجنّة، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر(٣) هذا.

وأمّا إسلام أبي طالب فهو المتّفق عليه بين الشّيعة، وقد اختلف فيه العامّة العمياء، ولعلنا نشبع الكلام في ذلك إن شاء الله في مقام مناسب، ولنقتصر هنا على رواية الاحتجاج، عن الصّادق، عن آبائه عليهم السّلام، أن أمير المؤمنين عليه السلام كان ذات يوم جالساً في الرّحبة والنّاس حوله مجتمعون، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أنت بالمكان الذي أنزلك الله به، وأبوك معذّب بالنّار، فقال عليه السلام له: مه فضّ الله فاك، والذي بعث محمّداً بالحق نبيّاً، لو شفع أبي في كلّ مذنب على وجه الأرض لشفّعه الله فيهم، أبي معذّب بالنّار وابنه قسيم الجنّة والنّار، ثم قال: والذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً، إنّ نور أبي يوم القيامة يطفي أنوار الخلائق، إلا خمسة أنوار: نور محمّد ﷺ، ونوري، ونور الحسن، والحسين، ونور تسعة من ولد الحسين، فإنّ نوره من نورنا الذي خلقه الله تعالى قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام(٤).

نور في كناه الرفيعة الجميلة

هو أبو الحسن، وأبو الحسين، وأبو الريحانتين، وأبو السّبطين، وأبو تراب.

---

(١) أمالي الصدوق: ٧٠٠ح ٩٥٥، ومعاني الأخبار: ١٢١ ح١ باب معنى قوله: أنا زيد.
(٢) مقاتل الطالبين: ٣، ومناقب آل أبي طالب: ٣/ ٨٩.
(٣) الصحيح من السيرة: ٧/ ٧٢.
(٤) مائة منقبة: ١٧٤، وأمالي الطوسي: ٣٠٥ ح٦١٢.

روى في (البحار) من (مناقب) ابن شهر آشوب، من الخركوشي، في شرف النّبيّ صلى الله عليه وآله، وشيرويه في (الفردوس)، واللفظ له، بأسانيدهم أنّه ما كان الحسن والحسين عليهما السّلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوانه يا أبه، ويقول الحسن لأبيه: يا أبا الحسين، والحسين يقول: يا أبا الحسن، فلما توفي رسول الله ﷺ دعواه يا أبانا[1].

وفي «كشف الغمّة» عن الخوارزمي قال علي ﷺ: كان الحسن يدعوني في حياة النبيّ ﷺ أبا حسين، والحسين يدعوني أبا حسن، ولا يريان أباً إلاّ رسول الله ﷺ، فلما مات دعواني أباهما[2].

وفيه أيضاً من كتاب «مناقب ابن مردويه»، عن جابر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب ﷺ قبل موته بثلاث: سلام عليك أبا الرّيحانتين، أوصيك بريحانتي من الدّنيا، فعن قليل ينهدّر كناك، والله خليفتي عليك، قال: فلما مات رسول الله ﷺ، قال علي ﷺ: هذا أحد ركني الذي قال لي رسول الله ﷺ، فلما ماتت فاطمة عليها السّلام، قال: هذا الرّكن الثّاني الذي قال لي رسول الله ﷺ[3].

وفي «غاية المرام» عن الصدوق بسنده، عن عباية بن ربعي قال: قلت لعبد الله بن عبّاس: لم كنّى رسول الله ﷺ علياً أبا تراب؟ قال: لأنّه صاحب الأرض، حجّة الله على أهلها بعده، وبه بقاؤها، وإليه سكونها، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة، ورأى الكافر ما أعدّ الله تبارك وتعالى لشيعة علي ﷺ من الثّواب والزّلفى والكرامة، قال: يا ليتني كنت تراباً، أي من شيعة علي ﷺ، وذلك قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠][4].

ونعم ما قال الشّاعر:

أنا وجميع من فوق التّراب ... فدى لتراب نعل أبي تراب

إمام مدحه ذكري ودأبي ... وقلبي نحوه ما عشت صاب

وفي (البحار) من «مناقب ابن شهر آشوب» قال: ورأيت في كتاب الردّ على أهل التّبديل: أنّ في مصحف أمير المؤمنين ﷺ، يا ليتني كنت ترابيّاً، يعني من أصحاب

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/٣٠٦.
(٢) كشف الغمة: ١/٦٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) علل الشرائع: ١/١٥٦ ح٣.

علي ﷺ، قال: وفي كتاب ما نزل في أعداء آل محمّد ﷺ في قوله:

﴿ويَوْمَ يَعَضُّ الظّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾.

رجل من بني عديّ ويعذّبه علي ﷺ، فيعضّ على يديه، ويقول العاضّ، وهو رجل من بني تميم: يا ليتني كنت ترابياً، أي شيعياً[١].

نور في القابه الشامخة

هو أمير المؤمنين، ويعسوب الدّين، وسيّد المسلمين، ومبير الشّرك والمشركين، وقاتل النّاكثين، والقاسطين، والمارقين، ومولى المؤمنين، وذو القرنين، ونفس الرّسول، وأخوه، وزوج البتول، وسيف الله المسلول، وأمير البررة، وقاتل الفجرة، والصديق الأكبر، وقسيم الجنّة والنّار، والمرتضى، وصاحب اللواء، وسيّد العرب، وكشاف الكرب؛ وخاصف النّعل، وشبيه هارون، والهادي، والدّاعي، والفاروق؛ وباب المدينة؛ وباب الحكمة، وبيضة البلد، والشّاهد. وهذه الألقاب قد أثبتت له ﷺ في الأخبار الصحيحة.

قال الشّارح المعتزلي: وتزعم الشّيعة أنّه خوطب في حياة رسول الله ﷺ بأمير المؤمنين؛ خاطبه بذلك جملة المهاجرين والأنصار، ولم يثبت ذلك في أخبار المحدثين[٢].

أقول: وإنكاره له لا وجه له مع قيام الأخبار المتظافرة بل المتواترة معنى عليه، وقد روى في **«غاية المرام»** في هذا المعنى: اثنتين وأربعين حديثاً، من طريق العامّة، وثمانية وثلاثين حديثاً، من طريق الخاصّة، ولعلّنا نورد بعضها في تضاعيف الشّرح إن شاء الله؛ ويستفاد من بعض تلك الأحاديث، أنّه من الألقاب المخصوصة به ﷺ، لا يجوز أن يلقّب به غيره.

وهو ما رواه فيه، عن ابن شهر آشوب، قال: قال رجل للصّادق ﷺ: يا أمير المؤمنين، فقال ﷺ: مه فإنّه لا يرضى بهذه التّسمية أحد إلاّ ابتلى ببلاء أبي جهل.

قلت: بلاء أبي جهل إنّه كان مخنثاً، لأنّه يبغض النبي كما رواه الشّارح المعتزلي[٣].

---

(١) البحار: ٣٥/ ٦٠.

(٢) أخرج القزويني، وهو من حفاظ العامة وكبار المحدثين قوله في حياة النبي ﷺ: أرأيتم لو أن نبي الله قبض من كان أمير المؤمنين إلا أنا، قال: وربما قيل له يا أمير المؤمنين والنبي ﷺ ينظر إليه وهو يبتسم» التدوين في أخبار قزوين: ٣/ ٤٩١ زيادات حرف العين ـ جابر بن سمرة ـ.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٢٥٤، واليقين لابن طاووس: ٢٦..

وفيه أيضاً من «تفسير العياشي» عن محمّد بن إسماعيل الرّازي، عن رجل سمّاه، عن أبي عبد الله ﷺ، قال: دخل رجل على أبي عبد الله ﷺ، فقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين، فقام ﷺ على قدميه، فقال: مه هذا اسم لا يصلح إلاّ لأمير المؤمنين ﷺ سمّاه به، ولم يسمّ به أحد غيره فرضي به إلاّ كان منكوحاً، وإن لم يكن به ابتلي به، وهو قول الله عزّ وجل:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

قلت: فماذا يدعي به قائمكم؟ قال: يقال له: السلام عليك يا ابن رسول الله(١).

أقول: وما أبعدها بين الشّارح المعتزلي في إنكاره لهذا اللقب وبين ضياء الدّين أبي المؤيّد موفق بن أحمد الخوارزمي في إثباته الألقاب الشّامخة له ﷺ.

قال في محكي كلامه في «كشف الغمّة»: وأنا أقول في ألقابه: هو أمير المؤمنين، ويعسوب المسلمين، وغرّة المهاجرين، وصفوة الهاشميّين، وقاتل الكافرين والناكثين والقاسطين والمارقين، والكرار غير الفرّار، نصّال فقار كل ذي ختر بذي الفقار، قسيم الجنّة والنّار، مقعّص الجيش الجرّار، لاطم وجوه اللجين والنّضار بيد الاحتقار، أبو تراب، مجدّل الأتراب معفرين ممزّقين في العفر رجل الكتيبة والكتاب؛ والمحراب والحراب، والطعن والضّراب، والخير الحساب بلا حساب، مطعم السّغاب بجفان كالجواب رادّ المعضلات بالجواب الصّواب، مضيّف النسور والذّياب بالتّبار الماضي الذّباب هازم الأحزاب؛ وقاصم الأصلاب، قاسم الأسلاب، جزّاز الرّقاب، باين القراب، مفتوح الباب إلى المحراب عند سدّ سائر أبواب الأصحاب، جديد الرّغبات في الطاعات، بالي الجلباب، رث الثّياب؛ رقاض الصّعاب معسول الخطاب عديم الحجاب والحجّاب، ثابت اللبّ في مدحض الألباب، شقيق الخير، ورفيق الطير، صاحب القرابة والقربة، وكاسر أصنام الكعبة، مناوش الحتوف؛ قتال الألوف، مخرّق الصّفوف، ضرغام يوم الجمل، المردود له الشمس عند الطفل، ترّاك السلب، ضرّاب القلل حليف البيض والأسل، شجاع السّهل والجبل، زوج فاطمة الزهراء سيّدة النّساء، مذلل الأعداء، معزّ الأولياء، أخطب الخطباء، قدوة أهل الكساء، إمام الأئمة الأتقياء؛ الشّهيد أبو الشهداء، أشهر أهل البطحاء، مضمّخ مردة الحروب بالدماء؛ صفر اليدين عن الصفراء والحمراء والبيضاء، مثكل أمّهات الكفرة؛ ومفلق هامات الفجرة، ومقوّي أعضاد البررة، وثمرة بيعة الشّجرة، وفاقىء عيون السحرة، وداحي أرض الدّماء، ومطلع شهب الأسنّة في سماء القترة، المسمّى نفسه يوم الغبرة بحيدرة، خوّاض الغمرات، حمّال الألوية والرّايات، مميت

(١) اليقين: ٢٧.

البدعة، محيي السّنة، وكاتب جوائز أهل الجنّة، ومصرّف الأعنّة، واللاّعب بالأسنّة، سادّ انفاق النفاق، شاق جماجم ذوي الشّقاق، سيّد العرب، موضع العجب، المخصوص بأشرف النّسب، الهاشمي الأمّ والأب، المفترع أنواع أبكار الخطب، نفس رسول الله صلى الله عليه وآله يوم المباهلة، وساعده المساعد يوم المصاولة، وخطيبه المصقع يوم المقاولة، وخليفته في مهاده، وموضع سرّه في إصداره وإيراده، وملين عرائك أضداده، وأبو أولاده، وواسطة قلادة الفتوّة، ونقطة دائرة المروّة، وعتقى شرفي الأبوّة والبنوّة، ووارث علم الرّسالة والنّبوة، وسيف الله المسلول، وجواد الخلق المأمول، ليث الغابة، وأقضى الصّحابة، والحصن الحصين، والخليفة الأمين، أعلم من فوق رقعة الغبرآء وتحت أديم السّمآء، المستأنس بالمناجاة في ظلمة اللّيلة اللّيلاء، راقع مدرعته والدّنيا بأسرها قائمة بين يديه حتّى استحيى من راقعها، منزّه نفسه النّفيسة عن الدّنيا الدّنية ومصارعها، ومثبّتها بلجام تقواه عن مطامعها، وفاطمها بتهجدها عن وثير مضاجعها، أخو رسول الله وابن عمّه، وكشّاف كربه وغمّه، ومساهمه في طمّه ورمّه، بعضه بعض البتول، وولده وُلد الرسول، هو من رسول الله صلى الله عليه وآله، دمه دمه، ولحمه لحمه، وعظمه عظمه، وعلمه علمه، وسلمه سلمه، وحربه حربه، وحزبه حزبه، وفرعه فرعه، ونبعه نبعه، ونجره نجره؟ وفخره فخره، وجدّه جدّه، وحدّه حدّه، أنهار الفضائل في الدّنيا من بحور فضائله، ورياض التّوحيد والعدل من بساطين خطبه ورسائله، وكبش أهل العراق والشّام والحجاز، وشجى حلوق الأبطال عند البراز، وابن عمّ المصطفى، وشقيق النّبي المجتبى، ليث الثّرى، غيث الورى، حتف العدى، مفتاح النّدى، قطب رحى الهدى، مصباح الدّجى، جوهر النهي، بحر اللهى، مسعر الوغا، قطاع الطلى، شمس الضّحى، أبو القرى في أمّ القرى، المبشّر بأعظم البشرى، مطلق الدّنيا، مؤثر الأخرى على الأولى، ربّ الحجى، بعيد المدى، ممتطي صهوة العلى، مستند الفتوى، مثوى التقى، نديد هارون من موسى، مولى كلّ من له رسول الله ﷺ مولى، كثير الجدوى، شديد القوى، سالك الطريقة المثلى، المعتصم بالعروة الوثقى، الفتى أخو الفتى الذي أنزل فيه هل أتى، أكرم من ارتدى وأشرف من احتذى، أفضل من راح واغتدى، أشجع من ركب ومشى، أهدى من صام وصلّى، مراقب حقّ الله إن أمر أو نهى، الذي ما صبا في الصبى، وسيفه عن قرنه ما نبا، ونور هداه ما خبا، ومهر أقدامه ما كبا، دعاه رسول الله إلى التّوحيد فلبّى، وجلا ظلم الشّرك وجلا وسلك المحجّة البيضآء، وأقام الحجّة الزّهراء، جنيت ثمار النّصر من علمه؛ والتقطت جواهر العلم من قلمه، ونشأت ضراغم المعارك في أجمه، وبأس كيون اقدام هممه، واخضرّت ربى الأماني من ديم كرمه، نعم هو أبو الحسن، القليل الوسن، الذي لم يسجد للوثن، هو عصرة المنجود، هو من الذين أحيوا أموات الآمال بحبا الجود، وهو من الذين سيماهم في وجوههم من أثر السّجود، هو محارب الكفرة والفجرة بالتّأويل والتّنزيل، هو الذي مثله مذكور في

التوراة والإنجيل، هو الذي كان للمؤمنين وليّاً حفياً، وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعده وصيّاً، هو الذي كان لجنود الحقّ سنداً، ولأنصار الدّين يداً وعضداً ومدداً، ولضعفاء المسلمين مجيراً، ولصناديد الكافرين مبيراً، ولكؤوس العطاء على الفقراء مديراً، حتّى أنزل فيه وفي أهل بيته الذين طهرهم الله تطهيراً:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وهو عليّ العليّ والوصيّ الوليّ الهاشميّ، المكيّ المدنيّ، الأبطحيّ، الطالبي، الرّضي، المرضي، المنافي القويّ، الجريّ، اللّوذعيّ، الأريحيّ، المولوي، الصّفي الوفي؛ الذي بصّره الله حقائق اليقين، ورتق به فتوق الدّين، الذي صدّق رسول الله صلى الله عليه وآله وصدق، وبخاتمه في الرّكوع تصدّق، واعتصب بالسّماحة والحماسة وتطوق، ودقّق في علومه ومعارفه وحقّق، وذكرّنا بقتل الوليد بدراً، وبقتل عمرو الخندق، ومزّق من أبناء الحروب ما مزّق، وغرّق في لجة سيفه من أسود الهياج من غرّق، وحرّق بشهاب صارمه من شياطين العراك من حرّق حتّى استوسق الإسلام واتّسق، هو أطول بني هاشم باعاً، وأمضاهم زماعاً وأرحبهم ذراعاً، وأكثرهم أشياعاً، وأخلصهم أتباعاً، وأشهرهم قراعاً، وأحدّهم سناناً، وأعربهم لساناً، وأقواهم جناناً، هو حيدر وما أدراك ما حيدر، هو الكوكب الأزهر، والصّارم المذكر، صاحب براءة وغدير خم وراية خيبر، وكميّ أُحد وحنين والخندق وبدر الأكبر، هو ساقي ورّاد الكوثر يوم الحشر، أبو السبطين، ومصلّي القبلتين، وأنسب من في الاخشبين وأعلم من في الحرمين.

وأنشد الخوارزمي:

هذا المكارم لاقعبان من لبن ... شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

وأنشد كاشف الغمّة:

أسامياً لم تزده معرفة ... وإنّما لذّة ذكرناها[1]

وأنا أنشد:

مكارم لجّت في علوّ كأنّما ... تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

محاسن من مجد متى يقرنوا بها ... محاسن أقوام تعد كالمعايب

وأقول: لعمري إنّ هذه الألقاب، لحريّ أن تكتب بالنّور، على صفحات خدود الحور، وبالتّبر المذاب، على أطباق السّماء والكرسي والعرش والحجاب؛ وأن تثبت في

---

(١) مناقب الخوارزمي: ٤٢، وكشف الغمة: ١/ ٧٠.

اللوح وأمّ الكتاب؛ لا أن تكتب بالحبر والقلم؛ على القرطاس والرّق والكتاب؛ ومع ذلك أقول:

أذا ما الكرامات اعتلى قدر ربّها … وحلّ بها أعلى ذرى عرفاته
فإنّ عليّاً ذا المناقب والنّهى … كراماته العليا أقلّ صفاته

نور في شكله وصفته

كاشف الغمّة عن الخوارزمي عن أبي إسحاق قال: لقد رأيت عليّاً ﷺ أبيض الرّأس واللّحية؛ ضخم البطن ربعة من الرّجال[١]؛ وعن ابن مندة أنّه ﷺ كان شديد الأدمة، ثقيل العينين عظيمهما؛ وأبطن وهو إلى القصر أقرب[٢].

وعن محمّد بن حبيب البغدادي آدم اللون حسن الوجه ضخم الكراديس.

وعن بعض المحدّثين كان ربعة من الرّجال، ادعج العينين، حسن الوجه، كانّه القمر ليلة البدر حسناً، ضخم البطن، عريض المنكبين، شثن الكفين، أغيد، كأن عنقه أُبريق فضّة، أصلع، كثّ اللحية، منكبيه مشاش كمشاش السّبع الضّاري، لا يبين عضده من ساعده، وقد أدمجت ادماجاً، إن أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه، فلم يستطع أن يتنفّس، شديد السّاعد واليد، إذا مشى إلى الحرب هرول، ثبت الجنان، قويّ شجاع، منصور على من لاقاه[٣].

قال كاشف الغمّة: واشتهر ﷺ بالأنزع البطين، أمّا في الصّورة فيقال: رجل أنزع بيّن النّزع، وهو الذي انحسر الشّعر عن جانبي جبهته، وموضعه النّزعة، وهما النّزعتان، والبطين: الكبير البطن، وأمّا في المعنى فإن نفسه نزعت يقال: نزع إلى أهله ينزع نزاعاً: اشتاق، ونزع عن الأمور نزوعاً انتهى عنها، أي نزع نفسه عن ارتكاب الشّهوات فاجتنبها، ونزعت إلى اجتناب السّيئات فسدّ عليه مذهبها، ونزعت إلى اكتساب الطاعات فأدركها حين طلبها، ونزعت إلى استصحاب الحسنات فارتدى بها وتجلببها، وامتلاء علما فلقب بالبطين، فأظهر بعضاً، وأبطن بعضاً حسبما اقتضاه علمه الذي عرف به الحقّ اليقين.

فأمّا ما ظهر من علومه فأشهر من الصّباح، وأسير في الآفاق من سرى الرّياح، وأمّا ما بطن فقد قال: بل اندمجت على مكنون علم لوبحت به، لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة. وقد نظم بعض الشّعراء هذا المعنى:

---

(١) مناقب الخوارزمي: ٤٥، وتاريخ دمشق: ٤٢/ ٢١.
(٢) معاني الأخبار: ٨٠، وحلية الأبرار: ١/ ١٧٣.
(٣) راجع مسند أبي يعلى: ١/ ٣٠٤.

مـن كـان قـد عـرفـتـه مـديـة دهـره ومـرت لـه أخـلاف سـمّ مـنـقـع
فـلـيـعـتـصـم بـعـرى الـدّعـاء ويـبـتـهـل بـإمـامـه الـهـادي الـبـطـيـن الأنـزع
نـزعـت عـن الآثـام طـراً نـفـسـه ورعـاً فـمـن كـالأنـزع الـمـتـورّع
وحـوى الـعـلـوم عـن الـنّـبـي وراثـة فـهـو الـبـطـيـن بـكـلّ عـلـم مـودع
وهـو الـوسـيـلـة فـي الـنّـجـاة إذا الـورى رجـفـت قـلـوبـهـم لـهـول الـمـجـمـع[1]

قال السيد الشارح

وينبغي أن نقتصر في هذا المقام على ما ذكرنا من شرفه وجماله ونشير إن شاء الله إلى علمه وزهده وسخاوته وشجاعته وفصاحته وبعض أوصاف كماله، في مقدمات الخطبة الثّالثة المعروفة بالشّقشقيّة إجمالاً، وفي تضاعيف الشّرح تفصيلاً وإن كان القلم يستحلي ذكر المناقب، ويريد أن يجري سعياً على الرّأس، ويجول في حلبة القرطاس، لكن ينبغي أن يردّ من نخوة بأده واعتلائه وشموخ أنفه وسموّ غلوائه، ويكعم على كظة جريته، ويهمد بعد نزقاته، ويلبّد بعد زيفان وثباته، فإنّ طلبه حصر ما لا يتناهى معدود من ضعف رأيه، ومن أين يحصر مناقب الإمام عليه أفضل الصلاة والسّلام، وقد قال سيد الأنام ﷺ:

«لَوْ أَنَّ الرِّياضَ أَقْلامٌ، وَالْبَحْرَ مِدادٌ، وَالْجِنَّ حُسّابٌ، وَالإِنْسَ كُتّابٌ، ما أَحْصَوْا فَضائِلَ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ عليه السلام»[2].

وكيف يمكن عدّ مفاخره، وبيته بيت الشّرف والفخار، وإليه تنتهي الفضائل يحدّثها الأواخر عن الأوائل، وهو آية الله العظمى، وبابه الذي منه يؤتى، ونور الله الذي من استضاء به اهتدى، وعروته التي من استمسك بها نجا، فما زاح عن الحق ولا اعتدى، والحجّة على العباد، والمحجّة المسلوكة ليوم المعاد، وإذا كانت الإطالة لا تبلغ وصف كماله، والإطناب لا يحيط بنعت فضله وإفضاله، فالأولى أن يكتفئ على ما ذكرناه من شرفه وجلاله.

فصل في ذكر نسب الرضي (ره)

مؤلف النّهج وجملة من مآثره فنقول: هو أبو الحسن محمّد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمّد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصّادق عليهما السّلام، هكذا في شرحي المعتزلي والبحراني وغيرهما.

---

(١) الصراط المستقيم: ٢/ ٨٦، وكشف الغمة: ١/ ٧٥.

(٢) كشف الغطاء: ١/ ١٣، والإختصاص: ٩٤.

وفي مجالس المؤمنين، ولؤلؤة البحرين، ومشتركات الرّجال للمقدّس الأمين الكاظمي (ره)، الحسين بن موسى بن إبراهيم، بإسقاط محمّد بن موسى من البين، والله العالم.

قال الشّارح المعتزلي: مولده سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، كان أبوه النّقيب أبو أحمد جليل القدر، عظيم المنزلة في دولة بني العبّاس، ودولة بني بويه ولقب بالطاهر ذي المناقب، وخاطبه بهاء الدَّولة أبو نصر بن بويه بالطاهر الأوحد، وولى نقابة الطالبيّين خمس دفعات، ومات وهو يتقلدها وسنه سبع وتسعون سنة.

وفي مجالس المؤمنين عن مؤلف تاريخ مصر والقاهرة قال: كان الشّريف أبو أحمد سيّداً عظيماً مطاعاً، وكان هيبته أشدّ هيبة، ومنزلته عند بهاء الدّولة أرفع المنازل ولقّبه بالطاهر الأوحدي ذوي المناقب، وكان فيه كلّ الخصال الحسنة، إلاّ أنّه كان رافضيّاً هو وأولاده على مذهب القوم[(١)].

أقول: وفي الحقيقة هذا الاستثناء من قبيل تعقيب المدح بما يشعر الذّم، ورفضه رضي الله عنه أعظم أوصاف كماله.

قال الشّارح المعتزلي: وأمّ الرضي فاطمة بنت الحسين بن الحسن النّاصر الأصمّ، صاحب الدّيلم، وهو أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام، شيخ الطالبيّين، وعالمهم وزاهدهم، وأديبهم، وشاعرهم، ملك بلاد الدّيلم والجبل ويلقب بالنّاصر للحق، وجرت له حروب عظيمة مع السّامانية، وتوفّي بطبرستان، سنة أربع وثلاثمائة، وسنه تسع وسبعون سنة.

وفي «**لؤلؤة البحرين**»، من كتاب الدّرجات الرفيعة قال: أبو الحسن أخو الشّريف المرتضى، كان يلقب بالرّضي ذي الحسين، لقّبه بذلك بهاء الدّولة، وكان يخاطبه بالشّريف الأَجل، مولده سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ببغداد، وكان فاضلاً، عالماً، شاعراً، مبرزاً، ذكره الثّعالبي في «**اليتيمة**»، فقال: ابتداء يقول الشّعر بعد أن جاوز العشر سنين، وهو اليوم أبدع أبناء الزّمان وأنجب سادات العراق، يتحلّى مع محتده الشّريف، ومفخره المنيف بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبيّين، من مضى منهم ومن غبر؛ على كثرة شعرائهم المفلقين ولو قلت: إنّه أشعر قريش لم أبعد عن الصّدق؛ وكان أبوه يتولى نقابة الطالبيّين والحكم فيهم أجمعين؛ والنّظر في المظالم والحج والنّاس ثم ردّت هذه الأعمال كلها إليه في سنة ثمانين وثلاثمائة وأبوه حيّ[(٢)].

---

(١) الكنى والألقاب: ١/ ٥.

(٢) راجع الفوائد الرجالية: ٣/ ١٣١.

وله في التصّانيف كتاب **«المتشابه في القرآن»** كتاب **«حقائق التنزيل»** كتاب **«تفسير القرآن»** كتاب **«المجازات الآثار النبوية»** كتاب **«تعليق خلاف الفقهآء»** كتاب **«تعليقة الإيضاح»** لأبي علي، كتاب **«خصائص كتاب نهج البلاغة»** كتاب **«تلخيص البيان في مجازات القرآن»** كتاب **«الزيادات في شعر أبي تمام»** كتاب **«سيرة والده الطاهر»** كتاب **«انتخاب شعر ابن الحجاج»** كتاب **«مختار شعر أبي إسحاق الضابي»** كتاب **«ما دار بينه وبين أبي إسحاق»** ثلاثة مجلدات، كتاب **«ديوان شعره»**، يدخل في أربعة مجلدات، قال أبو الحسن العمري: رأيت تفسيره للقرآن، فرأيته أحسن التّفاسير، يكون في كبر تفسير أبي جعفر الطوسي أو أكبر، وكانت له هيبة وجلالة، وفيه ورع وعصمة، وفيه مراعاة الأهل والعشيرة، وهو أوّل طالبي جعل عليه السّواد، عالي الهمة، شريف النّفس لم يقبل من أحد صلة، ولا جائزة، حتّى أنّه ردّ صِلات أبيه، وناهيك بذلك شرف نفس، وشدّة ظلف[1].

قال الشّارح المعتزلي: حفظ القرآن بعد أن جاوز ثلاثين في مدة يسيرة، وعرف من الفقه والفرائض طرفاً قوياً، وكان عالماً أديباً، وشاعراً مفلقاً: فصيح النظم، ضخم الألفاظ، قادراً على القريض، متصرّفاً في فنونه إن قصد الرّقة في النّسيب أتى بالعجب العجاب، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره أتى فيه بما لا يشقّ فيه غباره، وإن قصد في المراثي جاء سابقاً والشّعراء منقطع أنفاسها على أثره، وكان مع هذا مترسّلاً ذا كتابة قويّة، وكان عفيفاً، شريف النّفس عالي الهمة، مستلزماً بالدّين وقوانينه.

قال صاحب **(اللّؤلؤة)** ذكر أبو الفتوح ابن جنّي في بعض **(مجامعه)** قال: احضر الرّضي إلى السّيرافي النّحوي وهو طفل جدّاً لم يبلغ عمره عشر سنين، فلقّنه النّحو، وقعد معه يوماً في الحلقة، فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التّعليم، فقال: إذا قلنا رأيت عمر فما علامة نصب عمر؟ فقال له الرّضي رضي الله عنه: بغض علي ﷺ فتعجب السّيرافي والحاضرون من حدّة نظره[2].

وحكى أبو الحسن العامري قال: دخلت على الشّريف المرتضى (رض) فأراني بيتين قد علمها وهما:

سرى طيف سعدى طارقاً فاستفزني	هوينا وصحبي بالفلاة رقود
فقلت لعيني عاود النوم واهجعي	لعل خيالا طارقاً سيعود

فخرجت من عنده ودخلت على أخيه الرضى (ره) فعرضت عليه البيتين فقال بديهاً:

---

(١) المجازات النبوية: ٦، وخاتمة المستدرك: ٣/ ١٩٣.

(٢) خاتمة المستدرك: ٣/ ٢٠٩.

ردت جـوابـاً والـدّمـوع بـوادر وقـد آن لـلـشّـمـل الـمـشـتّ ورود
فـهـيـهـات مـن لـقـيـا حـبـيب تـعـرضـت لـنـا دون لـقـيـاه مـهـامـه بـيـد

فعدت إلى المرتضى بالخبر، فقال يعزّ على أخي قتله الذّكاء، فما كان إلاّ يسيراً حتّى مضى الرّضي لسبيله، رضي الله عنه وأرضاه[1].

قال الشّارح المعتزلي: ولم يقبل من أحد صِلة ولا جائزة، حتّى أنّه ردّ صِلات أبيه، وناهيك بذلك شرف نفس وظلف، فأمّا بنو بويه فإنّهم اجتهدوا على قبول صِلاتهم؛ فلم يقبل، وكان يرضى بالإكرام وصيانة الجانب، واعزاز الأتباع، والأصحاب، وكان الطائع أكثر ميلاً إليه من القادر، وكان هو أشدّ حبّاً، وأكثر ولاء للطائع منه للقادر، وهو القائل في قصيدته التي مدحه بها:

عـطـفـاً أمـيـر الـمـؤمـنـيـن فـإنّـنـا فـي دوحـة الـعـلـيـاء لا نـتـفـرق
مـا بـيـنـنـا يـوم الـفـخـار تـفـاوت أبـداً كـلانـا فـي الـعـلاء مـعـرّق
إلاّ الـخـلافـة شـرّفـتـك فـإنّـنـي أنـا عـاطـل مـنـهـا وأنـت مـطـوق

وفي رجال أبي علي عن **«تاريخ اتحاف الورى بأخبار أمّ القرى»**، في حوادث سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، قال فيها: حجّ الشّريفان: المرتضى والرّضي، فاعتقلهما في أثناء الطريق ابن الجراح الطائي؛ فأعطياه تسعة آلاف دينار من أموالهما[2].

وقال الشّارح المعتزلي: وقرأت بخط محمّد بن إدريس الحلّي الفقيه الإمامي؛ قال: حكى أبو حامد أحمد بن محمّد الاسفرائيني الفقيه الشّافعي؛ قال: كنت يوماً عند فخر الملك أبي غالب محمّد بن خلف وزير بهاء الدّولة، وابنه سلطان الدّولة، فدخل إليه الرّضي أبو الحسن فأعظمه وأجلّه، ورفع من منزلته، وخلى ما كان بيده، من القصص والرّقاع، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف، ثم دخل بعد ذلك أخوه المرتضى أبو القاسم (ره)، فلم يعظمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرئها، وتوقيعات يوقع بها، فجلس قليلاً، وسأله أمراً فقضاه ثم انصرف.

قال أبو حامد، فتقدّمت إليه، وقلت له: أصلح الله الوزير هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم، صاحب الفنون، وهو الأمثل والأفضل منهما، وإنّما أبو الحسن شاعر، قال: فقال لي: إذا انصرف النّاس وخلى المجالس أجيبك عن هذه المسألة، قال: وكنت مجمعاً على

(١) خاتمة المستدرك: ٣/ ٢١١، والبحار: ١٠٤/ ٢١.

(٢) الغدير: ٤/ ٢٠٩، وطرائف المقال: ٢/ ٤٧٠.

الانصراف، فجاء أمر لم يكن في الحساب، فدعت الضّرورة، إلى ملازمة المجلس إلى أن تقوّض النّاس واحداً فواحداً، فلما لم يبق إلاّ غلمانه وحجابه، دعا بالطعام، فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكثر غلمانه، ولم يبق عنده غيري، قال لخادم له: هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيّام، وأمرتك أن تجعلها في السفط الفلاني، فأحضرهما، فقال: هذا كتاب الرّضي اتصل بي أنّه قد ولد له ولد فانفذت إليه ألف دينار وقلت: هذه للقابلة، فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى أخلائهم وذوي مودّتهم مثل هذا في مثل هذه الحال، فردّها وكتب إليّ هذا الكتاب، فاقرءه، قال: فقرأته وهو اعتذار عن الردّ في جملة: اننا أهل بيت لا تطلع على أحوالنا قابلة غريبة، وإنّما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نسائنا، ولسن ممّن يأخذن أجرة، ولا يقبلن صِلة، قال: فهذا هذا، وأمّا المرتضى، فإنّا كنا وزّعنا، وقسّطنا على الأملاك ببادرويا تقسيطاً نصرفه في حفر فوّهة النّهر المعروف بنهر عيسى فأصاب، ملكاً للشّريف المرتضى بالنّاحية المعروفة بالداهريّة من التّقسيط عشرون درهماً، ثمنها دينار واحد، قد كتب إليّ منذ أيّام هذا الكتاب فاقرءه، فقرأته، وهو من أكثر من مائة سطر، يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهزّ والطلب والسّؤال في إسقاط هذه الدّراهم المذكورة ما يطول شرحه، قال فخر الملك: فأيّهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل؟ هذا العالم المتكلّم الفقيه الأوحد ونفسه هذه النّفس، أم ذلك الذي لم يشتهر إلاّ بالشّعر خاصّة، ونفسه تلك النفس، فقلت: وفّق الله سيّدنا الوزير، فما زال موفّقاً، والله ما وضع سيّدنا الوزير الأمر إلاّ في موضعه، ولا أحلّه إلاّ في محله، وقمت وانصرفت[1].

وقال الشّارح المعتزلي: حدّثني فخار بن معد العلوي الموسوي، قال: رأى المفيد أبو عبد الله محمّد بن النّعمان الفقيه الأمامي في منامه: كأن فاطمة بنت رسول الله ﷺ دخلت إليه وهو في مسجده بالكرخ، ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السّلام صغيرين، فسلمتهما إليه، وقالت له: علمهما الفقه، فانتبه متعجّباً من ذلك، فلما تعالى النّهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرّؤيا، دخلت إليه المسجد، فاطمة بنت النّاصر وحوله جواريها وبين يديها ابناها محمّد الرّضي وعليّ المرتضى صغيرين فقام إليها، وسلم عليها، فقالت: أيّها الشّيخ هذان ولداي قد أحضرتهما إليك لتعلمهما الفقه، فبكى أبو عبد الله، وقص عليها المنام، وتولى تعليمهما، وأنعم الله عليهما وفتح لهما أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدّنيا، وهو باق ما بقي الدّهر[2].

---

(١) أقول: إن صحت هذه القصة فإن تصرف المرتضى يحمل على إحتياطه بالأموال الشرعية، وإن كان القول بعدم صحتها أحوط.

(٢) شرح النهج للمعتزلي: ١/ ٤١.

وكانت وفاة الرّضي على ما في (اللؤلؤة) بكرة يوم الأحد، لستّ خلون من المحرم، سنة ستّ وأربعمائة، وفي شرح المعتزلي أربع وأربعمائة، وحضر الوزير فخر الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة جنازته والصلاة، ودفن في داره بمسجد الأنباريّين بالكرخ، ومضى أخوه المرتضى من جزعه عليه إلى مشهد مولانا الكاظم عليه السلام، لأنّه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه، وصلى عليه فخر الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النّهار إلى أخيه المرتضى إلى المشهد الشّريف الكاظمي، فألزمه بالعود إلى داره، ثم نقل الرضي رضي الله عنه إلى مشهد الحسين عليه السلام بكربلاء فدفن عند أبيه.

وفي مجالس المؤمنين: ففوض المناصب التي كانت له من النّقابة وامارة الحاج وغير ذلك بعده إلى أخيه المرتضى قال: ورثاه أخوه المرتضى وأبو العلاء المعرّي وكثير من أفاضل الشّعراء.

أقول: وممّا رثاه به أخوه المرتضى: الأبيات المشهورة التي من جملتها:

يا للرّجال لفجعة جذمت يدي ... ووددت لو ذهبت عليّ برأسي
ما زلت أحذر وردها حتّى أتت ... فحسوتها في بعض ما أنا حاسي
ومطلتها زمناً فلمّا صمّمت ... لم يثنها مطلي وطول مكاسي
لله عمرك من قصير طاهر ... ولربّ عمر طال بالأدناس[1]

ورثاه أيضاً تلميذه مهيار بن مردويه الكاتب بقصيدة لم يسمع في باب المراثي أبلغ منها أوّلها:

من جب غارب هاشم وسنامها ... ولوى لويّاً واستزل مقامها
وغزا قريشاً بالبطاح فلفّها ... بيد (عجلاخ) وقوّض عزها وخيامها
واناخ في مضر بكلكل حتفه ... يستام فاحتملت له ما سامها
من حل مكة فاستباح حريمها ... والبيت يشهد واستحل حرامها
ومضى بيثرب مزعجاً ما شاء من ... تلك القبور الطاهرات عظامها
يبكي النبيّ ويستهيج لفاطم ... بالطف في أبنائها أيّامها
الذين ممنوع الحمى من رأسه ... والدّار عالية البناء من رامها
أتنا كرت أيدي الرّجال سيوفها ... فاستسلمت أم أنكرت اسلامها

(١) المصدر السابق.

أم غال ذا الحسبين حامي ذودها ... قدر اراح على العدوّ سهامها[1]

وما أحسن قوله منها:

بكر النّعي من الرّضي بمالك ... غاياتها متعوّد اقدامها
كلح الصّباح بموته عن ليلة ... نقضت على وجه الصّباح ظلامها
صدع الحمام صفاة آل محمّد ... صدع الرّداء به وحلّ نظامها
بالفارس العلوي شق غبارها ... والناطق العربيّ شق كلامها
سلب العشيرة يومه مصباحها ... مصلاحها عمّا لها علاّمها
برهان حجّتها التي بهرت به ... أعدآئها وتقدّمت اعمامها
من حلّ مكة فاستباح حريمها ... والبيت يشهد واستحلّ حرامها

ومنها:

ابكيك للدّنيا التي طلقتها ... وقد اصطفتك شبابها وغرامها
ورميت غاربها بفضلك حبلها ... زهداً وقد القت إليك زمامها[2]

قال السّيد علي الصّدر الدّين:

وشقت هذه المرثية على جماعة ممّن يحسد الرضي رضي الله عنه على الفضل في حياته أن يرثي بمثلها بعد وفاته، فرثاه بقصيدة أخرى ومطلعها في براعة الاستهلال كالأولى وهو:

أقريش لا لفم أراك ولايد ... فتواكلي غاض الندى وخلال النديّ

وما زلت متعجّباً بقوله منها:

بكر النعي فقال أودى[3] خيرها ... ان كان يصدق فالرّضي هو الرّديّ[4]

ومرثية أبي العلاء المعرّي تنيف على ستّين بيتاً، وتخلّص في أواخرها إلى مديح أجداد الرّضي وشرف بيتهم، ووصفهم بالجود والسّخاء، ويعجبني ايرادها هنا بإسقاط ما تلخّص به قال:

أودى فليت الحادثات كفاف ... مال المسيف وعنبر المستاف

---

(١) الغدير: ٤/ ٢١٢.

(٢) الكنى والألقاب: ٢/ ٢٧٦.

(٣) أوائل المقالات: ٢٤٣، والدرجات الرفيعة: ٤٨٠.

(٤) في نسخة: أروى وفي المصدر: أردى.

الطاهر الابآء والأَبنآء و الآراب والأثواب والألاف

رغت الرّعود وتلك هدّة واجب جبل هوى من آل عبد مناف

بخلت فلما كان ليلة فقده سمح الغمام بدمعة الزرّاف

ويقال إنّ البحر غاض واتّها ستعود سيفاً لجّة الرّجاف

ويحق في رزء الحسين تغيّر الحرسين بله الدّرّ والأصداف

ذهب الذي غدت الذوابل بعده رعش المتون كليلة الأطراف

وتعطفت لعب الضّلال من الأسى فالزّج عند اللهذم الرّعاف

وتيقّنت أبطالها ممّارات إلاّ تقوّمها بغمز ثقاف

شغل الفوارس بثّها وسيوفها تحت القوائم جمّة التّرجاف

ولو أنّهم نكبوا الغمود لها لهم كمد الظّبي وتفلّل الأسياف

طار التّواعب يوم فادنوا عياً فنذبنه لموافق ومناف

أسف أسف بها واثقل نهضها بالحزن وهي على التراب هواف

ونعيبها كنحيبها وحدادها أبداً سواد قوادم وخوافي

لا خاب سعيك من خفاف أسحم كسحيم الأسدي أو كخفاف

من شاعر للبين قال قصيدة يرثي الشّريف على رويّ القاف

جون كنبت الجون يصرخ دائباً ويميس في برد الحزين الضّاف

عقرت ركائبك ابن داية عادياً أي امرء نطق وأي قواف

بنيت على الإيطاء سالمة من الأ قواء والأكفاء والأصراف

حسدته ملبسه البزاة ومن لها لما نعاه لها بلبس غداف

والطير أعزبة عليه بأسرها فتخ الشّراه وساكنات الصاف

هلا استعاض من السرير جواده وثاب كلّ قرارة ونياف

هيهات صادف للمنايا عسكراً لا ينثني بالكرّ والإيجاف

هلا دفنتم سيفه في قبره معه فذاك له خليل واف

إن زاره الموتى كساهم في البلى اكفان ابلج مكرم الأضياف

والله ان يخلع عليهم حلة يبعث إليه بمثلها اضعاف

نبذت مفاتيح الجنان وانّما رضوان بين يديه للاتحاف

يا لابس الدّرع الذي هو تحتها بحر تلقع في غدير صاف

بيضآء زرق السّمر واردة لها ... رود الصّوادي الورق زرق نطاف
والنّبل يسقط فوقها ونصالها ... كالريش فهو على رجاها طاف
يزهى إذا حرباؤها صلى الوغا ... حربآء كلّ هجيرة مهياف
فلذاك تبصره لكبر عاده ... يوفى على جذل بكلّ قذاف
الرّكب أثرك آجمون لزادهم ... واللهج صادفة عن الأخلاف
الآن ألقى المجد اخمص رجله ... لم يقتنع جزعاً بمشية حاف
تكبيرتان حيال قبرك للفتى ... محسوبتان بعمرة وطواف
لو تقدر الخيل التي زاينتها ... أنخت بأيديها على الأعراف
فارقت دهرك ساخطاً أفعاله ... وهو الجدير بقلة الأنصاف
ولقيت ربك فاستردّ لك الهدى ... ما نالت الأيام بالاتلاف
وسقاك أمواه الحياة مخلداً ... وكساك شرخ شبابك الأفواف
أبقيت فينا كوكبين سناهما ... في الصّبح والظلماء ليس بخاف
متأنّقين وفي المكارم ارتقا ... متألقين بسودد وعفاف
قدرين في الأرداء بل مطرين في الا ... جداء بل قمرين في الأسداف
رزقا العلاء فاهل نجد كلما ... نطقا الفصاحة مثل أهل رياف
ساوى الرّضيّ المرتضى وتقاسما ... خطط العلى بتناصف وتصاف
حلفا ندى سبقا وصلى الأطهر الـ ... ـمرضيّ فيالثلاثة أحلاف
أنتم ذو والنّسب القصير فطولكم ... باد على الكبرآء والأشراف
والرّاح ان قيل ابنة الغب اكتفت ... بأب من الأسمآء والأوصاف
ما زاغ بيتكم الشّريف وإنما ... بالوجه ادركه خفيّ زحاف
والشّمس دائمة البقاء وان تنل ... بالشكو فهي سريعة الأخطاف
ويخال موسى جدّكم لجلاله ... في النّفس صاحب سورة الأعراف
الموقدي نار القرى الآصال والا ... شجار بالاهضام والاشعاف
يا مالكي سرح القريض اتتكما ... مني حمولة مسنتين عجاف
لا تعرف الورق اللّجين وان تسل ... تخبر عن القلاّم والخذراف
وأنا الذي أهدي أقلّ بهارة ... حسناً لأحسن روضة منياف
أوضعت في طرق التّشرف سامياً ... بكما ولم أسلك طريق العاف

ولنختم الدّيباجة بالتّقريضات التي قيلت في مدح **«نهج البلاغة»** وشرحنا **«منهاج البراعة»** فأقول:

كتب أبو يوسف يعقوب بن أحمد في آخر نسخة من كتاب «نهج البلاغة»:

نهج البلاغة نهج مهيع جدد	لمن يريد علوّاً ماله أمد
يا عادلاً عنه تبغي بالهوى رشداً	أعدل إليه ففيه الخير والرشد
والله والله انّ التّاركيه عموا	عن شافيات عظات كلها سدد
كأنّها العقد منظوماً جواهرها	صلّى على ناظميها ربّنا الصّمد
ما حالهم دونها ان كنت تنصفني	إلاّ العنود وإلاّ البغي والحسد

واقتدى به ابنه الحسن حين افتتح من نسخته فقال:

نهج البلاغة درج ضمنه درر	نهج البلاغة روض جاده درر
نهج البلاغة وشى حاكه صبغ	من دون موشية الدّيباج والحبر
أوجونة ملئت عطراً إذا فتحت	خيشومنا فغمت ريح لها ذفر
صدّقتكم سادتي والصدق من خلقي	وانّه خصلة ما عابها بشر
صلّى الإله على بحر غواربه	رمت به نحونا ما لألأ القمر

فاقتدى بهما الأديب عبد الرحمٰن حين وقع له الفراغ فقال:

نهج البلاغة نهج الزّخر والسّند	وفيه للمؤمنين الخير والرشد
عين الحيوة لمن اضحى تأمّلها	يا حبّذا معشر في مائها وردوا
ما إن رأت مثلها عين ولا سمعت	أذن ولا كتبت في العالمين يد
شرّبت روحي حياة عند كتبتها	وكان للرّوح من آثارها مدد

فاقتدى بهم غيرهم لما فرغ من نسخه وتحريره فقال:

نهج البلاغة هذا سيد الكتب	تاج الرسآئل والأحكام والخطب
كم فيه من حكمة غرّآء بالغة	ومن علوم الهيّ ومن أدب
ومن دوآء لذي دآء وعافية	لذي بلآء ومن روح لذي تعب
فيه كلام ولي الله حيدر من	يمينه في عطآء المال كالسّحب
وصيّ خير عباد الله كلهم	مختار ربّ البرايا سيّد العرب
عليّ المرتضى من في مودته	يرجى النّجاة ليوم الحشر والرّعب

فمن يواليه من صدق الجنان ففي — الجنان طنّب فوق السّبع والشهب
ومن يعاديه في نار الجحيم هوى — وعاش ما عاش في ويل وفي خرب
قد امتزجت بقلبي حبّه فجرى — في النفس مجرى دمي في اللحم والعصب
صلى عليه إله الخلق خالقنا — ربّ الورى وعلى ابنائه النّجب
وزاده في جنان الخلد منزلة — ورتبة وعلى يعلو على الرتب
صلى الإله على من كان منطقه — روحاً تزايد منه الرّوح والجسد

واقتدى بهم قطب الدين تاج الإسلام محمد بن الحسين بن الحسن الكيدري وقال:

نهج البلاغة نهج كلّ مسدد — نهج المرام لكل قوم أمجد
يا من يبيت وهمّه درك العلى — فاسلكه تحظ بما تروم وتقصد
ينبوع مجموع العلوم رمى به — نحو الأنام ليقتفيه المهتدي
فيه لطلاب النّهاية مقنع — فليلزمنه النّاظر المسترشد
صلى الإله على منظمه الذي — فاق الورى بكماله والمحتد

واحتذى بهم غيرهم وسلك مسلكهم فقال:

نهج البلاغة منهج البلغآء — وملاذ ذي حصر وذي أعيآء
فيها معان في قوالب أحكمت — لهداية كالنّجم في الظلمآء
وتضمّن الكلمات في ايجازها — بذواتها بجوامع العليآء
صلى الإله على النبي محمّد — وعلى عليّ ذي علی واخآء

وللسيد الإمام عز الدين سيد الأئمة المرتضى بن السيد الإمام العلامة ضياء الدين علم الهدى قدس الله روحهما:

نهج البلاغة نهجة لذوي البلاغة واضح — وكلامه لكلام ارباب الفصاحة فاضح
العلم فيه زاخر والفضل فيه راجح — وغوامض التّوحيد فيه جميعها لك لايح
ووعيده مع وعده للنّاس طراً ناصح — تحظى به هذي البريّة صالح أو طالح
لا كالعريب وما لها فالمال غاد رايح — هيهات لا يعلو على مرقى ذراه مادح
إن الرّضي الموسويّ لمآثه هو مايح — لاقت به ويجمعه عدد القطاء مدائح

وقال آخر وهو أحسن ما قيل في مدحه وأحلى:

نهج البلاغة نهج العلم والعمل — فاسلكه يا صاح تبلغ غاية الأمل

كم فيه من حكم بالحقّ محكمة تحيي القلوب ومن حكم ومن مثل
ألفاظه درر أغنت بحليتها أهل الفضآئل عن حلى وعن حلل
ومن معانيه أنوار الهدى سطعت فانجاب عنها ظلام الزّيغ والزلل
وكيف لا وهو نهج طاب منهجه هدى إليه أمير المؤمنين عليّ

ولعلي بن أبي سعد الطبيب أسعده الله في الدارين:

نهج البلاغة مشرع الفصحآء ومعشش البلغآء والعلمآء
درج عقود عقول أرباب التّقى في درجه من غير استثنآء
في طيّه كلّ العلوم كأنّه الجفر المشار إليه في الأنبآء
من كان يسلك نهجه متشمّراً أمن العثار وفاز بالعليآء
غرر من العلم الإلهي انجلت منظومة فيها ضيآء ذكآء
ويفوح منها عبقة نبويّة لا غرو قداً من أديم سنآء
روض من الحكم الأنيقة جاده جود من الأنوار لا الانوآء
أنوار علم خليفة الله الذي هو عصمة الأموات والأحياء
وجذيلها وغديقها مترجبّاً ومحككاً جذاً بغير مرآء
مشكاة نور الله خازن علمه مختاره من سرّة البطحآء
وهو ابن نجدته وعليه تهدّلت أغصانه من جملة الأمرآء
ووصي خير الأنبيآء اختاره رغماً لتيم ارذل الأعدآء
صلى الإله عليهما ما ينطوي برد الظلام بنشر كف ضيآء
وعلى سلالته الرّضي محمد قصب السّباق حوى من الفصحآء

وقال آخر:

نهج البلاغة يهدي السّالكين إلى مواطن الحقّ من قول ومن عمل
فاسلكه تهدي إلى دار السّلام غداً وتحظ فيها بما ترجوه من أمل

وقال آخر:

كتاب كأن الله رصّع لفظه بجوهر آيات الكتاب المنزّل
حوى حكماً كالدر تنطق صادقاً فلا فرق إلاّ أنّه غير منزل

ولعبد الباقي افندي البغدادي:

ألا انّ هذا النهج نهج بلاغة لمنتهج العرفان مسلكه جليّ
على قمم من آل صخر ترفعت كجلمود صخر حطه السّيل من عليّ

وقال الفاضل الأديب النواب المستطاب عبد الحسين ميرزا أعزه الله في مدح الشرح:

أيا طالباً منهاج رشد وحكمة يروم اقتناء الذخر من رحمة الباري
ويا تائهاً ظمآن في قفر حيرة يريد ارتواء العقل بالمنهل الجاري
عليك بمنهاج البراعة انّه لمنهاج فضل للهدى ثم تذكار
غدا شارحاً نهج البلاغة حاذياً حذاه عليا قدره فوق أقدار
أتدري وما نهج البلاغة انّه كلام امام قاسم الخلد والنّار
عليّ أمير المؤمنين فكم حوى له خطبة غرّاء كالكوكب السّاري
وقد شرحت هذا الكتاب جماعة ولم يرفعوا عن وجهه حجب استار
فقيّض مولانا عليّ لشرحه مجلّي حاز السّبق في كلّ مضمار
محدّث أهل البيت ثم فقيههم ملاذ محبيهم ومخزن اسرار
أمام تقي هاشمي مهذّب يسمّى حبيب الله من نجل أخيار
فشمّر ذيل الجدّ في ذلك المنى ولم يأل جهداً بالعشيّ وأبكار
فكم من علوم فيه منها وديعة ومن حكم للمهتدين وأنوار
وقد جمعت فيها المحاسن كلها ويعرف صدق القول خرّيت اخبار
ولا غرو أن فاق التّصانيف فضله ضرورة أهل البيت اعلم بالدّار
ولمّا رأى هذا الكتاب مليكنا مظفّر دين الله سلطان قاجار
أراد عموم النّفع منه واصدرت أوامره العليا بطبع واكثار
أدام إله العالمين بقائه ولا زال منصوراً بنصر من الباري
وصحّحه عبد الحسين مقابلا لدى صاحب التّصنيف حفظاً من الطاري
عسى ينظر المولى عليّ بعبده ويقضي من أفضاله كلّ أوتاري
وينجيني من كرب موت وبرزخ ومن تبعات قد كسبت وأوزار

تمّ ما أردنا إيراده في ديباجة الشرح بفضل الله سبحانه وإحسانه، ويتلوه شرح ديباجة النّهج بتأييده تعالى وحسن توفيقه، إنّه الموفق والمعين، وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين الغرّ الميامين، لا سيّما ذخري وسيدي، ورجائي، في دنياي وآخرتي، أمير المؤمنين، وسيّد الوصيّين، وسلّم تسليماً كثيراً كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وأنطقَ الْخَلاَئِقَ كُلَّها بِحَمْدِهِ وشُكْرِهِ، وجَعَلَهُ سَبِيلاً لِلْمَزِيدِ مِنْ إِحْسَانِهِ وبِرِّه، ووَسِيلاً إِلَىٰ خَلاَصِ الْعَبْدِ مِنْ مَسْكَنَتِهِ وضُرِّه، وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وجَلاَلِهِ، طَلَباً لِلزُّلْفَىٰ لَدَيْهِ، وشَوْقاً إِلَىٰ وِصَالِهِ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ورَسُولِهِ الْهاشَمِيِّ النَّسَبِ، والْعَدْنَانِيِّ الأُمِّ والأَبِ، سَيِّدِ الأُمَمِ، وباسِطِ الْكَرَمِ، وصِفْوَةِ الْجَلِيلِ، وسُلاَلَةِ الْخَلِيلِ، مُحَمَّدٍ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ، وحَبِيبِ اللَّهِ الصَّفِيِّ الْمَرْضِيِّ، وَعَلَىٰ آلِهِ الَّذِينَ نَفَوْا عَنِ الدِّينِ انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وحَلُّوا بِبَنَانِ بَيَانِهِمْ تَأْوِيلَ الْجاهِلِينَ، بَعْدَمَا هَدَرَتْ شَقاشِقُ الْجَهَالَةِ والشِّقاقِ، وَانْتَشَرَتْ آثارُ الضَّلاَلَةِ في الآفَاقِ، حَتّى انْهارَتْ بِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ دَعائِمُ الْجَهْلِ ودَحِضَتْ قَوائِمُهُ، وَانْدَرَسَتْ آثارُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعالِمُهُ، وَانْطَمَسَتْ أَعْلاَمُ النَّصْبِ وخَبَتْ نيرانُهُ، وقَوِيَ أَساسُ الإِيمَانِ وشُيِّدَ بُنْيانُهُ، وَاسْتَقَرَّ أَرْكَانُهُ وأَلْقَىٰ جِرانَهُ، سِيَّما أَخْطَبِ الْخُطَباءِ، وقُدْوَةِ الْبُلَغَاءِ، ومُنْيَةِ الْفُصَحاءِ، عَلِيٍّ الْعَلِيِّ الأَمِينِ، والْوَصِيِّ الْوَلِيِّ الْمَكِينِ، جَزاهُ اللَّهُ عَنّا خَيرَ جَزاءِ الْعالَمِينَ، بِما سَهَّلَ لَنا نَهجَ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَأَبانَ مَنْهَجَ الْعِرْفَانِ والْيَقِينِ، وأَبْلَجَ لَنا سِراجَ الْمَذْهَبِ، بِكَلاَمِهِ الْجامِعِ لِلْعُجابِ والْعَجَبِ، حَتّى صارَ بَلاَغَةُ لِسانِهِ لِلسُّرَىٰ نُوراً وَهّاجاً، وبَدِيعُ بَيانِهِ لِلْهُدَىٰ شَرِيعَةً ومِنْهاجاً، وفَضْلُ خِطابِهِ لِلْعُلَىٰ مِرْقاةً ومِعْراجاً، وفَضْلُ كِتابِهِ لِلْبَلاَغَةِ أَنْشاجاً، ونَسِيجاً وَحْدَهُ ولِلْفَصاحَةِ نَسّاجاً، صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ما دامَتْ سَماءٌ ذاتُ أَبْراجٍ، وحُجُبٌ ذاتُ أَرْتَاجٍ، ولَيْلٌ داجٍ، وبَحْرٌ ساجٍ».

وبعد: فهذا هو المجلّد الأوّل من مجلّدات **«منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة»** إملاء راجي عفو ربّه الغنيّ حبيب الله بن محمّد بن هاشم الهاشمي العلوي الموسوي وفّقه الله لإنجاح الأمل، ولإصلاح القول والعمل، وعصمه من الفساد في الاعتقاد، ومن الزّيغ والضّلال في المبدء والمعاد، ولنشرع في شرح ديباجة النّهج، ونقرّره في ضمن فصول، فأقول وبالله التّوفيق.

الفصل الأول

قال السّيد (ره): بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، أَمّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ ثَمَناً لِنَعْمائِهِ، ومَعَاذاً مِنْ بَلاَئِهِ، وَوَسِيلاً إِلى جِنانِه، وَسَبَباً لِزِيادَةِ إِحْسانِهِ، والصَّلاَةَ عَلَىٰ رَسُولِهِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، وإِمامِ الأَئِمَّةِ، وسِراجِ الأُمَّةِ، الْمُنْتَجَبِ مِنْ طِينَةِ الْكَرَمِ، وسُلاَلَةِ الْمَجْدِ الأَقْدَمِ،

ومَغْرَسِ الْفِخَارِ الْمُعْرِقِ، وفَرْعِ الْعَلاَءِ الْمُثْمِرِ الْمُورِقِ، وَعلىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ مَصابيحِ الظُّلَمِ، وعِصَمِ الأُمَمِ، وَمَنَارِ الدّينِ الْواضِحَةِ، ومَثاقيلِ الْفَضْلِ الرّاجِحَةِ، صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ صَلاَةً تَكُونُ إِزاءً لِفَضْلِهِمْ، ومُكَافاةً لِعَمَلِهِمْ، وكِفاءً لِطِيبِ فَرْعِهِمْ وأَصْلِهِمْ، ما أَنارَ فَجْرٌ ساطِعٌ، وخَوىٰ نَجْمٌ طالِعٌ.

اللغة

(النعماء) بالفتح ممدودة وزان فعلاّء مفردة مثل النعمة بالكسر، والجمع أنعم ونعم ونعمات بفتح العين وكسرها مع كسر الأوّل **(والوسيل)** جمع الوسيلة، وهو ما يتقرب به إلى الشيء **(والسّلالة)** بالضمّ ما انسلّ من الشيء، أي انتزع منه واستخرج برفق، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

ويطلق أيضاً على الولد كالسّليل **(والفخار)** قال الشّارح المعتزلي: قال لي إمام من أئمة اللّغة في زماننا هو بكسر الفاء، قال: هذا ممّا يغلّطه الخاصة فيفتحونها، وهو غير جائز، لأنّه مصدر فاخر، وفاعل يجيء مصدره على فعال بالكسر لا غير، نحو قاتلت قتالاً، ونازلت نزالاً، وخاصمت خصاماً، وكافحت كفاحاً، وصارعت صراعاً، وعندي أنّه لا يبعد أن تكون الكلمة مفتوحة، ويكون مصدر فخر لا مصدر فاخر، فقد جاء مصدر الثلاثي إذا كان «عينه» أو «لامه» حرف حلق على فعال بالفتح، نحو سمح سماحاً، وذهب ذهاباً اللّهمّ إلاّ أن ينقل ذلك عن شيخ أو كتاب موثوق به صريحاً فتزول الشّبهة، انتهى.

أقول: المستفاد من الفيومي والفيروز آبادي أنّ الفخار بالفتح إسم من فخر، وبالكسر مصدر فاخر، قال في **(المصباح)**: فخرت فخراً من باب نفع، وافتخرت مثله، والاسم الفخار بالفتح، وهو المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك، إمّا في المتكلم أو آبائه، وفاخرني مفاخرة ففخرته غلبته[١]، وفي **(القاموس)**: الفخر ويحرك والفخار والفخارة بفتحهما، والفخيري كجليقي ويمدّ: التمدّح بالخصال كالافتخار، إلى أن قال: وفاخره مفاخرة وفخاراً عارضه بالفخر، ففخره كنصره غلبه، انتهى[٢].

وبذلك يظهر جواز كون لفظ الفخار في كلامه «قدّس سرّه» بالفتح والكسر كليهما، وإن كان الموجود فيما رأيناه من النّسخ هو الثّاني **(وأعرق)** الرّجل إذا صار عريقاً، وهو الذي له عرق في الكرم، وأصل **(وأعرق)** الشّجر إذا اشتدت عروقه في الأرض، ويجمع العرق على

(١) راجع مجمع البحرين: ٣/ ٣٧٠.

(٢) القاموس المحيط: ٢/ ١٠٨.

عروق وأعرق وعراق **(والمنار)**، قال الشّارح المعتزلي: الإعلام، واحدها منارة بفتح الميم، وفيه أن جمع منارة مناور ومنائر بقلب الواو همزة، ولم يصرّح أحد من اللغويّين بكون المنار جمعاً لها أيضاً، قال الفيومي: والمنارة التي يوضع عليها السّراج بالفتح مفعلة من الإستنارة، والقياس الكسر لأنّها آلة، والمنارة التي يؤذن عليها أيضاً والجمع المناور بالواو، ولا تُهمز لأنّها أصلية كما لا تُهمزة الياء في معايش لأصالتها، وبعضهم يهمز فيقول: منائر تشبيهاً للأصلي بالزائد كما قيل: مصائب والأصل مصاوب، وقال في **(القاموس)**: والمنارة والأصل منورة: موضع النور، كالمنار والمسرجة والمأذنة، والجمع مناور ومنائر، ومن هَمَزَ فقد شبّه الأصلي بالزائد، والمستفاد منه أنّ المنار إسم مفرد أيضاً مرادف للمنارة إلاّ أن السيّد (ره) أتى بصفته مؤنّثة، وهو يقوّي جمعيّته، **(والمثاقيل)** جمع المثقال وهو ميزان الشّيء من مثله، قال الشّارح البحراني: وهو ما يوزن به الذّهب والفضّة، ويكون حذاً لها، ثم كثر استعماله حتّى عدّي إلى الموزون أيضاً فيقال: مثقال مسك ونحوه، ثم عدّى إلى الأمور المعقولة والمقادير منها، فقيل: مثقال فضل[1].

أقول: ومنه قوله سبحانه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

(والإزاء) الحذاء **(والمكافاة)** كالكفاء: الجزاء، يقال: كافئه مكافئة وكفاء جازاه، وفلانا ماثله، قال تعالى:

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الصمد: ٤].

أي مماثلاً، **(وخوى)** النّجم بالتّخفيف سقط، وبالتشديد مال للمغيب.

الإعراب

تفصيل علماء الأدبيّة والتّفسير وإشباعهم الكلام في إعراب البسملة كفانا مؤنته هنا، والتعرّض للأهم أولى.

فأقول: إضافة الحمد إلى الله في قوله: **(أمّا بعد حمد الله)** من إضافة المصدر إلى مفعوله والتّقدير أمّا بعد حمدي لله سبحانه، **(ونبيّ الرّحمة)** عطف بيان لرسوله، ولذلك أعرب بإعرابه، ويجوز كونه بدلاً منه، ونحوه قوله: مصابيح الظلم، وإضافة مثاقيل إلى الفضل معنويّة بمعنى اللاّم، قال البحراني، أو بمعنى من، أي مثاقيل من الفضل متبوعة ترجح على غيرها، أقول: والأوّل أظهر بل أقوى.

---

(١) راجع بحار الأنوار: ٦٥/٣٥٩.

المعنى

إعلم أن السّيد (ره) افتتح كتابه باسم الله سبحانه، إقتداء بكتاب الله الكريم، واتباعاً على سنّة النّبيّ الحليم، فقال: **(بسم الله الرّحمٰن الرّحيم)** وينبغي الافتتاح به، عند كلّ أمر صغير أو عظيم.

فعن الكافي عن الصّادق ﷺ، قال: «لا تدعها ولو كان بعده شعر»[١].

وعن التّوحيد عنه ﷺ «من تركها من شيعته امتحنه الله بمكروه، لينبّهه على الشكر والثّناء، ويمحق عنه وصمة تقصيره عند تركه»[٢].

وفي تفسير الإمام ﷺ، قال الصّادق ﷺ: «ولربّما ترك في افتتاح أمر بعض شيعتنا: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، فامتحنه الله بمكروه لينبّهه على شكر الله، والثناء عليه، ويمحو عنه وصمة تقصيره عند تركه قوله: بسم الله».

قال: وقد دخل عبد الله بن يحيى على أمير المؤمنين ﷺ وبين يديه كرسيّ، فأمره بالجلوس عليه فجلس عليه، فمال به حتّى سقط على رأسه، فأوضح عن عظم رأسه، فسال الدّم فأمر أمير المؤمنين ﷺ بماء فغسل عنه ذلك الدّم، ثم قال ﷺ **«ادن منّي»**، فدنا منه، فوضع يده على موضحته، وقد كان يجد ألمها ما لا صبر له، ومسح يده عليها، وتفل فيها حتّى اندمل وصار كأنّه لم يصبه شيء قط، ثم قال أمير المؤمنين ﷺ: «يا عبد الله الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمحنتهم، لتسلم لهم طاعتهم، ويستحقّوا عليها ثوابها»، فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين، إنا لا نجازي بذنوبنا إلاّ في الدّنيا، قال: «نعم، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وآله: الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، إنّ الله يطهر شيعتنا من ذنوبهم في الدّنيا بما يبتليهم من المحن، وبما يغفره لهم فان الله تعالى يقول:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

حتّى إذا ورد القيامة توفّرت عليهم طاعاتهم وعباداتهم»، فقال عبد الله بن يحيى: يا أمير المؤمنين قد أفدتني وعلّمتني، فإن رأيت أن تعرّفني ذنبي الذي امتحنت به في هذا المجلس حتّى لا أعود إلى مثله، قال: «تركك حين جلست أن تقول بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، فجعل الله ذلك بسهوك عمّا ندبت إليه تمحيصاً بما أصابك، أما علمت أنّ رسول الله ﷺ حدثني عن الله عزّ وجلّ، أنه قال: كلّ أمر ذي بال لم يذكر اسم الله فيه فهو

---

(١) تفسير الصافي: ١/ ٥٧.

(٢) التوحيد للصدوق: ٢٣١، وفيه تفاوت كبير.

أبتر»، فقلت: بلى بأبي وأمّي لا أتركها بعدها، قال ﷺ: «إذا تحظى بذلك وتسعد»، ثم قال عبد الله: يا أمير المؤمنين ما تفسير بسم الله الرحمٰن الرّحيم؟ قال ﷺ: «إن العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً، ويقول: بسم الله أي بهذا الاسم أعمل هذا العمل، فكلّ عمل يعمله يبتدأ فيه ببسم الله الرحمٰن الرّحيم، فإنّه يبارك»(١).

وفيه أيضاً عن الباقر، عن علي بن الحسين عليهم السّلام، قال: حدثني أبي عن أخيه، عن أمير المؤمنين ﷺ، أن رجلاً قام إليه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن بسم الله الرّحمٰن الرّحيم ما معناه؟ فقال ﷺ: «إنّ قولك الله أعظم الأسماء من أسماء الله تعالى، وهو الاسم الذي لا ينبغي أن يسمّى به غير الله، ولم يتسم به مخلوق»، فقال الرّجل فما تفسير قول الله؟ فقال ﷺ: هو الذي يتألّه إليه عند الحوائج والشّدائد، كلّ مخلوق، وعند انقطاع الرّجاء من جميع من دونه، وتقطع الأسباب من كلّ من سواه، وذلك إنّ كل مترئس في هذه الدّنيا، ومتعظم فيها، وإن عظم غناؤه وطغيانه وكثرت حوائج من دونه إليه، فإنّهم يحتاجون حوائج لا يقدر عليها هذا المتعاظم، وكذلك هذا المتعاظم يحتاج حوائج لا يقدر عليها، فينقطع إلى الله عند ضرورته وفاقته، حتّى إذا كفى همّه عاد إلى شركه، أما تسمع الله عز وجلّ يقول:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠].

فقال الله لعباده: «أيّها الفقراء إلى رحمتي إنّي قد ألزمتكم الحاجة إليّ في كلّ حال، وذلة العبوديّة في كلّ وقت، فإليّ فافزعوا في كلّ أمر تأخذون به، وترجون تمامه وبلوغ غايته، فإنّي إن أردت أن أعطيكم لم يقدر غيري على منعكم، وإن أردت أن أمنعكم لم يقدر غيري على إعطائكم، فتقولوا عند افتتاح كلّ أمر عظيم أو صغير: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، أي أستعين على هذا الأمر بالله الذي لا تحق العبادة لغيره، المغيث إذا استغيث والمجيب إذا دعي الرّحمٰن الذي يرحم ببسط الرّزق علينا، والرّحيم بنا في أدياننا ودنيانا وآخرتنا، خفّف الله علينا الدّين، وجعله سهلاً خفيفاً، وهو يرحمنا بتمييزنا من أعدائه»، ثم قال رسول الله ﷺ: «من حزنه أمر تعاطاه، فقال: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، وهو مخلص لله عزّ وجلّ، ويقبل بقلبه إليه، لم ينفكّ من أحد الشّيئين: إمّا بلوغ حاجته الدّنياويّة، وإمّا ما يعدّله عنده، ويدّخر لديه، وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين»(٢).

---

(١) تفسير الإمام العسكري: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) تفسير الإمام العسكري: ٢٨، والبحار: ٨٩/ ٢٣٣ ـ ٢٤٥.

ثم أردف البدأة بالتّسمية بالبدأة بالتّحميد، للندب إليه في أخبار كثيرة، والأمر بالبدأة به في خصوص النّبوي المعروف بين الفريقين فقال: **(أمّا بعد حمد الله)** أي تعظيمه وثنائه سبحانه، وتحقيق الكلام في بيان معنى الحمد، والفرق بينه وبين المدح والشكر، يأتي إن شاء الله في شرح الفصل الأوّل من الخطبة الأُولى، ولكونه من أفضل الطاعات، وأحسن العبادات، وأكمل القربات ترتبت عليه ثمرات عديدة، أشار إليها بقوله: **(الذي جعل الحمد ثمناً لنعمائه)**، فالإتيان بالموصول وما بعده من الجملات المتعاطفة، للتنبيه والإيماء إلى تعظيم الحمد وتفخيمه وشرفه وقوله: ثمناً لنعمائه استعارة لطيفة.

قال الشّارح البحراني: ووجه المشابهة أنّ الثمن لمّا كان مستلزماً لرضاء البائع به عوضاً عن مبيعه، وكان الحمد مستلزماً لرضاء الحقّ سبحانه في مقابلة نعمه، لا جرم أشبه الثّمن، فاستعير لفظه له.

أقول: والأظهر أن يقال: إن العبد بالحمد يتأهّل لإفاضة النّعمة من الله سبحانه إليه، وقبولها منه، كما أنّ المشتري بإعطاء الثمن يستحقّ أخذ المثمن من البائع، وهذا هو الجامع بينهما، لا ما توهّم، لأن وجه الشّبه في الاستعارة لا بدّ وأن يكون من أظهر خواص المشبّه به، وما ذكرته هو الأظهر كما لا يخفى.

وأمّا كونه موجباً لإستحقاق النّعمة، فلدلالة الكتاب العزيز عليه، مضافاً إلى غير واحد من الأخبار.

منها ما في **(العيون)**، عن محمّد بن القاسم المفسّر قال: حدّثنا يوسف بن محمّد بن زياد وعلي بن محمّد بن سيار، عن أبويهما، عن الحسن بن علي، عن أبيه علي بن محمد عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه عليّ بن موسى الرّضا، عن أبيه موسى بن جعفر، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السُّلام، قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ: «قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، قال الله جلّ جلاله: بدأ عبدي باسمي، وحقّ عليّ أن أتمّم له أموره، وأبارك في أحواله، فإذا قال: الحمد لله ربّ العالمين، قال الله جلّ جلاله: حمدني عبدي، وعلم أن النّعم التي له من عندي، وأنّ البلايا التي دفعت عنه فبطولي، أشهدكم أنّي أضيف له إلى نعم الدّنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت بلايا الدّنيا»[١] . الحديث.

فقد علم بذلك أنّ الحمد سبب لإفاضة النّعماء كما علم أن به يندفع البلاء، حسبما

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/٢٦٩ ح٥٩.

أشار إليه السّيد بقوله: **(ومعاذاً من بلائه)** مضافاً إلى أن النّعمة والنّقمة والمنحة والمحنة متضادّتان، كما أنّ الشكر والكفران كذلك، فإذا كان الكفران موجباً للعذاب والبلاء والمحن، بمقتضى قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

يكون الشكر والثناء ملاذاً من المحن والبلاء، وهو واضح لا يخفى.

والوجه الآخر وهو ألطف من سابقيه، هو أن العبد إذا قال: الحمد لله يشمله دعاء المصلين، والدّعاء جنّة من البلاء، وترس للمؤمن من الأعداء.

أمّا أنّه يشمله دعاء المصلين، فلما رواه في **(الكافي)** عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن أبي سعيد القماط، عن المفضل قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: جعلت فداك علمني دعاء جامعاً، فقال ﷺ لي: «أحمد الله، فإنّه لا يبقى أحد يصلي إلاّ دعا لك، يقول: سمع الله لمن حمده»[١].

وأمّا أنّ الدّعاء يردّ البلاء، فلما رواه في **(الكافي)** أيضاً عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن ابن محبوب، عن أبي ولاد، قال: قال أبو الحسن موسى ﷺ: «عليكم بالدّعاء، فإن الدّعاء لله والطلب إلى الله يردّ البلاء وقد قدر وقضي، ولم يبق إلاّ إمضاؤه، فإذا دعي الله وسئل صرف البلاء صرفة»[٢].

وفيه عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن فضالة بن أيوب عن السّكوني عن أبي عبد الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدّعاء سلاح المؤمن، وعمود الدّين، ونور السّماوات والأرض»[٣].

وبهذا الإسناد، قال: قال أمير المؤمنين ﷺ: «الدّعاء مفاتيح النّجاح، ومقاليد الفلاح، وخير الدّعاء ما صدر عن صدر نقيّ، وقلب تقيّ، وفي المناجاة سبب النّجاة؛ وبالإخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتدّ الفزع فإلى الله المفزع»[٤].

وظهور هذه الرّوايات وما ضاهاها وإن كان في عودة ثمرة الدّعآء إلى نفس الدّاعي، إلاّ أنّه ليس بحيث يوجب تقييد إطلاقها، ويصرف المطلقات عن الإطلاق، ومفادها: أن الدّعاء له خواص وثمرات، عائدة إلى المدعو له، سواءً كان نفس الدّاعي أو أخاه المؤمن بل دعاء

---

(١) أصول الكافي: ٢/٥٠٣ح١، ووسائل الشيعة: ٦/٣٢٢ح٨٠٨٥.

(٢) الكافي: ٢/٤٧٠ ح٨، وميزان الحكمة: ٢/٨٧٠.

(٣) الكافي: ٢/٤٦٨ح١، وعيون الأخبار: ١/٤٠.

(٤) الكافي: ٢/٤٦٨ح٢، والوسائل: ٧/٣٩ح٨٦٥٥.

المرء لأخيه المؤمن بظهر الغيب أوشك دعوة، وأسرع إجابة كما نطقت به أخبار أهل البيت عليهم السلام هذا.

وعطف قوله: **(ووسيلاً إلى جنانه)** على سابقه من قبيل عطف الخاص على العام، لمزيد الاهتمام، على حد قوله تعالى: **﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾** [البقرة: ١٨٩].

وذلك، لأنّ الحمد إذا كان ثمناً للنّعمة يكون ألبتّة وسيلة إلى الجنة، لأنّها من أعظم النّعماء، وأشرف الآلاء، يقصر دونها كلّ نعمة، ويبخس عندها كلّ عطية على أنّه من أفضل العبادات، وأحب الأعمال إلى الله سبحانه كما أفصح عنه رواية الكافي بإسناده عن محمّد بن مروان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي الأعمال أحب إلى الله عزّ وجلّ؟ فقال: «أن تحمده، وكون العبادة وسيلة إلى الجنّة ظاهرة وأمّا كونها (سبباً لزيادة إحسانه) فبنصّ الآية الشّريفة أعني قوله سبحانه».

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثم أردف الحمد لله تعالى بالصّلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، رعاية للآداب الشّرعيّة، وجرياً على الرّسومات الدّينيّة، المستمرّة عليها، عادة المتشرّعة في باب الخطابة، فقال: **(والصّلاة على رسوله)** تحقيق الكلام في معنى الصّلاة وكيفيّتها وفضلها وسائر ما فيها يأتي إن شاء الله تعالى في شرح الخطبة الحادية والسّبعين، كما أن تحقيق معنى الرّسول، والفرق بينه وبين النبيّ يأتي إن شاء الله تعالى في شرح الفصل الخامس عشر من فصول الخطبة الأولى، ووصفه صلّى الله عليه وآله بأوصاف سبعة.

الأوّل: أنّه **(نبي الرّحمة)** أي نبي هو رحمة لله سبحانه على خلقه، ومنّة منه تعالى عليهم، كما قال عزّ من قائل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال في **«مجمع البيان»**: أي نعمة عليهم، وقال: قال ابن عباس: رحمة للبرّ والفاجر؛ والمؤمن والكافر؛ فهو رحمة للمؤمن في الدّنيا والآخرة، ورحمة للكافر بأن عوفي ممّا أصاب الأمم من الخسف والمسخ.

وروي أن النّبي صلى الله عليه وآله قال لجبرئيل لمّا نزلت هذه الآية: **«هل أصابك من هذه الرّحمة شيء؟ قال: نعم إنّي كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك»**، لما أثنى الله عليّ بقوله:

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ٢٠].

أقول: والوجه الآخر في كونه رحمة أنّ الله سبحانه رفع العذاب عن الأمة بوجوده فيهم، كما قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١].

والوجه الثّالث: أنّه سبب وجود العالم، وواسطة جميع ما فيه من النّعم ظاهرها وباطنها، صغيرها وكبيرها، أصولها وفروعها، دنيويّة كانت أو أخرويّة على ما يأتي تحقيقاً وتفصيلاً إن شاء الله في شرح الفصل الخامس، من فصول الخطبة الثّانية، فهو ﷺ والطيبون من أولاده عليهم السّلام أولياء النّعمة، ومبادي الرّحمة وأسباب الخيرات النّازلة، ووسائط الفيوضات الواصلة[٢].

والثّاني: أنّه **(إمام الأئمة)** أي يأتمّ به الأئمة ويتّبعونه، ويؤمّون أفعاله ويقصدونها، والمراد بالأئمة: إمّا كل من يقتدي به ويتّبع، من الرّؤساء المتّبعين، أو خصوص الأنبياء لكونهم أحقّ الخلق بالإمامة والرّياسة، أو خصوص المتّصفين منهم بالإمامة الاصطلاحيّة مع الأئمة الإثني عشر عليهم السّلام، وعلى كلّ تقدير، فهو صلّى الله عليه وآله إمام الكلّ ووليّه ومقتداه، لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم شمس فلك الرّسالة والولاية، والأئمة من ذريّته بمنزلة الأهلّة، وقد أخذ ميثاقه على جميع الأنبياء، بل على جميع خلقه حسبما تعرفه تحقيقاً وتفصيلاً في شرح الفصل الرّابع عشر والفصل السادس عشر من الخطبة الأولى.

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٠٦، وتفسير مجمع البيان: ٧/ ١٢١.

(٢) **لولاك ما خلقت الافلاك**

عن سليمان بن عساكر في حديث قدسي: «لقد خلقتُ الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا» ـ لوامع انوار الكوكب الدري: ١/ ١٥.

وعن رسول الله ﷺ في حديث: «انا وانت من شجرة واحدة ولولانا لم يخلق الله الجنة ولا النار ولا الأنبياء ولا الملائكة». بحار الأنوار: ٢٦/ ٣٤٩ ح ٢٣، والهداية الكبرى: ١٠١.

* أقول: أحاديث «لولاك ما خلقت الافلاك. فلولا محمد ﷺ ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار» ونحوهما، مروي عند الخاصة والعامة بطرق متكثرة. الخصائص الكبرى: ١/ ٧ باب خصوصيته بكتب اسمه على العرش، وإلزام الناصب: ١/ ٤٠ الثمرة الخامسة، وعيون اخبار الرضا: ١/ ٢٠٥ باب ٢٦ ح ٢٢، ولوامع انوار الكوكب الدري: ١/ ١٥، والفتاوى الحديثية: ١٣٤، ومناقب الخوارزمي: ٣١٨، ومقتل الخوازمي: ١/ ١٥، والفردوس بمأثور الخطاب: ١/ ٧٧ ح ٨٠٣١.

لولاكم ما استدارت الأكر ... ولا استنارت شمس ولا قمر

ولا تدلى غصن ولا ثمر ... ولا تندى ورق ولا خضر

ولا سرى بارق ولا ... مطر

ـ مشارق أنوار اليقين: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

وأقول هنا: روى في **«البحار»** من **«أمالي الشيخ»** وابنه، عن أحمد بن هوزة، عن إبراهيم بن إسحاق، عن محمّد بن سليمان الدّيلمي، عن أبيه قال: سألت جعفر بن محمّد عليهما السّلام، لم سمّيت الجمعة جمعة؟ قال: لأنّ الله جمع فيها خلقه لولاية محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته[1].

ومن تفسير العياشي عن أبي عبد الله الحلبي، عن أبي عبد الله ﷺ، قال: قال أمير المؤمنين ﷺ:

«ما كان إِبراهيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرانِيّاً. لا يهوديّاً يصلّي إلى المغرب، ولا نصرانياً يصلّي إلى المشرق.

«وَلٰكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً». على دين محمّد صلى الله عليه وآله[2].

(و) الثّالث: أنّه **(سراج الأمة)** كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

استعارة لفظ السّراج له صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار أنّه تهتدي به الأمّة في ظلمة الضّلال والجهل كما يُهتدى بالسّراج في ظلمة اللّيل.

(و) الرّابع: أنّه **(المنتخب من طينة الكرم)** أي المختار من أصل العزّ والشّرف، وجبلة الكرامة وخلقته.

(و) الخامس: أنه المنتجب من **(سلالة المجد الأقدم)** قال الشّارح البحراني: وإضافة السّلالة إلى المجد، إمّا على تقدير المضاف أي سلالة أهل المجد، وإمّا أن يكون قد إستعار لفظ المجد لأصله صلى الله عليه وآله وسلم، فكأنّه خيّل أنّ الأصل كله مجد، فأعطاه لفظة المجد، وأضاف إليه بعد الإستعارة.

أقول: وعلى الثّاني فيكون لفظ المجد استعارة بالكناية، تشبيهاً له بالشخص الإنساني الذي له سلالة ونسل، وإثبات السّلالة تخييل، ثمّ وصف المجد بالأقدم لأنّه أفضل من المجد الحادث.

(و) السّادس: أنّه **(مغرس الفخار المعرق)** لما كان صلى الله عليه وآله وسلم محلاً

(١) أمالي الطوسي: ٦٨٨ح١٤٦١، والبحار: ٣٠٩/٢٦ح٧٦.

(٢) البحار: ١١/١٢ح٢٩، وتفسير الميزان: ٢٧١/٣.

لفنون الفخار، ومبدأً لغصون الإفتخار، شبّه ثباتها فيه وظهورها منه، بثبات الأشجار المغروسة في محالها ومغارسها ونموّها فيها، فاستعير لفظ الغرس للثّبات، والجامع هو الإستحكام، ثم قيل إنّه مغرس بعنوان الاستعارة التّبعية، ووصف الفخار بالمعرق للتّنبيه على كمال الإستحكام وشدّته.

(و) السّابع: أنه ﷺ **(فرع العلاء المثمر المورق)** لما كان فرع الشّجرة عبارة عن غصنها إستعارة لرسول الله ﷺ، باعتبار تفرّعه عن دوحة الرّسالة وتشعبه عن شجرة النّبوة، بعنوان الإستعارة الأصليّة، ورشحها بذكر المثمر والمورق، لأنّ الفرع الخالي من الثمر والورق عديم النّفع، خال عن الحسن والطراوة، فالمراد بالعلاء على ما ذكرنا: هو الرّسالة والنّبوة، ويحتمل أن يراد آبائه الموصوفون بالشّرف والعلوّ، حتّى صاروا كأنّهم نفس العلاء والعلوّ، من باب زيد عدل.

وأمّا احتمال الشّارح البحراني تقدير المضاف، أي فرع أهل العلاء، نحو ما تقدم في سلالة المجد، فسخيف، إذ يلزم حينئذٍ أن نخرج الكلام إلى شيء مغسول، وكلام عامي مرذول، لا مساغ له عند من هو صحيح الذّوق والمعرفة؛ ولذلك ذهب الشّيخ عبد القاهر في قول الخنساء:

لا تسأم الدهر منه كل ما ذكرت فإنّما هي إقبال وإدبار

إلى أنَّ إسناد الإقبال والإدبار إلى المسند إليه من باب المجاز العقلي، وليسا من المجاز اللغوي والمجاز الحذف، حيث قال في محكي كلامه من دلائل الإعجاز: لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما، حتى يكون المجاز في الكلمة، وإنّما المجاز في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر، كأنّها تجسّمت من الإقبال والإدبار، وليس أيضاً على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وإن كانوا يذكرونه منه، إذ لو قلنا: أريد إنّما هي ذات إقبال وإدبار، أفسدنا الشّعر على أنفسنا، وخرجنا إلى شيء مغسول، وكلام عاميّ مرذول لا مساغ له عند من هو صحيح الذّوق والمعرفة، نسّابة للمعاني، انتهى.

وبذلك علم أيضاً سخافة ذلك الاحتمال فيما تقدّم، أعني سلالة المجد الأقدم. هذا وقد وقع نظير ذلك التّشبيه والاستعارة التي في كلام السّيد (ره) في قوله تعالى:

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] الآية.

ويأتي تفصيلها إن شاء الله في شرح الخطبة الثّالثة والتّسعين.

ثمّ لمّا كانت الصّلاة على الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم بدون تعقيبها بالصّلاة على

الآل من الظلم والجفاء، مضافاً إلى أنها بتراء كما تدلّ عليه رواية **(الكافي)**، عن ابن القداح، عن أبي عبد الله ﷺ، قال: سمع أبي رجلاً متعلقاً بالبيت وهو يقول: اللهم صلّ على محمّد، فقال أبي ﷺ يا عبد الله: لا تبترها، لا تظلمنا حقّنا، قل اللهم صلّ على محمّد وأهل بيته، لا جرم أردفها بها فقال: **(وعلى أهل بيته)** الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً، وهم أهل الكساء، أعني عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام، ويدخل من بعدهم من الأئمة التسعة بإجماع الفرقة المحقة[1].

روى في **«كشف الغمّة»** عن أمّ سلمة، قالت: إنّ النّبي صلى الله عليه وآله بينا هو ذات يوم جالساً، إذ أتته فاطمة عليها السّلام ببرمة فيها عصيدة فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أين عليّ وابناه؟ قالت: في البيت، قال: ادعيهم لي، فأقبل عليّ والحسن والحسين عليهم السّلام، فلما بصر بهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، تناول كساء كان على المنامة خيبرياً فجلل به نفسه وعليّاً والحسن والحسين وفاطمة عليهم السّلام، ثمّ قال: اللهم إنّ هؤلاء أهل بيتي وأحبّ الخلق إليّ، فأذهب عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً»، فأنزل الله تعالى **﴿إنما يريد الله ليذهب﴾** [الأحزاب: ٣٣] الآية، قال **«كاشف الغمة»** وفي رواية أخرى قالت: فقلت: يا رسول الله ألستُ من أهل بيتك؟ قال إنك على خير، أو إلى خير[2].

هذا وقد وصف أهل البيت عليهم السّلام بأوصاف أربعة:

الأوّل: أنهم **(مصابيح الظلم)** إستعارة المصباح لهم باعتبار اهتداء الخلق بهم من ظلمات الجهل، كما يُهْتدى بالمصباح في ظلمة الليل ويأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في شرح الفصل الأوّل من فصول الخطبة الرّابعة.

(و) الثّاني: أنهم **(عصم الأمم)** أي عاصمون لهم بسبب هدايتهم إياهم عن التّورط في المهالك، فمن فارقهم فهالك.

(و) الثّالث: أنّهم **(منار الدّين الواضحة)** إذ من أنوارهم يقتبس أحكام الدّين، وبآثارهم

---

(١) **الصلاة البتراء**

أخرج الشعراني حديث الصلاة البتراء عن رسول الله صلى الله عليه وآله بلفظ: «لا تصلوا عليّ الصلاة البتراء. قالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون اللهم صلّ على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللهم صلّ على محمد وآل محمد. فقيل من أهلك يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: علي وفاطمة والحسن والحسين» . كشف الغمة للشعراني: ٢١٩/١ فصل في الامر بالصلاة على النبي ط. مصر ١٣٢٧ المطبعة الميمنية .

(٢) راجع كشف الغمة: ٤٧/١، وفضل آل البيت للمقريزي: ٣٠، وقد فصلنا ذلك في كتاب طهارة آل محمد ﷺ.

يسلك نهج الحق المبين، وبهداهم يهتدي إلى منهاج شرع سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

(و) الرّابع: أنّهم **(مثاقيل الفضل الرّاجحة)** إن كانت المثاقيل بمعنى الموازين أي آلة الوزن، فالمراد أنّهم موازين لفضل الخلق، ومعيار ومدار له، بمعنى أنّ بهم يعرف فضل ذي الفضل ويرجح على غيره، وبمحبّتهم وولايتهم سعد من سعد، وببغضهم وعداوتهم هلك من هلك، قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

روى في **(الصافي)** من **(العيون)**، عن الرّضا عليه السلام، فيما كتبه للمأمون: ويجب البرائة من أهل الاستبشار، ومن أبي موسى الأشعري، ومن أهل ولايته، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، أولئك الذين كفروا بآيات ربّهم، بولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولقائه، بأن لقوا الله بغير إمامته، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً، فهم كلاب أهل النّار.

وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨].

روى في **(البحار)** من تفسير عليّ بن إبراهيم، أنّه قال: من لم يقرُّ بولاية أمير المؤمنين عليه السلام بطل عمله مثل الرّماد الذي تجيء الرّيح فتحمله.

وفي **(البحار)** أيضاً من كتاب أعلام الدّين للدّيلمي من كتاب الحسين بن سعيد بإسناده عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السّلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «بشّر شيعتك ومحبّيك بخصال عشر: **أولها**: طيب مولدهم، **وثانيها**: حسن إيمانهم. **وثالثها**: حبّ الله لهم. **والرّابعة**: الفسحة في قبورهم **والخامسة**: نورهم يسعى بين أيديهم، **والسادسة**: نزع الفقر من بين أعينهم وغنى قلوبهم. **والسابعة**: المقت من الله لأعدائهم، **والثامنة**: الأمن من البرص والجذام، **والتاسعة**: انحطاط الذّنوب والسيّئات عنهم. **والعاشرة**: هم معي في الجنّة وأنا معهم فطوبى لهم وحسن مآب»[١].

وإن كان المراد بالمثاقيل: نفس الموزون على التّوسع كما احتمله الشّارح البحراني، فيكون محصل المعنى أنّهم عليهم السلام، أولو الفضل الرّاجح، وأفضل من برأ الله وخلقه،

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/ ١٦٢.

ولا ريب فيه، وقد دلت عليه الأخبار المتواترة، والفرق بينه وبين الوجه السّابق أنّ الفضل فيما سبق صفة لشيعتهم عليهم السّلام لأجل محبّتهم وولايتهم، وهنا صفة لهم بأنفسهم عليهم السلام **(صلى الله عليهم أجمعين)** تأكيد لما سبق وتمهيد لبيان: أن إستحقاقهم للصّلاة باعتبار أمور ثلاثة:

أحدها: فضائلهم النّفسانية، كالعلوم والملكات الخلقية الفاضلة، وإليه أشار بقوله: **(صلاة تكون إزاءً لفضلهم)**.

وثانيها: أعمالهم الظاهريّة، من العبادات والطاعات، وإليه أشار بقوله: **(ومكافأة لعملهم) أي مجازاة له.**

وثالثها: طيب أصولهم الزكيّة المطهرة، وتفرّعهم عنها مع فروعهم الطيبة المتفرّعة منهم، وإليه أشار بقوله: **(وكفاءً لطيب فرعهم وأصلهم)** هذا، ويجوز أن يكون الأوّلان إشارة إلى جهة الإستحقاق، والأخير إشارة إلى كمال الصّلاة، أي صلاة زاكية طيبة مماثلة لطيب أصلهم وفرعهم، وهذا هو الأظهر **(ما أنار فجر ساطع وخوى نجم طالع)** أي دائمة بدوامها مستمرّة إلى مدى الدهر.

الترجمة

اما پس از سپاس و حمد خدایی که گردانید حمد را بهای نعمت خود و پناه از بلیت خود و وسیله های رسانیدن به سوی بهشت ها و سبب زیادتی احسان و صلوات و درود بر رسول و پیغمبر او که نبی رحمت است ومقتدای همه پیشوایان وچراغ امّتان و هدایت کننده ایشان که برگزیده شده از طینت و خمیره کرامت و از نطفه مجد و بزرگی قدیم و محل کاشته شدن مفاخرتی است که ثابت و ریشه دار است و شاخه رفعت و بلندی است که میوه آور و برگ دار است و صلوات بر اهل بیت او که چراغ های تاریکی ها و نگه دارندگان امت ها هستند و علامت های آشکارای دین اند و معیارهای افزون فضل اند. تحیت و درود خدای تعالی بر همه ایشان باد، چنان تحیّتی که باشد مقابل فضل و مزیّت ایشان و مجازات طاعت و عبادت ایشان و مساوی پاکیزگی فرع و اصل ایشان، مادامی که روشن است صبح بلندشونده و غروب کننده است کوکب طلوع نماینده.

الفصل الثاني

«فإنّي كُنتُ في عُنفُوانِ السّنّ، وَغَضاضَةِ الْغُصْنِ، إبْتَدَأْتُ بِتأْليفِ كِتابٍ في خَصائِصِ الأَئِمَّة عَلَيْهِمُ السَّلامُ، يَشْتَمِلُ عَلى مَحَاسِنِ أَخْبارِهِمْ، وَجَواهِرِ كَلامِهِمْ، حَداني عَلَيْهِ غَرَضٌ ذَكَرْتُهُ في صَدْرِ الْكِتابِ، وَجعَلْتُهُ أَمامَ الْكَلامِ، وَفَرَغْتُ مِنَ الْخَصائِصِ الَّتي تَخُصُّ أَمير الْمُؤْمِنينَ علِياً ﷺ وَعاقَتْ عَنْ إتْمامِ بَقِيَّةِ الْكِتابِ مُحاجِزاتُ الزَّمانِ، وَمُماطَلاتُ الأَيّامِ، وَكُنتُ قَدْ بَوَّبْتُ ما خَرَجَ مِنْ ذلِكَ أَبْواباً، وفَصَّلْتُهُ فُصُولاً فَجاءَ في آخِرِها فَصْلٌ يَتَضَمَّنُ مَحاسِنَ ما نُقِلَ عَنْهُ ﷺ مِنَ الْكَلامِ الْقَصيرِ، في الْمَواعِظِ وَالْحِكَمِ وَالأَمْثالِ وَالآدابِ، دُونَ الْخُطَبِ الطَّويلَةِ، وَالْكُتُبِ الْمَبْسُوطَةِ، فَاسْتَحْسَنَ جَماعَةٌ مِنَ الأَصْدِقاءِ وَالإِخْوانِ، ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْفَصْلُ الْمُقَدَّمُ ذِكْرُهُ، مُعْجَبينَ بِبَدائِعِه، وَمُتَعَجِّبينَ مِنْ نواصِعِهِ، وسَأَلُوني عِنْدَ ذلِكَ: أَنْ أَبْدَأَ بِتأْليفِ كِتابٍ يَحْتَوي عَلَىٰ مُخْتارِ كَلامِ مَوْلانا أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ﷺ في جَميعِ فُنُونِهِ، وَمُتَشَعِّباتِ غُصُونِهِ؛ مِنْ خُطَبٍ وَكُتُبٍ وَمَواعِظَ وَأَدَبٍ (وآدابٍ خ ل) عِلْماً أَنَّ ذلِكَ يَتَضَمَّنُ مِنْ عَجائِبِ الْبَلاغَةِ، وَغَرائِبِ الْفَصاحَةِ، وَجَواهِرِ الْعَرَبِيَّةِ، وثَواقِبِ الْكَلِمِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ، ما لا يُوجَدُ مُجْتَمِعاً في كَلامٍ، وَلاَ مَجْمُوعَ الأَطْرافِ في كِتابٍ، إذْ كانَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ ﷺ مَشْرَعَ الْفَصاحَةِ وَمَوْرِدَها، وَمَنْشَأَ الْبَلاغَةِ وَمَوْلِدَها، وَمِنْهُ ﷺ ظَهَرَ مَكْنُونُها، وَعَنْهُ أُخِذَتْ قَوانينُها، وَعلى أَمْثِلَتِهِ، حَذا كُلُّ قائِلٍ خَطيبٍ، وَبِكَلامِهِ اسْتَعانَ كُلُّ واعِظٍ بَليغٍ، وَمَعَ ذلِكَ فَقَدْ سَبَقَ وَقَصَّرُوا، وَتَقَدَّمَ وَتَأَخَّرُوا، لأَنّ كَلامَهُ ﷺ الْكَلامُ الَّذي عَلَيْهِ مَسْحَةٌ مِنَ الْكَلامِ الإِلٰهِي، وَفيهِ عَبَقَةٌ مِنَ الْكَلامِ النَّبوي، فَأَجَبْتُهُمْ إلَى الإِبْتِداءِ بِذلِكَ، عالِماً بِما فيهِ مِنْ عَظيمِ النَّفْعِ، وَمَنْشُورِ الذِّكْرِ، وَمَذْخُورِ الأَجْرِ، وَاعْتَمَدْتُ بِهِ أَنْ أُبَيِّنَ بِهِ مِنْ عَظيمِ قَدْرِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ﷺ في هٰذِهِ الْفَضيلَةِ، مُضافَةً إلَىٰ الْمَحاسِنِ الدَّثِرَةِ وَالْفَضائِلِ الْجَمَّةِ، وَأَنَّهُ ﷺ انْفَرَدَ بِبُلُوغِ غايَتِها مِنْ جَميعِ السَّلَفِ، الأَوَّلينَ الَّذينَ إنَّما يُؤْثَرُ عَنْهُمْ مِنْها الْقَليلُ النّادِرُ، وَالشّاذُّ الشّارِدُ، وَأَمّا كَلامُهُ ﷺ فَهُوَ الْبَحْرُ الَّذي لا يُساجَلُ، والْجَمُّ الَّذي لا يُحافَلُ»، وَأَرَدْتُ أَنْ يَسُوغَ لِيَ التَّمَثُّلُ في الإِفْتِخارِ بِهِ ﷺ بِقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ.

(شعر)

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

اللغة

(عنفوان) الشّيء بضم العين والفاء: أوّله أو أوّل بهجته، قال المطرّزي وهو فنعلان من العفو وهو الصّفو، أو فعلوان من حُروف العنف، لأنّ أوّل الشّباب حالة خرق وجرى على غير رفق، ويحتمل أن يكون من باب الإبدال، ويكون أصله إنفوان، ويدلّ على هذا قولهم اعتنفت الشّيء بمعنى أيتنفته إذا استقبلته، انتهى **(ومعجبين)** ومعتجّبين إسمان للفاعلين: الأوّل من باب الأفعال، والثّاني من التفعّل.

قال الشّارح المعتزلي: فمعجبين من أعجب فلان بنفسه وبرأيه فهو معجب بهما، والإسم العجب بالضمّ، ولا يكون ذلك إلا في المستحسن، ومتعجّبين من قولك تعجّبت من كذا؛ والإسم العجب، وقد يكون في الشّيء يستحسن ويستقبح ويتهوّل منه ويستغرب، ومراده ههنا التّهول والإستغراب ومن ذلك قول أبي تمام:

أبدت أساً إذ رأتني مجلس القصب وآل ما كان من عجب إلى عجب

يريد: أنّها كانت معجبة إلى أيّام الشّبيبة، لحسنه، فلمّا شاب انقلب ذلك العجب عجباً إمّا استقباحاً، أو تهوّلاً منه واستغراباً، وفي بعض الرّوايات: معجّبين بالتّشديد، أي أنّهم يعجّبون غيرهم، انتهى.

وقال الفيروز آبادي: العجب بالضمّ الزّهو والكبر وإنكار ما يرد عليك، كالعجب محرّكة، وجمعها أعجاب والإسم: العجيبة والاعجوبة بالضم، وتعجّب منه واستعجبت منه كعجبت وعجّبته تعجيباً وأعجبه حملهُ على العجب **(والثواقب)** جمع الثّاقب، قال تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾[1].

وهو الذي يثقب بضيائه الظلام، وفي بعض النّسخ بدلها يواقيت، جمع ياقوت من الجواهر المعروفة، وأجوده الأحمر الرّماني، **(والمشرع)** كالمشرعة مورد الشّاربة وهكذا **(المورد)** والموردة، أي ما أتاه الماء **(والمسحة)** بفتح الأوّل، وسكون الثّاني، وتخفيف الثّالث يقال: عليه مسحة من جمال أو هزال، أي شيء منه **(وعبق)** به الطيب عبقاً كفرح: لزق به، ورجل عبق وامرأة عبقة إذا تطيّبا بأدنى طيب لم يذهب منهما أياماً، والعبقة محرّكة وضر السّمن في النّحى **(ولا يساجل)** في بعض النّسخ بالجيم من ساجله أي باراه وفاخره، كأنّه من السّجل، وهو الدلو العظيمة مملوّةً وملاء الدّلو، وفي بعض النّسخ بالحاء من السّاحل، وهو ريف البحر وشاطئه **(والجمّ)** الكثير من كل شيء ومن الماء معظمه كجمّته **(ولا**

(١) القاموس المحيط: ١/ ٣٦.

يحافل) قال الشّارح المعتزلي: أي لا يفاخر بالكثرة، أصهل من الحفل وهو الإمتلاء، والمحافلة المفاخرة بالامتلاء، ضرع حافل أي ممتلىء كثير لبنه **(وساغ)** الشّراب سوغا سهل مدخله، قال الشّاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلا أكاد أغصّ بالماء الفرات

الإعراب

قوله: فإنّي جواب أمّا بعد، لقيامه مقامهما على ما فصل في كتب الأدب، **(ومعجبين ومتعجّبين)** منصوبان على الحال، **(وعلماً)** منصوب على المفعول له أو على أنّه حال بمعنى الفاعل أي عالمين والعامل فيه سألوني، «ومن» في قوله: من عظيم قدر إمّا زائدة، أو للتّبعيض، وفي بعض النّسخ بدلها: عن، وقوله وأنّه انفرد، عطف على عظيم.

المعنى

إعلم أنّ مقصود السّيد (قده) بهذا الفصل إقتصاص حاله في تأليف هذا الكتاب والإشارة إلى الأسباب الحاملة له على ذلك قال (ره): **(فإنّي كنت في عنفوان السّن)**، أي أوّلها وحين بهجتها ونضارتها **(وغضاضة الغصن)** أي طراوته وغضارته **(ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة عليهم السّلام)** أي ما تختصّ بهم من المناقب والمكارم والكمالات التي لا توجد في غيرهم **(يشتمل على محاسن اخبارهم وجواهر كلامهم حداني)**، أي بعثني وحثّني (عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغته من الخصائص التي تخصّ أمير المؤمنين عليّاً ﷺ و**(عاقت)** أي منعت **(عن اتمام بقية الكتاب محاجزات الزمان)** أي ممانعاته، كأنّ الزّمان يمنعه عن الإتمام وهو يمنعه من منعه له، فالممانعة من الطرفين، والمدافعة بين الاثنين **(ومماطلات الأيام)** أصل المطل: التّسويف بالعدة، فاستعار لفظ المماطلات لشواغل الدّهر، ومشاغله، بعنوان الإستعارة التبعية، والجامع إيجاب كلّ منهما لتأخير العمل، فكأن الزّمان لاغتراره بطوله، يعده ويمنّيه ويسوّفه، بإنجاز العمل وكأنّه لطول أمله، يعد الزّمان بإتمام العمل وإيقاعه فيه، ويشتغل بشغل آخر، **(وكنت قد بوّبت ما خرج من ذلك)** الكتاب **(أبواباً وفصّلته فصولا فجاء في آخرها)** أي آخر تلك الفصول: **(فصل يتضمّن محاسن ما نقل عنه** ﷺ من الكلام القصير في المواعظ) التي تليّن القلب بذكر الوعد والوعيد، والثّواب والعقاب: **(والحكم)** أي العلوم التي ترفع الإنسان عن فعل القبيح **(والأمثال)** السائرة، وقد مر تفصيلها في ديباجة الشّرح في ضمن المحاسن البديعية عند التعرّض لإرسال المثل، فتذكر **(والآداب)** أي محاسن الأخلاق **(دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء والإخوان ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره)** أي

الفصل الآخر (**معجبين ببدائعه**) أي مظهرين للعجب أو حاملين لغيرهم على العجب بما فيه من الألفاظ والمعاني البديعة العجيبة، (**ومنعجّبين من نواصعه**) أي مطالبه ومقاصده الخالصة من الكدر (**وسألوني عند**) استحسانهم (**ذلك أبدء بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين** عليه السلام) أي ماله مزيد إبداع في باب البلاغة والخطابة، وإلاّ فكلّ كلامه عليه السلام أكثر من أن يُؤَلَّفُ في كتاب، أو يُرتَّبُ في باب.

وقد قال قطب الدّين الرّاوندي: سمعت بعض العلماء بالحجاز يقول: إني وجدت بمصر مجموعاً من كلام علي عليه السلام في نيّف وعشرين مجلّداً (**في جميع فنونه**) أي أنواعه وأساليبه المختلفة (**ومتشعّبات غصونه**) أي فروعه وأغصانه المتفرّقة (**من خطب وكتب ومواعظ وأدب**) وإنّما سألوني ذلك (**علماً**) منهم (**إنّ ذلك**) المؤلف (**يتضمّن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربيّة**) أي الألفاظ العربيّة التي في العزّة والنّفاسة كالجواهر (**وثواقب**)[1] **الكلم الدّينيّة والدّنيوية**) أي الكلمات التي في الضوء واللمعان كالنّجوم الثّاقبة، أو في الشّرافة والبهاء بمنزلة اليواقيت (**ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين** عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها) شبّه الفصاحة بماء صاف زلال يروي الغليل، لأنّ فيها ترويح الأرواح، واستلذاذ النّفوس، كما أنّ بالماء حياة الأبدان، وريّ العطشان، فهي إستعارة بالكناية، وذكر المشرع والمورد تخييل، وجعله عليه السلام مشرعاً وموراداً لها، لاستفادتها وأخذها منه عليه السلام، كما يستقي الماء من الشّريعة.

قال الشّارح البحراني: ولو قال: مصدرها وموردها لكان أبلغ، إذ المشرع والمورد مترادفان أو قريبان من التّرادف.

قلت: النّظر هنا إلى جهة الورود لا الصّدور كما يؤمي إليه قوله: (**ومنشأ البلاغة ومولدها**) جعل البلاغة ولداً له عليه السلام وجعله أمّا لها لظهورها منه عليه السلام (**ومنه** عليه السلام ظهر مكنونها) ومخزونها (**وعنه أخذت قوانينها**) أي ضوابطها وقواعدها (**وعلى أمثلته حذا**) واقتفى (**كلّ قائل خطيب وبكلامه إستعان**) واستمدّ (**كلّ واعظ بليغ**) ومع كلّ (**ذلك**) الإحتذاء والاقتفاء والإستعانة والاتّباع (**فقد سبق**) عليه السلام في ميدان سباق الفصاحة (**وقصّروا وتقدّم**) في مضمار البلاغة (**وتأخروا**) وأعجز صاغة الخطابة بحسن الصّياغة، فلم يبلغ المقتفون أثره، ولم يدركوا شاوه، ولم يشقوا غباره (**لأن كلامه** عليه السلام) فيه من بديع النّظم وحسن الأسلوب، ما يشنف الآذان، ويهجم على القلوب من دون إستيذان، فيبهر العقول بما يقول، ويسحر النّفوس بالبيان المأنوس، وهو (**الكلام الذي عليه مسحة**) وجمال (**من الكلام الإلهي وفيه**

---

(١) في نسخة: يواقيت.

عبقة) ورائحة (من الكلام النبوي) بل هو درٌّ من ذلك العقد، وجدول من ذلك النّهر، ونهر من هذا البحر، ولذلك فاض وفاق على كلام غيره وجمع بين محاسن الألفاظ ومزايا المعاني.

فإن نظرت إلى ألفاظه وجدت فيها من الرواء والمهابة والعظمة والفخامة والمتانة والجزالة والحلاوة والطلاقة والرّقة والسلاسة ما قضيت منها العجب، بل لازلت معجباً بها أشدّ الإعجاب، مشعوفاً بلطائف لم يخرق على مثلها للسمع حجاب، وعرفت أنّها لم تصدر إلاّ عن ذي عارضة قويّة، وقريحة ملكوتية.

وإن نظرت إلى جانب المعنى عرفت عظم قدره، وبعد غوره، وشرف جوهره، وإحتوائه لأنواع العلوم، وإبانته عن السّر المكتوم، وحكايته عن خبيّات الموجودات، وروايته عن خفيات المصنوعات، وتوضيحه ما أشكل، وتفصيله ما أجمل؛ وتفسيره ما أعضل.

فمن أين لغيره ﷺ هذه المادّة التي عبّرت هذه الألفاظ عنها.

ومن أين يعرف أهل الجاهليّة الجهلاء؟، والعرب العرباء الذي هم سند البلاغة وعليهم إستنادها هذه المطالب الغامضة، ليسفروا عن خمارها، أو يغوصوا في غمارها، ومنتهى فصاحة أهل الجاهلية أنّهم يصفون بعيراً أو فرساً أو حمار وحش أو ثور فلاة أو صفة جبال أو فلوات، ونحو ذلك.

وأمّا غيرهم من الإسلاميّين كبديع الزّمان وعلاّمة همدان وأبي محمّد الحريري وابن نباتة وسحبان الوائلي، ومن حذا حذوهم مع شدة ذكائهم، وغاية براعتهم، وانتقادهم، واشتهارهم في حسن الصّياغة، ترى كلامهم متضمّناً لأباطيل اللّغو، وأضاليل اللّهو، ومشتملاً على الجدّ والهزل، والرّقيق والجزل، مفرغاً في قالب الصّياغة على نهج التكلف، حيث ألجأهم رعاية الإسجاع والجناس، ولحاظ التّطبيق والتّرصيع والمقابلة ونحوها إلى أن جعلوا المعاني تبعاً للألفاظ، مع أنّ البليغ لا بدّ وأن يجعل اللّفظ قالباً للمعنى، فإنّ اللّباس يقطع على قدر القامة، وعلى حد السّيف يؤخذ الغمد، فإن المعاني إذا أرسلت على سجيّتها لم تكتس إلاّ ما تليق بها، ولا تتلبّس إلاّ ما يزيّنها، ومن تكلف لإبداع المحاسن، أطلق على نفسه لسان العتب، مع ما تحمله من التّعب وأفضى به طلب الإحسان، إلى أشنع القبح، وأوقعه الولوع بالثّناء عليه في ورطة القدح.

فقد ظهر من هذا كلّه أنّ كلام أمير المؤمنين ﷺ فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، ولا يقاسُ به كلام أحد في النّظم مع عظم الفحوى، فهو ﷺ الفارس المجلى في ميدانه، والنّاطق الذي تقرّ الشّقاشق عند بيانه، والبحر الذي يقذف بجواهره، ويحكم على القلوب باتّباع نواهيه وأوامره، ويدلّ على الخيرات بترغيباته، وينهى عن المنكرات بروادعه

وترهيباته، فحقيق بكلامه ﷺ أن يجعل أمام الكلام كما أنّه ﷺعليه السلام إمام الأنام.

قال السّيد (ره): **(فأجبتهم إلى الإبتداء بذلك، عالماً بما فيه من عظيم النفع)** للطالبين **(ومنشور الذكر)** أي الذكر الجميل ولسان الصّدق لي في الدّنيا **(ومدخور الأجر)** أي الأجر الجزيل والثواب المدخور في الآخرة **(واعتمدت)** أي قصدت **(به أن أبين من عظيم قدر أمير المؤمنين ﷺ في هذه الفضيلة)** أي فضيلة البلاغة حال كونها **(مضافة إلى المحاسن الدّثرة)** الكثيرة **(والفضائل الجمّة)** المعظمة.

(و) أبيّن **(أنّه ﷺ انفرد ببلوغ غايتها)** أي غاية هذه الفضيلة **(من جميع السّلف الأولين الذين انما يؤثر)** أي ينقل ويروى **(عنهم منها القليل النّادر والشّاذ الشّارد)** إستعارة لفظ الشّاذ والشّارد الذين هما من صفات الحيوان: للكلمات البليغة المأثورة عن السّلف بقلتها وندرتها الموجبة لانفرادها من أمثالها، وخروجها عن نظامها، فإن الشاذ هو الحيوان المنفرد الذي لا يصحب أمثاله، والشّارد من البعير النّافر الخارج عن نظام الإبل. **(وأمّا كلامه ﷺ فهو البحر الذي لا يساجل)** أي لا يغالب ولا يفاخر عليه في الإمتلاء والكثرة، أو أنّه البحر الذي ليس له ساحل **(والجم الذي لا يحافل)** أي الكثير الذي لا يعارض ولا يباري **(وأردت أن يسوغ لي)** أي يجوز، أو إستعارة تبعيّة حيث استعير لفظ السّوغ الذي هو من أوصاف الشّرب، للتمثل، وهو من إستعارة المحسوس للمعقول، والجامع أنّ في المستعار منه لذّة للشّاربين وفي المستعار له التذاذ للمتمثل في **(التمثل في الافتخار به صلّى الله عليه وإله بقول الفرزدق)**.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أقول: وأنا أيضاً أتمثل بذلك وأفتخر به صلى الله عليه وآله كالسّيد (ره) لكوننا فرع أصل واحد، وغصن دوحةٍ واحدة، وانتهاء نسبي ونسب السّيد (ره) إلى العبد الصّالح موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم أفضل الصّلاة والسّلام، والثّناء والإكرام.

ومن لم يكن علوياً حين تنسبه فماله في قديم الدّهر مفتخر

والفرزدق اسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمّد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم، مقدّم شعراء العصر أبو فراس التميمي البصري، والبيت من قصيدة يهجو بها جريراً، ويردّ عليه قصيدة له على هذا الرّوي منها:

ومنّا الذي اختير الرّجال سماحة وجوداً إذا هب الرّياح الزّعازع

ومنّا الذي أعطى الرسول عطية اساري تميم والعيون دوامع

ومـنـا الـذي يـعـطـي الـمـئـين ويـشـتـري الـعـوالـي ويـعـلـو فـضـلـه مـن يـدافـع
ومـنّـا الـذي احـيـي الـوئـيـد وغـالـب وعـمـرو ومـنّـا حـاجـب والأقـارع
ومـنّـا الـذي قـاد الـجـيـاد عـلـى الوحـا لـنـجـران حـتّـى صـبّـحـتـه الـنـزائـع
ومـنّـا غـداة الـرّوع فـرسـان غـارة إذا مـتـعـت بـعـد الـزّجـاج الأشـاجـع
ومـنّـا خـطـيـب لا يـعـاب وحـامـل أعـزّ إذا الـتـفّـت عـلـيـه الـمـجـامـع

أولئك آبائي، البيت ثم قال:

بـهـم أعـتـلـي مـا حـمّـلـتـنـيـه دارم واصـرع أقـرانـي الـذيـن أصـارع
تـنـحّ عـن الـبـطـحـاء انّ قـديـمـهـا لـنـا والـجـبـال الـرّاسـيـات الـقـوارع
أخـذنـا بـآفـاق الـسـمـاء عـلـيـكـم لـنـا قـمـراهـا والـنّـجـوم الـطـوالـع
إذا قـيـل أيّ الـنّـاس شـرّ قـبـيـلـة أشـارت كـلـيـب بـالأكـفّ الأصـابـع
فـواعـجـبـاً حـتّـى كـلـيـب يـسـبّـنـي كـأنّ أبـاهـا نـهـشـل أو مـجـاشـع
أتـعـدل أحـسـابـاً لـئـامـاً أدقّـة بـأحـسـابـنـا إنّـا إلـى الله راجـع

قال الأعلم: وصف قومه بالجود والتكرّم عند اشتداد الزّمان وهبوب الرّياح، وأراد بذلك زمن الشّتاء ووقت الجدب، والعرب تمدح بالقرى في الشّتاء لأنّه وقت الجدب، «ومنّا الذي أعطى الرّسول» أراد به أقرع بن حابس أعطاه رسول الله ﷺ أساري تميم يوم حنين كما في «**شرح المعتزلي**» و(**العوالي**) جمع العالية ويوصف بها القناة والنّاقة، واسم أرض وهي ما فوق نجد إلى أرض تهامة إلى ما وراء مكة.

قال في (**القاموس**): وقرىً بظاهر المدينة وهي (**العوالي**)، «ومنّا الذي أحيى الوئيد»[1] أراد به جده صعصعة، صحابيّ رسول الله ﷺ، قال ابن أبي الدّنيا: لم يكن أحد من أشراف العرب بالبادية كان أحسن دنيا من صعصعة، وهو الذي أحيي ألف مؤدّةٍ، وحمل على ألف فرس، وهو الذي افتخر به الفرزدق و(**الوحاء**) العجلة (**والنزائع**) النّجائب التي تجلب إلى بلادٍ غيرها ومنتجها، جمع نزيعة، وعنى بذلك البيت غزاة الأقرع بن حابس بني تغلب بنجران، وقوله: «إذا متّعت ا ه» قال الشّارح المعتزلي: أي إذا مدّت الأصابع بعد الزّجاج إتماماً لها، لأنّها رماح قصيرة[2] وفي «**مجمع البحرين**»: الزّجاج بالكسر جمع زجّ بالضمّ الحديدة التي في أسفل الرّمح، (**وحامل**) أي حامل للدّيات وقوله: (**أولئك آبائي**) استشهد به علماء المعاني

---

(١) راجع تاريخ الطبري: ٤/ ١٨١ ففيه: أنا ابن الذي أحيى الوئيد وضامن على الدهر إذ عزت لدهر مكاسبه.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ٤٧.

على استعمال اسم الإشارة للتّعريض بغباوة السّامع بحيث أنّه لا يفهم إلاّ المحسوس المشار إليه، وقوله: «**فجئني بمثلهم**» أمر تعجيز (**ودارم**) قبيلة الفرزدق وأراد (**بالبطحاء**) مكة زادها الله شرفاً «والرّاسيات» الثّابتات و(**الفوارع**) الطّوال «وآفاق السّمآء» نواحيها (**وقمراها**) الشّمس والقمر، وقيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإبراهيم الخليل «والنّجوم الطوالع» الأئمة عليهما السّلام، (**وكليب**) رهط جرير، وهو مجرور على حذف الجار وإبقاء عمله، أي إلى كليب و(**نهشل**) و(**مجاشع**) رهط الفرزدق، وهما إبنا دارم و(**أدقّة**) جمع دقيق ضدّ الجليل.

الترجمة

پس به درستی که بودم من در اول شباب و جوانی و تازگی و طراوت شاخه نهال ارغوانی ابتدا کرده بودم به جمع کردن کتابی در مختصات کمالات ائمه انام(علیهم السلام) که مشتمل بود آن کتاب بر اخبار مستحسنه و کلام های جواهرآسای ایشان، برانگیخته نمود مرا به تألیف آن کتاب غرضی که ذکر نموده بودم آن غرض را در اول آن کتاب و گردانیده بودم آن را در اول آن کتاب و گردانیده بودم آن را در پیش آن کلام و فارغ شده بودم در آن کتاب از کمالات و خصایص نفسانیه حضرت امیرالمؤمنین (عليه السلام)، ولی مانع گردیده بود مرا از اتمام بقیه آن کتاب مانعات روزگار و مشاغل ایام و بودم من که مرتب کرده بودم آن چه که خارج شده بود از آن کتاب و انجام یافته بود به باب های متعدده و تفصیل داده بودم آن را به فصول عدیده، پس آمد در آخر آن فصول فصلی که متضمّن بود محاسن آن چه که نقل شده بود از امیرالمؤمنین (عليه السلام) از کلام کوتاه و مختصر، در موعظه ها و حکمت ها و مثل ها و ادب ها، نه خطبه های دراز و نامه های مبسوطه، پس نیکو شمردند جماعتی از دوستان و برادران آن چیزی را که مشتمل بود بر آن فصلی که گذشته شد ذکر آن در حالتی که خوشحال سازنده بودند غیر خود را به عجایب آن و تعجب کننده بودند خودشان از مطالب صافیه آن و خواهش کردند در این حال آن که ابتدا کنم به تصنیف و ترتیب کتابی که مشتمل باشد بر سخنان پسندیده امیرالمؤمنین (عليه السلام) در جمیع نوع ها و اسلوب های آن و در جمیع شاخه های متفرقه آن از خطبه ها و کتاب ها و نصیحت ها و ادب ها به جهت معرفت ایشان به این که آن کتاب که خواهش می کردند متضمن خواهد بود از عجیب های بلاغت و غریب های فصاحت و از جواهر مسائل عربیه و روشن های کلمات دینیه و دنیویه، آن مقداری را که یافت نمی شود فراهم شده در هیچ کلام و نه جمع شده اطراف آن در هیچ کتاب، زیرا که بود امیرمؤمنان علیه صلوات الله الملك المنّان شریعه فصاحت و محل ورود آن و منشأ بلاغت و مکان ولادت آن و از آن بزرگوار ظاهر شد پوشیده شده آن و از جانب آن جناب اخذ شد قواعد آن و

بر مثل های آن تبعیت نمود هرگوینده خطبه خواننده و با کلام او استعانت نمود هر واعظ صاحب بلاغت و با وجود این، پس به تحقیق پیشی گرفت او و تقصیر کردند ایشان و تقدم یافت او و پس افتادند ایشان، زیرا که کلام آن امام (عليه السلام) کلامی است که بر او اثر جمالی است از علم پروردگار و در او است عطری از کلام نبی مختار، پس اجابت کردم کلام ایشان را و متوجه شدم به ابتدا کردن به این کتاب در حالتی که عالم بودم به آن چه که در این کتاب است از منفعت بزرگ و ذکر جمیل مشهور و اجر ذخیره شده و قصد کردم به آن کتاب که بیان و اظهار نمایم از بزرگی قدر و منزلت امیرالمؤمنین (عليه السلام) در این فضیلت بلاغت و فصاحت در حالتی که علاوه بود این فضیلت به محاسن کثیره و فضایل وافره و اظهار نمایم از این که آن حضرت منفرد شده است به رسیدن منتهای این فضیلت از همه گذشتگان در سابق ازمان، همچنان کسانی که منقول نمی شود از ایشان از آن فضیلت مگر اندکی که نادر باشد و مگر شاذی که رمنده و تنها است.

و اما کلام معجزنظام آن حضرت پس از آن دریایی است بی پایان که به آن فخرفروشی نمی شود و معظمی است که قابل معارضه و مبارات نیست و اراده کردم که گوارا باشد به جهت من مثل زدن در افتخار نمودن به سبب رسیدن سلسله نسب من به آن امام عالی مقام (عليه السلام)، با قول فرزدق شاعر که گفته در مقام مفاخرت به جریر شاعر (اولئك آبائي اه) یعنی ایشان است پدران من، پس بیاور برای من مثل و مانند ایشان را زمانی که جمع کند ما را ای جریر مجمع ها و محفل ها.

الفصل الثالث

«وَرَأَيْتُ كَلاَمَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَدُورُ عَلَىٰ أَقْطابٍ ثَلاَثَةٍ، أَوَّلُهَا الْخُطَبُ وَالأوامِرُ، وثانِيها الْكُتُبُ وَالرَّسائِلُ، وثالِثُهَا الْحِكَمُ وَالمَواعِظُ، فَأَجْمَعْتُ بِتَوْفِيقِ اللّهِ تَعالَىٰ عَلَى الإبْتِدَاءِ بِاخْتِيَارِ مَحاسِنِ الْخُطَبِ، ثُمَّ مَحاسِنِ الْكُتُبِ، ثُمَّ مَحاسِنِ الْحِكَمِ وَالأدَبِ، مُفْرِداً لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذَلِكَ باباً، ومُفَصِّلاً فيهِ أَوْرَاقاً، لِتَكُونَ مُقَدِّمَةً لاسْتِدْرَاكِ ما عَساهُ يَشُذُّ عَنّي عاجِلاً، ويَقع إِلَيَّ آجِلاً، وَإِذَا جاءَ شَيْءٌ مِنْ كَلامِهِ ﷺ الْخارِج في أَثْناءِ حِوارٍ أَوْ جَوابِ سُؤَالٍ أَوْ غَرَضٍ آخَرَ مِنَ الأغْرَاضِ في غَيْرِ الأنْحاءِ الَّتي ذَكَرْتُها، وقَرَّرْتُ الْقاعِدَةَ عَلَيْهَا، نَسَبْتُهَا إِلَىٰ أَلْيَقِ الأبْوَابِ بِهِ، وَأَشَدِّها مُلاَمَحَةً لِغَرَضِهِ، وَرُبَّمَا جاءَ فيما أَخْتارُهُ مِنْ ذَلِكَ فُصُولٌ غَيرِ مُتَّسِقَةٍ، ومَحاسِنُ كَلِمٍ غَيْرُ مُنْتَظِمَةٍ، لأنّي أُورِدُ النُّكَتَ واللُّمَعَ، وَلاَ أَقْصُدُ التَّتالِيَ وَالنَّسَقَ، وَمِنْ عَجائِبِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ الَّتِي انْفَرَدَ بِها وَأَمِنَ الْمُشارَكَةَ فيها، أَنَّ كَلامَهُ الْوارِدَ في الزُّهْدِ وَالْمَواعِظِ، وَالتَّذْكِيرِ وَالزَّواجِرِ، إِذَا تَأَمَّله الْمُتَأَمِّلُ، وفَكَّرَ فيهِ الْمُتَفَكِّرُ، وَخَلَعَ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ كَلامُ مِثْلِهِ ﷺ مِمَّنْ عَظُمَ قَدْرُهُ، ونَفَذَ أَمْرُهُ، وأَحاطَ بِالرِّقابِ مُلْكُهُ، لَمْ يَعْتَرِضْهُ الشَّكُّ في أَنَّهُ كَلامُ مَنْ لاَحَظَّ لَهُ في غَيرِ الزَّهادَةِ، وَلاَ شُغْلَ لَهُ بِغَيرِ الْعِبادَةِ، قَدْ قَبَعَ في كِسْرِ بَيْتٍ، أَوِ انْقَطَعَ إِلَىٰ سَفْحِ جَبَلٍ، لا يَسْمَعُ إِلاَّ حِسَّهُ، ولاَ يَرَىٰ إِلاَّ نَفْسَهُ، وَلاَ يَكادُ يُوقِنُ بِأَنَّهُ كَلامُ مَنْ يَنْغَمِسُ في الْحَرْبِ مُصْلِتاً سَيْفَهُ، فَيَقُطُّ الرِّقابَ، ويُجَدِّلُ الأبْطالَ، ويَعُودُ بِهِ يَنطِفُ دَماً، ويَقْطُرُ مُهجاً، وهُوَ مَعَ تِلْكَ الْحالِ زاهِدُ الزُّهادِ، وبَدَلُ الأبْدالِ، وهٰذِهِ مِنْ فَضائِلِهِ الْعَجِيبَةِ، وخَصائِصِهِ اللَّطِيفَةِ الَّتي جَمَعَ بِها بَيْنَ الأضْدَادِ، وأَلَّفَ بَينَ الأشْتاتِ، وكَثِيراً ما أُذاكِرُ الإِخْوَانَ بِها، وَاسْتَخْرِجُ عُجْبَهُمْ مِنْهَا، وهِيَ مَوْضِعٌ لِلْعِبْرَةِ بِها، وَالْفِكْرَةِ فيها، ورُبَّما جاءَ في أَثْناءِ هَذَا الإخْتِيارِ، اللَّفْظُ الْمُرَدَّدُ وَالْمَعْنَى الْمُكَرَّرُ، وَالْعُذْرُ في ذٰلِكَ: أَنَّ رِواياتِ كَلامِهِ ﷺ، تَخْتَلِفُ إِخْتِلافاً شَدِيداً، فَرُبَّما اتَّفَقَ الْكَلاَمُ الْمُخْتارُ في رِوايَةٍ فَنُقِلَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ وجِدَ بَعْدَ ذٰلِكَ في رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ مَوضُوعاً غَيرَ وَضْعِهِ الأوَّلِ، إِمَّا بِزِيادَةٍ مُخْتَارَةٍ، أَوْ بِلَفْظٍ أَحْسَنَ عِبارَةٍ، فَتَقْتَضِي الْحالُ أَنْ يُعادَ، إِسْتِظْهَاراً لِلإخْتِيارِ، وغَيرَةً عَلَىٰ عَقائِلِ الْكَلاَمِ، ورُبَّما بَعُدَ الْعَهْدُ أَيْضاً بِمَا اخْتِيرَ أَوَّلاً، فَأُعِيدَ بَعْضُهُ، سَهْواً ونِسْياناً، لاَ قَصْداً وَاعْتِمَاداً، وَمَا[1] ادَّعي مَعَ ذَلِكَ أَنّي أُحيطُ بِأَقْطارِ جَميعِ كَلاَمِهِ ﷺ حَتَّىٰ لا يَشُذَّ عَنّي مِنْهُ شاذٌّ، وَلاَ يَنِدَّ نادٌّ، بَلْ لاَ أُبعِدُ أَنْ يَكُونَ الْقاصِرُ عَنّي فَوْقَ الْواقِعِ إِلَيَّ، وَالْحاصِلُ في رِبْقَتِي دُونَ الْخارِجِ مِنْ يَدَيَّ، وَمَا عَلَيَّ إِلاّ بَذْلُ الْجُهْدِ، وَبَلاَغُ الْوُسْعِ، وَعلى

(١) في نسخة: لا.

اللَّهِ سُبْحَانَهُ نَهْجُ السَّبيلِ، ورَشادُ الدَّليل، إنْ شَاءَ اللَّهُ، وَرَأَيْتُ مِنْ بَعْدُ تَسْمِيَةِ هٰذَا الْكِتَابِ بِنَهْجِ الْبَلاَغَةِ، إِذْ كانَ يَفْتَحُ لِلنَّاظِرِ فِيهِ أَبْوابَها، ويُقَرِّبُ عَلَيْهِ طِلاَبَها، وفيهِ حاجَةُ الْعالِمِ وَالْمُتَعَلِّم، وبُغْيَةُ الْبَلِيغِ وَالزَّاهِدِ، ويَمْضِي في أَثْنائِهِ مِنْ عَجيبِ الْكَلاَمِ في الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ، وتَنْزِيهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ شِبْهِ الْخَلْقِ، ما هُوَ بِلاَلُ كلِّ غُلَّةٍ، وشِفاءُ كُلِّ عِلَّةٍ، وجِلاَءُ كُلِّ شُبْهَةٍ، ومِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَسْتَمِدُّ التَّوْفِيقَ وَالْعِصْمَةَ، وَأَتَنَجَّزُ التَّسْدِيدَ وَالْمَعُونَةَ، وأَسْتَعِيذُهُ مِنْ خَطاءِ الْجَنانِ، قَبْلَ خَطإِ اللِّسَانِ، وَمِنْ زَلَّةِ الْكَلِمِ، قَبْلَ زَلَّةِ الْقَدَمِ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكيلُ».

اللغة

(قطب) الرّحى الحديدة التي تدور عليه، ويطلق توسّعاً على كلّ أصل ينتهي إليه ويرجع، ومنه قطب القوم لسيّدهم لكونه يدور عليه أمورهم **(والخطب)** جمع خطبة، كغرف وغرفة مأخوذة من الخطاب، وهو الكلام بين متكلّم وسامع.

قال الفيومي: وهي فعلة بمعنى مفعولة، نحو نسخة بمعنى منسوخة، وغرفة من ماء بمعنى مغروفة، **(والرّسالة)** أعمّ من الكتاب، لأنّها تكون بالقول، وقد تطلق على الكتاب الصّغير فتكون أخصّ، **(والوعظ)** التّخويف والتّذكير بأيام الله، وأمر الآخرة وعذاب النّار ونحوها، **(والحوار)** بالكسر مصدر حاورته أي خاطبته، **(والانحاء)** كنحوّ وزان عتلّ جمع نحو، وهو الطريق والجهة **(ولمحت)** الى الشّيء لمحاً من باب نفع نظرت إليه باختلاس ومنه الملامحة. وقال الشّارح البحراني: والملامحة المشابهة من قولهم في فلان ملامح من أبيه أي مشابه، وأصله من لمح البصر، وهو النظر الخفيف السّريع الزّوال وذلك أنّ الملمح مفعل وهو موضع اللمح والمشابه محل اللّمح، فلذلك اشتقت منها الملامحة، وروى ملاحمة وهي الملائمة وروى ملائمة أيضاً **(والاتساق)**: الانتظام ومنه المتّسقة، وأصلها المنتسقة فأدغمت النّون في التّاء **(والمحاسن)** جمع حسن على غير القياس كالمقابح، **(واللّمع)** مثل لماع ككتاب جمع لمعة بالضم، مثل برمة وبرام وبرم، وهي القطعة من النّبت تأخذ في اليبس وصار لها بياض، وأصله من اللّمعان **(وقبع)** القنفذ من باب منع أدخل رأسه في جلده، وقبع الرّجل في قميصه دخل وتخلف عن أصحابه، وكلّ من انزوى في جحر أو مكان ضيّق فقد قبع، **(وكسر)** البيت جانبه والشّبقة «الشقة ظ» السّفلى من الخبا، أو ما تكسّر وتثنى على الأرض منها (وأصلت) سيفه جرّده من غمده فهو مصلت **(وجدّله)** فانجدل وتجدّل، صرعه على الجدالة، وهي كسحابة الأرض **(ونطف)** الماء من باب نصر وضرب نطفاً ونطافاً بفتحهما ونطافة بالكسر، سال **(والمهج)** جمع المهجة دم القلب **(واستخرج عجبهم)** يروى بضمّ العين وفتحها مع فتح الجيم، وقد مضى تفسيره في شرح الفصل السابق **(والظهير)**

النّاظر والمعين **(الإستظهار)** للشّيء الإستعانة بغيره لحفظه، وعلى الشّيء الإستعانة بغيره للدفع، وبالّشيء الإستعانة به، **(والعقايل)** جمع عقيلة كسفينة: الكريمة المخدّرة، وسيّد القوم، وكريمة الإبل والدّر ومن كلّ شيء أكرمه، **(وندّ)** البعير ندّاً من باب ضرب ونداداً بالكسر ونديداً: نفر وذهب على وجهه شارداً، فهو نادّ **(والبلاغ)** فيما رأيته من النّسخ بفتح الباء، والظاهر أنّه من تصحيف النسّاخ، والصحيح انّه بالكسر وزان جدال مصدر بالغ في الأمر مبالغة وبلاغاً، إذا اجتهد ولم يقصر، وأمّا البلاغ بالفتح فهو بمعنى الكفاية والإيصال، ولا مناسبة له بالمقام، نعم في **«مجمع البحرين»**: البلاغ الانتهاء إلى أقصى الحقيقة، كالبلاغة، وعليه فيستقيم المعنى من غير تكلف، **(ونهج)** الطريق ينهج من باب منع: وضح واستبان، ونهجته أوضحته يستعمل لازماً ومتعدياً، والنّهج أيضاً الطريق الواضح، ومنه **«نهج البلاغة»** علماً للكتاب **(والطلاب)** وزان كتاب: ما تطلبه من غيرك، وهو مصدر في الأصل تقول: طالبته مطالبة وطلاباً من باب قاتل **(والبغية)** بالضم والكسر: الطلب يقال: بغيته بغاء وبغية وبغية طلبته كابتغيته ويطلق أيضاً على ما ابتغى كالبغيّة والبغيّة، **(وبللته)** بالماء بلاّ من باب قتل فابتلّ هو، والبلة بالكسر منه، ويجمع البل على بلال، كسهم وسهام والاسم البلل بفتحتين، وقيل البلال ما يبلّ به الحلق من ماء ولبن.

وقال الفيروز آبادي: بلال ككتاب، الماء ويثلث، وكلّ ما يبل به الحلق **(والغلة)** بالضمّ كالغلل والغليل: العطش أو شدته وحرارة الجوف، **(واستنجز)** حاجته وتنجزّها: طلب قضائها ممّن وعده إيّاها **(وزلّ)** في منطقه أو فعله يزلّ من باب ضرب زلة: أخطأ **(والكلم)** جمع الكلمة مثل كلمات صرّح به الفيومي والفيروز آبادي.

الإعراب

(مفرداً) حال مقدرة من فاعل أجمعت والجاز في قوله (ره) **(في غير الانحاء)** متعلق بقوله **(جاء)** وجملة: نسبتها جواب **(إذا)** **(ومن)** في قوله (ره) ممّن لبيان الجنس وجملة: لم يعترضه، جواب **(إذا)** و**(حسّه)** بالنّصب مفعول يسمع، وفاعله ضمير مستتر عائد إلى **(من)** الموصولة، كالضّمير في حسّه، وكذلك سائر الضّمائر المتقدّمة المستترة والبارزة والضّمير في قوله: ويعود به، راجع إلى السّيف، وجملة: ينطف منصوبة المحلّ على الحال من ضمير به، والعامل يعود **(ودما ومهجا)** منصوبان على التّميز، أو على المفعول به، لأنّ ينطف ويقطر يستعملان متعدّيين أيضاً، والثّاني أوفق وجملة: وهو مع تلك الحال أيضاً حالية من فاعل ينغمس وقوله: وكثيراً ما أذاكر، نصب على الظرفيّة، لأنّه من صفة الإحسان وما لتأكيد معنى الكثرة، والعامل ما يليه، أي حيناً كثيراً، ويحتمل النّصب على أنّه صفة لمصدر محذوف، أي أذاكر ذكراً كثيراً وقوله: من بعد، من ظروف الغايات، مبنيّ على الضمّ، كما في قوله تعالى:

﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم: ٤].

أي رأيت من بعد الفراغ، فحذف المضاف إليه وبناؤه للشّبه الإفتقاري أو التضمّني وعلى الضمّ جبراً عن المضاف إليه المحذوف.

المعنى

إعلم أنّ غرضه بهذا الفصل التّنبيه على أمور ينبغي التّنبيه عليها مع الإشارة إلى عظم قدر كلام أمير المؤمنين ﷺ ومزيد خصائصه وعجائبه مع الإشارة إلى إسم هذا الكتاب ووجه تسميته بما سمّاه فقال: (**ورأيت كلامه** ﷺ يدور على أقطاب ثلاثة): تشبيه الأمور الثّلاثة بالقطب لأنّ أجزاء كلامه ﷺ وأقسامه تنتهي إلى تلك الأمور وتدور عليها، فهي مدار لهذه الأجزاء، ومرجع لتلك الأقسام، كما أنّ القطب مدار الرّحى، وإليه تنتهي حركتها.

(**أوّلها الخطب والأوامر**): تطلق الخطبة غالباً على الكلام المنتظم المتضمّن لمحاسن البلاغة والمتكلف فيه بحفظ الأوزان والفواصل، والأوامر هي الأحكام والتكاليف المتعلقة بأفعال المكلفين، المتضمّنة لما فيه صلاحهم في الدّين أو الدّنيا، كالأُمور المدنيّة وما فيه تدبير الحروب.

(**وثانيها الكتب والرّسائل**): أمّا الكتب فمعلومة، وأمّا الرّسائل فالمراد بها هنا الكتب الصّغيرة، أو الكلام الصّادر منه ﷺ في مقام بعث السّفراء والرّسل، أو ما كانت جواباً لهم.

(**وثالثها الحكم والمواعظ**): ربّما يفسّر الحكمة بالعلم الذي يرفع الإنسان عن فعل القبيح مستعارة من حكمة اللجام، وهي ما أحاط بحنك الدّابة يمنعها من الخروج، وقد تفسّر بفهم المعاني، لمنعها من الجهل، وبه فسّر قوله تعالى:

﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والموعظة هي الوصيّة بالتّقوى، والحثّ على الطاعات، والتّحذير عن المعاصي، والإغترار بالدّنيا، وزخارفها؛ ونحو ذلك هذا.

ولا يخفى عليك أنّ الأقطاب الثّلاثة ربّما يتداخل بعضها بعضاً، وقد يتفرّد بعضها عن بعض، وعقد السّيد (ره) على كلّ منها باباً لحسن النّظم، وبديع الترتيب كما نبّه عليه بقوله (**فأجمعت**) أي عزمت مستمدّاً (**بتوفيق الله**)، وتأييده (**على الابتداء باختيار محاسن الخطب**) أي بمختار محاسنها (**ثم**) اختيار (**محاسن الكتب ثم**) اختيار (**محاسن الحكم والأدب مفرداً**) أي مريداً الافراد (**لكلّ صنف من ذلك**) المختار (**بابا**) مستقلاً (**ومفضّلاً فيه**) أي في ذلك الباب

(أوراقاً) بياضاً (**لتكون**) هذه الأوراق المفضلة مقدّمة (**لإستدراك ما عساه يشذّ**) ويندر (**عني عاجلاً**) أي حين التأليف (ويقع إليّ آجلاً) أي بعد التأليف.

والمقصود بهذا الكلام كما يستفاد من آخر الكتاب أيضاً أن السّيد (ره) حين أراد جمع كلماته المختارة سلام الله على قائلها وعقد عليها ثلاثة أبواب، ترك في ذيل كلّ باب أوراقاً بياضاً زائدة في نسخة الأصل، ليستدرك في تلك الأوراق ما لم تصل إليه يده من كلامه عاجلاً، ويثبته فيها لو أمكن له الظفر والوصول إليه في الآجل، ويلحق ما يجده بما يناسبه من الأبواب، ويضيفه إليه (**وإذا جاء شيء من كلامه ﷺ الخارج**) عنه (**في أثناء حوار**) أي محاورة (**أو جواب سؤال أو غرض آخر من الأغراض**) مثل ما صدر عنه في مقام الإحتجاج، أو الوصيّة، أو مدائح النّبي أو آله عليه وعليهم السّلام (**في غير الانحاء**) أي الوجوه والمقاصد (**التي ذكرتها وقررت القاعدة عليها**)، وهي ما ذكرها وقرّرها من الأقطاب الثلاثة (**نسبته**) أي أضفته (**إلى أليق الأبواب به**) أي بذلك الشّيء (**وأشدّها ملامحة**) أي مشابهة ومناسبة (**لغرضه**) كما أدخل جملة من عهوده إلى عمّاله ووصاياه لأهله وأصحابه في باب المختار من الكتب، وأدخل بعض ما صدر عنه ﷺ في مقام الإحتجاج، وفي مدح النبيّ صلى الله عليه وآله عليهم السّلام، في باب المختار من الخطب، ونحو ذلك ممّا يطلع عليه المحيط بأقطار كلامه ﷺ، ثم اعتذر عن التقطيع والإلتقاط، وحذف بعض الكلمات فيما يرويه من الخطب، وغيرها، حتى ترى كثيراً منها كعقد إنفصم نظامه بقوله: (**وربّما جاء فيما اختاره من ذلك فصول غير متسقة**) أي خارجة عن النّظم والنّسق (**ومحاسن كلم غير منتظمة**) أي خالية عن الارتباط، وأن يتلو بعضها بعضاً (**لأني أورد النكت واللمع**). قال الشّارح البحراني: النكتة هي الأثر في الشّيء به يتميز بعض أجزائه عن بعض، ويوجب له الإفتقار، والتفات الذّهن إليه كالنقطة في الجسم والأثر فيه الموجب للإختصاص بالنظر، ومنه رطبة منكتة؛ إذا بدا أرطابها، ثمّ عدّى إلى الكلام والأمور المعقولة التي يختصّ بعضها بالدّقة الموجبة لمزيد العناية والفكر فيها فسمّي ذلك البعض نكتة، قال: واللّمعة هي البقعة من الكلاء، وأصله من اللّمعان وهو الإضائة والبريق، لأنّ البقعة من الأرض ذات الكلاء كأنها تضيء لخضرتها ونضارتها، دون سائر البقاع وعدّى إلى محاسن الكلام وبليغه، لإستنارة الأذهان به، ولتميزه عن سائر الكلام، فكأنّه في نفسه ذو ضياء ونور.

وبالجملة فمراده أنّي أورد من أجزاء كلامه ماله مزيد إبداع وبراعة في باب البلاغة (**ولا أقصد التّالي والنسق**) والنّظم والتّرتيب.

ثم أشار إلى بعض الخصال العجيبة لأمير المؤمنين ﷺ التي جمع بها بين الحالتين المتضادتين فقال: (**ومن عجائبه** ﷺ التي انفرد بها، وأمن المشاركة فيها) أي لم يشاركه فيها

أحد، ولم تتناولها يد **(أنّ كلامه الوارد في الزُهد والمواعظ والتذكير والزواجر) أي الوعد والوعيد والبشارة والإنذار) (إذا تأمله المتأمل وفكر فيه المتفكر)** وأمعن فيه النظر وبلغ غوره **(وخلع من قلبه أنّه كلام مثله)** أي قدّر أنّه ليس بكلامه، وأغمض النظر عن أنّه كلام مثله **(ممّن** عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه) وهو سلطان البلاد، وخليفة العباد **(لم يعترضه الشّك)** ولا يعتريه الرّيب **(في أنّه كلام)** مخلص معرض عن غيره تعالى بقلبه و**(من لا حظ له في غير الزّهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع)** وانزوى **(في كسر بيت)** والتزم زاوية الخمول **(أو انقطع إلى سفح الجبل)** أي أسفله كما هو شعار الزّهاد المعرضين عن الدّنيا **(لا يسمع)** ذلك الزّاهد المنقطع **(إلاّ حسّه)** أي حسّ نفسه **(ولا يرى إلاّ نفسه)** لإنقطاعه عمّن سواه **(ولا يكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس في الحرب)** إستعارة بالكناية، حيث شبّه الحرب باعتبار غمارها، واختلاط المتحاربين فيها، بالماء الجمّ المتراكم الأمواج، فأثبت لها الإنغماس، وهو الخوض في الماء تخييلاً وأردفه بقوله: **(مصلتا سيفه)** أي مجرّداً له من غمده ترشيحاً **(فيقطّ الرّقاب)** أي يقطعها عرضاً، وقد روي أنّ ضربات أمير المؤمنين ﵇ كانت أبكاراً، إن ضرب عرضاً قط، وإن ضرب طولاً قط **(ويجدّل الأبطال)** والشّجعان؛ أي يلقيهم على الجدالة ووجه الأرض **(ويعود به)** أي بسيفه حال كونه **(ينظف)** ويسيل **(دماً ويقطر مهجاً)** قال الشّارح البحراني: إن فسّرنا المهجة بالدّم، كانت نسبة القطر إليها حقيقة، وإن فسّرناها بالروح كانت مجازاً تشبيهاً للرّوح بالمايعات الخارجة من الانسان كالدّم ونحوه **(وهو** ﵇ مع تلك الحال) من القتل والإستيصال، وعلى ذلك الشّأن من الشّجاعة وإراقة الدّماء **(زاهد الزّهاد، وبدل الأبدال)**.

أقول

أمّا شجاعته وبأسه ومصادمته الأقران، فغنيّ عن البيان، قال **«كاشف الغمة»**: ومراسه وثبات جأشه حيث تزلزل الأقدام، وشدة صبره حيث تطير فراخ الهام، وسطوته وقلوب الشّجعان واجفة، واستقراره وأقدام الأبطال راجفة، ونجدته عند انخلاع القلوب من الصّدور، وبسالته ورحى الحرب تدور والدّماء تفور، ونجوم الأسنّة تطلع وتغور، وكشفه الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، وقد فرّ من فرّ من أصحابه، وبذله روحه العزيزة رجاء ما اعتدّ الله من ثوابه، فهي أمر قد اشتهر، وحال قد بان وظهر، يعرفه من بقي ومن غبر، وتضمّنته الأخبار والسّير، فاستوى في العلم به البعيد والقريب، واتّفق على الإقرار به البغيض والحبيب، وصدّق به عند ذكره الأجنبيّ والنسيب، مفرق جموع الكفار، حاصد خضرائهم بذي الفقار، مخرجهم من ديارهم إلى المفاوز والقفار، مضيّف الطير والسّباع يوم الملحمة والقراع، سيف الله الماضي، ونائبه المتقاضي، قد شهدت بدر بمقامه، وكانت حنين من بعض أيامه، وسل أحداً عن فعل قناته وحسامه، ويوم خيبر إذ فتح الله على يديه، والخندق، إذخرّ عمرو لفمه

ويديه[١].

وهذه جمل لها تفصيل وبيان، ومقامات رضي بها الرّحمٰن، ومواطن هدّت الشّرك وزلزلته، وحملته على حكم الصّغار وأنزلته، ومواقف كان فيها جبرئيل يساعده، وميكائيل يوازره ويعاضده، والله يمدّه بعناياته، والرّسول يتبعه بصالح دعواته.

وأمّا زهده ﷺ فقد تظاهرت الرّوايات أنّه لم يكن نوع من أنواع الزّهد والعبادة والورع، إلاّ وحظه منه وافر الأقسام، ونصيبه منه تام، بل زايد على التّمام وما اجتمع الأصحاب على خير إلاّ كانت له رتبة الإمام، ولا ارتقوا قبّة مجد إلاّ وله ذروة الغارب وقلة السّنام، وهو الذي عرف الدّنيا بعينها، وتبرّجت له فلم يحفل بزينتها لشينها وتحقق زوالها، فعاف وصالها، وتبين إنتقالها، فصرم حبالها واستبان قبح عواقبها، وكدر مشاربها، فألقى حبلها على غاربها، وتركها لطالبها وتيقن بؤسها وضررها، فطلقها ثلاثاً وهجرها.

وأمّا أنّه ﷺ بدل الأبدال فلأنّ الأبدال هم الأئمة عليهم السّلام كما في بعض أخبارنا، أو قوم من الصالحين لا تخلو الدّنيا منهم إذا مات واحد أبدل الله مكانه آخر، وفي **«القاموس»**: قوم يقيم الله بهم الأرض وهم سبعون: أربعون بالشّام، وثلاثون بغيرها، لا يموت أحدهم إلاّ قام مقامه آخر من سائر النّاس[٢].

وكونه ﷺ قدوة الصالحين، وكون قوام الأرض بوجوده ووجود الطّيبين من أولاده، غني عن البيّنة والبرهان، لأنّه إمام الأئمة، وسيد الأمّة بعد خاتم النّبوة ولو تبقى الأرض بغير إمام لساخت بأهلها، وماجت كما تظاهرت به الرّوايات.

فقد ظهرت بما ذكرنا أنّه ﷺ جامع بين منقبتي الزّهد والشّجاعة **(وهذه)** المنقبة **(من)** مناقبه الجميلة و**(فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد، وألف بين الأشتات)** أي بين حالات متفرقات مختلفات متباعدات **(وكثيراً ما أذكر الاخوان بها، وأستخرج عجبهم منها)** لإستحسانها أو إستغرابها **(وهي موضع للعبرة والفكرة فيها)** لأنّ الغالب على أهل الشجاعة والجرأة أن يكونوا ذوي قلوب قاسية وفتك وتمرّد وجبريّة، والغالب على أهل الزّهد: رفض الدّنيا وهجران ملاذها، والاشتغال بمواعظ النّاس وتخويفهم المعاد وتذكيرهم الموت أن يكونوا ذوي رقّة ولين وضعف قلب وحوز طبع، وهاتان حالتان متضادّتان لم تجتمعا إلاّ فيه ﷺ، وكذلك الغالب على ذوي الشّجاعة وإراقة الدّماء أن يكونوا قليلي الصّفح، بعيدي العفو، لأنّ أكبادهم واغرة، وقلوبهم ملتهبة، والقوّة

(١) كشف الغمة: ١/ ١٧٧.

(٢) القاموس المحيط: ٣/ ٢٢٢، وكتاب العين: ٨/ ٤٥.

الغضبيّة عندهم شديدة، وفعله يوم الجمل، وصفحه وحلمه ومغالبته هوى النّفس فيها، وفي غيرها مشهور مأثور ومن هنا قيل في مدحه سلام الله عليه وآله.

جمعت في صفاتك الأَضداد فلهذا عزّت لك الأَنداد
زاهد حاكم حليم شجاع فاتك ناسك فقير جواد
ظهرت منك للورى مكرمات فأقرّت بفضلك الحسّاد
لو رأى مثلك النبي لآخاه وإلاّ فاخطأ الانتقاد
جلّ معناك أن يحيط به الشعر ويُحصي صفاتك النّقّادُ

ثمّ اعتذر عن بعض ما اتّفق في الكتاب من الرّوايات المكرّرة بقوله: **(وربّما جاء في أثناء هذا الاختيار)** وتضاعيفه **(اللفظ المردّد والمعنى المكرّر)** حسبما تطلع عليه إن شاء الله في مقامه بإشارة من السّيد أو تنبيه منّا **(والعذر في ذلك)** التكرار **(أن روايات كلامه** ﷺ تختلف **اختلافاً شديداً)** قال الشّارح البحراني: سبب الاختلاف يحتمل وجهين.

أحدهما: أنّه ﷺ ربما تكلّم بالمعنى الواحد مرّتين أو أكثر بألفاظ مختلفة، كما هو شأن البلغاء، وأهل الفصاحة، فينقله السّامعون باللّفظ الأول والثّاني، فتختلف الرّواية.

الثّاني: أنّ النّاس في الصّدر الأوّل كانوا يتلقّفون الكلام من أفواه الخطباء، ويحفظونها على الولاء فربّما لا يتمكن السّامع من حفظ كلّ اللفظ، ومراعات ترتيبه، فيقع بسبب ذلك اختلاف في التّرتيب أو نقصان في الرّواية، وربّما راعى بعضهم حفظ المعنى من دون ضبط الألَفاظ، فأورد في اللّفظ زيادة ونقصاناً **(فربّما اتّفق الكلام المختار في رواية فنقل على وجهه، ثم وجد بعد ذلك)** الوجه المنقول **(في رواية أخرى موضوعاً غير وضعه الأوّل)** ومغايرتهما **(إمّا بزيادة مختارة أو بلفظ أحسن عبارة)** من المرويّ أوّلاً **(فتقتضي الحال أن يعاد استظهاراً)** واستعانة به **(للاختيار وغيرة على عقائل كلامه)** وكرائمه وضنّة على محاسنه من أن يخلو منها الكتاب، **(وربّما بعد العهد أيضاً بما اختير أوّلاً فأعيد بعضه سهواً ونسياناً لا قصداً واعتماداً)** أي عمداً **(ولا أدّعي مع ذلك)** كلّه **(إنّي أحيط بأقطار جميع كلامه** ﷺ**)** وأطرافه **(حتى لا يشذّ)** ويشرد **(عني منه شاذّ)** شارد **(ولا يندّ نادّ)** ومنفرد **(بل لا أبعد أن يكون القاصر عني)** من كلامه **(فوق الواقع إليّ، والحاصل في ربقتي)** شبّه الكلام الحاصل في يده بالبهيمة التي يشدّ رأسها بالرّبقة، وهو عروة الحبل على طريق الإستعارة بالكناية، وإثبات الرّبقة تخييل والمقصود إنّي لا أبعد أن يكون ما وصل إليه يدي **(دون الخارج من يدي وما عليّ إلاّ بذل الجهد)**، والاجتهاد **(وبلاغ الوسع)** والطاقة **(وعلى الله سبحانه نهج السّبيل)** وإستبانته **(ورشاد الدّليل)** وإستقامته **إذ المقدور للعبد هو الجدّ والجهد وإكمال السّعي**، وعلى الله سبحانه من باب اللطف هدايته إلى الصّراط المستقيم والنّهج القويم **(إن شاء الله تعالى)**.

ثمّ أشار إلى إسم ذلك الكتاب، ووجه تسميته بقوله: **(ورأيت من بعد)** الختام والتّمام **(تسمية هذا الكتاب بنهج البلاغة، إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها)** أي أبوب البلاغة **(ويقرّب عليها طلابها)** وبه يهتدي إلى لطائفها، ويتمكن من الوصول إلى مزاياها ومحاسنها، كما أنّ بسلوك النّهج، وهو الطريق الواضح، يهتدي إلى المطلوب، وينال المقصود.

ولهذا الوجه أيضاً سمّينا شرحنا هذا **«بمنهاج البراعة»**، إذ به يحصل للنّاظر فيه التفوّق والغلبة على الأشباح والأمثال، في العلم والفضل والكمال، وبه يحاز قصب السبق في مضمار الفخار، كما أنّ بالمنهاج وواضح السّبيل، يدرك منتهى الغرض وينال غاية الآمال **(وفيه حاجة العالم والمتعلم وبغية البليغ والزّاهد)** أي ما يبتغيانه ريطلبانه من فنون البلاغة، وشؤون الزّهد **(ويمضي في أثنائه)** أي تضاعيف هذا الكتاب **(من الكلام في العدل والتوحيد)** وقد سئل أمير المؤمنين ﷺ عنهما، فقال: «التّوحيد أن لا تتوهّمه والعدل أن لا تتّهمه»، ورواه عنه ﷺ: السيّد في أواخر النّهج، وعلى ذلك فيكون عطف قوله: **(وتنزيه الله تعالى عن شبه الخلق)** على ما سبق للتّفسير والتّوكيد، لأنّ كلّ ما توهّمته فهو مخلوق لك، مصنوع مثلك، والله سبحانه خالق الأرض والسماء، أجلّ وأعلى من أن يشبه بخلقه، أو يماثله خلقه، وفي خطب أمير المؤمنين ﷺ، لتحقيق هذا المرام **(ما هو بلال كل غلّة، وشفاء كلّ علّة)** أي ما يروي عطش كلّ غليل، ويشفي داء كلّ عليل **(وجلاء كلّ شبهة)** أي ما يجلي ويكشف ظلام الشّبه، أو يذهب رين الشّكوك والشّبهات عن القلوب، كما يُجلي السّيف ويصقل، ومنه قوله ﷺ: «تحدّثوا، فإنّ الحديث جلاء للقلوب»، إنّ القلوب لتزين كما يزيّن السّيف جلائه **(ومن الله سبحانه)** تقديم الظرف لقصد الحصر **(أستمدّ التوفيق)** لكلّ خير **(والعصمة)** من كلّ شرّ **(وأتنجز التسديد والمعونة)** أي لطلب الإصلاح في القول والعمل والإعانة للبلوغ إلى غاية الأمل (وأستعيذه) أي التجأ إليه سبحانه **(من خطأ الجنان قبل خطأ اللّسان)** لأنّ خطأ الجنان أعظم وحسرة هفوته أدوم، لأن القلب رئيس الأعضاء، وسلطان الجوارح، وبفساده يفسد الجميع، ومن جملة خطاياه الكفر الموجب للعذاب الدّائم، والخزي العظيم **(ومن زلة الكلم قبل زلة القدم)** لأنّ زلة القدم ربّما يمكن النّهوض والقيام منها ويسهل علاج عثرتها، وأمّا زلة اللّسان فربّما لا تستقال، وقد يخرج منه كلمة تبلغ مشارق الأرض ومغاربها، فيسفك بها الدّم الحرام، ويؤخذ بها المال الحرام، وينهتك بها الفرج الحرام، ولنعم ما قيل في هذا المعنى:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرّجل

فعثرته في القول تذهب رأسه ... وعثرته في الرّجل تذهب عن مهل

(وهو حسبي) أي كافي، ومحسبي لا كافي غيره **(ونعم الوكيل)**.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

الترجمة

و دیدم من کلام آن قدوه انام (عليه السلام) را، که دایر بود بر سه قطب، اوّل آن ها خطبه ها بود و امرها، دویّم آن ها کتاب ها بود و رساله ها، سیّم آن ها حکمت ها بود و موعظه ها، پس قصد کردم به توفیق خدای تعالی بر این که ابتدا کنم به مختار و پسندیده خطبه های حسنه، بعد از آن به کتاب های مستحسنه، پس از آن به حکمت های زیبا در حالتی که منفرد ساخته بودم از برای هر صنفی از این مذکورات بابی را از ابواب، در حالتی زیاد گرداننده بودم در هر باب ورق های چند سفید تا باشد آن ورق ها از برای استدراك چیزی که شاید رمیده باشد از من در حال تألیف و رسیده باشد به دست من بعد از تألیف و اگر بیاید چیزی از کلام آن حضرت که خارج بوده از او در اثناء محاوره و مخاطبه یا در مقام جواب و سؤال یا در غرض آخر از اغراض در غیر وجوه و مقاصدی که ذکر کردم آن ها را و برقرار کردم قاعده ای را بر آن، نسبت دادم آن امر خارج را به لایق ترین باب ها به آن و محکم ترین آن باب ها از حیثیت مشابهت و مناسبت به غرض آن، چنان که شاعر گفته:

سخن ها را به دستور خردمند به وجهی خوب باید داد پیوند

و بسا می آید در ضمن آن چه که اختیار کردم آن را از این مذکورات فصل های بی انتظام و کلام های نیکوی بی مناسبت، به جهت این که من می آورم نکته های لطیفه و کلمات پسندیده درخشنده و مقصود من ترتیب و انتظام نیست.

و از جمله عجایب و غرایب خصال آن حضرت است که منفرد شده به آن و ایمن شده از شراکت دیگران در آن، این است که کلام او که وارد شده در زهد و موعظه ها و در مقام تذکیر آخرت و منع از منکرات اگر تأمل نماید آن را تأمل کننده ای و تفکر کند در آن فکرنماینده ای و برکند از قلب خود این را که این کلام کلام مثل او است، از کسی که عظیم القدر و نافذالامر است و محیط است سلطنت او به جمیع مردمان، عارض نشود او را شك و شبهه در این که این کلام

از کلام کسی است که هیچ حظی نیست او را در غیر زهادت و ترك دنیا و هیچ شغلی نیست مر او را به جز عبادت خدا، در حالتی که سرفروبرده و منزوی شده در کنار خانه یا از مردم بریده و کناره جویی نموده در دامن کوهی، در حالتی که نمی شنود مگر حس و حرکت خود را و نمی بیند مگر شخص خود را و نزدیك نیست یقین نماید آن متأمّل به این که این کلام کلام کسی است که فرورفته در دریای قتال، در حالتی که کشنده باشد شمشیر خود را از غلاف، پس بزند گردن های کفار را و بیندازد شجاعان را بر زمین و برمی گردد با آن شمشیر در حالتی که سیلان می کند از خون و روان می سازد روح ها را و حال آن که آن امام با این حالت زاهدترین زهّاد است و شریف ترین ابدال و اوتاد.

و این فضیلت از جمله فضایل عجیبه و خصایص لطیفه آن بزرگوار است که جمع نموده به آن میان اضداد و متباینات را و پیوند داده میان متفرّقات و مختلفات را.

و اکثر اوقات مذاکره می کنم با برادران دینی به این فضیلت و استخراج می کنم تعجب ایشان را از این منقبت و این فضیلت و منقبت محل این است که انسان عبرت برد از او با آن و تفکر نماید در آن و بسا آمده در اثناء این کلام مختار لفظی که مردد است و معنی مکرر است و عذر در این تردید و تکرار این است که روایت های کلام آن حضرت مختلف می شود اختلاف زیاد، پس بسا اتفاق افتاده کلامی که اختیار شده در روایتی، پس نقل شده به همان طریق بی کم و زیاد پس یافت شده بعد از آن در روایت علی حده در حالتی که وضع شده بود به غیر وضع اولی یا به زیادی برگزیده شده بود یا به لفظی که نیکوتر بود از حیث عبارت پس اقتضا نمود حال این که اعاده کرده شود دوباره از جهت تأیید مختار و از جهت غیرت و حمیت بر گرامی ترین و شریف های آن کلام و بسا بوده که بعید شده و طول یافته بود عهد نیز به آن مختار اولی، پس به جهت طول عهد اعاده شده بعض آن کلام از روی سهو و نسیان نه از روی قصد و عمد.

و ادعا نمی کنم با همه این آن که من احاطه کرده ام به اطراف همه کلام آن حضرت تا به اندازه ای که تنها نمانده باشد از من تنها مانده ای از کلام آن حضرت و نرمیده باشد از من هیچ رمنده ای از سخن او، بلکه بعید نمی شمارم

این که باشد کلامی که نرسیده به جانب من و قاصرات از من زیاده از آن شود که واقع شده به سوی من و باشد کلامی که حاصل شده در ریسمان تصرف من کم از کلامی که خارج شده از دو دست من.

و نیست بر من مگر بذل جهد و سعی و عدم تقصیر و کوتاهی در وسع و طاقت و بر خدای تعالی است آشکار ساختن راه و مستقیم نمودن دلیل ان شاءالله تعالی.

و رأی من علاقه گرفت که بعد از تألیف و تمام نمودن به نام نهادن این کتاب مستطاب به "نهج البلاغه"، از جهت این که می گشاید برای نظرکننده او درهای بلاغت و نزدیك می گرداند بر او طلب کردن اسباب فصاحت را و در او است حاجت عالم و متعلم و مطلوب صاحب بلاغت و زهد و می گذرد در اثناء این کتاب از کلامی که وارد است در توحید و عدالت و مبرا نمودن خداوند تعالی از مشابهت مخلوقات آن نحو کلامی که سیراب کننده هر تشنگی است و شفادهنده هر ناخوشی و زایل کننده هر شك و شبهه و از خداوند عالم استمداد می کنم توفیق و عصمت را و طلب می نمایم اصلاح و اعانت را و پناه می طلبم از او از خطای دل قبل از خطای زبان و از لغزش سخنان پیش از لغزش قدمان و خدای تعالی است کفایت کننده من در جمیع کارها و نیکو وکیل است در حاجت ها.

تم شرح الديباجة بحمدالله و حسن توفيقه و يتلوه الكلام إن شاءالله في شرح خطاب أميرالمؤمنين (عليه السلام) والله المستعان و عليه التّكلان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة الشارح

أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذي أَوْضَحَ لَنا الْمَحَجَّةَ الْبَيْضاءَ وَالنَّهجَ الْقَويمَ، وهَدَانا إِلَىٰ الْجادَّةِ الْوُسْطَىٰ وَالصِّراطِ الْمُسْتَقيم، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِهِ الْمَبْعُوثِ بِالنُّورِ السّاطِع وَالْكِتَابِ الْحَكِيم، وَآلِهِ الَّذينَ اتَّخَذْتُ سُنَّتَهُمْ شَريعَةً وَمِنهاجاً، وَطَريقَتَهُمْ سُلَّماً إِلىٰ نَيْلِ الْمَطالِبِ وَمِعْراجاً، وَوِلايَتَهُمْ عِلاَجاً لِداءِ زَلاّتي إِذَا اخْتَارَ كُلُّ قَوْمٍ عِلاَجاً.

شعر

هم القوم من أصفيهم الودَّ مخلصاً	تمسّك في أخراه بالسّبب الأقوى
هم القوم فاقوا العالمين مآثراً	محاسنها تجلى وآياتها تروى
بهم عرف النّاس الهدى فهديهم	يضل الذي يقلى ويهدى الذي يهوى
موالاتهم فرض وحبّهم هدى	وطاعتهم قربى وودّهم تقوى

وبعد: فيقول الشّارح المحتاج إلى غفران ربّه الكريم الرّحيم: قال الشّريف الرضيّ ذو الحسين أبو الحسن محمّد بن أبي أحمد الحسين تغمده الله برحمته، وأسكنه بحبوحة جنّته: **(باب المختار من خطب أمير المؤمنين** ﷺ **وأوامره، ويدخل في ذلك الباب المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب في المقامات المحصورة)** أي المجالس المعيّنة المعدودة **(والمواقف المذكورة)** أي الكثيرة الدّوران على الأفواه والألسنة **(والخطوب الواردة)** أي الملاحم العظيمة والأمور المعظمة الحادثة.

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم عليه السلام وهي الخطبة الأولى من المختار في باب الخطب

ويذكر فيها صفة الحجّ ووجوبه، وهي من جلائل خطبه ومشاهيرها، وقد رواها المحدث العلاّمة المجلسي طاب ثراه في كتاب «البحار» إلى قوله إلى يوم الوقت المعلوم آخر الفصل الحادي عشر من كتاب «عيون الحكمة والمواعظ» لمحمّد بن علي الواسطي مرسلة كما في الكتاب، وشرحها في ضمن فصول:

الفصل الأول

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلاَ يُحْصيٰ نَعْمَائَهُ الْعادُّونَ وَلا يُؤَدّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ».

اللغة

(**ألحمد**) والمدح والشكر متقاربة المعاني ومشتركة في الدّلالة على الثّناء الجميل، وربّما يحكم باتحاد الأوّلين وكونهما أخوين؛ قال في «**الكشاف**»: الحمد والمدح أخوان، وهو الثّناء والنّداء على الجميل من نعمة وغيرها، تقول: حمدت الرّجل على إنعامه وحمدته على حسنه وشجاعته، انتهى.

ونسبه الشّارح المعتزلي إلى أكثر الأدباء والمتكلمين، ومثل لهما بقوله: حمدت زيداً على إنعامه ومدحته على إنعامه، وحمدته على شجاعته ومدحته على شجاعته، ثم قال: فهما سواء يدخلان فيما كان من فعل الإنسان، وفيما ليس من فعله كما ذكرناه من المثالين هذا، ولكنّ المعروف أخصّية الحمد من المدح بوجوه:

أحدها: أن الحمد هو الثّناء على ذي علم وحياة لكماله، والمدح هو الثّناء على الشّيء لكماله، سواء كان ذا علم وحياة أم لا، ألا ترى أنّ من رأى لؤلؤة في غاية الحسن، أو ياقوتة كذلك، فإنّه قد يمدحها، ويستحيل أن يحمدها.

الثّاني: أن الحمد لا يكون إلا بعد الإحسان، والمدح قد يكون قبل الإحسان وقد يكون بعده.

الثالث: أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري، تقول: حمدته على كرمه، ولا تقول: على حسنه، والمدح يعم الاختياري وغيره.

وأما الشكر فربما يُعرّف بأنّه تعظيم المنعم من حيث أنه منعم على الشّاكر، فيكون أخصّ من الحمد من وجه وأعم منه بوجه آخر.

أمّا الأوّل: فلأنّ الشكر لا يكون إلا على النّعمة الواصلة إلى الشاكر، والحمد يكون على النّعمة وغيرها، وعلى النّعمة العائدة إلى الحامد وغيرها، وعلى النّعمة العائدة إلى الحامد وغيرها.

وأمّا الثّاني: فلأنَّ الحمد لا يكون إلا باللّسان، والشكر يكون باللّسان، والشكر يكون باللّسان والجوارح والقلب، قال الشّاعر:

أفادتكم النعماء منّي ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

أقول: هكذا فرق جماعة بينهما منهم الزّمخشري والتّفتازاني والبيضاوي وغيرهم، إلاّ أن تخصيص مورد الحمد باللسان يشكل بقوله سبحانه:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

اللّهمّ إلاّ أن يراد باللّسان الأعم من لسان الحال ولسان المقال، بعنوان عموم المجاز، فإنّه سبحانه حيث بسط بساط الوجود على أفراد الممكنات وآحاد الموجودات، ووضع عليه موائد كرمه وألطافه التي لا تتناهى، فكلّ ذرّة من ذرات الوجود لسان حال ناطق بحمده، ونظيره إرادة الخضوع التكويني والإفتقار الذّاتي من السّجود الظاهر في وضع الجبهة في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

فإن قلت: سلّمنا هذا كله ولكنّك ما تصنع بقوله: ولكن لا تفقهون تسبيحهم، فإنّ التّسبيح والحمد بلسان الحال مفقوه معلوم.

قلنا: الخطاب للمشركين، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السّماوات والأرض قالوا: الله، إلاّ أنّهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم فكأنّهم لم ينظروا ولم يقرّوا، لأنّ نتيجة النّظر الصحيح والإقرار الثّابت خلاف ما كانوا عليه، فإذن لم يفقهوا التّسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق هذا، ومثل هذا الإشكال والجواب يجري في قوله سبحانه:

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

ولا حاجة إلى تكلف التّأويل بأنّه يسبّح سامع الرّعد من العباد، الرّاجين للمطر حامدين له كما تحمله في (**الكشاف**)، ويأتي إن شاء الله تحقيق ذلك في «**شرح المختار**» المائة والتسعين بما لا مزيد عليه.

(**والله**) إسم جامد علم للذّات المستجمع لصفات الكمال، واختار جموده جماعة من المفسرين وغيرهم محتجّين بحجج مذكورة في محالها.

وذهب الكوفيون إلى أنّ الأولين قالوا: باشتقاقه من إله على وزن فعال، فأُدخلت عليه الألف واللاّم للتّعظيم، فصار الإله، فحذفت الهمزة إستثقالاً لكثرة جريانها على الألسنة، فاجتمع لامان فأدغمت الأولى، والآخرين قالوا: بأن أصله (**لاه**)، فأدخلت عليه الألف واللاّم، فقيل الله، وأمّا لفظة (**ألا لاه**)، فقال الزّمخشري وتبعه الشّارح المعتزلي وغيره: إنّه من أسمآء الأجناس اسم يقع على كلّ معبود بحقّ أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحقّ كالنّجم للثّريا، والكتاب لكتاب سيبويه، والبيت لبيت الله، والسّنة لعام القحط.

وذهب جماعة إلى اشتقاقها واختلفوا في أصلها على أقوال شتّى: فقيل إنّها مأخوذة من أله إلاهة والوهة والوهية، من باب منع إذا عبد عبادة، فالإله بمعنى مألوه، ككتاب بمعنى مكتوب، وبساط بمعنى مبسوط، وإنكار الشّارح المعتزلي له لا وجه له مع تصريح جماعة من اللغويّين والمفسرين به، ولكونها بهذا المعنى صحّ تعلق الظرف بها في قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وقيل: إنّها مأخوذة من أله إذا تحيّر، لتحيّر العقول في معرفة ذاته.

وقيل: إنّها مأخوذة من ألهت إلى فلان، أي سكنت إليه، لأن القلوب تطمئن بذكره سبحانه، والأرواح تسكن إلى معرفته، أو من ألهت إلى فلان، أي فزعت إليه، لأن العائذ يفزع إليه وهو يجيره.

وقيل: إنّها من لاه مصدر لاه يليه ليهاً ولاها إذا احتجب وارتفع، لأنّه تعالى محجوب عن إدراك الأبصار، ومرتفع على كلّ شيء، وقيل أقوال أخر يطول ذكرها(١).

فإن قيل: ما معنى الإشتقاق الذي ذكرته؟

قلت: الإشتقاق على ما ذكره الزّمخشري وغيره هو أن ينتظم الصّيغتين فصاعداً معنى واحد وهذا موجود بينها وبين الأصول المذكورة (**والبلوغ**) هو الوصول أو المشارفة يقال:

---

(١) انظر مفردات الراغب: ٢١، ومجمع البحرين: ٢/٥٣١، ومختار الصحاح: ٢٠.

بلغ المكان بلوغاً من باب نصر إذا وصل إليه أو شارف عليه، والثاني أكمل وأبلغ بالنّسبة إلى المقام **(والمدحة)** قال الشّارح المعتزلي: هي هيئة المدح، كالركبة هيئة الركوب، والجلسة هيئة الجلوس، وفي **(القاموس)**: مدحه كمنعه مدحاً ومدحة، أحسن الثّناء عليه **(والمجتهد)** من اجتهد في الأمر إذا بذل وسعه وطاقته في طلبه ليبلغ مجهوده ويصل إلى نهايته.

الإعراب

الحمد: مرفوع بالإبتداء وخبره لله، وأصله النّصب، وبه قرأ بعضهم في الكتاب العزيز بإضمار فعله، على أنّه من المصادر السّادة مساد الأفعال، مثل شكراً وكفراً، والعدول من النّصب إلى الرّفع للدّلالة على الثبات والإستقرار، ومثله قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًاۖ قَالَ سَلَـٰمٌۖ﴾ [هود: ٦٩].

حيث رفع الثّاني للدلالة على أن إبراهيم ﷺ حيّاهم بتحية أحسن من تحيّتهم، لأن الرّفع دال على معنى ثبات السّلام لهم دون تجدده وحدوثه، وحرف التّعريف الدّاخل عليه للجنس، لأنّه المتبادر إلى الفهم الشّائع في الإستعمال، لا سيّما في المصادر؛ وعند خفاء قرائن الإستغراق، أو لأنّ المصادر الخالية عن اللواحق والدّواخل لا تدل إلاّ على الماهية لا بشرط شيء، كما ادّعى السّكاكي جماع أهل العربية عليه في محكيّ كلامه، وحرف التّعريف لا تفيد إلاّ التّعيين والإشارة، فيكون معناها الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد أن الحمد ما هو.

قال في **(الكشاف)**[1]: التّعريف فيه نحو التّعريف في أرسلها العراك، وهو تعريف الجنس إلى أن قال: فالاستغراق الذي يتوهّمه كثير من النّاس وَهمٌ، وقيل: إنّها للإستغراق، وربّما يرجح على الأوّل بما فيه من إفادتها رجوع جميع المحامد إليه سبحانه بخلاف الأوّل.

وفيه: أن كونها للجنس لا ينافي ذلك، وذلك لأنّ اللاّم في قوله لله إمّا للملك كما في قولنا: المال لزيد، أو للإختصاص كما في قولنا: الحصير للمسجد، وعلى التقديرين فتفيد رجوع المحامد إليه سبحانه، لأنّ معناه أنّ ماهيّة الحمد حق لله وملك له ومختص به، وذلك ينفي كون فرد من أفراد هذه الماهيّة لغير الله، فثبت على هذا القول أيضاً أنّ قوله ﷺ: الحمد لله ينفي حصول الحمد لغير الله.

فإن قيل: أليس أنّ المنعم يستحقّ الحمد من المنعم عليه، والأستاذ من التلميذ؟

قلنا: كلّ من أنعم على غيره فالأنعام في الحقيقة من الله سبحانه، لأنّه تعالى لولا خلق

---

(١) راجع لسان العرب: ٣/ ١٣٣.

تلك الدّاعية في قلب المنعم لما أقدم على ذلك الأنعام، ولولا أنّه خلق تلك النّعمة وسلّط ذلك المنعم عليها ومكن المنعم عليه من الإنتفاع لما حصل الإنتفاع بتلك النّعمة، فثبت أنّ المنعم في الحقيقة هو الله سبحانه قال تعالى:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

(والألف واللاّم) في القائلون للاستغراق، لعدم خلاف ظاهر بين أصحابنا في إفادة الجمع المعرّف للعموم، وهو المتبادر منه أيضاً ويدلّ عليه أيضاً جواز الإستثناء مطرداً، ومنه يظهر فساد ما توهّمه القطب الرّاوندي على ما حكاه عنه الشّارح المعتزلي من كونها فيه للجنس كما في الحمد، مضافاً إلى لزوم إرادة الاستغراق والعموم في خصوص المقام وإن لم نقل به في سائر المقامات، لعدم تماميّة المعنى إلاّ به، لأنّ المبالغة بل الحقّ المحض عجز جميع القائلين عن حمده، ومعلوم أنّ الجنس لا يفيد ذلك.

المعنى

(الحمد لله) أي الثناء الحسن حقّ ومخصوص للذّات المستجمع للصّفات الجماليّة والجلاليّة.

وعن تفسير الإمام ﷺ عن أمير المؤمنين ﷺ: «الله هو الذي يتأله إليه كلّ مخلوق عند الحوائج والشّدائد، إذا انقطع الرّجاء من كلّ من دونه، وتقطع الأسباب من جميع من سواه»(١).

وعنه ﷺ أيضاً: «الله أعظم اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، لا ينبغي أن يتسم به غيره»(٢).

وفي التّوحيد عنه ﷺ أيضاً: «الله معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق ويوله إليه، والمستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات».

وفيه عن الباقر ﷺ "الله معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك مائيّته، والإحاطة بكيفيّته»، ويقول العرب: أله الرّجل إذا تحيّر في الشيء فلم يحط به علماً، ووله إذا فزع إلى شيء ممّا يحذره ويخافه، فالإله هو المستور عن حواس الخلق **(الذي لا يبلغ مدحته القائلون)** أي لا يشارف على مدحه أحد من آحاد القائلين، فكيف يصلون إليه وهو إشارة إلى

---

(١) تفسير الصافي: ١/ ٨٠.

(٢) تفسير القرطبي: ١/ ١٠٢، عن بعض العلماء.

العجز عن القيام بحمده سبحانه كما هو أهله ومستحقّه، ومن ثم قال ﷺ:

«لا أُحصي ثَناءَ عَلَيكَ أَنتَ كَما أَثنَيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ»[١].

فإن قلت: روى في **(الكافي)** عن الصّادق ﷺ «ما أنعم الله على عبده بنعمته صغرت أو كبرت فقال: الحمد لله؛ إلاّ أدّى شكرها»، فكيف التّوفيق بينه وبين النّبويّ والخطبة؟

قلت: يمكن الجمع بينهما بأنّ المراد بها إظهار العجز عن الحمد والثّناء الّلائق بحضرته سبحانه كما أشرنا إليه، والمراد بأداء الشكر فيه، أداؤه اللائق بحال العبد الموجب لسقوط تكليف الشكر عنه والمحصّل لرضائه سبحانه وتعالى عنه بهذا المقدار بكرمه العميم ولطفه الجسيم.

ويشير إليه ما رواه الصّادق عن أبيه عليهما السّلام قال: «فقد أبي بغلة له، فقال: لأن ردّها الله تعالى لأحمدنّه بمحامد يرضاها»، فما لبث أن أتي بها بسرجها ولجامها فلما استوى عليهاوضمّ إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء، فقال: «الحمد لله»، ولم يزد، ثمّ قال: «وما تركت وما أبقيت شيئاً جعلت كلّ أنواع المحامد لله عزّ وجلّ، ما من حمد إلاّ هو داخل فيما قلت»، انتهى[٢].

قيل: وإنّما اختار ﷺ القائلين على المادحين، لكونه أبلغ، من حيث إنّ القائل أعمّ من المادح، وعدم بلوغ الأعم بمدحته مستلزم لعدم بلوغ الأخص.

أقول: والأولى أن يقال: إنّ السّر في العدول عنه إليه هو أنّ الغرض من الجملة الوصفيّة الإشارة إلى عدم إمكان القيام على مدحته حسبما عرفت سابقاً، فإذا لم يمكن القيام عليه لم يوجد هناك من قام به المدح، فلا يوجد له مادح في الحقيقة، والتّعبير بالمادحين ينافي هذا الغرض، كما أنّ التّعبير بالقائلين يؤكده، لأنّ فيه إشعاراً بأنّ من صدر عنه مدح فهو قول يليق بقائله؛ وليس بمدح حقيقي يليق به تعالى كما لا يخفى، ويأتي إن شاء الله تمام التّحقيق في عدم إمكان مدحه ووصفه سبحانه في شرح الخطبة المائة والسّابعة والسّبعين (ولا يحصى نعمائه العادّون) إذ النّعم غير محصورة، والفيوضات غير متناهية، فلا يحيط بها عدّ، ولا يضبطها حدّ.

قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قال البيضاوي: لا تحصروها، ولا تطيقوا عدّ أنواعها فضلاً من أفرادها، فإنّها غير

---

(١) شرح أصول الكافي للمزندراني: ٦/ ١٥١، ومستدرك الوسائل: ٥/ ٣٩٨.

(٢) البحار: ٤٦/ ٢٩٠، وكشف الغمة: ٢/ ٣٢٩.

متناهية، ثمّ قال: وفيه دليل على أنّ المفرد يفيد الإستغراق بالإضافة.

أقول: أمّا إفادة المفرد المضاف للعموم في الآية فممّا لا غبار عليه، لقيام القرينة، وأمّا دلالته عليه مطلقاً فمحلّ منع كما برهن في **(الأصول)**، **(ولا يؤدّي حقّه المجتهدون)** أي حقّه اللاّزم على العباد وإن بذلوا وسعهم وطاقتهم، واجتهدوا في أدائه وقضائه، والمراد بالحقّ اللاّزم هو القيام على شكر النّعماء، وحمد الآلاء، فأشار عليه السلام إلى أنه لا يمكن القيام بوظائف حمده، لأن الحمد من جملة نعمه، فيستحق عليه حمداً وشكراً، فلا ينقضي ما يستحقه من المحامد، لعدم تناهي نعمه، فالأولى حينئذٍ الإعتراف بالعجز والقصور.

كما اعترف به داود النبيّ عليه السلام فيما روي عنه، حيث قال: **يا ربّ كيف أشكرك، وشكري لك نعمة أخرى توجب عليّ الشكر لك»**، فأوحى الله إليه، **إذا عرفت أنّ النّعم منّي رضيت منك بذلك شكراً»**[١].

ومثله موسى عليه السلام روى في **(الكافي)** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى: «**يا موسى اشكرني حقّ شكري**»، فقال: يا ربّ كيف أشكرك حقّ شكرك؟ وليس من شكر أشكرك به إلاّ وأنت أنعمت به عليّ، قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أن ذلك منّي»[٢].

ومن طريق العامة في مناجاة رسول الله صلى الله عليه وآله، «أنت يا ربّ أسبغت عليّ النّعم السّوابغ فشكرتك عليها، فكيف لي بشكر شكرك»؟ فقال الله تعالى: «تعلّمت العلم الذي لا يفوته علم، فحسبك أن تعلم أنّ ذلك من عندي»، وفي هذا المعنى قال محمود الورّاق:

شكر الإله نعمة موجبة لشكره ... وكيف شكري برّه وشكره من برّه

وقال آخر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليّ بها في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلاّ بفضله ... وإن طالت الأيّام واتصل العمر

وفي **(الكافي)** عن السّجاد عليه السلام، أنّه إذا قرأ قوله تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

يقول: سبحان من لم يجعل في أحدٍ من معرفة نعمه إلاّ المعرفة بالتّقصير عن معرفتها،

(١) البحار: ١٣/ ٣٥١، وميزان الحكمة: ٣/ ١٤٨٧.

(٢) المصدر السابق.

كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أنّه لا يدرك، فشكر الله تعالى معرفة العارفين بالتّقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتّقصير شكراً؛ كما علّم العالمين أنّهم لا يدركونه»[١]، فجعله الله إيماناً، علماً منه أنّه قد وسع العباد: فلا يتجاوز ذلك، فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته، وكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[٢].

الترجمة

يعنى ستايش مرخداوند معبود به حق واجب الوجودى را است كه نمى رسد به ثناى او يا به هيئت ثناى او جمع گويندگان و شمار نمى توانند نمايند نعمت هاى او را جميع شمارندگان و به جا نمى توانند آورد حق نعمت او را سعى و كوشش كنندگان، و لنعم ما قيل:

حق شكر تو نداند هيچكس	حيرت آمد حاصل دانا و بس
آن بزرگى گفت با حق در نهان	كاى پديدآرنده هر دوجهان
اى منزّه از زن و فرزند و جفت	كى توانم شكر نعمتهات گفت
پيك حضرت دادش از ايزد پيام	گفتش از تو اين بود شكر مدام
چون در اين ره اينقدر بشناختى	شكر نعمت هاى ما پرداختى

(١) إلى هنا في الصحيفة السجادية: ٢٥.
(٢) الكافي: ٨/ ٣٩٤ ح٥٩٢.

الفصل الثاني

«الَّذي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ وَلاَ يَنالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ الَّذي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ وَلاَ وَقْتٌ مَعْدُودٌ وَلاَ أَجَلٌ مَمْدُودٌ».

اللغة

(البعد) ضدّ القرب **(والهمم)** جمع الهمّة وهو العزم والجزم الثّابت الذي لا يعتريه فتور **(والنيل)** الإصابة **(والغوص)** النّزول تحت الماء لإستخراج ما فيه، ومنه قيل: غاص في المعاني إذا بلغ أقصاها حتّى استخرج ما بعد منها **(والفطن)** جمع الفطنة وهي الجودة والحذاقة **(والوقت)** مقدار حركة الفلك **(والأجل)** هو الوقت المضروب للشّيء الذي يحلّ فيه، ومنه أجل الإنسان للوقت المقدر فيه موته، وأجل الدّين للوقت الذي يحل فيه قضاؤه.

الإعراب

(الذي) موصول إسميّ وهو مع صلته في محل الجرّ صفة لله، والجملة بعده صلة له، ولا محلّ لها من الإعراب، وإضافة البعد إلى الهمم، لفظية بمعنى اللام، كإضافة الغوص إلى الفطن، وليست من قبيل إضافة الصّفة إلى الموصوف على ما قاله بعضهم، لأنّ هذه الإضافة بعد الإغماض عن الإشكال في أصلها والبناء على مذهب الكوفيّين من صحّتها، لا يمكن جريانها في المقام، إذ المطابقة بين الصّفة والموصوف في الإفراد ونقيضيه لازمة، وهي في المقام منتفية، اللّهم إلاّ أن يوجّه بأنّ الصّفة هنا مصدر، ويستوي فيه التّذكير والتّأنيث والإفراد والجمع ولا بأس به.

المعنى

(الذي لا يدركه بعد الهمم) أي لا يدركه همم أصحاب النّظر وأوهام أرباب الفكر وإن علت وبعدت، والمراد ببعدها تعلقها بالأمور المعظمة، والمبادىء العالية **(ولا يناله غوص الفطن)** أي لا يصيب كنه ذاته غوص أرباب الفطن في بحار معرفته وكنه حقيقته.

قال الصّدر الشّيرازي: وإسناد الغوص إلى الفطن على سبيل الإستعارة إذ الحقيقة إسناده إلى الحيوان بالنّسبة، وهو مستلزم لتشبيه العلوم العقلية بالماء ووجه الإستعارة ههنا أنّ صفات الجلال ونعوت الكمال، في عدم تناهيها والوصول إلى حقائقها وأغوارها، تشبه البحر الخضم الذي لا يصل السّابح له إلى الساحل، ولا ينتهي الغائص فيه إلى قرار، وكان السّابح لذلك البحر، والخائض في تياره هي الفطن الثّاقبة، لا جرم كانت الفطنة شبيهة بالغائص في البحر، فأُسند الغوص إليها، وفي معناه الغوص في الفكر، ويقرب منه إسناد

الإدراك إلى بعد الهمم، إذ كان الإدراك حقيقة في لحوق جسم لجسم آخر.

ثمّ وجه الحسن في إضافة بعد الهمم وغوص الفطن، وقد مرّ أنّه من باب إضافة الصّفة بلفظ المصدر إلى الموصوف دون أن يقول كما هو الأصل: الهمم البعيدة، والفطن الغائصة، أنّ المقصود لما كان هو المبالغة في عدم إصابة وصفه تعالى بالفطنة من حيث هي ذات غوص، وبالهمّة من حيث هي ذات بعد، كانت تلك الحيثيّة مقصودة بالقصد الأول، والبلاغة تقتضي تقديم الأهمّ والمقصود الأوّل على ما ليس بأهمّ على ما هو المقرّر عند أهل البيان، ويشهد له الأذواق السّليمة.

إذا عرفت ذلك فنقول: هاتان الفقرتان إشارتان إلى عدم إمكان إدراك ذاته، والوصول إلى حقيقته وهو ممّا لا ريب فيه.

وبرهانه ما رواه في **(الكافي)** عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن بعض أصحابه، عن هشام بن الحكم، قال: الأشياء لا تدرك إلاّ بأمرين بالحواس والقلب، والحواس إدراكها على ثلاثة معان: إدراك بالمداخلة، وإدراك بالمماسة، وإدراك بلا مداخلة ولا مماسة.

فإمّا الإدراك الذي بالمداخلة فالأصوات والمشام والطعوم.

وأمّا الإدراك بالمماسة فمعرفة الأشكال من التّربيع والتّثليث، ومعرفة اللين والخشن، والحرّ والبرد.

وأمّا الإدراك بلا مماسة ولا مداخلة فالبصر، فإنّه يدرك الأشياء بلا مماسة ولا مداخلة في حيّز غيره لا في حيّزه، وإدراك البصر له سبيل وسبب، فسبيله الهواء، وسببه الضّياء، فإذا كان السّبيل متّصلاً بينه وبين المرئي والسّبب قائم أدرك ما يلاقي من الألوان والأشخاص، فإذا حمل البصر على ما لا سبيل له فيه رجع راجعاً فحكى ما ورائه، كالنّاظر في المرآة لا ينفذ بصره في المرآة، فإذا لم يكن له سبيل رجع راجعاً ويحكي ما ورائه، وكذلك النّاظر إلى الماء الصّافي يرجع راجعاً فيحكي ما ورائه، إذ لا سبيل له في إنفاذ بصره، فأمّا القلب فإنّما سلطانه على الهواء، فهو يدرك جميع ما في الهواء ويتوهّمه، فإذا حمل القلب على ما ليس في الهواء موجوداً، رجع راجعاً فحكى ما في الهواء، فلا ينبغي للعاقل أن يحمل قلبه على ما ليس موجوداً في الهواء من أمر التّوحيد، فإنّه إن فعل ذلك لم يتوهم إلاّ ما في الهواء موجود، كما قلنا في أمر البصر تعالى الله أن يشبهه خلقه، انتهى[1].

توضيحه: أنّ المدارك على كثرتها منحصرة في أمرين، لأنّ العوالم على كثرتها

---

(١) الكافي: ١/٩٩ ـ ١٠٠ح١٢.

منحصرة في عالمين **أحدهما**: عالم الدّنيا والشّهادة، **والثاني**: عالم الغيب والآخرة، فالمدرك لما في عالم الشّهادة هو إحدى الحواس الخمس، والمدرك لما في عالم الغيب هو القلب، والمراد بالقلب مجمع المشاعر الباطنة، أعني الخيال والوهم والعقل.

أمّا مدركات الحواس فلا تتجاوز عن المحسوسات، وهي منحصرة في الجسم والجسمانيات، والله سبحانه منزّه عن ذلك.

وأمّا مدركات القلوب فإنّما هي منحصرة لما في الهواء، والمراد بالهواء هو الفضاء ما بين السّماء والأرض، ولعل المراد به هنا عالم الإمكان طولاً وعرضاً، وتسميته بالهواء من باب تسمية الكلّ باسم الجزء.

وإنّما قلنا إن المراد به ذلك، لأنّ إدراك القلب غير مقصور على مدركات الحواس، ولا مشروط بشرائط إدراك الحواس فيدرك جميع ما في الهواء بوساطة ولا بوساطة بالتّوهم، فإذا حمل القلب على إدراك ما ليس بموجود في الهواء يعود راجعاً، فيخترع صورة من عنده، فيحكي لما ليس بموجود في العين بما يخترع في وهمه، وهكذا عادته في المواضع المظلمة والمخاوف، فلا بدّ للعاقل أن لا يحمل قلبه على إدراك ما ليس بموجود، كحمله على الموجود، ولا يحمل على ما ليس بمحسوس لأن لا يقع في غلط الوهم، وكذا من طلب إدراك الحق من طرق الحواس وقع في الزّيغ والضّلال، فإنّه سبحانه أجلّ وأعظم من أن يطلب وينال من سبيل الحس والخيال، ولذلك قال الباقر ﷺ: «كلما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مصنوع مثلكم، مردود إليكم»[1].

فقد تلخص ممّا ذكرنا كله أن كلّ سابح في بحار جلاله غريق، وكلّ مدّع للوصول إليه فبأنوار كبريائه حريق، سبحانه وتعالى شأنه علواً كبيراً **(الذي ليس لصفته حدّ محدود)** الظاهر أنّ المراد بصفته: الصّفات الذّاتية، وهي العلم والحياة والقدرة والاختيار وأمثالها، والمراد بالحدّ: الغاية والنّهاية، يقال: هذا حدّ الأرض أي غايتها ومنتهاها، والمحدود من حدّ الشيء عن الشّيء إذا عيّنه، فالمعنى أنّه ليس لصفاته غاية معينة، ونهاية مميّزة.

ويشهد به ما رواه في **(الكافي)** بإسناده عن الكابلي قال: كتبت إلى أبي الحسن ﷺ في دعاء الحمد لله منتهى علمه، فكتب إليّ: «لا تقولن منتهى علمه، فليس لعلمه منتهى، ولكن قل منتهى رضاه»[2].

---

(١) البحار: ٣٤/١١٠، وشرح الأسماء الحسنى: ١١/١.

(٢) الكافي: ١/١٠٧ح٣، والتوحيد للصدوق: ١٣٤ح٢.

هذا ويحتمل أن يكون المراد بالحدّ: الحدّ المنطقي، وهو ما يعرّف به الشّيء فيكون المعنى أنه ليس لذاته حدّ يعرف به قياساً على الأشياء المحدودة، وذلك لأنّه ليس بمركب وكلّ محدود مركب.

وفي **(الكافي)** عن أبي حمزة، قال: قال لي عليّ بن الحسين عليهما السّلام: يا أباحمزة إنّ الله لا يوصف بمحدوديّة، عظم ربّنا عن الصّفة، وكيف يوصف بمحدوديّة من لا يحدّ[1].

أقول: يعني من ليس له حدّ لتنزّهه عن الأجزاء والنّهايات، والحدّ مستلزم للتّجزية والتكثّر المنافي للوجوب الذّاتي، وعدم الإفتقار، ويمكن أن يكون وصف الحدّ بالمحدود من باب المبالغة والتّأكيد من قبيل شعر شاعراً، وحجراً محجوراً، ونسياً منسيّاً، ونحو ذلك، أو المفعول بمعنى الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] أي ساتراً ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي آتياً.

(ولا نعت موجود) أي رسم موجود يرسم به قياساً على الأشياء المرسومة بلوازمها وأوصافها، وإلاّ يلزم كون الذّات محلاً للأعراض والأوصاف وهو منزّه عن ذلك.

ويدل عليه ما رواه في **(الكافي)** عن الفضيل بن يسار قال: إنّ الله لا يوصف، وكيف يوصف وقد قال في كتابه:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

فلا يوصف بقدر إلاّ كان أعظم من ذلك[2].

وفي رواية أبي حمزة، عن عليّ بن الحسين عليهما السّلام، قال: قال: لو اجتمع أهل السّماء والأرض أن يصفوا الله بعظمته لم يقدروا[3].

قال بعض المحقّقين: لأنّ الذات الأحدية والهوية القيوميّة، ممّا لا ماهيّة له، ولا جزء لذاته، فلا حدّ له ولا صورة تساويه، فلا حكاية عنه، ولأن وجوده الذي هو عين ذاته غير متناه الشّدة في النّوريّة فلا يكتنهه لاحظ، ولا يستقر لإدراكه ناظر **(ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود)** لأنّه أزلي أبدي واجب الوجود لا يختصّ وجوده بوقت دون وقت، وبأجل دون

---

(١) الكافي: ١/١٠٠ح٢، وجامع المقاصد: ١/٧.

(٢) الكافي: ١/١٠٣ح١١.

(٣) الكافي: ١/١٠٢، وشرح أصول الكافي للمازندراني: ٣/٢٠٩.

أجل، بل هو خالق الوقت والأجل لا ابتداء لوجوده، ولا انتهاء لبقائه.

ولذلك نهي في الأخبار الكثيرة عن السؤال عنه سبحانه **(بمتى)**، كما في **(الكافي)** عن أبي عبد الله ﷺ، قال: جاء حبر من الأحبار إلى أمير المؤمنين ﷺ فقال يا أمير المؤمنين: متى كان ربّك؟ فقال له: «ثكلتك أمّك ومتى لم يكن حتّى يقال متى كان، كان ربّنا قبل القبل بلا قبل، وبعد البعد بلا بعد، ولا غاية ولا منتهى لغاية، انقطعت الغايات عنده، فهو منتهى كلّ غاية»، فقال: يا أمير المؤمنين أفنبيّ أنت؟ فقال: «ويلك إنّما أنا عبد من عبيد محمّد ﷺ»[1].

قال بعض شرّاح الحديث: **(متى)** عبارة عن نسبة المتغيرات إلى الزّمان، وهذا يستلزم أن يكون الموجود في شطر من الزّمان، غير موجود فيه سابقاً ولا لاحقاً، فإذا قيل لشيء **(متى)** كان فمعناه السّؤال عن خصوصيّة الوقت الذي اتّفق وجوده فيه، دون سائر الأوقات، كما إذا قيل: أين كان؟ فمعناه السّؤال عن خصوصية مكانه الذي وجد فيه دون سائر الأمكنة.

وبالجملة الزّمان لكونه مقدار الحركة علة تغيّر الأشياء الزّمانيّة ولا علّة لتغيره لأنّه بنفسه متغير غير قارّ الذّات، ولمّا لم يكن وجوده سبحانه زمانيّاً، لأنّه غير متغيّر أصلاً ولا بمتحرّك، ولا علاقة له بمتحرّك، لا يكون واقعاً في الزّمان فلا يصحّ السّؤال عنه **(بمتى)** ولذلك نبّه على فساد السؤال عنه بمتى بقوله: ومتى لم يكن حتّى يقال متى كان؟ فإنّ من خاصيّة المنسوب إلى الزّمان أنّه ما لم ينقطع نسبته عن بعض أجزاء الزّمان، لم ينسب إلى بعض آخر فالموجود في هذا اليوم غير الموجود في الغد، ولا في الأمس، ولكن الباري جل جلاله لكونه محيطاً بجميع الموجودات إحاطة قيوميّة، فنسبته إلى الثّابت والمتغيّر والمجرّد والمكان نسبة واحدة، ولم يزل ولا يزال من غير أن يتصوّر في حقّه تغيّر، وتجدّد بوجه من الوجوه، لا في ذاته ولا في صفته ولا في إضافته ونسبته، فصحّ القول بأنّه لا يخلو منه زمان.

وقوله ﷺ: «قبل القبل بلا قبل»، أي هو قبل كلّ من يفرض له القبليّة، ومثله بعد البعد بلا بعد ولا غاية أي ولا نهاية لوجوده في جهة القبليّة والبعديّة، لكونه أزليّاً أبديّاً، ولا منتهى لغاية أي ليس نهاية لامتداد إذ ليس له كميّة مقتضية لاتّصافه بالأطراف والنّهايات وإقترانه بالإمتداد والغايات، إنقطعت الغايات عنده فهو منتهى كلّ غاية، لأنّه منتهى غرض الخلائق ومفزعهم في المهمّات والمقاصد، فهو منتهى سير السّائرين، وغاية شوق المسافرين، ونهاية قصد الطالبين.

---

(١) الكافي: ١/ ٩٠ ح٥، وتوحيد الصدوق: ١٧٤.

الترجمة

يعنى همچنان خداوندى كه نمى تواند درك كند كنه ذات شريف او را بلندى همت هاى صاحبان فكر و نظر اگرچه تعمّق نمايند و امعان نظر بكنند و نمى تواند برسد بر حقيقت او غوطه خوردن حذاقت ها و فهم ها در درياى معرفت ذات او اگر چه سعى و كوشش ورزند.

به عقل نازى حكيم تاكى به فكرت اين ره نمى شود طى
به كنه ذاتش خرد برد پى اگر رسد خس به قعر دريا

و آن خدايى كه نيست اوصاف جماليه و صفات كماليه او را غايت و نهايتى معين كه از آن جا تجاوز ننمايد، يا اين كه نيست صفات ذاتيه او را معرفى كه به كنه او را تعريف و تحديد نمايد و نه معرفى كه به عوارض و اوصاف شرح ماهيت آن را دارد و نيست اوصاف او را وقتى شمرده شده و نه مدتى كشيده گرديده.

الفصل الثالث

«فَطَرَ الْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، ونَشَرَ الرِّياحَ بِرَحْمَتِهِ، ووَتَدَ بِالصُّخُورِ مَيَدانَ أَرْضِهِ».

اللغة

(فطر) الله الخلق فطراً من باب نصر خلقهم والإسم الفطرة، كالخلقة لفظاً ومعنى و**(النشر)** البسط، يقال: نشر المتاع ينشره نشراً إذا بسط، ومنه ريح نشور ورياح نشر، **(والرّياح)** جمع الرّيح، والياء فيها منقلبة عن الواو لانكسار ما قبلها، وجمع القلة أرواح بالواو إذا لم يوجد فيه ما يوجب الإعلال، وربّما يفرق بين الرّيح والرّياح بأنّ الثّانية من أسباب الرّحمة وآثارها، والأولى ليست كذلك وقد روي عن النّبي ﷺ أنّه كان يقول إذا هبّت ريح: «اللّهمّ اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً»[1]. ويشهد به الاستقراء أيضاً قال سبحانه:

﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الروم: ٤٦، الحجر: ٢٢] وقال: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦] ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

إلى غير هذه من الآيات و**(وتد)** كوعد يَتِدُ وتداً وتدة يقال: وتد الوتد إذا ثبّته وقد يستعمل لازماً يقال: وتد الوتد إذا ثبت و**(ميدان)** بفتح الميم والياء مصدر يقال: ماد الشّيء يميد ميداً، من باب ضرب وميداناً، مثل نزعان إذا تحرّك.

الإعراب

الجملات الثّلاث لا محل لها من الأعراب وإضافة ميدان إلى الأرض بمعنى اللاّم، وقيل: إنّها من قبيل إضافة الصّفة إلى الموصول بتأويل أرضه المائدة والأوّل أولى.

المعنى

قوله: **(فطر الخلائق)** أي خلقهم **(بقدرته)** وهذه اللفظة مأخوذة من الكتاب العزيز، قال سبحانه:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١] وفي سورة إبراهيم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠] وفي الأنعام: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١].

أي خالقهما، وفي بعض التّفاسير أي مبتدئهما ومبتدعهما، إستشهاداً بما عن ابن عباس

(١) البحار: ٥٧/٤ ـ ١٧، تفسير مجمع البيان: ١/ ٤٥٣.

قال: ما كنت أدري ما فاطر السّماوات والأرض حتّى اختصم إليّ اعرابيّان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدأتها، انتهى.

وقيل: إن فاطر من الفطر بمعنى الشّق، كما في قوله سبحانه:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الإنفطار: ١] أي انشقّت.

أقول: ويشهد به ما في حديث الخلقة في بيان الأشباح لآدم ﷺ: وهذه فاطمة، وأنا فاطر السّماوات والأرض، فاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل قضائي، وفاطم أوليائي عمّا يعرهم ويشينهم، فشققت لها اسماً من اسمي، وسيأتي الحديث بتمامه عند شرح خلقة آدم في التّنبيه الثّاني من تنبيهات الفصل العاشر هذا.

وفي قوله ﷺ: بقدرته إشارة إلى أن خلق الأشياء بنفسه القدرة التي هي عين ذاته، لا بشيء آخر، وأما سائر الصّناع والفواعل فليسوا كذلك، فإن صنعهم وفعلهم بشيء غير ذواتهم كآلة أو ملكة نفسانية، أو مادة أو معاون مثلاً إذا أنشأ إنسان كتاباً فإنّه يحتاج إلى آلة كاليد والقلم، وإلى ملكة الكتابة، وإلى مادة كالمداد والقرطاس وإلى معاون يتّخذ له الآلة الخارجة ويصلح مادّة الكتابة، وأمّا صنعه سبحانه، فلا يحتاج إلى شيء من ذلك، وإنّما هو بنفس ذاته الواجب، ونفس قدرته الكاملة.

والقدرة في الأصل القوة وعند المتكلمين هي الصّفة التي يتمكن معها الحيّ من الفعل وتركه بالإرادة، وأمّا عند الحكماء عبارة عن كون الفاعل بحيث إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل، وقدرته تعالى قيل: هو كون ذاته بذاته في الأزل بحيث يصحّ منه خلق الأشياء فيما لا يزال على وفق علمه بها، وهي عين ذاته، وقيل هي علمه بالنّظام الأكمل من حيث إنّه يصحّ صدور الفعل عنه، وقيل: هي عبارة عن نفي العجز عنه، وقيل: هي فيض الأشياء عنه بمشيّته التي لا تزيد على ذاته، وهي العناية الأزليّة، وسيأتي تحقيق الكلام فيها وفي غيرها من الصّفات الثّبوتيّة، عند شرح قوله ﷺ: وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه، فانتظر.

و(**نشر الرّياح برحمته**) أي بسطها وفرقها على الأطراف والأكناف برحمته الواسعة، ونعمته السّابغة، لما فيها من المصالح والمنافع التي لا تعدّ ولا تحصى منها ما أشير إليه في الآية الشّريفة، قال سبحانه في سورة الأعراف:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف: ٥٧].

أي يرسل الرّياح ويطلقها منتشرة في الأرض على قراءة نشراً بالنّون، أو مبشّرة بالغيث على قراءة عاصم بالباء، بين يدي رحمته، وهو المطر، حتّى إذا حملت سحاباً ثقالاً بالماء،

سقنا السّحاب إلى بلد ميّت، خال من الماء والكلاء، فأنزلنا به أي بالسّحاب الماء، فأخرجنا بالماء من كلّ الثّمرات، وإلى هذا المضمون أيضاً أشير في سورة الفرقان والنّمل والرّوم.

وبالجملة فالرّياح من أعظم النّعماء، وأسبغ الآلاء، لما فيها من إنبات النّبات والأزهار، وإلقاح الأشجار وإيناع الثمار؛ ورفع كثافات الهواء، وتطيب الماء والكلاء، إلى غير ذلك من الثّمرات التي لا يعلمها إلاّ هو سبحانه وتعالى هذا ،وبقي الكلام في مهبّ الرّياح وأقسامها.

فنقول: روى الصدوق في العلل بإسناده عن العرزمي قال: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام جالساً في الحجر تحت الميزاب، ورجل يخاصم رجلاً وأحدهما يقول لصاحبه والله ما تدري من أين تهب الرّيح، فلما أكثر عليه قال له أبو عبد الله عليه السلام: «هل تدري أنت من أين تهب الرّيح»؟ قال: لا ولكنّي أسمع النّاس يقولون، فقلت لأبي عبد الله عليه السلام من أين تهب الرّيح؟ فقال: «إنّ الرّيح مسجونة تحت هذا الرّكن الشّامي فإذا أراد الله عزّ وجل أن يرسل منها شيئاً أخرجه إمّا جنوباً فجنوب، وإمّا شمالاً فشمال، وإما صباً فصبا، وإمّا دبوراً فدبور، ثم قال: وآية ذلك أنّك ترى هذا الرّكن متحرّكاً أبداً في الصّيف والشّتاء واللّيل والنّهار»[1].

قال المحدث العلاّمة المجلسي: ولعل المراد بحركة الرّكن حركة الثّوب المعلق عليه.

وفي **(الفقيه)** و**(الكافي)** عن أبي بصير، قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرّياح الأربع: الشّمال، والجنوب، والصبا، والدبور، وقلت: له إنّ النّاس يقولون إن الشّمال من الجنّة، والجنوب من النّار، فقال: «إن لله جنوداً من رياح، يعذب بها من يشاء ممّن عصاه، فلكلّ ريح منها ملك موكل بها، فإذا أراد الله عزّ ذكره أن يعذب قوماً بنوع من العذاب، أوحى إلى الملك الموكل بذلك النّوع من الرّيح التي يريد أن يعذبهم بها، قال: فيأمرها الملك فتهيج كما يهيج الأسد المغضب»، وقال: ولكلّ ريح منهنّ اسم: أما تسمع قوله عزّ وجل:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ، إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [الذاريات: ٤١] وقال: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الأحقاف: ٢٤] وقال ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [القمر: ١٨ - ١٩].

وقال: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وما ذكر من الرّياح التي يعذب الله بها من عصاه، وقال عليه السلام «ولله عزّ ذكره رياح رحمة لواقح، وغير ذلك ينشرها بين يدي رحمته، منها ما يهيّج السّحاب للمطر، ومنها رياح تحبس

---

(١) علل الشرائع: ٢/٤٤٨.

السّحاب بين السّماء والأرض، ورياح تعصر السّحاب فتمطر بإذن الله، ومنها رياح تفرّق السّحاب، ومنها رياح ممّا عدّ الله في الكتاب».

فأمّا الرّياح الأربع: الشّمال، والجنوب، والصبا، والدّبور، فإنّما هي أسماء الملائكة الموكلين بها، فإذا أراد الله أن يهب شمالاً، أمر الملك الذي اسمه الشّمال، فيهبط على البيت الحرام، فقام على الرّكن الشّامي فيضرب بجناحيه، فتفرّقت ريح الشّمال حيث يريد الله من البرّ والبحر.

وإذا أراد الله أن يبعث جنوباً أمر الملك الذي اسمه الجنوب، فيهبط على البيت الحرام، فقام على الرّكن الشّامي ويضرب بجناحيه فتفرّقت ريح الجنوب في البرّ والبحر حيث يريد الله.

وإذا أراد الله أن يبعث الصّبا أمر الملك الذي اسمه الصّبا فهبط على البيت الحرام، فقام على الرّكن الشّامي فضرب بجناحيه، فتفرّقت ريح الصّبا حيث يريد الله عزّ وجلّ في البرّ والبحر.

وإذا أراد الله أن يبعث دبوراً، أمر الملك الذي اسمه الدّبور فهبط على البيت فقام على الرّكن الشّامي فضرب بجناحيه، فتفرّقت ريح الدّبور حيث يريد الله من البرّ والبحر.

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: أما تسمع لقوله: ريح الشمال، وريح الجنوب، وريح الدّبور، وريح الصّبا، إنّما تضاف إلى الملائكة الموكلين بها(١).

أقول: يعني إضافة بمعنى اللاّم لا إضافة بيانيّة، هذا.

وعن الشّهيد في الذكرى: أنّ الجنوب محلّها ما بين مطلع سهيل إلى مطلع الشّمس في الاعتدالين، والصّبا محلّها ما بين الشّمس إلى الجدي، والشّمال محلها من الجدي إلى مغرب الشّمس في الاعتدالين، والدّبور من مغرب الشّمس إلى مطلع سهيل، انتهى(٢).

لا يقال: إن المستفاد من الرّواية السّابقة، كون مهبّ جميع الرّياح جهة القبلة، وهو مناف لما ذكره الشّهيد.

لأنّا نقول: إن ظاهره وإن كان ذلك إلاّ أنّه يمكن تأويلها بأنّ الملك لعظمه وعظم جناحه يمكن أن يحرك رأس جناحه بأيّ موضع أراد ويرسلها إلى أيّ جهة أمر بالإرسال

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/٥٤٦ح١٥٢٢، والخصال: ٢٦١ح١٣٧.

(٢) المصدر السابق: ١/٥٤٥، والبحار: ١٤/٥٧.

إليها، وإنّما أُمر بالقيام على الكعبة لشرافتها، وقيل: ضرب الجناح علامة أمر الملك الرّيح للهبوب، وإنّما احتجنا إلى التأويل، لأنّ كون جميع الرّياح من طرف القبلة خلاف ما يشهد به الوجدان **(ووتد بالصّخور ميدان أرضه)** يعني ثبّت بالجبال حركة أرضه واضطرابها، فهي كالوتد لها مانعة عن اضطرابها. قال سبحانه في سورة النّحل:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

أي كراهة أن تميد، ومثلها في سورة لقمان، وفي الأنبياء.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

والرّواسي جمع الراسية أي الجبال العالية الثّابتة، وفي سورة النّبأ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٦ ـ ٧].

روى عن ابن عبّاس أنّ الأرض بسطت على الماء فكانت تكفأ بأهلها كما تكفأ السّفينة، فأرساها الله بالجبال[1].

وعن الخصال عن الصّادق عن أبيه عن جده، عليهم السّلام، «أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا خلق البحار فخرت وزخرت وقالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الله الفلك، فأدارها به وذللها، ثم إنّ الأرض فخرت وقالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الله الجبال فأثبتها في ظهرها أوتاداً من أن تميد بما عليها، فذلت الأرض واستقرت»[2]، ويأتي فيه طائفة من الأخبار في شرح الفصل الثّامن من فصول الخطبة هذا، والإشكال بعد في كيفيّة كون الجبال سبباً لسكون الأرض، وقد ذكروا فيها وجوهاً:

منها: ما ذكره الفخر الرّازي في التّفسير الكبير، وهو أنّ السّفينة إذا ألقيت على وجه الماء، فإنّها تميل من جانب إلى جانب وتضطرب، فإذا وقعت الأجرام الثّقيلة فيها، استقرّت على وجه الماء، فكذلك لمّا خلق الله الأرض على وجه الماء اضطربت، ومَادَتْ، فخلق الله عليها هذه الجبال ووتدها بها، فاستقرّت على وجه الماء بسبب ثقل الجبال.

ثم قال: لقائل أن يقول: هذا يشكل من وجوه: الأوّل أنّ هذا المعلّل إمّا أن يقول بأن حركات الأجسام بطباعها، أو يقول ليست بطباعها بل هي واقعة بإيجاد الفاعل المختار.

فعلى التّقدير الأوّل نقول لا شكّ إنّ الأرض أثقل من الماء والأثقل يغوص في الماء

(١) البحار: ٥٧/ ١٠١.

(٢) الكافي: ٨/ ١٤٩ ح١٢٩، والحديث طويل.

ولا يبقى طافياً عليه، فامتنع أن يقال: إنّها كانت تميد وتضطرب، بخلاف السّفينة، فإنّها متّخذة من الخشب، وفي داخل الخشب تجويفات، غير مملؤة، فلذلك تميد وتضطرب على وجه الماء، فإذا أرسيت بالأجسام الثقيلة استقرت وسكنت، فظهر الفرق.

وأمّا على التّقدير الثّاني وهو أن يقال: ليس للأرض والماء طبائع يوجب الثّقل والرّسوب، والأرض إنّما تنزل لأنّ الله تعالى أجرى عادته بجعلها كذلك، وإنّما صار الماء محيطاً بالأرض، لمجرّد إجراء العادة، وليس ههنا طبيعة للأرض ولا للماء توجب حالة مخصوصة، فنقول: على هذا التّقدير علّة سكون الأرض هي أنّ الله يخلق فيها السّكون، وعلّة كونها مائدة مضطربة، هو أنّ الله يخلق فيها الحركة فيفسد القول بأنّ الله خلق الجبال لتبقى الأرض ساكنة، فثبت أنّ التّعليل مشكل على كلا التّقديرين، انتهى.

ثم ذكر سائر الإشكالات الواردة على المعلّل، تركنا التعرّض لها مخافة الإطناب.

أقول: ويمكن الجواب عن الإشكال بأن يقال: إنّا نختار أنّ الأرض بطبيعتها طالبة للمركز، لكن إذا كانت خفيفة كان الماء يحرّكها بأمواجه حركة قسريّة، ويزيلها عن مكانها الطبيعي بسهولة، فكانت تميد وتضطرب بأهلها وتغوص قطعة منها، وتخرج قطعة منها، ولمّا أرساها الله بالجبال، وأثقلها قاومت الماء وأمواجه بثقلها، فكانت كالأوتاد ومثبتة لها.

ومنها ما ذكره أيضاً واختاره حيث قال: والذي عندي في هذا الموضع المشكل أن يقال: إنّه ثبت بالدلائل اليقينيّة أنّ الأرض كرة وأنّ هذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات وتضريسات تحصل على وجه هذه الكرة، إذا ثبت هذا فنقول، لو فرضنا أنّ هذه الخشونات كانت معدومة بل كانت الأرض كرة، حقيقية خالية عن هذه الخشونات والتّضريسات، لصارت بحيث تتحرك بالاستدارة بأدنى سبب لأنّ الجرم البسيط المستدير وإن لم يجب كونه متحرّكاً بالاستدارة عقلاً، إلاّ أنّه بأدنى سبب، يتحرك على هذا الوجه، أمّا إذا حصل على سطح كرة الأرض هذه الجبال، وكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة، فكلّ واحد من هذه الجبال إنّما يتوجه بطبعه إلى مركز العالم، وتوجه ذلك الجبل نحو مركز العالم، بثقله العظيم وقوته الشّديدة، يكون جارياً مجرى الوتد الذي يمنع كرة الأرض من الإستدارة فكان تخليق هذه الجبال على الأرض كالأوتاد المغروزة في الكرة المانعة لها من الحركة المستديرة، وكانت مانعة للأرض عن الميد والميل والاضطراب بمعنى أنّها منعت الأرض عن الحركة المستديرة، فهذا ما وصل إليه خاطري في هذا الباب والله أعلم[١]، انتهى.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٧/١٠٤.

واعترض عليه بأنّ كلامه لا يخلو عن تشويش واضطراب، والذي يظهر من أوائل كلامه، هو أنّه جعل المناط في استقرار الأرض الخشونات والتّضريسات من حيث إنّها خشونات وتضريسات، وذلك إمّا لممانعة الأجزاء المائية الملاصقة لتلك التّضريسات، لاسلتزام حركة الأرض زوالها عن مواضعها وحينئذٍ يكون علّة السّكون هي الجبال الموجودة في الماء، لا ما خلقت في الرّبع المكشوف من الأرض وهو خلاف الظاهر من قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ [الصافات: ١٠].

والقول: بأنّ ما في الماء أيضاً من فوقها، فلعلّ المراد تلك الجبال لا يخلو عن بعد مع أنّها ربّما كانت معاونة لحركة الأرض، كما إذا تحركت كثرة الماء بتموّجها أو تموّج أبعاضها المقارنة لتلك الخشونات، وإنّما تمانعها عن الحركة أحياناً عند حركة بعضها، وأمّا لممانعة الأجزاء الهوائية المقاربة للجبال الكائنة على الرّبع الظاهر، فكانت الأوتاد مثبتة لها في الهواء، مانعة عن تحريك الماء بتموجه إيّاها كما تمانع الجبال المخلوقة في الماء عن تحريك الرّياح إيّاها، وحينئذٍ يكون وجود الجبال في كلّ منهما معاوناً لحركة الأرض في بعض الصّور، معاوقاً عنها في بعضها، ولا مدخل حينئذٍ لثقل الجبال وتركبها في سكون الأرض واستقرارها.

ومنها: ما اختاره العلاّمة المجلسي في **(البحار)**، وهو أن يكون مدخليّة الجبال لعدم اضطراب الأرض بسبب اشتباكها واتّصال بعضها ببعض في أعماق الأرض بحيث تمنعها عن تفتّت أجزائها وتفرّقها، فهي بمنزلة الأوتاد المغروزة المثبتة في الأبواب المركبة عن قطع الخشب الكثيرة، بحيث تصير سبباً لإلصاق بعضها ببعض وعدم تفرّقها، وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار في الأرض، فإنّها تنتهي عند المبالغة في حفرها إلى الأحجار الصّلبة، وأنت ترى أكثر قطع الأرض واقعة بين جبال محيطة بها، فكأنّها مع ما يتّصل بها من القطعة الحجريّة المتّصلة بها من تحت تلك القطعات، كالظرف لها، تمنعها عن التفتّت والتفرّق والاضطراب عند عروض الأسباب الداعية إلى ذلك، إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكروها، والله العالم بحقائق الأمور.

الترجمة

يعنى آفريد و پيدا كرد يا اين كه شق كرد نور وجود مخلوقات را از ظلمت عدم به قدرت كامله خودش و نشر و پراكنده نمود بادها را به رحمت شامله خود و ثابت و محكم گردانيد حركت و اضطراب زمين را با سنگ ها و كوه ها.

الفصل الرابع

«أَوَّل الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإخْلاَصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإخْلاَصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّاهُ، وَمَنْ جَزَّاهُ فَقَدْ جَهِلَهُ».

اللغة

(الأوّل): ذهب جمهور البصريّين إلى أنه على وزن أفعل مهموز الوسط، فقلبت الهمزة الثانية واواً ثم أدغمت، وعن الجوهري: أنه يدلّ عليه قولهم هذا أوّل منك، والجمع الأوائل والأوالي على القلب، وذهب الكوفيون وطائفة من البصريّين إلى أنّ أصله ووئل على وزن فوعل، قلبت الواو الأولى همزة.

إذا علمت ذلك فمعنى الأوّل في اللّغة ابتداء الشّيء، ثم قد يكون له ثان، وقد لا يكون، كما يقول: هذا أول ما اكتسبته، فقد يكسب بعده شيئاً، وقد لا يكسب، واستدلّ الزّجاج عليه بقوله تعالى حكاية عن الكفار المنكرين للبعث.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٣٥].

فعبر بالأولى وليس لهم غيرها **(والدّين)** الطاعة والانقياد والعبادة والإسلام، قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وتقول: دنت ديناً أي أسلمت ودان الرّجل إذا أطاع، قال الطريحي: الدّين وضع إلهي لأولي الألباب يتناول الأصول والفروع **(والمعرفة)** العلم وقيل: هي إدراك البسائط والجزئيات، والعلم إدراك المركبات والكليات، ومن ثم يقال: عرفت الله، ولا يقال: علمته، وقيل هي عبارة عن الإدراك التصوري، والعلم عبارة عن الإدراك التّصديقي، وقيل: هي إدراك الشّيء ثانياً بعد توسّط نسيانه فلذلك يسمّى الحق سبحانه بالعالم، دون العارف، قيل: وهذا أشهر الأقوال في تعريف المعرفة.

أقول: وعلى هذا فاستعمال المعرفة في المقام نظراً إلى سبق إدراك ذاته سبحانه في عالم الذّرة، أو عند أخذ الميثاق من العقول المجرّدة، فافهم، **(والتوحيد)** جعل الشّيء واحداً أي الحكم بوحدانيته، وقد يطلق على التّفريق بين شيئين بعد الاتصال، وعلى الإتيان بالفعل الواحد منفرداً، وفي **(الاصطلاح)**: إثبات ذات الله بوحدانيّته، ووحدانيّته بمعنى أنّه لا ثاني له

في الوجود، وبمعنى أنّه لا كثرة فيه مطلقاً لا في عين الذّات، لانتفاء التركيب والأجزاء، ولا في مرتبة الذّات لانتفاء زيادة الوجود، ولا بعد مرتبة الذّات لانتفاء زيادة الصّفات، وقد يقصد بها معنى أنّه لم يفته شيء من كماله، بل كلّ ما ينبغي له فهو له بالذّات والفعل **(والإخلاص)** مصدر من أخلص الشّيء إذا جعله خالصاً ممّا يشوبه، يقال: خلص الماء إذا صفا من الكدر، وكلّ شيء صفا عن شوبه وخلص يسمّى خالصاً، قال تعالى:

﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النحل: ٦٦].

أي لا شوب فيه من الفرث والدّم، والإخلاص في الطاعة ترك الريا، والإخلاص في الدّين ترك الشّرك **(وقرن)** بين الحجّ والعمرة من باب قتل وفي لغة من باب ضرب: جمع بينهما في الإحرام و**(ثنيت)** الشّيء بالتثقيل: جعلته اثنين و**(جزأت)** الشيء تجزأة قسمته، وجعلته أجزاء.

الإعراب

لفظ الأوّل له استعمالان: أحدهما أن يكون إسماً مجرداً عن الوصفيّة فيكون منصرفاً، ومنه قولهم: ما له أوّل ولا آخر، قال أبو حيّان في الإرتشاف في محفوظي إنّ هذا يؤنّث بالتّاء ويصرف أيضاً فيقال: أوّله وآخرة، والثّاني أن يكون صفة، أي أفعل تفضيل بمعنى الأسبق فيعطي حكم غيره من صيغ أفعل التّفضيل، من منع الصّرف، وعدم تأنيثه بالتّاء، وذكر من التّفضيليّة بعده، يقال: هذا أوّل من هذين، ولقيته عاماً أوّل بنصب أوّل ممنوع الصّرف، على أنّه، صفة للمنصوب، واللام في قوله: كمال توحيده الإخلاص له زائدة للتقوية، مفيدة للتوكيد، كما في قوله:

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ٩١] ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ١٦﴾ [المعارج: ١٦].

ونحو ضربي لزيد حسن، وهي أن أقسام **(اللاّم)** الجارّة التي تفتح مع الضمير دائماً إلاّ المتكلّم، فتكون مكسورة معه، ومكسورة مع الظاهر إلاّ المستغاث فتكون مفتوحة، نحو يا لزيد فرقاً بينها وبين **(لام)** المستغاث لأجله، لأنّها مكسورة **(ومن)** في قوله: فمن وصف الله وما يتلوه، من كلم المجازات إسم شرط مرفوع المحل على الابتداء، وخبره الجزاء، لتمامية الفائدة به، وقيل: الشّرط لتحمله ضمير المبتدأ، وقيل: هما معاً.

المعنى

إعلم أنّ هذه الفقرة من الخطبة مع وجازتها متضمّنة لأكثر العلوم الإلهيّة ببراهينها

السّاطعة، ولذلك تحير في إدراك معناها أولو الأفهام، وعجزت عن الوصول إلى مغزاها العقول والأوهام، ولا بأس بالإشارة إلى نبذ من كنوز أسرارها، والنموذج من رموز أنوارها ثم نتبعها بما ذكره بعض الأعلام، في تفسير المقام.

فنقول: قوله ﷺ **(أوّل الدّين معرفته)** يعني ابتداء الطاعة والعبادة معرفة الله سبحانه، إذ الطاعة والعبادة أي كون العبد عبداً فرع معرفة المطاع والمعبود، فما لم يُعرف لا يمكن إطاعته، ولذلك أنّ أمير المؤمنين ﷺ بعد ما سأل عنه حبر بقوله: هل رأيت ربّك حين عبدته؟ أجاب بقوله: «ويلك ما أعبد ربّاً لم أره»، قال: وكيف رأيته؟ قال: «ويلك لاتدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»، رواه في **(الكافي)** بإسناده عن أبي عبد الله ﷺ، ورواه السّيد قد (ره) أيضاً في المتن باختلاف، وهو المختار المائة والثّامن والسّبعون[1].

ثمّ إنّ معرفته سبحانه قد تكون ناقصة، وقد تكون تامة، أمّا النّاقصة فهي إدراك أنّ للعالم صانعاً مدبّراً، وأمّا التّامة فقد أشار إليها بقوله: **(وكمال معرفته التّصديق به)** أي الإذعان بوجوده ووجوبه، لأنّ التّصور للشّيء إذا اشتدّ يصير إذعاناً وحكماً بوجوده، إذ من ضرورة كونه صانع العالم وإلهه أن يكون موجوداً في نفسه فإن لم يكن موجوداً في نفسه، استحال أن يصدر عنه أثر موجود، فهذا الحكم اللاّحق هو كمال معرفته وتصوّره.

ثمّ إنّ التّصديق به قد يكون ناقصاً وقد يكون تاماً، أمّا النّاقص فهو التّصديق به مع تجويز الشّريك له، وأمّا التّام فقد أشار إليه بقوله: **(وكمال التّصديق به توحيده)** أي الحكم بوحدانيّته، وأنّه لا شريك له في ذاته، لأن طبيعة واجب الوجود لو فرض اشتراكها بين اثنين لزم أن يكون لكلّ واحد منهما من مميّز وراء ما به الإشتراك، فيلزم التّركيب في ذاتيهما، وكلّ مركب ممكن، وبعبارة أخرى، لو فرضنا موجودين واجبي الوجود لكانا مشتركين في وجوب الوجود، ومتغايرين بأمر من الأمور، وإلاّ لم يكونا اثنين، وما به الإمتياز إمّا أن يكون تمام الحقيقة، أو لا يكون تمام الحقيقة بل جزؤها، لا سبيل إلى الأول، لأنّ الإمتياز لو كان بتمام الحقيقة لكان وجوب الوجود المشترك بينهما خارجاً عن حقيقة كلّ واحد منهما، وهو محال، لأنّا بيّنا أنّ وجوب الوجود نفس حقيقة الواجب لذاته، ولا سبيل إلى الثّاني، لأنّ كل واحد منهما يكون مركباً ممّا به الإشتراك وممّا به الإمتياز، وكلّ مركب يحتاج إلى غيره أي إلى جزئه، فيكون ممكناً لذاته، هذا خلف.

ثمّ إنّ التّوحيد قد يكون ناقصاً وقد يكون تاماً، أمّا النّاقص فهو الحكم بوحدانيّته مع

(١) الكافي: ١/ ٩٨ح٦، ونور البراهين للجزائري: ١/ ٢٧٧.

عدم الإخلاص له، وأمّ التّام فهو ما أشار إليه بقوله **(وكمال توحيده الإخلاص له)** أي جعله خالصاً عن النّقائص أي سلب النّقائص عنه ككونه جسماً أو عرضاً أو نحوهما ممّا هو من صفات النّقص هذا.

وقيل: إن المراد بالإخلاص إخلاص العمل له، وعلى هذا **(فاللاّم)** للتّعليل قال سبحانه:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

قال الشّارح البحراني وصدر الدّين الشيّرازي في **«شرح الكافي»** في قوله: وكمال توحيده الإخلاص له: فيه إشارة إلى أنّ التّوحيد المطلق للعارف إنّما يتمّ بالإخلاص له، وهو الزّهد الحقيقي الذي هو تنحية كل ما سوى الحقّ الأوّل عن سنن الإيثار.

وبيان ذلك أنّه ثبت في علم السّلوك أنّ العارف ما دام يلتفت مع ملاحظة جلال الله وعظمته إلى شيء سواه، فهو بعد واقف دون مقام الوصول، جاعل مع الله غيراً، حتّى أنّ أهل الإخلاص ليعدّون ذلك شركا خفيّاً، كما قال بعضهم:

من كان في قلبه مثقال خردلة سوى جلالك فاعلم أنه مرض

وأنّهم ليعتبرون في تحقّق الإخلاص أن يغيب العارف عن نفسه حال ملاحظته لجلال الله، وإن لحظها فمن حيث هي لاحظة لا من حيث هي مزيّنة بزينة الحق، فإذن التّوحيد المطلق أن لا يعتبر معه غيره مطلقاً، انتهى ولكن الأظهر ما قلناه.

ثمّ إنّ الإخلاص له قد يكون ناقصاً وقد يكون تاماً، أمّا النّاقص فهو جعله خالصاً عن صفات النّقصان مع إثبات صفات الكمال، وأمّا التام فهو ما أشار إليه بقوله: (وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه) أي الصّفات التي وجودها غير وجود الذّات، وإلاّ فذاته بذاته مصداق لجميع النّعوت الكمالية، والأوصاف الإلهية، من دون قيام أمر زائد بذاته تعالى فرض أنّه صفة كماليّة له، فعلمه وإرادته وقدرته وحياته وسمعه وبصره كلّها، موجودة بوجود ذاته الأحديّة، مع أنّ مفهوماتها متغايرة، ومعانيها متخالفة، فإنّ كمال الحقيقة الوجوديّة في جامعيّتها للمعاني الكثيرة الكماليّة مع وحدة الوجود هذا.

وقد تحصّل ممّا ذكره عليه السلام إنّ مراتب العرفان خمسة.

الأولى: مرتبة التّصوّر وهي إدراك أنّ للعالم مؤثراً، وهذه المرتبة هي التي نفوس الخلائق مجبولة إليها باقتضاء فطرتها التي فطر النّاس عليها، وكلّ مولود يولد على الفطرة إلاّ أن أبويه يُهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه.

الثانية: مرتبة التّصديق والإذعان بوجوده ووجوبه بالبراهين السّاطعة، والأدلة القاطعة، قال سبحانه:

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

الثالثة: مرتبة التّوحيد والتّفريد عن الشركاء.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

الرّابعة: مرتبة الإخلاص أي جعله خالصاً عن النّقائص. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإخلاص: ١] أي المتعالي عن الكون والفساد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] أو جعل العمل خالصاً له. ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

الخامسة: مرتبة نفي الصّفات وهي غاية العرفان ومنتهى قوة الإنسان.

وقد ظهر مّما ذكره ﷺ أيضاً أنّ كلّ واحدة من المراتب الأربعة الأولى مبدء لما بعدها، وكلّ مرتبة من المراتب الأربعة الأخيرة كمال لما قبلها، وهذه المراتب الخمسة في التمثيل كقشر الجوز، وقشر قشره، ولبّه، ولبّ لبّه، والدّهن المستخرج منه.

فالمرتبة الأولى: كالقشرة العليا من الجوز الأخير فيها ألبتّة، إن أكلت فهو مرّ المذاق، بعيد عن المساغ، ولكنّها تحفظ القشرة الصّلبة السّفلى.

والمرتبة الثانية: مثل القشرة الثّانية، فإنّها ظاهرة النّفع بيّنة الجدوى، تصون اللّبّ عن الفساد وتربيّه إلى وقت الحصاد، لكنّها نازلة القدر، زهيدة النفع بالنّظر إلى اللبّ.

والمرتبة الثالثة: كالغطاء المحيط باللّب المأكول بتبعية اللبّ.

والمرتبة الرّابعة: كاللّب.

والمرتبة الخامسة: كالدّهن المستخرج من اللّب الصّافي من المشوبات، والخالص عن الكدورات الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار هذا.

ولبعض العرفاء في تفسير كلامه ﷺ تقرير آخر لا بأس بتحريره، قال: الدّين الإنقياد والطاعة، والمراد من أوّلية المعرفة للانقياد إمّا توقفه عليها، أو كونه إبتداء لها، لأنّ المراد من المعرفة إمّا التصور، وإمّا عقد القلب عليه، وهو ما يحصل بالموعظة الحسنة، وأمّا التّصديق الذي هو كمال المعرفة فهو إنّما يحصل بالحكمة والبرهان ولعلّ المراد من التّصديق به هو مرتبة علم اليقين، ومن كمال التّصديق به توحيده هو مرتبة عين اليقين، ومن كمال

توحيده الإخلاص له هو مرتبة حق اليقين، وهو الذي يحصل عند الفناء، ومن كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه هو الفناء عن الفناء، وهذه المراتب مترتّبة في الحصول للسّالك التّارك، وتكون كلّ مرتبة لاحقة، غاية للسّابقة عليها، ولذا عبّر ﷺ عن كلّ مرتبة لاحقة بالكمال بالنسبة إلى السّابقة، وأيضاً كل مرتبة لاحقة أخص من السّابقة عليها، والسّابقة أعمّ منها، ووجود العام إنّما يكون بالخاص فيكون كمالاً له وقوله ﷺ: **(وكمال توحيده الإخلاص له)**، أي سلب النّقايص بإثبات الكمالات المقابلة لها، كسلب الجهل عنه بإثبات العلم، وسلب العجز عنه بإثبات القدرة له، وهكذا، وإنّما كان هذا كمال التوحيد، لأنّه يدلّ على أنّ وحدته تعالى ليست وحدة ناقصة هي ما سوى الوحدة الحقة الحقيقة من أقسام الوحدة، بل وحدته وحدة حقّة هي حقّ الوحدة، ولما كان الإخلاص له مستلزماً لإثبات الصّفات له، قال ﷺ: **(وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه)**، أي جعل الكمالات الحاصلة الثّابتة له بسلب النّقائص عنه عين ذاته الأحدية، فيكون ذاته كلّ الكمالات على وجه أعلى وأشرف، فهو الكلّ في وحدته، ويحتمل أن يكون المراد من نفي الصّفات عنه، أن وصف الواصفين له غير لائق بجانبه مسلوب عنه، كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق مثلكم مردود إليكم:

عجز الواصفون عن صفتك اعتصام الورى بمغفرتك
تب علينا فإننا بشر ما عرفناك حق معرفتك

فيكون غاية غايات المعرفة العجز عنها، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك هذا، وقوله ﷺ: **(لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة)** المراد بالشهادة هنا شهادة الحال، وهي الدّلالة، فإن حال الصفة يشهد بحاجتها إلى الموصوف وعدم قيامها بدونه، وحال الموصوف يشهد بالإستغناء عن الصفة في أصل الوجود والقيام بالذّات بدونها، وافتقاره إليها في كماله الذي لا يكمل إلاّ بها، فلا يكون أحدهما عين الآخر.

ثم إن هذه الفقرة إشارة إلى برهان نفي الصّفات العارضة التي فرضت قديمة، كما يقوله الأشاعرة، وذلك لأن الصفة إذا كانت عارضة كانت مغايرة للموصوف لا محالة حسبما عرفت، وكلّ متغايرين في الوجود لا بدّ أن يكون كلّ واحد منهما متميّزاً عن صاحبه بشيء، ومشاركاً له بشيء آخر، لاشتراكهما في الوجود! ومحال أن يكون جهة الاشتراك عين جهة الامتياز، وإلاّ لكان الواحد بما هو واحد كثيراً، بل الوحدة بعينها كثيرة، هذا محال، فإذن لا بدّ أن يكون كلّ منهما مركباً من جزء به الاشتراك، وجزء به الامتياز، فيلزم التّركيب في ذات الواجب، وقد ثبت أنّه بسيط الحقيقة، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: **(فمن وصف الله سبحانه**

فقد قرنه) أي من وصفه تعالى بصفة زائدة فقد قرنه بغيره في الوجود **(ومن قرنه فقد ثنّاه)** أي من قرنه بغيره فقد جعل له ثانياً في الوجود، لأنّه قد أثبت قديمين **(ومن ثنّاه فقد جزّأه)** لأن من فرضه ثاني اثنين، فقد جعله مركبّاً ذا جزئين، بأحدهما يشاركه في الوجود، وبالآخر يباينه.

وأمّا ما ذكره الشارح المعتزلي في تعليل التجزئة بقوله: لأنّه إذا أطلق لفظ الله على الذّات والعلم القديم، فقد جعل مسمّى هذا اللّفظ وفائدته متجزّئة، كإطلاق لفظ الأسود على الذّات التي حلّها السّواد، فليس بشيء، لأن الكلام في مرتبة الذّات من حيث هي، لا من حيث إطلاق لفظة عليها، كما هو ظاهر **(ومن جزّأه فقد جهله)** لأنّه اعتقد خلاف ما هو الواقع.

تذنيبات

الأول: في تحقيق صفاته سبحانه على ما حقّقها بعض العارفين، فنقول: إن الصّفات على ثلاثة أقسام: منها سلبيّة محضة كالقدوسيّة والفردية، ومنها إضافية محضة كالمبدئية والرّازقية، ومنها حقيقية سواء كانت ذات إضافة كالعالمية والقادرية أولاً، كالحياة والبقاء، ولا شك أنّ السّلوب والإضافات زائدة على الذّات، وزيادتها لا توجب إنفعالاً ولا تكثّراً، لأنّ اعتبارها بعد إعتبار المسلوب بها عنها، والمضاف إليها، لكن يجب أن يعلم أنّ السّلوب عنه تعالى كلّها راجعة إلى سلب الإمكان، فإنّه يندرج فيه سلب الجوهريّة، وسلب الجسميّة، وسلب المكان والحيز والشّريك والنّقص والعجز والآفة، وغير ذلك.

والإضافات في حقّه تعالى كلها راجعة إلى الموجديّة التي تصحح جميع الإضافات، كالخالقية والرازقية والكرم والجود والرّحمة والغفران، ولو لم يكن له إضافة واحدة اتحدت فيها جميع الإضافات اللاّئقة به لأدّى تخالف حيثياتها إلى اختلاف حيثيات في الذّات الأحديّة، وأمّا الصّفات الحقيقية فكلها غير زائدة على ذاته، وليس معنى عدم زيادتها مجرّد نفي أضدادها عنه تعالى، حتى يكون علمه تعالى عبارة عن نفي الجهل، وقدرته عبارة عن نفي العجز، وعلى هذا القياس في السمع والبصر وغيرهما ليلزم التعطيل، ولا أيضاً معنى كونه عالماً وقادراً أن يترتب على مجرّد ذاته ما يترتب على الذّات مع الصّفة، بأن ينوب ذاته مناب تلك الصّفات، ليلزم أن لا يكون إطلاق العلم والقدرة وغيرهما عليه تعالى على سبيل الحقيقة، فيكون عالماً قادراً حيّاً سميعاً بصيراً بالمجاز، فيصحّ سلبها عنه، لأنّه علامة المجاز ولازمه.

فإن قلت: فما معنى قوله ﷺ: وكمال الإخلاص له نفي الصفّات عنه؟

قلنا: معناه حسبما أشرنا إليه كونها صفات عارضة موجودة بوجود زائد، كالعالم والقادر في المخلوقات، فإن العلم فينا صفة زائدة على ذاتنا، وكذلك القدرة كيفية نفسانية، وكذا سائر الصّفات، والمراد أنّ هذه المفهومات ليست صفات له تعالى، بل صفاته ذاته وذاته صفاته، لا أنّ هناك شيئاً هو الذّات، وشيئاً آخر هو الصّفة، ليلزم التركيب فيه تعالى عنه علوّاً كبيراً، فذاته وجود وعلم وقدرة وإرادة وحياة وسمع وبصر، وهو أيضاً موجود عالم قادر حي مريد سميع بصير.

فإن قلت: الموجود ما قام به الوجود، والعالم ما قام به العلم، وكذا سائر المشتقات.

قلنا: ليس كذلك، بل ذلك متعارف عند أهل اللغة لما رأوا أنّ أكثر ما يطلق عليه المشتق لا بدّ فيه من صفة زائدة على الذّات، كالأبيض والكاتب والضّاحك وغيرها، فحكموا على الإطلاق أنّ المشتقّ ما قام به المبدء، والتحقيق والإستقراء يوجبان خلافه، فإنّا لو فرضنا بياضاً قائماً بنفسه لقلنا: إنّه مفرّق للبصر، وإنّه أبيض، فكذا الحال فيما سواه من العالم والقادر، فالعالم ما ثبت له العلم سواء كان بثبوت عينه أو بثبوت غيره.

الثاني

في الإشارة إلى جملة من الأخبار الواردة في بعض مراتب العرفان، وهي كثيرة جداً، ونحن نذكر شطراً منها تيمناً وتبرّكاً.

فنقول: روى الصّدوق في التّوحيد بإسناده عن زيد بن وهب عن أبي ذرّ (ره) قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده ليس معه إنسان فظننت أنّه يكره أن يمشي معه أحد، قال (ره): فجعلت أمشي في ظلّ القمر فالتفت فرآني، فقال ﷺ: «من هذا؟ فقلت أبو ذرّ جعلني الله فداك، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا ذرّ تعال» فمشيت معه ساعة، فقال: «إن المكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلاّ من أعطاه الله خيراً فنفخ منه بيمينه وشماله وبين يديه وورائه، وعمل فيه خيراً».

قال: فمشيت ساعة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إجلس ههنا»، وأجلسني في قاع حوله حجارة، فقال لي: اجلس حتّى أرجع إليك، قال: وانطلق في الحرّة حتّى لم أره وتوارى عنيّ وأطال اللّبث، ثم إنّي سمعته ﷺ وهو مقبل يقول: وإن زنى وإن سرق، قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلت له: يا نبي الله جعلني الله فداك من تكلّمه في جانب الحرّة؟ فإنّي ما سمعت أحداً يردّ عليك شيئاً، فقال ﷺ: «ذاك جبرئيل، عرض لي في جانب الحرّة، فقال: ابشر امّتك أنّه من مات لا يشرك بالله عزّ وجلّ شيئاً دخل الجنّة، قال: قلت يا جبرئيل وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر، قال: نعم، وإن شرب الخمر».

قال الصدّوق (ره) بعد ذكر الحديث: يعني بذلك أنّه يوفّق للتّوبة حتّى يدخل الجنّة[١].

وفيه أيضاً عن الأسود بن هلال، عن معاذ بن الجبل، قال: كنت رفقت النّبي ﷺ، فقال يا معاذ: «هل تدري ما حقّ الله على العباد»؟ يقولها ثلاثاً، قلت: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله: «حق الله عزَّ وجلّ على العباد أن لا يشركوا به شيئاً، ثم قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذّبهم، أو قال: أن لا يدخلهم النّار»[٢].

وفيه أيضاً عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق نبيًّا، لا يعذّب الله بالنّار موحداً أبداً، وأنّ أهل التّوحيد ليشفّعون فيشفعون، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّه إذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى بقوم سائت أعمالهم في دار الدّنيا إلى النّار، فيقولون: يا ربّنا كيف تدخلنا النّار؟ وقد كنّا نوحّدك في دار الدّنيا وكيف تحرق بالنّار ألسنتا؟ وقد نطقت بتوحيدك في دار الدّنيا، وكيف تحرق قلوبنا؟ وقد عقدت على أن لا إله إلا الله، أم كيف تحرق وجوهنا؟ وقد عفّرناها لك في التّراب، أم كيف تحرق أيدينا؟ وقد رفعناها بالدّعاء إليك، فيقول الله عزّ وجلّ: عبادي سائت أعمالكم في دار الدّنيا فجزاكم نار جهنّم، فيقولون: يا ربّنا عفوك أعظم أم خطيئتنا؟ فيقول الله عزّ وجلّ: بل عفوي، فيقولون رحمتك أوسع أم ذنوبنا؟ فيقول الله عزّ وجل: بل رحمتي، فيقولون إقرارنا بتوحيدك أعظم أم ذنوبنا؟ فيقول الله عزّ وجلّ: بل إقراركم بتوحيدي أعظم، فيقولون: يا ربّنا فليسعنا عفوك ورحمتك التي وسعت كلّ شيء، فيقول الله جلّ جلاله: ملائكتي وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ من المقرين بتوحيدي وأن لا إله غيري، وحقّ عليّ أن لا أصلي بالنّار أهل توحيدي، أدخلوا عبادي الجنّة»[٣].

الثالث

ينبغي أن يعلم أن مجرّد الإعتقاد بالتّوحيد ونفي الشّرك والإعتراف بالوحدانيّة لا يكفي في ترتّب الثّواب ودفع العقاب، بل لا بدّ مع ذلك من الإعتقاد بالولاية، والأخبار الواردة في أبواب التّوحيد والمعرفة وإن كانت مطلقة إلاّ أنّها يقيّدها مضافة إلى إجماع أصحابنا «قد» أخبار آخرى مفيدة لكون الولاية شرطاً في التّوحيد ككونها شرطاً في صحّة الفروع وقبولها، وبدونها لا ينتفع بشيء منها، وهذه الأخبار كثيرة جداً بالغة حدّ الإستفاضة بل التّواتر.

(١) التوحيد للصدوق: ٢٦ح٢٤، والبحار: ٨/٣.

(٢) التوحيد: ٢٨، والبحار: ١٠/٣.

(٣) أمالي الصدوق: ٣٧٢ ح٤٦٩، وتوحيد الصدوق: ٢٩، ونور البراهين: ٨٣/١.

منها ما رواه في **جامع الأخبار** بإسناده عن محمّد بن عمارة عن أبيه، عن الصّادق جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن عليّ، عن آبائه الصّادقين عليهم السلام، قال: قال رسول الله ﷺ «إنّ الله تبارك وتعالى جعل لأخي عليّ بن أبي طالب عليه السلام فضائل لا يحصي عددها غيره، فمن ذكَّر فضيلة من فضائله مقرّاً بها غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، ولو أتى القيامة بذنوب الثقلين، ومن كتب فضيلة من فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي لتلك الكتابة رسم، ومن استمع فضيلة غفر الله له الذُنوب التي اكتسبها بالاستماع، ومن نظر إلى كتابة في فضائله غفر الله له الذّنوب التي اكتسبها بالنّظر، ثم قال رسول الله ﷺ: النّظر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام عبادة، وذكره عبادة، ولا يقبل إيمان عبد إلاّ بولايته، والبرائة من أعدائه»[1].

وفي «**الكافي**» بإسناده عن أبي حمزة، قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام «إنّما يعبد الله من يعرف الله، فأمّا من لا يعرف الله فإنّما يعبده هكذا ضلالاً، قلت جعلت فداك: فما معرفة؟ الله قال: تصديق الله عزّ وجل وتصديق رسول الله ﷺ، وموالاة عليّ والايتمام به وبالأئمة عليهم السلام، والبرائة إلى الله عزّ وجل من عدوّهم، هكذا يعرف الله»[2].

وفي «**الوسائل**» و «**مجمع البيان**» عن أبي حمزة الثّمالي قال: قال لنا عليّ بن الحسين عليهما السّلام: «أيّ البقاع أفضل»؟ فقلنا: الله ورسوله وابن رسوله أعلم، فقال: «أفضل البقاع لنا ما بين الرّكن والمقام، ولو أنّ رجلاً عمر ما عمر نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، يصوم النّهار ويقوم اللّيل في ذلك المكان، ثم لقى الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً»[3].

وفي «**الوسائل**» أيضاً بإسناده عن المعلّى بن خنيس، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا معلّى لو أنّ عبداً عبد الله مائة عام ما بين الركن والمقام، يصوم النهار ويقوم الليل حتّى يسقط حاجباه على عينيه، ويلتقي تراقيه هرماً، جاهلاً بحقّنا لم يكن له ثواب»[4].

وفيه أيضاً عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السّلام قال: نزل جبرئيل على النّبي ﷺ، فقال: «يا محمّد العلي يقرئك السّلام، ويقول خلقت السّماوات السّبع وما فيهن، وخلقت الأرضين السبع ومن عليهن، وما خلقت موضعاً أعظم من الرّكن والمقام، ولو أنّ

---

(١) كشف الغطاء: ١/ ١٣، ومائة منقبة: ١٧٧.

(٢) الكافي: ١/ ١٨٠ح١، وتفسير مجمع البيان: ٢/ ٣٤٩.

(٣) الوسائل: ١/ ١٢٢ح٣٠٨.

(٤) المصدر السابق: ح٣٠٩.

عبداً دعاني منذ خلقت السّماوات والأرض، ثم لقيني جاحداً لولاية عليّ لأكببته في سقر»[١].

وروى عليّ بن إبراهيم القمي بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر ﷺ، في حديث، قال: «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضى الرّحمٰن: الطاعة للإمام بعد معرفته، أما لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره، ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته، ما كان له على الله حقّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان»[٢].

وبالجملة: فقد تحصل من هذه الأَخبار وغيرها من الأَخبار الكثيرة: أن معرفة الإمام والطاعة له شرط في صحّة الفروع والأصول، كما ظهر أنّ اللازم أخذ الأَحكام الشّرعيّة، والمسائل الدّينيّة عنهم، لأنّهم الباب الذي أمر الله أن يؤتى منه، حيث قال:

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٨٩].

روى في **(الصّافي)** عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «نحن البيوت التي أمر الله أن يؤتى أبوابها، نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منه، فمن تابعنا وأقرّ بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها، ومن خالفنا وفضّل علينا غيرنا، فقد أتى البيوت من ظهورها، إنّ الله لو شاء عرّف نفسه حتّى يعرفونه ويأتونه من بابه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي يؤتى منه، قال: فمن عدل عن ولايتنا، وفضل علينا غيرنا، فقد أتى البيوت من ظهورها، وأنّهم عن الصّراط لناكبون»[٣].

وفي «**(الكافي)** بإسناده عن محمّد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر ﷺ يقول: «كلّ من دان الله عزّ وجلّ بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله، فسعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحيّر، والله شانيء لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلت عن راعيها وقطيعها، فهجمت ذاهبة أو جائية يومها، فلما جنّها الليل بصرت بقطيع غنم مع غير راعيها، فحنت إليها، واغترّت بها، فباتت معها في مربضها، فلمّا أن ساق الرّاعي قطيعه، أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيّرة تطلب راعيها، وقطيعها، فبصرت بغنم مع راعيها، فحنت إليها واغترب بها، فصاح بها الرّاعي الحقي براعيك وقطيعك، فأنت تائهة متحيّرة عن راعيك وقطيعك، فهجمت ذعرة

---

(١) المصدر السابق: ح٣١١.

(٢) غنائم الأيام: ٣/٣٤١، والبحار: ٦٥/٣٣٣.

(٣) الإحتجاج: ١/٣٣٨، وتفسير الصافي: ١/٢٢٨.

متحيرة تائهة لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها، أو يردّها، فبينا هي كذلك إذا اغتنم الذّئب ضيعتها فأكلها، وكذلك والله يا محمّد، من أصبح من هذه الأمّة ولا إمام له من الله عزّ وجلّ ظاهر عادل، أصبح ضالاً تائهاً، وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمّد؛ أنّ أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله عزّ وجلّ، قد ضلوا وأضلوا، فأعمالهم التي يعملونها»:

﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨][(١)].

إلى غير ذلك من الأخبار البالغة حدُ الإستفاضة، بل هي متواترة معنى، وسيأتي كثير منها في تضاعيف الكتاب، والله الهادي إلى الصّواب.

الترجمة

يعنى ابتدا اطاعت و انقياد شناختن خداوند عالم است و كمال و تمامى شناختن حضرت او تصديق و اعتقاد به وجود او است و كمال تصديق به او حكم به وحدانيت و يكتا دانستن و منزه و مبرا نمودن او است از شريك و كمال يكتا دانستن او خالص نمودن او است از صفات نقصان يا خالص نمودن عمل است براى او و كمال خالص نمودن نفى صفات زايده بر ذات است از او و آن را عين ذات دانستن است، به جهت آن كه هر صفت شهادت و دلالت دارد بر آن كه غير موصوف است و هر موصوف شاهد و دليل است بر اين كه آن غير صفت، پس بنابراين هركه وصف كرد خداوند را با صفتى كه زايد بر ذات است، پس به تحقيق قرين كرد ذات را با صفت و هركه قرين پيدا كرد او را، پس به تحقيق حكم به دوئيّت نمود و هركه ابداء دوئيّت نمود، پس به تحقيق كه مجزّى ساخت او را و هركه ابداء تجزيه كرد، پس به تحقيق جاهل شد به ذات شريف او، از جهت اين كه اعتقاد خلاف واقع را نمود؛ تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

(١) الكافي: ١/١٨٣ ـ ٣٧٥، ومحاسن البرقي: ١/٩٢.

الفصل الخامس

«وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ وَمَنْ قالَ فيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ وَمَنْ قالَ عَلى (مَ) فَقَدْ أَخْلى مِنْهُ».

اللغة

(ضمنه) مأخوذ من ضمّنته الشّيء أي جعلته محتوياً عليه فتضمّنه أي فاشتمل عليه واحتوى و (أخلى) مشتقٌ من خلا المنزل من أهله يخلو خلوّاً وخلاء، فهو خال وأخليته جعلته خالياً ووجدته كذلك.

الإعراب

أصل فيم وعلى (م) فيما وعلى (ما)، حرفان دخلا على ماء الإستفهاميّة والأولى للظرفية، والثّانية للإستعلاء، وحذف ألف (ما) لاتّصالها بهما تخفيفاً في الإستفهام، وهذه قاعدة كليّة.

قال ابن هشام: ويجب حذف ألف ماء الاستفهاميّة إذا جرّت وبقاء الفتحة دليلاً عليها نحو فيم، وإلى (م)، وعلى (م)، قال:

فتلك ولاة السّوء قد طال مكثهم فحتّى م حتّى م العناء المطوّل

وربّما تبعت الفتحة الألف في الحذف، وهو مخصوص بالشّعر كقوله:

يا أبا الأسود لم خلفتني لهموم طارقات

ثم قال: وذكروا أنّ علّة حذف الألف الفرق بين الاستفهام والخبر، ولهذا حذفت في نحو:

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٦] ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الأنفال: ٦٨] ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٣٥] وثبت في ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤] ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الصف: ٣] ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

المعنى

قوله ﷺ (**ومن أشار إليه**) أي من أشار إليه بإشارة عقليّة أو حسيّة (**فقد حدّه**) أي جعله محدوداً بحدّ خاص، لأنّ المشار إليه لا بدّ أن يكون في جهة مخصوصة، وكلّ ما هو في جهة فهو محدود وله حدّ وحدود، أي أقطار وأطراف ينتهي إليها (**ومن حدّه فقد عدّه**) أي من

جعله محدوداً متناهياً فقد عدّه في الأشياء المحدثة، وذلك لأنّ حقيقة ذاته حقيقة الوجود الصّرف الذي شدّة قوّته لا تنتهي إلى حدّ ونهاية، بل هو فوق ما لا يتناهى بما لا يتناهى، أمّا كونه غير متناه فلأنّ مقدوراته غير متناهية هذا.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: قد عدّه كونه ذا عدد، وذلك لأنّ كون وجود الشّيء محدوداً متناهياً يستلزم التركيب من أصل الوجود ومن شيء آخر يقتضي تناهيه إلى هذا الحدّ المعين، إذ نفس كون الشّيء وجوداً أو موجوداً لا يقتضي هذا التّناهي، وإلاّ لم يوجد غيره، فهناك أمران، فيكون المحدود ذا عدد هذا.

ويأتي إن شاء الله توضيح هذه الفقرة وتحقيقها بنحو آخر في **«شرح الخطبة»** المائة والثانية والخمسين.

ثم لا يخفى أنّ المراد بالإشارة في كلامه ﷺ: الإشارة الحضوريّة الحسّية التي لا يجوز في حقّه سبحانه وتعالى، وأمّا الإشارة الغيبيّة فتجوز في حقّه، وقد وقعت في كتاب العزيز، قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وتحقيق ذلك ما حقّقه الباقر ﷺ في حديث التوحيد: من أنّ كلمة هو اسم مكنّي مشارٌ بِهِ إلى غايب، فالهاء تنبيه، والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أنّ هذا إشارة إلى الشّاهد وذلك أن الكفّار نبهوا عن آلهتهم بما يشارُ بِهِ إلى الشّاهد المدرك، فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشر أنت يا محمّد إلى إلهك الذي تدعو إليه حتّى نراه وندركه لأنا له فيه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قل هو﴾ إشارة إلى كونه تعالى عن ذلك بل هو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير، ﴿الله﴾ معناه المعبود الذي إله الخلق عن إدراك ذاته، والإحاطة بكنهه، ﴿أحد﴾ معناه الفرد المتفرّد الذي لا نظير له[1].

وههنا لطيفة، وهي أنّ قوله: قل هو الله أحد ثلاثة ألفاظ، كلّ منها إشارة إلى مقام من مقامات السّالكين:

المقام الأول: مقام المقرّبين، وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله، وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيّات الأشياء وحقائقها، من حيث هي هي، فلا جرم ما رأوا موجوداً في الحقيقة سوى الله، لانحصار وجوب الوجود فيه، وكون ما عداه ممكناً فيكون هو إشارة إليه سبحانه، ولم يفتقر في تلك الإشارة إلى مميّز، لأنّ الحاجة إلى المميّز إنّما يحصل إذا كان هناك موجودان، وقد عرفت أنّهم ما شاهدوا بعقولهم إلا الواحد فقط، فكفى لفظ لفظة هو في حصول العرفان التّام.

(١) التوحيد: ٩٠.

المقام الثاني: مقام أصحاب اليمين الذي أدون من المقام الأوّل، وذلك أنّهم شاهدوا الحقّ موجوداً، وشاهدوا الخلق موجوداً، فحصلت كثرة في الموجودات فلم تكن لفظة هو كافية، فاحتاجوا إلى اقتران لفظة الله بلفظة (**هو**) حتّى يحصل التميز.

المقام الثالث: مقام أصحاب الشّمال الذي هو أحسن المقامات، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد، فقرن لفظ (**أحد**) بما تقدّم ردّاً على هؤلاء، وإبطالاً لمقالتهم فقيل قل هو الله أحد (**ومن قال فيم فقد ضمنه، ومن قال على (م) فقد أخلى منه**) هاتان القضيّتان في تقدير شرطيّتين متّصلتين يراد بهما تنزيه الحق سبحانه عن مثل هذين الاستفهامين في حقّه. وتأديب الخلق أن لا يستفهموا عنه كذلك، وبيان المراد منهما باستثناء نقيض تاليهما، وحذف الإستثناء ههنا الذي هو كبرى القياس على ما هو المعتاد في القياس المضمر.

وتقدير المتّصلة الأولى: أنّه لو صحّ السّؤال عنه (**بفيم**)، لكان له محلّ يتضمّنه ويصدق عليه أنّه فيه، صدق العرض في المحلّ، أو الجسم في المكان، لكنّه يمتنع كونه في محل ونحوه فيمتنع السّؤال عنه (**بفيم**)؛ بيان الملازمة أنّ في (**لمّا**) كان مفيداً للظرفية والمحل، فالإستفهام (**بفيم**)، يقتضي صحّة كونه في محلّ أو مكان إذ لا يصحّ الاستفهام عن المحلّ لشيء إلاّ إذا صحّ كونه حالاً فيه، وأمّا بطلان التّالي فلأنه لو صحّ كونه في المحلّ لكان إمّا أن يجب كونه فيه، فيلزم أن يكون محتاجاً إلى ذلك المحلّ، والمحتاج إلى الغير ممكن بالذات، وإن لم يجب حلوله جاز أن يستغني عنه، والغنى في وجوده عن المحلّ يستحيل أن يعرض له ما يحوجه إلى المحلّ، فإن الكون في المحل يستلزم الافتقار إليه، وإذا استحال أن يكون في محلّ إمتنع السّؤال عنه (**بفيم**).

وتقدير المتصّلة الثّانية: أنّه لو صحّ السّؤال عنه بعلى (م)، لجاز خلوّ بعض الجهات والأماكن عنه، لكنّه لا يجوز خلوّ مكان عنه، فامتنع الاستفهام بعلى (م)، بيان الملازمة أنّ لفظة على لمّا كانت مفيدة للعلوّ والفوقية، فالاستفهام بعلى (م)، عن شيء لا يصحّ إلاّ إذا صحّ كونه عالياً على شيء، وذلك يستلزم أمرين: أحدهما بالواسطة، والآخر بلا واسطة، فالذي بالواسطة هو إخلاء سائر الجهات والأماكن عنه، وهو ما ذكره ﷺ، والذي بلا واسطة هو إثبات الجهة المعيّنة أعني جهة فوق، إذ اختصاصه بجهة معيّنة مستلزم نفي كونه في سائر الجهات.

وإنّما جعل ﷺ لازم هذه المتّصلة كونه قد أخلى منه، ليلزم من بطلان اللازم وهو الإخلاء منه، بطلان ملزومه أعني اختصاصه بالجهة، ليلزم منه بطلان المقدم، وهو صحّة السّؤال عنه بعلى (م). وأمّا بطلان التّالي فلقوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [طه: ٥].

لا يقال: مثبت الجهة لا يجهل هذه الآيات، بل له أن يقول: بعدم التّنافي بين الإختصاص وبين مفاد تلك الآيات، إذا المقصود من كونه في السّماء وفي الأرض، كونه عالماً بما فيهما، وكذلك المراد بالمعية، والمراد من كونه في جهة فوق، كونه فيها بذاته، فلا دلالة فيها على بطلان التّالي.

قلنا: إنّما جعل ﷺ قوله: فقد أخلى منه لازماً في هذه القضيّة، لأن نفي هذا اللاّزم بهذه الآيات ظاهر، وذلك، لأن مثبت الجهة إنّما اعتمد في إثبات دعويها على ظواهر الآيات المفيدة له من أمثال قوله تعالى:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الحديد: ٤].

فكانت معارضة مقتضاها بظواهر هذه الآيات أنفع في الخطابة، وأوقع في قلوب العامة من البراهين العقليّة على نفي الجهة، فلو ارتكب الخصم المثبت للجهة للتّأويل فيها، بإحاطة العلم لارتكبناه فيما تمسّك به من الآيات، وقلنا: إنّ المراد بالاستواء هو الاستيلاء بالقدرة حسبما سيأتي تحقيقه.

فإن قيل: إنّما خصّ جهة العلوّ بإنكار اعتقادها.

قلنا: لأنّ كلّ معتقد لله جهة يخصّصه بها، لما توهّم أنّه أشرف الجهات، لأنّها التي نطق بها الكتاب الكريم، فكانت شبهة المجسمة في إثباتها أقوى، وكيف كان، فقد تحصّل ممّا ذكرنا، أنّه لا يصحّ السّؤال عنه (بفيم)، وعلى (م)، كما لا يجوز إعتقاد كونه في شيء، أو على شيء.

ويشهد به أيضاً ما رواه في (**الكافي**) بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ قال: من زعم أنّ الله من شيء أو في شيء أو على شيء فقد كفر، قلت: فسّر لي، قال: أعني بالحواية من الشيء له أو بإمساك له أو من شيء سبقه، قال: وفي رواية أخرى: من زعم أنّ الله من شيء فقد جعله محدثاً، ومن زعم أنّه في شيء فقد جعله محصوراً، ومن زعم أنّه على شيء فقد جعله محمولاً[1].

قال بعض شراح «**الكافي**» في شرح هذا الحديث: يعني أن إطلاق شيء من هذه الألفاظ في تحقيق الكلام في قوله تعالى: «الرحمٰن على العرش استوى» بالمعنى الذي هو متعارف

(١) كافي: ١/١٢٨ والتوحيد: ٣١٧.

أهل اللغة عليه تعالى مستلزم لاعتقاد التّجسيم في حقه تعالى وذلك الاعتقاد كفر، فمن زعم أنّ أحد هذه المعاني صادق في حقّه تعالى فقد كفر.

ثم فسر عليه السلام الألفاظ على ترتيب اللف، فقوله: أعني بالحواية من الشّيء، تفسير لمعنى في شيء، لأن كلّ ما هو في شيء فيحويه ذلك الشّيء: وقوله: أو بإمساك له، تفسير لمعنى على شيء، لأن كلّ ما هو على شيء فذلك الشّيء ممسك له، وقوله: أو من شيء سبقه، تفسير لمعنى من شيء، لأنّ ما كان من شيء فذلك الشيء مبدؤه وسابق عليه، ولذلك قال في الرّواية الأخيرة: من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثا، لأنّ معنى المحدث هو الموجود بسبب شيء سابق عليه بالوجود، وقال عليه السلام: «ومن زعم أنه في شيء فقد جعله محصوراً»، أي محوياً، فيلزمه الحواية من ذلك الشّيء، وقال عليه السلام: «ومن زعم أنّه على شيء فقد جعله محمولاً»، فإذن له حامل يملكه هذا.

وقد تحقّق من ذلك كلّه، أنّ الله سبحانه لا يكون محصوراً في شيء، ولا يخلو عنه شيء، فلا يكون في أرض ولا في سماء، ولا يخلو عنه أرض ولا سماء، كما ورد في الحديث: لو دليتم بحبل على الأرض السّفلى لهبط على الله[1]، ولهذا قال عليه السلام: ومن قال: (فيم)، فقد ضمنه، ومن قال: على (م)، فقد أخلى منه، تصديقاً لقوله تعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقول النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّه فوق كلّ شيء وتحت كل شيء، قد ملأ كلّ شيء عظمته، فلم يخل منه أرض ولا سماء ولا برّ ولا بحر ولا هواء»[2].

وفي (الكافي) بإسناده عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مكتوب في التّوراة التي لم تغير أنّ موسى عليه السلام سأل ربّه، فقال: يا رب أقريب أنت منّي فأناجيك، أم بعيد فأناديك فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني» الحديث[3].

فإن قلت: سلمنا هذا كله، ولكن ما تقول في قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [الزمر: ٧٥].

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٧/٥٥.

(٢) الهداية للصدوق: ١٥.

(٣) البحار: ٨١/ ١٧٥.

فإن الظاهر من الإستواء هو الاستقرار والجلوس عليه.

قلنا: هذه الآية هي التي تعلقت بها المشبّهة في أنّ معبودهم جالس على العرش، وبعد ما قامت البراهين العقلية والحجج النقلية على نفي المكان عنه حسبما عرفته وتعرف إن شاء الله أيضاً تفصيلاً في شرح الخطبة المائة والسّابعة والسّبعين، ثبت تجرده عن جميع الأحياز والأمكنة، وإذا ثبت تجرّده عنها ثبت أنّ نسبته إلى الكلّ نسبة واحدة، فلا بدّ من إرتكاب التّأويل في الآية الشّريفة.

وقد ذكروا فيه وجوهاً وأقوالاً كثيرة، أقربها ما ذكره القفال من علماء المعتزلة: وهو أنّ المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله وكبريائه.

وتقريره: أنّه لما خاطب الله عباده في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم، فمن ذلك أنّه جعل الكعبة بيتاً يطوف الناس به كما يطوفون بيوت ملوكهم. وأمر النّاس بزيارته كما يزورون بيوت ملوكهم، وذكر في الحجر الأسود أنّه يمين الله في أرضه، ثم جعله موضع تقبيلهم كما يقبل النّاس أيدي ملوكهم وكذلك ذكر في محاسبة العباد يوم القيامة من حضور الملائكة والنّبيّين والشّهداء ووضع الموازين، فعلى هذا القياس أثبت لنفسه عرشاً فقال:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الحاقة: ١٧] ثم قال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [طه: ٥] وقال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [غافر: ٧] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ﴾ [طه: ٥].

في تحقيق الكلام في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

ثم أثبت لنفسه كرسياً، فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إذا عرفت هذا فنقول: إنّ كلّ ما جاء من الألفاظ الموهمة للتّشبيه، من العرش والكرسي فقد ورد مثلها بل أقوى منها في الكعبة، والطواف، وتقبيل الحجر، ولما توقفنا ههنا على أن المقصود تصوير عظمة الله وكبريائه، مع القطع، بأنّه منزّه عن أن يكون في الكعبة، فكذا الكلام في العرش، والكرسي، انتهى كلامه على ما حكى عنه، وتبعه على ذلك التّأويل جماعة من العامة، منهم الزّمخشري، والرازي، والنيسابوري، والبيضاوي، على ما حكى عنهم.

ولكنّك خبير بأنّ الآية من المتشابهات، وما يعلم تأويلها إلاّ الله والرّاسخون في العلم، وحملها على ما ذكره القفال، تفسير بالرّأي وتأويل بالباطل، لأنّ حمل الآيات القرآنية على مجرّد التخييل والتمثيل، من غير حقيقة دينيّة وأصل إيماني يوجب قرع باب السّفسطة والتّعطيل، وسدّ باب الإهتداء والتّحصيل، وفتح باب التّأويل في المعاد الجسماني من عذاب

القبر والبعث والميزان والحساب والكتاب والصّراط والجنان والنيران.

بل الحقّ المعتمد تفويض تأويل أمثال هذه إلى أهل بيت العصمة الذين هم ينابيع العلم والحكمة، فقد ذكروا عليهم السلام فيه وجوهاً مثل ما رواه في (**الكافي**) بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

فقال: «استوى على كلّ شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء» وفيه أيضاً عنه عليه السلام بعد ما سئل عنه، فقال: «استوى من كلّ شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء»، وفي ثالث عنه عليه السلام أيضاً أنّه قال بعد السّؤال عنه: استوى في كلّ شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء لم يبعد منه بعيد، ولم يقرب منه قريب، استوى في كلّ شيء[1]»، إلى غير ذلك من الأخبار.

وتوضيح ما ذكره عليه السلام على وجه يتّضح به المرام، من الآية الشّريفة أيضاً يستدعي بسطاً في الكلام، فنقول: إنّ الاستواء على ما ذكره المحدث المجلسي «قده» أنّ الاستواء يطلق على معان **الأول** الإستقرار والتمكن على الشّيء **الثاني** قصد الشّيء والإقبال عليه **الثالث** الاستيلاء على الشّيء، قال الشّاعر:

قد استوى رجل على العراق بغير سيف ودم مهراق

الرابع: الإعتدال، يقال: سوّيت الشّيء فاستوى **الخامس**، المساواة في النّسبة.

أمّا المعنى الأوّل فقد علمت استحالته على الله سبحانه، وأما الثاني: فمن المفسّرين من حمل الآية عليه، أي أقبل على خلقه، وقصد إلى ذلك، وقدروا أنّه سئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن هذه الآية، فقال: الإستواء الإقبال على الشّيء ونحو هذا قال الفراء والزّجاج: في قوله:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١].

والأكثرون منهم حملوها على **الثالث** أي استولى عليه وملكه ودبّره، ويحتمل أن يراد به المعنى **الرابع** بأن يكون كناية عن نفي النّقص عنه تعالى من جميع الوجوه، فيكون على العرش حالاً، وأما **المعنى الخامس** فهو الظاهر من الأخبار التي أسلفناها.

ثمّ إعلم أنّ العرش قد يطلق على الجسم العظيم المحيط بسائر الجسمانيات، وقد يطلق على جميع المخلوقات، وقد يطلق على العلم أيضاً كما نطقت به الأخبار الكثيرة.

---

(١) الكافي: ١/١٢٨ ح٨.

فإذا عرفت ذلك، فنقول: إنّه يصحّ أن يفسّر العرش بمجموع الأشياء وضمن الاستواء معنى الإستيلاء ونحوه ممّا يتعدى بعلى، أي استوت نسبته إلى كلّ شيء حال كونه مستولياً عليه، أو يفسّر بالعلم، ويكون متعلق الاستواء مقدّراً، أي تساوت نسبته من كلّ شيء حال كونه متمكناً على عرش العلم، فيكون إشارة إلى بيان نسبته تعالى، وأنّها بالعلم والإحاطة، أو يفسّر بعرش العظمة والجلال والقدرة، كما فسّر بها في تحقيق الكلام في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٠] بها في بعض الأخبار، أي استوى من كلّ شيء مع كونه في غاية العظمة، ومتمكناً على عرش التّقدس والجلال، والحاصل أنّ علوّ قدره ليس مانعاً من دنوه بالحفظ والتّربية والإحاطة، وكذا العكس، وعلى التّقادير، فقوله: استوى خبر، وقوله: على العرش حال[1].

---

(١) **معنى العرش**

العرش في اللغة سرير الملك وكونهم على يمين العرش كناية عن كرامتهم وعلو منزلتهم ورفعة شأنهم من بين المخلوقات، لأن من عظمت منزلته تبوأ عن يمين الملك وفي عرف المتشرعة يطلق على ثلاثة أمور:

أحدها الملك.

وثانيها الجسم المحيط بسائر الأجسام وهو الفلك التاسع.

وثالثها العلم المحيط بجميع الأشياء وكلُّ ذلك على سبيل التشبيه بسرير الملك، ويمكن إرادة كل واحد منها هنا أما الأول فلأن الملك وهو عبارة عن جميع الكائنات له يمين وشمال ويمينه أي جانب أقواه وأشرفه هو يلي المبدء الأول في ترتيب الايجاد وتقدمه، فكل ما هو أقرب منه جل شأنه في الايجاد فهو أيمن بالقياس إلى ما بعده لكونه أقوى وأشرف.

وأما الثاني فلأن ذلك الجسم المحيط إذا سمي بالعرش كان له يمين وشمال كما كان لسرير الملك، ثم الكاين على يمينه من أهل الكرامة والمنزلة كالكاين عن يمين سرير الملك.

وأما الثالث فلمثل ما ذكرناه في الثاني أو في الأول باعتبار المعلومات لأن العلم المتعلق باليمين يمين بالنسبة إلى العلم المتعلق بما بعده، وإن كان علمه بالأشياء بسيطاً والتكثر إنما هو في المعلومات.

ولا يبعد أن يقال: يجوز أيضاً إطلاق العرش على عالمين: أحدهما عالم الجسمانيات كلها ويسمى بالعرش الجسماني، وثانيهما عالم المجردات كلها ويسمى بالعرش العقلاني والعرش الروحاني.

ويجوز أن يراد بالعرش هنا العرش الروحاني وبيمينه أشرف جانبيه وهو ما يقرب من الحق في سلسلة الإيجاد وأن يقال، يجوز أيضاً أن يراد بالعرش القلب الانساني لأنه عرش الرحمن، ويمينه الجانب المائل إلى الحق، وشماله الجانب البعيد عنه، لأنه قابل لسلوك الطريقين: طريق الحق وطريق الباطل.

هذا وقيل: المراد بالعرش هنا الجوهر المجرد الانساني المسمى بالعقل وبالعرش العقلاني وهو بازاء الفلك التاسع المسمى بالعرش الجسماني وكل منهما في جانب مقابل لجانب آخر، والمراد بيمينه مطلق جانبه وسُمي يميناً للتشريف والتعظيم.

وقيل: العرش جوهر متوسط بين العالم العاقل الثابت وبين العالم المتغير المتجدد نفوساً كانت المتغيرات أو أجساماً والله سبحانه أوجد الثابتات بنفس ذاته بلا واسطة وأوجد المتغيرات بواسطة العرش والثابت هو اليمين في سلسلة الإيجاد لأنه أقرب منه تعالى.

هذا غاية ما وصل إليه نظري الفاتر في تحقيق المرام، وجملة ما نقدته من كلمات الأعلام في توضيح المقام، والله العالم بحقائق كلامه.

الترجمة

يعني: و هركسى كه اشاره كرد به سوى او با اشاره عقليه يا با اشاره حسّيه، پس به تحقيق كه محدود نمود او را به حدى معين و هركه او را محدود كرد، پس به تحقيق او را در شمار آورد و معدود نمود او را در عداد مخلوقين و هركس گفت خداوند در كدام محل يا در كدام مكان است، پس به تحقيق متضمن گردانيد او را در ضمن محل و مكان و هركه گفت كه او برچيست، پس به تحقيق خالى گردانيد بعض امكنه را از آن و حال آن كه نسبت حضرت او سبحانه به جميع امكنه و همه اشياء برابر است و هيچ مكان از او خالى و هيچ شىء از او غايب نيست و لنعم ما قيل:

در عالم اگر فلك اگر ماه و خور است — از باده هستى تو پيمانه خور است
فارغ ز جهانى و جهان غير تو نيست — بيرون ز مكانى و مكان از تو پر است

الفصل السادس

«كائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُقارَنَة، وغَيرُ كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُزايَلةٍ، فاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكاتِ وَالآلَةِ، بَصِيرٌ إذْ لا مَنْظُورَ إلَيْه مِنْ خَلْقِه، مُتَوَحِّدٌ إذْ لا سَكَنَ يَسْتأْنِسُ بِه، وَلا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِه».

اللغة

(كائن) اسم فاعل من كان قال الفيومي: كان زيد قائماً أي وقع منه قيام وانقطع وتستعمل تامّة فتكتفي بمرفوع، نحو كان الأمر، أي حدث ووقع، قال تعالى:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [طه: ٥].

أي وإن حصل، وقد تأتي بمعنى صار، وزائدة، كقوله تعالى:

﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الشورى: ٢٥].

أي من هو في المهد، والله عليم حكيم، انتهى.

وقال الصّدر الشّيرازي في **«شرح الكافي»**: إعلم أنّ كلمة كان تستعمل في اللّغة على ثلاثة أوجه:

أحدها: بصيغتها دالة على الوجود والزمان، ويسمّى في عرف النّحاة **(كان)** التّامّة، كقول الشّاعر:

إذا كان الشّتاء فادفئوني

أي إذا وجد وحدث.

الثاني: ما يدلّ على النسبة والزّمان، فيحتاج في الدلالة على الوجود إلى خبر يتمّ به، وهي النّاقصة واستعمالها أكثر، وهي أداة عند المنطقيين وإن كانت على قالب الكلمة والفعل، لأنّ معناها غير مستقلّ في الانفهام، كقوله تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الفتح: ١٩] وقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ [البقرة: ٢١٣].

الثالث: أن يكون زائدة خالية عن الدلالة على وجود وزمان، كقوله:

على كان المسوّمة العراب أي على المسومة

إذا عرفت هذا، فنقول: إن كلمة كائن مأخوذة من **(كان)** التّامة، أي موجود لا عن حدث **(والحدث)** من حدث الشّيء حدوثاً كقعد تجدّد وجوده، فهو حادث وحديث، ومنه يقال حدث به عيب إذا تجدّد، وكان معدوماً قبل ذلك **(والمزايلة)** من زايله زيالاً إذا فارقه

(والسّكن) بالفتحتين من سكنت إلى الشّيء وهو ما يسكن إليه من أهل ومال ونحوهما، هو سكن له **(واستأنست)** به وتأنست به إذا سكن القلب ولم ينفر، والأنيس الذي يستأنس به **(واستوحش)** الرّجل إذا وجد الوحشة.

الإعراب

كلمة **(لا)** في جميع الفقرات للنّفي، ففي الخمس الأولى بمعنى ليس وفي قوله: إذ لا منظور إذ لا سكن، لنفي الجنس، وكلمة **(عن)** في الفقرتين بمعنى من على حدّ قوله سبحانه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ويجوز كونها في الفقرة الثّانية بمعنى بعد، كما في قوله تعالى:

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

وإذ في قوله: إذ لا منظور، ظرف زمان كما في قوله:

﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [يونس: ٤].

وفي قوله: إذ لا سكن، كذلك على ما نبّه عليه الشّارح المعتزلي، ولكنّ الأظهر كونها تعليليّة على حدّ قوله:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ [التوبة: ٤٠].

لاحتياج جعلها ظرفاً إلى تكلّف كما لا يخفى، ولا يستوحش لفقده جملة إستئنافيّة كما ذكره القطب الراوندي، وإيراد الشّارح المعتزلي عليه بأنّه كيف يكون مستأنفاً والهاء في فقده ترجع إلى المذكور، فاسد جداً.

أمّا **(أولاً)**: فلأنّ وجود الضمير لا ينافي الاستيناف كما لا ينافيه وجود الواو، وهذا بعينه مثل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٩] بعد قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ [الزخرف: ٣٩] فإنّهم ذكروا أنّه جملة مستأنفة نظراً إلى أنّ إعادة الخلق لم يقع بعد، فيقرّروا برؤيتها.

وأمّا ثانياً: فلأنّه لو لم يكن كلاماً مستأنفاً لا بدّ وأن يجعل معطوفاً، إمّا على جملة الصّفة أعني قوله: يستأنس، أو على الموصوف مع صفته، وكلاهما غير ممكن، كما هو واضح، فقد تحقّق كون الجملة إستئنافيّة، اللّهم إلاّ أن يقال إنّه عطف على جملة الصّفة، ولا زائدة، كما في قوله تعالى:

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥].

واحتمل العلامة المجلسي كونها حالاً، والأوّل أظهر.

المعنى

قد عرفت معاني كلمة **(كان)**، والأنسب بل المتعين في المقام هو أن يجعل المبدأ في قوله: **(كائن)** هو التامّة، ولكن لمّا كان المفهوم منه حسبما عرفت، الوجود المقارن للزّمان الذي قد انقضى، وكان ذاته سبحانه منزّهة عن الزّمان، استحال أن يقصد وصفه بالكون الدّالّ على الزّمان المستلزم للتّجدد والحدثان، وإذا استحال ذلك لم يكن له دلالة إلاّ على الوجود المجرّد عن القيدين، فلذلك قيّده ﷺ بقوله: **(لا عن حدث)** تنبيهاً على أنّ وجوده سبحانه ليس وجوداً حدوثياً، وأنّه سبحانه كائن بلا كينونية، وقوله: **(موجود لا عن عدم)** إشارة إلى أنّ وجوده سبحانه ليس على حدّ وجودات سائر الأشياء ناشياً من العدم ومسبوقاً به، والفرق بين الفقرتين بعد اتحادهما في الدّلالة على نفي الوجود التّجددي: هو أنّ الأولى نافية للحدوث الزّماني، والثّانية نافية للحدوث الذاتي، وهي أبلغ في الدّلالة على وجوب الوجود من الأولى كما لا يخفى، ومساقهما مساق قوله ﷺ في الخطبة المائة والخامسة والثّمانين: «سبق الأوقات كونه والعدم وجوده»، فليلاحظ ثمّة **(مع كلّ شيء لا بمقارنة)** هذه الفقرة كسابقتَيْها وتاليتها مركبة من قضيّتين: إحداهما إيجابيّة والأخرى سلبيّة.

أمّا الأولى: فهي أنّ الله سبحانه مع كلّ شيء عالم بهم، شاهد عليهم، مصاحب معهم، غير غائب عنهم، كما قال:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [ق: ١٦].

وأما الثانية: فهي ما أشار إليه بقوله: لا بمقارنة، تنبيهاً على أنّ معيته سبحانه للأشياء ليست بعنوان التّقارن المتبادر إلى الأذهان القاصرة، والأوهام النّاقصة كما توهّمه كثير من النّاس، حيث إنّهم لم يعرفوا من المعيّة والحضور إلا معيّة حال بمحلّ، أو محلّ بحال، أو حضور جسم عند جسم، أو حضور جسم في مكان، ولذلك استبعدوا كونه مع كلّ شيء وحضوره في كلّ مكان، زعماً منهم أنّ كونه مع شيء أو في مكان مستلزم لكونه فاقداً لمعيّة سائر الأشياء، وخلوّ سائر الأمكنة عنه، ولم يدروا أنّ ما توهّموه إنّما هو من لوازم معيّة الأجسام مع أمثالها، وخصائص حضور الجسمانيات عند أشباهها، وأمّا الله العظيم القيّوم ذو القوة الشديدة الغير المتناهية، فنسبه جميع الأمكنة والمكانيات وأضعاف أضعافها إلى ذاته، كنسبة القطرة إلى بحر لا يتناهى، وكذلك نسبة جميع الأزمنة إلى تسرمد بقائه، كنسبة الآن الواحد إلى زمان لا ينقطع، فلا يشغله شأن عن شأن ولا عالم عن عالم.

وبرهان ذلك: أنّه سبحانه فاعل الخلق ومبدئهم وموجدهم وغايتهم وتمامهم فكيف يكون غائباً عنهم؟ والشيّء مع نفسه بالإمكان بين أن يكون وبين أن لا يكون ومع موجده بالوجوب والضرورة، فكيف يصحّ الشيء أن ينفك يغيب عنه موجده وخالقه الذي هو به موجود، ولا ينفك ولا يغيب عنه نفسه التي هو بها فقط، فبهذا البرهان ظهر أنّه سبحانه مع خلقه، شاهد عليهم أقرب إليهم من ذواتهم، كما قال:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [المجادلة: ٧].

الذي هو جزء من البدن، فإذا كان كذلك فيرى أشخاصهم، ويسمع كلامهم ويعلم أسرارهم.

كما نبّه عليه الإمام عليه السلام في جواب ابن أبي العوجاء، على ما رواه في (**الكافي**) بإسناده عن عيسى بن يونس، قال: قال ابن أبي العوجاء لأبي عبد الله عليه السلام في بعض ما كان يحاوره: ذكرت الله فأحلت على غائب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ويلك كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويرى أشخاصهم، ويعلم أسرارهم»، فقال ابن أبي العوجاء: أهو في كلّ مكان؟ أليس إذا كان في السّماء كيف يكون في الأرض؟ وإذا كان في الأرض كيف يكون في السّماء؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل عن مكان اشتغل به مكان، وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأمّا الله العظيم الشأن الملك الدّيان، فلا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان»[1].

ورواه الصّدوق أيضاً في (**الفقيه**) في باب الحج.

(وغير كلّ شيء لا بمزايلة) يعني أنّه سبحانه مغاير لجميع الأشياء مغايرة ذاتية من حيث عدم النّسبة بين الرّب والمربوب، والصّانع والمصنوع، والحادّ والمحدود، إذ ذاته لا تماثل به ذات شيء من الموجودات، وصفاته لا تشابه صفات شيء من الممكنات، ومن ذلك تحقّق أن غيريّته ليست على جهة المزايلة، كالمتغايرين من الأجسام على وجه التعاند أو التّضادّ اللذين وجود أحدهما في محلّ أو مكان مستلزم لزوال الآخر عنه، لأنّه سبحانه لا يضادّه شيء ولا يعانده شيء، كيف؟ وهو خالق الأضداد، فلو كان معانداً لشيء أو مضاداً له، للزم احتياجه إلى المحلّ أو المكان المنافي لوجوب الوجود فظهر، أنّ تغايره سبحانه للأشياء وتميّزه عنها إنّما هو بنفس ذاته المقدّسة التي في غاية الكمال والتّمام، وكون ما سواه في

(١) الكافي: ١/١٢٦ح٣، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٥٠.

نهاية الإفتقار والنّقصان، ويأتي مزيد تحقيق لذلك إن شاء الله تعالى في «**شرح الكلام**» الثّامن والمائتين فاعل للأشياء وصانع لهم بنفس قدرته الكاملة وإرادته التّامّة الجامعة (**لا**) فاعل بمعنى الحركات والآلة لأنّه لا يحتاج في خلقه وفعله إلى حركة ذهنيّة أو بدنيّة كما يفتقر غيره إليها في أفعاله وصنايعه، لأن الحركة من عوارض الجسم والجسمانيات والله سبحانه منزّه عن ذلك، كما أنّه غير محتاج إلى آلة.

أمّا إجمالاً فلأنّ إفتقاره إلى الآله من صفات الممكن.

وأمّا تفصيلاً، فلأنّه لو صدر عنه شيء من الآثار بآلة فإمّا أن تكون تلك الآلة من فعله أم لا.

وعلى الأوّل: فهي إمّا بتوسّط آلة أخرى أو بدونها، فإن كانت بدونها، فقد صدر أنّه فاعل بالذات لا بآلة، وإن كانت بتوسّط آلة أخرى فالكلام فيها، كالكلام في الأولى ويلزم التّسلسل.

وعلى الثاني: يلزم أن يكون الباري جلّ شأنه مفتقراً في تحقّق فاعليّته وقدرته إلى الغير والمفتقر إلى الغير ممكن بالذّات هذا خلف (**بصير إذ لا منظور إليه من خلقه**) يعني أنّه سبحانه كان بصيراً في الأزل ولا مبصر، كما أنّه كان سميعاً ولا مسموع.

واختلف العلماء في أنّ السّمع والبصر هل هو عين العلم بالمسموعات والمبصرات، أو صفة أخرى فذهب المحقّقون على ما عزى إليهم إلى الأوّل وذهب طائفة إلى الثاني إستدلالاً بذكرهما مع العلم في كثير من الآيات والرّوايات وبتجشّم الإستدلال في إثباتهما بعد إثبات العلم بجميع المعلومات.

ويضعّف بأن ذكر الخاص مع العام شائع وتكلف الإستدلال في إثباتهما تنبيهاً على تحقق هذا العلم المخصوص له سبحانه، أعني العلم بالمسموع والمبصر من حيث إنّه مسموع ومبصر، حتّى أنّهما حاضران عنده، على هذه الحيثيّة المشاهدة الذّاتية بلا آلة، كما أنهما حاضران عندك بالمشاهدة العينيّة وتوسط الآلة. فإثبات السّمع والبصر من حيث إنّهما علم داخل تحت إثبات العلم مطلقاً ومن حيث الخصوصيّة المذكورة محتاج إلى دليل مستقلّ.

وممّا ذكرنا ظهر ما في كلام بعض الأعلام حيث أورد بقوله: فإن قلت: لم يكن شيء من المبصرات والمسموعات في الأزل فلم يكن الله سميعاً وبصيراً في الأزل، إذ لا يعقل سماع المسموعات الحادثة وإبصار المبصرات الحادثة في الأزل وأجاب بقوله: قلنا: إنّه سميع وبصير في الأزل بمعنى أنّه كان على وجه إذا وجد المسموع والمبصر لأدركهما عند وجودهما، انتهى كلامه.

وتوضيح ما أجاب به ما حكاه الشّارح المعتزلي عن أبي هاشم وأصحابه، حيث قال: إنّهم يطلقون عليه في الأزل أنّه سميع بصير وليس هناك مسموع ولا مبصر، ومعنى ذلك كونه بحال يصحّ منه إدراك المسموعات والمبصرات إذا وجدت وذلك يرجع إلى كونه حيّاً لا آفة به، ولا يطلقون عليه أنّه سامع مبصر في الأزل، لأن السّامع هو المدرك بالفعل لا بالقوّة، وكذلك المبصر.

وأنت بعد الخبرة بما ذكرناه، تعرف فساد جميع ما ذكروا من السّؤال والجواب وما حكيناه عن أبي هاشم وأصحابه.

أمّا السّؤال: فلأن السمع والبصر حسبما عرفت عبارة عن العلم، والعلم بالشّيء غير متوقّف على وجوده، وقد يتحقّق ذلك في أفراد البشر، فكيف الباري الذي لا يخفى عليه شيء **وأما الجواب**: فلأن فيه اعترافاً بورود السّؤال، وأنّه تعالى لا يدرك المسموع والمبصر قبل وجودهما، وإشعاراً بأنّ فيه جلّ شأنه استعداداً لحصول العلم والإدراك كما ينبّه عليه ما حكيناه عن أبي هاشم، من أنّ القول بذلك ضروري البطلان، حيث إنّ الصّفات الذّاتية الكمالية كلّها فعليّة في حقه سبحانه، وليست شأنية كما برهن في محلّه.

فقد تحقق مّما ذكرنا كله أنّه سبحانه مدرك للمسموعات والمبصرات في الأزل، كإدراكه لها في الأبد من غير تفاوت بينهما أصلاً.

ويشهد به ما رواه في **(الكافي)** بإسناده عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لم يزل الله عزّ وجلّ ربّنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسّمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاتها ولا مقدور، فلمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسّمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور، الحديث[1].

وسيأتي، مزيد تحقيق لهذا الحديث في الفصل الآتي عند شرح قوله عليه السلام: عالماً بها قبل ابتدائها، فانتظر **(متوحّد)** في ملكه وملكوته وسلطانه **(إذ لا سكن)** له أي لا يمكن أن يكون له سكن **(يستأنس به ولا)** أنيس **(يستوحش لفقده)** بل توحّد بالتّحميد، وتمجّد بالتمجيد، وعلا عن اتّخاذ الأبناء، وتطهر وتقدّس عن ملامسة النّساء، عزّ وجلّ، عن مجاورة الشّركاء.

وإنّما امتنع في حقّه السّكن والأنيس والاستئناس والاستيحاش.

أما إجمالاً فلأن الأنس والوحشة من توابع المزاج ولو أحق الحيوان، الذي يأخذ

(١) الكافي: ١/ ١٠٧، والتوحيد للصدوق: ١٣٩ح١.

لنفسه من جنسه أو من غير جنسه أنيساً يستأنس بصحبته، ويستوحش بفقدانه، والله سبحانه منزّه عن ذلك.

وأمّا تفصيلاً فلأنّه سبحانه جامع الكمالات والخيرات بلا فقد شيء عنه، لأنه كلّ وجود ومبدأ[1] كلّ موجود، فلذلك علا عن اتّخاذ الأبناء، وتقدس عن مباشرة النّساء، وجلّ عن أخذ الشّركاء، لأنّ الحاجة إلى الأولاد والنّساء والشّركاء وأمثالها سببها قصور الوجود؛ وقلّة الابتهاج بمجرّد الذّات، وكثرة التوحّش عن الإنفراد بالوجود المشوب بالإعدام والنّقائص، فيجبر القصور، ويزول التّوحش بوجود الأمثال والأشباه، إستئناساً بها، وتخلصاً عن وحشة الفراق بسببها وأمّا الذات الإلهية الجامعة لجميع الخيرات، والسّعادات، والابتهاجات، فكلّ الموجودات به مبتهجة مسرورة، وإليه مفتقرة، ومنه مستفيضة، بل هو في الحقيقة أَنَسُ كلّ مستوحش غريب، وبه سرور كلّ محزون كئيب.

وبعبارة أخرى أوضح وألطف: أن الإستيحاش والتّوحش الحاصل للإنسان ونحوه عن التفرّد عن الأمثال والأشباه، لنقص جوهره وقصور وجوده من الكمال، وخلو ذاته عن الفضيلة التّامة، وإستصحابه للإعدام والظلمات، فيستوحش من ذاته الخالية عن نور الفضيلة والكمال، ويستأنس بغيره من الأشباه والأمثال، وأمّا الباري سبحانه فالأشياء الصّادرة عنه، وجوداتها رشحات لبحر وجوده، ولمعات لشمس حقيقته، والبحر لا يستزيد بالرشحة والنداوة، والشّمس لا تستنير بلمعاتها وذراتها، فكيف يستأنس ذاته المقدّسة بما يفيض عنها.

هذا كلّه مضافاً إلى أن حصول الإستيناس وزوال الإستيحاش إنّما يكون بوجود الأشباه، وهو تعالى لا يشبه شيئاً مذكوراً، سواء كان موجوداً في العين أم لا، فإنّ المذكور قد لا يكون موجوداً، وهو أعمّ من الموجود، ونفي الأعمّ يستلزم نفي الأخص كما هو ظاهر.

---

(١) في نسخة: ومنشأ.

الترجمة

یعنی ثابت است نه از روی حدوث و تجدد و موجود است نه از کتمان عدم. با همه چیز است نه به عنوان مقارنه و غیر هر چیز است نه به عنوان مفارقت ولنعم ماقیل:

ای باهمه در کمال نزدیکی دور حسنت به نقاب لن ترانی مستور
نور تو چو آفتاب خاکم به دهن در پرده اختفاست از فرط ظهور

و فاعل است نه به معنی حرکات و توسط آلات. بینا است در وقتی که هیچ منظور الیه نبوده او را از مخلوقات. متفرد و یگانه است به جهت آن که مونسی ندارد که با آن انس بگیرد و مونسی نیست او را که به جهت فقدان آن مستوحش شده باشد.

مبرّا ذات پاکش از انیسی معرّا و منزّه از جلیسی

الفصل السابع

«أَنْشَأَ الْخَلْقَ انْشاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِداءً، بِلا رَوِيَّةٍ أَجالَها وَلا تَجْرِبَةٍ إسْتَفادَها وَلا حَرَكَةٍ أَحْدَثَها وَلا هَمامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فيها، أَجالَ الأَشْياءَ لأَوْقاتِها وَلائَم بَيْنَ مُخْتَلِفاتِها وَغرَّزَ غَرائِزَها وَأَلْزَمَها أَشْباحَها عالِماً بِها قَبْلَ إبْتِدائِها مُحيطاً بِحُدُودِها وَإنْتِهائِها عارِفاً بِقَرائِنِها وَأَحْنائِها».

اللغة

(الانشاء والابتداء) لغة بمعنى واحد قال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ [الملك: ٢٣].

أي ابتدأكم وخلقكم، وكلّ من ابتدأ شيئاً فقد أنشأه، قال الفيومي: نشأ الشيء نشاء مهموز من باب نفع: حدث وتجدّد و أنشأته أحدثته هذا.

وقد يفرّق بينهما حيث اجتمعا صوناً للكلام عن التكرار تارة بأنّ الإنشاء هو الإيجاد لا عن مادّة، والإبتداء هو الإيجاد لا لعلّة، ففي **الأوّل**: إشارة إلى نفي العلّة المادية، وفي **الثاني**: إشارة إلى نفي العلة الغائية في فعله سبحانه وأخرى بأن الإنشاء هو الإيجاد الذي لم يسبق غير الموجد إلى إيجاد مثله، والإبتداء هو الإيجاد الذي لم يوجد الموجد قبله مثله. **وثالثه**: بأن الإنشاء هو الإيجاد من غير مثال سابق، والابتداء هو الإيجاد من غير صور الهاميّة قائضة على الموجد **(والرّوية)** الفكر والتّدبر، قال في **(المصباح)**: وهي كلمة جرت على ألسنتهم بغير همز تخفيفاً، وهي من روأت في الأمر بالهمز إذا نظرت فيه **(والإجالة)** من الجولان يقال: أجاله وأجال به إذا أداره، كما يقال: جال يجول جولاً وجولاناً إذا ذهب وجاء، ومنه الجولان في الحرب، وفي بعض النّسخ أحالها بالمهملة، وهو من الإحالة بمعنى النّقل والصّرف **(والتّجربة)** على وزن التّكملة والتّبصرة، بمعنى الإختيار يقال جرّبه تجريباً وتجربة أي اختبره مرّة بعد أخرى **(والحركة)** محركة اسم من التحريك بمعنى الإنتقال، وهو خلاف السّكون وهي عند المتكلمين حصول الجسم في مكان بعد حصوله في مكان آخر يعني أنّها عبارة عن مجموع الحصولين، وعند الحكماء هي الخروج من القوّة إلى الفعل على سبيل التّدريج **(والهمامة)** بهذه الهيئة لم أجدها في كتب اللغة إلاّ المجمع، قال: والهمامة التردّد، والموجود في كتب اللغة همام، قال في **(الأوقيانوس)**: لا همام بحرف النّفي على وزن قطام اسم فعل بمعنى لا أهم يقال لا همام أي لا أهم ولا أفعله.

قال بعض شراح **«الكافي»** عند شرح قول الإمام ﷺ: مريد لابهمامة: أي مريد للأشياء

لابهمامة النّفس وهي اهتمامها بالأمور وترديد عزمها مع الهمّ والغم بسبب فوتها، مأخوذ من الهمهمة وهي ترديد الصّوت الخفي وهو سبحانه منزّه عنها.

وبنحوه فسّره الشّارح البحراني في شرح الخطبة هذه، وقريب منه عبارة الرّاوندي على ما حكي عنه، قال: يقال ما له في الأمر همَّة ولا همامة أي لا يهتم به، والهمامة التردّد كالعزم انتهى.

وقال «**الشّارح المعتزلي**»: قوله ﷺ: «ولا همامة نفس» (اه)[١] فيه ردّ على المجوس والثّنوية القائلين بالهمامة، ولهم فيها خبط طويل يذكره أصحاب المقالات، وقال أيضاً: «ولهم في الهمامة كلام مشهور»، وهي لفظة اصطلحوا عليها، واللغة العربية ما عرفنا فيها إستعمال الهمامة بمعنى الهمّة، إلى أن قال: ولكنها لفظة إصطلاحيّة مشهورة عند أهلها، انتهى.

(وأجال) إن كان بالجيم المعجمة فمن الجولان، وإن كان بالحاء كما في بعض النّسخ فمن الإحالة بمعنى التّحويل والصّرف، أو بمعنى الإيثاب، يقال: حال في ظهر دابّته إذا وثب واستوى، وأحاله غيره أو ثبه.

قال «**الشّارح المعتزلي**»: كأنّه سبحانه لما أقرّ الأشياء في أحيانها وأوقاتها، صار كمن أحال غيره على فرسه هذا[٢]، ولا يخلو إرادته عن بعد فافهم.

وفي بعض النّسخ: أجّل بالجيم، أي وقت، وفي بعضها أحلّ بالحاء من الحلول يقال: أحلّه المكان وبالمكان إذا جعله يحلّ به **(ولائم)** ملائمة إذا أصلح **(والغريزة)** الطبيعة المجبولة يقال: هو حسن الغريزة أي الطبيعة **(والأشباح)** جمع الشبح بمعنى الشّخص **(والإحاطة)** بالشّيء الإستدارة به من جوانبه، يقال: أحاط القوم بالبلد إذا أحد قوا به واستداروا بجوانبه، ثم استعمل تارة في شمول الحفظ، وتارة في شمول العلم، وتارة في إستيلاء القدرة وشمولها **(والقرائن)** جمع القرينة، والمراد بهاهنا النّفس النّاطقة كالقرونة.

قال في **(الأوقيانوس)**: يقول: أسمحت قرينه وقرينته وقرونه وقرونته أي ذلت نفسه، ومنه يعلم ما في كلام «**الشّارح المعتزلي**» حيث جعلها جمع قرونة من الضّعف والفساد **(والإحناء)** جمع حنو بمعنى الجانب كما في المجمع، وفي **(الأوقيانوس)** أنّه يقال: على العضو المعوج، كالحاجب ونحوه، وعلى كلّ شيء معوج من الشّجر وغيره، ولم يذكر مجيئه

---

(١) هذه علامة إختصار تعني: إلى آخره.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/٨٣.

بمعنى الجانب، وإرادة كلّ من المعنيين صحيحة في المقام، ولا بأس بهما.

الإعراب

كلمة (لا) في قوله ﷺ (بلا روية) نافية معترضة بين الخافض والمخفوض، على حدّ قولهم جئت بلا زاد، وغضب من لا شيء، واختلف علماء الأدبيّة في أنّهاهل هي اسم أو حرف؟

فذهب الكوفيون إلى أنّها اسم، والجار داخل عليها نفسها، وجرّ ما بعدها بها نفسها لكونها بمعنى غير.

وغيرهم إلى أنّها حرف، ويسمّونها زائدة، والظاهر أنّهم أرادوا بالزّيادة الزّيادة من حيث اللفظ من أجل إعتراضها بين شيئين متطالبين، وإلاّ فلا يصح المعنى بإسقاطها، لأنّ حذف (لا) في الأمثلة المذكورة يوجب فوات المعنى المقوصد من الكلام، أعني النّفي، وذلك مثل تسميتهم (لاء) المقترنة بالعاطف في نحو ما جاءني زيد ولا عمرو، زائدة، مع أنّ إسقاطها يوجب إختلال المعنى، لأنك إذا قلت: ما جاءني زيد وعمرو، احتمل نفي إجتماعهما في المجيء، كما إحتمل نفي مجيء كلّ منهما على كلّ حال، وإذا قلت: ما جائني زيد ولا عمرو، كان نصّاً في الثّاني.

وممّا ذكرنا ظهر حكم لا في الجملات المتعاطفة: من قوله ﷺ: ولا تجربة إستفادها، ولا حركة أحدثها (اه)، واللام في قوله ﷺ لأوقاتها على رواية أجال بالجيم بمعنى إلى، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]. وكذلك على روايته بالحاء وجعله بمعنى التّحويل والصّرف، وعلى جعله بمعنى الإيثاب فبمعنى على كما في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

أي عليه، وأمّا على رواية أجّل بالجيم فللتعليل، وبالحاء فبمعنى في، على حدّ قوله سبحانه:

﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والضميران في قوله ﷺ وألزمها أشباحها راجعان إلى الغرايز، ويحتمل رجوعهما إلى الأشياء وانتصاب عالماً، ومحيطاً، وعارفاً، على الحاليّة من الفاعل، والعامل فيها: ألزم إعمالاً للأقرب على ما هو مذهب البصريّين.

المعنى

إعلم أنّه ﷺ لما ذكر في الفصل السّابق جملة من نعوت الجلال والجمال، عقّبه بهذا

الفصل، ونبّه فيه على كيفيّة خلقه تعالى للأشياء، وعلى جملة من صفات فعله وكماله، فقال: **(أنشأ الخلق إنشاء)** أي خلقهم خلقاً من غير مادّة، أو من غير سبق موجد غيره سبحانه إلى إيجاد مثله، أو بلا مثال سابق **(وابتدئهم إبتداء)** أي أوجدهم إيجاد إلا لعلّة غائيّة، كالاستئناس بهم والوحشة لفقدهم، أو من غير أن يوجد سبحانه مثلهم، أو من دون إفاضة صورة الهاميّة عليه سبحانه.

ففي هاتين الفقرتين إشارة إلى نفي المشابهة بين صنعه سبحانه وصنع البشر، وذلك لأن الصّنائع البشريّة إنّما تحصل بعد أن ترسم في الخيال صورة المصنوع وتلك الصّورة تارة تحصل عن مثال خارجيّ يشاهده الصّانع ويحذو حذوه، وأخرى تحصل بمحض الإلهام والاختراع، فإنّه كثيراً ما يفاض على أذهان الأذكياء صور الأشكال لم يسبقهم إلى تصوّرها غيرهم، فيتصوّرونها ويبرزونها في الخارج، وكيفيّة صنعه تعالى للعالم منزّهة عن الوقوع بأحد الوجهين.

أمّا الأوّل: فلأنّه سبحانه قبل القبل بلا قبل، وكان ولم يكن معه شيء، فلا تكون مصنوعاته مسبوقة بأمثلة من صانع آخر، عمل هو تعالى بمثل صنع ذلك الصّانع.

وأمّا الثاني: فلأنّ الفاعل على وفق ما ألهم به وإن كان مبتدءاً في العرف ومخترعاً عندهم، لكنّه مفتقر إلى الملهم والمفيض، والإفتقار محال عليه سبحانه، بل هو غني في فعله وصنعه عن غيره، كما أنّه مقدّس عن مشابهة خلقه في إيجاده وخلقه، حيث إنه خلقهم **(بلا روية أجالها)** ولا فكر أداره أو صرفه إليهم **(ولا تجربة)** معينة له على خلق هذه الأجسام **(إستفادها)** أي إكتسبها لنفسه من قبل، بمعنى أن يكون خالقاً من قبل أجساماً مجرّباً له مرّة بعد أخرى، فحصلت له تلك التّجربة، ويأتي إن شاء الله تحقيق هاتين الفقرتين في شرح الفصل الثّالث من خطبة الأشباح.

(ولا حركة أحدثها) كما أنّا نحتاج في أفعالنا الإختياريّة بعد التّصور والشّوق والإرادة إلى إحداث حركة في العضلات، ليقع الفعل في الخارج وهو سبحانه تعالى شأنه عن ذلك، لكون الحركة من خواصّ الجسم، وهو تعالى منزّه عن الجسميّة ولو أحقها **(ولا همامة نفس اضطراب فيها)** أي تردّد نفس موجب للإضطراب له تعالى، كالتردّد والإضطراب الحاصلين لنا عند إقدامنا على فعل من أفعالنا.

وأمّا على ما ذهب إليه «**الشارح المعتزلي**» من كون الهمامة من الإصطلاحات المخصوصة للمجوس والثنوية، ففهم معناها موقوف على نقل ما حكاه عنهم.

قال: حكى زرقان في «**كتاب المقالات**»، وأبو عيسى الورّاق، والحسن بن موسى،

وذكره شيخنا أبو القاسم البلخي في «**كتابه المقالات**» أيضاً عن الثنوية: أنّ النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته في غزو الظلمة والإغارة عليها، فخرجت من إرادته قطعة وهي الهمامة المضطربة في نفسه فخالطت الظلمة غازية لها، فاقتطعتها الظلمة من النّور الأعظم وحالت بينها وبينه، وخرجت همامة الظلمة غازية للنّور الأعظم فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة، ومزجها بأجزائه وامتزجت همامة النّور بأجزاء الظلمة أيضاً، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان وتتدانيان وهما ممتزجتان بأجزاء هذا وهذا، حتّى ابتنى منهما هذا العالم المحسوس، انتهى[1].

أقول: الثّنوية أثبتوا أصلين قديمين مدبّرين يقسمان الخير والشرّ، والنفع والضرّ، والصّلاح والفساد، يسمّون أحدهما النّور، والثّاني الظلمة، وبالفارسيّة «يزدان وأهرمن»، ولهم تفصيل مذهب موكول إلى محلّه، والمجوس قسم منهم إلاّ أنّهم قالوا بحدوث الظلمة، ولهم قاعدتان عمدتان.

إحداهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظلمة، وذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة يطول الكلام بذكرها، ولا بأس بالإشارة إلى واحد منها، وهو أنّ (**يزدان**) فكر في نفسه أنّه لو كان لي منازع كيف يكون؟ وهذه الفكرة كانت رديّة غير مناسبة بطبيعة النّور، فحدثت الظلمة من هذه الفكرة، وسمّي (**أهرمن**)، وكان مطبوعاً على الشرّ والضّرر والفساد.

والقاعدة الثانية: في سبب خلاص النّور من الظلمة، ولهم فيها أيضاً وجوه كثيرة **منها**: أنّه وقعت المحاربة بين عسكر النّور وعسكر الظلمة مدّة كثيرة من ألوف سنة، ثم يظفر عاقبة الأمر (**يزدان**) وجنوده، وعند الظفر وإهلاك جنود (**أهرمن**) أجمعين يكون القيامة، فيرتفع هؤلاء إلى عالم النّور والسّماء، وينحط هؤلاء إلى دار الظلمة والجحيم **ومنها**: أنّ الملائكة توسّطوا بعد المحاربة إلى أنّ العالم السّفلي لجنود (**أهرمن**)، والعالم العلوي خالصاً لجنود (**يزدان**)، إلى غير ذلك من الأباطيل والخرافات التي ذكروها في سبب الامتزاج والخلاص، خذ لهم الله أجمعين ولعنهم إلى يوم الدّين.

(أجال الأشياء لأوقاتها) أي أدارها ونقلها إليها على وفق ما اقتضاه القضاء اللاّزم، والقدر الحتم.

هذا على رواية: أجال بالجيم أو بالحاء وجعله من الإحالة بمعنى التّحويل والنّقل، وعلى المعنى الآخر فالمعنى أنّه أوثب الأشياء وسواه على أوقاتها بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٨٣.

وأمّا على رواية: أجل، بالجيم فالمعنى أنّه وقّتها لأوقاتها لا تتقدم عليها ولا تتأخر عنها قال سبحانه:

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وعلى روايته بالحاء فمعناه أنّه أحلها في أوقاتها، وعلى أيّ تقدير كان، فالمقصود أنه سبحانه جعل لكلّ شيء وقتاً معيّناً، وزماناً مخصوصاً، بحسب اقتضاء النظام الأكمل، والنّظم الأصلح، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه.

(ولائم بين مختلفاتها) كما أصلح بين العقل الذي هو من عالم الأمر والغيب وبين البدن الذي هو من عالم الخلق والشّهادة، مع عدم إحتياجه في نفسه وفعله إليه أصلاً، وكتوفيقه بين العناصر مع إختلافها وتباينها، وكجمعه بين النّار والثّلج في بعض الملائكة مع التضاد بينهما وتعاندهما **(وغرّز غرائزها)** أي: جعل غرائز الأشياء غريزة لها، كما يقال، سبحان من ضوّء الأضواء، والمقصود به أنّ طبيعة كلّ من الأشياء مجبولة عليه، مطبوعة فيه، كالفطانة للإنسان، والبلادة للحمار مثلاً **(وألزمها أشباحها)** أي جعل غريزة كلّ شيء وسجيّته لازمة على شبحه، وشخصه، غير منفكة عنه، كالشّجاعة، لبعض الأشخاص، والجبن للآخر، والسّخاء لشخص، والبخل لغيره، وكالحرارة للعسل، والبرودة للكافور، إلى غير ذلك من الطبائع اللاّزمة على الأشخاص الغير المنفكة عنها، فإنّ الشجاع لا يكون جباناً، ولا الجبان شجاعاً، ولا البخيل سخيّاً، ولا بالعكس.

هذا كله على تقدير رجوع الضميرين إلى غرائزها، وأما على تقدير رجوعهما إلى الأشياء كما يقتضيه سياق سوابقهما، فالمعنى أنه تعالى ألزم الأشياء على الأشخاص يعني: أنّ الأشياء بعد ما كان في علمه وقضائه سبحانه على نحو العموم والكليّة، جعلها لازمة على التشخّصات الجزئية، وأوجدها في العين في ضمن تلك التشخّصات، ضرورة أنّ ما لم يتشخص لم يوجد، وإليه أشير في قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] هذا وفي بعض النّسخ أشباحها أي أصولها (عالماً بها قبل ابتدائها) كما أنّه عالم بها بعد الابتداء والإيجاد، من غير تفاوت بين الحالتين (محيطاً بحدودها وانتهائها) أي بأطرافها ونهاياتها. قال سبحانه في حم السّجدة:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤].

وفسّره بعضهم بشمول الحفظ، قال الرّاغب أي حافظ له من جميع جهاته، وبعضهم بشمول العلم، فقال: أي عالم به ظاهراً وباطناً جملة وتفصيلاً، وقيل، بل المراد به إحاطته علماً وقدرة معاً.

وأمّا قوله تعالى:

﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

فالتميز بالعلم معيّن، قيل: والإحاطة بالشّيء علماً هو أن يعلم وجوده، وجنسه، وقدره، وكيفيّته، وغرضه المقصود به وبإيجاده، وما يكون هو منه، وليس ذلك إلاّ الله **(عارفاً بقرائنها وأحنائها)** أي نفوسها وجوانبها أو نفوسها وأعضائها والمعرفة هنا مجاز عن العلم، لما قد مرّ فيما سبق من الفرق بينهما، وأنّه لا يجوز إطلاقها في الله سبحانه، فإذا وقع في كلام الإمام عليه السلام لا بدّ من أن يراد بها معناها المجازي، فيكون عارفاً بمعنى عالماً، وعلاقة التجوز واضحة.

تنبيه وتحقيق

وهو أنّ قوله: عالماً بها قبل ابتدائها يفيد علمه بجميع الأشياء، كلياتها وجزئياتها، وفيه ردّ على من نفاه رأساً فَضَلّ ضلالاً بعيداً، وعلى من نفى علمه بالجزئيات، وخسر خسراناً مبيناً، ويفيد أيضاً علمه بالموجودات قبل إيجادها وتكوينها، والشّاهد على ذلك مضافاً إلى كلامه عليه السلام الآيات والأخبار المتواترة، والبراهين العقليّة.

وتوضيح المقام وتفصيله يتمّ برسم أمور.

الأول

في بيان الأدلة النّقليّة فمن الكتاب آيات كثيرة لا تحصى ولنكتف منها بثلاث آيات قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] وفي سورة النّساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] وفيها أيضاً: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ومن السّنة أخبار كثيرة بالغة حدّ التّواتر.

فمنها ما في التّوحيد بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سمعته يقول: كان الله ولا شيء غيره ولم يزل عالماً بما كوّنه، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد ما كوّنه.

ومنها: ما رواه فيه أيضاً عن أيوب بن نوح، أنّه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكوّنها أو لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها، فعلم ما خلق عندما خلق، وما كوّن عندما كوّن؟ فوقع عليه السلام بخطه: «لم يزل الله

عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء، كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء»[(١)].

ومنها: ما رواه أيضاً عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال. قلت له: أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس كان في علم الله؟ قال: فقال: «بلى قبل أن يخلق السّماوات والأرض»[(٢)].

ومنها: ما رواه عن منصور أيضاً، قال سألته: يعني أبا عبد الله عليه السلام، هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله عزّ وجلّ؟ قال عليه السلام: «لا بل كان في علمه قبل أن ينشيء السّماوات والأرض»[(٣)].

ومنها: ما رواه عن حمّاد بن عيسى، قال سألت أبا عبد الله عليه السلام، فقلت: لم يزل الله يعلم؟ قال: «أنّى يكون يعلم ولا معلوم»؟ قال: قلت: فلم يزل يسمع؟ قال: «أنّى يكون ذلك ولا مسموع»؟ قال قلت: فلم يزل يبصر؟ قال: «أنّى يكون ذلك ولا مبصر»؟ قال ثم قال: «لم يزل الله عليماً سميعاً بصيراً ذات علاّمة سميعة بصيرة»[(٤)].

أقول: لعل ردعه عليه السلام للرّاوي من جهة أنّه علم من حاله أنّه إعتقدان: علمه وسمعه وبصره سبحانه، مثل العلم والسمع والبصر الموجود في غيره سبحانه، بأن تكون أوصافاً زائدة على الذّات، ومستلزمة للمتعلّقات، من حيث كونها أموراً نسبية غير قائمة إلاّ بمتعلقاتها، ويشهد بذلك آخر الرّواية، ورواية الحسين بن خالد الآتية وغيرها.

ومنها: ما رواه عن الحسين بن بشار، عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرّضا عليهما السّلام، قال: سألته أيعلم الله الشّيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون أو لا يعلم إلاّ ما يكون؟ فقال: «إنّ الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء»، قال عز وجل:

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقال لأهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فقد علم الله عزّ وجلّ بأنّهم لوردّهم لعادوا لما نهوا عنه، وقال للملائكة لما قالت:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) التوحيد للصدوق: ١٤٥ح١٣.

(٢) الكافي: ١/١٤٨ح١١.

(٣) بحار الأنوار: ٤/ ٨٤، ونور البراهين: ١/ ٣٤٥.

(٤) التوحيد للصدوق: ١٣٩ح٢، ونور البراهين: ١/ ٣٤٥.

فلم يزل الله عزّ وجلّ علمه سابقاً للأشياء، قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك ربّنا وتعالى علوّاً كبيراً، خلق الأشياء وعلمه سابق لها كما شاء كذلك لم يزل ربّنا عليماً سميعاً بصيراً[١].

ومنها ما رواه أيضاً عن عبد الله بن مسكان، قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى أكان يعلم المكان قبل أن يخلق المكان أو علمه عندما خلقه وبعدما خلقه؟ فقال: «تعالى الله بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه كعلمه به بعد كونه، وكذلك علمه بجميع الأشياء كعلمه بالمكان»[٢].

ومنها ما رواه عن الحسين بن خالد، قال سمعت الرّضا علي بن موسى ﷺ يقول: «لم يزل الله تبارك وتعالى عليماً قادراً حيّاً قديماً سميعاً بصيراً»، فقلت له: يابن رسول الله إنّ قوماً يقولون: إنّه عزّ وجلّ لم يزل عالماً بعلم، وقادراً بقدرة، وحيّاً بحياة، وقديماً بقدم، وسميعاً بسمع، وبصيراً ببصر، فقال ﷺ: «من قال ذلك ودان به فقد اتّخذ مع الله آلهة أخرى، وليس من ولايتنا على شيء، ثم قال: لم يزل الله عزّ وجلّ عليماً قادراً حيّاً قديماً سميعاً بصيراً لذاته، تعالى عمّا يقول يشركون ويقولون المشبّهون علوّاً كبيراً»[٣].

ومنها ما في (الكافي) عن أمير المؤمنين ﷺ في بعض خطبه قال: «أحاط بالأشياء علماً قبل كونها، فلم يزدد بكونها علماً، علمه بها قبل أن يكوّنها، كعلمه بها بعد تكوينها»[٤].

ومنها ما فيه أيضاً كما في التّوحيد عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: «لم يزل الله عزّ وجلّ ربّنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسّمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور، قال: قلت: فلم يزل الله متكلماً؟ قال: إنّ الكلام صفة محدثة، وليست بأزليّة، كان والله ولا يتكلّم»[٥]، إلى غير ذلك من الأخبار الواردة في هذا الباب ممّا يقف عليها المتتبع المجدّ.

بيان

قال الفاضل المازندراني في «شرح الكافي» في شرح الحديث الأخير: قوله ﷺ: وقع

---

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/١٠٩ح٨، والتوحيد: ١٣٦.
(٢) التوحيد: ١٣٧، والبحار: ٤/ ٨٥ح٢٠.
(٣) أمالي الصدوق: ٦٥٦ح٤٢٩، وتفسير الصافي: ٥/ ٨٧.
(٤) الكافي: ١/ ١٣٥.
(٥) الكافي: ١/ ١٠٧ح١، وتوحيد الصدوق: ١٣٩.

العلم منه على المعلوم (اه)، يعني وقع العلم على ما كان معلوماً في الأزل، وانطبق عليه، لا على أمر يغايره ولو في الجملة، والمقصود أن علمه قبل الإيجاد، هو بعينه علمه بعد الإيجاد، والمعلوم قبله هو المعلوم بعينه بعده، من غير تفاوت وتغيّر في العلم أصلاً، وليس هناك تفاوت إلاّ تحقّق المعلوم في وقت وعدم تحققه قبله، وليس المراد بوقوع العلم على المعلوم تعلّقه به تعلقاً لم يكن قبل الإيجاد، لأنّ علمه متعلّق به قبل الإيجاد وبعده، وهذا الذي ذكره ﷺ هو المذهب الصحيح الذي ذهب إليه الفرقة النّاجية الإماميّة وأكثر المخالفين[1].

قال قطب المحققين في «درّة التاج»: ذهب جمهور مشايخ أهل السّنة والمعتزلة إلى أنّ العلم بأنّ الشّيء سيوجد نفس العلم بذلك الشّيء إذا وجد، لأنّ من علم علماً قطعيّاً بأن زيداً يدخل البلد غداً عند طلوع الشّمس مثلاً، يعلم بذلك العلم بعينه عند طلوع الشمس أنّه دخل البلد، ولو احتاج أحدنا إلى تعلّق علم آخر به فإنّما احتاج إليه بطريان الغفلة عن العلم الأول والغفلة على الباري ممتنعة، انتهى كلام الفاضل المذكور طاب ثراه.

وأوضح منه ما ذكره المحدث العلاّمة المجلسي (قده) في مرآة العقول عند شرح الفقرة المذكورة حيث قال: قوله: وقع العلم منه على المعلوم، أي وقع على ما كان معلوماً في الأزل وانطبق عليه وتحقّق مصداقه، وليس المقصود تعلّقه به تعلقاً لم يكن قبل الإيجاد، إذ المراد بوقوع العلم على المعلوم: العلم به على أنّه حاضر موجود كان قد تعلّق العلم به قبل ذلك على وجه الغيبة وأنّه سيوجد، والتّغير يرجع إلى المعلوم لا إلى العلم[2].

وتحقيق المقام أنّ علمه تعالى بأنّ شيئاً وجد هو عين العلم الذي كان له تعالى بأنّه سيوجد، فإن العلم بالقضية إنّما يتغير بتغيرها، وهو بتغير موضوعها أو محمولها والمعلوم ههنا هي القضيّة القائلة بأن زيداً موجود في الوقت الفلاني، ولا يخفى أنّ زيداً لا يتغيّر معناه بحضوره وغيبته، نعم يمكن أن يشار إليه إشارة خاصّة بالموجود حين وجوده، ولا يمكن في غيره، وتفاوت الإشارة إلى الموضوع لا يؤثر في تفاوت العلم بالقضية، ونفس تفاوت الإشارة راجع إلى تغيّر المعلوم لا العلم[3].

(١) شرح أصول الكافي: ٣/ ٢٤٤.

(٢) (٣) البحار: ٤/ ٧٢.

الثاني

أنّه قد تحقّق من الأخبار السّالفة علمه تعالى بجميع الأشياء كلياتها وجزئياتها وهذا ممّا اتّفق عليه جمهور العقلاء، وأقام عليه المتكلمون والحكماء البراهين السّاطعة، والأدلة القاطعة، كما أنّهم أقاموا الدّليل على علمه سبحانه بذاته، وقد خالف في ذلك جماعة ممّن لا يعبأ بخلافهم، ولا بأس بالإشارة إلى بعض البراهين العقليّة التي أسّسوها في المقام، اقتفاءً بالإعلام، وتوضيحاً لكلام الإمام ﷺ

فأقول: قال في «التّجريد»: والأحكام، والتّجرد، وإستناد كلّ شيء إليه، دلائل العلم والأخير، عام انتهى.

توضيحه أنّ كونه سبحانه فاعلاً للأشياء المحكمة، ومجرّداً في ذاته عن المادّة، وكون جميع الأشياء مستنداً إلى ذاته المقدّسة، أدلة على كون الباري سبحانه عالماً، إلاّ أنّ الأوّل مفيد لعلمه بما سواه، والثّاني لعلمه بذاته، والثّالث لعلمه بذاته وبما سواه.

أمّا الأوّل: فتفصيله أنّه سبحانه فاعل فعلاً محكماً متقناً، وكلّ من كان كذلك فهو عالم، أمّا الكبرى فضروريّة، وينبّه عليه أنّ من رأى خطوطاً مليحة، وألفاظاً فصيحة، مشتملة على نكات دقيقة، وأسرار خفيّة، علم علماً قاطعاً بأنّ موجدها عالم، وأمّا الصّغرى فلما ثبت وتحقّق، من أنّه خالق للأفلاك والعناصر والأعراض والجواهر والأنهار والأشجار والأزهار والأثمار والحيوان والإنسان على أحسن نظام وأتقن انتظام، بما لا يقدر على ضبطه الدّفاتر والأقلام، وتحيّر فيه العقول والأفهام، وكفى بذلك شهيداً صنعة الإنسان، حيث.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وأمّا الدّليل الثّاني: فتحقيقه يستدعي رسم مقدمات، **الأولى**: أنّ واجب الوجود مجرّد غاية التجرّد إذ المراد بغاية التجرّد كون الشّيء قائماً بذاته، غير متعلّق الهوية والوجود بمادّة أو موضوع، وواجب الوجود كذلك.

الثانية: أنّ كلما هو قائم بذاته غير متعلّق الهوية بشيء آخر، فهو موجود لذاته، حاضر عند ذاته غير غائبة ولا منفكة ذاته عن ذاته.

الثالثة: أنّ العلم هو حضور المعلوم بعينه أو بصورته عند المجرّد الموجود بالفعل القائم بذاته، وانكشافه لديه وثبوته بين يديه، وهذا أيضاً ظاهر وإذا لاحظت هذه المقدمات ظهر لك أنّ واجب الوجود لكونه مجرّداً غاية التجرد، ولكونه قائماً بذاته، وموجوداً لذاته، وحاضراً عند

ذاته، غير غائب عن ذاته، ومنكشفاً لذاته غير محجوب عنها، فهو عالم لذاته بذاته، لا بأمر آخر غير ذاته، فذاته عقل وعاقل ومعقول، والإختلاف إعتباريّ من جهة التّعبير.

وأمّا الدّليل الثّالث: فتقريره أنّ وجود جميع الموجودات مستند إلى ذاته وهو ليس مستنداً إلى شيء من الأشياء، فهو تعالى لكونه غير متعلق بشيء من الأشياء، موجود لذاته، قائم بذاته، وذاته حاضرة عند ذاته، وجميع الأشياء لكونه معلولة له تعالى موجودة له حاضر عنده، غير غائبة، لوجوب كون العلّة موجودة مع المعلول، فإن حصول المعلول للعلّة أشد من حصول الصّورة لنا، كما صرّح به المحقّق الطوسي في شرح الإشارات، فقد تحقّق بما ذكرناه علمه بذاته وبما سواه.

ولنعم ما قال المحقّق الشّيرازي في **(الأسفار)**: كيف يسوغ عند ذي فطرة عقلية أن يكون واهب كمال مّا ومفيضه قاصراً عن ذلك الكمال فيكون المستوهب أشرف من الواهب، والمستفيد أكرم من المفيد، وحيث ثبت إستناد جميع الممكنات إلى ذات تعالى التي هي وجوب صرف، وفعليّة محضة، ومن جملة ما يستند إليه هي الذّوات العالمة، والصّور العلميّة، والمفيض لكلّ شيء أو في بكلّ كمال لئلا يقصر معطي الكمال عنه، فكان الواجب عالماً، وعلمه غير زائد على ذاته.

الثالث

في كيفيّة علمه سبحانه بالأشياء قبل تكوينها وإيجادها، وهذا المقام ممّا زلت فيه أقدام العلماء، وتحيّرت فيه أفهام الحكماء، ولنهاية غموضه وصعوبته إختلفوا فيه على أقوال شتّى، وغاية أشكاله ودقّته، تفرقوا فيه أيدي سبا وأيادي سبا.

فمنهم من نفاه رأسًا كالإشراقيّين تبعاً لمعلمهم أفلاطون على ما حكى عنهم حيث ذهبوا إلى أنّ علمه بالأشياء مع الأشياء، وأنّ إضافة علمه هي بعينها إضافة فاعليّته، وأنّ معلوميّة الشّيء ليس إلاّ حضور ذاته الموجودة عند العالم، وقبل الوجود لا حضور، فلا علم.

ومنهم من ذهب إلى إثباته وأنّ علمه بالأشياء متقدّم عليها، وهم المشّاؤون تبعاً لمعلمهم أرسطاطاليس، قالوا: إنّ عالميّته بالأشياء بتقرّر صورها العقلية، وارتسام رسومها الإدراكية في ذاته تعالى، واعتذروا عن ذلك بأنّ تلك الصّورة وإن كانت إعراضاً قائماً بذاته: إلاّ أنّها ليست بصفاته، وذاته لا ينفعل عنها، ولا يستكمل بها، لأنّها بعذ الذّات وهي من قبيل اللوازم المتأخّرة والآثار، لا من قبيل الصّفات والأحوال، وأيضاً لا تخل كثرتها بوحدة الذّات، لأنّها كثرة على ترتيب السّببيّة والمسبّبية، وكترتيب الواحد والاثنين والثّلاثة وما بعدها، فلا تنثلم بها وحدة الذّات، كما لا تنثلم وحدة الواحد بكونه مبدءاً للأعداد الغير

المتناهية إذ التّرتيب يجمع الكثرة في وحدة.

توضيحه ما ذكره الصّدر الشّيرازي في «شرح الهداية»، حيث قال: واعلم أنّ المصنّف اختار في علم الواجب بالأشياء الكلية والجزئية، مذهب الحكماء القائلين بارتسام صور الموجودات في ذاته تعالى، كالكسيمائيس الملطي وأرسطاطاليس، وهو الظاهر من كلام الشّيخين أبي نصر وأبي علي وتلميذه بهمنيار، وبالجملة جمهور أتباع المعلّم الأوّل من المشائين.

وتقريره على ما يستفاد من كتبهم هو أنّ الصّورة العقليّة قد تؤخذ عن الصّورة الموجودة كما يستفاد من السّماء بالرّصد والحسن صورتها المعقولة، وقد لا تستفاد الصّورة المعقولة من الموجود، بل ربّما يكون الأمر بالعكس من ذلك، كصورة بيت أبدعها البنّاء أوّلاً في ذهنه، ثم تصير تلك الصّورة المعقولة علّة محرّكة لأعضائه إلى أن يوجدها في الخارج، فليست تلك الصّورة وجدت فعقلت بل عقلت فوجدت.

ولمّا كانت نسبة جميع الأشياء الممكنة إلى الله تعالى نسبة المصنوع إلى النّفس الصّانعة لو كانت تامّة الفاعليّة، فقياس عقل واجب الوجود للأشياء هو قياس أفكارنا للعلوم التي نستنبطها ثم نوجدها في الخارج، من حيث إنّ المعقول منها سبب للموجود.

والفرق بين الأمرين أنّا لكوننا ناقصين في الفاعليّة، نحتاج في أفعالنا الإختياريّة إلى انبعاث شوق، واستخدام قوّة محرّكة، واستعمال آلة تحريكيّة من العضلات والرّباطات وغيرها، ثم إلى انقياد مادة لقبول تلك الصّورة، والأوّل تعالى لكونه تامّ الفاعليّة لا يحتاج في فاعليّته إلى أمر خارج عن ذاته بل إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فإنه يعقل ذاته وما يوجب ذاته، ويعلم من ذاته كيفيّة الخيريّة في الكلّ فيتبع صور الموجودات الخارجة الصّور المعقولة عنده على نحو النّظام المعقول عنده وعلى حذائه، فالعالم الكنائي بازاء العالم الرّبوبي، والعالم الرّبوبي عظيم جدّاً.

وأيضاً لو كان الباري يعقل الأشياء من الأشياء، لكانت وجوداتها متقدّمة على عاقليته لها، فلا يكون واجب الوجود، وقد سبق أنّه واجب الوجود من جميع الوجوه، ويكون في ذاته وقوامه أن يقبل ماهيات الأشياء، وكان فيه عدمها باعتبار ذاته، فيكون في ذاته جهة إمكانية، ولكان لغيره مدخل في تتميم ذاته، وهو محال؛ فيجب أن يكون من ذاته ما هو الأكمل، لا من غيره، فقد بقي أن يكون علمه بالممكنات حاصلاً له تعالى قبل وجودها، لا من وجودها، هذا حاصل كلام المشّائين في علم الله بما سواه، انتهى كلامه.

أقول: هذا القول لمّا كان فاسداً جداً شنع عليه المتأخرون ومنهم المحقّق الطوسي في

«شرح الإشارات» حيث قال في محكي كلامه: لا شك في أنّ القول بتقرير لوازم الأوّل في ذاته تعالى، قول بكون الشيء الواحد فاعلاً وقابلاً، وقول بكون الأوّل موصوفاً بصفات غير إضافية ولا سببيّة، وقول بكون محلاً لمعلولاته الممكنة المتكثرة، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً (اه).

وقيل في المقام أقوال أخرى يرتقي إلى ستّة، ولكنّها كلها غير خالية عن الفساد، والنّقض والإيراد، ومن أراد الإطلاع عليها فليراجع إلى كتاب المبدأ والمعاد، والسّفر الإلهي من الأسفار للصّدر الشّيرازي، وبإضافة ما اختاره هناك إليها ترتقي الأقوال إلى سبعة، هذا.

والذي ينبغي أن يصار إليه هو أن يقال: لمّا ثبت كون الواجب عالماً بذاته، لزم كونه عالماً بجميع الموجودات، فإنّ ذاته علة موجبة لجميع ما عداه، ومبدأ لفيضان كلّ إدراك حسيّاً كان أو عقليّاً، ومنشأ لكلّ ظهور، ذهنيّاً كان أو عينيّاً، إمّا بدون واسطة، أو بواسطة هي منه، والعلم التّام بالعلة الموجبة و يستلزم العلم التّام بمعلولها، لأنّ المعلول من لوازم ذات العلة التّامة، فيلزم من تعقلها بكنهه، أو بالوجه الذي ينشأ منه المعلول تعقله، فلزم كونه عالماً بجميع المعلومات، وأما معرفة كنه هذا الحضور والعلم فلا سبيل لنا إليه كما لا سبيل لنا إلى إدراك ذاته.

ولنعم ما قاله المدقق السّابق في كتاب المبدأ، حيث قال: وأمّا كيفيّة علمه بالأشياء بحيث لا يلزم منه الإتّحاد، ولا كونه فاعلاً وقابلاً، ولا كثرة في ذاته بوجه غير ذلك، تعالى عنه علوّاً كبيراً، فاعلم أنّها من أغمض المسائل الحكميّة، قَلّ من يهتدي إليه سبيلاً، ولم يزل قدمه فيها، حتّى الشّيخ الرّئيس أبي علي بن سينا، مع براعته وذكائه الذي لم يعدل به ذكاء، والشّيخ الإلهي صاحب الإشراق مع صفاء ذهنه وكثرة ارتياضه بالحكمة، ومرتبة كشفه، وغيرهما من الفائقين في العلم، وإذا كان هذا حال أمثالهم فكيف من دونهم من أسراء عالم الحواس، مع غشّ الطبيعة ومخالطتها.

ولعمري إن إصابة مثل هذا الأمر الجليل على الوجه الذي يوافق الأصول الحكميّة، ويطابق القواعد الدّينيّة، متبرّءاً عن المناقشات، ومنزّهاً عن المؤاخذات، في أعلى طبقات القوى الفكريّة البشريّة، وهو بالحقيقة تمام الحكمة الحقّة الإلهية، انتهى.

أقول: ولصعوبة ذلك لم يأتوا عليهم السلام في الجواب عن هذه المسألة في الأحاديث السّالفة وغيرها مع كثرتها، إلاّ بكلام مجمل من غير تفصيل، لما رأوا قصور الأفهام والمدارك عن دركها تفصيلاً، فسبحان من تعجز عن إدراك ذاته الأفهام وتتحيّر في بلوغ صفاته عقول الأنام.

الترجمة

ایجاد کرد مخلوقات را ایجاد کردنی، بدون ماده یا بدون سبق مثال از غیر او یا از خود او و بیافرید آن ها را آفریدنی نه به جهت علت و غرضی از قبیل استیناس و رفع استیحاش، در حالتی که آن آفریدن بی فکری بود که جولان داده باشد آن را یا مصروف بدارد آن فکر را به مخلوقات و بدون تجربه که فایده گرفته باشد از آن و بدون حرکت ذهنیه و بدنیه که احداث نموده باشد آن را و بی تردد نفسی که مضطرب بوده باشد در آن. گردانید اشیاء را از برای وقت های آن ها و اصلاح کرد در میان مختلفات آن ها و مطبوع نمود طبایع اشیاء را در اشیاء و لازم غیرمنفك گردانید آن طبایع را به اشخاص خود. عالم بود به اشیاء پیش از آفریدن آن ها و احاطه کننده بود به اطراف آن ها و نهایات آن ها و دانا بود به نفوس آن ها و جوانب آن ها.

الفصل الثامن

«ثُمّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الأَجْواءِ، وشَقَّ الأَرْجاءِ، وسَكَائِكَ الْهَواءِ، فَأَجْرَىٰ فيها ماءً مُتلاطِماً تَيّارُهُ، مُتراكِماً زَخّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَىٰ مَتْنِ الرّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَها بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَها عَلَىٰ شَدِّهِ، وقَرَنَها إِلَىٰ حَدِّه، الْهَواءُ مِنْ تَحْتِها فَتيقٌ، وَالْماءُ مِنْ فَوْقِها دَفيقٌ، ثُمّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ ريحاً أَعْقَمَ مَهَبَّها، وَأَدامَ مَرَبَّها، وأَعْصَفَ مَجْرٰيها، وأَبْعَدَ مَنْشَأَها، أَمَرَا بِتَصْفيقِ الْماءِ الزَّخّارِ، وإِثارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقاءِ، وعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَها بِالْفَضاءِ، تَرُدُّ أَوَّلَهُ عَلَىٰ آخِرِهِ، وساجِيَهُ عَلَى مَائِرِه، حَتّى عَبَّ عُبابُهُ، وَرَمَىٰ بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ في هَواءٍ مُنْفَتِقٍ، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ، جَعَلَ سُفْلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً، وعُلياهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وسَمْكاً مَرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُها، وَلاَ دِسَارٍ يَنْتَظِمُها، ثُم زَيَّنَها بِزينَةِ الْكَواكِبِ، وضِياءِ الثَّواقِبِ، وأَجْرىٰ فيها سِراجاً مُسْتَطيراً، وقَمَراً مُنيراً، في فَلَكٍ دَائِرٍ، وسَقْفٍ سَائِرٍ، ورَقيمٍ مائِرٍ».

اللغة

(**الفتق**) الشّق والفصل (**والأجواء**) جمع جوّ وهو ما بين السّماء والأرض، وقيل الفضاء الواسع (**والارجاء**) جمع رجا بالقصر وهي النّاحية (**والسكائك**) جمع سكاكة مثل ذوابة وذوائب، وهي الهواء الملاقي عنان السّماء كالسّكاك تقول: لا أفعل ذلك ولو نزوت في السّكاكة، قيل: وفي لسان الحكمة عبارة عن الطبقة السّابعة من الهواء، وربّما فسّرت بالهواء المطلق، ويحتاج حينئذٍ إلى التأويل لئلاّ يلزم إضافة الشّيء إلى نفسه.

واصل (**اللّطم**) الضّرب على الوجه بباطن الرّاحة، وتلاطم الأمواج: ضرب بعضها بعضاً كأنّه يلطمه (**والتيّار**) الموج وقيل: شدّة الجريان، وهو فيعال، أصله تيوار، فاجتمعت الواو والياء فأُدغم بعد القلب، وبعضهم جعله من تير، فهو فعال، والرّمل (**المتراكم**) الذي بعضه فوق بعض (**والزّخار**) مبالغة في الزّاخر يوصف به البحر يقال: بحر زاخر أي طام ممتلى (**والمتن**) الظهر (**والعاصفة**) الشّديدة الهبوب وريح (**زعزع**) وزعزعان وزعزاع إذا كانت تزعزع الأشياء وتحرّكها بشدّة.

(**والقاصفة**) من القصف، يقال: قصف الرّعد وغيره قصيفاً، إذا اشتدّ صوته (**وسلّطته**) على الشّيء تسليطاً مكّنته، فتسلط أي تحكم وتمكن (**والدّفيق**) المندفق (**أعقم مهبّها**) أي جعل هبوبها عقيماً، والرّيح العقيم خلاف اللاّقح وهي التي لا تثير سحاباً، ولا تلقح شجراً (**والمهبّ**) مصدر بمعنى الهبوب، أو إسم مكان و(**أدام مربّها**) أي جعل ملازمتها دائمة، وهو

من الأرباب يقال: أربّ بالمكان إذا لزم وأقام به و(**أعصف مجريها**) أي جريانها، أو أسند إلى المحلّ توسّعاً.

(**والتصفيق**) من صفقه إذا قلبه أو بمعنى الضّرب الذي له صوت، أو من صفق الشّراب إذا حوله ممزوجاً من إناء إلى آخر ليصفو و(**الإثارة**) من الثوران وهو الهيجان و(**المخض**) **التّحريك، يقال**) مخضت اللّبن إذا حركته لاستخراج ما فيه من الزّبد و(**السّقاء**) مثل كساء ما يوضع فيه الماء واللّبن ونحوهما من جلد الغنم ونحوه ليخرج زبده، وهو قريب من القربة والبحر (**السّاجي**) السّاكن.

و(**مار**) الشّيء موراً من باب قال، تحرّك بسرعة و(**المآئر**) المتحرّك و(**عب**) الماء ارتفع و(**عباب**) كغراب معظم الماء وكثرته وطغيانه (**والرّكام**) بالضمّ المتراكم و(**الجوّ المنفهق**) المفتوح الواسع و(**المكفوف**) الممنوع من السّقوط والسّيلان و(**سقف**) البيت عرشه و(**السّمك**) البناء، قال سبحانه: رفع سمكها، أي بناءها.

و(**العمد**) بفتحتين جمع عماد وهو ما يسند به (**ودعم**) الشّيء دعماً من باب علم إذا مال فأقامه، ومنه الدّعامة بالكسر، وما يستند به الحائط إذا مال يمنعه من السّقوط و(**الدّسار**) ككتاب المسمار والحبل الذي يشدّ به الأخشاب ويرتّب و(**الثواقب**) جمع الثاقب، قال سبحانه: النّجم الثاقب، وسيأتي تفسيرها واختلاف الأقوال فيها.

و(**المستطير**) المنتشر يقال: استطار الفجر إذا انتشر ضوؤه و(**قمراً منيراً**) من أنار الشّيء إذا أضاء، وقيل: إن النّور أقوى من الضياء، لقوله سبحانه:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وربّما يفرق بأنّ النّور الذاتي يسمّى ضياء، وما بالعرض يسمّى نوراً أخذاً من قوله سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

(**والرّقيم المائر**) هو اللوح المتحرك، كنى به عن الفلك لأنّه مسطّح كاللوح، وفي «**المجمع**»: والرّقيم من أسماء الفلك، سمّي به لرقمه بالكواكب، كالثوب المنقوش.

الإعراب

الأصل في كلمة (ثمّ) العاطفة أن تكون مفيدة للتّشريك والتّرتيب والمهلة، ولا يمكن كون ثم في قوله ﷺ: «ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء»، على وفق ذلك الأصل، من حيث استلزامها حينئذٍ خلق الفضاء والسّماوات بعد خلق كلّ شيء مع التّراخي، كما هو ظاهر، فلا

بدّ إمّا من جعلها بمعنى الواو، على حدّ قوله سبحانه:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

أو من المصير إلى ما ذهب إليه الفرّاء وبعض النّحويين، من تخلّف المهلة والتّرتيب عنها أحياناً، مستدلاً بقول العرف: أعجبني ما صنعت اليوم، ثم ما صنعت أمس أعجب، حيث إنّه لا تراخي بين المعطوف والمعطوف عليه، كما لا ترتيب بينهما، وبقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢].

حيث لا ترتيب في الآية الأولى، ولا تراخي في الثّانية.

وأجاب الشّارح المعتزلي بأنّ قوله: (ثم) هو تعقيب وتراخ لا في مخلوقات الباري سبحانه بل في كلامه عليه السلام، كأنّه يقول: ثم أقول الآن بعد قولي المتقدّم: إنّه تعالى أنشأ فتق الأجواء، انتهى[1].

وأنت خبير بما فيه، ضرورة أنّه لا تراخي بين الإخبارين، والأولى أن يعتذر بذلك عن إشكال إفادتها التّرتيب بأن يقول: إنّ ثم في كلامه لترتيب الأخبار، لا لترتيب الحكم، كما اعتذر به جماعة عن الآية الأولى، واستدلوا عليه بالمثال السّابق، وقالوا: إنّ معناه ثم أخبرك بأن ما صنعت أمس أعجب.

وإضافة الفتق والشّق والسّكائك إلى تالياتها، من قبيل الإضافة بمعنى اللاّم، ويحتمل كون إضافة الأوّلين من قبيل إضافة الصّفة إلى الموصوف، أي الأجواء الفاتقة بين السّماء والأرض، والأرجاء الفاصلة بينهما، وهو الأقرب معنى، لكن الأوّل أنسب بالقواعد الأدبيّة، كما هو ظاهر.

وقوله عليه السلام: «متلاطماً ومتراكما»، صفتان لماء، كما أنّ جملة حمله كذلك أو أنّها استئنافيّة بيانية، وإلى، في قوله: قرنها إلى حدّه، بمعنى (اللاّم) كما في قولهم والأمر إليك.

وقوله عليه السلام: «في فلك دائر»، بدل من قوله عليه السلام: فيها، أو حال عن المنصوبين أو ظرف لغو متعلق بقوله منبراً.

---

(١) شرح النهج: ١/ ٨٤.

المعنى

لما أشار ﷺ إلى كيفيّة إيجاده سبحانه الخلق في الفصل السّابق إجمالاً، أشار إلى كيفية الخلقة تفصيلاً، فقال ﷺ:

«ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء» هذه الجملات الثلاث متّحدة المفاد، وجمع الأجزاء والأرجاء والسّكائك باعتبار تعدد طبقات الهواء، وقيل: إنّ المراد بالأجواء: هو الفضاء الظاهر على أطراف الأرض، وبالأرجاء: الفضاء المتّصل بأطراف الأرض الذي أدنى من الأوّل، وبالسّكائك الفضاء المرتفع عن الأرض، وكيف كان ففيها دلالة على كون الفضاء مخلوقاً، وأمراً موجوداً، لأنّ المخلوق لا يكون عدماً محضاً.

قال الشّارح المعتزلي: وذلك ليس ببعيد، فقد ذهب إليه قوم من أهل النّظر، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام، ومنهم من جعله مجرداً هذا.

وقال العلاّمة المجلسي في (**البحار**): المراد بفتق الأجواء إيجاد الأجسام في الأمكنة الخالية، بناء على وجود المكان بمعنى البعد، وجواز الخلاء، أو المراد بالجوّ البعد الموهوم، أو أحد العناصر، بناء على تقدّم خلق الهواء، وقوله ﷺ: وشقّ الأرجاء كالتّفسير لفتق الأجواء، أو المراد بالأرجاء الأفضية والأمكنة، وبالأجواء عنصر الهواء، وقوله ﷺ: وسكائك الهواء بالنّصب كما في كثير من النّسخ، معطوف على فتق الأجواء، أي أنشأ سبحانه سكائك الهواء، والجرّ كما في بعض النّسخ أظهر، عطفاً على الأجواء، أي أنشأ فتق سكائك الهواء، انتهى كلامه رفع مقامه[1].

وفي «**شرح ابن ميثم**»: فإن قلت: إنّ الأجواء والأرجاء والسكائك أمور عدميّة، فكيف يصحّ نسبتها إلى الإنشاء عن القدرة؟ قلت: إن هذه الأشياء عبارة عن الخلاء والأحياز، والخلاف في أنّ الخلاء والحيّز والمكان هل هي أمور وجوديّة أو عدميّة مشهورة؟ فإن كانت وجوديّة كانت نسبتها إلى القدرة ظاهرة، ويكون معنى فتقها وشقّها شقّ العدم عنها، وإن كانت عدميّة كان معنى فتقها وشقّها ونسبتها إلى القدرة: تقديرها، وجعلها أحيازاً للماء، ومقرّاً، لأنّه لما كان تمييزها عن مطلق الهواء والخلاء بإيجاد الله فيها الماء، صار تعيّنها بسبب قدرته، فتصحّ نسبتها إلى إنشائه، فكأنه سبحانه شقّها وفتقها بحصول الجسم فيها وهذا قريب ممّا ذكره المجلسي أوّلاً[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٤/ ١٨١.

(٢) المصدر السابق.

والحاصل أنّه سبحانه أنشأ أحيازاً وأمكنة خالية (**فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره**) أي موجه ولجّته (**متراكماً زخاره**) أي طمومه وامتلائه؛ ولمّا خلق سبحانه الماء (**حمله على متن الرّيح العاصفة**) الشّديدة العصف والهبوب (**والزعزع القاصفة**) الشّديدة الصّوت، فاستقلّ الماء عليها وثبت، وصارت مكاناً له، والمراد بهذه الرّيح إمّا المتحرّك من الهواء، الذي ذكره ﷺ أوّلاً على ما هو المشهور، أو غيره، كما يستفاد من رواية الإحتجاج، عن هشام بن الحكم، عن الصّادق ﷺ في جواب الزّنديق، قال ﷺ: «والرّيح على الهواء، والهواء تمسكه القدرة»[1].

وعلى هذا فيمكن أن تكون الرّيح مقدّمة في الخلقة على الهواء، أو متأخّرة عنه، أو مقارنة له.

ثم لمّا كان الماء المحمول على الرّيح جارياً في الهواء على مقتضى طبعه (**أمرها**) سبحانه (**بردّه، وسلطها على شدّة، وقرنها إلى حدّه**) أي أمر الرّيح أن تحفظ الماء وتردّه، بالمنع عن الجري الذي سبقت الإشارة إليه في قوله ﷺ: فأجرى فيها ماء (اه)، فكان قبل الرّد قد خلى وطبعه، ثم أمر الرّيح بردّه، وقوّاها على ضبطه، كالشّيء المشدود، وجعلها مقرونة لحدّه، أي محيطة بنهايته، وعن الكيدري، قوله فأمرها، مجاز، لأن الحكيم لا يأمر الجماد.

وفي (**البحار**) ولعلّ المراد بالأمر هنا، الأمر التكويني، كما في قوله: ﴿كن فيكون﴾، وقوله ﴿كونوا قردة﴾.

ثم أشار ﷺ إلى كمال قدرته سبحانه بقوله: (**الهواء من تحتها فتيق**) أي مفتوح منبسط من تحت الرّيح الحاملة للماء (**والماء من فوقها دفيق**) أي مصبوب مندفق.

قال المجلسي[2]: والغرض أنّه سبحانه بقدرته ضبط الماء المصبوب الرّيح الحاملة له، كما ضبط الرّيح بالهواء المنبسط، وهو موضع العجب (**ثم أنشأ سبحانه**) فوق ذلك الماء (**ريحا**) أخرى (**أعقم مهبّها**) أي جعل هبوبها عقيماً، وفي كثير من النّسخ اعتقم مهبها، بالتاء، فاللاّزم حينئذٍ رفع مهبها، للزوم الفعل فالمعنى حينئذٍ صار مهبها عقيماً لا يلقح، من العقيم الذي لا يولد له ولد، أو صار مهبّها ضيّقاً، لأنّ الاعتقام هو أن تحفر البئر، فإذا قربت من الماء احتفرت بئراً صغيراً بقدر ما تجد طعم الماء، فإن كان عذباً حفرت بقيتها، فاستعير هنا من حيث ضيق المهب كما يحتفر البئر الصّغير.

---

(١) الاحتجاج: ٢/١٠٠.

(٢) البحار: ٥٤/١٨٤.

وأما ما قيل من أنّ معنى: اعتقم مهبّها: جعل مهبّها عقيماً، ففاسد، لأنه إنّما يصحّ لو كان اعتقم متعدّياً **(وأدام مربّها)** أي ملازمتها لتحريك الماء، وعن بعض النّسخ مدبها بالدّال، أي حركتها. **(وأعصف مجريها)** أي جريانها أو أسند إلى المحلّ مجازاً، من قبيل سال الميزاب **(وأبعد منشأها)** أي جعل مبدئها بعيداً لا يعرف، ثم سلّطها على ذلك الماء.

(فأمرها بتصفيق الماء الزّخار) أي تحويله وقلبه وضرب بعضه ببعض بشدّة **(وإثارة موج البحار)** وتهييجه **(فمخضتة)** مثل **(مخض السّقاء)** الذي يمخض فيه اللبن ليخرج ما فيه من الزّبد والتّشبيه للإشارة إلى شدّة التّحريك **(وعصفت به)** أي بهذا الماء العظيم مثل **(عصفها بالفضاء)** أي عصفاً شديداً، لأنّ العصف بالفضاء يكون أشدّ من حيث عدم المانع **(تردّ أوّله على آخره وساجيه على مائره)** أي ساكنه على متحركه **(حتّى عبّ عبابه)** أي ارتفع معظمه **(ورمى بالزّبد ركامه)** أي متراكمه وما اجتمع منه بعضه فوق بعض.

(فرفعه في هواء منفتق) أي رفع الله ذلك الزّبد في هواء مفتوق مفتوح **(وجوّ منفهق)** أي متّسع ومنفتح **(فسوّى منه سبع سموات)** أي خلقهنّ من الزّبد، وعدلهن مصونة من العوج والتّهافت، والسّبع لا ينافي التّسع التي أثبتوها أصحاب الإرصاد، إذ الثّامن والتّاسع مسمّيان في لسان الشّرع بالعرش والكرسي، وسيأتي تحقيق الكلام فيها **(جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً)** أي موجاً ممنوعاً من السّيلان. إمّا بإمساكه بقدرته أو بأن خلق حوله وتحته جسماً جامداً يمنعه عن السّيلان والانتشار، أو بأن أجمدها بعدما كانت سيّالة.

وكون السماء السّفلى موجاً إما بعنوان الحقيقة، حسبما اختاره قوم، مستدلاً بمشاهدة حركة الكواكب المتحيّرة، وكونها مرتعدة مضطربة في مرأى العين.

قالوا: في محكى كلامهم في شرح المعتزلي إنّ المتحيّرة متحرّكة في أفلاكها ونحن نشاهدها بالحسّ البصري وبيننا وبينها أجرام الأفلاك الشّفافة، ونشاهدها مرتعدة حسب ارتعاد الجسم السّائر في الماء، وما ذاك لنا إلاّ لأنّ سماء الدّنيا ماء متموّج، فارتعاد الكواكب المشاهدة حسّاً إنّما هو بحسب إرتعاد أجزاء الفلك الأدنى.

ثم قالوا: فأمّا الكواكب الثّابتة فإنّما لم نشاهدها كذلك، لأنّها ليست بمتحرّكة، والقمر وإن كان في الدّنيا، إلاّ أنّ فلك تدويره من جنس الأجرام الفوقانيّة، وليس بماء متموّج كالفلك الممثّل التّحتاني وكذلك القول في الشّمس.

أقول: وما ذكروه في الشّمس والقمر غير خال عن الإشكال والفساد، كما هو واضح، فافهم.

وأما بعنوان التّشبيه وهو الأظهر، قال الكيدري: شبّه السّماء الدّنيا بالموج لصفائها

وارتفاعها، أو أراد أنها كانت في الأوّل موجاً ثم عقدها، وقال الشّارح البحراني واستعار لفظ الموج للسّماء، لما بينهما من المشابهة في العلوّ والإرتفاع، وما يتوهّم من اللّون، ويأتي فيه وجه آخر من العلامة المجلسي طاب ثراه **(وعلياهنّ سقفا محفوظاً)** عن النقض والهدم والسّقوط والخرق إلاّ بأمره.

قال الحبراني: أي من الشّياطين، ثم نقل عن ابن عبّاس كيفيّة حجب الشّياطين عن السّماوات، وأنّهم كانوا يدخلونها، ويتخبرون أخبارها إلى زمن عيسى ﷺ، فلمّا ولد منعوا من ثلاث سماوات، فلمّا ولد محمد صلى الله عليه وآله وسلم منعوا من جميعها، إلى آخر ما روى.

وقال المحدث العلاّمة المجلسي طاب ثراه بعد أن حكى عن أكثر الشّارحين كون الحفظ بالنّسبة إلى الشّياطين ما لفظه: وهو لا يناسب العليا، بل السّفلى، فيناسب أن يكون المراد بقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] السّماء العليا، انتهى(١).

أقول: وأنت خبير بما فيه، لأن محفوظيّة السّفلى إنّما هو بعد ولادة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كما دلّ عليه رواية ابن عبّاس وتظافرت به أخبار أهل البيت عليهم السّلام، وأمّا السّماء العليا فلما لم يختص محفوظيّتها بوقت دون وقت، بل كانت الشّياطين ممنوعين منها قبل ولادته ﷺ أيضاً حسبما يستفاد من الأخبار، فهي أولى وأنسب بأن تتّصف بالحفظ.

وبما ذكرنا ظهر ما في كلام البحراني السّابق أيضاً، حيث إنّ سوق كلامه يفيد أن ذكره لرواية ابن عبّاس للإستشهاد به على مدّعاه من كون الحفظ في كلامه ﷺ بالنّسبة إلى الشّياطين، مع أنّها غير وافية به، إذ حاصل الرّواية أنّ حفظ السّماوات إنّما حصل بعد الولادة، وهذا ممّا لا نفع فيه، وإنما المثمر إقامة الدّليل على تخصيصه ﷺ العليا بخصوصها بالحفظ كما عرفت، فافهم جيّداً هذا.

وقال المجلسي: يخطر بالبال وجه آخر وهو أن يكون المراد أنه تعالى جعل الجهة السّفلى من كلّ من السّماوات موّاجة متحرّكة واقعاً أو في النّظر، والجهة العليا منها سقفاً محفوظاً تستقرّ عليه الملائكة، ولا يمكن الشّياطين خرقها، فيكون ضمير زينها وسائر الضّمائر راجعة إلى المجموع، فيناسب الآية المتقدّمة وقوله سبحانه:

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات: ٧].

---

(١) البحار: ١٨٦/٥٤.

وقد يمرّ بالخاطر وجه آخر، وهو أنه ﷺ شبّه السّماء الدّنيا بالموج المكفوف، لكون الحركة الخاصّة للقمر أسرع من جميع الكواكب، فكأنه دائماً في الموج، ومع ذلك لا تسقط، ووصف العليا بالمحفوظيّة، لأنّه أبطأها بالحركة الخاصّة، فكأنّها محفوظة ثابتة، وعلى الطريقة السّابقة يمكن أن يكون المراد بالسّفلى من كلٍّ منها خوارج مراكزها وتداويرها، وبالعليا منها ممثلاتها، فالأولى موّاجة لسرعة حركتها، والثّواني محفوظة لبطئها، لكن هذان الوجهان بعيدان عن لسان أهل الشّرع ومقاصد أهله، انتهى كلامه رفع مقامه.

(وسمكا مرفوعا) أي سقفاً أو بناء مرفوعاً ويجيء بمعنى الرفع قال الشّاعر:

إنّ الــذي ســمــك الــســمــاء بــنــى لــنــا

أي رفعه، وهو غير مناسب للمقام، والأنسب ما قلناه، وهو أحد معانيه كما في **«القاموس»** وغيره، والضّميران المنصوبان في قوله ﷺ: **(بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينتظمها)** راجعان إلى العليا بملاحظة القرب، أو إلى السّفلى بقرينة الضّمير الآتي في قوله: ثم زيّنها، الرّاجع إليها لما سيأتي، أو إلى السّماوات، وهو الأظهر ليكون أوفق بقوله سبحانه:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

واختلف المفسّرون في أنّه هل هناك عمد غير مرئي أولاً وعمد أصلاً؟ فعن ابن عبّاس والحسن وقتادة والجبائي وأبي مسلم الثّاني، أن المراد رفعها بغير عمد وأنتم ترونها كذلك، قال ابن عبّاس: يعني ليس من دونها دعامة يدعمها، ولا فوقها علاقة تمسكها، قال الطبرسي وهو الأصحّ، وعن مجاهد وعزيَ إلى ابن عبّاس أيضاً الأوّل، وأن ترونها من نعت العمد بغير عمد مرئية.

أقول: ويشهد به ما عن القمّي والعياشي عن الرّضا ﷺ، «قال: فثّم عمد ولكن لا ترونها»[1].

قال الفخر الرّازي: إنّ العماد ما يعتمد عليه، وقد دللنا على أنّ هذه الأجسام إنّما بقيت واقفة في الجوّ العالي بقدرة الله فحينئذٍ يكون عمدها هو قدرة الله، فصحّ أن يقال: رفع السّماوات بغير عمد ترونها، أي لها عمد في الحقيقة إلاّ أن تلك العمد هي إمساكه وحفظه وتدبيره وإبقائه إيّاها في الجوّ العالي وأنتم لا ترون ذلك التّدبير، ولا تعرفون كيفيّة ذلك الإمساك انتهى، **(ثم زيّنها بزينة الكواكب)** أي السّماء السّفلى ليكون أوفق بقوله سبحانه:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦].

---

(١) البحار: ٧٩/٥٧، ونور البراهين: ٢/ ٩٥.

ويحتمل رجوعه إلى السّماوات كما هو الأظهر، وتزيين البعض تزيين الجميع.

قال في (الكشاف) في تفسير الآية: الدّنيا القربى منكم، والزينة مصدر كالنّسبة أو اسم لما يزان به الشّيء كالليقة لما تلاق به الدّواة، ويحتملها قوله: بزينة الكواكب، فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل، أبأنْ زانتها الكواكب وأصله بزينة الكواكب، أو على إضافته إلى المفعول، أي بأن زان الله الكواكب وحسّنها، لأنّها إنّما زيّنت السّماء بحسنها في أنفسها، وأصله بزينة الكواكب وإن أردت الإسم فللإضافة وجهان أن تقع الكواكب بياناً للزينة، لأنّ الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها ممّا يزان به، وأن يراد به ما زينت به الكواكب، انتهى.

وكون الكواكب زينة إمّا لضوئها كما عن ابن عبّاس، أو للأشكال المختلفة الحاصلة كشكل الثّريا وبنات النّعش والجوزاء وغير ذلك، أو لاختلاف أوضاعها بحركتها، أو لرؤية النّاس إيّاها مضيئة في الليلة الظلماء، ويوضحه قوله تعالى: بمصابيح، في الموضع الآخر، وإمّا محال الكواكب فستطلع عليها إن شآء الله **(وضياء الثّواقب)** المراد بها إمّا الكواكب فيكون كالتّفسير لزينة الكواكب والكواكب ثواقب أي مضيئة كأنّها تثقب الظّلمة بضوئها، أو الشّهب التي ترمي بها الشّياطين، قال سبحانه: النّجم الثّاقب.

قيل: وصف بكونه ثاقباً لوجوه: **أحدها**: أنّه يثقب الظّلام بضوء ينفذ فيه.

وثانيها: أنّه يطلع من المشرق نافذاً في الهواء كالشّيء الذي يثقب الشيء.

وثالثها: أنّه الذي يرمي به الشّيطان فيثقبه أي ينفذ فيه ويحرقه.

ورابعها: قال الفرّاء: هو النجم المرتفع على النّجوم والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السّماء ارتفاعاً: فقد ثقب.

أقول: وهنا وجه خامس وهو أن وصفه به لكونه مضيئاً كأنّه يثقب الأفلاك بضوئه.

ويشهد به ما عن الخصال عن الصّادق عليه السلام، أنّه قال لرجل من أهل اليمن: ما زحل عندكم في النّجوم؟ فقال اليماني: نجم نحس، فقال عليه السلام: لا تقولن هذا، فإنّه نجم أمير المؤمنين عليه السلام، وهو نجم الأوصياء، وهو النّجم الثّاقب الذي قال الله في كتابه، فقال له اليماني فما يعني بالثّاقب؟ قال عليه السلام: لأن مطلعه في السّماء السّابعة، وأنّه ثقب بضوئه حتّى أضاء في السّماء الدّنيا، فمن ثم سمّاه الله النّجم الثّاقب.

(فأجرى) وفي بعض النّسخ، وأجرى بالواو **(فيها سراجاً مستطيراً)** أي منتشر الضوء **(وقمراً منيراً)** والمراد بالسّراج الشمس فإنّها سراج لمحفل العالم، قال سبحانه في سورة الفرقان:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] وفي سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝﴾ [نوح: ١٦].

وتشبيه الشّمس بالسّراج من حيث إنّها تزيل ظلمة اللّيل عن وجه الأرض كما يزيلها السّراج عمّا حوله.

قيل: كان اللّيل عبارة عن ظلم الأرض، وكانت الشّمس سبباً لزواله، فكان شبيهاً بالسّراج في ارتفاع الظلمة به، والضمير في قوله: فيها، راجع إلى السماوات كما هو الأظهر، أو إلى السّفلى كما عزاه المجلسي طاب ثراه إلى الأكثر، ويحتاج حينئذٍ إلى نوع تأويل بالنّسبة إلى جريان الشّمس بناء على كونها في السّماء الرّابعة.

(في فلك دائر) قال العلاّمة المجلسي (قد): الظرف إمّا بدل عن فيها، فيفيد حركة السّفلى أو العليا أو الجميع على تقادير إرجاع الضّمير بالحركة اليوميّة أو الخاصّة أو الأعمّ، وإمّا في موضع حال عن المنصوبين فيمكن أن يكون المراد بالفلك الدّائر: الأفلاك الجزئيّة **(وسقف سائر ورقيم مائر)** قال العلاّمة المجلسي: هاتان الفقرتان أيضاً تدلاّن على حركة السّماء لكن لا تنافي حركة الكواكب بنفسها أيضاً، هذا.

وينبغي تذييل المقام بأمور مهمة

الأول: أنه لم يستفد من كلامه ﷺ أن الصّادر الأوّل ماذا؟ وقد اختلف فيه كلام العلماء كالأخبار.

فالحكماء يقولون: أوّل المخلوقات العقل الأوّل، ثمّ العقل الأوّل خلق العقل الثّاني والفلك الأوّل وهكذا إلى أن انتهى إلى العقل العاشر، فهو خلق الفلك التّاسع وهيولى العناصر، وجماعة منهم يقولون: بأنّ تلك العقول وسائط لإيجاده تعالى، ولا مؤثر في الوجود إلاّ الله، وكلّ ذلك مخالف للآيات والأخبار.

وأمّا غيرهم فقيل: أولها الماء، ويدل عليه رواية الرّوضة الآتية عن أبيه جعفر ﷺ في جواب الشّامي، ونقل عن تاليس الملطي وهو من مشاهير الحكماء أنّه بعد أن وحّد الصّانع الأوّل للعالم ونزهه قال: لكنّه أبدع العنصر الذي فيه صور الموجودات والمعلومات كلها وسمّاه المبدع الأوّل، ثم نقل عنه إنّ ذلك العنصر هو الماء، قال: ومنه أنواع الجواهر كلها من السّماء والأرض وما بينهما، وهو علّة كلّ مبدع، وعلّة كلّ مركب من العنصر الجسماني، فذكر أنّ من جمود الماء تكوّنت الأرض، ومن انحلاله تكوّن الهواء، ومن صفوته تكوّنت النّار، ومن الدّخان الأبخرة وتكوّنت السّماء، قال البحراني: وقيل إنّه أخذ ذلك من التّوراة، انتهى.

وقيل: أوّل المخلوقات[(١)] الهواء، وروي عن عليّ بن إبراهيم في تفسيره، قال

(١) في الروايات خلاف في أول ما خلق الله تعالى واليك هي:
١ ـ أول ما خلق العقل[(١)].
٢ ـ أول ما خلق الله آل محمد أو أرواحهم[(٢)].
٣ ـ أول ما خلق الله محمداً، أو نور محمد، أو عقله، أو روحه[(٣)].
٤ ـ أول ما خلق الله العرش[(٤)].
٥ ـ أول ما خلق الله القلم[(٥)].
٦ ـ أول ما خلق الله الماء[(٦)].
٧ ـ أول ما خلق الله الملائكة[(٧)].
٨ ـ أول ما خلق الله النور والظلمة[(٨)].
٩ ـ أول ما خلق الله العلم[(٩)].
١٠ ـ أول ما خلق الله الحجب[(١٠)].
١١ ـ أول ما خلق الله جوهرة[(١١)].
١٢ ـ أول ما خلق الله الروح[(١٢)].

(١) كشف الخفاء: ١ / ٢٦٣ ح ٨٢٣، وعوالم العلوم والمعارف: ٤٠ ح ٣٠٢، وبحار الأنوار: ١ / ٩٦.١٠٩ الى ٩٩، وشرف العقل للغزالي: ٥٣، والكافي: ١ / ٢١ و ١٠.
(٢) تأتي المصادر في طي الأحاديث وراجع ينابيع المودة: ٢ / ٥٨٢، وعيون اخبار الرضا: ١ / ٢٠٥ باب ٢٦ ح ٢٢، وكمال الدين: ١ / ٢٥٥ باب ٢٣.
(٣) تأتي المصادر مع الأحاديث ويراجع شرح دعاء الجوشن: ٥٤٨، وعوالم العلوم: ٤٠ ح ١ و جامع الاسرار: ٥٩ ـ ١٤٤ ـ ٣٤٧ ـ ٣٨٠ ـ ٤٥٠ ح ٥٦٣ ـ ٦١٩ ـ ٧٠٥، والأنوار النعمانية: ١ / ١٣، ورسالة المشاعر: ٣١٧، وينابيع المودة: ١ / ١٠، ونظم المتناثر: ١٨٥ ح ١٩٤، واسرارالشريعة: ٦.
(٤) تاريخ ابن كثير: ١ / ٤٠، وكنزالعمال: ٢ / ٢٣٦ ح ١٥١١٩، وعيون الاخبار: ١ / ١١٠ باب ١١ ح ٣٣، وجامع الاسرار: ٥٥٧.
(٥) تاريخ ابن كثير: ١ / ٤٠ ـ ٣٩، وكنز العمال: ١ / ١٢٦ ح ٥٩٧، والشريعة للآجري: ٧٣ ح ١٦٨ و١٥٠ ح ٣١٦ و٢٦٧ ح ٦٩٣.
(٦) تاريخ ابن كثير: ١ / ٤٠، وعيون اخبار الرضا: ١ / ١١٠ ح ٣٣ باب ١١، وبحار الأنوار: ٢٤ / ٣٧٥، المواهب اللدنية: ١ / ٣٧ ـ ٣٨ المقصد الأول.
(٧) عيون اخبار الرضا: ١ / ١١٠ باب ١١ ح ٣٣.
(٨) بحار الأنوار: ٢٤ / ٣٧٥ ح ١٠٣، وتاريخ ابن كثير: ١ / ٣٩ القول في ابتداء الخلق، وعيون اخبار الرضا: ١ / ١٨٩ باب ٢٤ ح ١، وعوالم العلوم: ٤٠ ح ٤، والأنوار النعمانية: ١ / ١٥٥ و١٣.
(٩) بحار الأنوار: ٢٤ / ٣٧٥ ح ١٠٣.
(١٠) بحار الأنوار: ٣٦ / ٣٤٣ باب نصوص الرسول على الائمة ح ٢٠٩.
(١١) تفسير صدر المتألهين: ٦ / ٨١، وأسرار الشريعة: ١٣١ ـ ٢٣٦، والأنوار النعمانية: ١ / ١٥٥.
(١٢) شرح الكافي: ١ / ٢١٦، وتفسير صدر المتألهين: ٤ / ١٣٤، واسرار الشريعة: ١٢٤، وجامع الاسرار: ١٤٤ ـ ٣٨٠ ح ٧٥٧، والأنوار النعمانية: ١ / ١٣.

....

١٣ ـ أول ما خلق الله الهواء[١].
١٤ ـ أول ما خلق الله القدر[٢].

يشاهد في عدن ضياء مشعشعاً ... يزيد على الأنوار في الضوء والهدى
فقال إلهي ما الضياء الذي أرى ... جنود السما تعشو اليه ترددا
فقال نبي خير من وطىء الثرى ... وأفضل من في الخير راح أو اغتدى
تخيرته من قبل خلقك سيدا ... وألبسته قبل النبيين سؤددا[٣].
سكن الفؤاد فعش هنيئا يا جسد ... هذا النعيم هو المقيم الى الابد
روح الوجود حياة من هو واجد ... لولاه ماتم الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم اعين هو نورها لما ورد
لو ابصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمرود نور جماله ... عبدالجليل مع الخليل ولا عند
لكن جمال الله جل فلا يرى ... الا بتخصيص من الله الصمد[٤]
طأطأ كل الأنبياء لطاها ... ذلك عِزٌّ عَزَّ أن يضاهي
تقبلت تربة آدم الصفي ... بيمنه اكرم به من خلف
وسجدة الاملاك لا لغرته ... بل نور ياسين بدا في غرته
به نجى نوح من الطوفان ... بمرسلات اللطف والاحسان[٥].

والصحيح ان أول ما خلق الله محمداً فآل بيته الاطهار.
والدليل الروايات المستفيضة والاقوال:
قال رسول الله ﷺ:
«يا عمر بن الخطاب اتدري من أنا ؟! أنا الذي خلق الله أول كل شيء نوري، فسجد له فبقي في سجوده سبعمائة عام، فاول كل شيء سجد له نوري ولا فخر . يا عمر اتدري من انا ؟ أنا الذي خلق الله العرش من نوري والكرسي من نوري واللوح والقلم من نوري، والشمس والقمر من نوري، ونور الابصار من نوري والعقل الذي في رؤوس الخلائق من نوري، ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نوري ولا فخر»[٦].
وفي حديث مستفيض: كنت أول الأنبياء [الناس] في الخلق وآخرهم في البعث»[٧]. وحديث: «كنت أو

(١) بحار الأنوار: ٢٤ / ١٧٥، والأنوار النعمانية: ١ / ١٥٥ و ١٣.
(٢) الأنوار النعمانية: ١ / ١٣.
(٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: ١ / ٣٦ تشريف الله للنبي من المقصد الأول.
(٤) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: ١ / ٤٤.
(٥) الانوار القدسية: ٢٠.
(٦) شرح الشمائل المحمدية: ١ / ٤٩، ولوامع انوار الكوكب الدري: ١ / ١٣.
(٧) كنز العمال: ١١ / ٤٥٢ ح ٣٢١٢٦، والجامع الصغير: ٢ / ١٦٢، والطبقات الكبرى: ١ / ١١٩،

....

جعلت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[١]. وحديث: «اني عبد الله وخاتم النبيين وآدم لمنجدل في طينته»[٢].
وقال أمير المؤمنين علي ﷺ: «كنت وليا وآدم بين الماء والطين»[٣]. وقال ﷺ: «انا الأول انا الاخر»[٤].
وقال ﷺ: «أول ما خلق الله نوري»[٥]. وقال ﷺ: «أول ما خلق الله نوري، ثم عصره فخلق منه أرواح الأنبياء، ثم عصره عصرة اخرى فخلق منه الشمس والقمر وسائر النجوم»[٦]. وقال أمير المؤمنين ﷺ: «جل مقام آل محمد عن وصف الواصفين ونعت الناعتين، وانى يقاس بهم احد من العالمين وكيف وهم النور الأول ...»[٧].

واخرج سبط ابن الجوزي بسنده الى أمير المؤمنين ﷺ انه قال بعد حمد الله: «لما اراد الله ان ينشىء المخلوقات ويبدع الموجودات أقام الخلائق في صورة قبل دحو الأرض ورفع السموات، ثم أفاض نوراً من نور عزه فلمع قبساً من ضيائه وسطع.

ثم اجتمع في تلك الصورة وفيها هيئة نبينا ﷺ فقال له تعالى: انت المختار وعندك مستودع الأنوار وأنت المصطفى المنتخب الرضاء المنتجب المرتضى، من أجلك أضع البطحاء وارفع السماء وأجري الماء واجعل الثواب والعقاب والجنة والنار، وانصب أهل بيتك علماً للهداية، وأودع اسرارهم من سريّ بحيث لا يشكل عليهم دقيق، ولا يغيب عنهم خفي، واجعلهم حجتي على بريتي والمنبهين على قدري والمطلعين على اسرار خزائني.

ثم اخذ الحق سبحانه عليهم الشهادة بالربوبية والإقرار بالوحدانية وان الإمامة فيهم والنور معهم، ثم ان الله اخفى الخليقة في غيبه وغيبها في مكنون علمه ونصب العوالم ومرج الماء وأثار الزبد وأهاج الدخان فطفا عرشه على الماء، ثم انشأ الملائكة من انوار ابتدعها وانواع اخترعها، ثم خلق الله الأرض وما فيها.

ثم قرن بتوحيده نبوة نبيه محمد وصفيه، فشهدت السموات والأرض والملائكة والعرش والكرسي والشمس والقمر والنجوم وما في الأرض له بالنبوة، فلما خلق آدم أبان للملائكة فضله وأراهم ما خصّه به من سابق

والفردوس بمأثور الخطاب: ٣ / ٢٨٢ ح ٤٨٥٠، والوفا باحوال المصطفى: ٣٦١، وينابيع المودة: ١ / ٢٢٠ و١٨، والخصائص الكبرى: ١ / ٣ الباب الأول.

(١) مجمع الزوائد: ٨ / ٤٠٩ ح ١٣٨٤٥ ومابعده باب قدم نبوته، ومسند احمد: ٤ / ١٢٧ ـ ٦٦ و٥ / ٥٩ . ٣٧٩، والفردوس بمأثور الخطاب: ٣ / ٢٨٤ ح ٤٨٥٤، والاجوبة الغزالية: ١٢٧، والشريعة: ٤١٦، والمعجم الكبير للطبراني: ١٨ / ٢٥٢ و٢٠ / ٣٥٣، والوفا: ٢٩ ح ١١، والشفا: ١ / ١٧١ باب ٣، والطبقات: ١ / ١١٨ و٧ / ٤٢، والاستيعاب: ٣ / ٥١٨.

(٢) تاريخ الذهبي: ١ / ٤٢، وكنزالعمال: ١١ / ٤١٨ ح ٤١٩٦٠، والمعجم الكبير: ١٨ / ٢٥٢، وشعب الايمان: ٢ / ١٣٤.

(٣) جامع الاسرار: ٣٨٢ ـ ٤٦٠ ح ٧٦٣ ـ ٩٢٧، والانسان الكامل: ٧٧، والمراقبات: ٢٥٩.

(٤) جامع الاسرار: ٢٠٥ ح ٣٩٤.

(٥) نظم المتناثر: ١٨٥ ح ١٩٤، واخبار الدول: ٤، ورسالة المشاعر: ٣١٧، وينابيع المودة: ١ / ١٠ الباب الأول، وبحار الأنوار: ١٥ / ٢٤ و٢٥ / ٢٢ و١ / ٩٧، وغوالى اللآلي للاحسائي: ٤ / ٩٩ ح ١٤٠، وشرح دعاء الجوشن: ٥٤٨، وعوالم العلوم: ٤٠ ح ١.

(٦) مشارق انوار اليقين: ٢١٧. (٧) مشارق انوار اليقين: ١١٦.

....

العلم، فجعله محراباً وقبلةً لهم فسجدوا له وعرفوا حقه.

ثم بين لآدم حقيقة ذلك النور ومكنون ذلك السر، فلما حانت ايامه أودعه شيئاً، ولم يزل ينتقل من الأصلاب الناظرة الى الارحام الطاهرة الى أن وصل الى عبد المطلب ثم الى عبد الله، ثم الى نبيه ﷺ فدعا الناس ظاهراً وباطناً وندبهم سراً وعلانية واستدعى الفهوم الى القيام بحقوق ذلك السر اللطيف وندب العقول الى الإجابة لذلك المعنى المودع في الذر قبل النسل، فمن وافقه قبس من لمحات ذلك النور واهتدى الى السر وانتهى الى العهد المودع في باطن الأمر وغامض العلم، ومن غمرته الغفله وشغلته المحنة استحق البعد. ثم لم يزل ذلك النور ينتقل فينا ويتشعشع في غرايزنا، فنحن انوار السموات والأرض وسفن النجاة، وفينا مكنون العلم وإلينا مصير الأمور وبمهدينا تقطع الحجج، فهو خاتم الائمة ومنقذ الأمة ومنتهى النور وغامض السر، فليهن من استمسك بعروتنا وحشر على محبتنا»[1].

أقول: اخرجه الصفوري مختصراً[2]. وعن رسول الله ﷺ: «ما خلق الله خلقاً أفضل مني ولا اكرم عليه مني ... والفضل بعدي لك يا علي وللائمة من بعدك ... يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء، ولا الجنة ولا النار، ولا السماء ولا الأرض، وكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم الى التوحيد ومعرفة ربنا عز وجل، وتسبيحه وتقديسه وتهليله، لان أول ما خلق الله عز وجل أرواحنا فأنطقنا بتوحيده وتمجيده، ثم خلق الملائكة، فلما شهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمورنا، فسبحنا لتعلم الملائكة أنا خلق مخلوقين، وأنّه منزه عن صفاتنا فسبحت الملائكة لتسبيحنا»[3]. وعنه ﷺ: «ان الله خلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين قبل ان يخلق آدم ﷺ حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا ظلمة ولا نور، ولا شمس ولا قمر ولا جنة ولا نار». فقال العباس: كيف كان بدء خلقكم يا رسول الله ؟

فقال: «يا عم لما أراد الله ان يخلقنا تكلم بكلمة خلق منها نوراً، ثم تكلم بكلمة اخرى فخلق منها روحاً، ثم مزج النور بالروح، فخلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين، فكنا نسبحه حين لا تسبيح، ونقدسه حين لا تقديس، فلما اراد الله تعالى ان ينشيء خلقه فتق نوري فخلق منه العرش، فالعرش من نوري، ونوري من نور الله، ونوري أفضل من العرش.

ثم فتق نور أخي علي فخلق منه الملائكة، فالملائكة من نور علي ونور علي من نور الله وعلي أفضل من الملائكة. ثم فتق نور ابنتي فخلق منه السموات والأرض، فالسموات والأرض من نور ابنتي فاطمة، ونور ابنتي فاطمة من نور الله، وابنتي فاطمة أفضل من السموات والأرض.

ثم فتق نور ولدي الحسن فخلق منه الشمس والقمر فالشمس والقمر من نور ولدي الحسن ونور الحسن من نور الله، والحسن أفضل من الشمس والقمر.

ثم فتق نور ولدي الحسين فخلق منه الجنة والحور العين، فالجنة والحور العين من نور ولدي الحسين، ونور ولدي الحسين من نور الله، وولدي الحسين أفضل من الجنة والحور العين[4].

---

(١) تذكرة الخواص: ١٢١ ـ ١٢٢ الباب السادس ـ المختار من كلام علي ـ خطبة في مدح النبي والائمة.

(٢) نزهة المجالس: ٢ / ٩٦ مولد النبي (صلى الله عليه وآله).

(٣) كمال الدين: ١ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥ باب نص الله على القائم ح ٤، وينابيع المودة: ٢ / ٥٨٢ الباب ٩٣ ط. النجف و٤٨٥ ط ـ اسلامبول، وعيون اخبار الرضا: ١ / ٢٠٥ باب ٢٦ ح ٢٢.

(٤) بحار الأنوار: ١٥ / ١٠ ـ ١١ باب بدء خلق النبي ح ١١.

....

الى ان قال: «فتكلم الله بكلمة فخلق منها روحاً ... ثم نوراً فأزهرت المشارق والمغارب فهي فاطمة»(١).

وعن الإمام علي ﷺ: «ألا إني عبد الله وأخو رسوله وصديقه الأول قد صدقته وآدم بين الروح والجسد، ثم إني صديقه الأول في امتكم حقاً، فنحن الاولون ونحن الاخرون»(٢).

وعن أبي جعفر ﷺ قال: «يا جابر كان الله ولا شيء غيره، لا معلوم ولا مجهول، فأول ما ابتدأ من خلقه أن خلق محمداً ﷺ وخلقنا أهل البيت معه من نور عظمته، فأوقفنا اظلةً خضراء بين يديه حيث لا سماء ولا ارض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس و لا قمر»(٣).

وعن جابر قال: قلت لرسول الله ﷺ: أول شيء خلق الله تعالى ما هو ؟

فقال ﷺ: «نور نبيك يا جابر، فخلقه الله، ثم خلق منه كل خير»(٤).

* أقول: هذا ما رواه المجلسي في بحاره مختصراً، ورواه القسطلاني مفصلاً عن عبد الرزاق مع تفاوت عما يأتي في «**الينابيع**»(٥).

ورواه النبهاني عنه في «**الأنوار المحمدية**»(٦).

ووجدت الحديث بطوله في كتاب «**ينابيع المودة**» ينقله عن كتابي: **(ابكار الافكار)** لابن الصلاح، و**(شرح الكبريت الاحمر)** للشيخ عبد القادر عن الشيخ علاء الدولة السمناني والحديث هو:

قال جابر الانصاري: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى.

قال ﷺ: «هو نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق فيه كل خير وخلق بعده كل شيء، وحين خلقه اقامه في مقامه في مقام القرب اثني عشر الف سنة، ثم جعله أربعة أقسام، فخلق العرش من قسم والكرسي من قسم وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم.

وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثنى عشر الف سنة، ثم جعله اربعة اقسام فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم واقام الرابع في مقام الخوف اثنى عشر الف سنة، ثم جعله اربعة اجزاء فخلق الملائكة من جزء والشمس من جزء والقمر والكواكب من جزء ؛ واقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثنى عشر الف سنة، ثم جعله اربعة اجزاء، فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء، واقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثنى عشر الف سنة.

ثم نظر الله اليه فترشح ذلك النور عرقاً قطرت منه مائة الف وعشرون الفا واربعة آلاف قطرة من النور، فخلق الله سبحانه من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم أرواح الأولياء والشهداء والسعداء والمطيعين الى يوم القيامة.

فالعرش والكرسي وحملة العرش وخزنة الكرسي من نوري . والقلم والكروبيون والروحانيون من الملائكة، والجنة وما فيها من النعيم من نوري . وملائكة السموات السبع والشمس والقمر والكواكب من نوري . والعقل والعلم والحلم والعصمة والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، وأرواح الأولياء

---

(١) الأنوار النعمانية: ١ / ١٧ . ١٨ مع تفاوت عما في بحار الأنوار ليس بيسير رواه عن ابن مسعود.
(٢) بحار الأنوار: ١٥ / ١٥ ح ١٩.
(٣) بحار الأنوار: ١٥ / ٢٣ ح ٤١.
(٤) بحار الأنوار: ١٥ / ٢٤ ح ٤٣.
(٥) المواهب اللدنية: ١ / ٣٦ . المقصد الأول في تشريف الله له (عليه السلام) سبق نبوته في سابق ازليته.
(٦) الأنوار المحمدية: ١٣.

....

والشهداء والسعداء والصالحين من نتائج نوري»[١].

وعن الإمام الصادق ﷺ: «ان الله كان اذ لا كان، فخلق الكان والمكان وخلق نور الأنوار الذي نوّرت منه الأنوار، واجرى فيه من نوره الذي نوّرت منه الأنوار، وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً، فلم يزالا نورين أولين اذ لا شيء كون قبلهما»[٢].

وعن أمير المؤمنين ﷺ قال: «كان الله ولا شيء معه، فأول ما خلق نور حبيبه محمد ﷺ قبل خلق الماء والعرش والكرسي والسماوات والأرض واللوح والقلم والجنة والنار والملائكة وآدم وحواء»[٣].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه أصل المخلوقات كلها وابو الروحانية، وآدم ابو الجسمانيات[٤].

واخرج الإمام احمد في الفضائل: «كنت انا وعلي نوراً بين يدي الله قبل ان يخلق آدم بأربعة عشر الف عام»[٥].

وقال سالم: شهدت علي بن الحسين ﷺ يقول: «انا أول ما خلق الله وآخر من يهلكها»[٦].

* أقول: ذكر المجلسي في «بحاره» والجزائري في «الأنوار» وغيرهما عدة روايات أخرى في انهم أول الخلق اقتصرنا على ما يكفي لاقناع الناصبي فضلاً عن غيره[٧].

قال رسول الله ﷺ: «انا من الله والكل مني»[٨].

قال الحافظ البرسي: والى هذا المعنى أشار بقوله ﷺ: «أول ما خلق الله نوري، ثم فتق منه نور علي، فلم نزل نتردد في النور حتى وصلنا الى حجب العظمة في ثمانين الف سنة، ثم خلق الخلايق من نورنا، فنحن صنايع الله والخلق من بعد صنايع لنا، أي مصنوعين لأجلنا».

وقال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله نوري ابتدعه من نوره واشتقه من جلال عظمته فاقبل يطوف بالقدرة حتى وصل الى جلال العظمة في ثمانين الف سنة، ثم سجد لله تعظيماً ففتق منه نور علي، فكان نوري محيطاً بالعظمة، ونور علي محيطاً بالقدرة. ثم خلق العرش، واللوح، والشمس، والقمر، والنجوم، وضوء النهار، وضوء الابصار، والعقل والمعرفة، وأبصار العباد، وأسماعهم وقلوبهم من نوري، ونوري مشتق من نوره، فنحن الأولون ونحن الآخرون، ونحن السابقون ونحن الشافعون، ونحن كلمة الله ونحن خاصة الله، ونحن أحباء الله ونحن وجه الله، ونحن أمناء الله ونحن خزنة وحي الله وسدنة غيب الله، ونحن معدن التنزيل وعندنا معنى التأويل، وفي أبياتنا هبط جبرائيل. ونحن مختلف أمر الله، ونحن منتهى غيب الله، ونحن محال قدس الله، ونحن مصابيح الحكمة ومفاتيح الرحمة وينابيع النعمة، ونحن شرف الامة وسادة الأئمة، ونحن الولاة والهداة والدعاة والسقاة والحماة، وحبنا طريق النجاة وعين الحياة، ونحن السبيل

---

(١) ينابيع المودة: ١ / ١٥ ـ ١٦ ط ـ النجف و ١٤ ط ـ اسلامبول الباب الثاني في شرف اباء النبي ﷺ.
(٢) بحار الأنوار: ١٥ / ٢٤ ح ٤٦. (٣) بحار الأنوار: ١٥ / ٢٧ ـ ٢٨ ح ٤٨.
(٤) الروض الفائق: ١٧٠ مجلس ٤٣، واليواقيت والجواهر: ٢ / ١٨ مبحث ٣٢، وينابيع المودة: ١ / ١٠.
(٥) فضائل الصحابة: ٢ / ٦٦٣ ح ١١٣٠.
(٦) دلائل الامامة: ٨٥ ترجمة علي بن الحسين وامامته.
(٧) بحار الأنوار: ١٥ / ٢ الى ٥٠ ح ٢ الى ٤٨ باب بدء خلق النبي من كتاب تاريخ نبينا (صلى الله عليه وآله)، وارشاد القلوب: ٢ / ٤٠٤ ـ ٤٠٥ و٤١٥ ـ ٤١٦ ـ ٤٢١، والأنوار النعمانية: ١٤ ـ ١٥ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٢٢.
(٨) مشارق انوار اليقين: ٢٩.

....

والسلسبيل والمنهج القويم والصراط المستقيم، من آمن بنا آمن بالله، ومن رد علينا رد على الله، ومن شك فينا شك في الله، ومن عرفنا عرف الله، ومن تولى عنا تولى عن الله، ومن تَبعنا أطاع الله.
ونحن الوسيلة الى الله، والوصلة الى رضوان الله، ولنا العصمة والخلافة والهداية، وفينا النبوة والامامة والولاية، ونحن معدن الحكمة وباب الرحمة، ونحن كلمة التقوى والمثل الاعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى، التي من تمسك بها نجا»[1].
وعن محمد بن سنان عن ابن عباس قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل علي ابن أبي طالب عليه السلام فقال له النبي ﷺ: «مرحباً بمَن خلقه الله قبل أبيه آدم بأربعين ألف سنة».
قال: فقلنا يا رسول الله أكان الابن قبل الاب ؟
فقال: نعم ان الله خلقني وعلياً من نور واحد قبل خلق آدم بهذه المدة، ثم قسمه نصفين، ثم خلق الاشياء من نوري ونور علي، ثم جعلنا عن يمين العرش فسبحنا فسبحت الملائكة، وهللنا فهللوا وكبرنا فكبروا، فكل من سبح الله وكبره فان ذلك من تعليمي وتعليم علي»[2].
ومن ذلك ما رواه محمد بن علي بن بابويه مرفوعاً الى عبد الله ين المبارك عن سفيان الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أميرالمؤمنين (عليهم السلام) انه قال: «ان الله خلق نور محمد قبل خلق المخلوقات كلها بأربعمائة ألف سنة وأربعة وعشرين ألف سنة، خلق منه اثني عشر حجاباً»[3].
قال الحافظ: والمراد بالحجب الأئمة، فهم الكلمة التي تكلم الله بها، ثم ابدى منها سائر الكلم، والنعمة التي أفاضها وأفاض منها سائر النعم، والامة التي أخرجها وأخرج منها سائر الأمم، ولسانه المعبر عنه ويده المبسوطة بالفضل والكرم وقوامه على عباده بالحكم والحكم»[4].
وعن أبي حمزة الثمالي قال: دخلت حبابة الوالبية على أبي جعفر عليه السلام فقالت: أخبرني اي شيء كنتم في الاظلة ؟ قال عليه السلام: «كنا نوراً بين يدى الله قبل خلقه الخلق، فلما خلق الخلق سبحنا فسبحوا، وهللنا فهللوا وكبرنا فكبروا»[5].
وقال رسول الله ﷺ كما أخرجه الخوارزمي واحمد بسند صحيح: «خلق الله تعالى روحي وروح علي بن أبي طالب قبل ان يخلق آدم بألفي ألف عام»[6].
وعن سلمان الفارسي: قال رسول الله ﷺ: «يا سلمان خلقني الله من صفوة نوره ودعاني فأطعته، وخلق من نوري نور علي عليه السلام فدعاه الى طاعته فأطاعه، وخلق من نوري ونور علي فاطمة (عليها السلام) فدعاها فأطاعته، وخلق مني ومن علي وفاطمة الحسن والحسين فدعاهما فأطاعاه، فسمانا الله بخمسة اسماء من اسمائه. فالله المحمود وانا محمد، والله العلي وهذا علي، والله فاطر وهذه فاطمة، والله الاحسان وهذا الحسن، والله المحسن وهذا الحسين، ثم خلق منا ومن نور الحسين عليه السلام تسعة ائمة فدعاهم فأطاعوا قبل ان يخلق الله سماءً مبنية أو ارضاً مدحية أو هواءً أو ماء أو ملكاً أو بشراً، وكنا بعلمه انواراً نسبحه ونسمع له ونطيع»[7].

---

(١) مشارق أنوار اليقين: ٣٩ ـ ٤٠.
(٢) مشارق أنوار اليقين: ٣٩.
(٣) مشارق أنوار اليقين: ٣٩ ـ ٤٠.
(٤) مشارق انوار اليقين: ٣٩ ـ ٤٠.
(٥) مشارق انوار اليقين: ٣٩ ـ ٤٠.
(٦) اسرار الشريعة: ١٠١.
(٧) الزام الناصب: ٢ / ٣٣٢ ـ ٣٣ الفرع الثاني الآيات المشعرة بالرجعة عن المقتضب وتفسير البرهان.

المجلسي (قده)، والظاهر أنّه أخذه من خبر، ولكنّه لا تكافؤ الأخبار الكثيرة المسندة، ومع صحّته يمكن الجمع بحمل أوّليّة الماء على التّقدم الإضافي بالنّسبة إلى الأجسام المشاهدة المحسوسة التي يدركها جميع الخلق، فإذا الهواء ليس منها، ولذا أنكر وجوده جماعة[1].

وقيل: أول المخلوقات النّار، وفي بعض الأخبار أنّ أول ما خلق الله النّور[2] كما في (العيون) و(العلل) في خبر الشّامي عن الرّضا عليه السلام أنه سأل رجل من أهل الشّام أمير المؤمنين عليه السلام عن مسائل، فكان فيما سأله أن سأله عن أوّل ما خلق الله قال عليه السلام: «خلق النّور»، الحديث.

وفي بعضها نور النبي ﷺ، وفي بعضها نوره مع أنوار الأئمة عليهم السّلام كما في رواية جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوّل ما خلق الله نوري، ففتق منه نور علي عليه السلام ثم خلق العرش واللوح والشّمس وضوء النّهار ونور الأبصار والعقل والمعرفة الخبر»[3].

وفي بعض الأخبار العاميّة أوّل ما خلق الله روحي، وفي بعضها أيضاً أوّل ما خلق الله العقل، وفي بعضها أوّل ما خلق الله القلم[4].

أقول: ويمكن الجمع بينها، بأن تكون أوّلية الماء بالنّسبة إلى العناصر والأفلاك، وأوّلية القلم بالنّسبة إلى جنسه من الملائكة، وبأوّليّة نور النبي ﷺ وروحه الأوليّة الحقيقيّة، بل يمكن أن يقال: إنّ المراد بالعقل والنّور والقلم في تلك الأخبار هو نوره سلام الله عليه.

قال بعض العارفين في شرح الحديث الأوّل من أصول (**الكافي**) وهو ما رواه من أبي جعفر عليه السلام: قال: لمّا خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل ثم قال له: أدبر، فأدبر. الحديث ما لفظه.

إعلموا أيّها الإخوان السّالكون إلى الله بقدم العرفان، أن هذا العقل أوّل المخلوقات وأقرب المجعولات إلى الحقّ الأوّل وأعظمها وأتمّها وثاني الموجودات في الموجوديّة، وإن كان الأول تعالى لا ثاني له في حقيقته، لأنّ وحدته ليست عدديّة من جنس الوحدان، وهو المراد فيما ورد في الأحاديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله في رواية: أوّل ما خلق

---

(١) راجع بحار الأنوار: ٥٤/٣٠٧، فالكلام مأخوذ منه.

(٢) أقول: قد فصلت الكلام حول ذلك في كتاب: آل محمد بين قوسي الصعود والنزول، طبع دار الهادي - بيروت.

(٣) راجع مدينة المعاجز: ٣/٢٢٢، وتأويل الآيات: ١/١٣٨.

(٤) راجع البحار: ٥٤/١٧٠، ومستدرك سفينة البحار: ٢/١٤ و ٧/١٦٣.

الله العقل، وفي رواية أوّل ما خلق الله نوري، وفي رواية أوّل ما خلق الله روحي، وفي رواية أوّل ما خلق الله القلم، وفي رواية أوّل ما خلق الله ملك كروبيّ، وهذه كلها أوصاف ونعوت لشيء واحد باعتبارات مختلفة، فبحسب كلّ صفة يسمّى باسم آخر، فقد كثرت الأسماء والمسمّى واحد ذاتاً ووجوداً، إلى أن قال: وهذا الموجود حقيقته حقيقة الرّوح الأعظم المشار إليه بقوله تعالى:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وإنّما سمّي بالقلم لأنّه واسطة الحقّ في تصوير العلوم والحقائق على الألواح النّفسانية القضائية والقدريّة، ولكونه وجوداً خالصاً عن ظلمة التجسّم والتحجّب، وعن ظلمات النّقائص والإعدام يسمّى نوراً، إذ النّور هو الوجود، والظلمة هي العدم، وهو ظاهر لذاته مظهر لغيره. ولكونه أصل حياة النّفوس العلوية والسّفلية يسمّى روحاً وهو الحقيقة المحمدية عند أعاظم الصّوفيّة ومحقّقيهم، لكونه كمال وجوده الذي منه يبتدأ وإليه يعود، انتهى كلامه ملخّصاً.

فقد تحقّق ممّا ذكره، وما ذكرناه أنّ الصّادر الأوّل هو نور النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد استفاض به الأخبار عن النّبي وأهل البيت عليهم السّلام.

فمنها ما في **(البحار)** عن **(الكافي)** بإسناده عن محمّد بن سنان، قال: كنت عند أبي جعفر الثّاني ﷺ، فأجريت إختلاف الشيعة، فقال: يا محمّد إنّ الله تبارك وتعالى لم يزل متفرّداً بوحدانيّته، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة فمكثوا ألف دهر، ثم خلق جميع الأشياء وأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوّض أمورها إليهم، فهم يحلّون ما يشاؤون، ويحرّمون ما يشاؤون ولن يشاؤوا إلاّ أن يشاء الله تبارك وتعالى، ثمّ قال يا محمّد: هذه الّديانة التي من تقدّمها مرق، ومن تخلّف عنها محق، ومن لزمها لحق، خذها إليك يا محمد[١].

ومنها ما في **(البحار)** أيضاً عن **«مصباح الأنوار»**: بإسناده عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «إنّ الله خلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين قبل أن يخلق آدم، حين لا سماء مبنيّة ولا أرض مدحيّة ولا ظلمة ولا نور ولا شمس ولا قمر ولا جنّة ولا

(١) الكافي: ١/٤٤١ح٥، وحلية الأبرار: ١/١٨.

نار، فقال العبّاس: فكيف كان بدو خلقكم يا رسول الله؟ فقال يا عمّ: لمّا أراد الله خلقنا تكلّم بكلمة خلق منها نوراً، ثم تكلم بكلمة أخرى فخلق منها روحاً، ثم خلط النور بالرّوح فخلقني وخلق عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، فكنا نسبّحه حين لا تسبيح، ونقدّسه حين لا تقديس»

«فلما أراد الله أن ينشأ خلقه فتق نوري فخلق منه العرش، فالعرش من نوري، ونوري من نور الله، ونوري أفضل من نور العرش».

«ثم فتق نور أخي عليّ فخلق منه الملائكة، فالملائكة من نور عليّ، ونور عليّ من نور الله، وعليّ أفضل من الملائكة».

«ثم فتق نور ابنتي فاطمة فخلق منه السّماوات والأرض، فالسّماوات والأرض من نور ابنتي فاطمة، ونور ابنتي فاطمة من نور الله، وابنتي فاطمة أفضل من السّماوات والأرض».

«ثم فتق نور ولدي الحسن، وخلق منه الشّمس والقمر، فالشّمس والقمر من نور ولدي الحسن، ونور الحسن من نور الله، والحسن أفضل من الشّمس والقمر».

«ثم فتق نور ولدي الحسين، فخلق منه الجنّة والحور العين، فالجنّة والحور العين من نور ولدي الحسين، ونور ولدي الحسين من نور الله، وولدي الحسين أفضل من الجنّة والحور العين»[(١)].

ومنها ما فيه أيضاً عن أبي الحسن البكري أستاذ الشّهيد الثّاني طاب ثراه في كتاب «الأنوار» عن أمير المؤمنين ﷺ أنّه قال: «كان الله ولا شيء معه، فأوّل ما خلق الله نور حبيبه محمّد ﷺ قبل خلق الماء والعرش والكرسي والسّماوات والأرض واللوح والقلم والجنّة والنّار والملائكة وآدم وحوّاء بأربعة وعشرين وأربعمائة ألف عام».

فلمّا خلق الله نور نبيّنا محمد ﷺ بقي ألف عام بين يدي الله عز وجل واقفاً يسبحه ويحمده والحقّ تبارك وتعالى ينظر إليه ويقول: يا عبدي أنت المراد والمريد وأنت خيرتي من خلقي وعزّتي وجلالي لولاك ما خلقت الأفلاك، من أحبك أحببته، ومن أبغضك أبغضته، فتلألأ نوره وارتفع شعاعه فخلق الله منه اثنى عشر حجاباً.

أولها حجاب القدرة، ثم حجاب العظمة، ثم حجاب العزة، ثم حجاب الهيبة، ثم حجاب الجبروت، ثم حجاب الرّحمة، ثم حجاب النبوة، ثم حجاب الكبرياء ثم حجاب المنزلة، ثم حجاب الرّفعة، ثم حجاب السّعادة، ثم حجاب الشّفاعة[(٢)].

---

(١) مدينة المعاجز: ٣/ ٢٢٣، والبحار: ١٥/ ١٠ ـ ١١.

(٢) في نسخة: الكرامة.

ثم إنّ الله أمر نور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدخل في حجاب القدرة؛ فدخل وهو يقول: سبحان العليّ الأعلى، وبقي ذلك اثنا عشر ألف عام.

ثم أمره أن يدخل في حجاب العظمة، فدخل وهو يقول سبحان عالم السّر وأخفى، أحد عشر ألف عام.

ثم دخل في حجاب العزّة وهو يقول: «سبحان الملك المنّان عشرة آلاف عام».

ثم دخل في حجاب الهيبة وهو يقول: «سبحان من هو غني لا يفتقر تسعة آلاف عام».

ثم دخل في حجاب الجبروت وهو يقول: «سبحان الكريم الأكرم ثمانية آلاف عام».

ثم دخل في حجاب الرّحمة وهو يقول: «سبحان ربّ العرش العظيم سبعة آلاف عام».

ثم دخل في حجاب النبوّة وهو يقول: «سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون ستّة آلاف عام».

ثم دخل في حجاب الكبرياء وهو يقول: «سبحان العظيم الأعظم خمسة آلاف عام».

ثم دخل في حجاب المنزلة وهو يقول: «سبحان العليم الكريم أربعة آلاف عام».

ثم دخل في حجاب الرّفعة وهو يقول: «سبحان ذي الملك والملكوت ثلاثة آلاف عام».

ثم دخل في حجاب السّعادة وهو يقول: «سبحان من يزيل الأشياء ولا يزال ألفي عام».

ثم دخل في حجاب الشّفاعة وهو يقول: «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ألف عام»[١].

قال الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ: «ثم إنّ الله خلق من نور محمّد صلى الله عليه وآله وسلم عشرين بحراً من نور، في كلّ بحر علوم لا يعلمها إلاّ الله، ثم قال لنور محمد ﷺ: انزل في بحر العزّ، ثم في بحر الخشوع، ثم في بحر التواضع، ثم في بحر الرّضا، ثم في بحر الوفاء، ثم في بحر الحلم، ثم في بحر التّقى، ثم في بحر الخشية، ثم في بحر الإنابة، ثم في بحر العمل، ثم في بحر المزيد، ثم في بحر الهدى، ثم في بحر الصّيام، ثم في بحر الحياء، حتّى تقلب في عشرين بحراً».

---

(١) البحار: ١٥/٢٨، و٥٤/١٩٩ح١٤٥.

فلمّا خرج من تلك الأبحر قال الله: «يا حبيبي ويا سيّد رسلي ويا أوّل مخلوقاتي ويا آخر رسلي أنت الشّفيع يوم المحشر»، فخرَّ النّور ساجداً، فقطرت منه قطرات كان عددها مائة ألف وأربعة وعشرين ألف قطرة، فخلق الله من كلّ قطرة من نوره نبيّاً من الأنبياء.

فلمّا تكاملت الأنوار صارت تطوف حول نور محمد ﷺ كما تطوف الحجاج حول بيت الله الحرام، وهم يسبحون الله ويحمدونه ويقولون: سبحان من هو عالم لا يجهل، سبحان من هو حليم لا يعجل، سبحان من هو غني لا يفتقر.

فناداهم الله تعرفون من أنا؟ فسبق نور محمد ﷺ قبل الأنوار، ونادى أنت الله الذي لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك ربّ الأرباب وملك الملوك، فإذا بالنّداء من قبل الله الحق أنت صفيّي وأنت حبيبي وخير خلقي أُمتك خير أمة أخرجت للنّاس.

ثم خلق من نور محمّد جوهرة وقسّمها قسمين، فنظر إلى القسم الأوّل بعين الهيبة فصار ماءً عذباً، ونظر إلى القسم الثّاني بعين الشفقة فخلق منه العرش فاستوى على وجه الماء، فخلق الكرسي من نور العرش، وخلق من نور الكرسي اللّوح، وخلق من نور اللّوح القلم، وقال له اكتب توحيدي فبقي القلم ألف عام سكران من كلام الله، فلمّا أفاق قال: اكتب قال: يا رب وما أكتب؟ قال: أُكتب لا إله إلا الله محمّد رسول الله فلمّا سمع القلم إسم محمّد ﷺ خرَّ ساجداً وقال: سبحان الواحد القهار سبحان العظيم الأعظم، ثم رفع رأسه من السّجود وكتب لا إله إلا الله محمّد رسول الله ﷺ، ثم قال: يا ربّ ومن محمّد الذي قرنت اسمه باسمك وذكره بذكره؟ قال الله تعالى: يا قلم فلولاه ما خلقتك ولا خلقت خلقي إلاّ لأجله فهو بشير ونذير وسراج منير وشفيع وحبيب، فعند ذلك انشق القلم من حلاوة ذكر محمّد ﷺ وقال القلم: السّلام عليك يا رسول الله، فقال الله تعالى: وعليك السّلام منّي ورحمة الله وبركاته، فلأجل هذا صار السّلام سنّة والرّد فريضة.

ثم قال الله تعالى: أُكتب قضائي وقدري وما أنا خالقه إلى يوم القيامة، ثم خلق الله ملائكة يصلّون على محمّد وآل محمّد ويستغفرون لأمّته إلى يوم القيامة، ثم خلق الله من نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم الجنّة وزيّنها بأربعة أشياء: التعظيم، والجلالة، والسّخاء، والأمانة، وجعلها لأوليائه وأهل طاعته.

ثم نظر إلى باقي الجوهرة بعين الهيبة، فذابت فخلق من دخانها السّماوات، ومن زبدها الأرضين، فلمّا خلق الله تعالى الأرض صارت تموج بأهلها كالسّفينة فخلق الله الجبال فأرساها بها.

ثم خلق ملكاً من أعظم ما يكون في القوّة، فدخل تحت الأرض، ثم لم يكن لقدمي

الملك قرار، فخلق الله تعالى صخرة عظيمة وجعلها تحت قدمي الملك، ثم لم يكن للصخرة قرار، فخلق لها ثوراً عظيماً لم يقدر أحد أن ينظر إليه لعظم خلقته وبريق عيونه، حتّى لو وضعت البحار كلّها في إحدى منخريه ما كانت إلاّ كخردلة ملقاة في أرض فلاة، فدخل الثور تحت الصّخرة وحملها على ظهره وقرونه واسم ذلك الثور (**لهوتا**)، ثم لم يكن لذلك الثور قرار، فخلق الله حوتا عظيماً واسم ذلك الحوت (**بهموت**)، فدخل الحوت تحت قدمي الثّور فاستقرّ الثّور على ظهر الحوت.

فالأرض كلّها على ظهر الملك، والملك على الصّخرة، والصّخرة على الثّور، والثّور على الحوت، والحوت على الماء، والماء على الهواء، والهواء على الظلمة، ثم انقطع علم الخلائق عمّا تحت الظلمة.

ثم خلق الله تعالى العرش من ضيائين: أحدهما الفضل، والثّاني العدل، ثم أمر الضّيائين فانتفسا بنفسين، فخلق منهما أربعة أشياء: العقل، والحلم والعلم، والسّخاء.

ثم خلق من العقل الخوف، وخلق من العلم الرّضا، ومن الحلم المودّة، ومن السّخاء المحبّة، ثم عجن هذه الأشياء في طينة محمد ﷺ، ثم خلق من بعدهم أرواح المؤمنين من أمّة محمّد ﷺ، ثم خلق الشّمس والقمر والنّجوم واللّيل والنّهار والضّياء والظلام وسائر الملائكة من نور محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

فلمّا تكاملت الأنوار سكن نور محمّد تحت العرش ثلاثة وسبعين ألف عام، ثم انتقل نوره إلى الجنّة فبقي سبعين ألف عام، ثم انتقل إلى سدرة المنتهى فبقي سبعين ألف عام، ثم انتقل نوره إلى السّماء السّابعة، ثم إلى السّماء السادسة، ثم إلى السّماء الخامسة، ثم إلى السّماء الرّابعة، ثم إلى السّماء الثّالثة، ثم إلى السّماء الثّانية، ثم إلى السّماء الدّنيا، فبقي نوره في السّماء الدّنيا إلى أن أراد الله أن يخلق آدم، الحديث[١].

أقول: دلالة هذا الحديث على كون نور النّبي ﷺ أوّل المخلوقات ظاهرة، وأمّا الفقرات الباقية فأكثرها من قبيل المتشابهات، واللاّزم ردّ علم ذلك إلى الأئمة عليهم السّلام.

ومنها ما رواه أيضاً من رياض الجنان بإسناده إلى جابر الجعفي عن أبي جعفر ﵇، قال: قال لي يا جابر: «كان الله ولا شيء غيره، ولا معلوم ولا مجهول، فأوّل ما ابتدأ من خلق خلقه أن خلق محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم، وخلقنا أهل البيت معه من نور عظمته، فأوقفنا أظلّة خضراء بين يديه حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس

---

(١) بطوله في البحار: ١٥/٢٦ ـ ٣١ح٤٨، والحديث له تتمة في البحار.

ولا قمر، يفصل نورنا من نور ربّنا كشعاع الشّمس من الشّمس، نسبّح الله ونقدّسه ونحمده ونعبده حق عبادته».

«ثم بدأ الله بخلق المكان، لخلقه وكتب على المكان: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله، علي أمير المؤمنين ووصيّه، به أيّدته ونصرته، ثم خلق الله العرش، فكتب على سرادقات العرش مثل ذلك، ثم خلق الله السّماوات، فكتب على أطرافها مثل ذلك، ثم خلق الله الجنّة والنّار فكتب عليهما مثل ذلك.

ثم خلق الملائكة وأسكنهم السّماء، ثم خلق الهواء فكتب عليه مثل ذلك ثم خلق الجن وأسكنهم الهواء، ثم خلق الأرض فكتب على أطرافها مثل ذلك، فبذلك يا جابر قامت السّماوات بغير عمد، وثبتت الأرض».

ثم خلق الله آدم من أديم الأرض.... إلى أن قال ﷺ: «فنحن أوّل خلق الله وأوّل خلق عبد الله وسبّحه، ونحن سبب الخلق وسبب تسبيحهم وعبادتهم من الملائكة والآدميّين»[1].

ومنها ما فيه عنه أيضاً عن جابر بن عبد الله، قال: قلت لرسول الله ﷺ: أوّل شيء خلق الله ما هو؟ "فقال نور نبيّك يا جابر، خلقه الله، ثم خلق منه كلّ خير»، الحديث[2].

إلى غير ذلك من الأخبار ممّا يطلع عليها المتتبّع المجدّ ويأتي بعضها في تضاعيف الكتاب عند شرح بعض الخطب المناسبة لذلك، والله الموفق.

الثاني

أنّه لم يذكر ﷺ كيفية خلقة الأرض ولم يعلم أن خلقها هل هو قبل السّماء أو بعدها، ولعلّ عدم ذكره ﷺ له نظراً إلى أنّ مقصوده ﷺ إظهار عظمته سبحانه وبيان رشحات قدرته وكماله.

ولما كان أمر عالم الأمر والملكوت أظهر في الدّلالة على ذلك المقصود وأوفى بالنّسبة إلى عالم العناصر والنّاسوت، خصّصها بالذّكر لذلك وإن كان في عالم العنصر والشّهادة أيضاً في نفسه من شواهد الرّبوبيّة وأدلة القدرة ما لا يحيط بها حدّ ولا يضبطها عدّ، بل في جزئي من جزئيات ذلك العالم من الأسرار الإلهيّة ما يعجز عنه إدراك القوى البشريّة قال سبحانه:

---

(١) حلية الأبرار: ١/ ١٦، ومدينة المعاجز: ٢/ ٣٧٤.

(٢) البحار: ١٥/ ٢٤، وسنن النبي ﷺ: ٤٠٠، ومجمع النورين: ٢٤.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويأتي الإشارة إلى بعض آيات القدرة وآثار التّدبير في الحكمة في عالم العناصر من الأرض وغيرها في شرح خطبة الأشباح، وهي الخطبة التّسعون.

وكيف كان فيشهد بما ذكرنا من عظم ملكوت السّماوات وكونها من أعظم الآيات أنّ الأرض والبحار والجبال وكلّ جسم من عالم الشّهادة بالإضافة إلى السّماوات كقطرة في بحر، لا بحسب الكمية والمساحة فقط، بل بحسب الكيفيّة أيضاً، أعني شرافة الوجود وقوّة الفعليّة كما بحسب الكميّة على النّسبة المذكورة.

ولذلك ذكر الإمام عليه السلام أمر السّماوات في كثير من كلماته الآتية، وعظم الله أمرها وأمر النّجوم في الآيات القرآنية، فكم من آية ذكرها الله فيها، بل قيل: ما من سورة من الطوال وأكثر القصار إلاّ ويشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم أقسم الله بها في القرآن كقوله:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ ـ ٣].

وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٢] وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٦] وقوله﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦].

فكيف ظنك بما أقسم الله به وأحال الأرزاق إليها، فقال:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

وأثنى على المتفكرين فيه فقال:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأمر بالنّظر إليه والتفكر فيه في كثير من الآيات، وذمّ المعرضين عنه، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فأيّ نسبة لجميع البحار والأرض والهواء إلى السّماء، وهذه متغيّرات على القرب وهي صلاب شداد محفوظات إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سمّاها الله تعالى محفوظاً، وقال:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقال: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] وقال أيضاً: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧].

ثم إنّ الله زيّنها بمصابيح:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] وبالقمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وبالشمس ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ وبالعرش ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، وبالكرسي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وباللّوح ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وبالقلم ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ وبالقضاء ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ وبالقدر ﴿وَقَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ وبالوحي والأمر ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] وبالحكمة حيث ذكر أنّ خلقها مشتمل على غايات صحيحة وأغراض عظيمة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [نوح: ١٦].

وجعلها أيضاً مصعد الأعمال، ومهبط الأنوار، وقبلة الدّعاء، ومحل الضّياء والسّناء، وجعل ألوانها أحسن الألوان، وهو المستنير، وأشكالها أحسن الأشكال وهو المستدير، ونجومها رجوماً للشّياطين، وعلامات يهتدي في ظلمات البرّ والبحر.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقيّض للشّمس طلوعها، فسهّل معه التّقلب بقضاء الأوطار في الأقطار، وغروباً يصلح معه الهدوّ والقرار في الأكناف لتحصيل الرّاحة وانبعاث القوّة وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.

وأيضاً لولا طلوع الشّمس لانجمدت المياه، وغلبت البرودة والكثافة، فأورثت جمود الحرارة الغريزية، ولولا الغروب لحميت الأرض حتّى تحترق كلّ من عليها من إنسان وحيوان، فهي بمنزلة سراج واحد يوضع لأهل كلّ بيت بمقدار حاجتهم، ثم يرتفع عنهم ليستقرّوا ويستريحوا، فصار النّور والظلمة على تضادّهما متظاهرين على ما فيه صلاح قطان الأرض.

وأمّا ارتفاع الشّمس وانحطاطها، فقد جعله الله سبباً لإقامة الفصول الأربعة.

وأمّا القمر فهو تلو الشّمس وخليفتها، وبه يعلم عدد السّنين والحساب، ويضبط المواقيت الشّرعيّة، ومنه يحصل النّماء والرّواء، وقد جعل الله في طلوعه وغروبه مصلحة، وكذا في تشكلاته المختلفة سائر أحواله من الإستقامة والسّرعة والبطوء كما فصّل في محلّه.

وكيف كان فالمقصود الأصلي في المقام بيان كيفيّة خلقة الأرض، وأنّها ممّ خلقت،

وأنّ إيجادها هل هو قبل السّماء أو بعدها.

أمّا الأوّل: فالمستفاد من الأخبار أن أصلها زبد الماء الذي خلقه الله في الهواء، وهو الزّبد الذي أشار إليه الإمام ﷺ بقوله: فرمى بالزّبد ركامه، والأخبار في هذا المعنى كثيرة قريبة من التّواتر ويأتي جملة منها في ذيل المقام.

ويشهد به أيضاً ما عن تفسير الإمام ﷺ قال: قال أمير المؤمنين ﷺ: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

«إنّ الله عزّ وجلّ لمّا خلق الماء فجعل عرشه عليه قبل أن يخلق السّماوات والأرض" وذلك قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

يعني وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السّماوات والأرض، فارسل (الله) الرّياح على الماء فبخر[١] الماء من أمواجه، فارتفع عنه الدّخان وعلا فوق الزّبد، فخلق من دخانه السّماوات السّبع، فخلق من زبده الأرضين السّبع، فبسط الأرض على الماء وجعل الماء على الصّفاء، والصّفاء على الحوت، والحوت على الثور، والثور على الصخرة التي ذكرها لقمان لابنه، فقال:

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦].

والصّخرة على الثّرى، ولا يعلم ما تحت الثّرى إلا الله.

فلمّا خلق الله الأرض دحاها من تحت الكعبة، ثم بسطها على الماء، فأحاطت بكلّ شيء.

ففخرت الأرض، وقالت: أحطت بكلّ شيء فمن يغلبني؟ وكان في كلّ أذن من آذان الحوت سلسلة من ذهب مقرونة الطرف بالعرش، فأمر الله الحوت فتحركت، فتكفأت الأرض بأهلها كما تكفىء السّفينة على الماء قد اشتدّت أمواجه، ولم تستطع الأرض الامتناع.

ففخرت الحوت وقالت: غلبت الأرض التي أحاطت بكلّ شيء فمن يغلبني؟ فخلق الله عزّ وجلّ الجبال، فأرساها وثقل الأرض بها، فلم تستطع الحوت أن تتحرك.

---

(١) في نسخة: فتبخر، وفي البحار: فتفجر.

ففخرت الجبال وقالت: غلبت الحوت التي غلبت الأرض فمن يغلبني؟ فخلق الله عزّ وجلّ الحديد، فقطعت به الجبال ولم يكن عندها دفاع ولا امتناع.

ففخر الحديد وقال: غلبت الجبال التي غلبت الحوت فمن يغلبني؟ فخلق الله عزّ وجلّ النّار فألانت الحديد وفرّقت أجزائه ولم يكن عند الحديد دفاع ولا امتناع.

ففخرت النّار وقالت: غلبت الحديد الذي غلبت الجبال فمن يغلبني؟ فخلق الله عزّ وجلّ الماء فأطفأ النّار ولم يكن عندها دفاع ولا امتناع.

ففخر الماء وقال: غلبت النّار التي غلبت الحديد فمن يغلبني؟ فخلق الله عزّ وجلّ الرّيح، وغلبت الماء، فأيبست الماء.

ففخرت الرّيح وقالت: غلبت الماء الذي غلب النّار فمن يغلبني؟ فخلق الله عزّ وجلّ الإنسان، فصرف الرّيح عن مجاريها بالبنيان.

ففخر الإنسان وقال: غلبت الرّيح التي غلبت الماء فمن يغلبني؟ فخلق الله عزّ وجلّ ملك الموت فأمات الإنسان.

ففخر ملك الموت وقال: غلبت الإنسان الذي غلب الرّيح فمن يغلبني؟ فقال الله عزّ وجلّ أنا القهّار الغلاّب الوهاب أغلبك وأغلب كلّ شيء فذلك قوله:

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

فإن قيل: المذكور في هذه الرّواية وكذا الرّوايات الآتية من خلق الأرض من الزّبد ينافي ظاهراً رواية «الكافي» التي رواها عن محمّد بن مسلم، قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: كان كلّ شيء ماء، وكان عرشه على الماء، فأمر الله عزّ وجلّ الماء فاضطرم ناراً، ثم أمر النار فخمدت فارتفع من خمودها دخان، فخلق الله السّماوات من ذلك الدّخان وخلق الأرض من الرّماد، ثم اختصم الماء والنّار والرّيح فقال الماء: أنا جند الله الأكبر، وقال الرّيح: أنا جند الله الأكبر، وقالت النّار أنا جند الله الأكبر، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى الرّيح أنت جندي الأكبر. فإنّ المذكور في هذه الرّواية خلقة الأرض من الرّماد[1].

قلت: يمكن الجمع بينها بما قاله المجلسي وهو أن يكون الرّماد أحد أجزاء الأرض مزج بالزّبد، ووقي الزّبد بذلك المزج وتصلّب، أو يكون المراد بالأرض المخلوق من الرّماد بقيّة الأرض التي حصلت بعد الدّحو، والله العالم.

---

(١) بطوله في البحار: ٥٤/٨٩ح٧٣، وتفسير الإمام العسكري: ١٤٤.

وأما الثّاني: فالأشهر الأظهر هو أنّ خلق الأرض قبل السّماء، وقيل بالعكس ولا يعبأ به مع دلالة ظواهر الآيات وقيام الأخبار المستفيضة على خلافه.

أما الآيات فقد قال تعالى في سورة البقرة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩] وفي سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢] الآية .

قال الزّمخشري في (تفسيره): قوله: ثم استوى إلى السّماء والمعنى دعاه داعي الحكمة إلى خلق السّماء بعد خلق الأرض وما فيها من صارف يصرفه عن ذلك وهي دخان، قيل؛ كان عرشه قبل خلق السّماوات والأرض على الماء، فأخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء وعلا عليه، فأيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها وجعلها أرضين، ثم خلق السّماء من الدّخان المرتفع، انتهى.

وروى في «**مجمع البيان**» عن عكرمة، عن ابن عبّاس، عن النّبي ﷺ قال: «إن الله خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق الشّجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء، فتلك أربعة أيّام، وخلق يوم الخميس السّماء، وخلق يوم الجمعة الشّمس والقمر والنّجوم والملائكة وآدم» هذا[1] .

وأمّا قوله تعالى في سورة النازعات:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ ــ ٣٠]

فلا يدل على خلقة الأرض بعد السّماء كما توهّمه بعض الملاحدة وأورد عليها بأنّها منافية للآيات السّابقة، إذ المستفاد منها كون دحو الأرض بعد خلق السّماء، وهو لا ينافي تقدّم خلق أصل الأرض على السّماء.

قال الطبرسي قال ابن عباس: إنّ الله تعالى دحى الأرض بعد السّماء، وإن كانت الأرض خلقت قبل السّماء، وكانت ربوة مجتمعة تحت الكعبة فبسطها[2].

---

(١) روضة الواعظين: ٣٩٤، والبحار: ٥٦/٥٣.

(٢) تفسير مجمع البيان: ١٠/٢٦١.

وربّما أجيب بأن كلمة بعد ليست للتأخّر الزّماني، وإنّما هو على جهة تعداد النّعم والأذكار لها، كما يقول القائل: أليس قد أعطيتك وفعلت بك كذا وكذا، وبعد ذلك وددتك، وربّما يكون بعض ما تقدّم في اللّفظ متأخراً بحسب الزّمان، لأنّه لم يكن الغرض الأخبار عن الأوقات والأمكنة، بل المراد ذكر النّعم والتّنبيه عليها، وربّما اقتضت الحال إيراد الكلام على هذا الوجه.

وأما الأخبار فهي كثيرة منها ما في (**البحار**) عن (**الكافي**) بإسناده عن سلام بن المستنير، عن أبي جعفر ﷺ؛ قال: «إنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنّة قبل أن يخلق النّار، وخلق الطاعة قبل أن يخلق المعصية، وخلق الرّحمة قبل الغضب، وخلق الخير قبل الشّر وخلق الأرض قبل السّماء، وخلق الحياة قبل الموت، وخلق الشّمس قبل القمر، وخلق النّور قبل أن يخلق الظلمة».

قال المجلسي (قده) بعد ذكر الحديث: لعلّ المراد بخلق الطاعة تقديرها، بل الظاهر في الأكثر ذلك الخلق بمعنى التّقدير وهو شائع المراد بخلق الشّر خلق ما يترتّب عليه الشر ظاهراً، وإن كان خيره غالباً ووجوده صلاحاً[1].

ومنها ما فيه أيضاً كالصّافي عن عليّ بن إبراهيم القميّ عن الصّادق ﷺ في جواب الأبرش حيث سأله عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال: أخبرني فما كان رتقهما وما كان فتقهما؟ فأجاب ﷺ بقوله: هو كما وصف نفسه، كان عرشه على الماء، والماء على الهواء، والهواء لا يحدّ، ولم يكن يومئذٍ خلق غيرهما، والماء يومئذٍ عذب فرات، فلمّا أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرّياح فضربت الماء حتّى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً، فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد، ثم دحى الأرض من تحته، فقال الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦].

ثمّ مكث الرّب تبارك وتعالى ما شاء، فلمّا أراد أن يخلق السّماء أمر الرّياح فضربت البحور حتّى أزبدتها، فخرج من ذلك الموج والزّبد من وسطه دخان ساطع من غير نار، فخلق الله منه السّماء، وجعل فيها البروج والنّجوم ومنازل الشّمس والقمر، وأجراها في الفلك وكانت السّماء خضراء على لون الماء الأخضر، وكانت الأرض غبراء على لون الماء

---

(١) البحار: ٩٩/٥٤.

العذب، وكانتا مرتوقتين ليس لهما أبواب وهو النّبت ولم تمطر السّماء عليها فتنبت، ففتق السّماء بالمطر، وفتق الأرض بالنّبات، وذلك قوله: أولم ير الذين كفروا الآية، ونسب الشّارح البحراني هذه الرّواية إلى الباقر ﷺ، ولعلّه اطّلع على سند آخر عنه ﷺ لم نقف عليه[1].

ومنها: رواية الرّوضة الآتية.

الثالث

أنّ المستفاد من كلامه ﷺ أنّ السّماء مخلوقة من الزّبد حيث قال: ورمى بالزّبد ركامه، فسوى منه سبع سماوات (ا ه)، لكن المستفاد من آية السّجدة السّالفة ومن تفسير الإمام عن أمير المؤمنين عن النّبي صلوات الله عليهم في قوله: الذي جعل لكم الأرض فراشاً إلى آخر ما مرّ سابقاً، ومن رواية **(الكافي)** عن محمّد بن مسلم التي أسلفناها أيضاً، ومن سائر الرّوايات الواردة في باب الخلقة: أنّ السّماء مخلوقة من الدّخان.

وجمع بينهما الشّارح البحراني بقوله: فنقول: وجه الجمع بين كلامه ﷺ وبين لفظ القرآن الكريم ما ذكر الباقر ﷺ، وهو قوله فخرج من ذلك الموج والزّبد دخان ساطع من وسطه من غير نار، فخلق منه السّماء، ولا شك أنّ القرآن الكريم لا يريد بلفظ الدّخان حقيقته، لأن ذلك إنّما يكون عن النّار، واتفق المفسّرون إلى أنّ هذا الدّخان لم يكن عن نار، بل عن تنفّس الماء وتبخيره بسبب تموّجه، فهو إذن استعارة للبخار الصّاعد من الماء وإذا كان كذلك فنقول: إن كلامه ﷺ مطابق للفظ القرآن، وذلك أنّ الزّبد بخار يتصاعد على وجه الماء عن حرارة حركته، إلاّ أنّه ما دامت الكثافة غالبة عليه وهو باق على وجه الماء لم ينفصل، فإنّه يخصّ باسم الزّبد، وما لطف وغلبت عليه الأجزاء الهوائية فانفصل خصّ باسم البخار، وإذا كان الزّبد بخاراً والبخار هو المراد في القرآن الكريم كان مقصده ومقصد القرآن الكريم واحداً، فكان البخار المنفصل هو الذي تكوّنت عنه السّماوات، والذي لم ينفصل هو الذي تكوّنت عنه الأرض.

وأمّا وجه المشابهة بين الدّخان والبخار الذي صحت لأجله إستعارة لفظه فهو أمران: أحدهما حسّي وهو الصّورة المشاهدة من الدّخان والبخار حتّى لا يكاد يفرّق بينهما في الحسّ البصري، والثاني معنويّ وهو كوّن البخار أجراء مائية خالطت الهواء بسبب لطافتها عن حرارة الحركة، كما أنّ الدّخان كذلك ولكن عن حرارة النار، فإنّ الدّخان أيضاً أجزاء

(١) تفسير القمي: ٢/ ٦٩، وتفسير الصافي: ٣/ ٣٣٨.

مائية انفصلت من جرم المحترق بسبب لطافتها عن حرّ النّار، فكان الاختلاف بينهما ليس إلاّ بالسّبب، فلذلك صحّ إستعارة اسم أحدهما للآخر انتهى كلامه (قده)[1].

أقول: هذا التّوجيه وجيه جداً إلاّ أنّه ينافيه ما رواه الكليني في **«روضة الكافي»** بإسناده عن محمّد بن عطية، قال: جاء رجل إلى أبي جعفر عليه السلام من أهل الشّام من علمائهم، فقال: يا أبا جعفر جئت أسألك عن مسألة قد أعيت عليّ أن أجد أحداً يفسّرها، وقد سألت عنها ثلاثة أصناف من الناس، فقال كلّ صنف منهم شيئاً غير الّذي قال الصّنف الآخر، فقال له أبو جعفر عليه السلام: ما ذاك؟ قال: فإنّي أسألك عن أوّل ما خلق الله من خلقه، فإنّ بعض من سألته قال: القدر، وقال بعضهم: القلم وقال بعضهم: الرّوح، فقال أبو جعفر عليه السلام: «ما قالوا شيئاً أخبرك أنّ الله تبارك وتعالى كان ولا شيء غيره، وكان عزيزاً ولا أحد كان قبل عزّه»، وذلك قوله:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وكان الخالق قبل المخلوق، ولو كان أوّل ما خلق في خلقه الشّيء من الشّيء إذاً لم يكن انقطاع أبداً، ولم يزل الله إذاً ومعه شيء ليس هو يتقدّمه ولكنّه كان إذ لا شيء غيره، وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إلى شيء، وخلق الرّيح من الماء ثم سلط الرّيح على الماء فشققت الرّيح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزّبد أرضاً بيضاء نقيّة ليس فيها صدع[2] ولا ثقت[3] ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة، ثم طواها فوضعها فوق الماء، ثم خلق النّار من الماء فشققت النّار متن الماء حتّى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور فخلق من ذلك الدّخان سماء، صافية نقيّة ليس فيها صدع ولا ثقب، وذلك قوله:

﴿السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠].

قال عليه السلام: ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا سحاب، ثم طواها فوضعها فوق الماء ثم نسب الخليقتين[4] فرفع السّماء قبل الأرض، فذلك قوله عزّ ذكره:

---

(١) راجع شرح أصول الكافي للمزندراني: ١٢/١٣، والبحار: ٥٤/١٨٦.

(٢) الصدع: الشق وفي بعض النسخ: ثقب.

(٣) في بعض النسخ: ثقب.

(٤) في نسخة: الخلقتين.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

يقول: بسطها قال: فقال له الشّامي: يا أبا جعفر قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.

فقال أبو جعفر ﷺ: «فلعلك تزعم أنهما كانتا رتقاً ملتزقتان ملتصقتان ففتقت إحداهما عن الأخرى»، فقال: نعم، فقال أبو جعفر ﷺ: استغفر ربّك، فإنّ قول الله عزّ وجلّ كانتا رتقا يقول كانت السّماء رتقاً لا تنزل المطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت الحبّ، فلما خلق الله تبارك وتعالى الخلق وبثّ فيها من كلّ دابة، فتق السّماء بالمطر، والأرض بنبات الحبّ»، فقال الشاميّ: أشهد أنّك من ولد الأنبياء، وأن علمك علمهم عليهم السلام(١).

فإن المستفاد من الرّواية هذه أنّ الدخان متكون من النّار، وهو المستفاد أيضاً من رواية محمّد بن مسلم عن أبي جعفر ﷺ التي سبقت، حيث قال فيها: فأمر الله عزّ وجلّ الماء فاضطرم ناراً، ثم أمر النّار فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السّماوات من ذلك الدّخان، إلى آخر ما مرّ، فدعوى الشّارح إتّفاق المفسّرين على عدم كون ذلك الدّخان من نار مع قيام الأخبار على خلافه ممّا لا يلتفت إليها.

فإن قلت: فما تقول في رواية القمي المتقدّمة عن الصّادق ﷺ؟ حيث قال فيها: فخرج من ذلك الموج والزّبد دخان ساطع من وسطه من غير نار.

قلت: لا بدّ من تأويلها إمّا بأن يكون المراد بالنّار غير النّار المتعارفة المسبوقة إلى الأذهان، أو بوجه آخر من وجوه التّأويل حتّى تلائم الرّوايتين، وإلاّ فلا بدّ من طرحها، لأنّ الروايتين مضافاً إلى كونهما أكثر عدداً معتضدتان بالإعتبار العقلي وظواهر آية السّجدة والأخبار، فلا تكافؤهما الرّواية المذكورة، هذا.

والمقام بعد ذلك محتاج إلى التأمّل لتوجيه الجمع بين كلامه ﷺ الدّالّ على خلق السّماء من الزّبد، وبين الآية والأخبار الأخرى، ويمكن التوجيه بإرجاع الضّمير في قوله ﷺ «فسوّى منه راجعاً إلى الماء»، لأنّ النّار التي ثار منها الدّخان لمّا كانت مخلوقة من الماء حسبما دلت عليه الرّوايتان، حسن استناد تسوية السّماوات إليه فكان من قبيل إستناد الشّيء إلى علّته البعيدة، كما أسندت في غيره إلى الدّخان إستناداً إلى العلّة القريبة، فتأمّل جيداً.

(١) التوحيد للصدوق: ٦٧.

الرابع

أنّ المستفاد من قوله ﷺ: فسوّى منه سبع سماوات كون السماوات سبعاً، وهو ممّا لا ريب فيه ولا خلاف، ويطابقه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٩] وفي سورة السّجدة ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] وفي سورة النبأ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٢].

وإنّما خالف بعض من لا يعبأ به في الأرض وأنكر كونها سبعاً، وهو شاذّ ضعيف لا يلتفت إليه بعد دلالة ظاهر الآية على خلافه، قال سبحانه في سورة الطلاق:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وتأويلها بالأقاليم السّبعة لا حاجة إليه، قال الطبرسي في تفسير الآية: أي وفي الأرض خلق مثلهن في العدد لا في الكيفيّة، لأنّ كيفيّة السّمآء مخالفة لكيفيّة الأرض، وليس في القرآن آية تدلّ على أنّ الأرضين سبع مثل السّماوات إلاّ هذه الآية، ولا خلاف في السّماوات وأنّها سماء فوق سماء، وأمّا الأرضون فقال قوم: إنّها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض كالسّماوات، لأنّها لو كانت مصمتة لكانت أرضاً واحدة وفي كلّ أرض خلق خلقهم الله كما شاء، وروى أبو صالح عن ابن عبّاس: أنّها سبع أرضين ليس بعضها فوق بعض يفرق بينهنّ البحار، ويظل جميعهنّ السّماء، والله أعلم بصحّة ما استأثر بعلمه وخفي على خلقته انتهى، هذا.

وروي في الأخبار المستفتية أن غلظ كلّ سماء مسيرة خمسمائة عام، ومن بين السّماء إلى السّماء كذلك، ومن هنا إلى السّماء الدّنيا مثلها، وهذه الأخبار صريحة في بطلان قول الحكماء بنفي الخلاء وذهابهم إلى أنّ الأفلاك ليس بينهما فرجة بل مقعّر كلّ فلك فلك مماس لمحدّب الفلك الآخر، لأنّه إذا كان بين كلّ منهما مسيرة خمسمائة عام فكيف يتصوّر الملاصقة والمماسة؟ فلا يلتفت إلى براهينهم العقليّة التي أقاموها على ذلك.

وقد مرّ في رواية الرّوضة قول أبي جعفر ﷺ للشّامي: استغفر ربّك، فإنه لمّا كان معتقداً بمثل ما قاله الحكماء بالأخذ عن كتبهم أمره بالإستغفار، فيدل على تحريم هذا الاعتقاد وأمثاله، فأبطل الملاصقة والالتزاق بينهما.

الخامس

أن قوله ﷺ: «ثُمّ زَيّنَها بِزِينةِ ٱلكَواكِب».

قد بيّنا سابقاً أنّ الضّمير فيه محتمل الرّجوع إلى السّفلى والرّجوع إلى السّماوات باعتبار

أن تزيين البعض تزيين الجميع، واللاّزم في المقام تحقيق محلّ الكواكب وتعيينه.

فأقول: الذي ذهب إليه أصحاب الهيئة بل ادّعى اتفاقهم عليه هو أنّ الثّوابت كلها في الفلك الثّامن، وأمّا السّيارات فالمشهور أن القمر في الفلك الذي هو أقرب الينا، ثم عطارد، ثم الزهرة، ثم الشّمس، ثم المرّيخ، ثم المشتري، ثم زحل، وفوقها فلك الثّوابت المسمّى بلسان الشرّع بالكرسي، ثم فلك الأطلس الذي هو غير مكوكب ويسمّى في لسان الشّرع بالعرش، واختار هذا المذهب في المقام الشّارح البحراني.

وذهب طائفة ومنهم السّيد الجزائري والشّارح المعتزلي إلى أنّها في السّماء الدّنيا، ومال إليه شيخنا البهائي على ما عزي إليه، ويظهر من كلام الفخر الرّازي ميله إليه أيضاً، وهو الأظهر.

لنا ظاهر قوله سبحانه في سورة الصّافات:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات: ٦ ـ ٧] وفي سورة فصلت: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] وفي سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وأمّا الأوّلون فقد استدلوا على مذهبهم في الثّوابت وأنّها في الفلك الثّامن بما حكاه عنهم الرّازي في التفسير، قال عند الكلام على تفسير الآية الثّالثة: واعلم أن أصحاب الهيئة اتفقوا على أنّ هذه الثّوابت مركوزة في الفلك الثّامن الذي هو فوق اكبر السّيارات، واحتجوا عليه بأنّ بعض هذه الثّوابت في الفلك الثامن فيجب أن تكون كلّها هناك، وإنّما قلنا: إن بعضها في الفلك الثّامن، وذلك لأن الثّوابت التي تكون قريبة من المنطقة تنكسف بهذه السّيارات، فوجب أن تكون الثّوابت المنكسفة فوق السّيارات الكاسفة، وإنّما قلنا: إن هذه الثوابت لمّا كانت في الفلك الثامن وجب أن تكون كلّها هناك، لأنّها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة في كل مائة سنة درجة واحدة فلا بدّ وأن تكون مركوزة في كرة واحدة، وعلى مذهبهم في السّيارات بأن زحل ينكسف بالمشتري فيكون فوقه، والمشتري ينكسف بالمرّيخ فهو فوقه، وأمّا كون الشّمس تحتها فلأن لها اختلاف منظر دون العلوية، وأمّا الزّهرة وعطارد فلا جرم بكونهما تحت الشّمس أو فوقها، إذ لا يكسفها غير القمر، ولا يدرك كسفها لشيء من الكواكب، لاحتراقها عند مقارنتها، ولا يعرف لهما اختلاف منظر أيضاً لأنّهما لا يبعدان عن الشّمس كثيراً ولا يصلان إلى نصف النهار، والآلة التي يعرف بها اختلاف المنظر إنّما تنصب في سطح دائرة نصف النّهار، فحكموا بكونهما تحت الشّمس استحساناً، لتكون متوسطة بين السّتة بمنزلة شمسة القلادة.

وروي عن الشّيخ ومن تقدّمه: أنّه رأى الزّهرة كشامة على وجه الشّمس وبعضهم ادعى أنّه رآها وعطارد كشامتين عليها، وسمّيتا سفليّين لذلك كما يسمّى ما فوق الشّمس علويّة، والزّهرة منها فوق عطارد لانكسافها به، والقمر تحت الكلّ لانكساف الكلّ به.

أقول: أمّا دليلهم في الثّوابت فمضافاً إلى مخالفته لظواهر الآيات ضعيف في نفسه قال الرّازي في تفسير الآية الأولى بعد ذكر مذهب الحكماء: إنّا قد بيّنا في علم الهيئة أنّ الفلاسفة لم يتم لهم دليل في بيان أنّ هذه الكواكب مركوزة في الفلك الثّامن، ولعلّنا شرحنا هذا الكلام في تفسير قوله تعالى: ولقد زيّنا السّماء الدنيا بمصابيح، وقال عند تفسيره بعد ذكر مذهبهم ودليلهم الذي حكيناه عنه آنفاً: واعلم أنّ هذا الإستدلال ضعيف، فإنّه لا يلزم من كون بعض الثّوابت فوق السّيارات كون كلّها هناك، لأنّه لا يبعد وجود كرة تحت كرة القمر وتكون في البطء مساوية لكرة الثّوابت، وتكون الكواكب المركوزة فيما يقارن القطبين مركوزة في هذه الكرة السّفليّة، إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصّغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة، وعلى هذا التّقدير لا يمتنع أن تكون هذه المصابيح مركوزة في السّماء الدّنيا، فثبت أنّ مذهب الفلاسفة في هذا الباب ضعيف، انتهى[١].

وأنت بعدما عرفت ضعف دليلهم فيما ذهبوا إليه مع عدم قيام برهان عقلي أو نقلي آخر عليه، تعرف أنّه لا وجه لتأويل الآيات الشّريفة على ما يطابق مذهبهم، كما أوّلها الشّارح البحراني حيث إنّه بعد اختياره مذهب الحكماء وذكره الأشكال فيه بتنافيه لظاهر الآية، أجاب بأنه لا تنافي بين ظاهر الآية وبين ما ذكرناه، وذلك أنّ السّماء الدنيا لمّا كانت لا تحجب ضوء الكواكب، وكانت أوهام الخلق حاكمة عند النّظر إلى السّماء ومشاهدة الكواكب بكونها مزيّنة بها، لا جرم صحّ قوله تعالى: إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب، لأنّ الزّينة بها إنّما هي بالنّسبة إلى أوهام الخلق للسّماء الدّنيا، انتهى كلامه.

والحاصل أنّ ظواهر الأدلة حجة لو لم يقم دليل على خلافه، ومع عدمه فالظاهر حجّة، ولا وجه لرفع اليد عنه، ولذلك قال الشّارح المعتزلي: والواجب التّصديق بما في ظاهر لفظ الكتاب العزيز[٢].

وأمّا دليلهم في السّيارات فقد عرفت أنّه غير واف بتمام مدّعاهم، لما ذكرنا من أنّ التّرتيب الذي ادّعوه في عطارد والزهرة وكونهما سفليين بالنّسبة إلى الشّمس وما فوقها مستند إلى مجرّد الإستحسان، إلاّ أنّه لا بأس به، لعدم قيام دليل على خلافهم هنا، وإن هو إلاّ

---

(١) بحار الأنوار: ٥٥/ ٧٥.

(٢) شرح النهج: ١/ ٨٦.

كسائر أدلتهم المستندة إلى الحدس والرّياضة في أبواب النّجوم والهيئة، لكن السّيد الجزائري ادّعى قيام الأخبار على خلاف ما ادّعوه من التّرتيب، ولكنّا بعد لم نظفر على تلك الأخبار الدّالة على الخلاف صريحاً، بل قد مضى في شرح قوله: وضياء الثّواقب، عن الصّادق ﷺ ما يفيد كون زحل في السّماء السّابعة، نعم في بعضها تلويح إلى ذلك، ولعله يأتي شطر منها في مقامها المناسب.

فإن قيل: على تقدير كون كلّ من السّيارات في كلّ من السّماوات يكون كلّ واحد منها مزيّنة بكوكبها المركوز فيها، فما وجه التّخصيص للزّينة بالسّماء الدّنيا في الآية؟

قلت: لمّا كان الموجود على هذا التّقدير في كلّ واحد منها واحد من الكواكب، وهو نادر في جنب سائر الكواكب الكثيرة الثّابتة في السّماء الدّنيا التي لا يعلم عددها إلاّ الله سبحانه، لا جرم حسن تخصيصها بالذكر.

ويمكن الجواب بنحو آخر أولى، وهو أنّ المقصود في الآيات بيان كون الكواكب زينة وسبباً للحفظ من الشياطين معاً، والحفظ لمّا كان بهذه الكواكب الثّابتة في هذه السّماء، حسن التخصيص، والقول بتأتّي الحفظ بالسّيارات أيضاً ممّا يأتي عنه العقول المستقيمة، إذ مع وجود هذه الكواكب على قربها وكثرتها في هذه السّماء وحصول حفظها بها لا يحكم العقل السّليم بأن ينقض كوكب من الفلك السّابع مثلاً مع بعده ووحدته، فيوجب الحفظ كما هو ظاهر.

فإن قيل: المستفاد ممّا ذكرت أنّ الشّهب التي جعلت رجوماً للشّياطين هي تلك الكواكب المزيّنة بها السّماء، وهذا مشكل جدّاً لأنّ هذه الشّهب تبطل وتضمحلّ، فلو كانت هذه الشّهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير في أعداد كواكب السّماء، ومعلوم أنّ هذا المعنى لم يوجد البتّة فإنّ أعداد كواكب السّماء باقية على حالة واحدة من غير تغيّر البتّة، وأيضاً جعلها رجوماً ممّا يوجب وقوع النّقصان في زينة السّماء، والجمع بين هذين المقصودين كالجمع بين المتنافيين.

قلنا: ليس معنى رجم الشّياطين بالكواكب هو أنّهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمي الشّياطين بها، وتلك الشّعل هي الشّهب، وما ذاك إلاّ كقبس يؤخذ من نار، والنّار باقية بحالها.

والعجب أنّ الشّارح البحراني أجاب عن الإشكال المذكور باختيار أنّ الشّهب غير تلك الثّوابت الباقية، ثم قال: فأمّا قوله: وزيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشّياطين، فنقول: كلّ مضيء حصل في الجوّ العالي أو في السّماء فهو مصباح لأهل الأرض، إلاّ أنّ

تلك المصابيح منها باقية على طول الزّمان وهو الثّوابت، ومنها متغيّرة وهي هذه الشّهب التي يحدثها الله ويجعلها رجوماً للشّياطين، ويصدق عليها أنّها زينة للسّماء أيضاً بالنّسبة إلى أوهامنا، انتهى. وبمثل هذا أجاب الفخر الرّازي أيضاً عند تفسير الآية الأولى.

ولكنّك خبير بمنافاته لظواهر الآيات خصوصاً الآية الثّالثة، حيث إنّ الضّمير في قوله: وجعلناها رجوماً، راجع إلى المصابيح، والظاهر من المصابيح هي الكواكب بشهادة الآيتين الأوليين، ولا داعي إلى التّأويل ورفع اليد عن الظاهر مع اندفاع الإشكال بما ذكرناه. هذا ما أدّى إليه الفهم القاصر في المقام، وتكلمنا على ما يقتضيه عقولنا القاصرة، والله العالم بحقائق ملكوت سمائه.

السادس

في الإشارة إلى بعض ما يتعلّق بالنيرين أعني الشّمس والقمر اللّتين أشار ﷺ إليهما بقوله: (فأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمراً منيراً)، فإنّ لهما أحوالاً كثيرة من حيث القطر والحركة، وسرعتها وبطؤها، والخسوف والكسوف العارضين لهما، والكلف الحاصل في وجه القمر، وزيادة نور الشّمس عليه، والحرارة الموجودة لها دون القمر، إلى غير هذه من الحالات التي بحث عنها علماء الهيئة بحسب ما وصل إليها أوهامهم القاصرة، ومقصودنا في المقام بيان بعض الأحوال الطارئة عليهما حسب ما يستفاد من الآيات والأخبار المأثورة عن أهل العصمة والطهارة سلام الله عليهم.

فنقول: إنّهما من أجل كونهما من أعظم الآيات ولعظم ما يترتّب عليهما من الثّمرات من إصلاح الأثمار والنّباتات ومدخليّتهما في ضبط السّنين والحساب والأوقات وغير ذلك من المنافع الحاصلة منهما للعنصريات، كرّر الله سبحانه ذكرهما في كثير من السّور والآيات، وببالي أنّه ينيف على عشرين، قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

إشارة إلى بعض منافع القمر الحاصلة فيه من حيث الزّيادة والنّقصان والطلوع والأفول، وهو أنّ الحكمة في ذلك أن يعرف النّاس معالم أمورهم، وأوقات عباداتهم الموظفة في حقّهم، وقال في سورة يونس:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

أي قدّر مسير كلّ واحد منهما منازل، والضّمير راجع إلى خصوص القمر، وتخصيصه

بالذّكر لسرعة سيره ومعاينة منازله وإناطة أحكام الشّرع به، ولذلك علّله بقوله: لتعلموا عدد السّنين والحساب، أي حساب الأوقات من الأشهر والسّاعات في التّصرفات والمعاملات.

قيل: إنّ الحساب يبني على أربع مراتب: السّاعات، والأيام، والشهور، والسّنون، فالعدد للسّنين، والحساب لما دون وهي الشّهور، والأيام، والسّاعات، وبعد هذه المراتب الأربع لا يحصل إلا التكرار، كما أنّهم رتّبوا العدد على أربع مراتب: الآحاد، والعشرات، والمئات، والألوف، وليس بعدها إلاّ التكرار ومعنى قوله:

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

إلاّ متلبّساً بالحقّ مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

فإنّهم المنتفعون بذلك، وقريب منه قوله في سورة الإسراء:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

أي جعلنا اللّيل والنّهار دلالتين يدلاّن على القادر الحكيم، فمحونا آية اللّيل أي الآية التي هي اللّيل وجعلناها مظلمة، والإضافة بيانيّة، وجعلنا آية النّهار مبصرة، أي مضيئة أو مبصرة للناس من أبصره فبصر، لتبتغوا فضلاً من ربكم، أي لتطلبوا في بياض النّهار أسباب معاشكم وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم.

وقيل: إن المراد بالآيتين الشّمس والقمر، وتقدير الكلام وجعلنا نيّري اللّيل والنّهار آيتين، والمراد بمحو آية الليل التي هي القمر نقص نورها شيئاً فشيئاً إلى المحاق، أو المراد بمحوها كونها مظلمة في نفسها مطموسة النّور بما جعل فيها من السّواد.

أقول: وهذا هو الأظهر ويدّل عليه الأخبار المستفيضة.

فمنها ما في **(البحار)** عن **(العيون)** في خبر يزيد بن سلام: أنّه سأل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، ما بال الشّمس والقمر لا يستويان في الضوء والنّور؟ قال: «لمّا خلقهما الله أطاعاه ولم يعصيا شيئاً، فأمر الله عزّ وجلّ جبرئيل أن يمحو ضوء القمر فمحاه، فأثّر المحو في القمر خطوطاً سوداً، ولو أنّ القمر ترك على حاله بمنزلة الشّمس لم يمح، لما عرف اللّيل من النّهار، ولا النّهار من الليل، ولا علم الصّائم كم يصوم، ولا عرف النّاس عدد السّنين، وذلك قول الله عزّ وجلّ: وجعلنا الليل والنّهار »الآية، قال: صدقت يا محمد، فأخبرني لم سمّي الليل ليلاً؟ قال: لأنّه يلايل الرّجال من النّسآء، جعله الله عزّ وجلّ ألفة ولباساً، وذلك

قول الله عزّ وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠] قال: صدقت يا محمّد وروى في «**الصافي**» عن «**العلل**» مثله إلى قوله وذلك قول الله وجعلنا الليل (اه)[١].

ومنها ما فيه أيضاً عن كتاب النّجوم لابن طاووس نقلاً من كتاب ابن أبي جمهور بإسناده أنّ أمير المؤمنين ﷺ لمّا صعد المنبر وقال سلوني قبل أن تفقدوني قال: فقام إليه رجل فسأله عن السّواد الذي في وجه القمر، فقال ﷺ: «أعمى سأل عن عمياء، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: فمحونا آية الليل وجعلنا آية النّهار مبصرة، والسّواد الذي تراه في القمر أنّ الله عزّ وجل خلق من نور عرشه شمسين، فأمر جبرئيل، فأمر جناحه الذي سبق من علم الله جلت عظمته لما أراد أن يكون من اختلاف الليل والنّهار والشّمس والقمر، وعدد السّاعات والأيّام والشّهور، والسّنين والدّهور، والإرتحال والنّزول، والإقبال والإدبار، والحج والعمرة، ومحلّ الدّين وأجر الأجير، وعدد أيّام الحبل والمطلقة، والمتوفى عنها زوجها، وما أشبه ذلك». قال المجلسي (قده) بعد نقل الحديث «بيان» أي على الذي سبق في علم الله أن يكون قمراً، والظاهر أنّه كان هكذا على أحدهما للذي سبق[٢]، انتهى.

ومنها ما رواه أيضاً عن العياشي عن أبي بصير، عن الصّادق ﷺ في قوله تعالى: فمحونا آية الليل، قال: هو السّواد الذي في جوف القمر، إلى غير ذلك ممّا يقف عليها المتتبع، هذا[٣].

وبما ذكرنا عرفت سبب السّواد في القمر وأنّه من فعل جبرئيل وأمر الله سبحانه، وليس سببه ما توهمه الفلاسفة وأرباب الهيئة واختلفوا فيه على أقوال تبلغ إلى سبعة:

الأوّل: أنه خيال لا حقيقة له، وردّ بأنه لو كان كذلك لاختلف فيه النّاظرون، لاستحالة موافقة الكلّ على خيال واحد.

الثّاني: أنه شبه ما ينطبع فيه من السّفليّات من الجبال والبحار وغيرها، وردّ بأنّه يلزم حينئذٍ أن يختلف القمر في قربه وبعده وانحرافه عمّا ينطبع فيه.

الثّالث: أنه السّواد الكائن في الوجه الآخر، وردّ بأنه يجب على ذلك أن لا يرى هذا متفرقاً.

الرّابع: أنّ سببه التّأذي من كرة النّار، لقرب ما بينهما، وردّه الشّيخ الرّئيس بأنّ هذا لا

---

(١) البحار: ٩/ ٣٠٥ ح٢، وعلل الشرائع: ٢/ ٤٧٠.

(٢) تفسير العياشي: ٢/ ٢٨٣.

(٣) الغارات: ١/ ١٧٩، وتفسير العياشي: ٢/ ٢٨٣.

يلائم الأصول الحكميّة، فإنّ الأجسام الفلكيّة لا تنفعل عن الأجسام العنصريّة، وأيضاً أنّ الفلك غير قابل للتسخن عندهم.

الخامس: أنّ جزء منه لا يقبل النّور كما يقبله غيره، وردّ بأنّه يلزم على هذا عدم إطراد القول ببساطة الفلكيّات، وفي هذا هدم لقواعدهم المبنيّة على بساطتها.

السّادس: أنّ وجه القمر مصوّرة بصورة وجه الإنسان، فله عينان وحاجبان وأنف وفم، وردّ بأنّه يلزم أن يبطل فعل الطبيعة عندهم، وذلك لأنّ لكلّ عضو طلب نفع ودفع ضرر، فإنّ الفم لدخول الغذاء، والأنف للاستشمام، والحاجبين لدفع العرق عن العينين، وليس القمر قابلاً لشيء من ذلك، فيلزم التّعطيل الدّائم فيما زعمتم أنه على أحسن النظام وأبلغه.

السابع أنّ هذا السواد هو أجسام سماوية مختلفة معه في تدويره غير قابلة للإنارة بالتساوي حافظة لوضعها معه دائماً. هذه أقوالهم التي حكيت عنهم في المقام، وقد عرفت فساد الجميع في أنفسها، مضافاً إلى قيام الأخبار على خلافها، وظهر لك أنّ السبب فيه أمر القادر المختار المسخر تحت قدرته: الشمس والقمر والليل والنهار، هذا.

وأما ما رواه في «**الصافي**» عن الصادق عليه السلام: «لما خلق الله القمر كتب عليه لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين»[1]، وهو السواد الذي ترونه في القمر، فلا ينافي الأخبار السالفة، لجواز أن يكون المحو الواقع في الأحاديث السابقة بهذه الكتابة الواقعة في هذا الحديث، وتمام هذا الحديث ما رواه الطبرسي في الاحتجاج والمحدّث الجزائري (ره) في «**الأنوار**» عن قاسم بن معاوية قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هؤلاء يروون حديثاً في معراجهم أنّه لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى على العرش لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، أبو بكر الصديق، فقال: «سبحان الله غيّروا كلّ شيء حتى هذا»؟ قلت: نعم.

قال: «إنّ الله عزّ وجلّ لما خلق العرش كتب عليه: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، ولما خلق الماء كتب في مجراه: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، ولما خلق الله عزّ وجلّ الكرسي كتب على قوائمه: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، ولما خلق الله عزّ وجلّ اللوح كتب فيه: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، ولما خلق الله إسرافيل كتب على جبهته: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، علي أمير المؤمنين، ولما خلق الله السماوات كتب في أكنافها: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، ولمّا خلق الله الأرضين كتب في أطباقها:

---

(١) الإحتجاج: ١/ ٢٣١، ومدينة المعاجز: ٢/ ٣٧٧.

لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، ولمّا خلق الله عزّ وجلّ الشّمس كتب الله عزّ وجلّ عليها: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، ولما خلق الله عزّ وجلّ القمر كتب عليه: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، وهو السّواد الذي ترونه في القمر، فإذا قال أحدكم: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، فليقل عليّ أمير المؤمنين»[1].

فإن قيل: إنّ الكتابة المكتوبة على وجه القمر الموجبة للكلف والسّواد فيه على ما دلت عليه الرّواية، مكتوبة بعينها على الشّمس أيضاً، فلم لم توجب السّواد فيها؟ حيث إنّه لو كان فيها سواد لشاهدناه؟

قلت: أجاب عنه الجزائري بأنّ عدم المشاهدة لشدّة النّور وزيادة الضّياء المانع عنها.

ولكنّك خبير بما فيه، لما قد عرفت في الأخبار السّالفة أنّ نوريهما كانا على حدّ سواء، وكان سبب قلّة نور القمر هو المحو الحاصل بالكتابة، فلم تكن الشّمس في الأصل أشد نوراً حتّى لا يظهر فيها أثر الكتابة، والأولى أن يجاب بأنّ المقصود لمّا كان تمايز اللّيل والنّهار، ومعرفة السّنين والحساب، كانت الكتابة على وجه القمر بخط جليّ لحصول ذلك الغرض، بخلاف الشّمس، والعلم عند الله، هذا وقد تحقق مّما ذكرنا سبب اختلاف نوري الشّمس والقمر، بما لا مزيد عليه.

وأما سبب اختلافهما في الحرارة، فهو ما بيّنه الإمام عليه السلام في رواية **(الكافي)** بإسناده عن محمّد بن مسلم، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك لأيّ شيء صارت الشّمس أشدّ حرارة من القمر؟ فقال: «إنّ الله خلق الشّمس من نور النّار ومن صفو الماء طبقاً من هذا وطبقاً من هذا حتّى إذا كانت سبعة أطباق ألبسها لباساً من نار، فمن ثمّ صارت أشدّ حرارة من القمر»، قلت جعلت فداك والقمر، قال: «إنّ الله تعالى ذكره خلق القمر من ضوء نور النّار وصفو الماء طبقاً من هذا وطبقاً من هذا حتّى إذا كانت سبعة أطباق ألبسها لباساً من نار فمن ثم صار القمر أبرد من الشّمس»[2]. ورواه في **(البحار)** عن **(العلل)**[3] والخصال أيضاً.

وقال بعد ذكر الحديث توضيح قوله: حتّى إذا كانت سبعة أطباق، يحتمل أن يكون المعنى أنّ الطبقة السّابعة فيها من نار، فتكون حرارتها لجهتين، لكون طبقات النّار أكثر بواحدة، وكون الطبقة العليا من النّار، ويحتمل أن يكون لباس النّار طبقة ثامنة، فتكون

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/ ١، و٥٥/ ١٥٦ح٦.

(٢) الكافي: ٨/ ٢٤١ح٣٣٢.

(٣) علل الشرائع: ٢/ ٥٧٦، والبحار: ٥٥/ ١٤٨.

الحرارة للجهة الثّانية فقط، وكذا في القمر يحتمل الوجهين، ثم إنّه يحتمل أن يكون خلقهما من النّار والماء الحقيقتين من صفوهما وألطفهما، وأن يكون المراد جوهرين لطيفين مشابهين لهما في الكيفيّة، ولم يثبت امتناع كون العنصريات في الفلكيّات، وقد دلّ الشّرع على وقوعه في مواضع شتّى، هذا.

وبقي الكلام في حركتي الشّمس والقمر.

فأقول: لم نظفر في الأخبار بما يفيد التّعيين، نعم في بعضها ما يدل على سرعة الحركة، مثل ما روى عن سؤال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرّوح الأمين، من زوال الشّمس وجوابه بقوله: لا، نعم، فقال ﷺ له: «كيف تقول: لا، نعم»، فقال «من حيث قلت: لا، إلى قلت: نعم، سارت الشّمس مسيرة خمسمائة عام»[1] وما رواه المجلسي (قده) عن قصص الرّاوندي بإسناده عن الصّدوق، بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ موسى عليه السلام سأل ربّه أن يعلمه زوال الشّمس، فوكل الله بها ملكاً، فقال يا موسى: قد زالت الشّمس، فقال موسى: متى؟ فقال: حين أخبرتك، وقد سارت خمسمائة عام[2].

وعن «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم بإسناده عن أبي الصّباح الكناني، عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ للشّمس ثلاثمائة وستين برجاً، كلّ برج منها جزيرة من جزائر العرب، فتنزل كل يوم على برج منها، فإذا غابت انتهت إلى حدّ بطنان العرش، فلم تزل ساجدة إلى الغد، ثم ترد إلى موضع مطلعها ومعها ملكان يهتفان معها، وإنّ وجهها لأهل السّماء، وقفاها لأهل الأرض، ولو كان وجهها لأهل الأرض لاحترقت الأرض ومن عليها من شدّة حرّها»[3]، ومعنى سجودها: ما قال سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

قال المجلسي (ره) بعد رواية الحديث: توضيح ـ ثلاثمائة وستّين برجاً ـ لعل المراد بالبرج الدّرجات التي تنتقل إليها بحركتها الخاصّة، أو المدارات التي تنتقل إلى واحد منها كلّ يوم، فيكون هذا العدد مبنيّاً على ما هو الشّائع بين النّاس من تقدير السّنة به، وإن لم يكن مطابقاً لشيء من حركتي الشّمس والقمر ـ مثل جزيرة من جزائر العرب ـ أي نسبتها إلى الفلك مثل نسبة جزيرة من الجزائر إلى الأرض، أو الغرض التّشبيه في أصل العظمة لا خصوص

(١) تذكرة الموضوعات: ١٣، وكشف الخفاء: ٢/٩٨.

(٢) البحار: ١٣/٣٥٢، والمستدرك: ٦/٤٦.

(٣) الكافي: ٨/١٥٧ح١٤٨، وتفسير القمي: ٢/١٧.

المقدار، والمقصود بيان سرعة حركتها وإن كانت بطيئة بالنّسبة إلى الحركة اليوميّة، قال الفيروز آبادي: جزيرة العرب ما أحاط به بحر الهند وبحر الشّام ثم دجلة والفرات وما بين عدن ابين إلى أطراف الشّام طولاً ومن جدة إلى ريف العراق عرضاً ـ فإذا غابت ـ أي بالحركة اليوميّة ـ إلى حدّ بطنان العرش ـ أي وسطه، ولعل المراد وصولها إلى دائرة نصف النّهار من تحت الأرض، فإنّها بحذاء أوساط العرش بالنّسبة إلى أكثر المعمورة، إذ ورد في الأخبار أنّ العرش محاذ للكعبة ـ فلم تزل ساجدة ـ أي مطيعة خاضعة منقادة جارية بأمره تعالى حتى تردّ إلى مطلعها ـ والمراد بمطلعها ما قدّر أن تطلع منه في هذا اليوم، أو ما طلعت فيه في السّنة السّابقة في مثله وقوله: ـ ومعنى سجودها ـ يحتمل أن يكون من تتمة الخبر لبيان أنّه ليس المراد بالسّجود ما هو المصطلح، ولعل الأظهر أنّه من كلام الكليني أو غيره، انتهى.

هذا في حركة الشّمس.

وأمّا القمر فهو أسرع حركة من الشمس، كما قال سبحانه:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠].

أي في سرعة سيره، لأنّ الشّمس تقطع بروج الفلك في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً.

وفي **«الصّحيفة السّجادية»** على صاحبها أفضل الصلاة والتحيّة في دعائه إذا نظر إلى الهلال:

«أَيُّهَا ٱلْخَلْقُ ٱلْمُطِيعُ الدّآئِبُ السَّرِيعُ ٱلْمُتَرَدِّد في مَنازِلِ التَّقْديرِ ٱلْمَتصَرِّفُ في فَلَكِ التَّدْبِيرِ»

قال بعض شرّاح **«الصّحيفة»**: وصفه ﷺ القمر بالسّرعة إشارة إلى سرعة حركته العرضيّة التي تكون بتوسط فلك تدويره، فإنّه أسرع عن سائر الكواكب بهذا الاعتبار، أمّا الثّوابت فظاهر، لكون حركتها من أبطأ الحركات حتّى أن القدماء لم يدركوها، فقيل: إنّها تتمّ الدّورة في ثلاثين ألف سنة، وقيل: في ستة وثلاثين ألف سنة، وأمّا السّيارات فلأنّ زحل يتم الدّورة في ثلاثين سنة، والمشتري في اثنتي عشرة سنة، والمرّيخ في سنة وعشرة أشهر ونصف شهر، وكلاً من الشّمس والزّهرة وعطارد في قريب سنة، وأمّا القمر فيتمّ الدّورة في نحو من ثمانية وعشرين يوماً، فكان أسرعها حركة.

وأمّا حركته الذاتية وإن قال بها جم غفير من أساطين الحكماء، حيث أثبتوا لجميع الكواكب حركة ذاتية وتدور بها على أنفسها، فهي على تقدير ثبوتها غير محسوسة ولا معرفة،

فحمل وصف القمر بالسرعة على هذه الحركة بعيد، نعم لا يبعد حمله على حركته المحسوسة على أنّها ذاتيّة له، كما ذهب إليه بعضهم من جواز كون بعض حركات السّيارات في أفلاكها من قبيل حركة السابح في المآء، ويؤيدّه ظاهر قوله تعالى:

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] انتهى.

وأورد صاحب «**شرح الإرشادات**» على القول بالحركة الذّاتيّة، بأنّ هذه تقتضي أن يكون المحو المرئي في وجه القمر شيئاً غير ثابت في جرمه وإلاّ لتبدّل وضعه.

هذا مجمل كلام فيما يتعلق بالأجسام العلويّة وعالم الملكوت، وقد تكلمنا فيه بحسب ما ساعدنا الوقت والمجال، وأما تفصيل حالاتها على ما تعرضوا له بحسب الوسع والطاقة البشرية فليطلب من مظانه ومواقعه، والعلم عند الله والنبي وأوصيائه الكرام عليهم السلام.

الترجمة

یعنی پس از آن انشاء کرد خداوند سبحانه و تعالی گشادن فضاها و شکافتن طرف ها و گشادگی های هوا را، پس جاری نمود در آن گشادگی ها آبی که تلاطم داشت و زننده یکدیگر بود موج های او و تراکم داشت و بالای همدیگر بود انبوهی او، بار نمود آن آب را بر پشت بادی که تند بود وزیدن او و سخت جنبانـنده که شدید بود صدای او، پس امر نـمود آن باد را به برگردانیدن آن آب به طرف بالا و مسلط گردانید آن را به محکم بستن آن آب و مقرون و نزدیك نمود آن باد را به نهایت و حد آن آب که فاصله نبود میان آن ها، هوا از زیر آن گشاده شده و آب از بالای آن ریخته گردیده، پس بعد از این بیافرید حق سبحانه و تعالی بادی که عقیم نمود وزیدن او را یا این که عقیم بود وزیدن او یا این که تنگ بود جای وزیدن او و دایم نمود ملازمت آن باد را به حرکت دادن آب و شدید و محکم نمود جریان آن را و دور نمود مهب و منشأ آن را به حیثیتی که هیچ کس را اطلاع نیست بر این که از کجا ناشی می شود، پس مأمور نمود آن را بر تحویل و برهم زدن آب انبوه و برهم خورده و حرکت دادن و برانگیختن موج دریاها، پس حرکت داد و بجنبانید آن باد آن آب را مثل جنبانیدن خیك دوغ به جهت گرفتن روغن و سخت روان شد به آن آب مثل روان شدن آن در جاهای خالی در حالتی که برمی گردانید اول آن آب را به آخر آن و ساکن آن را به متحرك آن، حتی این که بلند شد معظم آن و انداخت کف را تراکم آن، پس بلند نمود آن کف را در هوای مفتوح و فضای واسع، پس خلق کرد و مستقیم نمود از آن کف یا از آن آب هفت آسمان را در حالتی که گردانید زیرین آن آسمان ها را مثل موج در صفا یا از خود موج که ممنوع بود از سیلان و گردانید بالاتر آن ها را سقفی که محفوظ بود از سقوط و انهدام و بنایی که بلند بود و مرتفع بی ستونی که نگاه بدارد آن را و بدون مسمار و ریسمانی که منتظم و ملتئم نماید آن را، پس از آن زینت بخشید آن آسمان ها را با زینت ستاره های درخشنده و با روشنی کوکب ها یا

شهاب های جهنده که به نور خود هوا را سوراخ کننده اند و روان گردانید در آن آسمان ها چراغی که منتشر بود روشنی او به اطراف عالم که عبارت است از آفتاب و جاری نمود ماهی را که نوردهنده بود و تابان در فلك گردنده و سقف سیرکننده و لوح حرکت کننده و جنبده.

محتوى الجزء الأول من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

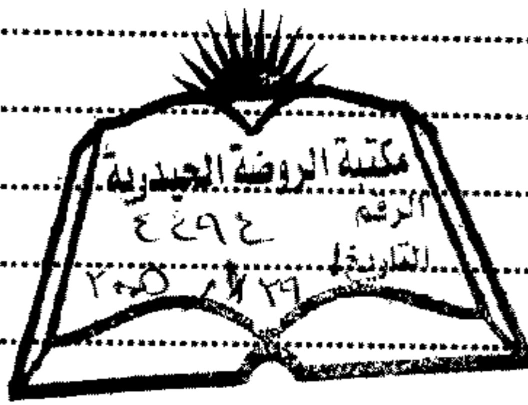
مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٤٤٩٤
التاريخ ٢٩ / ٧ / ٢٠٠٥

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملي

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعة

شَرحِ

نَهجُ البَلاغَة

لِمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الثاني

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI

Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل التاسع

«ثُمَّ فَتَقَ سُبْحانَهُ ما بَينَ السَّمٰواتِ العُلى، فَمَلأَهُنَّ أَطْواراً مِنْ مَلآئِكَتِه، فَمِنْهُمْ سُجُودٌ لا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لا يَنْتَصِبُونَ، وَصافُّونَ لا يَتَزايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لا يَسْأَمُونَ، لا يَغْشيهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلا سَهْوُ الْعُقُولِ، وَلا فَتْرَةُ الأَبْدانِ، وَلا غَفْلَةُ النِّسيانِ، وَمِنْهُمْ أُمَناءُ عَلى وَحْيِه، وَأَلْسِنَةٌ إِلى رُسُلِه، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضائِه وَأَمْرِه، وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبادِه، وَالسَّدَنَةُ لأَبْوابِ جِنانِه، وَمِنْهُمُ الثّابِتَةُ فِي الأَرَضينَ السفْلى أَقْدامُهُمْ، وَالْمارِقَةُ مِنَ السماءِ الْعُلْيا أَعْناقُهُمْ، وَالْخارِجَةُ مِنَ الأَقْطارِ أَرْكانُهُمْ، وَالْمُناسِبَةُ لِقَوائِمِ الْعَرْشِ أَكْتافُهُمْ، ناكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَينَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَأَسْتار الْقُدْرَةِ، لا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوير، وَلا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفاتَ الْمَصْنُوعينَ، وَلا يَحُدُّونَهُ بِالأَماكِنِ، وَلا يُشيرُون إِلَيْهِ بِالنَّظائِر[1]».

اللغة

(أطوار) جمع طور كثوب وأثواب، وهو في الأصل التّارة يقال: أتيته طوراً بعد طور، أي تارة بعد تارة، ويجيء بمعنى الحالة، والمراد به هنا الأصناف المختلفة كما فسّر به قوله تعالى:

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

أي مختلفين في الصّفات، أغنياء وفقراء، وزمناء وأصحاء، **(والملائكة)** مأخوذة من الألوك وهو الرّسالة، يقال: ألك بين القوم ألكاً من باب ضرب، والألوك الرّسول، وواحدها ملك، وأصله على ما قاله الفيومي ملأك، وزنه معفل، فنقلت حركة الهمزة إلى اللاّم وسقطت لكثرة الإستعمال فوزنه معفل فإنّ (الفاء) هي الهمزة وقد سقطت، وقيل: مأخوذ من لاك إذا أرسل، فملاءك مفعل فنقل الحركة وسقطت الهمزة وهي عين، فوزنه مفل وعلى كل تقدير فملك إمّا إسم مكان بمعنى محلّ الرّسالة، أو مصدر ميميّ بمعنى المفعول **(والسّجود) و (الرّكوع)** هنا جمع ساجد وراكع، وفاعل الصّفة يجمع على فعول إذا جاء مصدره عليه أيضاً

---

(١) تفسير الصافي: ٤/٢٨٦.

(والإنتصاب) القيام **(والصّف)** من صففت الشيء من باب نصر إذا نظمته طولاً مستوياً ومنه صفّ الجماعة **(والتزايل)** التفارق **(والسّامة)** الملالة والضّجر **(ويغشيهم)** مضارع غشيته أي أتيته **(والفترة)** الإنكسار والضّعف **(والسّدنة)** جمع سادن كخدمة وخادم لفظاً ومعنى **(والمارقة)** أي الخارجة يقال: مرق السّهم من الرّمية إذا خرج من الجانب الآخر، **(والأقطار)** الأطراف **(والأَركان)** جمع الرّكن كأقفال وقفل وهو جانب الشّيء والمراد هنا الأَجزاء والجوارح **(والنّاكس)** المتاطيء رأسه **(وتلفع)** بالثوب تلحف واشتمل به **(والنظائر)** جمع نظيرة وهي المثل والشبه في الأَشكال والأفعال والأَخلاق، والنّظير المثل في كلّ شيء قيل: وفي بعض النّسخ بالنّواظر، أي بالأبصار، وفي بعضها بالمواطن أي بالأَمكنة.

الإعراب

كلمة **(ثمّ)** هنا للتّرتيب الحقيقي فيكون فتق السّماوات بعد خلق الشّمس والقمر بل بعد جعلها سبعاً وخلق الكواكب فيها، ويحتمل أن يكون للتّرتيب الذكري، وناكسة وتالياها مرفوعات على أنّها أوصاف للمناسبة المرفوعة بالابتداء أو معطوفات عليها أو على الثّابتة بحذف العاطف، ومسوغ الإبتداء في المعطوفات مع نكارتها إمّا عطفها على ما يصح الإبتداء، أو كون الخبر مجروراً، مثل ولكلّ أجل كتاب، أو كون الصفة عاملة عمل الرّفع، وهذه قواعد ثلاث من القواعد المصحّحة للابتداء بالنكرات، صرّح بها ابن هشام في «**المغني**»، أو لقيام الصّفة مقام الموصوف وهو رابع القواعد المسوّغة للابتداء بالنكرة كما قرّر في الأَدبيّة، مثل مؤمن خير من مشرك، أي رجل مؤمن خير، ويحتمل أن يكون ناكسة والمرفوعان بعدها خبراً لمبتدأ محذوف، والجملة استئنافاً بيانياً كأنّه سأل عن حال الملائكة المتّصفة بالأَوصاف السّالفة وعن شأنهم، فقال عليه السلام: «هم ناكسة الأَبصار دون العرش» هذا وعن بعض النّسخ ناكسة ومتلفعين ومضروبة بالنّصب على الحالية، ومثلها محلّ الجملات بعدها، أعني قوله لا يتوهّمون (ا هـ).

المعنى

لما ذكر عليه السلام كيفيّة خلق السّماوات السّبع وتزيينها بزينة الشّمس والقمر والكواكب، أشار بعد ذلك إلى سكّانها وحالات السّاكنين فيها وصفاتهم وأصنافهم المختلفة باختلاف الصّفات، وأقسامهم الكثيرة بكثرة الشّؤن والحالات فقال عليه السلام: (ثم فتق ما بين السّماوات العلى) المستفاد من كلام الشّارح البحراني أن كلمة ثمّ (هنا) للتّرتيب الذّكري حيث قال: فإن قلت: لم أخّر ذكر فتق السّماوات وإسكان الملائكة لها عن ذكر إجراء الشّمس والقمر وتزيينها بالكواكب ومعلوم أنّ فتقها متقدّم على اختصاص بعضها ببعض الكواكب؟ قلت: إنّ إشارته إلى تسوية السماوات إشارة جمليّة، فكأنّه قدّر أوّلاً أن خلق السّماوات كرة واحدة كما عليه

بعض المفسرين، ثم ذكر عُلياهنّ وسفلاهن لجريانهما مجرى السّطحين الدّاخل والخارج لتلك الكرة، ثم أشار إلى بعض كمالاتها وهي الكواكب والشّمس والقمر جملة، ثم بعد ذلك أراد التفصيل فأشار إلى تفصيلها وتمييز بعضها عن بعض بالفتق وإسكان كلّ واحدة منهنّ ملاءً معيّناً من الملائكة، ثم عقب ذلك بتفصيل الملائكة، ولا شك أن تقديم الإجمال وتعقيبه بالتفصيل أولى في الفصاحة، انتهى.

أقول: ظاهر كلمة (ثمّ) وظاهر سياق كلامه عليه السلام أنها هنا للتَّرتيب الحقيقي فيستفاد منهما أن خلق السّماوات بعد خلق الشّمس والقمر والكواكب، وبعد جعلها سبباً، ودعوى معلوميّة تقدّم الفتق على اختصاص بعضها ببعض الكواكب ممنوعة إذ لم يقم دليل على التقدّم، بل يمكن أن يكون السّماوات السّبع مرتتقة مطبقة مخلوقة فيها الكواكب، ثم فصّل بينها بالهواء ونحوه، كما روي نظيره في «**مجمع البيان**» عن ابن عبّاس في تفسير الآية الشّريفة:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[الأنبياء: ٣٠].

حيث قال: المعنى كما كانتا ملتزقتين منسدّتين ففصّلنا بينهما بالهواء، عن ابن عبّاس وغيره، انتهى.

فإن قيل: قد مضى في ثالث تنبيهات الفصل السّابق في حديث أبي جعفر عليه السلام ما يدل على بطلان هذا التّفسير، حيث أمر الشامي بالإستغفار عن زعم كون المراد بالرّتق والفتق الإلتصاق والإنفصال إلى آخر ما مضى.

قلت: ما ذكرناه هنا من «**مجمع البيان**» إنّما هو على سبيل التّنظير، ضرورة أنّ كلامنا في فتق السّماوات، وتفسير ابن عبّاس كالحديث السّابق ناظران إلى فتق السّماء والأرض، وأحدهما غير الآخر، وبطلان احتمال الالتصاق بين السّماء والأرض بدليل خاص لا يوجب بطلان احتمال الالتصاق في السّماوات السّبع.

والحاصل: أنّه لا دليل على كون (ثمّ) في كلامه عليه السلام للترتيب الذكري بخصوصه بل يحتمل ذلك وكونها للترتيب المعنوي، وعلى أي تقدير ففي كلامه عليه السلام دلالة على بطلان مذهب الفلاسفة من تماس الأفلاك وعدم الفصل بينهما بهواء ونحوه.

وكيف كان فلما خلق الله سبحانه السّماوات وفصّل بعضها عن بعض (ملأهنّ أطواراً من ملائكته) وأسكنهم فيها على وفق ما يقتضيه تدبيره وحكمته، وللنّاس في ماهية الملائكة آراء متشتّة وأهواء مختلفة.

فمنهم من قال: إنّها أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكلات بأشكال مختلفة كاملة في

العلم والقدرة على الأَفعال الشّاقة، مسكنها السّماوات، رسل الله إلى أنبيائه وأمناءه على وحيه يسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، نسبه في «**شرح المقاصد**» إلى أكثر الأمة والفخر الرّازي إلى أكثر المسلمين.

ومنهم من قال: إنّها هي هذه الكواكب الموصوفة بالإسعاد والإنحاس، المسعدات ملائكة الرّحمة، والمنحسات ملائكة العذاب، وهو مذهب عبدة الأَوثان.

ومنهم من قال: إنّهم متولدون من جوهر النّور لا على سبيل التناكح، بل على سبيل تولد الضوء من المضيء، والحكمة من الحكيم، كما أنّ الشّياطين متولدون من جوهر الظلمة حسب تولد السّفه من السّفيه، وهو رأي معظم المجوس والثنويه المثبتين للأَصلين حسب ما مر تفصيله في «**شرح الفصل السّابع**» من فصول الخطبة، وهذه الأَقوال متّفقة في كون الملائكة أشياء متحيزة جسمانية.

ومنهم من قال: إنّهم في الحقيقة هي الأنفس النّاطقة بذاتها المفارقة للأَبدان على نعت الصّفا والخيريّة، كما أنّ الشّياطين هي الأَنفس النّاطقة على وصل الخباثة والكدرة، وهو قول طائفة من النّصارى.

ومنهم من ذهب إلى أنها جواهر قائمة بأنفسها ومخالفة بنوع النّفوس النّاطقة البشريّة من حيث الماهيّة وأكمل منها قوة، وأكثر علماً، وإنّما النفوس البشريّة جارية منها مجرى الأَضواء بالنسبة إلى الشّمس، ثم إن هذه الجواهر على قسمين: منها ما هي بالنّسبة إلى أجرام الأَفلاك والكواكب كنفوسنا النّاطقة بالنسبة إلى أبداننا، ومنها: ما هي أعلى شأناً من تدبير أجرام الأَفلاك، بل هي مستغرقة في معرفة الله ومحبّته، ومشتغلة بطاعته، وهذا القسم هم الملائكة المقرّبون، ونسبتهم إلى الملائكة الذين يدبّرون السّماوات كنسبة أولئك المدبرين إلى نفوسنا النّاطقة، وهذان القسمان اتّفقت الفلاسفة على إثباتهما.

ومنهم من أثبت نوعاً آخر وهي الملائكة المدبرة لأَحوال هذا العالم السفلي ثم قالوا: إنّ المدبرات إن كانت خيّرة فهم الملائكة، وإن كانت شريرة فهم الشّياطين، وهذه الأَقوال الأَخيرة متّفقة في نفي التّحيز والجسمية عنها، هذا.

وقال المحدث المجلسي طاب ثراه في البحار: إعلم أنه اجتمعت الإماميّة بل جميع المسلمين إلاّ من شذّ منهم من المتفلسفين الذين أدخلوا أنفسهم بين المسلمين لتخريب أصولهم وتضييع عقائدهم: على وجود الملائكة، وأنّهم أجسام لطيفة نورانية أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع وأكثر قادرون على التّشكل بالأَشكال المختلفة، وأنّه سبحانه يورد عليهم بقدرته ما شاء من الأَشكال والصّور على حسب الحكم والمصالح، ولهم حركات صعوداً وهبوطاً، وكانوا يراهم الأَنبياء والأَوصياء عليهم السّلام، والقول بتجرّدهم وتأويلهم بالعقول والنّفوس

الفلكية والقوى والطبائع وتأويل الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة تعويلاً على شبهات واهية واستبعادات وهميّة، زيغ عن سبيل الهدى، واتّباع لأهل الهوى والعمى، انتهى[١].

ثمّ إنّ للملائكة أقساماً لا تحصى حاصلة من اختلافهم في النّعوت والصّفات، وتفاوتهم في المراتب والدّرجات، فمنهم الكروبيون ومنهم الرّوحانيون ومنهم المدبّرون ومنهم الحافظون ومنهم المسبحون ومنهم الصّافون ومنهم أمناء الوحي وسفراء الرسل ومنهم الخزنة للجنان ومنهم الزّبانية للنيران إلى غير ذلك، وقد أشار إلى جملة منها الإمام سيّد السّاجدين وزين العابدين عليه السلام في دعاء الصّحيفة في الصلاة على حملة العرش وكل ملك مقرّب، وأمّا الإمام عليه السلام فقد قسمهم هنا إلى أقسام أربعة وفصلهم بكلمة (من)، والظاهر أنّ القسمة ليست حقيقية، بأن يكون بين الأقسام تبايناً وانفصالاً حقيقياً، ضرورة جواز إتّصاف بعض هذه الأقسام بالأوصاف الثّابتة لغيره، وجواز اجتماع اثنين منها، أو ثلاثة أو جميع الأربعة في نوع واحد أو فرد واحد كما قال عليه السلام في الصّحيفة السّجادية:

«أللهُمّ وَحَمَلَةُ عَرشِكَ الّذينَ لا يَفْتُرُون مِنَ تَسْبيحِكَ، ولا يَسأمونَ (مِن) تقدِيسِكَ»[٢].

حيث أثبت لحملة العرش كونهم مسبحين وقد فصل هنا حيث قال عليه السلام: ومسبّحون لا يسأمون، ومنهم الثّابتة (ا هـ) وقد علم ممّا ذكرنا أنّ هذه القسمة ليست أيضاً بعنوان منع الجمع، فبقي كونها بعنوان منع الخلوّ، أو جميع أصناف الملائكة من المذكورين هنا وغيرهم يمكن دخوله في قوله عليه السلام: «ومسبّحون لا يسأمون»، إذ ما من ملك إلاّ وهو مسبّح له سبحانه كما قال سبحانه حكاية عنهم: ونحن نسبح بحمدك، غاية الأمر أنّ بعضاً منهم متّصف مع ذلك بصفة أخرى أوجبت جعله قسماً برأسه فافهم.

وممّا ذكرنا يظهر ما في كلام القطب الرّاوندي على ما حكى عنه الشّارح المعتزلي من جعله حفظة العباد والسّدنة لأبواب الجنان مع أمناء الوحي قسماً واحداً وإرجاعه الأقسام الأربعة إلى الثلاثة، كما يظهر منه أيضاً ما في كلام الشّارح البحراني من جعلهم أمناء الوحي وألسنة الرّسل والمختلفين بالقضاء والأمر، داخلين في الأقسام السّابقة على هذا القسم في كلامه عليه السلام، لما عرفت من أنّ تفصيله في الأقسام باعتبار اختلاف الصّفات، لا باعتبار القسمة الحقيقية، ومعه لا داعي إلى تقليل الأقسام وإرجاع بعضها إلى بعض وإدخالها فيه، وإن كان المقصود بيان أن حفظة العباد والسدنة للأبواب كما أنّ فيهم وصف الحافظة والسدانة كذلك فيهم وصف الأمانة.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/٢٠٣، ومستدرك سفينة البحار: ٩/٤٣.

(٢) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين: ٣٣.

فتقول: إنّ فيهم وصف المسبحية أيضاً فما الدّاعي إلى جعلهم مع الأمناء بخصوصهم قسماً واحداً، وكذلك نقول: إنّ اتّصاف أمناء الوحي وألسنة الرّسل والمختلفين بالقضاء والأمر، بكونهم مع ذلك أيضاً سجوداً لا يركعون مثلاً لا يوجب إدخالهم في هذا القسم، لأنّا نقول: إنهم متّصفون مع ذلك بكونهم حفظة العباد أيضاً فإنّ جبرئيل مثلاً مع كونه أمين الوحي كان حافظاً لإبراهيم عليه السلام مثلاً عند إلقاء النّار، وليوسف عليه السلام في غيابة الجبّ ونحو ذلك.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى شرح الكلام وتوضيح الأقسام التي أشار إليها بقوله: (فمنهم) أي القسم الأوّل منهم (سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافّون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسأمون) يعني أنّ بعضاً منهم ساجد لا يرفع رأسه من السجود ليركع، ومنهم من هو راكع لا يقوم من ركوعه، ومنهم صافّون للعبادة لا يتفارقون من مكانهم، ومنهم مسبحون لا يمّلون من تسبيحهم، كما قال سبحانه حكاية عنهم:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦].

إشارة إلى تفاوت مراتبهم ودرجاتهم في العبادة، أي ما منّا أحد إلاّ له مقام معلوم في العبادة والمعرفة والإنتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم، وإنّا لنحن الصافّون في أداء الطاعة ومنازل الخدمة، وإنّا لنحن المسبحون المنزّهون الله عمّا لا يليق به.

وقيل: إنّ المراد بالصّافين القائمون صفوفاً في الصلاة، وعن الكلبي صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدّنيا في الأرض، وعن الجبائي المعنى صافون بأجنحتنا في الهواء للعبادة والتّسبيح، والمراد بالمسبحين القائلون سبحان الله على وجه التعظيم، لله هذا.

وينبغي أن يعلم أنّ المراد بالسجود والرّكوع والصّف والتسبيح في كلامه عليه السلام ما هو المتبادر منها، أعني وضع الجبهة على ما يصحّ السجود عليه في الأوّل، والإنحناء في الثّاني، والقيام في خط مستطيل في الثّالث، وقول سبحان الله ونحوه في الرابع، وأنكر الشّارح البحراني ذلك ولا بأس بنقل عبارته لتوضيح ما رامه.

قال: نعم إن السجود والرّكوع والصّف والتسبيح عبادات متعارفة من الحقّ ومتفاوتة في استلزام كمال الخشوع والخضوع، ولا يمكن حملها على ظواهرها المفهومة منها، لأنّ وضع الجبهة على الأرض وإنحناء الظهر والوقوف في خط واحد وحركة اللّسان بالتسبيح أمور مبنيّة على وجود هذه الآلات التي هي خاصة ببعض الحيوانات، وبالحري أن يحمل تفاوت المراتب المذكورة لهم على تفاوت كمالاتهم في الخضوع والخشوع لكبرياء الله وعظمته، إطلاقاً للفظ الملزوم على لازمه على أنّ السجود في اللّغة هو الإنقياد والخضوع كما مر.

إذا عرفت ذلك فنقول: يحتمل أن يكون قوله منهم سجود إشارة إلى مرتبة الملائكة

المقربين، لأَن درجتهم أكمل درجات الملائكة، فكانت نسبة عبادتهم وخضوعهم إلى خضوع من دونهم كنسبة خضوع السجود إلى خضوع الرّكوع.

فإن قلت: إنّه قد تقدّم أنّ الملائكة المقرّبين مبرؤون عن تدبير الأَجسام والتعلّق بها، فكيف يستقيم أن يكونوا من سكّان السّماوات ومن الأطوار الذين ملئت بهم.

قلت: إنّ علاقة الشّيء بالشّيء وإضافته إليه يكفي فيها أدنى مناسبة بينهما، والمناسبة هنا حاصلة بين الأَجرام السّماويّة وبين هذا الطور من الملائكة، وهي مناسبة العلّة للمعلول، والشّرط للمشروط، انتهى، وأشار بقوله: فإن قلت: إنه قد تقدّم (ا هـ)، إلى ما ذكره سابقاً من أن المقرّبين هم الذّوات المقدّسة عن الجسمية والجهة، وعن حاجتها إلى القيام بها وعن تدبيرها (ا هـ).

أقول: وأنت خبير بما فيه.

أما أولاً: فلأَنّ صرف الأَلفاظ المذكورة عن معانيها الظاهرة فيها حسب ما اعترف به لا وجه له، بل قد قامت الأَخبار المتواترة على المعنى الظاهر، مثل ما رواه في «**البحار**» عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون إنّ السّماء أطت[1] وحقّ لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلاّ وملك واضع جبهته ساجد الله»[2].

وعن ابن جبير أنّ عمر سأل النبي ﷺ عن صلاة الملائكة فلم يرد عليه شيء فأتاه جبرئيل فقال إنّ أهل سماء الدّنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، وأهل السّماء الثّانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وأهل السّماء الثّالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون: سبحان الحيّ الذي لا يموت.

وفي «**الأَنوار**» عن الصّادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ مررنا ليلة المعراج بملائكة من ملائكة الله عزّ وجل، خلقهم الله كيف شاء، ووضع وجوههم كيف شاء ليس شيء من أطباق وجوههم إلاّ وهو يسبح الله ويحمده من كلّ ناحية بأصوات مختلفة أصواتهم مرتفعة بالتّسبيح والبكاء من خشية الله، فسألت جبرئيل عنهم، فقال: كما ترى خلقوا إنّ الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلّمه قط، ولا رفعوا رؤوسهم إلى ما فوقهم، ولا خفضوا رؤوسهم إلى ما تحتهم، خوفاً من الله وخشوعاً، فسلّمت عليهم فردّوا عليّ إيماءً برؤوسهم، ولا ينظرون إليّ من الخشوع، فقال لهم جبرئيل: هذا محمّد نبيّ الرحمة أرسله الله إلى العباد رسولاً ونبيّاً، وهو خاتم الأَنبياء وسيّدهم، قال: فلمّا سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا عليّ بالسّلام، وبشّروني

(١) أي ناله كردٌ منه.

(٢) بحار الأنوار: ١٩٩/٥٦.

وأكرموني بالخير لي ولأمتي»[1].

قال الشارح: إنّه جاء في الخبر أنّ حول العرش سبعين ألف صفّ قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتّهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صفّ قد وضعوا الإيمان على الشّمائل ما منهم أحد إلاّ وهو يسبّح إلى غير ذلك، ممّا يقف عليه المتتبّع، فإن نصّ الرّواية الأولى أن سجود الملائكة إنّما هو بوضع الجبهة، والمستفاد من تخصيص السّاجدين بالسّماء الدّنيا والرّاكعين بالثّانية، والقائمين بالثّالثة، في الرّواية الثّانية أنّ المراد من كلّ من الألفاظ المذكورة معانيها المتعارفة، إذ لو أريد المعنى الذي ذكره الشّارح لزم أن يكون السّاجدون الذين هم أكمل خشوعاً، أدنى درجة وأسفل مكاناً من الرّاكعين الذين هم أدنى خشوعاً منهم، وهكذا وهو كما ترى.

ومنه يظهر أيضاً فساد ما ذكره الشّارح في «**شرحه**» من جعل السّاجدين عبارة عن المقرّبين، والراكعين عبارة عن حملة العرش، والصّافين عبارة عن الحافّين حول العرش، بملاحظة أنّ زيادة الخشوع يوجب ارتفاع الدّرجة، والسّاجد أعلى خشية من الرّاكع فيكون أعلى دركة منه، والرّاكع أكمل خشوعاً من الصّافين فيكون أعلى مقاماً منهم.

وجه ظهور الفساد أنّ ما ذكره من قبيل الإستدلال بالعقل، ولا عبرة به في مقابل النصّ الدّال على الخلاف، وأمّا الرّواية الثّالثة فقد استفيد منها أنّ تسبيح الملائكة إنّما هو برفع الأصوات وتكلّمهم بحركة اللّسان، حيث إنّهم ردّوا السّلام أوّلاً على النّبي بالإيماء، ثم تعرض عليهم جبرئيل بالتكلّم فسلّموا عليه ﷺ وبشروه، وأمّا الرّواية الرّابعة فقد دلت على أنّ صفّ الملائكة إنّما هو بالقيام، كما دلت على تسبيحهم برفع الأصوات، هذا.

وممّا ذكرناه عرفت أيضاً ما في تخصيص الجوارح والآلات ببعض الحيوات، وإنكار ثبوتها في حقّ الملائكة على ما هو المستفاد من ظاهر كلامه، فإنّ هذا عجب غاية العجب، ضرورة أنّ الملائكة لهم أيد وأرجل وعواتق وأبصار ووجوه وأجنحة إلى غير ذلك من الجوارح المثبتة لهم في الآيات والأخبار والآثار، بل كان أن يكون ضرورياً، غاية الأمر أنّ جوارحهم ليس من قبيل جوارحنا كثيفة، بل نورانية لطيفة، والظاهر أنّ ما ذكره من فروعات مذهب الفلاسفة المستندة إلى الأوهام السخيفة والعقول النّاقصة والإستبعادات الوهميّة حسبما عرفت سابقاً، ولا يعبأ بها قبال الأدلة القاطعة والبراهين السّاطعة.

وأما ثانياً: فلأنّه لقائل أن يقول: إنّه إذا لم يكن خضوع الملائكة وخشوعهم بعنوان السّجدة والرّكوع والقيام والتّسبيح ونحو ذلك من العناوين المتصوّرة في عبادات البشر، ففي

(١) تفسير نور الثقلين: ٣/ ١٠٧.

ضمن أيّ عنوان يخضعون ويخشعون؟

وإن كان المراد بالخضوع التكويني، ففيه أنّ الخضوع التكويني عام لجميع الموجودات، ولا اختصاص له بالملائكة، إذ كلّ شيء خاضع له ومقهور تحت قدرته، قال:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء: ٤٤].

وإن أريد الخضوع التكليفي كما هو الظاهر فلا بدّ وأن يكون التكليف في ضمن عنوان من العناوين، والثابت في الأخبار أنّ عبادتهم إنّما هو في ضمن واحد من العناوين المذكورة، ولم يثبت عنوان آخر وراء تلك العناوين من الأدلة النّقلية والعقل لا مسرح له فيها.

هذا كلّه مضافاً إلى قوله سبحانه:

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠-٣١].

فإنّ ذلك مقيد للعموم من جهات عديدة، فيدلّ على سجود جميع أصناف الملائكة وآحادهم وحينئذٍ نقول: إنّ سجدتهم لآدم إمّا أن تكون بالعنوان المتعارف الذي هو وضع الجبهة كما هو الظاهر، ففيه دلالة على هدم جميع ما قاله الشّارح، وإمّا أن تكون عبارة عن مجرّد إظهار التّواضع فهو خلاف الظاهر أولاً من حيث إنّهم أظهروا التّواضع لآدم، واعترفوا بفضيلته حين أنبأهم بالأسماء **وثانياً**: من حيث إن حكاية حال قوم لقوم بألفاظ مخصوصة يوجب إرادة المعاني المتعارفة عند المحكي لهم من هذه الألفاظ، ولا ريب أنّ المتبادر من السّجدة هو المعنى الشرعي، هذا كلّه مضافاً إلى إفادة بعض الأخبار كون سجودهم بالعنوان المتعارف، وبعد التّنزل نقول: إنّ أكثر المفسرين احتملوا إرادة كلّ من المعنيين، فلو لم يتصوّر في حقهم وضع الجبهة لما احتملوا ذلك بل جعلوا الآية نصّاً في المعنى الآخر.

وأما ثالثاً: فإنّ احتماله كون المراد بالسّجود الملائكة المقرّبون نظراً إلى كون درجتهم أكمل الدّرجات كما أنّ خضوع السّجودي أفضل الخضوعات ممنوع، لما قد مرّ في الرّواية السّابقة من أنّ أهل السّماء الدّنيا هم السّاجدون، وأنّه ليس في السّماء موضع أربع أصابع إلاّ وفيها ملك ساجد، مع أنّ المقرّبين عنده أرفع درجة من حملة العرش الذين هم أعلى درجة من أهل السّماء الدّنيا بمراتب، ومن أهل سائر السّماوات أيضاً.

وأما رابعاً: فإنّ المستفاد من الإيراد الذي أورده على نفسه من كون المقرّبين منزّهين عن تدبير الأجسام (ا هـ)، وتقريره في الجواب ذلك حيث لم يتعرّض لردّه مضافاً إلى تصريحه سابقاً بما ذكره في الإيراد حسب ما حكيناه عنه: إنّ المقربين عنده منزّهون عن الجهة والجسميّة وتدبير الأجسام والتعلّق بها كما هو رأي الفلاسفة الذي بيّناه سابقاً، وعلى ذلك فنقول إنّ جبرئيل هل هو ملك مقرّب أم لا؟

فإن قال: لا ولا أظنّه قائلاً به فقد ردّ قوله سبحانه في وصفه:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

فإنّ المكانة هو القرب كما صرّح به المفسّرون، وقوله عليه السلام في الصحيفة السجادية:

«وَجِبْرِيل الأَمين عَلى وَحْيك، المُطاعِ في أهل سَمواتِكَ، المَكين لَدَيْكَ المُقَرَّبِ عِنْدكَ»[1].

والأَخبار الكثيرة الدالة على ذلك، مثل ما رآه عليّ بن إبراهيم في حديث المعراج قال جبرئيل: أقرب الخلق إلى الله أنا وإسرافيل إلى غير ذلك ممّا لا حاجة إلى ذكره.

وإن قال نعم وهو الظاهر من كلامه بل صريحه في ذيل قوله: ومنهم أمناء على وحيه، فنقول: إنّه كيف لا يكون في جهة ومكان ولقد قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ٢٣﴾[التكوير: ٢٣].

وكيف يمكن إنكار جسميّته وقد ملأ ما بين الخافقين بأجنحته، وكيف ينكر تدبيره الأَجسام مع أنّه كان ناصراً للنبي صلى الله عليه وآله في غزواته، ومصاحباً معه في خلواته، وقالعاً لبلاد قوم لوط، ومهلكاً بصيحته لثمود، وقد وصفه الله بكونه مطاعاً في السّماوات ومعناه أن يطاع له في الأَمر والنّهي، ومعلوم أن الأَمر والنّهي إنّما يكونان لتدبير الأمور.

وأما خامساً: فإنّ ما ذكره من كفاية أدنى الملابسة في صحّة الإضافة مسلّم، إلا أنّ هذا الجواب يدفعه ما مرّ في الرّواية، من أنّه ليس في السّماء موضع أربع أصابع إلاّ وفيها ملك ساجد، ومثله، الرّواية الأخرى، فإنهما صريحتان في سكون الملائكة السّاجدين في السّماء بعنوان الحقيقة لا بعنوان المجاز.

وأما سادساً: فإنّ قوله: والمناسبة حاصلة بين الأجرام السّماوية وبين هذا الطور من الملائكة، وهي مناسبة العلة للمعلول، والشرط للمشروط، ممّا لا يفهم معناه إذا العلّة الفاعلية للسّماوات هو الله سبحانه، والعلة المادّية هو الماء أو الدّخان أو الزّبد أو نور محمّد صلى الله عليه وآله على ما مرّ، ولا علية للملائكة في شيء منها، والقول بأنّه سبحانه علّة العلل وإنّ العلّة للسّماوات العقول المجرّدة، هو مذهب الفلاسفة الباطل عند الإماميّة.

وكيف كان فقد وضح وظهر أن الملائكة المشغولين بطاعة الله على أصناف أربعة: منهم

(١) الصحفية السجادية الكاملة ـ الأمام زين العادين: ٣٤.

سجود، ومنهم ركوع، ومنهم صفوف لا يتفارقون عن صفّهم، ومنهم مسبحون لا يملّون من تسبيحهم بل يتقوّون به، كما قال سبحانه:

﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[فصلت: ٣٨].

(لا يغشيهم نوم العيون) الظاهر رجوع الضمير إلى الصّنف السّابق، والظاهر إطراد الأوصاف في الجميع.

ثمّ مفاد كلامه عليه السلام عدم غشيان النوم للملائكة وعلّله الشّارح البحراني (ره) بأنّ غشيان النّوم لهم مستلزم لصحة النّوم عليهم، واللازم باطل في حقهم، فالملزوم مثله، أمّا الملازمة فظاهرة، وأمّا بطلان اللازم فلأن النوم عبارة عن تعطيل الحواس الظاهرة عن أفعالها، لعدم انصباب الرّوح النّفساني إليها، أو رجوعها بعد الكلال والضعف، والملائكة السّماويّة منزّهون عن هذه الأسباب والآلات، فوجب أن يكون النوم غير صحيح في حقهم فوجب أن لا يغشيهم.

وعن القطب الرّاوندي أنّ معنى قولهم لا يغشيهم نوم العيون يقتضي أنّ لهم نوماً قليلاً لا يغفلهم عن ذكر الله، فأمّا الباري سبحانه فإنّه لا تأخذه سنة ولا نوم أصلاً مع أنّه حيّ، وهذه هي المدحة العظمى.

وأورد عليه الشّارح المعتزلي بقوله: ولقائل أن يقول: لو ناموا قليلاً لكانوا زمان النّوم وإن قلّ غافلين عن ذكر الله، لأنّ الجمع بين النوم وبين الذكر يستحيل، ثم قال، والصّحيح أنّ الملك لا يجوز عليه النّوم كما لا يجوز عليه الأكل والشّرب، لأنّ النّوم من توابع المزاج والملك لا مزاج له، وأمّا مدح الباري بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم فخارج عن هذا الباب، لأنّه يستحيل عليه النّوم إستحالة ذاتية لا يجوز تبدّلها، والملك يجوز أن يخرج عن كونه ملكاً بأن يخلق في أجزاء جسميّة رطوبة ويبوسة وحرارة وبرودة يحصل من إجتماعها مزاج ويتبع ذلك المزاج النّوم، فاستحالة النّوم عليه إنّما هي ما دام ملكاً، فهو كقولك: الماء بارد، أي ما دام ماء لأنّه يمكن أن يستحيل هواء ثم ناراً فلا يكون بارداً لأنّه ليس حينئذٍ ماء، والباري جلّت عظمته يستحيل على ذاته أن يتغير، فاستحال عليه النوم إستحالة مطلقة مع أنه حيّ، ومن هذا نشأ التمدّح، انتهى[1].

وظاهره كما ترى إنكار صحة النّوم عليه مطلقاً وإستحالته في حقّه، لأنّ تجويزه له مع الخروج عن حقيقته الملكية ممّا لا يقابل بالإنكار وخارج عن محلّ الكلام، وأمّا المستفاد من الكلام المحكي عن الرّاوندي فهو أنّه يعرضهم حالة السنة وهو أوّل النّعاس ولا يعرضهم النّوم الموجب للغفلة.

---

(١) شرح النهج: ١/ ٩٣.

ويمكن الإستشهاد عليه بما رواه الصدوق بإسناده عن داود العطار، قال: قال لي بعض أصحابي: أخبرني عن الملائكة أينامون؟ فقلت: لا أدري، فقال: يقول الله عزّ وجلّ:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ٢٠].

ثم قال: ألا أطرفك عن أبي عبد الله عليه السلام فيه بشيء؟ قلت: بلى، فقال: سئل عن ذلك فقال: «ما من حيّ إلاّ وهو ينام ما خلا الله وحده عزّ وجلّ»: فقلت: يقول الله عزّ وجل يسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون، فقال: «أنفاسهم تسبيح» هذا[١].

وبه ظهر الجواب عمّا أورده الشّارح المعتزلي بأنّهم لو ناموا قليلاً لكانوا زمان النّوم غافلين، كما ظهر به وجه الجمع بين قوله عليه السلام: «لا يغشيهم نوم العيون»، وبين الرّواية المرويّة في **«العلل»** لمحمد بن عليّ بن إبراهيم بن هاشم، قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن الملائكة يأكلون ويشربون وينكحون، فقال: «لا، إنهم يعيشون بنسيم العرش»، فقيل له: ما العلّة في نومهم؟ فقال: «فرقاً بينهم وبين الله عزّ وجلّ، لأَنَّ الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله».

وحاصل الجمع أن يحمل النوم في هذه الرّواية وما شابهها من الأَخبار المثبتة له، على النوم القليل المعبر عنه بالسنة الغير المانعة عن الذكر والتسبيح. وفي قوله: لا يغشيهم نوم العيون على النوم الغالب الموجب للغفلة، ولا يبعد إستفادة هذا المعنى من قوله: لا يغشيهم، كما ذكره الرّاوندي بأخذه من الغشي الموجب لتعطيل القوى المحركة، إلاّ أنه خلاف الظاهر، والظاهر أنه مأخوذ من غشيته إذا أتيته، فلا دلالة فيه من حيث الوضع، وإنما الدّلالة باقتضاء الجمع الذي ذكرناه، وعليه فالمعنى أنه لا يأتيهم نوم العيون الموجب للغفلة، كما يأتي غيرهم.

وهذا نظير ما روي في خواص النبي صلى الله عليه وآله، من أنه كانت تنام عينه ولا ينام قلبه انتظاراً للوحي الإلهي، فالنوم وإن اعتراه، لكنه لا يعطله عن مراقبة ربه سبحانه كما يعطل غيره والله العالم **(ولا سهو العقول، ولا فترة الأَبدان، ولا غفلة النسيان)** الفرق بين السهو والنسيان والغفلة: أن السهو هو عزوب الشيء وانمحاؤه عن القوّة الذاكرة مع ثبوته في الحافظة بحيث يلحظ الذّهن عند الإلتفات إليه، والنسيان هو ذهابه عنهما معاً بحيث يحتاج في تحصيله إلى كسب جديد، والغفلة أعمّ منهما، ولما كانت هذه الأمور الثلاثة من عوارض القوى الإنسانية صحّ سلبها عن الملائكة، لعدم وجود تلك المعروضات فيهم كما في الإنسان، وسلب الأَعمّ وإن كان مستلزماً لسلب الأَخص إلاّ أنه عليه السلام جمع فيهما لزيادة التّوكيد.

(١) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٤١٧.

وأمّا سلب فتور الأبدان فلأنّ الفتور هو وقوف الأعضاء البدنية عن العمل بسبب تحلل الأرواح البدنية وضعفها ورجوعها للإستراحة، وكلّ ذلك من توابع المزاج الحيواني، فلا جرم صحّ سلبه عنهم، وفاقاً لقوله سبحانه: يسبّحون الليل والنّهار لا يفترون.

(و) **القسم الثاني**: (**منهم أمناء على وحيه**) الحافظون له مؤدّين إياه إلى رسله جمع الأمين وهو الحافظ لما كلف بحفظه على ما هو عليه ليؤديه إلى مستحقّه، قال سبحانه:

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠-٢١].

روي أنّ رسول الله ﷺ قال لجبرئيل: «ما أحسن ما أثنى عليك ربّك: ذي قوّة عند ذي العرش (ا هـ) فما كانت قوتك؟ وما كانت أمانتك»؟ فقال: وأمّا قوّتي فإنّي بعثت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن في كلّ مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذّراري، فحملتهم من الأرض السّفلى حتّى سمع أهل السّماوات أصوات الدّجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهنّ. وأمّا أمانتي فإنّي لم أومر بشيء فعدلت إلى غيره، وفي رواية أخرى فعدوته إلى غيره[١].

وأمّا أمناء الوحي فقد أشير إليهم في جملة من الأخبار.

مثل ما رواه في «**الاختصاص**» بإسناده عن ابن عبّاس، قال عبد الله بن سلام للنّبي ﷺ فيما سأله: من أخبرك؟ قال النّبي ﷺ: «جبرئيل»، قال: عمّن؟ قال: «عن ميكائيل»، قال: عمّن؟ «قال عن إسرافيل»، قال: عمّن؟ قال: «عن اللوح المحفوظ»، قال: عمّن؟ قال: «عن القلم»، قال: عمّن؟ قال: «عن ربّ العالمين»، قال: صدقت[٢].

ونظيره ما رواه الصّدوق في العيون بإسناده عن علي بن هلال، عن عليّ بن موسى الرّضا، عن موسى بن جعفر، عن جعفر بن محمّد، عن محمّد بن علي، عن عليّ بن الحسين، عن الحسين بن علي، عن عليّ بن أبي طالب، عن النّبي عليهم السّلام، عن جبرئيل، عن ميكائيل، عن إسرافيل، عن اللّوح، عن القلم، قال الله عزّ وجلّ: ولاية عليّ بن أبي طالب حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي.

وفي بعض الأخبار أنّ جبرئيل قال لرسول الله ﷺ في وصف إسرافيل: هذا حاجب الرّب، وأقرب خلق الله منه، واللوح بين عينيه من ياقوتة حمراء، فإذا تكلّم الرّب بالوحي ضرب اللوح جبينه، فنظر فيه ثم ألقى إلينا نسعى به في السّماوات والأرض.

(١) تفسير نور الثقلين: ٥/٥١٨.

(٢) الاختصاص: ٤٥.

ولعلّ الإختلاف فيها محمول على اختلاف الكيفيات، أو بحسب اختلاف المقامات، والمستفاد من الرّواية الأخيرة كظاهر الأولى كون اللوح ورقاً، كما أنّ مفاد الثّانية كونه ملكاً، وكلاهما ممّا ورد في الأخبار كالقلم، وقد ظهر من هذه الأخبار كيفيّة تلقّي الوحي.

وفي رواية أخرى بنحو آخر، وهو ما روي أنّ رسول الله ﷺ قال لجبرئيل: «من أين تأخذ الوحي»؟ قال: آخذه من إسرافيل، قال: «من أين يأخذه إسرافيل»؟ قال: يأخذه من ملك فوقه من الرّوحانيّين، قال: «ممّن يأخذه ذلك الملك»؟ قال: يقذف في قلبه قذفاً، هذا[1].

وقال الشّارح البحراني: يشبه أن يكون هذا القسم داخلاً في الأقسام السّابقة من الملائكة، وإنّما ذكره ثانياً باعتبار وصف الأمانة على الوحي والرسالة ثم أورد على نفسه بقوله **فإن قلت**: كيف يصحّ أن يكون هذا القسم داخلاً في السّجود، لأنّ من كان أبداً ساجداً كيف يتصوّر أن يكون مع ذلك متردّداً في الرّسالة والنّزول والصّعود، مختلفاً بالأوامر والنّواهي إلى الرّسل، وأجاب بقوله **قلت**: إنّا بيّنا أنّه ليس المراد بسجود الملائكة هو وضع الجبهة على الأرض بالكيفيّة التي نحن عليها، وإنّما هو عبارة عن كمال عبوديتهم لله وخضوعهم تحت قدر قدرته، والإمكان والحاجة تحت ملك وجوب وجوده، ومعلوم أنّه ليس بين السّجود بهذا المعنى وبين تردّدهم بأوامر الله واختلافهم بقضائه على وفق مشيّته وأمره منافاة، بل كلّ ذلك من كمال عبوديتهم وخضوعهم لعزّته وإعترافهم بكمال عظمته، انتهى.

أقول: وفيه بعد الغضّ عمّا أوردنا عليه سابقاً في إدخال هذا القسم في القسم السّابق، مضافاً إلى ما ذكرناه أيضاً من منع كون السّجود بمعنى الخضوع المطلق حسبما مرّ تفصيلاً بما لا مزيد عليه، أنّه جعل السّاجدين عبارة عن المقرّبين الذين حكم فيهم بكونهم منزّهين عن الجسميّة والجهة وسكون السّماوات وتدبير الأجسام وعلى ذلك فنقول له: هب أنّ السّجود بالمعنى الذي ذكرت لا ينافي الرّسالة والتردّد صعوداً وهبوطاً، والوساطة بين الحقّ والرّسل والإختلاف بالقضاء والأمور، إلاّ أنّ تنزّههم عن الأوصاف المذكورة ينافي هذه الأمور قطعاً كما هو ظاهر لا يخفى.

(و) لما كانت الملائكة واسطة بين الحقّ سبحانه وبين رسله في تأدية خطاباته إليهم مفصحين لهم عن مكنون علمه حسن التّعبير عنهم بأنّهم **(ألسنة إلى رسله)** تشبيهاً لهم باللّسان المفصح عمّا في الضّمير وإنّما احتيج إلى الواسطة في تبليغ الخطابات وتأديتها، لأنّ التّخاطب يقتضي التّناسب بين المتخاطبين، فاقتضت الحكمة توسط الملك ليتلقّف الوحي بوجهه الذي في عالم الملكوت تلقّفاً روحانيّاً، ويبلغه بوجهه الذي في عالم الملك والحكمة إلى النبي، لأن من خواص الملك أن يتمثل للبشر فيراه جسماً، فربّما ينزل الملك إلى الصورة البشرية،

---

(١) التوحيد: ٢٦٤.

وربّما يترقى النّبي إلى رتبة الملكيّة ويتعرّى عن كثرة البشريّة فيأخذ عنه الوحي **(ومختلفون لقضائه وأمره)** من الإختلاف بمعنى التردّد، وفي وصف الأئمة في بعض الخطب الآتية وفي الزّيارة الجامعة: ومختلف الملائكة، أي محل ترددهم ويأتي توضيح ذلك في الفصل الآخر من فصول الخطبة المائة والثامنة إن شاء الله. **والمراد بالقضاء**: إمّا الحكم وهو أحد معانيه العشرة، فيكون عطف الأمر عليه من قبيل عطف الخاص على العام.

وإمّا بمعنى الأمر كما فسّر به قوله:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء: ٢٣].

وعلى ذلك فالعطف للتفسير والتّبيين، وعلى التّقديرين فالمراد بالأمر الأمر التكليفي، هذا.

ولكن الأظهر أنّ المراد بالقضاء هو ما يساوق القدر، وبالأمر الأمورات المقدَّرة الحادثة في العالم السّفلي، فيكون المعنى ومختلفون بمقتضياته ومقدراته؛ وإنّما جعلنا المصدر بمعنى المفعول، لأن القضاء بمعنى المصدري عبارة عن إبداع الحق سبحانه صور الموجودات وجميع الأشياء معقولة مفصّلة محفوظة عن التّغير في اللّوح المحفوظ، وهو أمّ الكتاب ويسمّى بالعلم الملزم، ومعلوم أن هذا المعنى ممّا قد فرغ عنه، ولا يتصور تردّد الملائكة وتدبيرهم فيه، وإنّما تدبيرهم في المقتضيات الموجودة على طبق ما في اللّوح المحفوظ.

توضيحه: أنّ القضاء كما عرفت عبارة عن إبداعه سبحانه لصور الموجودات الكلية والجزئية التي لا نهاية لها من حيث هي معقولة في العالم العقلي وهوامّ الكتاب، ثم لمّا كان إيجاد ما يتعلّق منها بمواد الأجسام في موادها وإخراج المادّة من القوة إلى الفعل غير ممكن إلاّ على سبيل التّعاقب والتدرّج، لامتناع قبولها لتلك الكثرة دفعة، وكان الجود الإلهي مقتضياً لإيجادها ولتكميل المادة بإبداعها فيها وإخراج ما فيها من قبول تلك الصّور من القوّة إلى الفعل، قدّر بلطيف حكمته وجوده زماناً لا ينقطع ليخرج فيه تلك الأمور من القوة إلى الفعل واحداً بعد واحد، فيصير في جميع ذلك موجودة في موادها والمادة كاملة بها، فالمقتضيات عبارة عن وجود هذه الأشياء مفصلة واحداً بعد واحد في موادها السّفلية الخارجية بعد أن كانت ثابتة في صحائفها العلوية بأيدي المدّبرات، وإلى هذا أشار سبحانه في قوله:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[الحجر: ٢١].

وإلى هذا القسم من الملائكة أشار في قوله سبحانه:

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾[النازعات: ٥].

روى في «**مجمع البيان**» عن عبد الرحمان بن سابط أنّ المراد بالمدبرات جبرئيل

وميكائيل وملك الموت وإسرافيل يدبرون أمور الدّنيا، **فأما** جبرئيل فموكل بالرّياح والجنود **وأما** ميكائيل فموكل بالقطر والنّبات، **وأما** ملك الموت بقبض الأنفس، **وأما** إسرافيل فهو يتنزّل بالأَمر عليهم، والتدبير ليس منحصر في الأَربعة حسبما تعرفه في الأَخبار الآتية، وإنّما ذكرناه لتوضيح معنى الآية، كما أنّ الأمور الواقعة فيها التّدبير لا تنحصر فيما ذكر، وستعرفه أيضاً وقد ظهر بما ذكرنا معنى القضاء والمقتضيات والملائكة المختلفون بالقضاء.

وأما القدر فهو دون مرتبة القضاء، إذ هو عبارة عن صور جميع الموجودات في لوح المحو والإثبات على الوجه القابل للتّغيير، وإلى ذلك الإشارة في قوله سبحانه:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾[الرعد: ٣٩].

قال الصّادق عليه السلام بعد ما سئل عنه عن هذه الآية: «إن ذلك الكتاب كتاب يمحو الله فيه ما يشاء ويثبت فمن ذلك الذي يردّ الدّعاء القضاء، وذلك الدّعاء مكتوب عليه الذي يردّ به القضاء حتّى إذا صار إلى أم الكتاب لم يغن الدّعاء فيه شيئاً»[١].

وحاصل ما ذكرنا كله يرجع إلى جعل المراد بالقضاء في كلامه عليه السلام الأمور المحتومة، وبالأَمر الأمور الموقوفة ونظيره ما روى عن الصادق عليه السلام، قال: «هما أمران موقوف ومحتوم، فما كان من محتوم أمضاه، وما كان من موقوف فله فيه المشيّئة يقضي فيه ما يشاء» هذا[٢].

ويحتمل أن يكون المقصود من قوله عليه السلام: بقضائه وأمره، أنّهم مختلفون بإظهار قضائه وأمره إلى النّبي والأئمة عليهم السّلام، وإلى ذلك وقع الإشارة في وصف الأئمة عليهم السلام بأنّهم مختلف الملائكة، أي محلّ إختلافهم كما في الأَخبار المتظافرة، وقد عقد في «**الكافي**» باباً في ذلك، وهو باب أن الأَئمة معدن العلم وشجرة النبوة ومختلف الملائكة، وإليه الإشارة في قوله سبحانه:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾[القدر: ٤].

قال الصّادق عليه السلام: «إذا كانت ليلة القدر نزلت الملائكة والرّوح والكتبة إلى السّماء الدّنيا فيكتبون ما يكون من قضاء الله في تلك السّنة فإذا أراد الله أن يقدّم شيئاً أو يؤخره أمر الملك أن يمحو ما يشاء، ثم يثبت الذي يريد»[٣].

قال القمي: تنزّل الملائكة وروح القدس على إمام الزّمان ويدفعون إليه ما قد كتبوه.

(١) مستدرك الوسائل: ٥/ ١٧٧.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٢/ ٥١٨.

(٣) تفسير نور الثقلين: ٥/ ٦٣١.

ويشهد به ما رواه في «**الكافي**» عن الباقر عليه السلام قال: «قال الله عزّ وجلّ في ليلة القدر:
﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان: ٤].

يقول: ينزل فيها كلّ أمر حكيم، والمحكم ليس بشيئين إنّما هو شيء واحد، فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله عزّ وجلّ، ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنّه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت إنّه لينزل في ليلة القدر إلى وليّ الأمر تفسير الأمور سنة سنة يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا، وفي أمر النّاس بكذا وكذا، وأنّه ليحدث لولي الأمرى سوى ذلك كلّ يوم علم الله عزَّ ذكره الخاصّ والمكنون والعجيب المخزون مثل ما ينزل في تلك اللّيلة من الأمر ثم قرأ.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1][لقمان: ٢٧].

وفيه أيضاً عن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «يقدّر في ليلة القدر كلّ شيء يكون في تلك السّنة إلى مثلها من قابل من خير وشرّ وطاعة ومعصية ومولود وأجل ورزق، فما قدر في تلك السّنة وقضي فهو المحتوم، ولله عزّ وجلّ فيه المشيئة»[2].

والمراد حسبما ذكرنا إظهار تلك المقادير للملائكة، وإظهارهم لها إلى النبي والأئمة عليهم السلام في تلك الليلة، وإلاّ فالمقادير كما عرفت من الأزل إلى الأبد ثابتة في أم الكتاب، هذا.

وبقي الكلام في أنّ المختلفين بالقضاء والأمر هم بعض الملائكة أو جميعهم، قال النيسابوري: قوله تعالى: تنزّل الملائكة، يقتضي نزول كلّ الملائكة إما إلى السّماء الدّنيا وإمّا إلى الأرض، وهو قول الأكثرية، وعلى التقديرين فإنّ المكان لا يسعهم إلاّ على سبيل التّفاوت والنّزول فوجاً فوجاً كأهل الحجّ، فإنّهم على كثرتهم يدخلون الكعبة أفواجاً، انتهى كلامه على ما حكى عنه.

ولكن الظاهر من كلمة منهم في كلام الإمام عليه السلام هو أنّ المتّصفين بهذا الوصف بعض الملائكة، وهو الظاهر ممّا روي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل قال: «إذا أتت ليلة القدر فيهبط من الملائكة إلى وليّ الأمر» (اه)[3]، والمستفاد من الأخبار الكثيرة أنّ جبرئيل من هذه الجملة، ونصّ الآية الشريفة كون روح القدس منها أيضاً، وقد يفسّر بالرّوح الأمين وهو

---

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني: ٦/ ٧.

(٢) الكافي: ٤/ ١٥٧.

(٣) شرح أصول الكافي: ٦/ ٢١.

جبرئيل؛ ولكن الظاهر أنّه غيره كما يدلّ عليه ما روي عن الصّادق عليه السلام، قال: «إنّ الرّوح أعظم من جبرئيل أي إنّ جبرئيل من الملائكة والرّوح هو خلق أعظم من الملائكة، أليس يقول الله تبارك وتعالى: تنزّل الملائكة والروح»(1).

وفي «**شرح الصّحيفة**» قال: أتى رجل عليّ بن أبي طالب عليه السلام يسأله عن الرّوح أليس هو جبرئيل؟ فقال له: «جبرئيل من الملائكة والرّوح غير جبرئيل»، فقال له: لقد قلت عظيماً من القول، ما أحد يزعم أن الرّوح غير جبرئيل، فقال له علي عليه السلام: «إنك ضال تروي عن أهل الضّلال، يقول الله تبارك وتعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ * يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾(2) [النحل: ١ ـ ٢]

وعنه عليه السلام أيضاً أنّ له سبعين ألف وجه، ولكلّ وجه سبعون ألف لسان، لكلّ لسان سبعون لغة يسبّح الله تعالى بتلك اللغات كلها، ويخلق الله تعالى من تسبيحه ملكاً يطير مع الملائكة، ولم يخلق الله أعظم من الرّوح غير العرش، ولو شاء أن يبلغ السّماوات السّبع والأرضين السّبع بلقمة واحدة لفعل، فسبحان من هو على كلّ شيء قدير، ومثلهما في البحار.

(و) القسم الثّالث: (منهم الحفظة لعباده) ظاهر العبارة أنّ المراد بهم حفظة العباد من المعاطب والمهالك لا الحفظة عليهم يحفظون على العبد عمله، فهم من أشير إليهم في قوله تعالى:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾[الرعد: ١١].

روى في «**المجمع**» عن علي عليه السلام «أنّهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتّى ينتهوا به إلى المقادير»(3).

وفي «**الصّافي**» عن عليّ بن إبراهيم، عن الصّادق عليه السلام «إنّ هذه الآية قرئت عنده، فقال لقارئها: ألستم عرباً»؟ فكيف تكون المعقّبات من بين يديه وإنّما المعقب من خلفه، فقال الرّجل جعلت فداك: كيف هذا؟ فقال: «إنّما نزلت له: معقبات من خلفه، ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله، ومن ذا الذي يقدر أن يحفظ لشيء من أمر الله وهم الملائكة الموكلون بالنّاس»، ومثله عن العيّاشي(4).

---

(١) تفسير الصافي: ٥/٣٥٣.

(٢) بصائر الدرجات: ٤٨٤.

(٣) بحار الأنوار: ٥/٣٢٠.

(٤) الحدائق الناضرة: ٨/١٠٣.

وعنه أيضاً عن الباقر عليه السلام «من أمر الله يقول بأمر الله من أن يقع في ركي[١]، أو يقع عليه حائط، أو يصيبه شيء حتى إذا نزل القدر خلواً بينه وبينهم يدفعونه إلى المقادير وهما ملكان يحفظانه بالليل، وملكان يحفظانه بالنّهار يتعاقبانه (والسّدنة لأبواب جنانه) أي المتولون لأبواب الجنان بفتحها وإغلاقها وإدخال من أذن لهم بالدّخول»[٢].

أقول: أمّا الجنان فعلى ما أشير إليه في القرآن ثمان: جنة النّعيم وجنة الفردوس وجنة الخلد وجنة المأوى وجنة عدن ودار السّلام ودار القرار وجنة عرضها السّماوات والأرض، وفي بعض كتب الأخبار تسمية الأخيرة بالوسيلة.

وأمّا أبوابها فثمانية أيضاً على ما في بعض كتب الأخبار: **الباب الأول**: إسمه التّوبة، **والثاني**: الزكاة، **والثالث** الصّلاة، **والرابع** الأمر والنهي، **والخامس** الحجّ، **والسادس** الورع، **والسابع** الجهاد، **والثامن** الصّبر.

وفي «**الصّافي**»: عن الخصال، عن الصّادق عن أبيه، عن جدّه، عن علي عليهم السّلام قال: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النّبيون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشّهداء والصّالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصّراط أدعو وأقول ربّ سلم شيعتي ومحبي وأنصاري وأوليائي ومن تولاّني في دار الدّنيا، فإذا النداء من بطنان العرش قد أجيبت دعوتك، وشفعت في شيعتك ويشفع كلّ رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مثقال ذرة من بغضنا أهل البيت»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: أحسنوا الظنّ بالله واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب عرض كلّ باب منها مسيرة أربعمائة سنة[٤].

وأمّا سدنتها وخزّانها فقد أشير إليه في سورة الزّمر، قال سبحانه:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[الزمر: ٧٣].

وفي «**الأنوار**» في حديث المحشر: فإذا أتوا إلى رضوان الله هو جالس على باب الجنة

---

(١) الركي: هو البئر منه.
(٢) تفسير الأصفى: ١/٥٩٧.
(٣) الخصال/ ٤٠٨.
(٤) الخصال/ ٤٠٨.

ومعه سبعون ألف ملك، مع كلّ ملك سبعون ألف ملك فينظر إليهم وهم في أقبح صورة من سواد البدن وطول الشعر وكونهم عزلاً بلا ختان، فقال لهم: كيف تدخلون الجنّة وتعانقون الحور العين على هذه الهيئة؟ فيأمر جماعة من الملائكة الواقفين أمامه فيذهبون بالمؤمنين إلى عين ماء عند جدار الجنّة، وهي عين الحياة فإذا اغتسلوا فيها صار وجه كلّ واحد منهم كالبدر في تمامه وتسقط شعورهم وغلفهم وتبيضّ قلوبهم من النّفاق والحسد والكذب والرّذائل والأوصاف الذّميمة حتّى لا يتحاسدوا في الجنّة بعلوّ الدّرجات والتّفاوت في المراتب، فيصير كلّ واحد منهم بصورة ابن أربعة عشر سنة، ويعطي حِسْنُ يوسف، وصوت داود، وصبر أيوب، فإذا أتوا إلى باب الجنّة وجدوا على بابها حلقة تطنّ عند كلّ من يدخلها ويقول في طنينها: يا علي، لكنها تطنّ عند كلّ داخل بطنين خاصّ ليس كالطنين الآخر، فيعرف بذلك الطنين أهل المؤمن في منازله وخدمه وحور العين إن هذا فلان فيأتون لاستقباله، هذا[1].

وقد أشير إلى طائفة من السّدنة والأبواب في حديث الجنان والنوق من «**روضة الكافي**»، وهو ما رواه الكليني عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب عن محمّد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن قول الله:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾[مريم: ٨٥].

فقال: «يا عليّ إنّ الوفد لا يكونون إلاّ ركباناً، أولئك رجال اتقوا الله فأحبّهم الله عزّ ذكره واختصهم ورضي أعمالهم فسمّاهم المتّقين»[2].

ثم قال له: «يا علي أما والذي فلق الحبّة وبريء النّسمة إنّهم ليخرجون من قبورهم، وإنّ الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق العزّ عليها رحائل الذّهب مكللة بالدّر والياقوت وجلائلها الإستبرق والسّندس وخطمها جندل الأرجوان، تطير بهم إلى المحشر مع كلّ رجل منهم ألف ملك من قدامه وعن يمينه وعن شماله يزفونهم زفّاً حتّى ينتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم وعلى باب الجنّة شجرة إنّ الورقة منها ليستظل تحتها ألف رجل من النّاس، وعن يمين الشّجرة عين مطهرة مزكية، قال: فيسقون منها فيطهر الله بها قلوبهم من الحسد، ويسقط عن أبشارهم الشّعر وذلك قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

«من تلك العين المطهرة»[3].

---

(١) روضة الواعظين: ٦٩، ومناقب آل أبي طالب: ٢٨/١.

(٢) الكافي: ٩٥/٨.

(٣) الكافي: ٩٦/٨.

قال: «ثم يصرفون إلى عين أخرى عن يسار الشّجرة فيغتسلون فيها وهي عين الحياة فلا يموتون أبداً».

قال: «ثم يوقف بهم قدام العرش وقد سلموا من الآفات والأَسقام والحرّ والبرد أبداً».

قال: «فيقول الجبار جلّ ذكره للملائكة الذين معهم: احشروا أولِيائي إلى الجنة ولا توقفوهم مع الخلائق، فقد سبق رضائي عنهم ووجبت رحمتي لهم، وكيف أريد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيئات».

قال: «فتسوقهم الملائكة إلى الجنّة، فإذا انتهوا إلى باب الجنّة الأَعظم ضرب الملائكة ضربة تصرّ صريراً يبلغ صوت صريرها كلّ حوراء أعدّها الله عزّ وجلّ لأَوليائه في الجنان، فيتباشرون بهم إذا سمعوا صرير الحلقة، فيقول بعضهم لبعض: قد جائنا أولياء الله، فيفتح لهم الباب فيدخلون الجنّة، وتشرف عليهم أزواجهم من الحور العين والآدميين، فيقلن: مرحباً بكم، فما كان أشدّ شوقنا إليكم ويقول لهنّ أولياء الله: مثل ذلك»[1].

فقال علي عليه السلام: «يا رسول الله أخبرنا عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]

بماذا بنيت يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: «يا علي تلك غرف بناها الله عزّ وجلّ لأولِيائه بالدّر والياقوت والزّبرجد، سقوفها الذّهب، محبوكة بالفضة، لكلّ غرفة منها ألف باب من ذهب، على كلّ باب منها ملك موكل به، فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والدّيباج بألوان مختلفة، وحشوها المسك والكافور والعنبر، وذلك قول الله عزّ وجلّ.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾[الواقعة: ٣٤].

«إذا دخل المؤمن إلى منازله في الجنّة ووضع على رأسه تاج الملك والكرامة ألبس حلل الذّهب والفضة والياقوت والدّر المنظومة في الإكليل تحت التاج».

قال: «وألبس سبعين حلّة حريراً بألوان مختلفة وضرب مختلفة منسوجة بالذّهب والفضّة واللّؤلؤ والياقوت الأَحمر، فذلك قول الله عزّ وجلّ:

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[الحج: ٢٣].

فإذا جلس المؤمن على سريره اهتزّ سريره فرحاً، فإذا استقر لوليّ الله عزّ وجلّ منازل له في الجنان استأذن عليه الملك الموكل بجناته ليهنئه بكرامة الله عزّ وجلّ إياه، فيقول له خدّام

---

(١) شرح أصول الكافي: ١٢/١٦.

المؤمن من الوصفاء والوصائف: مكانك، فإنّ وليّ الله قد اتّكأ على أريكته وزوجته الحوراء تهيّأ له فاصبر لولي الله».

قال: «فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمة لها تمشي مقبلة وحولها وصائفها وعليها سبعون حلة منسوجة بالياقوت واللؤلؤ والزّبرجد هي من مسك وعنبر وعلى رأسها تاج الكرامة، وعليها نعلان من ذهب مكللتان بالياقوت واللؤلؤ، شراكهما ياقوت أحمر، فإذا دنت من ولي الله فهمّ أن يقوم إليها شوقاً، فتقول له: يا ولي الله ليس هذا يوم تعب ولا نصب وأنت لي».

قال: «فيعتنقان مقدار خمسمائة عام من أعوام الدّنيا لا يملها ولا تمله».

قال: «فإذا فتر بعض الفتور من غير ملالة نظر إلى عنقها، فإذاً عليها قلائد من قصب من ياقوت أحمر، وسطها لوح صفحته درّة مكتوب بها: أنت يا ولي الله حبيبي وأنا الحوراء حبيبتك إليك تناهت نفسي وإليّ تناهت نفسك، ثم يبعث الله إليه ألف ملك يهنّونه بالجنّة ويزوّجونه بالحوراء».

قال: «فينتهون إلى أوّل باب من جنانه[1]، فيقولون للملك الموكل بأبواب جنانه: إستأذن لنا علي ولي الله فإن الله بعثنا إليه تهنئة، فيقول لهم الملك: حتّى أقول للحاجب فيعلمه مكانكم».

قال: «فيدخل الملك إلى الحاجب وبينه وبين الحاجب ثلاث جنان حتّى ينتهي إلى أوّل باب، فيقول للحاجب: إنّ على باب العرصة ألف ملك أرسلهم ربّ العالمين ليهنئوا ولي الله، وقد سألوني أن آذن لهم، فيقول الحاجب: إنّه ليعظم عليّ أن أستأذن لأحد على ولي الله وهو مع زوجته الحوراء».

قال: «وبين الحاجب وبين ولي الله جنّتان».

قال: «فيدخل الحاجب إلى القيم، فيقول له: إن على باب العرصة ألف ملك، أرسلهم رب العزّة يهنّون ولي الله فاستأذن لهم فيقدم القيم إلى الخدّام، فيقول لهم: إن رسل الجبار على باب العرصة، وهم ألف ملك، أرسلهم يهنّون ولي الله فأعلموه بمكانهم، فيعلمونه فيؤذن للملائكة فيدخلون على ولي الله، وهو في الغرفة ولها ألف باب، وعلى كلّ باب من أبوابها ملك موكل به، فإذا أذن للملائكة بالدخول على ولي الله فتح كلّ ملك بابه الموكل به».

قال: «فيدخل القيم كلّ ملك من باب من أبواب الغرفة، فيبلغون رسالة الجبار جلّ

---

(١) في نسخة: جناته.

وعزّ، وذلك قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾[الرعد: ٢٣] من أبواب الغرفة، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[الرعد: ٢٤].

قال: وذلك قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾[الإنسان: ٢٠].

يعني بذلك ولي الله وما هو فيه من الكرامة والنّعيم والملك العظيم الكبير، إن الملائكة من رسل الله عزّ ذكره يستأذنون عليه فلا يدخلون إلاّ بإذنه، فذلك الملك العظيم الكبير، الحديث[1].

(و) القسم الرّابع: **(منهم الثابتة في الأرضين السّفلى أقدامهم)** وعن بعض النّسخ في الأرض السّفلى أقدامهم قال في «**البحار**»: وهو أظهر، والجمع على الأوّل إمّا باعتبار القطعات والبقاع، أو لأنّ كلاً من الأرضين السّبع موضع قدم بعضهم والوصف على الأوّل بالقياس إلى سائر الطبقات، وعلى الثّاني بالقياس إلى السّماء **(والمارقة)** أي الخارجة **(من السّماء العليا)** وهي السّابعة **(أعناقهم والخارجة من الأقطار)** أي من جوانب الأرض أو جوانب السّماء **(أركانهم)** وهذا إشارة إلى ضخامتهم وعرضهم **(والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم)** والمراد بالتّناسب إمّا القرب أو الشّباهة في العظم، فإن العرش على عظمه حسبما تعرفه في الأخبار الآتية وكفى بذلك كونه محيطاً بجميع المخلوقات وكون الأرضين والسّماوات جميعاً وما فيها عنده كحلقة في فلاة، له أربع قوائم.

كما رواه في **البحار**: عن الدّر المنثور، عن حماد قال: خلق الله العرش من زمرّدة خضراء، وله أربع قوائم من ياقوتة حمراء، وخلق له ألف لسان، وخلق في الأرض ألف أمة يسبح الله بلسان العرش[2].

وفيه أيضاً من روضة الواعظين، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جده عليهم السّلام أنّه قال: في العرش تمثال ما خلق الله من البرّ والبحر، وهذا تأويل قوله:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[الحجر: ٢١].

وإن بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع مسير ألف عام، والعرش يكسى كلّ يوم سبعين ألف لون من النّور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله،

---

(١) تفسير نور الثقلين: ٥/ ٤٨٤.

(٢) بحار الأنوار: ٥٥/ ١٧.

والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة، وإنّ لله تعالى ملكاً يقال له: خرقائيل له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام، فخطر له خاطر هل فوق العرش شيء، فزاده الله تعالى مثلها أجنحة أخرى، فكان له ست وثلاثون ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام، ثم أوحى الله إليه أيّها الملك طر، فطار مقدار عشرين ألف عام لم ينل رأسه قائمة من قوائم العرش، ثم ضاعف الله له في الجناح والقوة وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف عام لم ينل أيضاً، فأوحى الله إليه أيّها الملك لو طرت إلى نفخ الصّور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ إلى ساق عرشي فقال الملك:

سُبْحانَ رَبِّيَ الأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلى: ١].

فقال النّبي صلى الله عليه وآله: «اجعلوها في سجودكم»(١).

ومن إكمال الدين بإسناده عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: قال ابن عبّاس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ لله تبارك وتعالى ملكاً يقال له: دردائيل، كان له ستّة عشر ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح هواء، والهواء كما بين السّماء والأرض، فجعل يوماً يقول في نفسه: أفوق ربّنا جلّ جلاله شيء؟ فعلم الله تبارك وتعالى ما قال، فزاده أجنحة مثلها، فصار له اثنان وثلاثون ألف جناح، ثم أوحى الله عزّ وجل إليه، فطار مقدار خمسمائة عام فلم ينل رأسه قائمة من قوائم العرش، فلما علم الله عزّ وجلّ أتعابه أوحى إليه أيّها الملك عد إلى مكانك، فأنا عظيم فوق كلّ عظيم، وليس فوقي شيء ولا أوصف بمكان، فسلبه الله عزّ وجلّ أجنحته ومقامه من صفوف الملائكة، فلمّا ولد الحسين عليه السلام هبط جبرئيل في ألف قبيل من الملائكة لتهنئة النبي ﷺ فمرّ بدردائيل، فقال له: سل النبيّ بحق مولوده أن يشفع لي عند ربّي، فدعا له النّبي ﷺ بحق الحسين عليه السلام فاستجاب الله دعائه وردّ عليه أجنحته ورده إلى مكانه» هذا(٢).

ويحتمل أن يكون المراد بالمناسبة في كلامه عليه السلام التّماسّ، فالمراد بهم حملة العرش، بل هذا هو الظاهر بملاحظة أنّ الأوصاف المذكورة في كلامه عليه السلام قد أثبتت في الأخبار الكثيرة على هؤلاء الطائفة.

مثل ما روي عن ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى:

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٧].

---

(١) روضة الواعظين/ ٤٧.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة/ ٢٨٢.

قال: يقال: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدّتهم إلاّ الله، ويقال ثمانية أملاك رؤوسهم تحت العرش في السّماء السّابعة، وأقدامهم في الأرض السّفلى، ولهم قرون كقرون الوعلة، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام.

وعن الخصال بإسناده عن حفص بن غياث، قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ حملة العرش ثمانية، لكل واحد منهم ثمانية أعين، كلّ عين طباق الدّنيا.

وعن تفسير الإمام عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله لمّا خلق العرش خلق له ثلاثمائة وستين ألف ركن، وخلق عند كلّ ركن ثلاثمائة ألف وستين ألف ملك لو أذن الله لأصغرهم فالتقم السّماوات السبع والأرضين السّبع ما كان بين لهواته إلاّ كالرملة في المفازة الفضفاضة، فقال لهم الله: يا عبادي احملوا عرشي هذا فتعاطوه فلم يطيقوا حمله ولا تحريكه، فخلق الله عزّ وجلّ مع كلّ واحد منهم واحداً فلم يقدروا أن يزعزعوه، فخلق الله مع كلّ واحد منهم عشرة فلم يقدروا أن يحرّكوه، فخلق الله بعدد كلّ واحد منهم مثل جماعتهم فلم يقدروا أن يحرّكوه، فقال الله عزّ وجل لجميعهم: خلوه عليّ أمسكه بقدرتي، فخلوه فأمسكه الله عزّ وجلّ بقدرته، ثم قال لثمانية منهم احملوه أنتم، فقالوا: يا ربنا لم نطقه نحن وهذا الخلق الكثير والجمّ الغفير فكيف نطيقه الآن دونهم؟ فقال عزّ وجل: لأنّي أنا الله المقرب للبعيد والمذلل للعبيد والمخفف للشّديد والمسهّل للعسير أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد أعلمكم كلمات تقولونها يخف بها عليكم، قالوا وما هي؟ قال: تقولون:

بسم الله الرّحمٰن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على محمّد وآله الطيبين فقالوها، فحملوه، فخفّ على كواهلهم كشعرة نابتة على كاهل رجل جلد قوي فقال الله عزّ وجلّ لسائر تلك الأملاك: خلوا على هؤلاء الثمانية وطوفوا أنتم حوله وسبّحوني ومجدوني وقدسوني، فأنا الله القادر على ما رأيتم وعلى كلّ شيء قدير»[١].

وعن وهب قال: حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة آخرين ملك منهم في صورة إنسان يشفع لبني آدم في أرزاقهم، وملك في صورة نسر يشفع للطير في أرزاقهم، وملك في صورة ثور يشفع للبهائم في أرزاقها وملك في صورة الأسد يشفع للسّباع في أرزاقها، فلمّا حملوا العرش وقعوا على ركبهم من عظمة الله، فلقّنوا لا حول ولا قوة إلاّ بالله، فاستووا قياماً على أرجلهم.

وعن ابن زيد قال: لم يسمّ من حملة العرش إلاّ إسرافيل.

وعن هارون بن رئاب، قال حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت ضخيم، يقول أربعة منهم:

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/ ٩٧.

«سُبْحَانَكَ وبِحَمْدِكَ على حِلْمِكَ بعدَ علمكَ»

وأربعة منهم يقولون:

«سُبْحَانَكَ وبِحَمْدِكَ على عَفْوِكَ بعد قُدْرَتِكَ» هذا.

ولا ينافي هذه الأَخبار ما وردت في الأَخبار الأُخرى من أن حملة العرش ثمانية أربعة من الأَولين، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السّلام، وأربعة من الآخرين، وهم محمّد وعلي والحسن والحسين صلوات الله عليهم، لأَنّ العرش في الأَخبار الأولة الجسم المحيطة بالمخلوقات، وفي هذه الأَخبار هو العلم لانّه أحد معانيه كما عرفته في شرح الفصل الخامس من فصول هذه الخطبة وصرّح بما ذكرناه الصّدوق في إعتقاداته حيث قال: وإنّما صارت هؤلاء حملة العرش الذي هو العلم، لأَنّ الأنبيآء الذين كانوا قبل نبيّنا محمّد ﷺ على شرائع الأربعة من الأولين: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ومن قبل هؤلاء الأربعة صارت العلوم إليهم، وكذلك صار العلم بعد محمّد وعليّ والحسن والحسين إلى من بعد الحسين من الأئمة عليهم السّلام[١].

(ناكسة دونه) أي دون العرش **(أبصارهم)** إما لكثرة نور العرش كما يدلّ عليه ما روي عن ميسرة، قال: ثمانية أرجلهم في التخوم ورؤوسهم عند العرش لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النّور، وإما لزيادة الخوف كما روي عنه أيضاً قال: حملة العرش أرجلهم في الأَرض السّفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشدّ خوفاً من أهل السّماء السّابعة وأهل السّماء السّابعة أشدّ خوفاً من السّماء التي تليها والسّماء التي تليها أشدّ خوفاً من التي تليها، وفي دعاء الصحيفة السّجادية على داعية أفضل السّلام والتحيّة في وصف الملائكة:

«الخُشَّع الأَبْصَارِ فلا يَرُومون النَّظر إِلَيْكَ، النَّوَاكِسُ الأَذْقَانِ الّذِينَ قَدْ طَالت رَغْبَتُهُمْ فِيمَا لَدَيْكَ».

وفي التّوحيد بإسناده عن وهب عن ابن عبّاس عن النّبي ﷺ قال: «إنّ لله تبارك وتعالى ملائكة ليس شيء من أطباق أجسادهم إلاّ وهو يسبّح الله عزّ وجل ويحمده بأصوات مختلفة لا يرفعون رؤوسهم إلى السّماء ولا يخفضونها إلى أقدامهم من البكاء والخشية (متلفعون تحته) أي تحت العرش (بأجنحتهم)»[٢].

روى الشّارح البحراني عن وهب قال: إنّ لكلّ ملك من حملة العرش ومن حوله أربعة

---

(١) شرح أصول الكافي: ٩٣/٤ بتفاوت.

(٢) التوحيد/٢٨٠.

أجنحة إمّا جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق، وإمّا جناحان فيلفون (فيهفون خ ل) بهما ليس لهم كلام إلاّ التسبيح والتّحميد.

وفي «**الأنوار**»: روى أنّ صنفاً من الملائكة لهم ستّة أجنحة فجناحان يلفّون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في أمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله وحينئذٍ فكلّ جناحين لغرض مخصوص، وبه يظهر فائدة الجناح الثالث المشار إليه في قوله سبحانه[1]:

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾[فاطر: ١].

ثمّ إن هذا في جانب القلّة، وأمّا في جانب الكثرة فيزيد الله سبحانه فيهم ما يشاء وهو على كلّ شيء قدير (**مضروبة بينهم وبين من دونهم**) من الملائكة أو البشر أو الجنّ أو الأعم (**حجب العزّة وأستار القدرة**) المانعة عن إدراك ذواتهم والإطلاع على شؤونهم.

وتوضيحه بالتّمثيل أنّ ملوك الدّنيا إذا بلغوا في العزّ والعظمة مرتبة الغاية القصوى لا يصل إلى حضور خواصّه فضلاً عن ذاته إلاّ الأوحدي من النّاس، ولا يراهم إلاّ من كان له معهم علقة شديدة ووسيلة قوية، والحاجب عن ذلك ليس إلا هيبة السّلطنة وقدرة الملك وعظمته، وإذا كان هذا حال خواص السّلطنة العارية والملوك الذين هم في الحقيقة مماليك، فشأن خواص الحضرة الرّبوبيّة وملك الملوك أعلى واستناد الحايل عن إدراك مقاماتهم ودرجاتهم إلى حجب العزّة وأستار القدرة أحرى (**ولا يتوهمون ربّهم بالتّصوير**) لكونهم منزّهين عن الإدراكات الوهميّة والخيالية في حق مبدئهم وخالقهم جلّت عظمته، لأنّ عقولهم صافية غير مشوبة بالتّوهمات والتخيّلات (**ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر**) لأن إجراء الصّفات والتّحديد بالأماكن والإشارة بالنّظائر إنما هو من مخترعات الواهمة والمتخيّلة المختصّتين بذوات الأمزجة العنصرية الغير الجائزتين في حق الملائكة السّماوية ومقرّبي الحضرة الرّبوبيّة، هذا تمام الكلام في شرح حال الملائكة حسبما اقتضاه المقام ويأتي شطر منه عند شرح بعض الخطب الآتية المقتضية لذلك كخطبة الأشباح وغيرها، والله الموفق والمعين.

---

(١) نهج البلاغة (١/ ٢٠).

الترجمة

پس منشق كرد و گشود خداوند سبحانه و تعالى ميان آسمان هايى كه بلند هستند، پس پر كرد آن طبقات را با اصناف مختلفه از ملائكه و فرشتگان خود، پس بعضى از ايشان ساجدانند كه ركوع نمى كنند و بعضى راكعانند كه راست نمى ايستند و بعضى ديگر صف زدگانند كه از صفوف و مكان هاى خود زايل نمى شوند و طايفه تسبيح كنندگانند كه ملال و پريشانى نمى آورند. عارض نمى شود به ايشان خواب چشم ها و نه سهو عقل ها و نه سستى بدن ها و نه غفلت فراموشى و بعضى ديگر امينانند بر وحى او و زبان هاى صدقند در رسانيدن فرمايشات او به پيغمبران و تردّدكنندگانند به قضا و امر او و بعضى ديگر از ايشان حافظانند بندگان خدا را از مكاره و مهالك و طايفه ديگر دربانان و خازنانند از براى درهاى بهشت هاى او و بعضى ديگر از ايشان آنانند كه ثابت است در زمين هاى زيرين قدم هاى ايشان و بيرون رفته از آسمان بلند گردن هاى ايشان و خارج است از اطراف زمين و آسمان اعضا و جوارح ايشان و مناسب است با قائمه هاى عرش دوش هاى ايشان و پايين افتاده در زير عرش چشمان ايشان، پيچيده شده اند در زير عرش به بال هاى خودشان، زده شده ميان آن ها و ميان فروتر از آن ها پرده هاى عزّت و سترهاى قدرت و عظمت در حالتى كه توهّم نمى كنند پروردگار خودشان را به صورت درآوردن و اجرا نمى كنند بر او صفات مخلوقات را و تحديد نمى كنند او را به مكان ها و اشاره نمى كنند به سوى او و به نظاير و امثال و نعم ما قيل:

برتر است از مدركات عقل و وهم   لاجرم گم گشت در وى فكر و فهم
چون به كلّى روى گفت و گوى نيست   هيچ كس را جز خموشى روى نيست

الفصل العاشر منها في صفة آدم عليه السلام

«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وَسَهْلِها وَعَذْبِها وَسَبْخِها، تُرْبَةً سَنَّها بِالْماءِ حَتّى خَلَصَتْ، وَلاطَها بِالْبِلَّةِ حَتّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ (فَجَعَلَ خ) مِنْها صُورَةً ذاتَ أَحْناءٍ وَوُصُولٍ، وَأَعْضاءٍ وَفُصُولٍ، أَجْمَدَها حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَها حَتّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ، وَنَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِه فَتَمَثَّلَتْ إِنْساناً ذا أَذْهانٍ يُجِيلُها، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِها، وَجَوارِحَ يَخْتَدِمُها، وَأَدَواتٍ يُقَلِّبُها، وَمَعْرِفَةٍ يُفَرِّقُ بِها بَيْنَ الْحَقِّ وَالْباطِلِ، وَالأَذْواقِ وَالْمَشامِّ، وَالأَلْوانِ وَالأَجْناسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الأَلْوانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالأَشْباهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَالأَضْدادِ الْمُتَعادِيَةِ، والأَخْلاطِ الْمُتَبايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبِلَّةِ وَالْجُمُودِ، وَالْمَسائَةِ وَالسُّرُورِ»(١).

اللغة

(الحزن) من الأَرض ما غلظ منها وهو على وزن فلس **(والسّهل)** خلافه **(والعذب)** من الأَرض ما طاب منها واستعد للنّبات **(والسّبخ)** كفلس أيضاً المالحة منها يعلوها الملوحة الغير الصّالحة للنّبات ولا تكاد تنبت إلاّ بعض الأشجار ومثله السّبخة بفتح الموحدة وسكونها أيضاً تخفيفاً واحدة السّباخ مثل كلبة وكلاب بالكسر أيضاً يجمع على سبخات مثل كلمة وكلمات **(والتّربة)** التّراب والجمع ترب كغرفة وغرف **(سنها بالماء)** من سننت الماء على الأَرض صببتها **(ولاطها)** أي مزجها من لاط الشّيء بالشّيء لوطاً لصق، **(والبلة)** بالكسر الرّطوبة من البلل **(واللزوب)** الإشتداد يقال لزب الشّيء لزوباً من باب قعد اشتدّ، وطين لازب يلزق باليد لاشتداده **(فجبل)** وفي بعض النّسخ **(فجعل)** وكلاهما بمعنى خلق **(وإحناء)** جمع حنو وهو الجانب و **(وصول)** جمع الوصل كما أنّ **(فصول)** جمع الفصل وهما كلّ ملتقي عظمين في الجسد يطلق عليه باعتبار إتّصال أحد العظمين بالآخر وصولاً وأوصالاً، وباعتبار انفصال أحدهما عن الآخر فصولاً ومفاصل.

وتفسير الشّارح البحراني الوصول بالمفاصل غير مناسب لما عرفت من ترادف المفاصل للفصول، وإن كان محل الوصل عين محلّ الفصل إلاّ أنّ التّغاير بحسب الإعتبار موجود وملحوظ نعم مصداقهما متّحد **(وأصلدها)** من الصّلد وهو الصلب المتين و **(صلصل)** الشيء صلصلة إذا صوّت يقال صلصل الحديد وصلصل الرّعد والصّلصال الطين اليابس الغير المطبوخ الذي يسمع له عند النّقرصوت كما يصوت الفخار وهو المطبوخ من الطين، وقيل: إنّ الصّلصال هو الطين المنتن مأخوذ من صلّ اللحم وأصلّ إذا صار منتناً، وهو ضعيف لما سنذكره **(فتمثلت)** أي تصورت وفي بعض النّسخ فمثلت من مثل بين يديه مثولاً من باب قعد

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٢٠.

انتصب قائماً **(والأذهان)** جمع الذّهن وهو الفطنة وفي الإصطلاح القوى الباطنة المدركة **(والإختدام)** الإستخدام **(والأدوات)** الآلات **(والمشام)** جمع المشموم لما يشم كالمأكول لما يؤكل **(معجوناً)** من عجنه عجناً أي خمره والعجين الخمير **(والطينة)** الخلقة والجبلة **(والأشباه)** جمع الشبه المثل والنظير.

الإعراب

كلمة (حتّى) في قوله **(حتّى خلصت)** **(وحتّى لزبت)** حرف إبتداء يبتدأ بها الجمل المستأنفة مثل قوله:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾[الأعراف: ٩٥].

وذهب ابن مالك إلى أنها جارة وأنّ بعدها (أن) مضمرة قال ابن هشام: ولا أعرف له في ذلك سلفاً وفيه تكلف إضمار (أن) من غير ضرورة، ولفظة ذات منصوبة على الوصيفة مؤنثة (ذو)، وجملة أجمدها لا محلّ لها من الإعراب لأنّها مستأنفة بيانيّة فكأنّه قيل: ثم فعل بها ماذا؟ فقال: أجمدها وتحتمل الإنتصاب على الحالية، والضمير فيه وفي أصلدها راجع إلى الصّورة، **(واللاّم)** في قوله عليه السلام لوقت معدود للتّعليل أو بمعنى إلى، والضمير في قوله عليه السلام: **(نفخ فيها)** راجع إلى الصّورة أيضاً، وكلمة (من) في قوله **(من روحه)** زائدة أو تبعّضية أو نشوية بناء على الإختلاف في معنى الرّوح حسبما تعرفه، ومعجوناً منتصب على الحاليّة من إنسانا ويحتمل الوصفية له، وكلمة (من) في قوله: من الحرّ والبرد، بيانية.

المعنى

(منها في صفة آدم عليه السلام) يعني بعض هذه الخطبة في صفته عليه السلام فإنّه عليه السلام لمّا فرغ من إظهار قدرة الله سبحانه في عجائب خلقه الملكوت والسّماوات وبدائع صنعته في إيجاد الفضاء والهواء والمجرّدات أشار إلى لطائف صنعه في العنصريات من إيجاد الإنسان وإختياره على الأشباه والأقران لكونه نسخة جامعة لما في عالم الملك والملكوت، ونخبة مصطفاة من رشحات القدرة والجبروت:

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فقال عليه السلام: **(ثم جمع سبحانه)** إسناد الجمع إليه تعالى من التوسع في الإسناد من باب بنى الأمير المدينة إذا الجمع حقيقة فعل ملك الموت بأمر الله سبحانه بعد أن اقتضت الحكمة خلقة آدم وجعله خليفة في الأرض.

قال سيد بن طاووس في «**كتاب سعد السّعود**» على ما حكى عنه في «**البحار**»: وجدت في صحف إدريس من نسخة عتيقة أنّ الأرض عرّفها الله جل جلاله أنه يخلق منها خلقاً فمنهم

من يطيعه ومنهم من يعصيه، فاقشعرت الأرض واستعفت إليه وسألته أن لا يأخذ منها من يعصيه ويدخله النّار، وإن جبرئيل أتاها ليأخذ عنها طينة آدم عليه السلام فسألته بعزّة الله أن لا يأخذ منها شيئاً حتّى يتضرّع إلى الله وتضرّعت فأمره الله بالإنصراف عنها، فأمر الله ميكائيل فاقشعرت وتضرّعت وسألت فأمره الله بالإنصراف عنها، فأمر الله تعالى إسرافيل بذلك فاقشعرت وسألت وتضرّعت فأمره الله بالإنصراف عنها، فأمر عزرائيل فاقشعرت وتضرّعت فقال: قد أمرني ربّي بأمر أنا ماض سرّك ذاك أم سائك فقبض منها كما أمره الله ثم صعد بها إلى موقفه فقال الله له: كما وليت قبضها من الأرض وهو كاره كذلك تلي قبض أرواح كلّ من عليها وكلما قضيت عليه الموت من اليوم إلى يوم القيامة[1].

ومضمون هذه الرّواية مطابق لأخبار أهل البيت عليهم السّلام، فإنّ الموجود فيها أيضاً أنّ القابض هو عزرائيل وأنّه قبض **(من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها)** أي من غليظها وليّنها وطيبها ومالحها، وهذه إشارة إلى أنّ القبضة المأخوذة من غير محلّ واحد من وجه الأرض ويوافقه سائر الأخبار، ولعلّ ذلك هو السّرفي تفاوت أنواع الخلق لاستناده إلى إختلاف المواد وفي بعض الأخبار أنّها أخذت من أديم الأرض أي من وجهها ومنه سمّي آدم والمراد أنّه جمع سبحانه من أجزاء الأرض المختلفة (تربة سنّها بالماء) أي مزجها به **(حتى خلصت)** أي صارت خالصة **(ولاطها)** أي ألصقها **(بالبلة)** أي بالرّطوبة **(حتى لزبت)** واشتدت.

قيل: هاتان الفقرتان إشارتان إلى أصل امتزاج العناصر وإنما خصّ الأرض والماء لأنهما الأصل في تكون الأعضاء المشاهدة التي تدور عليها صورة الإنسان المحسوسة **(فجبل)** (فجعل خ) منها **(صورة ذات أحناء ووصول)** أي صاحبة جوانب وأوصال **(وأعضاء وفصول)** أي جوارح ومفاصل.

وهاتان إشارتان إلى خلق الصورة الإنسانية وإفاضتها بكمال أعضائها وجوارحها ومفاصلها وما يقوم به صورتها **(أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصلت)** أي جعلها جامدة بعد ما كانت رطبة ليّنة حتى صار لها إستمساك وقوام، وجعلها صلبة متينة حتى صارت صلصالاً يابساً يسمع له عند النّقرصوت كصلصلة الحديد.

وقال بعضهم: إنّ الصّلصال هو المنتن وكلام الإمام عليه السلام شاهد على فساده حيث إنّه عليه السلام نبّه بحصول الإستمساك بعد الجمود وحصول الصّلصالية بعد الصلود ومن الواضح أن النّتن يرتفع مع حصول الجمود واليبوسة فهو على تقدير وجوده إنّما كان قبل تلك الحالة، وهي حالة المسنونية المشار إليها في قوله تعالى:

---

(١) بحار الأنوار: ١١/١٢١.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[الحجر: ٢٦].

قال الفخر الرّازي: كونه حماء مسنوناً يدلّ على النّتن والتغير وظاهر الآية يدلّ على أن هذا الصّلصال إنّما تولد من الحما المسنون، فوجب أن يكون كونه صلصالاً مغايراً لكونه حمأ مسنوناً، ولو كان كونه صلصالاً عبارة عن النّتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالاً وبين كونه حمأ مسنوناً تفاوت، انتهى، هذا.

ويحتمل أن تكون هاتان الفقرتان إشارة إلى قوام مادّة الإنسان، فالإجماد لغاية الإستمساك راجع إلى بعض أجزاء الصّورة المجعولة كاللحم والعروق والأعصاب ونحوها، والأصلاد راجع إلى البعض الآخر كالأسنان والعظام وبعد أن أكمل الله سبحانه للصّورة أعضائها وجوارحها وهيئها لقبول الرّوح أبقاها (لوقت معدود وأجل معلوم) أي لأجل وقت أو إلى وقت معيّن اقتضت الحكمة والمصلحة نفخ الرّوح فيها، وإلى هذا الوقت أشير في قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

قال في **«مجمع البيان»**: وقد كان شيئاً إلا أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، لأنّه كان تراباً وطيناً إلى أن نفخ فيه الرّوح، وقيل إنّه أتى على آدم أربعون سنة لم يكن شيئاً مذكوراً لا في السماء ولا في الأرض، لأنّه كان جسداً ملقى من طين قبل أن ينفخ فيه الرّوح.

وروى عطاء عن ابن عبّاس أنّه تم خلقه بعد عشرين ومائة سنة، انتهى[١].

وعن بعض الصّحف السّماوية أنّ طينة آدم عليه السلام عجنت أربعين سنة ثم جعلت لازبّ، ثم جعلت حمأ مسنوناً أربعين سنة ثمّ جعلت صلصالاً كالفخار أربعين سنة، ثم جعلت جسداً ملقى على طريق الملائكة أربعين سنة ونفخ فيها من روحه بعد تلك المدّة.

وفي **«العلل»** بإسناده عن عبد العظيم الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام أسأله عن علة الغائط ونتنه، قال: «إن الله خلق آدم وكان جسده طيّباً فبقي أربعين سنة ملقى تمر به الملائكة فتقول لأمر ما خلقت، وكان إبليس يدخل في فيه ويخرج من دبره فلذلك صار ما في جوف آدم منتناً خبيثاً غير طيّب»[٢].

وفي **«البحار»** عن الخصال وتفسير الفرات بإسناده عن الحسن عليه السلام فيما سأله كعب الأخبار أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لما أراد الله خلق آدم بعث جبرئيل فأخذ من أديم الأرض قبضة فعجنه بالماء العذب والمالح وركب فيه الطبائع قبل أن ينفخ فيه الرّوح فخلقه من أديم

---

(١) بحار الأنوار: ٥٧/ ٣٢٧، التبيان: ١٠/ ٢٠٥.

(٢) علل الشرائع: ١/ ٢٧٥.

الأَرض فطرحه كالجبل العظيم، وكان إبليس يومئذٍ خازناً على السّماء الخامسة يدخل في منخر آدم ثـم يخرج من دبره ثـم يضرب بيده على بطنه فيقول لأي أمر خلقت؟ لئن جعلت فوقي لأطعتك، ولئن جعلت أسفل منّي لأعينك فمكث في الجنّة ألف سنة ما بين خلقه إلى أن ينفخ فيه الرّوح» الحديث[١].

ووجه الجمع بين هذه الرّواية وما سبق من حيث اختلافهما في مقدار مدّة تأخير النّفخ غير خفي على العارف الفطن.

فإن قيل: لماذا أخر نفخ الرّوح في تلك المدة الطويلة.

قلنا: لعلّه من باب اللّطف في حقّ الملائكة لتذهب ظنونهم في ذلك كلّ مذهب فصار كإنزال المتشابهات الذي تحصل به رياضة الأذهان في تخريجها وفي ضمن ذلك يكون اللّطف، ويجوز أن يكون في أخبار ذريّة آدم بذلك لطف لهم، ولا يجوز إخبارهم بذلك إلاّ إذا كان المخبر عنه حقّاً.

أقول: هكذا أجاب الشّارح المعتزلي، ويشير إلى جوابه الأوّل الرّواية السّابقة فيما حكاه عليه السلام من قول إبليس لأي أمر خلقت (ا هـ).

والأولى أن يقال: إنّ السّر فيه لعلّة إعتبار الملائكة، إذ الإعتبار في التدريج أكثر أو ليعلم النّاس التأني في الأمور وعدم الإستعجال، ومثله خلق السّماوات والأرض في ستّة أيام على ما نطق به القرآن الحكيم مع أنّه سبحانه كان قادراً على خلقها في طرفة عين، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ولو شاء أن يخلقها في أقلّ من لمح البصر لخلق، ولكنّه جعل الإناة والمداراة مثالاً لأمنائه وإيجاباً للحجة على خلقه»[٢].

(و) كيف كان فلما حلّ الأَجل الذي اقتضت الحكمة فيه النّفخ (نفخ فيها) أي في الصّورة المستعدة لقبول النّفخ (من روحه) الذي اصطفاه على سائر الأرواح والمراد بنفخ الرّوح فيها إفاضته عليها، إستعير به عنها لأن نفخ الرّيح في الوعاء لما كان عبارة عن إدخال الرّيح في جوفه وكان الإحياء عبارة عن إفاضة النّفس على الجسد ويستلزم ذلك حلول القوى والأرواح في الجثّة باطناً وظاهراً حسن الإستعارة.

قال بعض المتألهين: إنّ النّفخ لما كان عبارة عن تحريك هواء يشتعل به الحطب ونحوه كالفحم فالبدن كالفحم وهذا الرّوح كالهواء الذي في منافذ الفحم وأجوافه، والنّفخ سبب لإشتعال الرّوح البخاري بنار النفس وتنورها بنور الروح الأمري فللنفخ صورة وحقيقة ونتيجة،

(١) بحار الأنوار: ٦٠/١٩٨.
(٢) بحار الأنوار: ٥٤/٦.

فصورته إخراج الهواء من آلة النّفخ إلى جوف المنفوخ فيه حتّى تشتعل ناراً وهذه الصّورة في حقّ الله محال، ولكن النتيجة والمسبب غير محال، وقد يكنّى بالسّبب عن النتيجة والأثر المترتب عليه كقوله تعالى:

﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[الممتحنة: ١٣] ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٥].

وصورة الغضب عبارة عن نوع تغير في نفس الغضبان يتأذى به ونتيجته إهلاك المغضوب عليه أو جرحه وإيلامه فعبر في حقّ الله عن نتيجة الغضب بالغضب وعن نتيجة الإنتقام بالإنتقام، فكذلك يمكن أن يقال ههنا: إنه عبّر عمّا ينتج نتيجة النّفخ بالنفخ وإن لم يكن على صورة النّفخ ولكن نحن لا نكتفي في الأسماء التي هي مبادىء أفعال الله بهذا القدر، وهو مجرّد ترتب الأثر من غير حقيقه تكون بإزاء الصورة، بل نقول: حقيقة النّفخ الذي في عالم الصّورة عبارة عن إخراج شيء من جوف النافخ إلى جوف المنفوخ فيه كالزّق ونحوه هي إفاضة نور سر الرّوح العلوي الإلهي على القالب اللّطيف المعتدل المستوي أعني به الرّوح الحيواني القابل لفيضان النّور العقلي، والروح الإلهي كقبول البلور لفيضان النّور الحسي من الشّمس النافذ في أجزائه وأقطاره، وهكذا يكون أنوار الحسّ والحياة نافذة في كل جزء من أجزاء القالب والبدن، فعبر عن إضافة الروح على البدن بالنّفخ فيه، انتهى.

بقي الكلام في إضافة الروح إليه سبحانه، فنقول: إنّ الإفاضة من باب التشريف والإكرام، روى في **«الكافي»** بإسناده عن محمّد بن مسلم، قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ ونفخت فيه من روحي كيف هذا النفخ؟ فقال: «إنّ الرّوح متحرّك كالرّيح وإنّما سمّي روحاً لأنّه اشتق اسمه من الرّيح، وإنّما إخراجه على لفظة الرّيح لأنّ الأرواح مجانسة للرّيح، وإنّما أضافه إلى نفسه لأنّه اصطفاه على سائر الأرواح كما قال لبيت من البيوت، بيتي، ولرسول من الرّسل خليلي وأشباه ذلك وكلّ ذلك مخلوق مصنوع محدث مربوب مدبّر»[١].

ومثل إضافة الروح إليه تعالى إضافة الصّورة إليه سبحانه في بعض الأخبار كما رواه في **«الكافي»** عن محمّد بن مسلم أيضاً قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عمّا يروون أنّ الله تعالى خلق آدم على صورته؟ فقال: هي صورة محدثة مخلوقة اصطفاها الله تعالى واختارها على سائر الصّور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه والرّوح إلى نفسه فقال: بيتي ونفخت فيه من روحي» هذا[٢].

ولكن الصّدوق روى العيون بإسناده عن الحسين بن خالد قال: قلت للرّضا عليه السلام: يا بن

(١) الكافي: ١/ ١٣٤.
(٢) الكافي: ١/ ١٣٤.

رسول الله إنّ النّاس يروون أن رسول الله ﷺ قال: إن الله خلق آدم على صورته فقال: «قاتلهم الله لقد حذفوا أوّل الحديث إنّ رسول الله ﷺ مرّ برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبح الله وجهك ووجه من يشبهك، فقال رسول الله: يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك فإن الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته»(١).

فإنّ المستفاد من هذه الرّواية رجوع الضّمير في صورته إلى الرّجل المسبوب، وإنّما لم يتعرض الباقر عليه السلام في الرّواية الأولى لردّه ولم يشر إلى تحريف الرّواية إمّا للتقية أو إشارة إلى أنّ الرّواية على تقدير صحتها أيضاً دلالة فيها على ما هو مطلوب العامة من إعتقاد التّجسيم وإثبات الصّورة له، سبحانه عمّا يقول الظالمون وتعالى علوّا كبيراً.

وربّما يجاب بأن المراد أنه على صورته لأنّه مظهر الصّفات الكماليّة الإلهيّة، أو يقال: إنّ الضّمير راجع إلى آدم أي صورته اللاّئقة به المناسبة له، هذا.

وقد تحقّق بما ذكرناه كلّه معنى نفخ الرّوح ووجه المناسبة في إضافته إلى الضّمير الرّاجع إليه تعالى.

وأمّا نفس الرّوح فاعلم أنّه قد يطلق على النّفس النّاطقة التي تزعم الحكماء أنّها مجردة، وهي محلّ للعلوم والكمالات ومدبّرة للبدن، وقد يطلق على الروح الحيواني وهو البخار اللّطيف المنبعث من القلب السّاري في جميع أجزاء البدن، ويمكن إرادة المعنيين كليهما من الرّوح المنفوخ في آدم، وقد استفيد من قول الباقر عليه السلام في الرّواية السّابقة: إنّ الرّوح متحرّك كالرّيح كون الرّوح متحركاً سريعاً في جميع أجزاء البدن، وأنّه يجري آثاره في تجاويف أعضائه فيصلح البدن ويحيى ما دام فيه، كما أنّ الرّيح متحرّك سريعاً في أقطار العالم ويجري آثاره فيها فيصلح العالم بجريانه ويفسد بفقدانه(٢).

وفي الإحتجاج في جملة مسائل الزّنديق عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: فهل يوصف الرّوح بخفّة وثقل ووزن؟ قال عليه السلام: «الرّوح بمنزلة الرّيح في الزق إذا نفخت فيه إمتلأ الزق منها فلا يزيد في وزن الزق ولوجها فيه ولا ينقصها خروجها منه كذلك الرّوح ليس لها ثقل ولا وزن»، قال: أخبرني ما جوهر الرّيح قال عليه السلام: «الرّيح هواء إذا تحرك سمّي ريحاً وإذا سكن سمّي هواء وبه قوام الدنيا ولو كفت الرّيح ثلاثة أيام لفسد كلّ شيء على وجه الأرض ونتن، وذلك إن الرّيح بمنزلة مروحة تذبّ وتدفع الفساد عن كلّ شيء وتطيّبه فهي بمنزلة الرّوح إذا خرج عن البدن نتن البدن وتغيّر تبارك الله أحسن الخالقين (**فتمثلت**) الصّورة

---

(١) إرشاد المسائل/١٩٨.

(٢) شرح أصول الكافي: ٤/١٢١.

المجبولة بعد نفخ الرّوح (**إنساناً**)»[١].

روى في «**العلل**» مرفوعاً عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «سمّي الإنسان إنساناً لأنّه ينسي وقال الله عزّ وجلّ: ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي»[٢].

وعن «**الدّر المنثور**» عن ابن عبّاس قال: خلق الله آدم من أديم الأرض يوم الجمعة بعد العصر فسمّاه آدم ثم عهد الله فنسي فسمّاه الإنسان، قال ابن عبّاس: فبالله ما غابت الشّمس من ذلك اليوم حتّى أهبط من الجنّة[٣].

وقال الرّاغب: الإنسان قيل سمّي بذلك لأنّه خلق خلقة لأقوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل الإنسان مدني بالطبع من حيث إنّه لا قِوام لبعضهم إلا ببعض ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه ومحاوجه.

وقيل سمّي بذلك لأنّه يأنس بكلّ ما يألفه، وقيل هو أفعلان وأصله إنسيان سمّي بذلك لأنّه عهد إليه فنسي.

أقول: الإنسان لو كان من الإنس فوزنه فعلان وهو مذهب البصريّين، ولو كان من النّسي فوزنه إفعان أصله إنسيان على وزن إفعلان فحذفت الياء استخفافاً لكثرة ما يجري على ألسنتهم وعند التّصغير يردّ إلى الأصل يقال إنيسيان، وهو مذهب الكوفيين والرّواية السّابقة مؤيدة لمذهبهم، وقوله عليه السلام (ذا أذهان يجيلها) قال الشّارح البحراني: إشارة إلى ما للإنسان من القوى الباطنة المدركة والمتصرفة ومعنى إجالتها تحريكها وبعثها في انتزاع الصّور الجزئية كما للحس المشترك، والمعاني الجزئية كما للوهم (**وفكر يتصرف بها**) أي صاحب حركات فكرية يتصرف بها في أمور معاشه ومعاده، وإلاّ فالقوّة المتفكّرة في الإنسان واحدة وهي القوّة المودعة في مقدم البطن الأوسط من الدّماغ من شأنها تركيب الصّور بالصّور والمعاني بالمعاني والمعاني بالصّور والصّور بالمعاني (**وجوارح يختدمها، وأدوات يقلبها**). المراد بالجوارح والأدوات إمّا معنى واحد وهي الأعضاء والآلات البدنيّة جميعاً فإنها خادمة للنّفس النّاطقة وواسطة التقليب، وإمّا أن المراد بالأولى الأعمّ وبالثّانية خصوص بعض الأعضاء ممّا يصحّ نسبة التّقليب والتّقلب إليه كاليد والرّجل والبصر والقلب (**ومعرفة يفرق بها بين الحقّ والباطل**) والمراد بالمعرفة هي القوّة العاقلة إذ الحقّ والباطل من الأمور الكليّة والتميّز بينها حظ العقل (و) هي المفرقة أيضاً بين (**الأذواق والمشام والألوان والأجناس**).

---

(١) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٢١٨.

(٢) علل الشرائع: ١/ ١٥ ح ١ باب ١١.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٧/ ٣٨٧.

والمراد بالأَذواق المذوقات المدركة بالذّوق وهي قوّة منبثة في العصب المفروش على سطح اللّسان التي يدرك بها الطعوم من الحلاوة والمرارة والحموضة والملوحة وغيرها.

وبالمشام المشمومات المدركة بالشمّ وهي قوّة مودعة في زايدتي مقدّم الدّماغ الشبيهتين بحلمتي الثدي بها تدرك الرّوائح من الطيبة والمنتنة وغيرهما.

وبالأَلوان المبصرات المدركة بحس البصر وهي قوّة مرتبة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان فتفترقان إلى العينين التي بها يدرك الألوان من السّواد والبياض والحمرة والصّفرة والأشكال والمقادير والحركات ونحوها.

وبالأجناس الأمور الكلّية المنتزعة من تصفّح الجزئيّات وإدراكها ولذلك أخر عليه السلام ذكر الأَجناس عنها إشارة إلى ما ذكر، وذلك لأنّ النّفس بعد ما أدرك الجزئيّات بالمدركات والمشاعر السّالفة تتنبّه لمشاركات بينها ومباينات فاصلة بينها مميّزة لكل واحد منها عن الآخر، فتنتزع منها تصوّرات كليّة بعضها ما به الإشتراك بينها، وبعضها ما به امتياز إحديها عن الأخرى، ولعله أريد بالأَجناس مطلق الأمور الكليّة لا الجنس المصطلح في علم المنطق والكلام.

فإن قلت: التفرقة بين الأذواق والمشام والأَلوان إنّما هو من فعل الحواس الظاهرة، إذ هي المدركة لها والمميزة بينها حسبما ذكرت فما معنى نسبته إلى العقل؟

قلت: إدراك هذه، وإن كان بالحواس المذكورة إلاّ أنّها قد يقع فيها الشّك والمرجع فيها حنيئذٍ إلى العقل لأنّه الرّافع للشّك عنها.

توضيح ذلك ما ورد في رواية «**الكافي**» بإسناده عن يونس بن يعقوب، قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه منهم حمران بن أعين ومحمّد بن النّعمان وهشام بن سالم والطيار وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شاب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا هشام ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته»! فقال هشام: يا بن رسول الله إني أجلّك واستحييك ولا يعمل لساني بين يديك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا أمرتكم بشيء فافعلوا»، قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة فعظم ذلك عليّ فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متزر بها من صوف وشملة مرتد بها والنّاس يسألونه فاستفرجت النّاس فافرجوا لي ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي، ثم قلت:

أيّها العالم إنّي رجل غريب تأذن لي في مسألة؟ فقال لي: نعم، فقلت له: ألك عين؟ فقال لي يا بنيّ أيّ شيء تريد من هذا السؤال وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت: هكذا مسألتي فقال: يا بني سل وإن كانت مسألتك حمقاء، قلت: أجبني فيها، قال لي: سل،

قلت: ألك عين؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص، قلت: فلك أنف؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة، قلت: ألك فم؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم، قلت: فلك أذن؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الصّوت، قلت: ألك قلب؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أميّز به كلما ورد على هذه الجوارح والحواس، قلت: أوليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟ قال: يا بنيّ إنّ الجوارح إذا شكت في شيء شمّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته ردته إلى القلب فيستبين اليقين «فيستيقن خ» ويبطل الشّك، قال هشام: فقلت له: فإنما أقام الله القلب لشكّ الجوارح؟ قال: نعم قلت: لا بدّ من القلب وإلاّ لم يستيقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلت له: يا أبا مروان فإنّ الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحّ لها الصحيح ويتيقن به ما شككت فيه ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم وإختلافهم لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكّك؟ قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً، ثم التفت إلي فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟ فقلت: لا، فقال: أمن جلسائه؟ قلت: لا، قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة؛ قال: فأنت إذا هو، ثم ضمّني إليه وأقعدني في مجلسه وزال عن مجلسه وما نطق حتى قمت، قال: فضحك أبو عبد الله عليه السلام فقال: «يا هشام من علّمك هذا»؟ قلت: شيء أخذته منك وألفته، فقال: «هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى»[١].

قال بعض المحققين من شُراح الحديث: ومعنى شك الحواس وغلطها أنّ الحسّ أو الوهم المشوب بالحسّ يشك أو يغلط بسبب من الأسباب، ثم يعلم النّفس بقوّة العقل ما هو الحقّ المتيقّن كما يرى البصر العظيم صغيراً لبعده والصغير كبيراً لقربه والواحد اثنين لحول في العين والشّجرة التي في طرف الحوض منكوسة لانعكاس شعاع البصر من الماء إليها، والسّمع يسمع الصّوت الواحد عند الجبل ونحوه ممّا فيه صلابة أو صقالة صوتين لمثل العلّة المذكورة من انعكاس الهواء المتموّج بكيفيّة المسموع إلى الصّماخ تارة أخرى ويقال للصوت الثّاني: الصّداء، وكما تجد الذّائقة الحلو مرّاً لغلبة المرة الصّفراء على جرم اللّسان، وكذا تشمئز الشّامة من الرّوائح الطيبة بالزّكام فهذه وأمثالها أغلاط حسيّة يعرف القلب حقيقة الأمر فيها، انتهى ما أهمّنا نقله.

واتّضح به كلّ الوضوح أنّ التّفرقة بين الحقّ والباطل وبين المحسوسات عند الشّك والإرتياب إنّما هي وظيفة العقل والقلب وهو اللّطيفة النورانية المتعلقة أوّل تعلّقها بهذا القلب

---

(١) الكافي: ١/ ١٧٠.

الصّنوبري ونسبته إلى أعضاء الحسّ والحركة كنسبة النّفس إلى قوى الحس والحركة في أنّه ينبعث منه الدّم والرّوح البخاري إلى سائر الأعضاء فالنّفس رئيس القوى وإمامها والقلب وهو مستقرها وعرش استوائها بإذن الله رئيس سائر الأعضاء وإمامها.

(معجوناً) أي مخمراً ذلك الإنسان **(بطينة الألَوان المختلفة)** وأصلها وهذه إشارة إلى اختلاف أجزاء الإنسان فإن بعض أعضائه أبيض كالعظام والشّحم، وبعضها أحمر كالدّم واللّحم، وبعضها أسود كالشّعر وحدقة العين وهكذا، ومثل اختلاف أجزائه إختلاف أفراد نوع الإنسان، فمنهم السّعيد والشّقي والطيب والخبيث، وكل ذلك مستند إلى اختلاف المواد.

كما يدلّ عليه ما رواه القمي في «**تفسيره**» بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين صلوات الله عليهم في حديث طويل، وفيه قال: «فاغترف ربّنا تبارك وتعالى غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات وكلتا يديه يمين فصلصلها في كفه فجمدت، فقال لها: منك أخلق النّبيين والمرسلين وعبادي الصّالحين والأئمة المهتدين والدّعاة إلى الجنّة وأتباعهم إلى يوم القيامة ولا أبالي ولا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون، ثم اغترف غرفة من الماء المالح الإجاج فصلصلها في كفّه فجمدت، ثم قال: منك أخلق الجبّارين والفراعنة والعتاة وإخوان الشّياطين والدّعاة إلى النّار وأشياعهم إلى يوم القيامة، ولا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون، قال: وشرط في ذلك البداء فيهم ولم يشترط في أصحاب اليمين، ثم خلط المائين جميعاً في كفه فصلصلهما ثم كفاهما قدام عرشه وهما سلالة من طين»[1] الحديث، وسيأتي تمامه بعيد ذلك.

(والأشباه المؤتلفة) كالإئتلاف بين العظام والأَسنان ونحوها فإنّها أجسام متشابهة ائتلف بعضها مع بعض وبها قامت الصّورة الإنسانية **(والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة، من الحرّ والبرد والبلة والجمود والمساءة والسّرور)**.

والمراد بالبلّة والجمود الرّطوبة واليبوسة، وكلمة من تبيين للأَضداد والأَخلاط جميعاً وليست بياناً للأَخلاط فقد بقرينة ذكر المساءة والسّرور.

قيل: والمراد بالحرّ الصّفراء وبالبرد البلغم وبالبلّة والدّم وبالجمود السّوداء فكلامه عليه السلام إشارة إلى الطبائع الأَربع التي بها تحَصُل المزاج وبها قوام البدن الإنساني.

وفي حديث القمي السّابق بعد قوله عليه السلام: **(ثم كفاهما قدام عرشه)** وهما سلالة من طين، قال: ثم أمر الله الملائكة الأَربعة الشّمال والجنوب والصّبا والدّبور أن يجولوا على هذه السّلالة من طين فأبرؤها وأنشأوها ثم جزوها وفصّلوها وأجروا فيها الطبائع الأَربعة.

(١) بحار الأنوار: ٥/٢٣٨.

قال: الرّيح في الطبائع الأَربعة من البدن من ناحية الشّمال، والبلغم في الطبائع الأَربعة من ناحية الصّبا، والمرة في الطبائع الأَربعة من ناحية الدّبور، والدّم في الطبائع الأَربعة من ناحية الجنوب.

قال: فاستقلّت النسمة وكمل البدن، فلزمه من ناحية الرّيح حبّ النّساء وطول الأَمل والحرص، ولزمه من ناحية البلغم حبّ الطعام والشّراب والبرّ والحلم والرّفق، ولزمه من ناحية المرّة الغضب والسّفه والشّيطنة والتّجبر والتمرّد والعجلة، ولزمه من ناحية الدّم حب الفساد واللّذات وركوب المحارم والشهوات قال أبو جعفر: وجدنا هذا في كتاب أمير المؤمنين صلوات الله عليه، هذا.

وأمّا المساءة والسّرور فهما من الكيفيات النّفسانية، وسبب السرور إدراك الكمال والإحساس بالمحسوسات الملائمة والتمكّن من تحصيل المرادات والقهر والإستيلاء على الغير والخروج عن الآلام وتذكر الملذّات، وسبب المسائة مقابلات هذه.

قال البحراني: ومقصوده عليه السلام التّنبيه على أنّ طبيعة الإنسان فيها قوّة قبول وإستعداد لتلك الكيفيات وأمثالها، وتلك القوّة هي المراد بطينة المساءة والسرور والله العالم.

الترجمة

پس جمع فرمود حق سبحانه و تعالى از زمين درشت و زمين نرم و زمين شيرين و زمين شور پاره خاك را آميخت و ممزوج نمود آن خاك را به آب تا اين كه خالص و پاكيزه شد و مخلوط و ملصق نمود آن را به رطوبت تا اين كه چسبان گشت، پس ايجاد كرد از آن صورت و شكلى كه صاحب طرف ها بود و بندها و صاحب جوارح بود و فصل ها، خشك ساخت آن صورت را تا اين كه قوام حاصل شد آن را و سخت گردانيد آن را تا اين كه گل خشك آوازكننده گرديد، پس باقى گذاشت آن را به جهت وقت شمرده شده و اجل دانسته گرديده، پس از آن دميد در آن صورت روح خود را يا از روحى كه اختيار كرده بود آن را به ساير ارواح، پس متمثّل شد و متصوّر گرديد انسانى كه صاحب ذهن هايى است كه متحرك مى سازد آن را و صاحب فكرهايى است كه تصرّف و تفتيش مى كند با آن و صاحب جوارحى كه طلب خدمت مى كند از آن ها و صاحب آلاتى كه برمى گرداند آن ها را در امورات خود و صاحب معرفت و عقلى كه فرق مى گذارد با آن ميان حق و باطل و ميان ذوق ها و مشام ها و ميان رنگ ها و جنس ها، در حالتى كه آميخته و خمير شده بود آن انسان به اصل رنگ هاى گوناگون و شبه هايى كه با همديگر الفت دارند، چون استخوان و دندان و ضدهايى كه تعاند دارند با همديگر و خلط هايى كه تباين دارند با يكديگر از حرارت و برودت و رطوبت و يبوست و پريشانى و خوشحالى.

الفصل الحادي عشر

«وَاسْتَأْدَى اللهُ الْمَلاَئِكَةَ وَديعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِه إِلَيْهِمْ، في الإِذْعانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِه فَقالَ: اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْليسَ وَقَبيلَهُ (وَجُنُودَهُ خ)، اعْتَرَتْهُمُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشِّقْوَةُ، تَعَزَّزوا بِخِلْقَةِ النارِ، وَاسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصالِ، فَأَعْطاهُ اللهُ النَّظْرَةَ اسْتِحْقاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْماماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجازاً لِلْعِدَةِ، فَقالَ: إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرينَ إِلى يَوْمِ الوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

اللغة

(استأدى الله الملائكة) أي طلب منهم الأداء **(والخنوع)** كالخضوع لفظاً ومعنى **(والتكرمة)** إمّا بمعنى التكريم وهو التّعظيم والإحترام مصدر ثانٍ من التّفعيل كما في الأوقيانوس، أو إسم من التكريم على ما قاله الفيومي **(وإبليس)** إفعيل من إبلس قال سبحانه:

﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤].

أي آيسون من رحمة الله، واسمه بالعبرانية عزازيل بزائين معجمتين وبالعربيّة الحارث وكنيته أبو مرّة **(والقبيل)** في الأَصل الجماعة تكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى فإن كانوا من أب واحد فقبيلة، وقد تسمى قبيلاً وجمعه قبل وجمع القبيلة القبائل **(والشقوة)** بكسر الشّين الشّقاوة **(والتّعزز)** التكبر **(واستوهنوا)** عدوه واهناً ضعيفاً **(والنظرة)** بكسر الظاء مثل كلمة اسم من أنظرت الدين أخرته قال سبحانه:

﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾[البقرة: ٢٨٠].

أي تأخير (والسّخطة) بالضمّ كالسّخط الغضب وعدم الرّضا **(والبلية)** إسم من الإبتلاء وهو الإمتحان (وأنجز) وعده وعدته إذا وفى به.

الإعراب

(الملائكة) منصوب بنزع الخافض أي من الملائكة، وإضافة العهد إلى الوصية قيل من قبيل إضافة الصّفة إلى الموصوف أي وصيّته المعهودة، وإستثناء إبليس إمّا منقطع على ما هو الأَظهر الأَشهر بين أصحابنا وكثير من المعتزلة، أو متّصل على ما ذهب إليه طائفة من متكلّمي العامة واختاره منا الشيخ (ره) في التّبيان، ومنشأ الخلاف أنّ إبليس هل هو من الجنّ أم من الملائكة؟ ويأتي تحقيق الكلام فيه، وانتصاب الإستحقاق والإستتمام والإنجاز على المفعول له.

المعنى

(واستأدى الله الملائكة) أي طلب منهم أداء **(وديعته)** المودعة **(لديهم و)** طلب أداء **(عهد وصيته إليهم)** والمراد بتلك الوديعة والوصيّة ما أشار إليه سبحانه في سورتي الحجر وص.

قال في الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

قال أمير المؤمنين عليه السلام على ما رواه القمي عنه: وكان ذلك من الله تقدمة في آدم قبل أن يخلقه وإحتجاجاً منه عليهم.

وفي الثانية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]

فلقد كان عزّ وجلّ أوصاهم وعهد إليهم أنّه خالق بشراً لا بد لهم من السّجود له بعد إستوائه ونفخ الرّوح فيه، وإلى ذلك أشار عليه السلام بقوله **(في الإذعان بالسّجود له و)** الانقياد بـ **(الخنوع)** والخضوع **(لتكرمته)** وتعظيمه **(فقال)** سبحانه للملائكة بعد الإستواء ونفخ الرّوح **(اسجدوا لآدم)** قال الصّادق عليه السلام: «وكان ذلك الخطاب بعد ظهر الجمعة **(فسجدوا)** وبقوا على السّجدة إلى العصر **(إلا إبليس)** قال الرضا عليه السلام كان إسمه الحارث سمّي إبليس لأنّه أبلس من رحمة الله (وقبيله)»[1].

قال المحدّث المجلسي (قده): وضمّ القبيل هنا إلى إبليس غريب، فإنّه لم يكن له في هذا الوقت ذريّة ولم يكن أشباهه في السّماء، فيمكن أن يكون المراد به أشباهه من الجنّ في الأرض بأن يكونوا مأمورين بالسّجود أيضاً، وعدم ذكرهم في الآيات وسائر الأخبار لعدم الإعتناء بشأنهم، أو المراد به طائفة خلقها الله تعالى في السّماء غير الملائكة، ويمكن أن يكون المراد بالقبيل ذريته ويكون إسناده عدم السّجود إليهم لرضاهم بفعله كما قاله عليه السلام في موضع آخر: «إنّما يجمع النّاس الرّضا والسّخط، وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، فقال سبحانه:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾[2][الشعراء: ١٥٧].

أقول: والأوجه ما أجاب به أخيراً ويشهد به مضافاً إلى ما ذكره ما رواه السّيد (ره) في آخر الكتاب عنه عليه السلام من أنّ الرّاضي بفعل قوم كالدّاخل فيه معهم وقال سبحانه:

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

---

(١) تفسير الصافي: ١/١١٦.

(٢) بحار الأنوار: ٦/٢١٣.

فإنّه روى في «**الكافي**» عن الصّادق عليه السلام قال: «كان بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام، فألزمهم الله القتل لرضاهم بما فعلوا، ومثله عن العياشي في عدّة روايات (**اعترتهم**) وغشيتهم (**الحميّة**) والعصبيّة (**وغلبت عليهم الشقوة**) والضّلالة (**تعزّزوا**) وتكبروا (**بخلقة النار واستوهنوا**) واستضعفوا (**خلق الصلصال**) وقالوا: إنّ مادتنا وجوهرنا خير من جوهر آدم الطيني فلا نسجد له، لأنّ السّجود إنّما هو لمكان شرف الجوهر وجوهر النّار أشرف من جوهر التراب، وهذا معنى قوله سبحانه في سورة الأعراف:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ١٢﴾ [الأعراف: ١٢].

وفي «**الكافي**» والاحتجاج عن الصّادق عليه السلام أنّه دخل عليه أبو حنيفة فقال له: «يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس»، قال: نعم، أقيس، قال: «لا تقس فإنّ أوّل من قاس إبليس حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢] فقاس ما بين النّار والطين ولو قاس نوريّة آدم بنورية النّار عرف فضل ما بين النّورين وصفاء أحدهما على الآخر»[١].

قال بعض الأفاضل: إن إبليس قد غلط حيث لاحظ الفضل باعتبار الجوهر والعنصر فلولا حظه باعتبار الفاعل لعلم فضل آدم عليه نظراً إلى ما أكرمه الله به من إضافة روحه إلى نفسه ونسبة خلقته إلى يديه حيث قال:

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[طه: ٧٥].

مضافاً إلى ما في قياسه في نفسه أيضاً من الفساد من حيث إنّ الطين أمين يحفظ كلّ ما أودع عنده والنّار خائن يفني كل ما يلقى فيه. والنّار متكبّر طالب للعلوّ، والتّراب متواضع طالب السّفل، والتّواضع أفضل من التكبر، هذا.

وقد ظهر ممّا ذكرناه فساد العمل بالقياس أيضاً وقد عنونه أصحابنا في «**علم الأصول**» وحكموا بعدم جواز العمل في «**الأحكام الشرعية**» بالأقيسة والإستحسانات العقليّة، نظراً إلى ما نشاهده من حكم الشّارع في «**الموارد الكثيرة**» بخلاف ما تقتضيه عقولنا النّاقصة.

كجمعه بين المتشاكلات وتفريقه بين المختلفات في منزوحات البئر.

وكجمعه بين النّوم والبول والغائط في الأحداث.

وحكمه بوجوب الإحرام في الحلّ مع أنّ الحرم أفضل.

وحكمه بوجوب مسح ظاهر القدم مع أنّ الباطن أولى.

---

(١) الكافي: ١/٥٨، وشرح أصول الكافي: ٢/٢٧، علل الشرائع: ١/٨٦.

وحكمه بحرمة صوم يوم العيد وجوب سابقه وندبيّة لاحقه.

وحكمه بوجوب خمسمائة دينار وهو نصف الدّية الكاملة في قطع إحدى اليدين وقطع اليد لربع دينار.

وحكمه لقطع اليد لسرقة ربع دينار وعدم جواز قطعه للغصب ولو كان ألفاً إلى غير ذلك من الموارد التي يقف عليها المتتبع ومع ذلك كيف يمكن الإستبداد بالعقول النّاقصة والآراء الفاسدة في استخراج مناطات الأحكام الشّرعيّة، وقد قامت الأخبار المتواترة عن أئمّتنا عليهم السّلام على النهي عن العمل بالقياس والإستحسانات العقليّة، مثل قولهم: إنّ دين الله لا يصيب العقول، وإنّ السّنة إذا قيست محق الدين، وإنّه لا شيء أبعد عن عقول الرّجال من دين الله.

روى الصّدوق والكليني بإسنادهما عن أبان بن تغلب، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في رجل قطع اصبعاً من أصابع المرأة، كم فيها؟ قال: «عشرة من الإبل»، قال: قلت: قطع اثنين؟ فقال: «عشرون»، قلت: قطع ثلاثاً؟ قال: «ثلاثون»، قلت: قطع أربعاً؟ قال: «عشرون»، قلت: سبحان الله يقطع ثلاثاً فيكون عليه ثلاثون فيقطع أربعاً فيكون عليه عشرون، إن هذا كان يبلغنا ونحن بالعراق فنبرأ ممّن قاله، ونقول: إنّ الذي «جاء به خ» قاله شيطان، فقال: مهلاً يا أبان هذا حكم رسول الله إنّ المرأة تعاقل الرّجل إلى ثلث الدّية فإذا بلغت الثلث رجعت المرأة إلى النّصف، يا أبان إنك أخذتني بالقياس، والسّنة إذا قيست محق الدين[1].

وفي الإحتجاج أن الصّادق عليه السلام قال لأبي حنيفة لما دخل عليه: «من أنت»؟ قال: أبو حنيفة، قال: «مفتي أهل العراق»، قال: نعم، قال: «بم تفتيهم»؟ قال: كتاب الله، قال: «فأنت العالم بكتاب الله؟ ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه»، قال: نعم، قال: «فأخبرني عن قول الله عزّ وجل.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾[سبأ: ١٨].

أي موضع هو»؟ قال أبو حنيفة: هو ما بين مكّة والمدينة، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى جلسائه وقال: «نشدتكم بالله هل تسيرون بين مكّة والمدينة ولا تؤمنون على دمائكم من القتل وعلى أموالكم من السّرق»؟ فقالوا اللهمّ نعم، قال: «ويحك يا أبا حنيفة إن الله لا يقول إلا حقّاً، أخبرني عن قول الله:

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

---

(١) رياض المسائل: ٢/٥٠٥.

أي موضع هو»؟ قال: ذاك بيت الله الحرام، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى جلسائه وقال لهم: «نشدتكم بالله هل تعلمون أنّ عبد الله بن زبير وسعيد بن جبير دخلاه فلم يأمنا القتل»؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: أبو عبد الله عليه السلام: «ويحك يا أبا حنيفة إنّ الله لا يقول إلاّ حقاً».

فقال أبو حنيفة: ليس لي علم بكتاب الله عزّ وجلّ إنّما أنّا صاحب قياس، قال أبو عبد الله عليه السلام: «فانظر في قياسك إن كنت مقيساً أيّما أعظم عند الله القتل أو الزنا»؟ قال: بل القتل، قال: «فكيف رضي الله في القتل بشاهدين ولم يرض في الزّنا إلاّ بأربعة؟ ثمّ قال له: الصّلاة أفضل أم الصّيام»؟ قال: بل الصّلاة أفضل، قال: «فيجب على قياس قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصّلاة في حال حيضها دون الصّيام، وقد أوجب الله عليها قضاء الصّوم دون الصّلاة، ثم قال: البول أقذر أم المني؟ قال: البول أقذر، قال: يجب على قياسك أن يجب الغسل من البول دون المني، وقد أوجب الله الغسل على المني دون البول»[1].

قال: إنّما أنا صاحب رأي، قال عليه السلام: «فما ترى في رجل كان له عبد فتزوج وزوج عبده في ليلة واحدة فدخلا بامرأتيهما في ليلة واحدة ثم سافرا وجعلا امرأتيهما في بيت واحد فولدتا غلامين فسقط البيت عليهم فقتلت الإمرأتين وبقي الغلامان أيهما في رأيك المالك وأيهما المملوك وأيهما الوارث وأيهما الموروث»؟

قال: إنّما أنا صاحب حدود، فقال عليه السلام: «فما ترى في رجل أعمى فقأ عين صحيح، وأقطع يدر رجل كيف يقام عليهما الحد»؟

قال: إنّما أنا رجل عالم بمباعث الأنبياء، قال: «فأخبرني عن قول الله تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى دعوة فرعون:

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٤].

(لعل) منه شكّ»؟ قال: نعم، قال: ذلك من الله شك إذ قال لعلّه؟ قال أبو حنيفة: لا أعلم.

قال عليه السلام: «إنك تفتي بكتاب الله ولست ممّن ورثه، وتزعم أنك صاحب قياس وأوّل من قاس إبليس ولم يبن دين الإسلام على القياس، وتزعم أنك صاحب رأي وكان الرّأي من رسول الله صلى الله عليه وآله صواباً ومن دونه خطأ، لأنّ الله قال:

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]»[2].

---

(١) الإحتجاج: ١١٦/٢. (٢) الإحتجاج: ١١٧/٢.

ولم يقل ذلك لغيره، وتزعم أنك صاحب حدود ومن أنزلت عليه أولى بعلمها منك، وتزعم أنك عالم بمباعث الأنبياء وخاتم الأنبياء أعلم بمباعثهم منك، لولا أن يقال: دخل على ابن رسول الله فلم يسأله من شيء ما سألتك عن شيء، فقس إن كنت مقيساً، قال: لا تكلّمت بالرّأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس، قال عليه السلام: «كلا إن حبّ الرّئاسة غير تاركك كما لم يترك من كان قبلك الخبر»(١).

ثم إنّ إبليس اللّعين بعد ما تمرّد عن السّجود وتكبّر عن طاعة المعبود سأل الله النّظرة والمهلة والإبقاء إلى يوم البعث وقال:

﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الحجر: ٣٦].

(فأعطاه الله النّظرة إستحقاقاً للسخطة) أي لأجل إستحقاقه سخط الله سبحانه وغضبه، فإن في الإمهال، وإطالة العمر إزدياد الإثم الموجب لإستحقاق زيادة العقوبة، قال سبحانه:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[آل عمران: ١٧٨].

(وإستتماماً للبليّة) أي لإبتلاء بني آدم وتعريضهم للثواب بمخالفته **(وإنجازاً للعدة)** قيل: المراد به وعد الإمهال، وليس بشيء، لأنّه لم يسبق منه سبحانه وعد في إمهاله حتّى ينجزه، بل الظاهر أن المراد به أنّه تعالى لمّا كان لا يضيع عمل عامل بمقتضى عدله وقد عبده إبليس في الأرض وفي السّماء وكان مستحقّاً للجزاء الذي وعده سبحانه لكل عامل مكافأة لعمله، فأنجز له الجزاء الموعود في الدّنيا مكافأة لعبادته حيث لم يكن له في الآخرة من خلاق.

روى في **«البحار»** عن العيّاشي عن الحسن بن عطيّة قال سمعت: أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ إبليس عبد الله في السّماء في ركعتين ستّة ألف سنة وكان إنظار الله إيّاه إلى يوم الوقت المعلوم بما سبق من تلك العبادة»(٢).

وفي رواية علي بن إبراهيم الآتية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال إبليس: «يا ربّ وكيف وأنت العدل الذي لا تجور ولا تظلم فثواب عملي باطل، قال: لا، ولكن سلني «إسأل خ» من أمر الدّنيا ما شئت ثواباً لعملك فأعطيك، فأوّل ما سأل البقاء إلى يوم الدين فقال الله: قد أعطيتك». الخبر(٣).

وفي روايته الآتية أيضاً عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: جعلت فداك بماذا

---

(١) كتاب الأربعين/ ٦٣.

(٢) تفسير العياشي: ٢/ ٢٤٢.

(٣) تفسير الصافي: ٢/ ١٨٥.

استوجب إبليس من الله أن أعطاه ما أعطاه؟ قال: «بشيء كان منه شكره الله عليه»، قلت وما كان منه جعلت فداك؟ قال: «ركعتين ركعهما في السّماء في أربعة آلاف سنة فقال: (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم)»[1].

قال الرّازي في «**تفسيره**»: إعلم أنّ إبليس إستنظر إلى يوم البعث والقيامة وغرضه منه أن لا يموت، لأنّه إذا كان لا يموت قبل يوم القيامة وظاهر أن بعد قيام القيامة لا يموت فحينئذٍ يلزم منه أن لا يموت البتّة، ثم إنّه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال:

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨].

واختلفوا في المراد منه على وجوه:

أحدها: أن المراد من يوم الوقت وقت النفخة الأولى حين تموت كل الخلائق وإنّما سمّي هذا الوقت بالوقت المعلوم، لأنّ من المعلوم أنّه تموت كلّ الخلائق فيه، وقيل إنّما سمّاه الله تعالى بهذا الإسم، لأنّ العالم بذلك هو الله تعالى لا غير كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]

وثانيها: أنّ المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذي ذكره وهو قوله:

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الحجر: ٣٦].

وإنما سمّاه الله تعالى بيوم الوقت المعلوم لأن إبليس لما عيّنه وأشار إليه بعينه صار ذلك كالمعلوم، فإن قيل: لما أجابه الله تعالى إلى مطلوبه لزم أن لا يموت إلى وقت قيام السّاعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضاً فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكليّة، قلنا يحمل قوله: إلى يوم يبعثون إلى ما يكون قريباً منه، والوقت الذي يموت فيها كلّ المكلفين قريب من يوم البعث على هذا الوجه، فيرجع حاصل هذا الكلام إلى الوجه الأول.

وثالثها: أنّ المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه إلاّ الله تعالى وليس المراد منه يوم القيامة، انتهى.

أقول: والمستفاد من بعض أخبارنا الوجه الأوّل، وهو ما روى في «**العلل**» عن الصّادق عليه السلام أنه سئل عنه فقال: «يوم الوقت [المعلوم] يوم ينفخ في الصّور نفخة واحدة فيموت إبليس ما بين النفخة الأولى والثانية»[2].

(١) تفسير العمي: ١/ ٤٢، والتفسير الصافي: ٢/ ١٨٥.

(٢) علل الشرائع: ٢/ ٤٠٢.

ومن البعض الآخر أنه عند الرّجعة، وهو ما رواه القمي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله، قال: «يوم الوقت المعلوم يوم يذبحه رسول الله صلى الله عليه وآله على الصّخرة في بيت المقدس»[1].

وفي رواية أخرى رواها العياشي عنه عليه السلام أيضاً أنه سئل عنه فقال: «أتحسب أنه يوم يبعث فيه النّاس إنّ الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا، فإذا بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة وجاء إبليس حتّى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول: يا ويله من هذا اليوم فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه فذلك يوم الوقت المعلوم، ويحتمل الجمع بينهما بأن يقتله القائم ثم يحيى ويقتله رسول الله صلى الله عليه وآله ثم يحيى ويموت عند النّفخة[2]، والله العالم بحقائق الأمور».

وينبغي التنبيه على أمور مهمة مفيدة لزيادة البصيرة في المقام.

الأوّل: أنّه سبحانه ذكر قصّة آدم وكيفيّة خلقته ومعاملة إبليس معه في مواقع كثيرة من القرآن الكريم وفي ذلك أسرار كثيرة:

منها الإشارة إلى كمال قدرته وعظمته حيث إنّه خلق إنساناً كاملاً ذا عقلٍ وحس وحياة وصاحب مشاعر ظاهرة وباطنة من تراب جامد، ثم جعله طيناً لازباً فجعله حمأً مسنوناً فجعل الحمأ صلصالاً يابساً، ثم نفخ فيه من روحه فاستوى انساناً كاملاً فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومنها تذكير الخلق بما أنعم به على أبيهم آدم حيث فضّله على ملائكة السّماء بما علّمه من الأسماء وجعله مسجوداً لهو وذا مزّية عليهم.

ومنها تحذير الخلق عن مكائد الشّيطان ليجتنبوا عن مصائده وفخوخه فإنّ عداوته أصلية ومنافرته ذاتية لا يمكن توقع الوصل والعلقة معه ألبتّة.

ومنها تنبيه الخلق على أنّ آدم مع فعله زلة واحدة كيف أخرج من جوار رحمة الله وأهبط إلى دار البليّة، فما حال من تورّط في الذّنوب واقتحم في المهالك والعيوب مدى عمره وطول زمانه وهو مع ذلك يطمع في دخول دار الخلد ونعم ما قيل:

يا ناظراً نوراً بعيني راقد ... ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذّنوب إلى الذنوب وترتجي ... درك الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت أنّ الله أخرج آدماً ... منها إلى الدّنيا بذنب واحد

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ١٥٤.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٣٤.

الثاني

لقائل أن يقول: أمر الملائكة بالسّجود لآدم لماذا وما السّر في ذلك؟ قلنا: فيه أسرار كثيرة:

منها إظهار فضيلته على الملائكة.

ومنها الإبتلاء والإمتحان ليظهر حال إبليس على الملائكة حيث علموا بعد إبائه وإمتناعه عن السجدة أنه لم يكن منهم، وقد زعموا قبل ذلك أنه منهم كما يدلّ عليه ما رواه عليّ بن إبراهيم القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سُئِلَ عمّا ندب الله الخلق إليه أدخل فيه الضّلال؟ «الضلالة خ» «قال: نعم والكافرون دخلوا فيه، لأن الله تبارك وتعالى أمر الملائكة بالسّجود لآدم فدخل في أمره الملائكة وإبليس، فإنّ إبليس كان مع الملائكة في السّماء يعبد الله وكانت الملائكة تظن أنّه منهم فلمّا أمر الله الملائكة بالسّجود لآدم أخرج ما كان في قلب إبليس من الحسد، فعلمت الملائكة أنّ إبليس لم يكن منهم»، فقيل له عليه السلام: فكيف وقع الأمر على إبليس وإنّما أمر الله الملائكة بالسّجود لآدم؟ فقال: «كان إبليس منهم بالولاء ولم يكن من جنس الملائكة، وذلك أنّ الله خلق خلقاً قبل آدم، وكان إبليس فيهم حاكماً في الأرض فعتوا وأفسدوا وسفكوا الدّماء، فبعث الله الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس ورفعوه إلى السّماء فكان مع الملائكة يعبد الله إلى أن خلق الله تبارك وتعالى آدم»[1].

ومنها أنّ سجودهم له لما كان في صلبه من أنوار نبيّنا وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم يدلّ عليه ما رواه في «**الصّافي**» و «**البحار**» عن تفسير الإمام عن عليّ بن الحسين عن أبيه عن رسول الله سلام الله عليهم، قال: «يا عباد الله إن آدم لما رأى النّور ساطعاً من صلبه إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره رأى النّور ولم يتبين الأشباح، فقال: يا ربّ ما هذه الأنوار؟ فقال عزّ وجلّ: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشي إلى ظهرك ولذلك أمرت الملائكة بالسّجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح، فقال آدم: يا ربّ لو بينتها لي، فقال الله عزّ وجلّ: انظر يا آدم إلى ذروة العرش، فنظر آدم ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم على ذروة العرش فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره كما ينطبع وجه الإنسان في المرآة الصّافية فرأى أشباحنا، فقال: ما هذه الأشباح يا ربّ؟ قال الله يا آدم هذه أشباح أفضل خلائقي وبرياتي هذا محمّد وأنا الحميد المحمود في فعالي شققت له إسماً من اسمي وهذا عليّ وأنا العليّ العظيم شققت له إسماً من إسمي، وهذه فاطمة وأنا فاطر السّماوات والأرض فاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل قضائي وفاطم أوليائي عمّا يعرهم «يعتريهم خ» وشينهم، فشققت لها إسماً من إسمي، وهذا الحسن، وهذا الحسين وأنا المحسن المجمل فشققت

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ٢٣٤.

إسميهما من إسمي هؤلاء خيار خليقتي وكرام بريّتي بهم آخذ بهم أعطي وبهم أعاقب وبهم أثيب فتوسّل بهم إليّ يا آدم إذا دهتك داهية فاجعلهم إليّ شفعائك فإنّي آليت على نفسي قسماً حقّاً أن لا أخيب بهم آملاً ولا أردّ بهم سائلاً فلذلك حين زلت منه الخطيئة دعا الله عزّ وجلّ بهم فتاب عليه وغفر له»[1][2].

---

(١) المحتضر/١٥٨.

(٢) يشاهد في عدن ضياء مشعشعاً — يزيد على الأنوار في الضوء والهدى
فقال إلهي ما الضياء الذي أرى — جنود السما تعشو اليه ترددا
فقال نبي خير من وطىء الثرى — وأفضل من في الخير راح أو اغتدى
تخيرته من قبل خلقك سيدا — وألبسته قبل النبيين سؤددا
سكن الفؤاد فعش هنيئا يا جسد — هذا النعيم هو المقيم الى الابد
روح الوجود حياة من هو واجد — لولاه ماتم الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم — هم اعين هو نورها لما ورد
لو ابصر الشيطان طلعة نوره — في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمرود نور جماله — عبدالجليل مع الخليل ولا عند
لكن جمال الله جل فلا يرى — الا بتخصيص من الله الصمد

(ـ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: ١/ ٣٦ ـ ٤٤ تشريف الله للنبي من المقصد الأول).

طأطأ كل الأنبياء لطاها — ذلك عِزٌّ عَزَّ أن يضاهي
تقبلت تربة آدم الصفي — بيمنه اكرم به من خلف
وسجدة الاملاك لا لغرته — بل نور ياسين بدا في غرته
به نجى نوح من الطوفان — بمرسلات اللطف والاحسان

– الأنوار القدسية: ٢٠).

وقال العباس يمدح النبي ﷺ:

من قبلها طبت في الضلال وفي — مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر — أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد — الجم نسراً وأهله الغَرَقُ
تنقّل من صالب الى رحم — اذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من — خندف علياء تحتها النطق
وانت لما ولدت اشرقت الا — رض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النـ — ور وسُبُلَ الرشاد نخترق

(مجمع الزوائد: ٨/ ٤٠٠ ح ١٣٨٣٠ كتاب علامات النبوة، والمستدرك: ٣/ ٣٢٧ كتاب معرفة الصحابة مناقب العباس.)

وزاد ابن الجوزي هذا البيت:

وردت نار الخليل مكتتما — تجول فيها ولست تحترق

(الوفا باحوال المصطفى: ٢٨ الباب الثاني ـ ح ٩، وينابيع المودة: ١٣ ـ ١٤).

الثالث

لقائل أن يقول: ماذا كان المانع لإبليس عن السّجود؟ قلت: المستفاد من رواية القمي السّالفة أنّه الحسد، والمستفاد من الآيات القرآنية أنّه الإستكبار، وهو المستفاد أيضاً ممّا رواه في «البحار» عن قصص الرّاوندي بالإسناد إلى الصدوق بإسناده إلى ابن عبّاس قال: قال إبليس لنوح عليه السلام: لك عندي يد سأعلمك خصالاً، قال نوح: وما يدي عندك؟ قال: دعوتك على قومك حتّى أهلكهم الله جميعاً، فإيّاك والكبر وإيّاك والحرص وإيّاك والحسد، فإن الكبر هو الذي حملني على أن تركت السّجود لآدم فأكفرني وجعلني شيطاناً رجيماً، وإيّاك والحرص فإنّ آدم أبيح له الجنّة ونهي عن شجرة واحدة فحمله الحرص على أن أكل منها، وإيّاك والحسد فإنّ ابن آدم حسد أخاه فقتله، فقال نوح: متى تكون أقدر على ابن آدم؟ فقال: عند الغضب[1]، هذا.

ولا منافاة بينها لأنّه يجوز أن يكون المانع الحسد والكبر النّاشيء من قياسه الفاسد جميعاً.

ويدّل عليه ما رواه علي بن إبراهيم بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين صلوات الله عليهم في حديث طويل وساق الحديث إلى قوله: فخلق الله آدم فبقي أربعين سنة مصوّراً وكان يمرّ به إبليس اللعين فيقول: لأمر ما خلقت، فقال العالم عليه السلام: فقال إبليس: لأن أمرني الله بالسّجود لهذا لعصيته، قال: ثم نفخ فيه، فلما بلغت فيه الرّوح إلى دماغه عطس عطسة فقال: الحمد لله، فقال الله له: يرحمك الله، ثم قال الله تبارك وتعالى للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا له، فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبى أن يسجد فقال الله عزّ وجلّ.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]

قال الصّادق عليه السلام: «فأوّل من قاس إبليس واستكبر، والإستكبار هو أوّل معصية عصي

أقول: هو اشارة الى ما تقدم في وجود نور النبي محمد في الأنبياء (عليهم السلام).

وقال الصفوري: لما ألقي إبراهيم في النار كان نور محمد صلى الله عليه وآله في جنبه وعند الذبح كان النور قد انتقل الى اسماعيل (- نزهة المجالس: ٢/ ٢٤٥).

وزاد القاضي عياض:

يا بَرْدَ نار الخليل يا سَبَباً لعصمة النار وهي تَحْتَرِقُ

(- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/١٦٧ . ١٦٨ الباب الثالث).

(١) البحار: بحار الأنوار: ١١/٢٩٣، ودرر الأخبار: ٤٤٢.

الله بها، قال: فقال إبليس: يا ربّ إعفني من السّجود لآدم وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، قال الله تعالى: لا حاجة لي إلى عبادتك إنّما أريد أن أعبد من حيث أريد لا من حيث تريد، فأبى أن يسجد فقال الله تبارك وتعالى:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾»[1][الحجر: ٣٤ـ٣٥].

فقال إبليس: يا رب كيف وأنت العدل الذي لا تجور فثواب عملي باطل، قال، لا: ولكن إسأل من أمر الدّنيا ما شئت ثواباً لعملك فأعطيك فأوّل ما سأل البقاء إلى يوم الدّين، فقال الله: قد أعطيتك.

قال: سلطني على ولد آدم، قال: سلطتك قال: أجرني فيهم مجرى الدّم في العروق قال: أجريتك، قال: لا يولد لهم ولد إلاّ ولد لي إثنان وأراهم ولا يروني وأتصوّر لهم في كلّ صورة شئت، فقال: قد أعطيتك، قال: يا ربّ زدني، قال: قد جعلت لك ولذرّيتك صدورهم أوطاناً، قال: ربّ حسبي، فقال إبليس عند ذلك:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وروى أيضاً بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لمّا أعطى الله تبارك وتعالى لإبليس ما أعطاه من القوّة قال آدم: يا ربّ سلّطت إبليس على ولدي وأجريته فيهم مجرى الدّم في العروق وأعطيته ما أعطيته فما لي ولولدي! فقال: لك ولولدك السيّئة بواحدة والحسنة بعشر أمثالها، قال: يا رب زدني، قال: التّوبة مبسوطة إلى حين تبلغ النّفس الحلقوم، فقال: يا ربّ زدني قال: أغفر ولا أبالي قال: حسبي»[2].

الرابع

إختلفوا في أنّ إبليس اللّعين هل هو من الجنّ أم من الملائكة؟ المعزى إلى أكثر المتكلمين من أصحابنا والمعتزلة هو الأوّل، وذهب كثير من فقهاء العامّة على ما حكى عنهم الفخر الرّازي وجمهور المفسّرين ومنهم ابن عبّاس على ما حكاه عنهم الشّارح البحراني إلى الثّاني.

والمختار عندنا هو الأوّل وفاقاً للأكثر ومنهم المفيد وقد نسبه إلى الإماميّة كلّها، حيث

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ١٤١.

(٢) تفسير نور الثقلين: ١/ ٧٨٤.

قال في «المحكي» في كتاب المقالات: إنّ إبليس من الجنّ خاصّة وإنّه ليس من الملائكة، ولا كان منها، قال الله تعالى:

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]

وجاءت الأَخبار المتواترة عن أئمة الهدى من آل محمّد عليهم السّلام بذلك، وهو مذهب الإماميّة كلّها وكثير من المعتزلة وأصحاب الحديث، انتهى.

واحتجّ للمختار بوجوه.

الأوّل: إنّ إبليس من الجنّ فوجب أن لا يكون من الملائكة، أمّا أنه من الجنّ فلقوله تعالى في سورة الكهف:

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]

وأمّا أنّه إذا كان من الجنّ، فوجب أن لا يكون من الملائكة، فلقوله تعالى:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]

فإنّ الآية صريحة في الفرق بين الجنّ والملائكة.

وما ربّما يتوهم من أنّ معنى قوله سبحانه: كان من الجنّ، أنّه كان خازن الجنّة على ما روى عن ابن مسعود، أو أنّ كان بمعنى صار، أي صار من الجنّ كما أن قوله: وكان من الكافرين، بمعنى صار من الكافرين، فظاهر الفساد.

أما أوّلاً: فلأنّه خلاف الظاهر المتبادر من الآية الشّريفة، كما أن حمل كان بمعنى صار كذلك.

أما ثانياً: فلأنّه سبحانه علّل ترك السّجود بأنّه كان من الجنّ ولا يمكن تعليل ترك السّجود بكونه خازناً للجنّة كما لا يخفي.

والعجب من بعضهم حيث قال: إن كونه من الجنّ لا ينافي كونه من الملائكة لأنّ الجنّ من الإجتنان وهو الإستتار، والملائكة مستترون عن العيون فصحّ جواز إطلاق اللّفظ عليهم.

وفيه أنّ الجنّ وإن كان يجوز إطلاقه بحسب اللغة على الملك إلاّ أنّه صار في الإصطلاح مختصّاً بالجنس المقابل للملك والإنس، فلا يجوز الإطلاق.

الثّاني: أنّ إبليس له ذرّية ونسل، قال الله تعالى:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾[الكهف: ٥٠].

والملائكة لا ذريّة لهم إذ ليس فيهم أنثى كما يدل عليه قوله سبحانه:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[الزخرف: ١٩].

وأورد عليه بمنع دلالة على إنتفاء الأنثى أولاً، ومنع ملازمة إنتفاء الأنثى على تقديره ثانياً، ألا ترى أنّ الشياطين ليس فيهم أنثى ومع ذلك لهم ذريّة، ولذلك قال شيخنا الطوسي (ره) في محكي كلامه عن التبيان: من قال إن إبليس له ذريّة والملائكة لا ذريّة لهم ولا يتناكحون ولا يتناسلون فقد عوّل على خبر غير معلوم[1].

الثالث: أنّ الملائكة معصومون لأدلة العصمة، وإبليس ليس بمعصوم فلا يكون منهم وربّما يستدل بوجوه أخر لا حاجة إلى ذكرها.

واحتجّ للقول الثاني بوجهين:

الأول: أنّه سبحانه إستثناه في غير موضع من القرآن من الملائكة، والإستثناء إخراج ما لولاه لدخل، وهو يفيد كونه من الملائكة.

وما أورد عليه أولاً من أنّ الإستثناء المنقطع شائع في كلام العرب وكثير في كلام الله سبحانه قال:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦] ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وثانياً: من أنّ الإستثناء على تسليم إتصاله أيضاً لا يفيد الدّخول كما قال الزّمخشري بعد قوله سبحانه (إلاّ إبليس) إستثناء متّصل، لأنّه كان جنّياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم فغلبوا عليه في قوله فاسجدوا ثم إستثنى منهم إستثناء واحد منهم.

فقد ردّ الأوّل بأنّه خلاف الأصل ولا يصار إليه إلاّ بدليل والأدلة السّالفة على كونه من الجن من منه لا تصلح للدّلالة لأنّها من قبيل العمومات، والأمر في المقام دائر بين تخصيصها على جعل إبليس من الملائكة وبين حمل الاستثناء على المنقطع على جعله من الجنّ وكلاهما خلاف الأصل إلاّ أنّ الأوّل أولى لأن تخصيص العام أغلب من إنقطاع الإستثناء فلا بدّ من المصير إليه. .

والثاني: بأن تغليب الكثير على القليل إذا كان ذلك القليل ساقط العبرة غير ملتفت إليه في جنب الكثير أمّا إذا كان معظم الحديث لا يكون إلا عن ذلك الواحد لم يجز إجراء حكم غيره عليه وتغليبه عليه وفيه نظر ووجهه سيظهر.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٨٧.

الثاني: أنّه لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان الأمر بالسجدة بقوله إسجدوا شاملاً له، فلا يكون تركه للسّجود إباءً واستكباراً ومعصية، ولما استحق الذّم والعقاب، وحيث حصلت هذه الأمور كلّها فعلمنا بتناول الخطاب له، ولا يتناوله إلاّ مع كونه من الملائكة.

وردّ أولاً بمنع كونه مخاطباً بذلك الخطاب العام المستلزم للتّناول، لم لا يجوز أن يخاطب بأمر آخر مختص به؟

وثانياً بمنع إستلزام تناول ذلك الخطاب له على تقدير تسليمه كونه من الملائكة لجواز أن يكون طول مخالطته بهم ونشوئِه معهم مصحّحاً لتعلق الخطاب وتناوله فلا يثبت به الملازمة.

ويضعّف الأَول بأن ظاهر قوله: وإذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، أن الإباء والعصيان إنّما حصل بمخالفة هذا الأَمر لا بمخالفة أمر آخر.

والثّاني: بأن طول المخالطة لا يوجب تناول الحكم وإلاّ لتناول خطاب المذكور في الأَدلة الشّرعيّة للإناث وبالعكس وهو خلاف ما صرّح به علماء الأصول.

أقول: هذا جملة ما استدلّ به على الطرفين في المقام والتّعويل عندنا على الأخبار الصّحيحة عن العترة الطاهرة:

منها رواية عليّ بن إبراهيم القمي السّالفة في الأَمر الثّاني.

ومنها ما عن تفسير الإمام عن يوسف بن محمّد بن زياد وعليّ بن محمّد بن سيار عن أبويهما عن العسكري عليه السلام في ذيل قصّة هاروت وماروت بعد إثباته عليه السلام عصمة الملائكة، «قالا: قلنا له: فعلى هذا لم يكن إبليس أيضاً ملكاً، فقال: لا بل كان من الجنّ، أما تسمعان الله عزّ وجلّ يقول:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾»[1][الكهف: ٥٠]

فأخبر عزّ وجلّ أنّه كان من الجنّ، وهو الذي قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

ومنها ما رواه العيّاشي عن جميل بن درّاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن إبليس أكان من الملائكة أو هل كان يلي شيئاً من أمر السماء؟ قال عليه السلام: لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي شيئاً من أمر السّماء، وكان من الجنّ، وكان مع الملائكة، وكانت الملائكة ترى أنه

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٢٤٤.

منها، وكان الله يعلم أنّه ليس منها، فلما أمر بالسّجود كان منه الذي كان[١].

ومنها ما رواه عليّ بن إبراهيم بإسناده عن جميل قال: كان الطيار يقول لي: إبليس ليس من الملائكة وإنّما أمرت الملائكة بالسّجود لآدم، فقال إبليس لا أسجد فما لإبليس يعصى حين لم يسجد وليس هو من الملائكة، قال: فدخلت أنا وهو على أبي عبد الله عليه السلام، قال: فأحسن والله في المسألة فقال جعلت فداك: أرأيت ما ندب الله إليه المؤمنين من قوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٧٨].

دخل في ذلك المنافقون معهم؟ قال: «نعم، والضلال وكلّ من أقرّ بالدّعوة الظاهرة، وكان إبليس ممّن أقرّ بالدّعوة الظاهرة معهم»[٢].

إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التي قد سمعت في صدر المسألة عن المفيد «قده» إدعاءه تواترها ونسبة المذهب المختار إلى الإماميّة رضوان الله عليهم الظاهر في كونه مجمعاً عليه بينهم، ولا يعبأ بخلاف شيخنا الطوسي قدس الله روحه في المسألة ولا يقدح ذلك في الإجماع مع كونه معلوم النّسب وإدّعاؤه الرّواية عن أبي عبد الله عليه السلام بكونه من الملائكة ضعيف، بما قاله العلامة المجلسي من أنّا لم نظفر بها، وإن ما ورد في بعض الأخبار فهو نادر مأوّل.

فإن قلت: سلّمنا ذلك كلّه ولكن كيف يتصوّر في حقّ الملائكة عدم علمهم بأنّ إبليس منهم بعد أن أسروه من الجنّ ورفعوه إلى السّماء، وما المراد بقولهم عليهم السّلام في الأخبار السّابقة: وكانت الملائكة ترى أنّه منها؟

قلنا: يحتمل أن يكون المراد أنّ الملائكة ترى أنّه منهم في طاعة الله وعدم العصيان لمواظبته على عبادته سبحانه أزمنة متطاولة، فيكون من قبيل قولهم عليهم السّلام: سلمان منا، أو أنّهم لمّا رأوا تباين أخلاقه ظاهراً للجنّ وتكريم الله تعالى إياه وجعله من بينهم مرفوعاً إلى السّماء، وجعله رئيساً على بعضهم كما قيل، ظنّوا أنّه كان منهم وقع بين الجنّ.

الخامس

لقائل أن يقول: كيف كان سجود الملائكة لآدم أهو بنحو السّجود المتعارف من وضع الجبهة على المسجد أو بنحو آخر؟ قلت: الموجود في كلمات الأعلام أنّه كان بنحو السّجود المتعارف، وهو المروي عن الصّادق عليه السلام أيضاً، ولا إشكال فيه وإنّما الإشكال في أنّ السّجدة عبادة، وكيف جاز في حقّ آدم.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/٢١٨، والتفسير الصافي: ١/١٠٧.

(٢) الكافي: ٢/٤١٢.

قلت: قد اتّفق المسلمون على أنّ ذلك السّجود ليس سجود عبادة، لأَن سجود العبادة لغير الله كفر ولا يمكن أن يكون مأموراً به.

ثم اختلفوا بعد ذلك على أقوال:

أحدها: أنه على وجه التكرمة لآدم والتّعظيم لشأنه وتقديمه عليهم وهو قول قتادة وجماعة من أهل العلم، وهو المروي عن أئمّتنا ولهذا جعل أصحابنا ذلك دليلاً على أفضلية الأَنبياء من الملائكة من حيث أنّه أمرهم بالسّجود لآدم وذلك يقتضي تعظيمه وتفضيله عليهم، وإذا كان المفضول لا يجوز تقديمه على الفاضل علمنا أنه أفضل من الملائكة، وقد نسب الصدوق ذلك في العقائد إلى إعتقاد الإماميّة، وهو ظاهر في قيام إجماعهم على هذا القول.

لا يقال: سجود التعظيم والتكرمة هو عبارة أخرى لسجود العبادة فيعود الإشكال لأنّا نقول: لا نسلّم كونه عبادة، وذلك لأَن الفعل قد يصير بالمواضعة مفيداً كالقول يبين ذلك أن قيام أحدنا للغير يفيد من الإعظام ما يفيده القول وما ذاك إلاّ للعادة فلا يمتنع أن يكون في بعض الأَوقات سقوط الإنسان على الأَرض وإلصاقه الجبين بها مفيداً ضرباً من التّعظيم وإن لم يكن ذلك عبادة، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يتعبّد الله الملائكة بذلك إظهاراً لرفعته وكرامته.

الثاني: أنّ السّجود كان لله وآدم كالقبلة حكاه الطبري عن الجبائي وأبي القاسم البلخي.

وأورد عليه أوّلاً بأنّه لا يقال صلّيت للقبلة بل يقال صلّيت إلى القبلة فلو كان آدم قبلة يقول إسجدوا إلى آدم مع أنّه قال إسجدوا لآدم، ويظهر منه عدم كونه قبلة.

وثانياً: بأن إباء إبليس عن السّجود إنّما هو لإعتقاده تفضيله به وتكرمته وحسبانه أن كونه مسجوداً له يدل على أنّه أعظم شأناً من السّاجد كما يشعر به قول:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] وقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

ومن المعلوم أنّ السّجدة للقبلة لا توجب تفضيل القبلة على السّاجد ألا ترى أن النبي ﷺ كان يصّلي إلى الكعبة ولا يلزم أن يكون الكعبة أفضل منه؟

وأجيب عن الأَوّل بأنّه كما يجوز أن يقال: صليت إلى القبلة كذلك يصحّ أن يقال: صليت للقبلة، وكلاهما بمعنى واحد، ويشهد بصحته قول حسان في مدح مولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

ما كنت أعرف «أحسب خ» أنّ الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن

أليس أوّل من صلى لقبلتكم وأعرف النّاس بالآيات «القرآن خ» والسنن

وعن الثّاني بأنّ إبليس شكى تكريمه وذلك التكريم لا نسلم أنّه حصل بمجرّد تلك المسجودية، بل لعله حصل بذلك مع أمور أخرى، هذا، وأنت خبير بما فيه.

الثالث: أن السّجود في أصل اللغة هو الإنقياد والخضوع وهو المراد هنا.

وردّه الفخر الرّازي بأنّ السّجود لا شكّ أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض، فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك، لأصالة عدم النّقل، انتهى.

وفيه ما لا يخفي وأنت بعد الخبرة بما ذكرناه تعرف أنّ الأقوى هو القول الأوّل.

السادس

إن قيل: أي حكمة في خلقة الشّيطان وتسليطه على ابن آدم وإمهاله إلى يوم الدين؟

قلت: هذه شبهة وقعت في البرية وأصلها نشأت من إبليس من إستبداده بالرّأي في مقابلة النصّ وإختياره الهوى في معارضة الأمر وإستكباره بالنّار التي خلق منها على الطين والصّلصال، وتفصيل هذه الشّبهة ما حكاه الفخر الرّازي عن محمّد بن عبد الكريم الشّهرستاني في أوّل كتابه المسمّى بالملل والنّحل وحكاية عن ماري شارح الأناجيل الأربعة، قال: وهي مذكورة في التوراة متفرقة على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسّجود، قال إبليس للملائكة: إنّي أسلم أن لي إلهاً هو خالقي وموجدي وهو خالق الخلق لكن لي على حكمة الله أسألة سبعة.

الأول: ما الحكمة في الخلق لا سيّما كان عالماً بأنّ الكافر لا يستوجب عند خلقه إلاّ الآلام؟

الثاني: ثم ما الفائدة في التّكليف مع أنّه لا يعود منه ضرّ ولا نفع، وكلّ ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التّكليف؟

الثالث: هب أنّه كلفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلّفني بالسّجود لآدم؟

الرابع: ثمّ لمّا عصيته في ترك السّجود لآدم فلم لعنني وأوجب عقابي مع أنّه لا فائدة له ولا لغيره فيه ولي فيه أعظم الضّرر؟

الخامس: ثمّ لمّا فعل ذلك فلم مكّنني من الدّخول إلى الجنّة وسوست لآدم عليه السلام؟

السادس: ثم لمّا فعلت ذلك فلم سلّطني على أولاده ومكّنني من إغوائهم وإضلالهم؟

السابع: ثمّ لمّا إستمهلته المدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني؟ ومعلوم أنّ العالم لو كان خالياً عن الشّر لكان ذلك خيراً.

قال شارح الأناجيل: فأوحى الله تعالى إليه من سرادقات الجلال والكبرياء يا إبليس أنّك ما عرفتني ولو عرفتني لعلمت أنه لا إعتراض علي في شيء من أفعالي، فإنّي أنا الله لا إلاّ أنا لا أسأل عمّا أفعل.

قال الفخر الرّازي بعد حكاية ذلك: وإعلم أنّه لو اجتمع الأوّلون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشّبهات مخلصاً وكان الكلّ لازماً، أمّا إذا أجبنا بذلك الجواب الذي ذكره الله تعالى زالت الشّبهات واندفعت الإعتراضات، وكيف لا، وكما أنّه سبحانه واجب الوجود في ذاته واجب الوجود في صفاته فهو مستغن في فاعليّته عن المؤثرات المرجحات إذ لو افتقر لكان فقيراً لا غنيّاً فهو سبحانه مقطع الحاجات ومنتهي الرّغبات ومن عنده نيل الطلبات، وإذا كان كذلك لم تتطرق اللميّة إلى أفعاله ولم يتوجه الإعتراض على خالقيّته، انتهى[1].

قال الصّدر الشّيرازي في كتابه المسمّى بمفاتيح الغيب بعد ذكره شبهات إبليس وجوابه سبحانه وذكره ما حكيناه عن الرّازي: أقول: إن لكلّ من هذه الشبهات جواباً برهانيّاً صحيحاً واضحاً عند أصحاب القلوب المستقيمة، لابتنائه على الأصول الحقة العرفانية في المقدمات الإضطرارية اليقينية لكن الجاحد المعوج لا ينفعه كثرة البراهين النّيرة، وإنّما يسكته الجواب الجدلي المشهور المبني على المقدمات المقبولة التي يذعن بها الجمهور، وليس معنى قوله تعالى لا أسأل عمّا أفعل أنّه ليس لما فعله مبدأ ذاتي وغاية عقليّة ومصلحة حكميّة، كما هو مذهبهم من إبطال العليّة والمعلوليّة وإنكار العلاقة الذاتية بين الأسباب ومسبّباتها وتجويز ترجيح أحد المتساويين في النسبة على الآخر وتمكين المجازات الإختيارية والإرادات التّخييليّة بل المراد أحد معنيين.

الأوّل: أنّه لا لمية للفعل الصّادر عن ذاته من غير واسطة سوى ذاته وإنّما ذاته هو منشأ الفعل المطلق وغايته وكما لا سبب لذاته في وجوده لا سبب لذاته في إيجاده، وإلاّ لكان ناقصاً في ذاته مستكملاً بغيره تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

الثّاني: أنّ من ليس له درجة الإرتقاء إلى عالم الملكوت والوصول إلى شهود المعارف الإلهيّة وإدراك الحضرة الرّبوبيّة فلا يمكنه العلم بكيفيّة الصّنع والإيجاد على ما هو عليه، ولا سبيل له إلاّ التسليم والإعتراف بالقصور من له مرتبة إدراك الأشياء كما هي بالعلم اللّدنّي فلا حاجة له إلى السّؤال، لأنّه يلاحظ الأمور على ما هي عليه بنور الله وبعين قلبه المنوّر بنور الإيمان والعرفان، لا بأنوار المشاعر كالشّيطان، ولهذا منع رسول الله ﷺ النّاس عن التكلم والبحث في الأشياء الغامضة كسرّ القدر ومسألة الرّوح، لأنّ البحث عنها لا يزيد إلاّ حيرة ودهشة.

وقال في «**شرح أصول الكافي**» ما محصّله: إنّ عرض الفخر الرّازي إثبات مذهب أصحابه من القول بالفاعل المختار ونفي التخصيص في الأفعال، وذلك ممّا ينسد به باب

---

(١) راجع تفسير الميزان: ٨/ ٤٥.

إثبات المطالب بالبراهين كإثبات الصّانع وصفاته وأفعاله وإثبات البعث والرّسالة، إذ مع تمكين هذه الإرادة الجزافيّة لم يبق إعتماد على شيء من اليقينيات، فيجوز أن يخلق الفاعل المختار بالإرادة التي يعتقدها هؤلاء الجدليون فينا أمراً يرينا الأشياء لا على ما هي عليه.

فأقول: إنّ لكلّ شبهة من هذه الشّبهات التي أوردها اللّعين جواباً برهانيّاً حقّاً من قبل الله تعالى بما يسكته، وهو بيان حاله وما هو عليه من كفره وظلمة جوهره عن إدراك الحقّ كما هو، وإن ليس غرضه في إبداء هذه الشبهات إلاّ الإعتراض وإغواء من يتبعه من الجهال النّاقصين أو الغاوين الذين هم جنود إبليس أجمعون، فقيل له: إنّك لست بصادق في دعواك معرفة الله وربوبيّته، ولو صدقت فيها لم تكن معترضاً على فعله.

وأمّا الأَجوبة الحكميّة عن تلك الشبهات على التّفصيل لمن هو أهلها ومستحقّها فهي هذه.

أما الشبهة الأولى

وهي السّؤال عن الحكمة والغاية في خلق إبليس، فالجواب عنها أنّه من حيث إنّه من جملة الموجودات على الإطلاق فمصدره وغايته ليس إلاّ ذاته تعالى التي تقتضي وجود كلّ ما يمكن وجوده ويفيض عنها الوجود على كلّ قابل ومنفعل، وأمّا حيثيّة كونه موجوداً ظلمانياً وذاتاً شريرةً وجوهراً خبيثاً فليس ذلك بجعل جاعل، بل هو من لوازم هويته النّازلة في آخر مراتب النّفوس وهي المتعلّقة بما دون الأَجرام السّماوية وهو الجسم النّاري الشديدة القوّة فلا جرم غلبت عليه الأنانيّة والإستكبار والإفتخار والآباء عن الخضوع والإنكسار.

وأما الشبهة الثانية

وهي السؤال عن حكمة التّكليف بالمعرفة والطاعة، فالجواب عنها أنّ الغاية في ذلك تخليص النّفوس من أسر الشّهوات وسجن الظلمات ونقلها من حدود البهيميّة والسبعيّة إلى حدود الإنسانية والملكيّة وتطهيرها وتهذيبها بنور العلم وقوّة العمل من درن الكفر والمعصية ورجس الجهل والظلمة، ولا ينافي عموم التكليف عدم تأثيره في النّفوس الجاشية والقلوب القاسية، كما أنّ الغاية في إنزال الغيث إخراج الحبوب وإنبات الثّمار والأقوات منها وعدم تأثيره في الصّخور القاسية والأَراضي الخبيثة لا ينافي عموم النّزول، والله أجل من أن تعود إليه فائدة في هداية الخلق كما في إعطائه أصل خلقه بل هو الذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠].

من غير غرض أو عوض في فضله وجوده.

وأما الشبهة الثالثة

وهي السّؤال عن فائدة تكليفه بالسّجود لآدم والحكمة فيه، فالجواب عنها:

أولاً: أنه ينبغي أن يعلم أن الله سبحانه في كلّ ما يفعله أو يأمر به حكمة بل حكماً كثيرة لأنّه تعالى منزّه عن فعل البعث والإتفاق والجزاف وإن خفى علينا وجه الحكمة في كثير من الأمور على التّفصيل بعد أن علمنا القانون الكلي في ذلك على الإجمال، وخفاء الشيء علينا لا يوجب إنتفائه، وهذا يصلح للجواب عن هذه الشبهة ونظائرها.

ثانياً: أنّ التكليف بالسّجود كان عامّاً للملائكة وكان هو معهم في ذلك الوقت فعمه الأَمر بها تبعاً وبالقصد الثّاني، لكنه لما تمرّد وعصى واستكبر وأبى بعدما اعتقد بنفسه أنه من المأمورين صار مطروداً ملعوناً.

وثالثاً: أنّ الأَوامر الإلهيّة والتّكاليف الشّرعيّة ما يمتحن به جواهر النّفوس ويعلن ما في بواطنهم ويبرز ما في مكان صدورهم من الخير والشّر والشّقاوة فتتمّ به الحجّة وتظهر المحجة.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]

وأما الشبهة الرابعة

وهي السّؤال عن لمّة تعذيب الكفار والمنافقين وإيلامهم بالعقوبة وإبعادهم عن دار الرّحمة والكرامة، فالجواب عنها أنّ العقوبات الأخرويّة من الله تعالى ليس باعثها الغضب والإنتقام وإزالة الغيظ ونحوها تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وإنّما هي لوازم وتبعات ساق إليها أسباب داخليّة نفسانيّة وأحوال باطنيّة إنتهت إلى التعذيب بنتائجها من الهوى إلى الهاوية والسقوط في أسفل درك الجحيم ومصاحبة المؤذيات من العقارب والحيّات وغيرها.

ومثالها في هذا العالم الأَمراض الواردة على البدن الموجبة للأَوجاع والأَسقام بواسطة نهمة سابقة، فكما أنّ وجع البدن لازم من لوازم ما ساق إليه الأَحوال الماضية والأَفعال السّابقة من كثرة الأَكل أو إفراط الشّهوة ونحوهما من غير أن يكون ههنا معذّب خارجيّ، فكذلك حال العواقب الأخرويّة وما يوجب العذاب الأَليم الدّائم لبعض النفوس الجاحدة للحقّ المعرضة عن الآيات وهي:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٦-٧].

وأما التي دلت عليه الأَخبار والآيات الواردة في الكتب الإلهيّة والشّرائع الحقّة من العقوبات الجسمانية الواردة على بدن المسيء من خارج على ما يوصف في التّفاسير فهي أيضاً

منشأها أمور باطنية وهيئات نفسانية برزت من الباطن إلى الظاهر وتصورت بصور النيران والعقارب والحيّات والمقامع من حديد وغيرها، وهكذا حصول الأجسام والأشكال والأشخاص في الآخرة كما حقّق في مباحث المعاد الجسماني وكيفيّة تجسّم الأعمال، ودلّ عليه كثير من الآيات مثل قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[التوبة: ٤٩] وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾[الشعراء: ٩١] وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧] وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٠﴾ [العاديات: ٩-١٠].

ثمّ إذا سلّم معاقب من خارج فإن في ذلك أيضاً مصلحة عظيمة، لأنّ التّخويف والإنذار بالعقوبة نافع في أكثر الأشخاص والإنقياد بذلك التخويف بتعذيب المجرم المسيء تأكيد للتّخويف ومقتض لإزدياد النفع، ثم هذا التّعذيب، وإن كان شرّاً بالقياس إلى الشّخص المعذّب لكنّه خير بالقياس إلى أكثر أفراد النّوع فيكون من جملة الخير الكثير الذي يلزمه الشرّ القليل كما في قطع العضو لا صلاح البدن وسائر الأعضاء.

وأما الشبهة الخامسة

وهي السؤال عن فائدة تمكين الشيطان من الدّخول إلى آدم في الجنّة حتى غرّه بوسوسته فأكل ما نهي عنه فأخرج به من الجنّة، فالجواب عنها أنّ الحكمة في ذلك والمنفعة عظيمة، فإنّه لو بقي في الجنة أبداً لكان بقي هو وحده في منزلته التي كان عليها في أوّل الفطرة من غير استكمال وإكتساب فطرة أخرى فوق الأولى وإذا هبط إلى الأرض خرج من صلبه أولاد لا تحصى يعبدون الله ويطيعونه إلى يوم القيامة ويرتقي منهم عدد كثير في كل زمان إلى درجات الجنان بقوّتي العلم والعبادة، وأيّ حكمة وفائدة أعظم وأجلّ وأرفع وأعلى من وجود الأنبياء والأولياء؟ ومن جملتهم سيد المرسلين وأولاده المعصومون صلوات الله عليهم وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، ولو لم يكن في هبوطه إلى الأرض مع إبليس إلا إبتدائه مدّة الدّنيا وإكتسابه درجة الإصطفاء لكانت الحكمة عظيمة والخير جليلاً.

وأما الشبهة السادسة

وهي السؤال عن وجه الحكمة في تسليطه على ذريّة آدم بالإغواء والوسوسة بحيث يراهم من حيث لا يرونه، فالجواب عنها أن نفوس أفراد البشر في أوّل الفطرة ناقصة بالقوّة، ومع ذلك بعضها خيرة نورانية شريفة بالقوّة مائلة إلى الأمور القدسية عظيمة الرغبة إلى الآخرة، وبعضها خسيسة الجوهر ظلمانية شريرة مائلة إلى الجسمانيات عظيمة في إيثار الشهوة والغضب، فلو لم يكن الإغواء ولا طاعة النّفس والهوى لكان ذلك منافياً للحكمة لبقائهم على

طبقة واحدة من نفوس سليمة ساذجة فلا تتمشى عمارة الدّنيا بعدم النفوس الجاسية الغلاظ العمالة في الأرض لأغراض دنيّئة عاجلة، ألا ترى إلى ما روي من قوله تعالى الحديث القدسي: إنّي جعلت معصية آدم سبباً لعمارة العالم، وما روي أيضاً في الخبر: لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون[1].

وأما الشبهة السابعة

وهي السؤال عن فائدة إمهاله إلى يوم الوقت المعلوم، فالجواب عنها بمثل ما ذكرناه، فإن بقائه تابع لبقاء النّوع البشري بتعاقب الأفراد وهي مستمرّة إلى يوم القيامة، فكذلك وجب إستمراره لأجل إيراثه الفائدة التي ذكرناها في وجوده ووجود وسوسته إلى يوم الدين، انتهى ما أهمنا نقله وبعض أجوبته غير خال عن التأمل، فتأمل.

(١) رياض الصالحين: ٢٤٤ بتفاوت.

الترجمة

و طلب ادا نمود حق سبحانه و تعالى از فرشتگان امانت خود را كه نزد ايشان داشت و وصيت معهوده اى كه به ايشان نموده بود در اذعان و انقياد نمودن ايشان به سجده كردن مراورا و خضوع و فروتنى ايشان از براى تعظيم و تكريم آن، پس فرمود خداوند ربّ العزّة ايشان را كه سجده كنيد آدم را، پس همه سجده كردند و هيچ يك تمرّد نكرد مگر شيطان ملعون و قبيله و تابعان او. عارض شد ايشان را عصبيت و غالب شد بر ايشان شقاوت و بدبختى. تكبّر نمودند و عزيز شمردند خودشان را به جهت مخلوق شدن ايشان از آتش و ضعيف و خوار شمردند مخلوق از صلصال و گل خشك را، پس عطا فرمود خداوند او را مهلتى از براى استحقاق او مر سخط و غضب خداوندى را و از براى تمام ساختن امتحان بنى نوع انسان و از جهت راست نمودن وعده خود، پس فرمود كه به درستى تو از مهلت داده شدگان هستى تا روزى كه وقت دانسته شده است.

الفصل الثاني عشر

«ثُمَّ أَسْكَنَ آدَمَ داراً أَرْغَدَ فيها عيشَتَهُ، وَآمَنَ فيها مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْليسَ وَعداوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفاسةً عَلَيْهِ بِدارِ الْمَقام وَمُرافَقَةِ الأَبْرارِ، فَباعَ الْيَقينَ بِشَكِّه وَالْعَزيمَةَ بِوَهْنِه، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً، وَبِالإِعْتِزازِ نَدَماً»(١).

اللغة

(**السّكون**) هو الإطمئنان والمسكن المنزل و (**الرغد**) النفع الواسع الكثير الذي ليس فيه عناء، قال ابن دريد: الرّغد السعة في العيش و (**العيشة**) بكسر العين كالعيش بالفتح مصدر عاش يعيش وهو الحياة وما يعاش به من الرزق والطعام والخبز و (**محلّة**) القوم منزلهم (**فاغترّه**) من الغرّة بالكسر وهو الغفلة و (**نفس**) الشيء بالضم نفاسة كرم ونفست به مثل ضننت به لنفاسته لفظاً ومعنى و (**المقام**) بالفتح إسم مكان من قام بمعنى انتصب وبالضمّ إسم مكان من أقام وكلاهما صحيحان وعزم (عزيمة) وعزمة إجتهد وجد في أمره و (**الجذل**) بفتحتين مصدر جذل إذا فرح و (**اعتزّ**) بفلان عدّ نفسه عزيزة به.

الإعراب

كلمة (ثمّ) في قوله عليه السلام ثم أسكن حرف عطف مفيدة للتّعقيب فتفيد أنّ الإسكان في الجنّة بعد أمر الملائكة بالسجود وسجودهم وهو الظاهر من الترتيب الذكري في الآية الشريفة في سورة البقرة حيث قال سبحانه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾[الإسراء: ٦١] ثم قال: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ﴾[البقرة: ٣٥] الآية.

إلا أنّ المستفاد من الأخبار وظاهر بعض الآيات والتفاسير كون السجود حين السّكون في الجنّة، ويمكن الجواب بأنّ المراد بالسّكنى في الآية الشريفة وفي قوم الإمام عليه السلام هو المقام مع اللّبث والإستقرار وهو لا ينافي كون آدم عليه السلام في الجنة قبل ذلك أيضاً وكون سجود الملائكة له حين ما كان هو فيه كما هو ظاهر لا يخفى، ونصب إبليس في قوله وحذّره إبليس على نزع الخافض، (**ونفاسة**) منصوب على المفعول له، (**والباء**) في قوله: بدار المقام للسّببية، وفي قوله بشكّه (**باء الأثمان**) وهي الدّاخلة على الأعواض مثل بعت الكتاب بدرهم، وقد يطلق عليها (**باء المقابلة**)، وفي قوله عليه السلام: (بالجذل) (وبالإعتزاز) كذلك، ويحتمل كونها هنا بمعنى من بناء على كون الإستبدال بمعنى التبدل يقال: تبدّله وتبدّل منه إذا إتخذه منه بدلاً.

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٢٢.

المعنى

(**ثمّ**) إنّه سبحانه بعد ما أمر الملائكة بالسّجود لآدم فسجدوا إلاّ إبليس فجعله رجيماً وأخرجه من جواره و (**أسكن آدم**) (**داراً**) أي في دار (**أرغد فيها عيشته**) أي جعله فيها في عيشة واسعة كما قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة: ٣٥].

(**وآمن فيها محلّته**) نسبة الأمن إلى المحلّ من قبيل المجاز العقلي أي جعله فيها في أمن من الآفات وسلامة من المكاره والصدمات، وهذه من صفات الجنّة لأنّ من دخلها كان آمناً كما قال سبحانه:

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

وهذا لا غبار عليه وإنّما الكلام في أنّ الجنة التي أسكنه الله فيها هل هي جنّة الدنيا.

وتفصيل ذلك ما ذكره الفخر الرّازي، قال: اختلفوا في أنّ الجنّة المذكورة في الآية هل كانت في الأرض أو في السّماء؟ وبتقدير أنّها كانت في السّماء فهل هي الجنّة التي هي دار الثّواب أو جنّة الخلد أو جنّة أخرى؟

فقال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصفهاني: هذه الجنّة كانت في الأرض وحملا الإهباط[١] على الإنتقال من بقعة إلى بقعة، كما في قوله تعالى:

﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

واحتجا عليه بوجوه:

أحدها: أنّ هذه الجنّة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنّة الخلد، ولو كان آدم في جنّة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله:

﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه: ١٢٠] ولما صحّ قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وثانيها: أنّ من دخل هذه الجنّة لا يخرج منها، لقوله تعالى:

﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ﴾[البقرة: ١٦٧].

وثالثها: أنّ إبليس لما امتنع من السّجود لعن، فما كان يقدر مع غضب الله على أن يصل إلى جنّة الخلد.

---

(١) أي في قوله تعالى: (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو)، الآية، منه.

ورابعها: أنّ الجنّة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها، لقوله تعالى:

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[الرعد: ٣٥] ولقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٨] إلى أن قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود: ١٠٨].

أي غير مقطوع، فهذه الجنّة لو كانت هي التي دخلها آدم لما فنيت، لكنها تفنى لقوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: .

ولما خرج منها آدم وانقطعت تلك الرّاحات.

وخامسها: أنّه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتدأ الخلق في جنّة يخلدهم فيها ولا تكليف لأنّه لا يعطي جزاء العاملين من ليس بعامل، ولأنّه تعالى لا يهمل عباده بل لا بدّ من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

وسادسها: لا نزاع في أنّ الله تعالى خلق آدم في الأرض ولم يذكر في هذه القصّة أنّه نقله إلى السّماء. ولو كان تعالى قد نقله إلى السّماء كان ذلك أولى بالذّكر، لأنّ نقله من الأرض إلى السّماء من أعظم النّعم، فدلّ ذلك على أنه لم يحصل، وذلك يوجب أنّ المراد من الجنّة التي قال الله له.

﴿اَسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

جنّة أخرى غير جنّة الخلد.

القول الثاني: وهو قول الجبائي أن تلك الجنّة كانت في السّماء السّابعة، والدليل عليه قوله تعالى: اهبطوا منها، ثم إنّ الإهباط الأوّل كان من السّماء السّابعة إلى السّماء الأولى، والإهباط الثاني كان من السّماء إلى الأرض.

القول الثالث: وهو قول جمهور أصحابنا إن هذه الجنّة هي دار الثوب والدّليل عليه أنّ الألف واللاّم في لفظ الجنّة لا يفيد العموم، لأنّ سكون جميع الجنان محال، فلا بدّ من صرفها إلى المعهود السّابق، والجنّة التي هي المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب فوجب صرف اللّفظ إليها.

القول الرّابع: إن الكلّ ممكن والأدلة النّقلية ضعيفة ومتعارضة، فوجب التوقّف وترك القطع والله أعلم، انتهى.

أقول: والأظهر من هذه الأقوال هو القول الأوّل، لقوّة أدلته، وإن كان يمكن تطرّق النّظر إليها.

أمّا الأوّل والثّاني: فلاء مكان أن يقال: إنّ الخلود فيها وعدم الخروج إنّما يكون بعد إستقرار أهل الجنّة فيها للثواب، وهو المستفاد من أدلة الخلود، وأمّا قبل ذلك فلا دليل عليه.

وأما الثالث: فلما قيل: من أنّ إبليس لم يدخل في الجنّة بل وسوس لهما من وراء جدار الجنّة أو من الأرض.

وفيه نظر لأنّ المستفاد من ظاهر الآيات كون مخاطبته معهما مشافهة، كما أنّ الموجود في أخبارنا دخوله إليها بوسيلة الحيّة حسبما يأتي الإشارة إليها.

والأولى أن يقال: هذا الدّليل على تقدير تسليمه جار على غير هذا القول أيضاً، وذلك لأنّ غضب الله سبحانه كما هو مانع من دخول جنّة الخلد فكذلك مانع من دخول مطلق الجنّة، وإن لم تكن دار خلد، لأنّ الجنّتين كلتيهما مشتركتان في كونهما دار رحمة وقرب، فلا يستحقّهما من غضب الله عليه ولعنه وطرده بقوله:

﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[الحجر: ٣٤].

فإن قيل: فكيف التّوجيه بين ذلك وبين ما استظهرت من الآيات ودلت عليه الأخبار من دخوله في الجنّة بتوسط الحيّة.

قلت: يمكن التّوجيه بأن يقال: إنّه كان ممنوعاً من دخولها بارزاً بحيث يعرف، وقد دخلها مخفيّاً ليدليهما بغرور، وقد ورد ذلك في بعض الأخبار، أو يقال: إنّ دخوله فيه على وجه التّقرب والتنعم مناف لكونه مغضوباً عليه، وأمّا الدّخول للتّدليس والإزلال بعد اقتضاء الحكمة له فلا منافاة له معه كما لا يخفى.

وأما الرّابع: فلما مر في الأولين.

وأمّا الخامس: فلجواز أن يكون ذلك تفضّلاً منه سبحانه، وليست في ذلك منافاة للحكمة كما توهم.

وأما السّادس: فظاهر لأنّه إستبعاد محض، هذا كلّه ما يقتضيه التصرّفات الفكرية ودقّة النّظر في الأدلة والقاطع للكلام إنّما هو الأخبار المأثورة عن العترة الطاهرة.

فقد روى في «**الكافي**» و «**العلل**» عن الصّادق عليه السلام «أنها كانت من جنان الدّنيا تطلع فيها الشّمس والقمر ولو كان من جنان الخلد ما خرج منها أبداً»[1].

---

(١) علل الشرائع: ٢/ ٦٠٠.

ومثلهما عليّ بن إبراهيم القمي في «**تفسيره**» عن أبيه رفعه إليه عليه السلام وقوله: **(وحذّره إبليس وعداوته)** إشارة إلى ما حكاه سبحانه في سورة طه بقوله:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٦-١١٧].

فوسوس إليه الشّيطان وقال:

﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

و (اغترّه عدوه نفاسة) وبخلا (عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار) من الروحانيين والملائكة المقرّبين.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾[طه: ١٢١].

وأمّا كيفية الإغترار فقد يأتي تفصيلا **(فباع اليقين بشكه)** قيل: إن بيع اليقين بالشك مثل قديم للعرب لمن عمل عملاً لا يفيده وترك ما ينبغي له أن يفعله، تمثل به أمير المؤمنين عليه السلام ههنا ولم يرد أنّ آدم شكّ في أمر الله.

أقول: ويمكن إجراء الكلام على ظاهره بأن يراد باليقين اليقين بعداوة إبليس وبالشّك الشّك فيها، والمراد ببيعه به تبديله به وذلك لأنّ إبليس لمّا أبى واستكبر عن السّجود وأظهر الفضيلة والأنيّة وجعل مطروداً تيقّن آدم بعداوته له، وقد أعلمه الله سبحانه به حينئذٍ أيضاً كما قال:

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾[طه: ١١٧].

ولمّا وسوس إليهما الشيطان:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾[الأعراف: ٢١].

ولم يكن آدم وحواء شاهدان قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً، وثُقَا بقوله وشكّاً في عداوته لمكان ذلك، ويمكن إستنباط ذلك من رواية العيون والإحتجاج الآتية للرّضا عليه السلام مع المأمون، وليس في ذلك منافاة لمرتبة الرّسالة كما توهم، لأنّ ذلك ليس بأعظم من أكل الشجرة وستعرف تحقيقه في مقامه إنشاء الله وقوله: **(والعزيمة بوهنه)** أي العزيمة التي كانت له في عدم القرب من الشّجرة والأكل منها بالوهن الذي حصل له من النّسيان، قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[طه: ١١٥].

قال في «**الكشّاف**»: والعزم التّصميم والمضيّ على ترك الأكل وأن يتصلّب في ذلك

تصلّباً يوئس الشيطان من التّسويل له، وقال: فإن قلت: ما المراد بالنّسيان؟ قلت: لا يجوز أن يراد النّسيان الذي هو نقيض الذكر وأنه لم يعن بالوصيّة العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النّفس حتّى تولد من ذلك النّسيان، وأن يراد التّرك وأنه ترك ما وصيّ به من الإحتراس عن الشّجرة وأكل ثمرتها، انتهى.

وقال الطبرسي (ره) معناه أمرنا وأوصينا إليه أن لا يقرب الشّجرة ولا يأكل منها، فترك الأَمر، عن ابن عبّاس، ولم نجد له عقداً ثابتاً، وقيل معناه: فنسي من النّسيان هو السّهو ولم نجد له عزماً على الذّنب، لأنّه أخطأ ولم يتعمد، عن ابن زيد وجماعة، وقيل: ولم نجد له حفظاً لما أمر به، عن عطيّة، وقيل: صبراً، عن قتادة.

قال الشّارح البحراني: وحاصل هذه الأقوال يعود إلى أنه لم يكن له قوّة على حفظه ما أمر الله سبحانه، انتهى.

وفي «**الكافي**» عن عليّ بن إبراهيم بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى عهد إلى آدم أن لا يقرب هذه الشّجرة، فلمّا بلغ الوقت الذي كان في علم الله أن يأكل منها نسي فأكل منها، وهو قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ﴾[طه ١١٥] الآية[١].

وفيه أيضاً عن الصّادق عليه السلام، قال في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ [طه: ١١٥].

كلمات في محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذرّيتهم عليهم السّلام فنسي، هكذا والله أنزلت[٢] على محمّد صلى الله عليه وآله[٣].

أقول: والظاهر أنّ المراد بتلك الكلمات حسبما يستفاد من الأَخبار التي يأتي بعضها هو إقرار آدم بفضيلة محمّد وآله المعصومين عليهم السّلام وإعتقاده لشرافتهم وعدم تمنّيه منزلتهم، فنسي تلك الكلمات وتمنى منزلتهم فأخرجه الله سبحانه من الجنّة **(واستبدل بالجذل)** والسّرور خوفاً و **(جلاً وبالإعتزاز)** أي العزّة التي طلبها من أكل الشّجرة بتدليس إبليس وقوله لهما:

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

---

(١) الكافي ٨/ ١١٣ ح ٩٢.

(٢) في المصدر نزلت.

(٣) الكافي ١/ ٤١٦ ح ٢٣.

(ندماً) وخيبة، ولذلك:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

تذنيبات الأول

لقائل أن يقول: كيف تمكّن إبليس من وسوسة آدم مع كونه خارج الجنّة وكون آدم في الجنّة؟ فنقول: قد اختلفوا فيه على أقوال.

أحدها: ما حكي عن القصاص وهو الذي روي عن ابن عبّاس أنه لما أراد إبليس أن يدخل الجنّة منعته الخزنة فأتى الحية وهي دابة لها أربع قوائم كأنّها البختيّة وهي كأحسن الدّواب بعد ما عرض نفسه على سائر الحيوانات، فما قبله واحد منها فابتلعته الحيّة وأدخلته الجنّة خفيّة من الخزنة، فلمّا دخلت الحيّة الجنّة خرج إبليس من فمها واشتغل بالوسوسة فلا جرم لعنت الحيّة وسقطت قوائمها وصارت تمشي على بطنها وجعل رزقها في التّراب وعدواً لبني آدم.

وثانيها أنّه دخل الجنّة في صورة دابة.

وثالثها: ما قاله بعض «**الأصوليين**»: إنّ آدم وحواء لعلّهما كانا يخرجان إلى باب الجنّة وإبليس كان يقرب ويوسوس إليهما.

ورابعها: أن إبليس كان في الأَرض وأوصل الوسوسة إليهما في الجنّة.

أقول: والأَظهر هو القول الأوّل، لبعد الرّابع من حيث إنّ الوسوسة عبارة عن الكلام الخفي والكلام الخفي لا يمكنه إيصاله من بعد، والثّالث والثّاني لم يرد بهما خبر، والموجود في أخبارنا أن إيقاع الشّيطان لهما فيما نهيا عنه قد كان بسبب الحيّة، وذلك على ما حكاه المفسر الفيض في «**الصّافي**» والمحدث الجزائري في «الأَنوار» هو أنّ الشّيطان لمّا أخرج من الجنّة لم يقدر على الدّخول إليها بنفسها فأتى إلى جدار الجنّة ورأى الحيّة أعلى الجدار، فقال لها أدخليني الجنّة وأعلّمك الإسم الأعظم، فقالت له: الملائكة تحرس الجنّة فيرونك، فقال لها: أدخل في فمك واطبقي عليّ حتّى أدخل، ففعلت، ومن ثم صار السّم في أنيابها وفي فمها لمكان جلوس إبليس فيه، فلمّا أدخلته قالت له: أين الإسم الأَعظم؟ فقال لها: لو كنت أعلمه لما احتجت إليك في الدّخول، فأتى إلى آدم وبدأ به فقال:

﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠]

إن تناولتما منها تعلمان الغيب وتقدران على ما يقدر عليه من خصّه الله بالقدرة.

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[الأعراف: ٢٠] لا تموتان أبداً ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾[الأعراف: ٢١] حلف

لهما ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[القصص: ٢٠].

وكان إبليس بين لحيي الحيّة وكان آدم يظن أن الحية هي التي تخاطبه ولم يعلم أن إبليس قد اختبئ بين لحيي الحيّة فرد آدم على الحيّة أنّ هذا من غرور إبليس كيف يخوننا ربّنا أم كيف تعظمين الله بالقسم به وأنت تنسبينه إلى الخيانة وسوء الظنّ وهو أكرم الأكرمين؟ أم كيف أروم التّوصل إلى ما منعني منه ربي وأتعاطاه بغير حكمه؟ فلمّا آيس إبليس من قبول آدم فأتى إلى حوّاء وخاطبها من حيث يوهمها هي التي تخاطبها، وقال: يا حواء أرأيت هذه الشّجرة التي كان الله عزّ وجلّ حرّمها عليكما فقد أحلّها لكما بعد تحريمها، لما عرف من حسن طاعتكما له وتوقيركما إيّاه وذلك أنّ الملائكة الموكلين بالشّجرة الذين معهم الحراب يدفعون عنها سائر حيوانات الجنّة لا يدفعك عنها إذ رمتها فاعلمي بذلك أنه قد أحلّ لك وابشري بأنك إن تناولتها قبل آدم كنت أنت المسلطة عليه الآمرة النّاهية فوقها، فقالت حوّاء سوف أجرّب هذا فرامت فأرادت الملائكة أن يدفعوها عنها بحرابها، فأوحى الله إليهم إنّما تدفعون بحرابكم من لا عقل له بزجره، فأمّا من جعلته ممكناً مميّزاً فكلوه إلى عقله الذي جعلته حجّة عليه فإن أطاع إستحق ثوابي وجزائي، فتركوها ولم يتعرضوا لها بعد ما همّوا بمنعها بحرابهم، فظنت أنّ الله ما نهاهم، لأنّه قد أحلّها بعد ما حرمها، فقالت صدقت الحيّة وظنّت أنّ المخاطب بها الحيّة، فتناولت منها ولم تنكر من نفسها شيئاً، فأتت حواء إلى آدم فصارت عوناً للشّيطان عليه، وقالت ألم تعلم أنّ الشّجرة المحرّمة علينا قد أبيحت لنا تناولتها ولم يمنعني منه أملاكها ولم أنكر شيئاً من حالي، ولذلك اغتر آدم فقام آدم معها إلى الأكل من الشجرة فكانت أوّل قدم مشت إلى الخطيئة، فلما مدّ أيديهما إليها تطاير ما عليهما من الحلي والحلل وبقيا عريانين فأخذا من ورق التين فوضعاه على عورتيهما، فتطاير الورق فوضع آدم يده على عورته والأخرى على رأسه كما هو شأن العراة[١].

ويستفاد من بعض الأخبار أنّ هذه هي العلّة في وجوب الوضوء، وهو ما رواه الصّدوق طاب ثراه في «الفقيه» قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن مسائل وكان فيما سألوه أخبرنا يا محمّد لأي علّة توضّأ هذه الجوارح الأربع وهي أنظف المواضع في الجسد؟ قال النبيّ ﷺ: «لمّا أن وسوس الشّيطان إلى آدم عليه السلام دنا من الشّجرة فنظر إليها فذهب ماء وجهه، ثم قام ومشى إليها وهي أوّل قدم مشت إلى الخطيئة، ثم تناول بيده منها ما عليها فأكل فطار الحلّي والحلل عن جسده، فوضع آدم يده على أمّ رأسه وبكى فلمّا تاب الله عزّ وجلّ عليه فرض عليه وعلى ذريّته تطهير هذه الجوارح الأربع، فأمر الله بغسل الوجه لما نظر إلى الشجرة، وأمره بغسل اليدين إلى المرفقين لما تناول بهما، وأمره بمسح الرّأس لما

(١) تفسير الصافي: ١/ ١١٩.

وضع يده على أمّ رأسه وأمره بمسح القدمين لما مشى بهما إلى الخطيئة»[١].

وقد ذكر فيه علّة أخرى له رواها عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرّضا عليهما السّلام ولا ربط لها بالمقام، ولا يذهب عليك أن توارد العلل المتعددة على معلول واحد في العناوين الشّرعيّة لا ضير فيه، لأنها من قبيل المعرفات وليست عللاً حقيقية كما هو ظاهر.

الثاني

قد اختلفت الأَخبار كالأَقوال في الشّجرة المنهية، ففي رواية أنّها شجرة الحسد، وفي أخرى أنها شجرة الكافور، وفي ثالثة أنّها شجرة الحنطة.

وعن تفسير الإمام أنها شجرة علم محمّد وآل محمّد عليهم السّلام آثرهم الله بهم دون سائر خلقه لا يتناول منها بأمر الله إلاّ هم، ومنها ما كان يتناوله النبيّ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام بعد إطعامهم المسكين واليتيم والأَسير حتّى لم يحسوا بجوع ولا عطش ولا تعب ولا نصب، وهي شجرة تميّزت من بين سائر الأَشجار بأنّ كلا منها إنّما يحمل نوعاً من الثمار، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البرّ والعنب والتّين والعنّاب وسائر أنواع الثمار والفواكه والأَطعمة فلذلك اختلف الحاكون بذكرها، فقال بعضهم: برّة، وقال آخرون: هي عنبة، وقال آخرون: هي عنابة وهي الشجرة التي من تناول منها بإذن الله ألهم علم الأوّلين والآخرين من غير تعلّم، ومن تناول بغير إذن الله خاب مراده وعصى ربّه.

وعن العيون بإسناده إلى عبد السّلام بن صالح الهروي قال: قلت للرّضا عليه السلام يا بن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحوّاء ما كانت؟ فقد اختلف النّاس فيها، فمنهم من يروي أنّها الحنطة، ومنهم من يروي أنّها العنب، ومنهم من يروى أنّها شجرة الحسد، فقال عليه السلام: كل ذلك حق؟ قلت: فما معنى الوجوه على اختلافها؟ فقال: «يا أبا الصّلت إنّ شجرة الجنّة تحمل أنواعاً، وكانت شجرة الحنطة وفيها عنب ليست كشجرة الدّنيا، وإنّ آدم لما أكرمه الله تعالى ذكره بإسجاده ملائكته وبإدخاله الجنّة قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله عزّ وجلّ ما وقع في نفسه فناداه أرفع رأسك يا آدم وانظر إلى ساق عرشي، فرفع رأسه فنظر إلى ساق العرش فوجد عليه مكتوباً: لا إله إلا الله محمّد رسول الله عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين وزوجته فاطمة سيّدة نساء العالمين والحسن والحسين سيّد أشباب أهل الجنّة، فقال آدم: يا رب، من هؤلاء؟ فقال عزّ وجلّ: هؤلاء من ذرّيتك، وهم خير منك ومن جميع خلقي ولولاهم ما خلقتك ولا خلقت الجنّة والنّار ولا السّماء ولا الأَرض فإيّاك أن تنظر إليهم بعين الحسد فأخرجك عن جواري فنظر إليهم بعين الحسد وتمنى

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/٥٦.

منزلتهم فتسلط عليه الشّيطان حتى أكل من الشّجرة التي نهى عنها وتسلط على حواء لنظرها إلى فاطمة بعين الحسد حتّى أكلت من الشّجرة كما أكل آدم، فأخرجهما الله عن جنّته وأهبطهما عن جواره إلى الأرض(١)، هذا».

وقال بعض العارفين: كما أن لبدن الإنسان غذاء من الحبوب والفواكه، كذلك لروحه غذاء من العلوم والمعارف، وكما أن لغذاء بدنه أشجاراً تثمرها، فكذلك لروحه أشجار تثمرها ولكلّ صنف منه ما يليق به من الغذاء، فإنّ من الإنسان من يغلب فيه حكم البدن على الرّوح، ومنهم من هو بالعكس، ولهم في ذلك درجات يتفاضل بها بعضهم على بعض، ولأهل الدّرجة العليا كل ما لأهل الدرجة السّفلى وزيادة، ولكل فاكهة في العالم الجسماني مثال في العالم الرّوحاني مناسب لها، ولهذا فسّرت الشّجرة تارة بشجرة الفواكه، وأخرى بشجرة العلوم، وكانت شجرة علم محمّد إشارة إلى المجوبيّة الكاملة المثمرة لجميع الكمالات الإنسانية المقتضية للتوحيد المحمدي الذي هو الفناء في الله والبقاء بالله المشار إليه بقوله ﷺ: لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، فإن فيها من ثمار المعارف كلّها، وشجرة الكافور إشارة إلى برد اليقين الموجب للطمأنينة الكاملة المستلزمة للخلق العظيم الذي كان لنبيّنا ﷺ ودون لأهل بيته، فلا منافاة بين الرّوايات ولا بينها وبين ما قالها أهل التأويل إنّها شجرة الهوى والطبيعة لأنّ قربها إنّما يكون بالهوى والشهوة الطبيعية، وهذا معنى ما ورد أنها شجرة الحسد: فإنّ الحسد إنّما ينشأ منها، انتهى.

وقد تلخص منه ومن الرّوايات السّالفة أنّ آدم كما أكل من الشّجرة المنهية التي هي شجرة الفاكهة في عالم الظاهر، فكذلك أكل في عالم الباطن والحقيقة من الشجرة المختصة بآل محمّد عليهم السّلام التي غرسها الله لهم بيد قدرته، فطابق ظاهره وباطنه في إرتكاب الخطيئة وكان ذلك سبباً لإهباطه إلى دار البليّة.

وفي بعض الأخبار أنّ ذلك أيضاً سبب لوجوب غسل الجنابة ولزيادة حظ الذّكر من الأنثى في الميراث.

وهو ما رواه الصّدوق في **«الفقيه»** قال: جاء نفر من اليهود إلى النّبي ﷺ فسأله أعلمهم عن مسائل فكان فيما سأله أن قال: لأي شيء أمر الله تعالى بالإغتسال من الجنابة ولم يأمر بالغسل من الغائط والبول؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ آدم لمّا أكل من الشّجرة دبّ ذلك في عروقه وشعره وبشره، فإذا جامع الرّجل أهله خرج المآء من كلّ عرق وشعرة في جسده، فأوجب الله تعالى على ذرّيته الاغتسال من الجنابة إلى يوم القيامة، والبول يخرج من فضلة الشّراب الذي يشربه الإنسان، والغائط يخرج من فضلة الطعام الذي يأكله الإنسان، فعليه في

(١) عيون أخبار الرضا (ع): ٢/ ٢٧٤ ح ٦٧.

ذلك الوضوء»، قال اليهودي: صدقت يا محمّد[١].

وفي «العيون» بإسناده عن الرّضا عن آبائه عليهم السّلام في حديث الشّامي مع أمير المؤمنين عليه السلام وسأله لم صارت الميراث للذّكر مثل حظّ الانثيين؟ فقال عليه السلام: «من قبل السّنبلة كانت عليها ثلاث حبّات، فبادرت إليها حوّاء فأكلت منها حبّة وأطعمت آدم حبّتين، فلذلك ورث الذّكر مثل حظّ الإنثيين»[٢].

الثالث

إعلم أنّ النّاس اختلفوا في عصمة الأَنبياء عليهم السّلام على أقوال شتّى، وينبغي أن نشير أوّلاً إلى معنى العصمة.

فنقول: العصمة في اللّغة إسم من عصمه الله من المكروه يعصمه من باب ضرب أي حفظه ووقاه ومنعه عنه، وفي الإصطلاح هي ملكة إجتناب المعاصي مع التمكن منها.

وقيل: هي ملكة تمنع الفجور ويحصل بها العلم بمعايب المعاصي ومناقب الطاعات.

وقال الرّاغب: هي فيض إلهي يقوي بها الإنسان على تحري الخير وتجنّب الشر حتّى تصير كمانع له، وإن لم يكن منعاً محسوساً.

وقال العلاّمة في الباب الحادي عشر: العصمة لطف خفي يفعل الله تعالى بالمكلف بحيث لا يكون له داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك.

وقال المرتضى في كتاب «الدّرر والغرر»: العصمة هي اللّطف يفعله الله تعالى فيختار العبد عنده الإمتناع من فعل القبيح، فيقال على هذا: إنّ الله عصمه بأن فعل له ما اختار عنده العدول عن القبيح، ويقال: إنّ العبد معصوم، لأَنّه اختار عند هذا الدّاعي الذي فعل له الامتناع من القبيح، وأصل العصمة في موضوع اللّغة المنع، يقال: عصمت فلاناً من السّوء إذا منعت من حلوله به، غير أنّ المتكلمين أجروا هذه اللّفظة على من امتنع باختياره عند اللطف الذي يفعله الله تعالى به، لأَنّه إذا فعل ما يعلم أنّه يمتنع عنده من فعل القبيح فقد منعه من القبيح فأجروا عليه لفظة المانع قهراً وقسراً وأهل اللغة يتعارفون ذلك أيضاً ويستعملونه، لأَنهم يقولون فيمن أشار على غيره برأي فقبله منه مختاراً، واحتمى بذلك من ضرر يلحقه وسوء يناله أنّه حماه من ذلك الضّرر ومنعه وعصمه منه، وإن كان على سبيل الاختيار، انتهى.

وقد ظهر ممّا ذكرنا كلّه أن العصمة ملكة مانعة عن ارتكاب المعاصي وموجبة لإتيان

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/٧٦ ح ١٧٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/٣٥١ ح ٥٧٦٠، وعلل الشرائع: ٢/٥٧١ ح ٥.

الطاعات على وجه الإختيار، فما ذهب إليه بعضهم من أنّ المعصوم مجبول عليهما وأنه لا يمكنه الإتيان بالمعاصي باطل جدّاً وإلا لما استحقّ مدحاً كما هو ظاهر.

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ النّاس اختلفوا في عصمة الأنبياء على أقوال كثيرة قال الفخر الرّازي وضبط القول فيه أن يقال: الإختلاف في هذه الباب يرجع إلى أقسام أربعة:

أحدها: ما يقع في باب الإعتقاد.

وثانيها: ما يقع في باب التّبليغ.

وثالثها في باب الأحكام والفتيا.

ورابعها ما يقع على أفعالهم وسيرتهم.

أمّا اعتقادهم الكفر والضّلال فإن ذلك غير جائز عند أكثر الأمّة، وقالت الفضلية من الخوارج: إنّهم قد وقعت منهم الذّنوب والذّنب عندهم كفر وشرك فلا جرم قالوا: بوقوع الكفر منهم، وأجازت الإماميّة عليهم إظهار الكفر على سبيل التقيّة.

أمّا النوع الثّاني: وهو ما يقع بالتّبليغ فقد أجمعت الأمّة على كونهم معصومين عن الكذب والتّحريف فيما يتعلّق بالتبليغ، وإلاّ لارتفع الوثوق بالأداء، واتفقوا على أن ذلك كما لا يجوز وقوعه منهم عمداً لا يجوز أيضاً سهواً، ومن النّاس من جوّز ذلك سهواً قالوا: لأنّ الإحتراز عنه غير ممكن.

وأمّا النّوع الثّالث: وهو ما يتعلّق بالفتيا فأجمعوا على أنه لا يجوز خطأهم فيه على سبيل التّعمد، وأمّا على سبيل السّهو فجوّزه بعضهم، وأباه آخرون.

وأمّا النّوع الرّابع: وهو الذي يقع في أفعالهم فقد اختلفت الأمة فيه على أقوال خمسة:

أحدها: قول من جوز عليهم الكبائر على جهة العمد وهو قول الحشويّة.

والثاني: قول من لا يجوّز عليهم الكبائر لكنّه يجوّز عليهم الصّغائر على جهة العمد إلاّ ما ينفر كالكذب والتّطفيف، وهذا قول أكثر المعتزلة.

القول الثّالث: أنّه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا بكبيرة على جهة العمد ألبتّة، بل على جهة التّأويل وهو قول الجبائي.

القول الرّابع: أنّه لا يقع منهم الذنب إلاّ على جهة السّهو والخطأ، ولكنهم مأخوذون ما يقع منهم على هذه الجهة وإن كان ذلك موضوعاً عن أمّتهم، وذلك لأنّ معرفتهم أقوى ودلائلهم أكثر، وأنّهم يقدرون من التحفّظ على ما لا يقدر عليه غيرهم.

القول الخامس: أنّه لا يقع منهم الذّنب لا الكبيرة ولا الصغيرة لا على سبيل القصد ولا

على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل والخطأ وهو مذهب الرّافضة.

واختلف النّاس في وقت العصمة على ثلاثة أقوال:

أحدها: قول من ذهب أنّهم معصومون من وقت مولدهم، وهو قول الرّافضة.

وثانيها: قول من ذهب إلى أنّ وقت عصمتهم وقت بلوغهم ولم يجوزوا منهم إرتكاب الكفر والكبيرة قبل النّبوة، وهو قول كثير من المعتزلة.

وثالثها: قول من ذهب إلى أنّ ذلك وقت النّبوة، أمّا قبل النّبوة فجائز وهو قول أكثر أصحابنا وقول أبي الهذيل وأبي علي من المعتزلة، انتهى ما أهمنا نقله من كلامه.

وقد ظهر منه أنّ الشيعة لا يجوّزون عليهم المعاصي مطلقاً.

وأمّا ما ذكره من أنّ الإماميّة أجازت عليهم إظهار الكفر على سبيل التقية فهو افتراء عليهم، وإنّما هو شيء ذكره صاحب «**المواقف**»، وكيف يجوّزون إظهار الكفر للأنبياء والأئمة مع تأييدهم بالنفوس القدسيّة والقوى الرّبانية، وما هذه النسبة إلاّ فرية بيّنة وبهتان عظيم.

وأمّا ما ذكره من أنّ الشّيعة لا يجوّزون عليهم المعاصي مطلقاً فهو حقّ ولهم على ذلك أدلة عقليّة ونقليّة ذكروها في كتبهم الكلاميّة والتفاسير القرآنية.

منها أنّ متابعة النّبي واجب لقوله: فاتبعوني، فلو كان عاصياً وجب الإقتداء عليه في معصيته فيفضي إلى الجمع بين الحرمة والوجوب وهو محال وإذا ثبت ذلك في حقّ النّبي ثبت في حق سائر الأنبياء لعدم القول بالفصل.

ومنها أنه لو أقدم على المعصية لوجب زجره عنها من باب النّهي عن المنكر مع أنّ زجرهم وإيذائهم محرّم لقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

ومنها أنّه لا شيء أقبح عند العقل من نبي رفع الله درجته وائتمنه على وحيه وجعله خليفة في بلاده وعباده يسمع نداء ربه أن لا تفعل كذا فيقدم عليه ترجيحاً للذته وغير ملتفت إلى نهي ربّه ولا منزجر بوعيده هذا معلوم القبح بالضرورة.

ومنها أنه لو لم يكونوا معصومين لانتفت فائدة البعثة واللاّزم باطل فالملزوم مثله، بيان الملازمة أنّه إذا جازت المعصية عليهم لم يحصل الوثوق بصحة قولهم لجواز الكذب حينئذٍ عليهم، وإذا لم يحصل الوثوق لم يحصل الإنقياد لأمرهم ونهيهم فينتفي فائدة بعثتهم وهو محال، هذا.

وقد ذكروا أدلة كثيرة وراء ما ذكرنا عليك بمطالبتها من مواقعها.

فإن قلت: غاية ما يستفاد من تلك الأدلة هو كونهم معصومين بعد البعثة على ما ذهب إليه الأشاعرة وطائفة من المعتزلة. ولا دلالة فيها على وجوب العصمة قبلها أيضاً كما هو مذهب الشيعة.

قلنا: إذا تمّت دلالتها على ما بعد البعثة فنقول فيما قبل البعثة: إنّ من الواضح أنّ القلوب تشمئز ولا ينقاد إلى طاعة من عهد منه في سالف عمره أنواع المعاصي والكبائر وما تنفر النفس عنه، ألا ترى أن عالماً لم يكن له مبالاة في أفعاله وأقواله قبل تحصيله وفي أيّام صغره، لا يكون له وقع في القلوب بعدما كمل وبلغ من العلم والكمال غايته.

إذا مهدت هذا فنقول: ما ورد في الكتاب العزيز والأخبار مما يوهم صدور الذّنب عنهم الذي جعله الخصم دليلاً على مذهبه لا بدّ من حمله على ترك الأولى جمعاً بينها وبين أدلة العصمة العقليّة والنّقليّة مع أنّ جميع الأدلة الموهمة لخلاف العصمة قد ذكر له وجوه ومحامل في مواضعه وعليك في ذلك بمطالعة كتاب تنزيه الأنبياء الذي رتّبه علم الهدى المرتضى رضي الله عنه وغيره من الكتب المعدة لذلك، ولولا خوف الإطالة لذكرنا نبذة منه إلاّ أنه لا بأس بذكر ما يوهم ذلك في قصة آدم عليه السلام الذي تمسّك به الخصم وهو سبعة أوجه.

الأوّل: أنّه كان عاصياً لقوله: وعصى آدم ربّه، والعاصي صاحب الكبيرة لأنه قد توعد عليه بالعقاب، قال سبحانه:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣]

الثّاني: أنّه كان غاوياً لقوله: فغوى، والغي ضدّ الرّشد يدلّ عليه المقابلة في قوله:

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[البقرة: ٢٥٦].

الثّالث: أنّه تائب لقوله:

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [طه: ١٢٢]

والتّوبة إنّما هو عن الذنب.

الرّابع: ارتكابه المنهي عنه كما يشهد به توبيخه بقوله:

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ويدلّ عليه قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ومرتكب المنهي عنه مذنب.

الخامس: أنّه ظالم لقوله:

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٣٥] وقوله حكاية عنهما ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف: ٢٣].

والظلم ذنب بالضرورة.

السّادس: إعترافه بأنّه لولا مغفرة الله إيّاه لكان خاسراً في قوله:

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

والخسران إنّما يكون عن الذّنب.

السّابع: أنّه أخرج من الجنّة بسبب إطاعته للشّيطان وقبوله لوسوسته وإزلاله وذلك يقتضي كونه مذنباً، هذا.

والجواب عن الأوّل أنّ كون آدم عاصياً مسلّماً، وأمّا أنّ كلّ عاصٍ صاحب كبيرة فممنوع، لأنّ المعصية عبارة عن مخالفة الأمر واجباً كان أو مندوباً، فإنّهم يقولون أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني، بل يطلق على مخالفة الأوامر الإرشاديّة أيضاً كما يقولون: أمرته بشرب الدّواء فعصاني، وقال عمرو بن العاص لمعاوية:

أمرتك أمراً جازماً فعصيتني وكان من التّوفيق قتل ابن هاشم

وقال ابن المنذر ليزيد بن المهلب أمير خراسان:

أمرتك أمراً جازماً فعصيتني فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً

إذا عرفت ذلك فنقول: لا يمتنع إطلاق إسم العصيان على فعل آدم عليه السلام، لا لكونه تاركاً للواجب، بل لكونه تاركاً للأولى من باب حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، أمّا ما قيل في «**الإستدلال**» من أنّ العاصي قد توعد عليه بالعقاب في قوله: ومن يعص الله الآية، فنقول: إنّ الآية وإن كانت مفيدة للعموم بدلالة لفظة من إلاّ أنّها مخصوصة بالعاصي بترك الأوامر الواجبة، لا مطلق الأوامر ضرورة أنّ المندوب لا عقاب على تركه.

ويشهد بما ذكرنا من عدم كون الأمر في المقام إلزاميّاً أنّه على تقدير كونه للإلزام لزم استحقاق آدم للعقاب بنصّ الآية الشريفة أعني قوله: ومن يعص الله الآية وكيف لأحد أن يجترى ويجسر على هذه الدّعوى ويجيز العقاب على الأنبياء الذين هم أعلام الهدى والعروة الوثقى إن هذا إلاّ بهتان عظيم وافتراء.

وعن الثّاني سلّمنا أنّ الغيّ عبارة عن ضدّ الرّشد إلاّ أنّ الرّشد هو أن يتوصل بشيء إلى شيء يوصل إلى المقصود، فمن توصّل بشيء إلى شيء فحصل له ضدّ مقصوده كان ذلك غيّاً كما قال الشّاعر:

فمن يلق خيراً يحمد النّاس أمره ومن يغو لم يعدم على الغيّ لائماً

وعلى ذلك فمعنى قوله سبحانه: ﴿فَغَوَىٰ﴾، فخاب ممّا كان يطمع فيه بأكل الشّجرة من

الخلود في الجنّة والملك الدّائم.

وعن الثّالث أنا نمنع من أنّ التّوبة لا تكون إلاّ عن ذنب لأنّها عبارة عن النّدم على ما مضى فيجوز على ترك المندوب وسيأتي تحقيق له في الفصل الآتي.

وعن الرّابع المنع من كون مرتكب المنهيّ عنه مذنباً مطلقاً وإنّما هو في ارتكاب المناهي التحريميّة، وأمّا مخالفة النّهي التّنزيهي فلا يكون ذنباً، وذلك لأنّ آدم كان مندوباً إلى ترك التّناول من الشّجرة وكان بالتّناول منها تاركاً نفلاً وفضلاً ولم يكن فاعلاً للقبيح، لأنّ القبيح ما يستحقّ فاعله للعقاب وقد علمت أنّ العقاب منفي عن الأنبياء، ومن أجاز العقاب عليهم فقد أساء عليهم الثّناء وأعظم الفرية على الله تعالى.

فإن قيل: ألم يكن إخراج آدم وإهباطه إلى الأرض عقوبة له؟

قلت: إنّ آدم لم يكن مخلوقاً للجنّة وإنّما خلقه الله سبحانه ليكون خليفة في الأرض كما يشهد به إخباره سبحانه للملائكة قبل خلق آدم بقوله:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠].

وإنّما كان إسكانه في الجنّة من باب التفضّل والإكرام.

وعن الخامس بأنّ الظالم ربّما يقال على من بخس نفسه الثّواب، فنقول: لا شكّ أنّه كان تاركاً للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل فكان ذلك ظلماً على نفسه فالظلم هو النّقص وبخس الثّواب بترك المندوب.

وعن السّادس بأن الخسران عبارة عن عدم الرّبح، ومن الواضح أنّه لو لم يقدم على أكل الشّجرة حصل له الثواب الموعود من الله سبحانه من الأكل الرّغيد والعيش السّعيد، وبالأقدام عليه حصل له الخسران وفوّت المنفعة على نفسه وحاصله منع أنّ الخسران لا يكون إلا عن ذنب.

وعن السّابع بما ذكرناه سابقاً من أن آدم خلق لأن يكون خليفة في الأرض وليس في إهباطه إلى الأرض دلالة على كونه مذنباً، نعم يمكن أن يقال: إنّ تركه للأولى كان سبباً لتعجيل الهبوط، لاحتمال تغيّر المصلحة في البقاء بحصول الأكل، هذا.

وبقي الكلام في أنّ أكل آدم من الشّجرة هل كان على سبيل السّهو والنسيان أو على سبيل العمد والقصد؟

المستفاد من بعض الأخبار هو الأوّل، وهو رواية عليّ بن إبراهيم عن أبي جعفر عليه السلام التي سبقت عند شرح قوله عليه السلام والعزيمة بوهنه.

وربّما أورد عليه بأنّه لو كان ناسياً لما عوتب على ذلك الفعل، لعدم القدرة على التّرك مع النّسيان وتكليف الغافل قبيح عقلاً.

وفيه أنّ العتاب يحتمل أن يكون على ترك التحفّظ لأن إستقلال العقل بقبح المؤاخذة على النسيان مطلقاً ممنوع لأنّ النّسيان الصّادر عن ترك التحفّظ لا يقبح المؤاخذة عليه، ولذلك صحّ دعاء النبي ﷺ وسلم واستيهابه لها من ربّه ليلة المعراج بقوله:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية.

وهذه المؤاخذة هي التي منّ برفعها على أمّة النبي صلى الله عليه وآله وخصّت به من بين الأمم كما يدلّ عليه حديث رفع التّسعة الذي رواه الصّدوق في الخصال والتّوحيد عن النبي ﷺ.

وهو أنّه ﷺ قال: «رفع عن أمّتي تسعة أشياء: الخطأ، والنّسيان، وما استكرهوا عليه، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطرّوا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق الإنسان بشفة.

وبالجملة المؤاخذة على النّسيان مع التحفّظ قبيحة عقلاً وإجماعاً، وأما مع عدمه فليس فيها قبح»، ولذلك استوهبها النبيّ ﷺ ليلة المعراج ومنّ الله على أمّته برفعها منها من باب التفضّل والأنعام[1].

وأمّا الثّاني أعني إقدامه على الأكل مع العمد فقد ذهب إليه جمع من المفسّرين من العامة والخاصّة، ثمّ اختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنّ ذلك النّهي كان نهي تنزيه لا نهي تحريم، وقد علمت أنه مذهب الإماميّة.

الثّاني: أنه كان عمداً من آدم وكان ذلك كبيرة وكان آدم نبيّاً في ذلك الوقت وهو مذهب الفضلية من الخوارج خذلهم الله.

الثالث: ما عزاه الفخر الرازي إلى أكثر المعتزلة، وهو أنّه أقدم على الأكل بسبب إجتهادٍ أخطأ فيه، وذلك لا يقتضي كون الذّنب كبيرة، بيان الإجتهاد والخطأ أنّه لمّا قيل له ولا تقربا هذه الشّجرة فلفظة هذه قد يراد بها الشّخص، وقد يشار بها إلى النّوع، فلمّا سمع آدم قوله: ولا تقربا هذه الشّجرة، ظنّ آدم أنّ المراد بها الشّجرة المشخّصة المعينة. فترك الأكل منها وتناول من شجرة أخرى من نوعها إلاّ أنّه كان مخطئاً في ذلك الإجتهاد، لأنّ مراده سبحانه من كلمة هذه كان النّوع لا الشّخص، والخطأ في الفروع إذا كان خطأ لا يوجب إستحقاق العقاب، لاحتمال كونه صغيرة مغفورة كما في شرعنا.

(١) التقية للأنصاري: ٤٠، والخصال: ٤١٧ ح ٩.

أقول: ومثل هذه المقالة قد وردت في بعض أخبارنا، وهو ما رواه الصّدوق في العيون كالطبرسي في «**الإحتجاج**» عن عليّ بن محمّد بن الجهم، قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام، فقال له المأمون: يا بن رسول الله أليس من قولك إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، فقال: ما معنى قول الله عزّ وجل:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

فقال عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى قال لآدم:

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وأشار لهما إلى شجرة الحنطة.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ولم يقل لهما لا تأكلا من هذه الشّجرة ولا ممّا كان من جنسها فلم يقربا تلك الشجرة وإنّما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان إليهما وقال: إنّما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة وما نهاكما أن تقربا غيرها ولم ينهكما عن الأكل منها:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢١].

ولم يكن آدم وحوّاء شاهدان قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

ـ ثقة بيمينه بالله وكان ذلك من آدم قبل النّبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق دخول النّار به وإنّما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي إليهم فلمّا اجتباه الله وجعله نبيّاً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة قال الله:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] الحديث»[1].

أقول: وهذا الحديث كما ترى مطابق لمذهب المعتزلة كما حكيناه عنهم، ومخالف لأصول الإماميّة لتصريح ذيله بجواز صدور الصغيرة على الأنبياء قبل نزول الوحي فلا بدّ.

إمّا من طرحه لضعف سنده من حيث الإرسال كما في «**الاحتجاج**»، أو إنتهاء سلسلة السند إلى تميم بن عبد الله بن تميم القرشي كما في «**العيون**»، فإنّ السّند فيه حدثنا تميم بن

(١) الاحتجاج: ٢/٢١٦.

عبد الله بن تميم القرشي، قال حدثني أبي عن حمدان بن سليمان النيسابوري عن عليّ بن محمّد بن الجهم، وقد ضعّفه العلامة في «**الخلاصة**» حيث قال: تميم بن عبد الله بن تميم القرشي الذي روى عنه أبو جعفر محمّد بن بابويه ضعيف.

أو حمله على التقيّة وإن بعدت، أو تأويله بما يطابق أصول المذهب، وقد أوّله الطبرسي على ما رأيته في حاشية نسخ الإحتجاج بقوله: ولعلّ الرضا عليه السلام أراد بالصّغائر الموهوبة ترك المندوبة وإرتكاب المكروه من الفعل دون الفعل القبيح.

وفيه أن ما ذكره، وإن كان مقتضى أصول المذهب إلا أنّ تأويل الرّواية به غير ممكن، لأنّ الصغائر بالمعنى الذي ذكره لا إختصاص لها بما قبل نزول الوحي حسبما ورد في الرّواية، ولا يجب العصمة عنها بعد النبوة أيضاً كما يفهمه قوله عليه السلام: «فلمّا أجتباه الله وجعله نبيّاً كان معصوماً لا يذنب صغيرة».

ومثل هذا الإشكال يلوح على رواية أخرى نظير تلك الرّواية، وهي ما رواه في «**العيون**» أيضاً بإسناده عن أبي الصّلت الهروي قال: لمّا جمع المأمون لعليّ بن موسى الرّضا عليهما السلام أهل المقالات من أهل الإسلام والدّيانات من اليهود والنّصارى والمجوس والصائبين وسائر أهل المقالات، فلم يقم أحد إلا وقد ألزمه حجّته كأنه ألقمه حجراً، قام إليه عليّ بن محمّد بن الجهم، فقال له يا بن رسول الله: أتقول: بعصمة الأنبياء عليهم السلام؟ قال عليه السلام: «نعم»، قال: فما تقول بقول الله:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

إلى أن قال: فقال الرّضا عليه السلام: «ويحك يا عليّ اتّق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش ولا تتأوّل كتاب الله برأيك فإنّ الله عزّ وجل قد قال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

«وأمّا قوله عزّ وجل في آدم: وعصى آدم ربه فغوى فإنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم حجّة في أرضه وخليفة في بلاده، لم يخلقه للجنّة وكانت المعصية من آدم في الجنّة لا في الأرض وعصمته يجب أن تكون في الأرض ليتمّ مقادير أمر الله، فلمّا أهبط إلى الأرض وجعل حجّة وخليفة عصم بقوله عزّ وجلّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] الحديث»[1]، وعسى أن يكون للرّوايتين تأويل عند غيري وفوق كلّ ذي علم عليم، هذا.

---

(١) عيون أخبار الرضا (ع): ٢/١٧١ ح ١ باب ١٤.

ويلوح على الرّواية الأولى إشكال آخر وهو أنه عليه السلام قد ذكر أنّ المشار إليها بقوله ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ شجرة الحنطة، ولم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة، ولا ممّا كان من جنسها فلم يقربا هذه وإنّما أكلا من غيرها بتدليس إبليس.

وحاصل الإشكال أن يقال: المشار إليها بهذه إمّا أن تكون شخص الشجرة، وإمّا أن تكون نوعها، فعلى الأوّل لا يكون أكلا من غيرها ممّا هي من نوعها تركاً للأولى على مذهبنا وذنباً على مذهب غيرنا، فأيّ توبيخ كان من الله سبحانه عليه في فعله ذلك، وعلى الثّاني كيف يمكن تدليس الشّيطان لهما بقوله: إنّما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة وما نهاكما أن تقربا غيرها حسبما ورد في الرّواية مضافاً إلى أنّ اللاّزم على الله سبحانه نصب القرينة على إرادة النّوع، بأن يقول: ولا تقربا هذه الشّجرة ولا غيرها ممّا كان من نوعها، لقبح الإغراء بالجهل وتأخير البيان عن وقت الحاجة.

ويمكن رفع الإشكال بأن يقال: إنّ المنهيّ عنه إنّما كان نوع الشّجرة، وكلمة هذه قد يشار بها إلى الشخص، وقد يشار بها إلى النّوع، فقوله: ولا تقربا هذه الشّجرة، مع عدم نصب القرينة من قبيل الخطاب بالمجمل لا أنّ الخطاب مجمل بل متعلّق الخطاب أعني المكلّف به مردّد بين الكلّي والفرد، ونفس الخطاب أعني التّكليف بالاجتناب معلوم؛ فاللاّزم على آدم عليه السلام حينئذٍ هو الإحتياط بالإجتناب عن جميع الأفراد، وقد دلسه الشّيطان وأوقعه في خلاف الإحتياط المقتضي للإجتناب، وقال له إنّ الله حيث لم ينصب قرينة على إرادة النّوع فقد أباح النّوع إلاّ الفرد الخاصّ فأكل من غير ذلك الفرد واستحقّ التّوبيخ، وهذا ليس من قبيل الإغراء بالجهل، ولا من قبيل تأخير البيان عن وقت الحاجة، إذ نفس التكليف قد كان معلوماً بالعلم التّفصيلي لا جهالة فيه أصلاً، ولا حاجة له إلى البيان غاية الأمر كون المكلف به مجملاً مردّداً بين أمرين والعقل حاكم فيه بوجوب الإحتياط بترك المحتملات، هذا ما نقده الخاطر القاصر في المقام، والعالم بحقائق الأمور والأحكام لله ولأوليائه الكرام عليهم السّلام.

الترجمة

پس از آن ساكن گردانيد حق سبحانه و تعالى جناب آدم على نبينا و آله و عليه السلام را در سرايى كه وسيع نمود در آن عيش او را و ايمن ساخت در آن محل او را از مكاره و آفات و بترسانيد او را از ابليس لعين و دشمنى او، پس فريفته ساخت او را دشمن او به جهت بخل و حسد او به سكون او در سراى اقامت كه بهشت است و به رفيق شدن او با نيكوكاران كه ملائكه مقربين اند. پس بفروخت يقين به عداوت ابليس را به شك در عداوت به جهت قسم خوردن او به خداوند كه من از ناصحين هستم و بفروخت عزيمت و اهتمامى كه داشت در نخوردن از شجره به وهن و سستى خود كه عارض شد او را به جهت تدليس ابليس و استبدال كرد و بدل نمود فرح و سرور را به خشيت و ترس و عزت و بزرگى را به ندامت و پريشانى.

الفصل الثالث عشر

«ثُمَّ بَسَطَ اللهُ لَهُ في تَوْبَتِه، وَلَقَاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِه، وَوَعَدَهُ المَرَدَّ إلى جَنَّتِه»[1].

اللغة

(التوبة) الإنابة وأصلها الرّجوع عمّا سلف والنّدم على ما فرط و (لقيه) ألقاه من باب تعب لقيا إستقبله وكلّ شيء إستقبل شيئاً أو صادفه فقد لقيه قال الطبرسي (ره) في «**تفسيره**»: فتلقى آدم من ربه كلمات: التّلقي نظير التلقن يقال: تلقيت منه أي أخذت وقبلت، وأصله من لقيت خيراً فيعدي إلى مفعول واحد ثم يعدي إلى مفعولين بتضعيف العين، نحو لقّيت زيداً خيراً كقوله تعالى:

﴿وَلَقَّنْهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

أقول: ومثله قول الإمام عليه السلام: (**ولقيه كلمة رحمته**)، وحكى الفخر الرازي عن القفال قال: أصل التّلقي التعرض للقادم يوضع في موضع الإستقبال للشّيء الجائي، ثم يوضع موضع القبول والأخذ قال الله:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾[النمل: ٦].

أي تلقّنه، ويقال: تلقينا الحاج أي إستقبلناه، ويقال: تلقيت هذه الكلمة من فلان أي أخذتها منه، وإذا كان هذا أصل الكلمة وكان من تلقي رجلاً فتلاقيا لقي كلّ واحد صاحبه فأضيف الإجتماع إليهما معاً، صلح أن يشتركا في الوصف بذلك، فيقال: كلّ ما تلقيته فقد تلقاك، فجاز أن يقال: تلقى آدم كلمات أي أخذتها ووعاها واستقبلها بالقبول، وجاز أن يقال تلقى كلمات بالرّفع على معنى جاءته عن الله كلمات و (**المرد**) كالردّ مصدر من ردّه إذا صرفه.

الإعراب

مفعول بسط محذوف، والتّقدير بسط الله له بساط رحمته وكرامته في توبته، بأن جعلها مقترنة بالقبول، وعلى ما في بعض النسخ من انتفاء كلمة له يجوز جعل بسط بمعنى سرّ يقال: بسط فلاناً، أي سره فالمفعول حينئذٍ الضّمير المحذوف الرّاجع إلى آدم عليه السلام.

المعنى

(**ثم**) إنّ آدم عليه السلام لـمّا اغتره عدوّه وأكل من الشّجرة وارتكب خلاف الأولى واستبدل

---

(١) بحار الأنوار: ١/ ١٠٢، وتفسير نور الثقلين: ١/ ٦٣.

الإعتزاز بالندم (**بسط الله له**) بساط رحمته وكرامته (**في توبته**) بأن ألهمها إليه وتقبلها بقبول حسن (**ولقيه**) أي لقنه (**كلمة رحمته**) التي أشير إليها في قوله سبحانه:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

(**ووعده المردّ**) والرّجوع (**إلى جنته**) كما قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وفي سورة طه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه: ١٢٣].

تنبيهات الأول

أنّ ظاهر كلام الإمام عليه السلام كون توبة آدم قبل الإهباط من الجنّة حيث عطف الإهباط على بسط التّوبة، وهو مقتضى التّرتيب الذكري في الآية من سورة طه، قال سبحانه:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٣] حيث جعل الأمر بالهبوط بعد التوبة.

قال الشارح المعتزلي: وذلك أحد قولي المفسرين (ا هـ)، ولكن الأشهر أنّ التّوبة كانت بعد الهبوط كما ورد في سورة البقرة قال سبحانه:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٦ ـ ٣٧].

والأقوى عندي كون التّوبة بعد الإهباط على ما ورد في سورة البقرة، فيكون كلام الإمام عليه السلام من قبيل التقديم والتّأخير، والتقدير فاستبدل بالجذل وجلاً وبالإعتزاز ندماً فأهبطه الله إلى دار البليّة وتناسل الذّرية، ثم بسط في توبته ولقّنه كلمة رحمته.

قال: قلت: مقتضى النّظم حسبما ذكرت في إحدى الآيتين مخالف للأخرى ظاهراً فما الدّليل على ترجيح ما يستفاد من آية البقرة؟ ثم على تقدير وجود الدّليل ما السّر في تقديم التّوبة على الإهباط في آية طه؟

قلت: أمّا السّر فيما ذكر فلعلّه هو أنّه سبحانه لما نسب إلى آدم العصيان والغيّ الظاهرين في صدور الذّنب الموهمين للإفتضاح وسقوطه عن رتبة النّبوة والإصطفاء كما سبق إلى ذوي الأفهام القاصرة والعقول النّاقصة من العامة العمياء فإنّهم وإن لم يقرّوا بذلك إلاّ أنّه لازم كلامهم نظراً إلى أنّ المذنب لا يكون نبيّاً كما عرفت في الفصل السّابق، إقتضى الحال والمقام أن يعقّبه بما يوجب دفع ذلك التّوهم وينبه على أنّ صدور ذلك لم يوجب انحطاط رتبته بحيث يسلبه التّوفيق والألطاف الخفيّة بالكلّية، ويكون موجباً للخذلان والحرمان فعقّبه من دون فصل

بما أفاد كونه مجتبي ومرتضي، وأن صدور ذلك الفعل لم يسقطه عن الإستعداد والقابليّة للعناية الرّبانية، كما قدم الإجتباء على التّوبة لذلك السر أيضاً وهو زيادة إشعاره بدفع ذلك التّوهم فاقتضى الحال تقديمه.

وأمّا سورة البقرة فقد جرت الحكاية فيها على ما هو الأَصل فيها من المطابقة للمحكي، وهذا السّر ممّا لم يسبق إليه أحد غيري من العلماء والمفسرين والله العالم.

وأمّا الدّليل على تقدّم الإهباط على التوبة فهو الأَخبار الكثيرة.

منها ما رواه عليّ بن إبراهيم القمي في **«تفسيره»** عن الصّادق عليه السلام قال: فأهبط آدم على الصفا، وإنّما سميت الصفا لأن صفوة الله نزل عليها ونزلت الحوّاء على المروة [وإنما سميت المروة ظ] لأَنَ المرأة نزلت عليها، فبقي آدم أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنّة فنزل عليه جبرئيل فقال يا آدم: ألم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته؟ قال: بلى، قال: وأمرك أن لا تأكل من الشّجرة فلم عصيته؟ قال: يا جبرئيل إنّ إبليس حلف لي بالله أنه لي ناصح وما ظننت أن أحداً من خلقه يحلف بالله عزّ وجل كاذباً، فقال له جبرئيل: يا آدم تب إلى الله[1].

ومنها ما رواه أيضاً بإسناده عنه عليه السلام، قال: «إنّ آدم بقي على الصّفا أربعين صاحباً ساجداً يبكي على الجنّة، وعلى خروجه من جوار الله عزّ وجلّ، فنزل جبرئيل فقال: يا آدم ما لك تبكي؟ فقال: يا جبرئيل ما لي لا أبكي وقد أخرجني الله من جواره وأهبطني إلى الدّنيا، فقال: يا آدم تب إليه، الحديث» ويأتي بتمامه إنشاء الله في أواخر الخطبة عند شرح إعلام الحجّ[2].

ومنها ما رواه في **«البحار»** عن معاني الأَخبار عن العجلي عن ابن زكريّا القطان عن ابن حبيب عن ابن بهلول عن محمّد بن سنان عن المفضّل قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام «إنّ الله تبارك وتعالى خلق الأَرواح قبل الأَجساد بألفي عام، فجعل أعلاها وأشرفها أرواح محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من بعدهم صلوات الله عليهم فعرضها على السّماوات والأَرض والجبال، فغشيها نورهم فقال الله تبارك وتعالى للسماوات والأَرض والجبال: هؤلاء أحبّائي وأوليائي وحججي على خلقي وأئمة ربّتي، ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منهم ولهم ولمن تولاّهم خلقت جنّتي، ولمن خالفهم وعادهم خلقت ناري، فمن ادّعى منزلتهم منّي ومحلّهم من عظمتي عذّبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وجعلته مع

---

(١) الكافي: ٤/ ١٩٢ ح ٢.
(٢) بحار الأنوار: ١١/ ٤٣.

المشركين في أسفل درك من ناري ومن أقرّ بولايتهم ولم يدّع منزلتهم منّي ومكانهم من عظمتي جعلته معهم (معي خ ل) في روضات جناني وكان لهم فيها ما يشاؤون عندي، وأبحتهم كرامتي وأحللتهم جواري وشفعتهم في المذنبين من عبادي وإمائي، فولايتهم أمانة عند خلقي فأيكم يحملها بأثقالها ويدّعيها لنفسه دون خيرتي، فأبت السّماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن من ادّعاء منزلتها وتمنّى محلّها من عظمة ربّها، فلمّا أسكن الله آدم وزوجته الجنّة قال لهما:

﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾ [البقرة: ٣٥].

يعني شجرة الحنطة.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٩].

فنظراً إلى منزلة محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من بعدهم عليهم السلام فوجداها أشرف منازل أهل الجنّة فقالا: يا ربّنا لمن هذه المنزلة؟ فقال الله جلّ جلاله: ارفعا رؤوسكما إلى ساق عرشي فرفعا رؤوسهما فوجدا إسم محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة بعدهم صلوات الله عليهم مكتوباً على ساق العرش بنور من نور الجبّار جل جلاله، فقالا: يا ربّنا ما أكرم أهل هذه المنزلة عليك، وما أحبّهم إليك وما أشرفهم لديك؟ فقال الله جل جلاله: لولاهم ما خلقتكما فهؤلاء خزنة علمي وأمنائي على سرّي إيّاكما أن تنظرا إليهم بعين الحسد وتتمنيا منزلتهم عندي ومحلّهم من كرامتي فتدخلا بذلك في نهيي وعصياني فتكونا من الظالمين، قالا ربّنا ومن الظالمون؟ قال: المدّعون لمنزلتهم بغير حقّ، قالا ربّنا فأرنا منازل ظالميهم حتّى نراها كما رأينا منزلتهم في جنّتك، فأمر الله تبارك وتعالى النّار فأبرزت جميع ما فيها من ألوان النّكال والعذاب، وقال الله عزّ وجل مكان الظالمين لهم المدّعين لمنزلتهم في أسفل درك منها:

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]

وكلما نضجت جلودهم بدلوا سواها ليذوقوا العذاب.

يا آدم ويا حوّاء لا تنظرا إلى أنواري وحججي بعين الحسد فأهبطكما عن جواري وأحل بكما هواني.

﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢١].

وحملهما على تمنّي منزلتهم فنظرا إليهم بعين الحسد فخذلا حتّى أكلا من شجرة الحنطة فعاد مكان ما أكلا شعيراً فاحمل الحنطة ممّا لم يأكلاه وأصل الشعير كلّه ممّا عاد مكان ما

أكلاه فلمّا أكلا من الشّجرة طار الحلّي والحلل عن أجسادهما وبقيا عريانين.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٣].

قال: إهبطا من جواري فلا يجاورني في جنتي من يعصيني فهبطا موكولين إلى أنفسهما في طلب المعاش، فلمّا أراد الله عزّ وجلّ أن يتوب عليهما جائهما جبرئيل فقال لهما: إنكما ظلمتما أنفسكما بتمنّي منزلة من فضّل عليكما، فجزاؤكما ما قد عوقبتما به من الهبوط من جوار الله عزّ وجلّ إلى أرضه فاسألا ربّكما بحقّ الأسماء التي رأيتموها على ساق العرش حتّى يتوب عليكما، فقالا: اللهمّ إنّا نسألك بحقّ الأكرمين عليك: محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة إلا تبت علينا ورحمتنا، فتاب الله عليهما إنّه هو التّواب الرّحيم، فلم تزل أنبياء الله بعد ذلك يحفظون هذه الأمانة ويخبرون بها أوصيائهم والمخلصين من أممهم، فيأبون حملها ويشفقون من ادّعائها وحملها الإنسان الذي قد عرف فاصل كلّ ظلم منه إلى يوم القيامة وذلك قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴿٧٢﴾﴾[١] [الأحزاب: ٨٢].

قال المجلسي (ره): الإنسان الذي عرف هو أبو بكر[٢]، هذا.

والأخبار في هذا الباب كثيرة، والإستقصاء فيها موجب للإطالة وفيما ذكرناه كفاية إنشاء الله.

وبقي الكلام في مدة بكاء آدم على الجنّة والمستفاد من روايتي عليّ بن إبراهيم السالفتين أنه بكى أربعين صباحاً.

وفي رواية الصّدوق في «العيون» عن الرّضا عن آبائه عليهم السّلام في أسألة الشّامي عن أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة، قال: وسأله عن بكاء آدم على الجنّة وكم كانت دموعه التي خرجت من عينيه؟ فقال عليه السلام: «بكى مائة سنة وخرج من عينه اليمنى مثل الدّجلة والعين الأخرى مثل الفرات»[٣].

(١) معاني الأخبار: ١١٠ ح ١، والبحار: ١١/ ١٧٤، و ٢٦/ ٣٢٣ ح ٢.
(٢) بحار الأنوار: ١١/ ١٧٤، وتفسير نور الثقلين: ٢/ ١٣.
(٣) البحار: ١٠/ ٧٧، وعيون أخبار الرضا (ع): ٢/ ٢٢٠ ح ١.

وفي **«الأنوار»** للمحدّث الجزائري أخذاً عن الأخبار، ثمّ إنّ آدم وحوّاء أنزلا من السّماوات على جبلٍ في شرقي الهند، يقال له: باسم وفي رواية أخرى يقال له: سرانديب، وهو في الإقليم الأوّل ممّا يلي معدّل النّهار، وقد كانت حوّاء ضفرت رأسها في الجنّة، فقالت: ما أصنع بهذه الضفيرة وأنا مغصوب عليّ، ثمّ إنّها حلّت ضفرتها وفي خبر آخر أنّها حلّت عقيصة واحدة فأطارت الرّيح ذلك الطيب في بلاد الهند، فمن ثمّ كان أكثر الطيب منه.

ثم أتى جبرئيل فأخذ آدم إلى مكّة ليعلمه المناسك، فطوى له الأرض فصار موضع قدميه عمران، وما بينهما خراب فأهبط آدم على الصّفا وبه سمي لهبوط صفيّ الله عليه وحوّاء على المروة وبه سمّيت لنزول المرأة وهي حوّاء عليها، فبكى آدم على ما وقع منه وعلى فراق الجنّة ثلاثمائة سنة من أيّام الدّنيا وفي أيّام الآخرة يوم كألف سنة ما بين العصر إلى العشاء، وبكى حتّى صار على خدّيه كالنهرين، فخرج من عينه اليمنى دموع مثل دجلة، ومن عينه اليسرى مثل الفرات، ثمّ إنّ آدم رأى حوّاء يوم الثّامن من شهر ذي الحجّة فلم يعرفها ذلك اليوم لشعث أحوالها وطول أحزانها، فتروى وتفكّر ذلك، ثمّ إنّه عرفها يوم التّاسع، فمن ثمّ سمّي يوم الثّامن يوم التّروية والتّاسع يوم عرفة، ولمّا لم تقبل توبته في تلك السّنين والأعوام أتى إليه جبرائيل، فقال: يا آدم ادع الله بالأسماء التي رأيتها مكتوبة على ساق العرش بسطور النّور وقل: اللّهم بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة الطاهرين أن تقبل توبتي.

ولعلّ المحدّث المذكور قد أخذ تقدير مدّة البكاء بما ذكره ممّا رواه الصّدوق في **«الفقيه»** في باب علّة وجوب الصّلاة الخمس عن النّبيّ ﷺ قال: «وأما صلاة العصر فهي السّاعة التي أكل آدم فيها من الشّجرة فأخرجه الله من الجنّة فأمر الله ذريته بهذه الصّلاة إلى يوم القيامة واختارها لأمتي فهي من أحب الصّلاة إلى الله عزّ وجلّ، وأوصاني أن أحفظها من بين الصّلوات، وأمّا صلاة المغرب فهي السّاعة التي تاب الله فيها على آدم، وكان ما بين الصّلوات، وأمّا صلاة المغرب فهي السّاعة التي تاب الله فيها على آدم، وكان ما بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله عليه ثلاثمائة سنة من أيّام الدّنيا، وفي أيام الآخرة يوم كألف سنة ما بين العصر إلى العشاء، فصلّى آدم ثلاث ركعات ركعة لخطيئته وركعة لخطيئة حواء وركعة لتوبته الحديث»[١]، ويأتي بتمامه إنشاء الله في **«شرح الخطبة»** المائة والتاسعة، هذا.

ولا بأس باختلاف هذه الأخبار في مدة أيام البكاء زيادة **(الزايد،خ)** ونقصاناً، **(الناقص خ)** لا مكان حمل الأقل على الشّديد والأكثر على الخفيف والمراد بالشديد هو ما يشتمل على النوح، ويقال له: البكاء بالمدّ والثاني بالقصر.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/٢١٢ ح ٦٤٣.

الثاني

اختلفت الأَقوال كالأَخبار في الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه التي أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله: ولقاه كلمة رحمته.

فقيل: إنّ المراد بها هي قوله: ربّنا ظلمنا أنفسنا الآية.

وقيل: هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وعن ابن عبّاس إنّ الله علّم آدم وحواء أمر الحج والكلمات التي يقال فيه، فحجا، فلما فرغا أوحى الله تعالى إليهما أنّي قد قبلت توبتكما.

وفي «**الكافي**» عن أحدهما عليه السلام أنّ الكلمات:

«لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُم وبِحَمْدِكَ عَمِلتُ سُوءً وظَلَمْتُ نَفْسي فَاغْفِر لي وَأَنت خَيْرُ الغَافِرينَ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهم وَبِحَمْدِكَ عَمِلتُ سُوءً فَاغْفِر لِيْ وَأرحمْنِي إِنَّك أَنتَ أَرحَمُ الرَاحِمينَ، لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَ وَبِحَمدِكَ عَمِلتُ سُوءٍ وظلمتُ نَفسِي فاغْفُر لي وتب عليَّ إنَّك أَنتَ التوابُ الرَّحيمُ»[١].

وفي أكثر أخبارنا أنّ المراد بها الأَسماء المباركة لمحمد وآل محمّد سلام الله عليهم التي توسّل آدم بها إلى الله سبحانه في قبول توبته، ولا منافاة بينها لإمكان تلقى الجميع وإن كان الأَقوى الأَخير لقوة أدلته عدداً وسنداً.

فمن تلك الأَدلة رواية معاني الأَخبار السّالفة في التذييل الأوّل.

ومنها ما عن تفسير الإمام عليه السلام: لما زلت من آدم الخطيئة واعتذر إلى ربّه عزّ وجلّ قال: يا ربّ تب عليّ وأقبل معذرتي فلقد تبين نقص الخطيئة وذلها بأعضائي وسائر بدني، قال الله تعالى يا آدم: أما تذكر أمري إياك بأن تدعوني بمحمد وآله الطيبين عليهم السلام عند شدائدك ودواهيك، وفي «**النوازل**» تبهظك[٢]، قال آدم يا ربّ بلى، قال الله عزّ وجلّ: فهم محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام خصوصاً فادعني أجبك إلى ملتمسك وأزدك فوق مرادك، قال آدم: يا رب الهي وقد بلغ عندك من محلهم أنك بالتّوسل بهم تقبل توبتي وتغفر خطيئتي وأنا الذي أسجدت له ملائكتك وأبحته جنّتك وزوّجته حوّاء أمتك وأخدمته كرام ملائكتك، قال الله تعالى: يا آدم إنّما أمرت الملائكة بتعظيمك بالسّجود لك إذ كنت وعاء لهذه الأنوار ولو كنت سألتني بهم قبل خطيئتك أن أعصمك وأن أفطنك لدواعي

---

(١) الكافي: ٨/ ٣٠٤ ح ٤٧٢.

(٢) تبهظك: بهظه الجمل أي أثقله.

عدوّك إبليس حتّى تحترز منها لكنت قد جعلت ذلك، ولكن المعلوم في سابق علمي يجري موافقاً لعلمي فالآن فبهم فادعني لأجيبك، فعند ذلك قال آدم: اللّهم بجاه محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهم لمّا تفضّلت بقبول توبتي وغفران زلتي وإعادتي من كراماتك إلى مرتبتي، قال الله عزّ وجلّ: قد قبلت توبتك وأقبلت برضواني عليك وصرفت آلائي ونعمائي إليك وأعدتك إلى مرتبتك من كراماتي ووفرت نصيبك من رحماتي، فذلك قوله عزّ وجلّ(١).

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ومنها ما في «البحار» عن معاني الأخبار بإسناده عن المفضّل عن الصّادق جعفر بن محمّد عليهما السّلام، قال: سألته عن قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ما هذه الكلمات؟ قال عليه السلام: «هي الكلمات التي تلقّيها آدم من ربه فتاب عليه وهو أنّه قال: يا ربّ أسألك بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت عليّ، فتاب الله عليه إنّه هو التّواب الرّحيم»، فقلت: يا بن رسول الله فما يعني عزّ وجل بقوله أتمهنّ، قال: «يعني أتمّهنّ إلى القائم إثنا عشر إماماً، تسعة من ولد الحسين عليه السلام» قال المفضّل: فقلت له: يا بن رسول الله، فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[الزخرف: ٢٨].

قال: «يعني بذلك الإمامة جعلها الله في عقب الحسين عليه السلام إلى يوم القيامة» قال: فقلت له: يا بن رسول الله فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون الحسن وهما جميعاً ولدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسبطاه وسيّدا شباب أهل الجنّة؟ فقال: «إنّ موسى وهارون كانا نبيّين ومرسلين أخوين، فجعل الله النّبوة في صلب موسى دون طلب هارون ولم يكن لأحد أن يقول: لم فعل الله ذلك، فإنّ الإمامة خلافة الله عزّ وجلّ ليس لأحد أن يقول: لم جعلها الله في صلب الحسين دون صلب الحسن عليهما السّلام، لأنّ الله هو الحكيم في أفعاله لا يسأله عمّا يفعل وهم يسألون»(٢).

ومنها ما فيه أيضاً عن جامع الأخبار وأمالي الصّدوق بالإسناد عن معمّر بن راشد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أتى يهودي النبيّ صلى الله عليه وآله، فقام بين يديه يحدّ النظر إليه، فقال صلى الله عليه وآله: «يا يهودي حاجتك»؟ قال: أنت أفضل أم موسى بن عمران النبيّ كلمه الله وأنزل عليه التّوراة والعصا وفلق له البحر وأظلّه بالغمام؟ فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّه يكره للعبد أن يزكي

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ١٩٢، وتفسير الصافي: ١/ ١٢١.

(٢) الخصال: ٣٠٥ ح ٨٤.

نفسه ولكنّي أقول: إنّ آدم لمّا أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: اللهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لمّا غفرت لي فغفرها الله له، وإنّ نوحاً لمّا ركب في السّفينة وخاف الغرق، قال: اللهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لمّا أنجبتني من الغرق فنجاه الله، وإن إبراهيم لمّا ألقي في النّار قال: اللهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لمّا أنجيتني منها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وإنّ موسى لمّا ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال: اللهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لمّا أمنتني، فقال الله جلّ جلاله: لا تخف إنك أنت الأعلى يا يهودي إنّ موسى لو أدركني ثم لم يؤمن بي وبنبوّتي ما نفعه إيمانه شيئاً ولا نفعته النّبوة، يا يهودي ومن ذرّيتي المهدي عليه السلام **إذا خرج نزل عيسى بن مريم لنصرته فقدّمه وصلّى خلفه»**[1]. إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة، تركناها مخافة الأطناب، وقد عقد المحدث العلامة المجلسي طاب ثراه في «**البحار**» باباً في أنّ دعاء الأنبياء استجيب بالتّوسل والإستشفاع بهم صلوات الله عليهم أجمعين.

الثالث

في تحقيق توبة الأنبياء على وجه لا ينافي العصمة.

فنقول: قد عرفت في الفصل السّابق أنّ الأنبياء عليهم السّلام معصومون من أوّل عمرهم إلى آخره، وأنّه لم يصدر منهم ذنب قطّ لا صغيرة ولا كبيرة لا في الصغر ولا في الكبر ولا قبل البعثة ولا بعد البعثة لا على سبيل العمد ولا على سبيل السّهو والخطأ، على ما ذهبت إليه أصحابنا رضي الله عنهم، وعند ذلك احتاجوا إلى تأويل ما ورد في الكتاب العزيز من الآيات الدّالة على توبتهم، وكذلك ما ورد في الأخبار.

فمن توبة النبي صلى الله عليه وآله مثل ما رواه في «**الكافي**» بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله عزّ وجلّ كلّ يوم سبعين مرّة.

وما رواه الطبرسي في «**مجمع البيان**» عن أمّ سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله بآخره[2] لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فسألناه عن ذلك، فقال: إنّي أمرت بها ثمّ قرأ[3].

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]. إلى آخر السّورة.

وكذلك ما ورد من توبة الأئمة عليهم السلام كما في الأخبار الكثيرة والأدعية المأثورة،

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٨٧، والبحار: ١٦/٣٣٦، و ٢٦/٣١٩.
(٢) في المصدر المطبوع: بالآخرة، وفي البحار: بآخره وفي تفسير القرطبي: آخر أمره.
(٣) تفسير مجمع البيان ١٠٠/٤١٧، والبحار: ٢١/١٠٠ وتفسير القرطبي ٢٠٠/٢٣١.

وكفاك شاهداً أدعيّة الصّحيفة السّجادية ولا سيّما دعاء التّوبة ودعاء الإستقالة المتضمنة للإعتراف بالذنوب والمعاصي.

إذا عرفت ذلك فأقول: قد أجاب عنه أكثر الأصحاب بأنّ ترك المندوب وفعل المكروه ربّما يسمّى ذنباً فيجوز التوبة حينئذٍ.

قال الطبرسي (ره): وعندنا تصح التوبة إذا كانت من ترك المندوب ويكون ذلك على وجه الرّجوع إلى فعله، وعلى هذا يحمل توبة الأنبياء في جميع ما نطق به القرآن.

وقد أجيب عن استغفار النبيّ والأئمة عليهم السّلام وتوبتهم مضافاً إلى ما مرّ بوجوه خاصّة:

أحدها: أنّه لتعليم الأمة وتأديبهم وتنبيههم على كيفيّة الإقرار والإعتراف بالتقصير والذنوب والإستغفار والتّوبة.

الثاني: أنّه من قبيل التّواضع والإعتراف بالعبودية وأنّ البشر مظنّة التقصير.

الثالث: أنّ الإعتراف بالذّنوب والإستغفار منها إنّما هو على تقدير وقوعها، والمعنى إن صدر منّي شيء من هذه الأمور فأغفره لي، وقد تقرّر أنّه لا يلزم من صدق الشّرطيّة صدق كلّ واحد من جزئيها.

الرّابع: أنّهم يتكلمون على لسان أمّتهم ورعيّتهم، فاعترافهم بالذّنوب إعتراف بذنوب أمّتهم، لأنّ كلّ راع مسؤول عن رعيّته وإنّما أضافوا الذّنوب إلى أنفسهم المقدسة للإتّصال والسّبب، ولا سبب أوكد ممّا بين الرّسول أو الإمام عليه السلام وبين أمّته ورعيّته، ألا ترى أنّ رئيس القوم إذا وقعت من قومه هفوة أو تقصير قام هو في الإعتذار منهم ونسب ذلك إلى نفسه وإذا أريد عتابهم وتوبيخهم وجّه الكلام إليه دون غيره منهم، وإن لم يفعل هو ذلك بل ولا شهده وهذا في الاستعمال معروف.

أقول: ويؤيّد هذا الوجه ما رواه القمي عن الصّادق عليه السلام في قوله تعالى:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

قال عليه السلام: «والله ما كان له ذنب ولا همّ بذنب، ولكنّ الله حمله ذنوب شيعته ثم غفرها» وفي «**المجمع**» عنه أنّه سئل عنها، فقال عليه السلام: «والله ما كان له ذنب، ولكنّ الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي ما تقدّم من ذنبهم وما أخّر»[1]، قال بعض أهل المعرفة: قد ثبت عصمته فلم يبق لإضافة الذّنب إليه إلاّ أن يكون هو المخاطب والمراد أمّته كما قيل: إيّاك أدعو

(١) تفسير مجمع البيان: ٩/ ١٨٥.

واسمعي يا جاره.

الخامس: ما ذكره الشّيخ عليّ بن عيسى الأربلي (ره) في كشف الغمّة واستحسنه أكثر من تأخّر عنه كالمحدّث المجلسي (ره) والشّيخ البهائي في «**شرح الأربعين**» والطريحي وشارح الصّحيفة السّيد صدر الدين عليّ الحسيني وغيرهم من متصدّي الأخبار.

قال (ره): فائدة سنية كنت أرى الدّعاء الذي كان يقوله أبو الحسن عليه السلام في سجدة الشّكر وهو:

«رَبِّ عَصَيْتُكَ بِلِساني وَلَوْ شِئْتَ وعِزَّتِكَ لأَخْرَسْتَني وَعصَيْتُكَ بِبَصَري وَلَوْ شِئْتَ وعِزَّتِكَ لأَكْمَهْتَني وعَصَيْتُكَ بِسَمْعي وَلَوْ شِئْتَ وعِزَّتِكَ لأَصَمَمْتَني وعَصَيْتُكَ بِيَدي وَلَوْ شِئْتَ وعِزَّتِكَ لَكنَعْتَني وعَصَيْتُكَ بِفَرْجي وَلَوْ شِئْتَ وعِزَّتِكَ لَعَقَمْتَني وعَصَيْتُكَ بِرِجْلي وَلَوْ شِئْتَ وعِزَّتِكَ لَجَذَمْتَني وعَصَيْتُكَ بِجَميعِ جَوارِحي الَّتي أَنْعَمْتَ بِها عَلَيَّ وَلَمْ يَكُنْ هذا جَزاكَ مِنّي»[١].

بخط عميد الرّوؤساء: لعقمتني والمعروف عقمت المرأة وعقمت وعقمت وأعقمها الله. فكنت أفكّر في معناه وأقول: كيف يتنزّل على ما يعقده الشيعة من القول بالعصمة، وما اتّضح لي ما يدفع التردّد الذي يوجبه، فاجتمعت بالسّيد السّعيد النّقيب رضي الدّين أبي الحسن عليّ بن موسى الطاوس الحسني رحمه الله وألحقه بسلفه الطاهر، فذكرت له ذلك فقال: إنّ الوزير السّعيد مؤيد الدين القمي رحمه الله سألني عنه، فقلت: كان يقول هذا ليعلم النّاس، ثم إني ذكرت بعد ذلك فقلت: هذا كان يقوله في سجدته في اللّيل وليس عنده من يعلّمه، ثم سألني الوزير مؤيد الدّين محمّد بن العلقمي (ره) فأخبرته بالسؤال والجواب الأوّل الذي قلت والذي أوردته عليه وقلت: ما بقي إلاّ أن يكون يقوله على سبيل التّواضع، وما هذا معناه، فلم تقع منّي هذه الأقوال بموقع ولا حلّت من قلبي في موضع، ومات السّيد رضي الدّين رحمه الله، فهداني الله إلى معناه ووفقني على فحواه، فكان الوقوف عليه والعلم به وكشف حجابه بعد السنين المتطاولة والأحوال المجرية والأدوار المكرّرة من كرامات الإمام موسى عليه السلام ومعجزاته ولتصحّ نسبة العصمة إليه عليه السلام وتصدق على آبائه وأبنائه البررة الكرام وتزول الشّبهة التي عرضت من ظاهر هذا الكلام.

وتقريره أنّ الأنبياء والأئمة عليهم السّلام تكون أوقاتهم مشغولة بالله تعالى وقلوبهم مملوّة وخواطرهم متعلقة بالملا الأعلى، وهم عليهم السلام أبداً في المراقبة كما قال صلى الله عليه وآله: «أعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»، فهم أبداً متوجّهون إليه ومقبلون بكلهم عليه، فمتى انحطوا عن تلك الرّتبة العالية والمنزلة الرّفيعة إلى الإشتغال بالمأكل والمشرب والتّفرغ

(١) مصباح المتهجد: ٦٦.

إلى النّكاح وغيره من المباحات، عدّوه ذنباً واعتقدوه خطيئة واستغفروا منه.

ألا ترى أنّ بعض عبيد أبناء الدّنيا لو قعد وأكل وشرب ونكح وهو يعلم أنّه بمرىء من سيّده ومسمع، لكان ملوماً عند النّاس ومقصراً فيما يجب عليه من خدمة سيّده ومالكه، فما ظنك بسيّد السادات وملك الأملاك.

وإلى هذا أشار ﷺ: «أنّه ليغان على قلبي وإني لأَستغفر بالنّهار سبعين مرّة»[١]، ولفظة السّبعين إنّما هي لعد الإستغفار لا إلى الرّين، وقوله: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين.

ويزيده إيضاحاً من لفظه ليكون أبلغ من التّأويل ويظهر من قوله عقمني والعقيم الذي لا يولد له والذي يولد من السّفاح لا يكون ولداً، فقد بان بهذه أنّه كان يعدّ اشتغاله في وقت ما بما هو ضرورة للأَبدان معصية ويستغفر الله منها.

وعلى هذا فقس البواقي وكلما يرد عليك من أمثالها، وهذا معنى شريف يكشف بمدلوله حجاب الشبه ويهدي به الله من حسر عن بصره وبصيرته رين العمى والعمه، وليس السّيد (ره) كان حيّاً لأَهدي هذه العقيلة إليه وأجلوا عرايسها عليه، فما أظنّ أنّ هذا المعنى اتّضح من لفظ الدعاء لغيري، ولا أنّ أحداً سار في إيضاح مشكله وفتح مقفّله مثل سيري. وقد ينتج الخاطر العقيم فيأتي بالعجائب، وقديماً ما قيل: مع الخواطي سهم صائب، انتهى كلامه رفع مقامه.

وقد اقتفى أثره القاضي ناصر الدّين البيضاوي في **«شرح المصابيح»** عن شرح قوله ﷺ: «إنّه ليغان على قلبي وإنّي لأَستغفر الله في اليوم مائة مرّة»، قال: الغين لغة في الغيم وغان على كذا أي غطى، قال أبو عبيدة في معنى الحديث أي يتغشى قلبي ما يلبسه، وقد بلغنا عن الأصمعي أنّه سئل عن هذا، فقال للسائل: عن قلب من تروي هذا؟ فقال: عن قلب النّبي ﷺ، فقال: لو كان غير قلبي النبي ﷺ، لكنت أفسره لك، قال القاضي ولله درّ الأصمعي في انتهاجه منهج الأدب وإجلاله القلب الذي جعله الله موقع وحيه ومنزل تنزيله.

ثم قال: لـمّا كان قلب النبي ﷺ أتم القلوب صفاء وأكثرها ضياء وأعرفها عرفاناً وكان ﷺ معنياً مع ذلك بتأسيس الملّة وتشريع السّنة ميسراً غير معسر، لم يكن له بدّ من النّزول إلى الرّخص والإلتفات إلى حظوظ النّفس مع ما كان ممتحناً به من أحكام البشرية، فكان إذا تعاطى شيئاً من ذلك أسرعت كدورة إلى القلب لكمال رقّته وفرط نورانيّته، فإن الشيء كلما كان أرقّ وأصفى كان ورود المكدّرات عليه أبين وأهدى، فكان إذا أحس بشيء من ذلك عدّه على النّفس ذنباً فاستغفر منه، انتهى ما حكى عنه ملخصاً.

وقال المحدث العلامة المجلسي طاب ثراه في المجلد السّابع من البحار: اعلم أنّ

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٨٥.

الإمامية رضي الله عنهم اتفقوا على عصمة الأئمة عليهم السّلام من الذنوب صغيرها وكبيرها فلا يقع منهم ذنب أصلاً لا عمداً ولا نسياناً ولا لخطأ في التأويل ولا للإسهاء من الله سبحانه، ولم يخالف فيه إلا الصدوق محمّد بن بابويه وشيخه ابن الوليد رحمة الله عليهما فإنّهما جوزا الإسهاء من الله تعالى لمصلحة في غير ما يتعلق بالتّبليغ وبيان الأحكام، لا السهو الذي يكون من الشّيطان، وقد مرت الأخبار والأدلة الدالة عليها في المجلد السّادس والخامس وأكثر أبواب هذا المجلد مشحونة بما يدلّ عليها، فأمّا ما يوهم خلاف ذلك من الأخبار والأدعية فمؤلة بوجوه.

الأوّل: أنّ ترك المستحب وفعل المكروه قد يسمى ذنباً وعصياناً، بل ارتكاب بعض المباحات أيضاً بالنسبة إلى رفعة شأنهم وجلالتهم ربّما عبروا عنه بالذّنب، لانحطاط ذلك عن سائر أحوالهم كما مرت الإشارة إليه في كلام الأربلي (ره).

الثّاني: أنّهم بعد انصرافهم عن بعض الطاعات التي أمروا بها من معاشرة الخلق وتكميلهم وهدايتهم ورجوعهم عنها إلى مقام القرب والوصال ومناجاة ذي الجلال، ربّما وجدوا أنفسهم لانحطاط تلك الأحوال عن هذه المرتبة العظمى مقصرين، فيتضرعون لذلك وإن كان بأمره تعالى، كما أنّ أحداً من ملوك الدّنيا إذا بعث واحداً من مقربي حضرته إلى خدمة من خدماته التي يحرم بها من مجلس الحضور والوصال، فهو بعد رجوعه يبكي ويتضرع وينسب نفسه إلى الجرم والتّقصير، لحرمانه عن هذا المقام الخطير.

الثالث: أنّ كمالاتهم وفضائلهم وعلومهم لما كانت من فضله تعالى، ولولا ذلك لأمكن أن يصدر منهم أنواع المعاصي، فإذا نظروا إلى تلك الحال أقرّوا بفضل ربّهم وعجز نفسهم بهذه العبارة الموهمة لصدور السيئات، فمفادها إني أذنبت لولا توفيقك، وأخطأت لولا هدايتك.

الرّابع: أنهم لما كانوا في مقام التّرقي في الكمالات والصّعود على مدارج الترقيات في كلّ آن من الآنات في معرفة الرّب تعالى وما يتبعها من السعادات فإذا نظروا إلى معرفتهم السّابقة وعملهم معها، اعترفوا بالتّقصير وتابوا منه، ويمكن أن ينزل عليه قول النبي ﷺ: **وإني لأستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرّة"**.

الخامس: أنّهم عليهم السلام لما كانوا في غاية المعرفة لمعبودهم فكلما أتوا به من الأعمال بغاية جهدهم ثم نظروا إلى قصورها عن أن يليق بجناب ربهم، عدوا طاعاتهم من المعاصي، واستغفر منها كما يستغفر المذنب العاصي.

ومن ذاق من كأس المحبّة جرعة شائقة لا يأبى عن قبول تلك الوجوه الرائقة والعارف المحب الكامل إذا نظر إلى غير محبوبه أو توجه إلى غير مطلوبه، يرى نفسه من أعظم

الخاطئين، رزقنا الله الوصول إلى درجات المحبين.

أقول: هذا ما ذكره علماؤنا البارعون في التقصي عن الإشكال المذكور، شكر الله سعيهم وأجزل مساعيهم رضوان الله عليهم، إلاّ أنّ لي في المقام وجهاً آخر وهو بحسب الظاهر قريب من بعض الوجوه السّابقة إلا أنّ نسبته إليها كنسبة الثّريا إلى الثري كما هي غير خفيّة على صاحب الذوق السّليم والطبع المستقيم.

وهو أنّك قد عرفت في «**التذييل**» الأوّل من تذييلات الفصل الثّامن من فصول هذه الخطبة، أنّ أوّل ما خلق الله سبحانه أنوار النبيّ وآله عليهم السّلام، كما عرفت أنّه سبحانه خلق تلك الأنوار من قبل أن يخلق العالم بألوف من السّنين، ومرّ هناك في حديث أبي الحسن البكري أنّه سبحانه خلقها قبل إيجاد العالم بأربعة وعشرين وأربعمائة ألف عام.

إذا تذكرت ذلك فنقول: إنّهم قد كانوا حينئذٍ أنواراً بسيطة وجواهر مجرّدة عن التّعلق بالأَجسام والجسمانيّات، خالصة عن الكدورات، فارغة عن القيودات والعلاقات، مستغرقة في تلك المدّة المتطاولة في شهود جمال الحقّ سبحانه وتعالى مشتغلة في جميع هذه المدّة بالتّسبيح والتّقديس والتنزيه، تارة في حجاب القدرة وأخرى في حجاب العظمة، وثالثة في حجاب العزّة، ورابعة في حجاب الهيبة إلى غير هذه من حجب النّور المذكورة في الحديث المذكور، ثمّ اقتضت الحكمة الرّبانيّة إهباطهم من عالم التجرّد إلى عالم التقيّد والتعلّق، فتصوّروا بالصّور الإنسانيّة هداية للخلق وإرشاداً للأمّة، وحصلت لهم في هذا العالم من القيودات والعلاقات ما هو مقتضي البشريّة والجسمانيّة، ولمّا لم يتمكّنوا في هذا العالم من الإستغراق التام والفراغ الكامل، مثل تمكنهم في ذلك العالم، لوجود التّعلّقات المانعة هنا وعدمها هناك، استغفروا الله سبحانه لذلك، واعترفوا بالتقصير إعتراف المذنب المقصر، هذا ما خطر بالخاطر القاصر، والله الهادي إلى المنهج القويم، والصّراط المستقيم.

الترجمة

پس بعد از این که جناب آدم از شجره منهیّه اکل نمود و به عمل خود نادم و پشیمان گشت و چهل شبانه روز و به روایتی یکصد سال و به روایت دیگر سیصد سال گریه و زاری کرد، بسط فرمود خداوند سبحانه و تعالی به جهت او بساط کرامت و رحمت خودش را در توبه او، به این نحو که الهام توبه فرمود بر او و قبول کرد آن را از او و تلقین نمود بر او کلمه رحمت خود را که بنا بر اشهر، توسل به اسماء مبارکه محمد و آل محمد سلام الله علیهم است که در ساق عرش دیده بود و وعده فرمود بر او رجوع دادنش را به بهشت عنبرسرشت خود.

الفصل الرابع عشر

«فَأَهْبَطَهُ إِلى دارِ الْبَلِيَّةِ وَتَناسُلِ الذُرِّيَّةِ، وَاصْطَفى مِنْ وُلْدِه أَنبِياءَ أَخَذَ عَلىَ الْوَحْيِ ميثاقَهُمْ، وَعَلى تَبْلِغ الرِّسالَةِ أَمانَتَهُمْ، لَمّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِه عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَاتَّخَذُوا الأَنْدادَ مَعَهُ، وَاجْتالَتْهُمُ الشَّياطينُ عَنْ مَعْرِفَتِه، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبادَتِه، فَبَعَثَ فيهِمْ رُسُلَهُ، وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيائَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ ميثاقَ فِطْرَتِه، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلغِ، وَيُثيرُوا لَهُمْ دَفائِنَ الْعُقُولِ، وَيَرُوهُمْ آياتِ الْمَقْدُرَةِ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجالٍ تُفْنيهِم؛ وَأَوْصابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْداثٍ تَتَتابَعُ عَلَيْهِمْ».

اللغة

(هبط) الماء وغيره هبطاً من باب ضرب نزل وفي لغة قليلة يهبط هبوطاً من باب قعد وهبطته أنزلته يتعدي ولا يتعدي، و **(البلية)** كالبلاء والبلوى إسم من الإبتلاء بمعنى الإمتحان و **(التّناسل)** التّوالد و **(الذّرية)** والنّسل والولد نظائر وتكون الذّرية واحداً وجمعاً وفيها ثلاث لغات أفصحها ضمّ **(الذّال)** وبها قرأ السّبعة في الآيات القرآنية، والثّانية كسرها، ويروي عن زيد بن ثابت، والثّالثة فتح **(الذّال)** مع تخفيف **(الرّاء)** وزان كريمة وبها قرأ أبان بن عثمان وتجمع على ذرّيات والذّراري.

وفي أصلها أربعة مذاهب: من الذّرء بالهمز من ذرء الله الخلق، ومن الذّر والذّرور والذّري، فعلى الأوّل وزنها فعيلة أبدلت الهمزة **(ياء) كبرية، وعلى الثّاني وزنها فعلية كقمرية أو فعيلة نحو ذرّيرة، فلمّا كثرت (الرّآت)** أبدلت الأخيرة **(ياء)** وأدغمت **(الياء)** الأولى فيها، نحو سرّية فيمن أخذها من السّر، وهو النكاح، أو فعّولة نحو ذرّورة فأبدلوا **(الرّاء)** الأخيرة لما ذكرناه فصار ذرّوية ثمّ أدغمت **(الواو)** في **(الياء) فصار ذرّية، وعلى الثّالث فوزنها فعولة، وعلى الرّابع فعيلة و (الأنداد)** جمع النّد وهو المثل **(واجتالتهم)** من الجولان أي إدارتهم و **(الشّياطين)** جمع الشّيطان من الشّطن وهو البعد، قال الزمخشري في **«محكى كلامه»**: قد جعل سيبويه نون الشّيطان في موضع من كتابه أصليّة وفي آخر زائدة، والدّليل على أصالتها قولهم: تشيطن، واشتقاقه من شطن إذا بعد لبعده عن الصّلاح والخير، ومن شاط إذا بطل إذا جعلت (نونه) زائدة و **(واتر)** من المواترة وهي المتابعة، قيل: ولا تكون المواترة بين الأشياء إلاّ إذا وقعت بينها فترة، وإلاّ فهي مداركة ومواصلة و **(أثار)** الغبار يثيره هيجه وأثار والأرض في الآية الشريفة أي قلّبوها للزّراعة و **(المقدرة)** بفتح **(الميم)** وحركات **(الدّال)** كالقدرة مصدر من قدر عليه إذا قوى و **(المهاد)** الفراش والبساط و **(الأوصاب)** جمع الوصب وهو المرض والوجع و **(أهرمه)** إذا أضعفه من هرم هرماً من باب تعب كبر وضعف ورجل هرم ككتف وامرأة هرمة و **(الأحداث)** جمع الحدث بفتحتين وهي الأمور الحادثة، وخصّت في العرف

بالنّوائب المتجددة والمصائب الحادثة.

الإعراب

وتناسل الذّرية بالجرّ عطف على البليّة، وجملة أخذ على الوحي (ا هـ) في محلّ النّصب على الحاليّة من فاعل أخذ أو مفعوله، (ولما) في قوله ﷺ: لمّا بدّل، ظرفيّة بمعنى (حين) أو بمعنى (إذ) وتختصّ بالماضي وبالإضافة إلى الجملة فتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أوليهما وتقدير الكلام: لمّا بدل أكثر خلقه عهد الله اصطفى من ولده أنبياء، والعامل فيها الجواب المقدّم، وآيات المقدرة بالإضافة، وفي بعض النّسخ الآيات المقدرة بالتّوصيف، (ومن سقف) بيان للآيات.

المعنى

ثمّ إن آدم لمّا أكل من الشّجرة أخرجه الله سبحانه من الجنّة (فأهبطه) أي أنزله (إلى دار البليّة) والمراد بالإهباط على تقدير كون آدم ﷺ في جنّة السّماء واضح، وأمّا على تقدير كونه في جنّة الدّنيا كما هو الأظهر لما قد مرّ، فالمراد بالإهباط هو الإنتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى: إهبطوا مصراً، والمراد بدار البليّة هو دار الدّنيا، لأنّ الله سبحانه قد جعل فيه البلاء أدباً للظالم وامتحاناً للمؤمن ودرجة للأنبياء وكرامة للأولياء على ما ورد في الخبر.

ثمّ إنّ أوّل بقعة هبط إليها آدم هي الصّفا على ما مرّ في الأخبار، وفي بعض الأخبار هي جبل سرانديب كما مرّ أيضاً وهو جبل بأعلى الصّين في أرض الهند يراه البحريّون من مسافة أيام، وفيه على ما نقل أثر قدم آدم مغموسة، ونقل أنّ الياقوت الأحمر موجود في هذا الجبل تحدرها السيول والأمطار من ذروته إلى الحضيض وبه يوجد الماس أيضاً ويوجد العود.

وقد كان هبوط آدم بعد غروب الشّمس على ما رواه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن أبي جعفر ﷺ، قال: كان عمر آدم ﷺ من يوم خلقه الله إلى يوم قبضه تسعمائة وثلاثين سنة، ودفن بمكة ونفخ فيه يوم الجمعة بعد الزّوال، ثم برء زوجه من أسفل أضلاعه وأسكنه جنته من يومه ذلك، فما استقرّ فيها إلاّ ست ساعات من يومه ذلك حتى عصى الله وأخرجهما من الجنّة بعد غروب الشّمس وما بات فيها.

وفي «الفقيه» عن الحسين بن العلاء عن أبي عبد الله ﷺ قال: «إنّه لمّا أهبط آدم من الجنّة ظهرت به شامة سوداء من قرنه إلى قدمه فطال حزنه وبكاؤه لما ظهر به فأتاه جبرئيل فقال: له ما يبكيك يا آدم؟ فقال: لهذه الشّامة التي ظهرت بي قال: قم يا آدم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الأولى، فقام فصلّى فانحطت الشّامة إلى عنقه، فجاءه في الصّلاة الثّانية فقال: يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الثّانية، فقام فصلّى فانحطت الشّامة إلى سرّته، فجاءه في الصّلاة

الثالثة فقال: يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الثّالثة، فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى ركبتيه، فجاءه في الصّلاة الرّابعة فقال: يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الرّابعة، فقام فصلّى فانحطت الشّامة إلى قدميه، فجائه في الصّلاة الخامسة فقال: يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الخامسة، فقام فصلّى فخرج منها، فحمد الله وأثنى عليه فقال جبرئيل: يا آدم مثل ولدك في هذه الصّلاة كمثلك في هذه الشّامة، من صلى من ولدك في كلّ يوم وليلة خمس صلوات خرج من ذنوبه كما خرجت من هذه الشّامة»[1].

وفي **«الوسائل»** في باب تحريم العصير العنبي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله لما أهبط آدم أمره بالحرث والزّرع وطرح غرساً عليه من غرس الجنّة فأعطاه النّخل والعنب والزّيتون والرّمان فغرسها لعقبه وذرّيته، فأكل هو من ثمارها فقال إبليس: إئذن لي أن آكل منه شيئاً فأبى أن يطعمه فجاء عند آخر عمر آدم، فقال لحوّاء: قد أجهدني الجوع والعطش أريدان تذيقني من هذه الثّمار، فقالت له: إنّ آدم عهد إليّ أن لا أطعمك شيئاً من هذا الغرس وأنّه من الجنّة ولا ينبغي لك أن تأكل منه، فقال لها: فاعصري منه في كفي شيئاً، فأبت عليه، فقال: ذريني أمصّه ولا آكله، فأخذت عنقوداً من عنب فأعطته فمصّه ولم يأكل منه لما كانت حوّاء قد أكدت عليه، فلمّا ذهب يعض عليه اجتذبته حوّاء من فيه، فأوحى الله إلى آدم إنّ العنب قد مصّه عدوي وعدوّك إبليس وقد حرّمت عليك من عصيره الخمر ما خالطه نفس إبليس فحرمت الخمر، لأنّ عدو الله إبليس مكر بحواء حتّى أمصّته العنبة، ولو أكلها لحرّمت الكرمة من أوّلها إلى آخرها وجميع ثمارها وما يخرج منه، ثم إنه قال لحوّاء: أو أمصصتني شيئاً من التمر كما أمصصتني من العنب، فأعطته تمرة فمصّها إلى أن قال ثم إن إبليس ذهب بعد وفاة آدم فبال في أصل الكرمة والنّخلة، فجرى الماء في عودهما ببول عدوّ الله، فمن ثم يختمر العنب والكرم، فحرّم الله على ذرية آدم كل مسكر؛ لأنّ الماء جرى ببول عدوّ الله في النّخلة والعنب وصار كلّ مختمر خمراً لأنّ الماء اختمر في النّخلة والكرمة من رائحة بول عدوّ الله[2]، هذا».

وقد استطرفت هذه الأخبار لكونها غير خالية عن المناسبة للمقام مع ما فيها من الإشارة إلى بعض ما ابتلى به آدم عليه السلام بعد إهباطه إلى دار البلية.

ومن أعظم ما ابتلى به قتل هابيل ولقد رثى له بما رواه في **«العيون»** بإسناده عن الرّضا عن آبائه عليهم السّلام في حديث الشّامي مع أمير المؤمنين عليه السلام وسأله عن أوّل من قال الشّعر: فقال عليه السلام: «آدم» عليه السلام، فقال: وما كان شعره؟ قال عليه السلام: «لمّا أُنزل من السّماء إلى الأرض فرأى تربتها وسعتها وهواها، وقتل قابيل هابيل قال آدم عليه السلام:

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢١٤ ح ٦٤٤.

(٢) وسائل الشيعه: ٢٥/ ٢٨٤ ح ٣١٩١٥.

تـغـيّـرت الـبـلاد ومـن عـلـيـهـا فـوجـه الأرض مـغـبـرّ قـبـيـح
تـغـيّـر كـل ذي لـون وطـعـم وقـل بـشـاشـة الـوجـه الـمـلـيـح
ومـا لـي لا أجـود بـسـكـب دمـع وهـابـيـل تـضـمّـنـه الـضّـريـح
أرى طـول الـحـيـاة عـلـيّ غـمـاً وهـل أنـا مـن حـيـاتـي مـسـتـريـح
قـتـل قـابـيـل هـابـيـل أخـاه فـواحـزنـاً لـقـد فـقـد الـمـلـيـح

فأجابه إبليس لعنه الله

تـنـحّ عـن الـبـلاد وسـاكـنـيـهـا فـبـي فـي الـخـلـد ضـاق بـكـل الـفـسـيـح
وكـنـت بـهـا وزوجـك فـي قـرار وقـلـبـك مـن أذى الـدّنـيـا مـريـح
فـلـم تـنـفـك مـن كـيـدي ومـكـري إلـى أن فـاتـك الـثّـمـن الـربـيـح
وبـدلّ أهـلـهـا اثـلا وخـمـطـاً بـجـنـات وأبـواب مـتـيـح
فـلـولا رحـمـة الـجـبـار أطـح بـكـفّـك مـن جـنـان الـخـلـد ريـح»[١]

هذا وقوله عليه السلام **(وتناسل الذرية)** أي أهبطه إلى دار توالد الأولاد من البنات والبنين.

وقد اختلف في إبتداء التّناسل فذهب المجوس المجوزون لنكاح المحارم إلى أنّ آدم زوج البنات للبنين فحصل التّناسل وكثر الخلق.

وفي الآثار أنّهم كان لهم ملك فسكر ليلة فوقع على أخته وأمّه فلما أفاق ندم وشقّ ذلك عليه وأراد رفع التّعيير عنه، فقال للنّاس: هذا حلال، فامتنعوا عليه فجعل يقتلهم وحفر لهم الأخدود.

وفي خبر آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام يأتي في شرح الخطبة الثّانية والتّسعين أنه احتجّ لهم على جوازه بتزويج أولاد آدم وأنّهم قد كانوا ينكحون أخواتهم فقبله جماعة وبقوا عليه إلى الآن.

ووافقهم على ذلك الإعتقاد الفاسد جمهور المخالفين، فإنّهم قالوا: إنّ حواء امرأة آدم كانت تلد في كلّ بطن غلاماً وجارية، فولدت أوّل بطن قابيل وتوأمته إقليميا، والبطن الثّاني هابيل وتوأمته ليوذا، فلما أدركوا جميعاً أمر الله تعالى أن ينكح قابيل أخت هابيل وهابيل أخت قابيل، فرضي هابيل وأبى قابيل، لأنّ أخته كانت حسناء، وقال: ما أمر الله سبحانه بهذا ولكن هذا من رأيك فأمرهما آدم أن يقربا قرباناً فرضياً بذلك، فانطلق هابيل إلى أفضل كبش من غنمه وقربه التماساً لوجه الله تعالى ومرضاة أبيه، وأمّا قابيل فإنّه قرّب الزّوان الذي يبقى في البيدر

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٢٢٠.

الذي لا يستطيع أن يدسه، فقرّب ضغثاً منه لا يريد به وجه الله ولا مرضاة أبيه، فقبل الله قربان هابيل وأتت نار بيضاء من السّماء فأخذته، ورد على قابيل قربانه، فقال إبليس لعنه الله لقابيل: إنّه يكون لهابيل عقب يفتخرون على عقبك، بأن قبل قربان أبيهم فاقتله حتّى لا يكون له عقب، فقتله، وهذا مقالة المخالفين الموافقة لمذهب المجوس لعنهم الله.

وأمّا الحقّ الحقيق الذي ينبغي أن يدان به فهو ما ذهب إليه أصحابنا أخذاً عن الأخبار المأثورة عن أهل بيت العصمة والطهارة سلام الله عليهم.

منها ما رواه الصّدوق في «**الفقيه**» عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ آدم ولد له شيث وأنّ اسمه هبة الله، وهو أوّل وصي الله من الآدميين في الأرض، ثم ولد له بعد شيث يافث، فلمّا أدركا أراد الله أن يبدأ بالنّسل ما ترون وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرّم الله عزّ وجلّ من الأخوات على الإخوة، أنزل بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنّة اسمها نزلة، فأمر الله عزّ وجلّ أن يزوجها من شيث، فزوجها منه، ثم أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنّة اسمها منزلة فأمر الله عزّ وجلّ أن يزوجها من يافث، فزوّجها منه، فولد لشيث غلام، وولد ليافث جارية، فأمر الله عزّ وجل آدم عليه السلام حين أدركا أن يزوّج ابنة يافث من ابن شيث، ففعل، فولد الصّفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوا من أمر الإخوة والأخوات»[١].

ومنها ما فيه عن القاسم بن عروة عن بريد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أنزل على آدم حوراء من الجنّة فزوجها أحد ابنيه وزوج الآخر ابنة الجان، فما كان في النّاس من جمال كثير أو حسن خلق فهو من الحوراء، وما كان فيهم من سوء الخلق فهو من ابنة الجانّ»[٢].

ومنها ما رواه أبو بكر الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قل: لي ما يقول الناس في تزويج آدم ولد؟ قال: قلت يقولون: إنّ حوّاء كانت تلد لآدم في كلّ بطن غلاماً وجارية، فتزوّج الغلام الجارية التي من البطن الآخر الثاني وتزوّج الجارية الغلام الذي من البطن الآخر الثّاني حتى توالدوا، فقال أبو جعفر عليه السلام: «وليس هذا كذاك، أيحجّكم المجوس، ولكنّه لمّا ولد آدم هبة الله وكبر سأل الله أن يزوّجه، فأنزل الله حوراء من الجنّة فزوّجها إيّاه فولدت له أربعة بنين، ثم ولد آدم ابناً آخر فلما كبر أمره فتزوّج إلى الجان فولد أربع بنات فتزوّج بنو هذا بنات، هذا، فما كان من جمال فمن قبل الحور، وما كان من حلم فمن قبل آدم، وما كان من حقد فمن قبل الجان، فلما توالدوا صعدت الحوراء إلى السّماء»[٣].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٣٨١ ح ٤٣٣٧.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٩٧.

(٣) بحار الأنوار: ١١/ ٢٤٤.

ومنها ما رواه الصّدوق أيضاً بإسناده عن مسمع عن زرارة قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن بدء النّسل من آدم كيف كان هو؟ وعن بدء النّسل من ذرّية آدم فإنّ إناساً عندنا يقولون: إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يزوّج بناته بنيه وأنّ هذا كلّه أصله من الإخوة والأخوات، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، يقول من قال هذا: بأنّ الله عزّ وجلّ خلق صفوة خلقه وأحبّائه وأنبيائه ورسله والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال الطهر الطاهر الطيب، فوالله لقد نبئت (بينت خ) أن بعض البهائم تنكرت له أخته، فلما نزا عليها ونزل كشف له عنها، فعلم أنّها أخته أخرج عزموله ثمّ قبض عليه بأسنانه حتّى قطعه فخر ميّتاً، وآخر تنكرت له أمّه ففعل هذا بعينه، فكيف الإنسان في فضله وعلمه؟ غير أنّ جيلاً من هذا الخلق الذي ترون رغبوا عن علم أهل بيوتات أنبيائهم وأخذوا من حيث لم يؤمروا بأخذه فصاروا إلى ما ترون من الضّلال والجهل إلى أن قال عليه السلام: وحقّاً أقول: ما أراد من يقول هذا وشبهه إلاّ تقوية حجج المجوس، فما لهم قاتلهم الله».

ثم أنشأ عليه السلام يحدّثنا كيف بدأ النسل من آدم وكيف كان بدء النّسل من ذريته، فقال: «إنّ آدم صلوات الله عليه ولد له سبعون بطناً في كلّ بطن غلام وجارية إلى أن قتل هابيل، فلما قتل هابيل جزع آدم جزعاً شديداً قطعه عن إتيان النّساء فبقي لا يستطيع أن يغشي حوّاء خمسمائة عام، ثم تجلى ما به من الجزع عليه فغشى حوّاء، فوهب الله شيئاً وحده ليس معه ثانٍ، وإسمه شيث هبة الله، وهو أوّل ما أوصى إليه من الآدميّين في الأرض، ثم ولد له من بعد شيث يافث ليس معه ثانٍ، فلمّا أدركا وأراد الله أن يبلغ النّسل ما ترون وأن يكون ما جرى به القلم من تحريم ما حرم الله عزّ وجلّ من الأخوات على الإخوة، أنزل الله بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنّة اسمها نزلة فأمر الله أن يزوجها من شيث إلى آخر ما مرّ في الحديث الأوّل»[1].

ويمكن الجمع بين هذه الأخبار المختلفة ظاهراً بأن يكون ليافث زوجتان: إحديهما حوراء، والأخرى جنيّة، أو يكون الولد المتزوّج بالجنّية غير شيث ويافث، هذا.

ولم يستفد من الرّوايات أحوال بنات آدم فلا بدّ إمّا من بقائهن بلا زوج، وإمّا من جواز تزويج العمات دون الأخوات وهو بعيد أيضاً والله العالم.

(و) كيف كان فإنّ الله سبحانه لمّا أهبط آدم إلى دار الدّنيا وبدأ بالنسل والأولاد **(اصطفى من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم على تبليغ الرّسالة أمانتهم)** أي أخذ منهم العهد والميثاق على أداء الوحي إليهم من الأصول والفروع، وأخذ الأمانة منهم على تبليغ الرّسالة

---

(١) علل الشرائع: ١/١٩.

ونشر الشرائع والأحكام وإبلاغها إلى أمتهم كما قال سبحانه:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وتوضيح هذا الأخذ ما رواه في «**الكافي**» كالبحار من تفسير العياشي بإسنادهما عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا أكل آدم من الشجرة أهبط إلى الأرض فولد له هابيل وأخته توأم، ثم إنّ آدم أمر هابيل وقابيل أن يقرّبا قرباناً، وكان هابيل صاحب غنم وكان قابيل صاحب زرع، فقرّب هابيل كبشاً من أفاضل غنمه، وقرّب قابيل من زرعه ما لم ينق، فتقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل وهو قول الله عزّ وجلّ[1]:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾[المائدة: ٢٧] الآية.

وكان القربان تأكله النّار، فعمد قابيل إلى النّار فبنى لها بيتاً وهو أوّل من بنى بيوت النّار، فقال: لأعبدن هذه النّار حتّى يتقبل مني قرباني، ثم إنّ إبليس لعنه الله أتاه، وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، فقال له: يا قابيل قد تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانك، وإنك إن تركته يكون له عقب يفتخرون على عقبك ويقولون نحن أبناء الذي تقبل قربانه، وأنتم أبناء الذي ترك قربانه، فاقتله كي لا يكون له عقب يفتخرون على عقبك، فقتله، فلما رجع قابيل إلى آدم عليه السلام قال له: يا قابيل أين هابيل؟ قال: اطلب (اطلبوه خ ل) حيث قربنا القربان، فانطلق آدم فوجد هابيل مقتولاً، فقال آدم: لعنت من أرض كما قبلت دم هابيل وبكى آدم عليه السلام على هابيل أربعين ليلة، ثم إنّ آدم سأل ربّه ولداً فولد له غلام فسمّاه هبة الله لأنّ الله عزّ وجلّ وهبه له، وأخته توأم فلما انقضت نبوة آدم واستكمل أيّامه أوحى الله عزّ وجل إليه يا آدم قد قضيت نبوتك واستكملت أيّامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والإسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة في العقب من ذرّيتك عند هبة الله ابنك، فإني لم أقطع العلم والإيمان والإسم الأكبر وآثار علم النّبوة من العقب من ذرّيتك إلى يوم القيامة ولن أدع الأرض إلاّ وفيها عالم يعرف به ديني ويعرف به طاعتي، ويكون نجاة لما يولد فيما بينك وبين نوح.

وبشر آدم بنوح، وقال: إنّ الله تبارك وتعالى باعث نبيّاً اسمه نوح وأنّه يدعو إلى الله عزّ ذكره، ويكذبه قومه، فيهلكهم الله بالطوفان، وكان بين آدم وبين نوح عشرة آباء أنبياء وأوصياء كلهم، وأوصى آدم إلى هبة الله من أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه وليصدق به فإنّه ينجو من الغرق.

---

(١) الكافي: ٨/١١٣.

ثم إنّ آدم مرض المرضة التي مات فيها فأرسل هبة الله، وقال له إن لقيت جبرئيل أو من لقيت من الملائكة فاقرأه مني السّلام وقل له: يا جبرئيل إنّ أبي يستهديك من ثمار الجنّة، فقال له جبرئيل: يا هبة الله إن أباك قد قبض وإنا نزلنا للصلاة عليه «وما نزلنا إلا للصّلاة عليه خ»، فارجع، فرجع فوجد آدم قد قبض فأراه جبرئيل كيف يغسله حتّى إذا بلغ للصّلاة قال هبة الله: يا جبرئيل تقدّم فصلّ على آدم، فقال له جبرئيل: إن الله عزّ وجلّ أمرنا أن نسجد لأبيك آدم وهو في الجنّة فليس لنا أن نؤمّ شيئاً من ولده فتقدم هبة الله وصلى على أبيه وجبرئيل خلفه وجنود الملائكة، وكبر عليه ثلاثين تكبيرة، فأمره جبرئيل فرفع من ذلك خمساً وعشرين تكبيرة والسنة اليوم فينا خمس تكبيرات، وقد كان يكبر على أهل بدر تسعاً وسبعاً.

ثم إن هبة الله لمّا دفن آدم أتاه قابيل فقال: يا هبة الله إنّي قد رأيت أبي آدم قد خصّك من العلم بما لم أخصّ به أنا، وهو العلم الذي دعا به أخوك هابيل فتقبل به قربانه، وإنّما قتلته لكي لا يكون له عقب فيفتخرون على عقبي فيقولون نحن أبناء الذي تقبّل منه قربانه وأنتم أبناء الذي ترك قربانه، وإنك إن أظهرت من العلم الذي اختصك به أبوك شيئاً قتلتك كما قتلت أخاك هابيل.

فلبث هبة الله والعقب من بعده مستخفين بما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث النّبوة وآثار علم النبوة حتّى بعث الله نوحاً، وظهرت وصية هبة الله حين نظروا في وصيّة آدم، فوجدوا نوحاً نبيّاً قد بشّر به أبوهم آدم، فآمنوا به واتبعوه وصدّقوه، وقد كان آدم أوصى إلى هبة الله أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة فيكون يوم عيدهم فيتعاهدون بعث نوح وزمانه الذي يخرج فيه، وكذلك في وصية كلّ نبيّ حتّى بعث الله محمّداً ﷺ، وإنّما عرفوا نوحاً بالعلم الذي عندهم، وهو قول الله عزّ وجل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩]ـ الآية.

وكان من بين آدم ونوح من الأنبياء مستخفين، ولذلك خفي ذكرهم في القرآن فلم يسمّوا كما سمّي من استعلن من الأنبياء صلوات الله أجمعين، وهو قول الله عزّ وجل:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]

يعني لم إسم المستخفين كما سمّيت المستعلنين من الأنبياء عليهم السّلام، فمكث نوح ﷺ في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً لم يشاركه في نبوّته أحد، ولكنه قدم على قوم مكذّبين للأنبياء عليهم السّلام الذين كانوا بينه وبين آدم ﷺ وذلك قول الله عزّ وجل:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥].

يعني من كان بينه وبين آدم إلى أن انتهى إلى قوله عزّ وجل:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [الشعراء: ٩].

ثم إنّ نوحاً لما انقضت نبوّته واستكمل أيّامه، أوحى الله عزّ وجل إليه أن يا نوح قد قضيت نبوّتك وأستكملت أيّامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والإسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبّوة في العقب من ذريتك، فإنّي لن أقطعها كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء صوات الله عليهم التي بينك وبين آدم عليه السلام ولن أدع الأرض إلاّ وفيها عالم يعرف به ديني ويعرف به طاعتي ويكون نجاة لمن يولد فيها بين قبض النّبي إلى خروج النبي الآخر.

وبشر نوح ساماً بهود، فكان فيما بين نوح وهود من الأنبياء عليهم السّلام وقال نوح: إنّ الله باعث نبياً يقال له: هود وأنّه يدعو قومه إلى الله عزّ وجل فيكذّبونه والله عزّ وجلّ مهلكهم بالرّيح، فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإن الله عزّ وجلّ ينجيه من عذاب الرّيح. وأمر نوح عليه السلام ابنه ساماً أن يتعاهد هذه الوصيّة عند رأس كلّ سنة، فيكون يومئذٍ عيداً لهم فيتعاهدون وفيه ما عندهم من العلم والإيمان والإسم الأكبر ومواريث العلم وآثار علم النبّوة، فوجدوا هوداً نبياً وقد بشر به أبوهم نوح عليه السلام فآمنوا به وأتبعوه وصدّقوه فنجوا من عذاب الرّيح، وهو قول الله عزّ وجل.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] وقوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢] وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٨٤] لنجعلها في أهل بيته ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٧٦] لنجعلها في أهل بيته.

وأمر العقب من ذريته الأنبياء عليهم السّلام من كان قبل إبراهيم لإبراهيم عليه السلام، فكان بين إبراهيم وهو من الأنبياء صلوات الله عليهم وهو قول الله عزّ وجل.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] وقوله عز ذكره: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. فجرى بين كلّ نبيّين عشرة أنبياء وتسعة وثمانية أنبياء كلهم أنبياء، وجرى لكل نبيّ كما جرى لنوح عليه السلام، وكما جرى لآدم وهود وصالح وشعيب وإبراهيم صلوات الله عليهم.

حتّى انتهت إلى يوسف بن يعقوب عليه السلام، ثم صارت من بعد يوسف في أسباط إخوته، حتّى انتهت إلى موسى عليه السلام فكان بين يوسف وبين موسى من الأنبياء، فأرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وهامان وقارون، ثم أرسل الرّسل:

﴿تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وكانت بنو إسرائيل تقتل نبيّاً واثنان قائمان ويقتلون اثنين وأربعة قيام، حتّى أنّه كان ربّما قتلوا في اليوم الواحد سبعين نبيّاً، ويقوم سوق قتلهم آخر النهار، فلمّا نزلت التّوراة على موسى عليه السلام، بشّر بمحمد صلى الله عليه وآله، وكان بين يوسف وموسى من الأنبياء، وكان وصيّ موسى يوشع بن نون عليهما السّلام، وهو فتاه الذي ذكره الله في كتابه.

فلم تزل الأنبياء تبشّر بمحمد ﷺ، حتّى بعث الله تبارك وتعالى المسيح عيسى بن مريم فبشر بمحمد ﷺ، وذلك قوله تعالى.

﴿يَجِدُونَهُ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿مَكْتُوبًا﴾ يعني صفة محمّد ﷺ ﴿عِندَهُمْ﴾ يعني في التّوراة والإنجيل ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو قول الله عزّ وجلّ يخبر عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وبشّر موسى وعيسى بمحمّد ﷺ، كما بشر الأنبياء بعضهم ببعض، حتّى بلغت محمّداً.

فلما قضى محمّد ﷺ نبوّته واستكمل أيامه أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا محمّد قد قضيت نبوتك واستكملت أيّامك، فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النّبوة في أهل بيتك، عند عليّ بن أبي طالب عليه السلام فإنّي لم أقطع العلم والإيمان والإسم الإكبر وميراث العلم وآثار علم النّبوة من العقب من ذريتك، كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء الذين كانوا بينك وبين أبيك آدم، وذلك قوله الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

وإنّ الله تبارك وتعالى لم يجعل العلم جهلاً، ولم يكل أمره إلى أحد من خلقه، لا إلى ملك مقرّب ولا إلى نبيّ مرسل، ولكنه أرسل رسولاً من ملائكته، فقال له: قل كذا وكذا، فأمرهم بما يحبّ ونهاهم عمّا يكره، فقص عليهم أمر خلقه بعلم، فعلم ذلك العلم وعلم أنبيائه وأصفيائه من الأنبياء والأخوان والذّرية التي بعضها من بعض، فذلك قوله عزّ وجل:

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

فأمّا الكتاب فهو النّبوة، وأمّا الحكمة فهم الحكماء من الأنبياء من الصفوة وأمّا الملك العظيم منهم الأئمة من الصّفوة، وكلّ هؤلاء من الذرية التي بعضها من بعض، والعلماء الذين جعل فيهم البقية وفيهم الباقية وحفظ الميثاق حتّى تنقضي الدّنيا، والعلماء ولولاة الأمر إستنباط العلم وللهداة فهذا شأن الفضل من الصفوة والرسل والأنبياء والحكماء وأئمة الهدى والخلفاء الذين هم ولاة أمر الله عز وجل، وإستنباط علم الله وأهل آثار علم الله من الذّريّة التي بعضها من بعض من الصّفوة بعد الأنبياء عليهم السّلام من الآباء والإخوان والذّريّة من الأنبياء.

فمن اعتصم بالفضل انتهى بعلمهم ونجا بنصرتهم، ومن وضع ولاة أمر الله تبارك وتعالى في غير الصّفوة من بيوتات الأنبياء صلوات الله عليهم، فقد خالف أمر الله جلّ وعزّ وجعل الجهّال ولاة أمر الله والمتكلّفين بغير هدى من الله عزّ وجلّ، وزعموا أنّهم أهل استنباط علم الله، فقد كذّبوا على الله تبارك وتعالى ورسوله، ورغبوا عن وصيّته وطاعته، ولم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى، فضلّوا وأضلّوا أتباعهم ولم يكن لهم حجّة يوم القيامة إنّما الحجّة في آل إبراهيم عليه السلام، لقول الله عزّ ذكره:

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

فالحجّة الأَنبياء صلوات الله عليهم وأهل بيوتات الأَنبياء عليهم السّلام حتّى تقوم السّاعة، لأَنّ كتاب الله ينطق بذلك وصيّة الله بعضها من بعض الذي وضعها على النّاس، فقال جلّ وعزّ:

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦].

وهي بيوت الأَنبياء والرّسل والحكماء وأئمة الهدى، فهذا بيان عروة الإيمان التي نجا بها من نجا قبلكم وبها ينجو من يتبع الأئمة، وقال الله عزّ وجلّ في كتابه:

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٧] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فإنّه وكل بالفضل من أهل بيته والأَخوان والذرية، وهو قول الله تبارك وتعالى: إن يكفر به أمّتك فقد وكلنا أهل بيتك بالإيمان الذي أرسلتك به، فلا يكفرون به أبداً ولا أضيع الإيمان الذي أرسلتك به من أهل بيتك من بعدك علماء أمّتك وولاة أمري بعدك وأهل استنباط العلم الذي ليس فيه كذب ولا إثم ولا زور ولا بطر ولا رياء، فهذا بيان ما ينتهي إليه أمر هذه الأمة إنّ الله عزّ وجلّ طهر أهل بيت نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وسألهم أجر المودة وأجرى لهم الولاية وجعلهم أوصيائه وأحبائه ثانية بعده في أمّته، فاعتبروا أيها النّاس فيما قلت: حيث وضع الله عزّ وجل ولايته وطاعته ومودته واستنباط علمه وحججه، فإيّاه فتقبلوا به، وبه فاستمسكوا تنجوا به، ويكون لهم الحجة يوم القيامة وطريق ربّكم جلّ وعزّ، لا يصل ولاية إلى الله عزّ وجل إلا بهم، فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يكرمه ولا يعذّبه، ومن يأت الله عزّ وجل بغير ما أمره كان حقاً على الله عزّ وجل أن يذله وأن يعذّبه.

أقول: لا يخفى على الفطن العارف ما في هذه الرّواية الشريفة من النكات الرّائقة والأسرار الفائقة والمطالب المهمة والمسائل المعظمة، وبالغور فيها يمكن استخراج بعض ما تضمنته من كنوز الأسرار، وبالتّوسل بها يمكن الوصول إلى رموز المعارف وحقائق الأنوار، وإنّما ذلك في حقّ من امتحن قلبه بنور العرفان والإيمان، وصفى ذهنه من كدورات الشبهات وظلمات والأوهام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وقوله ﷺ **(لما بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم)** يعني إذا بدّل أكثر الخلق عهد الله وميثاقه المأخوذ عليهم في باب التوحيد والمعرفة والنّبوة والولاية حسبما أشير إليه في الآية الشريفة والأخبار المتواترة قال سبحانه:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

قال أكثر المفسّرين وأهل الأثر: إنّ الله أخرج ذريّة آدم من صلبه كهيئة الذّر فعرضهم على آدم وقال: إنّي آخذ على ذريّتك ميثاقهم أن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئاً وعلى أرزاقهم، ثمّ قال: ألست بربّكم قالوا: بلى شهدنا أنّك ربّنا، فقال للملائكة: اشهدوا، فقالوا: شهدنا.

وقيل: إنّ الله جعلهم فهماء عقلاء يسمعون خطابه ويفهمونه، ثمّ ردّهم إلى صلب آدم والنّاس محبوسون بأجمعهم حتّى يخرج كلّ من أخرجه في ذلك الوقت وكلّ من ثبت على الإسلام فهو على الفطرة الأولى، ومن كفر وجحد فقد تغيّر على الفطرة الأولى.

وردّ المحقّقون هذا التّفسير بوجوه كثيرة تنيف على عشرة.

ومنهم المرتضى رضي الله عنه، وقد شدد النكير على ذلك في كتاب الغرر والدّرر، قال بعد ذكر الآية: وقد ظن بعض من لا بصيرة له ولا فطنة عنده أنّ تأويل هذه الآية أن الله استخرج من ظهر آدم ﷺ جميع ذريته وهم في خلق الذّر، فقرّرهم بمعرفته وأشهدهم على أنفسهم، وهذا التّأويل مع أنّ العقل يبطله ويحيله، ممّا يشهد ظاهر القرآن بخلافه، لأنّ الله قال:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

ولم يقل من آدم، وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره وقال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل ذريّته، ثمّ أخبر تعالى بأنّه فعل ذلك لئلاّ يقولوا يوم القيامة إنّهم كانوا عن هذا غافلين أو يعتذروا بشرك آبائهم وأنّهم نشأوا على دينهم وسنّتهم، وهذا يقتضي أنّ الآية لم تتناول ولد آدم لصلبه وأنّها تناولت من كان له آباء مشركون، وهذا يدلّ على اختصاصها ببعض ذريّة آدم، فهذا شهادة الظاهر ببطلان تأويلهم.

فأمّا شهادة العقل فمن حيث لا تخلو هذه الذريّة التي استخرجت من ظهر آدم فخوطبت وقرّرت من أن تكون كاملة العقل مستوفية الشروط أو لا تكون كذلك.

فإن كانت بالصّفة الأولى وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم وإكمال عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال وما قرّروا به واستشهدوا عليه لأنّ العاقل لا ينسى ما جرى هذا المجرى وإن بعد العهد وطال الزّمان، ولهذا لا يجوز أن يتصرف أحدنا في بلد من البلدان وهو عاقل كامل، فينسى مع بعد العهد جميع تصرّفه المتقدم وسائر أحواله، وليس أيضاً لتخلّل الموت بين الحالين تأثير لأنّه لو كان تخلّل الموت يزيل الذكر لكان يتخلّل النّوم والسّكر والجنون والإغماء بين أحوال العقلاء يزيل الذكر، لما مضى من أحوالهم، لأنّ سائر ما عددناه ممّا ينفي العلوم يجري مجرى الموت في هذا الباب، وليس لهم أن يقولوا إذا جاز في العاقل الكامل أن ينسي ما كان عليه في حال الطفوليّة جاز ما ذكرناه، وذلك إنّا إنّما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادعوه إذ أكملت عقولهم من حيث جرى عليهم وهم كاملوا العقل، ولو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه، على أنّ تجويز النّسيان عليهم ينقض الغرض في الآية، وذلك إنّ الله تعالى أخبر بأنه إنّما قرّرهم وأشهدهم لئلا يدّعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك، وسقوط الحجّة عنهم فيه، فإذا جاز نسيانهم له عاد الأمر إلى سقوط الحجّة عنهم وزوالها.

وإن كانوا على الصّفة الثّانية من فقد العلم «العقل خ» وشرائط التّكليف قبح خطابهم وتقريرهم وإشهادهم وصار ذلك عبثاً قبيحاً تعالى الله عنه.

ثم قال: فإن قيل: قد أبطلتم تأويل مخالفيكم فما تأويلها الصّحيح عندكم؟

قلنا في الآية وجهان **أحدهما**: أن يكون تعالى إنّما عنى بها جماعة من ذريّة بني آدم خلقهم وبلغهم وأكمل عقولهم وقرّرهم على ألسن رسله بمعرفته وما يجب من طاعته، فأقرّوا بذلك وأشهدهم على أنفسهم به لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو يعتذروا بشرك آبائهم إلى أن قال:

والجواب الثّاني: وهو أحسن أنه تعالى لما خلقهم وركبهم تركيباً يدلّ على معرفته ويشهد بقدرته ووجوب عبادته، وأراهم العبر والآيات والدلائل في غيرهم وفي أنفسهم، كان بمنزلة المستشهد لهم على أنفسهم وكانوا في مشاهدة ذلك ومعرفته وظهوره على الوجه الذي أراد الله تعالى وتعذّر امتناعهم منه وانفكاكهم من دلالته بمنزلة المقرّ المعترف، وإن لم يكن هناك شهادة ولا اعتراف على الحقيقة إلى آخر ما ذكره، وقد وافقه على الجواب الأخير الزّمخشري في **«الكشاف»** وغيره من **«المفسّرين»**.

وأقول: أمّا ما ذكره السّيد (ره) من عدم انطباق ظاهر الآية بما حملوها عليه من جود

عالم أخذ الميثاق وإخراج ذريّة آدم من صلبه كالذر فمسلّم، لكن يتوجّه عليه أنّ ما ذكره من الوجهين في تأويل الآية أيضاً كذلك، بل مخالفة الظاهر فيهما أزيد منها في الوجه الذي ذكروه مع عدم شاهد على واحد منهما في شيء من الأخبار.

وأمّا إنكار أصل هذه القضيّة والحكم باستحالته بما ذكره من دليل العقل، فلا وجه له ولا يعبأ بالدّليل المذكور قبال الأخبار المتواترة المفيدة لوجود ذلك العالم، بل قد وقع في الأخبار الكثيرة تفسير الآية به أيضاً، والإستقصاء فيها موجب للأطناب الممل إلاّ أنّا نذكر شطراً منها تبركاً وتوضيحاً واستشهاداً.

منها ما رواه عليّ بن إبراهيم القمي في «**تفسيره**» عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: «وإذ أخذ ربّك، إلى قوله: قالوا بلى، قلت: معاينة كان هذا؟ قال: نعم، فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه فلولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه، فمنهم من أقرّ بلسانه في الذّر ولم يؤمن بقلبه، فقال الله:

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾»[1][الأعراف: ١٠١].

ومنها ما رواه أيضاً عنه عليه السلام، قال: «كان الميثاق مأخوذاً عليهم لله بالرّبوبية ولرسوله بالنّبوة ولأمير المؤمنين والأئمة عليهم السّلام بالإمامة، فقال: ألست بربّكم، ومحمّد نبيّكم، وعليّ إمامكم، والأئمة الهادون أئمتكم؟ فقالوا: بلى»[2].

ومنها ما في «**البحار**» عن أمالي الشّيخ عن المفيد بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عن أبيه عن جدّه عليهم السّلام، «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: أنت الذي احتجّ الله **بك في ابتدائه الخلق حيث أقامهم أشباحاً، فقال لهم: ألست بربّكم؟ قالوا: بلى، قال: ومحمّد رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: وعليّ أمير المؤمنين؟ فأبى الخلق جميعاً استكباراً وعتوّاً عن ولايتك إلاّ نفر قليل، وهم أقلّ القليل وهم أصحاب اليمين**»[3].

ومنها ما فيه أيضاً من بصائر الدّرجات بإسناده عن عبد الرّحمان بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: «وإذ أخذ ربك من بني آدم الآية، قال: أخرج الله من ظهر آدم ذريّته إلى يوم القيامة كالذّر فعرفهم نفسه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه وقال: ألست بربّكم؟ قالوا: بلى وأنّ محمّداً رسول الله وعلياً أمير المؤمنين»[4].

---

(١) تفسير القمي: ١/ ٢٤٨.

(٢) تفسير القمي: ١/ ٢٤٧.

(٣) تفسير نور الثقلين: ٢/ ٩٧.

(٤) بصائر الدرجات/ ٩١.

ومنها ما فيه أيضاً من كشف الغمة من كتاب الإمامة عن الحسن بن الحسين الأنصاري عن يحيى بن العلا عن معروف بن خربوز المكي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لو يعلم النّاس متى سمّي عليّ أمير المؤمنين لم ينكروا حقّه، فقيل له: متى سمّي؟ فقرأ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا: بلى قال: محمّد رسول الله وعليّ أمير المؤمنين».

ومنها ما فيه أيضاً من تفسير فرات بن إبراهيم عن ابن القاسم معنعناً عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إلى آخر الآية، قال: أخرج الله من ظهر آدم ذريّته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذّر وعرّفهم نفسه وأراهم نفسه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ محمّداً عبدي ورسولي وأنّ عليّاً أمير المؤمنين خليفتي وأميني، وقال النّبي صلى الله عليه وآله: كل مولود يولد على المعرفة بأنّ الله تعالى خالقه، وذلك قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1][الزخرف: ٨٧].

إلى غير هذه من الأخبار الكثيرة، وقد عقد المجلسي طاب ثراه باباً فيها في مجلّد الإمامة من البحار.

وبالجملة فقد تلخص ممّا ذكرنا أنّ المراد من العهد المأخوذ عن الخلق الذي بدّلوه هو الميثاق المأخوذ عليهم لله بالرّبوبية ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة وللأئمة عليهم السّلام بالولاية، وكذلك المراد بالحق في قوله عليه السلام **(فجهلوا حقّه)** هو الحق اللازم على العباد من المعرفة والتّوحيد كما يشهد به رواية معاذ بن جبل التي مضت في ثاني التّذنيبات من رابع فصول الخطبة، قال: كنت رفقت النّبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على العباد؟ يقولها ثلاثاً، قلت: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حق الله عزّ وجل على العباد أن لا يشركوا به شيئاً» إلى آخر ما مرّ هناك، ويحتمل أن يكون المراد به الأعمّ ممّا ذكرنا ومن الفروعات، ويشعر به ثالث الجملات المعطوفة من قوله: **(واتخذوا الأنداد)** أي الأمثال **(معه واجتالتهم)** أي أدارتهم وصرفتهم **(الشّياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته)** أي أقطعتهم كما في بعض النّسخ كذلك، فهم قطاع طريق العباد عن عبادة الله سبحانه وتعالى (فـ) لمّا كان الحال بهذا المنوال **(بعث فيهم)** أي أرسل إليهم **(رسله، وواتر إليهم أنبيائه)** أي أرسلهم متواتراً وبين كلّ نبيّين فترة، قال سبحانه:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤].

---

(١) بصائر الدرجات/ ٩١.

قال الطبرسي في تفسير الآية أي متواترة تتبع بعضهم بعضاً، عن ابن عبّاس ومجاهد، وقيل متقاربة الأوقات وأصله الإتصال ومنه الوتر لاتّصاله بمكانه من القوس ومنه الوتر، وهو الفرد عن الجمع المتّصل، قال الأصمعي يقال: واترت الخبر أتبعت بعضه بعضاً وبين الخبرين هنيهة، انتهى، وقوله: (**ليستأدوهم ميثاق فطرته**) إلى قوله: «ويروهم آيات المقدرة إشارة إلى الغاية من بعث الرّسل والثمرة المترتبة على ذلك»، وهي على ما ذكره عليه السلام خمس، والمراد من ميثاق الفطرة هو ميثاق التّوحيد والنّبوة والولاية.

كما يشهد به ما رواه الصّدوق في التّوحيد بإسناده عن عبد الرّحمان بن كثير مولى أبي جعفر عليه السلام عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ:

«﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

قال: التّوحيد ومحمّد رسول الله وعليّ أمير المؤمنين»[١].

وعن ابن مسكان عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أصلحك الله، قول الله عزّ وجلّ في كتابه:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

قال: «فطرهم على التّوحيد عند الميثاق على معرفته أنّه ربّهم، قلت: وخاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه ثم قال: لولا ذلك لم يعلموا من ربّهم ولا من رازقهم»[٢].

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: فطرة الله التي فطر النّاس عليها، ما تلك الفطرة؟ قال: «هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التّوحيد فقال: ألست بربّكم وفيهم المؤمن والكافر»، والمراد بالنّعمة في قوله عليه السلام: (**ويذكروهم منسيّ نعمته**) إمّا النّعمة التي من بها على العباد في عالم الذّر والميثاق حسبما مرّ، أو جميع النّعم المغفول عنها، والأوّل هو الظاهر نظراً إلى ظاهر لفظ النّسيان (**ويحتجّوا عليهم**) أي في يوم القيامة (**بالتّبليغ**) أي تبليغ الأحكام ونشر الشّرائع والأديان[٣]:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ [الأنفال: ٤٢] ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

(١) تفسير مجمع البيان: ٧/ ١٩٢.

(٢) التوحيد للصدوق: ٣٣٠ ح ٨، والبحار: ٣/ ٢٧٨.

(٣) الكافي: ٢/ ١٢ ح ١.

(ويثيروا) أي يهيجوا **(لهم دفائن العقول)** من شواهد التّوحيد وأدلة الرّبوبيّة كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

(ويروهم آيات المقدرة) أي علامات القدرة وشواهدها حتّى ينظروا إليها بنظر الدّقة والإعتبار وإلاّ فالإمارات المذكورة ممّا هي بمرئى ومسمع من كلّ أحد لا حاجة فيها إلى الأرائة كما هو ظاهر.

ثم أشار ﷺ إلى ست آيات من تلك الآيات وبيّنها بقوله: **(من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع)** كما قال سبحانه:

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴿٥﴾﴾ وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦-٧] إلى أن قال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ١٢﴾ [النبأ: ١٢].

وقد مضى في التّذييل الثّاني من تذييلات الفصل الثّامن من فصول هذه الخطبة ما يوجب زيادة البصيرة في المقام فتذكر **(ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم)** نسبة الإحياء إلى المعايش أي المطعومات والمشروبات التي بها قوام الحياة، والإفناء إلى الآجال، والأهرام إلى الأوصاب والأمراض من قبيل الإسناد إلى السبب مجازاً على حدّ أنبت الرّبيع البقل **(وأحداث)** أي نوائب حادثة ومصائب متجدّدة **(تتتابع عليهم)** وفي كلّ واحدة من الآيات المذكورة دلالة على أنّ للعالم صانعاً قادراً يفعل فيه ما يشاء ويحكم ما يريد، لا رادّ لقضائه ولا دافع عن بلائه.

الترجمة

پس فروفرستاد او را به سرای محنت و امتحان و به خانه تناسل نسل و زاییدن اولاد و برگزید او سبحانه از اولاد او پیغمبران را در حالتی که اخذ فرمود بر ابلاغ وحی عهد و پیمان ایشان را و بر رساندن رسالت امانت آن ها را در حینی که تبدیل کردند بیشتر خلایق پیمان خدا را که به سوی ایشان است، پس جاهل و نادان شدند حق او را و فراگرفتند شریکان و امثال مر او را و برگردانیدند ایشان را شیاطین از شناخت او و بریدند ایشان را از پرستش او، پس مبعوث و برانگیخته فرمود در میان ایشان فرستادگان خود را و پی درپی فرستاد به سوی ایشان پیغمبران خود را تا طلب ادا کنند از ایشان عهد فطرت و پیمان خلقت خود را که مخلوق شده بودند بر آن که عبارت است از توحید و معرفت و تا این که یادآوری نمایند ایشان را نعمت های فراموش شده او را و اتمام حجت بکنند بر ایشان با تبلیغ و رساندن احکام و برانگیزانند از برای ایشان دفینه های عقل ها و خزاین فهم ها و بنمایند ایشان را علامات قدرت خداوندی را که آن امارات قدرت عبارت است از آسمانی که در بالای ایشان برافراشته و فراشی است که در زیر آن ها نگاه داشته و معیشت هایی است که زنده می دارد ایشان را و اجل هایی که فانی می سازد ایشان را و بیماری هایی که پیرفانی می گرداند ایشان را و مصیبت هایی که پی درپی می آید بر ایشان.

الفصل الخامس عشر

«وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبحانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لازِمةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَآئِمَةٍ، رُسُلٌ لا يُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبينَ لَهُمْ مِنْ سابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ»[١].

اللغة

(النّبي) فعيل بمعنى الفاعل وهو مشتقّ من النّبأ وهو الخبر ونبأ ونبّأ وأنبأ كلّها بمعنى أخبر، والنّبي مخبر عن الله تعالى، وقلبوا فيه الهمزة كما في الذريّة حسبما مرّ في الفصل السّابق.

وعن شارح المقاصد النّبوة هو كون الإنسان مبعوثاً من الحقّ إلى الخلق، فإن كان النّبي مأخوذاً من النّباوة وهو الإرتفاع لعلوّ شأنه وارتفاع مكانه، أو من النّبي بمعنى الطريق لكونه وسيلة إلى الحقّ، فالنّبوة على الأصل كالأبوّة، وإن كان من النّبأ بمعنى الخبر لأنبائه عن الله تعالى فعلى قلب الهمزة واواً ثمّ الإدغام كالمروّة.

وقال في المحكيّ عنه: النّبي هو إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحى إليه، وكذا الرّسول، وقد يخصّ بمن له شريعة وكتاب فيكون أخصّ من النّبي، واعترض عليه بزيادة عدد الرّسل على الكتب، وربّما يفرق بأنّ الرّسول من له كتاب أو نسخ لبعض أحكام الشّريعة السّابقة، والنّبي قد يخلو عن ذلك كيوشع عليه السلام.

وفي كلام بعض المعتزلة أنّ الرّسول صاحب الوحي بواسطة الملك، والنّبي هو المخبر عن الله بكتاب أو إلهام أو تنبيه في منام، والتّفصيل في ذلك المقام موكول إلى الكتب الكلاميّة، ومن أراد اقتباس النّور في هذا الباب من كلام الأئمة فعليه بالرّجوع إلى باب الفرق بين الرّسول والنّبي والمحدث، وهو ثالث أبواب كتاب الحجّة من «**الكافي**» و **(الحجّة)** بالضم ما يحجّ به الإنسان غيره أي يغلب به و **(المحجة)** بفتح الميم جادّة الطريقة و **(الغابر)** هو الباقي وقد يطلق على الماضي فهو من الأضداد.

الإعراب

الظاهر أن كلمة (أو) في قوله عليه السلام **(أو كتاب)** **(أو حجّة)** **(أو محجّة)** لمنع الخلوّ إذ الإنفصال الحقيقي كمنع الجمع لا يمكن إرادته، وسياق الكلام هو منع الخلو كما يدلّ عليه قوله: ولم يخل الله صريحاً، ويمكن جعلها بمعنى **(الواو)** نظراً إلى دلالة ولم يخل صراحة

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٢٤ (محمد عبده).

على منع الخلوّ، فلا حاجة إلى جعلها لذلك فافهم، و (رسل) مرفوع على الخبريّة، يعني أنّهم رسل، والجملة هذه لا محلّ لها من الإعراب، لكونها مستأنفة فكأنّه قيل هؤلاء المرسلون الذين لم يخل الخلق منهم هل بلّغوا ما أرسلوا به أم قصّروا فيه لوجود التقية؟ فقال عليه السلام: إنّهم رسل لا يقصّر (ا هـ)، فهي من قبيل الإستئناف البياني، ومتعلق لا يقصّر محذوف، أي لا يقصّر بهم عن أداء الرّسالة وإبلاغ التكليف وكلمة (من) في قوله عليه السلام من سابق بيان للرّسل وتفصيل لهم.

المعنى

إعلم أنّه عليه السلام بعد ما نبّه بخلقه آدم عليه السلام وتفصيل ما جرى عليه من إسجاد الملائكة له وإسكانه في الجنّة واجتنائه من الثمرة المنهيّة وإهباطه إلى الأرض واصطفاء الأنبياء من ولده لإرشاد الخلق وهداية الأنام، أشار عليه السلام إلى العناية الكاملة لله سبحانه بالخلق من عدم إخلائه أمّة منهم من نبيّ هاد لهم إلى المصالح ورادع لهم عن المفاسد، أو كتاب مرشد إلى الخيرات والحسنات ومانع عن الشرور والسّيئات، وذلك كلّه لإكمال اللطف وإتمام العناية فقال عليه السلام: **(ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل)** وهذا ممّا لا ريب فيه، ولا بدّ في بيان الحاجة إلى بعث الرسل وإقامة البرهان علم إصرار الناس إليه وأنه لا بد في كلّ زمان من حجة معصوم عالم بما يحتاج إليه الخلق، وقد دللوا على ذلك في الكتب الكلاميّة بالبراهين العقلية والنقلية ونحن نذكر منها هنا وجهاً واحداً لإقتضاء المقام، وذلك موقوف على رسم مقدمات.

الأولى: أنّ لنا خالقاً صانعاً قادراً على كلّ شيء.

الثانية: أنّه سبحانه منزّه عن التجسّم والتعلق بالموادّ والأجسام وعن أن يكون مبصراً أو محسوساً بإحدى الحواس.

الثالثة: أنّه تعالى حكيم عالم بوجوه الخير والمنفعة في النظام وسبيل المصلحة للخلائق في المعيشة والقوام والبقاء والدّوام.

الرّابعة: أنّ النّاس على كثرتهم محتاجون في معاشهم ومعادهم إلى من يدبر أمورهم ويعلمهم طريق المعيشة في الدّنيا والنّجاة من العذاب في العقبى، وذلك لأن من المعلوم أنّ نوع الإنسان مدني بالطبع، بمعنى أنّه لا بد في بقاء النوع إلى اجتماع كلّ واحد من الأفراد مع الآخر يستغني به فيما يحتاج إليه من الماكل والمشارب والملابس والمساكن ونحوها، فيكون هذا يطحن لهذا، وذلك يبني لذلك، وذلك يخيط لآخر، وهكذا، فمن ذلك احتاجوا إلى بناء البلاد واجتماع الأحاد، واضطروا إلى عقد المعاملات.

وبالجملة لا بدّ في بقاء الإنسان من الإجتماع والمعاونة، والتّعاون لا يتم إلاّ بالمعاملة

ولا بدّ في المعاملة من قانون عدل، إذ لو ترك النّاس وآراؤهم في ذلك لاختلفوا فيه، فيرى كلّ أحد منهم ماله عدلاً ما عليه ظلماً وجوراً نظراً إلى أنّ كلّ أحد بالذّات والطبع طالب لجلب المنفعة لنفسه ودفع المضرة عن نفسه كما هو واضح، فعلم وجه الحاجة في المعاملات إلى القانون العدل.

ولا بدّ لذلك القانون من مقنّن ومعدل ولا يجوز أن يكون ذلك المعدل ملكاً، بل لا بدّ وأن يكون بشراً، ضرورة أنّ الملك لا يمكن رؤية أكثر النّاس له لأنّ قواهم لا يقوى على رؤية الملك على صورته الأصلية، وإنّما رآهم الأفراد من الأنبياء بقوتهم القدسية، ولو فرض أن يتشكل بحيث يراه جميع الخلق كان ملتبساً عليهم كالبشر كجبرئيل في صورة دحية، ولذلك قال سبحانه:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام ٩].

ولا بدّ أن يكون المعدّل له خصوصيّة ليست لسائر النّاس حتّى يستشعر النّاس فيه أمراً لا يوجد لهم فيتميز به منهم، فيكون له المعجزات التي أخبرنا بها، والحاجة إلى هذا الإنسان في بقاء نوع البشر أشدّ من كثير من المنافع التي لا ضرورة فيها للبقاء، كإنبات الشّعر على الحاجبين وتعقير الأخمص للقدمين وما يجري مجراهما من منافع الأعضاء التي بعضها للزّينة وبعضها للسّهولة في الأفعال والحركات، ووجود هذا الإنسان الصّالح لأن يشرع ويعدل ممكن، وتأييده بالمعجزات الموجبة لأذعان الخلق له أيضاً ممكن، فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضي تلك المنافع ولا تقتضي هذه التي هي أصلها وعمدتها.

فإذا تمهدت هذه المقدمات فثبت وتبين أنّه واجب أن يوجد نبي وأن يكون إنساناً وأن يكون له خصوصية ليست لسائر النّاس، وهي الأمور الخارقة للعادات، ويجب أن يسنّ للناس سنناً بإذن الله وأمره ووحيه وإنزال الملك إليه، ويكون الأصل الأول فيما يسنّه تعريفه إيّاهم أنّ لهم صانعاً قادراً واحداً لا شريك له، وأنّ النبي عبده، ورسوله، وأنّه عالم بالسّر والعلانية، وأنّه من حقّه أن يطاع أمره، وأنّه قد أعد للمطيعين الجنّة وللعاصين النّار حتّى يتلقى الجمهور أحكامه المنزلة على لسانه من الله والملائكة بالسّمع والطاعة.

وإلى هذا البرهان أشار الصّادق عليه السلام فيما رواه في «**الكافي**» بإسناده عن هشام بن الحكم عنه عليه السلام أنّه قال للزّنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء والرّسل؟ قال: «إنّا لما أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصّانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسو فينا شرهم ويباشرونه ويحاجوهم ويحاجونه، ثبت أنّ له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، والمعبرون عنه جلّ وعزّهم

الأنبياء وصفوته من خلقه حكماء مؤدّين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للنّاس على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم، مؤيّدين عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان ممّا أتت به الرّسل والأنبياء من الدّلائل والبراهين لكي لا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدلّ على صدق مقالته وجواز عدالته، هذا[١].

وقال بعض «**شرّاح الكافي**» في شرح قوله عليه السلام: ثم ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان ممّا أتت به الرّسل والأنبياء من الدلائل والبراهين: يعني أنّه ثبت وجود النبي في كلّ وقت من جهة ما أتوا به من المعجزات وخوارق العادات، كأنّ قائلاً يقول: إنّ الذي ذكرته من البرهان قد دلّ على حاجة النّاس في كلّ زمان بوجود النبي، وأنّه يجب من الله بعثه الرّسل والأنبياء وإرسالهم، ولكن من أي سبيل تعلم النّاس النبي ويصدق بنبوّته ورسالته، فأجيب بأنّه ثبت ذلك عليهم بمشاهدة ما أتت به الرّسل والنّبيون من الدّلائل والبراهين، يعني المعجزات الظاهرة منهم، وهي المراد ههنا بالدّلائل والبراهين إذ النّاس لا يذعنون إلاّ بما يشاهدونه وقوله عليه السلام: «لكي لا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم» يدل على صدق مقالته وجواز عدالته تعليل متعلق بقوله: «ثم ثبت ذلك في كل دهر»، ووجه التعليل أنّ ما دامت الأرض باقية والنّاس موجودون فيها فلا بدّ لهم من حجّة لله عليهم يقوم بأمرهم ويهديهم إلى سبيل الرّشاد وحسن المعاد، وهو الحجة الظاهرة ولا بدّ أن يكون معه علم بالله وآياته يدل على صدق مقالته ودعوته للنّاس وعلى جريان حكمه عليهم وجواز عدالته فيهم، وهو الحجة الباطنة، انتهى[٢].

وبه ظهر الوجه في عدم إخلائه سبحانه خلقه من نبيّ مرسل على ما صرّح به الإمام عليه السلام، كما ظهر وجه قوله عليه السلام: **(أو حجة لازمة)** أي لازمة على الخلق **(أو محجّة قائمة)** أي طريقة عدل يقفون عليها ولا يميلون عنها يميناً ويساراً، والمراد بها هنا هي الشريعة كما قال سبحانه:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

ثم إنّ الحجة قد تطلق ويراد بها الكتاب، وقد تطلق على الإمام المعصوم الذي يكون مقتدى للخلائق يأتمون به ويتعلّمون منه سبيل الهدى وطريق التقوى، نبيّاً كان أو وصيّاً، وهو المراد منها فيما رواه في «**الكافي**» بإسناده عن أبي إسحاق عمّن يثق به من أصحاب أمير المؤمنين، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «اللّهمّ إنّك لا تخلي أرضك من حجة لك على

(١) الكافي: ١/ ١٦٨.

(٢) ميزان الحكمة: ١/ ١١٧.

خلقك»[١]، يعني أنّك بلطفك وجودك على عبادك لا تخلي أرضك من حجّة لك عليهم ليهتدوا به سبيلك، ويسلكوا به سبيل قربك ورحمتك، وينجو به عن معصيتك وعقابك.

وقد تطلق ويراد بها العقل، فإنّه حجة لله على النّاس في الباطن كما أن النبي والإمام حجة في الظاهر، وقد وردت به الأخبار المستفيضة عن أئمّتنا عليهم السلام.

إذا عرفت ذلك فنقول: الظاهر بل المتعين أنّ المراد بها هنا هو الإمام المعصوم أعني الوصي بخصوصه، لعدم إمكان إرادة النبي والكتاب لسبق ذكرهما وعدم إمكان إرادة العقل لأنَ حجيّته منحصرة في المستقلاّت العقليّة لا مجال له في غيرها، فلا يعرف الحقّ من الباطل في الأمور التي عجزت عن إدراكها عقول البشر بأفكارها، وإنّما يعرفها الإمام بنور الإلهام فلا يتم اللّطف منه تعالى على خلقه بعد النبي صلى الله عليه وآله إلا بوجوده عليه السلام فيهم.

وبذلك ظهر فساد ما توهّمه الشّارح المعتزلي من جعله الحجة في العبارة حجة العقل حيث قال: ومنها أن يقال إلى ماذا يشير عليه السلام بقوله أو حجّة لازمة، هل هو إشارة إلى ما يقوله الإماميّة من أنّه لا بدّ في كلّ زمان من وجود إمام معصوم؟ الجواب أنهم يفسرون هذه اللّفظة بذلك، ويمكن أن يكون المراد بها حجة العقل، انتهى[٢].

وجه الفساد ما ذكرنا، ونزيد توضحياً ونقول: إن لله سبحانه حجّتين: داخليّة وخارجيّة، والنّاس إمّا أهل بصيرة عقلية أم أهل حجاب، فالحجّة على أهل البصيرة إنّما هي عقولهم الكلية العارفين بها بالمصالح والمفاسد الكامنة الواقعية، فلا حاجة لهم إلى إتباع الحجة الخارجية، بل حجّة الله عليهم بصيرتهم ونور عقلهم وهداهم، وأما أهل الحجاب وذو العقول الناقصة فالحجّة عليهم إنّما هي الخارجيّة، لعدم إحاطة عقولهم بالجهات المحسّنة والمقبحة، فلا يكمل اللّطف في حقهم إلاّ بقائد خارجي يتبعون به، إذ الأعمى يحتاج في قطع السّبيل إلى قائد خارجي يتبعه تقليداً في كل قدم وهو واضح.

فقد تحصّل ممّا ذكرنا أنّ المراد بالحجّة في كلامه عليه السلام هو الإمام المعصوم كما قد ظهر ممّا بيّناه هنا وفيما سبق في شرح قوله من نبيّ مرسل: لزوم وجود الحجّة في الخلق، لمكان الحاجة.

وملخص ما ذكرناه هنا وسابقاً أن نظام الدّنيا والدّين لا يحصل إلا بوجود إمام يقتدي به النّاس ويأتمون به ويتعلّمون منه سبيل هداهم وتقواهم، والحاجة إليه في كلّ عصر وزمان أعظم وأهم من الحاجة إلى غذاهم وكساهم وما يجري مجراهما من المنافع والضرورات، فوجب في العناية الرّبانية أن لا يترك الأرض ولا يدع الخلق بغير إمام نبيّاً كان أو وصيّاً، وإلا

---

(١) الكافي: ١/١٧٨، وكفاية الأثر: ١٦٣.

(٢) شرح النهج: ١/١١٥.

لزم أحد الأمور الثلاثة: إمّا الجهل وعدم العلم بتلك الحاجة، أو النقص وعدم القدرة على خلقه، أو البخل والضّنة بوجوده والكل محال على الله سبحانه، هذا.

ويطابق كلام الإمام عليه السلام ما رواه في **«الكافي»** عن عليّ بن إبراهيم عن محمّد بن عيسى عن محمّد بن الفضيل عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض الله آدم إلا فيها إمام يهتدي به إلى الله، وهو حجّة على عباده ولا تبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده.

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ الله أجلّ وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل»[1].

وأيضاً عن أبي بصير عن أحدهما عليه السلام، قال: قال: «إن الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحقّ من الباطل»، يعني في الأمور التي تعجز عن إدراكها العقول حسبما مرّ سابقاً[2].

وفي الأخبار الكثيرة المستفيضة بل القريبة من التواتر المعنوي المرويّة في **«الكافي»** و **«علل الشّرائع»** وإكمال الدّين ورجال الكشي وغيرها أنّ الأرض لو بقيت بغير إمام لساخت[3]، يقال: ساخت الأرض بهم انخسفت، والمراد به في الأخبار إمّا غوصها في الماء حقيقة أو كناية عن هلاك البشر وذهاب نظامها كما نبّه عليه المحدث المجلسي طاب ثراه في مرآة العقول ثم إنّه عليه السلام وصف المرسلين بأنهم رسل **(لا يقصر بهم قلة عددهم)** أي عن نشر التكليف وحمل إعباء الرّسالة **(ولا كثرة المكذّبين لهم)** أي عن تبليغ الأحكام وأداء الأمانة، وهذا الكلام صريح في عدم جواز التقيّة على الأنبياء.

ومنه يظهر فساد ما نسبه الفخر الرّازي إلى الإماميّة من تجويزهم الكفر على الأنبياء تقية حسبما مرّ في تذييلات الفصل الثاني عشر في باب عصمة الأنبياء عليهم السّلام، ضرورة أن اقتداء الإماميّة رضوان الله عليهم إنّما هو على إمامهم عليه السلام، ومع تصريحه عليه السلام بما ذكر كيف يمكن لهم المصير إلى خلاف قوله عليه السلام؟ هذا.

مضافاً إلى ما أوردناه عليه سابقاً بل ومع الغضّ عن تصريحه عليه السلام، بذلك أيضاً نقول: كيف يمكن أن يتفوّه ذو عقل بصدور كلمة الكفر عن نبيّ مع أنّ بعث النبي ليس إلاّ لحسم مادة الكفر، نعوذ بالله من هذه الفرية البيّنة وذلك البهتان العظيم، ثم إنّه عليه السلام بيّن الرّسل وميّزهم بقوله: **(من سابق سمّي له من بعده أو غابر)** أي لاحق **(عرفه من قبله)** يعني أنّهم بين

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٢٩.

(٢) الكافي: ١/١٧٨.

(٣) الكافي: ١/١٧٩، وعلل الشرائع: ١/١٩٦.

سابق سمي لنفسه من بعده، بمعنى أنّه عين من يقوم مقامه من بعده، أو أنّ السّابق سمّي الله له من يأتي بعده وأطلعه عليه، وبين لا حق عرّفه من قبله وبشر به، كتعريف عيسى عليه السلام وبشارته بالنبي صلى الله عليه وآله كما قال سبحانه حكاية عنه:

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾. [الصف: ٦].

وقد مرّ في حديث **«الكافي»** عند شرح قوله: واصطفى من ولده أنبياء (ا هـ)، تفصيل بشارة الأَنبياء السّلف للخلف سلام الله عليهم أجمعين فتذكر.

الترجمة

و خالى نگذاشت حق سبحانه و تعالى مخلوقان خود را از پيغمبر مرسلى يا از كتاب منزلى يا برهانى لازم كه عبارت است از امام معصوم يا طريقه مستقيمه اى كه عبارت است از شريعت قويمه آن ها، رسولانى هستند كه قاصر نمى كند يا مقصر نمى كند آن ها را كمى عدد ايشان از تبليغ رسالت و نه بسيارى تكذيب كنندگان ايشان از اداء وحى و امانت، طايفه از ايشان سابق بودند كه نام مى بردند به جهت خود آن كسى را كه بعد از اوست يا اين كه خداوند عالم نام برد آن كسى را كه بعد از او بود و طايفه ديگر لاحق بودند كه تعريف كرده بود او را آن كسى كه پيش از او بود.

الفصل السادس عشر

«عَلى ذَلِكَ نَسَّلَتِ الْقُرُونُ، ومَضَتِ الدُّهُورُ، وسَلَفتِ الآباءُ، وخَلَفَتِ الأَبْناءُ، إلى أَنْ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ لأَنجازِ عِدَتِهِ، وَإِتْمام نُبُوَّتِه، مَأْخوذاً عَلى النَّبِيِّينَ ميثاقُهُ، مَشْهُورَةً سِماتُهُ، كَريماً ميلادُهُ، وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْواءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ للهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ في إِسْمِهِ، أَوْ مُشيرٍ إِلى غَيرِه، فَهَديهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكانِهِ مِنَ الْجَهالَةِ»[١].

(**نسل**) نسلا من باب ضرب كثر نسله، ويتعدّى إلى مفعول يقال: نسلته أي ولدته ونسل الماشي ينسل بالضّم وبالكسر نسلاً ونسلاً ونسلاناً أسرع، ونسلت القرون أي ولدت أو أسرعت و (**سلف**) سلوفاً من باب قعد مضى وانقضى و (**خلفته**) جئت بعده، والخلف بالتّحريك الولد الصالح، فإذا كان فاسداً أسكنت (**اللاّم**) وربّما استعمل كلّ منهما مكان الآخر و (**الميثاق**) والموثق كمجلس العهد و (**السّمات**) جمع السّمة وهي العلامة و (**الميلاد**) كالمولد وقت الولادة، ولم يستعمل في الموضع كما توهّمه الشارح البحراني بل مختص بالزّمان، والمولد يطلق على الوقت والموضع كما صرّح به الفيومي (**والملل**) جمع الملّة وهي الشريعة والدّين (**والأهواء**) جمع هوا بالقصر إرادة النّفس (**وطرائق متشتّتة**) أي متفرقة و (**الملحد**) من الإلحاد يقال الحد ولحد إذا حاد عن الطريق وعدل عنه و (**الإنقاذ**) كالنّقذ والإستنقاذ التّخليص و (**المكان**) مصدر بمعنى الكون.

الإعراب

قوله عليه السلام: على ذلك متعلّق بالفعل الذي يليه، واللاّم في قوله لإنجاز عدته تعليل للبعث متعلّق به، ومأخوذاً ومشهوراً وكريماً منصوبات على الحالية عن محمّد ﷺ، كما أنّ محلّ الجملة أعني قوله عليه السلام: (**وأهل الأرض) (ا هـ)**، كذلك، (**وملل وأهواء وطرائق**) مرفوعات على الخبريّة من أهل الأرض، وإسنادها إليه من باب التّوسّع، والأصل ذو ملل متفرقة، وقيل: إنّ المبتدأ محذوف أي مللهم ملل متفرقة، وأهواؤهم أهواء منتشرة، وطرائقهم طرائق متشتّتة، وبين ظرف متعلّق بقوله: متشتّتة، وهو من الظروف المبهمة لا يتبيّن معناه إلاّ بالإضافة إلى اثنين فصاعداً أو ما يقوم مقامه كقوله تعالى: عوان بين ذلك.

قال الفيومي في «**المصباح**»: والمشهور في العطف بعدها أن يكون بالواو، لأنّها للجمع المطلق، نحو المال بين زيد وعمرو، وأجاز بعضهم (**بالفاء**) مستدلاً بقول امرء القيس: (**بين الدّخول فحومل**)، وأجيب بأن الدّخول إسم لمواضع شتى، فهو بمنزلة قولك المال بين القوم

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٢٤.

وبها يتمّ المعنى، انتهى.

إذا عرفت ذلك فأقول: الظاهر أنّ كلمة **(أو)** في قوله: أو ملحد، أو مشير، بمعنى الواو إجراء للفظ بين على ما هو الأصل فيه، مضافاً إلى عدم معنى الإنفصال ههنا، وقول الشارح البحراني، إنّ الإنفصال هنا لمنع الخلوّ فاسد، ضرورة أنّ بعض أهل الأرض عند بعثة النبي ﷺ كان من أهل التوحيد حسبما تعرفه وهؤلاء ليس داخلاً في أحد الأصناف الثلاثة فافهم جيّداً، **(والباء)** في بمكانه سببيّة، أي أنقذهم بسبب كونه ووجوده ﷺ من الجهالة.

المعنى

إعلم أنّه عليه السلام ساق هذه الخطبة بما اقتضاه التّرتيب الطبيعي، أي من لدن آدم عليه السلام إلى بعث محمّد ﷺ وهداية الخلق به واقتباسهم من أنوار وجوده الذي هو المقصود العمدة في باب البعثة، فقال عليه السلام **(على ذلك)** يعني على هذا الأسلوب الذي ذكرناه من عدم إخلاء الأرض والخلق من الأنبياء والحجج **(نسلت القرون)** وولدت أو أسرعت، وهو كناية عن انقضائها **(ومضت الدّهور، وسلفت الآباء)** أي تقدّموا وانقضوا **(وخلفت الأبناء)** أي جاؤوا بعد آبائهم وصاروا خليفة لهم **(إلى أن بعث الله)** النّبي الأمّي العربيّ القرشي الهاشمي الأبطحي التّهامي المصطفى من دوحة الرّسالة، والمرتضى من شجرة الولاية **(محمّداً ﷺ** لانجاز عدته**)** التي وعدها لخلقه على ألسنة رسله السّابقين بوجوده عليه السلام **(ولإتمام نبوّته)** الظاهر رجوع الضمير فيه إلى الله سبحانه، وقيل: برجوعه إلى محمّد ﷺ ولا يخلو عن بعد.

وينبغي الإشارة إلى الحجج الذين لم يخل الله سبحانه خلقه منهم من لدن آدم عليه السلام إلى بعث نبيّنا صلوات الله عليهم أجمعين فنقول:

روى الصّدوق في **«الأمالي»** عن ابن المتوكل عن الحميري عن ابن عيسى عن الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيّد النّبيّين، ووصيي سيد الوصيّين، وأوصيائي سادة الأوصياء، إنّ آدم سأل الله عزّ وجلّ أن يجعل له وصيّاً صالحاً، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه إني أكرمت الأنبياء بالنّبوة ثم اخترت خلقاً (خلقي خ ل) وجعلت خيارهم الأوصياء، فقال آدم: يا ربّ اجعل وصييّ خير الأوصياء، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه يا آدم أوص إلى شيث وهو هبة الله بن آدم، وأوصى شيث إلى ابنه شبان، وهو ابن نزلة الحوراء التي أنزلها الله على آدم من الجنّة فزوّجها ابنه شيثاً، وأوصى شبان إلى محلث، وأوصى محلث إلى محوق وأوصى محوق إلى عثميا، وأوصى عثميا إلى اخنوخ وهو إدريس النبي، وأوصى إدريس إلى ناخور ودفعها ناخور إلى نوح النبيّ وأوصى نوح إلى سام، وأوصى سام إلى عثامر وأوصى عثامر إلى برغيثاشا، وأوصى برغيثاشا إلى يافث، وأوصى يافث إلى برة، وأوصى برة إلى جفشية، وأوصى جفشية إلى عمران،

ودفعها عمران إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، وأوصى إبراهيم إلى ابنه اسماعيل، وأوصى إسماعيل إلى إسحاق، أوصى إسحاق إلى يعقوب، وأوصى يعقوب إلى يوسف، وأوصى يوسف إلى بريثا، وأوصى بريثا إلى شعيب، ودفعها شعيب إلى موسى بن عمران، وأوصى موسى بن عمران إلى يوشع بن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى داود، وأوصى داود إلى سليمان، وأوصى سليمان إلى آصف بن برخيا وأوصى آصف بن برخيا إلى زكريا، وأوصى (دفعها خ ل) زكريّا إلى عيسى بن مريم وأوصى عيسى بن مريم إلى شمعون بن حمون الصّفا، وأوصى شمعون إلى يحيى ابن زكريّا، وأوصى يحيى بن زكريّا إلى منذر، وأوصى منذر إلى سليمة، وأوصى سليمة إلى بردة».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ودفعها إلى بردة، وأنا أدفعها إليك يا عليّ، وأنت تدفعها إلى وصيّك، ويدفعها وصيّك إلى أوصيائك من ولدك واحداً بعد واحد حتى تدفع إلى خير أهل الأرض بعدك، ولتكفرنّ بك الأمّة، ولتختلفن عليك اختلافاً شديداً الثابت عليك كالمقيم، والشّاذ عنك في النّار، والنّار مثوى للكافرين»[١].

وقد مضى في شرح قوله عليه السلام: واصطفى من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، ما يوجب ازدياد البصيرة في المقام فراجعه وقوله عليه السلام: **(مأخوذاً على النبيين ميثاقه)**.

أقول: قد عرفت في الفصل الرّابع عشر عند شرح قوله عليه السلام: لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم، ما دلّ على أخذ ميثاق جميع الخلق على توحيد الله تعالى ونبوّة محمد صلى الله عليه وآله وإمامة الأئمة عليهم السّلام في عالم الميثاق.

وينبغي أن نذكر هنا بعض ما يفيد أخذ ميثاق النبيّين بخصوصهم سلام الله عليهم، فأقول: قال سبحانه في سورة آل عمران:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال الطبرسي عند تفسير الآية: وروى عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عبّاس وقتادة أنّ الله أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبيّنا صلى الله عليه وآله «أن يخبروا أممهم بمبعثه ورفعته، وبشروهم به ويأمروهم بتصديقه»[٢].

وقال أيضاً: وقد روي عن عليّ عليه السلام أنه قال: «لم يبعث الله نبيّاً آدم ومن بعده إلاّ أخذ

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/١٧٧.

(٢) بحار الأنوار: ١١/١٢.

عليه العهد لئن بعث الله محمّداً وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمره بأن أخذ العهد بذلك على قوله:

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القميّ قال الصّادق عليه السلام في قوله»[1]:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

كان الميثاق مأخوذاً عليهم بالرّبوبيّة ولرسوله ﷺ بالنبوة ولأمير المؤمنين والأئمة عليهم السّلام بالإمامة فقال: «ألست بربّكم ومحمّد نبيّكم وعليّ إمامكم والأئمة الهادون أئمتكم»؟ فقالوا: بلى، فقال الله تعالى[2]:

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فأوّل ما أخذ الله عزّ وجلّ الميثاق على الأنبياء بالرّبوبيّة وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧] فذكر جملة الأنبياء ثمّ أبرز أفضلهم بالأسامي فقال: «وَمِنكَ» يا محمّد فقدّم رسول الله ﷺ لأنّه أفضلهم «وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ».

فهؤلاء الخمسة أفضل الأنبياء، ورسوله الله ﷺ أفضلهم، ثم أخذ بعد ذلك ميثاق رسول الله ﷺ على الأنبياء بالإيمان به وعلى أن ينصروا أمير المؤمنين، فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١] يعني رسول الله ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

يعني أمير المؤمنين عليه السلام تخبروا أممكم بخبره وخبر وليّه من الأئمة.

وفي «البحار» عن كشف الغمّة من كتاب بكر بن محمّد الشّامي بإسناده عن أبي الصّباح الكناني عن جعفر بن محمّد عليهما السّلام قال: أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام وهو في مسجد الكوفة قد احتبى بسيفه، قال: يا أمير المؤمنين إنّ في القرآن آية قد أفسدت قلبي وشككتني في ديني، قال عليه السلام له: «وما هي»؟ قال: قوله عزّ وجل:

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥].

هل كان في ذلك الزّمان نبياً غيره ﷺ يسأله؟ فقال له علي عليه السلام: «اجلس أخبرك إنشاء الله إنّ الله عزّ وجلّ يقول في كتابه:

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ

(١) تفسير مجمع البيان: ٢/ ٣٣٥.

(٢) مختصر بصائر الدرجات/ ١٦٧.

لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

فكان من آيات الله عزّ وجلّ التي أراها محمّداً ﷺ أنّه أتاه جبرئيل فاحتمله من مكة فوافى به بيت المقدّس في ساعة من اللّيل، ثمّ أتاه بالبراق فرفعه إلى السّماء، ثم إلى البيت المعمور، فتوضّأ جبرئيل وتوضّأ النّبي ﷺ وسلم كوضوئه، وأذّن جبرئيل وأقام مثنى مثنى، وقال للنّبي: تقدم فصلّ واجهر بصلاتك فإنّ خلفك أفقاً من الملائكة لا يعلم عددهم إلاّ الله، وفي الصّف الأوّل أبوك آدم ونوح وهود وإبراهيم وموسى وكلّ نبيّ أرسله الله مذ خلق السّماوات والأرض إلى أن بعثك يا محمّد، فتقدّم النبي ﷺ فصلّى بهم غير هائب ولا محتشم ركعتين، فلمّا انصرف من صلاته أوحى الله إليه أسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا الآية، فالتفت إليهم النبي ﷺ، فقال بم تشهدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّك رسول الله، وأنّ عليّاً أمير المؤمنين ووصيّك وكلّ نبيّ مات خلّف وصيّاً من عصبته غير هذا، وأشاروا إلى عيسى بن مريم، فإنّه لا عصبة له، وكان وصيّه شمعون الصّفا ابن حمون بن عمامة، ونشهد أنّك رسول الله سيّد النبيّين، وأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام **سيّد الوصيّين، أخذت على ذلك مواثيقنا لكما بالشّهادة»**، فقال الرّجل: أحييت قلبي وفرّجت عنّي يا أمير المؤمنين»[1].

وفيه أيضاً عن بصائر الدّرجات بإسناده عن حرمان عن أبي جعفر عليه السلام، قال: إن الله تبارك وتعالى أخذ الميثاق على أولى العزم أنّي ربّكم ومحمّد رسولي وعليّ أمير المؤمنين وأوصياؤه من بعده ولاة أمري وخزّان علمي، وأنّ المهدي أنتصر به لديني.

إلى غير هذه مما يطلع عليه المتتبّع **(مشهورة سماته)** أي صفاته وعلاماته في الكتب المنزلة والصّحف السّماوية من التّوراة والزّبور والإنجيل وصحف إبراهيم ودانيال وكتاب زكريا وشعيا وغيرها، قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

يعني يعرفون محمّداً ﷺ بنعته وصفته ومبعثه ومهاجره وصفة أصحابه كما يعرفون أبنائهم في منازلهم، وقال أيضاً في سورة الأعراف:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

روى العياشي عن الباقر عليه السلام «يعني اليهود والنّصارى صفة محمّد واسمه»[2].

(١) اليقين/ ٤٠٦.

(٢) تفسير العياشي: ح/ ٣١.

وفي «الصافي» عن المجالس عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: «قال يهودي لرسول الله صلى الله عليه وآله إنّي قرأت نعتك في التّوراة محمّد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا مترنن بالفحش ولا قول الخنا، وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله، هذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله»[1].

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام «لما أنزلت التّوراة على موسى بشّر بمحمد صلى الله عليه وآله، قال: فلم تزل الأَنبياء تبشّر به حتّى بعث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فبشّر بمحمد صلى الله عليه وآله، وذلك قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾: يعني اليهود والنّصارى، ﴿مَكْتُوبًا﴾، يعني صفة محمّد ﴿عِندَهُمْ﴾، يعني في التّوراة والإنجيل، وهو قول الله عزّ وجلّ يخبر عن عيسى:

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾»[2] [الصف: ٦].

وقد مضى تمامه عند شرح قوله عليه السلام: واصطفى من ولده أنبياء، أخذ على الوحي ميثاقهم (ا هـ).

وفي «الكافي» أيضاً مرفوعاً: أنّ موسى عليه السلام ناجاه ربّه تبارك وتعالى، فقال في مناجاته: أوصيك يا موسى وصيّة الشّفيق المشفق يابن البتول عيسى بن مريم، ومن بعده بصاحب الجمل الأحمر الطيب الطاهر المطهّر، فمثله في كتابك أنّه مهيمن على الكتب كلّها، وأنّه راكع ساجد راغب راهب، إخوانه المساكين وأنصاره قوم آخرون (كريماً ميلاده) أي وقت ولادته صلى الله عليه وآله، فقد وُلِدَ وكان طالع ولادته على ما حكاه المجلسي (قده) عن أبي معشر: الدّرجة العشرون من جدي، وكان زحل والمشتري في العقرب، والمريخ في بيته في الحمل، والشمس في الحمل في الشّرف، والزهرة في الحوت في الشّرف، والعطارد أيضاً في الحوت، والقمر في أوّل الميزان، والرّأس في الجوزاء، والذّنب في القوس[3].

وروي أيضاً إتّفاق الحكماء على أنّ طالعه صلى الله عليه وآله المشتري والعطارد والزّهرة والمرّيخ، وقالوا إنّ نظر المشتري علامة العلم والحكمة والفطنة والكياسة والرّئاسة له صلى الله عليه وآله، وإن نظر العطارد كان آية لطافته وظرافته وملاحته وفصاحته وحلاوته صلى الله عليه وآله، وإن نظر الزّهرة دليل صباحته وسروره وبشاشته وحسنه وطيبه وبهائه وجماله ودلاله صلى الله عليه وآله، وإن نظر المرّيخ علامة شجاعته وجلادته ومحاربته وقتاله وقهره وغلبته.

وأمّا تاريخ ولادته صلى الله عليه وآله فقد قال في «الكافي»: إنّه ولد صلى الله عليه وآله لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأوّل في عام الفيل يوم الجمعة مع الزّوال[4].

---

(١) تفسير الصافي: ٢/ ٢٤٢.

(٢) الكافي: ٨/ ١١٧.

(٣) الكافي: ٨/ ٤٣.

(٤) الكافي: ١/ ٤٣٩.

وروى أيضاً عند طلوع الفجر قبل أن يبعث بأربعين سنة، وحملت به أمّه أيام التشريق عند الجمرة الوسطى، وكانت في منزلة عبد الله بن عبد المطلب وولدته في شعب أبي طالب في دار محمّد بن يوسف في الزّاوية القصوى عن يسارك وأنت داخل في الدّار، وقد أخرجت الخيزران ذلك البيت فصيّروه مسجداً يصلّي النّاس فيه، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: أمّا ما ذكره من كون تولده في ثاني عشر من شهر ربيع الأوّل فهو المشهور بين الجمهور ولعلّه (ره) وافقهم على ذلك تقيّة، ولبعض العامّة قول بكونه في ثامن ذلك الشّهر، وقول آخر بأنّه في عاشره وقول شاذّ بكونه في شهر رمضان.

والمشهور في أخبارنا وبين أصحابنا بل المدّعى عليه إجماعنا في جملة من العبائر أنّ تولده ﷺ في السّابع عشر.

وأمّا ما ذكره من أنّ أمّه حملت به في أيام التّشريق عند الجمرة الوسطى يستلزم بقائه في بطن أمّه إمّا ثلاثة أشهر أو سنة وثلاثة أشهر مع أنّه خلاف ما اتّفق عليه أصحابنا من كون أقل مدة الحمل ستّة أشهر وأكثرها تسعة، ولم يقل أحد أيضاً بكون ذلك من خصائصه ولا وردت عليه رواية.

وأجاب عنه جمع من الأصحاب كالمجلسي (ره) والمحدث الجزائري (ره) وغيرهما بأنّه مبني على النسيء المراد بقوله:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [البقرة: ٣٧].

وذلك أنّ المشركين كانوا يؤخّرون موسم الحجّ، فمرّة كانوا يحجّون في صفر وأخرى في محرّم وهكذا، تبعاً لاعتدال الوقت والهواء وكان حجّهم في سنة تولده في جمادى الآخرة.

قال الجزائري ويؤيّده ما رواه ابن طاوس في كتاب الإقبال أنه ﷺ حملت به أمّه في ثمان عشر مضت من جمادى الآخرة، ولمّا فتح النبي ﷺ مكّة كان حجّهم في شهر ذي الحجّة فقال الآن دار الزّمان كما كان فلا يجوز لأحد تغييره ولا تبديله، انتهى.

وكيف كان فقد كان مولده على مذهب الشّيعة اليوم السّابع عشر من شهر ربيع الأوّل وبعث للرّسالة يوم السّابع والعشرين من رجب وله حينئذٍ أربعون سنة (و) قد كان **(أهل الأرض يومئذٍ)** أي يوم بعثه وتصديعه بالرّسالة ذي **(ملل)** وشرائع **(متفرّقة وأهواء)** أي آراء **(منتشرة وطرائق)** أي مسالك **(متشتتة)** ومتفرّقة ومذاهب مختلفة **(بين مشبّه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره)**.

قال الشّارح المعتزلي: إنّ العلماء يذكرون أنّ النبي ﷺ بعث والنّاس أصناف شتّى في أديانهم، يهود ونصارى ومجوس وصابئون وعبدة أصنام وفلاسفة وزنادقة، فأمّا الأمة التي بعث

فيها محمّد ﷺ فهم العرب وكانوا أصنافاً شتى، فمنهم معطلة، ومنهم غير معطلة، فأمّا المعطلة منهم فبعضهم أنكر الخالق والبعث والإعادة وقالوا: ما قال القرآن العزيز منهم:

﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فجعلوا الجامع لهم الطبع والمهلك الدّهر، وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله:

﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [ياسين: ٧٨].

ومنهم من أقرّوا بالخالق ونوع من الإعادة، وأنكروا الرّسل وعبدوا الأَصنام وزعموا أنّها شفعاء عند الله في الآخرة وحجّوا لها ونحروا لها الهدى وقرّبوا لها القربان وحلّلوا وحرّموا، وهم جمهور العرب، وهم الذين قال الله تعالى عنهم:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

وكانوا في عبادة الأَصنام مختلفين، فمنهم من يجعلها مشاركة للباري جلّ اسمه ويطلق عليها لفظ الشّريك، ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشّريك ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه وهم الذين قالوا:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

وكان في العرب مشبّهة ومجسّمة، وكان جمهورهم عبدة الأَصنام فكان ودّ لكلب بدومة[١] الجندل، وسواع[٢] لهذيل ونسر لحمير، ويغوث لهمدان، واللاّت لسقيف بالطائف، والعزّى لكنانة وقريش وبعض بني سليم، ومناة لغسان والأَوس والخزرج، وكان هبل لقريش خاصّة على ظهر الكعبة، واساف[٣] ونائلة على الصّفا والمروة، وكان في العرب من يميل إلى الهيوديّة، منهم جماعة من التّبابعة وبلوك اليمن، ومنهم نصارى كبني تغلب والعباديين رهط عديّ بن زيد ونصارى نجران، ومنهم من كان يميل إلى الصّائبة ويقول بالنجوم والإنواء[٤]، فأمّا الذّين ليسوا بمعطلة من العرب فالقليل منهم وهم المتألهون أصحاب الورع والتّحرج عن القابئح، كعبد الله وعبد المطلب وأبي طالب وزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة الأَيادي، وجماعة غير هؤلاء، انتهى باختصار منّا.

---

(١) دومة الجندل هي حصن بين المدينة والشامة.

(٢) سواع: اسم صنم كان يعبد في زمن نوح.

(٣) اساف: ككتاب وسحاب: اسم صنم.

(٤) الإنواء: جمع نؤ وهو النجم.

إذا عرفت هذا فأقول: قوله عليه السلام بين مشبّه لله بخلقه، إشارة إلى بعض هذه الفرق، وهم المشبّهة الذين شبّهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثلوه بالحادثات وأثبتوا له صفات الجسم.

فمنهم مشبّهة الحشويّة، قالوا: هو جسم لا كالأجسام، ومركب من لحم ودم ولا كاللّحوم والدّماء، وله الأعضاء والجوارح، ويجوز عليه الملامسة والمعانقة والمصافحة للمخلصين.

ومنهم الذين قالوا: إنّ الله على العرش من جهة العلوّ مماسّ له من الصّفحة العليا، ويجوز عليه الحركة والإنتقال، قال أميّة بن أبي الصلت:

من فوق عرش جالس قد حط رجليه على كرسيّه المنصوب

ومنهم اليهود والنّصارى الذين قالوا:

﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقد أثبتوا له سبحانه يداً وولداً إلى غير هؤلاء من المشبّهة والمجسّمة.

وقوله عليه السلام: «أو ملحد في اسمه» إشارة إلى فرقة أخرى من هذه، وهم الذين يعدلون بأسماء الله تعالى عمّا هي عنه فيسمّون بها أصنامهم، ويغيّرونها بالزّيادة والنّقصان، فاشتقّوا اللاّت من الله، والعزّى من العزيز، ومناة من المنان وهذا المعنى حكاه الطبرسي عن ابن عبّاس ومجاهد في تفسير قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

ثم قال: وقيل: إنّ معناً يلحدون في أسمائه يصفونه بما لا يليق به، ويسمّونه بما لا يجوز تسميته به، وهذا الوجه أعم فائدة، ويدخل فيه قول الجبائي: أراد تسميتهم المسيح بأنه ابن الله، ثم قال وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز أن يسمّى الله إلاّ بما سمّى به نفسه.

وقوله عليه السلام: «أو مشير إلى غيره» إشارة إلى الدّهريّة وبعض عبدة الأصنام ممّن لم يدخل في القسمين السّابقين.

والحاصل أنّ النّاس عند بعث النبي صلى الله عليه وآله كانوا على مذاهب مختلفة، وآراء متفرّقة من اليهوديّة والنّصرانيّة والمجوسيّة والدّهريّة وعبدة الأصنام وغيرهم **(فهداهم الله)** سبحانه **(به)** صلى الله عليه وآله أي بنور وجوده **(من الضّلالة)** والغواية **(وانقذهم بمكانه)** أي خلصهم وأنجاهم بكونه ووجوده **(من)** ظلمة **(الجهالة)** فانجلى به عين قلوب العارفين، واضمحل باطل الشّيطان بما جاء به من الحقّ اليقين.

الترجمة

پس بر این منوال منقضی می شد قرن ها و می گذشت روزگارها و از پیش رفتند پدران و از پس درآمدند و خلیفه شدند پسران، تا این که برانگیخت خداوند عالم محمد بن عبدالله ﷺ را به جهت رواکردن وعده خود که به انبیاء گذشته داده بود و به جهت تمام فرمودن نبوت خود در حالتی که فراگرفته بود بر پیغمبران عهد و پیمان او را در حالتی که مشهور و معروف بود علامات و صفات او در کتب سماویه و صحف منزله و در حالتی که شریف و عزیز بود وقت ولادت او و حال آن که اهل زمین در روز بعثت او صاحبان ملل و مذاهب متفرقه بودند و خداوندان هواها و رأی های پراکنده و صاحبان راه های مختلف در میان، تشبیه کننده حق تعالی به مخلوقات خود و عدول کننده در اسماء حسنای او و اشاره کننده بر غیر او، پس هدایت و راهنمایی فرمود ایشان را به نور وجود او از گمراهی و خلاص فرمود آن ها را به جهت هستی او از جهالت و نادانی.

الفصل السابع عشر

ثُمّ اخْتارَ سُبْحانَهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ لِقائَهُ، ورَضِيَ لَهُ ما عِنْدَهُ فَأَكْرَمَهُ عَنْ دارِ الدُّنْيا، ورَغِبَ بِهِ عَنْ مُقارَنَةِ (مَقام خ ل) الْبَلْوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً ﷺ، وخَلَّفَ فيكم مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِياءُ في أُمَمِها، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمِلاً بِغَيرِ طَرِيقٍ واضِحٍ، وَلا عَلَمٍ قائِمٍ، كِتابَ رَبِّكُمْ مُبَيِّناً حَلالَهُ وحَرامَهُ، وفَضائِلَهُ وفَرائِضَهِ، وناسِخَهُ ومَنْسُوخَهُ، ورُخَصَهُ وعَزائِمَهُ، وخاصَّهُ وعامَّهُ، وعِبَرَهُ وأَمْثالَهُ، ومُرْسَلَهُ ومَحْدُودَهُ، ومُحْكَمَهُ ومُتَشابِهَهُ، مُفَسِّراً جُمَلَهُ، ومُبَيِّناً غَوامِضَهُ، بَيْنَ مَأْخُوذٍ ميثاقُ عِلْمِه، ومُوَسَّعٍ عَلىَ الْعِبادِ في جَهْلِه، وبَيْنَ مُثْبَتٍ في الْكِتابِ فَرْضُهُ، ومَعْلُومٍ في السُّنَّةِ نَسْخُهُ، وواجِبٍ في السُّنَّةِ أَخْذُهُ، ومُرَخَّصٍ في الْكِتابِ تَرْكُهُ، وبَيْنَ واجِبٍ لِوَقْتِه، وزايِلٍ في مُسْتَقْبَلِه، ومُبايَنٍ بَيْنَ مَحارِمِه، مِنْ كَبيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نيرانَهُ، أَوْ صَغيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرانَهُ، وبَيْنَ مَقبُولٍ في أَدْناهُ، ومُوَسَّعٍ في أَقْصاهُ.

اللغة

(**رغب**) بالكسر من باب تعب إذا تعدى بكلمة في فبمعنى الإرادة والميل، وإذا عدّى بعن فبمعنى الأعراض والعدول، يقال: رغب فيه رغباً ورغبة إذا أراده ورغب عنه إذا لم يرده وأعرض عنه و (**البلوى**) والبلاء بمعنى واحد و (**خلّفوا**) أثقالهم تخليفاً خلّوها وراء ظهورهم و (**الهمل**) محركة مصدر همل كضرب يقال: تركت الإبل والغنم ونحوهما هملاً، أي سدى يرعى بغير راع ليلاً ونهاراً، والهمل أيضاً جمع هامل مثل همّل وهمال وزان ركع وكتاب، يقال: بغير هامل أي راع ولا راعي له و (العلم) هو العلامة وما ينصب في الطريق لإهتداء الناس به من الميل والمنار و (**الفضائل**) جمع الفضيلة وهو الخير، وهو خلاف النقيصة و (**الفرائض**) جمع الفريضة بمعنى المفروضة، وهي الأحكام الواجبة يقال: فرض الله الأحكام أي أوجبها و (**النّسخ**) إزالة ما كان ثابتاً و (**الرّخص**) جمع الرّخصة كغرف وغرفة وهو التّسهيل في الأمر والتّيسير يقال: رخص الشّرع لنا في كذا ترخيصاً وأرخص إرخاصاً إذا يسّره وسهله و (**العزائم**) جمع العزيمة وفسرها أهل اللغة بالفريضة والظاهر بقرينة المقابلة بالرّخص إرادة الفرائض المشتملة على الجدّ والضّيق و (**العبر**) جمع عبرة وهو الاعتبار والإتعاظ بما مضى و (**المحكم**) من اللّفظ ما اتّضح دلالته و (**المتشابه**) خلافه و (**غمض**) الحقّ غموضاً من باب قعد خفي ونسب غامض لا يعرف و (**المبائن**) بفتح الياء مفعول من باين بمعنى المفاصل و (**أرصد له**) أي أعدله.

الإعراب

(**كريماً**) حال من مفعول قبضه، وكلمة (ما) مفعول لقوله خلف مجازاً، والأصل مثل ما خلّفت، (**وإذ لم يتركوهم**) تعليل لتخليف الأنبياء، (**وكتاب**) منصوب على أنّه عطف بيان

(لما)، ومبيّناً حال من فاعل خلّف، وهو العامل فيه، ومفسّراً حال بعد حال، والضّمائر كلها راجعة إلى الكتاب المشتمل على الأحكام المذكورة، وبين مأخوذ متعلق بمقدّر حال من الكتاب، أي حالكون ذلك الكتاب دائراً بين مأخوذ، ومبائن بالجرّ عطف على سابقه أي بين مباين بين محارمه.

وما توهمه الشّارح المعتزلي وتبعه غيره من أنّ الواجب كونه بالرّفع لا بالجر نظراً إلى أنّه ليس معطوفاً على ما قبله، بدليل أنّ جميع ما قبله يستدعي الشيء وضدّه، أو الشيء ونقيضه وقوله **(ومبائن بين محارمه)** لا نقيض ولا ضدّ له، لأنّه ليس القرآن العزيز على قسمين أحدهما مبائن بين محارمه، والآخر غير **(مبائن)**، فإنّ ذلك لا يجوز، فوجب رفع مبائن وأن يكون خبر مبتدأ محذوف.

فيه أنّه إن أراد أنّ كلمة **(بين)** يستدعي الإضافة إلى اثنين فصاعداً نقيضاً كان أحدهما للآخر أو ضدّاً نظراً إلى عدم تماميّة المعنى بدونهما، ففيه منع ذلك، لما قد عرفت في الفصل السّابق من تجويزهم إضافته إلى شيء واحد يقوم مقام شيئين كما في قوله تعالى: عوان **بين ذلك**، وقول امرء القيس: **(بين الدّخول فحومل)**، حيث ردّوا من جوّز العطف بعدها (بالفاء)، إستدلالاً بالبيت المذكور بأنّ الدّخول إسم لمواضع شتى.

وإن أراد أنّ جميع ما ذكره عليه السلام قبل قوله: ومبائن، ممّا أقحم فيه كلمة بين قد ذكر عليه السلام فيه الشيء وضدّه أو الشيء ونقيضه، ومبائن لو كان مجروراً بالعطف للزم أن يذكر له ضدّاً ونقيض وليس فليس، ففيه أنّ كون ما قبله على التّسق المذكور لا يستدعي كون ذلك على ذلك التّسق أيضاً، ألا ترى إلى قوله عليه السلام بعد ذلك بين محارمه حيث لم يذكر له ضدّ ولا نقيض.

فإن قلت: إنّ المحارم لما لم تكن شيئاً واحداً بل بعضها من قبيل الكبائر وبعضها من قبيل الصّغائر كما بينها بقوله عليه السلام: من كبير أوعد عليه نيرانه أو صغير (ا هـ) لا جرم حسن الإكتفاء بها في مقام الإضافة.

قلت: أوّلاً إنّ هذا هدم لما أسّسته، وثانياً أنّ المبائن ليس أيضاً شيئاً واحداً شخصيّاً، بل هو مثل المحارم، وبعبارة أخرى الحرمة المباينة بين المحارم تابعة للمحارم في تعدّد الأفراد، فافهم جيّداً.

وأمّا قوله: لأنّ القرآن العزيز ليس على قسمين، أحدهما مبائن، والآخر غير مبائن، ففيه إن ذلك مما تضحك منه الثكلى، ضرورة أنّ الكتاب ليس منحصراً في المبائن، بل بعضه جدل وبعضه قصص وبعضه مثل وبعضه أحكام وبعضه ترغيب وبعضه ترهيب، كما أنّ بعضه مبائن بين محارمه إلى غير ذلك ممّا اشتمل عليه.

وبالجملة فقد تلخص ممّا ذكرنا كله أنّ **(مبائن)** مجرور معطوف على ما قبله وليس

بمرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، مضافاً إلى أن جعله مرفوعاً خلاف ما يستفاد من سياق كلامه عليه السلام سابقاً ولاحقاً.

المعنى

(ثمّ) إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لمّا بلغ الرّسالة وأدّى الأمانة وأكمل الدّين وأتمّ النعمة وهدى الأمّة من الضّلالة وأنقذها من الجهالة **(اختار)** الله **(سبحانه)** عند ذلك له أي **(لمحمّد** صلى الله عليه وآله **لقائه، ورضي له ما عنده)** ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر **(فأكرمه)** وأعزّه (عن) اللبث والبقاء في **(دار الدّنيا، ورغب به)** وصرفه **(عن)** إقامة **(مقام)** المحنة و **(البلوى فقبضه)** أي قبض روحه الشّريف **(إليه)** أي إلى قربه الروحاني حال كونه **(كريماً)** شريفاً **(**صلى الله عليه وآله**)** وكان قبضه صلى الله عليه وآله لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأوّل يوم الاثنين، وهو ابن ثلاث وستين سنة على ما في **«الكافي»**، والأشهر أنّه لليلتين بقيتا من صفر، ولم يمض صلى الله عليه وآله حتّى بيّن للناس معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، ولم يتركهم بعده سدى وهملاً، بل خلف فيهم الثقلين على ما دلّ عليه الحديث المتواتر بين الفريقين ويأتي إنشاء الله في **«شرح المختار»** السّادس والثّمانين وغيره من المقام اللائق والمناسب.

ومن جملة طرقه الصّدوق: قال: حدّثنا أحمد بن الحسن القطان، قال: حدثنا الحسن بن عليّ بن الحسين السكري عن محمّد بن زكريا الجوهري عن جعفر بن محمّد بن عمارة عن أبيه عن الصّادق جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن علي عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين عن أبيه عليّ بن أبي طالب سلام الله عليهم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّي مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض كهاتين»**، وضمّ بين سبّابتيه، فقام إليه جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله من عترتك؟ قال صلى الله عليه وآله: **«عليّ والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليهم السلام إلى يوم القيامة»**[1].

وإلى ذلك المعنى أشار عليه السلام بقوله: **(وخلف فيكم)** أي خلّى وراء ظهره مثل **(ما خلفت الأنبياء)** السّابقة والرّسل السّالفة **(في أممها)** من آثار النبوة وأعلام الرّسالة **(إذ لم يتركوهم هملاً)** أي لم يتركوا أممهم يفعلون ما يشاؤون كالإبل التي رعت حيث تشاء ولا راعي لها ليلاً ونهاراً، ويحتمل الجمع على ما مرّ أي لم يتركوهم هاملين **(بغير طريق واضح)** يوصل إلى مقام القرب والزلفى **(ولا علم قائم)** بينهم ينجي بهم عن ورطة الهلاكة والرّدي.

أقول: قد عرفت في الفصل السّادس عشر أنّ بعث الأنبياء والحجج عليهم السلام إنّما هو لأنّ يدعوا الخلق إلى الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، وليكونوا سبباً لانتظام أمر معاشهم

(١) كمال الدين وتمام النعمة/ ٢٤٤.

ومعادهم، لمكان ما جاؤوا به من القانون العدل والشّرع السّواء، ولأجل ذلك مست الحاجة على أن يأتوا من عنده سبحانه بكتاب باق وعلم قائم بعد انقراض قرن النبي المبعوث إلى زمن مجيء بعث النبيّ الآخر، ليكون تذكرة لهم، وكي لا تندرس آثار النبوّة من الأرض ولا تنقطع بفقدانهم، ولا يكون الخلق ينسون ما ذكروا به وغافلين وكالهمل من الحيوان يعملون ما يشتهون، أو كالهمج الرّعاع لكلّ ناعق يصغون، ولمّا كان شرع نبينا ﷺ مستمرّاً إلى يوم القيامة وجب له أن يخلّف لمن يليه ما يكون ذكرى وتذكرة في هذه المدّة المتطاولة.

وقد خلّف الثقل الأكبر مضافاً إلى الثقف الأصغر وهو حبل ممدود من السماء إلى الأرض ينجى به من المهالك ومن فارقه فهالك وبيّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه النّاس كملاً، وكما جعله الله سبحانه خاتماً للأنبياء فقد جعل كتابه خاتماً للكتب، فلا كتاب بعده أحلّ فيه حلالاً وحرّم حراماً، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة فيه شرعكم وخبر من قبلكم وخبر من بعدكم وهو **(كتاب ربّكم)** وجعله النبي ﷺ علماً باقياً وطريقاً قائماً بين أمّته حال كونه **(مبيناً حلاله وحرامه)** كما قال تعالى:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقد يجعل الحلال أعمّ من المباح والمكروه ليكون ذلك مع قوله عليه السلام: **(وفضائله وفرائضه)** إشارة إلى الأحكام الخمسة التي عليها مدار الفقه، لتكون الفضائل إشارة إلى المندوبات، والفرائض إشارة إلى الواجبات، وذلك مثل قوله سبحانه:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

فإنّ ذكر الله سبحانه بعد قضاء الصّلاة وفعلها داخل في المندوباب، وإقامة الصّلاة بعد الإطمئنان موقوتة مفروضة **(وناسخة ومنسوخة)** والمراد بالأوّل الحكم الرّافع للحكم الثابت بالنصّ المتقدّم، ويسمّى الثاني وهو الحكم المرفوع منسوخاً، ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الْمُؤْمِنَٰتِ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

فإنّه منسوخ بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] وبقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

كما يدلّ عليه ما رواه في «الكافي» عن الحسن بن الجهم قال: قال لي أبو الحسن الرّضا عليه السلام: «يا يا محمّد ما تقول في رجل يتزوّج نصرانيّة على مسلمة»؟ قلت جعلت فداك وما قولي بين يدك، قال: «لتقولنّ فإن ذلك تعلم به قولي»، قلت: لا يجوز تزويج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة، قال: «ولم»؟ قلت: يقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١].

قال: «فما تقول في هذه الآية:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾» [المائدة: ٥].

قلت: فقوله: ولا تنكحوا المشركات نسخت هذه الآية فتبسّم عليه السلام ثمّ سكت (ورخصه وعزائمه) الظاهر أنّ المراد بالعزائم الأحكام التي لا يجوز مخالفتها بحال من الأحوال، مثل وجوب الاعتقاد والإقرار بالتوحيد كما قال تعالى[1]:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وبالرّخص ما يجوز مخالفته وأذن في تركه في بعض الأحيان لقيام الدّاعي إلى المخالفة كأكل الميتة في حال المخمصة على ما يدلّ عليه الآية الشّريفة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقريب منه ما قيل: من أنّ الرّخص ما أذن في فعله مع قيام السّبب المحرّم لضرورة أو غيرها، والعزائم ما كان من الأحكام الشّرعيّة جارياً على وفق سببه الشّرعي.

أقول: وذلك مثل صوم شهر رمضان، فإنّه رخصة بمعنى أنّه يجوز تركه في حق الحامل المقرب والمرضعة القليلة اللّبن والشيخ والشيخة، ويجب تركه في حقّ المريض والمسافر، فيكون الإفطار عزيمة لهما و «الصوم ظ» عزيمة في حقّ غيرهم من الجامعين لشرائط الوجوب، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤]

فإنّ الصّيام عزيمة في حقّ المؤمنين، ورخص في تركه لمن كان مريضاً أو على سفر فيجب له الإفطار كما رخص جوازاً في حقّ الذين لهم طاقة وليس لهم وسع من الحامل المقرب ونحوها ممّن ذكرناه، وإليه الإشارة بقوله: وعلى الذين يطيقونه، فإنهم مرخّصون في

(١) تفسير نور الثقلين: ١/ ٤٩٤.

الإفطار مخيرون بين الصّوم والفدية وأن يصوموا خير لهم إن كانوا يعلمون (وخاصّه وعامّه) العام هو اللّفظ الموضوع للدلالة على استغراق أجزائه أو جزئياته، والخاص خلافه والأوّل مثل قوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٥] والثّاني مثل قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ [ياسين: ٢٠].

ويحتمل أن يكون المراد بالعام ما لفظه موضوع للعموم وأريد منه ذلك أيضاً: كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ﴾ [البقرة: ٩٥].

وبالخاص ما لم يرد به ذلك وإن كان اللفظ موضوعاً له، مثل قوله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

فإنّ لفظه عام ومعناه خاص، لأنّها لم تؤت شيئاً كثيراً منها الذكر واللحية وقوله:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ١٢٢]

لأنّ معناه خاص، لأنّهم إنّما فضلوا على أهل زمانهم بأشياء خصهم بها (وعبره وأمثاله) العبر جمع العبرة مأخوذة من العبور الذي هو انتقال الجسم من مكان إلى آخر، ومعناها انتقال ذهن الإنسان من شيء إلى آخر بسبب من الأسباب؛ كانتقاله من المصائب والآلام الواقعة على الغير إلى نفسه فيقدّرها كأنّها نازلة به، فيحصل له بذلك رغبة عن الدنيا وميل إلى العقبى، قال تعالى:

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

وهذا أكثر مواقع استعمالها، وقد يستعمل في الإنتقال من آثار الصّنع والقدرة إلى وجود الصّانع وصفات كماله، قال سبحانه:

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤]. وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦] ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

وأمّا الأمثال فكقوله عزّ من قائل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]

(ومرسله ومحدوده) المراد بالمرسل هو المطلق، وهو على ما عرفه أكثر الأصوليين اللفظ الدّالّ على شائع في جنسه، وفرق الشّهيد في التّمهيد بينه وبين العام، بأن المطلق هو الماهيّة لا بشرط شيء والعام هو الماهيّة بشرط الكثرة المستغرقة، والتّفصيل في ذلك موكول إلى الأصول، والمراد بالمحدود هو المقيد مثال الأوّل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧].

ومثال الثاني قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١] الآية.

(ومحكمه ومتشابهه) قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

(والمحكم) مأخوذ من حاكمت وأحكمت بمعنى رددت ومنعت، والحاكم يمنع الظالم من الظلم، وبناء محكم أي وثيق يمنع من تعرّض له، وسمّيت الحكمة حكمة لمنعها عمّا لا ينبغي، والتّشابه أن يكون أحد الشيئين شبيهاً بالآخر بحيث يعجز الذّهن عن التّميز بينهما، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**حلال بين وحرام بين وشبهات بين ذلك**»، ولما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التّميز بينهما سميّ كلّ ما لا يهتدي الإنسان إليه بالمتشابه إطلاقاً لإسم السّبب على المسبّب، هذا[(١)].

وعرّفهما المحقّقون من العامة والخاصّة بأنّ اللفظ الموضوع لمعنى إمّا أن يحتمل غير ذلك أم لا، الثاني النّص، وعلى الأوّل فإمّا أن يكون أحدهما راجحاً والآخر مرجوحاً أم لا، بل يكون إحتماله لهما على السّواء، فعلى الأوّل الرّاجح الظاهر، والمرجوح المأوّل، والثّاني المشترك أو المجمل، والقدر المشترك بين النّص والظاهر هو المحكم، وبين المجمل والمأوّل هو المتشابه.

فقد ظهر من ذلك أنّ المحكم ما اتّضح دلالته، والمتشابه خلافه وقد حقّقنا الكلام فيهما بما لا مزيد عليه في حواشينا على القوانين مثالا الأوّل قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ومثال المتشابه قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

والتشابه في الأولى من جهة الإشتراك، وفي الثّانية من تعذّر الحقيقة واختفآء قرينة المجاز، ومن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السّور مثل ﴿الم﴾ ﴿وحم﴾ ﴿وطه﴾

---

(١) الحدائق الناظرة: ١٠/٤٢٦.

ونحوها وقوله عليه السلام **(مفسراً جمله)** المراد بالجمل الألفاظ المجملة المحتملة المحتاجة إلى التفسير والبيان، مثل ثلاثة قروء في الآية السابقة المردّدة بين الطهر والمحيض، ومنه على مذهب البعض قوله:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]﴿لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا﴾ [المائدة: ١].

وأمثالها ممّا أضيف فيه التحليل والتّحريم إلى الأعيان فإنّ إرادة الحقيقة فيها غير ممكنة، والمجازات متعدّدة، واللفظ مجمل بالنّسبة إليها ومحتمل لكلّ منها **(ومبيناً غوامضه)** أي معضلاته ومشكلاته.

ثمّ أشار عليه السلام إلى تقسيم الكتاب بنحو آخر بقوله: **(بين مأخوذ ميثاق علمه)** أي على كلّ أحد لا يقبل العذر فيه، وذلك مثل معرفة الصّانع وتوحيده قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

(و) بين **(موسّع على العباد في جهله)** كالمتشابهات التي جعل علمها مخصوصاً بالرّاسخين في العلم، وغيرهم منها في سعة كما قال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]

(وبين مثبت في الكتاب فرضه، ومعلوم في السنة نسخه) هذا الكلام نصّ وصريح في وقوع نسخ الكتاب بالسنّة المتواترة، فيدلّ على جوازه بطريق أولى، لأنّ الوقوع أخصّ من الإمكان، وهو مذهب أصحابنا رضي الله عنهم والمتكلمين من المعتزلة والأشاعرة، وإليه ذهب أصحاب أبي حنيفة ومالك، وخالف فيه الشافعي وأكثر الظاهريّة على المحكي عنهم في **«النهاية»** والحنبلي في إحدى الرّوايتين عنه، والمسألة معنونة في **«الأصول»** ويشهد بوقوعه قوله:

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥ ـ ١٦].

فإنّ مفاد الآية الأولى حبس الفواحش من النّساء في البيوت إلى حين الممات، كما أنّ مفاد الثّانية وجوب إيذاء الآيتين للفاحشة، ثم نسخ ذلك أي الحبس والإيذاء بالجلد الثابت لغير المحصن والمحصنة بالكتاب أعني قوله:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

والرّجم الثابت لهما بالسنة النبويّة.

وأمّا ما قيل: من أنّ الآية الأولى منسوخة بآية الجلد والرّجم الثّابت بالسنة مضاف إلى الجلد زيادة وليس نسخاً له، وأنّ الآية الثانية باقية بحالها غير منسوخة إذ الزّاني المستحق للحدّ يذمّ أولاً ويعنف، ثمّ يحدّ فليست الآيتان منسوختين بالسنة.

ففيه منع إضافة الجلد إلى الرّجم دائماً كمنع إضافة الرّجم إليه كذلك، بل بعض الفاحشات مستحقّة للجلد فقط وبعضها للرّجم فقط وبعضها يجمع لها بين الحدّين على ما فصل في الكتب الفقهية.

وأمّا ما قاله الشّارح البحراني في تقرير الإستشهاد بهما على المدعي: من أنّه كانت الثيب إذا زنت في بدء الإسلام تمسك في البيوت إلى الممات، والبكر تؤذي بالكلام ونحوه بمقتضى هاتين الآيتين، ثمّ نسخ في حقّ الثّيب بالرّجم وفي حق البكر بالجلد والتعزير بحكم السّنة.

ففيه **أولاً**: أن الآية الأولى غير مختصّة بالثّيب بل شاملة لها وللبكر، اللهم إلا أن يقال باستفادة الثّيبوبة من الإضافة، لأنّه سبحانه أضافهن إضافة زوجيّة إذ لو أراد غير الزوجات لقال: من النّساء، ولم يقل: من نسائكم، فالبكر تكون خارجة عنها.

وثانياً: أن السّنة لم تقم على الرجم في حق الثيب مطلقاً بل في حق المحصنة منها فاللازم تبديل لفظ الثّيب في قوله: ثمّ نسخ، في حقّ الثّيب بالمحصنة.

وثالثاً: أنّ ثبوت الجلد للبكر إنّما هو بالكتاب لا بحكم السّنة، لا يقال إنّ غاية ما يستفاد من الكتاب هو جلد الزّانية مائة جلدة، وكون المراد بها هي البكر الغير المحصنة ممّا استفيد من السّنة، فثبوت الجلد في حقّها قد كان بحكم السّنّة فكان النّاسخ هو السّنّة دون الكتاب، لأنّا نقول: إنّ الناسخ هو الكتاب، والسّنة بيان لما هو المراد بالنّاسخ، فافهم.

ورابعاً: أنّ المستفاد من كلامه (ره) أنّ الآية الأولى واردة في حقّ الثيب والآية الثانية في حقّ البكر وهو خلاف ما يستفاد من الأخبار، فإنّ المستفاد منها أن الأولى واردة في حقّ النّساء، والثّانية في حقّ الرّجال.

قال عليّ بن إبراهيم القمي (ره) عند تفسير الآيتين: **فإن في الجاهليّة إذا زنى الرّجل يؤذى والمرأة تحبس في بيت إلى أن تموت، ثمّ نسخ ذلك بقوله: الزّانية والزّاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة**[١].

وروى في **«الوسائل»** عن رسالة المحكم والمتشابه للمرتضى، نقلاً من تفسير النعماني

(١) التفسير الصافي: ٤٣٠.

بإسناده عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام في حديث النّاسخ والمنسوخ، قال: كان من شريعتهم في الجاهليّة أنّ المرأة إذا زنت حبست في البيت وأقيم بادوها حتّى يأتيها الموت، وإذا زنى الرّجل نفوه عن مجالسهم وشتموه وآذوه وعيّروه ولم يكونوا يعرفون غير هذا، قال الله تعالى في أوّل الإسلام ﴿واللاتي يأتين الفاحشة﴾ [النساء: ١٠٥] إلى آخر الآيتين، فلمّا كثر المسلمون وقوى الإسلام واستوحشوا أمور الجاهليّة أنزل الله تعالى: الزّانية والزّاني، الآية، فنسخت هذه آية الحبس والأذى.

أقول: ولعلّ مراده عليه السلام نسخ هذه الآية لتلك الآيتين في حقّ غير المحصن والمحصنة فلا ينافي ما قرّرناه في مقام الإستشهاد كما لا يخفى (و) بين **(واجب في السنّة أخذه، ومرخص في الكتاب تركه)** هذا الكلام كسابقه صريح في عكس سابقه، وهو وقوع نسخ السنّة بالكتاب، فيدل على الجواز بالأولويّة حسبما مرّ وهو مذهب الإماميّة والأشاعرة والمعتزلة وجميع فقهاء العامّة، والمخالف منحصر في الشّافعي على ما حكى عنه، والشّاهد على وقوعه أنّ التّوجّه إلى بيت المقدّس كان واجباً في إبتداء الإسلام بالسنّة خاصّة، لعدم دليل في الكتاب عليه ثمّ نسخ بقوله تعالى:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وأنّ مباشرة النّساء في اللّيل كانت محرّمة على الصّائمين بالسنّة أيضاً، وقد نسخ بقوله تعالى:

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وأنّ صوم عاشوراء كان واجباً بالسنّة، ثمّ نسخ بصوم شهر رمضان بقوله:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥].

كما رواه في «**الوسائل**» عن الحارث العطار، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن صوم عاشوراء فقال: «صوم متروك بنزول شهر رمضان، والمتروك بدعة»، وفيه أيضاً عن زرارة بن أعين ومحمّد بن مسلم جميعاً أنّهما سألا أبا جعفر الباقر عليه السلام عن صوم يوم عاشور، فقال: «كان صومه قبل شهر رمضان، فلمّا نزل شهر رمضان ترك **(وبين واجب لوقته وزائل في مستقبله)** كالنّذر والعهد واليمين الموقت بوقت معيّن، قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال أيضاً: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ﴾»[1] [النحل: ٩١].

(١) وسائل الشيعة: ٧/ ٣٤١.

وتمثيل الشّارح البحراني له بالحجّ الواجب في العمر مرّة لا معنى له، إذ الحجّ وإن كان واجباً في العمر مرّة إلاّ أنّه لا يزول وجوبه في المستقبل، مع عدم الإتيان، بل يجب في العام القابل ويجب قضاؤه مع عدم الإتيان به دوام العمر.

فإن قيل: لعلّ مراده عليه السلام بقوله: وزائل في مستقبله، هو زوال الوجوب بعد الإتيان بالواجب، وعلى ذلك فيصحّ التّمثيل.

قلت: لو بنى على ذلك لاستوى فيه جميع الواجبات سواء كان وجوبه في العمر مرّة أو غير مرّة ضرورة أنّ كلا منها مع الإتيان يوجب سقوط التكليف، فلا يبقى بعد الإتيان والإمتثال وجوب كما هو ظاهر.

لا يقال كيف يمكن إنكار الفرق بين الحجّ وبين صلاة الظهر وأمثالها من الواجبات المكرّرة، مع أنّ الحجّ إذا أتى به مرّة يزول التكليف به بعده، بخلاف الظهر، فإن الإتيان به في ذلك اليوم لا يوجب سقوط الوجوب في الغد.

لأنّا نقول: إن أردت من عدم سقوط الوجوب في الغد عدم سقوط وجوب الظهر المأتي به في ذلك اليوم، ففيه أنّه ساقط قطعاً إذ لا معنى للإمتثال عقيب الإمتثال، وإن أردت عدم سقوط وجوب الظهر الواجب عند زوال الغد، ففيه أنّه واجب مستقبل لا منافاة بين وجوبه وسقوط وجوب ظهر اليوم بعد الإتيان به في وقته، فافهم جيّداً.

ومن العجب جعله الحجّ من الموقتات مع أنه لا وقت له فلو بدّله بصلاة الجمعة ومثل بها كما فعله الشّارح المعتزلي لكان له وجه (و) بين حكم **(مبائن بين محارمه)** جمع محرم كمقعد، والمراد بها المحرّمات التي هي محل الحرمة، والمراد بالحكم المبائن أي المفاصل هو الحرمة، والمعنى وبين حرمة مفاصلة بين محال الحرمة، أي مفرقة بين محرّمات الكتاب بالشدّة والضّعف كما بيّنه بقوله: **(من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه)** فرّق بين الكبير والصغير بأنّ الأوّل ما توعّد عليه بالنّيران، والثاني ما أعدّ له الغفران.

وبهذا صرّح في جمع من الأخبار، مثل ما رواه المفيد عن عباد بن كثير قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الكبائر، فقال: «كلّ ما أوعد الله عليه النار»[1].

وفي «**الوسائل**» عن عليّ بن جعفر في كتابه عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: سألته عن الكبائر التي قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

---

(١) المعاد: ٢/ ٣٠٤.

قال: «التي أوجب الله عليه النار»[1]، وبمعناهما أخبار أُخرى.

وفي بعض الأَخبار أنها سبع، وهو ما رواه في **«الكافي»** عن ابن محبوب، قال كتب معي بعض أصحابنا إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الكبائر كم هي وما هي؟ فكتب عليه السلام: «الكبائر من اجتنب ما أوعد الله عليه النّار كفَّر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً، والسّبع الموجبات قتل النّفس الحرام وعقوق الوالدين وأكل الرّبا والتعرب بعد الهجرة وقذف المحصنة وأكل مال اليتيم والفرار من الزّحف»[2].

ومثله في تعيين السّبع المذكور رواية ثواب الأعمال بإسناده عن أحمد بن عمر الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام، وزيد في بعض الأَخبار على السّبع، ونقص في أخرى واختلف الحاصر لها في السّبع أيضاً في تعيينها، وبالجملة الأخبار كالأَقوال في المقام مختلفة جداً وقد جمعوا بينها بحمل الكبيرة على ما هو كذلك بالنسبة إلى ما هو أصغر منه والصّغيرة على ما هو كذلك بالنسبة إلى ما هو أكبر منه، فالقبلة صغيرة بالنسبة إلى الزّنا، وكبيرة بالنسبة إلى النّظر، وهكذا.

قال الصّدوق: الأَخبار في الكبائر ليست مختلفة، لأَن كلّ ذنب بعد الشّرك كبير بالنّسبة إلى ما هو أصغر منه، وكلّ كبير صغير بالنّسبة إلى الشّرك بالله.

وفي **«مجمع البيان»** عند تفسير قوله تعالى:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

قال: اختلف في معنى الكبيرة، فقيل: كلّ ما أعد الله عليه في الآخرة عقاباً وأوجب عليه في الدّنيا حدّاً فهو كبيرة، وهو المرويّ عن سعيد بن جبير ومجاهد، وقيل: كلّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة، عن ابن عباس وإلى هذا ذهب أصحابنا، فإنّهم قالوا: المعاصي كلّها كبيرة من حيث كانت قبائح لكن بعضها أكبر من بعض، وليس في الذّنوب صغيرة وإنّما تكون بالإضافة إلى ما هو أكبر منه ويستحق العقاب عليه أكثر[3]، هذا.

وأكثر الأَخبار جمعاً واحتواءً لها، ما رواه الصّدوق بإسناده، والطبرسي في **«مجمع البيان»** جميعاً عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني، قال حدثني أبو جعفر الثاني عليه السلام قال سمعت أبي يقول: «سمعت أبي موسى بن جعفر عليه السلام يقول: دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام فلمّا سلم وجلس تلا هذه الآية:

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [الشورى: ٣٧]».

---

(١) الوسائل: ١٥/٣١٦ ح ٢٠٦٢٠.

(٢) الكافي: ٢/٢٧٧.

(٣) بحار الأنوار: ٧٦/١٠، وتفسير مجمع البيان: ٧٠.

ثمّ أمسك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «ما أسكتك»؟ قال: أحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله، فقال عليه السلام: «نعم يا عمرو أكبر الكبائر الإشراك بالله يقول الله:

﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]

وبعده الإياس من روح الله، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]

ثمّ الامن من مكر الله، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ومنها عقوق الوالدين، لأنّ الله سبحانه جعل العاق جبّاراً شقياً، وقتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾ [النساء: ٩٣]

إلى آخر الآية، وقذف المحصنة لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وأكل مال اليتيم، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

والفرار من الزحف، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]

وأكل الرّبا لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]

والسّحر لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والزّنا، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩].

واليمين الغموس(١) الفاجرة لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]

والغلول لأنّ الله عزّ وجل يقول:

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

ومنع الزّكاة المفروضة، لأنّ الله عزّ وجل يقول:

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

وشهادة الزّور وكتمان الشّهادة، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

وشرب الخمر، لأنّ الله عزّ وجلّ نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان، وترك الصّلاة متعمّداً أو شيئاً ممّا فرض الله عزّ وجلّ، لأنّ رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصّلاة متعمّداً فقد برأ من ذمة الله وذمّة رسوله، ونقض العهد وقطيعة الرّحم لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾»(٢)[الرعد: ٢٥].

قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه ويقول: هلك من قال برأيكم ونازعكم في الفضل والعلم **(وبين مقبول في أدناه وموسّع في أقصاه)** كالقيام إلى صلاة اللّيل، فإنّ قليله مقبول والكثير منه موسّع، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٤] وقال أيضاً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

أي صلّوا ما تيسّر من الصلاة في اللّيل، عبّر عن الصلاة بالقرآن، لأنّها تتضمّنه وكقرائة القرآن، فإنّه مرغوب فيها ومن القربات المستحبة قليلها مقبول والنّاس من الكثير منها في سعة، وبها فسّرت الآية الأخيرة في أحد التّفسيرين، وروى في **«مجمع البيان»** عن الرّضا عن أبيه عن جده عليهم السّلام قال: «ما تيسر منه أي من القرآن لكم فيه خشوع القلب وصفاء السّر، هذا(٣).

---

(١) الغموس: دخيرة المعاد: ٢/٣٠٤، وكفاية الأحكام: ٢٩.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٥/١٦١.

(٣) تفسير مجمع البيان: ١٠/١٦٩.

وينبغي تذييل هذا الفصل بأمور مهمة مفيدة

ليزيادة البصيرة الأول

في الإشارة إلى فائدة إنزال القرآن ونعته بلسان الرّمز والإشارة وبيان جملة من القابه وأسمائه.

فأقول: إعلم هداك الله إلى الصّراط المستقيم، وثبّتك على المنهج القويم، أنّ القرآن لما كان أصله مكتوباً:

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨-٧٩].

بلا صحائف ولا أوراق، لكونه قبل وجود الأنفس والآفاق، وكنا في ابتداء وجودنا ضعفاء العقول، ضعفاء الأبصار ولم تكن تصل قوة أنظارنا إلى أطراف هذه الأرقام، وأكناف هذه الكلمات العظام، لتعاظم حروفها، وتعالي كلماتها، وتباعد أطرافها وحافاتها، لا جرم تضرعنا إليه سبحانه بلسان احتياجنا وإستعدادنا، وقلنا: إلهنا ارحم على قصورنا، ولا تؤيسنا عن روحك ورحماتك، واهدنا سبيلاً إلى مطالعة كلماتك، ووصولاً إلى رضوانك وجنّاتك، فتلطف سبحانه بنا بمقتضى عنايته الشّاملة، وحكمته الكاملة ورحمته الواسعة، وقدرته البالغة، فأعطى لنا نسخة مختصرة من أسرار كتبه الجامعة، ونموذجاً وجيزاً من معاني كلماته التّامة.

وهو القرآن الكريم والصّراط المستقيم، والتّنزيل من العزيز الرّحيم، نزّله على النبي الأمين، لإنجاء العباد من سلاسل تعلّقات النفس، ووساوس الشيطان اللّعين، فلو كشف نقاب العزّة عن وجهه، ورفع جلباب العظمة والكبرياء عن سره، لشفي كلّ عليل، وروى كل غليل، وداوى كلّ مريض القلب بعلل الأخلاق الذميمة، وأسقام الجهالات المهلكة، وأنجى المقيدين بسلاسل التعلقات، والمزّينين بحب الأهل والأولاد والشّهوات، وهو مع عظمة قدره وعلوّ منزلته وسموّ مكانه، قد تلبّس بلباس الحروف والأصوات، واكتسى بكسوة الألفاظ والعبارات، رحمة منه سبحانه على العباد، وشفقة على خلقه وتقريباً إلى أفهامهم ومداراة معهم، ومنازلة إلى أذواقهم، وإلاّ فما للتّراب وربّ الأرباب، ففي كلّ حرف منه ألف رمز وإشارة، وفي كلّ لفظ ألف سرّ وكناية.

ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه في «الكافي» بإسناده إلى الصّادق عليه السلام عن آبائه، عنه ﷺ: «أيّها النّاس إنّكم في دار هدنة وأنتم على ظهر سفر والسّير بكم سريع وقد رأيتم اللّيل والنّهار والشّمس والقمر يبليان كلّ جديد ويقربان كلّ بعيد ويأتيان بكل موعود، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز».

قال: فقام المقداد بن الأسود، فقال يا رسول الله: وما دار الهدنة؟ قال: «دار بلاغ

وانقطاع فإذا التبَسَتْ عليكم الفتن كقطع اللّيل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع وماحل[1] مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنّة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدّليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصّفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصّفة نظره، ينج من عطب ويتخلص من نشب فإن التفكر حياة قلب البصير كما يشمي المستنير في الظلمات بالنّور، فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص»، هذا،[2].

ولغاية عظمته ومنتهى جلالته سمّي بأسماء مختلفة ولقب بألقاب كثيرة، لأنّ الشيء كلما ازداد جلالة ورفعة ازداد نعتاً ووصفاً:

فمنها الكتاب قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

ومنها القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٧].

ومنها الفرقان لكونه فارقاً بين الحقّ والباطل، قال سبحانه:

﴿وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومنها النّور، لأنّه نور عقليّ ينكشف به أحوال المبدأ والمعاد وتتراءى منه حقائق الأشياء، ويهتدي به في ظلمات برّ الأجسام وبحر النفوس ويظهر به للسالكين إلى الدار الأخرى طريق الجنة وطريق النار، قال تعالى:

﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة: ١٦].

ومنها الحكمة، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ آل عمران: ١٦٤].

وهي عبارة عن أفضل علم بأحكم معلوم ولا يوصف بها إلاّ المتجرّدون عن جلباب البشريّة، والمنسلخون عن لباس هذا الوجود الكوني ولذلك قال سبحانه بعد قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) الماحل: بحار الأنوار: ٧٤/١٣٤، وشجرة طوبى: ٢/٤٤٢.

(٢) الكافي: ٢/٥٩٩.

ومنها الرُوحُ، قال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

ومنها الحقّ، لأنّه ثابت لا يتغيّر أبداً من حقّ الأمر إذا ثبت، ولأنّه صادق مطابق للواقع لا يعتريه شكّ وريب، قال تعالى:

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [السجدة: ٣].

ومنها الهدى، لأنّه يهدي إلى الصّراط المستقيم، قال تعالى:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومنها الذكر، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

سمّي به لأنّه يتذكر به أمور الآخرة وأحوال المبدأ والمعاد.

ومنها النبأ العظيم، لأنّه يخبر عن عالم الغيب والمغيبات، قال:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨].

ومنها الشّفاء، لأنّه يقع به الشّفاء على الأمراض النفسانيّة والأسقام الباطنية قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

ومنها الرّحمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]

ومنها العليّ الحكيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٤] أمّا كونه عليّاً فلأنّ أصله من العالم العلوي، وأمّا كونه حكيماً فواضح.

ومنها التّنزيل ومنها البشير النّذير ومنها العزيز ومنها الموعظة الحسنة ومنها المجيد إلى غير ذلك من الألقاب والأسماء ولا شكّ أنّ كثرة الأسماء والأوصاف تدلّ على عظم شأن المسمّى والموصوف، والله العالم بجلالة شأن كلامه ورفعة مرتبة كتابه ومقامه.

الثاني

أنّه لا بدّ أن يعلم أنّ القرآن الذي نزل به الرّوح الأمين على سيّد المرسلين صلوات الله عليه وآله أجمعين هل هو ما بين الدّفتين وما وصل إلينا وتناولته أيدينا أم لا، بل الواصل إلينا بعض القرآن وأنّ القرآن الأصيل الذي نزل به جبرئيل قد حرّف وبدل وزيد عليه ونقص عنه، إختلف فيه الأصحاب.

فالذي ذهب إليه أكثر الأخباريّين على ما حكى عنهم السّيد الجزائري في **«رسالة منبع الحياة»** وكتاب **«الأنوار»** هو وقوع التحريف والزّيادة والنّقصان.

وإليه ذهب عليّ بن إبراهيم القمي، وتلميذه محمّد بن يعقوب الكليني، والشيخ

أحمد بن أبي طالب الطبرسي، والمحدث العلامة المجلسي قدس الله روحهم.

وذهب المرتضى على ما حكى عنه، والصدوق في اعتقاداته، والشيخ في **«التّبيان»** والطبرسي في **«مجمع البيان»** إلى عدمه، وعزى ذلك إلى جمهور المجتهدين بل الظاهر من الصّدوق وقيام الإجماع عليه حيث قال في إعتقاداته: إنّ إعتقادنا أنّ القرآن الذي أنزل الله علي نبيّه محمّد ﷺ هو ما بين الدّفتين، وهو ما في أيدي النّاس ليس بأكثر من ذلك، إلى أن قال: ومن نسب إلينا أنّا نقول إنّه أكثر من ذلك فهو كاذب، انتهى[1].

ومثله الشّيخ، حيث ادّعى قيامه على عدم الزّيادة، قال في **«محكي كلامه»**: وأمّا الكلام في زيادته ونقصانه فممّا لا يليق به، لأنّ الزّيادة فيه مجمع على بطلانه، وأمّا النّقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصّحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى (ره)، وهو الظاهر من الرّوايات، غير أنّه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصّة والعامّة بنقصان كثير من آيَ القرآن طريقها الآحاد لا توجب علماً، فالأَولى الإعراض وترك التشاغل بها، لأنّها يمكن تأويلها، انتهى.

ومثله الطبرسي في **«مجمع البيان»** حيث قال: فأمّا الزّيادة فيه فمجمع على بطلانه وأمّا النّقصان فيه فقد روى جماعة من أصحابنا وجماعة من حشويّة العامة، أنّ في القرآن تغييراً ونقصاناً، والصّحيح من مذهب أصحابنا خلافه.

قال: وهو الذي نصره المرتضى واستوفى الكلام فيه غاية الإستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيّات، وذكر في مواضع أنّ العلم بصحّة نقل القرآن كالعلم بالبلدان، والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة، فإنّ العناية اشتدت والدّواعي توفّرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حدّ لم تبلغه فيما ذكرناه لأنّ القرآن معجزة النّبوة ومأخذ العلوم الشّرعية، والأحكام الدّينيّة، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتّى عرّفوا كلّ شيء اختلفوا فيه من إعرابه وقراءة حروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضّبط الشّديد.

وقال أيضاً قدس سره: وإنّ العلم بتفصيل القرآن في صحّة نقله كالعلم بجملته وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنّفة، ككتاب سيبويه والمزنى، فإن أهل العناية بهذا الشّأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما حتّى لو أنّ مدخلاً أدخل في كتاب سيبويه باباً في النّحو ليس من الكتاب لعرف وميّز وعلم أنّه ملحق، وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المزني، ومعلوم أنّ العناية بنقل القرآن وضبطه أضبط من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشّعراء.

---

(١) الاعتقادات: ٨٤، والتفسير الصافي: ١/ ٥٤.

ثم قال الطبرسي: وذكر - أي المرتضى - أنّ من خالف في ذلك من (الإماميّة والحشوية لا يعتد بخلافهم)، فإنّ الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته، انتهى ما ذكره في «**مجمع البيان**»[١].

وهذه العبارات منه وممّن سبق ذكره كما ترى مطبقة في صحّة نقل ما بين الدّفتين وعدم وقوع تغير فيه بوجه من الوجوه، وإنّما اختلفت في دعوى الإجماع.

فالظاهر من الصّدوق كما عرفت قيامه على التغير بوجه، حيث نسب ذلك إلى إعتقاد الإماميّة.

وعبارة الشّيخ والطبرسي حسبما حكيناها صريحة في قيامه على عدم الزّيادة وتبعهما على ذلك من متأخري المتأخّرين السّيد المحقق الكاظمي في «**شرح الوافية**» حيث، قال: إتّفق الكلّ لا تمانع بينهم على عدم الزّيادة، ونطقت به الأخبار، والمرتضى رضي الله عنه وإن لم يدّع الإجماع عليه إلاّ أنّه (ره) حسبما عرفت أشد نكيراً منهم لدعواه العلم الضّروري به.

إذا عرفت ذلك فأقول: المختار عندي هو وقوع النّقصان فيه دون الزّيادة، ولا بأس بذكر أدلة الطرفين وما يمكن الإستدلال به عنهم حتّى يتّضح الحقّ من البين، ولتقدّم أدلة النّافين لكون قولهم مطابقاً للأصل، ثم نتبعها بأدلة المثبتين فنقول:

إحتج النّافون القائلون بالعدم بوجوه، بعضها دالّ على عدم التغيير مطلقاً وبعضها مختص بنفي الزّيادة.

الأول: الإجماع المستفاد من كلام الصّدوق السّابق والمنقول في كلام الشيخ والطبرسي صريحاً حسبما تقدم.

وفيه بعد الغضّ عن حجيّة الإجماع المنقول في نفسه أنّ حجّيته إنّما هو من جهة إفادته الظن وهو لا يكافىء القطع الحاصل من الأخبار المتواترة المفيدة للنقيصة حسبما تعرفها إنشاء الله، نعم هو حجّة على مدّعي الزّيادة، لأنّ الظن الحاصل من أدلتها لا يقاوم الظن الحاصل منه.

الثاني: ما ظهر من كلام المرتضى من توفر الدّواعي وإشتداد العنايات على حفظه وضبطه، لكونه معجزة النّبوة ومأخذ العلوم الشّرعيّة ومدرك الأحكام الدّينية.

وفيه منع توفر الدّواعي على الحفظ والضبط لو لم يقم على التّضييع والتّحريف.

(١) مجمع البيان: ١/ ٤٣.

(٢) نور البراهين: ١/ ٥٢٥.

وما استدل به عليه **أولاً**: من كونه متضمناً للتحدي والإعجاز، **وثانياً**: من كونه مدرك الأحكام الشّرعية لا ينهض على الإثبات:

أما الأول: فلأنّه إنّما يتمّ لو انحصر طريق إثبات النّبوة فيه، كانحصار معجزة عيسى عليه السلام في الطب وإبراء الأكمه والأبرص، ومعجزة موسى ﷺ في العصا واليد البيضاء، وأمّا مع عدم الإنحصار فلا تتوفّر الدّواعي عليه، كأكثر معجزاته لم تتوافر بعد.

فإن قلت: سلمنا عدم انحصار معجزته فيه ولكنه أظهر المعجزات وأقواها وآكدها فتوفّرت الدّواعي عليه.

قلت: إنّ الإعجاز كما يحصل بالجميع كذلك يحصل بالبعض، إذ المناط في الاعجاز هو الفصاحة والبلاغة وغرابة الأسلوب وحسن النّظم، وهي باقية بحالها لم تتغيّر ولم تتبدل، فلا يخرجه وقوع التّحريف فيه عن كونه دليلاً للنّبوة والرّسالة، بل لو فرض والعياذ بالله سقوط جميع آياته عن الإعجاز لكفانا فيه قوله:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٤٤].

فإنّها مع اختصارها وجازتها مشتملة على أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

وحكى أن بعضهم سمع بدويّة تنشد أبياتاً، فقال لها: لله درك ما أفصحك، فقالت: الفصاحة لله وذكرت هذه الآية، وقوله سبحانه:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤] الآية.

لأنها مشتملة على وجوه عديدة من الفصاحة يقطع معها بأنها خارجة عن وسع البشر.

وقد روي أنّ من تكلم من قريش بكلام فصيح كان يعلّقه على الكعبة مباهاة وتفاخراً، فلمّا نزلت الآية هذه ذهبوا في ظلام اللّيل وأخذوا ما علّقوه مخافة الفضاحة والشّناعة.

وفي «**مجمع البيان**» يروى أن كفّار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البرّ ولحوم الضان وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما أرادوا وسمعوا هذه الآية تركوا ما أخذوا فيه وافترقوا[١].

وكيف كان فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ وقوع التّحريف لا يخرجه عن الإعجاز حتّى تبقى

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٥/ ٢٨٢.

النّبوة الخاصّة بلا دليل، لأنّ الفصاحة باقية على حالها بل سائر وجوه الإعجاز أيضاً موجودة فيه كالصّرفة واشتماله على القصص والحكايات، والأخبار عن المغيبات وعدم الإختلاف فيه مع طوله إلى غير هذه من الجهات.

وأما الثاني: فلأنّ المتيقن الثبوت من الأخبار الآتية هو طُرُوّ التحريف على الآيات المشتملة على فضائل أهل البيت وفضائح أهل النّفاق، وأمّا طروه على آيات الأحكام فهو بعد غير ثابت، فالأدلة القطعية الدّالة على جواز العمل بالظواهر واستنباط الأحكام الشّرعية منها محكمة، ولم يثبت مانع منها، فلا يرفع اليد عن مقتضاها، ومجرّد احتمال وجود المانع لا يكفي في رفع اليد عن اقتضاء المقتضيء.

وبالجملة كون القرآن مدرك الأحكام الشّرعيّة إنّما يدل على عدم وقوع التّحريف والنّقصان في آيات الأحكام، ويستلزم توفّر الدّواعي فيها فحسب لا مطلقاً.

وهذا كله مبني على التّنزل والمماشاة، وإلاّ فنقول: إنّ كونه مدركاً للأحكام وإن كان مقتضياً لتوفر الدّواعي إلاّ أنّه إنّما يتمّ إذا لم يمنع منه مانع ولم يمنع المكلفون على أنفسهم اللطف إذ قد تتوفر الدّواعي على تضييعه وكتمانه أكثر منها على ضبطه وإعلانه، نظير الإمام عليه السلام، فإن وصيّة النبي صلى الله عليه وآله بحفظه وإعانته وكونه حجة الله على خلقه وبريّته وأصل أحكامه وشريعته، ممّا يوجب توفّر الدّواعي عليه مع أنّ الدّواعي قد توفّرت على حجبه وغيبته، ونعم ما قال في **«التجريد»**: وجوده لطف وتصرفه لطف آخر، وعدمه منّا.

وبالجملة وقوع التّحريف والنّقصان في آيات الأحكام على فرض ثبوته ليس بأبعد من غيبة الإمام، فكما أنّ المكلفين صاروا سبباً لاختفائه وغيبته، ومانعاً عن تبليغه والرّجوع إليه مع كونه أساس الأحكام وعماد الإسلام، فكذلك صاروا مانعاً عن استنباط الأحكام من القرآن بسبب ما فعلوه فيه من التّحريف وأحدثوه فيه من النّقصان.

الثالث: قوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

فإنّ ورود التّحريف عليه إتيان الباطل من خلفه، وقد أخبر الله سبحانه بعدمه فلا بدّ أن يكون سالماً محفوظاً.

وفيه أنّ المراد بالآية أنّه ليس في إخباره عمّا مضى باطل، ولا في إخباره عمّا يكون في المستقبل باطل، بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها، رواه الطبرسي في **«مجمع البيان»** عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السّلام، وفي تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام

قال: «لا يأتيه الباطل من قبل التوراة ولا من قبل الإنجيل والزّبور ولا من خلفه، لا يأتيه من بعده كتاب يبطله»(١).

الرابع: قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

فإنّ الله سبحانه قد أخبر بكونه حافظاً للقرآن فلا بدّ من كونه محفوظاً عن تطرق التغيير.

قال الفخر الرّازي: في الآية دلالة على كون التسمية آية من كل سورة، لأنّ الله قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له إلاّ أن يبقى مصوناً من الزيادة والنقصان، فلو لم تكن التّسمية من القرآن لما كان القرآن مصوناً من التّغيير، ولما كان محفوظاً عن الزّيادة.

وفيه أنّ كون أصل القرآن الذي نزل به الرّوح الأمين على خاتم النّبيين ﷺ محفوظاً عند الأئمة الذين هم خزّان علم الله وكهوف كتبه يكفي في صدق الآية، ولا دلالة فيها على كون ما بأيدينا محفوظاً كما لا يخفى، مضافاً إلى احتمال أن يكون المراد أنّه سبحانه يحفظه إلى آخر الدّهر بأن بعث جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه بين الخلق، فتحفظه الأمة وتناولته الأيدي قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة لقيام الحجّة به على الخلق وكونه معجزة النبوّة.

هذا كله بعد الغضّ عن رجوع الضّمير في له إلى النّبي ﷺ، وإلاّ كما ذهب إليه الفرّاء فيسقط الإستدلال رأساً، قال ابن الأنباري: لما ذكر الله الإنزال والمنزل والمنزل دلّ ذلك على المنزل عليه، فحسنت الكناية عنه لكونه أمراً معلوماً كما في قوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ١﴾ [القدر: ١].

فإنّ عودت الضّمير إلى القرآن مع عدم تقدّم ذكره لكونه معلوماً من المقام.

الخامس: الأخبار الدّالة على وجوب التمسّك بالقرآن والآمرة بالرّجوع إليه كحديث الثقلين المتواتر بين الفريقين ونحوه، والأخبار المفيدة بعرض الأخبار المتعارضة عليه، مثل مقبولة عمر بن حنظلة وفيها: فما وافق حكمه حكم الكتاب والسّنة وخالف العامة فيؤخذ به ويترك ما خالف حكمه حكم الكتاب والسّنة ووافق العامة.

وما رواه السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قال رسول الله** ﷺ: إنّ على كلّ حقّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه»(٢).

---

(١) تفسير القمي: ٢/٢٦٦.

(٢) المسح على الرجلين/٣٠.

وما رواه عبد الرّحمن بن أبي عبد الله، قال: قال الصّادق عليه السلام: «إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فردّوه» إلى غير هذه ممّا هي قريبة من التواتر أو متواترة(١).

تقريب الإستدلال أن المراد بالكتاب الذي أمرنا بالتمسك به والرّجوع إليه وعرض الأخبار المتعارضة عليه إن كان هو الكتاب المنزل المحفوظ عن تطرّق السّوانح وطرو الزّيادة والنّقصان الذي هو موجود عند الأئمة عليهم السّلام على قول المدّعين للتّحريف، ففيه أنّ التمسّك به والرّجوع إليه ممّا لا يستطاع.

وإن كان المراد به المحرّف المبدل، فلا وجه له، لأنّه لم يبق فيه حجية وليس به وثوق واطمئنان فلا بدّ أن يكون الموجود بأيدينا سالماً محفوظاً.

قال الشيخ في محكي كلامه: ورواياتنا متناصرة بالحثّ على قراءته والتمسك بما فيه وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه وعرضها عليه، فما وافقه عمل عليه وما خالفه يجنب ولم يلتفت إليه.

وقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله رواية لا يدفعها أحد أنّه قال: إنّي مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، وهذا ممّا يدل على أنّه موجود في كلّ عصر، فإنّه لا يجوز أن يأمرنا بالتمسّك بما لا نقدر على التمسّك به، كما أنّ أهل البيت ومن يجب اتّباع قوله حاصل في كل وقت، انتهى كلامه.

وملخّصه: أن ظاهر هذه الأخبار أنّه لم يتطرّق على هذا القرآن الموجود بأيدينا تحريف وتغيير، لأنّ المستفاد منها وجوب الرّجوع إليه إذ الرّجوع إلى غيره غير مقدور، فلا بدّ من كونه محفوظاً من الخلل والنقصان، وإلاّ لم يبق به وثوق واطمئنان، فلا يكون وجه للأمر بالرّجوع إليه.

وفيه أوّلاً أنّ الأخبار المذكورة إمّا نبويّة كخبر الثّقلين وبعض أخبار العرض، وإمّا مرويّة عن الأئمة عليهم السلام.

أمّا الطائفة الأولى فلا دلالة فيها على المدّعي أصلاً، لأنّه صلى الله عليه وآله قد كان أمرنا بالاتباع بالكتاب والعرض عليه ولم يتطرّق عليه تحريف يومئذٍ، كما أمرنا باتباع أهل بيته وعترته وأخذ الأحكام عنهم والإقتباس من أنوارهم، وإنّما طرأت السوانح بعدما اختار الله سبحانه له صلى الله عليه وآله لقائه فمنع المكلفون على أنفسهم اللّطف بسوء إختيارهم، وغيروا كتاب الله ونبذوه وراء

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٢٣٥.

ظهورهم كما تركوا العترة وصاروا سبباً لاعتزالهم وتشريدهم إلى أن انتهى الأمر إلى الغيبة الكبرى، فكما أنّ غيبة الإمام عليه السلام واعتزال الأئمة وقصور اليد عن التمسّك بهم وأخذ الأحكام عنهم النّاشئ من سوء فعل المكلفين لا منافاة له مع أمر النّبي صلى الله عليه وآله بالتمسّك، فكذلك قصور اليد عن اتّباع القرآن المنزل على ما هو عليه لا ينافي أمر النّبي صلى الله عليه وآله باتّباعه والتّمسك به، بل نقول: إنّ أمره صلى الله عليه وآله لم يكن إلاّ لأجل أن لا يفعلوا في كتاب الله ما فعلوه، وأن لا يقصروا في حقّ الآل على ما قصّروا.

وأمّا الطائفة الثانية: فلا دلالة فيها أيضاً، لأنا نقول: إنّ الأئمة عليهم السّلام إنّما أمرونا بالرّجوع إلى هذا الكتاب الموجود بأيدينا مع ما هو عليه من التّحريف والنّقصان لأجل التقية والخوف على أنفسهم وشيعتهم، فيكون ما استفدناه حكماً ظاهراً بالنسبة إلينا، فافهم.

وثانياً أن يجاب عنه بما ذكره في «**الصّافي**»، فإنّه بعد نقله كلام الشّيخ الذي حكيناه قال: أقول: يكفي في وجوده في كلّ عصر وجوده جميعاً كما أنزل الله محفوظاً عند الله ووجود ما احتجنا إليه منه عندنا وإن لم نقدر على الباقي، كما أن الإمام كذلك فإن الثقلين سيان في ذلك، انتهى(١).

وأورد عليه المحقّق الكاظمي (ره) بأنّ التمسّك بهم عبارة عن موالاتهم وسلوك طريقتهم، وذلك ممكن مع الغيبة للعلم بهم، وهذا بخلاف التمسّك بالقرآن، فإنه إنّما يتحقّق بالأخذ والإطلاع عليه، فقد بان الفرق واتّضح الأمر، انتهى.

أقول: والإنصاف أنه إنّ أريد بلفظ (تمسّكتم) في الرّواية، التمسّك التّفصيلي بأن يتمكن من الرّجوع إلى المتمسّك به ويؤخذ عنه الأحكام مهما أُريد، فهو غير ممكن في حال الغيبة الكبرى، لظهور انسداد باب العلم فيه، مع أنّ انفتاحه في حال ظهور الأئمة عليهم السلام أيضاً محلّ كلام حسبما قرّرناه في «**الأصول**»، وإن أريد به التمسّك الإجمالي بأن نرجع إليه بقدر الإمكان ومع عدم التمكن والقدرة نكون في مقام التّسليم والإذعان والعزم على الرجوع مع التمكن والتّوفيق، فالحقّ أنّ الثقلين سيان فيه.

وبالجملة هما في حال الغيبة الكبرى سيان في عدم إمكان التمسّك بهما تفصيلاً وفي إمكانه إجمالاً، بأن يصدّقا وتسلّما ويؤخذ عنهما الأحكام بقدر الوسع والطاقة، والتّفرقة بينهما بحمل التمسّك بالثّقل الأصغر على التمسّك التّفصيلي والتمسّك بالأكبر على التمسّك الإجمالي ممّا لا وجه له.

وثالثاً إنّا نقول: إنّ أهل بيت العصمة سلام الله عليهم لعلمهم بعدم طرو التّحريف على آيات الأحكام رخصونا في الرّجوع والعرض، فبملاحظة ترخيصهم يحصل لنا القطع بكونها

(١) تفسير الصافي: ١/ ٥٥.

محفوظة عن الخلل أو أنهم رخّصونا في ذلك، لعلمهم بأنه ليس في السّاقط ما يرجع إليه أو يعرض عليه إلاّ وفي الثّابت ما يقوم مقامه.

هذا تمام الكلام في أدلة النّافين، وقد عرفت أنّها غير ناهضة على إثبات المدّعي كما لا يخفي.

وحجة القائلين: بالتّحريف أيضاً وجوه كثيرة بعضها مثبت لوقوع مطلق التّحريف، وبعضها مختص باثبات الزّيادة والنّقيصة، وبعضها دال على النّقصان فقط فالأدلة في المقام على ثلاثة أقسام.

القسم الأول: الأَدلة الدّالة على مطلق التّحريف والتغيير فيه.

أولها: ما ذكره السّيد الجزائري من أنّ القرآن كان ينزل منجماً على حسب المصالح والوقائع، وكتاب الوحي كانوا أربعة عشر رجلاً من الصّحابة، وكان رئيسهم أمير المؤمنين عليه السلام، وقد كانوا في الأَغلب ما يكتبون إلاّ ما يتعلّق بالأحكام وإلاّ ما يوحى إليه صلى الله عليه وآله في المحافل والمجامع، وأمّا الذي كان يكتب ما ينزل عليه في خلواته ومنازله فليس هو إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه كان يدور معه كيفما دار، فكان مصحفه أجمع من غيره من المصاحف، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وآله، إلى لقاء حبيبه وتفرّقت الأَهواء بعده، جمع أمير المؤمنين عليه السلام القرآن كما أنزل، وشدّه بردائه وأتى به إلى المسجد، فقال لهم: «هذا كتاب ربّكم كما أنزل»، فقال عمر: ليس لنا فيه حاجة هذا عندنا مصحف عثمان، فقال عليه السلام «لن تروه ولن يراه أحد حتّى يظهر القائم عليه السلام»[1].

أقول: أمّا قوله: فكان مصحفه أجمع من غيره من المصاحف فيشهد به:

ما رواه في **«الكافي»** بإسناده عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سمعته يقول: ما ادّعى أحد أنّه جمع القرآن كلّه كما أنزل إلاّ كذاب، وما جمعه وحفظه كما أنزله الله إلاّ عليّ ابن أبي طالب عليه السلام والأئمة من بعده»[2].

وأمّا ما ذكره من إتيان أمير المؤمنين عليه السلام بالكتاب إلى المسجد فيدل عليه ما رواه الطبرسي في **«الإحتجاج»** عن أبي ذر الغفاري أنّه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله جمع عليّ عليه السلام القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأَنصار وعرضه عليهم لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما فتحه أبو بكر خرج في أوّل صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: يا علي إردده لا حاجة لنا فيه، فأخذه عليّ عليه السلام وانصرف، ثم أحضر زيد بن ثابت وكان قارءاً للقرآن، فقال له عمر: إنّ عليّاً جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأَنصار، وقد أردنا أن تؤلف لنا القرآن

(١) نور البراهين: ١/ ٥٢٨.
(٢) الكافي: ١/ ٢٢٨.

وتسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك المهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإن أنا فرغت من القرآن على ما سألتم وأظهر علي عليه السلام القرآن الذي ألفه أليس قد بطل كلّ ما علمتم؟ قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنت أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما الحيلة دون أن نقتله ونستريح منه، فدبّر في قتله على يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك، فلما استخلف عمر سأل علياً أن يدفع إليهم فيحرّفوه فيما بينهم، فقال يا أبا الحسن: إن كنت جئت به إلى أبي بكر فأتِ به إلينا حتّى نجتمع عليه، فقال عليّ عليه السلام: «هيهات ليس إلى ذلك سبيل إنّما جئت به إلى أبي بكر لتقوم الحجّة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين، أو تقولوا ما جئتنا به، إنّ القرآن الذي عندي لا يمسّه إلا المطهرون والأوصياء من ولدي».

فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال: «نعم إذا قام القائم من ولدي يظهره ويحمل النّاس عليه فتجري السّنة به صلوات الله عليه»[١].

الثاني: ما رواه الطبرسي في الإحتجاج عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في جواب سؤال الزّنديق حيث سأله عن تصريح الله سبحانه بهفوات الأنبياء، وزلاّتهم مثل قوله:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

ونحوه، وتوريته أسماء من اغترّ وفتن خلقه وضل وأضل وتعبيهر عنهم بالكناية مثل قوله:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧].

ونحوه، فقال عليه السلام: «إنّ الكناية عن أسماء ذو الجرائر العظيمة من المنافقين في القرآن ليست من فعله تعالى، وإنّهما من فعل المغيرين والمبدّلين الذين جعلوا القرآن عضين، واعتاضوا الدّنيا من الدّين، وقد بيّن الله قصص المغيرين بقوله:

﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]، وبقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ﴾، وبقوله: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]»[٢].

بعد فقد الرّسول صلى الله عليه وآله، وما يقيمون به أود باطلهم حسب ما فعلته اليهود والنصارى بعد فقد موسى وعيسى عليهما السلام من تغيير التوراة والإنجيل وتحريف الكلم عن مواضعه وبقوله:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨].

---

(١) تفسير الصافي: ٥/١٢٩.

(٢) الاحتجاج: ١/٣٧٠.

يعني أنهم أثبتوا في الكتاب ما لم يقله الله ليلبسوا على الخليقة فأعمى الله قلوبهم حتى تركوا فيه ما دلّ على ما أحدثوه فيه وحرفوا منه، وبيّن عن أفكهم وتلبيسهم وكتمان ما علموه منه، ولذلك قال لهم:

﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ﴾ [آل عمران: ٧١] وضرب مثلهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

فالزّبد في هذا الموضع كلام الملحدين الذين أثبتوه في القرآن، فهو يضمحلّ ويبطل ويتلاشى عند التّحصيل، والذي ينفع النّاس منه، فالتّنزيل الحقيقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والقلوب تقبله والأرض في هذا الموضع هي محلّ العلم وقراره، وليس يسوغ مع عموم التقية التّصريح بأسماء المبدّلين، ولا الزّيادة في آياته على ما أثبتوه من تلقائهم في الكتاب لما في ذلك من تقوية حجج أهل التعطيل والكفر والملل المنحرفة من قبلتنا وإبطال هذا العلم الظاهري الذي قد استكان له الموافق والمخالف بوقوع الاصطلاح على الإئتمار لهم والرّضا بهم، ولأنّ أهل الباطل في القديم والحديث أكثر عدداً من أهل الحق، ولأنّ الصّبر على ولاة الأمر مفروض بقول الله تعالى لنبيّه ﷺ:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وإيجابه مثل ذلك على أوليائه وأهل طاعته بقوله:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ثم قال عليه السلام: «فحسبك من الجواب عن هذا الموضع ما سمعت، فإنّ شريعة التقية تحظر بأكثر منه»[١].

الثالث: ما رواه عليّ بن إبراهيم القمي عن الصّادق عليه السلام في قوله تعالى:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

أنه قال: «كيف يحفظ الشيء من أمر الله وكيف يكون العقب من بين يديه»؟ فقيل له كيف ذلك يا ابن رسول الله؟ فقال: «إنّما أنزلت له معقّبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله».

الرابع: ما رواه عنه عليه السلام أيضاً في قوله:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

(١) الإحتجاج: ١/ ٣٧١.

«أنّ الآية هكذا نزلت لقد تاب الله بالنّبي على المهاجرين».

الخامس: ما رواه أيضاً قال: إنه قرأ على أبي عبد الله عليه السلام:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «لقد سألوا الله عظيماً أن يجعلهم للمتقين اماماً»، فقيل يا ابن رسول الله كيف ذلك؟ فقال عليه السلام: «إنّما نزلت: واجعل لنا من المتّقين إماماً».

السادس: ما رواه أيضاً عن ابن أبي عمير عن ابن سنان قال: قرأت على أبي عبد الله عليه السلام:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «خير أمّة يقتلون أمير المؤمنين والحسن والحسين ابني علي عليهم السّلام»، فقال القارىء: جعلت فداك كيف نزلت؟ فقال عليه السلام: «نزلت: خير أئمة اخرجت للنّاس، ألا ترى مدح الله لهم في آخر الآية:

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾»[1] [آل عمران: ١١٠].

السابع: ما رواه السّيد المعتمد السّيد هاشم البحراني عن المفيد في كتاب الاختصاص، قال: وروي عن جابر الجعفي قال: كنت ليلة من بعض اللّيالي عند أبي جعفر عليه السلام فقرأت هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

فقال: «مه يا جابر كيف قرأت، يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله»، قال: قال: قلت فكيف أقرأ جعلني الله فداك؟ قال: هذا تحريف يا جابر، قال: فقال عليه السلام: «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصّلاة فامضوا إلى ذكر الله، هكذا نزلت يا جابر، لقد كان يكره أن يعدو الرّجل إلى الصّلاة يا جابر لم سمّيت الجمعة يوم الجمعة؟ قال»: قال: قلت: تخبرني جعلني الله فداك، قال: «أفلا أخبرك بتأويله الأعظم»؟ قال: قلت: بلى جعلني الله فداك، قال: فقال: «يا جابر سمّى الله الجمعة جمعة لأنّ الله عزّ وجلّ جمع في ذلك الأولين والآخرين وجميع ما خلق الله من الجنّ والإنس وكلّ شيء خلق ربّنا والسّماوات والأرضين والبحار والجنّة والنّار وكلّ شيء خلق الله في الميثاق فأخذ الميثاق منهم له بالرّبوبيّة ولمحمّد صلى الله عليه وآله بالنّبوة ولعلي عليه السلام بالولاية، وفي ذلك اليوم قال الله للسّماوات والأرض:

(١) بحار الأنوار: ٨٩/ ٦٠.

﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فسمّى الله ذلك اليوم الجمعة، لجمعه فيه الأولين والآخرين، ثم قال عزّ وجلّ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة من يومكم هذا الذي جمعكم فيه والصّلاة أمير المؤمنين عليه السلام، يعني بالصّلاة الولاية، وهي الولاية الكبرى ففي ذلك اليوم أتت الرّسل والأنبياء والملائكة وكلّ شيء خلق الله والثقلان الجنّ والإنس والسّماوات والأرضون والمؤمنون بالتلبية لله عزّ وجلّ، فامضوا إلى ذكر الله وذكر الله أمير المؤمنين عليه السلام، وذروا البيع، يعني الأوّل، ذلكم، يعني بيعة أمير المؤمنين وخلافته، خير لكم من بيعة الأوّل وولايته، إن كنتم تعلمون، فإذا قضيت الصّلاة يعني بيعة أمير المؤمنين، فانتشروا في الأرض يعني بالأرض الأوصياء أمر الله بطاعتهم وولايتهم، كما أمر بطاعة الرّسول وطاعة أمير المؤمنين كنى الله في ذلك من أسمائهم فسمّاهم بالأرض، وابتغوا من فضل الله»، قال جابر: وابتغوا من فضل الله، قال: «تحريف هكذا نزلت وابتغوا من فضل الله على الأوصياء، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، ثم خاطب الله عزّ وجلّ في ذلك الموقف محمّداً صلى الله عليه وآله، فقال يا محمّد: فإذا رأوا الشّكاك والجاحدون تجارة، يعني الأوّل أو لهواً، يعني الثّاني، انصرفوا إليها، قال: قلت انفضّوا إليها قال: تحريف هكذا نزلت، وتركوك، مع عليّ قائماً، قل يا محمّد ما عند الله، من ولاية عليّ والأوصياء، خير من اللّهو والتجارة، يعني بيعة الأوّل والثّاني للذين اتقوا»، قال: قلت: ليس فيها للذين اتقوا، قال: فقال: «بلى هكذا نزلت الآية، وأنتم هم الذين اتّقوا، والله خير الرّازقين»[١].

الثامن: ما رواه الصّدوق في التوحيد بإسناده عن عليّ بن الحسن بن عليّ بن فضّال عن أبيه عن الرّضا عليّ بن موسى عليهما السّلام قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

قال: «يقول: هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله بالملائكة في ظلل من الغمام، وهكذا نزلت»[٢]، والعجب من الصّدوق مع روايته ذلك كيف أنكر وقوع التّحريف فيه.

القسم الثاني: الأدلة الدالة على وجود الزيادة والنّقصان.

أولها: ما رواه في «**الصافي**» عن العياشي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لولا أنّه زيد في كتاب الله ونقص ما خفي حقّنا على ذي حجى[٣]»[٤].

(١) الإختصاص/ ١٢٩.

(٢) التوحيد: ١٦٣ ح ١ باب ٢٠.

(٣) الحجى: العقل.

(٤) تفسير العياشي: ١/ ١٣.

الثاني: ما رواه العيّاشي عنه عليه السلام أيضاً أنّ القرآن قد طرحت منه آي كثيرة ولم يزد فيه إلا حروف أخطأت به الكتبة وتوهّمتها الرّجال.

الثالث: ما في تفسير عليّ بن إبراهيم في قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ٧﴾ [الأحزاب: ٧].

قال: هذه الواو زيادة في قوله ومنك، وإنّما هو منك ومن نوح.

القسم الثالث: الأدلة الدّالة على وجود النقصان فقط، وهي كثيرة.

أولها: ما رواه في **«الكافي»** عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ القرآن الذي جاء به جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم سبعة عشر ألف[١] آية»[٢]، ووجه دلالته أنّ الموجود بأيدينا من القرآن لا يزيد على سبعة آلاف آية، وعلى ما ضبطه الشّيخ الطبرسي ستّة آلاف ومأتا آية وستّة وثلاثون آية.

الثاني: ما رواه الطبرسي في الإحتجاج عن علي عليه السلام في جواب الزّنديق الذي احتجّ عليه بتناقض ظواهر بعض الأيات أنّه عليه السلام قال: وأمّا ظهورك على تناكر قوله:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

وليس يشبه القسط في اليتامى نكاح النّساء ولا كلّ النّساء أيتام، فهو ممّا قدّمت ذكره من إسقاط المنافقين في القرآن بين القول في اليتامى وبين نكاح النساء من الخطاب والقصص أكثر من ثلث القرآن، وهذا ما أشبهه ممّا أظهرت حوادث المنافقين فيه لأهل النّظر والتّأمل ووجد المعطلون وأهل الملل المخالفة للإسلام مساغاً إلى القدح في القرآن، ولو شرحت لك كلما أسقط وحرّف وبدّل ممّا يجري هذا المجرى لطال وظهر ما يحظر التّقية إظهاره من مناقب الأولياء ومثالب الأعداء.

الثالث: ما رواه في **«الكافي»** عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال دفع إليّ أبو الحسن عليه السلام مصحفاً، فقال: «لا تنظر فيه»، ففتحته وقرأت فيه: لم يكن الذين كفروا، فوجدت فيها إسم سبعين من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، قال: «فبعث إليّ ابعث إليّ بالمصحف»[٣].

---

(١) المعروف الآن أن في القرآن ستة آلاف وستمائة وستون آية.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٦٤ ح ٢٨.

(٣) الكافي: ٢/ ٦٣١.

الرابع: ما رواه أبو عبيدة بسنده عن ابن عمر قال: لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كلّه وما يدريه ما كلّه، قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر.

وبسنده عن عائشة، قال: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان الرّسول ﷺ مأتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلاّ على ما هو الآن.

وبسنده عن زر بن حبيش، قال: قال لي أبيّ بن كعب: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: اثنتين وستين آية أو ثلاثاً وستّين آية، قال: إن كانت لتعدل سورة البقرة.

وفي «**الكشاف**»: عن زر مثله إلاّ أنّ فيه قلت ثلاثاً وسبعين آية، قال فوالذي يحلف به أبيّ بن كعب ان كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرّجم، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم.

الخامس: ما رواه في كتاب تذكرة الأئمة عن تفسير الكازر، والمولى فتح الله عن مصحف ابن مسعود، وهو آيات كثيرة في سورة متعددة.

ففي المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

وفي الرعد: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وفي الشعراء: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ورواه القمي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام.

وفي الصافات قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۞ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٥].

وفي النساء قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤].

وفي الزمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] ورواه الطّبرسي أيضاً عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

وفي طه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ [طه: ١١٥] كَلِماتٍ في مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَينِ وَالتِّسْعَةِ مِنْ ذُرِّيَّةِ الْحُسَينِ ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ورواه أيضاً في «**الكافي**» عن الصّادق عليه السلام إلاّ أنّ في آخره والأئمّة من ذرّيتهم بدل قوله والتّسعة، ثم قال هكذا والله نزلت على محمّد ﷺ.[1]

وفي النجم قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [النجم: ١٠].

---

(١) الكافي: ٤١٦/١.

وفي آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَمَا تَحتَ الثَّرَىٰ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ﴿نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الأحزاب قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ومنها سورة الولاية: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالنَّبِيِّ وَالْوَلِيِّ اللَّذَيْنِ بَعَثْنَاهُمَا يَهْدِيانِكُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ نَبِيٌّ وَوَلِيٌّ بَعْضُهُمَا مِنْ بَعْضٍ، وَأَنَا الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ، إِنَّ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ لَهُمْ جَنَاتُ النَّعِيمِ، فَالَّذِينَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا كَانُوا بِآيَاتِنَا مُكَذِّبِينَ، إِنَّ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مَقَامٌ عَظِيمٌ، نُودِيَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلْمُرْسَلِينَ، ما خَلَفَهُمُ الْمُرْسَلِينَ إلاّ بِالْحَقِّ، وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُنْظِرَهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَعَلِيٌّ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

ومنها سورة النّورين، تركت ذكرها لكونها مع طولها مغلوطة لعدم وجود نسخة مصحّحة عندي يصحّ الرّكون إليها.

السادس: ما رواه عليّ بن إبراهيم القمي في تفسيره وهو أيضاً كثير.

منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

ومنها قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٨].

ومنها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣]

السابع: ما رواه في «**الصافي**» عن العيّاشي عن الباقر عليه السلام في قوله:

«﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١].

أنها نزلت: وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين»[1].

الثامن: ما فيه عنه في قوله: (فبدل الذين) أنها نزلت فبدّل الذين ظلموا آل محمّد حقهم

(١) تفسير الصافي: ١/٣٥١.

غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا آل محمّد حقهم رجزاً من السّماء بما كانوا يفسقون.

التاسع: ما رواه في «**الكافي**» عن أبي بصير مقطوعاً في حديث طويل، ثمّ أتى الوحي إلى النّبي ﷺ فقال:

«سَئَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ واقِعٍ لِلكافِرينَ بِوِلاَيَةِ عَلِيٍّ لَيسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللّهِ ذِي الْمَعَارِجِ».

قال: قلت: جعلت فداك إنّا لا نقرأها هكذا، فقال: «هكذا والله نزل بها جبرئيل على محمد ﷺ، وهكذا هو والله مثبت في مصحف فاطمة عليها السلام، إلى غير ذلك ممّا يقف عليه المتتبع المجدّ وأكثر التّفاسير احتواء لذلك تفسير القمي»، وفيما ذكرناه كفاية لمن طلب الحقّ، لأنّها على الإختلاف مؤدياتها متفقة على الدلالة على النقيصة في الكتاب فيحصل منها العلم الضّروري بها[1].

والمناقشة فيها بأنّ الزّيادات المذكورة فيها إنّما هي من قبيل الأَحاديث القدسية لا القرآن، فبعيدة جدّاً كما أن احتمال أن يكون النّاقصات من قبيل التفاسير وبيان المعاني كذلك، لما عرفت من التّصريح في بعضها بأنّها هكذا نزلت، وفي بعضها هكذا والله نزلت، ومع ذلك التّصريح كيف يمكن القول بكون المنقوصات من قبيل التفاسير كما توهّمه الصّدوق.

والإنصاف أنّ القول بعدم النّقص فيه ممّا يمكن إنكاره بعد ملاحظة الأَدلة والأَخبار التي قدمناها، فإنّها قد بلغت حد التّواتر، مضافاً إلى أخبار ورود الأمة على الحوض وقولهم بعد سؤال النّبي ﷺ عنهم كيف خلّفتموني في الثّقلين: أمّا الأَكبر فحرقناه (فبدلناه خ ل) وأمّا الأَصغر فقتلناه، وهذه الأَخبار أيضاً متواترة، ومع التّنزل عن بلوغها حد التواتر نقول: إنّه بانضمامها إلى الأَخبار الأول لا محاولة تكون متواترة مفيدة للعلم بثبوت النّقصان، إذ لو كان القرآن الموجود بأيدينا اليوم بعينه القرآن المنزل من السّماء من دون أن يكون فيه تحريف ونقصان، فأيّ داع كان لهم على الطبخ والإحراق الذي صار من أعظم المطاعن عليهم.

فإن قلت: إذا ثبت وقوع التّغيير في القرآن فكيف يجوز لنا قراءته؟ بل اللازم قراءته على نحو ما أنزل فيما اطلعنا عليه.

قلت: إنّ الأئمة عليهم السلام رخصونا على ما هو الموجود الآن ولم يأذنوا بقراءته على نحو ما أنزل.

يدلّ على ذلك ما رواه في «**الكافي**» مرسلاً عن سهل بن زيادة عن محمّد بن سليمان عن

---

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٨١.

بعض أصحابه عن أبي الحسن عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك إنا نسمع الآيات في القرآن ليس هي عندنا كما نسمعها ولا نحسن أن نقرأها كما بلغنا عنكم فهل نأثم؟ فقال عليه السلام: «لا، اقرؤوا كما تعلّمتم فسيجيئكم من يعلمكم»(١).

وفيه أيضاً بإسناده إلى سالم بن سلمة، قال: قرأ رجل على أبي عبد الله عليه السلام وأنا أستمع حروفاً من القرآن ليس على ما يقرئها النّاس، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «مه كفّ عن هذه القراءة- واقرأ كما يقرأ النّاس حتّى يقوم القائم عليه السلام: فإذا قام قرأ كتاب الله على حدّه واخرج المصحف الذي كتبه علي عليه السلام.(٢)

فإن قلت: سلمنا وجود التّحريف فيه فلم لم يصحّحه أمير المؤمنين عليه السلام حيثما جلس على سرير الخلافة مع أنّه لم يكن منه مانع يومئذٍ.

قلت: إنّه عليه السلام لم يتمكن منه لوجود التقية المانعة من حيث كونه مستلزماً للتشنيع على من سبقه كما لم يتمكن من إبطال صلاة الضحى، ومن إجراء متعتي الحجّ والنّساء، ومن عزل شريح عن القضاوة، ومعاوية عن الإمارة، وقد صرَّح بذلك في رواية الإحتجاج السّابقة في مكالمته عليه السلام مع الزّنديق.

مضافاً إلى اشتمال عدم التّصحيح على مصلحة لا تخفى، وهو أن يتمّ الحجة في يوم القيامة على المحرّفين المغيرين من هذه الجهة أيضاً بحيث يظهر شناعة فعلهم لجميع أهل المحشر، وذلك بأن يصدر الخطاب من مصدر الرّبوبيّة إلى أمّة محمّد صلى الله عليه وآله، ويقال لهم: كيف قرأتم كتابي الذي أنزلته إليكم؟ فيصدر عنهم الجواب، بأنّا قرأناه كذا وكذا، فيقال لهم: ما أنزلناه هكذا فلم ضيعتموه وحرّفتموه ونقصتموه؟ فيجيبوا أن يا ربّنا ما قصّرنا فيه ولا ضيّعناه ولا فرطنا، بل هكذا وصل إلينا، فيخاطب حملة الوحي ويقول لهم: أنتم قصّرتم في تبليغ وحيي وأداء أمانتي؟ فيقولوا ربّنا ما فرطنا في وحيك من شيء وإنّما فرط فيه فلان وفلان بعد مضي نبيّهم، فيظهر شناعه فعلهم وفضاحة عملهم لجميع أهل المحشر ويستحقّون بذلك الخزي العظيم والعذاب الأليم مضافاً إلى إستحقاقهم للنّكال والعقاب بتفريطهم في أمر الرّسالة وتقصيرهم في غصب الخلافة.

فإن قلت: سلّمنا أنّ عليّاً عليه السلام لم يتمكن من تصحيحه وأنّ بقائه على التّحريف كان مشتملاً على المصلحة التي ذكرتها، ولكن بقي هنا شيء وهو أنّ الأئمة لَمَ لمْ يدفعوا ما عندهم من الكتاب المنظم المحفوظ السّالم عن التّحريف إلى الأمّة وما كان المانع لهم من ذلك؟

قلت: السّر في عدم إظهارهم عليهم السلام له وجوه كثيرة:

---

(١) الكافي: ٢/ ٦١٩.

(٢) الحدائق الناظرة: ٨/ ١٠٠.

منها: أنّه لو أظهر ذلك الكتاب مع بقاء هذا الكتاب المحرّف لوقع الإختلاف بين النّاس ويكون ذلك سبباً لرجوع النّاس إلى كفرهم الأصلي وأعقابهم القهقري.

ومنها: أنّ شوكة النّفاق يومئذٍ كان أكثر فلو أظهروه لأحدث المنافقون فيه مثل ما أحدثه رئيسهم قبلهم.

ومنها: أنّه مع إظهاره أيضاً لا يكون له رواج، لمكان شهرة ذلك المحرّف إلى غير هذه من الأسرار التي تستفاد من الأخبار.

وكيف كان فقد ظهر وتحقّق ممّا ذكرنا كله أنّ حدوث التّحريف والنّقصان في القرآن ممّا لا غبار عليه.

وأمّا الزّيادة ففيها تردّد والأقوى العدم إذ الدّليل عليها ليس إلاّ عدة روايات وهي لا تقاوم إلا الجماعات التي ادّعاها الشّيخ والصّدوق والطبرسي والمحقّق الكاظمي.

فإن قلت: قد ظهر من كلام الصّدوق الإجماع على عدم النقيصة أيضاً، فإن كان الاجماع المنقول حجّة فهو حجّة في المقامين كليهما، وإلاّ فلا يعبأ به في شيء منهما والتّفرقة بينهما بالعمل به في أحدهما دون الآخر شطط من الكلام.

قلت: الإجماع المنقول إنّما هو معتبر لأجل إفادته الظن، وهو لا يكافيء القطع الحاصل من الأخبار المتواترة الدّالة على النّقيصة، ولكن لما كان الظنّ الحاصل منه أقوى من الظن الحاصل من أدلة الزّيادة لا جرم رجحناه عليها.

هذا تمام الكلام في المقام، وقد تكلمنا فيه بمقتضى أفهامنا، والله العالم بحقائق الأمور.

التذليل الثالث

إعلم أنه قد تواترت الأخبار عن العترة الزّاكية وأجمعت الأصحاب من الفرقة النّاجية الأماميّة على أنّ قيم القرآن بعد النّبي ﷺ أي العالم بتفسير محكماته وتأويل متشابهاته، والحافظ لأسراره وآياته وأنوار بيّناته، هو عليٌّ والطيّبون من أولاده عليهم السلام، وقد طابق العقل في ذلك النّقل فكلاهما متطابقان في علمهم بالقرآن.

أمّا العقل فلأنه قد علمت عند شرح قوله عليه السلام: ولم يخل الله خلقه من نبيّ مرسل أو كتاب منزل أو حجّة لازمة، أنّ الأرض لا تبقى بلا حجّة من بعد النبيّ ﷺ، إذ الحاجة من الخلق ماسّة دائماً إلى وجود من يقرّبهم إلى الله ويهديهم إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة

الحسنة، فلا بدّ أن يكون ذلك الحجة عالماً بجميع القرآن، إذ القرآن لا يكون بنفسه حجّة من دون قيّم، ضرورة أن القرآن ليس كتاباً يقوم بعلمه عامة أهل النّظر من الفضلاء، فضلاً عن غيرهم كيف؟ وأكثر أرباب النظر عاجزون عن مطالعة كتب الحكماء وفهمها، ككتب أفلاطون وأرسطو فيكف يمكنهم أن يعلموا القرآن ويفهموه، وهو كتاب الهيّ وكلام ربّاني نسبته إلى سائر الكتب كنسبة الرّب تعالى إلى مصنّفي تلك الكتب، وهو مشتمل على رموز وبطون وأسرار ونكات، فلا يهتدي إلى نوره إلاّ بتأييد إلهيّ وإلهام رباني وتعليم نبويّ، ولم نجد أحداً يقول: إنه علم القرآن كله، وإنّه قيّمه إلاّ علياً وأولاده المعصومين سلام الله عليهم اجمعين فَهُم قيّم القرآن وعارفوه.

وفي رواية «**الكافي**» عن منصور بن حازم، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إلى أن قال: وقلت للنّاس: تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان هو الحجة من الله على خلقه، قالوا: بلى، قلت: فحين مضى رسول الله صلى الله عليه وآله من كان الحجة على خلقه؟ فقالوا: القرآن، فنظرت فإذا هو يخاصم فيه المرجئي والقدري والزّنديق الذي لا يؤمن به حتّى يغلب الرّجال بخصومته، فعرفت أن القرآن لا يكون حجة إلاّ بقيم، فما قال فيه من شيء كان حقّاً، فقلت لهم، من قيّم القرآن؟ فقالوا: ابن مسعود قد كان يعلم، وعمر يعلم، وحذيفة يعلم، قلت: كله؟ قالوا: لا فلم أجد أحداً يقول: إنه يعرف ذلك كله إلاّ عليّاً صلوات الله عليه، وإذا كان الشيء بين القوم، فقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري وقال هذا: أنا أدري فاشهد أنّ علياً عليه السلام كان قيّم القرآن، وكان طاعته مفروضة، وكان الحجة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ ما قال في القرآن فهو حقّ فقال عليه السلام رحمك الله[1].

وأما النّقل فقد روي عن ابن عباس أنه كان ليلة من الليالي عند أمير المؤمنين عليه السلام وهو يفسّر فاتحة الكتاب، فرأى نفسه عنده كجرّة عند بحر عظيم، وهو عليه السلام قال «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب»[2].

وفي «**غاية المرام**» عن محمّد بن الحسن الصفّار بإسناده عن الأصبغ بن نباتة، قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كسرت لي وسادة فقعدت عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يصعد إلى الله يزهر والله ما نزلت آية في كتاب الله في ليل أو نهار إلاّ وقد علمت فيمن انزلت، ولا أحد مرّ على رأسه الموسى إلاّ وقد نزلت فيه آية من كتاب الله تسوق إلى الجنة أو إلى النار»، فقام إليه رجل، فقال يا أمير المؤمنين عليه السلام ما الآية التي نزلت فيك؟ قال عليه السلام له: «أما سمعت الله يقول:

(١) الكافي: ١/١٦٩.

(٢) بحار الأنوار: ٨٩/٩٣.

«أَفَمَنْ كانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ».

فرسول الله ﷺ على بينة من ربّه، وأنا شاهد له فيه وأتلوه معه»[١].

وفي «غاية المرام» أيضاً عن الشيخ في «أماليه» بإسناده عن عليّ عليه السلام، قال: «سلوني عن كتاب الله، فوالله ما أنزلت آية من كتاب الله عزّ وجلّ في ليل أو نهار ولا مسير ولا مقام إلاّ وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ، وعلّمني تأويلها»، فقام ابن الكوّا، فقال يا أمير المؤمنين: فما كان ينزل عليه وأنت غائب عنه؟ قال: «كان يحفظ عليّ رسول الله ﷺ ما كان ينزل عليه من القرآن وأنا عنه غائب حتّى أقدم عليه فيقرئنيه ويقول لي يا عليّ أنزل الله عليّ بعدك كذا وكذا، وتأويله كذا وكذا فيعلّمني تأويله وتنزيله»[٢].

وفي «البحار» عن «بصائر الدّرجات» بإسناده عن إبراهيم بن عبد الحميد عن أبيه عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام، قال: قلت له جعلت فداك: النبي ﷺ ورث علم النّبيين كلهم؟ قال لي: «نعم» قلت: من لدن آدم إلى أن انتهى إلى نفسه، قال: «نعم»، قلت ورثهم النّبوة وما كان في آبائهم من النّبوة والعلم، قال: «ما بعث الله نبيّاً إلاّ وقد كان محمد ﷺ أعلم منه»، قال: قلت: إنّ عيسى ابن مريم كان يحيي الموتى بإذن الله، قال: «صدقت»، وسليمان بن داود كان يفهم كلام الطير، قال: «وكان رسول الله ﷺ يقدر على هذه المنازل»، فقال: «إن سليمان بن داود قال للهدهد حين فقده وشكّ في أمره:

﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

وكان المردة والرّيح والنمل والنّاس والجنّ والشّياطين له طائعين، وغضب عليه، فقال:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢١].

وإنّما غضب عليه لأنّه كان يدله على الماء فهذا وهو طير قد أُعطي ما لم يعط سليمان، وإنّما أراد ليدله على الماء فهذا لم يعط سليمان وكانت المردة له طائعين ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء، وكانت الطير تعرفه، إنّ الله يقول في كتابه:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

فقد ورثنا نحن هذا القرآن فعندنا ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان ويحيى به الموتى بإذن الله، ونحن نعرف ما تحت الهواء وإن كان في كتاب الله لآيات لا يراد بها أمر من الأمور التي أعطاها الله الماضين النّبيين والمرسلين إلاّ وقد جعله الله ذلك كله لنا في أمّ الكتاب، إنّ

---

(١) بصائر الدرجات/ ١٥٢.

(٢) بحار الأنوار: ٨٩/ ٧٩.

الله تبارك وتعالى يقول:

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٧٥﴾ [النمل: ٧٥] ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

فنحن الذين اصطفانا الله، فقد ورثنا علم هذا القرآن الذي فيه تبيان كلّ شيء»[١].

وفي «**الكافي**» بإسناده عن عبد الرحمٰن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

قال: ففرّج أبو عبد الله عليه السلام بين أصابعه فوضعها في صدره، ثم قال: «وعندنا والله علم الكتاب كله»[٢].

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن اذينة عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً قال: «الذي عنده علم الكتاب، هو أمير المؤمنين عليه السلام» وسئل عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم أم الذي عنده علم الكتاب؟ فقال عليه السلام: «ما كان علم الذي عنده علم من الكتاب عند الذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر»[٣].

وفي «**غاية المرام**» عن محمّد بن الحسن الصّفار بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قد ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أعلم كتاب الله، وفيه بدؤ الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة وفيه خبر السّماء وخبر الأرض وخبر الجنّة وخبر النّار وخبر ما كان وخبر ما هو كائن، أعلم ذلك كأنما أنظر إلى كفّي إنّ الله يقول:

﴿ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾»[٤][النحل: ٨٩].

وقريب منه ما في «**الكافي**» بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره كأنّه في كفي، فيه خبر السّماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن، قال الله عزّ وجلّ فيه تبيان كلّ شيء»[٥].

---

(١) بصائر الدرجات/ ١٣٥.

(٢) بصائر الدرجات/ ٢٣٢.

(٣) ينابيع المعاجز/ ١٤.

(٤) بصائر الدرجات/ ٢١٨.

(٥) الكافي: ١/ ٢٢٩.

قال بعض المحقّقين: قوله عليه السلام: «كأنّه في كفّي» تنبيه على أنّ علمه بما في الكتاب شهودي بسيط واحد بالذّات متعلّق بالجميع، كما أن رؤية ما في الكفّ رؤية واحدة متعلقة بجميع أجزائه، والتّعدد إنّما هو بحسب الإعتبار.

وقوله عليه السلام: «فيه خبر السّماء» يعني من أحوال الأفلاك وحركاتها وأحوال الملائكة ودرجاتها وحركات الكواكب ومداراتها ومنافع تلك الحركات وتأثيراتها إلى غير ذلك من الأمور الكائنة في العلويات والمنافع المتعلقة بالفلكيات.

وقوله عليه السلام: «وخبر الأرض» يعني من جوهرها وإنتهائها وما في جوفها وأرجائها وما في تحتها وأهوائها وما فيها من المعدنيات وما تحت الفلك من البسائط والمركبات التي يتحير في إدراك نبذ منها عقول البشر، ويتحير دون بلوغ أدنى مراتبها ظاهر الفكر والنّظر.

وقوله عليه السلام: «وخبر ما كان وخبر ما هو كائن» أي من أخبار السّابقين وأخبار اللاّحقين كلياتها وجزئياتها وأحوال الجنّة ومقاماتها وتفاوت مراتبها ودرجاتها وأخبار المثاب فيها بالإنقياد والطاعة والمأجور فيها بالعبادة والزّهادة وأهوال النّار ودركاتها وأحوال مراتب العقوبة ومصيباتها، وتفاوت مراتب البرزخ في النّور والظلمة، وتفاوت أحوال الخلق فيه بالرّاحة والشّدة، كلّ ذلك بدليل قوله: فيه تبيان كل شيء، أي كشفه وإيضاحه فلا سبيل إلى إنكاره.

التذييل الرابع

إعلم أنّه قد وردت الأخبار المتظافرة في النّهي عن تفسير القرآن بالرّأي.

منها ما في «**مجمع البيان**»، قال: إعلم أنّ الخبر قد صحّ عن النبي والأئمة القائمين مقامه أنّ تفسير القرآن لا يجوز إلاّ بالأثر الصّحيح والنّص الصّريح، قال: وروى العامّة أنّه صلى الله عليه وآله قال: «من فسّر القرآن برأيه فأصاب الحقّ فقد أخطأ»[1].

ومنها ما عن تفسير العيّاشي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال «من فسّر القرآن إن أصاب لم يوجر، وإن أخطأ سقط أبعد من السماء»[2].

ومنها ما عن الرّضا عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ في الحديث القدسي ما آمن بي من فسّر كلامي برأيه، وما عرفني من شبّهني بخلقي، وما على ديني من استعمل القياس في ديني»[3].

(١) تفسير مجمع البيان: ١/ ٣٩، والوافية للتوني: ١٤٠.

(٢) تفسير الصافي ١/ ٣٥، وتفسير العياشي: ١/ ١٧ ح ٤.

(٣) عيون أخبار الرضا: ٢/ ١٠٧.

ومنها ما رواه في **«الكافي»** عن زيد الشحام في حديث قتادة مع أبي جعفر عليه السلام قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «ويحك يا قتادة إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت إنما أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت إلى أن قال: فقال أبو جعفر عليه السلام ويحك يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به»(١).

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ طائفة من متأخري أصحابنا وهم الأخباريون قالوا: بعدم جواز إستنباط حكم من الأحكام من القرآن وعدم جواز الإستدلال به على شيء من المسائل إلاّ بعد صدور بيانه من الأئمة عليهم السّلام، متمسكاً بالأخبار المذكورة، وبأدلة أخرى إستدلوا بها على مذهبهم في محالها، وقد خالفوا في ذلك جميع المجتهدين، لإتفاقهم على جواز العمل بمحكمات الكتاب نصّاً كان أو ظاهراً وإستدلوا عليه بأدلة وافية وبراهين شافية تعرّضوا لها في علم الأصول، ولا حاجة لنا في المقام إلى إشباع الكلام في هذه المسألة، وإنّما مقصودنا تحقيق معنى الأخبار المذكورة ليتّضح المراد بها ويظهر أيضاً عدم دلالتها على ما رامه الأخبارية.

فنقول: إنّ التفسير مأخوذة من الفسر وهو كشف السّتر عن المستور، يقال: فسّر الشّيء فسراً إذا كشف عن غطائه، وقد يقال: إنّه كشف المراد عن اللفظ المشكل، وفي **«الأوقيانوس»** انّه في عرف المفسرين مرادف للتأويل وفي **«المصباح»** فسّرت الشّيء فسراً من باب ضرب بيّنته وأوضحته، وعن **«الصحاح الفسر البيان»**، وقد فسرت الشيء أفسره بالكسر فسراً والتّفسير مثله.

إذا عرفت هذا فاعلم انّه إن أريد بالتّفسير المذكور في الأخبار المعنيان الأوّلان. فلا يكون فيها دلالة على المنع عن العمل بالظواهر وبالنصوص بطريق أولى، لظهور أنّ التّفسير على المعنيين المذكورين إنّما يكون في الألفاظ التي معانيها خفية مستورة، والألفاظ التي معانيها مشكلة كالمجملات والمتشابهات، ولا ريب أنّ المعاني الظاهرة من الألفاظ بنفسها لا سترة عليها حتّى تحتاج إلى الكشف، ولا إشكال فيها حتّى تحتاج إلى الفسر.

وأمّا على القول بكونه مرادفاً للتأويل فكذلك، إذ نحن لا ننكر عدم جواز تأويل ما يحتاج إلى التأويل من تلقاء النفس ونعترف بانحصار علم المتشابهات المحتاجة إليه في الأئمة عليهم السلام، لقوله تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

ولكن أين ذلك من إتّباع المحكمات من العمل بالظواهر، نعم على القول بأنّ معناه

(١) الكافي: ٨/٣١٢.

البيان والإيضاح كما حكيناه عن «**المصباح**» و«**الصحاح**» يكون للإستدلال بالأخبار المذكورة وجه، لعدم إختصاص التّفسير على ذلك المعنى بالألفاظ المجملة والمتشابهة إلاّ أن يقال: إنّ المراد بالرّأي في الأخبار المذكورة هو الإعتبار العقلي الظني الرّاجع إلى الإستحسان، فالمراد من التّفسير بالرّأي حمل اللفظ على خلاف ظاهره أو أحد إحتماليه، لرجحان ذلك في نظره القاصر، فلا يشمل حمل ظواهر الكتاب على معانيها اللغوية والعرفية الظاهرة، فالمقصود بهذه الرّوايات ذمّ المخالفين وطردهم من حيث استغنائهم بآرائهم الفاسدة عن مراجعة أهل البيت عليهم السلام، ويشعر بذلك ما قاله سبحانه: في الحديث القدسي السّالف: (**وما على ديني من استعمل القياس في ديني**)، ويرشد إليه ما روي عن الصّادق عليه السلام، قال في حديث طويل: «هلك النّاس في المتشابه»، لأنّهم لم يقفوا على معناه ولم يعرفوا حقيقته فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم فاستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء، ويمكن أن يراد بالرّأي الهوى وميل الطبع.

توضيحه ما ذكره الغزالي في «**إحياء العلوم**» وهو أن يكون له في الشّيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتجّ على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرّأي والهوى فكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى، وهذا تارة يكون مع العلم، كالذي يحتجّ ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، ولكن يلبس به على خصمه وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنّه ما أريد به كالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله عزّ وجلّ:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

ويشير إلى قلبه ويوميء إلى أنه المراد بفرعون، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعّاظ في المقاصد الصّحيحة، تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير النّاس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنّها غير مرادة به، انتهى ملخصاً.

وقد ظهر واتّضح ممّا ذكرنا كله أنّ الأخبار المأثورة لا تنهض دليلاً على المنع من إستنباط الأحكام من الظواهر ومحكمات الكتاب، ولا على المنع من العمل بها إلاّ بعد السّماع والنّقل كيف وقد مدح الله سبحانه المستنبطين بقوله: لعلمه الذين يستنبطونه، ووردت الأخبار المتواترة بعرض الأخبار المتعارضة على كتاب الله وأخذ الموافق له وطرح المخالف، فتدل على أنّ الكتاب حجة ومعروض عليه، ولو لم يصحّ فهم معناه إلاّ بالنص كيف يمكن العرض عليه وهو غير مفهوم المعنى، وتمام الكلام في ذلك موكول إلى حواشينا على قوانين الأصول، هذا.

وقد بقي في المقام بعض أبحاث قرآنية من تواتره وتواتر قراءات السّبع وفضائله وفضائل قراءته وسماعه والنظر فيه وغير ذلك من المباحث الشّريفة النّفيسة، إلاّ أنّا طوينا عنها كشحاً لخوف الإطالة والأطناب، ولعلنا نشير إلى بعضها في المقام المناسب، والله الموفّق والمعين.

الترجمة

پس اختيار كرد و برگزيد خداوند سبحانه و تعالى به جهت محمد خاتم الانبياء صلوات الله عليه و آله ملاقات روحانى او را و پسنديد از براى او آن چيزى را كه نزد او است، پس اكرام فرمود و عزيز شمرد او را از ماندن دار دنياى فانى و صرف فرمود و بگردانيد ميل او را از اقامت مقام بلاد محنت، پس قبض فرمود روح شريف او را به سوى خود در حالتى كه عزيز و شريف بود و خليفه گذاشت آن حضرت بعد از خود در ميان شما مثل آن چيزى كه خليفه گذاشتند پيغمبران در ميان امّتان خود، زيرا كه ترك نكردند ايشان امّتان را سر خود و واگذاشته بى راه روشن و بدون علامت و نشانه ثابت كه عبارت است (آن خليفه گذاشته شده) از كتاب پروردگار شما در حالتى كه بيان كننده بود آن حضرت حلال آن را و حرام آن را و فضيلت هاى آن را كه مندوبات است و فريضه هاى آن را كه واجبات است و نسخ كننده آن را و نسخ كرده شده آن را و رخصت هاى آن را كه در حال ضرورت اذن داده شده و عزيمت هاى آن را كه در هيچ حال اذن مخالفت آن ها داده نشده و خاص هاى آن را و عام هاى آن را و عبرت هاى آن را و مثل هاى آن را و مطلقات آن را و مقيدات آن را و محكمات آن را كه واضح الدلالة هستند و متشابهات آن را كه غير واضح الدلالة مى باشند در حالتى كه آن حضرت تفسيركننده بود مجمل هاى آن را و بيان كننده بود مشكل هاى آن را و در حالتى كه آن كتاب ميان چيزى است كه اخذ كرده شده است پيمان دانستن آن و ميان چيزى

است که وسعت داده شده بر بندگان در جهالت آن و دیگر میان آن چیزی است که ثبت شده است در کتاب فرض و وجوب آن و دانسته شده است در سنت نبوی نسخ آن و دیگر میان آن چیزی است که واجب است در سنت اخذ و فراگرفتن آن و اذن و رخصت داده شده است در آن کتاب ترك نمودن آن و دیگر مسایل آن چیزی است که واجب است در وقت خود و زایل است در زمان استقبال خود و دیگر میان حکمی است که جدا شده است میان محرّمات خود با شدت و ضعف، که آن محرمات عبارت است از کبیری که وعده داده است بر آن آتش سوزان خود را و از صغیری که آماده و مهیّا فرموده است به جهت آن رحمت و غفران خود را و دیگر میان چیزی است که مقبول است در مرتبه ادنای خود و موسع است یعنی وسعت داده شده در مرتبه اعلای خود.

الفصل الثامن عشر

«ومنها وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرام الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَام، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الأَنْعام، وَيَأْلِهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمام، جَعَلَهُ سُبْحَانُهُ عَلامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ، وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمّاعاً أَجابُوا لَهُ دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا لَهُ كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَواقِفَ أَنْبِيائِهِ، وَتَشَبَّهُوا مَلائِكَتَهُ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ، يُحْرِزُونَ الأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبادَتِهِ، وَيَتَبادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ، جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ لِلإِسْلاَمِ عَلَماً، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً، فَرَضَ حَجَّهُ، وَأَوْجَبَ حَقَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

اللغة

(**الحجّ**) بالفتح والكسر هو القصد وفي لسان الشرع أو المتشرعة قصد بيت الله الحرام تقرّباً إليه سبحانه بأفعال مخصوصة في زمان مخصوص في مواطن مخصوصة، وفي «**المصباح**» حجّ حجّاً من باب قتل قصد والإسم الحجّ بالكسر و(**الورود**) هو الدّخول في الماء للشرب منه (**يألهون**) إليه من[١] يوله من باب ضرب ومنع وحسب إذا ذهب عقله من فرح أو حزن، ومعنى يألهون إليه يشتدّ شوقهم إليه حتّى تكاد تذهب عقولهم من شدّة الإشتياق و(**الولوه**) بالضّم مصدر (**وَلَهَ يوله**) من الباب الرّابع مثل الولوغ من ولغ يولغ، أو مصدر (**وله يوله**) من الباب السّادس مثل الولوغ أيضاً من ولغ يولغ أو مصدر (**وله يوله**) من الباب الثّاني مثل الرجوع من رجع يرجع أو بالفتح، مصدر وله يوله من الباب الرّابع أيضاً مثل الولوع من ولع يولع، وعلى جميع الإحتمالات فالهمزة في يألهون مقلوبة من الواو.

وبما ذكرنا ظهر فساد ما توهمه الشّارح المعتزلي حيث إنّه بعد ضبطه في المتن (**يولهون إليه وله الحمام**) (ا ه) قال: الوله شدّة الوجد حتى يكاد العقل يذهب، وله الرّجل يوله ولهاً، ومن روى يألهون إليه ولوه الحمام فسّره بشيء آخر، وهو يعكفون عليه عكوف الحمام، وأصل أله عبد، ومنه الإله أي المعبود، ولما كان العكوف على الشيء كالعبادة الملازمة له والإنقطاع إليه، يقال: أله فلان إلى كذا أي عكف عليه كأنّه يعبده.

ثم قال: ولا يجوز أن يقال: يألهون إليه في هذا الموضع بمعنى يولهون، وأن أصل الهمزة الواو كما فسّره الرّاوندي لأنّ فعولاً لا يجوز أن يكون مصدراً من فعلت بالكسر، ولو كان **يألهون** هو يولهون كان أصله أله بالكسر فلم يجز أن يقول: (**ولوه الحمام**)، وأمّا على ما فسّرناه نحن فلا يمتنع أن يكون الولوه مصدراً، لأنّ الأله مفتوح، فصار كقولك: دخل

---

(١) الوله: محركة الحزن أو ذهاب العقل حزناً.

دخولاً، انتهى.

وجه ظهور الفساد أوّلاً أنّ المضبوط من كلامه عليه السلام في النّسخ المتعددة يألهون إليه ولوه الحمام ولم نعثر بعد على ما ضبطه الشّارح أعني يولهون إليه وله الحمام في شيء من النّسخ، ولعله غير كلامه لما زعم من عدم مطابقته للقواعد الصّرفيّة مع أنّ ذلك الزّعم فاسد حسبما تعرفه بعيد، هذا.

وثانياً: أنّ ما ذكره من عدم مجيء فعول مصدراً من فعل بالكسر لا يعرفه وجه له بل اللغة يشهد بخلافه على ما يظهر من الكتب المدوّنة فيها، حيث إنّ المتحصّل منها أنّ فعولاً بضمّ (الفاء) قد يجيء مصدراً من فعل مفتوح (العين)، سواء كان مضارعه يفعل بالفتح أيضاً كالرّكوع والرّنوع والولوغ والهبوغ (بالغين) المعجمة في الأخيرين، أو يفعل بالضّم كالسّجود والبلوغ والقعود والدّخول، أو يفعل بالكسر كالرّجوع، وقد يكون مصدراً من فعل مكسور (العين) سواء كان مضارعه يفعل بالكسر كالولوع أيضاً أو بالفتح كالولوغ أيضاً، وقد ذكروا أنّ الفعول أيضاً بفتح الفاء قد يكون مصدراً من فعل بكسر العين كالولوع بالعين المهملة.

وثالثاً: أن ما ذكره أخيراً من قوله: وأمّا على ما فسّرناه نحن فلا يمتنع أن يكون الولوه مصدراً لأنّ أله مفتوح فصار كقولك دخل دخولاً.

فيه أوّلاً أنّه لم يسبق منه تفسير في ذلك، وإنّما روى تفسيراً من غيره بقوله ومن روى يألهون (ا ه) فسّره هكذا، فقوله: وأمّا على ما فسّرناه نحن غير خال عن السّماجة.

وثانياً بعد الإغماض والحمل على التّسامح اللّفظي أنّ التّفسير المذكور لا يصحّح ما ذكره، إذ الهمزة في أله بمعنى عبد أصليّة وليست مقلوبة من الواو، فكيف يكون الولوه مصدراً له، وإنّما مصدره إلاهة وألوهة حسبما مرّ في تفسير لفظ الجلالة في صدر الخطبة.

وثالثاً أنّ ظاهر تمثيله بقوله: دخل دخولاً، يشعر يكون أله من هذا الباب أيضاً أي من باب فعل يفعل بفتح عين الماضي حسبما صرّح به نفسه أيضاً وضمّ عين المضارع مع أنّ اللّغويّين صرّحوا بأن أله بمعنى عبد من باب فعل يفعل كفرح يفرح و(**السماع**) لم أجده في كتب اللّغة ولعلّة بضمّ السّين وتشديد الميم، جمع سامع كسّمار جمع سامر وهكذا ضبطه الشّارح البحراني و(**يحرزون الأرباح**) من قولهم أحرزت الشّيء إحرازاً ضممته، ومنه قولهم: أحرز قصب السّبق إذا سبق إليها فضمّها دون غيره و(**التّبادر**) هو التّسارع، ويتعدى (**بإلى**) كما أنّ التّسارع كذلك يقال: سارعوا إليه وتسارعوا و(**العائذين**) جمع عائذ بالياء المثنّاة والذّال المعجمة والذّال المهملة والأوّل أقرب و(**الوفادة**) كالإفادة بقلب الواو همزة والوفد والوفود مصدر وفد كضرب يقال: وفد إلى الأمير وعليه وفداً ووفوداً ووفادة وإفادة إذا قدم وورد، وفي الحديث حقّ الصّلاة أن تعلم أنّها وفادة إلى الله، أي قدوم إليه طلباً لفضله.

الإعراب

جملة **(يردونه)** في محلّ النّصب على الحاليّة، **(والورود والولوه)** منتصبان على المصدريّة مجازاً، أي وروداً مثل ورود الأنعام، وولوها مثل ورود «ولوه ظ» الحمام، ومواقف مفعول فيه، وموعد منصوب بنزع الخافض أي إلى **(موعد)** مغفرته ويحتمل الإنتصاب على المفعول فيكون المعنى أنّهم يتسارعون عند الحجّ لوعد المغفرة، ومن إستطاع في محل الجرّ بدل من النّاس بدل بعض من الكلّ والربط في الجملة الخبريّة أعني قوله: فإنّ الله غني عن العالمين، العموم فيها الشّامل للمبتدأ إذ العالمين شامل لمن كفر وغيره ومثله قوله:

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعـــــراف: ١٧٠].

المعنى

قال الرّضي (ره) **(ومنها ذكر الحجّ)** إعلم أن فاتحة كلامه عليه السلام في هذا الفصل كخاتمته مشتملة على ذكر وجوب الحجّ وفرضه، وتالي الفاتحة ومتلوّ الخاتمة متطابقان في وصف البيت الحرام والواسطة بينهما واردة في أوصاف الحجاج الكرام ومدايحهم والثّناء لهم، فهو من أبلغ الكلام على أحسن نظام.

قال عليه السلام: «وفرض عليكم حجّ بيته الحرام» أمّا فرض الحجّ ووجوبه فقد ثبت بالكتاب والسنّة وإجماع المسلمين بل الضّرورة من دين الإسلام حسبما يأتي في آخر الفصل إنشاء الله.

وأمّا البيت الحرام فهو أوّل بيت وضع للنّاس مباركاً وهدى للعالمين، وموضعه أوّل بقعة خلقت من الأرض خلقها الله سبحانه من زبد الماء ودحى الأرض من تحتها واختارها على أجزائها وجعلها مطاف الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين والعباد الصّالحين، كيف لا وقد بناه الخليل بأمر الجليل والمهندس جبرائيل والتلميذ إسماعيل كما قال:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وينبغي التّعرض في المقام لأصل بناء البيت ومبناه ولبعض المشاعر والمناسك والإشارة إلى جهة توصيف البيت بالحرام فالبحث في مقاصد ثلاثة.

المقصد الأول

إعلم أنّ موضع البيت حسبما أشير إليه هو أوّل جزء من أجزاء الأرض في عالم الخلق كما روي في الفقيه عن أبي جعفر عليه السلام: «لما أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرّياح الأربع

فضربن بهن الماء حتّى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً، فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد، ثمّ دحى الأرض من تحته، وهو قول الله:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦].

فأوّل بقعة خلقت من الأرض الكعبة ثم بدت الأرض منها».

وأمّا البناء الأصلي ففي رواية الفقيه عن عليّ بن موسى بن جعفر عليهم السلام أنّه قال: «في خمسة وعشرين من ذي القعدة أنزل الله عزّ وجلّ الكعبة البيت الحرام، فمن صام ذلك اليوم كان كفّارة سبعين سنة، وهو أوّل يوم أنزلت فيه الرّحمة من السّماء على آدم عليه السلام»[١].

وفي رواية أخرى فيه أيضاً عن أبي خديجة، عن أبي عبد الله عليه السلام «أنّ الله عزّ وجل أنزله لآدم من الجنّة وكان درّة بيضاء فرفعه الله عزّ وجلّ إلى السّماء وبقي أساسه وهو بحيال هذا البيت يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ولا يرجعون إليه أبداً، فأمر الله عزّ وجلّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام ببنيان البيت على القواعد»[٢].

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم عن الصّادق عليه السلام في رواية طويلة، قال عليه السلام: «فلمّا بلغ يعني إسماعيل مبلغ الرّجال أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت، فقال: يا ربّ في أيّ بقعة؟ فقال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبة، فأضاء لها الحرم، فلم تزل القبة التي أنزلها الله على آدم قائمة حتّى كان أيّام الطوفان أيام نوح عليه السلام فلمّا غرقت الدّنيا رفع الله تلك القبّة وغرقت الدّنيا إلاّ موضع البيت فسمّيت البيت العتيق لأنّه أعتق من الغرق، فلمّا أمر الله إبراهيم أن يبني البيت لم يدر في أي مكان يبنيه، بعث الله جبرئيل فخط له موضع البيت فأنزل الله عليها القواعد من الجنّة، ولما كان الحجر الذي أنزل الله على آدم أشد بياضاً من الثّلج، فلما مسّته أيدي الكفّار اسود فبنى إبراهيم البيت ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه إلى السّماء تسعة أذرع ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم ووضعه في موضعه الحديث»[٣].

أقول: المستفاد من هاتين الرّوايتين ومن بعض الرّوايات الآتية في المقصد الثاني أنّ أصل البناء كان في زمن آدم، ويطابقهما بعض الرّوايات الدّالة على أنّ أوّل البناء كان من آدم، ثم انطمس في زمان نوح فبناه إبراهيم، ثم بناه العمالقة، ثم قريش، ثم الحجّاج اللّعين.

وفي رواية أبي بصير المرويّة في «الفقيه» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن آدم هو الذي

(١) الإقبال: ٢/ ٢٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٤٢.

(٣) مستدرك الوسائل: ٩/ ٣٢٣.

بنى البنية ووضع أساسه وأوّل من كساه الشّعر وأوّل من حجّ» إليه الحديث[١].

إلاّ أنّ المستفاد من بعض الرّوايات الآخر أنّه كان قبل آدم هناك بيت يسمّى بيت الضّراح كان يطوف به الملائكة، فلمّا هبط آدم إلى الأرض أمر بطوافه.

ويؤيده ما رواه الصّدوق عن بكير بن أعين عن أخيه زرارة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك أسألك في الحجّ منذ أربعين عاماً فتفتيني، فقال: «يا زرارة بيت يحجّ قبل آدم بألفي عام تريد أن يفتى مسائله في أربعين عاماً، وسيأتي إنشاء الله عند شرح قوله: ووقفوا مواقف أنبيائه، في حديث حجّ آدم ما يفيد ذلك أيضاً[٢].

ووجه الجمع بين هذه الرّوايات والرّوايات الأولى غير خفيّة على أهل المعرفة.

المقصد الثاني

في الإشارة إلى بعض المشاعر العظام كالحجر والمقام، وهما من الآيات التي أشير إليها في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَتٌۢ بَيِّنَتٌ﴾ آل عمران: ٩٧].

أما الحجر: فقد أودع الله فيه مواثيق الخلق، قال الصّدوق في «الفقيه» وإنّما يقبّل الحجر ويستلم ليؤديّ إلى الله العهد الذي أخذ عليهم في الميثاق، وإنّما وضع الحجر في الركن الذي هو فيه ولم يضعه في غيره، لأنّه تعالى حين أخذ الميثاق أخذه في ذلك المكان، وجرت السّنة بالتكبير وإستقبال الرّكن الذي فيه الحجر من الصّفا، لأنّه لمّا نظر آدم وقد وضع الحجر في الرّكن كبر الله وهلّله ومجده، وإنّما جعل الميثاق في الحجر لأنّ الله لما أخذ الميثاق له بالرّبوبية ولمحمد صلى الله عليه وآله بالنّبوة ولعلّي عليه السلام بالوصيّة، اصطكت فرائِص الملائكة، وأوّل من أسرع إلى الإقرار بذلك الحجر، فلذلك اختار الله وألقمه الميثاق وهو يجيء يوم القيامة وله لسان ناطق وعين ناظرة يشهد لكلّ من وافاه إلى ذلك المكان وحفظ الميثاق، وإنّما اخرج الحجر من الجنّة ليذكر آدم ما نسى من العهد والميثاق، انتهى.

وتفصيل ما ذكره هنا وسنده ما رواه في «علل الشرائع» بإسناده عن بكير بن أعين، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «هل تدري ما كان الحجر»؟ قال: قلت: لا قال: «كان ملكاً عظيماً من عظماء الملائكة عند الله عزّ وجلّ، فلما أخذ الله من الملائكة الميثاق، كان أوّل من آمن به وأقرّ لذلك ذلك الملك فاتخذه الله أميناً على جميع خلقه فألقمه الميثاق وأودعه عنده واستعبد الخلق أنّ يجدّدوا عنده في كلّ سنة الإقرار بالميثاق والعهد الذي أخذه الله عليهم، ثم جعله الله

(١) الحدائق الناضرة: ١٤/١٤.

(٢) الدروس: ١/٥٠١.

مع آدم في الجنّة يذكر الميثاق ويجدّد عند الإقرار في كلّ سنة».

«فلما عصى آدم فاخرج من الجنّة أنساه الله العهد والميثاق الذي أخذ الله عليه وعلى ولده لمحمّد ووصيه صلوات الله وسلامه عليهما وجعله باهتاً حيراناً، فلما تاب على آدم حوّل ذلك الملك في صورة دُرة بيضاء، فرماه من الجنّة إلى آدم وهو بأرض الهند، فلمّا رآه آنس إليه وهو لا يعرفه بأكثر من أنّه جوهرة، فأنطقه الله عزّ وجلّ، فقال: يا آدم أتعرفني؟ قال: لا قال: أجل إستحوذ عليك الشّيطان فأنساك ذكر ربّك، وتحوّل إلى الصّورة التي كان بها في الجنّة مع آدم».

«فقال لآدم: أين العهد والميثاق؟ فوثب إليه آدم وبكى ذكر الميثاق وبكى وخضع له وقبله وجدّد الإقرار بالعهد والميثاق، ثم حوّل الله عزّ وجلّ جوهر الحجر درّة بيضاء يضيء، فحمله آدم على عاتقه إجلالاً له وتعظيماً، فكان إذا أعيا حمله جبرئيل عليه السلام حتى وافى به مكّة، فما زال يأنس به بمكة ويجدد الإقرار له كلّ يوم وليلة، ثم إنّ الله عزّ وجلّ لمّا أهبط جبرئيل إلى أرضه وبنى الكعبة هبط إلى ذلك المكان بين الرّكن والمقام والباب، وفي ذلك المكان ترأى لآدم حين أخذ الميثاق، وفي ذلك الموضع ألقم الملك الميثاق، فبتلك العلّة وضع في ذلك الرّكن ونحى آدم من مكان البيت إلى الصّفا وحوّاء إلى المروة، وجعل الحجر في الرّكن فكبّر الله وهلّله ومجده، فلذلك جرت السّنة بالتكبير في إستقبال الرّكن الذي فيه الحجر من الصّفا».

وإن الله عزّ وجلّ أودعه العهد والميثاق وألقمه إياه دون غيره من الملائكة لأنّ الله عزّ وجلّ لمّا أخذ الميثاق له بالرّبوبية ولمحمّد صلى الله عليه وآله بالنبوة ولعلي عليه السلام بالوصية إصطكت فرائص الملائكة، وأوّل من أسرع إلى الإقرار بذلك ذلك الملك، ولم يكن فيهم أشدّ حبّاً لمحمّد وآل محمّد عليهم السلام منه، فلذلك اختاره الله عز وجل من بينهم وألقمه الميثاق فهو يجيء يوم القيامة وله لسان ناطق وعين ناظرة يشهد لكل من وافاه إلى ذلك المكان وحفظ الميثاق[1].

أقول: من كان علمه مقتبساً من نور النّبوة والوحي الإلهي يعلم سرّ إستلام الحجر وتقبيله وأنّ أداء الأمانة عنده من جهة إختصاصه بالتقدم إلى الولاية من بين الملائكة، ويعرف أنّه يؤدي الموافاة يوم القيامة وأمّا من أضل الله وأعمى قلبه فلا يظنه إلاّ حجراً لا يضرّ ولا ينفع.

كما روى الفخر الرّازي عن عمر بن الخطاب أنّه انتهى إلى الحجر الأسود فقال: إنّي لأقبّلك وإنّي لأعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع وأنّ الله ربّي، ولولا أنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّلك ما قبلتك.

---

(١) علل الشرائع: ٢/ ٤٣١.

وزاد الغزالي قال: ثم بكى حتّى علا نشيجه فالتفت إلى ورائه فرأى عليّاً كرم الله وجهه ورضي الله عنه، فقال: يا أبا الحسن هيهنا تسكب العبرات وتستجاب الدّعوات، فقال عليّ: «بل هو يضرّ وينفع»، قال: وكيف؟ قال: «إنّ الله تعالى لمّا أخذ الميثاق على الذّرية كتب عليهم كتاباً ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمن بالوفا ويشهد على الكافر بالجحود» انتهى[1].

أقول: كما يمكن أن يكون قوله: إنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع، من باب الجهالة ولا غرو فيها، لما ستطلع عليه إنشاء الله في تضاعيف ذلك الكتاب بجهالاته التي أعظم من هذه، كذلك يمكن أن يكون من باب التّجاهل باقتضاء خبثه الباطني ونفاقه الغريزي، هذا.

وفي بعض الأَخبار: أنّ الحجر لا يستقر مكانه إلاّ أن يضعه نبيّ أو إمام مرّ أنّ أوّل وضعه في موضعه كان من آدم، ثم من إبراهيم، حيث إنّه لما بنى البيت وانتهى إلى موضع الحجر ناداه أبو قبيس: يا إبراهيم إنّ لك عندي وديعة، فأعطاه الحجر فوضعه موضعه، رواه في **«الفقيه»**.

وعندما هدمت قريش الكعبة من جهة السَّيل الذي كان يأتيهم من أعلى مكة فيدخلها وانصدعت، ووضعه النّبي ﷺ موضعه.

وعندما هدمها الحجّاج على ابن الزبير ثم بناها وفرغ من بنائها سأل عليّ بن الحسين عليهما السّلام أن يضعهُ في موضعه فأخذ ووضعه موضعه.

وفي زمن القرامطة الإسماعيليّة خذلهم الله ولعنهم حيثما نقلوا الحجر إلى مسجد الكوفة ثم ردّ إلى مكة فوضعه الإمام صاحب العصر عجل الله فرجه موضعه، وكان ذلك في الغيبة الكبرى، كلّ ذلك رويناه عن الأَخبار الصحيحة.

وفي **«الفقيه»**: وكان أشد بياضاً من اللّبن فاسود من خطايا بنى آدم، ولولا ما مسّه من أرجاس الجاهليّة ما مسّه ذو عاهة إلا برء، وفي رواية عليّ بن إبراهيم القمي وكان الحجر الذي أنزله الله على آدم أشدّ بياضاً من الثّلج فلمّا مسّته أيدي الكفّار اسود.

وأما المقام فهو من أعظم الأَعلام، قال في **«الفقيه»**: قال زرارة بن أعين لأَبي جعفر عليه السلام: قد أدركت الحسين عليه السلام قال: «نعم، اذكروا أنا معه في المسجد الحرام وقد دخل فيه السّيل والنّاس يقومون على المقام يخرج الخارج ويقول: قد ذهب به السّيل ويدخل الدّاخل ويقول: مكانه، قال: فقال يا فلان ما يصنع هؤلاء؟ فقلت: أصلحك الله يخافون أن

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ١٨٥.

يكون قد ذهب بالمقام، قال: إن الله عزّ وجل جعله علماً لم يكن ليذهب به فاستقرّوا وكان موضع المقام الذي وضعه إبراهيم عند جدار البيت، فلم يزل هناك حتّى حوّله أهل الجاهلية إلى المكان الذي هو فيه اليوم، فلما فتح النّبي ﷺ مكة ردّه إلى الموضع الذي وضعه إبراهيم عليه السلام فلم يزل هناك إلى أن ولى عمر، قال للنّاس: من فيكم يعرف المكان الذي كان فيه المقام؟ فقال له رجل: أنا كنت قد أخذت مقداره بنسع فهو عندي قال: ائتني به، فأتاه فقاسه ثم ردّه إلى ذلك المكان، هذا[1].

ولكون المقام من المشاعر العظام وأعظم البيّنات والأعلام خصّ بالذكر في القرآن وطوى ذكر غيره، قال تعالى:

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وفيه أثر قدم إبراهيم، وسبب هذا الأَثر أنّه لمّا ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة، فغاصت فيه قدماه.

وقيل: إنّه لمّا جاء زائراً من الشام إلى مكّة وكان قد عهد لامرأته أن لا تنزل بمكة حتّى يرجع، فلمّا وصل إلى مكّة قالت له أمّ إسماعيل أو امرأة إسماعيل: إنزل حتّى تغسل رأسك، فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على الجانب الأيمن فوضع قدمه عليه حتّى غسلت أحد جانبي رأسه، ثم حوّلته إلى الجانب الأيسر حتّى غسلت الجانب الآخر.

وغير خفيّ أنّ تأثّر الصّخرة الصّماء وغوص قدمه فيها إلى الكعبين وبقائها في ألوف من السّنين مع كثرة الأعداء من اليهود والنّصارى والملحدين، من أعظم آيات التّوحيد وأظهر براهين التّفريد.

المقصد الثالث

في علّة وصف البيت بالحرام والإشارة إلى بعض أسمائه:

أمّا الأوّل: فلما قال في «الفقيه» من أنه حرم على المشركين أن يدخلوه، ويحتمل أن يكون ذلك من جهة أنّه حرام فيه ما هو حلال في غيره من البيوت كالجماع والملابسة لشيء من الأقذار، أو أنّه حرام دخوله من غير إحرام قال في «الفقيه»: وحرم المسجد لعلّة الكعبة، وحرم الحرام لعلّة المسجد، ووجب الإحرام لعلّة الحرم، وقال رسول الله يوم فتح مكّة: «إنّ الله حرم مكّة يوم خلق السّماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم السّاعة لم تحلّ لأحد قبلي ولا تحلّ لأحد من بعدي ولم تحلّ لي إلاّ ساعة من النّهار»[2].

---

(١) مجمع الفائدة: ٨٦/٧.
(٢) منتهى المطلب: ٧٩٧/٢.

وأمّا وصفه بالعتيق في قوله:

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

فإمّا من جهة أنّه عتيق من النّاس لم يملكه أحد غيره تعالى، وإمّا أنّه عتيق وقديم وقد بيّنا في المقصد الأوّل أنه كان قبل آدم، وإمّا أنّه عتيق من الغرق والطوفان حيث رفع إلى السّماء في طوفان نوح، وإمّا أنّه من عتق الطائر إذا قوى في وكره فلما بلغ في القوّة إلى حيث أن قصد قاصد تخريبه أهلكه الله سمّى عتيقاً.

وأما الثّاني: ففي الصافي عن الخصال عن الصّادق عليه السلام: «أسماء مكّة خمسة: أمّ القرى، ومكّة، وبكّة، والبساسة إذا ظلموا بها بستهم أي أخرجتهم وأهلكتهم وأمّ رحم كانوا إذا ألزموها رحموا»[١].

ثم إنّه عليه السلام بعد وصفه البيت بالحرام وصفه بأنه **(الذي يجعله قبلة للأنام)** وهذه العبارة صريحة في أنّ القبلة هي نفس البيت لجميع الخلق، ولما لم يتمكن النّائي من تحصيل التّوجه إلى العين اكتفى في حقّه بمراعاة الجهة، وهو مذهب المتأخرين من أصحابنا، خلافاً للمتقدّمين حيث ذهبوا إلى أنّ البيت قبلة للمسجد والمسجد لأهل الحرم والحرم لمن في الدنيا، والتّفصيل في الفقه وكونه قبلة للأنام صريح الكتاب مضافاً إلى السنّة والإجماع، قال تعالى:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤].

قال الصّدوق في الفقيه: وصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيت المقدّس بعد النبّوة ثلاث عشرة سنة، وتسعة عشر شهراً بالمدينة ثم عيرته اليهود، فقالوا له: إنّك تابع لقبلتنا، فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً فلما كان في بعض الليل خرج صلى الله عليه وآله يقلب وجهه في آفاق السماء فلما أصبح صلى الغداة، فلما صلى من الظهر ركعتين جاءه جبريل فقال له: قد نرى تقلب وجهك في السماء الأية، ثم أخذ بيد النبي صلى الله عليه وآله فحوّل وجهه إلى الكعبة وحوّل من خلفه وجوههم حتّى قام الرّجال مقام النساء والنّساء مقام الرّجال، فكان أوّل صلاته إلى بيت المقدّس وآخرها إلى الكعبة وبلغ الخبر مسجداً بالمدينة وقد صلى أهله من العصر ركعتين، فحوّلوا نحو الكعبة فكان أول صلاتهم إلى بيت المقدّس وآخرها إلى الكعبة، فسمّى ذلك المسجد مسجد القبلتين، فقال المسلمون صلاتنا إلى بيت المقدّس أتضيع يا رسول الله؟ فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) تفسير الصافي: ١/٣٥٧.

أي صلاتكم إلى بيت المقدّس، قال الصّدوق: وقد أخرجت الخبر في ذلك على وجهه في كتاب النبوّة[١].

وفي «**الإحتجاج**» للطبرسي قال أبو محمّد الحسن العسكري صلوات الله عليه: «لما كان رسول الله ﷺ بمكّة أمره الله عزّ وجلّ أن يتوجه نحو البيت المقدّس في صلاته ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن وإذا لم يمكن استقبل بيت المقدّس كيف كان، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك طول مقامه بها ثلاث عشرة سنة، فلما كان بالمدينة وكان متعبّداً باستقبال بيت المقدس إستقبله وانحرف عن الكعبة سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً وجعل قوم من مردة اليهود يقولون: والله ما يدري كيف محمّد يصلي حتّى صار يتوجه إلى قبلتنا ويأخذ من صلاته بهدينا، فاشتدّ ذلك على رسول الله ﷺ لما اتّصل به عنهم وكره قبلتهم وأحب الكعبة، فجاءه جبرئيل فقال له رسول الله: يا جبرئيل لوددت لو صرفني الله عن بيت المقدّس إلى الكعبة، فقد تأذّيت بما اتّصل إليّ من قبل اليهود من قبلتهم فقال جبرئيل: فاسأل ربّك أن يحوّلك إليها فإنّه لا يردّك عن طلبتك ولا يخيبك عن بغيتك، فلما استتم دعائه صعد جبرئيل ثم عاد من ساعته فقال اقرأ يا محمّد:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية، فقال اليهود عند ذلك: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] فأجابهم الله بأحسن جواب، فقال يا محمّد: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] وهو يملكها وتكليفه التّحول إلى جانب كتحويله لكم إلى جانب آخر:

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

وهو أعلم بمصلحتهم وتؤديهم طاعتهم إلى جنات النّعيم وهو مصلحهم ومؤديهم إلى جنات النعيم، هكذا في تفسير الإمام ﷺ، وقال أبو محمد ﷺ: وجاء قوم من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمّد، هذه القبلة بيت المقدّس قد صليت إليها أربع عشرة سنة ثم تركتها الآن أمحقّاً كان ما كنت عليه؟ فقد تركته إلى باطل، فإن ما يخالف الحقّ باطل، أو كان باطلاً فقد كنت عليه طول هذه المدّة فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟ فقال رسول الله ﷺ وسلم: «بل ذلك كان حقاً وهذا حقّ يقول الله عزّ وجل:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. إذا عرف صلاحكم يا أيّها

---

(١) منتهى المطلب: ١/ ٢١٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ٣/ ١٧٤.

العباد في إستقبال المشرق أمركم به، وإذا عرف صلاحكم في إستقبال المغرب أمركم به، وإذا عرف صلاحكم في غيرهما أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله في عباده وقصده إلى مصالحهم».

ثم قال رسول الله ﷺ: «لقد تركتم العمل يوم السّبت ثم عملتم بعده سائر الأيام ثم تركتموه في السّبت ثم عملتم بعده أفتركتم الحقّ إلى الباطل أو الباطل إلى حق أو الباطل إلى الباطل أو الحقّ إلى الحق؟ قولوا كيف شئتم فهو قول محمّد وجوابه لكم».

قالوا: بل ترك العمل يوم السّبت حق والعمل بعده حقّ، قال رسول الله ﷺ: «فكذلك قبلة بيت المقدس في وقته حقّ ثم قبلة الكعبة في وقته حقّ»، فقالوا له يا محمّد: أفبدا لربّك فيما أمرك به بزعمك من الصّلاة إلى بيت المقدّس حتّى نقلك إلى الكعبة؟.

قال رسول الله ﷺ: «ما بدا له عن ذلك، فإنّه العالم بالعواقب والقادر على المصالح، لا يستدرك على نفسه غلطاً ولا يستحدث رأياً يخالف المقدس جلّ عن ذلك، ولا يقع عليه أيضاً مانع يمنعه من مراده وليس يبدو «إلا خ» لمن كان هذا وصفه، وهو جلّ وعزّ متعال عن هذه الصّفات علوّاً كبيراً ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّها اليهود أخبروني عن الله عزّ وجلّ أليس يمرض ثم يصحّ ويصحّ ثم يمرض أبداً له في ذلك شيء؟ ليس يحي ويميت أبدا له فيكل واحد من ذلك»؟ قالوا: لا، قال: «كذلك عزّ وجلّ تعبّد نبيه محمّداً بالصّلاة إلى الكعبة بعد أن كان تعبّده بالصّلاة إلى بيت المقدس، وما بدا له «لله خ» في الأوّل».

ثم قال: «أليس الله عزّ وجلّ يأتي بالشّتاء في أثر الصّيف والصّيف في أثر الشّتاء أبدا له في كل واحد من ذلك»؟ قالوا: لا، قال: فكذلك لم يبدو له في القبلة.

قال: ثم قال ﷺ: «أليس قد ألزمكم في الشّتاء أن تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة وألزمكم في الصّيف أن تحترزوا من الحرّ فبداله في الصّيف حين أمركم بخلاف ما كان أمركم به في الشّتاء»؟ قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «فكذلكم الله تعبّدكم في وقت لصلاح يعلمه بشيء ثم بعده في وقت آخر لصلاح يعلمه بشيء آخر، فإذا أطعتم الله عزّ وجلّ في الحالتين إستحققتم ثوابه»، فأنزل الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ [البقرة: ١١٥].

يعني إذا توجهتم بأمره فثمّ الوجه الذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه.

ثم قال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله أنتم كالمرضى والله عزّ وجلّ كالطبيب فصلاح المرضى فيما يعلمه «يعمله خ» الطبيب ويدبّره به، لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه إلا فسلّموا لله أمره تكونوا من الفائزين»، فقيل يا رسول الله: فلم أمر بالقبلة الأولى؟ قال: «لما قال الله عزّ وجل:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ [البقرة: ١٤٣] وهي بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ

﴿ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾»[1] [البقرة: ١٤٣].

إلا لنعلم ذلك وجوداً بعد أن علمناه سيوجد وذلك انّ هوى أهل مكّة كان في الكعبة فأراد الله أن يبين متبع محمد ﷺ ممّن خالف «متّبعي محمّد من مخالفيه خ» باتباع القبلة التي كرهها، ومحمد ﷺ يأمر بها، ولما كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس أمرهم بمخالفتها والتّوجه إلى الكعبة ليبيّن من يوافق محمّداً فيما يكرهه فهو مصدّقه وموافقه ثم قال:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وإن كان التّوجه إلى بيت المقدس في ذلك الوقت كبيرة إلا على من يهدي الله، فعرف أنّ الله عزّ وجل أن يتعبد بخلاف ما يريده المرء ليبتلي طاعته في مخالفة هواه.

قوله ﷺ: «يردونه ورود الأَنعام» شبّه ﷺ ورود الحاج على البيت الحرام بورود الأَنعام على الماء للشّرب ووجه الشّبه الإجتماع والتزاحم، ومن ذلك سمّي ببكة لأَنّه من البك الذي هو عبارة عن دفع البعض بعضاً، بكه يبكه بكاً إذا دفعه وزاحمه.

كما قال الصادق ﷺ في رواية «العلل»: إنّما سمّيت بكّة بكّة، لأَنّ النّاس يباكون فيها أي يزدحمون.

وروى عطا قال: صلّى رجل في المسجد الحرام فمرّت به امرأة بين يديه فزجرها وكان الباقر ﷺ حاضراً، فمنع الرّجل وقال: «لا تزجرها هذه بكة يبك بعضه بعضاً أي يدق»[2].

وفي «الفقيه» روى أن الكعبة شكت إلى الله عزّ وجلّ في الفترة بين عيسى ومحمّد عليهما السلام فقالت يا ربّ مالي قلّ زوّاري مالي قلّ عوّادي، فأوحى الله إليها أنّي منزل نوراً جديداً على قوم يحنون إليك كما تحنّ الأنعام إلى أولادها، ويزفّون إليك كما تزف النسوان إلى أزواجها، يعني أمّة محمّد ﷺ، أي يشتاقون إليك كما تشتاق الأنعام، ويسرعون إليك كما تسرع النّسوان، وهو معنى قوله ﷺ: **(يألهون)** أي يسرعون **(إليه ولوه الحمام)** وكلّ ذلك كناية عن شدّة اشتياق الحجاج وفرط ميلهم إلى البيت الحرام **(جعله سبحانه)** أي الحجّ **(علامة لتواضعهم لعظمته و)** امارة **(إذعانهم لعزته)** إذ به يعرف المتواضع من المتكبر ويتميز المذعن من المتجبر، لما فيه من التواضع والخضوع ما ليس في سائر العبادات، ومن هجر البلدان وقطع العلاقات، وتعب الأبدان وترك الشهوات، وتحمل الأَخطار بقطع الأسفار وركوب الضّوامر في الجبال والقفار، وكشف الرأس ونزع اللباس وعدم التمكن من البلوغ إلاّ بشقّ الأَنفس، وغير ذلك من النّسك العظام التي حارت الأفهام عن إدراك أسرارها، وقصرت

(١) مستدرك الوسائل: ٣/ ١٧٧.
(٢) علل الشرائع: ٢/ ٣٩٧.

الأَوهام عن اقتباس أنوارها، إلا من أتى الله بقلب سليم، فهداه إلى صراط مستقيم، وأمّا من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور، ومن لم يعط هدى ودليلاً فأولئك هم كالأنعام بل أضل سبيلاً.

كما روى في «**الفقيه**» أنّ ابن أبي العوجاء دخل تمرّداً وإنكاراً على من يحج وكان يكره العلماء مساءلته إيّاهم ومجالسته لهم، لخبث لسانه وفساد ضميره، فأتى جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام، فجلس إليه في جماعة من نظرائه، ثم قال له: إنّ المجالس أمانات ولا بدّ لمن به سؤال أن يسأل أفتأذن لي في الكلام؟ فقال تكلم، فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر، من فكر هذا أو قدر علم أنّ هذا فعل أسّسه غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنّك رأس هذا الأمر وسنامه، وأسه ونظامه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ من أضله الله وأعمى قلبه إستوخم الحقّ فلم يستعذبه وصار الشيطان وليّه يورده مناهل الهلكة ثم لا يصدره، وهذا بيت إستعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على إستواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله تعالى قبل دحو الأرض بألفي عام، وأحق من اطيع فيما أمر وانتهى عمّا نهى عنه وزجر الله المنشيء للأرواح والصّور» الحديث[١].

ثم أشار عليه السلام إلى وصف الحجّاج بقوله: (**واختار من خلقه سمّاعاً**) أي السّامعين الذين (**أجابوا الله دعوته**) لهم إلى الحجّ (**وصدّقوا كلمته**) الجارية عن لسان إبراهيم عليه السلام وهو الأذان به والأمر باتيانه، والمراد بتصديقهم كلمته إتيانهم ما أمروا به وقد أشير إلى ذلك في قوله سبحانه مخاطباً لإبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

قال عليّ بن إبراهيم: ولمّا فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره الله أن يؤذن في النّاس بالحجّ، فقال: يا ربّ وما يبلغ صوتي، فقال: أذّن عليك الأذان وعليّ البلاغ، وارتفع على المقام وهو يومئذٍ ملصق بالبيت، فارتفع به المقام حتّى كان أطول من الجبال، فنادى وأدخل إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً يقول: أيها النّاس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم، فأجابوه من تحت البحور السّبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع

(١) ذخيرة المعاد: ٣/٥٤٨.

التراب من أطراف الأرض كلها من أصلاب الرّجال ومن أرحام النّساء بالتّلبية: لبيك اللهم لبّيك، أولا ترونهم يأتون يلبّون، فمن حجّ يومئذٍ إلى يوم القيامة فهم ممّن إستجاب الله وذلك قوله:

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

يعني بذلك نداء إبراهيم على المقام بالحجّ.

وعن «**الكافي**» و«**العلل**» عن الصّادق عليه السلام قال: «لمّا أمر إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت وتم بناؤه قعد إبراهيم على كل ركن ثم نادى هلمّ الحج، فلو نادى هلمّوا إلى الحجّ لم يحجّ إلاّ من كان يومئذٍ إنسياً مخلوقاً، ولكن نادى هلمّ هلم الحج الحج، فلبّى النّاس في أصلاب الرّجال، لبّيك داعي الله، لبيك داعي الله، فمن لبّى عشراً حجّ عشراً، ومن لبّى خمساً حج خمساً، ومن لبّى أكثر فبعدد ذلك، ومن لبّى واحدة حجّ واحدة، ومن لم يلبّ لم يحج»، ونحو ذلك في «**الفقيه**» (ووقفوا مواقف أنبيائه) هذه الفقرة كالتّالية لها تحريص وترغيب للحجاج على إتيان المناسك وتحملهم الأذى عند ذلك، لأنّهم لو تفكروا وتدبّروا فيما هم عليه من متابعة الأنبياء وتشبّههم بملائكة السّماء، لاستسهلوا احتمال الأذى في تحمل الضّيم القماء، بل يجدون الأذى لذة والذلّ عزّة[1].

وأما الأنبياء الواقفون في تلك المواقف:

فأوّلهم آدم عليه السلام، ويدل عليه ما رواه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إن آدم بقي على الصّفا أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنّة وعلى خروجه منها من جوار الله عزّ وجلّ، فنزل جبرئيل فقال يا آدم مالك تبكي؟ فقال: يا جبرئيل ما لي لا أبكي وقد أخرجني الله من جواره وأهبطني إلى الدّنيا، فقال يا آدم: تب إليه؟ قال: كيف أتوب؟ فأنزل الله تعالى عليه قبّة من نور فيه موضع البيت فسطع نورها في حيال مكة فهو الحرم، فأمر الله جبرئيل أن يضع عليه الأعلام، قال: ثم يا آدم، فخرج به يوم التّروية وأمره أن يغتسل ويحرم وأخرج من الجنّة أول يوم من ذي القعدة فلما كان يوم الثّامن من ذي الحجّة أخرجه جبرئيل إلى منى فبات بها فلمّا أصبح أخرجه إلى عرفات، وقد كان علّمه حين أخرجه من مكة: الإحرام، وعلمه التّلبية، فلما زالت الشّمس يوم عرفة فقطع التّلبية وأمره أن يغتسل، فلما صلّى العصر أوقفه بعرفات وعلمه الكلمات التي تلقى بها ربّه وهي:

«سُبْحَانَكَ اللّهُمَ وبحَمْدِكَ لاَ إِلَهَ إلا أَنْتَ عَمِلتُ سوءً وظَلَمْتُ نَفْسِي وَأعترَفْتُ بِذَنْبي

(١) علل الشرائع: ٢/٤١٩.

فَاغْفُر لِي إِنَّك أَنت خير الغَافِرِينَ، سُبْحانَكَ اللّهُم وبِحَمْدِكَ لا إله إلا أَنت عَمِلتُ سُوءً وظَلَمتُ نَفسي واعتَرفتُ بِذنبي فَاغْفِر لِي إِنَّكَ أنت التوابُ الرحيمُ».

فبقي إلى أن غابت الشمس، ردّه إلى المشعر فبات بها، فلما أصبح قام على المشعر الحرام فدعا الله بكلمات وتاب إليه ثم أفاض إلى منى وأمره جبرئيل أن يحلق الشعر الذي عليه، فحلقه ثم ردّه إلى مكة فأتى به إلى عند الجمرة الأولى فعرض إبليس عندها فقال يا آدم أين تريد؟ فأمره جبرئيل أن يرميه بسبع حصيات، وأن يكبر مع كلّ حصاة تكبيرة، ففعل، ثم ذهب فعرض له إبليس عند الجمرة الثانية فأمره أن يرميه بسبع حصيات، فرمى وكبر مع كل حصاة تكبيرة ثم مضى به، فعرض له إبليس عند الجمرة الثالثة، فأمره أن يرميه بسبع حصيات فرمى وكبر مع كلّ حصاة تكبيرة، ثم مضى به فذهب إبليس لعنه الله فقال له جبرئيل؛ انك لن تراه بعد هذا اليوم أبداً، فانطلق به إلى البيت الحرام وأمره أن يطوف به سبع مرّات، ففعل فقال له: إنّ الله قد قبل توبتك وحلل لك زوجتك، قال: فلما قضى آدم عليه السلام حجته لقبته الملائكة بالأبطح، فقالوا: يا آدم برّ حجك، أمّا نحن قد حججنا قبلك هذا البيت بألفي عام»[١].

وفي «**الفقيه**» قال أبو جعفر عليه السلام «أتى آدم هذا البيت ألف آتية على قدميه منها سبعمائة حجّة وثلاثمائة عمرة وكان يأتيه من ناحية الشام، وكان يحج على ثور والمكان الذي بنيت فيه الحطيم وهو ما بين باب البيت والحجر الأسود وطاف آدم قبل أن ينظر إلى حواء مائة عام، وقال له جبرئيل: حيّاك الله وبياك يعني أصلحك الله»[٢].

وفيه أيضاً بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «موضع الكعبة ربوة من الأرض بيضاء تضيء كضوء الشمس والقمر حتّى قتل ابنا آدم أحدهما صاحبه فاسودت فلمّا نزل آدم رفع الله تعالى له الأرض كلها حتّى رآها، ثم قال: هذه لك كلها، قال: يا رب ما هذه الأرض البيضاء المنيرة؟ قال: هي حرمي في أرضي وقد جعلت عليك أن تطوف بها كل يوم سبعمائة طواف»[٣].

ومنهم نوح النبي عليه السلام قال الصّدوق في «**الفقيه**»: وروي أنّه كان طول سفينة نوح ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها مائة ذراع، وطولها في السّماء ثمانين ذراعاً، فركب فيها فطافت بالبيت سبعة أشواط، وسعت بين الصّفا والمروة سبعاً ثم استوت على الجودي.

ومنهم: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام واختصاص البيت بهما كاختصاصهما به من

---

(١) بحار الأنوار: ٣٦/٩٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/٢٢٩.

(٣) جواهر الكلام: ٣٦١/١٩.

جهة تجديد البناء ووقوفهما فيها غني عن البيان.

ومنهم موسى عليه السلام قال الصّدوق وروى أنّ موسى عليه السلام أحرم من زملة وانه مرّ في سبعين نبيّاً على صفائح الرّوحاء عليهم العباء (القطوانية)[١]، يقول لبّيك عبدك وابن عبديك لبّيك.

وروى في خبر آخر أنّ موسى عليه السلام مر بصفائح الرّوحاء على جمل أحمر خطامه من ليف عليه عبائتان قطوانيّتان، وهو يقول: لبّيك يا كريم لبيك.

وقال الصّادق عليه السلام: «لما حجّ موسى عليه السلام نزل جبرئيل عليه السلام فقال له موسى: يا جبرئيل ما لمن حجّ هذا البيت بلا نيّة صادقة ولا نفقة طيّبة؟ قال لا أدري حتى أرجع إلى ربي، فلما رجع قال الله يا جبرئيل ما قال لك موسى؟ وهو أعلم بما قال قال يا ربّ قال لي ما لمن حج هذا البيت بلا نيّة صادقة ونفقة طيبة؟ قال الله: ارجع إليه وقل عليه أهب له حقّي وأرضى عنه خلقي، قال فقال يا جبرئيل: ما لمن حج هذا البيت بنيّة صادقة ونفقة طيبة؟ قال: فرجع إلى الله فأوحى الله إليه، قل له في الرفيق الأعلى مع النّبيين والصّديقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً»[٢].

ومنهم يونس بن متى كما في «**الفقيه**» فقد مرّ بصفائح الرّوحاء وهو يقول: لبيك، كشاف الكرب العظام لبّيك.

ومنهم عيسى بن مريم فقد مرّ بصفائح الرّوحاء وهو يقول: لبيك ابن امتك لبّيك كما رواه الصّدوق أيضاً.

ومنهم: سليمان بن داود، فقد روى الصُدوق أيضاً عن زرارة عن أبي جعفر * قال: إنّ سليمان بن داود عليهما السلام قد حج البيت في الجنّ والإنس والطير والرّياح، وكسا البيت القباطي وروى عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «آن آدم هو الذي بنى البنية ووضع أساسه وأول من كساه الشّعر وأوّل من حج إليه، ثم كساه تبع بعد آدم الإنطاع، ثم كساه إبراهيم الخصف، وأوّل من كساه الثياب سليمان كساه القباطي»[٣].

ومنهم النبي صلى الله عليه وآله، فقد حجّ عشرين حجّة، وكذلك أولاده المعصومون سلام الله عليهم أجمعين فهنيئاً للحجاج الواقفين مواقف الأنبياء والمرسلين، والسّالكين مسالك الأولياء

---

(١) قطوان محركة موضع بالكوفة.

(٢) الحدائق الناضرة: ١٤/ ١٩.

(٣) الحدائق الناضرة: ١٤/ ١٤.

المرضيّين، وطوبى لهم وحسن مآب وأنا أسأل الله سبحانه أن يوفقني ثانياً للعكوف عليه بعدما منحني في غابر الزمان الوقوف عليه بحق محمّد نبي الرحمة وآله أهل الصّلاة والطهارة.

(وتشبّهوا ملائكته المطيفين بعرشه) قد عرفت في الفصل التّاسع عند شرح قوله عليه السلام: ومنهم الثّابتة في الأَرضين السّفلى أقدامهم (ا ه)، عدد الملائكة المطيفين بالعرش، وأما صفوفهم فقد قال الشّارح البحراني: جاء في الخبر أن حول العرش سبعين ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتّهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صفّ قد وضعوا الأَيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبّح.

وفي رواية طويلة لعليّ بن إبراهيم بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي عبد الله عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام المسوقة لابتداء خلق آدم عليه السلام بعد ما ذكر عليه السلام قوله سبحانه للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقولهم له ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، وقوله لهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ﴾.

قال عليه السلام: «فقالت يا ربّنا افعل ما شئت لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم، قال عليه السلام: فباعدهم الله من العرش مسيرة خمسمائة عام، قال عليه السلام: فلاذوا بالعرش وأشاروا بالأصابع، فنظر الرّب جل جلاله إليهم ونزلت الرحمة، فوضع لهم بيت المعمور، فقال طوفوا به ودعوا العرش، فإنه لي رضىً فطافوا به وهو البيت الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، فوضع الله البيت المعمور توبة لأَهل السّماء ووضع الكعبة توبة لأَهل الأَرض»[1] الحديث.

قال الغزالي في «**إحياء العلوم**»: وأمّا الطواف بالبيت فاعلم أنه صلاة فاحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة واعلم أنّك بالطواف متشبّه بالملائكة المقرّبين الحافين حول العرش الطائفين حوله، ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل طواف قلبك ربّ البيت حتّى لا تبتدأ بالذكر إلا منه، ولا تختم إلا به كما تبدأ بالبيت وتختم به.

قال: واعلم أن الطواف الشّريف هو طواف القلب بحضرة الرّبوبيّة، وأنّ البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت كما أنّ البدن مثال ظاهر في عالم الشّهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب وأن عالم الملك والشّهادة مدرجة إلى عالم الغيب، والملكوت لمن فتح الله له الباب، وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السّماوات بإزاء الكعبة، فإنّ طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت، ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبّه

(١) بحار الأنوار: ١١/ ١٠٤.

بهم بحسب الإمكان، ووعدوا بأنّ من تشبّه بقوم فهو منهم، والذي يقدر على مثل ذلك الطواف يقال: إنّ الكعبة تزوره وتطوف به، انتهى.

أقول: هذا الطواف الحقيقي مختص بأولياء الله سلام الله عليهم، وفي عالم المعنى الكعبة طائفة بهم وكاسبة من فيوضاتهم، وإلى هذا المعنى أشار الفرزدق في قصيدته الميميّة التي قالها في مدح عليّ بن الحسين عليهما السّلام على رغم هشام بن عبد الملك بن مروان عليهم اللعنة والنيران، بقوله:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه ... لخرّ يلثم منه ما وطى القدم

ثم لما كان طباع الخلق مايلة إلى حبّ الأرباح وطلب المنافع في المكاسب شوّقهم بقوله عليه السلام: **(يحرزون الأرباح في متجر عبادته)** تنبيهاً على أن قيامهم بالعبادة في هذه المواقف الشّريفة تجارة للآخرة ولا محالة مشتملة على الرّبح والمنفعة، فلا ينبغي للعاقل أن يفوتها على نفسه.

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام في مروي **«الفقيه»**: «الحجّ والعمرة سوقان من أسواق الآخرة اللاّزم لهما من أضياف الله إن أبقاه أبقاه ولا ذنب له وإن اماته أدخله الجنّة»[1].

ولا يخفى ما في هذه العبارة من حسن الإستعارة، حيث شبّه الحجاج بالتّجار وشبّه عبادتهم ببضاعة التّجارة، وذكر المتجر إستعارة تخييلية، وذكر الأرباح ترشيح، والمراد بالأرباح هو الثواب الجميل والأجر الجزيل المبذول للحجاج والمعتمرين والوفاد والطائفين.

قال الصادق عليه السلام: «إنّ لله تعالى حول الكعبة عشرين ومائة رحمة منها ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين».

وقال عليه السلام أيضاً: «من نظر إلى الكعبة وعرف من حقّنا وحرمتنا مثل الذي عرف من حقّها وحرمتها غفر الله له ذنوبه كلها وكفاه همّ الدّنيا والآخرة»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من مهلّ يهلّ في التّلبية إلا أهلّ من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب ومن عن يساره إلى مقطع التراب وقال له الملكان: أبشر يا عبد الله وما يبشّر الله عبداً إلا بالجنّة، ومن لبى في إحرامه سبعين مرة إيماناً وإحتساباً أشهد الله له ألف ملائكة

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٢١.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٠٤.

ببراءة من النّار وبراءة من النفاق، ومن انتهى إلى الحرم فنزل واغتسل وأخذ نعليه بيده ثم دخل الحرم حافياً تواضعاً لله محا الله عنه مائة ألف سيئة وكتب الله له مائة ألف حسنة وبنى له مائة الف درجة وقضى له مائة ألف حاجة، ومن دخل مكة بسكينة غفر الله له ذنبه، وهو أن يدخلها غير متكبر ولا متجبر، ومن دخل المسجد حافياً فسكينة ووقار وخشوع غفر الله له، ومن نظر الكعبة عارفاً بحقها غفر الله له ذنوبه وكفى ما لهمه»[١].

وروى الحسن بن محبوب عن عليّ بن رئاب عن محمّد بن قيس قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدّث النّاس بمكة، قال عليه السلام: «صلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه الفجر، ثم جلس معهم يحدّثهم حتى طلعت الشمس فجعل يقوم الرّجل بعد الرجل حتى لم يبق معه إلا رجلان: أنصاري وثقيف، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وآله: قد علمت أنّ لكما حاجة تريدان أن تسألاني عنها، فإن شئتما أخبرتكما بحاجتكما قبل أن تسألاني، وإن شئتما فاسألاني، فقالا: بل تخبرنا أنت يا رسول الله فإن ذلك أجلى للعمى وأبعد من الإرتياب وأثبت للإيمان.

فقال النبي صلى الله عليه وآله:

«أما أنت يا أخا الأنصار فانك من قوم يؤثرون على أنفسهم وأنت قروي وهذا الثقفي بدوي افتؤثره بالمسألة»؟ قال: نعم، قال صلى الله عليه وآله:

«أما أنت يا أخا ثقيف جئتني تسألني عن وضوئك وصلاتك وما لك فيهما، فاعلم انك إذا ضربت يدك في الماء وقلت: بسم الله الرحمٰن الرّحيم، تناثرت الذّنوب التي إكتسبتها يداك.

فإذا غسلت وجهك تناثرت الذّنوب التي اكتسبتها عيناك بنظرهما وفوك بلفظه.

فإذا غسلت ذراعيك تناثرت الذّنوب عن يمينك وشمالك.

فإذا مسحت رأسك وقدميك تناثرت الذّنوب التي مشيت إليها على قدميك، فهذا لك في وضوئك.

فإذا قمت إلى الصّلاة توجّهت وقرأت أمّ الكتاب وما تيسر لك من السّور ثم ركعت فأتممت ركوعها وسجودها وتشهدت وسلّمت غفر لك كلّ ذنب فيما بينك وبين الصّلاة قدّمتها إلى الصّلاة المؤخّرة، فهذا لك في صلاتك ووضوئك».

«وأمّا أنت يا أخا الأنصار فإنك جئت تسألني عن حجك وعمرتك ومالك فيهما من الثواب، فاعلم أنك إذا توجّهت إلى سبيل الحجّ ثم ركبت راحلتك لم تضع راحلتك خفّا ولم

(١) منتهى المطالب: ٢/ ٦٤٤.

ترفع خفا إلاّ كتب الله لك حسنة ومحاعنك سيئة.

فإذا أحرمت ولبّيت كتب الله لك بكلّ تلبية عشر حسنات ومحا عنك عشر سيئات.

فإذا طفت بالبيت أسبوعاً كان لك بذلك عند الله عهد وذكر يستحيي منك ربك أن يعذّبك بعده.

فإذا صلّيت عند المقام ركعتين كتب الله لك بهما ألفي ركعة مقبولة.

وإذا سعيت بين الصّفا والمروة سبعة أشواط كان لك بذلك عند الله مثل أجر من حجّ ماشياً من بلاده ومثل أجر من أعتق سبعين نسمة (رقبة خ).

وإذا وقفت بعرفات إلى غروب الشّمس فلو كان عليك من الذّنوب مثل رمل عالج وزبد البحر ليغفر الله لك.

فإذا رميت الجمار كتب الله لك لكلّ حصاة عشر حسنات فيما تستقبل من عمرك.

فإذا حلقت رأسك كان لك بكلّ شعرة حسنة يكتب لك فيما يستقبل من عمرك.

فإذا طفت بالبيت أسبوعاً للزّيارة وصليت عند المقام ركعتين ضرب ملك كريم على كتفيك، فقال أمّا ما مضى فقد غفر لك فاستأنف العمل فيما بينك وبين عشرين ومائة يوم» هذا[1].

والأخبار في فضائل الحجّ كثيرة وقد جمع الصّدوق فيها باباً في «**الفقيه**» وأخرجت هذه الأخبار منه وفيها كفاية للمهتدي إنشاء الله.

(**ويتبادرون عنده موعد مغفرته**) أي يتسارعون ويستبق كل منهم الآخر عند الحجّ إلى وعدة المغفرة من الله سبحانه لهم، ويحتمل أن يكون إسم مكان (**جعله سبحانه للإسلام علماً**) أي جعل البيت علامة للدّين والإسلام الذين هما طريقان إلى الرّضوان، كما أنّ السّالكين والمسافرين يهتدون إلى مطالبهم وماربهم بالأعلام المنصوبة والمناور المرفوعة (**والمعائذين حرماً**) يعني جعله حرماً للمعتصمين به والملتجئين إليه لا يجوز إيذاؤهم فيه وإخراجهم منه.

قال في «**الفقيه**»: وروي أنّ من جنى جناية ثم لجأ إلى الحرم لم يقم عليه الحدّ ولا يطعم ولا يسقى ولا يؤذى حتّى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ، فإن أتى ما يوجب الحدّ في الحرم أخذ به في الحرم لأنّه لم ير للحرم حرمة.

وفيه أيضاً وسأل عبد الله بن سنان أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله:

---

(١) بحار الأنوار: ٩٦/ ٥.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

قال: «من دخل الحرم مستجيراً به فهو آمن من سخط الله وما دخل من الوحش والطير كان آمناً من أن يهاج أو يؤذي حتّى يخرج من الحرم» الحديث[(١)].

ومثله في «**الكافي**» عن العياشي عنه عليه السلام.

وعنه عليه السلام أيضاً قال: «إذا أحدث العبد في غير الحرم جناية ثم فرّ إلى الحرم لم يسع لأَحد أن يأخذه في الحرم ولكن يمنع من السّوق ولا يبايع ولا يطعم ولا يسقي ولا يكلم، فإنّه إذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤخذ، وإذا جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحدّ في الحرم»، وزاد في «**الكافي**» أنّه لم يدع للحرم حرمة[(٢)].

وفي «**الكافي**» عنه عليه السلام أيضاً وقد سأله سماعة عن رجل لي عليه مال فغاب عنّي بزمان فرأيته يطوف حول الكعبة أفأتقاضاه مالي؟ قال «لا تسلم عليه، ولا تردعه حتّى يخرج من الحرم» هذا.

ومن أجل كونه حرم الله سبحانه لم يقصده جبّار بسوء إلاّ إبتلاه الله بشاغل أو رماه بقاتل.

وقد قصده أصحاب الفيل فأرسل سبحانه إليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل فجعلهم كعصف مأكول على ما نطق به التّنزيل.

وقصده تبع الملك وأراد قتل مقاتلته وسبى ذراريهم وهدمه بعد ذلك فسالت عيناه حتّى وقعتا على خدّيه فسأل عن ذلك، فقالوا: ما نرى الذي أصابك إلاّ بما نويت في هذا البيت، لأنّ البلد حرم الله والبيت بيت الله وسكان مكة ذرّية إبراهيم خليل الرّحمن، فقال: صدقتم فما مخرجي ممّا وقعت فيه؟ قالوا: تحدث نفسك بغير ذلك، فحدث نفسه بخير فرجعت حدقتاه حتّى ثبتتا في مكانهما، فدعا القوم الذين أشاروا إليه بهدمها، فقتلهم ثمّ أتى البيت فكساه الأنطاع وأطعم الطعام ثلاثين يوماً كلّ يوم مائة جزور، حتّى حملت الجفان إلى السّباع في رؤوس الجبال، ونثرت الأَعلاف للوحش، ثم انصرف من مكة إلى المدينة فأنزل بها قوماً من أهل اليمن من غسان وهم الأنصار.

فإن قيل: كيف لم يجر على الحجاج اللعين ما جرى على تبع وأصحاب الفيل مع هدمه البيت؟

---

(١) الكافي: ٤/٢٢٦.

(٢) الكافي: ٤/٢٢٦.

قلنا: إنّ الحجاج لم يكن قصده إلى هدم البيت وإنّما كان قصده إلى ابن الزّبير وكان ضدّ الحق، فلما استجار بالكعبة أراد الله أن يبيّن للنّاس أنه لم يجره، فأمهل من هدمها عليه بذلك صرّح في الفقيه.

ثم أكد عليه السلام وجوب الحج بقوله: (**فرض حجّه وأوجب**) معرفة (**حقه**) وملاحظة حرمته (وكتب عليكم) أي ألزم عليكم (**وفادته**) والقدوم إليه لكسب الفيوضات وتحصيل الكمالات.

روى الصّدوق بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «الحجاج والمعتمر وفد الله إن سألوه أعطاهم، وإن دعوه أجابهم وإن شفعوا شفعهم وإن سكتوا إبتدئهم ويعوذون «يعوضون ظ» بالدرّهم ألف درهم ﴿فقال والله على النّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنيّ عن العالمين﴾»[1] [آل عمران: ٩٧].

قال الطبرسي: معناه ولله على من استطاع إلى حجّ البيت سبيلاً من النّاس حج البيت، أي من وجد إليه طريقاً بنفسه وماله.

واختلف في الإستطاعة، قيل: هي الزّاد والرّاحلة عن ابن عبّاس وابن عمر، وقيل: ما يمكنه معه بلوغ مكة بأيّ وجه يمكن عن الحسن ومعناه القدرة على الوصول إليه، والمروي عن أئمتنا عليهم السلام أنّه وجود الزّاد والرّاحلة ونفقة من يلزمه نفقته والرّجوع إلى كفاية إمّا من مال أو ضياع أو حرفة مع الصّحة في النّفس وتخلية السّرب من الموانع وإمكان السير.

أقول: أمّا اشتراط الزّاد والرّاحلة في تحقّق الإستطاعة للبعيد فمّما أجمع عليه الأَصحاب.

وأمّا القريب الغير المحتاج إلى قطع المسافة كأهل مكة وما قاربها ممّن يمكنه السّعي من غير راحلة بحيث لا يشق عليه عادة، فإنّ الرّاحلة حينئذٍ غير شرط.

وأمّا البعيد المتمكن من المشي فهل هي شرط للوجوب في حقه أم لا؟ الظاهر من المنتهى الأوّل حيث قال: إتفق علمائنا على أنّ الزّاد والرّاحلة شرطان في الوجوب فمن فقدهما أو أحدهما مع بعد مسافته لم يجب عليه الحجّ، وإن تمكن من المشي واستشكل فيه بعض متأخري المتأخّرين كصاحب المدارك ونحوه من أجل قيام بعض الأخبار على الثاني.

وأمّا الرّجوع إلى الكفاية فقد اشترطه الشّيخان أبو الصّلاح وابن البراج وابن حمزة، ورواه الصّدوق في «**الفقيه**» عن أبي الزبيع الشّامي قال سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(١) تحريم الأحكام: ٨٩/١.

[آل عمران: ٩٧]، فقال: «ما يقول النّاس فيها»؟ فقيل له: الزّاد والرّاحلة، فقال عليه السلام: «قد سئل أبو جعفر عليه السلام عن هذا فقال: هلك النّاس إذا لئن كان من كان له زاد وراحلة قدر ما يقوت عياله واستغنى به عن النّاس ينطلق إليه فيسلبهم إياه لقد هلكوا إذاً»، فقيل له: فما السّبيل؟ فقال: «السّعة في المال إذا كان يحجّ ببعض ويبقى بعض لقوت عياله، أليس قد فرض الله عزّ وجلّ الزكاة فلم يجعلها إلاّ على من يملك مائتي درهم؟»[١].

وذهب الأكثر ومنهم المرتضى وابن ادريس وابن أبي عقيل وابن الجنيد إلى عدم الإشتراط، إستدلالاً بعموم الآية والأخبار الصّحيحة، وإستضعافاً لسند رواية أبي الرّبيع، وطعناً فيه بجهالة الرّاوي وبأنّ من جملة رجاله خالد بن جرير ولم يرد فيه توثيق بل ولا مدح يعتد به، هذا.

وأمّا قوله تعالى: ومن كفر، فقد قال الطبرسي: معناه، ومن جحد فرض الحج ولم يره واجباً، عن ابن عباس والحسن:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

لم يتعبّدهم بالعبادة لحاجته إليها وإنّما تعبدهم بها لما علم فيها من مصالحهم.

وقيل: إنّ المعني به اليهود فإنّه لما نزل قوله:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٩٧].

قالوا: نحن مسلمون، فامروا بالحج فلم يحجّوا، وعلى هذا يكون معنى من كفر من ترك الحج من هؤلاء فهو كافر، انتهى.

أقول: إطلاق الكافر على تارك الحجّ كما في الآية قد وقع في الأخبار الكثيرة وتفسيره بالجاحد بوجوبه حسبما فعله الطبرسي وتبعه غيره لا داعي إليه، وإنّما هو ناشيء عن حسبان أنّ الكفر له معنى واحد وهو المعنى المعروف بين الفقهاء وهو ما يوجب نجاسة المتّصف به وخلوده في النّار، وليس كذلك بل له معان متعددة.

بيان ذلك أنّ الكفر في اللّغة هو السّتر، ومنه سمّي الليل كافراً لأنّه يستر ما أظهره نور النّهار، وإطلاقه على الكافر من جهة ستره ما أنعم الله به عليه من المعارف الحقّة والأنوار الإلهية والنعم الجليّة والخفيّة، وفي لسان الفقهاء يطلق الكافر على جاحد الرّبّ ومنكره، وعلى منكر ما علم ثبوته ضرورة من دين الإسلام.

وأمّا في القرآن والأخبار، فربّما أطلق على تارك بعض الواجبات ولو لم يكن عن جحود كما يطلق على فاعل بعض المحرمات، ويدل على عدم انحصار معناه في المعروف ما رواه

---

(١) المقنعة/ ٣٨٤.

الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن بكر بن صالح عن القاسم ابن يزيد عن أبي عمرو الزّبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الكفر في كتاب الله عز وجل على خمسة أوجه: فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين والكفر بترك ما أمر الله وكفر البراءة وكفر النعم:

فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالرّبوبيّة، وهو قول من يقول: لا ربّ ولا جنة ولا نار، وهو قول صنفين من الزنادقة لعنهم الله يقال لهم: الدّهريّة وهم الذين يقولون: وما يهلكنا إلا الدّهر» إلى أن قال: «وأمّا الوجه الآخر من الجحود على معرفته فهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حق قد استيقن عنده، وقد قال الله عزّ وجل.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فهذا تفسير وجهي الجحود، والوجه الثالث من الكفر كفر النعم، وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

والوجه الرّابع من الكفر ترك ما أمر الله به وهو قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥]

فكفرهم بترك ما أمر الله به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال:

﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

والوجه الخامس: من الكفر كفر البراءة، وذلك قوله تعالى يحكي قول إبراهيم:

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

يعني تبرّأنا منكم» الحديث[1].

فقد ظهر منه أنّ إطلاق الكفر على ترك بعض الفرائض وإتيان بعض المناهي ليس من

(١) الكافي: ٢/٣٩، وشرح أصول الكافي: ١٠/٦٦.

أجل إشتماله على الجحود والإنكار، حيث إنّه عليه السلام جعل الكفر الجحودي قسيماً للكفر بترك ما أمر الله به.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ تارك الحج مع وجود الإستطاعة كافر حقيقة وإن لم يحكم بنجاسته، لأن الحكم بالنجاسة من خواصّ الكفر على وجه الجحود، ويدل على ذلك مضافاً إلى ظهور الآية الشريفة، ما رواه الصّدوق في آخر «الفقيه» في باب النّوادر في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي، تارك الحجّ وهو مستطيع كافر قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] الآية.

يا عليّ من سوّف الحج حتّى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً»، وفي ذلك الباب أيضاً: يا علي كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة: القتاة والسّاحر والديوث وناكح المرأة حراماً في دبرها وناكح البهيمة ومن نكح ذات محرم والسّاعي في الفتنة وبائع السّلاح من أهل الحرب ومانع الزّكاة من وجد سعة فمات ولم يحج» هذا[(١)].

والأخبار في عقوبة تارك الحج ومسوّفه وكونه كبيرة موبقة كثيرة، ومن الآيات الدّالة على ذلك مضافة إلى الآية السّابقة قوله تعالى:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

قال الصّدوق: روى محمّد بن الفضيل، قال سألت أبا الحسن عليه السلام عن هذه الآية فقال: «نزلت فيمن سوّف الحج حجة الإسلام وعنده ما يحج به فقال: العام أحج العام أحج حتى يموت قبل أن يحج».

وروى عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل لم يحج قط وله مال، فقال: هو ممّن قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فقلت: سبحان الله أعمى، فقال: أعماه الله عن طريق الخير[(٢)].

تكميل

قد عرفت فضل البيت الحرام وفضائل المشاعر العظام وكونه حرم الله وأمنه وإختياره سبحانه على جميع أقطار أرضه من سهله وحزنه إلاّ أنّه قد وردت أخبار مستفيضة دالة على تفضيل أرض كربلا عليه وكونه حرم الله سبحانه من قبله.

(١) بحار الأنوار: ٦٩/١٢٢.

(٢) تفسير القمي: ٢/٦٦.

مثل ما رواه جعفر بن محمّد بن قولويه في المزار بإسناده عن ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث ثواب زيارة الحسين عليه السلام قال: «والله لو أني حدثتكم في فضل زيارته لتركتم الحج رأساً وما حج أحد ويحك أما علمت أن الله أتخذ كربلا حرماً آمناً مباركاً قبل أن يتخذ مكة حرماً».

قال ابن أبي يعفور: قد فرض الله على النّاس حج البيت ولم يذكر زيارة قبر الحسين عليه السلام، قال: «وإن كان كذلك فإن هذا شيء جعله الله هكذا أما سمعت قول أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ باطن القدم أحق بالمسح من ظاهر القدم ولكن الله فرض هذا على العباد، أما علمت أن الإحرام ولو كان في الحرم كان أفضل لأجل الحرم ولكن الله صنع ذلك في غير الحرم»[١].

وروى أيضاً بإسناده عن عمر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن أرض الكعبة قالت من مثلي وقد بني بيت الله على ظهري يأتيني النّاس من كلّ فج عميق، وجعلت حرم الله وأمنه، فأوحى الله إليها كفى وقري ما فضل ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غمست في البحر فحملت من ماء البحر ولولا تربة كربلا ما فضلتك ولولا من ضمنه كربلاء لما خلقتك ولا خلقت الذي افتخرت به فقري واستقري وكوني ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء وإلا مسختك وهويت بك في نار جهنم»[٢].

وبإسناده عن أبي الجارود عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «إتخذ الله أرض كربلاء حرماً قبل أن يتخذ مكة حرماً بأربعة وعشرين ألف عام»[٣].

وبإسناده عن صفوان الجمال قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله فضل الأرضين والمياه بعضها على بعض، فمنها ما تفاخرت ومنها ما بغت، فما من أرض ولا ماء إلا عوقبت لترك التّواضع لله حتى سلّط الله على الكعبة المشركين وأرسل إلى زمزم ماء مالحاً فأفسد طعمه، وإن كربلاء وماء الفرات أول أرض وأول ماء قدس الله وبارك عليه، فقال لها تكلمي ما فضلك الله، فقالت: أنا أرض الله المقدسة المباركة، الشّفاء في تربتي ومائي ولا فخر بل خاضعة ذليلة لمن فعل بي ذلك ولا فخر على من دوني بل شكر الله، فأكرمها وزادها بتواضعها وشكرها لله بالحسين عليه السلام وأصحابه»، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «من تواضع لله رفعه الله ومن تكبّر وضعه الله»[٤].

والحمد لله على حسن توفيقه لشرح الخطبة الأولى ومنه أسأل التّوفيق لشرح الخطبة الآتية بحقّ محمّد وعترته الطاهرة.

---

(١) وسائل الشيعة: ١٤/ ٥١٤.

(٢) كامل الزيارات/ ٤٥٠.

(٣) كامل الزيارات/ ٤٥١.

(٤) كامل الزيارات/ ٤٥٥.

الترجمة

و واجب گردانید حق تعالی بر شما حج خانه خود را که حرام است بر مشرکین داخل شدن او؛ چنان خانه ای که گردانیده است آن را قبله خلقان در حالتی که وارد می شوند بر آن با ازدحام مثل وارد شدن حیوانات بر آب در وقت تشنگی و شایق می شوند به سوی آن مثل اشتیاق کبوتران حرم به آشیان خودشان. گردانید خداوند آن خانه را علامت و نشانه به جهت فروتنی و تواضع آن ها مربزرگواری و عظمت خود را و به جهت اعتقاد و یقین آن ها مرعزّت و سلطنت او را و پسندید از خلق خود شنوندگان که اجابت کردند به جهت او دعوت او را و تصدیق نمودند از برای او کلمه تامه او را و بایستادند ایشان در جای ایستادن انبیاء مرسلین و متشبّه شدند به ملائکه مقرّبین که طواف کنندگانند بر عرش رب العالمین در حالتی که جمع آوری می کنند ایشان سودها و منفعت ها در تجارت گاه پرستش او و می شتابند و سرعت می کنند بر وعدگاه آمرزش او؛ گردانید آن خانه را خداوند نشانه و علامت از برای دین اسلام و حرم و مأمن به جهت پناه برندگان؛ واجب نمود حج آن را و لازم گردانید حق آن را و متحتّم فرمود آمدن آن را به جهت کسب فیض و سعادت، پس فرمود: مرخدای را است بر بندگان حج بیت الحرام هرکسی که تمکّن داشته باشد به سوی او و از حیثیت راه و هرکس کافر باشد یعنی ترك حج نماید پس به تحقیق خداوند ملك منان غنی و بی نیاز است از همه عالمیان. یعنی امر فرمودن خداوند ایشان را به عبادت نیست به جهت افتقار و حاجت بلکه وجود مصلحت است در طاعات و عبادات.

ومن خطبة له عليه السلام
وهي الثانية من المختار في باب الخطب خطب بها بعد انصرافه من صفين ونشرحها في ضمن فصول

الفصل الأول

«أَحْمَدُهُ اسْتِتْماماً لِنِعْمَتِهِ، وَاسْتِسْلاَماً لِعِزَّتِهِ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ فاقَةً إلى كِفَايَتِهِ، إِنَّهُ لاَ يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ، وَلاَ يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ، وَلاَ يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ، فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ، وَأَفْضَلُ ما خُزِنَ».

اللغة

(**صفين**) بسكر الصّاد وتشديد الفاء كسجّين إسم موضع قرب الرّقه بشاطىء الفرات من الجانب الغربي كانت به الوقعة العظمى بين عليّ عليه السلام ومعاوية لعنه الله ووزنه إمّا فعيل كظلّيم وضلّيل فالنّون أصليّة ويدلّ عليه ضبط الجوهرية والفيروز آبادي له في باب النّون، وهو الأشهر، وإمّا فعلين بزيادة (**الياء**) (**والنّون**) كغسلين ويدلّ عليه ضبط الفيومي كبعض اللّغويّين له في باب (**الصّاد**) مع (**الفاء**)، قال في «**المصباح**» وهو فعلين من الصّف، أو فعّيل من الصّفون، فالنّون أصليّة على الثّاني.

أقول: على تقدير كونه مأخوذاً من الصّف بكسر (**الصّاد**) فأصله الصّف بفتحها وزيادة (**الياء**) (**والنّون**) للمبالغة، كما أنّ غسلين من الغسل وهو ما يغتسل به كالماء والصّابون والخطمي، فزيدت الياء والنّون مبالغة واستعمل فيما يسيل من جلود أهل النّار قال سبحانه:

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴿٣٦﴾﴾ [الحاقة: ٣٦].

وتسميته على هذا التّقدير يحتمل أن يكون لكثرة الصّفوف في الوقعة الواقعة فيه، وعلى تقدير كونه مأخوذاً من الصّفون فهو من صفن الفرس صفوناً قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرّابعة، وصفن الرّجل إذا صفّ قدميه، وصفن به الأرض ضربه وعلى كلّ التّقدير فاللاّزم أن تكون التّسمية به متأخرة عن وقوع الوقعة نظير ما قالوه في إطلاق المسلخ على الميقات المعروف الذي هو أوّل وادي العقيق من أنه لأجل سلخ الثياب ونزع اللّباس فيه فيكون التّسمية متأخرة عن كونه ميقاتاً و(**الإستسلام**) الإنقياد والخضوع و(**العزّة**) من عزّه يعزّه عزّاً من باب ضرب إذا غلبه والإسم العزة وهي القوّة والغلبة، والعزيز من أسمائه سبحانه هو الغالب الذي لا يغلب و(**الفاقة**) الفقر والحاجة و(**الكفاية**) مصدر يقال: كفى الشيء يكفى كفاية إذا حصل به الإستغناء عن غيره قال تعالى:

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

أي أغناهم عنه ووئل (يئل) من باب ضرب وتلاوؤ ولا إذا طلب النجاة فنجى، والموئل الملجأ والمنجى.

الإعراب

قال الشراح المعتزلي: صفين إسم غير منصرف للتّأنيث والتّعريف واستدل بقول الشّاعر:

إنـــي أديـــن بـــمـــا دان الـــوصـــيّ بـــه ... يـوم الـخـريـبـة مـن قـتـل الـمـحـلّـيـنـا
والـــذي دان يـــوم الـــنّـــهـــر دنـــت بـــه ... وشـاركـت كـفّـه كـفـي بـصـفّـيـنـا
تـلـك الـدّمـاء مـعـاً يـا رب فـي عـنـقـي ... ثـم اسـقـنـي مـثـلـهـا آمـيـن آمـيـنـا

أقول: أمّا التّعريف فيه فمسلم، وأمّا التّأنيث فغير لازم إذ كما يجوز تفسيره بالأرض والبقعة كذلك يجوز تفسيره بالمكان والموضع والشّعر لا دلالة فيه على ما رامه، لأنّ دلالته إنّما يتمّ لو كان أصليّة النّون فيه مسلمة لظهور كون محلّ الإعراب فيه حينئذٍ هو آخر الكلمة، وأمّا على تقدير كونها زائدة كما اختاره الفيومي في «**المصباح**» حسبما أشير إليه (**فالنّون**) مفتوحة دائماً، ويظهر أثر الإعراب حينئذٍ فيما قبل النّون، فيقال: صفّين وصفون نظير عالمين وأرضين، وقد صرّح بما ذكرناه أخيراً في الأوقيانوس أيضاً، فافهم جيّداً.

(**وإستتماماً وإستسلاماً وإستعصاماً**) منصوبات على أنّها مفاعيل لفاعل الفعل المعلل بها وهو أحمد وانتصاب فاقة على ذلك أيضاً والضّمير في قوله ﷺ: (**فإنّه أرجح**) ماوزن إمّا راجع إلى الحمد المستفاد من قوله: أحمد، أو راجع إلى الله سبحانه وستعرف تحقيقه.

المعنى

(**أحمده إستتماماً لنعمته**) أي طلباً لتمام النّعمة وفي إفرادها إشارة إلى أنّ نعمه سبحانه غير متناهية وفيوضاته تعالى غير منتهية من الكمّ والكيفيّة، فهي أعظم من أن تتمّ في حقّ عبد فيكون طلب تمامها حينئذٍ عبثاً وإنّما يتفضل منها على العباد بحسب إستعدادهم وقابليّتهم (**وإستسلاماً لعزّته**) أي إنقياداً لقهره وغلبته وخضوعاً لجلاله وعظمته (**وإستعصاماً من معصيته**) أي طلباً للعصمة من معصيته الحاصلة بكفران النّعمة.

ولا يخفى ما في كلامه من النكتة اللطيفة حيث إنّه علل الحمد أولاً بطلب تمام نعمة الله سبحانه إشارة إلى أنّ العلة الدّاعية إلى الحمد هو طلب تمام النّعمة من حيث إنّ الحمد يوجب تمامها وكمالها بمقتضى الوعد الذي ورد في كلامه تعالى من قوله:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثم علّله بعلّة ثانية منشعبة من العلّة الأولى من حيث إنّ طلب تمام نعمته موقوف على معرفته سبحانه من حيث إنّه منعم ومعرفة النّعمة من حيث إنّها نعمة ولا تتمّ تلك المعرفة إلاّ بأن تعرف أنّ النّعم كلها جليتها وخفيّها منه سبحانه وأنّه المنعم الحقيقي، والأوساط كلها منقادة لحكمه ومسخرة لأمره، وثمرة تلك المعرفة هي الخضوع والاستسلام والتذلل لعزّته وقدرته.

وأمّا العلّة الثّالثة ففيها إشارة إلى أنّ بالحمد تحصل العصمة من المعصية إذ في تركه كفران النّعمة وقد أوعد عليه سبحانه:

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، هذا.

وغير خفيّ على الفطن الدّقيق أنّ ما ذكرناه في شرح كلامه عليه السلام أولى ممّا صنعه الشّارح البحراني من جعل الإستتمام والإستسلام والإستعصام غايات للحمد مترتبة عليه، لظهور أنّ طلب التّمام ليس من غايات الحمد، بل هو علة باعثة له وإنّما غايته وفائدته المترتبة عليه هو التّمام والزّيادة، وهكذا الكلام في الإستسلام والإستعصام، وبالجملة المفاعيل الثلاثة في كلامه عليه السلام على حدّ قولهم، قعدت عن الحرب جبناً، لا على نحو قولهم: جئتك زيارة لك، فافهم جيّداً.

ثم إنّ الظاهر أن المراد بالحمد في كلامه عليه السلام هو الشكر، وفي قوله: إستتماماً لنعمته تلويح لذلك، لأنّ الثّناء على المنعم من حيث النّعمة ومن حيث تمامها وزيادتها هو الشكر، وفي قوله سبحانه: لئن شكرتم (اه) إشارة إلى ذلك.

قال المحقّق النّصير الطوسي (ره) في محكي كلامه: إعلم أنّ الشّكر مقابلة النّعمة بالقول والفعل والنيّة وله أركان ثلاثة.

الأوّل: معرفة المنعم وصفاته اللاّئقة به ومعرفة النّعمة من حيث إنها نعمة ولا تتمّ تلك المعرفة إلاّ بأن تعرف أنّ النعم كلها جليها وخفيّها من الله سبحانه، وأنّه المنعم الحقيقي، وأنّ الأوساط كلها منقادة لحكمه مسخرة لأمره.

الثّاني: الحالة التي هي ثمرة تلك المعرفة وهي الخضوع والتّواضع والسرور بالنعم لا من حيث إنّها موافقة لغرض النّفس، فإنّ في ذلك متابعة لهواها وقصر الهمة على رضاها، بل من حيث إنّها هدية دالة على عناية المنعم بك، وعلامة ذلك أن لا تفرح من نعم الدّنيا إلاّ بما يوجب القرب منه.

الثّالث: العمل الذي هو ثمرة تلك الحال، فإن تلك الحال إذا حصلت في القلب حصل

فيه نشاط للعمل الموجب للقرب منه تعالى، وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح.

أمّا القلب فالقصد إلى تعظيم المنعم وتمجيده وتحميده والتفكر في صنائعه وأفعاله وآثار لطفه والعزم على إيصال الخير والإحسان إلى عامة الخلق.

وأمّا عمل اللسان فإظهار ما قصدته ونويته من التمجيد والتّعظيم بتهليله وتحميده وتسبيحه والثّناء عليه وإرشاد الخلق بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إلى غير ذلك.

وأمّا عمل الجوارح فاستعمال نعمه الظاهرة والباطنة في طاعته وعبادته وعدم إستعمالها في معصيته ومخالفة أمره كأعمال العين في النّظر إلى عجيب مصنوعاته وآياته، والنظر في كتابه، وإستعمال السّمع في إستماع دلائله وبراهينه والإنصات لقراءة كتابه، وقس على ذلك سائر الجوارح، ومن هنا ظهر أنّ الشكر أشرف معارج السّالكين وأعلى مدارج العارفين، ولا يبلغ حقيقته إلاّ من ترك الدّنيا وراء ظهره، وهم قليلون ولذلك قال عزّ من قائل: **(وقيل من عبادي)** الشكور. انتهى كلامه قده، **(وأستعينه فاقة إلى كفايته)** الكلام في هذه الفقرة كالكلام في سابقتها إذا لفاقة إلى كفايته سبحانه علة داعية إلى الإستعانة، ومعناها طلب الاعانة منه تعالى للحاجة إلى غناه وإستغناء به عن غيره سبحانه كما قال تعالى:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

وذلك من جهة أنّ أزمة الأمور كلها بيده جلّ شأنه، فلا يقع شيء منها إلاّ بايجاده وإذنه وكلّ من سواه مفتقر إليه، ومن ذلك صحّ الإستغناء به عن غيره في جميع الأمور وكلّ الأحوال، وإستحال الإستغناء عنه في شيء منها قال تعالى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

والمراد بغناه هو الغني المطلق الذي هو سلب مطلق الحاجة، لا الغنى بالمعنى المعروف كما أنّ المراد بالفقر مطلق الحاجة إذ حقيقة الغنى هو إستقلال الشيء بذاته في كلّ ما له من غير تعلق له بالغير أصلاً، وهو بهذا المعنى لا يكون إلا لله، وحقيقة الفاقة والفقر عدم إستقلال الشيء بذاته وتعلقه بالغير ولو في شيء، ما، وهو بهذا المعنى صفة لكلّ ممكن، فثبت أنتعالى غني عن خلقه من كلّ الوجوه وتحقّق فقرهم إليه من كلّ وجه، لما تقرر من أنّ فقيراً بالذّات من وجه ما فهو فقير بالذّات من جميع الوجوه ﴿إنه لا يضل من هداه ولا يئل من عاداه﴾ تعليل لطلبه المعونة على تحصيل الكفاية فكأنّه قال: وأستعينه على أن يرزقني الكفاية المستلزمة للهداية التي هي الغنى الحقيقي والملك الأبدي، فإنّه لا يضلّ من هداه ولا يطلب النّجاة من عذابه من عاداه، لعدم وجود منجي وموئل غيره حتّى يلتجأ منه إليه، إذ كلّ من سواه مقهور تحت قدرته ومضمحل في جنب ذاته، لا رادّ لحكمه ولا دافع لقضائه، فكيف يمكن الفرار من حكومته أو يلتجأ إلى من سواه، والمراد بمعاداته سبحانه للعبد إعراضه عنه

وإضلاله له فيكون كلامه عليه السلام في قوّة أن يقال: إنّه لا يضلّ من هداه ولا يهتدي من أضله، تصديقاً لقوله سبحانه:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٧] ولقوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

(ولا يفتقر من كفاه) إذ بيده سبحانه خزائن الأرض والسّماوات وعنده نيل الطلبات وله القدرة التّامة التي لا يعجزها شيء والجود الذي لا يعتريه بخل، والغنى الذي ليس معه فقر، فإذا كان كافياً لعبده حصل له الإستغناء عمّن سواه وانقطعت حاجته عمّن عداه **(فإنه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن)** الضّمير يحتمل رجوعه إلى الحمد المدلول عليه بقوله أحمده من قبيل:

﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

فيكون المراد به أنه أرجح ما وزن بميزان الأعمال، وأفضل ما خزن وادّخر ليوم الجزاء، وذلك لعظم فوائده وكثرة ثمراته حسبما ستعرفه بعيد ذلك، ويحتمل أن يرجع إلى الله سبحانه فيكون المعنى أنّه أرجح ما وزن بميزان العقول وأفضل ما خزن في خزانة القلوب، وهذا أقرب لفظاً جرياً على سياق الضّمائر السّابقة، والأوّل أقرب معنى للحاجة إلى التّأويل على الثاني إذ الوزن والخزن من صفات الأجسام، وذاته تعالى مقدسة عن ذلك، فلا بدّ أن يجعل المراد رجحان عرفانه في ميزان العقل إذ لا يوازن عرفانه عرفان ما عداه، بل لا يخطر ببال العارف عند الإخلاص سواه حتّى يصدق هناك موازنته يقال فيها أرجح وقد مرّ تحقيقه في الفصل الرّابع من فصول الخطبة الأولى عند شرح قوله عليه السلام: (وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه)، فتذكر.

تنبيه وتحقيق

إعلم أنّه قد تطابق النّقل والعقل على وجوب شكر المنعم وحسنه وقبح كفران نعمه سبحانه.

أمّا النّقل فمن الكتاب قوله تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ إبراهيم: ٧] وفي سورة النمل: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾. [النمل: ٤٠] إلى غير هذه من الآيات الكثيرة.

ومن السّنة أخبار كثيرة، مثل ما رواه عبد الله بن إسحاق الجعفري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مكتوب في التّوراة اشكر من أنعم عليك وأنعم من شكرك فإنه لا زوال

للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير»[١].

وما رواه معاوية بن وهب عنه ﷺ قال: «من أعطى الشكر أعطى الزيادة يقول عزّ وجلّ: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾»[٢] [إبراهيم: ٧]

وروى عبد اللّه بن الوليد قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «ثلاث لا يضرّ معهن شيء: الدّعاء عند الكرب والاستغفار عند الذّنب والشكر عند النعمة»[٣]

وروى معمر بن خلاد عن أبي الحسن صلوات اللّه عليه قال: سمعته يقول: «من حمد اللّه على النعمة فقد شكره وكان الحمد أفضل من تلك النعمة»[٤].

وروى سفيان بن عيينة عن عمّار الدّهني قال: سمعت عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول: «إن الله يحب كلّ قلب حزين ويحب كلّ عبد شكور، ويقول الله تعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربِّ فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس. إلى غير هذه من الأخبار المتظافرة المستفيضة وقد عقد في **«الكافي»** باباً في الشكر وأخرجت هذه الأخبار منه من أراد زيادة البصيرة، فليرجع إليه[٥].

وأمّا العقل فهو مستقلّ في وجوب الشكر وحاكم بحسنه، واتّفق على ذلك الإماميّة والمعتزلة، وخالف فيه الأشاعرة بعد تنزّلهم عن أصلهم الذي أسّسوه في مسألة الحسن والقبح، وذهبوا إلى عدم حكم للعقل بوجوب شكر المنعم على تقدير تسليم حكمه مطلقاً وإدراكه الحسن والقبح في الجملة والمسألة معنونة في الأصول، وأدلة الطرفين مفصّلة فيها.

وعمدة ما تمسّك به المخالف دليلان، أحدهما نقلي والآخر عقليّ.

أمّا النقلي فهو قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]

وجه الإستدلال أنّ وجوب شيء عبارة عن ترتب العقاب على مخالفته، وحيث إنتفى العقاب قبل الشّرع بحكم الآية إنتفى الوجوب.

وأجيب عنه أوّلاً بالتّخصيص بالمستقلات العقليّة فيختصّ حكم الآية بغير المستقلات

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٣١٥.

(٢) تفسير الميزان: ١٢/ ٣٦.

(٣) الكافي: ٢/ ٩٥.

(٤) الكافي: ٢/ ٩٦.

(٥) الكافي: ٢/ ٩٩.

ويكون المراد، وما كنّا معذبين في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفتها إلاّ بالشّرع إلاّ بعد مجيء الشّرع، والتخصيص وإن كان خلاف الظاهر إلاّ أنّه يجب ارتكابه عند قيام الدليل عليه، وقد قام الدّليل على حكم العقل في الجملة حسبما تعرفه.

وثانياً: بجعل الرّسول أعمّ من الظاهر والباطن، أمّا الظاهر فهو الأنبياء، وأما الباطن فهو العقل بل هو الرّسول الذي لولاه لما تقرّر رسالة أحد من الأنبياء ولزم إفحامهم، وذلك لأنّه إذا جاء المشرّع وادّعى كونه نبيّاً من عند الله تعالى وأظهر المعجزة على طبق دعواه، فأمّا ان يجب على المستمع استماع قوله والنّظر إلى معجزته أولاً، وعلى الثّاني فقد بطل القول بالنبوة ولزم الافحام، وعلى الأوّل فامّا أن يكون وجوبه بالعقل أو بالشّرع، فان وجب بالعقل فقد ثبت المدّعي وهو كون العقل حاكماً، وإن وجب بالشّرع فهو باطل لأنّ الشّرع إمّا أن يكون هو ذلك المدّعي أو غيره، والأوّل باطل، لأنّه يرجع حاصل الكلام إلى أن ذلك المدّعي يقول: الدّليل على وجوب قبول قولي هو قولي إنّه يحب قبول قولي وهذا إثبات للشيء بنفسه وبعبارة أخرى وجوب النّظر إلى معجزته واستماع قوله يتوقف على حجية قوله مع أنّ حجّيته موقوفة على النظر، والثّاني أيضاً باطل، لأنّ الكلام فيه كالكلام في الأوّل، ولزم إمّا الدّور أو التسلسل، وهما محالان.

وثالثاً: أنّ نفي التعذيب لا يلازم عدم الوجوب إذ الواجب ما يستحقّ فاعله العقاب لا ما يترتب عليه العقاب فعلاً، لجواز سقوطه بعفو أو شفاعة، وربّما أورد عليه بأن العفو عن ترك جميع الواجبات وفعل المحرمات إلى زمان البعث. وكون الآية إخباراً عن ذلك مستلزم لإلغاء الإيجاب والتّحريم، إذ المقصود منهما فعل الواجب وترك الحرام وهما لا يتحصلان في حق عموم المكلفين إلاّ المخلصين إلاّ بالخوف عن العقاب، فإذا انتفى الخوف بسبب الاخبار عن العفو وحصل الاطمئنان للنّفس بعدم التعذيب، لا يتحصّل الغرض من التكليف، فيكون التكليف لغواً وعبثاً.

ورابعاً بمنع عدم تحقّق الوجوب بدون العقاب، فإنّه يكفي فيه استحقاق المدح بفعله والذم بتركه، ونلتزم في حسن العقاب على الواجبات بوجوب اللطف وتأكيد العقل بالنّقل فمع عدم وجود النقل لا يجوز العقاب وإن حسن الذّم، وهو يكفي في تحقق الوجوب وكيف كان فقد تحصّل ممّا ذكره عدم نهوض الآية للدّلالة على نفي حكومة العقل مطلقاً وفي وجوب شكر المنعم بخصوصه كما ظهر ثبوت حكومته أيضاً في الجملة ممّا ذكرناه في الجواب الثّاني.

وأمّا العقلي فتقريره ما ذكره الحاجبي في «**المختصر**»، قال: شكر المنعم ليس بواجب عقلاً، لأنّه لو وجب لوجب لفائدة وإلاّ لكان عبثاً وهو قبيح ولا فائدة لله تعالى لتعاليه عنها، ولا للعبد في الدّنيا لأنّه مشقة ولا حظ للنّفس فيه، ولا في الآخرة إذ لا محلّ للعقل في ذلك.

وتوضيحه ما ذكره العضدي في شرحه حيث قال: لنا لو وجب لوجب لفائدة واللاّزم باطل، أمّا الأولى فلأنّه لولا الفائدة لكان عبثاً وهو قبيح فلا يجب عقلاً إذ كان ايجابه عبثاً وهو قبيح فلا يجوز على الله، وأمّا الثانية فلأنّ الفائدة إمّا لله وإمّا للعبد والثّاني، إمّا في الدّنيا وإمّا في الآخرة، والثلاث منتفية، أمّا لله فلتعاليه عن الفائدة، وأمّا للعبد في الدّنيا فلأن منه فعل الواجبات وترك المحرّمات العقليّة وأنّه مشقّة وتعب ناجز ولا حظ للنّفس فيه، وهو كذلك لا يكون له فائدة دنيوية، وأمّا للعبد في الآخرة فلأنّ أمور الآخرة من الغيب الذي لا مجال للعقل فيه.

والجواب أولاً بمنع كون وجوبه لفائدة، لجواز كون وجوبه لنفسه لا لشيء آخر، فإنّه لا يلزم ثبوت الغايات لكل شيء وإلاّ لزم التسلسل، بل لا بدّ وأن ينتهي إلى ما يكون واجباً لذاته ولا غاية له سوى ذاته كما أنّ دفع الضّرر واجب لذاته لا لغاية أخرى، ولهذا يعلل العقلاء، وجوبه بكونه شكراً للنّعمة لا لشيء آخر، وإن لم يعلموا شيئاً آخر من جهات الوجوب.

وثانياً سلمنا أنّ الوجوب لا يكون إلاّ لفائدة، إلاّ أنّا نمنع انتفاء الفائدة الدّنيوية للعبد لأنّ أداء الشكر وإن كان فيه ضرر عاجل وتعب ناجز[1] إلاّ أن دفع الخوف من النّفس الحاصل في العاجل بسبب تجويز الضّرر الآجل بتركه أمر مطلوب وهو راجح على ضرر الشكر العاجل وهو كاف في الوجوب.

وثالثاً: سلمنا انتفاء الفائدة الدّنيوية إلاّ أنّا نمنع انتفاء الفائدة الأخروية وهو النّجاة من العقاب المترتب على عدم الشكر.

لا يقال: إن أردت بالعقاب المترتب على عدم الشكر العقاب القطعي فممنوع، لأنّ القطع بثبوته عند عدمه إنّما يحصل لو كان الشكر يسرّ المشكور والكفر يسوؤه، أمّا المنزه عن ذلك فلا، وإن أردت العقاب المحتمل فلا ينفع لأنّ احتمال العقاب كما هو موجود عند الكفر كذلك موجود عند الشكر أيضاً، أمّا أوّلا فلأنّه تصرف في ملك الغير بدون إذن المالك، فإنّ ما يتصرف فيه العبد من نفسه وغيرها ملك لله تعالى، وأمّا ثانياً فلأنّه كالإستهزاء.

بيان ذلك: أنا لو فرضنا سلطاناً عظيماً وملكاً كريماً بسط لأهل مملكته من الخاص والعام بساط مائدة عظيمة لا مقطوعة ولا ممنوعة على توالي الأيام وتواتر السّنين والأعوام، مشتملة على أنواع المأكولات والمطاعم وأقسام المشروبات والفواكه، يجلس عليها الدّاني والقاصي ويأكل منها المطيع والعاصي، وفرضنا أنّه حضر فيها فقير لم يحضرها قبل الآن، ودفع إليه الملك من تلك المائدة لقمة خبز لا غير، فتناولها الفقير، ثم شرع في الثناء والمدح على ذلك الملك الكبير، وجعل يمدحه بجليل الأنعام والإحسان، ويحمده على جزيل البر والامتنان، ولم يزل يصف تلك اللّقمة ويذكرها ويعظم شأنها ويشكرها، فتارة يحرّك أنملته

---

(١) أقول: بل فيه منفعة دنيوية وهي استدامة النعم وازديادها.

شاكراً، وأخرى يهز رأسه ذاكراً لانتظم شكره ذلك عند العقلاء في سلك التهكّم والإستهزاء، ولا ريب أنّ نعم الله سبحانه علينا بالنسبة إلى عظيم سلطانه وعميم إحسانه أحقر من تلك اللّقمة بالنّسبة إلى ذلك بمراتب لا تحصى ودرجات لا يحوم حولها الإستقصاء.

لأنّا نقول: أوّلاً إنّ العقاب المترتّب على الكفران قطعيّ، وقوله: إنّ القطع بثبوته إنّما يتصور في حقّ من يسره الشكر ويسوؤه الكفر، ممنوع، لأنّ ترك الواجب علة في إستحقاق العقاب بتركه، وثانياً سلمنا ولكن نمنع احتمال العقاب على الشكر، وما علله به أوّلاً من أنّه تصّرف في ملك الغير من دون إذنه فضعيف بأنا نعلم قطعاً أنّ الإشتغال بوظائف الخدمة والقيامة بالشكر والمواظبة عليه أسلم من تركه والاعراض عن الخدمة والتغافل عن الشكر كضعف ما علله به ثانياً من كونه كالاستهزاء.

وتمثيل النّعمة باللقمة باطل، فإنّ نِعَم الله على العبد بالإيجاد والإحياء والاقدار وما منحه من العقل والسّلامة والملاذ والنّعم أعظم من الدّنيا بأجمعها.

والمثال المطابق للممثل أنّه إذا كان مسكين مغفول، وفقير في زاوية الخمول أخرس اللسان، مؤف الأَركان، أشل اليدين، أعرج الرّجلين، أعمى العينين، أصمّ الأذنين، عاجزاً عن الحركات، مبتلى بالبليّات، فأخرجه الملك من تلك الزّاوية، وهذه الهاوية، وأكرمه بمعالجة أسقامه ومداواة أمراضه، فانطلق لسانه وسلم أركانه، وقدر على الحركات والسّكنات، وبرء من الأَسقام والآفات، وأعطى السّمع والبصر، وميّز بين النّفع والضّرر، وقويت يداه واستقامت رجلاه، ثم أكرمه الملك بعد تمام العلاج وكمال المزاج، بمزيد الاحسان والإكرام، وبذل له غاية المعروف والأنعام، فأعطاه المساكن والملابس، ومنحه المطاعم والمشارب، وأتمّ له العيش الرغيد والعمر السّعيد، فلو فرض أنّ هذا الشّخص بعد حصول هذه المنن الجسام، وتلك النّعم العظام في حقّه، أعرض عن شكر الملك ورغب عن ثنائه، ولم يظهر منه ما يدلّ على الاعتناء بنعمائه، والإلتفات بآلائه، بل كان حاله بعد حصولها كحاله قبل وصولها، لذمّه العقلاء وطعنه الألباء، كما تشهد به العقول السّليمة، والطباع المستقيمة، وهذا المثال هو الأَوفق بالتمثيل، والله الهادي إلى قصد السبيل والحمد لله على ما عرفنا من حمده، وألهمنا من شكره.

الترجمة

حمد سپاس مى كنم پروردگار را به جهت طلب تمامى نعمت او و به جهت انقياد و فرمان بردارى عزت آن و به جهت طلب عصمت و محفوظى از معصيت آن و طلب يارى مى كنم از او به جهت فقر و حاجت بر غنا و كفايت آن. به درستى كه گمراه نمى شود هركسى كه خداوند هدايت فرمود آن را و نجات نمى يابد هركسى كه عداوت فرمود با آن و محتاج نمى گردد هر كسى كه كفايت فرمود آن را، پس به درستى كه خداوند راجح ترين چيزى است كه سنجيده مى شود با ميزان عقول كامله و فاضل ترين چيزى است كه مخزون گردد در خزانه قلوب صافيه يا اين كه حمد خداوند ارجح چيزى است كه موزون مى شود در ميزان اعمال و افضل چيزى است كه مذخور و مخزون مى باشد به جهت لقاء حضرت متعال.

الفصل الثاني

«وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، شَهادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاَصُها، مُعْتَقَداً مُصاصُها، نَتَمَسَّكُ بِها أَبَداً ما أَبقانا، ونَدَّخِرُها لأَهَاوِيلِ ما يَلْقانا، فَإِنَّها عَزِيمَةُ الإِيْمَانِ، وَفاتِحَةُ الإِحْسَانِ، وَمَرْضَاتُ الرَّحْمٰنِ، وَمُدْحِرَةُ الشَّيْطَانِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ، وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّياءِ اللاَّمِعِ، والأَمْرِ الصادِعِ، إِزاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالآياتِ، وَتَخْوِيفاً لِلْمَثُلات»(١).

اللغة

(**المصاص**) بضمّ الميم والصّادين المهملتين الخالص من كلّ شيء وفي الحديث ليس لمصاص شيعتنا في دولة الباطل إلاّ القوت، و(**الإدخار**) إفتعال من الذّخر وهو إعداد الشّيء واختياره لوقت الحاجة، وادّخر يدّخر أصله إذ تخر قلبت (**التّاء**) (**دالاً**) مهملة وأدغمت، وقد يعكس فتصير ذالاً معجمة، وهو الأقل وهذه قاعدة كلية في (**كلما اجتمع**) (**التّاء والذّال**) في كلمة واحدة كاذّكر ونحوه (**أهاويل**) جمع أهوال وهو جمع هول كأقاويل وأقوال وقول، يقال: هالني الشّيء يهول هولاً من باب قال أفزعني و(**العزيمة**) العقيدة يقال: عزم على الشيء وعزمه عزماً وعزماً بالضم وعزيمة إذا عقد ضميره على فعله، ويحتمل أن يكون من العزم هو الجدّ في الأمر يقال: عزم عزيمة وعزمة إجتهد وجدّ في أمره ومنه قوله تعالى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

أي معزومات الأمور التي يجب أن يجدّ فيها، وأولوا العزم أولوا الجدّ والثبات و(**المرضات**) كالرّضا والرّضوان مصدر من رضي عنه ضدّ سخط قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

(**والمدحرة**) إسم فاعل من ادحره أي أبعده ومنه أدحر عني الشّيطان أي أبعده عني و(العلم) ما يهتدي به و(**المأثور**) المنقول يقال، آثرت الحديث أثراً نقلته والأثر بفتحتين اسم منه، وحديث مأثور ينقله خلف عن سلف و(**السّاطع**) و(**اللاّمع**) بمعنى واحد و(**الصّادع**) الظاهر أو الفاصل أو الحاكم بالحقّ قال الفيروز آبادي: قوله تعالى:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

أي شقّ جماعتهم بالتّوحيد أو أجهر بالقرآن أو أظهر أو أحكم بالحقّ وأفصل بالأمر أو أقصد بما تؤمر أو أفرق به بين الحقّ والباطل و(**الإزاحة**) الإزالة يقال: أزاح الشيء عن موضعه

---

(١) نهج البلاغة: ١/٢٨.

أزاله ونحّاه و(**المثلات**) بفتح (الميم) وضمّ (الثاء) كالمثولات جمع المثلة بفتح (الميم) وضمّ (الثّاء) هي العقوبة التي يعتبر بها، من مثل بفلان مثلاً نكل، ومثل تمثيلاً بالتشديد للمبالغة، ومن قال في الواحد مثله بضمّ وسكون الثّاء قال في الجمع مثلات نحو غرفة وغرفات، وقيل: في جمعها مثلات كركبات بفتح (الكاف) قال في «**الكشاف**» في تفسير قوله تعالى:

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد: ٦].

أي عقوبات أمثالهم من المكذّبين فمالهم لم يعتبروا بها، والمثلة: العقوبة بوزن السمرة والمثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ الشورى: ٤٠].

يقال أمثلت الرّجل من صاحبه أقطعته عنه، والمثال القصاص، وقرأ المثلات بضمّتين والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات، انتهى.

الاعراب

كلمة (لا) في قوله: أشهد أن لا إله (ا ه) نافية للجنس، ويسمّى تبرية، وإله إسمها مبني على الفتح، واختلف في خبرها، فقيل: إنّه محذوف جرياً على ما هو الغالب من حذف خبرها إذا كان معلوماً، نحولا فوت ولا ضير أي لا فوت لهم، ولا ضير علينا، ويلزمه أي حذف الخبر المعلوم (**التميميون والطائيون**».

واختلف هؤلاء في المحذوف، فقيل إنّه موجود ويضعف بأنه لا ينفي إمكان إله معبود بالحقّ غيره تعالى، لأنّ الإمكان أعمّ من الوجود، وقيل: ممكن وفيه أنّه لا يقتضي وجوده بالفعل، وقيل مستحقّ للعبادة، وفيه أنّه لا يدلّ على نفي التعدد مطلقاً وقال أبو حيان لنا أو في الوجود أو نحو ذلك، ويتوجّه عليه ما يتوجه على ما تقدمه، وقال الزّمخشري في جزء لطيف له على كلمة الشّهادة: هكذا قالوا: والصّواب أنّه كلام تامّ ولا حذف وأنّ الأصل الله إله مبتدأ وخبر كما يقول: زيد منطلق، ثم جيء بأداة الحصر، وقدم الخبر على الإسم وركب مع (لا) كما ركب المبتدأ معها في (**لا رجل في الدّار**)، ويكون الله مبتدأ مؤخراً وإله خبراً مقدماً، وعلى هذا يخرج نظائره نحو لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ، انتهى، ونسبه الشّهيد في «**الرّوضة**» إلى المحقّقين، وقال الموضح بعد نقله ذلك، قلت: وقد يرجح قوله بأن فيه سلامة من دعوى الحذف، ودعوى إبدال ما لا يحل محل المبدل منه، وذلك على قول الجمهور ومن الأخبار عن النكرة بالمعرفة، وعن العام بالخاص وذلك على قول من يجعل المرفوع خبراً، انتهى.

أقول: إنّ العقول بعد ما غرقت في تيار بحار معرفته سبحانه، والإفهام عجزت عن

إدراك هوية حقيقته، وكذلك بعدما تقاصرت الألبّاء وتحير الأدباء في تحقيق لفظة الجلالة الموضوعة لذاته المقدّسة الجامعة لصفاته الكماليّة ونعوته الجمالية، فلا غرو أن يختلفوا بهذا الإختلاف في هذه الكلمة الطيبة المباركة، ويعجزوا عن إدراك معناها ونيل مغزاها، كيف والمقصود بها توحيد من لا يناله غوص الفطن ولا يدركه بعد الهمم.

والذي يخطر بالخاطر القاصر في هذا المقام أن يقال: إنّه لا خفاء في إفادتها التّوحيد والتّفريد.

أمّا عند العوام الذين أذهانهم خالصة عن الكدر، وغرائزهم صافية عن مزاج الشّبه، فلظهور أنّ هذه الكلمة لو عرضت عليهم لما فهموا منها ولا يتبادر إلى أذهانهم إلاّ أنّه ليس إله سوى الله سبحانه من دون أن يخطر ببالهم أن يكون هناك إله ممكن غير موجود أو إله غير مستحق للعبوديّة، نظير أنّه لو قيل لهم: لا سيف إلا ذو الفقار لا يفهمون منه إلاّ انحصار السّيف فيه من دون أن يحتملوا أن يكون هناك سيف ممكن في دائرة العدم يصدق عليه أنه سيف أيضاً، وسرّ ذلك ما أشرنا إليه من صفاء خواطرهم عن التّشكيكات والإحتمالات.

وأمّا عند من كان خاطره غير نقي عن الخطرات والبدوات ومألوفاً بالبراهين الحكمية والشكوكات العقليّة البدويّة، فلأنّ له أن يقدر الخبر ممكن، ويجب عن الإشكال الذي أورد عليه من أنه لا يقتضي وجوده سبحانه بالفعل بأنّ هذه الكلمة كلمة توحيد، والمقصود بها ليس إثبات الوجود بل إثبات التّوحيد ونفي الشريك، وذلك إنّما هو بعد الفراغ عن ثبوت وجوب وجوده بدليل آخر وراء هذه مسبوقة به، ويشهد به كلامه عليه السلام في الخطبة الأولى: أوّل الدين معرفته وكمال معرفته التّصديق به، وكمال التصديق به توحيده، حيث جعل التّوحيد تالياً للتّصديق، ولازمه أن يكون التّوحيد بعد الفراغ عن التّصديق، وقد بيّنا هناك أنّ المراد بالتّصديق هو الإذعان بوجوب الوجود.

بل أقول: إن لفظة الجلالة على ما اتفق الكلّ عليه من وضعها للذات المستجمعة لجميع الصّفات الكماليّة يكون مؤدّاها على تلك الذّات بوصف الإستجماع، فيكون المعنى لا إله ممكن موجوداً كان أو معدوماً إلا الذات المستجمعة، ومن الواضح أنّ الإستجماع لصفات الكمال فرع وجود المتّصف بها بنفسه إذ لا يعقل أن يكون المعدوم متّصفاً بأمر موجود فضلاً عن كونه جامعاً لجميع الصّفات الوجودية، نعم يبقى هنا شيء، وهو أنّ الإستثناء على هذا التوجيه يشبه أن يكون منقطعاً، إذا المستثنى منه هو الإله الممكن، والمستثنى هو الله الواجب والإنقطاع في الإستثناء وإن كان خلاف الأَصل إلاّ أنّه لا ضير في المصير إليه بعد اقتضاء الدّاعي له، هذا.

ويمكن أن يقدر الخبر موجود، ويجاب عن الإشكال السّابق من أنه لا ينفي إمكان إله غيره تعالى، بأنّ نفي الوجود يستلزم نفي الإمكان إذ لو اتّصف فرد آخر بوجوب الوجود لوجد

ضرورة، فإذا لم يوجد علم عدم إتصافه به وما لم يتّصف بوجوب الوجود لم يمكن أن يتصف به لإستحالة الإنقلاب بالضرورة.

وهذا الجواب ذكره جمال الدين الخوانساري في حواشي «**الروضة**» وظاهره كما ترى يفيد أن المراد بالموجود الذي جعل خبراً هو الموجود بوجوب الوجود فيتوجه عليه حينئذٍ أنّه لا ينفي الإله الموجود بالوجود الإمكاني، وإن أراد الأعم من الموجود بالوجوب والموجود بالإمكان فيعود الإشكال بأنّه لا ينفي إمكان إله غيره ولا يتمشى الجواب بأنّ نفي الوجود يستلزم نفي الإمكان إذ لا انقلاب على هذا التقدير حتى يستحيل كما هو واضح، فتأمل في هذا المقام جيّداً فإنّه من مزال الأقدام.

ووحده منصوب على الحالية ولا يضرّ كونه معرفة، لتأويله بالنكرة أي متوحداً فالصّورة، وإن كانت معرفة فهي في التّقدير نكرة على نحو: وأرسلها العراك، أي معتركة، وقال: بعض النحويين إنّه منصوب على المفعولية والفعل محذوف والجملة حال، أي ينفرد وحده، وكيف كان فهي حال مؤكدة لمضمون الجملة على حدّ زيد أبوك عطوفاً، ويحتمل التّأسيس بأن يكون المراد بالجملة التّوحيد في الذات، وبالحال التّوحيد في الصّفات، وجملة لا شريك له حال بعد حال، وهي تأكيد بعد تأكيد، ويحتمل التّأسيس: بأن يراد بها التّوحيد في الأفعال، (**وممتحناً ومعتقداً**) صفتان جاريتان لغير من هما له، وجملة (**نتمسك**) صفة أيضاً، وجملة (**أرسله**) تحتمل الحالية والوصفية، وإزاحة، (**واحتجاجاً وتحذيراً، وتخويفاً**) منصوبات على المفعول لأجله.

المعنى

إعلم أنّه عليه السلام قرن حمداً لله سبحانه بالشّهادة بتوحيده، فقال: (**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**) وهذه الكلمة أشرف كلمة نطق بها في التّوحيد، ولذلك قال صلى الله عليه وآله في مروي أبي سعيد الخدري: «ما قلت ولا قال القائلون قبلي مثل لا إله إلا الله».

وقد ورد لهذه الكلمة الطيبة فضائل كثيرة في أخبار أهل العصمة عليهم السلام فقد روى الصّدوق في كتاب التّوحيد بإسناده عن أبي حمزة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «ما من شيء أعظم ثواباً من شهادة أن لا إله إلاّ الله، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يعد له شيء ولا يشركه في الأمر احد»، وفي «**الكافي**» و«ثواب الأعمال» مثله[1].

وعن السّكوني عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «خير العبادة قول لا إله إلا الله»[2].

(١) تفسير نور الثقلين: ٥/ ٣٧.
(٢) الكافي: ٢/ ٥٠٥ ح ٦ و ٥٠٦ ح ٥.

وعن أبي الطفيل عن علي عليه السلام قال: «ما من عبد مسلم يقول: لا إله إلا الله، إلاّ صعدت تخرق كلّ سقف ولا تمرّ بشيء من سيّئاته إلا طلستها حتّى ينتهي إلى مثلها من الحسنات فيقف»[١].

وعن الشيباني عن الرّضا عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ لله عزّ وجلّ عموداً من ياقوتة حمراء رأسه تحت العرش وأسفله على ظهر الحوت في الأرض السّابعة السّفلى فإذا قال العبد: لا إله إلا الله إهتز العرش وتحرك العمود وتحرك الحوت، فيقول الله تبارك وتعالى: اسكن يا عرش فيقول: لا أسكن وأنت لم تغفر لقائلها، فيقول الله تبارك وتعالى: إشهدوا سكان سمواتي اني قد غفرت لقائلها»[٢].

وعن عبد السلام بن صالح أبي الصّلت الهروي قال: كنت مع عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام حين رحل من نيشابور وهو راكب بغلة شهباء وإذا محمّد بن رافع وأحمد بن حرب ويحيى بن يحيى وإسحاق بن راهويه وعدة من أهل العلم قد تعلّقوا بلجام بغلته في المربعة فقالوا: بحق آبائك الطاهرين حدثنا بحديث قد سمعته من أبيك، فأخرج رأسه من العمارية وعليه مطرف خزّ ذو وجهين، وقال: «حدثني أبي عبد الصّالح موسى بن جعفر قال: حدثني أبي الصّادق جعفر بن محمّد، قال: حدثني أبي أبو جعفر محمّد بن عليّ باقر علم الأنبياء، قال: حدثني أبي عليّ بن الحسين سيد العابدين، قال: حدثني أبي سيّد شباب أهل الجنّة الحسين، قال: حدّثني أبي عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام، قال: قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول قال: الله جلّ جلاله: إنّي أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني، من جاء منكم بشهادة أن لا إله إلا الله بالاخلاص دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي»، وفي رواية أخرى نحوه وفي آخرها: فلما مرّت الرّاحلة نادانا: بشروطها وأنا من شروطها[٣].

قال الصّدوق (ره): من شروطها الإقرار للرّضا عليه السلام بأنّه إمام من قبل الله عزّ وجلّ على العباد مفترض الطاعة عليهم.

وفي ثواب الأعمال عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «قال الله جل جلاله لموسى بن عمران عليه السلام: يا موسى لو أنّ السّماوات وعامريهنّ عندي والأرضين السّبع في كفة ولا إله إلا الله في كفّة مالت بهن لا إله إلاّ الله» ومثله في التّوحيد[٤].

---

(١) التوحيد/ ٢١.

(٢) عيون أخبار الرضا: ١/ ٣٤.

(٣) عيون أخبار الرضا: ١/ ١٤٥.

(٤) كشف الغطاء: ٢/ ٣٠٥.

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقنوا موتاكم لا إله إلاّ الله فإنّها تهدم الذنوب»، فقالوا يا رسول الله: فمن قال في صحّته، فقال صلى الله عليه وآله: «ذلك أهدم وأهدم، إنّ لا إله إلاّ الله أنس للمؤمن في حياته وعند موته وحين يبعث»، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال جبرئيل: «يا محمّد لو تراهم حين يبعثون هذا مبيض وجهه ينادي لا إله إلاّ الله والله أكبر وهذا مسودّ وجهه ينادي يا ويلاه يا ثبوراه»[١].

وعن عبد الله بن الوليد رفعه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من قال لا إله إلا الله غرست له شجرة في الجنّة من ياقوتة حمراء، منتبهاً في مسك أبيض أحلى من العسل وأشدّ بياضاً من الثلج وأطيب ريحاً، فيها أمثال أثداء الأبكار تفلق عن سبعين حلّة» وفي **«الكافي»** مثله[٢].

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وفي الإستقصاء إطالة، وفيما رويناها كفاية إنشاء الله **(شهادة ممتحنا إخلاصها)** أي مختبراً كونها مخلصاً، يعني أنّه عليه السلام إختبر قلبه في إخلاص هذه الشّهادة فوجده عرياً عن شبهة الباطل وخالصاً عن شوائب الشّرك **(معتقداً مصاصها)** أي خالصها، يعني أنّ هذه الشّهادة صادرة عن صميم القلب، والقلب مطابق فيها للّسان ومذعن بخلوصها، وبالجملة ففي توصيف الشّهادة بهذين الوصفين إشارة إلى كونها في مرتبة الكمال وأنّها خالصة مخلّصة، وهذه المرتبة هي المطلوبة في باب التّوحيد، وإلاّ فالشّهادة الصّادرة عن محض اللّسان إنّما تطهر جلد الإنسان ولا يترتّب عليها ثمرة في الآخرة وأمّا الصّادرة بالإخلاص فهي الشّهادة في الحقيقة.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيما رواه في التّوحيد عنه صلى الله عليه وآله: «رأيت أشهد أن لا إله إلاّ الله كلمة عظيمة كريمة على الله عزّ وجلّ، من قالها مخلصاً إستوجب الجنّة ومن قالها كاذباً عصمت ماله ودمه وكان مصيره إلى النّار»[٣].

وفيه أيضاً عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قال لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنة وإخلاصه بها أن حجزه لا إله إلا الله عمّا حرم الله»، ورواه في ثواب الأعمال أيضاً مثله[٤].

وفيهما عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أتاني جبرئيل بين الصّفا والمروة فقال يا محمّد: طوبى لمن قال من أمّتك لا إله إلاّ الله وحده مخلصاً»[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٨/ ٢٣٦.
(٢) المحاسن: ١/ ٣٠.
(٣) التوحيد/ ٢٣.
(٤) بحار الأنوار: ٨/ ٣٥٩.
(٥) التوحيد/ ٢١.

وفي «**الكافي**» عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا أبان إذا قدمت الكوفة فَارْوِ هذا الحديث، من شهد أن لا إله إلاّ الله مخلصاً وجبت له الجنّة»، قال: قلت له: إنّه يأتيني من كلّ صنف من الأصناف أفأروي هذا الحديث؟ قال: «نعم يا أبان إنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين فتسلب لا إله إلاّ الله منهم إلاّ من كان على هذا الأمر»[1].

والمراد بسلبها منهم عدم نفعها لهم، لكونه الولاية شرطاً في التّوحيد كما مرّ في رواية الرّضا عليه السلام من قوله: بشروطها وأنا من شروطها (**نتمسك بها أبداً ما أبقانا وندخرها لأهاويل ما يلقانا**) لأنّها أنس للمؤمن في حياته وفي مماته وحين يبعث كما مرّ في رواية ثواب الأعمال، فهي أعظم ذخيرة لأهوال الآخرة وشدائدها».

وقد مرّ في رواية ثواب الأعمال والتّوحيد: قوله تعالى لموسى بن عمران: لو أن السّماوات وعامريهنّ عندي والأرضين السّبع في كفّة ولا إله إلاّ الله في كفّة مالت بهنّ لا إله إلاّ الله، فأيّ ذخيرة تكون أعظم منها ثم علّل عليه السلام التّمسك والإدّخار بأمور أربعة.

أولها: ما أشار إليه بقوله عليه السلام: (**فإنّها عزيمة الإيمان**) أي عقيدتها وممّا يجب للمؤمن أن يعقد قلبه عليها، أو أنّها معزومة الإيمان بمعنى أنّها ممّا ينبغي أن يجدّ فيها ويجتهد حسبما أشير إليه في بيان لغتها.

الثّاني: قوله عليه السلام: (**وفاتحة الإحسان**) أي إبتداء الإحسان وأوّله، وإضافته إليه من قبيل اضافة الجزئي إلى الكلّ، مثل فاتحة الكتاب، فيكون مصدراً بمعنى الفتح كالكاذبة بمعنى الكذب، وعلى هذا فالمراد بالإحسان هو التّوحيد وأصول الشريعة ويدل على صحّة إطلاقه بذلك ما رواه في التّوحيد عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر قال: حدثني أبي عن جده جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليهم السلام في قول الله عزّ وجل:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠].

قال عليّ عليه السلام: «ما جزاء من أنعمت عليه بالتّوحيد إلاّ الجنّة»[2]، هذا، ويحتمل أن تكون الفاتحة وصفاً من الفتح ضدّ الغلق فالإضافة لاميّة، وهذا هو الأظهر والمعنى أنّ الشّهادة باعثة لفتح أبواب الإحسان والإنعام وأنّها مفتاح لها، إذ بها يستحق العبد للفيوضات الأبدية والنّعم السرمديّة.

ويدلّ عليه مضافاً إلى الأخبار السّالفة ما رواه في «**الإحتجاج**» عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً طمست ذنوبه كما يطمس الحرف الأسود من الرّق الأبيض، فإذا

(١) الكافي: ٢/٥٢١.
(٢) أمالي الصدوق: ٤٧١ ح ٦٢٨، والتوحيد: ٢٣ ح ١٧.

قال ثانية لا إله إلاّ الله مخلصاً خرق أبواب السّماء وصفوف الملائكة حتى تقول الملائكة بعضها لبعض إخشعوا لعظمة أمر الله، فإذا قال ثالثة مخلصاً لا إله إلاّ الله لم تنته دون العرش فيقول الجليل: اسكتي فوعزّتي وجلالي لأغفرن لقائلك بما كان فيه»[1]، ثم تلا هذه الآية:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

يعني أذا كان عمله خالصاً إرتفع قوله وكلامه هذا، وظهر لي معنى ثالث وهو أن يكون المصدر بمعنى الفاعل ويكون المراد أنّها إبتداء كون الرّجل محسناً مقابل كونه مسيئاً.

الثّالث قوله عليه السلام: **(ومرضات الرّحمن)** وذلك واضح لأنّها محصّلة لمرضاته تعالى ورضائه ورضوانه ومعدّة للخلد في جنانه.

الرّابع قوله عليه السلام: **(ومدحرة الشّيطان)** وذلك أيضاً واضح لأنّ مقصود اللّعين هو الإضلال والإغواء والكفر، والشّهادة بالإخلاص زاجرة له وكاسرة «قاصمة خ ل» لظهره ورافعة لكيده ومكره، ولذلك أنّ اللّعين بعد ما قال:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

عقبه بالإستثناء بقوله:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٤٠].

وفي عدة الدّاعي لأحمد بن فهد الحلّي قال: وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله «على كلّ قلب جاثم من الشّيطان، فاذا ذكر اسم الله خنس الشّيطان وذاب وإذا ترك الذاكر التقمه فجذبه وأغواه واستنزله وأطغاه»[2].

وفي حديث آخر أنه قال: «الشّيطان على قلب ابن آدم له خرطوم مثل خرطوم الخنزير يوسوس لابن آدم إن أقبل على الدّنيا ما لا يحل الله فإذا ذكر الله خنس أي ذهب واستتر» (وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله) عقب عليه السلام الشّهادة بالتّوحيد بالشّهادة بالرّسالة أمّا أوّلا فلأنّ مرتبة الرّسالة تالية لمرتبة التّوحيد كما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ثاني الموجودات في الموجودية وإن كان الأوّل تعالى لا ثاني له في الوجود فينبغي أن تكون الشهادة برسالته عقيب الشّهادة بالتّوحيد طباقاً لما هو الواقع[3].

وأمّا ثانياً: فلأنّ المقصود من الخلق هو العرفان وإخلاص التّوحيد والسّلوك إلى الله ولا

(١) الإحتجاج: ١/٣٨٦.

(٢) عدة الداعي/١٩٢.

(٣) مستدرك الوسائل: ٥/٣٠٢.

بدّ للسالك من دليل يدلّ عليه وهاد يستهدي به ومبلغ يصدق بقوله ويقر برسالته، فلا بدّ من إقتران التّصديق بالرّسالة بالتّصديق بالوحدانيّة كي يتوصل به إليه ويسلك به مسالكه، إذ النبي ﷺ موصل إليه وباب له وفاتح لمغلقات مراتب التّوحيد، وبوجوده ﷺ تحصل المعرفة التّامّة ويكمل الإخلاص التام.

وأمّا ثالثاً: فلأنّه سبحانه قد قارن بين كلمتي التّوحيد والرّسالة وكتب لا إله إلا الله ومحمّد رسول الله بخطوط النّور على ساق العرش وطبقات السّماوات وأقطار الأرضين وصفحتي الشّمس والقمر، كما يستفاد من الأخبار، فينبغي المقارنة في شهادتيهما إقتفاء لما قد جرى عليه القلم الرّباني وسطور النّور.

وأمّا فضل الجمع بينهما فقد روى في «**الكافي**» عن أبي عبيدة الحذّاء عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «من قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله كتب الله له ألف حسنة».

وفي ثواب الأعمال عن بشر الأوزاعي عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: «من شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمّداً رسول الله كتب له عشر حسنات، فإن شهد أنّ محمداً رسول الله كتبت له ألفي ألفي حسنة»[١].

وعن سهل بن سعد الأنصاري قال سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].

قال: «كتب الله عزّ وجل قبل أن يخلق الخلق بألفي عام في ورق آس أنبته ثم وضعها على العرش، ثم نادى يا أمّة محمّد إنّ رحمتي سبقت غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني فمن يلقني[٢] منكم يشهد أن لا إله إلا أنا وأنّ محمّداً عبدي ورسولي أدخلته الجنّة برحمتي»[٣].

وفي عدة الدّاعي لأحمد بن فهد الحلّي عن الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يلقى الله يوم القيامة وفي صحيفته شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ويفتح له ثمانية أبواب الجنّة فيقال له: يا ولي الله أدخل الجنّة من أيّها شئت فليقل إذا أصبح وإذا أمسى:

---

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/٢٥٦.

(٢) في نسخة: لقيني.

(٣) ثواب الأعمال وعقابها: ١٠، والبحار: ٣/١٢ ح ٢٤.

«أُكْتُبَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فيها، وأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ في الْقُبُورِ عَلَى ذٰلِكَ أَحْيٰى وَعَلَىٰ ذٰلِكَ أَمُوتُ وعَلَى ذٰلِكَ أُبْعَثُ حَيًّا إِنْشاءَ اللَّهُ، إِقْرَءا مُحَمَّداً مِنّي السَّلاَمَ، أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي أَذْهَبَ اللَّيْلَ مُظْلِماً بِقُدْرَتِهِ، وَجَآءَ بِالنَّهارِ مُبْصِراً بِرَحْمَتِهِ، خَلْقاً جَديداً مَرْحَباً بِالْحَافِظَينَ» ويلتفت عن يمينه: «وَحَيَاكُمَا اللَّهُ مِنْ كاتِبَينِ» ويلتفت عن شماله[١] هذا.

وأمّا تسمية النّبي ﷺ بمحمد فأوّل من سماه بذلك الإسم هو الله سبحانه كما يدلّ على حديث عرض الأشباح لآدم عليه السلام حيث قال سبحانه له: هذا محمّد وأنا الحميد المحمود في فعالي شققت له إسماً من إسمي، وقد مرّ بتمامه في ثاني تنبيهات الفصل الحادي عشر من فصول الخطبة الأولى، ثم سمّاه عبد المطلب بذلك يوم سابع ولادته إلهاماً منه سبحانه وتفاؤلا بكثرة حمد الخلق له، لكثرة خصاله الحميدة، وقد قيل لم سمّيت ابنك محمّداً وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟ فقال: رجوت أن يحمد في السّمآء والأرض، وقد حقّق الله رجائه.

وفي **«الوسائل»** عن **«كشف الغمة»** عن جعفر بن محمّد عن آبائه عليهم السّلام عن ابن عباس قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم كلّ من كان اسمه محمّد فليدخل الجنّة بكرامة سميّه محمّد ﷺ»[٢]

وفي **«الكافي»** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يولد لنا ولد إلاّ سمّيناه محمّداً، فإذا مضى سبعة أيام فإن شئنا غيرنا وإلا تركنا» هذا[٣].

وقد وردت الأخبار المتظافرة بل المستفيضة في إستحباب التّسمية بذلك الإسم المبارك، وروي له خواص كثيرة من أراد الإطلاع عليها فليرجع إلى أبواب أحكام الأولاد في كتب الأخبار.

وأمّا تقديم وصف العبودية على الوصف بالرّسالة في كلمة الشّهادة، فلأن مقام العبوديّة متقدّم على مرتبة الرّسالة كما يشهد به ما رواه في **«الكافي»** عن زيد الشحام، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبياً وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً فلما جمع له الأشياء

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾»[٤] [البقرة: ١٢٤].

قال: فمن أعظمها في عين إبراهيم:

---

(١) بحار الأنوار: ٨٣/ ٢٤٦.
(٢) وسائل الشيعة: ٢١/ ٣٩٥.
(٣) الكافي: ٦/ ١٨.
(٤) تفسير الصافي: ١/ ٥٠٣.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال: «لا يكون السّفيه إمام التّقي»، ومثله أخبار أخرى ويأتي تحقيق الكلام فيها عند الكلام على مسألة الإمامة في مواضعها اللاّئقة إنشاء الله.

ثم أشار عليه السلام إلى تعظيم الرّسول صلى الله عليه وآله بما جاء به فقال: (**أرسله بالدين المشهور**) أي بين الأمم الماضية والقرون الخالية (**والعلم المأثور**) توكيد للفقرة الأولى وأشار به إلى كون ذلك الدين علماً يهتدي إلى حظيرة القدس التي يطلب السّلوك إليها، وكونه مأثوراً إشارة إلى كون ذلك الدين مختاراً على سائر الأديان، أو أنّه مأثور منقول من قرن إلى قرن ويهتدي به قوم بعد قوم (**والكتاب المسطور**) بقلم النّور على اللّوح المحفوظ قبل وجود الأنفس والآفاق، والمكتوب على الأوراق والصّفحات بعد تلبّسه بلباس الحروف وجلباب الأصوات (**والنّور السّاطع والضياء اللاّمع**) يحتمل أن يكون المراد بهما الكتاب فيكون العطف للتوكيد قال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦].

فهو نور عقلي تنكشف به أحوال المبدأ والمعاد ويتراءىٰ منه حقائق الأشياء وضياء يهتدي به في ظلمات بر الأجسام وبحر النّفوس، ويظهر به للسّالكين إلى الدّار الأخرى طريق الجنّة والنّور، ويحتمل أن يكون المراد علم النّبوة فإنّه نور مقتبس من الوحي الإلهي يتنور به في ظلمات الجهالة، وضياء يستضاء به في مفاوز الضّلالة (**والأمر الصّادع**) أي الظاهر أو الفارق بين الحقّ والباطل أو الحاكم بالحقّ وفيه تلميح إلى قوله تعالى:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

ثم أشار عليه السلام إلى دواعي البعثة وما هو المقصود بالرّسالة فقال عليه السلام: (**إزاحة للشبهات**) أي أرسله صلى الله عليه وآله إزالة للشبهات الباطلة والشكوكات الفاسدة (**واحتجاجاً بالبيّنات**) أي بالمعجزات القاهرة والبراهين السّاطعة (**وتحذيراً بالآيات**) أي إنذاراً بالآيات القرآنية والخطابات الشّرعية ويحتمل أن يكون المراد بالآيات العقوبات النّازلة بالعصاة التي هي علامة القهر والقدرة وفيها عبرة للمعتبرين كما قال تعالى:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٤-٧٥] وقال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ٩٢﴾ [يونس: ٩٢].

وعلى هذا الإحتمال فيكون عطف قوله: (**وتخويفاً للمثلات**) عليه من قبيل العطف للتّوكيد، أي تخويفاً بالعقوبات الواقعة بأهل الجنايات، هكذا فسّر الشّارحان البحراني

والمعتزلي هذه الفقرة، الأوّل تصريحاً والثّاني تلويحاً، ولكنّه خلاف الظاهر، لأنّه قال عليه السلام: للمثلات ولم يقل: بالمثلات، والأظهر عندي هو أن المراد بها التمثيل والتّنكيل بجدع الأنف وقطع الأذن ونحوهما ممّا كان شعاراً في الجاهليّة، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عنه وخوف له، كما يدلّ عليه وصيّته الآتية في الكتاب للحسن والحسين عليهما السّلام لما ضربه ابن ملجم: «يا بني عبد المطلب لا ألفينّكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون: قتل أمير المؤمنين ألا لاتقتلن لي إلاّ قاتلي: انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ولا يمثل بالرّجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»[1].

وفي «**الكافي**» بإسناده عن إسحاق بن عمّار قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنّ الله يقول في كتابه:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

ما هذا الإسراف الذي نهى الله عنه؟ قال: «نهى أن يقتل غير القاتل أو يمثل بالقاتل» الحديث، والأخبار في هذا الباب كثيرة، ولعلّنا نشير إلى بعضها عند شرح الوصية الآتية إن ساعدنا التّوفيق إن شاء الله.

(١) روضة الواعظين/ ١٣٧.

الترجمة

و شهادت مى دهم به اين كه نيست هيچ معبودى به جز ذاتى كه مستجمع است جميع صفات كماليه را، در حالتى كه منفرد است در صفات و در حالتى كه شريك نباشد او را در افعال و مصنوعات؛ شهادتى كه آزموده شده باشد اخلاص او و اعتقاد كرده باشد خاص و خالص او؛ هم چنان شهادتى كه تمسّك مى كنيم به آن هميشه مادامى كه باقى گذاشته است خداوند سبحانه ما را در دار دنيا، ذخيره مى سازيم آن را به جهت هول هايى كه ملاقات مى كند ما را در داراخرى، پس به تحقيق آن شهادت عقيده ايمان است كه بايد مؤمن عقد قلب به آن نمايد و جدّ و جهد در آن به جا آورد.

و اول احسان است و يا اين كه گشاينده نعمت هاى ابدى و فيوضات سرمدى است و خشنودكننده خداوند رحيم است و طردكننده شيطان رجيم و شهادت مى دهم به اين كه محمد بن عبدالله صلوات الله و سلامه عليه و آله بنده پسنديده خدا است و پيغمبر فرستاده او و در حالتى كه فرستاده او را با دين و شريعتى كه مشهور است و با علم نبوتى كه مأثور است يعنى اختيار شده بر ساير دين ها يا اين كه نقل مى شود از قرن ها به قرن ها و با كتابى كه نوشته شده است بر صحايف و اوراق و بر لوح محفوظ پيش از وجود انفس و آفاق و با نور درخشنده و با روشنى تابنده و با امرى كه ظاهر است يا اين كه فاصل است ميان حق و باطل فرستادن آن به جهت زايل كردن و محو نمودن شبهه هاى باطله است و شكوكات فاسده و از جهت حجت آوردن بر مردمان با معجزات قاهره و براهين ظاهره و ازبراى ترسانيدن به آيه هاى قرآنى و خطابات فرقانى و به جهت ترسانيدن از براى تمثيل ها و تنكيل ها كه از شعار جاهليت بود و آن عبارت است از اين كه جنايت بزنند بر مرد با چيزى فظيع از بريدن گوش يا دماغ و مثل آن كه باعث شهرت و جارى مجراى مثله بوده باشد چنان كه در حق حمزه سيدالشهداء نمودند.

الفصل الثالث

«وَالنّاسُ في فِتَنٍ انجَذَمَ فيها حَبْلُ الدّينِ، وتَزَعْزَعَتْ سَوارِي الْيَقينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ، وتَشَتَّتَ الأَمْرُ، وضاقَ الْمَخْرَجُ، وعَمِيَ الْمَصْدَرُ، فَالْهُدَىٰ خامِلٌ، وَالْعَمىٰ شامِلٌ، عُصِيَ الرَّحْمٰنُ، ونُصِرَ الشَّيْطَانُ، وخُذِلَ الإيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعالِمُهُ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ، وعَفَتْ شُرُكُهُ، أَطاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَناهِلَهُ، بِهِم سارَتْ أَعْلامُهُ، وقامَ لِواؤُهُ، في فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِها، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِها، وقامَتْ عَلى سَنابِكِها، فَهُمْ فيها تائِهُونَ، حائِرُونَ، جاهِلُونَ، مَفْتُونُونَ، في خَيرِ دَارٍ وَشَرِّ جيرانٍ، نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عالِمُها مُلْجَمٌ، وجاهِلُها مُكْرَمٌ»[١].

اللغة

(الفتن) جمع الفتنة وهي الحيرة ومنه بأيكم المفتون وإعجابك بالشيء والضلال والإثم والكفر والفضيحة والعذاب، وإذابة الذهب والفضة. والإضلال والجنون والمحنة والمال واختلاف الناس في الآراء وأكثر المعاني مناسب للمقام و**(انجذم)** انقطع و**(الزعزعة)** تحريك الريح الشجرة وتزعزع تحرّك و**(السواري)** جمع السارية وهي الاسطوانة و**(النجر)** بفتح النون كالنجار والنجار بالكسر والضمّ الأصل و**(الخامل)** الساقط يقال خمل الرجل خمولاً من باب قعد فهو خامل أي ساقط لا نباهة له مأخوذ من خمل المنزل إذا عفا ودرس و**(انهارت)** أي سقطت و**(الدعائم)** جمع الدعامة بالكسر ما يستند إليه الحائط ونحوه إذا مال ويمنعه من السقوط و**(التنكر)** التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها و**(المعالم)** جمع معلم كمقعد مظنة الشيء وما يستدلّ به عليه و**(الشرك)** من الطريق بضمّتين جواده أو الطرق التي لا تخفى عليك ولا تستجمع لك مفردها شركة و**(المناهل)** جمع المنهل وهو المشرب و**(الدوس)** الوطىء بالرجل و**(السنابك)** جمع السنبك طرف الحافر و**(التائهون)** جمع التائه وهو الضال و**(السهود)** كالسهد الأرق.

الإعراب

قوله عليه السلام: **(والناس في فتن)**، يحتمل أن تكون الجملة حالية والعامل أرسله وهو الأظهر ويحتمل أن تكون إستئنافيّة **(والناس)** مرفوع بالإبتداء، **(وفي فتن)** متعلّق بمقدر خبر له، وقوله عليه السلام **(في فتن داستهم)**، يحتمل أن يكون متعلّقاً بقوله: سارت أعلامه وقام لواؤه، ويحتمل أن تكون خبراً بعد خبر للناس، وقوله: فهم **(الفاء)** تفريعية، وقوله: في خير دار يحتمل أن تكون الجار متعلّقاً بقوله: **(مفتونون)** أو ما قبله من الأوصاف، ويحتمل أن يكون

(١) نهج البلاغة: ١/ ٢٩.

خبراً ثالثاً للنّاس، وقوله: **(بأرض عالمها ملجم)** يحتمل أن يكون متعلّقاً بما تعلق به قوله في خير دار، ويحتمل أن تكون خبراً رابعاً.

المعنى

إعلم أنك قد عرفت أنّ الجملة أعني قوله عليه السلام: **(والنّاس في فتن)** يحتمل أن تكون حالية وعلى ذلك فالمراد بالنّاس هو أهل زمان البعثة والمراد بالفتن فتن العرب في الجاهلية، ويحتمل أن تكون مستأنفة وعليه فالجملة مسوقة لذمّ أحوال أهل زمانه عليه السلام فيكون المراد بالفتن فتن بني أميّة ومعاوية عليه الهاوية وعلى الإحتمال الأوّل فمعناه أنه سبحانه أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله وبعثه والحال أنّ الناس يومئذٍ كانوا في ضلالات وتشتت آراء، وإختلاف أهواء **(انجذم)** أي انقطع **(فيها)** أي في تلك الفتن **(حبل الدّين)** وانفصمت عروة الشّرع المبين وتشبيهه الدّين بالحبل من جهة أن المعتصم به مأمون إذ هو حبل الله سبحانه وقد أمر الله بالإعتصام به حيث قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴿١٠٢﴾، وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٢_١٠٣].

أي تمسكوا بدين الله أو بالقرآن أو بأهل البيت عليهم السّلام كما في الأخبار الكثيرة، قال في «**الكشاف**» عند تفسير الآية قولهم إعتصمت بحبله يجوز أن تكون تمثيلات لإستظهاره به ووثوقه بحمايته بإمساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن إنقطاعه، وأن يكون الحبل إستعارة لعهده والإعتصام لوثوقه بالعهد أو ترشيحاً لإستعارة الحبل بما يناسبه، والمعنى واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تفرّقوا عنه أو واجتمعوا على التّمسك بعهده إلى عباده وهو الايمان والطاعة أو بكتابه لقوله صلى الله عليه وآله: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرّد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم» انتهى.

وبالجملة الدّين هو حبل الله المتين، وذكر الإنجذام من قبيل ترشيه التشبيه والمراد بذلك الإنجذام هو انحراف الخلق عن الحقّ وعدم تمسكهم به وعدولهم عن سواء السّبيل **(وتزعزعت) أي تحرّكت واضطربت (سواري اليقين)** أي دعائمه واسطواناته، والمراد باليقين هو الحق والعقائد اليقينية واضطراب دعائمه كناية عن عدم إستقامة النّاس عليه وتزلزل عقائدهم، أو كناية عن موت أهل الدّين الذين كان بهم قوامه وانقراض العاملين الذين لم يأخذهم في الله لومة لائم **(واختلف النّجر)** أي الأصل الجامع للخلق وهي الفطرة التي فطر النّاس عليها **(وتشتت الأمر)** أي تفرق أمر الدين بتفرق الأهواء، وتشتت الآراء **(وضاق)** للخلق بعد تورطهم في فتن الشّبهات وإقتحامهم في الهلكات **(المخرج)** منها **(وعمى)** عليهم

(المصدر) أي طريق الصّدور عنها والخلاص منها.

وإسناد العمى إلى المصدر من باب المجازٓ العقلي والإسناد إلى المحل إذ العمى في الحقيقة صفة البصر والمراد به هنا فقد البصيرة تشبيهاً للمعقول بالمحسوس فكما أن فاقد البصر لا يهتدي إلى مقاصده المدركة بحسّ البصر فكذلك إنتفاء البصيرة يوجب الضّلالة عن طريق الحقّ والعجز عن الوصول إلى الواقع **(فالهدى خامل)** أي أعلام الهداية بينهم حال عماهم عن المصدر ساقطة ومندرسة وأنوار الدراية منكسفة ومنطمسة (و) رين **(العمى شامل)** عليهم أي غشاوة الضّلالة محيطة بقلوبهم، فهم مشتركون في تورّط الشّبهات مغتمرون في ظلم الجهالات **(عصي الرّحمٰن)** بخمول الهدى **(ونصر الشّيطان)** بشمول العمى وإتّباع الهوى **(وخذل الإيمان)** بانفصام عروته الوثقى.

(ف)لأجل خذلانه واضطراب قواعده وأركانه **(إنهارت دعائمه)** وسقطت سواريه **(وتنكرت معالمه)** وتغيرت آثاره **(ودعائم الإيمان ومعالمه)** كنايتان عن حملة الدين ودعاة الحقّ، **(وانهيارهم)** كناية عن عدمهم أو عدم قبول قولهم، وتنكرهم إشارة إلى عدم معرفة الخلق لهم لقلتهم **(ودرست سبله)** وطرقه **(وعفت شركه)** وجوادّه فلم يبق له سبيل يوصل إليه ولا جادّة سالكة إليه، وهذا كله مبالغة في ضعف الإيمان ووهن الدّين **(وأطاعوا الشيطان)** بمخالفة الأوامر والنّواهي وإتيان المعاصي والمناهي **(فسلكوا مسالكه) (واتّبعوا آثاره) (ووردوا مناهله)** وشربوا من عيون ضلالته **(بهم سارت أعلامه وقام لواؤه)** وقوى شوكته واستحكم خبائله حيث كانوا من جنوده معاونين له شركاء معه ساعين في إطفاء نور الهداية وإعلاء لواء الضلالة **(في فتن)** والظاهر أنّ المراد بهذه الفتن غير ما سبق أوّلاً إذ النكرة إذا أعيدت كانت غير الأولى، وعلى تقدير تعلقه بقوله سارت فالمغايرة أظهر، وشبه عليه السلام هذه الفتن بأنواع الحيوان فاستعار لها أخفافاً وأظلافاً وحوافر وقال **(داستهم)** أي وطأتهم **(بأخفافها، ووطأتهم بأظلافها، وقامت على سنابكها)** أي أطراف حوافرها.

قال الشّارح البحراني: ويحتمل أن يكون هناك إضمار، أي داستهم بأخفاف إبلها ووطأتهم بأظلاف بقرها وقامت على سنابك خيلها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وحينئذٍ يكون التّجوز في نسبة الوطي والدّوس والقيام إليها فقط وهو المجاز في الإسناد.

وكيف كان **(فهم فيها)** أي في هذه الفتن **(تائهون)** ضالون عن القصد **(حائرن)** متحيرون في أن الصّواب في أيّ جهة مألهم قبلة ولا دبرة **(جاهلون)** غير عالمين بالحقّ، مفتونون بالفتن العمياء الصّماء (في خيردار) وهو مكة زادها الله شرفاً **(وشرّ جيران)** يعني قريشاً.

قال الشّارح المعتزلي: وهذا لفظ النّبي صلى الله عليه وآله حين حكى بالمدينة حالة كانت في مبدأ البعثة، فقال: كنت في خير دار وشرّ جيران **(نومهم سهود، وكحلهم دموع)** صفتان للجيران،

قال المعتزلي: هو مثل أن يقول جودهم بخل وأمنهم خوف، أي لو استتمّهم محمد ﷺ النوم لجادوا عليه بالسّهود عوضاً عنه، ولو استجداهم الكحل لكان كحلهم الذي يصلونه به الدّموع (**بأرض عالمها**) أي العارف بصدق محمّد ﷺ والمؤمن به (**ملجم**) بلجام الخوف والتّقية (**وجاهلها**) أي الجاحد لنبوّته والمنكر له (**مكرم**) بكرامة العزّ والمكنة.

إستدراك

كلّ ما ذكرناه في معنى هذا الفصل قد أشرنا سابقاً إلى أنّه مبنيّ على كون قوله: (**والنّاس في فتن**) جملة حاليّة مسوقة لبيان حال إبتداء البعثة، وأمّا على الاحتمال الآخر، وهو كونها جملة إستئنافية مسوقة لبيان حال أهل زمانه حسبما استظهره جمع من الشرّاح ومنهم الشّارح البحراني حيث قال: واعلم أنّ الذي يتبادر إلى الذّهن أنّ هذا القدر الذي أورده السّيد من هذه الخطبة فصول ملفقة ليست على نظامها التي خرجت عليه مع ما يفهم من سائر عباراتها أيضاً فيكون المراد بالفتن الفتن الحادثة بعد زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهي فتن معاوية وأصحاب الجمل وغيرها.

وعلى هذا الإحتمال فالمراد بالدّين في قوله: حبل الدّين، دين النبيّ ﷺ، وبالنّجر هو الفطرة الأصليّة التي كانت متّفقاً عليها بوجود الرّسول واختلفت بعده فسلك كلّ فرقة مسلكاً غير مسلك الفرقة الأخرى، وبقوله: أطاعوا الشيطان، الإطاعة له بعده لهم عن الحقّ وبغيهم عليه عليه السلام وخروجهم إلى حربه وقتالهم معه عليه السلام، وبقوله: (**تائهون حائرون**)، أنّهم متردّدون في أنّ الحقّ مع عليّ عليه السلام أم مع غيره.

وقوله: (**في خير دار وشرّ جيران**) اختلف فيه الشّارحون، فقال الرّاوندي على ما حكاه عنه في شرح المعتزلي: إنّ خير دار الكوفة وقيل الشّام لأنّها الأرض المقدّسة وأهلها شرّ جيران يعني أصحاب معاوية وعلى التفسير الأوّل يعني أصحابه قال: وقوله: (**نومهم سهود**) يعني أصحاب معاوية لا ينامون طول اللّيل بل يرتبون أمره وإن كان وصفاً لأصحابه بالكوفة وهو الأقرب، فالمعنى أنّهم خائفون يسهرون ويبكون لقلة موافقتهم إيّاه وهذا شكاية منه عليه السلام لهم، (**وكحلهم دموع**): أي نفاقاً فإنّه إذا تمّ نفاق المرء ملك عينيه. والأقوال الأخرى مفصلة في شرح البحراني فلتطلب منه.

الترجمة

حق سبحانه و تعالی ارسال فرمود حضرت رسالت پناه صلوات الله علیه و آله را و حال آن که مردمان افتاده بودند در فتنه های جاهلیت از کفر و ضلالت و تفرق رأی ها و اختلاف خواهشات؛ چنان فتنه هایی که بریده شده بود در آن فتنه ها ریسمان متین دین مبین و مضطرب شده بود ستون های یقین و مختلف شده بود اصل دین ایشان و متفرق گشته بود کار اسلام و ایمان و تنگ شده بود بر ایشان محل خارج شدن از آن فتنه ها و کور شده بود بر آن ها محل مراجعت از آن ها، پس نور هدایت در میان ایشان خاموش است و کوری بر همه ایشان عام و شامل است. معصیت کرده شده است خداوند ودود و یاری داده شده است ابلیس مطرود و خوار گذاشته شده است ایمان و طاعت حضرت معبود، پس سرنگون شد ستون های ایمان و تغییر یافت آثار آن، پس محو شد راه های آن و زایل گشت جاده های آن، اطاعت و فرمانبرداری کردند شیطان را، پس رفتند در راه های ضلالت آن و آشامیدند از چشمه های شقاوت آن، به اعانه ایشان سیر نمود علم های آن و راست ایستاد رایت کفر آیت آن؛ در فتنه هایی که پایمال کرد ایشان را با پاپوش های خود همچو شتران و لگدکوب کرد ایشان را با ناخن های خود مثل گاوها و راست ایستاد بر آن ها بر طرف سم های خود مثل اسب ها، پس ایشان در آن فتنه ها سرگردانانند، متحیرانند، نادانانند و فریفته گانند در بهترین سرا که مکه معظمه است و بدترین همسایه ها که کفار قریش است، همچنان همسایه هایی که خواب ایشان بی خوابی است و سرمه ایشان اشك های جاری است، در زمینی که دانای آن لجام کرده شده است با لجام خوف و خشیت و نادان آن اکرام کرده شده است به انواع عزت و کرامت.

الفصل الرابع منها ويعني آل محمد ﷺ

«وَهُمْ مَوْضِعُ سِرِّه، ولَجاَءُ[١] أَمْرِهِ، وعَيْبَةُ عِلْمِهِ، ومَوْئِلُ حُكْمِهِ، وكَهْفُ كُتُبِهِ، وجِبالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقامَ انْحِناءَ ظَهْرِهِ، وَاذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرائِصِهِ»[٢].

اللغة

(**اللجاء**) محرّكة كالملجأ الملاذ من لجأ إليه كمنع وفرح لاذ و (**العيبة**) ما يجعل فيه الثّياب ومن الرّجل موضع سرّه و(**الموئل**) المنجأ من وئل إليه يئل وئلا ووؤلا ونيلا وائل موائلة ووئالا لجأ وخلص و(**الكهف**) غار واسع في الجبل فإن كان صغيراً قيل له الغار والبيت المنقور في الجبل، وفلان كهف لأنّه يلجأ إليه كالبيت على الإستعارة و(**الإنحناء**) الإعوجاج و(**الإرتعاد**) الإضطراب و(**الفرائص**) جمع الفريصة وهي اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترتعد.

الإعراب

الضمائر الثمانية راجعة إلى محمّد ﷺ كما مرّ ذكره في أوائل الخطبة، وهذا هو الأظهر بقرينة المقام والأوفق بنسق أجزاء الكلام، وإستبعاده في كتبه لا وجه له بعد إمكان التّأويل القريب حسبما نشير إليه.

وقيل: برجوع الجميع إليه إلاّ الأخيرين فإنّهما راجعان إلى الدّين وهو غير بعيد بل أنسب معنى.

وقيل: إنّ الجميع راجع إليه إلاّ في كتبه.

وقيل: برجوع الجميع إلى الله إلاّ الأخيرين فإنّهما للنبي ﷺ، وهذان وإن كانا سالمين عن التّأويل إلاّ أنّ فيهما خروج الكلام عن النسق كما في السابق عليهما وهو ظاهر.

المعنى

إعلم أنّه عليه السلام قد وصف آل محمّد عليهم السّلام بثمانية أوصاف إشارة إلى علوّ مقامهم وسموّ مكانهم ورفعة درجاتهم وعظمة شؤوناتهم، والمراد بآله ﷺ هم الأئمة المعصومون سلام الله عليهم أجمعين حسبما تعرفه مفصّلاً إن شاء الله في موقعه المناسب.

---

(١) اللجاء: الملاذ.

(٢) البحار: ٢٣/١١٧.

ومن العجب العجاب أنّ الشارح البحراني (ره) جعل الأمور المذكورة أوصافاً لأهل النّبي ﷺ الأدنين من بني هاشم كالعبّاس وحمزة وجعفر وعليّ بن أبي طالب عليهم السلام.

أقول: أمّا علي عليه السلام فمسلّم وأمّا العبّاس وحمزة وجعفر ونظراؤهم من سائر بني هاشم فأين لهم قابليّة لحفظ سرّ الله، أم أنّى لهم إستعداد لأن يكونوا ملجأ أمر الله؟ أم كيف لهم الإحاطة بكتب الله؟ بل القابل لها ولسائر الأوصاف المذكورة إنّما هو آل الله وآل رسوله سلام الله عليه وعليهم الذين هم العروة الوثقى ومنار الهدى وأعلام التقى وكهف الورى، وهم الملجأ والمنجى.

وبالجملة فأول الأوصاف المذكورة

ما أشار عليه السلام إليه بقوله: **(هم موضع سرّه)** والمراد بالسّر علم لا يجوز إظهاره للعموم والأئمة عليهم السلام موضعه ومأواه ومستقرّه ومقامه وخزّانه وحفّاظه لا يظهرونه أو لا يظهرون منه إلا ما يحتمل على من يتحمل إذ العموم لا يقدر على تحمل أسرار الله سبحانه، ولذلك قال عليّ بن الحسين عليهما السّلام: «لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله»[1].

وفي **«البحار»** من كتاب السّيد حسن بن كبش بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمد إنّا «إنّ ظ» عندنا سرّاً من سرّ الله وعلماً من علم الله لا يحتمله ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان والله ما كلف الله أحداً ذلك الحمل غيرنا، ولا استبعد بذلك أحداً غيرنا وإنّ عندنا سرّاً من سرّ الله وعلماً من علم الله أمرنا الله بتبليغه فبلغنا عن الله عزّ وجل ما أمرنا بتبليغه ما «فلم خ ل» نجد له موضعاً ولا أهلاً ولا حمالة يحملونه حتى خلق الله لذلك أقواماً خلقوا من طينة خلق منها محمّد ﷺ وذريته ومن نور خلق الله منه محمّداً وذريته وصنعهم بفضل صنع رحمته التي منها محمّداً وذريته «وآله خ ل» فبلغناهم عن الله عزّ وجلّ ما أمرنا بتبليغه فقبلوه واحتملوا ذلك عنّا فقبلوه واحتملوه وبلغهم ذكرنا فمالت قلوبهم إلى معرفتنا وحديثنا فلولا أنّهم خلقوا من هذا لما كانوا كذلك ولا والله ما احتملوه».

ثم قال عليه السلام: «إنّ الله خلق قوماً «أقواماً خ ل» لجهنم والنّار، فأمرنا أن نبلغهم كما بلغناهم فاشمأزّوا من ذلك ونفرت قلوبهم وردّوه علينا ولم يحتملوه وكذّبوا به وقالوا: ساحر كذّاب فطبع الله على قلوبهم وأنساهم ذلك، ثم أطلق الله لسانهم ببعض الحقّ فهم ينطقون به وقلوبهم منكرة ليكون ذلك دفعاً عن أوليائه وأهل طاعته ولولا ذلك ما عبد الله في أرضه فأمرنا الله بالكفّ عنهم والكتمان منهم فاكتموا ممّن أمر الله بالكفّ عنهم واستروا عمّن أمر الله بالسّتر والكتمان منهم».

---

(١) الكافي: ١/٤٠١.

قال: ثم رفع عليه السلام يده وبكى، وقال: «اللهم إن هؤلاء لشر ذمة قليلون فاجعل محياهم محيانا ومماتهم مماتنا، ولا تسلط عليهم عدوّاً لك فتفجعنا بهم، فانّك إن فجعتنا بهم لم تعبد أبداً في أرضك»، ورواه في «**الكافي**» عن أبي بصير مثله[١].

أقول: وبهذه الرّواية يحصل الجمع بين قولهم عليهم السلام: إنّ حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وبين الخبر الخالي عن الإستثناء، فإنّ الثّاني محمول على السّر المختصّ بهم عليهم السلام الذي لا يحتمله أحد غيرهم، والأوّل محمول على السّر الذي هو أدنى من ذلك. وهو السّر الذي تقدّم إليهم النّص من الله سبحانه لإظهاره لبعض خواصهم على مراتب إستعدادهم، وهو الذي أشار إليه الصّادق عليه السلام بقوله: لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان (ا ه)، فإن أبا ذر لا استعداد له على احتمال السّر الذي احتمله سلمان، وكذلك كميل بن زياد مع كونه من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام لا يحتمل ما احتمله أبو ذر (ره)، فهو وإن كان صاحب سرّه عليه السلام لكن بالنّسبة إلى غيره من سائر النّاس، ولذلك أنّه بعد ما سئل عنه عليه السلام عن الحقيقة وأجاب عليه السلام بقوله: ما لك والحقيقة، قال: أولست صاحب سرّك؟ فلم يقرّره عليه السلام على عموم ما ادّعاه، بل أجاب بقوله عليه السلام: بلى ولكن يترشح عليك ما يطفح مني، فإنّ استدراكه عليه السلام بقوله: ولكن (اه)، إشارة إلى أنّ ما يظهره من السّر عليه من قبيل نداوة الطفحان ورشحته الفائضة من جوانبه، وأنّه ليس صاحب السّر على نحو العموم.

وبالجملة فقد وضح وظهر ممّا ذكرنا أنّ أسرار الله سبحانه هي علوم لا يجوز إظهار ما جاز إظهارها منها إلاّ للكمل على إقتضاء مراتب الإستعداد.

وقد روى في الخرائج بإسناده عن عبد الرّحمان بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أتى الحسين عليه السلام ناس فقالوا له: يا أبا عبد الله حدّثنا بفضلكم الذي جعل الله لكم، فقال: إنكم لا تحتملونه ولا تطيقونه، قالوا: بلى نحتمل، قال: إن كنتم صادقين فليتنحّ إثنان وأُحدّث واحداً فإن احتمله حدّثتكم، فتنحى إثنان وحدّث واحداً فقام طائر العقل ومرّ على وجهه وذهب، وكلمه صاحباه فلم يردّ عليهما شيئاً وانصرفوا»[٢].

وفيه بالإسناد المذكور قال: أتى رجل الحسين بن عليّ عليهما السّلام فقال: حدّثني بفضلكم الذي جعل الله لكم، فقال: «إنّك لن تطيق حمله»، قال: بل حدّثني يا ابن رسول الله إنّي أحتمله، فحدثه بحديث فما فرغ الحسين عليه السلام من حديثه حتّى ابيضّ رأس الرّجل ولحيته

---

(١) الكافي: ١/ ٤٠٢.
(٢) الخرائج والجرائح: ٢/ ٧٩٥.

وأنسي الحديث، فقال الحسين عليه السلام «أدركته رحمة الله حيث أنسي الحديث»(١).

وفي «البحار» من كتاب «المختصر» للحسن بن سليمان من كتاب ابن شريفة الواسطي يرفعه إلى ميثم التّمار، قال: بينما أنا في السّوق إذ أتى أصبغ بن نباتة فقال: ويحك يا ميثم لقد سمعت من أمير المؤمنين عليه السلام حديثاً صعباً شديداً، قلت: وما هو؟ قال: سمعته يقول: «إنّ حديث أهل البيت صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»، فقمت من فورتي فأتيت عليّاً عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين حديث أخبرني به أصبغ عنك قد ضقت به ذرعاً، فقال عليه السلام: «ما هو»؟ فأخبرته به، فتبسّم ثم قال: «اجلس يا ميثم، أوَ كلّ علم يحتمله عالم؟ إنّ الله تعالى قال للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فهل رأيت الملائكة احتملوا العلم»؟ قال: قلت: وإنّ هذا أعظم من ذلك، قال: «والأخرى إنّ موسى بن عمران أنزل الله عليه التّوراة فظنّ أن لا أحد أعلم منه فأخبره أنّ في خلقه أعلم منه، وذلك إذ خاف على نبيّه العجب؟ قال: فدعا ربّه أن يرشده إلى العالم، قال: فجمع الله بينه وبين الخضر عليهما السّلام، فخرق السفينة فلم يحتمل ذلك موسى، وقتل الغلام فلم يحتمله، وأقام الجدار فلم يحتمله.

وأمّا النّبيون فإن نبيّنا صلى الله عليه وآله أخذ يوم غدير خم بيدي فقال: اللّهم من كنت مولاه فعليّ مولاه، فهل رأيت أحداً احتمل ذلك إلاّ من عصم الله منهم، فأبشروا ثم أبشروا قد خصّكم بما لم يخصّ به الملائكة والنبيّين والمرسلين فما احتملتم ذلك في أمر رسول الله وعلمه فحدّثوا عن فضلنا ولا حرج ولا عظيم أمرنا ولا إثم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمرنا معاشر الأنبياء أن نخاطب النّاس على قدر عقولهم»(٢).

قال المحدث المجلسي (ره) بعد ذكر الحديث: لعل المراد بآخر الخبر أنّ كلما رويتم في فضلنا دون درجتنا، لأنّا نكلم النّاس على قدر عقولهم، أو المعنى أنّا كلفنا بذلك ولم تكلفوا بذلك فقولوا في فضلنا ما شئتم وهو بعيد.

الثاني

ما نبّه عليه بقوله: **(ولجأ أمره)** قال البحراني وأشار بكونهم عليهم السلام ملجأ أمره إلى أنّهم النّاصرون له والقائمون بأوامر الله والذابون عن الدّين فإليهم يلتجيء وبهم يقوم سلطانه.

(١) مختصر بصائر الدرجات/١٠٨.
(٢) المحتضر/١١١.

أقول: المستفاد من ظاهر كلامه أنّ المراد بالأمر هو الأمور الدّينيّة وأنهم ملجأ لنفس الأوامر، والأظهر الأقوى عندي أن المراد أنّهم لجأوا للعباد في الأوامر الدينيّة بمعنى أنّ الخلق إذا تنازعوا في شيء منها وعجزوا فيها عن النّيل إلى الواقع فهم الملجأ والملاذ، لأنّهم أولو الأمر قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

قال عليّ بن إبراهيم القمي في تفسيره: حدّثني أبي عن حمّاد عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نزل فان تنازعتم في شيء فارجعوه إلى الله وإلى الرّسول وإلى أولي الأمر منكم»(١).

وهو يدلّ على أن المنزل فارجعوه مكان فردّوه، ويحتمل أن يكون تفسيراً له ويدلّ أيضاً على أنّ الموجود في مصحفهم قول وإلى أولي الأمر منكم، وعلى ذلك فالآية صريحة في الدّلالة على المطلوب من رّد الأمور الدّينيّة التي اختلف فيها إلى كتاب الله وإلى رسوله والأئمة عليهم السّلام.

وأمّا على ما هو الموجود في هذه المصاحف التي بأيدينا فالدّلالة أيضاً غير خفيّة على مذهبنا لأنَ الرّد إلى الأئمة القائمين مقام رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته هو مثل الرّد إلى الرّسول في حياته، لأنهم الحافظون لشريعته والخلفاء في أمّته فجروا مجراه فيه، ومثله قوله تعالى:

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ١٠٨].

روى في «**البحار**» من تفسير العياشي عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية، قال: «هم الأئمة عليهم السلام»(٢).

وعن عبد الله بن جندب قال كتب إليّ أبو الحسن الرّضا عليه السلام: «ذكرت رحمك الله هؤلاء القوم الذين وصفت أنهم كانوا بالأمس لكم إخواناً والذي صاروا إليه من الخلاف لكم والعداوة لكم والبراءة منكم والذي تأفّكوا به من حياة أبي صلوات الله عليه ورحمته، وذكر في آخر الكتاب أن هؤلاء القوم سنح لهم شيطان إغترهم بالشّبهة ولبّس عليهم أمر دينهم، وذلك لما ظهرت فريتهم واتّفقت كلمتهم ونقموا على عالمهم وأرادوا الهدى من تلقاء أنفسهم فقالوا: لم ومن وكيف؟ فأتاهم الهلاك من ما من احتياطهم، وذلك بما كسبت أيديهم وما ربك بظلام

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٨٥.
(٢) تفسير العياشي: ١/ ٢٦٠ ح ٢٠٦ وفيه: يعني آل محمد (ص).

للعبيد، ولم يكن ذلك لهم ولا عليهم، بل كان الفرض عليهم والواجب لهم من ذلك الوقوف عند التحيّر وردّ ما جهلوا من ذلك إلى عالمه ومستنبطه، لأنّ الله يقول في محكم كتابه:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النساء: ٨٣].

يعني آل محمّد عليهم السّلام، وهم الذين يستنبطون من القرآن ويعرفون الحلال والحرام وهم الحجّة على خلقه» هذا[١].

وقد ظهر ممّا ذكر أنّ الأئمة عليهم السّلام هم ولاة الأمر وأنّهم المقصودون بأولي الأمر في الآيتين، أمّا الآية الثانية فلما ذكرنا، وأمّا الآية الأولى فللأخبار المستفيضة.

أمّا الأخبار فمنها ما رواه في «**البحار**» عن تفسير فرات بن إبراهيم عن عبيد بن كثير معنعناً أنّه سأل جعفر بن محمّد عليهما السّلام عن قول الله:

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

قال: أولي الفقه والعلم، قلنا: أخاص أم عام؟ قال عليه السلام: «بل خاص لنا».

وفي «**الكافي**» عن جابر الجعفي قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية: قال «الأوصياء»[٢].

وفيه أيضاً عن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ ذكره:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النساء: ٥٨].

فقال عليه السلام: إيّانا عني أن يؤد الأوّل إلى الإمام الذي بعده الكتب والعلم والسّلاح، وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل الذي في أيديكم، ثم قال للنّاس:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

إيّانا عنى خاصّة، أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا، فإن خفتم تنازعاً في أمر فردّوه إلى الله وإلى الرّسول وإلى أولي الأمر منكم، كذا نزلت وكيف يأمرهم الله عزّ وجلّ بطاعة ولاة الأمر ويرخص في منازعتهم إنّما قيل ذلك للمأمورين الذين قيل لهم: «أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم»[٣]، والأخبار في هذا الباب كثيرة لا تحصى.

وأمّا دليل العقل فلأنّه سبحانه أمر بوجوب طاعة أولي الأمر على نحو العموم فلا بدّ من

---

(١) البحار: ٢٣/٢٩٦ ح ٣٦.

(٢) البحار: ٢٣/١٩٨ ح ٤٧.

(٣) الكافي: ١/٢٧٦ ح ٢.

كونه معصوماً وإلاّ لزم أن يكون تعالى قد أمر بالقبيح لأنّ من ليس بمعصوم لا يؤمن صدور القبيح عنه، فإذا وقع كان الإقتداء به قبيحاً والمعصوم بعد الرّسول ﷺ منحصر بإجماع الأمة في الأئمة، وسيأتي تمام الكلام في هذا المقام في مقدمات الخطبة الشّقشقية إن شاء الله هذا.

ويحتمل أن يكون المراد بالأمر في قوله ؈: (**ولجأ أمره**)، الأعم من الأمور الدّينيّة، وربّما فسّر به في الآيتين أيضاً، فالمراد به على ذلك جميع الأمور المقدرة المشار إليها في قوله سبحانه:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: ٤] وفي قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤].

وقد مضى في الفصل التّاسع من فصول الخطبة الأولى في شرح قوله ؈: (**ومختلفون بقضائه وأمره**)، ما يوجب زيادة البصيرة في المقام، وقد مضى هناك في رواية الكافي عن الباقر ؈ «أنّه لينزل في ليلة القدر إلى وليّ الأمر تفسير الأمور سنة سنة يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا وفي أمر النّاس بكذا وكذا»(١)، إلى آخر ما مرّ هناك، وهذا الإحتمال أقرب بالنّظر إلى عموم وظيفتهم عليهم السّلام.

الثالث

ما أشار ؈ إليه بقوله: (**وعيبة علمه**) يعني أنّ علمه مودع عندهم كالثّياب النّفيسة المودعة في العيبة، وتشبيههم بالعيبة من حيث إنّهم كانوا حافظين وصائنين له عن الضّياعة والإندراس حسن الإستعارة بالعيبة الحافظة للباس عن الأدناس.

قال البحراني: وكونهم عيبة علمه مرادف لكونهم موضع سرّه، إذ يقال في العرف فلان عيبة العلم إذا كان موضع أسراره.

وأقول: أمّا تراد فهما في اللّغة والعرف فقد صرّح به بعض اللغويين أيضاً، ولكن الظاهر أنّ السّر أخصّ من العلم، لما قد عرفت سابقاً من أن السّر هو العلم الذي يكتم وقد صرّح به غير واحد من اللغويين وهو المتبادر منه أيضاً، فيكون حقيقة فيه، وعلى هذا فيكون العلم أعمّ منه وهو الأنسب بالمقام أيضاً، من حيث أنّ التّأسيس أولى من التّأكيد.

وكيف كان فلا غبار على أنّ علم الله وعلم رسوله المتلقّى منه سبحانه مودع عندهم وهم الحافظون له، ويدل عليه الأخبار المتواترة القطعية.

منها ما رواه في «**الكافي**» بإسناده عن يونس بن رباط قال: دخلت أنا وكامل التّمار على

---

(١) الكافي: ١/٢٤٨ ح ٣.

أبي عبد الله عليه السلام، فقال له كامل: جعلت فداك حديث رواه فلان، فقال: اذكره، فقال: حدّثني أنّ النّبي صلى الله عليه وآله حدث عليّاً عليه السلام بألف باب يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ باب يفتح له ألف باب فذلك ألف ألف باب، فقال: «لقد كان ذلك»، قلت جعلت فداك فظهر ذلك لشيعتكم ومواليكم؟ فقال عليه السلام: يا كامل باب أو بابان، فقلت له جعلت فداك فما يروى من فضلكم من ألف ألف باب إلا باب أو بابان؟ قال: فقال: «وما عسيتم أن ترووا من فضلنا ما ترون من فضلنا إلاّ ألفاً غير معطوفة»[١].

وفي «البحار» من كتاب «المختصر» للحسن بن سليمان من نوادر الحكمة يرفعه إلى أبي بصير قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه المفضّل بن عمر فقال: مسألة يا بن رسول الله، فقال عليه السلام: «سل يا مفضل»، قال: ما منتهى علم العالم؟ قال عليه السلام: «قد سألت جسيماً ولقد سألت عظيماً ما السّماء الدّنيا في السّماء الثانية إلا كحلقة درع ملقاة في أرض فلاة، وكذلك كلّ سماء عند سماء أخرى، وكذلك السّماء السّابعة عند الظلمة، ولا الظلمة عند النّور، ولا ذلك كله في الهواء وكا «لاظ» لأرضين بعضها في بعض ولا مثل ذلك كله في علم العالم يعني الإمام إلاّ مثل مدّ من خردل دققته دقّاً ثم ضربته بالماء «ثم خ» حتّى إذا اختلطو (رغا)[٢] أظهر أخذت منه لعقة باصبعك، ولا علم العالم في علم الله إلاّ مثل حبة من خردك دققته دقاً ثم ضربته بالماء حتّى إذا اختلط ورغا إنتهزت منه برأس إبرة نهزة» ثم قال عليه السلام: «يكفيك من هذا البيان بأقله وأنت بأخبار الأمور تصيب»[٣].

ومن كتاب «المحتضر» أيضاً نقلاً من كتاب «الأربعين» رواية سعد الأوبلي عن عمار بن خالد عن إسحاق الأزرق عن عبد الملك بن سليمان قال: وجد في ذخيرة أحد حواري المسيح رق مكتوب بالقلم السّرياني منقولاً من التوراة وذلك لما تشاجر موسى والخضر عليهما السّلام في قضيّة السّفينة والغلام والجدار ورجع موسى إلى قومه سأل أخوه هارون عمّا استعمله من الخضر وشاهد من عجائب البحر.

قال: بينما أنا والخضر على شاطىء البحر إذ سقط بين أيدينا طائر أخذ في منقاره قطرة من ماء البحر ورمى بها نحو المشرق، ثم أخذ ثانية ورمى بها نحو المغرب، ثم أخذ ثالثة ورمى بها نحو السّماء، ثم أخذ رابعة ورمى بها نحو الأرض، ثم أخذ خامسة وألقاها في البحر فبهت الخضر وأنا، قال موسى: فسألت الخضر عن ذلك فلم يجب، وإذا نحن بصيّاد يصطاد فنظر إلينا وقال: ما رأيكما في فكر وتعجب، فقلنا: في أمر الطائر، فقال: أنا رجل صيّاد وقد

---

(١) الكافي: ١/٢٩٧ ح ٩.

(٢) رغا: رغوة اللبن (زَبَدُه).

(٣) البحار: ٢٥/٣٨٥ ح ٤٣.

علمت إشارته وأنتما نبيّان لا تعلمان، قلنا: ما نعلم إلاّ ما علمنا الله عزّ وجلّ، قال: هذا طائر في البحر يسمّى مسلم، لأنّه إذا صاح يقول في صياحه مسلم، وأشار بذلك إلى أنه يأتي في آخر الزّمان نبيّ يكون علم أهل المشرق والمغرب وأهل السماء والأرض عند علمه مثل هذه القطرة الملقاة في البحر، ويرث علمه ابن عمّه ووصيّه، فسكن ما كنا فيه من المشاجرة واستقل كلّ واحد منّا علمه، بعد أن كنا به معجبين ومشينا ثم غاب الصياد فعلمنا أنّه ملك بعثه الله إلينا يعرفنا بنقصنا حيث ادّعينا الكمال[١].

أقول: وبهذه الأخبار يعرف المعيار إجمالاً لعلومهم عليهم السلام، وفيها كفاية لمن ألقى السّمع وهو شهيد، وأمّا تحقيق كيفيّة هذا العلم وأنّه هل هو على نحو الإحاطة الفعليّة أو الإراديّة فلعلّنا نشير إليه في الموقع المناسب إن شاء الله تعالى.

الرابع

ما أشار عليه السلام إليه بقوله: **(وموئل حكمه)** والمراد بالحكم إمّا الأحكام الشرعية أي خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين من حيث الإقتضاء أو التّخيير، وإمّا القضاء الرّافع للخصومات، وعلى أي تقدير فهم موئله ومنجاه، إليهم يلتجىء فيه وبهم يحصل الخلاص والنّجاة لأنّ ما عندهم هو الحكم المتلقى من الوحي الإلهي الذي هو مطابق للواقع والواقع مطابق له، وهو كله صواب لا ريب فيه وهم المرشدون إليه، والأدلاّء عليه.

ويشهد به ما في «**البحار**» من مجالس المفيد بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أما أنّه ليس عند أحد من النّاس حق ولا صواب إلاّ شيء أخذوه منا أهل البيت، ولا أحد من النّاس يقضي بحقّ وعدل إلاّ ومفتاح ذلك القضاء وبابه وأوّله وسنّته أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فإذا اشتبهت عليهم الأمور كان الخطأ من قبلهم إذا اختطأوا والصّواب من قبل عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

وفي «**الكافي**» عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال الله عزّ وجل في ليلة القدر:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤].

يقول: ينزّل فيها كلّ أمر حكيم والمحكم ليس بشيئين إنّما هو شيء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله عزّ وجل، ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت»[٣]، وقد مضى بتمامه في الفصل التّاسع من فصول الخطبة الأولى عند شرح قوله ومختلفون بقضائه وأمره فتذكر.

---

(١) البحار: ٢٦/ ٢٠٠ ح ١٢.
(٢) البحار: ٢٦/ ١٥٧، وأمالي المفيد: ٩٦. (٣) الكافي: ١/ ٢٤٨ ح ٣.

وفي «**البحار**» من بصائر الدّرجات عن المفضّل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «أعطيت خصالاً ما سبقني إليها أحد، علمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب»(١).

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا أبا بصير إنّا أهل بيت أوتيناعلم المنايا والبلايا وفصل الخطاب وعرفنا شيعتنا كعرفان الرّجل أهل بيته»(٢).

والمراد بفصل الخطاب الحكم الفاصل بين الحقّ والباطل، أو المفصول الواضح الدلالة على المقصود، أو ما كان من خصائصهم من الحكم المخصوص في كلّ واقعة والجوابات المسكتة للخصوم في كلّ مسألة وسيأتي شطر من قضاياه أعني أمير المؤمنين عليه السلام في شرح الخطبة الآتية عند قوله: «ويكثر العثار فيها والإعتذار منها».

إذا عرفت ما ذكرناه فنقول: إنّ اللاّزم حينئذٍ أخذ الأحكام منهم والرّجوع إليهم ولا يجوز الإستبداد بالعقول النّاقصة والآراء الفاسدة في الأحكام الشّرعية والإعتماد فيها على الأقيسة والإستحسانات كما حقّقناه في شرح الفصل الحادي عشر من فصول الخطبة الأولى.

وقد قال أبو الحسن عليه السلام فيما رواه في «**بصائر الدّرجات**» عن محمّد بن حكيم عنه عليه السلام: «إنّما هلك من كان قبلكم بالقياس وإنّ الله تبارك وتعالى لم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله حتّى أكمل له جميع دينه في حلاله وحرامه، فجاءكم بما تحتاجون إليه في حياته وتستغنون به وبأهل بيته بعد موته وأنّها مخبّية عند أهل بيته حتّى أنّ فيه لأرش الخدش، ثم قال عليه السلام: إنّ أبا حنيفة ممّن يقول: قال عليّ عليه السلام وقلت أنا»(٣).

وكذلك لا يجوز الرّجوع في المرافعات إلى القضاة السّوء فمن رجع إليهم كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] الآية.

ويأتي تفصيل حالات هؤلاء القضاة وما يترتّب على الرّجوع إليهم في الكلام السابع عشر والثّامن عشر وشرحهما إن ساعدنا التّوفيق إن شاء الله.

---

(١) الكافي: ١/١٩٧ ح ١، والخصال: ٦٤٣ ح ٢٢.

(٢) بصائر الدرجات: ٢٨٧، والمحتضر للحلي: ١٢٨.

(٣) بصائر الدرجات: ١٦٧ ح ٣، والبحار: ٢٦/٣٤ ح ٥٦.

الخامس

ما أشار عليه السلام إليه بقوله: **(وكهف كتبه)** تشبيههم بالكهف باعتبار أنّهم يلتجى إليهم فيها، أو أنّهم المأوى لها والحاوون لما فيها كالكهف الذي يحوي من يأوي إليه، والمراد بالكتب إما كتب الله وهو على تقدير رجوع الضّمير فيه إليه سبحانه، فالمراد بها القرآن وما أنزل قبلها من الصّحف والكتب السّماوية.

أمّا كونهم كهف القرآن ومأواه والحافظين له والعالمين به تأويله وتنزيله وظهره وبطنه وبطن بطنه وهكذا إلى سبعة أبطن وكذلك سائر أوصافه من العموم والخصوص والإطلاق والتّقييد والأحكام والتّشابه إلى غير ذلك، فواضح وقد مضى شطر من الكلام على هذا الباب في التّذييل الثّالث من تذييلات الفصل السّابع عشر من فصول الخطبة الأولى.

وأمّا سائر الكتب السّماوية ففي حديث أبي ذر عن النّبي صلى الله عليه وآله قلت: كم كتاباً أنزل؟ قال صلى الله عليه وآله: «مائة كتاب وأربعة كتب أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى اخنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التّوراة عشرة صحائف وأنزلت التوراة والإنجيل والزّبور والفرقان وكانت صحف إبراهيم كلها أمثالاً»[١].

وروى في **«البحار»** من إرشاد القلوب بالإسناد إلى المفيد يرفعه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا سلمان الويل كلّ الويل لمن لا يعرف لنا حقّ معرفتنا وأنكر فضلنا، يا سلمان إيّما أفضل محمد صلى الله عليه وآله أم سليمان بن داود عليه السلام؟ قال: سلمان قلت: بلى محمّد صلى الله عليه وآله أفضل، فقال: يا سلمان فهذا آصف بن برخيا قدر أن يحمل عرش بلقيس من فارس إلى سبأ في طرفة عين وعنده علم من الكتاب ولا أفعل أنا ذلك وعندي ألف كتاب الله، أنزل الله على شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم الخليل عشرين صحيفة، والتوراة والإنجيل والزّبور والفرقان، فقلت: صدقت يا سيّدي، قال الإمام عليه السلام: إنّ الشّاك في أمورنا وعلومنا كالمستهزىء في معرفتنا أو حقوقنا، وقد فرض الله ولايتنا في كتابه في غير موضع وبيّن ما أوجب العمل به وهو مكشوف»[٢].

ومن كتاب التّوحيد عن هشام بن الحكم في خبر طويل قال جاء بريهة جاثليق النّصارى فقال لأبي الحسن عليه السلام: جعلت فداك أنّىٰ لكم التّوراة والإنجيل وكتب الأنبياء، قال: «هي عندنا وراثة من عندهم نقرئها كما قرؤوها ونقولها كما قالوها إنّ الله لا يجعل حجّة في أرضه يسأل من شيء يقول: لا أدري»[٣] الخبر.

---

(١) البحار: ١٢/٥٩.
(٢) نوادر المعجزات: ١٩ ح ١، وتفسير مجمع البيان: ٣/ ٩٥.
(٣) التوحيد: ٢٧٥، والكافي: ١/ ٢٢٧.

ومن «**بصائر الدّرجات**» بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمّد عندنا الصّحف التي قال الله صحف إبراهيم وموسى»، قلت الصّحف هي الألواح؟ قال: «نعم»[١].

هذا كله على احتمال أن يكون المراد بالكتب الكتب المنزلة من الله سبحانه وأمّا على تقدير رجوع الضّمير في كتبه إلى النّبي صلى الله عليه وآله فالمراد بالكتب القرآن وغيره ممّا أشير إليه في الأخبار.

مثل ما رواه في «**البحار**» من «**البصائر**» بإسناده عن أبي الصّباح الكناني عن أبي جعفر عليه السلام قال: «حدّثني أبي عمن ذكره، قال: خرج علينا رسول صلى الله عليه وآله وفي يده اليمنى كتاب وفي يده اليسرى كتاب فنشر الكتاب الذي في يده اليمنى فقرأ بسم الله الرّحمٰن الرحيم كتاب لأهل الجنّة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم واحد ولا ينقص منهم واحد، قال: «ثم نشر الذي بيده اليسرى فقرأ: كتاب من الله الرّحمٰن الرّحيم لأهل النّار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم لا يزاد فيهم واحد ولا ينقص منهم واحد»[٢].

ومن «**البصائر**» أيضاً بإسناده عن الأعمش قال: قال الكلبي: يا أعمش أيّ شيء أشدّ ما سمعت من مناقب عليّ عليه السلام؟ قال: فقال حدّثني موسى بن طريف عن عباية قال: سمعت عليّاً عليه السلام وهو يقول: «أنا قسيم النّار فمن تبعني فهو مني ومن عصاني فهو من أهل النّار»، فقال الكلبي: عندي أعظم مما عندك، أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام كتاباً فيه أسماء أهل الجنّة وأسماء أهل النّار، فوضعه عند أم سلمة فلما ولي أبو بكر طلبه فقالت: ليس لك، فلما ولي عمر طلبه، فقالت: ليس لك، فلما ولي عليّ عليه السلام دفعته إليه»[٣].

ومنه أيضاً بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمّد إنّ عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة»؟ قال: قلت: جعلت فداك وما الجامعة؟ قال: «صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله أملاه من فلق فيه وخطه علي عليه السلام بيمينه فيها كلّ حلال وحرام وكلّ شيء يحتاج إليه النّاس حتّى الأرش في الخدش»[٤].

وفي «**الإحتجاج**» في حديث طويل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وكان عليه السلام يقول: «علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الأسماع وإنّ عندنا الجفر الأحمر، والجفر

---

(١) البحار: ٢٦/٦١.

(٢) البصائر: ١٥٧، والبحار: ٢٦/١٢٦.

(٣) البصائر: ٢١١، والاحتجاج: ١/١٨٤.

(٤) البصائر: ١٥٩، والكافي: ١/٢٣٩.

الأَبيض، ومصحف فاطمة عليها السلام، وعندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج النّاس إليه» فسئل عن تفسير هذا الكلام فقال عليه السلام: «أمّا الغابر فالعلم بما يكون، وأمّا المزبور فالعلم بما كان، وأمّا النكت في القلوب فهو الإلهام وأمّا النقر في الأسماع فحديث الملائكة نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم، وأمّا الجفر الأحمر فوعاء فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله ولن يخرج حتّى يقوم قائمنا أهل البيت، وأما الجفر الأبيض فوعاء فيه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وكتب الله الأولى، وأمّا مصحف فاطمة ففيه ما يكون من حادث وأسماء من يملك ومن لا يملك إلى أن تقوم الساعة وليس فيه قرآن، وأمّا الجامعة فهو كتاب طوله سبعون ذرعاً إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله من فلق فيه وخط عليّ بن أبي طالب عليه السلام بيده، فيه والله جميع ما يحتاج النّاس إليه إلى يوم القيامة حتّى أنّ فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة»، الحديث[1].

وفي «البحار» من «بصائر» الدّرجات عن أحمد بن محمّد عن الحسين بن سعيد عن أحمد بن عمر عن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، قال: فقلت له: إني أسألك جعلت فداك عن مسألة ليس هٰهنا أحد يسمع كلامي، قال: فرفع أبو عبد الله عليه السلام ستراً بيني وبين بيت آخر فاطلع فيه، ثم قال: «يا أبا محمّد سل عمّا بدا لك» قال قلت: جعلت فداك: إنّ الشّيعة يتحدّثون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله علّم عليّاً عليه السلام باباً يفتح منه ألف باب، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمّد علّم والله رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً ألف باب يفتح له من كلّ باب ألف باب»، قال: قلت له: هذا والله العلم، فنكت ساعة في الأرض ثم قال: «إنّه لعلم وما هو بذاك».

قال: ثم قال: «يا أبا محمّد وإنّ عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة، قال: قلت جعلت فداك: وما الجامعة، قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وإملاه من فلق فِيْهِ وخطه عليّ عليه السلام بيمينه، فيها كلّ حلال وحرام وكلّ شيء يحتاج النّاس إليه حتّى الأَرش في الخدش وضرب بيده إليّ فقال تأذن لي يا أبا محمّد»؟ قال: قلت جعلت فداك: أنا لك إصنع ما شئت، قال: فغمزني بيده فقال: حتّى أرض هذا، فكأنه مغضب قال: قلت جعلت فداك: هذا والله العلم، قال: «إنّه لعلم وليس بذاك»، ثم سكت ساعة.

ثم قال: «إنّ عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر مسك شاة أو جلد بعير»، قال: قلت جعلت فداك: ما الجفر؟ قال: «وعاء أحمر وأديم أحمر فيه علم النّبيين والوصيّين»، قلت: هذا والله هو العلم، قال: «إنّه لعلم وما هو بذاك»، ثم سكت ساعة.

ثم قال: «وإنّ عندنا لمصحف فاطمة عليها السّلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة، قال عليه السلام فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرّات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد إنّما هو شيء

(١) نور البراهين: ٢/ ٤٣٨.

أملاه الله عليها أو أوحى إليها»، قال: قلت: هذا والله هو العلم، قال: «إنه لعلم وليس بذاك»، قال ثم سكت ساعة.

ثم قال: «إنّ عندنا لعلم ما كان وما هو كائن إلى أن تقوم السّاعة»، قال: قلت: جعلت فداك، هذا والله هو العلم، قال: «إنه لعلم وما هو بذاك»، قال: قلت جعلت فداك فأيّ شيء هو العلم، قال: «ما يحدث باللّيل والنّهار الأمر بعد الأمر والشّيء بعد الشّيء إلى يوم القيامة»[1].

قال في «البحار»: قوله عليه السلام «والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد أي فيه علم ما كان وما يكون».

فإن قلت: في القرآن أيضاً بعض الأخبار، قلت: لعلّه لم يذكر فيه ما في القرآن.

فإن قلت: يظهر من بعض الأخبار إشتمال مصحف فاطمة عليها السلام أيضاً على الأحكام، قلت: لعل فيه ما ليس في القرآن.

فإن قلت: قد ورد في كثير من الأخبار إشتمال القرآن على جميع الأحكام والأخبار ممّا كان أو يكون، قلت: لعل المراد به ما نفهم من القرآن لا ما يفهمون منه، ولذا قال: قرآنكم على أنه يحتمل أن يكون المراد لفظ القرآن، ثم الظاهر من أكثر الأخبار إشتمال مصحفها عليها السلام على الأخبار فقط فيحتمل أن يكون المراد عدم اشتماله على أحكام القرآن، انتهى[2] هذا.

وفي المقام إشكال قويّ: وهو أنّ المستفاد من قوله عليه السلام: «إنّ عندنا لعلم ما كان وما هو كائن إلى أن تقوم السّاعة»، أنّهم عليهم السّلام يعلمون جميع الشّرائع والأحكام وما كان وما يكون، ومثله ورد في الأخبار الكثيرة وعلى ذلك فأيّ شيء يبقي حتّى يحدث لهم بالليل والنّهار كما يدل عليه آخر الحديث ويستفاد من الأخبار الأخر أيضاً.

وقد أجيب عنه بوجوه: الأوّل أنّ العلم ليس ما يحصل بالسّماع وقراءة الكتب وحفظها، فإن ذلك تقليد وإنّما العلم يفيض من عند الله سبحانه على قلب المؤمن يوماً فيوماً وساعة فساعة فيكشف به من الحقائق ما تطمئنّ به النّفس وينشرح له الصّدر ويتنوّر به القلب، والحاصل أنّ ذلك مؤكد ومقرّر لما علم سابقاً يوجب مزيد الإيمان واليقين والكرامة والشّرف بإفاضة العلم عليهم بغير واسطة المرسلين.

---

(١) البصائر: ١٦٠، والبحار: ١٧/١٣٢ ح ٦.

(٢) البحار: ٢٦/٤٠.

الثّاني: أن يفيض عليهم عليهم السّلام تفاصيل عندهم مجملاتها وإن أمكنهم إستخراج التّفاصيل ممّا عندهم من أصول العلم وموادّه.

الثّالث: أنّهم عليهم السّلام في النّشأتين سابقاً على الحياة البدني ولاحقاً بعد وفاتهم يعرجون في المعارف الربّانية الغير المتناهية على مدارج الكمال إذ لا غاية لعرفانه تعالى وقربه.

قال العلامة المجلسي بعد تقويته هذا الوجه: ويظهر ذلك من كثير من الأَخبار وظاهر أنّهم إذا تعلموا في بدء إمامتهم علماً لا يقفون في تلك المرتبة ويحصل لهم بسبب مزيد القرب والطاعات زوائد العلم والحكم والتّرقيات في معرفة الرّب تعالى، وكيف لا يحصل لهم ويحصل ذلك لسائر الخلق مع نقص قابليتهم وإستعدادهم، فهم عليهم السلام أولى بذلك وأحرى.

ثم قال «قده»: ولعل هذا أحد وجوه إستغفارهم وتوبتهم في كل يوم سبعين مرّة وأكثر، إذ عند عروجهم إلى كلّ درجة رفيعة من درجات العرفان يرون أنّهم كانوا في المرتبة السابقة في النّقصان، فيستغفرون فيها ويتوبون إليه تعالى.

السادس

ما أشار عليه السلام إليه بقوله **(وجبال دينه)** قال الشّارح المعتزلي: لا يتحلحلون عن الدين أو أنّ الدين ثابت بوجودهم كما أنّ الأَرض ثابتة بالجبال لولا الجبال لمادت بأهلها وقال البحراني وأشار بكونهم جبال دينه إلى أنّ دين الله سبحانه بهم يعتصم عن وصمات الشّياطين وتبديلهم وتحريفهم كما يعتصم الخائف بالجبل ممّن يؤذيه[١].

أقول: والمعنيان متقاربان والمقصود واحد وهو أنّ وجودهم سبب لبقاء الدّين وانتظام أمر المسلمين، وبهم ينفي عنه تحريف الغالين وإنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

كما روى في **«البحار»** من كتاب قرب الاسنار عن هارون عن ابن صدقة عن جعفر بن محمّد عن آبائه عليهم السّلام أن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «في كلّ خلف من أمتي عدل من أهل بيتي ينفي عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجهال، وإنّ أئمتكم وفدكم إلى الله فانظروا من توفدون في دينكم وصلواتكم»[٢].

ومن **«علل الشّرائع»** بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله لم يدع الأَرض إلاّ وفيها عالم يعلم الزّيادة والنّقصان من دين الله عزّ وجل، فإذا زاد المؤمنون

---

(١) شرح النهج: ١/١٣٨.
(٢) البحار: ٢/٩٢.

شيئاً ردّهم، وإذا نقصوا أكمله لهم ولولا ذلك لالتبس على المسلمين أمرهم»[١].

وعن أبي حمزة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لن تبقى الأرض إلاّ وفيها من يعرف الحق فإذا زاد النّاس فيه قال: قد زادوا، وإذا انقصوا منه قال: قد نقصوا، وإذا جاؤوا به صدّقهم ولو لم يكن كذلك لم يعرف الحقّ من الباطل»، والأخبار في هذا المعنى كثيرة[٢].

السابع والثامن

ما أشار عليه السلام إليه بقوله: **(بهم أقام إنحناء ظهره، وأذهب إرتعاد فرائصه)** والمراد بذلك على تقدير رجوع الضّمير في ظهره وفرائصه إلى الدّين واضح، وهو أنّهم أسباب لقوام الدين ورافعون لاضطرابه حسبما عرفت آنفاً، وأمّا على تقدير رجوعهما إلى النّبي صلى الله عليه وآله فهو إشارة إلى أنّ الله سبحانه جعلهم أعضاداً يشدّون إزره ويقوّمون ظهره، وإنحناء ظهره كناية عن ضعفه في بدء الإسلام، وإرتعاد الفرائص كناية عن الشّيء ببعض لوازمه إذ كان ارتعاد الفرائص من لوازم شدّة الخوف، يعني أنّ الله أزال عنه صلى الله عليه وآله بمعونتهم خوفه الذي كان يتوقّعه من المشركين على حوزة الدين، وإتصافهم عليهم السّلام بهذين الوصفين ظاهر لا ريب فيه لأنّهم لم يألوا جهدهم في نصرة النّبي صلى الله عليه وآله وتقوية دينه وقولاً أو فعلاً، وقد قال تعالى:

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [الأنفال: ٦٢].

وقد روى العامة والخاصة عن أبي هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلاّ أنا وحدي لا شريك لي ومحمّد عبدي ورسولي أيدته بعليّ عليه السلام[٣]، فأنزل الله عزّ وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٢﴾ [الأنفال: ٦٢].

فكان النّصر عليّاً عليه السلام ودخل مع المؤمنين فدخل في الوجهين جميعاً، وبمضمونه أخبار أخر من الطريقين، وقال سبحانه أيضاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤].

قال أبو هريرة: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو المعني بقوله: المؤمنين، وبالجملة فانتصار النبيّ عليه السلام بأمير المؤمنين عليه السلام وحمايته له باليد واللسان وجدّه في إعلاء كلمة الإسلام ممّا هو غنيّ عن البيان:

---

(١) علل الشرائع: ١/١٩٦.
(٢) علل الشرائع: ١/١٩٩ ح ٢٦.
(٣) بحار الأنوار: ٢٧/٢، والغدير: ٢/٥٠.

بـدر لـه شـاهـد والـشّـعـب مـن أحـد والـخـنـدقـان ويـوم الـفـتـح إن عـلـمـوا

وكفى بذلك شهيداً مبيته على فراش رسول الله ﷺ حتّى باهى الله سبحانه بذلك على ملائكته وأنزل:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وبرازه يوم الخندق لعمرو بن عبدود حتّى أنزل فيه:

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

بعليّ بن أبي طالب، وقتله عمرو على ما ورد في الرّوايات الكثيرة، وفي ذلك اليوم قال ﷺ: «ضربة عليّ أفضل من عبادة الثقلين»[1].

وأمّا سائر الأئمة عليهم السّلام فقد كان هممهم مقصورة على حماية حمى الدّين وإحياء أحكام سيّد المرسلين، بعضهم بالقتال والجدال كالحسين عليه السلام، وبعضهم باللسان والبيان كسائر المعصومين سلام الله عليهم أجمعين، وذلك مع ما هم عليه من التّقية والخوف، ولذلك إنّ الصّادقين عليهما السلام لما تمكنا من إظهار الأحكام ونشر الشّرائع وزالت عنهم التّقية التي كانت على غيرهم قصروا أوقاتهم في إحياء الشّريعة وإقامة السّنة على ما هو معروف، وقد كان أربعة آلاف نفر من أهل العلم متلمذاً عنده وقد صنفوا من أجوبته في المسائل أربعمائة كتاب، هي معروفة بكتب الأصول، فبوجودهم استقام أمر الدّين واستحكم شريعة خاتم النّبيين، وبقائمهم يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

---

(١) الطرائف: ٥١٩، والبحار: ٢/٣٩.

الترجمة

آل حضرت رسالت مآب صلوات الله عليه و عليهم موضع اسرار خفيّه آن جناب اند و پناهگاه امور دينيه اويند و صندوق علم اويند و محل نجات و خلاصى احكام اويند كه به جهت التجاء ايشان خلاصى مى يابند مردم از باديه عجز و سرگردانى و مخزن كتاب هاى اويند و كوه هاى دين اويند كه نگاه مى دارند دين را از اضطراب و از تحريف و تبديل همچنان كه كوه ها نگاه مى دارند زمين را از تموج و تزلزل، به سبب وجود ايشان راست كرد خمى و كجى پشت او را كه در بدو اسلام ضعيف بود و بهواسطه ايشان زايل فرمود لرزيدن گوشت پاره هاى ميان پهلو و شانه آن را كه حاصل بود به جهت خوف بر دين و از ترس بر حوزه شرع مبين.

الفصل الخامس منها يعني قوماً آخرين
(منها في المنافقين خ ل)

«زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبُورَ، لاَ يُقاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ «*» أَحَدٌ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ، وَلاَ يُسَوَّىٰ بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً، هُمْ أَساس الدِّينِ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفيءُ الغالي، وَبِهِمْ يَلْحَقُ التّالي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلاَيَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِرَاثَةُ، أَلآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَنُقِلَ إِلَىٰ مُنْتَقَلِهِ»[١].

اللغة

(**حصدت**) الزّرع وغيره حصداً من بابي ضرب وقتل فهو محصود وحصيد و(**الثبور**) الهلاك والخسران و(**أساس**) الشيء أصله و(**الغلوّ**) التّجاوز عن الحدّ قال تعالى: لا تغلوا في دينكم، إي لا تجاوزوا الحدّ و(**تلوت**) الرّجل أتلوه تلواً تبعته والمراد بالتّالي هنا المرتاد الذي يريد الخير ليوجر عليه.

الإعراب

قال الجوهري: (**الآن**) إسم للوقت الذي أنت فيه وهو ظَرف غير متمكن وقع معرفة ولم يدخله (**الألف**) (**واللاّم**) للتّعريف لأنّه ليس له ما يشركه، انتهى، وهو في محل الرّفع على الإبتداء، وكلمة (**إذ**) مرفوع المحل على الخبريّة ومضافة إلى الجملة بعدها أي الآن وقت رجوع الحقّ إلى أهله فإذ في المقام نظير إذا في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً؛ على ما ذهب إليه في «**الكشّاف**» من كون (**إذا**) فيه خبراً، ويمكن أن يكون الآن خبراً مقدّماً (**وإذ**) مبتدأ مثل (إذ) في قوله تعالى على قراءة بعضهم لمن.

﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

أي مِنْ مَنّ الله على المؤمنين وقت بعثه، ذكره الزمخشري أيضاً، هذا ويحتمل أن تكون (إذ) بمعنى (قد) للتحقيق وهو أقرب معنى وإليه ذهب بعضهم في قوله تعالى:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ [الزخرف: ٣٩].

أو يكون للتّوكيد والزّيادة حكاه ابن هشام عن أبي عبيدة وابن قتيبة في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر: ٢٨].

---

(١) دلائل الإمامة: ٢١ ح ٢.

المعنى

قيل: الإشارة بمفتتح كلامه عليه السلام في هذا الفصل إلى الخوارج وقيل: إلى المنافقين كما ورد مصرّحاً به في بعض النسخ.

وقال البحراني: يحتمل أن يكون متناولاً لكل من نابذه وخرج عن طاعته زاعماً أنّه بذلك متعصّب الدين وناصر له ويدخل في ذلك القاسطون وهم أصحاب معاوية والمارقون وهم الخوارج ومن في معناهم إذ زعم الكلّ أنّهم لقتاله طالبون للحقّ ناصرون له.

وقال الشّارح المعتزلي: وإشارته هذا ليست إلى المنافقين كما ذكره الرضي (ره) وإنّما هي إشارة إلى من تغلّب عليه وجحد حقّه كمعاوية وغيره، ولعلّ الرضي (ره) عرف ذلك وكنى عنه.

وكيف كان فقد استعار فجور هؤلاء وعدولهم عن الحقّ للحبّ الذي يبرز وقرنه بما يلائم المشبّه به ترشيحاً للإستعارة، فقال عليه السلام: **(زرعوا الفجور)** فإن الزّرع لما كان عبارة عن إلقاء الحب في الأرض حسن استعارته لبذر الفجور في أراضي قلوبهم، ولأن إنتشاره عنهم ونموّه فيهم يشبه نموّ الزرع وإنتشاره في الأرض، هكذا قيل والأظهر أنّه إستعارة مكنية تخيّلية حيث شبه الفجور بالحب المزروع وأثبت الزّرع تخيّلاً.

ثم لما كان إستمرارهم على الفجور والغيّ إنّما نشأ من غرورهم ومن تماديهم في الغفلة قرنه بقوله عليه السلام: **(وسقوه الغرور)** أي سقوه بماء الغرور وتشبيهه بالماء من حيث إنّ الماء كما أنّه سبب حياة الزّرع ونموه ومادة زيادته، فكذلك الغرور منشأ فجورهم، ومادّة زيادة طغيانهم، ولأجل ذلك حسن استعارة لفظ السّقي الذي هو من خصائص الماء له ونسبته إليهم.

ثم لما كانت غاية ذلك الفجور هو الهلاك والعطب في الدّنيا بسيف الأولياء وفي الآخرة بالنّار الحامية حسن اتباعه بقوله: **(وحصدوا الثبور)** وجعله الثبور الذي هو الهلاك نتيجة لزراعة الفجور وثمرة لها أي كانت نتيجة ذلك الزرع والسّقي حصاداً هو الهلاك.

ثم لما ذكر عليه السلام مثالب الأعداء أشار إلى مناقب الأولياء وقال: **(لا يقاس بآل محمد)** صلى الله عليه وآله **(من هذه الأمة أحد)** ولا يوازنهم غيرهم، ولا يقاسون بمن عداهم؛ كما صرّح عليه السلام به أيضاً فيما رواه في «**البحار**» من كتاب المحتضر للحسن بن سليمان من كتاب «**الخصائص**» لابن البطريق رفعه إلى الحرث، قال: قال علي عليه السلام: «نحن أهل بيت لانقاس بالناس»، فقام رجل فأتى عبد الله بن العبّاس فأخبره بذلك، فقال: صدق عليّ عليه السلام، أوليس كان النّبي صلى الله عليه وآله لا يقاس بالنّاس ثم، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عليّ عليه السلام[1]:

(١) بحار الأنوار: ٣٨/٨ ح ١٣.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۷﴾ [البينة: ٧]،

ومن كتاب «**المحتضر**» أيضاً من كتاب «**الخطب**» لعبد العزيز بن يحيى الجلودي، قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام: فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني فأنا عيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا «فأناخ ل» فقأت عين الفتنة بباطنها وظاهرها، سلوا من عنده علم المنايا والبلايا والوصايا وفصل الخطاب، سلوني فأنا يعسوب المؤمنين حقاً، وما من فئة تهوى مائة أو تضل مائة إلاّ وقد أتيت بقائدها وسائقها، والذي نفسي بيده لو طوي لي الوسادة فأجلس عليها لقضيت بين أهل التّوراة بتوراتهم ولأهل الانجيل بانجيلهم ولأهل الزّبور بزبورهم ولأهل الفرقان بفرقانهم»، قال: فقام ابن الكوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب النّاس، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن نفسك، فقال: «ويلك أتريد أن أزكي نفسي وقد نهى الله عن ذلك مع أنّي كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني وإذا سكتّ ابتدأني وبين الجوانح منّي علم جمّ ونحن أهل بيت لا نقاس بأحد»(١).

وبالجملة فهم عليهم السّلام لا يقاسون بأحد ولا يقاس أحد بهم ولا يستحقّ أحد بلوغ مراتبهم ونيل مقاماتهم (**ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً**) هذا العطف بمنزلة التّعليل لإبطال قياس المساواة بينهم وبين غيرهم، وفي هذه الجملة على وجازتها إشارة إلى مطالب نفيسة كلّ واحد منها خير من الدّنيا وما فيها.

الأول: أنّهم أولياء النّعم شاهدها وغائبها وظاهرها وباطنها.

الثاني: أنّ نعمتهم جارية على العباد أبد الدّهر لا يختصّ بآن دون آن، وفيوضاتهم متواترة لا تنحصر بوقت دون وقت.

الثالث: ما هو كالنّتيجة لسابقيه، وهو أنّ التّسوية بينهم وبين غيرهم حينئذٍ باطلة ضرورة أنّ المنعم أفضل من المنعم عليه.

أما الأول: فلأنّهم أصول نِعَم الله سبحانه وخزائن كرمه ولوجودهم خلقت الدّنيا وما فيها وبوجودهم ثبتت الأرض والسّماء كما قال الصّادق عليه السلام فيما رواه في «**الكافي**» عن مروان بن مياح عنه عليه السلام، قال: «إنّ الله خلقنا فأحسن خلقنا وصورنا فأحسن صورنا وجعلنا عينه في عباده، ولسانه النّاطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرأفة والرّحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يدلّ عليه، وخزّانه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثّمار وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السّماء ونبت عشب الأرض، وبعبادتنا عبد الله ولولا نحن ما عبد الله»(٢).

---

(١) المحتضر: ٨٨، والبحار: ١٧٨/٤٠. (٢) البصائر: ٢٥، والكافي: ١/١٩٣ ح ٦.

فقد ظهر منه أنّهم عليهم السّلام وسائط الفيوضات النّازلة والنّعم الواصلة، وأنهم يد الله المبسوطة، كما ظهر أنّ إيجادات الخلق وما تضمّنت من العبادات والشّرعيات وتكاليف المكلفين وما تضمّنت من الوجودات كلها آثارهم ومن شؤنات ولايتهم.

لهم خلق الله العوالم كلها وحكمهم فيها بها من خليقة
فهم علّة الإيجاد والله موجد بهم قال للأشياء كوني فكانت[1]

منها قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

قال الباقر عليه السلام: «النعمة الظاهرة النّبي صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفته وتوحيده. وأمّا النّعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودّتنا»[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨].

روى في «البحار» عن أبي خالد الكابلي قال: دخلت على محمّد بن عليّ عليهما السّلام فقدم لي طعاماً لم آكل أطيب منه، فقال لي: «يا أبا خالد كيف رأيت طعامنا»؟ فقلت: جعلت فداك ما أطيبه غير أنّي ذكرت آية في كتاب الله فنغّصته، قال عليه السلام وما هي؟ قلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾، فقال عليه السلام «والله لا تسأل عن هذا الطعام أبداً»، ثم ضحك حتّى افتر ضاحكاً وبدت أضراسه، وقال «أتدري ما النّعيم»؟ قلت: لا، قال: «نحن النّعيم الذي تسألون عنه»[3].

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ إبراهيم: ٢٨].

روى في تفسير العيّاشي عن الأصبغ بن نباتة في هذه الآية، قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «نحن نعمة الله التي أنعم على العباد»[4].

---

(١) ـ وجاء في دعاء الندبة: «أين باب الله الذي منه يؤتي، أين السبب المتصل بين الأرض والسماء» (- بحار الأنوار: ١٠٢/ ١٠٤).
وعن الإمام الصادق عليه السلام: «نحن السبب بينكم وبين الله تعالى» (- بشارة المصطفى: ٩٠).
وفي الزيارة الجامعة: «بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزل الغيث» (بحار الأنوار: ١٠٢/ ١٤٤).
وعن أبي جعفر عليه السلام في وصف آل محمد: «نحن الذين بنا تنزل الرحمة وبنا تسقون الغيث» (بحار الأنوار: ٢٦/ ٢٤٩، وبصائر الدرجات: ٦٣ باب انهم حجة الله و بابه.).
وقريب منه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «وبهم يمسك السماء أن تقع على الأرض وبهم يسقي خلقه الغيث» (الاختصاص: ١٢/ ٢٢٤).

(٢) البحار: ٢٤/ ٥٢ ـ ٥٤، وتفسير القمي: ٢/ ١٦٦.

(٣) البحار: ٢٤/ ٥٧، وتأويل الآيات: ٢/ ٨٥١.

(٤) شرح أصول الكافي للمازندراني: ٧/ ١٠٠، والبحار: ٨/ ٢٤٥.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

روى في «الكافي» عن أبي يوسف البزاز، قال: تلا أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية، قال عليه السلام «أتدري ما آلاء الله»؟ قلت: لا قال: «هي أعظم نِعَم الله على خلقه وهي ولايتنا»[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن: ١٣].

قال أبو عبد الله عليه السلام في مرويّ داود الرّقي: أي بأيّ نعمتي تكذّبان، بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم أم بعليّ عليه السلام فبهما أنعمت على العباد إلى غير ذلك من الآيات التي يطول ذكرها.

وبالجملة فوجود الأئمة سلام الله عليهم نعمة وولايتهم نعمة.

وما نعمة الاّ وهم أولياؤها فهم نعمة منها أتت كلّ نعمة

وأما الثاني: وهو عدم إختصاص فيوضاتهم بوقت دون وقت وجريان نعمتهم أبد الدّهر فقد ظهر وجهه إجمالاً من رواية «**الكافي**» السابقة عن مروان بن مباح عن الصّادق عليه السلام.

وتفصيله أنّ النّعم على كثرتها إمّا دنيويّة أو أخرويّة.

أمّا الدنيوية: فقد ظهر من الرّواية السّابقة أنّهم سبب إبداع الموجودات وإيجاد المبدعات، وأنّهم عين الله الناظر ويده الباسطة وخزّان الله في الأرض والسّماء وبابه الذي منه يؤتى، كا ظهر في الفصل الخامس عشر من فصول الخطبة الأولى عند شرح قوله عليه السلام أو حجّة لازمة، أن نظام العباد وإنتظام البلاد إلى يوم التّناد إنّما هو بوجود الإمام، وأنّ الأرض لو تبقى بغير حجّة لساخت وانخسفت.

ويدلّ على ذلك مضافاً إلى ما سبق، ما رواه في «**البحار**» من كتاب إكمال الدين وأمالي الصّدوق بالإسناد عن الأعمش عن الصّادق عن أبيه عن عليّ بن الحسين عليهم السّلام، قال: «نحن أئمة المسلمين وحجج الله على العالمين وسادة المؤمنين وقادة الغرّ المحجلين وموالي المؤمنين، ونحن أمان أهل الأرض كما أنّ النّجوم أمان أهل السّماء، ونحن الذين بنا يمسك الله السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها وبنا ينزل الغيث وبنا ينشر الرّحمة ويخرج بركات الأرض»، ثم قال عليه السلام: «ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ولا تخلو إلى أن تقوم السّاعة من حجّة الله، فيها ولولا ذلك لم يعبد الله، قال سليمان: فقلت للصّادق عليه السلام: فكيف ينتفع النّاس بالحجة

(١) البصائر: ١٠١، والكافي: ١/ ٢١٧.

الغائب المستور؟ قال عليه السلام: كما ينتفعون بالشّمس إذا سترها السّحاب»، ومثله في «**الاحتجاج**» إلى قوله: لم يعبد الله[١].

وأمّا النّعم الأخروية فإنّما هي كلها متفرّعة على معرفة الله سبحانه وعبادته، وهم أصول تلك المعرفة إذ بهم عرف الله وبهم عبد الله ولولاهم ما عبد الله، كما دلت عليه رواية «**الكافي**» السّالفة وغيرها من الأخبار المتواترة، مضافاً إلى ما مرّ في ثالث تذنيبات الفصل الرّابع من فصول الخطبة الأولى أن ولايتهم عليهم السّلام شرط صحّة الأعمال وقبولها، وبها يترتّب عليها ثمراتها الأخروية، وبدونها لا ينتفع بشيء منها.

هم العروة الوثقى التي كل من بها تمسك لم يسأل غداً عن خطيئة

فبولايتهم ينال السّعادة العظمى وتدرك الشّفاعة الكبرى ويكتسب الجنان ويحصل الرّضوان الذي هو أعظم الثمرات وأشرف اللذات، كما قال سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وأما الثالث: وهو أفضليّة المنعم من المنعم عليه فضروريّ مستغن عن البيان خصوصاً إذا كانت الأنعام بمثل هذه النعم الجليلة التي أشرنا إليها، وأعظمها الهداية إلى الله والدّلالة على الله والإرشاد إلى رضوان الله.

ويرشد إلى ما ذكرناه ما رواه في «**الإحتجاج**» عن أبي محمّد الحسن العسكري عليه السلام، قال: «إن رجلاً جاء إلى عليّ بن الحسين عليه السلام برجل يزعم أنّه قاتل أبيه، فاعترف فأوجب عليه القصاص وسأله أن يعفو عنه ليعظم الله ثوابه فكانت نفسه لم تطب بذلك، فقال عليّ بن الحسين عليهما السّلام لمدّعي الدّم الذي هو الولي المستحق للقصاص: إن كنت تذكر لهذا الرّجل عليك فضلاً فهب له هذه الجناية واغفر له هذا الذّنب، قال له: يا ابن رسول الله له علي حق ولكن لم يبلغ به إلى أن أعفو له عن قتل والدي، قال عليه السلام فتريد ماذا؟ قال: أريد القود فإن أراد بحقّه على أن أصالحه على الدّية لصالحته وعفوت عنه، قال عليّ بن الحسين عليهما السّلام: فماذا حقّه عليك؟ قال يا ابن رسول الله: لقاني توحيد الله ونبوة رسول الله وإمامة عليّ والأئمة عليهم السّلام، فقال عليّ بن الحسين عليهما السّلام: فهذا لا يفي بدم أبيك بلى والله هذا يفي بدماء أهل الأرض كلهم من الأولين والآخرين سوى الأنبياء والأئمة عليهم السّلام إن قتلوا فإنّه لا يفي بدمائهم شيء» الخبر[٢].

(هم أساس الدّين) وبهم قوامه ودوامه كما أن قوام البناء على الأساس، وقد ظهر وجهه

---

(١) كمال الدين: ٢٠٧، والاحتجاج: ٢/ ٤٨.

(٢) الاحتجاج: ٢/ ٥١، والبحار: ٢/ ١٢.

في شرح قوله ﷺ بهم أقام إنحناء ظهره (١ ه) فتذكر (**وعماد اليقين**) ودعامته وعليهم اعتماده وبهم ثباته، إذ بهم يرتفع الشّبهاب ويدفع الشكوكات، ويحتمل أن يكون المراد باليقين خصوص المعارف الحقّة والعقائد اليقينيّة، ولعلّه الأنسب بقوله: أساس الدين (**إليهم يفيء**) أي يرجع (**الغالي وبهم يلحق التّالي**) قال البحراني: أشار بقوله: إليهم يفيء الغالي إلى أن المتجاوز للفضائل الإنسانية التي مدارها على الحكمة والعفة والشّجاعة والعدالة، إلى طرف الإفراط منها يرجع إليهم ويهتدي بهم في تحصيل هذه الفضائل، لكونهم عليها، وبقول ﷺ: (**وبهم يلحق التّالي**) إلى أنّ المقصر عن بلوغ هذه الفضائل المرتكب لطرف التّفريط في تحصيلها يلحق بهم عند طلبه لها ومعاونة الله له بالهداية إلى ذلك، انتهى.

أقول: وما ذكره (ره) ممّا لا غبار عليه إلاّ أنّ الأظهر بملاحظة السّياق وسبق قوله: هم أساس الدين: أنّ المراد بالغالي هو المفرط في الدّين، وبالتّالي المقصر فيه بخصوصه، وإن كانت وظيفتهم عليهم السلام العدل في كلّ الأمور وهم الأئمة الوسط والنّمط الأوسط، كما في الحديث: «نحن النّمط الأوسط ولا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التّالي»، وفي حديث آخر «نحن النّمرقة الوسطى، بنا يلحق التّالي وإلينا يرجع الغالي»[١].

قال بعض شارحي الحديث: إستعار ﷺ لفظ النمرقة بصفة الوسطى لهم عليهم السلام باعتبار كونهم أئمة العدل يستند الخلق إليهم في تدبير معاشهم ومعادهم، ومن حق الإمام العادل أن يلحق به التّالي المفرط والمقصر في الدّين، ويرجع إليه الغالي المتجاوز في طلبه حدّ العدل كما يستند إلى النّمرقة المتوسطة من على جانبيها.

وفي «**البحار**» من أمالي الشيخ بإسناده عن فضل بن يسار، قال: قال الصّادق ﷺ: «احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم، فإنّ الغلاة شرُ خلق الله يصغرون عظمة الله ويدّعون الرّبوبيّة لعباد الله، والله إنّ الغلاة لشرّ من اليهود والنّصارى والمجوس والذين أشركوا»، ثم قال ﷺ: «إلينا يرجع الغالي فلا نقبله وبنا يلحق المقصر فنقبله»، فقيل له: كيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال ﷺ: «لأنّ الغالي قد اعتاد ترك الصّلاة والصّيام والزكاة والحجّ فلا يقدر على ترك عادته وعلى الرّجوع إلى طاعة الله عزّ وجل، وأنّ المقصر إذا عرف عمل وأطاع[٢].

(**ولهم خصائص حق الولاية**) العظمى والخلافة الكبرى وهي الرّئاسة الكلية والسّلطنة الإلهية».

وفي هذه الجملة تنبيه على أنّ للولاية خصائص بها يتأهل لها، وشروطاً بها يحصل استحقاقها، وأن تلك الخصائص والشرائط موجودة فيهم ومختصّة بهم لا توجد في غيرهم،

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ١٤٤/٨.

(٢) أمالي: ٦٥٠، والبحار: ٢٦٥/٢٥.

وذلك بملاحظة كون (اللاّم) حقيقة في الإختصاص الحقيقي مضافاً إلى دلالة تقديم الخبر الذي حقّه التّأخير على المبتدأ على انحصار هذه الخصائص فيهم.

وبالجملة فهذه الجملة دالة بمنطوقها على أنّ هؤلاء هم المستحقون للولاية والرّئاسة العامة من أجل وجود خواصّها فيهم، وبمفهومها على عدم استحقاق من سواهم لها لخلوهم عن هذه الخواص.

وأمّا ما ذكره الشّارح المعتزلي في تفسير كلامه عليه السلام: من أن لهم خصائص حق ولاية الرّسول على الخلق فتأويل بعيد مخالف لظاهر كلامه عليه السلام كما لا يخفى، ومن العجب أنه فسّر الولاية قبل كلامه ذلك بالإمارة، فيكون حاصل معنى الكلام على ما ذكره أنّ لهم خصائص حقّ إمارة الرّسول على الخلق.

وأنت خبير بما فيه أمّا أولاً: فلأنّه إن أراد بإمارة الرّسول على الخلق الرّياسة العامة والسلطنة الكلية التي هي معنى الأولى بالتّصرف، فتفسير الولاية بها حينئذٍ صحيح إلاّ أنّه لا داعي إلى ذلك التفسير إذ دلالة لفظ الولاية على ذلك المعنى أظهر من دلالة الإمارة عليه، وإن أراد بها الإمارة على الخلق في الأمور السّياسية ومصالح الحروب فقط فهو كما ترى خلاف ظاهر كلامه عليه السلام خصوصاً بملاحظة سابقة ولاحقه الوارد في مقام التمدح وإظهار الفضائل والمناصب الإلهية، ومن المعلوم أنّ منصب إمارة الحرب ونحوه ليس ممّا يعبأ به ويتمدح عند منصب النّبوة والرّسالة.

وأمّا ثانياً فلأنّا لم نر إلى الآن توصيف النّبي صلى الله عليه وآله في كلام أحد من الأمة ولا إطلاق الأمير عليه صلى الله عليه وآله في آية ولا سنة، فأيّ داع إلى تمحل هذا التّأويل المشتمل على السّماجة؟ والأولى الإعراض عن ذلك والتّصدي لبيان خصائص الولاية.

وقد أشير إليها في أخبار كثيرة أكثرها جمعاً لها ما رواه في «**الكافي**» عن أبي محمد القاسم بن علا رفعه عن عبد العزيز بن مسلم، وفي «**العيون**» و«**البحار**» من كتاب إكمال الدين ومعاني الأخبار وأمالي الصّدوق[1] جميعاً عن الطالقاني عن القاسم بن محمّد بن علي الهاروني عن عمران بن موسى عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبد العزيز بن مسلم، قال: كنا مع الرّضا عليه السلام [في أيام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام] (خ ل)، بمرو فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء بدوخ مقدمنا فإذا رووا «فأدار الناس خ» أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدي ومولاي عليه السلام فأعلمته خوض[2] النّاس فيه، فتبسم عليه السلام ثم قال يا

(١) كمال الدين: ٦٧٥، ومعاني الأخبار: ٩٦، وتحف العقول: ٤٣٦، والإحتجاج: ٢/ ٢٢٦، والبحار: ٢٥/ ١٢٠.

(٢) في نسخة: ما خاض.

عبد العزيز جهلوا القوم وخدعوا عن آرائهم[١] ان الله لم يقبض نبيه ﷺ حتّى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان[٢] كل شيء بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه النّاس كملاً، فقال عزّ وجلّ:

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمره ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وأمر الإمامة من تمام الدين ولم يمض حتّى بيّن لامته معالم دينهم «دينه خ» وأوضح لهم سبيلهم «سبله خ» وتركهم على قصد سبيل الحقّ وأقام لهم علياً عليه السلام علماً وإماماً وما ترك شيئاً يحتاج إليه الأمّة إلاّ بينه. فمن زعم أنّ الله عزّ وجلّ لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر، هل يعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأمة فيجوز فيها إختيارهم؟ إنّ الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها النّاس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم: إنّ الإمامة خصّ الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النّبوة والخلّة مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها، وأشاد بها جلّ ذكره فقال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فقال الخليل عليه السلام سروراً بها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصّفوة ثم أكرمه الله تعالى بأن جعلها في ذريته أهل الصّفوة والطهارة فقال:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرنا عن قرن[٣] حتّى ورثها الله عزّ وجل النّبي ﷺ، فقال جلّ وتعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨].

فكانت له خاصّة، فقلدها علياً عليه السلام بأمر الله عزّ وجلّ على رسم ما فرض «فرضها خ» الله فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾.

(١) في نسخة: أديانهم.

(٢) في نسخة: تفصيل.

(٣) في نسخة: فقرنا.

فهي في ولد عليّ عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة إذ لا نبيّ بعد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فمن أين يختار هؤلاء الجهال؟

إنّ الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء.

إنّ الإمامة خلافة الله وخلافة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين عليهم السلام، إنّ الإمامة «الإمام خ» زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين.

إنّ الإمامة أساس الإسلام النامي وفرعه السّامي.

بالإمام تمام الصّلاة والزكاة والصّيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وإمضاء الحدود والأَحكام ومنع الثّغور والأَطراف.

الإمام يحلل حلال الله ويحرم حرام الله ويقيم حدود الله ويذبّ عن دين الله ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجّة البالغة.

الإمام كالشّمس الطالعة المجللة بنورها للعالم وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأَيدي والأَبصار.

الإمام البدر المنير والسّراج الظاهر والنّور والسّاطع والنجم الهادي في غياهب الدّجى وأجواز البلدان والقفار «والبيد القفار خ» ولجج البحار.

الإمام الماء العذب على الظماء والدّال على الهدى والمنجي من الرّدى.

الإمام النّار على البقاع الحارّ لمن اصطلى به والدّليل في المهالك من فارقه فهالك.

الإمام السحاب الماطر والغيث الهاطل والشّمس المضيئة والسّماء الظليلة والأَرض البسيطة والعين الغزيرة والغدير والرّوضة.

الإمام الأَنيس الرّفيق والوالد الشفيق «الأَمين الرفيق والوالد الرقيق» والأَخ الشقيق والأم البرة بالولد الصّغير ومفزع العباد في الدّاهية «وخ» الناد.

الإمام أمين الله في خلقه وحجّته على عباده وخليفته في بلاده والدّاعي إلى الله والذّاب عن حرم الله.

الإمام المظهر من الذّنوب والمبرى من العيوب المخصوص بالعلم المرسوم بالحلم نظام الدّين وعز المسلمين وغيظ المنافقين وبوار الكافرين.

الإمام واحد دهره ولا يدانيه أحد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير مخصوص بالفضل كله من غير طالب منه ولا إكتساب بل إختصاص من المفضل الوهاب.

فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه إختياره هيهات هيهات، ضلت العقول وتاهت

الحلوم، وحارت الألباب، وحسرت «خسئت خ» العيون وتصاغرت العظماء وتحيرت الحكماء، وتقاصرت الحلماء، وحصرت الخطبآء، وجهلت الآلباء، وكلت الشعراء، وعجزت الأدباء، وعييت البلغاء عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله فأقرت «وأقرت خ» بالعجز والتقصير.

وكيف يوصف بكله أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من أمره أو يوجد من يقوم «يقوم أحد خ» مقامه ويغني غناه؟ لا كيف وأنّى وهو بحيث النجم من أيدي «يدخ» المتناولين ووصف الواصفين فأين الإختيار من هذا وأين العقول عن هذا وأين يوجد مثل هذا؟.

ظنّوا «أيظنّون خ» أن ذلك يوجد في غير آل الرسول «محمّد خ» عليهم السلام كذّبتهم والله أنفسهم ومنتهم الأباطيل «الباطل خ» فارتقوا مرتقاً صعباً دحضاً تزل عنه إلى الحضيض أقدامهم، راموا إقامة الإمام بعقول حائرة بائرة ناقصة، وآراء مضلة، فلم يزدادوا منه إلا بعداً قاتلهم الله أنّى يؤفكون «وخ» لقد راموا صعباً وقالوا إفكاً وضلوا ضلالاً بعيداً ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصيرة.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

رغبوا عن اختيار الله واختيار رسوله إلى اختيارهم والقرآن يناديهم:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ القصص: ٦٨] وقال عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] الآية.

وقال عزّ وجلّ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [القلم: ٣٦-٤١] وقال عزّ وجلّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، [محمد: ٢٤] ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الأنفال: ٢٢-٢٣]، ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فكيف لهم باختيار الإمام والإمام عالم لا يجهل وراع «داع خ» لا ينكل معدن القدس والطهارة والنّسك والزهادة والعلم والعبادة، مخصوص بدعوة الرسول ونسل المطهرة البتول، لا مغمز فيه في «من خ» نسب ولا يدانيه ذو حسب فالبيت من قريش والذروة من هاشم، والعترة من الرسول ﷺ، والرضا من الله «عز وجل خ» شرف الأشراف، والفرع من عبد

مناف، نامي العلم كامل الحلم مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله ناصح لعباد الله، حافظ لدين الله، إن الأنبياء والأئمة «صلوات الله عليهم خ» يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم فيكون «علمهم خ» فوق كلّ علم أهل زمانهم في قوله تبارك وتعالى:

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

وقوله عز وجلّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقوله عزّ وجلّ في طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]

وقال عز وجلّ لنبيّه ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال عزّ وجل في الأئمة من أهل بيته وعترته وذريته «صلوات الله عليهم خ»:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٤-٥٥].

وإنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ لأمور عباده شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً فلم يَعِ بعده بجواب، ولا تحيّر فيه عن الصّواب وهو «فهوخ» معصوم مؤيد موفق مسدّد «مسدّد من الخطأ خ» وقد أمن الخطايا والزّلل والعثار يخصّه الله عزّ وجلّ بذلك ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فهل يقدرون مثل هذا فيختاروه «نه خ»؟ أو يكون مختارهم بهذه الصّفة فيقدموه «نه خ» بعدد «تعدد خ» «تعدواظ» وبيت الله الحقّ ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون، وفي كتاب الله الهدى والشّفاء فنبذوه واتّبعوا أهواءهم فذمّهم الله ومقتهم وأتعسهم، فقال عزّ وجل:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال عزّ وجل: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٨].

وقال عزّ وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ

مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]. وصَلَّى اللَّهُ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وآله وسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً[١].

(وفيهم الوصية والوراثة) قال الشارح المعتزلي، أمّا الوصيّة فلا ريب عندنا أنّ عليّاً عليه السلام كان وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وإن حالف في ذلك من هو منسوب إلى العناد، ولسنا نعني بالوصيّة النّصّ والخلافة ولكن أموراً أخرى لعلّها إذا لمحت أشرف وأجل وأمّا الوراثة فالإماميّة يحملونها على ميراث المال والخلافة ونحن نحملها على وراثة العلم، انتهى.

أقول: وأنت خبير بما فيه أمّا أوّلاً: فلأنّه قد تقرّر في مقامه أنّ حذف المتعلّق يفيد العموم، وعلى ذلك فحيث لم يذكر عليه السلام للوصيّة متعلّقاً ولم يقيّد الوراثة بشيء مخصوص فلا بدّ أن يكون المراد منه كلّ ما كان صالحاً للوصيّة وقابلاً للتّوريث من المال والعلم والإمامة والخلافة، فكلامه عليه السلام بنفسه مع قطع النّظر عن الأدلة الخارجة العقليّة والنقليّة العاميّة والخاصّية كما ستأتي في مقدّمة الخطبة الآتية دالّ على ثبوت الوصيّة لهم في جميع ما ذكر ووراثتهم لها كذلك، فيكون إستحقاقهم لها من جهتي الوصية والوراثة معاً.

وأمّا ثانياً: فلأنّا لا ندري أيّ أمر أشرف وأجلّ من الرّئاسة العامة والخلافة الإلهية حتّى يحمل الوصيّة في كلامه عليه السلام عليه، بل كلّ ما يتصور حملها عليه فهو دون مرتبة الخلافة التّالية لمرتبة النّبوة، ومن كان له نظر بصيرة ودقّة يعرف تدليس الشّارح وأنّه يزخرف كلامه ويورّي مرامه هذا، ومن لطائف الأشعار المقولة في صدر الإسلام المتضمّنة لوصايته عليه السلام قول عبد الرّحمٰن بن خعيل «خثيل ظ»:

لعمري لقد بايعتم ذا حفيظة ... على الدّين معروف العفاف موفقاً

عليّاً وصيّ المصطفى وابن عمه ... وأوّل من صلّى أخا الدين والتقى

وقال الفضل بن عبّاس:

وكان وليّ الأمر بعد محمّد ... عليّ وفي كل المواطن صاحبه

وصيّ رسول الله حقاً وصهره ... وأوّل من صلّى وما ذم جانبه

وقال عقبة بن أبي لهب مخاطباً لعائشة:

أعايش خلي عن عليّ وعتبه ... بما ليس فيه إنّما أنت والدة

وصيّ رسول الله من دون أهله ... فأنت على ما كان من ذاك شاهدة

وقال أبو الهيثم بن التيهان:

قل للزبير وقل لنحط الذين نحملة إنا الأنصلا

(١) الكافي: ١/٢٠٣، وعيون الأخبار: ٢/١٩٩، وأمالي الصدوق: ٧٧٨.

نحن الذين رأت قريش فعلنا يوم القليب أولئك الكفار
كنا شعار نبيّنا ودثاره يفديه منّا الرّوح والأبصار
إنّ الوصيّ إمامنا ووليّنا برح الخفاء وباحت الأسرار

وقال عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب:

ومنّا عليّ ذاك صاحب خيبر وصاحب بدر يوم سالت كتائبه
وصي النّبي المصطفى وابن عمّه فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه

ومن أحسن ما قاله المتأخرون قول القاضي التنوخي:

وزير النّبي المصطفى ووصيّه ومشبهه في شيمة وضراب
ومن قال في يوم الغدير محمّد وقد خاف من غدر العداة النواصب
أما أنّني أولى بكم من نفوسكم فقالوا بلى ريب المريب الموارب
فقال لهم من كنت مولاه منكم فهذا أخي مولاه بعدي وصاحبي
أطيعوه طراً فهو منّي بمنزل كهارون من موسى الكليم المخاطب

(الآن اذ رجع الحقّ إلى أهله ونقل إلى منتقله) أي موضع إنتقاله والمراد بالحقّ هو حقّ الولاية الذي سبق ذكره، (فاللاّم) للعهد وهذه الجملة كالنّص في أنّ الخلافة كانت فيما قبل في غير أهلها وأنّه عليه السلام هو أهلٌ لها دون من تقدّمه.

قال الشّارح المعتزلي بعد ما قال: إنّ هذا يقتضي أن يكون فيما قبل في غير أهله ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الإمامية ونقول: إنّه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحق لا على وجه النّص بل على وجه الأفضليّة، فإنّه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأحقّ بالخلافة من جميع المسلمين، لكنّه ترك حقّه لما علمه من المصلحة وما تفرّس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام وانتشار الكلمة لحسد العرب له وضغنهم عليه، وجائز لمن كان أولى بشيء فتركه ثم استرجعه أن يقول: قد رجع إلى أهله[1].

أقول: فيه أوّلاً: إنّ التّأويل خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل.

وثانياً: إنّ إنكار كونه عليه السلام أحقّ بالأمر من جهة النّص لا وجه له بل النّص على ذلك كتاباً وسنّة فوق حد الإحصاء.

وثالثاً: إنّه عليه السلام إذا كان أفضل البشر بعد الرّسول والأحقّ بالخلافة من الجميع فلا بدّ

(١) شرح النهج: ١/١٣٩، وكتاب الأربعين: ٢٠١.

على ذلك أن يكون هو الخليفة دون غيره، إذ تفضيل المفضول على الفاضل وتقديم المحتاج إلى التّكميل على الكامل قبيح عقلاً ونقلاً حسبما ستعرفه في مقدمات الخطبة الآتية إنشاء الله، ومن العجب أنّ الشّارح مع كونه عدلي المذهب نسب ذلك القبح إلى الله سبحانه في خطبة الشرح حيث قال: وقدم المفضول على الفاضل لمصلحة إقتضاها التكليف.

ورابعاً: إنّ تركه عليه السلام لحقه عن طوع واختيار لم يدلّ عليه دليل يعول عليه إلاّ الأخبار العامية الموضوعة «المختلقة خ ل» والأخبار المتواترة من طرق الخاصة بل والمستفيضة من طريق العامة ناصة على خلافه وكفى بذلك شاهداً الخطبة الآتية المعروفة التي هي صريحة في أنّ تركه عليه السلام للأمر لم يكن عن رضا واختيار، وتأويلات الشّارح هناك مثل سائر ما تكلّفه في تضاعيف الشّرح أوهن من بيوت العنكبوت نظير إحتجاجاته على حقّية الجبت والطاغوت، كما ستطلع عليه حيثما بلغ الكلام محلّه إنشاء الله، ولنعم ما قيل:

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة   فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه که در شأن منافقین است می فرماید: کاشته اند منافقین تخم فسق و فجور را در قلب خودشان و آب داده اند آن را با آب غفلت و درویده اند هلاکت را در دنیا و آخرت که ثمره آن فجور و غرور است. قیاس کرده نمی شود به آل محمد صلوات الله و سلامه علیه و علیهم از این امت هیچ احد و برابر کرده نمی شود به ایشان آن کسی که جاری شده نعمت های ایشان بر او همیشه. ایشان اصل دین اند و ستون یقین اند. به سوی ایشان بازمی گردد افراط کنندگان و به ایشان لاحق می شود تفریط نمایندگان و ایشان راست خاصه های حق ولایت و خلافت و در ایشان است وصیت حضرت رسالت و وراثت از خاتم نبوت. این هنگام وقت آن است که راجع شود حق ولایت به اهل خود و زمان آن است که نقل شود رتبه خلافت به محل انتقال خود یا آن که این هنگام به تحقیق رجوع نمود حق به اهلش و منتقل گردید به موضع انتقالش؛ والله العالم بحقایق کلام ولیه (عليه السلام).

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية

نسبة لها إلى ما عبر به عنها وهو لفظة الشّقشقية، حيث قال عليه السلام: «تلك شقشقة هدرت» (ا ه)، وربّما تعرف بالمقمصة أيضاً من حيث اشتمالها على لفظ التقمص الوارد في أوّلها، وهو نظير التّعبير عن السّور بأشهر ألفاظها كالبقرة وآل عمران والرّحمن والواقعة وغير ذلك، ولا بدّ قبل الشروع في المقصود من تمهيد مقدمات:

الأولى

إنّه قد وقع الخلاف بين علماء الخاصة وكثير من علماء العامة في أنّ هذه الخطبة من كلام الإمام عليه السلام أو من كلام الرّضي رضي الله عنه.

أمّا الخاصّة: فالظاهر إتفاقهم على الأوّل، ولم يظهر لي إلى الآن من ينكر كونها منه عليه السلام، وقد نقلها جمع كثير من المحققين من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين وغيرهم في مؤلفاتهم من دون إشارة إلى خلاف فيها منها.

وأمّا العامة: فكثير منهم ذهبوا إلى الثّاني وأنكروا كونها من كلامه عليه السلام نظراً إلى ما اشتملت عليه من التّظلم والشكاية في أمر الإمامة ودلالتها على اغتصاب الخلافة، وقد أفرط بعضهم وقال: إنه عليه السلام لم يصدر منه شكاية قط ولا كلام في هذا الأمر أصلاً.

ومنهم من أذعن بكونها منه عليه السلام إلاّ أنّه على زعمه الفاسد أوّل المطاعن المشتملة عليها على وجه لا يوجب القدح في سلفهم، ومن هؤلاء الفرقة القاضي عبد الجبار البغدادي الشّارح المعتزلي حسبما تعرفه في كلامه الذي نحكيه.

أقول: والحق أنه لا غبار على كونها منه عليه السلام ولا معنى لإنكار ذلك.

أمّا أولاً: فلشهادة فصاحتها وحسن أسلوبها وبديع نظمها على أنّها كلام فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، فهي بنفسها شاهد صدق على أنّها صادرة من مصدر الإمامة ومعدن الولاية.

وأمّا ثانياً: فلضعف مستند المنكر إذ الألفاظ المشتملة على التّظالم والشكاية قد صدرت منه عليه السلام فوق حد الإحصاء، كما يشهد به ملاحظة أخبار السقيفة وغيرها، والمناقشة بينه عليه السلام وبين المتخلفين في أمر الخلافة ممّا صارت من الضروريات لا ينكره إلاّ جاهل أو متجاهل.

وأمّا ثالثاً: فلأنّ هذه الخطبة قد وجدت في كتب جماعة من العامة والخاصة صنّفت قبل زمن الرّضي.

قال الشّارح البحراني: قد وجدتها في موضعين تاريخهما قبل مولد الرّضي بمدّة **أحدهما**: أنّها مضمنة كتاب الإنصاف لأبي جعفر بن قبة تلميذ أبي القاسم الكعبي أحد شيوخ المعتزلة وكانت وفاته قبل مولد الرّضي. **الثاني**: أني وجدتها بنسخة عليها خط الوزير أبي الحسن علي بن محمّد بن الفرات، وكان وزير المقتدر بالله وذلك قبل مولد الرّضي بنيف وستين سنة، والذي يغلب على ظني أنّ تلك النسخة كانت كتبت قبل وجود ابن الفرات بمدة، انتهى.

وقال الشّارح المعتزلي: حدثني شيخي أبو الخير مصدّق بن شبيب الواسطي في سنة ثلاث وستمائة، قال: قرأت على الشيخ أبي محمّد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فقلت له: أتقول إنّها منحولة؟ فقال: لا والله، وإني لأعلم أنّه كلامه كما أعلم أنّك مصدّق، قال: فقلت له: إنّ كثيراً من النّاس يقولون: إنّها من كلام الرّضي، فقال: أنّى للرضي ولغير الرّضي هذا النّفس وهذا الأسلوب، قد وقفنا على رسائل الرّضي وعرفنا طريقته وفنّه في المنثور وما يقع مع هذا الكلام في خلّ ولا خمر، قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنّفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة، ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها وأعرف خطوط من هي من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النّقيب أبو محمّد والد الرّضي.

قال الشّارح: قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي إمام البغداديين من المعتزلة وكان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضي بمدة طويلة، وجدت أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبة أحد متكلمي الإماميّة وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب الإنصاف، وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البلخي ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضي (ره) موجوداً، انتهى[1].

وقال المحدث العلامة المجلسي (ره) في «**البحار**»: ومن الشواهد على بطلان تلك الدعوى الواهية الفاسدة ابن القاضي عبد الجبار الذي هو من متعصبي المعتزلة قد تصدى في كتابه المبني لتأويل بعض كلمات الخطبة ومنع دلالتها على الطعن في خلافة من تقدّم عليه ولم ينكر إستناد الخطبة إليه، وذكر السّيد المرتضي رضي الله عنه كلامه في «**الشافي**» وزيّفه وهو أكبر من أخيه الرضي (ره) وقاضي القضاة متقدم عليهما، ولو كان يجد للقدح في إستناد الخطبة إليه مساغاً لما تمسك بالتّأويلات الرّكيكة في مقام الإعتذار وقدح كما فعل في كثير من الروايات المشهورة، وكفى للمصنف وجودها في تصانيف الصّدوق (ره) وكانت وفاته سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وكان مولد الرضي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، انتهى كلامه (ره)[2].

ويشهد به أيضاً رواية «**المفيد**» لها في كتاب «**الإرشاد**»، وهو (ره) شيخ الرّضي وأستاذه.

---

(١) شرح النهج: ١/٢٠٦، الغدير: ٤/١٩٨.

(٢) البحار: ٢٩/٥٠٨.

فقد ظهر واستبان ممّا ذكرنا كله أنّه لا وجه لإنكار كون الخطبة منه عليه السلام، وظني أنّ من أنكر ذلك إنّما أنكره من حيث إنّه رأى صراحتها في الطعن على المنتحلين للخلافة لا جرم بادر إلى الإنكار كي لا يلتزم بمقتضاها كما هو دأبهم وديدنهم في أكثر النّصوص المفيدة لانحصار الخلافة فيه عليه السلام، أو للطعن في غيره وكفى بذلك إنكار بعضهم حديث الغدير المتواتر الذي قاله النّبي صلى الله عليه وآله بمحضر سبعين ألفاً من المهاجر والأنصار والحاضر والباد، وليت الشّارح المعتزلي أنكرها أيضاً من أصلها كي يستريح من تكلفاته الفاسدة وتأويلاته الباردة التي ارتكبها لرفع العار والشّناعة عن الثلاثة ولن يصلح العطار ما أفسد الدّهر.

الثانية

إعلم أنّه قد طال التّشاجر بين الخاصّة والعامة في مسألة الإمامة فاختلفوا تارة في أنّ نصب الإمام بعد انقراض زمن النّبوة هل هو واجب على الله أم علينا عقلاً أو سمعاً؟

وثانية: في أن العصمة هل هي لازمة للإمام أم لا؟

وثالثة: في أنّ الإمام هل يجب أن يكون أفضل من رعيّته؟

ورابعة: في أنّ الإمام بعد الرّسول صلى الله عليه وآله من هو؟ إلى غير ذلك من المسائل التي صارت معركة للآراء بين علماء الإسلام، وتفصيلها موكول إلى علم الكلام ولا حاجة لنا إلى إشباع الكلام فيها.

وإنّما المقصود بالبحث في هذه المقدّمة هو أنّ الشّارح المعتزلي مع قوله بأفضليّة أمير المؤمنين عليه السلام واختياره تفضيله على المتخلّفين الثلاثة بأيّ معنى حمل الأفضل أعني الأكثر ثواباً أم الأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة ومع مبالغته ومزيد اصراره في ديباجة الشّرح في تشييد مباني هذا الأصل وتأسيس أساسه أنكر فرع الأصل كشيوخه البغداديّين، وضاعت منه ثمرة هذه الشّجرة والتزم بترجيح المرجوح على الرّاجح، وتقديم المفضول على الأفضل مع كونه قبيحاً عقلاً ونقلاً. وأسند ذلك القبيح تارة إلى الله سبحانه وتعالى كما قال في خطبة الشّرح: وقدم المفضول على الأفضل لمصلحة اقتضاها التكليف، وأسنده أخرى إلى أنّ الإمام عليه السلام بنفسه قدم غيره على نفسه لما تفرّس من اضطراب دعائم الإسلام مع عدم التّقديم له من حيث ضغن العرب وحقدهم له ووجود السخائم في صدورهم.

وقد كرّر ذلك الكلام في تضاعيف الشّرح وبالغ فيه شدّة المبالغة كمبالغته في إنكار النّص الجلي على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وذهابه إلى أنّ استحقاقه عليه السلام الخلافة إنّما كان من أجل الأفضلية لا من جهة التّنصيص ووجود النّص به من الله أو من النّبي صلى الله عليه وآله من حيث قصور النّصوص عن الدّلالة على رأيه الفاسد ونظره الكاسد أو التزامه بتأويلها مع تسليمه صراحتها نظراً إلى قيام الدّليل القطعي على زعمه على خلافها وهو الإجماع المنعقد على خلافة الأوّل

وكون بيعته بيعة صحيحة شرعيّة إلى غير ذلك من المزخرفات التي طرس منها شرحه وشيّد بها مذهبه.

وقد ذكر منها شطراً يسيراً في ذيل الخطبة السّابقة حسبما عرفت هناك ولفق منها كثيراً في شرح هذه الخطبة وغيرها من الخطب الآتية، وقد التزمنا في شرحنا ذلك أن ننبّه على هفواته، ونكشف عن خطاياه وزلاته بقدر الإمكان على حسب ما يقتضيه المقام.

ولما كان بسط الكلام في كل ما زل فيه قدمه أو طغى فيه قلمه يوجب الإطالة والإطناب أحببنا أن نذكر في هذه المقدّمة أصلاً كافياً يرجع إليه، ودليلاً وافياً يعتمد عليه في إبطال جميع ما ذهب إليه ينتفع به في شرح هذه الخطبة وسابقتها، ويسهل الحوالة إليه في شرح الخطبة التّالية ممّا احتيجت إلى الإحالة فيها، فالمقصود في هذه المقدّمة هو إثبات خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وإقامة الدّليل على انحصار الخلافة بالنّقل والعقل كليهما، فأقول وبالله التكلان وهو المستعان: إنّ هنا مقصدين.

المقصد الأول

في الأدلة النّقلية والنّصوص اللّفظية وهي على قسمين.

القسم الأول

الآيات القرآنية، وهي كثيرة لا تحصى ونحن نذكر منها طائفة ممّا هي أقوى دلالة وأثبت حجة.

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

تقريب الإستدلال أنّ الولي قد جاء في اللّغة تارة بمعنى النّاصر والمعين، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وأخرى بمعنى المتصرف والأحقّ به والأولى بذلك، ومن ذلك: السلطان ولي من لا ولي له، وقوله عليه السلام: أيّما امرأة نكحت بغير إذن وليها، ولا يجوز أن يراد به في الآية المعنى الأول، إذ الولاية بذلك المعنى عامة لجميع المؤمنين كما يشهد به الآية السّابقة، فلا بدّ أن يكون المراد به المعنى الثّاني كي يستقيم الحصر المستفاد من كلمة إنّما، فإذا ثبت أنّ المراد به الأولى بالتصرف فالمراد به أمير المؤمنين عليه السلام لا غير.

أما أولاً: فللإجماع المركب، إذ كلّ من قال: إنّ المراد بالآية هو الشّخص الخاص بمقتضى كلمة الحصر فقد قال: إنّ المراد به هو علي عليه السلام.

وأمّا ثانياً: فللاجماع على أنّ إيتاء الزكاة في حال الرّكوع لم يكن إلاّ في حق

عليّ عليه السلام، فتكون الآية مخصوصة به ودالة على إمامته.

وأمّا ثالثاً: فلإتفاق المفسرين على ما حكاه شارح «التجريد» القوشجي على أنها نزلت في حقه عليه السلام حين أعطى السّائل خاتمه وهو راكع في صلاته، ومثله ابن شهر آشوب في كتاب الفضائل حيث قال في محكي كلامه: إجتمعت الأمة على أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، انتهى.

وأمّا رابعاً: فلدلالة الأخبار المتظافرة بل المتواترة من العامة والخاصّة على نزولها فيه عليه السلام، وقد نقل السّيد المحدث العلامة السّيد هاشم البحراني في كتاب **«غاية المرام»** من طرق العامة أربعة وعشرين حديثاً في نزولها فيه عليه السلام، ومن طريق الخاصّة تسعة عشر حديثاً، من أراد الإطلاع فليرجع إليه[1] وفي ذلك قال حسان بن ثابت:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي — وكلّ بطيء في الهواء ومسارع

أيذهب مدحي والمخبر ضائع — وما المدح في جنب الإله بضائع

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً — فدتك نفوس القوم يا خير راكع

فأنزل فيك الله خير ولاية — وبيّنها في محكمات الشّرائع

هذا، وأورد النّاصب الفخر الرّازي في التّفسير الكبير على الإستدلال بالآية تارة بعدم إمكان أن يكون المراد بها علي عليه السلام، وأخرى بأنها على تقدير أن يكون المراد بها هو ذلك لا دلالة فيها على ولايته عليه السلام، لأنّه إنّما يتمّ إذا كان المراد بلفظ الولي هو المتصرف لا النّاصر والمحبّ، وهو ممنوع بل حمله على الثاني أولى.

وأستدل على الأوّل أعني عدم إمكان كون المراد بها أمير المؤمنين سلام الله عليه بوجوه:

الأوّل: أنّ الزكاة إسم للواجب لا للمندوب بدليل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فلو أنّه أدّى الزكاة الواجبة في حال كونه في الرّكوع لكان قد أخر أداء الزكاة الواجب عن أول أوقات الوجوب، وذلك عند أكثر العلماء معصية وأنه لا يجوز إسناده إلى علي عليه السلام، وحمل الزكاة على الصّدقة النافلة خلاف الأصل لما بينا أنّ قوله: وآتوا الزكاة، ظاهره يدلّ على أنّ كل ما كان زكاة فهو واجب.

الثّاني: هو أن اللائق بعلي عليه السلام أن يكون مستغرق القلب بذكر الله حال ما يكون في الصلاة، والظاهر أن من كان كذلك فإنه لا يتفرغ لإستماع كلام الغير ولفهمه، ولهذا قال تعالى:

---

(١) ذكره في الباب الثامن عشر، غاية المرام: ٢/ ٥.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

ومن كان قلبه مستغرقاً في الفكر كيف يتفرّغ لإستماع كلام الغير.

الثالث: أنّ دفع الخاتم في الصّلاة للفقير عمل كثير واللائق بحال عليّ عليه السلام أن لا يفعل ذلك.

الرّابع: أنّ المشهور أنّه عليه السلام كان فقيراً ولم يكن له مال تجب فيه الزّكاة، ولذلك فإنّهم يقولون: إنّه لما أعطى ثلاثة أقراص نزل فيه سورة هل أتى، وذلك لا يمكن إلاّ إذا كان فقيراً، فأمّا من كان له مال تجب فيه الزّكاة يمتنع أن يستحق المدح العظيم المذكور في تلك السّورة على إعطاء ثلاثة أقراص إذا لم يكن له مال تجب فيه الزّكاة إمتنع حمل قوله: ويؤتون الزكاة وهم راكعون، عليه.

أقول: ويتوجه على الأوّل منع كون الزكاة إسماً للواجب فقط، بل هو كسائر أسامي العبادات موضوع للواجب والمندوب كليهما، وإلا لزم أن يكون للمندوبات إسم تختص به وراء أسامي الواجبات، وهو خلاف ما اتّفق عليه الكلّ إذ لم نطلع إلى الآن على أحد يفرق بين الواجب والمندوب في الإسم، ولم نجد للمندوبات أسامي مستقلّة غير أسماء الواجبات في كتبهم الفقهية والأصوليّة، ولا في شيء من الكتاب والسنّة، وكون الزكاة في الآية واجبة من حيث تعلّق الأمر بها لا يدلّ على كون مطلق التّسمية للواجب، إذ التّسمية مقدمة على الحكم ذاتاً ورتبة فلا دلالة فيها على أنّ كلّ ما كان زكاة فهو واجب ولو في غير مقام تعلّق الأمر كما في الآية التي نحن بصددها، وكما في قولنا الزّكاة عبادة، ونحو ذلك، وعلى فرض التنزل والمماشاة نمنع كون تأخير أدائها عن وقت الوجوب مطلقاً معصية إذ ربّما يجوز تأخيرها لعدم وجود المستحقّ، أو لعذر آخر ولا إثم على ذلك بوجه، بل يجوز التّأخير مع العزل أيضاً على مذهب البعض، بل ومع عدم العزل أيضاً إلى شهرين على مذهب أبي حنيفة وغيره من العامة، وكيف كان فلا خفاء في فساد ما توهّمه.

وعلى الثّاني: أنّ استغراق القلب بالذكر في الصلاة إنما ينافي التّوجه إلى الأمور الدّنيوية الشّاغلة عن الذّكر، وأمّا إعطاء الخاتم للفقير المستحقّ إبتغاء لمرضاته سبحانه والتّوجه إلى سؤاله فلا ينافي الإستغراق، بل هو عين الذكر.

يعطي ويمنع لا تلهيه سكرته ... عن النديم ولا يلهو عن الكاس
أطاعه سكره حتى تمكن من ... فعل الصحات فهذا أفضل الناس

ولو كان مطلق التوجه إلى الغير منافياً للإستغراق لم يتصوّر ذلك في حق النّبي صلى الله عليه وآله مع أنه قد حصل ذلك في حقّه كما يدل عليه ما استدل به الشّافعي على جواز التّنبيه في الصّلاة على الحاجة بتسبيح ونحوه، بأنّ عليّاً عليه السلام قال: كانت لي ساعة أدخل فيها على

رسول الله ﷺ، فإن كان في الصّلاة سبح وذلك إذنه، وإن كان في غير الصّلاة أذن[١]، وما استدل به أبو حنيفة على عدم جواز ردّ جواب السلام في الصّلاة بأنّ رسول الله ﷺ دخل مسجد بني عمرو بن عوف يصلي ودخل معه صهيب، فدخل معه رجال من الأنصار يسلمون عليه، فسألت صهيباً كيف كان يصنع إذا سلم عليه؟ قال: يشير بيده، ولو كان إستماع كلام الغير مطلقاً منافياً للإستغراق كيف يستمع السلام ويشير بيده على ما مر أو يردّ الجواب، على ما رواه الباقر عليه السلام من أنّ عمّاراً سلم عليه ﷺ فردّ عليه السلام ويأتي على ذلك دليل آخر فانتظر.

وعلى الثّالث: منع كون ذلك فعلاً كثيراً أولاً إذ ليس ذلك بأزيد من خلع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم نعليه في الصّلاة وهما فعلان وليس بأكثر من حمله ﷺ أمامة بنت أبي العاص، وكان إذا سجد وضعها و إذا قام رفعها، وقتل عقرباً وهو يصلي، وأخذ بإذن ابن عباس وأداره عن يساره إلى يمينه، وأمر بقتل الأسودين في الصّلاة: الحيّة والعقرب وثانياً على فرض التنزل والمماشاة أنّ الكثرة إنّما يسلم لو كان عليه السلام مباشراً للخلع والإعطاء، وأمّا إذا كان خلعه بفعل السّائل بإشارة منه عليه السلام فلا.

وهو الذي رواه الحمويني من علماء العامة بإسناده عن أنس بن مالك أن سائلاً أتى المسجد وهو يقول؛ من يقرض الملي الوفي، وعلي صلوات الله عليه راكع يقول بيده خلفه للسّائل أن أخلع الخاتم من يدي، قال: فقال النّبي ﷺ: «يا عمر وجبت» قال: بأبي وأمي يا رسول الله ما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنّة، والله ما خلعه من يده حتّى خلعه من كلّ ذنب ومن كل خطيئة»[٢].

وقال الزّمخشري في «**الكشّاف**»: إنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه كأنّه كان مرحباً «مرخياظ» في خنصره فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد بمثله صلاته وفي هذا المعنى قال دعبل الخزاعي:

إذا جاءه المسكين حال صلاته	فامتدّ طوعاً بالذّراع وباليد
فتناول المسكين منه خاتماً	هبط الكريم الأجودي الأجود
فاختصّه الرّحمٰن في تنزيله	من حاز مثل فخاره فليعدد
إن الإله وليّكم ورسوله	والمؤمنين فمن يشأ فليجحد
يكن الإله خصيمه غداً	والله ليس بمخلف في الموعد[٣]

---

(١) تذكرة الفقهاء: ٢٨/٣ بتفاوت.

(٢) الإحتجاج: ١٦٢/١ ـ ١٦١.

(٣) يراجع الغدير: ٣٨٢/٢.

وعلى الرّابع: أنّ المراد بالزكاة في الآية الصّدقة النّافلة لما عرفت من صحة إطلاقها عليها كصحّة إطلاقها على الواجبة وكونه فقيراً لم يكن له مال يجب فيه الزّكاة فلا ينافي إعطاء الزّكاة تطوعاً كمال قال الفرزدق:

لا يقبض العسر بسطاً من أكفهم سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا

كلتا يديه غياث عمّ نفعهما يستو كفان ولا يعروهما العدم

هذا، وغير خفيّ أنّ فقره عليه السلام لم يكن من عجزه وعدم تمكنه من جمع المال بل إنّما هو كثرة الجود والسّخاء، وكفى بذلك أنّه لم يخلف ميراثاً وكانت الدّنيا كلها بيده إلاّ ما كان من الشّام ونحوه، وشاهد صدق على ما ذكرنا الخاتم الذي أعطاه للسّائل وقد ذكر الغزالي في محكي كلامه عن كتاب سرّ العالمين أن ذلك الخاتم كان خاتم سليمان بن داود عليه السلام.

وفي رواية عمّار بن موسى السّاباطي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ الخاتم الذي تصدّق به أمير المؤمنين عليه السلام وزن أربعة مثاقيل حلقته من فضّة وفصّه خمسة مثاقيل وهو من ياقوتة حمراء وثمنه خراج الشّام، وخراج الشام ثلاثمائة حمل من فضة وأربعة أحمال من ذهب وكان الخاتم لمرّان بن طوق قتله أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الخاتم من إصبعه وأتى به إلى النّبي صلى الله عليه وآله من جملة الغنائم وأمره النبي صلى الله عليه وآله أن يأخذ الخاتم فأخذ الخاتم وأقبل وهو في إصبعه وتصدّق به على السّائل في أثناء صلاته خلف النّبي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وكيف كان فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ عدم وجوب الزّكاة عليه لم يكن من أجل عدم تملكه للنّصاب كما يتوهّم من ظاهر كلام النّاصب بل قد تملك نصباً كثيرة وبذل نصباً كثيرة وإنّما المانع من تعلق الوجوب هو أنّه لم يكن حريضاً على جمع المال حتى يحول عليه الحول، يمنعه من الإدّخار ملكة الجود والسخاء والزهد، ولأنّ اللازم على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة النّاس كي لا (يتبيغ)[2] بالفقير فقره، وحاصل الكلام منع كونه فقيراً بالمعنى الذي يتوهم من كلام الناصب أوّلاً، ومنع امتناع حمل الآية عليه على تقدير كونه عادماً لمال تجب فيه الزكاة ثانياً، فافهم جيّداً، هذا.

واستدل على الثاني أعني أولوية إرادة الناصر والمحب من لفظ الولي بالنسبة إلى المتصرف بوجوه.

الأول: أن اللائق بما قبل هذه الآية وما بعدها ليس إلا هذا المعنى، أما ما قبل هذه الآية فلأنه تعالى قال:

---

(١) مستدرك الوسائل: ٢٥٩/٧، وشرح الأخبار: ٢٢٦/١ ح ٢١٢.

(٢) يتبيغ: يختلط عليه الآخر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١].

وليس المراد لا تتخذوا اليهود والنصارى أئمة متصرفين في أرواحكم وأموالكم، لأن بطلان هذا كالمعلوم بالضرورة، بل المراد لا تتخذوا اليهود والنصارى أحباباً وأنصاراً ولا تخالطوهم ولا تعاضدوهم، ثم لما بالغ في النهي عن ذلك قال: إنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون والموصوفون، والظاهر أنّ الولاية المأمور بها هٰهنا هي المنهى عنها فيما قبل، ولما كانت الولاية المنهيّ عنها فيما قبل هي الولاية بمعنى النصرة كانت الولاية المأمور بها هي الولاية بمعنى النصرة، وأمّا ما بعد هذه الآية فهي قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [المائدة: ٥٧].

فأعاد النّهي عن اتخاذ اليهود والنصارى والكفّار أولياء، ولا شك أنّ الولاية المنهي عنها هي الولاية بمعنى النّصرة فكذلك الولاية في قوله: إنّما وليكم الله، يجب أن تكون هي بمعنى النصرة، وكل من أنصف وترك التعصب وتأمل في مقدمة الآية وفي مؤخرها قطع بأنّ الولي في قوله: إنّما وليكم الله، ليس إلاّ بمعنى النّاصر والمحب، ولا يمكن أن يكون بمعنى الإمام، لأن ذلك يكون إلقاء الكلام الأجنبي فيما بين كلامين مسوقين لغرض واحد، وذلك يكون في غاية الركاكة والسّقوط ويجب تنزيه كلام الله تعالى عنه.

الثّاني: أنّا لو حملنا الولاية بمعنى التّصرف والإمامة لما كان المؤمنون المذكورون في الآية موصوفين بالولاية حال نزول الآية، لأنّ عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ما كان نافذ التّصرف حال حياة الرّسول، والآية تقتضي كون هؤلاء المؤمنين موصوفين بالولاية في الحال، أمّا لو حملنا الولاية على المحبة والنصرة كانت الولاية حاصلة في الحال، فثبت أنّ حمل الولاية على المحبة أولى من حملها على التّصرف، والذي يؤكد ما قلناه أنّه تعالى منع من اتخاذ اليهود والنّصارى أولياء، ثم أمرهم بموالاة هؤلاء المؤمنين، فلا بدّ وأن تكون موالاة هؤلاء المؤمنين حاصلة في الحال حتّى يكون النّفي والإثبات متواردين على شيء، ولما كانت الولاية بمعنى التصرف غير حاصلة في الحال إمتنع حمل الآية عليها.

الثّالث: أنه تعالى ذكر المؤمنين الموصوفين في هذه الآية بصيغة الجمع في سبعة مواضع، وهي قوله: والذين آمنوا الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم راكعون، وحمل الألفاظ الجمع، وإن جاز على الواحد على سبيل التّعظيم لكنّه مجاز لا حقيقة والأصل حمل الكلام على الحقيقة.

الرّابع: أنّا قد بيّنا بالبراهين البيّنة أن الآية المتقدّمة وهي قوله: يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه إلى آخر الآية من أقوى الدّلالة على صحة إمامة أبي بكر، فلو دلت هذه

الآية على صحة إمامة عليّ بعد الرّسول ﷺ لزم التناقض بين الآيتين وذلك باطل، فوجب القطع بأنّ هذه الآية لا دلالة فيها على أنّ علياً هو الإمام بعد الرّسول.

الخامس: أنّ عليّ بن أبي طالب كان أعرف بتفسير القرآن من هؤلاء الرّوافض، فلو كانت هذه الآية دالة على إمامته لاحتج بها في محفل من المحافل، وليس للقوم أن يقولون إنّه تركه للتقية، فإنهم ينقلون عنه أنه تمسك يوم الشورى بخبر الغدير وخبر المباهلة وجميع فضائله ومناقبه ولم يتمسّك البتة بهذه الآية في إثبات إمامته، وذلك يوجب القطع بسقوط قول هؤلاء الرّوافض لعنهم الله.

السّادس: هب أنّها دالة على إمامة عليّ لكنّا توافقنا على أنّها عند نزولها ما دلت على حصول الإمامة في الحال، لأنّ علياً ما كان نافذ التّصرف في الأمة حال حياة الرّسول عليه الصّلاة والسلام، فلم يبق إلاّ أن تحمل الآية على أنها تدل على أن علياً سيصير إماماً بعد ذلك، ومتى قالوا ذلك فنحن نقول بموجبه ونحمله على إمامته بعد أبي بكر وعمر وعثمان، إذ ليس في الآية ما يدل على تعيين الوقت، فإن قالوا: الأمة في هذه الآية على قولين، منهم من قال: إنّها لا تدل على إمامة عليّ، ومنهم من قال إنّها تدل على إمامته وكلّ من قال بذلك قال: إنّها تدل على إمامته بعد الرّسول من غير فصل: فالقول بدلالة الآية على إمامة عليّ لا على هذا الوجه قول ثالث، وهو باطل، لأنا نجيب عنه، فنقول: ومن الذي أخبركم أنه ما كان أحد في الأمة قال هذا القول، ومن المحتمل بل من الظاهر أنه منذ استدل مستدل بهذه الآية على إمامة عليّ فإنّ السائل يورد على ذلك الإستدلال هذا السؤال، فكان ذكر هذا الإحتمال وهذا السّؤال مقروناً بذكر هذا الإستدلال.

السّابع: أنّ قوله: إنّما وليكم الله ورسوله لا شك أنه خطاب مع الأمة، وهم كانوا قاطعين بأن المتصرف هو الله ورسوله، وإنّما ذكر الله هذا الكلام تطييباً لقلوب المؤمنين وتعريفاً لهم بأنّه لا حاجة بهم إلى اتخاذ الأحباب والأنصار من الكفار، وذلك لأنّ من كان الله ورسوله ناصراً له ومعيناً فأيّ حاجة له إلى طلب النصرة والمحبة من اليهود والنصارى، وإذا كان كذلك كان المراد بقوله: إنّما وليكم الله ورسوله، هو الولاية بمعنى النّصرة والمحبة، ولا شك أنّ لفظ الولي مذكور مرّة واحدة، فلما أريد هٰهنا معنى النصرة إمتنع أن يراد به معنى التصرف، لما ثبت أنّه لا يجوز إستعمال اللفظ المشترك في مفهوميه معاً.

الثامن: أنّه تعالى مدح المؤمنين في الآية السابقة بقوله:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فإذا حملنا قوله: إنّما وليكم الله ورسوله، على معنى المحبّة والنصرة كان قوله: إنّما وليكم الله ورسوله، يفيد فائدة قوله: يحبهم ويحبّونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين،

وقوله: يجاهدون في سبيل الله، يفيد فائدة قوله: يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم راكعون، فكانت هذه الآية مطابقة لما قبلها مؤكّدة لمعناها فكان ذلك أولى، فثبت بهذه الوجوه أنّ الولاية المذكورة في هذه الآية يجب أن تكون بمعنى النصرة لا بمعنى التصرف.

ثم قال الناصب: أمّا الوجه الذي عوّلوا عليه وهو أنّ الولاية المذكورة في الآية غير عامة والولاية بمعنى النصرة عامة فجوابه من وجهين:

الأوّل: إنّا لا نسلم أنّ الولاية المذكورة في الآية غير عامة ولا نسلم أنّ كلمة (إنّما)، للحصر والدّليل عليه قوله:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٢٤].

ولا شك أنّ الحياة الدّنيا لها أمثال أخرى سوى هذا المثل، وقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦].

ولا شك أنّ اللّعب واللّهو قد يحصل في غيرها.

الثاني: لا نسلم أنّ الولاية بمعنى النصرة عامة في كل المؤمنين وبيانه أنّه تعالى قسم المؤمنين قسمين، **أحدهما**: الذين جعلهم مولياً عليهم وهم المخاطبون بقوله إنما وليكم الله، **والثاني**: الأولياء، وهم المؤمنون الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم راكعون، فإذا فسرنا الولاية هٰهنا بمعنى النصرة كان المعنى أنّه تعالى جعل أحد القسمين أنصاراً للقسم الثّاني، ونصرة القسم الثاني غير حاصلة لجميع المؤمنين ولو كان كذلك لزم في القسم الذي هم المنصورون أن يكونوا ناصرين لأنفسهم، وذلك محال، فثبت أن نصرة أحد قسمي الأمة غير ثابتة لكل الأمة، بل مخصوصة بالقسم الثاني من الأمة، فلم يلزم من كون الولاية المذكورة في هذه الآية خاصّة أنّ لا تكون بمعنى النصرة، وهذا جواب حسن دقيق لا بدّ من التّأمّل فيه، انتهى كلامه هبط مقامه.

أقول: والجواب عن الوجه الأوّل أوّلاً أنّ كون الولي في الآية السابقة واللاحقة بمعنى الناصر لا دلالة فيه على كون المراد به في هذه الآية ذلك المعنى أيضاً بإحدى من الدلالات، وما استدل به عليه من أنّه لولا ذلك لزم إلقاء الكلام الأجنبي بين كلامين مسوقين لغرض واحد وذلك في غاية الركاكة، ففيه منع الأجنبيّة أولاً إذ الولاية بمعنى النصرة شأن من شؤونات الولاية المطلقة، فحيث إنه سبحانه نهى عن إتخاذ الكفار أولياء أي أنصاراً أثبت الولاية المطلقة لنفسه ولرسوله وللمؤمنين الموصوفين، ومن المعلوم أنّ الولاية المطلقة أعني التصرف في أمور المؤمنين على وجه الإطلاق شاملة على التصرف بالنصرة، فعلى ذلك يكون في الآية دلالة على كون الله ورسوله والمؤمنين الموصوفين ناصرين لسائر المؤمنين على وجه الكمال، فعلى ذلك إلتأمت أجزاء الكلام على أحسن إتساق وإنتظام، ومنع كون هذه الأجنبية موجبة للركاكة

ثانياً، إذ المجانبة بينها ليست بأزيد من المجانبة بين الشّرط والجزاء في قوله تعالى:
﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣].

وعلى تقدير تسليم الرّكاكة فيكون ذلك إعتراضاً على خليفتهم عثمان ثالثاً، لظهور أنّ هذه الآيات الثلاث لم تنزل دفعة واحدة، بل قد نزلت تدريجاً ونجوماً، وقد جمعها عثمان بهذا الوجه وحرف الكلم عن مواضعها ولم يرتّب الآيات كما هو حقّها.

وثانياً: أنّ توافق الآيات وجريها على نسق واحد وإن كان مقتضياً لحمل الولي هٰهنا على النّاصر وموجباً لظهوره فيه، إلاّ أنّه إذا امتنع حمله عليه بمقتضى كلمة الحصر والجملة الوصفيّة الظاهرتين في المعنى الآخر حسبما عرفت في تقريب الإستدلال وستعرفه أيضاً، فلا بدّ من رفع اليد عن ذلك الظهور، وبعبارة أخرى ظهور التّناسق يوجب حمله على الناصر إلاّ أنّه معارض بظهور الحصر والوصف في المعنى الآخر إن لم يكونا نصّين فيه، والثّاني أقوى من الأوّل فيجب المصير إليه.

وعن الثّاني: بأنّه إنّما يتمّ على مذهب من يجعل المشتقّ حقيقة في الحال كما هو الأشهر، وأمّا على مذهب من يجعله حقيقة في مطلق ما اتّصف بالمبدأ سواء كان في الماضي أو في الحال أو الإستقبال إذا كان محكوماً عليه فلا، فيكون ذلك مثل قوله تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

حيث إنّهم يستدلون بهذه الآية على وجوب قطع يد السّارق، ولو لم يكن سارقاً حين نزول الآية إلاّ أنّ هذا القول لما كان غير مرضيّ عندنا على ما حقّقناه في حاشيتنا على القوانين ونبّهنا هناك أيضاً على ضعف الإستدلال بآية السّرقة، فالأولى الإعراض عنه والجواب على المذهب المختار الموافق للمشهور، وهو أنّا لا ننكر كون المشتقّ حقيقة في الحال أي حال التّلبس، ولازمه الإتصاف بالولاية حال نزول الآية لظهور الجملات الخبريّة في كون حال التّلبس فيها هو حال النّطق إلاّ أنّا نقول: إنّ الحقيقة إذا كانت متعذّرة بما ذكره النّاصب من عدم الإتصاف بالولاية بمعنى التصرف حال النّزول، فلا بدّ من المصير إلى المجاز وهو المتلبس به في المستقبل، وأما ما ذكره من أنّا لو حملنا الولاية على النّصرة كانت الولاية حاصلة في الحال، ففيه أنّ حصول النصرة حين نزول الآية من المؤمنين الموصوفين بل ومن الرّسول أيضاً غير معلوم.

فإن قلت: سلمنا ولكن بين المعنين فرق واضح، وهو أن تصرّفهم أعني المؤمنين حال النزول معلوم العدم ونصرتهم غير معلومة.

قلت: اللاّزم في صحة الإطلاق الحقيقة للمشتقّ هو العلم بالإتصاف بالمبدأ حال

الإطلاق، وعدم العلم به غير كاف في صحة الإطلاق، بل هو كالعلم لعدم الاتصاف يوجب مجازية الإطلاق، وبالجملة فقد تحقّق بما ذكرنا أنّ جعل الوليّ بمعنى النّاصر لا يكفي في صحة إطلاق الحقيقي وأنّ ما اعترض به على جعله بمعنى المتصرف وارد على جعله بمعنى الناصر حرفاً بحرف فاللآزم حينئذٍ حمله على المعنى المجازي وهو المتّصف بالولاية أعم من أن يكون في الماضي والحال والإستقبال جميعاً كما في الله ورسوله، ومن أن يكون في خصوص الإستقبال كما في المؤمنين الموصوفين، وهذا كله مبني على المماشاة مع الخصم، وإلاّ فنقول: إن المراد بالولي في الآية هو الأولى بالتّصرف كما هو أحد معانيه اللغويّة وعليه فالإعتراض ساقط من أصله كما لا يخفى.

وعن الثالث: أوّلاً بالنّقض، فإنّه قد قال في تفسير قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢].

إنّ المراد من أولي الفضل أبو بكر وكنى عنه بلفظ الجمع، والواحد إذا كني عنه بلفظ الجمع دلّ على علوّ شأنه كقوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ، إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ①﴾ [الكوثر: ١].

فانظر: إنّ الشّخص الذي كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون علوّ شأنه؟ انتهى.

وثانياً بالحلّ، وهو أنّ الأَصل في الإستعمال وإن كان هو الحقيقة إلاّ أنّه مع قيام القرائن القطعية من الأَخبار العامية والخاصيّة على إرادة المعنى المجازي لا بدّ من حمل اللفظ عليه، مضافاً إلى ما في حسن التعبير بلفظ الجمع من اشتماله على التّعظيم والنكتة اللطيفة التي لا تخفى، وهي ما أشار إليه في «**الكشّاف**»، قال: فإن قلت: كيف صحّ أن يكون لعليّ عليه السلام واللفظ لفظ الجماعة؟ قلت: جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً ليرغب النّاس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه ولينبّه على أنّ سجيّة المؤمنين لا بدّ أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء حتّى أن لزمهم أمر لا يقبل التّأخير وهم في الصّلاة لم يؤخّروه إلى الفراغ منها، انتهى.

وعن الرابع: بأنّه مما تضحك منه الثكلى، لأنّه خلاف ما اتفقت عليه الأمة، أما الخاصة فلأنّهم إتفقوا على أنّ الآية أعني قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ﴾ [المائدة: ٥٤] (اه)، إنما هي إشارة إلى ظهور الدّولة الحقة القاهرة وإلى رجعة آل محمّد وسلطنتهم سلام الله عليه وعليهم، وعليه قد دلت الأخبار المتظافرة من طرقهم ومن طريق العامة كما رواها في «**غاية المرام**»، أو إلى أنّ المراد بالمرتدّين هم النّاكثون والقاسطون والمارقون، وبقوم يحبهم ويحبونه، هم أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه كما في أخبار اخر.

وأمّا العامة فلاتفاقهم على أن خلافة أبي بكر كانت مستندة إلى البيعة لا إلى النّص. وأيضاً لو كان الآية دالة على صحة خلافته للإستدلال بها يوم السّقيفة وليس فليس، والعجب كل العجب أنّ النّاصب يقول: إنّ المراد بقوم يحبهم ويحبونه هو أبو بكر وأصحابه، والشّيعة يقولون: إنّ هؤلاء داخلون في قوله: من يرتدّ منكم عن دينه، وإن المراد بالمرتدين هم الغاصبون لحقّ آل محمّد ﷺ فانظر ماذا ترى من التّفاوت بين القولين، ويأتي إنشاء الله تحقيق إبطال مقال هذا الناصب في هذه الآية بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الثامن من الخطبة المائة والحادية والتسعين.

وعن الخامس: بأنّ عدم تمسكه سلام الله عليه بهذه الآية ممنوع، بل قد تمسك بها كما تمسك بخبر الغدير والمباهلة وغيرهما، وقوله: ولم يتمسك ألبتة بهذه الآية إن أراد به عدم ورود تمسكه بها في أخبارهم فهو مسلّم إلاّ أنّه لا يوجب القطع بعدم التمسّك؛ إذ جلّ مسائل الحقّة لم يرد به رواية منهم، وهو لا يدل على إنتفاء تلك المسائل واقعاً وإن أراد به عدم ورود خبر على ذلك من طرق الخاصّة كوروده في تمسّكه بخبر الغدير والمباهلة، ففيه منع ذلك الورود تمسكه بها في بعض أخبارهم مثل ورود التمسك بغيرها، وهو ما رواه في كتاب «**غاية المرام**» من مجالس الشيخ بإسناده إلى أبي ذر في حديث منا شدة أمير المؤمنين عليه السلام عثمان والزّبير وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص يوم الشّورى وإحتجاجه عليهم بما فيه من النّصوص من رسول الله ﷺ والكلّ منهم يصدّقه فيما يقوله، فكان فيما ذكره عليه السلام فهل فيكم أحد آتى الزّكاة وهو راكع؟ فنزلت فيه:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

غيري؟ قالوا: لا، وفي ذلك الكتاب أيضاً عن ابن بابويه بإسناده عن أبي سعيد الوراق عن أبيه عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عليهم السلام في حديث منا شدة علي عليه السلام لأبي بكر حين ولي أبو بكر الخلافة وذكر عليه السلام فضائله لأبي بكر والنّصوص عليه من رسول الله فكان فيما قال له: (**فأنشدك بالله ألي الولاية من الله مع ولاية رسول الله في آية زكاة الخاتم أم لك**)؟ قال: بل لك[1].

فقد ظهر ممّا ذكرنا غفلة النّاصب اللعين عن أخبار الشّيعة ولا غرو في ذلك فإنّه جاهل بما هو أعظم من ذلك وليس ذلك من الظالمين ببعيد.

وعن السّادس: أوّلاً بمنع عدم ثبوت الولاية له عليه السلام حال نزول الآية، لما قد ذكرنا سابقاً أنّ المراد بالولي هو الأولى بالتّصرف، وهذا المعنى كان حاصلاً له حال النزول، وثانياً

(١) الخصال: ٥٤٩، والاحتجاج: ١/ ١٦١.

سلّمنا أنّ الآية مفيدة لكونه ولياً المستقبل نظراً إلى كون الوليّ بمعنى المتصرف، إلاّ أنّا نمنع قوله. ونحمله على إمامته بعد أبي بكر وعمر وعثمان (ا ه)، إذ الآية كما هي مثبتة لإمامته ﷺ، كذلك نافية للإمامة عن غيره حسبما حققناه في تقريب الإستدلال وسنحقّقه أيضاً بما لا مزيد عليه، وعليه فلا يبقى للثلاثة خلافة حتّى يتأخر عليّ ﷺ عنهم أو يتقدم عليهم وهو ظاهر.

وثالثاً أنّ قوله: فإن المحتمل (ا ه)، واضح الفساد، إذ مجرّد إحتمال الخلاف لا يوجب القدح في حجّية الإجماع، وإلا لم يسلم شيء من الإجماعات المحجية، والعجب كل العجب أن الناصب اللّعين يسقط الإجماع عن الحجّية هنا بمجرّد احتمال المخالف، ويحتج له كغيره على خلافة أبي بكر مع وجود الخلاف القطعي المحقق هناك من غير واحد من أعاظم الصّحابة، فكيف يكون الإجماع على البيعة حجة مع وجود الخلاف القطعي ولا يكون ذلك دليلاً بمجرّد إحتمال الخلاف؟.

وعن السّابع: إنّا قد ذكرنا سابقاً أنّ التّصرف بالنّصرة شأن من شؤونات الولاية المطلقة وعليه فتطيب قلوب المؤمنين كما يحصل بتعريفهم كون الله ورسوله ناصراً لهم كذلك يحصل بتعريفهم كونه سبحانه ورسوله أولى بالتّصرف في أرواحهم وأبدانهم ومتصرفاً فيهم بالنصرة وبغير النصرة في جميع حالاتهم وأطوارهم، بل حصول التطيب بالثّاني أقوى وآكد من حصوله بالأوّل كما هو غير خفي على العارف الفطن.

وعن الثامن: أنّ الآيتين لا ربط لإحداهما بالأخرى، ولا داعي إلى تكلف التطبيق بينهما، إذ كلّ منهما مسوقة لمقصود غير ما قصد بالأخرى، مضافاً إلى ما في المناسبة التي أبدئها بينهما من سخافة لا تخفى، هذا.

وبقي الكلام في الوجهين اللذين أجاب بهما النّاصب اللعين عمّا عوّل عليه أصحابنا من كون الولاية المذكورة في الآية غير عامة، والولاية بمعنى النّصرة عامة فأقول:

أما الوجه الأوّل: ففيه أنّه إن أراد بقوله: لا نسلم أن كلمة (إنّما) للحصر عدم إفادتها الحصر في خصوص تلك الآية فيتوجه عليه أنه لا يناسب على ذلك الإستدلال له بالآيتين، لعدم دلالة عدم إفادتها للحصر فيهما على زعمه عدم إفادتها له في هذه الآية بشيء من الدّلالات، وإن أراد به عدم إفادتهما مطلقاً كما هو الظاهر من كلامه، ففيه مضافاً إلى أنه خلاف ما صرّح به نفسه في تفسير قوله:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

أوّلاً: أن المتبادر منها هو الحصر فيكون حقيقة فيه، لأنّ التبادر علامة الحقيقة، وثانياً أنّ المشهوريين الأصوليّين واللغويين والنحويين هو ذلك، وإليه ذهب الجوهري وصاحب «القاموس» وحكى عن البيضاوي في «المنهاج»، والسّكاكي في «المفتاح»، والقزويني في

«الإيضاح» وإليه ذهب من أصحابنا رضوان الله عليهم الشيخ والمحقّق والعلامة والطبرسي والطريحي والعميدي ونجم الأئمة الرّضي وغيرهم بل قد ادعى عليه الإتفاق جماعة منّا ومنهم، منهم العلامة في **«التهذيب»** قال: إنّما للحصر بالنقل عن أهل اللغة، وفي **«النّهاية»** قال أبو علي الفارسي: إنّ النحاة أجمعوا عليهم وصوّبهم فيه ونقله وقوله حجة، والطريحي في **«مجمع البحرين»** قال: وإنّما المتكرّر في الكتاب والسنة وكلام البلغاء فهي على ما نقل عن المحققين موضوعة للحصر عند أهل اللغة، ولم نظفر بمخالف لذلك وإستعمال العربيّة والشّعراء والفصحاء إيّاها بذلك يؤيّده، انتهى.

وعن الأزهري في كتاب **«الزهر»** عن أهل اللغة أنّ **(إنّما)** تقتضي ايجاب شيء ونفي غيره، وفي **«التلخيص»** تبعاً **«للمفتاح»** في مقام الإستدلال لإفادتها للحصر قال لتضمّنه معنى **(ما) (وإلاّ)**، لقول المفسرين:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣].

بالنّصب معناه ما حرم الله عليكم إلاّ الميتة، وهو المطابق لقراءة الرّفع ولقول النّحاة: إنّما لإثبات ما يذكر بعده ونفي ما سواه، انتهى، ومع ذلك كله لا وجه لمنع إفادتها الحصر إذ قول اللغوي الواحد معتبر في باب الأوضاع فضلاً عن الشّهرة المحصّلة والإتفاقات المحكيّة مضافاً إلى الأدلة التي استدلوا بها في كتب **«الأصول»** و**«البيان»** و**«النحو»** وغيرها.

وأمّا الآيتان اللتان إستدل بهما ففيهما أولاً منع عدم إفادتهما الحصر فيهما ولو بالتّأويل القريب يشهد بذلك وقوع كلمة ما وإلاّ عوضها في الآية الأخرى وهو قوله:

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [الأنعام: ٣٢]

إذ لا خلاف في إفادتها للحصر وثانياً سلمنا ذلك إلاّ أنهما لا تثبتان الدّعوى لكونهما أخصّ من المدّعى حسبما أشرنا إليه سابقاً. **وثالثاً**: أن الإستعمال أعمّ من الحقيقة، والمجاز خير من الإشتراك، فقد تحصّل ممّا ذكرنا كله أنّها حقيقة في الحصر فتكون مجازاً في غيره فبطل القول بكونه حقيقة في الثّاني كما حكى عن الأمدي وأبي حيان وغيرهما، والقول بكونها مشتركة بينهما بالإشتراك اللفظي كما هو محتمل كلام الفيومي في **«المصباح»**، وتفصيل الكلام زيادة عن ذلك فليطلب من مواضعه.

وأمّا الوجه الثّاني: ففيه أن جعل المؤمنين على قسمين أحدهما النّاصرون والآخر المنصورون لا يسمن ولا يغني من جوع، بيان ذلك: أنّ كلمة إنّما مفيدة للحصر ومقتضية لإثبات الولاية لله ولرسوله وللمؤمنين الموصوفين نافية لها عمّن سواهم، فمقتضى الآية بحكم أداة الحصر هو اختصاص الولاية لهؤلاء الثلاثة وهو إنّما يتمّ لو جعل المراد بالآية الأولى بالتّصرف بخلاف ما لو أريد بها النّصرة، ضرورة عدم إختصاص النصرة بهم بل يعمهم

وغيرهم من المؤمنين الغير موصوفين بالصّفة المذكورة لحصولها منهم ومن غيرهم وحينئذٍ فلا يكون للحصر فائدة وهذا معنى قولنا: إن الولاية بمعنى النصرة عامة من حيث عدم إختصاصها بالمؤمنين المتّصفين بإيتاء الزّكاة في حال الرّكوع وليس معناه أنها عامة لجميع المؤمنين حتى يعترض عليه بجعلهم على قسمين وتخصيصها بأحد القسمين كما توهمه الناصب.

لا يقال: إنّ هذا يتمّ لو جعل جملة وهم راكعون حالية، وأمّا لو جعلت معطوفة فلا.

لأنا نقول: لا يجوز جعلها عطفاً لأنّ الصّلاة قد تقدّمت وهي مشتملة على الرّكوع فيكون إعادة ذكر الرّكوع تكراراً، فوجب جعلها حالاً أي يؤتون الزّكاة حال كونهم راكعين وقد وقع الإجماع على أنّ إيتاء الزّكاة حال الرّكوع لم يكن إلا من علي عليه السلام، فقد تحقق ممّا ذكرنا كله أنّ الآية الشريفة من أقوى الدلائل على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وأنّ اعتراضات الناصب اللعين أوهن من نسج العنكبوت فهو من:

﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٤].

وأقول على رغم الناصب:

يا من بخاتمه تصدّق راكعاً ... إني ادّخرتك للقيامة شافعاً

الله عرّفني وبصّرني به ... فمضيت في ديني بصيراً سامعاً

ومنها قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

تقريب الإستدلال أنّه سبحانه أمر بطاعة أولى الأمر كما أمر بطاعة الرّسول، وهو يقتضي عموم طاعتهم حيث إنّه سبحانه لم يخصّ طاعاتهم بشيء من الأشياء ففي فقد البيان منه تعالى دلالة على إرادة الكل وإذا ثبت ذلك لا بدّ وأن يكون ولي الأمر معصوماً عن الخطأ، إذ مع عدم عصمته عن الخطأ لم يؤمن من وقوع الخطأ منه، وعلى تقدير وقوع الخطأ منه يلزم أن يكون قد أمرنا الله بمتابعته فيلزم منه أمره سبحانه بالقبيح وهو محال، فثبت أن أمره سبحانه بمتابعة أولي الأمر وطاعتهم مستلزم لعصمتهم، وإذا ثبت دلالة الآية على العصمة وعموم الطاعة ثبت أن المراد بأولي الأمر فيها الأئمة عليهم السّلام، إذ لا أحد يجب طاعته على ذلك الوجه بعد النّبي صلى الله عليه وآله إلاّ هم سلام الله عليهم.

وبهذا التّقرير ظهر ضعف ما ذهب إليه العامة من حمل أولي الأمر على المتخلّفين الثلاثة كما ذهب إليه منهم طائفة، وحمله على أمراء السّرايا كما ذهبت إليه طائفة أخرى، وعلى علماء العامة كما هو مذهب طائفة ثالثة، ضرورة إنتفاء العصمة عنهم جميعاً، مضافاً إلى عدم وجوب طاعة الأمراء كالعلماء على نحو العموم باتّفاق منّا ومنهم، وإنّما طاعة الأمراء واجبة فيما تعلّق بإمارتهم، وطاعة العلماء كذلك في الأحكام الشّرعيّة، على أن الأمراء كالعلماء ربما

يختلفون في الآراء، ففي طاعة بعضهم عصيان بعض، وإذا أطاع المؤمن بعضهم عصى الآخر لا محالة، هذا.

وذهب النّاصب فخر المشكّكين إلى أنّ المراد بأولي الأمر أهل الحلّ والعقد وأنّ الآية دالة على أنّ إجماع الأمة حجّة حيث قال بعد ما أثبت دلالة الآية على وجوب عصمة أولي الأمر بمثل ما أثبتناه ما هو صريح عبارته: فثبت قطعاً أنّ أولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوماً قطعاً، ثم نقول: ذلك المعصوم إمّا مجموع الأمة أو بعض الأمة لا جائز أن يكون بعض الأمة لأنّا بيّنا أن الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر في هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والإستفادة منهم، ونحن نعلم بالضّرورة أنّا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم عاجزون عن إستفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أنّ المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضا من أبعاض الأمة، ولا طائفة من طوائفهم، ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله وأولى الأمر أهل الحلّ والعقد من الأمة ذلك يوجب القطع بأنّ إجماع الأمة حجّة.

ثمّ إنّه بعد طائفة من الكلام في النقض والإبرام في ذلك المرام قال:

وأمّا حمل الآية على ما تقوله الرّوافض ففي غاية البعد لوجوده.

أحدها: ما ذكرناه أنّ طاعتهم مشروطة بمعرفتهم وقدرة الوصول إليهم، فلو أوجب علينا طاعتهم قبل معرفتهم كان هذا تكليف ما لا يطاق، ولو أوجب علينا طاعتهم إذا صرنا عارفين بهم وبمذاهبهم صار هذا الإيجاب مشروطاً، وظاهر قوله: أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم، يقتضي الإطلاق، وأيضاً ففي الآية ما يدفع هذا الإحتمال، وذلك لأنّه تعالى أمر بطاعة الرّسول وطاعة أولي الأمر في لفظة واحدة وهو قوله: وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم، واللّفظة الواحدة لا يجوز أن تكون مطلقة ومشروطة، فلما كانت هذه اللّفظة مطلقة في حقّ الرّسول وجب أن تكون مطلقة في حقّ أولي الأمر.

الثاني: أنّه تعالى أمر بطاعة أولي الأمر، وأولو الأمر جمع وعندهم لا يكون في الزّمان إلاّ إمام واحد وحمل الجمع على الفرد خلاف الظاهر.

وثالثها: أنه قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

ولو كان المراد بأولي الأمر الإمام المعصوم لوجب أن يقال: فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الإمام، فثبت أنّ الحقّ تفسير الآية بما ذكرناه، انتهى كلامه هبط مقامه.

أقول: وأنت خبير بما فيما ذهب إليه من الضعف والفساد.

أمّا أولاً: فلأن ما ذكره من دلالة الآية على حجّية الإجماع، إمّا أن يكون مراده به إجماع جميع الأمة كما هو المستفاد من صدر كلامه وذيله أعني قوله: الآية دالة على أنّ إجماع الأمة حجة وقوله: وذلك يوجب القطع بأنّ إجماع الأمة حجة، وإمّا أن يكون مراده به خصوص إجماع أهل الحلّ والعقد وهم المجتهدون وهو الأظهر بملاحظة قوله: فوجب أن يكون ذلك المعصوم أهل الحلّ والعقد، فإن كان مراده به الأوّل، ففيه أنّ إجماع جميع الأمة لا يمكن إنعقاده إلى يوم القيامة فكيف يحمل الآية على غير الممكن، وذلك لأنّ أمّة محمّد ﷺ كلّ من تابعه إلى يوم القيامة وكلّ موجود في عصره فإنّه بعض الأمة، وإن كان مراده به الثّاني، ففيه أنّه لم يقم دليل على عصمة أهل الحل والعقد فلا يمكن حمل المعصوم الذي هو المراد بقوله وأولي الأمر على ما حققناه وحققه عليهم بل لم يقم دليل على عصمة جميع الأمة أيضاً وإن استدلوا عليها بما رووه عن النّبي ﷺ من قوله: «لا تجتمع أمّتي على الخطأ أو على خطأ»، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «لا تجتمع أمّتي على الضّلالة»، وقوله: «سألت ربّي أن لا يجمع أمّتي على الضّلالة فأعطانيها» إلى غير ذلك من الأخبار التي استدلوا بها في باب حجّية الإجماع الغير النّاهضة لإثبات الدّعوى من حيث ضعف سندها ودلالتها من وجوه عديدة، على ما حقّقه أصحابنا رضوان الله عليهم في كتبهم الأصوليّة[1].

و«**أما ثانياً**»: فلأن المراد من المؤمنين المخاطبين بقوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾ [النساء: ٥٩] الآية: إمّا المجتهدون خاصّة، أو المقلدون خاصّة، أو الأعم الشّامل للجميع، ولا يمكن إرادة واحد من الأولين لما فيه من التّخصيص الذي هو خلاف الأصل، مضافاً إلى إستلزامه إختصاص وجوب طاعة الله ورسوله باحدى الطائفتين، وإلى استلزامه حجّية إجماع العوام على تقدير إرادة الثاني، لأن المخاطبين بقوله: فإن تنازعتم في شيء، هم المخاطبون الأولون، ومفهومه عدم وجوب الرّد إلى الله والرّسول حين الإتفاق فيلزم حجّية إجماع العوام حينئذٍ ولا يقول به الخصم، وإذا لم يمكن إرادة أحد الأوّلين تعيّن إرادة الثّالث أعني جميع المؤمنين الشّاملين للمجتهدين والمقلدين، وعليه فلا بد وأن يكون أولوا الأمر غير المجتهدين، لئلا يلزم إتّحاد المطيع والمطاع، مع أن ظاهر اللفظ أيضاً المغايرة فتعيّن أنّ المراد بأولي الأمر الأئمة المعصومون وبطل ما توهّمه النّاصب من حمله على أهل الحلّ والعقد وهذا تحقيق نفيس فافهمه جيّداً، هذا.

وأمّا الوجوه الثّلاثة التي استبعد بها حمل أولي الأمر في الآية على الأئمة، فيتوجه على أوّلها **أوّلاً**: أنّه مشترك الورود، إذ كما أنّ طاعة الإمام المعصوم موقوف على معرفته وعلى قدرة الوصول إليه واستفادة الأحكام منه، فكذلك طاعة أهل الحلّ والعقد موقوفة على

(١) راجع البحار: ٤/٢٩ ح ١ وما بعده.

معرفتهم وعلى قدرة الوصول إليهم وإستفادة الأحكام منهم، وكما أنا عاجزون في زماننا هذا عن الوصول إلى حضرة الإمام عليه السلام وعن إستفادة الدّين والعلم منه فكذلك عاجزون عن الوصول إلى حضرة جميع أهل الحلّ والعقد وعن إستفادة العلم منهم والاطلاع على آرائهم، وإن كان عجزنا في الأوّل مستنداً إلى غيبتهم عليهم السلام، وفي الثّاني إلى كثرتهم وإنتشارهم في شرق الأرض وغربها.

وثانياً: أنّ توقف طاعة أولي الأمر على معرفتهم وإستفادة الأحكام منهم لا يوجب كون وجوبها مشروطاً بذلك، وإنّما هي من مقدّمات الوجود، وبالجملة إطاعة أولي الأمر واجب مطلق، والواجب المطلق تحصيل مقدّماته على عهدة المكلف، فيجب تحصيل العلم برأيهم حتّى يطيعهم، وعجزنا في هذا الزّمان عن الوصول إلى حضرة وليّ الأمر وعن العلم برأيه إنّما هو مستند إلى أنفسنا، لأنّه إذا كنا نحن السّبب في إستتاره فكلّ ما يفوتنا من الإنتفاع به وبتصرّفه وبما معه من الأحكام يكون قد أتانا من قبل نفوسنا فيه، ولو أزلنا سبب الإستتار لظهر وإنتفعنا به وأدّى إلينا الحقّ الذي عنده وتمكنّا من طاعته وامتثاله، هذا كله مضافاً إلى عدم تمشي ما ذكره في زمان حضور الأئمة فلم يكن مانع يومئذٍ عن حمل أولي الأمر عليهم، وإنّما المانع الذي توهّمه النّاصب وهو العجز عن الوصول إلى وليّ الأمر مختص بزمان الغيبة الكبرى، فدليله أخص من مدّعاه.

وعلى الثّاني أولاً: نمنع أنّه لا يكون في الزّمان إلا إمام واحد، فإنّه متعدد في زمان الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعده من الأئمة، لوجود أولادهم المعصومين معهم. وثانياً: أنّ الجمع باعتبار تعددهم وإن تعددت الأزمنة، ولا دلالة في الآية على أنّ طاعتهم جميعاً لا بدّ وأن تكون في زمان واحد، لإمكان حصولها تدريجاً كما وجد واحد منهم، وثانياً بعد الإغماض عمّا ذكر أن حمل الجمع على الفرد وإن كان خلاف الظاهر إلاّ أنّه مع قيام المقتضي عليه لا ضير فيه بل اللاّزم حينئذٍ المصير إليه والمقتضي في المقام موجود، وهو أنك قد عرفت أنّ وليّ الأمر لا بد وأن يكون معصوماً، وقد عرفت إنحصار العصمة فيهم وبطلان ما توهّمه النّاصب كغيره من وجودها في الإجماع، فلا بدّ أن يكون المراد من أولي الأمر الإمام المعصوم، وإن كان استعمال الجمع في الفرد خلاف الظاهر كما توهّمه النّاصب.

وعلى الثّالث: أنّه غير مفهوم المراد إذ لا ملازمة بين كون المراد من أولي الأمر الإمام المعصوم وبين وجوب أن يقال: فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الإمام، اللّهم إلا أن يوجه بأن مراده أنّه لو كان المراد من أولي الأمر الإمام المعصوم لوجب أن يقال: فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله وإلى الرّسول وإلى أولي الأمر منكم، وحيث لم يقل كذلك علم أنّ أولي الأمر داخلون في المخاطبين بقوله: ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي﴾ [النساء: ٥٩]، فيكون ذلك قرينة على أنّ المراد بأولي الأمر في قوله: وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم، هو أهل الحلّ والعقد،

والجواب انّا قد بيّنا سابقاً أن الظاهر أن المخاطبين بقوله: فإن تنازعتم، هم المخاطبون بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا﴾ [البقرة: ١٠٤] فكما أنّ أولي الأمر خارجة عن الخطاب الأوّل قطعاً حسبما ذكرنا سابقاً، فكذلك خارجة عن ذلك الخطاب أيضاً، وأمّا عدم ذكر الرّد إليهم هنا فلا غناء ذكر الرّد إلى الرّسول عن الرّد إليهم، لأنّ الرّد إلى الأئمة القائمين مقام رسول الله ﷺ بعد وفاته هو مثل الرّد إلى الرّسول في حياته لأنهم الحافظون لشريعته والهادون لأمّته فجروا مجراه فيه.

لا يقال: هذا الكلام جار في الرّد إلى الرّسول أيضاً، لأنّ الرد إليه ردّ إلى الله فلم يستغن عنه بذكره.

لأنّا نقول: إنّ المراد بالرّد إلى الله هو الرّد إلى كتاب الله، وبالرد إلى الرّسول هو الرد إلى السّنة، ومن المعلوم عدم وفاء الكتاب بالمتنازعات وعدم كفايته في رفع النّزاع عنها، إذ الأحكام المشتمل عليها الكتاب أقلّ قليل من الأحكام، فلا يغني ذكر الرد إليه عن ذكر الرد إلى السّنة المشتملة على جميع الأحكام الشّرعية الكافية في رفع النزاع عنها إلا قليل منها، هذا.

ويؤيد ما ذكرنا أعني كون الرد إلى أولي الأمر مراداً بالآية أيضاً ما رواه عليّ بن إبراهيم القمي في «تفسيره» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نزل فإن تنازعتم في شيء فارجعوه إلى الله وإلى الرّسول وإلى أولي الأمر منكم»، وهو يدلّ على أنّ في مصحفهم عليهم السّلام كان قول إلى أولي الأمر منكم، وإن عدم وجوده في المصاحف التي بأيدينا من إسقاط المحرّفين الذين جعلوا القرآن عضين، واعتاضوا الدّنيا بالدين، فقد تحقق واتّضح ممّا ذكرنا أنّ الآية الشّريفة نصّ ظاهر جلي لولا اتباع الهوى من امثال النّاصب اللّعين[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾[الكهف: ١٠٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

فقد ذهب الخاصّة ككثير من العامة إلى أنها نزلت في عليّ عليه السلام، ورووا في ذلك أخباراً كثيرة، مثل ما رواه الفخر الرّازي بعد ما ذكر وجوهاً سخيفة في شأن النزول قال: العاشر: نزلت الآية في فضل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده، وقال ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»، فلقاه عمر فقال: هنيئاً يا ابن أبي

---

(١) تفسير الصافي: ١/ ٤٦٥.

طالب أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمّد بن عليّ[(١)].

وفي **«غاية المرام»** من تفسير الثّعلبي في **«تفسيره»** هذه الآية قال: قال أبو جعفر محمّد بن علي عليهما السلام: معناه بلغ ما أنزل إليك من ربّك في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام وفي نسخة أخرى أنّه عليه السلام قال: «يا أيّها الرسول بَلّغ ما أنزل إليك في عليّ»، وقال: هكذا نزلت، رواه جعفر بن محمّد، فلما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي عليه السلام وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[(٢)].

وفي كتاب **«فصول المهمة»** للمالكي قال: روى الإمام أبو الحسن الواحدي في كتابه المسمّى **«بأسباب النزول»** يرفعه بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية: ﴿يا أيّها الرّسول بَلّغ ما أنزل إليك من ربّك﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب عليه السلام،[(٣)] إلى غير ذلك من الأخبار المروية من طرق العامة البالغة حدّ الاستفاضة والمراد من قوله: بلغ ما أنزل، هو تبليغ ولاية عليّ عليه السلام إلى النّاس وقد بلغه وأدّاه حيث نزل بالغدير وأخذ بيده وقال: أيّها النّاس ألست أولى بكم من أنفسكم قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وادر الحق معه كيف ما دار، وفي ذلك اليوم قال حسان بن ثابت:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم ... بخم وأكرم بالنّبي مناديا
يقول فمن مولاكم ووليكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التّعاديا
إلهك مولانا وأنت وليّنا ... ولن تجدن منّا لك الدّهر عاصياً
فقال له قم يا عليّ فانّني ... رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليّه ... فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليّه ... وكن للذي عادى عليّاً معاديا

وقال قيس بن سعد:

قلت لما بغى العدو علينا ... حسبنا ربّنا ونعم الوكيل
حسبنا ربّنا الذي فتق النصرة ... بالأمس والحديث طويل
وعليّ إمامنا إمام ... سلوانا أتى به التّنزيل
يوم قال النّبي من كنت مولاه ... فهذا مولاه خطب جليل

---

(١) راجع الغدير: ١/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢، وينابيع المودة: ٢/ ٢٤٩.
(٢) راجع الغدير: ١/ ٢٧٠.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٢٢٤.

إنّما قاله النّبي على الأمة حتماً ما فيه قال وقيل

والمراد من المولى في قوله: من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، هو الأولى بالتّصرف بقرينة قوله ألست أولى (ا ه)، ولعدم صلاحيّة إرادة غير هذا من معانيه الستّة، وهو المعتق والمعتق، والجار والحليف والنّاصر، أمّا الأربعة الأولى فواضح، وأمّا الخامس فلعدم إحتياجه إلى البيان سيّما وقد قال الله تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ويؤيّده إرادة ذلك المعنى إقتران هذه الجملة ببعض القرائن الموجودة في بعض طرق ذلك الحديث.

وهو ما رواه عليّ بن أحمد المالكي من أعيان علماء العامة قال: روى الحافظ أبو الفتوح سعد بن أبي الفضائل بن خلف العجلي في كتابه الموحد في فضل الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، يرفعه بسنده إلى حذيفة بن أسد الغفاري وعامر بن ليلى بن حمزة، قالا: لما صدر رسول الله ﷺ من حجة الوداع ولم يحجّ بعد غيرها أقبل حتّى إذا كان بالجحفة وهي عن سمرات[1] متقاربات بالبطحاء أن لا ينزل تحتهن أحد حتّى إذا أخذ القوم منازلهم أرسل فقم ما تحتهن حتّى نودي بالصّلاة صلاة الظهر عمد إليهن فصلى بالنّاس تحتهن، وذلك يوم غدير خم، ثم بعد فراغه من الصّلاة قال ﷺ: «أيها النّاس إنّه قد نبّأني اللطيف الخبير أنّه لن يعمر نبيّ إلا نصف عمر النّبي الذي كان قبله وإنّي لأظن أنّي أدعى فأجيب فإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون هل بلغت فما أنتم قائلون»؟ قالوا: نقول: قد بلغت وجهدت ونصحت وجزاك الله خيراً، قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً[2] «رسول الله خ» عبده ورسوله، وأن جنّته حقّ وأنّ ناره حق، والبعث بعد الموت حق»؟ قالوا: بلى نشهد، قال: اللهم اشهد، ثم قال: «أيها الناس ألا تسمعون ألا فإنّ الله مولاي وأنا أولى بكم من أنفسكم ألا ومن كنت مولاه فعلي مولاه»، وأخذ بيد علي عليه السلام فرفعها حتّى نظرها القوم، ثم قال: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[3].

فإن قرائن الدّلالة على المعنى المقصود في هذه الرّواية غير خفيّة منها جمعه ﷺ بين التّنبيه على الولاية وبين أصول العقائد من التّوحيد والنّبوة والمعاد، فيعلم منه أنّ المراد بالمولى هو الإمام الأولى بالتّصرف، إذ هو الذي يليق بأن يعتقد به بعد الإعتقاد بالتّوحيد والرسالة ومنها تصدير كلامه صلى الله عليه وآله وسلم بحرف التّنبيه ثم توكيدها بتكرارها تنبيهاً

(١) سمرات: واحدتها سمرة وهي شجر معروف.
(٢) في نسخة: رسول الله.
(٣) كتاب الأربعين للماحوزي: ١٤٠، والفصول المهمة: ٤١، وأُسد الغابة: ٣/ ٩٢.

على عظم المقصود، ومن المعلوم أنّ النّصرة لا يليق بأن يبالغ فيها تلك المبالغة ويهم بها ذلك الإهتمام ومنها حثهم على الإستماع بقوله ألا تسمعون، إلى غير هذه من وجوه الدلالة.

وبالجملة فقد تحقّق ممّا ذكرنا كله أنه لا غبار على دلالة الآية على خلافته عليه السلام ولو بمعاونة الأَخبار المفسرة المستفيضة العاميّة والخاصيّة كما ظهر دلالة تلك الأَخبار وغيرها من أحاديث الغدير المتواترة على المدّعي لو لم نقل بكونها صريحة في إثبات الدّعوى.

وأنت بعد الخبرة بما تلوناه عليك تقدر على دفع ما أورده بعض النّواصب علينا في الإستدلال بهذه الأَخبار.

منها: ما ذكره الشّارح القوشجي في **«شرح التّجريد»** عن شرح قول المحقّق الطوسي: ولحديث الغدير المتواتر، حيث قال: وأجيب بأنّه غير متواتر بل هو خبر واحد في مقابلة الإجماع كيف؟ وقد قدح في صحته كثير من أهل الحديث، ولم ينقله المحققون منهم كالبخاري ومسلم والواقدي، وأكثر من رواه لم يرو المقدمة التي جعلت دليلاً على أن المراد بالمولى الأَولى بالتصرف.

ومنها ما ذكره أيضاً كصاحب المواقف. من أنّ قوله: اللّهم وال من والاه، يشعر بأن المراد بالمولى هو النّاصر والمحب، قال القوشجي: بل مجرّد إحتمال ذلك كاف في دفع الاستدلال، وما ذكر من أن ذلك معلوم ظاهر من قوله: **(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)**، لا يدفع الإحتمال، لجواز أن يكون الغرض على التّنصيص على موالاته ونصرته ليكون أبعد عن التّخصيص الذي يحتمله أكثر العمومات، وليكون أوفى بإفادة الشّرف حيث قرن بموالاة النبي صلى الله عليه وآله.

ومنها: ما ذكراه أيضاً وهو أنّه وإن سلّم أن المراد بالمولى هو الأَولى فأين الدّليل على أنّ المراد الأَولى بالتّصرف والتّدبير؟ بل يجوز أن يراد به الأَولى في أمر من الأمور كما قال تعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [إبراهيم: ٦٨].

وأراد الأَولوية في الإتباع والإختصاص به والقرب منه لا في التّصرف فيه.

ومنها ما ذكره صاحب **«المواقف»** وبعض شرّاح **«التّجريد»** من أنّ **(أولى)** بمعنى **(أفعل)** **(ومولى)** بمعنى **(مفعل)** ولم يرد أحدهما بمعنى الآخر إلاّ لصحّ أن يقترن لكل منهما ما يقترن بالآخر، وذلك بأن يقال: فلان مولى من فلان كما يقال: فلان أولى من فلان، وفلان أولى فلان كما يقال مولى فلان، وليس فليس إلى غير ذلك من الوجوه السّخيفة التي لفقوها وصرف العمر فيها ظلم في حقّه فالتشاغل عنها أولى. ولا بأس بأن نشير إلى دفع هذه الإعتراضات لتعرف أنها أضغاث أحلام من عمل الشيطان وليقاس عليها غيره من الوجوه الضّعيفة البيان فنقول:

أمّا الإعتراض الأوّل وهو إنكار تواتر الحديث، ففيه أنه لم يصدر إلاّ عن التّعنت والتعصب يشهد بذلك مراجعة كتب الأخبار العاميّة والخاصية.

وقد رواه المحدث العلاّمة السّيد هاشم البحراني في كتاب **«غاية المرام»** بتسعة وثمانين طريقاً من طرق العامة وثلاثة وأربعين طريقاً من طرق الخاصّة، قال السّيد في الكتاب المذكور: أقول: خبر غدير خمّ قد بلغ حدّ التّواتر من طرق العامة والخاصة حتى أنّ محمّد بن جرير الطبري صاحب **«التاريخ»** أخرج خبر غدير خمّ وطرقه من خمسة وسبعين طريقاً وأفرد له كتاباً سمّاه كتاب الولاية وهذا الرّجل عاميّ المذهب.

وذكر أبو العباس أحمد بن محمّد بن سعيد بن عقدة خبر يوم الغدير وأفرد له كتاباً وطرقه من مائة وخمسة طرق وهذا قد تجاوز حدّ التواتر فلا يوجد خبر قط نقل من طرق بقدر هذا الطرق، والدّليل على ما ذكرناه من أنّه لم يوجد خبر له طرق كخبر غدير خم ما حكاه السّيد العلامة عليّ بن موسى بن طاووس، وعلي بن محمّد بن شهر آشوب ذكراً عن شهر آشوب، قال: سمعت أبا المعالي الجويني يتعجب ويقول شاهدت مجلّداً ببغداد في يد صحاف فيه روايات غدير خم مكتوباً عليه المجلّدة الثامنة والعشرون من طرق قوله: من كنت مولاه فعلي مولاه، ويتلوه المجلّد التّاسع والعشرون، انتهى[1].

وقال قاضي نور الله نوّر الله مرقده في كتاب **«إحقاق الحقّ»** في ردّ النّاصب اللعين فضل بن روزبهان: أنّه روى الحديث في صحاح القوم كالبخاري ورواه أحمد بن حنبل إمامهم في مسنده بطرق متعددة على الوجه الذي ذكره المصنف، وكذا رواه الثعلبي في تفسيره، وابن المغازلي الشّافعي في كتابه من طرق شتى، وابن عقدة في مائة وخمس طرق، وذكر الشيخ ابن الكثير الشّامي الشّافعي عند ذكر أحوال محمّد بن جرير الطبري الشّافعي أنّي رأيت كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين وكتاباً جمع فيه طرق حديث الطير، ونقل عن أبي المعالي الجويني أنّه كان يتعجب إلى آخر ما حكاه عنه في **«غاية المرام»**، ثم قال: وأثبت الشيخ ابن الجزري الشّافعي في رسالته الموسومة بأسنى المطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب عليه السلام تواتر هذا الحديث من طرق كثيرة، ونسب منكره إلى الجهل والعصبية.

وقال ابن شهر آشوب: العلماء مطبقون على قبول هذا الخبر وإنّما وقع الخلاف في تأويله، ذكره محمّد بن إسحاق، وأحمد البلادري، ومسلم بن الحجاج، وأبو نعيم الأصفهاني، وأبو الحسن الدارقطني، وأبو بكر بن مردويه، وابن شاهين وأبو بكر الباقلاني، وأبو المعالي الجويني، وأبو إسحاق الثعلبي، وأبو سعيد الخركوشي وأبو المظفر السّمجاني،

---

(١) غاية المرام: ١/ ٣٠٢.

وأبو بكر بن شيبة، وعلي بن الجعد، وشعبة، والأعمش وابن عباس، وابن الثلاج، والشعبي، والزّهري، والأقليشي، وابن اليسع، وابن ماجه، وابن عبد ربّه، والاسكافي، وأبو يعلى الموصلي من عدة طرق، وأحمد بن حنبل من أربعين طريقاً، وابن بطة من ثلاث وعشرين طريقاً، وابن جرير الطبري من نيف وستّين طريقاً، في كتاب الولاية، وأبو العباس بن عقدة عن مائة وخمس طرق، وأبو بكر الجعاني من مائة وخمس وعشرين طريقاً.

وقد صنف عليّ بن هلال المهلبي كتاب الغدير، وأحمد بن محمّد بن سعد كتاب من روى غدير خم، ومسعود السحري كتاباً فيه رواة هذا الخبر وطرقها.

واستخرج منصور (اللالكائي ظ)[١] الرّازي في كتابه أسماء رواتها على حروف المعجم، وذكر عن الصاحب **الكافي** أنه قال: روى لنا قصة غدير خم القاضي أبو بكر الجعابي، عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزّبير، والحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وعباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن عباس، وأبو ذر، وسلمان، وعبد الرّحمن، وأبو قتادة، وزيد بن أرقم، وجرير بن حميد، وعدي بن حاتم، وعبد الله بن أنيس، والبراء بن عازب، وأبو أيوب، وأبو بريدة الأسلمي، وسهل بن حنيف، وسمرة بن جندب، وأبو الهيثم، وعبد الله بن ثابت الأنصاري، وسلمة بن الأكوع، والخدري، وعقبة بن عامر، وأبو رافع، وكعب بن عجرة، وحذيفة بن اليمان، وأبو مسعود البدري، وحذيفة بن أسيد، وزيد بن ثابت، وسعد بن عبادة، وخزيمة بن ثابت، وحباب بن عتبة، وجند بن سفيان، وعمر بن أبي سلمة، وقيس بن سعد، وعبادة بن الصامت، وأبو زينب، وأبو ليلى، وعبد الله بن ربيعة، وأسامة بن زيد، وسعد بن جنادة، وحباب بن سمرة، ويعلى بن مرّة، وابن قدامة الأنصاري، وناجية بن عميرة، وأبو كاهل، وخالد بن الوليد وحسان بن ثابت، والنّعمان بن عجلان، وأبو رفاعة، وعمر بن الحمق، وعبد الله بن يعمر، ومالك بن الحويرث، وأبو الحمراء، وضمرة بن الحبيب «الحديد» خ، ووحشي بن حرب، وعروة بن أبي الجعد، وعامر بن النميري، وبشر بن عبد المنذر، ورفاعة بن عبد المنذر، وثابت بن وديعة وعمرو بن حريث، وقيس بن عاصم، وعبد الأعلى بن عدي، وعثمان بن حنيف، وأبيّ بن كعب، ومن النّساء فاطمة الزّهراء، وعائشة، وأمّ سلمة، وأمّ هاني، وفاطمة بنت حمزة، انتهى[٢].

وبالجملة فقد بلغ هذا الخبر في الإشتهار إلى حدّ لا يوازيه خبر من الأخبار وتلقته محقّقوا الأمة بالقبول والإعتبار، فلا يردّه إلاّ معاند جاحد، أو من لا إطلاع له على كتب

---

(١) وفي نسخة: اللالكائي، وفي المصدر: اللاتي.

(٢) بطوله في مناقب آل أبي طالب: ٢/٢٢٨.

الحديث والآثار[(١)].

---

(١) **مصادر حديث الغدير**

تلخيص المتشابه: ١/ ٢٤٤ رقم ٣٨٣ البراء بزيادة: وابغض من أبغضه وأحب ـ وأعز من نصره، والاحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ٩/ ٤٢ ح ٦٨٩١، والمعارف: ٣٢٠ أهل العاهات عن أنس، ومسند شمس الاخبار: ١/ ١٠١ الصادق وعلي، وامالي الشجري: ١/ ١٤٦ أبو هريرة الحديث السادس، والاعتقاد للبيهقي: ١٨١ ـ ١٨٢ ـ ١٩٥، والبيان والتعريف في أسباب ورود الحديث: ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ح ١٥٧٦، وأخرجه أحمد ومسلم عن البراء والترمذي والنسائي والضياء المقدسي عن زيد قال الهيثمي رجال أحمد ثقات وفي موضع آخر رجاله رجال الصحيح وقال السيوطي الحديث متواتر، والمصنف لابن أبي شيبة: ٦/ ٣٦٨ ح ٣٢٠٥٦ وما بعده عن بريدة وجابر الأنصاري ورباح بن الحرث وأبي أيوب وسعد، ومسند أبي يعلى: ١١/ ٣٠٧ ح ٦٤٢٣ عن أبي هريرة، ومشكاة المصابيح: ٣/ ١٧٢٣ ح ٦٠٩٤ البراء وزيد مع تهنئة عمر باب فضائل علي، ومصابيح السنّة: ٤/ ١٧٢ ح ٤٧٦٧ زيد باب فضائل علي، وسنن ابن ماجة: ٤٣ ـ ٤٥ عن البراء وسعد ـ المقدمة التاريخ الكبير: ٤/ ١٩٣ و ٦/ ٢٤١، وتهذيب الكمال: ٢٠/ ٤٨٤، والمواهب اللدنية: ٢/ ٥٣٢، ومسند البزار: ٣/ ٣٥ ح ٧٨٦، وتاريخ اصبهان: ١/ ١٤٢ ـ ١٦٢ ـ ٢٨٣، وتاريخ بغداد: ٧/ ٣٨٩، والتاريخ الكبير: ١/ ٣٧٥ ح ١١٩١، والمستدرك: ٢/ ١٣٠.

والمعجم الاوسط: ٩/ ١٩٩ ح ٨٤٢٩ عن أبي سعيد، ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٥٨ ح ١٤٩٦٣ عن زيد وحذيفة بن أسيد و١٢٨ إلى ١٣٨ ح ١٤٦١٠ وما بعده عن جملة من الصحابة، وفضائل الصحابة: ٢/ ٥٦٣ ـ ٥٦٩ ـ ٥٧٢ ـ ٥٨٦ ـ ٥٩٦ ـ ٥٩٨ ـ ٥٩٩ ـ ٦١٠ ـ ٦١٢ ـ ٦١٣ ـ ٧٠٥ ح ٩٤٧ إلى ح ١٠٤٨ ـ ح ١٢٠٦ من طرق، والفردوس: ١/ ٤٩٩ ح ٢٠٣٧ ط. الكتب و٥٥٤ ح ١٨٦١ ط. الكتاب، والمصنف لعبد الرزاق: ١١/ ٢٢٥ ح ٢٠٣٨٨ بريدة باب أصحاب النبي ومسند الشاشي: ١/ ١٢٧ و ١٦٦ ح ٦٣ و ١٠٦ عن سعد، والمطالب العالية: ٤/ ٦٠ ـ ٦٥، ومناقب الكوفي: ١/ ١١٩ ـ ١٢٧ ـ ١٧١، والشفاء: ١/ ٢٤١ و ٢/ ٤٨ الغدير متواتر، وكشف الخفاء: ٢٧٤، وفاء الوفا: ٢/ ١٠٨١ عن البراء وزيد الفصل الثالث من الباب السادس ـ مسجد غدير خم، ونزل الأبرار: ٥١ الى ٥٤ من طرق متعددة الباب الاول، والجواهر: ٢٣٥ ـ ٢٣٧، والمعجم الاوسط: ١/ ٢٢٩ ح ٣٤٨ عن بريدة و ٢/ ٥٧٦ ح ١٩٨٧ مع شهادة الناس به عن زيد و٢/ ٦٨ ح ١١١٥ عن أبي هريرة، وشرح الأخبار: ١/ ٩٩ ح ٢١ عن زيد وجابر وابن عمر والباقر، وجواهر المطالب: ١/ ٨٣ الى ٨٦ باب ١٢ عن أبي الحارث والبراء وزيد وأبو الطفيل ومحمد، والمعجم الاوسط: ٧/ ٤٤٨ ح ٦٨٧٨ عن عمير

وكنز العمال: ١٣/ ١٣٨ ح ٣٦٤٣٧ عن جرير البجلي، و١٣١ ح ٣٦٤١٧ و١٥٧ ح ٣٦٤٨٥ عن ابن زيد، و١٥٤ ح ٣٦٤٨٠ و١٠٤ ح ٣٦٣٤٠ و١٥٨ ح ٣٦٤٨٧ عن ابن يثيع و١٣٧ ح ٣٦٤٣٣ عن جابر و١٣٤ ح ٣٦٤٢٠ عن ابن عازم و١٧٠ عن ابن ليلى وابي عمر.

شواهد التنزيل: ١/ ٢٠٠ الى ٢٠٨ ح ٢١٠ وما بعده عن ابي هريرة وابن عباس وابي سعيد و٢٤٩ الى ٢٥٨ ح ٢٤٤ وما بعده عن ابي هريرة وابي سعيد وابن عباس وابن ابي أوفى والباقر وجابر و٢/ ٣٨١ و٣٩٠ ـ ٣٩٢ ح ١٠٣٠ وما بعده عن علي وعلي بن الحسين والباقر وحذيفة وابي هريرة، ومناقب الكوفي: ٢/ ٤١٥ ـ ٤١٢ ـ ٣٦٥ ـ ٣٨٧ ـ ٣٨٨ الى ٤٠٩ و٤٢٣ الى ٤٥٥.

وتاريخ الاسلام: ٣/ ٦٢٨ ـ ٦٢٩ ـ ٦٣١ ـ ٦٣٢ ـ عهد الخلفاء عن سعد وبريدة وابي الطفيل وزيد والبراء، واخبار الدول: ١٠٢ باب ٢ فصل ٤، وشرح النهج: ٦/ ١٦٨ الخطبة ٧٣، ومناقب علي للكلابي: ٤٤٣ ح ٣١، والتنبيه والاشراف: ٢٢١ ذكر سنة ٨ هجري، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ٢/ ٤٥ ـ ٣٥ ح ٥٤٧ ـ ٥٣٥ وما بعده عن زيد من طرق وحذيفة بن اسيد والبراء وطلحة وابن مسعود وجابر وابي سعيد وغيرهم كما

....

ياتي، وروضة الواعظين: ٨٩ - ١٠٠، تاريخ الخميس: ١/ ٣٥١، واسمى المناقب: ٢١ ـ ٣١ ـ ٣٣ عن جملة من الصحابة كما ياتي. وانساب الاشراف: ٢/ ١٥٦ عن ابي وائل، وكنز الفوائد: ٢٢٦، والذرية الطاهرة: ١٦٦ ح ٢٢٨ عن علي، والفصول المهمة: ٤١ - ٤٢ عن علي وابي سعيد وسفيان بن عينية.
وتذكرة الخواص: ٣٥ - ٣٦ باب الثاني عن راذان وبريدة ورياح بن الحرث والعوفي عن زيد والبراء، والعقد الفريد كتاب الخلفاء ـ خلافة علي: ٤/ ٢٩١، والمستدرك: ٣/ ١٠٩ ـ ١١٠ عن زيد وبريدة من كتاب المعرفة ـ مناقبه.
والنور المشتعل: ٥٦ عن ابي سعيد ح ٤، الفتوح: ١/ ٣٠٢ عن عمار مناظرة ابي نوح وذي الكلاع، وخصائص النسائي: ٨٥ الى ٩١ ـ ٩٦ الى ٩٨ ـ ١٣٥ ح ٧٦ الى ٩٣ ـ ١٥٣ عن ابن يثيع والبراء وزيد وبريدة وسعد وعميرة وابن وهب، والمعجم الصغير: ١/ ٦٤ ح ١٦٢ ما اسمه احمد و٧١ ح ١٧٨، وصفة الصفوة: ٢/ ١٢١، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٩ ـ ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٩ ـ ٣٩٦ الى ٤٠٩ ح ٢٥٠ ـ ٢٥١ ـ و٢٧٤ وما بعدها ح ٤٥٨ وما بعده الى ح ٤٧٨ عن جملة من الصحابة كما ياتي في الرواة.
والمسند: ١/ ١٤٢ ـ ١٨٩ ـ ١٩١ ـ ٥٤٥ ح ٦٧٢ و٩٥٣ ـ ٩٦٤ ح ٣٠٥٢ ط.ب و٨٨ ـ ١١٩ ـ ١١٨ ـ ٣٣١ و٥/ ٣٧٠ ـ ٣٤٧ ط.م و٦/ ٥١٠ ـ ٤٧٦ ح ٢٢٤٣٦ ـ ٢٢٦٣٣ عن بريدة وزيد ط.ب.
وصحيح الترمذي: ٥/ ٦٣٣ ط. دار الحديث، ومروج الذهب: ٢/ ١٠ ط. مصر ١٣٤٦ و٢/ ٣٦٤ ط. دار الاندلس بيروت ـ ذكر موقعة الجمل عن علي وطلحة و٤٢٥ ذكر لمع من كلامه وفضله، والمعجم الكبير للطبراني: ٢/ ٣٥٧ ح ٢٥٠٥ ترجمة جرير ما روى بشر عنه و٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠ ح ٣٠٤٩ ـ ٣٠٥٢ ترجمة حذيفة بن اسيد ما روى عنهو اثلة.
وأسد الغابة: ١/ ٣٦٨ ترجمة حبيب بن بديل، و٣/ ٣٠٧ ـ ٩٢ ترجمة عامر بن ليلى وعبد الرحمن، و٥/ ٢٠٥ ترجمة ابو زينب ابن عوف و٥/ ٦ ترجمة ناجية بن عمرو و١/ ٣٠٨ ترجمة جندع الانصاري، ٤/ ٢٨ ترجمة علي وفضائله و٥/ ٢٧٦ ترجمة ابي قدامة.
والمسند: ٥/ ٤٩٥ ـ ٥٠٢ ـ ٤٩٨ ـ ٥٠١ ط.ب و٤/ ٢٨١ ـ ٣٧٠ ـ ٣٦٨ ـ ٣٧٢ ط.م و١ / ٣٣١ ط.م و١/ ٥٤٥ ط.ب و٨٤ ـ ٨٨ ـ ١١٨ ـ ١١٩ ط.م و١٣٥ ـ ١٩١ ـ ١٨٩ ط.ب، والامامة والسياسة: ١/ ٩٧ ط. مصر ١٣٧٨ تحقيق طه الزيني و١٢٩ ط. بيروت تحقيق علي شيري ـ وقوع عمرو في علي، والجامع الصغير للطبراني: ٢/ ٣١٥، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١١٢ ذيل حجة الوداع.
ومنتخب كنز العمال: ٥/ ٣٠ ـ ٣٢ عن عائشة، وذخائر العقبى: ٦٧ عن البراء بن عازب وعمر وزيد، وارشاد القلوب: ٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٤ ـ ٣٣١ ـ ٣٨١ عن ابي ذر والصادق وحذيفة وقيس، وتاريخ السيوطي: ١٦٩ في الاحاديث الواردة في فضله عن جمله من الصحابة، وتقريب المعارف: ١٥١، والايضاح: ٥٢، ومائة منقبة: ٧٢ المنقبة ٢٢ عن علي، وتفسير عياشي: ١/ ٢٥٠، والطرائف: ١/ ١٤٠ ـ ١٢١، وعيون اخبار الرضا: ١/ ٤٤ باب ٦ ح ٢٠.
واحقاق الحق: ٢/ ٤٢٦ الى ٤٨١ وذكر جملة كبيرة من مصادر الغدير.
والمعجم الكبير: ٥/ ١٧٠ ح ٤٩٨٠ ترجمة زيد ما روى ابو الضحى بن صبيح عنه و١٦٦ ح ٤٩٦٩ ترجمة زيد ما روى عنه واثلة و١٧٥ ـ ١٩٢ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥ ترجمة زيد بن أرقم ما روى عنه ابو سليمان واسحاق السبعي والشيباني وثوير وابو ليلى وعطية وميمون ح ٥٠٩٠ وما بعده وانيسه بنت زيد ح ٥١٢٥ و٢٠٣ و٢١٢ ح ١٩٥٩٣ وما بعده ترجمة ابن عباس ما روى عنه عمرو بن ميمون ـ و٤/ ١٧ ح ٣٥١٤ ترجمة حبشي بن جنادة، و١٧٣ و١٧٤ ح ٤٠٥٢ ترجمة ابي ايوب ما روى عنه رباح ـ و١٢/ ٧٨ ح ١٩٥٩٣ ترجمة

وأمّا الإعتراض الثّاني وهو إشعار أخِر الحديث بإرادة النّصرة والمحبة، فهو إنّما يتمّ لو قيل إنّ اللّفظ بعدما اطلق على أحد معانيه لا يناسب أن يطلق ما يدانيه ويناسبه في الإشتقاق على معنى آخر، وليس كذلك، بل قد يعدّ ذلك من المحسنات البديعية، فالأشعار بذلك خصوصاً مع المقدمة المتواترة ممنوع، على أنّ مؤخر الخبر جملة دعائية مستأنفة ليس إرتباطه بوسط الحديث كارتباط المقدّمة به، فإشعاره بذلك لا يكافؤ إشعار المقدمة بخلافه.

هذا كله مضافاً إلى أنّ من تأمّل في الآية بعين البصيرة والإعتبار يعلم أنّ سياقها يقتضي أنّ المأمور بتبليغه أمر عظيم يفوت بفوات تبليغه ركن من أركان الشريعة على ما يقتضيه قوله: وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، خصوصاً على قراءة فما بلغت رسالاته بصيغة الجمع كما في «**الكشّاف**» وغيره. وأيّ أمر يفوت من الشّريعة بعدم تبليغ أنّ عليّاً عليه السلام ناصر المؤمنين، وأيّ خوف كان للرّسول صلى الله عليه وآله في إظهار نصرته عليه السلام حتّى يقول الله والله يعصمك من النّاس مع أنّ نصرته للإيمان وحمايته للإسلام وكونه ناصراً للمؤمنين وذابّاً عن دين سيّد المرسلين كان بديهيّاً غير محتاج إلى البيان.

فبديهة العقل حاكمة بأنّ نزول النّبي صلى الله عليه وآله في زمان ومكان لم يكن نزول المسافر متعارفاً فيهما، حيث كان الهواء على ما روي في بعض طريق الحديث في شدة الحرارة حتّى كان

ابن عباس ما روى عنه ابن ميمون و٩٥ ح ١٢٦٥٣ ترجمة ابن عباس ما ورى عنه الضحاك، ـ و١٩/ ٢٩١ ترجمة مالك بن نضلة الجشمي.

وكنز العمال: ١١/ ٦٠٢ ـ ٦٠٩ ح ٣٢٩٠٤ ـ ٣٢٩٤٩، ومقامات العلماء: ٢١٢ ـ ١٥٠، ومناقب الخوارزمي: ١٢٧ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ ٢٠٥ ـ ١٩٩ ـ ١٨٢ ـ ١٥٥ فصل ١٣ ـ ١٤ ـ ١٦ ح ١٨٢ ـ ٢٢١ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ح ١٤٠، ومقتل الحسين للخوارزمي: ١/ ٤٧ فصل ٤ عن جملة، وسنن ابن ماجة: ٤٣ ـ ٤٥ المقدمة فضل علي، والفصول المهمة: ٣٩ - ٤١ عن زيد وعامر والبراء، وكنوز الحقائق: ٤٨١، والصواعق المحرقة: ٦٥ - ٦٦ الشبهة ١١ و١٨٧ باب ٩ فصل٢.

والمسند: ٤/ ٢٨١ - ٣٧٠ - ٣٧٢ ط.م و٥/ ٣٥٥ ـ ٤٩٨ ـ ٥٠١ ح ١٨٠١١ ـ ١٨٨١٥ ـ ١٨٨٣٨ عن البراء وزيد ومسند احمد: ١/ ٨٤ - ٨٨ - ١١٩ - ٣٣١ ط.م و١/ ١٣٥ ـ ١٤٢ ـ ١٩١ ـ ١٨٩ ـ ٥٤٥ ط.ب.

اسباب النزول للواحدي: ١٢٦ ـ ١٣٥، وفتح الغدير: ٢/ ٦٠.

وينابيع المودة: ١/ ٣٠ ـ الى ٣٧ ـ ١١٥ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٩ ـ ٢٧٤ ط. استانبول ١٣٠١ هـ و٣٣ الى ٤١ ط. النجف باب ٤ عن البراء وزيد وابي سعيد وبريده وعامر وعلي وسليم وابن ميمون وحذيفة وابن عباس، وابي عمر وابي الطفيل و١٣٥ باب ٣٨ عن سليم و٢٨٣ ـ ٢٩٧ باب ٥٦ المناقب السبعون و٣٢٨ باب ٥٧، وامالي الصدوق: ١٠٦ ـ ١٠٧ المجلس ٢٦، ومعاني الاخبار: ٦٥ - ٦٧، وغيبة النعماني: ٤٦، وعيون الاخبار: ١/ ٤٤ باب ٦ ح ٢٠.

وكفاية الطالب: ٥٦ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦٢ من الباب الاول و٢٤٣ باب ٦٢ و٢٨٦ باب ٧٠.

والازهار المتناثرة: ٧٦ ح ١٠٢ وقد فصل طرقه، واتحاف ذوي الفضائل: ١٦٩ ح ٢١٦، ونضم المتناثر: ٢٠٦ ح ٢٣٢.

الرّجل يستظل بدابته ويضع الرّداء تحت قدميه من شدة الرّمضاء وحرّ الهاجرة، والمكان مليء من الأشواك، ثم صعوده على منبر من الأقتاب والدّعاء لعلي عليه السلام على وجه يناسب شأن الملوك والخلفاء لم يكن إلاّ لنزول الوحي الحتمي الفوري في ذلك الزّمان لإستدراك أمر عظيم الشّأن جليل الخطب يختص بخصوص علي عليه السلام كنصبه للإمامة والخلافة، لا لمجرّد طلب المحبة والنصرة الجارية في حقّه وفي حقّ غيره من أهل بيته صلى الله عليه وآله.

ومع ذلك كله فلا مجال لإحتمال إرادة النصرة حتّى يدفع به الإستدلال كما توهّمه النّاصب القوشجي، كما لا مجال لإحتمال التّخصيص بعد ملاحظة كثرة مجاهداته في الدّين، ونهاية نصرته في غزواته المؤمنين حتّى يحتاج إلى التّنصيص على ما توهّمه أيضاً.

وأمّا الإعتراض الثّالث ففيه أنّ التقييد بقوله: من أنفسهم، أو من أنفسكم، على إختلاف الرّوايتين دليل على أنّ المراد بالأَولى هو الأَولى بالتّصرف دون الأَولى في أمر من الأمور، إذ لا معنى للأَولوية من النّاس بنفس النّاس إلاّ الأولوية في التصرف نعم لو لم يوجد القيد لتمت المعارضة بقوله: إنّ أولى النّاس بإبراهيم، فإنّه لو كان نظم الآية مثلاً إنّ أولى النّاس بإبراهيم من نفسه، لكان المراد الأولى بالتصرف.

وأمّا الإعتراض الرّابع ففيه أن عدم ورود مولى بمعنى الأَول ممنوع، وقد نقله الشّارح القوشجي في قوله تعالى:

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ١٥] .

عن أبي عبيدة، واستدل على مجيئه بهذا المعنى بهذه الآية، وبقوله صلى الله عليه وآله «أيّما امرأة نكحت بغير إذن مولاها»، أي الأولى بها والمالك لتدبير أمرها، ثم قال: «ومثله في الشّعر كثير»[1].

وأمّا الإستدلال عليه بعدم صحة إقتران كلّ منهما بما يقارنه الآخر، ففيه أن كون أحد اللفظين بمعنى الآخر لا يقتضي صحة إقترانه بكل ما يقترن به الآخر ولا جريان حكم أحدهما على الآخر مطلقاً ألا ترى أنّ الصّلاة بمعنى الدّعاء مع أنّ تعدية الأوّل بعلي وتعدية الثاني (باللام)، يقال: صلى عليه ودعا له، ولو قيل دعا عليه لم يكن بمعناه، وأنّ كلمة (إلاّ) بمعنى (غير) لا يجوز حذف موصوفها، ولا يقال جائني إلاّ زيد بخلاف غير فإنّه يقال: جائني غير زيد، والسّر في ذلك أنّ إستعمالات كلام العرب منوطة على التّوقيف والتّوظيف. فكل مقام إستعملت فيه كلمة مخصوصة على كيفية خاصة فلا بدّ من متابعتها، ولا يجوز التعدي عنها لبطلان القياس في اللغات.

وحاصل الكلام أنّه بعد تواتر الحديث كما اعترف به أكابر أهل السنة ووضوح دلالته،

---

(١) راجع كتاب الأربعين للماحوزي: ١٥٨، والغدير: ١/ ٣٥٤.

يكون إرتكاب القدح فيه والمنع عليه ناشياً عن إعوجاج الفطرة وسوء الإستعداد والتورّط في العصبية والعناد، ذلك جزآؤهم جهنم بما اتخذوا آيات الله وأوليائه هزواً، هذا.

والآيات القرآنية النّازلة في حق أمير المؤمنين وأولاده المعصومين سلام الله عليهم أجمعين كثيرة جداً وسيأتي الإشارة إليها إجمالاً في أخبار مناشدته صلوات الله عليه مع الصّحابة يوم الشورى وغيرها، وطوينا عن الزّيادة على ما ذكرناه لغرضين، أحدهما مخافة الإطناب، والثّاني الخوف عن عدم مساعدة العمر لإتمام الكتاب ومن أراد الإطلاع عليها تفصيلاً فليرجع إلى كتب أصحابنا المؤلفة في ذلك المقصد، ككتاب **«كشف الحقّ»** للعلامة الحلي، وكتاب **«غاية المرام»** للسّيد هاشم المحدث البحراني، وغيرهما من مؤلفات القوم، فإن فيها كفاية لمن له علم ودراية، وإذا عرفت عذرنا في الإقتصار من الآيات على هذا المقدار فلنتصد إلى الأخبار فنقول:

القسم الثاني

السنة النّبوية والأخبار الدالة على إمامته عليه السلام، وهي أكثر من أن تحصى، وقد صنف علماؤنا في ذلك وأكثروا ولنقصر هٰهنا على القليل لأنّ الكثير غير متناه.

فمنها خبر الغدير المتواتر الذي رويناه سابقاً.

ومنها قوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنت أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي وقاضي ديني»[1]، تمسك به في **«التّجريد»** وهو نصّ صريح دال على خلافته عليه السلام وأورد عليه بعض شرّاحه أولاً: بأنّه خبر واحد في مقابلة الإجماع ولو صحّ لما خفي على الصّحابة والتابعين والمهرة المتفننين والمحدثين سيما عليّ وأولاده الطاهرين، ولو سلم فغايته إثبات خلافته عليه السلام لا نفي خلافة الآخرين وثانياً، أنه أراد به الوصية والخلافة على المدينة، ويحتمل ذلك في قضاء دينه وإنجاز موعده، ومع تطرق هذه الإحتمالات لا يمكن التمسك به في وجوب خلافته.

أقول: أما ما ذكره من أنّه خبر واحد في مقابلة الإجماع، ففيه منع صحة الإجماع حسبما يأتي في مقامه إنشاء الله، وما ذكره من أنّه لو صح لما خفي على الصحابة، ففيه أنّه لم يخف على عليّ وأولاده الذين هم رؤساء الصّحابة، وقد تمسكوا به وبنظيره في غير واحد من إحتجاجاتهم وصرّحوا به في أخبارهم ورواياتهم، أما غيرهم ممن عقدوا قلبهم على إطفاء نور الله وأجمعوا أمرهم على غصب خلافة الله فلم يخف عليهم أيضاً وإنما أخفوه عمداً حيث كان إظهاره نقضاً لغرضهم، وما ذكره من أنّه على تقدير تسليمه إنّما يثبت خلافته ولا ينفي خلافة الآخرين، ففيه بعد تسليم عدم نفيه لخلافة الآخرين أنّ كفايته لإثبات خلافته عليه السلام فقط كافية

(١) الصراط المستقيم: ٢/ ٨٢.

لنا، وما المقصود إلاّ ذلك، وأمّا خلافة الآخرين فقد قامت الأدلة القاطعة والبراهين السّاطعة على عدمها حسبما تطلع عليها في مواردها إن شاء الله تعالى.

وأمّا الإيراد باحتمال كون الوصيّة والخلافة على المدينة ففيه أنّه خلاف الظاهر، إذ ظاهر اللفظ الإطلاق ولا يعدل عنه إلاّ بدليل وليس فليس، بل نقول: إنّ حذف المتعلق دليل العموم، بل قوله ﷺ: «من بعدي»، لا يخلو من إشعار بعدم كون مراده الخلافة على المدينة كما لا يخفى، وكيف كان فلا ريب في بطلان الإحتمال المذكور كما لا ريب في بطلان إحتمال كون متعلق الوصيّة قضاء الدّين وإنجاز الموعد لما ذكرنا من أصالة الأطلاق خصوصاً بملاحظة قوله: «وقاضي ديني» فإنّ تصريحه به مشعر بل مفيد لعدم كون متعلق الخلافة والوصاية ذلك فقط وإلا كان الأنسب أن يقال: ووصيّي في قضاء ديني.

وهذا كله على التنزل والمماشاة وإلاّ فنقول: إنه ﷺ لم يكن له دَين يبقى على ذمّته إلى وفاته حتّى يوصي به إليه، لما روي أنّه في أيام مرضه طلب براءة الذّمة عن النّاس ولم يدّع عليه أحد شيئاً سوى من ادّعى عليه ضرب سوط من عمد، وعلى هذا فالظاهر أنّ الدّين في قوله ﷺ: وقاضي ديني بكسر (الدّال) كما صرح به المحقّق الطوسي في «التجريد»، وعليه فهو دليل آخر على المدّعيٰ إذ الحاكم في أمر الدِّين لا بد وأن يكون خليفة معصوماً.

ومنها ما رواه الشّارح المعتزلي في شرح الخطبة القاصعة وهي الخطبة المائة والحادية والتسعون، عن جعفر بن محمّد الصّادق عليهما السلام قال: كان علي عليه السلام يرى مع رسول الله ﷺ قبل الرّسالة الضّوء ويسمع الصّوت، وقال ﷺ له عليه السلام: «لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة، فإن لا تكن نبيّاً فإنّك وصي نبيّ ووارثه بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء»[1].

ومنها ما رواه الشّارح هناك أيضاً عن الطبرسي في «تاريخه» عن عبد الله بن عباس عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: لما نزلت هذه الآية.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وساق الحديث إلى أن قال: ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا بني عبد المطلب إنّي والله ما أعلم أنّ شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدّنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت: أنا، وإني لأحدثهم سناً وأرمضهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً، أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فأعاد القول فامسكوا

(١) مناقب أهل البيت للشيرواني: ١١٣، والمراجعات: ٣٩٨.

وأعدت ما قلت: فأخذ برقبتي ثم قال لهم: هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[١].

أقول: وجوه الدلالة في هذه الرّواية من طرق شتّى غير خفيّة على من استضاء قلبه بنور الولاية أو ألقى السّمع وهو شهيد، وسيأتي إنشاء الله بتمامه في مقامه، والعجب كلّ العجب من الشّارح كيف خفي عليه وجوه الدّلالة وعزب عن الإهتداء إليها.

ومنها ما رواه هناك أيضاً قال: قال النبي ﷺ في الخبر المجمع[٢] على روايته بين سائر فرق الإسلام: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي»، ثم قال: فأثبت له جميع مراتب هارون ومنازله عن موسى، فإذا هو وزير رسول الله ﷺ، وشادّ ازره، ولولا أنه خاتم النّبيين لكان شريكاً في أمره، انتهى[٣].

أقول: توضيح الإستدلال وتحقيقه أنه ﷺ أثبت لعلي عليه السلام جميع مراتب هارون من موسى واستثنى النّبوة ويبقى الباقي على عمومه، ومن جملة المنازل أنه كان خليفة لموسى عليه السلام بدليل قوله تعالى: إخلفني في قومي، فكان خليفة في حياته فيكون خليفة بعد وفاته لو عاش، لكنه لم يعش وعلي عليه السلام عاش فتكون خلافته ثابتة.

قال القوشجي في «**شرح التّجريد**»: وأجيب بأنّه غير متواتر بل هو خبر واحد في مقابلة الإجماع، وبمنع عموم المنازل بل غاية الإسم المفرد المضاف إلى العلم الإطلاق، وربّما يدعي كونه معهوداً معيّناً كغلام زيد، وليس الإستثناء المذكور إخراجاً لبعض أفراد المنزلة بمنزلة قولك إلاّ النّبوة، بل منقطع بمعنى (لكن)، فلا يدلّ على العموم كيف، ومن منازله الأخوة ولم يثبت لعلي عليه السلام، اللهم إلاّ أن يقال إنّها بمنزلة المستثنى لظهور إنتفائها، ولو سلم العموم فليس من منازل هارون الخلافة والتّصرف بطريق النّيابة على ما هو مقتضى الإمامة لأنّه شريك له في النّبوة، وقوله إخلفني ليس إستخلافاً، بل مبالغة وتأكيداً في القيام بأمر القوم، فلو سلم فلا دلالة على بقائها بعد الموت، وليس إنتفاؤها بموت المستخلف عزلاً ولا نقصاً، بل ربّما تكون عوداً إلى حالة أكمل هي الإستقلال بالنبوّة والتّبليغ من الله، وتصرف هارون ونفاذ أمره لو بقي بعد موسى إنّما يكون لنبوّته، وقد انتفت النّبوة في حق علي فينتفي ما ينى عليها ويتسبّب عنها، وبعد (اللتيا) (والتي) لا دلالة فيه على نفي إمامة الأئمة الثّلاثة قبل علي عليه السلام، انتهى.

ويتوجه عليه وجوه من الكلام وضروب من الملام الأوّل أنّ إنكار تواتر الخبر ممّا لا

(١) أمالي الطوسي: ٥٨٣ ح ١٢٠٦، والبحار: ١٨/١٩٢ ح ٢٧.
(٢) راجع المراجعات: ١٩٧ ـ ٢٠٤، والغدير: ١/٣٩ ـ ٥١ ـ ١٩٧.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣/٢٥٥، وتاريخ الطبري: ٢/٣١٩.

يصغي إليه بعد ما سمعته من الشّارح المعتزلي من كونه مجمعاً على روايته بين فرق الإسلام، وقد رواه السّيد المحدث البحراني في كتاب «غاية المرام» بمائة طريق من طرق العامة، وبسبعين طريقاً من طرق الخاصّة[١].

الثاني: أن عدم إفادة المفرد المضاف للعموم بحسب الوضع مسلم، إلاّ أنّه لا غبار على إفادته له في المقام بخصوصه بقرينة الإستثناء وبدليل الحكمة، لأنّا لو حملنا المنزلة على بعض المنازل دون بعض فإمّا أن تكون معيّنة أو مبهمة، والأوّل ممتنع، ضرورة عدم دلالة اللفظ على التّعيين، والثّاني أيضاً ممتنع لما فيه من الإجمال وعدم الإفادة، نظير ما قاله الأصوليون في إفادة المفرد المعرّف للعموم إذا لم يكن ثم معهود، مثل قوله: أحلّ الله البيع.

الثّالث: أنّ الأَصل في الإستثناء الإتّصال وحمل (إلاّ) بمعنى (لكن) خلاف الظاهر.

الرّابع: أنّ معنى قوله: إخلفني في قومي، كن خليفتي فيهم كما صرّح به في «الكشّاف»، وعلى ذلك فكان تصرّفه في القوم بطريق النّيابة عن موسى كما كان نافذ التّصرف بالأصالة بمقتضى نبوّته وحيث انتفى النّبوة في حقّ علي عليه السلام فتكون تصرفاته بطريق النّيابة.

الخامس: هب أن بقاء هارون بعد موسى لا يقتضي كونه نافذ التّصرف من حيث النّيابة والخلافة لإمكان النبوة المستقلة في حقّه من الله التي هي أعلى وأكمل رتبة من مرتبة الخلافة من موسى، إلاّ أنّ النّبوة لما كانت غير ممكنة في حقّ علي عليه السلام بمقتضى الإستثناء فلا بدّ وأن يكون نفوذ تصرّفه المستند إلى الخلافة في حال حياة النّبي المستفاد من عموم المنزلة مستمراً إلى ما بعد الوفاة، وإلا لزم العزل والنّقص وتنفر الطباع، إذ نفوذ التصرف مرتبة جليلة لا يحط عنها من ثبت له هذه المرتبة، لأن ذلك يقتضي غاية التنفير، وبعبارة أخرى المجيب قد سلم كون إنتفاء الخلافة بموت المستخلف موجباً للعزل والنّقص إلاّ أنه قد ذبّ عنه بإمكان جبران ذلك النقصان بحصول مرتبة هي أكمل من مرتبة الخلافة، وعليه فأقول: إنّ الجابر للنّقص لما لم يكن في حقّ على عليه السلام، لزم بقاء الخلافة في حقّه على حالها لوجود مقتضى البقاء وهو ظاهر لا يخفى.

السّادس: أنّ عدم دلالته على نفي إمامة الثّلاثة ممنوع، لأنّه إذا دلت الرّواية على عموم المنزلة حسبما عرفت، فمن جملة منازل هارون هو التّدبير والتّصرف ونفاذ الحكم على فرض التعيّش بعد موسى عليه السلام على عامة الأمة بحيث لم يشذّ منهم أحد، فبعد إثبات العموم وتسليم الخصم يلزم دخول عامة امّة النّبي صلى الله عليه وآله في حال حياته وإرتحاله تحت تصرف أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عامة قوم موسى تحت تصرف هارون، وهذا ينفي إمامة الثلاثة مطلقاً،

(١) أنظر غاية المرام: ١/ ٢٦٧ الباب ١٦.

فقد تحقق مما ذكرنا كله كفاية الرواية في إثبات خلافته ونفي خلافة الثلاثة، ويأتي إن شاء الله مزيد تحقيق وبسط لذلك في التنبيه الثالث من شرح الفصل الثامن من فصول الخطبة المائة والحادية والتسعين، ولنعم ما قال زيد بن علي عليه السلام:

فمن شرف الأقوام يوماً برأيه ... فإنّ عليّاً شرّ فته المناقب
وقول رسول الله والحقّ قوله ... وإن رغمت منه أنوفُ الكواذب
بأنك منّي يا عليّ معالناً ... كهارون ومن موسى أخ لي وصاحب

وقال آخر:

وانزله منه على رغمة العدى ... كهارون من موسى على قدم الدّهر
فمن كان في أصحاب موسى وقومه ... كهارون لازلتم على زلل الكفر

وقال ابن حماد:

نصّ النبي على الهادي أبي الحسن ... نصّاً على صدقه أجمعت أنت معي
في قوله لك منّي اليوم منزلة ... كانت لهارون من موسى فلا نرع
وانّما قال هذا حين خلفه ... على المدينة أن انصفت فاقتنع

ومنها ما رواه في **«غاية المرام»** عن ابن المغازلي الشّافعي بإسناده عن جابر بن عبد الله عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أنزل قطعة من نور فأسكنها في صلب آدم فساقها حتّى قسمها جزئين فجعل جزء في صلب عبد الله وجزء في صلب أبي طالب، فأخرجني نبياً وأخرج عليّاً وصيّاً»[(١)].

ومنها ما رواه في **«غاية المرام»** عن ابن شيرويه الدّيلمي وهو من أعيان علماء العامة من كتاب **«الفردوس»** في باب الخاء، قال بإسناده عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خلقت أنا وعليّ من نور واحد قبل أن يخلق الله آدم بأربعة آلاف عام، فلما خلق الله آدم ركب ذلك النّور في صلبه فلم نزل في شيء واحد حتّى افترقنا في صلب عبد المطلب ففيّ النّبوة، وفي عليّ الخلافة»[(٢)].

ومنها ما رواه في **«كشف الحقّ»** من كتاب المناقب لأبي بكر أحمد بن مردويه، وهو حجة عند المذاهب الأربعة، رواه بإسناد إلى أبي ذر، قال: دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله فقلنا: من أحبّ أصحابك إليك وإن كان أمر كنا معه، وإن كانت نائبة كنا من دونه؟ قال: هذا عليّ أقدمكم سلماً وإسلاماً.

---

(١) العمدة لابن البطريق: ٩٠ ح ١٠٩.

(٢) علل الشرائع: ١/ ١٣٤، وفضائل الصحابة لأحمد: ٢/ ٦٦٢.

وأورد عليه بأنه يدلّ على فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام وأن النبي صلى الله عليه وآله يحبه حبّاً شديداً ولا يدلّ على النّص بإمارته، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وآله ناصّاً على خلافته لكان هذا محلّ إظهاره، وهو ظاهر، فإنّه لما لم يقل إنّه الأمير بعدي علم عدم النّص فكيف يصحّ الإستدلال به.

وأجيب بأنّ النّص على المعنى المراد كما يكون بالدّلالة على ذلك من مجرّد مدلول اللّفظ، كذلك يكون بإقامة القرائن الواضحة النافية للإحتمالات المخالفة للمعنى المقصود، وما نحن فيه من هذا القبيل، فإنّ قول السّائل وإن كان أمر كنا معه وإن كانت نائبة كنا من دونه مع قوله صلى الله عليه وآله: هذا عليّ أقدمكم (ا ه)، نصّ على إرادة الخلافة، فإنّ قوله: أقدمكم، بمنزلة الدليل على أهليّته للتقدم على سائر الأمة، فقوله: لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله ناصّاً لقال إنّه الأمير بعدي، من باب تعيين الطريق الخارج عن شرح «**المحصلين**»، بل لو قال النّبي ذلك لكان يتعسف النّاصب الشقي ويقول الإمارة ليست نصّاً صريحاً في الخلافة لإستعماله في إمارة الجيوش وفي إمارة قوم دون قوم، كما قال الأنصار، منّا أمير ومنكم أمير وبالجملة التّصريح والتطويل لا ينفع المعاند المحيل ولو تليت عليه التّوراة والإنجيل.

ومنها ما رواه فيه أيضاً من كتاب ابن المغازلي الشّافعي بإسناده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لكل نبيّ وصي ووارث، وإن وصيّي ووارثي علي بن أبي طالب عليه السلام»، وإحتمال كون المراد بالوصاية غير الخلافة مدفوع، بأنّ الظاهر من قوله صلى الله عليه وآله: لكل نبي وصي ووارث، هو أن المراد بالوصي الوصي في أمر النّبوة، وإلا يقال إن لكلّ أحد وصيّ ومن المعلوم أنّ الوصاية في أمر النّبوة هو عبارة أخرى للخلافة، وسيأتي لذلك مزيد توضيح بعيد ذلك.

ومنها: ما رواه فيه أيضاً من مسند أحمد بن حنبل عن سلمان أنّه قال: يا رسول الله من وصيك؟ قال: يا سلمان من وصي أخي موسى؟ قال: يوشع بن نون، قال: «فإن وصيّي ووارثي يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب عليه السلام»[1].

وأورد عليه النّاصب فضل بن روزبهان بأنّ الوصي قد يطلق ويراد به من أوصى له بالعلم والهداية وحفظ قوانين الشريعة وتبليغ العلم والمعرفة، فإن أريد هذا من الوصي فمسلم أنّه كان وصيّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا خلاف في هذا، وإنّ أريد الوصيّة بالخلافة فقد ذكرنا بالدلائل العقليّة والنّقلية عدم النص في خلافة عليّ، ولو كان نصّاً جلياً لم يخالفه الصّحابة، وإن خالفوا لم يطعهم العساكر وعامة العرب سيما الأنصار.

وفيه: أولاً أن الوصي بمعنى الأوّل الذي سلم إتّصافه به أيضاً لا بدّ وأن يكون خليفة إذ لا نعني بالخلافة إلاّ حفظ قوانين الدين وحماية شريعة سيد المرسلين وهداية الأمة إلى أعلام

(١) الأنوار العلوية: ٢٢.

المعرفة ومنار اليقين، وأنى حصل هذا المعنى في حق الثلاثة المتحيرين في بوادي الضلالة التائهين في مفازة الجهالة العاجزين عن معرفة ظواهر الكتاب والسّنة وعن تفسير معنى الأبّ والكلالة، فضلاً عن ضبط معانيها وعن معرفة أحكامها وعن هداية الأمة إليها.

وثانياً: أنّ ضرب يوشع مثلاً لعلي عليه السلام يعطي كون مراده بالوصاية الخلافة، حيث إنّ يوشع كان خليفة لموسى بعده كما صرّح به غير واحد منهم الشهرستاني في بيان أحوال اليهود حيث قال في محكيّ كلامه: إنّ الأمر كان مشتركاً بين موسى وبين أخيه هارون إذ قال: أشركه في أمري، فكان هو الوصي فلما مات هارون في حياته انتقلت الوصاية إلى يوشع وديعة ليوصلها إلى شبير وشبراً بني هارون قراراً وذلك أن الوصيّة والإمامة بعضها مستقر وبعضها مستودع.

وثالثاً: أنّ أيّ دليل عقلي أو نقلي قام على عدم النّص، وإن هو إلاّ مصادرة على الدّعوى.

وأمّا ما ذكره من أنه لو كان نصّاً جليّاً لم يخالفه الصحابة، ففيه أن من الصحابة من كان قلبه منوراً بنور الإيمان والعرفان فلم يخالفوه بل ائتمّوا به واقتبسوا أنواره واتّبعوا آثاره حتّى أتاهم اليقين ومضوا إلى لقاء ربّ العالمين، وأما غيرهم فقد كان همّهم من أوّل الأمر على إطفاء نور الله وكتمان آيات الله فلا غرو في كتمانهم وإخفائهم ذلك، وأمّا العساكر فمخالفتهم إنما هو للحقد والسّخائم الثابتة في صدورهم من أجل قتله أقاربهم وأحبائهم وإخوانهم وأولادهم، ولم يكن بطن من بطون قريش إلاّ وكان لهم على عليّ عليه السلام دم أراقه في سبيل الله كما اعترف به غير واحد منهم منهم ذلك النّاصب، ومنهم الشّارح المعتزلي وغيرهما، ومن المعلوم أن الطبائع البشرية مجبولة على بغض من قتل أقارب قوم وأقوامهم، وحري على المبغض بمقتضى جبلته أن يخالف القاتل ويعاند، ويمنعه ممّا يرومه بقدر وسعه وطاقته.

ومنها خبر الثقلين المتواتر بين الفريقين، وقد رواه في **«غاية المرام»**[1] بتسعة وثلاثين طريقاً من طرق العامة وإثنين وثمانين طريقاً من طرق الخاصة، ومن جملة طرقه أحمد بن حنبل في **«المسند»** عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إني قد تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدي: الثّقلين واحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السّماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي»** هذا، والأخبار النّاصّة على خلافته وإمامته بعد النّبي صلى الله عليه وآله فوق حدّ الإحصاء والمقام لا يقتضي الزّيادة على ما رويناه، وسيأتي إن شاء الله كثير منها في تضاعيف الشرح في مواضعها المناسبة ومن الله التّوفيق والإستعانة.

---

(١) أنظر غاية المرام: ٢/ ٣٠٥ الباب ٢٨.

المقصد الثاني

في الأدلة العقليّة الدالة على إمامته عليه السلام وهي كثيرة.

منها أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً وغير علي عليه السلام لم يكن معصوماً فتعين أن يكون هو الإمام، أمّا الكبرى فبالإجماع منّا ومن العامة، وأمّا الصغرى أعني وجوب عصمة الإمام فلما قد مرّ في الإستدلال بقوله:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ومحصل ما ذكرناه هناك أن طاعة أولي الأمر واجبة مطلقاً فلو لم يكن معصوماً لم يؤمن منه الخطأ، فأما أن يجب متابعته عند صدوره منه، وإما أن يجب ردعه عنه وإنكاره منه، فعلى الأوّل يلزم أن يكون قد أمرنا الله سبحانه بالقبيح وهو محال، وعلى الثاني فيكون الإنكار له مضاداً لوجوب طاعته، وأيضاً الحاجة إلى الإمام إنما هو لإقامة الحدود والأحكام وحمل الناس على فعل الواجب والكفّ عن الحرام وإنتصاف حقّ المظلوم من الظالم ومنع الظالم من الظلم، فلو جازت عليه المعصية وصدرت عنه إنتفت هذه الفوائد وافتقر إلى إمام آخر وتسلسل، ويأتي في شرح الفصل الثامن من الخطبة المائة والحادية والتسعين تقرير آخر لوجوب عصمة الإمام إن شاء الله تعالى.

ومنها أن الإمام يجب أن يكون منصوصاً وغير علي عليه السلام لم يكن منصوصاً بالإجماع فهو المتعين، وإنما قلنا بوجوب التنصيص لما عرفت من أنّ شرط الإمام العصمة وهي من الأمور الخفية التي لا يعلمها إلا الله تعالى وأيضاً سيرة النبي صلى الله عليه وآله تقتضي التنصيص، لأنه أشفق بالأمة من الوالد بولده ولهذا لم يقصر في إرشاد أمور جزئية مثل ما يتعلق بدخول المسجد والخروج منه، ولم يترك شيئاً مما تحتاج إليه الأمة إلا بيّنه حتى إرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة، ومع ذلك كيف يهمل أمرهم فيما هو من أهمّ الواجبات وأعظم المهمات ولا ينص على من يتولى أمرهم بعده؟ ويأتي تقرير آخر إن شاء الله لوجوب النّص ولزومه في شرح الكلام المائة والحادي والسّتين من النّقيب أبي جعفر البصري، وهو ألطف كلام وأمتن دليل نقله الشارح المعتزلي عن النّقيب هناك فليراجع ثمة.

هذا مضافاً إلى أنّ الله تعالى قد أخبرنا بإكمال الدّين وإتمام النعمة، ومن المعلوم أنّ الإمامة من تمام الدّين فمن زعم أن الله لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله ومن ردّ كتاب الله فهو كافر، وتوضيح هذا الدّليل يظهر من رواية «الكافي» عن الرّضا عليه السلام التي سبقت في آخر فصول الخطبة السّابقة عند شرح قوله عليه السلام: ولهم خصائص حقّ الولاية»، فارجع إليها تجدها في إثبات هذه الدّعوى كنزاً مشحوناً بأنواع الدرّر والجواهر، وبحراً موّاجاً ليس له ساحل.

ومنها أنّ الإمام لا بدّ أن يكون أفضل من رعيته وغير علي عليه السلام من الثلاثة لم يكن

أفضل فتعين عليه السلام، أمّا أنّ الإمام لا بدّ أن يكون أفضل فلأنّه لو لم يكن أفضل لا يخلو إمّا أن يكون مساوياً أو مفضولاً، أما المساوي فيستحيل تقديمه لأنّه يفضي إلى التّرجيح بلا مرجح، وأمّا المفضول فترجيحه على الفاضل يبطله العقل لحكمه بقبح تعظيم المفضول وإهانة الفاضل ورفع مرتبة المفضول وخفض مرتبة الفاضل، وهو بديهي عند العوام فضلاً عن الخواص فانظر إلى عقلك هل يحكم بتقديم المبتدي في الفقه على مثل ابن عباس؟ وقد نصّ على إنكاره القرآن أيضاً فقال تعالى:

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وأمّا أنّ غير علي عليه السلام لم يكن أفضل منه فبتسليم الخصم أعني الشّارح المعتزلي الذي عمدة مقصودنا من تمهيد هذه المقدّمة إبطال مذهبه الذي أشرنا إليه في صدر المقدّمة، حيث ذهب إلى كونه أفضل منهم، وقد قال في أوائل شرحه بعد ذكر اختلاف العامة في تفصيل الأربعة ما هذا لفظه: وأمّا نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون من تفضيله عليه السلام، وقد ذكرنا في كتبنا الكلاميّة ما معنى الأفضل وهل المراد به أكثر ثواباً أم الأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة؟ وبيّنا أنه عليه السلام أفضل على التفسيرين معاً، وليس هذا الكتاب موضوعاً لذكر اللّجاج في ذلك أو في غيره من المباحث الكلاميّة لنذكره، ولهذا موضع هو أليق به، انتهى.

أقول: ولا بأس بأن نبسط الكلام في المقام إيضاحاً للمرام ونذكر يسيراً من مناقب أمير المؤمنين وفضائله عليه السلام رغماً لأنوف النّواصب اللّئام إذا لإستقصاء غير ممكن، كما روى الخطيب الخوارزمي وهو من أعيان علماء العامة بإسناده إلى ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو أنّ الرّياض أقلام والبحر مداد والجنّ حسّاب والأنس كتاب ما أحصروا فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[1].

وروى مثله من طريق الخاصة، وهو ما عن الصّدوق في «أماليه» بإسناده عن سعيد بن جبير قال: أتيت عبد الله بن عبّاس فقلت: يا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله إنّي جئتك أسألك عن علي بن أبي طالب عليه السلام واختلاف النّاس فيه، فقال ابن عباس: جئت تسألني عن خير خلق الله من الأمة بعد محمّد صلى الله عليه وآله جئت تسألني عن وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله ووزيره وخليفته وصاحب حوضه ولوائه وشفاعته، والذي نفس ابن عبّاس بيده لو كان بحار الدّنيا مداداً

(١) راجع البحار: ٣٨/١٩٧، وكشف الغمة: ١/١٠٩.

وأشجارها أقلاماً وأهلها كتّاباً فكتبوا مناقب عليّ بن أبي طالب عليه السلام وفضائله من يوم خلق الله عزّ وجل الدّنيا إلى أن يفنيها ما بلغوا معشار ما آتاه الله تبارك وتعالى[١].

فمن يقول عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عباس مثل هذا كيف يمكن درك فضائله لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، والميسور لا يسقط بالمعسور. فينبغي أن نورد شطراً منها ليعلم بذلك أفضليّته على غيره المقتضية لأحقيّته بالخلافة والوصاية وإستحقاقه عليه السلام لها فقط دون غيره، لقبح ترجيح المرجوح على الرّاجح، والمفضول على الفاضل[٢].

---

(١) أمالي الصدوق: ٦٥٢ ح ٨٨٧، وروضة الواعظين: ١٢٧.

(٢) **أفضلية علي على الامة**

قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم المباهة: «أباهلكم بخير أهل الأرض وأكرمهم عند الله».

وأشار الى علي فاطمة والحسن والحسين، رضي الله عنهم.

فقالوا: لم لا تباهلنا بأهل الكرامة والكبر وأهل الشارة ممن آمن بك واتبعك؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أجل أباهلكم بهؤلاء خير أهل الأرض وأفضل الخلق».

فذهلوا وذابت قلوبهم من الخوف والرعب، ورجعوا قافلين الى الأسقف زعيمهم يستشيرونه في الأمر قائلين: يا أبا حارثة ماذا ترى في الأمر؟

فأجابهم الأسقف وقد غمزته هيبة آل الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: «أرى وجوها لو سأل الله بها أحد أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله» (أهل البيت لتوفيق أبو علم: ٥٤ ـ ٥٥ الباب الأول).

روي عن أبي سعد عن أبي عقال [هلال بن زيد بن حسن بن اسامة الكلبي الدمشقي مولى النبي صلى الله عليه وآله] في حديث طويل جاء فيه: فقلت ملأتني سروراً يا رسول الله، فمن أفضل الناس بعدك؟

فذكر له نفر من قريش.

ثم قال: «علي بن أبي طالب»

فقلت: يا رسول الله فأيهم أحب إليك؟ قال: «علي بن أبي طالب».

فقلت: ولِمَ ذلك؟ فقال: «لأني خلقت أنا وعلي بن أبي طالب من نور واحد».

فقلت: فَلِمَ جعلته آخر القوم؟

قال: «ويحك يا أبا عقيل أليس قد أخبرتك إني خير النبيين، وقد سبقوني بالرسالة وبشروا بي من قبلي، فهل ضرني شيء إذا كنت آخر القوم، أنا محمد رسول الله.

وكذلك لا يضر علياً إذا كان آخر القوم، ولكن يا أبا عقال فضل علي على سائر الناس كفضل جبرئيل على سائر الملائكة» (كفاية الطالب: ٣١٦ الباب السابع والثمانون حديث خلق علي من نور النبي صلى الله عليه وآله).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذكر الصحابة: «.. وأفضلهم علي» (الكامل لابن عدي: ٦/ ٧٧ ترجمة كوثر بن حكيم ١٦١٠).

وروي عن الامام الباقر محمد بن علي عن آبائه (عليهم السلام) إنّه سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن خير الناس؟

فقال: «خيرها وأتقاها وأفضلها وأقربها إلى الجنة أقربها مني ولا أقرب ولا أتقى إلي من علي بن أبي طالب» (ينابيع المودة: ٢٤٧/١ ط. تركيا و ط. النجف: ٢٩٤ عن كتاب الهمداني (مودة القربى) المودة الثالثة).

وعن ابن عمر عن سلمان قال: «لو شئت لأنبأتكم بأفضل هذه الأمة بعد نبيها وأفضل من هذين الرجلين أبي

....

بكر وعمر...
قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هل أوصيت؟
فساق الحديث إلى أن قال ﷺ: «وإنّي أوصيت إلى علي وهو أفضل من أتركه من بعدي» ينابيع المودة: ١/ ٢٥٣ ط. تركيا و٣٠١ ط. النجف ذيل الباب ٥٦.
وعن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «أفضل رجال العالمين في زماني هذا علي وأفضل نساء الأولين والآخرين فاطمة» (ينابيع المودة: ١/ ٢٥٣ ط. تركيا و ط. النجف: ٣٠٢ عن مودة القربى).
وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي لو أنّ أحداً عبد الله حق عبادته ثم يشك فيك وأهل بيتك أنكم أفضل الناس كان في النار» (ينابيع المودة: ١/ ٢٥٣ ط. تركيا و ط. النجف: ٣٠٢ عن مودة القربى المودة السابعة).
وعن الهروي عن الرضا عن آبائه عن رسول الله قال ﷺ: «والفضل بعدي لك يا علي وللائمة من بعدك.. يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض وكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى التوحيد ومعرفة ربنا عز وجل وتسبيحه وتقديسه وتهليله، لأنّ أول ما خلق الله أرواحنا فانطقنا بتوحيده وتمجيده» (ينابيع المودة: ٢/ ٥٨٢ باب ٩٣ ذكر خليفة النبي ﷺ و٤٨٥ ط. اسلامبول).
وعن حكيم بن جبير: قال: قلت لعلي بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك كان أبو جحيفة يزعم انه سمع علياً يقول: «ألا اخبركم بأفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر؟ ثم سكت».
فقال لي علي بن الحسين عليه السلام: «فهذا سعيد بن المسيب أخبرني انه سمع سعداً قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي».
هل كان في بني اسرائيل بعد موسى أفضل من هارون صلى الله عليهما وسلم؟!».
قلت: لا. فضرب على كتفي ثم قال لي علي بن الحسين: «فأين ذهب بك؟!!» (تاريخ دمشق: ٣١/ ١٠٠ ترجمة أبي بكر، وقريب منه في ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٣٢٧ ح ٣٦٤).
ومن ذلك ما رواه أبو بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «علي مني كمنزلتي من ربي» أخرجه ابن السمان (الصواعق المحرقة: ١٧٨ ط. مصر ـ وط. بيروت: ٢٧٠ المقصد الخامس).
وفي حديث آخر عنه: «علي أعظم الناس منزلة من الرسول وأقربه قرابة وأفضله [حالة] دالة وأعظمه غناء عن نبيه» (كنز العمال: ١٣/ ١١٥ ح ٣٦٣٧٥، وجواهر العقدين: ٣٨٠ الباب الثالث عشر)..
. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشفع له أولاً فهو أفضل». أخرجه أبو طاهر المخلص والطبراني والذهبي والدارقطني (كنز العمال: ١٢/ ٩٤ ح ٣٤١٤٥، وجواهر العقدين: ٢٩٢ الباب السابع وبالهامش: أخرجه الديلمي في الفردوس برقم ٢٩ (١/ ٢٣) والمخلص في الفوائد المنتقاة: ١/ ٦٩، والخطيب في موضع أوهام الجمع: ٢/ ٢٧١، وينابيع المودة: ١/ ٢٦٩ ط. تركيا و ط. النجف: ٣٢١ باب ١٨، والصواعق المحرقة: ١٦٠ ط. مصر ـ وط. بيروت: ٢٤٤ الايات الواردة فيهم الآية ١٠، و٢٨٢ الفصل الثاني من المقصد الخامس من الباب ١١).
وعنه ﷺ: «أول من أشفع له من أهل بيتي» كنز العمال: ١٢/ ٩٤ ح ٣٤٢٤٥).
وكذا قوله ﷺ: «المبارزة علي لعمر يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي الى يوم القيامة» مستدرك الصحيحين: ٣/ ٣٢ كتاب المغازي.
أخرج ابن قتيبة عن أمير المؤمنين بمحضر المهاجرين والأنصار في مسجد رسول الله ﷺ: «الله الله يا معشر

....

المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين، لنحن أحق الناس به لأنّا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنّه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعداً».
فقال بشر بن سعد الأنصاري: لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان (الامامة والسياسة: ١/ ٢٩ إباية علي عليه السلام عن البيعة).
وقال عليه السلام بعد كلام بليغ في بدء الخلق وخلق آدم ومحمد صلى الله عليه وآله: «ثم انتقل النور إلى غرائزنا ولمع في أئمتنا، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض فبنا النجاة، ومنا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور، وبمهدينا تنقطع الحجج، خاتمة الأئمة، ومنقذ الأمة، وغاية النور، ومصدر الأمور، فنحن أفضل المخلوقين وأشرف الموحدين وحجج رب العالمين فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض على عروتنا» (مروج الذهب: ١/ ١٨ ط. مصر ١٣٤٦ هـ، وط. بيروت ١/ ٤٣ ذكر المبدأ وشأن الخليقة ـ الباب الثالث).
وقال الامام الحسن عليه السلام في خطبته الاولى بعد بيعته: «واني أحتسب عند الله عز وجل مصابي بأفضل الاباء بعد رسول الله صلى الله عليه» مقتل علي لابن أبي الدنيا: ٩٣ ح ٨٧.
قال ابن عبد البر في الاستيعاب: وروي عن سلمان وأبي ذر والمقداد وخباب وجابر وأبي سعيد الخدري وزيد بن أرقم: «أن علي بن أبي طالب أول من أسلم وفضّله هؤلاء على غيره». انتهي (جواهر العقدين: ٤٦٢ الباب الخامس عشر، والاستيعاب: ٣/ ١٥ ترجمة علي.
وقالت غانمة لمعاوية: «ومنا أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفرس بني هاشم وأكرم من احتفى وتنعل بعد رسول الله» (المحاسن والمساوىء: ٩٢ محاسن كلام غانمة بنت غانم).
وأخرج أحمد والبزار عن عبدالله بن مسعود: «كنا نتحدث أنّ أفضل أهل المدينة علي بن أبي طالب» (مسند البزار: ٥/ ٥٥ ح ١٦١٦، وفضائل علي والحسنين وامهما: ٩٦، ومجمع الزوائد: ٩/ ١١٦ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ١٥١ ح ١٤٦٧٩، والرياض النضرة: ٢/ ٢٠٩ ط. مصر الأولى، ومقاتل الطالبيين: ٤٢، الرياض النضرة: ٣/ ١٨٢ عن أحمد – الفصل السابع، وفضائل الصحابة: ٢/ ٦٠٤ و٦٤٦ ح ١٠٣٣ ـ ١٠٩٧ والكامل في التاريخ ٦/ ٧٧ رقم ١٦١٠).
وعن أبي وائل عن ابن عمر قال: «كنا إذا عددنا أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) قلنا أبو بكر وعمر وعثمان».
فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن فعلي ما هو؟
قال: «علي من أهل البيت لا يقاس به أحد، هو مع رسول الله في درجته» (ينابيع: ١/ ٣٠١ عن مودة القربى ـ المودة السابعة وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن التفضيل فقال: «أبو بكر وعمر وعثمان ثم سكت.
فقلت: يا أبت أين علي بن أبي طالب؟قال: «هو من أهل البيت لا يقاس به هؤلاء» (ينابيع: ١/ ٣٠٢ عن مودة القربى ـ المودة السابعة). .
وقال ضرار في وصف أمير المؤمنين عليه السلام: «كان والله علم الهدى. . خير من آمن واتقى وأفضل من تقمص وارتدى وأبر من انتعل وسعى» (مروج الذهب: ٢/ ٨٤ ط. مصر ١٣٤٦ هـ، وط. بيروت ٣/ ٥١ ذكر الصحابة ومدحهم (علي والعباس).

ومن ذلك ما روي عن الشعبي قال: بينما أبو بكر جالس اذ طلع علي فلما رآه قال: «من سره أن ينظر إلى أعظم الناس منزلة وأقربهم قرابة وأفضلهم حالة وأعظمهم حقاً عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)فلينظر إلى هذا الطالع» (الصواعق المحرقة: ١٧٨ ط. مصر ـ وط. بيروت: ٢٧٠ المقصد الخامس، جواهر العقدين: ٣٨٠ الباب الثاني عشر).

وعن ابن عباس عندما سأله معاوية عن علي: «رضي الله عن أبي الحسن كان والله علم الهدى وكهف التقى.. خير من آمن واتقى وأفضل من تقمص وارتدى وأفصح من تنفس وقرا. . فهل يوازيه أحد؟ لم تر عيني مثله ولن ترى» مروج الذهب: ٢/ ٨٤ ط. مصر ١٣٤٦ هـ، وط. بيروت ٣/ ٥١ ـ ٥٢ ذكر الصحابة ومدحهم.

وقال الحافظ الشافعي: «لا جرم كان علي أقضاهم وأعلمهم وأفضلهم» (تاريخ دمشق: ١٣٢/٤٧ ترجمة الشافعي).

وقد صرح البحتري بفضله على الشيخين (المطالب العالية: ٤/ ٨٥).

وقال يحيى بن آدم: «ما أدركت أحداً بالكوفة إلاّ يُفَضِّل علياً يبدأ به» (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ٣/ ٣١١ و ٣١٢ ح ١٣٥٠ ـ ١٣٥٢).

وقال معمر: «عجبت من أهل الكوفة كأن الكوفة إنما بنيت على حب علي!!! ما كلمت أحداً منهم إلاّ وجدت المقتصد منهم الذي يفضل علياً على أبي بكر وعمر منهم سفيان الثوري» (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ٣/ ٣١١ و ٣١٢ ح ١٣٥٠ ـ ١٣٥٢، وجواهر العقدين: ٤٦٣ الباب الخامس عشر).

وقال الحسن عليه السلام: «لقد قبض في هذه الليلة رجل لا] ما[يسبقه الاولون بعمل ولا يدركه الاخرون» مستدرك الصحيحين: ٣/ ١٧٢ مناقب الحسن من كتاب المعرفة، والمعجم الاوسط: ٣/ ٨٨ ح ٢١٧٦.

وقال صلى الله عليه وآله: «أفضلهم أفضلهم علماً» (المطالب العالية: ٣/ ١٠٣ - ١٠٤ ح ٣٠٠٠ ويأتي أنه أعلمهم).

وقال السيد الحسن: «رباني هذه الامة بعد نبيها وصاحب شرفها وفضلها علي» (مناقب ابن المغازلي: ٦٥ ط. بيروت ـ وط. طهران: ٧٣ ح ١٠٧، والعقد الفريد: ٤/ ٢٩٣ كتاب الخلفاء ـ خلافة علي، مع تفاوت عن الحسن البصري، وفتح الملك العلي: ٧٨ عن الاستيعاب: ٣/ ١١١٠ ط. حيدر اباد).

وقال أبو أيوب: «حيث نزل بين ظهرانيكم ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بعده» (الامامة والسياسة: ١/ ١٣٢ ط. مصر الحلبي ١٣٧٨، و١٧٢ الط. المصورة في ايران).

* وقال المأمون في مناظرته الطويلة لاسحاق بن ابراهيم: «أفرأيت ان من أيقن أن هذا الحديث (الطير) صحيح ثم زعم أن أحداً أفضل من علي لا يخلو من احدى ثلاثة:

من أن تكون دعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنده مردودة عليه !!

أو أن يقول: عرف] الله [الفاضل من خلقه وكان المفضول أحب اليه !!

أو أن يقول: ان الله عزوجل لم يعرف الفاضل من المفضول؟؟

فأي الثلاثة من هذه الوجوه أحب اليك أن تقول؟؟» (العقد الفريد: ٥/ ٧٦ ط. بيروت ـ احتجاج المأمون على الفقهاء من كتاب التيمية الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة، و: ٢/ ٤٣ طبعة مصر الاولى، و: ٣/ ٣١ المطبعة الشرفية ١٣١٦).

وأنشد المأمون: «علي أعظم الثقلين حقاً . . وأفضلهم سوى حق النبي»(المحاسن والمساوىء: ٦٨ محاسن ما قيل فيهم من الاشعار).

فأقول وبالله التّوفيق: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أفضل جميع أمّه النّبي صلى الله عليه وآله بل أفضل جميع من في الأرض بعد النّبي صلى الله عليه وآله من حيث كثرة الثّواب ومن حيث جمعه للخصال الحميدة والكمالات الذّاتيّة والفضائل النّفسانية.

أمّا كثرة الثّواب فلظهور أنّ الثّواب مترتب على العبادة وبكثرتها وقلتها يتفاوت الثّواب والجزاء زيادة ونقصاناً، وستعرف أنّه أعبد من الكل فيكون أكثر مثوبة ولو لم يكن له من العبادات إلاّ ضربته يوم الخندق التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّها أفضل من عبادة الثقلين»[1]، لكفى في إثبات هذا المرام فضلاً عن سائر عباداته التي لا تضبطها الصحف والدّفاتر، ولا يحصيها الزّبر والطوامير.

وأمّا الخصال الحميدة والفضائل والفواضل النّفسانية وسائر جهات الفضل فكثيرة جمّة.

منها: سبقه إلى الإسلام، وقد صرّح به نفسه في المختار السّابع والثّلاثين بقوله أتراني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّا أوّل من صدقه، وفي المختار السّادس والخمسين بقوله: فإنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة، وتعرف تفصيل سبقته عليه السلام إليه وتحقيقه في «**شرح المختار**» إن شاء الله تعالى.

وأقول هنا: قد اعترف أبو بكر أيضاً بمسابقته عليه السلام إلى الإسلام منه فيما رواه أبو زرعة الدّمشقي وأبو إسحاق الثعلبي في كتابيهما أنه قال أبو بكر: يا أسفاً على ساعة تقدّمني فيها عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلو سبقته لكان لي سابقة الإسلام[2].

وفي «**مناقب ابن شهر آشوب**» من أنساب الصّحابة عن الطبري التّاريخي، والمعارف عن القتيبي أنّ أوّل من أسلم خديجة ثم علي ثم زيد ثم أبو بكر، يعقوب النسوي في التّاريخ، قال الحسن بن زيد: كان أبو بكر الرّابع في الإسلام، وفي تاريخ الطبري أنّ عمر أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين إمرأة وفي هذا المعنى قال الحميري:

من كان وحّد قبل كلّ موحّد	يدعو الإله الواحد القهارا
من كان صلى القبلتين وقومه	مثل النواهق تحمل الأسفارا

وذكر المأمون أن سبب التفضيل أربعة: العلم والشجاعة والكرم وشرف النسب وكلها في علي أكمل منها في غيره فهو أفضل الصحابة (لوامع الانوار البهية: ٤١٨/٢ ذيل الباب الخامس ـ فصل في المفاضلة بين البشر والملائكة).

وممن فضله آخر الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني (الرياض المستطابة: ٢٣٧، والاستيعاب: ٣/ ١٥، وينابيع المودة: ٤١٨/٢ ط. تركيا و ط. النجف: ٥٠١ باب ٧٠).

(١) الطرائف: ٥١٩، وراجع الغدير: ٢٠٦/٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢٨٩/١، والبحار: ٢٢٨/٣٨.

وقال أيضاً

مــن فـضـلــه أنــه قــد كــان أول مــن | صـلـى وآمـن بـالـرّحـمـن إذ كـفـروا
سـبـع سـنـيـن وأيـامـاً مـحـرّمـة | مـع الـنّبـي عـلـى خـوف ومـا شـعـروا

وله أيضاً

ألـم يـؤت الـهـدى والـنـاس حـيـرى | فـوحّـد ربّـه أحـد الـعـلـيّـا
وصـلّـى ثـانـيـاً فـي حـال خـوف | سـنـيـن بـحـريـث سـبـعـاً أسـيّـا

وقال آخر

أمـا لا يـرون أقـام الـصّـلاة | وتـوحـيـده وهـم مـشـركـونـا
ويـشـهـد أن لا إلـه سـوى | ربّـنـا أحـسـن الـخـالـقـيـنـا
سـنـيـن كـوامـل سـبـعـاً بـبـيـت | يـنـاجـي الإلـه لـه مـسـتـكـيـنـاً
بـذلـك فـضّـلـه ربّـنـا | عـلـى أهـل فـضـلـكـم اجـمـعـيـنـا

ومنها المسابقة بالصّلاة وستعرف تفصيلها أيضاً في «**شرح المختار**» إن شاء الله تعالى.

وأقول هنا: روى في «**المناقب**» عن المرزباني عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

نزلت في علي عليه السلام خاصّة وهو أوّل مؤمن وأوّل مصلّ بعد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم[١]. وفيه عن السّدي عن أبي مالك عن ابن عبّاس في قوله:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

فقال: سابق هذه الأمة علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

وفيه من كتاب أبي بكر الشيرازي عن مالك بن أنس عن سمي عن أبي صالح عن ابن عباس قال:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/٢٩٦، والبحار: ٣٥/٣٣٨.

(٢) البحار: ٣٥/٣٣٤، وتأويل الآيات: ٢/٦٨١ ح ٨.

نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام سبق النّاس كلهم بالإيمان وصلى القبلتين وبايع البيعتين بيعة بدر وبيعة الرّضوان، وهاجر الهجرتين: مع جعفر من مكّة إلى حبشة ومن حبشة إلى المدينة، وفي هذا المعنى قال الحميري:

وصيّ رسول الله والأول الذي أناب إلى دار الهدى حين ايفعا
غلاماً فصلى مستسراً بدينه مخافة أن يبغي عليه فيمنعا
بمكة إذ كانت قريش وغيرها تظل لأوثان سجوداً وركعاً

وله أيضاً

الم يصلّ عليّ قبلهم حججاً ووحد اللّه رب الشمس والقمر
وهؤلاء ومن في حزب دينهم قوم صلاتهم للعود والحجر

وله أيضاً

فإنك كنت تعبده غلاماً بعيداً من أساف ومن منات
ولا وثناً عبدت ولا صليباً ولا عزى ولم تسجد للات

ومنها السّبقة إلى البيعة روى في «**المناقب**» عن ابن جبير أنّه لما نزل قوله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بني هاشم وهم يومئذ أربعون رجلاً وأمر عليّاً أن ينضج رجل شاة وخبز لهم صاعاً من طعام وجاء بعس من لبن ثم جعل يدخل إليه عشرة عشرة حتّى شبعوا، وإنّ منهم لمن يأكل الجذعة[1] ويشرب الفرق.

وفي رواية مقاتل عن الضّحاك عن ابن عباس أنّه صلى الله عليه وآله قال: «وقد رأيتم هذه الآية ما رأيتم»، وفي رواية براء بن عازب وابن عباس أنّه بَدَرهُم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرّجل، ثم قال النّبي صلى الله عليه وآله: «إني بعثت على الأسود والأبيض والأحمر إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين، وإني لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله»، فقال أبو لهب لهذا دعوتنا، ثم تفرّقوا عنه فنزلت:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

ثم دعا دفعة ثانية وأطعمهم وسقاهم، ثم قال لهم: «يا بني عبد المطلب أطيعوني تكونوا ملوك الأرض وحكامها، وما بعث الله نبيّاً إلا جعل له وصيّاً أخا ووزيراً فأيكم يكون أخي

(١) الجذعة: الجذع من الإبل ما دخل في السنة الخامسة ومن البقر والمعز ما دخل في السنة الثانية.

ووزيري ووصيي ووارثي وقاضي ديني»، وفي رواية الطبري عن ابن جبير عن ابن عباس: فأيكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فأحجم القوم[١].

وفي رواية أبي بكر الشيرازي عن مقاتل عن الضّحاك عن ابن عباس، وفي سند العشرة وفضائل الصّحابة عن أحمد بإسناده عن ربيعة بن ناجد عن علي عليه السلام: فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟ فلم يقم إليه أحد وكان عليّ أصغر القوم يقول: أنا، فقال في الثالثة: أجل، وضرب بيده على يد أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

وفي «**تفسير الخركوشي**» عن ابن عباس وابن جبير وأبي مالك، وفي «**تفسير الثعلبي**» عن البراء بن عازب فقال علي عليه السلام وهو أصغر القوم: (**أنا يا رسول الله**)، فقال: أنت، فلذلك كان وصيه، قالوا: فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أُمِّرَ عليك، وقد نظمه السّيد الحميري بقوله:

ويوم قال له جبريل قد علموا	أنذر عشيرتك الأدنين إن بصروا
فقام يدعوهم من دون أمّته	فما تخلّف عنهم منهم بشر
فمنهم آكل في مجلس جذعاً	وشارب مثل عس وهو محتقر
فصدّهم عن نواحي قصعة شبعاً	فيها من الحب صاع فوقه الوزر
فقال يا قوم إنّ الله أرسلني	اليكم فاجيبوا الله واذّكروا
فايكم يجتبي قولي ويؤمن بي	إني نبيّ رسول فانبرى عذر
فقال تبا أتدعونا لتلفتنا	عن ديننا ثم قال القوم فانشمروا
من الذي قال منهم وهو أحدثهم	سنا وخيرهم في الذكر إذ سطروا
أمنت بالله قد أعطيت نافلة	لم يعطها أحد جنّ ولا بشر
وإنّ ما قلته حقّ وأنّهم	إن لم يجيبوا فقد خانوا وقد خسروا
ففارقه تايها والله اكرمه	فكان سبّاق غايات إذا ابتدروا

وقال آخر

فلمّا دعا المصطفى أهله	إلى الله سرّاً دعاه رفيقاً
ولاطفهم عارضاً نفسه	على قومه فجزوه عقوقاً
فبايعه دون أصحابه	وكان لحمل أذاه مطيقاً

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٠٦، والعمدة: ٧٧ ح ٩٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٠٧، والغدير: ٢/ ٢٧٧.

ووحد من قبلهم سابقاً   وكان على كلّ فضل سبوقاً

وأما العلم فهو عليه السلام ينبوعه ومصدره ومورده ومأواه وعنه أخذ العلوم جميعها وهو أبو عذرها وسابق مضمارها والنّاس كلهم عياله في جميع فنونها وهو البحر المتراكم الزّخار والمتلاطم التّيار، وقد أشار عزّ وجلّ إلى غزارة علمه عليه السلام بلسان الرّمز والإشارة في قوله: ﴿حم عسق﴾، روى الصّفواني في الأحن والمحن عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال (حم) إسم من أسماء الله (عسق) علم علي سبق كلّ جماعة وتعالى عن كل فرقة بالكناية، وفي قوله:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٦] الآية.

قال ابن شهر آشوب في «المناقب» ما لفظه: محمّد بن مسلم وأبو حمزة الثّمالي وجابر بن يزيد عن الباقر عليه السلام، وعلي بن فضّال والفضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام، وأحمد بن محمّد الحلبي ومحمّد بن الفضيل عن الرّضا عليه السلام، وقد روى عن موسى بن جعفر عليه السلام، وعن زيد بن علي عليه السلام، وعن محمّد بن الحنفيّة، وعن سلمان الفارسي وعن أبي سعيد الخدري، وعن إسماعيل السّدي أنّهم قالوا في قوله:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الإسراء: ٩٦].

هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام،[1] فإذا انضمّ إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

يثبت كونه عليه السلام عالماً بجميع فنون العلم، قال العوني:

ومن عنده علم الكتاب وعلم ما   يكون وما قد كان علماً مكتماً

وشهد رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً له بالعلم في قوله: عليّ عيبة علمي، وقوله صلى الله عليه وآله: «عليّ أعلمكم علماً وأقدمكم سلماً»، وقوله صلى الله عليه وآله «أعلم أمّتي من بعدي علي بن أبي طالب عليه السلام»، رواه في «المناقب» عن عليّ بن هاشم وابن شيرويه الدّيلمي بإسنادهما إلى سلمان[2]، وقال صلى الله عليه وآله أيضاً بإجماع المخالف والمؤالف: أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب، في «المناقب» رواه أحمد من ثمانية طرق، وإبراهيم الثّقفي من سبعة طرق، وابن بطة من ستّة طرق، والقاضي الجعابي من خمسة طرق، وابن شاهين من أربعة طرق، والخطيب التّاريخي من ثلاثة طرق، ويحيى بن معين من طريقين، وقد رواه السّمعاني والقاضي الماوردي وأبو

(١) راجع العمدة: ١٢٤ ـ ٢٨٦ ـ ٣٠٤، والغدير: ٢/١٠٧.

(٢) راجع الغدير: ٢/٤٤، وكنز العمال: ١١/٦١٤ ح ٣٢٩٧٧.

منصور السّكري وأبو الصلت الهروي وعبد الرّزاق وشريك عن ابن عباس ومجاهد وجابر[١]، ونعم ما قيل.

هذا الإمام لكم بعدي يسدّدكم رشداً ويوسعكم علماً وآداباً
إنّي مدينة علم الله وهو لها باب فمن رامها فليقصد البابا

قال ابن شهر آشوب بعد روايته هذا الحديث: وهذا يقتضي وجوب الرّجوع إلى أمير المؤمنين عليه السلام لأنّه صلى الله عليه وآله كنى عنه بالمدينة وأخبر أنّ الوصول إلى علمه من جهة عليّ عليه السلام خاصة، لأنّه جعله كباب المدينة الذي لا يدخل إليها إلا منه، ثم أوجب ذلك الأمر به بقوله: فليأت الباب، وفيه دليل على عصمته، لأنّه من ليس بمعصوم يصحّ منه وقوع القبح، فإذا وقع كان الإقتداء به قبيحاً فيؤدي إلى أن يكون صلى الله عليه وآله قد أمر بالقبيح، وذلك لا يجوز، ويدلّ أيضاً أنه أعلم الأمة، انتهى[٢].

أقول: ومثل هذا الحديث قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقد مضى في شرح الفصل الرّابع من الخطبة الأولى حديث شريف في تفسير هذه الآية فليراجع ثمّة، وقد روى المخالف والمؤالف أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فتح له ألف باب من العلم يفتح من كلّ باب ألف باب[٣]، وإليه أشار الحميري بقوله:

عليّ أمير المؤمنين أخو الهدى وأفضل ذي نعل ومن كان حافياً
أسر إليه أحمد العلم جملة وكان له دون البرية داعياً
ودوّنه في مجلس منه واحد بألف حديث كلها كان هادياً
وكلّ حديث من أولئك فاتح له ألف باب فاحتواها كما هيا

وفي «**المناقب**» والنّقاش في «**تفسيره**» قال ابن عباس: عليّ علم علماً علمه رسول الله صلى الله عليه وآله ورسول الله علمه الله، فعلم النّبي علم الله وعلم عليّ من علم النبي، وما علمي وعلم أصحاب محمّد في علم عليّ إلاّ كقطرة في سبعة أبحر[٤].

الضّحاك عن ابن عباس قال: أعطي علي بن أبي طالب عليه السلام تسعة أعشار العلم وأنّه لأعلمهم بالعشر الباقي[٥].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣١٤.
(٢) راجع أمالي المفيد: ٢٣٦، والغدير: ٢/ ٤٥.
(٣) دلائل الإمامة: ٢٢، وذخائر العقبى: ٧٨.
(٤) كشف الغمة: ١/ ٣١١، ونظم درر السمطين: ١٢٨.
(٥) ذخائر العقبى: ٨٢، والغدير: ٣/ ٩٧.

فأمّا قول عمر بن الخطاب وإعترافه بعلمه عليه السلام فكثير رواه الخطيب في الأربعين قال: قال عمر: العلم ستّة أسداس لعلي من ذلك خمسة أسداس، وللناس سدس، ولقد شاركنا في السّدس حتّى لهو أعلم به منّا[١]. إبانة ابن بطة كان عمر يقول فيما يسأله عن عليّ فيفرج عنه: لا أبقاني الله بعدك[٢]، تاريخ البلادري: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن[٣] الإبانة والفائق أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن[٤]، في «**المناقب**» وقد ظهر رجوعه إلى عليّ عليه السلام في ثلاث وعشرين مسألة حتّى قال:

«لولا علي لهلك عمر»[٥].

وقد رواه الخلق منهم أبو بكر بن عبّاس[٦] وأبو المظفر السّمعاني قال الصّاحب:

هل في مثل فتواك إذ قالوا مجاهرة لولا عليّ هلكنا في فتاوينا

خطيب خوارزم:

إذا عمر تخطأ في جواب ونبّهه عليّ بالصّواب
يقول بعدله لولا عليّ هلكت هلكت في ذاك الجواب

هذا وقد مضى في شرح الفصل الرّابع من الخطبة السّابقة عند شرح قوله عليه السلام: (وعيبة علمه) الإشارة الإجماليّة إلى ميزان علمه عليه السلام.

وقد أفصح عن غزارة علمه بما رواه في التّوحيد عن الصّادق عن الباقر عليه السلام في حديث طويل قال: ولم يجد جدّي أمير المؤمنين عليه السلام حملة لعلمه حتّى كان يتنفس الصّعداء ويقول على المنبر: (**سلوني قبل أن تفقدوني فإنّ بين الجوانح منّي علماً جماً، هاه هاه ألا لا أجد من يحمله**)[٧].

وأفصح عنه أيضاً بقوله عليه السلام في هذه الخطبة التي نحن في شرحها: (**ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير**).

---

(١) راجع الغدير: ٦/ ٦١ - ٧٩، ومستدرك الصحيحين: ٣/ ١٢٦ - ١٢٧، والمعجم الكبير: ١١/ ٥٥، وتفسير القرطبي: ٩/ ٣٣٦.
(٢) راجع الكافي: ١/ ٢٣٩، وتاريخ دمشق: ٤٢/ ٣٨٥.
(٣) الغدير: ٣/ ٩٧.
(٤) العمدة: ٢٥٧، وفتح الباري: ١٣/ ٢٨٦.
(٥) الطرائف: ٢٥٥، وسنن البيهقي: ٧/ ٤٤٣.
(٦) في نسخة: عياش.
(٧) توحيد الصدوق: ٩٣.

وعن إحاطته وكونه غير فاقد لشيء من فنون العلوم بقوله الذي ما زال عليه السلام يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني»[١].

وعن إحاطته بالأخبار الأرضيّة بما يأتي في الخطبة الثّانية والتّسعين من قوله عليه السلام: «فاسألوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين السّاعة ولا عن فئة تهدى بآية وتضل بآية إلاّ أنبئتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلاً ويموت منهم موتاً».

وعن علمه بالأخبار السّماوية بل كونه عليه السلام أخبر بها من الأخبار الأرضية بقوله في الخطبة المائة والثّامنة والثّمانين: (**أيها النّاس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنّا بطرق السّماء أعلم مني بطرق الأرض**)[٢].

وعن إحاطته بالأخبار الغيبيّة خطبه المتضمّنة للأخبار عن الملاحم، وهي كثيرة مثل كلامه السّادس والخمسين ويأتي إنشاء الله في شرحه جملة من أخباره الغيبية، وهكذا الخطبة الثّانية والتّسعون ومثل الخطبة المائة والخطبة المائة والثمانية والعشرين إلى غير هذه ممّا لا نطيل بتعدادها.

وعن إحاطته بالكتب المنزلة بما رواه في «**المناقب**» عن ابن البختري من ستّة طرق، وابن المفضّل من عشر طرق، وإبراهيم الثقفي من أربعة عشر طريقاً: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال بحضرة المهاجرين والأنصار وأشار إلى صدره كيف ملأ علماً: «لو وجدت له طالباً سلوني قبل أن تفقدوني هذا سفط العلم هذا لعاب رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا ما زقّني رسول الله زقّاً فاسألوني فإنّ عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو ثنيت لي الوسادة ثم أجلست عليها لحكمت بين أهل التّوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الزّبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتّى ينادي كلّ كتاب بأنّ عليّاً حكم فيّ بحكم الله»، وفي رواية: حتّى ينطق الله التّوراة والإنجيل، وفي رواية أخرى: حتّى يزهر كلّ كتاب من هذه الكتب ويقول: يا رب إنّ عليّاً قضى بقضائك ثم قال: «سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية في ليلة أنزلت أو في نهار مكيها ومدنيها وسفريها وحضريها ناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم» هذا مجمل ما يتعلّق بجهات علمه عليه السلام[٣].

---

(١) العمدة: ١٥ ـ ٣٣٦، وكنز العمال: ١٣/ ١٦٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣/ ١٠١، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٣١٨.

(٣) الإرشاد: ١/ ٣٥، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٣١٨.

وأمّا التّفصيل فاستمع لما يملأ عليك إن كنت طالباً للهدى مبتغياً رشداً، فأقول وبالله التّوفيق:

أمّا العلم الإلهي فيظهر سبقه عليه السلام فيه على الجميع من خطبه الشّريفة المتضمّنة للتّوحيد والمعرفة وتمجيد الحقّ الأوّل عزّ وجلّ باعتبار نعوت جلاله وصفات جماله لا سيّما الخطبة التسعون المعروفة بالأشباح، والخطبة المائة والخامسة والثمانون التي تجمع من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة، فراجع المقامين وانظر كيف خاض في غمار عمّانه وغاص على فرائده وجمانه.

وأمّا علم التفسير والقراءة فيصحّ مسابقته فيه بما مرّ آنفاً وبما تقدّم في ثالث تذييلات الفصل السّابع عشر من الخطبة الأولى.

وأقول: هنا مضافاً إلى ما سبق: قال الشّارح المعتزلي: إذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحّة ذلك لأنّ أكثره عنه عليه السلام وعن عبد الله بن عباس وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له وانقطاعه إليه وأنّه تلميذه وخريجه، وقيل له: أين علمك من علم ابن عمّك، قال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط، انتهى[1].

وقد روى عن ابن عباس أنّه قال: حدّثني أمير المؤمنين عليه السلام في (باء) بسم الله الرّحمن الرّحيم من أوّل الليل إلى الفجر ولم يتمّ.

وعن قرّة قال عليّ عليه السلام «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في تفسير فاتحة الكتاب»، وعن فضائل العكبري قال الشعبي: ما أحد أعلم بكتاب الله بعد نبيّ الله من عليّ بن أبي طالب عليه السلام[2].

وفي «**المناقب**» القراء السّبعة إلى قراءته يرجعون، فأمّا حمزة والكسائي فيقولان على قراءة علي وابن مسعود وليس مصحفهما مصحف ابن مسعود فهما إنّما يرجعان إلى علي عليه السلام ويوافقان ابن مسعود فيما يجري مجرى الإعراب، وقد قال ابن مسعود ما رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن، وأمّا نافع وابن كثير وأبو عمرو فمعظم قراءاتهم ترجع إلى ابن عباس، وابن عباس قرأ على أُبي بن كعب وعليّ عليه السلام والذي قرأه هؤلاء القراء يخالف قراءة أُبيّ فهو إذاً مأخوذ عن علي عليه السلام وأمّا عاصم فقرأ على أبي عبد الرّحمن السّلمي، وقال أبو عبد الرّحمن قرأت القرآن كله على عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقالوا: أفصح القراءات قراءة عاصم لأنّه أتى بالأصل وذلك أنّه يظهر ما ادغمه غيره ويحقّق من الهمز ما ليّنه غيره ويفتح من

(١) كتاب الأربعين للشيرازي: ٤١٥، والبحار: ١٤٢/٤١.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣٢١/١.

الإلفات ما أماله غيره، والعدد الكوفي في القرآن منسوب إلى علي عليه السلام وليس في الصّحابة من ينسب إليه العدد غيره، وإنّما كتب عدد ذلك كلّ مصر من التابعين.

وأمّا علم الفقه والفروع فهو عليه السلام مرجع الفقهاء كلهم فيه وعنه عليه السلام تلقوه أمّا فقهاؤنا الأمامية أنار الله برهانهم فحالهم ظاهر، وأمّا فقهاء العامة فقد قال الشارح المعتزلي كلّ فقيه في الإسلام فهو عيال ومستفيد من فقهه، أمّا أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمّد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة، وأمّا الشافعي فقرأ على محمد ابن الحسن فيرجع فقهه أيضاً إليه، وأمّا أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة وقرأ أبو حنيفة على جعفر بن محمّد عليهما السلام، وقرأ جعفر على أبيه، وينتهي الأمر إلى علي عليه السلام، وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على علي عليه السلام، انتهى ما قاله الشارح[1].

وأقول: ما عند فقهاء العامة من الحقّ في الفروع الفقهية فقد خرج من أمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام، وما عندهم من الباطل فقد نسجتها إستحساناتهم العقلية وأقيستهم الباطلة وآراؤهم الفاسدة.

وقال في «المناقب»[2]: إنّ جميع فقهاء أهل الأمصار إليه يرجعون ومن بحره يغترقون، أمّا أهل الكوفة وفقهاؤهم سفيان الثّوري والحسن بن صالح بن حيّ وشريك بن عبد الله وابن أبي ليلى وهؤلاء يقرعون المسائل ويقولون هذا قياس قول عليّ عليه السلام ويترجمون الأبواب بذلك، وأمّا أهل البصرة وفقهاؤهم الحسن وابن سيرين وكلاهما كانا يأخذان عمّن أخذ عن عليّ عليه السلام، وابن سيرين يفصح بأنه أخذ عن الكوفيّين، وعن عبيدة بن السّماني وهو أخصّ النّاس بعليّ عليه السلام، وأمّا أهل مكّة فأخذوا عن ابن عباس وعن عليّ عليه السلام وقد أخذ عبد الله معظم علمه عنه عليه السلام وأمّا أهل المدينة فعنه عليه السلام أخذوا، وقد صنّف الشّافعي كتاباً مفرداً في الدّلالة على اتباع أهل المدينة لعليّ عليه السلام وعبد الله، وقال محمّد بن الحسن الفقيه: لولا علي ابن أبي طالب عليه السلام ما علمنا حكم أهل البغي.

وأمّا علم المناظرة ففي الأخبار أنّ أوّل من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق عليّ عليه السلام، وقد ناظره الملاحدة والزّنادقة في متناقضات القرآن فأجاب لهم بأجوبة متينة، وأجاب مشكلات مسائل الجاثليق حتّى أسلم، وقال عليه السلام لرأس الجالوت لما قال له: «لم تلبثوا بعد نبيّكم إلاّ ثلاثين سنة حتّى ضرب بعضكم وجه بعض بالسّيف»، فقال عليه السلام: «وأنتم

---

(١) بحار الأنوار: ٤١/١٤١ ومناقب أهل البيت: ١٩٩.

(٢) المصدر السابق: ١/٣٢٢.

لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتّى قلتم لموسى عليه السلام: إجعل لنا إلها كما لهم آلهة».

روى أبو بكر بن مردويه في كتابه عن سفيان أنه قال: ما حاج علي عليه السلام أحداً إلا حجه[1].

أقول: ويشهد بذلك الرّجوع إلى إحتجاجاته المروية في كتاب الإحتجاج لأحمد بن أبي طالب الطبرسي وفي مجلّد إحتجاجات الأئمة عليهم السلام ومجلّد الفتن والمحن من البحار للمحدث العلامة المجلسي (ره).

وأمّا القضاء والفصل بين الخصوم فيدل على سبقه عليه السلام فيه على الكل شهادة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في حقه وقوله: أقضاكم عليّ، ويفصح عنه ما أخبر به عن نفسه فيما رويناه عنه قريباً من قوله عليه السلام: «ثنيت لي الوسادة ثم أجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم» الحديث والآتي في الكلام المائة والتاسع عشر: وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر، ويدل عليه قضاياه عليه السلام في الوقائع الإتفاقيّة بما يحتار في أكثرها العقول وسيأتي شطر منها في شرح هذه الخطبة وغيرها إنشاء الله تعالى ورجوع الصّحابة إليه عليه السلام فيها مأثور مسطور، وقول عمر في مواطن كثيرة: لولا عليّ لهلك عمر، معروف مشهور.

وأمّا علم الفصاحة والبلاغة فهو بارعه وحائز قصب السّبق في مضماره حتى قيل في وصفه: إنّ كلامه عليه السلام فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، وقد تقدم من الرّضي في ديباجة المتن وصفه بأنّه مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ومنه ظهر مكنونها وعنه أخذ قوانينها، ويشهد بذلك خطبته البارعة المدونة في هذا الكتاب وسنشير إلى بعض مزايا كلامه عليه السلام في تضاعيف الشّرح إنشاء الله تعالى، وقد تقدم في ديباجة الشّرح الإشارة إلى بعضها على ما ساعد المجال. قال ابن نباتة: حفظت من كلامه عليه السلام ألف خطبة ففاضت ثم فاضت.

وأمّا علم النّجوم فيدل على براعته عليه السلام فيه ما يأتي منه في الكلام الثامن والسبعين وشرحه إنشاء الله تعالى من الأحكام النّجومية العجيبة لم يهتد إليها المنجمون.

وأمّا علم النّحو والأدبيّة فقد اتّفق العلماء على أنّه عليه السلام هو واضعه ومخترعه، قال أبو القاسم الزّجاجي في محكي كلامه عن **«أماليه»**: حدثنا أبو جعفر محمّد بن رستم الطبري، حدثنا أبو الحاتم السجستانيّ حدثنا يعقوب بن إسحاق الحضرمي حدثنا سعيد بن مسلم الباهلي حدثنا أبي عن جدي عن أبي الأسود الدّئلي، قال: دخلت على عليّ بن أبي

(١) البحار: ٤٠/ ١٦٠.

طالب عليه السلام فرأيته متفكراً فقلت له: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: «إنّي سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربيّة»، فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللّغة، ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إليّ صحيفة فيها: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم الكلام إسم وفعل وحرف، فالإسم ما انبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال عليه السلام: «لي تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أنّ الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر وإنّما تتفاضل العلماء فيما ليس بظاهر ولا مضمر». قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه عليه السلام، فكان من ذلك حروف النصب فذكرت منها **(إنّ) (وأنّ) (وليت) (ولعل) (وكان) ولم أذكر (لكنّ) فقال** عليه السلام: «لم تركتها»: فقلت: لم أحسبها منها، فقال عليه السلام: «بلى هي منها فزدها فيها» انتهى[1].

وأمّا علم الحساب فيدل على وفور علمه عليه السلام فيه ما رواه في المناقب عن ابن أبي ليلى أنّ رجلين تغدّيا في سفر ومع أحدهما خمسة أرغفة ومع الآخر ثلاثة وأكلها ثالث فأعطاهما ثمانية دراهم عوضاً فاختصما وارتفعا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «هذا أمر فيه دنائة والخصومة فيه غير جميلة والصّلح فيه أحسن»، فأبى صاحب الثلاثة إلاّ مرّ القضاء فقال عليه السلام: «إذا كنت لا ترضى إلا بمر القضاء فإنّ لك واحدة من ثمانية ولصاحبك سبعة أليس كان لك ثلاثة أرغفة ولصاحبك خمسة»؟ قال: بلى قال: **(فهذه أربعة وعشرون ثلثاً أكلت منها والضّيف ثمانية فلما أعطاكما الثمانية الدراهم كان لصاحبك سبعة ولك واحدة)**، ويأتي رواية هذه القضيّة بطريق آخر في تضاعيف الشّرح في موقعه بأبسط وجه إن شاء الله تعالى.

وأمّا علم الكيميا فهو أكثرهم حظاً منه، قال: في **«المناقب»** وقد سئل عن الصّنعة فقال عليه السلام: **(هي أخت النبوة وعصمة المروة والناس يتكلمون فيها بالظاهر وأنا أعلم ظاهرها وباطنها، ما هي والله إلاّ ماء جامد وهواء راكد ونار جائلة وأرض سائلة)**، قال: وسئل في أثناء خطبته هل الكيمياء تكون؟ فقال عليه السلام: «كان وهو كائن وسيكون»، فقيل من أيّ شيء هو؟ فقال عليه السلام: «من الزئبق الرّجراج والأسرب والزّاج والحديد المزعفر وزنجار النحاس الأخضر الحور «الحبورخ» إلا توقف على عابرهن»، فقيل: فهمنا لا يبلغ إلى ذلك فقال عليه السلام: «اجعلوا البعض أرضاً واجعلوا البعض ماء وافلحوا الأرض بالماء» وقد تم، فقيل زدنا يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: «لا زيادة عليه فإنّ الحكماء القدماء ما زادوا عليه [كيماط][2] يتلاعب به النّاس»[3].

---

(١) الصراط المستقيم: ١/ ٢٢٠، والفصول المهمة: ١/ ٦٨٤.

(٢) في نسخة: كيما، وفي المصدر: لئلا. (٣) البحار: ٧٢/ ٣٦٠.

وأمّا زهده وطلاقه للدّنيا ورغبته بالكلية عنها فهو من المتواترات القطعيّة أظهر وأبهر من الشّمس في رابعة النّهار، ويفصح عن ذلك ويبين عنه وتأتيك من سبأ بنبأ يقين الخطب والكلمات المدونة عنه في هذا الكتاب وغيره المتضمنة لزهده عليه سلام الله ربّ العالمين ملأ السماوات والأرضين وقد أقسم فيما يأتي من كلماته القصار بالقسم (الباء) وقال: **(والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم)، وقال في الكلام المائتين والثّاني والعشرين: (وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعليّ ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى)**[1].

وفي «**المناقب**» المعروفون من الصّحابة بالورع: عليّ وأبو بكر وعمرو بن مسعود وأبو ذر وسلمان ومقداد وعثمان بن مظعون وابن عمر، ومعلوم أنّ أبا بكر توفي وعليه بيت مال المسلمين نيف وأربعون ألف درهم، وعمر مات وعليه نيف وثمانون ألف درهم، وعثمان مات وعليه ما لا يحصى كثرة، وعليّ مات وما ترك إلا سبعمائة درهم فضلاً عن عطائه أعدّها لخادم.

أمالي الطوسي في حديث عمّار: يا علي إنّ الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إلى الله منها، زيّنك بالزّهد في الدنيا وجعلك لا تزرأ منها شيئاً ولا تزرا منك شيئاً، ووهبك حبّ المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً.

اللّؤلوئيات قال عمر بن عبد العزيز: ما علمنا أحداً كان في هذه الأمة أزهد من علي بن أبي طالب عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله، ويروى أنه كان عليه وقت لا يكون عنده ثلاثة دراهم يشتري بها إزاراً وما يحتاج إليه ثم يُقسِم كل ما في بيت المال على النّاس ثم يصلّي فيه ويقول: الحمد لله الذي أخرجني منه كما دخلته، وأتي إليه بمال فكوم كومة من ذهب وكومة من فضّة وقال يا صفراء اصفري يا بيضاء ابيضي وغرّي غيري،

هذا خباى «جناى خ» وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

الأشعث العبد قال: رأيت عليّاً عليه السلام اغتسل في الفرات يوم جمعة ثم ابتاع قميصاً كرابيس بثلاثة دراهم فصلّى بالنّاس الجمعة وما خيط جربانه بعد، وفي فضائل أحمد رؤي على عليّ عليه السلام إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم، ورؤي عليه إزار مرقوع فقيل له في ذلك فقال عليه السلام: «يقتدي به المؤمنون ويخشع له القلب وتذل به النّفس ويقصد به المتابع»، مسند أحمد وكان كمّه لا يجاوز أصابعه ويقول ليس للكمين على اليدين فضل، ونظر إلى فقير انخرق كمّ ثوبه فخرق كمّ قميصه وألقاه إليه، مسند الموصلي الشّعبي عن الحارث عن عليّ عليه السلام قال: «ما كان لي ليلة اهدي لفاطمة شيء ينام عليه إلا جلد كبش»، واشترى ثوباً

---

(١) الصراط المستقيم: ١/ ٢٢٣.

فأعجبه فتصدق به[1].

وأمّا العبادة وصالح الأعمال فقد علم إجمالاً بما قدّمناه في كونه أكثر ثواباً وأقول مضافاً إلى ما سبق: إنّه عليه السلام قد كان بالغاً فيها غايتها، وكفى به شهيداً أنّه كان يؤخذ النّشاب من جسده عند الصّلاة وهو غير شاعر له لإستغراقه في شهود جمال الحق وفنائه في الله وانقطاعه لكليّته عمّن سواه، وكان السّجاد عليّ بن الحسين عليهم السّلام يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ثم يأخذ صحف عبادات أمير المؤمنين عليه السلام وينظر ما فيها سيراً، ثم يتركها من يده كالمتضجر المتأسّف على تقصير نفسه في العبادة، ويقول: من يقدر على عبادة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وفيه نزل قوله تعالى:

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

روى ابن شهر آشوب في «**المناقب**» عن النيسابوري في «**روضة الواعظين**» أنه قال عروة بن الزّبير: سمع بعض التّابعين أنس بن مالك يقول: نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [الزمر: ٩] الآية.

قال الرّجل: فأتيت عليّاً عليه السلام وقت المغرب فوجدته يصلي ويقرأ القرآن إلى أن طلع الفجر، ثمّ جدد وضوءه وخرج إلى المسجد وصلى بالنّاس صلاة الفجر، ثم قعد في التّعقيب إلى أن طلعت الشّمس، ثم قصده النّاس فجعل يقضي بينهم إلى أن قام إلى صلاة الظهر فجدّد الوضوء، ثم صلى بأصحابه الظهر، ثم قعد في التّعقيب إلى أن صلى بهم العصر، ثم كان يحكم بين النّاس ويفتيهم إلى أن غابت الشّمس.

وفيه عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] قال: ذاك أمير المؤمنين عليه السلام وشيعته: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

وفيه عن محمّد بن عبد الله بن الحسن عن آبائه عليهم السلام وعن أبي مالك عن ابن عباس ومحمّد بن علي الباقر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

«والله لهو عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/٣٦٦.

(٢) البصائر: ٦٥، والبحار: ٢٣/٢٢٠ ح ٢٢.

قال بعض السادات

مفرق الأحزاب ضرّاب الطلى مكسّر الأصنام كشاف الغمم
الزّاهد العابد في محرابه السّاجد الرّاكع في جنح الظلم
صام هجيراً وعلى سائله جاد بإفطار الصّيام ثم نم

وقال العبدي

وكم غمرة الموت لله خاضها ولجة بحر في الحكوم اقامها
وكم ليلة ليلا ولله قامها وكم صبحة مسجورة الحرّ صامها

وفيه أيضاً عن عروة الزّبير قال: تذاكرنا صالح الأعمال فقال أبو الدرداء: أعبد النّاس عليّ بن أبي طالب عليه السلام سمعته قائلاً بصوت حزين ونغمة شجيّة في موضع خال: إلهي كم من موبقة حملتها «حلمتها خ» عني فقابلتها بنعمتك وكم من جريرة تكرمت عليّ بكشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمّل غير غفرانك ولا أنا براج غير رضوانك.

ثم ركع ركعات فأخذ في الدعاء والبكاء فمن مناجاته: إلهي أفكر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي ثم أذكر العظيم من أخذك فيعظم عليّ بليتي ثم قال آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها فتقول خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته ولا تنفعه قبيلته يرحمه البلاء إذا أذن فيه بالنداء آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار لواعة للشواء آه من غمرة من لهبات لظى، ثم أنعم في البكاء فلم أسمع له حساً فقلت: غلب عليه النوم أُوقظه لصلاة الفجر فأتيته فإن هو كالخشبة الملقاة فحركته فلم يتحرك فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم فقالت فاطمة عليها السّلام: ما كان من شأنه؟ فأخبرتها فقالت: هي والله الغشية التي تأخذه من خشية الله تعالى، ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق ونظر إليّ وأنا أبكي فقال: مم بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فكيف ولو رأيتني ودُعي بي إلى الحساب وأيقن أهل الجرائم بالعذاب وأحوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ فوقفت بين يدي ملك الجبار قد أسلمتني الأحبّاء ورحمني أهل الدّنيا أشد رحمة لي بين يدي من لا يخفى عليه خافية[1].

ومنها الشجاعة ولقد كان أشجع النّاس وأنسى شجاعة من كان قبله ومحا إسم من كان يأتي بعده وتعجّبت الملائكة من حملانه، وفيه قال النّبي صلى الله عليه وآله لما خرج لقتال عمرو بن

(١) أمالي الصدوق: ١٣٨ ح ١٢٦، ومدينة المعاجز: ٢/ ٨٠.

عبدود: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»، فلما قتله قال ﷺ له: «أبشر يا علي فلو وزن عملك اليوم بعمل أمّتي لرجح عملك بعملهم»، رواه في «**المناقب**» لأحمد بن حنبل والنسائي عن ابن مسعود، وأنزل الله تعالى[1]:

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] بعلي الآية، كما عن مصحف ابن مسعود، قال ربيعة السّعدي: أتيت حذيفة اليمان فقلت يا أبا عبد الله: إنا لنتحدث عن عليّ ومناقبه فيقول أهل البصرة: «إنكم لتفرّطون في عليّ فهل تحدثني بحديث؟ فقال حذيفة والذي نفسي بيده لو وضع جميع أعمال أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كفّة الميزان منذ بعث الله محمّداً إلى يوم القيامة ووضع عمل عليّ عليه السلام في الكفّة الأخرى لرجح عمل عليّ على جميع أعمالهم، فقال ربيعة هذا الذي لا يقام له ولا يقوم، فقال حذيفة: يا لكع وكيف لا يحمل وإن كان أبو بكر وعمر وحذيفة وجميع أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم عمرو بن عبدود وقد دعا إلى المبارزة فأحجم النّاس كلهم ما خلا عليّاً، فإنّه نزل إليه فقتله والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من عمل أصحاب محمّد إلى يوم القيامة.

قال الشّارح المعتزلي: وكانت العرب تفتخر بوقوفها في الحرب في مقابلته، فأما قتلاه فافتخار رهطهم بأنه عليه السلام قتلهم أظهر وأكثر قالت أخت عمرو بن عبدود ترثيه:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... بكيته ابداً ما دمت في البلد

لكنّ قاتله من لا نظير له ... وكان يدعي أبوه بيضة البلد

وفي غزاة أُحد إنهزم المسلمون وخشي رسول الله ﷺ وضربه المشركون بالسيوف والرّماح وعليّ يدافع عنه فنظر إليه النّبي ﷺ بعد إفاقته من غشيته وقال ﷺ: «ما فعل المسلمون؟ فقال: (**نقضوا العهد وولوا الدّبر**)، فقال: «أكفني أمر هؤلاء» فكشفهم عنه وصاح صائح بالمدينة قتل رسول الله، فانهلعت القلوب ونزل جبرئيل قائلاً لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ، وقال للنبي ﷺ يا رسول الله لقد عجبت الملائكة من حسن مواساة علي لك بنفسه، قال النّبي ﷺ «ما يمنعه عن ذلك وهو مني وأنا منه»، إلى غير ذلك ممّا لا يحكيه قلم ولا يضبطه رقم، وستطلع على فتوحاته ومجاهداته تفصيلاً في مواقعها إنشاء الله، كما ستطلع على سائر مكارم أخلاقه ومحاسن خصاله على حسب الإستطاعة والتمكن في مقاماته المناسبة، ولو أردنا شرح معشار فضائله وخصائصه لاحتجنا إلى إفراد كتاب يماثل حجم هذا الكتاب بل يزيد.

قال الجاحظ في محكي كلامه، ونعم ما قال حال كونه من أعظم النّاس عداوة لأمير

(١) الطرائف لابن طاووس: ٣٥ ح ٢٢.

المؤمنين عليه السلام : صدق عليّ عليه السلام في قوله: نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد كيف يقاس بقوم منهم رسول الله صلى الله عليه وآله، والأطيبان علي وفاطمة، والسبطان الحسن والحسين، والشهيدان أسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر، وسيّد الورى عبد المطلب وساقي الحجيج العباس وحامي النّبي ومعينه ومحبه أشدّ حبّاً وكفيله ومربيه والمقر بنبوته والمعترف برسالته والمنشد في مناقبه أبياتاً كثيرة، وشيخ قريش أبو طالب والنّجدة والخير فيهم، والأنصار من نصرهم، والمهاجرون من هاجر لهم ومعهم، والصّديق من صدّقهم، والفاروق من فارق بين الحقّ والباطل فيهم، والحواري حواريهم، وذو الشّهادتين لأنّه شهد لهم، ولا خير إلا فيهم ولهم ومنهم ومعهم، وأبان رسول الله أهل بيته بقوله: «إنّي تارك فيكم الخليفتين كتاب الله حبل ممدود من السّماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي نبأني اللّطيف الخبير أنهما لن يتفرقا حتّى يردا عليّ الحوض»، ولو كانوا كغيرهم لما قال عمر لما طلب مصاهرة علي عليه السلام : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول «كل سبب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي».

فأمّا عليّ فلو أفردنا لفضائله الشّريفة ومقاماته الكريمة ودرجاته الرّفيعة ومناقبه السّنية لأفنينا في ذلك الطوامير الطوال والدّفاتر، العرق صحيح، والنّسب صريح، والمولد مكان معظم، والمنشأ مبارك مكرم، والشّأن عظيم، والعمل جسيم والعلم كثير، وليس له نظير، والبيان عجيب، واللسان خطيب، والصدر رحيب، وأخلاقه وفق أعراقه، وحديثه يشهد على تقديمه، انتهى[1].

وأنت إذا أحطت خبراً بما مهدناه في هذه المقدّمة عرفت فساد ما توهمه النّواصب اللئام من عدم وجود النّص على إمامة أمير المؤمنين وسيد المتقين ويعسوب الدين وقائد الغرّ المحجلين عليه وعلى أولاده آلاف التحية والسّلام، كما عرفت فساد القول بتفضيل غيره عليه، كما اتّفق لجماعة منهم، وكذا القول بتفضيله على غيره مع القول بصحة خلافة الثّلاثة وتقديمهم عليه كما هو مذهب الشّارح المعتزلي ومن يحذو حذوه من معتزلة بغداد وغيرهم على ما حكى عنهم في أوائل الشّرح، وعمدة ما أوقعه كغيره في هذا الوهم الفاسد والرّأي الكاسد ما ذكره في تضاعيف شرح هذه الخطبة ولا بأس أن نذكر كلامه بطوله ثم نتبعه بما يلوح عليه من ضروب الكلام ووجوه الملام.

فأقول: قال الشّارح خذله الله عند شرح قوله عليه السلام : **(أما والله لقد تقمصها)** إلى قوله: **(أرى تراثي نهباً)**، ما لفظه: إن قيل بيّنوا لنا ما عندكم في هذا الكلام أليس صريحه دالاً على تظليم القوم ونسبتهم إلى إغتصاب الأمر فما قولكم في ذلك إن حكمتم عليهم بذلك فقد طعنتم فيهم، وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم في المتكلم عليهم؟

---

(١) كتاب الأربعين للماحوزي: ٣٥٢، وكشف الغمة: ١/ ٣٢، وينابيع المودة: ١/ ٤٦١.

قيل: أمّا الإماميّة من الشيعة فتجري هذه الألفاظ على ظواهرها وتذهب إلى أن النبي نصّ على أمير المؤمنين وأنّه غصب حقه، وأمّا أصحابنا رحمهم الله فلهم أن يقولوا إنه لما كان أمير المؤمنين هو الأفضل والأحق وعدل عنه إلى من لا يساويه في فضل ولا يوازيه في جهاد وعلم ولا يماثله في سودد وشرف ساغ إطلاق هذه الألفاظ وإن كان من وسم بالخلافة قبله عدلاً تقياً وكانت بيعته بيعة صحيحة، ألا ترى أن البلد قد يكون فيه فقيهان أحدهما أعلم من الآخر بطبقات كثيرة فيجعل السّلطان الأنقص علماً منهما قاضياً فيتوجد الأعظم ويتألم وينفث أحياناً بالشكوى ولا يكون ذلك طعنا في القاضي ولا تفسيقاً له ولا حكماً منه بأنّه غير صالح، بل للعدول عن الأحق والأولى، وهذا أمر مركوز في طباع البشر ومجبول في أصل الغريزة والفطنة، فأصحابنا لما أحسنوا الظن بالصّحابة وحملوا ما وقع منهم على وجه الصواب وأنّهم نظروا إلى مصلحة الإسلام وخافوا فتنة لا تقتصر على ذهاب الخلافة فقط، بل ويفضي إلى ذهاب النّبوة والملة، فعدلوا عن الأفضل الأشرف الأحق إلى فاضل آخر دونه فعقدوا له، إحتاجوا إلى تأويل هذه الألفاظ الصّادرة عمّن يعتقدونه في الجلالة والرّفعة قريباً من منزلة النّبوة، فتأوّلوها بهذا التّأويل وحملوها على التألم للعدول عن الأولى، وليس هذا بأبعد من تأويل الإماميّة قوله تعالى:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

وقولهم: معنى عصى أنّه عدل عن الأولى، لأنّ الأمر بترك أكل الشّجرة كان أمراً على سبيل الندب فلما تركه آدم كان تاركاً للأفضل والأولى فسمّي عاصياً باعتبار مخالفة الأولى، وحملوا (غوى) على (خاب) لا على الغواية بمعنى الضّلال، ومعلوم أن تأويل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وحمله على أنه شكا من تركهم الأولى وأحسن من حمل قوله تعالى: وعصى آدم، على أنّه ترك الأولى.

إن قيل: لا يخلو الصّحابة أن يكون عدلت عن الأفضل لعلة ومانع في الأفضل أولاً لمانع فإن كان لا لمانع كان ذلك عقداً للمفضول بالهوى فيكون باطلاً، وإن كان لمانع وهو ما يذكرونه من خوف الفتنة وكون الناس كانوا يبغضون علياً ويحسدونه فقد كان يجب أن يعذرهم أمير المؤمنين عليه السلام في العدول عنه ويعلم أن العقد لغيره هو المصلحة للإسلام، فكيف حسن منه أن يشكوهم بعد ذلك ويتوجد إليهم؟ وأيضاً فما معنى قوله: فطفقت أرتاي بين أن أصول بيد جذاء، على ما تأوّلتم به كلامه فإنّ تارك الأولى لا يصال عليه بالحرب.

قيل: يجوز أن يكون أمير المؤمنين لم يغلب على ظنّه ما غلب على ظنون الصّحابة من الشغب وثوران الفتنة، والظنون تختلف باختلاف الإمارات فرب إنسان يغلب على ظنّه أمر يغلب على ظنّ غيره خلافه، وأمّا قوله: أرتاي بين أن أصول، فيجوز أن يكون لم يعن به صيال الحرب، بل صيال الجدل والمناظرة، يبين ذلك أنه لو كان جادلهم وأظهر ما في نفسه

لهم فربما خصموه بأن يقولوا له: قد غلب على ظنوننا أنّ الفساد يعظم ويتفاقم إن وليت الأَمر، ولا يجوز مع غلبة ظنوننا لذلك أن نسلّم الأَمر إليك، فهو عليه السلام قال: (طفقت أرتاي) بين أن أذكر لهم فضائلي عليهم وأحاجّهم بها فيجيبوني بهذا الضرب من الجواب الذي تصير حجتي بهم جذّاء مقطوعة ولا قدرة لي على تشييدها ونصرتها، وبين أن أصبر على ما منيت به ووقعت إليه.

إن قيل: إذا كان لم يغلب على ظنّه وجود العلّة والمانع فيه وقد استراد الصّحابة وشكاهم لعدولهم عن الأَفضل الذي لا علة فيه عنده، فقد سلمتم أنّه ظلم الصّحابة ونسبهم إلى غصب حقّه فما الفرق بين ذلك وبين أن يظلمهم لمخالفة النّص وكيف هربتم من نسبته لهم إلى الظلم لدفع النّص ووقعتم في نسبته لهم إلى الظلم لخلاف الأَولى من غير علّة في الأَولى؟ ومعلوم أن مخالفة الأَولى من غير علة في الأَولى كتارك النّص، لأَن العقد في كلا الموضعين يكون فاسداً؟

قيل: الفرق بين الأَمرين ظاهر لأَنّه لو نسبهم إلى مخالفة النّص لوجب وجود النص، ولو كان النص موجوداً لكانوا فساقاً أو كفّاراً لمخالفته، وأمّا إذا نسبهم إلى ترك الأَولى من غير علة في الأَولى فقد نسبهم إلى أمر يدعون فيه خلاف ما يدعي عليه السلام وأحد الأَمرين لازم، وهو إمّا أن يكون ظنّهم صحيحاً أو غير صحيح، فإن كان ظنهم هو الصّحيح فلا كلام في المسألة، وإن لم يكن ظنهم صحيحاً كانوا كالمجتهد إذا ظن وأخطأ، فإنّه معذور ومخالفة النّص خارج عن هذا الباب لأَن مخالفه غير معذور بحال، فافترق المحملان، انتهى كلامه[١].

أقول: لا يخفى ما فيه من وجوه الجهل وضروب التّجاهل أما أولاً فلأَنّ قوله: وإن كان من وسم بالخلافة عدلاً تقياً، أوّل الكلام وستطلع على فسق أسلافه عند التّعرض لمطاعنهم حيثما بلغ الكلام محله إنشاء الله.

وأما ثانياً فلأَنّ قوله: وكانت بيعته بيعة صحيحة، ممنوع إذ خلافة أبي بكر لم تنعقد إلاّ باعتبار متابعة عمر بن الخطاب له برضاء أربعة: أبي عبيدة وسالم مولى حذيفة وبشر بن سعد وأسيد بن حصين لا غير، وقد تخلف عنها وجوه الصّحابة حسبما تعرفه في محله، وقد صرّح الشّارح في شرح قوله عليه السلام: **(فصيرها في حوزة خشناء)** بأن استقرار الخلافة له لم يحصل إلاّ بوجود عمر حيث قال: وعمر هو الذي شيّد بيعة أبي بكر ورقم المخالفين فيها فكسر سيف الزّبير لما جرّده ودفع في صدر المقداد ووطأ في السّقيفة سعد بن عبادة وقال: اقتلوا سعداً قتل الله سعداً وحطم أنف الحباب ابن المنذر الذي قال يوم السّقيفة: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، وتوعد من لجأ إلى دار فاطمة من الهاشميين وأخرجهم منها، ولولاه لم يثبت لأَبي

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١/ ١٥٩.

بكر أمر ولا قامت له قائمة، انتهى.

وهذا الكلام كما ترى صريح في أنّ عقد البيعة لأبي بكر لم تكن من إجماع الكلّ واجتماعهم عن طوع ورغبة، وإنّما حصل عن تشييد عمرو وتأسيسه، وعلى تقدير تسليم أن يكون أهل البيعة جماعة كثيرة فنقول: لا خفاء في أنّهم تابعون لتصرف الشرع فيهم لا تصرف لهم في أنفس غيرهم من آحاد الأمة في أقل مهمّ من مهماتهم، فكيف يولون الغير على أنفس الخلائق منهم ومن غيرهم؟ فإنّ من لا يعقل له التّصرف في أقلّ الأمور لأدنى الأشخاص كيف يكون له القدرة على جعل الغير متصرّفاً في نفوس أهل الشّرق والغرب وفي دمائهم وأموالهم وفروجهم؟.

وهذا الذي ذكرناه إنّما هو على سبيل المماشاة وإلاّ فقد صرّح صاحب المواقف وشارحه السّيد الشّريف بانعقاد البيعة بالواحد والإثنين حيث قال: وإذا ثبت حصول الإمامة بالإختيار والبيعة فاعلم أنّ ذلك الحصول لا يفتقر إلى الإجماع من جميع أهل الحلّ والعقد إذ لم يقم عليه أي على هذا الإفتقار دليل من العقل أو السمع، بل الواحد والإثنان من أهل الحلّ والعقد كاف في ثبوت الإمامة ووجوب إتباع الإمام على أهل الإسلام، وذلك لعلمنا بأنّ الصّحابة مع صلابتهم في الدين وشدّة محافظتهم على أمور الشّرع كما هو حقها اكتفوا في عقد الإمامة بذلك المذكور من الواحد والإثنين كعقد عمر لأبي بكر وعقد عبد الرّحمان بن عوف لعثمان، ولم يشترطوا في عقدها إجتماع من في المدينة من أهل الحلّ والعقد فضلاً عن إجماع الأمة من علماء أمصار الإسلام ومجتهدي جميع أقطارها على هذا كما مضى ولم ينكر عليهم أحد، وعليه أي وعلى الإكتفاء بالواحد والإثنين في عقد الإمامة انطوت الأعصار بعدهم إلى وقتنا هذا، انتهى.

ومع ذلك كله كيف يمكن أن يقال، أن بيعة أبي بكر كانت بيعة صحيحة شرعيّة؟ وكيف يحلّ لمن يؤمن بالله واليوم الآخر إيجاب أتباع من لم ينص الله ورسوله؟ ولا اجتمعت الأمة عليه على جميع الخلق لأجل مبايعة رجل واحد، وله يرضى العاقل لنفسه الإنقياد إلى هذا المذهب وأن يوجب على نفسه ذل الطاعة لمن لا يعرف عدالته ولا يدري حاله من الإيمان وعدمه ولا يعرف حقّه من باطله لأجل أن شخصاً لا يعرف عدالته ومعرفته بايعه، إن هو إلاّ محض الجهل والحمق والضّلال عن سبيل الرّشاد.

وأمّا ثالثاً فإنّ قوله: **(الا ترى أنّ البلد)** (اه)، ظاهر هذا المثال بملاحظة تطبيقه مع الممثل يعطي أنّ تقديم أبي بكر إنّما حصل بفعل الله سبحانه، وهو ظاهر ما ذكره في خطبة الشّرح من قوله: وقدم المفضول على الأفضل لمصلحة إقتضاها التكليف، وحينئذٍ فيتوجه عليه أولاً أنّه مناف لما صرّح به بعد ذلك: من أنّ الصّحابة نظروا إلى مصلحة الإسلام فعدلوا من الأفضل الأشرف، حيث إن المستفاد منه أنّ تقديمه إنّما كان بفعل الصّحابة لا بفعل الله.

وثانياً: أنه يستلزم أن يقدم اللّطيف الخبير المفضول المحتاج إلى التكميل على الفاضل الكامل وهو مع أنه قبيح عقلاً ونقلاً إفتراء عليه سبحانه، وقد قال تعالى:

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وثالثاً: أنه لو كان هذا التّقديم من الله لم يصحّ لعليّ عليه السلام الشكاية مطلقاً لأنّها حينئذٍ تكون ردّاً على الله والرّد على الله على حدّ الشرك بالله.

وأمّا رابعاً: فإن قوله: وأنّهم نظروا إلى مصلحة الإسلام (ا ه)، ممنوع بل نقول إنّ تقديمهم له إنّما نشأ من حبّ الجاه والرّئاسة وعداوة لإمام الأمة كما يكشف عند قول طلحة حين كتب أبو بكر وصيّة لعمر بالولاية والخلافة: وليته أمس ولاك اليوم.

وقال الغزالي في كتابه المسمّى بسرّ العالمين على ما حكاه عنه غير واحد في مقالة الرّابعة التي وضعها لتحقيق أمر الخلافة بعد عدة من الأبحاث وذكر الإختلاف ما هذه عبارته: لكن اسفرت الحجة وجهها وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته صلوات الله عليه في يوم الغدير باتّفاق الجميع وهو يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، فقال عمر: بخ بخ يا أبا الحسن لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة فهذا تسليم ورضاء وتحكيم، ثم بعد هذا غلب الهوى لحبّ الرّئاسة وحمل عمود الخلافة وعقود البنود وخفقان الهواء في قعقعة الرّايات وإشتباك ازدحام الخيول وفتح الأمصار سقاهم كأس الهوى فعادوا إلى الخلاف الأول فنبذوا الحقّ وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون[(١)].

وأمّا خامساً فلأنّ تمثيله بالآية لا وجه له، إذا ارتكاب التّأويل في الآية الشّريفة بحمل العصيان فيها على ترك الأولى وحمل الغيّ على الخيبة إنّما هو من أجل قيام الأدلة القاطعة والبراهين السّاطعة من العقل والنّقل على عصمة الأنبياء عليهم السّلام حسبما عرفت تفصيلاً في التذنيب الثّالث من تذنيبات الفصل الثّاني عشر من فصول الخطبة الأولى، وأمّا فيما نحن فيه فمجرّد حسن الظن بالصّحابة لا يوجب إرتكاب التّأويل ورفع اليد عمّا هو ظاهر في التّظلم والتشكّي بل صريح في الطعن وإغتصاب الخلافة.

وأمّا سادساً: فإنّ الجواب عن الإعتراض الذي ذكره بقوله: قيل: يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلب على ظنه ما غلب على ظنون الصّحابة، تكلف بارد. إذ كيف يمكن أن يجهل عليّ الذي هو باب مدينة العلم ودار الحكمة بما عرفه عامة الخلق مع جهالتهم وانحطاط درجاتهم منه في العلم من الثرى إلى الثريا ولا سيّما أنّ هذه الخطبة ممّا خطب عليه السلام بها في أواخر عمره الشريف كما يشهد به مضمونها، فهب أنّه لم يغلب على ظنه في أوّل الأمر

---

(١) رسالة سرّ العالمين: ١٠ ـ ١١ المجموعة السادسة.

ما غلب على ظنون الصّحابة إلاّ أنّه كيف يمكن أن يخفى عليه في هذه السنين المتطاولة ما ظهر على الصّحابة في بادي الرّأي.؟

فإن قلت: هذه الخطبة منه حكاية حال ماضية ولا تنافي إطلاعه على ما اطلع عليه الصحابة بعد هذه الحال.

قلت: المنافاة واضحة إذ اللاّزم عليه بعد إطلاعه بما ظنوه أن يعذرهم ويعتذر عنهم ولا يتكلم بمثل هذا الكلام الحاكي عن سوء فعالهم والكاشف عن قبح أعمالهم، ويأتي لهذا إن شاء الله مزيد تحقيق في شرح الكلام المائتين والرّابع عشر.

وأمّا سابعاً: فإنّ ما أجاب به بقوله: وأما قوله: أرتاي بين أن أصول، فيجوز أن يكون لم يعن به صيال الحرب بل صيال الجدل والمناظرة، فاسد جدّاً.

أما أولاً فلأنّ ظاهر الكلام هو الصّيال بالحرب مؤيداً بما هو صريح كلامه عليه السلام في الخطبة السّادسة والعشرين وهو قوله: (**فنظرت فإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي فضننت بهم عن الموت**[1] **وأغضيت على القذى وشربت على الشّجى وصبرت على أخذ الكظم وعلى أمرّ من طعم العلقم**)، وقد قال الشّارح هناك: فأمّا قوله: لم يكن لي معين إلاّ أهل بيتي فضننت بهم عن الموت، فقول ما زال عليه السلام يقوله: ولقد قاله: عقيب وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله، قال: لو وجدت أربعين ذوي عزم، ذكر ذلك نصر بن مزاحم في كتاب «**صفين**» وذكره كثير من «**أرباب السّيرة**»، انتهى[2].

وأمّا ثانياً: فلأنّه عليه السلام قد ذكر فضائله ومناقبه والنّصوص الواردة فيه واحتجّ بها يوم السّقيفة كما ستعرفه في محلّه، فلم يصبر عن الاحتجاج بها حتّى يقول: فصبرت وفي العين قدى وفي الحلق شجى، وكيف كان فقد تحصل ممّا ذكرنا كله أنّ تكلّفات الشّارح وتأويلاته فاسدة جدّاً وتطلع على فسادها زيادة على ما ذكر في تضاعيف الكتاب إن ساعدنا التّوفيق والمجال إن شاء الله.

---

(١) في الإمامة: الهلاك.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢/٤٨، والإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١/١٧٦، بتفاوت.

إلى هنا تم الجزء الثاني من هذه الطبعة النفيسة البهية، وقد تصدى لتصحيحه وتهذيبه العبد «السيد ابراهيم الميانجي» عفى عنه ووقع الفراغ في اليوم الخامس عشر من شهر رجب الأصب سنة ١٣٧٨ ويليه الجزء الثالث، وأوله: «المقدمة الثالثة» والحمد لله كما هو أهله.

محتوى الجزء الثاني من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

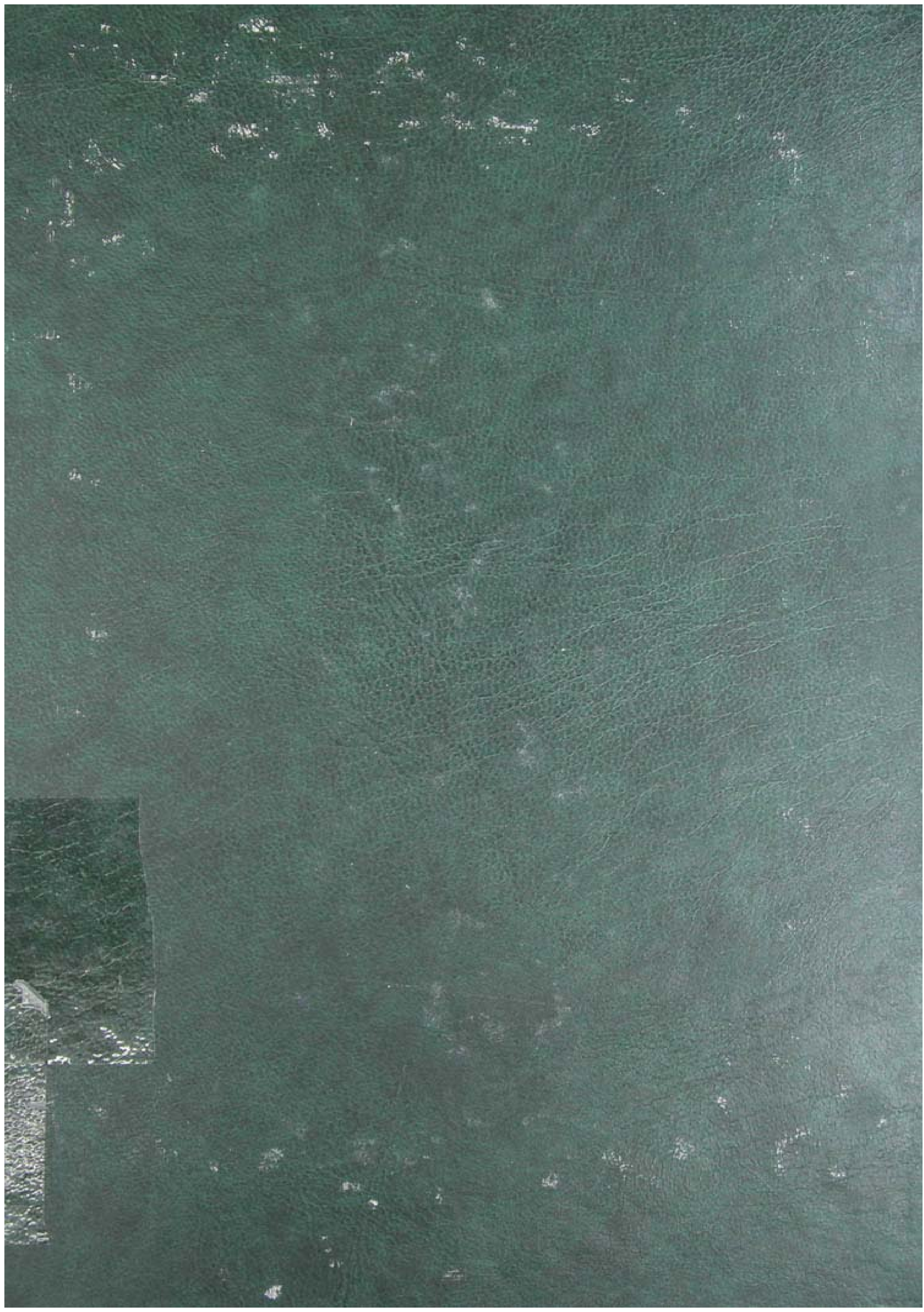

نهج البلاغة

خطب، رسائل، كلام، وصايا
عهود، حكم، ومواعظ

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الثالث

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة الثالثة

في كيفيّة غصب أهل الخلافة للخلافة وما جرى منهم يوم السّقيفة وبعدها من إجبار أمير المؤمنين عليه السلام على البيعة وإنكار من أنكر عليهم ذلك وما جرى في تلك الوقائع من الظلم والطغيان لعنة الله على أهل البغي والعدوان، ونحن نذكر هنا ما وصل إلينا من طرق أصحابنا رضوان الله عليهم، وأمّا ما ذكره العامة في هذا الباب ورووه في سيرهم وتواريخهم فنتصدّى لها كبعض روايات الخاصّة إن شاء الله في شرح الخطب الآتية ممّا أشار فيها الإمام عليه السلام إلى هذا المرام.

فنقول: روى الشّيخ أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي في كتاب **«الاحتجاج»** عن أبي المفضّل محمّد بن عليّ الشيباني بإسناده الصّحيح عن رجال ثقة عن ثقة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في مرضه الذي توفّى فيه إلى الصّلاة متوكئاً على الفضل بن عبّاس وغلام له يقال له: ثوبان، وهي الصّلاة التي أراد التّخلف عنها لثقله ثم حمل على نفسه صلى الله عليه وآله وخرج، فلما صلّى عاد إلى منزله فقال لغلامه: اجلس على الباب ولا تحجب أحداً من الأنصار، وتجلاه الغشى فجاء الأنصار فأحدقوا بالباب وقالوا: ائذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: هو مغشيّ عليه وعنده نساؤه، فجعلوا يبكون، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله البكاء فقال: «من هؤلاء»؟ قالوا: الأنصار، فقال: «من ههُنا من أهل بيتي»؟ قالوا: عليّ والعباس فدعاهما، وخرج متوكئاً عليهما فاستند إلى جذع[1] من أساطين مسجده وكان الجذع جريد نخل فاجتمع النّاس وخطب صلى الله عليه وآله، وقال في كلامه: «إنّه لم يمت نبيّ قط إلاّ خلّف تركة وقد خلّفت فيكم الثّقلين: كتاب الله وأهل بيتي، ألا فمن ضيّعهم ضيّعه الله، ألا وإنّ الأَنصار كرشي[2] وعيبتي التي آوي إليها، وإنّي أوصيكم بتقوى الله والإحسان إليهم، فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

ثمّ دعا أسامة بن زيد وقال: سر على بركة الله والنّصر والعافية حيث أمرتك بمن أمّرتك عليه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمّره على جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر

(١) بالكسر: ساق النخلة.

(٢) كرش الرجل عياله وصغاره وولده والعيبة من الرجل موضع سره.

وجماعة من المهاجرين الأولين، وأمره أن يعبروا «يغبروا خ ل» على موتة واد[١] من فلسطين، فقال أسامة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي في المقام أيّاماً حتّى يشفيك الله، فإنّي متى خرجت وأنت على هذه الحالة خرجت وفي قلبي منك قرحة، فقال ﷺ: «أنفذ يا أسامة لما أمرتك، فإن القعود عن الجهاد لا نحب في حال من الأحوال»، فبلغ رسول الله ﷺ أنّ الناس طعنوا في عمله، فقال رسول الله ﷺ: «بلغني أنكم طعنتم في عمل أسامة وفي عمل أبيه من قبل، وأيم الله إنه لخليق للإمارة وإنّ أباه كان خليقاً لها وإنه لمن أحبّ الناس إليّ، فأوصيكم به خيراً فلأن قلتم في إمارته فقد قال قائلكم في إمارة أبيه».

ثمّ دخل رسول الله ﷺ بيته وخرج أسامة من يومه حتّى عسكر على رأس فرسخ من المدينة ونادى منادي رسول الله ﷺ: أن لا يتخلّف عن أسامة أحد ممّن أمّرته عليه، فلحق النّاس به، وكان أول من سارع إليه أبو بكر وعمرو أبو عبيدة ابن الجرّاح، فنزلوا في زقاق[٢] واحد مع جملة أهل العسكر.

قال: وثقل رسول الله ﷺ فجعل النّاس ممّن لم يكن في بعث أسامة يدخلون عليه إرسالاً[٣] وسعد بن عبادة شاك[٤] فكان لا يدخل أحد من الأنصار على النّبي ﷺ إلاّ انصرف إلى سعد يعوده.

قال: وقبض رسول الله ﷺ وقت الضّحى من يوم الاثنين بعد خروج أسامة إلى معسكره بيومين، فرجع أهل العسكر والمدينة قد رجفت بأهلها، فأقبل أبو بكر على ناقة له حتّى وقف على باب المسجد فقال: أيها النّاس مالكم تموجون، إن كان محمّد قد مات فربُّ محمّد لم يمت.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ثم اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة وجاء به إلى سقيفة بني ساعدة فلما سمع بذلك عمر أخبر به أبا بكر ومضيا مسرعين إلى السّقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجرّاح وفي السّقيفة خلق كثير من الأنصار وسعد بن عبادة بينهم مريض، فتنازعوا الأمر بينهم فآل الأمر إلى أن قال أبو بكر في آخر كلامه للأنصار: إنّما ادعوكم إلى أبي عبيدة بن الجرّاح أو عمر و كلاهما قد رضيت لهذا الأمر وكلاهما أراه له أهلاً، فقال أبو عبيدة وعمر: ما ينبغي لنا أن نتقدمك يا أبا

(١) موضع قتل فيه جعفر بن أبي طالب.

(٢) الزقاق: كغراب السكة من الطريق المنسد، ق.

(٣) أي جماعات متتابعين، منه.

(٤) الشوكة: داء معروف وحمرة تعلو الجسد، ق.

بكر أنت أقدمنا إسلاماً وأنت صاحب الغار وثاني اثنين فأنت أحقّ بهذا الأمر وأولانا به، فقالت الأنصار نحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منّا ولا منكم فنجعل منّا أميراً ومنكم أميراً ونرضى به على أنّه إن هلك اخترنا آخر من الأنصار، فقال أبو بكر بعد أن مدح المهاجرين: وأنتم يا معاشر الأنصار ممّن لا ينكر فضلهم ولا نعمتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ولرسوله وجعل إليكم مهاجرته وفيكم محلّ أزواجه، فليس أحد من النّاس بعد المهاجرين الأوّلين بمنزلتكم فهم الأمراء وأنتم الوزراء.

فقال الحباب بن المنذر الأنصاري: يا معشر الأنصار املكوا[١] على أيديكم فإنّما النّاس في فيئكم وظلالكم ولن يجتري مجتر على خلافكم ولن تصدر النّاس إلاّ عن رأيكم، وأثنى على الأنصار، ثم قال: فإن أبى هؤلاء تأميركم عليهم فلسنا نرضى بتأميرهم علينا ولا نقنع بدون أن يكون منّا أمير ومنهم أمير.

فقام عمر بن الخطاب فقال: هيهات لا يجتمع سيفان في غمد[٢] واحد إنّه لا ترضى العرب أن تأمركم ونبيّها من غيركم لكنّ العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النّبوة فيهم وأولوا الأمر منهم، وكنا بذلك على من خالفنا الحجّة الظاهرة والسّلطان البيّن فما ينازعنا سلطان محمّد ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مدلّ بباطل أو متجانف[٣] بإثم أو متورّط في الهلكة محبّ للفتنة.

فقام الحباب بن المنذر ثانية فقال: يا معشر الأنصار امسكوا على أيديكم لا تسمعوا مقال هذا الجاهل وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، وإن أبوا أن يكون أمير وأمير فاجلوهم عن بلادكم وتولوا هذا الأمر عليهم فأنتم والله أحقّ به منهم فقد دان بأسيافكم قبل هذا الوقت من لم يكن يدين بغيرها وأنا جذيلها[٤] المحكّك وعذيقها المرجب[٥] والله لئن ردّ أحد قولي لأحطمنّ أنفه بالسّيف.

---

(١) يقال: املك عليك لسانك أي لا تبحره إلا بما يكون لك لا عليك، نهاية.

(٢) الغمد: بالكسر: جفن السيف وهو غلاقه، لغة.

(٣) الجنف: محركة كالجنوف بالضم الميل عن الحق، والجانف المايل، ق.

(٤) الجذل: واحد الأجذال وهو أصول الحطب العظام ومنه قول حباب بن المنذر: أنا جذيلها المحكك، والمجاذل المنتصب مكان لا يبرح شبه بالجذل الذي ينصب في المعاطن لتحتك به الإبل الجربى، أراد أن يستغني برأيه وتدابيره، صحاح.

(٥) في حديث السقيفة: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب. الرجبة أن تعمد النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لطولها وكثرة حملها أن تقع ورجبتها فهي مرجبة والعذيق تصغير العذق بالفتح وهي النخلة وهو تصغير عظيم وقد يكون ترجيبها بأن يجعل حولها شوك لئلا يُرتقى إليها «النهاية» وترجيبها ضم أعزاقها إلى سعفاتها وشدها بالخوص لئلا تنقضها الريح أو وضع الشوك حولها لئلا يصل إليها آكل ومنه أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، ق.

قال عمر بن الخطاب: فلما كان حباب هو الذي يجيبني لم يكن لي معه جواب «في كلام خ ل» فإنّه جرت بيني وبينه منازعة في حياة رسول الله ﷺ فنهاني رسول الله ﷺ عن مهاترته فحلفت أن لا أكلمه أبداً.

ثم قال عمر لأبي عبيدة: تكلم، فقام أبو عبيدة بن الجراح وتكلم بكلام كثير وذكر فيه فضائل الأنصار وكان بشير بن سعد سيّداً من سادات الأنصار لما رأى اجتماع الأنصار على سعد بن عبادة لتأميره حسده وسعى في إفساد الأمر عليه وتكلم في ذلك ورضى بتأمير قريش وحثّ النّاس كلهم ولا سيّما الأنصار على الرّضا بما يفعله المهاجرون.

فقال أبو بكر: هذا عمرو وأبو عبيدة شيخا قريش فبايعوا أيّهما شئتم.

فقال عمر وأبو عبيدة: ما نتولى هذا الأمر امدد يدك نبايعك.

فقال بشير بن سعد: وأنا ثالثكما، وكان سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فلما رأت الأوس صنيع بشير وما دعت إليه الخزرج من تأمير سعد، أكبّا على أبي بكر بالبيعة وتكاثروا على ذلك وتزاحموا فجعلوا يطأون سعداً من شدة الزّحمة وهو بينهم على فراشه مريض، فقال: قتلتموني، قال عمر: اقتلوا سعداً قتله الله.

فوثب قيس بن سعد فأخذ بلحية عمرو قال: والله يا ابن صهّاك الجبان في الحروب الفرّار اللّيث في الملاء والأمن لو حركت منه شعرة ما رجعت في وجهك واضحة، فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر فإنّ الرّفق أبلغ وأفضل، فقال سعد: يا ابن صهاك وكانت جدّة عمر حبشية: أما والله لو أنّ لي قوّة على النّهوض لسمعتما منّي في سككها زئيراً أزعجك وأصحابك منها ولألحقتكما بقوم كنتما فيهم أذناباً أذلاء، تابعين غير متبوعين، لقد اجترأتما، ثم قال للخزرج: احملوني من مكان الفتنة، فحملوه فأدخلوه منزله، فلما كان بعد ذلك بعث إليه أبو بكر أن قد بايع النّاس فبايع فقال: لا والله حتّى أرميكم بكلّ سهم في كنانتي واخضب منكم سنان رمحي وأضربكم بسيفي ما أقلّت يدي فأقاتلكم بمن تبعني من أهل بيتي وعشيرتي ثم وأيم الله لو اجتمع الجن والإنس عليّ لما بايعتكما أيها الغاصبان حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسابي، فلما جاءهم كلامه قال عمر: لا بد من بيعته، فقال بشير بن سعد: إنّه قد أبى ولجّ وليس بمبايع أو يقتل وليس بمقتول حتّى يقتل معه الخزرج والأوس فاتركوه، فليس تركه بضائر فقبلوا قوله وتركوا سعداً.

فكان سعد لا يصلّي بصلاتهم ولا يقضي بقضائهم ولو وجد أعواناً لصال بهم ولقاتلهم، فلم يزل كذلك مدة ولاية أبي بكر حتّى هلك أبو بكر، ثم ولى عمر وكان كذلك فخشى سعد غائلة عمر فخرج إلى الشّام فمات بحوران في ولاية عمر ولم يبايع أحداً وكان سبب موته أن رمى بسهم في الليل فقتل وزعم أنّ الجن رموه، وقيل أيضاً إنّ محمّد بن سلمة الأنصاري تولى ذلك بجعلةٍ جعلت له عليه، وروي أنّه تولى ذلك المغيرة

بن شعبة، وقيل خالد بن الوليد[1].

قال: وبايع جماعة الأنصار ومن حضر من غيرهم وعليّ بن أبي طالب مشغول بجهاز رسول الله ﷺ، فلما فرغ من ذلك وصلى على رسول الله ﷺ والناس يصلون عليه من بايع أبي بكر ومن لم يبايع وجلس في المسجد فاجتمع إليه بنوا هاشم ومعهم الزّبير بن العوام، واجتمعت بنوا أميّة إلى عثمان بن عفان وبنوا زهرة إلى عبد الرّحمٰن بن عوف فكانوا في المسجد مجتمعين إذ أقبل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجرّاح، فقالوا: ما لنا نريكم خلقاً شتى؟ قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايعته الأنصار والنّاس، فقام عثمان وعبد الرّحمٰن بن عوف ومن معهما فبايعوا وانصرف علي عليه السلام وبنو هاشم إلى منزل عليّ ومعهم الزّبير.

قال: فذهب إليهم عمر في جماعة ممّن بايع فيهم أسيد بن حصين وسلمة بن سلامة فألفوهم مجتمعين، فقالوا لهم بايعوا أبا بكر فقد بايعه النّاس فوثب الزّبير إلى سيفه، فقال: عمر عليكم بالكلب العقور فاكفونا شرّه فبادر سلمة بن سلامة فانتزع السّيف من يديه فأخذه عمر فضرب به الأرض فكسره وأحدقوا بمن كان هناك من بني هاشم ومضوا بجماعتهم إلى أبي بكر فلما حضروا، قالوا: بايعوا أبا بكر وقد بايعه النّاس وأيم الله لئن أبيتم من ذلك لنحاكمنكم بالسّيف، فلما رأى ذلك بنو هاشم أقبل رجل فجعل يبايع حتى لم يبق ممّن حضر إلاّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

فقالوا له: بايع أبا بكر فقال عليّ عليه السلام: أنا أحقّ بهذا الأمر منه وأنتم أولى بالبيعة لي أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من الرّسول وتأخذونه منّا أهل البيت غصباً ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لمكانكم من رسول الله ﷺ فأعطوكم المقادة وسلّموا لكم الإمارة وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، أنا أولى برسول الله ﷺ حيّاً وميّتاً وأنا وصيّه ووزيره ومستودع سرّه وعلمه وأنا الصّديق الأكبر أول من آمن به وصدقه وأحسنكم بلاء في جهاد المشركين وأعرفكم بالكتاب والسّنة وأذربكم لساناً وأثبتكم جناناً، فعلام تنازعونا هذا الأمر، أنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفته لكم الأنصار وإلاّ فبوؤا بالظلم والعدوان وأنتم تعلمون.

فقال عمر: أما لك بأهل بيتك أسوة؟ فقال عليّ عليه السلام «سلوهم عن ذلك»، فابتدر القوم الذين بايعوا من بني هاشم فقالوا: ما بيعتنا بحجّة على عليّ عليه السلام ومعاذ الله أن نقول: إنّا نوازيه في الهجرة وحسن الجهاد والمحلّ من رسول الله ﷺ فقال عمر: إنك لست متروكاً حتّى تبايع طوعاً أو كرهاً، فقال عليّ عليه السلام: «احلب حلباً لك شطره اشدد له اليوم ليردّ عليك غداً إذا والله لا أقبل قولك ولا أحفل بمقامكم ولا أعبؤ، فقال أبو بكر: مهلاً يا أبا الحسن ما

(1) راجع الاحتجاج: ١/ ٩٤، والبحار: ٢٨/ ١٨٣.

نشد فيك ولا نكرهك.

فقام أبو عبيدة إلى علي عليه السلام فقال: يا ابن عمّ لسنا ندفع قرابتك ولا سابقتك ولا علمك ولا نصرتك، ولكنّك حدث السّن، وكان لعليّ عليه السلام يومئذٍ ثلاث وثلاثون سنة وأبو بكر شيخ من مشايخ قومك وهو أحمل لثقل هذا الأمر وقد مضى الأمر بما فيه فسلم له، فإن عمّرك الله يسلموا هذا الأمر إليك ولا يختلف فيك إثنان بعد هذا إلاّ وأنت به خليق وله حقيق ولا نبعث الفتنة في أوان الفتنة فقد عرفت بما في قلوب العرب وغيرهم عليك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا معاشر المهاجرين والأنصار، الله الله لا تنسوا عهد نبيّكم إليكم في أمري ولا تخرجوا سلطان محمّد صلى الله عليه وآله من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن حقّه ومقامه في النّاس فوالله يا معاشر الناس «الجمع خ» إن الله قضى وحكم ونبيّه أعلم وأنتم تعلمون بأنا أهل البيت أحقّ لهذا الأمر منكم ما كان[١] القارىء منكم لكتاب الله الفقيه في دين الله المضطلع بأمر الرّعية والله إنّه لفينا لا فيكم فلا تتّبعوا الهوى فتزدادوا من الحقّ بعداً وتفسدوا قديمكم بشرّ من حديثكم».

فقال بشير بن سعد الأنصاري الذي وطأ الأمر لأبي بكر وقالت جماعة من الأنصار: يا أبا الحسن لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار قبل بيعتها «الانتظام خ» لأبي بكر ما اختلف فيك إثنان.

فقال علي عليه السلام: «يا هؤلاء كنت أدع الرّسول وهو مسجّى[٢] لا أواريه وأخرج أنازع في سلطانه، والله ما خفت[٣] أحداً يسمو له وينازعنا أهل البيت فيه ويستحلّ ما استحللتموه، ولا علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ترك يوم غدير خمّ لأحد حجّة ولا لقائل مقالاً»، فأنشد الله رجلاً سمع يوم غدير خمّ يقول صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله»، أن يشهد الآن بما سمع.

قال زيد بن أرقم: فشهد اثنا عشر رجلاً بدريّاً بذلك وكنت ممّن سمع القول من رسول الله صلى الله عليه وآله فكتمت الشّهادة فذهب بصري، قال: وكثر الكلام في هذا المعنى وارتفع الصّوت وخشي عمر أن يصغي[٤] إلى قول علي عليه السلام ففسخ المجلس وقال: «إنّ الله يقلّب القلوب والأبصار ولا تزال يا أبا الحسن ترغب عن قول الجماعة فانصرفوا يومهم ذلك[٥]».

---

(١) في نسخة: فكان.

(٢) مسجى: سجيت الميت تسجية إذا مددت عليه ثوباً.

(٣) في نسخة: خلت.

(٤) في نسخة: الناس.

(٥) بطوله في بحار الأنوار: ١٨/١٧٦ ـ ١٨٠ ح ١، والاحتجاج: ٤٣ ـ ٤٧.

وفي «**الاحتجاج**» أيضاً عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليهما السّلام: جعلت فداك هل كان أحد في أصحاب رسول الله ﷺ أنكر على أبي بكر فعله وجلوسه ومجلس رسول الله ﷺ؟ فقال عليه السلام: «نعم كان الذي أنكر على أبي بكر إثني عشر رجلاً»، من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص وكان من بني أمية، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمّار بن ياسر، وبريدة الأسلمي ومن الأنصار أبو الهيثم بن التيهان، وسهل، وعثمان ابنا حنيف، وخزيمة بن ثابت، وذو الشّهادتين، وأبيّ بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري، قال: فلمّا صعد أبو بكر المنبر تشاوروا بينهم فقال بعضهم لبعض: والله لنأتينه ولننزلنه عن منبر رسول الله ﷺ، وقال آخرون منهم والله لئن فعلتم ذلك إذاً لأعنتم على أنفسكم، فقال قال الله تعالى:

﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فانطلقوا بنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام لنستشيره ونستطلعه على الأمر ونستطلع رأيه، فانطلق القوم إلى أمير المؤمنين عليه السلام بأجمعهم فقالوا يا أمير المؤمنين: تركت حقاً أنت أحق به وأولى منه، لأنّا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «عليّ مع الحقّ والحق مع عليّ يميل مع الحقّ كيف مال»، ولقد هممنا أن نصير إليه فننزله عن منبر رسول الله ﷺ، فجئناك لنستشيرك ونستطلع رأيك فيما تأمرنا.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وأيم الله لو فعلتم ذلك لما كنتم لهم إلاّ حرباً، ولكنكم كالملح في الزّاد وكالكحل في العين، وأيم الله لو فعلتم ذلك لأتيتموني شاهرين أسيافكم مستعدّين للحرب والقتال وإذاً لآتوني فقالوا لي: بايع وإلاّ قتلناك، فلا بدّ من أن أدفع القوم عن نفسي وذلك إن رسول الله ﷺ أوعز إليّ قبل وفاته، وقال لي يا أبا الحسن: إنّ الأمة ستغدر بك من بعدي وتنقض فيك عهدي وإنّك مني بمنزلة هارون من موسى وإنّ الأمة من بعدي بمنزلة هارون ومن اتبعه والسّامري ومن اتبعه، فقلت يا رسول الله فما تعهد إليّ إذا كان[1] كذلك؟ فقال: إن[2] وجدت أعواناً فبادر إليهم وجاهدهم، وإن لم تجد أعواناً كف يدك واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً، فلما توفّي رسول الله ﷺ اشتغلت بغسله وتكفينه والفراغ من شأنه، ثم آليت يميناً أن لا أرتدي إلاّ للصّلاة حتى أجمع القرآن، ففعلت ثم أخذت بيد فاطمة وابنيّ الحسن والحسين فدرت على أهل بدر وأهل السّابقة فناشدتهم الله إلى حقّي ودعوتهم إلى نصرتي فما أجابني منهم إلاّ أربعة رهط: سلمان، وعمّار، والمقداد، وأبو ذر، ولقد راودت في ذلك بقية أهل بيتي، فأبوا عليّ إلاّ السّكوت لما علموا من وغارة صدور القوم وبغضهم لله ولرسوله ولأهل بيت نبيّه، فانطلقوا بأجمعكم إلى هذا الرّجل فعرّفوه ما سمعتم

---

(١) في نسخة زيادة: كهارون.
(٢) في نسخة: إذا.

من قول نبيكم ﷺ ليكون ذلك أوكد للحجّة وأبلغ للعذر وأبعد لهم من رسول الله إذا وردوا عليه، فسار القوم حتّى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، وكان يوم الجمعة، فلمّا صعد أبو بكر المنبر قال المهاجرون للأنصار: تقدّموا فتكلموا، فقال الأنصار للمهاجرين: بل تكلموا أنتم فإنّ الله عزّ وجل أدناكم في الكتاب إذ قال الله عزّ وجلّ:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

فقال أبان: فقلت: يا ابن رسول الله إنّ الأمة لا تقرأ كما عندك، «قال وكيف تقرأ يا أبان»؟ قال: قلت: إنها تقرأ لقد تاب الله على النّبي والمهاجرين والأنصار فقال ﷺ: «ويلهم وأي ذنب كان لرسول الله حتّى تاب الله عليه منه إنّما تاب الله به على أمّته»، فأوّل من تكلم به خالد بن سعيد بن العاص ثمّ باقي المهاجرين ثمّ من بعدهم الأنصار، وروي أنّهم كانوا غيّباً عن وفاة رسول الله ﷺ فقدموا وقد تولى أبو بكر وهم يومئذ أعلام مسجد رسول الله ﷺ.

فقام خالد بن سعيد بن العاص وقال: اتّق الله يا أبا بكر فقد علمت أن رسول الله ﷺ قال، «ونحن محتوشوه[1] يوم بني قريظة حين فتح الله له وقد قتل عليّ يومئذٍ عدّة من صناديد رجالهم وأولي البأس والنجدة منهم: يا معاشر المهاجرين والأنصار إنّي أوصيكم بوصيّة فاحفظوها ومودعكم أمراً فاحفظوه، ألا إنّ عليّ بن أبي طالب أميركم بعدي وخليفتي فيكم بذلك أوصاني ربّي، ألا وإنكم إن لم تحفظوا فيه وصيّتي وتوازروه وتنصروه اختلفتم في أحكامكم واضطرب عليكم أمر دينكم وولاكم شراركم، ألا إن أهل بيتي هم الوارثون لأمري والعاملون بأمر أمّتي من بعدي، اللّهم من أطاعهم من أمّتي وحفظ فيهم وصيّتي فاحشرهم في زمرتي واجعل لهم نصيباً من مرافقتي يدركون به نور الآخرة، اللّهم ومن أساء خلافتي في أهل بيتي فاحرمه الجنّة التي عرضها كعرض السّماء والأرض».

فقال له عمر بن الخطاب: اسكت يا خالد فلست من أهل المشورة ولا من يقتدى برأيه، فقال خالد: اسكت يا ابن الخطاب فإنّك تنطق على لسان غيرك وأيم الله لقد علمت قريش أنك من ألأمها حسباً وأدناها منصباً وأخسها قدراً وأخملها ذكراً وأقلهم غناء عن الله ورسوله وأنك لجبان في الحروب بخيل في المال لئيم العنصر مالك في قريش من فخر، ولا في الحروب من ذكر وأنّك في هذا الأمر بمنزلة الشّيطان.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦ - ١٧].

---

(١) محتوشوه: احتوشت القوم على كذا أي جعلوه وسطهم وأحاطوا عليه.

فأبلس[١] عمر وجلس خالد بن سعيد.

ثم قام سلمان الفارسي (رض) وقال: كرديد ونكرديد أي فعلتم ولم تفعلوا وامتنع من البيعة قبل ذلك حتّى وجي عنقه فقال يا أبا بكر: إلى من تستند أمرك إذا نزل بك ما لا تعرفه وإلى من تفزع إذا سُئِلت عمّا لا تعلمه فما عذرك في تقدم من هو أعلم منك وأقرب إلى رسول الله وأعلم بتأويل كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ ومن قدّمه النّبي ﷺ في حياته وأوصاكم به عند وفاته، فنبذتم قوله وتناسيتم وصيّته وأخلفتم الوعد ونقضتم العهد وحللتم العقد الذي كان عقده عليكم من النّفوذ تحت راية أسامة بن زيد حذراً من مثل ما أتيتموه وتنبيهاً للأمة على عظيم ما اجترمتموه «حتموه خ» من مخالفة أمره فعن قليل يصفو لك الأمر وقد أثقلك الوزر ونقلت إلى قبرك وحملت معك ما كسبت يداك فلو راجعت الحقّ من قرب وتلافيت نفسك وتبت إلى الله من عظيم ما اجترمت كان ذلك أقرب إلى نجاتك يوم تفرد في حفرتك ويسلّمك ذوو نصرتك، فقد سمعت كما سمعنا ورأيت كما رأينا، فلم يردعك ذلك عمّا أنت متشبّث به من هذا الأمر الذي لا عذر لك في تقلّده ولاحظّ للدين ولا للمسلمين في قيامك به، فالله الله في نفسك فقد أعذر من أنذر، ولا تكن أنت كمن أدبر واستكبر.

ثمّ قام أبو ذر الغفاري فقال: يا معشر قريش أصبتم قباحة «قناعة خ» قباعة خ» وتركتم قرابة والله ليرتدن جماعة من العرب وليشكنّ في هذا الدّين ولو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيّكم ما اختلف عليكم سيفان، والله لقد صارت لمن غلب ولتطمحنّ إليها عين من ليس من أهلها، وليسفكنّ فيها دماء كثيرة فكان كما قال أبو ذر، ثم قال: لقد علمتم وعلم خياركم أنّ رسول الله ﷺ قال: «الأمر بعدي لعليّ ثمّ لابنيّ الحسن والحسين ثم للطاهرين من ذرّيتي، فأطرحتم قول نبيّكم وتناسيتم ما عهد به إليكم فأطعتم الدّنيا الفانية ونسيتم[٢] الآخرة الباقية التي لا يهرم شبابها ولا يزول نعيمها ولا يحزن أهلها ولا يموت سكّانها بالحقير التّافه الفاني الزائل وكذلك الأمم من قبلكم كفرت بعد أنبيائها ونكصت على أعقابها وغيّرت وبدلت واختلفت فساويتموهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، وعمّا قليل تذوقون وبال أمركم وتجزون بما قدّمت أيديكم وما الله بظلام للعبيد».

ثمّ قام المقداد بن الأسود فقال: يا أبا بكر ارجع عن ظلمك وتب إلى ربّك والزم بيتك وابكِ على خطيئتك وسلم الأمر إلى صاحبه الذي هو أولى به منك، فقد علمت ما عقده رسول الله ﷺ في عنقك من بيعته وألزمك من النّفوذ تحت راية أسامة بن زيد وهو مولاه، ونبّه على بطلان وجوب هذا الأمر لك ولمن عضدك عليه بضمه لكما إلى علم النّفاق ومعدن الشنئان والشّقاق عمرو بن العاص الذي أنزل الله فيه على نبيّه:

---

(١) أَبْلَسَ: أي سَكَتَ.

(٢) في نسخة: بعتم شريتم.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

فلا اختلاف بين أهل العلم أنّها نزلت في عمرو وهو كان أميراً عليكما وعلى سائر المنافقين في الوقت الذي أنفذه رسول الله ﷺ في غزاة ذات السّلاسل وأنّ عمراً قلدكما حرس عسكره فأين الحرس إلى الخلافة؟ اتّق الله وبادر إلى الاستقالة قبل فوتها فإن ذلك أسلم لك في حياتك وبعد وفاتك ولا تَرْكَنْ إلى الدّنيا «دنياك خ» ولا تغرنك قريش وغيرها فعن قليل تضمحل عنك دنياك ثم تصير إلى ربك فيجزيك بعملك وقد علمت وتيقنت أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام صاحب الأمر بعد رسول الله ﷺ فسلمه إليه بما جعله الله له فإنّه أتم لسترك وأخف لوزرك فقد والله نصحت لك إن قبلت نصحي وإلى الله ترجع الأمور.

ثمّ قام بريدة الأسلمي فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ماذا لقي الحق من الباطل يا أبا بكر أنسيت أم تناسيت وخدعت أم خدعتك نفسك وسوّلت تلك الأباطيل أولم تذكر ما أمرنا به رسول الله ﷺ من تسمية عليّ بأمرة المؤمنين والنّبي بين أظهرنا وقوله له في عدّة أوقات هذا عليّ أمير المؤمنين وقاتل القاسطين؟ اتّق الله وتدارك نفسك قبل أن لا تدركها وأنقذها ممّا يهلكها واردد الأمر إلى من هو أحقّ به منك ولا تتمارى[1] في اغتصابه وراجع وأنت تستطيع أن تراجع فقد محضتك النّصح ودللتك على طريق النّجاة فلا تكونن ظهيراً للمجرمين.

ثمّ قام عمّار بن ياسر فقال: يا معاشر قريش ويا معاشر المسلمين إن كنتم علمتم وإلاّ فاعلموا أنّ أهل بيت نبيّكم أولى به وأحقّ بإرثه وأقوم بأمور الدّين وآمن على المؤمنين وأحفظ لملته وأنصح لأمته فمروا صاحبكم فليردّ الحقّ إلى أهله قبل أن يضطرب حبلكم ويضعف أمركم ويظهر شنآنكم وتعظم الفتنة بكم وتختلفوا فيما بينكم ويطمع فيكم عدوّكم، فقد علمتم أنّ بني هاشم أولى بهذا الأمر منكم وعليّ من بينهم وليّكم بعهد الله ورسوله، وفرق ظاهر قد عرفتموه في حال بعد عند سدّ النّبي ﷺ أبوابكم التي كانت إلى المسجد كلها غير بابه وإيثاره إيّاه بكريمته فاطمة الزّهراء دون سائر من خطبها إليه منكم، وقوله ﷺ: «أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها فمن أراد الحكمة فليأتها من بابها، وإنكم جميعاً مضطرون فيما أُشكل عليكم من أمور دينكم إليه، وهو مستغن عن كلّ أحد منكم إلى ماله من السّوابق التي لأفضلكم عند نفسه فما بالكم تحيدون عنه وتبتزون عليّاً حقّه[2] وتؤثرون الحياة الدّنيا على الآخرة؟ بئس للظالمين بدلاً اعطوه ما جعله الله ولا تولوا مدبرين ولا تردّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين».

ثمّ قام أُبيّ بن كعب فقال: يا أبا بكر لا تجحد حقّاً جعله الله لغيرك ولا تكن أوّل من عصى رسول الله ﷺ في وصيّه[3] وصدف عن أمره، اردد الحقّ إلى أهله تسلم ولا تتماد في

---

(١) لا تتمارى: لا تجادل.

(٢) في نسخة: وتنيرون على حقه.

(٣) في نسخة: وصفيه.

غيّك فتندم وبادر إلى الإنابة يخف وزرك ولا تخصصنّ بهذا الأمر الذي لم يحله[1] الله لك نفسك فتلقى وبال عملك، فعن قليل تفارق ما أنت فيه وتصير إلى ربّك فيسألك عمّا جنيت، وما ربّك بظلام للعبيد.

ثمّ قام خزيمة بن ثابت فقال: أيّها النّاس ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قبل شهادتي وحدي ولم يرد معي غيري؟ قالوا: بلى، قال: فأشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أهل بيتي يفرقون بين الحقّ والباطل، وهم الأئمة الذين يقتدى بهم وقد قلت ما علمت وما على الرّسول إلاّ البلاغ المبين».

ثمّ قام أبو الهيثم بن التّيهان فقال: وأنا أشهد على نبيّنا ﷺ أنّه أقام عليّاً عليه السلام يعني في يوم غدير خم فقالت الأنصار: ما أقامه إلاّ للخلافة، وقال بعضهم: ما أقامه إلاّ ليعلم النّاس أنّه مولى من كان رسول الله مولاه، وكثر الخوض في ذلك فبعثنا رجالاً منا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن ذلك فقال لهم قولوا: «عليّ وليّ المؤمنين بعدي وأنصح النّاس لامتي وقد شهدت بما حضرني فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنّ يوم الفصل كان ميقاتاً».

ثمّ قام سهل بن حنيف فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي محمّد وآله ثم قال: يا معاشر قريش اشهدوا على أنّي أشهد على رسول الله ﷺ وقد رأيته في هذا المكان يعني الروضة وقد أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول: «أيّها النّاس هذا عليّ إمامكم من بعدي ووصيّي في حياتي وبعد وفاتي وقاضي ديني ومنجز وعدي وأوّل من يصافحني على حوضي فطوبى لمن اتّبعه ونصره والويل لمن تخلف عنه وخذله».

ثمّ قام من بعده أخوه عثمان بن حنيف فقال: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «أهل بيتي نجوم الأرض فلا تتقدموهم وقدموهم، فهم الولاة بعدي»، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله وأيّ أهل بيتك؟ فقال ﷺ عليّ والطاهرين من ولده، وقد بيّن عليه السلام فلا تكن يا أبا بكر أوّل كافر به فلا تخونوا الله والرّسول وتخونوا أمانتكم وأنتم تعلمون.

ثمّ قام أبو أيّوب الأنصاري فقال: اتّقوا الله عباد الله في أهل بيت نبيّكم واردّوا إليهم حقهم الذي جعله الله لهم، فقد سمعتم مثل ما سمع إخواننا في مقام بعد مقام لنبيّنا ﷺ، ومجلس بعد مجلس يقول: أهل بيتي أئمتكم بعدي ويومىء إلى عليّ عليه السلام يقول: هذا أمير البررة وقاتل الكفرة، مخذول من خذله منصور من نصره فتوبوا إلى الله من ظلمكم إنّ الله تواب رحيم، ولا تتولوا عنه مدبرين، ولا تتولوا عنه معرضين.

(١) في نسخة: يجعله.

قال الصّادق عليه السلام «فأفحم[١] أبو بكر على المنبر حتّى لم يحر[٢] جواباً ثم قال وليتكم ولست بخيركم أقيلوني أقيلوني».

فقال له عمر بن الخطاب: أنزل عنها يا لكع إذا كنت لا تقوم بحجج قريش لم أقمت نفسك هذا المقام؟ والله لقد هممت أن أخلعك وأجعلها في سالم مولى أبي حذيفة، قال فنزل ثم أخذ بيده وانطلق إلى منزله وبقوا ثلاثة أيّام لا يدخلون مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله.

فلما كان في اليوم الرّابع جاءهم خالد بن الوليد ومعه ألف رجل فقال لهم: ما جلوسكم فقد طمع فيها والله بنو هاشم، وجاءهم سالم مولى أبي حذيفة ومعه ألف رجل، وجاءهم معاذ بن جبل ومعه ألف رجل فما زال يجتمع رجل رجل حتّى اجتمع أربعة آلاف رجل فخرجوا شاهرين أسيافهم يقدمهم عمر بن الخطاب حتّى وقفوا بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عمر والله يا أصحاب عليّ لئن ذهب الرّجل منكم يتكلم بالذي تكلم به بالأمس لنأخذنّ الذي فيه عيناه.

فقام إليه خالد بن سعيد بن العاص وقال: يا ابن صهّاك الحبشية أفبأسيافكم تهدّدونا أم بجمعكم تفزعونا؟ والله إن أسيافنا أحدُّ من أسيافكم وإنّا لأكثر منكم وإن كنا قليلين لأنَ حجّة الله فينا والله لولا أنّي أعلم أنّ طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة إمامي أولى بي لشهرت سيفي وجاهدتكم في الله إلى أن أبلي عذري، فقال «له خ» أمير المؤمنين عليه السلام: «إجلس يا خالد فقد عرف لك مقامك وشكر لك سعيك»، فجلس.

وقام إليه سلمان الفارسي فقال الله أكبر الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وإلاّ صمّتا يقول: «بينا أخي وابن عمّي جالس في مسجدي ومعه نفر من أصحابه إذ تكبسه جماعة من كلاب أهل النّار يريدون قتله وقتل من معه، ولست أشك إلاّ وأنكم هم»، فهمّ به عمر بن الخطاب، فوثب إليه أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ بمجامع ثوبه ثم جلد به الأرض ثم قال: يا ابن صهّاك الحبشيّة لولا كتاب من الله سبق وعهد من الله تقدّم لأريتك أينا أضعف ناصراً أو أقل عدداً، ثم التفت إلى أصحابه فقال: انصرفوا رحمكم الله فوالله لا دخلت المسجد إلاّ كما دخل أخواي موسى وهارون إذ قال له أصحابه:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

والله لا دخلته إلاّ لزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله أو لقضيّة أقضيها، فإنّه لا يجوز لحجة أقامه رسول الله أن يترك النّاس في حيرة[٣].

---

(١) أفحمها: أسكتها. (٢) لم يحر: لم يرد.

(٣) بطوله في الاحتجاج: ١/ ٩٧ ـ ١٠٢، والبحار: ٢٨/ ١٩١ ـ ٢٠٩.

وفي «**الإحتجاج**» أيضاً عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: إنّ عمر احتزم بإزاره وجعل يطوف بالمدينة وينادي ألاّ إنّ أبا بكر قد بويع فهلموا إلى البيعة فينثال[1] النّاس يبايعون فعرف أنّ جماعة في بيوت مستترون فكان يقصدهم في جمع كثير فيكبسهم ويحضرهم المسجد فيبايعون حتّى إذا مضت أيّام أقبل في جمع كثير إلى منزل علي عليه السلام فطالبه بالخروج فأبى، فدعا عمر بحطب ونار، وقال والذي نفس عمر بيده ليخرجنّ أو لأحرقنّه على ما فيه، فقيل له: إنّ فاطمة بنت رسول الله وولد رسول الله وآثار رسول الله صلى الله عليه وآله فيه، وأنكر النّاس ذلك من قوله فلما عرف إنكارهم قال: ما بالكم أترونني فعلت ذلك إنّما أردت التّهويل فراسلهم عليّ عليه السلام أن ليس إلى خروجي حيلة، لأني في جمع كتاب الله الذي قد نبذتموه وألهتكم الدّنيا عنه، وقد حلفت أن لا أخرج من بيتي ولا أدع ردائي على عاتقي حتّى أجمع القرآن، قال: وخرجت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم فوقفت على الباب، ثم قالت لا عهد لي بقوم أسوء محضراً منكم تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم فيما بينكم ولم تؤامرونا ولم تروا لنا حقّاً، كأنّكم لم تعلموا ما قال يوم غدير خم، والله لقد عقد له يومئذٍ الولاء ليقطع منكم بذلك منها الرّجاء، ولكنكم قطعتم الأسباب والله حسيب بيننا وبينكم في الدّنيا والآخرة[2].

وفي «**غاية المرام**» من كتاب سليم بن قيس الهلالي وهو كتاب مشهود معتمد نقل منه المصنّفون في كتبهم وهو من التّابعين رأى عليّاً وسلمان وأبا ذر وفي مطلع كتابه ما هذه صورته: فهذه نسخة كتاب سليم بن قيس الهلالي رفعه إلى أبان بن أبي عيّاش وقرأه علي عليه السلام وذكر أبان أنه قرأ على علي بن الحسين عليه السلام فقال صدق سليم هذا حديثنا نعرفه، قال سليم: سمعت سلمان الفارسي أنّه قال: فلما أن قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وصنع النّاس ما صنعوا جالهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجرّاح وخاصموا الأنصار بحجّة عليّ عليه السلام فخصموهم فقالوا يا معاشر الأنصار قريش أحقّ بالأمر منكم، لأنّ رسول الله من قريش، والمهاجرون خير منكم لأن الله سبحانه بدأ بهم في كتابه وفضلهم، وقد قال رسول الله عليه السلام: الأئمة من قريش.

قال سلمان: فأتيت وهو يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله وقد كان أوصى عليّاً أن لا يلي غسله إلاّ هو، فقال: يا رسول الله ومن يعينني عليك؟ فقال: جبرئيل عليه السلام، وكان عليّ عليه السلام لا يريد عضواً إلاّ انقلب له، فلما غسّله وكفّنه أدخلني وأدخل أبا ذر والمقداد وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فتقدم علي عليه السلام وصفنا خلفه وصلّى عليه وعائشة في الحجرة لا

(١) إنثال عليه الناس: أي انصبوا.

(٢) بطوله في الاحتجاج: ١/ ١٠٥، والبحار: ١٨/ ٢٠٤ ح ٣.

تعلم، ثم أدخل عشرة من المهاجرين وعشرة من الأنصار يدخلون فيدعون ثم يخرجون «فيصلون ويخرجون خ» حتّى لم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلاّ صلّى عليه.

قال سلمان: فأتيت عليّاً وهو يغسل «قلت لعلي عليه السلام حين يغسل خ» رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبرته بما صنع النّاس فقلت: إنّ أبا بكر السّاعة قد رقي منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يرضوا أن يبايعوه بيد واحدة وأنّهم ليبايعونه بيديه جميعاً بيمينه وشماله، فقال عليه السلام: «يا سلمان وهل تدري أوّل من بايعه على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله»؟ فقلت: لا إلاّ أنّي رأيت[١] في ظلة بني ساعدة حين خصمت الأنصار فكان[٢] أوّل من بايعه المغيرة بن شعبة، ثم بشير بن سعد، ثم أبو عبيدة بن الجرّاح ثم عمر بن الخطاب، ثم سالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، قال: «لست أسألك عن هؤلاء ولكن هل تدري أوّل من بايعه حين صعد المنبر»؟ قال[٣]: لا ولكن رأيت شيخاً كبيراً متوكيّاً على عصا بين عينيه سجّادة شديدة التشمير صعد المنبر[٤] وهو يبكي ويقول: الحمد لله الذي لم يمتني حتّى رأيتك في هذا المكان ابسط يدك، فبسط[٥] يده فبايعه، ثم نزل فخرج من المسجد.

فقال علي عليه السلام: «وهل تدري يا سلمان من هو»؟ قلت: وقد ساءتني مقالته كأنه شامت بموت رسول الله صلى الله عليه وآله، قال علي عليه السلام: «فإنّ ذلك إبليس لعنة الله عليه[٦] إنّ إبليس وأصحابه شهدوا نصب رسول الله صلى الله عليه وآله إيّاي بغدير خم لمّا أمره الله تعالى وأخبرهم أنّي أولى بهم من أنفسهم وأمرهم أن يبلغ الشّاهد الغائب، فأقبل إلى إبليس أبالسته ومردة أصحابه، فقالوا: هذه الأمة مرحومة معصومة لا لك ولا لنا عليهم سبيل قد علموا مقرّهم وإمامهم[٧] بعد نبيّهم فانطلق إبليس آيساً حزيناً».

قال فأخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك وقال تبايع النّاس أبا بكر في ظلة بني ساعدة حتّى ما يخاصمهم بحقّنا وحجّتنا، ثم يأتون المسجد فيكون أوّل من يبايعه على منبري إبليس في صورة شيخ كبير مستبشر يقول له: كذا وكذا ثم يخرج فيجمع أصحابه وشياطينه وأبالسته فيخرّون سجداً فينخر ويكسع، ثم يقول: كلاّ زعمتم أن ليس لي عليهم سلطان ولا سبيل فكيف رأيتموني صنعت بهم حتّى تركوا ما أمرهم الله به من طاعته وأمرهم به رسول الله وذلك قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

---

(١) في نسخة: رأيته.
(٢) في نسخة: وكان.
(٣) في نسخة: قلت.
(٤) في نسخة: أول من صعد.
(٥) في نسخة: هو.
(٦) في نسخة: أخبرني رسول الله.
(٧) في نسخة: علموا إمامهم ومصرعهم.

قال سلمان: فلمّا كان الليل حمل فاطمة على حمار وأخذ بيد الحسن والحسين عليهما السّلام فلم يدع أحداً من أهل بدر من المهاجرين ولا من الأنصار إلاّ أتاه في منزله وذكره حقّه ودعاه إلى نصرته فما استجاب له إلاّ أربعة وأربعون رجلاً فامرهم أن يصبحوا محلقين رؤوسهم ومعهم سلاحهم على أن يبايعوه على الموت وأصبحوا لم يوافقه منهم إلاّ أربعة، فقلت لسلمان: من الأربعة؟ قال: أنا وأبو ذر والمقداد والزّبير بن العوام، ثم عاودهم ليلاً يناشدهم، فقالوا: نصحبك بكرة فما أتاه منهم أحد غيرنا فلمّا رأى علي عليه السلام غدرهم وقلة وفائهم لزم بيته وأقبل على القرآن يؤلفه ويجمعه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه وكان المصحف في القرطاس والأسيار[1] والرّقاع.

فلما جمع كله وكتبه على تنزيله و«**الناسخ والمنسوخ**» وبعث إليه أبو بكر أن اخرج فبايع فبعث إليه علي عليه السلام إنّي مشغول، ولقد آليت على نفسي يميناً أن لا أرتدي برداء إلاّ للصّلاة حتّى أؤلف القرآن وأجمعه، فجمعه في ثوب واحد وختمه ثم خرج إلى النّاس وهم مجتمعون مع أبي بكر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فنادى بأعلى صوته: «يا أيّها النّاس إنّي لم أزل منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله مشغولاً بغسله، ثم بالقرآن حتّى جمعته كله في هذا الثّوب الواحد فلم ينزل الله على رسوله آية إلا وقد جمعتها، وليست منه آية إلاّ وقد أقرأنيي[2] إياها رسول الله صلى الله عليه وآله وعلمني تأويلها».

ثم قال[3] علي عليه السلام: «لا تقولوا يوم القيامة إنّي لم أدعكم إلى نصرتي ولم أذكركم حقي، فأدعوكم إلى كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته»، فقال عمر: ما أغنانا بما معنا من القرآن عمّا تدعونا إليه، ثم دخل علي عليه السلام بيته، فقال عمر لأبي بكر: أرسل إلى عليّ فلسنا في شيء حتّى يبايع ولو قد بايع آمنّا فأرسل إليه أبو بكر أجب خليفة رسول الله، فأتاه الرّسول فقال له ذلك، فقال له عليّ عليه السلام: «ما أسرع ما كذبتم على رسول الله صلى الله عليه وآله إنّه ليعلم ويعلم الذين حوله أنّ الله ورسوله لم يستخلف غيري»، فذهب الرّسول فأخبره بما قاله له، فقال: إذهب فقل له أجب أمير المؤمنين أبا بكر، فأتاه فأخبره بذلك، فقال له علي عليه السلام: «سبحان الله والله ما طال العهد فينسى، والله إنّه ليعلم أنّ هذا الإسم لا يصلح إلاّ لي وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وهو سابع سبعة فسلّموا عليه[4] بإمرة المؤمنين فاستفهمه هو وصاحبه من بين السّبعة وقالا: أحقّ من الله ورسوله »؟ قال رسول الله: «نعم حقّا حقاً من الله ومن رسوله إنّه أمير المؤمنين وسيّد المسلمين وصاحب لواء «الغر خ» المحجّلين يقعده الله عزّ وجلّ يوم

---

(١) الأسيار: والسير بالفتح الذي يقد من الجلد والجمع سيور.
(٢) في نسخة: أقرئنيها.
(٣) في نسخة: ثم قال علي عليه السلام لئلا تقولوا غداً إنا كنا عن هذا غافلين.
(٤) في نسخة: عليّ.

القيامة على الصّراط فيدخل أوليائه الجنّة وأعدائه النّار»، فانطلق الرّسول فأخبره بما قال فسكتوا عنه يومهم ذلك.

فلمّا كان الليل حمل عليّ فاطمة وأخذ بيد ابنيه الحسن والحسين عليهم السّلام فلم يدع أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ إلاّ أتاه في منزله فناشدهم الله حقه ودعاهم إلى نصرته، فما استجاب له منهم أحد غير الأربعة فإنّا حلقنا رؤوسنا وبذلنا نصرتنا وكان الزّبير أشد نصرة فلما رأى عليّ عليه السلام خذلان النّاس له وتركهم نصرته واجتماع كلمتهم مع أبي بكر وتعظيمهم له لزم بيته.

وقال عمر لأبي بكر: ما يمنعك أن تبعث إليه فيبايع فإنّه لم يبق أحد إلا وقد بايع غيره وغير هؤلاء الأربعة، وكان أبو بكر أرقّ الرّجلين وأرفقهما وأدهاهما وأبعدهما غوراً، والآخر أفظهما وأجفاهما، فقال له أبو بكر: من ترسل إليه؟ فقال عمر: نرسل إليه قنفذاً وكان رجلاً فظاً غليظاً جافاً من الطلقاء أحد بني عدي بن كعب، فأرسله إليه وأرسل معه أعواناً فانطلق فاستأذن على عليّ عليه السلام، فأبى أن يأذن لهم فرجع أصحاب قنفذ إلى أبي بكر وعمر وهما في المسجد والنّاس حولهما، فقالوا: لم يؤذن لنا، فقال عمر: اذهبوا فإن أذن لكم وإلا فادخلوا عليه من غير إذن، فانطلقوا فاستأذنوا فقالت فاطمة عليها السّلام أحرج عليكم أن تدخلوا على بيتي بغير إذني؟ فرجعوا فثبت القنفذ الملعون، فقالوا: إن فاطمة قالت لنا كذا وكذا فحرّجتنا أن ندخل بيتها من غير إذن، فغضب عمر فقال: ما لنا وللنساء.

ثم أمر أناساً حوله يحملون حطباً فحملوا الحطب وحمل عمر معهم فجعلوه حول بيت عليّ عليه السلام وفيه علي وفاطمة وابناهما صلوات الله عليهم، ثم نادى عمر حتّى أسمع عليّاً وفاطمة: والله لتخرجن يا علي ولتبايعنّ خليفة رسول الله ﷺ وإلا أضرمت عليك بيتك ناراً، ثم رجع قنفذ إلى أبي بكر وهو متخوّف أن يخرج علي إليه بسيفه لما يعرف من بأسه وشدّته، فقال أبو بكر لقنفذ: ارجع فإن خرج وإلاّ فاهجم[1] عليه بيته، فإن امتنع فاضرم عليهم بيتهم ناراً.

فانطلق قنفذ الملعون فاقتحم هو وأصحابه بغير إذن وسار[2] عليّ عليه السلام إلى سيفه وسبقوه إليه وهم كثيرون فتناول بعضهم سيفه وكاثروه فألقوا في عنقه حبلاً وحالت بينهم وبينه فاطمة عليها السلام عند باب البيت فضربها قنفذ لعنه الله بسوط كان معه فماتت صلوات الله عليها، وأن في عضدها مثل الدماليج[3] من ضربته ثم انطلق به يعتل عتلاً حتّى انتهى إلى أبي بكر،

---

(١) في نسخة: فاقتحم.

(٢) في نسخة: ثار.

(٣) في نسخة: الدملج.

وعمر قائم بالسّيف على رأسه وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجرّاح وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل والمغيرة بن شعبة وأسيد بن حصين وبشير بن سعد وسائر النّاس حول أبي بكر عليهم السلام.

قال: قلت لسلمان: أدخلوا على فاطمة بغير إذن؟ قال: أي والله ما عليها خمار فنادت وا أبتاه وا رسول الله يا أبتاه لبئس ما خلفك أبو بكر وعمر وعيناك لم تنفقيا في قبرك تنادي بأعلى صوتها، فلقد رأيت أبا بكر ومن حوله يبكون وينتحبون وما فيهم إلاّ باك غير عمر وخالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة وعمر يقول: إنّا لسنا من النّساء ورأيهن في شيء.

قال فانتهوا به إلى أبي بكر وهو يقول: أما والله لو وقع سيفي في يدي لعلمتم أنكم لن تصلوا إلى هذا أبداً والله لم ألم نفسي في جهادكم لو كنت استمكنت من الأربعين لفرقت جماعتكم ولكن لعن الله أقواماً بايعوني ثم خذلوني وقد كان قنفذ لعنه الله حين ضرب فاطمة بالسّوط حين حالت بينه وبين زوجها أرسل إليه عمر إن حالت بينك وبينه فاطمة فاضربها، فألجأها قنفذ لعنه الله إلى عضادة باب بيتها ودفعها فكسر لها ضلعاً من جنبها وألقت جنيناً من بطنها، فلم تزل صاحبة فراش حتّى ماتت صلوات الله عليها من ذلك شهيدة.

قال: فلما انتهى بعلي إلى أبي بكر انتهره عمر وقال له: بايع، فقال له علي عليه السلام «إن أنا لم أبايع فما أنتم صانعون»؟ قالوا نقتلك ذلاً وصغاراً، فقال: «إذاً تقتلون عبد الله وأخا رسول الله»، فقال أبو بكر: أما عبد الله فنعم، وأما أخو رسول الله فما نعرفك[1] بهذا، قال عليه السلام: «أتجحد أن رسول الله صلى الله عليه وآله آخا بيني وبينه»؟ قال: نعم، فأعاد ذلك عليه ثلاث مرات.

ثم أقبل عليهم علي عليه السلام، فقال: «يا معاشر المسلمين والمهاجرين والأنصار انشدكم الله أسمعتم رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدير خمّ: كذا وكذا وفي غزوة تبوك كذا وكذا فلم يدع شيئاً قال[2] له رسول الله صلى الله عليه وآله علانية للعامة إلاّ ذكرهم إياه» قالوا: اللهم نعم: فلمّا أن تخوف أن ينصره النّاس وأن يمنعوه منه بادرهم[3]، فقال له: كلما قلت حقّ قد سمعناه بآذاننا وعرفناه ووعته قلوبنا ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول بعد هذا: «إنّا أهل بيت اصطفانا الله تعالى واختار لنا الآخرة على الدّنيا فإن الله لم يكن ليجمع لنا أهل البيت النّبوة والخلافة»، فقال علي عليه السلام: «هل أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله شهد هذا معك»؟ فقال عمر: صدق خليفة رسول الله قد سمعته منه كما قال.

قال: وقال أبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل: قد سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال علي عليه السلام: «لقد وفيتم بصحيفتكم الملعونة التي تعاهدتم[4] عليها في

---

(١) في نسخة: نقرُّ لك.

(٢) في نسخة: قاله فيه.

(٣) في نسخة: إياها.

(٤) في نسخة: تعاقدتم.

الكعبة إن قتل الله محمّداً أو مات لتزوون هذا الأَمر عنّا أهل البيت»، فقال أبو بكر: فما علمك بذلك أطلعناك عليها، فقال عليّ عليه السلام يا زبير وأنت يا سلمان وأنت يا أبا ذر وأنت يا مقداد أسألكم بالله وبالإسلام أسمعتم رسول الله يقول ذلك وأنتم تسمعون إنّ فلاناً وفلاناً حتّى عدّ هؤلاء الأربعة «الخمسة» قد كتبوا بينهم كتاباً وتعاهدوا فيه وتعاقدوا إيماناً على ما أن قتلت أو متّ أن يتظاهروا عليك وأن يزووا عنك هذا الأَمر يا عليّ؟ فقلت: بأبي أنت يا رسول الله فما تأمرني إذا كان ذلك، فقال إن وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم ونابذهم، وإن لم تجد أعواناً فبايع واحقن دمك.

فقال عليه السلام: «أما والله لو أنّ أولئك الأَربعين رجلاً الذين بايعوني وفوا لي لجاهدتكم في الله»، فقال عمر: أما والله لا ينالها أحد من أعقابكم إلى يوم القيامة ثم نادى علي عليه السلام قبل أن يبايع والحبل في عنقه:

﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

ثم تناول يد أبي بكر فبايع، وقيل للزّبير بايع فأبى فوثب إليه عمر و خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة وأناس معهم فانتزعوا سيفه فضربوا به الأَرض حتّى كسروه ثم لبّبوه[١] فقال الزّبير وعمر على صدره: يا ابن صهّاك أما والله لو أنّ سيفي في يدي لحدت عني ثم بايع.

قال سلمان: ثم أخذوني فوجؤوا عنقي حتّى تركوه كالسّلعة ثم أخذوا يدي فبايعت مكرهاً، ثم بايع أبو ذر والمقداد مكرهين وما من أحد بايع مكرهاً غير عليّ وأربعتنا ولم يكن أحد منّا أشدّ قولاً من الزّبير، فإنّه لما بايع قال: يا ابن صهّاك أما والله لولا هؤلاء الطغاة الذين أعانوك لما كنت تقدم عليّ ومعي سيفي لما أعرف من جبنك ولؤمك، ولكن وجدت طغاة تقوى بهم وتصول بهم، فغضب عمر فقال: أتذكر صهّاك؟ فقال: ومن صهّاك ومن[٢] يمنعني من ذكرها وقد كانت صهّاك زانية وتنكر ذلك أوليس كانت أمة لجدّي عبد المطلب فزنى بها جدك نفيل فولدت أباك الخطاب فوهبها عبد المطلب لجدّك بعد ما ولدته وأنّه لعبد جدي وَلَدُ زنا، فأصلح أبو بكر بينهما وكفّ كلّ واحد منهما عن صاحبه.

قال سليم: فقال لسلمان: فبايعت أبا بكر ولم تقل شيئاً؟ قال: بلى قد قلت بعد ما بايعت: تبّاً لكم سائر الدّهر لو تدرون ما صنعتم بأنفسكم أصبتم وأخطأتم أصبتم سنّة الأَولين[٣] وأخطأتم سنّة نبيّكم حين أخرجتموها من معدنها وأهلها فقال عمر: أمّا إذا قد

---

(١) لبوه: لببه تلبيباً جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جره.

(٢) في نسخة: ما.

(٣) في نسخة: من كان قبلكم من الفرقة والاختلاف.

بايعت يا سلمان فقل ما شئت وافعل ما بدا لك وليقل صاحبك ما بدا له، قال سلمان: قلت إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ عليك وعلى صاحبك الذي بايعته مثل ذنوب أمته إلى يوم القيامة ومثل عذابهم جميعاً»، فقال عمر: قل ما شئت أليس قد بايعت ولم يقر الله عينك بأن يلبسها صاحبك، فقلت أشهد أنّي قرأت في بعض كتب الله إنّك بإسمك وصفتك باب من أبواب جهنم، فقال: قل ما شئت أليس قد أزالها الله عن أهل البيت الذين اتّخذتموهم أرباباً؟ فقلت: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول وقد سألته عن هذه الآية:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥ - ٢٦].

فأخبرني بأنّك أنت هو، فقال لي عمر: اسكت أسكت الله نأمتك أيّها العبد ابن اللّخناء، فقال لي علي عليه السلام: اسكت يا سلمان، فوالله لو لم يأمرني عليّ بالسّكوت لخبرته بكل شيء نزل فيه وكلّ شيء سمعته من رسول الله ﷺ فيه وفي صاحبه، فلمّا رآني عمر قد سكتّ قال لي: إنّك له لمطيع مسلّم فلمّا أن بايع أبو ذر والمقداد ولم يقولا شيئاً قال عمر: ألا كففت كما كفّ صاحباك والله ما أنت أشدّ حبّاً بأهل هذا البيت منهما ولا أشدّ تعظيماً لحقّهم منهما وقد كفّا كما ترى وقد بايعا.

فقال أبو ذر: أفتعيرنا يا عمر بحبّ آل محمّد عليهم السّلام وتعظيمهم وقد فعل من أبغضهم وافترى عليهم وظلمهم حقّهم وحمل النّاس على رقابهم وردّ هذه الأمة القهقري على أدبارهم، فقال عمر: آمين لعن الله من ظلمهم حقّهم لا والله ما لهم فيها من حقّ وما هم فيها وعرض النّاس إلا سواء، قال: لم خاصمت الأنصار بحقّها؟ فقال عليّ عليه السلام لعمر: «يا ابن صهاك فليس لنا فيها حقّ وهي لك ولابن آكلة الذّبان»، فقال عمر: كفّ يا أبا الحسن إذ قد بايعت؛ فإن العامة رضوا بصاحبي ولم يرضوا بك فما ذنبي، فقال علي عليه السلام: «لكن الله ورسوله لم يرضيا إلاّ بي فأبشر أنت وصاحبك ومن اتّبعكما ووازركما بسخط الله وعذابه وخزيه ويلك يا ابن الخطاب لو ترى ماذا جنيت على نفسك وعلى صاحبك»؟ فقال أبو بكر يا عمر: أما إذا بايع وأمنّا شرّه وفتكه وغائلته فدعه يقول ما شاء.

فقال علي عليه السلام: «لست قائلاً غير شيء واحد أذكركم بالله أيّها الأربعة ـ قال لسلمان والزّبير وأبي ذر والمقداد، أسمعتم رسول الله ﷺ يقول: «إن تابوتاً من نار فيه إثني عشر ستّة من الأولين وستّة من الآخرين في قعر جهنّم في جبّ في تابوت مقفّل على ذلك الجبّ صخرة فإذا أراد الله أن يسعر جهنّم كشفت تلك الصّخرة عن ذلك الجبّ فاسعرت جهنّم من وهج ذلك الجبّ ومن حرّه»، قال عليّ عليه السلام «فسألت رسول الله ﷺ وأنتم شهود»، فقال رسول الله ﷺ: «أمّا الأوّلون فابن آدم الذي قتل أخاه، وفرعون ذو الفراعنة، والذي حاجّ إبراهيم في ربّه، ورجلان من بني اسرائيل بدّلا كتابهم غيّر أستّتهم، أما أحدهما فهوّد اليهود والآخر نصّر النصارى، وعاقر النّاقة، وقاتل يحيى بن زكريّا، والدّجال في الآخرين وهؤلاء

الأَربعة أصحاب الكتاب وجبتهم وطاغوتهم الذي تعاهدوا عليه وتعاقدوا على عداوتك يا أخي ويتظاهرون عليك هذا وهذا»، حتّى عدّهم وسمّاهم.

قال: فقلنا: صدقت نشهد أنّه قد سمعنا ذلك من رسول الله، فقال عثمان: يا أبا الحسن أما عندك فيّ حديث؟ فقال علي ﷷ: «بلى لقد سمعت رسول الله ﷺ يلعنك ثمّ لم يستغفر لك بعد[1] لعنك»، فغضب عثمان ثم قال: ما لي ومالك لا تدعني على حال كنت على عهد النّبي ﷺ ولا بعده، فقال له علي ﷷ: «فأرغم أنفك» ثم قال له عثمان: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول إنّ الزّبير يقتل مرتداً.

قال سلمان: فقال لي علي ﷷ فيما بيني وبينه: صدق عثمان، وذلك أنه يبايعني بعد قتل عثمان ثم ينكث بيعتي فيقتل مرتداً. قال سلمان: فقال علي ﷷ: «إن الناس كلهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ غير أربعة، إنّ النّاس صاروا بعد رسول الله ﷺ بمنزلة هارون ومن تبعه ومنزلة العجل ومن تبعه»، فعلي ﷷ في شبه هارون، وعتيق في شبه العجل، وعمر في شبه السّامري، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليجيء قوم من أصحابي من أهل العلية والمكانة منّي ليمرّوا على الصّراط فإذا رأيتهم ورأوني وعرفتهم وعرفوني اختلجوا دوني فأقول يا ربّ أصحابي أصحابي فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك إنّهم ارتدّوا على أدبارهم حيث فارقتهم، فأقول بعداً وسحقاً».

وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتركبنّ أمّتي سنّة بني إسرائيل حذو النعل بالنّعل والقذّة بالقذّة شبراً بشبر باعاً بباع وذراعاً بذراع حتّى لو دخلوا جحراً لدخلوا فيه معهم وإنّه كتب التّوراة والقرآن ملك واحد في رقّ واحد وجرت الأمثال والسّنن»[2].

أقول: هذه الرّواية رواها الطبرسي أيضاً في **«الإحتجاج»** والمحدث المجلسي (ره) في المجلّد الثامن من **«بحار الأنوار»** بنقصان في الأوّل وزيادة في الثّاني وتغيير يسير في غير الزّائد والنّاقص، وكانت نسخة **«غاية المرام»** التي عندنا غير خالية من الغلط والتّحريف يسيراً في متن الرّواية فأصلحناها من نسختي **«الاحتجاج»** و**«البحار»** بما رأيناه أصلح وأنسب، فلو وجدت فيما رويناه شيئاً غير مطابق لما في الأصل فسرّه ما ذكرناه ولا تحملنّه على التقصير في الضّبط والنّقل والله الهادي.

وفي **«البحار»** من رجال الكشي عن علي بن الحكم عن ابن عميرة عن أبي بكر الحضرمي قال: قال أبو جعفر ﷷ: «إرتدّ النّاس إلاّ ثلاثة نفر: سلمان وأبو ذر والمقداد»، قال: قلت: فعمّار، قال قد كان حاص حيصة ثم رجع، ثم قال: إن أردت الذي لم يشكّ ولم

---

(١) في نسخة: منذ.

(٢) بطوله في البحار: ٢٨/٢٠٦١ ـ ٢٧٠ ح ٤٥، وكتاب سليم: ١٤٩ ـ ١٥١.

يدخله شكّ فالمقداد، فأمّا سلمان فإنّه عرض في قلبه عارض إنّ عند أمير المؤمنين عليه السلام إسم الله الأعظم لو تكلّم به لأخذتهم الأرض وهو هكذا فلبّب ووجيت حتّى تركت كالسّلعة، فمرّ به أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أبا عبد الله هذا من ذلك بايع فبايع، وأما أبو ذر فأمره أمير المؤمنين عليه السلام بالسكوت ولم يكن يأخذه في الله لومة لائم فأبى إلا أن يتكلم فمرّ به عثمان فأمر به، ثم أناب النّاس بعد وكان أوّل من أناب أبو ساسان الأنصاري وأبو عمرة وشتيرة وكان نواظره سبعة فلم يكن يعرف حقّ أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ هؤلاء السّبعة(١).

أقول: أبو ساسان اسمه الحصين بن المنذر بالحاء المهملة المضمومة والصّاد المهملة، وأبو عمرة من الأنصار أيضاً اسمه ثعلبة بن عمرو، وشتيرة يقال له سمير أيضاً صاحب راية علي عليه السلام بصفين وقتل هناك مع إخوته قاله في **«الخلاصة»**.

ومن كتاب **«الإختصاص»** للمفيد بإسناده عن عمرو بن ثابت قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام «يقول: إنّ النّبي صلى الله عليه وآله لمّا قبض ارتدّ النّاس على أعقابهم كفّاراً إلاّ ثلاثة: سلمان والمقداد وأبو ذر الغفاري أنّه لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله جاء أربعون رجلاً إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقالوا: لا والله لا نعطي أحداً طاعة بعدك أبداً، قال: ولم؟ قالوا: سمعنا من رسول الله فيك يوم غدير، قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم، قال فأتوني غداً محلّقين، قال: فما أتاه إلاّ هؤلاء الثلاثة، قال: وجاءه عمّار بن ياسر بعد الظهر فضرب يده على صدره ثم قال: ما آن لك أن تستيقظ من نومة الغفلة، ارجعوا فلا حاجة لي فيكم أنتم لم تطيعوني في حلق الرّؤوس فكيف تطيعوني في قتال جبال الحديد، ارجعوا فلا حاجة لي فيكم»(٢).

وفي **«الإحتجاج»** عن الباقر عليه السلام أنّ عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: اكتب إلى أسامة بن زيد يقدم عليك فإن في قدومه قطع الشّنعة، فكتب أبو بكر إليه: من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسامة بن زيد، أمّا بعد، فانظر إذ أتاك كتابي فأقبل إلي أنت ومن معك فإن المسلمين قد اجتمعوا عليّ وولوني أمرهم، فلا تتخلّفن فتعصني ويأتيك مني ما تكره والسّلام.

قال: فكتب إليه أسامة جواب كتابه: من أسامة بن زيد عامل رسول الله صلى الله عليه وآله على غزوة الشام إلى أبي بكر بن أبي قحافة، أمّا بعد فقد أتاني منك كتاب ينقض أوّله آخره، ذكرت في أوّله أنك خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، وذكرت في آخره أنّ المسلمين قد اجتمعوا عليك فولوك أمرهم ورضوا بك، فاعلم أنّي ومن معي من جماعة المسلمين فلا والله ما رضينا بك ولا وليناك أمرنا، وانظر أن تدفع الحقّ إلى أهله وتخلّيهم وإيّاه فإنّهم أحقّ به منك فقد علمت ما

---

(١) الإختصاص: ١٠، والبحار: ٢٢/ ٤٤٠ ح ٨.
(٢) الاختصاص: ٦، والبحار: ١٨/ ٢٥٩ ح ٤٢.

كان من قول رسول الله ﷺ في علي عليه السلام يوم الغدير، فما طال العهد فتنسى فانظر مركزك ولا تخالف فتعصي الله، ورسوله وتعصي من استخلفه رسول الله ﷺ عليك وعلى صاحبك، ولم يعزلني حتّى قبض رسول الله وإنّك وصاحبك رجعتما وعصيتما فأقمتما في المدينة بغير إذني.

قال: فأراد[1] أبو بكر أن يخلعها من عنقه قال: فقال له عمر: لا تفعل قميصٌ قمّصك الله لاتخلعه فتندم ولكن ألح عليه بالكتب ومر فلاناً وفلاناً يكتبون إلى أسامة أن لا يفرق جماعة المسلمين وأن يدخل معهم فيما صنعوا، قال: فكتب إليه أبو بكر وكتب إليه ناس من المنافقين: أن ارض بما اجتمعنا عليه وإيّاك أن تشمل المسلمين فتنته فإنّهم حديث عهد بالكفر، قال: فلمّا وردت الكتب على أسامة انصرف بمن معه حتّى دخل المدينة، فلما رأى اجتماع الخلق على أبي بكر انطلق إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له: ما هذا؟ قال له علي عليه السلام: «هذا ماذا ترى»، قال له أسامة: فهل بايعته؟ فقال: «نعم يا أسامة»، فقال: أطائعاً أو كارهاً؟ قال: لا بل كارهاً، قال: فانطلق أسامة فدخل على أبي بكر وقال له: السّلام عليك يا خليفة المسلمين، قال: فردّ عليه أبو بكر، وقال: السّلام عليك أيّها الأمير، هذا[2].

ويأتي بعض أخبار هذا الباب من طرق الخاصّة كسائر الأخبار العامة إن شاء الله عند شرح الخطب الآتية والله المستعان وعليه التكلان[3].

---

(١) في نسخة: فهمٌ.
(٢) الاحتجاج: ١/١١٤، والبحار: ٢٩/٩٢ ح ١.
(٣) **تصريح الصحابة بأحقية علي عليه السلام**

تصريح الإمام حسن بن علي عليه السلام:
أخرجه أبو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبيين، قال في رسالته لمعاوية: «فلما توفي ﷺ تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه... ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاجت به العرب فلم تنصفنا قريش انصاف العرب لها... واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا، فالموعد الله وهو الولي النصير.

وقد تعجبنا لتوثّب المتوثبين علينا في حقّنا وسلطان نبيّنا ﷺ وان كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام فأمسكنا عن منازعتهم مخافةً على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساده، فاليوم فليعجب المتعجّب من توثبك يا معاوية على أمر لستَ من أهله» (مقاتل الطالبيين: ٦٥ ذكر الخبر في بيعة الحسن بعد وفاة أمير المؤمنين، وأهل البيت لتوفيق أبي علم: ٣١٣ رسالة الإمام إلى معاوية).

* أقول: وللإمام الحسن مقولة مشهورة لأبي بكر: «انزل عن منبر أبي» (السقيفة: ٦٦، وشرح النهج: ٦/٤٢ الخطبة ٦٦، وأنساب الأشراف: ٣/٢٧، ومقتل الخوارزمي: ١/٩٣، وكنز العمال: ٥/٦١٦ ح ١٤٠٨٥ و١٣/٦٥٤ ح ٣٧٦٦٢، وكفاية الطالب: ٤٢٤).

تصريح الحسين بن علي (عليهما السلام)

وذلك في قوله لعمر: «انزل عن منبر أبي» (تاريخ دمشق: ١٤/ ١٧٥ ترجمة الحسين ﷺ، وكنز العمال: ٥/ ٦١٦ ح ١٤٠٨٥ و١٣/ ٦٥٤ ح ٣٧٦٦٢).

تصريح فاطمة بنت محمد (عليها السلام)

كانت فاطمة بنت محمد المدافع الاول عن نبوة رسول الله ﷺ، ثم عن خلافته التي قضى عمره الشريف في تبليغ الاسلام وبالخلافة يحفظ الاسلام، فكانت صلوات الله عليها تخرج مع علي ﷺ تدعو لنصرته (الإمامة والسياسة: ١/ ٢٩).

وقد أبرزت ذلك بقولها في مواقف عدة من ذلك ما قالته صلوات الله عليها في خطبتها في مجلس أبي بكر بعد وفاة النبي الأعظم ﷺ جاء فيها:

«... حتى إذا اختار الله لنبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) دار أنبيائه ظهرت حَسكة النفاق وسَمِل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين، ونبع خامل الافلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرَّة ملاحظين، ثم استنهضكم، فوجدكم خفافاً وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم وأوردتم غير شِربكم، هذا والعهد قريب؟! والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، بماذا زعمتم: خوف الفتنة؟

ألا في الفتنة سقطوا...» (التذكرة الحمدونية: ٦/ ٢٥٧ ح ٦٢٨، وبلاغات النساء: ٢٥ كلام فاطمة، وأهل البيت لتوفيق أبي علم: ١٥٩، ومقتل الحسين للخوارزمي: ٧٨ الفصل الخامس).

وقالت عليها رضوان الله تعالى: «... ونحن بقية استخلفنا عليكم ومعنا كتاب الله بيّنة بصائره، وآي فينا، منكشفة سرائره وبرهان متجلية ظواهره...» (بلاغات النساء: ٢٨ كلام فاطمة(عليها السلام)).

ـ وقالت عليها السلام في مرض وفاتها للنساء الذين دخلن عليها:

«... ويحهم انّى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوّة ومهبط الروح الأمين الطبن بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين، وما الذي نقموا من أبي الحسن نقموا والله منه نكير سيفه وشدّة وطأته، ونكال وقعته وتنمّره في ذات الله، وبالله لو تكافئوا على زمام نبذه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لسار بهم سيراً سجحاً (سهلاً)، لا يكلم خشاشه ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً رويّاً... ولفتحت عليهم بركات من السماء.. إلى أي لجأ لجأوا وأسندوا، وبأيّ عروة تمسّكوا، ولبئس المولى ولبئس العشير، استبدلوا والله الذنابي بالقوادم والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم (يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً إلاّ انّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) ويحكم: (أفمن يهدى إلى الحقّ أحق أن يتبع أمَّن لا يهدّي إلاّ أن يهدى فمالكم كيف تحكمون)...

انلزمكموها وأنتم لها كارهون» (بلاغات النساء: ٣٢ ـ ٣٣ كلام فاطمة، والسقيفة للجوهري: ١١٧ ـ ١١٨، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٦/ ٢٣٣ كتاب ٤٥، وأهل البيت لتوفيق أبي علم: ١٧٦ ـ ١٧٧).

ومنه ما قالته (عليها السلام) في مجلس الأنصار:

«ألا وقد قلت الذي قلته على معرفة منّي بالخذلان الذي خامَر صدوركم واستشعرته قلوبكم، ولكن قلته فيضة النفس ونفثة الغيظ وبثّة الصدر ومعذرة الحجّة، فدونكموها فاحتقبوها مدبرة الظهر ناقبة الخفّ، باقية العار، موسومة بشنار الأبد...» (التذكرة الحمدونية: ٦/ ٢٥٩ ح ٦٢٨، وبلاغات النساء: ٣١ كلام فاطمة، والسقيفة للجوهري: ١٠٠، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٦/ ٢١١ كتاب ٤٥).

وزاد الجوهري: «... افتأخرتم بعد الاقدام ونكصتم بعد الشدّة وجبنتم بعد الشجاعة عن قوم نكثوا ايمانهم

....

من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم، فقاتلوا أئمة الكفر انّهم لا ايمان لهم لعلّهم ينتهون» (السقيفة: ١٠٠، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٦/ ٢١١ كتاب ٤٥).
وزاد الطبري الإمامي من طريق أهل البيت (عليهم السلام): «... فما جعل الله لأحد بعد غدير خم من حجّة ولا عذر» (دلائل الإمامة: ٣٨).
وأخرج الجزري بسنده عن فاطمة(عليها السلام) انّها قالت لهم:
«أنسيتم قول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعليّ مولاه؟!».
وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنتَ منّي بمنزلة هارون من موسى(عليهما السلام)».
وقال: وهكذا أخرجه الحافظ الكبير أبو موسى المديني في كتابه المسلسل بالأسماء (أسمى المناقب في تهذيب أسنى المطالب: ٣٣ ح ٥).
* أقول: هذه جملة ما وصل إلينا من تصريحات فاطمة(عليها السلام)، وقد ذكر أصحابنا الكثير منها، أغمضنا عن ذكرها لأن الفضل ما شهدت به غيرنا (راجع دلائل الإمامة: ٣٨ ـ ٤٠، والاحتجاج: ١/ ٩٧ إلى ١٠٩).

تصريح أبو بكر بن أبي قحافة

أخرجه الجوهري عن المغيرة قال: مرَّ المغيرة بأبي بكر وعمر وهما جالسان على باب النبي حين قبض، فقال: وما يقعدكما؟
قالا: ننتظر هذا الرجل يخرج فنبايعه، يعنيان عليّاً.
فقال: أتريدون أن تنظروا حبل الحبلة من أهل هذا البيت وسّموها في قريش تتسع.
قال: فقاما إلى سقيفة بني ساعدة، أو كلاماً هذا معناه (السقيفة: ٦٨، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ٦/ ٤٣ الخطبة ٦٦).

تصريح عمر بن الخطاب

قال في أثناء حواره لابن عباس: أما والله ان كان صاحبك هذا أولى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلاّ انّا خفناه على اثنتين حداثة سنّه وحبّه بني عبد المطلب (السقيفة: ٥٢ و٧٣ و١٢٩، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ٢/ ٥٧ الخطبة ٢٧، و٦/ ٥٠ الخطبة ٦٦).
وقال له يوماً: يابن عبّاس ما أظنّ صاحبك إلاّ مظلوماً.
فقلت: يا أمير المؤمنين عليه السلام فاردد عليه ظلامته.
فانتزع يده من يدي. يا بن عباس ما أظن القوم منعهم من صاحبك الاّ انّهم استصغروه.
فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ براءة من أبي بكر (السقيفة: ٧٠، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ٦/ ٤٥ خطبة ٦٦).
وقال له يوماً: يابن عبّاس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة؟
قلت: لا أدري.
قال: لكنّي أدري، انّكم فضلتموهم بالنبوّة فقالوا ان فضلوا بالخلافة مع النبوّة لم يُبقوا لنا شيئاً (العقد الفريد: ٤/ ٢٦٥ كتاب الخلفاء ـ أمر الشورى).

تصريح عثمان بن عفان

ذلك ما قد يستفاد من ضمن حواره مع ابن عبّاس حول الخلافة حيث قال:
انّي أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب ان كان لكم حق تزعمون انّكم غلبتم عليه فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم، وأنا أقرب إليكم رحماً منه (تاريخ المدينة لابن شبة: ٣/ ١٠٤٦ حياة عثمان).

....

تصريح معاوية

قال معاوية في رد رسالة محمد بن أبي بكر:

«فكان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه جحقّهج وخالفه على ذلك اتفقا واتسقا، ثم دعواه إلى أنفسهم فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما، فهمّا به الهموم وأرادا به العظيم فبايع وسلم لهما، لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرّهما حتّى قبضا وانقضى أمرهما.

إلى أن قال: أبوك مهّد مهاده وبنى ملكه وشاده، فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوّله، وان يكُ جوراً فأبوك أسسه، ونحن شركاؤه وبهديه أخذنا وبفعله اقتدينا، ولولا ما سبقنا إليه أبوك ما خالفنا ابن أبي طالب وأسلمنا له، ولكنّا رأينا أباك فعل ذلك فإحتذينا بمثاله جرأينا أباك فعل ما فعل فاحتذينا مثاله واقتدينا بفعاله فعب أباك ما بدا لك أو دعْ والسلام على من أناب ورجع عن غوايته وتاب (وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ١٢٠ ـ ١٢١ الجزء الثاني ـ كتاب معاوية إلى محمد بن أبي بكر، ومروج الذهب: ٣/ ١٢ ـ ١٣ ذكر خلافة معاوية).

وأخرجه نصر بن مزاحم والمسعودي والبلاذري بطوله مع تفاوت في بعض الألفاظ (أنساب الأشراف: ٣/ ١٦٥ ـ ١٦٦ أمر مصر في خلافة علي ط. دار الفكر).

* أقول: اعترف عمر بمضمون كلام معاوية عندما قال لابن عباس: اما والله ان كان صاحبك هذا أولى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)... ان أوّل من ريثكم عن هذا الأمر أبو بكر. (شرح النهج: ٢/ ٥٧ خطبة ٢٦).

تصريح سلمان الفارسي

أنبأنا علي بن عبد الله أنبأنا أبو زرعة عبد الكريم بن إسحاق بن سهلويه أنبأنا أبو بكر الدينوري اجازة سمعت أبا منصور عبد الله بن علي الأصبهاني ببروجرد سمعت أبا القاسم الطبراني، حدّثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة عن أشياخه قال: لما كان يوم السقيفة اجتمعت الصحابة على سلمان الفارسي فقالوا: يا أبا عبد الله ان لك سنّك ودينك وعملك وصحبتك من رسول الله«فقل في هذا الأمر قولاً يخلد عنك فقال: «گويم آگر شنويد».

ثم غدا عليهم فقالوا: ما صنعت أبا عبد الله فقال: «گفتم اگر بكار بريد» ثم أنشأ يقول:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرفٌ عن هاشم ثم منهم عن أبي الحسن

أوليس أوّل من صلّى لقبلته وأعلم بالقول بالأحكام والسنن

ما فيهم من صنوف الفضل يجمعها وليس في القوم ما فيه من الحسن

يقال ليس لسلمان غير هذه الأبيات (التدوين في أخبار قزوين: ١/ ٧٨ ـ ٧٩ القول في بيان من ورد قزوين من الصحابة ـ سلمان).

أقول: سوف أذكر ان هذه الأبيات من تصريح ابن أبي لهب والعباس.

وأخرج البلاذري وابن أبي شيبة واللفظ للأول: «كردان ونا كردان» أي عملتم وما عملتم، لو بايعوا علياً لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم (انساب الأشراف: ١/ ٥٨٧ ح ١١٨٨ ط.مصر و٢/ ٢٧٤ ط. دار الفكر، أمر السقيفة).

ولفظ الثاني: أخطأتم واصبتم امّا لو جعلتموها في أهل بيت نبيّكم لأكلتموها رغداً (المصنف: ٧/ ٤٤٣ ح ٣٧٠٨٣ كتاب المغازي ـ خلافة علي ـ).

وذكره سبط ابن الجوزي بلفظ: «كردي نكردي» أي فعلتموها فوجئت عنقه(تذكرة الخواص: ٦٣ الباب

....

الرابع).
وأخرجها الجوهري بلفظ ابن أبي شيبة (السقيفة: ٤٣، وشرح النهج: ٢/ ٤٩ خطبة ٢٦ و٦/ ٤٣ خطبة ٦٦).
وأخرج عنه أيضاً قوله: «أصبتم الخير ولكن أخطأتم المعدن» (السقيفة: ٦٧، وشرح النهج: ٦/ ٤٣ خطبة ٦٦).

تصريح العباس

أخرج الحموي عن علي قال: قال العبّاس بن عبد المطلب ح ين بويع لأبي بكر:

ما كنت أحسب ان الأمر منصرفٌ	عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
أليس أوّل من صلّى لقبلتكم	وأعلم الناس بالآثار والسنن
وأقرب الناس عهداً بالنبي ومن	جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما في جميع الناس كلّهم	وليس في الناس ما فيه من الحسن
ماذا الذي ردّكم عنه فنعرفه	ها إنّ بيعتكم من أوّل الفتن

(فرائد السمطين: ٢/ ٨٢ ح ٤٠١).
وأخرج ابن شبة قوله لعلي: «واحذر هؤلاء الرهط فانّهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر ح تى يقوم لنا به غيرنا» (تاريخ المدينة: ٣/ ٩٢٦ تفصيل عمر لصفات الصحابة).
وفي رواية قال: «ما أحد أولى بمقام رسول الله منه (علي) (أهل البيت لتوفيق أبي علم: ٢٣٦).
أقول: أخرج الطبري الإمامي كلاماً للعبّاس عندما استسقى عمر به وتوسل:
«يستسقون بنا ويتقدّمونا، فإذا قحطوا استسقوا بهم، وإذا ذكروا الخلافة تمنّوا سالماً مولى أبي ح ذيفة والجارود العبدي» (المسترشد للطبري: ٦٩٢ ح ٣٥٩).

تصريح أبو سفيان

أخرج عبد الرزاق وابن المبارك وابن عبد البر والبلاذري وابن أبي شيبة واليعقوبي وغيرهم قول أبي سفيان: غلبكم على هذا الأمر أرذل بيت في قريش، امّا والله لأملأنّها خيلاً ورجالاً (المصنف لعبد الرزاق: ٥/ ٤٥١ ح ٩٧٦٧ بيعة أبي بكر، والاستيعاب: ٢/ ٢٥٤ ترجمة أبو بكر و٤/ ٨٧ ترجمة أبو سفيان، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٦ خبر السقيفة، والثقات لابن ح بان: ٢/ ٢٨٧ ترجمة، وشرح النهج: ٢/ ٤٥ خطبة ٢٦ عن الجوهري و٦/ ٤٠ عنه أيضاً خطبة ٦٦، وأنساب الأشراف: ٢/ ٢٧١ أمر السقيفة ط. دار الفكر).
وقال يوم السقيفة أيضاً: ... فامّا علي بن أبي طالب فأهل والله أن يسود على قريش وتطيعه الأنصار (الأخبار الموفقيات: ٥٨٥ ح ٣٨٢).
وزاد البلاذري في لفظ: اني لأرى فتقاً لا يرتقه إلاّ الدم (أنساب الأشراف: ٢/ ٢٧١ أمر السقيفة ط. دار الفكر).
وأنشد يوم السقيفة:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم	ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلاّ فيكم وإليكمُ	وليس لها إلاّ أبو ح سن علي

(تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٦ خبر السقيفة، والاخبار الموفقيات: ٥٧٧ ح ٣٧٦، وشرح النهج: ٦/ ١٧ خطبة ٦٦).

تصريح عبد الله بن عبّاس

أخرجه ابن قتيبة في العيون قال: قال ابن عبّاس لمعاوية: ندعي هذا الأمر بحق مَنْ لولا ح قه لم تقعد

مقعدك هذا، ونقول كان تَرْكُ الناس أن يرضوا بنا ويجتمعوا علينا ح قاً ضيّعوه وحظّاً ح رموه... امّا الذي منعنا من طلب هذا الأمر بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فعهد منه إلينا قَبْلنا فيه قوله ودِنّا بتأويله، ولو أمرنا أن تأخذه على الوجه الذي نهانا عنه لأخذناه أو أعذرنا فيه، ولا يعاب أحد على ترك ح قه، انّما المعيب من يطلب ما ليس له، وكل صواب نافع وليس كل خطأ ضاراً (عيون الأخبار لابن قتيبة: ٦/١ كتاب السلطان ـ محل السلطان وسيرته وسياسته). وله تصريحات أخرى وهي المحاورات التي جرت بينه وبين عمر ح تى قال له عمر يوماً: ان أوّل من راثكم عن هذا الأمر أبو بكر.

فأجابه ابن عبّاس: امّا قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فلو ان قريشاً اختارت لأنفسها ح يث اختار الله عزوجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود (شرح النهج لابن أبي الحديد: ٢٠/ ١٦٠ عن الجوهري، والسقيفة:١٢٩).

وقال له عمر يوماً آخر: لعلّك ترى صاحبك لها؟

فقلت: القربى في قرابته وصهره وسابقته أهلها؟

قال: بلى ولكنّه امرؤ فيه دعابة (تاريخ المدينة لابن شبة: ٣/ ٨٨٠ مقتل عمر).

وقال عمر له يوماً ثالثاً: أترى صاحبكم لها موضعاً؟

قال: فقلت: وأين يبتعد من ذلك مع فضله وسابقته وقرابته وعلمه؟

قال: هو كما ذكرت، ولو وليهم تحملّهم على منهج الطريق فأخذ المحجة الواضحة، إلاّ انّ فيه خصالاً: الدعابة في المجلس واستبداد الرأي والتبكيت للناس مع ح داثة السن.

قال: قلت: يا أمير المؤمنين هلاّ استحدثتم سنّه يوم الخندق إذ خرج عمرو ابن عبد الود وقد كعم عنه الأبطال وتأخّرت عنه الأشياخ؟! ويوم بدر إذ كان يقط الأقران قطّاً، ولا سبقتموه بالإسلام إذ كان جعلته الشعب وقريش يستوفيكم؟!(تاريخ اليعقوبي: ١٥٨/٢ ـ ١٥٩ ذيل أيام عمر).

تصريح المقداد

أخرجه ابن أبي الحديد عن الجوهري بلفظ: واعجبا من قريش واستئثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت، معدن الفضل ونجوم الأرض ونور البلاد، والله ان فيهم لرجلاً ما رأيت رجلاً بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)أولى منه بالحق ولا أقضى بالعدل (شرح النهج: ٢١/٩ خطبة ١٣٥، والسقيفة: ٨١).

وبلفظ آخر له: وانّي لأعجب من قريش وتطاولهم على الناس بفضل رسول الله ثم انتزاعهم سلطانه من أهله (شرح النهج: ٤٩/٩ ـ ٥٨ خطبة ١٣٥، والسقيفة للجوهري: ٨٩).

وأخرجه ابن شبة بألفاظ قريبة (تاريخ المدينة: ٩٣١/٣ ذيل أخبار عمر).

تصريح عمّار بن ياسر

قال: يا معشر قريش إلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم تحولونه هاهنا مرّة وهاهنا مرّة، وما أنا آمن أن ينتزعه الله منكم ويضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله (شرح النهج لابن أبي الحديد: ٤٩/٩ ـ ٥٨ خطبة ١٣٥ عن الجوهري، السقيفة: ٩٠).

وذكر في العقد الفريد باختصار ولكن أوّله: فأنّى تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيّكم (العقد الفريد: ٤/ ٢٦٤ كتاب الخلفاء ـ أمر الشورى).

هذا تصريح عمّار الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق» (جامع الأحاديث: ١٤٩/١ ح ٩٠٤).

وقال ﷺ: «عمّار ما خيّر بين أمرين إلاّ اختار أرشدهما» (جامع الأحاديث: ٤٦/١ ح ١٧٥).

....

تصريح أبو ذر
قال أبو ذر لمّا توفي النبي وبويع لأبي بكر: أصبتم قناعه وتركتم قرابه، لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيّكم لما اختلف عليكم اثنان (شرح النهج: ٦/ ١٣ خطبة ٦٦ عن الجوهري، والسقيفة: ٦٢).
وأخرج اليعقوبي قوله: أيّتها الأمّة المتحيرة بعد نبيّها امّا لو قدّمتم من قدّم الله وأخّرتم من أخّر الله، وأقررتم للولاية والوراثة في أهل بيت نبيّكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم (تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٧١ أيّام عثمان، وأهل البيت للشرقاوي: ١٤٥).
تصريح عبد الله بن جعفر
قال لمعاوية: ... ايم الله لو ولّوه بعد نبيّهم لوضعوا الأمر موضعه لحقّه وصدقه، ولأطيع الرحمن وعُصي الشيطان وما اختلف في الأمّة سيفان (الإمامة والسياسة: ١/ ١٩٥ ح رب صفين ط. بيروت. و ١٤٩ ط. مصر ١٣٧٨، وأهل البيت لتوفيق: ٣٩٩).
تصريح عتبة بن أبي لهب
أخرج ابن سيد الناس في المدح واليعقوبي والزبير بن بكار وغيرهم قوله:

ما كنت أحسب هذا الأمر منصرفاً ... عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
اليس أوّل من صلّى لقبلته (لقبلتكم) ... وأعلم الناس بالقرآن والسنن
(اقرب) وآخر الناس عهداً بالنبي ومن ... جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما فيهم لا يمترون به ... وليس في القوم ما فيه من الحسن
ماذا الذي ردّهم عنه فنعلمه ... ها ان ذا غَبْننا من أعظم الغبن

(منح المدح: ٢٨٧ ذكر ابن أبي لهب، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٤ خبر السقيفة، وشرح النهج ٦/ ٢١ شرح خطبة ٦٦، وأسد الغابة: ٤/ ٤٠ ترجمته، والمواهب اللدنية: ١/ ٢٤٢ ط.مصر، وشرح النهج: ٦/ ٢١ خطبة ٦٦، والاخبار الموفقيات للزبير: ٥٨٠ ح ٣٨٠ ط. بغداد، وتاريخ أبي الفداء: ١/ ١٥٦ أخبار أبي بكر، والجوهرة: ١٢٢).
* أقول: تقدّمت هذه الأبيات ونسبت تصريحاً لسلمان وأيضاً للعباس، وهنا لعتبة، والمهم أنها صدرت منهم جميعاً أو رددوا هذه الكلمات فصح كونها تصريحاً لهم، وأيضاً يأتي عن ابن عبد البر نسبتها إلى والد عتبة وهو الفضل بن عبّاس.
تصريح الفضل بن عباس
قال: يا معشر قريش انّه ما ح قت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم. هذا لفظ اليعقوبي.
وذكره ابن أبي الحديد عن الزبير بن بكار بلفظ: يا معشر قريش وخصوصاً يا بني تيم انّكم انّما أخذتم الخلافة بالنبوّة ونحن أهلها دونكم.. وانّا لنعلم ان عند صاحبنا عهداً هو ينتهي إليه (الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار: ٥٨٠ ح ٣٨٠، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٤ خبر السقيفة، وشرح النهج: ٦/ ٢١ شرح خطبة ٦٦).
* أقول: وفي الاستيعاب والجوهرة نسب الأبيات المتقدمة اليه (الاستيعاب بهامش الإصابة: ٣/ ٦٧ ذيل ترجمة علي، والجوهرة: ١٢٢).
تصريح حسّان بن ثابت
قال يوم السقيفة:

جزى الله خيراً والجزاء بكفه ... أبا ح سن عنا ومن كأبي ح سن

سبقت قريشاً بالذي أنت أهله فصدرك مشروحٌ وقلبك ممتحن
تمنّت رجال من قريش أعزّةٌ مكانك هيهات الهزال من السمن
وكنت المُرجّى من لؤي بن غالب لِما كان منه جمنهمج والذي بعد لم يكن
حفظت رسول الله فينا وعهدُه إليك ومن أولى به منك مَنْ ومَن
ألست أخاه في الإخا ووصيّه وأعلم فهر منهم بالكتاب والسنن

(تاريخ اليعقوبي: ٢/١٢٨ أيام أبي بكر، والاخبار الموفقيات: ٥٩٨ ح ٣٨٨ وما بين المعكوفين منه).

تصريح البراء بن عازب

قال: لم أزل لبني هاشم محبّاً فلما قبض رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) خفت أن تتمالأ قريش على اخراج هذا الأمر عنهم. (شرح النهج: ١/ ٢١٩ الخطبة الثالثة عن الجوهري، والسقيفة: ٤٦).

تصريح زيد بن أرقم

قال يوم السقيفة: انّا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن.. انا لنعلم ان ممّن سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد: علي بن أبي طالب (شرح النهج لابن أبي الحديد: ٦/ ٢٠ شرح خطبة ٦٦، والأخبار الموفقيات للزبير بن بكار: ٥٧٩ ح ٣٧٨، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٥ خبر السقيفة عن المنذر بن أرقم).

تصريح النعمان بن العجلان الزرقي الأنصاري

قال:

وأهل أبو بكر لها خير قائم وان علياً كان أخلق للأمر
وكانا هوانا في علي وانه لأهلٌ لها من ح يث ندري ولا ندري

ورواه الزبير بلفظ:

لأهل لها يا عمرو من ح يث لا تدري

(الاستيعاب: ٣/ ٥٥٠ ترجمته، والاخبار الموفقيات للزبير بن بكار: ٥٩٣ ح ٣٨٤ وما بين المعكوفين منه).

تصريح خالد بن سعيد

أخرج الطبري وعبد الرزاق وابن عساكر والبلاذري قوله: لما قدم خالد من اليمن بعد وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)تربّص ببيعته شهرين ولقي علي بن أبي طالب وعثمان وقال: يا بني عبد مناف لقد طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم.

فأمّا أبو بكر فلم يحضى بها، وامّا عمر فاضطغنها عليه فلما بعث أبو بكر خالد بن سعيد أميراً على ربع من أرباع الشام فجعل عمر يقول: أبو مرة وقد قال ما قال.

فلم يزل بأبي بكر ح تى عزله وولّى يزيد بن أبي سفيان(الاستيعاب: ٢/ ٢٥٥ ترجمة أبو بكر، وانساب الأشراف: ٢/ ٢٧٠ أمر السقيفة ط. دار الفكر، وتاريخ الطبري: ٢/٥٨٦ سنة ١٣، والمصنف لعبد الرزاق: ٥/ ٤٥٤ ح ٩٧٧٠، وتاريخ دمشق: ١٦/ ٧٨ رقم الترجمة: ١٨٨).

وأخرج اليعقوبي عنه قوله لعلي عليه السلام: هلم أبايعك فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمّد منك (تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٦ خبر سقيفة بني ساعدة، وتاريخ دمشق: ١٦/ ٧٨ رقم الترجمة ١٨٨٠).

تصريح هزيل بن شرحبيل

أخرجه البزار والحميدي وابن ماجه وأبونعيم وأحمد، قال: كان أبو بكر يتأمّر على وصي رسول الله(صلى

المقدمة الرابعة

في الإشارة إلى بعض طرق الخطبة ورفع الاختلاف بينها فأقول:

اعلم أنّ المستفاد من مضمون هذه الخطبة الشريفة كما هو المستفاد من بعض طرقها الآتية أيضاً أنّه ﷺ خطب بها في أواخر عمره الشريف وذلك بعد ما انقضى أيّام خلافة المتخلفين الثلاثة وبعد ما ابتلى به من قتال النّاكثين والقاسطين والمارقين وهذا ممّا لا خفاء فيه، وأمّا المقام الذي خطب ﷺ بها فيه فقد اختلفت فيه الرّوايات.

منها ما هي ساكتة عن تعيين المكان، مثل ما رواه العلامة الحلي طاب ثراه في كتاب **«كشف الحق»** و**«نهج الصّدق»** عن الحسن بن عبد الله بن مسعود العسكري من أهل السّنة في كتاب **«معاني الأخبار»** بإسناده إلى ابن عبّاس قال: ذكرت الخلافة عند أمير المؤمنين ﷺ فقال: «والله لقد تقمّصها أخو تيم وأنّه يعلم»[1]، إلى آخر ما ذكره الرّضي بتغيير يسير.

الله عليه وآله وسلم)، ودّ أبو بكر لو وجد من رسول الله في ذلك عهداً فخرم أنفه بخرامه (مسند البزار: ٨/ ٢٩٨ ح ٣٣٧٠ وبالهامش أخرجه ابن ماجة: ٢/ ٩٠٠ ح ٢٦٩٦، والحميدي: ٢/ ٣١٥).

وأخرجه أبو نعيم صحّحه وأحمد بلفظ: لو وجد مع رسول الله ـ فخزم أنفه بخزامة (مسند أحمد: ٤/ ٣٨٢ ط. م و٥/ ٥١٦ ح ١٨٩١٨ ط. ب، وحلية الأولياء: ٥/ ٢١ ترجمة طلحة بن مصرف رقم ٢٨٥).

تصريح الخليفة المأمون

وذلك ضمن مناظرته المشهورة في فضل علي ﷺ وتفضيله على الصحابة بحضور فقهاء عصره جاء فيها: ان أمير المؤمنين يدين الله على ان علي بن أبي طالب خير الخلق بعد رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأولى الناس بالخلافة له (العقد الفريد: ٥/ ٧٧ كتاب أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ـ احتجاج المأمون).

تصريح داود بن علي

خطب في أوّل خلافة أبو العباس فقال: والله قسماً برّاً لا أريد إلاّ الله به، ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحق به من علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا، فليظن ظانّكم وليهمس هامسكم (عيون الأخبار لابن قتيبة: ٢/ ٢٥٢ كتاب العلم والبيان ـ الخطب).

تصريح يزيد بن معاوية

أخرج البلاذري في تاريخه قال: لما قتل الحسين بن علي كتب عبد الله ابن عمر إلى يزيد بن معاوية: امّا بعد فقد عظمت الرزية وجلّت المصيبة، وحدث في الإسلام ح دث عظيم، ولا يوم كيوم الحسين.

فكتب إليه يزيد: يا أحمق انّا جئنا إلى بيوت منجدة، وفرش ممهدة، ووسائد منضدة فقاتلنا عنها، فإن يكن الحق لنا فعن ح قّنا، وان يكن لغيرنا فأبوك أوّل من سنَّ هذا وابتزه واستأثر بالحق على أهله (الأنوار النعمانية: ١/ ٥٣ عن البلاذري).

* ـ أقول: هذه جملة من تصريحات الصحابة من كتب القوم، وهناك تصريحات أخرى من كتب أصحابنا لم نذكرها (الاحتجاج: ١/ ٧٦ إلى ٧٩ و٨٧ إلى ٨٩، ومناقب آل أبي طالب: ٢/ ٢٥٢).

(١) راجع الطرائف: ٤١٨، وبيت الأحزان: ٨٩.

ومثلها ما رواه المحدث المجلسي في المجلد الثامن من «**البحار من معاني الأخبار**» وعلل الشرائع للصّدوق عن ماجيلويه عن عمّه عن البرقي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان عن أبان بن تغلب عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: ذكرت الخلافة عند أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ فقال: «والله لقد تقمّصها أخو تيم» (ا ه)، ومن الكتابين أيضاً عن الطالقاني عن الجلودي عن أحمد بن عمّار بن خالد عن يحيى بن عبد الحميد الحماني عن عيسى بن راشد عن عليّ بن حذيفة عن عكرمة عن ابن عبّاس مثله، ومن أمالي الشّيخ عن الحفّار عن أبي القاسم الدّعبلي عن أبيه عن أخي دعبل عن محمّد بن سلامة الشّامي عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عن جدّه عليهم السّلام، والباقر، عن ابن عبّاس قال: ذكرت الخلافة عند أمير المؤمنين ﷺ فقال: «والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة»[1]، وذكر نحوه بأدنى تغيير.

ومنها ما هي دالة على أنّه ﷺ خطب بها في منبر مسجد الكوفة وهو ما رواه المحدث المجلسي طاب ثراه في المجلد الرابع عشر من «**البحار**» من بعض مؤلفات القدماء عن القاضي أبي الحسن الطبري عن سعيد بن يونس المقدسي عن المبارك عن خالص بن أبي سعيد عن وهب الجمال عن عبد المنعم بن سلمة عن وهب الراندي عن يونس بن ميسرة عن الشّيخ المعتمر الرّقي رفعه إلى أبي جعفر ميثم التمار، قال: كنت بين يدي مولاي أمير المؤمنين ﷺ إذ دخل غلام وجلس في وسط المسلمين، فلما فرغ ﷺ من الأحكام نهض إليه الغلام، وقال يا أبا تراب: أنا إليك رسول جئتك برسالة تزعزع لها الجبال من رجل حفظ كتاب الله من أوله إلى آخره وعلم علم القضايا والأحكام وهو أبلغ منك في الكلام وأحقّ منك بهذا المقام، فاستعدّ للجواب ولا تزخرف المقال، فلاح الغضب في وجه أمير المؤمنين ﷺ، وقال لعمار: اركب جملك وطف في قبائل الكوفة وقل لهم أجيبوا عليّاً ليعرفوا الحقّ من الباطل والحلال والحرام والصّحة والسّقم، فركب عمّار فما كان إلا هنيئة حتّى رأيت العرب كما قال الله تعالى:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٥٣] ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

فضاق جامع الكوفة وتكاثف النّاس تكاثف الجراد على الزّرع الغض في أوانه، فنهض العالم الأروع والبطل الأنزع ورقى في المنبر وراقى ثم تنحنح فسكت جميع من في الجامع، فقال ﷺ: رحم الله من سمع فوعى، أيها النّاس يزعم أنّه أمير المؤمنين والله لا يكون الإمام إماماً حتّى يحيي الموتى أو ينزل من السّماء مطراً أو يأتي بما يشاكل ذلك ممّا يعجز عنه غيره

(١) الإرشاد: ١/ ٢٨٧، والاحتجاج: ١/ ٢٨١، والبحار: ٢٩/ ٥٠٥.

وفيكم من يعلم أني الآية الباقية والكلمة التامّة والحجّة البالغة ولقد أرسل إليّ معاوية جاهلاً من جاهليّة العرب عجرف في مقاله وأنتم تعلمون لو شئت لطحنت عظامه طحناً، ونسفت الأرض من تحته نسفاً، وخسفتها عليه خسفاً إلاّ أنّ احتمال الجاهل صدقة.

ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على النّبي ﷺ وأشار بيده إلى الجوّ فدمدم، وأقبلت غمامة وعلت سحابة وسمعنا منها إذاً يقول: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ويا سيّد الوصيّين ويا إمام المتّقين ويا غياث المستغيثين ويا كنز المساكين ومعدن الرّاغبين، وأشار إلى السّحابة فدنت، قال ميثم: فرأيت الناس كلهم قد أخذتهم السّكرة، فرفع رجله وركب السّحابة، وقال لعمّار: اركب معي وقل، بسم الله مجريها، ومرسيها، فركب عمّار وغابا عن أعيننا، فلما كان بعد ساعة أقبلت السّحابة حتّى أظلت جامع الكوفة، فإذا مولاي جالس على دكة القضاء وعمّار بين يديه والنّاس حافّون به، ثم قام وصعد المنبر وأخذ الخطبة المعروفة بالشّقشقية، فلما فرغ إضطرب النّاس، وقالوا فيه أقاويل مختلفة، فمنهم من زاده الله إيماناً ويقيناً، ومنهم من زاده كفراً وطغياناً.

قال عمار: وقد طارت بنا السّحابة في الجوّ فما كانت هنيئة حتّى أشرفنا إلى بلد كبير حواليه أشجار وأنهار، فنزلت بنا السّحابة وإذا نحن في مدينة كبيرة والنّاس يتكلمون بكلام غير العربيّة فاجتمعوا عليه ولاذوا به فوعظهم وأنذرهم بمثل كلامهم، ثم قال: يا عمّار اركب ففعلت ما أمرني فادركنا جامع الكوفة، ثم قال عليه السلام لي يا عمّار، تعرف البلدة التي كنت فيها؟ قلت: الله أعلم ورسوله ووليّه قال عليه السلام: كنّا في الجزيرة السّابعة من الصّين أخطب كما رأيتني إنّ الله تبارك وتعالى أرسل رسوله إلى كافّة النّاس وعليه أن يدعوهم ويهدي المؤمنين منهم إلى الصّراط المستقيم، واشكر ما أوليتك من نعمه، واكتم من غير أهله فإنّ لله تعالى ألطافاً خفيّة في خلقه لا يعلمها إلاّ هو ومن ارتضى من رسول.

ثم قالوا: أعطاك الله هذه القدرة وأنت تستنهض الناس لقتال معاوية، فقال عليه السلام: «إنّ الله تعبّدهم بمجاهدة الكفار والمنافقين والنّاكثين والقاسطين والمارقين، والله لو شئت لمددت يدي هذه القصيرة في أرضكم هذه الطويلة وضربت بها صدر معاوية بالشّام وأخذت بها من شاربة أو قال: من لحيته، فمدّ يده وردّها وفيها شعرات كثيرة»، فتعجبوا من ذلك، ثم وصل الخبر بعد مدّة أن معاوية سقط من سريره في اليوم الذي كان عليه السلام مدّ يده وغشى عليه ثم أفاق وافتقد من شاربه ولحيته شعرات[1].

وقد ذكرت الرّواية بتمامها إذ فيها قرّة عين للشّيعة فهنيئاً لهم ثم هنيئاً بما خصّهم الله به من موالاة صاحب المناقب الفاخرة والمعجزات القاهرة.

---

(١) نوادر المعجزات: ٤٧، ومدينة المعاجز: ١/٤٧٦، والبحار: ٥٤/٣٤٦.

منها ما هي مفيدة لكونه عليه السلام خاطباً بها في الرّحبة، مثل ما رواه الطبرسي في «**الإحتجاج**» قال: وروى جماعة من أهل النقل من طرق مختلفة عن ابن عبّاس قال: كنت عند أمير المؤمنين عليه السلام بالرّحبة فذكرت الخلافة وتقدّم من تقدّم عليه، فتنفس الصّعداء ثم قال: أما والله لقد تقمّصها، وذكر قريباً ممّا رواه الرّضي، ومثله ما رواه في «**البحار**» من «**إرشاد المفيد**» قال روى جماعة إلى آخر ما ذكره في «**الإحتجاج**» إلاّ أن فيه وتقديم من تقدّم، وأم والله بدل أما، وفي «**البحار**» أيضاً عن الشّيخ قطب الدّين الرّاوندي قدّس سرّه في شرحه على «**نهج البلاغة**» بهذا السّند، أخبرني الشيخ أبو نصر الحسن بن محمّد بن إبراهيم عن الحاجب أبي الوفاء محمّد بن بديع والحسين بن أحمد بن عبد الرّحمٰن عن الحافظ أبي بكر بن مردويه الاصفهاني عن سليمان بن أحمد الطبراني عن أحمد بن علي الأبار عن إسحاق بن سعيد أبي سلمة الدّمشقي عن خليد بن دعلج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: كنا مع عليّ عليه السلام بالرّحبة فجرى ذكر الخلافة ومن تقدّم عليه فيها، فقال: أما والله لقد تقمّصها فلان، إلى آخر الخطبة.

هذه جملة ما عثرت عليها من طرق الخطبة وإسنادها ويمكن الجمع بين مختلفها بأن يكون عليه السلام قد خطب بها تارة بالرّحبة وأخرى بمنبر الكوفة والله العالم.

وإذا تمهّد لك هذه المقدمات فلنشرع في شرح كلامه عليه السلام بتوفيق من الله سبحانه فأقول: وشرحها في ضمن فصول.

الفصل الأول

«أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحافَةٍ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحىٰ، يَنْحَدِرُ مِنِّي السَّيْلُ، وَلاَ يَرْقىٰ إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَها ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً، وَطَفِقْتُ أَرْتاي بَينَ أَنْ أَصولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلىٰ طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فيهَا الْكَبيرُ، وَيَشيبُ فيهَا الصَّغيرُ، ويَكْدَحُ فيها مُؤْمِنٌ حَتىٰ يَلْقىٰ فيها رَبَّهُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلى هاتا أَحْجىٰ، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَينِ قَذىٰ، وَفِي الْحَلْقِ شَجىٰ، أَرىٰ تُراثي نَهْباً»(١).

اللغة

يقال قمّصه قميصاً ألبسه فتقمّص هو و(**قحافة**) بضمّ القاف وتخفيف الحاء و(**قطب الرّحى**) مثلة وكعنق: الحديدة التي تدور عليها الرّحى و(**سدل الثّوب**) يسدله أرسله وأرخاه، و(**الكشح**) ما بين الخاصرة إلى أقصر الأضلاع، يقال فلان طوى كشحه أي أعرض مهاجراً، و(**طفق**) في كذا أي شرع وأخذ و(**ارتأى**) في الأمر إذا فكر طلباً للرّأي الأصلح وافتعل من روية القلب و(الصّولة) الوثبة والحملة، و(**اليد الجذّاء**) (**بالجيم**) (**والذّال**) المعجمة المقطوعة المكسورة، قال في «**النّهاية**» في حديث علي عليه السلام (**أصول بيد جذّاء**) كنّى به عن قصور أصحابه وتقاعدهم عن الغزو، فإنّ الجند للأمير كاليد ويروى (**بالحاء**) المهملة وفسّره في موضعه باليد القصيرة التي لا تمدّ إلى ما يراد، قال: وكأنّها (**بالجيم**) أشبه و(**الطخية**) بالضم، على ما في أكثر النّسخ أو بالفتح الظلمة أو الغيم، وفي «**القاموس**» الطخية الظلمة ويثلث و(**العمياء**) تأنيث الأعمى يقال مفازة عمياء أي لا يهتدي فيها الدّليل، ووصف الطخية بها إشارة إلى شدّة الظلمة، و(**هرم**) كفرح أي بلغ أقصى الكبر، و(**الشّيب**) بياض الشّعر، و(**الكدح**) السّعي وكدح في العمل كمنع سعى وعمل لنفسه خيراً وشرّاً و(**أحجى**) أي أولى وأجدر وأحقّ من قولهم حجى بالمكان إذا أقام وثبت ذكره في «**النّهاية**»، وقيل: أي أليق وأقرب بالحجى وهو العقل و(**القذى**) ما يقع في العين وفي الشّراب أيضاً من نتن أو تراب أو وسخ و(**الشجى**) ما اعترض في الحلق ونشب من عظم ونحوه و(**التراث**) ما يخلّفه الرّجل لورثته (**والتاء**) فيه بدل من (**الواو**) و(**النّهب**) السّلب والغارة والغنيمة.

الإعراب

(**أما**) حرف تنبيه تدلّ على تحقق ما بعدها مثل (**ألا**) ولكونها مفيدة للتحقيق لا تقع الجملة بعدها إلاّ مصدّرة بالقسم قال الشّاعر:

(١) يراجع الاقتصاد للطوسي: ٢١٠، وعلل الشرائع: ١/ ١٥٠، والبحار ٢٩/ ٥٠٥.

أما والذي أبكى وأضحك والذي   أمات وأحيى والذي أمره الأمر

والضّمير في تقمّصها راجع إلى الخلافة المستفادة بقرينة المقام كما في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

أي الشّمس أو المصرّح بها كما في سائر طرق الخطبة على ما تقدم ومثله الضّمائر الثلاثة بعدها، وجملة وإنّه ليعلم (ا ه) حاليّة، وجملة ينحدر (آه) استئنافيّة، و(أو)، في قوله أو أصبر بمعنى (الواو)، لاقتضاء كلمة بين ذلك، لأنّ العطف بعدها لا تقع إلاّ (بواو) الجمع يقال: جلست بين زيد وعمرو ولا يقال أو عمرو، وفي بعض النّسخ وأصبر (بالواو)، وكلمة (ها) في هاتا للتّنبيه، و(تا) للإشارة إلى المؤنّث أشير بها إلى الطخية الموصوفة.

المعنى

(**أما والله لقد تقمّصها**) أي لبس الخلافة مثل القميص (**ابن أبي قحافة**) والإشارة به إلى أبي بكر واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سلام بن تيم بن مرّة، وأمّه سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب، وفي بعض الكتب أنّ اسمه في الجاهليّة عبد العزّى فغيره النبي ﷺ إلى عبد الله، قال في «**القاموس**»: إسمه عتيق سمّته به أمّه أو لقب له، وفي التعبير عنه بهذا اللفظ دون الألقاب المادحة دلالة على الاستخفاف، كتعبيره عن الثاني فيما سيأتي بابن الخطاب.

وما تكلفه قاضي القضاة في دفع دلالته عليه بأنّه قد كانت العادة في ذلك الزّمان أن يسمّى أحدهم صاحبه ويكنيه ويضيفه إلى أبيه حتّى كانوا ربّما قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمّد، فليس في ذلك دلالة على الاستخفاف ولا على الوضع.

فقد أجاب عنه السّيد (ره) في «**محكي الشّافي**» بأنّه ليس ذلك صنع من يريد التّعظيم والتبجيل، وقد كانت لأبي بكر عندهم من الألقاب الجميلة ما يقصد إليه من يريد تعظيمه، وقوله: إنّ رسول الله ﷺ كان ينادي باسمه، فمعاذ الله ما كان ينادي باسمه إلاّ شاكّ أو جاهل من طغام[1] العرب، وقوله: إنّ ذلك عادة العرب فلا شك أن ذلك عادتهم فيمن لا يكون له من الألقاب أفخمها وأعظمها كالصّديق ونحوه، انتهى.

وقال المحدث المجلسي (قده) في ترجمة أبي بكر: اعلم أنّه لم يكن له نسب شريف ولا حسب منيف، وكان في الإسلام خيّاطاً وفي الجاهليّة معلّم الصّبيان ونعم ما قيل:

كفى المرء نقصاً أن يقال له   معلّم صبيان وإن كان فاضلاً

---

(١) في نسخة: طغام.

وكان أبوه سيّىء الحال ضعيفاً وكان كسبه أكثر من عمره من صيد القماري والدباسي لا يقدر على غيره. فلمّا عمى وعجز ابنه عن القيام به التجأ إلى عبد الله بن جذعان من رؤساء مكة فنصبه ينادي على مائدته كلّ يوم لإحضار الأضياف وجعل له على ذلك ما يعونه من الطعام، وذكر ذلك جماعة منهم الكلبي في كتاب **«المثالب»** على ما أورده في **«الصّراط المستقيم»**، ولذا قال أبو سفيان لعلي عليه السلام بعدما غصب الخلافة أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي عليكم تيميّ رذل.

وقال أبو قحافة ما رواه ابن حجر في صواعقه حيث قال: وأخرج الحاكم أنّ أبا قحافة لما سمع بولاية ابنه، قال: هل رضى بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم، قال: اللهمّ لا واضع لما رفعت ولا رافع لما وضعت، وقالت فاطمة عليها السلام في بعض كلماتها: إنّه من أعجاز قريش وأذنابها، وقال بعض الظرفاء: بل من ذوي أذنابها، وقال صاحب **«إلزام النّواصب»**: أجمع النسابون أنّ أبا قحافة كان جرّاً[(١)] لليهود، والعجب أنّهم مع ذلك يدّعون أنّ الله أغنى النّبي صلى الله عليه وآله بمال أبي بكر، انتهى[(٢)].

أقول: وذكر الشّارح المعتزلي نظير ما رواه ابن حجر، هذا.

وفي **«الاحتجاج»** روى أن أبا قحافة كان بالطائف لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وبويع لأبي بكر، فكتب إلى أبيه كتاباً عنوانه من خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبيه أبي قحافة: أمّا بعد فإنّ النّاس قد تراضوا بي فإنّي اليوم خليفة الله فلو قدمت علينا كان أحسن بك، قال: فلما قرأ أبو قحافة الكتاب قال للرّسول: ما منعكم من علي عليه السلام؟ قال الرّسول: هو حدث السّن وقد أكثر القتل في قريش وغيرها وأبو بكر أسنّ منه، قال أبو قحافة: إن كان الأمر في ذلك بالسّن فأنا أحقّ من أبي بكر، لقد ظلموا عليّاً حقّه وقد بايع له النّبي صلى الله عليه وآله وأمرنا ببيعته ثم كتب إليه: من أبي قحافة إلى أبي بكر أمّا بعد، فقد أتاني كتابك فوجدته كتاب أحمق ينقض بعضه بعضاً، مرّة تقول: خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ومرّة تقول: خليفة الله، ومرّة تقول: تراضى بي النّاس، وهو أمر ملتبس فلا تدخلنّ في أمر يصعب عليك الخروج منه غداً ويكون عقباك منه إلى النّدامة وملامة النّفس اللوامة لدى الحساب يوم القيامة، فإنّ للأمور مداخل ومخارج وأنت تعرف من هو أولى بها منك، فراقب الله كأنّك تراه ولا تدعنّ صاحبها، فإنّ تركها اليوم أخف عليك وأسلم لك.

ثم إعلم أنّه لم يتعرّض عليه أحد بسوء النّسب لا من الخاصّة ولا من العامّة حسبما طعنوا في أنساب أمثاله، ولعلّ سرّه ما أشار إليه المحدث الجزائري في أنوار النّعمانيّة: من أنّ

---

(١) جرّاً: أي راعي إبل.

(٢) راجع البحار: ٥١٩/٣٠، وكتاب الأربعين للشيرازي: ٥٣٢.

الأئمة عليهم السّلام من نسله وذلك، لأنَ أمّ فروة وهي أمّ الصّادق عليه السلام بنت القاسم بن محمّد بن أبي بكر.

ثمّ إنّه عليه السلام لمّا ذكر تلبّسه بالخلافة أراد التّنبيه على عدم استحقاقه بذلك اللّباس، ونبّه على بطلان خلافة المتقمّص بذكر مراتب كماله الدّالة على أفضليّة المشيرة إلى قبح تفضيل المفضول والعدول عن الأفضل، فقال: **(وإنّه ليعلم أن محلّي منها)** أي من الخلافة **(محل القطب من الرّحي)** شبّه عليه السلام نفسه بالقطب والخلافة بالرّحى ومحلّه من الخلافة بمحلّ القطب من الرّحى. والأوّل من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس، والثاني من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس، والثّالث من قبيل تشبيه المعقول بالمعقول، والمقصود أن الأثر المطلوب من الرّحى كما لا يحصل إلاّ بالقطب ولولاه لم يحصل لها ثمر قط كذلك الثمرة المطلوبة من الولاية والخلافة أعني هداية الأنام وتبليغ الأحكام ونظام أمور المسلمين وانتظام أمر الدّنيا والدّين، لا تحصل إلاّ بوجوده عليه السلام فتكون الخلافة دائرة مدار وجوده كما أنّ الرّحى دائرة مدار القطب، ففيه إشارة إلى عدم إمكان قيام غيره مقامه وإغنائه غناه كما لا يقوم غير القطب مقامه ولا يغني عنه.

وبهذا المضمون صرّح عليه السلام في بعض كلماته الآتية، وهو قوله في الكلام المائة والثامن عشر: «وإنّما أنا قطب الرّحى تدور عليّ وأنا بمكاني فإذا فارقته استحار مدارها واضطرب ثقالها»[(١)]، ومنه يظهر أنّ ما ذكره الشّارح المعتزلي من أنّ مراده عليه السلام بهذا الكلام هو أنّه من الخلافة في الصّميم وفي وسطها وبحبوحتها كما أنّ القطب وسط دائرة الرّحى مع كونه خلاف الظاهر ليس على ما ينبغي، هذا.

وفي إتيان قوله: وإنّه ليعلم مؤكداً **(بإن واللام)**، دلالة على منتهى المبالغة في الطعن عليه لدلالته على أنّ تقمّصه بالخلافة لم يكن ناشياً عن الجهالة والغفلة عن مرتبته عليه السلام حتى يكون جاهلاً قاصراً معذوراً فيه ومعفواً عنه، بل قد تقمّص بها مع علمه بأنّ مدارها عليه وانتظامها به فيكون تقمّصه بالخلافة لم يكن ناشئاً عن الجهالة والغفلة عن مرتبته عليه السلام حتى يكون جاهلاً قاصراً معذوراً فيه ومعفواً عنه، بل قد تقمّص بها مع علمه بأنّ مدارها عليه وانتظامها به فيكون تقمّصه بها مع وجود ذلك العلم ظلماً فاحشاً وغصباً بيّناً.

ويدل على علمه بذلك ما رواه في **«الإحتجاج»** عن عامر الشّعبي عن عروة بن الزّبير عن الزّبير بن العوام قال: لمّا قال المنافقون: إنّ أبا بكر تقدّم عليّاً وهو يقول أنا أولى بالمكان منه، قام أبو بكر خطيباً فقال: صبراً على من ليس يؤل إلى دين ولا يحتجب برعاية ولا يرعوى لولاية، أظهر الإيمان ذلة وأسر النّفاق غلّة هؤلاء عصبة الشّيطان وجمع الطغيان،

(١) راجع شرح مائة كلمة: ٢٣٢.

يزعمون أنّي أقول إنّي أفضل من عليّ وكيف أقول ذلك وما ليَ سابقته ولا قرابته ولا خصوصيته، ووحد الله وأنا ملحده وعبد الله قبل أن أعبده، ووالى الرّسول وأنا عدوّه، وسابقني بساعات لم ألحق شأوه ولم أقطع غباره، إنّ ابن أبي طالب فاز والله من الله بمحبة، ومن الرّسول بقربة، ومن الإيمان برتبة، لو جهد الأوّلون والآخرون إلاّ النّبيون لم يبلغوا درجته ولم يسلكوا منهجه.

بذل في الله مهجته ولابن عمّه مودّته، كاشف الكرب ودامغ الرّيب وقاطع السّبب إلاّ سبب الرّشاد وقامع الشّرك، ومطهر ما تحت سويداء حبّة النّفاق محنة لهذا العالم، لحق قبل أن يلاحق وبرز قبل أن يسابق، جمع العلم والحلم والفهم فكانت جميع الخيرات لقلبه كنوزاً لا يدّخر منها مثقال ذرة إلاّ أنفقه في بابه فمن ذا يؤمّل أن ينال درجته، وقد جعله الله ورسوله للمؤمنين وليّاً وللنّبي وصيّاً وللخلافة راعياً وبالإمامة قائماً، أفيغتر الجاهل بمقام قمته إذا أقامني وأطعته إذا أمرني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحقّ مع عليّ وعليّ مع الحقّ، من أطاع عليّاً رشد ومن عصى عليّاً فسد، ومن أحبّه سعد، ومن أبغضه شقى، والله لو لم يحبّ ابن أبي طالب إلاّ لأجل أنّه لم يواقع لله محرّماً ولا عبد من دونه صنماً ولحاجة النّاس إليه بعد نبيهم، لكان في ذلك ما «مماخ» يجب، فكيف لأسباب أقلها موجب وأهونها مرغب، للرّحم الماسة بالرّسول والعلم بالدقيق والجليل والرّضا بالصبر الجميل والمواساة في الكثير والقليل[1] وخلال لا يبلغ عدّها ولا يدرك مجدها ود المتمنون أن لو كانوا تراب أقدام ابن أبي طالب، أليس هو صاحب لواء الحمد والسّاقي يوم الورود وجامع كلّ كريم وعالم كل علم والوسيلة إلى الله وإلى رسوله»[2].

ثم إنّه عليه السلام أشار إلى علوّ مقامه وسموّ مكانه بقوله **(ينحدر عني السيل)** تشبيهاً لنفسه بذروة الجبل المرتفع فاستعار له ما هو من أوصاف الجبل وهو السيل المنحدر عنه إلى الغيطان، ولعل المراد بالسّيل المنحدر عنه عليه السلام هو علومه وحكمه الواصلة إلى العباد والفيوضات الجارية منه عليه السلام على المواد القابلة، وتشبيه العلم بالماء والسّيل من ألطف التشبيهات ووجه الشبه هو اشتراكهما في كون أحدهما سبب حياة الجسم والآخر سبب حياة الرّوح، وقد ورد مثل ذلك التّشبيه في الكتاب العزيز قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

روى علي بن إبراهيم القمي (ره) في تفسيره بإسناده عن فضالة بن أيوب قال: سُئِل الرّضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: (قل أرأيتم) الآية، فقال عليه السلام: ماؤكم أبوابكم أي الأئمة،

(١) خِلال جمع خلة مثل خصلة (وزناً ومعناً).

(٢) بطوله في الإحتجاج: ١/ ١١٦، وحلية الأبرار: ٢/ ٣١٣.

والأئمة أبواب الله بينه وبين خلقه، فمن يأتيكم بماء معين، يعني يأتيكم بعلم الإمام[١]، وفي تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى:

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

قال: هو مثل جرى لآل محمّد ﷺ قوله: بئر معطلة، هو الذي لا يستقي منها وهو الإمام الذي قد غاب فلا يقتبس منه العلم إلى وقت الظهور، والقصر المشيد هو المرتفع، وهو مثل لأمير المؤمنين والأئمة صلوات الله عليهم وفضائلهم المنتشرة في العالمين المشرفة على الدّنيا ثم يشرف على الدنيا، وهو قوله:

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح ٢٨].

وقال الشّاعر في ذلك:

بئر معطلة وقصر مشرف مثل لآل محمّد مستطرف
فالقصر مجدهم الذي لا يرتقي والبئر علمهم الذي لا ينزف

ثم إنّه عليه السلام ترقى في الوصف بالعلو وأكد علوّ شأنه ورفعة مقامه بقوله: **(ولا يرقى إلى الطير)** فإن مرقى الطير أعلى من منحدر السّيل فكيف ما لا يرقى إليه كأنه قال: إنّي لعلّو منزلتي كمن في السّماء التي يستحيل أن يرقى الطير إليها قال الشاعر:

مكارم لجّت في علوّ كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

ولعلّه عليه السلام أراد بعدم رقي الطير إليه عجز طائر الأوهام عن الوصول إلى مقاماته الجليلة، وقصور العقول عن الإحاطة بمناقبه الجميلة من حيث عدم انتهائها بعدّ، وعدم وقوفها إلى حدّ، قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

قال في «الإحتجاج»: سأل يحيى بن أكثم أبا الحسن العالم عليه السلام عن قوله تعالى: سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ما هي؟ فقال: هي عين الكبريت وعين اليمين وعين البرهوت وعين الطبرية وحمّة[٢] ما سيدان وحمة أفريقية وعين باحوران[٣]، ونحن الكلمات التي لا تدرك

(١) تفسير القمي: ٢/ ٣٧٩، وتأويل الآيات: ٢/ ٧٠٨.

(٢) الحمة: كل عين فيها ماء حار تنبع يشتفي بها المرضى.

(٣) في نسخة: بلعوران، وفي نسخة: ناحوران.

فضائلنا ولا تستقصى[1].

ثم إنّه عليه السلام لما أشار إلى اغتصاب الخلافة نبّه على إعراضه عنها ويأسه منها وقال: **(فسدلت)** أي أرخيت وأرسلت **(دونها ثوباً)** وضربت بيني وبينها حجاباً فعل الزّاهد فيها والراغب عنها **(وطويت عنها كشحاً)** وأعرضت عنها ويئست منها مهاجراً، وقيل: إنّ المراد إنّي أجعت نفسي عنها ولم ألقمها لأن من أجاع نفسه فقد طوى كشحه كما أنّ من أكل وأشبع فقد ملأ كشحه (و) لما رأيت الخلافة في يدِ مَنْ لم يكن أهلاً لها **(طفقت)** أي أخذت وشرعت **(أرتأي)** في الأمر وأفكّر في طلب الأصلح وأُجيل الفكر في تدبير أمر الخلافة وأردّده **(بين)** أمرين **أحدهما**: **(أن أصول)** عليهم واقاتل معهم **(بيد جذّاء)** أي مقطوعة مكسورة والمراد حملته عليهم بلا معاون ولا ناصر، واستعار وصف الجذاء لعدمهما لمشابهة أن قطع اليد كما أنّه مستلزم لعدم القدرة على التّصرف بها والصّيال، فكذلك عدم المعين والناصر مستلزم لذلك أيضاً فحسنت الاستعارة **وثانيهما** الصّبر على معاينة الخلق على شدّة وجهالة وضلالة وهو المراد بقوله **(أو أصبر على طخية عمياء)** أي على ظلمة والتباس من الأمور متّصف بالعمى بمعنى أنه لا يهتدي فيه السّالك إلى سلوك طريق الحقّ بل يأخذ يميناً وشمالاً، وإلى هذه الظلمة أشيرت في قوله تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

وقد فسرت الظلمات في الأخبار بخلافات الثلاثة، ثم أشار عليه السلام إلى طول مدة هذه الطخية بأنه **(يهرم فيها الكبير)** أي يبلغ أقصى الكبر **(ويشيب فيها الصّغير)** أي يبيضّ رأسه ويحتمل أن يراد بهما المجاز والتوسع بمعنى أنّ أيام إغتصاب الخلافة لشدّة صعوبتها وكثرة أهوالها يكاد أن يهرم الكبير فيها ويشيب الصّغير قال تعالى:

﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

(ويكدح فيها مؤمن) أي يسعى المؤمن المجتهد في الذّب عن الحقّ والأَمر بالمعروف ويكدّ ويقاسي الأَحزان والشدائد **(حتّى)** يموت و**(يلقى ربّه)** ثم إنّه عليه السلام لما ذكر تردّده بين الصّبر والقتال أشار إلى ترجيحه الأوّل على الثاني بقوله: **(فرأيت أن الصّبر على هاتا أحجي)** أي أليق وأصلح وأجدر، أو أقرب بالحجا والعقل، وذلك لأَن ترك الخلق على الضلالة والجهالة وإبقائهم على الغي والغفلة إنّما يقبح مع الاستطاعة والقدرة ويلزم معهما ردعهم عن الباطل ونهيهم عن المنكر وإرجاعهم إلى الصّراط المستقيم والنّهج القويم ولو بالقتال

---

(١) الإختصاص: ٩٤، ومناقب آل أبي طالب: ٣/ ٥٠٤.

والصّيال، وأمّا مع عدم التمكن والقدرة من حيث عدم المعاون والنّاصر فلا يلزم شيء من ذلك، بل يجب التّحمل والصّبر حذراً من إلقاء النّفس على الهلاكة وتعريضها على العطب وإستئصال آل محمّد ﷺ سيّما وأنّ مقصوده عليه السلام من الخلافة لم يكن إلاّ هداية الأنام وإعلاء كلمة الإسلام وإثارة الحرب والجدال إذا كانت موجبة لاضطراب نظام المسلمين، بل مؤدّية إلى رجوع النّاس إلى أعقابهم القهقرى واضمحلال كلمة الإسلام لغلبة الأعداء فلا يحكم العقل حينئذٍ إلاّ بالكفّ عن الجهاد والصّبر على البلاء والتحمل على الأذى كي لا يلزم ضدّ المقصود ولا نقض الغرض **(فصبرت) والحال** إنّ **(في العين قذى)** يوجب أذيتها كما يصبر الرّجل الأرمد **(وفي الحلق شجى)** اعترض فيه كما يصبر المكابد للخنق، والجملتان كنايتان عن شدّة تأذيه بسبب اغتصاب ما يرى أنّه أولى به من غيره **(أرى تراثي)** وفي بعض الرّوايات تراث محمّد وآله **(نهباً)** أي سلباً وغارة والمراد بتراثه المنهوب المسلوب إما فدك الذي خلّفه رسول الله ﷺ لابنته من حيث إنّ مال الزّوجه في حكم مال الزّوج، وإمّا الخلافة الموروثة منه عليه السلام لصدق لفظ الإرث عليها كصدقه على منصب النّبوة في قوله تعالى حكاية عن زكريا:

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦].

والأظهر حمله على العموم والله العالم.

الترجمة

آگاه باش به خدا قسم که پوشید خلافت را مثل پیراهن پسر ابی قحافه و حال آن که به درستی آن عالم بود به این که محل من از خلافت مثل محل قطب است از سنگ آسیا، منحدر می شود و پایین می آید از من سیل علوم و ترقی نمی کند به سوی من پرنده بلندپرواز از اوهام و عقول، پس فروگذاشتم نزد آن خلافت لباس صبر را و در نور دیدم از آن تهیگاه را و شروع کردم به فکر کردن در امر خود میان آن که حمله کنم به دست بریده و یا این که صبر نمایم بر ظلمتی که متصف است به صفت کوری که کنایه است از خلافت أهل جلافت، آن چنان ظلمتی که به نهایت پیری می رسد در آن بزرگ سال و به حال پیری می رسد در آن خوردسال و سعی می کند و به مشقت و رنج می افتد در آن مؤمن تا این که می میرد و ملاقات می کند پروردگار خود را.

و چون حال بر این منوال بود پس دیدم که صبر کردن بر این ظلمت و بر خلافت اهل شقاوت الیق و انسب است، پس صبر نمودم و ترك قتال و جدال کردم و حال آن که در چشم من غبار و خاشاك بود که از آن اذیت می کشیدم و در گلوی من استخوان بود که گلوگیر شده بودم و سبب این اذیت و گلوگیری آن بود که می دیدم میراث خود را غارت شده و خلافت خود را تاراج گردیده.

الفصل الثاني

حَتّى مَضى الأَوّل لِسَبيلِه، فَأَدْلَى بِها إلَىٰ ابْنِ الْخَطّاب بَعْدَهُ، ثمّ تَمَثّل عليه السلام بقول الأعشى:

شَتّان مَا يَومي عَلى كُورِها وَيَومَ حَيّانَ أَخي جَابِرِ

«فَيا عَجَباً بَيْنا هُوَ يَسْتَقيلُها في حَيَاتِهِ إذْ عَقَدَها لآخَرَ بَعْدَ وَفاتِه لَشَدَّ ما تَشَطَّرا ضَرْعَيْها، فَصَيَّرَها في حَوْزَةٍ خَشْناءَ يَغْلِظُ كَلْمُها، وَيَخْشَنُ مَسُّها، وَيَكْثُرُ الْعِثارُ فيها، وَالإِعْتِذارُ مِنْها، فَصاحِبُها كَراكِبِ الصَّعْبَةِ إنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النّاسُ لَعَمْرُ اللّهِ بِخَبْطٍ وَشماسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ، فَصَبَرْتُ عَلى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ».

اللغة

يقال فلان (مضى) لسبيله أي مات و(أدلى) بها إلى فلان أي ألقاها إليه ودفعها قال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

أي تدفعوها إليهم رشوة وأصله من أدليت الحبل في البئر إدلاء أي أرسلتها ليستقي بها و(تمثل) بالبيت أنشده للمثل و(شتان) إسم فعل فيه معنى التعجب يقال: شتان ما هما وما بينهما وما عمرو وأخوه أي بعد ما بينهما، قال الشارح المعتزلي ولا يجوز شتّان ما بينهما إلاّ على قول ضعيف و(الكور) بالضمّ رحل البعير بأداته و(الإقالة) فكّ عقد البيع ونحوه، والاستقالة طلب ذلك و(شدّ) أي صار شديداً مثل حبّ إذا صار حبيباً (تشطر) إما مأخوذ من الشّطر بمعنى النصف يقال: فلان شطر ماله أي نصفه، أو من الشطر بمعنى خلف الناقة بالكسر، قال الشّارح المعتزلي: وللناقة أربعة أخلاف خلفان قادمان وخلفان آخران وكلّ اثنين منهما شطر وتشطرا ضرعيها اقتسما فأيدتها، والضّمير للخلافة وسمّى القادمين معاً ضرعاً وسمّى الآخرين معاً ضرعاً لتجاورهما ولكونهما لا يحلبان إلاّ معاً كالشّيء الواحد، انتهى، ولفظ التشطر على وزن التّفعل غير موجود في كتب اللغة.

قال العلامة المجلسي: وفي رواية «المفيد» وغيره شاطرا على صيغة المفاعلة يقال: شاطرت ناقتي إذا احتلبت شطراً وتركت الآخر، وشاطرت فلاناً ما لي إذا ناصفته و(الحوزة) الطبيعة والنّاحية و(الغلظ) ضدّ الرّقة و(الكلم) بفتح (الكاف) وسكون (اللاّم) يقال: كلمته كلماً من باب قتل جرحته من باب ضرب لغة، ثم أطلق المصدر على الجرح ويجمع على كلوم وكلام مثل بحر وبحور وبحار و(العثار) بالكسر مصدر من عثر الرّجل والفرس أيضاً يعثر من باب قتل وضرب وعلم كبا و(الصّعبة) من النوق غير المنقادة لم تذلل بالمحمل ولا بالرّكوب

و(**أشنق**) بعيره أي جذب رأسه بالزّمام ليمسكه عن الحركة العنيفة كما يفعل الفارس بفرسه وهو راكب، وأشنق هو (**بالألف**) أيضاً كشنق رفع رأسه فيستعمل الرّباعي لازماً ومتعدياً كالثلاثي.

قال الرضي بعد إيراد تمام الخطبة: قوله عليه السلام إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم، يريد أنّه إذا شدّد عليها في جذب الزّمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها، يقال: أشنق النّاقة إذا جذب رأسها بالزّمام فرفعه وشنقها أيضاً ذكر ذلك ابن السّكيت في «**إصلاح المنطق**» وإنّما قال: أشنق لها ولم يقل: أشنقها، لأنّه جعله في مقابلة قوله: أسلس لها فكانه عليه السلام قال: إن رفع لها رأسها بالزّمام بمعنى أمسكه عليها، انتهى.

و(**الخرم**) الشّق يقال خرم فلاناً كضرب أي شق وترة أنفه، وهي ما بين منخريه فخرم هو كفرح و(**أسلس لها**) أرخى زمامها و(**تقحم**) فلان رمى نفسه في المهلكة وتقحم الإنسان في الأمر ألقى نفسه فيه من غير روية، وتقحم الفرس راكبه رماه على وجهه و(**مني**) على المجهول أي ابتلى و(**الخبط**) بالفتح السّير على غير معرفة وفي غير جادة و(**الشّماس**) بكسر الشّين النّفار يقال: شمس الفرس شموساً وشماساً أي منع ظهره فهو فرس شموس بالفتح و(**التّلوّن**) في الإنسان أن لا يثبت في خلق واحد و(**الإعتراض**) السّير على غير استقامة كأنّه يسير عرضاً و(**المحنة**) البليّة التي يمتحن بها الإنسان.

الإعراب

(**اللاّم**) في قوله عليه السلام: لسبيله، بمعنى (**على**) كما في قوله:

فخرّ صريعاً لليدين وللفم

(**وشتّان**) مبني على الفتح لتضمّنه معنى افترق مع تعجب، أي ما أشدّ الافتراق فيطلب فاعلين كافترق نحو شتّان زيد وعمرو، وقد يزاد بعده (**ما**) كما في البيت، و(**يومي ويوم حيّان**) مرفوعان على الفاعليّة، و(**يا عجباً**) منصوب بالنداء وأصله يا عجبي ثم قلبت الياء ألفاً، كأن المتكلّم ينادي عجبه ويقول له: احضر فهذا أوان حضورك، وبينا هي بين الظرفيّة اشبعت فتحها فصارت (**ألفاً**) وتقع بعدها (**إذا**) الفجائية غالباً، و(**اللام**) في قوله عليه السلام: لشدّ جواب للقسم المقدر، وشدّ أي صار شديداً، و(**ما**) مصدريّة والمصدر فاعل شدّ ولا يستعمل هذا الفعل إلاّ في التّعجب والضمير في قوله: فيها ومنها، راجع إلى الحوزة، ويحتمل رجوع الثّاني إلى العثرات المستفادة من كثرة العثار، (**ومن**) في قوله: (**منها**) صلة للاعتذار أو للصّفة المقدرة صفة للاعتذار أو حالاً عن يكثر أي النّاشيء أو ناشئاً منها.

وقال الشّارح المعتزلي: ويمكن أن تكون (**من**) هنا للتعليل والسّببية أي ويكثر اعتذار النّاس عن أفعالهم وحركاتهم لأجلها، والعمر بالضمّ والفتح مصدر عمر الرّجل بالكسر إذا

عاش زماناً طويلاً ولا يستعمل في القسم إلاّ العمر بالفتح فإذا أدخلت عليه (**اللام**) رفعته بالابتداء، و(**اللاّم**) لتوكيد الإبتداء والخبر محذوف والتقدير لعمر الله قسمي، وإن لم يأتِ (باللاّم) نصبت نصب المصادر.

المعنى

(**حتى إذا مضى الأوّل**) وهو أبو بكر (**لسبيله**) أي على سبيله الذي يسلكه كلّ إنسان وهو سبيل الآخرة، وذلك بعد ما مضى من خلافته سنتان وثلاثة أشهر إلاّ خمس ليال، وقيل: سنتان وثلاثة أشهر وسبع ليال، وقال ابن إسحاق: توفي على رأس اثنتين وثلاثة أشهر واثني عشر يوماً من متوفي رسول الله ﷺ، وقيل: وعشرة أيام، وقيل: وعشرين يوماً، ذكر ذلك كلّه في «**البحار**» من كتاب «**الاستيعاب**».

وكيف كان فإنّه لمّا ظهرت له علائم الموت (أدلى بها) أي بالخلافة أي دفعها (إلى ابن الخطاب بعده) بطريق النّص والوصيّة من دون أن يكون له استحقاق لها كما يشير إليه لفظ الإدلاء على ما نبّه به الشّارح المعتزلي حيث قال بعدما فسّر الادلاء بالدّفع على وجه الرّشوة.

فإن قلت: فإن أبا بكر إنّما دفعها إلى عمر حين مات ولا معنى للرّشوة عند الموت.

قلت: لما كان عليه السلام يرى أنّ العدول بها عنه إلى غيره إخراج لها إلى غير جهة الاستحقاق شبّه ذلك بادلاء الإنسان بماله إلى الحاكم، فإنّه إخراج للمال إلى غير وجهه فكان ذلك من باب الاستعارة، هذا.

والمراد بابن الخطاب هو عمر وهو ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى بن رياح بالمثنّاة التّحتانية وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

وينبغي لنا تحقيق الكلام في هذا النسب الشّريف من طريقنا ومن طريق العامّة فأقول:

قال العلامة في «**كشف الحق**»: وروى الكلبي وهو من رجال السّنة في كتاب «**المثالب**» قال: كانت صهاك أمة حبشيّة لهاشم بن عبد مناف فوقع عليها نفيل بن هاشم ثم وقع عليها عبد العزّى بن رياح وجاءت بنفيل جدّ عمر بن الخطاب، وقال الفضل بن روزبهان في الشّرح بعد القدح في صحّة النّقل: إن أَنْكِحَةِ الجاهليّة على ما ذكره أرباب التواريخ على أربعة أوجه: منها أن يقع جماعة على امرأة ثم ولد منها يحكم فيه القائف أو تصدّق المرأة وربّما كان هذا من أنكحة الجاهلية، وأورد عليه شارح الشّرح بأنّه لو صحّ ما ذكره لما تحقق زنا في الجاهلية ولما سمّي مثل ذلك في «**المثالب**» ولكان كلّ من وقع على امرأة كان ذلك نكاحاً منه عليها ولم يسمع عن أحد أنّ من نكاح الجاهلية كون امرأة واحدة في يوم واحد أو شهر واحد في نكاح جماعة من النّاس.

وقال المحدث المجلسي في «البحار»: وحكى بعض أصحابنا عن محمّد بن شهر آشوب وغيره أن صهّاك كانت أمة حبشية لعبد المطلب وكانت ترعى له الإبل، فوقع عليها نفيل فجاءت بالخطاب، ثم إنّ الخطاب لما بلغ الحلم رغب في صهّاك فوقع عليها فجاءت بابنة فلفّتها في خرقة من صوف ورمتها خوفاً من مولاها في الطريق فرآها هاشم بن المغيرة مرميّة في الطريق فأخذها وربّاها وسمّاها حنتمة فلما بلغت رآها خطاب يوماً فرغب فيها وخطبها من هاشم فأنكحها إياه فجاءت بعمر بن الخطاب فكان الخطاب أباً وجداً وخالاً لعمر، وكانت حنتمة أمّاً وأختاً وعمّة له، فتأمل.

ثم قال المجلسي (ره) فأقول: وجدت في كتاب «عقد الدّرر» لبعض الأصحاب روى بإسناده عن عليّ بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن ابن الزّيات عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: كانت صهّاك جارية لعبد المطلب وكانت ذات عجز وكانت ترعى الإبل وكانت من الحبشة وكانت تميل إلى النّكاح، فنظر إليها نفيل جدّ عمر فهواها وعشقها من مرعى الإبل، فوقع عليها فحملت منه بالخطاب، فلما أدرك البلوغ نظر إلى أمّه صهّاك فأعجبه عجيزها فوثب عليها فحملت منه بحنتمة فلما ولدتها خافت من أهلها فجعلتها في صوف وألقتها بين أحشام مكّة، فوجدها هشام بن المغيرة بن الوليد، فحملها إلى منزله وربّاها وسمّاها بالحنتمة، وكانت شيمة العرب من ربّى يتيماً يتّخذه ولداً، فلمّا بلغت حنتمة نظر إليها الخطاب فمال إليها وخطبها من هشام فتزوّجها فأولد منها عمر، فكان الخطاب أباه وجده وخاله، وكانت حنتمة أمّه وأخته وعمّته، وينسب إلى الصّادق عليه السلام في هذا المعنى شعر:

مـــن جـــدّه خـــالـــه ووالـــده وأمّـــه أخـــتـــه وعـــمّـــتـــه
أجـــدر أن يـــبـــغـــض الـــوصـــي وان يـــنـــكـــر يـــوم الـــغـــديـــر بـــيـــعـــتـــه[1]

أقول: هذا النّسب وأمّا الحسب فقد حكى العلامة في «كشف الحقّ» عن ابن عبد ربّه في كتاب العقد الحديث استعمال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص في بعض ولايته، فقال: عمرو بن العاص: قبح الله زماناً عمل فيه عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب، والله إنّي لأعرف الخطاب على رأسه حزمة من حطب وعلى ابنه مثلها وما ثمنها إلاّ تمرة لا تبلغ مضغته، وروى نحو ذلك الشّارح المعتزلي عن زبير بن بكار في حديث طويل وفيه فلما رأى عمر وكشرة ما أخذ منه قال: لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا يجاوز مأبض ركبتيه وعلى عنقه حزمة حطب والعاص بن وائل في مزررات الدّيباج، انتهى.

(١) راجع البحار: ٢٨/٢٧٧، و٣١/٩٨، والطرائف: ٤٦٩.

وفي «**البحار**» عن «**النهاية**» في «**تفسير المبرطش**» كان عمر في الجاهليّة مبرطشاً وهو السّاعي بين البائع والمشتري شبه الدّلال، ويروى (بالسّين) المهملة بمعناه وفي «**القاموس**» المبرطس الذي يكتري للنّاس الإبل والحمير ويأخذ عليه جعلاً[1].

وقال المحدث الجزائري: ومن عجب ما رووه عن الخطاب والد عمر بن الخطاب أنّه كان سرّاقاً وقطع في السّرقة ما ذكره أبو عبيدة القاسم بن سلام في كتاب «**الشهاب**» في تسمية من قطع من قريش في الجاهلية في السرقة ما هذا لفظه: قال: والخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عدي بن كعب أبو عمر بن الخطاب قطعت يده في سرقة قدرٍ ومحاه ولاية عمر ورضي الناس عنه، قال بعض المسلمين: ألا تعجب من قوم رووا أن عمر كان ولد زنا وأنه كان في الجاهليّة نخاس الحمير وأنّه كان أبوه سراقاً وأنه ما كان يعرف إلاّ بعمير لرذالته ثم مع هذا جعلوه خليفة قائماً مقام نبيهم ﷺ ونائباً عن الله تعالى في عباده وقدّموه على من لا طعن عليه في حسب ولا نسب ولا أدب ولا سبب، ويا ليتهم حيث ولوه وفضحوا أنفسهم بذلك كانوا قد سكتوا عن نقل هذه الأحاديث التي قد شمتت بها الأعداء وجعلوها طريقاً إلى جهلهم بمقام الأنبياء وخلافة الخلفاء، هذا.

وبقي الكلام في كيفيّة عقد أبي بكر الخلافة لعمر وإدلائه بها إليه فأقول: قال الشّارح المعتزلي: وروى كثير من النّاس أنّ أبا بكر لما نزل به دعا عبد الرحمان بن عوف فقال: أخبرني عن عمر فقال: إنّه أفضل من رأيت إلاّ أن فيه غلظة، فقال أبو بكر ذلك لأنّه يراني رقيقاً ولو قد أفضى الأمر إليه لترك كثيراً ممّا هو عليه وقد رمقته إذا أنا غضبت على رجل أراني الرّضى عنه وإذا لنت له أراني الشدّة عليه، ثم دعا عثمان بن عفّان فقال: أخبرني عن عمر، فقال: سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله، فقال لهما لا تذكرا ممّا قلت لكما شيئاً ولو تركت عمر لما عدوتك يا عثمان والخيرة لك أن لا تلي من أمورهم شيئاً ولوددت أني كنت من أموركم خلواً وكنت فيمن مضى من سلفكم.

ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر فقال: إنّه بلغني أنّك يا خليفة رسول الله ﷺ استخلفت على النّاس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف به إذا خلا بهم وأنت غداً لاق ربّك فسألك عن رعيتك؟ فقال أبو بكر: اجلسوني ثم قال: أبِاللهِ تخوّفني إذا لقيت ربّي فسألني قلت: استخلفت عليهم خير أهلك، فقال طلحة: أعمر خير النّاس يا خليفة رسول الله ﷺ؟ فاشتدّ غضبه فقال: أي والله هو خيرهم وأنت شرّهم أم والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها، أتيتني وقد دلكت عينيك تريد أن تفتنني عن ديني وتزيلني عن رأيي، قم لا أقام الله رجليك، أما والله لئن

(١) راجع البحار: ٣١/ ١١٢، والغدير: ٨/ ٦٠، والنهاية لابن الأثير: ١/ ١١٩.

عشت فواق ناقة ويلغني أنك غمضته فيها أو ذكرته بسوء لألحقنك بخمصات قنة[1] حيث كنتم تسقون ولا تروون وترعون ولا تشبعون وأنتم بذلك متبجحون راضون، فقام طلحة فخرج.

ثم قال الشارح: أحضر أبو بكر عثمان وهو يجود بنفسه فأمره أن يكتب عهده وقال: اكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا ما عهد عبد الله بن عثمان إلى المسلمين أمّا بعد، ثم أغمي عليه وكتب عثمان: قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، وأفاق أبو بكر فقال: أقرأ، فقرأه فكبر أبو بكر وسرّ، وقال: أراك خفت أن تختلف النّاس إن مت في غشيتي؟ قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، ثم أتمّ العهد وأمر أن يقرأ على النّاس فقرأ عليهم، ثم أوصى عمر بوصايا وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشر.

أقول: انظروا يا أهل البصيرة والانصاف والدّقة والاعتبار إلى الخلافة العظمى والرّئاسة الكبرى كيف صارت لعبة للجهال ودولة بين أهل الغيّ والضّلال وانظروا رئيس الضّالين والمضلين كيف اجترى على ربّ العالمين في تلك الحالة التي كان يفارق الدّنيا وينتقل إلى نزاعة للشوى، فحكم بكون عمر أفضل الصّحابة مع كون أمير المؤمنين عليه السلام بينهم، وقد قال فيه نبيّهم صلى الله عليه وآله: «اللهم إئتني بأحب الخلق إليك»[2]، وسائر أحاديث الفضل التي لا تحصى حسبما عرفت بعضها في مقدّمات هذه الخطبة وغيرها، ثم انظر إلى ابن الخطاب عليه النّكال والعذاب كيف لم يقل لأبي بكر في هذه الحالة التي يغمى عليه فيها مرّة ويفيق أخرى: إنّه ليهجر، كما قال للنبي صلى الله عليه وآله حين أراد أن يكتب كتاباً أن لا يضلّوا بعده: انه ليهجر ولنعم ما قيل:

أوصى النّبي فقال قائلهم ... قد ظلّ يهجر سيد البشر
ورأى أبا بكر أصاب ولم ... يهجر فقد أوصى إلى عمر

ثم العجب من النعثل الفاجر عثمان بن عفان عليه سخط الرّحمن حيث كتبها برأيه بدون مصلحة الخليفة الخوّان، والعجب كل العجب من هذا الشّقي كيف مدحه وشكره وجزاه خيراً عن الإسلام وأهله ولم يقل له: لم اجترأت على هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم الذي هو مقام الأنبياء وميراث الأوصياء يترتب عليه أمر الدّين والدّنيا بمحض رأيك ورضاك وطبعك وهواك، مع أن سيد الورى صلى الله عليه وآله لا يجتري أن يخبر بأدنى حكم إلاّ بوحي يوحى ويلزم على زعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد أن يكون أبو بكر وعثمان أشفق على أهل الإسلام والإيمان من سيد الانس والجان لأنه بزعمهم أهمل أمر الأمة ولم يوص لهم بشيء، وهما أشفقا على الأمة حذراً من ضلالتهم فنصبا لهم جاهلاً شقياً وفظاً غليظاً.

---

(١) الخمصة: الجوعة، قنة: إسم موضع.

(٢) أمالي الطوسي: ٥٤٦.

يا ناعي الإسلام قم فانعه قدمات عرف وبدا المنكر

وغير خفي على العاقل اللبيب والكامل الأريب أنّ تلك الأمور الفاضحة والحيل الواضحة لم تكن إلاّ لتأسيس أساس الكفر والنفاق وهدم بنيان الإسلام والاتفاق، وإرجاع الناس إلى أعقابهم القهقرى وترويج عبودية اللاّت والعزى، فجزاهم الله عن الإسلام وأهله شر الجزاء، وغضب عليهم ملؤ الأرض والسماء.

(ثم تمثل عليه السلام بقول الأعشى) أعشى قيس وهو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل:

(شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر)

وهو من قصيدة طويلة له قالها في منافرة علقمة بن علانة بن عوف وعامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر وتفصيل قصة نفارهما ذكره أبو الفرج في الأغاني وقيل ذلك البيت الذي تمثل عليه السلام به قوله:

وقد أسلي الهمّ إذ يعتري بحسرة دوسرة عاقر
زيافة بالوحل خطارة تلوي بشرخى ميسة فاتر
ارمي بها البيداء إذ هجرت وأنت بين القرد والعاصر
في مجدل شيّد بنيانه يزل عنه ظفر الطائر

ومعنى البيت بعد ما بين يومي على رحل هذه النّاقة الموصوفة، وبين يوم حيّان وهو في سكرة الشّراب ناعم البال مرفه من الأكدار والمشاق، وحيان وجابر ابنا السّمين الحنفيان وكان حيان صاحب حصن باليمامة وكان من سادات بني حنيفة مطاعاً في قوله يصله كسرى في كلّ سنة وكان في رفاهيّة ونعمة مصوناً من وعثاء السفر، لم يكن يسافر أبداً، وكان الأعشى ينادمه وكان أخوه جابر أصغر سناً منه، حكي أن حيان قال للأعشى نسبتني إلى أخي وهو أصغر سناً مني فقال: إنّ الرّوي اضطرني إلى ذلك، فقال: والله لأنازعتك كأساً أبداً ما عشت، هذا.

ومعنى البيت على ما ذكرناه هو الذي أفاده المرتضى (قده) وهو الظاهر المطابق للبيت الذي بعده أعني قوله: أرمي بها البداء. وهو أيضاً مما تمثل عليه السلام به على ما حكي عن بعض النسخ، فيكون غرضه عليه السلام من التمثل على ذلك بيان البعد بين يومه صابراً على القذى والشّجى وبين يومهم فائزين بما طلبوا من الدّنيا، وقريب منه ما قال الشّارح المعتزلي حيث قال: يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «شتّان بين يومي في الخلافة مع ما انتقض عليّ من الأمر ومنيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة، وبين يوم عمر حيث وليها على قاعدة ممهّدة وأركان ثابتة وسكون شامل»، فانتظم أمره واطرد حاله.

قال بعض الشّارحين: المعنى ما أبعد ما بين يومي على كور النّاقة أدأب وانصب وبين يومي منادماً حيّان أخي جابر في خفض ودعة، فالغرض من التّمثل إظهار البعد بين يومه عليه السلام

بعد وفاة الرسول ﷺ مقهوراً ممنوعاً عن حقّه، وبين يومه في صحبة النّبي ﷺ فارغ البال مرفّه الحال كاسباً للفيوضات الظاهريّة والباطنية، وهذا المعنى هو الأقرب إلى النّظر والأنسب إلى السّياق، وبه فسّره المحدث الجزائري حيث قال: وقوله عليه السلام: «شتّان البيت وهو الأعشى يقول: تفرق ما بين يوميّ يوم سروري وهو منادمتي لأخي حيّان، ويوم شدّتي وركوبي على متن ناقتي في البراري والقفار، وهو عليه السلام قد استعار هذا ليوميه يوم فرحه لما كان نديمه النّبي ﷺ، ويوم تعبه ويوم ركوبه المشاق والحروب وحده بلا معاون ولا نصير».

ثم إنّه عليه السلام أظهر التعجب من ادلائه بالخلافة إليه مع إستقالته منها بقوله: **(فيا عجباً بينا هو)** يعني أبا بكر **(يستقيلها)** أي يطلب الإقالة منها **(في حياته)** ويقول: أقيلوني أقيلوني **(إذ عقدها لآخر)** أراد به عمر أي جعلها معقودة له لتكون له **(بعد وفاته)** ووجه التّعجب أنّ إستقالته منها في حياته دليل على رغبته عنها وزهده فيها وعقدها لغيره دليل على رغبته فيها وميله إليها، وهو يضادّ الإستقالة الحقيقية فيكون دليلاً على كون الإستقالة منه صوريّة ناشئة عن وجه الخدعة، والتدليس، ونعم ما قيل:

حملوها يوم السّقيفة وزراً ... تخفّ الجبال وهي ثقال

ثمّ جاؤوا من بعدها يستقيلون ... وهيهات عثرة لا تقال

هذا وخبر الإقالة ممّا رواه الجمهور، وهو قوله: «أقيلوني أقيلوني فلست بخيركم وعليّ فيكم»، ورواه في **«البحار»** عن الطبري في **«تاريخه»** والبلاذري في **«أنساب الأشراف»** والسّمعاني في **«الفضائل»** وأبي عبيدة في بعض مصنّفاته، قال: ولم يقدح الفخر الرّازي في صحّته وإن أجاب عنه بوجوه ضعيفة، وكفى كلامه عليه السلام شاهداً على صحته، انتهى[1].

وقال بعض المحقّقين من أصحابنا: معنى استقالته الأمر بقتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام يعني ما دام عليّ فيكم موجوداً فأنا لست بخيركم فاقتلوه حتّى أكون خليفة بلا منازع، وقوله عليه السلام: **(لشدّ ما تشطرا ضرعيها)** شبه الخلافة بناقة لها ضرعان وكان كلّ واحد منهما أخذ منها ضرعاً يحلبه لنفسه، فالمعنى والله لصار شديداً أخذ كلّ واحد منهما شطراً أي نصفاً أو شطراً بالكسر أي خلفاً من ضرعيها، والمقصود اقتسامهما فأيدتها بينهما، وفي بعض روايات السّقيفة أنّه عليه السلام قال لعمر بن الخطاب بعد يوم السّقيفة: احلب حلباً لك شطره، اشدد له اليوم يردّه عليك غداً[2]. **(فصيرها في جوزة)** أي في طبيعة أو ناحية **(خشناء)** متصفاً بالخشونة لا ينال ما عندها، ولا يرام ولا يفوز بالنّجاح من قصدها.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩/٥١٩.

(٢) المسترشد: ٣٧٥، والاحتجاج: ١/٩٦.

قال بعض الأفاضل: الظاهر أن المفاد على تقدير إرادة الناحية تشبيه المتولي للخلافة بالأرض الخشناء في ناحية الطريق المستوى، وتشبيه الخلافة بالرّاكب السّائر فيها أو بالنّاقة أي أخرجها عن مسيرها المستوى وهو من يستحقها إلى تلك النّاحية الحزنة هذا: والأظهر إرادة معنى الطبيعة.

ثم وصف عليه السلام الحوزة ثانياً بأنّها **(يغلظ كلمها)** أي جرحها وفي الإسناد توسّع، قال الشّارح البحراني غلظ الكلم كناية عن غلظ المواجهة بالكلام والجرح به، فإنّ الضّرب باللّسان أعظم من وخز السّنان، أقول: ومن هنا قيل:

جراحات السّنان لها التيام ... ولا يلتام ما جرح اللّسان

(و) وصفها ثالثاً بأنّها **(يخشن مسّها)** أي تؤذي وتضر من يمسها قال البحراني: وهي كناية عن خشونة طباعه المانعة من ميل الطباع إليه المستلزمة للأذى كما يستلزم من الأجسام الخشنة.

أقول: والمقصود من هذه الأوصاف الإشارة إلى فظاظة عمر وغلظته وجفاوته وقبح لقائه وكراهة منظره، ورغبة النّاس عن مواجهته ومكالمته، ويدلّ على ذلك ما روي أنّ ابن عباس لمّا أظهر بطلان مسألة العول بعد موت عمر قيل له: من أول من أعال الفرائض؟ فقال: عمر بن الخطاب، قيل له: هلا أشرت عليه؟ قال هبته[1]، وما رواه الشّارح المعتزلي[2] في شرح هذا الفصل أنّ عمر هو الذي غلّظ على جبلة بن الأيهم حتّى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة بل مفارقة بلاد الإسلام كلها حتّى عاد مرتداً داخلاً في دين النّصرانيّة لأجل لطمة لطمها، وقال جبلة بعد ارتداده متندّماً على ما فعل:

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

فيا ليت أمّي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى القول الذي قاله عمر

أقول: هذه الرّواية كافية في فضل هذا الرّجل ومنقبته، فإنّ النّبي صلى الله عليه وآله لم يبعثه الله إلاّ لهداية الأنام والإرشاد إلى دعائم الإسلام، فعاشر معهم بمحاسن الأخلاق ومكارم الآداب حتّى نزل فيه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وكان صلى الله عليه وآله كثيراً ما يتحمل الأذى ويصبر على شدائد البلوى، لهداية نفس واحدة وإنجائها من الضّلالة، وهذا الرّجل الجلف الذي يزعم أنّه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله كيف يصرف النّاس عن الإسلام إلى النّصرانية بمقتضى خبث طينته وسوء سريرته وغلظ كلمته؟ وفوق كلّ

---

(١) الخلاف للطوسي: ٤/ ٧٥.

(٢) شرح النهج: ١/ ١٨٣.

ذلك فظاظة جسارته على النّبي ﷺ بكلمات يكره اللّسان بيانها ويأبى القلم عن كتبها وإظهارها، مثل قوله له ﷺ في صلح الحديبيّة لم تقل لنا ستدخلونها في ألفاظ نكره حكايتها، ومثل الكلمة التي قالها في مرض رسول الله ﷺ، قال الشّارح المعتزلي: ومعاذ الله أن يفسد بها ظاهرها ولكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزيّة ولم يتحفّظ منها، وكان الأَحسن أن يقول: مغمور أو مغلوب بالمرض وحاشاه أن يعني بها غير ذلك.

أقول: وشهد الله أنّ قصده ما كان إلاّ ظاهرها وحاشاه أن يقصد بها إلاّ ذلك.

وقال الشّارح أيضاً في شرح الخطبة الخامسة والعشرين عند الكلام على حديث الفلتة: واعلم أنّ هذه اللّفظة من عمر مناسبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ما جبله الله تعالى من غلظ الطينة وجفاء الطبيعة ولا حيلة له فيها، لأنّه مجبول عليها لا يستطيع تغييرها، ولا ريب عندنا أنّه كان يريد أن يتلطف وأن يخرج ألفاظه، مخارج حسنة لطيفة، فينزع به الطبع الجاسي والغريزة الغليظة إلى أمثال هذه اللفظات، ولا يقصد بها سوء «ولا يريد بها ذمّاً ولا تخطئة كما قدّمنا قبل ذلك في اللّفظة التي قالها في مرض رسول الله ﷺ، وكاللفظات التي قالها عام الحديبية وغير ذلك، والله لا يجازي المكلف إلاّ بما نواه، ولقد كانت نيّته من أطهر النيّات وأخلصها لله سبحانه، انتهى[1].

وفيه أنّ إقتضاء الطبيعة واستدعاء الغريزة التي جعله معذرة له إن أراد به انه بلغ إلى حيث لم يبق لعمر معه قدرة على إمساك لسانه عن التكلّم بخلاف ما في ضميره، بل كان يصدر عنه الذّم في مقام يريد به المدح، والشّتم في موضع يريد الإكرام ويخرج بذلك عن حدّ التكليف فلا مناقشة في ذلك، لكن مثل هذا الرّجل يعده العقلاء في زمرة المجانين، ولا خلاف في أنّ العقل من شروط الإمامة، وإن أراد أنّه يبقى مع ذلك ما هو مناط التّكليف فذلك ممّا لا يسمن ولا يغني من جوع، فإنّ إبليس استكبر آدم بمقتضى الجبلة النّارية، ومع ذلك استحقّ النّار وشملته اللعنة إلى يوم الدّين، والزّاني إنّما يزني بمقتضى شهوته التي جبله الله تعالى عليها ومع ذلك يرجم ولا يرحم، هذا.

(و) وصف ﵇ الحوزة رابعاً بأنّها **(يكثر العثار فيها والاعتذار منها)** ومعناه على جعل الحوزة بمعنى الطبيعة واضح أي يكثر العثار في تلك الطبيعة والاعتذار من هذه الطبيعة أو اعتذار صاحبها منها أو الإعتذار من عثراتها وقد مضى في بيان الإعراب إحتمال كون (من) نشويّة وتعليليّة، وأمّا على تقدير جعلها بمعنى النّاحية، فالمعنى ما ذكره بعض الأفاضل عقيب كلامه الذي حكيناه في شرح قوله ﵇: «فصيرها في حوزة خشناء»، بما لفظه: فيكثر عثارها أو عثار مطيتها فاحتاجت إلى الإعتذار من عثراتها النّاشئة من خشونة النّاحية وهو في الحقيقة

---

(١) راجع البحار: ٣٠/٤٦٦.

اعتذار من الناحية، فالعاثر والمعتذر حينئذٍ هي الخلافة توسعاً.

وكيف كان فالغرض من هذه الجملة الإشارة إلى كثرة أخطاء عمر في القضايا والأحكام، وجهالته بالفتاوى وشرائع الإسلام، ولا بأس بالإشارة إلى بعض عثراته ونبذ من جهالاته ويسير من هفواته وزلاته.

فمنها ما ذكره الشارح المعتزلي حيث قال: وكان عمر يفتي كثيراً بالحكم، ثم ينقضه ويفتي بضده وخلافه، قضى في الجدّ مع الأخوة قضايا كثيرة مختلفة، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال: من أراد أن يتقحم جراثيم جهنم فليقل في الجدّ برأيه.

ومنها ما ذكره أيضاً وهو أنّه لمّا مات رسول الله ﷺ، وشاع بين الناس موته طاف عمر على النّاس قائلاً: إنّه لم يمت، ولكنه غاب عنّا كما غاب موسى عن قومه، فليرجعن وليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات، فجعل لا يمرّ بأحد يقول: إنّه مات إلاّ ويخبطه ويتوعده حتى جاء أبو بكر فقال: أيّها النّاس من كان يعبد محمّداً فإن محمّداً قد مات، ومن كان يعبد ربّ محمّد فإنّه حيّ لم يمت، ثم تلا قوله تعالى:

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قالوا: فوالله لكأنّ النّاس ما سمعوا هذه الآية حتّى تلاها أبو بكر، وقال عمر لمّا سمعته يتلوها: هويت إلى الأرض وعلمت أن رسول الله ﷺ قد مات.

أقول: من بلغ من قلة المعرفة إلى مقام ينكر موت النبي ﷺ ويحكم مع ذلك من تلقاء نفسه بأنّه يرجع ويقطع أيدي رجال وأرجلهم كيف يكون إماماً واجب الطاعة على جميع الخلق؟

ومنها ما رواه أيضاً كغيره من أنه قال مرّة لا يبلغني أنّ امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النّبي ﷺ إلاّ ارتجعت ذلك منها، فقالت امرأة: ما جعل الله لك ذلك إنّه قال تعالى:

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

فقال: كلّ النّاس أفقه من عمر حتّى ربّات الحجال[1]، ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت فأضلت إمامكم ففضّلته، واعتذار قاضي القضاة بأنه طلب الاستحباب في ترك التجاوز والتواضع في قوله: كلّ النّاس أفقه من عمر، خطاء، فإنّه لا يجوز ارتكاب المحرم وهو ارتجاع المهر، لأجل فعل المستحب، وأمّا التواضع فإنّه لو كان الأمر كما قال عمر لاقتضى إظهار القبيح وتصويب الخطأ، ولو كان العذر صحيحاً لكان هو المصيب والمرأة مخطئة مع

---

(١) أُنظر الغدير: ٦/ ٨٢ ـ ٣٢٨، وشرح المعتزلي: ١/ ١٨٢.

أنه مخالف لصريح قوله: ألا تعجبون من إمام أخطأ (ا ه).

ومنها ما رواه هو وغيره من أنه كان يعس بالليل فسمع صوت رجل وامرأة في بيت فارتاب فتسور الحائط، فوجد امرأة ورجلاً وعندهما زقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله كنت ترى أنّ الله يسترك وأنت على معصيته؟ قال: إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت في ثلاث، قال الله تعالى: ولا تجسّسوا، وقد تجسّست، وقال: وأتوا البيوت من أبوابها، وقد تسورت، وقال: إذا دخلتم بيوتاً فسلموا، وما سلمت.

ومنها ما رواه أيضاً وجماعة من الخاصّة والعامة من أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا محرّمهما ومعاقب عليهما: متعة النّساء ومتعة الحجّ[1]، قال الشّارح المعتزلي: وهذا الكلام وإن كان ظاهره منكراً فله عندنا مخرج وتأويل أقول: بل هو باق على منكريّته والتّأويل الذي ارتكبوه ممّا لا يسمن ولا يغني من جوع، ولعلنا نسوق الكلام فيه مفصّلاً في مقام أليق إن شاء الله.

ومنها ما رواه أيضاً من أنه مرّ يوماً بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن فاستسقاه فجدح له ماء بعسل فلم يشربه، وقال: إنّ الله تعالى يقول:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]

فقال له الفتى: إنّها ليست لك ولا لأحد من أهل هذه القبلة، اقرأ ما قبلها:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فقال عمر: كلّ الناس أفقه من عمر.

ومنها أنّه أمر برجم امرأة حاملة فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل»، فقال: لولا عليّ لهلك عمر[2].

ومنها أنّه أمر برجم مجنونة فنبّهه أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «القلم مرفوع عن المجنون حتّى يفيق»، فقال: لولا عليّ لهلك عمر[3].

ومنها ما رواه في «الفقيه» عن إبراهيم بن محمّد الثقفي قال: استودع رجلان امرأة وديعة وقالا لها لا تدفعي إلى واحد منّا حتى نجتمع عندك، ثم انطلقا فغابا، فجاء أحدهما إليها وقال: أعطيني وديعتي فإنّ صاحبي قد مات فأبت حتى كثر اختلافه إليها ثم أعطته، ثم جاء الآخر فقال هاتي وديعتي، فقال[4]: أخذها صاحبك وذكر أنّك قَدْ مُتَّ فارتفعا إلى عمر، فقال

(١) الكافي: ٨/ ٦١.
(٢) دعائم الإسلام: ٢/ ٤٥٣ ح ١٥٨٤.
(٣) الكافي: ٧/ ٤٢٤ ح ٦.
(٤) في نسخة: فقالت.

لها عمر: ما أراك إلاّ وقد ضمنت، فقالت المرأة اجعل علياً عليه السلام بيني وبينه، فقال له: اقض بينهما، فقال عليّ عليه السلام: هذه الوديعة عندها، وقد أمرتماها أن لا تدفعها إلى واحد منكما حتى تجتمعا عندها فأتني بصاحبك، ولم يضمنها، وقال عليّ عليه السلام «إنما أرادا أن يذهبا بمال المرأة»[1].

ومنها ما في «الفقيه» أيضاً عن عمرو بن ثابت عن أبيه عن سعد بن طريف عن الأصبغ ابن نباتة، قال: أتى عمر بامرأة زوجها شيخ، فلما أن واقعها مات على بطنها، فادّعى بنوه أنها فجرت وشاهدوا[2] عليها فأمر بها عمر أن ترجم، فمروا بها على عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقالت: يا ابن عمّ رسول الله إني مظلومة وهذه حجتي فقال عليه السلام: «هاتني حجتك»، فدفعت إليه كتاباً فقرأه فقال: هذه المرأة تعلمكم بيوم تزوّجها ويوم واقعها، وكيف كان جماعَهُ لها ردّوا المرأة، فلما كان من الغد دعا عليّ عليه السلام بصبيان يلعبون أتراب وفيهم ابنها فقال لهم: العبوا، فلعبوا حتّى إذا لهاهم اللعب، ثم فصاح عليه السلام بهم فقاموا وقام الغلام الذي هو ابن المرأة متكياً على راحتيه، فدعا به عليّ عليه السلام فورّثه من أبيه وجلد أخوته المفترين حداً، فقال عمر كيف صنعت؟ قال: قد عرفت ضعف الشيخ في اتكائة الغلام على راحتيه[3].

ومنها ما رواه الصّدوق أيضاً عن سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة قال: أتى عمر بن الخطاب بجارية فشهد عليها شهود أنها بغت، وكان من قصّتها أنّها كانت يتيمة عند رجل وكان للرّجل امرأة وكان الرّجل كثيراً ما يغيب عن أهله، فشبّت اليتيمة، وكانت جميلة فتخوّفت المرأة أن يتزوّجها زوجها إذا رجع إلى منزله، فدعت بنسوة من جيرانها فأمسكتها، ثم افتضّتها بإصبعها، فلما قدم زوجها سأل امرأته عن اليتيمة فرمتها بالفاحشة وأقامت البيّنة من جيرانها على ذلك، قال: فرفع ذلك إلى عمر فلم يدر كيف يقضي في ذلك، فقال: للرّجل اذهب بها إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فأتوا عليّاً وقصّوا عليه قصّتها فقال لامرأة الرّجل ألك بيّنة؟ قالت: نعم، هؤلاء جيراني يشهدون عليها[4] بما أقول، فأخرج عليّ عليه السلام السّيف من غمده وطرحه بين يديه، ثم أمر عليه السلام بكلّ واحدة من الشهود فأدخلت بيتاً، ثم دعا بامرأة الرّجل فأدارها لكلّ وجه فأبت أن تزول عن قولها، فردّها إلى البيت الذي كانت فيه.

ثمّ دعا بإحدى الشّهود وجثا على ركبتيه، فقال لها: أتعرفيني أنا عليّ بن أبي طالب وهذا سيفي، وقد قالت امرأة الرّجل ما قالت، ورجعت إلى الحقّ وأعطيتها الأمان فاصدقيني وإلاّ ملأت سيفي منك، فالتفتت المرأة إلى عليّ فقالت: يا أمير المؤمنين الأمان على الصّدق، قال لها عليّ: فاصدقي فقالت: لا والله ما زنت اليتيمة ولكن امرأة الرّجل لما رأت حسنها

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٩ ح ٣٢٤٨.
(٢) في نسخة: تشاهدوا.
(٣) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٢٤.
(٤) في نسخة: القصة.

وجمالها وهيئتها خافت فساد زوجها بها فسقتها المسكر ودعتنا فأمسكناها فافتضّتها بإصبعها، فقال علي عليه السلام: «الله أكبر الله أكبر أنا أوّل من فرّق بين الشّهود إلا دانيال»، ثمّ حدّ المرأة حدّ القاذف وألزمها ومن ساعدها على افتضاض اليتيمة المهر لها أربعمائة درهم، وفرّق بين المرأة وزوجها وزوّجه اليتيمة، وساق عنه المهر إليها من ماله.

فقال عمر بن الخطاب: فحدثنا يا أبا الحسن بحديث دانيال النّبي عليه السلام فقال: إن دانيال كان غلاماً يتيماً لا أب له ولا أم، وإنّ امرأة من بني إسرائيل عجوزاً ضمّته إليها وربته، وإن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان له قاضيان وكان له صديق، وكان رجلاً صالحاً، وكان له امرأة جميلة، وكان يأتي الملك فيحدثه فاحتاج الملك إلى رجل يبعثه في بعض أموره، فقال للقاضيَيِن: اختارا لي رجلاً أبعثه في بعض أموري، فقالا: فلان، فوجّهه ملك وكان القاضيان يأتيان باب الصّديق فعشقا امرأته فراوداها عن نفسها، فأبت عليهما فقالا لها، إن لم تفعلي شهدنا عليك عند الملك بالزّنا ليرجمك، فقالت: افعلا ما شئتما، فأتيا الملك فشهدا عليها أنها بغت وكان لها ذكر حسن جميل، فدخل الملك من ذلك أمر عظيم واشتدّ غمّه وكان بها معجباً، فقال لهما: إنّ قولكما مقبول فاجلدوها ثلاثة أيّام ثم ارجموها ونادى في مدينته: احضروا قتل فلانة العابدة فإنّها قد بغت، وقد شهد عليها القاضيان بذلك، فأكثر النّاس القول في ذلك فقال الملك لوزيره: ما عندك في هذا حيلة؟ فقال: لا والله ما عندي في هذا شيء.

فلما كان اليوم الثالث ركب الوزير وهو آخر أيّامها، وإذا هو بغلمان عراة يلعبون وفيهم دانيال، فقال دانيال: يا معشر الصّبيان تعالوا حتى أكون أنا الملك وتكون أنت يا فلان العابدة ويكون فلان وفلان القاضيين الشّاهدين عليها، ثم جمع تراباً وجعل سيفاً من قصب ثم قال: للغلمان خذوا بيد هذا فنحوه إلى موضع كذا، والوزير واقف وخذوا هذا فنحوه إلى كذا، ثم دعا بأحدهما فقال: قل حقّاً فإنك إن لم تقل حقّاً قتلتك، قال: نعم والوزير يسمع فقال بم تشهد على هذه المرأة قال أشهد أنّها زنت قال في أي يوم قال: في يوم كذا وكذا، قال في أي وقت؟ قال: في وقت كذا وكذا، قال: في أيّ موضع؟ قال: في موضع كذا وكذا، قال: مع من؟ قال: مع فلان ابن فلان، قال: فردّوه إلى مكانه وهاتوا الآخر، فردّوه وجاؤوا بالآخر، فسأله عن ذلك فخالف صاحبه في القول، فقال دانيال: الله أكبر شهدا عليها بزور، ثم نادى في الغلمان إنّ القاضيين شهدا على فلانة العابدة بزور فأحضروا قتلها، فذهب الوزير إلى الملك مبادراً فأخبره الخبر فبعث الملك إلى القاضيين فأحضرهما، ثم فرّق بينهما وفعل كما فعل دانيال بالغلامين، فاختلفا كما اختلفا فنادى في النّاس وأمر بقتلهما[1].

ومنها ما رواه الشّارح البحراني وهو أنّ عمر أمر أن يؤتى بامرأة لحال اقتضت ذلك،

---

(١) الأنوار العلوية: ١١٠، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ٢٢ ح ٣٢٥٢.

وكانت حاملاً فانزعجت من هيبته فأجهزت[١] جنيناً فجمع جمعاً من الصّحابة وسألهم ماذا يجب عليه، فقالوا: أنت مجتهد[٢] ولا نرى أنّه يجب عليك شيء، فراجع علياً عليه السلام في ذلك وأعلمه بما قال بعض الصّحابة، فأنكر ذلك وقال: إن كان ذلك عن اجتهاد منهم فقد أخطأوا، وإن لم يكن عن اجتهاد فقد غشوك، أرى عليك الغرّة، فعندها قال: لا عشت لمعضلة لا تكون لها يا أبا الحسن[٣]. ورواه الشّارح المعتزلي بتغيير في متنه، إلى غير ذلك من موارد أخطائه وخبطه وجهالته التي لو أردنا استقصائها لطالت، وكثيراً ما كان أمير المؤمنين عليه السلام ينبّه على أخطائه فيها ويبين له معضلات المسائل التي كان يعجز عنها، وقد روي أنّه قال في سبعين موضعاً: لولا عليّ لهلك عمر، والعجب أنّه مع اعترافه بذلك يدّعي التّقدّم عليه ومع جهله بكل ذلك يرى نفسه قابلة للخلافة ومستحقّة لها مع أنّ قابلية الخلافة واستحقاق الولاية لا يكون إلاّ بالعلم بجميع الأحكام والإحاطة بشرائع الإسلام، ولا يكون ذلك إلا بإلهام إلهي وتعليم ربّاني وإرشاد نبويّ، وذلك مختصّ بالأئمة ومخصوص بسراج الأمة، إذ هم الذين اتّبعوا آثار النّبوة، واقتبسوا أنوار الرّسالة، وعندهم معاقل العلم وأبواب الحكمة وضياء الأمر وفصل ما بين النّاس، وهم المحدثون المفهمون المسدّدون المؤيّدون بروح القدس.

كما يدلّ عليه ما رواه في «**البحار**» من كتاب بصائر الدّرجات بإسناده عن جعيد الهمداني قال: سألت عليّ بن الحسين عليه السلام بأيّ حكم تحكمون؟ قال: نحكم بحكم آل داود فإن عيينا شيئاً تلقّانا به روح القدس[٤].

وعن السّاباطي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بما تحكمون إذا حكمتم؟ فقال: بحكم الله وحكم داود، فإذا ورد علينا شيء ليس عندنا تلقّانا به روح القدس. وعن عبد العزيز عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام؛ جعلت فداك إنّ النّاس يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وجه علياً عليه السلام إلى اليمن ليقضي بينهم، فقال عليّ عليه السلام: «فما أورد الله على قضية إلا حكمت بحكم الله وحكم رسوله»، فقال عليه السلام: «صدقوا»، قلت: وكيف ذلك ولم يكن أنزل القرآن كله، وقد كان رسول الله غائباً عنه؟ فقال: «تلقاه به روح القدس»، هذا[٥].

وقد ظهر ممّا ذكرنا كله أنّ الحكم الصّواب وفصل الخطاب مختصّ بالمعصومين من آل الرّسول سلام الله عليه وعليهم، وأن أحكام عمر إنّما كانت عن هوى نفس وبدعة وضلالة وجهالة، ولذلك كان يفتي كثيراً، ثم يرجع عن فتياه ويعتذر، وربّما كان يحكم بشيء ثم

---

(١) في نسخة: فأجهضت. ك

(٢) في نسخة: مؤدب.

(٣) الارشاد: ١/ ٢٠٤.

(٤) البصائر: ٤٧١، والكافي: ١/ ٣٩٨ ح ٤.

(٥) الكافي: ١/ ٣٩٨ ح ٥.

ينقضه، ويحكم بخلافه لقلّة المعرفة وكثرة الجهالة واختلاف دواعي نفسه الأمارة التي تارة تحكم بذلك وأخرى بخلافه، هذا كله مضافاً إلى قوّة إفراط القوة الغضبيّة فيه وخشونة الحوزة وغلظة الطبيعة **(فصاحبها)** أي صاحب تلك الحوزة والطبيعة **(كراكب)** النّاقة **(الصّعبة)** الغير المنقادة **(إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم)** قال الرّضي (ره) بعد تمام الخطبة: يريد ﷺ أنّه إذا شدّد عليها في جذب الزّمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها، وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها.

أقول: وقد أرخى زمامها ولم يمسكها فرمت به في أودية الضّلالة وتقحمت به في ورطات الهلاكة فلم يمكنه التخلص منها والخروج عنها، وعلى هذا المعنى فالمراد بصاحب الحوزة هو عمر، وهذا أظهر وقد ذكروا في المقام وجوهاً أُخرى.

منها أنّ الضّمير في صاحبها يعود إلى الحوزة المكنّى بها عن الخليفة أو أخلاقه، والمراد بصاحبها من يصاحبها كالمستشار وغيره، والمعنى أنّ المصاحب للرّجل المنعوت حاله في صعوبة الحال كراكب النّاقة الصّعبة فلو تسرع إلى إنكار القبائح من أعماله أدّى إلى الشقاق بينهما وفساد الحال، ولو سكت وخلاه وما يصنع أدّى إلى خسران المال.

ومنها أنّ الضّمير راجع إلى الخلافة أو إلى الحوزة، والمراد بصاحبها نفسه ﷺ، والمعنى أنّ قيامي في طلب الأمر يوجب مقاتلة ذلك الرّجل وفساد أمر الخلافة رأساً وتفرق نظام المسلمين، وسكوتي عنه يورث التّقحم في موارد الذّل والصّغار.

ومنها أن الضّمير راجع إلى الخلافة وصاحبها من تولى أمرها مراعياً للحقّ وما يجب عليه، والمعنى أن المتولي لأمر الخلافة إن أفرط في إحقاق الحقّ وزجر النّاس عمّا يريدونه بأهوائهم أوجب ذلك نفار طباعهم وتفرّقهم عنه، لشدة الميل إلى الباطل، وإن فرّط في المحافظة على شرائطها ألقاه التّفريط في موارد الهلكة وضعف هذا الوجه وبعده واضح، هذا.

ولما ذكر ﷺ أوصاف الرّجل الذميمة وأخلاقه الخبيثة الخسيسة أشار إلى شدّة ابتلاء النّاس في أيّام خلافته بقوله: **(فمني النّاس)** أي ابتلوا **(لعمر الله بخبط)** أي بالسير على غير معرفة وفي غير جادّة **(وشماس)** ونفار **(وتلوّن)** مزاج **(واعتراض)** أي بالسّير على غير خط مستقيم كأنّه يسير عرضاً، قال الشّارح المعتزلي: وإنّما يفعل ذلك البعير الجامح الخابط وبعير عرضي يعترض في سيره لأنّه لم تتم رياضته وفي فلان عرضية أي عجز فيه وصعوبة، وقال البحراني في شرح تلك الجملة: إنّها إشارة إلى ما ابتلوا به من اضطراب الرّجل وحركاته التي كان ينقمها عليه، فكنّى بالخبط عنها وبالشّماس عن جفاوة طباعه وخشونتها، وبالتّلون والاعتراض عن انتقاله من حالة إلى أخرى في أخلاقه، وهي استعارات وجه المشابهة فيها أنّ خبط البعير، وشماس الفرس واعتراضها في الطريق حركات غير منظومة، فأشبهها ما لم يكن

منظوماً من حركات الرّجل التي ابتلي النّاس بها.

أقول: وعلى ذلك فالأَربعة أوصاف للرّجل والمقصود كما ذكره الإشارة إلى ابتلاء النّاس في خلافته بالقضايا الباطلة لجهله واستبداده برأيه مع تسرعه إلى الحكم مع إيذائهم بحدته وبالخشونة في الأَقوال والأَفعال الموجبة لنفارهم عنه، وبالنّفار عن النّاس كالفرس الشّموس والتلوّن في الآراء والأَحكام لعدم ابتنائها على أساس قويّ، وبالخروج عن الشرع السّواء والجادة المستقيمة أو بالحمل على الأمور الصعبة والتكاليف الشاقّة، هذا.

ويحتمل كونها صفات للنّاس، فإنّ خروج الوالي عن الجادّة يستلزم خروج النّاس أحياناً وكذا تلوّنه واعتراضه يوجب تلوّن الرّعية واعتراضهم على بعض الوجوه وخشونته يستلزم نفارهم وهو ظاهر.

ثم إنه عليه السلام أردف ذلك كله بتكرير ذكر صبره على ما صبر عليه مع الثاني كما صبر مع الأَوّل وقال: **(فصبرت على طول المدة)** أي طول مدّة تخلف الأَمر عنه عليه السلام **(وشدّة المحنة)** أي شدّة الإبتلاء بسبب فوات حقّه وما يستتبع ذلك من اختلال قواعد الدّين وانهدام أركان اليقين.

الترجمة

تا آن که گذشت اول یعنی ابوبکر به راه خود که طریق جهنم است، پس دفع کرد و واگذاشت خلافت را به سوی پسر خطاب بعد از خود. بعد از آن مثل زد أميرالمؤمنين (عليه السلام) به قول أعشى که در مفاخره علقمه و عامر گفته و عامر را مدح و علقمه را هجو نموده و معنی بیت این است که چقدر دور است میان دو روز من روزی که بر کوهان و پالان شتر سوار و به رنج و تعب سفر گرفتار و روز حیان برادر جابر که ندیم وی بودم و به ناز و نعمت می گذرانیدم و یا این که بعید است میان روز من که بر پشت ناقه سوار و روز حیان که راحت از مشقت سفر و فارغ از ملال و کدورات.

و مقصود امام (عليه السلام) از تمثيل به اين بيت بنابراين معنى اظهار بعد است ميان حال خود كه گرفتار محنت بوده و قرين مشقت و ميان حال قومى كه به مقاصد خودشان واصل و در سعه و رفاهيت محفوظ. و بنابر معنى اول اظهار مباعدت و دورى است ميان دو روز خود: يكى بعد از وفات حضرت رسالت مآب (صلى الله عليه و آله) كه از حق خود مغصوب و در خانه خود معتزل و به صحبت اشرار گرفتار و به فتن و محن مبتلا و روز دويّم زمان حضور آن حضرت صلوات الله عليه كه در خدمت او كسب فيوضات ظاهريه و كمالات معنويه مى كردند.

و به هر تقدير امام (عليه السلام) بعد از مثل زدن فرمود: پس بسا تعجب وقتى كه ابوبكر طلب اقاله و فسخ نمود خلافت را در حال حيات خود هنگامى كه عقد كرد آن را به جهت ديگرى كه آن عمر است تا آن كه بوده باشد او را بعد از مردن او. به خداوند قسم هر آينه سخت شد گرفتن ابوبكر و عمر هر يكى يك نصف خلافت را يا اين كه گرفتن ايشان جانب هردو پستان آن را و اين كنايه است از اشتراك ايشان در قسمت منفعت و فوايد خلافت همچنان كه دو نفر دوشنده دو پستان شتر بعد از دوشيدن، نفع آن را تقسيم مى نمايند.

پس گردانيد ابوبكر خلافت را در طبيعتى زبر و خشن كه غليظ بود جراحتى كه حاصل بود از آن طبيعت و درشت بود مسّ آن و بسيار بود به سر درآمدن او در احكام شرعيه و مسائل دينيه و عذرخواهى او از عثرات خود، پس صاحب آن طبيعت با خشونت مثل سوار ناقه سركش است؛ اگر سر آن ناقه را با افسار و خرام نگه بدارد بينى خود را پاره مى نمايد و اگر رها كند و به حال خود فروگذارد واقع مى شود در مهالك و معاطب، پس مبتلا شدند مردم قسم به بقاى خدا به انداختن خود در غير طريق قويم و به رميدن از صراط مستقيم و به تلوّن مزاج و به سير نمودن در عرض طريق، پس صبر نمودم مرتبه دويم بر درازى روزگار اعتزال و سختى اندوه و ملال.

الفصل الثالث

«حَتّى إِذا مَضى لِسَبيلِه جَعَلَها في سِتَّةٍ زَعَمَ أَنّي أَحَدُهُمْ، فَيالله وَلِلشُّورى مَتى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلى هذِهِ النَّظائِرِ، وَلكِنّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طارُوا، فَصَغى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِه، وَمالَ الآخَرُ لِصِهْرِه، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ».

اللغة

(**الزّعم**) مثلثة الفاء الفتح للحجاز والضمّ للأسد والكسر لبعض قيس وهو قريب من الظن، وقال المرزوقي: أكثره يستعمل فيما كان باطلاً أو فيه ارتياب، وقال ابن الأثير: إنّما يقال: زعموا في حديث لا سند له ولا ثبت فيه، وقال الزّمخشري: هي ما لا يوثق به من الأحاديث و (**الشّورى**) إسم من تشاور القوم واشتوروا، وقيل: إنه مصدر كبشرى بمعنى المشورة والأوّل أظهر و(**اعترض**) الشّيء إذا صار عارضاً كالخشبة المعترضة في النهر و (**أقرن**) على لفظ المجهول أي اجعل قريناً لهم ويجمع بيني وبينهم و(**أسف**) الطائر إذا دنا من الأرض في طيرانه وأسف الرّجل للأمر إذا قاربه و (**طرت**) أي إرتفعت استعمالاً للكلي في أكمل الأفراد و (**صغى**) إلى كذا مال إليه وصغت النجوم مالت إلى الغروب و (**الضّغن**) الحقد والبغض.

و (**الصّهر**) قال الخليل: هو أهل بيت المرأة، قال: ومن العرب من يجعل الأحماء والأختان جميعاً أصهاراً، وقال الأزهري: الصّهر يشتمل على قرابات النّساء ذوي المحارم وذوات المحارم كالأبوين والأخوة وأولادهم والأعمام والأخوال والخالات، فهؤلاء أصهار زوج المرأة، ومن كان من قبل الزّوج من ذوي قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضاً، وقال ابن السّكيت: كلّ من كان من قبل الزّوج من أبيه أو أخته أو عمّه فهم الأحماء، ومن كان من قبل المرأة فهم الأختان ويجمع الصّنفين الأصهار و (**هن**) خفيف (**النون**) كناية عن كلّ إسم جنس ومعناه شيء (**ولامها**) محذوفة، فالمعروف أنّها (**واو**) بدليل جمعها على هنوات، وقيل: هي (هاء) لتصغيره على هنيهة، وقيل: (**نون**) والأصل هنّ بالتّثقيل والتّصغير هنين، وقال نجم الأئمة الرّضي: (**الهن**) الشيء المنكر الذي يستهجن ذكره من العورة والفعل القبيح وغير ذلك.

الإعراب

(**اللاّم**) في لله مفتوحة لدخولها على المستغاث أدخلت للدّلالة على الإختصاص بالنّداء للإستغاثة، وفي قوله للشّورى مكسورة لدخولها على المستغاث لأجله قال الشّاعر:

يبكيك ناء بعيد الدّار مغترت ... يا للكهول وللشّبان للعجب

بفتح (**لام**) الكهول وكسر (**لام**) العجب وكسرها في للشبان لكونه معطوفاً على

المستغاث من غير إعادة حرف النداء ولو أعيدت فتحت قال الشّاعر:

يا لقومي ويا لأمثال قومي لإناس عتوّهم في ازدياد

(والواو) في قوله: وللشّورى إمّا زائدة أو عاطفة على محذوف مستغاث له أيضاً كما ستعرفه في بيان المعنى.

المعنى

(حتّى إذا مضى) الثّاني **(لسبيله)** ومات وذلك بعد ما غصب الخلافة عشر سنين وستة أشهر على ما حكاه في **«البحار»** من كتاب الاستيعاب وستعرف تفصيل الكلام في كيفيّة موته وتعيين يوم موته في التّذنيبات الآتية، وكيف كان فإنّه لما أراد الله أن يقبضه إلى ما هيّأ له من أليم العذاب **(جعلها في ستة)** نفر وفي بعض النّسخ في جماعة **(زعم أنّي أحدهم)** وفي **«تلخيص الشّافي»** زعم أنّي سادسهم وهؤلاء الجماعة هم: أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان وطلحة والزّبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرّحمن بن عوف، هذا هو المعروف وقيل: إنّهم خمسة، قال الطبري: لم يكن طلحة ممّن ذكر في الشّورى ولا كان يومئذٍ بالمدينة، وعن أحمد بن أعثم لم يكن بالمدينة، فقال عمر: انتظروا لطلحة ثلاثة أيّام فإن جاء وإلاّ اختاروا رجلاً من الخمسة[1].

(فيالله) أنت النّاصر والمعين والمغيث أستغيث بك لما أصابني عنه أو لنوائب الدّهر عامة **(وللشّورى)** خاصّة والإستغاثة للتّألم من الإقتران بمن لا يدانيه في الفضائل ولا يقارنه في الفواضل ولا يستأهل للخلافة ولا يليق بالولاية، ولذلك أتبعه عليه السلام بالإستفهام على سبيل الإنكار والتعجب بقوله:

(متى اعترض الرّيب فيّ مع الأوّل منهم) يعني متى صار الشك عارضاً لأذهانهم فيّ بمساوات أبي بكر **(حتّى صرت أقرن)** أي اجعل قريناً **(إلى هذه النظائر)** الخمسة أو الأربعة ويجمع عمر بيني وبينهم ويجعلهم نظائر لي مع كونهم أدنى من الأوّل رتبة وأخسّ منزلة، فكيف بقياسهم إليّ وتناظرهم بي **(ولكنّي أسففت)** مع القوم **(إذا أسفّوا وطرت)** معهم **(إذ طاروا)** يعني أنّي تابعتهم تقيّة وجريت معهم على ما جروا، ودخلت معهم في الشّورى مع أنّهم لم يكونوا نظراء لي وتركت المنازعة من حيث إقتضاء المصلحة **(فصغى)** ومال **(رجل منهم)** من الحقّ إلى الباطل **(لضغنه)** وحقده الذي كان في صدره.

والمراد بذلك الرّجل على ما ذكره القطب الرّاوندي والشّارح البحراني والمحدث

(١) راجع البحار: ٢٩/ ٥٣٠، وتاريخ الطبري: ٣/ ٢٩٢، والفتوح لأبي أعثم: ٢/ ٣٢٧.

الجزائري وغيرهم هو سعد بن أبي وقاص اللّعين، وسبب ضغنه على ما ذكره الرّاوندي هو أنه عليه السلام قتل أباه يوم بدر، وقال سعد أحد من تخلف عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام عند رجوع الأمر إليه، إلا أنّ الشّارح المعتزلي أورد عليه بأنّ أبا وقاص وإسمه مالك بن أهيب مات في الجاهلية حتف أنفه، وقال: إنّ المراد به طلحة وعلّل ميله عنه عليه السلام بقوله: وإنّما مال طلحة إلى عثمان لانحرافه عن علي عليه السلام باعتبار أنه تيميّ وابن عمّ أبي بكر، وقد كان حصل في نفوس بني هاشم من بني تيم حنق شديد لأجل الخلافة، وكذلك صار في صدور تيم على بني هاشم، وهذا أمر مركوز في طباع البشر وخصوصاً طينة العرب وطباعها، والتّجربة إلى الآن تحقق ذلك.

قال: وأمّا الرّواية التي جاءت بأنّ طلحة لم يكن حاضراً يوم الشّورى فإن صحت فذو الضّغن هو سعد بن أبي وقّاص، لأنّ أمّه حمنة بنت سفيان بن أميّة بن عبد شمس، والضّغنة التي كانت عنده على عليّ عليه السلام من قبل أخواله الذين قتل صناديدهم وتقلد دمائهم، ولم يعرف أنّ عليّاً عليه السلام قتل أحداً من بني زهرة لينسب الضّغن إليه **(ومال الآخر)** وهو عبد الرّحمٰن بن عوف **(لصهره)** وهو عثمان والمصاهرة بينهما من جهة أنّ أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت تحته وهي أخت عثمان من أمّه، وروى بنت كريز وهذا الميل أيضاً لم يكن لمجرّد المصاهرة ومحض القرابة، بل **(مع هن وهن)** أي مع شيء وشيء قبيح يستهجن ذكره، وهو البغض والحسد منه له عليه السلام أو نفاسته عليه أو رجاؤه وصول الخلافة بعد عثمان إليه أو انتفاعه بخلافته بالإنتساب وإكتساب الأموال والتّرفع على النّاس والاستطالة أو غير ذلك ممّا هو عليه السلام أعلم به وكنّى عنه.

وينبغي التذييل بأمور: الأول

كيفيّة قتل عمر وقاتله، ويوم قتله.

أما الأول: فقاتله أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة، روى المحدث المجلسي (ره) في **«البحار»** من مؤلف العداد القوية نقلاً من كتب المخالفين والجزائري في **«الأنوار»** من كتاب الاستيعاب لابن عبد البرّ من رجال العامة قال: ذكر الواقدي قال: أخبرني نافع عن أبي نعيم عن عامر بن عبد الله بن الزّبير عن أبيه قال: غدوت مع عمر بن الخطاب إلى السّوق وهو متكي على يدي فلقاه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فقال له: ألا تكلّم مولاي يضع عنّي من خراجي؟ قال: كم خراجك؟ قال: دينار فقال عمر: ما أرى أن أفعل أنك لعامل محسن وما هذا بكثير، ثم قال له عمر: ألا تعمل لي رحى؟ قال: أبو لؤلؤة: لأعملن لك رحى يتحدث بها ما بين المشرق والمغرب، قال ابن الزّبير: فوقع في نفسي قوله، قال: فلما كان في النّداء لصلاة الصّبح وخرج عمر إلى النّاس قال ابن الزّبير: وأنا في مصلاي، وقد اضطجع له أبو

لؤلؤة فضربه بالسّكين ستّ طعنات إحداهنّ تحت سرّته وهي قتلته، قال في «**البحار**»: وجاء بسكين له طرفان، فلمّا خرج عمر خرج معه ثلاثة عشر رجلاً في المسجد، ثمّ أخذ، فلما أخذ قتل نفسه.

ومن كتاب الإستيعاب أيضاً أنّ عمر لما ضربه أبو لؤلؤة بالسّكين في بطنه قال: ادعوا إلى الطبيب، فدعى الطبيب، فقال: أيّ الشّراب أحبّ إليك؟ فقال: النبيذ، فسقى نبيذاً فخرج من بعض طعناته فقال النّاس: هذا دم هذا صديد، فقال: اسقوني لبناً، فسقوه لبناً فخرج من الطعنة، فقال له الطبيب: لا أرى أن تمسي فما كنت فاعلاً فافعل، وتمام الخبر مذكور في الشّورى، قال بعض أصحابنا: ولقد كان يحبّ أن يلاقي الله سبحانه وبطنه الممزوق ممتلىء من الشّراب، فانظروا يا أولى الألباب.

وأما الثاني: فالمشهور بين العلماء أنّ قتله كان في ذي الحجة وهو المتفق عليه بين العامة، ولكن المشهور بين العوام في الأقطار والأمصار هو أنّه في شهر ربيع الأول قال الكفعمي في «**المصباح**» في سياق أعمال شهر ربيع الأول: إنّه روى صاحب مسار الشّيعة أنّه من أنفق في اليوم التّاسع منه شيئاً غفر له ويستحب فيه إطعام الأخوان، وتطييبهم والتّوسعة والنّفقة ولبس الجديد والشكر والعبادة وهو يوم نفي الغموم، وروي أنّه ليس فيه صوم وجمهور الشّيعة يزعمون أنّ فيه قتل عمر بن الخطاب وليس بصحيح.

قال محمّد بن إدريس في «**سرائره**» من زعم أنّ عمر قتل فيه فقد أخطأ بإجماع أهل التّواريخ والسّير، وكذلك قال المفيد (ره) في كتاب التّواريخ، وإنّما قتل يوم الاثنين لأربع بقين من ذي الحجّة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة نصّ على ذلك صاحب الغرة وصاحب المعجم وصاحب الطبقات وصاحب كتاب مسار الشّيعة وابن طاوس بل الإجماع حاصل من الشّيعة وأهل السّنة على ذلك، انتهى[1].

أقول: قد عرفت أنّ المشهور بين جمهور الشّيعة هو أنّه في شهر الرّبيع، فدعوى الإجماع على كونه في ذي الحجّة ممنوعة، ويدل على ذلك ما رواه في «**الأنوار**» من كتاب محمّد بن جرير الطبري قال: المقتل الثّاني يوم التاسع من شهر ربيع الأوّل.

أخبرنا الأمين السّيد أبو المبارك أحمد بن محمّد بن أردشير الدّستاني.

قال: أخبرنا السّيد أبو البركات محمّد الجرجاني، قال: أخبرنا هبة الله القمي واسمه يحيى، قال: حدّثنا أحمد بن إسحاق البغدادي، قال: حدّثنا الفقيه الحسن ابن الحسن السّامري أنّه قال: كنت أنا ويحيى بن أحمد بن جريج، فقصدنا أحمد بن إسحاق القمي وهو

---

(١) البحار: ٣١/١٢١.

صاحب الإمام العسكري عليه السلام بمدينة قم، فقرعنا عليه الباب فخرجت علينا من داره صبيّة عراقيّة فسألناها عنه، فقالت: هو مشغول وعياله فإنه يوم عيد، قلنا: سبحان الله الأعياد عندنا أربعة: عيد الفطر وعيد الضّحى النّحر والغدير والجمعة، قالت: روي سيّدي أحمد بن إسحاق عن سيّده العسكري عن أبيه علي بن محمّد عليهم السلام أنّ هذا يوم عيد وهو خيار الأعياد عند أهل البيت عليهم السلام وعند مواليهم، قلنا: فاستأذني بالدّخول عليه وعرّفيه بمكاننا، قال: فخرج علينا وهو متزر بمئزر له ومحتبي بكسائه يمسح وجهه، فأنكرنا عليه ذلك، فقال: لا عليكما إنّني كنت أغتسل للعيد، فإنّ هذا اليوم(١) وهو اليوم التاسع من شهر ربيع الأوّل فأدخلنا داره وأجلسنا على سرير له.

ثم قال: إنّي قصدت مولاي أبا الحسن العسكري عليه السلام مع جماعة من إخواني في مثل هذا اليوم وهو اليوم التّاسع من ربيع الأوّل، فرأينا سيّدنا قد أمر جميع خدمه أن يلبس ما يمكنه من الثياب الجدد، وكان بين يديه مجمرة يحرق فيها العود، قلنا يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله: هل تجد في هذا اليوم لأهل البيت عليهم السّلام فرحاً؟ فقال عليه السلام: وأيّ يوم أعظم حرمة من هذا اليوم عند أهل البيت وأفرح؟(٢)

وقد حدّثني أبي عليه السلام أنّ حذيفة (رض) دخل في مثل هذا اليوم وهو اليوم التّاسع من ربيع الأوّل رسول الله صلى الله عليه وآله، قال حذيفة: فرأيت أمير المؤمنين مع ولديه الحسن والحسين مع رسول الله صلوات الله عليه وعليهم يأكلون، والرّسول يتبسم في وجوههما ويقول: «كُلا هنيئاً مريئاً لكما ببركة هذا اليوم وسعادته، فإنّه اليوم الذي يقبض الله فيه عدوّه وعدوّكما وعدوّ جدّكما، ويستجيب فيه دعاء أمّكما، فإنّه اليوم الذي يكسر فيه شوكة مبغض جدّكما وناصر عدوّكما، كُلاَ فإنّه اليوم الذي يفقد فيه فرعون أهل بيتي وهامانهم وظالمهم وغاصب حقّهم، كُلاَ فإنّه اليوم الذي يفرح الله فيه قلبكما وقلب أمّكما».

قال حذيفة: فقلت يا رسول الله في أمّتك وأصحابك من يهتك هذا الحرم؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جبت من المنافقين يظلم أهل بيتي ويستعمل في أمتي الرّياء ويدعوهم إلى نفسه ويتطاول على الأمّة من بعدي ويستجلب أموال الله من غير حلّه وينفقها في غير طاعته، ويحمل على كتفه درّة الخزى ويضلّ النّاس عن سبيل الله ويحرّف كتابه ويغيّر سنتي ويغصب ارث ولدي وينصب نفسه علماً، ويكذّبني ويكذّب أخي ووزيري ووصيّتي وزوج ابنتي، ويتغلّب على ابنتي ويمنعها حقّها وتدعو فيستجاب الله لها الدّعاء في مثل هذا اليوم».

(١) في نسخة: عيد.

(٢) البحار: ٣١/ ١٢١.

قال حذيفة (رض): قلت: يا رسول الله ادع الله ليهلكته في حياتك قال: «يا حذيفة لا أحب أن أجتري على الله عزّ وجلّ لما قد سبق في علمه، لكنّي سألت الله تعالى أن يجعل اليوم الذي يقبضه فيه إليه فضيلة على سائر الأيام، ويكون ذلك سنة يستنّ بها أحبّائي وشيعة أهل بيتي ومحبيهم، فأوحى الله عزّ وجل إليّ»:

قال: يا محمّد إنّه قد سبق في علمي أن يمسك وأهل بيتك محن الدّنيا وبلائها وظلم المنافقين والمعاندين من عبادي ممّن نصحتهم وخانوك ومحّضتهم وغشوك وصافيتهم وكاشحوك، وأوصلتهم وخالفوك وأوعدتهم وكذّبوك، فإنّي بحولي وقوّتي وسلطاني لأفتحنّ على روح من يغضب «يغضب» بعدك عليّاً حقّه وصيك ووليّ خلقي[1] ألف باب من النيران من سفال الفيلوق، ولا وصلنّه وأصحابه قعراً يشرف عليه إبليس لعنه الله فيلعنه، ولأجعلن ذلك المنافق عبرة في القيامة مع فراعنة الأنبياء وأعداء الدين في المحشر، ولا حشرنّهم وأوليائهم وجميع الظلمة والمنافقين في جهنم ولأدخلنهم فيها أبد الآبدين.

يا محمّد أنا أنتقم من الذي يجتري[2] عليّ ويبدل كلامي ويشرك بي ويصد النّاس عن سبيلي وينصب نفسه عجلاً لا منك ويكفر بي، إنّ قد أمرت سبع سماوات من شيعتكم ومحبّيكم أن يتعيدوا في هذا اليوم الذي أقبضه إليّ فيه وأمرتهم أن ينصبوا كراسي كرامتي بإزاء البيت المعمور ويثنوا عليّ ويستغفروا لشيعتكم من واد آدم.

يا محمّد وأمرت الكرام الكاتبين أن يرفعوا القلم عن الخلق «كلهم خ» ثلاثة أيام من أجل ذلك اليوم، ولا أكتب عليهم شيئاً من خطاياهم كرامة لك ولوصيّك.

يا محمّد إنّي قد جعلت ذلك عيداً لك ولأهل بيتك وللمؤمنين من شيعتك، وآليت على نفسي بعزّتي وجلالي وعلوّي في رفيع مكاني إنّ من وسع في ذلك اليوم على عياله وأقاربه لأزيدن في ماله وعمره ولأعتقنّه من النّار ولأجعلن سعيه مشكوراً وذنبه مغفوراً، وأعماله مقبولة، ثم قام رسول الله ﷺ فدخل بيت أم سلمة فرجعت عنه ﷺ وأنا غير شاك في أمر الشيخ الثّاني حتّى رأيته بعد رسول الله ﷺ قد فتح الشرّ وأعاد الكفر والارتداد عن الدين وحرّف القرآن[3].

وفي **«البحار»** من كتاب **«الإقبال»** لابن طاوس بعد ذكر اليوم التاسع من ربيع الأوّل: أعلم أن هذا اليوم وجدنا فيه رواية عظيمة الشّأن ووجدنا جماعة من العجم والإخوان يعظمون

---

(١) في نسخة: من العذاب الأليم.

(٢) في نسخة: ولأدخلنهم.

(٣) البحار: ٣١/١١٨ ـ ١٢٠.

السّرور فيه ويذكرون أنّه يوم هلاك من كان يهون بالله جلّ جلاله ورسوله ويعاديه، ولم أجد فيما تصفحت من الكتب إلى الآن موافقة اعتمد عليها للرّواية التي رويناها عن ابن بابويه تغمّده الله رضوانه، فإن أراد أحد تعظيمه مطلقاً لسرّ يكون في مطاويه غير الوجه الذي يظهر فيه احتياطاً للرّواية، فهكذا عادة ذوي الدّراية، وإن كان يمكن تأويل ما رواه أبو جعفر بن بابويه في أنّ قتل من ذكر كان في تاسع ربيع الأوّل، لعلّ معناه أن السّبب الذي اقتضى قتل المقاتل على قتله كان في ذلك اليوم، ويمكن أن يسمى مجازاً سبب القتل بالقتل، أو يكون توجه القاتل من بلده في ذلك اليوم، أو وصول القاتل إلى مدينة القتل فيه، وأمّا تأويل من تأوّل أنّ الخبر وصل إلى بلد ابن بابويه فيه فلا يصحّ، لأنّ الحديث الذي رواه ابن بابويه عن الصّادق عليه السلام تضمّن أن القتل في ذلك اليوم فكيف يصح هذا التأويل.

قال في «**البحار**» بعد حكايته ذلك: ويظهر منه ورود رواية أخرى عن الصادق عليه السلام بهذا المضمون رواها الصّدوق، ويظهر من كلام خلفه الجليل ورود عدة روايات دالة على كون قتله في ذلك، فاستبعاد ابن إدريس وغيره رحمة الله عليهم ليس في محلّه، إذ اعتبار تلك الرّوايات مع الشهرة بين أكثر الشيعة سلفاً وخلفاً لا يقصر عمّا ذكره المؤرخون من المخالفين، ويحتمل أن يكونوا غيروا هذا اليوم ليشتبه الأمر على الشيعة فلا يتخذوه يوم عيد وسرور.

فإن قيل: كيف اشتبه هذا الأمر العظيم بين الفريقين مع كثرة الدواعي على ضبطه ونقله.

قلنا: نقلب الكلام عليكم مع أنّ هذا الأمر ليس بأعظم من وفات رسول الله صلى الله عليه وآله مع أنه وقع الخلاف فيه بين الفريقين، بل بين كلّ منهما مع شدّة تلك المصيبة العظمى وما استبعه من الدّواهي الأخرى مع أنّهم اختلفوا في يوم القتل، وإن اتّفقوا في كونه ذي الحجّة، ومن نظر في اختلاف الشّيعة وأهل الخلاف في أكثر الأمور التي توفرت الدواعي على نقلها مع كثرة حاجة النّاس إليها كالأذان والوضوء والصّلاة والحج، وتأمل فيها لا يستبعد أمثال ذلك، والله أعلم بحقائق الأمور(١).

الثاني

في ذكر أخبار الشّورى من طرق العامة فأقول: روى في «**البحار**» عن ابن الأثير في «**الكامل**» و «**الطبري**» عن شيوخه بطرق متعدّدة أنه لما طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب، وعلم أنّه قد انقضت أيّامه واقترب أجله، قال له بعض أصحابه: لو استخلفت يا أمير المؤمنين، فقال: لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته وقلت لربّي إن سألني: سمعت نبيّك يقول: أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته وقلت لربّي إن سألني: سمعت

---

(١) بطوله في البحار: ٣١/ ١٣٢.

نبيّك يقول: إنّ سالماً شديد الحبّ لله فقال رجل: ولّ عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، ويحك كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته[١].

وفي «شرح المعتزلي» أنّ عمر لما طعنه أبو لؤلؤة وعلم أنّه ميّت استشار فيمن يوليه الأمر بعده فأشير إليه بابنه عبد الله فقال لاهاء الله لا يليها رجلان من ولد الخطاب حسب عمر ما حمل حسب عمر ما احتقب لاهاء الله، لا أتحملها حيّاً وميّتاً، ثم قال: إنّ رسول الله ﷺ مات وهو راض عن هذه الستّة من قريش: عليّ وعثمان وطلحة والزّبير وسعد وعبد الرّحمن بن عوف، وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختار والأنفسهم، ثم قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير منّي يعني أبا بكر وإن أترك فقد ترك من هو خير منّي يعني رسول الله، ثم قال: ادعوهم لي، فدعوهم فدخلوا عليه وهو ملقى على فراشه وهو يجود بنفسه، فنظر إليهم فقال: أكلكم يطمع في الخلافة بعدي؟ فوجموا فقال لهم: ثانية فأجابه الزّبير وقال: وما الذي يبعدنا منها وليتها أنت فقمت بها ولسنا دونك في قريش ولا في السّابقة والقرابة.

قال الشّارح: قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لولا علمه أنّ عمر يموت في مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلا بكلمة ولا أن ينبس منه لفظ، فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم: قالوا: قل فإنّا لو استعفيناك لم تعفنا، فقال: أمّا أنت يا زبير فوعقة[٢] لقس[٣] مؤمن الرّضى كافر الغضب، يوماً إنسان ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضت إليك ظلت قومك تلاطم بالبطحاء على مدّ من شعير، أفرأيت إن أفضت إليك فليت شعري من يكون للنّاس يوم تكون شيطاناً ومن يكون يوم تغضب إماماً، وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة وأنت على هذه الصّفة.

ثم أقبل على طلحة وكان له مبغضاً منذ قال لأبي بكر يوم وفاته ما قال في عمر، فقال له: أقوم أم أسكت؟ وقال: قل فإنّك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أما أني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أُحد والباد[٤] الذي حدث لك، لقد مات رسول الله ﷺ ساخطاً عليك للكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب[٥].

قال الشّارح: قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: الكلمة المذكورة أنّ طلحة لما أنزلت آية

(١) البحار: ١٨/٣٨٣، وتاريخ الطبري: ٣/ ٢٩٢، والغدير: ٦/ ٣٦٠.

(٢) وعقة: رجل وعق أي سيء الخلق.

(٣) لقس: لقست نفسه إلى الشيء أي نازعت إليه.

(٤) الباد: العجب.

(٥) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/ ١٩٠.

الحجاب قال بمحضر ممّن نقل عنه إلى رسول الله ﷺ: ما الذي يغنيه حجابهن اليوم سيموت غداً فننكحهنّ، قال: قال أبو عثمان أيضاً: لو قال لعمر قائل أنت قلت: إن رسول الله ﷺ مات وهو راض عن الستّة فكيف تقول الآن لطلحة إنه ﷺ مات ساخطاً عليك للكلمة التي قلتها، لكان قد رماه بمشاقصة ولكن من الذي كان يجسر على عمر أن يقوم له: ما دون هذا فكيف هذا؟.

ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال: أمّا أنت صاحب مقنب[1] من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس وأسهم وما زهرة والخلافة وأمور الناس.

ثم أقبل على عبد الرّحمن بن عوف فقال: وأما أنت يا عبد الرّحمٰن فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح آيمانك به ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك وما زهرة وهذا الأمر.

ثم أقبل على علي عليه السلام فقال: لله أنت لولا دعابة فيك أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحقّ الواضح والمحجة البيضاء.

ثم أقبل على عثمان فقال هيها[2] إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأَمر لحبها إيّاك فحملت بني أميّة وبني أبي معيط على رقاب النّاس وآثرتهم بالفيء فسارت[3] إليك عصابة من رابان[4] العرف فذبحوك على فراشك ذبحاً والله لئن فعلوا لتفعلنّ ولئن فعلت ليفعلنّ، ثم أخذ بناصيته فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولي فإنه كائن.

ثم قال: إدعوا لي أبا طلحة الأَنصاري فدعوه له فقال: انظر يا أبا طلحة إذا عدتم من حفرتي فكن في خمسين رجلاً من الأَنصار حاملي سيوفكم فخذ هؤلاء النّفر بامضاء الأَمر وتعجيله واجمعهم في بيت وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب أعناقهما، وإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة التي فيها عبد الرّحمن فارجع إلى ما قد اتفقت عليه فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيّام ولم يتفقوا على أمر فاضرب أعناق الستّة ودع المسلمين يختاروا لأَنفسهم.

فلما دفن عمر جمعهم أبو طلحة ووقف على باب البيت بالسّيف في خمسين من

---

(١) المقنب من النحيل الأربعون والخمسون وأكثر ويعني أنه صاحب جيوش.

(٢) هيها: الهية من ينحى لدنس ثيابه.

(٣) في نسخة: فثارت.

(٤) في نسخة: ذوبان.

الأنصار حاملي سيوفهم ثم تكلم القوم وتنازعوا، فأوّل ما عمل طلحة أنه أشهدهم على نفسه أنّه قد وهب حقّه من الشّورى لعثمان، وذلك لعلمه أنّ النّاس لا يعدلون به عليّاً وعثمان وأن الخلافة لا تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب علي عليه السلام بهبة أمر لا انتفاع ولا تمكن له منه، فقال الزّبير في معارضته وأنا أشهدكم على نفسي أنّي قد وهبت حقّي من الشّورى لعلي عليه السلام، وإنّما فعل ذلك لأنّه لما رأى عليّاً عليه السلام قد ضعف وانخذل بهبة طلحة حقّه لعثمان دخلته حميّة النّسب، لأنّه ابن عمّة أمير المؤمنين عليه السلام وهي صفيّة بنت عبد المطلب وأبو طالب خاله، فبقي من السّتة أربعة، فقال سعد بن أبي وقّاص: وأنا قد وهبت حقّي من الشّورى لابن عمّي عبد الرّحمٰن، وذلك لأنّهما من بني زهرة ولعلم سعد أنّ الأمر لا يتمّ له.

فلما لم يبق إلاّ الثّلاثة قال عبد الرّحمٰن لعليّ وعثمان: أيّكما يخرج نفسه من الخلافة ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين؟ فلم يتكلم منهما أحد، فقال عبد الرّحمٰن: إنّي أشهدكم قد أخرجت نفسي من الخلافة على أن أختار أحدهما، فأمسكا، فبدأ بعلي عليه السلام وقال له: أبايعك على كتاب الله وسنّة رسول وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر، فقال: بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي، فعدل عنه إلى عثمان فعرض ذلك عليه، فقال: نعم، فعاد إلى علي عليه السلام فأعاد قوله، فعل ذلك عبد الرّحمٰن ثلاثاً، فلما رأى أنّ عليّاً غير راجع عمّا قاله وأنّ عثمان ينعم له بالإجابة صفق على يد عثمان، وقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين، فيقال: إن عليّاً عليه السلام قال له: «والله ما فعلتها إلاّ لأنّك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه، دقّ الله بينكما عطر منشم»، قيل: ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمٰن فلم يكلم أحدهما صاحبه حتّى مات عبد الرّحمن.

وقال الشارح أيضاً: لما بنى عثمان قصره طمارد الزوراء وصنع طعاماً كثيراً ودعا الناس إليه كان فيهم عبد الرّحمن، فلما نظر إلى البناء والطعام قال: يا ابن عفان لقد صدقنا عليك ما كنا نكذب فيك وإني أستعيذ بالله من بيعتك، فغضب عثمان وقال: أخرجه عني يا غلام، فأخرجوه وأمر الناس أن لا يجالسوه فلم يكن يأتيه أحد إلا ابن عباس كان يأتيه فيتعلم منه القرآن والفرائض، ومرض عبد الرّحمان فعاده عثمان، فكلمه ولم يكلمه حتى مات[1].

أقول: هذا ما رواه الشّارح المعتزلي في قضيّة الشّورى وأتبعه بروايات أخرى لأمهمّ في إطالة الكلام بذكرها، وإنّما المهمّ الإشارة إلى بعض ما يطعن به على عمر في هذه القضيّة من ابداعه في الدين وخروجه عن نهج الحقّ المبين وغير ذلك ممّا لا يخفى على أهل البصيرة واليقين.

(١) بطوله في شرح النهج: ١/١٩٦.

منها مخاطبته القوم ومواجهتهم بمثل تلك الكلمات الكاشفة عن غلظ طبيعته وخشونة مسه وجفوته، وذلك شاهد صدق على ما ذكره عليه السلام سابقاً بقوله: فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسها (ا ه).

ومنها خروجه في هذا الأَمر عن النّص والاختيار جميعاً.

ومنها حصر الشّورى في ستّة وذمّ كلّ واحد منهم بأن ذكر فيه طعناً لا تصلح معه الإمامة ثم أهّله بعد أن طعن فيه.

ومنها نسبة الإمام عليه السلام إلى الدعابة والمزاحة وهو افتراء عليه وظلم في حقّه، ومثل ذلك زعم عمرو بن العاص وكذبه عليه السلام في بعض خطبه الآتية بقوله: عجباً لابن النّابغة يزعم أنّ فيّ دعابة أو أنّي امرء ملعابة. إلى آخر ما يأتي وهو المختار الثّالث والثّمانون.

ومنها جعل الأَمر إلى ستّة ثم إلى أربعة ثم إلى واحد وصفه بالضّعف والقصور.

ومنها ترجيح قول الذين فيهم عبد الرّحمٰن لعلمه بأنّه لا يكاد يعدل بالأَمر عن ختنه وابن عمّه.

ومنها إدخاله عثمان في الشّورى مع دعواه العلم بظهور الفساد والقتل من خلافته وصرف مال الله في غير أهله كما يدلّ عليه قوله: والله لئن فعلوا لتفعلن.

ومنها أمره بقتل الثّلاثة الذين ليس فيهم عبد الرّحمٰن لو أصرّوا على المخالفة ومن المعلوم أنّ مخالفته لا توجب استحقاق القتل.

ومنها أمره بقتل الستة وضرب أعناقهم إن مضت ثلاثة أيّام ولم يتّفقوا، ومن الواضح أن تكليفهم إذا كان الاجتهاد في اختيار الإمام فربّما طال زمان الاجتهاد وربّما قصر بحسب ما يعرض فيه من العوارض، وكيف يسوغ الأَمر بالقتل إذا تجاوزت الثلاثة إلى غير هذه ممّا هي غير خفيّة على أهل البصيرة والمعرفة.

الثالث

في ذكر طائفة من الاحتجاجات التي احتج بها الإمام عليه السلام في مجلس الشورى ومناشداته معهم وتعديد فضائله وذكر خصائصه، وهي كثيرة روتها الخاصّة والعامة في كتبهم ونحن نقتصر على رواية واحدة.

وهو ما رواه الطبرسي في «الاحتجاج» عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال: إنّ عمر بن الخطاب لما حضرته الوفاة وأجمع على الشّورى بعث إلى ستّة نفر من قريش: إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام وإلى عثمان بن عفان وإلى زبير بن

العوام وإلى طلحة بن عبيد الله وعبد الرّحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وأمرهم أن يدخلوا إلى بيت ولا يخرجوا منه حتّى يبايعوا لأحدهم فإن اجتمع أربعة على واحد وأبى واحد أن يبايعهم قتل، وإن امتنع اثنان وبايع ثلاثة قتلا فأجمع رأيهم على عثمان.

فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام ما همّ القوم به من البيعة لعثمان قام فيهم ليتّخذ عليهم الحجة، فقال عليه السلام لهم: «إسمعوا منّي فإن يك ما أقول حقاً فأقبلوا، وإن يك باطلاً فأنكروه» ثم قال عليه السلام: «أنشدكم[1] بالله الذي يعلم صدقكم إن صدقتم ويعلم كذبكم إن كذبتم هل فيكم أحد صلّى القبلتين كلتيهما غيري»؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم من بايع البيعتين كلتيهما بيعة الفتح وبيعة الرضوان غيري؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد أخوه المزين بالجناحين[2] غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد عمّه سيّد الشّهداء غيري»؟ قالوا لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد زوجته سيّدة نساء أهل الجنّة غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد إبناه إبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وهما سيّدا شباب أهل الجنّة غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد عرف النّاسخ من المنسوخ في القرآن غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد أذهب الله عنه الرّجس وطهره تطهيراً غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد عاين جبرئيل في مثال دحية الكلبي غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد أدّى الزّكاة وهو راكع غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد مسح رسول الله صلى الله عليه وآله عينيه وأعطاه الرّاية يوم خيبر فلم يجد حرّاً ولا برداً غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد نصبه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم بأمر الله فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه غيري؟ قالوا: لا، قال: فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد أخو رسول الله في الحضر ورفيقه في السّفر غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد بارز عمرو بن عبدود يوم الخندق وقتله غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلوات الله عليه وآله: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد سمّاه الله تعالى في عشر آيات من القرآن مؤمناً

---

(١) في نسخة: نشدتكم.

(٢) في نسخة: يطير بهما في الجنة.

غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد ناول رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه الكفار فانهزموا غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد وقفت الملائكة يوم أحد حتى ذهب النّاس عنه غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد قضى دين رسول الله ﷺ غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد اشتاقت الجنّة إلى رؤيته غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد شهد وفات رسول الله ﷺ غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد غسّل رسول الله * وكفّنه غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد ورث سلاح رسول الله ﷺ ورايته وخاتمه غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد جعل رسول الله ﷺ طلاق نسائه بيده غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد حمله رسول الله ﷺ على ظهره حتّى كسر الأَصنام على باب الكعبة غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد نودي بإسمه يوم بدر من السّماء: لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ عليّ غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد أكل مع رسول الله ﷺ من الطائر المشويّ الذي أهدي إليه غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت صاحب رايتي في الدّنيا وصاحب لوائي في الآخرة غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد قدّم بين يدي نجويه صدقة غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد خصف نعل رسول الله ﷺ غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ، أنا أخوك وأنت أخي غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ اللّهم ائتني بأحب خلقك[1] إليّ وأقواهم بالحقّ غيري»؟ قالوا[2]: لا قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد استقى مائة دلو بمائة تمر وجاء بالتّمر فأطعمه رسول الله ﷺ وهو جائع غيري»؟ قالوا: اللهم: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد سلّم عليه جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في ثلاثة آلاف من الملائكة[3] يوم بدر غيري»؟ قالوا: اللّهم لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد غمض عين رسول الله ﷺ غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد وحّد الله قبلي

---

(١) في نسخة: الخلق.

(٢) في نسخة: اللهم.

(٣) في نسخة: كل واحد منهم في ألف من الملائكة.

غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد كان أوّل داخل على رسول الله ﷺ وآخر خارج من عنده غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فأنشدتكم بالله هل فيكم أحد مشى مع رسول الله فمرّ على حديقة فقال[1] ما أحسن هذه الحديقة، فقال رسول الله ﷺ وحديقتك في الجنّة أحسن من هذه الحديقة حتّى إذا مرّ[2] على ثلاثة حدائق كل ذلك يقول رسول الله ﷺ حديقتك في الجنّة أحسن من هذه غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت أوّل من آمن بي وأوّل من يصافحني يوم القيامة غيري؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد أخذ رسول الله ﷺ بيده ويد امرأته وابنيه حين أراد أن يباهل نصارى نجران غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أوّل طالع يطلع عليكم من هذا الباب يا أنس فانّه أمير المؤمنين وسيّد المسلمين وخير الوصيين وأولى النّاس بالنّاس فقال أنس: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار فكنت أنا الطالع فقال رسول الله ﷺ لأنس: ما أنت بأوّل رجل أحب قومه غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد أنزل الله فيه وفي ولده:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: ٥٥].

إلى آخر السّورة، غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد أنزل الله فيه:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩].

غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد علمه رسول الله ﷺ ألف كلمة كلّ كلمة مفتاح ألف كلمة غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد نَاجَاهُ رسول الله يوم الطائف فقال أبو بكر وعمر: ناجيت عليّاً دوننا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا ناجيته بل الله أمرني بذلك، غيري»؟ قالوا: لا.

---

(١) في نسخة: فقلت.

(٢) في نسخة: مررت.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد سقاه رسول الله ﷺ من المهراس[(١)] غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله: أنت أقرب الخلق مني يوم القيامة يدخل بشفاعتك الجنّة أكثر من عدد ربيعة ومضر غيري؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت تكسي حين أكسي، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت وشيعتك هم الفائزون يوم القيامة غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: كذب من زعم أنّه يحبني ويبغض هذا، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: من أحبّ شعراتي «هذه خ» فقد أحبّني ومن أحبّني فقد أحب الله، فقيل له: وما شعراتك يا رسول الله؟ قال: عليّ والحسن والحسين وفاطمة، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت خير البشر بعد النبيّين غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت الفاروق تفرق بين الحقّ والباطل غيري»؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت أفضل الخلائق عملاً يوم القيامة بعد النبيّين، غيري؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد أخذ رسول الله ﷺ كساه عليه وعلى زوجته وعلى ابنيه ثم قال: اللّهم أنا وأهل بيتي إليك لا إلى النّار غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد كان يبعث إلى رسول الله ﷺ الطعام وهو في الغار ويخبره بالأخبار غيري»؟ قالوا: لا. قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: لا سر لله دونك، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت أخي ووزيري وصاحبي من أهلي غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت أقدمهم سلماً وأفضلهم علماً وأكثرهم حلماً غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قتل مرحباً اليهودي مبارزة فارس اليهود غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فقال له: أنظرني حتّى ألقى والدي، فقال له رسول الله: يا عليّ فإنّها أمانة عندك، فقلت: فإن كانت أمانة عندي فقد أسلمت غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد احتمل باب خيبر حين فتحه فمشى به مائة ذراع ثم

---

(١) المهراس حجر منقور يدق فيه ويتوضأ.

عالجه بعده أربعون رجلاً فلم يطيقونه، غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢].

فكنت أنا الذي قدّم الصّدقة غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: من سبّ عليّاً فقد سبني ومن سبّني فقد سبّ الله، غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: منزلي مواجه منزلك في الجنّة غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: قاتل الله من قاتلك وعادى الله من عاداك غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد اضطجع على فراش رسول الله ﷺ حين أراد أن يسير إلى المدينة ووقاه بنفسه من المشركين حين أرادوا قتله غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله: أنت أولى النّاس بأمّتي من بعدي غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت يوم القيامة عن يمين العرش والله يكسوك ثوبين أحدهما أخضر والآخر ورديّ غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد صلّى قبل النّاس[1] بسبع سنين وأشهر غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنا يوم القيامة آخذ بحجزة رمي والحجزة النّور وأنت آخذ بحجزتي وأهل بيتي آخذون بحجزتك، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت كنفسي وحبك حبي وبغضك بغضي غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: ولايتك كولايتي عهد عهده إليّ ربّي وأمرني أن أبلغكموه غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: اللهم اجعله لي عوناً وعضداً وناصراً، غيري»؟ قالوا لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: المال يعسوب الظلمة وأنت يعسوب المؤمنين غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ لأبعثنّ اليكم رجلاً امتحن الله قلبه للإيمان غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد أطعمه رسول الله ﷺ رمّانة وقال: هذه من رمّان الجنة لا ينبغي أن يأكل منه إلاّ نبيّ أو وصيّ نبيّ، غيري»؟ قالوا: لا.

(١) في نسخة: مع رسول الله.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ ما سألت ربّي شيئاً إلاّ أعطانيه ولم أسأل ربّي شيئاً إلاّ سألت لك مثله غيري»؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت أقومهم بامر الله وأوفاهم بعهد الله وأعلمهم بالقضيّة وأقسمهم بالسّوية وأعظمهم عند الله مزيّة غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: فضلك على هذه الأمّة كفضل الشّمس على القمر وكفضل القمر على النّجوم، غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: يدخل الله وليّك الجنّة وعدوّك النّار غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: النّاس من أشجار شتّى وأنا وأنت من شجرة واحدة، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنا سيّد ولد آدم وأنت سيّد العرب[1] ولا فخر غيري؟»: قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد رضي الله عنه في الآيتين من القرآن غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: موعدك وموعدي وموعد شيعتك الحوض إذا خافت الأمم ووضعت الموازين، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: اللهم إنّي أحبّه فأحبّه اللهم إنّي أستودعكه غيري»؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت تحاج النّاس فتحجهم بإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإقامة الحدود والقسم بالسّوية، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد أخذ رسول الله ﷺ بيده يوم بدر «غدير خ» فرفعها حتّى نظر النّاس إلى بياض ابطيه وهو يقول: ألا إنّ هذا عليّ بن أبي طالب أخي وابن عمّي ووزيري فوازروه وناصحوه وصدقوه فهو وليّكم غيري»؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

غيري؟ قالوا: لا، قال: «فهل فيكم أحد كان جبرئيل أحد ضيفانه غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فهل فيكم أحد أعطاه رسول الله ﷺ حنوطاً من حنوط الجنّة ثم قال: اقسمه أثلاثاً ثلثاً لي تحنّطني به وثلثاً لابنتي وثلثاً لك، غيري»؟ قالوا: لا.

---

(١) في نسخة: والعجم.

قال: «فهل فيكم أحد كان إذا دخل على رسول الله ﷺ حيّاه وأدناه ورحب به وتهلل له وجهه غيري»؟ قالوا: لا، قال: فهل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ أنا أفتخر بك يوم القيامة إذا افتخرت الأنبياء بأوصيائها، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «فهل فيكم أحد سرحه رسول الله ﷺ بسورة براءة إلى المشركين من أهل مكة بأمر الله غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فهل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: إني لأرحمك من ضغائن في صدور أقوام عليك لا يظهرونها حتّى يفقدونني فإذا فقدوني خالفوا فيها، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «فهل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أدّى الله عن أمانتك أدّى الله عن ذمتك غيري»؟ قالوا: لا، قال: «نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ أنت قسيم النّار تخرج منها من زكى وتذر فيها كل كافر، غيري»؟ قالوا: لا.

قال: «فهل فيكم أحد فتح حصن خيبر وسبى بنت مرحب فأداها إلى رسول الله غيري»؟ قالوا: لا، قال: «فهل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: ترد على الحوض أنت وشيعتك روّاء مرويين مبيضة وجوههم ويردّ عليّ عدوك ظمأ مظمئين مقمحين مسودّة وجوههم غيري»؟ قالوا: لا.

ثم قال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: «أما إذا أقررتم على أنفسكم واستبان لكم ذلك من قول نبيّكم فعليكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأنهاكم من سخطه وغضبه ولا تعصوا أمره، وردّوا الحقّ إلى أهله واتّبعوا سنّة نبيّكم فإنكم إن خالفتم خالفتم الله، فادفعوها إلى من هو أهله وهي له».

قال: فتغامزوا فيما بينهم وتشاوروا وقالوا: قد عرفنا فضله وعلمنا أنّه أحقّ النّاس بها، ولكنّه رجل لا يفضل أحداً على أحد، فإن وليتموها إيّاه جعلكم وجميع النّاس فيها شرعاً سواء، ولكن ولوها عثمان فإنّه يهوى الذي تهوون، فدفعوها إليه[1].

---

(١) بطوله في الإحتجاج: ١/٢٠١ ـ ٢١٠، والبحار: ٣١/٣٣٥ ـ ٣٤٤.

الترجمة

تا هنگامی که درگذشت عمر به راه خود و جان به مالکان دوزخ سپرد گردانید، خلافت را در شش نفر گمان نمود که من یکی از ایشانم، پس خداوند به فریاد من برس از برای شوری! چگونه شك عارض شد به مردم در شأن من با اول ایشان که ابوبکر بود تا این که گشتم مقرون به امثال این اشخاص و لیکن به جهت اقتضاء مصلحت مدارا کردم من با ایشان و نزدیك شدم به زمین در طیران هنگامی که ایشان نزدیك شدند و طیران کردم وقتی که ایشان طیران کردند، پس میل کرد یکی از ایشان از من به جهت حقد و حسد که آن سعد وقاص بود یا طلحه و میل کرد دیگری از آن ها به سوی قرابت زن خود و آن عبدالرحمن بن عوف بود که میل نمود به عثمان به جهت آن که برادرزن او بود و تنها میل آن به سوی او به جهت مصاهرت و قرابت نبود، بلکه با شیء قبیح، (و شیء قبیح که آن بغض و عداوت امیرالمؤمنین (عليه السلام) بود یا طمع در وصول خلافت به او بعد از انقضاء ایام عثمان یا سایر اغراض نفسانیه که اظهار آن قبیح و ذکر آن مستهجن است).

الفصل الرابع

«إِلى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِه وَمُعْتَلَفِهِ، وَقامَ مَعَهُ بَنُو أَبيهِ يَخْضِمُونَ مالَ اللَّهِ تَعالَىٰ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ».

اللغة

(**النفج**) بالجيم الرّفع يقال نفج الثدي الثوب أي رفعه و(**الحضن**) الجنب وما بين الإبط والكشح يقال للمتكبّر جاء نافجاً حضنيه ولمن امتلاء بطنه من الأكل جاء نافجاً حضنيه، والأنسب في المقام الثاني تشبيهاً بالبعير المنتفج الجنبين من كثرة الأكل و(**النثيل**) الروث وفي رواية الصّدوق بين إيله «كذا» وهو بالكسر وعاء القضيب أو نفسه و(**المعتلف**) موضع الإعتلاف وهو أكل الدّابة العلف و(**الخضم**) الأكل بجميع الفم ويقابله القضم وهو الأكل بأطراف الأسنان، يقال خضم الشيء كعلم وضرب أكله بجميع فمه، وعن النّهاية الخضم الأكل بأقصى الأضراس، والقضم بأدناها.

ومنه حديث أبي ذر (ره) وتأكلون خضماً ونأكل قضماً، وقيل: الخضم خاص بالشيء الرّطب، والقضم باليابس و(**النّبتة**) بكسر النّون النّبات يقال: نبت الرّطب نباتاً وأنبته و(**النكث**) النّقض يقال: نكث فلان العهد والحبل فانتكث نفضه فانتفض و(**فتل**) الحبل لواه وبرمه و(**الإجهاز**) إتمام قتل الجريح وإسراعه و(**كبا**) الفرس يكبو سقط على وجهه وكبابه أسقطه و(**البطنة**) بالكسر الكظة وهو الامتلاء من الطعام والإسراف في الأكل.

الإعراب

(**بين نثيله ومعتلفه**) متعلّق بقام أي قام بين روثه ومعتلفه، وجملة (**يخضمون**) منصوب المحلّ على الحالية.

المعنى

لما ذكر عليه السلام خلافة الثّاني ونبّه على جعله الخلافة شورى بين السّتة وأشار إلى عدول بعض هؤلاء عن منهج الصّواب، أتبعه بما ترتّب على ذلك وهو خلافة الثّالث بقوله: (**إلى أن قام ثالث القوم**) والمراد بالقيام الحركة في تولي أمر الخلافة، وثالث القوم هو عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان أبوه عفّان ممّن يضرب بالدّف ويتخنّث به ويلعب، رواه العلامة في كشف الحقّ ومؤلف كتاب «**إلزام النواصب**» عن هشام بن محمّد بن السّائب الكلبي، هذا.

وأثبت ﷺ له حالاً يستلزم تشبيهه بالبعير واستعار له صفته بقوله: **(نافجاً حضنيه)** أي نافجا جنبيه ورافعاً ما بين إبطه وكشحه من كثرة الأكل والشرب كالبعير المنتفج الجنبين **(بين نثيله ومعتلفه)** أي قام بالأمر وكانت حركته بين روثه ومعتلفه يعني لم يكن همّه إلاّ الأكل والرّجيع كالبهائم التي لا اهتمام لها إلاّ بالأكل والرّوث قال الشّارح المعتزلي: وهذا من أمضّ الذّم وأشدّ من قول الحطية الذي قيل إنّه أهجى بيت للعرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي

هذا والمعنى على رواية الصّدوق أنّ قيامه كان بين منكحه ومطعمه وبالجملة فالمقصود أنّ همّه لم يكن إلاّ بطنه وفرجه والتّرفه بالمال وإصلاح مصالح نفسه وإعمال دواعي خاطره من دون أن يكون له قيام بمصالح المسلمين وتوجّه إلى إصلاح أمور الخلافة ومراعاة لوازم الولاية **(وقام معه بنو أبيه)** أراد بهم بني أميّة فإنّهم قاموا معه حال كونهم **(يخضمون مال الله)** ويأكلونه بأقصى أضراسهم.

وهو كناية عن كثرة توسّعهم بمال المسلمين وشدّة أكلهم من بيت المال من غير مبالاة لهم فيه **(كخضم الإبل)** وأكلها بجميع فمها **(نبتة الرّبيع)** ونباته، ووجه الشّبه أنّ الإبل لمّا كانت تستلذّ نبت الرّبيع بشهوة صادقة وتملاء منه أحناكها وذلك لمجيئه عقيب يبس الأرض وطول مدّة الشّتاء، كان ما أكله أقارب عثمان من بيت المال مشبهاً بذلك، لإستلذاذهم به وانتفاعهم منه بعد طول فقرهم، وامتداد ضرّهم، وذلك الكلام منه ﷺ خارج معرض التّوبيخ والذّم إشارة إلى ارتكابه معهم مناهي الله المستلزم لعدم قابليّته للخلافة واستعداده للإمامة.

قال الشّارح المعتزلي: وصحت فيه فراسة عمر فإنّه أوطأ بني أميّة رقاب النّاس وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع وافتتحت أرمينيّة في أيامه فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان، وطلب إليه عبد الله بن خلد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم، وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أنّ رسول الله ﷺ قد سيّره ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر وأعطاه مائة ألف درهم، وتصدق رسول الله ﷺ بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهروز على المسلمين فأقطعها عثمان الحرث بن الحكم أخا مروان بن حكم، وأقطع مروان فدك وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفات أبيها صلوات الله عليه تارة بالميراث وتارة بالنحلة فدفعت عنها، وحمى المراعي حول المدينة كلها عن مواشي المسلمين كلّهم إلاّ عن بني أميّة.

وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقيّة بالمغرب وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوّجه ابنته أمّ أبان فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت

المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي إن وصلت رحمي؟ قال: لا، ولكن أبكي لأنّي أظنك أخذت هذا المال عوضاً عمّا كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً فقال: ألق المفاتيح فإنا سنجد غيرك، وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة فقسّمها كلها في بني أميّة، وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنة، انتهى[1].

وقال السّيد المرتضى (قده) في محكى «الشافي»: روى الواقدي بإسناده عن المسود بن عنبسة قال: سمعت عثمان يقول: إنّ أبا بكر وعمر كانا يناولان في هذا المال طلاق أنفسهما وذوي أرحامهما وإني ناولت فيه صلة رحمي، وروى إنّه كان بحضرته زياد بن عبيد مولى الحرث بن كلدة الثقفي وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البصرة فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصّحاف، فبكى زياد فقال: لا تبك فان عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي ولدي وأهلي وقرابتي ابتغاء وجه الله[2].

وقد روى هذا المعنى عنه من عدّة طرق بألفاظ مختلفة، وروى الواقدي أيضاً قال قدمت إبل من إبل الصّدقة على عثمان فوهبها للحرث بن الحكم بن أبي العاص، وروى أيضاً أنّه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف فوهبها له حين أتاه بها.

وروى أبو مخنف والواقدي أنّ النّاس أنكروا على عثمان أعطاه سعد بن العاص مائة ألف وكلمه علي عليه السلام والزّبير وطلحة وسعد وعبد الرّحمٰن في ذلك فقال: إن له قرابة ورحماً، قالوا: وما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذو رحم؟ فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي، قالوا فهديهما والله أحب إلينا من هديك.

وروى أبو مخنف أنّ عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أميّة قدم على عثمان من مكّة ومعه ناس أمر لعبد الله بثلاثمائة ألف ولكلّ واحد من القوم بمائة ألف وصك بذلك على عبد الله بن الأرقم وكان خازن بيت المال فاستكثره ورد الصّك به، ويقال: إنه سأل عثمان أن يكتب عليه بذلك كتاباً فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفع المال إلى القوم، فقال له عثمان: إنّما أنت خازن لنا فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن الأرقم: كنت أراني خازن المسلمين وإنّما خازنك غلامك والله لا آل لك بيت المال أبداً، وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر، ويقال: بل ألقاها إلى عثمان فدفعها إلى نائل مولاه.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٩، والغدير: ٨/ ٢٦٠.

(٢) راجع الصراط المستقيم: ٣/ ٣٢، والشافي: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

وروى الواقدي أنّ عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم في عقيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم، فلما دخل بها عليه قال له: يا أبا محمّد إنّ أمير المؤمنين أرسل إليك يقول قد شغلناك عن التّجارة ولك رحم أهل حاجة ففرّق هذا المال فيهم واستعن به على عيالك، فقال عبد الله بن الأرقم مالي إليه حاجة وما عملت لأن يثيبني عثمان والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قدر عملي أن أعطي ثلثمائة ألف، ولئن كان مال عثمان فما لي إليه حاجة[١].

والحاصل أنه قد كان يصرف مال الله على نفسه وعلى أقاربه وأصهاره، وكان مستمرّاً في إتلاف بيت مال المسلمين مستبداً برأيه في ذلك.

وأنضم إليه أمور أخرى من تسيير أبي ذر إلى ربذة، وضرب عبد الله بن مسعود حتّى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب، والعدول عن جادّة الشّريعة في إقامة الحدود وردّ المظالم وكفّ الأيدي العادية والانتصاب لسياسة الرّعيّة.

(إلى أن) ضاق له المخرج وعمى المصدر وانجرّ الأمر إلى اجتماع أهل المدينة عليه مع جماعة من أهل مصر **(فانتكث)** أي انتقض **(عليه فتله)** أي برم حبله وهو كناية عن انتقاض تدابيره المبرمة ورجوعها إليه بالفساد وتأديتها إلى الهلاك **(وأجهز عليه)** أي أسرع إليه بالقتل بعد كونه مجروحاً **(عمله)** أي أعماله الشّنيعة وأفعاله القبيحة التي صارت سبباً لقتله ففي الاسناد توسّع **(وكبت به)** أي أسقطته على وجهه **(بطنته)** وإسرافه في الشّبع كالجواد الذي يكبو من كثرة الأكل والإمتلاء والكظة، وهذه كلها إشارة إلى تأدي حركاته الشّنيعة إلى سوء الخاتمة.

وقد قتل وانتقل إلى الحامية في اليوم الثّامن عشر من ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين من الهجرة، وذلك بعدما غصب الخلافة اثنتي عشرة سنة إلاّ إثنى عشر يوماً، وقيل إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً، وقيل ثمانية عشر يوماً، وقد كان بعد قتله مطروحاً في خندق اليهود إلى ثلاثة أيّام لا يستحلّ أحد دفنه ولا يقدم أحد على ذلك خوفاً من المهاجرين والأنصار حتّى نهبه بنو أميّة ودفنوه، وقيل: كان مطروحاً في مزبلة اليهود ثلاثة أيّام حتّى أكلت الكلاب إحدى رجليه فاستأذنوا عليّاً عليه السلام فأذن في دفنه ودفن في حش كوكب وهي مقبرة كانت لليهود بالمدينة، فلمّا ولى معاوية وصلها بمقابر أهل الإسلام، ويأتي تفصيل الكلام في كيفية قتله في شرح الكلام الثلاثين إن شاء الله، هذا.

والعجب أن الشّارح المعتزلي بعد ذكره ما حكينا عنه سابقاً في ذيل قوله عليه السلام:

---

(١) راجع البحار: ٣١/ ٢٢٠، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ٣/ ٣٦، والغدير: ٨/ ٢٧٧.

«يخضمون مال الله» (ا ه)، قال: وقد أجاب أصحابنا عن المطاعن في عثمان بأجوبة مشهورة في كتبهم والذي نقول نحن: إنّها وإن كانت أحداثاً إلاّ أنّها لم تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها ولا يعجلوا بقتله[1].

أقول: وهذا الكلام منه صريح في عدم قابليته للخلافة ومع ذلك لا يكاد ينقضي عجبي منه كيف يجعله ثالث الخلفاء ويعتقد بخلافته؟ وما ذلك إلاّ من أجل أنّهم «ألفوا آبائهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون».

الترجمة

تا آن كه ايستاد و متولى خلافت گرديد سوم قوم كه عثمان بن عفان عليه النيران بود در حالتى كه بادكننده بود هردوجانب خود را از كثرت كبر و غرور يا از زيادتى اكل و شرب. ايستاد او در ميان سرگين يا در ميان ذكر خود و موضع علف آن؛ يعنى همت او مصروف به خوردن و آشاميدن و سرگين انداختن بود مثل بهائم و ايستادند با او فرزندان پدر او يعنى بنى اميه در حالتى كه مى خوردند با جميع دهان خودشان مال خدا را با لذت و رفاهيت مثل خوردن شتر به همه دهان خود علف بهار را و مستمر بودند بر اين حالت تا اين كه باز شد تاب ريسمان تابيده او و به كشتن شتاب نمود بعد از جراحت بسيار كردار ناپسنديده او و به رويش افكند كثرت اكل و شدت امتلاء او.

(١) راجع شرح النهج: ٣/ ٣٧.

الفصل الخامس

«فَما راعَني إِلاّ وَالنّاسُ إِلَيّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ يَنثالُون عَلَيّ حَتّى لَقَدْ وُطِىءَ الْحَسَنانِ، وَشُقَّ عِطْفايَ مُجْتَمِعينَ حَوْلي كَرَبيضَةِ الْغَنَم، فَلَمّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرى، وَفَسَقَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللّهَ تَعالى يَقُولُ: «تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، بَلى وَاللّهِ لَقَدْ سَمِعُوها وَوَعَوْها، وَلَكِنَّهُ «لٰكِنَّهُمْ خ» حَلِيَتْ الدُّنْيا في أَعْيُنِهِمْ وَراقَهُمْ زِبْرِجُها».

اللغة

(**راعني**) الشّيء روعاً من باب قال أفزعني وروّعني مثله وراعني جماله أعجبني، وفي «**شرح المقامات**» عن الأزهري ما راعني إلاّ مجيئك أي ما شعرت إلاّ بمجيئك كأنّه قال: ما أصاب روعي إلاّ لذلك، وهذا كلام يستعمل في مفاجاة الأمر ألا ترى أنه يعاقب إذا المفاجأة تقول: خرجنا فإذا زيد بالباب وخرجت فما راعني إلاّ فلان بالباب و(**عرف**) الدّابّة شعر عنقها وعرف الضّبع يضرب به المثل في الازدحام و(**الثول**) صبّ ما في الإناء وانثال انصبّ وانثال عليه القول تتابع وكثر فلم يدر بأيّة يبدأ.

وقال المطرزي في «**شرح المقامات**» للحريري: الانثيال الاجتماع والانصباب انفعال من الثول وهو جماعة النّحل ومن قولهم: ثويلة من النّاس، أي جماعة من بيوت متفرّقة يقال: منه انثالوا عليه وتثولوا أي اجتمعوا وانثال التّراب انصب ومنه انثال عليه النّاس من كلّ وجه أي انصبّوا، انتهى، و(**عطف**) الشّيء جانبه والعطفان الجانبان.

وفي بعض النّسخ وشقّ عِطافي وهو بالكسر الرّداء وهو أنسب و(**الرّبيض والرّبيضة**) الغنم برعاتها المجتمعة في مرابضها و(**النّكث**) النّقض و(**المروق**) الخروج يقال مرق السّهم من الرمية مروقاً من باب قعد خرج منه من غير مدخله ومنه قيل: مرق من الدّين أيضاً إذا خرج منه و(**فسق**) الرّجل فجر وفي بعض النّسخ قسط وهو من باب ضرب جار وعدل من الأضداد والمراد به هنا الأوّل و(**وعى**) الحديث وعياً من باب وعد حفظه و(**حلى**) الشّيء بعيني وبصدري يحلى من باب تعب حسن عندي وأعجبني و(**راقني**) الشّيء أعجبني و(**الزبرّج**) الزّينة والذّهب.

الإعراب

فاعل (**راعني**) محذوف مدلول عليه بالفعل، وجملة و(**النّاس إليّ**) حاليّة مبينة لهيئة المفعول ومفسّرة للمستثنى المحذوف، (**وإليّ**) متعلق بمحذوف تقديره (**والنّاس رسل إليّ**) وقد صرّح به في رواية «**الاحتجاج**»، وكون الجملة مفسّرة للمحذوف نظير قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: ٣٥].

قال الزّمخشري في «**الكشّاف**»: فاعل (**بدا**) مضمر لدلالة ما يفسّره عليه وهو ليسجننّه والمعنى بدا لهم بداء أي ظهر لهم رأي ليسجننّه (ا ه)، وتقدير كلام الإمام عليه السلام على ما ذكرنا: (**ما راعني رائع إلاّ حالة**) أعني كون النّاس رسلاً إليّ والرّسل بفتحتين القطيع من الإبل والجمع أرسال مثل سبب وأسباب ويشبه به النّاس فيقال: (**جاؤوا أرسالاً**) أي جماعات متتابعين، وجملة (**ينثالون**) إمّا خبر بعد خبر للنّاس، أو حال بعد حال ومجتمعين حال من فاعل ينثالون.

المعنى

إعلم أنّه عليه السلام لما ذكر خلافة المتخلّفين الثّلاثة وبيّن حال أيّام خلافتهم وأشار إلى ما ابتلى به النّاس في تلك الأيام، شرع في بيان كيفيّة انتقال الأَمر إليه عليه السلام ظاهراً كما كان له باطناً وكان ذلك في شهر ذي الحجّة يوم الجمعة بعد ما مضى من الهجرة خمس وثلاثون سنة فقال عليه السلام (**فما راعني**) رائع (**إلاّ**) حالة (**و**) هو كون (**النّاس**) متتابعين (**إليّ**) متزاحمين (**كعرف الضّبع ينثالون عليّ**) يتتابعون ويكثرون القول (**من كلّ جانب حتى لقد وطيء الحسنان**) الحسن والحسين صلوات الله عليهما من شدّة الإزدحام.

وعن المرتضى (قده) أنّ أبا عمر محمّد بن عبد الواحد غلام ثعلب روى في قوله عليه السلام (**وطيء الحسنان**) أنّهما الابهامان «وأنشد للشّنفر مهضومة[1] الكشحين خرماء الحسن «كذا» وروى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنّما كان يومئذٍ جالساً محتبياً وهي جلسة رسول الله صلى الله عليه وآله المسمّاة بالقُرفصاءِ وهي جمع الركبتين وجمع الذّيل، فلمّا اجتمعوا ليبايعوه زاحموه حتّى وطئوا ابهاميه وشقّوا ذيله بالوطيء ولم يعن الحسن والحسين عليهما السلام وهما رجلان كسائر الحاضرين.

وكيف كان فالمقصود بهذه الجملة الإشارة إلى كثرة تزاحم النّاس عليه عليه السلام وقد أكده ثانياً بقوله: (**وشقّ عطفاي**) أراد بشقّ عطفيه خدش جانبيه لشدّة الإصطكاك منهم والزّحام، أو شقّ جانبي قميصه بعلاقة المجاورة، أو جانبي ردائه، ويؤيّده الرّواية الأخرى أعني شقّ عِطافِي كما في بعض النسخ، هذا.

وشقّهم عطفيه عليه السلام أو عطافه إمّا لكثرة فرحهم به عليه السلام، أو جرياً على ما هو عادتهم من قلة مراعاة شرائط التّوقير والأَدب في المعاشرات والمخاطبات (**مجتمعين حولي كربيضة الغنم**) المجتمعة في مرابضها (**فلما نهضت بالأَمر**) وقمت به بعد مضيّ السّنين المتطاولة (**نكثت طائفة**) ونقضت بيعتها، والمراد بها أصحاب الجمل وقد كان عليه السلام يتلو وقت مبايعتهم:

(١) الهضم محركة خمص البطن ولطف الكشح وقلة انفجار الجنبين.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠].

(ومرقت) طائفة (أخرى) أي خرجت من الدّين كمروق السّهم من الرّمية، والمراد بها أصحاب النهروان (وفسق آخرون) بخروجهم على الإمام العادل وتعدّيهم عن سنن الحقّ، وهم معاوية وأتباعه، وفي بعض النّسخ وقسط آخرون أي جاروا في حقّ أمير المؤمنين وظلموا آل محمّد عليهم السلام حقّهم، وتسميتهم بالقاسطين كتسمية الأولين بالنّاكثين والمارقين ممّا سبقت من النّبي ﷺ عند إخباره ﷺ بالملاحم والوقائع التي تكون بعده صلوات الله عليه.

روى في **«غاية المرام»** من **«أمالي الشيخ»** بإسناده عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله الصّادق عن أبيه عن جده عليهم السّلام قال: بلغ أمّ سلمة زوج النّبي لله ﷺ أنّ مولى لها ينتقص عليّاً ﷺ ويتناوله، فأرسلت إليه فلمّا صار إليها قالت له: يا بنيّ بلغني أنّك تنقص عليّاً وتتناوله؟ قال: نعم يا أمّاه، قالت له: اقعد ثكلتك أمّك حتّى أحدّثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، ثم اختر لنفسك.

إنّا كنّا عند رسول الله ﷺ ليلة تسع نسوة وكانت ليلتي ويومي من رسول الله ﷺ فأتيت الباب فقلت: أدخل يا رسول الله؟ قال: لا، فكبوت كبوة شديدة مخافة أن يكون ردّني من سخطه أو نزل فيّ شيء من السّماء.

ثم البث «كذا» حتّى أتيت الباب الثّاني فقلت: أدخل يا رسول الله؟ فقال: لا، فكبوت كبوة أشدّ من الأولى ثم البث «كذا» حتّى أتيت الباب الثالث فقلت: أدخل يا رسول الله؟ فقال: «أدخلي يا أمّ سلمة» فدخلت وعليّ ﷺ جالس بين يديه وهو يقول: «فداك أبي وأمّي يا رسول الله إذا كان كذا وكذا فما تأمرني»؟ قال: «آمرك بالصّبر»، ثمّ أعاد عليه القول ثانية فأمره بالصّبر، فأعاد عليه القول الثالثة فقال له: «يا علي يا أخي إذا كان ذلك منهم فسلّ سيفك وضعه على عاتقك واضرب قدماً قدماً حتّى تلقاني وسيفك شاهر يقطر من دمائهم».

ثمّ إلتفت ﷺ إليّ فقال لي: «تالله ما هذه الكآبة يا أمّ سلمة»؟ قلت: الذي كان من ردّك إيّاي يا رسول الله، فقال لي: «والله ما رددتك من موجدة وإنّك لعلى خير من الله ورسوله، ولكن أتيتني وجبرائيل يخبرني بالأحداث التي تكون بعدي فأمرني أن أوصي بذلك عليّاً.

يا أمّ سلمة إسمعي واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب أخي في الدّنيا وأخي في الآخرة.

يا أمّ سلمة اسمعي واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب حامل لوائي في الدّنيا وحامل لواء الحمد غداً في القيامة.

يا أمّ سلمة اسمعي واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب وصيّي وخليفتي من بعدي وقاضي عداتي والذّائد عن حوضي.

يا أمّ سلمة اسمعي واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب سيّد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغرّ المحجلين وقاتل النّاكثين والقاسطين والمارقين»، قلت: يا رسول الله من النّاكثون؟ قال: «الذين يبايعونه بالمدينة وينكثون بالبصرة، قلت: من القاسطون»؟ قال: معاوية وأصحابه من أهل الشّام، قلت: من المارقون؟ قال: أصحاب النّهروان، فقال مولى أمّ سلمة: فرّجت عني فرّج الله عنك والله لا سببت عليّاً أبداً، هذا[١].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة تأتي في مواقعها إن شاء الله، ثم إنّه عليه السلام شدّد النكير على الجماعة في مخالفتهم له وإعراضهم عنه بقوله: (**كأنّهم لم يسمعوا الله تعالى يقول**: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] لما كانت الآية دالة على كون إستحقاق الآخرة معلقاً على عدم إرادة العلوّ والفساد كان اللاّزم على من سمعها وتدبر فيها إن كان ذا عقل أن لا يريدهما، وهؤلاء الجماعة لما علوا في الأرض وأفسدوا فيها وخالفوا الإمام العادل وتركوا متابعته لا جرم شبّههم بمن لم يسمعها لما ذكرنا من أن لازمة السّماع ترك إرادتهما.

ثمّ دفع توهم الإعتذار عنهم بعدم السّماع لو اعتذر به بقوله: (**بلى والله لقد سمعوها ووعوها**) مؤكداً بالقسم (**واللاّم**) كلمة التّحقيق، ثم إستدرك ذلك بالإشارة إلى سرّ عدم حصول ثمرة السّماع بعد حصول نفسه بقوله: (**ولكنّهم حليت الدّنيا في أعينهم وراقهم زبرجها**) فكان ذلك هو المانع عن ترتّب ثمرة السّماع عليه والباعث على إعراضهم عن الدّار الآخرة والسّبب لاشترائهم الضّلالة بالهدى ولسعيهم في الأرض بالعلوّ والفساد.

وحاصل الكلام أنّ سماع الآية مقتض لعدم إرادة العلوّ والفساد ويترتّب عليه مقتضاه لو لم يصادف وجود المانع، وأمّا مع المصادفة له كما في حقّ هؤلاء الجماعة حيث افتتنوا بالدّنيا وأعجبهم ذهبها وزينتها فيبقى المقتضي على اقتضائه ولا يترتّب عليه آثاره، هذا.

والضّمائر الأربعة في قوله: ولكنّهم، ولم يسمعوا، وسمعوا، ووعوا، إمّا راجعة إلى الطوائف الثلاث: النّاكثين والمارقين والقاسطين وهو الأقرب لفظاً والأنسب معنى والأظهر لمن تدبّر، أو إلى الخلفاء الثلاثة على ما استظهره المحدث المجلس (قده) معللاً بأنّ الغرض من الخطبة ذكرهم لا الطوائف، وبأنّه المناسب لما بعد الآية لا سيّما في سمعوها، ووعوها، ضمير الجمع.

بقي الكلام في معنى الآية الشّريفة وبعض ما تضمّنها من النكات واللطائف فأقول: المشار إليها في الآية هي الجنّة، والإشارة إلى التعظيم والتفخيم، يعني تلك التي سمعت

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ٤٦٤ ح ٦٢٠، ومعاني الأخبار: ٢٠٤.

بذكرها وبلغك وصفها، والمراد بالعلوّ في الأرض هو التّجبر والتكبّر على عباد الله والاستكبار عن عبادة الله، وبالفساد الدّعاء إلى عبادة غير الله أو أخذ المال وقتل النفس بغير حقّ أو العمل بالمعاصي.

روى في **«مجمع البيان»** عن راوان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان يمشي في الأسواق وحده وهو دالّ[1] يرشد الضّال ويعين الضّعيف ويمرّ بالبائع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتّواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر النّاس[2].

وفي **«غاية المرام»** عن أبي الحسن الفقيه ابن المغازلي الشّافعي في مناقبه بإسناده عن زاوانٍ أيضاً قال: رأيت عليّاً عليه السلام يمسك الشسوع بيده ثم يمرّ في الأسواق فيناول الرّجل الشّسع ويرشد الضّال ويعين الحمّال على الحمولة ويقرأ هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] الآية، ثم يقول: هذه الآية نزلت في الولاة وذوي القدرة من النّاس[3].

وفي **«مجمع البيان»** عن أبي سلام الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ الرّجل ليعجبه شراك نعله» فيدخل في هذه الآية، وقريب منه ما في **«الكشّاف»**، قال الطبرسي: يعني أنّ من تكبّر على غيره بلباس يعجبه فهو ممّن يريد علوّاً في الأرض وقيل: إنّ الآية لما كانت بعد قصّة قارون وقبل قصّة فرعون، كان العلوّ إشارة إلى كفر فرعون لقوله تعالى:

﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤٤] والفساد إلى بغي قارون لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4] [القصص: ٧٧].

ففي كلام الإمام عليه السلام يحتمل كون الأوّل إشارة إلى الأوّلين والثّاني إلى الثّالث أو الجميع إليهم جميعاً، وعلى ما استظهرناه فالأظهر كون الأوّل إشارة إلى طلحة وزبير وأتباعهما ومعاوية وأصحابه والثّاني إلى أصحاب النّهروان، ويحتمل الإشارة فيهما إلى جميعهم، هذا.

ويقي هنا شيء وهو أنّه سبحانه لم يعلق الموعد في الآية الشريفة بترك العلوّ والفساد لكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما علق الوعيد بالرّكون في قوله:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

---

(١) في المناقب: ذاك.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٧/ ٤٦٤، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٧٢.

(٣) العمدة: ٣٠٨ ح ٥١١.

(٤) راجع جامع البيان للطبري: ٢٠/ ١٤٩، ومجمع البيان للطبرسي: ٧/ ٤٦٤.

فيدل على قبح إرادة السّوء وكونها معصية ويستفاد ذلك أيضاً من قوله سبحانه:
﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].
وقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وهو المستفاد من الأخبار المستفيضة مثل قوله ﷺ: «إنّما يحشر النّاس على نيّاتهم»، وقوله ﷺ: **نية الكافر شرّ من عمله**»، وما ورد من تعليل خلود أهل النّار فيها وأهل الجنّة في الجنّة بعزم كلّ منهما على الثّبات على ما كانوا عليه من المعصية والطاعة لو كانوا مخلدين في الدّنيا إلى غير هذه ممّا رواها المحدث الشيخ الحرّ في أوائل الوسائل، وإلى ذلك ذهب جمع من الأصحاب منهم العلامة وابن إدريس وصاحب المدارك وشيخنا البهائي والمحقّق الطوسي في **«التّجريد»**، إلاّ أنّ المستفاد من الأخبار الأخرى هو العفو عن نيّة السّوء وأنّها لا تكتب وهي كثيرة أيضاً رواها في **«الوسائل»**، وهو مذهب شيخنا الشّهيد في القواعد، قال في محكي كلامه: لا يؤثر نيّة المعصية عقاباً ولا ذماماً لم يتلبس بها وهو ممّا ثبت في الأخبار العفو عنه، انتهى[١].

وقد جمع شيخنا العلامة الأنصاري طاب رمسه بينهما بحمل الأدلة الأول على من اشتغل بعد القصد ببعض المقدمات، والثّانية على من اكتفى بمجرّد القصد أو حمل الأوّل على من بقي على قصده حتّى عجز عن الفعل لا باختياره، وحمل الآخر على من ارتدع عن قصده بنفسه.

وربّما يجمع بينها بحمل أخبار العفو على نيّة المسلم وأخبار العقوبة على نيّة الكافر، أو حمل النّفي على عقوبة الآخرة والإثبات على عقوبة الدّنيا، أو حمل النّفي على فعليّة العقاب والإثبات على الاستحقاق، أو حمل النّفي على عقوبة السّيئة التي همّ بها فلا يكون عقوبة القصد كعقوبة العمل وحمل أخبار العقوبة على ثبوتها في الجملة، إلى غير هذه من المحامل ممّا لا يخفى على الفطن العارف، والله العالم بحقائق أحكامه.

(١) راجع فرائد الأصول للأنصاري: ١/ ٤٩.

الترجمة

پس تعجب نیاورد مرا تعجب آورنده مگر حالت پیاپی آمدن مردم به سوی من به جهت عقد بیعت مثل یال کفتار، در حالتی که تزاحم می کردند بر من از هر طرف، حتی این که به تحقیق پایمال گردانیده شدند حسن و حسین(علیهما السلام) و شکافته شد دو طرف پیراهن من یا عبای من از کثرت ازدحام در حالتی که مجتمع بودند گرداگرد من مثل گله گوسفند، پس زمانی که برخاستم به امر خلافت شکستند طایفه عهد بیعت مرا و خارج شدند طایفه دیگر از جاده شریعت مثل خروج تیر از کمان و فاسق شدند طایفه سیّم، گویا نشنیده اند آن ها خداوند تعالی را که می فرماید در قرآن مجید خود که "این دار آخرت است می گردانیم آن را به جهت کسانی که اراده نمی کنند بلندی را در زمین و نه فساد و فتنه را و عاقبت به خیر متقین و پرهیزکاران راست" . بلی به خدا قسم که به یقین شنیده اند این آیه را و حفظ کرده اند آن را و لیکن زینت داده شده است دنیا در نظر آن ها و تعجب آورده است زینت و زر دنیای فانی ایشان را.

الفصل السادس

«أَمَا وَالَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَما أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَماءِ أَنْ لاَ يُقارُّوا عَلى كِظَّةِ ظالِمٍ، وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَها عَلى غارِبِها، وَلَسَقَيْتُ آخِرَها بِكَأْسِ أَوَّلِها، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[(١)].

اللغة

(الفلق) الشقّ قال تعالى: فالق الحبّ والنّوى **(وبرأ)** أي خلق قيل: وقلّما يستعمل في غير الإنسان و**(النسمة)** محرّكة الإنسان أو النفس والرّوح، وقد يستعمل فيما عدا الإنسان و**(قارّه)** مقارّة قرّ معه وقيل إقرار كلّ واحد صاحبه على الأمر وتراضيهما به و**(الكظة)** ما يعتري الإنسان من الامتلاء من الطعام و**(السغب)** بالتّحريك الجوع و**(الغارب)** أعلى كتف النّاقة و**(الزّهد)** خلاف الرّغبة والزّهيد القليل و(العطفة) قال ابن الأثير: الضّرطة، وقال الشّارح المعتزلي: عفطة عنز ما تنثره من أنفها وأكثر ما يستعمل ذلك في النعجة، فأما العنز فالمستعمل الأشهر فيها النفطة **(بالنون)** ويقولون: ما له عافط ولا نافط أي نعجة ولا عنز، ثم قال:

فإن قيل: أيجوز أن يقال العفطة هنا الحبقة؟ فإن ذلك يقال في العنز خاصّة عفطت[(٢)] تعفط.

قيل: ذلك جائز إلاّ أن الأحسن والأليق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام التفسير الأوّل، فإن جلالته وسؤدده يقتضي أن يكون ذلك أراد لا الثاني فإن صحّ أنّه لا يقال في العطسة عفطة إلاّ للنعجة، قلنا إنه عليه السلام استعمله في العنز مجازاً.

الإعراب

كلمة (ما) في قوله: **(وما أخذ الله)** مصدريّة والجملة في تأويل المصدر معطوفة على الحضور أو موصولة والعائد محذوف وعلى الأوّل فجملة **(أن لا يقارّوا)** في محل النّصب مفعولاً لأخذ، وعلى الثاني بيان لما أخذه الله بتقدير حرف جرّ أو نفس **(أن)** تفسيريّة على حدّ قوله تعالى:

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ [ص: ٦].

(١) علل الشرائع: ١/ ١٥١.

(٢) عفطت: أي ضرطت.

على ما ذهب إليه بعضهم، ويحتمل أن يكون بدلاً أو عطف بيان.

المعنى

لما ذكر عليه السلام حاله مع القوم وحالهم معه من غصب الأوّل للخلافة وإدلائه بها بعده إلى الثاني وجعله لها بعده شورى وإقرانه له عليه السلام إلى النّظائر المذكورين وإنتهائها إلى ثالث القوم ونبّه على خلاف النّاكثين والقاسطين والمارقين له عليه السلام بعد قبوله الخلافة ونهوضها، أردف ذلك كله ببيان العذر الحامل له على قبول هذا الأمر بعد عدوله عنه إلى هذه الغاية وقدم على ذلك شاهد صدق على دعواه بتصدير كلامه بالقسم العظيم فقال:

(أما والذي فلق الحبّة) أي شقّها وأخرج النّبات منها بقدرته الكاملة **(وبرأ النّسمة)** أي خلق الإنسان وأنشأه بحكمته التّامة الجامعة **(لولا حضور الحاضر)** للبيعة من الأنصار والمهاجر أو حضور الوقت الذي وقّته رسول الله صلى الله عليه وآله لقيامه بالنّواهي والأوامر **(وقيام الحجّة)** **عليه** عليه السلام **(بوجود النّاصر)** والمعين **(و)** لولا **(ما أخذه الله على العلماء)** أي الأئمة عليهم السّلام أو الأعم من **(أن لا يقارّوا)** ولا يتراضوا ولا يسكنوا **(على كظة ظالم)** وبطنته **(ولا سغب مظلوم)** رجوعه وتعبه، والكظة كناية عن قوّة ظلم الظالم والسغب كناية عن شدّة مظلوميّة المظلوم والمقصود أنّه لولا أخذ الله على أئمة العدل وعهده عليهم عدم جواز سكوتهم على المنكرات عند التمكن والقدرة **(لألقيت حبلها)** أي زمام الخلافة **(على غاربها)** شبّة الخلافة بالنّاقة التي يتركها راعيها لترعى حيث تشاء ولا يبالي من يأخذها وما يصيبها، وذكر المغارب وهو ما بين السّنام والعنق تخييل وإلقاء الحبل ترشيح **(ولسقيت آخرها بكأس أولها)** أي تركتها آخراً كما تركتها أوّلاً وخليت النّاس يشربون من كأس الحيرة والجهالة بعد عثمان ويعمهون في سكرتهم كما شربوا في زمن الثلاثة **(ولألفيتم دنياكم هذه)** التي رغبتم فيها وتمكن حبها في قلوبكم **(أزهد عندي)** وأهون **(من عفطة عنز)** أي ضرطتها أو عطستها.

الترجمة

آگاه باش ای طالب منهج قویم و سالك صراط مستقیم ، قسم بآن خداوندی که دانه را شکافت بقدرت کامله و انسان را خلق فرمود بحکمت بالغه ، اگر نمی بود حضور حاضرین از برای بیعت و قائم شدن حجت بر من بجهت وجود یاری کنندگان و آن چیزی که اخذ فرمود آن را خداوند بر علماء که قرار ندهند با یکدیگر و راضی نشوند بر امتلاء ستمکار و نه بر گرسنگی ستم رسیده ، هر آینه میانداختم افسار خلافت را بر کوهان آن و هر آینه سیراب می‌کردم آخرخلافت را با جام اوّل آن ، وهر آینه می‌یافتیددنیای‌خودتان راکه بآن‌مینازید ودین خود را که در طلب آن میبازید ، بی مقدارتر در نزد من از جیفۀ بز یا از عطسه آن

الفصل السابع

قالُوا: «وَقامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّوادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلىٰ هَذَا الْمَوْضَعِ مِنْ خُطْبَتِهِ فَناوَلَهُ كِتاباً فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فيهِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَراءتِهِ قالَ لَهُ ابْنُ عَبّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ لَو اطَّرَدَتْ مَقالَتُكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ، فقالَ: هَيْهاتَ يَا ابْنَ عَبّاسٍ تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ، قالَ ابْنُ عَبّاسٍ: فَوَاللَّهِ ما أَسَفْتُ عَلَى كَلامٍ قَطُّ كَأَسَفِي عَلَىٰ هَذَا الْكَلاَمِ أَلاّ يَكُونَ أَميرُ الْمؤمِنينَ عليه السلام بَلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أرادَ».

اللغة

(أهل السّواد) ساكنو القرى وتسمّى القرى سواداً لخضرتها بالزّرع والنّبات والأشجار والعرب تسمى الأخضر أسود و**(ناوله)** أعطاه و**(الاطراد)** هو الجري يقال: أطرد الأمر أي تبع بعضه بعضاً وجرى بعضه أثر بعض، ونهران يطردان أي يجريان و**(الإفضاء)** الإنتهاء قال الشّارح المعتزلي: أصله خروج إلى الفضاء فكأنّه شبهه حيث سكت عليه السلام عما كان يقوله بمن خرج من خباء أو جدار إلى فضاء من الأرض، وذلك لأنّ النفس والقوى والهمة عند ارتجال الخطب والأشعار تجتمع إلى القلب، فإذا قطع الإنسان وفرغ تفرقت وخرجت عن حجر الاجتماع واستراحت و**(الشقشقة)** بالكسر شيء كالرّية يخرجه البعير من فيه إذا هاج، ويقال للخطيب ذو شقشقة تشبيهاً له بالفحل و**(هدير)** الجمل ترديده الصّوت في حنجرته.

الإعراب

كلمة **(لولا)** إما للتمنّي أو الجواب محذوف أي لكان حسناً، والمقالة إما مرفوعة على الفاعليّة **(لو كان أطردت)** بصيغة المؤنث الغائب من باب الإفتعال، أو منصوبة على المفعولية **(لو كان)** بصيغة الخطاب من باب الأفعال أو الافتعال أيضاً.

المعنى

(قالوا وقام إليه رجل من أهل السواد) قيل: إنه كان من أهل سواد العراق **(عند بلوغه عليه السلام إلى هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً)** وأعطاه **(فأقبل)** إليه وكان **(ينظر فيه فلما فرغ)** عليه السلام **(من قراءته)** وأجاب الرّجل بما أراد حسبما نشير إليه **(قال له ابن عباس رحمه الله: يا أمير المؤمنين لو اطّردت)** أي جرت **(مقالتك من حيث أفضيت)** وانتهيت لكان حسناً **(فقال عليه السلام: هيهات يا ابن عبّاس تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت)** وسكنت.

شبّه عليه السلام نفسه بالفحل الهادر فاستعار لخطبته لفظ الشّقشقة التي من خواص الفحل قيل: في الكلام إشعار بقلّة الاعتناء بمثل هذا الكلام إمّا لعدم التأثير في السّامعين كما ينبغي،

أو لقلّة الاهتمام بأمر الخلافة من حيث إنّها سلطنة، أو للإشعار بانقضاء مدّته، فإنّها كانت في قرب شهادته، أو لنوع من التّقية أو لغيرها (**قال ابن عبّاس**: **فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي**) وحزني (**على هذا الكلام ألاّ يكون أمير المؤمنين** عليه السلام **بلغ منه حيث أراد**).

قال الشّارح المعتزلي: حدّثني شيخي أبو الخير مصدّق بن شبيب الواسطي، قال: قرأت على الشّيخ أبي محمّد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلمّا انتهيت إلى هذا الموضع قال لي: لو سمعت ابن عبّاس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمّك أمر لم يبلغه في هذه الخطبة لتتأسّف أن لا يكون بلغ من كلامه ما أراد؟ والله ما رجع عن الأوّلين ولا عن الآخرين ولا بقي في نفسه أحد لم يذكره إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

وبقي الكلام في الكتاب الذي ناوله الرّجل فأقول روى الشّارح البحراني والمحدّث الجزائري وغيره عن أبي الحسن الكندري (ره) أنّه قال: وجدت في الكتب القديمة أنّ الكتاب الذي دفعه الرّجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام كان فيه عدّة مسائل[2].

إحداها: ما الحيوان الذي خرج من بطن حيوان آخر وليس بينهما نسب؟ فأجاب عليه السلام بأنه يونس عليه السلام خرج من بطن حوت.

الثانية: ما الشيء الذي قليله مباح وكثيره حرام؟ فقال عليه السلام: «هو نهر طالوت» لقوله تعالى: ﴿إلاّ من اغترف غرفة بيده﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الثالثة: ما العبادة التي إن فعلها أحد استحقّ العقوبة وإن لم يفعلها أيضاً استحقّ العقوبة؟ فأجاب عليه السلام بأنها صلاة السكارى.

الرابعة: ما الطائر الذي لا فرخ له ولا فرع ولا أصل؟ فقال عليه السلام: «هو طائر عيسى عليه السلام» في قوله:

﴿تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ﴾ [المائدة: ١١٠]

الخامسة: رجل عليه من الدّين ألف درهم وله في كيسه ألف درهم فضمنه ضامن بألف درهم فحال عليه الحول فالزّكاة على أي المالين تجب؟ فقال عليه السلام: «إن ضمن الضّامن بإجازة من عليه الدّين فلا يكون عليه، وإن ضمنه من غير إذنه فالزّكاة مفروضة في ماله».

السّادسة: حجّ جماعة ونزلوا في دار من دور مكّة وتركوا فيها ثيابهم وأغلق واحد منهم

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١/٢٠٥، والغدير: ٤/١٩٧.
(٢) البحار: ٢٩/٥٤٦.

باب الدّار وفيها حمام فمتن من العطش قبل عودهم إلى الدّار فالجزاء على أيهم يجب؟ فقال ﷺ: «على الذي أغلق الباب ولم يخرجهنّ ولم يضع لهنّ ماء».

السّابعة: شهد شهداء أربعة على محصن بالزّنا فأمرهم الإمام برجمه فرجمه واحد منهم دون الثلاثة الباقين ووافقهم قوم أجانب في الرّجم فرجع من رجمه عن شهادته والمرجوم لم يمت ثمّ مات فرجع الآخرون عن شهادتهم عليه بعد موته فعلى من يجب ديته؟ فقال ﷺ: «يجب على من رجمه من الشهود ومن وافقه».

الثّامنة: شهد شاهدان من اليهود على يهودي أنّه أسلم فهل يقبل شهادتهما؟ فقال ﷺ: «لا تقبل شهادتهما لأنّهما يجوّزان تغيير كلام الله وشهادة الزّور».

التّاسعة: شهد شاهدان ان من النّصارى على نصارى أو مجوسيّ أو يهودي أنّه أسلم؟ فقال ﷺ: «تقبل شهادتهما لقول الله سبحانه:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢] الآية.

ومن لا يستكبر عن عبادة الله لا يشهد شهادة الزّور».

العاشرة: قطع إنسان يد آخر فحضر أربعة شهود عند الإمام وشهدوا على من قطع يده وأنّه زنى وأنّه محصن فأراد الإمام أن يرجمه فمات قبل الرّجم بقطع يده على القاطع دية القطع أو دية النّفس؟ فقال ﷺ: «على من قطع يده دية القطع حسب ولو شهدوا أنّه سرق نصاباً لم يجب دية يده على قاطعها[١]، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب».

---

(١) بطوله في البحار: ٢٩/٥٤٧ ـ ٥٤٩، ومستدرك الوسائل: ٧/٥٥.

الترجمة

راويان گويند: برخاست به سوى آن حضرت مردى از اهل سواد كوفه نزد رسيدن او به اين موضع از خطبه خود، پس داد او را نوشته اى، پس روى آورد و نظر مى فرمود به سوى آن، پس چون فارغ شد از خواندن آن كتاب عرض كرد خدمت آن حضرت عبدالله بن عباس (رحمه الله): اى اميرمؤمنان و مقتداى عالميان اگر جارى مى فرمودى كلام بلاغت نظام خود را از آن جا كه باقى مانده بود هرآينه خوب بود، پس آن حضرت فرمود: چه دور است آن حالت نسبت به اين حالت اى ابن عباس، اين مانند شقشقه شتر بود كه نزد هيجان نفس و اشتغال آن با صوت و غرّيدن از دهن بيرون آمد، بعد از آن قرار گرفت و ساكن شد. گفت عبدالله بن عباس: به خدا قسم كه تأسف نخوردم بر هيچ كلامى هرگز در مدت عمر خود چون تأسف خوردن خود بر اين كلام كه نشد اميرالمؤمنين (عليه السلام) برسد از آن كلام به جايى كه اراده كرده بود.

ومن خطبة له عليه السلام (بعد مقتل طلحة والزبيرخ) وهي الخطبة الرابعة

خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد قتل طلحة والزّبير كما في **«شرح البحراني»** و**«المعتزلي»** وزاد في الأخير مخاطباً بها لهما ولغيرهما من أمثالهما وفيه أيضاً هذه الكلمات والأمثال ملتقطة من خطبة طويلة منسوبة إليه قد زاد فيها قوم أشياء حملتهم عليها أهوائهم لا يوافق ألفاظها طريقته عليه السلام في الخطب ولا تناسب فصاحتها فصاحته ولا حاجة إلى ذكرها فهي شهيرة، وفي **«البحار»** قال القطب الرّاوندي: أخبرنا بهذه جماعة عن جعفر الدّوريستي عن أبيه محمّد بن العباس عن محمد بن عليّ بن موسى عن محمّد بن علي الاسترابادي عن عليّ بن محمّد بن سيار عن أبيه عن الحسن العسكري عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام وهذا ما ظفرت بعد إلى تلك الخطبة التقطت هذه منها على ما ذكره الشّارح المعتزلي، نعم رواها في كتاب **«الإرشاد»** للمفيد (ره) بأدنى تغيير واختلاف، قال: من كلامه عليه السلام حين قتل طلحة وانقض أهل البصرة:

بنا تسنمتم الشّرف، وبنا انفجرتم عن السّرار، وبنا اهتديتم في الظلماء، وقر سمع لم يفقه الواعية، كيف يراعي النّبأة من أصمّته الصّيحة، ربط جنان لم يفارقه الخفقان، ما زلت أنتظر بكم عواقب الغدر، وأتوسّمكم بحلية المغترين، سترني عنكم جلباب الدّين وبصرنيكم صدقة النية، أقمت لكم الحقّ حيث تعرفون ولا دليل وتحتقرون ولا تميهون، اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان، عزب فهم أمرء تخلّف عنّي، ما شككت في الحقّ منذ رأيته، كان بنو يعقوب على المحجّة العظمى حتى عقّوا آبائهم وباعوا أخاهم، وبعد الإقرار كانت توبتهم، وباستغفار أبيهم وأخيهم غفر لهم، هذا، وشرح ما ذكره الرضي قدّس سرّه في ضمن فصلين[1].

---

(١) البحار: ٣٢/ ٣٣٧.

الفصل الأول

«بِنا اهْتَدَيْتُم فِي الظَّلْمَاءِ، وَتَسَنَّمْتُمُ الْعَلْيَاءَ، وَبِنَا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ، وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ، وَكَيْفَ يُراعي النَّبْأَةَ مَنْ أَصمَّتْهُ الصَّيْحَةُ، رُبِطَ جَنانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ، ما زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَواقِبَ الْغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِينَ، سَتَرَني عَنْكُمْ جِلْبابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنيكُمْ صِدْقُ النِّيَّة»[1].

اللغة

(**الظلماء**) كصحراء الظلمة، وقد تستعمل وصفاً يقال ليلة ظلماء أي شديدة الظلمة و (**التسنم**) هو العلوّ وأصله ركوب السّنام و (**العلياء**) كصحراء أيضاً السّماء ورأس الجبل والمكان العالي، وكل ما علا من شيء والفعلة العالية المتضمنة للرفع والشرّف و (**انفجرتم**) أي دخلتم في الفجر و (**السّرار**) اللّيلة واللّيلتان يستتر فيهما القمر في آخر الشهر، وروى أفجرتم قال الشّارح المعتزلي: وهو أفصح وأصحّ لأن انفعل لا يكون إلاّ لتطاوع فعل نحو كسرته فانكسر وحطمته فانحطم إلاّ ما شذّ من قولهم: غلقت الباب فانغلق؛ وأزعجته فانزعج، وأيضاً فإنّه لا يكون إلاّ حيث يكون علاج وتأثير نحو انكسر وانحطم ولهذا قالوا: إنّ قولهم: انعدم خطأ، وأمّا افعل فيجيء لصيرورة الشيء على حال، وأمر نحو أغدّ البعير أي صار ذا غدّة وأجرب الرّجل إذا صار ذا إبل جربي وغير ذلك، وأفجرتم أي صرتم ذوي فجر و (**الوقر**) ثقل في الأذن أو ذهاب السّمع كله، وقد وقر كوعد ووجل ومصدره وقر بالسكون والقياس بالتّحريك ووقر كعنى أيضاً ووقرها الله يقرها.

و (**الواعية**) الصّراخ والصّوت كما في «**القاموس**» لا الصّارفة كما ذكره الشّارح البحراني والمعتزلي تبعاً للجوهري، وفي «**القاموس**» أنّه وهم، وعن الأساس ارتفعت الواعية أي الصّراخ والصّوت، وفي الاقيانوس سمعت واعية القوم أي أصواتهم و (**النبأة**) الصّوت الخفي و (**خفقت**) الرّاية كحسب خفقاً وخفقاناً محرّكة اضطربت وتحركت و (**توسّم**) الشيء تفرسه وتخيّله والمتوسّم النّاظر في السّمة الدّالة وهي العلامة وتوسم فيه الخير أو الشرّ أي عرف سمة ذلك و (**الجلباب**) بفتح الجيم وكسرها القميص، وفي «**المصباح**» ثوب أوسع من الخمارودون الرّداء وقال ابن فارس: الجلباب ما يغطي به من ثوب وغيره والجمع الجلابيب.

الإعراب

(**الباء**) في قوله عليه السلام (**بنا**) للسّببية، وكلمة (**عن**) قوله عن السرار على حقيقتها الأصليّة

---
(١) نهج السعادة: ١/ ٣٢٠.

وهي المجاوزة أي متقلين عن السّرار ومتجاوزين له، ووقر بفتح (الواو) وضمّها على صيغة المعلوم أو المجهول (وسمع) فاعله على الأول وعلى الثاني الفاعل هو الله.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة من أفصح كلامه عليه السلام وهي على وجازتها متضمّنة لمطالب شريفة ونكات لطيفة، ومشتملة على مقاصد عالية، وإن لاحظتها بعين البصيرة والإعتبار وجدت كلّ فقرة منها مفيدة بالإستقلال مطابقة لما اقتضاه المقام والحال وستجيء الإشارة إلى بعض ذلك حسب ما ساعدته الوقت والمجال إن شاء الله.

فأقول قوله: (بنا اهتديتم في الظلماء) أي بآل محمّد عليهم السلام إهتديتم في ظلمات الجهل، والخطاب لأهل البصرة وغيرهم من طلحة وزبير وسائر حاضري الوقت وهو جار في حقّ الجميع وفيه إشارة إلى كونهم عليهم السّلام سبب هداية الأنام في الغياهب والظلام، ولمّا كانت الظلمة عبارة عن عدم الضّوء عمّا من شأنه أن يكون مضيئاً، فتقابل النّور تقابل العدم للملكة على ما ذهب إليه محقّقو المتكلمين والفلاسفة، أو عبارة عن كيفيّة وجوديّة تقابل التّضاد كما ذهب إليه آخرون وهو الأظهر نظراً إلى أنها على الأوّل لا تكون شيئاً لأنّها عدم وكيف ذلك والله سبحانه خالقها، وعلى أيّ تقدير كان قوله دالاً بالمطابقة على كونهم الهداة إلى سبيل النجاة في المدلهمات والظلمات، وبالالتزام على كونهم نوراً مضيئاً وقمراً منيراً إذ الاهتداء في الظلمة لا يكون إلاّ بالنّور الظاهر في ذاته المظهر لغيره.

أما المدلول المطابقي فقد أشير إليه في غير واحدة من الآيات الكريمة، وصرّح به في الأخبار البالغة حدّ التظافر بل التّواتر.

منها ما رواه في «الكافي» بإسناده عن عبد الله بن سنان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١].

قال: هم الأئمة صلوات الله عليهم[(١)].

ومنها ما في تفسير عليّ بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

---

(١) الكافي: ١/ ٤١٤ ح ١٣.

فأمّا من يهدي إلى الحق فهو محمّد صلّى الله عليه وآل محمّد ﷺ من بعده، وأما من لا يهديْ إلا أن يهدى فهو من خالف من قريش وغيرهم أهل بيته من بعده[١].

ومنها ما في «البحار» من تفسير العيّاشيّ بإسناده عن المعلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَيٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

قال عليه السلام هو من يتّخذ دينه برأيه بغير هدى إمام من الله من أئمة الهدى[٢].

ومنها ما في «البحار» أيضاً من كنز جامع الفوائد وتأويل الآيات بالإسناد عن عيسى بن داود النّجار عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنّه سأل أباه عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال قال رسول الله ﷺ: «أيّها النّاس اتّبعوا هدى الله تهتدوا وترشدوا وهو هدى عليّ بن أبي طالب عليه السلام فمن اتّبع هداه في حياتي وبعد موتي فقد اتّبع هداي، ومن اتبع هداي فقد اتّبع هدى الله فلا يضلّ ولا يشقى»[٣]، إلى غير هذه ممّا لا نطيل بذكرها.

وأما المدلول الالتزامي وهو كونهم عليهم السّلام أنوارا يستضاء بها في الليلة الظلماء ونجوماً يهتدي بها في غياهب الدّجى، فقد أشير إليه في قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَئَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَالنُّورِ الَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

روى عليّ بن إبراهيم في «تفسيره» عن عليّ بن الحسين عن البرقيّ عن ابن محبوب عن أبي أيّوب عن أبي خالد الكابلي قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: يا أبا خالد النّور والله الأئمة من آل محمّد إلى يوم القيامة هم والله نور الله الذي أنزل وهم والله نور الله في السّماوات والأرض، والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشّمس المضيئة بالنّهار، وهم والله ينوّرون قلوب المؤمنين ويحجب الله نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم، والله يا أبا خالد لا يحبّنا عبد ويتولانا حتّى يطهر الله قلبه ولا يطهر الله قلب عبد حتّى يسلم لنا ويكون سلماً لنا، فإذا كان سلماً سلمه الله من شديد الحساب وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر[٤].

---

(١) تفسير القمي: ١/٢٤٩.
(٢) البصائر: ٣٣، والبحار: ٢/٣٠٢ ح ٣٦.
(٣) البحار: ٢٤/١٤٩ ح ٣٠.
(٤) تفسير القمي: ٢/٣٧٢.

وقال الصادق عليه السلام في مرويّ العيّاشي إنّ الله قال في كتابه:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالنّور هم آل محمّد عليهم السّلام والظلمات عدوّهم[١].

وفي «البحار» من تفسير فرات بن إبراهيم عن جعفر بن محمّد الفزاري معنعناً عن ابن عبّاس في قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

قال: الحسن والحسين عليهما السلام:

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾.

قال: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

قال: النّجوم آل محمّد عليه وعليهم السّلام[٢].

وفيه أيضاً عن عبد الرّحمٰن بن محمّد العلوي إسناده عن عكرمة، وسئل عن قول الله تعالى:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ - ٤].

قال: الشّمس وضحاها هو محمّد صلى الله عليه وآله، والقمر إذا تليها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والنّهار إذا جلاها آل محمّد الحسن والحسين عليهما السلام، والليل إذا يغشاها بنو أميّة.

وفي «البحار» من تفسير العيّاشيّ عن معلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: ١٦].

قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام[٣]، وفيه من «المناقب» لابن شهر آشوب عن أبي الورد عن أبي جعفر عليه السلام في قوله:

(١) تفسير العياشي: ١/ ١٣٩، وتفسير الصافي: ١/ ٢٨٥.
(٢) البحار: ٢٤/ ٧٦ ح ١٥، وتفسير القمي: ١/ ٢١١.
(٣) البحار: ٢٤/ ٨٢.

﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦].

قال: نحن النّجم[١]:

إلى غير هذه ممّا يطلع عليها العارف الخبير والمتتبع المجدّ، وبالجملة فقد ظهر وتحقق ممّا ذكرنا كله أنّهم عليهم السّلام نور الله في السّماوات والأرض والنّجوم التي يهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر والقمر الهادي في أجواز البلدان والقفار وغياهب الليالي ولجج البحار.

فإن قلت: سلمنا ذلك كله ولكنّك قد ذكرت أنّ الخطاب في قوله: بنا اهتديتم في الظلماء لطلحة والزبير ونظرائهما من أهل الجمل، ومن المعلوم أنّهم كانوا من المنافقين الناكثين فكيف يكونون من المهتدين؟ مع أنّ اعتقادنا أنّهم مخلدون في النّار بخروجهم على الإمام العادل ونقضهم بيعته، والمهتدون يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم يوم القيامة ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما قال تعالى:

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]

قلت: أوّلاً إن اهتديتم بصيغة الماضي دالة على إهتدائهم فيما مضى فهو لا ينافي بارتدادهم بعد الرّسول ﷺ إذ الإهتداء تارة يكون بالوصول إلى المطلوب وهو الموجب للأجر الجميل، وهو الذي لا يتصوّر بعده الضلالة، وأخرى بالوصول إلى ما يوصل إلى المطلوب وهو لا يستلزم الوصول إليه ألبتّة ولا ينافي الخذلان والضلالة قطعاً.

وثانياً: إنّ المراد بالظلماء في قوله عليه السلام هو ظلمة الكفر وبالإهتداء هو الإهتداء إلى الإسلام وهو بانفراده لا يكفي في استحقاق الثّواب، بل لا بدّ وأن ينضم إلى ذلك نور الولاية كما مرّ تحقيق ذلك وتفصيله في التّذنيب الثالث من تذنيبات الفصل الرّابع من فصول الخطبة الأولى، ويشهد بذلك ويوضحه مضافاً إلى ما مرّ: ما رواه في «البحار» من كتاب غيبة النّعماني عن الكليني بإسناده عن ابن أبي يعفور، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنّي أخالط النّاس فيكثر عجبي من أقوام لا يتوالونكم ويتوالون فلاناً وفلاناً لهم أمانة وصدق ووفاء، وأقوام يتولونكم ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء ولا الصّدق قال: فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالساً وأقبل عليّ كالمغضب ثمّ قال: لا دين لمن دان بولاية إمام جائر ليس من الله، ولا عتب على من دان بولاية إمام عادل من الله، قلت: لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء، ثمّ قال عليه السلام: ألا تسمع قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب: ٣/ ٣١٣.

[يعني] من ظلمات الذّنوب إلى نور التوبة أو المغفرة لولايتهم كلّ إمام عادل من الله قال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فأيّ نور يكون للكافر فيخرج منه إنّما عنى بهذا أنّهم كانوا على نور الإسلام، فلمّا تولوا كلّ إمام جائر ليس من الله خرجوا بولايتهم إيّاهم من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب لهم النّار مع الكفّار فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] [البقرة: ٣٩].

وأوضح من هذه الرّواية دلالة ما في **«البحار»** من تفسير العياشي عن سعيد بن أبي الأصبغ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وهو يسأل عن مستقرّ ومستودع، قال: مستقرّ في الرّحم ومستودع في الصّلب، وقد يكون مستودع الإيمان، ثمّ ينزع منه ولقد مضى الزّبير في ضوء الإيمان ونوره حتّى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى مشى بالسّيف وهو يقول لا نبايع إلاّ عليّاً عليه السلام[2].

وعن العيّاشي أيضاً عن جعفر بن مروان قال: إنّ الزبير اخترط سيفه يوم قبض النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال لا أغمده حتّى أبايع لعليّ عليه السلام، ثمّ اخترط سيفه فضارب عليّاً وكان ممن أعير الإيمان، فمشى في ضوء نوره ثمّ سلبه الله إيّاه.

(وتسنّمتم العلياء) أي بتلك الهداية وشرافة الإسلام ركبتم سنام العلياء والرفعة علا ذكركم ورفع قدركم، شبّه عليه السلام العلياء بالنّاقة وأثبت لها سنامها تخييلاً، ورشح ذلك بذكر التسنّم الذي هو ركوب السّنام **(وبنا انفجرتم)** أو أفجرتم **(عن السّرار)** أي انفجرتم انفجار العين من الأرض، أو دخلتم في الفجر، أو صرتم ذوي فجر منتقلين عن السّرار، واستعار عليه السلام لفظ السّرار لما كانوا فيه من ليل الجهل وخمول الذّكر في الجاهلية وغيرها، ولفظ الانفجار عنه لخروجهم من ذلك إلى نور الإسلام واستضاءتهم بضياء صباح وجودهم عليهم السّلام كما قال عزّ من قائل:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧ - ١٨].

قال أمير المؤمنين عليه السلام لابن الكوّا حين سأله عن ذلك: يعني ظلمة الليل وهذا ضربه الله

---

(١) الكافي: ١/ ٣٧٦ ح ٣، وغيبة النعماني: ١٣٣، والبحار: ٦٥/ ١٠٥.

(٢) تفسير العياشي: ١/ ٣٧١.

(٣) تفسير العياشي: ١/ ٣٧١ ح ٧٠.

مثلاً لمن ادّعى الولاية لنفسه وعدل عن ولاة الأمر قال: فقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ قال: يعني بذلك الأوصياء يقول: إنّ علمهم أنور وأبين من الصّبح إذا تنفس[1]، هذا.

ولمّا ذكر فضله عليهم بكونه عليه السلام سبب هدايتهم وعلة لعلوّ مقامهم، وسموّ مكانهم وجهة لشرافتهم ورفعة قدرهم وداعياً لصيرورتهم من ظلمة الغواية والضلالة إلى فجر الهداية والرّشاد مع مقابلتهم كلّ ذلك بالنّفاق والنّفار والعتوّ والإستكبار، أردف ذلك بالدّعاء عليهم بقوله (وقر سمع لم يفقه الواعية) إشارة إلى أنهم كيف لم يفقهوا بيانه بعد ما بيّنه ولم يقبلوه بعد ما سمعوه ولم يطيعوه بعد ما فهموه وجهلوا قدره بعد ما عرفوه.

قال البحراني: وهذا كما يقول أحد العلماء لبعض تلاميذه المعاند له المدّعي لمثل فضيلته: إنّك بي اهتديت من الجهل وعلا قدرك في النّار وأنا سبب لشرفك أفتكبّر عليّ وقر سمعك لم لا تفقه قولي وتقبله، هذا، وعلى ما ذكرناه من كون الواعية بمعنى الصّوت يكون معنى كلامه عليه السلام ثقل سمع لم يفقه الصّوت بعد ما سمعه، وعلى قراءة: وقر بصيغة المجهول يكون المعنى أثقل سمع لم يفقه الصّوت بعد ما سمعه، وعلى قراءة: وقر بصيغ المجهول يكون المعنى أثقل الله سمعاً لم يفقه الصّراخ، وعلى ذلك فلا حاجة إلى ما تكلفه بعض شارحي كلامه عليه السلام تارة بجعل الواعية صفة لمحذوف مع حذف مفعول لم يفقه أي وقر سمع لم يفقه صاحبه بإذنه الواعية علم الشّريعة، وأخرى بجعل الفاعل بمعنى المفعول مع حذف الموصوف أيضاً أي لم يفقه الأشياء الموعية، وثالثة بجعلها بمعنى الصّارفة.

فإن قلت: ما السّر في وصفه السّمع بعدم الفقه لا بعدم السّماع وتعبيره بقوله: لم يفقه دون لم يسمع مع كون الواعية أيضاً من قبيل المسموعات لا المفقوهات، والحال أنّ الموصوف والمتعلق كليهما مقتضيان للتعبير بالثّاني دون الأوّل.

قلت: بعد الغضّ عن عدم ملائمة الوصف بالثّاني للدّعاء بالوقر لاستلزامه تحصيل الحاصل أن السّر في ذلك هو «أنّ المقصود بالسّمع ليس مجرّد السّماع والاستماع بل الفقه والفهم والاتعاظ بالمواعظ والنّصائح بعد إدراك السّمع لها، فإذا أدركها ولم يفقهها ولم يقم بمقتضياتها فهو حريّ بالدّعاء عليه بكونه موقوراً ثقيلاً مع أنّ في التعبير بهذه اللفظة إشارة إلى غاية نفارهم واستكبارهم وشدّة لجاجهم وعنادهم ونهاية بغضهم وعداوتهم ومنتهى نفرتهم عن قبول الحقّ كما قال عزّ من قائل:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: ٤٢].

وصفهم بالصّمم مع إثبات الاستماع أوّلاً من حيث عدم انتفاعهم بما يستمعون، فهم

---

(١) البحار: ٢٤/٧٧.

والأصمّ على السّواء وذلك فإنّ الإنسان إذا قوي بغضه لإنسان آخر وعظمت نفرته عنه صارت نفسه متوجّهة إلى طلب مقابح كلامه معرضة عن جميع الجهات الحسن فيه، فالصّمم في الأذن معنى ينافي حصول إدراك الصّوت فكذلك حصول هذا البغض والاستكبار والمنافرة كالمنافي للوقوف عن محاسن ذلك الكلام والإطلاع بما أريد منه.

ثمّ كما أنّه لا يمكن جعل الأصمّ سميعاً فكذلك لا يمكن جعل العدوّ البالغ إلى هذا الحدّ صديقاً مطيعاً، ولذلك اعتذر عليه السلام من عدم تأثير كلامه فيهم بقوله: (وكيف يراعي النّبأة) أي الصّوت الخفي (من أصمّته الصيحة) إشارة إلى أنّ من لم يؤثّر فيه كلام الله وكلام رسوله الذي هو كالصّيحة المكرّرة عليهم حتّى جعلهم أصمّ من كثرة التكرار وشدّة الإصرار، كيف يؤثّر فيهم كلامه عليه السلام الذي نسبته إلى كلامهما نسبة النّبأة إلى الصّيحة، ومن المعلوم أن الصوت الضّعيف لا يدرك عند الصّوت القوي أو الحواس لا تدرك الأضعف مع وجود الأقوى المماثل في كيفيّته، ففي هذه الفقرة من كلامه دلالة على عدم اختصاص تمرّدهم به عليه السلام فقط، بل كانوا متمرّدين من أوّل الأمر مستكبرين عن طاعة الله وطاعة رسوله أيضاً، كما أنّ فيها وفي سابقتها إشارة إلى تماديهم في الغفلة بما غشت قلوبهم من الظلمة والقسوة حيث لم يسمعوا داعي الله ولم يفقهوا كلام الله ولم يتدّبروا في القرآن، ونكثوا بيعة ولي الرّحمان، قال سبحانه في الحديث القدسي: يا ابن آدم استقامة سماواتي في الهواء بلا عمد باسم من أسمائي ولا تستقيم قلوبكم بألف موعظة من كتابي، يا أيها النّاس كما لا يلين الحجر في الماء كذلك لا تغني الموعظة للقلوب القاسية.

ثمّ إنّه عليه السلام لمّا دعى بالوقر على الأذن الغير الواعية للواعية وأتبعه بالإشارة إلى عدم إمكان تأثير نبأته فيمن أصمّته الصّيحة لاستحالة تأثر القلوب القاسية بالموعظة والنّصيحة، أردف ذلك بالدّعاء للقلوب الوجلة الخائفة بقوله: **(ربط جنان)** أي سكن وثبت **(لم يفارقه)** الإضطراب **(والخفقان)** من خشية الله والاشفاق من عذابه.

ثمّ خاطب عليه السلام بقيّة أصحاب الجمل أو المقتولين أو هما معاً وقال: **(ما زلت أنتظر بكم عواقب الغدر)** والحيلة وأترقّب منكم المكر والخديعة، وذلك إمّا من أجل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أخبره بذلك وبأنّهم ينقضون بيعته بعد توكيدها، وإمّا من أجل إستنباطه عليه السلام ذلك من حركاتهم وروجنات أحوالهم كما يشعر به قوله: **(وأتوسّمكم بحيلة المغترين)** وذلك لأنّه عليه السلام فهم أنّهم من أهل الغرّة وقبول الباطل عن أدنى شبهة بما لاح له من صفاتهم وسماتهم الدّالة على ذلك، وكان علمه عليه السلام بذلك مستلزماً لعلمه بغدرهم بعهده ونقضهم لبيعته فكان ينتظر ذلك منهم.

ولذلك إن طلحة والزّبير لما دخلا عليه عليه السلام يستأذنانه في العمرة قال: «ما العمرة تريدان»، فحلفا له بالله إنّهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: «ما العمرة تريدان، وإنّما تريدان الغدرة ونكث البيعة»، فحلفا بالله ما لخلاف عليه ولا نكث بيعته يريدان وما رأيهما غير

العمرة، قال لهما، «فأعيدا البيعة لي ثانياً»، فأعاداها بأشد ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذن لهما فلمّا خرجا من عنده قال لمن كان حاضراً: «والله لا ترونهما إلاّ في فتنة يقتتلان فيها»، قالوا: يا أمير المؤمنين فمر بردّهما عليك، قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولا[١].

وقوله: (سترني عنكم جلباب الدّين) قال البحراني: وارد مورد الوعيد للقوم في قتالهم له ومخالفتهم لأمره، والمعنى أنّ الدّين حال بيني وبينكم وسترني عن أعين بصائركم أن تعرفوني بما أقوى عليكم من العنف بكم والغلظة عليكم وسائر وجوه تقويكم وردعكم عن الباطل وراء ما وقفني عليه الدّين من الرّفق والشّفقة وشهب ذيل العفو عن الجرائم فكان الدّين غطاء حال بينهم وبين معرفته فاستعار له لفظ الجلباب. قال: وروي ستركم عنّي أي عصم الإسلام منّي دمائكم واتباع مدبركم وأن أجهز على جريحكم وغير ذلك ممّا يفعل من الأحكام في حقّ الكفّار، هذا.

ولمّا أشار عليه السلام إلى عدم معرفتهم له حقّ معرفته وغفلتهم عن مراتب شأنه ووظيفته أتبعه بقوله: (وبصرنيكم صدق النيّة) وأشار بذلك إلى معرفته لهم حقّ المعرفة بعين اليقين والبصيرة من حيث صفاء نفسه وخلوص نيّته ونور باطنه كما قال صلى الله عليه وآله: اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله، وقال الرّضا عليه السلام في رواية بصائر الدّرجات: لنا أعين لا تشبه أعين النّاس وفيها نور ليس للشّيطان فيه شرك[٢]. وبذلك النّور يعرفون كلّ مؤمن ومنافق ويعرفون صديقهم من عدوّهم كما تدلّ عليه أخبار كثيرة.

مثل ما رواه في «البحار» عن العيون عن تميم القرشي عن أبيه عن أحمد بن عليّ الأنصاري عن الحسن بن الجهم قال: سئل عن الرّضا عليه السلام ما وجه إخباركم بما في قلوب النّاس؟ قال: أما بلغك قول الرّسول صلى الله عليه وآله: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله»؟ قال: بلى، قال: فما من مؤمن إلاّ وله فراسة ينظر بنور الله على قدر إيمانه ومبلغ إستبصاره وعلمه، وقد جمع الله للأئمّة منّا ما فرّقه في جميع المؤمنين وقال عزّ وجلّ في كتابه:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

فأوّل المتوسّمين رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، ثمّ الحسن والحسين والأئمّة من ولد الحسين سلام الله عليهم إلى يوم القيامة[٣].

ومن كتاب البصائر والاختصاص عن السّندي بن الرّبيع عن ابن فضّال عن ابن رئاب عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ليس مخلوق إلاّ وبين عينيه مكتوب أنّه مؤمن أو

---

(١) راجع حلية الأبرار: ٢/٢٨٥، والخرائج والجرائح: ١/١٨٧ ح ٢١.
(٢) البحار: ٢٤/١٢٦.
(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/٢١٦.

كافر، وذلك محجوب عنكم وليس بمحجوب من الأئمة من آل محمّد عليهم السّلام ليس يدخل عليهم أحد إلا عرفوه هو مؤمن أو كافر»، ثمّ تلا هذه الآية:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥] فهم المتوسمون[١].

ومن الإختصاص أيضاً بإسناده عن جابر قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة إذ جاءت امرأة تستعدي على زوجها فقضى عليه السلام لزوجها عليها، فغضبت فقالت: لا والله ما الحقّ فيما قضيت وما تقضي بالسّوية ولا تعدل في الرّعيّة ولا قضيّتك عند الله بالمرضيّة، فنظر إليها مليّاً ثمّ قال لها: كذبت يا جريّة يا بذيّة يا سلفع يا سلقلقية[٢] يا التي لا تحمل من حيث تحمل النّساء، قال: فولت المرأة هاربة مولولة وتقول: ويلي ويلي لقد هتكت يا بن أبي طالب ستراً كان مستوراً.

قال: فلحقها عمرو بن حريث فقال: يا أمة الله لقد استقبلت عليّاً بكلام سررتني به، ثمّ إنّه نزع لك بكلام فوليت عنه هاربة تولولين، فقالت إنّ عليّاً عليه السلام والله أخبرني بالحقّ وبما أكتمه من زوجي منذ ولي عصمتي ومن أبويّ، فعاد عمرو إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبره بما قالت له المرأة، وقال له فيما يقول: ما أعرفك بالكهانة فقال له عليّ عليه السلام: «ويلك إنّها ليست بالكهانة منّي ولكنّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام»، فلما ركب الأرواح في أبدانها كتب بين أعينهم كافر ومؤمن وما هم به مبتلون وما هم عليه من سيىء عملهم وحسنه في قدر إذن الفارة، ثمّ أنزل بذلك قراناً على نبيّه صلى الله عليه وآله فقال:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

فكان رسول الله صلى الله عليه وآله المتوسّم، ثم أنا من بعده، والأئمة من ذرّيتي هم المتوسّمون[٣]، فلمّا تأمّلتها عرفت ما فيها وما هي عليه بسيمائها[٤].

ومن البصائر بإسناده عن عبد الرّحمٰن يعني ابن كثير قال: حججت مع أبي عبد الله عليه السلام، فلمّا صرنا في بعض الطريق صعد على جبل فأشرف فنظر إلى النّاس فقال: «ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج»، فقال له داود الرّقي: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله هل يستجيب الله دعاء هذا الجمع الذي أرى؟ قال: «ويحك يا أبا سليمان إنّ الله لا يغفر أن يشرك به، الجاحد لولاية علي عليه السلام كعابد وثن»، قال: قلت: جعلت فداك هل تعرفون محبكم ومبغضكم؟ قال: «ويحك يا أبا سليمان إنّه ليس من عبد يولد إلاّ كتب بين عينيه مؤمن أو كافر، وإنّ الرّجل

(١) بصائر الدرجات: ٣٧٤، والاختصاص: ٣٠٢.
(٢) اسلقه في الكلام: آذاه.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٤٠٤.

ليدخل إلينا بولايتنا وبالبراءة من أعدائنا فنرى مكتوباً بين عينيه مؤمن أو كافر، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥]. نعرف عدوّنا من وليّنا[1].

وقد وضح بهذه الأخبار كلّ وضوح معنى قوله السّابق: أتوسّمكم بحلية المغترّين، وظهر أنّ توسّمه عبارة عن نظره عليه السلام إلى سماتهم الدّالة على خبث الطينة ولحاظه العلامات الكاشفة عن سوء السّريرة، فافهم ذلك واغتنم.

الترجمة

به سبب نور وجود ما هدايت يافتيد در ظلمت شب جهالت و بهواسطه ما سوار شديد بر كوهان بلند يقين و به جهت ما منتقل گشتيد از شب ضلالت و به صباح اسلام رسيديد. كر باد يا سنگين باد گوشى كه نفهميد صداى داعى حق را و چگونه مراعات بنمايد آواز ضعيف را آن كسى كه كر ساخته است او را آواز قوى. ثابت باد قلبى كه جدا نشد از آن طپيدن از ترس خدا. هميشه بودم كه انتظار مى كشيدم از شما عاقبت هاى خيانت را و به فراست مى يافتم شما را كه متّصفيد به زينت فريفتگان از قبول باطل و ناروا. پوشانيد مرا از ديده شما پرده دين من و بينا گردانيد مرا بر حال شما خلوص نيت و صفاى باطن من.

(١) البصائر: ٣٧٨، والاختصاص: ٣٠٣.

الفصل الثاني

«أَقَمْتُ لَكُمْ عَلى سُنَنِ الْحَقِّ في جَوادِ الْمَضَلَّةِ حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلا دَليلَ وَتَحْتَفِرُونَ وَلا تميهُونَ الْيَوْمَ أُنطِقُ لَكُمُ الْعَجْماء ذاتَ الْبَيانِ، عَزَبَ رَأْيُ امْرِءٍ تَخَلَّفَ عَنّي، ما شَكَكْتُ في الْحَقِّ مُذْ رَأَيْتُهُ، لَمْ يُوجِسْ مُوسى خيفَةً عَلى نَفْسِه، أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهّالِ، ودُوَلِ الضَّلالِ، الْيَوْمَ تَواقَفْنا عَلى سَبيلِ الْحَقِّ وَالْباطِلِ، مَنْ وَثِقَ بِماءٍ لَمْ يَظْمَأْ»[1].

اللغة

(**أقام**) بالمكان إقامة دام (**سنن**) الطريق مثلّثة وبضمّتين نهجه وجهته والسّنة الطريقة، والسّنة من الله حكمه وأمره ونهيه وأرض (**مضلة**) بفتح الميم والضّاد يفتح ويكسر أي يضلّ فيها الطريق و (**أماه**) الحافر وأموه بلغ الماء، والبهيمة (**العجماء**) لأنّها لا تفصح واستعجم الكلام علينا مثل استبهم وكلمة عجماء مبهمة و (**عزب**) الشيء عزوباً من باب قعد بعد، وغرب من بابي قتل وضرب خفي وغاب و (**الوجس**) كالوعد الفزع يقع في القلب وأوجس في نفسه خيفة أي أحسّ وأضمر و (**الإشفاق**) الخوف و (**دول**) مثلّثة جمع دولة.

وقال الفيومي: تداول القوم الشيء تداولاً وهو حصوله في يد هذا تارة وفي يد هذا أخرى، والإسم الدّولة بفتح الدّال وضمّها وجمع المفتوح دول بالكسر مثل قصعة وقصع وجمع المضموم دول بالضم مثل غرفة وغرف، ومنهم من يقول الدّولة بالضمّ في المال وبالفتح في الحرب وعلى هذا فالأنسب أن يكون دول في كلامه عليه السلام بالكسر ليكون جمع دولة بالفتح و (**التواقف**) بالقاف قبل الفاء هو الوقوف و (**الظماء**) شدّة العطش.

الإعراب

(**العجماء**) بالفتح مفعول أنطق أو صفة لمحذوف أي الكلمات، (**وخيفة**) بالنّصب مفعول لم يوجس، وأشفق بصيغة التفضيل صفة (**خيفة**) ويحتمل أن يكون بصيغة الماضي وإستدراكاً عن سابقه أي لم يوجس موسى خيفة على نفسه، ولكنّه أشفق من غلبة الجهال.

المعنى

لمّا ذكر عليه السلام حال المنافقين معه من غدرهم واغترارهم ونفارهم واستكبارهم وما هم عليه من الغفلة والجهالة بشأنه عليه السلام ورتبته مع كونه سبب هدايتهم في الظلماء وتسنّمهم على سنام العلياء أردف ذلك بما يدلّ على وجوب اقتفاء آثاره، واقتباس أشعّة أنواره في سلوك

(١) البحار: ١٣/ ١٤١.

منهج الحقّ القويم وسير سبيل الله المستقيم فقال **(أقمت لكم)** أي: دمت وثبت **(على سنن الحقّ)** وجهته **(في جواد المضلة)** أي الجواد التي يضلّ فيها وتزل فيها الأقدام، والمراد بسنن الحقّ هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره وهو الصّراط المستقيم الموصل إلى الرّضوان ومن جواد المضلة هو سبل الشّيطان المؤدّية إلى النيران.

قال عبد الله بن مسعود: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطاً وقال: «هذا صراط الله ثمّ خط خطوطاً عن يمينه وشماله وقال: هذه سبل وعلى كلّ سبيل منها شيطان يدعون النّاس إليها» ثم تلا قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[1] [الأنعام: ١٥٣].

والمراد بقوله عليه السلام **(أقمت لكم الإشارة)** إلى إقامته على نهج الحقّ لدعوة النّاس إليه كما قال تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال أبو جعفر الطوسي في «تفسيره»: ذاك رسول الله وأمير المؤمنين والأوصياء من بعدهما عليهم السّلام يعني أنّ الدّاعي هو رسول الله ومن اتبعه أمير المؤمنين والأوصياء التابعون له في جميع الأقوال والأفعال فمن أجاب لهم دعوتهم وسلك سبيلهم:

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ومن تخلف عنهم ولم يجبهم دعوتهم وسلك سبيل غيرهم يكون ذلك حسرة عليه ويقول:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

وبالجملة فمقصوده عليه السلام من كلامه إنّي فعلت من هدايتكم وإرشادكم وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر ما يجب على مثلي فوقفت لكم جادّة الطريق ومنهجه حيث أن طرق الضّلال كثيرة مختلفة وأنتم فيها تائهون حائرون **(حيث تلتقون)** وتجتمعون **(ولا دليل)** لكم **(وتحتفرون)** الآبار لتجدوا ماء تروون به غلتكم **(فلا تميهون)** ولا تجدون الماء اليوم **(انطق لكم العجماء ذات البيان)** لتشهد بوجوب اتباعي وتدلّ على ما ينبغي فعله في كلّ باب وكنّى

(١) مسند أحمد: ١/ ٤٣٥، وسنن الدارمي: ١/ ٦٧.

عليه السلام بالعجماء ذات البيان عن العبر الواضحة وما حلّ بقوم فسقوا عن أمر ربّهم وعمّا هو واضح من كمال فضله عليه السلام بالنّسبة إليهم وعن حال الدّين ومقتضى أوامر الله، فإنّ هذه الأمور عجماء لا نطق لها مقالاً ذات البيان حالاً، ولمّا بينها عليه السلام لهم وعرّفهم ما يقوله لسان حالها فكأنّه أنطقها لهم، وقيل: **(العجماء)** صفة لمحذوف أي الكلمات العجماء، والمراد بها ما في هذه الخطبة من الرّموز التي لا نطق لها مع أنّها ذات بيان عند أولى الألباب.

قال الشّارح المعتزلي: وهذه إشارة إلى الرّموز التي تتضمنها هذه الخطبة يقول: هي خفيّة غامضة وهي مع غموضها جليّة لأولى الألباب فكأنّها تنطق كما ينطق ذوو الألسنة كما قيل: ما الأمور الصّامتة النّاطقة؟ فقيل: الدّلائل المخبرة والعبر الواضحة، وفي الأثر سل الأرض من شقّ أنهارك وأخرج ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً، ثمّ إنّه عليه السلام أشار إلى ذمّ من تخلف عنه وتوبيخه بقوله: **(عزب)** أي بعد أو غاب وخفي **(رأي امرء تخلف عنّي)** لأنّ التخلف عنه دليل على بعد الرّأي الصّائب عن المتخلف، وذلك لأنّ المتخلف لمّا فكر في أنّ أي الأمور أنفع له أن يكون من متابعيه أو المتخلفين عنه، ثمّ رأى أن التخلف عنه أوفق كان ذلك أسوء الآراء وأقبحها فهو في الحقيقة كمن أقدم على ذلك بغير رأي يحضره، أو لأنّ الرّأي الحقّ كان غارباً عنه.

ثمّ أشار عليه السلام إلى بعض علل وجوب اتّباعه بقوله: **(ما شككت في الحقّ مذ رأيته)** لأنّ من لم يشكّ في الحقّ أحقّ بالاتّباع ممّن كان في شكّ من دينه لاحتياجه إلى من يهديه قال سبحانه:

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

(لم يوجس موسى خيفة على نفسه أشفق من غلبة الجهّال) على الحقّ **(ودول الضلال)** وهذا تمثيل وإشارة إلى أنّ خوفه عليه السلام منهم لم يكن على نفسه بل كان شدة خوفه من غلبة أهل الجهل على الدّين وفتنة الخلق بهم وقيام دول الضّلال كما أنّ خوف موسى من جهلة السحرة على ما أخبر به سبحانه في كتابه الكريم كان من هذه الجهة قال في سورة طه:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٥ - ٦٨].

قال الطبرسي: معناه فأحسّ موسى ووجد في نفسه ما يجده الخائف، ويقال أوجس القلب فزعاً أي أضمر، والسّبب في ذلك أنّه خاف أن يلتبس على النّاس أمرهم فيتوهموا أنّهم فعلوا مثل فعله ويظنّوا المساواة فيشكوا ولا يتّبعونه، ثمّ ذكر وجوهاً أخرى في سبب الخوف،

والأَظهر ذلك كما يشهد به كلام الإمام عليه السلام ويدل عليه قوله: «لا تخف إنّك أنت الأَعلى»، فإنّه تقرير لغلبته عليهم على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التّحقيق وتكرير الضّمير وتعريف الخبر ولفظ العلوّ المنبيء عن الغلبة الظاهرة وصيغة التّفضيل (**اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل**) أي رقفت على سبيل الحقّ ووقفتم على سبيل الباطل وضم نفسه إليهم على حدّ قوله:

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]

وقوله (**من وثق بماء لم يظمأ**) الظاهر أنّ المراد به أنّ من كان على الحقّ وأيقن على ذلك واعتمد على ربّه وتوكل عليه لا يبالي على ما وقع فيه، كما أنّ من ائتمن بماء لم يفزعه عطشه، وقال الشّارح المعتزلي والبحراني: إنّ مراده عليه السلام إن سكنتم إلى قولي ووثقتم بي كنتم أقرب إلى الهدى والسّلامة وأبعد من الضّلالة، وما ذكرناه أظهر.

الترجمة

ثابت شدم من به جهت هدایت شما بر طریق حق در جاده هایی که محل گمراهی است در مکانی که ملاقات می کردید به همدیگر و حال آن که هیچ دلیل و هادی نبود شما را و چاه می کندید و به آب نمی رسیدید؛ یعنی بحث و کاوش می کردید از برای اخراج نتیجه مطلوب در اودیه قلوب و از تحصیل نتیجه مطلوبه عاجز بودید. امروز بر زبان درآوردم به جهت شما حیوان بی زبان را یعنی هرکه هست از بی زبانان، مخبرند به لسان حال به امتثال مقال من و ناطقند بر وجوب اتّباع و حقیقت حال من. غایب شد رأی صایب مردی که تخلف کرده است از من. شك نکرده ام من در حق از آن زمانی که عالم به حق شده ام. احساس نکرد موسی بن عمران (عليه السلام) خوفی را بر نفس خود که سخت تر بوده باشد از خوفی که داشت از غلبه جلاهان و قیام دولت های گمراهان. امروز ایستاده ایم ما و شما بر راه حق و باطل؛ یعنی من ایستاده ام بر طریق هدایت و شما ایستاده اید در راه ضلالت، هر کسی که وثوق و اطمینان داشته باشد به آب تشنه نماند؛ والله أعلم بالصّواب.

ومن كلام له عليه السلام لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة وهو الخامس من المختار في باب الخطب

ورواه في «**البحار**» من مناقب ابن الجوزي بأدنى اختلاف تطّلع عليه:

«أَيُّهَا النّاسُ شُقُّوا أَمْواجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجاةِ، وعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنافِرَة، وَضَعُوا تيجانَ الْمُفاخِرَة، أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَناحٍ، أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَراحَ، ماءٌ آجِنٌ ولُقْمَةٌ يَغُصُّ بها آكِلُها، ومُجْتَني الثَّمَرَةِ لِغَيرِ وَقْتِ إِيناعِها كَالزّارِعِ بِغَيرِ أَرْضِه، فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ، هَيْهاتَ بَعْدَ اللَّتَيّا وَالَّتي، وَاللهِ لَابْنُ أَبي طالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّه، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِه لَاضْطَرَبْتُمْ إِضْطِرابَ الأَرْشِيَةِ في الطَّوِيِ الْبَعيدَة»[1].

اللغة

(**عرّجوا**) أي انحرفوا واعدلوا يقال: عرجت عنه عدلت عنه وتركته و (**تيجان**) جمع تاج وهو الإكليل و (**فاخره**) مفاخرة وفخاراً عارضه بالفخر، قال الشّارح المعتزلي: المفاخرة هو أن يذكر كلّ من الرّجلين فضائله ومفاخره، ثم يتحاكما إلى ثالث و (**الماء الاجن**) المتغيّر الطعم واللّون و (**غصص**) بالكسر والفتح ويغص بالفتح وهو غاصّ و (**جنيت الثّمرة**) واجتنيتها و (**ينعت**) الثّمار من باب ضرب ومنع أدركت و (**اللتيا**) بفتح اللام والتّاء وتشديد الياء تصغير التي، (**واللتيا والتي**) من أسماء الدّاهية يقال: وقع فلان في (**اللتيا والتي**) أي في الدّاهية، وقيل: يكنى بهذه اللفظة من كمال الشّدة والحزن وبهذه المناسبة جعلت علماً للدّاهية، وقيل: (**اللتيا**) الدّاهية التي بلغت الغاية والتّصغير للتّعظيم أو بالعكس والتّصغير للتّحقير.

وفي بعض كتب الأَدبيّة على ما ببالي أنّه تزوّج رجل امرأة قصيرة سيّئة الخلق فقاسى منها شدائد فطلقها، وتزوّج طويلة فقاسى منها أضعاف القصيرة فطلقها وقال بعد (**اللتيا والتي**) لا أتزوّج فصار مثلاً، ومثل ذلك ذكر الشّارح البحراني.

وقال الحريريّ في «**المقامات**» (**اللتيا**) تصغير (**التي**) وهي على غير قياس التّصغير المطرد لأَنّ القياس أن يضمّ أوّل الاسم إذا صغّر، وقد أقرّ هذا الاسم على فتحه الأَصليّة عند تصغيره إلاّ أنّ العرب عوّضته من ضمّ أوّله بأن زادت في آخره (**ألفاً**) وأجرت أسماء الإشارة عند تصغيرها على حكمه فقال في تصغير (**الذي والتي**): اللذيّا واللتيا وفي تصغير (**ذا وذاك**)،

---

(١) البحار: ٢٨/٢٣٣.

ذيا وذيّاك، وقد اختلف في معنى قولهم بعد (اللتيا والتي) وقيل: هما من أسماء الدّاهية، وقيل: المراد بهما صغير المكروه وكبيره، انتهى.

و (اندمج) في الشيء دخل فيه وتستر به و (باح) بسرّه أظهره كأباحه و (الارشية) جمع رشا ككساء وهو الحبل و (الطوى) كغنى إسم بئر بذي طوى على ما ذكره الفيروز آبادي، ولعل المراد هنا مطلق البئر كطوية.

الإعراب

(ماء آجن) مرفوع على الإبتداء والخبر محذوف وهو ما صرّح به في رواية ابن الجوزي أي أجدر بالعاقل (ا ه)، أو خبر محذوف المبتدأ أي ما تدعوني إليه ماء آجن (ومجتنى الثمر) مبتدأ وكالزّارع خبره (وعلى) في قوله عليه السلام على مكنون علم بمعنى (في) على حدّ قوله: ودخل المدينة على حين غفلة، (والبعيدة) صفة وتأنيثها باعتبار أن الطوى إسم للبئر وهي أُنثى.

المعنى

إعلم أنّه قال الشّارح المعتزلي: لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله واشتغل عليّ عليه السلام بغسله ودفنه وبويع أبو بكر خلا الزّبير وأبو سفيان وجماعة من المهاجرين بعبّاس وعليّ عليه السلام لإجالة الرأي وتكلموا بكلام يقتضي الاستنهاض والتّهييج، فقال العبّاس رضي الله عنه: قد سمعنا قولكم فلا لقلة نستعين بكم ولا لظنّة نترك آرائكم فامهلونا نراجع الفكر، فإن لم يكن لنا من الإثم مخرج يصرّ بنا وبهم الحقّ صرير الجدجد، ونبسط إلى المجد أكفّا لا نقبضها أو يبلغ بالمدى، وإن تكن الأخرى فلا لقلة في العدد ولا لوهن في الأَيد والله لولا أن الإسلام قيّد الفتك لتدكدكت جنادل صخر يسمع اصطكاكها من المحلّ العلي، فحلّ عليه السلام حبوته وقال: «الصّبر حلم والتّقوى دين والحجّة محمّد صلى الله عليه وآله والطريق الصّراط، أيّها النّاس شقّوا أمواج الفتن»، الخطبة، ثمّ نهض إلى منزله وافترق القوم.

وقال البحراني: روي أنّه لمّا تمّ في سقيفة بني ساعدة لأبي بكر أمر البيعة أراد أبو سفيان بن حرب أن يوقع الحرب بين المسلمين ليقتل بعضهم بعضاً فيكون ذلك دماراً للدّين، فمضى إلى العبّاس فقال له: يا أبا الفضل إنّ هؤلاء القوم قد ذهبوا بهذا الأمر من بني هاشم وجعلوه في بني تميم، وإنّه ليحكم فينا غداً هذا الفظ الغليظ من بني عدي فقم بنا حتّى ندخل على عليّ عليه السلام ونبايعه بالخلافة وأنت عمّ رسول صلى الله عليه وآله، وأنا رجل مقبول القول في قريش[1]،

---

(١) راجع البحار: ٢٨/ ٢٣٤.

فإن دافعرنا عن ذلك قاتلناهم وقتلناهم، فأتيا أمير المؤمنين عليه السلام فقال له أبو سفيان: يا أبا الحسن لا تغافل عن هذا الأمر متى كنّا لتيم الارذال وكان عليه السلام يعلم من حاله أنّه لا يقول ذلك عصبةً للدّين بل للفساد الذي زواه في نفسه فأجابه عليه السلام بقوله:

(أيها النّاس شقّوا أمواج الفتن بسفن النّجاة) شبّه الفتن بالبحر المتلاطم في كون كلّ منهما سبب هلاك الخائضين فيها، وقرن ذلك بالأمواج التي هي من لوازم البحر وكنّى بها عن هيجان الفتنة وثورانها، وأتبعها بذكر سفينة النّجاة التي هي من ملائمات البحر، ولمّا كانت السّفن الحقيقية تنجي من أمواج البحر استعارها لكل ما يحصل به الخلاص من الفتن ووجه المشابهة كون كل منهما وسيلة إلى السّلامة **(وعرّجوا)** أي انحرفوا واعدلوا **(عن طريق المنافرة)** إلى المتاركة والمسالمة **(وضعوا تيجان المفاخرة)** لما كان التّاج ممّا يعظم به قدر الإنسان وهو أعظم ما يفتخر به إستعاره لما كانوا يتعظمون به ويفتخرون وأمرهم بوضعه مريداً بذلك ترك التّفاخر الموجب لانبعاث الفتنة وهيجان العصبيّة، ولمّا أمر عليه السلام بالعدول عن النّفار والافتخار أشار إلى ما ينبغي أن يكون الانسان عليه في تلك الحالة التي هاجت فيها الفتن وعظمت فيها المحن بقوله: **(أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح)** يعني أن الفلاح في تلك الحال بأحد الأمرين.

أحدهما: النّهوض إلى الأمر ومطالبة الحقّ بوجود النّاصر والمعين اللّذين هما بمنزلة الجناح للطير في كونها واسطة الظفر بالمطلوب والفوز بالمقصود.

وثانيهما: التسليم والإنقياد والتّرك والسّلامة لمن لم يكن له جناح النجاح فيستسلم وينقاد فيريح نفسه من تعب الطلب.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ ما كانوا يدعون إليه ويحملونه عليه **(ماء آجن)** بتغيّر اللون والطعم **(ولقمة يغص بها)** أي بأكلها **(آكلها)** أي ينشب في حلق آكلها ويكون غاصّاً لا يمكنه إساغتها، وتشبيه الخلافة في تلك الحالة بهما إشارة إلى نفرة النفس عنها وعدم التذاذها بها مع وجود المنافسة التي كانت فيها، فهي في تلك الحال كانت لقمة منغصة وجرعة لا يسيغها شاربها وقد ذكر شارحو كلامه في هذا المقام وجوهاً أخرى وما ذكرناه أظهر، ثمّ إنّ هذا كله على جعل **(ماء آجن)** خبراً لمبتدأ محذوف على ما أشرنا إليه وأمّا على تقدير جعله مبتدأ حذف خبره مطابقاً لما صرّح به في رواية ابن الجوزي التي تأتي في التّكملة الآتية، فالغرض أنّ التّحمل على المذلة والصّبر على الشّدة أولى مع حسن العاقبة وأحسن من ارتكاب أمر يوجب اشتداد البليّة وسوء العاقبة.

ثمّ أخذ في الإعتذار عن الإمساك وترك المنازعة بقوله عليه السلام: **(ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزّارع بغير أرضه)** يعني من اجتنى الثمرة قبل أن تدرك لا ينتفع بها كما لا ينتفع

الزّارع بغير أرضه من زرعه لعدم قدرته على الإقامة في محلّ زراعته وعدم إمكان سعيه في إصلاحها بسقيها وحراستها وجبايتها ونحوها، والمقصود أنّ هذا الوقت ليس وقت طلب هذا الأمر ولا يسوغ لي المطالبة إمّا لعدم النّاصر أو لغير ذلك.

وقال المحدّث المجلسي طاب رمسه: ولعله شبّه عليه السلام طلبه في هذا الوقت بمن يجتني ثمرته مع عدم إيناعها، وشبّه اختيار الملعون الخلافة بمن زرع في غير أرضه فيفيد ما تقدّم أي عدم الانتفاع مع كمال التّشبيه في الفقرتين (**فإن أقل**) في باب الخلافة شيئاً (**يقولوا: حرص على الملك**) كما قاله عمر في غير موضع واحد (**وإن أسكت**) من حيث اقتضاء المصلحة (**يقولوا: جزع من الموت**) وهذا كلّه إشارة إلى عدم أمنه عليه السلام من حصائد الألسنة وغوائل الزّخرفة، حيث إنّهم مع التّكلم كانوا ينسبونه إلى الحرص والاهتمام بأمر الدّنيا، ومع السّكوت كانوا ينسبونه إلى الجزع والعجز والخوف من الموت كما هو دأب المنافق الحاسد والكافر الجاحد في كلّ عصر وزمان خصوصاً في حقّ مثله عليه السلام.

كما قال الصّادق عليه السلام في رواية المجالس: «إنّ رضا النّاس لا يملك وألسنتهم لا تضبط، ألم ينسبوه صلى الله عليه وآله يوم بدر إلى أنّه أخذ من المغنم قطيفة حمراء حتّى أظهره الله على القطيفة، وبرأ نبيّه من الخيانة، وأنزل في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]» الآية.

وفي «**الصّافي**» عن المجالس عن الصّادق عليه السلام: «إنّ رضا النّاس لا يملك وألسنتهم لا تضبط وكيف تسلمون ما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحججه ألم ينسبوا نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وآله إلى أنّه ينطق عن الهوى في ابن عمّه عليّ عليه السلام حتّى كذّبهم الله فقال:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]»[1].

وقال الشّاعر، وربّما ينسب إليه عليه السلام:

قيل إنّ الإله ذو ولد — وقيل إنّ الرّسول قد كهنا

ما نجا الله والرّسول معاً — من لسان الورى فكيف أنا

ثمّ إنّه عليه السلام أشار إلى بطلان ما زعموا في حقّه وتكذيب ما قالوا فيه من جزعه من الموت على تقدير السّكوت بقوله: (**هيهات**) أي بعد ما يقولون (**بعد اللّتيا والتي**) أي بعد هذه الدّاهية الكبرى وملاقات كبار الشّدائد وصغارها (**والله لابن أبي طالب آنس بالموت**) وأرغب فيه وأميل إليه (**من**) ميل (**الطفل**) ورغبته (**بثدي أمه**) وتفضيله عليه السلام أنسه بالموت على أنس الطفل بالثّدي بملاحظة أن أنس الطفل جبلي وطبيعي في معرض الفناء والزّوال وأنسه عليه السلام

---

(١) تفسير الصافي: ١/٣٩٦.

بالموت ولقاء ربّه عقليّ روحاني متّصف بالبقاء والثبات فأين أحدهما من الآخر.

ثمّ أشار عليه السلام إلى سرّ سكوته عن طلب حقّه بقوله: **(بل اندمجت)** أي أنطويت **(على مكنون علم لو بحت به)** وأظهرته **(لاضطربتم اضطراب الأرشية)** والحبال **(في الطوى البعيدة)** والبئر العميقة، واختلفوا في أنّ المراد بالعلم المكنون ماذا؟

فقيل: إنّه إشارة إلى الوصيّة التي اختص بها وقد كان من جملتها الأمر بترك النّزاع في مبدأ الاختلاف.

وقيل إنّ المراد به علمه بعواقب الأمور المانع من سرعته إلى ما فيه المفسدة والموجب لتوقفه على ما اقتضته المصلحة.

وقيل: إنّه أراد به علمه بأحوال الآخرة وأهوالها، يعني أنّ الذي يمنعني من المنافسة في هذا الأمر والقتال عليه اشتغالي بما انطويت عليه من علم الآخرة ممّا لو أظهرته لكم لاضطربتم اضطراب الحبال في الآبار خوفاً من العقاب وشوقاً إلى الثّواب ولذهلتم عمّا أنتم فيه من التّنافس في أمر الدّنيا.

أقول: والأظهر عندي أنّ المراد به هو ما أعلمه النّبي صلى الله عليه وآله بالوحي الإلهي من جريان حكم القضاء اللاّزم على دوران رحى الضلالة بعده صلوات الله عليه وآله على قطبها إلى رأس خمس وثلاثين من الهجرة، ثمّ قيام دولة بني أميّة على ما يجري فيها على المسلمين والمؤمنين من العذاب الأليم والنّكال العظيم، ثمّ ملك الفراعنة أعني بني العبّاس على ما يبتلى به النّاس فيه من الفتن والمحن، ولعلّ هذا الوجه أقرب، ومحصّله أنّ القضاء الأزلي والقدر الحتمي قد جرى على وقوع هذه الأمور واستيلاء الدولة الباطلة لا محالة، فلا يثمر النّهوض ولا ينفع إلاّ السّكوت، والله العالم بحقائق كلام وليّه صلوات الله عليه وآله.

تكملة

هذا الكلام رواه المجلسي في «البحار» بأدنى اختلاف، قال: مأخوذ من مناقب ابن الجوزي خطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفات رسول الله صلى الله عليه وآله، روى مجاهد عن ابن عبّاس قال: لمّا دفن رسول الله صلى الله عليه وآله جاء العبّاس وأبو سفيان بن حرب ونفر من بني هاشم إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقالوا: مدّ يدك نبايعك، وهذا اليوم الذي قال فيه أبو سفيان: إن شئت ملأتها خيلاً ورجلاً، فخطب عليه السلام وقال:

«أيّها النّاس شقّوا أمواج الفتن بسفن النّجاة، وعرّجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة، فقد فاز من نهض بجناح، أو استسلم فارتاح، ماء آجن ولقمة يغصّ بها آكلها أجدر بالعاقل من لقمة تحشي بزنبور، ومن شربة تلذّ بها شاربها مع ترك النّظر في عواقب الأمور،

فإن أقل يقولوا: حرص على الملك؛ وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت، هيهات هيهات بعد (اللّتيا والتي) والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، ومن الرّجل بأخيه وعمّه، ولقد اندمجت على مكنون علم لوبحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة»[1].

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در حينى كه پيغمبر خدا (ﷺ) از دنيا احتجاب فرمود و خطاب نمودند به آن حضرت عباس بن عبدالمطلب و ابوسفيان بن حرب در آن كه بيعت نمايند به او به خلافت، پس فرمود در جواب ايشان:

اى مردمان بشكافيد موج هاى فتنه ها را كه در تلاطم مانند بحار زخّار است به كشتى هاى راستكارى و منحرف بشويد و عدول نماييد از راه مخالفت به سوى استكانت و سلامت و بگذاريد از سرها تاج هاى مكابرت و مفاخرت را. راستكار گرديد كسى كه برخاست به جناح اعوان و انصار يا اطاعت نمود و نفس خود را راحت كرد. چيزى كه مرا به سوى آن دعوت مى كنيد از عقد بيعت، همچو آبى است گنديده و مانند لقمه اى است كه به سبب خوردن آن گلوگير مى شود خورنده آن و چيننده ميوه در غير وقت رسيدن آن به منزله كسى است كه زراعت كننده است در غير زمين خود، پس اگر بگويم كه ميل دارم در خلافت ميگويند كه حريص است در ملك و امارت و اگر ساكت شوم مى گويند كه ترسيد از مقاتله و شهادت. چه دور است آن چه مى گويند بعد از اين داهيه عظمى و مصيبت كبرى و تعاقب شدائد بسيار و ملاقات سختى هاى بى شمار. به خدا قسم هرآينه پسر ابوطالب انس گيرنده تر است به مرگ از انس گرفتن طفل شيرخواره به پستان مادر خود، بلكه سبب سكوت و توقف من در اين باب آن است كه پيچيده شده ام به علم مخزون و سرّ مكنونى كه پنهان است كه اگر اظهار بدارم آن را به شما، هرآينه مضطرب مى شويد و به لرزه مى افتيد مانند لرزيدن ريسمان در چاه دور و دراز و اين اشاره است به قيام دولت اهل ضلالت و طغيان و امتداد زمان غصب خلافت ايشان.

(١) البحار: ٢٩/ ١٤١.

ومن كلام له عليه السلام لما أشير إليه بأن لا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال وهو سادس المختار في باب الخطب الجاري مجراها

ورواه في «**البحار**» من «**الأمالي**» بسند يأتي، في «**شرح البحراني**» عن أبي عبيد قال أقبل أمير المؤمنين عليه السلام الطواف وقد عزم على اتباع طلحة والزّبير وقتالهما فأشار إليه ابنه الحسن عليه السلام أن لا يتبعهما ولا يرصد لهما القتال فقال عليه السلام في جوابه:

«وَاللّهِ لاَ أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ حَتَّى يَصِلَ إلَيْهَا طَالِبُهَا وَيَخْتِلَها راصِدُها، وَلٰكِنّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ وبِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ أَبَداً حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي، فَوَاللّهِ ما زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي مُسْتَأْثِراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ اللّهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله حَتّى يَوْمِ النّاسِ هٰذا»[1].

اللغة

(**الضّبع**) بضمّ (**الباء**) حيوان معروف مؤنّثه، قال الفيروز آبادي وهي سبع كالذّئب إلاّ أنّه إذا جرى كأنّه أعرج ولذلك سمّي السّبع العرجاء و(**اللّدم**) اللّطم والضّرب بشيء ثقيل يسمع وقعه و(**ختله**) يختله من باب نصر وضرب خدعه و(استأثر) بالشيء استبدّ به.

الإعراب

(**على**) في قوله: على طول اللدم، للاستعلاء المجازي على حدّ قوله تعالى: «ولهم عليّ ذنب»، (**والباء**) في قوله: بالمقبل وبالسّامع، للإستعانة أو المصاحبة، (**وعليّ**) في قوله: يأتي عليّ، زائدة، وحتّى في قوله: حتّى يقوم النّاس بمعنى (**إلى**) والإتيان بها دون إلى للإشارة إلى دخول ما بعدها في حكم ما قبلها إذ الغالب في (**حتّى**) مع الخلوّ من القرينة هو الدّخول، كما أنّ الغالب في (**إلى**) العكس؛ صرّح به ابن هشام في «**المغني**».

المعنى

إعلم أنّ الضّبع حيوان معروف بالحمق والعرب تقول في أمثالها: أحمق من الضّبع، ومن حمقها أنّ الصّائد يأتي إلى باب مغارها فيضرب بعقبه الأرض عند الباب ضرباً خفيفاً، وذلك هو اللدم ويقول خامري أم عامر مراراً بصوت ليس بشديد فتنام على ذلك فيدخل إليها ويجعل الحبل في عرقوبها ويجرّها فيخرجها.

---

(١) البحار: ٣٢/١٣٥، ومجمع البحرين: ٤/١١٦.

وفي «**شرح المعتزلي**» والعرب يزعمون أنّ الصّائد يدخل عليها وجارها فيقول: أطرقي أمّ طريق خامري أم عامر، ويكرّر ذلك مراراً فتلجأ إلى أقصى مغارها وتنقبض فيقول: أمّ عامر ليست في وجارها أمّ عامر نائمة، فتمدّ يديها ورجليها وتستلقي فيدخل عليها ويوثقها.

أقول: عامر هو جرو الضّبع وأمّ عامر كنية لها ومعنى خامري أمّ عامر استتري والزمي مكانك من المخامرة وهو الإستتار ولزوم المكان، وأمّ طريق كقبيط كنية لها أيضاً وهو كثير الاطراق.

وفي «**القاموس**» يقال: خامري حضاجر أتاك ما تجاوز هكذا وجدناه والوجه خامر بحذف (**الياء**) أو تجاوزين بإثباتها، وحضاجر علم جنس للضّبع غير منصرف لأنّه منقول عن الجمع وكان في الأصل حضجر بمعنى عظيم البطن سمّى به الضّبع مبالغة في عظم بطنها، كأن كلّ فرد منها جماعة من هذا الجنس، فهو علم للمفرد المؤنث ولذلك قال الفيروز آبادي: والوجه أن يقال: تجاوزين، وأما الوجه الآخر الذي ذكره وهو حذف (**الياء**) في خامر فهو مبنيّ على كونه علماً لجنس الضّبع الأعم الشامل للذكر والأنثى على ما ذهب إليه البعض على ما حكاه الفيومي في «**المصباح**».

وكيف كان فإذا عرفت ما مهّدناه وضح لك معنى قوله عليه السلام: (**والله لا أكون كالضّبع تنام على طول اللدم حتّى يصل إليهاطالبها ويختلها**) أي يخدعها (**راصدها**) ومترقّبها والمقصود إني لا أقعد عن الحرب ولا أؤخّر القتال فيكون حالي مع القوم المشار إليهم حال الضّبع تنام على حيلة صائدها، فأكون قد أسلمت نفسي لهم ويكونون متمكّنين منّي تمكّن صائد الضّبع منها بختله وخديعته (**ولكنّي أضرب**) مصاحباً (**بالمقبل إلى الحقّ**) وجه (**المدبر عنه و**) أحارب مستعيناً (**بالسّامع المطيع**) بداعي الحقّ (**العاصي المريب**) في الحقّ الشاك فيه (**أبداً**) أي ما دام العمر (**حتّى يأتي عليّ يومي**) الذي قدّر فيه موتي (**فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقّي**) الذي كنت أستحقّه بنصّ من الله ورسوله (**مستأثراً عليّ**) ومستبداً برأيي غير محتاج إلى مشاورة الغير (**منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله**) إليه (**حتّى يوم النّاس هذا**) يعني أنّ التغلب عليّ واندفاعي عن الخلافة شيء لم يتجدد الآن بل كان منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك اليوم الذي خالفوني ونكثوا بيعتي.

وفي «**الاحتجاج**» قال أمير المؤمنين عليه السلام في أثناء كلام له: وهذا طلحة والزّبير ليسا من أهل النّبوة ولا من ذريّة الرّسول حتّى رأيا أنّ الله قد ردّ علينا حقّنا بعد أعصر فلم يصبرا حولاً كاملاً ولا شهراً حتّى وثبا عليّ دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقّي ويفرّقا جماعة المسلمين عنّي ثمّ دعا عليهما[1].

(١) الإرشاد: ١/٢٤٩، والاحتجاج: ١/٢٣٦.

وينبغي التنبيه على أمور

الأول: في ذكر نسب طلحة والزّبير أما طلحة فقد قال العلامة الحلي قدّس الله روحه في **«كشف الحقّ»** وقد ذكر أبو المنذر هشام بن محمّد السّائب الكلبي من علماء الجمهور أنّ من جملة البغايا وذوي الرّايات صعبة بنت الحضرمي وكانت لها راية بمكة واستصفت بأبي سفيان فوقع عليها أبو سفيان وتزوّجها عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم فجاءت بطلحة بن عبيد الله لستّة أشهر، فاختصم أبو سفيان وعبيد الله في طلحة فجعلا أمرهما إلى صعبة فألحقته بعبيد الله فقيل لها: كيف تركت أبا سفيان؟ فقالت يد عبيد الله طلقة ويد أبي سفيان بكرة، وقال أيضاً: وممّن كان يلعب به ويتخنّث عبيد الله أبو طلحة.

وأمّا الزّبير فقد قال في **«البحار»**: قال مؤلف كتاب **«إلزام النّواصب»** وصاحب **«تحفة الطالب»**: قد ورد أنّ العوام كان عبداً لخويلد ثمّ أعتقه وتبنّاه[١] ولم يكن من قريش، وذلك أنّ العرب في الجاهليّة كانت إذا كان لأحدهم عبد وأراد أن ينسبه إلى نفسه ويلحق به نسبه أعتقه وزوّجه كريمة من العرب فيلحقه بنسبه وكان هذا من سنن العرب ويصدّق ذلك شعر عدي بن حاتم في عبد الله بن الزّبير بحضرة معاوية وعنده جماعة من قريش وفيهم عبد الله بن الزّبير، فقال عبد الله لمعاوية يا أمير المؤمنين ذرنا نتكلم عدياً فقد زعموا أنّ عنده جواباً، فقال: إنّي احذركموه، فقال: لا عليك دعنا وإيّاه فقال يا أبا طريف متى فقأت عينك؟ فقال: يوم فرّ أبوك وقتل شرّ قتلة وضربك الاشتر على استك فوقعت هارباً من الزّحف وأنشد يقول شعراً.

أماد أبي يا ابن الزّبير لو أنني ... لقيتك يوم الزّحف رمت مدى سخطاً

وكان أبي في طيّ وأبوايي ... صحيحين لم ينزع عروقهما القبطا

قال معاوية: قد حذّرتكموه فأبيتم، وقوله: صحيحين (١ ه) تعريض بابن الزّبير بأنّ أباه وآبا أبيه ليسا بصحيحي النّسب وأنّهما من القبط ولم يستطع ابن الزّبير انكار ذلك في مجلس معاوية[٢].

الثاني

في سبب نقض طلحة والزّبير بيعته عليه السلام، قال الشّارح المعتزلي: لمّا بويع عليّ عليه السلام كتب إلى معاوية: «أمّا بعد فإنّ النّاس قتلوا عثمان من غير مشورة منّي وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع فإذا أتاك كتابي فبايع وأوفد إليّ أشراف أهل الشّام قبلك، فلمّا قدم رسوله على معاوية وقرأ كتابه بعث رجلاً من بني عيسى وكتب معه كتاباً إلى الزّبير بن العوام وفيه:

(١) اي أخذه إبناً له.

(٢) البحار: ٣٢/٢١٩.

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم لعبد الله الزّبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان سلام عليك، أمّا بعد فإنّي قد بايعت لك أهل الشّام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقنك إليهما ابن أبي طالب فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك فأظهرا الطلب بدم عثمان وادعوا النّاس إلى ذلك وليكن منكما الجدّ والتشمير أظفركما الله وخذل مناديكما».

فلمّا وصل هذا الكتاب إلى الزّبير ستر به وأعلم به طلحة وأقرأه إيّاه فلم يشكا في النّصح لهما من قبل معاوية وأجمعا عند ذلك على خلاف عليّ عليه السلام.

قال الشّارح: جاء الزّبير وطلحة إلى عليّ عليه السلام بعد البيعة بأيّام فقالا: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كنا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلها وعلمت رأي عثمان كان في بني أميّة وقد ولاك الله الخلافة من بعده فولنا بعض أعمالك. فقال عليه السلام لهما: «ارضيا بقسم الله لكما حتّى أرى رأيي واعلما أنّي لا أشرك في أمانتي إلاّ من أرضى بدينه وأمانته من أصحابي ومن قد عرفت دخيلته»، فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس فاستأذناه في العمرة[١].

وفي **«الإحتجاج»** عن ابن عبّاس أنّه قال: كنت قاعداً عند عليّ عليه السلام حين دخل عليه طلحة والزّبير فاستأذناه في العمرة فأبى أن يأذن لهما فقال: «قد اعتمرتما»، فعادا عليه الكلام فأذن لهما ثمّ التفت إليّ فقال: «والله ما يريدان العمرة»، قلت: فلا تأذن لهما، فردّهما، ثمّ قال لهما: والله ما تريدان العمرة وما تريدان إلاّ نكثا لبيعتكما وإلاّ فرقة لأمّتكما فحلفا له فأذن لهما ثمّ إلتفت إليّ فقال: «والله ما يريدان العمرة»، قلت: فلم أذنت لهما؟ قال: «حلفا لي بالله»، قال: خرجا إلى مكة فدخلا على عائشة فلم يزالا بها حتّى أخرجاها[٢].

وفي **«شرح المعتزلي»** من كتاب **«الجمل»** لأبي مخنف أنّ عليّاً عليه السلام خطب لمّا سار الزّبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة فقال:

«أيّها النّاس إنّ عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزّبير وكلّ منهما يرى الأمر له دون صاحبه أمّا طلحة فابن عمها وأما الزّبير فختنها، والله لو ظفروا بما أرادوا ولن ينالوا ذلك أبداً ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد والله إنّ راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحلّ عقدة إلاّ في معصية الله وسخطه حتّى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة أي والله ليقتلن ثلثهم وليهربن ثلثهم وليتوبن ثلثهم وأنّها التي تنبحها كلاب الحواب وأنّهما ليعلمان أنّهما مخطئان وربّ عالم قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه وحسبنا الله ونعم الوكيل، فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية أين المحتسبون أين المؤمنون؟ مالي ولقريش أما والله لقد قتلتهم كافرين

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٣١.
(٢) رسائل المرتضى: ٤/ ٦٦، والاحتجاج: ١/ ٢٣٥.

ولأَقتلنّهم مفتونين، ومالنا إلى عائشة من ذنب إلاّ أنّا أدخلناها في حيزنا والله لا يقرنّ الباطل حتّى يظهر الحق من خاصرته»[١].

ورواه في «البحار» من كتاب «الكافية» لإبطال توبة الخاطئة قريباً منه، وفيه بدل قوله: وليتوبنّ ثلثهم وليرجع ثلثهم ويدل قوله: وما لنا إلى عائشة من ذنب وما لنا إليها من ذنب غير أنّا خيرنا عليها فأدخلناها في حيزنا[٢].

الثالث

روى المحدّث المجلسي (قده) في «البحار» من «أمالي المفيد» عن الكاتب عن الزّعفراني عن الثقفي عن الفضل بن دكين عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: لمّا نزل عليّ عليه السلام بالرّبذة سألت عن قدومه إليها فقيل: خالف عليه طلحة والزّبير وعائشة وصاروا إلى البصرة فخرج يريدهم فصرت إليه فجلست إليه حتّى صلى الظهر والعصر فلمّا فرغ من صلاته قام إليه ابنه الحسن عليه السلام فجلس بين يديه ثمّ بكى وقال: يا أمير المؤمنين إنّي لا أستطيع أن أكلمك وبكى عليه السلام، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: لا تبك يا بني وتكلم ولا تحنّ حنين الجارية.

فقال: يا أمير المؤمنين إنّ القوم حصروا عثمان يطلبونه بما يطلبونه إمّا ظالمون أو مظلومون فسألتك أن تعتزل النّاس وتلحق بمكة حتى تثوب العرب وتعود إليها أحلامها وتأتيك وفودها فوالله لو كنت في جحر ضبّ لضربت إليك العرب آباط الإبل حتّى تستخرجك منه ثمّ خالفك إلى الحقّ طلحة والزّبير فسألتك أن لا تتبعهما وتدعهما فإن اجتمعت الأمّة فذاك وإن اختلفت رضيت بما قسم الله وأنا اليوم أسألك أن لا تقدم العراق وأذكرك بالله أن لا تقتل بمضيعة.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام أمّا قولك: «إنّ عثمان حصر فما ذاك وما عليّ منه وقد كنت بمعزل عن حصره»، وأمّا قولك: ائت مكة فوالله ما كنت لأكون الرّجل يستحل به مكة، وأمّا قولك: اعتزل العراق ودع طلحة والزّبير فوالله ما كنت لأكون كالضّبع ينتظر حتّى يدخل عليها طالبها فيضع الحبل في رجلها حتّى يقطع عرقوبها ثمّ يخرجها فيمزقها إرباً إرباً ولكن أباك يا بنيّ يضرب بالمقبل إلى الحقّ المدبر عنه وبالسّامع المطيع العاصي المخالف أبداً حتّى يأتي عليّ يومي فوالله ما زال أبوك مدفوعاً عن حقّه مستأثراً عليه منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى يوم النّاس[٣] هذا.

---

(١) شرح النهج: ١/ ٢٣٣.
(٢) وسائل الشيعة: ١/ ٣٤، والبحار: ٣٢/ ١٠٤.
(٣) أمالي الطوسي: ٥٢، وحلية الأبرار ٢/ ٣٠٠.

وكان طارق بن شهاب ـ أيّ وقت حدث بهذا الحديث ـ بكى، هذا.

والمستفاد من هذه الرّواية أنه عليه السلام خطب بهذه الخطبة بالرّبذة، والمستفاد من رواية الشّارح البحراني السّالفة أنّه خطب بها بمكة، والله العالم بحقائق الوقائع.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است كه فرمود در حينى كه اشاره كرده شد به سوى او كه نرود پى طلحه و زبير و مهيا نسازد به جهت ايشان مقاتله و محاربه را و اشاره كننده حضرت امام حسن (عليه السلام) بود كه به حضور پدر بزرگوار اين عرض را نمود، پس آن امام عالى مقام جواب داد:

به خدا سوگند كه من نمى توانم مثل كفتار بشوم كه بخوابد بر درازى زدن صيدكننده او پاشنه خود را به سنگ كه اين از جمله اسباب صيد اوست تا اين كه برسد به او طلب كننده و فريب دهد او را انتظار كشنده او وليكن من مى زنم به استعانت و مصاحبت كسى كه اقبال كننده حق است ادباركننده از حق را و به يارى شنونده فرمان بردار گنه كار شك آورنده را در جميع حالات و در همه اوقات تا اين كه بيايد به سوى من روز موعود من.

پس به خداوند سوگند هميشه بوده ام دفع كرده شده از حق خود، ممنوع گرديده از خلافت مستبدّ در امر و تنها ايستاده ام بركار خود و هيچ ناصر و معين من نبوده از آن زمان كه قبض فرمود حق سبحانه و تعالى روح پرفتوح پيغمبر خود را تا روز مردمان اين روزگار؛ يعنى اغتصاب خلافت و ممنوع شدن من از حق خود چيزى نيست كه تازگى داشته باشد و از آن استيحاش بكنم، بلكه امرى است مستمر از روز وفات حضرت رسالت مآب سلام الله عليه تا امروز كه اين منافقين با من به مقام نقض عهد آمده و بنايشان دفع نمودن من است از حق خود؛ والله أعلم بالصّواب.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخطبة السابعة

«اِتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لأَمْرِهِمْ مِلاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْراكاً، فَباضَ وَفَرَّخَ في صُدُورِهِمْ، ودَبَّ ودَرَجَ في حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ في أَعْيُنِهِمْ، ونَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ في سُلْطَانِهِ، ونَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ»(١).

اللغة

(الشّيطان) فيعال من شطن إذا تباعد فكأنّه يتباعد عنه ذكر الله تعالى، وقيل إنّه فعلان من شاط يشيط إذا احترق غضباً لأنّه يحترق ويغضب إذا أطاع العبد لله سبحانه و**(ملاك)** الأمر ما به قوامه و**(الإشراك)** إمّا جمع شريك كشريف وأشراف وهو الأظهر، أو جمع شرك وهو حبائل الصّيد والغالب في جمعه شرك بضمّتين وقد يجمع على أشراك كجبل وأجبال و**(باض)** الطائر ونحوه يبيض بيضاً فهو بائض و**(فرّخ)** من باب التّفعيل و**(دبّ)** الصّغير دبيباً من باب ضرب سار و**(درج)** الصّبي دروجاً من باب قعد مشى قليلاً، وقد يختص الدّبيب بالحركة الخفيّة و**(الخطل)** الكلام الفاسد يقال: أخطل: في كلامه أي أخطأ.

الإعراب

(فعل من قد شركه) مفعول مطلق مجازي لقوله: **(اتّخذوا)** إذ العامل محذوف والتقدير فعلوا ذلك فعل من (ا ه).

المعنى

إعلم أنّه عليه السلام أشار في هذه الخطبة إلى ذمّ المنابذين والمخالفين له والمتمرّدين عن طاعته فقال: **(اتّخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً)** أي به قوام أمورهم ونظام حالهم فجعلوه وليّاً لهم سلطاناً عليهم متصرّفاً فيهم بالأمر والنّهي كما قال سبحانه:

﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أي حكمنا بذلك لأنّهم يتناصرون على الباطل يؤمنون به ويتولون الشّيطان ويشركون بالرّحمٰن كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠].

---

(١) البحار: ٤٤/١٢١.

(واتّخذهم له أشراكاً) يعني أنّهم بعد ما ملكوا الشّيطان أمورهم فتصرّف فيهم بأن أخذهم شركاء له وجعلهم جنوده وأتباعه كما قال تعالى:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٩].

وأمّا على جعل الإشراك جمعاً لشرك فقد قال الشّارح البحراني أنّه استعارة حسنة، فإنّه لمّا كان فائدة الشّرك إصطياد ما يراد صيده وكان هؤلاء القوم بحسب ملك الشّيطان لآرائهم وتصرّفه فيهم على حسب حكمه أسباباً لدعوة الخلق إلى مخالفة الحقّ ومنابذة إمام الوقت وخليفة الله في أرضه أشبهوا الأشراك لاصطيادهم الخلق بألسنتهم وأموالهم وجذبهم إلى الباطل بالأسباب الباطلة التي ألقاها إليهم الشّيطان ونطق بها على ألسنتهم فاستعار لهم لفظ الإشراك.

ثمّ أشار عليه السلام إلى ملازمة الشّيطان لهم بقوله: **(فباض وفرخ في صدورهم)** كالطائر الذي يبيض ويفرخ وذلك لا يكون إلاّ بعد طول الملازمة والإقامة، فشبّه عليه السلام صدورهم بعش الطائر وموطنه إذ البائض لا يبيض إلاّ في مسكنه، وكنّى بالبيض والفرخ عن إقامته عليهم ومكثه في قلوبهم لإغوائهم، ويمكن أن يكون المراد بهما معناهما الأصلي لأنّه لا نتاج له وإنّما يبيض ويفرخ بنفسه.

كما يدلّ عليه ما رواه في **«البحار»** من الخصال بإسناده عن أبي عبد الرّحمٰن عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الآباء ثلاثة آدم ولد مؤمناً، والجانّ ولد كافراً وإبليس ولد كافراً وليس فيهم نتاج إنّما يبيض ويفرخ وولده ذكور ليس فيهم إناث»[1].

وفيه من العلل بإسناده عن عمرو بن خالد عن زيد بن عليّ عن آبائه عن عليّ عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله عزّ وجلّ حين أمر آدم أن يهبط، هبط آدم وزوجته وهبط إبليس ولا زوجة له وهبطت الحيّة ولا زوج لها فكان أوّل من يلوط بنفسه إبليس فكانت ذرّيته من نفسه، وكذلك الحيّة وكانت ذرّية آدم من زوجته فأخبرهما أنّهما عدوّان لهما»، هذا[2].

ولكن الأظهر هو المعنى الأوّل لأنّ الكناية أبلغ من الإفصاح وأسدُّ من التّصريح، فيكون ذلك نظير قوله صلى الله عليه وآله: **(إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)**، فإنّ المقصود به ليس أنّه يدخل عروقه وأوراده وتجاويف أعضائه بل المعنى أنّ الشّيطان لا يزال يراقب العبد ويوسوس

(١) الخصال: ١٥٢ ح ٢٨٦، والبحار: ١١/١١١.

(٢) علل الشرائع: ٢/٥٤٧ ح ٢، والبحار: ١١/٢٣٧.

إليه في نومه ويقظته، إذ هو جسم لطيف هوائي يمكنه أن يصل إلى ذلك الإنسان فيوصل كلامه ووسواسه إلى باطن أُذنه فيصير إلى قلبه، والله العالم بكيفيّة ذلك.

وبالجملة كلام العرب إشارات وتلويحات والكلام إذا ذهب عنه المجاز والاستعارة والكناية زالت براعته وفارقه رونقه وبقي مغسولاً وصار عاميّاً مرذولاً وكان رسول الله ﷺ وكذلك سيّد الأوصياء عليه السلام أفصح الفصحاء وأكمل البلغاء، فتكون فائدة كلامه صلوات الله عليه أنّ الشيطان يلازمك ويراصدك من حيث لا تعلم فعليك بالإحتراز منه والتوقّي من كيده ومكره، وفائدة كلامه عليه السلام أنّ الشيطان استوطن قلوبهم ولزم صدورهم لزوم الطير البائض على بيضته **(ودب وُدرج في حجورهم)** دبيب الولد في حجر والديه فهو معهم لا يفارقهم ولا يفارقونه، وعلى الوجه الآخر الذي ذكرناه من احتمال استعمال باض وفرّخ في معناهما الحقيقي فالأظهر رجوع الضّميرين في دبّ ودرج إلى الفرخ المستفاد من فرخ.

ثمّ أشار عليه السلام إلى شدّة اتحاده معهم بقوله **(فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم)** وذلك لأنّ النّظر والنّطق وسائر أفعال الأعضاء والجوارح بأسرها تابعة لإرادة القلب، إذ القلب هو الحاكم عليها بالأمر والنهي والمتصرف في مملكة البدن والرّئيس على الجوارح والمشاعر الباطنة والظاهرة.

ولمّا جعلوا هؤلاء قلوبهم عش الشّيطان وموطنه وألقوا مقاليد أمورهم إليه وعزلوا عقولهم عن التّصرف والتّدبير، كان إرادتهم القلبيّة التي هي منشأ الحركات والأفعال للجوارح تبعاً له ومنبعثة من وسوسته وإغوائه، فتكون جميع الأفعال والحركات والسّكنات لهم مستندة إليه وصادرة عن حكمه، فيكون نظرهم نظر الشّيطان ونطقهم نطق الشّيطان لا ينظرون إلاّ إلى ما فيه رضاه، ولا ينطقون إلاّ بما هو مطلوبه ومناه.

(فـ) عند ذلك **(ركب بهم الزّلل)** والضّلالة **(وزيّن لهم الخطل)** والفكاهة وفعلوا ذلك مثل **(فعل من قد شركه الشّيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه)** يعني كما أنّ من جعله الشّيطان شريكاً له في تسلطه وأمره ونهيه وكان ناطقاً بالباطل على لسانه، تكون جميع أفعاله وأقواله في جميع أحواله تبعاً لذلك اللعين، فكذلك هؤلاء المنافقين والمنابذين لعنة الله عليهم أجمعين.

الترجمة

اخذ نمودند منافقان شیطان را به جهت کارهای خودشان محل اعتماد و ما به القوام و اخذ نمود شیطان ایشان را به جهت خود شریکان، پس تخم شقاوت نهاد و جوجه درآورد و در سینه ایشان به حرکت درآمد و باتدریج رفتار کرد در کنار ایشان، پس با چشم آن ها نگاه نمود و با زبان ایشان گویا گردید، پس سوار نمود ایشان را بر مرکب لغزش و گناه و زینت داد به جهت ایشان قول فاسد و تباه را. می نمایید کارها را مثل کردن کسی که شریك نموده باشد او را شیطان در سلطان و طغیان خود و همچو کردن کسی که گویا باشد به امر باطل بر زبان او؛ یعنی افعال و اقوال این ها مثل فعل و قول کسی است که من جمیع الوجوه مطیع شیطان بوده باشد و از غایت اختلاط و امتزاج با شیطان اثنینیت از میانه برداشته شود.

ومن كلام له عليه السلام يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك وهو ثامن المختار في باب الخطب

«يَزْعَمُ أَنَّهُ قَدْ بايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبايِعْ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ، وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ، فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ، وَإِلاَّ فَلْيَدْخُلْ فيما خَرَجَ مِنْهُ».

اللغة

(ولج) يلج ولوجاً ولجة دخل، والوليجة الدّخيلة والبطانة وخاصّتك من الرّجال ومن تتخذه معتمداً من غير أهلك، وهو وليجتهم أي لسيق بهم، والمراد هنا ما أضمره الإنسان في قلبه.

الإعراب

(الفاء) في قوله عليه السلام: فقد أقرّ، وقوله: فليأت، فصيحة وفي قوله: فليدخل جواب للشرط.

المعنى

إعلم أنّ الزّبير بعد نكثه بيعته عليه السلام كان يعتذر عن ذلك، فيدّعي تارة أنه أكره على البيعة و**(يزعم)** أخرى أنه ورّى في ذلك تورية ونوى دخيلة و(أنه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه) فأجاب عليه السلام عنه وردّ ادّعائه بأنه **(قد أقرّ بالبيعة)** بتسليمه البيعة بيده ظاهراً و**(ادّعى)** أنه أضمر في باطنه ما يفسد بيعته من **(الوليجة)** والبطانة وهذه دعوى لا تسمع منه ولا تقبل شرعاً ما لم ينصب عليها دليلاً ولم يقم عليها برهاناً **(فليأت)** على إثباتها **(بأمر يعرف)** صحّته ودليل يتضح دلالته **(وإلاّ)** أي إن لم يقم عليها برهاناً كما أنّ الشّأن ذلك **(فليدخل فيما خرج منه)** من طاعته عليه السلام وانقياد حكمه وليمض على بيعته.

قال الشارح المعتزلي: لمّا خرج طلحة والزّبير من المدينة إلى مكة لم يلقيا أحداً إلاّ وقالا: ليس لعليّ في أعناقنا بيعة وإنّما بايعناه مكرهين فبلغ عليّاً عليه السلام قولهما فقال عليه السلام: «أبعدهما الله وأعزب دارهما وأنا والله لقد علمت أنهما سيقتلان أنفسهما أخبث مقتل ويأتيان من وردا بأشام يوم ولقد أتياني بوجهي فاجرين ورجعا بوجهي غادرين ناكثين، والله لا يلقيانني بعد هذا اليوم إلاّ في كتيبة خشناء يقتلان فيها أنفسهما فبعداً لهما وسحقاً»[1].

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٣٣.

وفي «الإحتجاج» عن نصر بن مزاحم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام حين وقع القتال وقتل طلحة تقدم على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء بين الصفين، فدعا الزبير، فدنا إليه حتّى إذا اختلفت أعناق دابتيهما، فقال: يا زبير أنشدك أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّك ستقاتل عليّاً وأنت له ظالم»، قال: اللّهم نعم، قال: فلم جئت؟ قال: جئت لأصلح بين النّاس فأدبر الزّبير وهو يقول:

ترك الأمور التي يخشى عواقبها	لله أجمل من الدّنيا وفي الدّين
أتى عليّ بأمرٍ كنتُ أعرفهُ	قد كان عمر أبيك الخير مذ حين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن	فبعض ما قلته ذا اليوم يكفيني
فاخترت عاراً على نارٍ مؤجّجة	أنى يقوم لها خلق من الطين
نبئت طلحة وسط النقع منجدلاً	مأوى الضيوف ومأوى كل مسكين
قد كنت أنصره أحياناً وينصرني	في النّائبات ويرمي من يراميني
حتّى ابتلينا بأمر ضاق مصدره	فأصبح اليوم ما يعنيه يعنيني

قال: وأقبل الزّبير إلى عائشة فقال: يا أمّه والله مالي في هذا بصيرة وأنا منصرف، فقالت عائشة: يا أبا عبد الله أفررت من سيوف ابن أبي طالب؟ فقال: إنّها والله طوال حداد تحملها فتية أنجاد، ثمّ خرج راجعاً فمرّ بوادي السّباع وفيه الأحنف ابن قيس قد اعتزل في بني تميم فأخبر الأحنف بانصرافه فقال: ما أصنع به إن كان الزّبير قد ألقي (ألف خ) بين غارين من المسلمين وقتل أحدهما بالآخر ثمّ هو يريد اللحاق بأهله فسمعه ابن جرموز فخرج هو ورجلان معه وقد كان لحق بالزبير رجل من كلب ومعه غلامه.

فلمّا أشرف ابن جرموز وصاحباه على الزّبير فحرّك الرّجلان رواحلهما وخلفا الزّبير وحده، فقال الزّبير: ما لكما هم ثلاثة ونحن ثلاثة فلمّا أقبل ابن جرموز قال له الزّبير: مالك إليك عنّي فقال ابن جرموز: يا أبا عبد الله إنّني جئتك لأسألك عن أمور النّاس قال: تركت النّاس على الرّكب يضرب بعضهم وجوه بعض بالسّيف.

قال ابن جرموز: يا أبا عبد الله أخبرني عن أشياء أسألك عنها قال: هات، فقال أخبرني عن خذلك عثمان وعن بيعتك عليّاً وعن نقضك بيعته وعن إخراجك عائشة أمّ المؤمنين وعن صلاتك خلف ابنك وعن هذه الحرب التي جئتها وعن لحوقك بأهلك، فقال: أمّا خذلي عثمان فأمر قدّم الله فيه الخطيئة وأخّر فيه التّوبة، وأمّا بعيتي عليّاً فلم أجد منها بدّاً إذ بايعه المهاجرون والأنصار، وأمّا نقضي بيعته فإنّما بايعته بيدي دون قلبي، وأمّا إخراجي أمّ المؤمنين فأردنا أمراً وأراد الله غيره، وأما صلاتي خلف ابني فإنّما خالته قدمته، فتنحّى ابن جرموز عنه، وقال قتلني الله إن لم أقتلك.

وفي شرح المعتزلي بعدما ذكر سؤال ابن جرموز وجواب الزّبير قال: فسار ابن جرموز معه وكلّ واحد منهما يتّقي الآخر فلمّا حضرت الصّلاة فقال الزّبير يا هذا إنّا نريد أن نصلي، فقال ابن جرموز: أنا أريد ذلك فقال الزّبير: فتؤمّني وأؤمّك، قال: نعم فثنى الزّبير رجلاً وأخذ وضوئه، فلمّا قام إلى الصّلاة شدّ ابن جرموز عليه فقتله وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه وحثا عليه تراباً يسيراً ورجع إلى الأحنف فأخبره، فقال: والله ما أدري أسأت أم أحسنت، اذهب إلى عليّ عليه السلام فأخبره فجاء إلى عليّ فقال للآذن: قل له: عمرو بن جرموز بالباب ومعه رأس الزّبير وسيفه فأدخله.

وفي كثير من الرّوايات أنّه لم يأت بالرّأس بل بالسّيف، فقال له: أنت قتلته، قال: نعم قال: والله ما كان ابن صفيّة جباناً ولا لئيماً ولكن الحين ومصارع السّوء، ثمّ قال: ناولني سيفه فناوله فهزّه، وقال: سيف طال ما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال ابن جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: أما انّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «بشّر قاتل ابن صفيّة بالنّار»، فخرج ابن جرموز خائباً وقال:

أتيتُ عليّاً برأس الزّبير أبغي به عندهُ الزُلفة
فبشّر بالنّار يوم الحساب فبئست بشارة ذي التحفة
فقلت له إنّ قتل الزّبير لولا رضاك من الكلفة
فإن ترض ذاك فمنك الرّضا وإلاّ فدُونك لي حلفة
وربّ المحلين والمحرمين وربّ الجماعة والألفة
لسيّان عندي قتل الزّبير وضرطة عنز بذي الجحفة

ثمّ خرج ابن جرموز على عليّ عليه السلام مع أهل النّهر، فقتله معهم فيمن قتل[1].

فإن قيل: أليس ما رواه ذلك صريحاً في توبة الزّبير حيث إنّه لو لم يكن تائباً لما استحقّ قاتله النّار بقتله، فيدل ذلك على صحة ما ذهب إليه الشّارح المعتزلي وفاقاً لسائر المعتزلة من صحّة توبة الزبير.

قلت: قد أجيب عنه تارة بأن بشارة القاتل بالنّار لا ينافي كون المقتول فيها أيضاً، ولا يلازم توبته، وذلك لأن ابن جرموز قتل الزّبير على وجه الغيلة والمكر وهذه منه معصية لا شبهة فيها فإنّما استحقّ ابن جرموز النّار بقتله إيّاه غدراً لا لأنّ المقتول في الجنّة.

وأجيب أخرى بأنّ جرموز كان من جملة الخوارج كما ذكره الشّارح في آخر كلامه

(١) شجرة طوبى: ٢/ ٣٢٠، والجمل للمفيد: ٢٠٨.

والنبيّ ﷺ قد كان خبّره بحالهم ودله على جماعة منهم بأعيانهم وأوصافهم، فلمّا جاءه ابن جرموز برأس الزّبير أشفق أمير المؤمنين عليه السلام من أن يظنّ به لعظيم ما فعله الخير ويقطع له على سلامة العاقبة ويكون قتله الزّبير شبهة فيما يصير إليه من الخارجيّة قطع عليه بالنّار لتزول الشّبهة في أمره وليعلم أنّ هذا الفعل الذي فعله لا يساوي شيئاً مع ما يرتكبه في المستقبل.

والذي يدلّ على أنّ بشارته بالنّار لم تكن لكون الزّبير تائباً بل لبعض ما ذكرناه هو أنّه لو كان الأمر كما ادّعوه لأقاده أمير المؤمنين عليه السلام به ففي عدوله عليه السلام من ذلك دلالة على ما ذكرنا كما هو واضح لا يخفى، مضافاً إلى أنّه لو كان تائباً لم يكن مصرعه مصرع سوء لاسيّما وقد قتله غادراً، ويأتي إن شاء الله تحقيق هذا المعنى في شرح الكلام المائة والسّابعة والثلاثين بما لا مزيد عليه فانتظر.

الترجمة

از جملۀ كلام بلاغت نظام آنحضرتست كه اراده نموده بآن زبير را در حالی كه اقتضا ميكرد آنرا ادّعا ميكند زبير كه بيعت كرده بدشت خود وبيعت ننموده بقلب خود ، پس بتحقيق اقرار نمود ببيعت خود شرعاً وادّعا كرد پنهان داشتن خلاف آنرا درباطن ، پس بايد كه بياورد برآن دعوی يادليلی كه شناخته ميشود بآن دليل صحّت آن دعوی ، و اگر اقامۀ دليل نتواند بكند بايد داخل شود بآن چيزی كه از آن خارج شده .

ومن كلام له عليه السلام وهو تاسع المختار في باب الخطب

«وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا، وَمَعَ هٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ، وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتّى نُوقِعَ، وَلاَ نُسِيلُ حَتّى نُمْطِرَ»[1].

اللغة

(أرعد) الرجل و(أبرق) أوعد وتهدّد قال الكميت:

أرعد وأبرق يا يزيد ... فما وعيدك لي بضائر

و(الفشل) بفتحتين مصدر فشل إذا ضعف وجبن.

الإعراب

(الفشل) مرفوع على الإبتداء قدم عليه خبره توسّعاً، والفعلان الواقعان بعد (حتّى) منصوبان إمّا بنفس (حتى) كما يقوله الكوفيّون، أو (بأن) مضمرة نظراً إلى أنّ (حتّى) إنّما تخفض الأسماء وما يعمل في الأسماء لا يعمل في الأفعال، وكيف كان فهي في الموضعين إمّا بمعنى (إلى) كما في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

أبو بمعنى (إلاّ) كما في قوله:

ليس العطاء من الفضول سماحةً ... حتّى تجود وما لديك قليل

قال ابن هشام: هذا المعنى ظاهر من قول سيبويه في تفسير قولهم: والله لا أفعل إلاّ أن تفعل، المعنى حتّى أن تفعل والأظهر في كلامه عليه السلام إرادة المعنى الثّاني فافهم.

المعنى

إعلم أنّ كلامه عليه السلام في هذا المقام ناظر إلى طلحة والزّبير وأتباعهما من أصحاب الجمل ووارد في توبيخهم وذمهم (و) ذلك لأنّهم (قد أرعدوا وأبرقوا) أي أوعدوا وتهدّدوا قبل إيقاع الحرب (ومع هذين الأمرين الفشل) إذ الوعيد والتّهديد والضّوضاء قبل ايقاع الحرب والظفر على الخصم أمارة الضّعف والجبن وعلامة رذالة النّفس، كما أنّ الصّمت والسّكوت أمارة الشّجاعة ولذلك أنّه عليه السلام قال لأصحابه في تعليم آداب الحرب في ضمن كلامه المائة والرّابع والعشرين: وأميتوا أصواتكم فإنّه أطرد للفشل، وقال لأصحابه في غزوة الجمل: إيّاكم وكثرة الكلام فإنّه فشل.

---

(١) البحار: ٣٢/٥٢.

ثمّ بعد الإشارة إلى ذمّهم ورذالة أنفسهم أشار عليه السلام إلى علوّ همّته وفضيلة نفسه وأصحابه بقوله: **(ولسنا نرعد حتّى نوقع ولا نسيل حتّى نمطر)** يعني كما أنّ فضيلة السّحاب اقتران وقوع المطر منه برعده وبرقه وإسالته بأمطاره فكذلك أقوالنا مقرونة بأفعالنا وإسالة عذابنا مقارنة بأمطاره، ويحتمل أن يكون المعنى إنّا لا نهدّد إلاّ أن نعلم أنّا سنوقع، ولا نوعد إلاّ إذا أوقعنا بخصمنا، يعني إذا أوقعنا بخصمنا أوعدنا حينئذٍ بالإيقاع به غيره من خصومنا وهكذا كان حال الشجعان في سالف الزّمان وغابره.

كما روي أنّ كاتب حدود الرّوم كتب إلى المعتصم أنّ أبا قيس الرّومي حاكم قلعة عمورية أمسك امرأة من المسلمين يعذّبها وهي تصيح وامحمّداه وامعتصماه وأبو قيس يستهزء بها ويقول: إن المعتصم يركب مع جنوده على خيل بلق يأتي إلي ويستخرجك من عذابي، فلمّا ورد عليه الكتاب كان خادمه معه قدح من ماء السّكر يشربه المعتصم فقال له احفظ هذا ولا تناولنيه إلاّ في بيت المرأة المسلمة، فخرج من سرّ من رأى وأمر بعساكره أن لا يركب إلاّ من عنده فرس أبلق فاجتمع عنده ثمانون ألفاً يركبون خيلاً بلقا، وكان المنجّمون أشاروا عليه بأن لا يسافر وأن قلعة عمورية لا تفتح على يديه.

فقال إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من صدّق منجّماً فقد كذب ما أنزل الله على محمّد» فسار إلى القلعة وحصرها مدّة وكان الشّتاء في غاية البرد فخرج المعتصم يوماً من خيمته ووجد العسكر واقفاً من شدّة البرد لا يقدرون على رمي السّهام، فأمر بمائتي قوس وركب إلى حصار القلعة بنفسه فلمّا رآه جنوده ركضوا على القلعة من أطرافها وفتحوها فسأل عن المرأة فدلوه عليها واعتذر لديها، وقال: إنّك ندبتني من عمورية وسمعتك من سامرّا وقلت: لبّيك، فها أنا ركبت على الخيل البلق وأخذت بظلامتك، ثم أمر خادمه باحضار ماء السّكر فشربه وقال: الآن طاب الشّراب واحتوى على ما فيها من الأموال وقتل ثلاثين ألف أو أزيد، هذا.

وفي قوله عليه السلام **(ولا نسيل حتّى نمطر)** تعريض على أصحاب الجمل وأنّهم في وعيدهم وأجلاً بهم بمنزلة من يدّعي أنّه يحدث السّيل قبل إحداث المطر وهذا محال لأنّ السّيل إنّما يكون من المطر فكيف يسبق المطر؟ والله العالم بحقائق كلام أوليائه.

الترجمة

يعنى مانند رعد در تهديد مى غرّند و مانند برق در توعيد مى جهند و با اين دو امر ترس و جبن است و نيستيم ما كه بترسانيم تا اين كه واقع گردانيم و نه سيل روان نماييم تا اين كه ببارانيم؛ والله أعلم.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخطبة العاشرة

«أَلاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجْلَهُ، وإنَّ مَعي لَبَصِيرَتي، ما لَبَسْتُ عَلَى نَفْسِي وَلا لُبِسَ عَلَيَّ، وأَيْمُ اللَّهِ لأَفْرُطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ، لاَ يَصْدُرُونَ عَنْهُ، وَلاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ»[(١)].

اللغة

(الخيل) الفرسان و(الرّجل) بالفتح جمع راجل كالرّكب جمع راكب و(أيم الله) مخفّف أيمن قال الفيومي أيمن إسم استعمل في القسم والتزم رفعه كما التزم رفع لعمرو الله، وهمزته عند البصريّين وصل واشتقاقه عندهم من اليمن وهو البركة، وعند الكوفيّين قطع لأنه جمع يمين عندهم وقد يختصر منه ويقال وأيم الله بحذف الهمزة والنّون ثم اختصر ثانياً فيقال م الله بضم الميم وكسرها و(أفرطن) إمّا بفتح الهمزة وضم الراء مضارع فرط زيد القوم كقعد أي سبقهم وتقدم عليهم، وفرط بفتحتين المتقدم في طلب الماء يهيء الدلاء والإرشاء، وإمّا بضم الهمزة وكسر الراء من باب الأفعال مأخوذ من أفرط المزادة أي ملأها و(الماتح) كالمائح وهو المستقي من البئر إلاّ أنّ الفرق بينهما كاعجامهما كما قاله أبو علي، يعني أن التاء بنقطتين من فوق وكذلك الماتح لأنّه المستقي فوق البئر، والياء بنقطتين من تحت، وكذلك المائح لأنّه الذي ينزل إلى البئر فيملأ الدلو.

الإعراب

(ألا) حرف تنبيه تدل على تحقّق ما بعدها لتركبها من همزة الإستفهام (ولاء) النّفي، وهمزة الاستفهام إذا دخلت على النّفي أفادت التحقيق نحو:

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٤٠].

قال الزمخشري: ولكونها بهذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقّى به القسم نحو:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

أقول: وكان ينبغي له أن يضيف إلى ذلك وقوع نفس القسم بعدها كما في كلامه عليه السلام، (وأيم الله) مرفوع بالإبتداء خبره محذوف أي أيم الله قسمي، وقد تدخله (اللام) للتّوكيد فيقال: ليمن الله قسمي، وافرطن إن كان من فعل فحوضا منصوب بنزع الخافض (واللام) في (لهم)

(١) عيون الحكم: ١١٠.

إمّا للتقوية على حد قوله: يؤمن للمؤمنين، أو تعليلية أي لاسبقنهم أو لأسبقن لأجلهم إلى حوض على حد قوله: واختار موسى قومه، وإن كان من افعل **(فحوضاً)** مفعول به **(ولهم)** مفعول لأجله أي لأملئن لأجلهم حوضاً، وجملة **(لا يصدرون عنه ولا يعودون إليه)** حالية أو صفة للحوض.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة ملتقطة من خطبة طويلة له عليه السلام لما بلغه أن طلحة والزبير خلعا بيعته وهو غير منتظم، وقد أورد السّيد منها فصلاً آخر وهي الخطبة الثانية والعشرون؛ ونورد تمام الخطبة هناك إنشاء الله، وعلى ذلك فالمراد بقوله عليه السلام: **(ألا إن الشيطان قد جمع حزبه)** هو الشّيطان الحقيقي لا معاوية كما توهمه الشّارح المعتزلي، وحزبه هو طلحة والزبير وأتباعهما وهم المراد أيضاً بقوله: **(واستجلب خيله ورجله)** وفيه إشارة إلى أن الشّيطان هو الباعث لهم على مخالفة الحق والجامع لهم على الباطل بوسوسته وإغرائه وتزيينه الباطل في قلوبهم وأن هؤلاء أطاعوا له وأجابوا دعوته وشاركوه في الدعاء إلى الباطل فصاروا حزبه قال تعالى:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤].

أي استخف من استطعت منهم أن تستفزه بدعائك إلى الفساد قال ابن عبّاس: كل راكب أو راجل في معصية الله فهو من خيل إبليس وجنوده ويدخل فيه كلّ راكب وماش في معصية الله فخيله ورجله كلّ من شاركه في الدّعاء إلى المعصية.

ثمّ أشار عليه السلام إلى كمال عقله واستعداده بقوله: **(وإنّ معي لبصيرتي)** يريد أنّ البصيرة التي كانت معي في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لم تتغير، وإلى هذا أشير في قوله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال أبو جعفر عليه السلام في رواية **«الكافي»** ذاك رسول الله وأمير المؤمنين والأوصياء من بعدهما[١]، يعني أنّ الدّاعي إلى الله مع البصيرة هو رسول الله وأمير المؤمنين والأوصياء التّابعون له في الأقوال والأفعال.

ثمّ أكد كمال عقله بالإشارة إلى عدم انخداعه بخدع الشّيطان وبتلبيسه الباطل بصورة الحقّ كما يلبس على ذوي البصائر الضّعيفة وأولي العقول السخيفة سواء كانت مخادعته بغير

(١) الكافي: ١/ ٣٢٥ ح ٦٦.

واسطة وهو المشار إليه بقوله: **(ما لبست على نفسي)** أي لا يلتبس على نفسي المطمئنة ما تلقيه إليها نفسي الأمّارة، أو بواسطة غيره وهو المشار إليه بقوله: **(ولا لبّس عليّ)** أي لم يحصل التلبيس عليّ من الخارج من جنود إبليس وأتباعه الذين تلقفوا عنه الشبه وصار في قوتهم أن يلبسوا الحقّ صورة الباطل **(وأيم الله لأفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه)** هذا الكلام منه عليه السلام وارد مورد التهديد وجار على سبيل الاستعارة، ومعناه لأسبقنهم أولاً سبقنّ لأجلهم حياض الحرب التي أنا متدرب بها، أو لأملئن لهم حياض الحرب التي هي عادتي وأنا خبير بها.

قال الشارح البحراني: استعار إفراط الحوض لجمعه الجند وتهيئة أسباب الحرب وكنّى بقوله: أنا ماتحه، أنّه هو المتولي لذلك وفي تخصيص نفسه بالمتح تأكيد تهديد لعلمهم بشجاعته وقد حذف المضاف إليه أي أنا ماتح مائه إذ الحوض لا يوصف بالمتح وقوله: **(لا يصدرون عنه ولا يعودون إليه)** يعني أنّ الوارد منهم إليه لا يصدر عنه ولا ينجو منه فهو بمنزلة من يغرق فيه وأنّ من نجا منهم لا يطمع في الحرب مرّة أخرى ولا يعود إليها أبداً.

الترجمة

آگاه باش قسم به خدا كه به تحقيق شيطان ملعون جمع كرده است حزب خود را از براى اغواء و اضلال و جمع نموده است سواران و پيادگان يعنى أعوان و انصار خود را و به درستى بصيرتى كه داشتم در زمان حضرت رسالت مآب (صلى الله عليه و آله) با من است. نپوشانيده ام بر نفس خود باطل را به صورت حق و پوشانيده نشده است بر من؛ يعنى بر ضلالت نيفتاده ام نه از قبل نفس خود و نه بهواسطه اضلال ديگرى.

قسم به خداوند هر آينه سبقت مى كنم ايشان را به سوى حوض هاى حرب يا پر مى كنم به جهت ايشان حوض هاى محاربه و مقاتله را كه من آب كشنده آن حوض ها مى باشم؛ يعنى خبير و بصير باشم به آن ها چنان حوض هايى كه بازنگردد از آن ها آن هايى كه آمده باشند و بازنيايند به سوى آن ها آن هايى كه رهيده باشند؛ يعنى هركه به سوى بحر حرب شتابد غرق شود و جان به مالك دوزخ بسپارد و هركه از آن درياى خونخوار نجات يابد ديگرباره طمع در جنگ نمى نمايد؛ والله أعلم بالصّواب و إليه المرجع و المآب.

ومن كلام له عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل وهو الحادي عشر من المختار في باب الخطب

«تَزُولُ الْجِبالُ وَلاَ تَزَلْ، عَضَّ عَلىٰ ناجِذِكَ، أَعِرِ اللَّهَ جُمْجُمَتَكَ، تِدْ في الأَرْضِ قَدَمَكَ، إِرْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وغُضَّ بَصَرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحانَهُ»[١].

اللغة

(**عضّ**) أمر من عضضت اللّقمة وبها وعليها من باب تعب لكن بسكون المصدر ومن باب منع أمسكتها (**الناجذ**) السنّ بين الضّرس والنّاب وضحك حتّى بدت نواجذه، قال تغلب: المراد الأنياب، وقيل النّاجذ آخر الأضراس وهو ضرس الحلم لأنّه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل وقيل: الأضراس كلّها نواجذ (**والجمجمة**) عظم الرّأس المشتمل على الدّماغ وربّما يعبر بها عن الإنسان كما يعبّر عنه بالرّأس و(تِدْ) أمر من وتد قدمه في الأرض أي أثبتها فيها كالوتد.

الإعراب

متعلّق (**تزول وتزل**) محذوف أي تزل الجبال عن مكانها ولا تزل عن مقامك وموضعك، (**والباء**) في قوله: ارم ببصرك زائدة، يقال: رميته ورميت به ألقيته، (**وسبحانه**) منصوب على المصدر بمحذوف من جنسه أي سبّحته سبحاناً، ونقل عن سيبويه أنّ سبحان ليس بمصدر بل هو واقع موقع المصدر الذي هو التّسبيح، والإضافة إلى المفعول لأنّه هو المسبّح بالفتح، ونقل عن أبي البقاء أنّه جوّز أن يكون الإضافة إلى الفاعل وقال: المعروف هو الأوّل؛ والمعنى على ذلك اسبّح مثل ما سبّح الله به نفسه.

المعنى

اعلم أنّه عليه السلام أشار في كلامه هذا إلى أنواع آداب الحرب وكيفيّة القتال وعلّم محمّداً ستّة أمور منها.

الأول: ما عليه مدار الظفر والغلبة وهو الثّبات والملازمة وإليه أشار بقوله: (**تزول الجبال ولا تزل**) وهو خبر في معنى الشرط أريد به المبالغة أي لو زالت الجبال عن مواضعها لا تزل وهو نهى عن الزّوال مطلقاً لأنّ النّهي عنه على تقدير زوال الجبال الذي هو محال عادة مستلزم للنّهي عنه على تقدير العدم بالطريق الأولى.

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٤١.

الثاني: ما أشار إليه بقوله: (**عضّ على ناجذك**) فإن عضّ النّواجذ ينبو السّيف عن الدّماغ من حيث إنّ عظام الرّأس تشتدّ وتصلب عند ذلك كما قال عليه السلام في موضع آخر: «وعضّوا على النّواجذ[1]، فإنّه أنبأ للصّوارم» عن الهام مضافاً إلى ما في عضها من ربط الجأش عن الفشل والخوف كما يشاهد في حال البرد والخوف الموجب للرعدة فإنه إذا عض على أضراسه تسكن رعدته ويتماسك الإنسان بدنه.

الثالث: ما أشار إليه بقوله: (**أعر الله جمجمتك**) والمراد به بذلها في طاعة الله لينتفع بها في دين الله كما ينتفع المستعير بالعارية، قال الشّارح المعتزلي: ويمكن أن يقال إنّ ذلك إشعار بأنّه لا يقتل في تلك الحرب لأنّ العارية مردودة ولو قال له: بع الله جمجمتك لكان ذلك إشعاراً له بالشّهادة فيها.

أقول: وذلك لقوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١] الآية.

الرابع: ما أشار إليه بقوله: (**تِدْ في الأرض قدمك**) وهو أمر بالزام قدمه في الأرض كالوتد لاستلزامه ربط الجأش وإستصحاب العزم وكونه مظنّة الشّجاعة.

الخامس: ما أشار إليه بقوله: (**إرم ببصرك أقصى القوم**) وهو الأمر بفتح عينيه ورفع طرفه ومدّ نظره إلى أقاصي القوم ليعلم على ماذا يقدم فعل الشّجاع المقدام غير المبالي لأنّ الجبان تضعف نفسه ويضطرب قلبه فيكون غضيض الطرف ناكس الرأس لا يرتفع طرفه ولا يمتدّ عنقه.

السّادس: ما أشار إليه بقوله: (**وغضّ بصرك**) وهو أمر بغضّ بصره بعد مدّه عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لأنّ مدّ النظر إلى بريق السّيوف مظنّة الرّهبة والدّهشة، ثمّ إنّه عليه السلام بعد تعليمه آداب المحاربة والمقاتلة قال له: (**وإعلم أنّ النصر من عند الله سبحانه**) ليتأكد ثباته بوثوقه بالله سبحانه مع ملاحظة قوله تعالى:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] هذا.

وينبغي لنا أن نذكر هنا طرفاً من وقائع الجمل ممّا يناسب المقام بما فيه من الإشارة إلى مورد ذلك الكلام منه عليه السلام.

فأقول: في «**البحار**» من كتاب «**المناقب**» من كتاب «**جمل أنساب الأشراف**» أنّه زحف

---

(١) خصائص الأئمة: ٧٥.

عليّ عليه السلام بالنّاس غداة يوم الجمعة لعشر ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ستّ وثلاثين وعلى ميمنته الأشتر وسعيد بن قيس وعلى ميسرته عمّار وشريح بن هاني وعلى القلب محمّد بن أبي بكر وعدي بن حاتم وعلى الجناح زياد بن كعب وحجر بن عدي وعلى الكمين عمرو بن الحمق وجندب بن زهير وعلى الرّجالة أبو قتادة الأنصاري وأعطى رايته محمّد بن الحنفيّة ثمّ أوقفهم من صلاة الغداة إلى صلاة الظهر يدعوهم ويناشدهم ويقول لعائشة إنّ الله أمرك أن تقرى في بيتك اتقي الله وارجعي. ويقول لطلحة والزّبير، خبأتما نسائكما وأبرزتما زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستفززتاها، وهما فيقولان: إنّما جئنا للطلب بدم عثمان وأن يرد الأمر شورى وألبست عائشة درعاً وضربت على هودجها صفائح الحديد وألبس الهودج درعاً وكان الهودج لواء أهل البصرة وهو على جمل يدعى عسكراً[1].

ابن مردويه في كتاب الفضائل من ثمانية طرق أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال للزّبير: أما تذكر يوماً كنت مقبلاً بالمدينة تحدثني إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرآك معي وأنت تبسم إلي فقال لك: يا زبير أتحب عليّاً؟ فقلت: وكيف لا أحبّه وبيني وبينه من النسب والمودة في الله ما ليس لغيره، فقال: إنّك ستقاتله وأنت ظالم له فقلت: أعوذ بالله من ذلك، وقد تظاهرت الرّوايات أنّه عليه السلام قال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لك: «يا زبير تقاتله ظلماً وضرب كتفك» قال: اللّهم نعم، قال: أفجئت تقاتلني؟ فقال: أعوذ بالله من ذلك، ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «دع هذا بايعتني طائعاً ثمّ جئت محارباً فما عدا ممّا بدا»، فقال: لا جرم والله لا قاتلتك[2].

«حلية الأولياء» قال عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى فلقاه عبد الله ابنه فقال: جبناً جبناً فقال يا بنيّ: قد علم النّاس أني لست بجبان ولكن ذكرني عليّ شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحلفت أن لا أقاتل، فقال: دونك غلامك فلان أعتقه كفارة يمينك[3].

«نزهة الأبصار» عن ابن مهدي أنه قال همام الثقفي:

أيعتق مكحولا[4] ويعصي نبيه ... لقد تاه عن قصد الهدى ثمّ عوق
لشتّان ما بين الضّلالة والهدى ... وشتّان من يعصي الإله ويعتق

وفي رواية قالت عائشة لا والله بل خفت سيوف ابن أبي طالب أما أنها طوال حداد تحملها سواعد أنجاد ولئن خفتها فلقد خافها الرّجال من قبلك، فرجع إلى القتال فقيل: لأمير المؤمنين عليه السلام إنه قد رجع، فقال دعوه إنّ الشيخ محمول عليه، ثمّ قال عليه السلام: «أيّها النّاس

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٤٠، والبحار: ٣٢/ ١٧٣.
(٢) البحار: ٣٢/ ١٧٣، والمناقب: ٢/ ٣٤٠.
(٣) البحار: ٣٢/ ١٧٣، وتاريخ دمشق: ١٨/ ٤١١، وسير أعلام النبلاء: ١/ ٦٠.
(٤) اسم غلام الزبير.

غضّوا أبصارهم وعضّوا على نواجذكم وأكثروا من ذكر ربّكم وإيّاكم وكثرة الكلام فإنّه فشل»، ونظرت عائشة إليه وهو يجول بين الصّفين فقالت: انظروا إليه كان فعله فعل رسول الله ﷺ يوم بدر، أما والله ما ينتظر بك إلاّ زوال الشّمس فقال عليّ عليه السلام يا عائشة:

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

فجدّ النّاس في القتال فنهاهم أمير المؤمنين، وقال: «اللّهم إنّي أعذرت وأنظرت فكن لي عليهم من الشّاهدين»، ثم أخذ المصحف وطلب من يقرأ عليهم:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩] الآية.

فقال مسلم المجاشعي: ها أناذا فخوّفه عليه السلام بقطع يمينه وشماله وقتله فقال: لا عليك يا أمير المؤمنين فهذا قليل في ذات الله فأخذه ودعاهم إلى الله فقطعت يده اليمنى فأخذه بيده اليسرى فقطعت فأخذه بأسنانه فقتل فقالت أمّه شعراً:

يا ربّ إنّ مسلماً أتاهم بمحكم التنزيل إذ دعاهم
يتلو كتاب الله لا يخشاهم فرمّلوه[١] رمّلت لحاهم[٢]

فقال عليّ عليه السلام: الآن طاب الضّراب، وقال لمحمّد بن الحنفيّة والرّاية في يده: يا بنيّ تزول الجبال ولا تزل إلى آخر ما مرّ ثمّ صبر سويعة فصاح النّاس عن كلّ جانب من وقع النّبال، فقال عليه السلام: «تقدّم يا بنيّ فتقدّم وطعن طعناً منكراً» وقال عليه السلام:

اطعن بها طعن أبيك تحمد لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرفيّ[٣] والقنا المسدّد والضّرب بالخطيّ[٤] والمهند

فأمر الأشتر أن يحمل فحمل وقتل هلال بن وكيع صاحب ميمنة الجمل وكان زيد يرتجز ويقول: ديني ديني وبيعي بيعي وجعل مخنف بن مسلم يقول:

قد عشت يا نفس وقد غنيت دهراً وقبل اليوم ما عييت
وبعد ذا لا شك قد فنيت أما مللت طول ما حييت

فخرج عبد الله بن الثّيربي قائلاً:

(١) أي لطخوه بالدم منه.

(٢) جمع لحية، منه.

(٣) المشرفية سيوف نسبت إلى مشارف وهي قرى من أرض العرب تولد من الريف ذكره الجوهري، وقال المهند السيف المطبوع من حديد الهند، بحار.

(٤) والخط موضع باليمامة ينسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوم به، بحار.

يا ربّ إنّي طالب أبا الحسن ذاك الذي يفرق حقّاً بالفتن

فبرز إليه عليّ عليه السلام قائلاً:

إن كنت تبغي أن ترى أبا الحسن فاليوم تلقاه مليّاً فاعلمن

فضربه ضربة مجرفة[1] فخرج بنو ضبّة وجعل يقول بعضهم:

نحن بنو ضبّة أعداء عليّ ذاك الذي يعرف فيهم بالوصي

وكان عمر بن الثّيربي يقول:

إن تنكروني فانا ابن الثّيربي قاتل علباء وهذا الجملي

ثمّ ابن صوحان على دين عليّ

فبرز إليه عمار قائلاً:

لا تبرح العرصة يا ابن الثيربي أثبت أقاتلك على دين عليّ

وأرداه عن فرسه وجرّ برجله إلى عليّ عليه السلام فقتله فخرج أخوه قائلاً:

أضربكم ولو أرى عليّاً عمّمته أبيض مشرفيّاً

وأسمراً عنطنطاً[2] خطيّاً أبكي عليه الولد والوليّا

فخرج عليّ عليه السلام متنكراً وهو يقول:

يا طالباً في حربه عليّاً يمسخه أبيض مشرفيّاً

أثبت ستلقاه بها مليّاً مهذّباً سميدعاً كميّاً[3]

فضربه فرمى نصف رأسه فناداه عبد الله بن خلف الخزاعي صاحب منزل عائشة بالبصرة: أتبارزني؟ فقال عليه السلام: «ما أكره ذلك ولكن ويحك يا ابن خلف ما راحتك في القتل وقد علمت من أنا فقال: ذرني من بذخك يا ابن أبي طالب» ثم قال:

إن تدن منّي يا عليّ فتراً فإنّني دانٍ إليك شبراً

بصارم يسقيك كأساً مرّاً ها إن في صدري عليك وتراً

فبرز إليه عليّ عليه السلام قائلاً:

يا ذا الذي يطلب منّي الوترا إن كنت تبغي أن تزور القبرا

حقاً وتصلي بعد ذلك جمراً فادن تجدني أسداً هزبراً

---

(١) جرفه جرفاً وجرفة ذهب به كله، ق. (٢) الأسمر: الرمح والعنطنط: الطويل.

(٣) السميدع: السيد الموطؤ الأكتاف، والكمي: الشجاع المتكمي في سلاحه.

اصعطه[١] اليوم ذعاقاً صبرا

فضربه عليه السلام فطيّر جمجمته فخرج ماذن الضبّي قائلاً:

لا تطمعوا في جمعنا المكلل الموت دون الجمل المجلّل

فبرز إليه عبد الله بن نهشل قائلاً:

إن تنكروني فأنا ابن نهشلِ فارس هيجا وخطيب فيصلِ

فقتله وكان طلحة يحثّ النّاس ويقول عباد الله الصّبر الصّبر في كلام له، وعن البلادري أنّ مروان بن الحكم قال والله ما أطلب ثأري بعثمان بعد اليوم أبداً فرمى طلحة بسهم فأصاب ركبته والتفت إلى أبان بن عثمان وقال لقد كفيتك أحد قتلة أبيك:

معارف القتيبي أنّ مروان قتل طلحة يوم الجمل فأصاب ساقه الحميري:

واختلّ من طلحة المزهو جنّته سهم بكفّ قديم الكفر غدّار

في كف مروان اللّعين أرى رهط الملوك ملوك غير أخبار

وله:

واغتر طلحة عند مختلف القنا عبل[٢] الذراع شديد أصل المنكب

فاختل حبة قلبه بمدلق ريّان من دم جوفه المتصبّب

في مارقين من الجماعة فارقوا باب الهدى وحيا الربيع المخصب

وحمل أمير المؤمنين عليه السلام على بني ضبّة فما رأيتهم إلاّ كرماد اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف فانصرف الزبير فتبعه عمرو بن جرموز وجزّ رأسه وأتى به إلى أمير المؤمنين عليه السلام القصّة، فقالوا: يا عائشة قتل طلحة والزّبير وجرح عبد الله بن عامر من يدي عليّ فصالحي عليّاً فقال كبر عمرو عن الطوق وجلّ أمر عن العتاب ثمّ تقدّمت فحزن عليّ عليه السلام وقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» فجعل يخرج واحد بعد واحد ويأخذ الزّمام حتّى قتل ثمان وتسعون رجلاً ثم تقدّمهم كعب بن سورة الأزدي وهو يقول:

يا معشر النّاس عليكم أمّكم فإنّها صلاتكم وصومكم

والحرمة العظمى التي تعمكم لا تفضحوا اليوم فداكم قومكم

فقتله الأشتر فخرج ابن جفير الأزدي وهو يقول:

---

(١) اصعطه الرمح: طعنه به في أنفه.

(٢) رَجُل عبل الذراعين: ضخمهما.

قد وقع الأمر بما لم يحذر والنبل يأخذن وراء العسكر
وأمّنا في حذرها المشمّر

فبرز إليه الأشتر قائلاً:

اسمع ولا تعجل جواب الأشتر واقرب تلاق كأس موت أحمر
ينسيك ذكر الجمل المشمر

فقتله ثم قتل عمير الغنوي وعبد الله بن عتاب بن أسيد ثمّ جال في الميدان جولاً وهو يقول:

نحن بنو الموت به غذينا

فخرج إليه عبد الله بن الزّبير فطعنه الأشتر وأرداه وجلس على صدره ليقتله، فصاح عبد الله اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي فقصد إليه من كلّ جانب فخلاه وركب فرسه فلمّا رأوه راكباً تفرّقوا عنه، وشدّ رجل من الأزد على محمّد بن الحنفية وهو يقول: يا معشر الأزد كرّوا فضربه ابن الحنفيّة فقطع يده وقال: يا معشر الأزد فرّوا فخرج الأسود بن البختري السّلمي قائلاً:

ارحم إلهي الكلّ من سليم وانظر إليه نظرة الرّحيم

فقتله عمرو بن الحمق فخرج جابر الأزدي قائلاً:

يا ليت أهلي من عمار حاضري من سادة الأزد وكانوا ناصري

فقتله محمّد بن أبي بكر، وخرج عوف القيني قائلاً:

يا أمّ يا أمّ خلا منّي الوطن لا أبتغي القبر ولا أبغي الكفن

فقتله محمّد بن الحنفيّة، فخرج بشر الضبّي قائلاً:

ضبّة أبدي للعراق عمعمة وأضرم الحرب العوان المضرمة

فقتله عمّار وكانت عائشة تنادي بأرفع صوت أيها النّاس عليكم بالصّبر وإنّما تصبر الأحرار فأجابها كوفيّ:

يا أمّ يا أمّ عققت فاعلموا والامّ تغذو ولدها وترحم
أما ترى كم من شجاع يكلم وتجتلي ها منه والمعصم

وقال آخر:

قلت لها وهي على مهوات إنّ لنا سواك أمّهات
في مسجد الرّسول ناديات

فقال الحجّاج بن عمرو الأنصاري:

يا معشر الأنصار قد جاء الأجل إنّي أرى الموت عياناً قد نزل

فبادروه نحو أصحاب الجمل ما كان في الأنصار جبن وفشل

وقال خزيمة بن ثابت:

فكلّ شيء ما خلا الله الجلل

لم يغضبوا لله إلاّ للجمل والموت خير من مقام في خمل

والموت أحرى من فرار وفشل

وقال شريح بن هاني:

لا عيش إلاّ ضرب أصحاب الجمل والقول لا ينفع إلاّ بالعمل

ما إن لنا بعد عليّ من بدل

وقال هاني بن عروة المذحجي:

يا لك حرباً حشها جمالها قائدة ينقصها ضلالها

هذا عليّ حوله أقيالها

وقال سعد بن قيس الهمداني:

قل للوصيّ اجتمعت قحطانها إن يك حرب اضرمت نيرانها

وقال عمّار:

إنّي لعمّار وشيخي ياسر صاح كلانا مؤمن مهاجر

طلحة فيها والزّبير غادر والحقّ في كف عليّ ظاهر

وقال الأشتر:

هذا عليّ في الدّجى مصباح نحن بذا في فضله فصاح

وقال عدي بن حاتم:

أنا عديّ ويماني حاتم هذا عليّ بالكتاب عالم

لم يعصه في النّاس إلاّ ظالم

وقال عمرو بن الحمق:

هذا عليّ قائد يرضى به أخو رسول الله في أصحابه

من عوده النّامي ومن نصابه

وقال رفاعة بن شداد البجلي:

إن الذين قطعوا الوسيلة ونازعوا على عليّ الفضيلة

فــي حــربــه كــالــنــعــجــة الأكــيــلــة

وشكت السّهام الهودج حتّى كأنّه جناح نسر أو درع قنفذ، فقال أمير المؤمنين: ما أرى يقاتلكم غير هذا الهودج اعقروا الجمل. وفي رواية عرقبوه، فإنّه شيطان، وقال لمحمّد بن أبي بكر: انظر انظر إذا عرقب الجمل فأدرك أختك فوارها، فعرقب رجل منه فدخل تحته رجل ضبّي ثمّ عرقب أخرى عبد الرّحمٰن فوقع على جنبه فقطع عمّار نسعه فأتاه عليّ عليه السلام ودقّ رمحه على الهودج وقال: يا عائشة أهكذا أمرك رسول الله صلى الله عليه وآله أن تفعلي؟ فقالت: يا أبا الحسن ظفرت فأحسن وملكت فأسجح، فقال لمحمّد بن أبي بكر: شأنك باختك فلا يدنو أحد منها سواك، فقال: فقلت لها: ما فعلت بنفسك عصيت ربّك وهتكت سترك ثم أبحت حرمتك وتعرضت للقتل، فذهب بها إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي فقالت: أقسمت عليك أن تطلب عبد الله بن الزّبير جريحاً كان أو قتيلاً، فقال: إنّه كان هدفاً للأشتر فانصرف محمّد إلى العسكر فوجده، فقال: اجلس يا ميشوم أهل بيته، فأتاها به فصاحت وبكت ثمّ قالت: يا أخي استأمن له من عليّ عليه السلام، فأتى أمير المؤمنين فاستأمن له منه فقال عليه السلام: «أمنته وأمنت جميع النّاس».

وكانت وقعة الجملة بالحزيبة ووقع القتال بعد الظهر وانقضى عند المساء فكان مع أمير المؤمنين عشرون ألف رجل منهم البدريّون ثمانون رجلاً وممّن بايع تحت الشّجرة مأتان وخمسون ومن الصّحابة ألف وخمسمائة رجل، وكانت عائشة في ثلاثين ألف أو يزيدون منها المكّيون ستمائة رجل، قال قتادة: قتل يوم الجمل عشرون ألفاً، وقال الكلبي قتل من أصحاب عليّ عليه السلام ألف رجل وسبعون فارساً، منهم زيد بن صوحان وهند الجملي وأبو عبد الله العبدي وعبد الله بن رقية.

وقال أبو مخنف والكلبي: قتل من أصحاب الجمل من الأزد خاصّة أربعة آلاف رجل، ومن بني عدي ومواليهم تسعون رجلاً، ومن بني بكر بن وائل ثمانمائة رجل، ومن بني حنظلة تسعمائة رجل، ومن ناجية أربعمائة رجل؛ والباقي من أخلاط النّاس إلى تمام تسعة آلاف إلا تسعين رجلاً القرشيّون منهم طلحة والزّبير وعبد الله بن عتاب بن أسيد وعبد الله بن حكيم بن خرام وعبد الله بن شافع بن طلحة ومحمّد بن طلحة وعبد الله بن أبي بن خلف الجمحي وعبد الرّحمٰن بن معد وعبد الله بن معد[1].

وعرقب الجمل أوّلاً أمير المؤمنين عليه السلام، ويقال المسلم بن عدنان، ويقال رجل من الأنصار، ويقال رجل ذهلي، وقيل لعبد الرحمن بن صرد الشّوخي لم عرقبت الجمل؟ فقال:

عــقــرت ولــم أعــقــر بــهــا لــهــوانــهــا ... عــلــيّ ولــكــنــي رأيــت الــمــهــالــكــا

(١) البحار: ٣٢/ ١٨٣، والمناقب: ٢/ ٣٤٦.

إلى قوله:

فـيـا لـيـتـنـي عـرفـتـه قـبـل ذلـكـا

تبصرة

في ترجمة محمّد بن الحنفيّة والإشارة إلى بعض أحواله ومناقبه.

أقول: اشتهاره بابن الحنفيّة لأنّ أمُهُ خولة بنت جعفر بن قيس من قبيلة بني حنيفة وكنيته أبو القاسم برخصة من رسول الله ﷺ في ذلك ولم يرخّص في حقّ غيره أن يكنّى بأبي القاسم والإسم محمّد ذكره ابن خلّكان في «تاريخه».

قال الشّارح المعتزلي: أمّ محمّد رضي الله عنه خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدّؤل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل، واختلف في أمرها فقال قوم: إنّها سبية من سبايا الرّدة قوتل أهلها على يد خالد بن الوليد في أيّام أبي بكر لمّا منع كثير من العرب الزّكاة وارتدت بنو حنيفة وادّعت نبوّة مسيلمة وأنّ أبا بكر دفعها إلى عليّ عليه السلام من سهمه في المغنم.

وقال قوم منهم أبو الحسن عليّ بن محمّد بن سيف المدائني: هي سبية في أيّام رسول الله ﷺ قالوا: بعث رسول الله ﷺ وسلم عليّاً عليه السلام إلى اليمن فأصاب خولة لابني زبيد وقد ارتدّوا مع عمرو بن معدي كرب وكانت زبيد سبتها من بني حنيفة في غارة لهم عليهم فصارت في سهم عليّ عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: «إن ولدت منك غلاماً فسمه بإسمي وكنّه بكنيتي»، فولدت له بعد موت فاطمة عليها السّلام محمّداً فكنّاه أبا القاسم[1].

وقال قوم وهم المحقّقون وقولهم الأظهر: إنّ بني أسد أغارت على بني حنيفة في خلافة أبي بكر فسبّوا خولة بنت جعفر وقدموا بها المدينة فباعوها من عليّ عليه السلام وبلغ قومها خبرها فقدموا المدينة على عليّ فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم فأعتقها ومهرها وتزوّجها فولدت له محمّداً فكنّاه أبا القاسم وهذا القول خيار أحمد بن يحيى البلادري في كتابه المعروف «بتاريخ الأشراف».

وقال: كان عليّ عليه السلام يقذف لمحمّد في مهالك الحرب ويكفّ حسناً وحسيناً عنها وقيل لمحمّد لم يغرر بك أبوك في الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنّهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه بيمينه[2].

أقول: هذا الجواب منه رضي الله عنه يكفي في جلالة قدره وسمو مكانه وخلوص باطنه.

وقال: لمّا تقاعس محمّد يوم الجمل عن الحملة وحمل عليّ بالرّاية فضعضع أركان

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢٠٠، وشرح النهج: ٢٤٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/ ٢٤٤، والبحار: ٤٢/ ٩٩.

عسكر الجمل، دفع إليه الرّاية وقال: امح الأولى بالأخرى وهذه الأنصار معك وضمّ إليه خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين في جمع الأنصار كثير منهم من أهل بدر حمل حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاء حسناً فقال خزيمة بن ثابت لعلي عليه السلام: أما أنّه لو كان غير محمّد اليوم لافتضح ولئن كنت خفت عليه الجبن وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خفناه عليه وإن كنت أردت أن تعلمه الطعان فطال ما علّمته الرّجال، وقالت الأنصار: يا أمير المؤمنين لولا ما جعل الله تعالى لحسن وحسين عليهما السلام لما قدمنا على محمّد أحداً من العرب فقال عليّ عليه السلام: أين النجم من الشمس والقمر أمّا أنّه قد أغنى وأبلى وله فضله ولا ينقص فضل صاحبيه عليه وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله إليه فقالوا يا أمير المؤمنين: إنّا والله ما نجعله كالحسن والحسين ولانظلمهما له ولا نظلمه لفضلهما عليه حقّه فقال عليّ عليه السلام أين يقع ابني من ابني رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال خزيمة بن ثابت فيه شعراً:

محمّد ما في عودك اليوم وصمة ... ولا كنت في الحرب الضروس معرّداً
أبوك الذي لم يركب الخيل مثله ... عليّ وسمّاك النبيّ محمّداً
فلو كان حقّاً من أبيك خليفة ... لكنت ولكن ذاك ما لا يرى له بدّاً
وأنت بحمد الله أطول غالب ... لساناً وأنداها بما ملكت يداً
وأقربها من كلّ خير تريده ... قريش وأوفاها بما قال موعداً
وأطعنهم صدر الكميّ برمحه ... وأكساهم للهام غضباً مهنّداً
سوى أخويك السيّدين كلاهما ... إمام الورى والدّاعيان إلى الهدى
أبى الله أن يعطي عدوّك مقعداً ... من الأرض أو في اللّوح مرقى ومصعداً

وفي «البحار» من «المناقب» دعا أمير المؤمنين عليه السلام محمّد بن الحنفيّة يوم الجمل فأعطاه رمحه وقال له: اقصد بهذا الرّمح قصد الجمل فذهب فمنعوه بنو ضبّة فلمّا رجع إلى والده انتزع الحسن رمحه من يده وقصد الجمل وطعنه برمحه ورجع إلى والده وعلى رمحه أثر الدّم فتمغّر وجه محمّد من ذلك فقال أمير المؤمنين عليه السلام: لا تأنف فإنّه ابن النبيّ وأنت ابن عليّ[1].

أقول: هذا نبذ من مناقبه وفضائله في زمن أبيه سلام الله عليه وأمّا بعده فقد كان خالصاً في التشيع ومخلصاً للولاية لأخويه عليهما السلام وبعدهما لابن أخيه عليّ بن الحسين سلام الله عليه.

كما يوضحه ما رواه ثقة الإسلام الكليني عطر الله مضجعه في «الكافي» بإسناده عن

---

(١) البحار: ٤٢/٩٩.

المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لمّا حضرت الحسن بن عليّ عليهما السلام الوفاة قال: يا قنبر انظر هل ترى من وراء بابك مؤمناً من غير آل محمد صلى الله عليه وآله فقال: الله ورسوله وابن رسوله أعلم منّي قال: ادع لي محمّد بن عليّ فأتيته فلمّا دخلت عليه قال: هل حدث الأخير، قلت: أجب أبا محمّد فعجل على شسع نعله فلم يسوّه وخرج معي يعدو فلمّا قام بين يديه سلم، فقال له الحسن بن علي عليهما السلام: اجلس فإنّه ليس مثلك يغيب عن سماع كلام يحيى به الأموات ويموت به الأحياء: كونوا وعية العلم ومصابيح الهدى فإنّ ضوء النّهار بعضه أضوء من بعض، أما علمت أنّ الله تبارك وتعالى جعل ولد إبراهيم عليه السلام أئمة وفضل بعضهم على بعض وأتى داود عليه السلام زبوراً وقد علمت بما استأثر الله به محمّداً صلى الله عليه وآله يا محمّد بن عليّ إنّي أخاف عليك الحسد وإنّما وصف الله به الكافرين فقال الله عزّ وجلّ:

﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولم يجعل الله للشيطان عليك سلطاناً يا محمّد بن عليّ ألا أخبرك بما سمعت من أبيك فيك؟ قال: بلى، قال: سمعت أباك عليه السلام يقوم يوم الظلة (البصرة خ) من أحبّ أن يبرّني في الدّنيا والآخرة فليبرّ محمّداً ولدي، يا محمّد بن عليّ لو شئت أن أخبرك وأنت نطفة في ظهر أبيك لأخبرتك، يا محمّد بن عليّ أما علمت أنّ الحسين بن علي عليه السلام بعد وفاة نفسي ومفارقة روحي جسمي إمام من بعدي وعند الله جلّ اسمه في الكتاب وراثة من النبيّ صلى الله عليه وآله أضافها الله عزّ وجلّ له في وراثة أبيه وأمّه صلى الله عليهم، فعلم الله أنكم خيرة خلقه فاصطفى منكم محمّداً صلى الله عليه وآله واختار محمّد عليّاً عليه السلام واختارني عليّ بالإمامة واخترت أنا الحسين عليه السلام.

فقال له محمّد بن عليّ: أنت إمام وأنت وسيلتي إلى محمّد صلى الله عليه وآله والله لوددت أن نفسي ذهبت قبل أن أسمع منك هذا الكلام الأوان في رأسي كلاماً لا تنزفه الدلاء ولا تغيّره نقمة الرّياح كالكتاب المعجم في الرّق المنمنم أهم بإبدائه فأجدني سبقت إليه سبق الكتاب المنزل أو ما جاءت (خلت خ) به الرّسل وأنّه الكلام يكلّ به لسان الناطق ويد الكاتب حتّى لا يجد قلماً ويؤتوا بالقرطاس جماً فلا يبلغ فضلك وكذلك يجزي الله المحسنين ولا قوّة إلا بالله.

الحسين أعلمنا علماً وأثقلنا حلماً وأقربنا من رسول الله صلى الله عليه وآله رحماً كان فقيهاً قبل أن يخلق، وقرأ الوحي قبل أن ينطق، ولو علم الله في أحد خيراً غير محمّد صلى الله عليه وآله ما اصطفى الله محمّداً فلمّا اختار الله محمّداً واختار محمّد عليّاً واختارك عليّ إماماً واخترت الحسين، سلمنا ورضينا من [هو] بغيره يرضى ومن كنا نسلم به من مشكلات أمرنا[1].

وعن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام يذكر فيه كيفيّة دفن الحسن عليه السلام بعد ما ذكر منع عائشة من دفنه عند النبيّ صلى الله عليه وآله واحتجاج الحسين عليه السلام عليها قال: ثمّ تكلم محمّد بن

(١) الكافي: ١/٣٠٢، وإعلام الورى: ١/٤٢٣.

الحنفيّة، وقال لعائشة يوماً على بغل ويوماً على جمل فما تملكين نفسك ولا تملكين الأرض عداوة لبني هاشم، قال: فأقبلت عليه فقالت: يا ابن الحنفية هؤلاء الفواطم يتكلمون فما كلامك؟ فقال لها الحسين عليه السلام: وأنى[١] تبعدين محمّداً من الفواطم فوالله لقد ولدته ثلاث فواطم فاطمة بنت عمران بن عائذ بن عمرو بن مخزوم وفاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد معيص[٢] بن عامر الحديث.[٣]

وعن أبي عبيدة وزرارة جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا قتل الحسين عليه السلام أرسل محمّد بن الحنفيّة إلى عليّ بن الحسين عليهما السلام فخلى به فقال له: ابن أخي قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله دفع الوصيّة والإمامة من بعده إلى أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ إلى الحسن ثم إلى الحسين عليهما السلام وقد قتل أبوك رضي الله عنه وصلى على روحه ولم يوص وأنا عمك وصنو أبيك وولادتي من عليّ عليه السلام في سنّي وقدمي أحقّ بها في حداثتك فلا تنازعني في الوصيّة والإمامة ولا تحاجّني.

فقال له عليّ بن الحسين عليهما السلام: اتّق الله ولا تدّع ما ليس لك بحقّ إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين إن أبي يا عمّ صلوات الله عليه أوصى إليّ قبل أن يتوجّه إلى العراق وعهد إليّ في ذلك قبل أن يشهد (يستشهد خ) بساعة وهذا سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله عندي فلا تتعرّض لهذا فإنّي أخاف عليك نقص العمر وتشتّت الحال، إنّ الله عزّ وجلّ جعل الوصيّة والإمامة في عقب الحسين عليه السلام فإذا أردت أن تعلم ذلك فانطلق بنا إلى الحجر حتّى نتحاكم إليه ونسأله عن ذلك.

قال أبو جعفر عليه السلام وكان الكلام بينهما بمكة فانطلقا حتى أتيا الحجر الأسود، فقال عليّ بن الحسين عليهما السلام لمحمّد بن الحنفيّة: إبدأ أنت فابتهل إلى الله عزّ وجلّ واسأله أن ينطق لك الحجز ثمّ سأل فابتهل محمّد في الدّعاء وسال الله عزّ وجلّ ثم دعا الحجر فلم يجبه فقال عليّ بن الحسين عليهما السلام يا عمّ لو كنت وصيّاً وإماماً لأجابك قال له محمّد فادع الله أنت يا ابن أخي واسأله فدعا الله عليّ بن الحسين عليهما السلام بما أراد ثمّ قال:

أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء وميثاق الأوصياء وميثاق النّاس أجمعين لما خبرتنا من الوصيّ والإمام بعد الحسين بن عليّ عليهما السلام؟ قال: فتحرّك الحجر حتّى كاد أن يزول عن موضعه ثمّ أنطقه الله عزّ وجلّ بلسان عربي مبين فقال: اللّهم إنّ الوصيّة والإمامة بعد الحسين بن عليّ بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله لك، قال فانصرف محمّد بن عليّ وهو يتولى عليّ بن الحسين عليهما السلام[٤].

---

(١) في نسخة: أنت.
(٢) في نسخة: مقص.
(٣) الكافي: ٣٠٣/١، والبحار: ١١٤/٤٤.
(٤) الكافي: ٣٤٨/١، وروضة الواعظين: ١٩٨.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است كه فرمود پسر خود محمد بن حنفيه را هنگامى كه داد او را علم در روز حروب جمل:

زايل مى شوند كوه ها از جاى خود و تو زايل مشو از جاى خودت، دندان بالاى دندان خود بگذار، عاريه بده به خداوند تعالى كاسه سر خودت را، ميخ ساز بر زمين قدم خود را؛ يعنى ثابت قدم باش و در مكان خود محكم بايست، بينداز چشم خود را بر نهايت قوم تا در كار قتال خود با بصيرت بوده باشى و فروخوابان چشم خود را از لمعان سيوف كه مظنّه خوف و خشيت است و بدان به درستى كه نصرت از حق سبحانه و تعالى است.

ومن كلام له عليه السلام لما أظفره الله بأصحاب الجمل وهو الثاني عشر من المختار في باب الخطب

«وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ وَدِدْتُ أَنَّ أَخِي فُلَاناً كانَ شاهِدَنا لِيَرَىٰ مَا نَصَرَكَ اللّٰهُ بِهِ عَلَى أَعْدَائِكَ فَقَالَ عليه السلام: أَهَوىٰ أَخِيكَ مَعَنا؟ فَقالَ: نَعَمْ، قالَ عليه السلام: فَقَدْ شَهِدَنَا وَلَقَدْ شَهِدَنا في عَسْكَرِنا هٰذا قَوْمٌ في أَصْلَابِ الرِّجالِ وأَرْحامِ النِّساءِ سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمانُ، وَيَقْوَىٰ بِهِمُ الإِيْمَانُ»[1].

اللغة

(يرعف) بهم الزّمان يوجدهم ويخرجهم كما يرعف الإنسان بالدّم الذي يخرجه من أنفه قال الشّاعر:

وما رعف الزّمان بمثل عمرو ... ولا تلد النّساء له ضريباً

الإعراب

(هوى) مرفوع المحلّ على الإبتداء و(معنا) خبره وفاعل شهد الأوّل ضمير راجع إلى (أخيك)، وفاعل شهد الثّاني (قوم) واسناد يرعف إلى الزّمان مجاز عقلي إذ الفاعل الحقيقي هو (الله) وهو من قبيل الإسناد إلى الظرف أو الشّرط والمعدّ لأنّ الزّمان من الأسباب المعدّة لقوابل وجودهم.

المعنى

لما كان بعض أصحابه عليه السلام يحبّ حضور أخيه معهم في تلك الحرب حتّى يرى نصرة الله لأوليائه على أعدائه ويفرح بذلك قال عليه السلام له: **(أهوى أخيك معنا)** يعني أنّ أخيك كان هواه معنا وكانت إرادته وميله أن يكون في حزبنا **(فقال: نعم)** هو من مواليك وكان هواه معك (قال عليه السلام: **فقد شهدنا**) أخوك بالقوّة وإن لم يكن حاضراً بالفعل وحصل له من الأجر مثل ما حصل للحاضرين بمقتضى هواه ومحبّته التي كانت له، ثمّ أكد حضوره بقوله عليه السلام: **(ولقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرّجال وأرحام النساء)** من المحبين والموالين وعباد الله الصالحين **(سيرعف بهم الزّمان)** ويخرجهم من العدم إلى الوجود **(ويقوى بهم الإيمان)**.

اعلم أنّ الشّارح المعتزلي ذكر في شرح هذا الفصل نبذاً من الوقائع التي صدرت منه عليه السلام بعد ظفره على أصحاب الجمل ولامهم لنا في الإطالة بالإشارة إلى جميع ما ذكره هنا

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٢٤٥.

مع خلو أكثرها عن المناسبة للمقام، وإنّما ينبغي الإشارة إلى طوافه عليه السلام على القتلى بعدما وضعت الحرب أوزارها، وما قاله عليه السلام لطلحة حين وقوفه عليه قصداً للتنبيه على خطأ الشّارح تبعاً لأصحابه، ولنذكر أولاً ما رواه أصحابنا رضي الله عنهم في هذا الباب، ثم نتبعها بما رواه الشّارح.

فأقول: روى الطبرسي في **«الاحتجاج»** أنّه عليه السلام لما مر على طلحة بين القتلى قال اقعدوه، فأُقعد فقال: إنه كانت لك سابقة لكن الشّيطان دخل منخريك فأوردك النار.

وفيه أيضاً روى أنه عليه السلام مر عليه فقال: هذا النّاكث بيعتي والمنشيء للفتنة في الأمة والمجلب علي والداعي إلى قتلي وقتل عترتي اجلسوا طلحة، فأُجلس فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا طلحة بن عبيد الله لقد وجدت ما وعدني ربّي حقّاً فهل وجدت ما وعدك ربّك حقّاً»؟ ثمّ قال: «اضجعوا طلحة»، وسار فقال بعض من كان معه: يا أمير المؤمنين تكلم طلحة بعد قتله؟ فقال: «والله لقد سمع كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر»، وهكذا فعل عليه السلام بكعب بن سور لمّا مرّ به قتيلاً، وقال: «هذا الذي خرج علينا في عنقه المصحف يزعم أنه ناصر أمّه يدعو النّاس إلى ما فيه وهو لا يعلم ما فيه، ثم استفتح وخاب كلّ جبّار عنيد، أمّا انه دعا الله أن يقتلني فقتله الله»[١].

وفي **«البحار»** من كتاب **«الكافية»** لإبطال توبة الخاطئة روى خالد بن مخلد عن زياد بن المنذر عن أبي جعفر عن آبائه عليهم السّلام قال: مرّ أمير المؤمنين عليه السلام على طلحة وهو صريع فقال: «أجلسوه»، فأُجلس، فقال: «أم والله لقد كانت لك صحبة ولقد شهدت وسمعت ورأيت ولكن الشّيطان أزاغك وأمالك فأوردك جهنّم»[٢].

وروى الشّارح المعتزلي عن أصبغ بن نباتة أنه لمّا انهزم أهل البصرة ركب عليّ عليه السلام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء وكانت باقية عنده وسار في القتلى ليستعرضهم فمرّ بكعب بن سور القاضي قاضي البصرة وهو قتيل فقال: أجلسوه، فاجلس، فقال: ويل أمّك كعب بن سور لقد كان لك علم لو نفعك ولكن الشّيطان أضلك فأزلك فعجّلك إلى النّار أرسلوه، ثم مرّ بطلحة بن عبيد الله قتيلاً فقال: اجلسوه فأُجلس، ثمّ قال: قال أبو مخنف في كتابه: فقال له: ويل امّك طلحة لقد كان لك قدم لو نفعك ولكنّ الشّيطان أضلك فأزلك فعجّلك إلى النّار[٣].

قال الشّارح بعد ذكر ذلك وأمّا أصحابنا فيروون غير ذلك، يروون أنّه قال له لمّا اجلسوه: اعزز عليّ أبا محمّد أن أراك معفّراً تحت نجوم السّماء وفي بطن هذا الوادي أَبَعْدَ

---

(١) الاقتصاد للطوسي: ٢٢٨، والبحار: ٣٢/ ٢٠٠.

(٢) البحار: ٣٢/ ٢٠١.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/ ٢٤٨.

جهادك في الله وذبّك عن رسول الله، فجاء إليه انسان فقال: اشهد يا أمير المؤمنين لقد مررت عليه بعد أن أصابه السّهم وهو صريع فصاح بي فقال: من أصحاب من أنت؟ فقلت: من أصحاب أمير المؤمنين، فقال: أمدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين فمددت إليه يدي فبايعني لك فقال عليّ عليه السلام: «أبى الله أن يدخل طلحة الجنّة إلا وبيعتي في عنقه»، انتهى كلامه[1].

وأنت خبير بما فيه أمّا أولاً فلأنّ هذه الرّواية ممّا انفرد أصحابه بنقلها فهي غير مسموعة والمعروف بين الفريقين هو ما رواه أبو مخنف، وثانياً أنّ الشارح قال في أوائل شرحه عند الكلام على البغاة والخوارج: أمّا أصحاب الجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلهم إلاّ عائشة وطلحة والزّبير، فإنّهم تابوا ولولا التّوبة لحكموا لهم بالنّار لاضرارهم على البغي فإنّ هذا الكلام منهم صريح في استحقاقه للنّار لولا التّوبة ولا بدّ لهم من إثبات التّوبة وأنّى لهم بذلك ومبايعته لمن يبايع أمير المؤمنين عليه السلام في تلك الحال التي كان عليها صريعاً بين القتلى آيساً من الحياة لا يكفي في رفع العقاب واستحقاق الثّواب قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾، وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧ ـ ١٨].

بل أقول: إنّ توبته في تلك الحال على تسليم كون تلك المبايعة منه توبة إنّما هي مثل توبة فرعون التي لم تنجه من عذاب ربّه كما قال تعالى:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠ – ٩١].

وحاصل ما ذكرته عدم ثبوت التّوبة أولاً وعدم كفايتها في رفع العقوبة على تقدير ثبوتها ثانياً.

وههنا لطيفة

يعجبني ذكرها لمناسبته للمقام وهي أنّ الشّيخ المحدّث الشّيخ يوسف البحراني صاحب **«الحدائق»** ذكر في **«لؤلؤة البحرين»** عند التّعرض لأحوال شيخ الطائفة محمّد بن محمّد بن النّعمان المفيد (قده) عن الشّيخ ورام بن أبي فراس في كتابه أنّ الشّيخ المفيد (ره) كان من أهل

(١) المراجعات: ١٤٣، والمستدرك للحاكم: ٣/ ٣٧٣، وشرح النهج: ١/ ٢٤٩.

عكبرا ثم انحدر وهو صبيّ من أبيه إلى بغداد واشتغل بالقراءة على الشّيخ أبي عبد الله المعروف بجعل، وكان منزله في درب رباح من بغداد وبعد ذلك اشتغل بالدّرس عند أبي ياسر في باب خراسان من البلدة المذكورة.

ولما كان أبو ياسر المذكور بما عجز عن البحث معه والخروج عن عهدته أشار عليه بالمضيّ إلى عليّ بن عيسى الرّماني الذي هو من أعاظم علماء الكلام، فقال الشّيخ: إنّي لا أعرفه ولا أجد أحداً يدلني عليه، فأرسل أبو ياسر معه بعض تلامذته وأصحابه فلمّا مضى وكان مجلس الرّماني مشحوناً من الفضلاء جلس الشّيخ في صف النّعال وبقي يتدرّج في القرب كلما خلا المجلس شيئاً فشيئاً لاستفادة بعض المسائل من صاحب المجلس، فاتّفق أنّ رجلاً من أهل البصرة دخل وسأل الرّماني فقال له: ما تقول في حديث الغدير وقصّة الغار؟ فقال الرّماني: قصّة الغار دراية وخبر الغدير رواية ولا تعارض الرّواية الدّراية ولما كان ذلك الرّجل البصري ليس له قوّة المعارضة سكت وخرج.

فقال الشّيخ إنّي لم أجد صبراً عن السّكوت عن ذلك فقلت: أيّها الشّيخ عندي سؤال، فقال: قل، فقلت: ما تقول في من خرج على الإمام العادل وحاربه؟ فقال: كافر، ثم استدرك فقال: فاسق، فقلت ما تقول في أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟ فقال: إمام عادل، فقلت: ما تقول في حرب طلحة والزّبير له في حرب الجمل؟ فقال: انهم تابوا، فقلت له: خبر الحرب دراية والتّوبة رواية، فقال: أوكنت عند سؤال الرّجل البصري؟ فقلت: نعم، فقال: رواية برواية وسؤالك متّجه وارد.

ثمّ إنّه سأله من أنت وعند من تقرأ من علماء هذا البلد؟ فقلت: عند الشّيخ أبي عبد الله جعل، ثمّ قال لي: مكانك ودخل منزله وبعد لحظة خرج وبيده رقعه ممهورة فدفعها إليّ فقال: ادفعها إلى شيخك أبي عبد الله، فأخذت الرّقعة من يده ومضيت إلى مجلس الشّيخ المذكور ودفعت له الرّقعة ففتحها وبقي مشغولاً بقراءتها وهو يضحك فلمّا فرغ من قراءتها قال: إنّ جميع ما جرى بينك وبينه قد كتب إليّ وأوصاني بك ولقبك المفيد، والله الهادي.

الترجمة

از جمله كلام آن جناب ولايت مآب است هنگامى كه مظفّر و منصور گردانيد خداوند سبحانه و تعالى او را به اصحاب جمل و گفت او را بعض اصحاب او: دوست داشتم كه برادر من فلان حاضر بود در اين حرب تا اين كه مى ديد آن چيزى را كه نصرت داده تو را خداى تعالى به آن بر دشمنان تو. پس فرمود آن حضرت آيا ميل و محبت برادر تو با ماست؟ گفت: بلى يا اميرالمؤمنين. فرمود: پس به تحقيق حاضر است با ما و به خدا سوگند البته حاضرند با ما در اين لشگرگاه ما جماعت محبان ما كه در پشت هاى پدرانند و در رحم هاى مادران، زود باشد كه بيرون آورد ايشان را زمان مانند بيرون آمدن خون از دماغ و قوت گيرد به سبب وجود ايشان ايمان و اهل طغيان مقهور شوند در دست ايشان.

ومن كلام له عليه السلام في ذم أهل البصرة وهو الثالث عشر من المختار في باب الخطب

تكلم بذلك بعد الفراغ من قتال أهلها وقد رواه الطبرسي في **«الاحتجاج»** وعليّ بن إبراهيم القمي والمحدّث البحراني بزيادة ونقصان يعرف تفصيل ذلك في أوّل التنبيهات إنشاء الله.

«كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ، رَغا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ، أَخْلاَقُكُمْ دِقاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، ودِينُكُمْ نِفاقٌ، وماؤكُمْ زُعاقٌ، الْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ عِنكُمْ مُتَدارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ، كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، قَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعَذابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِها، وَغَرَقَ مَنْ في ضِمْنِها. وفي رواية وَأَيْمُ اللَّهِ لَتُغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ حَتى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَسْجِدِها كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ أَوْ نُعَامَةٍ جاثِمَةٍ. وفي رواية كَجُؤْجُؤِ طَيرٍ في لُجَّةِ بَحْرٍ»[١].

اللغة

(**الرّغاء**) وزان غراب صوت البعير ورغت النّاقة ترغو صوتت فهي راغية و(الدّقيق) خلاف الجليل و(**شاقّه**) مشاقه وشقاقاً خالفه وحقيقته أن يأتي كلّ منهما ما يشقّ على صاحبه فيكون كلّ منهما في شقّ غير شقّ صاحبه (**نافق**) الرّجل نفاقاً إذا أظهر الإسلام لأهله وأضمر غير الإسلام و(**الزّعاق**) بضم الزّاء المعجمة المالح و(**بين أظهر**) النّاس وبين ظهريهم وبين ظهرانيهم بفتح النّون كلها بمعنى بينهم، وفائدة إدخاله في الكلام أن إقامته بينهم على سبيل الاستظهار بهم والاستناد إليهم وكان المعنى أنّ ظهراً منه قدامه وظهراً ورائه فكأنّه مكنوف من جانبيه هذا أصله، ثمّ كثر حتّى استعمل في الإقامة بين القوم وإن كان غير مكنوف بينهم و(**الجؤجؤ**) كهدهد من الطير والسّفينة صدرهما وقيل عظام الصّدر و(**جثم**) الطائر والأرنب يجثم من باب ضرب جثوماً وهو كالبروك من البعير.

الإعراب

(**الفاء**) في قوله: فأجبتم، وقوله: فهربتم، فصيحة، وقوله كأنّي بمسجدكم (ا ه) (**كان**) للتقريب (**والباء**) زائدة والأصل كأنّي أبصر مسجدكم ثم حذف الفعل وزيدت (**الباء**) كما ذكره المطرزي في شرح قول الحريري: كأنّي بك تنحط، من أنّ الأصل كأنّي أبصرك تنحط حذف الفعل وزيدت (**الباء**) وقال ابن عصفور: (**الباء والكاف**) في كأنّي بك تنحط، وكأنك بالدّنيا لم

(١) أمالي الطوسي: ٧٠٣ ح ١٥٠٢.

تكن، كافتان لكأنّ عن العمل، (**والباء**) زائدة في المبتدأ وعلى ذلك فيكون قوله عليه السلام (**بمسجدكم**) مبتدأ (**وكجؤجؤ سفينة**) خبره وجملة (**قد بعث**) حال متمّمة لمعنى الكلام كالحال في قوله تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر: ٤٩].

وقال نجم الأئمة الرّضي في المثال الثاني: الأَولى أن تبقى كأنّ على معنى التشبيه ولا تحكم بزيادة شيء وتقول التّقدير كأنّك تبصر بالدّنيا أي تشاهدها من قوله تعالى:

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص: ١١].

والجملة بعد المجرور (**بالباء**) حال أي كأنّك تبصر بالدّنيا وتشاهدها غير كائنة.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام ذكر في كلامه ذلك أموراً سبعة نبّه فيها على ذمّهم وتوبيخهم.

الأول: ما أشار عليه السلام إليه بقوله: (**كنتم جند المرأة**) وأراد بها عائشة حيث جعلوها عقد نظامهم ومدار قوامهم، ومن المعلوم أنّ النّساء على نقصان عقولهنّ وحظوظهن وإيمانهنّ على ما ستعرفها تفصيلاً في محلها مذمومة عند العرب وسائر العقلاء، فالتّابع لها والجاعل زمام أمره إليها لا بدّ وأن يكون أنقص عقلاً منهنّ وحريًا بالذّم والتّوبيخ.

روى في «**البحار**» من «**كنز جامع الفوائد**» وتأويل الآيات عن محمّد البرقي عن الحسين بن سيف عن أخيه عن أبيه عن سالم بن مكرم عن أبيه قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قوله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال: هي الحميراء[1] قال مؤلف الكتاب: إنّما كنّى عنها بالعنكبوت لأنّه حيوان ضعيف اتّخذت بيتاً ضعيفاً أوهن البيوت، وكذلك الحميراء حيوان ضعيف لقلة عقلها وحظها ودينها اتّخذت من رأيها الضّعيف وعقلها السخيف في مخالفتها وعداوتها لمولاها بيتاً مثل بيت العنكبوت في الوهن والضعف وسيأتي بعض الأخبار فيها في التّنبيه الثّاني إنشاء الله.

الثّاني: ما نبّه عليه السلام عليه بقوله: (**وأتباع البهيمة**) وأراد بها الجمل.

قال في «**البحار**»: وأعطى يعلى بن منبه عائشة جملاً اسمه عسكر اشتراه بمائتي دينار وقيل بثمانين ديناراً فركبته وقيل: كان جملها لرجل من عرنية قال العرني بينما أنا أسير على

(١) الجمل: ٤٦، والبحار: ٢٨٦/٣٢.

جمل إذ عرض لي راكب قال اتبيع جملك؟ قلت: نعم، قال: بكم؟ قلت: بألف درهم قال: أمجنون أنت؟ قلت: ولم والله ما طلبت عليه أحداً إلاّ أدركته ولا طلبني وأنا عليه أحد إلاّ فته، قال: لو تعلم لمن نريده إنّما نريده لامّ المؤمنين عائشة، فقلت: خذه بغير ثمن قال: بل ارجع معنا إلى الرّحل فنعطيك ناقة ودراهم قال: فرجعت فأعطوني ناقة مهريّة وأربعمائة درهم أو ستمائة.

وفي شرح المعتزلي: لمّا عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيّدا يحمل هودجها فجاءهم يعلى بن أميّة ببعير المسمّى عسكراً وكان عظم الخلق شديداً، فلمّا رأته أعجبها وأنشأ الجمال يحدثها بقوّته وشدّته ويقول في أثناء كلامه عسكر، فلمّا سمعت هذه اللفظة استرجعت وقالت ردّوه لا حاجة لي فيه وذكرت حيث سألت رسول الله ﷺ ذكر لها هذا الاسم ونهاها عن ركوبه وأمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه فغير لها بجلال غير جلاله، وقيل لها قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً وأشدّ قوّة وأتيت به فرضيت[1].

ثمّ إنّه عليه السلام أوضح متابعتهم للبهيمة بقوله: **(رغا فأجبتم)** فإنّ كونهم مجيبين لرغائه شاهد صدق على المتابعة وقد كان الجمل راية أهل البصرة قتلوا دونه كما يقتل الرّجال تحت الرّايات، وكان كلّ من أراد الجد في الحرب وقاتل قتال مستميت يتقدّم الجمل ويأخذ بخطامه وروى أنّه أخذ الخطام سبعون رجلاً من قريش قتلوا كلهم وكان أكثر النّاس حماية له وذبّاً عنه بني ضبّة والأزد.

وفي شرح المعتزلي عن المدائني والواقدي أنّه ما حفظ رجز قط أكثر من رجز قيل يوم الجمل، وأكثره لبني ضبّة والأزد الذين كانوا حول الجمل يحامون عنه ولقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والأيدي تطيح من المعاصم، وأقتاب البطن تندلق من الأجواف، وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتزلزل ولا تتحلحل حتّى لقد صرخ بأعلى صوته ويلكم: اعقروا الجمل فإنّه شيطان، ثمّ قال عليه السلام اعقروه وإلاّ فنيت العرب لا يزال السّيف قائماً وراكعاً حتّى يهوى البعير إلى الأرض فعمدوا له حتّى عقروه فسقط وله رغاء شديد فلمّا برك كانت الهزيمة وإليه أشار عليه السلام بقوله: **(وعقر فهربتم)**.

قال أبو مخنف حدّثنا مسلم الأعور عن حبّة العرنيّ قال: فلمّا رأى عليّ عليه السلام أن الموت عند الجمل وأنّه ما دام قائماً فالحرب لا يطفأ وضع سيفه على عاتقه وعطف نحوه وأمر أصحابه بذلك ومشى نحوه والخطام مع بني ضبّة فاقتتلوا قتالاً شديداً واستحرّ القتل في بني ضبّة فقتل منهم مقتلة عظيمة وخلص عليّ عليه السلام في جماعة من النخع وهمدان إلى الجمل.

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/٢٢٥، والبحار: ٣٢/١٣٨.

فقال لرجل من النخع اسمه بحير: دونك الجمل يا بحير فضرب عجز الجمل بسيفه فوقع لجنبه وضرب بجرانه الأرض وعج عجاً شديداً لم يسمع بأشدّ منه فما هو إلاّ أن صرع الجمل حتّى فرّت الرّجال كما يطير الجراد في الرّيح الشّديدة الهبوب واحتملت عائشة بهودجها فحملت إلى دار عبد الله بن خلف وأمر عليّ عليه السلام بالجمل أن يحرق ثمّ يذري بالرّيح، وقال: «لعنة الله من دابّة فما أشبهه بعجل بني إسرائيل» ثم قرأ:

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[1] [طه: ٩٧].

وفي «الاحتجاج» أنّ محمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر توليا عقره بعد طول دمائه، وروي أنّه كلما قطعت قائمة من قوائمه ثبت على أخرى حتّى قتل.

الثالث: ما ذكره بقوله عليه السلام **(أخلاقكم دقاق)** أي رذيلة حقيرة قال الشّارح المعتزلي: في الحديث أنّ رجلاً قال له: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنّي أحبّ أن أنكح فلانة إلاّ أن في أخلاق أهلها دقة فقال له: «إيّاك وخضراء الدّمن إيّاك والمرأة الحسناء في منبت السّوء»[2].

وعلل البحراني دقّة أخلاقهم بأنّ أصول الفضائل الخلقيّة لما كانت ثلاثة: الحكمة والعفّة والشّجاعة وكانوا على طرف الجهل لوجوه الآراء المصلحيّة وهو طرف التّفريط من الحكمة العلميّة وعلى طرف الجبن وهو التّفريط من الشّجاعة وعلى طرف الفجور وهو طرف الإفراط من ملكة العفّة والعدالة لا جرم صدق أنّهم على رذائل الأخلاق ودقاقها.

أقول: ويشهد على جهلهم اتباعهم للمرأة ومتابعتهم للبهيمة، وعلى جبنهم ما مر في الخطب السّابقة من قوله عليه السلام: وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل، وعلى فجورهم خروجهم على الإمام العادل ومحاربتهم معه.

الرّابع: ما نبّه عليه السلام عليه بقوله: **(وعهدكم شقاق)** يعني معاهدتكم لا يمكن الاعتماد عليها والوثوق بها، لأنّها صوريّة وظاهريّة وفي المعنى والحقيقة مخالفة وعداوة يشهد بذلك نكثهم لبيعته بعد عقدهم إيّاه.

الخامس: ما أشار عليه السلام إليه بقوله: **(ودينكم نفاق)** وذلك أنّهم أظهروا الإسلام أي الإيمان بألسنتهم وخالفوا بقلوبهم كما حكى عليه السلام فيما سبق عن الزّبير أنّه: يزعم أنّه بايع بيده ولم يبايع بقلبه فقد أقرّ بالبيعة وادعى الوليجة.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/ ٢٥٣.

(٢) راجع جواهر الكلام: ٢٩/ ٣٧، والكافي: ٥/ ٣٣٢.

السّادس: ملوحة مائهم المشار إليه بقوله: **(وماؤكم زعاق)** أي مالح بسبب قربه من البحر يوجب أمراضاً كثيرة كسوء المزاج والبلادة وفساد الطحال ونحوها، وهذا وإن لم يكن من أفعالهم الاختيارية إلاّ أنه ممّا يذّم به البلد فيستحقّون بذلك المذمة لسوء اختيارهم ذلك المكان قال الشّاعر:

بلاد بها الحمى وأسد عرينة وفيها المعلى يعتدي ويجور

فإنّي لمن قد حلّ فيها لراحم وإنّي لمن لم يأتها لنذير

(و) **السابع**: أنّ **(المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه)** لأنّه إمّا أن يشاركهم في الذّنوب أو يراها فلا ينكرها، وقد وردت الأخبار عن أئمتنا الأطهار سلام الله عليهم على تحريم مجاورة أهل المعاصي ومخالطتهم اختياراً والمجالسة معهم وكون المجاور والمجالس مستحقاً بذلك للعقوبة.

مثل ما رواه في **الوسائل**: بإسناده عن مهاجر الأسدي عن أبي عبد الله ﷺ قال: مرّ عيسى بن مريم ﷺ على قرية قدمات أهلها وطيرها ودوابها فقال: أمّا أنّهم لم يموتوا إلاّ لسخطة ولو ماتوا متفرّقين لتدافنوا، فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته ادع الله أن يحييهم لنا فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنتجنّبها، قال: فدعا عيسى ﷺ فنودي من الجوّ أن نادهم فقام عيسى بالليل على شرف من الأرض فقال: يا أهل القرية، فأجابه مجيب منهم لبيك، فقال: ويحكم ما كانت أعمالكم؟ قال: عبادة الطاغوت وحبّ الدّنيا مع خوف قليل وأمل بعيد وغفلة في لهو ولعب إلى أن قال: وكيف عبادتكم للطاغوت؟ قال: الطاعة لأهل المعاصي قال: كيف كانت عاقبة أمركم؟ قال: بِتْنَا في عافية وأصبحنا في الهاوية، فقال: وما الهاوية؟ قال: سجّين، قال: وما سجّين؟ قال: جبال من جمر توقد علينا إلى يوم القيامة، إلى أن قال، قال: ويحك كيف لم يكلّمني غيرك من بينهم؟ قال: يا روَح الله إنّهم ملجمون بلجم من نار: بأيدي[1] ملائكة غلاظ شداد وإنّي كنت فيهم ولم أكن منهم فلمّا نزل العذاب أعمّني معهم وأنا معلّق بشعرة على شفير جهنّم لا أدري اكبكب فيها أم أنجومنها، فالتفت عيسى ﷺ إلى الحواريين فقال: يا أولياء الله أكل الخبز اليابس بالملح الجريش والنّوم على المزابل خير كثير مع عافية الدّنيا والآخرة[2].

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام قال: سمعته يقول: أما أنّه ليس من سنة أقلّ مطراً من سنة ولكن الله يضعه حيث يشاء إنّ الله جلّ جلاله إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدر لهم من المطرفي تلك السّنة إلى غيرهم وإلى الفيافي

---

(١) في العلل وثواب الأعمال: عليهم.

(٢) الوسائل: ٢٥٦/١٦، وثواب الأعمال: ٢٥٤.

والبحار والجبال، وإنّ الله ليعذّب الجمل في جحرتها بحبس المطر عن الأرض التي هي بمحلتها لخطايا من بحضرتها، وقد جعل الله لها السّبيل إلى مسلك سوى محلة أهل المعاصي قال: ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: فاعتبروا يا أولي الأبصار[(١)].

وعن أبي حمزة عن عليّ بن الحسين عليهما السلام في حديث طويل قال: إيّاكم وصحبة العاصين ومعونة الظالمين ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم وتباعدوا من ساحتهم[(٢)].

وفي «**الفقيه**» عن محمّد بن مسلم قال: مرّ بي أبو جعفر عليه السلام وأنا جالس عند قاض بالمدينة فدخلت عليه من الغد فقال عليه السلام: ما مجلس رأيتك فيه أمس قال: قلت له: جعلت فداك إنّ هذا القاضي لي مكرم فربّما جلست إليه فقال: وما يؤمنك أن تنزل اللعنة فتعمك معه[(٣)]، وروي في خبر آخر: فتعمّ من في المجلس.

وفي «**الكافي**» عن الجعفري قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: ما لي رأيتك عند عبد الرّحمٰن بن يعقوب؟ فقال: إنّه خالي، فقال عليه السلام: إنّه يقول في الله قولاً عظيماً يصف الله ولا يوصف فإمّا جلست معه وتركتنا، وإمّا جلست معنا وتركته؛ فقلت: هو يقول ما شاء أيّ شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً، أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام وكان أبوه من أصحاب فرعون فلمّا لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعظ أباه فيلحقه بموسى فمضى أبوه وهو يراغمه حتى بلغ طرفا من البحر فغرقا جميعاً فأتى موسى الخبر فقال: هو في رحمة الله ولكن النّقمة إذا نزلت ليس لها عمّن قارب المذنب دفاع[(٤)].

وقوله عليه السلام: (**والشّاخص عنكم متدارك برحمة من ربّه**) وذلك لأنّ المقيم بينهم والمخالط معهم إذا كان رهيناً بذنبه يلزمه كون الشّاخص عنهم والمتباعد من ساحتهم متداركاً برحمة الله لسلامته من عقوبة المجاورة والمجالسة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى ابتلائهم بالعقوبة الدّنيوية قبل عذاب الآخرة وقال: (**كأنّي بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد**) برز من الماء حين (**بعث الله عليها**) أي على البصرة (**العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها**) قال الرّضي (**وفي رواية**) أخرى: (**وأيم الله لتغرقنّ بلدتكم حتى كأنّي أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة**) أي باركة متلبّدة بالأرض قال: (**وفي**

---

(١) محاسن البرقي: ١/ ١١٦، والكافي: ٢/ ٢٧.
(٢) تحف العقول: ٢٥٤، والوسائل: ١٦/ ٢٦٠.
(٣) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٦، الوسائل: ٢٧/ ١٥.
(٤) الكافي: ٢/ ٣٧٥، والوسائل: ١٦/ ٢٦١.

رواية) ثالثة (كجؤجؤ طير في لجّة بحر).

قال الشّارح المعتزلي: أمّا إخباره عليه السلام أن البصرة تغرق عدا المسجد الجامع فقد رأيت من يذكر أنّ كتب الملاحم تدلّ على أنّ البصرة تهلك بالماء الأسود ينفجر من أرضها فتغرق ويبقى مسجدها، والصّحيح أنّ المخبر به قد وقع فإنّ البصرة غرقت مرّتين مرّة في أيّام القادر بالله ومرّة في أيّام القائم بأمر الله غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلاّ مسجدها الجامع مبارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر حسب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام: جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس ومن جهة الجبل المعروف الآن بجزيرة السنّام، وخربت دورها وغرق كلّ ما في ضمنها وهلك كثير من أهلها، وأخبار هذين الغرقين عند أهل البصرة يتناقله خلفهم عن سلفهم[1].

أقول: ولا بأس بما ذكره إلاّ أن المستفاد من ذيل هذه الخطبة على ما رواها الشّارح البحراني حسبما تعرفه في أوّل التنبيهات أنّ الماء الذي تغرق به البصرة ينفجر من الأرض كما قال عليه السلام: وإنّي لأعرف موضع منفجره من قريتكم هذه. وظاهر ذلك أنّه لا يكون من ناحية أخرى، والله العالم بحقائق الأمور.

وينبغي التنبيه على أمور الأول

اعلم أنّ هذه الخطبة رويت بطرق مختلفة قد رواها جماعة من الأصحاب بزيادة ونقصان ولا بأس بالإشارة إليها تكثيراً للفائدة.

فمنها ما في **«الاحتجاج»** عن ابن عباس (رض) قال: لمّا فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من قتال أهل البصرة وضع قتباً على قتب فحمد الله وأثنى عليه فقال: يا أهل البصرة يا أهل المؤتفكة يا أهل الدّاء العضال يا أتباع البهيمة يا جند المرأة رغا فأجبتم وعقر فهربتم، ماؤكم زعاق، ودينكم نفاق، وأحلامكم دقاق، ثم نزل عليه السلام يمشي بعد فراغه من خطبته فمشينا معه فمرّ بالحسن البصري وهو يتوضّأ فقال: يا حسن أسبغ الوضوء فقال: يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس أناساً يشهدون أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله ويصلّون الخمس ويسبغون الوضوء، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «قد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدوّنا»؟ فقال: والله لأصدقنك يا أمير المؤمنين لقد خرجت في أوّل يوم فاغتسلت وتحنّطت وصببت عليّ سلاحي وأنا لا أشكّ في أنّ التّخلّف عن أمّ المؤمنين عائشة كفر، فلمّا انتهيت إلى موضع من الخريبة نادى مناد يا حسن إلى أين ارجع فإنّ القاتل والمقتول في النّار، فرجعت ذاعراً وجلست في بيتي.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/ ٢٥٣.

فلمّا كان في اليوم الثّاني لم أشكّ أن التّخلّف عن أمّ المؤمنين هو الكفر فتحنّطت وصببت عليّ سلاحي وخرجت أريد القتال حتّى انتهيت إلى موضع من الخريبة فنادى منادٍ من خلفي يا حسن إلى أين مرّة بعد أخرى فإنّ القاتل والمقتول في النّار.

قال عليّ عليه السلام: «صدقت أفتدري من ذلك المنادي»؟ قال: لا، قال عليه السلام: «أخوك إبليس وصدقك أنّ القاتل والمقتول منهم في النّار»، فقال الحسن البصري: الآن عرفت يا أمير المؤمنين أنّ القوم هلكى[1].

ومنها ما في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي في تفسير قوله:

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النجم: ٥٣].

قال: المؤتفكة البصرة، والدّليل على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: يا أهل البصرة ويا أهل المؤتفكة يا جند المرأة وأتباع البهيمة رغا فأجبتم وعقر فهربتم ماؤكم زعاق وأخلاقكم دقاق[2] وفيكم ختم النّفاق ولعنتم على لسان سبعين نبيّاً إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني أنّ جبرئيل عليه السلام أخبره أنّه طوى له الأرض فرأى البصرة أقرب الأرضين من الماء وأبعدها من السّماء، وفيها تسعة أعشار الشرّ والدّاء العضال، المقيم فيها مذنب والخارج عنها برحمة وقد ائتفكت بأهلها مرّتين وعلى الله تمام الثّالثة، وتمام الثّالثة في الرّجعة[3].

أقول: قال في «مجمع البيان»: المؤتفكة المنقلبة وهي التي صار أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، وأهوى أي أنزل بها في الهواء قال: والمؤتفكة قرى قوم لوط المخسوفة أهوى أي أسقط أهواها جبرئيل بعد أن رفعها وهذا تنزيلها وما رواه القمّي رحمه الله تأويلها، وقال القمّي في تفسير قوله سبحانه:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقة: ٩].

المؤتفكات البصرة، والخاطئة فلانة وفي نسخة حميراء، وفي «البحار» وأمّا التأويل الذي ذكره عليّ بن إبراهيم فقد رواه مؤلف تأويل الآيات الباهرة عن محمّد البرقي عن سيف بن عميرة عن أخيه عن منصور بن حازم عن حمران قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: وجاء فرعون يعني الثالث، ومن قبله يعني الأوّلين، والمؤتفكات أهل البصرة، بالخاطئة الحميراء، فالمراد بمجيء الأوّلين والثالث بعائشة أنّهم أسّسوا لها بما فعلوا من الجور على أهل البيت عليهم السّلام أساساً به تيسّر لها الخروج ولولا ما فعلوا لم تكن تجترىء على ما فعلت،

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٥١، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٥١٢.

(٢) في نسخة: وأصلامكم رقاق.

(٣) بحار الأنوار: ٣٢/ ٢٢٦.

والمراد بالمؤتفكات أهل المؤتفكات والجمع باعتبار البقاع والقرى والمحلات.

ومنها ما في «**شرح البحراني**» متفرّقة إلاّ أن المحدث العلامة المجلسي (ره) جمع ما وجد منها في «**البحار**» وألف شتاتها ونحن نرويها من «**البحار**» من الشرح.

قال (قدّه): روى الشّيخ كمال الدّين بن ميثم البحراني مرسلاً أنه لما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من أمر الحرب لأهل الجمل أمر منادياً ينادي في أهل البصرة أن الصّلاة الجامعة لثلاثة أيام من غد إنشاء الله ولا عذر لمن تخلّف إلاّ من حجّة أو علة فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً فلمّا كان اليوم الذي اجتمعوا فيه خرج عليه السلام فصلى بالنّاس الغداة في المسجد الجامع فلمّا قضى صلاته قام فأسند ظهره إلى حائط القبلة عن يمين المصلى فخطب النّاس وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النّبي وآله واستغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ثمّ قال:

يا أهل البصرة يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلها ثلاثاً وعلى الله تمام الرّابعة، يا جند المرأة وأعوان البهيمة رغا فأجبتم وعقر فانهزمتم أخلاقكم دقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق، وبلادكم أنتن بلاد الله تربة وأبعدها من السّماء، بها تسعة أعشار الشر المحتبس فيها بذنبه والخارج منها بعفو الله، كأنّي أنظر إلى قريتكم هذه وقد طبقها الماء حتّى ما يرى منها الأشرف المسجد كأنّه جؤجؤ طير في لجّة بحر.

فقام إليه الأحنف بن قيس فقال له: يا أمير المؤمنين متى يكون ذلك؟ قال: يا أبا بحر إنك لن تدرك ذلك الزّمان وإن بينك وبينه لقروناً ولكن ليبلغ الشّاهد منكم الغائب عنكم لكي يبلغوا إخوانهم إذا هم رأوا البصرة قد تحوّلت أخصاصها دوراً وآجامها قصوراً فالهرب الهرب فإنّه لا بصرة لكم يومئذٍ.

ثمّ التفت عن يمينه فقال: كم بينكم وبين الابلّة؟ فقال له المنذر بن الجارود: فداك أبي وأمّي أربعة فراسخ قال له: صدقت فوالذي بعث محمّداً وآله وأكرمه بالنّبوة وخصّه بالرّسالة وعجل بروحه إلى الجنّة لقد سمعت منه كما تسمعون مني أن قال لي: يا علي هل علمت أنّ بين التي تسمى البصرة وتسمى الإبلّة أربعة فراسخ وسيكون في التي تسمّى الإبلة موضع أصحاب العشور يقتل في ذلك الموضع من أمّتي سبعون ألفاً شهيدهم يومئذٍ بمنزلة شهداء بدر.

فقال له المنذر: يا أمير المؤمنين ومن يقتلهم فداك أبي وأمّي؟ قال: يقتلهم إخوان الجنّ وهم جيل كأنّهم الشّياطين سود ألوانهم منتنة أرياحهم شديد كلبهم قليل سلبهم طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه، ينفر لجهادهم في ذلك الزّمان قوم هم أذلة عند المتكبرين من أهل ذلك الزّمان، مجهولون في الأرض معروفون في السماء تبكي السّماء عليهم وسكانها والأرض وسكانها.

ثمّ هملت[١] عيناه بالبكاء ثم قال: ويحك يا بصرة ويلك يا بصرة لا رهج[٢] له ولا حس، فقال له المنذر: يا أمير المؤمنين وما الذي يصيبهم من قبل الغرق ممّا ذكرت وما الويح وما الويل؟ فقال: هما بابان فالويح باب رحمة والويل باب عذاب يا ابن الجارود نعم تارات عظيمة.

منها عصبة يقتل بعضها بعضاً، ومنها فتنة يكون بها خراب منازل وخراب ديار وانتهاك أموال وقتل رجال وسباء نساء يذبحن ذبحاً، يا ويل أمرهن حديث عجيب.

منها أن يستحل بها الدّجال الأكبر الأعور الممسوح العين اليمنى والأخرى كأنّها ممزوجة بالدّم لكأنّها في الحمرة علقة ناتيء[٣] الحدقة كهيئة حبّة العنب الطافية على الماء فيتبعه من أهلها عدّة من قتل بالإبلة من الشهداء أناجيلهم في صدورهم يقتل من يقتل ويهرب من يهرب ثمّ رجف ثمّ قذف ثمّ خسف ثمّ مسخ ثمّ الجوع الأغبر ثمّ الموت الأحمر وهو الغرق.

يا منذر إنّ للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزبر الأوّل لا يعلمها إلاّ العلماء منها الخريبة ومنها تدمر ومنها المؤتفكة، يا منذر والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لو أشاء لأخبرتكم بخراب العرصات عرصة عرصة متى تخرب ومتى تعمر بعد خرابها إلى يوم القيامة وإنّ عندي من ذلك علماً جمّاً وإن تسألوني تجدوني به عالماً لا أخطيء منه علماً ولا دافناء[٤] ولقد استودعت علم القرون الأولى وما هو كائن إلى يوم القيامة.

ثمّ قال: «يا أهل البصرة إنّ الله لم يجعل لأحد من أمصار المسلمين خطة شرف ولا كرم إلاّ وقد جعل فيكم أفضل ذلك وزادكم من فضله بمنّه ما ليس لهم أنتم أقوم الناس قبلة قبلتكم على المقام حيث يقوم الإمام بمكّة، وقارئكم أقرأ النّاس، وزاهدكم أزهد النّاس، وعابدكم أعبد النّاس، وتاجركم أتجر النّاس وأصدقهم في تجارته، ومتصدّقكم أكرم النّاس صدقة، وغنيكم أشدّ النّاس بذلاً وتواضعاً، وشريفكم أحسن النّاس خلقاً، وأنتم أكرم النّاس جواراً وأقلهم تكلفاً لما لا يعنيه وأحرصهم على الصلاة في جماعة، ثمرتكم أكثر الثّمار، وأموالكم أكثر الأموال وصغاركم أكيس الأولاد، نساؤكم أقنع النساء وأحسنهن تبعلاً سخر لكم الماء يغدو عليكم ويروح، صلاحاً لمعاشكم والبحر سبباً لكثرة أموالكم فلو صبرتم واستقمتم لكانت لكم شجرة طوبى مقيلاً ظلاً ظليلاً غير أن حكم الله فيكم ماض وقضاؤه نافذ لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب يقول الله:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: ٥٨].

---

(١) هملت: أي فاضت.
(٢) رهج: غبار.
(٣) ناتيء: المرتفع.
(٤) دافناء: الأمر داخله.

واقسم لكم يا أهل البصرة ما الذي ابتدأتكم به من التوبيخ إلاّ تذكيراً وموعظة لما بعد لكي لا تسرعوا إلى الوثوب في مثل الذي وثبتم وقد قال الله لنبيّه ﷺ:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]

ولا الذي ذكرت فيكم من المدح والتطرية بعد التذكير والموعظة رهبة منّي لكم ولا رغبة في شيء ممّا قبلكم فإنّي لا أريد المقام بين أظهركم إنشاء الله لأمور تحضرني قد يلزمني المقام بها فيما بيني وبين الله لا عذر لي في تركها ولا علم لكم بشيء منها حتّى يقع ممّا أريد أن أخوضها مقبلاً ومدبراً.

فمن أراد أن يأخذ بنصيبه منها فليفعل، فلعمري إنّه للجهاد الصّافي صفاه لنا كتاب الله ولا الذي أردت به من ذكر بلادكم موجدة منّي عليكم لما شاققتموني غير أنّ رسول الله ﷺ قال لي يوماً وليس معه غيري: إنّ جبرئيل الرّوح الأمين حملني على منكبه الأيمن حتى أراني الأرض ومن عليها وأعطاني أقاليدها ولم يكبر ذلك عليّ كما لم يكبر على أبي آدم علمه الأسماء ولم يعلمه الملائكة المقرّبون».

«وإنّي رأيت بقعة على شاطيء البحر تسمّى البصرة، فإذا هي أبعد الأرض من السّماء وأقربها من الماء وأنّها لأسرع الأرض خراباً وأخشنها (اخشبها خ) تراباً وأشدّها عذاباً، ولقد خسف بها في القرون الخالية مراراً وليأتين عليها زمان وإنّ لكم يا أهل البصرة وما حولكم من القرى من الماء ليوماً عظيماً بلاؤه وإني لأعرف موضع منفجره من قريتكم هذه، ثمّ أمور قبل ذلك تدهمكم أخفيت عليكم وعلمناه فمن خرج عند دنو غرقها فبرحمة من الله سبقت له، ومن بقي فيها غير مرابط بها فبذنبه وما الله بظلام للعبيد».

فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني من أهل الجماعة ومن أهل الفرقة ومن أهل البدعة ومن أهل السنّة.

فقال ﷺ: «إذا سألتني فافهم عنّي ولا عليك أن لا تسأل أحداً بعدي، أمّا أهل الجماعة فأنا ومن اتبعني وإن قلوا، فذلك الحقّ عن أمر الله وأمر رسوله، وأمّا أهل الفرقة فالمخالفون لي ولمن اتبعني وإن كثروا، وأمّا أهل السنّة فالمستمسكون بما سنّه الله ورسوله وإن قلوا؛ وأمّا أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ولرسوله العالمون[1] برأيهم وهوائهم وإن كثروا قد مضى منهم الفوج الأوّل وبقيت أفواج وعلى الله قصمها واستئصالها عن جدد الأرض وبالله التوفيق»[2].

أقول: ولعلّ تمام الخطبة ما رواه في «الاحتجاج» عن يحيى بن عبد الله بن الحسن عن

---

(١) في نسخة: العاملون.
(٢) كنز العمال: ١٢/ ٦١٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٢٥٧.

أبيه عبد الله بن الحسن، قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يخطب بالبصرة بعد دخولها بأيام، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني من أهل الجماعة ومن أهل الفرقة؟ وساق إلى قوله: واستئصالها عن جدد الأرض وبعده، فقام إليه عمّار وقال: يا أمير المؤمنين إنّ الناس يذكرون الفيء ويزعمون أنّ من قاتلنا فهو وماله وولده فيء لنا.

فقام إليه رجل من بكر بن وائل يدعى عباد بن قيس، وكان ذا عارضة ولسان شديد فقال يا أمير المؤمنين، والله ما قسمت بالسّوية ولا عدلت في الرّعية فقال: عليه السلام ولم ويحك؟ قال: لأنّك قسمت ما في العسكر وتركت الأموال والنّساء والذّرية فقال: أيّها النّاس من كان له جراحة فليداوها بالسّمن، فقال عباد: جئنا نطلب غنائمنا فجاءنا بالتّرهات.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «إن كنت كاذباً فلا أماتك الله حتّى يدركك غلام ثقيف»، قيل: ومن غلام ثقيف؟ فقال رجل لا يدع لله حرمة إلاّ انتهكها فقيل أفيموت أو يقتل؟ فقال عليه السلام: «يقصه قاصم الجبّارين بموت فاحش يحترق منه دبره لكثرة ما يجري من بطنه».

«يا أخا بكر أنت أمرء ضعيف الرأي، أو ما علمت أنّا لا نأخذ الصّغير بذنب الكبير، وأنّ الأموال كانت لهم قبل الفرقة وتزوجوا على رشدة وولد وأعلى فطرة، وإنّما لكم ما حوى عسكرهم وما كان في دورهم فهو ميراث، فإن عدا أحد منهم أخذنا بذنبه، وإن كفّ عنّا لم نحمل عليه ذنب غيره.

يا أخا بكر لقد حكمت فيهم بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل مكّة، فقسم ما حوى العسكر ولم يتعرّض لما سوى ذلك، وإنّما اتبعت أثره حذو النّعل بالنعل.

يا أخا بكر أما علمت أنّ دار الحرب يحلّ ما فيها، وأنّ دار الهجرة لا يحلّ ما فيها إلاّ بحق فمهلاً مهلاً رحمكم الله، فإن لم تصدّقوني وأكثرتم عليّ وذلك أنّه تكلم في هذا غير واحد، فأيّكم يأخذ عائشة بسهمه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين أصبت وأخطأنا وعلمت وجهلنا فنحن نستغفر الله»، ونادى النّاس من كل جانب أصبت يا أمير المؤمنين أصاب الله بك الرّشاد والسّداد.

فقام عباد[1] فقال: «أيّها النّاس إنّكم والله ان اتبعتموه وأطعتموه لن يضلّ بكم عن منهل نبيّكم صلى الله عليه وآله حتّى قيس شعرة كيف؟ ولا يكون ذلك، وقد استودعه رسول الله صلى الله عليه وآله علم المنايا والقضايا[2] وفصل الخطاب على منهاج هارون عليه السلام وقال له: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي، فضلاً خصّه الله به وإكراماً منه لنبيّه حيث أعطاه ما لم يعط أحداً من خلقه.

(١) في نسخة: عمار.

(٢) في نسخة: والوصايا.

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «انظروا رحمكم الله ما تؤمرون به، فامضموا له فإن العالم أعلم بما يأتي به من الجاهل الخسيس الأخسّ، فإنّي حاملكم إنشاء الله إن أطعتموني على سبيل النجاة، وإن كان فيه مشقّة شديدة ومرارة عتيدة والدّنيا حلوة والحلاوة لمن اغترّ بها من الشّقوة والنّدامة عمّا قليل.

ثمّ إنّي أخبركم أن جيلاً من بني إسرائيل أمرهم نبيّهم أن لا يشربوا من النّهر فلجوا في ترك أمره فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم، فكونوا رحمكم الله من أولئك الذين أطاعوا نبيّهم ولم يعصوا ربّهم، وأمّا عائشة فأدركها رأي النّساء ولها بعد ذلك حرمتها الأولى والحساب على الله، يعفو عمّن يشاء ويعذب من يشاء»[1].

الثاني

في الإشارة إلى جملة من الآيات والأخبار الواردة في نهي عائشة عن الخروج إلى القتال وما فيها الإشارة إلى تعدّيها عن حدود الله وعمّا أوجباه في حقّها فتقول قال تعالى:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠].

روى عليّ بن إبراهيم في **«تفسيره»** بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الفاحشة الخروج بالسّيف، وقال تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

روى في **«الصّافي»** من الإكمال عن ابن مسعود عن النّبي صلى الله عليه وآله في حديث أنّ يوشع بن نون وصيّ موسى عاش بعد موسى ثلاثين سنة، وخرجت عليه صفراء بنت شعيب زوجة موسى فقالت: أنا أحقّ منك بالأمر فقاتلها فقتل مقاتليها وأحسن أسرها، وإنّ ابنة أبي بكر ستخرج على عليّ عليه السلام في كذا وكذا ألف من أمّتي فيقاتلها فيقتل مقاتليها ويأسرها فيحسن أسرها، وفيها أنزل الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] يعني صفراء بنت شعيب، وروى القمّي عن الصّادق عن أبيه عليه السلام في هذه الآية قال: أي سيكون جاهليّة أخرى، وفي **«البحار»** من الكافية من تفسير الكلبي عن ابن عبّاس لمّا علم الله أنّه سيجري حرب الجمل قال لأزواج النبيّ صلى الله عليه وآله: وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهليّة الأولى وقال:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

---

(١) البحار: ٣٢/٢٢٣، وكنز العمال: ١٦/١٨٦ ح ٤٤٢١٦.

في حربها مع عليّ عليه السلام[١].

وفي **«الاحتجاج»** روى الشّعبي عن عبد الرّحمان بن مسعود العبدي قال: كنت بمكة مع عبد الله بن الزّبير وطلحة والزبير فأرسلا إلى عبد الله بن الزّبير وأنا معه فقالا له: إنّ عثمان قتل مظلوماً وإنّا نخاف أمر أمّة محمّد صلى الله عليه وآله أن يختلّ بهم، فإن رأت عائشة أن تخرج معنا لعل الله أن يرتق بها فتقاً ويشعب بها صدعاً.

قال: فخرجنا نمشي حتّى انتهينا إليها فدخل عبد الله بن الزّبير معها في سترها، وجلست على الباب فأبلغها ما أرسلا به إليها، فقالت: سبحان الله، والله ما أمرت بالخروج وما تحضرني من أمهات المؤمنين إلاّ أمّ سلمة فإن خرجت خرجت معها فرجع إليها فبلّغهما ذلك، فقالا ارجع فلتأتها فهي أثقل عليها منّا فرجع إليها فبلغها فأقبلت حتّى دخلت على أمّ سلمة فقالت أمّ سلمة: مرحباً بعائشة والله ما كنت لي بزوّارة فما بدا لك؟ قال: قدم طلحة والزّبير فخبرا أنّ أمير المؤمنين عثمان قتل مظلوماً، فصرخت أمّ سلمة صرخة أسمعت من في الدّار، فقالت: يا عائشة أنت بالأمس تشهدين عليه بالكفر وهو اليوم أمير المؤمنين قتل مظلوماً فما تريدين؟ قالت: تخرجين معنا فلعل الله أن يصلح بخروجنا أمر أمّة محمّد صلى الله عليه وآله، قالت: يا عائشة اخرجي وقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله ما سمعنا.

نشدتك بالله يا عائشة الذي يعلم صدقك إن صدقت أتذكرين يوماً كانت نوبتك من رسول الله صلى الله عليه وآله فصنعت حريرة في بيتي فأتيت بها وهو يقول: والله لا تذهب الليالي والأيام حتّى تتنابح كلاب ماء بالعراق يقال له: الحواب امرأة من نسائي في فئة باغية فسقط الإناء من يدي فرفع رأسه إليّ وقال: ما لك يا أمّ سلمة؟ فقلت: يا رسول الله ألا يسقط الإناء من يدي وأنت تقول ما تقول؟ ما يؤمنني أن أكون أناهي؟ فضحكت أنت فالتفت إليك فقال: ممّ تضحكين يا حميراء السّاقين إنّي أحسبك هيه.

ونشدتك بالله يا عائشة أتذكرين ليلة أسرى بنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله من مكان كذا وكذا وهو بيني وبين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يحدّثنا، فأدخلت جملك فحال بينه وبين علي فرفع مقرعة كانت معه فضرب بها وجه جملك وقال: أما والله ما يومه منك بواحد ولا بليته منك بواحدة إنّه لا يبغضه إلاّ منافق كذّاب.

وأنشدك بالله أتذكرين مرض رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قبض فيه فأتاه أبوك يعوده ومعه عمر، وقد كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام يتعاهد ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله ونعله وخفّه ويصلح ما دهى منها، فدخل قبل ذلك فأخذ نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وهي حضرمية وهو يخصفها خلف البيت

---

(١) البحار: ٣٢/٢٨٣ ح ٢٣٢.

فاستأذنا عليه، فأذن لهما فقالا: يا رسول الله كيف أصبحت؟ قال: أحمد الله، قالا: لا بدّ من الموت، قال ﷺ: أجل لا بدّ من الموت: قالا يا رسول الله فهل استخلفت أحداً؟ قال: ما خليفتي فيكم إلاّ خاصف النّعل، فمرّا على عليّ عليه السلام وهو يخصف نعل رسول الله ﷺ كلّ ذلك تعرفيه يا عائشة وتشهدين عليه.

ثمّ قالت أمّ سلمة: يا عائشة أنا أخرج على عليّ عليه السلام بعد الذي سمعته من رسول الله ﷺ فرجعت إلى منزلها وقالت: يا بن الزّبير أبلغهما إنّي لست بخارجة من بعد الذي سمعته من أمّ سلمة، فرجع فبلغهما قال: فما انتصف الليل حتّى سمعنا رغاء إبلها ترتحل فارتحلت معهما[1].

وفيه عن جعفر بن محمّد الصّادق عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليهم السّلام قال: كنت أنا ورسول الله ﷺ في المسجد بعد أن صلى الفجر، ثمّ نهض ونهضت معه وكان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يتجه إليّ أعلمني بذلك، وكان إذا أبطأ في ذلك الموضع صرت إليه لأعرف خبره لأنّه لا يتصابر قلبي على فراغه ساعة واحدة، فقال لي: أنا متّجه إلى بيت عائشة فمضى رسول الله ﷺ ومضيت إلى بيت فاطمة الزّهراء عليها السلام، فلم أزل مع الحسن والحسين فأنا وهي مسروران بهما.

ثمّ إنّي نهضت وصرت إلى باب عائشة فطرقت الباب فقالت لي عائشة: من هذا؟ فقلت لها: أنا عليّ فقالت: إنّ رسول الله ﷺ راقد فانصرفت، ثم قلت: رسول الله راقد وعائشة في الدّار فرجعت وطرقت الباب، فقالت لي عائشة: من هذا؟ فقلت لها: أنا عليّ، فقالت: إنّ النبيّ ﷺ على حاجة فانثيت مستحيياً من دقي الباب ووجدت في صدري ما لا أستطيع عليه صبراً، فرجعت مسرعاً فدققت الباب دقاً عنيفاً، فقالت لي عائشة من هذا؟ فقلت لها: أنا عليّ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول لها: افتحي الباب، ففتحت ودخلت فقال لي: اقعد يا أبا الحسن أحدّثك بما أنا فيه أو تحدثني بإبطائك عني؟ فقلت: يا رسول الله حدثني فإنّ حديثك أحسن.

فقال: يا أبا الحسن كنت في أمر كتمته من ألم الجوع، فلمّا دخلت بيت عائشة وأطلت القعود ليس عندها شيء تأتي به، فمددت يدي وسألت الله القريب المجيب فهبط عليّ حبيبي جبرئيل ومعه هذا الطير ووضع اصبعه على طائر بين يديه فقال: إنّ الله تعالى أوحى إليّ أن آخذ هذا الطير وهو أطيب طعام في الجنّة، فأتيتك به يا محمّد، فحمدت الله عزّ وجلّ كثيراً وعرج جبرئيل فرفعت يدي إلى السّماء فقلت: اللهمّ يسّر عبداً يحبّك ويحبني يأكل معي هذا الطير، فمكثت ملياً فلم أر أحداً يطرق الباب فرفعت يدي إلى السّماء فقلت: اللهمّ يسّر عبداً

---

(١) رسائل المرتضى: ٤/ ٦٧، والاحتجاج: ١/ ٢٤٣.

يحبّك ويحبّني أن يأكل معي هذا الطير، فمكثت ملياً فلم أر أحداً يطرق الباب، فرفعت يدي إلى السماء فقلت: اللهمّ يسّر عبداً يحبك ويحبّني وتحبّه وأحبّه يأكل معي هذا الطير، فسمعت طرقك الباب وارتفاع صوتك فقلت لعائشة: أدخلي علياً، فدخلت.

فلم أزل حامداً لله حتّى بلغت إليّ إذ كنت تحبّ الله وتحبّني ويحبّك الله وأحبّك، فكل يا علي فلما أكلت أنا ورسول الله ﷺ الطائر قال لي: يا عليّ حدثني فقلت: يا رسول الله لم أزل منذ فارقتك أنا وفاطمة والحسن والحسين مسرورين جميعاً، ثمّ نهضت أريدك فجئت فطرقت الباب فقالت لي عائشة: من هذا؟ فقلت: أنا علي، فقالت: إن رسول الله راقد، فانصرفت فلمّا أن صرت إلى بعض الطريق الذي سلكته رجعت فقلت: إن رسول الله راقد وعائشة في الدار لا يكون هذا، فجئت فطرقت الباب فقالت لي: من هذا؟ فقلت لها أنا علي فقالت: إن رسول الله على حاجة فانصرفت متسحيياً، فلمّا انتهيت إلى الموضع الذي رجعت منه أول مرة وجدت في قلبي ما لم أستطع عليه صبراً، فقلت: النبي عليه السلام على حاجة وعائشة في الدار، فرجعت فدققت الباب الدق الذي سمعته يا رسول الله، فسمعتك يا رسول الله وأنت تقول لها: ادخلي علياً.

فقال رسول الله ﷺ: «أبيت إلا أن يكون الأمر هكذا يا حميرا ما حملك على هذا»؟ قالت: يا رسول الله اشتهيت أن يكون أبي يأكل من الطير، فقال لها: ما هو أول ضغن بينك وبين علي عليه السلام وقد وقفت على ما في قلبك إن شاء الله لتقاتلينه.

فقالت: يا رسول الله وتكون النساء يقاتلن الرّجال؟ فقال لها: «يا عائشة إنّك لتقاتلين علياً ويصحبك ويدعوك إلى هذا نفر من أهل بيتي وأصحابي فيحملونك عليه وليكونن في قتالك أمر يتحدث به الأوّلون والآخرون وعلامة ذلك أنك تركبين الشيطان ثمّ تبتلين قبل أن تبلغي إلى الموضع الذي يقصد بك إليه، فتنبح عليك كلاب الحوأب فتسألين الرّجوع فتشهد عندك قسامة أربعين رجلاً ما هي كلاب الحوأب فتصيرين إلى بلد أهله أنصارك، وهو أبعد بلاد على الأرض من السّماء وأقربها إلى الماء، ولترجعين وأنت صاغرة غير بالغة ما تريدين، ويكون هذا الذي يردّك مع من يثق به من أصحابه، وأنّه لك خير منك له ولينذرنك ما يكون الفراق بيني وبينك في الآخرة، وكلّ من فرق عليّ بيني وبينه بعد وفاتي ففراقه جائز».

فقالت يا رسول الله: ليتني متّ قبل أن يكون ما تعدني فقال: هيهات هيهات والذي نفسي بيده ليكونن ما قلت حتّى كأنّي أراه.

ثمّ قال ﷺ لي: قم يا عليّ فقد وجبت صلاة الظهر حتّى أمر بلالاً بالأذان، فأذّن بلال وأقام وصلّى وصلّيت معه ولم نزل في المسجد[1].

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٩٤، والبحار: ٣٠/ ١٨٥.

وفيه عن الباقر عليه السلام أنه قال: لمّا كان يوم الجمل وقد رشق هودج عائشة بالنّبل قال أمير المؤمنين عليه السلام: «والله ما أراني إلاّ مطلقها فأنشد الله رجلاً سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا عليّ أمر نسائي بيدك من بعدي لما قام فشهد قال: فقام ثلاثة عشر رجلاً فيهم بدريّان فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله يقول: يا عليّ أمر نسائي بيدك من بعدي، قال: فبكت عائشة عند ذلك حتّى سمعوا بكائها»[1].

وفي «البحار» من كتاب «الكافية» لإبطال توبة الخاطئة عن الحسن بن حماد عن زياد بن المنذر عن الأصبغ بن نباتة قال: لما عقر الجمل وقف عليّ عليه السلام على عائشة فقال: وما حملك على ما صنعت؟ قالت ذيت وذيت[2]، فقال: «أما والذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة لقد ملأت أذنيك من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يلعن أصحاب الجمل وأصحاب النّهروان، أمّا أحياؤهم فيقتلون في الفتنة، وأمّا أمواتهم ففي النّار على ملة اليهود»[3]، إلى غير ذلك ممّا رواها الأصحاب وتركنا روايتها مخافة الأطناب.

الثالث

قال العلامة الحلي طاب ثراه في كتاب كشف الحقّ ونهج الصّدق: خرجت عائشة إلى قتال أمير المؤمنين صلوات الله عليه ومعلوم أنّها عاصية بذلك.

أما أوّلاً: فلأنّ الله قد نهاها عن الخروج وأمرها بالاستقرار في منزلها فهتكت حجاب الله ورسوله وتبرّجت وسافرت في محفل عظيم وجمّ غفير يزيد على ستّة عشر ألفاً.

وأمّا ثانياً: فلأنّها ليست وليّ الدّم حتّى تطالب به ولا لها حكم الخلافة فبأي وجه خرجت للطلب؟

وأمّا ثالثاً: ـ فلأنّها طلبته من غير من عليه الحقّ لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يحضر قتله ولا أمر به ولا واطأ عليه، وقد ذكر ذلك كثيراً.

وأمّا رابعاً: فلأنّها كانت تحرض على قتل عثمان وتقول: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً فلمّا بلغها قتله فرحت بذلك، فلمّا قام أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة أسندت القتل إليه وطالبته بدمه لبغضها له وعداوتها معه، ثمّ مع ذلك تبعها خلق عظيم وساعدها عليه جماعة كثيرة الوفا مضاعفة، وفاطمة سلام الله عليها لمّا جاءت تطالب بحقّ ارثها الذي جعله الله لها في كتابه

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٤٠، والبحار: ٣٢/ ٢٧٨.

(٢) أي كيت وكيت.

(٣) الكافئة للمفيد: ٣٤، والبحار: ٢٨/ ٣٠.

العزيز وهي محقّة فيه لم يتبعها مخلوق ولم يساعدها بشر، انتهى كلامه[1].

---

(1) وإليك بعض ما يدلّ على ذلك من القرآن الكريم والسنة الشريفة:
* أمّا القرآن الكريم فبقوله تعالى:
(وإذ أسرَّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً فلمّا نبّأت به وأظهره الله عليه
عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبّأها به قالت من أنبأك هذا قال
نبّأني العليم الخبير، إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا
عليه فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) (. التحريم: ٣ ـ ٤).
والمفسّرون على نزولها في حفصة وعائشة:
ففي تفسير ابن عبّاس: «توبا إلى الله يا عائشة ويا حفصة من إيذائكما رسول الله ومعصيتكما له» (. تفسير ابن عبّاس: ٤٧٧ مورد الآية..).
وقال البيضاوي: (إن تتوبا إلى الله) خطاب لحفصة وعائشة على الإلتفات للمبالغة في المعاقبة (. تفسير البيضاوي ٤/ ٢٩٣).
وذكر الطبري وابن كثير والرازي نحو ذلك (. تفسير الطبري: ٢٨/ ١٠٤، وتفسير ابن كثير: ٤/٤٠٩ ـ وتفسير الرازي: ٣٠/ ٤٤ مورد الآية في الجميع، والطبقات الكبرى: ٨/ ١٥١ ذكر ما هجر رسول الله ﷺ نساءه).
وقال الزمخشري: خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما(ـ تفسير الزمخشري: ٤/ ١٢٧ مورد الآية ١٠ من التحريم).
وقال في معرض تفسير قوله تعالى: (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط): وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أول السورة، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه ؛ لما في التمثيل من ذكر الكفر... والتعريض بحفصة أرجح لأنّ امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)(ـ تفسير الزمخشري: ٤/ ١٣١ مورد الآية ١٠ من التحريم).
وقال يحيى بن سلام في الآية: «يحذّر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)حين تظاهرتا عليه» (. فتح القدير: ٥/ ٢٥٥ مورد الآية ١٠ من التحريم).
وقال الشيخ الطبرسي: ثمّ خاطب سبحانه عائشة وحفصة، فقال: (إن تتوبا الى الله) من التعاون على النبيّ ﷺ بالإيذاء والتظاهر عليه (. تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٤٧٤).
ونحوه للقمّي في تفسيره (. تفسير القمّي: ٢/ ٣٧٦).
* وروى الفريقان نزولها في عائشة وحفصة، من ذلك ما رواه البخاري ومسلم والطبري وأبو يعلى الموصلي والطبراني عن عبيد وابن ثور وابن رومان جميعاً عن ابن عبّاس قال: سألت عمر بن الخطّاب عن المتظاهرتين.
فقال: حفصة وعائشة (. صحيح البخاري: ٧/ ٢٨١ ح ٧٣٥ كتاب اللباس باب ما كان النبيّ يتجوّز من اللباس والبسط، وصحيح مسلم: ١٠/ ٣٢٣ ـ ٣٣٠ كتاب الطلاق باب في ايلاء واعتزال النساء ح ٣٦٧٥ ـ ٣٦٧٩، المعجم الأوسط: ٩/ ٣٤٩ ح ٨٧٥٩، ومسند أبي يعلى: ١/ ١٦٢ ح ١٧٨ وبالهامش: إسناده صحيح، وأحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٥١٩).
وأخرجه الموفّق بن أحمد بسنده عن أمير المؤمنين وعن ابن عبّاس وعن مجاهد، وأبي صالح والضحّاك عن ابن عبّاس (. ينابيع المودّة: ١/ ٩٣ ط. اسلامبول ١٣٠١ هـ و١٠٧ ط. النجف باب ٢٢، وكنز العمّال: ٢/ ٥٢٥ ح ٤٦٦٣ و ٤٦٦٥ و ٤٦٦٤ و ٤٦٦٦ كتاب التفسير ـ سورة التحريم).
ورواه البخاري عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة (. صحيح البخاري: ٧/ ٨٩ كتاب الطلاق باب

١٣٣ ح ١٩٣).
ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري (. صحيح الترمذي: ٥/ ٤٢٠ ح ٣٣١٨ كتاب التفسير عن ابن أبي ثور وابن عبّاس).
والطبري عن عليّ بن الحسين عليه السلام وعبيد بن حنين معاً عن ابن عبّاس (. تفسير الطبري: ٢٨/ ١٠٤ مورد الآية).
وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس (. راجع تفسير ابن كثير: ٤/ ٤١١).
ورواه أحمد في المسند والترمذي وابن سعد والطبري عن ابن أبي ثور عن ابن عبّاس (. الطبقات الكبرى: ٨/ ٨٥ ترجمة زينب بنت جحش ـ ٤١٣٢ .، و ١٥١ و ١٤٧، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٤١٠، ومسند أحمد: ١/ ٣٣ و ٤٨ ط.الميمنة و١/ ٧٨ ـ ٥٥ ط. ب ح ٢٢٢).
والبلاذري عن محمّد بن جبير بن مطعم (. أنساب الأشراف: ١/ ٤٢٤ ح ٨٨٧ أزواج الرسول وولده).
والأخبار كثيرة بهذا المضمون (. راجع تفسير الزمخشري: ٤/ ١٢٧ مورد آية التحريم، وتفسير الدرّ المنثور: ٦/ ٢٣٩ مورد الآية، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ٣٦٧، وشواهد التنزيل: ٢/ ٣٥١ ح ٩٩٥).

وأمّا السنّة:
ففي المجمع: عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله جالساً مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها:
«هل لكِ ان أجعل بيني وبينك رجلا؟»
قالت: نعم.
فأرسل إلى عمر، فلمّا دخل عليها قال لها: «تكلّمي».
فقالت: يا رسول الله تكلّم ولا تقل إلاّ حقّاً.
فرفع عمر يده فوجأ وجهها، ثمّ رفع يده فوجأ يدها] وجهها [.
فقال له النبيّ (صلى الله عليه وسلم): كفّ.
فقال عمر: يا عدوّة الله، النبيّ لا يقول إلاّ حقّاً؟؟ (تفسير الميزان: ١٦/ ٣١٥، وأهل البيت لتوفيق أبو علم: ٢٦ الباب الأول).
* وزاد الواحدي: والذي بعثه بالحقّ نبيّاً لولا مجلسه ما رفعت يدي حتّى تموتي.
فقام النبيّ (صلى الله عليه وسلم) فصعد إلى غرفته فمكث فيها شهراً لا يقرب شيئاً من نسائه يتغدّى ويتعشّى فيها فأنزل الله هذه الآيات (يا نساء النبيّ) (. أهل البيت لتوفيق أبو علم: ٢٦ الباب الأول).
* ومن العجيب ! فقد رويت هذه الحادثة عن عائشة أيضاً ودخول أبي بكر عليها بدل عمر، ولعلّها صدرت منهما معاً فهما المتظاهرتان !! (. إحياء العلوم للغزالي: ٢/ ٤٣ كتاب آداب النكاح ـ الباب الثالث في آداب المعاشرة، وفي هامشه: أخرجه الطبراني في الأوسط والخطيب في التاريخ من حديث عائشة، وذكره في نهج الحق: ٣٧٠، والطرائف: ١/ ٢٩٢ عنه).
ـ قال ابن الجوزي: عن عائشة أنها قالت: كان بيني وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم)كلامٌ فقال: «مَنْ ترضين أن يكون بيني وبينك؟ أترضين أبا عبيدة بن الجراح؟».
قلت: لا، ذاك رجل لن يقضي لك عليّ.
قال: «أترضين بعمر؟».

....

....

قلت: لا، إنّي أفرق من عمر.
قال: «فالشيطان يفرقه ! أترضين بأبي بكر؟».
قلت: نعم، فبعث إليه فجاء.
فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إقضِ بيني وبين هذه».
قال: أنا يا رسول الله !؟!
قال: «نعم».
فتكلّم رسول الله (صلى الله عليه وسلم).
فقلت: اقصد يا رسول الله.
قالت: فرفع أبو بكر يده فلطم وجهي لطمة بَدر منها أنفي ومنخراي دماً.
وقال: لا أباً لك ! فمن يقصد إذا لم يقصد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (. الوفا بأحوال المصطفى: ٦٧٤ ح ١٣٢٣ أبواب نكاحه ـ الباب التاسع).
وأخرجه الطبراني في الأوسط مختصراً (. المعجم الأوسط: ٥/ ٤٥٥ ح ٤٨٧٦ من اسمه عباد).
وكذا المتّقي الهندي (. كنز العمّال: ١٣/٦٩٦ ح ٣٧٧٨٢ كتاب الفضائل).
ـ وخرّجه البلاذري عن سعيد بن المسيّب بلفظ قال: قال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) لأبي بكر: «ألاّ تعذّيني على عائشة؟»
فرفع أبو بكر يده فضرب صدرها ضربة شديدة.
فجعل يقول: «غفر الله لك أبا بكر إنّا لم نرد هذا كلّه» (. أنساب الأشراف: ١/ ٤١٧ ح ٨٧٧ أزواج الرسول وولده).
ـ وأخرجه عبد الرزّاق في المصنّف بلفظ يقرب منه (. المصنّف: ١١/ ٤٣١ ح ٢٠٩٢٣ باب أزواج النبيّ).
ـ وأخرج عبد الرزاق والغزالي عنها أنها قالت مقولة شنيعة بعد كيدها(ـ لما أخرجه ابن حجر العسقلاني حيث أدرج الحديث تحت عنوان «كيد النساء» ثمّ أدرجه تحت عنوان «الرفق بالحيوان» والخيار لك عزيزي القارىء !!.): أنت الذي تزعم أنك نبي الله] إنّك لتقول إنّك لنبيّ [؟!.
فقام إليها أبو بكر فضرب خدّها !! (. إحياء علوم الدين: ٢/ ٤٣ كتاب آداب النكاح ـ الباب الثالث، والمصنّف لعبد الرزّاق: ١١/ ٤٣١ ح ٢٠٩٢٤ باب أزواج النبيّ ـ وما بين المعقودين منه).
وأخرجه أبو يعلى بلفظ: قالت: فقلت: ألست تزعم أنّك رسول الله ؟!
قالت: فتبسّم، قال: «أوفي شكّ أنت يا أمّ عبد الله؟».
قالت: قلت: ألست تزعم أنّك رسول الله ! أفهلاّ عدلت؟؟
وسمعني أبو بكر وكان فيه غَرْبٌ ـ أي حدّة ـ فأقبل عليّ فلطم وجهي.
فقال رسول الله: «مهلاً يا أبا بكر».
فقال: يا رسول الله أما سمعت ما قالت؟ (. مسند أبي يعلى: ٨/ ١٣٠ ح ٤٨٧٠ مسند عائشة، ومجمع الزوائد: ٤/ ٣٢٢ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٤/٥٩٠ ـ ٥٩١ ح ٧٦٩٤ كتاب النكاح ـ باب غيرة النساء، وقال الهيثمي بعد الحديث: رواه أبو يعلى وفيه محمّد ابن إسحاق وهو مدلّس وسلمة بن الفضل وقد وثّقه جماعة: ابن معين وابن حبّان وأبو حاتم، وضعّفه جماعة وبقيّة رجاله رجال الصحيح ـ وقد رواه أبو الشيخ بن حبّان في كتاب (الأمثال) وليس فيه غير اسامة بن زيد الليثي وهو من رجال الصحيح وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات، والمطالب العالية: ٢/ ١٩ ح ١٥٤٠ باب كيد النساء و١٥٧ ـ ١٥٨ باب الرفق بالدواب، ورسائل الجاحظ: ٢/ ٣٥٥ ح ٨٠٠ كتاب النكاح).

....

ـ وكانت كثيراً ما ترفع صوتها على رسول الله ﷺ، فيلطم أبو بكر على صدرها (. خصائص النسائي: ٢٨ ط. مصر ١٣٤٨، ومسند أحمد ٤/ ٢٧٥ ط. الميمنة و ٥/ ٣٤٥ ط. بيروت ح ١٧٩٥٣، والطبقات الكبرى: ٨/ ٦٤ ط بيروت و٨ ٥٦ ط. مصر ـ ذيل ترجمة عائشة، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ١٠٩ فصل في معجزات أقواله، وصحيح أبي داود باب ما جاء في المزاح، والمطالب العالية: ٢/ ١٩ ح ١٥٤٠).
ـ وعن ابن عمر قال: قام النبيّ ﷺ خطيباً فأشار إلى مسكن عائشة وقال: «الفتنة ههنا، حيث يطلع قرن الشيطان [وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض]» (ـ المسند: ٢/ ٨٩ و ١٠٥ ط. بيروت و ٢/ ١٨ و ٢٧ ط. الميمنة، وصحيح البخاري كتاب الخمس باب ما جاء في بيوت أزواج النبيّ، ومسند أبي يعلى: ٩/ ٣٨٣ ح ٥٥١١ مسند ابن عمر ـ وما بين المعقودين منه ـ وبهامشه: إسناده صحيح)».
ـ وفي رواية اخرى: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال: «رأس الكفر من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان» (. المسند: ٢/ ٩٨ و ١٠٥ ط. ب، و٢/ ٢٣ و ٢٧ ط. م).
وكان ﷺ يقول لها: «قد جاءكِ شيطانك» (. سنن النسائي: ٧/ ٧٢).
ـ وهي التي أغضبت النبيّ ﷺ وكذّبت عليه، وأهانت خديجة (عليها السلام) إهانات صريحة (. أنساب الأشراف: ١/ ٤٦١ ح ٩٣٣ أزواج الرسول ـ متفرّقات، ومقتل الحسين للخوارزمي: ١/ ٢٦ ـ ٢٨ الفصل الثاني، وكفاية الطالب: ٣٥٩ باب ٩٩، وصفة الصفوة: ٢/ ٣، وتاريخ الإسلام: ١/ ٢٣٨ وفاة أبو طالب وخديجة، والمعجم الكبير: ٢٣/ ١١ ـ ١٣ مناقب خديجة، وكنز العمّال: ٢/ ٥٢٨ ح ٤٦٦٤ كتاب التفسير، وتذكرة الخواص: ٢٧٣ الباب ١١ ـ ذكر فضائل خديجة، وكتاب الأربعين في مناقب أُمّهات المؤمنين: ٥٧ ح ٧ مناقب خديجة).
حتّى قالت للنبيّ يوماً: هل كانت إلاّ عجوزاً حمراء الشدقين؟ فقد أبدلك الله خيراً منها.
فغضب حتّى اهتزّ مقدم شعره من الغضب [وفي رواية عنها: غضب غضباً أسقطت في جلدي].
ثمّ قال: «ما أبدلني الله خيراً منها» (. التبيين في أنساب القرشيين: ٥٢ ـ أزواج النبيّ ـ خديجة، وكتاب الأربعين في مناقب أُمّهات المؤمنين: ٥٦ ح ٦ مناقب خديجة، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان: ٩/ ٧٣ ح ٦٩٦٩ كتاب المناقب ـ ذكر إكثاره ذكر خديجة بتفاوت، ومشارق الأنوار للحمزاوي: ٩٨ الفصل الخامس من الباب الثالث ـ أزواجه).
ـ وهما اللتان غرّرتا ببنت النعمان، وكذبتا في دعواهما أنّ النبيّ يحب من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول له: أعوذ بالله منك، فطلّقها الرسول ﷺ من أجل ذلك (. الطبقات الكبرى: ٨/ ١١٥ ط. بيروت، ذكر من تزوج الرسول من النساء فلم يجمعهن ومن فارق منهن، و٨/ ١٠٤ ط. مصر ـ السعادة ١٣٤٩، وأنساب الأشراف: ١/ ٤٥٧ ح ٩٢٥ أزواج الرسول ـ أسماء، والمستدرك: ٤/ ٣٧ ذكر أزواج النبيّ).
وهي التي قالت لمليكة: أما تستحين أن تنكحي قاتل أبيك؟ استعيذي بالله منه.
فاستعاذت، فطلّقها (صلى الله عليه وسلم) (. أنساب الأشراف: ١/ ٤٥٨ ح ٩٢٦ أزواج الرسول ـ مليكة الكنانية، و٢/ ٩٧ أزواجه ط. بيروت، وتاريخ دمشق: ٣/ ٢٣١ ترجمتها).
وهي التي كانت تتجسس على النبيّ ﷺ (. سنن النسائي: ٧/ ٧٢).
* انظر إلى الفتن التي كانت تحيكها مع حفصة في بيت الطهر والطهارة!
ولعلّ عثمان ـ عندما تشاجر مع حفصة وعائشة ـ أشار إلى ذلك بقوله الذي أخرجه عبد الرزاق في المصنف: «إنّ هاتان الفتّانتان، إلاّ تنتهيان أو لأسبّنكما ما حلّ لي السباب، وإني لأصلكما لعالم»(ـ المصنّف لعبد الرزاق: ١١/ ٣٥٦ ح ٢٠٧٣٢ باب الفتن).
ـ وعائشة التي أنشدت الشعر فرحةً عند موت أمير المؤمنين عليّ ﷺ (. تذكرة الخواص: ١٦٥ الباب السابع

ـ في وفاته عن الطبري وابن سعد، وأنساب الأشراف: ٢/ ٥٠٥ أمر ابن ملجم ومقتل عليّ، ومقاتل الطالبيين: ٥٥، والأخبار الموفقيات للزبير بن بكار: ١٣١ ح ٥٩)، بل وسجدت شكراً لذلك !! (مقاتل الطالبيين: ٥٥ ترجمة عليّ بن أبي طالب ـ ذكر خبر مقتله والسبب فيه).
ـ وقالت لأبي هريرة يوماً: إنّك تحدّث عن رسول الله بأشياء ما سمعتها منه.
فقال لها: «إنّه كان يشغلكِ عن تلك الأحاديث المرآة والمكحلة !!» (المعرفة والتاريخ للفسوي: ١/ ٤٨٦ ذكر أبي هريرة).
ـ ومن مفارقاتها العجيبة: أنها كانت تلعن عثمان وتأمر بقتله لكفره، ثمّ تخرج مطالبة بدمه ! (راجع إضافة إلى ما تقدّم، تذكرة الخواص: ٦٦ ـ ٧١ الباب الرابع).
وكذلك مع معاوية، فكانت راضيةً عليه عندما كان يسخي عليها في العطاء ؛ ثمّ أخذت بعدها بلعنه ! (المسند: ٤/ ٩٢ ط. م، و٥/ ٥٤ ح ١٦٣٨٩٠ ط. ب، وتذكرة الخواص: ١٠١ الباب الرابع ـ تمام حديث الخوارج).
ـ وكتب أمير المؤمنين ﷺ إليها: أمّا بعد فإنّك قد خرجت من بيتك عاصية لله تعالى ولرسوله محمّد (صلى الله عليه وسلم) (تذكرة الخواص: ٧١ الباب الرابع مسير عليّ إلى البصرة، ومناقب الخوارزمي: ١٨٤ ح ٢٢٣ فصل ١٦ حرب الجمل، والفتوح: ١/ ١٠٩ كتاب عليّ إلى عائشة).
ـ وقال لها ابن عبّاس: فخرجت منه عاصيةً لله تعالى ولرسوله محمّد (صلى الله عليه وسلم) (ـ الفتوح: ١/ ١٣ كلام ابن عبّاس لعائشة).
ـ وقال لها أخوها محمّد: فعلت بنفسك ما فعلت، وعصيت ربّك وهتكت سترك، وأبحتِ حرمتك وتعرّضت للقتل (مناقب الخوارزمي: ١٨٩ ح ٢٢٣، والفتوح لابن الأعثم: ١/ ١٢٨ ذكر عقر الجمل).
ـ ويكفي أنّها قاتلت إمام زمانها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ في حرب الجمل، بعد إجماع الأمّة على إمامته، وبعد سماعها من النبيّ الأعظم ﷺ:
«إنّ الحقّ مع عليّ وعليّ مع الحقّ» (تاريخ دمشق: ٢٠/ ٣٦٠، وتاريخ بغداد: ١١/ ٣٢٢، وأمالي الشجري: ١/ ١٥٣، وتذكرة الخواص: ٣٩، ومناقب الخوارزمي: ١٠٤، والفضائل الخمسة: ٢/ ١٢٢، وترجمة الأمير لابن عساكر: ٣/ ١٥١).
تلك الحرب التي قضى بسببها نحو ستّة عشر ألفاً وسبعمائة وتسعون رجلا من المسلمين (ـ الفصول المهمة: ٨٢ الفصل الأول ذيل حرب الجمل، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٨٣ خلافة أمير المؤمنين، ونهج الحق: ٣٧٠).
تلك الحادثة التي حذّرها منها رسول الله ﷺ ومن فعلها فيها وأوصى أمير المؤمنين بالرفق بها (كتاب الأربعين في مناقب أُمّهات المؤمنين: ٧١ ح ١١ مناقب عائشة، ومناقب الخوارزمي: ١٧٦ ح ٢١٣ فصل ١٦، وتاريخ الإسلام: ٣/ ٤٩٠ حرب الجمل، والفتوح: ١/ ٩٩، والمستدرك: ٣/ ١١٩ مناقبه من كتاب المعرفة، ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٤ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٧/ ٤٧٤ ح ١٢٠٢٦ وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، والمواهب اللدنية: ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠).
كما أخبر صلوات المصلين عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، المسلمين متعجّباً أنّها تقاتلهم! (ـ مستدرك الصحيحين: ٤/ ٤٧١ كتاب الفتن والملاحم، والمعجم الأوسط: ٢/ ٩١ ح ١١٧٦ عن حذيفة، ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٤ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٧/ ٤٧٤ ح ١٢٠٢٦).
حتّى قال يوماً: «تكون بعدي فتنة قائدتهم امرأة لا يفلحون» (تلخيص المتشابه في الرسم للخطيب: ١/ ٤٨٧ رقم ٨١٤ عن أبي بكرة ـ الفصل الثاني).

فكانت قصة كلاب الحوأب ونبحها إيّاها، وقول النبيّ ﷺ بنجاتها بعد ما كادت؟!(ـ المصنّف لعبد الرزاق: ١١/ ٣٦٥ ح ٢٠٧٥٣ باب الفتن، والمصنّف لابن أبي شيبة: ٧/ ٥٣٦ ـ ٥٣٨ ح ٣٧٧٦٠ ـ ٣٧٧٧٤ كتاب الجمل، ومسند أبي يعلى: ٨/ ٢٨٢ ح ٤٨٦٨ مسند عائشة ـ وبالهامش: إسناده صحيح، والعقد الفريد: ٤/ ٣٠٩ كتاب الخلفاء ـ خلافة عليّ ـ قولهم في أصحاب الجمل، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان: ٨/ ٢٥٨ ح ٦٦٩٧ باب إخباره عمّا يكون في أمته من الفتن، والمحاسن والمساوىء: ٤٩ مساوىء تلك الحروب، والمستدرك: ٣/ ١٢٠ مناقب الأمير، والإمامة والسياسة: ١/ ٦٠ ط. مصر ١٣٧٨ هـ تحقيق طه الزيني و٨٢ ط. بيروت تحقيق عليّ شيري ـ توجّه عائشة إلى البصرة، ومسند إسحاق بن راهويه: ٣/ ٨٩١ ح ١٥٦٩ مسند عائشة وبالهامش: (صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين)، ونور الأبصار: ١٠٠ ط. الهند و١٨٤ ط. قم ـ واقعة الجمل، ومناقب الخوارزمي: ١٨١ ح ٢١٧ فصل ١٦، وإرشاد القلوب: ٢/ ٣٣٧، وكفاية الطالب: ١٧١ باب ٣٧، وتطهير الجنان واللسان لابن حجر: ٦٦ و ٦٧، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٨١ خلافة عليّ، ومروج الذهب: ٢/ ٦ ط. مصر ١٣٤٦ و٢/ ٣٥٧ ط. دار الاندلس بيروت ـ ذكر يوم الجمل، والإيضاح: ٣٥ ذكر عائشة، والمسند: ٦/ ٩٧ ط. م و٧/ ١٤٠ ط. ب، ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٤ و٨/ ٢٨٩ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٧/ ٤٧٤ ح ١٢٠٢٤ وما بعده، وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٥ ط. مصر ١٣٥٧، وكنز العمّال: ٦/ ٨٣ ـ ٨٤ ط. دكن ١٣١٢ و ١١/ ١٩٧ ح ٣١٢٠٨ و٣٣٤ ح ٣١٦٦٨، ومناقب الكوفي: ٢/ ٣٤٨ ح ٨٢٦، وتاريخ الإسلام: ١/ ٣٨٩ ـ السيرة ـ باب اخباره بالكوائن بعده، والكامل في التاريخ: ٢/ ٣١٥ حوادث سنة ٣٦، والفتوح: ١/ ٩٧ ـ ٩٩ كتاب أمّ سلمة لعليّ في أمر عائشة، وتذكرة الخواص: ٦٨ الباب الرابع، وأنساب الأشراف: ٢/ ٢٢٤ حرب الجمل، وأعلام النبوة للماوردي: ١٠٧ باب ١٢، والمعجم الكبير للطبراني: ٧/ ١٥١ ح ٦٢٧٢).

ـ حتّى ندمت عن مسيرها ذلك (. مروج الذهب: ٢/ ١٤ ط. مصر ١٣٤٦ و٢/ ٣٧٠ ط. دار الاندلس بيروت ـ واقعة الجمل، والأخبار الطوال للدينوري: ١٤٧ واقعة الجمل، وتطهير الجنان: ٦٩، والطبقات الكبرى: ٨/ ٥٩ ترجمة عائشة، وربيع الأبرار: ٣/ ١١٩ مناقب الأمير، والمحاسن والمساوىء للبيهقي: ٢٩٨ محاسن الندامة، وتذكرة الخواص: ٨٠ ـ ١٠٠ الباب الرابع، وأنساب الأشراف: ٢/ ٢٤٩ ـ ٢٦٦ مقتل ابن طلحة من حرب الجمل ـ مقتل ابن الزبير، ومناقب الخوارزمي: ١٨٢ ح ٢١٨ و ٢١٩ فصل ١٦، ومائة منقبة: ١٢٠ المنقبة ٧٠، وشواهد التنزيل: ٢/ ٣٨، وتفسير نور الثقلين: ٤/ ٢٧٦، ومجمع الزوائد: ٩/ ١١٢ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ١٤٤ ح ١٤٦٦١ كتاب المناقب، والمستدرك: ٣/ ١١٩ مناقب عليّ، وبلاغات النساء: ٢٠، والمسند: ١/ ٤٥٥ ـ ٤٧٥ ط. ب و٢٧٦ ـ ٣٤٩ ط. م، والكامل في التاريخ: ٢/ ٣٥٤، ومناقب الكوفي: ٢/ ٣٤٧، والفتوح: ١/ ١٣٤ ذكر انصراف عائشة من البصرة إلى المدينة، وترجمة عليّ من تاريخ دمشق: ٣/ ١٨ ح ١٠٣٧)، وقالت آخر حياتها حين لا ينفع الندم:

«إنّي قد أحدثت بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فادفنوني مع أزواج النبيّ (صلى الله عليه وسلم)» (. الطبقات الكبرى: ٨/ ٥٩ ترجمة عائشة، والمصنّف لابن أبي شيبة: ٧/ ٥٣٦ ح ٣٧٧٦١ كتاب الجمل، والعقد الفريد: ٤/ ٣٠٨ كتاب الخلفاء ـ خلافة عليّ ـ قولهم في أصحاب الجمل، ومستدرك الصحيحين: ٤/ ٦ ذكر أزواج النبيّ، والمعارف لابن قتيبة: ٨٠ بلفظ: مع أخواتي، ومناقب الكوفي: ٢/ ٣٤٨ ح ٨٣٥).

«لئن أكون قررت كما قررن صواحباتي أحبّ إليّ من أن يكون لي من رسول الله مثل عبد الله بن الزبير» (. تلخيص المتشابه في الرسم للخطيب: ١/ ٥٦٢ رقم ٩٤٤ الفصل الثاني، والمعارف لابن قتيبة: ١٦٠ ذكر

....

الحرث بن هشام ـ بتفاوت كبير: لئن أكون قعدت في منزلي عن مسيري إلى البصرة أحبّ... عشرة أولاد مثل عبد الرحمن»).

ـ وأخرج أبو يعلى وابن طيفور وغيرهما قولها: «إنّ يوم الجمل معترض في حلقي، ليتني متّ قبله، أو كنت نسياً منسيّاً» (بلاغات النساء: ٢٠ كلام عائشة، ومسند أبي يعلى: ٥/ ٥٧ ح ٢٦٤٨ مسند ابن عبّاس وبالهامش: إسناده صحيح ـ مع تفاوت، والطبقات الكبرى من عدّة طرق: ٨/ ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ترجمة عائشة، ومناقب الخوارزمي: ١٨٢ ح ٢٢٠ فصل ١٦ حرب الجمل، وتاريخ بغداد: ٩/ ١٨٥ ط. مصر ١٣٦٠، والمسند: ١/ ٤٥٥ ط. ب و١/ ٢٧٦ ط. م، وصفة الصفوة: ٢/ ١٩، والمعجم الكبير: ١٠/ ٣٢١ ترجمة ابن عبّاس ما روى عنه ذكوان ح ١٠٧٨٣، وتذكرة الخواص: ٨٠ الباب الرابع، وأنساب الأشراف: ٢/ ٢٦٥ مقتل الزبير، وربيع الأبرار: ٣/ ٣٤٥ باب الغزو والقتل والشهادة، ومستدرك الصحيحين: ٤/ ٩ ذكر أزواج النبيّ، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان: ٩/ ١٢٠ ح ٧٠٦٤ كتاب المناقب).

ـ قال هشام بن محمّد: «فكانت عائشة تبكي بعد يوم الجمل وتقول: يا ليتني كنت نسياً منسيّاً، أي الحيضة الملقاة» (تذكرة الخواص: ٨٠ الباب الرابع ذيل حرب الجمل، وربيع الأبرار: ١/ ٨٢١).

وأخرج ابن أبي شيبة بسنده قولها: «وددت أنّي كنت غصناً رطباً ولم أسِر مسيري هذا» (ـ المصنَّف لابن أبي شيبة: ٧/ ٥٤٣ ح ٣٧٨٠٧ كتاب الجمل).

ـ وأخرج ابن سعد: «ياليتني لم أخلق، يا ليتني كنت شجرة، ياليتني كنت مدرة» (ـ الطبقات الكبرى: ٨/ ٥٩ ترجمة عائشة).

* وبعد ذلك نستطيع أن ندرك سبب تمنّي رسول الله صلى الله عليه وآله موت عائشة ودفنها في حياته (ـ مع نهيه صلى الله عليه وآله عن تمنّي الموت راجع مسند أبي يعلى: ٧/ ٦ ـ ٧ ح ٣٨٩١.)، كما يروي لنا ذلك ابن سعد والإمام أحمد: قالت عائشة:

وا رأساه.

فقال صلى الله عليه وآله: «وددتُ انّ ذلك يكون وانا حيّ فأُصلي عليكِ وأدفنك».

فقلت غَيْرَى: «أوكأنك تبرّ ذلك، لكأنّي أراك في ذلك اليوم معرساً ببعض نساءك !!» (ـ الطبقات الكبرى: ٢/ ١٥٨ ذكر أول ما بدأ برسول الله وجعه الذي توفّي فيه، والمسند: ٦/ ١٤٤ ط. م و: ٧/ ٢٠٧ ح ٢٤٥٨٩ ط. ب، وجامع الأصول: ٤/ ١٠٨ ـ ١٠٧، وأنساب الأشراف: ٢/ ٢١٥، والسنن الكبرى: ٣/ ٣٧٨ ـ ٣٩٦).

وفي لفظ: «لأظنّك تحبّ موتي، ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك» (كتاب الأربعين في مناقب أمّهات المؤمنين: ٧٩ ح ١٩ مناقب عائشة).

وأخرجه الطبراني وابن حبّان وأبو يعلى وابن الجوزي بتفاوت يسير (المعجم الأوسط: ٥/ ٢٨٥ ح ٤٥٦٤، والوفا بأحوال المصطفى: ٧٨٤ ح ١٤٤١ أبواب مرضه ووفاته ـ الباب الرابع، ومسند أبي يعلى: ٨/ ٥٦ ح ٤٥٧٩ مسند عائشة، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان: ٨/ ١٩٧ ح ٦٥٥٢ باب مرض النبيّ).

وندرك أيضاً معرفة حفصة لحقيقة أمر عائشة في آخر حياة النبيّ بقولها لها: «ما رأيت منكِ خيراً قطّ أبداً» ! (مسند إسحاق بن راهويه: ٢/ ١١٠ ح ٥٨٠ مسند عائشة وبالهامش: (صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين)، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان: ٨/ ٢٠٣ ح ٦٥٦٧ باب مرض النبيّ).

الترجمة

از جمله كلام فصاحت نظام آن امام عالی مقام است كه در مذمت بصره و اهل آن فرموده:

بودید شما لشگر زن كه عایشه است و تابعان بهیمه كه جمل او بود آواز كرد آن جمل، پس جواب دادید آن را و پی كرده شد، پس گریختید. خلق های شما رذیل و حقیر است و عهد شما مخالفت است و شقاق و دین شما دورویی است و نفاق و آب شما بی مزه است و شور. اقامت كننده در میان شما رهین است به گناه خویش و رحلت نماینده از شما دریافته شده است به رحمت پروردگار خود. گویا من نظر می كنم به مسجد شما كه فراگرفته است آن را آب به مرتبه ای كه دیده نمی شود مگر كنگره های آن مسجد مانند سینه كشتی در دریا. به تحقیق كه فروفرستاده خداوند سبحانه بر بصره كه شهر شما است عذاب را از بالای آن و غرق كرده شده كسی كه در میان آن شهر بوده. و در روایت دیگر وارد شده كه فرمود: قسم به ذات خداوند هرآینه غرق كرده شود این شهر شما تا این كه گویا من نظر می كنم به سوی مسجد آن شهر همچو سینه كشتی بر روی دریا یا شترمرغ سینه خوابیده در دریا. و در روایت دیگر آمده كه "همچو سینه مرغ در میان دریا".

ومن كلام له عليه السلام في مثل ذلك
وهو الرابع عشر من المختار
في باب الخطب الجاري مجراها

«أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْماءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّماءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وأُكْلَةٌ لآكِلٍ، وفَرِيسَةٌ لِصائِلٍ»[1].

اللغة

(سفه) سفهاً من باب تعب وسفه بالضمّ سفاهة فهو سفيه والسّفه النّقص في العقل وأصله الخفّة، وسفه الحقّ جهله قال سبحانه:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قال الطبرسي صاحب **«التفسير»**: أي جهل قدره و (الحلم) العقل والجمع حلوم وأحلام و **(الغرض)** ما ينصب ليرمي بالسّهام و **(النّابل)** ذو النّبل و **(الأكلة)** بضمّ الهمزة اسم للمأكول و **(فريسة)** الأسد ما يفرسه و **(صول)** البعير والأسد ككرم صالة واثب النّاس أو صار يقتل النّاس ويعد وعليهم فهو صائل وصؤل.

الإعراب

العطف في قوله عليه السلام: **(وسفهت حلومكم)** للتّفسير والتوكيد إن كان المراد بالسّفه المعنى الأوّل، وإلاّ فللتأسيس **(والفاء)** في قوله: فأنتم، فصيحة وهو ظاهر.

المعنى

قد عرفت في شرح الخطبة السّابقة أن قوله عليه السلام **(أرضكم قريبة من الماء بعيدة من السّماء)** ممّا حكاه عليه السلام عن النّبي والمراد بقرب أرضهم من الماء إمّا كون موضع البصرة منخفضاً قريباً من البحر كما يشاهد من دخول الماء حدائقهم ومزارعهم كلّ يوم مرّة أو مرّتين، أو كونها قريبة من الغرق بالماء فيكون قوله عليه السلام: من الماء، من قبيل الحذف والإيصال، وأمّا بعد أرضهم من السماء فأمّا من حيث انخفاضها عن غيرها من الأرض، أو من حيث بعدها عن دائرة المعدّل.

قال الشّارح المعتزلي: إنّ أرباب علم الهيئة وأهل صناعة التنجيم يذكرون إنّ أبعد

(١) البحار: ٤٦/٣٢.

موضع في الأرض من السّماء الإبلة، وذلك موافق لقوله عليه السلام ومعنى البعد عن السّماء ههنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدّل النّهار، والبقاع والبلاد تختلف في ذلك، وقد دلت الأرصاد والآلات النّجوميّة على أنّ أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدّل النّهار هو الإبلة، والإبلة هي قصبة البصرة، انتهى[١].

وفيه أنّ كونها أبعد بلاد العرب من المعدّل مسلم، وأما كونها أبعد موضع منه في المعمورة ممنوع قطعاً وفاسد حسّاً إلاّ أن يكون مراده به ما ذكرناه، ويكون التّسامح في العبارة، هذا.

ويحتمل أن يكون المراد ببعدها من السّماء البعد من سماء الرّحمة والاستعداد لنزول العذاب وقوله: **(خفّت عقولكم وسفهت حلومكم)** وصف لهم بقلة العقل والسّفاهة الموجبة لانحطاط الرتّبة والدّرجة في العقائد الدّينيّة والعبادات البدنيّة وإشارة إلى قلة استعدادهم لدرك وجوه المصالح الواقعيّة كما يشهد به متابعتهم للمرأة وإجابتهم للبهيمة، وتنبيه على جهالتهم وعدم تفكّرهم في عواقب الأمور وغفلتهم عن إصلاح أحوالهم وعلى تسرّعهم إلى ما لا ينبغي، ولأجل ذلك حسن التّفريع بقوله: **(فأنتم غرض لنابل)** أي هدف لمن يريد أذاكم **(وأكلة لآكل)** أي: عرضة لأن يطمع في أموالكم ويأكلها من يريد أكلها و **(فريسة لصائل)** أي: في معرض أن يفترسكم من يريد قتلكم وهلاككم، وهذا كله من لوازم خفّة العقل والسّفاهة وقلة الفهم والغباوة.

الترجمة

از جمله كلام آن امام انام است در مثل همين مقام:

زمين شما نزديك است به آب و دور است از آسمان، خفيف است عقل هاى شما و سفيه است حلم هاى شما، پس شما بهواسطه نقصان عقل و قلّت تدبير نشانه ايد از براى هر تيرانداززنده و طعمه ايد از براى هر خورنده و شكاريد از براى هر حمله كننده و هجوم آورنده؛ والله أعلم بالصّواب.

(١) شرح النهج: ١/ ٢٦٨.

ومن كلام له ﷺ فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان وهو الخامس عشر من المختار في باب الخطب الجاري مجراها

«وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّساءُ، ومُلِكَ بِهِ الإِماءُ، لَرَدَدْتُهُ فَإِنَّ في الْعَدْلِ سِعَةً، ومَنْ ضاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فالْجَورُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ».

اللغة

(القطائع) اسم لما لا ينقل من المال كالأراضي والحصون ويقابله الصّفايا وهو إسم للمنقول، وفي **«شرح المعتزلي»** القطائع ما يقطعه الإمام لبعض الرّعية من أرض بيت المال ذات الخراج، ويسقط عنه خراجه ويجعل عليه ضريبة يسيرة عوضاً عن الخراج.

الإعراب

إسناد تزوّج وملك إلى النّساء والإماء مع خلوهما من علامة التأنيث على حدّ قوله تعالى: وقال نسوة.

المعنى

اعلم أنّ هذا الكلام مع الخطبة الآتية من فصول خطبة خطب ﷺ بها بعد قتل عثمان، وقد رويت بزيادة ونقصان ونحن نوردها بتمامها في **«شرح الخطبة»** الآتية ونقول: هنا مضافاً إلى ما سيأتي أنّه قد رواه الشّارح المعتزلي عن الكلبي مرفوعاً إلى أبي صالح عن ابن عباس (رض) قال: إنّ عليّاً ﷺ خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة فقال: ألا إنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان، وكلّ مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإنّ الحقّ القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوّج به النّساء وفرق في البلدان لرددته إلى حاله فإنّ في العدل سعة ومن ضاق عنه العدل فالجور عنه أضيق[١].

إذا أحطت خبراً بذلك فلنعد إلى شرح كلامه ﷺ على ما أورده الرّضي (ره).

فنقول: إنّ عثمان كان أقطع كثيراً من بني أميّة وغيرهم من أصحابه وأتباعه قطائع من أرض الخراج كما عرفته في **«شرح الفصل»** الرّابع من فصول الخطبة الشقشقية، وقد كان عمر أقطعها أيضاً إلاّ أنّه أقطعها لأرباب الجهد والعناء وذوي الوقائع المشهورة في الحروب، ترغيباً

(١) البحار: ٣١/٢٢٣، والغدير: ٩/٧٧.

في الجهاد، ولمّا كانت قطائعه لغرض صحيح لم يتعرّض عليه السلام له بعد نهوضه بالخلافة، وإنّما تعرض لقطائع عثمان التي أقطعها لمجرد هوى نفسه وميلاً إلى أصحابه من غير عناء في الحرب، فقال عليه السلام **(والله لو وجدته)** أي ما بذله عثمان من تلك القطائع **(قد تزوج به النّساء وملك به الإماء)** أي: صار مهراً للحرائر وثمناً للإماء **(لرددته)** إلى حاله وإلى بيت مال المسلمين.

ثمّ علل ذلك بقوله: **(فإنّ في العدل سعة)** يعني أنّ وجوب الردّ بمقتضى العدل وفي وسعة للنّاس إذ به نظامهم وقوام أمورهم، ولولاه لاختلّ النّظام وضاع القوام.

ثمّ أكد ذلك بقوله: **(ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق)** يعني من ضاق عليه القيام بالحكم الذي اقتضاه العدل فالجور الذي أقدم عليه بمقتضى هوى نفسه وميل طبعه أضيق عليه في الدّنيا والآخرة، وذلك توعيد لهم وإشارة إلى أنّ ردّ القطائع التي أقطعها عثمان لهم، وإن كان ضيقاً عليهم وشاقاً في أنفسهم، لكنّه عدل والقيام به سهل بالنّسبة إلى عدم الرّد والامتناع منه، لأنّه جور وهو أضيق عليهم منه في الدّنيا والآخرة، أمّا في الدّنيا فلأنّها ربّما انتزعت منهم قهراً ويكون جورهم سبباً للتحريج والتّضييق، وأمّا الآخرة فلكونها موجبة للسّخطة والعقوبة، هذا.

وذكر شارحو الكتاب في تفسير كلامه عليه السلام ذلك وجوهاً يأبى عنها الذّوق السّليم والطبع المستقيم من أراد الإطلاع عليها فليرجع إليها.

قال الكلبي بعد روايته ما روينا عنه سابقاً: ثمّ أمر عليه السلام بكلّ سلاح وجد لعثمان في داره ممّا تقوى بها على المسلمين فقبض وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصّدقة، فقبضت وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر أن لا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتِل به المسلمون وبالكفّ عن جميع أمواله التي وجدت في داره وغير داره، وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان وحيث أصيبت أو أصيب أصحابها فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بِأيلة من أرض الشّام أتاها حيث دثب النّاس على عثمان فنزلها، فكتب إلى معاوية ما كنت صانعاً فاصنع إذا قشرك ابن أبي طالب من كلّ مال تملكه كما تقشر عن العصا لحائها.

قال الشّارح المعتزلي: وقال الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان من أمّه يذكر قبض عليّ عليه السلام نجائب عثمان وسيفه وصلاحه:

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم	ولا تنهبوه لا تحل مناهبه
بني هاشم كيف الهوادة بيننا	وعند عليّ درعه ونجائبه
بني هاشم كيف التّودد منكم	وبزابن[1] اردى فيكم وحرائبه

(١) أي سلبه.

بني هاشم إلا تردّوا فإننا سواء علينا قاتلاه وسالبه
بني هاشم إنّا وما كان منكم كصدع الصّفا لا يشعب الصدع شاعبه
قتلتم أخي كي ما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه

فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب بأبيات طويلة من جملتها:

فلا تسألونا سيفكم إنّ سيفكم أضيع وألقاه لدى الرّوع صاحبه
سلوا أهل مصرعن سلاح ابن اختنا فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان وليّ الأمر بعد محمّدٍ عليّ وفي كلّ المواطن صاحبه
عليّ إلى أن أظهر الله دينه وأنت مع الأشقين فيمن يحاربه
وأنت أمرؤ من أهل صفور نارخ فما لك فينا من حميم يغائبه
وقد أنزل الرحمٰن إنّك فاسق وما لك في الإسلام سهم تطالبه
وشبّهته كسرى وقد كان مثله شبيهاً بكسرى هديه وضرائبه

أي كان كافراً كما كان كسرى كافراً قال الشّارح: وكان المنصور إذا أنشد هذا البيت يقول: لعن الله الوليد هو الذي فرّق بين بني عبد مناف بهذا الشّعر.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در خصوص چيزى كه رد فرموده بود آن را بر مسلمانان از قطيعه هاى عثمان كه بر بنى اميه و ساير اعوان خود بخشش كرده بود و آن كلام عدل نظام اين است كه فرمود:

به خداوند سوگند اگر بيابم آن مال را كه تزويج شده باشند به آن زنان و ملك شده باشند به آن كنيزان، هرآينه برمى گردانم آن را از جهت اين كه در عدل وسعت است و هركه تنگ آيد بر او عدل پس جور و ستم بر او تنگ تر است.

ومن كلام له عليه السلام لما بويع بالمدينة وهو السادس عشر من المختار في باب الخطب الجاري مجراها

والأولى العنوان من خطبة له عليه السلام كما في بعض النّسخ لأَنّ هذه من جلائل خطبه ومن مشهوراتها وهي أوّل خطبة خطبها بالمدينة بعد ما نهض بالخلافة، وقد رواها جمع منّا ومن العامة كالكليني في **«روضة الكافي»** والمفيد في **«الإرشاد»** والمحدث المجلسي والشارح البحراني والشارح المعتزلي من كتاب البيان والتبيين للجاحظ عن أبي عبيدة معمّر بن المثنى وغير هؤلاء، إلاّ أنّ فيها على اختلاف طرقها زيادة ونقصاناً وتغييراً كثيراً، ونحن نوردها بتمامها بعد الفراغ من شرح ما أورده الرّضي قدّس سرّه بطريق الكليني توضيحاً لما أورده وتثبيتاً لما ذكره مع الإشارة إلى تفسير بعض ما رواه الكليني أيضاً، وشرح ما أورده الرّضي (ره) في ضمن فصلين.

الفصل الأول

«ذِمَّتي بِما أَقُولُ رَهينَةٌ وأَنَا بِهِ زَعيمٌ، إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلاتِ، حَجَزَهُ التَّقْوَى عَنِ التَّقَحُّمِ في الشُّبُهاتِ، أَلا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عادَتْ كَهَيْئَتِها يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ، وَالَّذي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً، وَلَتُساطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ، وَأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سابِقُونَ كانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبّاقُونَ كانُوا سَبَقُوا، وَاللهِ ما كَتَمْتُ وَسْمَةً، وَلا كَذِبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهذَا الْمَقامِ، وهذَا الْيَوْمِ أَلاَ وإِنَّ الْخَطايا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْها أَهْلُها، وخُلِعَتْ لُجُمُها، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ في النّارِ، أَلا وَإِنَّ التَّقْوى مَطايا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْها أَهْلُها، وَأُعْطُوا إِزِمَّتَها، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ حَقٌّ وباطِلٌ، ولِكُلٍّ أَهْلٌ فَلَئِنْ أَمِرَ الْباطِلُ لَقَديماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّما وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّما أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ»[١].

قال الرّضي (ره) أقول: إنّ في هذا الكلام أدنى من مواقع الإحسان ما تبلغه مواضع الاستحسان، وإنّ حظّ العجب منه أكثر من حظّ العجب به، وفيه مع الحال التّي وصفنا زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصّناعة بحقّ، وجرى فيها على عرق، وما يعقلها إلا العالمون.

اللغة

(الرهينة) الوثيقة و **(الزعيم)** الكفيل و **(صرحت)** كشفت و **(العبر)** جمع العبرة و

---

(١) البحار: ٣٢/٢٧، وعيون الحكم: ١٥٤، والوسائل: ٢٧/ ١٦١.

(المثلات) العقوبات و **(الحجز)** الحجب والمنع و **(تقحم)** فلان ألقى نفسه في المهلكة، وتقحم الإنسان في الأمر دخل فيه من غير رويّة و **(تبلبلت)** الألسن أي اختلطت، وفي النهاية البلابل الهموم والأحزان وبلبلة الصّدر وسوسته ومنه حديث عليّ عليه السلام لتبلبلنّ بلبلة و **(تغربلنّ)** من غربل الدّقيق أي نخله أو من غربلت اللحم أي قطعته و **(ساط)** القدر يسوطه سوطاً قلب ما فيها من الطعام بالمحراك وأداره حتّى اختلط أجزائه و **(السباق)** كشدّاد و **(الوشمة)** بالشين المعجمة الكلمة وبالمهملة الأثر والعلامة و **(شمس)** الفرس شموساً وشماساً منع ظهره من الرّكوب فهو شموس والجمع شمس كرسل و**(اللجم)** بضمّتين جمع لجام و**(ذلل)** جمع ذلول كرسل ورسول وهو المنقاد قال سبحانه:

﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [النحل: ٦٩].

و **(أمر)** الباطل بالكسر إذا كثر وتمّ.

الإعراب

من المثلات بيان **(لما)**، وجملة حجزه (ا ه) مرفوعة المحلّ على كونها خبر إنّ، **(وتبلبلن وتغربلنّ وتساطنّ)** كلها بالبناء على المفعول **(وكتمت)** بالبناء على المفعول أو على المعلوم وكلاهما صحيحان محتملان، وفاعل **(خلعت)** ضمير مستتر راجع إلى الخيل **(ولجمها)** منصوب على المفعوليّة، أو خلعت بصيغة المجهول، **(ولجمها)** نائب عن الفاعل **(وحقّ وباطل)** خبران لمبتدأ محذوف بقرينة المقام أي الأمور كلها، إمّا حقّ أو باطل أو أنّ التّقوى حقّ والخطأ باطل على ما سبق التّصريح إليهما.

وقوله **(لقديماً فعل)** فاعل الفعل عائد إلى الباطل والمفعول محذوف أي قديماً فعل الباطل ذلك وإسناده إليه مجاز والمراد به أهله أو أنّ فعل بمعنى افعل كما في قوله قد جبر الدّين الإله فجبر أي فانجبر، وقوله: **(فلربّما ولعلّ) كلمة (ما)** كافّة مهيئة لدخول ربّ على الفعل المحذوف بعدها بقرينة المقام، ولعلّ للترجي والمعمول محذوف وتقدير الكلام ولئن قلّ الحق فلربّما يكون غالباً ولعله ينتصر أهله.

المعنى

اعلم أنّه عليه السلام صدر كلامه بما يكون مرغباً لهم في الاستماع بما يقوله بقوله: **(ذمّتي بما أقول)** ـه **(رهينة)** أي وثيقة **(وأنابه)** أي بكونه صدقاً مطابقاً للواقع **(زعيم)** وكفيل ثمّ أشار عليه السلام إلى وجوب الاعتبار بالعبر النّافعة من حيث كونها وسيلة إلى التقوى الحاجز عن الاقتحام في الشّبهة وقال **(إنّ من صرّحت له العبر)** أي كشفت **(عمّا بين يديه من المثلات)** والعقوبات الواقعة على الأمم السّابقة والجارية في القرون الخالية يكون انكشاف تلك العبر واعتباره بها

مؤدّياً إلى الخشية من الله سبحانه و(**حجزه التّقوى عن التقحم في الشّبهات**) والاقتحام في الهلكات من غير رويّة.

والمراد بالشّبهات الأمور الباطلة الشّبيهة بالحقّ وحاجزيّة التقوى منها من حيث إنّه لمّا كان عبارة عن إتيان الأوامر وترك النّواهي كما قال الصّادق عليه السلام في تفسيره بعد ما سئل عنه: أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك[١]، لا بدّ وأن يكون المتّصف به مجتنباً من الشّبهات كي لا يقع في المناهي والمحرّمات، فإن الأخذ بها والتّقحم فيها مظنّة الوقوع في الحرام من حيث لا يعلم وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في عدّة روايات.

مثل ما رواه في الوسائل بإسناده عن فضيل بن عيّاض عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: من الورع من النّاس؟ قال: الذي يتورّع من محارم الله ويجتنب هؤلاء فإذا لم يتّق الشّبهات وقع في الحرام وهو لا يعرفه.

وعن عمر بن حنظلة عنه عليه السلام أيضاً في حديث قال: وإنّما الأمور ثلاثة: أمر بين رشده فيتّبع، وأمر بين غيه فيجتنب، وأمر مشكل يردّ علمه إلى الله سبحانه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك فمن ترك الشّبهات نجا من المحرمات و من أخذ بالشّبهات ارتكب المحرّمات وهلك من حيث لا يعلم»، ثمّ قال في آخر الحديث: «فإنّ الوقوف عند الشّبهات خير من الاقتحام في الهلكات»[٢].

وعن النّعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ لكلّ ملك حمىً وإنّ حمى الله حلاله وحرامه والمشتبهات بين ذلك، كما لو أنّ راعياً رعى إلى جانب الحمى لم يثبت غنمه أن تقع في وسطه، فدعوا المشتبهات»[٣].

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّه عليه السلام لمّا نبّههم على لزوم التّقوى وأنّه مانع من تقحم الشّبهات نبّههم بعده على أنّهم في الشّبهات مغمورون بقوله: (**ألا وإنّ بليّتكم هذه قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله**) وأشار عليه السلام ببليّتهم هذه إلى ما هم عليه من تشتّت الآراء وتفرّق الأهواء وعدم الإلفة والاجتماع في نصرة الله عن شبهات يلقيها الشّيطان على الأذهان القابلة لوسوسته المقهورة في يده، وذلك من أعظم الفتن التي يبتلي الله عباده كما قال:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وهي أمور تشبه ما كان عليه النّاس حال بعثة النّبي صلى الله عليه وآله، لأنّهم كانوا يومئذٍ مللاً متفرّقة وأهواء منتشرة وطرائق متشتّتة، وفيه تنبيه لهم على أنّهم ليسوا من تقوى الله في شيء، ولا

---

(١) السرائر لابن إدريس: ٣٥/ ٦٥١، ومستدرك الوسائل: ٨/ ٢٢٣.

(٢) الكافي: ١/ ٦٨، وتهذيب الأحكام: ٦/ ٣٠٣.

(٣) الخلاف للطوسي: ٣/ ١٣٧، والأمالي: ٣٨١.

على دين الحقّ أيّام خلافة الثلاثة كما أنّهم لم يكونوا من أهل الدّيانة في أيّام الفترة ويوم بعثة النّبي صلى الله عليه وآله، وإشارة إلى أنّهم كما كانوا يومئذٍ مأمورين بالتمسّك بأذيال النّبوة كي يخلصوا من الكفر والضّلالة فكذلك هؤلاء اليوم مأمورون باتباعه والاقتباس من أنواره عليه السلام ليهتدوا بها في ظلمات الشّبهات ومدلهمات الجهالة.

كما قال الرّضا عليه السلام في حديث عبد الله بن جندب المروي في الوسائل من تفسير العيّاشي: إنّ هؤلاء القوم سنح لهم الشيطان اغترهم بالشبهة ولبّس عليهم أمر دينهم وأرادوا الهدى من تلقاء أنفسهم فقالوا لِمَ ومتى وكيف؟ فأتاهم الهلك من مأمن احتياطهم وذلك بما كسبت أيديهم وما ربّك بظلام للعبيد، ولم يكن ذلك لهم وعليهم بل كان الفرض عليهم والواجب لهم من ذلك الوقوف عند التحير وردّ ما جهلوه من ذلك إلى عامله[1] ومستنبطه لأنّ الله يقول في كتابه[2]:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

يعني آل محمّد عليهم السّلام وهم الذين يستنبطون من القرآن ويعرفون الحلال والحرام وهم الحجّة لله على خلقه وقد مضى في شرح الفصل الرّابع من فصول الخطبة الثانية.

ثمّ إنّه عليه السلام لمّا ذكر وقوعهم في البليّة وقابل يوم بيعته بيوم البعثة أشار إلى مآل ذلك الابتداء وما يؤل إليه آخر أمر المبايعين من خلوص بعضهم وارتداد الآخرين فقال: **(والذي بعثه بالحقّ لتبلبلنّ بلبلة)** أي لتخلطن بعضكم ببعض وتقعن في الهموم والأحزان ووساوس الصّدور **(ولتغربلنّ غربلة)** أي ليتميزنّ جيدكم من رديكم تميز نخالة الدّقيق من خالصه بالغربال.

كما قال الصّادق عليه السلام في رواية ابن أبي يعفور المروية في «**الكافي**» في باب التمحيص والامتحان: لا بدّ للنّاس من أن يمحصوا ويميزوا ويغربلوا ويستخرج في الغربال خلق كثير![3] **(ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم)** لتصريف أئمة الجور إيّاكم وتقليبكم من حال إلى حال وإهانتكم وتغييركم من وضع إلى وضع ومن دين إلى دين، ويحتمل أن يكون المراد به أنّه يصير عزيزكم ذليلاً وذليلكم عزيزاً ويرفع أراذلكم ويحطّ أكابركم **(وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا)** وهم المقصّرون عن نصرته في مبدأ الأمر بعد وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله النّاصرون لله في ولايته المقاتلون معه في سائر حروبه **(وليقصّرن سبّاقون كانوا سبقوا)** وهم الذين كانت لهم سابقة في الإسلام ثمّ خذلوه وانحرفوا عنه وقاتلوه كأصحاب الجمل والشام وأهل النّهروان.

---

(١) في نسخة: عالمه.
(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٩٦، ومسند الإمام الرضا: ٢/ ٤٦٣.
(٣) الكافي: ١/ ٣٧٠ ح ٢.

قال الشّارح البحراني: ويشبه أن يكون مراده عليه السلام أعمّ من ذلك، فالمقصرون الذين يسبقون كلّ من أخذت العناية الإلهيّة بيده وقاده زمام التّوفيق إلى الجدّ في طاعة الله واتباع سائر أوامره والوقوف عند نواهيه وزواجره بعد تقصير في ذلك، وعكس هؤلاء من كان في بدء الأمر مستمرّاً في سلوك سبيل الله ثم جذبه هواه إلى غير ما كان عليه وسلك به الشّيطان مسالكه فاستبدل بسبقه في الدّين تقصيراً وانحرافاً عنه.

ثم إنه عليه السلام لما أخبرهم بعواقب أمورهم ومآل حالهم أكد ذلك بالقسم البار تحقيقاً لوقوع المخبر به لا محالة، ونبه عليه السلام علر أنه ما ينطق عن الهوى في هذه الأخبار وأمثالها وإنما تلقاها من مصدر النبوة ودوحة الرسالة فقال: **(والله ما كتمت وشمة)** على البناء للمفعول أي لم يكتم منّي رسول الله صلى الله عليه وآله كلمة أو علامة مما يجب عليه إظهاره، أو بالبناء على المعلوم أي لم أكتم شيئاً ممّا يتعيّن علّى الإباحة به من كلمة أو أثر وعلامة **(ولا كذبت كذبة)** في شيء مما أخبت به **(ولقد نبئت)** أي أنبأني رسول الله صلى الله عليه وآله **(بهذا المقام)** وهو مقام إجتماع الخلق عليه **(وهذا اليوم)** أي يوم بيعتهم له.

ثمّ إنّه أردف كلامه بالتّرهيب عن الخطأ والتّرغيب في التّقوى بالتنبيه على ما يقود إليه كلّ منهما وقال: **(ألا وإنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النّار)** وهو من لطيف التّشبيه ومن قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس، ووجه الشّبه أنّ الفرس الشّموس التي خلعت لجامها كما أنّها تجري على غير نظام وتتقحّم بصاحبها في المعاطب والمهالك، فكذلك الخطيئة يجري راكبها بركوبه عليها على غير نظام الشّريعة فتورده أعظم موارد الهلكة، وهي نار الجحيم المعدّة للعاصين والخاطئين **(ألا وإنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها واعطوا أزمتها فأوردتهم الجنّة)** والتّشبيه فيه كما في سابقه، ووجه الشّبه أنّ المطية الذّلول التي زمامها بيد راكبها كما أنّ من شأنها أن تتحرّك براكبها على رفق ونظام ويصرفها الرّاكب من أجل كون زمامها بيده عن المهالك ويسير بها إلى المقاصد، فكذلك التّقوى، فإنّ صاحبه الذي زمامه بيده وهي الحدود الشّرعيّة التي بها يملكه ويستقر عليه يسهل له سلوك الصّراط المستقيم والعطف عن الشّمال واليمين، ويتمكن من الفوز بالسّعادة الأبدية ومن الوصول إلى أسنى المطالب السّنية وهي الجنّة التي عرضها السّماوات والأرض أعدّت للمتّقين.

ثمّ إنّه عليه السلام لمّا أشار إلى أنّ هٰهنا طريقين مسلوكين أحدهما طريق الخطأ والآخر طريق التّقوى ذكر بعدهما أنّهما **(حقّ وباطل)** يعني أنّ التّقوى حقّ والخطأ باطل أو أنّ الأمور كلها إمّا حقّ أو باطل **(ولكلّ)** منهما **(أهل)** أي سالك يسلكه وطالب يطلبه بمقتضى طيب الطينة وخبثها

(١) الكافي: ١/ ٣٧٠ ح ٢، ودلائل الإمامة: ٤٥٦.

(فلئن أمر الباطل) وكثر **(لقديماً فعل)** الباطل أي أهله ذلك **(ولئن قلّ الحق فلربما)** يكون غالباً مع قلّته على الباطل **(ولعله)** ينتصر أهله **(ولقلما أدبر شيء فأقبل)**.

قال الشّارح البحراني: استبعاد لرجوع الحقّ إلى الكثرة والقوّة بعد قلته وضعفه على وجه كلي فإنّ زوال الاستعداد للأمر مستلزم لزوال صورته وصورة الحق إنّما أفيضت على قلوب صفت واستعدت لقبوله فإذا أخذ ذلك الاستعداد في النقصان بموت أهله أو بموت قلوبهم، وتسوّد ألواح نفوسهم بشبه الباطل، فلا بدّ أن ينقص نور الحقّ وتكثر ظلمة بسبب قوّة الاستعداد لها، وظاهر أنّ عودة الحقّ وإضائة نوره بعد ادباره وإقبال ظلمة الباطل أمر بعيد وقلما يعود مثل ذلك الاستعداد لقبول مثل تلك الصّورة للحقّ ولعله يعود بقوّة فتصبح ألواح النفوس وأرضها مشرقة بأنوار الحقّ ويكرّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق وما ذلك على الله بعزيز، وفي ذلك تنبيه لهم على لزوم الحقّ وبعث على القيام به كي لا يضمحل بتخاذلهم عنه فلا يمكنهم تداركه، انتهى كلامه هذا.

ولعلّ الظاهر المناسب في شرح الفقرات الأخيرة أعني قوله: حقّ وباطل إلى آخر كلامه عليه السلام ما ذكره بعض الأخباريين حيث قال حقّ وباطل خبران لمبتدأ محذوف أي الإمام حقّ وباطل وهو تقسيم للإمام على قسمين، أحدهما الإمام بالحقّ وإليه أشير في قوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] والثّاني الإمام بالباطل وإليه الإشارة في قوله:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

(وأمر الباطل) من باب نصر وعلم وحسن من الإمارة بمعنى الولاية، **(ولقديماً)** منصوب على الظرفيّة، وعامله فعل بعده على البناء للمجهول وضميره عائد إلى المصدر المفهوم من أمر وحذف **(فاء)** الجزاء مع كون الشّرط والجزاء ماضيين لفظاً ومعنى اكتفاء بذكرها في الجملة التّالية، **(ولئن قلّ الحقّ)** بضمّ **(القاف)** على البناء للمفعول من باب نصر من القل وهو الرّفع، قال في **«القاموس»** استقله حمله ورفعه كقله وأقله، **(فلربّما ولعلّ)** للتقليل وندرة الوقوع والتّقدير ربّما كان كذلك ولعله كان كذلك.

وهو إشارة إلى أنّ الحقّ قد يكون غالباً كما في زمن سليمان عليه السلام وذي القرنين والمقصود بذلك الإشارة إلى كون الحقّ غالباً في زمن الرّسول صلى الله عليه وآله ومغلوباً في أزمنة الخلفاء الثّلاثة وغالباً في زمنه عليه السلام أيضاً وهو نادر وعلى هذا فمعنى كلامه عليه السلام أنّ الإمام حقّ وباطل ولكل منهما أهله فإن صار الباطل أميراً بعد الرّسول صلى الله عليه وآله **فلقد فعل ذلك أي أمرة الباطل في قديم الزّمان** وليس بأمر حادث يتعجّب منه، ولئن ارتفع الإمام بالحقّ بعد خلافة الثلاثة فلربّما كان كذلك ولعله كان كذلك ولقلما أدبر شيء من الحقّ فأقبل إليه، انتهى كلامه والله العالم.

تكملة

قد أشرنا في صدر الكلام أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام كالفصل الآتي من كلامه ممّا رواه العامّة والخاصّة ووعدناك هناك أن نذكر تمام الخطبة ونفسّر بعض فقراتها المحتاجة إلى التفسير والبيان فأقول وبالله التكلان.

روى ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب عن عليّ بن رئاب ويعقوب السّراج عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا بويع بعد مقتل عثمان صعد المنبر فقال:

«اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذي عَلاَ فَاسْتَعْلَى، وَدَنَا فَتَعَالَىٰ وَارْتَفَعَ فَوْقَ كُلِّ مَنْظَرٍ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّٰهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً (عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خ ل) رَسُولُ اللّٰهِ خاتَمُ النَّبِيِّنَ، وحُجَّةُ اللّٰهِ عَلَى الْعَالَمِينَ، مُصَدِّقاً لِلرُّسُلِ الأَوَّلِينَ، وكانَ بالْمُؤْمِنينَ رَؤُوفاً رَحيماً، وَصَلَّىٰ اللّٰهُ وَمَلائِكَتُهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ. أَمّا بَعد أَيُّهَا النّاسُ فَإِنَّ الْبَغْيَ يَقُودُ أَصْحابَهُ إِلَىٰ النّارِ، وَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ بَغَىٰ عَلَى اللّٰهِ جَلَّ ذِكْرُهُ عَناقُ بِنْتُ آدَمَ، وأَوَّلُ قَتيلٍ قَتَلَهُ اللّٰهُ عَناقُ، وكانَ مَجْلِسُها جَريباً مِنَ الأَرْضِ في جَريبٍ، وكانَ لَها عِشْرُونَ إِصْبَعاً، في كُلِّ إِصْبَعٍ ظُفرانِ مِثْلُ الْمِنْجَلَينِ، فَسَلَّطَ اللّٰهُ عَلَيْهَا أَسَداً كَالْفِيلِ، وذِئْباً كَالْبَعيرِ، ونَسْراً مِثْلَ الْبَغْلِ، فَقَتَلُوهَا، وَقَدْ قَتَلَ اللّٰهُ الْجَبابِرَةَ عَلَى أَفْضَلِ أَحْوَالِهِمْ، وَآمَنِ ما كانُوا عَلَيْهِ، وأَماتَ هامانَ وَأَهْلَكَ فِرْعَوْنَ، وَقَدْ قُتِلَ عُثْمانُ، أَلاَ وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عادَتْ كَهَيْئَتِها يَوْمَ بَعَثَ اللّٰهُ نَبِيَّهُ.

وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً، وَلَتُساطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ، وَأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سابِقُونَ كانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرُونَ سَبّاقُونَ كانُوا سَبَقُوا، وَاللّٰهِ ما كَتَمْتُ وَسْمَةً، وَلاَ كَذِبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهٰذَا الْمَقامِ، وهٰذَا الْيَوْمِ.

أَلاَ وإِنَّ الْخَطايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وخُلِعَتْ لُجُمُها، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النّارِ.

أَلاَ وَإِنَّ التَّقْوَىٰ مَطَايا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وأُعطُوا أَزِمَّتَها، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ، وفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُها، ووَجَدُوا رِيحَها وَطِيبَها، وقيلَ لَهُمْ أُدخُلوها بِسَلاَمٍ آمِنِينَ.

أَلاَ وَقَدْ سَبَقَنِي إِلىٰ هَذَا الأَمْرِ مَنْ لَمْ أُشْرِكْهُ فيهِ، وَمَنْ لَمْ أَهَبْهُ لَهُ، وَمَنْ لَيْسَتْ لَهُ تَوْبَةٌ إِلاَّ بِنَبِيٍّ يُبْعَثُ.

أَلاَ وَلاَ نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، أَشْرَفَ مِنْهُ عَلَى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ، حَقٌّ وباطِلٌ ولِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْباطِلُ لَقَديماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّما أَدبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ سُعَداءُ، وَما عَلَيَّ إِلاَّ الْجَهْدُ، وَإِنِّي لأَخْشَىٰ أَنْ تَكُونُوا عَلَى فَتْرَةٍ مِلْتُمْ عَنّي مَيْلَةً كُنْتُمْ فيها عِنْدي غَيرَ مَحْمُودِي الرَّأْيِ، وَلَوْ أَشاءُ لَقُلْتُ عَفَا اللّٰهُ عَمّا سَلَفَ.

سَبَقَ فيهِ الرَّجُلانِ وَقامَ الثالِثُ كَالْغُرابِ، هِمَّتُهُ بَطْنُهُ، وَيْلَهُ لَوْ قُصَّ جَناحاهُ وقُطِعَ رَأْسُهُ لَكانَ خَيراً لَهُ، شَغَلَ عَنِ الْجَنَّةِ وَالنّارُ أَمامَهُ ثَلَثَةٌ وَإِثْنانِ، خَمْسَةٌ لَيْسَ لَهُمْ سادِسٌ مَلَكٌ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ، وَنَبِيٌّ أَخَذَ اللَّهُ بِضَبْعَيْهِ، وَساعٍ مُجْتَهِدٌ، وطالِبٌ يَرْجُو، ومُقَصِّرٌ في النّارِ.

أَلْيَمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَىٰ هِيَ الْجادَّةُ، عَلَيْها بَقِي الْكِتابِ وَآثارُ النُّبُوَّةِ، هَلَكَ مَنِ ادَّعَى، وَخابَ مَنِ افْتَرى، إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّيْفِ وَالسَّوْطِ، وَلَيْسَ لأَحَدٍ عِنْدَ الإِمامِ فيهِما هَوادَةٌ، فَاسْتَتِرُوا في بُيُوتِكُم، وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرائِكُمْ مَنْ أَبْدَىٰ صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ».

وفي مرويّ البحراني بعد قوله عليه السلام: «من أبدى صفحته للحقّ هلك»: أَلا وَإِنَّ كُلَّ قَطِيعَةٍ أَقْطَعَها عُثْمانُ وما أَخَذَهُ مِنْ بَيْتِ (مال ط) الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِمْ في بَيْتِ مالِهِمْ وَلَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّساءُ وفُرِّقَ في الْبَلَدِ[1]، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَسَعْهُ الْحَقُّ فَالْباطِلُ أَضْيَقُ عَنْهُ»[2].

بيان

(**الجريب**) الوادي استعير للقطعة المتميزة من الأرض وفي «**المصباح**» للفيومي من كتاب المساحة للسّموأل ما محصّله أنّه عشرة آلاف ذراع وعن قدامة الكاتب ما محصّله أنّه ثلاثة آلاف ذراع وستمائة ذراع، و(**المنجل**) كمنبر حديدة يقضب بها الزّرع والواسع الجرح من الأسنة (**وأمات هامان وأهلك فرعون**) كناية عن الأوّل والثاني كما في قوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

(**من لم أشرك فيه**) كما أشرك موسى هارون على ما أشير إليه في قوله سبحانه: ﴿**وأشركه في أمري**﴾ وهو نصّ صريح في عدم رضائه بخلافة من سبق إليه (**ومن لم أهبه له**) (**اللام**) للانتفاع (**ومن ليست له توبة إلاّ بنبيّ يبعث**) استثناء مفرّغ والمقصود أنّه لا يتصوّر للثلاثة توبة بسبب من الأسباب إلاّ أن يبعث الله نبيّاً بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من دون فصل يكون شرعه ناسخاً لشرع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورافعاً لما أوجبه من خلافته عليه السلام ووجوب اتّباعه وما حكم به من بطلان خلافة الثّلاثة (أشرف منه) قيل: الضّمير

(١) في البحار: البلدان.

(٢) البحار: ٣١/٢٢٣، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/٢٦٩.

في أشرف عائد إلى (من) وفي منه راجع إلى مصدر سبقني وكلمة (من) للتّعليل والجملة استئنافيّة بيانيّة والمعنى أنه أشرف من لم أشركه فيه من أجل سبقته إلى هذا الأمر **(على شفا جرف هار)** أي على قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنّفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلّة الثبات **(فانهار به في نار جهنّم)** أي فهو الباطل به في نار جهنّم وهذا مأخوذ من قوله سبحانه في سورة البراءة:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

(لئن ردّ عليكم أمركم) الذي يلزمكم القيام به وهو امتثالهم لأمره وتصديقهم بإمامته عليه السلام **(إنكم)** تكونون حينئذٍ **(سعداء وما عليّ إلا الجهد)** بفتح **(الجيم)** أي الجدّ والاجتهاد يعني أنا أعمل على ما يجب عليّ القيام به من أمر الشريعة وعزل ولاة السّوء وامراء الفساد عن المسلمين فإن تمّ ما أريده فذاك، وإلاّ كنت قد أعذرت نظير قوله سبحانه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]

قوله: **(كالغراب همّته بطنه)** حيث يقع على الجيفة وعلى الثّمرة وعلى الحبّة وفي المثل أحرص من غراب وأجشع من غراب **(ويله)** منصوب على النداء وحرف النّداء محذوف **(لو قصّ جناحاه)** أي قطع بالمقراض ونحوه كان خيراً له والمقصود أنه لو كان قتل قبل تلبّسه بالخلافة كان خيراً له من تقحّمه فيه وقوله **(ثلاثة واثنان)** مرفوعان على الابتداء و**(خمسة)** خبر لهما وهو فذلكة العدد كما في قوله سبحانه:

﴿ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]

والمقصود أنّ المكلفين على خمسة أقسام منشعبة من قسمين لأنّه إمّا معصوم أو غير معصوم، والمعصوم على ثلاثة أقسام **(ملك يطير بجناحيه)** حامل للوحي ونحوه **(ونبي أخذ الله بضبعيه)** وعضده ووصي **(ساع)** في الدّين **(مجتهد)** في الشّرع أي متحمّل للجهد والمشقّة (و) غير المعصوم على قسمين أحدهما **(طالب)** للجنّة **(يرجو)** رحمة ربّه (و) الثّاني **(مقصّر)** في الدّين هالك **(في النّار)** قوله: **(إنّ الله أدّب)** (ا ه) إشارة إلى بعض مطاعن الثّلاثة من تعطيلهم حدود الله سبحانه لملاحظة القرابة أو لأغراض أخرى و**(الهوادة)** اللّين وما يرجى به الصّلاح وقيل هو الشّفاعة لترك الانتقام من مرتكب العصيان، هذا.

وغير ما ذكرته ممّا يحتاج من كلامه عليه السلام إلى التّفسير يأتي في شرح الفصل الآتي بيانه، والله الهادي.

الترجمة

و از جمله کلام بلاغت نظام آن حضرت است:

عهد و پیمان من به صحت آن چه می گویم در گرو است و من به صدق و صواب بودن آن کفیل و ضامنم. به درستی که کشف نمود از برای او عبرت ها از آن چه در پیش او گذشته از عقوبات. مانع می شود او را پرهیزکاری از انداختن نفس خود در شبهه ها. آگاه باشید به تحقیق که بلیه که عبارت است از اختلاف آراء و تفرّق اهواء، رجوع نموده بر مثال و هیئت آن در آن روز که خداوند سبحانه پیغمبر خود را مبعوث فرمود.

قسم به آن کسی که برانگیخت پیغمبر خود را به حق هر آینه که مخلوط می شوید به همدیگر مخلوط شدنی و البته بیخته می شوید به غربال بیختنی که خوب و بد از همدیگر تمیز می یابد و البته بر هم زده می شوید مثل برهم زدن آن چه در دیگ است از طعام با قاشق و نحو آن تا باز برگردد پست ترین شما بر بلندترین شما و بلندترین شما بر پست تین شما؛ یعنی زیر و بالا می شوید و البته پیشی می گیرند پیش افتاده گانی که بودند باز پس مانده و البته مقصر می شوند پیش گیرندگانی که بودند پیش افتاده.

مراد از طایفه اولی اشخاصی بودند که بعد از وفات حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه و آله) از نصرت آن حضرت قصور ورزیدند و در زمان خلافت آن بزرگوار با جان و دل بیعت نموده و شیعه خالص وی شدند و مراد از طایفه دوم اشخاصی هستند که ایشان را در اسلام سابقه ای بود و در زمان امامت آن امام عالی مقام انحراف ورزیده و با او به مقام مقاتله و محاربه برآمدند؛ مثل طلحه و زبیر و سایر اصحاب جمل و نهروان.

بعد از آن اشاره می فرماید به این که این اخبار غیبه از منبع نبوّت و مهبط وحی و رسالت مأخوذ گردیده و احتمال خلاف در آن بهوجه نمی باشد و فرمود:

به خدا سوگند پنهان داشته نشده ام از هیچ کلمه، یعنی حضرت رسول (صلی الله علیه و آله) جمیع مطالب را به من اطلاع داد یا این که پنهان نداشتم هیچ کلمه ای را که لازم

بود اظهار آن و دروغ نگفته ام هيچ دروغى و به تحقيق كه خبر داده شده ام به اين مقام كه مقام اجتماع خلق است بر من و بر اين روز كه روز بيعت بر مردمان است با من.

آگاه باشيد كه به تحقيق خطاها اسبانى هستند سركش كه سوار شده باشند بر آن صاحبان آن و بركنده باشند لجام هاى خود را، پس انداخته باشند در مهالك آتش راكبان خود را. آگاه باشيد به درستى كه تقوى و پرهيزكارى شترانى هستند رام كه سوار شده باشند بر آن صاحبان آن و داده شده باشند به دست هاى ايشان افسارهاى ايشان، پس وارد سازند در بهشت عنبرسرشت سواران خود را. پرهيزكارى راهى است راست و خطاها راهى است باطل و هريكى را از اين دو راه اهلى است، پس اگر بسيار شود باطل هرآينه در قديم الزّمان كرده است آن را اهل آن و در آن زمان به همان قرار و اگر كم شده است حق در آن زمان پس بسا كه غالب شود آن و اميد هست كه منصور باشد اهل آن و هر آينه كم است كه پشت كرده باشد چيزى پس روى آورد.

سيد رضى (رحمه الله) بعد از اداء خطبه فرموده كه مى گويم من: به درستى در اين كلام امام (عليه السلام) كه كوتاه ترين لفظ است از موارد حسن چيزى هست كه نمى رسد به آن مواضع وقوع تحسين؛ يعنى فكرها كه ادراك حسن كلام را مى كنند و تعداد محاسن آن را مى نمايند و به درستى كه بهره تعجب از اين كلام بيشتر است از بهره خودپسندى؛ يعنى تعجب فصحا از بدايع حسن او بيشتر است از بهره عجب به سبب استخراج نكات رائقه و لطايف فايقه آن، به جهت اين كه بسا بدايعى در آن هست كه عقل آن را به نور بصيرت ادراك مى نمايد، ولى زبان بيان از تعبير و تقريرش عاجز و قاصر است.

و در اين كلام بلاغت نظام با وجود حالتى كه وصف كردم زيادت ها است از صناعت فصاحت كه قايم نمى شود به اداى آن هيچ زبان و اطلاع نمى يابد به عمق آن هيچ انسان و نمى شناسد آن چيزى را كه من گفتم از اين اوصاف مگر كسى كه عمر خود را مصروف بدارد در اين صناعت فصاحت به راستى و جارى شود اين صناعت بر عروق و اعصاب آن و آن را كما هو حقّه دانسته باشد و تعقل نمى كند آن را مگر عالمان كاملان.

الفصل الثاني

«شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمامُهُ، ساعٍ سَرِيعٌ نَجا، وطالِبٌ بَطيءٌ رَجا، ومُقَصِّرٌ في النّارِ هَوىٰ، الْيَمينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطى هِيَ الْجادَّةُ، عَلَيْها باقي الْكِتابِ وآثارُ النُّبُوَّةِ، ومِنْها مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْها مَصيرُ الْعاقِبَةِ، هَلَكَ مَنِ ادَّعى، وخابَ مَنِ افْتَرىٰ، مَنْ أَبْدىٰ صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ عِنْدَ جَهَلَةِ النّاسِ، وكَفىٰ بِالمَرْءِ جَهْلاً أَنْ لا يَعْرِفَ قَدْرَهُ، لا يَهْلِكُ عَلَىٰ التَّقْوىٰ سِنْخُ أَصْلٍ، وَلاَ يَظْمَأُ عَلَيْهِ زَرْعُ قَوْمٍ، فَاسْتَتِرُوا بُيُوتَكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرائِكُمْ، وَلاَ يَحْمَدُ حامِدٌ إِلاّ رَبَّهُ، وَلاَ يَلُمْ لائِمٌ إِلاّ نَفْسَهُ»[1].

اللغة

(**الطريق**) يذكر في لغة نجدو به جاء القرآن في قوله تعالى:

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]

ويؤنّث في لغة الحجاز وعليه جرى قوله عليه السلام و(**الجادّة**) معظم الطريق و(**الصّفحة**) من كلّ شيء كالصّفح جانبه و(**السّنخ**) من كلّ شيء أصله و(**البين**) بالفتح من الأضداد يطلق على الوصل وعلى الفرقة، ومنه ذات البين للعداوة والبغضاء، وقولهم لإصلاح ذات البين أي لإصلاح الفساد بين القوم، والمراد إسكان النّائرة.

الإعراب

شغل على البناء للمفعول، (**ومن**) الموصولة نائب عن الفاعل؛ (**والجنّة والنّار**) مرفوعان على الابتداء، (**وأمامه**) خبر والجملة صلة لمن، وقيل: إنّ شغل مسند إلى الضّمير المستتر العائد إلى الثّالث السّابق في كلامه عليه السلام حسبما حكيناه من «**الكافي**»، (**ومن الجنة**) بكسر الميم جار ومجرور، (**والنّار أمامه**) مبتدأ وخبر.

ويؤيد ذلك ما في رواية «**الكافي**» من تبديل كلمة (**من**) بكلمة (**عن**)، وعليه فالمعنى شغل الثالث يعني عثمان عن الجنّة والحال أنّ النار أمامه، (**وساع وطالب ومقصّر**) مرفوعات على الخبرية من محذوف بقرينة المقام، وإضافة الباقي إلى الكتاب إمّا من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف أي الكتاب الباقي بين الأمّة، أو بمعنى (**من**)، ففيها إشارة إلى وقوع التحريف في القرآن والنقصان فيه، وكفى بالمرء (الباء) زائدة في المفعول، وإضافة السّنخ إلى أصل من قبيل سعيد كرز وكرى القوم، و(**استتروا بيوتكم**) أي في بيوتكم منصوب بنزع الخافض، والتّوبة من ورائكم كلمة (**من**) بمعنى (**في**) وهو واضح.

---

(١) الكافي: ٨/٦٨، والإرشاد للمفيد: ١/٢٣٩.

المعنى

قد عرفت في شرح الفصل السّابق أنّ هذا الفصل من الخطبة التي ذكرناها هناك وقوله عليه السلام **(شغل من الجنّة والنّار أمامه)** جملة خبرية في معنى الإنشاء، يعني من كانت الجنّة والنّار أمامه يجب أن يكون مشغولاً بهما عن جميع ما يشغل عنهما من زبرج الدّنيا وزخارفها ولذّاتها وشهواتها، والمراد بالاشتغال بهما الاشتغال بما يؤدّيه إلى الجنّة وينجيه من النّار، ومن كونهما أمامه كونهما نصب قلبه وخياله بمرئي ومسمع منه غير غافل عنها متذكراً لهما مدّة عمره، فيشغل بهما عن غيرهما.

ويحتمل أن يكون المراد أنّ الإنسان لما كان من بدو نشأته وعمره إلى منتهاه بمنزلة المسافر إلى الله، وكان دائماً في قطع مسافة والانتقال من نشأة إلى نشأة، والتبدل من طور إلى طور من أطوار العالم الجسماني وأطوار نشأة الآخرة من حين الموت إلى حين البعث من حيث إن الموت ليس عبارة عن عدم الإنسان، بل من بطلان قالبه لخروج الروح منه قائماً بذاتها دون افتقارها بهذا البدن فله بعد هذه النشأة نشآت كثيرة في القبر والبرزخ وعند العرض والحساب والميزان إلى أن يدخل الجنّة أو النار، لا جرم كان المنزل لذلك المسافر إحداهما فكأنّما أمامه في ذلك السفر غايتين يؤمّهما الإنسان من مبدأ خلقته إلى أن ينزل إلى إحداهما ومن كان أبداً في السّفر إلى غاية معيّنة فيجب أن يكون مشغولاً بمهمات تلك الغاية.

ولما نبّه عليه السلام على وجوب الاشتغال بهما قسّم النّاس باعتبار ذلك الاشتغال إلى أقسام ثلاثة أحدها **(ساع)** إلى رضوان الله **(سريع)** في عدوه **(نجا)** برحمة ربّه (و) الثّاني **(طالب)** للرّضوان **(بطيء)** في سيره **(رجا)** للغفران (و) الثالث **(مقصّر)** في طاعة الرّحمٰن سالك سبيل الشّيطان مخلّد **(في النّار هوى)** إلى الجحيم واستحقّ العذاب الألَيم وقد أشير إلى الأقسام الثلاثة في قوله سبحانه:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً * فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧ - ١١].

فأصحاب الميمنة هم المؤمنون من أهل التبعات يوقفون للحساب، وأصحاب المشئمة هم المقصّرون الظالمون الذين سلك بهم الشّيطان سبله فأوردهم النّار وهم مهانون، وأمّا السّابقون فهم الفائزون الحائزون لقصب السّبق يسبقون الخلق إلى الجنّة من غير حساب، ويشمل هذا القسم الأنبياء والأولياء كشمول قوله عليه السلام: ساع سريع نجا، لهم.

ويشهد به ما في غاية المرام من تفسير الثّعلبي بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قسم الله الخلق قسمين، فجعلني في خيرها قسماً فذلك قوله تعالى:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الواقعة: ٢٧]

فأنا خير أصحاب اليمين، ثمّ جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلاثاً، فذلك قوله تعالى:

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨].

وأنا من خير السّابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خيرها بيتاً فذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]

هذا والأظهر بمقتضى الحال والمقام وبملاحظة إقراره الأنبياء في قسم رابع مستقل كما سبق ذكره في شرح الفصل السّابق، خروج الأنبياء من هذا القسم وإرادته بالسّاع السّريع نفسه الشّريف والنقباء من شيعته كسلمان وأبي ذر والمقداد، وبالطالب البطيء سائر الشّيعة، وبالمقصّر الجاحد لولايته، وقد فسّر السّابقون في الآية بذلك أيضاً.

كما رواه في «**غاية المرام**» من أمالي الشّيخ بإسناده عن ابن عبّاس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن قول الله عزّ وجلّ[1]:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢].

فقال: قال لي جبرائيل: ذلك عليّ وشيعته هم السّابقون إلى الجنّة المقرّبون من الله بكرامة لهم[2].

ويؤيّده ما رواه عليّ بن إبراهيم في تفسير قوله:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال: وهم النّقباء: أبو ذر والمقداد وسلمان وعمار ومن آمن وصدّق وثبت على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

ولمّا قسم النّاس إلى السّابقين واللاحقين والمقصّرين، أشار عليه السلام لهم إلى الطريق التي يجب سلوكها ونصب عليها أعلام الهدى ليوصل إلى حضرة الحقّ سبحانه وتعالى فقال: (**اليمين والشّمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادة**) الموصلة لسالكها إلى المطلوب وهي حظيرة القدس، وذلك لأنّ طريق السّالكين إلى الله إمّا العلم أو العمل، فالعلم طريق القوّة النّظرية، والعمل طريق القوّة العمليّة، وكلّ منهما محتوٍ برذيلتين هما طرفا التّفريط والإفراط، والوسط منهما هو العدل والطريق الوسطى هي الجادّة الواضحة لمن اهتدى.

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني: ٨/ ١٢٤، ومستدرك الوسائل: ٣/ ٤٣٣.

أقول: ولعلّه كنّى باليمين والشّمال عن طريق الجبت والطاغوت، وبالطريق الوسطى عن طريق الولاية له عليه السلام، وأشار بقوله مضلّة إلى كونهما في ضلالة فيضلان سالكين طريقهما البتّة، وبقوله هي الجادّة إلى وجوب سلوك الطريق الوسطى، وهي ولايته لكونها سالمة ومحفوظة من الضلالة منصوبة عليها أعلام الهداية فهو عليه السلام السّبيل الأعظم والصّراط الأقوم وولايته الطريق الوسطى والجادّة العظمى لأنّ جميع العباد إنما يصلون إلى الله تعالى إلى محبّته وجنّته وقربه والفوز لديه بما أعدّه لمن أطاعه بولايته ومحبّته وطاعته، وإنّما تصعد أعمال الخلق إلى الله إذا كانت جارية على سنّته وطريقته وكانت مأخوذة عنه بالتسليم له والردّ إليه وبالولاية له والبراءة من أعدائه وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

يعني أنّ الله لا يقبل من أحد عمله إلاّ من المتقي، وهو الذي أحبّ الله ورسوله وائتمر بأمره وانتهى عن نهيه ووالى ولي الله وعادى عدوّ الله، ومعنى المتقين في الباطن المتّقون من ولاية أعدائه عليه السلام وهم أهل الشّمال واليمين، فمن اتّقى سنّة أعدائه فهو المتقي، فكان عليه السلام هو الطريق إلى الله وولايته أيضاً طريق صعود الأعمال إليه تعالى.

وقد أشير إلى هذه الطرق الثّلاث أعني اليمين والشّمال والوسطى، وإلى التّحذير من الأوّلين ووجوب سلوك الأخيرة في غير واحد من الآيات والأخبار مثل ما رواه في **«غاية المرام»** من الكافي بإسناده عن بريد العجلي قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فكان جوابه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

يقول: الأئمّة الضّلال والدّعاة إلى النّار هؤلاء أهدى من آل محمد سبيلاً[١].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥٢]

وفيه من تفسير العياشي بإسناده عن بريد العجلي عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال: تدري ما يعني بصراطي مستقيماً؟ قلت: لا، قال: ولاية عليّ والأوصياء، قال: وتدري ما يعني فاتّبعوه؟ قلت: لا، قال: يعني عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، قال:

(١) البصائر للصفار: ٥٤، ودعائم الإسلام: ١/ ٢٠.

وتدري ما يعني بقوله: ولا تتبعوا السّبيل؟ قلت: لا، قال: ولاية فلان وفلان والله، قال: وتدري ما يعني فتفرّق بكم عن سبيله؟ قال: قلت: لا، قال: يعني سبيل عليّ بن أبي طالب عليه السلام[(١)].

وفيه عن الكليني بإسناده عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: قلت: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

قال: إنّ الله ضرب مثل من حاد عن ولاية عليّ عليه السلام كمن يمشي مكبّاً على وجهه لا يهتدي لأمره، وجعل من تبعه سوياً على صراط مستقيم؛ والصّراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام[(٢)].

وفيه عن ابن شهر آشوب عن ابن عبّاس كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحكم وعليّ بين يديه مقابله، ورجل عن يمينه، ورجل عن شماله، فقال ﷺ: اليمين وَالشّمال مضلّة، والطريق السّوي الجادة، ثمّ أشار صلى الله عليه وآله بيده إنّ هذا صراط عليّ مستقيم فاتّبعوه الآية[(٣)].

وفيه عن عليّ بن إبراهيم في «تفسيره» قال: حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علّي بن رئاب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: نحن والله سبيل الله الذي أمركم الله باتّباعه، ونحن والله الصّراط المستقيم، «ونحن والله الذين أمر الله بطاعتهم، فمن شاء فليأخذ من هنا، ومن شاء فليأخذ من هناك، لا تجدون[(٤)] عنها محيصاً»[(٥)].

وفيه عن سعد بن عبد الله في كتاب بصائر الدّرجات بإسناده عن زرّ بن حبيش عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعته يقول: إذا دخل الرّجل حفرته أتاه ملكان اسمهما منكر ونكير فأوّل ما يسألانه عن ربّه ثمّ عن نبيّه ثمّ عن وليّه فإن أجاب نجا، وإن تحيّر عذّباه، فقال رجل: فما حال من عرف ربّه ولم يعرف وليّه؟ قال: مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجدله سبيلاً، فذلك لا سبيل له، وقد قيل للنبيّ صلى الله عليه وآله: من وليّنا يا نبي الله؟ فقال: وليكم في هذا الزّمان عليّ ومن بعده وصيّه لكلّ زمان عالم يحتجّ الله به لئن يكون كما قال الضّلال قبلهم حين فارقتهم أنبياؤهم.

---

(١) البحار: ٣٥/ ٣٧١.
(٢) الكافي: ١/ ٤٣٣، والبحار: ٦٤/ ٥٧.
(٣) الكافي: ٨/ ٦٨، والمسترشد: ٤٠٥ ح ١٣٧.
(٤) في نسخة: عنّا والله محيصاً.
(٥) البحار: ٢٤/ ١٤، وتفسير القمي: ٢/ ٦٦.

﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

فما كان من ضلالتهم وهي جهالتهم بالآيات وهم الأوصياء فأجابهم الله عز وجلّ:

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

وإنّما كان تربصهم أن قالوا: نحن في سعة من معرفة الأوصياء حتّى نعرف إماماً فعيّرهم الله بذلك، والأوصياء هم أصحاب الصّراط وقوفاً عليه لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم عند أخذه المواثيق عليهم ووصفهم في كتابه، فقال عزّ وجلّ:

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].

وهم الشّهداء على أوليائهم والنّبي الشّهيد عليهم أخذلهم مواثيق العباد بالطاعة وأخذ النبي الميثاق بالطاعة فجرت نبوّته عليهم ذلك قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢].

وفيه عن محمّد بن العبّاس معنعناً عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

قال: عليّ صاحب الصّراط السّوي ومن اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت(١).

وإذا أحطت خبراً بما ذكرنا وظهر لك أنّ المراد بالطريق الوسطى هي ولايته عليه السلام المعبّر عنه تارة بالصراط السّوي، وأخرى بالصراط المستقيم، وثالثة بالطريق السّوي، ورابعة بسبيل الله الذي أمر الله باتّباعه، ظهر لك معنى قوله: (عليها باقي الكتاب) أي على الطريق الوسطى الباقي من الكتاب بعد وقوع التّحريف فيه أو عليها الكتاب الباقي بين الأمّة والثقل الأكبر الذي خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم.

وعلى أيّ تقدير فالمراد به أنّ من سلك طريق الولاية يحصل له العلم بالكتاب ويتيسّر له أخذه من قيمه والعالم به وهو صاحب الولاية المطلقة، لما قد عرفت التلازم وعدم الافتراق بين الثقلين الأكبر والأصغر في الفصل السّابع عشر من فصول الخطبة الأولى، وعرفت تفصيلاً في التّذييل الثّالث من تذييلات ذلك الفصل أنّ أمير المؤمنين والطيبين من آله عليهم السّلام هم العالمون بتنزيل الكتاب وتأويله وعامّه وخاصّه ومرسله ومحدوده ومجمله ومبيّنه وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وظاهره وباطنه، وأنّ علمه منحصر فهيم عليهم السلام وأنّ من

(١) بصائر الدرجات: ٥١٨.

(٢) بحار الأنوار: ٢٤/ ١٥٠.

ادّعى حمله وحفظه على ما أنزل والعلم بما فيه غير العترة الطاهرة فهو كذّاب، وفي بعض النّسخ عليها ما في الكتاب يعني مدار ما في الكتاب وقوامه على تلك الطريقة، هذا.

ويحتمل أن يكون المراد من كون باقي الكتاب أو ما في الكتاب عليها كونه منصوباً عليها، وعلماً يهتدي به إليها، إذ فيه دلالة على هذه الطريقة كما أنّ في الباقي منه على تقدير النّقصان ما فيه كفاية لوجوب سلوكها ولزوم متابعتها كالآيات السّالفة وغيرها من الآيات النّازلة في شأنه عليه السلام والمشيرة إلى ولايته.

وهذان الإحتمالان جاريان في قوله عليه السلام: **(وآثار النّبوة)** أي على هذه الطريقة أعلام النّبوة، وإماراتها، من سلكها يظهر له تلك الأعلام لكون الولاية مظهر النّبوة، وعلى الاحتمال الثّاني فالمعنى أنّ آثار النبوّة منصوبة على تلك الطريق بتلك الآثار يهتدى إليها ويستدل عليها، ولا يبعد أن يكون المراد بالآثار على هذا الاحتمال هو الأخبار النبوّية والرّوايات المنقولة عنه صلى الله عليه وآله (ومنها منفذ السّنة) النبويّة ومخرج الشريعة المحمّدية عليه وآله آلاف الثّناء والتّحية، إذ به وبالطيبين من أولاده سلام الله عليهم انتشرت الشّرائع والأحكام وعرف الحلال والحرام، واستقامت الشّريعة الطاهرة واستحكمت السنة الباهرة.

(وإليها مصير العاقبة) أي عاقبة الخلق في الدّنيا والآخرة، أمّا في الدّنيا فلأنّ نظام أمورهم في حركاتهم وسكناتهم مبنى على القوانين الشّرعيّة المأخوذة من هذه الطريقة، وإلى تلك القوانين ترد عواقب أمورهم، وعليها يحملون، وأمّا في الآخرة فواضح لأنّ إياب الخلق إليه صلى الله عليه وآله وإلى أولاده الطاهرين، وحسابهم عليهم وإليه الإشارة في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

أي إلى أوليائنا رجوعهم ومصيرهم بعد الموت، وعليهم جزاؤهم على أعمالهم، ويشهد بما ذكرته صريحاً ما ورد في فقرات الزّيارة الجامعة الكبيرة: وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم.

قال المحدّث المجلسي في شرح هذه الفقرة: أي رجوعهم في الدّنيا لأجل المسائل والزّيارات، وفي الآخرة لأجل الحساب، كما روى عنهم عليهم السّلام أنهم الميزان أي الحقيقي والواقعي، أو في الآخرة بقرينة وحسابهم عليكم كما قال تعالى أي إنّ إلينا أي إلى أوليائنا بقرينة إيابهم ثمّ إن علينا حسابهم.

وروى في الأخبار الكثيرة أن حساب الخلائق يوم القيامة إليهم ولا استبعاد في ذلك كما أنّ الله تعالى قرّر الشهود عليهم من الملائكة والأنبياء والأوصياء والجوارح مع أنّه تعالى قال:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

وهو القادر الدّيان يوم القيامة ويمكن أن يكون مجازاً باعتبار حضورهم مع الأَنبياء عند محاسبة الله إيّاهم، انتهى.

أقول: وما ذكره أولاً هو الأَظهر إذ المصير إلى المجاز إنّما هو مع تعذر إرادة المعنى الحقيقي، وأمّا مع الإمكان فلا، وقد دلت الأَخبار الكثيرة كما اعترف (ره) به أيضاً على أنّ المحاسب هم عليهم السّلام فيتعيّن إرادة الحقيقة.

ومن هذه الأَخبار ما في «**الكافي**» عن الباقر عليه السلام إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأوّلين والآخرين لفصل الخطاب دعى رسول الله صلى الله عليه وآله ودعى أمير المؤمنين فيكسى رسول الله صلى الله عليه وآله حلّة خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب ويكسي أمير المؤمنين عليه السلام مثلها ويكسي رسول الله صلى الله عليه وآله وردية يضيء لها ما بين المشرق والمغرب ويكسي عليّ عليه السلام مثلها، ثمّ يصعدان عندها، ثمّ يدعى بنا فيدفع إلينا حساب النّاس، فنحن والله ندخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار[1].

وعن الكاظم عليه السلام: وإلينا إياب هذا الخلق وعلينا حسابهم، فما كان لهم من ذنب بينهم وبين الله عزّ وجلّ حتمنا على الله في تركه لنا فأجابنا إلى ذلك، وما كان بينهم وبين النّاس استوهبناه منهم وأجابوا إلى ذلك وعوضهم الله عزّ وجلّ، هذا[2].

ويحتمل أن يكون المراد من قوله عليه السلام: (**وإليها مصير العاقبة**)، كون مدار عاقبة الخلق وخاتمتهم خيراً وشرّاً على الولاية، فإن كان العبد مذعناً بالولاية كانت عاقبته عاقبة خير، وإن كان منكراً لها كانت عاقبته عاقبة شرّ، كما دلت عليه الأخبار المتواترة والمستفيضة الواردة في تفسير قوله سبحانه:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مثل ما روى في «**غاية المرام**» عن الشّيخ في «**مصباح الأنوار**» بإسناده عن عبد الله بن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا كان يوم القيامة أقف أنا وعليّ على الصّراط بيد كلّ واحد منا سيف فلا يمرّ أحد من خلق الله إلاّ سألناه عن ولاية عليّ عليه السلام فمن معه شيء منها نجا وإلاّ ضربنا عنقه وألقيناه في النّار ثمّ تلا.

﴿الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢][3].

والأَخبار في هذا المعنى كثيرة لا حاجة إلى الإطالة (هلك من ادّعى) الإمامة من غير

(١) الكافي: ٨/ ١٥٩ ح ١٥٤،

(٢) الكافي: ٨/ ١٦٢، ومناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٠٢.

(٣) البحار: ٧/ ٣٣٢، وبشارة المصطفى: ٢٨٦ ح ٧.

استحقاق لها (وخاب من افترى) على الله وعلى رسوله في دعواه لها، والجملتان تحتملان الدّعاء والأخبار، والمراد بالهلاك الهلاك الأخروي وبالخيبة الحرمان والخسران كما أشير إليه في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

قال أبو عبد الله عليه السلام في مروي «البحار» من غيبة النعماني بإسناده عن ابن ظبيان عنه في «تفسيره»: من زعم أنه إمام وليس بإمام[١].

وفي «البحار» أيضاً من تفسير العيّاشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

قال: من ادّعى الإمامة دون الإمام[٢].

وعن عليّ بن ميمون الصّائغ عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: من ادّعى إمامة من الله ليست له، ومن جحد إماماً من الله، ومن قال: إنّ لفلان ولفلان نصيباً في الإسلام[٣].

ومن المحاسن بإسناده عن العلا عن محمّد قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله والحقّ قد ضلّوا بأعمالهم التي يعملونها[٤].

﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

(**ومن أبدى صفحته للحقّ هلك عند جهلة النّاس**) أراد به نفسه ونبه به على أنّ المتجرّد لإظهار الحقّ في مقابلة كلّ باطل ورد الجهّال من جهالاتهم وحملهم على مرّ الحقّ وصعبه في كلّ وقت يكون في معرض الهلاك بأيديهم وألسنتهم، إذ لا يعدم منهم من يوليه المكروه ويسعى في دمه.

ويشهد بذلك ما رواه السّيد المحدث الجزائري (ره) مرفوعاً في كتابه المسمّى بزهر الرّبيع أنّ الصادق عليه السلام سئل عن الخلفاء الأربعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما

(١) البحار: ١٥/ ١١٣، وغيبة النعماني: ٥٥.
(٢) بحار الأنوار: ٢٥/ ١١٣ ح ١٢.
(٣) تفسير العياشي: ١/ ١٧٨ ح ٦٤.
(٤) محاسن البرقي: ١/ ٩٣، والكافي: ١/ ١٨٤.

بال الشّيخين قد انتظمت لهما أمور الخلافة وجرت على أيديهم فتوح البلاد من غير معارضة أحد من المسلمين؟ وما بال عثمان وأمير المؤمنين عليه السلام لم تنتظم لهما أمور الخلافة بل قام المسلمون على عثمان وحصروه في داره وقتلوه وسط بيته، وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فثارت الفتن في زمن خلافته حتّى قتل النّاكثين والقاسطين والمارقين؟ فأجاب عليه السلام: «أنّ أمور تلك الدّنيا والخلافة فيها لا يجري بباطل بحت ولا بحقّ خالص، بل تجري بحقّ وبباطل ممزوجين»، فأمّا عثمان فأراد أن يجري أمور الخلافة بمحض الباطل فلم يتم له الأمر، وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فأراد أن يجري أحكامها على الطريقة المستقيمة والسّنن النّبويّة فلم يحصل له ما أراد، وأمّا الشّيخان فأخذا قبضة من الحقّ وقبضة من الباطل فجرت لهما الأمور كما أرادا.

ولمّا نبّه عليه السلام على معاندة الجهال للحقّ وأهله أشار إلى ما يترتب على صفة الجهالة وما هي ثمرة لها بقوله: **(وكفى بالمرء جهلا أن لا يعرف قدره)** ويتعدي طوره ويجهل رتبته ولا يتصوّر نفسه كآحاد النّاس، وهذا من أعظم المهلكات لكونه منشأ العجب والكبر والغرور الآنية وادّعاء ما ليس له بأهل كما في معاوية عليه الهاوية حيث لم يعرف رتبته وقدره وادّعى الخلافة وسعى في إهلاكه عليه السلام وإفساد الأمر عليه لإبداء صفحته للحق، وحمله النّاس على الطريقة المستقيمة والمحجّة البيضاء التي كانت مكروهة لذلك اللّعين بمقتضى طينته الخبيثة.

ثمّ نبّه عليه السلام على لزوم التّقوى بقوله: **(ولا يهلك على التقوى سنخ أصل)** كان بناؤه عليه إذ الأصل الذي كان بنيانه على التّقوى محال أن يهلك ويلحق بانيه خسران كما قال سبحانه:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

(ولا يظمأ عليه زرع قوم) لأنّ من زرع في أرض قلبه زرعاً أخروياً كالمعارف الإلهيّة والعقائد الحقّة وسقاها ماء التقوى وجعله مادّتها فلا يلحق ذلك الزّرع ظمأ، بل عليه ينشأ بأقوى ساق وأزكى ثمرة وقوله: **(فاستتروا بيوتكم)** قد عرفت في شرح الفصل السّابق أنّ هذا الكلام مسبوق بقوله عليه السلام: إنّ الله أدّب هذه الأمّة بالسّيف والسّوط وليس لأحد عند الإمام فيهما هوادة، أي شفاعة في تأخير التعزير أو تركه وهو وارد في مقام التّهديد والتّوعيد وإشارة إلى أنّه عليه السلام لا يأخذه في الله لومة لائم وأنّه لا يشفع عنده في إقامة الحدود والسّياسات ولا يعطل الأحكام بالشّفاعة كما عطلها من تقدّم عليه عليه السلام.

ولمّا نبههم على ذلك أمرهم بالاستتار في بيوتهم كي لا يجتمعوا على المنافرات والمفاخرات والمشاجرات فيحصل من اجتماعهم ما يوجب الحدّ والتعزير ولا يمكن له إسقاطه بالشّفاعة والهوادة، فالاستتار في البيوت كناية عن الاعتزال حسماً لمادة الفتن.

ولمّا كان قطع مادّة الفتنة سبباً لإصلاح ذات البين أردفه بقوله: (وأصلحوا ذات بينكم) ثمّ نبّه العصاة على استدراك عصيانهم بالرّجوع إلى التّوبة بقوله: (والتّوبة من ورائكم) قال الشّارح البحراني: وكونها وراء لأنّ الجواذب الإلهية إذا أخذت بقلب العبد فجذبته عن المعصية حتى أعرض عنها والتفت بوجه نفسه إلى ما كان معرضاً عنه من الندم على المعصية والتّوجه إلى القبلة الحقيقة فإنه يصدق عليه إذن أنّ التّوبة وراء أي وراء عقليّاً وهو أولى من قول من قال من المفسّرين أنّ ورائكم بمعنى أمامكم **(ولا يحمد حامد إلاّ ربّه ولا يلم لائم إلا نفسه)** جملتان خبريّتان في معنى الإنشاء يعني أنه يجب أن يكون حمد كلّ حامد لله سبحانه لكونه مبدأ جميع المحامد والخيرات، ويجب أن يكون لوم كلّ لائم على نفسه لكونها منشأ الشّرور والخطيئات كما قال تعالى:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]

والحمد لله والصّلاة على نبيّه ووليّه وآله.

الترجمة

مشغول گرديد آن كسى كه بهشت و دوزخ در پيش او است به اين ها از غير اين هاو مكلفين به اعتبار اشغال به اين ها سه فرقه اند:

يكى سعى نماينده به رضاى خداوند، شتابنده در سعى خود و نجات يافت به رحمت پروردگار؛

دومى طلب كننده خيرات كه كامل است در آن طلب اميدوار است به مغفرت كردگار؛

سومى تقصيركننده در طاعات كه فرود آمده است در جهنم. جانب راست و جانب چپ محل ضلالت و گمراهى است و راه ميانه آن جاده اى است درست و بر او است باقى كتاب واجب التكريم و علامت نبوت واجب التعظيم و از او است مخرج سنت مطهره و به او است بازگشت عاقبت خلق در دنيا و آخرت. هلاك شد كسى كه دعوى امامت نمود به باطل و فضول و نوميد گرديد كسى كه افترا بست به خداوند و رسول. كسى كه ظاهر گردانيد روى خود را از براى حق در مقابل باطل هلاك شد نزد مردمان نادان و جاهل و كفايت مى كند مراورا از حيث جهالت اين كه قدر خود را نشناسد و رتبه و شأن خود را نداند و هلاك نمى شود اصلى كه بناء آن پرهيزكارى بوده باشد و تشنه نمى باشد زراعت هيچ گروهى كه آبيارى آن از پرهيزكارى گردد، پس پنهان شويد در خانه هاى خودتان و اصلاح كنيد در ميان مردمان و توبه و پشيمانى در پيش شما است و بايد كه حمد و ثنا نكند هيچ ستايش كننده اى در روزگار مگر به پروردگار خود، به جهت اين كه او است منعم على الاطلاق و سزاوار تعظيم و اجلال و بايد كه ملامت نكند هيچ ملامت كننده اى مگر نفس خود را كه منشأ شرّ است و فساد.

ومن كلام له عليه السلام في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل وهو السابع عشر من المختار في باب الخطب الجاري مجراها

هذا الكلام الشريف رواه المفيد في «**الإرشاد**» من ثقات أهل النقل عند الخاصّة والعامّة، والطبرسي أيضاً في «**الاحتجاج**» مرسلاً عنه عليه السلام كالكتاب، وثقة الإسلام الكليني قدّس الله روحه في باب البدع والرّأي والمقاييس من أصول «**الكافي**» مسنداً تارة ومرفوعاً أخرى حسبما تعرفه، وأمّا ما ذكره الرّضي قدّس سرّه فهو أنه قال:

«إنَّ أبْغَضَ الْخَلْقِ إلى الله رَجُلانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إلى نَفْسِه، جائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبيلِ مَشْغُوفٌ بِكَلامِ بِدْعَةٍ، وَدُعاءِ ضَلالَةٍ فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ افْتَتَنَ بِهِ، ضالٌ عَنْ هُدى مَنْ كانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌ لِمَنِ اقْتَدى بِه في حَياتِه وبَعْدَ وَفاتِه، حَمّالُ خَطايا غَيرِه، رَهْنٌ بِخَطيئَتِه، ورَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً مَوْضِعٌ في جُهالِ الأمةِ، غارٌ في أغْباشِ الْفِتْنَةِ، عَم بِما في عَقْدِ الْهُدْنَةِ، قَدْ سَمّاهُ أشْباهُ النّاسِ عالِماً وَلَيْسَ بِه، بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ ما قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِما كَثُرَ، حَتى إذَا ارْتَوى مِنْ آجِنٍ، وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طائِلٍ، جَلَسَ بَيْنَ النّاسِ قاضِياً، ضامِناً لِتَخْليصِ مَا الْتَبَسَ عَلى غَيْرِه، فَإنْ نَزَلَتْ بِه إحْدَى الْمُبْهَماتِ هَيَّأ لَها حَشْواً رَثّاً مِنْ رأيِه، ثُمّ قَطَعَ بِه، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهاتِ مِثْلَ نَسجِ الْعَنْكَبُوتِ، لا يَدْري أصابَ أمْ أخْطَأ، فَإنْ أصابَ خافَ أنْ يَكُونَ قَد أخْطَأ، وإنْ أخطَأ رَجا أنْ يَكُونَ قَدْ أصابَ، جاهِلٌ خَبّاطُ جَهالاتٍ، عاشٍ رَكّابُ عَشَواتٍ، لَمْ يَعُضَّ عَلى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قاطِعٍ، يُذْرِي الرِّواياتِ إذْ راءَ الرّيحِ الْهَشيمَ، لامَليءٌ وَاللهِ بِإصْدارِ ما وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلا هُوَ أهْلٌ لِما فُوِّضَ إلَيْه، لا يَحْسِبُ الْعِلْمَ في شَيْءٍ مِمّا أنْكَرَهُ، وَلا يَرى أنَّ مِنْ وَراءِ ما بَلَغَ مِنْهُ مَذْهَباً لِغَيْره، وإنْ أظْلَمَ عَلَيْهِ أمْرٌ اكْتَتَمَ بِه، لِما يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِه، تَصْرَخُ مِنْ جَوْرِ قَضائِهِ الدِّماءُ، وَتَعِجُّ مِنْهُ الْمَواريثُ، إلَى اللهِ أشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعيشُونَ جُهّالاً، ويَمُوتُونَ ضُلالاً، لَيْسَ فيهِمْ سِلْعَةٌ أبْوَرُ مِنَ الْكِتابِ إذا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِه، وَلا سِلْعَةٌ أنْفَقُ بَيْعاً، وَلا أغْلى ثَمَناً مِنَ الْكِتابِ إذا حُرِّفَ عَنْ مَواضِعِه، ولا عِنْدَهُمْ أنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلا أعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ».

اللغة

(**وكله**) إلى نفسه بالتخفيف يكله وكلا ووكولاً تركه ونفسه و (**الجائر**) بإعجام الأوّل أو بإعجامهما وفي بعض نسخ «**الكافي**» بالمهملتين والمعاني متقاربة أي عادل أو متجاوز أو حيران (**عن قصد السبيل مشغوف**) بالغين المعجمة وفي بعض النسخ بالمهملة وبهما قرأ قوله تعالى: ﴿**قد شغفها حباً**﴾، وعلى الأوّل فهو مأخوذ من شغاف القلب أي حجابه أو سوايده،

وعلى الثّاني من الشّغف وهو شدّة الحبّ وإحراقه القلب و (**البدعة**) اسم من ابتدع الأمر إذا أحدثه كالرّفعة من الارتفاع والخلفة من الاختلاف و (**الهدى**) بفتح الأوّل وسكون الثّاني الطريقة والسّيرة أو بالضم والقصر وهو الرّشاد و (**رهن**)، وفي بعض النّسخ رهين أي مأخوذ و (**القمش**) جمع الشيء من ههنا وههنا و (**موضع**) بضمّ الميم وكسر الضاد مسرع من وضع البعير أسرع وأوضعه راكبه فهو موضع به أي أسرع به و (**غار**) بالغين المعجمة والرّاء المهملة المشدّدة أي غافل، وفي بعض النّسخ عاد بالعين والدّال المهملتين من العدو بمعنى السّعي أو من العدوان، وفي أكثر نسخ «**الكافي**» عان بالعين والنّون من قولهم عني فيهم أسيراً، أي قام فيهم على إسارة واحتبس وعناه غيره حبسه، والعاني الأسير، أو من عنى بالكسر بمعنى تعب أو من عني به فهو عان اشتغل واهتمّ به، و (**الأغباش**) جمع غبش كسبب وأسباب وهو ظلمة آخر اللّيل، وفي بعض النّسخ أغطاش الفتنة، والغطش أيضاً الظّلمة.

وعمى عماً كرضى ذهب بصره كلّه فهو أعمى و (**عم**) وهي عمياء وعمية والعمى أيضاً ذهاب بصر القلب والبكرة والبكور هو الصّباح و (**بكّر**) بالتّشديد والتخفيف إذا دخل فيه وكثيراً ما يستعملان في المبادرة والإسراع إلى شيء في أي وقت كان، ومنه الحديث بكّروا بصلاة المغرب أي صلوها عند سقوط القرص، وروى من الماء بالكسر و (**ارتوى**) امتلا من شربه والماء (**الآجن**) المتغير الطعم واللّون و (**اكتنز**) من الاكتناز وهو الاجتماع، وفي بعض النّسخ وأكثر وهو الظاهر.

و (**التخليص**) التّبيين وهو قريب من التّلخيص أو هما واحد و (**الحشو**) فضل الكلام و (**الرّث**) بفتح الرّاء والتّشديد الخلق ضد الجديد و (**عاش**) خابط في ظلام و (**العشوة**) بتثليث الأوّل الأمر الملتبس الذي لا يعرف وجهه مأخوذة من عشوة الليل أي ظلمته (**وذرت**) الريح الشيء ذروا واذرته إذراء أطارته وقلبته و (**الهشيم**) النّبت اليابس المنكسر، وفي بعض الرّوايات يذر والرّوايات ذرو الريح، وفي بعضها يذري الرّوايات ذر والرّيح الهشيم، وتوجيهه مع كون الذّر ومصدر يذرو لا يذري هو كونهما بمعنى واحد، حسبما عرفت فصحّ إقامة مصدر المجرّد مقام مصدر المزيد (**والمليء**) بالهمزة الثقة الغني قال الجزري: قد أولع النّاس بحذف الهمزة وتشديد الياء و (**يحسب**) إمّا بكسر السّين من الحسبان، وإمّا بالضم من الحساب و (**العجّ**) رفع الصّوت و (**السّلعة**) بالكسر المتاع و (**أبور**) أفعل من البور وهو الفاسد وبار الشّيء فسد وبارت السّلعة كسدت ولم ينفق، وهو المراد هٰهنا وأصله الفساد أيضاً و(**نفق**) البيع إذا راج.

الإعراب

قوله (**بكر فاستكثر**) من جمع ما قلّ منه خير ممّا كثر روى من جمع منوّناً وبغير تنوين،

أمّا بالتّنوين فيحتمل كونه بمعنى المفعول أي من مجموع، وكونه على معناه الحقيقي المصدري وعلى كلّ تقدير، **(فما)** موصولة مبتدأ **(وخير)** خبره، وقلّ صلتها وفاعل قلّ ضمير مستكن عائد إلى الاستكثار المفهوم من استكثر وضمير منه عائد إلى الموصول، والجملة مجرورة المحلّ لكونها بدلاً للجمع، وأمّا بدون التّنوين فالموصوف محذوف وهو المضاف إليه أي من جمع شيء الذي قلّ منه خير، **(فما)** على ذلك موصولة، ويحتمل كونها مصدرية أي من جمع شيء قلّته خير من كثرته.

وقيل: **(إنّ)** جمع مضاف إلى (ما) والمحذوف هو (أن) المصدريّة بعدها، **(وقلّ)** مبتدأ بتقديرها على حدّ، وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه، أي من جمع ما أن أقلّ منه أي قلّته خير، وفي رواية **«الكافي»** بكّر فاستكثر ما قلّ منه خير، وقوله: واكتنز من غير طائل إسناد اكتنز إلى فاعله وهو الرّجل الموصوف إمّا على سبيل المجاز أو في الكلام تقدير أي اكتنز له العلوم الباطلة، وعلى ما في بعض النّسخ من قوله: فأكثر من غير طائل لا يحتاج إلى تكلف، وضامناً إمّا صفة لقاضياً أو حال بعد حال.

المعنى

اعلم أنّ البغض كالحبّ الذي هو ضدّه لما كان من صفات النّفس أعني نفار النّفس عن الشيء وكان إسناده إليه سبحانه محالاً لا جرم ينبغي أن يراد به حيثما أسند إليه معناه المجازي أعني سلب الفيض والإحسان، وهذا المعنى هو المراد بقوله ﷺ: **(إنّ أبغض الخلائق إلى الله رجلان)** يمزجان بين الحقّ والباطل متشبّثان بذيل الشبهات والجهالات يحسبان أنّهما من علوم الدّين ومراتب اليقين.

وإنّما كانا أبغض الخلائق باعتبار أنّ ضررهما النّاشيء من جهالتهما بأمر الدّين لم يكن راجعاً إلى أنفسهما فقط، بل متعدّياً إلى الغير وسارياً إلى الأتباع وباقياً في الأعقاب إلى يوم القيامة، فكانا مع ضلالتهما في نفسهما مضلّين لغيرهما عن سلوك جادة اليقين وتحصيل معارف الدّين، فلذلك كانا أبغض الخلائق.

وكيف كان فأحمد الرّجلين **(رجل وكله الله إلى نفسه)** أي فوّض إليه أمره وخلاه ونفسه وجعل وكوله واعتماده عليها لظنّه الاستقلال في نفسه على القيام بمصالحه وزعمه القدرة على تحصيل المراد، والوصول إليه بالرأي والقياس والاستحسانات الفاسدة التي لا أصل لها، والرّوايات التي لم تؤخذ من مأخذها فلا جرم أفاض الله عليه صورة الاعتماد على نفسه فيما يريده من أمور الدّين وقوانين الشّرع المبين فلم يدر أنّه هلك في أيّ واد:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وحيث إنه كان اعتماده عليه **(فهو جائر عن قصد السّبيل)** ومائل عن طريق الحقّ وضالّ عن الصّراط المستقيم وواقع في طرف الإفراط من فضيلة العدل قريب من الشّر بعيد عن الخير، كما ورد في بعض الأدعية: ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، فإنك إن وكلتني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير.

وسر ذلك أنّ النّفس بالذّات مائلة إلى الشرّ، فإذا سلبت عنها أسباب التوفيق والهداية تاهت في طريق الضلالة والغواية **(مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة)** أي دخل حبّ كلام البدعة ودعوته النّاس إلى الضلالة شغاف قلبه أي حجابه أو سويد (اه)، وعلى كونه بالعين المهملة فالمعنى أنّه غشى حبّها قلبه من فوقه إذ الشّغفة من القلب رأسه عند معلّق النّياط، وهو عرق علق به القلب إذا انقطع مات صاحبه، وعلى أيّ تقدير فالمقصود به كونه أشدّ حبّاً وأفرط ميلاً إلى كلامه الذي لا أصل له في الدّين ودعوته المضلة عن نهج اليقين، فهو من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا فهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

كما قال رسول الله ﷺ: «كلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار»[١].

وعنه ﷺ أيضاً في رواية «**الكافي**»: أبى الله لصاحب البدعة بالتّوبة، قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: إنّه قد أشرب قلبه حبّها[٢].

ولا بأس بتحقيق الكلام في معنى البدعة، وقد عرفت معناها اللغوي وغلبت في العرف على ما هو زيادة في الدّين أو نقصان منه، وقيل: كلّ ما لم يكن في زمن النبيّ ﷺ فهو بدعة.

وردّه الأَردبيلي بمنع الشّرطيّة وقال: البدعة هي كلّ عبادة لم تكن مشروعة ثمّ أحدثت بغير دليل شرعي أو دلّ دليل شرعي على نفيها، فلو صلى أو دعى أو فعل غير ذلك من العبادات مع عدم وجودها في زمانه ﷺ فإنّه ليس بحرام لأنّ الأصل كونها عبادة ولغير ذلك مثل الصّلاة خير موضوع والدّعاء حسن، انتهى، وأنت خبير بما في تخصيصها بالعبادات لظهور عمومها لها ولغيرها.

والتّحقيق فيها ما ذكره الشّهيد (قده) في القواعد قال في «**محكى كلامه**»: ومحدثات الأمور بعد عهد النبيّ ﷺ تنقسم أقساماً لا يطلق اسم البدعة عندنا إلاّ ما هو محرّم عندنا.

أوّلها: الواجب كتدوين القرآن والسنّة إذا خيف عليها التفلت من الصّدور، فإنّ التّبليغ للقرون الآتية واجب إجماعاً ولا يتم إلاّ بالحفظ، وهذا في زمن الغيبة واجب، وأمّا في زمان

---

(١) شرح مسلم للنووي: ١٢/٢٣٧.

(٢) محاسن البرقي: ١/٢٠٧ ح ٦٩، والكافي: ١/٥٤ ح ٤.

ظهور الإمام عليه السلام لأنّه الحافظ لها حفظاً لا يتطرق إليه خلل.

وثانيها: المحرّم؛ وهو كلّ بدعة تناولتها قواعد التّحريم وأدلته من الشريعة كتقديم غير المعصومين عليهم وأخذهم مناصبهم واستيشار ولاة الجور بالأموال ومنعها مستحقّها وقتال أهل الحقّ، وتشريدهم وإبعادهم والقتل على الظنّة والإلزام ببيعة الفسّاق والمقام عليها وتحريم مخالفتها والغسل في المسح والمسح على غير القدم، وشرب كثير من الأشربة، والجماعة في النّوافل والأذان الثاني يوم الجمعة، وتحريم المتعين، والبغي على الإمام وتوريث الأباعد ومنع الأقارب، ومنع الخمس أهله والإفطار في غير وقته إلى غير ذلك من المحدثات المشهورات، ومنها تولية المناصب غير الصّالح لها ببذل أو إرث أو غير ذلك.

وثالثها: المستحبّ وهو ما تناولته أدلة النّدب كبناء المدارس والرّبط، وليس منه اتخاذ الملوك الأهبة ليعظموا في النّفوس اللّهم إلاّ أن يكون مرهباً للعدوّ.

ورابعها: المكروه، وهو ما شملته أدلة الكراهة كالزّيادة في تسبيح الزّهراء عليها السّلام، وسائر الموظّفات أو النقيصة منها والتنعّم في الملابس والمآكل بحيث يبلغ الإسراف بالنّسبة إلى الفاعل، وربّما أدّى إلى التّحريم إذا استضربه هو وعياله.

وخامسها: المباح، وهو الدّاخل تحت الأدلة المباحة كنخل الدّقيق فقد ورد أوّل شيء أحدثه النّاس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله اتّخاذ المناخل لأنّ لين العيش والرّفاهية من المباحات فوسيلته مباحة، انتهى كلامه رفع مقامه.

وقد تحصل من ذلك أنّ البدعة عبارة عن محدثات الأمور المحرّمة وأنّ الرّجل الموكول إلى نفسه الجائر عن قصد السّبيل قد شغف بها وبدعوته إلى الضلالة ومن أجل ذلك كان سبباً لضلالة من أجاب دعوته (فهو فتنة لمن افتتن به) وبلاء لمن اتبع له (ضالّ عن هدى من كان قبله) أي عن سيرة أئمة الدّين وطريقة أعلام اليقين الذين أخذوا العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية بإلهام إلهي وإرشاد نبوي، وذلك من حيث اغتراره بنفسه وإعجابه بكلامه واستقلاله برأيه واستغنائه بما اخترعه فهمه وما ابتدعه وهمه عن الرّجوع إليهم والعكوف عليهم.

كما قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: لعن الله أبا حنيفة كان يقول: قال عليّ وقلت أنا، وقالت الصّحابة وقلت هذا[1].

وعلى كون (هدى) في كلامه عليه السلام بضمّ الهاء والألف المقصورة فالمراد به كونه ضالاً عن الصّراط المستقيم مع وجود هدى قبله مأمور باتباعه وهو كتاب الله وسنّة رسوله وأعلام هداه الحاملون لدينه، لما أشرنا إليه من استبداده برأيه الفاسد ونظره الكاسد نظير ما صدر عن

(١) المحاسن للبرقي: ١/٢١٣ ح ٩١، والكافي: ١/٥٦ ح ٩.

أبي حنيفة ونظرائه.

كما حكاه الزّمخشري في «ربيع الأبرار» قال: قال يوسف بن أسباط: ردّ أبو حنيفة على النبيّ ﷺ أربعمائة حديث أو أكثر قيل: مثل ماذا؟ قال: قال رسول الله ﷺ: للفرس سهمان، وقال أبو حنيفة: لا أجعل سهم بهيمة أكثر من سهم المؤمن وأشعر رسول الله ﷺ وأصحابه البدن، وقال أبو حنيفة: الإشعار مثلة، وقال رسول الله ﷺ: البيعان بالخيار ما لم يفترقا[1]، وقال أبو حنيفة إذا وجب البيع فقد لزم، وكان ﷺ يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً، وقال أبو حنيفة: القرعة قمار، انتهى.

(مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد موته) وذلك لأن من كان ضالاً في نفسه ومشغوفاً بكلامه البدعة ودعاته الضّالة لا بدّ أن يكون مضلاً وسبباً لا ضلال غيره في حال حياته وهو ظاهر، وبعد مماته أيضاً من حيث بقاء العقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة المكتسبة عنه بعده، ألا ترى كيف بقي مذهب أبي حنيفة والشّافعي وأحمد بن حنبل ومالك وغيرها من المذاهب المبتدعة والآراء المخترعة المضلة إلى الآن؟ وتبقى إلى ظهور صاحب الزمان فتبعها جمع كثير وتضلّ بهما جمّ غفير، ولذلك صار هذا الرّجل المضلّ **(حمّال خطايا غيره)** كحمله خطايا نفسه حيث كان سبباً لضلالته فهو **(رهن بخطيئته)** كما أنّه رهين بخطيئة غيره مأخوذ بها ومعاقب عليها كما قال سبحانه:

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥].

قال الفخر الرّازي: إنّه يحصل للرّؤساء مثل أوزار الأتباع، والسّبب فيه ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيّما داع دعا إلى الهدى فاتّبع كان له مثل أجر من اتبعه لا ينقص من أجورهم شيء، وأيّما داع دعا إلى ضلالة فاتّبع كان عليه مثل وزر من اتّبعه لا ينقص من آثامهم شيء».

وأعلم أنّه ليس المراد أنّه تعالى يوصل العقاب الذي يستحقّه الأتباع إلى الرّؤساء، لأن هذا لا يليق بعدل الله والدّليل عليه قوله تعالى:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] وقوله﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨].

بل المعنى أنّ الرّئيس إذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه حتّى أنّ ذلك العقاب يكون مساوياً لكلّ ما يستحقّه كلّ واحد من الأتباع.

---

(١) عوالي اللآلي: ٣/٢٠٩، والمهذب البارع: ٢/٣٧٤.

قال الواحدي: لفظة (من) في قوله: ومن أوزار الذين يضلونهم، ليست للتّبعيض لأنّها لو كانت للتّبعيض لخفف عن الأتباع بعض أوزارهم وذلك غير جائز لقوله ﷺ من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، ولكنّها للجنس أي ليحملوا من جنس أوزار الأتباع، هذا.

ولمّا فرغ من أوصاف أوّل الرّجلين أشار إلى ثانيهما، وذكر له أحداً وعشرين وصفاً.

الأوّل: ما أشار إليه بقوله: **(ورجل قمش جهلاً)** أي جمعه من أفواه الرّجال أو من الرّوايات الغير الثّابتة عن الحجّة أو ممّا اخترعه وهمه بالقياس والاستحسان واستعار لفظ الجمع المحسوس للمعقول بقصد الإيضاح.

الثاني: أنّه **(موضع في جهّال الأمّة)** يعني أنّه مسرع بين الجهال أو أنّه مطرح فيهم وضيع ليس من أشراف النّاس على ما ذكره البحراني من كون وضع بفتح الضّاد، وقال إنّه يفهم منه أنّه خرج في حقّ شخص معيّن وإن عمّه وغيره.

الثّالث: أنّه **(غار في أغباش الفتنة)** أي غافل في ظلمات الخصومات لا يهتدي إلى قطعها سبيلاً، وقد مرّ فيه وجوه أخرى في بيان اللغة.

الرّابع: أنّه **(عم بما في عقد الهدنة)** يعني أنّه عميت بصيرته عن إدراك مصالح المصالحة بين النّاس فهو جاهل بالمصالح مثير للفتن.

الخامس: أنّه **(قد سمّاه أشباه النّاس عالماً وليس به)** والمراد بأشباه النّاس العوام والجهّال لخلوهم عن معنى الإنسانية وحقيقتها وهم يشبهون النّاس في الصّورة الظاهرة الحسية التي بها يقع التمايز على سائر الصّور البهيمية، ولا يشبهون في الصّور الباطنية العقلية التي هي معيار المعارف اليقينية والعلوم الحقيقيّة، فهؤلاء الأشباه لفقد بصائرهم ونقصان كمالاتهم ينخدعون بتمويه ذلك الرّجل ويزعمون من تلبّسه بزيّ العلماء أنّه عالم مع أنّه ليس بعالم.

السّادس: أنّه **(بكر فاستكثر من جمع ما قلّ منه خير ممّا كثر)** يعني أنّه أسرع وبادر في كلّ صباح، وهو كناية من شدة اهتمامه وطلبه في كلّ يوم أو في أوّل العمر إلى جمع شيء فاستكثر منه ما قليله خير من كثيره، أو قلته خير من كثرته، والمراد بذلك الشيء إمّا زهرات الدّنيا وأسبابها، ويؤيّده مناسبته لما قبله يعني أنّه لم يطلب العلم، ولكن طلب أسباب الدّنيا التي قليلها خير من كثيرها، هذا إن كان جمعها على وجه الحلال وإلا فلا خير فيه أصلاً، وإمّا الشبهات المضلة والآراء الفاسدة والعقائد الباطلة، ويؤيّده زيادة ارتباط ذلك بما بعده، وعلى التّقديرين فيه تنبيه على غاية بعده عن الحقّ والعلم لرسوخ الباطل في طبعه وثبوته في ذهنه.

السّابع: ما يترتب على بكوره واستكثاره من جمع الشّبهات، وهو ما أشار إليه بقوله: **(حتّى إذا ارتوى من آجن)** يعني حصل له الامتلاء من شرب الماء الآجن المتعفّن **(واكتنز)** أي

اجتمعت له العلوم الباطلة **(من غير طائل)** ولا فائدة يتصوّر فيها **(جلس بين النّاس قاضياً)** استعار الآجن للشّبهات الفاسدة والأفكار الباطلة والعلوم الحاصلة له من الاستحسانات والأقيسة، كما يستعار عن العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية بالماء الصّافي الزّلال، ثمّ وشح تلك الاستعارة بذكر الارتواء وجعل غايته المشار إليها من ذلك الاستكثار جلوسه بين النّاس قاضياً.

الثامن: كونه **(ضامناً لتخليص ما التبس على غيره)** لوثوقه من نفسه بفصل ما بين النّاس من الخصومات والمرافعات وظنه القابليّة لقطع المنازعات، ومنشأ ذلك الوثوق والإطمئنان هو زعمه أن العلوم الحاصلة له من آرائه الفاسدة وأقيسته الباطلة علوم كاملة كافية في تخليص الملتبسات وتلخيص المشكلات مع أنّها ليست بذلك.

التاسع: ما أشار إليه بقوله: **(فإن نزلت به إحدى المبهمات هيّأ لها حشواً رثّاً من رأيه ثمّ جزم به)** يعني أنّه إذا نزلت به إحدى المسائل المبهمة المشكلة الملتبس عليه وجه فصلها وطريق حلّها هيّأ لها كلاماً لا طائل تحته ولا غناء فيه وأعد لحلّها وجهاً ضعيفاً من رأيه، ثمّ قطع به كما هو شأن أصحاب الجهل المركب.

العاشر: ما نبّه عليه بقوله: **(فهو من لبس الشّبهات في مثل نسج العنكبوت)** نسج العنكبوت مثل للأمور الواهية كما قال سبحانه:

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال الشارح البحراني: ووجه هذا التّمثيل أنّ الشّبهات التي تقع على ذهن مثل هذا الموصوف إذا قصد حلّ قضيّة تكثر فيلتبس على ذهنه وجه الحقّ منها فلا يهتدي له لضعف ذهنه، فتلك الشبهات في الوهن تشبه نسج العنكبوت، وذهنه فيها يشبه ذهن الذّباب الواقع فيه، فكما لا يتمكّن الذّباب من خلاص نفسه من شباك العنكبوت لضعفه، فكذا ذهن هذا الرّجل لا يقدر على التخلص من تلك الشّبهات، وقال المحدث المجلسي بعد نقله كلام البحراني هذا: أقول: ويحتمل أيضاً أن يكون المراد تشبيه ما يلبّس على النّاس من الشّبهات بنسج العنكبوت لضعفها وظهور بطلانها، لكن تقع فيها ضعفاء العقول فلا يقدرون على التّخلص منها لجهلهم وضعف يقينهم، والأوّل أنسب بما بعده.

الحادي عشر: أنّه **(لا يدري أصاب)** فيما حكم به **(أم أخطأ فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب)** وخوف الخطأ مع الإصابة ورجاء الإصابة مع الخطأ من لوازم عدم الدّراية في الحكم والافتاء.

الثّانية عشر: أنّه **(جاهل خبّاط جهالات)** أراد به أنّه جاهل بالأحكام كثيراً لخبط في جهلاته، كنّى به عن كثرة أغلاطه التي يقع فيها في القضايا والأحكام فيمشي فيها على غير

طريق الحقّ من القوانين، وذلك معنى خبطه مأخوذ من خبط العشواء وهي النّاقة التي في بصرها ضعف تخبط بيدها كلّ شيء إذا مشت.

الثّالث عشر: أنّه **(عاش ركاب عشوات)** يعني أن به عشاوة وسوء بصر بالليل والنّهار وأنّه كثير الرّكوب على الأمور الملتبسة المظلمة، قال الشّارح البحراني (ره) وهي إشارة إلى أنّه لا يستنتج نور الحقّ في ظلمات الشّبهات إلاّ على ضعف ونقصان في نور بصيرته، فهو يمشي فيها على ما يتخيّله دون ما يتحقّقه من الصّفة هذه، أي وكثيراً ما يكون حاله كذلك، ولما كان من شأن العاشي إلى الضّوء في الطرق المظلمة تارة يلوح له فيمشي عليه، وتارة يخفي عنه فيضلّ عن القصد ويمشي على الوهم والخيال كذلك حال السّالك في طرق الدّين من غير أن يستكمل نور بصيرته بقواعد الدّين ويعلم كيفيّة سلوك طرقه، فإنّه تارة يكون نور الحق في المسألة ظاهراً فيدركه، وتارة تغلب عليه ظلمات الشّبهات فتعمى عليه الموارد والمصادر فيبقى في الظلمة خابطاً وعن القصد جائراً.

الرّابع عشر أنّه **(لم يعضّ على العلم بضرس قاطع)** وهو كناية عن عدم نفاذ بصيرته في العلوم وعدم اتقانه للقوانين الشّرعية لينتفع بها انتفاعاً تامّاً، يقال فلان لم يعضّ على العلم بضرس قاطع إذا لم يحكمها ولم يتقنها، وأصله أن الإنسان يمضغ الطعام الذي هو غذاؤه، ثمّ لا يجيّد مضغه لينتفع به البدن انتفاعاً تامّاً فمثل به من لم يحكم ولم يتقن ما يدخل فيه من المعقولات التي هي غذاء الرّوح لتنتفع به الرّوح انتفاعاً كاملاً.

الخامس عشر: أنّه **(يذري الرّوايات إذراء الرّيح الهشيم)** اليابس من النّبات المنكسر وفيه تشبيه تمثيلي ووجه الشّبه صدور فعل بلا رويّة من غير أن يعود إلى الفاعل نفع وفائدة، فإنّ هذا الرّجل المتصفّح للرّوايات ليس له بصيرة بها ولا شعور بوجه العمل عليها، بل هو يمرّ على رواية بعد أخرى ويمشي عليها من غير فائدة، كما أنّ الرّيح التي تذري الهشيم لا شعور لها بفعلها ولا يعود إليها من ذلك نفع.

السّادس عشر: أنّه **(لا مليء والله بإصدار ما ورد عليه)** أي ليس له من العلم والثّقة قدر ما يمكنه أن يصدر عنه انحلال ما ورد عليه من الشّبهات والإشكالات.

السّابع عشر: ما في بعض نسخ الكتاب من قوله: **(ولا هو أهل لما فوض إليه)** أي: ليس هو بأهل لما فوضه إليه النّاس من أمور دينهم، وأكثر النسخ خال من ذكر هذا الوصف، وفي رواية **«الكافي»** الآتية ولا هو أهل لما منه فرط بالتخفيف بمعنى سبق وتقدّم أي ليس هو أهل لما ادّعاه من علم الحقّ الذي من أجله سبق النّاس وتقدّم عليهم بالرّئاسة والحكومة، وربّما يقرأ بالتشديد أي ليس هو من أهل العلم كما يدّعيه لما فرّط فيه وقصّر عنه، وعن الإرشاد ولا يندم على ما منه فرط، وقال الشّارح المعتزلي: وفي كتاب ابن قتيبة ولا أهل لما

فرّط به قال: أي ليس بمستحقّ للمدح الذي مدح به.

الثامن عشر: أنه **(لا يحسب العلم في شيء ممّا أنكره)** ولم يعرفه يعني أنّ ذلك الرّجل يعتقد أنّ ماله من العلم المغشوش المدلس بالشّبهات الذي يكون الجهل خيراً منه بمراتب هو العلم ولا يظنّ لغاية جهله وجود العلم لأحد في شيء ممّا جهله لاعتقاده أنّه أعلم العلماء وأنّ كلّ ما هو مجهول له مجهول لغيره بالطريق الأولى، وعلى احتمال كون يحسب من الحساب على ما مرّت إليه الإشارة فالمعنى أنّه لا يعدّ ما ينكره علماً ولا يدخله تحت الحساب والاعتبار بل ينكره كسائر ما أنكره.

التّاسع عشر: ما أشار إليه بقوله: **(ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ منه مذهباً لغيره)** يعني أنّه لوفور جهله يظن أنّه بلغ غاية العلم فليس بعد ما بلغ إليه فكره لأحد موضع تفكر ومذهب صحيح.

العشرون: ما نبّه عليه بقوله: **(وإن أظلم عليه أمراً اكتتم به)** أي إن صار عليه أمر من أمور الدّين مظلماً مشتبهاً لا يدري وجه الحقّ فيه ولا وجه الشّبهة أيضاً اكتتم به وستره من غيره من أهل العلم وغيرهم وذلك **(لما يعلم من جهل نفسه)** بذلك الأمر وعدم معرفته به حتّى من وجه الشّبهة والرّأي فيستره ويخفيه ولا يسأله من غيره ولا يصغي إلى غيره حتّى يستفيده، وذلك لئلا يقال: إنّه لا يعلمه فيحفظ بذلك علوّ منزلته بين النّاس كما هو المشاهد من قضاة السّوء، فإنّهم كثيراً ما يشكل عليهم الأمر في القضايا والأحكام فيكتتمون ما أشكل عليهم ولا يسألون أهل العلم عنه لئلا يظهر جهلهم بين أهل الفضل مراعاةً لحفظ المنزلة والمناصب.

الحادي والعشرون: أنه **(تصرخ من جور قضائه الدّماء وتعج منه المواريث)** ويستحلّ بقضائه الفرج الحرام ويحرم بقضائه الفرج الحلال، كما في **«رواية الكافي»** الآتية ونسبة الصّراخ إلى الدّماء والعجيج إلى المواريث، إمّا من قبيل الحذف والإيصال، أي تصرخ أولياء الدّماء وتعجّ مستحقّوا المواريث، أو من قبيل المجاز في الإسناد على نحو صام نهاره مبالغة على سبيل التّمثيل والتّخييل بتشبيه الدّماء والمواريث بالإنسان الباكي من جهة الظلم والجور وإثبات الصّراخ والعجيج لهما، أو من قبيل الاستعارة التحقيقيّة التبعيّة باستعارة لفظ الصّراخ والعجيج لنطق الدّماء والمواريث بلسان حالها المفصح عن مقالها، ووجه المشابهة أنّ الصّراخ والعجّ لما كانا يصدران من ظلم وجور وكانت الدّماء المهراقة والمواريث المستباحة بالأحكام الباطلة ناطقة بلسان حالها مفصحة بالتظلم والشّكاية، لا جرم حسن تشبيه نطقها بالصّراخ والعجّ واستعارتهما له، فالمعنى أنّه تنطق الدّماء والمواريث بالشّكاية والتظلم من جور قضاياه وأحكامه.

وأمّا استحلال الفرج الحرام بقضائه وتحريم الفرج الحلال، فإمّا من أجل جهله بالحكم

أو لخطئه وسهوه في موضع الحكم لعدم مراعاة الاحتياط أو لوقوع ذلك منه عمداً لغرض دنيوي كالتقرب بالجائر أو أخذ الرّشوة أو نحو ذلك.

ثمّ أنه عليه السلام بعد أن خصّ الرجلين المذكورين بما ذكر فيهما من الأوصاف المنفرة على سبيل التفصيل، أردف ذلك بالتنفير عنهما على الإجمال بما يعمهما وغيرهما من سائر الجهال والضلال فقال: (**إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً**) والثاني مسبّب عن الأوّل إذ العيش على الجهالة يؤدّي إلى الموت على الضّلالة (**ليس فيهم سلعة**) ومتاع (**أبور من الكتاب إذا تلى حقّ تلاوته**) يعني إذا فسّر الكتاب وحمل على الوجه الذي أنزل عليه وعلى المعنى الذي أريد منه اعتقدوه فاسداً وطرحوه لمنافاة ذلك الوجه والمعنى لأغراضهم (**ولا سلعة أنفق بيعاً**) أي أكثر رواجاً (**ولا أغلى ثمناً إذا حرّف عن مواضعه**) ومقاصده الأصليّة ونزل على حسب أغراضهم ومقاصدهم ومنشأ كلّ ذلك وأصله هو الجهل (**ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر**) وذلك لأنّ المعروف لما خالف أغراضهم ومقاصدهم طرحوه حتّى صار منكراً بينهم يستقبحون فعله، والمنكر لما وافق دواعيهم ولائم طباعهم لزموه حتّى صار معروفاً بينهم يستحسنون إتيانه، هذا.

وينبغي الإشارة إلى الفرق بين الرّجلين الموصوفين فأقول:

قال الشّارح المعتزلي: فإن قيل: بيّنوا الفرق بين الرّجلين اللذين أحدهما وكله الله إلى نفسه والآخر رجل قمش جهلاً؟ قيل: أمّا الرّجل الأوّل فهو الضّال في «**أصول العقائد**» كالمشبّه والمجبّر ونحوهما، ألا تراه كيف قال: مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة، وهذا يشعر بما قلناه من أنّ مراده به المتكلم في أصول الدّين وهو ضالّ عن الحقّ، ولهذا قال: إنّه فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هدى من قبله مضلّ لمن يجيء بعده، وأمّا الرّجل الثّاني فهو المتفقه في فروع الشّرعيّات وليس بأهل لذلك كفقهاء السوء ألا تراه كيف يقول: جالس بين النّاس قاضياً، وقال أيضاً: تصرخ من جور قضائه الدّماء وتعجّ منه المواريث.

وقال المحدث المجلسي (قده) في كتاب مرآة العقول بعد حكاية كلام الشّارح على ما حكيناه: أقول: ويمكن الفرق بأن يكون المراد بالأوّل من نصب نفسه لمناصب الإفادة والإرشاد، وبالثاني من تعرض للقضاء والحكم بين النّاس ولعله أظهر.

ويحتمل أيضاً أن يكون المراد بالأوّل العباد المبتدعين في العمل والعبادة كالمتصوّفة والمرتاضين بالرّياضات الغير المشروعة، وبالثّاني علماء المخالفين ومن يحذو حذوهم حيث يفتون النّاس بالقياسات الفاسدة والآراء الواهية، وفي «**الإرشاد**» وأن أبغض الخلق عند الله عزّ وجلّ رجل وكله الله إلى نفسه، إلى قوله: رهن بخطيئته وقد قمش جهلاً، فالكلّ صفة لصنف واحد.

تكملة استبصارية

إعلم أنّك قد عرفت الإشارة إلى أنّ هذا الكلام له عليه السلام ممّا رواه ثقة الإسلام الكلينيّ في «الكافي» وصاحب «الاحتجاج» عطر الله مضجعهما فأحببت أن أذكر ما في الكتابين اعتضاداً لما أورده الرّضي (ره) في الكتاب ومعرفة تلك بمواقع الاختلاف بين الرّوايات فأقول:

روى في «الكافي» عن محمّد بن يحيى عن بعض أصحابه وعليّ بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام وعليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب رفعه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

من أبغض الخلق إلى الله تعالى لرجلين: رجل وكله الله تعالى إلى نفسه فهو جائر عن قصد السّبيل مشغوف بكلام بدعة قد لهج بالصّوم والصّلاة فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد موته حمّال خطايا غيره رهن بخطيئته.

ورجل قمش جهلاً في جهّال النّاس عان بأغباش الفتنة قد سمّاه أشباه الناس عالماً ولم يغن فيه يوماً سالماً، بكر فاستكثر ما قلّ منه خير ممّا كثر حتّى إذا ارتوى من آجن واكتنز من غير طائل جلس بين النّاس قاضياً ضامناً لتلخيص (لتخليص خ) ما التبس على غيره، وإن خالف قاضياً سبقه لم يأمن أن ينقض حكمه من يأتي بعده كفعله بمن كان قبله، وإن نزلت به إحدى المبهمات المعضلات هيّأ لها حشواً من رأيه ثم قطع.

فهو من لبس الشبهات في مثل غزل العنكبوت لا يدري أصاب أم أخطأ لا يحسب العلم في شيء ممّا أنكر ولا يرى أنّ وراء ما بلغ فيه مذهباً، إن قاس شيئاً بشيء لم يكذب نظره، وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه لكي لا يقال له: لا يعلم، ثمّ جسر فقضى فهو مفاتيح[1] عشوات ركاب شبهات خباط جهالات لا يعتذر ممّا لا يعلم فيسلم، ولا يعض في العلم بضرس قاطع فيغنم يذري الرّوايات ذر والرّيح الهشيم تبكي منه المواريث وتصرخ منه الدّماء ويستحل بقضائه الفرج الحرام، ويحرم بقضائه الفرج الحلال لا مليء بإصدار ما عليه ورد، ولا هو أهل لما منه فرط، من ادعائه علم الحقّ[2].

وفي «الاحتجاج» وروى أنّه عليه السلام قال: «إنّ أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السّبيل؛ سائر بغير علم ولا دليل، مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هدى من كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمّال خطايا غيره، رهن بخطيئته.

---

(١) في نسخة: مفتاح.

(٢) البحار: ١٠٣/٢، وكشف اليقيني للحلي: ١٨٨.

ورجل قمش جهلاً فوضع في جهله الأمة، عان بأغباش فتنتة، قد لهج منها بالصّوم والصّلاة، عم بما في عقد الهدنة قد سمّاه الله عارياً منسلخاً، وقد سمّاه أشباه الناس[١] عالماً، ولما يغن في العلم يوماً سالماً، بكر فاستكثر من جمع ما قلّ منه خير ممّا كثر حتّى إذا ارتوى من آجن، وأكثر من غير طائل جلس بين النّاس مفتياً قاضياً ضامناً لتخليص[٢] ما التبس على غيره.

إن خالف من سبقه لم يأمن من نقض حكمه من يأتي من بعده كفعله بمن كان قبله، فإن نزلت به إحدى المبهمات[٣] هيأ لها حشواً من رأيه ثمّ قطع به، فهو من لبس الشّبهات في مثل نسج العنكبوت خباط جهالات، وركاب عشوات، ومفتاح شبهات، فهو وإن أصاب أخطأ لا يدري أصاب الحقّ أم أخطأ، إن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب».

فهو من رأيه مثل نسج[٤] العنكبوت الذي إذا مرّت به النّار لم يعلم بها، لم يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم، يذري الرّوايات إذ راء الرّيح الهشيم لا مليء والله بإصدار ما ورد عليه، لا يحسب العلم في شيء ممّا أنكره، ولا يرى أن من وراء ما ذهب فيه مذهب ناطق، وإن قاس شيئاً بشيء لم يكذّب رأيه كي لا يقال له لا تعلم شيئاً، وإن خالف قاضياً سبقه لم يأمن في صحّته حين خالفه، وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم.

من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً لا يعتذر ممّا لا يعلم فيسلم، تصرخ منه الدّماء، وتولول منه الفتياء وتبكي منه المواريث، ويحلل بقضائه الفرج الحرام، ويحرم بقضائه الفرج الحلال، ويأخذ المال من أهله فيدفعه إلى غير أهله[٥].

وروى الطبرسي والمفيد في «**الإرشاد**» بعد رواية هذا الكلام نحواً ممّا تقدّم أنه عليه السلام قال بعد ذلك:

«أيّها النّاس عليكم بالطاعة والمعرفة بمن لا تعذرون بجهالة، فإن العلم الذي هبط به آدم عليه السلام وجميع ما فضّلت به النّبيون إلى خاتم النّبيّين في عترة نبيّكم محمّد صلى الله عليه وآله، فأنى يتاه بكم بل أين تذهبون؟ يا من نسخ من أصلاب أصحاب السّفينة، هذه مثلها فيكم فاركبوها، فكما نجا في هاتيك من نجا فكذلك ينجو في هذه من دخلها أنا رهينٌ بذلك قسماً حقاً، وما أنا من

(١) في نسخة: الرجال.
(٢) في نسخة: تلخيص.
(٣) في نسخة: المعضلات.
(٤) في نسخة: غزل.
(٥) البحار: ٢/ ٢٨٥.

المتكلفين، والويل لمن تخلف ثمّ الويل لمن تخلّف».

أما بلغكم ما قال فيكم نبيكم؟ حيث يقول في حجة الوداع: «إنّي تاركم فيكم الثّقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنّهم لم يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، ألا هذا عذب فرات فاشربوا، وهذا ملح أجاج فاجتنبوا»[1].

(١) الإرشاد للمفيد: ١/٢٣٣، والاحتجاج: ١/٣٩١.

الترجمة

از جمله كلام آن عالى مقام است در صفت كسى كه متصدّى شود به حكم كردن ميان امت محمديه و حال اين كه اهليت نداشته باشد:

به تحقيق كه دشمن ترين خلق به سوى خدا دو مردند:

يكى از اين دو نفر مردى است كه بازگذاشته باشد حق تعالى او را به نفس خودش و الطاف خفيه خود را از او سلب نموده باشد، پس آن بدروزگار تبه كار ميل كننده است از ميانه راه راست به ميان دل او رسانيده شده است سخنان بدعت و جهالت با اين كه دلسوخته شده است از فرط محبت به اين كلام بدعت و به خواندن مردم به گمراهى و ضلالت، پس آن مرد فتنه و بلا است مر آن كسى را كه در فتنه و بلا افتاده باشد بهواسطه او گمراه است از راه راست و طريقه مستقيم آن كسى كه بوده است پيش او و گمراه كننده است مركسى را كه اقتدا نمايد او را در حال حيات او و بعد از وفات او، بردارنده است بار گناهان غير خود را، در گرو است به گناه خود و گرفتار است به كار تباه خود.

و دومى از اين دو نفر مردى است كه جمع كرده جهالت را سرعت كننده است به اين كه وضيع و پست گردانيده شده در ميان جاهلان امت، غافل است در ظلمات خصومات، بى بصيرت است به آن چه در عقد صلح است از مصالح مصالحه. به تحقيق كه نام نهاده اند او را جهّال مردمان كه در صورت انسان و در معنى حيوان مى باشند. عالم به علوم شريعت و حال آن كه عالم نيست. بامداد كرد پس بسيار نمود از جمع آوردن چيزى كه اندكى آن از او بهتر است از آن چه بسيار است يا آن كه از جمع آوردن چيزى كه كمى او بهتر است از زياده آن، مراد فكرهاى فاسده و رأى هاى باطله است تا اين كه چون سيراب شد از آب متعفن گنديده و پر شد از مسايل بى فايده ناپسنديده.

نشست در ميان مردم در حالتى كه حكم كننده است ميان ايشان، ضامن است از براى خالص كردن آن چيزى كه مشتبه است حل آن بر غير او، پس اگر نازل بشود بر او يكى از قضاياى مشكله مهيّا مى كند از براى آن سخنان بى فايده ضعيف

و سست از رأی باطله خود، پس از آن جزم و قطع کند به آن کلام، پس او از پوشیدگی و التباس شبهه ها افتاده است در امور واهیه که مثل تار عنکبوت است، نمی داند به صواب حکم می کند یا به خطاء، پس اگر به صواب حکم می کند می ترسد از آن که خطا کرده باشد و اگر به خطا حکم نماید امید می دارد که صواب گفته باشد.

نادانست بسیار خبط کننده در نادانی ها ضعیف البصر است، در ظلمات جهل سواره شبهات، نگزیده علم و دانش به دندان برنده و این کنایه است از عدم ایقان بر قوانین شرعیه و عدم اتقان مسائل دینیه. منتشر می سازد و می پراند روایات را مثل پراندن و منتشر کردن باد گیاه خشك را. به خدا سوگند که نیست قادر و توانا به بازگردانیدن و جواب دادن آن چه وارد شده است بر او از مسایل. گمان نمی برد که علمی که ورای اعتقاد او است فضیلتی داشته باشد و گمان نمی کند این که از ورای آن چه رسیده است به او مذهبی بوده باشد مرغیر اورا.

و اگر پوشیده و پنهان باشد بر او کاری، پنهان می کند آن را به جهت آن که می داند از جهل نفس خود به مسایل و می خواهد که آشکار نشود حال او به ارباب فضایل، فریاد می کند از جور حکم او خون های ناحق ریخته و می نالد از ستم او میران های مأخوذه با حکم های باطله.

به سوی خداوند شکایت می کنم از جماعتی که زندگانی می کنند در حالتی که جاهلانند و می میرند در حالتی که گمراهانند. نیست در میان ایشان هیچ متاعی که کاسدتر باشد از کتاب الله وقتی که خوانده شود حق خواندن بدون تحریف و تغییر و نیست هیچ متاعی که رواج تر باشد از روی فروختن و نه پربها باشد از کتاب خدا وقتی که تحریف و تغییر داده شود از مواضع خود و نیست نزد ایشان زشت تر از معروف و نه نیکوتر از منکر؛ والله العالم.

ومن كلام له عليه السلام في ذم اختلاف العلماء في الفتيا وهو الثامن عشر من المختار في باب الخطب الجاري مجراها

وقد رواه الطبرسي في «الاحتجاج» مرسلاً عنه كالكتاب.

«تَرِدُ على أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ في حُكْمٍ مِنَ الأَحْكامِ فَيَحْكُمُ فيها بِرَأْيِه، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِها عَلى غَيْرِه فَيَحْكُمُ فيها بخلافِ غَيْرِه (قوله خ)، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضاةُ بِذلِكَ عِنْدَ الأَمام الَّذي اسْتَقْضاهُمْ فَيُصَوِّبُ آراءَهُمْ جَميعاً، وإِلٰهُهُمْ واحِدٌ، ونَبِيُّهُمْ واحِدٌ، وكِتابُهُمْ واحِدٌ، أَفَأَمَرَهُمُ الله بالإِخْتِلافِ فَأَطاعُوهُ؟ أَمْ نَهاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ؟ أَمْ أَنْزَلَ اللهُ ديناً ناقِصاً فَاسْتَعانَ بِهِمْ عَلى إتمامه؟ أَمْ كانُوا شُرَكاءَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وعَلَيْهِ أَنْ يَرْضى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللهُ ديناً تاماً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله عَنْ تَبْليغه وأَدائِه؟ وَاللهُ سُبْحانَهُ يَقُولُ: «ما فَرَّطْنا في الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ» وقال: «فيه تِبْيانُ كُلِّ شَيْءٍ» وذَكَرَ أَنَّ الْكِتابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وأَنَّهُ لا اخْتِلافَ فيهِ فَقالَ سُبْحانَهُ: «ولَوْ كانَ مِنْ عِنْدَ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً» وإِنَّ الْقُرْآنَ ظاهِرُهُ أَنيقٌ، وباطِنُهُ عَميقٌ، لا تَفْنى عَجائِبُهُ «ولا تَنْقَضي عَجائِبُهُ خ» ولا تُكْشَفُ الظُّلُماتُ إِلاّ بِه»[1].

اللغة

(**الفتيا**) بالضمّ الفتوى و (**استقضى**) فلاناً طلب إليه أن يقضيه واستقضى صيّر قاضياً و (**التّبيان**) بالكسر وقد يفتح من المصادر الشاذة إذ المصادر على وزن التفعال لم تجيء إلاّ بالفتح كالتكرار والتّذكار و (**الأنيق**) كأمير الحسن المعجب.

الإعراب

الضّمير في غيره الثاني راجع إلى غيره الأوّل، وفي بعض النّسخ كالاحتجاج فيحكم فيها بخلاف قوله، فيكون مرجع الضّمير فيه وفي غيره الأول واحداً وهو أحدهم، (**والواو**) في قوله وإلههم واحدٌ حاليّة كاللّتين بعدها، (**والهمزة**) في قوله أفامرهم للاستفهام على سبيل الانكار الإبطالي على حدّ قوله: ﴿**أفاصفيكم ربّكم بالبنين**﴾ وكلمة (**من**) في قوله: من شيء، زائدة في المفعول، وقوله (**وإنّ القرآن**) (ا ه) جملة استئنافية.

المعنى

إعلم أنّه لا بدّ قبل الخوض في شرح كلامه عليه السلام من تمهيد مقدّمة وهي أنّه وقع الخلاف

(١) الاحتجاج: ١/ ٣٨٩.

بين العامّة والخاصّة في التخطئة والتّصويب، وقد عنونه أصحابنا رضي الله عنهم في كتبهم الأصوليّة وحقّقوا الكلام فيه بما لا مزيد عليه، ومحصّل ما ذكروه أنّ الكلام يقع فيه في مقامات أربعة.

الأول: أصول العقائد وقد نقل غير واحد من الأَصحاب إجماع الكلّ على أنّ المصيب فيها واحد وعلى أنّ المخطىء فيها آثم كافر إن كان نافياً للإسلام، ولم يخالف فيه إلاّ أبو عبد الله الحسين العنبري والجاحظ فذهبا إلى أنّ الكلّ مصيب، قال العلامة ليس مرادهما الإصابة من حيث المطابقة في نفس الأَمر، بل المراد زوال الحرج والاثم عن المخطىء باعتقاد خلاف الواقع وخروجه عن عهدة التكليف باجتهاده، وربّما عزى الخلاف إلى الأوّل في أصل الإصابة وإلى الثّاني في تحقّق الإثم على ما ذكره العلامة.

وعلى أي تقدير فهو شاذ ضعيف لا يلتفت إليه، ضرورة بطلان الإصابة واستحالتها ببديهة العقل، وإلاّ لزم اجتماع النّقيضين في مثل قدم العالم وحدوثه، وعصمة الإمام وعدمها، ووجود المعاد الجسماني وعدمه.

وأمّا من حيث الإثم فالحقّ فيه التفصيل بين القصور والتّقصير فالمقصّر آثم دون القاصر، وإلاّ لزم التكليف بما لا يطاق، وهو ظاهر إلاّ أنّ الكلام في تحقّق الصغرى وأنّ القصور هل هو ممكن موجود؟ وتفصيل الكلام في «**الأصول**»، ولا يخفى أن ما ذكرناه من أنّه لا إثم على الكافر القاصر فإنّما هو في الآخرة، وأمّا في الدّنيا فلا يبعد القول بإجراء أحكام الكفر عليه.

الثاني: الفرعيّات التي استقلّ العقل بحكمها، فالحقّ فيها أيضاً من حيث الإصابة هو العدم كما عليه الجمهور حذراً من اجتماع النّقيضين في مثل قبح الظلم والعدوان، ومن حيث الإثم وعدم التّفصيل بين التقصير والقصور على ما سبق، ولا خفاء في إمكان القصور هنا بل تحقّقه غالباً في مطلق النّاس، وأمّا المجتهد فلا يبعد في حقّهم دعوى إمكان الوصول إلى الواقع دائماً.

الثالث: الفرعيات العملية التي قام الدّليل القطعي عليها كالضّروريّات من العبادات والمعاملات، فالحقّ فيها أيضاً أنّ المصيب واحد، وأمّا من حيث الإثم ففيه ما مرّ من التّفصيل، قال بعض الأَصحاب: أمّا إمكان الخفاء والعدم ففيه في هذا المقام خفاء لكن بعد التأمل يظهر الإمكان نادراً في غير المجتهدين، وأما المجتهدون المتفحّصون ففي إمكان الخفاء عليهم لأَجل عروض الشّبهات إشكال، لكن لو رأينا أحداً أنكر واحتمل في حقّه الشّبهة أجرينا عليه أحكام المقصّر لغلبة التّقصير في المنكرين، وهذه الغلبة معتبرة عندهم في هذا المقام.

الرابع: الفرعيّات التي لم يستقل العقل بحكمها ولم يقم عليها دليل قطعي، وهذه هي التي صارت معركة للآراء بينهم، فذهب أصحابنا إلى أنّ لله سبحانه في كلّ واقعة حكماً واحداً

معيّناً، والمصيب واحد، ومن أخطأ فهو معذور فلا إثم عليه.

وذهب جمهور المخالفين إلى أنه لا حكم معيّن لله تعالى فيها، بل حكمه تابع لظنّ المجتهد وظنّ كل مجتهد فيها حكم الله في حقّه وحقّ مقلّده، وكلّ مجتهد مصيب لحكم الله غير آثم وتصوير الإصابة فيها بوجوه:

أحدها: أنّ الحكم تابع للحسن والقبح وأنهما يختلفان بالوجوه والاعتبارات فحدوث العلم والجهل محدث للصّفة والصّفة يتبعها الحكم، فرأي المجتهد محدث للحكم، وتكون الأحكام متعلّقة على آرائهم.

الثاني: أنّه تعالى أوجد أحكاماً مقصودة بالأصالة ويطابقها آراء المجتهدين قهراً عليهم.

الثالث: أنّه تعالى أوجد أحكاماً واقعيّة ويطابقها آراء المجتهدين من باب الاتفاق لا محالة.

الرّابع: أنّه تعالى لمّا علم أنّ الآراء تتعلق بالأحكام المخصوصة، فجعل لأجل علمه بذلك أحكاماً فيطابقها، وبعبارة أخرى أنّه تعالى جعل أحكاماً مختلفة في الواقع بحسب اختلاف آراء المجتهدين على ما يعلمه من أن كلّ واحد منهم لدى التّشبث بالأمارة يؤدّي ظنّه إليه حتى أنه ربّما يكون في حقّ الشّخص الواحد أحكاماً مختلفة بحسب الواقع باختلاف الأمارات المتعدّدة في الأزمنة المتدرجة فضلاً عن اختلاف الواقعيّات في حق الأشخاص ويجمعه وسابقه انتفاء الحكم الواقعي المشترك فيه الكلّ، وإن كان في الوجه الأوّل بانتفاء المقيّد وفي الثلاثة الأخيرة بانتفاء القيد.

وكيف كان والتّصويب بجميع تصويراته باطل عند أصحابنا نورّ الله مضاجعهم، وقد أقاموا على بطلانه الأدلة القاطعة والبراهين السّاطعة في كتبهم الأصوليّة، ودلت نصوصهم المتواترة عن أئمتهم سلام الله عليهم على أنّ حكم الله سبحانه في الوقائع واحد بحسب الواقع، وإنّ لله تعالى في كلّ واقعة حكماً مخزوناً عند أهله أصابه من أصابه، وأخطأه من أخطأه، ومن جملة تلك النصوص كلامه عليه السلام الذي نحن بصدد شرحه حسبما تعرفه إن شاء الله.

لا يقال: المستفاد من كلامه عليه السلام وما ضاهاه هو اتّحاد الحكم بقول مطلق، وهو ينافي بناء الأصحاب على آرائهم وعملهم بما أدّت إليه ظنونهم وتعبّدهم بالعمل بذلك بناء على أنّه حكم الله في حقّ المجتهد وحقّ مقلده، ضرورة أنّ الآراء مختلفة فتختلف باختلافها الأحكام جدّاً.

لأنا نقول: أوّلاً إنّ كلامه عليه السلام ناظراً إلى العاملين بالقياس والرّأي لا بالكتاب والسنّة كما صرّح به الفاضل القمّي في القوانين.

وأشار إليه الشارح المعتزلي: حيث قال: والمراد الرد على أهل الاجتهاد في الأحكام الشرعية وإفساد قول من قال: كلّ مجتهد مصيب، وتلخيص الاحتجاج من وجوه خمسة، ثم ذكر الوجوه الخمسة، ثم قال: واعلم أنّ هذه الوجوه هي التي تتعلق بها الإماميّة ونفاة القياس والاجتهاد في الشرعيّات.

وثانياً: أنّ كلامه عليه السلام وإن كان مطلقاً إلاّ أنّه لا بدّ أن يراد به اتحاد الأحكام الواقعية لقيام الإجماع على تعدّد الأحكام الظاهريّة، وعلى أنّ المجتهد متعبّد بظنّه وتكليفه العمل بما أدّى إليه ظنّه الحاصل من الأمارات الشرعيّة كظواهر الكتاب والسّنة وأخبار الآحاد وغيرها.

فإن قلت: إذا كان تكليف المجتهد التّعبد بظنه والعمل بمؤدّيات الظنونات، واختلفت الأحكام باختلافها فلا فرق حينئذٍ بين المصوبة والمخطئة إذ مال القولين كليهما إلى تعدّد الأحكام بتعدّد الظنونات فيكون الحكم الشرعي تبعاً للظنّ.

قلت: الفرق بينهما واضح، ضرورة أنّ القائلين بالتّصويب يقولون بتبعيّة الأحكام الواقعيّة لعلم المجتهد أو ظنّه، وأنّ العلم أو الظنّ يوجب جعل الحكم في حقّه في الواقع، فما لم يحصل له علم أو ظن لا يكون في حقّه حكم واقعاً.

وأمّا القائلون بالتخطئة فيقولون: إنّ لله سبحانه حكمين واقعي، وهو الذي كلّفنا به أولاً لولا جهل المكلّف المانع من تعلق التكليف به، وحكم ظاهري وهو الذي يجب علينا البناء عليه والتعبد به في ظاهر الشّرع بمقتضى الأمارات الشرعيّة، سواء علمنا مطابقته للأوّل، أو ظننّاه، أو شككناه، أو ظننا مخالفته، أو علمنا بالمخالفة كما هو في بعض الفروض.

وبعبارة أخرى مقتضى القول بالتّصويب هو كون الحكم من أصله تابعاً للأمارة بحيث لا يكون في حقّ الجاهل مع قطع النّظر عن وجود الأمارة وعدمها حكم، فتكون الأحكام مختصّة في الواقع بالعالمين بها، والجاهل مع قطع النّظر عن قيام إمارة عنده على حكم العالمين لا حكم له أو محكوم بما يعلم الله أنّ الأمارة تؤدّي إليه.

ومقتضى القول بالتخطئة هو أن في الواقع حكماً مشتركاً بين الكلّ، وعليه فإن حصل للمكلّف علم به أو ظن مطابق له فهو، وإلاّ فتكليفه العمل بما أدّى إليه ظنّه في ظاهر الشّرع ويكون ذلك واقعياً ثانويّاً في حقه.

فإن قلت: إذا كان تكليفه عند عدم حصول العلم بالواقع هو العمل بالظنّ فلا تفاوت بين أن نقول: إنّ هناك حكماً واقعياً وراء المظنون كما يقوله المخطئة، وبين أن نقول: بأن لا حكم هنا وراء المظنون، ومحصله عدم ثمرة عمليه بين القولين وعدم فائدة تترتب على الخلاف في مقام العمل.

قلنا: الثّمرة إنّما تظهر إذا انكشف له الحال بعد العمل بالظن بأن حصل له العلم بالواقع

وكان ظنّه الذي عمل به مخالفاً للواقع فيلزمه الإتيان به ثانياً على القول بالتخطئة لأنّ مطلوب الشّارع في المقام حقيقة هو الواقع، وإنّما تعلق التّكليف بالظاهر نظراً إلى اشتباه المكلف وعجزه عن الوصول إلى الواقع.

وتحقيق ذلك أنّ مؤديات الطرق الشّرعيّة على القول بالتّصويب مجعولات في الواقع ليس للمكلف في الواقع تكليف وراءها، فحالها مثل حال الأوامر الواقعيّة الاختياريّة لا إشكال في إجزائها بل لا يتصوّر انكشاف الخلاف فيها أصلاً، وأمّا على القول بالتخطئة فإنّما تترتب عليها الآثار الشّرعيّة مع عدم حصول العلم بخلافها، ومع قصور المكلف عن الوصول إلى الواقع، وأمّا بعد انكشاف الخلاف وحصول علمه بالواقع فيكون مكلفاً به ويرجع الأمر إلى التكليف الأوّل، فإن كان الوقت باقياً وجب الإعادة بمقتضى الأصل لبقاء التكليف ووجوب الامتثال، وإن كان فائتاً وجب القضاء لو دلّ دليل على وجوب القضاء لصدق الفوات.

ثمّ إن هذا كله مبني على ما ذهب إليه غير واحد من متأخري أصحابنا من جعلهم مسألة الإجزاء من متفرّعات مسألة التخطئة والتّصويب وبنوا الأجزاء على التّصويب وعدمه على التخطئة إلا أنّ الشأن عدم تماميّة التفريع في الطرفين لعدم الملازمة بين التخطئة وعدم الإجزاء، بل مع القول بها مجال للإجزاء وعدمه، وتفصيل الكلام في ذلك موكول إلى الأصول، فليرجع إليه.

وإذا تمهّد لك هذه المقدّمة فلنرجع إلى شرح كلامه ﷺ فنقول: إنّه صدر كلامه ببيان حال العلماء السّوء العاملين بالآراء تعريضاً عليهم ببطلان عملهم بالرّأي وتوبيخاً لهم على ذلك، ثمّ أردفه بالإشارة على بنائهم عليه من القول بالتّصويب في الأحكام المختلفة المتشعبة عن الآراء المتشتّتة، ونبّه على بطلان ذلك البناء وفساد هذا القول بالوجوه الآتية فقال:

(ترد على أحدهم القضيّة في حكم من الأحكام) الشّرعيّة **(فيحكم فيها برأيه)** أي بظنونه المأخوذة لا من الأدلة الشّرعيّة والمآخذ المنتهية إلى الشّارع بل من الاستحسانات العقليّة والقياسات الفقهيّة **(ثم ترد تلك القضيّة بعينها على غيره)** أي: على غير القاضي الأوّل **(فيحكم فيها بخلاف قوله)** أي: قول الأوّل استناداً إلى رأيه الفاسد ونظره الكاسد أيضاً، كما كان استناد الأوّل في حكمه إليه.

(ثمّ يجتمع القضاة بذلك) الحكم المختلف **(عند الإمام)** الضّال ورئيسهم المضلّ **(الذي استقضاهم)** وصيّرهم قاضياً **(فيصوب آرائهم جميعاً)** ويحكم بكون الأحكام المختلفة الصّادرة عنهم في قضيّة شخصية كلّها صواباً مطابقاً للواقع (و) هو باطل بالضّرورة، لأنّ **(إلههم واحدٌ ونبيّهم واحد وكتابهم واحد)** وليس لكلّ منهم إله يحكم بحكم مخالف لحكم اله الآخر، ويرسل على ذلك رسولاً وينزل على ذلك كتاباً حتّى يسند كلّ منهم حكمه المخالف لحكم

الآخر إلى الهه، وإذا ثبت وحدة الإله سبحانه فلا بدّ أن يكون الحكم الواقعي واحداً إذ الوجوه المتصوّرة لاستناد تعدّد الأحكام واختلافها حينئذٍ إليها أمور كلها باطلة بحكم العقل والنّقل، كما أشار إليها بقوله: (**أنأمرهم الله بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه**) مفاد (**همزة**) الاستفهام المفيدة للإنكار على سبيل الإبطال مع (**أم**) المنقطعة المفيدة للإضراب مفادها في قوله تعالى:

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

فيدلّ الكلام على ذلك، على أنّ اختلافهم ليس مأموراً به بل منهي عنه، فيكونون عاصين فيه، أمّا أنّه ليس مأموراً به فلعدم ورود أمر بذلك في الكتاب والسّنة، وأمّا أنّه منهي عنه فلدلالة العقل والنّقل على ذلك، أمّا العقل فلتقبيح العقلاء من يتكلف من قبل مولاه بما لا يعلم بوروده عن المولى فضلاً عمّا علم بعدم وروده، وأمّا النّقل فمن الكتاب الآية السّابقة حيث دلت على أنّ ما ليس بإذن من الله فهو افتراء له، ومن المعلوم أنّ الافتراء حرام ومنهي عنه وقوله:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وقوله﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

فإنّ الحكم بالرّأي الذي هو منشأ للاختلاف حكم بغير ما نزل من الله سبحانه إذا العمل بالرّأي والقياس إنّما هو فيما لم يتبيّن حكمه في الكتاب والسنّة كما هو ظاهر.

ومن السّنة ما رواه محمّد بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «القضاة أربعة ثلاثة في النّار وواحد في الجنّة: رجل قضى بالجور وهو يعلم فهو في النّار، ورجل قضى بالجور وهو لا يعلم فهو في النّار، ورجل قضى بالحقّ وهو لا يعلم فهو في النّار، ورجل قضى بالحقّ وهو يعلم فهو في الجنّة»[1].

ووجه الدّلالة غير خفي حيث إنّ المستفاد منه أن القضاء بما لا يعلم سواء كان حقّاً أو جوراً موجب لدخول النّار فيكون محرماً منهيّاً عنه، ومن المعلوم أنّ القضاء بالآراء المختلفة قضاء بما لا يعلم فيكون منهيّاً عنه، وستعرف توضيح ذلك بما لا مزيد عليه في التّنبيه الآتي، وكيف كان فقد تحصّل ممّا ذكرناه أنّ الاختلاف ليس مأموراً به بل منهي عنه، هذا.

ولمّا نبّه عليه السلام على بطلان كون الاختلاف بأمر منه سبحانه أردفه بسائر الوجوه التي يحتمل كونه بسببها ممّا هو ضروري البطلان، وهي بحسب الاستقراء منحصرة في ثلاثة إذ اختلافهم في دينه وشرعه وحاجتهم إلى ذلك إمّا أن يكون مع نقصانه أو مع تمامه، وتقصير

(١) المهذب البارع: ٤/٤٥٥، والكافي للحلبي: ٤٢٧.

الرّسول في أدائه، وعلى الوجه الأول فذلك الاختلاف إنّما يكون على أحد وجهين: أحدهما أن يكون إتماماً لذلك النقصان أو على وجه أعمّ من ذلك وهو كونهم شركاءه في الدين، وقد أشار عليه السلام إلى الوجه الأوّل بقوله: (**أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه**) وإلى الثاني بقوله: (**أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى**)، وإلى الثالث بقوله: (**أم أنزل الله ديناً تامّاً فقصّر الرّسول عن تبليغه وأدائه**).

ثمّ استدل على بطلان الوجوه الثلاثة بقوله: (**والله سبحانه يقول**) في سورة الأنعام ﴿**ما فرّطنا في الكتاب من شيء**﴾ (**وقال**) ﴿**فيه تبيان كلّ شيء**﴾ وهذا مضمون آية في سورة النّحل وهو قوله تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ومثلها قوله سبحانه في سورة الأنعام:

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فإنّ دلالة هذه الآيات على بطلان الوجهين الأوّلين واضحة، ضرورة أنّ الكتاب الحكيم إذا لم يترك فيه شيء ولم يفرط فيه من شيء بل كان فيه بيان كلّ شيء وكل رطب ويابس، فلا بدّ أن يكون الدّين بتمامه منزلاً فيه، وحينئذٍ فلا يكون فيه نقصان حتّى يستعان بهم على إتمامه أو يأخذهم شركاء له في أحكامه، فالقول بكون الدّين ناقصاً باطل بنصّ القرآن وحسبان الاستعانة والافتقار بهم على الإتمام أو كونهم مشاركين له في الأحكام كفر وزندقة بالبديهة والعيان، وأمّا دلالتها على بطلان الوجه الثالث فهي أيضاً ظاهرة بعد ثبوت عصمة النّبي صلى الله عليه وآله وعدم إمكان تصوير التّقصير منه صلى الله عليه وآله في التّبليغ وقد قال تعالى:

﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

روى الصّدوق في «**العيون**» عن الرضا عليه السلام أنّه سئل يوماً، وقد اجتمع عنده قوم من أصحابه وقد كانوا يتنازعون في الحديثين المختلفين عن رسول الله صلى الله عليه وآله في الشيء الواحد فقال عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ حرّم حراماً وأحلّ حلالاً وفرض فرائض، فما جاء في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحلّ الله أو رفع فريضة في كتاب الله رسمها قائم بلا نسخ نسخ ذلك، فذلك شيء لا يسع الأخذ به، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن ليحرّم ما أحل الله ولا ليحلّل ما حرّم الله ولا ليغير فرائض الله وأحكامه، وكان في ذلك كله متبعاً مسلماً مؤيداً عن الله عزّ وجلّ، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] فكان متّبعاً مؤدّياً عن الله ما أمر به من تبليغ الرّسالة»[1].

---

(١) عيون أخبار الرضا (ع): ١/ ٢٣، والوسائل: ٢٧/ ١١٣ ح ٣٣٣٥٤.

ثمّ إنّه بعد ما تحصّل من كلامه بطلان كون الاختلاف جائزاً ومأذوناً فيه، وبأمر من الله سبحانه، أكد ذلك بالتصريح على دليل ذلك بقوله: **(وذكر أن الكتاب يصدّق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه)** في سورة النساء **﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله﴾** أي من كلام غيره سبحانه **﴿لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.**

وتقريب الاستدلال بها أنّ القرآن مدرك الدّين ومشتمل على الأحكام الشّرعية، وقد أخبر الله سبحانه بأنّه لا يوجد فيه اختلاف، لكونه من عنده فلا يوجد فيه أحكام مختلفة من حيث إن نفي العام مستلزم لنفي الخاص فإذن لا يكون الاختلاف في الأحكام من عنده سبحانه ومأذوناً فيه وهو واضح.

قال الطبرسي في **«مجمع البيان»** وهذه الآية تضمّنت الدّلالة على أنّ التّناقض من الكلام لا يكون من فعل الله، لأنّه لو كان من فعله لكان من عنده لا من عند غيره، والاختلاف في الكلام يكون على ثلاثة أضرب: اختلاف تناقض، واختلاف تفاوت، واختلاف تلاوة، واختلاف التفاوت يكون في الحسن والقبح والخطأ والصّواب ممّا تدعو إليه الحكمة وتصرف عنه، وهذا الجنس من الاختلاف لا يوجد في القرآن كما لا يوجد اختلاف التناقض، وأمّا اختلاف التلاوة فهو كاختلاف وجوه القرآن واختلاف مقادير الآيات والسّور، واختلاف الأحكام في النّاسخ والمنسوخ فذلك موجود في القرآن وكله حقّ وصواب(١).

ثمّ إنّه عليه السلام أردف كلامه بالتنبيه على أن الكتاب العزيز وافٍ بجميع المطالب إذا تدبّروا معناه ولاحظوا أسراره فقال: **(وإنّ القرآن ظاهره أنيق)** أي حسن معجب بأنواع البيان وأصنافه وغرابة الأسلوب وحسنه وإئتلاف النّظم واتساقه **(وباطنه عميق)** لاشتماله على أنواع الحكم من أمر بحسن ونهي عن قبيح وخبر عن مخبر صدق ودعاء إلى مكارم الأخلاق وحث على الخير والزّهد واشتماله على تبيان كلّ شيء وعلى ما كان وما يكون وما هو كائن.

كما قال الصّادق عليه السلام في **«رواية العياشي»**: «نحن والله نعلم ما في السّماوات وما في الأرض وما في الجنّة وما في النّار وما بين ذلك»، ثمّ قال: إن ذلك في كتاب الله ثمّ تلا قوله تعالى(٢):

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وفي **«الكافي»** عنه عليه السلام إني لأعلم ما في السّماوات وما في الأرض وأعلم ما في الجنّة وأعلم ما في النّار، وأعلم ما كان وما يكون، ثمّ سكت هنيئة فرأى أنّ ذلك كبر على من

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٣/ ١٤٢.
(٢) تفسير العياشي: ٢/ ٢٦٦ ح ٥٧.

سمعه منه فقال: علمت ذلك من كتاب الله عزّ وجلّ إنّ الله يقول: فيه تبيان كلّ شيء **(ولا تفنى عجائبه)** أي الأمور المعجبة منه **(ولا تنقضي غرائبه)** أي: النّكت الغريبة فيه **(ولا تكشف الظلمات)** أي: ظلمات الشّبهات **(إلا به)** أي بسواطع أنواره ولوامع أسراره.

تنبيه

قد تحصّل ممّا ذكرنا كلّه أنّ مقصود الإمام عليه السلام بهذا الكلام من أوّله إلى آخره هو المنع عن العمل بالرّأي وإبطال الاختلاف في الأحكام المتشعبة عن الآراء المختلفة وإفساد القول بالتّصويب فيها، وهذا كلّه موافق لأصول الإماميّة رضوان الله عليهم ومطابق لأخبارهم المتواترة المأثورة عن العترة الطاهرة، ولا بأس بالإشارة إلى بعض تلك الأخبار تثبيتاً للمرام وتوضيحاً لكلام الإمام عليه السلام.

فمنها ما رواه ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني قدّس الله روحه في **«الكافي»** عن محمّد بن أبي عبد الله رفعه عن يونس بن عبد الرّحمٰن قال: قلت لأبي الحسن الأوّل عليه السلام فقال: «يا يونس لا تكونن مبتدعاً من نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيه ضلّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيّه كفر»[١].

وعن عليّ بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة قال: حدّثني جعفر عليه السلام عن أبيه أنّ عليّاً عليه السلام قال: «من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس ومن دان الله بالرّأي لم يزل دهره في ارتماس»، قال: وقال أبو جعفر عليه السلام: «من أفتى النّاس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم، ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضادّ الله، حيث أحلّ وحرّم فيما لا يعلم»[٢].

والظاهر أنّ المراد بالإلتباس هو التخليط بين الحقّ والباطل، وبالارتماس الانغماس في ظلمات الشّبهة والضّلالة، فالالتباس باعتبار استخراج الأحكام بالرّأي والقياس، لأنّه يلتبس عليه الأمور ويشتبه عليه الحقّ والباطل، والارتماس باعتبار العمل بتلك الأحكام، قال المجلسي (قده) في قوله فقد ضاد الله: أي جعل نفسه شريكاً لله.

وعن عليّ بن محمّد بن عيسى عن يونس عن قتيبة قال سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن مسألة فأجابه فيها فقال الرّجل: أرأيت إن كان كذا وكذا وما يكون القول فيها؟ فقال له: مه ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله لسنا من (أرأيت) في شيء.

قال المجلسي: لمّا كان مراده أخبرني عن رأيك الذي تختاره بالظنّ والاجتهاد نهاه عليه السلام

(١) الكافي: ١/٥٦ ح ١٠.

(٢) الكافي: ١/٥٨ ح ١٧.

عن هذا الشيء من الظنّ وبين أنّهم لا يقولون شيئاً إلا بالجزم واليقين، وبما وصل إليه من سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين[١].

ومنها ما في «**الوسائل**» عن أحمد بن محمّد بن خالد البرقي في «**المحاسن**» عن أبيه عمّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في رسالته إلى أصحاب الرّأي والقياس: أمّا بعد فإنّ من دعا غيره إلى دينه بالارتياء والمقاييس لم ينصف ولم يصب حظّه، لأنّ المدعوّ إلى ذلك أيضاً لا يخلو من الارتياء والمقاييس، ومتى لم يكن بالدّاعي قوّة في دعائه على المدعوّ لم يؤمن على الدّاعي أن يحتاج إلى المدعوّ بعد قليل، لأنّا قد رأينا المتعلّم الطالب ربّما كان فائقاً لمعلمه ولو بعد حين، ورأينا المعلم الدّاعي ربّما احتاج في رأيه إلى رأي من يدعو، وفي ذلك تحير الجاهلون وشكّ المرتابون وظن الظانون ولو كان ذلك عند الله جائزاً لم يبعث الله الرّسل بما فيه الفصل ولم ينبه عن الهزل ولم يعب الجهل، ولكن النّاس لمّا سفهوا الحقّ وغمطوا النّعمة واستغنوا بجهلهم وتدابيرهم عن علم الله واكتفوا بذلك عن رسله، والقوّام بأمره وقالوا لا شيء إلاّ ما أدركته عقولنا وعرفته ألبابنا فولاهم الله ما تولوا وأهملهم وخذلهم حتّى صاروا عبدة أنفسهم من حيث لا يعلمون، ولو كان الله رضي منهم اجتهادهم وارتيائهم فيما ادعوا من ذلك لم يبعث إليهم فاصلاً لما بينهم ولا زاجراً عن وصفهم[٢].

وإنّما استدللنا أنّ رضاء الله غير ذلك ببعثة الرّسل بالأمور القيمة الصّحيحة والتّحذير من الأمور المشكلة المفسدة، ثمّ جعلهم أبوابه وصراطه والأدلاء عليهم بأمور محجوبة عن الرّأي والقياس، فمن طلب ما عند الله بقياس ورأى لم يزدد من الله إلاّ بعداً، ولم يبعث رسولاً قط، وإن طال عمره قائلاً من النّاس خلاف ما جاء به حتّى يكون متبوعاً مرّة وتابعاً أخرى، ولم ير أيضاً فيما جاء به استعمل رأياً ولا مقياساً حتّى يكون ذلك واضحاً عند الله كالوحي من الله، وفي ذلك دليل لكلّ ذي لبّ وحجي أنّ أصحاب الرأي والقياس مخطئون مدحضون.

والأخبار في هذا المعنى فوق حد الإحصاء وقد عقد في «**الوسائل**» كالكافي باباً لعدم جواز القضاء والحكم بالرأي والاجتهاد والمقاييس ونحوها من الاستنباطات الظنيّة في الأحكام الشّرعيّة من أراد الإطلاع فليرجع إلى الكتابين، والله الهادي.

---

(١) البحار: ٢/ ٢٩٩.

(٢) محاسن البرقي: ١/ ٢٠٩، والوسائل: ٢٧/ ٥٠.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت نظام آن امام عالمیان است در مذمت اختلاف علما در فتواها که استغنا ورزیده اند به جهت عمل به آراء از ائمه هدی(علیهم السلام): وارد می شود بر یکی از آن ها قضیه در حکمی از حکم ها پس حکم می کند در آن قضیه به رأی فاسد و نظر کاسد خودش که مستند است به استحسانات عقلیه و قیاسات ظنیه، بعد از آن وارد می شود همین قضیه شخصیه بر غیر آن حاکم پس حکم می کند آن حاکم ثانی در همان قضیه به خلاف قول حاکم اول، بعد از آن جمع می شوند قاضیان به آن احکام نزد پیشوای خودشان که آن ها را قاضی نموده است، پس حکم می کند به صواب بودن رأی های همه ایشان و حال آن که این تصویب فاسد است، به جهت این که خدای ایشان یکی است و پیغمبر ایشان یکی است و کتاب ایشان یکی است.

پس آیا امر نموده است خداوند ایشان را به اختلاف؟ پس اطاعت کرده اند او را یا این که نهی فرموده است ایشان را از آن اختلاف؟ پس معصیت کرده اند ایشان به او یا آن که خداوند فروفرستاده دین ناقصی پس یاری خواسته به ایشان در اتمام آن یا این که بوده اند ایشان شریکان خداوند رحمن، پس ایشان راست این که بگویند و مراوراست این که راضی بشود به گفتار ایشان چنان که شأن شریکان با همدیگر این است یا این که فروفرستاده خداوند دین تمامی پس تقصیر کرده حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه و آله) از رسانیدن و ادا نمودن آن بر انام.

و حال آن که حق تعالی فرموده در کتاب مجید خود که: ما تقصیر نکرده ایم در کتاب خود از هیچ چیز در هیچ باب و در آن کتاب است بیان هرچیزی و ذکر فرموده این که به درستی که قرآن تصدیق کننده است بعضی از آن مربعض دیگر را و به درستی که به وجه من الوجوه در آن اختلاف نیست، پس فرموده است که: اگر بودی این کتاب عزیز از نزد غیرپروردگار هرآینه یافتندی در آن اختلاف بسیار و به درستی که ظاهر قرآن حسن است و معجب و باطن آن عمیق است و بی پایان، فانی نمی شود سخنان عجیبه آن و به نهایت نمی رسد نکته های غریبه آن و زایل نمی شود ظلمات شبهات مگر به انوار آیات باهرات آن.

ومن كلام له عليه السلام وهو التاسع عشر من المختار في باب الخطب الجاري مجراها

قاله للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب فمضى في بعض كلامه عليه السلام شيء اعترضه الأشعث فقال يا أمير المؤمنين: هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثمّ قال عليه السلام له:

«وَما يُدْرِيكَ ما عَلَيَّ وَمالي؟ عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ ولَعْنَةُ اللاَّعِنينَ، حائِكُ بْنُ حائِكٍ، مُنافِقُ بْنُ كافِرٍ، وَاللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالإِسْلامُ أُخرى، فَما فَداكَ مِنْهُما مالُكَ وَلا حَسَبُكَ، وَإِنَّ امْرأً دَلَّ عَلى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وساقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الأَقْرَبُ، وَلا يَأْمَنَهُ الأَبْعَد»[1].

أقول: يريد أنّه أسر في الكفر مرّة وفي الإسلام مرّة، وأمّا قوله: دلّ على قومه السّيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غرّ فيه قومه ومكر بهم حتّى أوقع بهم خالد، وكان قومه بعد ذلك يسمّونه عرف النّار، وهو اسم للغادر عندهم.

اللغة

(خفض إليه بصره) طأطأه و **(الحائك)** بالهمزة النّاسج و **(الفداء)** ما يفديه الأسير لفكّ رقبته و **(الحتف)** الموت و **(العرف)** الرمل والمكان المرتفعان.

قال الشّارح البحراني، وأمّا استعارتهم له عرف النّار فلأنّ العرف عبارة عن كلّ عال مرتفع، والأعراف في القرآن الكريم سور بين الجنّة والنّار، ولمّا كان من شأن كلّ عال مرتفع أن يستر ما وراءه وكان الغادر يستر بمكره وحيلته أموراً كثيرة وكان هو قد غرّ قومه بالباطل وغدر بهم، صدق عليه بوجه الاستعارة لفظ عرف النار لستره عليهم لما وراءه من نار الحرب أو نار الآخرة إذ حملهم على الباطل.

أقول: روى في **«المجلّد التّاسع»** من **«البحار»** في الباب المائة والثلاثة عشر المتضمّن للأخبار الغيبيّة لأمير المؤمنين عليه السلام عن الحسن بن علي عليه السلام في خبر أنّ الأشعث بن قيس الكندي بنى في داره ميذنة وكان يرقي إليها إذا سمع الأذان في أوقات الصّلاة في مسجد جامع الكوفة فيصيح من أعلى ميذنته: يا رجل إنّك لكذّاب ساحر، وكان أبي يسمّيه عنق النّار، وفي رواية: عرف النّار، فسئل عن ذلك فقال: إنّ الأشعث إذا حضرته الوفاة دخل عليه عنق من النّار ممدودة من السّماء فتحرقه فلا يدفن إلاّ وهو فحمة سوداء، فلمّا توفي نظر سائر من حضر

---

(١) البحار: ٢/٣١٣، والأصول الأصلية للفيض: ١٢٤.

إلى النّار وقد دخلت عليه كالعنق الممدود حتّى أحرقته وهو يصيح ويدعو بالويل والثبور[١].

والميذنة بالكسر موضع الأذان والمنارة، وقد ظهر من هذه الرّواية سبب تسميته بعرف النّار، وأنّه ليس سببها ما توهّمه البحراني (ره).

الإعراب

كلمة **(ما)** مرفوع المحلّ على الإبتداء، **(ويدريك)** خبره، **(وماء)** الثّانية في موضع رفع على الإبتداء، **(ويدريك)** معلق لتضمّنه معنى الاستفهام وعلى خبره، والجملة متعلقة بيدريك في موضع المفعول الثّاني على حدّ قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣] قال الثّوري: يقال: للمعلوم ما أدريك ولما ليس بمعلوم ما يدريك في جميع القرآن **(وحائك)** مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي أنت حائك، أو على النّداء بحذف حرف النّداء، أو منصوب بتقدير الفعل المحذوف أي أذمّ حائك بن حائك على حدّ قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] فتأمل.

المعنى

إعلم أنّ هذا الكلام **(قاله عليه السلام للأشعث بن قيس)** الأشجّ لأنه شج في بعض حروبه وهو من بني كندة واسمه معدي كرب، وكان أشعث الرأس أبداً فغلب الأشعث عليه حتّى نسي اسمه وكيف كان فقد قاله **(وهو على منبر الكوفة يخطب)** خطبة يذكر فيها أمر الحكمين، وذلك بعد ما انقضى أمر الخوارج **(فمضى في بعض كلامه شيء)** وهو أنّه قام إليه رجل من أصحابه وقال له: نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها فما ندري أيّ الأمرين أرشد؟ فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذا جزاء من ترك العقدة[٢] أي جزائي حيث وافقتكم على ما ألزمتموني به من أمر التحكيم، وترك الحزم[٣].

فلمّا قال ذلك **(اعترضه الأشعث)** لشبهة وجدها في نفسه من تركه عليه السلام وجه المصلحة واتباع الأراء الباطلة وأراد إفحامه **(فقال يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك)** وجهل أو تجاهل أنّ وجه المصلحة قد يترك محافظة على أمر أعظم منه ومصلحته أهمّ فإنّه عليه السلام لم يترك العقدة إلاّ خوفاً من أصحابه أن يقتلوه كما ستطلع عليه في قصتهم، هذا.

وقال الشّارح المعتزلي: إنّ الشيء الذي اعترضه الأشعث في كلامه هو أنّه كان مقصوده

(١) كتاب سليم: ٢١٤، والبحار: ٣٠٦/٤١.

(٢) العقدة: الحزم والرأي.

(٣) الاحتجاج: ٢٧٣/١.

بقوله: هذا جزاء من ترك العقدة هذا جزاؤكم إذ تركتم الرّأي والحزم وأصررتم على إجابة القوم إلى التحكيم، فظنّ الأشعث أنّه أراد هذا جزائي حيث تركت الرّأي والحزم وحكمت لأنّ هذه اللفظة محتملة ألا ترى أنّ الرّئيس إذا شغب عليه جنده وطلبوا منه اعتماد أمر ليس بصواب فوافقهم تسكيناً لشغبهم لا استصلاحاً لرأيهم، ثمّ ندموا بعد ذلك، قد يقول هذا جزاء من ترك الرأي وخالف وجه الحزم؛ ويعني بذلك أصحابه وقد يقوله يعني به نفسه حيث وافقهم أمير المؤمنين عليه السلام إنّما عنى ما ذكرناه دون ما خطر للأشعث[1].

(ف) لمّا قال له هذه عليك لا لك (**خفض** عليه السلام **إليه بصره**) وطأطأه (**ثمّ قال له: وما يدريك ما عليّ ممّا لي**) إشارة إلى جهله وعدم جواز الاعتراض من مثله عليه سلام الله عليه، ثمّ اتبعه الطرد والأبعاد عن رحمة الله سبحانه وقال (**عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين**) واستحقاقه بذلك من حيث كونه من المنافقين في خلافته عليه السلام وهو في أصحابه كعبد الله بن أبي بن سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ واحد منهما رأس النفاق في زمانه، كما يدلّ عليه اعتراضه عليه عليه السلام ويشهد به شهادته عليه السلام بأنه منافق ابن كافر، ولا شكّ أن المنافق مستحقّ للّعن والطرد لقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

ويدلّ على كفره ونفاقه صريحاً ما رواه الشّارح المعتزلي عن أبي الفرج الأصبهاني في شرح كلام الخامس والسّتين في ذكر كيفيّة شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، قال: قال أبو الفرج: وقد كان ابن ملجم لعنه الله أتى الأشعث بن قيس في هذه اللّيلة فخلا به في بعض نواحي المسجد ومرّ بهما حجر بن عدّي فسمع الأشعث وهو يقول: ابن ملجم النّجا النّجا بحاجتك فقد فضحك الصّبح، قال له حجر: قتلته يا أعور، وخرج مبادراً إلى عليّ عليه السلام وقد سبقه ابن ملجم وضربه، وأقبل حجر والنّاس يقولون: قتل أمير المؤمنين عليه السلام.

قال أبو الفرج: وللأشعث بن قيس في انحرافه عن أمير المؤمنين عليه السلام أخبار يطول شرحها.

منها أنه جاء الأشعث إلى عليّ عليه السلام يستأذن عليه فردّه قنبر فأدمى الأشعث أنفه فخرج عليّ عليه السلام وهو يقول: مالي ولك يا أشعث أما والله لو لعبد ثقيف تمرست لا قشعرت شعيراتك، قيل: يا أمير المؤمنين من عبد ثقيف؟ قال غلام لهم لا يبقى أهل من العرب إلا أدخلهم ذلاً، قيل يا أمير المؤمنين كم يلي أو كم يمكث؟ قال: عشرين إن بلغها.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/٢٩٦.

وقال أبو الفرج: إنّ الأشعث دخل على عليّ عليه السلام فكلمه فأغلظ عليّ عليه السلام له فعرض له الأشعث أن سبقتك به فقال له عليّ عليه السلام: «أبالموت تخوفني أو تهددني؟ فوالله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت عليّ»[١].

أقول: وأشار بعبد ثقيف إلى حجّاج بن يوسف الثقفي والمستفاد من رواية أبي مخنف المروية في «البحار» أن حضور الأشعث تلك الليلة في المسجد إنّما كان لمعونة ابن ملجم لعنه الله على قتله عليه السلام، وفي «الكافي» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الأشعث بن قيس شرك في دم أمير المؤمنين، وابنته جعدة سمّت الحسن، وابنه محمّد شرك في دم الحسين عليهم السلام[٢].

ثمّ عيّره عليه السلام بأنّه **(حائك بن حائك)** والمراد بهما إمّا معناهما الحقيقي لما روى أنّه كان هو وأبوه ينسجان برود اليمن وليس هذا ممّا يخص بالأشعث بل أهل اليمن كلهم يعيّرون بذلك كما قال خالد بن صفوان: ما أقول في قوم ليس فيهم إلاّ حائك برد، أو دابغ جلد، أو سايس قرد، ملكتهم امرأة، وأغرقتهم فارة، ودلّ عليهم هدهد.

وإمّا معناهما المجازي، وهو حائك الكذب على الله ورسوله ووليّه كما هو شأن المنافق والكافر.

ومن ذلك ما رواه في «**الوسائل**» مرفوعاً إلى أبي عبد الله عليه السلام قال ذكر الحائك عند أبي عبد الله عليه السلام أنّه ملعون، فقال: «إنّما ذلك الذي يحوك الكذب على الله ورسوله» وعلى هذا المعنى فإرداف اللعن به يكون إشارة إلى علة الاستحقاق له، هذا[٣].

والأظهر أنّه وارد على سبيل الاستعارة إشارة إلى نقصان عقله وقلة تدبيره واستعداده، كما أنّ الحائك ناقص العقل، إمّا من حيث كون معاشرته غالباً مع النساء والصّبيان كالمعلمين، ولا شكّ أنّ المخالطة مؤثرة.

ولذلك قال الصّادق عليه السلام: «لا تستشيروا المعلمين ولا الحوكة فإنّ الله قد سلبهم عقولهم»[٤] مبالغة في قصور عقلهم.

وفي حديث آخر عنه عليه السلام أنّه قال: «عقل أربعين معلماً عقل حائك، وعقل أربعين حائكاً عقل امرأة، والمرأة لا عقل لها».

---

(١) مقاتل الطالبين: ٢١.

(٢) الكافي: ٨/١٦٧ ح ١٨٧، والبحار: ٤٢/٢٢٨.

(٣) الكافي: ٢/٣٤٠ ح ١٠.

(٤) مستدرك الوسائل: ١٣/٩٨، ونور البراهين: ٢/٣٦٢.

وإمّا من حيث إن ذهنه عامّة وقته مصروف إلى جهة صنعته مصبوب الفكر إلى أوضاع الخيوط المتفرّقة وترتيبها ونظامها محتاجاً إلى حركة يديه ورجليه كما أنّ الشاهد له يعلم من حاله أنّه مشغول الفكر عمّا وراء ما هو فيه غافل عمّا عداه.

ويمكن أن يكون المقصود بالاستعارة الإشارة إلى دناءة النّفس ورذالة الطبع والبعد عن مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب والتخلق بالأوصاف الذّميمة والأخلاق الدّنيّة، لاتّصاف الحائك بذلك كله، ولذلك ورد في بعض الأخبار النّهي عن الصّلاة خلفه، بل ورد أنّ ولده لا ينجب إلا سبعة أبطن نحو ما ورد في ولد الزّنا. وروى القميّ في تفسير قوله سبحانه:

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]

إنّه كان ذلك اليوم يوم سوق فاستقبلها الحاكة وكانت الحياكة أنبل صناعة في ذلك الزّمان، فأقبلوا على بغال شهب فقالت لهم مريم: أين النخلة اليابسة؟ فاستهزؤا بها وزجروها، فقالت لهم: جعل الله كسبكم بوراً وجعلكم في النّاس عاراً، ثمّ استقبلها جمع من التّجار فدلوها على النخلة اليابسة فقالت لهم: جعل الله البركة في كسبكم وأحوج النّاس إليكم، الحديث.

وروى المحدث الجزائري (ره) في كتاب زهر الرّبيع عن شيخنا بهاء الملّة والدّين أنّه دخل رجل إلى مسجد الكوفة وكان ابن عبّاس مع أمير المؤمنين عليه السلام يتذاكران العلم، فدخل الرّجل ولم يسلم وكان أصلع الرّأس من أوحش ما خلق الله تعالى وخرج أيضاً ولم يسلم.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا ابن عبّاس اتبع هذا الرّجل واسأله ما حاجته ومن أين وإلى أين»، فأتى وسأله فقال: أنا من خراسان وأبي من القيروان وأمّي من أصفهان قال: وإلى أين تطلب؟ قال: البصرة في طلب العلم، قال ابن عباس: فضحكت من كلامه فقلت له: يا هذا تترك عليّاً جالساً في المسجد وتذهب إلى البصرة في طلب العلم والنبيّ صلى الله عليه وآله قال: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد العلم فليأت المدينة من بابها»، فسمعني علي عليه السلام وأنا أقول له ذلك، فقال: يا ابن عبّاس اسأله ما تكون صنعته، فسألته فقال: إنّي رجل حائك، فقال عليه السلام: صدق والله حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: «يا عليّ إياك والحائك، فإنّ الله نزع البركة من أرزاقهم في الدّنيا وهم الأرذلون».

ثمّ قال عليه السلام: «يا ابن عبّاس أتدري ما فعل الحيّاك في الأنبياء والأوصياء من عهد آدم إلى يومنا هذا»، فقال: الله ورسوله وابن عمّ رسوله أعلم، فقال عليه السلام: «معاشر النّاس من أراد أن يسمع حديث الحائك فعليه بمعاشرة الديلم، ألا ومن مشى مع الحائك قتر عليه رزقه، ومن أصبح به جفى»، فقلت: يا أمير المؤمنين ولم ذلك؟

قال عليه السلام: «لأنّهم سرقوا ذخيرة نوح، وقدر شعيب، ونعلي شيث، وجبّة آدم، وقميص

حوّاء، ودرع داود، وقميص هود، ورداء صالح، وشملة إبراهيم، ونخوت إسحاق، وقدر يعقوب، ومنطقة يوشع، وسروال زليخا، وازار أيوب، وحديد داود، وخاتم سليمان، وعمّامة إسماعيل، وغزل سارة، ومغزل هاجر، وفصيل ناقة صالح، وإطفاء سراج لوط، وألقوا الرّمل في دقيق شعيب، وسرقوا حمار العزير وعلّقوه في السقف وحلفوا أنّه لا في الأرض ولا في السّماء، وسرقوا مردد «مرودظ» الخضر، ومصلّى زكريّا، وقلنسوة يحيى، وفوطة يونس، وشاة إسماعيل؛ وسيف ذي القرنين ومنطقة أحمد، وعصا موسى، وبرد هارون، وقصعة لقمان، ودلو المسيح، واسترشدتهم مريم فدلوها على غير الطريق، وسرقوا ركاب النبيّ، وحطام النّاقة ولجام فرسي، وقرط خديجة، وقرطي فاطمة، ونعل الحسن، ومنديل الحسين، وقماط إبراهيم، وخمار فاطمة، وسراويل أبي طالب، وقميص العبّاس، وحصير حمزة، ومصحف ذي النّون، ومقراض إدريس، وبصقوا في الكعبة، وبالوا في زمزم، وطرحوا الشّوك والعثار في طريق المسلمين.

وهم شعبة البلاء، وسلاح الفتنة، ونسّاج الغيبة، وأنصار الخوارج، والله تعالى نزع البركة من بين أيديهم بسوء أعمالهم، وهم الذين ذكرهم في محكم كتابه العزيز بقوله:

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨].

وهم الحاكة والحجّام فلا تخالطوهم ولا تشاركوهم، فقد نهى الله عنهم.

ويناسب هذه الرّواية الشّعر المنسوب إليه عليه السلام وإن لم أجده في الدّيوان المعروف نسبته إليه وهو:

لعن الحائك في عشر خصال فعلوها ... بشلنك لنك لنك ومكوك ترحوها

وبرجلين تطق طق وبرأس حركوها ... وبكرّ كرفرّ هاء هوء نسجوها

سرقوا قدر شعيب وحريص أكلوها ... قتلوا ناقة صالح ثمّ جاؤوا قسموها

ومناديل رسول سرقوها حرقوها ... وبسبعين نبيّاً كلهم قد لعنوها

وبالجملة فقد تحصّل ممّا ذكرناه أنّ تعريضه عليه السلام على الأشعث الملعون بأنه حائك بن حائك دلالة على كمال القدح والطعن وأكده بقوله **(منافق بن كافر)** بحذف حرف العطف إشارة إلى كمال الاتّصال المعنوي، ثمّ أتبعه بقوله: **(والله لقد أسرك الكفر مرّة والإسلام أخرى)** تأكيداً لنقصان عقله وإشارة إلى أنّه لو كان له عقل لما حصل له في الأسر مرتين.

أمّا أسره الواقع في الكفر فهو على ما رواه الشّارح المعتزلي عن ابن الكلبي أنه لمّا قتلت مراد أباه قيساً الأشجّ خرج الأشعث طالباً بثاره، فخرجت كندة متساندين على ثلاثة ألوية، على أحد الألوية كبش بن هاني بن شرحبيل، وعلى أحدها القشعم، وعلى أحدها الأشعث فأخطأوا مراداً ولم يقعوا عليهم ووقعوا على بني الحارث بن كعب، فقتل كبش والقشعم وأسر

الأشعث ففدى بثلاثة آلاف بعير لم يفد بها عربيّ قبله ولا بعده، فقال في ذلك عمرو بن معد يكرب الزّبيدي فكان فداؤه ألفي بعير وألف من طريفات وتله.

وأمّا أسره الواقع في الإسلام فهو أنّ رسول الله ﷺ لما قدمت كندة حجاجاً عرض نفسه عليهم كما كانَ يعرض نفسه على أحياء العرب، فدفعه بنو وليعة من بني عمرو بن معاوية ولم يقبلوه، فلمّا هاجر ﷺ وتمهّدت دعوته وجاءته وفود العرب جاءه وفد كندة وفيهم الأشعث وبنو وليعة، فأسلموا فأطعم رسول الله ﷺ بني وليعة من صدقات حضرموت، وكان قد استعمل على حضرموت زياد بن لبيد البياضي الأنصاري فدفعها زياد إليهم فأبوا أخذها، وقالوا: لا ظهر لنا فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك، فأبى زياد وحدث بينهم وبين زياد شركاً ويكون حرباً، فرجع منهم قوم إلى رسول الله ﷺ وكتب زياد إليه ﷺ يشكوهم.

قال الشّارح المعتزلي: وفي هذه الواقعة كان الخبر المشهور أن رسول الله ﷺ قال لبني وليعة: لتنتهنّ يا بني وليعة أو لأبعثن إليكم رجلاً عديل نفسي يقتل مقاتليكم ويسبي ذراريكم، قال عمر بن الخطاب: فما تمنّيت الإمارة إلاّ يومئذٍ وجعلت أنصب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد عليّ وقال: هو هذا[1].

ثمّ كتب لهم رسول الله ﷺ إلى زياد فوصلوا إليه الكتاب، وقد توفى رسول الله ﷺ، وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب فارتدت بنو وليعة وغنّت بغاياهم وخضبن له أيديهنّ، فأمر أبو بكر زياداً على حضرموت وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم فبايعوه إلاّ بني وليعة.

فلمّا خرج ليقبض الصّدقات من بني عمرو بن معاوية أخذ ناقة لغلام منهم يعرف بشيطان بن حجر، وكانت صفيّة نفيسة اسمها شذرة، فمنعه الغلام عنها، وقال خذ غيرها فأبى زياد ذلك ولجّ فاستغاث الشّيطان بأخيه الغداء بن حجر، فقال لزياد دعها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك ولجّ الغلامان في أخذها ولجّ زياد فهتف الغلامان مسروق بن معدي كرب، فقال مسروق لزياد: أطلقها، فأبى ثمّ قام فأطلقها فاجتمع إلى زياد بن لبيد أصحابه، واجتمع بنو وليعة وأظهرو أمرهم فتبينهم زياد وهم غارون فقتل منهم جمعاً كثيراً، ونهب وسبى ولحق فلهم وذ بالأشعث بن قيس اللّعين فاستنصروه، فقال لا أنصركم حتى تملكوني عليكم، فملكوه وتوجوه كما يتوّج الملك من قحطان فخرج إلى زياد في جمع كثيف.

وكتب أبو بكر إلى مهاجر بن أبي أميّة وهو على صنعاء أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء وسار إلى زياد، فلقوا الأشعث فهزموه وقتل مسروق ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالبخير، فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتّى ضعفوا،

(١) البحار: ٤٠/ ٧٥ ـ ٨٠، وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢٩٤.

ونزل الأشعث ليلاً إلى مهاجر وزياد فسألهما الأمان على نفسه حتّى يقدما به على أبي بكر فيرى فيه رأيه على أن يفتح لهم الحصن ويسلم إليهم من فيه.

وقيل: بل كان في الأمان عشرة من أهل الأشعث فآمناه وأمضيا شرطه، ففتح لهم الحصن فدخلوه واستنزلوا كل من فيه وأخذوا أسلحتهم وقالوا للأشعث: اعزل العشرة، فعزلهم فتركوهم وقتلوا الباقين وكانوا ثمان مائة، وقطعوا أيدي النّساء اللواتي شمتن رسول الله صلى الله عليه وآله فأسروا الأشعث وحملوه إلى أبي بكر موثقاً في الحديد هو والعشرة.

وقيل: إنّه لمّا حاصره المسلمون وقومه بعث إلى زياد يطلب منه الأمان لأهله ولبعض قومه، وكان من غفلته أنّه لم يطلب لنفسه بالتعيين، فلمّا نزل أسره زياد وبعث به إلى أبي بكر فسأل أبا بكر أن يستبقيه لحربه فعفا عنه وزوّجه اخته أمّ فروة بنت أبي قحافة.

وكان من جهالته أنّه بعد خروجه من مجلس عقد أمّ فروة أصلت سيفه في أزقة المدينة وعقر كلّ بعير رآه وذبح كل شاة استقبلها للناس، والتجأ إلى دار من دور الأنصار، فصاح به النّاس من كلّ جانب وقالوا: قد ارتد الأشعث مرّة ثانية فأشرف عليهم من السّطح وقال: يا أهل المدينة إنّي غريب ببلدكم، قد أولمت بما نحرت وذبحت فليأكل كلّ إنسان منكم ما وجد وليغد إليّ من كان له عليّ حقّ حتّى أرضيه فدفع أثمانها إلى أربابها، فضرب أهل المدينة به المثل وقالوا: أولم من الأشعث وفيه قال الشّاعر:

لقد أولم الكنديّ يوم ملاكه وليمة حمّال لثقل العظائم

فإن قلت: المستفاد ممّا ذكرته أخيراً مضافاً إلى ما ذكرته سابقاً من أنّه فدى عند أسره في الكفر بثلاثة آلاف بعير أنّه كان ذا مال وثروة فكيف يجتمع ذلك مع قوله عليه السلام: **(فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك)**؟

قلت: لم يرد عليه السلام به الفداء الحقيقي وإنّما أراد به ما دفع عنك الأسر مالك ولا حسبك وما نجاك من الوقوع فيه شيء منهما.

ثمّ أردف عليه السلام ذلك كله بالإشارة إلى صفة رذيلة أخرى له أعني صفة الغدر الذي هو مقابل فضيلة الوفاء وقال: **(وإنّ امرءاً دل على قومه السّيف وقاد إليهم الحتف لحريّ بأن يمقته الأقرب و)** حقيق بأن **(لا يأمنه الأبعد)** والمراد به الإشارة إلى ما سبق ذكره منّا أنّه طلب الأمان لنفسه أولاً مع عشرة من قومه ففتح لزياد ومهاجر باب الحصن وعزل العشرة وأسلم الباقين للقتل فقتلوا صبراً، ولا شك أنّ من كان كذلك لجدير أن يمقته قومه ولا يأمنه غيرهم.

وأمّا ما قاله السّيد رضي الله عنه من أنه أراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة إلى آخر ما مرّ ذكره، فأنكره الشّارحان إلاّ أنّ البحراني قال: وحسن الظنّ بالسّيد يقتضي تصحيح نقل السّيد (ره).

الترجمة

از جمله كلام آن عالى مقام است كه گفته است آن را به اشعث بن قيس عليه اللعنة والعذاب در حالتى كه بر بالاى منبر كوفه خطبه مى فرمود، پس گذشت در اثناى كلام آن حضرت چيزى كه اشعث به آن اعتراض نمود، پس گفت اى اميرمؤمنان اين كلمه كه فرمودى بر ضرر تو است نه بر نفع تو، پس فرود آورد به سوى اشعث چشم خود را بعد از آن فرمود:

و چه دانا گردانيد تو را بر آن چه بر من مضرّ است از آن چه بر من نفع دارد. بر تو باد لعنت خدا و لعنت جميع لعن كنندگان اى جولاه پسر جولاه و منافق پسر كافر. قسم به خدا كه اسير نمودند تو را اهل كفر يك بار و اهل اسلام يك بار ديگر، پس نجات نداد از افتادن تو در دست هريك از اهل كفر و اسلام مال تو و نه حسب تو و به درستى مردى را كه راهنمايى كند بر قوم خود شمشير برنده را و بكشد به سوى ايشان مرگ و هلاك را، هرآينه سزاوار است به اين كه دشمن دارد او را نزديك تر او و خاطرجمع نباشد به او دورتر او؛ يعنى كسى كه متّصف باشد به صفت غدر لايق است به اين كه قوم و بيگانه از او ايمن نشود و به اين كه او را دشمن بدارند.

ومن خطبة له عليه السلام وهي العشرون
من المختار في باب الخطب

«فَإِنَّكُمْ لَوْ عايَنْتُمْ ما قَدْ عايَنَ مَنْ ماتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ ووَهِلْتُمْ وسَمِعْتُمْ وأَطَعْتُمْ، وَلكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ ما قَدْ عايَنُوا، وقَرِيبٌ ما يُطْرَحُ الْحِجابُ، وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، بِحَقٍّ أَقُولُ لَقَدْ جاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وزُجِرْتُمْ بِما فيهِ مُزْدَجَرٌ، وما يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّماءِ إِلاَّ الْبَشَرُ»[١].

اللغة

(جزع) الرّجل جزعاً من باب تعب ضعف عن حمل ما نزل به فلم يجد به صبراً و (وهل) كتعب أيضاً فزع و (زجرته) زجراً من باب قتل منعته وازدجر يستعمل لازماً ومتعدّياً و (المزدجر) المتّعظ مفتعل من الزّجر، أبدلت (التّاء) دالاً لتوافق (الزّاي) بالجهر قال سبحانه: ﴿**ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر**﴾، أي متّعظ وهو بمعنى المصدر أي ازدجار عن الكفر وتكذيب الرّسل.

الإعراب

(**قريب**) مرفوع على الخبريّة، (**وما**) مصدريّة مرفوع المحلّ على الابتداء والجملة بعدها في تأويل المصدر.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة له واردة في إنذار الجاهلين والغافلين بالأهاويل والشّدائد الواقعة بعد الموت وحينه فكأنّه عليه السلام يقول يا أهل الجهالة والعصيان المتمرّدين عن طاعة الرّحمٰن، حتّام على الدّنيا إقبالكم، وبشهوتها اشتغالكم، وقد وخطكم القتير[٢]، ووافاكم النّذير، وأنتم عما يراد بكم لاهون، وبلذّة يومكم ساهون.

(**فإنّكم لو عاينتم**) بعين التعين الخالصة عن الشّوائب العارية عن الغطاء والحواجب (**ما قد عاينه من مات منكم**) قبلكم من غمرات الموت وسكراته؛ وأهوال القبر وظلماته، وعقوبات البرزخ ونقماته، وعذاب الآخرة وشدائدها (**لجزعتم ووهلتم**) وفزعتم لشدّة تلك الأهوال وهول هذه الأحوال (و) (**سمعتم**) الواعية (**وأطعتم**) الدّاعية للملازمة البيّنة بين معاينة هذه الأمور بعين

---

(١) الكافي: ١/ ٤٠٥ ح ٣.

(٢) القتير: الشيب، والوخط: أي خالطه الشيب.

اليقين وبين الجزع والفزع والسّماع والطاعة لربّ العالمين.

كما شهد به الكتاب المكنون: **﴿إذ لامجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربّهم، ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون﴾** (ولكن) من اعتذر منكم بلسان حالكم بأنّه **(محجوب عنكم ما قد عاينوه)** مستور عنكم ما قد شهدوه، ولذلك ذهلتم وغفلتم ورغبتم في الدّنيا وألهتكم لذّاتها، وشغلتكم شهواتها ألا إنّ هذا العذر غير مقبول، وذلك الاعتذار غير نافع (و) ذلك لأنّه **(قريب ما يطرح الحجاب)** حين ما حلّ بك الموت وواراك التّراب وشهد عليك الرّقيب والعتيد، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد.

(و) الله **(لقد بصّرتم)** وصيرتم مبصّرين **(إن أبصرتم)** ونظرتم بعيون ناظرة **(واسمعتم)** وصيرتم سامعين **(إن سمعتم)** ووعيتم بإذن واعية **(وهديتم إن اهتديتم)** بعقول كاملة وقلوب صافية **(بحق أقول لقد جاهرتكم العبر)** وعالتكم الأنباء والأثر بالمصائب النّازلة على الأمم الماضية، والعقوبات الواقعة في القرون الخالية، وما حلّ بأهل القبور سطوراً بإفناء الدّور، ألا ترونهم كيف تدانوا في خططهم، وقربوا في مزارهم وبعدوا في لقائهم، عمروا فخربوا، وآنسوا فأوحشوا، وسكنوا فازعجوا، وقطنوا فرحلوا.

فإنّ في هذه الأمور كلها عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن أذكر (و) مع هذه كلها **(زجرتم بما فيه مزدجر)** من النّهي الأكيد، والوعيد الشّديد الوارد في الكتب الإلهيّة والسّنن النبويّة (و) بعد ذلك كله لم يبق عذر لمن اعتذر و**(ما يبلغ عن الله بعد رسل السّماء إلاّ البشر)** وما فرّط ولا قصّر، بل بلغ وذكر، وبشر وأنذر حكمة بالغة فما تغني النّذر.

ولنتبع هذه الخطبة الشريفة لأمير المؤمنين وسيّد الوصيّين بندبة جليلة لسبطه الأجل زين العابدين وسيّد السّاجدين سلام الله عليهما من ربّ العالمين، لكون تلك النّدبة مع هذه الخطبة مطابقة المضامين مضافاً إلى ما فيها من الفوائد الجمة والمواعظ الحسنة التي يتنبّه بها الجاهل عن نوم الغفلة، ويهتدي بها الضّالّ عن طريق الضّلالة.

وهي ما رواها شاكر بن غنيمة بن أبي الفضل عن عبد الجبّار الهاشمي قال: سمعت هذه النّدبة من الشّيخ أبي بشر بن أبي طالب الكندي يرويها عن أبي عيينة الزّهري قال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام يناجي ويقول:

قل لمن قلّ عزاؤه، وطال بكاؤه، ودام عناؤه، وبان صبره، وتقسم فكره، والتبس عليه أمره، من فقد الأولاد، ومفارقة الآباء والأجداد، والامتعاض بشماتة الحسّاد: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] بعاد إرم ذات العماد شعر:

تعزّ فكلّ للمنيّة ذائق	وكلّ ابن انثى للحياة مفارق
فعمر الفتى للحادثات ذريئة	تناهبه ساعاتها والدّقائق

كـذا تـتـفـانـي واحـداً بـعـد واحـدٍ وتـطـرقـنـا بـالـحـادثـات الـطـوارق

فحسّن الأعمال، وجمل الأفعال، وقصّر الآمال الطوال، فما عن سبيل المنية مذهب، ولا عن سيف الحمام مهرب، ولا إلى قصد النّجاة مطلب، فيا أيّها الإنسان المتسخّط على الزّمان، والدّهر الخوّان، مالك والخلود إلى دار الأحزان، والسكون إلى دار الهوان، وقد نطق القرآن بالبيان الواضح في سورة الرّحمٰن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٦-٢٧] شعر:

وفـيـم وحـتّـى م الـشّـكـايـة والـرّدى جـمـوح لآجـال الـبـريّـة لاحـق

فـكـلّ ابـن انـثـى هـالـك وابـن هـالـك لـمـن ضـمّـنـتـه غـربـهـا والـمـشـارق

فـلا بـدّ مـن إدراك مـا هـو كـائـن ولا بـدّ مـن إتـيـان مـا هـو سـابـق

فالشّباب للهرم، والصحّة للسّقم، والوجود للعدم، وكلّ حيّ لا شكّ مخترم، بذلك جرى القلم، على صفحة اللوح في القدم، فما هذا التلهف والنّدم، وقد خلت من قبلكم الأمم، شعر:

أتـرجـو نـجـاةً مـن حـيـاة سـقـيـمـة وسـهـم الـمـنـايـا لـلـخـلـيـقـة راشـق

سـرورك مـوصـول بـفـقـدان لـذة ومـن دون مـا تـهـواه تـأتـي الـعـوائـق

وحـبّـك لـلـدّنـيـا غـرور وبـاطـل وفـي ضـمـنـهـا لـلـراغـبـيـن الـبـوائـق

أفي الحياة طمع، أم إلى الخلود نزع؛ أم لما فات مرتجع، ورحى المنون دائرة، وفراسها غائرة، وسطواتها قاهرة، فقرب الزّاد، ليوم المعاد، ولا تتوطّ على غير مهاد وتعمّد الصّواب، وحقّق الجواب، فلكلّ أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب، شعر:

فـسـوف تـلاقـي حـاكـمـاً لـيـس عـنـده سوى العدل لا يـخـفـى عـلـيـه الـمـنـافـق

يـمـيّـز أفـعـال الـعـبـاد بـلـطـفـه ويـظـهـر مـنـه عـنـد ذاك الـحـقـائـق

فـمـن حـسـنـت أفـعـالـه فـهـو فـائـز ومـن قـبـحـت أفـعـالـه فـهـو زاهـق

أين السّلف الماضون، والأهلون والأقربون، والأوّلون والآخرون، والأنبياء والمرسلون، طحنتهم والله المنون، وتوالت عليهم السّنون، وفقدتهم العيون، وإنّا إليهم صائرون، فإنّ لله وإنّا إليه راجعون، شعر:

إذا كـان هـذا نـهـج مـن كـان قـبـلـنـا فـإنّـا عـلـى آثـارهـم نـتـلاحـق

فكـن عـالـمـاً أن سـوف تـدرك مـن مـضـى ولـو عـصـمـتـك الـرّاسـيـات الـشّـواهـق

فما هذه دار المقامة فاعملن «فاعلمن خ» ولـو عـمّـر الإنـسـان مـا ذرّ شـارق

أين من شق الأنهار، وغرس الأشجار، وعمر الدّيار، ألم تمح منهم الآثار، وتحلّ بهم دار البوار، فاخش الجوار، فلك اليوم بالقوم اعتبار، فإنّما الدّنيا متاع والآخرة هي دار القرار شعر:

تخرّمهم ريب المنون فلم تكن لتنفعهم جنّاتهم والحدائق
ولا حملتهم حين ولوا بجمعهم نجائبهم والصّافنات السّوابق
وراحوا عن الأموال صفراً وخلفوا ذخائر هم بالرّغم منهم وفارقوا

أين من بنى القصور والدّساكر، وهزم الجيوش والعساكر، وجمع الأموال وحاز الآثام والجرائر، أين الملوك والفراعنة والأكاسرة والسّياسنة، أين العمّال والدّهاقنة أين ذوو النواحي والرّساتيق، والأعلام والمناجيق، والعهود والمواثيق، شعر:

كأن لم يكونوا أهل عز ومنعة ولا رفعت أعلامهم والمناجق
ولا سكنوا تلك القصور التي بنوا ولا أخذت منهم بعهد مواثق
وصاروا قبوراً دارسات وأصبحت منازلهم تسفى عليه الخوافق

ما هذه الحيرة والسّبيل واضح؛ والمشير ناصح، والصواب لائح، عقلت فأغفلت، وعرفت فأنكرت، وعلمت فأهملت، هذا هو الدّاء الذي عزّ دواؤه، والمرض الذي لا يرجى شفاؤه، والأمل الذي لا يدرك انتهاؤه، أفأمنت الأيّام، وطول الأسقام، ونزول الحمام، والله يدعو إلى دار السّلام، شعر:

لقد شقيت نفس تتابع غيّها وتصدف عن إرشادها وتفارق
وتأمل ما لا يستطاع بحيلة (بحمله خ) وتعصيك إن خالفتها وتشاقق
وتصغى إلى قول الغوي وتنثني وتعرض عن تصديق من هو صادق

فيا عاقلاً راحلاً، ولبيباً جاهلاً، ومتيقّظاً غافلاً، أتفرح بنعيم زائل، وسرور حائل، ورفيق خاذل، فيا أيها المفتون بعمله، الغافل عن حلول أجله، والخائض في بحار زَلَلِهِ، ما هذا التقصير وقد وخطك القتير، ووافاك النذير، وإلى الله المصير، شعر:

طلابك أمر لا يتم شروره وجهدك باستصحاب من لا يوافق
وأنت كمن يبني بناء وغيره يعاجله في هدمه ويسابق
وينسج آمالاً طوالاً بعيدة ويعلم أن الدهر للنسج خارق

ليست الطريقة لمن ليس له الحقيقة، ولا يرجع إلى خليقة؛ إلى كم تكدح ولا تقنع وتجمع ولا تشبع؛ وتوفر لما تجمع، وهو لغيرك مودع، ماذا الرّأي العازب، والرشد الغائب،

والأَمل الكاذب، ستنقل عن القصور، وربات الخدور، والجذل والسّرور إلى ضيق القبور، ومن دار الفناء إلى دار الحبور، كلّ نفس ذائقة الموت، وما الحياة الدّنيا إلا متاع الغرور، شعر:

فعالك هذا غرّة وجهالة   وتحسب يا ذا الجهل أنك حاذق
تظن بجهل منك أنك راتق   وجهلك بالعقبى لدينك فاتق
توخيّك من هذا أدلّ دلالة   وأوضح برهاناً بأنك مائق

عجباً لغافل عن صلاحه، مبادر إلى لذاته وأفراحه، والموت طريدة «في خ» مسائه وصباحه، فيا قليل التحصيل، ويا كثير التعطيل، ويا ذا الأَمل الطويل، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، بناؤك للخراب، ومالك للذّهاب، وأجلك إلى اقتراب، شعر:

وأنت على الدّنيا حريص مكاثر   كأنك منها بالسّلامة واثق
تحدثك الأطماع أنك للبقا   خلقت وأنّ الدّهر خل موافق
كأنك لم تبصر اناساً ترادفت   عليهم بأسباب المنون اللواحق

هذه حالة من لا يدوم سروره، ولا تتم أموره، ولا يفكّ أسيره، أتفرح بمالك ونفسك وولدك وغرسك «عرسك»، وعن قليل تصير إلى رمسك، وأنت بين طيّ ونشر، وغنى وفقر، ووفاء وغدر، فيا من القليل لا يرضيه، والكثير لا يغنيه، اعمل ما شئت أنك ملاقيه، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] شعر:

سيقفر بيت كنت فرحة أهله   ويهجر مثواك الصّديق المصادق
وينساك من صافيته وألفته   ويجفوك ذو الود الصّحيح الموافق
على ذا مضى النّاس اجتماع وفرقة   وميتٍ ومولودٍ وقال ووامق

أفّ لدنيا لا يرقى سليمها، ولا يصحّ سقيمها، ولا يندمل كلومها، وعودها كاذبة، وسهامها غير صائبة، وآمالها خائبة، لا تقيم على حال، ولا تمتّع بوصال، ولا تسرّ بنوال، شعر:

وتلك لمن يهوى هواها مليكة   تعبّده أفعالها والطرائق
يسرّ بها من ليس يعرف غدرها   ويسعى إلى تطلابها ويسابق
إذا عدلت جارت على أثر عدلها   فمكروهة أفعالها والخلائق

فياذا السّطوة والقدرة، والمعجب بالكثرة، ما هذه الحيرة والفترة، لك فيمن مضى عبرة، وليؤذن الغافلون عما إليه يصيرون، إذا تحقّقت الظنون، وظهر السّر المكنون وتندمون

حين لا تقالون، ثمّ إنكم بعد ذلك لميتون، شعر:

سيندم فعّال على سوء فعله ويزداد منه عند ذاك التشاهق
إذا عاينوا من ذي الجلال اقتداره وذو قوّة من كان قد ما يداقق
هنالك تتلو كلّ نفس كتابها فيطفو ذو عدل ويرسب فاسق

إلى كم ذا التّشاغل بالتجائر والأرباح، إلى كم ذا التّهور بالسّرور والأفراح، وحتام التغرير بالسّلامة في مراكب النّياح، من ذا الذي سالمه الدّهر فسالم، ومن ذا الذي تاجره الزّمان فغنم، ومن ذا الذي استرحم الأيّام فرحم، اعتمادك على الصّحة والسّلامة خرق، وسكونك إلى المال والولد حمق، والاغترار بعواقب الأمور خلق، فدونك وحزم الأمور، والتّيقظ ليوم النّشور، وطول اللبث في صفحات القبور، فلا تغرنّكم الحياة الدّنيا ولا يغرنّكم بالله الغرور، شعر:

فمن صاحب الأيام سبعين حجّة فلذاتها لا شكّ منه طوالق
فعقبى حلاوات الزّمان مريرة وإن عذبت حيناً فحيناً خرابق
ومن طرفته الحادثات بويلها فلا بدّ أن تأتيه فيها الصّواعق

فما هذه الطمأنينة وأنت مزعج، وما هذه الولوج وأنت مخرج، جمعك إلى تفريق ورفوك (وفرك خ) إلى تمزيق، وسعتك إلى ضيق، فيا أيها المفتون، والطامع بما لا يكون، أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون، شعر:

ستندم عند الموت شر ندامة إذا ضم أعضاك الثرى والمطابق
وعاينت أعلام المنية والردى ووافاك ما تبيض منه المفارق
وصرت رهيناً في ضريحك مفرداً وباعدك الجار القريب الملاصق

فيا من عدم رشده، وجار قصده، ونسي ورده، إلى متى تواصل بالذّنوب وأوقاتك محدودة، وأفعالك مشهودة، أفتعول على الاعتذار، وتهمل الأعذار والإنذار، وأنت مقيم على الإصرار، ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون إنّما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، شعر:

إذا نصب الميزان للفصل والقضا وإبليس محجاج واخرس ناطق
وأجّجت النيران واشتد غيظها إذا فتحت أبوابها والمغالق
وقطعت الأسباب من كلّ ظالم يقيم على أسراره وينافق

فقدم التّوبة، واغسل الحوبة، فلا بدّ أن تبلغ إليك النوبة، وحسّن العمل قبل حلول

الأَجل وانقطاع الأمل، فكلّ غائب قادم، وكلّ عريب عازم[١] وكلّ مفرط نادم، فاعمل للخلاص قبل القصاص، والأخذ بالنّواص، شعر:

فإنّك مأخوذ بما قد جنيته وإنّك مطلوب بما أنت سارق
وذنبك إن أبغضته فمعانق ومالك إن أحببته فمفارق
فقارب وسدد واتق الله وحده ولا تستقلّ الزّاد فالموت طارق[٢]

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

تكملة

المستفاد من الكافي أنّ هذه الخطبة ملتقطة من خطبة طويلة، وروى صدرها هناك باختلاف لما أورده السّيد هنا.

قال في **«الكافي»** في باب ما يجب من حقّ الإمام على الرّعيّة: محمّد بن يحيى العطار عن بعض أصحابنا عن هارون بن مسلم عن مسعدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا تختانوا ولاتكم، ولا تغشّوا هداتكم، ولا تجهلوا أئمتكم، ولا تصدّعوا عن حبلكم فتفشلوا وتذهب ريحكم، وعلى هذا فليكن تأسيس أموركم والزموا هذه الطريقة فإنّكم لو عاينتم ما عاين من قد مات منكم ممّن خالف ما قد تدعون إليه لبدرتم وخرجتم ولسمعتم، ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريباً ما يطرح الحجاب[٣].

---

(١) الكافي: ١/ ٤٠٥ ح ٣.
(٢) نهج السعادة: ٧/ ٦٩.
(٣) الكافي: ١/ ٤٠٥ ح ٣.

الترجمة

ای غافلان و تمردکنندگان از طاعت پروردگار عالمیان، پس به درستی که اگر ببینید آن چیزی را که به معاینه دیدند کسانی که مردند از شما هرآینه به جزع و فزع درآیید و می شنوید و اطاعت می نمایید و لکن مستور است از شما آن چه معاینه دیده اند آن را گذشتگان و نزدیك است برداشته شدن حجاب و به تحقیق که نموده می شوید اگر ببینید به نظر بصیرت و شنوانیده می شوید اگر بشنوید به گوش حقیقت و هدایت یافته می شوید اگر طلب هدایت نمایید به عقل کامل و قلب صافی. به راستی می گویم شما را که به تحقیق جهارا و آشکارا صدا نمود شما را عبرت ها و زجر و منع کرده شدید به چیزی که در آن ازدجار و ممانعت هست از مناهی اکیده و وعیدهای شدیده و تبلیغ نمی نماید از جانب خداوند تبارك و تعالی بعد از ملائکه آسمان مگر جنس آدمیان از پیغمبران پس جای عذر نمانده شما را در تخلف کردن از دعوت ایشان.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الحادية والعشرون من المختار في باب الخطب

«فَإِنَّ الْغايَةَ أَمامَكُمْ، وَإِنَّ وَراءكُمُ السّاعَةُ تَحْدُوكُمْ، تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّما يَنْتَظِرُ بِأَولِكُمْ آخِرُكُمْ»[١].

قال السيد (ره): إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وكلام رسوله بكلّ كلام لمال به راجحا وبرز عليه سابقاً، فأمّا قوله عليه السلام (**تخففوا تلحقوا**) فلا سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة، وأنقع نطفتها من حكمة، وقد نبّهنا في كتاب «**الخصائص**» على عظم قدرها وشرف جوهرها.

اللغة

(**حدا**) الإبل وبها حدوا إذا زجرها وغنى لها ليحثّها على السّير و (**الغور**) العمق، و (**النطفة**) ما صفى من الماء وما (**أنقع**) الماء ما أرواه للعطش وفي بعض النّسخ ما أنفع (**بالفاء**) الموحّدة ولا بأس به.

الإعراب

(**تحدوكم**) منصوب المحلّ على الحاليّة، (**وتلحقوا**) منصوب (**بكي**) مضمرة.

المعنى

إعلم أنّ المستفاد من كتاب «**مطالب السؤول**» لمحمّد بن طلحة على ما رواه في «**البحار**» منه هو أنّ هذا الكلام له عليه السلام من تمام الخطبة السّابقة حيث قال: ومن كلام أمير المؤمنين لقد جاهرتكم العبر وزجرتم بما فيه مزدجر وما يبلغ عن الله بعد رسل السّماء إلاّ البشر، ألا وإنّ الغاية أمامكم (ا ه)[٢].

وكيف كان فقد اختلفت أنظار الشرّاح في تفسير هذا الكلام له وبيان المراد منه على أقوال، والأظهر عندي أنّ قوله (**فإنّ الغاية أمامكم**) أراد بالغاية الموت كما صرّح به في الحديث الآخر: الموت غاية المخلوقين، أي نهايتهم التي ينتهون إليها، ولأجل كونه منتهى سير المخلوقين صحّ جعله أمامهم، لأنّهم يسيرون إليه بحركة جبلّية وتوجّه غريزي فيكون أمامهم لا محالة.

---

(١) خصائص الأئمة للرضي: ١١٢، وروضة الواعظين: ٤٩٠.

(٢) شرح النهج: ٢/ ٣٠٢.

وأمّا قوله: **(وإنّ وراءكم السّاعة)** فالمراد بالسّاعة ساعات الليل والنّهار سمّيت بها لأنّها تسعى النّاس بها كما سمّيت القيامة ساعة لأنّها تسعى النّاس إليها بحركة جبليّة وتوجّه غريزي أيضاً، كما يسعى إلى الموت وإنّما جعلها وراءنا مع كونها منبسطة على مدى العمر وانقسامها إلى الماضي والاستقبال، باعتبار أنّها تحثّ الإنسان تحثيثاً وتسوقه سوقاً حثيثاً إلى الغاية التي أمامه أعني الموت كما يدلّ عليه قوله: **(تحدوكم)**.

أمّا أنّها تسوقنا إليها فلانّه بانقضائها شيئاً فشيئاً يكون الإنسان بعيداً من المبدأ قريباً إلى المنتهى، فتكون بمنزلة السّائق إليه، ومن الواضح أنّ الحادي والسّائق من شأنه أن يكون وراء ما يحديه ويسوقه، فبذلك الاعتبار صحّ جعلها وراءنا، ويمكن استنباط ما ذكرته من تقديم الخبر على الاسم، بيان ذلك أنّ كون الموت أمام الإنسان لما كان واضحاً عند الكلّ أجرى الكلام فيه على الحقيقة بتقديم ما حقّه التّقديم وتأخير ما حقّه التّأخير حيث قال: فإنّ الغاية أمامكم.

وأمّا كون السّاعة في الوراء لمّا كان خفياً بالاعتبار الذي ذكرناه من انقسامها إلى الماضي والاستقبال، وكان نظر الجاهل دائماً إلى ما بقي من عمره وإلى ما هي أمامه من السّاعات الباقية غير ملتفت إلى ما مضى، لا جرم نبّه على أنّ ما تحسبونه أمامكم فهي في الحقيقة وراءكم باعتبار أنّها تحدوكم، فلذلك قدّم الخبر على الاسم وقال: إنّ وراءكم السّاعة لمزيد الاهتمام به وزيادة إشعاره بهذا المعنى، فافهم.

وإذا عرفت ما ذكرناه فلنذكر ما ذكره الشّراح في «**المقام**» فأقول:

قال الشّارح البحراني في شرح قوله: إن الغاية أمامكم: لما كانت الغاية من وجود الخلق أن يكونوا عباد الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكان المقصود من العبادة إنّما هي الوصول إلى جناب عزته والطيران في حظائر القدس بأجنحة الكمال مع الملائكة المقرّبين، وكان ذلك هو غاية الإنسان المطلوبة منه والمقصودة له والمأمور بالتّوجّه إليها بوجهه الحقيقي، فإن سعى لها سعيها أدركها وفاز بحلول جنّات النّعيم، وإن قصر في طلبها وانحرف صراط السّواء الموصل إليها، كان في جهنّم من الهاوين، وكانت غايته فدخلها مع الدّاخلين، فإذن ظهر أنّ غاية كلّ إنسان أمامه إليها يسير وبها يصير.

وفي شرح: وإنّ وراءكم السّاعة تحدوكم: إنّ المراد بالسّاعة القيامة الصّغرى وهي ضرورة الموت.

فأمّا كونها وراءهم فلأنّ الإنسان لما كان بطبعه ينفر من الموت ويفرّ منه، وكانت العادة في الهارب من الشيء أن يكون وراءه مهروب منه، وكان الموت متأخّراً عن وجود الإنسان ولاحقاً تأخراً ولحوقاً عقليّاً، أشبه المهروب منه المتأخّر اللاحق هرباً وتأخّراً ولحوقاً حسيّاً،

فلا جرم استعير لفظ الجهة المحسوسة وهي الوراء.

وأمّا كونها تحدوهم فلأنّ الحادي لما كان من شأنه سوق الإبل بالحداء، وكان تذكر الموت وسماع نواد به مقلقاً مزعجاً للنفوس إلى الاستعداد لأمور الآخرة والأهبة للقاء الله سبحانه، فهو يحملها على قطع عقبات طريق الآخرة كما يحمل الحادي الإبل على قطع الطريق البعيدة الوحرة، لا جرم أشبه الحادي فأسند الحداء إليه، انتهى.

وأقول: أمّا ما ذكره في شرح الفقرة الأولى، ففيه أن الظاهر من صدر كلامه حسبما يستفاد من التّمسك بالآية أيضاً هو أنه جعل الغاية في كلامه عليه السلام بمعنى العلّة الغائية، وعليه فلا يستقيم جعل الجحيم غاية للإنسان، بل ولا الجنّة أيضاً إذا لغرض من خلقة الإنسان هو العبوديّة كما هو نصّ الآية الشريفة، وأمّا المثوبة والعقوبة فهما متفرّعان عليها امتثالاً وعصياناً، فلا يصحّ جعلهما غاية، وأنّ جعل الغاية بمعنى النّهاية فكونهما غاية بهذا المعنى صحيح إلاّ أنّه لا حاجة معه إلى الاستدلال بالآية، وإلى ما مهدّه من المقدّمة مضافاً إلى منافاته بنصّ قوله: وكان ذلك هو غاية الإنسان المطلوبة منه.

وأمّا ما ذكره في شرح الفقرة الثانية: ففيه أنّ جعل السّاعة بمعنى الموت إمّا باعتبار أنّها حقيقة فيه عرفاً أو شرعاً من دون ملاحظة المناسبة بينه وبين معناها اللغوي، فيتوجّه عليه أوّلاً منع الحقيقة العرفيّة أو الشرعية، وثانياً منع عدم ملاحظة المناسبة على تقدير تسليم الحقيقيّة بأحد الوجهين، وإمّا باعتبار أنّ إطلاقها عليه بملاحظة أنّ النّاس تسعى إليه مع حسبما ذكرناه سابقاً فيتوجه عليه أن إطلاقها عليه بإعتبار إن يسعى إليه وصفه بكونه في الوراء باعتبار أنّ النّاس تهرب منه حسبما قرّره، لا يخفى ما فيه من السّماجة، فافهم جيّداً.

وقال الشّارح المعتزلي: غاية المكلفين هي الثّواب والعقاب فيحتمل أن يكون أراد ذلك، ويحتمل أن يكون أراد بالغاية الموت، وإنما جعل ذلك أمامنا لأنّ الإنسان كالسائر إلى الموت أو كالسائر إلى الجزاء، فهما أمامه أي بين يديه، ثمّ قال: وإنّ وراءكم الساعة تحدوكم أي تسوقكم، وإنما جعلها وراءنا لأنها إذا وجدت ساقت النّاس إلى موقف الجزاء كما يسوق الرّاعي الإبل، فلمّا كانت سائقة لنا كانت كالشيء يخفر الإنسان من خلفه ويحرّكه من ورائه إلى جهة ما بين يديه، انتهى[1].

وفيه أنّ الجملة الخبريّة على ما حقّقها الأصوليّون حقيقة فيما تلبس المبتدأ بالخبر في الحال، واستعمالها فيما لم يتلبس به بعد مجازا إتّفاقاً لا يصار إليه إلاّ بقرينة، وعلى ذلك فجعل كون السّاعة وراءنا بمعنى أنّها تكون وراءنا إذا وجدت مجازاً لا ينبغي إرادته إلاّ بقرينة ظاهرة، وهي في المقام مفقودة.

---

(١) عيون الحكم: ٤٠٥، والبحار: ٧٥/ ٣.

وقال القطب الرّاوندي على ما حكى عنه الشّارح المعتزلي: معنى قوله: فإن الغاية أمامكم، يعني أنّ الجنّة والنّار خلفكم، ومعنى قوله: وراءكم السّاعة أي قدامكم، انتهى.

وهو أردء ما ذكروه في «**شرح المقام**» أمّا أوّلاً فلأن الوراء بمعنى القدام، وإن ورد إلاّ أن الأمام بمعنى الخلف لم يسمع من أحدكما، ذكره الشّارح المعتزلي.

وثانياً على تقدير تسليم وروده بذلك المعنى أنّ التّعبير عن الخلف بالأمام وعن القدام بالوراء مع ظهورهما في العكس ممّا يأبى عنه الذّوق السّليم والطبع المستقيم، فيجب تنزيه كلام الإمام عليه السلام الذي هو إمام الكلام عنه.

وثالثاً أنّه إذا جعل المراد بالغاية الجنّة والنّار فلا داعي إلى حمل الأمام بمعنى الخلف كما هو ظاهر، بل إرادة المعنى الظاهر الذي هو نقيض الخلف أولى حسبما ذهب إليه الشّارح المعتزلي والبحراني على ما قدّمنا ذكره، هذا.

وأمّا قوله: (**تخففوا تلحقوا**) فأصله أنّ الرّجل يسعى وهو غير مثقل بما يحمله فيكون أجدر أن يلحق الذين سبقوه، لأنّ التّخفيف وقطع العلائق في الأسفار سبب السّبق والفوز بلحوق السّابقين، وكذلك الزهد في الدنيا وتخفيف المؤنة فيها توجب اللّحوق بالسّالفين المقرّبين، والوصول إلى درجات أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وما أنسب بالمقام ما رواه المحدّث الجزائري عن سلمان الفارسي، وهو أنّه لمّا بعث إلى المدائن ركب حماره وحده، فاتّصل بالمدائن خبر قدومه، فاستقبله أصناف النّاس على طبقاتهم، فلمّا رأوه قالوا: أيّها الشّيخ أين خلفت أميرنا؟ قال: ومن أميركم؟ قالوا: الأمير سلمان الفارسي صاحب رسول الله، فقال: لا أعرف الأمير وأنا سلمان ولست بأمير، فترجلوا له وقادوا إليه المراكب والجنائب، فقال: إنّ حماري هذا خير لي وأوفق، فلمّا دخل البلد أرادوا أن ينزلوه دار الإمارة قال: ولست بأمير، فنزل على حانوت في السّوق، وقال: ادعوا إلي صاحب الحانوت، فاستأجر منه وجلس هناك يقضي بين النّاس وكان معه وطاء يجلس عليه، ومطهرة يتطهّر بها للصّلاة، وعكازة يعتمد عليها في المشي، فاتّفق أنّ سيلاً وقع في البلد فارتفع صياح النّاس بالويل والعويل يقولون: وأهلاه و وا ولداه وامالاه، فقام سلمان ووضع وطائه في عاتقه وأخذ مطهرته وعكازته بيده، وارتفع على صعيد، وقال: هكذا ينجو المخففون يوم القيامة.

وروى عن الشيخ ورّام طاب ثراه أنه لمّا مرض سلمان مرضه الذي مات فيه أتاه سعد يعوده، فقال: كيف أنت يا عبد الله؟ فبكى فقال: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي حرصاً على الدّنيا ولا حبّالها، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلينا عهداً فقال: ليكن بلاغ أحدكم من الدّنيا كزاد راكب، فأخشى أن نكون قد جاوزنا أمره وهذه الأساور حولي، وليس حوله إلاّ مطهرة

فيها ماء، وإجانة وجفنة[١].

قال: ودخل رجل عليه فلم يجد في بيته إلاّ سيفاً ومصحفاً، فقال له: ما في بيتك إلاّ ما أرى؟ قال: إنّ أمامنا عقبة كئودا، وإنّا قدّمنا متاعنا إلى المنزل أوّلاً فأوّلاً، وقال: وقع الحريق فأخذ سلمان سيفه ومصحفه، وقال: هكذا ينجو المخفّفون.

ثمّ إنّه عليه السلام لمّا أمرهم بالتخفيف وحثّهم على قطع العلائق علّله بقوله: **(فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم)** يعني إنّما ينتظر بالبعث الأكبر والقيامة الكبرى للذين ماتوا أوّلاً وصول الباقين وموتهم.

وتحقيق ذلك الانتظار على ما حقّقه الشّارح البحراني أنّه لمّا كان نظر العناية الإلهيّة إلى الخلق نظراً واحداً، والمطلوب منهم واحداً وهو الوصول إلى جناب عزّة الله الذي هو غايتهم، أشبه طلب العناية الإلهيّة وصول الخلق إلى غايتهم انتظار الإنسان لقوم يريد حضور جميعهم وترقبه بأوائلهم ووصول أواخرهم، فأطلق عليه لفظ الانتظار على سبيل الاستعارة، ولمّا صوّر هٰهنا صورة انتظارهم لوصولهم؛ جعل ذلك علّة لحثهم على التخفيف وقطع العلائق، ولا شكّ أنّ المعقول لأولى الألباب من ذلك الانتظار حاثّ لهم أيضاً على التّوجه بوجوه أنفسهم إلى الله والأعراض عمّا سواه.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٥٤ ح ١٣٤٩٦.

الترجمة

پس به درستی که غایت یعنی مرگ در پیش شماست و به درستی که در عقب شما است ساعت های روز و شب در حالتی که می راند شما را به سوی مرگ، سبك شوید تا لاحق شوید، پس به تحقیق که انتظار کشیده شده به لاحق شدن پیشینیان پسینیان شما.

گفته است سید رضی (رحمه الله): به درستی که این کلام امام اگر موازنه بشود بعد از کلام خدا و رسول(صلی الله علیه وآله وسلم) به هرکلامی، هر آینه میل می کند این کلام به جمیع کلام ها در حالتی که راجح است و غالب می شود به آن ها در حالتی که سابق است، اما فرمایش آن حضرت "تخفّفوا تلحقوا" پس شنیده نشده کلامی که کمتر باشد از او از حیثیت لفظ و نه بیشتر باشد از حیثیت معنی و چه قدر بعید است عمق این کلمه طیبه و چه قدر رافع عطش است آب صافی این حکمت لطیفه. به تحقیق که تنبیه کرده ایم ما در کتاب خصایص خود بر عظمت قدر و شرافت جوهر آن کلمه عالی مرتبه؛ وفّقناالله لفهم نکات تلك الکلمات بجاه محمّد و آله.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثانية والعشرون من المختار في باب الخطب

خطب بها حين بلغ أنّ طلحة والزبير خلعا بيعته، وهي ملتقطة من خطبة طويلة مروية في «شرح البحراني» وقد وردت فصول منها في طرق عديدة مختلفة بزيادة ونقصان يأتي إلى بعضها الإشارة، وما رواه السّيد رحمه الله:

«أَلاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَىٰ أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نِصابِهِ، وَاللَّهِ ما أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وبَيْنَهُمْ نِصْفاً، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا التَّبِعَةُ إِلاَّ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، يَرْتَضِعُونَ أُمًّا قَدْ فَطَمَتْ، ويُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ، يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي مَنْ دَعا، وَإِلىٰ ما أُجِيبَ وَإِنّي لَراضٍ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وعِلْمِهِ فِيهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ، وكَفَىٰ بِهِ شافِياً مِنَ الْباطِلِ، وناصِراً لِلْحَقِّ، ومِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ[1] إِلَيَّ أَنِ ابْرُزْ لِلطِّعانِ، وَأَنِ اصْبِرْ لِلْجِلاَدِ، هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ لَقَدْ كُنْتُ وَما أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلاَ أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ، وَإِنّي لَعَلىٰ يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وغَيرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِيني»[2].

اللغة

(ذمر) يروى بالتّخفيف والتّشديد وهو الحثّ والحضّ، والتّشديد دليل التّكثير والمبالغة لأنّهم يقولون: إنّ الزّيادة في البناء لزيادة المعنى، قال في «الكشاف» وممّا طنّ على أذني من ملح العرب أنّهم يسمّون مركباً من مراكبهم بالشّقدق، وهو مركب خفيف ليس في ثقل حمال العراق، فقلت في طريق الطائف لرجل منهم: ما اسم هذه المحمل؟ أردت محمل العراقي فقال: أليس ذلك اسمه الشقدق؟ قلت: بلى، فقال هذا اسمه الشّقنداق، فزاد في بناء الاسم لزيادة المعنى.

و(جلبت) الشيء جلباً من باب ضرب وقتل، والجلب بفتحتين فعل بمعنى مفعول وهو ما تجلبه من بلد إلى بلد، قال الشّارح المعتزلي ويروى جُلبه وجلبه وهما بمعنى، وهو السّحاب الرقيق الذي لا ماء فيه أي جمع قوماً كالجهام الذي لا نفع فيه وفي «المصباح» عن الأزهري وابن فارس (نصاب) كلّ شيء أصله والجمع نصب وأنصبة مثل حمار وحمر وأحمرة و(النّصف) بتثليث النون وسكون الصّاد اسم بمعنى الانصاف.

---

(١) في نسخة: بعثهم.

(٢) البحار: ٣٢/٥٣ ـ ٦٣.

واعتراض الشّارح المعتزلي عليه بأنّ المعنى لا يحتمله، لأنّه لا معنى لقوله: ولا جعلوا بيني وبينهم إنصافاً، بل النّصف بمعنى الذي ينصف، والمعنى لم يجعلوا بيني وبينهم ذا إنصاف، ممّا لا يكاد يظهر وجهه و(ولي) الشيء وعليه ولاية من باب حسب إذا ملك أمره و(التّبعة) كفرحة تقول: لي قبل فلان تبعة وهي الشيء الذي لك فيه بغية شبه ظلامة ونحوها و(فطم) الصّبي من باب ضرب إذا فصله عن الرضاع و(حدّ السّيف) الموضع القاطع منه و(الجلاد) المجادلة بآلة الحرب و(هبلته) أمّه بكسر (الباء) ثكلته و(الهبول) الثكول التي لم يبق لها ولد.

الإعراب

(يا خيبة الدّاعي) نداء على سبيل التّعجب من عظم خيبة الدّعاء إلى قتاله، وهو نظير النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا﴾ [يس: ٣٠]، أي يا خيبة احضري فهذا أوانك وكلمة (من) إمّا مرفوع المحل على الابتداء والفعل بعده خبر؛ أو منصوب المحل اضمر عامله على شريطة التفسير فلا محلّ لما بعده، إذا الجملة المفسّرة لا محلّ لها على الأصح.

وقال ابن هشام: إنّ جملة الاشتغال ليست من الجمل التي تسمّى في «الاصطلاح» جملة تفسيرية وإن حصل بها تفسير، وكيف كان فجملة من دعا على الأوّل جملة اسميّة، وعلى التقدير الثاني جملة فعليّة، (وشافياً وناصراً) منصوبان على الحاليّة (والواو) في قوله (وما اهدّد) زائدة، (وكنت) بمعنى ما زلت أي ما زلت لا أهدد بالحرب.

قال الشّارح المعتزلي: وهذه كلمة فصيحة كثيراً ما يستعملها العرب، وقد ورد في القرآن العزيز (كان) بمعنى (ما زال) في قوله: وكان الله عليماً حكيماً، ونحو ذلك من الآي والمعنى: لم يزل الله عليماً حكيماً.

المعنى

قد أشرنا أنّ هذه الخطبة من خطب الجمل واردة في معرض التّعرض على النّاكثين وقد وقع التّصريح بذلك في بعض طرقها حسبما تأتي إليها الإشارة، وقد كنى عنهم بحزب الشّيطان وجنود إبليس كما قال: (ألا وإن الشّيطان قد ذمر حزبه) وحشا قبيله (واستجلب جلبه) وجمع جمعه (ليعود الجور إلى أوطانه) كما كان عليها أولاً (ويرجع الباطل إلى نصابه) وأصله الذي كان عليه سابقاً (والله ما أنكروا عليّ منكراً) وهو قتل عثمان حيث نسبوه إليه ﷺ وزعموا أنه منكر فأنكروه عليه فردّهم بانكار كونه منكراً، وعلى تقدير تسليمه بعدم صحّته لنسبته إليه وعلى كلّ تقدير فإنكارهم عليه يكون منكراً (ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً) وعدلاً إذ لو جعلوا ميزان العدل في البين يظهر بطلان دعواهم (و) ذلك لـ(ـ أنهم ليطلبون حقاً) اي حقّ قصاص (هم

تركوه) حيث أمسكوا النكير على قاتليه **(ودماهم سفكوه)** لأنّهم أوّل من ألب الناس على عثمان وأغرى بدمه، كما يشهد به قول عائشة: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً.

يدلّ عليه ما في رواية أبي مخنف الآتية من قوله: اللّهم إنّ طلحة نكث بيعتي وألب على عثمان حتّى قتله ثم عضهني به ورماني اللّهم فلا تمهله.

وعن الطبري في **«تاريخه»** أنّ عليّاً كان في ماله بخيبر لما أراد النّاس حصر عثمان فقدم المدينة والنّاس مجتمعون على طلحة في داره، فبعث عثمان إليه عليه السلام يشكو أمر طلحة فقال عليه السلام: أما أكفيكه؟ فانطلق إلى دار طلحة وهي مملوءة بالنّاس فقال له يا طلحة: ما هذا الأمر الذي صنعت بعثمان؟ فقال طلحة: يا أبا الحسن بعد أن مس الحزام الطبيين، فانصرف عليّ عليه السلام إلى بيت المال فأمر بفتحه فلم يجدوا المفتاح، فكسر الباب وفرّق ما فيه على النّاس فانصرفوا من عند طلحة حتّى بقي وحده، فسرّ عثمان بذلك، وجاء طلحة إلى عثمان فقال له: يا أمير المؤمنين إنّي أردت أمراً فحال الله بيني وبينه وقد جئتك تائباً، فقال: والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً، الله حسبك يا طلحة[1].

وروى أنّ الزّبير لمّا برز لعليّ عليه السلام يوم الجمل قال له: ما حملك يا عبد الله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، فقال: أنت وطلحة وليتماه وإنّما توبتك من ذلك أن تقدّم نفسك وتسلمها إلى ورثته[2].

وبالجملة فقد ظهر ممّا ذكرناه أنّه لا ريب في دخولهم في قتل عثمان ومع مكان ذلك الدّخول لا يجوز لهم المطالبة بدمه.

توضيح ذلك أنّ دخولهم فيه إمّا أن يكون بالشركة، وإمّا أن يكون بالاستقلال وعلى أي تقدير فليس لهم أن يطلبوا بدمه وقد أشار إلى الشق الأوّل بقوله: (فلان كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه) واللازم عليهم حينئذٍ أن يبدؤوا بأنفسهم ويسلموها إلى أولياء المقتول ثمّ يطالبوا بالشريك، وإلى الشقّ الثاني بقوله: **(وإن كان ولوه)** وباشروه **(دوني فما التبعة إلاّ قبلهم)** واللازم عليهم حينئذٍ أن يخصوا أنفسهم بالمطالبة **(وإن أعظم حجّتهم لعلى أنفسهم)** حيث يدعون دعوى ضررها عائد إليهم لقيام الحجّة فيها عليهم **(يرتضعون أمّا قد فطمت)** أي يطلبون الشيء بعد فواته لأنّ الأمّ إذا فطمت ولدها فقد انقضى إرضاعها.

ولعلّ المراد به أنّ مطالبتهم بدم عثمان لغو لا فائدة فيه، ويحتمل أن يكون المراد بالأمّ التي قد فطمت ما كان عادتهم في الجاهليّة من الحميّة والغضب وإثارة الفتن، وبفطامها

---

(١) البحار: ٣٢/٥٧.

(٢) تمخضت: تحركت.

اندراسها بالإسلام فيكون قوله: **(ويحيون بدعة قد أميتت)** كالتفسير له.

وقال الشّارح البحراني: استعار لفظ الأم للخلافة فبيت المال لبنها والمسلمون أولادها المرتضعون، وكنى بارتضاعهم لها عن طلبهم منه من الصّلات والتّفضيلات، مثل ما كان عثمان يصلهم به ويفضل بعضهم على بعض وكونها قد فطمت عن منعه عليه السلام وقوله: ويحيون بدعة إشارة إلى ذلك التّفضيل، فإنّه كان بخلاف سنّة رسول الله والبدعة مقابلة السّنة، وإماتتها تركه عليه السلام في ولايته ذلك **(يا خيبة الدّاعي)** احضري فهذا أوان حضورك والدّاعي هو أحد الثلاثة طلحة والزّبير وعائشة، كما صرّح به الشّارح المعتزلي أيضاً.

ثمّ قال على سبيل الإستصغار لهم والاستحقار **(من دعا)** أي أحقر القوم دعاهم هذا الدّاعي **(وإلى ما أجيب)** أي أقبح بالأمر الذي أجابوه إليه فما أفحشه وأرذله **(وإنّي لراض بـ)** ـقيام **(حجّة الله عليهم)** وهو أمره سبحانه بقتال الفئة الباغية كما قال: فإن بغت إحديهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله (و) بـ**(ـعلمه فيهم)** بما يصنعون **(فإن أبوا)** عن طاعتي وامتنعوا من الملازمة على مبايعتي مع قيام هذه الحجّة من الله سبحانه عليهم **(أعطيتهم حدّ السّيف)** القاطع امتثالاً لأمر الله سبحانه وابتغاء لمرضاة الله **(وكفى به)** أي بذلك السّيف حال كونه **(شافياً من الباطل وناصراً للحقّ)**، هذا.

(ومن العجب) كلّ العجب **(بعثهم إليّ)** مع علمهم بحالي في الشّجاعة والحرب والصّبر على المكاره **(بأن أبرز للطعان و)**تهديدهم عليّ بـ **(ـأن أصبر للجلاد)** ثكلتهم الثّواكل و**(هبلتهم الهبول)** كيف يهددوني ويرهّبوني **(لقد كنت وما اهدد بالحرب و)** مازلت **(لا أرهب بالضّرب)** وذلك **(لأنّي على يقين من ربّي)** وعلى بصيرة من أمري **(وغير شبهة من ديني)** فليس لمثلي أن يهدّد ويرهّب، لأنّ الموقن بأنّه على الحقّ ناصر لله ذابّ عن دين الله أشدّ صبراً وأقوى جلداً وأثبت قدماً في مقام الجدال ومعركة الجهاد والقتال، لأن ثقته بالله سبحانه على كلّ حال.

تكملة

قد أشرنا سابقاً إلى أنّ هذه الخطبة ملتقطة من خطبة طويلة مروية في **«شرح البحراني»**، وقدّمنا لك أيضاً في شرح كلامه العاشر أنّ هذا الكلام أيضاً من فصول هذه الخطبة فينبغي أن نورد الخطبة بتمامها حتّى يتّضح لك الحال، ثمّ نشير إلى بعض ما وردت فيها فقرات من هذه الخطبة على غير اتساق وانتظام بتوفيق الله المتعال.

فأقول: تمام الخطبة على ما رواها الشّارح البحراني أنّه عليه السلام حين بلغه أنّ طلحة والزّبير خلعا بيعته قال بعد حمد الله والثّناء عليه والصّلاة على رسوله:

«أيها النّاس إن الله افترض الجهاد فعظمه وجعله نصرته وناصره، والله ما صلحت دنيا

ولا دين إلاّ به، وقد جمع الشيطان حزبه، واستجلب خيله، ومن أطاعه ليعود له دينه وسنته وخدعه، وقد رأيت أموراً قد تمخضت[١] والله ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، وأنّهم ليطلبون حقّاً تركوه، ودماً سفكوه، فإن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه، وإن كانوا ولوه دوني فما الطلبة إلا قتلهم وإنّ أوّل عدلهم لعلى أنفسهم ولا اعتذر ممّا فعلته ولا أبرأ مما صنعت وإنّ معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس عليّ، وإنّها للفئة الباغية فيها الحَمّ[٢] والحمّة طالت جلبتها وانكفت[٣] جُونتها[٤]، ليعودنّ الباطل في نصابه».

«يا خيبة الدّاعي من دعى لو قيل ما أنكر في ذلك وما أمامه وفيمن سنّته والله إذاً لزاح الباطل من نصابه وانقطع لسانه، وما أظنّ الطريق له فيه واضح حيث نهج والله ما تاب من قتلوه قبل موته، ولا تنصل من خطيئة وما اعتذر إليهم فعذروه، ولا دعا فنصروه وأيم الله «لأفرطنّ لهم حوضاً أنا مانحته» لا يصدرون عنه برى ولا يعبّون[٥] حسوة ابداً وأنها لطيبة نفسي بحجّة الله عليهم وعلمه فيهم وإنّي راعيهم فمعذر إليهم فإن تابوا وأقبلوا وأجابوا وأنابوا فالتّوبة مبذولة، والحقّ مقبول وليس عليَّ كفيل، وإن أبوا أعطيتهم حدّ السّيف وكفى به شافياً من باطل وناصراً لمؤمن، ومع كلّ صحيفة شاهدها وكاتبها، والله إنّ الزّبير وطلحة وعائشة ليعلمون أنّي على الحق وهم مبطلون، هذا»[٦].

وفي **«شرح المعتزلي»** عن أبي مخنف قال: حدّثنا مسافر بن عفيف بن أبي الأخنس قال: لمّا رجعت رسل علي من عند طلحة والزّبير وعائشة يؤذنونه بالحرب قام فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثمّ قال:

«أيّها النّاس إنّي قد راقبت هؤلاء القوم كي يرعوا ويرجعوا، ووبختهم بنكثهم وعرّفتهم بغيّهم فلم يستحيوا، وقد بعثوا إليّ أن أبرز للطعان فأصبر للجلاد، وإنّما تمنيك نفسك أماني الباطل وتعدك الغرور ألا هبلتهم الهبول لقد كنت وما أهدد بالحرب، ولا أرهب بالضّرب ولقد أنصف القادة من راماها، فليرعدوا وليبرقوا، فقد رأوني قديماً وعرفوا نكايتي فكيف رأوني أنا أبو الحسن الذي فللت حدّ المشركين وفرقت جماعتهم، وبذلك القلب ألقى عدوي اليوم، وإني لعلى ما وعدني ربّي من النصر والتّأييد، وعلى يقين من أمري وفي غير شبهة من ديني».

---

(١) الحَمّ: بقية الالية التي أذيبت وأخذ دهنها.
والحمّة: السواد وهما استعارتان لأرذال الناس.
(٢) انكفت: استدارت.
(٣) جونتها: الجونة بالضم: القدر.
(٤) يعبون: العب: الشرب من غير مص.
(٥) البحار: ٥٦/٣٢، والغدير: ١٠٣/٩.
(٦) أمالي الطوسي: ١٧٠، والبحار: ٦١/٣٢.

«أيها النّاس إنّ الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب ليس عن الموت محيد ولا محيص من لم يقتل مات، وإنّ أفضل الموت القتل، والذي نفس عليّ بيده لألف ضربة بالسّيف أهون من موتة واحدة على الفراش اللّهم إنّ طلحة نكثت بيعتي وألب على عثمان حتى قتله ثم عضهني به ورماني اللهم فلا تمهله، اللهم إنّ الزبير قطع رحمي ونكث بيعتي وظاهر على عدوي فاكفنيه الموت بما شئت»[١].

وعن أبي الحسن عليّ بن محمّد المدائني عن عبد الله بن جنادة قال: قدمت من الحجاز أريد العراق في أوّل أمارة علي، فمررت بمكّة فاعتمرت ثمّ قدمت المدينة فدخلت مسجد رسول الله إذ نودي الصّلاة جامعة فاجتمع النّاس وخرج عليّ متقلداً سيفه فشخصت الأبصار نحوه فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال:

«أمّا بعد فإنّه لمّا قبض الله نبيّه ﷺ قلنا نحن أهله وورثته وعترته وأولياؤه دون النّاس، لا ينازعنا سلطانه أحد ولا يطمع في حقّنا طامع إذ انتزى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبيّنا وسرنا سوقة يطمع فينا الضّعيف، ويتعزز علينا الذليل فبكت العين منّا لذلك، وخشنت الصّدور وجزعت النّفوس».

«وأيم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين، وأن يعود الكفر ويبور الدّين، لكنّا على ما غير[٢] كنّا لهم عليه فولى الأمر ولاة لم يألوا النّاس خيراً ثمّ استخرجتموني أيّها النّاس من بيتي فبايعتموني على شأن منّي لأمركم وفراسة تصدقني ما في قلوب كثير منكم وبايعني هذان الرّجلان في أوّل من بايع يعلمون ذلك، وقد نكثا وغدرا ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرّقا جماعتكم، ويلقيا بأسكم بينكم».

«اللهمّ فخذهما بما عملا أخذة واحدة رابية، ولا تنعش لهما صرعة ولا تقلهما عثرة، ولا تمهلهما فواقا، فإنّهما يطلبان حقّاً تركاه ودماً سفكاه».

«اللهمّ إنّي أقتضيك وعدك فإنّك قلت وقولك الحقّ لمن بغي عليه لينصرنّه الله اللهمّ فأنجز لي موعدي ولا تكلني إلى نفسي انّك على كلّ شيء قدير»[٣].

أقول: وهذه الرّواية كما ترى صريحة في اغتصاب الخلافة وأنها انتزعت منه عليه السلام ظلماً وجوراً من دون أن يكون له عليه السلام رضاً فيه كما أنها صريحة في أن تولي ولاة السّوء لها لم يكن قصداً للخير منهم، وإنّما كان حباً للرّئاسة واتباعاً للهوى.

---

(١) في نسخة: غير ما.

(٢) الغدير: ٩/١٠٨، وشرح ابن أبي الحديد: ١/٣٠٧.

(٣) في نسخة: خلق.

ومن العجب أنّ الشارح المعتزلي مع روايته هذه يزعم أنّه عليه السلام إنّما ترك الأمر إليهم برضى منه وميل، وأنهم تولوا الأمر ملاحظة لصلاح الشريعة ومراعاة لمصلحة الإسلام، كما مر تفصيلاً في شرح الخطبة الشقشقيّة، فجزاهم الله عن الإسلام وأهله شرّ الجزاء.

وعن الكليني قال: لمّا أراد عليّ عليه السلام المسير إلى البصرة قام فخطب النّاس فقال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله:

إنّ الله لمّا قبض نبيّه استأثرت علينا قريش بالأمر ودفعتنا عن حقّ نحن أحق به من النّاس كافة، فرأيت أنّ الصّبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم، والنّاس حديثو عهد بالإسلام، والدين يمخض مخض الوطب، يفسده أدنى وهن ويعكسه أقلّ خلف[1] فولى الأمر قوم لم يألو في أمرهم اجتهاداً، ثمّ انتقلوا إلى دار الجزاء والله ولي تمحيص سيئاتهم، والعفو عن هفواتهم.

فما بال طلحة والزّبير وليسا من هذا الأمر بسبيل، لم يصبرا عليّ حولاً ولا أشهرا حتّى وثبا ومرقا ونازعاني أمراً لم يجعل الله لهما إليه سبيلاً بعد أن بايعا طائعين غير مكرهين؛ يرتضعان أمّا قد فطمت، ويحييان بدعة قد أميتت دم عثمان زعماً والله ما التّبعة إلاّ عندهم وفيهم وإنّ أعظم حجّتهم لعلى أنفسهم، وأنا راض بحجّة الله عليهم وعلمه فيهم فإن فاءا أو أنابا فحظهما أحرزا وأنفسهما غنما وأعظم بهما غنيمة وإن أبيا أعطيتهما حد السّيف وكفى به ناصراً لحقّ وشافياً لباطل، ثمّ نزل[2].

وعن أبي مخنف عن زيد بن صوحان قال: شهدت عليّاً بذي قار وهو معتم بعمامة سوداء وملتفّ بساج يخطب، فقال في خطبته:

الحمد لله على كلّ أمر وحال في الغدوّ والآصال، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وابتعثه رحمة للعباد، وحياة للبلاد، حين امتلأت الأرض فتنة واضطرب حبلها وعبد الشّيطان في أكنافها واشتمل عدو الله إبليس على عقائد أهلها فكان محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب الذي أطفأ الله به نيرانها، وأخمد به شرارها، ونزع به أوتادها وأقام به ميلها أمام الهدى، والنبيّ المصطفى، فلقد صدع بما أمر به وبلغ رسالات ربّه فأصلح الله به ذات البين، وآمن به السّبل، وحقن به الدّماء، وألف به بين ذوي الضّغائن الواغرة في الصّدور حتّى أتاه اليقين.

ثمّ قبضه الله إليه حميداً ثمّ استخلف النّاس أبا بكر فلم يأل جهده، ثمّ استخلف أبو بكر

---

(١) الإمام علي للهمداني: ٧٠٢ وشرح النهج: ١/٣٠٨.

(٢) الإرشاد للمفيد: ١/٢٤٥.

عمر فلم يأل جهده، ثمّ استخلف الناس عثمان فنال منكم ونلتم منه حتّى إذا كان من أمره ما كان، أتيتموني لتبايعوني فقلت لا حاجة لي في ذلك ودخلت منزلي فاستخرجتموني فقبضت يدي فبسطتموها وتداككتم عليّ حتّى ظننت أنكم قاتلي وأنّ بعضكم قاتل بعض فبايعتموني وأنا غير مسرور بذلك، ولا جذل وقد علم الله سبحانه أنّي كنت كارهاً للحكومة بين أمّة محمد ﷺ.

ولقد سمعته يقول: ما من وال يلي شيئاً من أمر أمّتي إلاّ أتى به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق، ثمّ ينشر كتابه فإن كان عادلاً نجا، وإن كان جائراً هوى حتّى اجتمع عليّ ملاءكم وبايعني طلحة والزّبير وأنا أعرف الغدر في أوجههما، والنّكث في أعينهما ثمّ استأذناني في العمرة فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان، فسارا إلى مكة واستخفّا عائشة وخدعاها وشخصا معها أبناء الطلقاء، فقدموا البصرة وقتلوا بها المسلمين، وفعلوا المنكر.

ويا عجباً لاستقامتهما على أبي بكر وعمر وبغيهما عليّ وهما يعلمان أنّي لست دون أحدهما، ولو شئت أن أقول لقلت: ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشّام كتاباً يخدعهما فيه فكتماه عنّي وخرجا يوهمان الطغام أنّهما يطلبان بدم عثمان، والله ما أنكر عليّ منكراً، ولا جعلا بيني وبينهم نصفاً، وإنّ دم عثمان لمصحوب بهما ومطلوب منهما.

يا خيبة الدّاعي إلى م دعى إنّما ذا أجيب والله إنّهما لعلى ضلالة صماء، وجهالة عمياء، وإنّ الشّيطان قد ذمر لهما حزبه، واستجلب منهما خيله ورجله ليعد الجور إلى أوطانه ويرد الباطل إلى نصابه، ثم رفع يديه فقال:

«اللهمّ إنّ طلحة والزّبير قطعاني وظلماني وألبّا عليّ ونكثا بيعتي فاحلل ما عقدا، وانكث ما ابرما، ولا تغفر لهما أبداً وأرهما المساءة فيما عملا وأمّلا»[1].

---

(١) الكافي: ٥/٥٧ ح ٦.

الترجمة

از جمله خطبه شریفه آن حضرت است در مذمت طلحه و زبیر و اتباع ایشان که نسبت دادند خون عثمان علیه اللعنة والنّیران را به آن امام عالمیان:

آگاه باش به درستی که شیطان لعین برانگیخت گروه خود را و بکشید سپاه خود را تا بازگرداند ستم را به جای های خود و راجع گرداند باطل را به اصل خود. به خداوند سوگند انکار نکرده اند بر من فعل منکر را که عبارت است از نسبت قتل عثمان به من و نگردانیده اند میان من و خودشان انصاف و عدل را و به درستی که آن ها هرآینه طلب می کنند حقی را که خود ترك کرده اند و خونی را که خود ریخته اند پس اگر بودم من شریك ایشان در آن خون پس به تحقیق ایشان را است نصیب ایشان از آن خون و اگر ایشان خودشان مباشر آن خون شدند بدون من، پس در این صورت نیست عقوبت بازخواست مگر از ایشان و به درستی که بزرگ ترین حجت ایشان بر نفس های ایشان است، شیر می خواهند از مادری که از شیر بازگرفته بچه خود را و زنده می کنند بدعتی را که میرانیده شده است، ای نومیدی دعوت کنند حاضر باش که وقت حضور تو است چه کس است آن که دعوت نمود او را این داعی و به چه چیز جواب داده شد و به درستی که من خوشنودم به حجت خدا بر ایشان و به علم حق تعالی در شأن آن جمع پریشان، پس اگر امتناع بکنند از طاعت من که طاعت خداست بدهم به ایشان تیزی شمشیر بران را و کافی است آن شمشیر در حالتی که شفادهنده است از باطل و یاری دهنده می باشد از برای اهل حق و از جمله امور عجیبه است فرستادن ایشان به سوی من این که بیرون آی از برای نیزه زدن و صبرکن از برای شمشیر کشیدن، بی فرزند باد مادر ایشان و در ماتم ایشان گریه کند زن های گریه کننده هرآینه بوده ام که تهدید کرده نشده ام به محاربه و تخویف کرده نشده ام به مضاربه و به درستی که من بر یقینم از پروردگار خود و بی شبهه ام از دین استوار خویش، پس تهدید و تخویف بی ثمر خواهد شد.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثالثة والعشرون من المختار في باب الخطب وشرحها في ضمن فصلين

الفصل الأول

وهو مروي في «الكافي» باختلاف تطلع عليه بعد الفراغ من شرح ما أورده السيد هنا.

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ كَقَطْرِ الْمَطَرِ، إِلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِما قُسِّمَ لَها مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لأَخِيهِ غَفِيرَةً في أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ، فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً، فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ، فَيَخْشَعُ لَها إِذَا ذُكِرَتْ، ويَغْرى بِها لِئَامُ النَّاسِ، كَالْفَالِجِ الياسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِداحِهِ، تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، ويُرْفَعُ بِها عَنْهُ الْمَغْرَمُ، وكَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيانَةِ، يَنْتَظِرُ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: إمّا داعِيَ اللَّهِ فَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمّا رِزْقَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ ومالٍ ومَعَهُ دِينُهُ وحَسَبُهُ، إِنَّ المالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيا وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ حَرْثُ الآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ لأَقْوامٍ، فَاحْذَرُوا مِنَ اللَّهِ ما حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ، وَاعْمَلُوا في غَيْرِ رِياءٍ وَسُمْعَةٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيرِ اللَّهِ يَكِلْهُ اللَّهُ إِلَىٰ مَنْ عَمِلَ لَهُ، نَسْأَلُ اللَّهَ مَنَازِلَ الشُّهَداءِ، وَمُعايَشَةَ السُّعَداءِ، ومُرافَقَةَ الأَنْبِياءِ»[١].

اللغة

(الغفيرة) قال الرّضي: هي هٰهنا الزّيادة والكثرة من قولهم للجمع الكثير الجمّ الغفير ويروى عفوة من أهل أو مال والعفوة الخيار من الشيء يقال أكلت عفوة الطعام أي خياره.

أقول: ويحتمل أن يكون العفوة من العفو بمعنى الزّيادة أيضاً، وبه فسّر قوله تعالى: **﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾** قال الشاعر:

ولكنّا يعضّ السّيف منّا ... باسوق عافيات الشّحم كوم

أي زايدات الشّحم و**(غشى)** فلاناً كرضى أتاه و**(غرى)** به كرضى أيضاً ولع به وأغراه به ولعه و**(الفالج)** الفائز من السّهام من الفلج وهو الظفر والفوز و**(الياسر)** القامر واللاعب بالميسر قال سبحانه: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾**، وهو كمنزل اشتقاقه إمّا من اليسر وهو السّهولة لأنّه أخذ لمال الرّجل بيسر وسهولة من غير كدّ ولا تعب، أو من اليسار لأنه سبب يساره، وقيل من اليسر بمعنى التجزئه لأنّ كلّ شيء جزأته فقد يسرته

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني: ٩/ ٢٩٥، ومستدرك الوسائل: ١/ ٩٩.

يقال: يسروا الشيء أي أقسموه فالجزور نفسه يسمّى ميسراً لأنّه يجزء أجزاء، والياسر الجازر لأنّه يجزء لحم الجزور ثمّ يقال للضّاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور: إنّهم ياسرون، لأنّهم بسبب ذلك الفعل يجزؤون لحم الجزور.

قال الفيروز آبادي: الميسر كمنزل اللّعب بالقداح أو هو الجزور التي كانوا يتقامرون عليها، كانوا إذا أرادوا أن ييسروا اشتروا جزوراً نِسأة ونحروه قبل أن ييسروا وقسموه ثمانية وعشرين قسماً أو عشرة أقسام، فإذا خرج واحد واحد باسم رجل رجل ظهر فوز من خرج لهم ذوات الانصباء وغرم من خرج له الغفل.

وقال الزّمخشري في «**الكشّاف**»: كانت لهم عشرة قداح وهي: الأزلام والأقلام الفذ والتّوأم والرّقيب والحلس بفتح (**الحاء**) وكسر (**اللام**) وقيل بكسر (**الحاء**) وسكون (**اللام**) والمسبل والمعلى والنّافس والمنيح والسفيح والوغد، لكلّ واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤونها عشرة أجزاء وقيل ثمانية وعشرين جزء إلا لثلاثة وهي المنيح والسّفيح والوغد ولبعضهم في هذا المعنى شعر:

لي في الدّنيا سهام ليس فيهنّ ربيح وأساميهنّ وغدو سفيح ومنيح

فللفذ سهم وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستّة وللمعلى سبعة يجعلونها في الرّبابة وهي الخريطة ويضعونها على يد عدل ثمّ يجلجلها يدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحاً منها، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كلّه، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونه البرم، انتهى.

و(**التعذير**) إظهار العذر ممّن لا عذر له في الحقيقة، قال الفيروز آبادي قوله تعالى: ﴿**وجاء المعذّرون**﴾، بتشديد (**الذّال**) المكسورة أي المعتذرون الذين لهم عذر، وقد يكون المعذر غير محقّ فالمعنى المقصّرون بغير عذر قال: وقرأ ابن عبّاس بالتخفيف من أعذر وكان يقول: والله لهكذا أنزلت، وكان يقول: لعن الله المعذّرين وكان المعذّر عنده إنّما هو غير المحقّ وبالتّخفيف من له عذر.

الإعراب

(**الباء**) في قوله: بما قسم لها، بمعنى على، وما في قوله ما لم يغش دناءة ظرفيّة مصدرية، وجملة (**تظهر**) منصوب المحلّ على أنها صفة لدناءة، وجملة فيخشع أيضاً منصوب المحل لكونها عطفاً على تظهر، ومثلها جملة يغري بها، وقوله كالفالج خبر إنّ، (**والياسر**) صفة وأصل الكلام كالياسر الفالج أي كالقامر الفائز وقدم الوصف على الموصوف على حد

قوله سبحانه: ﴿وغرابيب سود﴾.

قال الشّارح المعتزلي: وحسن ذلك هٰهنا إنّ اللّفظتين صفتان وإن كانت إحداهما مرتّبة على الأخرى، وجملة (**توجب له المغنم**) صفة للفوزة، ويرفع إمّا بالبناء على الفاعل وفيه ضمير مستتر راجع إلى الفالج، (**والمغرم**) منصوب على المفعولية أو بالبناء على المفعول، والمغرم مرفوع على النيابة عن الفاعل، وقوله: فإذا هو ذو أهل إذا للمفاجأة، والعمل الصّالح بالرّفع والنّصب، وقوله: ليست بتعذير، أي ليست بذات تعذير، أي تقصير فحذف المضاف كقوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٣ - ٤]، أي ذي النار، (**ومن**) في قوله: (**من يعمل**) شرطيّة (**ويعمل ويكله**) مجزومان على حدّ قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

المعنى

إعلم أنّ مدار هذه الخطبة الشّريفة على تأديب الفقراء بعدم الوقوع في الفتنة من الحسد ونحوه بما يشاهدونه في الأغنياء وعلى تأديب الأغنياء بالتّزهيد عن المال وجمعه وعلى العمل بالإخلاص وإخلائه من السّمعة والرّياء، وعلى التّرغيب في صلة الأرحام والتّرهيب عن القطيعة بذكر منافع الصلة ومفاسد القطيعة، ومدار هذا الفصل على الثّلاثة الأول، كما أنّ مدار الفصل الآتي على الرّابع.

إذا عرفت ذلك فأقول: إنّه عليه السلام مهد أوّلاً مقدّمة شريفة ليبني عليها غرضه ومحصّلها أنّ جميع الأمور إنّما هو بقضاء إلهي وقدر ربّاني وأنّ ما يحدث من زيادة أو نقصان أو يتجدّد فيما يكون به صلاح حال الخلق في أمر المعاش والمعاد إنّما هو صادر عن القسمة الرّبانيّة، فلو تفكّر في ذلك العاقل وتدبّر فيه رضي بما قدره الله تعالى في حقّه وما قسمه عليه وعلى غيره، فإذن لا يقع في الفتنة والحسد لو رأى لغيره مزيّة عليه وإلى هذه المقدّمة أشار بقوله:

(**أما بعد**) حمد الله سبحانه والصلاة على رسوله وآله (**فإنّ الأمر**) أي الأمورات المقدّرة الحادثة في العالم السّفلي (**ينزل من السّماء إلى الأرض**) ويخرج من القوّة إلى الفعل ويوجد في المواد السّفلية الخارجيّة بعد أن كان ثابتاً في الصّحائف العلوية (كـ) ـنزول (**قطر المطر**) إلى الأرض بأيدي المدبرات كما قال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، أي كلّ أمر قدره الله في حق العباد وقسّمه (**إلى كلّ نفس**) بمقدار (**ما قسم لها**) وقدر في حقّها (**من زيادة أو نقصان**) أو قلة أو كثرة كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

(**فإذا**) كان نزول الأمور بتقدير الله سبحانه وتفريقها بتقسيم الملك العادل على وفق الحكمة واقتضاء المصلحة و(**رأى أحدكم لأخيه**) المؤمن (**غفيرة**) وزيادة (**في أهل أو مال أو**

نفس) أو رفعة أو مكانة **(فـ)** ـلابدّ له أن يرضى بقسمة الجبّار وأن **(لا تكوننّ)** رؤية هذه الغفيرة **(له فتنة)** ولا توجب له ضلالاً ولا توقع له في الحسد ولا تبعث له إلى الرغبة إلى الأغنياء وإخلاص السّعي لهم ولخدمتهم للطمع بما في أيديهم **(فإنّ)** هذه كلها تكون شاغلة له عن سلوك سبيل الحقّ، حاجبة عن التوجّه إلى الله، مانعة عن الوصول إلى رضوان الله وفيها دناءة النّفس ورذالة الطبع و**(المرء المسلم ما لم يغش دناءة تظهر)** ولم يأت على رذالة تشهر بين النّاس **(فيخشع لها إذا ذكرت)** ويستحيي من ذكرها ويلزمه بارتكابها الخجل **(وتغري بها لئام النّاس)** وعوامهم في فعل مثل أو هتك سرّه بها كان **(كالفالج الياسر)** والقامر الفائز **(الذي ينتظر)** في قماره ولعبه بالأقداح **(أوّل فوزة من قداحه توجب له)** هذه الفوزة **(المغنم)** ويأخذ بها نصيبه الموسوم به **(وترفع بها عنه المغرم)** ويدفع ضرر الغرامة عنه.

و**(كذلك المرء المسلم)** الصّائن لنفسه الحافظ لدينه العاري من الدّناءة و**(البريء من الخيانة ينتظر)** في حياته مع صبره عن المعصية فوز **(إحدى الحسنيين إمّا)** أن يدعوه **(داعي الله)** بقبضه إليه فيستجيب له ويفوز إذن بالنّعيم المقيم ويدخل الجنّة التي عرضها الأرض والسّماء **(فما عند الله خير له)** وأبقى وهي فوزة لا تفنى **(وإمّا)** أن يفتح له أبواب **(رزق الله)** ويدركه كرامة الله **(فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه)** فيفوز الفوز العظيم مع الأمن من العذاب الأليم وهو أفضل عند العاقل من الفتنة بالغير والالتفات عن الله وتدليس لوح النّفس برذائل الأخلاق من الحسد ونحوه.

وذلك من حيث **(إنّ المال والبنين حرث الدّنيا والعمل الصالح حرث الآخرة)** ومن كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدّنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب، فحرث الدّنيا حقير وحرث الآخرة جليل خطير، والمال والبنون زينة الحياة الدّنيا والباقيات الصّالحات خير عند ربّك ثواباً وخير أملاً.

(وقد يجمعها الله لأقوام) وما كان قولهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فأتيهم الله ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحبّ المحسنين **(فاحذروا من الله)** واتّقوه **(بما حذركم من نفسه)** بقوله: فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم **(واخشوه خشية)** صادقة **(ليست بـ)** ـذات **(تعذير)** إذ الاعتذار إنّما ينفع عند من هو جاهل بالسّرائر ومحجوب عمّا في الضّمائر.

وأمّا الله العالم الخبير بما في الصّدور فليس للاعتذار عنده نفع ولا ثمر، وينبّؤا الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر، بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره، فيجزى المعتذرون جزاء ما كانوا يعملون، فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون.

(واعملوا في غير رياء ولا سمعة) أي عملاً خالصاً مخلصاً عنهما وفي حذف المتعلق

دلالة على العموم فيشمل جميع الأعمال ويدلّ على وجوب الإخلاص في الكلّ كما قال الصّادق عليه السلام: لا بدّ للعبد من خالص النيّة في كلّ حركة وسكون لأنّه إذا لم يكن بهذا المعنى يكون غافلاً والغافلون قد وصفهم الله تعالى فقال: **﴿إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾**، وقال: **﴿أولئك هم الغافلون﴾**[١].

قال بعض العلماء في تفسير ذلك: يجب أن يكون للعبد في كلّ شيء يفعله وعمل يعمل من نيّة اخلاص حتّى في مطعمه ومشربه وملبسه ونومه ونكاحه، فإنّ ذلك كله من أعماله التي يسأل عنها ويجازى عليها فإن كانت لله وفي الله كانت في ميزان حسناته، وإن كانت في سبيل الهوى ولغير الله كانت في ميزان سيّئاته، وكان صاحبها في الدّنيا على مثال البهائم الرّاتعة والأنعام المهملة السّارقة ولا يكون على الحقيقة إنساناً مكلّفا موفّقاً وكان من الذين ذكرهم الله بقوله: أغفلنا قلبه عن ذكرنا أي وجدناه غافلاً كقولك: دخلت بلدة فاعمرتها أي وجدتها عامرة فهو غافل عمّا يأتيه ويذره متبعاً لهواه فيما يورده ويصدره.

ثمّ علل عليه السلام وجوب ترك الرّياء بقوله: (فإنّه من يعمل لغير الله يكله الله إلى من عمل له) ويقطع عنه ميامن لطفه وألطاف نظره.

ومعناه ما رواه أحمد بن فهد في عدّة الدّاعي عن النبي صلى الله عليه وآله قال يقول الله تعالى: أنا خير شريك ومن أشرك معي شريكاً في عمله فهو لشريكي دوني لأنّي لا أقبل إلاّ ما خلص لي[٢].

قال: وفي حديث آخر: أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك فمن عمل عملاً ثمّ أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي اشرك به دوني، هذا[٣].

ولمّا كانت همّته عليه السلام مقصورة على طلب السّعادة الأخرويّة أردف كلامه بقوله: **(نسأل الله منازل الشّهداء ومعايشة السّعداء ومرافقة الأنبياء)**.

قال الشّارح البحراني: وفي ذلك جذب للسّامعين إلى الإقتداء به في طلبها والعمل بها وبدأ عليه السلام بطلب أسهل المراتب الثلاثة للإنسان وختم بأعظمها فإنّ من حكم له بالشّهادة غايته أن يكون سعيداً، والسّعيد غايته أن يكون في زمرة الأنبياء رفيقاً لهم، وهذا هو التّرتيب اللائق من المؤدب الحاذق، فإنّ المرتبة العالية لا تنال دفعة دون نيل ما هو أدون منها.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١/ ١٠٠، وعدة الداعي: ٢٠٣.
(٢) عدة الداعي: ٢٠٣، والبحار: ٦٩/ ٣٠٤ ح ٥١.
(٣) بحار الأنوار: ٦٩/ ٣٠٥.

تكميل استبصاري

في بيان معنى الرّياء وذكر بعض ما وردت فيه من الآيات والأَخبار والإشارة إلى أقسامه وإلى الدّواء النّافع له فالكلام في مقامات أربعة.

المقام الأول

في تحقيق معنى الرّياء والسّمعة فنقول: إنّ الرّياء هو ترك الإخلاص بملاحظة غير الله فيه وأصله من الرّؤية كأنه لا يعمل إلاّ إذا رأى النّاس ورأوه، والسّمعة بالضمّ كالرّياء إلاّ أنّها تتعلق بحاسّة السّمع والرّياء بحاسّة البصر.

وعن الفارابي في «**ديوان الأدب**» يقال: فعل ذلك رياء وسمعة إذا فعل ذلك ليراه الناس ويسمعوا به.

وقال الغزالي في «**إحياء العلوم**»: الرّياء مشتقّ من الرؤية، والسّمعة مشتقّة من السّماع وإنّما الرّياء أصله طلب المنزلة في قلوب النّاس بإيرائهم خصال الخير إلا أنّ الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى الله، وإسم الرّياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها، فحد الرّياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد، والمرائى هو النّاس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمرائى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرّياء قصد إظهار ذلك.

أقول: والأولى ما ذكرناه، لكونه شاملاً للعبادات وغيرها فعلاً وتركاً حسبما تعرفه في الأَقسام الآتية، وما ذكره مختصّ بفعل العبادات فقط فلا يعمّ.

الثاني

في ذكر بعض ما ورد فيه من الآيات والأَخبار.

قال الله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٦].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ النار وأهلها يعجّون من أهل الرّياء، فقيل: يا رسول الله كيف تعج النّار؟ قال: من حرّ النّار التي يعذّبون بها»(١).

وقال أيضاً: ينادى المرائي يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر يا خاسر، ضلّ سعيك، وبطل عملك، ولا خلاق لك، التمس الأجر ممّن كنت تعمل له يا مخادع.

(١) الكافي: ٢/٢٩٦، وثواب الأعمال: ٢٥٣.

وقال أيضاً: إنّ أوّل ما يدعي يوم القيامة رجل جمع القرآن، ورجل قاتل في سبيل الله، ورجل كثير المال فيقول الله عزّ وجلّ للقارىء ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فيقول: بلى يا ربّ فيقول: ما عملت به فيما علمت؟ فيقول: يا رب قمت به في آناء الليل وأطراف النّهار، فيقول الله تعالى: كذبت وتقول الملائكة كذبت: ويقول الله تعالى: إنّما أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله تعالى: ألم أوسع عليك حتّى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ فيقول: بلى يا ربّ، فيقول: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرّحم وأتصدّق، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك.

ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى: ما فعلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيل الله فقاتلت حتّى قتلت، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جريء شجاع فقد قيل ذلك، ثمّ قال رسول الله ﷺ: «أولئك خلق الله تسعرهم نار جهنّم»، وهذه الأخبار رويناها من كتاب «**الأنوار**» للمحدّث الجزائري.

وفي «**الوسائل**» عن الكليني بإسناده عن فضل أبي العبّاس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويسرّ سيّئاً أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أنّ ذلك ليس كذلك والله عزّ وجلّ يقول: بل الإنسان على نفسه بصيرة، إنّ السّريرة إذا صحّت قويت العلانية.

وعن السّكوني عنه عليه السلام أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على النّاس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدّنيا، لا يريدون به ما عند ربّهم يكون دينهم رياء لا يخالطهم خوف يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم[(1)]».

وعن البرقي في كتاب «**المحاسن**» عن يحيى بن بشير النبّال عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أراد الله عزّ وجلّ بالقليل من عمله أظهره الله أكثر ممّا أراده به، ومن أراد النّاس بالكثير من عمله في تعب في بدنه وسهر من ليله أبى الله إلاّ أن يقلله في عين من سمعه[(2)].

وروى الصّدوق في كتاب عقاب الأعمال بإسناده عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه صلوات الله عليهم قال: قال رسول الله ﷺ: يؤمر برجال إلى النّار فيقول الله عزّ وجلّ لمالك: قل للنّار: لا تحرق لهم أقداماً فقد كانوا يمشون بها إلى

---

(١) محاسن البرقي: ١/ ٢٥٥، والكافي: ٢/ ٢٩٦.

(٢) في نسخة: وجوهاً.

المساجد، ولا تحرق لهم وجوه[١] فقد كانوا يسبغون الوضوء، ولا تحرق لهم أيدي فقد كانوا يرفعونها بالدّعاء، ولا تحرق لهم ألسنة فقد كانوا يكثرون تلاوة القرآن، قال: فيقول لهم خازن النّار: يا أشقياء ما كان حالكم؟ قالوا: كنّا نعمل لغير الله عزّ وجلّ فقيل لنا خذوا ثوابكم ممّن عملتم[٢].

وفي **«الوسائل»** عن الكليني بإسناده عن جرّاح المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] قال: الرّجل يعمل شيئاً من الثّواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية النّفس يشتهي أن يسمع به النّاس فهذا الذي أشرك بعبادة ربّه، ثمّ قال: ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتّى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرّ شراً فذهبت الأيام حتّى يظهر الله له شرّاً[٣].

وعن السّكوني عنه عليه السلام أيضاً قال: قال النّبي صلى الله عليه وآله إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا سعد بحسناته يقول الله عزّ وجل: اجعلوها في سجّين إنّه ليس إيّاي أراد به[٤].

وعن عليّ بن عقبة عن أبيه قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوا للنّاس فإنّه ما كان لله فهو لله وما كان للنّاس فلا يصعد إلى الله[٥].

وفي عدّة الداعي لأحمد بن فهد الحلي عن الشّيخ أبي جعفر محمّد بن أحمد بن عليّ القمّي نزيل الرّي في كتابه المبني عن زهد النبيّ عن عبد الواحد عمّن حدّثه عن معاذ بن جبل قال: قلت: حدّثني بحديث سمعته من رسول الله وحدّثته من دقائق ما حدثك به، قال: نعم وبكى معاذ.

ثمّ قال: بأبي وأمّي حدّثني وأنا رديفه فقال: بينا نحن نسير إذ رفع بصره إلى السّماء فقال صلى الله عليه وآله: **الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما أحب**»، ثمّ قال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسيّد المؤمنين، قال: يا معاذ، قلت: لبّيك يا رسول الله امام الخير ونبيّ الرّحمة، قال صلى الله عليه وآله أحدثك شيئاً ما حدث نبي أمته إن حفظته نفعك عيشك وإن سمعته ولم تحفظه انقطعت حجّتك عند الله.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله، «إنّ الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السّماوات فجعل في كلّ سماء

---

(١) علل الشرائع: ٢/٤٦٦.
(٢) شرح أصول الكافي: ٩/٢٩٢، والوسائل: ١/٧١.
(٣) الوسائل: ١/٧١.
(٤) التوحيد للصدوق: ٤١٥.
(٥) بطوله في عدة الداعي: ٢٢٩، والبحار: ٦٧/٢٤٨.

ملكاً قد جللها بعظمته وجعل على كلّ باب من أبواب السّماء بوّاباً فيكتب الحفظة عمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسي ثمّ ترفع الحفظة بعمله وله نور كنور الشّمس، حتّى إذا بلغ سماء الدّنيا فتزكيه وتكثره فيقول الملك قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الغيبة فمن اغتاب لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري أمرني بذلك ربّي».

قال ﷺ: «ثمّ يجيء الحفظة عن الغد ومعهم عمل صالح فتمرّ به وتزكيه وتكثّر حتّى تبلغ السّماء الثّانية فيقول الملك الذي في السّماء الثّانية: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وإنّما أراد بهذا العمل عرض الدّنيا أنا صاحب الدّنيا لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري وهو يحبّ الدّنيا».

قال: «ثمّ تصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً بصدقة وصلاة فتعجّب به الحفظةُ وتجاوزه إلى السّماء الثّالثة فيقول الملك قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك صاحب الكبر فيقول: إنّه عمل وتكبّر على النّاس في مجالسهم أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كالكوكب الدّري في السّماء له دوي بالتّسبيح والصّوم والحجّ فتمر به إلى السّماء الرّابعة فيقول لهم الملك: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وبطنه أنا ملك العجب إنّه كان يعجب بنفسه وإنّه عمل وأدخل نفسه العجب أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد كالعروس المزفوفة إلى أهله فتمرّ به إلى ملك السّماء الخامسة بالجهاد والصّدقة ما بين الصّلاتين وكذلك العمل له رنين كرنين الإبل عليه ضوء كضوء الشّمس فيقول الملك: قفوا أنا ملك الحسد واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه، إنّه كان يحسد من يتعلم أو يعمل لله بطاعته وإذا رأى لأحد فضلاً في العمل والعبادة حسده ووقع فيه فحملوه على عاتقه ويلعنه عمله.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحجّ وعمرة فيتجاوز به إلى السّماء السّادسة فيقول الملك: قفوا أنا صاحب الرحمة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واطمسوا عينيه، لأن صاحبه لم يرحم شيئاً إذا أصاب عبداً من عباد الله ذنباً للآخرة أو ضراء في الدّنيا شمت به أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد بفقه واجتهاد وورع وله صوت كالرعد وضوء كضوء البرق ومعه ثلاثة آلاف ملك فتمر بهم إلى ملك السّماء السّابعة فيقول الملك: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الحجاب أحجب كلّ عمل ليس لله إنّه أراد رفعة عند القوّاد وذكراً في المجالس وصيتاً في المدائن أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري ما لم

يكن لله خالصاً.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به من صلاة وزكاة وصيام وحجّ وعمرة وخلق الحسن وصمت وذكر كثير تشيّعه ملائكة السّماوات والملائكة السبعة بجماعتهم فيطئون الحجب كلّها حتّى يقوموا بين يديه سبحانه فيشهدوا له بعمل ودعاء فيقول سبحانه: أنتم حفظة عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه إنّه لم يردني بهذا العمل عليه لعنتي فتقول الملائكة: عليه لعنتك ولعنتنا».

قال: ثمّ بكى معاذ قال: قلت يا رسول الله ما أعمل وأخلص قال: اقتد نبيّك يا معاذ في اليقين، قال: قلت: أنت رسول الله وأنا معاذ قال: فإن كان في عملك تقصير يا معاذ فاقطع لسانك عن إخوانك وعن حملة القرآن، ولتكن ذنوبك عليك لا تحمّلها على إخوانك، ولا تزك نفسك بتذميم إخوانك، ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك، ولا تراء بعملك، ولا تداخل من الدّنيا في الآخرة، ولا تفحش في مجلسك لكي يحذروك لسوء خلقك، ولا تناج مع رجل وأنت مع آخر، ولا تعظم على النّاس فتنقطع عنك خيرات الدّنيا، ولا تمزق النّاس فتمزقك كلاب أهل النّار، قال الله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ٢] أفتدري ما الناشطات؟ إنّها كلاب أهل النّار تنشط اللحم والعظم، قلت: ومن يطيق هذه الخصال؟ قال: يا معاذ أما أنّه يسير على من يسر الله تعالى عليه قال: وما رأيت معاذاً يكثر تلاوة القرآن كما يكثر تلاوة هذا الحديث[١].

الثالث

في أقسام الرّياء والوجوه المتصوّرة فيه، وهي كثيرة إلاّ أنّها منشعبة عن قسمين **أحدهما**: الرّياء المحض **والثاني**: الرّياء المشوب.

أمّا الرّياء المحض فهو أن لا يكون مراده بالعبادة إلاّ الدّنيا ورؤية النّاس كالذي يصلي بين أظهر النّاس، ولو كان منفرداً لكان لا يصلي بل ربّما يصلي من غير طهارة مع النّاس، فهذا يجب أن يترك لأنّه معصية لا طاعة فيه أصلاً.

وأمّا الرّياء المشوب فهو يتصوّر على وجوه.

أحدها: أن يعقد على الإخلاص قلبه ثمّ يطرأ الرّياء ودواعيه مثل أن يفتتح الصّلاة بالإقبال فيدخل عليه داخل أو ينظر إليه ناظر فيقول له الشّيطان: رد صلاتك حسناً حتّى ينظر إليك هذا الناظر بعين الوقار فتخشع جوارحه ويحسن صلاته.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١/ ١١٥ ح ١٣٢.

وذلك مثل ما روي أنّ رجلاً لا يقدر على الإخلاص في العمل فاحتال وقال: إنّ في ناحية البلد مسجداً مهجوراً لا يدخله أحد فأمضي إليه ليلاً وأعبد الله فيه، فمضى إليه في ليلة ظلماء وكانت ذات رعد وبرق ومطر فشرع في العبادة فبينما هو في الصلاة إذ دخل عليه داخل فأحس به فدخله السرور وبرؤية ذلك الدّاخل له وهو مشتغل بالعبادة في الليلة المظلمة، فأخذ في الجدّ والاجتهاد في عبادته إلى أن جاء النّهار فنظر إلى ذلك الدّاخل فإذا هو كلب أسود قد دخل المسجد ممّا أصابه من المطر فندم الرّجل على ما فعل وقال: يا نفس إنّي فررت من أن أشرك بعبادة ربي أحداً فوقعت أن أشركت في عبادته كلباً وا أسفا وا ويلا على هذا.

الثاني: أن يأتيه الشّيطان من معرض الخير ويقول له: اعمل هذا العمل ليقتدي بك النّاس فيحصل لك أجر من عمل به، وهذه المكيدة أعظم من الأولى وينخدع بها من لا ينخدع بتلك وهو عين الرياء لأنّه إذا رأى هذه الحالة خيراً لا يرتضي بغيره تركها فلم تركه وهو في الخلوة وليس أحداً أغرّ على الإنسان من نفسه.

الثالث: أن يتنبّه العاقل لهاتين ويستحي من المخالفة بين صلاته في الخلاء والملاء فيحسن صلاته في الخلوة ليطابق الجلوة، وهذا أيضاً من الرّيا لأنّه حسن صلاته في الخلوة ليحسن في الملاء فكان نظره في عمله إلى النّاس.

الرّابع: أن ينظر إليه النّاس وهو في صلاته فيعجز الشّيطان عن إيقاعه في الرّياء بأن يقول له: اخشع لأجلهم ولكن يقول له: تفكّر في عظمة الله وجبروته ومن أنت واقف بين يديه واستحي أن ينظر الله إلى قلبك وأنت غافل عنه فيحضر بذلك وتجتمع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين الرّياء فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى عظمة الله لِمَ لَمْ تكن حالته في الخلوة هكذا؟

الخامس: أن يكمل العبادة على الإخلاص لكن عرض له بعد الفراغ حبّ اظهارها لتحصيل بعض الأغراض، وذلك بأن يخدعه الشّيطان ويقول له: إنّك قد أكملت العبادة الخالصة وقد كنت في ديوان المخلصين ولا يقدح فيها ما يتجدد وإنّما ينضم إلى ما حصّله بها من الخير الأجل خير عاجل فيحدث به ويظهره، وهو أيضاً مبطل للعمل ومفسد له وإن سبق.

قال الصّادق عليه السلام من عمل حسنة سرّاً كتبت له سرّاً فإذا أقرّ بها محيت وكتبت جهراً، فإذا أقرّ بها ثانياً محيت وكتبت رياء وفضل عمل السّر على عمل الجهر سبعون ضعفاً[1]، نعم لو تعلّق بإذاعته غرض صحيح كما لو أراد ترغيب الغير فيه إذا لم يمكن الترغيب بدونه لم يكن به بأس.

(١) عدة الداعي: ٢٢٠.

السّادس: أن يترك العمل خوفاً من الرّياء، وهذا أيضاً من خدائع إبليس اللّعين لأنّ غرضه الأقصى ترك العمل فإذا لم تجب إليه واشتغلت به فيدعوك إلى الرّياء وغيره فإذا تركته فقد حصّلت غرضه.

قال ابن فهد في «**عدّة الدّاعي**» ومثال ذلك من سلم إليه مولاه حنطة فيها قليل من المباين إمّا شعير أو مدر، وقال: خلصها من التّراب مثلاً ونقّها منه تنقية جيّدة بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به ألا يخلص خلاصاً صافياً ويترك العمل من أصله.

السّابع: أن يترك العمل لا لذلك بل خوفاً على النّاس أن يقولوا إنّه مرائي فيعصون الله تعالى به، وهذا أيضاً كسابقه رياء خفي لأنّ ترك العمل خوفاً من أن يقال له: إنه مرائي عين الرّياء، ولولا حبّه لمحمدتهم وخوفه من مذمتهم فماله ولقولهم إنّه مراء أو قالوا إنّه مخلص وأيّ فرق بين ترك العمل خوفاً من قولهم: إنّه مراء وبين أن يحسن العمل خوفاً من قولهم: إنّه مقصّر غافل مع ما في ذلك من سوء الظن بالمسلمين، ومن إطاعة الشّيطان في ترك العمل.

الثّامن: أن يكون ترك العمل إشفاقاً على المسلمين بأن يقول له إبليس اللعين: اترك العمل إشفاقاً على المؤمنين من وقوعهم في الاثم بظنّ السّوء وتركك العمل إشفاقاً عليهم يقوم مقام العمل ويحصل لك بذلك الثّواب لأنّ نظر المصلحة للمسلمين حسنة فيعادل الثّواب الحاصل من العمل بل هو أفضل لأنّه متعدّ إلى الغير؛ وهذا الخيال من غوائل النفس الأمارة المائلة إلى الكسالة والبطالة ومكيدة عظيمة من الشّيطان الخبيث لما لم يجد إليك مسلكاً فصدك من هذا الطريق وزين لك هذا التّنميق.

قال ابن فهد ووجه فساده يظهر من وجوه:

الأوّل: أنه عجّل لك الوقوع في الاثم المتيقن فإنّك ظننت أن يظنّوا بل إنّك مراء، وهذا ظنّ سوء وعلى تقدير وقوعه منهم يلحقهم به إثم وظنّك هذا بهم أيضاً ظنّ سوء يلحقك به الاثم إذا لم يكن مطابقاً لما ظننت بهم وتركت العمل من أجله فعدلت من ظنّ موهوم إلى إثم معلوم، وحذراً من لزوم إثم لغيرك فأوقيت فيه نفسك.

الثّاني: أنّك إذاً وافقت إرادة الشّيطان بترك العمل الذي هو مراده، وترك العمل والبطالة موجب لاجتراء الشيطان عليك وتمكّنه منك، لأنّ ذكره تعالي والتولي في خدمته يقربك منه وبقدر ما تقرب منه تبعد من الشّيطان وإنّ فيه موافقة للنّفس الأمارة بميلها إلى الكسالة والبطالة وهما ينبوع آفات كثيرة إن كان لك بصيرة.

الثّالث: مما يدلك أنّ هذا من غوائل النّفس وميلها إلى البطالة أنّك لمّا نظرت إلى فوات الثّواب الحاصل لك من البطالة وإلى فوات وقوعهم في الاثم آثرتهم على نفسك بتخفيف ما

يلزمهم من الاثم بسوء الظنّ وحرمت نفسك الثّواب، وتفكّر في نفسك وتمثل في قلبك بعين الانصاف لو حصل بينك وبينهم في شيء من حظوظ العاجلة منازعة إمّا في دار أو مال أو ظهر لك نوع معيشة تظنّ فيها فائدة وحصول أكنت تؤثرهم على نفسك وتتركه لهم؟ كلا والله بل كنت تناقشهم مناقشة المشاقق وتستأثر عليهم فيما يظهر لك من أنواع المعيشة إن أمكنك فرصة الاستيثار وتقلى الحبيب وتقضي القريب.

التّاسع: أن يقول لك اللعين إذا كنت لا تترك العمل لذلك فاخف العمل فإنّ الله سيظهره عليك فإما إذا أظهرته فيمكن أن تقع في الرّياء، وهذا التّلبيس عين الرّياء لأنّ إخفاك له كي يظهر بين الناس هو بعينه العمل لأجل النّاس، وما عليك إذا كان مرضيّاً عند الله تعالى أن يظهر للنّاس أو يخفى.

الرابع

في علاج الرّياء وهو على ما ذكره الغزالي في **«إحياء العلوم»** أنّ الإنسان يقصد الشيء ويرغب فيه لظنّه أنّه خير له ونافع ولذيذ إمّا في الحال وإمّا في المال، فإن علم أنّه لذيذ في الحال ولكنّه ضارّ في المال سهل عليه قطع الرّغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أنّ فيه سمّا أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرّغبة أن يعلم ما فيه من المضرّة.

ومهما عرف العبد مضرّة الرّياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التّوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشّديد والخزي الظاهر حيث ينادي على رؤوس الخلائق يا فاجر يا غادر يا مرائي أما استحييت؟ إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدّنيا، وراقبت قلوب العباد واستهزءت بطاعة الله وتحبّبت إلى العباد بالتبغض إلى الله، وتزيّنت لهم بالشّين عند الله، وتقرّبت إليهم بالبعد من الله، وتحمدت إليهم بالتّذمّم عند الله، وطلبت رضاهم بالتّعرض لسخط الله أما كان أحد أهون عليك من الله؟

فمهما تفكّر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتّزيّن لهم في الدّنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال مع أنّ العمل الواحد به ربّما كان يترجّح ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرّياء حوّل إلى كفة السّيئات فترجّح به ويهوى إلى النّار؛ فلو لم يكن في الرّياء إلاّ إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره وإن كانت مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علوّ الرّتبة عند الله في زمرة النّبيين والصّديقين، وقد حط عنهم بسبب الرّياء وردّ إلى صف النّعال من مراتب الأولياء، هذا.

مع ما يتعرّض له في الدّنيا من تشتّت الهمّ بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضا النّاس غاية لا تدرك فكلّ ما يرضى به فريق يسخط به فريق، ورضا بعضهم فيه سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليهم وأسخطهم أيضاً عليه.

ثمّ أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم، ولا يزيدهم حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة.

وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أنّ الله هو المسخّر للقلوب بالمنع والإعطاء ولا رازق إلا الله ومن طمع في الخلق لم يخل من الذّل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنّة والمهانة فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد؟ وقد يصيب وقد يخطىء وإذا أصاب فلا تفي لذّته بألم منته ومذلته.

وأمّا ذمّهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمّهم شيئاً فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأَسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه، فإنّ العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقلّ نفعه، ويكفيه أنّ النّاس لو علموا ما في بطنه من قصد الرّياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سرّه حتّى يبغضه إلى النّاس ويعرّفهم أنّه مراء وممقوت عند الله ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحبّبه إليهم وسخّرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثّناء عليه.

أقول وهو كما روي أنّ رجلاً من بني إسرائيل قال: لأَعبدنّ الله تعالى عبادة أُذكر بها فمكث مدّة مبالغاً في الطاعات، وجعل لا يمرّ بملاء من النّاس إلاّ قالوا متصنّع مراء، فأقبل على نفسه وقد قال: أتعبت نفسك وضيّعت عمرك في لا شيء، فينبغي أن تعمل لله سبحانه فغير نيّته وأخلص عمله لله تعالى، فجعل لا يمرّ بملاء من النّاس إلاّ قالوا ورع تقيّ، هذا.

مع أنّ مدح النّاس لا ينفعه وهو عند الله مذموم، ومن أهل النّار، وذمّ النّاس لا يضرّه وهو عند الله محمود، ومن أهل الجنّة فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبّد والمنازل الرّفيعة عند الله استحقر ما يتعلّق بالخلق أيّام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات، وكيف يرضى العاقل أن يجعل ثمن عمله مدح النّاس له وما في أيديهم من حطام الدّنيا وزخارفها مع أنّها على تقدير النّيل إليها ثمن بخس ورضا الله سبحانه هو الجزاء الأوفى.

فلو قيل لك: إنّ هٰهنا رجلاً معه جوهر نفيس يساوي مائة ألف دينار، وهو محتاج إلى ثمنه بل إلى بيعه عاجلاً وإلى أضعافه ثمناً، فحضر من يشتري منه متاعه بأضعاف ثمنه مع حاجته إلى الأضعاف، فأبى بيعه بذلك وباعه بفلس واحد ألست تحكم بسفاهة ذلك البائع ونقصان عقله؟

فحال المرائي بعينه مثل حال هذا البائع، فإنّ ما يناله العبد بعمله من حطام الدّنيا ومدح النّاس له، بالإضافة إلى ثواب الآخرة ومرضاة الله سبحانه أقل من فلس في جنب ألف ألف دينار، بل أقلّ من نسبته إلى الدّنيا وما فيها؛ هذا كلّه هو الدّواء العلمي.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما يغلق الأَبواب دون الفواحش حتّى يقنع قلبه بعلم الله وإطلاعه على عبادته ولا تنازعه النّفس إلى

طلب علم غيره سبحانه.

ولذلك كان عيسى يقول للحواريين إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ولحيته، ويمسح شفتيه بالزّيت لئلا يرى النّاس أنّه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله، وإذا صلّى فليرخ ستر بابه، فإنّ الله يقسم الثناء كما يقسم الرّزق.

وقال رسول الله ﷺ: إنّ في ظلّ العرش ثلاثة يظلّهم الله بظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: رجلان تحابا في الله وافترقا عليه، ورجل تصدق بيمينه صدقة فأخفاها عن شماله، ورجل دعته امرأة ذات جمال فقال: إنّي أخاف الله ربّ العالمين[1].

فلا دواء للرّياء مثل الإخفاء، وذلك يشقّ في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدّة بالتكلّف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمدّ به عباده من حسن التّوفيق والتّأييد والتّسديد، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم فمن العبد المجاهدة، ومن الله الهداية ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب، والله لا يضيع أجر المحسنين، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

تكملة

هذا الفصل من الخطبة الشريفة رواه ثقة الإسلام الكليني في «**الكافي**» عن عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن عبد الرحمان بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي حمزة عن يحيى بن عقيل عن حسن عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أمّا بعد فإنّه إنّما هلك من كان قبلكم حيث ما عملوا من المعاصي ولم ينههم الرّبانيّون والأحبار عن ذلك، وإنّهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينبّههم الرّبانيّون والأحبار عن ذلك نزلت لهم العقوبات، فأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقربا أجلاً، ولن يقطعا رزقاً، إنّ الأمر ينزل من السّماء إلى الأرض كقطر المطر، إلى كلّ نفس بما قدر الله من زيادة أو نقصان، فإن أصاب أحدكم مصيبة في أهل أو مال أو نفس، ورأى عند أخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا يكوننّ لهم فتنة، فإنّ المرء المسلم لبريء من الخيانة ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام النّاس كان كالفالج الياسر الذي ينتظر أوّل فوزة من قداحه، توجب له المغنم ويرفع عنه بها المغرم، وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنيين إمّا داعي الله فما عند الله خير له، وإمّا رزق الله فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه، إنّ المال والبنين

(١) بحار الأنوار: ١٠٠/٣٩، والكافي: ١/٥٦.

حرث الدّنيا، والعمل الصّالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه، فاخشوه خشية ليست بتعذير، واعملوا في غير رياء وسمعة فإنّه من يعمل لغير الله يكله الله إلى من عمل له، نسأل الله منازل الشّهداء، ومعايشة السّعداء، ومرافقة الأنبياء[١].

الترجمة

از جمله خطب آن امام عالميان است در تأديب فقرا با عدم حسد به اغنياء و تأديب اغنياء با تزهيد از جمع مال دنيا و در اخلاص اعمال و افعال از سمعه و ريا؛ مى فرمايد:

اما بعد از حمد الهى و درود حضرت رسالت پناهى، پس به درستى كه امر الهى نازل مى شود از آسمان بر زمين و خارج مى شود از قوه به عمل و موجود مى شود در مواد سفليه بعد از وجود در صحايف علويه مانند قطره هاى باران به سوى هر نفسى به مقدار آن چه قسمت شده بر او از زياده و نقصان، پس هرگاه ببيند يكى از شما مربرادر خود را زيادتى در اهل يا مال يا نفس يا ساير آن ها، پس بايد كه نباشد مر اورا فتنه و فساد چون وقوع در حسد و عناد پس به درستى مرد مسلمان مادام كه نيايد بر سر دنائت و ناكسى كه ظاهر شود آن دنائت از او در ميان مردمان، پس چشم برهم نهد از خجالت براى ظهور آن دنائت در وقت مذاكره مردم آن دنائت را و حريص كرده شوند مردمان دنى در فعل مثل آن مى شود آن مرد مسلم مثل فيروزى يابنده قمار بازنده كه انتظار كشد اول بردن را از تيرها و چوب هاى آن كه آن بردن واجب مى گرداند از براى آن غنيمت را و برداشته مى شود از او به جهت آن بردن غرامت.

و مثل همين قمارباز است مرد مسلمان كه برى است از خيانت انتظار مى كشد از جانب خداوند يكى از اين دو حالت را يا خواننده خدا به سوى او پس آن چه كه نزد خداوند از اصناف كرامت و انواع رحمت است بهتر است مراورا و يا

(١) الكافي: ٢/ ١٥٤ ح ١٩، ومناقب آل أبي طالب: ١٠/ ٣٢٦.

روزی خدا، پس ناگاه می شود او صاحب اهل و مال در حالتی که با اوست دین و حسب و علم و ادب او به درستی مال و اولاد کشت این سرای فانی اند و عمل صالح کشت دار باقی است.

و گاهی جمع می فرماید خداوند هردو این کشت را از برای گروهی که متّصف بشوند به صفت توکل، پس بترسید از خداوند به آن چه که ترسانده شما را با او و از خودش و بترسید از او ترسیدنی که نباشد در او عذرخواهی و دروغ و عمل نمایید عمل خالصی که خالی است از ریا و سمعه، پس به درستی هرکه عمل نماید از برای غیرخدا واگذار می کند خداوند تعالی او را بر آن کس که عمل کرده از برای او. می خواهیم از خدای تعالی منزل های شهیدان و زندگانی سعیدان و رفاقتی پیغمبران و همراهی ایشان را.

الفصل الثاني

وهو مرويّ في «**الكافي**» باختلاف كثير وزيادة ونقصان حسبما تطلع عليه:

«أَيُّهَا النّاسُ إِنَّهُ لا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وإِنْ كانَ ذا مالٍ عَنْ عَشيرَتِهِ، ودِفاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْديهِمْ وأَلسِنَتِهِمْ، وهُمْ أَعْظَمُ النّاسِ حيطَةً مِنْ ورائِه، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعْثه وأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نازِلَةٍ إِذا نَزَلَتْ بِه، ولِسانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلمَرْءِ في النّاس خَيرٌ لَهُ مَنَ الْمالِ يُوَرِّثُهُ غَيرَهُ».

منها

«أَلا لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرابَةِ، يَرى بِهَا الْخَصاصَةَ أَنْ يَسُدَّها بِالْذي لا يَزيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ، وَلا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ، ومَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشيرَتِه فَإِنَّما تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ واحِدَةٌ وتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدي كَثيرَةٌ، ومنْ تَلِنْ حاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ»[1].

اللغة

(**الحيطة**) بكسر الحاء وسكون الياء الحفظ يقال حاطه حوطا وحيطه وحياطة حفظه وصانه و(**لمّ**) الله شعثه قارب بين شتيت أموره وجمعها و(**الخصاصة**) الفقر قال: ﴿**يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ و(**حاشية**) الرّجل نفسه وجانبه، وحاشيته أيضاً اتباعه وخواصه وأهله.

الإعراب

جملة (يرى) في محلّ النّصب على الحالية، (**وأن يسدّها**) في موضع الجر بدلاً من (**القرابة**)، (**وحاشيته**) بالرّفع فاعل (تلن)، وفي «**رواية الكافي**» الآتية يلن (**بالياء**) التّحتانية (**فحاشيته**) بالرّفع أو بالنّصب مفعول له بواسطة الحرف أي (**يلن لحاشيته**).

المعنى

إعلم أنّه لمّا أدب الفقراء بترك الحسد على الأغنياء بما مرّ تفصيلاً في الفصل السّابق أردف ذلك بتأديب الأغنياء بعدم الزّهد عن الأرحام الفقراء والبعد عنهم، وعن سدّ خلتهم وجبر فاقتهم فقال: (**أيها النّاس إنّه لا يستغني الرّجل وإن كان ذا مال**) وصاحب ثروة (**عن عشيرته**) وقبيلته (و) عن (**دفاعهم عنه بأيديهم**) صولة قبائل (و) ذبّهم عنه (**بألستهم**) مسبة قائل.

وذلك لأنّ المال والثّروة لا يغني عن الإخوان والعشيرة بل أشدّ النّاس حاجة إلى الأعوان والأتباع هم أكثر النّاس ثروة وغفيرة، ألا ترى الملوك والمتشبّهين بهم من أرباب الأموال كم حاجتهم إلى الأصحاب والأعوان في الأعمال والأفعال؟ وأحقّ النّاس بعدم

---

(١) الترادف: التعاون.

الاستغناء عنه هم عشيرة الرّجل وأقرباءه **(وهم أعظم النّاس حيطة من ورائه)** وحفظاً لجانبه **(وألمهم لشعثه)** وأجمعهم لمتفرّق أموره **(وأعطفهم عليه عند نازلة)** أو مصيبة **(إذا نزلت به)** وذلك لجهة القرب الباعثة لدواعي الشّفقة عليه **(ولسان الصّدق)** والذكر الجميل المترتب على البذل والانفاق **(يجعله الله للمرء في النّاس)** وبينهم **(خير له من)** جمع **(المال)** وإمساكه حتّى **(يورثه غيره)** ولنعم ما قال حاتم في هذا المعنى مخاطباً لامرأته مارية:

أماري أن يصبح صداي لقفرة	من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
ترى أنّ ما أنفقت لم يك ضربي	وأنّ يدي ممّا بخلت به صفر
أماري ما يغني الثراء عن الفتى	إذا حشرجت يوماً وضاق به الصدر
أماري إنّ المال غاد ورايح	ويبقى من المال الأحاديث والذكر
وقد علم الأقوام لو أنّ حاتماً	أراد ثراء الماء كان له وفر

(ألا لا يعدلنّ أحدكم عن) الأرحام و **(القرابة يرى بها)** **الفاقة و** **(الخصاصة أن يسدّها)** بفضل ماله **(الّذي لا يزيد إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه)** أي لا ينفع ذلك الشّخص إمساكه ولا تضرّه الفاقة لكونه زايدا على قدر الحاجة وفاضلاً على معيشته، **(ومن يقبض يده عن عشيرته فإنّما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيدي كثيرة)**.

قال السّيد: ما أحسن هذا المعنى فإنّ الممسك خيره عن عشيرته إنّما يمسك نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرتهم واضطرّ إلى مرافدتهم[١] قعدوا عن نصره وتثاقلوا عن صوته فمنع ترافد الأيدي الكثيرة وتناهض الأقدام الجمة.

(ومن تلن حاشيته) ويحسن خلقه ويتواضع للنّاس **(يستدم من قومه المودّة)** لأنّ لين الجانب وحسن الخلق والتواضع جالب للألفة وكاسب للمودّة، كما أنّ التّكبر والجفاوة وخشونة الطبيعة باعثة على الانقطاع والعداوة قال سبحانه:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هذا كلّه إن حملنا لفظ الحاشية على النّفس والجانب، وإن حملناه على الأتباع والخواص فيكون المقصود به التّأديب لهم بإصلاح حال الأتباع.

بيان ذلك أنّ الأتباع هم الذين عليهم يدور تدبير صلاح حال الرّجل فبحسب شدّتهم وغلظتهم ولينهم وتواضعهم يكون النّاس أقرب إليه وأبعد منه، وبذلك يتفاوت بغضهم

(١) الكافي: ٢/ ١٥٤، والبحار: ٧١/ ١٢٢.

ومحبّتهم له، وأنسهم ونفارهم عنه، فيلزم على الرّجل إصلاحهم كما يلزم عليه إصلاح نفسه ويلحقه اللّوم والذّم بترك الأوّل كما يلحقانه بترك الثّاني، إذ بتواضعهم ولينيّة جانبهم يستدام المحبّة ويستجلب المودّة، كما أنّ تواضعه بنفسه يستديمها ويستجلبها ولنعم ما قيل:

وإذا مـــا اخـــتـــبـــرت ودّ صـــديـــق فـــاخـــتـــبـــر وده مـــن الـــغـــلـــمـــان

تبصرة

إعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة قد رواه الكليني في «**الكافي**» بزيادة ونقصان وتقديم وتأخير لا بأس بالإشارة إليه، والسّند فيه محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد بن عيسى عن عثمان بن عيسى عن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«لن يرغب المرء عن عشيرته، وإن كان ذا مال وولد، وعن مودّتهم وكرامتهم ودفاعهم بأيديهم وألسنتهم، هم أشدّ النّاس حيطة من ورائه وأعطفهم عليه، وألمهم لشعثه، وإن أصابته مصيبة وأنزل به بعض مكاره الأمور، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنّما يقبض عنهم يداً واحدة ويقبض عنه منهم أيدي كثيرة، ومن يلن حاشيته يعرف صديقه منه المودّة، ومن بسط يده بالمعروف إذا وجده يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له في آخرته، ولسان الصّدق للمرء يجعله الله في النّاس خير من المال يأكله ويورثه، لا يزدادنّ أحدكم كِبَراً وعظماً في نفسه ونأياً عن عشيرته إن كان موثراً في المال، ولا يزدادنّ أحدكم في أخيه زهداً ولا منه بعداً إذا لم ير منه مروّة وكان معوزاً في المال، لا يغفل أحدكم عن القرابة بها الخصاصة أن يسدّها بما لا ينفعه إن أمسكه، ولا يضرّه إن استهلكه»[1].

تكملة

قد عرفت جملة من ثمرات صلة الأرحام ومفاسد قطيعتها في هذه الخطبة مثل كونهم معاونين للرّجل وحامين له، والذّابين عنه وكون البرّ عليهم موجباً للذّكر الخير والثّناء الجميل وكون الممسك عنهم بمنزلة الطالب لمنفعة يد واحدة المفوت على نفسه منافع أيدي كثيرة، وقد أشير إلى طائفة ممّا يترتّب عليهما من الآثار والثّمرات وراء ما مر في سائر الرّوايات، ولا بأس بالإشارة إلى بعضها ممّا رواها ثقة الإسلام الكليني في «**الكافي**».

فبإسناده عن إسحاق بن عمّار قال: بلغني عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ رجلاً أتى النّبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أهل بيتي أبوا إلاّ توثبا عليّ وقطيعة لي وشتيمة فأرفضهم؟ قال صلى الله عليه وآله: «إذاً يرفضكم الله جميعاً»، قال: فكيف أصنع؟ قال: «تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك، فإنّك إذا فعلت ذلك كان لك من الله عليهم ظهير»[2].

---

(١) الكافي: ٢/ ١٥٠ ح ٢.

(٢) الكافي: ٢/ ١٥٠، والوسائل: ٢١/ ٥٣٤.

وعن محمّد بن عبد الله قال: قال أبو الحسن الرّضا عليه السلام: يكون الرّجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله ثلاثين سنة ويفعل الله ما يشاء[١].

وعن أبي حمزة قال: قال أبو جعفر عليه السلام صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وترفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسيء في الأجل[٢].

وعن أبي حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صلة الأرحام تحسن الخلق، وتسمح الكف، وتطيب النفس، وتزيد في الرّزق، وتنسيء في الأجل[٣].

وعن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: حافتا الصّراط يوم القيامة الرّحم والأمانة، فإذا مرّ الوصول للرّحم المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنّة، وإذا مرّ الخائن للأمانة القطوع للرّحم لم ينفعه معهما عمل، وتكفأ به الصّراط في النّار[٤].

وعن الحكم الحناط قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: صلة الرّحم وحسن الجوار يعمران الدّيار، ويزيدان في الأعمار.

وعن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ صلة الرّحم والبرّ ليهونان الحساب، ويعصمان من الذّنوب فصلوا أرحامكم، وبروا بإخوانكم ولو بحسن السّلام وردّ الجواب.

وعن عبد الصّمد بن بشير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: صلة الرّحم تهون الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر، وتقي مصارع السّوء، وصدقة اللّيل تطفىء غضب الرّب[٥].

وعن إسحاق بن عمّار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلاّ صلة الرّحم حتّى أنّ الرّجل يكون أجله ثلاث سنين فيكون وصولاً للرّحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة، ويكون أجله ثلاث[٦] وثلاثين سنة فيكون قاطعاً للرّحم فيقصه[٧] الله ثلاثين سنة ويجعل أجله إلى ثلاث سنين[٨]، والرّوايات في هذا الباب كثيرة، وفيما رويناه كفاية إن شاء الله.

---

(١) تحف العقول: ٢٩٩، والوسائل: ٢١/ ٥٣٤.
(٢) المصدر السابق من الكافي.
(٣) الكافي: ٢/ ١٥٢، والوسائل: ١٩/ ٦٨.
(٤) الكافي: ٢/ ١٥٧، والدعوات للراوندي: ١٢٦.
(٥) في نسخة: ثلاثاً.
(٦) في نسخة: فينقصه.
(٧) كشف اللثام: ٢/ ٥٣٣، والكافي: ٢/ ١٥٣.
(٨) البحار: ٢٩/ ٤٦٤.

الترجمة

ای گروه مردمان به درستی که مستغنی نمی شود مرد و اگرچه بوده باشد صاحب جاه و مال از قبیله خود و از رفع کردن ایشان مکروه را از او به دست های خود و زبان های خود و ایشان بزرگ ترین مردمانند از حیثیت حفظ و حمایت از پس او و جمع کننده ترین مردمانند مرکارهای پریشان او را و مهربان ترین خلقند بر او و هنگام فرودآمدن بلا اگر فرود آید به او و زبان صدق و ذکر خیر که می گرداند خدای تعالی از برای مرد در میان مردمان بهتر است از برای او و از مالی که ارث بگذارد آن را به غیر خود. آگاه باشید باید میل نکند و عدول ننماید یکی از شما از خویش و قوم در حالتی که بیند در او فقر و پریشانی از آن که سد کند فقر آن را به مال زاید خود که افزون نمی گرداند او را اگر امساك کند و نگه دارد آن را و کم نمی سازد اگر بذل نماید و انفاق کند آن را و هرکه قبض و نگه دارد دست خود را از قبیله خود پس به درستی که نگه داشته می شود از جانب او و از خویشان یکدست و فراهم گرفته می شود از جانب ایشان از او دست های بسیار و هرکه نرم باشد جانب او و خوش نفس باشد طلب دوام می کند از قوم خود محبت را.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الرابعة والعشرون من المختار في باب الخطب

«وَلَعَمْري ما عَلَيَّ مِنْ قِتالِ مَنْ خالَفَ الْحَقَّ وَخابَطَ الْغَيَّ مِنْ إِدْهانٍ وَلا إِيْهانٍ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ وَفِرُّوا مِنَ اللهِ إلى اللهِ، وَامْضُوا في الَّذي نَهَجَهُ لَكُمْ، وقُوموا بِما عَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلِيٌّ ضامِنٌ لِفُلْجِكُمْ آجِلاً إنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عاجِلاً»[1].

اللغة

(**خابط الغيّ**) بصيغة المفاعلة خبط كلّ منهما في الآخر، والغيّ الضّلالة و (**الادهان**) والمداهنة المصانعة والمنافقة قال سبحانه: ﴿**ودوا الوتدهن فيدهنون**﴾ و (**الايهان**) مصدر أوهنه أي أضعفه و (**نهج**) الأمر أوضحه وجعله نهجاً أي طريقا بيّناً و (**عصبه بكم**) أي ربطه وناطه كالعصابة التي يشدّ بها الرّأس و (**الفلج**) بالضّم الفوز ومنه الفالج الذي قد مرّ في الخطبة السابقة و (**منحه**) كضربه ومنعه أعطاه والاسم المنحة وهي العطية.

الإعراب

(**العمر**) بفتح العين وضمّها البقاء ولا تستعمل في القسم إلاّ بالفتح قال بعض المحقّقين: قول الشّخص لعمري مبتدأ محذوف الخبر وجوباً، والتقدير قسمي أو يميني وهو دائر بين فصحاء العرب، قال تعالى: ﴿**لعمرك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾.

لا يقال: إن الحلف بغير الله تعالى منهيّ عنه.

لأنّا نقول: ليس المراد به القسم الحقيقي بجعل غيره تعالى مثله في التّعظيم بل المراد صورته لترويج المقصود أو الكلام على حذف المضاف أي فبواهب عمري وعمرك.

المعنى

إعلم أنّ مقصوده عليه السلام بهذا الكلام الرّد على قول من قال إنّ متابعته لمحاربيه ومصانعتهم كان أولى من محاربتهم، فنبّه على فساد ذلك القول وبطلان هذا الزّعم وقال: (**لعمري ما علي من قتال من خالف الحقّ و**) جهاد من (**خابط الغى من**) مساهلة و (**ادهان ولا**) ضعف و (**إيهان**) إذ مقاتلة أهل التّمرد والضّلالة واجبة والمداهنة فيها معصية.

ولذلك إنّ الله سبحانه أوحى إلى شعيب النّبي إنّي معذّب من قومك مائة ألف أربعين ألفاً

---

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني: ١/١١٨، وعدة الداعي: ٢٨٥.

من شرارهم وستّين ألفاً من خيارهم، فقال: يا ربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله إليه داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا بغضبي.

(فاتقوا الله عباد الله) بالحذر عن معاصي الله **(وفرّوا من)** غضب **(الله إلى)** رحمة **(الله وامضوا في)** الطريق **(الذي نهجه لكم)** وشرعه في حقكم وهو جادة الشريعة التي يجب سلوكها لكلّ أحد **(وقوموا بما عصبه بكم)** وربطه عليكم وهي الأوامر الشرعية والتكاليف الإلهيّة وإذا قمتم بواجب ما أمرتم من هذه الأوامر (فعليّ) بن أبي طالب **(ضامن لفلجكم آجلاً)** في دار القرار بجنّات تجري من تحتها الأنهار **(إن لم تمنحوه عاجلاً)** في دار الدّنيا لعدم تمام استعدادكم له، وقَدْ يَتِمُ الفوز بالسّعادتين العاجليّة والآجليّة لمن وفت قوته بالقيام بهما وكمل استحقاقه لذلك في علم الله سبحانه ولما كان حصول السّعادة والفوز للدّرجات العالية من لوازم التّقوى ظاهر اللّزوم في علمه عليه السلام لا جرم كان ضامناً له وزعيماً به.

إشراق

في بيان معنى التّقوى لغة وشرعاً وما يترتّب عليه من الثّمرات الدّنيويّة والأخرويّة.

فنقول: التّقوى في اللّغة الاتقاء وهو اتّخاذ الوقاية، وفي العرف هي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته.

وقيل: هي بحسب العرف الشّرعي تعود إلى خشية الحق سبحانه المستلزمة للإعراض عن كل ما يوجب الالتفات عنه من متاع الدّنيا وزينتها وتنحية ما دون وجهة القصد.

وقال الصّادق عليه السلام في «**تفسيرها**»: أن لا يفقدك حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك[١].

وقال بعض العارفين: إنّ خيرات الدّنيا والآخرة جمعت تحت لفظة واحدة وهي التقوى انظر إلى ما في القرآن الكريم من ذكرها، فكم علّق عليها من خير ووعد لها من ثواب وأضاف إليها من سعادة دنيويّة وكرامة أخرويّة.

وفي «**عدّة الدّاعي**» هي العدّة الكافية في قطع الطريق إلى الجنّة بل هي الجنّة الواقية من متالف الدّنيا والآخرة، وهي الممدوحة بكلّ لسان والمشرفة لكلّ إنسان، وقد شحن بمدحها القرآن وكفاها شرفاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] ولو كان في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم بالقدر وأولى بالإيجال وأنجح للآمال من هذه الخصلة التي هي التّقوى؛ لكان الله أوصى بها عباده لمكان حكمته ورحمته، فلمّا أوصى بهذه الخصلة الواحدة جمع الأوّلين والآخرين واقتصر

(١) الإمام علي للهمداني: ٧٣٣، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/ ٣٣٢.

عليها علم أنّها الغاية التي لا يتجاوز عنها ولا مقتصر دونها، والقرآن مشحون بمدحها وعدّد في مدحها خصالاً:

الأوّل: المدحة والثناء﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

الثاني: الحفظ والتحصين من الأعداء﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الثالث: التأييد والنّصر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]

الرّابع: إصلاح العمل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

الخامس: غفران الذّنوب ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

السّادس: محبة الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

السّابع: قبول الأعمال ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

الثّامن: الإكرام ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠].

التّاسع: البشارة عند الموت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٣ - ٦٤].

العاشر: النّجاة عن النّار﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم: ٧٢].

الحادي عشر: الخلود في الجنّة﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

الثاني عشر: تيسير الحساب **﴿وما على الذين يتّقون من حسابهم من شيء﴾**.

الثّالث عشر: النجاة من الشّدائد والرّزق الحلال ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] فانظر ما جمعت هذه الخصلة الشّريفة من السّعادات فلا تنس نصيبك منها.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن حضرت است در اظهار ثبات قدم خود در محاربه جماعت طاغیه و ردّ قول کسی که قایل به مداهنه او است در محاربه و ترهیب مردمان از تمرّد و عصیان و ترغیب ایشان به طاعت خداوند عالمیان می فرماید:

قسم به زندگانی خود که نیست بر من از مقاتله مخالفین حق و شریعت و سالکین طریق ضلالت هیچ مدارا کردن و سستی نمودن، پس بترسید از خدای بندگان خدا و بگریزید به سوی رحمت خدا از غضب خدا و بروید در آن راهی که روشن ساخته است آن را از برای شما و قیام نمایید به آن چه باز بسته است آن را به شما و هرگاه این طور حرکت نمایید پس علی بن ابی طالب ضامن است بر رستگاری شما در آخرت اگر داده نشوید فیروزی و به مراد خود نرسید در دنیا.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخامسة والعشرون من المختار في باب الخطب

وهي من أواخر خطبة خطب بها بعد فراغه من صفّين وانقضاء أمر الحكمين والخوارج، وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد وقدم عليه عاملاه على اليمن وهما عبيد الله بن العبّاس وسعيد بن نمران لما غلب عليهما بسر بن أرطأة فقام عليه السلام إلى المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرّأي فقال عليه السلام:

«ما هِيَ إلاَّ الْكُوفَةُ أَقْبِضُها وَأَبْسُطُها إِنْ لَمْ تَكُوني إلاّ أَنْتِ تَهُبُّ أَعاصيرُكِ فَقَبَّحَكِ اللهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

لَعَمْرُ أَبيكَ الْخَيرِ يا عَمْرُو إِنَّني عَلى وَضَرٍ مِنْ ذَا الإِناءِ قَليل

ثُمَّ قالَ:

أُنبِئتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ عَلىَ الْيَمَنِ وإِنّي وَاللهِ لأَظُنُّ هؤُلآءِ الْقَوْمَ سَيُدالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِماعِهِمْ عَلى باطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وطاعَتِهِمْ إِمامَهُمْ في الْباطِلِ، وبِأَدائِهِمُ الأَمانَةَ إِلى صاحِبِهِمْ، وخِيانَتِكُمْ صاحِبَكُمْ، وبِصَلاحِهِمْ في بِلادِهِمْ، وفَسادِكُمْ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلى قُعْبٍ لَخَشيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاقَتِهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ ومَلُّوني، وَسَئِمْتُهُمْ وسَئِمُوني فَأَبْدِلْني بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وأَبْدِلْهُمْ بي شَرًّا مِنّي، اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَما يُماثُ الْمِلْحُ في الماءِ أَما وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لي بِكُمْ أَلْفَ فارِسٍ مِنْ بَني فِراسِ بْنِ غَنْمٍ»:

هُنالِكَ لَوْ دَعَوْتِ أَتاكِ مِنْهُمْ فَوارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَميمِ[1]

ثمّ نزل عليه السلام من المنبر.

قال السّيد: **(الأرمية)** جمع رمى وهو السّحاب، و**(الحميم)** في هذا الموضع وقت الصّيف وإنّما خصّ الشّاعر سحاب الصّيف بالذّكر لأنّه أشدّ جفولاً وأسرع خفوقاً، لأنّه لا ماء فيه، وذلك لا يكون في الأكثر إلاّ في الشّتاء وأراد الشاعر وصفهم بالسّرعة إذا دعوا والإغاثة إذا استغيثوا.

اللغة

(قبض) من باب ضرب و **(بسط)** من باب نصر و **(هبّت)** الرّيح من باب نصر وهاجت **(الأعاصير)** جمع إعصار وهي الرّيح المستديرة على نفسها قال تعالى: **﴿فأصابها إعصار فيه**

(١) في نسخة: الدسم.

نار﴾ و **(الوضر)** بقيّة الاسم[1] في الإناء ويستعار لكلّ بقيّة من شيء يقلّ الانتفاع بها و **(اطلع)** فلان علينا إذا ظهر و **(أدالنا)** الله من عدونا أي جعل الدّولة والغلبة لنا عليهم و **(القعب)** قدح من خشب مقعّر و **(علاقته)** ما يتعلّق به عليه و **(ماث)** زيد الملح في الماء إذا أذابه، وبنو فراس بن غنم بفتح **(الغين)** وسكون **(النّون)** حيّ معروف بالشّجاعة من بني كنانة وهم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة و **(الجفول)** في كلام الرّضي الإسراع و **(الخفوق)** الطيران.

الإعراب

كلمة **(ما)** نافية وهي مبتدأ وإلاّ الكوفة خبر، **(واقبضها)** خبر ثانٍ أو خبر لمبتدأ محذوف أي أنا أقبضها، والمرجع لكلمة **(هي)** هو المملكة نزل حضورها في ذهنه عليه السلام منزلة الذّكر السّابق أي ما مملكتي إلاّ الكوفة، ويحتمل أن يكون هي ضمير شأن والكوفة مبتدأ وأقبضها خبراً عنه ونظيره في إحتمال الضّمير للأمرين قوله: **(كلا إنّها لظى)**.

وقوله: إن لم تكوني إلاّ أنت كلمة **(أنت)** تأكيد للضمير المستتر وهو اسم تكون والخبر محذوف، وجملة تهب أعاصيرك في موضع الحال، وتقدير الكلام إن لم تكوني إلاّ أنت عدّة لي وجنّة اتقى بها العدو وحظًا من الملك والخلافة مع ما عليه حالك من المذام فقبحا لك، ويمكن أن يقدّم المستثنى منه حالاً أي إن لم تكوني على حال إلاّ أن تهب فيك الأعاصير دون أن يكون فيك من يستعان به على العدو فقبّحك الله، والخير بالجرّ صفة لأبيك، وقليل صفة لو ضر، والضمير المستتر في قوله: أن يذهب بعلاقته، راجع إلى الأحد، **(والباء)** للتّعدية أو إلى القعب **(والباء)** بمعنى مع **(والباء)** في قوله إن لي بكم للعوض.

المعنى

إعلم أنّه ينبغي لنا أن نذكر نسب معاوية عليه اللعنة والهاوية في هذا المقام أوّلاً، ثمّ نشير إلى إطلاع بسر على اليمن إجمالاً وما جرى من جوره وظلمه على شيعة أمير المؤمنين في اليمن وغيرها، ثمّ نرجع إلى شرح الخطبة فأقول:

قال العلامة الحلّي قدس سرّه في كشف الحق: روى أبو المنذر هشام بن محمّد السّائب الكلبي في كتاب المثالب كان معاوية لعمارة بن الوليد المخزومي، ولمسافر ابن أبي عمرو، ولأبي سفيان، ولرجل آخر سمّاه، وكانت هند أمّه من المعلمات وكان أحبّ الرّجال إليها السّودان، وكانت إذا ولدت أسود دفنته، وكانت حمامة إحدى جدات معاوية لها راية في ذي المجاز.

---

(١) البحار: ٤٢/١١٣، والدرجات الرفيعة: ١٥٩.

وذكر أبو سعيد إسماعيل بن علي السّمعاني الحنفي من علماء العامة في مثالب بني أميّة، والشّيخ أبو الفتوح جعفر بن محمّد الهمداني من علمائهم في كتاب البهجة المستفيد أنّ مسافر بن عمرو بن أميّة بن عبد شمس كان ذا جمال وسخاء، فعشق هنداً وجامعها سفاحاً واشتهر ذلك في قريش، فلما حملت وظهر السّفاح هرب مسافراً من أبيها إلى الحيرة، وكان فيها سلطان العرب عمرو بن هند، وطلب أبوها عتبة أبا سفيان ووعده بمال جزيل وزوّجه هنداً فوضعت بعد ثلاثة أشهر معاوية، ثمّ ورد أبو سفيان على عمرو بن هند فسأله مسافر عن حال هند فقال: إنّي تزوّجتها فمرض ومات.

وفي «البحار» من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمّد الثّقفي عن يوسف بن كليب المسعودي عن الحسن بن حماد الطائي عن عبد الصّمد البارقي قال: قدم عقيل على عليّ عليه السلام وهو جالس في صحن مسجد الكوفة فقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته قال: وعليك السّلام يا أبا يزيد ثمّ التفت إلى الحسن بن علي فقال: قم وانزل عمّك، فذهب به وأنزله وعاد إليه فقال عليه السلام له: اشتر له قميصاً جديداً ورداءً جديداً وإزاراً جديداً ونعلاً جديداً، فغدا على عليّ عليه السلام في الثّياب فقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين قال: وعليك السّلام يا أبا يزيد قال: يا أمير المؤمنين ما أراك أصبت من الدّنيا شيئاً إلا هذه وإنّي لا ترضى نفسي من خلافتك بما رضيت به لنفسك فقال: يا أبا يزيد يخرج عطائي فأدفعه إليك[1].

فارتحل عن عليّ إلى معاوية فلمّا سمع به معاوية نصب كراسيّه وأجلس جلسائه فورد عليه فأمر له بمائة ألف درهم فقبضها فقال له معاوية: أخبرني عن العسكرين فقال: مررت بعسكر عليّ بن أبي طالب فإذا ليل كليل النّبي ونهار كنهار النّبي إلاّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم، ومررت بعسكرك فاستقبلني قوم من المنافقين ممّن نفر برسول الله ليلة العقبة.

فقال: من هذا الذي عن يمينك يا معاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص قال: هذا الذي اختصم فيه ستّة نفر فغلب عليه جرارها.

فمن الآخر؟ قال: الضّحاك بن قيس الفهري قال: أما والله لقد كان أبوه جيّد الأخذ لعسب[2] التيوس خسيس النّفس.

فمن هذا الآخر؟ قال أبو موسى الأشعري قال: هذا ابن المراقة السّراقة.

فلمّا رأى معاوية أنّه قد أغضب جلسائه قال: يا أبا يزيد ما تقول فيّ؟ قال: دع عنك

---

(١) العسب: ضراب الفحل.

(٢) الغارات: ١/٦٥.

قال: لتقولنّ قال: أتعرف حمامة؟ قال: ومن حمامة؟ قال: أخبرتك، ومضى عقيل فأرسل معاوية إلى النّسابة فقال: أخبرني من حمامة؟ قال: أعطني الأمان على نفسي وأهلي فأعطاه قال: حمامة جدّتك وكانت بغيّة في الجاهلية لها راية تؤتى، قال الشّيخ: قال أبو بكر بن رنين: هي أمّ أمّ أبي سفيان[1].

وفي «**شرح المعتزلي**» معاوية هو أبو عبد الرّحمان معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمّه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو الذي قاد قريشاً في حروبها إلى النبي وكانت هند تذكر في مكّة بفجور وعهر.

وقال الزّمخشري في كتاب «**ربيع الأبرار**»: كان معاوية يعزى إلى أربعة: إلى مسافر بن أبي عمرو، وإلى عمارة بن الوليد بن المغيرة، وإلى العبّاس عبد المطلب، وإلى الصّباح مغنّ كان لعمارة بن الوليد[2].

قال: وقد كان أبو سفيان ذميماً قصيراً أو كان الصّباح عسيفاً[3] لأبي سفيان شابّاً وسيماً، فدعته هند إلى نفسها فغشيها وقالوا إنّ عتبة بن أبي سفيان من الصّباح أيضاً، وقالوا إنّها كرهت أن تضعه في منزلها فخرجت إلى أجياد فوضعته هناك، وفي هذا المعنى يقول حسّان بن ثابت أيّام المهاجاة بين المشركين والمسلمين في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله قبل عام الفتح:

لمن الصّبي بجانب البطحاء ... في التّرب ملقى غير ذي مهد
بخلت به بيضاء آنسة ... من عبد شمس صلته الخدّ

قال الشّارح: ولى معاوية اثنتي وأربعين سنة منها اثنتا وعشرون سنة، ولى فيها إمارة الشّام منذ مات أخوه يزيد بن أبي سفيان بعد خمس سنين من خلافة عمر إلى أن قتل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في سنة أربعين، ومنها عشرون سنة خليفة إلى أن مات في سنة ستين.

قال: وكان معاوية على أس الدّهر مبغضاً لعليّ عليه السلام شديد الانحراف عنه وكيف لا يبغضه وقد قتل أخاه يوم بدر وخاله الوليد بن عتبة وشرك في قتل جده وهو عتبة أو في عمّه وهو شيبة على اختلاف الرّواية، وقتل من بني عبد شمس نفراً كثيراً من أعيانهم وأماثلهم، ثمّ جاءت الطامّة الكبرى واقعة عثمان فنسبها كلها إليه بشبهة إمساكه عنه وانضواء كثير من قتله إليه عليه السلام فتأكدت البغضة وثارت الأحقاد وتذكرت تلك الترات الأولى حتّى أفضى الأمر إلى ما أفضى إليه.

قال: وقد كان معاوية مع عظم قدر علي عليه السلام في النّفوس واعتراف العرب بشجاعته وأنّه

---

(١) ربيع الأبرار: ٣/٥٤٨ باب القرابات والأنساب.
(٢) عسف فلاناً أي استخدمه.
(٣) بحار الأنوار: ٣٣/٢٠٢، وشرح نهج البلاغة: ١/٣٤٠.

البطل الذي لا يقام له يتهدّده وعثمان بعد حي بالحرب والمنابذة ويراسله من الشام رسائل خشنة.

ثمّ قال: ومعاوية مطعون في دينه عند شيوخنا يرمى بالزندقة، وقد ذكرنا في نقض السّفيانية على شيخنا أبي عثمان الجاحظ ما رواه أصحابنا في كتبهم الكلاميّة عنه من الالحاد والتّعرض لرسول الله وما تظاهر به من الجبر والإرجاء، ولو لم يكن شيء من ذلك لكان في محاربته الإمام عليه السلام ما يكفي في فساد حاله لا سيّما على قواعد أصحابنا وكونهم بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النّار والخلود فيها إن لم يكفرها التّوبة[١].

وأما بسر بن أرطاة وقيل ابن أبي أرطاة وكيفيّة خروجه وظهوره على البلاد فهو أنّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان يعظمون قتله لم يكن لهم نظام ولا رأس فبايعوا لعليّ عليه السلام على ما في أنفسهم وعامل عليّ على صنعاء يومئذٍ عبيد الله بن العبّاس ابن عبد المطلب وعامله على الجند سعيد بن نمران.

فلمّا اختلف النّاس على عليّ بالعراق وقتل محمّد بن أبي بكر بمصر وكثرت غارات أهل الشّام تكلموا ودعوا إلى الطلب بدم عثمان فبلغ ذلك عبيد الله بن عبّاس فأرسل إلى أناس من وجوههم فقال ما هذا الذي بلغني عنكم؟ قالوا: إنّا لم نزل ننكر قتل عثمان ونرى مجاهدة من سعى عليه فحبسهم فكتبوا إلى من في الجند من أصحابهم فثاروا بسعيد بن نمران فأخرجوه من الجند وأظهروا أمرهم وخرج إليهم من كان بصنعاء وانضمّ إليهم كلّ من كان على رأيهم ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم إرادة أن يمنعوا الصّدقة.

والتقى عبيد الله بن عبّاس وسعيد بن نمران ومعهما شيعة عليّ فقال ابن عبّاس لابن نمران: والله لقد اجتمع هؤلاء وإنّهم لنا لمقاربون وإن قاتلناهم لا نعلم على من تكون الدّبرة فهلم لنكتب إلى أمير المؤمنين نخبرهم فكتبا إليه عليه السلام يخبرانه الخبر، فلمّا دخل كتابهما ساء عليّاً عليه السلام وأغضبه فكتب إليهما كتاباً يوبخهما على سوء تدبيرهما في ترك قتال أهل اليمن، وكتب إلى أهل الجند وصنعاء كتاباً يهدّدهم فيه ويذكرهم الله سبحانه فأجابوه بأنّا سامعون مطيعون إن عزلت عنّا هذين الرّجلين عبيد الله وسعيداً، وقالوا: وكتبت تلك العصابة حين جاءها كتاب عليّ عليه السلام إلى معاوية يخبرونه وكتبوا في كتابهم:

معاوي إلاّ تشرع السير نحونا   نبايع عليّاً أو يزيد اليمانيا

فلمّا قدم كتابهم إلى معاوية دعا بسر بن أبي أرطاة وكان قاسي القلب فظاً سفّاكاً للدّماء، لا رأفة عنده ولا رحمة فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكّة حتّى ينتهي إلى اليمن وقال له: لا تنزل على بلد أهله على طاعة عليّ إلا بسطت عليهم لسانك حتّى يروا أنهم لا نجاة لهم وأنك محيط بهم، ثمّ اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي فمن أبى فاقتله واقتل شيعة علي

---

(١) الغارات للثقفي: ٢/٦٤٢، والغدير: ١١/٢٨.

حيث كانوا.

فتوجّه بسر نحو اليمن، ولمّا قرب المدينة كان عامل علي عليها أبو أيوب الأنصاري، فخرج عنها هارباً فدخل بسر المدينة فخطب النّاس وشتمهم وتهددهم، ثمّ شتم الأنصار وتهددهم حتّى خاف النّاس أن يوقع بهم ودعى النّاس إلى بيعة معاوية فبايعوه، ونزل فأحرق دوراً كثيرة وأقام بالمدينة أيّاماً، ثم قال لهم إنّي قد عفوت عنكم وإن لم تكونوا لذلك بأهل، وقد استخلفت عليكم أبا هريرة فإيّاكم وخلافه.

ثمّ خرج إلى مكّة وقتل في طريقه رجالاً وأخذ أموالاً وبلغ أهل مكة خبره فتنحى عنها عامة أهلها، وخافوا وهربوا فخرج ابنا عبيد الله بن العبّاس وهما سليمان وداود وأمّهما حورية، وتكنّى أمّ حكيم مع أهل مكة فأضلوهما عند بئر ميمون ابن الحضرمي وهجم عليهما بسر فأخذهما وذبحهما فقالت أمّهما:

هامن أحسّ بابني اللذين هما	كالدّرّتين تشظى عنهما الصّدف
هامن أحسّ بابني اللذين هما	سمعي وقلبي فقلبي اليوم مختطف
هامن أحسّ بابني اللذين هما	مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
نبئت بسرا وما صدقت ما زعموا	من قتلهم ومن الإفك الذي اقترفوا

الأبيات

ولمّا قرب بسر من مكة هرب قثم بن العبّاس وكان عامل عليّ، ودخلها بسر فشتم أهل مكة وأنّبهم، ثمّ خرج واستعمل عليها شيبة بن عثمان ودخل الطائف وبات بها، وخرج منها فأتى نجران فقتل عبد الله بن عبد المدان وابنه مالكاً، وكان عبد الله هذا صهراً لعبيد الله بن العبّاس، ثمّ جمعهم وقام فيهم وقال: يا أهل نجران يا معشر النّصارى وإخوان القرود أما والله إن بلغني عنكم ما أكره لأعودنّ عليكم بالتي تقطع النّسل وتهلك الحرث وتخرب الدّيار، وتهدّدهم طويلاً.

ثمّ سار حتّى أتى أرحب فقتل أبا كرب، وكان يتشيّع ويقال: إنّه سيّد من كان بالبادية من همدان فقدّمه فقتله، وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العبّاس وسعيد بن نمران، وقد استخلف عبيد الله عليها عمر بن أراكة الثقفي فمنع بسراً من دخولها وقاتله فقتله بسر ودخل صنعاء فقتل منها قوماً، وأتاه وفد مارب فقتلهم ولم ينج منهم إلاّ رجل واحد.

ثمّ خرج من صنعاء وأتى أهل حيان وهم شيعة لعلي فقاتلهم وقاتلوه فهزمهم وقتلهم قتلاً زريعاً، ثمّ رجع إلى صنعاء وقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس.

وروى أبي وداك قال: كنت عند عليّ عليه السلام لما قدم عليه سعيد بن نمران الكوفة فعتب

عليه السلام عليه وعلى عبيد الله أن لا يكونا قاتلا بسراً، فقال سعيد قد والله قاتلت ولكن ابن عبّاس خذلني وأبى أن يقاتل، ولقد خلوت به حين دنا منّا بسر فقلت: إنّ ابن عمّك لا يرضى منّي ومنك بدون الجدّ في قتالهم قال: لا والله ما لنا بهم طاقة ولا يدان فقمت في النّاس فحمدت الله ثمّ قلت: يا أهل اليمن من كان في طاعتنا وعلى بيعة أمير المؤمنين فإليّ إليّ، فأجابني منهم عصابة فاستقدمت بهم فقاتلت قتالاً ضعيفاً وتفرّق النّاس عنّي وانصرفت.

قال أبو مخنف فندب عليّ عليه السلام أصحابه لبعث سرية في أثر بسر فتثاقلوا فقام عليه السلام إلى المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرّأي فقال عليه السلام: **(ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها)** أي أتصرّف فيها كما يتصرّف الإنسان في ثوبه بقبضه وبسطه.

والكلام في معرض التحقير أي ما أصنع بتصرفي فيها مع حقارتها، ويحتمل أن يكون المراد عدم التّمكن التّامّ من التّصرّف فيها لنفاق أهلها كمن لا يقدر على لبس ثوب بل على قبضه وبسطه، أو المراد بالبسط بث أهلها للقتال عند طاعتهم وبالقبض الاقتصار على ضبطهم عند المخالفة.

قال الشّارح البحراني: أقبضها وأبسطها كنايتان عن وجوه التّصرّف فيها، أي إنّ الكوفة والتّصرّف فيها بوجوه التّصرّف حقير بالنّسبة إلى سائر البلاد التي عليها الخصم فما عسى أصنع بتصرّفي فيها وما الذي أبلغ به من دفع الخصم ومقاومته.

وهذا كما يقول الرّجل في تحقير ما في يده من المال القليل إذا رام به أمراً كثيراً: إنّما هو هذا الدّنيا فما عسى أبلغ به من الغرض.

ثمّ قال عليه السلام على طريق صرف الخطاب **(فإن لم تكوني إلاّ أنت)** عدو لا من الغيبة إلى الخطاب على حدّ قوله: إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، يعني إن لم تكن مملكتي من الدّنيا إلاّ أنت حال كونك **(تهب أعاصيرك)** وتنبعث منك الآراء المختلفة والفتن المضّله ويثور الشقاق والنّفاق **(فقبحك الله ثمّ تمثّل)** لأجل استصغاره أمرها (بقول الشّاعر:

لعمر أبيك الخير يا عمرو أنني على وضر من ذا الإناء قليل)

تشبيهاً للكوفة بالوضر الباقي في الإناء في حقارتها بالنسبة إلى ما استولى عليها خصمه من الدّنيا كحقارة الوضر بالنّسبة إلى ما يشتمل عليه الإناء من الطعام، فاستعار لفظ الإناء للدّنيا ولفظ الوضر القليل للكوفة يعني إنّي على بقيّة من هذا الأمر كالوضر القليل في الإناء.

(ثمّ) شرع في استنفارهم إلى الجهاد فـ **(قال: أنبئت بسرا قد اطلع على اليمن وظهر على أهلها وإنّي والله لأظنّ هؤلاء القوم)** المنافقين القاسطين **(سيدالون منكم)** ويغلبون عليكم (بـ) الأسباب التي توجب دولتهم وغلبتهم عليكم وهو **(اجتماعهم على باطلهم)** وهو التّصرّف الغير الحقّ في البلاد **(وتفرّقكم عن حقّكم)** وهو التّصرّف المستحق بإذن وليّ الأمر

(وبمعصيتكم إمامكم في الحقّ وطاعتهم إمامهم في الباطل) في أوامره الباطلة وأحكامه الضّالة **(وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم)** حيث لزموا بعهده ووفوا ببيعته **(وخيانتكم صاحبكم)** حيث تركتم مؤازرته في القتال ونقضتم عهده وغدرتم له **(وبصلاحهم في بلادهم)** حيث راقبوا انتظام أمورهم **(وفسادكم)**.

والسّر في جميع ذلك ما قاله الجاحظ من أنّ أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة ومع الفطنة والنّظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون القدح والطّعن والتّرجيح بين الرّجال والتّمييز بين الرّؤساء وإظهار عيوب الأمراء وأهل الشّام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد لا يرون النّظر ولا يسألون عن مغيب الأحوال وهذه هي العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشّام لهم.

ثمّ بالغ عليه السلام في ذمّهم بالخيانة على سبيل الكناية وقال: **(فلو ائتمنت أحدكم على قعب خشب لخشيت أن يذهب)** ذلك القعب **(بعلاقته)**.

ثمّ شكى إلى الله سبحانه منهم بقوله: **(اللهمّ إنّي قد مللتهم)** لكثرة ما تكرّر منّي الأمر لهم بالجهاد والذّب عن دين الله المنافي لطبائعهم والمنافر عنه قلوبهم المشغولة بالدّنيا وزخارفها والبقاء فيها **(وملوني)** لأني دعوتهم إلى الله سبحانه وإلى تحصيل مرضاته ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعوتي إلاّ فراراً **(وسئمتهم وسئموني)**.

ثمّ أردف تلك الشّكاية بالتضرّع إلى الله في الخلاص منهم، ثمّ بالدّعاء عليهم بقوله: **(فأبدلني بهم خيراً منهم)** كلمة الخير هنا بمنزلتها في قوله سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥] على سبيل التّنزل أو التحكم؛ أو أريد بها المعنى الوصفي بدون تفضيل ولعلّ المراد بذلك قوم صالحون ينصرونه ويوفقون لطاعته، أو ما بعد الموت من مرافقة النّبي وآله وغيره من الأنبياء والصدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً، وتمنيه لفوارس فراس بن غنم ربما يؤيّد الأوّل.

وأمّا قوله: **(وأبدلهم بي شرّاً منّي)** فربّما استشكل صدور مثل هذا الدّعاء عنه عليه السلام من وجهين:

أحدهما: أنّه يقتضي أن يكون هو ذا شرّ وقد ثبت أنّه كان منزّهاً عن الشرور.

الثّاني: أنّه كيف يجوز أن يدعو بوجود الشرور ووجود الأشرار.

وأجيب عن الأوّل بوجهين **أحدهما**: أنّ صيغة أفعل لم يرد بها التّفضيل وإنّما أريد بها أصل الوصف فالمعنى أبدلهم بمن فيه شرّ غيري، **الثّاني**: أن يكون شرّاً منّي بحسب عقائد أهل الكوفة إن في شرّاً عليهم واعتقادهم أنّه ذو شرّ لا يوجب كونه كذلك.

وعن الثّاني بوجهين أيضاً **أحدهما**: أنّ دعائه عليه السلام بما يبدلهم بمن هو شرّ منه مشتملة على مصلحة مقتضية لحسنه وهو أنّ هذا الدّعاء ربما يكون مخوفاً لهم جاذباً لأكثرهم إلى الله سبحانه مع ما فيه مضافاً إلى ما ذكر من أنّ نزول الأَمر المدعوّ به عليهم بعده ممّا ينبّههم على فضله ويذكرهم أنّ ابتلائهم بذلك إنّما هو لتركهم أوامر الله وخروجهم عن طاعته وطاعة وليّه، **الثاني**: لعلّه إنّما دعى عليهم لعلمه أنّه لا يرجى صلاحهم فيما خلقوا لأجله ومن لا يرجى صلاحه بل يكون وجوده سبباً لفساد النّظام فعدمه أولى فيكون الدّعاء عليهم مندوباً إليه.

وعلى ذلك يحمل أيضاً دعاؤه بقوله: **(اللّهمّ مث قلوبهم)** بتوارد الهمّ والغمّ والخوف عليهم **(كما يماث الملح في الماء)** وذلك الدّعاء تأسّ منه عليه السلام بالسّابقين من الأَنبياء في الشّكاية من قومهم إلى الله والدّعاء عليهم كنوح عليه السلام إذ قال **﴿ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً﴾** ثمّ ختم بالدّعاء على من لم يرج صلاحهم بقوله: **﴿ربّ لا تذر على الأَرض من الكافرين ديّاراً﴾**.

روى إنّ اليوم الذي دعا عليهم فيه بهذا الدعاء ولد فيه الحجّاج بن يوسف، وروى أنّه ولد بعد ذلك اليوم بأوقات يسيرة وفعله بأهل الكوفة مشهور حتّى قيل لو جاءت كلّ أمّة بخبيثها وفاسقها وفاجرها وجئنا بالحجّاج وحده لزدنا عليهم.

وعن **«مروج الذّهب»** للمسعودي أنّ أمّ الحجّاج ولدته لا دبر له فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثّدي.

وفي الحديث أن إبليس تصوّر لهم بصورة الحارث بن كلدة فقال: اذبحوا له تيساً والعقوه من دمه وأطلوا به وجهه وبدنه ففعلوا به ذلك فقبل الثدي فلأَجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدّماء وكان يخبر عن نفسه أنّ أكبر لذّاته في سفك الدّماء وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره.

وأحصى من قتل بأمره سوى من قتل في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة ولم يجب على أحد منهم قتل ولا قطع وكان يحبس الرّجال والنّساء في موضع واحد لا سقف له، فإذا أوى المسجونون إلى الجدران يستظلون بها من حرّ الشّمس رمتهم الحرّس بالحجارة، وكان طعامهم خبز الشّعير مخلوطاً بالملح والرماد.

ومن أعجب ما روى أنّه وجد على منبره مكتوباً **﴿قل تمتّع بكفرك قليلاً إنّك من أصحاب النّار﴾** فكتب تحته **﴿قل موتوا بغيظكم إنّ الله عليم بذات الصّدور﴾** [آل عمران: ١١٩].

ثمّ قال عليه السلام **(أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم)** وهو حيّ معروف بالشّجاعة حسبما أشير إليه وتمثّل بقول أبي جندب الهذلي.

(هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل ارمية الحميم)

والخطاب لامّ زيناغ وضمير منهم راجع إلى بني تميم بقرينة الذي قبله وقوله:

ألا يا أم زيناغ أقيمي صدور العيسى نحو بني تميم

ومعنى البيت واضح ممّا ذكره السّيد ومقصوده عليه السلام بالتّمثل تمنّى كون القوم الذين ودّ كونهم عوضاً عن قومه بصفة الفوارس الذين أشار إليهم الشّاعر في سرعة الإجابة والمبادرة إلى الإغاثة، ومقصوده في جميع ذلك توبيخ أهل الكوفة وتحقيرهم بتثاقلهم عن الجهاد.

قال الكلبي وأبو مخنف: ولمّا تثاقل أصحابه عن الخروج في أثر بسر بن أرطأة فاجابه إلى ذلك جارية بن قدامة السّعدي فبعثه في ألفين فشخص إلى البصرة، ثمّ أخذ طريق الحجاز حتّى قدم اليمن وسأل عن بسر فقيل: أخذ في بلاد بني تميم فقال: أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم.

وبلغ بسراً مسير جارية فانحدر إلى اليمامة وأخذ جارية بن قدامة السير ما يلتفت إلى مدينة مرّ بها فلا أهل حصن ولا يعرج على شيء إلاّ أن يرمل بعض أصحابه من الزّاد، فيأمر أصحابه بمواساته أو يسقط بعير رجل أو تحفى دابته فيأمر أصحابه بأن يعقبوه حتّى انتهوا إلى أرض اليمن فهربت شيعة عثمان حتّى لحقوا بالجبال وأتبعهم شيعة علي وتداغت عليهم من كلّ جانب وأصابوا منهم وصمد نحو بسر وبسر بين يديه يفرّ من جهة إلى جهة أخرى حتّى أخرجه من أعمال علي عليه السلام كلّها.

فلمّا فعل به ذلك أقام جارية بحرس نحوا من شهر حتّى استراح وأراح أصحابه ووثب النّاس ببسر في طريقه لمّا انصرف من بين يدي جارية لسوء سيرته وفظاظته وظلمه وغشمه، وأصاب بنو تميم ثقلاً من نقله في بلاده.

فلمّا وصل بسر معاوية قال: أحمد الله يا أمير المؤمنين إنّي سرت في هذا الجيش أقتل عدوّك ذاهباً جائياً لم ينكب رجل منهم نكبة فقال معاوية: الله قد فعل ذلك لا أنت وكان الذي قتل بسر في وجهه ذلك ثلاثين ألفاً وحرق قوماً بالنّار.

روي أنّه دعا عليّ عليه السلام على بسر فقال: اللهمّ إنّ بسراً باع دينه بالدّنيا وانتهك محارمك وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده من عندك، اللهم فلا تمته حتّى تسلبه عقله ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار، اللهم العن بسراً وعمراً ومعاوية وليحلّ عليهم غضبك ولتنزل بهم نقمتك وليصبهم بأسك وزجرك لا تردّه عن القوم المجرمين[1].

---

(١) بحار الأنوار: ١٨/ ٢٢٦، وشجرة طوبى: ٢/ ٢٢٤.

فلم يلبث بسر بعد ذلك إلاّ يسيراً حتّى وسوس وذهب عقله فكان يهذي بالسّيف ويقول: أعطوني سيفاً أقتل به لا يزال يردّد ذلك حتّى اتّخذ له سيف من خشب وكانوا يدنون منه المرفقة فلا يزال يضربها حتّى يغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات عليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است که فرمود در حالتی که به تواتر رسید خبرها به غالب شدن اصحاب معاویه علیه اللعنة بر شهرها و آمدند به سوی آن حضرت عاملان او که حاکم بودند بر یمن، عبدالله بن عبّاس و سعید بن نمران وقتی که غالب شده بود بر ایشان بسر بن أبی أرطاة ولدالزّنا، پس برخاست آن حضرت به طرف منبر در حالتی که تنگ دل بود به جهت گرانی اصحاب خود از جهاد و به جهت مخالفت کردن ایشان با او در رأی، پس فرمود:

نیست مملکت من مگر کوفه در حالتی که قبض می کنم آن را و بسط می کنم آن را؛ یعنی همین کوفه است که محل تصرف من است به حل و عقد و امر و نهی و اعتماد نمودن بر مردمان آن در حرب و ضرب نه سایر بلاد، اگر نباشی ای کوفه مگر تو که باشی سپر دشمن و ساز لشگر من در حالتی که وزد گردبادهای تو، پس قبیح گرداند خدای تعالی تو را.

پس آن حضرت به جهت تحقیر کوفه متمثّل شد به قول شاعر که معنیش این است: قسم به زندگانی پدر تو که بهتر مردمان است ای عمرو به تحقیق که من واقع شده ام بر چربی اندکی که باقی مانده است از این ظرف طعام؛ یعنی کوفه در نظر من در غایت حقارت است مانند چربی که می ماند بعد از اکل در ظرف. بعد از آن فرمودند که:

خبر داده شدم که بسر بن أبی أرطاة رسیده به دیار یمن و به درستی من قسم به خدا هرآینه گمان می کنم آن قوم را که زود باشد که دولت و تسلط داده شوند از قبل شما به سبب اتّفاق ایشان بر باطل خود و تفرق شما از حق خود و به جهت

معصیت شما امام خود را در امر حق و اطاعت ایشان امام خود را در امر باطل و به سبب ادا کردن ایشان امانت و عهد را به صاحب خودشان و خیانت کردن شما در امانت و به جهت صلاح ایشان در شهرهای خود در جمیع امور ملکی و فساد شما در بلاد خودتان، پس اگر امین گردانم یکی از شما را بر قدح چوبین هرآینه می ترسم که ببرد آن را با دوال و دسته اش.

بارخدایا به درستی که من تنگدل شده ام از ایشان و تنگدل شده اند ایشان از من و سیر شده ام من از ایشان و سیر شده اند ایشان از من، پس بدل کن برای من ایشان را به بهتر از ایشان و عوض کن برای ایشان مرا به کسی که متّصف به صفت شرارت بوده باشد. خداوندا بگداز بترس و عذاب قلب های ایشان را چنان چه گداخته می شود نمك در آب. آگاه باشید به خدا سوگند هرآینه دوست می دارم این که باشد مرا به عوض شما هزار سوار از فرزندان فراس بن غنم آن جا اگر بخوانی و آواز دهی آیند به سوی تو از ایشان سوارانی مثل ابرهای تابستان با سرعت و استیلا.

ومن خطبة له عليه السلام وهي السادسة والعشرون من المختار في باب الخطب

وهي ملتقطة من خطبة طويلة خطب بها قبل مسيره إلى النّهروان حسبما تطلع عليه وشرحها في ضمن فصول ثلاثة.

الفصل الأول

«إِنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَذيراً لِلعالَمِينَ، وأَميناً عَلى التَّنْزِيلِ، وأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلى شَرِّ دينٍ وفي شَرِّ دارٍ، مُنيخُونَ بَينَ حِجارَةٍ خُشْنٍ وحَيّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وتَأْكُلُون الْجَشِبَ، وتَسْفكُونَ دِماءَكُمْ، وتَقْطَعُونَ أَرْحامَكُمْ، الأَصْنامُ فيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالآثامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ»[(١)].

اللغة

(أناخ) النّاقة أبركها و (الصّم) بالضّم إمّا جمع صماء وهي الأَرض الغليظة أو جمع أصمّ وهي الحيّة التي لا تقبل الرّقى، والرّجل الأصم لا يطمع فيه، ولا يرد عن هواه، وأصمّه الله فهو أصمّ أي به انسداد السّمع وثقل الأذن و (كدر) كدراً وتكدّر نقيض صفا فهو كدر وكدر كفخذ وفخذ بكسر العين وسكونها و (جشب) الطعام فهو جشب وجشب أي غليظ أو بلا أدم و (المعصوبة) المشدودة.

الإعراب

(وأنتم معشر العرب) ا ه جملة حالية، (منيخون) خبر بعد خبر، (وحيّات صمّ) إن كان الصّم جمع صماء فالحيّات مضافة إليها، وإن كان جمع أصم فهي صفة لها، وجملة (تشربون وتاليها) حالية أيضاً.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة وارد في بيان حال العرب في أيّام الجاهليّة وما كانوا عليه يومئذٍ من الضّنك والضّيق، ومن سوء الحال في أمر المعاش والمعاد وتذكرة بما منّ الله سبحانه به عليهم من بعث الرّسول فيهم وتبديله سبحانه بوجوده الشّريف سوء حالهم بحسن الحال في الدنيا والآخرة حيث جعلوا ذا رفاهيّة وسعة ونعمة، وفتحوا البلاد وغنموا الأَموال

(١) في نسخة: أبرال.

وكسروا الجيوش وفاقوا الملوك، وكان لهم الذكر الباقي والشّرف الثّابت واهتدوا إلى دين الإسلام الذي هو طريق دار السلام، فاكتسبوا السّعادة الباقية وفازوا المقامات العالية.

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى شرح كلامه عليه السلام فأقول: قوله: **(إنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين)**.

خصّ النّذارة بالذّكر واختارها على البشارة إذ المقصود في هذا المقام التّوبيخ للعرب وترقيق قلوبهم المشتملة على الغلظة والفظاظة، ولا ريب أنّ الإنذار أقوى في التّرقيق والرّدع، وذلك لأنّ عامّة الخلق إلاّ قليلاً منهم أنظارهم مقصورة على زخارف الدّنيا وشهواتها غافلون عن نعم الآخرة ولذّاتها، فلا يرغبون عن النّعم الحاضرة بما يبشّرون بها من النّعم الغائبة، ولا يقابلون اللّذائذ الموجودة بلذائذ الموعودة، لكون هذه عندهم نقداً وتلك نسيئة وكان السّبب الأقوى في الرّدع والالتفاف إلى الله إنّما هو الإنذار والتّخويف، فاختار كونه نذيراً على كونه بشيراً.

(و) أردفه بكونه **(أميناً على التّنزيل)** غير خائن ولا مقصّر في تبليغ آياته ولا مبدّل لكلماته **(وأنتم معشر العرب على شرّ دين)** حيث عبدتم الأصنام والأوثان واتّخذتم لله الأنداد والشّركاء **(وفي شرّ دار)** أراد بها تهامة أو نجد أو البوادي التي كانوا يسكنونها، ثمّ فتح الله عليهم البلاد.

ووصفها بالشّر من حيث فساد أمر معاشهم فيها كما فسّره بقوله: **(منيخون)** أي مقيمون **(بين حجارة خشن)** صلت لا نداوة فيها ولا نبات **(وحيات صمّ)** لأنّ أرض العرب على غلظتها وخشونتها ذات حيّات كثيرة، وعلى التّركيب الوصفي فالمراد بها الحيّات التي لا تقبل العوذة ولا تنزجر بالصّوت لشدّة قوّتها.

قال البحراني: ووصفها بالصمّ لأنّ حيّات تلك الأرض على غاية من القوّة وحدّة السّموم لاستيلاء الحرارة واليبس عليها.

وقال الشّارح المعتزلي: ويجوز أن يعني به المجاز وهو الأحسن يقال للأعداء حيّات، والحيّة الصّماء أدهى من التي ليست بصماء لأنّها لا تنزجر بالصّوت ويقال للعدو أيضاً إنّه لحجر خشن المسّ إذا كان ألدّ الخصام **(تشربون الكدر)** لأنّ غالب مياه العرب هو الغدران والآبار.

أمّا الغدران فأصلها ماء المطر ينزل على الأودية السّبخة والقفار الملحة فيسيل حتّى يقع في تلك الغدران فيكون مرّاً ملحاً إجاجاً، ثمّ يتكدّر ويتعفن من طول الزّمان ووقوع الشّمس عليها وتأثره بها.

وأمّا الآبار فمضافاً إلى وقوع ماء المطر الموصوف فيها، ربّما تنزل العشائر حولها

وينيخون أباعرهم هنالك فتثور الرّياح البار[1] الأبَاعر وأرواثها وسائر كثافات القوم بعد ارتحالهم من ذلك المكان حتّى تقع على تلك الآبار فيكون مياهها كثيفاً كدراً.

وربما أمسكنا عن شرب الماء وصبرنا على العطش يوماً أو يومين في مسافرتنا إلى مكّة زادها الله شرفاً لما شاهدناه من كثافة تلك المياه بما يتنفّر عنه الطبع مع كون سفرنا في أيّام الشّتاء، وربّما كنّا نشرب عوض الماء السّكنجبين وسائر الأشربة التي كانت معنا (**وتأكلون الجشب**) فإنّك تجد عامتهم يأكل ما ذبّ من حيوان، وبعضهم يخلط الشّعير بنوى التّمر ويطحنها ويتّخذ منها خبزاً.

قيل: كانت العرب لم تعرف طيّبات الأطعمة إنّما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتّى أدرك معاوية فاتّخذ ألوان الأطعمة.

قال أبو بردة: كانوا يقولون: من أكل الخبز سمن، فلمّا فتحنا خيبراً جهضناهم عن خبزهم فقعدت عليه آكل وأنظر في أعطافي هل سمنت؟.

وقال خالد بن عمير العددي: شهدت فتح الأملة فأصبنا سفينة مملوّة جوزاً فقال رجل، ما هذه الحجارة؟ ثمّ كسر واحدة فقال: طعام طيب.

وقال بعضهم: أصابوا جرباً من الكافور فخالوها الملح فذاقوه فقالوا لا ملوحة لهذا الملح ففطن ناس من أهل الخبرة فجعلوا يعطونهم جراباً من ملح ويأخذون جراباً من الكافور.

وقدم إلى أعرابيّ خبز عليه لحم فأكل اللحم وترك الخبز وقال: خذ الطبق وكان بنو أسد يأكلون الكلاب ولذلك قال الفرزدق:

إذا أسدي جاع يوماً ببلدة وكان سميناً كلبه فهو آكله

وقال بعضهم: نزلت برجل فأضافني فأتى بحيّة مشوية شوّاها فأطعمنيها ثمّ أتى بماء منتن فسقانيه، فلمّا أردت الارتحال قال: ألا قمت لطعام طيب وماء نمير؟

وكان أحدهم يتناول الشّعر المحلوق فيجعله في جفنة من الدّقيق ثمّ يأكله مع ما فيه من القمل قال شاعرهم:

بني أسد جاءت بكم قملية بها باطن من داء سوء وظاهره

ومن طعامهم الفظ وهو ماء الكرش.

وقيل لأعرابي: ما تأكلون؟ فقال: نأكل ما دبّ ودرج إلا أمّ جبين فقال: لتهنّ أم جبين

---

(١) في نسخة: الإناء.

العافية وقال أبو نواس:

ولا تأخذ عن الأعراب طعماً ولا عيشاً فعيشهم جديب

وكان روبة يأكل الفار فقيل: لم لا تستقذره؟ فقال: هو والله لا يأكل إلاّ فاخرات متاعنا.

وبنو تميم يعيرون بأكل الضب قال أبو نواس في هجوهم:

إذا ما تميمي أتاك مفاخراً فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب

قال الأصمعي دنوت من بعض الأَخبية في البادية فسقيت لبناً في إناء، فلمّا شربته قلت هل كان هذا إلاّ إناء[1] نظيفاً؟ فقيل: نعم نأكل منه في النّهار ونبول فيه باللّيالي، فإذا أصبحنا سقينا فيه الكلب فلحسه ونقاه، فقلت: لعنك الله ولعن هذه النظافة **(وتسفكون دمائكم وتقطعون أرحامكم)** فإنّ القتل والغارة كان شعار العرب في أيام الجاهليّة حتّى أنّ الوالد ربّما كان يقتل ولده وبالعكس قال سبحانه: ﴿**وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت**﴾ [التكوير: ٩].

قال ابن عبّاس: المرأة إذا حان وقت ولادتها حفرت حفرة وقعدت على رأسها، فإن ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلاماً حبسته **(الأَصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة)** استعار لفظ العصب للزوم الآثام لهم في تلك الحال.

(١) بحار الأنوار: ٣١١/٢٨ ح ٥٠، وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٢.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است در بیان حال عرب در ایام جاهلیت می فرماید:

به درستی که خداوند سبحانه و تعالی مبعوث فرمود محمد بن عبدالله را در حالتی که ترساننده بود عالمیان را از بدی افعال ایشان و امین بود بر آن چه نازل می شد بر او می رسانید آن را بدون زیاده و نقصان و حال آن که شما جماعت عرب بر بدترین دین بودید و در بدترین خانه ها مقیم بودید، در میان سنگ های درشت و مارهای با شدت و صلابت در حالتی که می آشامیدید آب های ناصاف را و می خوردید طعام غلیظ و بی ادام را و می ریختید خون های یکدیگر را و قطع می کردید خویشان خودتان را، بتان در میان شما نصب کرده شده بودند و گناهان برشما بسته گردیده.

الفصل الثاني منها

«فَنَظَرْتُ فَإذا لَيْسَ لي مُعينٌ إلاّ أَهْلُ بَيْتي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلى الْقَذى، وشَرِبْتُ عَلىَ الشَّجى، وصَبَرْتُ عَلى أَخْذِ الْكَظَمِ، وعَلى أَمَرٍّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ».

اللغة

(ضننت) بكسر النّون ويروى بالفتح أيضاً من الضّنة وهو البخل و (اغضيت) على كذا أطبقت عليه جفني و (القذى) ما يقع في العين من تبن ونحوه يوجب أذيتها و (الشجى) ما اعترض في الحلق من نشب وعظم، وقد مرّ هذان اللفظان في الخطبة الشّقشقيّة و (أخذ بكظمه) محرّكة وهو مجرى نفسه و (العلقم) شجر بالغ المرارة ويقال في العرب على كلّ مر.

الإعراب

كلمة (إذا) في قوله: فإذا لي معين، للظرف، والتّنوين عوض عن الجملة المضاف إليها أي فنظرت فإذ غصبوني حقّي ليس لي معين، وكلمة (على) في الموارد الأربعة إمّا للاستعلاء المجازي أو بمعنى (مع) على حدّ قوله: «وإنّ ربّك لذو مغفرة للنّاس على ظلمهم» (وأمرّ) صفة لموصوف محذوف.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه حكاية لحاله الذي كان هو عليه بعد ارتحال الرّسول صلى الله عليه وآله وما جرى عليه من الظلم والجور في اغتصاب الحقّ الذي كان له عليه السلام.

فكأنّه يقول: إنّهم بعد غصبهم للخلافة تفكّرت في أمر المقاومة والدّفاع عن هذا الأمر الذي كنت أولى به (فنظرت فإذا ليس لي معين) يعينني (إلاّ أهل بيتي) وهم كانوا قليلين غير مقاومين للمخالفين (فضننت بهم عن الموت) لعلمي بأنّهم لو قاتلوا لقتلوا (و) لمّا علمت عدم حصول المقصود بهؤلاء النّفر (أغضيت) وأطبقت جفوني (على القذى وشربت على الشجى) وكنّى الأغضاء والشّرب على القذى والشّجى عن تحمله على الأمور التي يصعب التّحمل عليها لصعوبتها وشدّتها وألمها وأذيّتها كما يشهد به قوله: (وصبرت على أخذ الكظم وعلى) أمور (أمرّ من طعم العلقم) لشدّة مرارتها من حيث إنّ فيها الألم النّفساني وفي العلقم الألم البدني.

واعلم أنّ هذا الكلام منه صريح في اغتصاب الخلافة ونصّ على أنّ تركه مطالبتها لم يكن من رغبة واختيار، وإنّما كان جبراً واضطراراً، وقد أشرنا إلى ذلك في مقدّمات الخطبة الشّقشقيّة وذكرنا ثمة أخبار السّقيفة الدّالة على انتحال الخلافة من طرق الخاصّة، والمقصود الآن ذكر بعض الأخبار العاميّة الصّريحة في ذلك ممّا رواها الشّارح المعتزلي عن رواتهم، لأنّه أثبت حجّة وأقوى استناداً فأقول:

قال الشّارح: اختلفت الرّوايات في قصّة السّقيفة فالذي تقول الشّيعة وقد قال قوم من المحدّثين بعضه وورود كثير منه أنّ عليّاً عليه السلام امتنع من البيعة حتّى أخرج كرهاً، وأنّ الزّبير بن العوام امتنع من البيعة وقال: لا أبايع إلاّ عليّاً، وكذلك أبو سفيان بن حرب وخالد بن سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس وعباس بن عبد المطلب وبنوه وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وجميع بني هاشم.

وقالوا: إنّ الزّبير شهر سيفه فلمّا جاء عمر ومعه جماعة من الأنصار وغيرهم قال في جملة ما قال: خذوا سيف هذا فاضربوا به الحجر ويقال: إنه أخذ السّيف من يد الزّبير فضرب به حجراً فكسره وساقهم كلهم بين يديه إلى أبي بكر فحملهم على بيعته ولم يتخلف إلاّ عليّ وحده، فإنه اعتصم ببيت فاطمة فتحاملوا إخراجه منه قسراً وقامت فاطمة عليها السلام إلى باب البيت فأسمعت من جاء يطلبه فتفرّقوا وعلموا أنّه بمفرده لا يضرّ شيئاً فتركوه.

وقيل: إنهم أخرجوه فيمن أخرج وحمل إلى أبي بكر فبايعه، وقد روى أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري كثيراً من هذا.

فأمّا حديث التّحريق وما جرى مجراه من الأمور الفظيعة وقول من قال: إنهم أخذوا عليّاً يقاد بعمامته والنّاس حوله فأمر بعيد، والشيعة منفردة به على أنّ جماعة من أهل الحديث قد رووا نحوه وسنذكر ذلك.

وقال أبو جعفر عليه السلام: إنّ الأنصار لمّا فاتها ما فاتها ما طلبت من الخلافة قالت أو قال بعضها لا نبايع إلاّ عليّاً، وذكر نحو هذا عليّ بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي في تاريخه[1].

فأمّا قوله: لم يكن لي معين إلاّ أهل بيتي فضننت بهم عن الموت، فقول ما زال عليه السلام يقوله، ولقد قاله عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لو وجدت أربعين ذوي عزم»! ذكر ذلك نصر بن مزاحم في كتاب صفّين، وذكره كثير من أرباب السّيرة.

وأمّا الذي يقوله جمهور المحدّثين وأعيانهم فإنّه امتنع من البيعة ستّة أشهر ولزم بيته فلم يبايع حتّى ماتت فاطمة، فلمّا ماتت بايع طوعاً.

وفي «صحيحي مسلم» و «بخاري» كانت وجوه النّاس إليه وفاطمة عليها السلام لما تمت[2] بعد فلمّا ماتت فاطمة عليها السلام انصرفت وجوه النّاس عنه وخرج من بيته فبايع أبا بكر وكانت مدّة بقائها بعد أبيها عليه الصّلاة والسّلام ستّة أشهر.

---

(١) الطرائف: ٢٣٨ ح ٣٤١، وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٨.
(٢) في نسخة: ماتت.
(٣) كتاب الأربعين للشيرازي: ١٦٧، ومعالم المدرستين: ١/ ١٣٠.

قال: وروى أحمد بن عبد العزيز قال: لمّا بويع لأبي بكر كان الزّبير والمقداد يختلفان في جماعة من النّاس إلى علي عليه السلام وهو في بيت فاطمة فيتشاورون ويتراجعون أمورهم، فخرج عمر حتى دخل على فاطمة عليها السّلام وقال: يا بنت رسول الله ما من أحد من الخلق أحبّ إلينا من أبيك، وما من أحد أحبّ إلينا منك بعد أبيك، وأيم الله ما ذاك بما نعي أن اجتمع هؤلاء النّفر عندك أن أمر بتحريق البيت عليهم، فلمّا خرج عمر جاؤوها فقالت: تعلمون أنّ عمر جاءني وحلف لي بالله إن عدتم ليحرقن عليكم البيت، وأيم الله ليمضين لما حلف له فانصرفوا عنّا راشدين فلم يرجعوا إلى بيتها وذهبوا وبايعوا لأبي بكر.

قال: ومن كتاب معاوية المشهور إلى عليّ عليه السلام: وعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلاً على حمار ويداك في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر فلم تدع أحداً من أهل بدر والسّوابق إلاّ دعوتهم إلى نفسك ومشيت إليهم بامرأتك وأوليت إليهم بابنيك واستنصرتهم على صاحب رسول الله فلم يجبك منهم إلاّ أربعة أو خمسة، ولعمري لو كنت محقاً لأجابوك، ولكنّك ادّعيت باطلاً وقلت ما لا يعرف ورمت ما لا يدرك، ومهما نسيت فلا أنسى قولك لأبي سفيان لمّا حرّكك وهيّجك: لو وجدت أربعين ذوي عزم لناهضت القوم فما يوم المسلمين منك بواحد[1].

وروى أيضاً من كتاب أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن حباب بن يزيد عن جرير بن المغيرة أن سلمان والزّبير والأنصار كان هواهم أن يبايعوا عليّاً بعد النّبي، فلمّا بويع أبو بكر قال سلمان: أصبتم الحيرة وأخطأتم المعدن.

وعن حبيب بن أبي ثابت قال: قال سلمان يومئذٍ: أصبتم ذا ألسن منكم وخالفتم أهل بيت نبيّكم لو جعلوها فيهم ما اختلف عليكم اثنان ولأكلتموها رغداً.

وروى أيضاً عن غسان بن عبد الحميد قال: لمّا أكثر في تخلّف علي عليه السلام عن بيعة أبي بكر واشتدّ عمر وأبو بكر عليه في ذلك خرجت أمّ مسطح بن أثاثة فوقفت عند القبر وقالت:

كانت أمور وأنباء وأنبثة[2] لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغب

ومن كتاب الجوهري أيضاً عن أبي الأسود قال: غضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر بغير مشورة، وغضب عليّ والزّبير فدخلا بيت فاطمة معهما السّلاح فجاء عمر في عصابة منهم أسيد بن حصين وسلمة بن سلامة بن وقش وهما من بني عبد الأشهل فصاحت

(١) في نسخة: هنبثة.
(٢) في نسخة: فبدر.

فاطمة وناشدتهم فأخذوا سيفي علي والزّبير فضربوا بهما الجدار حتّى كسروهما، ثمّ أخرجهما عمر يسوقهما حتّى بايعا، ثمّ قام أبو بكر فخطب النّاس واعتذر إليهم وقال: إنّ بيعتي كانت فلتة وقى الله شرّها وخشيت الفتنة وأيم الله ما حرصت يوماً قط، ولقد قلدت أمراً عظيماً ما لي به طاقة ولا يدان ولوددت أنّ أقوى النّاس عليه مكاني، وجعل يعتذر إليهم فقبل المهاجرون عذره، إلى آخر ما رواه.

وقد روي بإسناد آخر ذكره أنّ ثابت بن قيس بن شماس كان مع الجماعة الذين حضروا مع عمر في بيت فاطمة عليها السّلام، وثابت هذا أخو بني الحرث ابن الخزرج.

وروى أيضاً أنّ محمّد بن مسلمة كان معهم وأنّ محمّداً هو الذي كسر سيف الزّبير وعن سلمة بن عبد الرّحمٰن قال: لمّا جلس أبو بكر على المنبر كان عليّ والزّبير.

وناس من بني هاشم في بيت فاطمة، فجاء عمر إليهم فقال: والذي نفسي بيده لتخرجنّ إلى البيت أو لتحرقنّ البيت عليكم، فخرج الزّبير مصلتاً سيفه فاعتنقه رجل من الأنصار وزياد بن لبيد فدقّ به فبدو[1] السّيف فصاح به أبو بكر وهو على المنبر: اضرب به الحجر قال أبو عمرو: فلقد رأيت الحجر فيه تلك الضّربة ويقال هذه ضربة سيف الزّبير، ثمّ قال أبو بكر: دعوهم فسيأتي الله بهم قال: فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه.

وقد روى الجوهري في رواية أخرى أنّ سعد بن أبي وقاص كان معهم في بيت فاطمة عليها السّلام والمقداد بن الأسود أيضاً، وأنّهم اجتمعوا إلى أن يبايعوا عليّاً فأتاهم عمر ليحرق عليهم البيت، فخرج إليه الزّبير بالسّيف وخرجت فاطمة تبكي وتصيح فنهنهت من الناس وقالوا ليس عندنا معصية ولا خلاف في خير اجتمع عليه النّاس، وإنّما اجتمعنا لنؤلّف القرآن في مصحف واحد، ثمّ بايعوا أبا بكر فاستمرّ الأمر واطمئن النّاس.

وقد روى الجوهري أيضاً عن داود بن المبارك قال: أتانا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ونحن راجعون من الحج في جماعة فسألناه عن مسائل وكنت أحد من سأل فسألته عن أبي بكر وعمر فقال: أجيبك بما أجاب به عبد الله بن الحسن فإنّه سئل عنهما فقال: كانت فاطمة صديقة ابنة نبيّ مرسل فماتت وهي غضباء على قوم فنحن غضاب لغضبها[2].

وروى أيضاً بإسناده عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السّلام عن ابن عبّاس قال: قال لي عمر: أمّا والله أن كان صاحبك أولى النّاس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلا أنّا خفناه على

(١) السقيفة وفدك للجوهري: ٥٤.

(٢) المصدر السابق.

اثنتين، قلت: ما هما؟ قال: خشيناه على حداثة سنّه وحبّه بني عبد المطّلب[1].

وعن الشعبي قال: سأل أبو بكر وقال أين الزّبير؟ فقيل: عند عليّ ﷺ وقد تقلّد سيفه فقال: قم يا عمر يا خالد بن الوليد انطلقا حتّى تأتياني بهما فانطلقا فدخل عمر وقام خالد على باب البيت من خارج فقال عمر للزّبير: ما هذا السّيف؟ فقال: نبايع عليّاً، فاخترطه عمر فضرب به حجراً فكسره، ثمّ أخذ بيد الزّبير فأقامه ثمّ دفعه وقال: يا خالد دونكه فأمسكه، ثمّ قال لعليّ: قم فبايع لأبي بكر فتلكأ واحتبس فأخذ بيده وقال: قم فأبى أن يقوم فحمله ودفعه كما دفع الزّبير فأخرجه ورأت فاطمة ما صنع بهما فقامت على باب الحجرة وقالت: يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله، والله لا أتكلم عمر حتّى ألقى الله، إلى آخر ما رواه[2].

ثم قال الشارح: وأعلم أنّ الآثار والأخبار في هذا الباب كثيرة ومن تأمّلها وأنصف علم أنّه لم يكن هناك نصّ صريح مقطوع به لا تختلجه الشكوك ولا تتطرّق إليه الاحتمالات كما تزعم الإماميّة، فإنّهم يقولون: إنّ الرّسول نصّ نصاً صريحاً جليّاً ليس بنصّ الغدير ولا خبر المنزلة ولا ما شابههما من الأخبار الواردة من طرق العامّة وغيرها، بل نصّ عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين وأمر المسلمين أن يسلّموا عليه بذلك فسلموا عليه بها، وصرّح لهم في كثير من المقامات بأنه خليفة عليهم من بعده وأمرهم بالسّمع والطاعة له.

ولا ريب أنّ المنصف إذا سمع ما جرى لهم بعد وفاة رسول الله يعلم قطعاً أنه لم يكن هذا النصّ، ولكن قد يسبق إلى النّفوس والعقول أنه قد كان هناك تعريض وتلويح وكناية وقول غير صريح وحكم غير مبثوت، ولعلّه كان يصدّه عن التّصريح بذلك أمر يعلمه ومصلحة يراعيها ووقوف مع إذن الله تعالى في ذلك.

فأمّا امتناع علي عليه السلام من البيعة حتّى أخرج على الوجه الذي أخرج عليه فقد ذكره المحدّثون ورواة السّير، وقد ذكرنا ما قاله الجوهري في هذا الباب وهو من رجال الحديث ومن الثقات المأمونين، وقد ذكر غيره من هذا النّحو ما لا يحصى كثرة.

فأمّا الأمور الشنيعة المستهجنة التي يذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة وأنّه ضربها بالسّوط فصار في عضدها كالدملج وبقي أثره إلى أن ماتت، وأن عمر ضغطها بين الباب والجدار فصاحت يا ابتاه يا رسول الله وألقت جنيناً ميتاً، وجعل في عنق علي حبل يقاد به وهو يعتل، وفاطمة خلفه تصرخ بالويل والثبور، وابناه حسن وحسين معهما يبكيان، وأنّ

---

(١) السقيفة وفدك للجوهري: ٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢/ ٦٠، وراجع البحار: ٢٨/ ٣٢١ ح ٥١ ـ ٥٢.

عليّاً لمّا أحضر سألوه البيعة فامتنع فهدد بالقتل فقال: إذاً تقتلون عبداً لله وأخا رسول الله فقالوا: أمّا عبد الله فنعم، وأمّا أخو رسول الله فلا، وأنّه طعن في أوجههم بالنّفاق وسطر صحيفة الغدر التي اجتمعوا عليها، وبأنّهم أرادوا أن ينفروا ناقة رسول الله ليلة العقبة، فكلّه لا أصل له عند أصحابنا ولا يثبته أحد منهم ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه، وإنّما هو شيء تنفرد الشّيعة بنقله، انتهى[1].

أقول: والعجب كلّ العجب من الشارح كيف ينكر وجود النّص الصّريح الذي لا يحتمل التّأويل مع وجود النّصوص التي رواها هو وغيره من رسول الله في حقّ أمير المؤمنين بأنّه الإمام والخليفة والوصي والولي وما شابهها من الألفاظ الصّريحة في الخلافة، وقد مضت شطر منها في مقدّمات الخطبة الشقشقيّة ويأتي كثير منها في مواقعها بعد ذلك إن شاء الله.

وأمّا عدم إفادتها للقطع عند من استحوذ عليه الشّيطان وأنساه ذكر ربّه، وكان قلبه مشوباً بالشّبهات والشّكوك فلا غرو فيه:

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصّبح مسفر

وأعجب من ذلك أنّه مع روايته لتلك الأخبار وتصحيحه لها وحكمه بوثاقة رواتها يقول: إنّ أمير المؤمنين ترك الأمر إليهم اختياراً وطوعاً، مع أنّ هذه الأخبار كما ترى صريحة في أنّ خروجه من بيته وبيعته لأبي الفصيل لم يكن إلاّ كرهاً وإجباراً وترك المقاومة لهم لم يكن إلاّ عجزاً لا اختياراً.

ثمّ لا أدري أنّه كيف ينكر حديث التّحريق ويزعم أنّه ممّا انفردت به الشّيعة مع رواية الجوهري له وكونه من الثّقات المأمونين عنده.

وقد رواه غير واحد من رواتهم أيضاً مطابقاً لما روته الشّيعة منهم إبراهيم بن سعيد الثقفي قال: حدثنا أحمد بن عمر والبجلي قال: حدّثنا أحمد بن حبيب العاملي عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام قال: والله ما بايع عليّ عليه السلام حتّى رأى الدّخان قد دخل عليه بيته[2]، رواه المرتضى في «الشّافي».

وفيه أيضاً عن البلادري عن مسلمة بن محارب عن سليمان التّميمي عن أبي عون أن أبا بكر أرسل إلى عليّ فلم يبايع فجاء عمر ومعه قبس فَتَلَقَّاهُ فاطمة على الباب فقال: يا ابن الخطاب أتراك محرقاً؟ قال: نعم وذلك أقوى فيما جاء به أبوك وجاء عليّ عليه السلام فبايع.

قال السّيد (ره) عقيب هذا الحديث: وهذا الخبر قد روته الشّيعة من طرق كثيرة وإنّما

---

(١) الغارات: ١/ ٣١٧، والبحار: ٣٣/ ٥٥.

(٢) تهديد بيت فاطمة بنت محمد (عليها السلام) بالإحراق

الطريق أن يرويه شيوخ محدّثي العامّة لكنّهم كانوا يروون ما سمعوا بالسّلامة، وربّما تنبهوا على ما يروونه عليهم فكفّوا عنه، وأيّ اختيار لمن يحرق عليه بابه حتى يبايع[1].

---

* قال المسعودي في مروج الذهب: وكان عروة بن الزبير يعذر أخاه عبد الله في حصر بني هاشم في الشعب وجمعه الحطب ليحرقهم، ويقول: انما أراد بذلك ان لا تنتشر الكلمة ولا يختلف المسلمون، وأن يدخلوا في الطاعة فتكون الكلمة واحدة. كما فعل عمر بن الخطاب ببني هاشم لما تأخروا عن بيعة أبي بكر فانه أحضر الحطب ليحرّق عليهم الدار» (شرح النهج لابن أبي الحديد: ٤/ ٤٩٥ ذيل شرح الحكمة: ٤٦١. ط. دار الكتب العربية بمصر ١٣٢٩، و٢٠/ ١٤٧ من الطبعة الاولى سنة ١٣٧٨/ ١٩٦١ للحلبي بمصر بتحقيق محمد أبو الفضل، وذكر بالهامش: مروج الذهب: ٣/ ٨٦ مما يشعر بأنه وقف على نسخة الكتاب غير المحرفة). هذا في شرح النهج.

* أما في مروج الذهب المطبوع والمحرف فقال المسعودي: «وحدث النوفلي في كتابه في الاخبار عن ابن عائشة عن أبيه عن حماد بن سلمة قال: كان عروة بن الزبير يعذر أخاه إذا جرى ذكر بني هاشم وحصره اياهم في الشعب وجمعه الحطب لتحريقهم ويقول انما أراد بذلك ارهابهم ليدخلوا في طاعته، كما أرهب بنو هاشم وجمع لهم الحطب لاحراقهم اذ هم أبوا البيعة فيما سلف، وهذا الخبر لا يحتمل ذكره هنا وقد أتينا على ذكره في كتابنا في مناقب أهل البيت وأخبارهم المترجم بكتاب حدائق الاذهان» أنتهى (مروج الذهب: ٢/ ٧٢. تحت عنوان: (ذكر أيام معاوية بن يزيد... وعبد الله بن الزبير). من الطبعة الاولى بالمطبعة الازهرية المصرية سنة ١٣٠٣ هـ، و٣/ ٧٧ ط. المصورة في ايران. دار الهجر ١٤٠٤ هـ و٢/ ١٠٠ ط. مصر ١٣٤٦ هـ). فحذف اسم عمر منها.

* وقال أبو بكر الجوهري في كتابه السقيفة: عن سلمة بن عبد الرحمن قال: «لما جلس أبو بكر على المنبر كان علي والزبير وناسٌ من بني هاشم في بيت فاطمة فجاء عمر اليهم فقال: والذي نفسي بيده لتخرجنّ الى البيعة أو لأحرقنّ البيت عليكم»!.

وفي رواية سعد بن أبي وقاص: كان معهم المقداد أيضاً، ولكن فيه: «وخرجت فاطمة(عليها السلام) تبكي وتصيح» (شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/ ١٣٤ ـ ١٣٠ شرح الخطبة ٢٦ من طبعة دار الكتب العربية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ، و٢/ ٥٦ ـ ٤٥. من طبعة الحلبي الاولى بمصر ١٩٦١ م ـ ١٣٧٨ هـ بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الموافقة للمصورة في ايران).

* وقال الطبري: عن زياد بن كليب قال: أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ الى البيعة»(تاريخ الطبري: ٣/ ١٩٨ ـ ٢٠٠ أوائل حوادث سنة ١١ من الطبعة الحسينية الاولى بمصر سنة ١٣٢٦، و٢/ ٤٤٣ من طبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ، الموافقة للمصورة بايران).

* وقال توفيق أبو علم: بعد ذكر رواية الطبري: وفي رواية أخرى أنه عمر قال لعلي ان لم تبايع أبا بكر لاحرقن دارك. قال علي: أوتحرقها وفيها بنت رسول الله !!

قال: أحرقها وفيها بنت رسول الله !، واستشهد بأبيات شاعر النيل حافظ ابراهيم» (أهل البيت: ٢٣٨ موقف الامام بعد وفاة الرسول).

* ونقل المدائني عن ابن عون: ان أبا بكر أرسل الى علي يريد البيعة فلم يبايع، فجاء عمر ومعه فتيلة فتلقته فاطمة على الباب فقالت: يا ابن الخطاب أتراك محرّقاً عليّ بابي؟

قال: نعم وذلك أقوى فيما جاء به أبوك» (أنساب الاشراف: ١/ ٥٨٦ ح ١١٨٤ حديث الشورى، ط. دار المعارف ـ القاهرة الطبعة الثالثة).

....

* وقال اليعقوبي (وبعض المؤرخين): «وبلغ ابا بكر وعمر ان جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي بن أبي طالب في منزل فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأتوا في جماعة حتى هجموا الدار، فخرج علي ومعه السيف، فلقيه عمر فصارعه عمر فصرعه وكسر سيفه، ودخلوا الدار، فخرجت فاطمة فقالت: والله لتخرجنّ او لأكشفن شعري ولأعجنّ الى الله!

فخرجوا (تاريخ اليعقوبي: ٢/١٢٦ ذيل خبر السقيفة، وبيعة أبي بكر، وأهل البيت لتوفيق أبو علم: ٢٣٨ وقال: ذكرها اليعقوبي وغيره من المؤرخين). * وقال في الملل والنحل عن ابراهيم النظام: ان عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت الجنين من بطنها، وكان يصيح أحرقوا دارها بمن فيها وما كان في الدار غير علي وفاطمة والحسنين (الملل والنحل: ٨٣ باب ١ فصل ١ - ذكر المعتزلة - فرقة النظامية - من ط - مصر، وج ١/٧٣ ط - مصر الاولى ١٣١٧، و٥٧ من ط - دار الفكر - بيروت).

* وأخرج الحموي بسنده الى ابن عباس: وأما ابنتي فاطمة فانها سيدة نساء العالمين من الاولين والاخرين، وهي بضعة مني، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الانسية، واني لما رأيتها ذكرت ما يُصنع بها بعدي، كأني وقد دخل الذل بيتها وانتهكت حرمتها وغصب حقها ومنعت ارثها وكسر جنبها واسقطت جنينها وهي تنادي يا محمداه فلا تجاب وتستغيث فلا تغاث... اللهم ألعن من ظلمها، وعاقب من غصبها، وذلل من أذلها، وخلد في النار من ضرب جنبها حتى القت ولدها، فتقول الملائكة عند ذلك آمين (فرائد السمطين: ٢/٣٥ الباب السابع ح ٣٧١).

* وقال ابن قتيبة: ان ابا بكر تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه فبعث عمر فجاء فناداهم في دار علي فأبوا ان يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: الذي نفس عمر بيده لتخرجن او لأحرقنها على من فيها. قيل له: يا ابا حفص ان فيها فاطمة (عليها السلام)؟فقال: وإن!!. فوقفت فاطمة رضي الله عنها على بابها فقالت: «لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين أيدينا وقطعتم امركم بينكم، لم تستأمرونا ولم تردوا لنا حقاً».

فانصرفوا. ثم قام عمر فمشى معه جماعة حتى اتوا باب فاطمة فدقوا الباب فلما سمعت اصواتهم نادت بأعلى صوتها: «يا ابت يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة». ثم قال: فقال عمر لابي بكر: انطلق بنا الى فاطمة فانا اغضبناها، فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلماه فادخلهما عليها، فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام. فقالت: «أرأيتكما ان حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به؟» قالا: نعم. فقالت: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد احبني ومن أرضى فاطمة فقد ارضاني ومن اسخط فاطمة فقد اسخطني». قالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ. قالت: فاني اشهد الله وملائكته انكما اسخطماني وما ارضيتماني ولئن لقيت النبي لاشكونكما اليه. فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه تزهق. وهي تقول: «والله لأدعون الله عليك في كل صلاة اصليها» (الامامة والسياسة: ١/١٣ تحت عنوان: «كيف كانت بيعة علي» من طبعة الفتوح: الادبية بمصر سنة ١٣٤٤، وج ١/١٨ - ١٩ من طبعة الحلبي بالقاهرة بتحقيق الدكتور طه الزيني سنة ١٣٧٨ هـ، و١/٣٠ من الطبعة المصورة في ايران عن طبعة مصر بتحقيق علي شيري. ، وكتاب سليم: ٢٥٤، وبحار الأنوار: ٤٣/٢٠٤، وعلل الشرائع: ١/١٨٦ باب ١٢٩).

* وروى الجوهري بعض هذا الكلام في خطبة فاطمة في مجلس أبي بكر اختصره ابن أبي الحديد، جاء

فيه: «والله لا كلمتك أبدا ! والله لأدعون الله عليك» (شرح النهج: ١٦/ ٢١٤ كتاب ٤٥ كتابه الى عثمان بن الاحنف).

* وقال محمد الحفناوي في كتابه (أبو سفيان): وأشهر الروايات في تخلف علي وبني هاشم، وأكثرها ذيوعاً ما أورده ابن قتيبة في الامامة والسياسة، وذكر الخبر بطوله» (أبو سفيان لمحمد الحفناوي: ١٦٩ الطبعة الاولى. دار الزيني بمصر سنة ١٣٧٨/ ١٩٥٩).

* وقال ابن عبد البر الاندلسي: الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر: علي والعباس والزبير وسعد بن عبادة، فأما علي والعباس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث اليهم عمرَ بن الخطاب ليخرجوا من بيت فاطمة، وقال له: «ان أبوا فقاتلهم».

فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: «يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا!؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الامة ! (العقد الفريد: ٤ ٢٥٩ ـ ٢٦٠ كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء تحت عنوان: «الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر» من طبعة القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٢ م، و٢/ ٢٥٠ ط، مصر ١٢٩٣ هـ، و٤/ ٢٤٧ ط، دار احياء التراث العربي ببيروت).

* وقال حافظ ابراهيم: تحت عنوان: «عمر وعلي»

وقـولـة لـعـلـي قـالـهـا عـمـر ... أكرم بـمـلـقـيـهـا أعـظـم بـمـلـقـيـهـا
حـرقـت دارك لا أبـقـى عـلـيـك بـهـا ... إن لـم تـبـايـع وبـنـت الـمـصـطـفى فيها
مـا كـان غـيـر أبـي حـفـص يـفـوه بـهـا ... أمـام فـارس عـدنـان وحـامـيـهـا
فـاذكـرهـمـا وتـرحـم كـلـمـا ذكـروا ... أعـاظـمـاً ألـهـوا فـي الـكـون تـألـيـهـا

قال المحقق في هامش الديوان: يشير بهذه الابيات الى امتناع علي عن البيعة لابي بكر يوم السقيفة وتهديد عمر اياه باحراق بيته إذا استمر على امتناعه وكان فيه زوجة علي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (ديوان حافظ ابراهيم: ١/ ٦٣ طبعة صادر الاولى ببيروت ١٤٠٩ هـ، ونقل الابيات توفيق أبو علم مع تغاير بسيط أشرت له. أهل البيت لتوفيق: ٢٣٨ موقف الامام بعد وفاة الرسول).

(١) في نسخة: المبايع.

الترجمة

بعضی دیگر از فقرات این خطبه است که بیان می فرماید در او حال خود را بعد از ارتحال حضرت رسول (ﷺ) و شکایت می نماید از اهل جلافت که غصب خلافت کردند و می گوید که:

چون اهل عناد حق مرا غصب نمودند، پس نظر کردم من در تدبیر امور خود، پس آن زمان که غصب خلافت کردند نبود مرا یاری دهنده مگر اهل بیت خود که معدود قلیلی بود نسبت به مخالفین، پس بخل ورزیدم به ایشان از مرگ؛ یعنی ایشان را از معارك مهالك نگاه داشتم و بپوشانیدم چشم خود را بر چیزی که اذیت می کشید از او دیده من و آشامیدم زهر آب ستم مخالفان را در حینی که بودم گلوگیر از غصّه و غم و صبر کردم بر خشم فروخوردن بر چیزی که تلخ تر بود از چشیدن درخت علقم با وجود آن که درختی است در غایت تلخی و مرارت.

الفصل الثالث منها

«وَلَمْ يُبايِعْ حَتّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلا ظَفَرَتْ يَدُ الْبايِعِ[١] وخَزِيَتْ أَمانَةُ الْمُبْتاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أَهْبَتَها، وأَعِدُّوا لَها عُدَّتَها، فَقَدْ شُبَّ لَظاها، وعَلا سَناها، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ، فَإِنَّهُ أَدْعى لِلنَّصْرِ»[٢].

اللغة

(خزيت) من الخزى وهو الذّل والإهانة و **(الأهبة)** كالمعدة بضمّ **(الفاء)** فيهما ما يعد للحرب من السّلاح والآلات و **(شبّ لظاها)** بالبناء على الفاعل أي ارتفع لهبها، أو بالبناء على المفعول أي أوقدت نارها و **(السّناء)** الضوء **(أدى للنّصر)** وفي بعض النّسخ أحزم للنصر من حزمت الشّيء إذا شدّدته كأنّه يشد النّصر.

الإعراب

فاعل يبايع عائد إلى عمرو بن العاص، وجملة فلا ظفرت دعائية لا محلّ لها من الإعراب، وإسناده إلى الأمانة من باب التّوسع، والحرب مؤنّث سماعيّ ولذلك أعيد الضّمائر الخمسة بعدها إليها مؤنّثة.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه بيان لحال عمرو بن العاص مع معاوية (و) يقول إنّ عمروا **(لم يبايع)** لمعاوية **(حتّى شرط أن يؤتيه)** معاوية **(على البيعة)** مصر طعمة و **(ثمناً فلا ظفرت)** ولا فازت **(يد البائع)** وهو عمرو في بيعته بالثّمن أو بما يأمله **(وخزيت أمانة المبتاع)** وهو معاوية.

وقال الشّارح المعتزلي: البائع معاوية والمبتاع هو عمرو، ولعلّه نظر إلى أنّ معاوية باع مصر له ببيعته ولكنّه خلاف ظاهر الكلام حيث إنّه عليه السلام جعل البيعة مثمناً فتكون مصر ثمناً، فالأظهر ما ذكرناه.

ثمّ أمر عليه السلام بتهيئة أسباب الجهاد مع القاسطين بقوله: **(فخذوا للحرب أهبتها)** أي سلاحها **(وأعدوا لها عدّتها فقد شبّ لظاها)** ولهبها **(وعلاسناها)** وضوؤها، استعار لفظ اللظا والسّنا عن أمارات الحرب لكون كلّ منهما علامة لما فيه مظنّة الهلاك، ثمّ أمر بالصبّر في

---

(١) البحار: ٢٨/ ٢٧٠، والكنى والألقاب: ١/ ٣٨٧.

(٢) في نسخة: فتسويا.

الحرب بقوله: **(واستشعروا الصّبر)** أي اجعلوه شعاراً لكم كالثوب الملازم للجسد **(فإنّه)** أي الصّبر **(أدعى للنّصر)** ومن أقوى أسبابه.

واعلم أنّ كيفيّة تلك المبايعة على ما رواه المحدّث العلاّمة المجلسي والشّارح المعتزلي جميعاً من كتاب الصّفّين لنصر بن مزاحم مع إسقاط الزّوائد منّا هو أنه عليه السلام حين قدم الكوفة بعد فراغه من قتال النّاكثين كتب إلى معاوية كتاباً على ما يأتي ذكره في الكتاب في باب المختار من كتبه إن شاء الله يدعوه فيه إلى البيعة، وأرسل جرير بن عبد الله البجلي رسولاً إليه مع كتابه فقدم عليه به الشّام فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كلّ مذهب وطاول جريراً بالجواب عن الكتاب حسبما تطلع على تفصيله في شرح كلامه الثّالث والأربعين في باب المختار من الكتب.

حتّى كلّم قوماً من أهل الشّام في الطّلب بدم عثمان فأجابوه وبايعوه على ذلك، وأوثقوا له على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم أو يدركوا ثاره أو يفنى الله أرواحهم.

فلمّا أمسى معاوية اغتم بما هو فيه واستحثه جرير بالبيعة فقال: يا جرير إنّها ليست بخلسة وإنّه أمر له ما بعده فأبلغني ريقي حتّى أنظر، ودعا ثقاته فقال له أخوه عتبة بن أبي سفيان: استعن بعمرو بن العاص فإنّه من قد علمت في دهائه ورأيه وقد اعتزل أمر عثمان في حياته وهو لأمرك أشدّ اعتزالاً إلاّ أن يثمن له دينه فسيبيعك فإنّه صاحب دنيا.

فكتب معاوية إلى عمرو: أمّا بعد فإنّه قد كان من أمر عليّ وطلحة والزّبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة عليّ، وقد حبست نفسي عليك حتّى تأتيني فأقبل أذاكرك أموراً لا تعدم معتبها إن شاء الله.

فلمّا قدم الكتاب على عمر واستشار ابنيه عبد الله ومحمّداً فقال: ما تريان؟ فقال عبد الله: أرى أنّ نبيّ الله قبض وهو عنك راض والخليفتان من بعده، وقتل عثمان وأنت عنه غائب فقر في منزلك فلست مجعولاً خليفة ولا تريد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشكتما إن تهلكا فتستويا[1] في عقابها.

وقال محمّد: أرى أنّك شيخ قريش وصاحب أمرها وأن تصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل تصاغر أمرك فالحق بجماعة أهل الشّام، وكن يداً من أيديها واطلب بدم عثمان فإنّه سيقوم بذلك بنو أميّة.

فقال عمر: وأمّا أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأمّا أنت يا محمّد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وأنا ناظر فيه، فلمّا جنّه اللّيل رفع صوته ينشد أبياتاً في ذلك

(١) في نسخة: شهرت.

رددها فقال عبد الله: ترحل الشيخ.

ودعى غلاماً له يقال له وردان، وكان داهياً مارداً فقال: ارحل يا وردان ثمّ قال: احطط يا وردان ثمّ قال: ارحل يا وردان احطط يا وردان فقال له: وردان خلطت أبا عبد الله، أمّا أنك إن شئت أنبأتك بما في نفسك قال: هات ويحك قال: إعتركت الدّنيا والآخرة على قلبك فقلت: عليّ معه الآخرة في غير الدّنيا وفي الآخرة عوض من الدّنيا، ومعاوية معه الدّنيا بغير آخرة وليس في الدّنيا عوض من الآخرة، فأنت واقف بينهما قال: فإنّك والله ما أخطأت فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتك فإن ظهر أهل الدّين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدّنيا لم يستغنوا عنك قال الآن لما شهدت[1] العرب مسيري إلى معاوية.

فارتحل وصار حتّى قدم على معاوية وعرف حاجة معاوية إليه فباعده من نفسه وكايد كلّ واحد منهما صاحبه فقال له معاوية يوم دخل عليه: أبا عبد الله طرقتنا في ليلتنا هذا ثلاثة أخبار ليس فيها ورد ولا صدر قال: وما ذاك؟ قال: منها أنّ محمّد بن أبي حذيفة كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه وهو من آفات هذا الدّين، ومنها أنّ قيصر زحف بجماعة الرّوم ليغلب على الشّام، ومنها أنّ عليّاً نزل الكوفة متهيّئاً للمسير إلينا.

فقال عمرو: كلّ ما ذكرت عظيماً أمّا أمر ابن أبي حذيفة فما يعظمك من رجل خرج في أشباهه أن تبعث إليه رجلاً يقتله أو يأتيك به، وإن قاتل لم يضرّك، وأمّا قيصر فأهد له الوصائف وآنية الذّهب والفضّة وسله الموادعة فإنّه إليها سريع، وأمّا عليّ فلا والله يا معاوية ما يسوي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء وأنّ له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش وأنّه لصاحب ما هو فيه إلاّ أن تظلمه.

قال نصر وروى عمر بن سعد بإسناده قال: قال معاوية لعمرو: يا أبا عبد الله إنّي أدعوك إلى جهاد هذا الرّجل الذي عصى ربّه وشق عصا المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرّحم، قال عمرو: من هو؟ قال: عليّ قال عمرو: والله يا معاوية ما أنت وعليّ حملي بعير ما لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا فقهه ولا علمه، ووالله إنّ له مع ذلك جدّاً وجدوداً وخطأ وخطوة وبلاء من الله حسناً، فما تجعل لي على أن شاتعتك على ما تريد قال: حكمك قال: مصر طعمة.

قال: فتلكأ[2] عليه معاوية قال له: أبا عبد الله أما تعلم أنّ مصر مثل العراق قال: بلى ولكنّها إنّما تكون لي إذا كانت لك، وإنّما تكون لك إذا غلبت عليّاً على العراق.

---

(١) تلكأ أي ماطل في الجواب.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/٣٧٦.

قال: فدخل عليه عتبة بن أبي سفيان فقال: أما ترضى أن تشتري عمرواً بمصر إن هي صفت لك ليتك لا تغلب على الشّام فقال معاوية: يا عتبة بت عندنا اللّيلة، قال: فلمّا جنّ الليل على عتبة رفع صوته يسمع معاوية بأبيات يحثه فيها على إرضاء عمرو، فلمّا سمع معاوية ذلك أرسل إلى عمرو وأعطاها إيّاه، فقال عمرو: ولى الله عليك بذلك شاهد قال له معاوية: نعم لك الله عليّ بذلك إن فتح الله علينا الكوفة فقال عمرو: والله على ما نقول وكيل فخرج عمرو من عنده فقال له ابناه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر طعمة قالا: وما مصر في ملك، قال: لا أشبع الله بطونكما إن لم يشبعكما مصر.

قال: وكتب له معاوية بمصر كتاباً وكتب على أن لا ينقض شرط طاعته فكتب عمرو أن لا ينقض طاعته شرطاً وكائد كلّ منهما صاحبه.

قال: وكان مع عمرو ابن عمّ له فتى شابّ، وكان داهياً، فلمّا جاء عمرو بالكتاب مسروراً عجب الفتى وقال: لا تخبرني يا عمرو بأيّ رأي تعيش في قريش أعطيت دينك ومنيت دنيا غيرك، أترى أهل مصر وهم قتلة عثمان يدفعونها إلى معاوية وعليّ حي؟ وأتراها إن صارت لمعاوية لا يأخذها بالحرف الذي قدّمه في الكتاب؟

فقال عمرو: يا ابن أخي إنّ الأمر لله دون عليّ ومعاوية، وأنشد الفتى في ذلك شعراً فقال له عمرو: يا ابن عم لو كنت مع عليّ وسعني بيتي ولكنّي مع معاوية، فقال له الفتى: إنّك إن لم ترد معاوية لم تردك ولكنك تريد دنياه ويريد دينك.

وبلغ معاوية قول الفتى فطلبه فهرب ولحق بعلي فحدثه بأمر عمرو ومعاوية، قال: فسرّ ذلك عليّاً وقرّبه قال: وغضب مروان وقال: ما بالي لا أشتري كما اشترى عمرو فقال له معاوية: إنما نبتاع لك.

قال نصر: فلمّا كتب الكتاب قال معاوية لعمرو ما ترى؟ قال: امض الرّأي الأوّل فبعث مالك بن هبيرة الكندي في طلب محمّد بن أبي حذيفة فأدركه وقتله، وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه، ثمّ قال: ما ترى في علي؟ قال: إنّه قد أتاك في طلب البيعة خير أهل العراق ومن عند النّاس في أنفس النّاس ودعواك أهل الشّام إلى ردّ هذه البيعة خطر شديد، ورأس أهل الشّام شرحبيل بن السّمط الكندي وهو عدوّ لجرير المرسل إليك فابعث إليه ووطيء له ثقاتك فليفشوا في النّاس أنّ عليّاً قتل عثمان وليكونوا أهل الرّضا عند شرحبيل فإنّها كلمة جامعة لك أهل الشّام على ما تحب، وإن تعلقت بقلب شرجيل لن تخرج منه بشيء أبداً.

فكتب إلى شرحبيل أن جرير بن عبد الله قدم علينا من عند عليّ بن أبي طالب بأمر مفظع فأقدم، فدعى معاوية بريد بن لبيد وبسر بن أرطاة وعمرو بن سفيان ومخارق بن الحرث الزّبيدي وحمزة بن مالك وعابس بن سعيد الطائي وهؤلاء رؤساء قحطان واليمن،

وكانوا ثقات معاوية وخاصّته وبني عمّ شرحبيل بن السّمط فأمرهم أن يلقوه ويخبروه أنّ عليّاً قتل عثمان.

فلمّا قدم كتاب معاوية على شرحبيل وهو بحمص استشار بأهل اليمن فاختلفوا عليه، فقام إليه عبد الرّحمٰن بن غنم وهو صاحب معاذ بن جبل وختنه وكان أفقه أهل الشّام، فنهاه عن المسير إلى معاوية ووعظه ونهاه أيضاً عياض اليماني وكان ناسكاً فأبى شرحبيل إلاّ أن يسير إلى معاوية، فلمّا قدم تلقاه النّاس فأعظموه ودخل على معاوية.

فقال له معاوية: يا شرحبيل إنّ جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة عليّ وعليّ خير النّاس لولا أنّه قتل عثمان وحبست نفسي عليك، وإنّما أنا رجل من أهل الشّام أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا فقال شرحبيل: أخرج وأنظر، فلقاه هؤلاء النّفر الموطؤون له فكلّهم أخبره أنّ عليّاً قتل عثمان، فرجع مغضباً إلى معاوية فقال: يا معاوية أبى النّاس إلاّ أنّ عليّاً قتل عثمان، والله إن بايعت له لنخرجك من شامنا أو لنقتلنّك.

فقال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم ما أنا إلاّ رجل من أهل الشّام قال: فردّ هذا الرّجل إلى صاحبه فعرف معاوية أنّ شرجيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق، وأنّ الشّام كلّه مع شرجيل وعند ذلك استعدّ للقتال وكتب إلى علي عليه السلام ما ستعرفه في شرح الكلام الثّالث والأربعين إن شاء الله[1].

تكملة

قد أشرنا سابقاً إلى أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام كالفصلين السابقين ملتقط من كلام طويل له عليه السلام ولكونه مشتملاً على مطالب نفيسة أحببنا أن نورده هنا بتمامه.

فأقول: روى العلامة المجلسي في «البحار» والشّارح المعتزلي في شرح الكلام السّابع والسّتين جميعاً من كتاب الغارات لإبراهيم بن مسعود الثقفي عن رجاله عن عبد الرّحمان بن جندب عن أبيه قال: دخل عمرو بن الحمق وحجر بن عدي وحبّة العرني والحارث الأعور وعبد الله بن سبأ على أمير المؤمنين بعد ما افتتحت مصر وهو مغموم حزين فقالوا له: بين لنا ما قولك في أبي بكر وعمر؟ فقال لهم عليّ عليه السلام: هل فرغتم لهذا وهذه مصر قد افتتحت وشيعتي قد قلت أنا مخرج إليكم كتاباً أخبركم فيه عمّا سألتم، وأسألكم أن تحفظوا من حقّي ما ضيّعتم فاقرؤوه على شيعتي وكونوا على الحقّ وهذه نسخة الكتاب:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى قرّاء كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين السّلام عليكم فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو أمّا بعد...

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٥٦٧، والغارات: ١/ ٣٠٣.

«فإنّ الله بعث محمّداً نذيراً للعالمين أميناً على التّنزيل وشهيداً على هذه الأمّة؛ وأنتم معاشر العرب يومئذٍ على شرّ دين، وفي شرّ دار منيخون على حجارة خشن وجنادل صمّ وشوك مبثوت في البلاد، تشربون الماء الخبيث وتأكلون الطعام الجشب وتسفكون دماءكم وتقتلون أولادكم وتقطعون أرحامكم وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل، سبلكم خائفة والأصنام فيكم منصوبة، ولا يؤمن أكثركم بالله إلاّ وهم مشركون»[١].

فمنّ الله عزّ وجلّ عليكم بمحمّد فبعثه إليكم رسولاً من أنفسكم وقال فيما أنزل من كتابه: ﴿**هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال: ﴿**لقد جائكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال: ﴿**لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم**﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال: ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ [المائدة: ٥٤].

فكان الرّسول إليكم من أنفسكم بلسانكم، فعلمكم الكتاب والحكمة والفرائض والسنّة.

وأمركم بصلة أرحامكم وحقن دمائكم وصلاح ذات البين، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن توفوا بالعهد ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها.

وأمركم أن تعاطفوا وتبارّوا وتباشروا وتباذلوا وترحموا، ونهاكم عن التّناهب والتّظالم والتّحاسد والتباغي والتقاذف وعن شرب الحرام وبخس المكيال ونقص الميزان، وتقدّم إليكم فيما تلى عليكم أن لا تزنوا ولا تربوا ولا تأكلوا أموال اليتامى، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وأن لا تعثوا في الأرض مفسدين، ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين.

فكلّ خير يدنى إلى الجنّة ويباعد من النّار أمركم به، وكلّ شرّ يدني إلى النّار ويباعد من الجنّة نهاكم عنه.

فلمّا استكمل مدّته من الدّنيا توفاه الله إليه سعيداً حميداً فيا لها مصيبة خصت الأقربين وعمّت جميع المسلمين، ما أصيبوا قبلها بمثلها ولن يعاينوا بعدها أختها، فلمّا مضى لسبيله ﷺ تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر على بالي أنّ العرب تعدل هذا الأمر بعد محمّد ﷺ عن أهل بيته ولا أنهم تنحوه عنّي من بعده.

فما راعني إلا انثيال النّاس على أبي بكر وإجفالهم إليه ليبايعوه، فأمسكت يدي ورأيت أنيّ أحقّ بمقام محمّد ﷺ وملة محمّد في النّاس ممّن تولى الأمر بعده.

فلبثت بذلك ما شاء الله حتّى رأيت راجعة من النّاس رجعت عن الإسلام تدعو إلى محق دين الله وملة محمّد، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً وهدا ما تكون

---

(١) في نسخة: المصاب.

المصيبة[١] بهما أعظم من فوات ولاية أموركم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل، ثمّ يزول ما كان منها كما يزول السّراب وكما ينقشع السحاب فمشيت عند ذلك إلى أبي بكر فبايعته ونهضت في تلك الأحداث حتّى زاغ الباطل وزهق وكانت كلمة الله هي العليا ولو كره الكافرون، فتولى أبو بكر تلك الأمور وسدّد وبسّ وقارب واقتصد، فصحبته مناصحاً، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهداً.

وما طمعت أن لو حدث به حدث وأنا حي أن يرد إلى الأمر الذي بايعته فيه طمع مستيقن ولا يئست منه يائس من لا يرجوه، ولولا خاصة ما كان بينه وبين عمر لضننت أنّه لا يدفعها عنّي.

فلمّا احتضر بعث إليّ عمر فولاه فسمعنا وأطعنا وناصحنا وتولى عمر الأمر فكان مرضي السّيرة ميمون النقيبة.

حتّى إذا احتضر قلت في نفسي لن يعتدلها عنّي ليس يدافعها عنّي فجعلني سادس ستّة فما كانوا لولاية أحد أشدّ كراهيّة منهم لولايتي عليهم، فكانوا يسمعوني عند وفاة الرّسول أحاجّ أبا بكر وأقول يا معشر قريش أنا أهل البيت أحقّ بهذا الأمر منكم، أما كان فينا من يقرأ القرآن ويعرف السّنة ويدين بدين الحقّ؟

فخشي القوم إن أنا وليت عليهم أن لا يكون لهم من الأمر نصيب ما بقوا فأجمعوا إجماعاً واحداً فصرفوا الولاية إلى عثمان وأخرجوني منها رجاء أن ينالوها ويتداولوها إذ يئسوا أن ينالوها من قبلي، ثمّ قالوا: هلم فبايع وإلاّ جاهدناك فبايعت مستكرهاً وصبرت محتسباً فقال قائلهم: يا ابن أبي طالب إنّك على هذا الأمر لحريص فقلت: إنّهم أحرص منّي وأبعد، أينا أحرص أنا الذي طلبت تراثي وحقّي الذي جعلني الله ورسوله أولى به، أم أنتم إذ تضربون وجهي دونه وتحولون بيني وبينه فبهتوا والله لا يهدي القوم الظّالمين.

اللهمّ إنّي أستعديك على قريش فإنّهم قطعوا رحمي وأضاعوا إناتي وصغروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنت أولى به منهم فسلبونيه، ثمّ قالوا: ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تمنعه فاصبر كمداً أو مت أسفاً وحنقاً، فنظرت فإذا ليس معي رافد ولا ذاب ولا ناصر ولا مساعد إلاّ أهل بيتي فضننت بهم عن المنية فأغضيت على القذى وتجرعت ريقي على الشّجى وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم وألم للقلب من خر الشّفار.

حتّى إذا نقمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه ثمّ جئتموني لتبايعوني فأبيت عليكم وأمسكت يدي فنازعتموني ودافعتموني وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، وازدحمتم

(١) مسالحكم: المسالح: الثغور.

عليّ حتّى ظننت أنّ بعضكم قاتل بعضكم وأنكم قاتلي فقلتم بايعنا لا نجد غيرك ولا نرضى إلا بك بايعنا لا نفترق ولا تختلف كلمتنا فبايعتكم ودعوت الناس إلى بيعتي، فمن بايع طوعاً قبلته منه ومن أبى لم أكرهه وتركته فبايعني فيمن بايعني طلحة والزبير ولو أبيا ما أكرهتهما كما لم أكره غيرهما.

فلما لبثنا إلاّ يسيراً حتّى بلغني أنّهما قد خرجا من مكّة متوجهين إلى البصرة في جيش ما منهم رجل إلاّ قد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة، فقدما على عاملي وخزّان بيت مالي وعلى أهل مصر في الذين كلّهم على بيعتي وفي طاعتي، فشتّوا كلمتهم وأفسدوا جماعتهم، ثمّ دثبوا على شيعتي من المسلمين فقتلوا طائفة منهم غدراً، وطائفة صبراً، وطائفة منهم غضبوا لله فشهروا سيوفهم وضربوا بها حتّى لقوا الله صادقين.

فوالله لو لم يصيبوا منهم إلاّ رجلاً واحداً متعمدين لقتله لحلّ لي به قتل ذلك الجيش بأسره فدع ما أنّهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من العدة التي دخلوا بها عليهم، وقد أدال الله منهم فبعداً للقوم الظالمين.

ثمّ إني نظرت في أمر أهل الشام فإذا أعراب أحزاب وأهل طمع جفاة طغاة يجتمعون من كلّ ارب من كان ينبغي أن يؤدّب أو يولي عليه ويؤخذ على يديه ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان، فسرت إليهم فدعوتهم إلى الطاعة والجماعة فأبوا إلاّ شقاقاً وفراقاً ونهضوا في وجوه المسلمين ينظمونهم بالنبل ويشجرونهم بالرّماح فهناك نهدت إليهم بالمسلمين فقاتلتهم.

فلمّا عضّهم السّلاح ووجدوا ألم الجراح رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها فأنبأتكم أنّهم ليسوا بأهل دين ولا قرآن وأنّهم رفعوها غدراً ومكيدة وخديعة ووهناً وضعفاً فأمضوا على حقكم وقتالكم، فأبيتم عليّ وقلتم أقبل منهم فإن أصابوا إلى ما في الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من الحق، وإن أبوا كان أعظم لحجتنا عليهم فقبلت منهم وكففت عنهم إذ دنيتم وأبيتم.

وكان الصّلح بينكم وبينهم على رجلين يحييان ما أحيى القرآن ويميتان ما أمات القرآن، فاختلف رأيهما وتفرّق حكمهما ونبذا حكم القرآن وخالفا ما في الكتاب فجنّبهما الله السّداد وولاّهما في الضّلالة، فنبذا حكمهما وكانا أهله.

فانخزلت فرقة منّا فتركناهم ما تركونا حتّى إذا عثوا في الأرض يقتلون ويفسدون أتيناهم، فقلنا ادفعوا إلينا قتلة إخواننا ثمّ كتاب الله بيننا وبينكم قالوا: كلّنا قتلهم وكلّنا استحلّ دماءهم ودماءكم وشدّت علينا خيلهم ورجالهم فصرعهم الله مصارع الظالمين.

فلمّا كان ذلك من شأنهم أمرتكم أن تمضوا من فوركم ذلك إلى عدوّكم فقلتم: كلت

سيوفنا ونفدت نبالنا ونصلت سنة رماحنا، وعاد أكثرها قصداً فارجع بنا إلى مصرنا لنستعدّ بأحسن عدّتنا فإذا رجعت زدت في مقاتلتنا عدّة من هلك منّا وفارقنا فإنّ ذلك أقوى لنا على عدوّنا.

فأقبلت بكم حتّى إذا ظللتم على الكوفة أمرتكم أن تنزلوا بالنخيلة وأن تلزموا معسكركم وأن تضمّوا قواصيكم وأن توطنوا على الجهاد أنفسكم ولا تكثروا زيارة أبنائكم ونسائكم، فإنّ أهل الحرب لمصابروها، وأهل القشيم فيها غاصية فلا من بقي منكم صبر وثبت، ولا من دخل المصر عاد إليّ ورجع، فنظرت إلى معسكري وليس فيه خمسون رجلاً.

فلمّا رأيت ما أتيتم دخلت إليكم فلم أقدر إلى أن تخرجوا إلى يومنا هذا فما تنتظرون أما ترون أطرافكم قد انتقصت، وإلى مصركم قد فتحت، وإلى شيعتي بها قد قتلت، وإلى مسالحكم[١] تغرى[٢]، وإلى بلادكم تغزى، وأنتم ذوو عدد كثير، وشوكة وبأس شديد.

فما بالكم لله أنتم من أين تؤتون، وما لكم تسحرون، وأنّى تؤفكون، ولو عزمتم وأجمعتم لم تراموا إلاّ أنّ القوم قد اجتمعوا وتناشبوا وتناصحوا وأنتم قد دنيتم وتغاششتم وافترقتم ما أنتم إن أتممتم عندي على هذا بمنقذين فانتهوا عمّا نهيتم واجمعوا على حقّكم وتجردوا لحرب عدوّكم قد أبدت الرّغوة من التّصريخ[٣] وبين الصّبح لذي عينين.

إنّما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطّلقاء وأولى الجفاء ومن أسلم كرهاً فكان لرسول الله أنف الإسلام كله حرباً أعداء الله والسّنة والقرآن وأهل البدع والأحداث ومن كانت بوائقه تتقى وكان على الإسلام وأهله مخوفاً آكلة الرّشا وعبدة الدّنيا.

لقد أنهى إليّ أنّ ابن النابغة لم يبايع معاوية حتّى أعطاه وشرط له أن يؤتيه أتية هي أعظم ممّا في يده من سلطانه إلا صفرت يد هذا البائع دينه بالدّنيا، وخزيت أمانة هذا المشتري بنصرة فاسق غادر بأموال المسلمين وأنّ فيهم من قد شرب فيكم الخمر وجلد الجلد[٤] يعرف بالفساد في الدّين وفي الفعل السّيىء وأنّ فيهم من لم يسلم حتّى رضخ له رضيخة[٥].

فهؤلاء قادة القوم ومن تركت ذكر مساويه من قادتهم مثل من ذكرت منهم بل هو شرّ ويودّ هؤلاء الذين ذكرت لو ولوا عليكم فأظهروا فيكم الكفر والفساد والفجور والتّسلّط

(١) تغري: أي خالية عن الرجال والسلاح.

(٢) التصريخ: اللبن الخالص إذا ذهبت رغوته.

(٣) في نسخة: الحد.

(٤) في نسخة: رضخة.

(٥) حمّ: حان الوقت.

بالجبريّة واتّبعوا الهوى وحكموا بغير الحقّ، ولأنتم على ما كان فيكم من تواكل وتخاذل خير منهم وأهدى سبيلاً فيكم العلماء والفقهاء والنّجباء والحكماء وحملة الكتاب والمتهجّدون بالأسحار وعمّار المساجد بتلاوة القرآن.

أفلا تسخطون وتهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم والأشرار الأراذل منكم فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري إذا أمرت فوالله لئن أطعتموه لا تغورون، وإن عصيتموه لا ترشدون.

خذوا للحرب أهبتها وأعدوا عدّتها فقد شبت نارها وعلا سناؤها وتجرّد لكم فيها الفاسقون كي يعذّبوا عباد الله ويطفؤوا نور الله إلا إنّه ليس أولياء الشّيطان من أهل الطّمع والمكر والجفاء بأولى في الجدّ في غيّهم وضلالهم من أولياء الله أهل البرّ والزهادة والإخبات بالجدّ في حقهم وطاعة ربّهم ومناصحة إمامهم.

أي والله لو لقيتهم فرداً وهم ملاء الأرض ما باليت ولا استوحشت وأنّي من ضلالتهم التي هم فيها والهدى الذي نحن عليه لعلى ثقة وبيّنة ويقين وبصيرة، وإنّي إلى لقاء ربّي لمشتاق ولحسن ثوابي لمنتظر، ولكن أسفاً يعتريني وحزناً يخامرني أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها، فيتخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً والفاسقين حزباً.

وأيم الله لولا ذلك لما أكثرت تأنيبكم وتحريضكم، ولتركتكم إذا دنيتم وأبيتم حتّى ألقاهم بنفسي متى حمّ[1] لي لقائهم، فوالله إنّي لعلى الحقّ، وإنّي للشّهادة لمحبّ.

فانفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقرّوا بالخسف وتبوّوا بالذّل ويكن نصيبكم الآخر إنّ أخا الحرب ليقظان ومن ضعف أودى ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين.

اللهمّ اجمعنا وإيّاهم على الهدى، وزهدنا وإيّاهم في الدّنيا، واجعل الآخرة خيراً لنا ولهم من الأولى، والسّلام»[2].

---

(١) الغارات للثقفي: ١/ ٣٧، والبحار: ٣٣/ ٥٧٣.

(٢) بطوله في الغارات: ٢/ ٤٧١ ـ ٤٦٨، ومكاتيب الرسول: ٣/ ٧٣٤.

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه اشاره است بر قصه بیعت عمروعاص بر معاویه ملعون. می فرماید که:

بیعت نکرد عمروعاص حتی این که شرط نمود آن که بدهد معاویه به او بر بیعت او ثمن و بهایی که عبارت بود از حکومت مصر، پس مظفّر مباد دست بیعت کننده و خوار و ذلیل باد عهد و پیمان بیعت نموده شده، پس اخذ نمایید از برای جنگ اسلحه جنگ را و مهیّا سازید از برای او ساز و یراق آن را و به تحقیق که افروخته شد آتش حرب و بلند شد شعله او و شعار خود نمایید صبر و شکیبایی را در معرکه قتال، پس به درستی که استشعار صبر اقوی داعی است از برای انتصار و ظفر؛ والله أعلم.

ومن خطبة له عليه السلام وهي السابعة والعشرون
من المختار في باب الخطب

وهذه من مشاهير خطبه وصدرها مروية في الوسائل من «الكافي» عن أحمد بن سعيد عن جعفر بن عبد الله العلوي وعن أحمد بن محمّد الكوفي عن عليّ بن العبّاس عن إسماعيل بن إسحاق جميعاً عن أبي روح فرخ بن فروة عن مسعدة بن صدقة عن ابن أبي ليلى عن أبي عبد الرّحمان السّلمي عنه عليه السلام.

ورواها المبرّد في «أوائل الكامل» والعلاّمة المجلسي في «البحار» من معاني الأخبار للصدّوق بزيادة ونقصان ليطلع عليها بعد الفراغ من شرح ما أورده السّيد في الكتاب وهو قوله:

«أمّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهادَ بابٌ مِنْ أَبْوابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخاصّةِ أَوْلِيائِهِ وَهُوَ لِباسُ التَّقْوى ودِرْعُ اللهِ الحَصينَةِ وجُنَّتُهُ الْوَثيقَةِ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وشَمِلَهُ الْبَلاءُ، ودُيِّثَ بِالصَّغارِ وَالْقِماءِ، وضُرِبَ عَلى قَلْبِه بالأَسْدادِ، وأُديلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْييعِ الْجِهادِ، وَسيمَ الْخَسْفَ ومُنِعَ النَّصْفَ.

ألا وَأَنّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلى قِتالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لَيلاً وَنَهاراً وَسِرّاً وَإِعْلاناً، وقُلْتُ لَكُمْ اغزوُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ ما غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ في عُقْرِ دارِهِمْ إِلاّ ذَلُّوا، فَتَواكَلْتُمْ وَتَخاذَلْتُمْ حَتّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الغاراتُ، ومُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطانُ، وهذا أَخُو غامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الأَنْبارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسّانَ بْنَ حَسّان الْبَكْري وَأَزالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسالِحِها، وَلَقَدْ بَلَغَني أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كانَ يَدْخُلُ عَلى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالأُخْرى الْمُعاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حَجْلَها وَقُلْبَها وقَلائِدَها ورِعاثَها، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاّ بالإِسْتِرْجاعِ وَالإِسْتِرْحام، ثُمَّ انْصَرَفُوا وافِرِينَ ما نالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلا أُريقَ لَهُ دَمٌ.

فَلَوْ أَنّ امْرَأً مُسْلِماً ماتَ مِنْ بَعْدِ هذا أَسَفاً ما كانَ بِه مَلُوماً، بَلْ كانَ بِه عِنْدي جَديراً، فَيا عَجَباً عَجَباً وَاللهِ يُميتُ القَلْبَ ويَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِماعِ هؤُلاءِ عَلى باطِلِهِمْ، وتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، فَقُبْحاً لَكُمْ وتَرَحاً، حينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمى، يُغارُ عَلَيْكُمْ ولا تُغيرُونَ، وتُغْزَوْنَ ولا تَغْزُونَ، ويُعْصَى اللهُ وتَرْضُونَ، فَإِذا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ في أَيّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هذِه حَمارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنا يَسْبَخْ عَنّا الْحَرُّ، وإِذا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ في الشِّتاءِ قُلْتُمْ هذِه صَبارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنا يَنْسَلِخْ عَنّا الْبَرْدُ، كُلُّ هذا فِراراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ، فَإِذا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ.

يا أَشْباهَ الرِّجالِ وَلا رِجالَ، حُلُومُ الأَطْفالِ، وعُقُولُ رَبّاتِ الْحِجالِ، لَوَدِدْتُ أَنّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ، مَعْرِفَةً واللهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً، قاتَلَكُمُ اللهُ لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبي قَيحاً،

وشَحَنتُم صَدْري غَيْظاً، وجَرَّعْتُمُوني نُغَبَ التَّهمام أنفاساً، وأفسَدْتُم عَلَيَّ رَأْيي بِالْعِصْيانِ وَالْخِذْلانِ، حَتّى قالَتْ قُرَيْشٌ: إنَّ ابْنَ أَبي طالِبٍ رَجُلٌ شُجاعٌ، وَلكِنْ لا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ لله أَبُوهُم، وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَها مِراساً، وأَقْدَمُ فيها مَقاماً مِنّي، لَقَدْ نَهَضْتُ فيها وَما بَلَغْتُ الْعِشْرينَ، وَها أَنا ذا قَدْ ذَرَّفْت عَلَى السِّتّينِ وَلكِنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لا يُطاع».

اللغة

(**درع**) الحديد مؤنث سماعي وقد يذكر و(**الجنّة**) بالضمّ كلّ ما وقى و (**شمله**) ربّما يقرأ (**بالتّاء**) وهي كساء تغطى به والفعل أظهر كما هو المضبوط و (**ديثه**) ذلله ومنه الدّيوث الذي لا غيرة له و (**الصّغار**) الذّل والضيّم و (**القماء**) بالمد الصّغار وعن الرّاوندي القما بالقصر وهو غير معروف، وفي رواية «**الكافي**» القمائة.

قال في «**القاموس**»: قمأ كجمع وكرم قماءة وقماءة وقماء بالضمّ والكسر ذل وصغر و (**الأسداد**) بفتح الهمزة جمع السدّ وهو الحاجز يقال: ضربت عليه الأرض بالأسداد سدت عليه الطرق وعميت عليه مذاهبه، وفي بعض النّسخ بالإسهاب يقال أسهب الرّجل بالبناء للمفعول إذا ذهب عقله من أذى يلحقه و (**أديل الحقّ منه**) أي يغلب الحقّ عليه فيصيبه الوبال كقول سيّد العابدين عليه السلام في الصّحيفة أدل لنا ولا تدل منّا، والأدالة الغلبة و (**سيم**) بالبناء للمفعول من سامه خسفا أي كلفه ذلاً و (**النصف**) بكسر النّون الانصاف و (**عقر**) الشيء بالضّم أصله ووسطه و (**التّواكل**) أن يكل الأمر كل واحد منهم إلى صاحبه يقال تواكل القوم أنكل بعضهم على بعض وتخاذلوا ومنه رجل وكل أي عاجز يكل أمره إلى غيره و (**شنت**) أي مزقت.

قال الشّارح المعتزلي: وما كان من ذلك متفرّقاً نحو إرسال الماء على الوجه دفعة بعد دفعة فهو بالشين، وما كان إرسالاً غير متفرّق فهو بالسّين المهملة و (**أخو غامد**) هو سفيان بن عوف الغامدي منسوب إلى الغامد قبيلة من اليمن و (**الانبار**) بلد قديم من بلاد العراق على الفرات من الجانب الشّرقي و (**المسالح**) جمع مسلحة وهي الحدود التي رتب فيها ذو الأسلحة لدفع العدو كالثغر و (**المعاهدة**) بصيغة اسم الفاعل ذات العهد وهي الذمية و (**الحجل**) بفتح الحاء وكسرها الخلخال و (**القلب**) بالضمّ سوار المرأةِ و (**الرّعاث**) جمع رعثة بفتح الرّاء وسكون العين وفتحها وهي القرط، والرّعاث أيضاً ضرب من الحلي.

و (**الاسترجاع**) قول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وقيل: ترديد الصّوت بالبكاء و (**الاسترحام**) مناشدة الرّحم أي قول أنشدك الله والرّحم، وقيل: طلب الرّحم وهو بعيد و (**انصرفوا وافرين**) أي تامين يقال وفر الشيء أي تمّ ووفرت الشيء أي أتممته.

وفي «رواية المبرد» والصّدوق موفورين، وهو بمعناه و (**الكلم**) الجرح و (**الترح**) محركة ضد الفرح و (**الغرض**) الهدف و (**حمارة القيظ**) بتشديد الرّاء شدّة حرّه و (**تسبخ الحرّ**) بالسّين

والباء والخاء المعجمة سكن وفتر كسبخ تسبيخاً و (**صبّارة**) الشّتاء بالتّشديد شدّة برده و (**القر**) بضم القاف البرد أو يخصّ بالشّتاء و (**ربات الحجال**) النّساء أي صواحبها أو اللاّتي ربين فيها، وهي جمع حجلة وهي بيت يزين فيها.

و (**السّدم**) الحزن و (**قاتلكم الله**) كناية عن اللّعن والإبعاد و (**القيح**) الصّديد بلا دم و (**النّغب**) جمع نغبة كالجرعة لفظاً ومعنى و (**التهمام**) بفتح التاء الهم و (**انفاساً**) أي جرعة بعد جرعة و (**لله أبوهم**) كلمة مدح ولعلها استعملت هنا للتّعجب و (**المراس**) مصدر مارسه أي زاوله وعالجه و (**ذرفت على الستين**) بتشديد الرّاء أي زدت.

الإعراب

لباس التّقوى بحذف المضاف أي لباس أهل التّقوى، ويمكن عدم الحذف بالتأويل الآتي وإضافة الثّوب إلى الذّل بيانيّة، (**والباء**) في قوله بتضييع الجهاد للسّببيّة وسيم الخسف النّائب عن الفاعل ضمير (**من**)، والخسف بالنّصب مفعول أي كلّف بالخسف والزم (ا ه)، وكلمة (**على**) في قوله (**وملكت عليكم**) تفيد الاستعلاء بالقهر والغلبة والضمير في قوله (**ما كان به**) راجع إلى الموت المستفاد من مات.

وقوله: (**فيا عجبا**) منصوب على النّداء أصله يا عجبي أي أحضر هذا أوانك، (**وعجباً**) الثّاني إمّا توكيد له أو منصوب بالمصدرية أي أيّها النّاس تعجبوا منهم عجباً، والقسم معترض بين الصفة والموصوف.

(**وقبحا وترحا**) منصوبان على المصدريّة، (**ولا رجال**) خبره محذوف، (**وحلوم الأطفال وعقول ربات الحجال**) إمّا بالنّصب على حذف حرف النّداء أي يا ذوي حلوم الأطفال وذوي عقول النّساء، وفي بعض النّسخ بالرّفع أي حلومكم حلوم الأطفال وعقولكم عقول النّساء، (**ومعرفة**) يمكن أن يكون فعله محذوفاً أي عرفتكم معرفة جرت ندماً، (**وأنفاساً**) مفعول مطلق لجرعتموني على غير لفظه، والضّمائر الثّلاثة للحرب وهي مؤنثة وقد يذكر.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشّريفة ممّا خطب بها في أواخر عمره الشّريف، وذلك بعد ما انقضت وقعة صفّين واستولى معاوية على البلاد وأكثر القتل والغارة في الأطراف وأمر سفيان بن عوف الغامدي بالمسير إلى الأنبار وقتل أهلها.

وتفصيله هو ما رواه الشّارح المعتزلي من كتاب «**الغارات**» لإبراهيم بن محمّد الثقفي عن ابن الكنود.

قال: حدّثني سفيان بن عوف الغامدي، قال دعاني معاوية فقال: إنّي باعثك في جيش

كثيف ذي أداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات حتّى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم وإلاّ فامض حتّى تغير على الأنبار فإن لم تجد بها جنداً فامض حتّى توغل المدائن، ثمّ أقبل إلى واتّق أن تقرب الكوفة واعلم أنّك إن أغرت على الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة، إنّ هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كلّ من له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدّوائر، فاقتل من لقيت ممّن ليس هو على مثل رأيك، واخرب كلّ ما مررت به من القرى، واحرب الأموال فإنّ حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب.

قال: فخرجت من عنده فعسكرت وقام معاوية في النّاس خطبهم فقال: أيّها النّاس انتدبوا مع سفيان بن عوف فإنّه وجه عظيم فيه أجر سريع، فيه أدبتكم إن شاء الله ثم نزل.

قال: فوالذّي لا إله غيره ما مرت ثالثة حتّى خرجت في ستة آلاف، ثمّ لزمت شاطىء الفرات فأغذذت السّير حتّى أمرّ بهيت فبلغهم، إنّي قد غشيتهم فقطعوا الفرات فمررت بها وما بها غريب كأنّها لم تحلّل قط، فوطيتها حتّى أمرّ بصدوراء ففرّوا فلم ألق بها أحداً فأمضي حتّى افتتح الأنبار وقد أنذروا أبي فخرج صاحب المسلحة فوقف إلي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية فقلت لهم: أخبرني كم بالأنبار من أصحاب علي؟ قالوا: عدة رجال المسلحة خمسمائة ولكنّهم قد تبدّدوا ورجعوا إلى الكوفة ولا ندري بالذي يكون فيها قد يكون مأتي رجل.

فنزلت فكتبت أصحابي كتائب ثمّ أخذت أبعثهم إليه كتيبة بعد كتيبة فيقاتلهم والله ويصير لهم ويطاردهم ويطاردون في الأزقة، فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين وأتبعتهم الخيل، فلمّا حملت عليهم الخيل وأمامها الرّجال تمشي لم يكن شيء حتّى تفرّقوا، وقتل صاحبهم في نحو من ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال ثمّ انصرفت.

فوالله ما غزوت غزاة كانت أسلم ولا أقر للعيون ولا أسرّ للنّفوس منها، ويلغني أنّها رعبت النّاس، فلمّا عدت إلى معاوية حدّثته الحديث على وجهه فقال: كنت عند ظني بك لا تنزل في بلد من بلداني إلاّ قضيت فيه مثل ما يقضي فيه أميره، وإن أحببت توليته وليتك، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دوني قال: فوالله ما لبثنا إلاّ يسيراً حتّى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الإبل هرباً من عسكر عليّ عليه السلام.

قال إبراهيم: وقدم علج من أهل الأنبار على عليّ فأخبره الخبر فصعد المنبر فخطب النّاس وقال: إنّ أخاكم البكري قد أصيب بالأنبار وهو معتزل لا يخاف ما كان، واختار ما عند الله على الدّنيا، فانتدبوا إليهم حتّى تلاقوهم فإن أصبتم منهم طرفاً أنكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا.

ثمّ سكت عنهم رجاء أن يجيبوه أو يتكلم متكلم منهم بكلمة، فلم ينفس أحد منهم بكلمة، فلما رأى صمتهم نزل وخرج يمشي راجلاً حتّى أتى النخيلة والناس يمشون خلفه حتّى أحاط به قوم من أشرافهم فقالوا: ارجع يا أمير المؤمنين نحن نكفيك، فقال عليه السلام: ما تكفونني ولا تكفون أنفسكم، فلم يزالوا به حتّى صرفوه إلى منزله، وهو واجم كئيب.

ودعى سعيد بن قيس الهمداني فبعثه من النخيلة في ثمانية آلاف، وذلك إنه أخبر أنّ القوم جاؤوا في جمع كثيف، فخرج سعيد بن قيس على شاطىء الفرات في طلب سفيان بن عوف حتّى إذا بلغ عامات، سرح أمامه هاني بن الخطاب الهمداني فاتبع آثارهم حتّى دخل أدنى أرض قنسرين، وقد فاتوه فانصرف.

قال: ولبث عليّ عليه السلام حتّى ترى فيه الكآبة والحزن حتّى قدم عليه سعيد بن قيس، وكان تلك الأيام عليلاً فلم يقو على القيام في النّاس بما يريده من القول، فجلس بباب السّدة التي تصل إلى المسجد ومعه ابناه حسن وحسين عليهما السّلام وعبد الله بن جعفر.

ودعا سعداً مولاه، فدفع إليه الكتاب وأمره أن يقرأه على النّاس، فقام سعد بحيث يسمع عليّ عليه السلام صوته ويسمع ما يرد النّاس عليه، ثمّ قرأ الخطبة هذه (**أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصّة أوليائه**) كما رواه في «**الكافي**» عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النّوفلي عن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «للجنّة باب يقال باب المجاهدين يمضون إليه فإذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم والجمع في الموقف والملائكة ترحب بهم»[(1)].

والمراد بخواص الأولياء المخلصون له في المحبّة والعبادة، ومن المعلوم أنّ الجهاد في سبيل الله لوجه الله لا لغرض آخر من خواص الكاملين في العبادة والخالصين في المحبّة.

وذلك لأنّ المرء والمسلم إذا فارق أهله وأولاده وسلك إلى الجهاد مع علمه بأنّ العدوّ لو قهره قتله ويتملك أمواله ويستبيح ذرّيته ومع هذه كلها يوطن نفسه على الصّبر والثّبات امتثالاً لأمر الله وطلباً لمرضاته سبحانه، فذلك الولي الكامل والمؤمن الخالص في مقام الإيمان والعبودية، وحقيق بأن يدخل في زمرة:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢] وأن يستبشر بشارة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

(١) السنبك: كقنفذ ضرب من العدو وطرف الحافر (القاموس).

(**وهو لباس التقوى**) أي به يتّقي في الدّنيا من غلبة الأعادي، وفي الآخرة من حرّ النّار كما يتّقي بالثّوب من الحرّ والبرد، أو هو يدفع المضار عن التّقوى ويحرسها، أو عن أهل التّقوى بحذف المضاف (**ودرع الله الحصينة**) الواقية (**وجنّته الوثيقة**) المحكمة بها يحفظ النّفس من المضار ويحترز من ذوي الأشرار (**فمن تركه**) كراهة له و (**رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذّل**) في الآخرة والأولى (**وشمله البلاء**) وفتنة الأعداء (**وديث بالصغار والقماء**).

كما قال صلوات الله وسلامه عليه وآله: «**فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً وفقراً في معيشته، ومحقاً في دينه إنّ الله أغنى أمّتي بسنابك**[1] **خيلها ومراكز رماحها**[2]» (**وضرب على قلبه بالأسداد**) فعجز عن تدبير مصالحه وعميت عليه مذاهبه وضاقت له مسالكه (**واديل الحقّ منه بتضييع الجهاد**) فتورط في الضّلال ولحقه الوبال (**وسيم الخسف**) والذّلة (**ومنع النّصف**) والعدالة.

وقد تحصل ممّا ذكره عليه السلام منافع الجهاد ومصالحه ومفاسد تركه ومعايبه، وفيه تحضيض على القيام به، وترهيب عن القعود عنه، فإنه وإن كان شاقّاً على النّفس في بادي الأمر من حيث كونه أعظم ما يميل إليه الطبع الحياة؛ وكون بقاء النفس للنّفس مطلوباً إلاّ أنّه بعد ملاحظة ما يترتّب على القيام به من المنافع والثّمرات وعلى القعود عنه من المضارّ والعيوبات يسهل عليه القيام به، ويشري نفسه ابتغاء مرضات الله كما قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

يعني أنّ الشيء ربما كان شاقاً عليكم في الحال وهو سبب للمنافع الجليلة في المستقبل وبالعكس، ولأجله حسن شرب الدّواء المرّ في الحال لتوقّع حصول الصّحة في المستقبل، وحسن تحمّل الأخطار في الأسفار بتوقع حصول الرّبح.

والجهاد كذلك لأنّ تركه، وإن كان يفيد في الحال صون النّفس عن خطر القتل وصون المال عن الانفاق، ولكن فيه أنواع من المضارّ الدّنيوية والأخروية، كالذّل والفقر وحرمان بالغنيمة ومحق الدّين وطمع الأعداء، حيث إنّ العدو إذا علم ميل نظرائه إلى الدّعة والسّكون قصد بلادهم وحاول قتلهم، فأمّا أن يأخذهم ويستبيح دماءهم وأموالهم ويسبي ذراريهم، وإمّا أن يحتاجوا إلى قتاله من غير أعداد آلة وسلاح.

وهذا يكون كترك مداواة المريض مرضه في أوّل ظهوره بسبب مرارة الدّواء، ثمّ يصير

(١) الكافي: ٥/٢ ح ٢.

(٢) في الروضة: يأخذ منه.

في آخر الأمر مضطراً إلى تحمل أضعاف تلك النفرة والمشقة، مضافاً إلى ما يفوته من الثّمرات الجليلة في الدّنيا والآخرة من الأمن وسلامة الوقت والفوز بالغنيمة وحلاوة الاستيلاء على الأعداء، والدّرجات التي وعدها الله بقوله:

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

والبشرى التي بشر بها رسول الله ﷺ للشّهداء منهم بقوله: «للشّهيد سبع خصال من الله أول قطرة منه مغفور له كلّ ذنب، والثانية يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين وتمسحان الغبار عن وجهه وتقولان مرحباً بك، ويقول هو مثل ذلك لهما، والثّالثة يكسى من كسوة الجنّة، والرّابعة تبتدره خزنة الجنّة بكلّ ريح طيّبة أيّهم يأخذه معه[1]، والخامسة أن يرى منزله، والسّادسة يقال لروحه اسرحي في الجنّة حيث شئت، والسّابعة أن ينظر في وجه الله وأنّها لراحة لكلّ نبيّ وشهيد»[2].

وكيف كان فإنّه عليه السلام لمّا صدر خطبته بذكر منافع الجهاد ومضارّه فعلاً وتركاً أشار إلى مقصوده الذي مهّد له تلك المقدّمة وهو حثّهم على جهاد معاوية وأصحابه فقال: **(ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم)** القاسطين الفاسقين **(ليلاً ونهاراً وسرّاً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا)**.

وسرّ ذلك ما أشار إليه الشّارح البحراني، وهو أنّ للأوهام أفعال عجيبة في الأبدان تارة بزيادة القوّة وتارة بنقصانها حتّى أنّ الوهم ربّما كان سبباً لمرض الصّحيح لتوهّمه المرض وبالعكس، فكان السّبب في ذلّ من غزي في عقر داره وإن كان معروفاً بالشّجاعة هو الأوهام.

أمّا أوهامهم فلأنّها تحكم بأنّها لم تقدم على غزوهم إلاّ لقوّة غازيهم واعتقادهم فيهم الضّعف بالنّسبة إليه، فتنفعل إذاً نفوسهم عن تلك الأوهام، وتنقهر عن المقاومة وتضعف عن الانبعاث وتزول غيرتها وحميّتها فتحصل على طرف رذيلة الذّل.

وأمّا أوهام غيرهم فلأنّ الغزو الذي يلحقهم يكون باعثاً لكثير الأوهام على الحكم بضعفهم ومحرّكاً لطمع كلّ طامع فيهم، فيثير ذلك لهم أحكاماً وحميّة تعجزهم عن المقاومة.

ثمّ إنّه أشار إلى ما قابلوا به نصحه بقوله **(فتواكلتم)** أي وكل كلّ واحد منكم أمره إلى غيره **(وتخاذلتم)** أي خذل بعضكم بعضاً **(حتّى شنّت عليكم الغارات)** وصبّت من كلّ جانب دفعة بعد دفعة **(وملكت عليكم الأوطان)** بالقهر والغلبة والعدوان **(وهذا أخو غامد)** سفيان بن

---

(١) المهذب البارع: ٢/٢٩٧، وروضة الواعظين: ٣٦٣.

(٢) نهج السعادة: ٢/٥٥٧، وشرح نهج البلاغة: ٢/٨٧.

عوف الغامدي **(قد وردت خيله الأنبار)** بأمر معاوية اللعين الجبّار **(وقد قتل حسّان بن حسّان البكري)** وكان من أصحابه والياً على الأنبار.

روى إبراهيم بن محمّد الثقفي في كتاب **«الغارات»** عن عبد الله بن قيس عن حبيب ابن عفيف قال: كنت مع حسّان بالأنبار على مسلحها إذ صبحنا سفيان بن عوف في كتائب تلمع الأبصار منها فهالونا والله وعلمنا إذ رأيناهم أنّه ليس لنا طاقة بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرّقنا فلم يلقهم نصفنا، وأيم الله لقد قاتلناهم فأحسنّا قتالهم حتّى كرهونا، ثمّ نزل صاحبنا وهو يتلو قوله تعالى:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثمّ قال لنا: من كان لا يريد لقاء الله ولا يطيب نفساً بالموت فليخرج عن القرية ما دمنا نقاتلهم؛ فإنّ قتالنا إيّاهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار، ثمّ نزل في ثلاثين رجلاً، فهممت بالنزول معه ثمّ أبت نفسي فتقدّم هو وأصحابه فقاتلوا حتّى قتلوا رحمهم الله[١].

(وأزال خيلكم عن مسالحها) وحدودها المعدّة لها **(ولقد بلغني أنّ الرّجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة و)** المرأة **(الأخرى المعاهدة فـ)** كان **(ينتزع)** منها **(حجلها)** وخلخالها **(وقلبها)** وسوارها **(وقلائدها)** من نحرها **(ورعاثها)** من آذانها **(ما)** يمكن أن **(تمتنع منه إلاّ)** بالتّذلل و **(بالاسترجاع)** والخضوع **(والاسترحام ثمّ انصرفوا)** بعد القتل والغارة **(وافرين)** تامين غير مرزوئين **(ما نال رجل منهم كلم ولا أريق له دم فلو أنّ امرء مسلماً)** ذا غيرة وحمية **(مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً)** وحقيقاً.

(فيا عجبا عجبا) أيّ عجب **(والله يميت)** ذلك العجب **(القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم)** مع علمهم بأنّهم على الباطل **(وتفرّقكم عن حقّكم)** مع معرفتكم بأنّكم على الحق **(فقبحاً لكم وترحاً)** وهمّاً **(حين)** تثاقلتم عن الجهاد حتّى **(صرتم غرضاً يرمى)** بالنّبال ألا تستحيون من سوء عملكم ولا تخجلون من قبح فعلكم **(يغار عليكم ولا تغيرون وتغزون ولا تغزون ويعصى الله)** بقتل الأنفس ونهب الأموال وهتك العرض وتخريب البلاد **(و)** أنتم **(ترضون)** بذلك إذ لولا رضاكم لما تمكن العدو منكم ولما هجم عليكم **(فإذا أمرتكم بالسّير إليهم في أيام الحرّ)** تخلّفتم عن أمري واعتذرتم و **(قلتم هذه حمارة القيظ)** وهجمة الصيف **(أمهلنا حتّى يسبخ عنّا الحرّ)** ويفتر عنّا الهجر **(وإذا أمرتكم بالسّير إليهم في)** أيّام **(الشّتاء)** عصيتم أمري و **(قلتم هذه صبارة القر أمهلنا ينسلخ عنّا البرد)** وينقضي القرّ و **(كلّ هذا)** الاستمهال والاعتذار **(فراراً من الحرّ والقرّ فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون)** مع هوانهما

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٤، وتحف العقول: ٩٩.

(فأنتم والله من السّيف أفر) على شدّته إذ لا مناسبة بين شدّة الحرّ والقرّ وبين القتل بالسّيف والمجاهدة مع الأبطال.

(يا أشباه الرّجال) خلقة وصورة **(ولا رجال)** غيرة وحميّة حلومكم **(حلوم الأطفال و)** عقولكم **(عقول ربات الحجال)**.

أمّا وصفهم بحلوم الأطفال فلأنّ ملكة الحلم ليس بحاصل للطفل، وإن كانت قوّة الحلم حاصلة له لكن قد يحصل له ما يتصوّر بصورة الحلم كعدم التّسرع إلى الغضب عن خيال يرضيه، وأغلب أحواله أن يكون ذلك في غير موضعه وليس له ملكة تكسب نفسه طمأنينة كما في حقّ الكاملين فهو إذاً نقصان، ولمّا كان تاركوا أمره عليه السلام قد تركوا المقاولة حلماً عن أدنى خيال كتركهم الحرب بصفّين عن خدعة أهل الشّام لهم بالمسالمة وطلب المحاكمة ورفع المصاحف، فقالوا إخواننا في الدّين لا يجوز لنا قتالهم، كان ذلك حلماً في غير موضعه حتّى كان من أمرهم ما كان بأشبه رضى الصّبيان.

وأمّا إلحاق عقولهم بعقول النّساء فللإشتراك في القصور والنّقصان وقلة المعرفة بوجوه المصالح المخصوصة بتدبير الحرب والمدن، ثمّ إنّه عرفهم محبّته لعدم رؤيتهم ومعرفتهم بقوله **(لوددت أنّي لم أركم)** رؤية أبداً **(ولم أعرفكم معرفة)** أصلاً **(والله لقد جرت)** معرفتكم عليّ **(ندماً)** وسئماً **(وأعقبت)** حزناً و **(سدماً)** ثمّ دعا عليهم بقوله **(قاتلكم الله)** أي لعنكم.

قال ابن الأنباري: المقاتلة من القتل فإذا أخبر الله بها كان معناها اللعنة منه، لأنّ من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك، يعني أنّ المقاتلة لمّا كانت غير ممكنة بحسب الحقيقة في حقّ الله سبحانه، فإذا أسند الله سبحانه لا بدّ وأن يراد بها لوازمها، كاللعن والطرد والبعد ومنع اللطف ونحوها.

(لقد ملأتم قلبي) لسوء أعمالكم سديداً و **(قيحاً وشحنتم صدري)** بقبح فعالكم غضباً و **(غيظاً وجرعتموني نغب التّهمام)** وجرع الهموم **(أنفاساً)** أي جرعة بعد جرعة **(وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان)** ومعنى إفسادهم له خروجه بسبب عدم التفاتهم إليه عن أن يكون منتفعاً به لغيرهم **(حتّى لقد قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب)**.

وذلك لأنّ النّاس إذا رؤوا من قوم سوء تدبير أو مقتضى رأي فاسد كان الغالب أن ينسبوه إلى رئيسهم ومقدّمهم، ولا يعلمون أنّه من تقصير القوم لا من قصور الرّئيس، ولذلك تعجّب منهم وردّ توهّمهم بقوله: **(لله أبوهم وهل أحد أشدّ لها)** للحراب **(مراساً)** ومعالجة **(وأقدم فيها مقاماً)** وممارسة **(مني ولقد)** صرفت فيها تمام عمري و **(نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا قد ذرّفت على السّتين)**.

ثمّ بيّن أنّ السّبب في فساد حال أصحابه ليس ما تخيّله قريش فيه من ضعف الرّأي في الحرب وقلة التّدبير، بل عدم طاعتهم له فيما يراه ويشير إليه، وذلك قوله **(ولكن لا رأي لمن لا يطاع)** فإنّ الرّأي الذي لا يقبل بمنزلة الفاسد وإن كان صواباً، والمثل له.

قيل: وإنّما قال أعداؤه لا رأي له، لأنّه كان متقيّداً بالشّريعة لا يرى خلافها ولا يعمل بما يقتضي الدّين تحريمه، وقد قال هو عليه السلام: «لولا الدّين والتقى لكنت أدهى العرب»[1]، وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه ويستوفقه سواء كان مطابقاً للشرع أو لم يكن، هذا.

روى في **«البحار»** من كتاب إرشاد القلوب بإسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: بينما أمير المؤمنين يتجهّز إلى معاوية ويحرض النّاس على قتاله إذ اختصم إليه رجلان في فعل فعجل أحدهما في الكلام وزاد فيه، فالتفت إليه أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: اخسأ، فإذا رأسه رأس الكلب، فبهت من حوله وأقبل الرّجل بأصبعه المسبحة يتضرّع إلى أمير المؤمنين عليه السلام ويسأله الإقالة فنظر إليه وحرّك شفتيه فعاد كما كان خلقاً سويّاً.

فوثب إليه بعض أصحابه فقال له: يا أمير المؤمنين هذه القدرة لك كما رأينا وأنت تجهز إلى معاوية فما لك لا تكفيناه ببعض ما أعطاك الله من هذه القدرة؟ فأطرق قليلاً ورفع رأسه إليهم وقال:

والذي فلق الحبّة وبرىء النسمة لو شئت أن أضرب برجلي هذه القصيرة في طول هذه الفيافي والفلوات والجبال والأودية حتّى أضرب بها صدر معاوية على سريره فأقلبه على أمّ رأسه لفعلت، ولو أقسمت على الله عزّ وجلّ أن أوتي به قبل أن أقوم من مجلسي هذا وقبل أن يرتدّ إليّ أحد منكم طرفه لفعلت، ولكنّا كما وصف الله في كتابه: ﴿**عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾[2].

ثمّ روى في **«البحار»** من الإرشاد بإسناده إلى ميثم التمّار قال: خطب بنا أمير المؤمنين عليه السلام في جامع الكوفة، فأطال في خطبته وأعجب النّاس تطويلها وحسن وعظها وترغيبها وترهيبها، إذ دخل نذير من ناحية الأنبار مستغيثاً يقول: الله الله يا أمير المؤمنين في رعيّتك وشيعتك، هذه خيل معاوية قد شنّت علينا الغارة في سواد الفرات ما بين هيت والأنبار.

فقطع أمير المؤمنين عليه السلام الخطبة وقال: ويحك بعض خيل معاوية قد دخل الدّسكرة التي تلي جدران الأنبار فقتلوا فيها سبع نسوة وسبعة من الأطفال ذكراً وسبعة إناثاً وشهروا بهم

---

(١) الهداية الكبرى للخصيبي: ١٢٥، والثاقب في المناقب: ٢٤٢.

(٢) في نسخة: فيعجل.

ووطؤوهم بحوافر الخيل وقالوا هذه مراغمة لأبي تراب.

فقام إبراهيم بن الحسن الأزدي بين يدي المنبر فقال يا أمير المؤمنين: هذه القدرة التي رأيت بها وأنت على منبرك إنّ في دارك خيل معاوية ابن آكلة الأكباد وما فعل بشيعتك ولم يعلم بها هذا فلم تغضي عن معاوية.

فقال له: ويحك يا إبراهيم ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة، فصاح النّاس من جوانب المسجد يا أمير المؤمنين فإلى متى يهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة؟ وشيعتك تهلك، فقال لهم: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فصاح زيد بن كثير المرادي وقال: يا أمير المؤمنين تقول بالأمس وأنت تجهز إلى معاوية وتحرّضنا على قتاله ويحتكم إليك الرّجلان في الفعل فتعمل[١] عليك أحدهما في الكلام فتجعل رأسه رأس الكلب فتستجير بك فتردّه بشراً سوّياً.

ونقول لك ما بال هذه القدرة لا تبلغ معاوية فتكفينا شرّه فتقول لنا: وفالق الحبّة وبارىء النّسمة لو شئت أن أضرب برجلي هذه القصيرة صدر معاوية لفعلت فما بالك لا تفعل ما تريد إلاّ أن تضعف نفوسنا فنشكّ فيك فندخل النّار.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لأفعلنّ ذلك ولأعجلنّه على ابن هند، فمدّ رجله على منبره فخرجت عن أبواب المسجد وردّها إلى فخذه وقال: معاشر النّاس أقيموا تاريخ الوقت واعلموه فقد ضربت برجلي هذه السّاعة صدر معاوية فقلبته عن سريره على أمّ رأسه، فظنّ أنه قد أحيط به، فصاح يا أمير المؤمنين فأين النّظرة؟ فرددت رجلي عنه»[٢].

وتوقع النّاس ورود الخبر من الشّام وعلموا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لا يقول إلاّ حقّاً، فوردت الأخبار والكتب بتاريخ تلك السّاعة بعينها من ذلك اليوم بعينه أنّ رِجلاً جاءت من ناحية الكوفة ممدودة متّصلة فدخلت من إيوان معاوية والنّاس ينظرون حتّى ضربت صدره، فقلبته عن سريره على أم رأسه فصاح يا أمير المؤمنين وأين النّظرة؟ ورُدّت تلك الرّجل عنه، وعلم النّاس ما قال أمير المؤمنين إلاّ حقّاً.

تكملة

قد أشرنا سابقاً إلى أنّ هذه الخطبة من خطبه المشهورة، وأنها ممّا رواها جماعة من

(١) دعائم الإسلام للمغربي: ١/ ٣٩١، والبحار: ٣٣/ ٢٨٢.

(٢) هي الشنوف واحدها رعثة وجمعها رعاث وجمع الجمع رعث.

العامّة والخاصّة، ولمّا كانت رواية الصّدوق مخالفة لرواية السّيّد في بعض فقراتها أحببنا إيرادها بسند الصّدوق أيضاً ازدياداً للبصيرة فأقول:

روى في **«البحار»** و **«الوسائل»** من كتاب **«معاني الأخبار»** للصّدوق عن محمّد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني عن عبد العزيز بن يحيى الجلودي عن هشام بن علي ومحمّد بن زكريّا الجوهري، عن ابن عائشة بإسناد ذكره أنّ عليّاً انتهى إليه أنّ خيلاً لمعاوية ورد الأنبار فقتلوا عاملاً له يقال له: حسّان بن حسّان، فخرج مغضباً يجرّ ثوبه حتّى أتى النّخيلة، وأتبعه النّاس فرقى رباوة من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه ثمّ قال:

«أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه وهو لباس التّقوى ودرع الله الحصينة وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذّلّ وسيماء الخسف وديث بالصغار، وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسرّاً وإعلاناً وقلت لكم: اغزوهم من قبل أن يغزوكم فوالذي نفسي بيده ما غزي قوم قط في عقر ديارهم إلاّ ذلوا.

فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي واتّخذتموه وراءكم ظهريّاً حتّى شنّت عليكم الغارات، هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسّان بن حسّان ورجالاً منهم كثيراً ونساء.

والذي نفسي بيده لقد بلغني أنّه كان يدخل على المرأة المسلمة والمعاهدة فينتزع أحجالهما ورعثهما[1]، ثمّ انصرفوا موفورين لم يكلم أحد منهم كلما فلو أنّ أمرأ مسلماً مات من دون هذا أسفاً ما كان عندي فيه ملوماً بل كان عندي به جديراً.

يا عجباً كلّ العجب من تظافر هؤلاء القوم على باطلهم، وفشلكم عن حقّكم إذا قلت لكم اغزوهم في الشّتاء قلتم هذا أوان قرّ وصرّ، وإن قلت لكم اغزوهم في الصّيف قلتم هذا حمارة القيظ انظرنا ينصرم الحرّ عنّا، فإذا كنتم من الحرّ والبرد تفرّون فأنتم والله من السّيف أفرّ.

يا أشباه الرّجال ولا رجال، ويا طغام الأحلام، ويا عقول ربات الحجال والله لقد أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان، ولقد ملأتم جوفي غيظاً حتّى قالت قريش إنّ ابن أبي طالب شجاع، ولكن لا رأي له في الحرب، لله درّهم ومن ذا يكون أعلم بها وأشدّ لها مراساً منّي، فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، ولقد نيفت اليوم على السّتّين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع يقولها ثلاثاً».

فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال: يا أمير المؤمنين أنا وأخي هذا كما قال الله عز وجلّ

---

(١) نهج البلاغة: ٦٢/٤، ومعاني الأخبار: ٣١٠..

حكاية عن موسى: ﴿ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي﴾[١]، فمرنا بأمرك فوالله لننهتنّ إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضا وشوك القتاد، فدعا له بخير ثمّ قال عليه السلام: وأين تقعان ممّا أريد، ثمّ نزل[٢].

قال إبراهيم في كتاب «الغارات»: إنّ القائم إليه العارض عليه جندب بن عفيف الأزدي هو، وابن أخ له يقال له عبد الرّحمان بن عبد الله بن عفيف، والله أعلم بحقائق الوقائع.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است در توبيخ اصحاب خود به جهت تثاقل ايشان از قتال و جدال و تحضيض ايشان به جهاد معاويه رئيس بدعت و ضلال مى فرمايد بعد از حمد الهى و درود نامتناهى بر حضرت رسالت پناهى:

پس به درستى كه جهاد درى است از درهاى بهشت عنبرسرشت، گشاده است آن را خداوند ودود به جهت دوستان خاصه خود و اوست لباس پرهيزكارى و تقوى و زره استوار خدا و سپر محكم حق سبحانه و تعالى، پس هركه ترك نمايد آن را بپوشاند خدا او را جامه خوارى و شامل شود او را بلا و گرفتارى و خار گردانيده شود به مذلت و بى اعتبارى و زده شود بر دل او به ذهاب عقل و بى خردى و گردانيده شود حق از او و مغلوب مى شود به جهت تضييع كارزار و الزام مى شود به ذلت و خوارى و ممنوع مى شود از انصاف و دادگرى.

آگاه باشيد كه به تحقيق خواندم شما را به محاربه اين فرقه طاغيه شب و روز و در نهان و آشكار و گفتم به شما كه جنگ كنيد با ايشان پيش از آن كه ايشان با شما جنگ نمايند، پس به خدا قسم كه هيچ غزا كرده نشد قومى هرگز در اصل خانه خودشان مگر اين كه خوار و ذليل شدند، پس موكول كرديد شما كار خود را به يكديگر و خوار نموديد شما يكديگر را تا اين كه ريخته شد غارت ها پياپى برشما

(١) بحار الأنوار: ١٩/ ٢١٧، وتفسير القمي: ١/ ٢٥٩.

و گرفته شد از شما وطن ها با غلبه و استیلا.

و این مرد که برادر غامد و سفیان بن عوف غامدی است، به تحقیق که وارد شده لشکریان او به شهر انبار و به یقین که کشته است حسّان بن حسّان بکری را و زایل نموده سواران شما را از سرحدهای آن ها و به تحقیق که رسید به من آن که مردان قبیله داخل شده بر زن مسلمه و بر کافر ذمّیه، پس برمی کنده خلخال و دست برنج های او را و گردن بندها و گوشواره های آن را، امتناع نتوانسته است آن زن از آن مرد مگر باگریه و زاری و با قسم دادن به قرابت و خویشی.

پس آن قوم بدنهاد بعد از غارت کردن مراجعت نموده اند در حالتی که تمام بوده اند در حین مراجعت با غنیمت، نرسیده به مردی از ایشان هیچ زخمی و ریخته نشده او را خونی، پس اگر بمیرد مرد مسلمان، پس از این ظلم دل سوز از روی غم و اندوه نباشد به مردن ملامت کرده شده، بلکه هست نزد من به آن لایق گردیده.

ای بسا تعجب ای قوم تعجب کنید چه تعجبی به خدای لایزال که می میراند دل را و می کشد اندوه را از انفاق آن گروه بر باطل خود و از تفرقه شما از حق خود، پس زشت باد روی شما و حزن باد بر شما هنگامی که گشتید هدف تیر انداخته شدهو غارت می کنند بر شما و غارت نمی کنید و جنگ می کنند با شما و جنگ نمی نمایید و نافرمانی کرده می شود خدا و شما خوشنود می باشید.

پس هرگاه امر می کنم شما را به رفتن سوی دشمنان در ایام تابستان می گویید که این شدت گرماست مهلت ده ما را تا سبك شود از ما گرما و هر وقتی که امر می کنم شما را به سیر نمودن به طرف خصمان در وقت زمستان می گویید که این شدت سرما است ما را بگذار تا برطرف شود از ما سرما.

این همه عذرها از برای گریختن است از گرما و سرما، پس چون بودید از گرما و سرما می گریزید، پس شما به خدا سوگند از شمشیر گریزان تر هستید.

ای جماعت شبیه به مردان به حسب شکل و صورت نیستید مردان از روی معنی و حقیقت، حلم های شما مانند حلم های بچگان است و عقل های شما مانند عقل های زنانوهرآینه دوست می داشتم آن که نمی دیدم شما را و نمی شناختم شما را شناختنی که به خدا سوگند که کشیده است ندامت و پشیمانی را و

متعقّب شده است اندوه و پريشانى را.

لعنت كند خدا شما را هرآينه پركرديد دل مرا از ريم و زرداب و پرساختيد سينه مرا از خشم و التهاب و نوشانيديد مرا جرعه هاى غم و اندوه را نفس نفس و فاسد ساختيد رأى مرا بر من با معصيت و خذلان تا آن كه گفتند قريش به درستى كه پسر أبى طالب مردى است شجاع و ليكن مهارت در حرب ندارد.

خدا نگهدار باد پدران ايشان را، آيا هيچ يك از ايشان سخت تر است مرحرب را از روى علاج و مقدم تر است در حرب از روى ايستادن از من؟ هرآينه قيام نمودم در معارك قتال با شجاعان و أبطال در حالتى كه نرسيده بودم بيست سالگى و اكنون كه سن من افزون گشته بر شصت سال ، يعنى در عرض اين مدت غالباً مشغول بوده ام بر جنگ و جدال وليكن هيچ رأى نيست كسى را كه فرمان بردار نشود و اطاعت او را نكنند.

محتوى الجزء الثالث من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

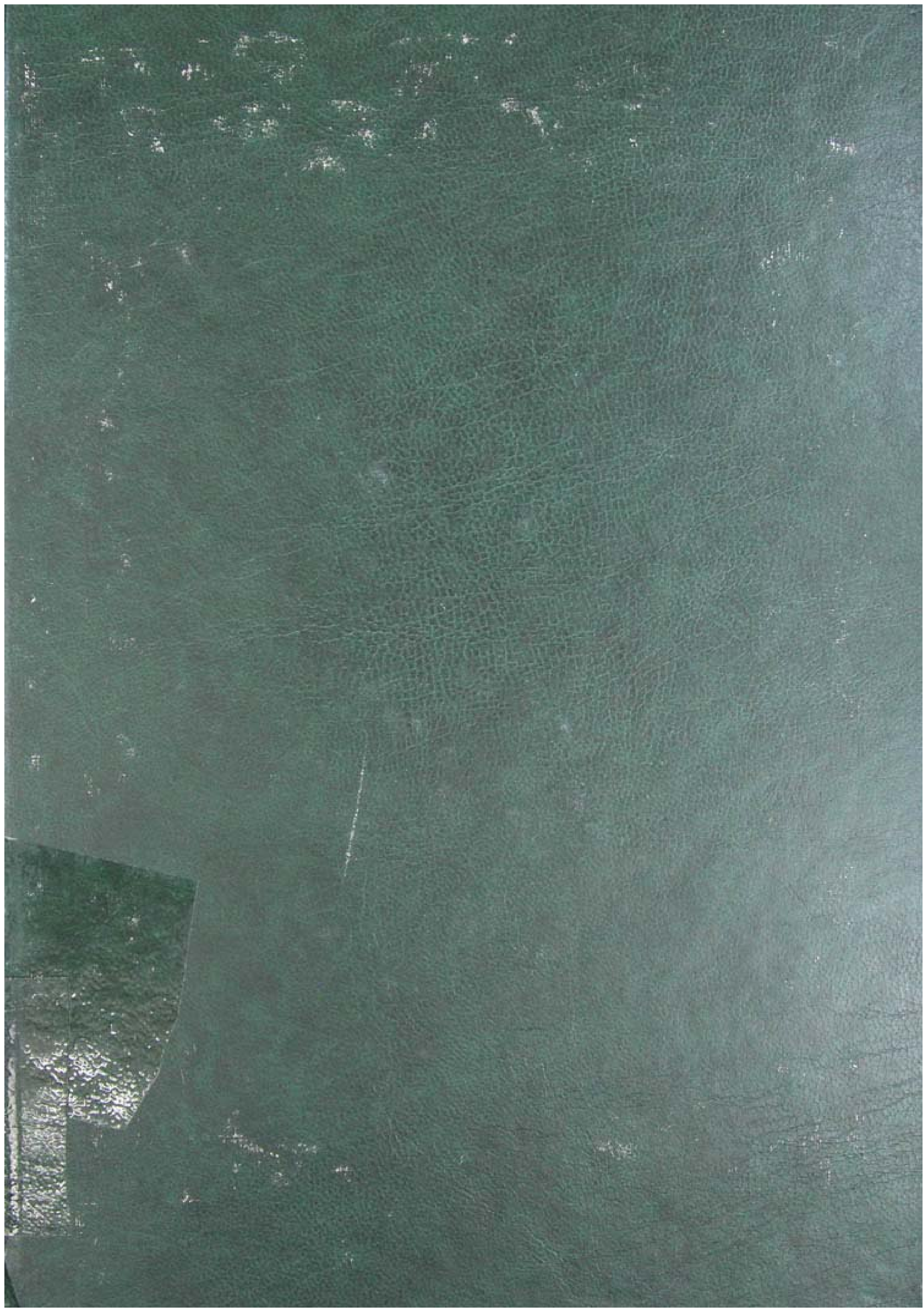

مِنْهاجُ البَراعَةِ

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لِمؤلّفه
العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق
علي عاشور

المجلد الرابع

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ شارع دكاش ـ هاتف: ٢٧٢٦٥٢ ـ ٢٧٢٦٥٥ ـ ٢٧٢٧٨٢ ـ ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ ـ ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثامنة والعشرون من المختار في باب الخطب:

ورواها في «**البحار**» من كتاب «**مطالب السؤول**» لمحمّد بن طلحة، ومن إرشاد الدّيلمي بتغيير تطلع عليه.

« أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وآذَنَتْ بِوَداعٍ، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلاعٍ، أَلاَ وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمارُ وغَداً السِّباقُ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغايَةُ النّارُ، أَفَلا تائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِه؟ أَلا عامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ؟ أَلا وَإِنَّكُمْ في أَيّامِ أَمَلٍ[1] مِنْ وَرائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ في أَيّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ وَلَمْ يَضُرُّهُ أَجَلُهُ، وَمَنْ قَصَّرَ في أَيّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وَضَرَّهُ أَجَلُهُ، أَلا فَاعْمَلُوا في الرَّغْبَةِ كَما تَعْمَلُونَ في الرَّهْبَةِ، أَلاَ وَإِنّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نامَ طالِبُها، وَلاَ كَالنّارِ نامَ هارِبُها، أَلا وَإِنَّهُ مَنْ لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الباطِلُ، وَمَنْ لاَ يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَىٰ يَجُرُّ بِهِ الضَّلاَلُ إِلَى الرَّدَىٰ، أَلاَ وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزادِ، وَإِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ اتِّباعُ الْهَوى وَطُولُ الأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا في الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيا ما تَجْهَزُونَ[2] بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً»[3].

قال الرّضي «قد» أقول: لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزّهد في الدّنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الإتعاظ والإزدجار، ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السّباق والسّبقة الجنّة والغاية النّار»، فإنّ فيه مع فخامة اللّفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل وواقع التّشبيه، سرّاً عجيباً ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسّبقة الجنّة والغاية النّار»، فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل: السّبقة النّار كما قال: «والسّبقة الجنّة».

لأنّ الإستباق إنّما يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنّة، وليس هذا المعنى موجوداً في النّار. نعوذ بالله منها فلم يجز أن يقول: والسّبقة النّار، بل قال:

---

(١) في البحار: مهل.

(٢) في نسخة: تحرزون.

(٣) مصباح المتهجد: ٦٦١، والبحار: ٤١٧/٧٤ ح ٣٩.

«والغاية النار»، لأن الغاية قد ينتهي إليها من لا يسرّه الإنتهاء ومن يسرّه ذلك، فصلح أن يعبّر بها عن الأمرين معاً.

فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ولا يجوز في هذا الموضع أن يقال: سبقتكم بسكون الباء إلى النّار فتأمّل ذلك، فباطنه عجيب وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه عليه السّلام.

وقد جاء في رواية أخرى «والسّبقة الجنّة» بضمّ السّين، والسبقة عندهم اسم لما يجعل للسّابق إذا سبق من مال أو عرض، والمعنيان متقاربان لأن ذلك لا يكون جزاء على فعل الأمر المذموم، وإنما يكون جزاء على فعل الأمر المحمود.

اللغة

(**آذنت**) بالمدّ أي أعلمت من الأذان بمعنى الإعلام قال سبحانه: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٣]. و(**أشرف**) عليه اطلع من فوق، و(**الاطلاع**) هو العلم. يقال طلع على الأمر طلوعاً علمه كأطلعه على افتعل وضمّر الخيل تضميراً علفها القوت بعد السّمن كأضمرها، و(**المضمار**) الموضع يضمر فيه الخيل، وغاية الفرس في السّباق و(**السّباق**) هو المسابقة. و(**السّبقة**) بالضمّ الخطر يوضع بين أهل السّباق كما ذكره السّيد (ره) و(**البؤس**) الشّدة، و(**ظعن**) ظعناً وظعناً بالسّكون والتّحريك من باب نفع سار وارتحل، و(**تجهزت**) الأمر كذا تهيّأت له، وجهاز الميت والعروس والمسافر بالكسر والفتح ما يحتاجون إليه.

الإعراب

المضمار والسّباق وردا بالرّفع والنّصب أما رفع المضمار فعلى كونه خبر إنّ واليوم اسمها، وأمّا نصبه فعلى كونه اسماً واليوم خبراً.

وأُورد [عليه] بأنّه يلزم الإخبار عن الزمان بالزّمان، إذ المضمار زمان واليوم كذلك، فلو أخبر عنه باليوم فكان ذلك إخباراً بوقوع الزّمان في الزّمان، فيكون الزّمان محتاجاً إلى زمان آخر وهو محال.

وأُجيب بمنع استلزام الإخبار بالزمان عن الزّمان، كون الزّمان محتاجاً إلى زمان آخر إذ ربّما يخبر عن بعض أجزاء الزمان بالزّمان لإفادة الجزئيّة لا بمعنى حصوله فيه، والمضمار لمّا كان عبارة عن الزّمان الذي يضمر فيه الخيل، وهو زمان مخصوص لتقيّده بوصف مخصوص صحّ الإخبار عنه باليوم.

وأمّا رفع السّباق فإمّا على كونه مبتدأ مؤخراً وغداً خبره واسم إنَّ ضمير شأن مستتر، أو على جعله خبر إنَّ ويحتاج حينئذٍ إلى تقدير المضاف أي غداً وقت السّباق، وأمّا نصبه فعلى

كونه اسم إنَّ وغداً خبرها، وهو واضح.

المعنى

إعلم أنّ المستفاد من شرح البحراني: أنّ هذه الخطبة من فقرات خطبة طويلة خطب بها يوم الفطر، وسيجيء أوّلها في الكتاب، وهي الخطبة الرّابعة والأربعون المصدّرة بقوله: «الحمد لله غير مقنوط من رحمته»، ونذكر تمامها هناك إن شاء الله برواية الصّدوق فانتظر.

وإنّما قدّمها الرّضي عليها مع كونها بعدها، لما سبق من اعتذاره في خطبة الكتاب، من أنّه لا يراعي التّتالي والنّسق وإنّما يراعي النّكت واللمع، وكيف كان، فمدار ما ذكره هنا على التّزهيد في الدّنيا والتّرغيب في الآخرة فأشار أوّلاً إلى عدم جواز الرّكون والإعتماد على الدّنيا بقوله:

(أمّا بعد فإن الدّنيا قد أدبرت وآذنت بوداع) وأشار بإدبارها إلى تقضي أحوالها الحاضرة وشهواتها الموجودة لكلّ أحد شيئاً فشيئاً كما قال عليه السلام في الدّيوان المنسوب إليه:

رأيت الدّهر مختلفاً يدور فلا حزن يدوم ولا سرور
وقد بنت الملوك به قصوراً فما بقي الملوك ولا القصور

وإنّما أطلق اسم الإدبار على هذا التقضي باعتبار أنّ اللذات الدّنيويّة لما كانت دائماً في التّغير والتقضي المقتضي لمفارقة الإنسان لها وبعدها عنه، لا جرم حسن إطلاق اسم الإدبار عليه تشبيهاً لها بالحيوان المدبر، ولما كانت مفارقة الإنسان عنها مستلزمة لأسفه عليها ووجده بها، أشبه ذلك ما يفعله الإنسان في حق محبوبه المرتحل عنه في وداعه له من الحزن والكآبة، فاستعير اسم الوداع له، وكنى بإعلامها بذلك عن الشّعور الحاصل بمفارقتها من تقضيها شيئاً فشيئاً وهو إعلام بلسان الحال.

ثمّ نبّه على وجوب الإستعداد للآخرة بدنوّها من الإنسان بقوله: **(وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع)** ومثله قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بنيّ إنك منذ سقطت إلى الدّنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة، فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد.

وقال الشّارح البحراني: ولمّا كانت الآخرة عبارة عن الدّار الجامعة للأحوال التي يكون الإنسان عليها بعد الموت من سعادة وشقاوة ولذّة وألم، وكان تقضي العمر مقرّباً للوصول إلى تلك الدّار والحصول فيما يشتمل عليه من خير أو شرّ، حسن إطلاق لفظ الإقبال عليها مجازاً ثمّ نزّلها لشرفها على الدّنيا في حال إقبالها منزلة عال عند سافل فأسند إليها لفظ الإشراف، ولأجل إحصاء الأعمال الدّنيوية فيها منزلة عالم مطلع فأطلق عليها لفظ الإطلاع.

أقول: وإلى هذا المعنى أشير في الحديث القدسي: يا ابن آدم الموت يكشف أسرارك

والقيامة تتلو أخبارك، والكتاب يهتك استارك. الحديث.

ثمّ نبّه على وجوب التهيّؤ بذكر ما يسير إليه وهو الجنّة وما يصار إليه وهو النّار بقوله: **(ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السّباق)** أراد باليوم مدّة العمر الباقية وأطلق اسم المضمار عليها باعتبار أنّ الإنسان في تلك المدّة يستعدّ بالتّقوى والعمل الصالح للسّبقة إلى لقاء الله والتّقرب إلى حضرته، كما أنّ الفرس يستعدّ بالتّضمير إلى سبق مثله.

وكنّى بالغد عمّا بعد الموت وأطلق اسم السباق عليه باعتبار أنّ أفراد النّاس لمّا كانت متفاوتة في حبّ الدّنيا والإعراض عنها، وذلك التّفاوت كان موجباً للقرب والبعد والسّبق واللحوق في الدار الآخرة، فكان السّباق هناك.

بيان ذلك أنّ من كان أكثر استعداداً وأقطع لعلائق الدّنيا عن قلبه لم يكن له بعد الموت عائق عن الوصول إلى الله، ومانع عن إدراك رضوان الله.

ومن أشرب قلبه حب الدّنيا وافتتن بها لا يمكن له الوصول إلى درجات السّابقين الأَولين والنيل إلى مراتب المقرّبين، ومن كان أقلّ استعداداً من هؤلاء وأشدّ علاقة للدنيا، كان من التّالين المقصّرين كما قال عليه السلام في بعض كلماته السّالفة: «ساع سريع نجى وطالب بطيء رجى ومقصّر في النّار هوى والسّبقة الجنّة يستبق إليها السّاع السّريع والغاية النّار يصير إليها التّالي الوضيع»(١).

ثمّ أمر بالتّوبة قبل الموت وإدراك الفوت بقوله: «**أفلا تائب من خطيئته قبل منيته**» إذ بالتوبة تتخلى النّفس عن الرذائل وتستعدّ للتّحلية بالفضائل، فلا تنتظروا بالتّوبة غداً فإنّ دون غدٍ يوماً وليلة قضاء الله فيها يغدو ويروح.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧ - ١٨].

(ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه) عملاً ينجيه من البأس والعذاب ويفضيه إلى الرّاحة وحسن الثّواب، وهو الإتيان بالطاعات والإنتهاء عن المنهيّات.

(ألا وإنكم في أيّام أمل من ورائه أجل فمن عمل) لنفسه **(في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله)** الذي اكتسبه **(ولم يضرّه أجله)** الذي حلّ به، ويكون حاله بعد موته حال

(١) الكافي: ٨/٦٨ بتفاوت، وبحار الأنوار: ٢٨/٣٧٨ بتفاوت.

الغائب الذي قدم على وطنه وأهله **(ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله)** وفرط في طاعة ربه والتّزود لآخرته **(فقد خسر عمله)** الذي عمله **(وضرّه أجله)** الذي حَلَّ به ويكون حاله بعد موته حال الآبق الذي قدم به على مولاه.

وقريب من هذا المضمون كلامه عليه السلام المرويّ في **«البحار»** عن كتاب **«إعلام الدّين»** قال: «النّاس في الدّنيا عامل في الدّنيا للدّنيا قد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على من يخلفه الفقر ويأمنه على نفسه، فيفنى عمره في منفعة غيره، وآخر عمل في الدّنيا لما بعدها، فجاءه له من الدّنيا بغير عمله فأصبح ملكاً لا يسأل الله شيئاً فيمنعه»(١).

(ألا فاعملوا في الرّغبة كما تعملون في الرّهبة) وهو تنبيه على وجوب التّسوية في العمل بين حال الأَمن والخوف وحالة الرّخاء والشدّة، ولا يكون ذلك إلاّ عن نيّة صادقة وعبوديّة خالصة. وفيه إشعار بالتّوبيخ على الغفلة عن ذكر الله والإعراض عن عبادته في حال اللذات الحاضرة والخيرات الواصلة واللجؤ إليه والفزع إليه عند الحوادث الهائلة والمصائب النازلة.

قال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] **(الاوإنّي لم أر)** نعمة **(كالجنّة نام طالبها ولا)** نقمة **(كالنّار نام هاربها)** وفيه تنبيه للموقنين بالجنّة والنّار على كونهم نائمين في مراقد الطبيعة لينتبهوا منها ويستعدّوا بالعمل لما وراءهم من النّعم والنّقم.

وفيه شميمة التعجب من جمع الموقن بالجنّة، وبين عمله بما في الجنّة، من تمام النّعمة، وبين تقصيره عن طلبها بما يؤدي إليها من صالح الأعمال وكريم الأفعال. ومن جمع الموقن بالنّار بين علمه بما فيها من تمام النّقمة وبين الغفلة عن الهرب منها إلى ما يخلص عنها.

(ألا) وإنّ الحق كاسب للمنفعة والباطل جالب للمضرّة **(وإنّه من لم ينفعه الحقّ)** لإعراضه عنه وعدم سلوكه سبيله **(يضرّه الباطل)** الذي وقع فيه ويستنصر به لا محالة **(ومن لا يستقم به الهدى)** ونور العلم والعرفان **(يجرّ به الضّلال)** وظلمة الجهل **(إلى الرّدى)** والخذلان.

يعني أنّ من لم يكن الهدى دليله القائد له بزمام عقله في سبيل الله، ويستقم به في سلوك صراطه المستقيم، فلا بدّ وأنّ ينحرف به الضّلال عن سواء الصراط إلى أحد جانبي التّفريط والإفراط.

(ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن) والرّحيل والسّلوك إلى الله والسعي إلى رضوان الله **(ودللتم على الزّاد)** المقوّى على السّير والسّلوك، والمهيىء للوصول إلى حظيرة القدس، وهو التّقوى

(١) نهج البلاغة: ٤/ ٦٤ ح ٢٦٩، وخصائص الأئمة: ٩٨.

الذي هو مفتاح السّداد وذخيرة المعاد كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

(وإنّ أخوف ما أخاف عليكم) من أمور الدّنيا اثنتان، إحداهما: **(اتباع الهوى)** القائد إلى الرّدى (و) الثانية: **(طول الأمل)** الشاغل عن الآخرة **(فتزوّدوا في الدّنيا من الدنيا)** بالعلم والعمل.

أمّا العلم فلأنّ الاستكمال به إنّما يحصل بواسطة هذا البدن، إما بواسطة الحواس الظاهرة أو الباطنة وتفطن النفس لمشاركات بين المحسوسات ومبايناتها والظاهر أنّ هذا من الدّنيا في الدّنيا.

وأما العمل فلأنّه عبارة عن حركات وسكنات مستلزمة لهيئآت مخصوصة وهي إنّما تحصل بواسطة هذا البدن أيضاً، وكلّ ذلك من الدّنيا في الدّنيا، وكيف كان فهما زادان موصلان إلى الله سبحانه فلتتزود منهما **(ما تحرزون به أنفسكم غدا)** وتحفظونها من عذاب النّار ومن غضب الجبار.

تكملة

قد أشرنا إلى أنّ هذه الخطبة مروية في «**البحار**» من كتاب «**مطالب السّؤول**» ومن «**إرشاد المفيد**»، ولمّا كان رواية الإرشاد مختلفة لرواية السّيد أحببنا ذكرها.

فأقول: قال في «**الإرشاد**»: من كلام أمير المؤمنين ما اشتهر بين العلماء وحفظه ذوو الفهم والحكماء: «أما بعد فإنّ الدّنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ألا وإنّ المضمار اليوم وغداً السّباق، والسّبقة الجنة والغاية النار ألا وإنكم في أيّام مهل من ورائه أجل يحثه عجل فمن أخلص لله عمله لم يضرّه أمله، ومن أبطأ به عمله في أيام مهله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه أمله.

ألا فاعملوا في الرّغبة والرّهبة فإن نزلت بكم رغبة فاشكروا الله واجمعوا معها رهبة، وإن نزلت بكم رهبة فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة، فإن الله قد تأذن للمحسنين بالحسنى ولمن شكر بالزّيادة، ولا كسب خير من كسبه ليوم تدّخر فيه الذخائر ويجمع فيه الكبائر وتبلى فيه السّرائر.

وإني لم أر كالجنّة نام طالبها ولا مثل النّار نام هاربها، ألا وإنّه من لا ينفعه اليقين يضرّه الشّك، ومن لا ينفعه حاضر لبه ورأيه فغائله عنه أعجز، ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزّاد، وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل، لأنّ اتباع الهوى يصدّ عن الحقّ، وطول الأمل ينسي الآخرة.

وإنّ الدّنيا قد ترحلت مدبرة وإنّ الآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل واحد منهما بنون فكونوا إن استطعتم من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدّنيا، فإنّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[١].

تزهيد وترغيب

في ذكر طائفة من الأحاديث المنبّهة عن نوم الغفلة والمزهدة عن الدّنيا المرغبة في الآخرة.

مثل ما رواه محمّد بن يعقوب الكليني عطر الله مرقده بإسناده عن محمّد بن مسلم بن عبيد الله قال: سئل علي بن الحسين عليهما السّلام أي الأعمال أفضل عند الله عزّ وجلّ؟ قال: ما من عمل بعد معرفة الله تعالى ومعرفة رسول الله أفضل من بغض الدّنيا، فإن لذلك شعباً كثيرة وللمعاصي شعب.

فأوّل ما عُصِيَ الله عزّ وجلّ به الكبر، معصية إبليس لعنه الله حين أبى واستكبر وكان من الكافرين.

ثمّ الحرص. وهي معصية آدم وحواء حين قال الله لهما: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩] فأخذا ما لا حاجة بهما إليه فدخل ذلك على ذرّيتهما إلى يوم القيامة، فلذلك إن أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه.

ثمّ الحسد. وهي معصية ابن آدم. حيث حسد أخاه فقتله فتشعّب من ذلك حبّ النساء وحب الدّنيا[٢] وحبّ الرّئاسة وحبّ الرّاحة وحبّ الكلام وحبّ العلوّ وحبّ الثّروة فصرن سبع خصال فاجتمعن كلهن في حبّ الدّنيا، فقالت الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة والدّنيا دنيتان: دنيا بلاغ ودنيا ملعونة»[٣].

وبهذا الإسناد عن المنقري عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال الله في مناجاة موسى عليه السلام: «يا موسى إنّ الدّنيا دار عقوبة عاقبت فيها آدم عند خطيئته وجعلتها ملعونة ملعون ما فيها إلاّ ما كان فيها لي؛ يا موسى إنّ عبادي الصّالحين زهدوا في الدّنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم، وما من أحد عظمها فقرّت عينه فيها ولم يحقّرها أحد إلاّ انتفع بها»[٤].

(١) نهج البلاغة: ١/٩٣، والكافي: ٨/٥٨ ح ٢١ والارشاد: ١/٢٣٥، والبحار: ٧٤/٢٩٤.
(٢) في نسخة: الدينار.
(٣) الكافي: ٢/٣١٧ ح ٩، والأمالي: ٧٦٥.
(٤) الكافي: ٢/١٣١، والخصال: ٢٥.

وبإسناده عن مهاجر الأسدي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مرّ عيسى بن مريم على قرية قد مات أهلها وطيرها ودوابّها؛ فقال: أما أنّهم لم يموتوا إلاّ بسخطة ولو ماتوا متفرقين لتدافنوا».

فقال الحواريّون: يا روح الله وكلمته ادع الله أن يحييهم لنا فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنتجنبها، فدعا عيسى ربّه، فنودي من السماء: نادهم.

فقام عيسى بالليل على شرف من الأرض فقال: يا أهل هذه القرية، فأجابه منهم مجيب: لبيك يا روح الله وكلمته فقال: ويحكم ما كانت أعمالكم؟ قال: عبادة الطاغوت وحبّ الدّنيا مع خوف قليل وأمل بعيد وغفلة في لهو ولعب.

فقال: كيف كان حبّكم للدّنيا؟ قال: كحبّ الصّبي لأمّه، إذا أقبلت علينا فرحنا وسررنا، وإذا أدبرت عنا بكينا وحزنا، قال: كيف كان عبادتكم الطاغوت؟ قال: الطاعة لأهل المعاصي، قال: كيف كان عاقبة أمركم؟ قال: بتنا ليلة في عافية وأصبحنا في الهاوية.

قال: وما الهاوية؟ قال: سجّين، قال: وما سجّين: قال جبال من جمر توقد علينا إلى يوم القيامة، قال: فما قلتم وما قيل لكم؟ قال: قلنا: ردنا إلى الدّنيا فنزهد فيها، قيل: لنا كذبتم، قال: ويحك كيف لم يكلمني غيرك من بينهم؟ قال: يا روح الله وكلمته إنّهم ملجومون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد، وإنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل العذاب عمّني معهم، فأنا معلق بشعرة على شفير جهنّم لا أدري أكبكب فيها أم أنجو منها.

فالتفت عيسى إلى الحواريّين فقال: يا أولياء الله أكل الخبز اليابس بالملح الجريش والنّوم على المزابل خير كثير مع عافية الدّنيا والآخرة»[١].

وعن ابن أبي يعفور قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «من تعلق قلبه بالدنيا تعلق بثلاث خصال: هم لا يفنى وأمل لا يدرك ورجاء لا ينال»[٢].

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال عليّ بن الحسين عليه السلام: إنّ الدّنيا قد ارتحلت مدبرة وإنّ الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكلّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدّنيا.

ألا وكونوا من الزّاهدين في الدّنيا الرّاغبين في الآخرة، ألا إنّ الزّاهدين في الدّنيا اتخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً، وقرضوا من الدّنيا تقريضاً.

(١) علل الشرائع: ٢/ ٤٦٧، وبحار الأنوار: ١٤/ ٣٢٣.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٢٠ ح ١٦، وتحف العقول: ٣٦٧.

ألا ومن اشتاق إلى الجنّة سلا من الشّهوات، ومن أشفق من النّار رجع عن المحرّمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، ألا إنّ لله عباداً كمن رأى أهل الجنّة في الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النّار في النّار معذّبين، شرورهم مأمونة وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة، فصاروا بعقبى راحة طويلة.

أمّا الليل فصافون أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم يجأرون إلى ربهم يسعون في فكاك رقابهم.

وأمّا النّهار فحكماء علماء بررة أتقياء، كأَنهم القداح قد براهم الخوف من العبادة ينظر إليهم النّاظر فيقول: مرضى وما بالقوم من مرض أم خولطوا فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النّار وما فيها»[1].

ومن **«عيون أخبار»** الرّضا عن أبيه عن سعد عن ابن هاشم عن ابن المغيرة قال: سمعت الرّضا عليه السلام يقول:

إنك في دار لها مدة	يقبل فيها عمل العامل
ألا ترى الموت محيط بها	يكذب فيها أمل الآمل
تعجل الذنب بما تشتهي	وتأمل التوبة في قابل
والموت يأتي أهله بغتة	ما ذاك فعل الحازم العاقل[2]

(١) تحف العقول: ١٦٠، وبحار الأنوار: ٧٠/ ٤٤.

(٢) عيون الأخبار: ١/ ١٨٩.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است كه تزهيد مى فرمايد در آن بندگان را از دنيا و ترغيب مى نمايد ايشان را در اخرى و مى فرمايد:

پس از حمد خدا و درود بر خاتم انبيا پس به تحقيق كه دنيا روگردانيده و اعلام كرده به وداع و فراق و به درستى كه آخرت روآورده و مشرف شده است به ظهور و اطلاع. آگاه باشيد كه امروز كه زمان مدت عمر است وقت گداختن بدن است و رياضات نفسانيه به اعمال صالحه فردا كه روز قيامت است پيشى جستن است و ترقى نمون در درجات عاليه و پيش برد اهل آن سرا بهشت جاويدان است و منتهاى كار اين سرا آتش سوزان.

پس آيا هيچ توبه كننده اى نيست از گناهان خود پيش از رسيدن مرگ؟ و آيا هيچ عمل كننده اى نيست پيش از روز سختى و شدت؟ آگاه باشيد به درستى كه شما هستيد در روزگار اميدوارى كه از عقب او است مرگ و گرفتارى، پس هركه عمل كند در روزهاى اميد خود پيش از حضور اجل او، پس به تحقيق كه زيان نبخشد او را عمل او و ضرر نرساند او را اجل او.

آگاه باشيد، پس عمل نماييد در زمان فراغت و رغبت همچنان كه عمل مى كنيد در زمان خوف و خشيت. بدانيد و آگاه باشيد به درستى كه من نديدم نعمتى همچو بهشت كه بخوابد طالب او و نه نقمتى مانند آتش سوزنده كه بخوابد گريزنده او. بدانيد به تحقيق كسى كه سود نرساند او را حق و راستى، زيان رساند او را باطل و ناراستى و هركه به راه راست نيارد او را هدايت، بكشد او را گمراهى به چاه هلاكت.

آگاه باشيد به درستى كه شما امر كرده شده ايد به رفتن جانب خداوند احديت و دلالت كرده شده ايد بر ذخيره و توشه اين طريقت و به درستى كه ترسناك ترين چيزى كه مى ترسم بر شما، متابعت خواهشات نفسانيه است و درازى اميد به زخارف دنيويه. توشه برداريد در دنيا از دنيا آن مقدارى كه با آن چيزى كه بتوانيد نگه بداريد با آن نفس هاى خود را فردا.

ومن خطبة له عليه السلام وهي التاسعة والعشرون من المختار في باب الخطب

خطب بها في غارة الضحاك بن قيس على ما تعرفها تفصيلاً وقد رواها في **«شرح المعتزلي»** من ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني والعلامة المجلسي في **«البحار»** من أمالي الشيخ و**«إرشاد المفيد»**، والشيخ السعيد أبو المنصور أحمد بن علي الطبرسي في كتاب **«الإحتجاج»** باختلاف كثير تطلع عليه بعد الفراغ من شرح ما أورده السيد في الكتاب وهو قوله:

«أَيُّها النّاس الْمُجْتَمِعَةُ أَبدانُهُمْ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلاَمُكُمْ يُوهِي الصُّمَ الصِّلاَب، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فيكُمُ الأَعْداءَ، تَقُولُونَ في الْمَجالِسِ كَيْتَ وكَيْتَ، فَإذا جاءَ الْجِهَادُ قُلْتُمْ حَيْدي حَيادِ، ما عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعاكُمْ وَلاَ اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاساكُمْ، أعاليلُ بِأَضاليلَ، وَسَأَلْتُمُوني التَّطْويلَ، دِفاعَ ذي الدَّيْنِ الْمَطُولِ لاَ يَمْنَعُ الضَّيمُ الذَّليلَ، وَلاَ يُدْرَكُ الْحَقُّ إلاّ بِالْجِدِّ، أَيَّ دارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إمامٍ بَعْدِي تُقاتِلُونَ، الْمَغْرُورُ وَاللّهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَىٰ بِكُمْ فَقَدْ رَمَىٰ بِأَفْوَقَ ناصِلٍ، أَصْبَحْتُ وَاللّهِ لاَ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاَ أَطْمَعُ في نَصْرِكُمْ، وَلاَ أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ، ما بالُكُمْ ما دَواؤُكُمْ ما طِبُّكُمْ، الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثالُكُمْ، أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ، وغَفْلَةً «وعِفَّةً خ» مِنْ غَيرِ وَرَعٍ، وطَمَعاً في غَيرِ حَقٍّ»[1].

اللغة

(**الوهي**) الضعف ووهى الحجر والسقاء كوقى انشقّ وأوهاه شقة و (**الصمّ**) و (**الصّلاب**) من أوصاف الحجر والصخرة الصماء التي ليس فيها صدع ولا خرق (**وكيت وكيت**) كناية عن القول و (**حيدي حياد**) قال الشارح المعتزلي: كلمة يقولها الهارب الفار وهي نظير قولهم: فيحى فياح أي اتّسعى، وأصلها من حاد الشيء، أي انحرف[2]، وقال الشارح البحراني: حياد اسم للمغارة والمعنى اعدلي عنا أيتها الحرب، ويحتمل أن يكون من أسماء الأفعال كنزال فيكون قد أمر بالتنحّى مرّتين بلفظين مختلفين.

أقول: قال نجم الأئمة الرّضي: فعال المبني على أربعة أضرب: **الأول**: اسم فعل كنزال **الثاني**: المصدر نحو لا مساس أي لامس. **الثالث**: الصّفة المؤنثة ولم يجيء في المذكر وجميعها يستعمل من دون الموصوف وهي بعد ذلك على ضربين: إما لازمة للنّداء سماعاً

(١) الإرشاد: ١/ ٢٨ بتفاوت، ونهج السعادة بتفاوت: ٢/ ٥٧٠.

(٢) شرح النهج: ٢/ ١١١.

نحو يالكاع أي لكعاء ويا فساق ويا خباث أي يا فاسقة ويا خبيثة، وأما غير لازمة للنّداء وهي على ضربين.

أحدهما: ما صار بالغلبة علماً جنسيّاً كأسامة، وجعل من هذا القسم حلاق وجباذ للمنية، كانت في الأَصل صفة لكل ما تحلق عامة وتجبذ، أي: تجذب، ثمّ اختصّت بجنس المنايا، وفشاش وصمام وحياد للداهية، لأنّها تفش أي تخرج ريح الكبر وتحيد أي تميل سمّيت بها تفولا وتصم أي تشتدّه، يقال فشاش فشيه من استه إلى فيه أي أخرجي ريح الكبر منه من استه مع فيه، ويقال: حيدي حياد أي ارجعي يا راجعة، ويقال صمّي صمام أي اشتدّي يا شديدة أي زيدي في الشدّة أو ابقي على شدّتك وفياح للغارة، يقولون فيحي فياح أي اتّسعي يا متّسعة على تأويل صمّي صمام.

قال: فهذه وأمثالها أعلام للجنس بدليل وصفها بالمعرفة نحو حناذ الطالعة، ولو لم تكن معارف لم يجز حذف حرف النّداء معها في نحو فشاش فشيه وحيدي حياد.

والضّرب الثّاني: من غير اللاّزمة للنّداء ما بقي على وصفيّتها نحو قطاط أي قاطة: ولزام أي لازمة وبداد أي متبدّدة متفرّقة، **والرابع** الأعلام الشّخصية وجميع ألفاظها مؤنثة، وإن كان المسمّى بها مذكراً أيضاً نحو لصاف منزل من منازل بني تميم وخصاف فحل، وحضار كوكب وظفار مدينة وقطام اسم امرأة إلى آخر ما ذكره.

وقد لخصناه بطوله لعدم اقتضاء المجال إلا ذكر هذا القدر، وقد تحصل منه أن حياد علم جنس للداهية، فعلى ما ذكره بطل ما توّهمه الشّارح البحراني من جعلها علماً للغارة أو اسم فعل كنزال.

و (عز) فلان بالزّاء المعجمة المشدّدة قوى بعد ذلة، و (**قاساه**) كابده و (**أعاليل**) و (**أضاليل**) قال البحراني: جمع اغلال وأضلال وهما جمع علّة اسم لما يتعلل به من مرض وغيره، وضلة اسم من الضّلال و (**المطول**) كصبور كثير المطال، وهو تطويل الوعد وتسويفه و (**الضيم**) الظلم، وفي بعض النّسخ بدل تمنعون تمتّعون على التّفعل بحذف إحدى التّائين أي تتنفعون و (**الأخيب**) أشدّ خيبة وهي الحرمان و (**الأفوق**) السّهم المكسور الفوق وهو موضع الوتر منه و (**النّاصل**) الذي لا نصل فيه و (**غفلة**) في بعض النّسخ عفة بدله.

الإعراب

كلمة كيت لا تستعمل إلا مكررة بواو العطف، وهي مبنيّة لوقوعها موقع الجملة الغير المستحقة للإعراب.

فإن قيل: وكان يجب أن لا تكون مبنيّة كالجمل.

قيل: يجوز خلو الجمل عن الإعراب والبناء لأَنهما من صفات المفردات ولا يجوز خلو المفرد عنهما، فلما وقع المفرد في ما لا إعراب له في الأَصل ولا بناء ولم يجز أن يخلو أيضاً عنهما مثله بقي على الأَصل الذي ينبغي أن تكون الكلمات عليه وهو البناء إذ بعض المبنيّات وهو الخالي عن التركيب يكفيه عريه عن سبب الإعراب فعريه عن سبب الإعراب سبب البناء كما قيل عدم العلة علة العدم.

فإن قلت: إنّها وضعت لتكون كناية عن جملة لها محل من الإعراب نحو قال فلان كيت وكيت أي زيد قائم مثلاً وهي في موضع النّصب.

قيل: إنّ الإعراب المحلي في الجملة عارض فلم يعتد به وكيف كان، فبناؤها على الفتح أكثر لثقل الياء كما في أين وكيف ولكونها في الأَغلب كناية عن الجملة المنصوبة المحل، ويجوز بناؤها على الضمّ والكسر أيضاً تشبيهاً بحيث وجير وحياد وأمثالها مبنيّة على الكسر.

قال نجم الأَئمة الرّضي: وأمّا الأَعلام الجنسية فكان حقّها الإعراب، لأَنّ الكلمة المبنيّة إذا سمي بها غير ذلك اللفظ وجب إعرابها كما يسمّى بأين شخص، لكنّها بنيت لأَنّ الأعلام الجنسيّة أعلام لفظية، فمعنى الوصف باق في جميعها إذ هي أوصاف غالبة انتهى.

وفي إسناد عزت إلى الدّعوة توسع، وأعاليل خبر مبتدأ محذوف، وبأضاليل متعلقة بأعاليل نفسها، أي إذا دعوتكم إلى القتال تعللتم وهي أعاليل بالأَضاليل التي لا جدوى لها.

ودفاع إمّا منصوب بحذف الجار تشبيهاً لدفاعهم بدفاع ذي الدّين، أو مرفوع استعارة لدفاعهم، والمغرور مبتدأ ومن خبره، وهو أولى من جعله خبراً مقدّماً ومن مبتدأ، لكونه أبلغ في إثبات الغرور لمن إغترّ بهم من حيث إفادته الحصر دون العكس، وقولاً وغفلة وطمعاً منصوبات بالأَفعال المقدرة.

المعنى

قد أشرنا أنّ السّبب في هذه الخطبة هو غارة الضّحاك بن قيس بعد قصّة الحكمين وعزمه على المسير إلى الشام، وذلك على ما روي في «**شرح المعتزلي**» وغيره من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمّد الثّقفي باختصار منّا هو:

أنّ معاوية لما بلغه أنّ علياً بعد واقعة الحكمين تحمل إليه مقبلاها له ذلك، فخرج من دمشق معسكراً وبعث إلى كور الشّام فصاح فيها أنّ علياً قد ساء إليكم، فاجتمع إليه النّاس من كلّ كورة وأرادوا المسير إلى صفّين.

فمكثوا يجيلون الرّأي يومين أو ثلاثة حتّى قدمت عليهم عيونهم أنّ علياً اختلف عليه

أصحابه ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحكومة، وأنّه قد رجع عنكم إليهم فكبر النّاس سروراً لانصرافه عنهم، وما ألقى الله عز وجل من الخلاف بينهم.

فلم يزل معاوية معسكراً في مكانه منتظراً لما يكون من علي وأصحابه، وهل يقبل بالنّاس أم لا، فما برح حتّى جاء الخبر أنّ عليّاً قد قتل أولئك الخوارج وأنّه أراد بعد قتلهم أن يقبل بالنّاس، وأنّهم استنظروه ودافعوه فسر بذلك هو ومن قبله من النّاس.

فعند ذلك دعا معاوية الضّحاك بن قيس الفهري وقال له: سر حتّى تمرّ بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليها، وإذا أصبحت في بلدة فامس في أخرى ولا تقيمن لخيل بلغك أنّها قد سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها.

فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف، فأقبل الضّحاك فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب حتّى مرّ بالثّعلبية فأغار على الحاج فأخذ أمتعتهم، ثمّ أقبل فلقي عمرو بن عميس بن مسعود الذّهلي وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله فقتله في طريق الحاج عند القطقطانة وقتل معه ناساً من أصحابه فخرج علي عليه السلام إلى النّاس وهو يقول على المنبر:

«يا أهل الكوفة أخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طرف آخر، أخرجوا فقاتلوا عدوّكم وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين».

فردّوا عليه ردّاً ضعيفاً ورأى منهم عجزاً وفشلاً فقال: «والله لوددت أنّ لي بكل ثمانية منكم رجلاً منهم، ويحكم أخرجوا معي ثم فرّوا عني ما بدا لكم فوالله ما أكره لقاء ربّي على نيتي وبصيرتي، وفي ذلك لي روح عظيم وفرج من مناجاتكم»[١]، ولما رأى تثاقل أصحابه وتقاعدهم عنه خطبهم بهذه الخطبة فقال:

(أيها النّاس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم) والمتفرّقة آراؤهم **(كلامكم يوهي)** الجبال **(الصمّ الصّلاب)** أي الضعيف القلوب الصّلبة التي هي كالحجارة أو أشدّ قسوة، ويظنّ السّامعون أنّ وراءه بأساً ونجدة.

(وفعلكم يطمع فيكم الأعداء) أراد به تخاذلهم عن الجدال وتقاعدهم عن القتال **(تقولون في المجالس)** إذا حنيتم وأنفسكم **(كيت وكيت)** أي سنغلب عدوّنا ونقتل خصومنا ولا محل لهم منّا ونحو ذلك، **(وإذا جاء الجهاد)** وشاهدتم الأنجاد **(قلتم حيدي حياد)** وكنتم كالحمر المستنفرة فرّت من قسورة.

---

(١) الإرشاد: ١/ ٢٧٢، ونهج السعادة: ٢/ ٥٢٧.

(ما عزّت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم) يعني: من دعاكم لم يعز بدعوته من ذلته، ومن قاساكم لم يسترح قلبه من تعبه، وإذا دعوتكم إلى الجهاد والقتال تعللتم بأمور وهي **(أعاليل)** باطلة **(بأضاليل)** لا جدوى لها ولا طائل تحتها **(وسألتموني)** التأخير **(والتطويل)** كلّ ذلك ذّبا عنكم ودفاعاً عن أنفسكم **(كدفاع ذي الدّين المطول)** عن نفسه المماطل لدينه اللازم له **(لا يمنع الضيم الذّليل)** الحقير، **(ولا يدرك الحقّ إلاّ بالجد)** والاجتهاد والتّشمير.

في **(أيّ دار)** أو عن أيّ دار **(بعد داركم)** التي أنتم عليها وهي العراق، أو دار الإسلام التي لا نسبة لغيرها إليها **(تمنعون)** عدّوكم إذا أخرجوكم عن دياركم ومساكنكم **(ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون)** خصومكم إذ تركتم القتال ونثيتم عنه بجانبكم.

ليس **(المغرور والله)** **إلاّ** **(من غررتموه)** حيث اغتر بكم مع كثرة ما يشاهد منكم من خلف المواعيد والتّثاقل عن الجهاد وما يصدر عنكم من أفعال الرذول الأدغار، **(ومن فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب)** إخبار عن سوء حال من كانوا حزبه ومن يقاتل بهم، والتّعبير عن الإبتلاء بهم بالفوز على التهكم، والسّهم الأخيب التي لا غنم لها في المسير كالثلاثة المسمّاة بالإدغار، أو التي فيها غرم كالتي لم تخرج حتّى استوفيت أجزاء الجزور فحصل لصاحبها غرم وخيبة.

وقد شبّه نفسه وخصومه باللاعبين بالميسر وشبه فوزه بهم بالفوز بأحد السّهام الخائبة، فلأجل ملاحظة هذا الشّبه استعار لهم لفظ السّهم بصفة الأخيب وإطلاق الفوز هنا مجاز من باب إطلاق أحد الضّدين على الآخر مثل تسمية السّيئة جزاء.

(ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل) شبه إرسالهم في الحرب بالرمي بالسّهام واستعار لهم أوصاف السّهم من الأفوق، واستعار لفظ الرمي لمقاتلته بهم، ثم خصّصهم بأرده الأوصاف للسّهم التي يبطل معها فائدته لمشابهتهم ذلك السّهم في عدم الإنتفاع بهم في الحرب وعدم الظفر معهم بالمقصود.

(أصبحت والله لا أصدق قولكم) لكثرة ما شاهدت منكم من العادات الباطلة والأقوال الكاذبة **(ولا أطمع في نصركم)** مع تثاقلكم عن الجهاد وتقاعدكم عن القتال غير مرّة، **(ولا أوعد بكم العدو)** إذ الوعيد بهم مع طول تخلفهم وشعور العدو بذلك، ممّا يوجب جرأة العدو وتسلّطه و جسارته.

(ما بالكم) وما شأنكم الذي أوجب لكم التخاذل والتّصامم عن ندائي، و **(ما دواؤكم)** و**(ما طبكم)** كي أداوي وأعالج المرض الذي أضعفكم عن استماع دعائي.

وقيل: إنّ الطب بمعنى العادة على حدّ قوله:

فما أن طبنا جبن ولكن منايانا ودولة أخرينا

والأوّل هو الأظهر **(القوم رجال أمثالكم)** فما أخوفكم منهم.

قال الشاعر:

قـاتـلـوا الـقـوم يـا خـزاع ولا يـدخـلـكـم مـن قـتـالـهـم فـشـل
الـقـوم أمـثـالـكـم لـهـم شـعـر فـي الـرّأس لا يـنـشـرون إن قـتـلـوا

ثمّ عيرهم على أمور مستقبحة شرعاً منفور عنها عادة.

أحدها: ما أشار إليه بقوله: **(أقولا بغير علم)** أراد به قولهم: إما نفعل بالخصوم كذا وكذا مع أنّه لم يكن في قلوبهم إرادة الحرب أو دعواهم الإيمان والطاعة مع عدم الإطاعة، فكأنّهم لا يذعنون بما يقولون، وعلى الرّواية الأخرى وهي أقولا بغير عمل كما هو الأظهر، فيكون إشارة إلى ما يعدونه به من النّهوض إلى الحرب مع عدم وفائهم بالوعد، وعدم قيامهم بما قالوا تذكيراً لهم بما في ذلك من المقت الشديد والخزي الأكيد، قال سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

الثاني: ما أشار إليه بقوله **(وغفلة من غير ورع)** أراد به غفلتهم عمّا يصلحهم من غير ورع يحجزهم عن المحارم وينبّههم عن نوم الغفلة.

الثالث: ما أشار إليه بقوله **(وطمعاً في غير حقّ)** لعله أراد به طمعهم في أن يوفر عطياتهم ويمنحهم زيادة على ما كان يؤتيهم، وكأنّه عقل من بعضهم أنّ سبب تسويفهم وتخلفهم عن ندائه هو الطمع في التّوفير، كما فعل معاوية والخلفاء قبله خذلهم الله، فردعهم عن ذلك بأنّه طمع من غير استحقاق هذا.

وروي في «**شرح المعتزلي**» من كتاب الغارات لإبراهيم الثّقفي أنّ عليّاً دعا حجر بن عدي الكندي بعد غارة الضحاك، فعقد له على أربعة آلاف فخرج حجر حتّى مرّ بالسّماوة وهي أرض كلب، فلقي بها امرء القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم الكلبي وهم أصهار الحسين بن عليّ بن أبي طالب، فكانوا ولاءه في الطريق وعلى المياه فلم يزل في أثر الضّحاك حتى لقاه بناحية ترمد فواقعه فاقتتلوا ساعة، فقتل من أصحاب الضّحاك تسعة عشر رجلاً، وقتل من أصحاب حجر رجلان وحجز الليل بينهما، فمضى الضّحاك فلما أصبحوا لم يجدوا له ولا لأصحابه أثراً، وكان الضّحاك يقول بعد: أنا ابن قيس أنا أبوأنيس أنا قاتل عمرو بن عميس[1].

---

(١) الغارات: ٢/٤٢٦، ونهج السعادة: ٢/٥٢٨.

تكملة

قد أشرنا سابقاً إلى أنّ هذه الخطبة مرويّة بطرق متعدّدة، والمستفاد من رواية الإحتجاج والبحار من الإرشاد أنها من الخطبة السّابعة والعشرين ملتقطة من خطبة طويله له عليه السلام ولا بأس بذكر تلك الرّواية زيادة للبصيرة.

فأقول: قال في «**الاحتجاج**» و «**الإرشاد**» على ما رواه من الأخير في «**البحار**»: ومن كلام له عليه السلام يجري مجرى الاحتجاج مشتملاً على التّوبيخ لأصحابه على تثاقلهم عن قتال معاوية والتنفيذ متضمّناً للّوم والوعيد.

«أيّها النّاس إنّي استنفرتكم لجهاد هؤلاء القوم فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا شهوداً بالغيب، أتلو عليكم الحكمة فتعرضون عنها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتفرقون عنها، كأنكم حمر مستنفرة فرّت من قسورة، وأحثكم على جهاد أهل الجور، فما أتى عليّ آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سبأ، ترجعون إلى مجالسكم، تتربعون حلقاً، تضربون الأمثال، وتنشدون الأشعار، وتجسّسون الأخبار.

حتّى إذا تفرقتم تسألون عن الأسعار جهلة من غير علم، وغفلة من غير ورع، وتتبّعاً من غير خوف، ونسيتم الحرب والاستعداد لها، فأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها، شغلتموها بالأعاليل والأضاليل، فالعجب كلّ العجب، وكيف لا أعجب من اجتماع قوم على باطلهم وتخاذلكم عن حقّكم.

يا أهل الكوفة أنتم كأمّ مجالد حملت فأملصت[1] فمات قيّمها، وطال أيّمها، وورثها أبعدها والذي فلق الحبة وبرأ النّسمة إنّ من ورائكم الأعور الأدبر جهنّم الدّنيا لا تبقي ولا تذر، ومن بعده النّهاس[2] الفراس الجموع المنوع.

ثم ليتوارثنكم من بني أميّة عدّة ما لآخر بأرأف بكم من الأوّل ما خلا رجلاً واحداً[3]، بلاء قضاه الله على هذه الأمة لا محالة كاين، يقتلون أخياركم، ويستعبدون أراذلكم، ويستخرجون كنوزكم وذخائركم من جوف حجالكم نقمة بما ضيّعتم من أموركم، وصلاح أنفسكم ودينكم.

يا أهل الكوفة أخبركم بما يكون قبل أن يكون لتكونوا منه على حذر، ولتنذروا به من

---

(١) أملصت المرأة بولدها أسقطت.

(٢) النهاس اللحم أخذه بمقدم الأسنان ونهس الحية لسعها وفرس الأسد فريسته ودق عنقها والمراد بالنهاس الفراس، أما هشام بن عبد الملك لاشتهاره بالبخل أو سليمان بن عبد الملك فإنه الذي قضيت له الخلافة بعد وفاة الحجاج بقليل.

(٣) عمر بن عبد العزيز.

اتّعظ واعتبر، كأنّي بكم تقولون: إنّ عليّاً يكذب كما قالت قريش لنبيّها وسيّدها نبيّ الرّحمة محمّد بن عبد الله حبيب الله.

فياويلكم فعلى من أكذّب؟ أعلى الله فأنا أوّل من عبد الله ووحده، أم على رسول الله فأنا أوّل من آمن به وصدقه ونصره، كلاّ ولكنّها لهجة خدعة كنتم عنها أغنياء.

والذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة لتعلمنّ نبأها بعد حين، وذلك إذا صيّرها، إليكم جهلكم لا ينفعكم عندها علمكم، فقبحا لكم يا أشباه الرّجال ولا رجال وحلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، أما والله أيّها الشّاهدة أبدأنهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، ما أعزّ الله نصر من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، ولا قرّت عين من رآكم، كلامكم يوهن الصمّ الصّلاب، وفعلكم يطمع فيكم عدوّكم المرتاب.

ياويحكم أي دار بعد داركم تمنعون، ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون، المغرور والله من غررتموه؛ ومن فاز بكم فاز بالسّهم الأخيب، أصبحت لا أطمع في نصرتكم ولا أصدّق قولكم، فرّق الله بيني وبينكم، وأعقبني ربّكم من هو خير لي منكم، وأعقبكم من هو شرّ لكم منّي.

إمامكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وإمام أهل الشّام يعصي الله وهم يطيعونه، والله لوددت أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منّي عشرة منكم وأعطاني واحداً منهم، والله لوددت أنّي لم أعرفكم ولم تعرفوني، فإنّه معرفة جرت ندماً، لقد وريتم صدري غيظاً وأفسدتم عليّ أمري بالخذلان والعصيان، حتى لقد قالت قريش إنّ عليّاً رجل شجاع لكن لا علم له بالحرب.

لله درّهم هل كان فيهم أطول لها مراساً منّي، وأشدّ لها مقاساة، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، ثمّ ها أنا ذا قد ذرفت على السّتين، ولكن لا أمر لمن لا يطاع.

أما والله لوددت أنّ ربي أخرجني من بين أظهركم إلى رضوانه، فإنّ المنية لترصدني فما يمنع أشقاها أن يخضبها، وترك يده على رأسه ولحيته، عهداً عهده إليّ النبي الأمّي، وقد خاب من افترى، ونجى من اتّقى وصدق بالحسنى.

يا أهل الكوفة دعوتكم إلى جهاد هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسرّاً وإعلاناً وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم فإنّه ما غزي قوم في عقر دارهم إلاّ ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي، واستصعب عليكم أمري واتخذتموه وراءكم ظهريّاً، حتّى شنّت عليكم الغارات، وظهرت فيكم الفواحش والمنكرات، تمسيكم وتصبحكم كما فعل بأهل المثلات من قبلكم حيث أخبر الله عن الجبابرة العتاة الطغاة والمستضعفين الغواة في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد حلّ بكم الذي توعدون، عاتبتكم يا أهل الكوفة بمواعظ القرآن فلم انتفع بكم، وأعطيتكم بالدّرة فلم تستقيموا لي، وعاقبتكم بالسّوط الذي يقام به الحدود فلم ترعووا[١]، ولقد علمت أنّ الذي يصلحكم هو السّيف، وما كنت متحرّياً صلاحكم بفساد نفسي، ولكن سيسلط عليكم سلطان صعب لا يوقر كبيركم؛ ولا يرحم صغيركم، ولا يكرم عالمكم، ولا يقسم الفيىء بالسّوية بينكم، وليضربنكم وليذلنكم وليجهزنكم في المغازي ويقطعنّ سبلكم وليحجبنكم على بابه حتّى يأكل قويكم ضعيفكم، ثم لا يبعد الله إلاّ من ظلم ولقل ما أدبر شيء فأقبل وأنّي لأظنكم على فترة وما عليّ إلاّ النّصح لكم.

يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنتين صم وذو إسماع، وبكم وذو ألسن وعمى وذو أبصار لا إخوان صدق عند اللقاء ولا إخوان ثقة عند البلاء.

اللّهم قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني، اللهم لا ترض عنهم أميراً، ولا ترضيهم عن أمير، وأمث قلوبهم كما يماث الملح في الماء، أما والله لو أجد بدّا من كلامكم ومراسلتكم ما فعلت، ولقد عاتبتكم في رشدكم حتى لقد سئمت الحياة كل ذلك ترجعون بالهزو من القول، فراراً من الحقّ، وإلحاداً إلى الباطل الذي لا يغر الله بأهله الدين.

وإنّي لأَعلم بكم أنكم لا تزيدونني غير تخسير كلما أمرتكم بجهاد عدوّكم اثاقلتم إلى الأَرض، وسألتموني التّأخير دفاع ذي الدين المطول، إن قلت لكم في القيظ: سيروا، قلتم: الحرّ شديد، وإن قلت لكم في البرد: سيروا، قلتم القرّ شديد، كل ذلك فراراً عن الحرب، إذا كنتم من الحرّ والبرد تعجزون فأنتم من حرارة السّيف أعجز وأعجز، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

يا أهل الكوفة قد أتاني الصّريح يخبر في أنّ ابن غامد قد نزل بالأَنبار على أهلها ليلاً في أربعة آلاف، فأغار عليهم كما يغار على الرّوم والخزر، فقتل بها عاملي ابن حسان وقتل معه رجالاً صالحين ذوي فضل وعبادة ونجدة، بوأ الله لهم جنات النعيم وأنّه أباحها.

ولقد بلغني أنّ العصبة من أهل الشّام كانوا يدخلون على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فيهتكون سترها، ويأخذون القناع من رأسها، والخرص من أذنها، والأَوضاح من يديها ورجليها وعضديها، والخلخال والميزر عن سوقها، فما تمتنع إلاّ بالإسترجاع والنّداء يا للمسلمين فلا يغيثها مغيث، ولا ينصرها ناصر فلو أنّ مؤمناً مات من دون هذا ما كان عندي ملوماً بل كان عندي بارّاً محسناً.

---

(١) الارعواء: الكف والانزجار، وقيل: هو الندم والانصراف عن الشيء.

واعجباً كلّ العجب من تظافر هؤلاء القوم على باطلهم وفشلكم عن حقكم قد صرتم غرضاً يرمى ولا ترمون، وتغزون ولا تغزون؛ ويعصى الله وترضون؛ فتربت أيديكم، يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها، كلما اجتمعت من جانب تفرّقت من جانب»(١).

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است که توبیخ می فرماید در آن اصحاب خود را به سوء افعال و اعمال از جهت تسامح ایشان در جدال و قتال به این نحو که می فرماید:

ای مردمانی که مجتمع است بدن های ایشان و مختلف است خواهشات ایشان، قول های شما ضعیف می نماید سنگ های سخت را و فعل های شما به طمع می اندازد در شما دشمنان را. می گویید در مجلس ها چنین و چنان، پس چون می آید وقت محاربه و مجادله می گویید: حیدی حیاد؛ یعنی برگرد ای داهیه.

عزیز نشد دعوت آن کسی که دعوت نمود شما را و راحت نگردید قلب آن کسی که کشید رنج شما را. زمانی که دعوت کنم شما رابه جهاد عذر می آورید و آن عذرهای شما عذرهایی است با گمراهی ها و مدافعه شما محاربه را از خودتان، مثل مدافعه کردن صاحب دین بسیار مماطله کننده است غریم خود را.

منع نمی نماید مرد ذلیل، ظلم را از خود و ادراك نمی شود حق مگر به جهد و کوشش. از کدام خانه بعد از خانه خودتان که داراسلام است مانع می شوید و با کدام امام بعد از من مقاتله می کنید. فریب داده شده. به خدا سوگند. آن کس است که شما فریب دادید او را و کسی که فایز شود به شما فایز می شود به سهمی که نومیدتر باشد از سهم های قمار و کسی که تیراندازد با شما به دشمنان، پس به تحقیق که تیر انداخته به تیر شکسته بی پیکان.

قسم به خداوند که گردیدم به مرتبه ای که باور ندارم گفتار شما را و طمع ندارم در یاری دادن شما و نمی ترسانم دشمن را با شما. چیست حال شما؟ چیست دوای شما، علاج ناخوشی شما؟ گروهی که طرف مقابل شمایند مردانند مانند شما. آیا می گویید گفتار بی اعتقاد؟ و غفلت میورزید بدون ورع؟ و طمع تفضیل دارید بدون استحقاق؟

(١) الكافي: ٨/ ٣٦١ ح ٥٥١، والإرشاد: ١/ ٢٨١.

ومن كلام له عليه السلام في معنى قتل عثمان وهو الثلاثون من المختار في باب الخطب

«لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ ناصِراً، غَيرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَقُولَ خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيرٌ مِني، وَأَنا جامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، إِسْتأثَرَ فَأَساءَ الأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسأتُمُ الْجَزَعَ، وَللهِ حُكْمٌ واقِعٌ في الْمُسْتَأثِرِ وَالْجازِعِ».

اللغة

(الإستئثار) بالشيء الإنفراد به والإسم الأثرة بالتحريك **(والجزع)** الإضطراب وعدم الصّبر.

قوله: غير أنّ من نصره (ا ه) كلمة غير هنا للإستثناء فيفيد مفاد إلا الإستثنائية، لكن لا بطريق الأصالة بل بطريق الحمل على إلا، وتقريره على ما ذكره نجم الأئمة الرّضى هو أنّ أصل غير الصّفة المفيدة لمغايرة مجرورها لموصوفها، إما بالذّات نحو مررت برجل غير زيد، وإما بالصّفات نحو قولك: دخلت بوجه غير الوجه الذي خرجت به، فإنّ الوجه الذي تبين فيه أثر الغضب كأنّه غير الوجه الذي لا يكون فيه ذلك بالذّات.

وماهية المستثنى كما ذكر في حدّه هو المغاير لما قبل أداة الإستثناء نفياً وإثباتاً، فلما اجتمع ما بعد غير وما بعد أداة الإستثناء في معنى المغاير لما قبلهما حملت أداة الإستثناء أي إلاّ على غير في الصّفة، وحملت غير على إلاّ في الإستثناء في بعض المواضع.

ومعنى الحمل أنّه صار ما بعد إلاّ مغايراً لما قبلها ذاتاً أو صفة كما بعد غير، ولا يعتبر مغايرته له نفياً وإثباتاً كما كانت في أصلها وصار ما بعد غير مغايراً لما قبلها نفياً وإثباتاً كما بعد إلاّ، ولا يعتبر مغايرته له ذاتاً أو صفة كما كانت في الأَصل إلاّ أنّ حمل غير على إلاّ أكثر من العكس، لأَنّ غير إسم والتّصرف في الأَسماء أكثر منه في الحروف، فوقع في جميع مواقع إلاّ. إلاّ أنّه لا يدخل على الجملة كإلاّ لتعذّر الإضافة إليها هنا.

وأمّا إعرابه في الكلام الذي يقع فيه فهو إعراب الإسم التّالي إلاّ في ذلك الكلام فتقول: جاء القوم غير زيد بالنّصب كما تقول: إلاّ زيداً، وما جاءني أحد غير زيد بالنّصب والرّفع.

وسرّ ذلك على ما ذكره الرّضي هو أنّ أصل غير من حيث كونه اسماً جواز تحمل الإعراب وما بعده الذي صار مستثنى بتطفل غير على إلا مشغول بالجر لكونه مضافاً إليه في الأَصل، فجعل إعرابه الذي كان يستحقّه لولا المانع المذكور أعني اشتغاله بالجر على نفس غير عارية لا بطريق الأَصالة.

وإعرابه في كلام الإمام هو النصب لكونه إستثناء منقطعاً، ويجوز بناؤه على الفتح لعدم الخلاف بين علماء الأدبيّة في جواز بنائه على الفتح إذا أضيف إلى أن، ونظيره فيه ما وقع في قوله غير أنّي قد استعين على الهمّ إذا خفّ بالثّوى النجاء، وقد صرّح الرّضي فيه بجواز الوجهين حسبما ذكرناه.

المعنى

قوله: **(لو أمرت به)** أي بقتل عثمان **(لكنت قاتلاً)** لأنّ القاتل وإن كان موضوعاً في اللغة للمباشر للقتل، إلاّ أنّه يطلق في العرف على الأعم من السبب والمباشر فيستلزم الأمر به له عرفاً **(أو نهيت عنه لكنت ناصراً)** لاستلزام النّهي عنه النّصرة له وهو ظاهر.

وهاتان القضيّتان منتجتان لعدم مداخلته عليه السلام في قتله بالأمر والنهي، إذ باستثناء نقيض تاليهما يثبت نقيض المقدمين، والمقصود بهذا الكلام إظهار التبري من دم عثمان وردّ ما نسبه إليه معاوية وأتباعه من كونه دخيلاً فيه، حيث إنّهم لم يستندوا في الخروج عليه والمحاربة معه، إلاّ بما شهروه بين النّاس من أنّه أمر بقتل عثمان هذا.

وما ذكره الشّارح المعتزلي من أنّ هذا الكلام بظاهره يقتضي أنّه ما أمر بقتله ولا نهى عنه؛ فيكون دمه عنده في حكم الأمور المباحة التي لا يؤمر بها ولا ينهى عنها.

فيه أن غاية ما يستفاد من كلامه هو عدم مدخليته فيه، وأما أنّ جهة عدم المدخلية هل هي استباحة دمه أو سائر الجهات فلا دلالة في الكلام عليه.

لا يقال: إنّ قتله إما أن يكون واجباً عنده عليه السلام، أو محرّماً أو مباحاً، لا سبيل إلى الأوّلين إذ لو كان واجباً لكان آمراً به من باب الأمر بالمعروف، ولو كان محرّماً لنهى عنه من باب النهي عن المنكر فحيث لم يأمر به ولم ينه عنه ثبت كونه مباحاً عنده.

لأنا نقول أولاً: إنّ عدم الأمر به أعمّ من عدم الوجوب، لاحتمال أنّه لم يأمر لعلمه بما يترتب عليه من المفاسد، ويؤيّده ما سنحكيه من **«البحار»** وما روى عنه عليه السلام الله قتله وأنا معه.

وثانياً: أنّ عدم نهيه عنه أعم من عدم كونه منكراً عنده، لاحتمال أنّه ترك النّهي لعلمه بأنّه لا يترتب على ذلك ثمرة، ووجوب إنكار المنكر إنّما هو إذا علم المنكر أو غلب على ظنه تأثير إنكاره، وأما إذا علم أو غلب على ظنه أنّ إنكاره لا يؤثر ونهيه لا يثمر فيقبح حينئذٍ النّهي والإنكار، لأنه إن كان الغرض تعريف الفاعل قبح فعله، فذلك حاصل من دون الإنكار وإن كان الغرض أن لا يقع المنكر فذلك غير حاصل.

ويؤيد ذلك ما في **«البحار»** من أنه جمع النّاس ووعظهم ثم قال: لتقم قتلة عثمان، فقام

النّاس بأسرهم إلاّ قليل، وكان ذلك الفعل استشهاداً منه عليه السلام على عدم تمكنه من دفعهم ويدلّ على ذلك بعض كلماته الآتية أيضاً.

وثالثاً: لا نسلم أنّه لم ينه عنه، فقد روي في **«البحار»** من الأمالي بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس عنه قال: «إن شاء النّاس قمت لهم خلف مقام إبراهيم فحلفت لهم بالله ما قتلت عثمان ولا أمرت بقتله ولقد نهيتهم فعصوني»[١].

فإن قلت: كيف الجمع بين هذه الرّواية وبين قوله عليه السلام: «أو نهيت عنه لكنت ناصراً».

قلت: يمكن الجمع بأن يكون المراد به إستثناء عين المقدم فينتج عين التّالي أي لكني نهيت عنه فكنت ناصراً، وكيف كان فقد تحصل ممّا ذكرنا أنّ كلامه عليه السلام مجمل متشابه المراد كإجمال سائر ما روي عنه في المقام، والسرّ في الإجمال هو إبهام المقصود على السامعين.

وذلك لما رواه في **«البحار»** من المناقب من أنّ أصحاب أمير المؤمنين كانوا فرقتين: إحداهما اعتقدوا أنّ عثمان قتل مظلوماً ويتولاه ويتبرّء من أعدائه، والأخرى وهم جمهور أهل الحرب وأهل العناء والبأس اعتقدوا أنّ عثمان قتل لأحداث أوجبت عليه القتل، ومنهم من يصرّح بتكفيره وكلّ من هاتين الفرقتين تزعمّ أنّ علياً موافق له على رأيه وكان عليه السلام يعلم أنه متى وافق إحدى الطائفتين باينته الأخرى وأسلمته وتولت عنه وخذلته، فكان يستعمل في كلامه ما يوافق كل واحدة من الطائفتين[٢].

أقول: ولأجل اشتباه كلامه على السّامعين قال شاعر الشّام الأبيات التي منها:

أرى الشّام تكره أهل العراق	وأهل العراق لهم كارهونا
وكل لصاحبه مبغض	يرى كلّ ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم	ودّناهم مثل ما يقرضونا
وقالوا عليّ إمام لنا	وقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا	فقلنا ألا لا نرى أن تدينا
ومن دون ذلك خرط القتاد	وطعن وضرب يقر العيونا
وكلّ يسير بما عنده	يرى غثّ ما في يديه سمينا
وما في عليّ لمستعتب	يقال سوى ضمّه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذّنوب	ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سئل عنه حذا شبهة	وعمى الجواب على السّائلينا

(١) البحار: ٣١/٥٠٥.

(٢) البحار: ٣١/٥٠٦.

فليس براض ولا ساخط ولا في النهات ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا سرّه ولا بدّ من بعض ذا أن يكونا

هذا وقد تلخص ممّا ذكرنا أنّه عليه السلام كان بناؤه على إبهام المرام في تلك الواقعة للمصالح المترتّبة على ذلك إلاّ أنّه غير خفيّ على أهل البصيرة والحجى أنّ وجنات حاله عليه السلام مع أفعاله وأقواله في تلك الواقعة يدلّ على أنّه كان منكراً لأفعاله وخلافته راضياً بدفعه.

قال المجلسي: ولم يأمر بقتله صريحاً لعلمه بما يترتّب عليه من المفاسد أو تقيّة، ولم ينه القاتلين أيضاً لأنّهم كانوا محقّين، وكان يتكلم في الاحتجاج على الخصوم على وجه لا يخالف الواقع ولا يكون للجهّال وأهل الضّلال أيضاً عليه حجة، وكان هذا ممّا يخصّه من فصل الخطاب وممّا يدلّ على وفور علمه في كلّ باب، ويمكن استشمام ذلك من ترجيحه الخاذلين على الناصرين بقوله: «غير أنّ من نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير منّي»[1].

قال الشّارح المعتزلي: معناه إنّ خاذليه كانوا خيراً من ناصريه لأنّ الذين نصروه كانوا فسّاقاً كمروان بن الحكم وأحزابه وخذله المهاجرون والأنصار[2].

أقول: كون ناصري الرّجل منحصراً في مروان الفاسق ونظرائه وخاذليه وجوه الصّحابة من المهاجرين والأنصار غير خفيّ على العارف الأريب ما فيه من الإشارة إلى حاله ورتبته، وإلى كون المنصور مثل النّاصر والعاقل يكفيه الإشارة **(وأنا جامع لكم أمره)** أي مبيّن له بلفظ وجيز.

قال الفيومي: وكان عليه السلام: يتكلم بجوامع الكلم أي كان كلامه قليل الألفاظ كثير المعاني **(إستأثر فأساء الأثرة)** أي استبدّ برأيه في الخلافة وإحداث ما أحدث في الإستبداد والإستقلال حيث أدّى إلى فساد نظم الخلافة حتّى انجرّ الأمر إلى قتله **(وجزعتم)** من أفعاله **(فأسأتم الجزع)** حيث قتلتموه وقد كان ينبغي عليكم التثبّت وإصلاح الأمر بينكم وبينه بدون القتل وبخلعه من الخلافة وإقامة غيره مقامه.

وقيل: أراد أنكم أسأتم الجزع عليه بعد القتل وقد كان ينبغي منكم ذلك الجزع قبل القتل **(ولله حكم واقع)** أي ثابت محقّق في علمه تعالى يحكم به في الآخرة أو الأولى، أو سيقع أو يتحقّق خارجاً في الآخرة أو الدّنيا لأنّ مجموعه لم يتحقق بعد، وإنّ تحقق بعضه **(في المستأثر والجازع)** والأظهر أنّ المراد خصوص الحكم الأخروي يعني أنّ له سبحانه حكماً

(١) نهج البلاغة: ١/٧٥ ح ٢، وكتاب الأربعين: ١٦٠٠.

(٢) بحار الأنوار: ٢١/٤٩٩.

واقعاً فيهما يحكم به يوم القيامة بمقتضى عدله، فيعاقب المذنب ويثيب المصيب.

تذييل

في الإشارة إلى كيفيّة قتل عثمان إجمالاً على ما رواه في **«شرح المعتزلي»** من الواقدي والطبري، وهو أنّه أحدث أحداثاً مشهورة نقمها النّاس عليه، من تأمير بني أميّة ولا سيّما الفسّاق وأرباب السّفه وقلّة الدّين؛ وإخراج مال الفيء إليهم وما جرى في أمر عمّار وأبي ذر وعبد الله بن مسعود وغير ذلك من الأمور التي جرت في أواخر خلافته، فلما دخلت سنة خمس وثلاثين كاتب أعداء عثمان وبني أميّة في البلاد، وحرض بعضهم بعضاً على خلعه من الخلافة وعزل عمّاله من الأنصار، فخرج ناس من مصر وكانوا في ألفين، وخرج ناس من أهل الكوفة في ألفين، وخرج ناس من أهل البصرة وأظهروا أنّهم يريدون الحج، فلما كانوا من المدينة على ثلث، تقدّم أهل البصرة فنزلوا ذا خشب، وكان هواهم في طلحة، وتقدّم أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وكان هواهم في الزّبير، وجاء أهل مصر فنزلوا ذا المروة، وكان هواهم في علي، ودخل ناس منهم المدينة يخبرون ما في قلوب النّاس لعثمان فلقوا جماعة من المهاجرين والأنصار ولقوا أزواج النّبي وقالوا: إنّما نريد الحجّ ونستعفي من عمالنا.

ثم لقي جماعة من المصريّين عليّاً وهو متقلّد سيفه عند أحجار الزّيت، فسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم فصاح وطردهم وقال: لقد علم الصّالحون أنّ جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمّد ﷺ فانصرفوا عنه، وأتى البصريّون طلحة فقال لهم مثل ذلك، وأتى الكوفيّون الزبير فقال لهم مثل ذلك فتفرّقوا وخرجوا من المدينة إلى أصحابهم.

فلما أمن أهل المدينة منهم واطمأنّوا إلى رجوعهم لم يشعروا إلاّ والتّكبير في نواحي المدينة وقد نزلوها وأحاطوا بعثمان ونادى مناديهم: يا أهل المدينة من كفّ يده عن الحرب فهو آمن.

فحصروه في منزله إلاّ أنّهم لم يمنعوا النّاس من كلامه ولقائه، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين وسألوهم ما شأنهم؟ فقالوا: لا حاجة لنا في هذا الرّجل ليعتزلنا لنولي غيره لم يزيدوهم على ذلك.

وخرج عثمان يوم الجمعة فصلى بالنّاس وقام على المنبر فقال: يا هؤلاء الله الله فوالله إنّ أهل المدينة يعلمون أنّكم ملعونون على لسان محمّد ﷺ فامحوا الخطأ بالصّواب، فقام محمّد بن مسلمة الأنصاري فقال: نعم أنا أعلم ذلك فأقعده حكيم بن جبلة البصري، وقام زيد بن ثابت فأقعده قنبرة بن وهب المصري.

وثار القوم فحصبوا النّاس حتّى أخرجوهم من المسجد وحصبوا عثمان حتّى صرع عن المنبر مغشيّاً عليه، فأدخل داره وأقبل عليّ وطلحة والزّبير، فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعته وعند عثمان نفر من بني أميّة منهم مروان بن الحكم فقالوا لعليّ أهلكتنا وصنعت هذا الذي صنعت والله إن بلغت هذا الأمر الذي تريده ليمرنّ عليك الدّنيا، فقام مغضباً وخرج جماعة الذين معه إلى منازلهم.

ثمّ إنّ أهل المدينة تفرّقوا عنه ولزموا بيوتهم لا يخرج أحد منهم إلاّ بسيفه يمتنع به فكان حصاره أربعين يوماً[1].

وفي رواية الطبري: لما نزل القوم ذا خشب يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عمّا يكرهون وعلم عثمان ذلك جاء إلى منزل عليّ فدخل وقال: يا ابن عمّ إنّ قرابتي قريبة وقد جاء ما ترى من القوم وهم مصبحي، ولك عند النّاس قَدَروهم يسمعون منك وأحبّ أن تركب إليهم وتردهم عنّي، فإنّ في دخولهم عليّ وهناً لأمري وجرأة عليّ.

فقال عليه السلام: «على أيّ شيء أردّهم»؟ قال: على أن أصير إلى ما أمرت به ورأيت فيّ، فقال عليّ: «إنّي قد كلمتك مرّة بعد أخرى فكلّ ذلك تخرج وتقول وتعد، ثمّ ترجع وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد، فإنك أطعتهم وعصيتني».

قال عثمان: فإني أعصيهم وأطيعك، فأمر عليّ عليه السلام النّاس أن يركبوا معه، فركب معه ثلاثون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فأتوا المصريين فكلموهم فكان الذي يكلمهم علي عليه السلام ومحمّد بن مسلمة فسمعوا منهما ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر.

ورجع عليّ حتّى دخل على عثمان، فأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه النّاس منه ليسكنوا إلى ما يعدهم به من النّزوع، وقال: إنّ البلاد قد تمخّضت عليك ولا آمن أنه يجيء ركب من جهة أخرى فتقول لي يا علي اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقّك.

فخرج عثمان فخطب الخطبة التي ينزع فيها، وأعطى النّاس من نفسه التّوبة وقال لهم: أنا أوّل من اتعظ واستغفر الله وأتوب إليه فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليرون رأيهم، وليذكر كلّ واحد ظلامته لأكشفها وحاجته لأقضيها فوالله لأن ردني الحق عبداً لأسنن سنّة العبيد، ولأذلن ذل العبيد، وما عن الله مذهب إلا إليه والله لأعطينكم الرّضا ولا يحننّ مروان وذريه ولا احتجبن عنكم.

فلما نزل وجد مروان وسعداً ونفراً من بني أميّة في منزله قعوداً لم يكونوا شهدوا خطبته ولكنها بلغتهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢/ ١٤١.

فلما جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين أأتكلم؟ فقالت نائلة: إمرأة عثمان: لا بل تسكت، فأنتم والله قاتلوه ومُيَتِّمُو أطفاله إنّه قد قال مقالة لا ينبغي أن ينزع عنها، فقال لها مروان: وما أنت وذاك؟ والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ، فقالت: مهلاً يا مروان عن ذكر أبي إلاّ بخير والله لولا أنّ أباك عمّ عثمان، وأنّه يناله غمّه وعيبه لأخبرتك بما لا أكذب فيه عليه، فأعرض عنه عثمان.

ثمّ عاد فقال: أأتكلم أم أسكت؟ فقال: تكلم، فقال والله لوددت أنّ مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع أوّل من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت وقد بلغ الحزام الطبيين وجاوز السّيل الزّبى، والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخاف عليها ما زدت على أن جرأت عليك النّاس.

فقال عثمان: قد كان من قولي ما كان، وإنّ الفائت لا يردّ ولم آل خيراً، فقال مروان: إنّ النّاس قد اجتمعوا ببابك أمثال الجبال قال ما شأنهم؟ قال: أنت دعوتهم إلى نفسك، فهذا يذكر مظلمة، وهذا يطلب مالاً وهذا سأل نزع عامل من عمّالك وهذا ما جنيت على خلافتك.

ولو استمسكت وصبرت كان خيراً لك، قال: فاخرج أنت إلى النّاس فكلمهم فإنّي أستحي أن أكلمهم وأردهم، فخرج مروان إلى النّاس وقد ركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب، شاهت الوجوه أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، أغربوا عنا والله إن رمتمونا لنمرن عليكم ما حلا ولنحلن بكم ما لا يسركم ولا تحمدوا فيه رأيكم، إرجعوا إلى منازلكم، فإنّا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا.

فرجع النّاس خائبين يشتمون عثمان ومروان، وأتى بعضهم عليّاً فأخبره الخبر، فأقبل عليّ على عبد الرّحمٰن بن الأسود بن عبد يغوث الزّهري، فقال أحضرت خطبة عثمان؟ قال: نعم قال أفحضرت مقالة مروان للنّاس قال: نعم.

فقال عليه السلام: «أي عباد الله، يالله للمسلمين إن قعدت في بيتي، قال لي تركتني وخذلتني، وإن تكلمت فبلغت له ما يريد جاء مروان ويلعب به حتّى قد صار سيقة له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السّنّ»، وقام مغضباً من فوره حتى دخل على عثمان، فقال عليه السلام له: «أما يرضى مروان منك إلاّ أن يحرّفك عن دينك وعقلك فأنت معه كجمل الظعينة يقاد حيث يسار به، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا عقله، وإني لأراه يوردك، ثمّ لا يصدرك وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك أفسدت شرفك وغلبت على رأيك» ثمّ نهض.

فدخلت نائلة فقالت: قد سمعت قول عليّ لك وأنّه ليس براجع إليك ولا معاود لك، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء قال فما أصنع؟ قالت تتقي الله وتتبع سنّة صاحبيك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، وليس لمروان عند النّاس قدر ولا هيبة ولا محبّة، وإنّما تركك النّاس لمكانه، وإنّما رجع عنك أهل مصر لقول عليّ عليه السلام، فأرسل إليه فاستصلحه، فإنّ له

عند النّاس قدماً وأنّه لا يُعصى، فأرسل إلى عليّ فلم يأته وقال: قد أعلمته أنّي غير عائد[(١)].

وفي «**البحار**» من الأمالي عن أحمد بن محمّد بن الصّلت عن ابن عقدة الحافظ عن جعفر بن عبد الله العلوي عن عمه القاسم بن جعفر بن عبد الله عن عبد الله بن محمّد بن عبد الله عن أبيه عن عبد الله بن أبي بكر عن أبي جعفر عليه السلام قال: حدثني عبد الرّحمن بن أبي عمرة الأنصاري:

قال لمّا نزل المصريّون بعثمان بن عفّان في مرّتهم الثّانية، دعا مروان بن الحكم فاستشاره، فقال له: إنّ القوم ليس هم لأحد أطوع منهم لعليّ بن أبي طالب عليه السلام؛ وهو أطوع النّاس في النّاس، فابعثه إليهم فليعطهم الرضا وليأخذ لك عليهم الطاعة ويحذرهم الفتنة.

فكتب عثمان إلى عليّ بن أبي طالب: سلام عليك؛ أمّا بعد قد جاز السّيل الزّبي، وبلغ الحزام الطبيين، وارتفع أمر النّاس بي فوق قدر، وطمع في من كان يعجز عن نفسه، فأقبل علي وتمثل:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلاّ فأدركني ولمّا أمزّق والسّلام

فجاءه عليّ فقال: يا أبا الحسن إئت هؤلاء القوم فادعهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه فقال: نعم إن أعطيتني عهد الله وميثاقه على أن تفي لهم بكلّ شيء أعطيته عنك، فقال: نعم فأخذ عليه عهداً غليظاً ومشى إلى القوم، فلما دنا منهم قالوا وراءك قال: لا، قالوا: وراءك، قال: لا.

فجاء بعضهم ليدفع في صدره فقال القوم بعضهم لبعض: سبحان الله أتاكم ابن عمّ رسول الله يعرض كتاب الله، اسمعوا منه وأقبلوا، قالوا تضمن لنا كذلك، قال: نعم فأقبل معه أشرافهم ووجوههم حتّى دخلوا على عثمان فعاتبوه فأجابهم إلى ما أحبوا، فقالوا اكتب لنا على هذا كتاباً وليضمن عليّ عنك ما في الكتاب، قال اكتبوا أنى شئتم فكتبوا بينهم:

بسم الله الرّحمن الرحيم هذا ما كتب عبد الله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين إنّ لكم عليّ أن أعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه، وأنّ المحروم يعطى، وأنّ الخائف يؤمن، وأنّ المنفي يرد، وأنّ المبعوث لا يجمر، وأنّ الفيء لا يكون دولة بين الأغنياء، وعليّ بن أبي طالب ضامن للمؤمنين والمسلمين على عثمان الوفاء لهم على ما في الكتاب شهد الزّبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن مالك وعبد الله بن عمر وأبو أيوب بن زيد، وكتب في ذي القعدة سنة خمس وعشرين.

فأخذوا الكتاب ثمّ انصرفوا، فلما نزلوا إيلة، إذا هم براكب فأخذوه فقالوا من أنت؟ قال: أنا رسول عثمان إلى عبد الله بن سعد قال بعضهم لبعض: لو فتّشناه لئلا يكون قد كتب

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٩٣.

فينا، ففتّشوه فلم يجدوا معه شيئاً.

فقال كنانة بن بشر النجيبي: أنظروا إلى أدواته فإن النّاس حيلاً، فإذا قارورة مختومة بموم[١]، فإذا فيها كتاب إلى عبد الله بن سعد إذا جاءك كتابي هذا فاقطع أيدي الثلاثة مع أرجلهم.

فلما قرؤوا الكتاب رجعوا حتّى أتوا عليّاً، فأتاه فدخل عليه، فقال استعتبك القوم فأعتبتهم، ثم كتبت هذا كتابك نعرفه الخط الخط والخاتم الخاتم، فخرج عليّ مغضباً وأقبل النّاس عليه فخرج سعد من المدينة فلقاه رجل فقال: يا أبا إسحاق أين تريد؟ قال: إني فررت بديني من مكة إلى المدينة وأنا اليوم أهرب بديني من المدينة إلى مكة.

وقال الحسن بن علي لعلي عليه السلام حين أحاط النّاس بعثمان: أخرج من المدينة واعتزل فإنّ النّاس لا بدّ لهم منك وأنّهم ليأتونك ولو كنت بصنعاء، وأخاف أن يقتل هذا الرّجل وأنت حاضره.

فقال يا بنيّ أخرج عن دار هجرتي وما أظن يجترىء على هذا القول كلمة، وقام كنانة بن بشر فقال: يا عبد الله أقم لنا كتاب الله فإنا لا نرضى بالقول دون الفعل قد كتبت وأشهدت لنا شهوداً وأعطيتنا عهد الله وميثاقه، فقال ما كتبت بينكم كتاباً.

فقام إليه المغيرة بن الأخنس وضرب بكتابه وجهه وخرج إليهم عثمان ليكلمهم، فصعد المنبر ورفعت عائشة قميص رسول الله ونادت أيّها النّاس هذا قميص رسول الله لم يبل، وقد غيّرت سنّته، فنهض النّاس وكثر اللغط وحصبوا عثمان حتى نزل من المنبر، ودخل بيته.

فكتب نسخة واحدة إلى معاوية وعبد الله بن عامر: أما بعد فإنّ أهل السّفه والبغي والعدوان من أهل العراق ومصر والمدينة أحاطوا بداري ولن يرضيهم منّي دون خلعي أو قتلي، وأنا ملاقي الله قبل أن أتابعهم على شيء من ذلك فأعينوني.

فلما بلغ كتابه ابن عامر قام وقال: أيّها النّاس إنّ أمير المؤمنين عثمان ذكر أنّ شرذمة من أهل مصر والعراق نزلوا بساحته فدعاهم إلى الحقّ، فلم يجيبوا فكتب إليّ أن أبعث إليه منكم ذوي الدّين والرّأي والصّلاح، لعل الله أن يدفع عنه ظلم الظالم وعدوان المعتدي فلم يجيبوه إلى الخروج.

ثم إنّه قيل لعلي: إنّ عثمان قد منع الماء فأمر بالرّوايا فعكمت وجاء النّاس إلى علي عليه السلام فصاح بهم صيحة انفرجوا فدخلت الرّوايا، فلما رأى عليّ اجتماع النّاس دخل على طلحة بن عبد الله وهو متكىء على وسائد، فقال: إنّ الرّجل مقتول فامنعوه فقال: أما والله دون أن تعطي بنو أميّة الحقّ من أنفسها.

---

(١) الموم: الشمع.

وفي «شرح المعتزلي» عن الطبري عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي قال: دخلت على عثمان فأخذ بيدي فأسمعني كلام من على بابه من النّاس فمنهم من يقول: ما تنتظرون به، ومنهم من يقول: لا تعجلوا به فعساه ينزع ويراجع.

فبينا نحن إذ مرّ طلحة فقام إليه ابن عديس البلوي فناجاه، ثمّ رجع ابن عديس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل إلى عثمان ولا يخرج من عنده، قال لي عثمان هذا ما أمره به طلحة.

اللّهم اكفني طلحة فإنه حمل هؤلاء القوم وأكبهم عليّ، والله لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يسفك دمه قال: فأردت أن أخرج فمنعوني حتّى أمرهم محمّد بن أبي بكر فتركوني أخرج.

قال الطبري: فلما طال الأمر وعلم المصريون أنهم قد أجرموا إليه جرماً كجرم القتل وأنّه لا فرق بين قتله وبين ما أتوا إليه، وخافوا على نفوسهم من تركه حيّاً راموا الدخول عليه من باب داره، فأغلقت الباب، وقام رجل من أسلم يقال له: نيار بن عياض وكان من الصّحابة فنادى عثمان وأمره أن يخلع نفسه، فبينا هو يناشده ويسوّمه خلع نفسه رماه كثير بن الصّلت الكندي وكان من أصحاب عثمان من أهل الدار بسهم فقتله.

فصاح المصريون وغيرهم عند ذلك: ادفعوا إلينا قاتل ابن عياض لنقتله به، فقال عثمان: لم أكن لأدفع إليكم رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي فثاروا إلى الباب، فأغلق دونهم فجاؤوا بنيار فأحرقوه وأحرقوا السقيفة التي عليه.

وخرج مروان بسيفه يحاله الناس فضربه رجل من بني ليث على رقبته فأثبته وقطع أحد عيباوته، فعاش مروان بعد ذلك أوقص، وقتل المغيرة بن الأخنس وهو يحامي عن عثمان بالسّيف.

واقتحم القوم الدار ودخل كثير منهم الدّور المجاورة لها وتسوّروا من دار عمرو بن حزم إليها حتّى ملؤوها، وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلاً لقتله، فدخل إليه البيت فقال له: اخلعها وندعك، فقال: ويحكم والله ما كشفت عن امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله، ولست بخالع قميصاً كسانيه الله حتى يكرم أهل السّعادة ويهان أهل الشقاوة.

فخرج عنه فقالوا له: ما صنعت قال: إني لم استحل قتله فأدخلوا إليه رجلاً من الصحابة فقال له: لست بصاحبي إن النبي دعا لك أن يحفظك يوم كذا ولن تصنع، فرجع عنه، فأدخلوا إليه رجلاً من قريش فقال له: إنّ رسول الله استغفر لك يوم كذا فلن يقارف دماً حراماً فرجع.

فدخل عليه محمّد بن أبي بكر، وفي رواية الواقدي أنه أوّل من دخل عليه فقال له عثمان: ويحك أعلى الله تغضب هل لي إليك جرم إلا أني أخذت حقّ الله منك، فأخذ محمّد بلحيته وقال: أخزاك الله يا نعثل، قال لست بنعثل، ولكني عثمان وأمير المؤمنين فقال: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان، فقال عثمان: يا ابن أخي دعها من يدك فما كان أبوك ليقبض عليها، فقال: لو عملت ما عملت في حياة أبي لقبض عليها والذي أريد بك أشدّ من قبضي عليها، فقال: أستنصر الله عليك وأستعين به عليك فتركه وخرج.

وقيل: بل طعن جنبه بمشقص كان في يده فثار سودان بن حمران، وأبو حرب الغانقي وقنبرة بن وهب السكسكي فضربه الغانقي بعمود كان في يده وضرب المصحف برجله، وكان في حجره فنزل بين يديه وسال عليه الدّم، وجاء سودان ليضربه بالسّيف فأكبّت عليه امرأته نائلة وألقت السّيف بيدها وهي تصرخ فنفح أصابعها فأطنها فولت فغمرت بعضهم أوراكها، وقال إنّها لكبيرة العجز وضرب سودان عثمان فقتله.

وقيل: بل قتله كنانة بن بشير النّجيبي، وقيل: بل قنبرة بن وهب، ودخل غلمان عثمان ومواليه فضرب أحدهم عنق سودان فقتله، فوثب قنبرة بن وهب على ذلك الغلام فقتله، فوثب غلام آخر على قنبرة فقتله، ونهب دار عثمان وأخذ ما على نسائه وما كان في بيت المال.

وكان فيه غزارتان دراهم ووثب عمرو بن الحمق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات وقال: أما ثلاث منها فإني طعنتهن لله وأما ست منها، فلما كان في صدري عليه وأرادوا قطع رأسه فوقع عليه زوجتاه فضججن وضربن الوجوه فقال ابن عديس: أتركوه.

وأقبل عمير بن الضّابي فوثب عليه فكسر ضلعين من أضلاعه وقال له: سجنت أبي حتّى مات في السّجن.

وكان قتله يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكان عمره ستّاً وثمانين سنة ودفن في حش كوكب بعد ثلاثة أيام؛ بإذن علي[1] على ما مر في شرح الخطبة الشقشقية.

---

(١) بطوله في بحار الأنوار: ٣١/ ٤٩٣ ح ١١، ومسار الشيعة: ٢١.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام عالی مقام است در معنی قتل عثمان و اظهار تبرّی خود از مداخله آن می فرماید:

اگر امر می کردم به قتل او هر آینه قاتل او می شدم و اگر نهی می کردم از قتل او هر آینه ناصر می شدم، الا این که کسی که نصرت نمود او را نمی تواند که گوید خار نمود او را کسی که من بهترم از او و کسی که خار نمود او را نمی تواند که گوید یاری نمود او را کسی که او بهتر است از من و من بیان کننده ام به لفظ مختصر کار او را، سر خود نمود او امور عظیمه را بی مشاورت دیگران، پس بد نمود آن استقلال به رأی را و بی صبری کردید، پس بد کردید شما در بی صبری و مر خداوند را است حکم عدلی که واقع می شود در روز قیامت در حق مستقل به رأی و در حق بی صبری کننده؛ یعنی جزای عملی که شد از خطا یا صواب به صاحب عمل خواهد رسید.

ومن كلام له عليه السلام قاله لابن عباس لما أنفذه إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل وهو الحادي والثلاثون من المختار في باب الخطب

«لا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّورِ عاقِصاً قَرْنُهُ يَرْكَبُ الصَّعْبَ، ويَقُولُ هُوَ الذَّلُولُ، وَلكِنْ إِلْقَ الزُّبَيرَ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَريكَةً، فَقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ ابْنُ خالِكَ عَرَفْتَنِي بِالْحِجازِ، وأَنْكَرْتَني بِالْعِراقِ، فَما عَدا مِمّا بَدا».

أقول: وهو عليه السلام أوّل من سمعت منه هذه اللّفظة أعني فما عدا ممّا بدا.

اللغة

(**يستفيئه**) أي يسترجعه من فاء يفيء إذا رجع و (**تلقه**) في بعض النّسخ بالفاء أي تجده (**عقص**) الثّور قرنه بالفتح متعدّ وعقص بالكسر لازم والأعقص من التّيوس ما التوى قرناه على أذنيه من خلفه، والمعقاص الشاة المعوّجة القرن (**والصعب**) نقيض الذلول وهي المنقادة من الدّواب، والجمع ذلل كرسول ورسل و (**العريكة**) الطبيعة يقال فلان ليّن العريكة إذا كان سلساً و (**عداه**) عن الأمر عدواً وعدواناً صرفه وشغله، وعدا الأمر عدته جاوزه و (**بدا**) ظهر.

الإعراب

عاقصاً إمّا مفعول ثانٍ لتجده أو حال عن الثور، كلمة ما للاستفهام، ومفعول عدا محذوف أي ما عداك على حد قوله سبحانه: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] أي أرسلناه، وكلمة (من) في قوله (**ممّا بدا**) بمعنى (عن) على حدّ قوله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وقال الشّارح البحراني: إنّها لتبيين الجنس، والأوّل أظهر.

المعنى

(**قوله (لا تلقين طلحة)** نهي لابن عباس عن لقاء طلحة من أجل يأسه عنه لمكان الغرور والكبر الذي كان فيه على ما أشار إليه بقوله (**فإنّك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً**) أي عاطفاً (**قرنه**) على أذنه.

قال الشّارح البحراني: شبهه بالثور في عقص قرنه وكنى بلفظ القرن عن شجاعته، لأنّ القرن آلة القوّة للثور، ومنع ما يراد به عن نفسه، وكذلك الشّجاعة يلزمها الغلبة والقوّة ومنع الجانب، وكنى بلفظ العقص لما يتبع تعاطيه بالقوّة والشجاعة من منع الجانب وعدم الانقياد

تحت طاعة الغير اللازم عن الكبر والعجب الذي قد يعرض للشجاع.

وذلك لأنّ الثور عند إرادة الخصام يعقص قرنيه أي يرخي رأسه ويعطف قرنيه ليصوبهما إلى جهة خصمه، ويقارن ذلك منه نفخ صادر عن توهم غلبته لمقاومه وأنّه لا قدر له عنده.

وكذلك الشبّه ههنا علم منه عليه السلام أنّه عند لقاء ابن عباس له يكون مانعاً جانبه متهيّئاً للقتال مقابلاً للخشونة وعدم الانقياد له الصّادر عن عجبه بنفسه وغروره لشجاعته، فلذلك حسن التشبيه.

وقوله: **(يركب الصّعب ويقول هو الذّلول)** يعني أنّه يستهين بالمستصعب من الأمور، ثم إنّه لمّا نهاه عن لقاء طلحة أمره بلقاء الزّبير بقوله: **(ولكن إلق الزّبير)** معلّلاً بقوله: **(فإنّه ألين عريكة)** أي أحسن طبيعة وأسهل جانباً **(فقل له يقول لك ابن خالك)**.

التّعبير بابن الخال للاستمالة والملاطفة والأذكار بالنسب والرّحم على حدّ قوله: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] فإنّ هارون لما رأى غضب موسى خاطبه بقوله بابن أمّ، لكونه أدعى إلى عطفه عليه من أن يقول يا موسى أو يا أيها النّبي ونحو ذلك.

وكذلك لقوله: يقول لك ابن خالك في القلب موقع ليس لقوله يقول لك أمير المؤمنين، وأما كونه عليه السلام ابن خال الزّبير فلأنّ صفيّة أمّ الزّبير كانت أختاً لأبي طالب بنت عبد المطلب.

وقوله: **(عرفتني بالحجاز وتركتني بالعراق)** يعني: أنّك بايعتني بالمدينة وكنت أشدّ النّاس حماية لي يوم الشّورى والسّقيفة، وأنكرتني بالبصرة حيث نكثت بيعتي وبارزتني بالمحاربة **(فما عدا ممّا بدا)** أي أي شيء صرفك عمّا ظهر منك أولاً وما الذي صدّك عن طاعتي بعد إظهارك لها.

وقال الشّارح البحراني: عدا بمعنى جاوز ومن لبيان الجنس، والمراد ما الذي جاوز بك عن بيعتي ممّا بدا لك بعدها من الأمور التي ظهر لك والأظهر ما ذكرناه هذا.

وروى في شرح المعتزلي عن الصّادق جعفر بن محمّد عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن ذلك فقال: إنّي أتيت الزّبير فقلت له: فقال: قل له إني أريد ما تريد كأنّه يقول الملك لم يزدني على ذلك فرجعت إلى عليّ فأخبرته.

وروي عن محمّد بن إسحاق الكلبي عن ابن عباس قال قلت الكلمة للزّبير فلم يزدني على أن قال: قل له إنا مع الخوف الشديد لنطمع، وسئل ابن عباس عمّا يعني بقوله هذا، فقال: إنا على الخوف لنطمع أن نلي من الأمر ما وليتم.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است در حينى كه فرستاد عبدالله بن عباس را به سوى زبير پيش از واقع شدن جنگ در روز جمل تا باز گرداند او را به سوى طاعت او، فرمود ابن عباس را كه:

البته ملاقات مكن با طلحه: پس به درستى كه اگر تو ملاقات كنى با او، يابى او را مثل گاو عاصى در حالتى كه پيچيده باشد شاخ خود را بر گرداگرد گوش خود. سوار مى شود بر دابه سركش و بى آرام و با وجود اين مى گويد كه رام است و ملاقات كن با زبير، پس به تحقيق كه او نرم تر است از روى طبيعت، پس بگوى او را كه مى گويد تو را پسرخال تو شناختى تو مرا در حجاز و بيعت كردى و انكار كردى مرا در عراق و تمرّد از اطاعت نمودى، پس چه چيز منع نمود و بگردانيد تو را از آن چه ظاهر شد از اطاعت من؟

تم الجزء الأوّل من «**شرح نهج البلاغة**» بحمد الله وحسن توفيقه، ونسأل الله سبحانه التوفيق لشرح ما يتلو ذلك من خطبه المختارة ومن كلامه المختار في باب الخطب الجاري مجرى الخطبة، وكان الفراغ من ذلك ليلة عيد الغدير من أعياد ألف وثلاثمائة سنة، والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً سنة ١٣٠٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرانا آيات قدرته وجبروته في الأنفس والآفاق، وهدانا إلى مشاهد سلطنته وعظمته بما رقم في صفحات السّبع الطباق، ودلنا على مشاهدة أنوار جماله في ملكوت السّموات والأرض، ومطالعة أسرار جلاله في الحجب والسّرادقات ذات الطول والعرض؛ فأشهد أنّه الواحد الأحد الفرد الصّمد الذي دلّ على وحدانيته بوجوب وجوده، وعلى قدرته وحكمته ببدائع خلقه وجوده، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله المنتجب، وصفيّه وأمينه المنتخب، أرسله لإيضاح النهج وإبلاغ المنهج، وشرع الدّين وإتمام الحجج، فأوضح المحجة وأتمّ الحجّة، وأقام إعلام الإهتداء وأنار منار الضياء، وجعل قوائم الإسلام قويمة بعد اعوجاجه، ودعائم الإيمان متينة بعد انفراجه.

رأيتك يا خير البرية كلها　　　نشرت كتاباً جآء بالحق معلماً
سننت لنا فيه الهدى بعد جورنا　　　عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونوّرت بالبرهان أمراً مدمساً　　　وأطفأت بالبرهان جمراً تضرما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجها　　　ودانت قديماً وجهها قد تهدّما

ﷺ الذين هم مرابيع النعم، ومصابيح الظلم لا تفتح الخيرات إلاّ بمفاتحهم، ولا تكشف الظلمات إلاّ بمصابيحهم، قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنّة إلا من عرفهم وعرفوه؛ ولا يدخل النّار إلاّ من أنكرهم وأنكروه.

فمن لم يكن يعرف إمام زمانه　　　ومات فقد لاقى المنية بالجهل

لا سيّما من أخذ بضبعيه في الغدير وقد شهد هذا المشهد الجمّ الغفير فأقامه للنّاس علماً وإماماً، وللدّين قيماً وقواماً، ونادى بصوت جهوري يقرع الإسماع، ويملأ القلوب والصّماخ، من كنت مولاه فعليّ مولاه، فسلّم قوم ففازوا، وتولى آخرون وغاظوا فخاضوا، ثمّ فتح أبواب العلم، وأورثه جوامع الكلم، وعلمه تبليغ الرسالات وتأويل الآيات، وإتمام الكلمات، فاجتهد سلام الله عليه وآله في تأسيس قواعد الكلم، وتشييد ضوابط الحكم، وهدانا إلى نهج البلاغة ببديع بيانه، وسلك بنا منهاج البراعة بعذب لسانه، وأرشدنا إلى شرائع الدّين بأنواره، وأوضح لنا سبل اليقين بآثاره:

عليم بما قد كان أو هو كائن　　　وما هو دق في الشرائع أوجل

مسمّى مجلا في الصّحائف كلها فسل أهلها واسمع تلاوة من يتلو
ولولا قضاياه التي شاع ذكرها لعطّلت الأحكام والفرض والنّفل

وبعد فهذا هو المجلّد الثّاني من مجلدات **«منهاج البراعة»** إملاء راجي عفو ربّه الغني حبيب الله بن محمد بن هاشم العلوي الموسوي غفر الله له ولوالديه، وأحسن إليهما وإليه، فإنّه تعالى وليّ الإحسان، والغفور المنان، فأقول وبه التكلان: قال السيد «ره».

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثانية والثلاثون من المختار في باب الخطب

ورواها المحدّث العلامة المجلسي (ره) في «البحار» من كتاب مطالب السؤول لمحمد بن طلحة، قال قال عليه السلام يوماً في مسجد الكوفة وعنده وجوه النّاس:

«أَيُّهَا النّاسُ إِنّا قَدْ أَصْبَحْنَا في دَهْرٍ عَنُودٍ، وزَمَنٍ شَديدٍ (كَنُودٍ خ)، يُعَدُّ فيهِ الْمُحْسِنُ مُسيئاً، ويَزْدادُ الظّالِمُ فِيهِ عُتُوًّا، لاَ نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنا، وَلاَ نَسْئَلُ عَمّا جَهِلْنا، ولا نَتَخَوَّفُ قارِعَةً حَتّى تَحُلَّ بِنا، فَالنّاسُ عَلىٰ أَرْبَعَةِ أَصْنافٍ:

مِنْهُمْ مَنْ لاَ يَمْنَعُهُ الْفَسادَ في الأَرْضِ إِلاّ مَهانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلالَةُ حَدِّه، ونَضيضُ وَفْرِهِ.

ومِنْهُمُ الْمُصْلِتُ بِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ وأَوْبَقَ دِينَهُ، لِحُطامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ، وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، ومِمّا لَكَ عِنْدَ اللّهِ عَرَضاً.

ومِنْهُمْ مَنْ يَطْلُب الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ وَلاَ يَطْلُبُ الآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا، قَدْ طامَنَ بِشَخْصِهِ، وقارَبَ مِنْ خَطْوِه، وشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلأَمانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

ومِنْهُمْ مَنْ أَقْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤُلَةُ نَفْسِهِ، وَانْقِطاعُ سَبَبِهِ فَقَصَّرَتْهُ الْحالَ عَلىٰ حالِهِ، فَتَحَلّى بِاسْمِ الْقَناعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِباسِ أَهْلِ الزَّهادَةِ، ولَيْسَ مِنْ ذَلِكَ في مُراحٍ ولا مَغْدىٰ.

وَبَقِيَ رِجالٌ غَضَّ أَبْصارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وأَراقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَينَ شَريدٍ نادٍّ، وخائِفٍ مَقْمُوعٍ، وساكِتٍ مَكْعُومٍ، وداعٍ مُخْلِصٍ، وثَكْلانَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ في بَحْرٍ أُجاجٍ أَفْواهُهُمْ ضامِزَةٌ، وقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتّى مَلُّوا، وقُهِرُوا حَتّى ذَلّوا، وقُتِلُوا حَتّى قَلُّوا، فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا في أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثالَةِ الْقَرَظِ، وقُراضَةِ الْجَلَمِ، وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ قَبلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْفُضُوها ذَميمَةً، فَإِنَّها قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كانَ أَشْفَقَ بِها مِنْكُمْ».

قال السّيد (ره) أقول هذه الخطبة ربّما نسبها من لا علم له إلى معاوية وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا شك فيه، وأين الذهب من الرّغام والعذب من الأجاج، وقد دلّ على ذلك الدّليل الخرّيت ونقده النّاقد البصير: عمرو بن بحر الجاحظ، فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب «**البيان والتّبيين**»، وذكر من نسبها إلى معاوية، ثم قال: هي بكلام علي عليه السلام أشبه وبمذهبه في تصنيف النّاس وفي الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال ومن التقية والخوف

أليق، قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال سلك في كلامه مسلك الزّهاد ومذاهب العباد.

اللغة

(عنود) على وزن صبور من عند القصد عنودا من باب قعد مال، وفي بعض النسخ بدل الشديد **(الكنود)** وهو ككفور لفظاً ومعنى قال سبحانه: «إنّ الإنسان لربّه لكنود» قال النبي ﷺ في تفسيره: «الكنود الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده» **(والعتوّ)** مصدر من عتا الرّجل يعتو من باب قعد إذا استكبر وتجاوز عن الحد **(والقارعة)** الدّاهية و**(مهانة)** النّفس بالفتح ذلها و**(كلّ)** السّيف كلا وكلالة لم يقطع و**(نضيض وفره)** أي قلّة ماله من نضّ الماء نضّاً ونضيضاً سال قليلاً قليلاً وخرج رشحاً.

و**(المصلت)** من أصلت سيفه إذا جرّده عن غمده و**(المجلب)** اسم فاعل من أجلب عليهم أي أعال عليهم و**(الرجل)** جمع راجل كالركب وراكب قال سبحانه: «واجلب عليهم بخيلك ورجلك» و**(أشرط)** نفسه أعدها للفساد في الأرض و**(حطام)** الدنيا متاعها وأصله ما تكسر من اليبس و**(الإنتهاز)** بالزاء المعجمة الإغتنام و**(المقنب)** بالكسر ما بين الثلاثين والأربعين من الخيل و**(يفرعه)** يعلوه و**(طامن)** ظهره حناه وخفضه و**(شمر)** ثوبه قصّره ورفعه و**(زخرف)** نفسه زيّنها و**(ضؤلة)** النّفس بفتح الضّاد حقارتها و**(المراح)** بضم الميم حيث تأوي الماشية بالليل والمناخ والمأوى مثله.

وفي بعض النسخ بفتح الميم وهو الموضع الذي يروح منه القوم أو يرجعون إليه يقال ما ترك فلان من أبيه مغدى ولا مراحاً ومغداة ولا مراحة و**(الشريد)** من شرد البعير إذا نفر و**(النّاد)** المنفرد و**(المقموع)** المغلوب و**(كعم)** البعير من باب منع فهو مكعوم وكعيم شدّ فاه لئلا يأكل أو يقضّ، ومنه الكعام، وهو ما يجعل في فم البعير عند الهياج.

و**(الضامزة)** بالزاء المعجمة الساكنة و**(القرظ)** محرّكة ورق السّلم يدبغ به و**(الجلم)** بالتحريك أيضاً المقصّ يجزّ به أوبار الإبل، وقراضته ما يقع من قرضه وقطعه و**(الرّغام)** تراب لين أو رمل مختلط بتراب و**(الخرّيت)** بالكسر وتشديد الرّاء الدّليل الحاذق و**(صنّف)** النّاس تصنيفاً جعلهم صنفاً صنفاً.

الإعراب

نسبة العنود والكنود إلى الدهر من باب التّوسع، وإضافة النّضيض إلى الموفر من باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، والباء في بسيفه وبشره وبخيله زائدة، ولبئس المتجر بئس فعل ذم والمتجر فاعله، وأن ترى الدّنيا مؤول بالمصدر مخصوص بالذم وهو في محل الرّفع على

كونه مبتدأ وبئس فاعله أو خبراً له أو على أنه خبر حذف مبتدؤه، وقوله بعمل الدنيا الباء للآلة، ومن في قوله من شخصه للزّيادة كالثلاث بعدها، لأنَ الأَفعال الأَربعة متعدّية بنفسها.

المعنى

إعلم أنّ الزّمان لما كان من الأسباب المعدة لحصول ما يحصل في عالم الكون والفساد من الشّرور والخيرات صحّ بذلك توصيف بعض الأزمنة بالخير فيقال: زمان خير وزمان عدل لكثرة ما يكون فيه بشهادة الإستقراء من الخير وانتظام حال الخلق ومواظبتهم على القوانين الشّرعية والسّنن النبوية، وتوصيف بعضها بالشّر فيقال زمان جائر وزمان صعب شديد لكثرة ما يقع فيه من الشرور والمفاسد وعدم انتظام أمر الخلق فيه من حيث المعاش أو المعاد، إذا عرفت ذلك.

فأقول: قوله ﷺ: **(أيها النّاس إنا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن شديد)** ذمّ لزمانه ﷺ بالجور والعدوان والشّدة والكفران من حيث غلبة الضّلال ودولة الجهّال واضمحلال الحق واستيلاء الباطل ورجوع أغلب النّاس بعد رسول الله ﷺ إلى أعقابهم القهقرى وارتدادهم عن الإمام الحق واقتدائهم بالإمام الباطل، وعدم تمكنه ﷺ من إقامة المعروف وإزاحة المنكر ومن ذلك نشأت الشّرور والمفاسد التي عدوها وهي أمور:

الأول: إنّه **(يعدّ فيه المحسن مسيئاً)** وذلك لغلبة الإساءة من حيث كثرة المسيئين وقلة الإحسان لقلة المحسنين، فيعد المسيء إحسان المحسن إساءة كما أنّه يعدّ إساءة نفسه إحساناً، لكون السّنة في نظره بدعة والبدعة سنّة، أو أنّه يحمل إحسان المحسن على الإساءة كحمله عبادته على الرّياء والسّمعة، وانفاقه على الخوف أو الرّغبة في المجازاة ونحو ذلك من الأمور الناشئة من سوء الظن من أجل تنزيله حال الغير منزلة نفسه.

(و) **الثاني** إنّه **(يزداد الظالم فيه عتواً)** وذلك لقيام المقتضي لظلمه وعدم رادع له عن ذلك فيزداد فيه شيئاً فشيئاً وحيناً فحيناً.

بيان ذلك أن المقتضي لظلم الظالم هو نفسه الأَمارة بالسّوء، فلو كانت في زمان العدل تكون مقهورة تحت حكم الحاكم العادل غير متمكّنة من القيام والإقدام على الظلم والجور، ولما لم يتمكن ﷺ في زمانه من قمع الباطل حقّ التّمكن، لا جرم ازداد الظالم فيه على ظلمه وبلغ الغاية في استكباره وعتوّه باقتضاء دواعي نفسه.

والثالث: إنّه **(لا ننتفع بما علمنا)** والإتيان بصيغة المتكلم من قبيل اياك أعني واسمعي يا جارة، والمقصود به توبيخ العالمين لتقصيرهم عن القيام بوظائف العلم إذ الإنتفاع بالعلم إنّما يكون إذا وافقه العمل، لأنّ العلم والعمل كالرّوح والجسد يتصاحبان ويتكاملان معاً وكلّ مرتبة

من العلم يقتضي عملاً معيناً بحسبه وكلّ عمل يتهيأ به لضرب من العلم.

وإلى ذلك أشار في رواية «الكافي» عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: العلم مقرون إلى العمل فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل عنه[١].

فإنّ المراد بهتفه للعمل هو اقتضاؤه لعمل واستدعاؤه له ومن ارتحاله عدم الإنتفاع به أو زواله بالمرّة.

وفيه عن عليّ بن هاشم بن البريد عن أبيه قال: جاء رجل إلى علي بن الحسين عليه السلام فسأله عن مسائل فأجاب ثم عاد ليسأل عن مثلها فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: مكتوب في «الإنجيل» لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولما تعملوا بما علمتم، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلاّ كفراً، ولم يزدد من الله إلاّ بعداً[٢].

(و) الرابع: إنّه **(لا نسأل عمّا جهلنا)** وهو توبيخ للجاهلين المقصرين في طلب العلم وسؤال العلماء لعدم معرفتهم فضل العلم وعدم رغبتهم في العمل ولذلك قال الصادق عليه السلام لحمران بن أعين في شيء سأله: «إنّما هلك النّاس لأنّهم لا يسألون» رواه في **«الكافي»**.

وفيه أيضاً عن عليّ بن إبراهيم عن محمّد بن عيسى عن يونس ممّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفّ لرجل لا يفرغ نفسه في كلّ جمعة لأمر دينه فيتعاهده ويسأل عن دينه»[٣].

وعن الحسين بن محمّد عن علي بن محمّد بن سعد رفعه عن أبي حمزة عن عليّ بن الحسين عليهما السّلام قال: لو يعلم النّاس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللّجج. إنّ الله تعالى أوحى إلى دانيال أن أمقت عبيدي إليّ الجاهل المستخف بحقّ أهل العلم التّارك للإقتداء بهم، وإنّ أحبّ عبيدي إليّ التّقي الطالب للثواب الجزيل اللاّزم للعلماء التّابع للحكماء القائل عن الحكماء[٤].

(و) الخامس: إنّه **(لا نتخوف قارعة)** وداهية **(حتّى تحلّ بنا)** وهو توبيخ للغافلين والمشغولين بلذائذ الدّنيا الحاضرة الغير الملتفتين إلى البليات والدّواهي النّازلة.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد شكايته من زمانه قسم أهل الزّمان إلى أقسام خمسة، ووجه القسمة أنّ

---

(١) الكافي: ١/ ٤٤ ح ٢، ومشكاة الأنوار: ٢٤٣.
(٢) الكافي: ١/ ٤٥، وعدة الداعي: ٦٥.
(٣) الكافي: ١/ ٤٠ ح ٥، وتسديد الأصول: ٢/ ٢٤٧.
(٤) الكافي: ١/ ٣٥ ح ٥، ومنية المريد: ١١١.

النّاس إما مريدون للآخرة وهم الذين أفردهم بالذّكر في مقابل الأقسام الأربعة وأشار إليهم بقوله: «وبقي رجال غضّ أبصارهم» (الخ).

وإمّا مريدون للدنيا وهؤلاء إمّا قادرون عليها بالسّلطنة والإستيلاء، وإمّا عاجزون عنها، وهؤلاء إمّا غير محتالين للدّنيا، أو محتالون لها، والمحتالون إمّا مقصودهم من الإحتيال هو خصوص ملك الدّنيا ومالها، أو الأعم من ذلك فهذه أقسام خمسة أربعة منهم أهل الدّنيا وواحد أهل الآخرة.

وأشار إلى الأولين بقوله: (**فالنّاس على أربعة أصناف**) الأول (**منهم**) العاجز عن الدّنيا غير المحتال لها وهو (**من لا يمنعه**) من العلو و(**الفساد في الأرض إلاّ مهانة نفسه**) وحقارتها (**وكلالة حدّ**) سيفـ (ـه) ووقوعه عن القطع وعدم الحقيقة للمنظور إليه (**ونضيض وفره**) أي قلة ماله، وهذه كلها إشارة إلى عدم تمكن هذا الرّجل من الوصول إلى مطلوبه وعدم قدرته على تحصيل مقصوده لانقطاع الأسباب دونه مضافاً إلى ضعف نفسه.

(**و**) **الثاني**: (**منهم**) القادر على الدّنيا بالسّلطنة والإستيلاء وهو (**المصلت بسيفه**) الشّاهر له (**والمعلن بشره والمجلب بخيله ورجله**) وهو كناية عن جمعه أسباب الظلم والغلبة والإستعلاء (**قد أشرط نفسه**) وأهلها للفساد في الأرض (**وأوبق دينه لحطام ينتهزه**) ويغتنمه، وتشبيه مال الدّنيا بالحطام لكونه قليل النّفع بالنّسبة إلى الأعمال الصالحة الباقي نفعها في الآخرة، كما أنّ اليبس من النّبات قليل المنفعة بالقياس إلى ما تبقى خضرته (**أو مقنب**) أي خيل (**يقوده أو منبر يفرعه**) ويعلوه.

وهذه الأوصاف المذكورة لهذا القسم مطابق المصداق مع خلفاء بني أمية وبني العباس لعنهم الله وأشار إلى خسران هؤلاء في أفعالهم بقوله: (**ولبئس المتجر أن ترى الدّنيا لنفسك ثمناً وممّا لك عند الله عوضاً**) كما قال تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩].

(**و**) **الثالث**: (**منهم**) العاجز عن الوصول إلى الدنيا، المحتال لها بالسّمعة والرّياء ويرائي بالزّي والهيئة وهو (**من يطلب الدّنيا بعمل الآخرة**) لكون همّه فيها (**ولا يطلب الآخرة بعمل الدّنيا**) لعدم رغبته إليها أصلاً، والمراد بعمل الدّنيا ما يفعله المكلف فيها أو ما يصير بانضمام القربة والتّوصل إلى الطاعة طاعة (**قد طامن من شخصه**) إظهاراً للتّواضع (**وقارب من خطوه**) إظهاراً للوقار (**وشمّر من ثوبه**) إظهاراً للطهارة والتنزه من النّجاسة (**وزخرف من نفسه**) أي زيّنها للنّاس بزينة الصلحاء والأتقياء.

ومقصوده من ذلك كله أن يفتتن به النّاس ويرغب إليه قلوبهم ويعظم قدره عندهم ويروه

أهلاً **(للأمانة)** ويسكنوا إليه في أماناتهم ويثقوا به في أمورهم، فويل لهذا الرّجل تحبب إلى العباد بالتّبغض إلى الله وتزين لهم بالشّين عند الله وتحمد إليهم بالتذمم عند الله **(واتخذ ستر الله)** الذي حمى به أهل التّقوى أن يردوا موارد الهلكة **(ذريعة إلى المعصية)** ووسيلة إلى ما أوتيه من الدّنيا الفانية.

قال في «**البحار**»: قال اليكدري: في كتاب المضاف والمنسوب، ستر الله الإسلام والشيب والكعبة وضمائر صدور الناس يعني جعل ظاهر الإسلام وما يجنّه صدره بحيث لا يطلع عليها مخلوق وسيلة وطريقاً إلى معصية الله.

وأقول: يحتمل أن يكون المراد أنّه اتخذ ستر الله على عيوبه حيث لم يفضحه ولم يطلع الناس على بواطنه ذريعة إلى أن يخدع النّاس.

(و) الرّابع: **(منهم)** العاجز المحتال الذي رغبته في الملك والمال وهو **(من أقعده)** في بيته **(عن طلب الملك ضؤولة نفسه)** وحقارتها **(وانقطاع سببه)** من عدم البضاعة ونحوها من الأسباب المحصلة لمطلوبه، **(ف)** ـلأجل ذلك **(قصرته الحال على حاله)** أي وقفت به حال القدر على حاله التي لم يبلغ معها ما أراد وقصرته عليها؛ **(ف)** ـلذلك عدل إلى الحيلة الجاذبة لرغبات الخلق إليه **(تحلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة)** وقام بالطاعات وواظب على العبادات **(و)** الحال أنّه **(ليس من ذلك)** أي من القناعة والزهد **(في مراح ولا مغدى)**.

يعني أنّه ليس منهما في شيء وإنّما اتّصافه بهما ظاهري وصوري لا حقيقي وواقعي، ويحتمل أن يكون الإشارة بذلك إلى أهل الزّهادة ويكون المعنى أنّه ليس يومه كيومهم في الصّوم وغيره، ولا ليله كليلهم في العبادات هذا.

ولما فرغ من أصناف أهل الدّنيا الأربعة وأوصافها أشار إلى أهل الآخرة المقابل لهم بقوله: **(وبقي رجال)** وميّزهم بأوصاف مخصوصة بهم متميزين بها عن غيرهم وهي أنّه **(قد غضّ أبصارهم ذكر المرجع)** عن النظر إلى محارم الله أو عن الالتفات إلى مطلب ما سوى الله.

وذلك لأنّ القلب إذا كان مشغولاً بذكر الله، مستغرقاً في شهود جمال الحق وملاحظة جلاله عارفاً بأن المسير والمنقلب إليه سبحانه، ويكون الحسّ تابعاً له لا محالة لكونه رئيس الأعضاء والحواس، فلا يكون له حينئذٍ إلتفات إلى الغير وتوجه من طريقه إلى أمر آخر **(وأراق دموعهم خوف المحشر)** وهول المطلع، فإنّ بين الجنّة والنّار عقبة لا يجوزها إلاّ البكاؤون من خشية الله كما رواه في «**عدّة الدّاعي**»[1].

---

(١) وسائل الشيعة: ٧/ ٧٦ ح ٨٧٧٣، وبحار الأنوار: ١٤/ ١٦٥ ح ٤.

وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام: كلّ عين باكية يوم القيامة إلاّ ثلاث عيون: عين غضت عن محارم الله، وعين سهرت في طاعة الله، وعين بكت في جوف الليل من خشية الله[١].

وعنه عليه السلام: «ما من شيء إلاّ وله كيل أو وزن إلاّ الدّموع فإنّ القطرة تطفىء بحاراً من النّار، فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق قتر ولا ذلة؛ فإذا فاضت حرّمه الله على النار ولو أنّ باكياً بكى في أمّة لرحموا»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله «إذا أحبّ الله عبداً نصب في قلبه نائحة من الحزن فإنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين، وأنّه لا يدخل النّار من بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللّبن إلى الضّرع، وأنّه لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنّم في منخري مؤمن أبداً وإذا أبغض الله عبداً جعل قلبه مزاراً «مزماراً» من الضّحك، وإنّ الضحك يميت القلب والله لا يحب الفرحين»[٣].

وكيف كان **(فهم بين شريد نادّ)** أي نافر عن الخلق ومنفرد عنهم ومتوحّش منهم إمّا لكثرة أذى الظالمين في الأوطان، لإنكاره المنكر أو لقلّة صبره على مشاهدة المنكرات **(وخائف مقموع وساكت مكعوم)** كأن التّقية سدّت فاه من الكلام **(وداع مخلص)** لله في دعائه **(وثكلان موجع)** إمّا لمصابه في الدين أو من كثرة أذى الظالمين.

وفي **«البحار»** ولعلّ المعنى أنّ بعضهم ترك الأوطان أو مجامع النّاس لما ذكر، وبعضهم لم يترك ذلك وينكر منكراً، ثم يخاف ممّا يجري عليه بعد ذلك ومنهم من هو بينهم ولا ينهاهم تقيّة ومعرض عنهم ومشتغل بالدّعاء، ومنهم من هو بينهم بالضّرورة ويرى أعمالهم ولا يؤثر نهيه فيهم فهو كالثكلان الموجع **(قد أخملتهم التّقية)** من الظالمين **(وشملتهم الذّلة)** بسبب التّقية منهم **(فهم في بحر أجاج)**.

يعني أنّ حالهم في الدّنيا كحال العطشان في البحر الأجاج يريد عدم انتفاعهم بها وعدم استمتاعهم فيها كما لا يستغني ذو العطاش بالماء المالح **(أفواههم ضامزة)** أي ساكتة وساكنة من الكلام **(وقلوبهم قرحة)** من خشية الرّب تعالى أو لكثرة مشاهدة المنكرات مع عدم التمكن من دفعها ورفعها **(قد وعظوا حتّى ملوا)** من الوعظ لعدم التفات الخلق إليهم وعدم تأثير موعظتهم فيهم.

(وقهروا حتّى ذلوا) بين النّاس **(وقتلوا حتّى قلّوا)** نسبة القتل إلى الجميع مع بقاء البعض من باب إسناد حكم البعض إلى الكل، وهو شائع يقال: بنو فلان قتلوا فلاناً، وإنّما قتله

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٢٢٧ ح ٢٠٣٤٣، وثواب الأعمال: ١٦٧.

(٢) الكافي: ٢/ ٤٨٢ ح ٤، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٢٨ ح ٢٠٣٤٦.

(٣) وسائل الشيعة: ٧/ ٧٦، وعدة الداعي: ١٥٥.

بعضهم وإذا كان حال كرام النّاس الزّاهدين في الدّنيا ذلك **(فلتكن)** لكم بهم أسوة حسنة ولتكن **(الدنيا)** الدنية **(في أعينكم أصغر)** وأحقر **(من حثالة القرظ وقراضة الحلم)** وهو أمر للسّامعين باستصغار الدّنيا واستحقارها إلى حدّ لا يكون في نظرهم أحقر منها، والغرض من ذلك تركهم لها وإعراضهم عنها.

قيل: إنّ النّبي ﷺ مرّ على سخلة منبوذة على ظهر الطريق فقال ﷺ: «أترون هذه هينة على أهلها فوالله الدّنيا أهون على الله من هذه على أهلها»، ثمّ قال: «الدّنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وشهواتها يطلب من لا فهم له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له»[1].

(واتّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم) وهو أمر بالإتعاظ بالأمم السّالفة وتنبيه على أنّهم مفارقون للدّنيا لا محالة وكائنون عبرة لغيرهم، كما أنّ السّابقين عليهم صاروا عبرة لهم **(وارفضوها ذميمة)** أي فارقوا عنها واتركوها حال كونها مذمومة عند العقلاء وأولي البصيرة.

وذلك لزوال نعيمها وفناء سرورها ونفاد صحبتها وانقطاع لذّتها **(فإنّها)** لو دام سرورها وبهجتها لأحد لدامت في حقّ أحبّ الخلق إليها مع أنّها لم تدم في حقّهم بل **(قد رفضت من كان أشغف بها منكم)** وتركت من كان أشدّ حرصاً إليها، وإذا كان طباعها رفض كلّ محبّ فالأولى للعاقل رفضه لها قبل رفضها له.

روي انّ عيسى عليه السلام كوشف بالدّنيا فرآها في صورة عجوزة هتماء عليها من كلّ زينة فقال لها كم: تزوّجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أو طلقوك؟ قالت: بل كلهم قتلت. قال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف أهلكتهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر[2]؛ ولنعم ما قيل:

يا طالب الدنيا يغرّك وجهها ولتندمن إذا رأيت قفاها

---

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٢٢، ومشكاة الأنوار: ٤٦٧.

(٢) محاسن النفس: ١٤٤، وبحار الأنوار: ١٤/ ٣٢٨.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است که شکایت می کند در آن از اهل زمان خود و می فرماید:

ای مردمان به درستی که ما صباح کرده ایم در روزگار بسیار ستیزه کننده و ستمکار و در زمان بسیار ناسپاس در نعمت آفریدگار که شمرده می شود در او نیکوکار بدکردار و زیاده می کند در آن ستمکار سرکشی و افتخار را و منتفع نمی شویم به آن چه دانسته ایم و سؤال نمی کنیم از آن چه ندانسته ایم و نمی ترسیم از بلاهای خطرناك که کوبنده دلها است تا این که نازل شود آن بلاها به ما.

پس مردمان دنیا چهار صنفند: یکی از ایشان کسی است که بازنمی دارد او را از فتنه و فسادِ مرگ رذالت و خاری نفس او و کند بودن تیزی شمشیر او و کمی مال و ثروت او.

دومی از ایشان کسی است که کشنده است شمشیر خود را و آشکارکننده است شرّ خود را و کشنده است سواره و پیاده خود را، یعنی اسباب سلطنت و ظلم در حق او مهیا است به تحقیق این مرد مهیا نموده از برای شرارت نفس خود را و تباه ساخته دین خود را از برای متاع دنیا که غنیمت می شمارد آن را یا از برای سوارانی که بکشد ایشان را از برای منبری که بالا می رود بر او و هرآینه بد تجارتی است آن که ببینی دنیا را از برای نفس خودت ثمن و بها و از آن چه مرتورا است در نزد خدای تعالی از نعم آن سرا عوض و سزا.

و سیّمی از ایشان کسی است که طلب کند دنیا را به عمل آخرت و طلب نمی کند آخرت را به عمل دنیا، به تحقیق که این شخص پست کرد تن خود را به جهت اظهار تواضع و نزدیك نهاد کام خود را به جهت اظهار وقار و برچید دامن جامه خود را به جهت اظهار احتیا از نجاست و زینت داد نفس خود را برای امانت و دیانت و فراگرفته طریقه خدا را وسیله رفتن به سوی معصیت.

و چهارمی از ایشان کسی است که نشانده او را از طلب ملك و مال حقارت نفس او و بریده شدن علاج او، پس کوتاه ساخته او را حال تنگی او و بر حالتی که

اراده نموده از رفعت و مرتبت پس آراسته است خود را به اسم قناعت و پیراسته به لباس اهل زهد و طاعت و حال آن که نیست از اهل قناعت و زهد نه در محل شب و نه در محل روز یعنی در هیچوقت در سلك زاهدان حقیقی نیست بلکه زهد و قناعت او صوری و ظاهری است.

و باقی مانده مردمانی که اهل آخرت هستند که پوشانید چشم های ایشان را از محارم یا از مطلق ماسوی الله یادکردن بازگشت او نزد خداوند سبحانه و ریخت اشك های ایشان را ترس روز محشر پس آن ها میان رمیده هستند و مطرود شده و ترسنده و مقهور گردیده و خاموش شونده و ممنوع از کلام و دعاکننده با اخلاص و فریادکننده و رنجور شده.

به تحقیق که افکنده است ایشان را به گوشه خمول تقیه و پرهیزکاری و شامل شده ایشان را ذلت و خاری، دهن های ایشان خاموش است از سخن، و قلب های ایشان مجروح است از خشیة خداوند ذوالمنن، به تحقیق که موعظه فرمودند تا این که ملول شدند و مقهور گشتند تا این که ذلیل گردیدند و کشته شدند تا این که اندك ماندند.

چون حال روزگار غدار در حق این طایفه عالی مقدار بر این منوال است، پس باید که باشد دنیای فانی در نظر شما خارتر از دردی برگ سلم که به آن دباغی می کنند و از ریزهای پشم بز که از مقراض می افتد و نصیحت بپذیرید با کسانی که بودند پیش از شما پیش از آن که پند گیرند با شما آن کسانی که می آیند بعد از شما و بگذارید و ترك نمایید متاع دنیا را در حالتی که مذموم است و معیوب نزد اهل دانش و بینش، پس به تحقیق که ترك کرده است دنیا کسی را که حریص تر بود و مایل تر به آن از شما.

ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة وهي الثالثة والثلاثون من المختار في باب الخطب

قال ابن عباس دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها: فقال عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَهِيَ أَحبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلاّ أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً» ثمّ خرج فخطب النّاس فقال:

إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتاباً ولا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَساقَ النّاسَ حَتّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وبَلَّغَهُمْ مَنْجاتَهُمْ، فَاسْتَقامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ صِفاتُهُمْ، أَما وَاللَّهِ إِنْ كُنتُ لَفِي ساقَتِها حَتّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذافِيرِها ما عَجَزْتُ، وَلاَ جَبُنْتُ، وَإِنَّ مَسيري هذا لِمِثْلِها، ولأَنْقُبَنَّ (ولأبْقرنَّ خ) الْباطِلَ حَتّىٰ يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ خاصِرَتِهِ (جنبه خ له)، ما لي وَلِقُرَيْشٍ وَاللَّهِ لَقَدْ قاتَلْتُهُمْ كافِرِينَ، وَلأُقاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وإني لَصاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ»[1].

اللغة

(ذو قار) موضع قرب البصرة، وهو المكان الذي كان فيه الحرب بين العرب والفرس ونصرت العرب على الفرس وفيه عين يشبه لون مائه القير و**(خصف النعل)** خرزها وهي مؤنثة سماعيّة و**(بوأه)** المكان أسكنه فيه و**(المنجاة)** موضع النّجاة و**(القناة)** الرّمح وهو إذا كانت معوجاً لا يترتّب عليه الأثر و**(الصّفاة)** بفتح الصاد الحجر الصّلبة الضّخم لا ينبت و**(السّاقة)** جمع سائق كالحاكة والحائك ثمّ استعملت للأخير لأن السّائق إنّما يكون في آخر الرّكب أو الجيش **(تولت)** وفي نسخة الشّارح المعتزلي ولت بالواو وكلاهما بمعنى واحد أي أدبرت هارباً و**(الحذافير)** جمع الحذفار بكسر الحاء وهو الجانب والشّريف والجمع الكثير يقال أخذه بحذافيره بأسره أو بجوانبه أو بأعاليه و**(ضعف وجبن)** بضم العين من باب كرم و**(النقب)** الثقب وفي بعض النّسخ بدل لأنقبن لأبقرن من البقر وهو الشّق.

الإعراب

جملة وليس احد، (ا ه) حاليّة **(وإن كنت لفي ساقتها)** إن بالكسر مخفّفة من الثقيلة

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٧٦ ح ٥٠، وعبد الله بن سبا: ٢/٣٥٣.

واسمها محذوف: واللام في قوله لفي ساقتها عوض عن المحذوف على حذ قوله سبحانه:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل فصل باللام بين إن المخفّفة وبين غيرها من أقسام إن.

وعن الكوفيّين أنّ إن المشدّدة لا تخفف وأن إن في هذه الموارد بمعنى ما النّافية، واللاّم بمعنى إلاّ فإذا قلت: إن زيد لمنطلق فمعناه ما زيد إلا منطلق وردّ أوّلاً بأنّ وقوع اللاّم بمعنى إلاّ لم يثبت سماعاً ولا قياساً، وثانياً بأنّ هذا ينافي أعمالها مع التّخفيف وقد حكي عن سيبويه إن عمراً لمنطلق بالنصب وقرأ الحرميان وأبو بكر:

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ [هود: ١١١].

وجملة **(ما عجزت)** حالية، ولمثلها بكسر اللاّم على ما في أكثر النّسخ أو بفتحها على أنّها للتّوكيد على ما في بعضها، **(وما لي ولقريش)** استفهام على سبيل إنكار معاندتهم له وجحودهم لفضله، وكافرين ومفتونين منصوبتان على الحال.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة مسوقة لإظهار أن غرضه من حرب أهل الجمل كان إقامة الحق وإزاحة الباطل وأن حربه معهم جاري مجرى حربه مع الكفار وأهل الجاهلية في زمن الرّسول ﷺ، ولذلك أشار أولاً إلى بعثة الرّسول ثمّ رتب عليها مقصوده فقال: **(إنّ الله سبحانه بعث محمداً)** ﷺ **(وليس أحد من العرب)** في زمان بعثه **(يقرأ كتاباً ولا يدّعي نبوّة)**.

يحتمل أن يكون المراد بالعرب أقلهم، فإنّ أكثرهم لم يكن لهم يومئذٍ دين ولا كتاب كما مرّ تفصيلاً في الفصل السّادس عشر من فصول الخطبة الأولى عند شرح قوله ﷺ: «وأهل الأرض يومئذٍ ملل متفرقة» (ا ه).

وأمّا على إرادة العموم كما هو ظاهر العبارة فيمكن الجواب بأن الكتاب الذي كان بأيدي اليهود والنّصارى حين بعثه لم يكن بالتّوراة والإنجيل المنزل من السماء، لمكان التّحريف والتّغيير الذي وقع فيهما كما يشهد به قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

قال أبو علي الطبرسي في «مجمع البيان» قيل: نزلت في جماعة من أحبار اليهود كتبوا بأيديهم ما ليس في كتاب الله من بعث النّبي وغيره وأضافوه إلى كتاب الله، وقيل: نزلت في

اليهود والنّصارى حرّفوا التّوراة والإنجيل وضربوا كتاب الله بعضه ببعض وألحقوا به ما ليس منه وأسقطوا منه الدّين الحنيف.

قال ابن عباس: وكيف كان فالمقصود أنّ النّاس يوم بعث النبي كانوا أهل جاهلية غافلين عن الكتاب والسّنة **(فساق)** صلوات الله وسلامه عليه وآله **(النّاس حتى بوّأهم محلّتهم)** يعني أنه ضرب النّاس بسيفه حتى أسكنهم منزلتهم ومرتبتهم التي خلقوا لأجلها **(وبلغهم منجاتهم)** التي لا خوف على من كان بها ولا سلامة للمنحرف عنها.

والمراد بهما هو الإسلام والدّين وبذلك يحصل النّجاة من النّار ويتقي من غضب الجبار ويسكن دار القرار، وذلك هو المراد من خلقة الإنسان وبه يحصل مزيّته على سائر أنواع الحيوان **(فاستقامت به قناتهم)** التي كانت معوّجة **(واطمأنت صفاتهم)** التي كانت متزلزلة مضطربة.

قال الشّارح البحراني: والمراد بالقناة القوّة والغلبة والدّولة التي حصلت لهم مجازاً من باب إطلاق السبب على المسبب، فإنّ الرّمح سبب للقوّة والشدّة، ومعنى إسناد الإستقامة إليها إنتظام قهرهم ودولتهم، ولفظ الصفات استعارة لحالهم التي كانوا عليها.

ووجه المشابهة أنّهم كانوا قبل الإسلام في مواطنهم وعلى أحوالهم متزلزلين لا يقرّ بعضهم بعضاً في موطن ولا على حال بل كانوا أبداً في النّهب والغارة والجلاء، فكانوا كالواقف على حجر أملس متزلزل مضطرب فاطمأنّت أحوالهم وسكنوا في مواطنهم **(أما والله إن كنت لفي ساقتها)** شبّه أمر الجاهلية إمّا بعجاجة ثائرة أو بكتيبة مقبلة للحرب.

فقال: إنّي طردتها فولت بين يدي ولم أزل في ساقتها أنا أطردها وهي تنفر أمامي **(حتّى تولت)** هاربة **(بحذافيرها)** ولم يبق منها شيء **(ما عجزت)** من سوقها **(ولا جبنت)** من طردها **(وأنّ مسيري هذا لمثلها)** أي لمثل تلك الحال التي كنت عليها معهم في زمن الرّسول ﷺ من سوق كتائبهم وطردها من غير ضعف ولا جبن.

(ولأبقرنّ الباطل حتّى يخرج الحقّ من خاصرته) شبّه الباطل بحيوان ابتلع جوهراً ثميناً أعزّ منه قيمة فاحتيج إلى شقّ بطنه في استخلاص ما ابتلع، وأراد بذلك تميز الحقّ من الباطل وتشخيص الصلاح من الفساد **(مالي ولقريش)** يجحدون فضيلتي ويستحلّون محاربتي وينقضون بيعتي **(والله لقد قاتلتهم كافرين)** بالكفر والجحود **(ولأقاتلنّهم مفتونين)** بالإفتنان والبغي ليرجعوا من الباطل إلى الحقّ ويفيؤوا إليه.

روي في «**الوسائل**» عن الحسن بن محمّد الطوسي في مجالسه عن أبيه عن المفيد معنعناً عن محمّد بن عمر بن علي عن أبيه عن جدّه أن النّبي ﷺ قال له: «يا علي إنّ الله قد كتب على المؤمنين الجهاد في الفتنة من بعدي كما كتب عليهم الجهاد مع المشركين معي،

فقلت: يا رسول الله وما الفتنة التي كتب علينا فيها الجهاد؟ قال: فتنة قوم يشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّي رسول الله، وهم مخالفون لسنّتي وطاعنون في ديني، فقلت فعلى (ما) نقاتلهم يا رسول الله وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّك رسول الله؟ فقال على إحداثهم في دينهم وفراقهم لأمري واستحلالهم دماء عترتي»[1] هذا.

قال الشّارح المعتزلي في شرح قوله ولأقاتلنهم مفتونين: إنّ الباغي على الإمام مفتون فاسق، وهذا الكلام يؤكد قول أصحابنا إنّ أصحاب صفّين والجمل ليسوا بكفّار خلافاً للإماميّة.

وردّ بأن المفتون من أصابه الفتنة وهي تطلق على الإمتحان والضّلال والكفر والإثم والفضيحة والعذاب وغير ذلك، والمراد بالمفتون ما يقابل الكافر الأصلي الذي لم يدخل في الإسلام أصلاً ولم يظهره إذ لا شك في أنّ من حاربه عليه السلام كافر لقوله ﷺ: «حربك حربي» وغير ذلك من الأخبار والأدلة.

أقول: المستفاد من كلام الشّارح أنّ الإمامية يقولون يكون البغاة كفاراً كسائر الكفّار من المشركين ومنكري الرّسالة وسائر ما ثبت ضرورة من دين الإسلام، وليس كذلك وإلاّ لحكموا بجواز سبي ذراريهم وتملّك نسائهم وأموالهم الغير المنقولة كسائر الكفار من أهل الحرب مع أنّهم قد أجمعوا على عدم جواز شيء من ذلك.

كيف ولو كان بناؤهم على ذلك لم يفصلوا في البغاة بين ذوي الفتنة كأصحاب الجمل ومعاوية، وبين غيرهم كالخوارج حيث قالوا: في الأوّلين بإجهاز جريحهم واتباع مدبرهم وقتل أسيرهم، وفي الآخرين بوجوب الإكتفاء بتفريقهم من غير أن يتّبع لهم مدبر أو يقتل لهم أسير أو يجهز على جريح، ولم يختلفوا أيضاً في قسمة أموالهم التي حواها العسكر، بل حكموا في كل ذلك بحكم الكافر الحربي.

وممّا ذكرنا ظهر ما في كلام المورد أيضاً مضافاً إلى ما فيه من أنه لو كان المراد بالمفتون في كلامه عليه السلام هو المرتدّ عن دين الإسلام على ما فهمه المورد لزم الحكم بعدم قبول توبة أكثر البغاة لو تابوا، وبقسمة أموالهم وباعتداد زوجاتهم عدة الوفاة، لأنّ أكثر أهل البغي قد ولدوا على الفطرة مع أنّه لم يحكم أحد بذلك.

وتحقيق الكلام في المقام على ما يستفاد من كلام بعض علمائنا الأبرار وأخبار أئمتنا الأطهار سلام الله عليهم ما تعاقب اللّيل والنّهار هو:

أنّ البغاة محكوم بكفرهم باطناً إلاّ أنّه يعامل معهم في هذا الزّمان المسمّى بزمان الهدنة

(١) وسائل الشيعة: ١١/ ٦١ ح ٧.

معاملة المسلم الحقيقي، فيحكم بطهارتهم وجواز ملاقاتهم بالرّطوبة وبحل أكل ذبائحهم وحرمة أموالهم وصحة مناكحاتهم إلى غير ذلك من أحكام الإسلام حتّى يظهر الدّولة الحقة عجل الله تعالى ظهورها فيجري عليهم حينئذٍ حكم الكفّار الحربيين.

ويشهد بذلك ما رواه في **«الوسائل»** بإسناده عن عبد الله بن سليمان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ النّاس يروون أن علياً عليه السلام قتل أهل البصرة وترك أموالهم فقال: «إنّ دار الشرّك يحلّ ما فيها وأن دار الإسلام لا يحل ما فيها»، فقال: إنّ عليّاً إنّما منَّ عليهم كما منّ رسول الله صلى الله عليه وآله على أهل مكة، وإنّما ترك عليّ عليه السلام لأنّه كان يعلم أنّه سيكون له شيعة، وأن دولة الباطل ستظهر عليهم، فأراد أن يقتدى به في شيعته وقد رأيتم آثار ذلك هو ذا يسار في النّاس بسيرة علي ولو قتل علي عليه السلام أهل البصرة جميعاً واتخذ أموالهم لكان ذلك له حلالاً لكنّه منّ عليهم ليمنّ على شيعته من بعده[١].

وعن إسحاق بن عمّار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «مال النّاصب وكل شيء يملكه حلال إلاّ امرأته، فإنّ نكاح أهل الشرّك جائز»؛ وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تسبّوا أهل الشرك فإنّ لكل قوم نكاحاً ولولا أنا نخاف عليكم أن يقتل رجل منكم برجل منهم ورجل منكم خير من ألف رجل منهم لأمرناكم بقتالهم، ولكن ذلك إلى الأمام»[٢].

وعن أبي بكر الحضرمي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «لسيرة علي في أهل البصرة كانت خيراً لشيعته ممّا طلعت عليه الشّمس إنه علم أنّ للقوم دولة فلو سباهم لسبيت شيعته»، قلت: فأخبرني عن القائم يسير بسيرته؟ قال: «لا إن عليّاً سار فيهم بالمنّ لما علم من دولتهم، وإنّ القائم يسير فيهم بخلاف تلك السّيرة لأنّه لا دولة لهم»[٣].

وعن محمّد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن القائم إذا قام بأيّ سيرة يسير في النّاس؟ فقال: «بسيرة ما سار به رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى يظهر الإسلام»، قلت: وما كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أبطل ما كان في الجاهليّة واستقبل النّاس بالعدل، وكذلك القائم إذا قام يبطل ما كان في الهدنة ممّا كان في أيدي النّاس ويستقبل بهم العدل[٤].

وروي عن الدّعائم عن علي عليه السلام أنّه سئل عن الذين قاتلهم من أهل القبلة أكافرون هم؟ قال عليه السلام: «كفروا بالأحكام وكفروا بالنّعم ليس كفر المشركين الذين دفعوا النبوة ولم يقروا

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٧٩ ح ٢٠٠٢٠، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤٤٣.

(٢) وسائل الشيعة: ١٥/ ٨٠ ح ٢٠٠٢٤، وتهذيب الأحكام: ٦/ ٣٨٧ ح ١١٥٤.

(٣) تهذيب الأحكام: ٦/ ١٥٥ ح ٢٧٥، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٧٦ ح ٢٠٠١٥.

(٤) تهذيب الأحكام: ٦/ ١٥٤ ح ٢٧٠، ووسائل الشيعة: ١١/ ٥٧ ح ٢.

بالإسلام، ولو كانوا كذلك ما حلت لنا مناكحهم ولا ذبائحهم ولا مواريثهم»[١].

إلى غير ذلك من النّصوص الدالة على جريان حكم المسلمين على البغاة من حيث البغي في زمن الهدنة فضلاً عمّا هو المعلوم من تتبّع كتب السّير والتّواريخ من مخالطة الأئمة عليهم السّلام معهم وعدم التجنب من أسارهم وغير ذلك من أحكام المسلمين، وإن وجب قتالهم إذا ندب عليه الإمام عموماً أو خصوصاً أو ندب عليه المنصوب من قبله عليه السلام لكن ذلك أعمّ من الكفر ويأتي تمام الكلام إن شاء الله تعالى في شرح الكلام المائة والخامسة والخمسين.

نعم الخوارج منهم قد اتّخذوا بعد ذلك ديناً واعتقدوا اعتقادات صاروا بها كفّاراً لا من حيث كونهم بغاة، فافهم جيّداً وقوله عليه السلام: **(إني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم)** إشارة إلى عدم تغيّر حالته عن التي بها قاتلهم كافرين، وفيه تهديد لهم وتذكير لشدّة بأسه وسطوته وشجاعته هذا.

وفي نسخة الشّارح المعتزلي بعد قوله صاحبهم اليوم: «والله ما تنقِمُ مِنّا قُرَيْشٌ إلاّ أنّ الله اخْتَارَنا عليهِم فَأَدْخَلنَاهُمْ في خَيرِنا فكانُوا كما قال الأوّل»:

أدمت لعمري شربك المحض صابحاً وأكلك بالزبد المقشرة البجرا

ونحن وهبناك العلاء ولم تكن علياً وحطنا حولك الجرد والسمرا

أقول: **(المحض)** اللبن الخالص، و **(الصّابح)** والصّبوح ما صلب من اللبن بالغداة وما أصبح عندهم من شراب و **(المقشّرة)** التّمرة التي أخرج منها نواتها و **(البجر)** بالضّم الأمر العظيم والعجب ولعله هنا كناية عن الكثرة أو الحسن أو اللطافة، ويحتمل أن يكون مكان المفعول المطلق يقال بجر كفرح فهو بجر امتلأ بطنه من اللبن ولم يروّ، وتبجر النّبيذ ألحّ في شربه و **(الجرد)** بالضّم جمع الأجرد، وهو الفرس الذي دقت شعرته وقصرت وهو مدح و **(السّمر)** جمع الأسمر وهو الرّمح.

تكملة

يأتي إن شاء الله رواية هذه الخطبة في الكتاب بطريق آخر، وهي الخطبة المائة والثّالثة، ونوردها بطريق ثالث في الشّرح ثمّة فانتظر.

تبصرة

روى الشّارح المعتزلي عن أبي مخنف عن الكلبي عن أبي صالح عن زيد بن علي عن

(١) دعائم الإسلام: ١/٣٨٨، ومستدرك الوسائل: ١١/٦٦ ح ١٢٤٤٠.

ابن عباس قال: لما نزلنا مع علي عليه السلام ذا قار قلت: يا أمير المؤمنين ما أقل من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظن؟ فقال: «والله ليأتيني منهم ستّة آلاف وخمسمائة وستّون رجلاً لا يزيدون ولا ينقصون» قال ابن عبّاس فدخلني والله من ذلك شكّ شديد في قوله، وقلت في نفسي والله إن قدموا لأعدّنهم.

قال أبو مخنف فحدّث ابن إسحاق عن عمّه عبد الرّحمٰن بن يسار قال: نفر إلى علي إلى ذي قار من الكوفة في البر والبحر ستّة آلاف وخمسمائة وستّون رجلاً، وأقام علي عليه السلام بذي قار خمسة عشر يوماً حتّى سمع صهيل الخيل وشجيج البغال حوله.

قال: فلما سار منقلة قال ابن عباس: والله لأعدّنهم فإن كانوا كما قال وإلا أتممتهم من غيرهم فإنّ النّاس قد كانوا سمعوا قوله، قال: فعرضهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً فقلت: الله أكبر صدق الله ورسوله، ثم سرنا[١].

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٢/١٨٧، ونهج السعادة: ١/٢٧٧.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است که فرموده هنگام رفتن او به محاربه اهل بصره گفت عبدالله بن عباس که داخل شدم بر امیرالمؤمنین در منزل ذی قار و آن حضرت می دوخت نعلین خود را، پس گفت به من که ای ابن عباس چیست قیمت این نعل؟ من عرض کردم که قیمت ندارد و به چیزی نمی ارزد، فرمود: به خدا سوگند که این نعل محبوب تر است به سوی من از امارت در میان شما مگر این که اقامه نمایم حقی را یا برطرف سازم باطلی را پس آن حضرت بیرون تشریف آورد، پس خطبه خواند از برای مردم، پس فرمود:

به درستی که خداوند تعالی مبعوث فرمود محمد بن عبدالله صلوات الله و سلامه علیه را در حالتی که نبود هیچ احدی از عرب که کتاب بخواند و نه شخصی که دعوی نبوت نماید. پس راند حضرت رسالت مردم را تا این که ساکن فرمود ایشان را در منزل ایشان و رسانید ایشان را در محل رستگاری ایشان، پس راست شد نیزه های ایشان و آرام گرفت سنگ هموار ایشان.

مقصود انتظام دولت ایشان است و آسودگی بلاد ایشان، به خدا سوگند به درستی که بودم در میان مردمانی که رانندگان عساکر خصم بودند تا این که پشت برگرداند لشکر خصم و روبر فرار نهادند تماماً در حالتی که عاجز نشدم و ترسناك نگشتم و به درستی که این سیر و حرکت من به قتال اهل بصره هر آینه مثل آن حالت سابقه است که بودم بر آن از دلیری و شجاعت.

پس هرآینه می شکافم باطل را تا این که بیرون آید حق از شکم او، چیست مرا و قریش را که بیعت مرا شکستند و فضیلت مرا انکار کردند به خدا سوگند که مقاتله کردم با ایشان در حالتی که کافر بودند و مقاتله می کنم با ایشان در حالتی که مفتون هستند و به درستی که من مصاحب ایشان بودم دیروز، همچنان که مصاحب ایشانم امروز و تفاوت در حالت من نبوده.

ومن خطبة له عليه السلام في استنفار الناس إلى أهل الشام وهي الرابعة والثلاثون من المختار في باب الخطب

خطب بها بعد فراغه من قتال الخوارج على ما تعرفه تفصيلاً إن شاء الله.

«أُفٍّ لَكمْ لَقَدْ سَئِمْتُ عِتابَكُمْ، أَرَضيتُمْ بِالْحَيوةِ الدُّنيا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً، وبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً، إِذا دَعَوْتُكُمْ إلى جِهادِ عَدُوِّكُم دارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ في غَمْرَةٍ، ومِنَ الذُّهُولِ في سَكْرَةٍ، يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حِواري فَتَعْمَهُونَ، فَكَأَنَّ قُلوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لا تَعْقِلُونَ، ما أَنْتُمْ لي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيالي وما أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمالُ بِكُمْ، وَلا زَوافِرِ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ، ما أَنْتُمْ إلاّ كإِبِلٍ ضَلَّ رُعاتُها فَكُلَّما جُمِعَتْ مِنْ جانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ، لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللهِ سَعْرُ نارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ تُكادُونَ وَلا تَكِيدُونَ، وتُنْتَقَصُ أَطْرافُكُمْ فَلا تَمْتَعِضُونَ، لا يُنامُ عَنْكُمْ وأَنْتُمْ في غَفْلَةٍ ساهُونَ، غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخاذِلُونَ.

وَأَيْمُ اللهِ إِنّي لأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغى وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ قَد انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبي طالِبٍ انْفِراجَ الرَّأْسِ، وَاللهِ إِنَّ امْرَءً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِه يَعْرُقُ لَحْمَهُ ويَهْشِمُ عَظْمَهُ ويَفْري جِلْدَهُ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ ما ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوانِحُ صَدْره، أَنْتَ فَكُنْ ذاكَ إِنْ شِئْتَ، فَأَمّا أَنا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّة تَطيرُ مِنْهُ فَراشُ الْهامِ، وَتَطِيحُ السَّواعِدُ والأَقْدامُ، وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذلِكَ ما يَشاءُ.

أَيُّهَا النّاسُ إِنَّ لي عَلَيْكُمْ حَقًّا، ولَكُمْ عَليَّ حَقٌّ، فَأَمّا حَقُّكُمْ عَليَّ فَالنَّصيحَةُ لَكُمْ، وتَوْفيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وتَعْليمُكُمْ، كَيْ لا تَجْهَلُوا، وتَأْديبُكُمْ كَيما تَعْلَمُوا، وأَمّا حَقّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصيحَةُ في الْمَشْهَدِ وَالْمَغيبِ، وَالإِجابَةُ حينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطّاعَةُ حينَ آمُرُكُمْ»[١].

اللغة

(**أفّ**) بالضّم والتّشديد والتّنوين كلمة تضجر، ولغاتها أربعون و (**سئم**) الشيء يسأم كفرح سأماً وسآمة ملّ و (**الغمرة**) الشّدة، وغمرات الموت سكراته التي يغمر فيها العقل و (**السّكر**) بالفتح ضدّ الصّحو والاسم بالضّم، وسكرة الموت شدّته وغشيته و (**رتج**) كفرح استغلق عليه الكلام كارتج عليه بالبناء للمفعول (**والحوار**) بالكسر المحاورة والمخاطبة.

و (**عمه**) الرّجل كعلم إذا تحير في الضّلال وتردّد في المنازعة و (**الألس**) بسكون اللاّم الجنون واختلاط العقل و (**سجيس اللّيالي**) كلمة يقال للأبد تقول لا أفعله سجيس الليالي أي

(١) نهج البلاغة: ١/ ٨٤، والغارات: ١/ ٣٨.

أبداً ومثلها سجيس الأوجس وسجيس عجيس و **(الزوافر)** جمع زافرة وزافرة الرّجل أنصاره وعشيرته و **(الإبل)** اسم جمع و **(سعر نار الحرب)** جمع ساعر وأسعار النّار وسعرها إيقادها و **(الإمتعاض)** الغضب و **(حمس)** كفرح اشتد.

وأصل **(الوغى)** الصّوت والجلبة وأطلق على الحرب لما فيها من الأصوات والجلبة و **(عرق اللحم)** كنصر أكله ولم يبق منه على العظم شيئاً و **(هشم)** العظم كضرب كسره و **(فريت)** الشيء قطعته و **(الجوانح)** الأضلاع التي تحت الترائب وهي مما يلي الصّدر كالضّلوع مما يلي الظهر.

و **(ما ضمت عليه)** هو القلب و **(المشرفيّة)** بفتح الميم والرّاء سيوف منسوبة إلى مشارف اليمن و **(فراش الهام)** بالفتح العظام الرّقيقة التي تلي القحف و **(طاح)** يطيح أي سقط.

الإعراب

عوضاً وخلفاً نصبهما على التّمييز، وجملة يرتج عليكم حاليّة، وسجيس الليالي منصوب على الظرفية، وزوافر في أكثر النّسخ بالجرّ عطفاً على المجرور، وفي بعضها بالنّصب عطفاً على الظرف أعني بركن، وقوله: لبئس لعمر الله، اللاّم جواب القسم والتكرير للتّأكيد، والعمر بالفتح العمر وهو قسم ببقاء الله سبحانه، وأيم مخفف أيمن وهو جمع يمين أي أيم الله قسمي.

وقوله: أن لو حمس الوغى، أن بفتح الهمزة مخففة من الثقلية اسمها ضمير شأن، وجملة: لو حمس (آه) خبرها، وهي مع اسمها وخبرها قائمة مقام مفعولي أظن ولعظيم عجزه خبر إن، واللاّم للتّأكيد، والجمل بين الاسم والخبر منصوب المحل إلاّ أنّ انتصاب الأولى على الوصفيّة والثلاث الأخيرة على الحاليّة من مفعول يمكنّ.

وقوله: فأمّا أنا مبتدأ، وضرب بالمشرفية خبره من باب زيد عدل وقوله: كيلا تجهلوا كي إمّا تعليليّة وأن مضمرة بعدها، أو مصدريّة واللاّم مقدّرة قبلها، ومثله في الإحتمالين قوله سبحانه: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾ [الحشر: ٧] وقوله: كيما تعلموا، كي تعليلية وما إمّا مصدريّة أو كافة ومثله في الاحتمالين قوله:

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنّما   يرجى الفتى كيما يضرّ وينفع

المعنى

إعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام، خطب بهذه الخطبة بعد فراغه من أمر الخوارج، روي أنّه قام بالنّهروان فحمد الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد: «فإنّ الله قد أحسن نصركم فتوجّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم من أهل الشّام»، فقاموا إليه وقالوا له: يا أمير المؤمنين قد نفدت نبالنا

وكلت سيوفنا إرجع بنا إلى مصرنا لنصلح عدتنا، ولعلّ أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منّا لنستعين به فأجابهم:

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢١].

فتلكؤوا عليه وقالوا: إنّ البرد شديد فقال: إنهم يجدون البرد كما تجدون فتلكؤوا وأبوا؛ فقال: أفّ لكم إنها سنة جرت ثم تلا قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢] خ ل.

فقام ناس منهم واعتذروا بكثرة الجراح في النّاس وطلبوا أن يرجع بهم إلى الكوفة أيّاماً ثمّ يخرج، فرجع بهم غير راض وأنزلهم النّخيلة وأمر النّاس أن يلزموا معسكرهم ويقلوا زيارة أهلهم وأبنائهم حتّى يسير بهم إلى عدوهم.

فلم يقبلوا ودخلوا الكوفة حتّى لم يبق معه من النّاس إلاّ رجال من وجوههم قليل، وبقي المعسكر خالياً فلا من دخل الكوفة رجع إليه، ولا من أقام معه صبر، فلما رأى ذلك دخل الكوفة فخطب النّاس فقال:

«أيّها النّاس استعدّوا لقتال عدو في جهادهم القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده قوم حيارى عن الحقّ لا ينصرونه مورغين بالجور والظلم لا يعدلون به، وجفاة عن الكتاب نكب عن الدين، يعمهون في الطغيان ويتمكعون في غمرة الضّلالة، فأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً»[1].

فلم ينفروا فتركهم أيّاماً ثمّ خطبهم فقال: (**أف لكم لقد سئمت**) ومللت (**من عتابكم**) بما لا أرتضيه من أفعالكم وأقوالكم وكثرة تثاقلكم عن قتال خصومكم (**أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة عوضاً**) حيث تركتم الجهاد حبّاً للبقاء ورغبة إلى الحياة، ورغبتم عمّا يترتب عليه من الثّمرات الأخروية من الدّرجات الرّفيعة والرّحمة والمغفرة.

مضافة إلى ما فيه من فضله على الأعمال وفضل عامله على العمال، إذ به يدفع عن الدّين، ويستقام شرع سيّد المرسلين، وبه اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنّة مفلحاً منجحاً (**وبالذلّ من العز خلفاً**) حيث إنّ قعودكم عن الجهاد مستلزم لطمع العدو فيكم وقصد بلادكم والإستيلاء عليكم واستباحة دمائكم وأموالكم وسبي ذراريكم، وقد مضى في شرح الخطبة السابعة والعشرين ما يوجب زيادة توضيح المقام.

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٢/ ١٩٤.

ثمّ إنّه ﷺ بعد توبيخهم وتبكيتهم على سوء أفعالهم أشار إلى حالتهم التي كانوا عليها حين دعوتهم إلى الجهاد بقوله: (**إذا دعوتكم إلى جهاد عدوّكم**) تحيرتم وتردّدتم بين النّهوض إلى العدوّ والقعود عنه جبناً وخوفاً فـ (**ـدارت أعينكم**) من شدّة الخوف (**كأنكم من الموت في غمرة و**) شخصت أبصاركم كأنكم (**من الذّهول**) والغفلة (**في سكرة**) كما قال سبحانه:

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحـــزاب: ١٩].

وهو الذي قرب من حال الموت وغشيته أسبابه فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف؛ وكذلك هؤلاء تشخص أبصارهم وتحار أعينهم من شدّة الخوف (**يرتج عليكم حواري**) ويغلق عليكم خطابي (**فتعمهون**) في الضلال وترددون في الشّخوص إلى القتال (**فكأن قلوبكم مألوسة**) وأفئدتكم مجنونة (**فأنتم لا تعقلون**) ما أقول ولا تفقهون صلاح الأمر (**ما أنتم لي بثقة**) أثق بكم وأعتمد عليكم وأتقوّى بكم على أعدائي.

(**سجيس الليالي**) لكثرة ما شاهدت فيكم من كذب الوعد وخلف العهد (**وما أنتم بركن يمال بكم**) ويستند إليكم (**ولا زوافر عزّ**) يعتصم بكم و (**يفتقر إليكم**) لما فيكم من الذّل والفشل والعجز والرذالة، (**ما أنتم إلا كـ**) عجاجة (**إبل**) أو قطعية غنم (**ضلّ رعاتها فكلما جمعت من جانب انتشرت من**) جانب (**آخر**).

وذلك من أجل ما فيكم من اختلاف الأهواء وتشتّت الآراء المانع من اجتماعكم على ما فيه نظم أمر المعاش وصلاح حال المعاد (**لبئس لعمر الله سعر نار الحرب أنتم**) مع ما فيكم من الفشل والخوف مضافاً إلى سوء الرأي وضعف التّدبير وبذلك أنتم (**تكادون ولا تكيدون**) ويمكر بكم عدوكم ولا تمكرون.

(**وتنتقص أطرافكم**) ونواحي بلادكم بإغارة العدو عليها وقتل خيار أهلها وإحداث الخراب فيها (**فلا**) تغضبون ولا (**تمتعضون لا ينام عنكم**) العيون (**وأنتم في غفلة ساهون غلب الله المتخاذلون**) المتثاقلون وأنتم منهم فستغلبون وتقهرون (**وأيم الله إنّي لأظن بكم أن لو حمس الوغى و**) اشتدّت الهيجاء (**استحر الموت**) واستعر القتل (**قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرّأس**) وتفرّقتم عنه تفرّقاً لا رجوع بعده أبداً.

وانفراج الرأس مثل أوّل من تكلم به على ما قيل أكثم بن صيفي في وصية له: يا بنيّ لا تنفرجوا عند الشدائد انفراج الرّأس فإنّكم بعد ذلك لا تجتمعون على عزّ وفي معناه أقوال:

الأوّل: ما ورد عن ابن دريد وهو إنّ الرّأس إذا انفرج عن البدن لا يعود،

الثاني: ما عن ورد المفضل أن الرّأس اسم رجل ينسب إليه قرية من قرى الشّام يقال لها بيت الرأس تباع فيها الخمر، وهذا الرّجل قد انفرج عن قومه ومكانه فلم يعد، فضرب به المثل.

الثّالث: أنّ الرّأس إذا انفرج بعض عظامه من بعض كان بعيداً عن الإلتئام والعود إلى الصّحة.

الرّابع: ما ورد عن القطب الرّاوندي وهو أنّه أراد به انفرجتم عني رأساً أي قطعاً، ورده الشّارح المعتزلي بأنّ رأساً لا يعرف.

الخامس: ما ورد عنه أيضاً من أن المعنى انفراج رأس من أدنى رأسه إلى غيره، ثم حرف رأسه عنه، ورده الشّارح أيضاً بأنه لا خصوصية في الرّأس في ذلك، فإن اليد والرّجل إذا أدنيتهما من شخص، ثم حرفتهما عنه فقد تفرّج ما بين ذلك العضو وبينه، فأيّ معنى لتخصيص الرّأس بالذّكر.

السّادس: أنّ المعنى انفراج من يريد أن ينجو برأسه.

السّابع: أنّ المراد انفراج المرأة عن رأس ولدها حالة الوضع، فإنّه حينئذٍ يكون في غاية الشدة نظير قوله عليه السلام في موضع آخر: انفراج المرأة عن قبلها.

الثّامن: أنّ الرّأس الرّجل العزيز، لأنّ الأعزاء لا يبالون بمفارقة أحد، وعلى أي تقدير فالمقصود شدّة تفرّقهم عنه عليه السلام (**والله أن امرء يمكن عدوه من نفسه**) حال كونه (**يعرق لحمه**) ويأكله (**ويهشم عظمه**) ويكسّره (**ويفري جلده**) ويقطعه أي يسلّط عدوه عليه بالنّهب والأسر والإستئصال (**لعظيم عجزه**) و (**ضعيف ما**) يعني قلبه الذي (**ضمت عليه جوانح صدره**).

ثمّ خاطبهم بخطاب مجمل من غير تعيين للمخاطب تقريعاً وتنفيراً لهم عمّا يلزمهم من الأَحوال الرّدية، بتمكينهم العدوّ من أنفسهم فقال: (**أنت فكن ذاك إن شئت**) أي أنت أيّها الممكن من نفسه والمسّلط له عليه كن ذاك المرء الموصوف بالعجز والجبن والضّعف.

ويأتي في «**رواية الأمالي**» وكتاب الغارات أنّ المخاطب بذلك هو الأشعث ولا بأس بأن يكون الخطاب له، والمقصود عمومه لكل من أمكن العدو تنفيراً وتوبيخاً وتبكيتاً، (**فأمّا أنا فوالله**) لا أتحمل ذلك التّخاذل ولا أحتمل أن أمكن عدوي من نفسي وأسلّطه عليّ يفعل ما يشاء ويريد و (**دون أن أعطي ذلك ضرب**) بالسّيوف (**المشرفيّة**) الذي (**تطير منه فراش الهام وتطيح**) به (**السّواعد والأقدام ويفعل الله بعد ذلك**) الجهاد والمناجزة (**ما يشاء**) من جعل الغلبة لي أو للعدو على ما تقتضيه الحكمة البالغة والمصلحة الكاملة.

(**أيها النّاس إنّ لي عليكم حقاً**) يجب عليكم القيام به (**ولكم عليّ حقّ**) مثله (**فأمّا حقكم**) الذي (**علي فـ**) ـأمور أربعة.

الأوّل: (**النصيحة لكم**) في السّر والعلانية وحثكم على محاسن الأخلاق ومكارم الآداب وترغيبكم على ما فيه حسن الثواب في المعاش والمآب (و) الثاني (**توفير فيئكم عليكم**) وتفريقه فيكم بالقسط والعدل من دون حيف فيه وميل (و) الثالث (**تعليمكم**) ما فيه صلاح

حالكم في المعاش والمعاد (**كيلا تجهلوا** و) الرابع (**تأديبكم**) بالأداب الشرعية (**كيما تعلموا**) وتعملوا.

(**وأما حقي**) الذي (**عليكم فـ**) ـأربعة أيضاً الأوّل (**الوفاء بالبيعة**) الذي هو أهم الأمور وبه حصول النّظام الكلي (و) الثاني (**النصيحة**) لي (**في المشهد والمغيب**) والذب عني في الغيبة والحضور (و) الثالث (**الإجابة**) لدعائي (**حين أدعوكم**) من غير تثاقل فيه وتوان وفتور (و) الرّابع (**الطاعة**) لأمري (**حين أمركم**) والإنتهاء عن نهيي حين أنهاكم.

وغير خفي أنّ منفعة هذه الأمور أيضاً عائدة إليهم في الحقيقة إمّا في الدّنيا وإمّا في الآخرة إذ قيامهم بها يوجب انتظام الحال وحسن المآل؛ ومخالفتهم فيها يوجب خذلان الدنيا وحرمان الآخرة واختلال الحال مع شدة النّكال.

تنبيه

قيل: أكد الأسباب في تقاعد النّاس عن أمير المؤمنين أمر المال فإنّه عليه السلام لم يكن يفضل شريفاً على مشروف، ولا عربيّاً على عجمي ولا يصانع الرّؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه، وكان معاوية بخلاف ذلك فترك النّاس عليّاً والتحقوا بمعاوية، فشكى عليّ عليه السلام إلى الأشتر تخاذل أصحابه وفرار بعضهم إلى معاوية.

فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين إنا قاتلنا أهل البصرة وأهل الكوفة، ورأي النّاس واحد، وقد اختلفوا بعد وتعادوا وضعفت النيّة وقلّ العدد وأنت تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق وتنصف الوضيع من الشّريف، فليس للشّريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجت طائفة ممّن معك إذ عموا به واغتمّوا من العدل إذ صاروا فيه.

ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشّرف فتاقت أنفس النّاس إلى الدّنيا وقل من ليس للدّنيا بصاحب وأكثرهم يحتوي الحق ويشتري الباطل ويؤثر الدّنيا، فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين يميل إليك أعناق الرّجال وتصفو نصيحتهم لك، ويستخلص وذهم صنع الله لك يا أمير المؤمنين وكبت أعداءك وفرق جمعهم وأوهن كيدهم وشتت أمورهم إنّه بما يعملون خبير.

فقال علي عليه السلام: «أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل فإنّ الله يقول:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف.

وأما ما ذكرت من أنّ الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم الله أنّهم لم يفارقونا من جور ولا لجأوا إذا فارقونا إلى عدل ولم يلتمسوا إلاّ دنيا زائلة عنهم كان قد فارقوها، وليسألن

يوم القيامة: الدّنيا أرادوا، أم لله عملوا.

وأما ما ذكرت من بذل الأَموال واصطناع الرّجال فإنّه لا يسعنا أن نؤتي امرأً من الفيء أكثر من حقه وقد قال الله سبحانه وقوله الحق:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقد بعث الله محمّد ﷺ فكثره بعد القلة، وأعزّ فئته بعد الذّلة، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأَمر يذلل لنا صعبه ويسهل لنا حزنه وأنا قائل من رأيك ما كان لله عزّ وجلّ رضا وأنت من آمن النّاس عندي وأنصحهم لي وأوثقهم في نفسي إن شاء الله»(١).

أقول: ويؤيد ذلك ما رواه الكليني في كتاب «الرّوضة» من الكافي عن علي بن إبراهيم عن محمّد بن عيسى عن يونس عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن مولى لأمير المؤمنين سأله مالا فقال يخرج عطائي فأقاسمك هو «عطائي خ ل» فقال: لا أكتفي وخرج إلى معاوية فوصله، فكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام يخبره بما أصاب من المال، فكتب إليه أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

«أما بعد، فإن ما في يدك من المال قد كان له أهل قبلك وهو صائر إلى أهل بعدك، وإنّما لك منه ما مهدت لنفسك فأثر نفسك على صلاح ولدك، فإنّما أنت جامع لأحد رجلين إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقى بما جمعت له، وليس من هذين أحد بأهل أن تؤثره على نفسك ولا تبرد له على ظهرك، فارج لمن مضى برحمة الله، وثق لمن بقي برزق الله».

وفي «الرّوضة» أيضاً عن عدّة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن يعقوب بن يزيد عن محمّد بن جعفر العقبيّ رفعه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

«أيها النّاس إنّ آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإنّ النّاس كلهم أحرار، ولكن الله خوّل بعضكم فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمن به على الله جل وعزّ إلا وحضر شيء، ونحن مسوّون فيه بين الأَسود والأَحمر».

فقال مروان لطلحة والزّبير: أراد بهذا غيركما، قال: فأعطى كلّ واحد ثلاثة دنانير وأعطي رجلاً من الأَنصار ثلاثة دنانير، وجاء بعده غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير، فقال الأَنصار يا أمير المؤمنين: هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني وإياه سواء؟ فقال: إنّي نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً(٢).

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ١٣٥، ومستدرك سفينة البحار: ٥/ ٣٥٣.

(٢) وسائل الشيعة: ١١/ ٨٢ ح ١، والكافي: ٨/ ٦٩ ح ٢٦.

وفي «**شرح المعتزلي**» عن هارون بن سعد قال: قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لعلي عليه السلام يا أمير المؤمنين لو أمرت لي بمعونة أو نفقة فوالله ما لي نفقة إلاّ أن أبيع دابتي، فقال عليه السلام: «لا والله ما أجد لك شيئاً إلاّ أن تأمر عمك يسرق فيعطيك»[(١)].

وعن علي بن يوسف المدائني أنَّ طائفة من أصحاب علي مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من النّاس وفراره، وإنّما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع في المال.

فقال لهم: «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور، لا والله لا أفعل ما طلعت شمس وما لاح في السّماء نجم، والله لو كان المال لي لسَاوَيْتُ بينهم فكيف، وإنّما هي أموالهم»، ثمّ سكت طويلاً واجما[(٢)]، ثم قال: «الأَمر أسرع من ذلك» قالها ثلاثاً[(٣)].

ويأتي رواية هذا الكلام في الكتاب إن شاء الله من السّيد بنحو آخر وهو المائة والسادس والعشرون من المختار في باب الخطب.

تكملة

إعلم أنّ هذه الخطبة رواها المحدث المجلسي في «المجلد السّابع عشر» من «**البحار**» من كتاب «**مطالب السؤول**» لمحمّد بن طلحة إلى قوله: ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء، وروى فقراتها الأَخيرة السّيد المحدّث البحراني في كتاب «**غاية المرام**» من كتاب سليم بن قيس الهلالي في ضمن حديث طويل، ورواها المحدث المجلسي أيضاً في «المجلد الثامن» من «**البحار**» من كتاب سليم بن قيس الهلالي أيضاً، وسيأتي نقل تلك الرّواية في التذييل الثّاني من تذييلي الكلام السّابع والثلاثين، ورواها فيه أيضاً من كتاب الغارات بزيادة ونقصان أحببت روايتها هنا على ما هو دأبنا في هذا الشّرح.

فأقول في «**البحار**» من كتاب الغارات بإسناده عن جندب، ومن مجالس المفيد عن الكاتب عن الزّعفراني عن الثقفي عن محمّد بن إسماعيل عن زيد بن المعدّل عن يحيى بن صالح عن الحرث بن حصيرة عن أبي صادق عن جندب بن عبد الله الأزدي قال: سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول لأَصحابه وقد استنفرهم أياماً إلى الجهاد فلم ينفروا:

---

(١) الغارات: ١/ ٦٧، وبحار الأنوار: ٢٩/ ٤٩٥.

(٢) الواجم: الذي اشتد عليه الحزن حتى أمسك عن الكلام، لسان العرب: ١٢/ ٦٣٠.

(٣) الغارات للثقفي: ١/ ٧٥ ح ٦، ومستدرك الوسائل: ١١/ ٩٣.

«أيها النّاس إنّي قد استنفرتكم فلم تنفروا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، فأنتم شهود كأغياب، وصمّ ذووا أسماع، أتلو عليكم الحكمة، وأعظكم بالموعظة الحسنة، وأحثكم على جهاد عدّوكم الباغين، فما آتي على أخر منطقي حتّى أراكم متفرّقين أيادي سبأ، فإذا أنا كففت عنكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين.

تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار، وتسألون الأخبار، قد نسيتم الإستعداد للحرب، وشغلتم قلوبكم بالأباطيل تربّت أيديكم، أغزوا القوم من قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم قط في عقر ديارهم إلاّ ذلوا.

وأيم الله ما أراكم تفعلون حتّى يفعلون، ولوددت أنّي لقيتهم على نيّتي وبصيرتي فاسترحت من مقاساتكم فما أنتم إلاّ كإبل جمة ضلّ راعيها، فكلّما ضمّت من جانب انتشرت من جانب آخر، والله لكأني بكم لو حمس الوغى وأحم البأس قد انفرجتم عن علي بن أبي طالب انفراج الرّأس وانفراج المرأة عن قبلها».

فقام إليه أشعث بن قيس الكندي فقال له: يا أمير المؤمنين فهلا فعلت كما فعل ابن عفان؟

فقال عليه السلام له: «يا عرف النّار ويلك إن فعل ابن عفّان لمخزاة على من لا دين له ولا حجّة معه، فكيف وأنا على بيّنة من ربي؟ الحق في يدي والله إن امرأً يمكن عدوه من نفسه يخذع لحمه ويهشم عظمه ويفري جلده ويسفك دمه لضعيف ما ضمّت عليه جوانح صدره أنت فكن كذلك إن أحببت، فأما أنا فدون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفي يطير منه فراش الهام وتطيح منه الأكفّ والمعاصم ويفعل الله بعد ما يشاء».

فقام أبو أيّوب الأنصاري خالد بن زيد صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أيّها الناس إن أمير المؤمنين قد أسمع من كانت له أذن واعية وقلب حفيظ، إن الله قد أكرمكم بكرامة لم تقبلوها حقّ قبولها، إنّه نزل بين أظهركم ابن عمّ نبيّكم وسيّد المسلمين من بعده يفقهكم في الدين ويدعوكم إلى جهاد المحلسين.

فكأنّكم صمّ لا تسمعون أو على قلوبكم غلف مطبوع عليها فأنتم لا تعقلون، أفلا تستحيون عباد الله أليس إنما عهدكم بالجور والعدوان أمس قد شمل البلاء وشاع في البلاد قد دحق محروم وملطوم وجهه وموطوءٌ بطنه ويلقى بالعراء تسفي عليه الأعاصير لا يكنه من الحرّ والقرّ وصهر الشّمس والضّح إلا الأثواب الهامدة وبيوت الشّعر البالية.

حتّى جاءكم الله بأمير المؤمنين عليه السلام فصدع بالحق ونشر العدل وعمل بما في الكتاب، يا قوم فاشكروا نعمة الله عليكم ولا تولوا مدبرين؛ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، اشحذوا السّيوف؛ واستعدّوا لجهاد عدوكم، فإذا دعيتم فأجيبوا، وإذا أمرتم

فاسمعوا وأطيعوا، وما قلتم فليكن ما أضمرتم عليه تكونوا بذلك من الصّادقين(١).

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است در طلب خروج مردمان به محاربه اهل شام که می فرماید:

اف و پریشانی باد مر شما را به تحقیق که من ملول شدم از عتاب کردن شما، آیا راضی شدید به زندگانی دنیا از حیثیت عوض شدن در آخرت؟ و به ذلت از حیثیت بدل بودن از عزت؟ هروقت که شما را دعوت می کنم به جنگ دشمنان خودتان، چشم های شما می گردد به منزله این که شما از شدت مرگ در گرداب سخت افتاده اید و در غفلت و مدهوشی فرورفته اید، در حالتی که بسته می شود بر شما خطاب کردن با من.

پس متحیر و سرگردان می مانید در سخن گفتن و گویا قلب های شما مجنون است و دیوانگی عارض او شده پس شما عقل ندارید و نمی فهمید و نیستید شما از برای من معتمد و محل وثوق ابداً و نیستید شما رکنی که میل شده باشد به شما در دفع اعداء و نیستید یاری دهندگان عزت که احتیاج پیدا شود به شما، نیستید مگر به منزله شترانی که گمشده باشد راعیان ایشان پس هرگاه جمع کرده شوند آن شترها از طرفی پراکنده می شوند به طرف دیگر.

قسم به بقای خدا که به زبان های آتش حربید شما، مکر می کنند به شما دشمنان و شما مکر نمی کنید به ایشان و نقصان می پذیرد اطراف بلاد شما به جهت قتل و غارت اعداء و شما غضب و خشم نمی گیرید از بی غیرتی و بی حمیتی، خواب کرده نمی شود از شما یعنی دشمن ها جهت کشتن شما چشم بالای هم نمی گذارند و شما در خواب غفلت حیرانید و مغلوب شدند به خدا سوگند فروگذارندگان حرب با دشمنان.

(١) الغارات: ٢/٤٩٨، والغدير: ٩/١٢٥ ح ١٧.

و سوگند به حق خدا به درستی که گمان می برم به شما آن که سخت شود کار جنگ و گرم گردد معرکه مرگ جدا می شوید از پسر ابی طالب جدا شدن سر از بدن، قسم به ذات خدا به درستی مردی که متمکن سازد دشمن خود را از نفس خود در حالتی که به خورد آن دشمن گوشت او را و بشکند استخوان او را و پاره پاره کند پوست او را، هرآینه بزرگ است عجز آن مرد و سست است آن چیزی که فراهم آورده شده است بر آن چیز جوانب سینه او.

یعنی ضعیف القلب و جبان است پس تو باش مثل این عاجز کاهل اگر خواهی متّصف باشی به این صفات، پس اما من به حق خدا که متحمل این نمی شوم و نزد این حال که بدهم به دشمن تمکین و تسلط را، پس زدنی است به شمشیر مشرفی که بپرداز و کاسه سر و تباه شود از او ساعدها و قدم ها و می کند خداوند بعد از این حال آن چیزی را که بخواهد به مقتضای حکمت بالغه خود.

ای مردمان به درستی که مرا بر شما حقی است و شما راست بر من حقی، پس اما حق شما بر من پس نصیحت کردن من است بر شما در نهان و آشکار و تمام کردن غنیمت شماست بر شما و تعلیم دادن است بر شما تا این که جاهل نشوید و ادب دادن است بر شما تا این که عالم شوید و عمل نمایید و اما حق من بر شما پس وفا کردن شما است بر بیعت و اخذ نصیحت است در حضور و غیبت و جواب دادن است در زمانی که خوانم شما را و فرمان برداری نمودن است در زمانی که فرمایم شما را، والله أعلم بالصّواب.

ومن خطبة له عليه السلام بعد التحكيم وهي الخامسة والثلاثون من المختار في باب الخطب

«الْحَمْدُ للهِ وَإِنْ أَتى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَليلِ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ لَيسَ مَعَهُ إِلهٌ غَيرُهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِه.

أَمّا بَعْدُ فَإِنَّ مَعْصيَةَ النّاصِحِ الشَّفيقِ العالِمِ الْمُجَرَّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وتُعَقِّبُ النَّدامَةَ، وقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ في هذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْري، ونَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيي، لَوْ كانَ يُطاعُ لِقَصيرٍ أَمْرٌ، فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِباءَ الْمخالِفينَ الْجُفاةِ، وَالْمُنابِذينَ الْعُصاةِ، حَتّى ارتابَ النّاصِحُ بِنُصْحِه، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِه، فَكُنْتُ وإِيّاكُمْ» كَما قالَ أُخو هَوازِنْ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْري بِمُنْعَرِجِ اللِّوى فَلَمْ تَسْتَبينُوا النُّصْحَ إِلاّ ضُحَى الْغَدِ[1]

اللغة

(**الخطب**) الأَمر العظيم و (**الفادح**) الثقيل من فدحه الدّين إذا أثقله و (**المجرب**) قال الجوهري: الذي قد جربته الأمور وأحكمته، فإن كسرت الرّاء جعلته فاعلاً إلا أنّ العرب تكلمت به بالفتح و (**نخل**) الشيء إذا صفّاه، ومنه نخل الدقيق بالمنخل و (**الجفاة**) جمع الجافي وهو الذي خشن طبعه و (**النبذ**) طرحك الشيء أمامك ووراءك أو عام ومنه قوله سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١].

و (**الزند**) العود الذي يقدح به النّار وهو الأعلى والسّفلى الزّندة بالهاء والجمع زناد مثل سهم وسهام و (**هوازن**) قبيلة و (**منعرج**) الوادي اسم فاعل حيث يميل يمنة ويسرة من انعرج الشيء انعطف و (**اللوى**) كإلى ما التوى من الرّمل.

الإعراب

إضافة المخزون إلى رائي من قبيل إضافة الصّفة إلى الموصوف، قوله: لو كان يطاع لقصير أمر، كلمة لو إما للتمني على ما ذهب إليه بعضهم في قوله سبحانه:

﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [البقرة: ١٦٧].

(١) نهج البلاغة: ١/٨٦، وبحار الأنوار: ٣٣/٣٢٢.

ولا تحتاج حينئذٍ إلى الجواب أو إلى حرف شرط، والجواب محذوف بقرينة المقام، والقصير اسم رجل يضرب به المثل لكلّ ناصح عصي لقصّته التي يأتي إليه الإشارة، وتقدير الكلام لو كان يطاع لي أمر أي لو أطعتموني لما أصابتكم حسرة وندامة إلاّ أنّكم أبيتم عليّ إباء المخالفين فحلّت بكم النّدامة وصرت وإيّاكم كما قال أخو هوازن (الخ)، هذا.

وتقدير الجواب بما ذكرناه أولى ممّا قدّره الشّارح البحراني حيث قال: والتّقدير إنّي أمرتكم أمري في هذه الحكومة ونصحت لكم فلو أطعتموني لفعلتم ما أمرتكم به ومحضت لكم النّصيحة فيه فافهم جيّداً، وقوله: أخو هوازن الإضافة لأدنى المناسبة من حيث انتساب الشّاعر إلى تلك القبيلة، وهذه الإضافة شائعة في كلام العرب قال سبحانه:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [الشعراء: ١٦١].

المعنى

اعلم أنه قد روي أنّ عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري لما التقيا بدومة الجندل وقد حكما في أمر النّاس كان أمير المؤمنين يومئذٍ قد دخل الكوفة ينتظر ما يحكمان به فلما تمّت خدعة عمرو لأبي موسى وبلغه عليه السلام ذلك اغتمّ له غمّاً شديداً ووجم منه وقام فخطب النّاس فقال:

(الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح) الثّقيل **(والحدث)** العظيم **(الجليل)** نسبة الإتيان بالخطب والحدث إلى الدّهر من قبيل نسبة الشر إليه على ما تقدّم بيانه في شرح الخطبة الحادية والثلاثين، وفي الإتيان بأن الوصلية إشارة إلى أنّه سبحانه لا يختص حمده بحال دون حال بل لا بدّ أن يحمده العبد على كلّ حال من النّعمة والبلاء والشدة والرضاء والسّراء والضراء.

(وأشهد أن لا إله إلاّ الله ليس معه إله غيره) تأكيد لمعنى كلمة التّوحيد وتقرير لمقتضاها **(وأنّ محمّداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله أما بعد فإنّ معصية النّاصح)** الذي يصدّق فكره ويمحض رأيه و**(الشّفيق)** الذي تبعثه شفقته على النّصح وعلى التروّي في الأمر وإيقاع الرأي فيه من جد واجتهاد و**(العالم)** الذي يعلم وجه المصلحة في الأمور ويكون فيها على بصيرة و**(المجرب)** الذي حصلت له التّجارب فكان رأيه وقوله أغلب الإصابة للواقع **(تورث الحسرة وتعقب النّدامة)**.

إذ المشير الموصوف بالصفات الأربع المذكورة يكون رأيه أغلب المطابقة مع الواقع فإطاعة المستشير له موجبة لظفره على المقصود ووصوله إلى مطلوبه ومخالفته مفوّتة للغرض معقّبة للحسرة خصوصاً إذا كان المشير مثله عليه السلام المتّصف بالعلم اللدني المطابق رأيه للواقع

دائماً يكون معصية معقّبة للنّدامة البتّة وموقعة في الضّلالة لا محالة.

ولذلك أردف عليه السلام كلامه بالإشارة إلى خطئهم في أمر الحكومة النّاشيء من مخالفتهم له وإبائهم عن امتثال أمره فقال: **(وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري)** الصّواب **(ونخلت لكم مخزون رأيي)** المصاب **(لو كان يطاع لقصير أمر)** لما حصلت الحسرة والنّدامة، وقصير هذا هو قصير بن سعد مولى جزيمة الأبرش من ملوك العرب.

روي أنّ جزيمة قتل أبا الزّباء ملكة الجزيرة، فبعثت إليه عن حين ليتزوج بها خدعة وسألته القدوم عليها فأجابها إلى ذلك وخرج في ألف فارس وخلف باقي جنوده مع ابن أخته عمرو بن عدي، وأشار قصير إلى جزيمة أن لا يتوجه إليها فلم يقبل رأيه فلما قرب جزيمة من الجزيرة، إستقبله جنود الزباء بالعدة ولم ير منهم إكراماً له فأشار قصير إليه بالرّجوع عنها وقال: إنّها امرأة ومن شأن النّساء الغدر فلم يقبل فلما دخل عليها غدرت به وقتلته فعند ذلك قال قصير: لا يطاع لقصير أمر فيضرب به المثل لكلّ ناصح عصي وهو مصيب في رأيه[1].

(فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة حتّى ارتاب الناصح بنصحه) هذا محمول على المبالغة لما ذكرنا من أنّه عليه السلام متّصف بالعلم اللدني فلا يمكن شكه فيما رآه صواباً، ويشهد بذلك قوله عليه السلام في الخطبة الرابعة: «ما شككت في الحق مذ رأيته»، وقوله عليه السلام في الخطبة العاشرة: «وإنّ معي لبصيرتي ما لبست على نفسي ولا لبس علي».

فالمقصود بذلك الإشارة إلى شدّة اتفاقهم على الخلاف، فإن المشير النّاصح إذا كثر مخالفوه إنّما يشك في أن نصحه هل هو صواب، إذ استخراج وجوه الصّلاح في الأمر أمر اجتهادي منوط على الإمارات الظنيّة ومع إطباق آراء جمع كثير على خلاف ما رآه المشير واتّفاق ظنونهم على أنّ الصّواب في خلافه يجوز له أن يتشكك فيما رآه أنه هل هو صواب أم لا.

(و) قوله: **(ضنّ الزند بقدحه)** مثل يضرب لمن يبخل بفوائده من أجل عدم وجدانه القابل لها والأهل لاستفادتها، والزند كناية عن القلب والقدح عن الآراء الصّادرة منه صدور النّار من الزنّاد، وهو أيضاً جار على المبالغة، والمقصود به أنه عليه السلام لشدّة ما لقي منهم من الإباء والخلاف والعصيان لم يقدح له رأي صالح **(فكنت وإيّاكم)** أي كان حالي معكم في نصحي ومخالفتكم إيّاي مع حلول النّدامة بكم **(كما قال)** دريد بن الصمة **(أخو هوازن)** في جملة أبيات له:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٢٢.

وقبله

نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بني السّوداء والقوم تمهدي
فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرّد

وبعده

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وإنّني غير مهتد
وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقصة دريد في هذه القصيدة أن أخاه عبد الله بن الصمة من بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن غزا بني بكر بن هوازن فغنم منهم واستاق إبلهم فلما كان بمنعرج اللوى قال: لا والله لا أبرح حتّى أنحر النقيعة، وهي ما ينحر من النّهب قبل القسمة وأجيل السهام، فقال له أخوه دريد: لا تفعل فإنّ القوم في طلبك فأبى عليه ونحر النقيعة وبات، فلما أصبح هجم القوم عليهم وطعن عبد الله بن الصمة فاستغاث بأخيه دريد فنهنه عنه القوم حتى طعن هو أيضاً وصرع وقتل عبد الله وحال الليل بين القوم فنجا دريد بعد طعنات وجراح حصل له فقال القصيدة هذه.

وعن نصر بن مزاحم في كتاب الصّفين، أنّه بعد روايته هذه الخطبة مثل ما رواه السّيد زاد في آخرها: ألا إن هذين الرّجلين الذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب، وأحييا ما أمات واتّبع كلّ منهما هواه وحكم بغير حجّة ولا بيّنة ولا سنة ماضية واختلفا فيما حكما فكليهما لم يرشد الله، فاستعدّوا للجهاد وتأهّبوا للمسير وأصبحوا في معسكركم يوم كذا.

وينبغي أن نذكر في المقام كيفيّة التّحكيم، وقد رواه أرباب السّير والتواريخ ونقله في شرح المعتزلي عن نصر بن مزاحم وإبراهيم بن ويزيل وغيرهما مع إطناب ممل ونحن نرويه على ما في الشّرح مع تلخيص منّا فأقول:

قال الشّارح: الذي دعا إلى التحكيم طلب أهل الشّام واعتصامهم به من سيوف أهل العراق فقد كانت أمارات القهر والغلبة لاحت ودلائل النصر والظفر وضحت، فعدل أهل الشّام عن القراع إلى الخداع وكان ذلك برأي عمرو بن العاص، وهذه الحال وقعت عقيب ليلة الهرير التي يضرب بها المثل.

قال نصر بن مزاحم في كتاب «الصّفين» وهو ثقة، ثبت صحيح النقل غير منسوب إلى هوى ولا إدغال، وهو من رجال أصحاب الحديث: حدثنا عمرو بن شمر قال: حدثني أبو ضرار قال: حدّثني عمّار بن ربيعة قال: غلس علي عليه السلام بالنّاس صلاة الغداة يوم الثّلاثاء عاشر شهر ربيع الأوّل سنة سبع وثلاثين، وقيل عاشر شهر صفر ثمّ زحف إلى أهل الشّام بعسكر

العراق والنّاس على راياتهم، وزحف إليهم أهل الشّام وقد كانت الحرب أكلت الفريقين ولكنّها في أهل الشّام أشدّ نكاية وأعظم وقعاً، فقد ملوا الحرب وكرهوا القتال وتضعضعت أركانهم.

قال: فخرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذنوب عليه السّلاح لا يرى منه إلا عيناه وبيده الرمح فجعل يضرب رؤوس أهل العراق بالقناة، ويقول: سوّوا صفوفكم رحمكم الله حتّى إذا عدل الصّفوف والرّايات استقبلهم بوجهه وولى أهل الشّام ظهره ثمّ حمد الله وأثنى عليه وقال:

الحمد لله الذي جعل فينا ابن عمّ نبيّه أقدمهم هجرة وأوّلهم إسلاماً سيف من سيوف الله صبّه الله على أعدائه فانظروا إذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسر المرءان وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلاّ غمغمة أو همهمة فاتّبعوني وكونوا في أثري، ثمّ حمل على أهل الشام فكسر فيهم رمحه ثمّ رجع فإذا هو الأشتر.

قال: وخرج رجل من أهل الشام فنادى بين الصّفين يا أبا الحسن يا علي أبرز إليّ فخرج إليه علي عليه السلام حتى اختلفت أعناق دابتيهما بين الصّفين، فقال إنّ لك يا علي تقدما في الإسلام والهجرة هل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء وتأخر هذه الحروب حتى ترى رأيك؟ قال علي عليه السلام: «وما هو»؟

قال: ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين العراق ونرجع نحن إلى شامنا فتخلي بيننا وبين الشّام فقال علي عليه السلام: «قد عرفت ما عرضت إنّ هذه لنصيحة وشفقة وأهمّني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلاّ القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمّد صلى الله عليه وآله إنّ الله تعالى ذكره لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، فوجدت القتال أهون علي من معالجة الأغلال في جهنم».

قال: فرجع الرّجل وهو يسترجع وزحف النّاس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنّبل والحجارة حتّى فنا، ثمّ تطاعنوا بالرّماح حتّى تكسرت واندقت؛ ثمّ مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسّيوف وعمد الحديد فلم يسمع السّامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض لهو أشد هولاً في صدور الرّجال من الصّواعق ومن جبال تهامة يدك بعضه بعضاً وانكسف الشّمس بالنّقع وثار القتام والقسطل وضلت الألوية والرّايات.

وأخذ الأَشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كلّ قبيلة أو كتيبة من القراء بالأقدام على التي يليها، فاجتلدوا بالسّيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة من اليوم المذكور إلى نصف الليل لم يصلوا لله صلاة، فلم يزل الأشتر يفعل ذلك حتّى أصبح والمعركة خلف ظهره وافترقوا على سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة.

وهي ليلة الهرير المشهورة، وكان الأَشتر في ميمنة النّاس وابن عبّاس في الميسرة وعليّ

في القلبِ والنّاس يقتتلون، ثمّ استمرّ القتال من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضّحى والأشتر يقول لأَصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشّام: ازحفوا قيد رمحي هذا ويلقي رمحه فإذا فعلوا ذلك قال ارجفوا قاب هذا القوس فإذا فعلوا ذلك سألهم مثل ذلك حتّى ملّ أكثر النّاس من الإقدام.

فلمّا رأى ذلك قال: أعيذكم بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم، ثمّ دعا بفرسه وركز رايته وكانت مع حيّان بن هوذة النّخعي وسار بين الكتائب وهو يقول: ألا من يشري نفسه لله ويقاتل مع الأَشتر حتّى يظهر أو يلحق بالله فلا يزال الرّجل من النّاس يخرج إليه فيقاتل معه.

قال نصر: وحدّثني عمرو قال: حدّثني أبو ضرار قال حدّثني عمّار بن ربيعة قال: مرّ بي الأَشتر فأقبلت معه حتّى رجع إلى المكان الذي كان به، فقام في أصحابه فقال: شدّ وافداء لكم عمي وخالي شدّة ترضون بها الله وتغزون بها الدين إذا أنا حملت فاحملوا، ثمّ نزل وضرب وجه دابّته وقال لصاحب رايته: تقدّم فتقدّم بها ثمّ شدّ على القوم وشدّ معه أصحابه فضرب أهل الشام حتّى انتهى بهم إلى معسكرهم فقاتلوا عند العسكر قتالاً شديداً وقتل صاحب رايتهم وأخذ عليّ عليه السلام لما رأى الظفر قد جاء من قبله يمدُه بالرّجال.

وروى نصر عن رجاله قال: لمّا بلغ القوم إلى ما بلغوا إليه قام عليّ عليه السلام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أيّها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوّكم ما قد رأيتم ولم يبق منهم إلاّ آخر نفس وإنّ الأمور إذا أقبلت أعتبر آخرها بأوّلها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتّى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله».

قال فبلغ ذلك معاوية، فدعا عمرو بن العاص وقال: يا عمرو وإنّما هي الليلة حتّى يغدو عليّ علينا بالفضل فما ترى؟ قال: إنّ رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشّام لا يخافون عليّاً إن ظفر بهم ولكن ألق إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنّك بالغ به حاجتك في القوم وإنّي لم أزل ادّخر هذا الأَمر لوقت حاجتك إليه، فعرف معاوية ذلك وقال له صدقت.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر عن جابر بن نمير الأنصاري قال: والله لكأني أسمع عليّاً يوم الهرير وذلك بعد ما طحنت رحى مدحج فيما بينها وبين عك ولخم وجذام والأَشعريين بأمر عظيم تشيب منه النواصي حتّى استقامت الشّمس وقام قائم الظهر وعلي عليه السلام يقول لأَصحابه: «حتّى متى نخلي بين هذين الحيّين قد فنيا وأنتم وقوف تنظرون أما تخافون

مقت الله».

ثمّ استقبل القبلة ورفع يديه إلى الله عزّ وجل ونادى: «يا الله يا رحمن يا رحيم يا واحد يا أحد يا صمد يا الله يا إله محمّد اللهمّ إليك نقلت الأقدام وأفضت القلوب ورفعت الأيدي ومدّت الأعناق وشخصت الأبصار وطلبت الحوائج، اللهمّ إنّا نشكو إليك غيبة نبيّنا وكثرة عدوّنا وتشتّت أهوائنا، ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، سيروا على بركة الله، ثمّ نادى لا إله إلاّ الله والله أكبر».

قال: فلا والذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً ما سمعنا رئيس قوم منذ خلق الله السّماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد مثل ما أصاب عليه السلام أنّه قتل فيما ذكره العادون زيادة على خمسمائة من أعلام العرب يخرج بسيفه منحنياً فيقول: «معذرة إلى الله وإليك من هذا لقد هممت أن أفلقه ولكن يحجزني عنه أنّي سمعت رسول الله يقول: «لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ عليّ وأنا قاتل به دونه».

قال: فكنّا نأخذه فنقوّمه ثمّ يتناوله من أيدينا فينقحم به في عرض الصّف فلا والله ما ليث بأشدّ نكاية منه في عدوه[1].

ولنعم ما قال في «**كشف الغمة**» في وصف حاله عليه السلام في ليلة هذا اليوم وهي ليلة الهرير: فما لقي عليه السلام شجاعاً إلاّ أراق دمه، ولا بطلاً إلاّ زلزل قدمه، ولا مريداً إلاّ أعدمه، ولا قاسطاً إلاّ قصر عمره وأطال ندمه، ولا جمع نفاق إلاّ فرقه، ولا بناء ضلال إلاّ هدمه، وكان كلّما قتل فارساً أعلى بالتكبير فأحصيت تكبيراته ليلة الهرير فكانت خمسمائة وثلاثاً وعشرين تكبيرة بخمسمائة وثلاثة وعشرين قتيلاً من أصحاب السّعير.

وقيل: إنّه فتق نيفق درعه لثقل ما كان يسيل من الدّم على ذراعه وقيل إنّ قتلاه عرفوا بالنّهار فإنّ ضرباته كانت على وتيرة واحدة إنّ ضرب طولاً قدّ أو عرضاً قطّ، وكانت كأنها مكوّاة بالنّار[2].

قال نصر: فحدّثنا عمرو بن شمر عن جابر قال: سمعت تميم بن جزيم يقول: لمّا أصبحنا من ليلة الهرير نظرنا فإذا أشباه الرّايات أمام أهل الشّام في وسط الفليق حيال موقف عليّ ومعاوية، فلمّا أسفرنا إذا هي المصاحف قد ربطت في أطراف الرّماح وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدّوا ثلاثة رماح جميعاً وربط عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشرة رهط.

---

(١) كتاب صفين: ٤٧٧، وبحار الأنوار: ٣٢/٥٢٩ ح ٤٤٥.

(٢) كشف الغمة للإربلي: ١/٢٥٥.

قال نصر: وقال أبو جعفر وأبوا الطّفيل: استقبلوا عليّاً عليه السلام بمائة مصحف ووضعوا في كلّ مخبية مائتي مصحف فكان جميعها خمسمائة مصحف، قال أبو جعفر ثمّ قام الطفيل بن أدهم حيال علي عليه السلام، وقام أبو شريح حيال الميمنة، وورقا بن المعتمر حيال الميسرة ثمّ نادوا يا معشر العرب الله الله في النساء والبنات والأَبناء من الرّوم والأَتراك وأهل فارس غداً إذا فنيتم الله الله في دينكم هذا كتاب الله بيننا وبينكم.

فقال عليّ عليه السلام: «اللهم إنّك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم إنّك أنت الحق المبين فطائفة قالت القتال وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب ولا يحلّ لنا الحرب، وقد وعينا إلى حكم الكتاب فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها».

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «لما كان اليوم الأَعظم قال أصحاب معاوية: والله لا نبرح اليوم العرصة حتّى نموت أو يفتح لنا، وقال أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام: مثل ذلك فباكروا القتال غدوة في يوم من أيّام الشعرى طويل شديد الحرّ، فتراموا حتّى فنيت النّبال وتطاعنوا حتى تقصفت الرّماح.

ثمّ نزل القوم عن خيولهم ومشى بعضهم إلى بعض بالسّيوف حتّى تكسرت جفونها، وقام الفرسان في الركب، ثم اضطربوا بالسّيوف وعمد الحديد، فلم يسمع السّامعون إلاّ تغمغم القوم وصليل الحديد في الهام وتكادم الأفواه وكسفت الشّمس وثار القتام وصلت الألوية والرّايات ومرّت مواقيت أربع صلوات ما يسجد فيهن لله إلاّ تكبيراً ونادت المشيخة في تلك الغمرات: يا معشر العرب الله الله في الحربات من النساء والبنات»، قال جابر فبكى أبو جعفر عليه السلام وهو يحدثنا بهذا الحديث.

قال نصر: وأقبل الأشتر على فرس كميت محذوف وقد وضع مغفرة على قربوس السّرج وهو يقول: اصبروا يا معشر المؤمنين قد حمي الوطيس ورجعت الشّمس من الكسوف واشتد القتال وأخذت السباع بعضها بعضاً.

فقال رجل في تلك الحال: أي رجل هذا لو كانت له نيّة، فقال له صاحبه: وأيّ نية أعظم من هذه ثكلتك أمّك وهبلتك أنّ رجلاً كما ترى قد سبح في الدّم وما أضجرته الحرب وقد غلت هام الكماة من الحرب وبلغت القلوب الحناجر وهو كما ترى جزع يقول هذه المقالة اللهم لا تبقنا بعد هذا.

قال نصر: وروى الشّعبي عن صعصعة أنّه بدر من الأَشعث بن قيس لعنه الله ليلة الهرير قول نقله الناقلون إلى معاوية فاغتنمه وبنا عليه تدبيره.

وذلك أنّه خطب أصحابه من كنده تلك الليلة وقال في خطبته: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي وما قد فني فيه من العرب فوالله لقد بلغت من

السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنّا إن نحن تواقفنا غداً إنّه لفنت العرب وضيّعت الحرمات أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً عن الحرب ولكني رجل مسنّ أخاف على النّساء والذّراري غداً إذا فنينا ونحو ذلك ممّا يخذلهم عن القتال.

فلمّا بلغ ذلك معاوية قال: أصاب وربّ الكعبة فدبّر تلك الليلة ما دبّر من رفع المصاحف على الرّماح، فأقبلوا بالمصاحف ورفعوها في رؤوس الرّماح وقد قلدوها الخيل ومصحف دمشق الأعظم يحمله عشرة رجال على رؤوس الرّماح وهم ينادون كتاب الله بيننا وبينكم.

قال: فجاء عدي بن حاتم فقال: يا أمير المؤمنين إنّه لم يصب منّا عصبة إلاّ وقد أصيب منهم مثلها، وكلّ مقروح ولكنّا أمثل بقيّة منهم وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلاّ ما نحبّ فناجزهم.

وقام الأشتر فقال: يا أمير المؤمنين إنّا والله ما أجبناك ولا نصرناك على الباطل ولا أجبنا إلاّ الله ولا طلبنا إلاّ الحقّ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه لاستشرى فيه اللجاج وطال فيه النّجوى وقد بلغ الحقّ مفطمه وليس لنا معك رأي.

فقام الأشعث بن قيس مغضباً وقال: يا أمير المؤمنين إنّا لك اليوم على ما كنّا عليه أمس وليس آخر أمرنا كأوّله وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشّام منّي فأجب القوم إلى كتاب الله عزّ وجلّ فإنّك أحقّ به منهم وقد أحبّ النّاس البقاء وكرهوا القتال.

فقال عليّ عليه السلام: «هذا أمر ننظر فيه» فنادى النّاس من كلّ جانب الموادعة، فقال عليّ عليه السلام: «أيّها النّاس إنّي أحقّ من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وابن أبي سرج وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إني أعرف بهم منكم صحبتهم صغاراً ورجالاً فكانوا شرّ صغار وشرّ رجال ويحكم إنّها كلمة حقّ يراد بها باطل إنّهم ما رفعوها إنهم يعرفونها ولا يعملون ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحقّ مقطعه ولم يبق إلاّ أن يقطع دابر الذين ظلموا».

فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود يتقدّمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا عليّ أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلاّ قتلناك كما قتلنا ابن عفان فوالله لنفعلنها إن لم تجبه.

فقال لهم: «ويحكم أنا أوّل من دعا إلى كتاب الله وأوّل من أجاب إليه وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن

فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم وأنّهم ليس العمل بالقرآن يريدون».

قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتينك وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله.

قال نصر: فحدثني فضيل بن خديج قال: سأل مصعب إبراهيم بن الأشتر عن الحال كيف كانت، فقال: كنت عند علي حين بعث إلى الأشتر ليأتيه وقد كان الأشتر أشرف على عسكر معاوية ليدخله. فأرسل إليه علي عليه السلام يزيد بن هاني أن ائتني به، فأتاه فأبلغه فقال له الأشتر: آتيه فقل له ليس هذه السّاعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي إنّي قد رجوت الفتح فلا تعجلني.

فرجع يزيد إليه عليه السلام فأخبره فما هو إلاّ أن انتهى حتّى ارتفع الرّهج وعلت الأَصوات من قبل الأَشتر وظهرت دلائل الفتح والنّصر لأَهل العراق ودلائل الخذلان والإدبار لأَهل الشّام، فقال القوم لعلي عليه السلام: والله ما نراك أمرته إلا بالقتال. قال: «أرأيتموني شاورت رسولي إليه أليس إلاّ كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون»؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك وإلاّ والله اعتزلناك.

فقال عليه السلام ويحك يا يزيد قل له: «أقبل إليّ فإنّ الفتنة قد وقعت» فأتاه فأخبره فقال الأَشتر: أيرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم، قال: أما والله لقد ظننت أنّها حين رفعت سيوقع اختلافاً وفرقة إنّها مشورة ابن النّابغة، ثم قال ليزيد بن هاني: ويحك ألا ترى إلى الفتح ألا ترى إلى ما يلقون ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه.

فقال له يزيد: أتحبّ أنك ظفرت ههنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو يفرج عنه ويسلم إلى عدوّه، فقال: سبحان الله لا والله لا أحبّ ذلك، قال: فإنّهم قد قالوا له وحلفوا عليه: لترسلنّ إلى الأشتر فليأتينّك أو لنقتلنّك بأسيافنا كما قتلنا عثمان، أو لنسلّمنك إلى عدوك.

فأقبل الأشتر حتّى انتهى إليهم فصاح يا أهل الذّل والوهن أحين علوتم القوم وظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وقد والله تركوا ما أمر الله فيها، وتركوا سنّة من أنزلت إليه فلا تجيبوهم أمهلوني فواقاً، فإنّي قد أحسست بالفتح، قالوا: لا نمهلك، قال: فأمهلوني عدوة الفرس فإنّي قد طمعت النّصر، قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك.

قال: فحدّثوني عنكم وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم متى كنتم محقّين أحين كنتم تقتلون أهل الشّام فأنتم الآن حين أمسكتم عن قتالهم مبطلون، أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقون فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وأنّهم خير منكم في النّار.

قالوا: دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله إنّا لسنا نطيعك فاجتنبنا فقال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب الجباه السّود كنا نظنّ صلاتكم زهادة في الدّنيا وشوقاً إلى لقاء الله فلا أرى فراركم إلا إلى الدّنيا ومن الموت ألا فقبحا يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمين، فسبّوه وسبّهم وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابّهم وصاح بهم علي عليه السلام فكفّوا.

وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين احمل الصّف على الصف نصرع القوم فتصايحوا أن أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن، فقال الأشتر: إن كان أمير المؤمنين، قد قبل ورضي فقد رضيت بما يرضى به أمير المؤمنين، فأقبل النّاس يقولون قد قبل أمير المؤمنين قد رضي أمير المؤمنين وهو عليه السلام ساكت لا يفيض بكلمة مطرق إلى الأرض ثمّ قام فسكت النّاس كلهم.

فقال عليه السلام: «أيّها النّاس إنّ امري لم يزل معكم على ما أحبّ إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوّكم فلم تترك وإنها فيهم أنكى وأنهك إلاّ أني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون، ثم قعد، ثم تكلم رؤوس القبائل فكلٌ قال ما يراه ويهواه إمّا من الحرب أو من السّلم».

قال نصر: ثمّ إنّ أهل الشّام لما أبطأ عنهم علم حال أهل العراق هل أجابوا إلى الموادعة أم لا جزعوا فقالوا: يا معاوية ما نرى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه فأعدها خدعة فإنك قد غمرت بدعائك القوم وأطمعتهم فيك.

فدعا معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص فأمره أن يكلم أهل العراق ويستعلم له ما عندهم؛ فأقبل حتّى إذا كان بين الصّفين نادى يا أهل العراق أنا عبد الله بن عمرو بن العاص إنه قد كان بيننا وبينكم أمور للدين والدّنيا، فإن يكن للدين فقد والله أعذرنا وأعذرتم، وإن يكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم، فإن يجمعنا وإيّاكم الرضا فذاك من الله فاغتنموا هذه الفرجة عسى أن يعيش فيها المحترق وينسى فيها القتيل، فإنّ بقاء المهلك بعد الهالك قليل. فأجابه سعد بن قيس الهمداني فقال: أمّا بعد يا أهل الشّام إنّه قد كانت بيننا وبينكم أمور حاسبنا فيها على الدّين وسميتموها عذراً وإسرافاً وقد دعوتمونا اليوم على ما قاتلناكم عليه أمس ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم وأهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل من أن يحكم بما أنزل الله سبحانه فقام النّاس إلى علي عليه السلام فقالوا له: أجب القوم إلى المحاكمة.

قال نصر: فجاء الأَشعث إلى علي فقال يا أمير المؤمنين ما أرى النّاس إلا وقد رضوا وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ونظرت ما الذي يسأل.

قال عليه السلام: «آتيه إن شئت» فأتاه فسأله يا معاوية لأيّ شيء رفعتم هذه المصاحف قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فيها فابعثوا رجلاً منكم ترضون به ونبعث منّا رجلاً ونأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله ولا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه.

فقال الأَشعث: هذا هو الحقّ وانصرف إلى علي فأخبره، فبعث علي عليه السلام قراء من أهل العراق وبعث معاوية قراء من أهل الشّام فاجتمعوا بين الصّفين ومعهم المصحف فنظروا فيه وتدارسوا واجتمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن ويميتوا ما أمات القرآن ورجع كلّ فريق إلى أصحابه.

فقال أهل الشّام: إنّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص، وقال الأَشعث والقراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: وقد رضينا نحن واخترنا أبا موسى الأَشعري فقال لهم علي عليه السلام: «فإنّي لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه» فقال الأَشعث وزيد بن حصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القراء: إنّا لا نرضى إلاّ به فإنّه قد كان حذّرنا ما وقعنا فيه.

فقال علي عليه السلام: «فإنّه ليس لي برضا وقد فارقني وخذل النّاس عني وهرب منّي حتّى أمنته بعد أشهر ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك»، قالوا: والله ما نبالي أكنت أنت أو ابن عباس ولا نريد إلا رجلاً وهو منك ومن معاوية على حدّ سواء ليس إلى واحد منكما أدنى من الآخر قال علي عليه السلام: «فإني أجعل الأَشتر»، فقال: الأشعث: وهل سعّر الأَرض علينا إلاّ الأَشتر وهل نحن إلاّ في حكم الأَشتر، قال علي عليه السلام: «وما حكمه»؟ قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسّيف حتّى يكون ما أردت وما أراد.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام قال: «لما أراد النّاس عليّاً أن يضع الحكمين قال لهم: إنّ معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وإنّه لا يصلح للقرشي إلاّ مثله فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به فإنّ عمراً لا يعقد عقدة إلاّ حلّها عبد الله ولا يحلّ عقدة إلاّ عقدها ولا يبرم أمراً إلاّ نقضه ولا ينقض أمراً إلاّ أبرمه».

فقال الأَشعث: لا والله لا يحكم فينا مضريان حتّى تقوم السّاعة، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر، فقال علي عليه السلام: «إنّي أخاف أن يخدع يَمَنِيُّكم فإنّ عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى»، فقال الأَشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن أحبّ إلينا من أن يكون بعض ما نحن في حكمهما وهما

مضريان.

قال نصر: فقال علي عليه السلام: «قد أبيتم إلاّ أبا موسى»، قالوا: نعم قال: «فاصنعوا ما شئتم»، فبعثوا إلى أبي موسى وهو بأرض من أرض الشام يقال لها: (عرض) قد اعتزل القتال فأتاه مولى له فقال: إن النّاس قد اصطلحوا فقال: الحمد لله ربّ العالمين قال: فقد جعلوك حكماً قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

فجاء أبو موسى حتّى دخل عسكر علي عليه السلام وجاء الأشتر عليّاً عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين ألزِنِي[1] بعمرو بن العاص فوالله الذي لا إله غيره لئن ملأت عيني منه لأقتلنّه.

وجاء الأحنف بن قيس عليّاً فقال: يا أمير المؤمنين إنّك قد رميت بحجر الأرض ومن حارب الله ورسوله أنف الإسلام، وإنّي قد عجمت بهذا الرّجل يعني أبا موسى وحلبت أشطره فوجدته كليل الشّفرة قريب القعر وأنّه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتّى يكون في أكفهم ويتباعد منهم حتّى يكون بمنزلة النّجم منهم فإن شئت أن تجعلني حكماً فاجعلني به وإن شئت أن تجعلني ثانياً أو ثالثاً فإن عمراً لا يعقد عقداً إلاّ حللتها، ولا يحلّ عقدة إلاّ عقدت لك أشدّ منها فعرض علي عليه السلام ذلك على النّاس فأبوه وقالوا لا يكون إلاّ أبا موسى.

قال نصر: فبعث أيمن بن حزيم الأسدي وكان معتزلاً لمعاوية بهذه الأبيات وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق.

لو كان للقوم رأي يعصمون به	من الضّلال رموكم بابن عباس
لله درّ أبيه أيما رجل	ما مثله لفصال الخطب في النّاس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن	لا يهتدي ضرب أخماس من أسداس
إن يخل عمرو به يقذفه في لجج	يهوي به النجم ينشأ بين اتياس
أبلغ لديك عليّاً غير عايبه	قول أمرء لا يرى بالحق من ناس
ما الأشعري بمأمون أبا حسن	فاعلم هديت وليس العجز كالرّاس
فاصدم بصاحبك الأدنى زعيمهم	إنّ ابن عمّك عبّاس هو الآسى

فلما بلغ الناس هذا الشّعر طارت هواء أقوام من أولياء علي عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس وأبت القراء إلاّ أبا موسى.

قال نصر: فلما رضي أهل الشام بعمرو وأهل العراق بأبي موسى أخذوا في سطر كتاب الموادعة وكان صورته: هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان فقال

(١) ألزه به: ألزمه إياه، والمعنى: ألصقني به.

معاوية: بئس الرّجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين لَمَا قاتلته وقال عمرو: بل نكتب اسمه واسم أبيه إنّما هو أميركم فأمّا أميرنا فلا فلما أعيد عليه الكتاب أمر بمحوه.

فقال الأحنف: لا تمح اسم أمير المؤمنين عنك فإنّي أتخوّف إن محوتها ألاّ ترجع إليك أبداً فلم تمحها.

فقال علي عليه السلام: «إنّ هذا اليوم كيوم الحديبيّة حين كتب الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وآله هذا ما تصالح عليه محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ولم أقاتلك إنّي إذن لظالم لك إن منعتك أن تطوف بيت الله الحرام وأنت رسوله، ولكن اكتب: من محمّد بن عبد الله، فقال لي رسول الله: يا علي إنّي لرسول الله وأنا محمّد بن عبد الله ولن يمحو عنّي الرّسالة كتابي لهم من محمّد بن عبد الله فاكتبها وامح ما أراد محوه، أما أنّ لك مثلها ستعطيها مضطهداً».

قال نصر: وقد روي أنّ عمرو بن العاص أعاد بالكتاب إلى علي عليه السلام فطلب منه أن يمحو اسمه من إمرة المؤمنين فقصّ عليه وعلى من حضر قصّة صلح الحديبية قال: «إنّ ذلك الكتاب أنا كتبته بيننا وبين المشركين واليوم اكتبه إلى أبنائهم كما كان رسول الله كتبه إلى آبائهم شبهاً ومثلاً».

فقال عمرو: سبحان الله أتشبهنا بالكفار ونحن مسلمون، فقال علي عليه السلام: «يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين وليّاً وللمسلمين عدوّاً»، فقام عمرو وقال: والله لا يجمع بيني وبينك بعد هذا اليوم مجلس، فقال علي عليه السلام: «أما والله إنّي لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك»، وجاءت عصابة قد وضعت سيوفها على عواتقها فقالوا: يا أمير المؤمنين مرنا بم شئت فقال لهم سهل بن حنيف أيّها النّاس اتهموا رأيكم فلقد شهدنا صلح رسول الله يوم الحديبيّة ولو نرى قتالاً لقاتلنا.

قال نصر: وقد روى أبو إسحاق الشّيباني قال: قرأت كتاب الصّلح عند سعيد بن أبي بردة في صحيفة صفراء عليها خاتمان خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها على خاتم علي عليه السلام محمّد رسول الله وعلى خاتم معاوية محمّد رسول الله، وقيل لعلي عليه السلام حين أراد أن يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشّام أنقرّ أنّهم مؤمنون مسلمون؟ فقال علي عليه السلام: ما أقرّ لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون مسلمون ولكن يكتب معاوية ماشاء ويقر بما شاء لنفسه ولأصحابه ويسمّي نفسه بما شاء وأصحابه فكتبوا: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي بن أبي طالب على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشّام ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين.

إنّا ننزل عند حكم الله تعالى وكتابه ولا يجمع بيننا إلاّ إياه وإنّ كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيي القرآن؛ ونميت ما أمات القرآن، فإن وجد الحكمان ذلك في كتاب الله ابتغياه، وإن لم يجداه أخذا بالسّنة العادلة غير المفرقة والحكمان عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص.

وقد أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين أنّهما أمينان على أنفسهما وأموالهما وأهلهما، والأمّة لهما أنصار وعلى الذي يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعمل بما يقضيان عليه ممّا وافق الكتاب والسّنة، وأنّ الأمن والموادعة ووضع السّلاح متّفق عليه بين الطائفتين إلى أن يقع الحكم، وعلى كلّ واحد من الحكمين عهد الله ليحكمنّ بين الأمّة بالحقّ لا بالهوى.

وأجل الموادعة سنة كاملة فإنّ أحبّ الحكمان أن يعجلا الحكم عجلاه، وإن توفي أحدهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلاً لا يألو الحقّ والعدل، وإنّ توفي أحد الأميرين كان نصب غيره إلى أصحابه ممّن يرضون أمره ويحمدون طريقته، اللّهم إنّا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصّحيفة وأراد فيها إلحاداً وظلماً.

قال نصر: هذه رواية محمّد بن علي بن الحسين عليه السلام والشّعبي، وروى جابر عن زيد بن الحسن بن الحسن زيادات على هذه النّسخة.

أقول: وذكر تلك الرّواية وساقها إلى أن قال: وشهد فيه من أصحاب علي عليه السلام عشرة ومن أصحاب معاوية عشرة وتاريخ كتابته لليلة بقيت من صفر سنة تسع وثلاثين.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن سعيد قال: حدّثني أبو حباب عن عمّارة بن ربيعة الحرمي قال: لما كتبت الصّحيفة دعا لها الأشتر ليشهد الشهود عليه فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشّمال إن كتب لي في هذه الصّحيفة اسم الصّلح أو الموادعة، أو لست على بيّنة من أمري ويقين من ضلال عدوي، أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور فقال له رجل: والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً، هلمّ فاشهد على نفسك واقرر بما كتب في هذه الصّحيفة فإنّه لا رغبة لك عن النّاس فقال: بلى والله إنّ لي لرغبة عنك في الدّنيا للدّنيا وفي الآخرة للآخرة ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت عندي بخير منهم ولا أحزم دماً.

قال نصر: وكان الرّجل هو الأشعث، فكأنّما قصع على أنفه الحمم ثمّ قال الأشتر: ولكني قد رضيت بما يرضى به أمير المؤمنين، ودخلت فيما دخل فيه، وخرجت مما خرج منه فإنّه لا يدخل إلاّ في الهدى والصّواب.

قال نصر: فحدّثنا عمر بن سعد عن أبي حباب الكلبي عن إسماعيل بن شفيع عن سفيان بن مسلمة قال: فلما تمّ الكتاب وشهدت فيه الشّهود وتراضى النّاس خرج الأشعث

ومعه ناس بنسخة الكتاب يقرؤها على النّاس، ويعرضها عليهم.

فمرّ به على صفوف من أهل الشام وهم على راياتهم، فأسمعهم إيّاه فرضوا به، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق وهم على راياتهم فأسمعهم إيّاه فرضوا به، حتّى مرُّ برايات عنزة وكان معه عليه السلام منهم أربعة آلاف فلما مرّ بهم الأشعث يقرأ عليهم قال فتيان منهم: لا حكم إلاّ لله ثمّ حملا على أهل الشّام بسيوفهما حتّى قتلا على باب رواق معاوية.

ثمّ مرّ بها على مراد، فقال صالح بن شقيق وكان من رؤوسهم: لا حكم إلاّ لله ولو كره المشركون، ثمّ مر على رايات بني راسب فقرأها عليهم، فقال رجل منهم: لا حكم إلاّ لله لا نرضى ولا يحكم الرّجال في دين الله، ثمّ مرّ على رايات تميم فقرأها عليهم فقال رجل منهم: لا حكم إلاّ لله يقضي الحقّ وهو خير الفاصلين، وخرج عروة التّميمي فقال أتحكمون الرّجال في أمر الله، لا حكم إلاّ لله فأين قتلانا يا أشعث؟ ثمّ شدّ بسيفه على الأشعث ليضربه فاخطأه وضرب عجز دابته ضربة خفيفة.

فانطلق الأشعث إلى علي فقال يا أمير المؤمنين إنّي عرضت الحكومة على صفوف أهل الشّام وأهل العراق فقالوا جميعاً رضينا ومررت برايات بني راسب ونبذ من النّاس سواهم فقالوا لا نرضى لا حكم إلاّ لله، فمر بأهل العراق وأهل الشّام عليهم حتى يقتلوهم فقال هل هي غير راية أو رايتين ونبذ من النّاس قال: لا قال: فدعهم.

قال نصر: فظن علي عليه السلام أنهم قليلون لا يعبأ بهم فما راعه إلاّ نداء النّاس من كل جهة لا حكم إلا لله، الحكم لله يا علي لا لك لا نرضى بأن يحكم الرّجال في دين الله، إنّ الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا ويدخلوا تحت حكمنا عليهم، وقد كنا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين، وقد بان لنا زللنا وأخطأنا فرجعنا إلى الله وتبنا فارجعْ أنت يا علي كما رجعنا وتب إلى الله كما تبنا وإلاّ برئنا منك.

فقال علي عليه السلام: ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع أليس الله تعالى قد قال:

﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] وقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ﴾ [النحل: ٩١].

فأبى علي عليه السلام أن يرجع وأبت الخوارج إلاّ تضليل التّحكيم والطعن فيه، فبرئوا من علي وبرأ علي منهم.

قال نصر: وحدّثني عمرو بن نمير عن أبي الوارك قال: لما تداعى النّاس إلى المصاحف وكتبت صحيفة الصّلح والتّحكيم قال علي إنّما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم من الخور والفشل عن الحرب، فجاءت إليه همدان كأنّها ركن حصين فيهم سعيد بن قيس وابنه عبد الرّحمن غلام له ذؤابة، فقال سعيد: ها أنا ذا وقومي لا نردّ أمرك فقل ما شئت نعمله،

فقال: أمّا لو كان هذا قبل سطر الصّحيفة لأزلتهم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتي ولكن انصرفوا راشدين.

قال نصر: وروى الشّعبي أن علياً قال يوم صفّين حين أقرّ النّاس بالصّلح: إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا لينيبوا إلى الحقّ ولا ليجيبوا إلاّ لكلمة سواء حتّى يرموا بالمناسر تتبعها العساكر، وحتّى يرجموا بالكتائب تقفوها الجلايب، وحتّى يجرّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس، وحتّى يدعق الخيول في نواحي أرضهم وبأحناء مشاربهم ومسارحهم، وحتّى يشن عليهم الغارات من كلّ فجّ وحتى تتلقّاهم قوم صدق وصبر لا يزيدهم هلاك من هلك من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلاّ جدّاً في طاعة الله وحرصاً على لقاء الله.

ولقد كنّا مع رسول الله يقتل آباؤنا وأخواننا وأخوالنا وأعمامنا لا يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ومضيّاً على أمض الألم وجدّا على جهاد العدوّ والإستقلال بمبارزة الأقران.

ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدّونا يتصاولان تصاول الفحلين، ويتخالسان أنفسهما أيّهما يسقى صاحبه كأس المنون فمرّة لنا من عدّونا ومرّة لعدوّنا منّا، فلما رآنا الله صدقاً صبراً أنزل بعدوّنا الكبت، وأنزل علينا النصر ولعمري لو كنا في مثل الذي أتيتم ما قام الدّين ولا عزّ الإسلام[1].

وروى نصر: عن عمرو بن شمر عن فضيل بن خديج قال: قيل لعلي عليه السلام لما كتبت الصّحيفة: إنّ الأشتر لم يرض بما في الصّحيفة ولا يرى إلاّ قتال القوم، فقال علي عليه السلام: «بلى إنّ الأشتر ليرضى إذا رضيت وقد رضيت ورضيتم ولا يصلح الرّجوع بعد الرّضا ولا التّبديل بعد الإقرار إلاّ أن يعصى الله أو يتعدى ما في كتابه، وأمّا الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك ولا أعرفه على ذلك، وليت فيكم مثله اثنان، بل ليت فيكم مثله واحد يرى في عدوي مثل رأيه إذن لخفّت مؤونتكم عليّ ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم».

قال نصر: ثمّ إنّ النّاس أقبلوا على قتلاهم فدفنوهم، وروى الشّعبي عن زياد بن النّصر أنّ علياً بعث أربعمائة عليهم شريح بن هاني ومعه عبد الله بن العباس يصلي بهم ومعهم أبو موسى الأشعري وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة، ثمّ إنّهم خلوا بين الحكمين فكان رأى عبد الله بن قيس في عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان يقول والله إن استطعت لأحيينّ سنّة عمر.

قال نصر: وفي حديث محمّد بن عبيد الله الجرجاني قال: لما أراد أبو موسى المسير قام إليه شريح بن هاني فأخذ بيده وقال: يا أبا موسى قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ولا يستقال فتنته، ومهما نقل من شيء عليك أو لك تثبت حقّه وترى صحته، وإن كان باطلاً،

---

(١) بطوله في كتاب وقعة صفين: ٥٠٠ ـ ٥٠٤، والبحار: ٣٢/٥٤١.

وأنّه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية؛ ولا بأس لأهل الشّام إن ملكهم علي عليه السلام.

وقد كان منك تثبيطة أيام الكوفة والجمل فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً والرّجاء منك يأساً فقال أبو موسى: ما ينبغي لقوم اتّهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً أو أجرى إليهم حقّاً[١].

وروى المدائني في كتاب صفّين قال: لما اجتمع أهل العراق على طلب أبي موسى وأحضروه للتّحكيم على كره من عليّ عليه السلام أتاه عبد الله بن عباس وعنده وجوه النّاس والأشراف فقال له: يا أبا موسى إنّ النّاس لم يجتمعوا عليك ويرضوا بك لفضل لا تشارك فيه، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبلك، ولكن أهل العراق أبوا إلاّ أن يكون الحكم يمانيّاً ورأوا أنّ معظم أهل الشّام يمان وأيم الله إني لأظن ذلك شرّاً لك ولنا، فإنه قد ضمّ إليك داهية العرب، وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه، وإن يطمع باطله في حقّك يدرك حاجته منك.

واعلم يا أبا موسى أنّ معاوية طليق الإسلام وأنّ أباه رأس الأحزاب يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فإن زعم لك أنّ عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ويوجره ما يكره، ثمّ استعمله عثمان برأي عمر وما أكثر ما استعملا ممّن لم يدّع الخلافة.

واعلم أنّ لعمر ومع كلّ شيء يسرك خبيئاً يسوءك ومهما نسيت فلا تنس أنّ عليّاً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنّها بيعة هدى وأنّه لم يقاتل إلاّ العاصين والنّاكثين.

فقال أبو موسى: رحمك الله والله مالي إمام غير علي عليه السلام وإنّي لواقف عند ما رأى وأن حق الله أحب إليّ من رضا معاوية وأهل الشّام وما أنا وأنت إلاّ بالله.

قال نصر: وكان النّجاشي الشّاعر صديقاً لأبي موسى فكتب إليه يحذّره من عمرو بن العاص:

يؤمّل أهل الشّام عمراً وأنّني ... لآمل عبد الله عند الحقائق
وأنّ أبا موسى سيدرك حقّنا ... إذا ما رمى عمراً بإحدى البوائق
ولله ما يرمي العراق وأهله ... به منه إن لم يرمه بالصّواعق

فكتب إليه أبو موسى إني لأرجو أن ينجلي هذا الأمر وأنا فيه على رضا الله سبحانه[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٢٩٨، والغدير: ١٠/٣٣٧.
(٢) وقعة صفين: ٥٣٥.

قال نصر: ثمّ إنّ شريح بن هاني جهز أبا موسى جهازاً حسناً وعظم أمره في النّاس ليشرف في قومه فقال الأعور الشّني في ذلك يخاطب شريحاً:

زففت ابن قيس زفاف العروس ... شريح إلى دومة الجندل
وفي زفك الأشعري البلاء ... وما يقض من حادث ينزل
وما الأشعريّ بذي إربة ... ولا صاحب الخطة الفيصل
ولا آخذاً حظ أهل العراق ... ولو قيلها خذه لم يفعل
يحاول عمراً وعمرو له ... خدائع يأتي بها من عل
وإن يحكما بالهدى يتبعا ... وإن يحكما بالهوى الأميل
يكونا كتيسين في فقره ... اكيلي نقيف من الحنظل

فقال شريح: والله لقد تعجّلت رجال مساءتنا في أبي موسى وطعنوا عليه بأسوأ الظن وظنوا فيه ما الله عصمه منه إن شاء الله.

قال نصر: وكان آخر من ودع أبا موسى الأحنف بن قيس أخذ بيده، ثمّ قال له: يا أبا موسى اعرف خطب هذا الأمر واعلم أنّه له ما بعده وأنك إن أضعت العراق فلا عراق، اتّق الله فإنّها تجمع لك دنياك وآخرتك، وإذا لقيت غداً عمراً فلا تبدأه بالسّلام فإنها وإن كانت سنّة إلاّ أنّه ليس من أهلها، ولا تعطه يدك فإنّها أمانة وإيّاك أن يقعدك على صدر الفراش فإنّها خدعة، ولا تلقه إلاّ وحده، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ لك فيه الرّجال والشّهود.

ثمّ أراد أن يبوء ما في نفسه لعلي عليه السلام فقال له: فإن لم يستقم لك فيه الرضا بعلي فليتخير أهل العراق من قريش الشام من شاؤوا أو فليتخير أهل الشام العراق من شاؤوا، فقال أبو موسى: قد سمعت ما قلت ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علي، فرجع الأحنف إلى عليّ فقال له: أخرج أبو موسى زبدة سقائه في أوّل مخضه لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعك فقال علي عليه السلام: الله غالب على أمره.

قال نصر: وشاع وفشا أمر الأحنف وأبي موسى في النّاس فبعث الصّلتان العبدي وهو بالكوفة إلى دومة الجندل بهذه الأبيات:

لعمرك لا ألقى مدا الدهر خالعاً ... عليّاً بقول الأشعري ولا عمرو
فإن يحكما بالحق نقبله منهما ... وإلاّ أثرناها كراعية البكر
ولسنا نقول الدّهر ذاك إليهما ... وفي ذاك لو قلناه قاصمة الظهر
ولكن نقول الأمر والنهي كله ... إليه وفي كفيه عاقبة الأمر
وما اليوم إلاّ مثل أمس وإنّما ... لفي وشل الضحضاح أو لجة البحر

فلمّا سمع النّاس ذلك أعني قول الصّلتان شحذهم ذلك على أبي موسى واستبطائه القوم وظنوا به الظنون ومكث الرّجلان بدومة الجندل لا يقولان شيئاً، وقد كانت الأَخبار أبطأت على معاوية، فبعث إلى رجال من قريش كانوا أن يعينوه في حربه إن الحرب قد وضعت أوزارها، والتقى هذان الرّجلان في دومة الجندل فأقدموا عليّ.

فأتاه جمع منهم عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب والمغيرة بن شعبة فقال له: يا مغيرة ما ترى؟ قال: يا معاوية لو وسعني أن أنصرك لنصرتك ولكن علي أن آتيك بأمر الرجلين، فرحل حتّى أتى دومة الجندل، فدخل على أبي موسى، فقال: يا أبا موسى ما تقول فيمن اعتزل هذا الأَمر وكره هذه الدّماء؟ قال: أولئك خير النّاس خفّت ظهورهم من دمائهم وخمصت بطونهم من أموالهم.

ثمّ أتى عمراً فقال: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذا الأَمر وكره الدّماء؟ قال: شرار الناس لم يعرفوا حقّاً ولم ينكروا باطلاً، فرجع مغيرة إلى معاوية فقال له: قد ذقت الرّجلين أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه وهواه في عبد الله بن عمر، وأمّا عمرو فهو صاحبك الذي تعرف، وقد ظنّ الناس أنه يرومها لنفسه وأنّه لا يرى أنّك أحقّ بهذا الأَمر منه.

قال نصر: وفي حديث عمرو بن شمر قال: أقبل أبو موسى إلى عمرو فقال: يا عمرو هل لك في أمر هو للأمة صلاح ولصلحاء الناس رضا نولي هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ولا هذه الفرقة قال: وكان عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزّبير قريباً يسمعان هذا الكلام.

فقال عمرو: فأين أنت يا أبا موسى من معاوية، فأبى عليه أبو موسى فقال عمرو: ألست تعلم أنّ عثمان قتل مظلوماً؟ قال: بلى أشهد، ثم قال: فما يمنعك من معاوية وهو ولي دم عثمان وقد قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

ثمّ إنّ بيت معاوية من قريش ما قد علمت، فإن خشيت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة، فإنّ لك أن تقول وجدته ولي العثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السّياسة الحسن التّدبير وهو أخو أم حبيبة أمّ المؤمنين وزوج النبي، وقد صحبه وهو أحد الصّحابة.

ثمّ عرض له بالسّلطان فقال له: إن هو ولي الأَمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط مثلها.

فقال أبو موسى: اتّق الله يا عمرو، أما ما ذكرت من شرف معاوية فإنّ هذا الأَمر ليس على الشّرف إنّما هو لأَهل الدّين والفضل مع أني لو كنت أعطيته أفضل قريش شرفاً أعطيته

عليّ بن أبي طالب، وأما قولك إنّه وليّ عثمان فإني لم أكن أوليه إياه لنسبه من عثمان، وأدع المهاجرين الأوّلين، وأمّا تعريضك لي بالإمرة والسّلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته ولا كنت أرتشي في الله، ولكنك إن شئت أحيينا سنة عمر بن الخطاب.

قال نصر: وحدّثني عمر بن سعد عن أبي حباب أنّ أبا موسى قال غير مرة: والله إن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب، فقال عمرو بن العاص: إن كنت إنما تبايع ابن عمر لدينه فما يمنعك من ابني عبد الله، وأنت تعرف فضله وصلاحه، فقال: إن ابنك لرجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة.

قال نصر: وروى عن النضر بن صالح قال: كنت من شريح بن هاني في غزوة سجستان فحدّثني أن علياً أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص وقال له قل لعمرو: إذا لقيته إن علياً يقول لك:

إنّ أفضل الخلق من كان العمل بالحق أحب إليه، وإن نقصه وإنّ أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه، وإن زاده والله يا عمرو إنك لتعلم أين موضع الحق فلم تتجاهل؟ أبأن أوتيت طمعاً يسيراً صرت لله ولأوليائه عدوّاً؟ فكأن ما قد أوتيت قد زال عنك، فلا تكن للخائنين خصيماً، وللظالمين ظهيراً، أما أني أعلم أنّ يومك الذي أنت فيه نادم هو يوم وفاتك وسوف تتمنّى أنك لم تظهر لي عداوة ولم تأخذ على حكم الله رشوة.

قال شريح: فأبلغته ذلك يوم لقيته فمغر وجهه قال: ومتى كنت قابلاً مشورة علي أو منيباً إلى رأيه أو معتمداً بأمره، فقلت وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيّد المسلمين بعد نبيّهم مشورته، لقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه؟ فقال إنّ مثلي لا يكلم مثلك، فقلت: بأيّ أبويك ترغب عن كلامي بأبيك الوشيظ أو بأمك النابغة، فقام من مكانه وقمت.

قال نصر: وروى أبو حباب الكلبي أنّ عمراً وأبا موسى لما التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يقدّم أبا موسى في الكلام ويقول: إنّك صحبت رسول الله قبلي وأنت أكبر مني سناً، فتكلم أنت ثمّ أتكلم أنا فجعل ذلك سنّة وعادة بينهما، وإنّما كان مكراً وخديعة واغتراراً له أن يقدّمه فيبدأ بخلع علي عليه السلام ثمّ يرى رأيه.

وقال ابن ويزيل في كتاب صفّين: أعطاه عمرو صدر المجلس، وكان يتكلم قبله، وأعطاه التقدم في الصّلاة وفي الطعام لا يأكل حتّى يأكل وإذا خاطبه، فإنّما يخاطبه بأجل الأسماء ويقول له: يا صاحب رسول الله حتى اطمأنّ إليه وظنّ أنّه لا يغشه.

قال نصر: فلمّا انمخضت الزبدة بينهما قال له عمرو: أخبرني ما رأيك يا أبا موسى؟ قال: أرى أن أخلع هذين الرّجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون من شاؤوا،

فقال عمرو: الرّأي والله ما رأيت، فأقبلا إلى النّاس وهم مجتمعون، فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: رأيي ورأي عمرو قد اتّفق على أمر نرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة فقال عمرو صدق.

ثمّ قال له: تقدّم ياأبا موسى فتكلم، فقام ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال: ويحك إنّي لأظنه خدعك إن كنتما قد اتّفقتما على رأي فقدّمه قبلك ليتكلم، ثمّ تكلم أنت بعده فإنّه رجل غدّار ولا آمن أن يكون أعطاك الرّضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت به في النّاس خالفك، وكان أبو موسى رجلاً مغفّلاً، فقال: أيها عنك إنّا قد اتّفقنا.

فتقدّم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيها النّاس إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر شيئاً هو أصلح لأمرها ولا ألَمّ لشعثها من أن لا يبتز أمورها، وقد اجتمع رأيي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية، وأن يستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين يولون أمورهم من أحبّوا، وإنّي قد خلعت عليّاً ومعاوية فاستقبلوا أموركم وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ثمّ تنحى.

فقام عمرو بن العاص في مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: إنّ هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي في الخلافة فإنّه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق النّاس بمقامه.

فقال له أبو موسى: مالك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت، إنّما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

فقال له عمرو: إنّما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، وحمل شريح بن هاني على عمرو، فقنعه بالسّوط وحمل ابن عمرو على شريح فقنعه بالسّوط، وقام النّاس فحجزوا بينهما، فكان شريح يقول بعد ذلك ما ندمت على شيء ندامتي أن لا أكون ضربت عمراً بالسّيف بدل السّوط، لكن أتى الدّهر بما أتى به والتمس أصحاب علي أبا موسى فركب ناقته ولحق بمكة، وكان ابن عباس يقول: قبح الله أبا موسى لقد حذرته وهديته إلى الرّأي فما عقل، وكان أبو موسى يقول: لقد حذّرني ابن عبّاس غدرة الفاسق، ولكني اطمأننت إليه وظننت أنّه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة.

قال نصر: ورجع عمرو إلى منزله من دومة الجندل فكتب إلى معاوية بهذه الأبيات:

أتتك الخلافة من فوقه ... هنيئاً مريئاً تقر العيونا

تزف إليك زفاف العروس ... بأهون من طعنك الدّار عينا

وما الأشعري بصلد الزّناد ... ولا خامل الذّار في الأشعرينا

ولكن أتيحت له حيّة ... يظل الشّجاع له مستكينا

فقالوا وقلت وكنت أمرء ... اجهجه بالخصم حتى يلينا
فخذها ابن هند على بعدها ... فقد واقع الله ما تحذرونا
وقد صرّف الله عن شأنكم ... عدواً مبيناً وحزباً زبوناً

قال نصر: فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال: والله لو اجتمعنا على الهدى ما زدتما بأعلى ما نحن الآن عليه، وما ضلالكما بلازم لنا وما رجعتما إلاّ بما بدأتما به، وإنّا اليوم لعلي ما كنا عليه أمس، وقام كردوس بن هاني مغضباً فقال:

ألا ليت من يرضى من النّاس كلهم ... بعمرو وعبد الله في لجة البحر
رضينا بحكم الله لا حكم غيره ... وبالله ربّا والنّبي وبالذّكر
وبالأصلع الهادي علي إمامنا ... رضينا بذاك الشيخ في العسر واليسر
رضينا به حيّاً وميتاً وأنّه ... إمام هدى في الحكم والنهي والأمر
فما قال لاقلنا بلى أنّ أمره ... لأفضل ما نعطاه في ليلة القدر
وما لابن هند بيعة في رقابنا ... وما بيننا غير المثقفة السّمر
وضرب يزيل الهام عن مستقرة ... وهيهات هيهات الرّضا آخر الدهر
أتت لي أشياخ الأراقم سبة ... أبت بها حتّى أغيّب في القبر

وتكلم جماعة أخرى بمثل كلامه في الرّضا بخلافة علي عليه السلام وإنكار خلافة معاوية وحكم الحكمين.

قال نصر: وكان علي عليه السلام لما سمع ما خدع به عمر وأبا موسى غمّه ذلك وساءه وخطب النّاس فقال: «الحمد لله وإن أتى الدّهر بالخطب الفادح...» إلى آخر ما مرّ في الكتاب مع الزّيادة التي ذكرناها.

قال نصر: فكان علي عليه السلام بعد الحكومة إذا صلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة قال: اللهم العن معاوية وعمراً وأبا موسى وحبيب بن مسلمة وعبد الرّحمٰن بن خالد والضّحاك بن قيس والوليد بن عقبة[1].

وروى ابن ويزيل إنّ أبا موسى كتب من مكة إلى علي عليه السلام، أمّا بعد فقد بلغني أنك تلعنني في الصّلاة ويؤمن خلفك الجاهلون وإني أقول كما قال موسى:

﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٠٣ ح ٥٥٣، ووقعة صفين لابن مزاحم: ٤٦.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است بعد از حكم قرار دادن مردم ابوموسى اشعرى و عمروعاص عليهمااللعنة والعذاب را و اختيار كردن عمروعاص ملعون امارت معاويه بدبنياد را و خيانت كردن ابوموسى بدنهاد در حق آن امام انس و جان و سرور عالميان كه مى فرمايد:

حمد بى قياس خداوند را سزاست و اگرچه آورد روزگار غدار به كار بزرگ و ثقيل و حادثه عظيم و جليل و شهادت مى دهم بر اين كه هيچ مستحق معبوديت نيست مگر معبود به حق و خداوند مطلق در حالتى كه نيست با او خدايى كه بوده باشد با او، و شهادت مى دهم به اين كه محمد بن عبدالله صلوات الله و سلامه عليه بنده اى برگزيده و فرستاده پسنديده اوست، پس از ستايش الهى و درود حضرت رسالت پناهى.

پس مخالفت كردن و عصيان نمودن نصيحت كننده مهربان و داناى تجربه كار باعث مى شود به حسرت و از پى درمى آورد افسوس و ندامت را و به تحقيق كه بودم امر نمودم شما را در باب اين حكومت حكمين به امر خود و خالص نمودم از براى شما در اين باب رأى صواب خود را كه در گنجينه ضمير بود، اگر مى بود كه اطاعت مى شد مرقصير بن سعد را امرى پشيمان نمى شديد و به ورطه حسرت نمى افتاديد، پس ابا و امتناع نموديد بر من مثل امتناع اختلاف كنندگان جفاكار و عهدشكنندگان تا فرمان بردار تا اين كه به شك افتاد پنددهنده به پند خود و بخل ورزيد آتش زنه به بيرون دادن آتش خود.

پس بود حال من و شما در نصيحت دادن من و مخالفت كردن شما مثل آن چه كه گفت برادر هوازن در شعر خود كه فرمودم شما را به امر خود و پند دادم شما را در منزل منعرج اللوى، پس ندانستيد ثمره نصيحت مگر در چاشتگاه روز ديگر كه در ديار زخار خونخوار گرفتار شديد؛ يعنى همچنان كه قوم وريد شاعر نصيحت او را گوش ندادند و بهورطه هلاكت افتادند همچنين شما از فرمان من معصيت ورزيديد كه مستعقب حسرت و ندامت گرديده دچار بلا و محنت شديد.

ومن خطبة له عليه السلام في تخويف أهل النهروان وهي السادسة والثلاثون من المختار في باب الخطب

«فَأَنَا لَكُمْ نَذيرٌ أَنْ تُصبِحُوا صَرْعَى بِأَثْناءِ هذَا النَّهْرِ، وبِأَهْضام هذَا الغائط، عَلى غَير بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، ولا سُلْطانٍ مُبينٍ مَعَكُمْ، قَدْ طوَّحَتْ بِكُمُ الدّارُ، وَاحتَبَلَكُمُ المِقْدارُ، وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ أَباءَ الْمُخالِفينَ الْمُنابِذينَ، حَتَّى صَرَّفْتُ رَأْيي إِلى هَواكُمْ، وأَنْتُمْ مُعاشِرُ أَخِفاءُ الْهامِ، سُفَهاءُ الأَحْلامِ لَمْ آتِ لا أَبا لَكُمْ بُجْراً ولا أَرَدْتُ بِكُمْ ضُرّاً»[1].

اللغة

(**النهروان**) بفتح النّون وتثليث الرّاء ومن العرب من يضمّ النّون أيضاً ثلاث قرى أعلا وأوسط وأسفلهن بين واسط وبغداد، وفي «**المصباح**» بلدة تقرب من بغداد أربعة فراسخ و(**صرعى**) جمع صريع و (**ثنى**) الوادي بكسر الثّاء المثلثة منعطفة، والجمع أثناء وفي بعض النّسخ بأكناف هذا النّهر وهو جمع كنف كسبب وأسباب بمعنى الجانب و (**الأهضام**) جمع هضم بفتح الهاء، وقد يكسر بطن الوادي والمطمئن من الأرض و (**الغائط**) ما سفل من الأرض.

و (**طاح**) يطوح ويطيح هلك وسقط، وطوحه فتطوح توهبه فرمى هو بنفسه ههنا وههنا، وطوحته الطوائح قذفته القواذف و (**احتبل**) الصيّد أوقعه في الحبالة و (**المقدار**) هو القدر والفضاء و (**الهامة**) الرّأس والجمع الهام.

و (**البجر**) بضمّ الباء وسكون الجيم المعجمة الدّاهية والشرّ، وفي بعض النّسخ هجراً وهو السّاقط من القول، وفي نسخة ثالثة نكراً وهو الأمر المنكر، وفي رابعة عرّاً والعر والمعرّة الإثم، والعرّ أيضاً داء يأخذ الإبل في مشافرها ويستعار للداهية.

الإعراب

نسبة طوحت إلى الدّار واحتبل إلى المقدار من التوسع، وجملة وأنتم معاشر (آه) حاليّة والعامل صرفت، وبجراً مفعول لم آت، وجملة لا أبا لكم معترضة بينهما وهي تستعمل في المدح كثيراً وفي الذم أيضاً، وفي مقام التّعجب والظاهر هنا الذّم أو التعجب.

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٨٧، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٥٧ ح ٥٩٢.

المعنى

روي في «**شرح المعتزلي**» عن محمّد بن حبيب قال: خطب علي عليه السلام الخوارج يوم النّهر فقال لهم: «نحن أهل بيت النّبوة وموضع الرّسالة ومختلف الملائكة وعنصر الرّحمة ومعدن العلم والحكمة، نحن أفق الحجاز بنا يلحق البطيء وإلينا يرجع التّائب»[1]، أيها القوم: (**فأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعى**) أي مصروعين مطروحين على الأرض (**بأثناء هذا النهر وبأهضام هذا الغائط على غير بينة**) وحجّة شرعيّة (**من ربكم ولا سلطان مبين**) وبرهان عقلي (**معكم**) تتمسكون به في خروجكم، (**قد طوحت بكم الدّار**) ورمت بكم المرامي وأهلكتكم (**واحتبلكم المقدار**) أي: أوقعكم القدر النازل بكم في حبالته كالصّيد لا يستطيع الخروج منها (**وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة**) التي ندمتم عليها وما كنت راضياً بها وراغباً إليها (**فأبيتم عليّ إباء المخالفين**) الجفاة (**والمنابذين**) العصاة (**حتى صرفت رأيي إلى هواكم**) وأقدمت على التحكيم برضاكم من دون أن يكون لي رضا في ذلك و (**أنتم معاشر إخفاء الهام**) لعدم ثباتكم في الرّأي و (**سفهاء الأحلام**) لعدم كمالكم في العقل أنكم أمس كنتم معتقدين وجوب التحكيم واليوم تزعمونه كفراً وتجعلونه ضراراً و (**لم آت لا أبا لكم بجراً ولا أردت بكم ضراً**) وإنّما ورد عليكم ذلك الضّرر ونزلت بكم تلك الداهية بسوء تدبيركم وقلّة عقلكم، وإن إرادتي من التحكيم وغرضي منه بعد إكراهكم إيّاي عليه لم يكن إلا الخير والمنفعة، فانعكست القضية وانجرت إلى المضرة.

وينبغي تذييل المقام بأمرين الأول

في ذكر ما ورد من أخبار النّبي صلى الله عليه وآله لقتال الخوارج وكفرهم من طريق الخاصة والعامة فأقول.

في «**البحار**» من كتاب كشف الغمة قال: ذكر الإمام أبو داوود سليمان بن الأشعث في «**مسنده**» المسمّى بالسّنن يرفعه إلى أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «سيكون في أمّتي اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل ويسيؤون الفعل يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّمية، هم شرّ الخلق طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء من قاتلهم كان أولى بالله منهم»[2].

ونقل مسلم بن حجّاج في «**صحيحه**» ووافقه أبو داوود وسندهما عن زيد بن وهب أنّه كان في الجيش الذين كانوا مع علي عليه السلام قال علي: «أيّها النّاس إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٥٥، وحياة أمير المؤمنين: ٢/ ٢٩٦.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٣٩ ح ٥٧٤، والغدير: ١٠/ ٥٤.

يقول: يخرج قوم من أمّتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنّه لهم وهو عليهم لا تجاوز قراءتهم تراقيهم، يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرّمية لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيّهم لنكلوا عن العمل، وآية ذلك أنّ فيهم رجلاً له عضد ليس له ذراع على عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات البيض، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشّام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم، والله إنّي لأرجو أن يكون هؤلاء القوم فإنّهم قد سفكوا الدّم الحرام وأغاروا على سرح النّاس فتسيروا»(١).

ومن كتاب «**الأمالي**» للشيخ بإسناده عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الخوارج كلاب أهل النّار»(٢).

ومن كتاب «**المناقب**» لابن شهر آشوب من تفسير القشيري وإبانة العكبري عن سفيان عن الأعمش عن سلمة عن كهيل عن أبي الطفيل أنّه سأل ابن الكوا أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣].

فقال عليه السلام: «إنهم أهل حروراء» ثمّ قال:

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] في قتال علي بن أبي طالب ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٥ ـ ١٠٦].

يعني محمّد صلى الله عليه وآله «هزواً» استهزؤوا بقوله: ألا من كنت مولاه فعلي مولاه، وأنزل في أصحابه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] الآية.

فقال ابن عباس: (نزلت في أصحاب الجمل).

ومن تفسير الفلكي عن أبي أمامة قال النبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآية هم الخوارج.

---

(١) نهج السعادة: ٢/ ٣٧٣، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٢٩ ح ٥٧٤.
(٢) وسائل الشيعة: ١٥/ ٨٢ ح ٢٠٠٣٠، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٢٦ ح ٥٧١.

وفي «شرح المعتزلي» قد تظاهرت الأخبار حتّى بلغت حد التّواتر بما وعد الله قاتلي الخوارج من الثّواب على لسان نبيّه.

وفي «الصّحاح» المتفق عليها أنّ رسول الله ﷺ بينا هو يقسم قسماً جاءه رجل يدعى ذا الخويصرة فقال: أعدل يا محمّد فقال: قد عدلت فقال له ثانية: اعدل يا محمّد فإنّك لم تعدل. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل».

فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ائذن لي أضرب عنقه فقال: دعه فإنّه يخرج من ضئضيء[1] هذا قوم يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّمية، ينظر أحدكم إلى نضيه فلا يجد شيئاً فينظر إلى نضيه، ثمّ ينظر إلى القذذ فكذلك سبق الفرث والدّم يخرجون على خير فرقة من النّاس يحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم وصومكم عند صومهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم آيتهم رجل أسود و قال ﷺ أوعج مخدج إليه إحدى يديه كأنّها ثدي امرأة أو بضعة تدردر[2].

وفي بعض الصّحاح أنّ رسول الله ﷺ قال لأَبي بكر وقد غاب الرّجل عن عينه: قم فاقتله، فقام ثمّ عاد وقال: وجدته يصلّي فقال لعمر: مثل ذلك فعاد وقال وجدته يصلي فقال لعلي عليه السلام: مثل ذلك فعاد وقال: «لم أجده» فقال رسول الله: «لو قتل هذا لكان أوّل فتنة وآخرها، أما أنّه سيخرج من ضئضيء هذا» الحديث[3].

وفي مسند أحمد بن حنبل عن مسروق قال: قالت عائشة إنّك من ولدي ومن أحبّهم إلي، فهل عندك علم من المخدج؟ فقلت: قتله علي بن أبي طالب على نهر يقال لأعلاه تأمر ولأسفله نهروان بين لخاقيق وطرفاء، قالت: أبغني على ذلك بينة فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك، قال: فقلت لها سألتك بصاحب القبر ما الذي سمعت من رسول الله ﷺ فيهم؟ قالت نعم: سمعته يقول إنّهم شرّ الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة أقربهم عند الله وسيلة[4].

الثاني

في كيفية قتال الخوارج وبعض احتجاجاته صلوات الله عليه وآله معهم فأقول:

قال في «شرح المعتزلي» روى ابن ويزيل في كتاب صفّين عن عبد الرحمن بن زياد،

---

(١) بحار الأنوار: ٢١/ ١٧٣، وجامع البيان: ٢٨/ ٧٦.
(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٣٩.
(٣) بحار الأنوار: ٣٢٠/ ٣٣٩.
(٤) شرح الأخبار: ١/ ٤٣١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٣٢.

عن خالد بن حميد، عن عمر مولى غفرة، قال: لما رجع علي من صفين إلى الكوفة أقام الخوارج حتّى جموا، ثمّ خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمّى حروراء، فتنادوا لا حكم إلاّ لله ولو كره المشركون، ألا إن علياً ومعاوية أشركا في حكم الله.

فأرسل علي عليه السلام إليهم عبد الله بن العباس فنظر في أمرهم وكلمهم، ثمّ رجع إلى علي عليه السلام فقال له: «ما رأيت»؟ فقال ابن عباس: والله ما أدري ما هم فقال: «أرأيتهم منافقين» فقال: والله ما سيماهم سيماء منافقين إنَّ بين أعينهم لأثر السّجود يتأوّلون القرآن، فقال دعوهم ما لم يسفكوا دماً أو يغصبوا مالاً.

وأرسل إليهم ما هذا الذي أحدثتم وما تريدون؟ قالوا: نريد أن نخرج نحن وأنت ومن كان معنا بصفين ثلاث ليال ونتوب إلى الله من أمر الحكمين، ثم نسير إلى معاوية فنقاتله حتّى يحكم الله بيننا وبينه، فقال علي عليه السلام: «فهلا قلتم حين بعثنا الحكمين وأخذنا منهم العهد وأعطيناهموه ألا قلتم هذا حينئذٍ» قالوا: كنا قد طالت الحرب علينا واشتدّ البأس وكثر الجراح وكلّ الكراع والسّلاح.

فقال لهم: «أفحين اشتدّ البأس عليكم عاهدتم، فلما وجدتم الجمام قلتم ننقض العهد إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يفي للمشركين أفتأمرونني بنقضه»، فمكثوا مكانهم لا يزال الواحد منهم يرجع إلى علي ولا يزال الآخر منهم يخرج من عند علي عليه السلام.

فدخل واحد منهم على علي عليه السلام بالمسجد والناس حوله، فصاح لا حكم إلا لله ولو كره المشركون. فتلفت الناس فقال: لا حكم إلا لله ولو كره المتلفتون، فرفع علي عليه السلام رأسه إليه فقال: لا حكم إلا لله ولو كره أبو الحسن، فقال عليه السلام: «إن أبا الحسن لا يكره أن يكون الحكم لله»، ثم قال: «حكم الله انتظر فيكم»، فقال النّاس هلا ملت يا أمير المؤمنين على هؤلاء النّاس فأفنيتهم؟ فقال: «إنهم لا يفنون إنهم لفي أصلاب الرّجال وأرحام النّساء إلى يوم القيامة»[١].

وروى أنس بن عياض المدني، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام أنّ علياً كان يوماً يؤمّ النّاس وهو يجهر بالقراءة فجهر ابن الكوا من خلفه:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فلما جهر ابن الكوا من خلفه بها سكت علي عليه السلام، فلما أنهاها ابن الكوا أعاد علي عليه السلام فأتم قراءته، فلما شرع علي عليه السلام في القراءة أعاد ابن الكوا الجهر بتلك الآية فسكت علي عليه السلام

(١) نهج السعادة: ٢/ ٣١٦، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٤٤.

فلم يزالا كذلك يسكت هذا ويقرأ هذا مراراً حتّى قرأ علي عليه السلام:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠] فسكت ابن الكوا وعاد علي عليه السلام إلى قراءته.

وذكر الطبري «صاحب التاريخ» أنّ علياً عليه السلام لما دخل الكوفة دخل معه كثير من الخوارج وتخلف منهم بالنخيلة وغيرها خلق كثير لم يدخلوها، فدخل حرقوص بن زهير السعدي وزرعة البرج الطائي وهما من رؤوس الخوارج على علي عليه السلام فقال له حرقوص: تب من خطيئتك واخرج بنا إلى معاوية نجاهده، فقال عليه السلام: «إنّي كنت نهيت عن الحكومة فأبيتم، ثمّ الآن تجعلونها ذنباً، أما أنّها ليست بمعصية ولكنها عجز من الرّأي وضعف في التّدبير وقد نهيتكم عنه».

فقال زرعة: أما والله لئن لم تتب من تحكيمك الرّجال لأَقتلنّك، أطلب بذلك وجه الله ورضوانه، فقال له علي عليه السلام: «بؤساً لك ما أشقاك كأني بك قتيلاً يسفي عليك الرّياح»، قال زرعة: وددت أنّه كان ذلك قال: وخرج علي عليه السلام يخطب فصاحوا به من جوانب المسجد لا حكم إلا لله وصاح به رجل:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥] فقال علي عليه السلام: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

قال أبو العباس المبرّد: ويقال أول من حكم عروة بن أويّة، وأويّة جدّة له جاهلية وهو عروة جدير أحد بني ربيعة، وقال قوم أول من حكم رجل من بني محارب يقال له سعيد ولم يختلفوا في اجتماعهم على عبد الله بن وهب الرّاسبي وأنّه امتنع عليهم، وأومأ إلى غيره فلم يقنعوا إلاّ به، فكان إمام القوم وكان يوصف برأي.

فأمّا أوّل سيف سلّ من الخوارج فسيف عروة بن أوّية، وذاك أنّه أقبل على الأَشعث فقال: ما هذه الدنية يا أشعث وما هذا التّحكيم أشرط أوثق من شرط الله عزّ وجل، ثمّ شهر عليه السّيف والأَشعث مولّ فضرب به عجز بغلته.

قال أبو العباس: وعروة هذا من النّفر الذين نجوا من حرب النّهروان، فلم يزل باقياً مدّة من أيّام معاوية، ثمّ أتي به زياد ومعه مولى له فسأله عن أبي بكر وعمر فقال خيراً، فقال له: فما تقول في أمير المؤمنين عثمان وفي أبي تراب «قال ظ» فتولى عثمان ستّ سنين من خلافته، ثمّ شهد عليه بالكفر وفعل في أمر علي عليه السلام مثل ذلك إلى أن حكم، ثمّ شهد عليه بالكفر ثم سأله عن معاوية فسبه سبّاً قبيحاً، ثم سأله عن نفسه فقال أولك لزينة، وآخرك لدعوة وأنت بعد عاص لرّبك فأمر به فضربت عنقه.

ثمّ دعا مولاه فقال: صف لي أموره قال: أطنب أم أختصر، قال: بل اختصر، قال: ما أتيته بطعام بنهار قط ولا فرشت له فراشاً بليل قط.

قال المبرّد: وسبب تسميتهم الحروري أنّ علياً لما ناظرهم بعد مناظرة ابن عباس إياهم كان فيما قال لهم: «ألا تعلمون أنّ هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم إنّ هذه مكيدة ووهن، ولو أنّهم قصدوا إلى حكم المصاحف لآتوني وسألوني التّحكيم، أفتعلمون أنّ أحداً أكره على التحكيم منّي». قالوا صدقت.

قال: «فهل تعلمون أنّكم استكرهتموني على ذلك حتّى أجبتكم، فأشرطت أنّ حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله، فمتى خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء. وأنتم تعلمون أنّ حكم الله لا يعدوني»، قالوا: اللهم نعم، قال: «وكان معهم في ذلك الوقت ابن الكوا وهذا من قبل أن يذبحوا عبد الله بن خباب، وإنّما ذبحوه في الفرقة الثانية بكسكر» فقالوا له: حكمت في دين الله برأينا ونحن مقرونّ بأنّا كنّا كفرنا، ولكن الآن تائبون فأقر بمثل ما أقررنا به وتب ننهض معك إلى الشام.

فقال: «أما تعلمون أنّ الله قد أمر بالتّحكيم في شقاق بين الرّجل وامرأته فقال سبحانه:

﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥].

وفي صيد أصيب كأرنب يساوي نصف درهم فقال:

﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾» [المائدة: ٩٥].

فقالوا له: فإنّ عمراً لما أبى عليك أن تقول في كتابك هذا ما كتبه عبد الله عليّ أمير المؤمنين محوت اسمك من الخلافة وكتبت علي بن أبي طالب فقد خلعت نفسك.

فقال عليه السلام: «لي أسوة برسول الله حين أبى عليه سهل بن عمرو، أن يكتب هذا ما كتبه محمّد رسول الله وسهيل بن عمرو، وقال لو أقررت بأنك رسول الله ما خالفتك، ولكني أقدّمك لفضلك فاكتب محمّد بن عبد الله فقال لي: يا علي أمح رسول الله فقلت: يا رسول الله لا تشجعني نفسي على محو اسمك من النّبوة قال: فقفني عليه فمحاه بيده، ثمّ قال: اكتب محمّد بن عبد الله، ثمّ تبسم إلي وقال: إنك ستسام **(أي تعامل)** مثلها فتعطي».

فرجع معه عليه السلام منهم ألفان من الحروراء، وقد كانوا تجمعوا بها فقال لهم: عَلامَ نسمّيكم؟ ثمّ قال: أنتم الحروريّة لاجتماعكم بحروراء.

قال المبرّد: إنّ علياً في أوّل خروج القوم عليه دعا صعصعة بن صوحان العبدي وقد كان وجهه إليهم وزياد بن نضر الحارثي مع عبد الله بن العباس فقال لصعصعة: بأي القوم رأيتم أشدّ إطاعة، فقال: بيزيد بن قيس الأرحبي، فركب إلى حروراء فجعل يتخللهم حتّى صار إلى

مضرب يزيد بن قيس، فصلى فيه ركعتين، ثمّ خرج فاتكأ على قوسه وأقبل على النّاس.

فقال: «هذا مقام من فلج فيه فلج إلى يوم القيامة»، ثم كلمهم وناشدهم، فقالوا إنّا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتّحكيم، وقد تبنا فتب إلى الله كما تبنا نعدلك، فقال علي عليه السلام: «أنا أستغفر الله من كل ذنب». فرجعوا معه وهم ستّة آلاف، فلما استقرّوا بالكوفة أشاعوا أنّ عليّاً رجع عن التّحكيم ورآه ضلالاً، وقالوا: إنّما ينتظر أن يسمن الكراع ويجيء المال، ثمّ ينهض بنا إلى الشّام.

فأتى الأشعث عليّاً فقال: يا أمير المؤمنين إنّ النّاس قد تحدّثوا أنك رأيت الحكومة ضالّة، والإقامة عليها كفراً فقام علي عليه السلام فخطب فقال: من زعم أنّي رجعت عن الحكومة فقد كذب ومن رآها ضلالاً، فقد ضلّ فخرجت حينئذٍ الخوارج من المسجد فحكمت[١].

قال الشّارح المعتزلي: قلت كلّ فساد كان في خلافة علي عليه السلام وكلّ اضطراب حدث فأصله الأشعث، ولولا محاقته أمير المؤمنين في معنى الحكومة في هذه المرّة لم يكن حرب النهروان، ولكان أمير المؤمنين ينهض بهم إلى معاوية ويملك الشّام فإنّه عليه السلام حاول أن يسلك معهم مسلك التّعريض والموارية، وفي المثل النبوي صلوات الله على قائله: الحرب خدعة[٢].

وذلك أنّهم قالوا له: تب إلى الله مما فعلت كما تبنا، ننهض معك إلى حرب الشام، فقال لهم كلمة مجملة مرسلة يقولها الأنبياء والمرسلون والمعصومون، وهي قوله: **(استغفر الله من كل ذنب)** فرضوا بها وعدوها إجابة لهم إلى سؤالهم، وصفت لهم نياتهم، واستخلصت بها ضمائرهم من غير أن يتضمّن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو ذنب.

فلم يتركه الأشعث وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال وهاتكاً ستر التورية والكناية، ومخرجاً لها من مشكلة الإجمال إلى تفسيرها بما يفسد التّدبير ويوعر الصّدور، ويعيد الفتنة، فخطب بما صدع به عن صورة ما عنده مجاهرة، فانتقض ما دبّره وعادت الخوارج إلى شبهها الأولى، وراجعوا التّحكيم، وهكذا الأوّل التي يظهر فيها أمارات الزوال والإنقضاء يتاح لها مثال الأشعث أولى الفساد في الأرض.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ثم قال: قال المبرّد: ثم مضى القوم إلى النهروان، وقد كانوا أرادوا المضي إلى المدائن، فمن طريق أخبارهم أنّهم أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم لأنّه عندهم كافر إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنّصراني وقالوا احفظوا ذمة نبيّكم.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٣٥٣، ونهج السعادة: ٢/٣٣١.

(٢) شرح النهج للمعتزلي: ٢/٢٧٩.

قال: ولقاهم عبد الله بن خباب في عنقه مصحف على حمار ومعه امرأة وهي حامل فقالوا له: إنّ هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيوه وما أماته فأميتوه؛ فوثب رجل منهم على رطبة سقطت من نخلة فوضعها في فيه فصاحوا به، فلفظها تورعاً وعرض لرجل منهم خنزير فضربه وقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض وأنكروا قتل الخنزير.

ثم قالوا لابن خباب: حدّثنا عن أبيك، فقال سمعت أبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرّجل كما يموت بدنه يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، فكن عبد الله المقتول ولا تكن القاتل»، قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وفي عثمان في السّنين الست الأخيرة؟ فأثنى خيراً قالوا: فما تقول في علي بعد التّحكيم والحكومة؟ قال: إنّ عليّاً أعلم بالله وأشدّ توقياً على دينه وأنفذ بصيره، فقالوا: إنّك لست تتبع الهدى إنما تتبع الرّجال على أسمائهم، ثم قربوه إلى شاطىء النهر فاضجعوه فذبحوه.

قال المبرّد: وساوموا رجلاً نصرانيّاً بنخلة له فقال هي لكم، فقالوا: ما كنا لنأخذها إلاّ بثمن، فقال: واعجباه أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون خبا نخلة إلاّ بثمن.

قال أبو عبيدة: واستنطقهم علي عليه السلام بقتل ابن خباب فأقروا به؛ فقال: «انفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة»، فتكتبوا كتائب وأقرت كلّ كتيبة بما أقرّت به الأخرى من قتل ابن خباب، وقالوا: لنقتلنك كما قتلناه، فقال: والله لو أقرّ أهل الدّنيا كلهم بقتله هكذا، وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم، ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: شدّوا عليهم فأنا أوّل من يشدّ عليهم، فحمل بذي الفقار حملة منكرة ثلاث مرّات كلّ حملة يضرب به حتّى يعوج متنه، ثمّ يخرج فيسوّيه بركبتيه، ثم يحمل به حتّى أفناهم.

وروى قيس بن سعد بن عبادة أنّ عليّاً عليه السلام لما انتهى إليهم قال لهم: «اقيدونا بدم عبد الله بن خباب»، فقالوا: كلنا قتله فقال عليه السلام: «احملوا عليهم».

وروى مسلم الضّبي أيضاً عن حبة العرني: قال لما انتهينا إليهم رمونا، فقلنا لعلي: يا أمير المؤمنين قد رمونا، فقال: كفوا ثمّ رمونا فقال: كفوا، ثم الثالثة فقال: «الآن طاب القتال احملوا عليهم»[1].

وروى المحدّث العلامة المجلسي في «البحار» من كتاب الخرائج قال: روي عن جندب بن زهير الأزدي، قال: لما فارقت الخوارج عليّاً خرج عليه السلام إليهم وخرجنا معه،

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٤٧.

فانتهينا إلى عسكرهم فإذا لهم دويّ كدويّ النّحل في قراءة القرآن، وفيهم أصحاب البرانس وذو الثّفنات.

فلما رأيت ذلك دخلني شك ونزلت عن فرسي وركزت رمحي ووضعت ترسي ونثرت عليه درعي، وقمت أصلّي وأنا أقول في دعائي: اللّهم إن كان قتال هؤلاء القوم رضاً لك فأرني من ذلك ما أعرف به أنّه الحقّ، وإن كان لك سخطاً فاصرف عنّي إذ أقبل عليّ فنزل عن بغلة رسول الله وقام يصلي إذ جاءه رجل فقال: قطعوا النّهر، ثمّ جاء آخر يشدّ دابته فقال: قطعوه وذهبوا، فقال أمير المؤمنين: «ما قطعوه ولا يقطعونه وليقتلن دون النّطفة عهد من الله ورسوله».

وقال لي: يا جندب ترى الشّك؟ قلت: نعم، قال: قال رسول الله ﷺ: **«حدّثني أنّهم يقتلون عنده»**، ثمّ قال إنا نبعث إليهم رسولاً يدعوهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه فيرشقون وجهه بالنّبل وهو مقتول، قال: فانتهينا إلى القوم فإذا هم في معسكرهم لم يبرحوا ولم يترحّلوا، فنادى النّاس وضمّهم.

ثمّ أتى الصّف وهو يقول من يأخذ هذا المصحف ويمشي به إلى هؤلاء القوم فيدعوهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه وهو مقتول وله الجنّة، فما أجابه أحد إلاّ شاب من بني عامر بن صعصعة، فلما رأى عليه السلام حداثة سنّه قال له: «ارجع إلى موقفك»، ثمّ أعاد فما أجابه إلاّ ذلك الشاب.

قال: خذه أما أنّك مقتول فمشى به حتّى إذا دنا من القوم حيث يسمعهم ناداهم إذ رموا وجهه بالنّبل، فأقبل علينا ووجهه كالقنفذ، فقال علي عليه السلام: «دونكم القوم فحملنا عليهم»، قال جندب ذهب الشّك عني وقتلت بكفي ثمانية.

ومن كتاب المناقب لابن شهر آشوب لما دخل علي عليه السلام الكوفة جاء إليه زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير التّميمي ذو الثدية، فقال لا حكم إلا لله، فقال علي عليه السلام: «كلمة حق يراد بها باطل»، قال حرقوص: فتب من خطيئتك وارجع عن قصتك واخرج بنا إلى عدوّنا نقاتلهم حتّى نلقى ربّنا، فقال علي عليه السلام: «قد أردتكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً وشروطاً وأعطينا عليها عهوداً ومواثيق، وقد قال الله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾» [النحل: ٩١].

فقال حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن نتوب عنه فقال علي عليه السلام: «ما هو بذنب، ولكنه عجز من الرّأي وضعف في العقل، وقد تقدّمت فنهيتكم عنه»، فقال ابن الكواء: الآن صحّ عندنا أنّك لست بإمام، ولو كنت إماماً لما رجعت، فقال عليّ عليه السلام: «ويلكم قد رجع رسول الله ﷺ عام الحديبيّة عن قتال أهل مكّة».

ففارقوا أمير المؤمنين وقالوا: لا حكم إلاّ لله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكانوا اثنى عشر ألفاً من أهل الكوفة والبصرة وغيرهما، ونادى مناديهم أنّ أمير القتال شبث بن ربعي وأمير الصّلاة عبد الله بن الكوّا، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، واستعرضوا النّاس وقتلوا عبد الله بن خباب وكان عامله عليه السلام على النهروان.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا ابن عبّاس امض إلى هؤلاء القوم فانظر ما هم عليه، ولماذا اجتمعوا»، فلما وصل إليهم قالوا: ويلك يا ابن عباس أكفرت بربّك كما كفر صاحبك علي بن أبي طالب، وخرج خطيبهم عتاب بن الأعور الثّعلبي.

فقال ابن عبّاس: من بنى الإسلام؟ فقال: الله ورسوله، فقال النّبي أحكم أموره وبيّن حدوده أم لا؟ قال بلى، قال: فالنّبي بقي في دار الإسلام أم ارتحل؟ قال: بل ارتحل، قال: فأمور الشرع ارتحلت معه أم بقيت بعده؟ قال: بل بقيت، قال: فهل قام أحد بعده بعمارة ما بناه؟ قال: نعم الذّرية والصّحابة، قال: أفعمروها أو خربوها؟ قال: بل عمروها؟ قال: فالآن هي معمورة أم خراب؟ قال: بل خراب، قال: خربها ذريته أم أمّته؟ قال: بل أمّته، قال: أنت من الذرّية أو من الأمة؟ قال: من الأمة، قال: أنت من الأمّة وخربت دار الإسلام فكيف ترجو الجنّة، وجرى بينهم كلام كثير.

فحضر أمير المؤمنين في مائة رجل، فلما قابلهم خرج إليه ابن الكوا في مائة رجل: فقال: «أنشدكم الله هل تعلمون حيث رفعوا المصاحف، فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله، فقلت لكم: إنّي أعلم بالقوم منكم، وذكر مقالة إلى أن قال: فلمّا أبيتم إلاّ الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخلف حكمه، وإن أبيا فنحن منه براء».

فقالوا له: أخبرنا أترى عدلاً تحكيم الرّجال في الدّماء؟ فقال: «إنا لسنا الرّجال حكّمنا، وإنما حكّمنا القرآن، والقرآن إنّما هو خط مستور بين دفتين لا ينطق إنّما يتكلم به الرّجال».

قالوا: فأخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال ليعلم الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه المدة هذه الأمة، وجرت بينهم مخاطبات فجعل بعضهم يرجع، فأعطى أمير المؤمنين عليه السلام راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري فناداهم أبو أيوب: من جار إلى هذه الرّاية أو خرج من بين الجماعة فهو آمن، فرجع منهم ثمانية الآف، فأمرهم أمير المؤمنين أن يتميّزوا منهم، وأقام الباقون على الخلاف وقصدوا إلى نهروان، فخطب أمير المؤمنين واستفزّهم فلم يجيبوه، فتمثّل بقوله:

أمرتكم أمري بمنعرج اللّوى فلم تستبينوا النّصح إلا ضحى الغد

ثمّ استنفرهم فنفر ألفا رجل يقدمهم عدي بن حاتم وهو يقول:

إلى شرّ خلق من شراة تحزّبوا وعادوا له النّاس رب المشارق

فوجّه أمير المؤمنين نحوهم وكتب إليهم على يدي عبد الله بن أبي عقب وفيها: والسّعيد من سعدت به رغبته، والشّقي من شقيت به رغبته، وخير النّاس خيرهم لنفسه، وشرّ النّاس شرّهم لنفسه، ليس بين الله وبين أحد قرابة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٦].

فلما أتاهم أمير المؤمنين عليه السلام فاستعطفهم فأبوا إلاّ قتاله وتنادوا أن دعوا مخاطبة علي عليه السلام وأصحابه، وبادروا الجنّة وصاحوا: الرّواح الرّواح إلى الجنّة، وأمير المؤمنين يؤبي أصحابه ونهاهم أن يتقدّم إليهم أحد، فكان أول من خرج أخنس بن العزيز الطائي وجعل يقول:

ثمانون من حيّ جديلة اقتلوا على النهر كانوا يخضبون العواليا

ينادون لا لا حكم إلا لربّنا حنانيك فاغفر حوبنا والمسائيا

هم فارقوا من جاز في الله حكمه فكلّ على الرحمٰن أصبح ثاويا

فقتله أمير المؤمنين عليه السلام وخرج عبد الله بن وهب الرّاسبي يقول:

أنا ابن وهب الراسبي الشّاري اضرب في القوم لأخذ الثّار

حتّى تزول دولة الأشرار ويرجع الحقّ إلى الأخيار

وخرج مالك بن الوضّاح وقال:

إنّي لبائع ما يفنى بباقيه ولا أريد لدى الهيجاء تربيصاً

وخرج أمير المؤمنين والوضاح بن الوضاح من جانب، وابن عمه حرقوص من جانب فقتل الوضاح وضرب ضربة على رأس الحرقوص فقطعه، ووقع رأس سيفه على الفرس فشرد ورجله في الرّكاب حتّى أوقعه في دولاب خراب فصارت الحروريّة:

﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فكان المقتولون من أصحاب علي رؤبة بن وبر البجلي، ورفاعة بن وابل الأرجي والفياض بن خليل الأزدي، وكيسوم بن سلمة الجهني، وحبيب بن عاصم الأزدي إلى تمام تسعة، وانفلت من الخوارج تسعة وكان ذلك لتسع خلون من صفر سنة ثمان وثلاثين[1].

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/٣٧١، وبحار الأنوار: ٣٣/٣٩١.

ومن كتاب «كشف الغمّة» قال: قال ابن طلحة لمّا عاد أمير المؤمنين من صفين إلى الكوفة بعد إقامة الحكمين أقام ينتظر إنقضاء المدّة التي بينه وبين معاوية ليرجع إلى المقاتلة والمحاربة إذا انخزلت طائفة من خاصّة أصحابه في أربعة آلاف فارس وهم العباد والنساك، فخرجوا من الكوفة وخالفوا علياً عليه السلام، وقالوا: لا حكم إلاّ لله ولا طاعة لمن عصى الله، وانحاز نيف عن ثمانية آلاف ممّن يرى رأيهم فصاروا إثنا عشر ألفاً، وساروا إلى أن نزلوا الحروراء، وأمّروا عليهم عبد الله ابن الكوا.

فدعا علي عليه السلام عبد الله بن عبّاس فأرسله إليهم فحاثهم فلم يرتدعوا، وقالوا: ليخرج إلينا علي عليه السلام بنفسه لنسمع كلامه عسى أن يزول ما بأنفسنا إذا سمعناه، فرجع ابن عبّاس فأخبره فركب في جماعة ومضى إليهم، فركب ابن الكوا في جماعة منهم، فوافقه.

فقال له عليّ عليه السلام: «يا بن الكوّا إنّ الكلام كثير فأبرز إلي من أصحابك لأكلمك» فقال: وأنا آمن من سيفك؟ فقال: نعم، فخرج إليه في عشرة من أصحابه فقال له: عن الحرب مع معاوية، وذكر له رفع المصاحف على الرّماح وأمر الحكمين، قال: «ألم أقل لكم إن أهل الشّام يخدعونكم بها، فإنّ الحرب قد عضّتهم فذروني أناجزهم فأبيتم، ألم أرد نصب ابن عمّي وقلت إنّه لا ينخدع فأبيتم إلاّ أبا موسى، وقلتم رضينا به حكماً، فأجبتكم كارهاً، ولو وجدت في ذلك الوقت أعواناً غيركم لما أجبتكم، وشرطت على الحكمين بحضوركم أن يحكما بما أنزل الله من فاتحته إلى خاتمته والسّنة الجامعة وأنّهما إن لم يفعلا فلا طاعة لهما عليّ كان ذلك، أو لم يكن»؟

قال ابن الكوّاء: صدقت كان هذا كله فلم لا ترجع الآن إلى حرب القوم؟ فقال: «حتّى تنقضي المدّة التي بيننا وبينهم»؟ قال ابن الكوّا: وأنت مجمع على ذلك، قال: «نعم لا يسعني غيره»، فعاد ابن الكوا والعشرة الذين معه إلى أصحاب علي عليه السلام راجعين عن دين الخوارج وتفرّق الباقون وهم يقولون؛ لا حكم إلاّ لله وأمّروا عليهم عبد الله بن واهب الرّاسبي وحرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثّدية وعسكروا بالنّهروان.

وخرج علي حتّى بقي على فرسخين منهم، وكاتبهم وراسلهم فلم يرتدعوا، فأركب إليهم ابن عبّاس وقال: «سلهم ما الذي نقموه وأنا ردفك فلا تخف منهم». فلما جاءهم ابن عبّاس قال: ما الذي نقمتم من أمير المؤمنين عليه السلام قالوا: نقمنا أشياء لو كان حاضراً لكفرناه بها، وعلي عليه السلام وراءه يسمع ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين قد سمعت كلامهم وأنت أحقّ بالجواب.

فتقدّم وقال: «أيّها النّاس أنا عليّ بن أبي طالب فتكلموا بما نقمتم عليّ».

قالوا: نقمنا عليك أوّلاً إنّا قاتلنا بين يديك بالبصرة فلمّا أظفرك الله بهم أبحتنا ما في

عسكرهم ومنعتنا النّساء والذرية فكيف حلّ لنا ما في العسكر ولم يحلّ لنا النّساء؟

فقال لهم: «يا هؤلاء إنّ أهل البصرة قاتلونا وبدؤونا بالقتال فلمّا ظفرتم أقسمتم سلب من قاتلكم ومنعتكم من النّساء والذريّة، فإنّ النساء لم يقاتلن والذريّة ولدوا على الفطرة ولم ينكثوا ولا ذنب لهم، ولقد رأيت رسول الله منّ على المشركين فلا تعجبوا أن مننت على المسلمين فلم أسب نسائهم ولا ذريّتهم».

وقالوا: نقمنا عليك يوم صفّين كونك محوت اسمك من إمرة المؤمنين فإذن لم تكن أميرنا فلا نطيعك ولست أميراً لنا.

قال: «يا هؤلاء إنّما اقتديت برسول الله حين صالح سهيل بن عمرو» وقد تقدّمت.

قالوا: فإنّا نقمنا عليك أنّك قلت للحكمين: أنظرا كتاب الله فإن كنت أفضل من معاوية فأثبتاني في الخلافة فإذا كنت شاكاً في نفسك فنحن فيك أشدّ وأعظم شكّاً.

فقال: «إنّما أردت بذلك النّصفة فإنّي لو قلت: أحكما لي دون معاوية لم يرض ولم يقبل، ولو قال النّبي لنصارى نجران لما قدموا عليه تعالوا نبتهل ثم أجعل لعنة الله عليكم لم يرضوا، ولكن أنصفهم من نفسه كما أمره الله فقال:

﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فأنصفهم من نفسه فكذلك فعلت أنا ولم أعلم بما أراد عمرو بن العاص من خدعة أبي موسى».

قالوا: فإنّا نقمنا عليك أنّك حكمت حكماً في حقّ هو لك فقال: «إن رسول الله حكم سعد بن معاذ في بني قريظة ولو شاء لم يفعل، وأنا اقتديت به فهل بقي عندكم شيء»؟ فسكتوا وصاح جماعة منهم من كلّ جانب: التّوبة التّوبة يا أمير المؤمنين واستأمن إليه ثمانية آلاف وبقي على حربه أربعة آلاف، فأمر المستأمنين بالإعتزال عنهم في ذلك الوقت، وتقدّم بأصحابه حتّى دنا منهم.

وتقدّم عبد الله بن وهب وذو الثّدية حرقوص وقالا: ما نريد بقتالنا إيّاك إلاّ وجه الله والدّار الآخرة، فقال عليه السلام:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

ثمّ التحم القتال بين الفريقين، واستعرّت الحرب بلظاها وأسفرت عن زرقة صبحها وحمرة ضحاها، فتجادلوا وتجالدوا بألسنة رماحها وحداد ظباها فحمل فارس من الخوارج يقال له الأخنس الطائي وكان شهد صفّين مع عليّ عليه السلام فحمل وشقّ الصّفوف يطلبه عليه السلام

فبدره علي بضربة فقتله.

فحمل ذو الثّدية ليضرب عليّاً فسبقه علي عليه السلام وضربه ففلق البيضة ورأسه فحمله فرسه وهو لما به فألقاه في آخر المعركة في جرف دالية على شط النّهروان، وخرج من بعده ابن عمّه مالك بن الوضاح وحمل على عليّ فضربه فقتله.

وتقدّم عبد الله بن وهب الرّاسبي فصاح يا ابن أبي طالب والله لا نبرح من هذه المعركة حتّى تأتي على أنفسنا أو نأتي على نفسك فابرز إليّ وابرز إليك وذر الناس جانباً، فلما سمع علي عليه السلام كلامه تبسم وقال: «قاتله الله من رجل ما أقل حياؤه أما أنّه ليعلم أني لحليف السّيف وخدين الرّمح ولكنّه قد يئس من الحياة، وأنّه ليطمع طمعاً كاذباً ثم حمل على عليّ، فحمله علي عليه السلام فضربه وقتله وألحقه بأصحابه القتلى».

واختلطوا فلم تكن إلاّ ساعة حتّى قتلوا بأجمعهم وكانوا أربعة آلاف، فما أفلت منهم إلاّ تسعة أنفس: رجلان هربا إلى خراسان إلى أرض سجستان وبها نسلهما ورجلان صارا إلى بلاد عمان وفيها نسلهما ورجلان صارا إلى اليمن فبها نسلهما، وهم الإباضية، ورجلان صارا إلى بلاد الجزيرة إلى موضع يعرف بالسن والبوازيخ وإلى شاطىء الفرات وصار آخر إلى تل موزون.

وغنم أصحاب عليّ غنائم كثيرة، وقتل من أصحاب علي تسعة بعدد من سلم من الخوارج، وهي من جملة كرامات علي عليه السلام فإنّه قال: «نقتلهم ولا يقتل منّا عشرة ولا يسلم منهم عشرة»، فلما قتلوا قال عليّ عليه السلام: «التمسوا المخدج فالتمسوه» فلم يجدوه فقام علي عليه السلام بنفسه حتّى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض فقال: أخروهم فوجدوه ممّا يلي الأرض فكبر علي عليه السلام وقال: «صدق الله وبلغ رسوله».

قال أبو الوضيئي: فكأنّي أنظر إليه حبشي عليه قريطق، إحدى يديه مثل ثدي المرأة عليها شعرات مثل شعر ذنب اليربوع، وهذا أبو الوضيئي هو عباد بن نسيب القيسي تابعي يروي عنه هذا القول أبو داود[١].

وفي كتاب «**المناقب**» لابن شهر آشوب عن أبي نعيم الأصفهاني عن سفيان الثوري إنّ أمير المؤمنين أمر أن يفتش على المخدج بين القتلى فلم يجدوه فقال رجل: والله ما هو فيهم فقال علي عليه السلام: «ما كذبت ولا كذبت»[٢].

وعن «**تاريخ الطبري**» وإبانة بن بطة ومسند أحمد عن عبد الله بن أبي رافع وأبي موسى

---

(١) كشف الغمة: ١/ ٢٧١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٣٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٧٢، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٩١.

الوابلي وجندب وأبي الوضيئي واللفظ له قال علي عليه السلام: «اطلبوا المخدج» فقالوا: لم نجده فقال: «والله ما كذبت ولا كذبت يا عجلان ائتني ببغلة رسول الله»، فأتاه بالبغلة فركبها وجال في القتلى ثمّ قال: «اطلبوه ههنا»، قال: فاستخرجوه من تحت القتلى في نهر وطين[١].

وعن «تاريخ القمي» أنه رجل أسود عليه شعرات عليه قريطق مخدج اليد أحد ثدييه كثدي المرأة عليه شعيرات مثل ما يكون على ذنب اليربوع[٢].

وعن أبي داود بن بطة أنه قال عليّ: «من يعرف هذا»؟ فلم يعرفه أحد قال رجل أنا رأيت هذا بالحيرة فقلت: إلى أين تريد؟ فقال إلى هذه وأشار إلى الكوفة وما لي بهذا معرفة فقال علي عليه السلام: «صدق هو من الجان وفي رواية هو من الجن»[٣].

وفي رواية أحمد قال أبو الوضيئي: لا يأتينكم أحد يخبركم من أبوه، قال: فجعل النّاس يقول: هذا ملك هذا ملك ويقول علي: «ابن من».

وفي «مسند الموصلي» في حديث: من قال من النّاس أنّه رآه قبل مصرعه فهو كاذب[٤].

وفي «مسند أحمد» عن أبي الوضيئي أنه قال علي عليه السلام: «أما إن خليلي أخبرني بثلاثة أخوة من الجنّ هذا أكبرهم، والثّاني له جمع كثير والثالث فيه ضعف»[٥].

وفي «شرح المعتزلي» عن ابن ديزيل عن الأعمش عن زيد بن وهب قال: لمّا شجرهم علي عليه السلام بالرّماح قال: «اطلبوا ذا الثّدية» فطلبوه طلباً شديداً حتّى وجدوه في وهدة من الأرض تحت ناس من القتلى، فأتي به وإذا رجل على يديه مثل سبلات السّنور؛ فكبّر علي عليه السلام وكبّر النّاس معه سروراً بذلك[٦].

وعن ابن ويزيل أيضاً عن مسلم الضبي عن حبة العرني قال: كان رجلاً أسود منتن الرّيح له يد كثدي المرأة إذا مدّت كانت بطول اليد الأخرى، وإذا تركت اجتمعت وتقلصت وصارت كثدي المرأة عليه شعرات مثل شوارب الهرة، فلما وجدوه قطعوا يده ونصبوها على رمح، ثمّ جعل علي يقول: «صدق الله وبلغ رسوله»، ولم يزل يقول ذلك هو وأصحابه بعد العصر إلى أن غربت الشّمس أو كادت.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٧٢، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٩٢١.
(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٩٢، وكشف الغمة: ١/ ٢٧١.
(٣) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٩٢.
(٤) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٩٢، ومناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٧٢.
(٥) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٩٢، ومسند أحمد: ١/ ١٤١.
(٦) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٧٢.

وعن العوام بن الحوشب، عن أبيه، عن جدّه يزيد بن رويم، قال: قال علي عليه السلام: «يقتل اليوم أربعة آلاف من الخوارج أحدهم ذو الثّدية»، فلما طحن القوم ورام استخراج ذي الثّدية فأتعبه، أمرني أن أقطع له أربعة آلاف قصبة، فركب بغلة رسول الله وقال اطرح على كلّ قتيل منهم قصبة، فلم يزل كذلك وأنا بين يديه وهو راكب خلفي والنّاس يتّبعونه حتّى بقيت في يدي واحدة فنظرت وإذا وجهه أربد، وإذا هو يقول: «والله ما كذبت ولا كذبت» فإذا حزير ماء عند موضع دالية، فقال: «فتّش هذا»، ففتشته فإذا قتيل قد صار في الماء وإذا رجله في يدي فجذبتها، وقلت هذه رجل إنسان فنزل عن البغلة مسرعاً فجذب الرجل الأخرى وجررناه حتّى صار على التّراب، فإذا هو المخدج فكبّر عليّ بأعلى صوته ثمّ سجد فكبر النّاس كلهم هذا[1].

وبقيّة الكلام في اقتصاص وقعة الخوارج تأتي إن شاء الله عند شرح بعض الخطب الآتية المسوقة لهذا الغرض والله الموفق والمعين.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٥٢.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن سرور اولیاء علیه و آله آلاف التحیة و الثّنا است در ترسانیدن اهل نهروان که می فرماید:

پس من ترساننده شما هستم از این که صباح نمایید جان داده و افتاده در اثنای این جوی و در زمین های هموار این گودال در حالتی که هیچ حجت شرعیه نبوده باشد شما را از جانب پروردگار خود در خروج و نه برهان عقلی باشد با شما در ارتکاب این امر، به تحقیق که متحیر و سرگشته ساخت یا این که بهورطه هلاکت انداخت شما را دنیای فانی و در حباله و دام واقع نمود شما را قضا و قدر ربانی و به تحقیق که بودم نهی کردم شما را از این حکومت حکمین، پس ابا و امتناع کردید بر من مثل ابا کردن مخالفان و شکنندگان پیمان تا این که صرف نمودم رأی خود را به میل و خواهش شما و حال آن که شما جماعتی هستید سبك مغز و شوریده عقل، نیاوردم من به شما حادثه ای و داهیه ای را، پدر مباد شما را و اراده نکردم در حق شما شر و ضرر را، بلکه جزای سوء تدبیر خودتان است که می برید.

ومن كلام له عليه السلام يجري مجرى الخطبة
وهو السابع والثلاثون من المختار
في باب الخطب

«فَقُمْتُ بِالأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا، ونَطَقْتُ حينَ تَعْتَعُوا، ومَضَيْتُ بِنُورِ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا، وكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وأَعْلاَهُمْ فَوْتاً، فَطِرْتُ بِعِنَانِها، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِها، كَالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ الْقَواصِفُ، وَلاَ تُزِيلُهُ العَواصِفُ، لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَلاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ، الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينا عَنِ اللَّهِ قَضاءَهُ، وَسَلَّمْنا لِلَّهِ أَمْرَهُ، أَتَرانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ، فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي فَإِذاً طاعَتي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتي، وَإِذاً الْمِيثَاقُ في عُنُقِي لِغَيْري»[1].

اللغة

(فشل) كفرح فهو فشل ضعف وكسل وتراخي وجبن و(التّطلع) هو الإشراف من عال وتطلعه أشرف عليه وعلم به و(التّقبع) التّقبض يقال قبع القنفذ أدخل رأسه في جلده، وقبع الرّجل في قميصه دخل وتخلف عن أصحابه و(التّعتعة) في الكلام التّردد والإضطراب فيه من حصر أوعى و(الفوت) السّبقة يقال فاته فلان بذراع سبقه فيها ومنه يقال إفتات فلان إفتياتاً إذا سبق بفعل شيء و(استبدّ) برأيه واستبدّ بالشّيء استقلّ به وانفرد.

و(الرّهان) إما جمع الرّهن كالرهون والرّهن وهو ما يوضع عندك لينوب مناب ما يؤخذ منك، أو مصدر كالمراهنة يقال: راهنت فلاناً على كذا رهاناً وتراهن القوم أخرج كلّ واحد رهناً ليفوز السّابق بالجميع إذا غلب، والثّاني هو الأظهر وعليه فالمراد به ما يرهن ويستبق عليه.

و(القواصف) جمع القاصف يقال قصفت الرّيح العود قصفاً فانقصف مثل كسرته فانكسر وزناً ومعناً و(العواصف) جمع العاصف يقال: عصفت الرّيح عصفاً اشتدّت فهي عاصف وعاصفة، والأولى يجمع على العواصف والثّانية على العاصفات صرّح به الفيومي في «المصباح» ز(المهمز) و(المغمز) المطعن اسم مكان من الهمز والغمز يقال: همزه همزاً اغتابه في غيبته وغمزه غمزاً أشار إليه بعين أو حاجب، وليس فيه مغمزة ولا غميزة أي عيب.

---

(١) المزار: ٢٣٢، وكتاب الأربعين: ١٧٤.

الإعراب

صوتاً وفوتاً منصوبان على التّميز، والباء في بعنانها للاستعانة وفي قوله برهانها للصّلة، ويحتمل كونها بمعنى في فلا بدّ حينئذٍ من إبقاء الرّهان على معناه المصدري فيكون المعنى انفردت من الأقران في مقام المراهنة والرّهان، وجملة: لا تحرّكه القواصف، كالجمل التي بعدها منصوبة المحلّ على الحاليّة؛ وقوله: حتّى أخذ، بنصب المضارع بنفس حتّى كما يقوله الكوفيون، أو بأن مضمرة نظراً إلى أن حتّى خافضة للأسماء وما تعمل في الأسماء لا تعمل في الأفعال، وكذا العكس.

المعنى

اعلم أن المستفاد من شرح المعتزلي هو أنّ هذا الكلام له فصول أربعة يلتقطه من كلام طويل له قاله بعد وقعة النّهروان مشتمل على وصف حاله منذ توفي رسول الله ﷺ إلى آخر وقته، فجعل السّيد (ره) ما التقطه سرداً فصار عند السّامع كأنّه يقصد به مقصداً واحداً.

فالفصل الأول

مشتمل على ذكر مناقبه الجميلة الممتاز بها عن غيره وهو قوله: **(فقمت بالأمر حين فشلوا)** والمراد به قيامه عليه السلام بتشييد أمر الدّين وتأسيس أساس اليقين وترويج سنّة سيد المرسلين في الحروب والخطوب حين ضعف عنه سائر أصحابه صلوات الله عليه، وفشلوا وجبنوا وكسلوا وكان ذلك دأبه وديدنه في زمن الرسول وبعده.

وقال الشّارح المعتزلي: الإشارة بذلك الفصل إلى قيامه بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أيّام أحداث عثمان وكون المهاجرين كلهم لم ينكروا ولم يواجهوا عثمان بما كان يواجهه به وينهاه عنه، فمعنى قمت بالأمر قيامه عليه السلام بالنّهي عن المنكر حين فشل أصحاب محمّد، إنتهى[١].

والأظهر هو ما ذكرنا إلاّ أن يكون في بيان الذي أسقطه السّيد (ره) من كلامه قرينة على ما ذكره الشّارح عثر عليه هو ولم يعثر عليه بعد **(وتطلعت حين تقبّعوا)** أي أشرفت على حقائق المعقولات ودقائق المحسوسات واطلعت عليها حين قصر عنه سائر الأصحاب فحصل لي التّطاول فيها ولهم القصور **(ونطقت حين تعتعوا)** أراد به تكلمه في الأحكام المشكلة والمسائل المفصلة وغيرها بكلام واف بالمراد كاف في أداء المقصود مطابق لمقتضى الحال والمقام على ما كان يقتضيه ملكة الفصاحة والبلاغة التي كانت فيه، وأمّا غيره عليه السلام فقد عييوا به وعجزوا من أدائه واضطربوا فيه ولم يهتدوا لوجهه وطرقه.

---

(١) شرح النهج للمعتزلي: ٢/ ٢٨٥.

(ومضيت بنور الله حين وقفوا) حائرين بائرين جاهلين مفتونين، والمراد بنور الله هو علم الإمامة المتلقّى من منبع النّبوة والرسالة وإليه الإشارة بآية النّور على ما رواه في **«البحار من جامع الأخبار»** بإسناده عن فضيل بن يسار قال:

قلت لأبي عبد الله الصّادق عليه السلام: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] قال عليه السلام «كذلك قال الله عزّ وجل» قلت: «مَثَلُ نُورِهِ» قال لي محمّد صلى الله عليه وآله قلت: «كَمِشْكوةٍ» قال صدر محمّد قلت «فيها مِصْباحٌ» قال فيه نور العلم يعني النّبوّة قلت: «الْمِصْباحُ في زُجاجَةٍ» قال علم رسول الله صدر إلى قلب علي قلت «كَأَنَّها» قال لأيّ شَيْءٍ تقرأ كأنّها؟ قلت فكيف جعلت فداك؟ قال كأنّه «كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ» قلت: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ» قال ذاك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يهوديّ ولا نصراني قلت: «يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ» قال يكاد العلم يخرج من فم آل محمّد من قبل أن ينطق به قلت: «نُورٌ عَى نُورٍ» قال الإمام على أثر الإمام[1].

(وكنت أخفضهم صوتاً) لأنّ خفض الصوت دليل الدعة والاستكانة والتّواضع ورفع الصّوت علامة الجلافة والتّكبر والتجبر وقد كان مشركو العرب يتفاخرون بالأصوات الرافعة فوبخهم الله بما حكاه من وصيّة لقمان لابنه بقوله:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [القمان: ١٩].

هذا كله مضافاً إلى أنّ السكوت وخفض الصّوت في الحروب دليل العزم والثّبات والقوة ورفعه علامة الضّعف والجبن كما قال عليه السلام في بعض كلماته السابقة: «وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل ولسنا نرعد حتّى نوقع، ولا نسيل حتّى نمطر».

ولما كان الخفض علامة القوة وعدم المبالاة حسن إردافه بقوله: **(وأعلاهم فوتاً)** إذ لا شك أن من كان أشدّ ثباتاً وقوّة كان أشدّ تقدّماً وسبقة إلى مراتب الكمال والسّعادة، حائزاً قصب السّبق في مضمار البراعة **(فطرت بعنانها واستبددت برهانها)** الضّميران راجعان إلى الفضائل النّفسانية والكمالات المعنويّة وان لم يجر لها ذكر لفظي في الكتاب.

قال الشارح البحراني: استعار ههنا لفظ الطيران للسّبق العقلي لما يشتركان فيه من معنى السّرعة واستعار لفظي العنان والرّهان الذين هما من متعلقات الخيل للفضيلة التي استكملتها نفسه تشبيهاً لها مع فضائل نفوسهم بخيل الجلبة ووجه المشابهة أن الصّحابة لما كانوا يقتنون الفضائل ويستبقون بها إلى رضوان الله وسعادات الآخرة كانت فضائلهم التّي عليها يستبقون كخيل الرهان، ولما كانت فضيلته أكمل فضائلهم وأتمّها كانت بالنسبة إلى فضائلهم كالفرس لا يشق غباره فحسن منه أن يستعير لسبقه بها لفظ الطيران ويجري عليها لفظ العنان والرّهان.

---

(١) توحيد الصدوق: ١٥٧، وتفسير الصافي: ٢/ ٨٤٨.

والفصل الثاني

مشتمل على ذكر حاله في زمن الخلافة وحين انتهائها إليه عليه السلام يقول كنت لما وليت الأمر **(كالجبل)** العظيم في الثبات على الحق والوقوف على القانون العدل فكما **(لا تحركه)** الرّياح **(القواصف)** عن مكانه **(ولا تزيله)** الزّعازع **(العواصف)** عن مقامه فكذلك أنا لا يحركني عن سواء السّبيل وعن الصّراط المستقيم مراعاة هوى النّاس ومتابعة طباعهم المائلة إلى خلاف ما تقتضيه السّنة النّبويّة والأوامر الإلهية.

وحاصله أنّه لا يأخذني في الله لومة لائم **(ليس لأحد فيَّ مهمز ولا لقائل فيَّ مغمز)** أي لا يسع لأحد أن يعيب علي ويطعن فيّ في الغيبة والحضور في شيء من الحلال والحرام والحدود والأحكام كما عابوا على من كان قبلي من المتخلفين لأحداث وقعت منهم وجرائر صدرت عنهم **(الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقّ له)** ممّن ظلم في حقّه **(والقويّ عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه)** وأنتصفه للمظلوم.

والفصل الثالث

مشتمل على الرّضا بالقضاء وتسليم الأمر لله سبحانه وتعالى، لمّا تفرّس في طائفة من قومه أنّهم يتّهمونه بالكذب فيما يخبرهم به من الغيبيّات والملاحم الواقعة في القرون المستقبلة كما يأتي شطر منها في شرح كلامه السّادس والخمسين، ويأتي في تلك الأخبار أنّ بعضهم واجهه بالشّك والتّهمة فعند ذلك قال: **(رضينا عن الله قضائه وسلّمنا له أمره)** وذلك لأنّه لما كان القضاء الإلهي قد جرى على قوم بالتّكذيب له والتّهمة فيما يقول لا جرم كان أولى بلزوم باب الرّضا والتّسليم إلى الله فيما جرى عليه قلم القضاء، ثمّ أبطل أوهامهم على سبيل الإستفهام الإنكاري الإبطالي وقال: **(أتراني)** الخطاب لكل من أساء الظن في حقّه **(أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله)** وكيف لي بذلك **(فوالله لأنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه)**.

الفصل الرابع

يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّه قد عهده النّبي بعدم المنازعة في الأمر وأوصى له بطلبه بالرفق والمداراة فإن حصل له وإلا فليمسك عنه وليحقن دمه كما قال: **(فنظرت في أمري)** أي أمر الخلافة التي هي حقّ لي **(فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي)** أي وجوب طاعتي لرسول الله فيما أمرني به من ترك القتال عند عدم الأعوان قد سبق على بيعتي للقوم فلا سبيل لي إلى الإمتناع **(وإذا الميثاق في عنقي لغيري)** أي ميثاق الرّسول وعهده إليّ بترك الشّقاق والمنازعة فلم يحلّ لي أن أتعدّى أمره، أو أخالف نهيه.

وينبغي التنبيه على أمرين

الأول: قال الشارح المعتزلي بعد شرح الفصل الأخير من كلامه عليه السلام على نحو ما شرحناه: فإن قيل فهذا تصريح بمذهب الإماميّة.

قيل: ليس الأمر كذلك بل هذا تصريح بمذهب أصحابنا من البغداديّين لأنّهم يزعمون أنه الأفضل والأحق بالإمامة وأنّه لولا ما يعلمه الله ورسوله من الأصلح للمكلفين من تقديم المفضول عليه لكان من تقدّم عليه هالكاً، فرسول الله صلى الله عليه وآله أعلمه أنّ الإمامة حقه وأنّه أولى بها من الناس أجمعين وأعلمه أنّ في تقديم غيره وصبره على التأخر عنها مصلحة للدّين راجعة إلى المكلفين، وأنّه يجب عليه أن يمسك عن طلبها ويغضي عنها لمن هو دون مرتبته، فامتثل أمر رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يحرجه تقدّم من تقدّم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحق.

ثمّ قال: وقد صرّح شيخنا أبو القاسم البلخي بهذا وصرّح به تلامذته وقالوا: لو نازع عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّ سيفه لحكمنا بهلاك كلّ من خالفه وتقدّم عليه كما حكمنا بهلاك من نازعه حين أظهر نفسه، ولكنّه مالك الأمر وصاحب الخلافة إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق من ينازعه فيها، وإذا أمسك عنها وجب علينا القول بعدالة من أغضى له عليها وحكمه في ذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وآله لأنّه قد ثبت عنه في الأخبار الصّحيحة أنه قال: «**عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور حيثما دار**»، وقال صلى الله عليه وآله له غيره مرّة: «حربك حربي وسلمك سلمي» وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندي وبه أقول، انتهى كلامه[1].

أقول: ما ذكره هنا ملخص ما ذكره في شرح الخطبة الشقشقيّة وقد نقلنا كلامه في المقدّمة الثانية من مقدّمات تلك الخطبة، وذكرنا هنالك ما يتوجّه عليه من وجوه الكلام وضروب الملام.

ونقول ههنا مضافاً إلى ما سبق هناك: أن تقدّم غيره إمّا أن يكون بفعل الله سبحانه وفعل رسوله، وإمّا أن لا يكون بفعلهما بل تقدّم الغير بنفسه لاعتقاده أنه أحق بها منه عليه السلام، أو قدّمه من سائر الصّحابة والمكلفين إما بهوى أنفسهم أو رعاية المصلحة العامّة.

أمّا الأوّل ففيه أولاً أنهم لا يقولون به، لاتّفاقهم على عدم النّص من الله ومن رسوله في باب الإمامة، وثانياً: أنّه لو كان ذلك بفعلهما لم يكن لتشكيه من القوم وجه ولما نسبهم إلى التّظليم ولما كان يقول مدّة عمره والله ما زلت مظلوماً مدفوعاً عن حقّي مستأثراً عليّ منذ قبض الله رسوله ولكان الواجب أن يعذرهم في ذلك، وثالثاً أنّ تقديم المفضول على الفاضل والأفضل قبيح عقلاً وبنصّ القرآن قال سبحانه:

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥] الآية وقال

---

(١) شرح النهج للمعتزلي: ٢/ ٢٩٧.

أيضاً: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ومع كونه قبيحاً كيف يمكن صدوره من الله سبحانه أو من رسوله.

فإن قلت: تقديم المفضول إذا كان لمصلحة الدّين راجعة إلى المكلفين فلا نسلم قبحه.

قلت: بعد تسليم الصّغرى أوّلاً وتسليم كون الحسن والقبح في الأشياء مختلفاً بالوجوه والاعتبارات. ثانياً: إنّ أمير المؤمنين إذا كان عالماً بالمصلحة في تقدّم الغير على ما صرّح به من أنّ رسول الله أعلمه به، كان اللازم حينئذٍ له السّكوت؛ إذ المعلوم بالضّرورة من حاله أنّ طلبه للخلافة لم يكن للدّنيا وحرصاً على الملك، بل إنّما كان غرضه بذلك حصول نظام الدّين وانتظام أمر المكلفين وإقامة الحقّ وإزاحة الباطل، كما صرّح عليه السلام به في قوله في الخطبة الثّالثة والثّلاثين، «والله لهي أحبّ إليّ من إمارتكم هذه إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»، فإذا كان حصول هذا النّظام والإنتظام وصلاح المكلفين بتقدّم الغير لا بدّ وأن يكون مشغوفاً به وراضياً بذلك أشدّ الرّضا لا شاكياً ومظهراً للتظلم والشّكوى كما مرّ في الخطبة الشّقشقيّة، وفي قوله في الخطبة السّادسة والعشرين فنظرت فإذا ليس لي معين (آ ه).

وأمّا الثّاني: وهو أنّ تقدّم الغير عليه إنّما كان لزعم الغير أنّه أحق بها منه عليه السلام ففيه أنّ الأمر إذا دار بين متابعة رأي الأفضل ومتابعة رأي المفضول، كان اللاّزم ترجيح الأوّل على الثّاني دون العكس وهو واضح.

وأمّا الثّالث: وهو أنّ التّقدّم كان بتقديم المكلفين بمقتضى هوى أنفسهم الأمارة بالسّوء ولما كان في صدورهم من الحسد والسّخائم فهو الحقّ والصّواب من دون شك فيه وارتياب.

ولنعم ما قال أبو زيد النّحوي الخليل بن أحمد حين سئل عنه ما بال أصحاب رسول الله كأنّهم بنو أم واحدة وعلي عليه السلام كأنه ابن علة؟ قال تقدّمهم إسلاماً وبذّهم شرفاً وفاقهم علماً ورجهم حلماً وكثرهم هدى فحسدوه والنّاس إلى أمثالهم وأشكالهم أميل.

وقال ابن عمر لعلي عليه السلام: كيف تحبّك قريش وقد قتلت في يوم بدر واحد من ساداتهم سبعين سيداً تشرب أنوفهم الماء قبل شفاههم؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما تركت بدر لنا مذيقاً ولا لنا من خلفنا طريقاً»[1].

وسئل زين العابدين عليه السلام وابن عباس أيضاً لم أبغضت قريش عليّاً؟ قال: «لأنه أورد أولهم النّار وآخرهم العار»[2].

وقال أبو زيد النحوي: سألت الخليل بن أحمد العروضي لم هجر النّاس عليّاً وقرباه من

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٤٨٢ ح ٤، ومناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٤٨٢، ومكاتيب الرسول: ٣/ ٧٣٢.

رسول الله ﷺ قرباه وموضعه من المسلمين موضعه وعناؤه في الإسلام عناؤه، فقال: بهر والله نوره أنوارهم وغلبهم على صفو كلّ منهل، والنّاس إلى أشكالهم أميل أما سمعت الأول حيث يقول:

وكلّ شكل لشكله ألف أما ترى الفيل يألف الفيلا

قال: وأنشد الرّياشي في معناه عن العباس بن الأحنف:

وقائل كيف تهاجرتما فقلت قولاً فيه إنصاف

لم يك من شكلي فهاجرته والنّاس أشكال وآلاف

وأمّا الرّابع ففيه أنّ التّقديم إمّا أنّه كان بفعل جميع المكلّفين أو بفعل البعض والأول ممنوع لما قد عرفت في شرح الخطبة الشّقشقية من تخلف وجوه الصّحابة عن البيعة وعرفت هناك أيضاً قول الشّارح بأنّه لولا عمر لم يثبت لأبي بكر أمر ولا قامت له قائمة، والثاني: لا حجيّة فيه، هذا مضافاً إلى أنّه كيف يمكن أن يخفى عليه عليه السلام ما لم يخف على غيره من وجوه المصلحة التّي لاحظوها في التّقديم على زعمك، إذ قد ذكرنا أنّه لو علم المصلحة في ذلك لسكت ولم يتظلّم.

فإن قيل: إنّ هذا يجري مجرى امرأة لها إخوة كبار وصغار فتولى أمرها الصغار في التزويج فإنّه لا بدّ أن يستوحش الكبار ويتشكّوا من ذلك.

قيل: إنّ الكبير متى كان ديّناً خائفاً من الله فإن استيحاشه وثقل ما يجري على طبعه لا يجوز أن يبلغ به إلى إظهار الكراهة للعقد والخلاف فيه وإيهام أنّه غير ممضي ولا صواب، وكل هذا جرى من أمير المؤمنين فيكشف ذلك كله عن عدم المصلحة في تقدّم الغير عليه بوجه من الوجوه.

ثمّ إنّ ما حكاه من شيخه أبي القاسم البلخي وبنى عليه مذهبه من أنّه صاحب الخلافة ومالك الأمر إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق من ينازعه فيها وإذا أمسك عنها وجب القول بعدالة من غضي لها:

فيه أنّ الشرطية الأولى مسلّمة والمقدم فيها حقّ فوجب القول بتفسيق المنازعين والدّليل على طلبه عليه السلام لها واضح لمن له أدنى تتبع في الأخبار، ويكفي في ذلك قوله في الخطبة التي رواها الشّارح المعتزلي في شرح كلامه لما قلد محمّد بن أبي بكر المصر، وقد مضت روايتها منا في «**شرح الخطبة**» السّادسة والعشرين وهو قول عليه السلام: «ثم قالوا هلم فبايع وإلاّ جاهدناك، فبايعت مستكرها وصبرت محتسباً، فقال قائلهم: يا ابن أبي طالب إنك على هذا الأمر لحريص، فقلت أنتم أحرص مني وأبعدأيّنا أحرص أنا الذي طلبت تراثي وحقّي الذي جعلني الله ورسوله أولى به، أم أنتم تضربون وجهي دونه وتحولون بيني وبينه، فبهتوا والله لا يهدي

القوم الظالمين» إلى آخر ما مرّ.

ويشهد بذلك ما رواه الشّارح أيضاً في «**شرح الخطبة**» المذكورة من أنّ قوله عليه السلام: «فنظرت فإذاً ليس لي معين إلاّ أهل بيتي فضننت بهم عن الموت» فتقول ما زال يقوله ولقد قاله عقيب وفاة رسول الله، وقال: لو وجدت أربعين ذوي عزم[1].

ويدلّ عليه ما رواه أيضاً في «**شرح الخطبة**» المذكورة حيث قال: ومن كتاب معاوية المشهور؛ وعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلاً على حمار ويداك في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصّديق، فلم تدع أحداً من أهل بدر والسّوابق إلاّ دعوتهم إلى نفسك ومشيت إليهم بامرأتك وأوليت إليهم بإبنيك واستنصرتهم على صاحب رسول الله، فلم يجبك منهم إلاّ أربعة أو خمسة إلى غير ذلك ممّا مضى، ويأتي في تضاعيف الكتاب، وبالجملة فمطالبته لها واضح لأولي الأبصار كالشّمس في رابعة النّهار.

ويعجبني أن أورد هنا حكاية مناسبة للمقام، وهو ما نقله شيخنا البهائي في الكشكول قال: كتب علي بن صلاح الدّين يوسف ملك الشّام إلى الإمام الناصر لدين الله يشكو أخويه أبا بكر وعثمان لما خالفا وصية أبيهم له:

مولاي إنّ أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد غصبا بالسّيف حق علي
وكان بالأمس قد ولاّه والده ... في عهده فأضاعا الأمر حقد ولي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي ... من الأوَاخر ما لاقى من الأول
إذ خالفاه وحلا عقد بيعته ... وابنهما والنّص فيه جلى

فوقع الخليفة النّاصر على ظهر كتابه:

وإذا كتابك يا ابن يوسف منطقا ... بالخير يخبر أنّ أصلك طاهر
منعوا عليّاً إرثه إذ لم يكن ... بعد النّبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإنّ غداً عليّ حسابهم ... وأبشر فناصرك الإمام النّاصر

وأمّا الشّرطية الثانية فممنوعة إذ الإمساك عنها لا دلالة فيه على عدالة من غضى لها، نعم إنّما يدلّ عليها إذا لم يكن للإمساك وجه إلاّ الرّضا وطيب النّفس، وأمّا إذا كان هناك احتمال أن يكون وجهه هو الخوف والتّقية فلا.

وقال المرتضى «ره» وليس لأحد أن يقول: كيف يجوز على شجاعته وما خصه الله به من القوّة الخارقة للعادة أن يخاف منهم ولا يقدم على قتالهم لولا أنّهم كانوا محقّين؟ وذلك إنّ شجاعته وإن كانت على ما ذكرت وأفضل فلا يبلغ أن يغلب جميع الخلق ويحارب سائر النّاس

(١) شرح النهج للمعتزلي: ٢/ ٢٠ ـ ٢٢.

وهو مع الشّجاعة بشر يقوي ويضعف ويخاف ويأمن والتّقية جائزة على البشر الذين يضعفون عن دفع المكروه عنهم هذا.

وأمّا الحديث الذي رواه من قوله ﷺ «علي مع الحقّ والحقّ مع علي» فمن الأحاديث المعروفة المعتبرة المستفيضة بل لا يبعد دعوى تواتره، وقد رواه السّيد المحدّث البحراني في كتاب غاية المرام بخمسة عشر طريقاً من طرق العامة وإحدى عشر طريقاً من طرق الخاصّة.

ففي بعض الطرق العاميّة عن شهر بن حوشب قال: كنت عند أم سلمة (رض) إذا استأذن رجل فقالت من أنت؟ فقال: أنا أبو ثابت مولى علي عليه السلام، فقالت أمّ سلمة: مرحباً بك يا أبا ثابت أدخل. فدخل فرحبت به ثمّ قالت: يا أبا ثابت أين طار قلبك حين طارت القلوب مطائرها؟ قال: تبع علي عليه السلام قالت: وفّقت والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي مع الحقّ والقرآن، والحق والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا على الحوض»[1].

وفي بعضها عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي مع الحقّ والحق مع علي لن يفترقا حتّى يردا على الحوض»[2].

وفي رواية موفق بن أحمد بإسناده عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود قالا: سمعنا أبا أيوب الأنصاري قال: سمعت النّبي ﷺ يقول لعمار بن ياسر: «يا عمّار تقتلك الفئة الباغية وأنت مع الحقّ والحقّ معك، يا عمّار إذا رأيت عليّاً سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي ودع النّاس، إنّه لن يدلك على ردى ولن يخرجك عن الهدى، يا عمّار إنّه من تقلد سيفاً أعان به عليّاً على عدوه قلده الله يوم القيامة وشاحاً من درّ، ومن تقلد سيفاً أعان به عدو علي قلده يوم القيامة وشاحاً من نار» قال قلت: حسبك[3].

أقول: لا خفاء في دلالة هذا الخبر على عصمته وإمامته، وبطلان خلافة الثلاثة غير خفية من وجوه عديدة:

الأوّل: أنّه أخبر بكون الحقّ معه عليه السلام وهو يقتضي عصمته إذ لا يجوز أن يخبر على الإطلاق بأنّ الحقّ مع علي مع جواز وقوع القبيح عنه عليه السلام، لأنّه إذا وقع كان إخباره بذلك كذباً وهو محال فلا بدّ أن يكون معصوماً.

الثّاني: أنّ لن إمّا لنفي التّأبيد أو لنفي المستقبل فتدلّ على التّقديرين على عدم انفكاك الحقّ منه، فإذا كان الحقّ لا ينفك عنه أبداً ثبت إمامته وبطل خلافة من خالفه.

---

(١) الإستغاثة: ١/ ١٠، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٣٤.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٣٤٣.

(٣) الطرائف: ١٠٤.

الثالث: أنّ قوله: لعمّار إذا رأيت عليّاً سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي نصّ صريح في وجوب الإقتداء به وعدم جواز الإقتداء بغيره، ولا سيّما بملاحظة تعليله بأنّه لن يدلك على ردى ولن يخرجك عن الهدى، فإنّه يدل على أنّه إن سلك سبيل الغير يكون خارجاً من الهدى إلى الرّدى، ولذلك إنّ عمّار لازم عليّاً وأنكر على الأوّل وتخلف عن البيعة حتّى أكرهوه على البيعة فبايع بعد بيعة مولاه عليه السلام بكره وإجبار هذا.

ومن العجب العجاب أنّ بعض النّاصبين قال: إن صح الخبر دلّ على أنّ عليّاً كان مع الحقّ أينما دار وهذا شيء لا يرتاب فيه حتّى يحتاج إلى دليل، بل هذا دليل على حقيّة الخلفاء، لأنّ الحقّ كان مع علي وعلي كان مع الخلفاء حيث تابعهم وناصحهم، فثبت من هذا خلافة الخلفاء وأنّها كانت حقّاً صريحاً، وأمّا من خالف عليّاً من البغاة فمذهب أهل السّنة والجماعة أنّ الحقّ كان مع علي وهم كانوا على الباطل، ولا شك في هذا، انتهى.

ويتوجه عليه أولاً أنّ صحة الخبر ممّا لا مجال للكلام فيه، وثانياً أنّ كونه مع الخلفاء وتابعهم ممنوع إلا بمعنى كونه معهم في سكون المدينة، وبمعنى التّابعة الإجباريّة والمماشاة في الظاهر، وإلاّ فما وقع بينهم من المخالفات والتنازع والمشاجرات قد بلغ في الظهور إلى حدّ لا مجال للإخفاء وفي الشناعة إلى مرتبة لا تشتبه على الآراء كما مضى، وسيجيء أيضاً إن شاء الله تعالى، وأمّا نصحه لهم فمسلم لكن لأمور الدّين وانتظام شرع سيّد المرسلين، لا لأجل ترويج خلافتهم ونظم أسباب شوكتهم وجلالتهم.

وثالثاً: أنّ التّفرقة بين الخلفاء وبين البغاة بكون الآخرين على الباطل دون الأوّلين لا وجه له، إذ كلّ من الفرقتين كان مريداً لقتله عليه السلام غاية الأمر أنّه وجد هناك أعواناً فقاتلهم ذووهم عن نفسه ولم يجد ههنا ناصراً فبايعهم إجباراً وكف عن القتال وحقن دمه، فلو أنّه وجد أعواناً له يومئذٍ لشهر عليهم سيفه وجاهدهم ويشهرون سيفهم عليه ويقاتلونه، كما أنّه لو يجد أعواناً مع البغاة وكفّ عنهم وتابع آراءهم لم يكونوا مقاتلين له ولم يجادلوا معه عليه السلام.

هذا كلّه مضافاً إلى أنّ بغي البغاة وخروجهم عليه عليه السلام من بركة البرامكة ومن ثمرة هذه الشجّرة الملعونة عذبهم الله عذاباً أليماً.

الثاني

قد عرفت أنّ سبب تقاعده عليه السلام عن جهاد من تقدم عليه هو عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إليه بالكفّ عنهم، حيث لم يجد أعواناً وفيه مصالح أخر قد أشير إليها في أخبار الأئمة الأطهار، ولا بأس بالإشارة إلى تلك الأخبار والأخبار التي أشير فيها إلى معاهدة النّبي صلى الله عليه وآله إليه حتّى يتّضح الأمر ويظهر لك بطلان ما زعمه العامة من أنّ سكوته وعدم نهوضه إليهم دليل على رضاه بتقدّمهم، وعلى كونهم محقّين فأقول وبالله التّوفيق.

روى الشّيخ السّعيد عزّ الدّين أبو المنصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطّبرسي (ره) في «**الإحتجاج**»، قال: روي أنّ أمير المؤمنين كان جالساً في بعض مجالسه بعد رجوعه من نهروان فجرى الكلام حتّى قيل له لم حاربت أبا بكر وعمر كما حاربت الطلحة والزّبير ومعاوية؟ فقال: «إنّي كنت لم أزل مظلوماً مستاثراً عليّ حقيّ»، فقام إليه أشعث بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين لم لم تضرب بسيفك ولم تطلب بحقّك؟ فقال: «يا أشعث قد قلت قولاً فاسمع الجواب وعه واستشعر الحجّة إنّ لي أسوة بستّة من الأنبياء عليهم السّلام.

أوّلهم نوح عليه السلام حيث قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ١٠]

فإن قال قائل إنّه قال هذا لغير خوف فقد كفر، وإلاّ فالوصي أعذر.

وثانيهم لوط عليه السلام حيث قال: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: ٨٠].

فإن قال قائل إنّه قال هذا لغير خوف فقد كفر، وإلاّ فالوصيّ أعذر.

وثالثهم إبراهيم خليل الله عليه السلام حيث قال: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

فإن قال قائل: إنّه قال هذا لغير خوف فقد كفر، وإلاّ فالوصيّ أعذر.

ورابعهم موسى عليه السلام حيث قال: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء: ٢١].

فإن قال قائل إنّه قال هذا لغير خوف فقد كفر، وإلاّ فالوصيّ أعذر.

وخامسهم أخوه هارون عليه السلام حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]. فإن قال قائل إنّه قال هذا لغير خوف فقد كفر، وإلاّ فالوصيّ أعذر.

وسادسهم أخي محمّد صلى الله عليه وآله خير البشر حيث ذهب إلى الغار ونوّمني على فراشه، فإن قال قائل إنّه ذهب إلى الغار لغير خوف فقد كفر وإلاّ فالوصيّ أعذر فقام إليه النّاس بأجمعهم فقالوا: يا أمير المؤمنين قد علمنا أنّ القول قولك ونحن المذنبون التّائبون، وقد عذرك الله[1].

وفيه أيضاً عن أحمد بن همام قال: أتيت عبادة بن الصّامت في ولاية أبي بكر فقلت: يا عبادة أكان النّاس على تفضيل أبي بكر قبل أن يستخلف؟ فقال: يا أبا ثعلبة إذا سكتنا عنكم فاسكتوا عنّا ولا تبحثونا، فوالله لعليّ بن أبي طالب أحق بالخلافة من أبي بكر كما كان رسول الله أحق بالنّبوة من أبي جهل.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١١/ ٧٣، والاحتجاج: ١/ ٢٨٠.

قال: وأزيدكم أنّا كنّا ذات يوم عند رسول الله فجاء علي وأبو بكر وعمر إلى باب رسول الله ﷺ فدخل أبو بكر، ثم دخل عمر، ثمّ دخل عليّ عليه السلام على أثرهما، فكأنّما سفى وجه رسول الله الرّماد، ثمّ قال: «يا علي أيتقدّمك هذان، وقد أمرك الله عليهما»؟ فقال أبو بكر: نسيت يا رسول الله، وقال عمر: سهوت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «ما نسيتما ولا سهوتهما وكأني بكما قد أسلبتماه ملكه، وتحاربتما عليه وأعانكما على ذلك أعداؤه وأعداء رسول الله، وكأني بكما قد تركتما المهاجرين والأنصار يضرب بعضهم وجوه بعض بالسّيف على الدّنيا، وكأنّي بأهل بيتي وهم المقهورون المشتتون في أقطارها، وذلك لأمر قد قضي».

ثمّ بكى رسول الله ﷺ حتّى سالت دموعه، ثمّ قال: «يا علي الصبّر الصبّر حتّى ينزل الأمر، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، فإنّ لك من الأجر في كلّ يوم ما لا يحصيه كاتباك، فإذا أمكنك الأمر فالسّيف السّيف فالقتل القتل حتّى يفيؤوا إلى أمر الله وأمر رسوله، فإنّك على الحقّ ومن ناوأك على الباطل، وكذلك ذريّتك من بعدك إلى يوم القيامة»(١).

وفي تفسير علي بن إبراهيم القميّ عن أحمد بن علي قال: حدّثنا الحسين بن عبد الله السّعدي، قال: حدّثنا الحسن بن موسى الخشاب، عن عبد الله بن الحسين، عن بعض أصحابه عن فلان الكرخي قال: قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: ألم يكن علي قويّاً في بدنه قويّاً في أمر الله؟ قال له أبو عبد الله عليه السلام: «بلى»، قال: فما منعه أن يدفع أو يمتنع؟ قال: «قد سألت فافهم الجواب، منع عليّاً من ذلك آية من كتاب الله»، قال: وأي آية؟ قال: «فاقرء:

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

إنّه كان لله ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين ومنافقين، فلم يكن عليّ ليقتل الآباء حتّى يخرج الودائع، فلما خرج ظهر على من ظهر وقتله، وكذلك قائمنا أهل البيت لم يظهر حتى يخرج ودائع الله، فإذا خرجت يظهر على من يظهر فيقتله(٢).

أقول: هذا هو التّأويل، وتنزيله أنه لو تميّز هؤلاء الذين كانوا بمكة من المؤمنين والمؤمنات وزالوا من الكفّار لعذّبنا الذين كفروا، بالسّيف والقتل بأيديكم.

وفي «البحار» من أمالي المفيد «ره» بإسناده عن جندب بن عبد الله، قال: دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد بويع بعثمان بن عفان، فوجدته مطرقاً كئيباً، فقلت له: ما أصابك جعلت فداك من قومك؟ فقال: «صبر جميل»، فقلت: سبحان الله، والله

(١) الاحتجاج: ١/٢٩٢، وبحار الأنوار: ٢٩/٤٢٦.
(٢) بحار الأنوار: ٢٩/٤٢٨ ح ١٣، وتفسير الصافي: ٥/٤٣.

إنّك لصبور، قال: «فأصنع ماذا»؟ قلت: تقوم في النّاس وتدعوهم وتخبرهم أنّك أولى بالنبي ﷺ وبالفضل والسّابقة وتسألهم النّصر على هؤلاء المتظاهرين عليك، فإن أجابك عشرة من مائة شددت بالعشرة على المائة، فإن دانوا لك كان ذلك ما أحببت، وإن أبوا قاتلتهم، فإن ظهرت عليهم فهو سلطان الله الذي آتاه نبيّه وكنت أولى به منهم، وإن قتلت في طلبه قتلت إن شاء الله شهيداً وكنت بالعذر عند الله، لأنّك أحقّ بميراث رسول الله.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أتراه يا جندب كان يبايعني عشرة من مائة: فقلت أرجو ذلك، فقال: لكنّي لا أرجو ولا من كلّ مائة إثنان، وسأخبرك من أين ذلك إنّما ينظر النّاس إلى قريش وإنّ قريشاً تقول: إنّ آل محمّد يرون لهم فضلاً على سائر قريش وإنّهم أولياء هذا الأمر دون غيرهم من قريش، وإنّهم إن ولوه لم يخرج منهم هذا السّلطان إلى أحد أبداً، ومتى كان في غيرهم تداولوه بينهم، ولا والله لا تدفع إلينا هذا السّلطان قريش أبداً طائعين».

فقلت له: أفلا أرجع فاخبر النّاس بمقالتك هذه وأدعوهم إلى نصرك؟ فقال: «يا جندب ليس ذا زمان ذاك»، قال جندب: فرجعت بعد ذلك إلى العراق فكنت كلما ذكرت من فضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شيئاً زبروني ونهروني حتّى رفع ذلك من قولي إلى الوليد بن عقبة، فبعث إليّ فحبسني حتّى كلم في فخلى سبيلي[1].

ومن «العيون» و «علل الشرائع» عن الطالقاني عن الحسن بن علي العددي، عن الهيثم بن عبد الله الرّماني قال: سألت الرّضا عليه السلام فقلت له: يا ابن رسول الله أخبرني عن علي عليه السلام لم لم يجاهد أعداءه خمسة وعشرين سنة بعد رسول الله ﷺ، ثمّ جاهد في أيّام ولايته؟ فقال: لانّه اقتدى برسول الله في تركه جهاد المشركين بمكة بعد النّبوة ثلاث عشر سنة وبالمدينة تسعة عشر شهراً، وذلك لقلة أعوانه، وكذلك علي عليه السلام ترك مجاهدة أعدائه لقلة أعوانه عليهم، فلم لم تبطل نبوة رسول الله مع تركه الجهاد ثلاث عشرة سنة وتسعة عشر شهراً فكذلك لم تبطل إمامة علي مع ترك الجهاد خمسة وعشرين سنة إذا كانت العلة المانعة لهما عن الجهاد واحدة[2].

ومن كتاب الغيبة للشّيخ بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي، عن جابر بن عبد الله وعبد الله بن العبّاس قالا، قال رسول الله ﷺ في وصيته لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي إنّ قريشاً ستظاهر عليك ويجتمع كلهم على ظلمك وقهرك، فإن وجدت أعواناً فجاهدهم، وإن لم تجد أعواناً فكف يدك واحقن دمك، فإنّ الشّهادة من ورائك لعن الله قاتلك»[3].

---

(١) الإرشاد: ١/٢٤٣، والأمالي: ٢٣٤.

(٢) علل الشرائع: ١/١٤٨ ح ٥، ووسائل الشيعة: ١٥/٨٨ ح ٢٠٠٤٤.

(٣) الغيبة: ١٩٣ ح ١٥٥، ومستدرك الوسائل: ١١/٧٤ ح ١٢٤٦١.

ومن كتاب سليم بن قيس الهلالي قال: كنا جلوساً حول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وحوله جماعة من أصحابه، فقال له قائل: يا أمير المؤمنين لو استنفرت النّاس؟ فقام وخطب وقال: «أما إني قد استنفرتكم فلم تنفروا، ودعوتكم فلم تسمعوا، فأنتم شهود كغيّاب، وأحياء كأموات، وصمّ ذوو اسماع، أتلو عليكم الحكمة وأعظكم بالموعظة الشافية الكافية وأحثكم على جهاد أهل الجور فما آتي على آخر كلامي حتى أراكم متفرقين حلقاً شتّى، تناشدون الأَشعار، وتضربون الأمثال، وتسألون عن سعر التّمر واللبن.

تبّت أيديكم لقد دعوتكم إلى الحرب والإستعداد لها، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها، شغلتموها بالأباطيل والأَضاليل أغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذلوا، وأيم الله ما أظنّ أن تفعلوا حتّى يفعلوا.

ثمّ وددت أنّي قد رأيتهم فلقيت الله على بصيرتي ويقيني واسترحت من مقاساتكم وممارستكم، فما أنتم إلا كإبل جمّة ضلّ راعيها، فكلما ضمّت من جانب انتشرت من جانب، كأني بكم والله فيما أرى أن لو حمس الوغى، واحمر الموت قد انفرجتم عن علي بن أبي طالب انفراج الرّأس وانفراج المرأة عن قبلها لا تمنع منها.

قال الأَشعث بن قيس: فهلا فعلت كما فعل ابن عفّان؟ فقال عليه السلام: «أو كما فعل ابن عفّان رأيتموني فعلت، أنا عائذ بالله من شرّ ما تقول يا ابن قيس، والله إنّ التي فعل ابن عفان لمخزاة لمن لا دين له ولا وثيقة معه، فكيف أفعل ذلك وأنا على بيّنة من ربي، والحجة في يدي والحق معي، والله إنّ امرءاً أمكن عدوّه من نفسه يجز لحمه ويفري جلده ويهشم عظمه ويسفك دمه وهو يقدر على أن يمنعه لعظيم وزره ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره، فكن أنت ذاك يا ابن قيس»[١].

«فأمّا أنا فوالله دون أن أعطي بيده ضرب بالمشرفي تطير له فراش الهام وتطيح منه الأَكف والمعاصم، ويفعل الله ما يشاء، ويلك يا ابن قيس إنَّ المؤمن يموت كلّ ميتة غير أنه لا يقتل نفسه، فمن قدر على حقن دمه، ثمّ خلى عمّن يقتله فهو قاتل نفسه.

يا ابن قيس إنّ هذه الأمّة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنّة واثنتان وسبعون في النّار، ولشرّها وأبغضها وأبعدها منه السّامرة الذين يقولون لا قتال، وكذبوا قد أمر الله بقتال الباغين في كتابه وسنّة نبيّه، وكذلك المارقة»[٢].

فقال ابن قيس لعنه الله وغضب من قوله: فما منعك يا ابن أبي طالب حين بويع أبو بكر

---

(١) الغارات: ٢/ ٤٩٥، والأمالي: ١٤٨.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/٤٦٦، وكتاب سليم بن قيس: ٢١٤.

أخو بني تيم وأخو بني عديّ بن كعب، وأخو بني أميّة بعدهم، أن تقاتل وتضرب بسيفك وأنت لم تخطبنا خطبة منذ قدمت العراق إلاّ قلت فيها قبل أن تنزل عن المنبر، والله إنّي لأولى النّاس بالنّاس، وما زلت مظلوماً منذ قبض رسول الله، فما يمنعك أن تضرب بسيفك دون مظلمتك.

قال: «يا ابن قيس اسمع الجواب، لم يمنعني من ذلك الجبن ولا كراهة للقاء ربي وأن لا أكون أعلم، إنّ ما عند الله خير لي من الدّنيا والبقاء فيها، ولكن منعني من ذلك أمر رسول الله ﷺ وعهده إليّ، أخبرني رسول الله ﷺ بما الأمّة صانعة بعده، فلم أكن بما صنعوا حين عاينته بأعلم به ولا أشد استيقاناً منّي به قبل ذلك».

بل أنا بقول رسول الله أشدّ يقيناً منّي بما عاينت وشهدت، فقلت يا رسول الله فما تعهد إليّ إذا كان ذلك؟ قال ﷺ: ؟ «إن وجدت أعواناً فانبذ إليهم وجاهدهم وإن لم تجد أعواناً فكف يدك واحقن دمك حتّى تجد على إقامة الدّين وكتاب الله وسنّتي أعواناً».

وأخبرني أنّ الأمّة ستخذلني وتبايع غيري، وأخبرني أنّي منه بمنزلة هارون من موسى، وأنّ الأمّة بعده سيصيرون بمنزلة هارون ومن تبعه، والعجل ومن تبعه إذ قال له موسى:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٤].

وإنّما يعني أنّ موسى أمر هارون حين استخلفه عليهم إن ضلوا فوجد أعواناً أن يجاهدهم، وإن لم يجد أعواناً أن يكفّ يده ويحقن دمه ولا يفرق بينهم، وإنّي خشيت أن يقول ذلك أخي رسول الله ﷺ لم فرّقت بين الأمّة ولم ترقب قولي، وقد عهدت إليك أنّك إن لم تجد أعواناً أن تكف يديك وتحقن دمك ودم أهلك وشيعتك.

فلمّا قبض رسول الله مال النّاس إلى أبي بكر فبايعوه وأنا مشغول برسول الله نغسله؛ ثمّ شغلت بالقرآن فآليت يميناً بالقرآن أن لا أرتدي إلاّ للصّلاة حتّى أجمعه في كتاب ففعلت، ثمّ حملت فاطمة وأخذت بيد الحسن والحسين فلم أدع أحداً من أهل بدر وأهل السّابقة من المهاجرين والأنصار إلاّ ما نشدتهم الله، وحقي ودعوتهم إلى نصرتي فلم يستجب من جميع النّاس إلاّ أربعة رهط: الزّبير، وسلمان، وأبو ذر، والمقداد ولم يكن معي أحد من أهل بيتي أصول به ولا أقوى به.

أمّا حمزة فقتل يوم أحد، وأمّا جعفر فقتل يوم مؤتة وبقيت بين جلفين خائفين ذليلين حقيرين: العباس وعقيل وكانا قريبي عهد بكفر، فأكرهوني وقهروني فقلت كما قال هارون لأخيه: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ فلي بهارون أسوة حسنة ولي بعهد

رسول الله حجّة قويّة»[١].

قال الأشعث: كذلك صنع عثمان إستغاث بالنّاس ودعاهم إلى نصرته فلم يجد أعواناً، فكف يده حتّى قتل مظلوماً، قال عليه السلام، «ويلك يا ابن قيس إنّ القوم حين قهروني واستضعفوني وكادوا يقتلونني فلو قالوا نقتلك البتّة لامتنعت من قتلهم إياي ولو لم أجد غير نفسي وحدي، ولكن قالوا إن بايعت كففنا عنك وأكرمناك وقربناك وفضّلناك، وإن لم تفعل قتلناك، فلما لم أجد أحداً بايعتهم وبيعتي لهم لما لا حقّ لهم فيه لا يوجب لهم حقاً ولا يلزمني رضاً».

«ولو أنّ عثمان لمّا قال له النّاس: اخلعها ونكف عنك، خلعها لم يقتلوه، ولكنه قال: لا أخلعها، قالوا: فإنّا قاتلوك فكفّ يده عنهم حتّى قتلوه، ولعمري لخلعه إيّاها كان خيراً له، لأنّه أخذها بغير حقّ ولم يكن له فيها نصيب، وادّعى ما ليس له وتناول حقّ غيره».

«ويلك يا ابن قيس إنّ عثمان لا يعدو أن يكون أحد الرّجلين إما أن يكون دعا النّاس إلى نصرته فلم ينصروه، وإمّا أن يكون القوم دعوه إلى أن ينصروه فنهاهم عن نصرته، فلم يكن يحلّ له أن ينهى المسلمين عن أن ينصروا، إماماً هاديا مهتدياً لم يحدث حدثاً ولم يؤد محدثاً، وبئس ما صنع حين نهاهم وبئس ما صنعوا حين أطاعوه، فأما أن يكونوا لم يروه أهلاً لنصرته لجوره وحكمه بخلاف الكتاب والسّنة، وقد كان مع عثمان من أهل بيته ومواليه وأصحابه أكثر من أربعة آلاف رجل، ولو شاء الله أن يمتنع بهم لفعل ولم ينههم عن نصرته، ولو كنت وجدت يوم بويع أخو تيم أربعين رجلاً مطيعين لجاهدتهم، أما يوم بويع عمر وعثمان فلا لأني كنت بايعت ومثلي لا ينكث بيعته»[٢].

«ويلك يا ابن قيس كيف رأيتني صنعت حين قتل عثمان ووجدت أعواناً، هل رأيت منّي فشلاً أو جبناً أو تقصيراً في وقعتي يوم البصرة وهي حول جملهم الملعون من بيعة الملعون، ومن قتل حوله الملعون ومن ركبه الملعون ومن بقي بعده لا تائباً ولا مستغفراً: فإنّهم قتلوا أنصاري ونكثوا بيعتي ومثلوا بعاملي وبغوا علي، دمرت إليهم في اثني عشر ألفاً، وفي رواية أخرى أقلّ من عشرة آلاف وهم نيف على عشرين ومائة ألف، وفي رواية زيادة على خمسين ألفاً فنصرني الله عليهم وقتلهم بأيدينا وشفى صدور قوم مؤمنين.

وكيف رأيت يا ابن قيس وقعتنا بصفّين قتل الله منهم بأيدينا خمسين ألفاً في صعيد واحد إلى النار، وفي رواية أخرى زيادة على سبعين ألفاً.

وكيف رأيتنا يوم النهروان إذ لقيت المارقين وهم مستبصرون ومتدّينون قد ضلّ سعيهم

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٤٦٩.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٤٦٩.

في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، فقتلهم الله في صعيد واحد إلى النار، ولم يبق منهم عشرة ولم يقتلوا من المؤمنين عشرة.

ويلك يا ابن قيس هل رأيت لي لواء ردّ أو راية ردت إياي تعير يا ابن قيس وأنا صاحب رسول الله في جميع مواطنه ومشاهده، والمتقدّم إلى الشّدائد بين يديه لا أفرّ ولا ألوذ ولا أعتل ولا أمنح اليهود ويرأي (أرى ظ) أنّه لا ينبغي للنبي ولا للوصيّ إذا لبس لأمته وقصد لعدوه أن يرجع أو ينثني حتّى يقتل أو يفتح الله له.

يا ابن قيس هل سمعت لي بفرار قط أو بنوة «كذا»، يا ابن قيس، أما والذي فلق الحبّة وبرء النّسمة لو وجدت يوم بويع أبو بكر الذي عيرتني بدخولي في بيعته رجلاً كلهم على مثل بصيرة الأربعة الذين وجدت، لما كففت يدي ولناهضت القوم، ولكن لم أجد خامساً»[١].

قال الأَشعث: ومن الأربعة يا أمير المؤمنين؟ قال: «سلمان، وأبو ذر، والمقداد، والزّبير بن صفيّة قبل نكثه بيعتي فإنّه بايعني مرتين، أما بيعته الأولى التي وفى بها فإنّه لما بويع أبو بكر أتاني أربعون رجلاً من المهاجرين والأنصار فبايعوني، فأمرتهم أن يصبحوا عند بابي محلّقين رؤوسهم عليهم السّلاح، فما وافى منهم أحد ولا صبحني منهم غير أربعة: سلمان، وأبو ذر، والمقداد، والزّبير، وأمّا بيعته الأخرى فإنّه أتاني هو وصاحبه طلحة بعد قتل عثمان فبايعاني طائعين غير مكرهين، ثمّ رجعا عن دينهما مرتدّين ناكثين مكابرين معاندين حاسدين، فقتلهما الله إلى النّار، وأما الثلاثة: سلمان: وأبو ذر، والمقداد، فثبتوا على دين محمّد وملّة إبراهيم حتى لقوا الله يرحمهم الله.

يا ابن قيس فوالله لو أن أولئك الأربعين الذين بايعوني وفوا لي وأصبحوا على بابي محلّقين قبل أن تجب لعتيق في عنقي بيعة، لناهضته وحاكمته إلى الله عز وجل، ولو وجدت قبل بيعة عثمان أعواناً لناهضتهم وحاكمتهم إلى الله؛ فإنّ ابن عوف جعلها لعثمان واشترط عليه فيما بينه وبينه أن يردها عليه عند موته، فأما بعد بيعتي إيّاهم فليس إلى مجاهدتهم سبيل».

فقال الأَشعث: والله لأن كان الأَمر كما تقول: لقد هلكت الأمة غيرك وغير شيعتك فقال عليه السلام: «إنّ الحقّ والله معي يا ابن قيس كما أقول، وما هلك من الأمّة إلاّ النّاصبين والمكاثرين والجاهدين والمعاندين، فأما من تمسّك بالتّوحيد والإقرار بمحمّد والإسلام ولم يخرج من الملة ولم يظاهر علينا الظلمة، ولم ينصب لنا العداوة وشك في الخلافة، ولم يعرف أهلها ولم يعرف ولاية ولم ينصب لنا عداوة، فإن ذلك مسلم مستضعف يرجى له رحمة الله ويتخوف عليه ذنوبه».

---

(١) مستدرك الوسائل: ١١/ ٧٦، وبحار الأنوار: ٢٩/ ٤٧٠.

قال أبان: قال سليم بن قيس: فلم يبق يومئذٍ من شيعة عليّ أحد إلاّ تهلل وجهه وفرح بمقالته إذ شرح أمير المؤمنين عليه السلام الأمر وباح به وكشف الغطاء وترك التقيّة، ولم يبق أحد من القرّاء ممن كان يشك في الماضين ويكف عنهم ويدع البراءة منهم، ودعا وتأثماً إلاّ استيقن واستبصر وحسن وترك الشك والوقوف ولم يبق أحد حوله أتى ببيعته على وجه ما بويع عثمان، والماضون قبله إلا رأى ذلك في وجهه وضاق به أمره وكره مقالته، ثمّ أنهم استبصر عامتهم وذهب شكهم.

قال أبان عن سليم: فما شهدت يوماً قط على رؤوس العامة أقر لأعيننا من ذلك اليوم لما كشف للناس من الغطاء، وأظهر فيه من الحقّ وشرح فيه الأمر وألقى فيه التقيّة والكتمان، وكثرت الشيعة بعد ذلك المجلس مذ ذلك اليوم، وتكلموا وقد كانوا أقل أهل عسكره وصار[١] النّاس يقاتلون معه على علم بمكانه من الله ورسوله، وصار الشّيعة بعد ذلك المجلس أجلّ النّاس وأعظمهم[٢].

وفي رواية أخرى: جل الناس وعظمهم، وذلك بعد وقعة النّهروان وهو يأمر بالتّهية والمسير إلى معاوية، ثم لم يلبث أن قتل، قتله ابن ملجم لعنه الله غيلة وفتكاً، وقد كان سيفه مسموماً قبل ذلك.

أقول: ولا حاجة لنا بعد هذه الرّواية الشّريفة إلى ذكر سائر ما روي في هذا المعنى، لأنها قاطعة للعذر كافية في توضيح ما أوردناه، وتثبيت ما قصدناه من أنّ قعوده عن جهاد المتخلفين كان بعهد من النّبي صلى الله عليه وآله إليه مضافاً إلى سائر المصالح التي فيه، فلا يمكن مع ذلك كله دعوى كون ترك الجهاد دليلاً على حقيّة خلافة الثلاثة، وكاشفاً عن رضاه عليه السلام بذلك، وفي هذا المعنى روايات عامية لعلنا نشير إليها في شرح بعض الخطب الآتية في المقام المناسب إن ساعدنا التوفيق والمجال إن شاء الله تعالى.

---

(١) في كتاب سليم: وسائر.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٤٧٢، وكتاب سليم: ٢٢٠.

الترجمة

از جمله کلام هدایت فرجام آن امام عالی مقام است که جاری مجرای خطبه است و آن جمع شده است از کلام طویلی که آن حضرت بعد از وقعه نهروان ادا فرموده اند و مدار آن چه که سید این جا ذکر نموده است به چهار فصل است:

فصل اول

مشتمل است به ذکر مناقب جمیله و فضایل جلیله خود که می فرماید:

پس برخاستم به امر خدا و امر حضرت خاتم الانبیا علیه آلاف التحیة و الثّناء در زمانی که ضعیف شدند و ترسیدند مردمان و مطلع شدم بر حقایق اشیاء و احکام خدا هنگامی که سرفروبردند مردمان و عاجز گردیدند و گویا شدم در احکام مشکله و مسائل معضله در وقتی که درمانده بودند و گذشتم به نور خداوند، در حینی که ایستاده و سرگردان شدند و بودم من پست تر ایشان از حیث آواز و بلندتر ایشان از حیث سبقت به مراتب کمالات و درجات سعادات، پس پرواز نمودم به دوال لجام فضیلت و به تنهایی قیام نمودم به بردن کرو منقبت.

فصل دویم

مشتمل است به بیان حال به جهت منوال خود در زمان نشستن در مسند خلافت و استقرار در سریر ولایت که می فرماید:

بودم من در آن هنگام مثل کوه باشکوه که نجنباند او را بادهای شکننده و زایل نگرداند او را بادهای تند وزنده، در حالتی که نبود هیچ احدی را در شأن من جای عیب و عار و نه هیچ گوینده را در حق من جای طعن به کردار و گفتار، ذلیل و خوار در نزد من عزیز است و بامقدار تا این که بازیافت بکنم حق او را از جابر و ستمکار و صاحب قوت و اقتدار در نزد من ضعیف است و بی مقدار تا این که اخذ بکنم از او حق ستم کشیدگان را در روزگار.

فصل سيم

مشتمل است به رضای به قضای خدا و دفع توهم کذب و افترا در حق آن سرور اوصیا که می فرماید:

راضی شدیم از خدا حکم او را و گردن نهادیم مرخداوند را امر او را، آیا گمان می برید مرا که دروغ بگویم بر پیغمبر خدا؟ پس قسم به خداوند هر آینه من اول کسی هستم که تصدیق نمودم او را، پس نباشم اول کسی که تکذیب نماید او را.

فصل چهارم

مشتمل است به اعتذار از ترك جهاد و خصومت با غاصبین خلافت که سبب آن اطاعت و امتثال بود به عهد و وصیت حضرت خاتم رسالت صلوات الله و سلامه علیه که می فرماید:

پس نظر کردم در امر خود، پس ناگاه فرمان بردن من امر پیغمبر را به ترك قتال پیشی گرفته بود بر بیعت من به این گروه بدفعال و ناگاه پیمان در گردن من بوده از برای غیر من یعنی در ذمه من بود پیمان پیغمبر خدا به طلب خلافت با رفق و مدارا و در صورت عدم حصول آن ترك نمایم جهاد و قتال را و صبر ورزم و اختیار کنم زاویه خمول و اعتزال را.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثامنة والثلاثون
من المختار في باب الخطب

«وإنّما سُمّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لأنّها تُشْبِهُ الحَقّ، فَأَمّا أَوْلياءُ الله فَضِياؤُهُمْ فيهَا اليَقينُ، ودَليلُهُمْ سَمْتُ الْهُدى، وأمّا أعداءُ الله فَدُعاؤُهُمْ فيهَا الضَّلالُ، ودَليلُهُمُ العَمى، فَما يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خافَهُ، ولا يُعْطَى الْبَقاءُ مَنْ أَحَبَّهُ».

اللغة

(السّمت) بالفتح فالسكون الطريق وهيئة أهل الخير، والسيّر على الطريق بالظن وحسن النّحو وقصد الشيء والسّكينة والوقار.

الإعراب

البقاء إمّا بالرّفع كما في أكثر النّسخ، وهو الأظهر على قراءة يعطى بصيغة المجهول أو منصوب كما في بعضها على كون يعطي مبنيّاً على الفاعل فيكون مفعولاً ثانياً قدّم على الأوّل.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام له فصلان غير ملتئمين: فأما أن السّيد «ره» جمعهما من كلام طويل على ما هو دأبه في هذا الكتاب، وإمّا أن يكون الفصل الثاني مربوطاً على كلام مذكور قبل الفصل الأول حسن ارتباطه به فيكون الفصل الأول إعتراضاً بينهما وكيف كان.

فالفصل الأول

وارد في بيان وجه تسمية الشّبهة وبيان حال النّاس فيها، أما وجه التسمية فأشار إليه بقوله: **(وإنّما سميت الشّبهة شبهة لأنّها تشبه الحقّ)** اعلم أن الشّبهة هو الإلتباس مأخوذة من التشابه وهو كون أحد الشيئين مشابهاً للآخر بحيث يعجز الذهن عن التّمييز بينهما قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك»، ثمّ لما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التّمييز بينهما سمي كلّ ما لا يهتدي الإنسان إليه بالمتشابه،**

ونظيره المشكل سمّي بذلك لانه أشكل أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشابهه[(١)].

قال الصّادق عليه السلام: «أمر بيّن رشده فيتبع، وأمر بيّن غيّه فيجتنب، وأمر مشكل يرد علمه إلى الله ورسوله، ثمّ يقال لكل ما غمض وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة إنّه مشكل»[(٢)].

إذا عرفت ذلك فأقول: إنّ في قوله إشارة إلى أنّ الأمور على ثلاثة: حقّ بيّن رشده، وباطل بيّن غيّه، وشبهة بين ذلك سمّيت بها لأنها تشبه الحقّ، واللازم فيها الرّجوع إلى الرّاسخين في العلم الذّين تثبتوا وتمكنوا فيه، ولهم حسن التدبر وجودة الذّهن لتجرد عقولهم عن غواشي الحسّ لكون نفوسهم مشرقة بنور اليقين مستضيئة بنور النبوة في سلوك الصّراط المستقيم، فبهم يكشف النقاب عن وجه الشّبهة ويرتفع الحجاب ويهتدى إلى صوب الصّواب كما قال عليه السلام:

(فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت الهدى) فيخرجون تابعيهم والمهتدين بهم من الرّدى ويدلونهم على الهدى وهو هدى الله سبحانه وتعالى وقد قال:

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

في **«البحار»** من كنز جامع الفوائد وتأويل الآيات بإسناده عن داوود النجار عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السّلام أنه سأل أباه عن قول الله:

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أيها النّاس اتّبعوا هدى الله تهتدوا وترشدوا وهو هداي هداي علي بن أبي طالب، فمن اتّبع هداه في حياتي وبعد موتي فقد اتّبع هداي، ومن اتبع هداي فقد اتّبع هدى الله، ومن اتبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى».

(وأما أعداء الله) الذين في قلوبهم زيغ وعدول عن الحقّ **(فدعاؤهم فيها الضّلال)** والغوى **(ودليلهم العمى)** فيهدون المهتدين بهم إلى طريق الرّدى ويخرجونهم عن قصد الهدى وهم الأئمة الهادون إلى النّار الموقفون لتابعيهم كأنفسهم في غضب الجبّار كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦].

روي في **«الكافي»** عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجل: -

(١) الكافي: ١/٦٨، ووسائل الشيعة: ٢٧/١٥٧.

(٢) الكافي: ١/٦٨، وتهذيب الأحكام: ٦/٣٠٢.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

قال: يعني به ولاية أمير المؤمنين قلت:

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

قال يعني أعمى البصر في الآخرة أعمى القلب في الدّنيا عن ولاية أمير المؤمنين قال: وهو سيحشر يوم القيامة يقول:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ [طه: ١٢٥ ـ ١٢٦].

قال الآيات الأئمة عليهم السّلام «فَنَسِيْتَها وكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنسى».

يعني تركتها فكذلك تترك في النّار كما تركت الأئمة، فلم تطع قولهم ولم تسمع أمرهم.

وقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ مقصوده بذلك الإشارة إلى وجوب الرّجوع في الوقائع المشتبهة والأمور الملتبسة إلى أئمة الحقّ الذين هم أولياء الله سبحانه وتعالى، لأنّهم من حيث كمال نفوسهم القدسيّة بنور اليقين قادرون على رفع الشكوكات ودفع الشّبهات، ومن حيث أن دليلهم سمت الهدى يهدون الرّاجعين إليهم إلى طريق النّجاة.

وأما أئمة الجور الذين هم أعداء الله عز وعلا فلا يمكن الرجوع فيها إليهم لأنهم من حيث اتّصافهم بالجهل والعمى عاجزون عن رفع النّقاب وكشف الحجاب في الأمور المشتبهة والوقائع المشكلة، ومن حيث إنهم معزولون عن الحقّ يدعون الراجعين إليهم والتابعين لهم إلى طريق الضّلال.

وقد قال لكميل بن زياد: الناس ثلاثة: عالم ربّاني، ومتعلم على طريق النجاة، وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، هذا.

ويحتمل أن يكون غرضه بذلك الكلام الإشارة إلى خصوص أمر الخلافة الذي اشتبه على الناس وصاروا منه في شبهة، فمنهم من رآه أهلاً لها واقتدى فسعد ونجى وصار من أصحاب الصراط السوي وأهدى، فتنور قلبه بنوره عليه السلام ويهدي الله لنوره من يشاء من عباده؛ ومنهم من قدم غيره عليه وائتم به فَضلّ وهلك وخاب وغوى ويحشر يوم القيمة أعمى.

وإلى الفريقين أشير في قوله عزّ وجل:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال علي بن إبراهيم في «تفسيره»: جاهلاً عن الحق والولاية فهديناه إليها.

﴿وجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشي بِه في النّاسِ﴾ قال: النّور الولاية «كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيْسَ

بِخارِجٍ مِنْها» يعني في ولاية غير الأئمة (ع)[1].

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وروى العياشي عن بريد العجلي قال: قال:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾.

قال: الميت الذي لا يعرف هذا الشأن، قال: أتدري ما يعني ميتاً؟ قال: قلت: جعلت فداك لا، قال: الميت الذي لا يعرف شيئاً فأحييناه بهذا الأمر وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، قال: إماماً فأتم به قال:

﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال: كمثل هذا الخلق الذين لا يعرفون الإمام[2].

وفي قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قال الصادق عليه السلام في «رواية الكافي» عن ابن أبي يعفور عنه عليه السلام من ظلمات الذّنوب إلى نور التّوبة أو المغفرة لولايتهم كل إمام عادل من الله قال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فأي نور يكون للكافر فيخرج منه، إنّما عنى بهذا أنّهم كانوا على نور الإسلام، فلما تولوا كلّ إمام جائر ليس من الله خرجوا بولايتهم إيّاهم من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب الله لهم النّار مع الكفّار وقال:

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وإلى الفرقة الأولى خاصة وقعت الإشارة في قوله سبحانه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

قال أبو خالد: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال عليه السلام: يا أبا خالد النّور والله الأئمة إلى يوم القيامة هم والله نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السّموات والأرض والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشّمس المضيئة بالنهار، وهم والله ينورون قلوب المؤمنين ويحجب الله نورهم عمن يشاء، فتظلم قلوبهم، والله يا أبا خالد لا يحبّنا عبد ويتولاّنا حتّى يطهر الله قلبه، ولا يطهر الله قلب عبد حتّى يسلم ويكون سلماً لنا، فإذا كان سلما لنا سلّمه الله من شديد الحساب وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر[3].

(١) البحار: ٢٣/٣٠٩، تفسير القمي: ١/٢١٥.

(٢) البحار: ٢٣/٣١٠، وتفسير العياش: ١/٣٧٦.

(٣) الكافي: ١/١٩٤ ح ١، وبحار الأنوار: ٢٣/٣٠٨ ح ٥.

وإلى الفرقه الثانية خاصّة أشيرت في قوله سبحانه:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧].

فقد روي في **«الكافي»** بإسناده عن عبد الرّحمٰن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] قال: «أمير المؤمنين والأئمة عليهم السّلام «وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ» قال فلان وفلان ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

وهم أمير المؤمنين والأئمة عليهم السّلام[1]، هذا.

وغير خفي على النّاقد البصير المجد الخبير أنّ التّأويل الذي ذكرته في شرح كلامه عليه السلام ممّا لم يسبقني أحد من الشّراح، وإنّما حاموا حول القيل والقال وأخذوا بشرح ظاهر المقال وقد هداني إلى هذا التحقيق نور التوفيق، وقد اهتديت إليه بميامن التمسك بولاية أئمة الهدى والإعتصام بعراهم الوثقى، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

والفصل الثاني

وارد في مقام التذكير بالموت الذي هو هادم اللذات، كما قال عليه السلام (فما ينجو من الموت من خافه) يعني:

﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

وقوله عليه السلام (ولا يعطى البقآء من أحبّه) يعني أنّ حب البقاء في الدّنيا لا يثمر البقاء فيها وفي معنى هذا الفصل قال في الدّيوان المنسوب إليه:

أرى الدّنيا ستؤذن بانطلاق ... مشمّرة على قدم وساق

فلا الدّنيا بباقية لحيّ ... ولا حيّ على الدّنيا بباق

وقال أيضاً:

حياتك أنفاس تعدّ فكلما ... مضى نفس منها انتقضت به جزءاً

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٦٩ ح ٣٩٧، ودعائم الإسلام: ١/ ٢٢.

ويحييك ما يفنيك في كل حالة ويحدوك حاد ما يريد بك الهزءا
فتصبح في نفس وتمسي بغيرها ومالك من عقل تحس به رزءا

وقال أيضاً:

الموت لا والداً يبقى ولا ولداً هذا السبيل إلى أن لا ترى أحداً
كان النبي ولم يخلد لأمته لو خلد الله خلقاً قبله خلداً
للموت فينا سهام غير خاطئة من فاته اليوم سهم لم يفته غداً

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است که مشتمل است به دو فصل:

فصل اول: در بیان وجه تسمیه شبهه می فرماید که:

به درستی نام نهاده شد شبهه به شبهه، به جهت آن که آن شباهت دارد به حق، پس اما دوستان خدا، پس روشنی ایشان در آن شبهه نور یقین است و راهنمایی ایشان قصد راه راست است و اما دشمنان خدا، پس خواندن ایشان در امور مشتبه گمراهی است و ضلالت و دلیل ایشان کوری است و عدم بصیرت.

فصل دوم: در تذکیری موت می فرماید:

پس نجات نیافت از مرگ کسی که ترسید از او و عطا نشد بقا برکسی که دوست داشت آن را، بلکه مآل هردو اجل است، پس هرکه راه خدا گزید به بهشت و نعیم رسید و هرکه راه دشمنان خدا اختیار نمود گرفتار عقوبت و جهنم گردید.

ومن خطبة له عليه السلام وهي التاسعة والثلاثون من المختار في باب الخطب

خطب بها في غزاة النّعمان بن بشير بعين التّمر على ما تعرفها إن شاء الله قال:

«مُنيتُ بِمَنْ لا يُطيعُ إذا أَمَرْتُ، ولا يَجيبُ إذا دَعَوْتُ، لا أَبا لَكُمْ ما تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ، أَما دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، ولا حَمِيَّةٌ تُحْمِشُكُمْ أَقُومُ فيكُمْ مُسْتَصْرِخاً، وأُناديكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلا تَسْمَعُونَ لي قَوْلاً، ولا تُطيعُونَ لي أَمْراً، حَتَّى تَكْشِفَ الأُمُورُ عَنْ عَواقِبِ الْمَسَاۤئَةِ، فَما يُدْرَكُ بِكُمْ ثارٌ، ولا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرامٌ، دَعَوْتُكُمْ إلى نُصْرَةِ إِخْوانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الأَسَرِّ، وتَثاقَلْتُمْ تَثاقُلَ النِّضْوِ الأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذائِبٌ ضَعِيفٌ، كَأَنَّما يُساقُون إِلى الْمَوْتِ وهُمْ يَنْظُرُونَ»[١].

قال السّيد (ره) أقول قوله عليه السلام: متذائب أي مضطرب من قولهم تذاءبت الرّيح أي اضطرب هبوبها، ومنه سمي الذّئب ذئباً لاضطراب مشيته.

اللغة

(**منيت**) على البناء للمفعول أي ابتليت و (**حمشه**) جمعه كحمشه وأغضبه كأحمشه وحمش القوم ساقهم بغضب و (**المستصرخ**) المستنصر مأخوذ من الصّراخ وهو الصّياح باستغاثة، و (**المتغوث**) القائل واغوثاه و (**تكشف**) بصيغة المضارع من باب ضرب أي تظهر وفي بعض النّسخ تنكشف، وفي بعضها تكشف بصيغة الماضي من باب التّفعل يقال تكشف الأمر وانكشف أي ظهر.

و (**الثّار**) الدّم والطلب به وقاتل حميمك قاله في «القاموس» و (**الجرجرة**) صوت تردّده الإبل في حنجرته وأكثر ما يكون ذلك عند الإعياء والتّعب و (**السرر**) داء يأخذ البعير في سرته يقال: منه جمل السّر و (**النضو**) البعير المهزول و (**الأدبر**) الذي به دبر وهي القروح في ظهره و (**الجنيد**) تصغير الجند للتحقير.

الإعراب

ما تنتظرون استفهام على سبيل الإنكار التّوبيخي، وأما دين يجمعكم استفهام على سبيل التّقرير أو للتّوبيخ، ومستصرخاً متغوثاً منصوبان على الحال من فاعل أقوم وأنادي، وقوله:

---

(١) الغارات: ١/ ٢٩١.

حتّى تكشف الأمور الغاية داخل في حكم المغيى، وعلى ما في بعض النسخ من تكشف بصيغة الماضي فحتّى ابتدائية على حد قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥]، وإضافة العواقب إلى المسائة بيانيّة، وجملة وهم ينظرون منصوبة المحلّ على الحال من فاعل يساقون.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة خطب بها في غزاة النعمان بن بشير الأنصاري على عين التّمر، وهو عين ماء قرب الكوفة، وكيفية تلك الغزوة على ما ذكره في «شرح المعتزلي» من كتاب الغارات هي أنّ النّعمان قدم هو وأبو هريرة على عليّ من عند معاوية بعد أبي مسلم الخولاني يسألانه أن يدفع قتلة عثمان إلى معاوية ليقتلهم بعثمان، لعلّ الحرب أن تطفأ ويصطلح النّاس.

وإنّما أراد معاوية أن يرجع مثل النّعمان وأبي هريرة من عند علي عليه السلام وهم لمعاوية عاذرون، ولعلي لائمون، وقد علم معاوية أن عليّاً لا يدفع قتلة عثمان إليه، فأراد أن يكون هذان يشهدان له عند أهل الشّام بذلك، وأن يظهرا عذره، فقال لهما ائتيا عليّاً فانشداه الله وسلاه بالله لما دفع إلينا قتلة عثمان، فإنّه قد آواهم ومنعهم، ثمّ لا حرب بيننا وبينه، فإن أبى فكونوا شهداء لله عليه وأقبلا على النّاس فأعلماهم ذلك، فأتيا إلى علي عليه السلام فدخلا عليه.

فقال له أبو هريرة: يا أبا الحسن إنّ الله قد جعل لك في الإسلام فضلاً وشرفاً أنت ابن عمّ محمّد رسول الله، وقد بعثنا إليك ابن عمّك معاوية يسألك أمراً يسكن به هذه الحرب ويصلح الله تعالى به ذات البين أن تدفع إليه قتلة عثمان ابن عمّه فيقتلهم به، ويجمع الله تعالى أمرك وأمره ويصلح بينكم وتسلم هذه الأمّة من الفتنة والفرقة.

ثمّ تكلم النّعمان بنحو من هذا.

فقال عليه السلام: «لهما دعا الكلام في هذا، حدثني عنك يا نعمان أنت أهدى قومك سبيلاً»؟ يعني الأنصار قال: لا، قال: «فكل قومك تبعني إلا شذاذ منهم ثلاثة أو أربعة، أفتكون أنت من الشّذاذ»؟ فقال النّعمان: أصلحك الله إنّما جئت لأكون معك وألزمك، وقد كان معاوية سألني أن أؤدي هذا الكلام، ورجوت أن يكون لي موقف أجتمع فيه معك وطمعت أن يجري الله بينكما صلحاً، فإذا كان غير ذلك رأيك فأنا ملازم، وكائن معك، فأما أبو هريرة فلحق بالشّام وأقام النّعمان عند علي عليه السلام فأخبر أبو هريرة معاوية بالخبر فأمره أن يعلم الناس ففعل.

وأقام النّعمان بعده، ثمّ خرج فارّاً من علي حتى إذا مر بعين التمر أخذه مالك بن كعب الأرحبي وكان عامل علي عليها، فأراد حبسه وقال له: ما مر بك ههنا! قال: إنّما أنا رسول بلغت رسالة صاحبي، ثمّ انصرفت فحبسه، وقال كما أنت حتى أكتب إلى علي فيك فناشده، وعظم عليه أن يكتب إلى علي فيه فأرسل النّعمان إلى قرظة بن كعب الأنصاري وهو كاتب

عين التّمر يجبي خراجها لعلي عليه السلام فجاءه مسرعاً فقال لمالك بن كعب: خل سبيل ابن عمي يرحمك الله، فقال يا قرطة اتق الله ولا تتكلم في هذا فإنّه لو كان من عباد الأنصار ونساكهم لم يهرب من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أمير المنافقين، فلم يزل به يقسم عليه حتى خلا سبيله وقال له يا هذا لك الأمان اليوم والليلة وغداً والله لإن أدركتك بعدها لأضربن عنقك.

فخرج مسرعاً لا يلوي على شيء، وذهبت به راحلته فلم يدر أين يتتكع من الأرض ثلاثة أيام لا يعلم أين هو، ثمّ قدم إلى معاوية فأخبره بما لقي ولم يزل معه مصاحباً له يجاهد عليّاً ويتبع قتلة عثمان حتّى غزا الضّحاك بن قيس أرض العراق، ثمّ انصرف إلى معاوية فقال معاوية: أما من رجل أبعث معه بجريدة خيل حتى يغير على شاطىء الفرات، فإنّ الله يرغب بها أهل العراق فقال له النّعمان: فابعثني فإنّ لي في قتالهم نيّة وهوى، وكان النّعمان عثمانيّاً، قال فانتدب على اسم الله فانتدب وندب معه ألفي رجل وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات، وأن لا يغير إلاّ على مسلحة وأن يعجّل الرّجوع.

فأقبل النّعمان حتّى دنا من عين التّمر وبها مالك بن كعب الأرحبي الذي جرى له معه ما ذكرناه ومع مالك ألف رجل، وقد أذن لهم فقد رجعوا إلى الكوفة فلم يبق معه إلاّ مائة أو نحوها.

فكتب مالك إلى علي عليه السلام: أما بعد، فإنّ النّعمان بن بشير قد نزل بي في جمع كثيف فما رأيك سدّدك الله تعالى وثبتك؟ والسّلام.

فوصل الكتاب إلى علي عليه السلام فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم، فإن النّعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشّام ليس بالكثير فانهضوا إلى إخوانكم لعلّ الله يقطع بكم من الكافرين طرفاً ثمّ نزل[١].

فلم يخرجوا فأرسل عليه السلام إلى وجوههم وكبرائهم فأمر أن ينهضوا ويحثوا النّاس على المسير فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أو دونهم فقام عليه السلام.

فقال: **(ألا إنّي منيت بمن لا يطيعني إذا أمرت ولا يجيب)** دعوتي **(إذا دعوت)** وهو إظهار لعذر نفسه على أصحابه لينسب التّقصير إليهم دونه ويقع عليهم لائمة غيرهم **(لا أبا لكم ما تنتظرون بنصركم ربكم)** وهو توبيخ لهم على التّثاقل والتقاعد والانتظار واستنهاضهم على نصرة الله، **(أما دين يجمعكم ولا حمية تحمشكم)** وهو إمّا تقرير لهم بما بعد النفي ليقرّوا بذلك ويعترفوا بكونهم أصحاب دين وحمية، فيلزم عليهم الحجة ويتوجه عليهم اللوم والمذمّة، وإمّا توبيخ بعدم اتصافهم بدين جامع وحمية مغضبة.

---

(١) شرح النهج للمعتزلي: ٢/٣٠٤، والغارات: ٢/٤٥٣.

ونظيره في الإحتمالين قوله سبحانه:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

وعلى التّقديرين فالمقصود به حثهم وترغيبهم على الجهاد تهيجاً وإلهاباً بأن صاحب الدّين والحميّة لا يتحمل أن ينزل على إخوانه المؤمنين داهية، فلا ينصرهم مع قدرته على الذّب عنهم وتمكنه من حماية دمائهم ومعاونتهم.

(أقوم فيكم مستصرخاً، وأناديكم متغوّثاً، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً حتّى تكشف الأمور عن عواقب المساءة) أراد أنّ عدم طاعتهم له مستمرّ إلى أن تظهر الأمور أي الأمور الصّادرة عنهم عن عواقب السّوء، وترجع مآلها إلى النّدامة وملامة النّفس اللوامة، أو المراد أنه ظهر الأمور الفظيعة أي الأمور الصّادرة عن عدوهم بالنّسبة إليهم كالقتل والغارة وانتقاص الأطراف.

(فما يدرك بكم ثأر ولا يبلغ بكم مرام) تهييج لهم على التآلف في النّصرة إذ من شأن العرب ثوران طباعهم بمثل هذه الأقوال **(دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر)** قال الشّارح البحراني استعار لفظ الجرجرة لكثرة تململهم وقوّة تضجّرهم من ثقل ما يدعوهم إليه، ولما كانت جرجرة الجمل الأسر أشدّ من جرجرة غيرها لاحظ شبه ما تشبه إليهم من التضجر بها، وكذلك التشبيه في قوله **(وتثاقلتم تثاقل النّضو الأدبر)**.

وقوله: **(ثمّ خرج إليّ منكم جنيد متذائب)** مضطرب **(ضعيف)** إشارة إلى حقارة شأنهم وقلّة عددهم، وقد ذكرنا أنهم كانوا نحواً من ثلاثمائة أو دونها، وقوله: **(كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون)** إشارة إلى شدّة خوفهم وجبنهم واضطرابهم فيما يساقون إليه مثل اضطراب من يساق إلى الموت وخوفه منه هذا.

وقال صاحب «**الغارات**»: إنّه بعد ما خطب هذه الخطبة نزل من المنبر فدخل منزله، فقام عدي بن حاتم فقال: هذا والله الخذلان ما على هذا بايعنا أمير المؤمنين، ثمّ دخل إليه فقال: يا أمير المؤمنين إنّ معي من طي ألف رجل لا يعصونني، فإن شئت أن أسير بهم سرت، قال: ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للنّاس، ولكن أخرج إلى النخيلة وعسكر بهم، فخرج وعسكر وفرض علي عليه السلام لكل رجل منهم سبعمائة، فاجتمع إليه ألف فارس عدا طيّاً أصحاب عدي، وورد عليه الخبر بهزيمة النعمان.

وروى عبد الله بن جوزة الأزدي قال: كنت مع مالك بن كعب حين نزل بنا النّعمان وهو في ألفين وما نحن إلا مائة؛ فقال لنا: قاتلوهم في القرية واجعلوا الجدر في ظهوركم ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، واعلموا أن الله ينصر العشرة على المائة والمائة على الألف والقليل على الكثير.

ثمّ قال: إنّ أقرب من ههنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين قرظة بن كعب ومخنف بن سليم، فاركض إليهما فأعلمهما حالنا وقل لهما فلينصرانا، فمررت بقرظة فاستصرخته فقال: إنّما أنا صاحب خراج وليس عندي من أغيثه به، فمضيت إلى مخنف فسرح معي عبد الرّحمٰن بن مخنف في خمسين رجلاً.

وقاتل مالك وأصحابه النعمان وأصحابه إلى العصر، فأتيناه وقد كسر هو وأصحابه جفون سيوفهم واستقبلوا الموت، فلو أبطأنا منهم هلكوا، فما هو إلا أن رآنا أهل الشام، وقد أقبلنا عليهم أخذوا ينكصون عنهم ويرتفعون وراءنا مالك وأصحابه، فشدّوا عليهم حتّى دفعوهم عن القرية، فاستعرضناهم فصرعنا منهم رجالاً ثلاثة، فظنّ القوم أن لنا مدداً وحال الليل بيننا وبينهم فانصرفوا إلى أرضهم.

وكتب مالك إلى علي عليه السلام أما بعد: فإنّه نزل بنا النّعمان بن بشير في جمع من أهل الشّام كالظاهر علينا، وكان أعظم أصحابي متفرّقين وكنا للذي كان منهم آمنين، فخرجنا رجالاً مصلتين فقاتلناهم حتّى المساء واستصرخنا مخنف بن سليم، فبعث لنا رجالاً من شيعة أمير المؤمنين وولده، فنعم الفتى ونعم الأنصار كانوا فحملنا على عدوّنا وشددنا عليهم، فأنزل الله علينا نصره وهزم عدوّه وأعزّ جنده والحمد لله ربّ العالمين والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[1].

---

(١) الغارات: ٢/ ٤٥٧، ونهج السعادة: ٢/ ٥٤٩.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است در وقتی که نعمان بن بشیر به امر معاویه بدضمیر با دوهزار سوار به جهت تخویف اهل عراق از شام حرکت نموده، چون به عین التمر رسید با مالك بن كعب ارحبی که عامل امیرالمؤمنین بود جنگ نموده، مالك آن حضرت را از ماوقع اخبار نموده، آن حضرت هرچند ترغیب فرمود اصحاب خود را به نصرت مالك و کارزار دشمنان ایشان تکاهل ورزیدند، پس حضرت این خطبه را خواند که:

مبتلا شدم به کسی که اطاعت نمی کند مرا در قتال اهل ضلال هرگاه امر نمایم او را به آن و اجابت نمی نماید قول مرا در جدال هرگاه دعوت می کنم او را به آن، پدر مباد شما را، چه انتظار می کشید به یاری دادن پروردگار خود. آیا نیست شما را دینی که جمع نماید شما را از این تفرّق و اختلاف آراء؟ و نیست غیرتی که به خشم آورد شما را از این حرکت و کردار اعداء؟ ایستاده ام در میان شما فریادکننده به جهت دفع اشرار و می خوانم شما را به فریادرسی در قتل دشمنان جفاکار.

پس گوش نمی دهید به گفتار من و اطاعت نمی کنید به امر و فرمان من تا این که اظهار می کند این کارهای ناشایسته شما از عاقبت های بدی، یا این که ظاهر می شود کارهای دشوار از عاقبت های بد، پس ادراك نمی شود به اعانت شما کینه جویی و خون خواهی از اعداء و رسیده نمی شود به یاری و حمایت شما مقصودی از مقصودها.

دعوت کردم شما را به یاری برادران خودتان، پس آواز گردانیدید در حنجره به جهت دلتنگی از دعوت من، چون آواز گردانیدن شتری که درد ناف داشته باشد و ناله کند از آن و گرانی نمودید در کارزار، چون گرانی شتر لاغر ریش پشت در رفتار، پس بیرون آمد به سوی شما از جانب شما لشگرکی مضطرب و ناتوان، گویا که رانده می شوند با جبر و اکراه به سوی مرگ در حالتی که نظر می کند به شداید مرگ و اهاویل آن.

ومن كلام له عليه السلام في الخوارج وهو الأربعون من المختار في باب الخطب

لمّا سمع قولهم لا حكم إلاّ لله قال عليه السلام: «كَلِمَةُ حَقٍ يُرادُ بِهَا الْباطِلُ، نَعَمْ إنَّهُ لا حُكْمَ إلاّ لله، وَلكِنْ هؤلآءِ يَقُولُونَ: لا إمْرَةَ وإنَّهُ لا بُدَّ لِلنّاسِ مِنْ أَميرٍ بَرٍّ أَوْ فاجِرٍ، يَعْمَلُ في إمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، ويَسْتَمْتِعُ فيهَا الْكافِرُ، ويُبَلِّغُ الله فيهَا الأَجَلَ، ويُجْمَعُ بِهِ الفيءُ، ويُقاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، ويُؤْخَذُ بِه لِلضَّعيفِ مِنَ الْقَوِيِّ حَتّى يَسْتَريحَ بَرٌّ، ويُسْتَراحَ مِنْ فاجِرٍ». وفي رواية أُخرى أنَّه لما سمع تحكيمهم قال: «حُكْمَ اللهِ أَنْتَظِرُ فيكُمْ»، وقال عليه السلام: «أَمَّا الإمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فيهَا التَّقِيُّ، وأَمّا الإمْرَةُ الْفاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فيهَا الشَّقيُّ، إلى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ»(١).

اللغة

(نعم) بفتحتين حرف جواب لتصديق المخبر إذا وقعت بعد الخبر و **(الإمرة)** بالكسر الولاية اسم مصدر من أمر علينا مثلثة إذا ولي و **(البر)** بفتح الباء كالبار الكثير البر والجمع أبرار و **(الفيء)** الغنيمة ولفظ **(التّحكيم)** في قول الرّضى (ره) من المصادر المولدة من قولهم لا حكم إلا لله مثل التسبيح والتهليل من قول سبحان الله ولا إله إلا الله.

الإعراب

لكن مخففة من الثقيلة وهي حرف ابتداء غير عاملة لدخولها على الجملتين ومعناها الإستدراك، وفسّر بأن ينسب لما بعدها حكماً مخالفاً لما قبلها، ولذلك لا بدّ أن يتقدّمها كلام مناقض لما بعدها، نحو ما هذا ساكناً ولكن متحرّك، أو ضدّ له نحو ما هذا أبيض ولكن أسود، قيل أو خلاف نحو ما زيد قائماً، ولكن شارب، وقيل لا يجوز ذلك وكلامه عليه السلام دليل على الجواز.

وجملة: وأنه لا بدّ للنّاس (آ ه) حاليّة؛ والضّمير في أنّه للشأن، وجملة: يعمل في إمرته، كالتّالية لها مجرورة المحلّ على الوصفيّة، وقوله: حتّى يستريح، كلمة حتّى إمّا بمعنى إلى على حدّ قوله سبحانه:

﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] أو بمعنى كي التعليليّة على حدّ قوله:

---

(١) نهج البلاغة: ١/٩١ ح ٤٠، وبحار الأنوار: ٣٣/٣٥٨ ح ٥٩٣.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧].

المعنى

قد مضى في «شرح الخطبة» السادسة والثّلاثين كيفيّة قتال الخوارج، ومرّ هناك أنّهم اتّخذوا قول «لا حكم إلا لله» شعاراً لهم وأنّه عليه السلام لمّا دخل الكوفة جاء إليه زرعة بن البرج الطائي وحرقوص بن زهير التّميمي ذو الثّدية فقال: لا حكم إلا لله، ومرّ أيضاً أنّه خرج يخطب النّاس فصاحوا به من جوانب المسجد لا حكم إلاّ لله وصاح به رجل:

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] فقال عليه السلام: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

ولما سمع قولهم لا حكم إلاّ لله قال عليه السلام: إنّها **(كلمة حقّ يراد بها الباطل)** أمّا أنّها كلمة حقّ فلكونها مطابقة لنفس الأمر إذ هو سبحانه أحكم الحاكمين لارادّ لحكمه ولا دافع لقضائه كما قال تعالى:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

يعني أنّه إذا أراد شيئاً لا بدّ من وقوعه، ويحتمل أن يكون الحكم لحقيّتها نظراً إلى كون جميع الأحكام مستنداً إليه سبحانه بملاحظة أنّه سبحانه جاعلها وشارعها كما قال:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ولأجل مطابقتها لنفس الأمر صدقهم بقوله: **(نعم لا حكم إلاّ لله)** وأما أنّهم أرادوا بها الباطل فلأنّ مقصودهم بذلك إنّما كان إبطال جعل الحكمين وإنكار صحّة تفويض الأمر إليهما بزعم أنّ الأحكام كلها لله سبحانه، وهو الحاكم لا غير، فلا يجوز لأحد الحكم في شيء من الأشياء إلا بنص به في القرآن، فلا يصح التّحكيم وإناطة الأمر برأي الحكمين، لعدم ورود نصّ فيه بصحّته، وهو معنى قولهم بعد ما سمعوا صحيفة الصّلح في صفين على ما مرّ: الحكم لله يا علي لا لك فلا نرضى بأن يحكم الرّجال في دين الله، وقولهم لابن عبّاس لما احتجّ معهم بأمره: والرّابعة أنّه حكم الرجال في دين الله ولم يكن ذلك إليه.

ووجه بطلان ذلك أوّلاً أنّ كون الأحكام لله لا يستلزم كون جميع الأحكام منصوصاً به في القرآن إذ رب حكم مستنبط من السنة ومن سائر الأدلة الشرعية، وهو لا يخرج بذلك عن كونه حكماً الله، وثانياً منع عدم ورود النص بالتحكيم في القرآن، وقد أمر بالتّحكيم في شقاق بين الرّجل وامرأته فقال سبحانه:

﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] وحكم الرّجال في طائر فقال: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥].

فدماء المسلمين أعظم من دم طائر، والشّقاق بينهم أشد من الشقاق بين الرّجل والمرأة.

وثالثاً: أنّ مقتضى نفيهم الحكم لغير الله هو نفي الإمارة للملازمة التي بينهما، كما أشار إليه بقوله: **(ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة)** إلاّ أنّ التّالي باطل، فالمقدم مثله بيان الملازمة أنّ الأمير لا بدّ أن يكون حاكماً وناظراً إلى وجوه المصلحة، فإذا لم يجر له حكم ولم ينفذ له أمر ولم يمض له رأي فلا يكون له إمارة البتة، **(و)** أمّا بطلان التّالي فلأنّه **(لا بدّ للناس من أمير بر أو فاجر)** وذلك لأنّ النوع الإنساني بمقتضى النّفس الأمارة المودعة فيه مائل إلى الشّرور والمفاسد، فلا بدّ في بقاء نظامهم وانتظام أمر معاشهم ومعادهم من مانع يمنعه من ظلمه، ورادع يردعه عن شرّه.

والعلّة المانعة عند الإستقراء مرجعها إلى أحد أمور أربعة، إمّا عقل زاجر أو دين حاجز أو عجز مانع أو سلطان رادع، والسّلطان القاهر أبلغها نفعاً لأنّ العقل والدّين ربّما كانا مغلوبين بدواعي الهوى، فيكون رهبة السّلطان أقوى ردعاً وأعلم نفعاً، وإن كان جائراً ولهذا اشتهر أنّ ما نزع السّلطان أكثر ممّا نزع القرآن، وما يلتئم بالسّنان لا ينتظم بالبرهان.

وكفاك شاهداً ما يشاهد من استيلاء الفتن والإبتلاء بالمحن بمجرّد هلاك من يقوم بإمارة الحوزة ورعاية البيضة، وإن لم يكن على ما ينبغي من الصّلاح والسّداد، ولم يخل من شائبة شر وفساد ولهذا لا ينتظم أمراً دون اجتماع كرفقة طريق بدون رئيس يصدرون عن رأيه، ومقتضى أمره ونهيه.

بل ربّما يجري مثل هذا فيما بين الحيوانات العجم كالنّحل لها يعسوب يقوم مقام الرئيس ينتظم أمرها ما دام فيها، فإذا هلك انتشر الأفراد انتشار الجراد وشاع فيما بينها الهلاك والفساد.

وبالجملة فقد تلخص ممّا ذكرنا أن وجود السّلطان وإن كان جائراً خير من عدمه المستلزم لوجود الفتنة ووقع الهرج والمرج بين الخلق إذ كان بوجوده صلاح بعض الأمور، على أنّه وإن كان لا خير فيه أيضاً من جهة جائريته إلاّ أنّ هيبته ووجوده بين الخلق ممّا يوجب الإنزجار عن إثارة الفتن، ويكون ذلك خيراً وقع في الوجود بوجوده لا يحصل مع عدمه، فوجوده مطلقاً واجب.

وهذا معنى قوله ولا بدّ للنّاس من أمير برّ أو فاجر وقوله: **(يعمل في إمرته المؤمن)** روي في **«شرح المعتزلي»** عن بعض شارحي كلامه عليه السلام أنّ النّظر فيه إلى إمارة الفاجر، وهكذا الألفاظ التي بعد ذلك كلها راجعة إليها، وأن المقصود بذلك أن إمارة الفاجر ليست بمانعة

للمؤمن من العمل لأنّه يمكنه أن يصلي ويصوم ويتصدق، وإن كان الأمير فاجراً في نفسه وبقوله: (**ويستمتع فيها الكافر**) أنّه يتمتّع بمدّته كما قال سبحانه للكافرين:

﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقال الشّارح البحراني: الضّمير في إمرته راجع إلى الأمير، ولمّا كان لفظ الأمير محتملاً للبرّ والفاجر كان المراد بالإمرة التي يعمل فيها المؤمن إمرة الأمير من حيث هو برّ، وبالتي يستمتع فيها الكافر إمرته من حيث هو فاجر قال: وهذا أولى من قول بعض الشّارحين، إنّ الضّمير يعود إلى الفاجر فإنّ إمرة الفاجر ليست مظنة تمكن المؤمن من عمله.

والمراد بعمل المؤمن في إمرة البرّ عمله على وفق أوامر الله ونواهيه، إذ ذلك وقت تمكنه منه والمراد باستمتاع الكافر في إمرة الفاجر انهماكه في اللذات الحاضرة التي يخالف فيها أوامر الله ونواهيه، وذلك وقت تمكنه من مخالفة الدّين.

أقول: ويؤيد هذا الوجه الرواية الأخرى الآتية، ويمكن أن يكون المعنى أنّه لا بدّ من انتظام أمور المعاش من أمير برّ أو فاجر ليعمل المؤمن بما يستوجب به جنات النعيم، ويتمتع فيها الكافر ليكون حجّة عليه (**ويبلغ الله فيها الأجل**) أي في إمارة الأمير برّاً كان أو فاجراً، وفائدة هذه الكلمة تذكير العصاة ببلوغ الأجل وتخويفهم به، (**ويجمع به**) أي بالأمير مطلقاً (**الفيء ويقاتل**) بوجوده (**العدوّ وتأمن**) بسطوته (**السّبل ويؤخذ**) بعد (**له**) الحقّ (**للضّعيف من القوي**) وهذه الأمور كلها ممكنة الحصول في إمارة الفاجر كحصولها في إمارة البرّ.

ألا ترى أنّ أمراء بني أميّة مع كونهم فساقاً كان الفيء يجمع بهم والبلاد تفتح في أيامهم، والثغور الإسلامية محروسة والسّبل آمنة، والقوي مأخوذ بالضّعيف ولم يضرّ جورهم شيئاً في تلك الأمور.

وقوله: (**حتّى يستريح برّ ويستراح من فاجر**) يعني أنّ هذه الأمور لا تزال تحصل بوجود الأمير براً كان أو فاجراً إلى أن يستريح البرّ من الأمراء أو مطلق النّاس، ويستريح النّاس من الأمير الفاجر أو مطلق الفاجر بالموت أو العزل، وفيهما راحة للبرّ لأنّ الآخرة خير من الأولى، ولا يجري الأمور غالباً على مراده ولا يستلذ كالفاجر بالإنهماك في الشّهوات، وراحة للناس من الفاجر لخلاصهم من جوره، وإن انتظم به نظام الكل في المعاش.

وعلى كون حتّى مرادفة كي التّعليلية فالمعنى أنّ غاية صدور هذه الأمور أن يستريح البرّ من النّاس في دولة البرّ من الأمراء، ويستريح الناس مطلقاً من بغي الفجار ومن الشرور والمكاره في دولة الأمير مطلقاً، ولا ينافي ذلك إصابة المكروه من فاجر أحياناً هذا.

وقال السّيد ره (وفي رواية أخرى أنّه) عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال: (**حكم الله أنتظر فيكم**) أي: جريان القضاء بقتلهم وحلول وقت القتل، وقد مرّت هذه الرّواية في الشرح

الخطبة» الخامسة والثلاثين عن ابن ويزيل في كتاب صفّين ولا حاجة إلى الإعادة.

وقال: **(أما الإمرة البرّة فيعمل فيها التقي)** ويقوم بمقتضى تقواه **(وأما الإمرة الفاجرة فيتمتّع فيها الشقي)** بمقتضى شقاوته **(إلى أن تنقطع مدّته)** أي: مدة دولته أو حياته **(وتدركه منيته)**.

تنبيه

قال الشّارح المعتزلي في شرح المقام: إنّ هذا الكلام نص صريح منه عليه السلام بأنّ الإمامة واجبة، فأما طريق وجوب الإمامة ما هي، فإنّ مشايخنا البصريّين يقولون طريق وجوبها الشّرع وليس في العقل ما يدلّ على وجوبها، وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين إنّ العقل يدلّ على وجوب الرّئاسة وهو قول الإماميّة إلاّ أنّ الوجه الذي يوجب أصحابنا الرّئاسة غير الوجه الذّي توجب الإماميّة منه الرّئاسة.

وذاك إنّ أصحابنا يوجبون الرّئاسة على المكلفين من حيث كان في الرئاسة مصالح دنيوية ودفع مضار دنيوية، والإماميّة يوجبون الرّئاسة على الله من حيث كان في الرّئاسة لطفاً به وبعداً للمكلفين عن مواقعة القبائح العقليّة، والظاهر من كلام أمير المؤمنين يطابق ما يقوله أصحابنا ألا تراه كيف علل قوله: لا بد للنّاس من أمير فقال في تعليله يجمع بها الفيء ويقاتل بها العدوّ، ويؤمن به السّبل ويؤخذ للضّعيف من القوي، وهذه كلها مصالح الدّنيا، انتهى[1].

أقول: وأنت خبير بما فيه، لأنّ كلامه عليه السلام نصّ صريح في وجوب الإمارة، والإمارة غير الإمامة، لإمكان حصولها من البرّ والفاجر كما هو صريح كلامه، بل من الكافر أيضاً، بخلاف الإمامة فإنّها نيابة عن الرّسول والغرض العمدة فيها هو مصلحة الدّين واللّطف في حق المكلفين، كما أنّ المقصود من بعث النّبي أيضاً كان ذلك، فلا يمكن حصولها من الفاجر وإن كان يترتب عليها مصلحة دنيوية أيضاً إلاّ أنّ المصالح الدّنيوية زائدة في جنب المصالح الأخروية لا صلاحيّة فيها للعلّية للإمامة، وإنّما يصلح علة لوجوب الإمارة ويكتفي فيها بذي شوكة له الرّئاسة العامة إماماً كان أو غير إمام، فإنّ انتظام الأمر يحصل بذلك كما في عهد فجار بني أميّة حيثما ذكرنا سابقاً، ولأجل كون نظره عليه السلام إلى وجوب الإمارة علل الوجوب بأمور راجعة إلى المصالح الدّنيوية، ولو كان نظره إلى الإمامة لعللها بأمور راجعة إلى مصالح الدّين والدّنيا.

وبالجملة فلا دلالة في كلامه عليه السلام على مذهب الشّارع تبعاً للبغداديين من كون وجوب الإمامة مستنداً إلى أنّ فيها جلب منافع دنيوية ودفع مضار دنيوية، وليس مقصوده الإشارة إلى

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣٠٨/٢.

وجوب الإمامة فضلاً عن كونه نصّاً صريحاً فيه، وإنّما كان مقصوده بذلك ردّ الخوارج المنكرين لوجوب الإمارة، فأثبت وجوبها لاحتياج النّاس إليها فافهم جيّداً.

الترجمة

از جمله کلام آن عالی مقام است در شأن خوارج نهروان وقتی که شنید گفتار ایشان را که لاحکم إلاّ لله می گفتند؛ یعنی هیچ حکم نیست مگر خداوند را، آن حضرت فرمود که:

این سخن، سخن حقی است که اراده شده به آن امر باطل. بلی به درستی که هیچ حکمی نیست مگر خدای را ولیکن این جماعت مقصودشان از این سخن این است که هیچ امارت نیست در میان مردمان و حال آن که این حرف بیوجه است از جهت این که ناچار است مردم را از امیری نیکوکار یا بدکار تا این که عمل کند در زمان امارت امیر نیکوکار مؤمن پرهیزکار به اوامر و نواهی پروردگار و لذت بردارد در زمان امیر فاجر منافق و کافر و تا برساند خدای تعالی در امارت آن امیر مردمان را به منتهای زمان و جمع شود به وجود آن امیر غنیمت و قتال کرده شود به واسطه او با دشمنان و آسوده شود به سبب او راه های بیابان و گرفته شود به عدالت او حق ضعیف بیچاره از صاحب قوت باشوکت تا آسوده و راحت شود نیکوکار و راحتی یافته شود از شریر روزگار.

سید مرحوم گفته در روایت دیگر وارد شده که آن حضرت زمانی که شنید "لاحکم إلا لله" گفتن خارجیان را، فرمود که حکم خداوند را انتظار می کشم در حق شما که حلول وقت قتل ایشان بود و فرمود آن حضرت که اما امارت نیکو، پس عمل می کند در آن پرهیزکار و اما امارت بد، پس تمتع یابد در آن تبه کار تا آن که منقطع شود و به نهایت برسد مدت عمر او در زمان و دریابد و ادراك نماید او را مرگ ناگهان؛ والله أعلم بسرّ کلامه (عليه السلام).

ومن خطبة له عليه السلام وهي الإحدى والأربعون من المختار في باب الخطب

وقد رواها المحدّث المجلسي في «البحار» من كتاب مطالب السؤول لمحمد بن طلحة قال: ومن خطبه عليه السلام: «الحمد لله، وإن أتى الدّهر بالخطب الفادح والحدث الجليل، فإنه لا ينجو من الموت من خافه ولا يعطى البقاء من أحبه.

إنَّ الْوَفاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، ولا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقى مِنْهُ، ولا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ، وَلَقَدْ أَصْبَحْنا في زَمانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً، ونَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فيهِ إلى حُسْنِ الحيلَةِ، ما لَهُمْ قاتَلَهُمُ اللهُ قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الحيلَةِ ودُونَهُ مانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ ونَهيه، فَيَدَعُها رَأْيَ عَينٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْها، ويَنْتَهِزُ فُرْصَتَها مَنْ لا حَريجَةَ لَهُ في الدّينِ»[١].

اللغة

(**التوأم**) معروف يقال: هذا توأم هذا وهذه توأم وهذه وهما توأمان، و (**الجنّة**) بالضم الترس و (**المرجع**) اسم مكان أو مصدر والموجود في أكثر النّسخ بفتح الجيم وفي بعضها بالكسر، والظاهر أنّه الصّحيح، قال الفيروزآبادي: رجع يرجع رجوعاً ومرجعاً كمنزل ومرجعة شاذّان، لأنّ المصادر من فعل يفعل إنّما تكون بالفتح و (**الكيس**) وزان فلس مصدر من كاس كيساً وهو الفطنة والعقل و (**الحول القلب**) البصير بتقليب الأمور وتحويلها و (**الرّأي**) مصدر كالرّؤية و (**الإنتهاز**) المبادرة يقال انتهز الفرصة اغتنمها وبادر إليها و (**الحريجة**) التّحرج، والتّأثم، أي التحرز من الحرج والإثم، قال الفيومي: تحرج الإنسان تحرجاً هذا ممّا ورد لفظه مخالفاً لمعناه، والمراد فعل فعلاً جانب به الحرج كما يقال: تحنث إذا فعل ما يخرج به عن الحنث، قال ابن الأعرابي: للعرب أفعال تخالف معانيها ألفاظها يقال: تحرج وتحنث وتأثّم وتهجد إذا ترك الهجود.

الإعراب

قوله: كيف المرجع كيف اسم استفهام مبني على الفتح وهو في محل رفع على الخبريّة، والمرجع مبتدأ مؤخر والجملة في موضع نصب بعلم، وهي معلقة عنها العامل لأنّ الإستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ومالهم إستفهام إنكاري، وجملة قاتلهم الله دعائية لا محلّ لها من الإعراب، وجملة ودونه مانع حالية، وانتصاب رأي عين على حذف المضاف لدى بعد رأيه أو مع رأيه بعين ويحتمل أن يكون حالاً أي تركها حال لكونها مرئية بعين، وجملة وينتهز

---

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٩٧، وميزان الحكمة: ٤/ ٢٩١٤.

فرصتها إستئنافية لا محلّ لها من الإعراب، ومن الموصولة فاعل ينتهز.

المعنى

اعلم أنّ الوفاء والصّدق من جنود العقل كما أنّ الغدر والكذب من جنود الجهل على ما ورد في رواية **«الكافي»**[١] بإسناده عن ابن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام، وتقابل الأوّلين مع الآخرين تقابل العدم والملكة، لأنّ عد هذه الأوصاف من جنود العقل والجهل باعتبار مبادئها الرّاسخة وملكاتها الثّابتة في النّفس دون آثارها التي هي من الأعمال والأفعال، وعلى هذا فالوفاء ملكة نفسانية تنشأ من لزوم العهد كما ينبغي والبقاء عليه، والغدر عدم الوفاء عمن من شأنه الوفاء، والصّدق ملكة تحصل من لزوم مطابقة الأقوال للواقع، والكذب عدم الصدق لمن من شأنه الصّدق.

وأمّا النّسبة بين الوفاء والصّدق فهي أنّ الأوّل أخصّ من الثّاني مطلقاً لأنّ الوفاء هو الصّدق في الوعد وربّما يكون صادقاً في غير مقام الوعد فكلّ وفاء صدق ولا يكون كل صدق وفاء، ويمكن أن يقال: إن النسبة عموم من وجه إذ الصّدق لا يكون إلا في القول، لأنّه من أنواع الخبر، والخبر قول والوفاء قد يكون بالعمل، ومثلها النّسبة بين الغدر والكذب قال الشّاعر:

غاض الوفاء وفاض الغدر واتسعت   مسافة الخلف بين القول والعمل

إذا عرفت ذلك فأقول: إنّ الوفاء والصّدق لما كانا متشاركين في كونهما من جنود العقل متلازمين غالباً لا جرم شبّههما بالتّوأمين وقال عليه السلام: (إنّ الوفاء توأم الصّدق) وذلك إن التّوأم الولد المقارن للولد في بطن واحد، فشبه الوفاء به لتقارنه الصّدق بحسب العقل وتصاحبه معه غالباً **(ولا أعلم جنّة أوقى منه)** أي أشد وقاية منه من عذاب الآخرة ومن عار الدّنيا المترتبين على الغدر وخلف الوعد، مضافاً إلى ما فيه من الثمرات والمنافع الآخروية، وسنشير إلى منافعه الأخروية بعد الفراغ من شرح الخطبة، وأما الثمرات الدّنيوية فمنها اعتماد الناس على قول الوفي وثقتهم به وركونهم إليه واستحقاق المدح والثّناء عند الخالق والخلائق، ومن هنا قيل الوفاء مليح والغدر قبيح.

قال المطرزي في **«شرح المقامات»**: السّموأل يضرب به المثل في الوفاء يقال: أوفى من السموأل، ومن وفائه أنّ امرء القيس بن الحجر لما أراد الخروج استودع السموأل دروعاً فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموأل، فأخذ ابنا له كان مع ظئر خارجاً من الحصن، ثمّ صاح بالسموأل فأشرف عليه ثمّ قال هذا ابنك في يدي وقد علمت أنّ

(١) الكافي: ١/ ٢٣ ح١٤.

امرء القيس ابن عمي وأنا أحقّ بميراثه، فإن دفعت إليّ الدّروع وإلاّ ذبحت ابنك، فقال: أجلني، فأجله فجمع أهل بيته ونساءه فشاورهم فكل أشار إليه أن يدفع الدّروع، فقال: ما كنت لأحقر أمانة فاصنع ما أنت صانع إن الغدر طوق لا يبلي ولابني هذا أخوة، فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه، ورجع خائباً فلما دخلت أيّام الموسم وافى السّموأل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرئ القيس.

وفي الأثر، أنّ النّعمان بن المنذر قد جعل له يومين، يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم من لقي فيه أحسن إليه وأغناه، وكان رجل من طي قد خرج ليطلب الرّزق لأولاده، فصادفه النعمان في يوم بؤسه فعلم الطائي أنّه مقتول، فقال: حيا الله الملك إنّ لي صبية صغاراً ولم يتفاوت الحال في قتلي بين أول النّهار وآخره، فإن رأى الملك أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروّة من الحيّ ثمّ أعود للملك، فقال النعمان: لا إذن لك إلا أن يضمنك رجل معنا فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدي نديم النعمان معه، فقال: أيّها الملك أنا أضمنه فمضى الطائي مسرعاً وصار النعمان يقول لشريك جاء وقتك فتأهب للقتل، فقال: ليس للملك عليّ سبيل حتّى يأتي المساء.

فلما قرب المساء قال النعمان: تأهب للقتل، فقال شريك، هذا شخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائي، فلما قرب إذا هو الطائي قد اشتدّ في عدوه مسرعاً حتّى وصل؛ فقال: خشيت أن ينقضي النّهار قبل وصولي فعدوت، ثمّ قال: أيّها الملك مر بأمرك، فأطرق النّعمان ثمّ رفع رأسه فقال: ما رأيت أعجب منكم، أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يفتخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء، فلا أكون أنا ألأم الثلاثة ألا وإنّي قد رفعت يوم بؤسي عن النّاس ونقضت عادتي كرماً لوفاء الطائي وكرم شريك، فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك، فقال: من لا وفاء له لا دين له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد الترغيب في الوفاء وبيان حسنه رهّب عن الغدر بقوله: **(ولا يغدر من علم كيف المرجع)** يعني من كان له علم بحالة الغادر في الآخرة وبما يستحق به بغدره من الجحيم والعذاب الأليم، لا يصدر منه غدر ولا يكون له رغبة إليه.

روي في **«البحار»** من **«الكافي»** مسنداً عن الأصبغ بن نباته، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم وهو يخطب على المنبر بالكوفة: «يا أيّها الناس لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى النّاس إلا أن لكلّ غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة ألا وإن الغدر والفجور والخيانة في النّار»(١) هذا.

---

(١) الكافي: ٢/٣٣٨ ح ٦، وتحف العقول: ٩٩.

ولمّا بين حسن الوفاء وقبح الغدر أشار إلى ما عليه أكثر أهل زمانه من رغبتهم إلى الغدر وعدهم ذلك حسناً وغفلتهم عن قبحه فقال: و(**لقد أصبحنا في زمان اتخذ أكثر أهله الغدر**) والخديعة (**كيسا**) وفطانة (**ونسبهم أهل الجهل فيه إلى**) صحة التّدبير و(**حسن الحيلة**).

وذلك لأن الغدر كثيراً ما يستلزم الذّكاء والتفطن لوجه الحيلة وإيقاعها بالمغدور به كما أنّ الكيس أيضاً عبارة عن الفطانة وجودة الذّهن في استخراج وجوه المصالح، فالغادر والكيس يشتركان في الإتصاف بالفطنة إلاّ أنّ الأوّل يستعمل فطنته في استخراج وجوه الحيلة لجلب منفعة دنيوية وإن خالفت القوانين الشّرعيّة، والكيّس يستعمل تفطنه في استنباط وجوه المصالح الكلية على وجه لا يخالف قواعد الشّريعة، فلدقة الفرق استعمل الغادرون غدرهم في موضع الكيس ونسبهم أهل الجهالة والغفلة إلى صحّة الرأي وحسن الحيلة، كما كانوا يقولون في عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ولم يعلموا أنّ حيلة الغادر تخرجه إلى رذيلة الفجور وأنّه لا حسن في حيلة جرت إلى رذيلة.

(**مالهم**) أي لهؤلاء الغادرين في افتخارهم بغدرهم (**قاتلهم الله**) وأبعدهم من رحمته (**قد يرى الحول القلب**) أي كثير البصيرة في تحويل الأمور وتقليبها لاستنباط وجوه المصالح، وأراد به نفسه الشّريف ومقصوده أنّ الغدر والخديعة ليس قابلاً لأنّ يفتخر به فإن صاحب البصيرة ربّما يعرف (**وجه الحيلة**) كأنّه يراه عياناً (و) مع ذلك لا يقدم عليها لما يشاهد أن (**دونها**) أي دون الحيلة والعمل بها (**مانع من أمر الله**) بتركها (**ونهيه**) عن فعلها (**فيدعها**) ويتركها (**رأى عين**) أي مع رؤيته عياناً (**بعد القدرة عليها**) وتمكنه منها تجنّباً من الرّذائل الموبقة وخوفاً من الله سبحانه (**وينتهز فرصتها**) ويبادر إليها (**من لا حريجة له في الدّين**) ولا مبالاة له في أوامر الشّرع المبين ولا خوف له من الله رب العالمين.

تبصرة

قد عرفت حسن الوفاء وأنه ممّا يترتب عليه المدح والثواب، وقبح الغدر وأنه ممّا يترتب عليه اللّوم والعقاب، فيكون الأوّل واجباً سواء كان في عهود الله سبحانه أو عهود الخلق، والآخر حراماً، وقد أشير إلى ذلك المعنى في غير موضع من القرآن ووردت بذلك أخبار كثيرة ولا بأس بالإشارة إلى بعضها فإن الاستقصاء غير ممكن.

فأقول: قال سبحانه في سورة المائدة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

أي بالعهود قال ابن عباس: والمراد بها العهود التي أخذ الله سبحانه على عباده بالإيمان به وطاعته فيما أحلّ لهم أو حرّم عليهم، وفي رواية أخرى قال: ما هو أحلّ وحرّم وما فرض

وما حدّ في القرآن كله، أي فلا تتعدّوا ولا تنكثوا، وقيل: المراد العقود التي يتعاقدها النّاس بينهم.

وفي سورة النحل: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] وفيها أيضاً:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [النحل: ٩٥].

قال الطبرسي: أي لا تخالفوا عهد الله بسبب شيء يسير تنالوه من حكام الدنيا فتكونوا قد بعتم عظيم ما عند الله بالشيء الحقير.

وفي سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

قال في «**مجمع البيان**»: إذا وعد بشيء وفى به ولم يخلف، قال ابن عبّاس: إنّه واعد رجلاً أن ينتظره في مكان ونسي الرّجل فانتظره سنة حتّى أتاه الرّجل(١).

وعن «**الكافي**» عن الصادق، و«**العيون**» عن الرّضا عليهما السلام ما في معناه والإسماعيل بن خزقيل وقيل إسماعيل بن إبراهيم، والأوّل رواه أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام.

أقول: ولعلّه أراد بهذه الرّواية ما رواه المحدّث العلامة المجلسي في «**البحار**» عن الصّدوق بإسناده عن الصّادق عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أفضل الصّدقة صدقة اللّسان تحقن به الدّماء وتدفع به الكريهة وتجر المنفعة إلى أخيك المسلم».

ثمّ قال: إنّ عابد بني إسرائيل الذي كان أعبدهم كان يسعى في حوائج النّاس عند الملك، وإنّه لقي إسماعيل بن حزقيل فقال لا تبرح حتّى أرجع إليك يا إسماعيل، فسهل عنه عند الملك فبقي عند الملك، فبقي إسماعيل إلى الحول هناك فأنبت الله لإسماعيل عشباً فكان يأكل منه وأجرى له عيناً وأظلّه بغمام فخرج الملك بعد ذلك إلى التنزّه ومعه العابد فرأى إسماعيل: فقال له: إنّك لههنا يا إسماعيل: فقال له: قلت لا تبرح فلم أبرح فسمّي صادق الوعد.

قال: وكان جبّار مع الملك فقال: أيها الملك كذب هذا العبد قد مررت بهذه البريّة فلم أراه ههنا، فقال إسماعيل إن كنت كاذباً فنزع الله صالح ما أعطاك قال فتناثرت أسنان الجبّار، فقال جبّار: إنّي كذبت على هذا العبد الصّالح فاطلب أن يدعو الله أن يرد عليّ أسناني فإني شيخ كبير، فطلب إليه الملك فقال: إنّي أفعل قال: الساعة، قال: لا، وأخره إلى السّحر، ثم

---

(١) بحار الأنوار: ٦/٦٨، ومجمع البيان: ٦/٤٢٩.

دعا ثمّ قال: يا فضل إنّ أفضل ما دعوتم الله بالأسحار، قال الله تعالى: ﴿**وبالأسحار هم يستغفرون**﴾[1].

وفي سورة الأحزاب: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

روي في «**الصافي**» من «**الكافي**» عن الصّادق عليه السلام أنه قال: المؤمن مؤمنان، فمؤمن صدق بعهد الله ووفى بشرط الله؛ وذلك قول الله عزّ وجل ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وذلك الذي لا يصيبه أهوال الدّنيا ولا أهوال الآخرة، وذلك ممّن يشفع ولا يشفع له، ومؤمن كخامة الزّرع يعوج أحياناً ويقوم أحياناً، فذلك ممّن يصيبه أهوال الدّنيا وأهوال الآخرة، وذلك ممّن يشفع له ولا يشفع.

وعنه عليه السلام لقد ذكركم الله في كتابه فقال: ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا**﴾، الآية إنّكم وفيتم بما أخذ الله عليه ميثاقكم من ولايتنا وإنكم لم تبدلوا بنا غيرنا.

وفي سورة الصّف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الصف: ٢] الآية ونحوها آيات أُخر.

وأمّا الأخبار فمضافاً إلى ما ذكرنا ما رواه في الوسائل من «**الكافي**» بإسناده عن شعيب العقرقوفي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليف إذا وعد».

ومن «**العلل**» بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام، يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وعد رجلاً إلى صخرة فقال أنا لك ههنا حتّى تأتي، قال: فاشتدّت الشمس عليه فقال له أصحابه يا رسول الله لو أنك تحوّلت إلى الظل، قال صلى الله عليه وآله: «قد وعدته إلى ههنا وإن لم يجيء كان منه المحشر»[2].

وفي كتاب «**تحف العقول**» قال: ومن حكم أمير المؤمنين عليه السلام وترغيبه وترهيبه ووعظه أما بعد فإنّ المكر والخديعة في النار فكونوا من الله على وجل ومن صولته على حذر إنّ الله لا يرضى لعباده بعد إعذاره وإنذاره استطراداً واستدراجاً لهم من حيث لا يعلمون، ولهذا يضل سعي العبد حتّى ينسى الوفاء بالعهد ويظنّ أنّه قد أحسن صنعاً.

ولا يزال كذلك في ظن ورجاء وغفلة عمّا جاءه من النبأ يعقد على نفسه العقد ويهلكها

(١) وسائل الشيعة: ٦/ ٢٨٠ ح ٧٩٦٧، وقصص الأنبياء: ٣٥٨.
(٢) علل الشرائع: ١/ ٧٨ ح ٤، ووسائل الشيعة: ١٢/ ١٦٦.

بكل الجهد وهو في مهلة من الله على عهد[١] يهوى مع الغافلين، ويغدو مع المذنبين ويجادل في طاعة الله المؤمنين، ويستحسن تمويه المترفين «المسرفين خ»، فهؤلاء قوم شرحت قلوبهم بالشّبهة؛ وتطاولوا على غيرهم بالفرية، وحسبوا أنّها لله قربة.

وذلك لأنّهم عملوا بالهواء، وغيّروا كلام الحكماء، وحرّفوه بجهل وعمى وطلبوا به السّمعة والرّياء، بلا سبيل قاصدة، ولا أعلام جارية، ولا منار معلوم إلى أمدهم وإلى منهل هم واردوه حتّى إذا كشف الله لهم عن ثواب سياستهم، واستخرجهم من جلابيب غفلتهم، استقبلوا مدبراً واستدبروا مقبلاً، فلم ينتفعوا بما أدركوا من أمنيتهم، ولا بما نالوا من طلبتهم، ولا ما قضوا من وطرهم، وصار ذلك عليهم وبالاً فصاروا يهربون ممّا كانوا يطلبون.

وإنّي أحذّركم هذه المنزلة، وآمركم بتقوى الله الذي لا ينفع غيره فلينتفع بتقية «بنفسه خ ل» إن كان صادقاً على ما يحن ضميره، فإنّ البصير من سمع وتفكر ونظر فأبصر، وانتفع بالعبر، وسلك جدداً واضحاً يتجنّب فيه الصّرعة في الهوى، ويتنكب طريق العمى، ولا يعين على فساد نفسه الغوات بتعسّف في حق أو تحريف في نطق أو تغيير في صدق، ولا قوة إلا بالله، الحديث[٢].

وفي حديث الأئمة إنّ الله أخذ من شعيتنا الميثاق كما أخذ على بني آدم ألست بربكم فمن وفى لنا وفى الله له بالجنّة[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله ويجيء كل غادر يوم القيامة بإمام مائل شدقه حتّى يدخل النّار»[٤] هذا.

وقد ظهر لك ممّا ذكرناه ورويناه أنّ متعلق الوفاء أعم من عهود الله سبحانه ومواثيقه الّتي أخذها من العباد، ومن عهود النّاس وشروط بعضهم مع بعض ومواثيقهم الموافقة للقوانين الشّرعية، والأولى عامة لأصول العقائد من التّوحيد والنّبوة والولاية حيث أخذ ميثاق النّاس عليها في عالم الذّر، وبالسّنة الأنبياء والرّسل والكتب المنزلة، والفروع العقائد من العبادات البدنية والواجبات العملية، والثانية شاملة للعقود التي يتعاقدونها بينهم من البيع والصّلح والإجارة ونحوها، وللعهود والعدات المجرّدة عن العقد.

وثمرة الوفاء بالأولى الترقي إلى مدارج الكمال واليقين والطيران في حظيرة القدس مع

(١) في نسخة: عمد.
(٢) الكافي: ١/ ٤٠١ ح ٣، وبحار الأنوار: ٢/ ١٩٠ ح ٢٤.
(٣) الكافي: ٢/ ٣٣٧ ح ٢، وبحار الأنوار: ٧/ ٢٠١ ح ١١.
(٤) نهج البلاغة: ١١/ ٩٣، ووسائل الشيعة: ١١/ ٢٢٢.

الأولياء المقرّبين، وثمرة الوفاء بالفروع البدنيّة النجاة من الجحيم والخلاص من العذاب الأليم، ونتيجة الوفاء بالعقود استكمال النّظام وحصول الإنتظام، وبالعهود المجرّدة إقتناء الفضائل واجتناب الرّذائل.

والظاهر من كلامه عليه السلام الذي نحن في شرحه هو أنّ مراده بالوفاء هو وفاء الناس بما يتعاهدون بينهم، وبالغدر الغدر المقابل له، وغير خفيّ أنّ حسن الوفاء ووجوبه إنّما هو في حقّ أهل الوفاء كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلماته: «الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله»[1].

يعني أنّه إذا كان بينهما عهد ومشارطة فغدر أحدهما وخالف شرطه فيجوز للآخر نقض العهد أيضاً، ولا يجب له الوفاء بل يكون وفاؤه في حقّه غدراً قبيحاً، وغدره وفاء متّصفاً بالحسن، وذلك لأنّ الله سبحانه قد أمر بالوفاء مع وفاء الطرف الآخر وبالنقض مع نقضه كما أشير إليه في قوله:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

فيكون الوفاء مع مخالفة الطرف الآخر مخالفاً لأمر الله ولحكمه الذي كان يجب عليه امتثاله والإلتزام به، فيكون ذلك الوفاء غدراً في حكم الله ويترتّب عليه أثره، والغدر له امتثالاً لأمر الله ووفاء بحكم الله فيستحقّ الثناء الجميل والأجر الجزيل، ويحتمل أن يكون المراد أنّه يترتّب على الموفي إثم الغادر وعلى الغادر أجر الموفي، والله العالم.

(١) مستدرك الوسائل: ١١/ ٤٧، والبحار: ٧٢/ ٩٧.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است در مدح وفا و ذمّ غدر، می فرماید:

به درستی که وفانمودن به عهد همزاد راستی و درستی است و نمی دانم هیچ سپری که نگاه دارنده تر باشد از این خصلت و غدر نمی کند کسی که داند که چگونه است بازگشت به خدا و به تحقیق که صباح کرده ایم در زمانی که اخذ نموده اند بیشترین اهل آن زمان بیوفایی را کیاست و زیرکی و نسبت داده اهل جهالت جماعت غدّار را در آن روزگار به نیکویی حیلت و فراست. چیست این جماعت را، خدا دورگرداند ایشان را از رحمت خود در هردوجهان. به درستی که می بیند مردی که صاحب بصیرت است در تحویل امور و تقلیب آن ها و در استنباط وجوه مصالح ظاهر حیله را و حال آن که نزد آن حیله مانعی است از امر خدا و نهی او، پس ترك می کند آن حیله را در حال دیدن آن به چشم، بعد از قدرت او بر آن به جهت خوف از عقاب خداوند و غنیمت می شمارد مجال آن را کسی که صاحب پرهیز از گناه نیست در دین.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثانية والأربعون من المختار في باب الخطب

وقد رواها المحدث المجلسي وغيره بطرق مختلفة واختلاف يسير، ورواها الشارح المعتزلي أيضاً في شرح الخطبة الآتية، ونشير إلى تلك الرّوايات بعد الفراغ من شرح ما أورده السّيد قدّس سرّه في الكتاب وهو قوله عليه الصّلاة والسّلام:

«أيُّهَا النّاسُ إنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَانِ: اتّبَاعُ الْهَوىٰ، وطُولُ الأَمَلِ، فَأَمَّا اتّباعُ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ، أَلا وإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلاّ صُبَابَةٌ كَصُبابَةِ الإِناءِ إِصْطَبَّها صابُّها، أَلا وإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، ولِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونٌ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، ولا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ (**بأمّه خ ل**) يوم القيامة، وإنَّ اليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

اللغة

قال السّيد (ره) قوله: (**حذاء**) الحذاء السّريعة ومن الناس من يروي جذّاء بالجيم والذال أي انقطع خيرها ودرّها انتهى و(**الصّبابة**) بضم الصّاد المهملة بقية الماء في الإناء و(**الإصطباب**) افتعال من الصّب وهو الإراقة.

الإعراب

كلمة ما في قوله أخوف ما أخاف نكرة موصوفة، والعائد من الصّفة إلى الموصوف محذوف، أي أخوف ما أخافه على حدّ قوله ربما تكره النّفوس له فرجة كحل العقال، أي ربّ شيء تكرهه النّفوس، وقوله: اتباع الهوى وطول الأمل مرفوعان على أنّهما خبران لمبتدأ محذوف واقعان موقع التفسير لاثنتان، وهو من باب الإيضاح بعد الإبهام المسمى في فنّ البلاغة بالتّوشيح، وهو أن يؤتى في عجز الكلام بمثنّى مفسّر باسمين ثانيهما عطف على الأول، ومثله يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل، وحذاء منصوب على الحالية، والإصبابة مرفوع على الإستثناء المفرغ.

المعنى

اعلم أنّ مقصوده بهذه الخطبة النّهي عن اتباع الهوى والمنع من طول الأمل في الدّنيا، فإنهما من أعظم الموبقات وأشدّ المهلكات كما قال سبحانه:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

يعني من تجاوز الحدّ الذي حدّه الله وارتكب المعاصي وفضّل الدّنيا على الآخرة واختارها عليها: فإنّ النار منزلها ومأواها، وأمّا من خاف مقام مسألة ربّه فيما يجب عليه فعله أو تركه، ونهى نفسه عن الحرام الذي تهواه وتشتهيه، فإنّ الجنّة مقرّه ومثواه ولكونهما من أعظم المهلكات كان خوفه منهما أشدّ كما أشار إليهما بقوله ﷺ (أيها النّاس إنّ أخوف ما أخافه عليكم اثنتان) أي خصلتان إحداهما (اتباع الهوى) والمراد به هو ميل النّفس الأمارة بالسّوء إلى مقتضى طباعها من اللّذات الدّنيوية إلى حدّ الخروج عن قصد الشريعة.

ومجامع الهوى خمسة أمور جمعها قوله سبحانه:

﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة جمعها قوله سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

و الخصلة الثانية (**طول الأمل**) والمراد بالأمل تعلّق النفس بحصول محبوب في المستقبل، ويرادفه الطمع والرّجاء إلا أنّ الأمل كثيراً ما يستعمل فيما يستبعد حصوله والطمع فيما قرب حصوله والرّجاء بين الأمل والطمع وطول الأمل عبارة عن توقع أمور دنيوية يستدعي حصولها مهلة في الأجل وفسحة من الزمان المستقبل.

ثمّ إنّه ﷺ بعد تحذيره عن اتباع الهوى وطول الأمل أشار إلى ما يترتّب عليهما من المفاسد الدّينية والمضار الأخرويّة فقال: «أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ» وذلك لأنّ اتباع الهوى يوجب صرف النّظر إلى الشهوات الدّنيوية وقصر الهمّة في اللذات الفانية وهو مستلزم للإعراض عن الحقّ وهو واضح، لأنّ حبّك للشيء صارفك عمّا وراه وشاغلك عمّا عداه.

(وأمّا طول الأمل فينسى الآخرة) وذلك لما قد عرفت من أنّ طول الأمل عبارة عن توقع أمور محبوبة دنيوية فهو يوجب دوام ملاحظتها ودوام ملاحظتها مستلزم لإعراض النّفس عن ملاحظة أحوال الآخرة وهو مستعقب لانمحاء تصورها في الذّهن وذلك معنى النّسيان لها.

قال بعضهم: سبب طول الأمل هو حبّ الدّنيا فإنّ الإنسان إذا أنس بها وبلذاتها ثقل عليه مفارقتها وأحبّ دوامها، فلا يتفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، فإن من أحبّ شيئاً كره الفكر فيما يزيله ويبطله، فلا يزال تمنّي نفسه البقاء في الدّنيا وتقدّر حصول ما تحتاج إليه من أهل ومال وأدوات وأسباب، ويصير فكره مستغرقاً في ذلك فلا يخطر الموت والآخرة بباله.

وإن خطر بخاطره الموت والتوبة والإقبال على الأعمال الأخروية أخر ذلك من يوم إلى يوم، ومن شهر إلى شهر ومن عام إلى عام وقال إلى أن اكتهل ويزول سنّ الشباب، فإذا اكتهل قال إلى أن أصير شيخاً، فإذا شاخ قال إلى أن أتمّ هذه الدّار وأزوج ولدي فلاناً وإلى أن أعود من هذا السّفر وهكذا يسوف التوبة كلما فرغ من شغل عرض له شغل آخر بل أشغال حتّى يختطفه الموت وهو غافل عنه غير مستعدّ له مستغرق القلب في أمور الدّنيا، فتطول في الآخرة حسرته وتكثر ندامته وذلك هو الخسران المبين.

ثمّ إنّه بعد الإشارة إلى كون اتباع الهوى صاداً عن الحقّ وطول الأمل منسياً للآخرة أردف ذلك بالتنبيه على سرعة زوال الدّنيا وفنائها كي يتنبّه الغافل عن نوم الغفلة ويعرف عدم قابليتها لأن يطال الأمل فيها أو يتبع الهوى فقال **(ألا وإنّ الدنيا قد ولت حذّاء)** أي أدبرت سريعة لكونها مفارقة لكلّ شخص **(فلم يبق منها)** بالنسبة إليه **(إلاّ صبابة كصبابة الإناء اصطبّها صابّها)** إطلاق الصبابة استعارة لبقيّتها القليلة، والقلة هي الجامع بين المستعار منه والمستعار له **(ألا وإنّ الآخرة قد أقبلت)** إشارة إلى سرعة لحوق الآخرة؛ إذا ادبار العمر مستلزم لإقبال الموت الذي هو آخر آيام الدّنيا وأوّل أيّام الآخرة.

والإتيان بإن المؤكدة وحرف التّنبيه وقد التحقيقية، من أجل تنزيل العالم منزلة الجاهل فكأن المخاطبين لغفلتهم عن إقبالها حيث لم يتزوّدوا لها ولم يتخذوا لها ذخيرة جاهلون له وقوله عليه السلام **(ولكل منهما بنون)** شبّه الدّنيا والآخرة بالأب أو الأمّ وأهلها بالأبناء والأولاد إشارة إلى فرط ميل أهل الدّنيا إلى دنياهم وأهل الآخرة إلى آخرتهم فهم من فرط المحبة إليهما بمنزلة الإبن إلى أبويه، وهما من حيث تهيئة الأسباب لأهلهما بمنزلة الأبوين الصّارفين نظرهما إلى تربية الأولاد.

ثمّ لما كان غرضه عليه السلام حث الخلق على السّعي للآخرة، والميل إليها والإعراض عن الدّنيا قال **(فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدّنيا)** وعلله بقوله **(فإنّ كلّ ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة)** قال الشّارح البحراني: وأشار بذلك إلى أنّ أبناء الآخرة والطالبين لها والعاملين لأجلها مقربون في الآخرة لاحقون لمراداتهم فيها، **﴿ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم ما يدعون نزلاً من غفور رحيم﴾**.

وأما أبناء الدّنيا فإنّ نفوسهم لما كانت مستغرقة في محبتها وناسية لطرف الآخرة ومعرضة عنها، لا جرم كانت يوم القيامة مغمورة في محبّة الباطل، مغلولة بسلاسل الهيئات البدنية والملكات الرّدية، فهي لتعلقها بمحبة الدّنيا حيث لا يتمكن من محبوبها بمنزلة ولد لا تعلق له إلاّ بوالده ولا ألف له إلا هو ولا أنس إلاّ معه، ثمّ حيل بينه وبينه مع شدة تعلقه به وشوقه إليه، وأخذ إلى ضيق الأسجان وبدل بالعزّ الهوان فهو في أشدّ وله ويتم وأعظم حسرة وغم.

وأمّا أبناء الآخرة ففي حضانة أبيهم ونعيمه قد زال عنهم بؤس الغربة وشقاء اليتم وسوء الحضن فمن الواجب إذا تعرف أحوال الوالدين واتباع أثرهما وأدومهما شفقة وأعظمهما بركة، وما هي إلا الآخرة وليكن ذو العقل من أبناء الآخرة وليكن براً بوالده متوصلاً «إليه بأقوى الأسباب وأمتنها (**وإنّ اليوم عمل ولا حساب**) أراد باليوم مدة الحياة يعني أنّ هذا اليوم يوم عمل، لأنّ التكليف إنّما هو في هذا اليوم والعمل به والإمتثال له إنما يكون فيه (**وغداً حساب ولا عمل**) أراد بالغد ما بعد الموت وهو وقت الحساب ولا عمل فيه لانقطاع زمان التكليف فعلى هذا فاللازم للعاقل أن يبادر إلى العمل الذي به يكون من أبناء الآخرة في وقت إمكانه قبل مجيء الغد الذي هو وقت الحساب دون العمل، والله ولي التوفيق.

تبصرة

اعلم أنّ طول الأمل من أعظم الموبقات حسبما مرّت إليه الإشارة، وكفى في ذلك قوله سبحانه:

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ، ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢ ـ ٣].

فنبه سبحانه على أنّ إيثار التنعم والتّلذذ الذي هو من شئونات اتباع الهوى وما يؤدي إليه طول الأمل من أخلاق الكافرين لا من أخلاق المؤمنين.

وأما الأخبار في ذمّه والتّحذير منه وبيان ما يترتّب عليه من المفاسد فهو فوق حد الإحصاء.

فمن ذلك ما ورد في الحديث القدسي: يا موسى لا تطول في الدّنيا أملك فيقسو لذلك قلبك وقاسي القلب منّي بعيد[1].

وفي الحديث النّبوي المعروف المروي في البحار بعدّة طرق قال ﷺ: «يا أبا ذرّ إيّاك والتّسويف بأملك فإنك بيومك ولست بما بعده فإن يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غد لك لم تندم على ما فرطت في اليوم، يا أبا ذر كم مستقبل يوماً لا يستكمله ومنتظر غداً لا يبلغه، يا أبا ذر لو نظرت إلى الأجل ومصيره لأبغضت الأمل وغروره، يا أبا ذر إذا أصبحت لا تحدّث نفسك بالمساء؛ وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصّباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنّك لا تدري ما اسمك غداً»[2].

---

(١) الكافي: ٨/ ٤٢ ح ٨١، شرح أصول الكافي: ١١/ ٣٣٥ ح ٨.
(٢) الأمالي: ٣٨ ح ٨١٩، مكارم الأخلاق/ ٤٥٩.

وعن أنس أنّ النّبي خط خطاً وقال: هذا الإنسان، وخط إلى جنبه وقال: هذا أجله، وخط آخر بعيداً منه فقال: هذا الأمل فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب[١].

وفي رواية أنّه اجتمع عبدان من عباد الله فقال أحدهما للآخر: ما بلغ من قصر أملك؟ فقال أملي إذا أصبحت أن لا أمسي وإذا أمسيت أن لا أصبح، فقال: إنك لطويل الأمل، أمّا أنا فلا أؤمل أن يدخل لي نفس إذا خرج ولا يخرج لي نفس إذا دخل.

وفي الصّحيفة السّجادية على منشئها آلاف السّلام والتّحية: اللّهم صل على محمّد وآل محمّد واكفنا طول الأمل، وقصره عنّا بصدق العمل، حتّى لا نؤمل استتمام ساعة بعد ساعة، ولا استيفاء يوم بعد يوم، ولا اتّصال نفس بنفس، ولا لحوق قدم بقدم، وسلمنا من غروره، وآمنا من شروره[٢].

وفي **«الدّيوان»** المنسوب إلى عليّ عليه السلام:

تؤمل في الدّنيا طويلاً ولا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى فجر
فكم من صحيح مات من غير علة وكم من مريض عاش دهراً إلى دهر
وكم من فتى يمس ويصبح آمناً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

وبالجملة فإنّ مضار طول الأمل ومفاسده غير خفيّة على من تنور قلبه بنور العرفان، ولو لم يكن فيه إلاّ نسيان الآخرة الذي أشار عليه السلام إليه بقوله: «وأما طول الأمل فينسى الآخرة» لكفى، فكيف بمفاسد متجاوزة عن حدّ الإحصاء، وقاصرة عن طيّ مسافتها قدم الإستقصاء، عصمنا الله من طول الأمل في الدّنيا ومن طول الحساب في الآخرة بمحمد وآله أعلام الهدى إنّه على كلّ شيء قدير وبالإجابة حقيق وجدير.

تكملة

اعلم أنّ هذه الخطبة مروية في **«البحار»** وغيره مسندة بعدة طرق واختلاف يسير أحببت الإشارة إليها.

فأقول: في **«البحار»** من مجالس **«المفيد»** عن أحمد بن الوليد عن أبيه عن الصفار عن ابن معروف عن ابن مهزيار عن عاصم عن فضيل الرّسال عن يحيى بن عقيل قال: قال علي عليه السلام: «إنّما أخاف عليكم اثنتين اتباع الهوى وطول الأمل فأمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ارتحلت الآخرة مقبلة وارتحلت الدنيا مدبرة، ولكل

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٢٨٤٤.
(٢) الصحيفة السجادية/ ١٩٥ ح ٤٠، أدب الضيافة/ ١٨٥.

بنون فكونوا من بني الآخرة ولا تكونوا من بني الدّنيا، اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[١].

وفي بعض مؤلفات أصحابنا من المجالس والأمالي عن «**المفيد**» عن الجعابي عن محمّد بن الوليد عن عنبر بن محمد عن شعبة عن مسلمة عن أبي الطفيل قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل واتباع الهوى، فأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، وأمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، ألا وإنّ الدّنيا قد تولت مدبرة، وانّ الآخرة قد أقبلت مقبلة، ولكلّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدّنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب والآخرة حساب ولا عمل»[٢].

وفي «**شرح المعتزلي**» من كتاب نصر بن مزاحم أنّ عليّاً قدم من البصرة في غرة شهر رجب من سنة ستّ وثلاثين إلى الكوفة وأقام بها سبعة عشر شهراً يجري الكتب بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص حتّى صار إلى الشام.

قال نصر وقد روي من طريق أبي الكنود وغيره أنّه قدم الكوفة بعد وقعة الجمل لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رجب سنة ستّ وثلاثين، فدخل الكوفة ومعه أشراف النّاس من أهل البصرة وغيرهم فاستقبل أهل الكوفة وفيه قراؤهم وأشرافهم فدعوا له بالبركة وقالوا يا أمير المؤمنين أين تنزل أتنزل القصر؟ قال عليه السلام: «ولكنّي أنزل الرهبة»، فنزلها وأقبل حتّى دخل المسجد الأعظم فصلى فيه ركعتين، ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثمّ قال:

«أما بعد يا أهل الكوفة فإنّ لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدلوا وتغيروا، دعوتكم إلى الحقّ فأجبتم وبدأتم بالمنكر فغيرتم، ألا إنّ فضلكم فيما بينكم وبين الله، فأمّا الأحكام والقسم فأنتم أسوة غيركم ممّن أجابكم، ودخل فيما دخلتم فيه، ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إنّ الدّنيا قد رحلت مدبرة، وإنّ الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[٣].

ويأتي روايتها بسند آخر في شرح الخطبة المائتين والرّابعة والعشرين إنشاء الله تعالى باختلاف وزيادة كثيرة.

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٩٣، والكافي: ٨/ ٥٨ ح ٢١.

(٢) الكافي: ٨/ ٥٨ ح ٢١، والخصال: ٥١ ح ٦٢.

(٣) كتاب سليم بن قيس: ٢٦١ ح ١٨، والإرشاد: ١/ ٢٣٦.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است در تنفير مردمان از اتباع هوى و طول أمل به اين وجه كه مى فرمايد:

اى مردمان به درستى كه ترسناك ترين چيزى كه مى ترسم بر شما از عقوبت آن، دو چيز است: يكى متابعت خواهشات نفس اماره و دويمى درازى اميد در امور دنيويه، پس اما متابعت هواى نفس، پس بازمى دارد بنده را از راه حق و اما درازى اميد، پس فراموش مى گرداند آخرت را؛ آگاه باشيد كه دنياى فانى روگردانيده است در حالتى كه شتابان است يا در حالتى كه مقطوع المنفعة است؛ آگاه باشيد كه آخرت روآورده است و مرهريكى را از دنيا و آخرت پسران است، پس باشيد از فرزندان آن جهان تا داخل شويد در بهشت جاويدان و نباشيد از فرزندان اين جهان تا معذب شويد به عذاب نيران، پس به درستى كه هر فرزند ملحق مى شود به پدر خود فرداى قيامت و به درستى امروز كه روز زندگانى است، روز عمل است و حساب نيست و فردا روز حساب است و عمل نيست، پس لازم است كه امروز كه روز عمل است فرصت را غنيمت شمرده و در عمل كوشيد تا فردا كه روز حساب است فارغ البال از كوثر و سلسبيل آب نوشيد و از سندس و استبرق لباس پوشيد؛ والله العالم.

ومن كلام له عليه السلام وهو الثالث والأربعون
من المختار في باب الخطب

وقد أشار عليه[1] أصحابه بالإستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله إلى معاوية لجرير بن عبد الله البجلي:

«إنَّ استِعْدادي لِحَرْبِ أَهْلِ الشّامِ وجَريرٌ عِنْدَهُمْ إغلاقٌ لِلّشام، وصَرْفٌ لأَهْلِهِ عَنْ خَيرٍ إنْ أَرادُوهُ، وَلكِنْ قَدْ وُقِّتَ لِجَريرٍ وَقْتاً لا يُقيمُ بَعْدَهُ إلاّ مَخْدُوعاً أوْ عاصِياً، وَالرَّأيُ مَعَ الأَناةِ، فَأَرْوِدُوا ولا أَكْرَهُ لَكُمُ الإِعْدادَ، وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هذَا الأَمْرِ وعَيْنَهُ، وقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وبَطْنَهُ فَلَمْ أَرَ فيهِ إلاّ الْقِتالَ أَوِ الكُفْرَ بِما جاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ إنَّهُ قَدْ كانَ عَلَى الأُمَّةِ والٍ أَحْدَثَ أَحْداثاً وأَوْجَدَ النّاسَ مَقالاً فَقالُوا ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا»[2].

اللغة

(**أشار**) علي بكذا أي أراني ما عنده من المصلحة و (**البجلي**) بالتّحريك منسوب إلى البجيلية حيّ باليمن من معدو (**الإغلاق**) الإكراه كما في «**القاموس**» وقيل: إنّه من أغلق الباب إذا عسر فتحه و (**الأناة**) كالقناة اسم من التّأني وهو الرّفق والتثبت و (**أرودوا**) أمر من باب الأفعال يقال أرود في السير إرواداً أي سار برفق و (**الحدث**) بالتّحريك الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعتاد ولا معروف في السنة، هكذا فسره ابن الأثير على ما حكي عنه و (**أوجد**) هنا للصيرورة أي صيرهم واجدين مقالاً (**ونقم**) منه نقماً من باب ضرب وعلم عاقبه ونقم الأمر كرهه وأنكره.

الإعراب

اللام في قول الرضي لجرير زائدة للتقوية، وفي بعض النسخ بدون اللام، وجملة وجرير عندهم حالية، وإغلاق خبر إن والضّمير في أنّه للشأن والكوفيون يسمونه ضمير المجهول لأن ذلك الشّأن مجهول لكونه مقدّراً إلى أن يفسر الضّمير.

قال نجم الأئمة الرّضي: وهذا الضّمير كأنّه راجع في الحقيقة إلى المسؤول عنه بسؤال مقدّر، تقول هو الأمير مقبل كأنه سمع ضوضاء وجلبة فاستبهم الأمر فسأل ما الشأن والقصّة؟

---

(١) في نسخة: إلي.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٩٣.

فقلت هو الأمير مقبل، أي الشأن هذا، فلما كان المعود إليه الذي تضمنه السّؤال غير ظاهر قبل اكتفى في التّفسير بخبر هذا الضّمير الذي يتعقبه بلا فصل، لأنه معين للمسؤول عنه، ومبين له، فبان لك بهذا أنّ الجملة بعد الضّمير لم يؤت بها لمجرّد التّفسير، بل هي كسائر أخبار المبتدآت، لكن سمّيت تفسيراً لما قررته، والقصد بهذا الإبهام، ثمّ التّفسير تعظيم الأمر وتفخيم الشّأن، فعلى هذا لا بدّ أن يكون مضمون الجملة المفسّرة شيئاً عظيماً يعتنى به فلا يقال مثلاً هو الذّباب يطير.

المعنى

اعلم أنّه كان ظنّ كثير من النّاس بعد ولايته عليه السلام أنّ معاوية لا يمكن له ولا ينقاد لبيعته بإمارات كانت لائحة عندهم **(و)** لذلك **(قد أشار عليه أصحابه بالإستعداد)** والتّهيؤ **(لحرب أهل الشّام بعد إرساله)** عليه السلام **(إلى معاوية لجرير بن عبد الله البجلي)** مع كتاب له كتبه إليه على ما يأتي ذكره، ولمّا لم تكن هذه الإشارة من الأصحاب مطابقة لرأيه الصّواب أجابهم بقوله: **(إنّ استعدادي لحرب أهل الشّام وجرير عندهم إغلاق للشّام)** وإكراه **(وصرف لأهله عن خير إن أرادوه)**.

وذلك لأنّهم ما دام كون جرير عندهم في مقام الشّورى والتروي في متابعة أي الأميرين، وإن لم يكن كلهم فبعضهم كذلك لا محالة فاستعداده لحربهم في تلك الحال موجب لاستعدادهم لحربه وتأهبهم للقائه وملجئاً لهم إلى قتاله، ففيه صرف لقلب من كان متردّداً في الأمر ومريداً للخير (ولكن قد وقت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً)، وجه الحصر أنّ تخلفه عن الوقت المؤقت له إمّا أن يكون بسبب تأخيرهم في الجواب خداعاً له وأخذاً في تلك المدّة بتهيئة الأسباب، وإمّا أن يكون بسبب تقصير منه في المبادرة إلى المراجعة إليه، فيكون عاصياً.

ولما لم يستصوب رأيهم أشار إلى وجه المصلحة وما هو الرّأي الصّواب بقوله: **(والرّأي مع الأناة)**، وذلك لأنّ إصابة المطالب والظفر بها إنّما يكون في الغالب بالتثبت والتأني، لأنّ أناة الطالب هي مظنّة فكره في الإهتداء إلى تلخيص الوجه الأليق والأشمل للمصلحة في تحصيل مطلوبه، ولذلك جعل التوئدة من جنود العقل والتّسرع وهو ضدها من جنود الجهل.

قال بعض المحققين: التّوئدة صفة نفسانية من فروع ملكة التّوسط والإعتدال في القوّة الغضبيّة يعني هيئة الوقار، كما أنّ التّسرع الذي هو ضدّها وهو الإشتياط من فروع الإفراط فيها.

وتوضيحه ما قاله بعض «**شرّاح الكافي**» حيث قال: التوئدة تابعة للسّكون والحلم الذين من أنواع الإعتدال في القوّة الغضبيّة، فإنّ حصولها يتوقف عليهما، أمّا على السّكون فلأنّه عبارة عن ثقل النّفس وعدم خفّتها في الخصومات، وأمّا على الحلم فلأنّه عبارة عن الطمأنينة

الحاصلة للنّفس باعتبار ثقلها وعدم خفّتها بحيث لا يحرّكها الغضب بسرعة وسهولة، وإذا حصلت للنّفس هاتان الصّفتان أمكن لها التّأنّي والتّثبت وعدم العجلة في البطش والضّرب والشّتم إلى غير ذلك من أنواع المؤاخذة[١].

وكيف كان فلمّا أجابهم بكون صلاح الأمر في الإناة عقبه بالأمر بملازمتها بقوله (فأرودوا) فإنّ الرّفق والمداراة الذين هما معنى الإرواد لازمان للتثبّت والإناة، ولمّا كان ظاهر كلامه مفيداً لكون الصّواب في الإناة مطلقاً استدرك ذلك بقوله: (ولا أكره لكم الإعداد) قال الشارح المعتزلي: ولا تناقض بينه وبين نهيه لهم سابقاً عن الإستعداد، لأنّه كره منهم إظهار الإستعداد والجهر به ولم يكره الإعداد في السرّ وعلى وجه الكتمان والخفاء، وقال الشارح البحراني: إنّه عليه السلام نبّه بذلك على أنّه ينبغي لهم أن يكونوا على يقظة من هذا الأمر حتّى يكونوا حال إشارته إليهم قريبين من الإستعداد.

وقال البحراني أيضاً: إنّ قوله (ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه وقلبت ظهره وبطنه) استعارة على سبيل الكناية فإنّه استعار لفظ العين والأنف والظهر والبطن التي حقائق في الحيوان، لحاله مع معاوية في أمر الخلافة وخلاف أهل الشّام له، وكنى بالعين والأنف عن المهمّ من هذا الأمر وخالصه، فإنّ العين والأنف أعزّ ما في الوجه، وكنى بالضّرب لهما عن قصده للمهمّ على سبيل الإستعارة أيضاً، وكنى بلفظ الظهر والبطن لظاهر هذا الأمر وباطنه ووجوه الرّأي فيه ولفظ التقليب لتصفح تلك الوجوه وعرضها على العقل واحداً واحداً.

ثمّ أشار إلى ما تحصّل له بعد التّروي والتفكّر والتّقليب بقوله: (فلم أر فيه إلاّ القتال أو الكفر بما جاء) به (**محمد** صلى الله عليه وآله) ومن المعلوم أنّ الكفر في حقّه عليه السلام محال فتعيّن القتال، ووجه انحصار الأمر فيهما أنّه كان مأموراً من الله ومن رسوله بقتال النّاكثين والقاسطين والمارقين، فكان أمره دائراً بين المقاتلة والجهاد امتثالاً للأمر والتّرك والمنابذة كفراً وعصياناً، وربّما يسمّى ترك بعض الواجبات بالكفر حسبما مرّ تفصيلاً في شرح آخر فقرات الخطبة الأولى أعني قوله: ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين، فتذكر

ويدلّ على كونه مأموراً بقتال هؤلاء ما رواه في «**البحار**» من أمالي الشّيخ بإسناده عن مجاهد عن ابن عبّاس قال لمّا نزلت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣].

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لأجاهدنّ العمالقة» يعني الكفّار والمنافقين، فأتاه جبريل قال: أنت أو عليّ[٢].

---

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني: ١/ ٢٤٠.

(٢) أمالي الطوسي: ٥٠٢ ح ١١٠٠.

ومن «**الكافي**» بإسناده عن الفضيل بن عياض عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام قال: قال: «بعث الله محمّداً بخمسة أسياف ثلاثة منها شاهرة، وسيف منها مكفوف، وسيف سله إلى غيرنا» ثمّ قال: وأمّا السّيف المكفوف فسيف على أهل البغي والتأويل، قال الله تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

فلمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إنّ منكم من يقاتل بعدي على التّأويل كما قاتلت على التّنزيل» فسئل النّبي ﷺ من هو؟ فقال: «خاصف النّعل» يعني أمير المؤمنين فقال: عمّار بن ياسر: قاتلت بهذه الرّواية مع النّبي ثلاثاً، وهذه الرّابعة، والله لو ضربونا حتّى بلغوا بنا السّعفات من هجر لعلمنا أنّا على الحق وأنّهم على الباطل(١).

ومن «**العيون**» بإسناد التميمي عن الرّضا عن آبائه عليهم السلام، قال: قال عليّ عليه السلام: «أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»(٢).

ومن رجال النّجاشي مسنداً عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن أبي رافع قال: دخلت على رسول الله وهو نائم أو يوحى إليه وإذا حيّة في جانب البيت فكرهت أن أقتلها فأوقظه، فاضطجعت بينه وبين الحيّة حتّى إن كان منها سوء يكون لي دونه، فاستيقظ وهو يتلو هذه الآية:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

ثمّ قال: «الحمد لله الذي أكمل لعليّ منيته، وهنيئاً لعليّ بتفضيل الله إيّاه»، ثمّ التفت فرآني إلى جانبه فقال: «ما أضجعك ههنا يا أبا رافع»؟ فأخبرته خبر الحيّة فقال: قم إليها فاقتلها، فقتلتها، ثمّ أخذ رسول الله بيدي فقال: «يا أبا رافع كيف أنت وقوم يقاتلون عليّاً هو على الحقّ وهم على الباطل يكون في حقّ الله جهادهم فمن لم يستطع جهادهم فبقلبه ومن لم يستطع بقلبه فليس وراء ذلك شيء»، فقلت: ادع لي إن أدركتهم أن يعينني الله ويقويني على قتالهم، فقال ﷺ: «اللّهمّ إنّ أدركهم فقوّه وأعنه» ثمّ خرج إلى النّاس فقال: «يا أيّها النّاس من أحبّ أن ينظر إلى أميني على نفسي فهذا أبو رافع أميني على نفسي».

قال عون بن عبيد الله بن أبي رافع: فلمّا بويع عليّ وخالفه معاوية بالشّام وسار طلحة والزّبير إلى البصرة، قال أبو رافع: هذا قول رسول الله سيقاتل عليّاً قوم يكون حقّاً في الله

---

(١) تهذيب الأحكام: ٤/١١٦، الاحتجاج: ١/٢٦٨.

(٢) علل الشرائع: ١/٢٢٢، وبحار الأنوار: ٢٩/٢٣٤ ح ١٩.

جهادهم فباع أرضه بخيبر وداره ثمّ خرج مع عليّ عليه السلام وهو شيخ كبير له خمس وثمانون سنة، وقال: الحمد لله لقد أصبحت ولا أحد بمنزلتي لقد بايعت البيعتين: بيعة العقبة، وبيعة الرّضوان، وصليت القبلتين وهاجرت الهجر الثلاث، قلت: وما الهجر الثّلاث؟ قال: هاجرت مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض الحبشة، وهاجرت مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة، وهذه الهجرة مع عليّ بن أبي طالب إلى الكوفة فلم يزل مع عليّ حتّى استشهد عليّ عليه السلام فرجع أبو رافع إلى المدينة مع الحسن لا دار له بها ولا أرض فقسم له الحسن دار عليّ بنصفين وأعطاه سنخ أرض أقطعه إيّاها فباعها عبيد الله بن رافع من معاوية بمائة ألف وسبعين ألفاً[١].

والأَخبار في هذا المعنى من طريق الخاصّة والعامّة كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد الإشارة إلى مصير مآل أمره مع معاوية إلى القتال، نبّه على بطلان ما نسبه إليه معاوية وجعله عذراً لمخالفته وسبباً لعصيانه له، وهو الطلب بدم عثمان وتهمته له بذلك فقال: (**إنّه كان على الأمة وال**) وهو عثمان بن عفان (**أحدث**) في الدّين (**أحداثا**) وأبدع بدعاً (**وأوجد النّاس مقالاً**) أي أبدى لهم طريقاً إليه بإحداثه (فقالوا) في حقّه وأكثروا القول في إحداثه (**ثمّ نقموا فغيّروا**) أي أنكروا وعتبوا وطعنوا عليه فغيّروه وأزالوه.

وينبغي تذييل المقام بأمرين الأول

اعلم أنّ الشّارح المعتزلي قد ذكر في شرح هذا الكلام حال أمير المؤمنين منذ قدم الكوفة بعد وقعة الجمل إلى أن سار إلى صفّين، وقد أردت أن أذكر طرفاً ملخّصاً ممّا رواه له ارتباط بالمقام وفيه توضيح للمرام بإسقاط الزّوائد المستغنى عنها حذراً من الإطناب الممل فأقول:

في الشّرح من كتاب الصّفين لنصر بن مزاحم أنّ عليّاً حين قدم من البصرة إلى الكوفة بعد انقضاء أمر الجمل، كاتب إلى العمّال فكتب إلى جرير بن عبد الله البجلي وكان عاملاً لعثمان على ثغر همدان كتاباً مع زجر بن قيس، فلمّا قرأ جرير الكتاب قام فقال: أيّها النّاس هذا كتاب أمير المؤمنين وهو المأمون على الدّين والدّنيا وقد كان من أمره وأمر عدوّه ما يحمد الله عليه، وقد بايعه النّاس الأوّلون من المهاجرين والأنصار والتّابعين بإحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقّهم بها، ألا وإنّ البقاء في الجماعة والفناء في الفرقة، وإنّ عليّاً حاملكم على الحقّ ما استقمتم، فإن ملتم أقام ميلكم، فقال النّاس: سمعاً وطاعة رضينا رضينا، فكتب جرير إلى عليّ جواب كتابه بالطاعة.

قال نصر: وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتّى ورد على عليّ الكوفة، فبايعه ودخل

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٣٠٦.

فيما دخل فيه النّاس في طاعته ولزوم أمره، فلمّا أراد عليّ أن يبعث إلى معاوية رسولاً قال له جرير: إبعثني يا أمير المؤمنين إليه فأدعوه على أن يسلّم لك الأمر ويجامعك على الحقّ على أن يكون أميراً من أُمرائك وأدعو أهل الشّام إلى طاعتك فجلّهم قومي وأهل بلادي، وقد رجوت أن لا يعصوني، فقال له الأشتر: لا تبعثه ولا تصدّقه فوالله إنّي لأظنّ هواه هواهم ونيته نيّتهم، فقال له عليه السلام: دعه حتّى ننظر ما يرجع به إلينا، فبعثه عليّ وقال له حين أراد أن يبعثه إنّ حولي من أصحاب رسول الله من أهل الرّأي والذّين من قد رأيت وقد اخترتك لقول رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ فيك من خير ذي يمن ائت معاوية بكتابي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلاّ فانبذ إليه وأعلمه أنّي لا أرضى به أميراً، وإنّ العامة لا ترضى به خليفة.

فانطلق جرير حتّى أتى الشّام ونزل بمعاوية، فلمّا دخل عليه حمد الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد يا معاوية فإنّه قد اجتمع لابن عمّك أهل الحرمين وأهل المصرين وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل العروض، والعروض عمان، وأهل البحرين واليمامة فلم يبق إلاّ هذه الحصون التي أنت فيها لو سال عليها سيل من أوديته غرقها وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرّجل، ودفع إليه كتاب علي ويأتي ذكر هذا الكتاب في باب المختار من كتبه عليه السلام في الكتاب إن شاء الله.

فلمّا قرأ الكتاب قام جرير فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال، أيها النّاس إنّ أمر عثمان قد أعيى من شهده فما ظنكم بمن غاب عنه، وإنّ النّاس بايعوا عليّاً غير واتر ولا موتور، وكان طلحة وزبير ممّن بايعه ثمّ نكثا بيعته على غير حدث ألا وإنّ هذا الدّين لا يحتمل الفتن، ألا وإن العرب لا يحتمل السّيف، وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للنّاس، وقد بايعت العامّة عليّاً ولو ملكنا والله أمورنا لم نختر لها غيره ومن خالف هذا استعتب فادخل يا معاوية فيما دخل فيه النّاس.

فإن قلت: استعملني عثمان ثمّ لم يعزلني، فإنّ هذا قول لو جاز لم يقم لله دين وكان لكل امرىء ما في يديه، ولكن الله جعل للآخر من الولاة حقّ الأوّل وجعل الأمور موطأة وحقوقاً ينسخ بعضها بعضاً، فقال معاوية انظر وننظر واستطلع رأي أهل الشّام، فمضت أيّام وأمر معاوية منادياً ينادي الصّلاة جامعة.

فلمّا اجتمع النّاس صعد المنبر وقال بعد كلام طويل: أيّها النّاس قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأمير المؤمنين عثمان بن عفّان عليكم، وإني لم أقم رجلاً منكم على خزاية قط، وأنّي ولي عثمان وقد قتل مظلوماً والله تعالى يقول:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾.

وأنا أحبّ أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان، فقام أهل الشّام بأجمعهم فأجابوا

إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك وأوثقوا الله على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم حتّى يدركوا بثأره أو يفني الله أرواحهم.

قال نصر: فلمّا أمسى معاوية اغتمّ بما هو فيه وجنّه الليل وعنده أهل بيته واستحثّه جرير بالبيعة، فقال يا جرير: إنّها ليست بخلسة وإنّه أمر له ما بعده فابلغ (فابلع خ له) ريقي ودعا ثقاته فأشار عليه أخوه بعمرو بن العاص، وقال إنّه من قد عرفت، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته وهو لأمرك أشدّ اعتزالاً إلاّ أن يثمن له دينه.

وقد ذكرنا في شرح الفصل الثّالث من فصول الخطبة السّادسة والعشرين رواية استدعائه عمرو بن العاص وما شرط له من ولاية مصر واستقدامه شرحبيل بن السّمط ودس الرّجال عليه يغرّونه بعليّ عليه السلام ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان حتّى ملأوا قلبه وصدره حقداً بما لا حاجة إلى إعادته.

قال نصر: فخرج شرحبيل فأتى حصين بن نمير فقال: ابعث فليأتنا فبعث إليه حصين أن زرنا فعندنا شرجيل فاجتمعا عند حصين، فتكلم شرحبيل فقال: يا جرير أتيتنا بأمر ملفّف لتلقينا في لهوات الأسد وأردت أن تخلط الشّام بالعراق وأطريت عليّاً وهو قاتل عثمان والله سائلك عمّا قلت يوم القيامة.

فأقبل عليه جرير وقال يا شرحبيل أما قولك: إنّي جئت بأمر ملفّف فكيف يكون أمراً ملفّفاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار وقوتل على رده طلحة والزّبير، وأمّا قولك إنّي ألقيتك في لهوات الأسد ففي لهواتها ألقيت نفسك، وأمّا خلط الشّام بأهل العراق فخلطهما على حقّ خير من فرقتهما على باطل، وأمّا قولك: إن عليّاً قتل عثمان فوالله ما في يديك من ذلك إلاّ الرّجم بالغيب من مكان بعيد، ولكنّك ملت إلى الدّنيا وشيء كان في نفسك على زمن سعد بن أبي وقاص.

فبلغ معاوية قول الرّجلين فبعث إلى جرير وزجره وكتب جرير إلى شرحبيل أبياتاً يعظه فيها فذعر شرحبيل وفكر وقال هذا نصيحة لي في ديني لا ولله لا أعجل في هذا الأمر لشيء وكاد يحول عن نصر معاوية فلفف معاوية له الرّجال يدخلون إليه ويخرجون ويعظمون عنده قتل عثمان، حتّى أعادوا رأيه وشحذوا عزمه؛ ثمّ حثّه معاوية على السّير في مدائن الشّام والنّداء فيها أنّ عليّاً قتل عثمان وأنّه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه، فسار شرحبيل فبدأ بأهل جمص فأجابه النّاس كلّهم إلاّ نساكاً من أهل حمص، فإنّهم قالوا له: بيوتنا قبورنا ومساجدنا وأنت أعلم بما ترى وجعل شرحبيل يستنهض مدائن الشّام حتّى استفرغها لا يأتي على قوم إلا قبلوا ما أتاهم به.

قال نصر: فآيس جرير عند ذلك من معاوية وعن عوام أهل الشّام، وكان معاوية قد أتى

جريراً قبل ذلك في منزله فقال: يا جرير إنّي قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشّام ومصر جباية فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده في عنقي بيعة وأسلم له هذا الأمر، وأكتب إليه بالخلافة، فقال جرير: أكتب ما أردت وأكتب معك، فكتب معاوية بذلك إلى عليّ فكتب عليّ إلى جرير أمّا بعد.

فإنّما أراد معاوية أن لا يكون لي في عنقه بيعة وأن يختار من أمره ما أحبّ وأراد أن يورثيك ويبطيك حتّى يذوق أهل الشّام، وأنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليّ أن أستعمل معاوية على الشّام وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عضداً، فإن بايعك الرّجل وإلاّ فاقبل والسّلام، وفشا كتاب معاوية في النّاس.

وفي حديث صالح بن صدقة قال: أبطأ جرير عند معاوية حتّى اتهمه النّاس وقال عليّ عليه السلام: «قد وقّت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلاّ مخدوعاً أو عاصياً»، وأبطأ على عليّ حتّى آيس منه.

وفي حديث محمد وصالح بن صدقة قال: وكتب عليّ إلى جرير: أمّا بعد فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل ثمّ خيّره وخذه بالجواب بين حرب مخزية أو سلم مخطية، فإن اختار الحرب فانبذ إليه، وإن اختار السّلم فخذه ببيعته والسّلام، ويأتي ذكر هذا الكتاب من السّيد في باب المختار من كتبه.

قال: فلمّا انتهى الكتاب إلى جرير أتى معاوية فأقرأه الكتاب وقال له: يا معاوية إنّه لا يطبع على قلب إلاّ بذنب، ولا يشرح صدر إلاّ بتوبة، ولا أظنّ قلبك إلاّ مطبوعاً عليه أراك قد وقفت بين الحقّ والباطل كانك تنتظر شيئاً في يد غيرك فقال معاوية ألقاك بالفصل في أوّل مجلس إن شاء الله، فلمّا بايع معاوية أهل الشّام وذاقهم قال: يا جرير الحق بصاحبك وكتب إليه بالحرب وكتب في أسفل الكتاب شعر كعب بن جعيل:

أرى الشّام تكره أهل العراق وأهل العراق لهم كارهونا

وقد مرّ تمام ذلك الشّعر في شرح الكلام الثلاثين:

أقول وروي أنّ الكتاب الذي كتبه عليه السلام مع جرير صورته:

«إنّي قد عزلتك ففوض الأمر إلى جرير والسّلام».

وقال لجرير: «صن نفسك عن خداعه فإن سلم إليك الأمر وتوجه إليّ فأقم أنت بالشام، وإن تعلل بشيء فارجع»، فلما عرض جرير الكتاب على معاوية تعلل بمشاورة أهل الشام وغير ذلك؛ فرجع جرير وكتب معاوية في أثره في ظهر كتاب علي عليه السلام من ولاك حتّى تعزلني والسلام.

قال نصر: لمّا رجع جرير إلى عليّ كثر قول النّاس في التّهمة لجرير في أمر معاوية فاجتمع جرير والأشتر عند عليّ فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين أن لو كنت أرسلتني إلى معاوية لكنت خيراً لك من هذا الذي أرخا من خناقه وأقام عنده حتّى لم يدع باباً يرجو فتحه إلاّ فتحه، ولا باباً يخاف أمره إلاّ سدّه؛ فقال جرير: والله لكنت أتيتهم لقتلوك وخوّفه بعمر وذوي الكلاع وحوشب، وقال: إنّهم يزعمون أنّك من قتلة عثمان، فقال الأشتر: والله لو أتيتهم لم يعيني جوابها ولم يثقل عليّ محملها ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن فكره، قال: فائتهم إذن، قال: الآن وقد أفسدتهم ووقع بيننا الشرّ.

قال نصر: وروى الشعبي قال: اجتمع جرير والأشتر عند عليّ فقال الأشتر: أليس قد نهيتك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً وأخبرتك بعداوته وغشّه، وأقبل الأشتر يشتمه ويقول: يا أخا بجيله إنّ عثمان اشترى منك دينك بهمدان، والله ما أنت بأهل أن تمشي فوق الأرض حيّاً إنّما أتيتهم لتتخذ عندهم يداً بمسيرك إليهم ثمّ رجعت إلينا من عندهم تهدّدنا بهم، أنت والله منهم ولا أرى سعيك إلاّ لهم، لئن أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبستك وأشباهك في محبس لا يخرجون حتّى يستتمّ هذه الأمور ويهلك الله الظالمين.

قال جرير: وددت والله لو كنت مكاني بعثت إذن والله لا ترجع، قال: فلمّا سمع جرير مثل ذلك من قوله فارق عليّاً عليه السلام فلحق بقرقيساء، ولحق به أناس من قسر من قومه فلم يشهد صفين من قسر غير تسعة عشر رجلاً، ولكن شهدها من أحمس سبعمائة رجل وخرج علي عليه السلام إلى دار جرير فهدمه وهدم دور قوم ممّن خرج معه حيث فارق عليّاً[١].

التذييل الثاني

في أحداث عثمان وبدعه ومطاعنه والمثالب التي طعن بها فيه وهي كثيرة ونحن نذكر منها هنا عشرين[٢].

الأول

أنه ولي أمور المسلمين من لا يصلح لذلك ولا يؤتمن عليه، ومن ظهر منه الفسق والفساد، ومن لا علم له مراعاة لحرمة القرابة وعدولا عن مراعاة حرمة الدّين والنّظر للمسلمين حتّى ظهر ذلك منه وتكرّر، وقد كان عمر حذّره من ذلك حيث وصفه بأنّه كلف بأقاربه وقال له: إذا وليت هذا الأمر فلا تسلّط بني أبي معيط على رقاب النّاس، فوقع منه ما حذّره إيّاه وعوتب في ذلك فلم ينفع العتب.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٨١، ووقعة صفين: ٦٠.
(٢) انظر الغدير: ٩/ ١٤٥، والطرائف: ٤٩٩.

وذلك نحو استعماله الوليد بن عقبة وتقليده إيّاه حتّى ظهر منه شرب الخمر واستعماله سعيد بن العاص حتّى ظهرت منه الأمور التي عنده أخرجه أهل الكوفة وتوليته عبد الله بن أبي سرج، وعبد الله بن عامر بن كريز حتّى روي عنه في أمر ابن أبي سرج أنّه لمّا تظلّم منه أهل مصر وصرفه عنهم بمحمّد بن أبي بكر كاتبه بأن يستمرّ على ولايته فأبطن خلاف ما أظهر فعل من غرضه خلاف الدّين، ويقال إنّه كاتبه بقتل محمّد بن أبي بكر وغيره ممّن يردّ عليه، وظفر بذلك الكتاب ولذلك عظم التظلم من بعد وكثر الجمع، وكان سبب الحصار والقتل حتّى كان من أمر مروان وتسلطه عليه وعلى أمور ما قتل بسببه.

الثاني

أنّه رد الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله إلى المدينة وقد امتنع أبو بكر من ردّه، فصار بذلك مخالفاً للسنّة ولسيرة من تقدّمه وقد شرط عليه في عقد البيعة اتباع سيرتهما.

الثالث

أنّه كان يؤثر أهل بيته بالأموال العظيمة من بيت مال المسلمين، وقد مرّ ما يوضحه في شرح كلامه في الخطبة الشقشقيّة يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الرّبيع، فتذكر.

الرابع

أنه حمى الحمى عن المسلمين مع أنّ رسول الله جعلهم شُركاء سواء في الماء والكلأ.

روى المرتضى عن الواقدي بإسناده قال: كان عثمان يحمي الرّبذة والشرف والنّقيع، فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس ولا لبني أميّة حتّى كان آخر الزّمان فكان يحمي الشّرف لإبله وكانت ألف بعير، ولإبل الحكم بن أبي العاص، والرّبذة لإبل الصّدقة، ويحمي النّقيع لخيل المسلمين وخيله وخيل بني أمية.

الخامس

أنّه أعطى من بيت مال الصّدقة المقاتلة وغيرها، وذلك ممّا لا يحل في الدّين لأنّ المال الذي جعل الله له جهة مخصوصة لا يجوز العدول به عن تلك الجهة.

السادس

أنه ضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر بعض أضلاعه، وقد رووا في فضله في صحاحهم أخباراً كثيرة.

قال المرتضى في «**محكي الشّافي**»: قد روى كلّ من روى السّيرة على اختلاف طرقهم

أنّ ابن مسعود كان يقول: ليتني وعثمان برمل عالج يحثو عليّ وأحثو عليه حتّى يموت الأعجز منّي ومنه، وكان يقول في كلّ يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلناً إنّ أصدق القول كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمّد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار، وإنّما كان يقول ذلك معرضاً بعثمان حتّى غضب الوليد بن عقبة من استمرار تعريضه ونهاه عن خطبته هذه فأبى أن ينتهي فكتب إلى عثمان فيه فكتب عثمان يستقدمه عليه.

وروى الواقدي وغيره أنّ ابن مسعود لمّا استقدم المدينة دخلها ليلة جمعة فلما علم عثمان بدخوله قال: أيها الناس إنه قد طرقكم الليلة دويبة تمشي **(من تمرّ على طعامه تقيء وتسلح فيه)** على طعامه يقي ويصلح، فقال ابن مسعود لست كذلك، ولكنّني صاحب رسول الله يوم بدر، وصاحبه يوم أحد، وصاحبه يوم بيعة الرّضوان، وصاحبه يوم الخندق، وصاحبه يوم حنين، قال: وصاحت عائشة: يا عثمان أتقول هذا لصاحب رسول الله؟ فقال عثمان: اسكتي، ثمّ قال لعبد الله بن زمعة بن الأسود أخرجه إخراجاً عنيفاً، فاحتمله حتّى جاء به باب المسجد فضرب به الأرض فكسر ضلعاً من أضلاعه فقال: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان[1].

السابع

أنّه جمع النّاس على قراءة زيد بن ثابت خاصة وأحرق المصاحف وأبطل ما لا شك أنه منزل من القرآن وأنّه مأخوذ من الرّسول، ولو كان ذلك حسناً لسبق إليه رسول الله ﷺ وقد مرّ توضيح ذلك في التّنبيه الثّاني من تنبيهات الفصل من فصول الخطبة الأولى.

والطعن في ذلك من وجهين **أحدهما**: أن جمع النّاس على قراءة زيد إبطال للقرآن المنزل وعدول عن الرّاجح إلى المرجوح في اختيار زيد من جملة قرّاء القرآن، بل هو ردّ صريح لقول رسول الله ﷺ نزل القرآن على سبعة أحرف كلّها كاف شاف على ما ورد في صحاح أخبارهم. **الثّاني**: أنّ إحراق المصاحف الصّحيحة استخفاف بالدّين محادّة لله ربّ العالمين.

الثامن

أنّه أقدم على عمّار بن ياسر بالضّرب حتّى حدث به فتق، ولهذا صار أحد من ظاهر المتظلمين من أهل الأمصار على قتله وكان يقول قتلنا كافراً.

قال المرتضى في **«محكي الشافي»**: ضرب عمّار ممّا لم يختلف فيه الرّواة وإن اختلفوا

(١) البحار: ٣١/١٨٩.

في سببه، فروى عبّاس بن هشام الكلبي عن أبي مخنف في إسناده أنّه كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله وأظهر النّاس الطعن عليه في ذلك وكلّموه فيه بكل كلام شديد حتّى غضب فخطب وقال: لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام، فقال له عليّ إذاً تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه، فقال عمّار: اشهد والله أنّ انفي أوّل راغم من ذلك، فقال عثمان أعليَّ يا ابن ياسر وسمّية تجتري؟ خذوه، فأخذ ودخل عثمان فدعا به فضربه حتّى غشي عليه، ثمّ أخرج فحمل حتّى أتي به منزل أمّ سلمة فلم يصل الظهر والعصر والمغرب فلمّا أفاق توضّأ وصلى وقال الحمد لله ليس هذا أوّل يوم أوذينا في الله.

فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي وكان عمّار حليفاً لبني مخزوم: يا عثمان أمّا عليّ عليه السلام فاتّقيته، وأمّا نحن فاجترأت علينا وضربت أخانا حتّى أشرفت به على التّلف أما والله لئن مات لأقتلنّ به رجلاً من بني أميّة عظيم الشأن، فقال عثمان: وإنّك ههنا يا ابن القسريّة قال: فإنهما قسريّتان وكانت أم هشام وجدته قسريتين من بحيلة فشتمه عثمان وأمر به فأخرج، وأتي به أمّ سلمة فإذا هي قد غضبت لعمّار وبلغ عائشة ما صنع بعمّار فغضبت أيضاً وأخرجت شعراً من شعر رسول الله ونعلاً من نعاله وثوباً من ثيابه وقالت أسرع ما تركتم سنّة نبيّكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم تبل.

وروى آخرون أنّ السّبب في ذلك أنّ عثمان مرّ بقبر جديد فسأل عنه فقيل عبد الله بن مسعود، فغضب على عمار لكتمانه إيّاه موته إذ كان المتولي للصّلاة عليه والقيام بشأنه فعندها وطىء عثمان عمّاراً حتّى أصابه الفتق.

وروى آخرون أنّ المقداد وطلحة والزّبير وعمّار أو عدّة من أصحاب رسول الله كتبوا كتاباً عددوا فيه أحداث عثمان وخوّفوه ربّه وأعلموا أنّهم مواثبوه ان لم يقلع فأخذ عمّار الكتاب فأتاه به فقرأه منه صدراً، ثمّ قال له أعلى تقدم من بينهم، فقال إنّي أنصحهم لك، قال: كذبت يا ابن سميّة، فقال: أنا والله ابن سميّة وابن ياسر، فأمر عثمان غلماناً له فمدّوا بيديه ورجليه ثمّ ضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق وكان ضعيفاً كبيراً فغشي عليه.

وقال المحدّث المجلسي: وعندي أنّ السّبب الحامل لعثمان على ما صنع بعمّار هو أنّ عمّاراً كان من المجاهرين بحبّ عليّ عليه السلام وأن من غلبه على الخلافة غاصب لها فحملته عداوته لأمير المؤمنين وحبه للرّئاسة على إهانته وضربه حتى حدث به الفتق وكسر ضلعاً من أضلاعه[١].

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ١٩٧.

التاسع

ما صنع بأبي ذر من الإهانة والضرب والإستخفاف مع علوّ شأنه وتقدمه في الإسلام حتى سيره إلى الربذة ونفاه ويأتي تفصيل ذلك في الكتاب حيثما بلغ الكلام محله.

العاشر

تعطيله الحد الواجب على عبيد الله بن عمر بن الخطاب، فإنه قتل الهرمزان بعد إسلامه بتهمة أنه أغرى أبا لؤلؤة إلى قتل أبيه عمر، فلم يقده عثمان به وقد كان أمير المؤمنين يطلبه، وروي أنه لمّا ولي الخلافة أراد قتله فهرب منه إلى معاوية بالشّام.

الحادي عشر

وهو اجمالي قاليّ وهو أنّه لو لم يقدم عثمان على إحداث يوجب خلعه والبراءة منه لوجب على الصّحابة أن ينكروا على من قصده من البلاد متظلّماً، وقد علمنا أن بالمدينة كان كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ولم ينكروا على القوم بل أسلموه ولم يدفعوا عنه، بل أعانوا قاتليه ولم يمنعوا من قتله وحصره ومنع الماء عنه، وهذا من أقوى الدّليل على تصديق الصّحابة للمطاعن فيه وبراءتهم منه، ولو لم يكن في أمره إلاّ ما روي عن أمير المؤمنين من قوله الله قتله وأنا معه مريداً بذلك رضاءهما به لكفى.

هذا كلّه مضافاً إلى أنّهم تركوه بعد قتله ثلاثة أيّام على المزابل لم يدفنوه وهو من أدلّ الدلائل على رضاهم بقتله.

ويناسب المقام حكاية ظريفة روي في كتاب الصّراط المستقيم وغيره أنّ ابن الجوزي قال يوماً على منبره: سلوني قبل أن تفقدوني، فسألته امرأة عما روى أنّ عليّاً سار في ليلة إلى سلمان فجهزه ورجع، فقال: روي ذلك، قالت: فعثمان ثمّ ثلاثة أيّام منبوذاً في المزابل وعليّ حاضر، قال: نعم، قالت: فقد لزم الخطأ لأحدهما، فقال: إن كنت خرجت من بيتك بغير إذن زوجك فعليك لعنة الله، وإلاّ فعليه، فقالت: خرجت عائشة إلى حرب عليّ عليه السلام بإذن النبيّ أولا؟ فانقطع ولم يجد جواباً[1].

الثاني عشر

إتمامه الصّلاة بمنى مع كونه مسافراً وهو مخالف للسّنة وللسّيرة، فقد روي في **«البحار»** من كتاب **«جامع الأصول»** عن عبد الرّحمن بن يزيد قال صلى بنا عثمان بمنى أربع ركعات فقيل ذلك لعبد الله بن مسعود، فقال: صليت مع رسول الله بمنى ركعتين ومع أبي بكر

(١) الصراط المستقيم: ١/٢١٨.

ركعتين ومع عمر ركعتين[(١)] .

الثالث عشر

جرأته على الرّسول ﷺ ومضادّته له، فقد حكى العلامة في كتاب «**كشف الحق**» عن الحميدي قال: قال السدي في تفسير قوله تعالى:

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

أنه لمّا توفي أبو سلمة وعبد الله بن حذافة وتزوّج النّبي ﷺ إمرأتهما أمّ سلمة وحفصة، قال طلحة وعثمان: أينكح محمّد نسائنا إذا متنا ولا ننكح نساءه إذا مات، والله لو قد مات لقد أجلنا على نسائه بالسّهام، وكان طلحة يريد عائشة وعثمان يريد امّ سلمة فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] وأنزل ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب: ٥٤] وأنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

الرابع عشر

عدم إذعانه بقضاء رسول الله، روى العلامة أيضاً في «**كشف الحقّ**» عن السّدي في تفسير قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ، وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥٠].

الآيات قال السّدي: نزلت هذه في عثمان بن عفّان، قال: لما فتح رسول الله بني النّضير فغنم أموالهم فقال عثمان لعليّ: ائت رسول الله فاسأله أرض كذا وكذا، فإن أعطاكها فأنا شريكك وآتيه أنا فاسأله إيّاها، فإن أعطانيها فأنت شريكي فيها فسأله عثمان أوّلاً فأعطاه إيّاها فقال له عليّ أشركني فأبى عثمان، فقال بيني وبينك رسول الله فأبى أن يخاصمه إلى النّبي ﷺ فقيل له لم لم تنطلق معه إلى النبيّ؟ فقال: هو ابن عمه فأخاف أن يقضي له فنزل قوله:

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٣١، والغدير: ٨/ ٩٩.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: ٤٨] إلى قولك: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠] فلمّا بلغ النبيّ ما أنزل الله فيه أتى النّبي فأقرّ لعليّ بالحقّ.

الخامس عشر

أنّه زعم أنّ في المصحف لحناً، فقد حكي في **«البحار»** من **«كشف»** الحق عن تفسير الثعلبي في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣] قال: قال عثمان: إنّ في المصحف لحناً فقيل له ألا تغيره؟ فقال: دعوه فلا يحلّل حراماً ولا يحرّم حلالاً قال في **«البحار»**: ورواه الرّازي أيضاً في تفسيره.

السادس عشر

تقديمه الخطبتين في العيدين، وكون الصّلاة مقدّمة على الخطبتين قبل عثمان ممّا تظافرت به الأخبار العاميّة وأخبار أهل البيت في ذلك أيضاً بالغة حدّ الإستفاضة وقال العلامة (ره) في **«محكي المنتهى»**: لا نعرف في ذلك خلافاً إلاّ من بني أميّة، وفي **«البحار»** من التّهذيب بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أحدهما قال: الصّلاة قبل الخطبتين: وكان أوّل من أحدثها بعد الخطبة عثمان لمّا أحدث أحداثها كان إذا فرغ من الصّلاة قام النّاس ليرجعوا فلمّا رأى ذلك قدم الخطبتين واحتبس النّاس للصّلاة.

السابع عشر

إحداثه الأذان يوم الجمعة زائداً على ما سنّه رسول الله ﷺ وهو بدعة محرمة.

الثامن عشر

أنّه لم يتمكّن من الإتيان بالخطبة، فقد روي في **«البحار»** من **«روضة الأحباب»** أنه لمّا كان أوّل جمعة من خلافته صعد المنبر فعرضه العي فعجز عن أداء الخطبة فتركها، وقال: «بسم الله الرّحمن الرّحيم أيّها النّاس سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد عي نطقاً، وإنّكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال، أقول قولي واستغفر الله لي ولكم» فنزل.

قال: وفي رواية أنه قال: الحمد لله وعجز عن الكلام، وفي رواية أنّه قال: أوّل كلّ مركب صعب وأنّ أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى امام قائل، وإن أعش فآتكم الخطبة على وجهها ويعلم الله إن شاء الله تعالى[1].

فإن الظّاهر من الرّواية أن الخطبة كانت خطبة الجمعة الواجبة وأنّ عثمان لمّا حضر وعرضه العيّ ترك الخطبة ولم يأمر أحداً بالقيام بها وإقامة الصّلاة وإلا لرووه فالأمر في ذلك

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٤٥، والغدير: ٨/ ١٦٣.

ليس مقصوراً على العجز والقصور، بل فيه ارتكاب المحظور فيكون أوضح في الطعن.

التاسع عشر

جهله بالأحكام، فقد روى العلامة في «**كشف الحق**» من «**صحيح مسلم**» أنّ امرأة دخلت على زوجها فولدت لستّة أشهر فذكر ذلك لعثمان بن عفّان فأمر بها أن ترجم فدخل عليه عليّ عليه السلام فقال: إنّ الله عزّ وجل يقول:

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وقال أيضاً: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] فلم يصل رسولهم إليه إلاّ بعد الفراغ من رجمها، فقتل المرأة المسلمة عمداً، لجهله بحكم الله وقد قال الله:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣] وقال أيضاً: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٧].

الطعن العشرون

قلة إعتنائه بالشريعة، وقد قال في «**البحار**» أنّ مرويّاته في كتب الجمهور مع حرص أتباعه من بني أميّة والمتأخرين عنهم على إظهار فضله لم يزد على مائة وستّة وأربعين، وقد رووا عن أبي هريرة خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثاً، وذلك إمّا لغلبة الغباوة حيث لم يأخذ في طول الصّحبة إلاّ نحواً ممّا ذكر أو لقلة الإعتناء برواية كلام الرّسول وكلاهما يمنعان من استيهال الخلافة والإمامة.

وإعلم أنّ الشّارح المعتزلي بعد ما أورد المطاعن العشرة الأول مع الطعن الحادي عشر في الشّرح وما أجاب به قاضي القضاة عن تلك المطاعن في «**المغني**» وما أورده السّيد في «**الشّافي**» على تلك الأجوبة أجاب عنها جميعاً بوجه إجمالي وهو أنّا لا ننكر أنّ عثمان أحدث أحداثاً أنكرها كثير من المسلمين، ولكنّا ندّعي مع ذلك أنّها لم تبلغ درجة الفسق ولا أحبطت ثوابه وأنّها من الصغائر التي وقعت مكفرة، وذلك لأنّا قد علمنا أنّه مغفور له وأنّه من أهل الجنّة لثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه من أهل بدر وقد قال رسول الله: إنّ الله اطلع على أهل بدر فقال «إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[(١)].

لا يقال: إنّ عثمان لم يشهد بدراً لأنا نقول: صدقتم إنّه لم يشهدها ولكنه تخلف على

(١) الوسائل: ١٤/٤٦٢، ومسند أحمد: ١/٨٠.

رقية ابنة رسول الله بالمدينة لمرضها وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره باتفاق سائر الناس.

وثانيها: أنّه من أهل بيعة الرّضوان الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

لا يقال: إنّه لم يشهد البيعة تحت الشّجرة لأنّا نقول: صدقتم إنّه لم يشهدها ولكنّه كان رسول الله أرسله إلى أهل مكّة ولأجله كانت بيعة الرّضوان حيث أرجف بأنّ قريشاً قتلت عثمان، فقال رسول الله ﷺ: «وإن كانوا قتلوه لأضرمنّا عليهم ناراً» ثمّ جلس تحت الشّجرة وبايع النّاس على الموت ثمّ قال: «إن كان عثمان حيّاً فأنا بايع عنه» فصفح بشماله على يمينه وقال: «شمالي خير من يمين عثمان»، روى ذلك جميع أرباب أهل السّيرة متفقاً عليه[1].

وثالثها: أنّه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنّهم من أهل الجنّة وإذا كانت هذه الوجوه الثلاثة دالة على أنّه مغفور له وأنّ الله قد رضي عنه وأنّه من أهل الجنّة بطل أن يكون فاسقاً، لأنّ الفاسق عندنا يخرج من الإيمان وينحط ثوابه ويحكم له بالنّار ولا يغفر له ولا يرضى عنه ولا يرى الجنّة ولا يدخلها، فاقتضت هذه الوجوه الصّحيحة الثّابتة أن يحكم بأن كلّ ما وقع منه فهو من باب الصغائر المكفرة توفيقاً بين هذه الوجوه وبين روايات الأحداث المذكورة، انتهى.

ويورد عليه أنّ المستند في جميع تلك الوجوه ليس إلاّ ما تفرّد المخالفون بروايته ولا يصحّ التمسّك به في مقام الإحتجاج كما مرّ مراراً، والأصل في أكثرها ما رواه البخاري عن عثمان عبد الله قال: قال رجل من أهل مصر لعبد الله بن عمر: أنا سائلك عن شيء فحدّثني هل تعلم أنّ عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم، فقال: تعلم أنّه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم قال: تعلم أنّه تغيب عن بيعة الرّضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر، قال ابن عمر: تعال أبيّن لك، أمّا فراره يوم أحد فأشهد أنّ الله عفا عنه وغفر له، وأمّا تغيّبه عن بدر فإنّه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال رسول الله ﷺ: «إنّ لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه»، وأما تغيّبه عن بيعة الرّضوان فلو كان أحد أعزّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرّضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان، ثمّ قال ابن عمر إذهب بها الآن معك[2].

---

(١) شرح النهج للمعتزلي: ٣/ ٦٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد: ١١/ ٢٨٤.

وابن عمر هو الذي قعد عن نصرة أمير المؤمنين وبايع رجل الحجّاج ولا عبرة بقوله ولا روايته مع قطع النّظر عن سائر رواة الخبر، وحديث العشرة المبشّرة أيضاً ممّا تفرّدوا بروايته، وقد روى أصحابنا تكذيب أمير المؤمنين لهذه الرّواية.

وهو ما رواه الطبرسي في **«الإحتجاج»** عن سليم بن قيس الهلالي قال: لمّا التقى أمير المؤمنين أهل البصرة يوم الجمل نادى الزّبير أبا عبد الله أخرج إليّ، فخرج الزّبير ومعه طلحة، قال: والله إنّكما لتعلمان وأولوا العلم من آل محمّد وعائشة بنت أبي بكر أنّ كلّ أصحاب الجمل ملعونون على لسان محمّد وقد خاب من افترى، قال الزّبير: كيف نكون ملعونين ونحن أهل الجنّة؟ فقال عليّ عليه السلام: «لو علمت أنّكم من أهل الجنّة لما استحللت قتالكم».

فقال له الزّبير أما سمعت حديث سعيد بن عمرو بن نفيل، وهو يروى أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: عشرة من قريش في الجنّة قال عليّ عليه السلام: «سمعته يحدّث بذلك عثمان في خلافته»، فقال له الزّبير: أفتراه يكذب على رسول الله فقال عليّ عليه السلام: «لست أخبرك بشيء حتّى تسمّيهم»، قال الزّبير: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة؛ والزبير، وعبد الرّحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وسعيد بن عمرو بن نفيل؛ فقال له عليّ عليه السلام: «عددت تسعة فمن العاشر»؟ قال له: أنت.

قال له عليّ عليه السلام: «أمّا أنت فقد أقررت أنّي من أهل الجنّة، وأمّا ما ادعيت لنفسك وأصحابك فأنا به من الجاحدين الكافرين»، قال الزّبير: أفتراه كذب على رسول الله؟ قال: ما أراه كذب ولكنّه والله اليقين، فقال عليّ عليه السلام: «والله إنّ بعض ما سمّيته لفي تابوت في شعب في جبّ في أسفل درك من جهنّم، على ذلك الجبّ صخرة إذا أراد الله أن يسعر جهنّم رفع تلك الصّخرة، سمعت ذلك من رسول الله وإلاّ أظفرك الله بي وسفك دمي على يديك وإلاّ أظفرني الله عليك وعلى أصحابك وعجّل أرواحكم إلى النّار». فرجع الزّبير إلى أصحابه وهو يبكي(١).

ويؤيّد ضعفه أيضاً أنّه ليس بمرويّ في صحاحهم إلاّ عن رجلين عدا أنفسهما، وهما سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الرحمٰن بن عوف والتّهمة في روايتهما لتزكيتهما أنفسهما واضحة.

ويؤكده أيضاً ما ذكره السّيد (ره) في **«الشّافي»** من أنّه تعالى لا يجوز أن يعلم مكلفاً يجوز أن يقع منه القبيح والحسن وليس بمعصوم من الذّنوب بأنّ عاقبته الجنة لأنَ ذلك يغريه بالقبيح ولا خلاف في أنّ أكثر العشرة لم يكونوا معصومين من الذّنوب وقد أوقع بعضهم

(١) بحار الأنوار: ١٩٨/٣٢.

بالاتفاق كبائر وإن ادعى المخالفون أنهم تابوا منها.

قال: وما يبين بطلان هذا الخبر أنّ أبا بكر لم يحتجّ به لنفسه ولا احتجّ به له في مواقع رقع فيه الإحتياج إلى الإحتجاج، كالسقيفة وغيرها، وكذلك عمر وعثمان لمّا حوصر وطولب بخلع نفسه وهموا بقتله، وقد رأيناه احتجّ بأشياء يجري مجرى الفضائل والمناقب، وذكر القطع له بالجنة أولى وأحرى بأن يعتمد عليه في **الإحتجاج** وفي عدول الجماعة عن ذكره دلالة واضحة على بطلانه.

تبصرة

روى الشّارح المعتزلي في تضاعيف شرح هذا المقام عن إبراهيم بن ويزيل، قال: حدّثنا زكريّا بن يحيى، قال: حدّثنا عليّ بن القاسم، عن سعيد بن طارق، عن عثمان بن القاسم، عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما إن تسالمتم عليه لم تهلكوا، إنّ وليكم الله وإمامكم عليّ بن أبي طالب فناصحوه وصدقوه فإن جبريل أخبرني بذلك»[1].

ثمّ قال الشّارح: فإن قلت: هذا نصّ صريح في الإمامة فما تصنع المعتزلة قلت: يجوز أن يريد أنّه إمامهم في الفتاوى والأحكام الشّرعية لا في الخلافة، وأيضاً فإنّا قد شرحنا من قول شيوخنا البغداديّين ما محصوله أنّ الإمامة كانت لعلي إن رغب فيها ونازع عليها، وإن أقرّها في غيره وسكت عنها تولينا ذلك الغير، وقلنا بصحّة خلافته، وأمير المؤمنين لم ينازع الأئمّة الثلاثة ولا جرّد السّيف ولا استنجد بالنّاس عليهم، فدلّ ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه، فلذلك توليناهم وقلنا فيهم بالطهارة والخير والصّلاح، ولو حاربهم وجرّد السّيف عليهم واستصرخ العرب على حربهم وقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه المعاملة من التّفسيق والتّضليل انتهى.

أقول: بعد الإعتراف بكون الرّواية نصّاً صريحاً في الإمامة كما هي كذلك في الواقع أيضاً كيف يجوز تأويله، إذ التأويل إنّما يأتي في المتشابهات والمحتملات لا في النّصوصات، وعلى فرض التنزيل أقول: لا أقل من كونها ظاهرة في الإمامة المطلقة ولا دليل ولا داعي إلى رفع اليد عن الظهور وحملها على الإمامة في الفتاوى والأحكام مع تنافي المعطوف عليه أعني قوله: وليّكم، لذلك الحمل أيضاً، لأنّ المتبادر منه هو الأولى بالتّصرف حسبما ذكرناه في مقدّمات الخطبة الشّقشقيّة، مضافاً إلى عدم تعارف استعمال لفظ الإمامة في مقام الفتوى والقضاء كما لا يخفى.

---

(١) المسترشد: ٦٣٢ ح ٢٩٦، وميزان الحكمة: ١/ ١٣٧.

وأمّا ما ذكره من قول شيوخه البغداديّين فهو محصّل ما حكيناه عنه في مقدّمات الخطبة الشقشقية وفي شرح الكلام السابع والثلاثين في أوّل التنبيهين، ونبهنا هناك على فساده بما لا مزيد عليه ودللنا على أنه عليه السلام طلب الخلافة ورغب فيها واستنجد في الناس واستصرخ العرب على الحرب وحمل امرأته وابنيه معه، فلم يدع أحداً من المهاجرين والأنصار إلاّ استنجد بهم واستنصر منهم، فلم يجبه إلاّ ثلاثة أو أربعة ولما لم يجد أعواناً كفّ وسكت تقية وحقناً لدمه، فليس في عدم تجريد السيف والنزاع دليلاً على التقرير والرّضاء كما علمت تفصيلاً فتذكر.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام عالى مقام است در وقتى كه اشاره كردند بر او اصحاب او به مهيا شدن از براى حرب اهل شام، بعد از فرستادن آن حضرت جرير بن عبدالله بجلى را به سوى معاويه ملعون، مى فرمايد:

به درستى كه مهيا شدن من از براى محاربه اهل شام و حال آن كه جرير نزد ايشان است اكراه كردن است يا در بستن شام را و بازگردانيدن است اهل آن را از قبول طاعت اگر اراده طاعت داشته باشند، وليكن من تعيين كرده ام از براى جرير وقتى را كه نمى ايستد بعد از آن وقت مگر فريفته شده يا عصيان ورزيده و فكر صايب با تأنى و آهستگى است، پس به نرمى كار كنيد و مكروه نمى شمارم از براى شما مهياساختن اسباب حرب را به جهت حزم و احتياط و به تحقيق كه زدم بينى اين كار را و چشم او را و گردانيدم پشت و شكم او را، پس نديدم از براى خود در آن كار مگر محاربه نمودن يا كافر شدن به آن چيزى كه پيغمبر خدا آن را آورده است؛ به درستى كه بود بر امت حضرت رسالت، حاكمى كه پديد آورد كارهاى بى موقع و نامناسب را و موجود ساخت از براى مردمان محل گفتگورا، پس گفتند در حق او آن چه گفتنى بود، بعد از آن انكار كردند و عتاب نمودند، پس تغيير دادند و به قتل آوردند او را.

ومن كلام له عليه السلام وهو الرابع والأربعون من المختار في باب الخطب

لمّا هرب مصقلة بن هبيرة الشّيباني إلى معاوية وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين وأعتقهم، فلمّا طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشّام.

«قَبَّحَ اللَّهُ مَصْقَلَةَ فَعَلَ فِعْلَ السّادَةِ، وفَرَّ فِرارَ الْعَبِيدِ، فَما أَنْطَقَ مادِحَهُ حَتّى أَسْكَتَهُ، وَلاَ صَدَّقَ واصِفَهُ حَتّى نَكَبَهُ، وَلَوْ أَقامَ لأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ، وانْتَظَرْنَا بِمالِهِ وَفُورَهُ»[١].

اللغة

(مصقلة) بفتح الميم وهو مصقلة بن هبيرة بن شبل بن ثيرى بن امرئ القيس بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن شيبان، و**(بنو ناجية)** قوم نسبوا أنفسهم إلى سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة، فدفعتهم قريش عن هذا النسب ونسبتهم إلى أمّهم ناجية وهي امرأة سامة بن لؤي.

قالوا: إنّ سامة خرج إلى ناحية البحرين مغاضباً لأخيه كعب بن لؤي فطأطأت ناقته رأسها لتأخذ العشب فعلق بمشفرها أفعى ثمّ عطفت على قبتها فحكته به، فدب الأفعى على القبت «كذا» حتّى نهش ساق سامة فقتله، وكانت معه امرأته ناجية فلمّا مات تزوّجت رجلاً في البحرين فولدت منه الحارث، ومات أبوه وهو صغير فلمّا ترعرع طمعت أمّه أن تلحقه بقريش فأخبرته أنه ابن سامة بن لؤي فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمّه، فأخبر كعب بن لؤي أنّه ابن أخيه سامة، فعرف كعب أمّه ناجية فظنّ أنّه صادق في دعواه فقبله، ومكث عنده مدّة حتّى قدم ركب من البحرين فرأوا الحارث فسلموا عليه وحادثوه فسألهم كعب بن لؤي أين يعرفونه، فقالوا: هذا ابن رجل من بلدنا يعرف بفلان، وشرحوا له خبره فنفاه كعب عن مكة ونفي أمّه فرجعا إلى البحرين فكانا هناك، وتزوج الحارث وأعقب هذا العقب[٢].

و**(خاس به)** يخيس ويخوس أي غدر به، وخاس فلان بالعهد أي أخلف و**(التنكيب)** التّوبيخ والتّقريع و**(الميسور)** ضد المعسور و**(الوفور)** مصدر وفر المال أي كثر وتمّ ويجيء متعدّياً وفي بعض النّسخ موفوره وهو التّام.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٠٥ ح ٦٢٧، ونهج السعادة: ٥/١٩١.

(٢)

الإعراب

جملة: قبّح الله مصقلة، دعائية لا محلّ لها من الإعراب، وجملة: فعل فعل السّادة، استئنافيّة بيانيّة واقعة موقع الجواب عن سؤال علة الدّعاء بالتقبيح.

المعنى

إعلم أنّ هذا الكلام قاله عليه السلام **(لمّا هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني)** منه **(إلى معاوية وكان)** سبب هربه أنّه **(قد ابتاع سبي بني ناجية من)** معقل بن قيس الرياحي **(عامل أمير المؤمنين وأعتقهم فلمّا طالبه)** أمير المؤمنين **(بالمال خاس به)** وغدر **(وهرب إلى الشّام)** نحو معاوية فبلغ ذلك إليه عليه السلام فقال: «**قبّح الله مصقلة**» ونحاه عن الخير **(فعل فعل السّادة)** حيث اشترى القوم وأعتقهم **(وفرّ فرار العبيد)** على ما هو شيمتهم وعادتهم **(فما أنطق مادحه حتّى أسكته)** يعني أنّه جمع بين عاتبين متنافيين إنطاقه لمادحه بفداء الأسرى مع إسكاته بهربه قبل تمام إنطاقه، وهو وصف لسرعة إلحاقه رذيلته بفضيلته حتّى كأنّه قصد الجمع بينهما **(ولا صدّق واصفه حتّى نكبه)** يعني: أنه لم يصدق الواصف له بحسن فعله حتّى وبخه بسوء عمله، ثم أشار إلى جواب ما يتوهّم اعتذاره به وهو خوف التضييق عليه في بقيّة المال فقال **(ولو أقام)** ولم يهرب **(لأخذنا)** منه **(ميسوره وانتظرنا بماله)** تمامه **(ووفوره)** هذا.

وأما قصة بني ناجية وسبب هرب مصقلة فعلى ما ذكره في «**البحار**» وشرح المعتزلي من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمّد الثقفي بتلخيص منّا هو: أن الخريت ابن راشد النّاجي أحد بني ناجية قد شهد مع عليّ عليه السلام صفّين ثمّ استهواه الشّيطان وصار من الخوارج بسبب التّحكيم، فخرج هو وأصحابه إلى المدائن وقتلوا في طريقهم مسلماً فوجه أمير المؤمنين إليهم زياد بن حفصة في مائة وثلاثين رجلاً، فلحقوهم بالمدائن واقتتلوا هنالك واستشهد من أصحاب زياد رجلان وأصيب منهم خمسة نفر وحال اللّيل بين الفريقين فبات أصحاب زياد في جانب وتنحّى الخوارج فمكثوا ساعة من الليل ثمّ مضوا فذهبوا.

ولمّا أصبح أصحاب زياد وجدوا أنّهم ذهبوا فمضى أصحاب زياد إلى البصرة وبلغهم أنّهم أتوا الأهواز فنزلوا في جانب منها، وتلاحق بهم ناس من أصحابهم نحو مائتين، فأقاموا معهم وكتب زياد بذلك إلى أمير المؤمنين يخبره الخبر، ويأتي ذكر ذلك الكتاب وتفصيل قتال الفريقين في شرح المختار المائة والثمانين إن شاء الله.

قال إبراهيم: فلمّا أتاه الكتاب قرأه على النّاس، فقام إليه معقل بن قيس الرّياحي فقال: أصلحك الله يا أمير المؤمنين إنّما كان ينبغي أن يكون مكان كلّ رجل من هؤلاء الذين بعثتهم في طلبهم عشرة من المسلمين فإذا لحقوهم استأصلوا شأفتهم وقطعوا دابرهم، فقال عليه السلام له: «تجهز يا معقل إليهم» وندب معه ألفين من أهل الكوفة فيهم يزيد بن المعقل وكتب إلى

عبد الله بن العباس وكان عامل البصرة.

«أمّا بعد فابعث رجلاً من قبلك صليباً شجاعاً معروفاً بالصّلاح في ألفي رجل من أهل البصرة فليتبع معقل بن قيس فإذا خرج من أرض البصرة فهو أمير أصحابه حتّى يلقى معقلاً، فإذا لقاه فمعقل أمير الفريقين فليسمع منه وليطعه ولا يخالفه، ومر زياد بن حفصة فليقبل إلينا فنعم المرء زياد ونعم القبيل قبيلته» وكتب عليه السلام إلى زياد.

«أمّا بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به النّاجي وأصحابه الذين طبع الله على قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم فهم حيارى عمون يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ووصفت ما بلغ بك وبهم الأمر فأما أنت وأصحابك فللّه سعيكم وعليه جزاؤكم وأيسر ثواب الله للمؤمن خير له من الدنيا التي يقتل الجاهلون أنفسهم عليها فما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وأمّا عدوّكم الذين لقيتم فحسبهم خروجهم من الهدى وارتكابهم في الضّلالة وردّهم الحقّ وجماحهم في التّيه، فذرهم وما يفترون، ودعهم في طغيانهم يعمهون، فأسمع بهم وأبصر فكأنّك بهم عن قليل بين أسير وقتيل، فأقبل إلينا أنت وأصحابك مأجورين، فقد أطعتم وسمعتم وأحسنتم البلاء والسلام».

قال: ونزل النّاجي جانباً من الأهواز واجتمع إليه علوج كثير من أهلها ممّن أراد كسر الخراج ومن اللّصوص وطائفة أخرى من الأعراب يرى رأيه[١].

قال إبراهيم: وروي عن عبد الله بن قعين قال: كنت أنا وأخي كعب بن قعين في ذلك الجيش مع معقل بن قيس، فلما أراد الخروج أتى أمير المؤمنين يودعه فقال عليه السلام: «يا معقل ابن قيس اتّق الله ما استطعت فإنّه (فإنها خ) وصيّة الله للمؤمنين لا تبغ على أهل القبلة ولا تظلم على أهل الذّمة ولا تتكبر فإنّ الله لا يحبّ المتكبرين»، فقال معقل: الله المستعان، فقال عليه السلام: «خير مستعان»، ثمّ قام فخرج وخرجنا معه حتّى نزل الأهواز، وبعث ابن عباس خالد بن معدان مع جيش البصرة فدخل على صاحبنا فسلّم عليه بالإمرة واجتمعا جميعاً في عسكر واحد.

قال عبد الله بن قعين: ثمّ خرجنا إلى النّاجي وأصحابه فأخذوا نحو جبال رامهرمز يريدون قلعة حصينة، وجاءنا أهل البلد فأخبرونا بذلك فخرجنا في آثارهم فلحقناهم وقد دنوا من الجبل فصفقنا لهم، ثمّ أقبلنا نحوهم فجعل معقل على ميمنته يزيد بن معقل، وعلى ميسرته منجاب بن راشد، ووقف النّاجي بمن معه من العرب فكانوا ميمنة وجعل أهل البلد والعلوج ومن أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة.

---

(١) الغارات: ١/ ٣٥٠، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤١١.

وسار فينا معقل يحرضنا ويقول: يا عباد الله لا تبدأوا القوم وغضوا الأبصار وأقلوا الكلام ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب وأبشروا في قتالهم بالأجر العظيم إنّما تقاتلون مارقة مرقت وعلوجاً منعوا الخراج ولصوصاً وأكراداً فما تنتظرون فإذا حملت فشدّوا شدّة رجل واحد.

قال فمرّ في الصّف لكلهم يقول هذه المقالة حتّى إذا مرّ بالنّاس كلهم أقبل فوقف وسط الصّف في القلب ونظرنا إليه ما يصنع فحرك رايته تحريكتين ثمّ حمل في الثالثة وحملنا معه جميعاً، فوالله ما صبروا لنا ساعة حتّى ولوا وانهزموا، وقتلنا سبعين عربياً من بني ناجية، ومن بعض من اتّبعه من العرب، ونحو ثلثمائة من العلوج، والأكراد، وخرج النّاجي منهزماً حتّى لحق بسيف من أسياف البحر وبها جماعة من قومه كثير فما زال يسير فيهم ويدعوهم إلى خلاف علي عليه السلام ويزين لهم فراقه ويخبرهم أنّ الهدى في حربه ومخالفته حتّى اتّبعه منهم ناس كثير.

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز وكتب إلى أمير المؤمنين بالفتح وكان في الكتاب: لعبد الله علي أمير المؤمنين من معقل بن قيس سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو أما بعد، فإنّا لقينا المارقين وقد استظهروا علينا بالمشركين فقتلنا منهم ناساً كثيراً ولم نعد فيهم سيرتك، لم نقتل منهم مدبراً ولا أسيراً ولم ندفف منهم على جريح، وقد نصرك الله والمسلمين والحمد لله رب العالمين.

فلما قدم الكتاب على علي عليه السلام قرأه على أصحابه واستشارهم فاجتمع رأي عامّتهم على قول واحد قالوا: نرى أن نكتب إلى معقل بن قيس يتّبع آثارهم ولا يزال في طلبهم حتّى يقتلهم أو ينفيهم من أرض الإسلام.

فكتب عليه السلام إليه «أمّا بعد فالحمد لله على تأييده أوليائه وخذله أعدائه، جزاك الله والمسلمين خيراً فقد أحسنتم البلاء وقضيتم ما عليكم فاسأل عن أخي بني ناجية فإن بلغك أنّه استقرّ في بلد من البلدان فسر إليه حتّى تقتله أو تنفيه، فإنّه لم يزل للمسلمين عدوّاً والفاسقين وليّاً».

قال: فسأل معقل عن مسيره والمكان الذي انتهى إليه فنبىء بمكانه بسيف البحر بفارس وأنّه قد رد قومه عن طاعة علي عليه السلام وأفسد من قبله من عبد القيس ومن ولاّهم من سائر العرب، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صفين ومنعوها في ذلك العام أيضاً.

فسار إليهم معقل في ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة فأخذوا على أرض فارس حتّى انتهوا إلى أسياف البحر فلما سمع النّاجي بمسيره أقبل على من كان معه من أصحابه ممّن يرى رأي الخوارج فأسرّ إليهم أني أرى رأيكم وأن علياً ما كان ينبغي له أن يحكم الرّجال في

دين الله، وقال للآخرين من أصحابه مسرّاً إليهم: إنّ علياً قد حكم حكماً ورضي به فخالف حكمها الذي ارتضاه لنفسه وهذا الرّأي الذي خرج عليه من الكوفة، وقال لمن يرى رأي عثمان وأصحابه: إنا على رأيكم وإن عثمان قتل مظلوماً، وقال لمن منع الصّدقة: شدّوا أيديكم على صدقاتكم ثمّ صلوا بها أرحامكم وعودوا إن شئتم على فقرائكم فأرضى كلّ طائفة بضرب من القول.

وكان فيهم نصارى كثير أسلموا، فلما رأوا ذلك الاختلاف قالوا: والله لديننا الذي خرجنا منه خير وأهدى من دين هؤلاء الذين لا ينهاهم دينهم عن سفك الدّماء وإخافة السّبل فرجعوا إلى دينهم، فلقي الناجي أولئك فقال: ويحكم إنه لا ينجيكم من القتل إلاّ الصّبر لهؤلاء القوم واتصالهم أتدرون ما حكم علي فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النّصرانية لا والله لا يسمع له قولاً، ولا يرى له عذراً، ولا دعوة ولا يقبل منه توبة ولا يدعوه إليها وأنّ حكمه فيه أن يضرب عنقه ساعة يستمكن منه، فما زال حتّى خدعهم فاجتمع إليه ناس كثير وكان منكراً داهياً، فلما رجع معقل قرأ على أصحابه كتاباً من علي فيه:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من قرأ عليه كتابي هذا من المسلمين والمؤمنين والمارقين والنّصارى والمرتدّين، سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه والبعث بعد الموت وافياً بعهد الله ولم يكن من الخائنين».

«أمّا بعد فإنّي أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه وأن أعمل فيكم بالحقّ وبما أمر الله تعالى به في كتابه فمن رجع منكم إلى رحله وكفّ يده واعتزل هذا المارق الهالك المحارب الذي حارب الله ورسوله والمسلمين وسعى في الأرض فساداً فله الأمان على ماله ودمه، ومن تابعه على حربنا والخروج من طاعتنا استعنا بالله عليه وجعلناه بيننا وبينه وكفى بالله وليّاً والسّلام».

قال فأخرج معقل راية أمان فنصبها وقال: من أتاها من الناس فهو آمن إلاّ الخريت وأصحابه الذين نابذوا أوّل مرّة، فتفرّق عن الخريت كلّ من كان معه من غير قومه وعبأ معقل أصحابه ثمّ زحف بهم نحوه، وقد حضر مع الخريت جميع قومه مسلمهم ونصرانيهم ومانع الصّدقة منهم فجعل مسلميهم يمنة ومانع الصّدقة يسرة.

وسار معقل يحرض أصحابه فيما بين الميمنة والميسرة ويقول: أيّها النّاس ما تدرون ما سيق إليكم في هذا الموقف من الأجر العظيم إنّ الله ساقكم إلى قوم منعوا الصّدقة وارتدّوا من الإسلام ونكثوا البيعة ظلماً وعدواناً، إنّي شهيد لمن قتل منكم بالجنّة، ومن عاش بأنّ الله يقرّ عينه بالفتح والغنيمة، ففعل ذلك حتّى مرّ بالنّاس أجمعين ثمّ وقف في القلب برايته فحملت الميمنة عليهم ثمّ الميسرة وثبتوا لهم وقاتلوا قتالاً شديداً، ثمّ حمل هو وأصحابه عليهم فصبروا لهم ساعة.

ثمّ إنّ النعمان بن صهبان أبصر بالخريت فحمل عليه وضربه فصرعه عن فرسه ثمّ نزل إليه وقد جرحه فاختلفا بينهما ضربتين فقتله النّعمان وقتل معه في المعركة سبعون ومائة وذهب الباقون في الأرض يميناً وشمالاً، وبعث معقل الخيل إلى رحالهم فسبى من أدرك فيها رجالاً ونساء وصبياناً، ثمّ نظر فيهم فمن كان مسلماً خلاه وأخذ بيعته وخلا سبيل عياله، ومن كان ارتدّ عن الإسلام عرض عليه الرّجوع إلى الإسلام أو القتل فأسلموا فخلى سبيلهم وسبيل عيالاتهم إلاّ شيخاً منهم نصرانياً أبى فقتله.

وجمع النّاس فقالوا ردوا ما عليكم في هذه السّنين من الصّدقة فأخذ من المسلمين عقالين وعمد إلى النّصارى وعيالاتهم فاحتملهم معه، وأقبل المسلمون الذين كانوا معهم يشيعونهم، فأمر معقل بردّهم فلما ذهبوا لينصرفوا تصايحوا ودعا الرّجال والنساء بعضهم إلى بعض، قال: فلقد رحمتهم رحمة ما رحمتها أحداً قبلهم ولا بعدهم.

وكتب معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعد، فإني أخبر أمير المؤمنين عن جنده وعن عدوّه إنّا رفعنا إلى عدوّنا بأسياف البحر فوجدنا بها قبائل ذات جد وعدد وقد جمعوا لنا فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة وإلى حكم الكتاب والسنّة وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين ورفعنا لهم راية أمان، فمالت إلينا طائفة منهم وثبتت طائفة أخرى، فقبلنا أمر التي أقبلت، وصمدنا إلى التي أدبرت فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم، فأما من كان مسلماً فإنّا مننا عليه وأخذنا بيعته لأمير المؤمنين وأخذنا منهم الصّدقة التي كانت عليهم، وأما من ارتدّ فعرضنا عليهم الرّجوع إلى الإسلام وإلاّ قتلناه فرجعوا إلى الإسلام غير رجل واحد فقتلناه وأمّا النّصارى فإنّا سبيناهم وأقبلنا لهم ليكونوا نكالاً لمن بعدهم من أهل الذّمة كيلا يمنعوا الجزية ولا يجترؤا على قتال أهل القبلة وهم للصّغار والذّلة أهل، رحمك الله يا أمير المؤمنين وأوجب لك جنات النعيم والسّلام.

قال: ثمّ أقبل بالأسارى حتّى مر على مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامل عليّ على أردشير خوّة وهم خمسمائة إنسان فبكى إليه النساء والصّبيان وتصايح الرّجال يا أبا الفضل يا حامل الثقيل يا مأوى الضعيف وفكاك العصاة، أمنن علينا فاشترنا وأعتقنا، فقال مصقلة: أقسم بالله لأتصدقنّ عليهم إنّ الله يجزي المتصدّقين، فبلغ قول معقلاً فقال: والله لو أعلمه قالها توجعاً لهم ووجداً وإزراء عليّ لضربت عنقه، وإن كان في ذلك فناء بني تميم وبكر بن وائل.

ثمّ إنّ مصقلة بعث زهل بن الحارث إلى معقل فقال: بعني نصارى بني ناجية فقال: أبيعكم بألف ألف درهم، فأبى عليه فلم يزل يراضيه حتّى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم، ودفعهم إليه وقال: عجل بالمال إلى أمير المؤمنين فقال مصقلة: أنا باعث الآن بصدر منه، ثمّ أبعث بصدر آخر وكذلك حتّى لا يبقى منه شيء.

وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبره بما كان من الأمر فقال: «أحسنت وأصبت ووفقت» وانتظر علي عليه السلام أن يبعث مصقلة بالمال فأبطأ به، وبلغ علياً أن مصقلة خلى الأسارى ولم يسألهم أن يعينوه في فكاك أنفسهم بشيء فقال: «ما أرى مصقلة إلاّ قد حمل حمالة ولا أراكم إلا سترونه عن قريب مبلدحاً».

ثم كتب عليه السلام إليه «أما بعد، فإنّ أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام، وعندك من حقّ المسلمين خمسمائة ألف درهم، فابعث بها إليّ حين يأتيك رسولي وإلا فأقبل إليّ حين تنظر في كتابي فاني قد تقدّمت إلى رسولي أن لا يدعك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك إلاّ أن تبعث بالمال والسّلام».

فلما قرأ كتابه أتاه بالكوفة فأقرّه أياماً لم يذكر له شيئاً، ثمّ سأله المال فأدى، إليه مائتي ألف درهم وعجز عن الباقي ففرّ ولحق بمعاوية فلما بلغ ذلك علياً قال: ماله ترحه الله فعل فعل السّيد وفرّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر، فلو عجز ما زدنا على حسبه، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه، وإن لم نجد له مالاً تركناه.

ثمّ سار عليّ عليه السلام إلى داره فهدمها وكان أخوه نعيم بن هبيرة شيعة لعلي عليه السلام مناصحاً فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تغلب يقال له حلوان: أما بعد فإني كلمت معاوية فيك فوعدك الكرامة، ومناك الإمارة فأقبل ساعة تلقى رسولي والسّلام.

فأخذه مالك بن كعب الأرحبي فسرح به إلى علي عليه السلام فأخذ كتابه فقرأه ثم قدمه فقطع يده فمات، وكتب نعيم إلى مصقلة شعراً يتضمّن امتناعه وتعييره، فلما بلغ الكتاب إليه علم أنّ النّصراني قد هلك ولم يلبث التغلبيون إلاّ قليلاً حتّى بلغهم هلاك صاحبهم، فأتوا مصقلة فقالوا: أنت أهلكت صاحبنا فإمّا أن تجيئنا به، وإمّا أن تديه فقال: أمّا أن أجيء به فلست أستطيع ذلك، وأمّا أن أديه فنعم فوديه.

قال إبراهيم: وحدثني ابن أبي سيف عن عبد الرّحمن بن جندب عن أبيه قال: قيل لعليّ عليه السلام حين هرب مصقلة: أردد الذين سبوا ولم يستوف ثمنهم في الرّق، فقال عليه السلام: «ليس ذلك في القضاء بحقّ قد عتقوا إذ أعتقهم الذي اشتراهم وصار مالي ديناً على الذي أشريهم»[1].

(١) الغارات: ١/ ٣٧٠، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤١٧.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در حينى كه بگريخت مصقلة بن هبيرة شيبانى به سوى معاويه ملعون و جهت فرار او اين بود كه خريده بود اسيران بنى ناحيه را از معقل بن قيس رياحى عامل اميرالمؤمنين (عليه السلام) و آزاد كرده بود ايشان را، پس زمانى كه مطالبه كرد امام ثمن آن ها را غدر كرد مصقله به آن و گريخت به طرف شام، پس چون آن خبر به حضرت رسيد فرمود:

دور گرداند خدا مصقله را از رحمت خود، كرد كار خواجگان را كه خريدن بندگان بود و آزاد كردن ايشان و گريخت همچو گريختن غلامان، پس گويا نگردانيد مدح گوينده خود را تا اين كه ساكت ساخت او را به غدر و فرار و تصديق نكرد وصف كننده خود را تا اين كه توبيخ نمود او را به جهت سوء كردگار و اگر اقامت مى كرد و نمى گريخت، هرآينه دريافت مى كرديم از او آن چه مقدور او بود و انتظار مى كشيديم به مال او افزونى او را؛ يعنى مى گذاشتيم مال او زياده شود و از عهده قرض و دَين خود برآيد.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخامسة والأربعون من المختار في باب الخطب

«الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلاَ مَخلُوٌّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلاَ مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلاَ مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذي لا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلاَ تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ، وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، ولأَهْلِها مِنْهَا الْجَلاَءُ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَقَدْ عُجِّلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ، فَارْتَحِلُوا عَنْهَا بِأَحْسَنِ ما بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، ولا تَسْئَلُوا فيها فَوْقَ الْكَفافِ، وَلاَ تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاَغِ»(١).

اللغة

(**القنوط**) اليأس و(**الإستنكاف**) الإستكبار والمستنكف على صيغة المفعول و(**مناه**) الله أي قدره و(**الجلاء**) بفتح الجيم الخروج من الوطن قال سبحانه:

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ [الحشر: ٣].

و(**الخضرة**) بفتح الخاء المعجمة وكسر الضّاد والخضر ككتف الغصن والزّرع والبقلة الخضراء و(**الكفاف**) من الرزق كسحاب ما أغنى عن الناس و(**البلاغ**) كسحاب أيضاً الكفاية.

الإعراب

غير مقنوط نصب على الحال، ولا مخلوّ عطف على مقنوط ونحوه قوله سبحانه:

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ٧٣].

وربّما يجيء المعطوف بالنّصب عطفاً على موضع غير، وجملة: الذي لا يبرح وصفته ولأهلها، إمّا متعلق بمقدّر وهو خبر مقدّم والجلاء مبتدأ مؤخر والواو عاطفة للجملة على الجملة فتكون المعطوفة في محلّ الرّفع على كونها صفة لدار كالمعطوف عليها أو لأهلها عطف على لها والجلاء مرفوع على النيابة عن الفاعل كما أنّ الفناء مرفوع كذلك، والباء في قوله: بأحسن، للمصاحبة والملابسة، وفي قوله: بحضرتكم، للظرفيّة ومن الزّاد بيان لما.

(١) بحار الأنوار: ٣٢١/٣٦، ونهج البلاغة: ٩٦/١.

المعنى

إعلم أن المستفاد من شرح البحراني هو أنّ هذه الخطبة ملتقطة من خطبة طويلة له عليه السلام خطبها يوم الفطر، وأنّ بين قوله: ونعمة، وقوله: والدّنيا، فصل طويل، والمستفاد منه أيضاً أن الخطبة الثامنة والعشرين أيضاً من فصول تلك الخطبة الطويلة إذا عرفت ذلك ظهر لك أنّ ما أتى به السّيد (ره) هنا منتظم من فصلين.

الفصل الأول

مشتمل على حمد الله سبحانه وثنائه وهو قوله **(الحمد لله غير مقنوط من رحمته)** أصل الرّحمة رقّة القلب وانعطاف أي نيل روحاني يقتضي التّفضّل والإحسان، وإذا أسندت إلى الله سبحانه كان المراد بها غايتها أعني التفضّل والإحسان، لأن الرّقة من الكيفيّات المزاجيّة المستحيلة في حقّه سبحانه، فيكون إطلاقها على التّفضّل إمّا من باب المجاز المرسل من قبيل ذكر السّبب وإرادة لمسبّب لكون الرّقة سبباً للتّفضّل وإمّا من باب التمثيل بأن شبّه حاله تعالى بالقياس إلى المرحومين في إيصال الخير إليهم بحال الملك إذا عطف على رعيّته ورقّ لهم فأصابهم بمعروفه وأنعامه، فاستعير الكلام الموضوع للهيئة الثانية للأولى من غير أن يتمحّل في شيء من مفرداته.

وكيف كان ففي كلامه عليه السلام تنبيه على عدم جواز اليأس من رحمة الله سبحانه لعمومها وسعتها للخلائق في الدّنيا والآخرة كما قال سبحانه: ﴿**ورحمتي وسعت كلّ شيء**﴾ وقال النبيّ صلى الله عليه وآله إنّ لله عزّ وجلّ مائة رحمة أنزل منها واحدة إلى الأرض فقسّمها بين خلقه فبها يتعاطفون ويتراحمون، وأخّر تسعاً وتسعين لنفسه يرحم بها يوم القيامة.

وروي إنّ الله قابض هذه إلى تلك فيكملها مائة يرحم بها عباده يوم القيامة **(ولا مخلوّ من نعمته)** لأنّ سبوغ نعمته دائم لآثار قدرته التي استلزمت طبائعها الحاجة إليه فوجب لها فيض جوده إذ كلّ ممكن مفتقر إلى كرمه وجوده **(ولا مأيوس من مغفرته)** وذلك لأنّ عفوه تعالى غالب على عقابه ورحمته سابقة على غضبه، ومغفرته قاهرة لعقوبته كما قال سبحانه:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وفي الحديث: ليغفرنّ الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد حتّى أنّ إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه[1]، هذا.

ونظير كلامه في الفقرات الثلاث المفيدة لاتّصافه سبحانه بالرّحمة والإنعام والمغفرة ما

---

(١) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا: ٩٩، وكنز العمال: ٤/ ٢٤٤.

ورد في دعاء الإستقالة عن الذّنوب من الصّحيفة السّجاديّة وهو قوله عليه السلام: «أنتَ الّذي وَسعتَ كُلّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلماً، وأنتَ الّذي جَعَلْتَ لِكُلّ مَخْلُوقٍ في نِعَمِكَ سَهماً، وأَنْتَ الّذي عَفْوُهُ أعلىَ من عِقابه».

(ولا مستنكف عن عبادته) إذ هو المستحقّ للعبادة دون ما عداه، لأنّه جامع الكمال المطلق ليس فيه جهة نقصان إليها يشار، فيكون سبباً للإستنكاف والإستكبار فالمقصود بقوله: ولا مستنكف عن عبادته، أنّ عبادته ليست محلاً لأنّ يستنكف عنها، لأنّها لا استنكاف عنها ولا استكبار، ضرورة أنّ المستكبرين والمستنكفين من الجنّة والنّاس من الكافرين والمنافقين فوق حدّ الإحصاء، ولذلك خصّ سبحانه عدم الإستكبار بأهل التّقرب والمكانة كما قال:

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧٣].

(الذي لا تبرح له رحمة ولا تفقد له نعمة) الإتيان بهذين الوصفين للإشارة إلى وجوب شكره سبحانه بهذين الإعتبارين أيضاً.

فإن قلت: أليس قوله: غير مقنوط من رحمته ولا مخلوّ من نعمته، مغنياً عن هذين الوصفين؟

قلت: لا إذ عدم القنوط من رحمته لا يستلزم دوام الرّحمة فلا يغني ذكره عنه وهو ظاهر، وأمّا عدم الخلوّ من النّعمة وإن كان ملازماً لعدم فقدانها إلاّ أنّه يمكن أن يكون المراد بالأوّل الخصوص يعني عدم خلوّ نفسه من نعمته كما أنّ الظاهر في الفقرات الثلاث الباقية أيضاً ذلك، وبالثّاني مشمول نعمته لجميع الخلائق وعدم فقدانها في حق أحد.

وأمّا البرهان على دوام رحمته وكمال نعمته فهو على ما ذكره الفخر الرّازي أنّ الأشياء على أربعة أقسام: الذي يكون نافعاً وضرورياً معاً، والذي يكون نافعاً ولا يكون ضرورياً، والذي يكون ضرورياً ولا يكون نافعاً، والذي لا يكون نافعاً ولا يكون ضرورياً.

أما القسم الأوّل وهو الذي يكون نافعاً وضرورياً معاً، فأمّا أن يكون كذلك في الدّنيا فقط وهو مثل النّفس، فإنّه لو انقطع منك لحظة واحدة لحصل الموت، وإمّا أن يكون كذلك في الآخرة وهو معرفة الله تعالى فإنها إن زالت عن القلب لحظة واحدة حصل الموت للقلب واستوجب العذاب الأبد.

وأمّا القسم الثّاني وهو الذي يكون نافعاً ولا يكون ضرورياً فهو كالمال في الدّنيا وكسائر العلوم والمعارف في الآخرة.

وأمّا القسم الثّالث وهو الذي يكون ضرورياً ولا يكون نافعاً فكالمضار التي لا بدّ منها في الدّنيا، كالأمراض والموت والفقر والهرم ولا نظير لهذا القسم في الآخرة، فإنّ ضروريّات الآخرة لا يلزمها شيء من المضار.

وأمّا القسم الرّابع وهو الذي لا يكون ضرورياً ولا نافعاً فهو كالفقر في الدّنيا والعذاب في الآخرة.

إذا عرفت ذلك فنقول: قد ذكرنا أنّ النّفس في الدّنيا نافع وضروري، فلو انقطع عن الإنسان لحظة لمات في الحال، وكذلك معرفة اللّه تعالى أمر لا بدّ منه في الآخرة فلو زالت عن القلب لحظة لمات القلب لا محالة، لكن الموت الأوّل أسهل من الثاني لأنّه لم يتألم في الموت الأوّل إلاّ ساعة واحدة، وأمّا الموت الثاني فإنّه يبقى ألمه أبد الآباد.

وكما أنّ التنفّس له أثران: أحدهما إدخال النّسيم الطيب على القلب وإبقاء إعتداله وسلامته، والثاني إخراج الهواء الفاسد الحادّ المحترق عن القلب، كذلك الفكر له أثران: أحدهما إيصال نسيم الحجّة والبرهان إلى القلب وإبقاء اعتدال الإيمان والمعرفة عليه، والثّاني: إخراج الهواء الفاسد المتولد من الشّبهات عن القلب، وما ذاك إلاّ بأن يعرف أنّ هذه المحسوسات متناهية في المقدار منتهية بالآخرة إلى الفناء بعد وجودها، فمن وقف على هذه الأحوال بقي آمناً من الآفات واصلاً إلى الخيرات والمسرّات وكمال هذين الأمرين ينكشف بعقلك بأن تعرف أن كلّ ما وجدته ووصلت إليه فهو قطرة من بحار رحمة الله وذرّة من أنوار إحسانه فعند هذا ينفتح على قلبك معرفة كون الله رحماناً رحيماً.

فإذا أردت أن تعرف هذا المعنى على التفصيل فاعلم أنك جوهر مركب من نفس وبدن وروح وجسد، أمّا نفسك فلا شكّ أنّها كانت جاهلة في مبدأ الفطر كما قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

ثمّ تأمّل في مراتب القوى الحسّاسة والمحرّكة والمدركة والعاقلة وتأمّل في مراتب المعقولات وفي جهاتها واعلم أنه لا نهاية لها البتّة ولو أنّ العاقل أخذ في اكتساب العلم بالمعقولات وسرى فيها سيران البرق الخاطف والرّيح العاصف، وبقي في ذلك السّير أبد الآبدين ودهر الداهرين لكان الحاصل له من المعارف والعلوم قدراً متناهياً، ولكانت المعلومات التي ما عرفها ولم يصل إليها أصلاً غير متناهية والمتناهي في جنب غير المتناهي قليل في كثير فعند هذا يظهر له أنّ الذي قاله الله تعالى في قوله:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] حق وصدق.

وأمّا بدنك فإنّه جوهر مركب من الأخلاط الأربعة، فتأمّل كيفيّة تركيبها وتشريحها وتأمّل ما في كلّ واحد من الأعضاء والأجزاء من المنافع العالية والآثار الشّريفة، وحينئذٍ يظهر لك صدق قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وحينئذٍ ينجلي لك أثر من آثار كمال رحمته في خلقك وهدايتك، فتفهم شيئاً قليلاً من رحمته الكاملة ونعمته السّابغة الشّاملة.

الفصل الثاني

متضمّن للتّنفير عن الدّنيا والتّنبيه على بعض عيوباتها وهو قوله (**والدّنيا دار مني لها الفناء و**) قدّر (**لأهلها منها الجلاء**) كما قال سبحانه:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمان: ٢٦] وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

(**وهي حلوة**) في الذّوق (**خضرة**) في النّظر يستلذ بها الذّائق والنّاظر (**و**) لكنّها (**قد عجّلت للطالب**) فليس لها دوام وثبات حتّى يتمتّع منها على وجه الكمال (**والتبست بقلب النّاظر**) أي اشتبهت لديه حتّى صار مولعاً بحبّها مفتتناً بخضرتها ونضارتها.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

قال رسول الله ﷺ في رواية أبي هريرة: «لا تكونوا ممن خدعته العاجلة وغرته الأمنية، فاستهوته الخدعة، فركن إلى دار السوء سريعة الزوال، وشيكة الإنتقال إنّه لم يبق من دنياكم هذه في جنب ما مضى إلاّ كإناخة راكب أو صر جالب فعلى ما تعرجون وماذا تنتظرون، فكأنّكم والله وما أصبحتم فيه من الدّنيا لم يكن، وما يصيرون إليه من الآخرة لم يزل، فخذوا أهبة لا زوال لنقلة، وأعدّوا الزّاد لقرب الرّاحلة، واعلموا أنّ كلّ امرىء على ما قدّم قادم، وعلى ما خلف نادم»[1].

ولما نبّه عليه السلام على فناء الدّنيا وتعجيل زوالها أردف ذلك بقوله (**فارتحلوا عنها**) يعني تهيئوا للإرتحال واستعدوا للموت قبل نزول الفوت (**بأحسن ما بحضرتكم من الزّاد**) وهو

(١) بحار الأنوار: ٧٤/١٨٣، ونهج السعادة: ٧/ ٦١.

التقوى والأعمال الصّالحة (**ولا تسألوا فيها فوق الكفاف ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ**).

كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في رواية أنس بن مالك: «يا معشر المسلمين شمّروا فإنّ الأمر جدّ، وتأهّبوا فإنّ الرّحيل قريب، وتزوّدوا فإنّ السّفر بعيد، وخفّفوا أثقالكم فإنّ وراءكم عقبة كؤوداً لا يقطعها إلاّ المخفّفون، أيّها النّاس إن بين يدي السّاعة أموراً أشداداً، وأهوالا عظاماً، وزماناً صعباً يتملك فيه الظلمة، ويتصدّر فيه الفسقة، ويضام فيه الآمرون بالمعروف، ويضطهد فيه النّاهون عن المنكر، فأعدوا لذلك الإيمان وعضّوا عليه بالنّواجذ، والجأوا إلى العمل الصّالح وأكرهوا عليه النّفوس تفضوا إلى النّعيم الدّائم»[1].

هداية

عقد ثقة الإسلام الكليني عطر الله مضجعه في «**الكافي**» باباً للكفاف وروى فيه الأخبار الواردة في مدحه وحسنه ولا بأس برواية بعضها تيمّناً وتبرّكاً فأقول:

فيه بإسناده عن أبي عبيدة الحذاء قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول قال: رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله عزّ وجلّ: «إن من أغبط أوليائي عندي رجلاً خفيف الحال ذا حظّ من صلاة أحسن عبادة ربّه بالغيب: وكان غامضاً في النّاس، جعل رزقه كفافاً فصبر عليه عجلت منيّته فقلّ تراثه وقلت بواكيه»[2].

وعن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً».

وعن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «اللهمّ ارزق محمّداً وآل محمّد ومن أحبّ محمداً وآل محمّد العفاف والكفاف، وارزق من أبغض محمّداً وآل محمّد المال والولد»[3].

وعن النّوفلي رفعه إلى عليّ بن الحسين صلوات الله عليهما قال: مرّ رسول الله براعي إبل فبعث يستسقيه فقال: أمّا ما في ضروعها فصبوح الحي وأمّا ما في آنيتها فغبوقهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهمّ أكثر ماله وولده، ثمّ مر براعي غنم فبعث إليه يستسقيه فحلب له ما في ضروعها وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله صلى الله عليه وآله وبعث إليه بشاة وقال: هذا ما عندنا وإن أحببت أن نزيدك زدناك، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله اللهمّ ارزقه الكفاف، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله دعوت للذي ردّك بدعاء عامتنا نحبّه، ودعوت للذي أسعفك بحاجتك

(١) بحار الأنوار: ٧٤/١٨٦، ونهج السعادة: ٧/٦٢.
(٢) الكافي: ٢/١٤٠ ح ٣، ووسائل الشيعة: ٢١/٥٣٣ ح ٢٧٧٨٣.
(٣) الكافي: ٢/١٤٠ ح ٣.

بدعاء كلّنا نكرهه، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ ما قلّ وكفى خير ممّا أكثر وألهى اللهمّ ارزق محمّداً وآل محمّد الكفاف»[(١)].

وعن البختريّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه وذلك أقرب له منّي، ويفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه وذلك أبغض له منّي»[(٢)].

وفي حديث أبي ذر المروي في «البحار» قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إنّي قد دعوت الله جلّ ثناؤه أن يجعل رزق من يحبّني الكفاف، وأن يعطي من يبغضني كثرة المال والولد»[(٣)].

وقد أكثر شعراء العرب والعجم في مدح الكفاف والإستغناء عن النّاس، ومن جيّد ما قالوه قول أبي العلاء المعرّي:

فإن كنت تهوى العيش قانع توسطاً ... فعند التناهي يقصر المتطاول
توفي البدور النقص وهي أهلة ... ويدركها النّقصان وهي كوامل

وقال سليمان بن مهاجر البجلي:

كسوت جميل الصّبر وجهي فصانه ... به الله عن غشيان كلّ بخيل
فلم يتبذلني البخيل ولم أقم ... على بابه يوماً مقام ذليل
وإنّ قليلاً يستر الوجه أن يرى ... إلى النّاس مبذولاً بغير قليل

وقال بعض شعراء الحكماء:

فلا تجزع إذا أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الدّهر الطويل
ولا تظنن بربّك ظنّ سوء ... فإنّ الله أولى بالجميل
وإنّ العسر يتبعه يسار ... وقيل الله أصدق كلّ قيل
ولو أنّ العقول تجرّ رزقاً ... لكان المال عند ذوي العقول

---

(١) الكافي: ٢/١٤١، وبحار الأنوار: ٦٩/٦١ ح ٤.

(٢) الكافي: ٢/١٤١ ح ٥، ووسائل الشيعة: ٢١/٥٣٣ ح ٢٧٧٨٤.

(٣) بحار الأنوار: ٧٤/٨١، ومستدرك الوسائل: ١٥/ ٢٣٠ ح ١٨٠٨٥.

تكملة

قد ذكرنا سابقاً أنّ المستفاد من شرح البحراني أنّ هذه الخطبة والخطبة الثامنة والعشرين ملتقطتان من خطبة طويلة خطب بها يوم الفطر، وقد ظفرت بعد ما شرحت الخطبة على تمامها برواية الصّدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه فأحببت إيرادها على ما رواها قدّس سرّه فأقول: قال:

وخطب أمير المؤمنين عليه السلام يوم الفطر فقال: «الحمد لله الذي خلق السّموات والأرض وجعل الظلمات والنّور ثمّ الذين كفروا بربّهم يعدلون، لا نشرك بالله شيئاً ولا نتّخذ من دونه وليّاً، والحمد لله له ما في السّموات وما في الأرض وله الحمد في الدّنيا والآخرة وهو الحكيم الخبير، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السّماء وما يعرج فيها وهو الرّحيم الغفور، كذلك الله لا إله إلاّ هو إليه المصير، والحمد لله الذي يمسك السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه إنّ الله بالنّاس لرؤوف رحيم.

اللهمّ ارحمنا برحمتك، واعممنا بمغفرتك إنّك أنت العليّ الكبير، والحمد لله الذي لا مقنوط من رحمته، ولا مخلوّ من نعمته، ولا مأيوس من روحه، ولا مستنكف عن عبادته، بكلمته قامت السّماوات السّبع، واستقرت الأرض المهاد، وثبتت الجبال الرّواسي، وجرت الرّياح اللواقح، وسار في جوّ السّماء السّحاب، وقامت على حدودها البحار، وهو إله لها وقاهر يذلّ له المتعززون، ويتضاءل له المتكبّرون، ويدين له طوعاً وكرهاً العالمون.

نحمده كما حمد نفسه وكما هو أهله، ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له يعلم ما تخفي النّفوس وما يجنّ البحار وما توارى منه ظلمة، ولا يغيب عنه غائبة، وما يسقط من ورقة من شجرة، ولا حبّة في ظلمات الأرض إلاّ يعلمها، لا إله إلاّ هو، ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين، ويعلم ما يعمل العاملون؛ وأي مجرى يجرون، وإلى أيّ منقلب ينقلبون.

ونستهدي الله بالهدى ونشهد أنّ محمّداً عبده ونبيّه ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه، وأنّه قد بلغ رسالات ربّه وجاهد في الله الحائدين عنه العادلين به، وعبد الله حتّى أتاه اليقين صلى الله عليه وآله.

أوصيكم بتقوى الله الذي لا تبرح منه نعمة، ولا تفقد منه رحمة، ولا يستغني العباد عنه، ولا يجزى لنعمه الأعمال، الذي رغب في التّقوى، وزهد في الدّنيا وحذر المعاصي وتعزز بالبقاء، وذلل خلقه بالموت والفناء، والموت غاية المخلوقين، وسبيل العالمين، ومعقود بنواصي الباقين، لا يعجزه إباق الهاربين، وعند حلوله يأس أهل الهوى يهدم كلّ لذّة، ويزيل كلّ نعمة، ويقطع كلّ بهجة.

والدّنيا دار كتب الله لها الفناء، ولأَهلها منها الجلاء، فأَكثرهم ينوي بقاءها ويعظم بناءها: وهي حلوة خضرة قد عجلت للطالب، والتبست بقلب النّاظر ويضني ذو الثروة الضّعيف، ويحتويها الخائف الوجل، فارتحلوا منها يرحمكم الله بأحسن ما بحضرتكم ولا تطلبوا منها أكثر من القليل ولا تسألوا منها فوق الكفاف، وارضوا منها باليسير ولا تمدّن أعينكم منها إلى ما متّع المترفون واستهينوا بها ولا توطنوها وأضرّوا بأنفسكم فيها، وإيّاكم والتنعّم والتلهي والفاكهات، فإنّ في ذلك غفلة واغتراراً.

ألا إنّ الدّنيا قد تنكرت وأدبرت وأصولت وآذنت بوداع، ألا وإن الآخرة قد رحلت فأقبلت وأشرفت وآذنت باطلاع، ألا وإنّ المضمار اليوم والسّباق غداً، ألا وإنّ السّبقة الجنّة والغاية النّار، أفلا تائب من خطيئته قبل يوم منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه، وفقره، جعلنا الله وإيّاكم ممّن يخافه فيرجو ثوابه.

ألا وإنّ هذا اليوم يوم جعله الله لكم عيداً، وجعلكم له أهلاً، فاذكروا الله يذكركم وادعوه يستجب لكم وأدّوا فطرتكم فإنّها سنّة نبيّكم وفريضة واجبة من ربّكم فليؤدّها كلّ امرئ منكم عن نفسه وعن عياله كلّهم ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم وحرّهم ومملوكهم عن كلّ إنسان منهم صاعاً من برّ أو صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير.

وأطيعوا الله فيما فرض عليكم وأمركم به من إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وحجّ البيت وصوم شهر رمضان والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والإحسان إلى نسائكم وما ملكت أيمانكم.

وأطيعوا الله فيما نهاكم عنه من قذف المحصنة، وإتيان الفاحشة، وشرب الخمر وبخس المكيال، ونقص الميزان، وشهادة الزّور، والفرار عن الزّحف.

عصمنا الله وإيّاكم بالتّقوى، وجعل الآخرة خيراً لنا ولكم من الأولى، إنّ أحسن الحديث وأبلغ موعظة المتّقين كتاب الله العزيز أعوذ بالله العظيم من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمن الرّحيم، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1] [الإخلاص: ١ ـ ٤].

(١) الكافي: ٣/٤٨٥، وبحار الأنوار: ٨٨/١١١.

الترجمة

از جمله خطبه های آن حضرت است:

حمد و ثنا مرخدای را است در حالتی که نوید کرده نشده است از رحمت او و خالی کرده نشده است از نعمت او و نومید کرده نشده است از مغفرت او و کبر ورزیده نشده است از عبادت او، چنان خداوندی که زایل نمی شود از او هیچ رحمتی و نایاب نمی شود از او هیچ نعمتی و دنیا سرایی است، تقدیر کرده شده است از برای او فنا و از برای اهل او بیرون رفتن از آن با رنج و عنا و آن دنیا شیرین است در مذاق و سبز و خرم است در نظر اهل آفاق و به تحقیق که شتابانیده شده است از برای جوینده او و مشتبه شده است در قلب نظرکننده او، پس رحلت نمایید و کوچ کنید از او به نیکوترین چیزی که در حضور شما است از توشه که عبارت است از تقوی و اعمال صالحه و سؤال نکنید در او بالاتر از قدر کفاف در معیشت و طلب ننمایید از او زیاده از حدّ کفایت که این است شعار صاحبان بصیرت و سالکان طریق حقیقت.

ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام وهو السادس والأربعون من المختار في باب الخطب

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ، وكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وسُوءِ الْمَنْظَرِ في الأَهْلِ وَالْمالِ، أَللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، وأَنْتَ الْخَلِيفَةُ في الأَهلِ، ولا يَجْمَعُهُمَا غَيرُكَ، لأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لاَ يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، وَالْمُسْتَصْحَبَ لاَ يَكُونُ مُسْتَخْلَفَاً»(١).

وفي نسخة ابن أبي الحديد قال الرّضيّ: وابتداء هذا الكلام مرويّ عن رسول الله ﷺ وقد قفاه أمير المؤمنين عليه السلام بأبلغ كلام وبأحسن تمام من قوله: ولا يجمعهما غيرك، إلى آخر الفصل.

اللغة

(وعثاء السّفر) مشقّته وأصل الوعث المكان السّهل الدّهس، تغيب فيه الأقدام والطريق العسر، وقد وعث الطريق كسمع وكرم تعسّر سلوكه و**(الكآبة)** والكأب الغمّ وسوء الحال والإنكسار من حزن و**(المنقلب)** مصدر ومكان من القلب أي رجع ومثله **(المنظر)** قال الفيروز آبادي: نظره كضربه وسمعه وإليه نظراً ومنظراً ونظراناً ومنظرة وقال: والمنظر والمنظرة ما نظرت إليه فأعجبك حسنه أو ساءك.

الإعراب

لفظة (اللهمّ) منادى محذوف النّداء ولا يجوز حذف حرف النّداء من لفظ الجلالة إلاّ مع إلحاق الميم المشدّدة به، وذلك لأنّ حق ما فيه اللام أن يتوصل إلى ندائه بأيّ أو باسم الإشارة، فلمّا حذفت الوصلة في هذه اللفظة الشّريفة لكثرة ندائها لم يحذف الحرف إلاّ نادراً لئلاّ يكون إجحافاً، فإن أردت الحذف ألحقت الميم المشدّدة؛ وإنّما أخرت الميم تبرّكاً باسمه سبحانه، وقال الكوفيّون: إنّ الميم ليست عوضاً بل مأخوذة من فعل والأصل يا الله آمنّا بخير فيخيرون الجمع بينها وبين ياء في السّعة ورد بأنّه لو كان كذلك لما حسن اللهمّ آمنّا بخير وفي حسنه دليل على أنّ الميم ليست مأخوذة منه إذ لو كان كذلك لكان تكراراً.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٩١ ح ٣٦٢، ونهج السعادة: ٢/ ١٢٤.

المعنى

إعلم أنّ هذا الدّعاء دعا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وضع رجله في الرّكاب حينما توجّه من النّخيلة إلى الشّام لحرب معاوية وأتباعه، قال نصر بن مزاحم لما وضع عليّ عليه السلام رجله في ركاب دابته قال: «بسم الله،» فلمّا جلس على ظهرها قال: «سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون (**اللهمّ إنّي أعوذ بك من وعثاء السّفر**) ومشقّته (**وكآبة المنقلب**) أي الحزن بعد الرّجوع إلى الوطن»، وفي رواية نصر بعده والحيرة بعد اليقين (**وسوء المنظر في الأهل والمال**) المورث للكآبة والملل.

(**اللهم أنت الصّاحب في السّفر**) ومن شأن الصّاحب العناية بأمور صاحبه (**وأنت الخليفة في الأهل و**) من وظيفة الخليفة على الشيء حسن القيام والولاية على ضروريّات ذلك الشيء وحفظه ممّا يوجب له الضرر (**لا يجمعهما**) أي الصّحابة والخلافة في آن واحد (**غيرك**) لامتناع ذلك في حقّ الأجسام (**لأنّ المستخلف لا يكون مستصحباً والمستصحب لا يكون مستخلفاً**) وأمّا الله سبحانه فلتنزهه عن الجهة والجسميّة يجوز كونه خليفة وصاحباً معاً في آن واحد كما قال سبحانه:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

وقد مضى تحقيق الكلام في ذلك في الفصل الخامس والسّادس من فصول الخطبة الأولى عند شرح قوله: مع كلّ شيء لا بمقارنة فتذكر.

تنبيه وتحقيق

إعلم أنّ الدّعاء من معظم أبواب العبادات وأعظم ما يستعصم به من الآفات وأمتن ما يتوصل به إلى استنزال الخيرات، ووجوبه وفضله معلوم من العقل والشّرع.

أما العقل فلأنّ دفع الضّرر عن النّفس مع القدرة عليه والتمكن منه واجب وحصول الضّرر ضروريّ الوقوع في دار الدّنيا، إذ كلّ إنسان لا ينفك عمّا يشوّش نفسه ويشغل عقله ويتضرّر به إمّا من داخل كحصول عارض يغشي مزاجه، أو من خارج كأذيّة ظالم ونحوها ولو خلا من الكلّ فالعقل يجوز وقوعه فيها، وكيف لا وهو في دار الحوادث التي لا تستقرّ على حال، وفجائعها لا ينفك عنها آدمي إمّا بالفعل أو بالقوّة، فضررها إمّا واقع حاصل أو ممكن الوقوع ومتوقع الحصول، وكلاهما يجب إزالته مع القدرة عليه، والدّعاء محصّل لذلك وهو مقدور فيجب المصير إليه.

وقد نبّه على ذلك أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «ما من أحد أبتلي وإن عظمت بلواه بأحقّ بالدّعاء من المعافى الذي لا يأمن من البلاء»(١).

فقد ظهر من هذا الحديث احتياج كلّ أحد إلى الدّعاء معافاً ومبتلى، وفائدته رفع البلاء الحاصل ودفع السّوء النّازل أو جلب نفع مقصود أو تقرير خير موجود.

فإن قلت: المطلوب بالدّعاء إمّا أن يكون معلوم الوقوع لله سبحانه، أو معلوماً عدم وقوعه، فعلى الأوّل يكون واجباً وعلى الثاني ممتنعاً، وعلى التّقديرين فلا يكون للدّعاء فائدة، لأنّ الأقدار سابقة، والأقضية واقعة وقد جفّ القلم بما هو كائن، فالدّعاء لا يزيد ولا ينقص فيها شيئاً.

قلنا: هذه شبهة ربّما سبقت إلى الأذهان القاصرة وفسادها ظاهر، لأن كلّ كائن فاسد موقوف في كونه وفساده على شرائط توجد وأسباب تعدّ لأحدهما لا يمكن بدونها، وعلى ذلك فلعل الدّعاء من شرائط ما يطلب به وهما وإن كانا معلومي الوقوع لله سبحانه وهو تعالى علتهما الأولى، إلاّ أنه هو الذي ربط أحدهما بالآخر، فجعل سبب وجود ذلك الشيء الدّعاء كما جعل سبب صحّة المرض شرب الدّواء، وما لم يشرب الدواء لم يصحّ، وبذلك أيضاً ظهر فساد ما قيل أنّ المطلوب بالدّعاء إن كان من مصالح العباد فالجواد المطلق لا يبخل به، وإن لم يكن من مصالحهم لم يجز طلبه، وجه ظهور الفساد أنّه لا يمتنع أن يكون وقوع ما سأله مصلحة بعد الدّعاء ولا يكون مصلحة قبل الدّعاء.

وأما النقل فمن الكتاب قوله سبحانه:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ﴾ [الفرقان: ٧٧] وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

فجعل الدعاء عبادة والمستكبر عنها كافراً وقوله:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال أحمد بن فهد الحلّي في كتاب عدّة الدّاعي: هذه الآية قد دلت على أمور:

الأول: تعريفه تعالى لعباده بالسؤال بقوله:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الثاني: غاية عنايته بمسارعة إجابته ولم يجعل الجواب موقوفاً على تبليغ الرّسول بل قال: فإنّي قريب ولم يقل قل لهم إنّي قريب.

(١) الأمالي: ٣٣٧ ح ٣٩٥، ووسائل الشيعة: ٧/ ٤٢ ح ٨٦٦٨.

الثالث: خروج هذا الجواب بالفاء المقتضي للتعقيب فلا فصل.

الرابع: تشريفه تعالى لهم بردّ الجواب بنفسه لينبّه بذلك على كمال منزلة الدعاء وشرفه عنده تعالى ومكانه منه، قال الباقر عليه السلام: «لا تملّ من الدّعاء فإنّه من الله بمكانه»[١].

الخامس: دلت هذه الآية على أنه لا مكان له إذ لو كان له مكان لم يكن قريباً من كل من يناجيه.

السادس: أمره تعالى لهم بالدّعاء في قوله: فليستجيبوا لي أي فليدعوني.

السابع: قوله تعالى: وليؤمنوا بي أي وليتحقّقوا أنّي قادر على إعطائهم ما سألوه، فأمرهم باعتقادهم قدرته على إجابتهم وفيه فائدتان: إعلامهم بإثبات صفة القدرة له وبسط رجائهم في وصولهم إلى مقترحاتهم وبلوغ مراداتهم ونيل سؤالاتهم فإنّ الإنسان إذا علم قدرة معامله ومعاوضه على دفع عوضه كان ذلك داعياً له إلى معاملته ومرغباً له في معاوضته، كما أنّ علمه بعجزه عنه على الضدّ من ذلك، ولهذا تراهم يجتنبون معاملة المفلس.

الثامن: تبشيره تعالى لهم بالرّشاد الذي هو طريق الهداية المؤدّي إلى المطلوب فكأنّه بشّرهم بإجابة الدّعاء، ومثله قول الصّادق عليه السلام: «من تمنّى شيئاً وهو لله رضى لم يخرج من الدّنيا حتّى يعطاه»، وقال: «إذا دعوت فظن حاجتك بالباب»[٢].

فإن قلت: نحن نرى كثيراً من النّاس يدعون الله فلا يجيبهم فما معنى قوله: أجيب دعوة الدّاع إذا دعان؟ وبعبارة أخرى إنّه سبحانه وعد إجابة الدّعاء وخلف الوعد عليه تعالى محال لأنّه كذب قبيح في حقّه عزّ وجلّ.

قلت: قد أجاب الطبرسي في «مجمع البيان» بأنه ليس أحد يدعو الله على ما توجبه الحكمة إلاّ أجابه الله، فإنّ الدّاعي إذا دعاه يجب أن يسأل ما فيه صلاح له في دينه ولا يكون له مفسدة فيه فإنّه سبحانه يجيب إذا اقتضت المصلحة إجابته أو يؤخّر الإجابة إن كانت المصلحة في التأخير، ثمّ قال: وإذا قيل إنّ ما تقتضيه الحكمة لا بدّ أن يفعله فما معنى الدّعاء وإجابته؟ أجاب بأنّ الدّعاء عبادة في نفسها لما فيه من إظهار الخضوع والإنقياد، وأيضاً لا يمتنع أن يكون وقوع ما سأله إنّما صار مصلحة بعد الدّعاء[٣].

أقول: أمّا ما ذكره من أنّه ليس أحد يدعو الله (آ ه)، فهو حقّ لا ريب فيه وبه صرّح في عدّة الدّاعي حيث قال: ليس أحد يدعو الله سبحانه وتعالى على ما يوجبه الحكمة ممّا فيه صلاحه إلا أجابه وعلى الدّاعي أن يشرط ذلك بلسانه أو يكون منوياً في قلبه، فالله يجيبه البتّة

---

(١) الكافي: ٢/٤٨٨، والفقيه: ٢/٥٤٢.

(٢) الدعوات للراوندي: ١٨، والكافي: ٢/ ٤٧٣.

(٣) عدة الداعي: ٢٣.

إن اقتضت المصلحة إجابتها، أو يؤخّر له إن اقتضت المصلحة التأخير قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

وفي دعائهم: يا من لا تغيّر حكمته الوسائل، ولما كان علم الغيب منطوياً عن العبد وربّما تعارض عقله القوي الشّهويّة ويخالطه الخيالات النّفسانيّة فيتوهم أمراً ممّا فيه فساده صلاحاً له فيطلبه من الله سبحانه ويلحّ في السّؤال عليه، ولو يعجّل الله إجابته ويفعله به لهلك البتّة، وهذا أمر ظاهر العيان غنيّ عن البيان كثير الوقوع، فكم نطلب أمراً ثم نستعيذ منه وكم نستعيذ من أمر ثمّ نطلبه، وعلى هذا خرج قول عليّ عليه السلام: «ربّ أمر حرص الإنسان عليه فلمّا أدركه ودّ أن لم يكن أدركه وكفاك قوله تعالى:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾» [البقرة: ٢١٦].

فإنّ الله سبحانه وتعالى من وفور كرمه وجزيل نعمه لا يجيبه، وذلك إمّا لسابق رحمته به فإنّه هو الذي سبقت رحمته غضبه وإنّما أنشأه رحمة به وتعريضاً لإثابته وهو الغنيّ عن خلقته ومعاقبته أو لعلمه سبحانه بأنّ المقصود للعبد من دعائه هو إصلاح حاله فكان ما طلبه ظاهراً غير مقصود له مطلقاً، بل بشرط نفعه له فالشّرط المذكور حاصل في نيّته وإن لم يذكره بلسانه بل وإن لم يخطر بقلبه حالة الدّعاء.

وإيضاح ذلك على سبيل المثل أنه إذ قال كريم: أنا لا أردّ سائلاً ولا أخيّب آملاً، ثمّ أتى سفيه وطلب منه ما يعلم أنّه يقتله والسّائل لم يكن عالماً بذلك، أو أتى صبيّ جاهل وطلب منه أفعياً لحسن نقشه ونعومته، فالحكمة والجود يقتضيان منعهما لإعطائهما، ولو أعطاهما لذمّه العقلاء، فظهر أنّ هذا الوعد من الحكيم لا بدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة.

وتوهّم أنّ ما فيه صلاح العباد يأتي الله تعالى به لا محالة من دون حاجة إلى الدّعاء، مدفوع بما أشار إليه الطبرسي من إمكان كون المصلحة في الإعطاء مع الدّعاء ومع عدمه يكون الصّلاح في المنع.

وعلى هذا فالمطالب ثلاثة: **الأول**: ما يكون المصلحة في إعطائه مطلقاً كالرّزق الضروريّ. **الثاني**: ما يكون المصلحة في المنع كذلك. **الثالث**: أن تكون المصلحة في العطاء مع الدّعاء وفي العدم مع العدم وإنّما يظهر أثر الدّعاء في الثّالث هذا.

وأمّا ما ذكره أخيراً في الجواب من أنّ الدّعاء عبادة في نفسها فصحيح إلا أنّه لا ربط له بالسّؤال هذا، والإنصاف أنّ مجرد اشتمال الدّعاء على المصلحة لا يستلزم الإجابة بل لا بدّ من اقترانه مضافاً إلى ذلك بشرائطها المقرّرة المستفادة من الأخبار مع كونه صادراً عن وجه الإخلاص وتمام الإنقطاع والفراغ والتخلية التّامّة للقلب.

ولنعم ما قال إبراهيم بن أدهم حيث قيل له: ما بالنا ندعو الله سبحانه فلا يستجيب لنا قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرّسول فلم تتّبعوا سنّته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنّة فلم تطلبوها، وعرفتم النّار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشّيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب النّاس.

والحاصل أنّ الدّعاء كسائر العبادات لها شروط لحصولها وموانع عن قبولها فلمّا لم يتحقق الشّرائط ولم ترتفع الموانع لم يترتّب عليها آثارها الدّنيويّة والأخرويّة مثلاً الصّلاة إذا ورد فيها من صلى دخل الجنة أو زيد في رزقه، فإذا صلى بغير وضوء أو فعل ما يبطلها ويحبطها لم يترتّب عليها آثارها الدّنيوية والأخرويّة، وإذا قال الطبيب: السّقمونيا مسهل فإذا شرب الإنسان معه ما يبطل تأثيره كالأفيون فهو لا ينافي قول الطبيب ولا ينافي حكمه في ذلك.

فكذا الدّعاء إستجابتها وقبولها وترتيب الأثر عليها مشروطة بشرائط، فإذا أخل لشيء منها لم تترتّب عليها الإستجابة، وقد وردت أخبار كثيرة في شرائط الدّعاء ومنافاته، وربّما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال الشّارح البحراني: سبب إجابة الدّعاء هو توافي الأسباب، وهو أن يتوافى دعاء رجل مثلاً فيما يدعو فيه وسائر أسباب وجود ذلك الشّيء معاً عن الباري تعالى لحكمة إلهيّة على ما قدر وقضى، ثمّ الدّعاء واجب وتوقع الإجابة واجب، فإنّ انبعاثنا للدّعاء سببه من هناك، ويصير دعاؤنا سبباً للإجابة وموافاة الدّعاء لحدوث الأمر المدعوّ لأجله وقد يكون أحدهما بواسطة الآخر، وإذا لم يستجب الدّعاء لداع وإن كان يرى أنّ الغاية التي يدعو لأجلها نافعة فالسّبب في عدم الإجابة أنّ الغاية النّافعة ربّما لا تكون نافعة بحسب نظام الكلّ بل بحسب مراده فلذلك تتأخر إجابة الدّعاء أو لا يستجاب له، وبالجملة قد يكون عدم الإجابة لفوات شرط من شروط ذلك المطلوب حال الدّعاء.

وإعلم أنّ النّفس الزّكية عند الدّعاء قد يفيض عليها من الأوّل قوّة تصير بها مؤثّرة في العناصر فتطاوعها متصرّفة على إرادتها فيكون ذلك إجابة للدّعاء، فإن العناصر موضوعة لفعل النّفس فيها واعتبار ذلك في أبداننا فإنّا ربّما تخيلنا شيئاً فتتغيّر أبداننا بحسب ما تقتضيه أحوال نفوسنا وتخييلاتها وقد يمكن أن تؤثر النّفس في غير بدنها كما تؤثّر في بدنها، وقد تؤثّر في نفس غيرها وقد يستجيب الله لتلك النّفس إذا دعت فيما تدعو فيه إذا كانت الغاية التي تطلبها بالدّعاء نافعة بحسب نظام الكلّ.

ومن السنة أخبار فوق حدّ الإحصاء ولنقتصر على بعض ما رواه في **عدّة الدّاعي**.

فعن حنّان بن سدير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أي العبادة أفضل؟ فقال عليه السلام: «ما شيء أحبّ إلى الله من أن يسأل ويطلب ما عنده، وما أحد أبغض إلى الله ممّن يستكبر عن

عبادته ولا يسأله ما عنده»[١].

وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال: «هو الدّعاء وأفضل العبادة الدّعاء»، قلت:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] قال: الأوّاه هو الدّعاء[٢].

وعن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أحبّ الأعمال إلى الله في الأرض الدّعاء، وأفضل العبادة العفاف»، وكان أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً دعّاء[٣].

وعن عبيد بن زرارة، عن أبيه، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام: «الدّعاء هو العبادة التي قال الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ولا تقل إنّ الأمر قد فرغ منه»[٤].

وعن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله عليه السلام: الدّعاء كهف الإجابة كما أنّ السّحاب كهف المطر.

وعن هشام بن سالم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «هل تعرفون طول البلاء من قصره»؟ قلنا: لا، قال: «إذا ألهم أحدكم الدّعاء فاعلموا أنّ البلاء قصير»[٥].

وعن أبي ولّاد قال: قال أبو الحسن عليه السلام: «ما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيلهمه الله الدّعاء إلاّ كان كشف ذلك البلاء وشيكاً، وما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيمسك عن الدّعاء إلاّ كان البلاء طويلاً، فإذا نزل البلاء فعليكم بالدّعاء والتّضرّع إلى الله عزّ وجلّ»[٦].

وعن النّبي صلى الله عليه وآله: «افزعوا إلى الله عزّ وجلّ في حوائجكم، والجأوا إليه في ملمّاتكم، وتضرّعوا إليه وادعوه، فإنّ الدّعاء مخ العبادة، وما من مؤمن يدعو الله إلاّ استجاب له فأمّا أن يعجّل له في الدّنيا أو يؤجّل له في الآخرة، وإمّا أن يكفّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بمأثم»[٧].

---

(١) عدة الداعي: ٣٣، والكافي: ٢/ ٤٦٦.

(٢) الكافي: ٢/ ٤٦٦.

(٣) الكافي: ٢/ ٧٩ ح٣.

(٤) الكافي: ٢/ ٤٦٦ ح٣.

(٥) الكافي: ٢/ ٤٧١ ح ١، ووسائل الشيعة: ٧/ ٤٤ ح ٨٦٧٥.

(٦) الكافي: ٢/ ٤٧١ ح ٢، ووسائل الشيعة: ٧/ ٤٤ ح ٨٦٧٤.

(٧) وسائل الشيعة: ٧/ ٢٧ ح ٨٦١٥، وعدة الداعي: ٣٤.

وعنه ﷺ: «أعجز النّاس من عجز عن الدّعاء، وأبخل النّاس من بخل بالدّعاء».

وعنه ﷺ: «ألا أدلكم على أبخل النّاس وأكسل النّاس وأسرق النّاس وأجفا النّاس وأعجز النّاس»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أمّا أبخل النّاس فرجل يمرّ بمسلم ولا يسلم عليه، وأمّا أكسل النّاس فعبد صحيح فارغ لا يذكر الله بشفة ولا بلسان، وأمّا أسرق النّاس فالذي يسرق من صلاته، فصلاته تلفّ كما يلفّ الثّوب الخلق فيضرب بها وجهه، وأمّا أجفا النّاس فرجل ذكرت بين يديه فلم يصلّ عليّ، وأمّا أعجز النّاس فمن عجز عن الدّعاء»[١].

وعنه ﷺ: «أفضل العبادات الدّعاء وإذا أذن الله للعبد في الدّعاء فتح له باب الرّحمة، إنّه لن يهلك مع الدّعاء أحد»[٢].

وعن معاوية بن عمّار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام في الرّجلين افتتحا الصّلاة في ساعة واحدة فتلا هذا القرآن فكانت تلاوته أكثر من دعائه، ودعا هذا فكان دعاؤه أكثر من تلاوته، ثمّ انصرفا في ساعة واحدة أيّهما أفضل؟ قال عليه السلام: «كلّ فيه فضل وكلّ حسن»، قلت: إنّي قد علمت أنّ كلاً حسن وأنّ كلاً فيه فضل، لكن أيّهما أفضل؟ فقال عليه السلام «الدّعاء أفضل أما سمعت قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

هي والله العبادة هي والله أفضل أليست هي العبادة هي والله العبادة، أليست هي أشدّهن هي والله أشدّهنّ هي والله أشدّهنّ»[٣].

وعن يعقوب بن شعيب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ الله أوحى إلى آدم أنّي سأجمع لك الكلام في أربع كلمات، قال: يا ربّ وما هنّ، قال: واحدة لي، واحدة لك، واحدة فيما بيني وبينك، واحدة بينك وبين النّاس، فقال آدم: بيّنهن لي يا ربّ، فقال الله تعالى: «أمّا التي لي فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وأمّا التي لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه، وأمّا التي بيني وبينك فعليك الدّعاء وعليّ الإجابة وأمّا التي بينك وبين النّاس فترضى للنّاس ما ترضى لنفسك».

ومن كتاب الدّعاء لمحمّد بن حسن الصّفار في حديث مرفوع قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنّة رجلان كانا يعملان عملاً واحداً فيرى أحدهما صاحبه فوقه فيقول: يا ربّ بما أعطيته وكان عملنا واحداً، فيقول الله تبارك وتعالى سألني ولم تسألني ثمّ قال: اسألوا الله وأجزلوا فإنّه لا يتعاظمه شيء»[٤].

---

(١) مكارم الأخلاق: ٢٦٨.
(٢) عدة الداعي: ٣٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) وسائل الشيعة: ٧/ ٢٥.

ومنه أيضاً برواية مرفوعة قال: قال النبيّ ﷺ: «ليسألنّ الله أو ليقضينّ عليكم إنّ لله عباداً يعملون فيعطيهم وآخرين يسألونه صادقين فيعطيهم ثمّ يجمعهم في الجنّة فيقول الذين عملوا ربّنا عملنا فأعطيتنا فبما أعطيت هؤلاء؛ فيقول: عبادي أعطيتكم أجوركم ولم ألتكم من أعمالكم شيئاً وسألني هؤلاء فأعطيتهم وهو فضلي أوتيه من أشاء»[1].

وعن الصّادق عليه السلام قال لميسر بن عبد العزيز: «يا ميسر ادع الله ولا تقل إنّ الأمر قد فرغ منه إنّ عند الله منزلة لا تنال إلاّ بمسألة، ولو أنّ عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فاسأل تعط، يا ميسر إنّه ليس يقرع باب إلاّ يوشك أن يفتح لصاحبه»[2].

وفي هذه الرّواية دلالة على ما قدّمناه سابقاً من أنّه لا امتناع في كون الدّعاء محدثاً للمصلحة في المطلوب بعد أن لم يكن فيه مصلحة ولا بعد في كونه من أسباب وجود المطلوب وشرائط حصوله حسبما مرّ تفصيلاً والله وليّ التّوفيق.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است هنگام عزم بر تشريف بردن شام و آن اين است كه:

بارخدايا به درستى كه من پناه مى برم به تو از مشقت سفر و از غم و اندوه بازگشت؛ يعنى از پريشانى كه بعد از مراجعت وطن حاصل مى شود و از بدى نظر در اهل و مال؛ بارخدايا تويى همراه در سفر و تويى جانشين در محافظت اهل در حضر و جمع نمى كند مصاحبت و خلافت غير تو، از جهت اين كه كسى كه خليفه ساخته شده باشد نمى باشد همراه داشته شده و كسى كه همراه داشته شده باشد نمى شود خليفه ساخته شده؛ يعنى محال است كه جانشين همراه در سفر باشد، به جهت اين كه ممكن نيست جسم واحد در آن واحد در دومكان بوده باشد، اما خداوند ذوالعزة كه منزه است از جهت و جسميه، پس در حق او جايز است خلافت و مصاحبت معاً.

(١) بحار الأنوار: ٨/ ٢٢٢، ووسائل الشيعة: ٧/ ٢٥ ح ٨٦٠٦.
(٢) الكافي: ٢/ ٤٦٦ ح ٣.

ومن كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة وهو السابع والأربعون من المختار في باب الخطب

«كَأَنّي بِكِ يا كُوفَةُ تُمَدّينَ مَدّاً الأَديم الْعُكاظِي، وتُعْرَكينَ بِالنَّوازِلِ، وتُرْكَبينَ بِالزَّلازِلِ، وَإِنّي لأَعْلَمُ أَنَّهُ ما أَرادَ بِكِ جَبّارٌ سُوءً إِلاَّ ابْتَلاهُ اللّهُ بِشاغِلٍ، ورَماهُ بِقاتِلٍ»[١].

اللغة

(**الأديم**) الجلد أو مدبوغه وجمعه أدم و(**عكاظ**) بالضّم اسم سوق للعرب بناحية مكة كانت العرب تجتمع بها في كل سنة ويقيمون شهراً ويتبايعون ويتعاكظون أي يتفاخرون ويتناشدون الأشعار قال أبو ذؤيب:

إذا بنى القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف

فلما جاء الإسلام هدمه وأكثر ما كان يباع بها الأديم فنسب إليها و(**العرك**) الدلك والحك وعركه أي حمله عليه الشّر وعركت القوم في الحرب إذا ما رستهم حتّى أتعبتهم و(**النوازل**) المصائب والشّدائد و(**الزّلازل**) البلايا.

الإعراب

المستفاد من المطرزي في شرح المقامات أنّ الفعل في كأني بك محذوف، والأصل كأنّي أبصرك فزيدت الباء بعد حذف الفعل، وقال الرّضي: والأولى أن تبقى كان على معنى التّشبيه ولا تحكم بزيادة شيء وتقول التّقدير كأنّي أبصر بك أي أشاهدك من قوله تعالى فبصرت به عن جنب، والجملة بعد المجرور بالباء حال أي كأنّي أبصر بك يا كوفة حال كونك ممددة مدّ الأديم، وقوله: تركبين، على البناء للمجهول كالفعلين السّابقين أي تجعلين مركوبة لها أو بها على أن تكون الباء للسّببيّة كالسّابقة.

المعنى

إعلم أنّ هذا الكلام له عليه السلام من جملة ما أخبر به عن المغيبات بيّن فيه حال الكوفة وحال أهلها وتجاذب أيدي الظالمين وتسلّطهم عليهم بالظلم والعدوان وفي قوله (**كأني بك يا كوفة**) إشارة إلى أنّ المخبر به لا محالة واقع ووقوعه شاهد بعين اليقين (**تمدين مد الأديم العكاظي**) وجه الشّبه شدّة ما يقع بأهله من الظلم والبلاء كما أن الأديم العكاظي مستحكم

---

(١) بحار الأنوار: ٢٠٩/٥٧ ح ١٢.

الدّباغ شديد المدّ **(تعركين بالنوازل وتركبين بالزلازل)** أراد بهما الشّدائد والمصائب التي نزلت بأهل الكوفة والظلم والبلايا التي حلت بها، وأوجبت اضطراب أهلها، وهي كثيرة معروفة مذكورة في كتب السّير والتواريخ.

وفي قوله: **(وإنّي لأعلم)** مؤكداً بأن واللام والقسم إشارة إلى تحقّق وقوع المخبر به يعني أنّه معلوم بعلم اليقين **(أنه ما أراد بك جبار سوءاً إلاّ ابتلاه الله بشاغل ورماه بقاتل)**.

قال أبو الحسن الكيدري في شرحه: فمن الجبابرة الذين ابتلاهم الله بشاغل فيها زياد وقد جمع النّاس في المسجد ليلعن عليّاً صلوات الله عليه فخرج الحاجب وقال: انصرفوا فإنّ الأمير مشغول عنكم وقد أصابه الفالج في هذه الساعة وابنه عبيد الله بن زياد وقد أصابه الجذام والحجاج بن يوسف وقد تولدت الحيات في بطنه حتّى مات وعمر بن هبيرة وابنه يوسف وقد أصابهما البرص وخالد القسري وقد حبس فطولت حتّى مات جوعاً.

وأما الذين رماهم الله بقاتل فعبيد الله بن زياد ومصعب بن الزبير وأبو السرايا وغيرهم قتلوا جميعاً ويزيد بن مهلب قتل على أسوأ حال هذا.

والعجب من الشّارح البحراني حيث قال: وأما الجبابرة الذين أرادوا بها سوءاً وطعنوا فيها فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربك سوط عذاب وأخذهم بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، فجماعة وذكر التي تقدم ذكرها من الكيدري وأضاف إليها المختار بن أبي عبيدة الثقفي.

وأنت خبير بأنّ عدّ[١] المختار في ذلك العداد ظلم في حقّه وسوء أدب بالنّسبة إليه إذ الأخبار في ذمّه وإن كانت كثيرة إلاّ أنّها مع ضعف سندها معارضة بأخبار المدح، وقد ذكرهما الكشي في رجاله فغاية الأمر مع عدم التّرجيح لأخبار المدح هو التوقف، وعلى فرض الترجيح لأخبار الذّم فهي لم تبلغ حدّاً يوجب الجرأة على عده في عداد أمثال زياد وحجاج ومصعب ونحوهم، وعلى جعله من الجبابرة الموصوفة لعنهم الله.

كيف؟ وابن طاووس بعد القدح في روايات الذّم قال: إذا عرفت هذا فإنّ الرجحان في جانب الشكر والمدح، ولو لم يكن تهمة فكيف ومثله موضع أن يتهم فيه الرواة ويستغش فيما يقول عنه المحدّثون لعيوب تحتاج إلى نظر[٢].

ويكفي في فضله ما رواه الكشّي عن عبد الله بن شريك قال: دخلنا على أبي جعفر عليه السلام يوم السحر وهو متكىء وقد أرسل إلى الحلاق فقعدت بين يديه إذ دخل عليه شيخ من أهل الكوفة فتناول يده ليقبلها فمنعه، ثمّ قال: من أنت؟ قال: أنا أبو محمّد الحكم بن

---

(١) أي ضمن الجبابرة.
(٢) طرائف المقال: ٢/ ٥٩١.

المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وكان متباعداً من أبي جعفر فمد يدّه إليه حتّى كاد أن يقعده في حجره بعد منعه يده، ثمّ قال: أصلحك الله إنّ النّاس قد أكثروا في أبي وقالوا: والقول والله قولك، قال: أيّ شيء يقولون؟ قال: يقولون كذّاب ولا تأمرني بشيء إلاّ قبلته، فقال: سبحان الله أخبرني أبي والله أنّ مهر أمّي كان ممّا بعث به المختار أو لم يبن دورنا، وقتل قاتلنا، وطلب بدمائنا؟ رحم الله، وأخبرني والله أنّه كان ليقيم عند فاطمة بنت عليّ يمهدها الفراش ويثني لها الوسائد ومنها أصاب الحديث رحم الله أباك رحم الله أباك ما ترك لنا حقّاً عند أحد إلا طلبه قتل قتلتنا وطلب بدمائنا[1]، هذا.

واعلم أن في قوله: ما أراد بك جبّار سوءاً إلاّ ابتلاه الله إشعاراً بمدح الكوفة وفضلها وقد جاء عن أهل البيت عليهم السّلام في ذلك شيء كثير مثل قول أمير المؤمنين عليه السلام: «نعمت المدرة»، وقوله عليه السلام: «إنّه يحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفاً وجوههم في صورة القمر»، وقوله عليه السلام: «مدينتنا ومحلّتنا ومقر شيعتنا، وقول الصّادق عليه السلام اللهم ارم من رماها وعاد من عاداها»، وقوله عليه السلام: «تربة تحبّنا ونحبّها».

وفي «**البحار**» من «**معاني الأَخبار والخصال**» للصّدوق بإسناده عن موسى بن بكير عن أبي الحسن الأوّل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ الله اختار من البلدان أربعة: فقال عزّ وجلّ**:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣].

فالتّين المدينة، والزّيتون البيت المقدّس، وطور سنين الكوفة، وهذا البلد الأمين مكّة، الخبر[2].

قال المجلسي: لعله إنّما كنى عن المدينة بالتّين لوفوره وجودته فيها، أو لكونها من أشارف البلد كما أنّ التّين من أفاضل الثّمار، وكنّى عن الكوفة بطور سنين لأنّ ظهرها وهو النجف كان محلّ مناجاة سيّد الأوصياء كما أن الطور محلّ مناجاة الكليم، أو لأنّ الجبل الذي سأل موسى عليه الرّؤية تقطع فوقع جزء منه هناك كما ورد في بعض الأخبار، أو أنّ ابن نوح لمّا اعتصم بهذا الجبل تقطع فصار بعضها في طور سينا، أو أنّه طور سينا حقيقة.

وغلط فيه المفسّرون واللغويّون كما روى الشّيخ في «**التهذيب**» بإسناده عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان في وصيّة أمير المؤمنين أن أخرجوني إلى الظهر فإذا تصوّبت أقدامكم واستقبلتكم ريح فادفنوني وهو أوّل طور سينا ففعلوا ذلك»[3].

---

(١) البحار: ٤٥/٣٥١.
(٢) بحار الأنوار: ٥٧/٢٠٥.
(٣) تهذيب الأحكام: ٦/٣٤.

ومن مجالس الشيخ بإسناده عن عبد الله بن الوليد قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فسلمنا عليه وجلسنا بين يديه فسألنا من أنتم؟ قلنا: من أهل الكوفة فقال: «أما إنّه ليس من بلد من البلدان أكثر محبّاً لنا من أهل الكوفة، ثم هذه العصابة خاصة إنّ الله هداكم لأمر جهله النّاس، أحببتمونا وأبغضنا النّاس، وصدقتمونا وكذبنا النّاس، واتّبعتمونا وخالفنا النّاس، فجعل الله محياكم محيانا ومماتكم مماتنا»[1].

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در ذكر حال كوفه و خراب شدن آن از دست ظلمه، مى فرمايد:

گويا مى بينم تو را اى كوفه در حالتى كه كشيده مى شوى همچو كشيدن چرم عكاظى، ماليده شوى به سبب فرود آمدن مصيبت ها و حادثه ها و سواركرده شوى به جنبش ها و زلزله ها، اين همه اشاره است به انواع بلا و محنت و جفا و مصيبت كه واقع شد به اهل كوفه از ظلم ظلمه و ستم فجره و به درستى كه مى بينم آن كه اراده نكند به تو هيچ گردن كش ستمكار بدى و مضرّت را مگر اين كه گرفتار سازد او را خداوند قهار به بلايى كه مشغول كننده او است و بيندازد او را به دست قاتلى كه كشنده او است؛ والله أعلم بمعاني كلامه.

(١) الكافي: ٨/ ٢٣٦ ح ٣١٦، ودعائم الإسلام: ١/ ٧٤.

ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام وهي الثامنة والأربعون من المختار في باب الخطب

وهي مرويّة في كتاب صفين لنصر بن مزاحم باختلاف وزيادة تطلع عليه إن شاء الله.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّما وَقَبَ لَيْلٌ وغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّما لاَحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الإنْعَامِ، ولا مُكافأ الإِفْضَالِ، أَمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتي وأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطاطِ، حَتى يَأْتِيَهُمْ أَمْري، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوَطِّنِينَ أَكْنَافَ دَجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إلى عَدُوِّكُمْ، وأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ»[1].

قال السّيد (ره) أقول يعني عليه السلام بالملطاط السّمت الذي أمرهم بلزومه، وهو شاطىء الفرات، ويقال ذلك لشاطىء البحر وأصله ما استوى من الأرض، ويعني بالنّطفة ماء الفرات وهو من غريب العبارات وأعجبها.

اللغة

(**الوقوب**) الدّخول و(**غسق**) الليل أظلم، ومنه الغاسق قال سبحانه:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ٣].

قال الطبرسي: الغاسق في اللغة الهاجم بضرره وهو ههنا الليل لأنّه يخرج السّباع من آجامها والهوام من مكانها فيه، يقال: غسقت القرحة إذا جرى صديدها ومنه الغساق صديد أهل النّار لسيلانه بالعذاب وغسقت عينه سال دمعها و(**خفق**) النّجم يخفق خفوقاً غاب و(**المكافأ**) بصيغة المفعول من كافأه مكافأة كمعاملة وكفاه جازاه و(**مقدمة**) الجيش بالكسر وقد يفتح أوّله ما يتقدّم منه على العسكر و(**الملطاط**) حافة الوادي وساحل البحر، والمراد هنا شاطىء الفرات كما قال السّيد و(**النّطفة**) بالضّم الماء الصّافي قل أو كثر و(**الشّرذمة**) بالكسر القليل من النّاس و(**موطنين**) إمّا من باب الأفعال أو التّفعيل يقال: أوطنه ووطنه واستوطنه اتّخذه وطناً و(**الكنف**) بالتّحريك الجانب والنّاحية و(**نهض**) كمنع قام وأنهضه غيره أقامه و(**الإمداد**) جمع مدد بالتّحريك وهو النّاصر والمعين.

الإعراب

غير منصوب على الحالية، وقوله: ولا مكافأ الإفضال، لا زائدة عند البصريين للتّوكيد وعند الكوفيّين هي بمعنى غير كما قالوا جئت بلا شيء فأدخلوا عليها حرف الجرّ فيكون لها

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٢١.

حكم غير، وأجاب البصريّون عن هذا بأنّ لا دخلت للمعنى فتخطاها العامل، والجار في قوله: إلى شرذمة، متعلق بمحذوف أي متوجّهاً إليهم ومثلها إلى في قوله: إلى عدوّكم.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام وهو بالنّخيلة خارجاً من الكوفة متوجّهاً إلى صفّين بخمس مضين من شوال سنة سبع وثلاثين فقال: (**الحمد للّه كلما وقب ليل وغسق**) أي دخل وأظلم (**الحمد لله كلّما لاح نجم وخفق**) أي ظهر وغاب.

تقييد الحمد بالقيود المذكورة قصداً للدّوام والثّبات مع ما في ذلك من الإشارة إلى كمال القدرة والعظمة والتّنبيه بما في وقوب الليل من النّعم الجميلة من النّوم والسّكون والسّبات، والتّذكير بما في طلوع الكواكب وغروبها من المنافع الجليلة من معرفة الحساب والسّنين والشّهور والسّاعات والإهتداء بها في الفيافي والفلوات إلى غير هذه ممّا يترتّب عليها من الفوائد والثمرات (**والحمد لله غير مفقود الإنعام**) وقد مرّ تحقيق ذلك في شرح الخطبة الرّابعة والأربعين في بيان معنى قوله عليه السلام: ولا تفقد له نعمة (**ولا مكافأ الأفضال**) إذ إحسانه سبحانه لا يمكن أن يقابل بالجزاء، إذ القدرة على شكره وثنائه الذي هو جزاء إحسانه نعمة ثانية من نعمه.

وقد مرّ تفصيل ذلك في شرح الخطبة الأولى في بيان معنى قوله عليه السلام: ولا يؤدّي حقّه المجتهدون (**أمّا بعد فقد بعثت مقدّمتي**) أراد مقدمة جيشه التي بعثها مع زياد بن النّصر وشريح بن هاني نحو صفّين، وقد كانوا اثنا عشر ألف فارس (**وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط**) والوقوف في شاطىء الفرات (**حتّى يأتيهم أمري**) ويبلغهم حكمي (**وقد رأيت**) المصلحة في (**أن أقطع هذه النّطفة**) أراد ماء الفرات كما مرّ متوجّهاً (**إلى شرذمة منكم موطنين أكناف دجلة**) أراد بهم أهل المدائن (**فأنهضهم معكم إلى عدوّكم وأجعلكم من أمداد القوة لكم**) وفي رواية نصر بن مزاحم الآتية فأنهضهم معكم إلى أعداء الله.

وقال نصر: فسار عليه السلام حتّى انتهى إلى مدينة بهر سير، وإذا رجل من أصحابه يقال له جرير بن سهم بن طريف من بني ربيعة ينظر إلى آثار كسرى ويتمثل بقول الأسود بن يعفر:

جرت الرّياح على محلّ ديارهم فكأنّما كانوا على ميعاد

فقال عليه السلام له: ألا قلت:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وعُيُونٍ، وزُرُوعٍ ومَقامٍ كَرِيمٍ، ونِعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ، كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ والأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾[1].

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ٧٤، ونهج السعادة: ٢/ ١٣٥.

إنّ هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، ولم يشكروا النّعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية إيّاكم وكفر النّعم لا تحلّ بكم النّقم انزلوا بهذه النّجوة، قال نصر فأمر الحرث الأعور فصاح في أهل المدائن من كان من المقاتلة فليواف أمير المؤمنين صلاة العصر فوافوه في تلك السّاعة فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

«فإنّي قد تعجبت من تخلفهم عن دعوتكم، وانقطاعكم من أهل مصركم في هذه المساكن الظالم أهلها الهالك أكثر سكّانها، لا معروف تأمرون به، ولا منكر تنهون عنه».

قالوا: يا أمير المؤمنين إنّا كنّا ننتظر أمرك مرنا بما أحببت، فسار وخلف عليهم عدي بن حاتم فأقام عليهم ثلاثاً، ثمّ خرج في ثمانمائة رجل منهم وخلف ابنه زيداً بعده فلحقه في أربعمائة رجل، وهؤلاء هم الذين جعلهم من أمداد القوة لجيشه هذا.

ومن عجائب ما روي عنه عليه السلام ما في «**البحار**» من كتاب «**الفضائل**» لشاذان بن جبريل القميّ عن الأحوص، عن أبيه، عن عمار الساباطي قال: قدم أمير المؤمنين عليه السلام المدائن فنزل بإيوان كسرى وكان معه دلف بن بحير، فلمّا صلى عليه السلام قام وقال لدلف: قم معي، وكان معه جماعة من أهل ساباط. فما زال يطوف منازل كسرى ويقول لدلف: كان لكسرى في هذا المكان كذا وكذا ويقول دلف: هو والله كذلك فما زال كذلك حتّى طاف المواضع بجميع من كان عنده ودلف يقول: يا سيّدي ومولاي كأنّك وضعت هذه الأشياء في هذه المساكن.

ثمّ نظر إلى جمجمة نخرة فقال لبعض أصحابه: خذ هذه الجمجمة ثمّ جاء إلى الإيوان وجلس فيه، ودعا بطشت فيه ماء فقال للرجل دع هذه الجمجمة في الطشت ثمّ قال: أقسمت عليك يا جمجمة أخبرني من أنا وأنت، فقال الجمجمة بلسان فصيح: أمّا أنت فأمير المؤمنين وسيّد الوصيّين وإمام المتّقين، وأمّا أنا فعبد الله وابن أمة الله كسرى أنوشيران.

فقال له أمير المؤمنين: «كيف حالك»، فقال: يا أمير المؤمنين إنّي كنت ملكاً عادلاً شفيقاً على الرّعايا رحيماً لا يرضى بظلم، ولكن كنت على دين المجوس، وقد ولد محمّد في زمان ملكي فسقط من شرفات قصري ثلاثة وعشرون ليلة ولد، فهممت أن أؤمن به من كثرة ما سمعت من الزّيادة من أنواع شرفه وفضله ومرتبته وعزّه في السّموات والأرض ومن شرف أهل بيته، ولكني تغافلت عن ذلك وتشاغلت منه في الملك، فيا لها من نعمة ومنزلة ذهبت منّي حيث لم أ»من به، فأنا محروم من الجنّة بعدم إيماني به ولكنّي مع هذا الكفر خلصني الله من عذاب النّار ببركة عدلي وإنصافي بين الرّعيّة وأنا في النّار، والنّار محرّمة عليّ فواحسرتا لو آمنت لكنت معك يا سيّد أهل بيت محمّد ويا أمير أمّته.

قال: فبكى النّاس وانصرف القوم الذين كانوا من أهل ساباط إلى أهليهم وأخبروهم بما كان وما جرى، فاضطربوا واختلفوا في معنى أمير المؤمنين، فقال المخلصون منهم: إنّ أمير

المؤمنين عليه السلام عبد الله ووليّه ووصيّ رسول الله، وقال بعضهم بل هو النّبيّ، وقال بعضهم: بل هو الرّب، وهو مثل عبد الله بن سبأ وأصحابه، وقالوا لولا أنّه الرّب كيف يحيي الموتى.

قال، فسمع بذلك أمير المؤمنين عليه السلام، وضاق صدره وأحضرهم وقال: «يا قوم غلب عليكم الشّيطان إن أنا إلاّ عبد الله أنعم عليّ بإمامته وولايته ووصيّة رسوله، فارجعوا عن الكفر، فأنا عبد الله وابن عبده ومحمّد خير مني، وهو أيضاً عبد اللّه وإن نحن إلاّ بشر مثلكم»، فخرج بعضهم من الكفر وبقي قوم على الكفر ما رجعوا فألحّ أمير المؤمنين عليهم بالرّجوع فما رجعوا فأحرقهم بالنّار وتفرّق قوم منهم في البلاد وقالوا: لولا أنّ فيه الرّبوبيّة ما كان أحرقنا بالنّار، فنعوذ بالله من الخذلان(١).

تكملة

روى نصر بن مزاحم في كتاب صفّين بسنده عن عبد الرّحمن بن عبيد بن أبي الكنود؛ قال: لمّا أراد عليّ عليه السلام الشّخوص من النّخيلة قام في النّاس لخمس مضين من شوال يوم الأربعاء فقال:

«الحمد لله غير مفقود النّعم، ولا مكافأ الأفضال، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، ونحن على ذلكم من الشّاهدين، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله،

أمّا بعد ذلكم فإنّي قد بعثت مقدّماتي وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط، حتّى يأتيهم أمري، فقد أردت أن أقطع هذه النّطفة إلى شرذمة منكم موطنون بأكناف دجلة، فأنهضكم معكم إلى أعداء الله إن شاء الله، وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصاري، ولم ألوكم ونفسي، فإيّاكم والتخلف والتّربص، فإنّي قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعي وأمرته أن لا يترك متخلفاً إلاّ ألحقه بكم عاجلاً إن شاء الله(٢)».

---

(١) بحار الأنوار: ٤١/٢١٥، والفضائل: ٧٢.

(٢) نهج السعادة: ٢/٧٢٣، ووقعة صفين: ١٣٢.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است هنگام رفتن شام، فرموده:

سپاس بی قیاس خداوندی را سزا است هروقتی که داخل شد شب و رو به تاریکی نهاد و ثناء بی انتها واجب الوجودی را روا است هروقتی که طلوع نمود ستاره و در غروب افتاد و ستایش بی حد، معبود به حقی را است در حالتی که نایاب شده نیست احسان او و جزا داده و برابر کرده نیست انعام او.

پس از حمد الهی و شکر نامتناهی، پس به تحقیق فرستادم پیشرو لشکر خود را به جانب صفین و امر کردم ایشان را به لازم شدن و مکث نمودن در این جانب فرات تا این که بیاید به ایشان فرمان من و به تحقیق که مصلحت را در این دیدم که قطع کنم آب فرات را؛ یعنی بگذرم از فرات و متوجه شوم به طرف گروهی اندك از شما در حالتی که وطن گرفته اند آن گروه در کنار شط، پس برپای کنم ایشان را با شما و متوجه شوند به سوی عدوی شما و بگردانم ایشان را از مددهای قوت شما در وقت پیدا شدن امارت محاربه.

ومن خطبة له عليه السلام وهي التاسعة والأربعون من من المختار في باب الخطب

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُورِ، ودَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلاَمُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَىٰ عَيْنِ الْبَصِيرِ، فَلاَ عَينُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، ولا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ في الْعُلُوّ فَلاَ شَيْءَ أَعْلاَ مِنْهُ، وقَرُبَ في الدُّنُوّ فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلاَ اسْتِعْلاؤهُ باعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلاَ قُرْبُهُ ساواهُمْ في الْمَكانِ بِهِ، لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْديدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يُحْجِبْها عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ والجاحِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيراً»[1].

اللغة

(**بطنته**) أبطنه علمته وأخبرته و(**الاعلام**) جمع العلم بالتّحريك وهو ما يستدلّ به على الشيء كالعلامة و(**لم يطلع**) من باب الأفعال يقال أطلعت زيداً على كذا مثل أعلمته وزنا ومعناً و(**الجحود**) الإنكار يقال جحد حقّه أي أنكره قال الفيومي ولا يكون إلاّ على علم من الجاحد به.

الإعراب

فاعل امتنع محذوف بقرينة المقام أي امتنع رؤيته، وكلمة لا في قوله فلا عين ولا قلب بمعنى ليس، وفي قوله فلا شيء لنفي الجنس وبه متعلّق بقوله ساواهم، وإضافة الواجب إلى معرفته من باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، وعلى إقرار متعلّق بتشهد.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة الشّريفة مشتملة على مباحث جليلة من الحكمة الإلهية ومطالب نفيسة من صفات الرّبوبية.

الأول: أنّه سبحانه عالم بالخفيّات والسّرائر وخبير بما في الصّدور والضمائر وإليه الإشارة بقوله (**الحمد لله الذي بطن خفيّات الأمور**) ويدلّ ذلك على كونه عالماً بالجليّات بطريق أولى كما برهن ذلك في الكتب الكلاميّة، وقد حقّقنا الكلام في علمه بجميع الأشياء ودللنا عليه بطريق النقل والعقل بما لا مزيد عليه في تنبيه الفصل السّابع من فصول الخطبة الأولى ولا حاجة لنا إلى إطناب الكلام في المقام وكفى بما ذكره عليه السلام شهيداً قوله سبحانه:

---

(١) بحار الأنوار: ٣٠٨/٤ ح ٣٦، وميزان الحكمة: ١٩٢٦/٣.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]

فإنّ المراد بالغيب هو الغائب عن الحواس الخفيّ على الخلق، وأظهر منها دلالة قوله سبحانه:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

يعني: لا تجهد نفسك برفع الصّوت فإنّك وإن لم تجهر علم الله السّر وأخفى من السّرّ، قال الطبرسي: اختلفوا فيما هو أخفى من السّر فقيل: السّرّ ما حدث به العبد غيره في خفية وأخفى منه ما أضمره في نفسه ما لم يحدث به غيره، وقيل: السّر ما أضمره العبد في نفسه وأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد، وروي عن السيدين الباقر والصّادق عليهما السّلام: السّرّ ما أخفيته في نفسك وأخفى ما خطر ببالك ثمّ أنسيته[1].

(و) **الثاني**: أنه تعالى (**دلت عليه أعلام الظهور**) والمراد بأعلام الظهور الآيات والآثار الدالة على نور وجوده الظاهر في نفسه المظهر لغيره، وإليها الإشارة في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ولا يخفى أنّ الإستدلال بتلك الأدلة والآيات هو طريق الملّيين وسائر فرق المتكلمين فإنّهم قالوا: إنّ الأجسام لا تخلو عن الحركة والسّكون، وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، فالأجسام كلها حادثة، وكلّ حادث مفتقر إلى محدث فمحدثها غير جسم ولا جسماني وهو الباري جلّ اسمه دفعاً للدّور والتّسلسل.

وقريب منها طريقة الطبيعيين وهو الإستدلال بالحركة قالوا: إنّ المتحرك لا يوجب حركة بل يحتاج إلى محرّك غيره، والمحرّك لا محالة ينتهي إلى محرّك غير متحرّك أصلاً دفعاً للدّور والتّسلسل، وهو لعدم تغيره وبراءته عن القوة والحدوث واجب الوجود.

وهنا طريقة أخرى أحكم من السّابقتين وهو الإستدلال بالفعل على الفاعل وإليه الإشارة

(١) بحار الأنوار: ٨٣/ ٣٦٤.

في حديث الزنديق المروي في «**الكافي**» فإنّه بعد ما سأل أبا عبد الله عليه السلام عن دليل التّوحيد وأجاب عنه عليه السلام فكان من سؤاله أن قال: فما الدّليل عليه أي على وجوده تعالى؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «وجود الأفاعيل دلت على أنّ صانعاً صنعها، الا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناء مشيد مبني علمت أنّ له بانياً وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده»، قال: فما هو: قال: شيء بخلاف الأشياء.

وإنّما قلنا: إنّ هذه الطريقة أحكم لأنّه يرجع إلى البرهان اللمي وذلك لأنّ كون الشيء على صفة قد يكون معلولاً لما ذاته علّة له، ألا ترى أنّ البناء من حيث إنّه بناء لا يعرف إلاّ بالبناء، والكاتب من حيث هو كاتب يدخل في حدّ الكتابة وما يدخل في حدّ الشّيء يكون سبباً له وبرهاناً عليه لميا، فذاته تعالى وإن لم يكن من حيث ذاته برهان عليه إذ لا جنس له ولا فصل له، وما ليس له جنس ولا فصل لا حد له وما لا حد له لا برهان عليه، إلا أنّه من حيث صفاته وكونه مصدراً لأفعاله ممّا يقدم عليه البرهان، كقولنا: العالم مصنوع مبنيّ يقتضي أن له صانعاً بانياً، وإذا ثبت أنّ له صانعاً ثبت وجوده في نفسه ضرورة، إذ ثبوت الشّيء على صفة في الواقع لا ينفك عن ثبوته في نفسه كما هو ظاهر، وكيف كان فهذه الطرق هي المشار إليها بقوله سبحانه:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهي كلها مشتركة في أنّ التّوسل فيها إلى معرفته سبحانه إنّما هو باعتبار أمر آخر غيره، كالإمكان للمهيّة والحدوث للخلق والحركة للجسم.

وهنا طريقة أخرى هي أسدّ وألطف وأشرف وهي أن يستدلّ به تعالى عليه ثمّ يستشهد بذاته على صفاته وأفعاله واحداً بعد واحد وإليها أشار الشّارح البحراني بقوله: وأما الإلهيّون فلهم في الإستدلال طريق آخر، وهي أنّهم ينظرون أوّلاً في مطلق الوجود أهو واجب أو ممكن ويستدلون من ذلك على إثبات واجب، ثمّ بالنظر في لوازم الوجوب من الوحدة الحقيقية على نفي الكثرة بوجه ما المستلزمة لعدم الجسمية والعرضيّة والجهة وغيرها، ثمّ يستدلون بصفاته على كيفية صدور أفعاله عنه واحداً بعد آخر.

وظاهر أنّ هذا الطريق أجل وأشرف من الطريق الأول وذلك لأنَ الاستدلال بالعلّة على المعلول أولى البراهين بإعطاء اليقين، لكون العلم بالعلة المعينة مستلزماً للعلم بالمعلول المعين من غير عكس.

قال بعض العلماء: وإنّه طريق الصّديقين الذين يستشهدون به لا عليه أي يستدلون بوجوده على وجود كلّ شيء إذ هو منه ولا يستدلون بوجود شيء عليه بل هو أظهر وجوداً من كلّ شيء فإن خفي مع ظهوره، فلشدّة ظهوره، وظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره، إذ كلّ ذرّة من ذرات مبدعاته ومكوناته فلها عدة ألسنة تشهد بوجوده وبالحاجة إلى تدبيره

وقدرته، لا يخالف شيء من الموجودات شيئاً من تلك الشهادات ولا يتخصص أحدها بعدم الحاجات.

وقال الصّدر الشّيرازي في «**شرح الكافي**»: واعلم أنّ للحكماء في إثبات هذا المطلب يعني وجود الصّانع منهجين: «**أحدهما**»: الإستدلال على وجوده تعالى من جهة النظر في أفعاله وآثاره **وثانيهما**: الإستشهاد عليه من جهة النظر في حقيقة الوجود وأنّها يجب أن يكون بذاتها محقّقة وبذاتها واحدة وهي ذات الواجب وأنّ ما سواه من الأشياء التي لها مهيّات غير حقيقة الوجودية تصير موجودة وأنّ وجودها رشح وتبع لوجوده فدلت ذاته على ذاته.

وإلى هذين المنهجين أشير في الكتاب الإلهي حيث قال الله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

هذا منهج قوم وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

هذا منهج قوم آخر وهم الصّديقون الذين يستشهدون من ذاته على حقيقة ذاته ومن حقيقة ذاته على أحدية ذاته كما قال الله تعالى:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

ومن أحدية ذاته على سائر صفاته، ومن معرفة صفاته على كيفية أفعاله الأوائل والثّواني واحداً بعد واحد على ترتيب الأشرف والأشرف، إلى أن ينتهي إلى الجسمانيات والمتحركات، ولا شك أنّ هذا المنهج أحكم وأوثق وأشرف وأعلا انتهى كلامه.

فليفهم جيّداً فإنّه غير خال عن إيهام القوم بوحدة الوجود الفاسد عند أهل الشّرع كما يأتي تفصيلاً في شرح الكلام المائتين والثّامن إن شاء الله تعالى، وقد قرّر هذا المرام في أوّل السّفر الإلهي من كتابه الأسفار بتقرير أوضح وأبسط، ولا حاجة بنا إلى ذكره وفيما أوردناه هنا كفاية للمسترشد وهداية للمهتدي.

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على انه واحد

(و) **الثالث**: أنّه سبحانه (**امتنع**) رؤيته (**على عين البصير**):

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وهذا هو مذهب أصحابنا وفاقاً للمعتزلة، وعليه دلت الآيات الكريمة والبراهين المتينة والأخبار المتواترة عن أهل بيت العصمة سلام الله عليهم، ولنقتصر منها على رواية واحدة.

وهو ما رواه في «**الكافي**» بإسناده عن أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه النّاس. قال: «**فكتب لا يجوز الرّؤية ما لم يكن**

بين الرّائي والمرئي هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم يصحّ الرؤية وكان في ذلك الاشتباه، لأنّ الرّائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه وكان ذلك التّشبيه لأنّ الأسباب لا بدّ من اتّصالها بالمسببات»[١].

وهذه الرّواية كما ترى دالة على إمتناع الرّؤية بوجهين **أحدهما**: أن من شرائط تحقق الرؤية وجود الهواء أو ما يجري مجراه كالماء الصافي ونحوه بين الرائي والمرئي لتنفذ فيه شعاع البصر ويتّصل بالمبصر فإذا انقطع الهواء عنهما أو عن أحدهما امتنعت الرّؤية. **الثاني**: لو جاز رؤيته سبحانه لزم كونه مشابهاً لخلقه تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

وإليه أشار عليه السلام بقوله: «وكان في ذلك الإشتباه»، يعني: في كون الهواء بين الرائي والمرئي الإشتباه يعني شبه كل منهما بالآخر يقال إشتبها إذا شبه كلّ منهما الآخر لأنّ الرّائي متى ساوى المرئي وماثله في النّسبة إلى السّبب الذي أوجب بينهما الرؤية وجب الإشتباه ومشابهة أحدهما الآخر في توسط الهواء بينهما.

وكان في ذلك التّشبيه أي كون الرّائي والمرئي في طرفي الهواء الواقع بينهما يستلزم الحكم بمشابهة المرئي بالرّائي من الوقوع في جهة ليصح كون الهواء بينهما فيكون متحيزاً ذا صورة وضعية فإنّ كون الشيء في طرف مخصوص من طرفي الهواء و توسط الهواء بينه وبين شيء آخر سبب عقلي للحكم بكونه في جهة ومتحيز أو ذا وضع، وهو المراد بقوله: لأنّ الأسباب لا بدّ من اتّصالها بالمسبّبات فقد تحقّق واستبان من ذلك امتناع رؤيته سبحانه مطلقاً في الدّنيا والآخرة.

وظهر بطلان ما ذهبت إليه الأشاعرة من إمكان رؤيته منزهاً عن المقابل والجهة والمكان كما قال عمر النسفي وهو من عظماء الأشاعرة: ورؤية الله جائزة في العقل واجبة بالنّقل فيرى لا في مكان ولا على جهة من مقابلة أو إتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرّائي وبين الله تعالى.

وقوله: فيرى لا في مكان (آ ه) ناظر إلى منع اشتراط الهواء بين الرائي والمرئي واشتراط الجهة والمكان كما استدل به الباقون للرؤية، وتوضيح هذا المنع ما ذكره الغزالي في محكي كلامه من كتابه المسمّى بـ **«الاقتصاد في الإعتقاد»**، فإنّه بعد ما نقل استدلال أهل الحقّ في نفي الرّؤية من أنه يوجب كونه تعالى في جهة وكونه في جهة يوجب كونه عرضاً أو جوهراً جسمانياً وهو محال.

قال: إن أحد الأصلين من هذا القياس مسلّم وهو أنّ كونه تعالى في جهة يوجب

---

(١) الكافي: ١/ ٩٧ ح ٤، والتوحيد: ١٠٩ ح ٧.

المحال، ولكن الأصل الأوّل وهو ادعاء هذا اللازم على اعتقاد الرّؤية ممنوع، فنقول: لم قلتم أنّه إن كان مرئياً فهو في جهة من الرّائي أعلمتم ذلك ضرورة أم بنظر ولا سبيل إلى دعوى الضرورة، وأما النظر فلا بد من بيانه ومنتهاه أنهم لم يروا إلى الآن شيئاً إلاّ وكان بجهة من الرّائي مخصوصة، ولو جاز هذا الإستدلال لجاز للخصم «للمجسم خ ل» أن يقول: إنّ الباري تعالى جسم لأنّه فاعل فإنّا لم نر إلى الآن فاعلاً إلاّ جسمياً، وحاصله يرجع إلى الحكم بأنّ ما شوهد وعلم ينبغي أن يوافقه ما لم يشاهد ولم يعلم.

أقول: وهذا معنى قول التفتازاني في **«شرح العقائد النّسفية»** في هذا المقام من أنّ قياس الغائب على الشّاهد فاسد هذا، وغير خفي على الفطن العارف فساد ما زعموه، إذ دعوى كون المرئي بهذا العين مطلقاً يجب أن يكون في جهة ليست مبنية على أنّ المرئيات في هذا العالم لا يكون إلاّ في جهة حتّى يكون من باب قياس الغائب على الشّاهد، بل النظر والبرهان يؤدّيان إليه.

بيان ذلك على ما حقّقه بعض المحققين، هو أنّ القوة الباصرة التي في عيوننا قوّة جسمانية وجودها وقوامها بالمادّة الوضعيّة، وكل ما وجوده وقوامه بشيء فقوام فعله وانفعاله بذلك الشّيء إذ الفعل والإنفعال بعد الوجود والقوام وفرعه، إذ الشّيء يوجد أوّلاً إمّا بذاته أو بغيره، ثمّ يؤثر في شيء أو يتأثر عنه، فلأجل هذا نحكم بأن البصر لا يرى إلا لما له نسبة وضعية إلى محل الباصرة، والسّامعة لا تنفعل ولا تسمع إلاّ ما وقع منها في جهة أو أكثر فهذا هو البرهان.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد ما نبّه على إمتناع رؤيته سبحانه أردف ذلك بجملتين.

إحداهما قوله: **(فلاعين من لم يره تنكره)** مشيراً بذلك إلى ردّ ما ربما يسبق إلى الوهم في باديء الرّأي من أنّ العين إذا امتنع عليها رؤيته فلا بدّ من إنكارها له، ومحصل دفع ذلك التّوهم أنّ عدم الرّؤية لا يستلزم الإنكار، إذ آيات القدرة وعلامات المقدرة وآثار العظمة من الآفاق والأنفس شاهد حقّ على وجوده وبرهان صدق على ذاته، فكيف يمكن من هذه الآيات الظاهرة والبراهين الساطعة الإنكار بمجرّد عدم الإبصار، مضافاً إلى أنّ حظ العين أن يدرك بها ما صح إدراكه فأما أن ينفي بها ما لا يدرك من جهتها فلا، ويأتي تحقيق الكلام في ذلك بما لا مزيد عليه في شرح الخطبة الرّابعة والستين إن شاء الله تعالى.

والثانية قوله عليه السلام: **(ولا قلب من أثبته يبصره)** مريداً بذلك تأكيد امتناع الإحاطة به وبيان عجز العقول عن الوصول إلى كنه حقيقته، فإن معنى الإبصار هو الإدراك على وجه الاكتناه، فالمقصود أن المثبت لا يمكن له أن يعرفه بقلبه معرفة ضروريّة وأن يحيط به إحاطة تامّة.

ولما كان الإبصار حقيقة في الرّؤية بالعين المستلزمة للإحاطة بالعلم والعرفان الضّروري

فأطلق لفظ يبصر وأريد به ذلك مجازاً من باب إطلاق اسم الملزوم على اللاّزم.

بيان ذلك أن إثباته تعالى بالقلب الذي هو عبارة أخرى عن الإيمان به ممّا يضعف ويشتدّ وينقص ويكمل ويكون في مبدأ اكتسابه ضعيفاً ناقصاً، ثمّ يتدرج بمزاولة الأفكار والأعمال ويشتدّ شيئاً فشيئاً ويستكمل قليلاً قليلاً كما يقع للفحم بمجاورة النّار يتسخن أوّلاً تسخناً قليلاً، ثم يشتدّ تسخّنه حتّى يحمرّ، ثمّ يتنوّر ثمّ يضيء ويحرق، ويفعل كما يفعله النّار من التّسخين والإضاءة والإحراق، فهكذا يشتدّ نور العلم وقوّة الإيمان حتّى يصير العلم عيناً، والإيمان عياناً، والمعرفة تنقلب مشاهدة ولهذا قيل إنّ المعرفة بذر المشاهدة.

ولكن يجب أن يعلم أن العلم إذا صار عيناً لم يصر عيناً محسوساً، وأن المعرفة إذا انقلب مشاهدة لم ينقلب مشاهدة بصريّة حسيّة لأن الحس والمحسوس نوع مضاد للعقل والمعقول لا يمكن لشيء من أفراد أحد النّوعين المضادين أن ينتهي في مراتب استكمالاته واشتداداته إلى شيء من أفراد النّوع الآخر فالإبصار إذا اشتدّ لا يصير تخيلاً مثلاً، ولا التّخيل إذا اشتدّ يصير تعقلاً، ولا بالعكس.

نعم إذا اشتدّ التّخيل يصير مشاهدة ورؤية بعين الخيال لا بعين الحس وكثيراً ما يقع الغلط من صاحبه أنّه رأى بعين الخيال أم بعين الحس الظاهر كما يقع للمجانين والكهنة، وكذا التّعقل إذا اشتدّ يصير مشاهدة قلبيّة ورؤية عقليّة لا خيالية ولا حسية، وهذا هو معنى الإبصار بالقلب على ما ثبت في بعض الأخبار.

وهو ما رواه في **«الكافي»** عن أبي جعفر عليه السلام في جواب الرّجل الخارجي الذي قال له: أي شيء تعبد؟ قال: الله، قال: رأيته؟ قال عليه السلام: «بل لم تره العيون بمشاهدة الإبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[١].

فإنّ المراد برؤية القلوب له هو إدراك العقول القدسيّة له بالأنوار العقلية الناشئة من الإيمان والإذعان الخالص فإن الإيمان إذا اشتد حسبما ذكرنا حصل في القلب نور يشاهد به الرّب كمشاهدة العيان، وسيأتي لهذا مزيد توضيح وتحقيق في مقامه المناسب إن شاء الله.

فإن قلت: فكيف يجتمع ذلك مع كلامه عليه السلام الذي نفى فيه الإبصار.

قلت: لعلك لم تتأمل فيما حققناه حق التّأمل إذ لو تأملته عرفت عدم التدافع بين الخبرين لعدم رجوع النفي والإثبات فيهما إلى شيء واحد إذ الإبصار المنفي في حقّه هو إدراكه على وجه الإحاطة ومعرفته حقّ المعرفة، كما قال صلوات الله عليه: ما عرفناك حقّ معرفتك، والرؤية المثبتة في خبر أبي جعفر عليه السلام هو إدراكه لا على وجه الإحاطة، بل غاية ما

(١) الكافي: ١/ ٩٧ ح ٥، والأمالي: ٣٥٢ ح ٤٢٧.

يمكن أن يتصور في حقّ العبد التي هي أشدّ مراتب الإيمان وأكمل درجاته، ويأتي لذلك الخبر توجيهات أخر في شرح الكلام المائة والثامن والسّبعين إن شاء الله.

فإن قلت: هل لك شاهد من الأخبار على حمل الإبصار المنفي في كلامه على المعنى الذي ذكرت؟

قلت: نعم وهو ما رواه في «الكافي» بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قال: إحاطة الوهم ألا ترى إلى قوله:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤]

ليس يعني به بصر العيون.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ليس يعني من أبصر بعينه:

﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ليس يعني عمى العيون إنّما عني إحاطة الوهم كما يقال فلان بصير بالشعر، وفلان بصير بالفقه، وفلان بصير بالدّراهم، وفلان بصير بالثّياب الله أعظم من أن يرى بالعين.

فإنّ السّائل لمّا توهّم كون المراد بالآية نفي الرّؤية المعتادة بهذا البصر الحسي نبّه عليه السلام على أن المراد بها ليس ذلك، لأنّه أمر مستغنى عنه، وذاته تعالى أجلّ من أن يحتمل في حقّه ذلك حتّى يصير الآية محمولة عليه، بل المراد نفي إحاطة الوهم به عنه، وأنّ الأبصار ليست ههنا بمعنى العيون بل بمعنى العقول والأوهام على ما وردت في الآيات واشتهر إطلاقها عليها بين أهل اللسان.

ومثله ما رواه أيضاً عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن أبي هاشم الجعفري عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال: سألته عن الله هل يوصف، فقال: «أما تقرأ القرآن» قلت، بلى قال: أما تقرأ قوله تعالى:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قلت: بلى، قال: فتعرفون الأبصار، قلت: بلى، قال: ما هي؟ قلت: أبصار العيون، قال: إنّ أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون، فهو لا تدركه الأوهام وهو يدرك الأوهام[1].

(١) الكافي: ١/ ٩٩ ح ١٠.

قال المحدّث المجلسي في «**مرآة العقول**»: والمراد بأوهام القلوب إدراك القلوب بإحاطتها به، ولما كان إدراك القلوب بالإحاطة لما لا يمكن أن يحاط به وهماً عبّر عليه السلام عنه بأوهام القلوب.

هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام ويحمل عليه كلام الإمام عليه السلام، وأمّا ما ذكره الشّارح البحراني من أنّ المراد بقوله: ولا قلب من أثبته يبصره، أنّ من أثبته مع كونه مثبتاً له بقلبه لا يبصره فبعيد لفظاً ومعنى فافهم جيّداً.

(و) **الرابع**: أنّه سبحانه (**سبق في العلوّ**) وتقدّم على من عداه (**فلا شيء أعلا منه**) والمراد بالعلوّ العلوّ العقلي لا الحسّي كعلوّ السّماء بالنّسبة إلى الأرض: ولا التّخييلي كما للملك بالنّسبة إلى الرّعية، إذ الأوّل مقصور في المحسوسات والمتحيّزات، والثّاني متغيّر بحسب الأشخاص والأوقات، وهو سبحانه منزّه عن الحسّ والمكان، ومقدس عن الكمال الخيالي القابل للزّيادة والنّقصان، فله الفوقيّة المطلقة والعلوّ العقلي.

وذلك أنّ أعلى مراتب الكمال هو مرتبة العليّة ولمّا كان الأوّل تعالى مبدأ كلّ شيء حسّي وعقليّ وعلته التي لا يتصوّر فيها النّقصان بوجه لا جرم كان مرتبته أعلى المراتب العقليّة مطلقاً، وله الفوق المطلق في الوجود العاري عن الإضافة إلى شيء دون شيء، وعن إمكان أن يكون فوقه ما هو أعلى منه أو في مرتبته ما يساويه، فهو المتفرّد بالفوقية المطلقة والعلوّ المطلق لا يلحقه فيهما غيره.

ويحتمل أن يكون المراد بالعلوّ العلوّ بالقدرة والقهر والغلبة أو بالكمال والإتّصاف بالصّفات الحسنة وتماميّته بالنّسبة إلى كلّ شيء ونقص الكلّ بالنّسبة إليه فكلّ متوجّه إلى فوق ما عليه متوجّه إليه، فهو فوق كلّ شيء ولا يقال شيء فوقه ومرجع ذلك كلّه إلى كمال رتبة وجوده وشدّة نوره.

(و) **الخامس**: أنّه جلت عظمته (**قرب في الدّنوّ**) إلى من سواه (**فلا شيء أقرب منه**) إليهم، ولمّا كان السّبق في العلوّ مستلزماً للبعد عن الغير حسن المقابلة بينه وبين القرب في الدّنو، وكما أنّ علوه على خلقه كان علوّاً عقليّاً، فكذلك قربه إليه قرب عقليّ وهو القرب بالعلم والإحاطة أو القرب بالرّحمة والإفاضة، فهو الذي لا يعزب عن علمه شيء وأقرب إلى النّاس من حبل الوريد.

ولمّا كان قربه إلى الأشياء وإلى الخلق بهذا المعنى لا يكون له منافاة لبعده عنهم اللازم من علوّه، فهو سبحانه في كمال علوّه عليهم وبعده عنهم من حيث الذّات والصّفات منهم قريب، وفي كمال قربه منهم ودنوّه إليهم من حيث العلم والإحاطة عنهم بعيد، لأنّ النّور كلّما كان أشدّ وأقوى كان مع علوّه وبعده أقرب وأدنى.

واعتبر ذلك بنور الشّمس وهي في السّماء الرّابعة وبنور السّراج والمشعل وهو عندك في وجه الأَرض فانظر أيّهما أقرب منك حتّى تعلم أنّ أعلى الموجودات شرفاً ونوراً يجب أن يكون أقربها منك.

وحيث إنّ علوّه سبحانه لم يكن علوّاً حسيّاً ولا فوقيّته فوقيّة مكانيّة **(فلا)** يكون **(استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه)** بعداً مكانيّاً وإن كان بعيداً منهم بمقتضى علوّه العقلي ومتباعداً عن عقولهم بسبب ارتفاعه الذّاتي **(و)** حيث إن قربه من الخلق لم يكن قرباً حسيّاً ولا دنوّه دنوّاً مكانيّاً فـ **(لا)** يكون **(قربه)** منهم **(ساواهم في المكان به)**.

والمقصود بهاتين الجملتين ردّ توهّم أولى الأَوهام النّاقصة والأَذهان القاصرة الذين لم يفهموا من العلوّ إلا الحسّي المستلزم للتّباعد، ولم يعرفوا من القرب إلاّ المكاني المستلزم لمساواة المتقاربين في المحلّ، وقد عرفت هنا وفي شرح الفصل الخامس والسّادس من الخطبة الأولى في بيان معنى قوله: ومن قال علام فقد أعلا منه، وقوله: مع كلّ شيء لا بمقارنة بطلان هذا التوهم بما لا مزيد عليه.

وأقول الآن تأكيداً لما سبق وتوضيحاً لما هنا إنّه روي في **«الكافي»** في باب الحركة والإنتقال بإسناده عن يعقوب بن جعفر الجعفري عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: ذكر عنده قوم يزعمون أن الله ينزل إلى السّماء الدّنيا، فقال إن الله لا ينزل ولا يحتاج إلى أن ينزل إنّما منظره في القرب والبعد سواء، لم يبعد منه قريب ولم يبعد منه بعيد ولم يحتج إلى شيء بل يحتاج إليه، وهو ذو الطول لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم، الحديث.

أقول: لمّا كان زعم بعض العامّة أنّ لله سبحانه مكاناً أعلى الأَمكنة وهو العرش وأنّه ينزل في الثلث الآخير من الليل إلى السّماء الدّنيا ليقرب من أهل الأَرض ويناديهم بما أراد، ردّ زعمهم بأنّه تعالى لا ينزل ولا حاجة له إلى أن ينزل، وذلك لأن المتحرّك من مكان إلى مكان إنّما يتحرّك لحاجته إلى الحركة، حيث إنّ نسبة جميع الأَمكنة إليه ليست نسبة واحدة بل إذا حضر له مكان أو مكاني غاب عنه مكان أو مكاني آخر، وإذا قرب من شيء بعد من شيء آخر، فيحتاج في حصول مطلوبه الغائب إلى الحركة إليه، والله تعالى لما لم يكن مكانياً كانت نسبته إلى جميع الأمكنة والمكانيات نسبة واحدة، وليس شيء أقرب إليه من شيء آخر ولا أبعد ولا هو أقرب إلى شيء من شيء آخر ولا أبعد، ونظره في القرب والبعد أي فيما يتصوّر فيه القرب والبعد بالنظر إلى عالم الحواس وأوهام الخلق سواء لا تفاوت فيه أصلاً.

وفيه أيضاً عن عبد الرّحمن بن الحجّاج، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

فقال: استوى في كلّ شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء، لم يبعد منه بعيد ولم يقرب منه قريب، استوى في كلّ شيء.

وعن ابن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

«فقال هو واحد واحديّ الذّات، باين من خلقه، وبذلك وصف نفسه وهو بكلّ شيء محيط بالإشراف والإحاطة والقدرة ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في السّموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالإحاطة والعلم لا بالذّات لأنّ الأماكن محدودة تحويها حدود أربعة فإذا كان بالذّات لزمها الحواية».

توضيح جوابه عليه السلام إنّ وحدته سبحانه وحدة ذاتيّة لا عدديّة حتّى ينافي الكثرة وكونه رابعاً لثلاثة وبعينه سادساً لخمسة، باين من خلقه وتباعد عنهم لا مباينته من حيث التّشخصات والأوضاع، وتباعداً من حيث الأمكنة والحيزات، وإنما مباينته من حيث الذّات وعدم مشاركتهم له في شيء من الصّفات، فهو تامّ كامل وهم ناقصون محتاجون إليه وبه تمامهم وغنائهم، وبذلك التّباين، وصف نفسه وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهو ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦] لا يخلو منه شيء من الأشياء.

وإحاطته إنّما هو بالإشراف والإطلاع وإحاطة العلم والقدرة فمثال إحاطته بكلّ شيء كمثال علم أحد منّا بأشياء كثيرة متباينة الوضع من جهة العلم بأسبابها ومبادئها، لكن علمه عين ذاته وعلمنا زائد على ذاتنا، وعلمه تامّ ولكلّ شيء، وعلمنا ناقص وببعض الأشياء، وكما لا يلزم من علمنا بتلك الأشياء حصول شيء واحد بالعدد في أماكن متباينة الوضع، فكذلك لا يلزم فيه بل ذاته أشدّ إحاطة وأوسع علماً.

وهو معنى قوله عليه السلام: لا بالذات، يعني أن عدم عزوب شيء من الأشياء عنه باعتبار الإحاطة العلميّة لا باعتبار حصول ذاته في مكان قريب من مكانه، لأن الأماكن محدودة تحويها حدود أربعة، عدها أربعة مع كونها ستّة لأنّ القدام والخلف واليمين والشّمال لما كانت غير متحيّزة إلا باعتبار عد الجميع عدين وعد الفوق والتحت حدّين فصارت أربعة، والمعنى أنه لو كان عدم بعد شيء عنه باعتبار كون ذاته في مكان قريب منه لزم احتواء المكان عليه كالمتمكّن وكونه محاطاً بالمكان تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً، وبذلك التحقيق ظهر معنى قوله عليه السلام: ولا قربه، ساواهم في المكان به.

والسادس: أنه تعالى شأنه **(لم يطلع العقول على تحديد صفته)** إذ ليس لصفاته الكمالية التي هي عين ذاته حدّ يحدّ به حتى يمكن للعقول الاطلاع عليه.

بيان ذلك: أنّ الحدّ يراد به أحد معنيين **أحدهما**: القول الشارح لمهية الشيء المؤلف

من المعاني الذّاتية المختصة إما بحسب الحقيقة أو بحسب الاسم **الثاني**: النهاية والطرف، وكلاهما منفيان عنه سبحانه.

أما الحدّ بالمعنى الأوّل فلأنّ ذاته غير مؤلف من معاني وأمور ذاتية ولا تركيب فيها أصلاً بشيء من أنحاء التركيب، بل هو بسيط الذات من جميع الجهات وصفاته عين ذاته ووجودها وجود ذاته، فليس لصفاته حدّ به تحدّ حتى يصحّ اطلاع العقول عليه.

وأمّا الحد بالمعنى الثاني فلأنّ التناهي واللاتناهي إنما يوصف بهما أوّلاً وبالذّات المقادير والأعداد وإذا وصف بها شيء آخر كان إما باعتبار تعلقه بالكميات وإمّا باعتبار ترتّبها أو ترتّب ما يوصف بها على ذلك الشيء، والله سبحانه أجلّ من ذلك وإلاّ لزم كونه محلاً للحوادث مضافاً إلى أنه لو كان له حدّ معيّن ونهاية معيّنة لزم احتياجه إلى علّة محدّدة قاهرة، إذ طبيعة الوجود بما هو وجود لا يقتضي حدّاً خاصّاً، ويلزم من ذلك أي من وجود العلة المتباينة القاهرة أن يكون لخالق الأشياء كلّها من خالق محدّد فوقه، وهو محال.

(و) السّابع: أنه سبحانه **(لم يحجبها)** أي لم يجعل العقول محجوبة **(عن واجب معرفته)** بل قد وهب لكلّ نفس قسطاً من معرفته هو الواجب لها بحسب استعدادها لقبوله ولولا ذلك لكان تكليفهم بالأصول والفروع تكليفاً بما لا يطاق.

ولذلك قال الصّادق عليه السلام: «ليس لله على خلقه أن يعرفوا وللخلق على الله أن يعرّفهم ولله على الخلق إذا عرفهم أن يقبلوا».

وفي رواية **«الكافي»** عن إبراهيم عمر اليماني قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ أمر الله كلّه عجيب إلاّ أنه قد احتجّ عليكم بما عرفكم من نفسه، يعني أنّ معرفة ذاته وصفاته الحقيقيّة كما هي فوق إدراك كلّ أحد، تكلّ العقول والأذهان وتبهر الألباب عن كنه جلاله وغور عزّه وكماله إلاّ أنّه مع ذلك لكلّ أحد نصيب عن لوامع إشراقات نوره قلّ أو أكثر، فله الحجّة على كلّ أحد بما عرفه من آيات وجوده ودلائل صنعه وجوده فوقع التّكليف بمقتضى المعرفة والعمل بموجب العلم[١].

(فهو الذي تشهد له أعلام الوجود) وآيات الصّنع والقدرة **(على إقرار)** قلب كلّ أحد حتّى **(قلب ذي الجحود)** لأنّ الجاحد وإن كان يجحده متابعة لرأيه وهواه إلاّ أنّه لو تدبّر في آثار القدرة والجلال وإعلام العظمة والكمال لارتدع عن رأيه وهواه، ورجع عن جحده وإنكاره، وأذعن بوجود الإله، فلا يعبد معبوداً سواه، لكفاية تلك الآثار في الشّهادة، وتماميّة هذه الأعلام في الهداية والدّلالة كما قال سبحانه:

(١) الكافي: ١/ ٨٦ ح ٣، وميزان الحكمة: ٣/ ١٨٩٠.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ ـ ٦٣].

وفي **«الكافي»** بإسناده عن أبي سعيد الزّهري عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كفى لأولي الألباب بخلق الرّب المسخّر، وملك الربّ القاهر، وجلال الربّ الظاهر، ونور الربّ الباهر وبرهان الربّ الصّادق، وما أنطق به ألسن العباد، وما أرسل به الرسل، وما أنزل على العباد، دليلاً على الربّ عز وجلّ»[(١)].

قال بعض شرّاح الحديث: ذكر عليه السلام ثمانية أمور كلّ منها كاف لذوي العقول دليلاً على وجود الربّ. **أحدها**: خلقه المسخّر له. **وثانيها**: ملكه القاهر على كلّ مالك ومملوك **وثالثها**: جلاله الظاهر من عظائم الخلقة وبدائع الفطرة كالأجرام العالية والنّفوس وغيرها **ورابعها**: نوره الغالب على نور كلّ ذي نور وحسّ كلّ ذي حس وشعور، **وخامسها**: برهانه الصّادق وهو وجود آياته الكائنة في السّموات والأرض. **وسادسها**: ما أنطق به ألسن العباد من العلوم والمعارف وغيرهما. **وسابعها**: ما أرسل به الرّسل من الشّرائع والأحكام والسّياسات والحدود، **وثامنها**: ما أنزل على العباد من الصّحائف الإلهيّة والكتب السّماويّة.

فـ (**تعالى الله عمّا يقول المشبّهون به والجاحدون له علوّاً كبيراً**) والمراد بالمشبّهين المشبّهون للخلق بالخالق، وهم المشركون الذين جعلوا لله شركاء وقالوا: إنّه ثالث ثلاثة، ونحو ذلك وبالجاحدين المنكرون للصّانع، وليس المراد بالمشبّهين المشبّهة المعروفة أعني الذين شبّهوه سبحانه بخلقه كالمثبتين له تعالى أوصافاً زائدة على الذّات، والمجوّزين في حقّه الرّؤية والمكان ونحوهما والمثبتين له الأعضاء والجوارح إلى غير هذه ممّا هو من صفات الممكن.

وبالجملة المراد المشبّهون به كما هو صريح كلامه عليه السلام لا المشبّهون له بخلقه على ما توهّمه الشّارح البحراني.

واعلم أنّ المشبّهين به أوله مقرون به سبحانه صريحاً وجاهدون له لزوماً إذ المعنى الذي يتصوّرونه إلهاً ويجعلونه له شركاء أو يجوّزون في حقّه ويثبتون له صفات الممكن ليس هو نفس الإله، والجاحدين منكرون له صريحاً معترفون به لزوماً واضطراراً على ما حقّقناه آنفاً في شرح قوله: فهو الذي يشهد له أعلام الوجود (ا ه) وكلا الفريقين جاحدان له في الحقيقة وإن كانا يفترقان في الإعتراف باللسان.

(١) الكافي: ١/ ٨٢، وفتح القدير: ٣/ ٣٣٧.

الترجمة

از جمله خطبه های شريفه آن حضرت است:

حمد و ثنا مرخدای را سزا است که عالم است به باطن امور پنهانی و خبیر است به جمیع اشیاء نهانی و دلالت کرده بر وجود او علامات ظاهره قدرت و آیات باهره عظمت و ممتنع و محال شده دیدن او بر چشم بینا، پس نه چشم کسی که او را ندیده انکار ذات او بتواند بنماید و نه قلب کسی که اثبات وجود او را کرده احاطه و ادراك تام وجود او را دارد. پیشی گرفته در بلندی به مخلوقات، پس هیچ چیز عالی مرتبه بلندتر از او نیست و قریب است در نزدیکی به مخلوقات، پس هیچ چیز نزدیك تر از او نیست.

پس نه بلندی او دور می گرداند او را از چیزی از مخلوقات و نه نزدیکی او مساوی نموده ایشان را با او در مکان و جهات و مطلع نگردانیده عقل ها را بر تعریف صفات خود و ممنوع نگردانیده عقل ها را از واجب شناخت خود، پس او آن کسی است که گواهی می دهد از برای او نشان ها وجود بر اقرار کردن دل صاحب انکار و جحود، پس بلند است حق سبحانه و تعالی و منزه است از آن چه می گویند تشبیه کنندگان خلایق به او و انکارکنندگان وجود او بلندی بزرگ؛ یعنی او برتر است از اقوال باطله مشرکین و عقاید فاسده منکرین.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخمسون من المختار في باب الخطب

ورواها ثقة الإسلام الكليني عطر الله مضجعه في **«أصول الكافي»** وفي كتاب **«الرّوضة»** منه أيضاً مسندة بالسّندين الآتين باختلاف يسير في الأوّل ومبسوطة في الثّاني.

«إِنَّما بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْواءٌ تُتَّبَعُ، وأَحْكامٌ تُبْتَدَعُ، يُخالَفُ فيها كِتابُ اللَّهِ، ويَتَوَلَّى عَلَيْها رِجالٌ رِجالاً عَلى غَيرِ دِينِ اللَّهِ، فَلَوْ أَنَّ الْباطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتادينَ، ولَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْباطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدينَ، وَلكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هذا ضِغْثٌ ومِنْ هذا ضِغْثٌ فَيُمْزَجانِ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى»(١)

اللغة

(البدء) بفتح الباء وسكون الدال والهمزة أخيراً بمعنى الأوّل وبمعنى الإبتداء أيضاً يقال بدأت بالشيء بدأ أي أنشأته إنشاء، ومنه بدأ الله الخلق أي أنشأهم و**(الفتن)** جمع الفتنة وهو الإختبار والإمتحان تقول: فتنت الذّهب إذا أدخلته النّار لتنظر جودته، وقد أكثر استعمالها فيما يقع به الإختبار كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ثمّ أكثر استعمالها في الإثم والكفر والضّلال والإحراق والإزالة والصّرف عن الشّيء كذا حكى عن النّهاية و**(البدعة)** اسم من ابتدع الأمر أي ابتدأه ثمّ غلب على ما هو زيادة في الدّين أو نقصان منه و**(التّولي)** الإتباع ومنه قوله سبحانه﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

أي من يتّبعهم و**(المزاج)** ككتاب ما يمزج به قال سبحانه:

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] وقال الشّاعر:

كأنّ سبيئة من بيت رس يكون مزاجها عسل وماء

و**(الإرتياد)** الطلب والمرتاد الطالب و**(الضّغث)** قبضة حشيش مختلط رطبها بيابسها ويقال ملاء الكف من قضبان أو حشيش أو شماريخ وفي التنزيل:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

---

(١) الأصول الستة عشر: ٢٥، والأصول الأصيلة: ١٢٥.

الإعراب

جملة: تتبع وتبتدع مرفوعة المحل على الوصفيّة، وجملة: يخالف ويتولى إمّا في محل الرّفع على الوصف أيضاً أو في محلّ النّصف على الحاليّة، وقوله: على غير دين الله، متعلق بالمقدر، وهو إما حال من رجالا أو صفة له وإضافة المزاج إلى الحقّ بيانيّة.

المعنى

اعلم أنّ مقصوده بهذه الخطبة هو توبيخ الخلق على متابعة الأهواء المبتدعة والآراء المضلّة، وعلى مخالفة الكتاب القويم، والعدول عن الصّراط المستقيم المؤديّ إلى وقوع الفتن وفساد نظم العالم كما قال عليه السلام: **(إنما بدء وقوع الفتن)** والضّلالات **(أهواء)** مضلة **(تتبع وأحكام)** باطلة **(تبتدع)** التي **(يخالف فيها)** أي في تلك الأحكام **(كتاب الله)** إذ الأحكام المبتدعة خارجة من الكتاب والسّنة مخالفة لهما، لما قد عرفت سابقاً أنّ البدعة عبارة عن إدخال ما ليس من الدّين في الدّين، فهي لا محالة مخالفة لأصول الشّريعة المستفادة من الكتاب والسنّة.

ومن ذلك أنّ يونس بن عبد الرّحمن لمّا قال لأبي الحسن عليه السلام: بما أوحد الله؟ قال له: «يا يونس لا تكونن مبتدعاً من نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيه ضلّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيّه كفر»[١].

فإنّ المستفاد منه أنّ في العمل بالرّأي ومتابعة الهوى مخالفة لكتاب الله وعدولاً عن سنة رسول الله **(ويتولى فيها رجال رجالاً على غير دين الله)** أي يتخذ طائفة من المائلين إلى تلك الأهواء الزّائفة والآراء الباطلة طائفة أخرى من أمثالهم أولياء ونواصر لهم، فيتّبعونهم ويحبونهم تربية لأهوائهم الفاسدة وتقوية لبدعهم الضّالة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ أسباب تلك الآراء أيضاً إنّما هي امتزاج المقدّمات الحقّة بالباطلة في الحجج التي يستعملها المبطلون في استخراج المجهولات، ونبّة على ذلك بشرطيتين متّصلتين.

إحداهما: قوله **(فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين)** وجه الملازمة أن مقدّمات الشّبهة إذ كانت كلها باطلة أدرك طالب الحق بطلانها بأدنى سعي ولم يخف عليه فسادها، مثال ذلك قول قوم من الباطنيّة: الباري تعالى لا موجود ولا معدوم وكل ما لا يكون موجوداً ولا معدوماً يصح أن يكون حيّاً قادراً، فالباري تعالى يصحّ أن يكون قادراً

(١) الكافي: ١/ ٥٦ ح ١١، ووسائل الشيعة: ٢٧/ ٤٠ ح ٨.

فهاتان المقدمتان جميعاً باطلتان، ولذلك صار هذا القول مرغوباً عنه عند العقلاء.

والأخرى قوله: **(ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين)** لأنّ المقدمات إذا كانت صحيحة حقّة كانت النتيجة حقّاً، وانقطع عنها اللجاج والعناد، كقولنا: العالم حادث وكلّ حادث محتاج إلى المحدث فالعالم محتاج إلى المحدث، ولكن لما لم يخلص الباطل من المزاج ولم يمحض الحقّ من الإلتباس بل امتزج الباطل بالحقّ واختلاط الحقّ بالباطل وتركبت القضايا من المقدمات الحقّة والباطلة، مثل ما قال المدّعون للرّؤية: الباري تعالى موجود وكلّ موجود يصحّ أن يكون مرئياً فالباري تعالى يصحّ أن يكون مرئيّاً، لا جرم خفي الأمر على الطالب المرتاد وكثر لذلك اللجاج والعناد.

وهذا هو معنى قوله ﷺ: **(ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان)** أي الضّغثان **(فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه)** ويغلب على أتباعه وأحبائه ويجد مجالاً للإضلال والإغواء، ويزين لهم إتباع الآراء والأهواء، فأولئك سيجدون قبائح أعمالهم وعقائدهم وهم عليها واردون وأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون.

(و) أما العارفون بالله بعين الحقيقية والسّالكون لسبيله بنور البصيرة فـ **(ينجو)**ن من ذلك ويتخلصون من المهالك وهم **(الذين سبقت لهم من الله الحسنى)** والعناية الأزليّة وقادتهم التوفيقات الرّبانية وهؤلاء عن النّار مبعدون وأولئك في الجنّة هم خالدون.

واعلم أنّ ما ذكرته في شرح المقام إنّما هو جرياً على ما هو المستفاد من ظاهر كلامه ﷺ المسوق على نحو العموم والإطلاق، والذي ظهر لي منه بعد النظر الدّقيق خصوصاً بملاحظة الزّيادات الآتية في رواية **«الرّوضة»** هو أنّ غرضه بذلك الطعن على المتخلفين الغاصبين للخلافة والتابعين لهم وعلى من حذا حذوهم من الناكثين والقاسطين والمارقين وأضرابهم، فإنّهم أخذوا بظاهر أحكام الشّريعة، ودسّوا فيها بدعاتهم الباطلة النّاشئة من متابعة أهوائهم المضلة، فخلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً وصار ذلك سبباً لافتتان النّاس بهم واتباع أفعالهم وأقوالهم واشتباه الأمر عليهم.

لأنّ كل باطل وكذب ما لم يكن فيه شبه حقّ وصدق لا يقبله ذو عقل وحجى كما أن كل مزيف كاسد ما لم يكن مغشوشاً بنقد رائج لا يصير رائجاً في سوق ذوي الأبصار إذ التّميز بين الذهب والنّحاس والفضة والرّصاص ممّا لا يخفى على ذوي العقول السّليمة.

لأنّ الباطل الصّرف لاحظ له في الوجود ولا يقع في توهّم ذوي العقول إلا إذا اقترن بشبه الحق، ولا الكذب المحض ممّا يصدق به ذو عقل إلا إذا امتزج بالصّدق فلما حصل الامتزاج والاختلاط واشتبكت الظلمة بالنّور التبس الأمر على النّاس فأضلهم الشيطان وزيّن لهم أعمالهم فصدّوا عن سبيل الدين وانحرفوا عن الإمام المبين، فارتدّ كلهم أجمعون إلاّ

أولياء الله المخلصين، فإنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

تكملة

قد أشرنا سابقاً إلى أنّ هذه الخطبة مرويّة مسندة في «**الكافي**» فينبغي لنا أن نورد ما هناك جرياً على ما هو دأبنا في هذا الشّرح، ثمّ نعقبه بتفسير بعض كلماته الغريبة وتوضيح ما فيه من النّكات اللطيفة الشّريفة فأقول:

في باب البدع والرأي والمقاييس من كتاب العقل والجهل منه عن الحسين بن محمّد الأشعري؛ عن معلى بن محمّد، عن الحسن بن علي الوشا، وعدة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد عن ابن فضال جميعاً، عن عاصم بن حميد، عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام النّاس فقال:

«أيّها النّاس إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى فيها رجل [1] رجالاً، فلو أنّ الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، ولو أنّ الحق خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئآن معا فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[2].

وفي كتاب «**الرّوضة**» عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن إبراهيم بن عثمان عن سليم بن قيس الهلالي، قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ صلى على النبي صلى الله عليه وآله ثمّ قال:

«ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم خلّتان: إتباع الهوى وطول الأمل أمّا إتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إنّ الدّنيا قد ترحلت مدبرة، وإنّ الآخرة قد ترحّلت مقبلة، ولكل واحدة بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ اليوم عمل ولا حساب وإنّ غداً حساب ولا عمل[3].

وإنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وآراء تبتدع يخالف فيها حكم الله يتولى فيها رجال رجالا إنّ الحق لو خلص لم يكن اختلاف، ولو أن الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، لكنه يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجتمعان فيجللان معاً فهنالك يسترلي الشّيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله[4] الحسنى.

---

(١) في نسخة: رجال.
(٢) نهج البلاغة: ١/ ٩٩ ح ٥٠، والكافي: ١/ ٥٤ ح ١.
(٣) في نسخة: منا.
(٤) الكافي: ٨/ ٩٣.

إنّي سمعت رسول الله يقول: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصّغير ويهرم فيها الكبير، يجري النّاس عليها ويتّخذونها سنّة، فإذا غير منها شيء قيل قد غيّرت السنّة وقد أتى النّاس منكراً ثمّ تشتدّ البليّة وتسبى الذّرية وتدقّهم الفتنة كما تدق النّار الحطب وكما تدق الرّحا بثفالها ويتفقهون لغير الله، ويتعلّمون لغير العمل ويطلبون الدّنيا بأعمال الآخرة».

ثمّ أقبل بوجهه وحوله ناس من أهل بيته وخاصّته وشيعته فقال عليه السلام: «قد عملت الولاة قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسول الله متعمّدين لخلافه. ناقضين لعهده، مغيّرين لسنّته، ولو حملت الناس على تركها وحولتها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله لتفرّق عنّي جندي حتّى أبقى وحدي أو قليل من شيعتي الذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله عزّ ذكره وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

أرأيتم لو أمرت بمقام إبراهيم فرددته إلى الموضع الذي وضعه فيه رسول الله، ورددت فدك إلى ورثة فاطمة، ورددت صاع رسول الله كما كان، وأمضيت قطائع أقطعها رسول الله صلى الله عليه وآله لأقوام لم تمض لهم ولم تنفض، ورددت دار جعفر عليه السلام إلى ورثته وهدمتها من المسجد، ورددت قضايا من الجور قضى بها، ونزعت نساء تحت رجال بغير حقّ فرددتهن إلى أزواجهن واستقبلت بهنّ الحكم في الفروج والأحكام وسبيت ذراري بني تغلب، ورددت ما قسم من أرض خيبر، ومحوت دواوين العطايا وأعطيت كما كان رسول الله يعطي بالسّوية ولم أجعلها دولة بين الأغنياء، وألقيت المساحة، وسويت بين المناكح، وأنفذت خمس الرّسول كما أنزل الله عزّ وجلّ وفرضه، ورددت مسجد رسول الله على ما كان عليه، وسددت ما فتح فيه من الأبواب، وفتحت ما سدّ منه، وحرّمت المسح على الخفين، وحددت على النّبيذ، وأمرت بإحلال المتعتين، وأمرت بالتكبير على الجنائز خمس تكبيرات، وألزمت النّاس الجهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم، وأخرجت من أدخل مع رسول الله في مسجده ممن كان رسول الله أخرجه، وأدخلت من أخرج بعد رسول الله ممّن كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدخله، وحملت النّاس على حكم القرآن، وعلى الطلاق على السّنة، وأخذت الصّدقات على أصنافها وحدودها، ورددت الوضوء والغسل والصّلاة إلى مواقيتها وشرائعها ومواضعها، ورددت أهل نجران إلى مواضعهم، ورددت سبايا فارس وسائر الأمم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه إذاً لتفرقوا عنّي.

والله لقد أمرت النّاس أن لا يجتمعوا في شهر رمضان إلاّ في فريضة وعلمتهم أنّ اجتماعهم في النّوافل بدعة فنادى بعض أهل عسكري ممّن يقاتل معي: يا أهل الإسلام غيرت سنة عمر ينهانا عن الصّلاة في شهر رمضان تطوّعاً».

ولقد خفت أن يثوروا في ناحية جانب عسكري ما لقيت هذه الأمة من الفرقة وطاعة أئمة الضّلالة والدّعاة إلى النّار، وأعطيت من ذلك سهم ذي القربى الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿إن

كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

فنحن والله عنى بذي القربى الذي قرّبنا الله بنفسه وبرسوله فقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ووصى به نبيّه ولم يجعل لنا في سهم الصّدقة نصيباً، أكرم الله رسوله وأكرمنا أهل البيت أن يطعمنا من أوساخ الناس، فكذّبوا الله وكذّبوا رسول الله وجحدوا كتاب الله النّاطق بحقّنا ومنعونا فرضاً فرضه الله لنا، ما لقي أهل بيت نبيّ من أمّته ما لقيته بعد نبيّنا والله المستعان على من ظلمنا ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم[1].

بيان

«يجللان» بضمّ الياء بصيغة المضارع المبني للمفعول مأخوذ من التّجليل يقال جللت الشيء إذا غطيته «ألبستكم» كذا في أكثر النّسخ ألبستم علي بناء المجهول من باب الأفعال وهو الأظهر وفي بعض النّسخ لبستم «والثفال» بالفاء مثل كتاب جلد أو نحوه يوضع تحت رحى اليد يقع عليه الدّقيق قال الفيروز آبادي بثفالها أي على ثفالها أي حال كونها طاحنة لأنّهم لا يثفلونها إلاّ إذا طحنت، وفي أكثر النّسخ ثقالها بالقاف ولعله تصحيف، وعليه فلعلّ المراد مع ثقالها أي إذا كانت معها ما يثقلها من الحبوب فيكون أيضاً كناية عن كونها طاحنة.

قال المجلسي (ره): «لو أمرت بمقام إبراهيم» إشارة إلى ما فعله عمر من تغيير المقام عن الموضع الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ إلى موضع كان فيه في الجاهلية «ورددت صاع رسول الله» كان صاعه على ما قبل أربعة أمداد فجعله عمر خمسة أمداد «ونزعت نساء» (ا ه)، كالمطلقات ثلاثاً في مجلس واحد وغيرها ممّا خالفوا فيه حكم الله «وسبيت ذراري بني تغلب» لأنّ عمر رفع عنهم الجزية.

قال المطرزي: بنو تغلب قوم من مشركي العرب طالبهم عمر بالجزية فأبوا فصولحوا على أن يعطوا الصّدقة متضاعفة فقبلوا ورضوا (ا ه)، ولعدم كونهم من أهل الذمة يحلّ سبي ذراريهم «ومحوت دواوين العطايا» أي التي بنيت على التّفضيل بين المسلمين في زمن عمر وعثمان.

«وألقيت» إشارة إلى ما عدّه الخاصّة والعامة من بدع عمر أنّه قال ينبغي أن نجعل مكان هذا العشر ونصف العشر دراهم نأخذها من أرباب الأملاك، فبعث إلى البلدان من مسح على

(١) الكافي: ١/ ٥٣ ح ١، والأصول الستة عشر: ٢٥.

أهلها فألزمهم الخراج، فأخذ من العراق وما يليها ما كان أخذه منهم ملوك الفرس على كل جريب درهماً واحداً وقفيزاً من أصناف الحبوب، وأخذ من مصر ونواحيها ديناراً وإردَباً عن مساحة جريب كما كان يأخذ منهم ملوك الإسكندرية، والإردبّ لأهل مصر أربعة وستون منّا، وكان أوّل بلد مسحه عمر بلد الكوفة.

و«سوّيت بين المناكح» بأن يزوّج الشّريف والوضيع كما فعله رسول الله ﷺ وزوج بنت عمه مقداداً، وعمر نهى عن تزويج الموالي والعجم «ورددت مسجد رسول الله» (ا ه) إشارة إلى ما وقع فيه من التغيير في زمن عثمان حيث وسّعوه وأدخلوا فيه بعض الدّور التي كانت جواره غصباً وعدواناً «وأمرت بالتّكبير على الجنائز خمس تكبيرات» أي لا أربعاً كما إبتدعته العامة ونسبوه إلى عمر «وألزمت النّاس الجهر» قال في **البحار**: يدلّ ظاهراً على وجوب الجهر بالبسملة مطلقاً وإن أمكن حمله على تأكد الإستحباب.

و«أخرجت من أدخل» يحتمل أن يكون المراد إخراج جسدي الملعونين الذين دفنا في بيته بغير إذنه مع أنّ النبي ﷺ لم يأذن لهما لخوخة في مسجده وإدخال جسد فاطمة ودفنها عند النبي أو رفع الجدار من بين قبريهما، ويحتمل أن يكون المراد إدخال من كان ملازماً لمسجد رسول الله ﷺ في حياته كعمار وأبي ذر وأضرابهما، وإخراج من أخرجه الرّسول ﷺ من المطرودين كحكم ابن أبي العاص وابنه مروان، وقد كان رسول اللّه أخرجهما فأدخلهما عثمان.

«ورددت أهل نجران إلى مواضعهم» قال المجلسي: لم أظفر إلى الآن بكيفية إخراجهم وسببه وبمن أخرجهم «ورددت سبايا فارس» لعل المراد الاسترداد ممّن اصطفاهم أو أخذ زائداً من حقّه «ما لقيت» كلام مستأنف للتعجب «وأعطيت» رجوع إلى الكلام السّابق ولعلّ التّأخير من الرّواة «إن كنتم آمنتم بالله» من تتمّة آية الخمس حيث قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم﴾ الآية.

قال البيضاوي: إن كنتم آمنتم بالله متعلق بمحذوف دلّ عليه واعلموا أي إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإنّ العلم المتعلق بالعمل لم يرد منه العلم المجرّد، لأنّه مقصود بالعرض والمقصود بالذّات هو العمل «وما أنزلنا على عبدنا» محمّد من الآيات والملائكة والنصر «يوم الفرقان» يوم بدر فإنه فرق فيه بين الحقّ والباطل «يوم التقى الجمعان» المسلمون والكفّار.

وقوله ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ [الحشر: ٧] تتمة لآية أخرى ورد في فيئهم حيث قال: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا

يَكُونَ﴾ [الحشر: ٧] أي الفيء الذي هو حقّ الإمام﴿دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧] الدولة بالضّم ما يتداوله الأَغنياء يدور بينهم كما كان في الجاهليّة «رحمة لنا» أي قرر الخمس والفيء لنا رحمة منه لنا وليغنينا بهما عن أوساخ أيدي النّاس.

الترجمة

از جمله كلام فصاحت نظام آن امام است كه مى فرمايد:

جز اين نيست كه ابتدا واقع شدن فتن ها هواها و خواهشات نفسانى است كه پيروى كرده مى شود و حكم هاى شيطانى است كه اختراع كرده مى شود، مخالفت كرده مى شود در آن اهواء و احكام كتاب خدا و متابعت مى نمايد در آن احكام مردانى، مردانى را در حالتى كه مى باشند ايشان بر غير دين خدا، پس اگر باطل خالص مى بود از آميزش حق مخفى نمى ماند بر طلب كنندگان و اگر حق خالص مى بود از التباس به باطل بريده مى شد از او زبان هاى ستيزه نمايندگان، وليكن فراگرفته مى شود از حق دسته اى و از باطل دسته اى، پس اين جا يعنى نزد امتزاج حق به باطل مستولى مى شود شيطان بر اولياء خود و نجات مى يابد از خطر اين شبهه، آن كسانى كه پيشى گرفته است از براى ايشان از جانب خدا حالتى نيكو كه عبارت است از عنايت ازلى و توفيق لم يزلى.

ومن خطبة له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابه على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم الماء وهي الحادية والخمسون من المختار في باب الخطب

ورواها في البحار وفي «شرح المعتزلي» جميعاً من كتاب صفين لنصر بن مزاحم، قال نصر: حدّثنا عمرو بن سعيد عن جابر قال: خطب علي عليه السلام: يوم الماء فقال:

«أَمّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ بَدَؤُكُمْ بِالظُّلْمِ، وفاتَحُوكُمْ بِالْبَغْيِ، وَاسْتَقْبَلُوكُمْ بِالْعُدْوانِ، وقَدِ اسْتَطْعَمُوكُمْ الْقِتالَ حَيْثُ مَنَعُوكُمُ الْماءَ، فَأَقِرُّوا عَلى مَذَلَّةٍ وتَأْخيرِ مَحَلَّةٍ، أَوْرَوُوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّماءِ تَرْوَوا مِنَ الْماءِ، فَالْموتُ في حَيوتِكُمْ مَقْهُورينَ، وَالْحَيوةُ في مَوْتِكُمْ قاهِرينَ، أَلا وَإِنَّ مُعاوِيَةَ قادَ لُمَّةً مِنَ الْغُواةِ، وعَمَسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتّى جَعَلَ نُحُورَهُمْ أَغْراضَ الْمَنِيَّةِ»[1].

اللغة

(**استطعموكم القتال**) أي طلبوه منكم يقال فلان يستطعمني الحديث أي يستدعيه منّي ويطلبه (**فأقرّوا على مذلة**) من القرار وهو السّكون والثبات كالإستقرار، أو من الإقرار والإعتراف والأول أظهر و (**اللمة**) بالضّم والتّخفيف جماعة قليلة، و (**عمس عليهم الخبر**) بفتح العين المهملة وتخفيف الميم وتشديدها أبهمه عليهم وجعله مظلماً، والتّشديد لإفادة الكثرة ومنه ليل عماس أي مظلم و (**الأغراض**) جمع غرض وهو الهدف.

الإعراب

ضمير الخطاب في استطعموكم منصوب المحل بنزع الخافض على حد قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أو مجروره على حدّ قوله: أشارت كليب بالأكف الأصابع، والفاء في قوله فأقروا فصيحة، وقوله: ترووا من الماء مجزوم لوقوعه في جواب الأمر على حد ائتني أكرمك، ومقهورين وقاهرين منصوبان على الحال.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام له عليه السلام من أبلغ الكلام وألطفه في التّحريض على الحرب والجذب إلى القتال، وقد خطب به لما غلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات بصفّين ومنعوا أصحابه من الماء وحالوا بينهم وبينه فقال لهم: (**إنّهم قد استطعموكم القتال حيث منعوكم الماء**) يعني

(١) نهج البلاغة: / ١٠٠، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٤٤٢.

أنّهم من جهة مما نعتهم من الماء طلبوا منكم أن تطعموهم القتال فكأنهم لما حازوا الماء أشبهوا في ذلك من طلب الطعام له، ولما استلزم ذلك المنع طلبهم للقتال تعيّن تشبيه ذلك بالطعام وهو من لطائف الإستعارة.

(فأقروا على مذلة وتأخير محلة أورووا السّيوف من الدّماء ترووا من الماء) يعني أنّهم لما طلبوا منكم القتال بالمنع من الماء فاللازم عليكم حينئذٍ أحد الأمرين، إمّا الكفّ عن الحرب والإذعان بالعجز والإستقرار على الذّلة المستلزم لتأخير المنزلة وانحطاط الدّرجة عن رتبة أهل الشّرف والشّجاعة، وأمّا الإستعداد للقتال وتروية السّيوف من الدّماء المستلزم للتّروية من الماء.

وفي هذا الكلام من الحسن واللطف ما لا يخفى إذ من المعلوم أن الإقرار بالعجز والثبات على الذّلة مكروه بالطبع، والتّروي من الماء للعطاش محبوب بالطبع والعاقل لا يختار المكروه على المحبوب قطعاً بل يرجّحه عليه ويتوصّل إليه ولو بتروية سيفه من الدماء فيكون القتال محبوباً عنده أيضاً مع كونه مكروهاً بالطبع من أجل إيصاله إلى المطلوب.

ولمّا أشار عليه السلام إلى كون التّواني في الجهاد موجباً للذل وانحطاط الرّتبة فرّع على ذلك قوله: **(فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين)** تنبيهاً على أنّ الحياة مع الذّلة موت في الحقيقة والموت مع العزّة حياة كما قال الشّاعر:

ومن فاته نيل العلى بعلومه وأقلامه فليبغها بحسامه

فموت الفتى في العز مثل حياته وعيشته في الذّل مثل حمامه

وذلك لأن الحياة في حالة المقهورية ومع الذّلة وسقوط المنزلة أشدّ مقاساة من موت البدن عند العاقل بكثير، بل موتات متعاقبة عند ذي اللب البصير، كما أنّ الموت في حالة القاهريّة ومع العزّة موجب للذّكر الباقي الجميل في الدّنيا وللأجر الجزيل في العقبى؛ فهو في الحقيقة حياة لا تنقطع ولا تفنى كما قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴿١٦٩﴾﴾.

هذا ولا يخفى ما في هاتين الفقرتين من حسن المقابلة كما في ما قبلهما من السّجع المطرف، وفيما قبلهما من السّجع المتوازي.

ثمّ أنّه بعد حث أصحابه على الجهاد أشار إلى ما عليه معاوية وأصحابه من الغوى والضّلالة والعدول عن المنهج القويم والصراط المستقيم بقوله: **(ألا إنّ معاوية قاد لمة من الغواة و)** ساق طائفة من البغاة **(عمس عليهم الخبر)** وأظلم عليهم الأثر **(حتّى جعل نحورهم أغراض المنية)** بإيهام أنّ عثمان قتل مظلوماً وأنّه عليه السلام وأصحابه قاتله، وأنّ ذلك الملعون

وأصحابه أولياء دمه والمستحقون لأخذ ثأره، مع أنهم عن الصراط لناكبون وفي جهنم خالدون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وأما كيفية غلبة أصحاب معاوية على الماء

فنحن نرويها من **البحار** ومن **شرح المعتزلي** جميعاً من كتاب صفين لنصر بن مزاحم بتلخيص منّا.

قال نصر: كان أبو الأعور السلمي على مقدّمة معاوية واسمه سفيان بن عمرو، وكان قد ناوش مقدمة علي وعليه الأشتر النخعي مناوشة ليست ما بعظيمة، فلما انصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً سبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين إلى جانب صفين قد نزلوا منزلاً اختاروه مستوياً بساطاً واسعاً، وأخذوا الشريعة، فهي في أيديهم.

وساق الأشتر يتبعه فوجده غالباً على الماء وكان في أربعة آلاف من مستبصري أهل العراق فصدموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء، فأقبل معاوية في جميع الفيلق بقضه وقضيضه، فلما رآهم الأشتر إنحاز إلى علي وغلب معاوية وأهل الشام على الماء وحالوا بين أهل العراق وبينه، وأقبل علي عليه السلام في جموعه، فطلب موضعاً لعسكره وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم وهم أكثر من مائة ألف فارس، فلما نزلوا تسرع فوارس من فوارس علي عليه السلام على خيولهم إلى معاوية يطعنون ويرمون بالسهام ومعاوية بعد لم ينزل، فناوشهم أهل الشام القتال فاقتتلوا هوّياً.

قال نصر: فحدّثني عمر بن سعد، عن سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة قال: فكتب معاوية إلى علي عليه السلام عافانا الله وإيّاك.

ما أحسن العدل والإنصاف من عمل   وأقبح الطيس ثمّ النفش في الرّجل

وكتب بعده شعراً يحثه فيه بأن يروع بجيشه من التسرّع والعجلة عند الحرب، فأمر علي عليه السلام أن يوزع النّاس عن القتال حتّى أخذ أهل الشام مصافهم، ثمّ قال: أيّها النّاس إنّ هذا موقف من نطف فيه نطف يوم القيامة ومن فلح فيه فلح يوم القيامة.

قال: فتراجع النّاس كلّ من الفريقين إلى معسكره وذهب شباب من النّاس إلى الماء ليستسقوا فمنعهم أهل الشّام وقد أجمعوا أن يمنعوا الماء.

وروى نصر عن عبد الله بن عوف قال: فتسرعنا إلى أمير المؤمنين فأخبرناه بذلك، فدعا صعصعة بن صوحان فقال: ائت معاوية فقل إنّا صرنا إليك مصيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الأعذار إليكم، وأنك قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن من رأينا الكفّ حتّى ندعوك ونحتجّ عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها قد حلتم بين النّاس وبين الماء، فخل بينهم وبينه حتّى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم له، وإن كان أحب إليك

أن ندع ما جئنا له وندع النّاس يقتتلون حتّى يكون الغالب هو الشّارب فعلنا.

فلمّا مضى صعصعة برسالته إلى معاوية قال معاوية لأصحابه: ما ترون» فقال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان، حصروه أربعين يوماً يمنعونه برد الماء ولين الطعام، اقتلهم عطشاً قتلهم الله، وقال عمرو بن العاص: خل بين القوم وبين الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريّان، ولكن لغير الماء، فانظر فيما بينك وبينهم فأعاد الوليد مقالته.

وقال عبد الله بن سعيد بن أبي سرح وكان أخا عثمان من الرضاعة، امنعهم الماء إلى الليل فإنّهم إن لم يقدروا عليه رجعوا وكان رجوعهم هزيمتهم، امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة.

فقال صعصعة: إنّما يمنع الماء يوم القيامة الفجرة الكفرة شربة الخمر ضربك وضرب هذا الفاسق يعني الوليد فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهددونه، فقال معاوية: كفوا عن الرّجل فإنّما هو رسول.

قال عبد الله بن عوف: إنّ صعصعة لمّا رجع إلينا حدثنا بما قال معاوية وما كان منه وما رده عليه، قلنا: وما الذي رده عليك؟ قال: لمّا أردت الإنصراف من عنده قلت: ما تردّ عليّ؟ قال: سيأتيكم رأيي، قال: فوالله ما راعنا إلاّ تسوية الرّجال والصّفوف والخيل، فأرسل إلى أبي الأعور امنعهم الماء فازدلفنا والله إليهم فارتمينا واطّعنا بالرّماح واضطربنا بالسّيوف، فقال: ذلك بيننا وبينهم حتّى صار الماء بأيدينا فقلنا: لا والله لا نسقيهم فأرسل عليّ عليه السلام أن خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى معسكركم وخلوا بينهم وبين الماء فإنّ الله قد نصركم عليهم ببغيهم وظلمهم.

وقال نصر: قال عمرو بن العاص: خل بينهم وبين الماء فإنّ عليّاً لم يكن ليظمأ وأنت ريّان وفي يده أعنة الخيل وهو ينظر إلى الفرات حتّى يشرب أو يموت وأنت تعلم أنّه الشّجاع المطرق، وقد سمعته أنا وأنت مراراً وهو يقول: لو أنّ معي أربعين رجلاً يوم فتش البيت يعني بيت فاطمة عليها السلام، ويقول: لو استمسكت من أربعين رجلاً يعني من أمر الأوّل.

قال: ولمّا غلب أهل الشّام على الفرات فرجعوا بالغلبة وقال معاوية: يا أهل الشّام هذا والله أوّل الظفر لا سقاني الله ولا أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتّى يقتلوا بأجمعهم وتباشر أهل الشّام.

فقام إلى معاوية رجل من أهل الشّام همداني ناسك يتأله ويكثر العبادة يقال: له المعري بن الأفيل؛ وكان صديقاً لعمرو بن العاص مواخاً له، فقال: يا معاوية سبحان الله سبقتم القوم إلى الفرات تمنعونهم الماء، أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه أليس أعظم ما تنالون من القوم أن تمنعوهم الفرات فينزلون على فرضة أخرى فيجازونكم بما صنعتم، أما

تعلمون أنّ فيهم العبد والأمة والأجير والضّعيف ومن لا ذنب له، هذا والله أوّل الجهل (الجور) فأغلظ له معاوية وقال لعمرو: اكفني صديقك فأتاه عمرو فأغلظ له فقال الهمداني في ذلك شعراً:

لعمر وأبي معاوية بن حرب ... وعمرو ما لدائهما دواء
سوى طعن يحار العقل فيه ... وضرب حين يختلط الدّماء
ولست بتابع دين ابن هند ... طوال الدّهر يا أرسي حراء
لقد وهب العتاب فلا عتاب ... وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولي في حوادث كل حرب ... على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درّك يا ابن هند ... لقد برح الخفاء فلا خفاء
أتحمون الفرات على رجال ... وفي أيديهم الأسل الظماء
وفي الأعناق أسياف حداد ... كأنّ القوم عندهم نساء
أترجوا أن يحاوركم عليّ ... بلا ماء وللأحزاب ماء
دعاهم دعوةً فأجاب قوم ... كجرب الإبل خالطها الهناء

قال: ثمّ سار الهمداني في سواد الليل حتّى لحق بعليّ عليه السلام ومكث أصحاب علي يوماً وليلة بغير ماء، واغتمّ عليه السلام بما فيه أهل العراق من العطش.

وفي رواية سهل بن حنيف المروية في المجلد التّاسع من البحار أنه لمّا أخذ معاوية مورد الفرات أمر أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر أن يقول: لمن على جانب الفرات: يقول لكم عليّ: اعدلوا عن الماء، فلما قال ذلك: عدلوا عنه فورد قوم أمير المؤمنين عليه السلام الماء فأخذوا منه، فبلغ ذلك معاوية فأحضرهم وقال لهم في ذلك فقالوا: إنّ عمرو بن العاص جاء وقال: إنّ معاوية يأمركم أن تفرجوا عن الماء فقال معاوية لعمرو: إنك لتأتي أمراً ثم تقول ما فعلته.

فلمّا كان من غد وَكَّلَ معاوية حجل بن عتاب النّخعي في خمسة آلاف فأنفذ أمير المؤمنين مالكاً فنادى مثل الأوّل، فمال حجل عن الشريعة فورد أصحاب عليّ وأخذوا منه، فبلغ ذلك معاوية فأحضر حجلاً وقال له في ذلك، فقال: إنّ ابنك يزيد أتاني فقال: إنك أمرت بالتّنحي عنه، فقال ليزيد في ذلك فأنكر، فقال معاوية: فإذا كان غداً فلا تقبل من أحد ولو أتيتك حتّى تأخذ خاتمي.

فلمّا كان اليوم الثالث أمر أمير المؤمنين عليه السلام لمالك مثل ذلك، فرأى حجل معاوية وأخذ منه خاتمه وانصرف عن الماء وبلغ معاوية فدعا وقال له في ذلك، فأراه خاتمه فضرب

معاوية يده على يده فقال: نعم وإنّ هذا من دواهي علي، رجعنا إلى رواية نصر بن مزاحم.

قال: فأتى الأشعث علياً فقال: يا أمير المؤمنين أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا والسّيوف في أيدينا؟ خل عنّا وعن القوم فوالله لا نرجع حتّى نردّه أو نموت، ومرّ الأشتر يعلو بخيله ويقف حيث يأمره عليّ عليه السلام فقال علي: ذلك إليكم فرجع الأشعث فنادى في الناس من يريد الماء أو الموت فميعاده موضع كذا، فإنّي ناهض فأتاه اثنى عشر ألفاً من كندة وإفناء قحطان واضعي سيوفهم على عواتقهم.

فشدّ عليه سلاحه ونهض بهم حتّى كاد يخالط أهل الشّام، وجعل يلقي رمحه ويقول لأصحابه: بأبي أنتم وأميّ تقدّموا إليهم قاب رمحي هذا، فلم يزل ذلك دأبه حتّى خلط القوم وحسر عن رأسه ونادى أنا الأشعث بن قيس خلوا عن الماء، فنادى أبو الأعور أما حتّى لا يأخذنا وإيّاكم السّيوف فلا، فقال الأشعث قد والله أظنّها دنت منّا ومنكم، وكان الأشتر قد تعالى بخيله حيث أمره عليّ فبعث إليه الأشعث أقحم الخيل، فأقحمها حتّى وضعت بسنابكها في الفرات وأخذت أهل الشّام السّيوف فولوا مدبرين.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر وزيد بن الحسن قالا: فنادى الأشعث عمرو بن العاص فقال: ويحك يا ابن العاص خل بيننا وبين الماء، فوالله لئن لم تفعل لتأخذنا وإيّاكم السّيوف: فقال عمرو: والله لا نخلي عنه حتّى تأخذنا السّيوف وإيّاكم فيعلم ربّنا سبحانه أيّنا أصبر اليوم، فترجل الأشعث والأشتر وذوو البصائر من أصحاب عليّ وترجل معهما اثنى عشر ألفاً، فحملوا على عمرو وأبي الأعور ومن معهما من أهل الشّام، فأزالوهم عن الماء حتّى غمست خيل عليّ عليه السلام سنابكها في الماء.

قال نصر: فروى عمر بن سعيد أنّ علياً قال ذلك اليوم: هذا يوم نصرتم فيه بالحميّة.

قال نصر: فحدّثنا عمر بن[1] جابر قال: خطب عليّ يوم الماء فقال: «أمّا بعد: فإنّ القوم قد بدؤوكم بالظلم» إلى آخر ما رويناه سابقاً.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن شمر عن جابر عن الشّعبي عن الحرث بن أدهم، وعن صعصعة قال: أقبل الأشتر يوم الماء فضرب بسيفه جمهور أهل الشّام حتّى كشفهم عن الماء، وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحرث، فقال الأشعث: لله أبوك ليست النّخع بخير من كندة قدم لواءك، فإنّ الحظّ لمن سبق، فتقدم لواء الأشعث وحملت الرّجال بعضها على بعض، فما زالوا كذلك حتّى انكشف أهل الشّام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعة[2] هذا.

---

(١) في نسخة: شمر.

(٢) نهج البلاغة: ١٠٠ وبحار الأنوار: ٢٢/٤٤٢.

وفي «**رواية أبي مخنف**» عن عبد الله بن قيس قال: قال أمير المؤمنين يوم صفّين وقد أخذ أبو الأعور السّلمي الماء على النّاس ولم يقدر عليه أحد، فبعث إليه الحسين عليه السلام في خمسمائة فارس فكشفه عن الماء، فلمّا رأى ذلك أمير المؤمنين قال: ولدي هذا يقتل بكر بلا عطشاناً، وينفرّ فرسه ويحمحم ويقول في حمحمته: الظليمة الظليمة من أمّة قتلت ابن بنت نبيّها، وهم يقرؤون القرآن الذي جاء به إليهم، ثمّ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنشأ يقول:

أرى الحسين قتيلاً قبل مصرعه علماً يقيناً بأن يبلى بأشرار
وكلّ ذي نفس أو غير ذي نفس يجري إلى أجل يأتي بأقدار

قال: وقال عمرو بن العاص لمعاوية لمّا ملك أهل العراق الماء: ما ظنّك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس، أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه؟ ما أغنى عنك أن تكشف لهم السّورة؟ فقال له معاوية: دع عنك ما مضى فما ظنّك بعليّ بن أبي طالب؟ قال ظنّي أنّه لا يستحل منك ما استحللت منه وإنّ الذي جاء له غير الماء.

قال نصر: فقال أصحاب عليّ له: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، فقال: لا، خلّوا بينهم وبينه لا أفعل ما فعله الجاهلون، سنعرض عليهم كتاب الله وندعوهم إلى الهدى فإن أجابوا وإلاّ ففي حدّ السّيف ما يغني إن شاء الله.

قال: فوالله ما أمسى النّاس حتّى رأوا سقاتهم وسقاة أهل الشّام وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء ما يؤذي إنسان إنساناً[1].

(١) البحار: ٣٢/ ٤٤٣، وشرح النهج للمعتزلي: ٣/ ٣٣١.

الترجمة

از جمله كلام آن امام انام است كه فرموده در حينى كه غالب شدند اصحاب معاويه بر شريعه فرات در صفين و منع نمودند اصحاب آن حضرت را از آب:

به تحقيق كه اصحاب معاويه طلب مى كنند از شما آن كه طعام بدهيد بر ايشان قتال را پس قرار بدهيد يا اقرار نماييد بر خوارى و مذلت و بر باز پس انداختن منزلت و مرتبت يا سيراب سازيد شمشيرهاى خود را از خون هاى آن جماعت باغى تا سيراب شويد از آب صاف جارى، پس مرگ در زندگانى شما است در حالتى كه مقهور و مغلوب هستيد و زندگانى در مرگ شما است، در حالتى كه غالب و قاهر باشيد. بدانيد و آگاه شويد كه معاويه بدبنياد كشيده دست به حرب جماعت اندك را از صاحبان ضلالت و عناد و پوشانيده است بر ايشان خبر را تا آن كه گردانيده است گلوهاى ايشان را نشانى هاى سهام موت از طعن و ضرب و ساير اسباب فوت.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثانية والخمسون من المختار في باب الخطب

وهي ملتقطة من خطبة طويلة خطب بها يوم النّحر رواها الصّدوق مرسلة في كتاب من لا يحضره الفقيه على ما ستطلع عليه، وشرح ما أورده السّيد في الكتاب في ضمن فصلين:

الفصل الأول

«أَلا وإِنَّ الدُّنيا قَدْ تَصَرَّمَتْ وآذَنَتْ بِانْقِضاءٍ وتَنَكَّرَ مَعْرُوفُها وأَدْبَرَتْ حَذّاءَ فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَناءِ سُكّانَها، وتَحْدُو بِالْمَوْتِ جيرانَها، وقَدْ أَمَرَّ مِنْها ما كانَ حُلْواً، وكَدِرَ مِنْها ما كانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْها إِلاّ سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الإِداوَةِ، أَو جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ لَوْ تَمَزَّزَها الصَّدْيانُ لَمْ يَنْقَعْ، فَأَزْمِعُوا عِبادَ اللهِ الرَّحيلَ عَنْ هذِهِ الدّارِ الْمَقْدُورِ عَلى أَهْلِها الزَّوالُ، ولا يَغْلِبَنَّكُمْ فيها الأَمَلُ، ولا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ، فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنينَ الْوُلَّهِ الْعِجالِ، ودَعَوْتُمْ بِهَديلِ الْحَمامِ، وجَأَرْتُمْ جُؤارَ مُتَبَتِّلي الرُّهْبانِ، وخَرَجْتُمْ إِلى اللهِ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَولادِ، إِلْتِماسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ في ارْتِفاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْها كُتُبُهُ، وحَفِظَها رُسُلُهُ، لَكانَ قَليلاً فيما أَرْجُو لَكم مِنْ ثَوابِه، وأَخافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقابِه، وتَاللهِ لَوْ انماثَتْ قُلوبُكُم إِنْمِياثاً، وسالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ في الدُّنْيا مَا الدُّنيا باقِيَةٌ، ما جَزَتْ أَعمالُكُمْ، ولَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظامَ، وهُداهُ إِيّاكُمْ للإِيمانِ»[1].

اللغة

(**تصرّمت**) انقطعت وفنيت و (**آذنت**) بالمدّ أعلمت و (**تنكر**) جهل و (**الحذاء**) السّريعة الذّهاب، وروى جذاء بالجيم وهي منقطعة النّفع والخير و (**حفزه**) يحفزه من باب ضرب دفعه من خلفه، وبالرّمح طعنه، وعن الأمر أعجله وأزعجه، وحفز الليل النّهار ساقه و (**أمرّ**) الشّيء صار مرّاً و (**كدر**) الماء كدراً من باب تعب زال صفاته وكدر كدورة من باب صعب.

و (**السملة**) بالفتحات البقيّة من الماء يبقى في الإناء و (**الإداوة**) بالكسر المطهرة و(**المقلة**) بفتح الميم وسكون القاف حصاة للقسم يقسم بها الماء عند قلته في المفاوز، وفي السّفر تلقى في الماء ليعرف قدر ما يسقى كلّ واحد منهم و (**التمزز**) تمصّص الشّراب قليلاً قليلاً و (**الصّديان**) كعطشان لفظاً ومعنى و (**نقع**) ينقع أي سكن عطشه و (**أزمعت**) الأمر أي أجمعت وعزمت على فعله و (**المقدور**) المقدّر الذي لا بدّ منه و (**الأمد**) بالتّحريك الغاية

(١) نهج البلاغة: ١/١٠٢، ونهج السعادة: ١/٥١٩.

و(**الحنين**) مصدر بمعنى الشوق وأصله ترجيع النّاق صوتها أثر ولدها.

و (**الوله**) جمع واله من الوله وهو ذهاب العقل وفقد التّمييز و (**العجال**) جمع عجول وهي النّاقة التي تفقد أولادها و (**هديل الحمام**) نوحها و (**جار**) يجار من باب منع جاراً وجؤاراً بالضّم رفع صوته وتضرّع واستغاث و (**التّبتل**) الإنقطاع إلى الله بإخلاص النّية و (**إنماث**) القلب ذاب و (**الجهد**) بالضّم والفتح الطاقة و (**الأنعم**) كأفلس جمع النّعمة.

الإعراب

حذّاء منصوب على الحال، والرّحيل منصوب على المفعوليّة، وقوله إلتماس منصوب على المفعول له، ولكان قليلاً جواب لو حننتم، وما في قولها ما الدّنيا باقية ظرفيّة أي مدة بقائه، وجملة ولو لم تبقوا (ا ه) معترضة بين الفعل وهو جزت ومفعوله الذي هو أنعمه والعظام صفة الأنعم، وهداه بالنّصب المحلي عطف على أنعمه.

المعنى

اعلم أنّ مدار هذا الفصل من الخطبة على فصول ثلاثة.

الفصل الأول

متضمّن للتنفير عن الدّنيا والتّحذير منها والنّهي عن عقد القلب عليها، والأمر بالرّحيل عنها، وإليه أشار بقوله: (**ألا وإنّ الدّنيا قد تصرّمت**) أي انقطعت (**وآذنت بانقضاء**)، قد مضى في «**شرح الخطبة**» الثّامنة والعشرين والخطبة الثّانية والأربعين ما يوضح معنى هذه الفقرة من كلامه عليه السلام، فإن رجعت إلى ما ذكرناه هناك تعرف أنّ مراده عليه السلام من تصرّم الدّنيا وانقطاعها هو تقضي أحوالها الحاضرة شيئاً فشيئاً، وأنّ المراد من إعلامها بالإنقضاء هو الإعلام بلسان الحال على ما مرّ تفصيلاً.

(**وتنكر معروفها وأدبرت حذاء**) وهي إشارة إلى تغيّرها وتبدّلها وسرعة انقضائها وإدبارها حتّى أنّ ما كان منها معروفاً لك يصير في زمان يسير مجهولاً عندك، وأدنى ما هو شاهد على ذلك هو حالة شبابك الذي كنت أمس إليه متبهجاً به كيف طرأ عليها المشيب في زمان قليل:

فولّى الشّباب كأن لم يكن ... وحلّ المشيب كأن لم يزل
كأنّ المشيب كصبح بدا ... وأمّا الشّباب كبدرا فل

(**فهي تحفز بالفناء سكّانها**) أي تعجلهم وتسوقهم أو تطعنهم برماح الفناء وتدفعهم من خلفهم حتّى توقعهم في حفرتهم (**وتحدو بالموت جيرانها**) حتّى توصلهم إلى دار غربتهم، أفلا ترى إلى السّلف الماضين والأهلين والأقربين كيف توالت عليهم السّنون وطحنتهم المنون

وفقدتهم العيون، أو لا ترى إلى الملوك والفراعنة والأكاسرة والسّياسنة كيف انتقلوا عن القصور وربات الخدور إلى ضيق القبور.

باتوا على قلل الجبال تحرسهم غلب الرّجال فلم ينفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم إلى مقابرهم يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين سائلهم تلك الوجوه عليها الدّود تنتقل
قد طال ما أكلوا فيها وهم شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطال ما كثروا الأموال وادخروا فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
وطال ما شيّدوا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدّور والأهلين وانتقلوا
أضحت مساكنهم وحشاً معطلة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا
سل الخليفة إذ وافت منيته أين الجنود وأين الخيل والخول
أين الكنوز التي كانت مفاتحها تنوء بالعصبة المقوين لو حملوا
أين العبيد التي أرصدتهم عدداً أين الحديد وأين البيض والأسل
أين الفوارس والغلمان ما صنعوا أين الصّوارم والخطية الذبل
أين الكفاة ألم يكفوا خليفتهم لمّا رأوه صريعاً وهو يبتهل
أين الكماة التي ماجوا لما غضبوا أين الحماة التي تحمي به الدّول
أين الرماة ألم تمنع بأسهمهم لمّا أتتك سهام الموت تنتصل
هيهات ما منعوا ضيماً ولا دفعوا عنك المنيّة إذ وافى بك الأجل
ولا الرشا دفعتها عنك لو بذلوا ولا الرّقى نفعت فيها ولا الخيل
ما ساعدوك ولا واساك أقربهم بل سلموك لها يا قبح ما فعلوا

(وقد أمرّ منها ما كان حلواً وكدر منها ما كان صفواً) وذلك مشاهد بالوجدان ومرئي بالعيان، إذ الأمور التي تقع لذيذة فيها ويجدها الإنسان في بعض الأحيان حلوة صافية عن الكدورات خالية عن مرارة التّنغيص هي في معرض التّغير والتّبدّل بالمرارة والكدر، فما من أحد تخاطبه بما ذكر إلا ويصدق عليه أنّه قد عرضت له من تلك اللذات ما استعقب صفوتها كدراً وحلاوتها مرارة، إمّا من شباب تبدل بمشيب أو غنى بفقر أو عزّ بذلّ أو صحّة بمرض.

(فلم يبق منها إلاّ سملة كسملة الأداوة أو جرعة كجرعة المقلة لو تمزّزها الصّديان)

وتمصّصها العطشان لم يرو و **(لم ينقع)** قال الشّارح البحراني: هذا تقليل وتحقير لما بقي منها لكل شخص من النّاس، فإنّ بقاء ماله على حسب بقائه فيها وبقاء كلّ شخص، فيها يسير ووقته قصير، واستعار لفظ السّملة لبقيتها وشبهها ببقيّة الماء في الأداوة، وبجرعة المقلة، ووجه الشبه ما أشار إليه بقوله: لو تمزّزها الصّديان لم ينقع، أي كما أنّ العطشان الواجد لبقيّة الماء في الأداوة أو الجرعة لو تمصّصها لم ينقع عطشه، كذلك طالب الدّنيا المتعطش إليها الواجد لبقيّة عمره ولليسير من الإستمتاع فيه بلذات الدّنيا لا يشفى ذلك غليله ولا يسكن عطشه.

ثمّ إنّه بعد التّنبيه على تحقير الدّنيا والتّنفير عنها أمر بالرّحيل عنها بقوله: **(فأزمعوا عباد الله الرّحيل عن هذه الدّار المقدور على أهلها الزوال)** يعني إذا كانت الدّنيا بهذه المثابة من الدّناءة والحقارة معقبة صفوها للكدورة متغيّرة حلاوتها إلى المرارة، فلا بدّ لكم من العزم على الرّحيل عنها بقطع العلائق الدّنيوية عن القلب والإقبال إلى الله والرغبة إلى رضوان الله مع ما قدر في حقّ أهلها من الزّوال وكتب لسكانها من الرّحيل والإنتقال، أفلا تنظر إلى الأمم الماضية والقرون الفانية وإلى من عاشرتهم من صنوف النّاس وشيعتهم إلى الأرماس كيف اخترمتهم أيدي المنون من قرون بعد قرون، أو لا تعتبر ممّن مضى من أسلافك ومن وارته الأرض من الإفك، ومن فجعت به من إخوانك ونقلت إلى دار البلا من أقرانك.

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها ... محاسنهم فيها بوال دواثر
خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم ... وساقتهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدّنيا وما جمعوا لها ... وضمتهم تحت التّراب الحفائر

(و) بعد ما اعتبرت بما رأيته من الأهلين والإخوان، وادكرت بما شاهدته من الأمثال والأقران فالبتة **(لا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولنّ عليكم)** فيها **(الأمد)** أي لا تتوّهم طول مدة البقاء فيها مع ما شاهدت ومن قصر مدّتها وقرب زوالها.

والفصل الثاني

متضمّن للتّنبيه على عظيم ثواب الله وعقابه، فإنّه بعد ما نبّه على تحقير الدنيا والتّحذير عنها وأمر بالعزم على الجدّ والإرتحال أشار إلى ما ينبغي أن يهتمّ به ويلتفت إليه ويرجى ويخشى من ثواب الله وعقابه، فأشار إلى تعظيمها بتحقير الأسباب والوسائل التي يتوصّل بها العباد، ويعتمدون عليها في الفوز إلى الثّواب والهرب من العقاب.

وقال: **(فوالله لو حننتم)** إلى الله مثل **(حنين الوله العجال)** شوقاً ورغبة **(ودعوتم)** له تعالى **(بهديل)** مثل هديل **(الحمام)** استيحاشا ووحشة **(وجأرتم)** إليه سبحانه بمثل **(جؤار متبتّلي الرّهبان)** خوفاً وخشية **(وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد)** وتركتم الأوطان والبلاد وفعلتم

كل ذلك (**لالتماس القربة إلى الله**) وثمناً للوصول إلى رضوان الله (**في ارتفاع درجة عنده أو غفران سيئة أحصتها كتبه وحفظها رسله**) الكرام البررة (**لكان**) ذلك كله (**قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه**).

ومحصّله على ما ذكره البحراني هو أنكم لو أتيتم بجميع أسباب التقرّب إلى الله الممكنة لكم من عبادة وزهد ملتمسين بذلك التقرّب إليه في أن يرفع لكم عنده درجة أو يغفر لكم سيّئة أحصتها كتبه والوجه المحفوظة لكان الذي أرجوه من ثوابه للمتقرّب إليه في أن يرفع منزلته من حضرة قدسه أكثر، ممّا يتصوّره المتقرّب أنّه يصل إليه بتقرّبه، ولكان الذي أخافه من عقابه على المتقرّب في غفران سيّئة عنده أكثر من العقاب الذي يتوّهم أنّه يدفعه عن نفسه بتقرّبه.

فينبغي لطالب الزّيادة في المنزلة عند الله أن يخلص بكليّته في التقرّب إليه ليصل إلى ما هو أعظم ممّا يتوّهم أنّه يصل إليه من المنزلة عنده، وينبغي للهارب من ذنبه إلى الله أن يخلص من هول ما هو أعظم مما يتوهم أنه يدفعه عن نفسه بوسيلته، فإن الأمر في معرفة ما أعد الله لعباده الصالحين من الثواب العظيم، وما أعده لأعدائه الظالمين من العقاب الأليم أجلّ ممّا تتصوّره عقول البشر ما دامت في عالم الغربة، وإن كانت عقولهم في ذلك الإدراك متفاوتة، ولمّا كانت نفسه القدسية أشرف نفوس الخلق لا جرم نسب الثّواب المرجوّ لهم والعقاب المخوف عليهم إلى رجائه وخوفه وذلك لقوّة اطلاعه من ذلك على ما لم يطلعوا عليه.

والفصل الثالث

متضمن للتّنبيه على عظيم نعمة الله على العباد، وإليه أشار بقوله: (**وتالله لو انماثت قلوبكم انمياثاً وسالت عيونكم في رغبة إليه**) سبحانه (**أو رهبة منه دماً ثمّ عمرتم في الدّنيا ما الدّنيا باقية ما جزت أعمالكم**) التي أتيتموها وبذلتم فيها جهدكم وسعيكم (**ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم أنعمه**) التي أنعم بها (**عليكم**) من نعمه (**العظام وهداه إياكم للإيمان**).

يعني أنّ كل ما أتيتم به من الأعمال التي بذلتم جهدكم فيها في طاعة الله، وما عساه يمكنكم أن تأتوا به منها فهو قاصر عن مجازاة نعمه العظام ولا سيّما نعمة الهداية التي هي أشرف الآلاء وأفضل النعماء، مع أنّ القيام بوظائف العبودية ليس إلا بتوفيق منه سبحانه وتأييد منه، وذلك من جملة نعمه أيضاً فكيف يجازي نعمته ونعم ما قيل:

شكر الإله نعمة موجبة لشكره وكيف شكري برّه وشكره من برّه

الترجمة

از جمله خطب لطيفه و شريفه آن حضرت است در بيان تحقير دنياى فانى و ترغيب به عقباى جاودانى مى فرمايد:

آگاه باشيد كه به درستى دنيا روى آورده به انقطاع و فنا و اعلام كرده است به زوال و انقضاء و مجهول شده است معروف آن به جهت اين كه به اندك فرصتى و كمترمدتى تغيير و تبديل مى يابد لذايذ آن بر ضدّ آن و پشت كرده و ادبار نموده در حالتى كه سرعت كننده و شتابنده است، پس آن ميراند به نيزه فنا ساكنان خود را و ميراند به سوى مرگ همسايگان خود را و به تحقيق كه تلخ گشت از دنيا آن چه بود شيرين و با كدورت و ناصاف شد از آن، آن چه بود صاف و گزين، پس باقى نمانده است از دنيا مگر بقيه اى مانند بقيه آب در مطهره يا مقدار يك آشاميدن مثل مقدار يك آشاميدن كه به مقله اخذ نمايند در وقت قحط آبى كه اگر بمكد آن بقيه و جرعه را صاحب عطش فروننشاند تشنگى او را، پس عزم نماييد اى بندگان خدا بر كوچ نمودن از اين سراى پرجفا كه مقدر شده است در حق اهل او زوال و فنا و بايد كه غالب نشود شما را در اين دنيا آرزوى نفس و هوا و بايد كه توهم ننماييد در اين سرا درازى مدت و طول بقا را.

پس قسم به خداوند كه اگر ناله كنيد شما مثل ناله كردن شتران حيران و سرگردان كه گم نماينده باشند بچه گان خودشان را و بخوانيد خدا را به نوحه اى حزين مثل نوحه نمودن كبوتران و تضرع نماييد به خداوند مانند تضرع نمودن زاهدان نصارى و بيرون آييد از اموال و اولاد به جهت خدا در بلند شدن درجه نزد او سبحانه و تعالى يا آمرزيدن گناهى كه شمرده باشد آن گناه را نامه اعمال و ضبط نموده باشد او را فرشتگان حضرت ذوالجلال، هر آينه باشد اين جمله اندك در آن چه اميد مى دارم براى شما از ثواب دادن او و در آن چه مى ترسم از براى شما از عقاب كردن او.

و سوگند به خدا كه اگر گداخته شود قلب هاى شما گداختنى از ترس الهى و روان شود چشم هاى شما به جهت رغبت ثواب او و از جهت ترس از عذاب او

به خون های دمادم، پس از آن عمر نمایید در دنیا مادامی که دنیا باقی است، جزا و مکافات نباشد عمل های شما که در این مدت به عمل آورده اید و اگرچه باقی نگذارید چیزی از سعی و طاقت خود به نعمت های عظیمه او سبحانه که به شما انعام فرموده و به هدایت و راهنمایی او به سوی ایمان که در حق شما مرعی داشته؛ یعنی اگر تا انقراض دنیا مشغول عمل صالح شوید و دقیقه ای فتور ننمایید، برابری این نعم عظیمه که در حق شما التفات فرموده است نخواهد بود.

الفصل الثاني

«منها في ذكر يوم النحر في صفة الأُضحية ومِنْ تَمامِ الأُضحِيَة اسْتِشراف أُذُنِها، وسَلامَةُ عَيْنِها، فَإِذا سَلِمَتِ الأُذُنُ وَالْعَينُ سَلِمَتِ الأُضحِيَةُ وتَمَّتْ، ولَوْ كانَتْ عَضْباءُ الْقَرْن تَجُرُّ رِجْلَها إِلَى الْمَنْسَك»[١].

اللغة

(**الأضحية**) بضمّ الهمزة وكسرها إتباعاً للحاء والياء المخفّفة، والجمع أضاحي ويقال ضحية أيضاً والجمع ضحايا كعطية وعطايا وهي الشّاة التي يضحى بها أي تذبح بها ضحاة، ومنها سمّي يوم الأضحى للعاشر من ذي الحجة و (**الإستشراف**) الإرتفاع والإنتصاب يقال إذن شرفاء أي منتصبة و (**العضباء**) المكسور القرن وقيل القرن الدّاخل و (**المنسك**) محلّ النسك وهو العبادة، والمراد به هنا المذبح ويجوز فيه فتح السّين وكسرها.

الإعراب

قوله ولو كانت، شرطيّة وصليّة، وجملة تجرّ في محلّ الرّفع على النّصب من اسم كان أو في محلّ النّصب على الحاليّة، وفي نسخة الفقيه على ما ستطلع عليه ولو كانت عضباء القرن أو تجر رجلها إلى المنسك فلا تجزي.

المعنى

اعلم أنّ الأضحية مستحبة مؤكدة إجماعاً بل يمكن دعوى ضرورة مشروعيتها وقول الأسكافي بوجوبها شاذ، ويدلّ على شدّة الإستحباب مضافاً إلى الإجماع أخبار كثيرة.

ففي «الفقيه»: قال رسول الله ﷺ استفرهوا ضحاياكم فإنّها مطاياكم على الصّراط[٢].

وجاءت أمّ سلمة إلى النّبي ﷺ فقالت يا رسول الله ﷺ يحضر الأَضحى وليس عندي ثمن الأضحية، فأستقرض فأضحي؟ فقال: «استقرضي وضحي فإنّه دين مقضيّ ويغفر لصاحب الأضحية عند أوّل قطرة يقطر من دمها»[٣].

---

(١) وسائل الشيعة: ١٢٧/١٤ ح ١٨٧٨٤، وبحار الأنوار: ١٠٨/٨٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢١٤ ح ٢١٩١ ـ ٢١٩٢.

(٣) علل الشرائع: ٣/ ٤٣٨.

ومن **«العلل»**: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قلت له: ما علة الأضحية؟ فقال: «إنّه يغفر لصاحبها عند أوّل قطرة تقطر من دمها في الأرض، وليعلم الله عزّ وجل من يتقيه بالغيب» قال الله عزّ وجل: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الحج: ٣٧] ثمّ قال: انظر كيف قبل الله قربان هابيل وردّ قربان قابيل.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: « ما من عمل يوم النحر أحبّ إلى الله عز وجل من إراقة دم، وأنّها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وأنّ الدّم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع الأرض فطيبوا بها نفساً»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً «أنّ لكم بكل صوفة من جلدها حسنة، وبكل قطرة من دمها حسنة، وأنّها لتوضع في الميزان فأبشروا».

إذا عرفت ذلك فأقول إنّ قوله: **(ومن تمام الأضحية استشراف أذنها وسلامة عينها)** أراد بذلك أن لا يكون بعض أذنها أو جميعها مقطوعة، وأن لا تكون عوراء، **(فإذا سلمت الأذن)** من النّقص **(والعين)** من العور **(سلمت الأضحية وتمّت)** أي أجزأت **(ولو كانت عضباء القرن)** وعرجاء **(تجرّ رجلها إلى المنسك)**.

فروع الأول

قد عرفت أنّ الأضحية مستحبة عندنا وهل سلامة العين والأذن شرط الإجزاء أو شرط الكمال ظاهر كلامه يعطي الأوّل، لأنّ قوله: إذا سلمت الأذن والعين سلمت الأضحية يدلّ بمفهومه على أنّه إذا لم تسلم الأذن والعين لم تسلم الأضحية، ومعنى عدم سلامتها عدم كفايتها في الإتيان بالمستحب.

وهو المستفاد أيضاً ممّا رواه في **«الوسائل»**: عن محمّد بن الحسن الصّفار بإسناده عن شريح بن هاني عن علي صلوات الله عليه قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله في الأضاحي أن تستشرف العين والأذن ونهانا عن الخرقاء والشّرفاء والمقابلة والمدابرة»[٢].

وعن الصّدوق في **«معاني الأخبار»** الخرقاء أن يكون في الأذن ثقب مستدير والشرقاء المشقوقة الأذن باثنين حتّى ينفذ إلى الطرف والمقابلة أن يقطع في مقدم أذنها شيء، ثمّ يترك ذلك معلقاً لاثنين كأنه زنمة، ويقال لمثل ذلك من الإبل المزنم والمدابرة أن يفعل ذلك بمؤخر أذن الشّاة[٣].

(١) تفسير القرطبي: ١٥/١٠٨.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/٤٨٩ ح ٣٠٤٧، ووسائل الشيعة: ١٤/١٢٦.
(٣) وسائل الشيعة: ١٤/١٢٧.

وفي «**الوسائل**»: أيضاً عن السكوني عن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول الله ﷺ «لا يضحى بالعرجاء البيّن عرجها، ولا بالعوراء البيّن عورها ولا بالعجفاء، ولا بالخرقاء، ولا بالجدعاء، ولا بالعضباء» هذا[1].

ولكن الأَظهر هو أنّهما شرطا الكمال فيكون المراد بالأمر والنّهي في رواية شريح هو الاستحباب والكراهة دون الوجوب والحرمة، وعلى الكراهة أيضاً يحمل قوله: لا يضحى بالعرجاء (اه) في الرّواية الثّانية.

ويدل على ما ذكرناه ما رواه الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الضّحية تكون الأذن مشقوقة، فقال: إن كان شقّها وسماً فلا بأس، وإن كان شقّاً فلا يصلح، فإن لفظة لا يصلح ظاهرة في نفي الكمال أو المراد بالأضحية في الرّوايتين هي الأضحية الواجبة المسماة بالهدي دون المستحبة، وعلى ذلك فيبقى الأمر والنهي والنّفي على ظاهرها فتكون الشّروط المذكورة شرطاً للصّحة.

ويدلّ عليه ما رواه الصّدوق بإسناده عن علي بن جعفر أنّه سأل أخاه موسى بن جعفر عليه السلام عن الرّجل يشتري الأضحية عوراء فلا يعلم إلاّ بعد شرائها هل تجزي عنه؟ قال: نعم إلاّ أن يكون هديا واجباً فإنّه لا يجوز أن يكون ناقصاً، هذا.

ولعلّ حمل الروايتين على الوجه الأخير أولى نظراً إلى فهم الأَصحاب حيث إنّ بناء استدلالهم في الشروط الواجبة للهدي عليهما ولا يتم إلاّ بعد صرف الأضحية فيهما إلى الهدي، وكيف كان فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ سلامة العين والأذن في الأضحية شرط الكمال كما هو صريح رواية علي بن جعفر التي قد مرّت، وقد نصّ به غير واحد من الأَصحاب أيضاً، وعليه فلا بدّ أن يراد بقوله عليه السلام في الخطبة: ومن تمام الأضحية (ا ه) كمالها فافهم جيّداً.

الثاني

إن كسر القرن الخارج مع سلامة الداخل وهو الأبيض الذي في وسط الخارج لا بأس به في الهدي والأضحية جميعاً، وأمّا كسر الدّاخل فإن كان في الهدي فلا يجزي قطعاً، وأما في الأضحية فظاهر كلامه عليه السلام على ما رواه السّيد (ره) يعطي الإجزاء، وأمّا على رواية الصّدوق الآتية فالعدم، قال المحدّث الحر في الوسائل بعد نقله رواية الصّدوق: وهو محمول على الاستحباب.

---

(١) وسائل الشيعة: ١٢٧/١٤ ح ١٨٧٨٣، ومعاني الأخبار: ٢٢١.

الثالث

أنّ المستفاد من كلامه هنا أيضاً إجزاء العرجاء وعلى ما رواه الصّدوق فهي أيضاً غير مجزية ويطابقه قوله: ولا يضحى بالعرجاء البيّن عرجها في رواية السكوني السالفة، إلاّ أن يراد بها التّضحية بالواجب على ما ذكرناه سابقاً، قال العلامة (ره) في **«محكي المنتهى»** العرجاء البيّن عرجها التي عرجها متفاحش يمنعها السّير مع الغنم ومشاركتهن في العلف والرّعي فتهزل.

تكملة استبصارية

روى الصّدوق هذه الخطبة في **«الفقيه»** مرسلة قال: وخطب عليه السلام أي أمير المؤمنين عليه السلام في عيد الأضحى فقال: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد الله أكبر على ما هدانا وله الشّكر على ما «فيما» أولانا والحمد لله على مارزقنا من بهيمة الأنعام»، وكان عليه السلام يبدأ بالتّكبير إذا صلى الظهر من يوم النّحر وكان يقطع التّكبير آخر أيام التشريق عند الغداة، وكان يكبر في دبر كل صلاة فيقول: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد»، فإذا انتهى إلى المصلى تقدّم فصلى بالنّاس بغير أذان ولا إقامة، فإذا فرغ من الصّلاة صعد المنبر ثمّ بدأ فقال:

«الله أكبر الله أكبر زنة عرشه رضا نفسه، وعدد قطر سمائه وبحاره له الأسماء الحسنى والحمد لله حتّى يرضى وهو العزيز الغفور، الله أكبر كبيراً متكبراً وإلهاً متعززاً ورحيماً متحنناً يعفو بعد القدرة ولا يقنط من رحمته إلا الضّالون.

الله أكبر كبيراً ولا إله إلا الله كثيراً وسبحان الله حنّاناً قديراً، والحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونشهد أن لا إله إلا هو وأنّ محمّداً عبده ورسوله، من يطع الله ورسوله فقد اهتدى وفاز فوزاً عظيماً، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله وكثرة ذكر الموت والزّهد في الدّنيا التي لم يتمتّع بها من كان فيها قبلكم، ولن تبقى لأحد من بعدكم، وسبيلكم فيها سبيل الماضين ألا ترون أنّها قد تصرّمت وآذنت بانقضاء وتنكر معروفها وأدبرت حذّاء فهي تخبر «تحفزخ» بالفناء وساكنها يحدي بالموت، فقد أمرّ منها ما كان حلواً وكدر منها ما كان صفواً فلم يبق منها إلاّ سملة كسملة الأداوة وجرعة كجرعة الإناء، ولو يتمزّزها الصّديان لم تنقع غلبة بها.

فأزمعوا عباد الله بالرّحيل من هذه الدّار المقدور على أهلها الزّوال، الممنوع أهلها من الحياة المذللة أنفسهم بالموت، فلا حيّ يطمع بالبقاء ولا نفس إلا مذعنة بالمنون، فلا يغلبنّكم

الأَمل، ولا يطول عليكم الأَمد، ولا تغتروا فيها بالأمال، وتعبدوا الله أيّام الحياة.

فوالله لو حننتم حنين الواله العجلان، ودعوتم بمثل دعاء الأَنام، وجأرتم جؤار متبتّلي الرّهبان، وخرجتم إلى الله من الأَموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده، أو غفران سيّئة أحصتها كتبه وحفظتها رسله، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه وأتخوف عليكم من أليم عقابه.

وبالله لو انماثت قلوبكم انمياثا، وسالت عيونكم من رغبة إليه أو رهبة منه دماً، ثمّ عمّرتم في الدّنيا ما كانت الدّنيا باقية ما جزت أعمالكم ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم لنعمه العظام عليكم، وهداه إياكم إلى الإيمان ما كنتم لتستحقّوا أبد الدّهر ما الدّهر قائم بأعمالكم جنته ولا رحمته، ولكن برحمته ترحمون، وبهداه تهتدون، وبهما إلى جنته تصيرون، جعلنا الله وإياكم برحمته من التّائبين العابدين.

وإنّ هذا يوم حرمته عظيمة وبركته مأمولة، والمغفرة فيه مرجوّة، فأكثروا ذكر الله واستغفروه وتوبوا إليه إنّه هو التّواب الرّحيم، ومن ضحى منكم بجذع من المعز فإنّه لا يجزي عنه، والجذع من الضّأن يجزي، ومن تمام الأضحية استشراف عينها وأذنها، وإذا سلمت العين والأذن تمّت الأضحية، وإن كانت عضباء القرن أو تجرّ برجلها إلى المنسك فلا تجزي.

وإذا ضحيتم فكلوا وأطعموا واهدوا واحمدوا الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام، وأقيموا الصّلاة، وآتوا الزكاة، وأحسنوا العبادة، وأقيموا الشّهادة، وارغبوا فيما كتب عليكم وفرض الجهاد والحج والصّيام، فإن ثواب ذلك عظيم لا ينفد، وتركه وبال لا يبيد، وأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، وأخيفوا الظالم، وانصروا المظلوم، وخذوا على يد المريب وأحسنوا إلى النساء وما ملكت أيمانكم، واصدقوا الحديث، وأدّوا الأمانة وكونوا قوامين بالحقّ، ولا تغرنّكم الحياة الدّنيا ولا يغرنّكم بالله الغرور»[1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٥٢١، وبحار الأنوار: ٨٨/ ١١٠.

الترجمة

بعض ديگر از اين خطبه در يادكردن عيد قربان در صفت گوسفند قربانى بيان مى فرمايد كه:

از تمامى گوسفند قربانى است درازى گوش او و سلامتى چشم او، پس هرگاه سلامت باشد گوش و چشم، به سلامت باشد آن قربانى و به مرتبه تماميت مى رسد و اگرچه باشد گوسفند شاخ شكسته و بكشد پاى خود را به سبب لنگى به سوى رفتن به موضع عبادت كه عبادت است از قربان گاه؛ والله أعلم بالصّواب و إليه المآب.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثالثة والخمسون من المختار في باب الخطب

«فَتَداكُّوا عَلَيَّ تَداكَّ الإِبِلِ الهيم يَوْمَ وِرْدِها قَدْ أَرْسَلَها راعيها وخُلِعَتْ مَثانيها، حَتّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قاتِلِيَّ، أَوْ بَعْضَهُمْ قاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلَّبْتُ هذَا الأَمْرَ بَطْنَهُ وظَهْرَهُ، حَتّى مَنَعَنِيَ النَّوْمَ فَما وَجَدْتُني يَسَعُني إلاّ قِتالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله، فَكَانَتْ مُعالَجَةُ الْقِتالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعالَجَةِ الْعِقابِ، ومَوْتاتِ الدُّنْيا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتاتِ الآخِرَةِ»[1].

اللغة

(الدّك) هو الدّق والتّداك مأخوذ منه و **(الهيم)** بالكسر العطاش و **(الورد)** الشّرب، وفي بعض النّسخ يوم ورودها وهو حضورها لشرب الماء، و **(المثاني)** جمع مثناة بالفتح والكسر وهي الحبال من صوف أو شعر يثنى ويعقل بها البعير و **(قاتلي)** على صيغة الجمع مضافة إلى ياء المتكلم، و **(وجدتني)** على صيغة المتكلم.

الإعراب

بعضهم بالنّصب عطف على محلّ اسم أنّ، والنّوم منصوب بنزع الخافض، وجملة يسعني مفعول ثانٍ، وعلي في قوله: أهون عليّ، للاستعلاء المعنوي على حدّ قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ [الشعراء: ١٤].

المعنى

قال الشّارح البحراني: هذا الكلام إشارة إلى صفة أصحابه بصفّين لمّا طال منعهم من قتال أهل الشّام، وفي **«البحار»** أنّ كثيراً من الشّواهد تدلّ على أنّه لبيان حالة البيعة لا سيّما ما كان في نسخة ابن أبي الحديد، فإنه ذكر العنوان: ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة.

وكيف كان فقوله **(فتداكوا عليّ تداك الإبل الهيم يوم وردها)** كناية عن شدّة ازدحامهم يعني أنّهم اجتمعوا عليّ وتزاحموا مثل تزاحم الإبل العطاش حين شرب الماء تدكّ بعضها بعضاً، **(قد أرسلها راعيها وخلعت مثانيها)**، أي أطلقها راعيها وخلع عقالها، **(حتّى ظننت أنّهم قاتلي أو بعضهم قاتل بعض لدي)** لفرط ما شاهدت منهم من الزّحام وشدّة ما رأيت منهم من الاجتماع والتداكّ.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ٧٠ ح ٣١، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٥٥٥ ح ٤٦٣.

(وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره) وصرت أتفكر في أمر القتال مع أهل الشام، وأتردّد بين الإقدام عليه وتركه، أو المراد أمر الخلافة حسبما استظهره المحدث المجلسي **(حتّى منعني)** ذلك من **(النوم)** والكرى **(فما وجدتني يسعني إلا قتالهم)** أي قتال معاوية وأصحابه على ما ذكره البحراني أو قتال النّاكثين على ما ذكره المجلسي «قد» **(أو الجحود بما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله)** وقد مرّ وجه انحصار أمره في القتال والجحود في شرح كلامه الثالث والأربعين مفصّلاً.

وقد ذكرنا هناك أنّه كان مأموراً من الله ومن رسوله بقتال النّاكثين والقاسطين والمارقين، فكان أمره دائراً بين الجهاد والقتال امتثالاً لحكم الله وحكم رسوله وبين الترك والمنابذة المستلزمين للجحود، والمخالفة والعقاب في الآخرة **(فكانت معالجة القتال أهون عليّ من معالجة العقاب)** إذ سعادة الدّنيا وشقاوتها ونعمتها ونقمتها لا نسبة لها إلى سعادة الآخرة وشقوتها، لأنّها فانية لا تبقى وتلك دائمة لا تزول، **(وموتات الدّنيا أهون عليّ من موتات الآخرة)** والمراد بموتات الدّنيا شدائدها وأهوالها ومتاعبها بقرينة موتات الآخرة، ويحتمل أن يراد بالأولى أنواع الموت وبالثّانية الشّدائد التي هي أشدّ من الموت.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است كه اشاره است به حال اصحاب خود در صفين در حينى كه ايشان را منع مى فرمود از قتال اهل شام به جهت اين كه حرص و شوق ايشان به جهاد بيشتر گردد، به ملاحظه اين كه طبيعت انسان مجبول است به آن كه هرچند او را از امرى منع نمايند شوق او در طلب او زياد خواهد شد، چنان كه گفته اند: "احبّ شيء إلى الإنسان مامنعا" و يا اشاره است به حال بيعت كنندگان مراورا بعد از قتل عثمان كه ازدحام داشتند در بيعت او مى فرمايد:

پس كوفتند يكديگر را بر سر بيعت من چون كوفتن شتران تشنه يكديگر را در روز وارد شدن ايشان بر آب، در حالتى كه واگذاشته باشد ايشان را چراننده ايشان و بركنده شده باشد ريسمان هاى زانوبند ايشان تا اين كه گمان كردم كه ايشان كشنده منند يا بعض ايشان كشنده بعض ديگرند نزد من.

و به تحقيق كه برگرداندم پشت و شكم اين كار را حتى اين كه بازداشت تفكّر در آن مرا ازخواب، پس نيافتم خود را كه وسعت داشته باشد به من امرى مگر كارزار نمودن با اهل شام يا با طلحه و زبير و اتباع ايشان و يا انكار نمودن به آن چه كه آمده است با او حضرت خاتم الانبيا از جانب حق جلّ و علا، پس شد علاج جنگ نمودن و كوشش نمودن در آن آسان تر نزد من از علاج كردن عقاب و عذاب و مرگ هاى دنيا آسان تر در نزد من از مرگ هاى آخرت و سختى هاى روز قيامت.

ومن كلام له عليه السلام وهو الرابع والخمسون
من المختار في باب الخطب

وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين.

«أَمّا قَوْلُكُمْ أَكُلُّ ذلِكَ كَراهِيَةَ الْمَوْتِ فَوَالله ما أُبالي أَدَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ، وَأَمّا قَوْلُكُمْ شَكاً في أَهْلِ الشّام فَوَاللهِ ما دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاّ وَأَنا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بي طائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بي وَتَعْشُوَ إِلى ضَوْئي وَذلِكَ أَحبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَها عَلى ضَلالِها وَإِنْ كانَتْ تَبُوءُ بِآثامِها»[1].

اللغة

(عشى) إلى نار وإليها يعشو عشواً رآها ليلاً من بعيد ببصر ضعيف فقصدها، ويقال لكلّ قاصد عاش، قال الشّاعر:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نارٍ عندها خير موقد

و (باء) بإثمه رجع به قال سبحانه:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩].

أي ترجع إلى ربّك متلبّساً بإثمي وإثمك.

الإعراب

كلّ ذلك في بعض النّسخ بالنّصب فيكون مفعولاً لفعل محذوف، وكراهيّة منصوب على المفعول لأجله أي نفعل كلّ ذلك لأجل كراهية الموت، وفي أكثر النّسخ كلّ مرفوع فيكون مبتدأ محذوف الخبر تقديره أكلّ هذا مفعول أو تفعله كراهية الموت، وجوز في الكراهية الرّفع أيضاً على قرائة كلّ بالرّفع على أنّه خبر منه، وشكّا منصوب على أنّه مفعول له أيضاً وعامله محذوف أي إنّي أسامح في القتال للشكّ، أو منصوب على المصدريّة أي أشك شكّاً.

المعنى

اعلم أنّه قد روي أنّه لمّا ملك أمير المؤمنين الماء بصفّين، وسمح لأهل الشّام في المشاركة والمساهمة رجاء أن يعطفوا إليه استمالة لقلوبهم وإظهاراً للمعدلة وحسن السّيرة

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٥٥٦ ح ٤٦٤، ونهج السعادة: ٢/١٥٨.

فيهم، مكث أيّاماً لا يرسل إلى معاوية أحداً ولا يأتيه من عنده أحد، قال له أهل العراق: يا أمير المؤمنين خلفنا نسائنا وذرارينا بالكوفة وجئنا إلى أطراف الشّام لنتّخذها وطناً ائذن لنا في القتال، فإنّ النّاس قد قالوا، قال لهم: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إنّ النّاس يظنّون أنّك تكره الحرب كراهية للموت وأنّ من النّاس من يظنّ أنّك في شك من قتال أهل الشّام.

فأجابهم عليه السلام بذلك، ورد زعم الفرقة الأولى بقوله: (**أمّا قولكم أكلّ ذلك كراهية الموت فوالله ما أبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ**)، ضرورة أنّ العارف بالله بمعزل عن تقيّته الموت خصوصاً من بلغ الغاية في الكمالات النّفسانية والخصال القدسيّة.

ورد زعم الفرقة الثّانية بقوله: (**وأمّا قولكم شكّاً في أهل الشّام فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة**)، منهم: (**فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي**) وتستضيء بي وفيه تعريض بضعف بصائر أهل الشّام، فهم في الاهتداء بهداه كمن يعشو ببصر ضعيف إلى النّار في الليل.

ولمّا كان المقصود بالذات للأنبياء والأولياء هو اهتداء الخلق بهم والاكتساب من كمالاتهم والاستضاءة بأنوارهم، وكان تحصيل ذلك المقصود باللّطف والرّفق أولى من القتل والقتال، لا جرم حسن انتظاره بالحرب ومدافعتها يوماً فيوماً طمعاً لأن يلحق به منهم من يجذب العناية الإلهيّة بذهنه ويجرّه نور التّوفيق الأزلي إلى مدارج الكمال واليقين وسلوك طريق الحقّ المبين.

ولأجل ذلك رتّب عليه قوله: (**وذلك أحبّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت**) الطائفة الضّالة (**تبوء**) إلى ربها (**بآثامها**).

إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

الترجمة

از جمله کلام آن عالی مقام است در حالتی که دیر شمردند اصحاب او رخصت و اذن دادن ایشان را در جنگ صفین که فرمود:

اما گفتار شما که آیا این همه تعلل وتأخیر و منع از قتال به جهت مکروه داشتن مرگ است و فنا؟ پس قسم به خداوند که هیچ باك ندارم که داخل شوم به سوی مرگ یا خارج شود مرگ به سوی من. و اما گفتار شما که این تأخیر و مسامحه به جهت شك من است در قتال اهل شام، پس به حق خدا که دفع نکردم حرب را یك روز مگر به ملاحظه طمعی که دارم در این که لاحق شود به من طایفه ای، پس هدایت یابند به جهت اقتداء به من و بنگرند به چشم ضعیف به سوی روشنی راه من و این محبوب تر است نزد من از آن که بکشم آن گروه را به گمراهی ایشان و اگرچه باشند که بازمی گردند به گناهان خود در آن جهان.

ومن كلام له عليه السلام وهو الخامس والخمسون من المختار في باب الخطب

وقد قاله في قصة ابن الحضرمي بعد إصابة محمّد بن أبي بكر بمصر حسبما تطلع عليه لا في يوم صفّين على ما زعمه الشّارح البحراني.

«ولَقَدْ كُنّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله نَقْتُلُ آباءَنا وأَبْناءَنا وإخْوانَنا وأَعْمامَنا ما يَزيدُنا ذلِكَ إلا إِيماناً وتَسْليماً، ومُضِيًا عَلى اللَّقَمِ، وصَبْراً عَلى مَضَضِ الأَلَمِ، وجِدًّا في جِهادِ العَدُوِّ، ولَقَدْ كانَ الرَّجُلُ مِنّا وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنا يَتَصاوَلانِ تَصاوُلَ الفَحْلَينِ، يَتَخالَسانِ أَنْفُسَهُما أَيُّهُما يَسْقي صاحِبَهُ كَأْسَ المَنُونِ، فَمَرَّةً لَنا مِنْ عَدُوِّنا ومَرَّةً لِعَدُوِّنا مِنّا، فَلَمّا رَأى اللهُ صِدْقَنا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنا الكَبْتَ، وأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الإسلامُ مُلْقِياً جِرانَهُ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطانَهُ ولَعَمْري لَوْ كُنّا نَأْتي ما أَتَيْتُمْ ما قامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، ولا اخْضَرَّ للإِيمانِ عُودٌ، وأَيْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّها دَماً، ولَتُتْبِعُنَّها نَدَماً»[1].

اللغة

(**لقم**) الطريق بالتّحريك الجادة الواضحة و (**المضض**) بفتح الأوّل والثاني أيضاً وجع الألم و (**الصّولة**) الحملة والتصاول مأخوذ منه وهو أن يحمل كلّ واحد من القرنين على صاحبه و (**التخالس**) التّسالب و (**الكبت**) الإذلال و (**جران**) البعير مقدّم عنقه من مذبحه إلى منحره و (**تبوّأت**) المنزل نزلته.

الإعراب

جملة (**يتصاولان**) في محل النّصب على الخبريّة، وأيّهما يسقي بالرّفع مرفوع على الإبتداء، وجملة يسقي خبره وأيّ هذه استفهاميّة لا يجوز كونها موصولة لفساد المعنى مضافاً إلى أنّ الموجود في النّسخ رفعها، ولو كانت موصولة لا بد من انتصابها.

قال نجم الأئمة الرّضي: يتبيّن الاستفهام من غيره في أي لكونه معرباً تقول في الاستفهام علمت أيهم قام برفع أيّ، وإذا كان موصولاً قلت علمت أيّهم قام بنصبه وليس معنى الاستفهام هنا هو استفهام المتكلم للزوم التّناقض لأنّ علمت المقدّم على أيّهم مفيد أنّ قائل هذا الكلام عارف بنسبة القيام إلى القائم المعيّن، لأنّ العلم واقع على مضمون الجملة، فلو

(١) الغارات: ٢/٣٧٣ ح ٢، وبحار الأنوار: ٣٠/٣٢٩.

كان أي لاستفهام المتكلم لكان دالاً على أنه لا يعرف انتساب القيام إليه، لأن أيهم قام استفهام عن مشكوك فيه هو انتساب القيام إلى معين ربّما يعرفه الشاك بأنه زيد أو غيره، فيكون المشكوك فيه إذن النّسبة، وقد كان المعلوم هو تلك النّسبة وهو تناقض فنقول إذن: أداة الاستفهام لمجرد الاستفهام لا لاستفهام المتكلّم، والمعنى عرفت المشكوك فيه الذي يستفهم عنه وهو أنّ نسبة القيام إلى أي شخص هي:

ثمّ قال: ثمّ اعلم أنّ جميع أدوات الاستفهام ترد على الوجه المذكور أي لمجرّد الاستفهام لا لاستفهام المتكلّم بعد كلّ فعل شكّ لا ترجيح فيه لأحد الجانبين على الآخر لتبيين المشكوك فيه نحو شككت أزيد في الدّار أم عمرو، ونسيت أو تردّدت أقوم أم أقعد، كما ترد بعد كلّ فعل يفيد العلم كعلمت وتبيّنت ودريت وبعد كلّ فعل يطلب به العلم كفكرت وامتحنت، وبلوت وسألت واستفهمت وجميع أفعال الحواس الخمس كلمست وأبصرت ونظرت واستمعت وشممت وذقت، تقول: تفكرت أزيد يأتيني أم عمرو، وقد يضمر الدّالّ على التفكر كقوله تعالى:

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩].

أي مفكّراً أيمسكه أم يدسّه، وفي «نهج البلاغة»: يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، أي مفكرين أيّهما يسقي انتهى كلامه رفع مقامه.

ومرّة، منصوب على الظرفيّة والعامل محذوف تقديره، فمرّة تكون الدوالة لنا من عدوّنا ومرّة تكون له منّا، وملقياً ومتبوّئاً منصوبان على الحاليّة، ودماً وندماً منصوبان على التّميز.

المعنى

اعلم أنّ مقصوده بهذا الكلام توبيخ أصحابه على التّثاقل عن الجهاد، والتّقصير في الحرب، فمهد قبل الإتيان بمقصوده مقدّمة تهييجاً لهم وإلهاباً بالإشارة إلى حاله وحال سائر الصّحابة في الثبات على الشّدائد، وتحمّل المشاق في الحروب في زمن الرّسول صلى الله عليه وآله.

وذلك قوله: (**ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا**) ابتغاء لمرضاة الله (**ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً**) بالله (**وتسليماً**) لقضاء الله (**ومضياً على اللّقم**) والجادة الوسطى (**وصبراً على مضض الألم**) ومرارة البلاء (**وجدّا في جهاد العدوّ**) والخصماء (**ولقد كان الرّجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما**) مفكرين (**أيهما يسقى صاحبه كأس المنون**) وجرع الموت (**فمرّة**) كانت الدّوالة (**لنا من عدوّنا ومرّة**) أخرى كانت (**لعدوّنا منّا، فلمّا رأى الله صدقنا**) وعلم استعدادنا وقابليّتنا بمشاهدة الصّبر والثبات الذي كان منّا (**أنزل بعدوّنا الكبت**) والخذلان (**وأنزل علينا النّصر**) والتّأييد.

كما قال سبحانه﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥ ـ ٦٦].

(حتّى) انتظم أمر الدّين و **(استقرّ الإسلام ملقياً جرانه)** تشبيه الإسلام بالبعير استعارة بالكناية وإثبات الجران تخييل، وذكر الإلقاء ترشيح وكذلك قوله: **(ومتبوّئاً أوطانه)** استعار لفظ التبوّء ونسبه إلى الأوطان تشبيهاً له بمن كان من النّاس خائفاً متزلزلاً غير مستقرّ، ثمّ اطمأنّ واستقرّ في وطنه، واستعار لفظ الأوطان لقلوب المؤمنين وكنى بتبوّء أوطانه عن استقراره فيها.

ثمّ إنّه بعد ما مهّد المقدّمة التي أشرنا إليها رجع إلى ما هو مقصوده الأصلي من سوق الكلام، وهو تنبيه الأصحاب على التّقصير والتّفريط فقال: **(ولعمري لو كنّا نأتي)** مثل **(ما أتيتم)** يعني لو قصرنا في بدو الإسلام كتقصيركم اليوم **(ما قام للدّين عمود ولا اخضر للإيمان عود)**.

الأوّل: تشبيه للدّين بالبيت ذي العمود الذي قوائمه عليه، ولولاه لانهدم وخرب، **والثّاني**: تشبيه للإيمان بالشّجرة ذات الفروع والأغصان التي بهجتها ونضارتها بها، **(وأيم الله لتحتلبنها دماً)** قال البحراني: استعار لفظ حلب الدّم لثمرة تقصيرهم وتخاذلهم عمّا يدعوهم إليه من الجهاد، ولاحظ في تلك الاستعارة تشبيههم لتقصيرهم في أفعالهم بالنّاقة التي أصيب ضرعها ناقة من تفريط صاحبها فيها، والضّمير المؤنث يرجع في المعنى إلى أفعالهم، وكذلك الضّمير في قوله: **(ولتتبعنّها ندماً)** فإنّ ثمرة التّفريط النّدامة.

تنبيه

زعم الشّارح البحراني أنّ هذا الكلام صدر منه يوم صفين حين أقر النّاس بالصّلح وأنّه هو الذي قدمنا ذكره في «**شرح الخطبة**» الخامسة والثلاثين برواية نصر بن مزاحم عند شرح كيفيّة التّحكيم، ولكنّ الأظهر بملاحظة الاختلاف بين ما هنا وما سبق أنّه ليس بذلك، والمستفاد من رواية الواقدي الآتية أنّه قال في قضيّة ابن الحضرمي.

وأصل تلك القضيّة على ما رواه ملخّصاً في «**البحار**» من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمّد الثقفي هو أنّ معاوية لمّا أصاب محمّد بن أبي بكر بمصر، بعث عبد الله بن عامر الحضرمي إلى أهل البصرة ليدعوهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم عثمان، فلما أتاهم وقرأ عليهم كتاب معاوية اختلفوا، فبعضهم ردّوا وأكثرهم قبلوا وأطاعوا.

وكان الأمير يومئذٍ بالبصرة زياد بن عبيد، وقد استخلف عبد الله بن العبّاس وذهب إلى علي ليغريه عن محمّد بن أبي بكر، فلمّا رأى زياد إقبال النّاس على ابن الحضرمي استأجر من الأزد ونزل فيهم، وكتب إلى ابن عبّاس وأخبره بما جرى، فرفع ابن عبّاس ذلك إلى عليّ عليه السلام وشاع في النّاس بالكوفة ما كان من ذلك، واختلف أصحابه عليه السلام فيمن يبعثه إليهم فقال عليه السلام:

«تناهوا أيها النّاس وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغي والتّهاوي، ولتجتمع كلمتكم، والزموا دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص التي هي قوام الدين، وحجّة الله على الكافرين، واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين منفرّقين، فألف بينكم بالإسلام، فكثّرتم واجتمعتم وتحاببتم، فلا تتفرّقوا بعد إذ اجتمعتم، ولا تباغضوا بعد إذ تحاببتم، وإذا رأيتم النّاس وبينهم النّائرة، وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل فاقصدوا لهامهم ووجوههم بسيوفكم حتى يفرغوا إلى الله وكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، فأما تلك الحمية فإنها من خطوات الشيطان فانتهوا عنها لا أبا لكم»[1].

ثمّ قال: وقال ابن أبي الحديد: وروى الواقدي أنّ عليّاً استنفر بني تميم أيّاماً لينهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي، ويردّ عاوية بني تميم الذين أجاروه بها، فلم يجبه أحد فخطبهم وقال:

أليس من العجب أن ينصرني الأزد ويخذلني مضر، وأعجب من ذلك تقاعد بني تميم الكوفة بي وخلاف بني تميم البصرة، وأن أستنجد بطائفة منهم ما يشخص إلى أحد منها فيدعوهم إلى الرّشاد، فإن أجابت وإلاّ فالمنابذة والحرب، فكأني أخاطب صمّاً بكماً لا يفقهون حوراءً ولا يجيبون نداءً، كلّ ذلك حبّاً عن النّاس وحبّاً للحياة، لقد كنا مع رسول الله نقتل آباءنا إلى آخر ما مرّ في المتن.

قال: فقام إليه أعين بن صبيعة المجاشعي فقال: أنا إن شاء الله أكفيك يا أمير المؤمنين، هذا الخطب وأتكفل لك بقتل ابن الحضرمي وإخراجه عن البصرة، فأمره بالتّهيؤ للشخوص فشخص حتّى قدم البصرة.

قال: قال الثّقفي في كتاب الغارات: فلمّا قدمها دخل على زياد وهو بالأزد مقيم فرحب به وأجلسه إلى جانبه فأخبره بما قال له عليّ، وأنّه ليكلّمه إذ جاءه كتاب من عليّ فيه:

«من عبد الله أمير المؤمنين عليّ إلى زياد بن عبيد، سلام عليك، أمّا بعد فإنّي قد بعثت أعين بن صبيعة ليفرق قومه عن ابن الحضرمي، فأرقب ما يكون منه، فإن فعل وبلغ من ذلك

(١) الغارات: ٢/ ٣٩٥.

ما يظنّ به وكان في ذلك تفريق تلك الأوباش فهو ما نحب، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشّقاق والعصيان فانبذ من أطاعك إلى من عصاك فجاهدهم، فإن ظفرت فهو ما ظننت، وإلا فطاولهم وماطلهم فكأن كتائب المسلمين قد أظلت عليك، فقتل الله الظالمين المفسدين، ونصر المؤمنين المحقين والسّلام».

فلمّا قرأه زياد أقرأه أعين بن صبيعة فقال له: إنّي لأرجو أن يكفي هذا الأمر إن شاء الله، ثمّ خرج من عنده فأتى رحله فجمع إليه رجالاً من قومه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

«يا قوم على ماذا تقتلون أنفسكم وتهريقون دماءكم على الباطل مع السّفهاء والأشرار، وإنّي والله ما جئتكم حتّى عبّيت إليكم الجنود، فإن تنيبوا إلى الحقّ نقبل منكم ونكفّ عنكم، وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبواركم».

فقالوا: بل نسمع ونطيع فقال: انهضوا اليوم على بركة الله، فنهض بهم على جماعة ابن الحضرمي فخرجوا إليه فصافوه ووافقهم عامة يومه يناشدهم الله ويقول: يا قوم لا تنكثوا بيعتكم ولا تخالفوا إمامكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فقد رأيتم وجربتم كيف صنع الله بكم عند نكثتكم بيعتكم وخلافكم، فكفوا عنه وهم في ذلك يشتمونه فانصرف عنهم وهو منهم منتصف.

فلمّا آوى إلى رحله تبعه عشرة نفر، يظنّ الناس أنهم خوارج فضربوه بأسيافهم وهو على فراشه لا يظنّ أن الذي كان يكون، فخرج يشتد عرياناً فلحقوه في الطريق فقتلوه.

فكتب زياد إلى عليّ عليه السلام ما وقع، وكتب إني أرى أن تبعث إليهم جارية بن قدامة فإنه نافذ البصيرة، ومطاع في العشيرة، شديد على عدوّ أمير المؤمنين.

فلما قرأ الكتاب دعا جارية فقال عليه السلام: «يا ابن قدامة تمنع الأزد عاملي وبيت مالي وتشاقّني مضر وتنابذني، وبنا ابتدأها الله بالكرامة، وعرفها الهدى وتدعو إلى المعشر الذين حادّوا الله ورسوله وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه حتّى علت كلمته عليهم وأهلك الكافرين».

فروى إبراهيم بإسناده عن كعب بن قعين قال: خرجت مع جارية من الكوفة في خمسين رجلاً من بني تميم، وما كان فيهم يمانيّ غيري وكنت شديد التّشيّع، فقلت لجارية: إن شئت كنت معك، وإن شئت ملت إلى قومي، فقال: بل سر معي فوالله لوددت أنّ الطير والبهائم تنصرني عليهم فضلاً عن الإنس؛ فلما دخلنا البصرة بدأ بزياد فرحب به وأجلسه إلى جانبه وناجاه ساعة وسأله، ثمّ خرج فقام في الأزد فقال: جزاكم الله من حيّ خير الجزاء، ثمّ قرأ عليهم وعلى غيرهم كتاب أمير المؤمنين فإذا فيه:

«من عبد الله أمير المؤمنين إلى من قرأ عليه كتابي هذا من ساكني البصرة من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، أمّا بعد، فإنّ الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة قبل البيّنة، ولا

يأخذ المذنب عند أوّل وهلة، ولكنّه يقبل التّوبة، ويستديم الأناة، ويرضى بالإنابة ليكون أعظم للحّجة وأبلغ في المعذرة.

وقد كان من شقاق جلّكم أيّها النّاس ما استحققتم أن تعاقبوا عليه، فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السّيف عن مدبركم، وقبلت من مقبلكم، وأخذت بيعتكم، فإن تفوا ببيعتي وتقبلوا نصيحتي وتستقيموا على طاعتي، أعمل فيكم بالكتاب وقصد الحقّ، وأقم فيكم سبيل الرّشد، فوالله ما أعلم أنّ والياً بعد محمّد ﷺ أعلم بذلك مني ولا أعلم، أقول قولي هذا صادقاً غير ذامّ لمن مضى ولا منتقصاً لأعمالهم، وإن خطت بكم الأهواء المردية وسفه الرّأي الجائر إلى منابذتي وتريدون خلافي فها أنا ذا قربت جيادي ورحلت ركابي.

وأيم الله لئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل عندها إلاّ كلعقة لاعق، وإنّي لظان إن شاء الله أن لا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، وقد قدمت هذا الكتاب حجة عليكم، وليس أكتب إليكم من بعده كتاباً إن أنتم استغششتم نصيحتي، ونابذتم رسولي حتّى أكون، أنا الشّاخص نحوكم إن شاء الله والسّلام».

فلما قرأ الكتاب على النّاس قام صبرة بن شقان فقال: سمعنا وأطعنا ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب، ولمن سالم سلم، إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك، وإن أحببت أن ننصرك نصرناك، وقام وجوه النّاس فتكلموا مثل ذلك، فلم يأذن لأحد أن يصير معه، ومضى نحو بني تميم وكلمهم فلم يجيبوه، وخرج منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتموه، فأرسل إلى زياد والأزد يستصرخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه.

فسارت الأزد بزياد، وخرج إليهم ابن الحضرمي فاقتتلوا ساعة، واقتتل شريك ابن أعور الحارثي، وكان من شيعة علي وصديقاً لجارية، فما لبث بنو تميم أن هزموهم واضطروهم إلى دار سبيل السّعدي، فحصروا ابن الحضرمي فيها، وأحاط جارية وزياد بالدّار، وقال جارية عليّ بالنّار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق في شيء وهم قومك وأنت أعلم، فحرق جارية الدّار عليهم، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلاً أحدهم عبدّ الرحمٰن بن عثمان القرشي، وسارت الأزد بزياد حتّى أوطئوا قصر الإمارة، ومعه بيت المال وقالت له: هل بقي علينا من جوارك شيء؟ قال: لا، فانصرفوا عنه.

وكتب زياد إلى أمير المؤمنين: أمّا بعد، فإنّ جارية بن القدامة العبد الصالح قدم من عندك، فناهض جمع ابن الحضرمي ممّن نصره وأعانه من الأزد، فقصّه واضطره إلى دار من دور البصرة في عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج، حتّى حكم الله بينهما، فقتل ابن الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق ومنهم من ألقي عليه جدار، ومنهم من هدم عليه البيت من أعلاه، ومنهم من قتل بالسّيف، وسلم منهم نفر فتابوا وأنابوا فصفح عنهم، وبعد المنّ عصى وغوى

والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما وصل الكتاب قرأه على النّاس فسرّ بذلك وسرّ أصحابه وأثنى على جارية وعلى الأَزد، وذمّ البصرة فقال إنّها أول القرى خراباً إمّا غرقاً وإما حرقاً حتّى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة[1].

(١) الغارات: ١/١٩٢، وشرح النهج للمعتزلي: ٤/٥٢.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در بيان حال سيد ابرار و تحريص اصحاب خود را بر اين كه متابعت نمايند بر ايشان در افعال و كردار و ثابت قدم باشند در روز مصاف و كارزار كه مى فرمايد:

و هرآينه به تحقيق بوديم ما با رسول خدا صلوات الله و سلامه عليه و آله در حالتى كه مى كشتيم پدران خود را و پسران خود را و برادرها و عموهاى خود را، زياده نمى ساخت ما را آن كشتن مگر ايمان و تسليم و گذشتن بر راه راست مستقيم و صبر نمودن بر سوزش الم و محن و جدّ و جهد كردن در محاربه دشمن و هرآينه بود در زمان پيغمبر كه مردى از ما و مردى ديگر از دشمن ما حمله مى آوردند به سر يكديگر مثل حمله آوردن دو نر با قوه تمام تر كه مى ربودند نفس يكديگر در حالتى كه فكر مى نمودند كه كدام يك از ايشان مى نوشاند به همره خود كاسه مرگ را.

پس يك بار نوبت گردش دولت ما را بود از دشمن ما و بار ديگر دشمن ما را بود از ما، پس چون كه ديد حق سبحانه و تعالى صدق و راستى ما را، نازل فرمود بر دشمن ما ذلت و خوارى را و نازل فرمود بر ما نصرت و يارى را تا اين كه قرار گرفت دين اسلام در حالتى كه افكنده بود پيش گردن را بر زمين مثل شتر آرام گيرنده و جاى گيرنده بود در مكان هاى خود كه عبارت است از قلوب مؤمنان گرونده.

و سوگند به زندگانى خودم كه اگر مى بوديم ما در آن زمان كه مى آمديم با مثل آن چه كه شما آمديد به آن، يعنى تقصير مى كرديم در حرب چنان چه شما تقصير مى كنيد، برپاى نمى شد از براى دين هيچ ستونى و سبز نمى شد از براى ايمان هيچ شاخ و عودى و به حق خدا سوگند، هرآينه مى دوشيد از آن حالت تقصير خون را به عوض شير و درمى آوريد پشيمانى را عقب آن حالت تفريط و تقصير؛ والله أعلم بحقايق كلماته.

ومن كلام له عليه السلام وهو السادس والخمسون من المختار في باب الخطب

«أَما إِنَّه سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدي رَجُلٌ رَحْبُ البُلْعُوم، مُنْدَحِقُ البَطْنِ، يَأْكُلُ ما يَجِدُ، ويَطْلُبُ مالا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، ولَنْ تَقْتُلُوهُ، ألا وإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالبَراءَةِ مِنّي، فَأَمّا السَّبُّ فَسُبُّوني، فَإِنَّهُ لي زَكاةٌ وَلَكُمْ نَجاةٌ، وأَمّا البَراءَةُ فَلا تَتَبَرَّؤُا مِنّي، فَإِنّي وُلِدْتُ عَلَى الفِطْرَةِ، وسَبَقْتُ إِلىَ الإِيمانِ وَالْهِجْرَة»[١].

اللغة

(**ظهر**) عليه غلب و (**رحب البلعوم**) واسعه والبلعوم بضّم الباء مجرى الطعام في الحلق و (**المندحق**) البارز من اندحقت رحم النّاقة إذا خرجت من مكانه و (**الفطرة**) بالكسر الخلقة والمراد بها الإسلام.

الإعراب

أما بالفتح والتّخفيف حرف استفتاح بمنزلة ألا، قال الرّضي كأنّهما مركبان من همزة الإنكار وحرف النّفي، ونفي النّفي إثبات ركبا لإفادة الإثبات والتّحقيق وقول الشّارح البحراني يحتمل أن يكون المشدّدة والتّقدير، أما بعد، إنّه كذا، فيه أنّ إمّا الشّرطية يلزمها الفاء بعدها اللازمة للشّرط ولا يجوز حذفها إلا في مقام الضّرورة قال الشّاعر:

فأمّا القتال لا قتال لديكم

وأيضاً فإنّهم قد قالوا في كتب الأدبية، إنّ أمّا بعد أصله مهما يكن من شيء بعد الحمد، فوقعت كلمة أما موقع اسم هو المبتدأ وفعل هو الشّرط، وتضمّنت معناهما فتلضمّنها معنى الابتداء لزمها لصوق الاسم اللاّزم للمبتدأ أداء بحقّ ما كان وإبقاء له بقدر الإمكان، ولتضمّنها معنى الشّرط لزمتها الفاء، فعلى ما ذكروه يستلزم حذف كلمة بعد القائها عن أصلها وعدم أداء الحقّ الواجب مراعاته.

المعنى

اعلم أنّ هذا الكلام له عليه السلام إخبار ببعض ما يبتلى بهَ أهل الكوفة بعده، وأمر لهم بما يجب عليهم أن يعملوه حين الابتلاء بتلك البليّة فخاطبهم بقوله: (**أما إنّه سيظهر عليكم بعدي**

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦/٢٢٨ ح ٢١٤٣١، والغارات: ٢/٦٥٩.

رجل) أكول **(رحب البلعوم مندحق البطن)** وهو لفرط حرصه بالأكل **(يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد)** وحيث أدركتموه **(فاقتلوه)** لعدوله عن طريق السداد وكونه من أهل الزندقة والإلحاد **(ولن تقتلوه ألا وإنه سيأمركم بسبّي)** لشدّة ما فيه من الكفر والنفاق، **(وبالبراءة منّي)** لغلبة ما عليه من البغضاء والشقاق، **(فأما السّب فسبّوني فإنّه لي زكاة)** إذ ذكر المؤمن بسوء هو زكاة له وسبّه ما ليس فيه هو زيادة في جاهه وشرفه كما ورد في الحديث، **(ولكم نجاة)** إذ مع السّب يرتفع التهمة عنكم ولا يؤخذ بأعناقكم، **(وأما البراءة فلا تتبرّءوا منّي)** وذلك **(فإنّي ولدت على الفطرة)** أي: على فطرة الإسلام التي فطر النّاس عليها، **(وسبقت)** النّاس **(إلى الإيمان والهجرة)**.

وفي هذا الكلام نكات شريفة ينبغي الإشارة إليها، **الأول:**

إنّ هذا الكلام له عليه السلام إخبار بما يكون قبل كونه بإعلام من الله وتعليم من رسول الله، ونحو هذا قد وقع منه عليه السلام كثيراً فوق حدّ الإحصاء في الوقائع الملحمة والخطوب المعظمة حسبما يأتي في «**شرح الخطبة**» الثانية والتسعين وغيرها أيضاً، ولا بأس بالإشارة إلى نبذ منها هنا.

مثل ما عن كتاب الغارات لإبراهيم بن هلال الثقفي عن زكريا بن يحيى العطار عن فضيل، عن محمّد بن علي عليهما السّلام، قال: قال لمّا قال عليّ عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وسائقها»، قام إليه رجل فقال: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر، فقال له علي عليه السلام: والله لقد حدّثني خليلي أنّ على كلّ طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأنّ على كلّ طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وإنّ في بيتك سخل يقتل ابن رسول الله، وكان ابنه قاتل الحسين يومئذٍ طفلاً يحبو، وهو سنان بن أنس النخعي[1].

وروى الحسن بن محبوب، عن ثابت الثّمالي، عن سويد بن غفلة أنّ علياً خطب ذات يوم فقام رجل من تحت منبره فقال: يا أمير المؤمنين إنّي مررت بواد القرى فوجدت خالد بن عرفطة قد مات، فاستغفر له فقال عليه السلام: «ما مات ولا يموت حتّى يقود جيش ضلالة صاحب لوائه حبيب بن حمّاد»، فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال: يا أمير المؤمنين أنا حبيب بن حمّاد وأنّي لك شيعة ومحب، فقال: وأنت حبيب بن حمّاد؟ قال: نعم فقال له ثانية: والله إنّك لحبيب بن حمّاد؟ فقال أي والله قال: أما والله إنّك لحاملها ولتحملنّها ولتدخلنّ بها من هذا الباب، وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة، قال ثابت فوالله ما متّ حتّى رأيت ابن زياد، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته،

(١) شرح مئة كلمة: ٢٥٢، والإمام علي (ع): ٣٤٧.

وحبيب بن حمّاد صاحب رايته، ودخل بها من باب الفيل[١].

وروى عثمان بن سعيد، عن يحيى التّميمي عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجا قال: قام أعشى بأهله وهو غلام يومئذٍ حدث إلى عليّ وهو يخطب ويذكر الملاحم، فقال: يا أمير المؤمنين ما أشبه هذا الحديث بحديث الخرافة، فقال: إن كنت آثماً فيما قلت يا غلام فرماك الله بغلام ثقيف، ثمّ سكت، فقال رجال: ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال: «غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك لله حرمة إلاّ انتهكها يضرب عنق هذا الغلام بسيفه».

فقالوا: كم يملك يا أمير المؤمنين؟ قال: عشرين إن بلغها، قالوا: فيقتل قتلاً أم يموت موتاً، قال: بل يموت حتف أنفه بداء البطن يثقب مريره لكثرة ما يخرج، قال إسماعيل بن رجا: فوالله لقد رأيت بعيني أعشى بأهله وقد أحضر في جملة الأسرى الذين أسروا من جيش عبد الرّحمٰن بن محمّد بن الأشعث بين يدي الحجاج، فقرعه وذبحه واستنشده شعره الذي يحرض فيه عبد الرّحمٰن على الحرب، ثمّ ضرب عنقه في ذلك المجلس[٢].

وروى إبراهيم بن ميمون الأزدي عن حبّة العرني قال: كان جويرية بن مسهر العبدي صالحاً، وكان لعليّ بن أبي طالب صديقاً، وكان عليّ يحبّه؛ وكان له شدّة اختصاص به حتّى دخل على عليّ يوماً وهو مضطجع وعنده قوم من أصحابه، فناداه جويرية أيّها النّائم استيقظ فلتضربن على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك، قال: فتبسّم أمير المؤمنين عليه السلام قال: «وأحدّثك يا جويرية بأمرك، أما والذي نفسي بيديه لتعتلنّ إلى العتلّ الزّنيم فليقطعن يدك ورجلك وليصلّبنك تحت جذع كافر»، قال: فوالله ما مضت الأيام على ذلك حتّى أخذ زياد جويرية، فقطع يده ورجله وصلبه إلى جانب جذع ابن مكعبر، وكان جذعاً طويلاً فصلبه على جذع قصير إلى جانبه[٣].

وعن كتاب الغارات عن أحمد بن الحسن الميثمي قال: كان ميثم التّمار مولى عليّ بن أبي طالب عبداً لامرأة من بني أسد، فاشتراه علّي منها وأعتقه، وقال له ما اسمك؟ فقال: سالم فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله: أخبرني أنّ اسمك الذي سماك به أبوك في العجم ميثم، فقال: صدق الله وصدق رسوله وصدقت يا أمير المؤمنين فهو والله اسمي قال: فارجع إلى اسمك ودع سالماً فنحن نكنيك به فكنّاه أبا سالم.

قال: وقد كان قد أطلعه عليّ عليه السلام على علم كثير وأسرار خفيّة من أسرار الوصيّة، فكان

---

(١) الإرشاد: ١/٣٢٩، وبحار الأنوار: ٤١/٣١٣.

(٢) نهج السعادة: ١/٣٦١.

(٣) بحار الأنوار: ٤١/٣٤٣، ودراسات في نهج البلاغة: ١٩٣ ح ٧.

ميثم يحدث ببعض ذلك فيشك فيه قوم من أهل الكوفة وينسبون علياً في ذلك إلى المخرفة والإيهام والتّدليس.

حتّى قال له يوماً بمحضر من خلق كثير من أصحابه وفيهم الشاكّ والمخلص: يا ميثم إنّك تؤخذ بعدي وتصلب، فإذا كان اليوم الثّاني ابتدر منخراك وفمك دماً حتّى يخضب لحيتك، فإذا كان اليوم الثالث طعنت بحربة يقضى عليك، فانتظر ذلك، والموضع الذي تصلب فيه نخلة على باب دار عمرو بن حريث، إنّك لعاشر عشرة أنت أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهرة يعني الأرض، ولأرينّك النّخلة التي تصلب على جذعها، ثمّ أراه إياها بعد ذلك بيومين.

وكان ميثم يأتيها فيصلي عندها ويقول: بوركت من نخلة، لك خلقت، ولي نبت، فلم يزل يتعاهدها بعد قتل علي عليه السلام حتّى قطعت، فكان يرصد جذعها ويتعاهده ويتردّد إليه ويبصره، وكان يلقى عمرو بن حريث فيقول له: إنّي مجاورك فأحسن جواري، فلا يعلم ما يريد فيقول له: أتريد أن تشتري دار ابن مسعود أم دار ابن حكيم؟

قال: وحجّ في السّنة التي قتل فيها، فدخل على أمّ سلمة رضي الله عنها، فقالت له: من أنت؟ قال: عراقي فاستنسبته فذكر لها أنّه مولى علي بن أبي طالب، فقالت: وأنت ميثم؟ قال: أنا ميثم، فقالت: سبحان الله والله لربما سمعت رسول الله يوصي بك علياً في جوف الليل، فسألها عن الحسين بن علي عليه السلام فقالت: هو في حائط له، قال: أخبريه أنّي قد أحببت السلام عليه ونحن ملتقون عند رب العالمين إن شاء الله ولا أقدر اليوم على لقائه وأريد الرّجوع.

فدعت بطيب فطيب لحيته فقال لها: أما أنها ستخضب بدم، فقالت: مَنْ أنبأك هذا؟ قال: أنبأني سيدي، فبكت أمّ سلمة وقالت له: إنّه ليس بسيدك وحدك وهو سيدي وسيّد المسلمين، ثمّ ودعته.

فقدم الكوفة فأخذ وأدخل على عبيد الله بن زياد، وقيل له: هذا كان من آثر النّاس عند أبي تراب، قال: ويحكم هذا الأعجمي؟ قالوا: نعم، فقال له عبيد الله: أين ربك؟ قال: بالمرصاد، قال: قد بلغني اختصاص أبي تراب لك، قال: قد كان بعض ذلك فما تريد؟ قال: وإنّه ليقال إنّه قد أخبرك بما سيلقاك، قال نعم: أخبرني.

قال: ما الذي أخبرك أنّي صانع بك؟ قال: أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة وأنا أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهرة، قال: لأخالفنّه، قال: ويحك كيف تخالفه؟ إنّما أخبر عن رسول الله، وأخبر رسول الله عن جبريل، وأخبر جبريل عن الله؛ فكيف تخالف هؤلاء، أما والله لقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه أين هو من الكوفة، وإنّي لأوّل خلق الله ألجم في

الإسلام بلجام كما يلجم الخيل، فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيدة الثقفي، فقال ميثم للمختار وهما في حبس ابن زياد: إنّك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين، فتقتل هذا الجبار الذي نحن في حبسه وتطأ بقدمك هذا على جبهته وخديه، فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتله طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد يأمره بتخلية سبيله وذاك أنّ أخته كانت تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب، فسألت بعلها أن يشفع فيه إلى يزيد فشفع فأمضى شفاعته وكتب بتخلية سبيل المختار على البريد، فوافى البريد وقد أخرج ليضرب عنقه فأطلق.

وأما ميثم فأخرج بعده ليصلب، وقال عبيد الله: لأمضين حكم أبي تراب فيك فلقاه رجل فقال له: ما كان أغناك عن هذا يا ميثم؟ فتبسّم فقال وهو يؤميء إلى النخلة لها خلقت ولي غذيت، فلما رفع على الخشبة اجتمع النّاس حوله على باب عمرو بن حريث، فقال عمرو: ولقد كان يقول لي إنّي مجاورك فكان يأمر جاريته كلّ عشيّة أن تكنس تحت خشبته وترشه وتجمر بالمجمر تحته.

فجعل ميثم يحدث بفضائل بني هاشم ومخازي بني أميّة وهو مصلوب على الخشبة، فقيل لابن زياد: قد فضحكم هذا العبد؛ فقال: ألجموه، فألجم، فكان أوّل خلق الله ألجم في الإسلام، فلما كان اليوم الثاني فاضت منخراه وفمه دماً، فلما كان اليوم الثالث طعن بحربة فمات، وكان قتله قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيام[١].

وروى صاحب «**الغارات**» عن زياد بن النّصر الحارثي قال: كنت عند زياد وقد أتي برشيد الهجري وكان من خواص أصحاب علي عليه السلام فقال له زياد: ما قال لك خليلك إنّا فاعلون بك؟ قال: تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني! فقال زياد: أما والله لأكذّبن حديثه خلوا سبيله، فلما أراد أن يخرج قال: ردّوه لا نجد شيئاً أصلح ممّا قال لك صاحبك، إنك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه، فقطعوا يديه ورجليه وهو يتكلم، فقال: صلبوه خنقاً في عنقه، فقال رشيد: قد بقي لي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه؛ فقال زياد: اقطعوا لسانه، فلما أخرجوا لسانه ليقطع قال: خلوا عنّي أتكلم كلمة، فنفسوا عنه، فقال: هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين أخبرني بقطع لساني، فقطعوا لسانه وصلبوه[٢].

وفي «**البحار**» من كتاب كشف الغمة، من كتاب لطف التّدبير لمحمد بن عبد الله الخطيب قال: حكي أنّ معاوية بن أبي سفيان قال لجلسائه بعد الحكومة: كيف لنا أن نعلم ما تزول إليه العاقبة في أمرنا، قال جلساؤه: ما نعلم لذلك وجها، قال: فأنا أستخرج علم ذلك من عليّ فإنّه لا يقول الباطل.

---

(١) الغارات: ٢/ ٧٩٩، وبحار الأنوار: ٤١/ ٣٤٥.

(٢) الغارات: ٢/ ٨٠٠، وبحار الأنوار: ٤١/ ٣٤٦.

فدعا ثلاثة رجال من ثقاته وقال لهم: أمضوا حتى تصيروا جميعاً من الكوفة على مرحلة، ثمّ تواطأوا على أن تنعوني بالكوفة وليكن حديثكم واحد في ذكر العلة واليوم والوقت وموضع القبر، ومن تولى الصلاة عليه وغير ذلك حتى لا تختلفوا في شيء، ثمّ ليدخل أحدكم فليخبر بوفاتي، ثمّ ليدخل الثاني فيخبر بمثله، ثمّ ليدخل الثالث فليخبر بمثل خبر صاحبه وانظروا ما يقول عليّ.

فخرجوا كما أمرهم معاوية، ثمّ دخل أحدهم وهو راكب مغذّ شاحب فقال له النّاس بالكوفة: من أين جئت؟ قال: من الشّام قالوا له: ما الخبر؟ قال: مات معاوية، فأتوا عليّاً عليه السلام فقالوا: رجل راكب من الشّام يخبر بموت معاوية فلم يحفل عليّ عليه السلام بذلك، ثمّ دخل آخر من الغد وهو مغذ فقال له النّاس: ما الخبر؟ فقال: مات معاوية وخبر بمثل ما خبر صاحبه، فأتوا عليّاً عليه السلام فقالوا: رجل راكب يخبر بموت معاوية بمثل ما أخبر صاحبه ولم يختلف كلامهما، فأمسك عليّ عليه السلام ثمّ دخل الآخر في اليوم الثّالث فقال النّاس: ما وراءك؟ قال: مات معاوية، فسألوه عمّا شاهد فلم يخالف قول صاحبيه، فأتوا عليّاً فقالوا: يا أمير المؤمنين صحّ الخبر هذا راكب ثالث قد خبر بمثل ما خبر صاحباه.

فلمّا أكثروا عليه قال علي صلوات الله عليه، كلاّ أو تخضب هذه من هذه يعني لحيته من هامته ويتلاعب بها ابن آكلة الأكباد، فرجع الخبر بذلك إلى معاوية هذا.

والأنباء الغيبية منه عليه السلام متجاوزة عن حدّ الإحصاء، ولو أردنا أن نجمع منها ما يسعها الطاقة وتناولها يد التتبّع لصار كتاباً كبير الحجم، ويأتي بعض منها في تضاعيف الشّرح، ومنها إخباره بغرق البصرة ومن في ضمنها وبقاء مسجدها كجؤجؤ سفينة في لجة بحر على ما مرّ إليه الإشارة في كلامه الحادي عشر[1].

الثاني

اختلف الشرّاح في الرّجل الذي أخبر عليه السلام بظهوره على أهل الكوفة فقيل: هو زياد بن أبيه، وقيل: الحجاج بن يوسف، وقيل المغيرة بن شعبة، والأكثرون على أنّ المراد به معاوية بن أبي سفيان، لاتصافه بما وصفه عليه السلام به من النّهم وكثرة الأكل، وكان بطيناً يقعد بطنه إذا جلس على فخذيه، وكان جواداً بالمال والصّلاة وبخيلاً على الأكل والطعام.

يقال: إنه مازح إعرابياً على طعامه، وقد قدم بين يديه خروف، فأمعن الأعرابي في أكله فقال له: ما ذنبه إليك أنطحك أبوه، فقال الأعرابي: وما حنوك عليه أرضعتك أمّه؛ وقد روي

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٢٨٠، وكشف الغمة: ١/ ٢٨٨.

أنّه كان يأكل فيكبر، ثمّ يقول: ارفعوا فوالله ما شبعت ولكن مللت وتعبت[(١)].

قال في «شرح المعتزلي» تظاهرت الأخبار أنّ رسول الله ﷺ دعا على معاوية لمّا بعث إليه يستدعيه فوجده يأكل، ثمّ بعث فوجده يأكل فقال: اللهم لا تشبع بطنه قال الشّاعر:

وصاحب لي بطنه كالهاوية كأنّ في أمعائه معاوية

ويدل على ما ذكرنا من أنّ مراده ﷺ بالرّجل الموصوف معاوية قوله: أما إنّه سيأمركم بسبّي والبراءة منّي، فإنّ غيره ممّن ذكرنا، وإن كان يأمر بالبراءة والسّب أيضاً إلاّ أنّ هذا الملعون ابن الملعون قد أخذ ذلك شعاراً له؛ وقد أمر النّاس بالشّام والعراق بسبه والبراءة منه، وخطب بذلك على منابر الإسلام حتّى صار ذلك سنة في أيام بني أميّة على ما يأتي تفصيله في شرح الكلام السّابع والتسعين إلى أن قام عمر بن عبد العزيز، فأزاله.

روى الجاحظ أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين إنك قد بلغت ما أملت، فلو كففت عن لعن هذا الرّجل، فقال: لا والله حتّى يربو عليها الصغير ويهرم عليها الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً.

وأمّا السّبب في منع عمر بن عبد العزيز عن ذلك فهو على ما روي عنه أنّه قال: كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود، فمرّ بي يوماً وأنا ألعب مع الصّبيان ونحن نلعن علياً، فكره ذلك ودخل المسجد فتركت الصّبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردي، فلمّا رآني قام وصلّى وأطال في الصّلاة شبه المعرض عنّي حتّى أحسست منه بذلك، فلمّا انفتل من صلاته كلح في وجهي، فقلت له: ما بال الشّيخ، فقال لي: يا بني أنت اللاعن عليّا منذ اليوم، قلت: نعم، قال: فمتى علمت أنّ الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم؟ يا أبتاه وهل كان عليّ من أهل بدر؟ فقال: ويحك وهل كانت بدر كلها إلا له، فقلت: لا أعود، فقال: الله إنك لا تعود، قلت: نعم، فلم ألعنه بعدها.

ثمّ كنت أحضر تحت منبر المدينة وأبي يخطب يوم الجمعة وهو حينئذٍ أمير المدينة، فكنت أسمع يمرّ في خطبة حتّى تهدر شقاشقه حتّى يأتي إلى لعن علي فيجمجم ويعرض له من الفهاهة والحصر ما الله عالم به، فكنت أعجب من ذلك فقلت له يوماً: أنت أفصح النّاس وأخطبهم، فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حفلك وإذا مررت بلعن هذا الرّجل صرت ألكن عيياً.

فقال: يا بني إنّ من ترى تحت منبرنا من أهل الشّام وغيرهم لو علموا من فضل هذا الرّجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد، فوقرت كلمته في صدري مع ما كان قال لي معلمي

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤/٥٤.

أيام صغري، فأعطيت الله عهداً لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيّرن، فلما منَّ الله علي بالخلافة أسقطت ذلك وجعلت مكانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وكتب به إلى الآفاق فصار سنة، وعن مروج الذهب جعل مكانه:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وفي هذا المعنى قال السّيد الرّضي رحمه الله عليه:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين	فتاً من أمية لبكيتك
غير أنّي أقول إنّك قد طبت	وإن لم يطب ولم يزل بيتك
أنت نزهتنا عن السّب والقذف	فلو أمكن الجزاء جزيتك
ولو إنّي رأيت قبرك لاستحييت	من أن أرى وما حيّيتك
وقليل أن لو بذلت دماء البدن	صرداً على الذي أسقيتك
دير سمعان فيك نادى أبي حفص	يؤدي لو أنني أوتيتك
دير سمعان لا أعبك غيث	خير ميت من آل مروان ميتك
أنت بالذكر بين عيني وقلبي	إن تدانيت منك أو إن نأيتك
وعجبت إنّي قليت بني مروان	كلا وأنّني ما قليتك
قرب العدل منك لما نأى الجور	منهم فاحتويتهم واجتبيتك
فلو أنّي ملكت دفعاً لما نابك	من طارق الرّدي لفديتك

الثالث

لقائل أن يقول: ما الفرق بين السّبّ والتبرّي حيث رخص في الأوّل ونهى عن الثاني مع أنّ السّب أفحش من التبرّي.

قال الشّارح المعتزلي: لأنّ هذه اللفظة ما وردت في القرآن العزيز إلاّ عن المشركين الا ترى إلى قوله:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] وقال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣].

فقد صارت بحسب العرف الشّرعي مطلقة على المشركين خاصّة، فإذن يحمل هذا النّهي على ترجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السّبّ، وإن كان حكمهما واحداً.

أقول: والتحقيق في الجواب ما ذكره الشّارح البحراني حيث قال: إنّ السّبّ من صفات القول اللساني وهو أمر يمكن إيقاعه من غير اعتقاده مع احتماله التّعريض، ومع ما يشتمل عليه من حقن دماء المأمورين ونجاتهم بامتثال الأمر به، وأمّا التّبرؤ فليس بصفة قوليّة فقط بل يعود إلى المجانبة القلبيّة والمعاداة والبغض وهو المنهي عنه ههنا، فإنّه أمر باطن يمكنهم الانتهاء عنه ولا يلحقهم بسبب تركه وعدم امتثال الأمر به ضرر، وكأنّه لحظ فيه قوله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ [النحل: ١٠٦] الآية.

ومحصّله إرجاع النّهي عن التّبريّ في قوله: ولا تتبرّؤا، على التّبري بالقلب دون التّبري بمجرد اللسان مع اطمئنان القلب بالإيمان، ويدل على ذلك ما يأتي في حديث الطبيب اليوناني مع أمير المؤمنين عليه السلام في شرح الفصل الأول من الخطبة المائة والسّابعة، من أمره عليه السلام له بإظهار التّبري في مقام التّقية، ويستفاد من بعض الأخبار أن ترك كلمة الكفر والصّبر على القتل أفضل من التقيّة وهو ما رواه المحدّث الجزائري.

قال في «زهر الرّبيع»: روي أنّ مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من المسلمين فقال لأحدهما: ما تقول في محمّد؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنت أيضاً، فخلاه، وقال للآخر فما تقول في محمّد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه الأوّل فقتله، فبلغ ذلك رسول الله فقال: أمّا الأوّل فقد أخذ برخصة الله، وأمّا الثّاني فقد صدع بالحقّ فهنيئاً له.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت انجام آن حضرت است که فرمود به اصحاب خود:

آگاه باشید که زود باشد غالب شود بر شما بعد از من مردی گشاده گلوی برآمده شکم که می خورد آن چه را که یابد و می جوید آن چه را که نیابد؛ منظور معاویة بن ابی سفیان علیه اللعنة و النیران است.

پس بکشید آن را و حال آن که هرگز نخواهید کشت؛ بدانید به درستی زود باشد که امر نماید شما را آن مرد به ناسزا گفتن به من و به تبرّی کردن از من. پس اما ناسزا گفتن، پس ناسزا گویید مرا از جهت این که آن ناسزا گفتن شما باعث پاکیزگی من است و سبب نجات و خلاصی شما است و اما برائت و بی زاری، پس تبرّی نکنید از جهت این که من مولود شده ام بر فطرت اسلام و پیشی گرفته ام بر هجرت و ایمان و معلوم است کسی که متّصف به این صفت باشد تبری از او جایز و سزا نیست، بلکه باعث عذاب ابدی است و سبب عقاب دائمی.

ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج وهو السابع والخمسون من المختار في باب الخطب

«أَصابَكُمْ حاصِبٌ، ولا بَقِيَ مِنكُمْ آبِرٌ، أَبَعْدَ إِيماني بِاللهِ وجِهادي مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَشْهَدُ عَلى نَفْسي بِالْكُفْرِ، لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدينَ، فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ، وارْجِعُوا عَلى أَثَرِ الأَعْقابِ، أَما إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدي ذُلاً شامِلاً، وسَيْفاً قاطِعاً، وأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظّالِمُونَ فيكُمْ سُنَّةً»[1].

(الحاصب) الريح الشديدة التي تثير الحصباء، وهي صغار الحصى قال أبو نواس:

كأن صغري وكبري من فواقعها حصباء درّ على أرض من الذهب

قال السّيد قوله: **(ولا بقي منكم آبر)** يروى بالراء من قولهم أبر للذي يأبر النخل أي يصلحه، ويروى آثر وهو الذي يأثر الحديث أي يحكيه ويرويه، وهو أصحّ الوجوه عندي كأنّه قال: لا بقي منكم مخبر، ويروى آبز بالزاء المعجمة وهو الواثب والهالك يقال له أيضاً آبز انتهى.

وقيل: يجوز أن يكون المراد بالآبر النمام و **(آب)** يَؤوب رجع و **(الأعقاب)** جمع عقب بالكسر وهو مؤخّر القدم وأثرها وعلامتها و **(الأثرة)** بالفتحات اسم من الاستئثار وهو الاستبداد بالشيء والتفرّد به أو من آثر إيثاراً إذا أعطى.

الإعراب

جملة: أصابكم حاصب ولا بقي منكم آبر، دعائيّة لا محلّ لها من الإعراب، وكلمة: بعد ظرف لغو متعلق بقوله: أشهد، والفاء في قوله: فأوبوا، فصيحة، وجملة: يتّخذها الظالمون، في محلّ النّصب على الوصفيّة.

المعنى

اعلم أنّ المرويّ في عدة من شروح الكتاب، وفي «**البحار**» هو أنّ الخوارج لمّا اعتزلوا منه وتنادوا من كلّ ناحية لا حكم إلا لله الحكم لله يا علي لا لك، وقالوا: بأننا أخطأنا فرجعنا وتبنا فارجع إليه أنت وتب، وقال بعضهم: اشهد على نفسك بالكفر، ثمّ تب منه، حتّى نطيعك، على ما مرّ تفصيل ذلك كلّه في «**شرح الخطبة**» السّادسة والثّلاثين والكلام الأربعين

---

(١) الغارات: ٢/ ٤٩٢، بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٦ ح ٥٩٤.

أيضاً أجابهم بهذا الكلام فقال: (**أصابكم حاصب**) وهو كناية عن العذاب وقيل: أي أصابكم حجارة من السّماء (**ولا بقي منكم آبر**) وهو دعاء عليهم بانقطاع نسلهم كما قال نوح:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

ثمّ نبّه على إنكار مقالتهم وطلبهم شهادته على نفسه بالكفر بقوله: (**أبعد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه وآله أشهد على نفسي بالكفر**) والخطأ، (**لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين**) إذ الشّهادة على النّفس بالكفر مع وجود الإيمان الرّاسخ ضلال عن الهدى وعدول عن الرّشاد لا محالة.

قال المبرّد ومن شعر أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا اختلاف فيه أنّه قال: «وكان يروونه أنّهم لمّا سألوه أن يقرّ بالكفر ويتوب حتّى يسيروا معه إلى الشّام فقال: أبعد صحبة رسول الله والتّفقّه في دين الله أرجع كافراً»، ثمّ قال عليه السلام:

يا شاهد الله عليّ فاشهد ... إنّي على دين النّبي أحمد

من شكّ في الله فإنّي مهتدي ... يا ربّ فاجعل في الجنان موردي[1]

وقوله: (**فأوبوا شرّ مآب وارجعوا إلى أثر الأعقاب**) قيل: هو أمر لهم بالرّجوع والإياب إلى الحقّ من حيث خرجوا منه قهراً كان القاهر يضرب في وجوههم بردّهم على الأعقاب والرّجوع هكذا شرّ الأنواع، وقيل: هو دعاء عليهم بالذّلّ وانعكاس الحال، قال العلاّمة المجلسيّ (ره): ويحتمل أن يكون الأمر على التّهديد كقوله تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥].

(**أما إنّكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً**) وهو كناية عن ابتلائهم بعده بالقتل والاستئصال، وقد كان الأمر بعده على ما أخبر، وقتلوا بيد مهلب وغيره حتى أفناهم الله تعالى، وتفصيل أحوالهم واستئصالهم ومقاتلتهم مع المهلب مذكور في «**شرح المعتزلي**» من أراد الاطلاع فليرجع إليه، (**وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة**) يعني أنّ الظالمين يختارون لأنفسهم في الفيء والغنائم أشياء حسنة، وينفردون بها، أو أنّهم يفضلون غيركم عليكم في نصيبكم ويعطونهم دونكم.

---

(١) البحار: ٣٣/٣٥٣.

الترجمة

از جمله کلام آن حضرت است که تکلم کرده به آن با خوارج در وقتی که ایشان گفتند ما و تو به جهت تحکیم خطا نمودیم و کافر شدیم و ما از کفر خود توبه نمودیم، بایست تو هم شهادت بدهی بر نفس خود با کفر و توبه کنی از آن، پس تعرّض فرمود به ایشان و گفت که:

برسد به شما عذاب و باقی نماند از شما مصلح کارساز، آیا بعد از ایمان آوردن من به حضرت پروردگار و مجاهده نمودن من با رسول مختار شهادت بدهم بر نفس خود به کافر شدن و از دین برگشتن، هرآینه گمراه باشم این هنگام که شهادت بر کفر خود دهم و نباشم از هدایت یافتگان، پس برگردید از بدترین جای بازگشت به سوی حق و رجوع نمایید به حق براثر پاشنه های خود، آگاه بشوید که شما زود باشد که ملاقات نمایید بعد از من به خواری فراوان و به شمشیر بران و به اشیاء نفسیه ای که فراگیرند آن را ظالمان در شما سنه جاریه؛ یعنی بعد از من ظالمین خوب ترین مال های شما را از شما می گیرند و به جهت خودشان اختیار می نمایند و این سنت می شود در میان شما.

وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج
وهو الثامن والخمسون من المختار في باب الخطب

وقيل له: إنّهم قد عبروا جسر النهروان:

«مصارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ وَاللهِ لا يُفْلِتُ مِنهُمْ عَشَرَةٌ ولا يَهْلِكُ مِنْكُم عَشَرَةٌ»(١).

قال السّيد: يعني بالنطفة ماء النّهر، وهي أفصح كناية عن الماء، وإن كان كثيراً جمّاً، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم عند مضي ما أشبهه.

اللغة

(الجسر) معروف و **(الصّرع)** الطرح على الأرض والمصرع يكون موضعاً ومصدراً، والمراد هنا موضع هلاكهم، و **(النطفة)** بالضّم الماء الصّافي قلّ أو كثر، والنطفتان في الحديث بحر المشرق والمغرب، أو ماء الفرات وبحر جدة، والمراد بها هنا كما ذكره السّيد (ره) ماء النهروان، وقد مضى التّعبير بها أيضاً في الخطبة السابعة والأربعين و **(الإفلات)** والتفلت والانفلات التخلص من الشّيء فجأة.

الإعراب

كلمة: لما في كلام السّيد ظرفيّة بمعنى حين، وجملة: قيل له، عطف على عزم، وقوله: مصارعهم دون النطفة، في محلّ النّصب مقول لقال.

المعنى

اعلم أنّ قوله: «مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة» إخبار عمّا يكون قبل كونه وهو من معجزاته المتواترة.

ورويَ أنّه لما قتل الخوارج وجدوا المفلت منهم تسعة، تفرّقوا في البلاد، فانهزم اثنان منهم إلى عمّان، واثنان إلى كرمان، واثنان إلى سجستان، واثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تلّ موزون، فظهرت بدعهم في البلاد وصاروا فرقاً كثيراً على ما ستطلع عليه في شرح كلامه الآتي، ووجدوا المقتول من أصحابه ثمانية ويمكن أن يكون خفي على القوم مكان واحد من المقتولين أو يكون التّعبير بعدم إهلاك العشرة للمشاكلة والمناسبة بين القرينتين.

(١) شرح أصول الكافي: ٦/ ٢٨٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٦ ح ٥٩٤.

تذكرة

قد مضى في «**شرح الخطبة**» السّادسة والثّلاثين أسماء المقتولين من أصحابه، ومضى أيضاً في شرح كلامه الخامس والثلاثين سند تلك الرّواية ونقلها من العلامة المجلسي من كتاب الخرائج عن جندب بن زهير.

وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق: إنّه روى عن المدائني في كتاب الخوارج، أنه لما خرج علي إلى أهل النهروان، أقبل رجل من أصحابه ممّن كان على مقدمته يركض حتّى انتهى إلى عليّ فقال: البشرى يا أمير المؤمنين، قال: ما بشراك؟ قال: إنّ القوم عبروا النهر لما أبلغهم وصولك فأبشر، فقد منحك الله أكتافهم؛ فقال: الله أنت رأيتهم قد عبّروا، قال: نعم، فأحلفه ثلاث مرّات في كلها يقول نعم، فقال: والله ما عبروا ولن يعبروا، وإنّ مصارعهم لدون النطفة والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لن يبلغوا إلا ثلث ولا قصر بوران حتى يقتلهم الله، وقد خاب من افترى.

قال: ثمّ أقبل فارس آخر يركض فرسه فقال كقول الأوّل فلم يكترث عليه السلام بقوله، وجاءت الفرسان كلها تركض وتقول مثل ذلك فقام عليه السلام فجال في متن فرسه.

قال: فقال شابّ من النّاس: والله لأكونن قريباً منه، فإن كان عبروا النهر لأجعلن سنان رمحي في عينه، أيدعي علم الغيب، فلما انتهى عليّ إلى النّهر وجد القوم، قد كسروا جفون سيوفهم وعرقبوا خيولهم وحبوا على ركبهم وتحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له نرجل، فنزل ذلك الشّاب فقال: يا أمير المؤمنين إنّي كنت شككت فيك آنفاً وإنّي تائب إلى الله وإليك فاغفر لي فقال علي: «إنّ الله هو الذي يغفر الذّنوب فاستغفره»[١].

تنبيه وتحقيق

قال الشّارح المعتزلي: هذا الخبر من الأَخبار التي تكاد تكون متواترة، لاشتهاره ونقل النّاس له كافة، وهو من معجزاته وإخباره المفصلة عن الغيوب[٢].

---

(١) البحار: ٣٣/ ٣٤٨.

(٢) **علم آل محمّد للغيب**

قال رجب البرسي: وها إننا نورد في هذا الفصل شمة من أسرار الأئمة الهداة والبررة السادات، والميامين الولاة، ونطقهم بالمغيبات، وإظهارهم الكرامات وإبرازهم الخفيات، توبيخاً لأهل الجهالات، الذين أنكروا هذه الحالات، ومنعوا هذه الصفات، وزعموا أنهم من العداة.

وكيف لا يطلعون على الغيب؟

وعلمه واجب لهم من وجوه: الأوّل أن الله سبحانه سطر في اللوح المحفوظ علم ما كان وما يكون، ثم أبرز إلى كل نبي منهم ما يكون له ولأوصيائه، إلى ظهور الشريعة التي تأتي بعده حتى ختمت الرسل

والأخبار على قسمين:

أحدهما: الأَخبار المجملة ولا إعجاز فيها نحو أن يقول الرّجل لأَصحابه: إنكم

بفاتحهم، وختمت الشرايع بخاتمها، فوجب أن يكون عنده علم ما سبق وما يلحق إلى يوم القيامة، لكونه خاتماً لأن كتابه الجامع المانع، ثم إنه ليلة المعراج لما وصل المقام الأسنى، وكان قاب قوسين أو أدنى، وعلا على اللوح المحفوظ رفعة وعلماً، وخوطب من الأسرار الإلهية بما ليس في اللوح، فكان علم الغيب الأول والآخر عنده وله، بل هو اللوح المحفوظ لأنه السابق على الكل وجوداً، والممد للكل جوداً، فعلم ما كان وما يكون عنده وعند أوصيائه مشارق: ١٠٧.

أقول: الذي يدّعي علم الغيب للإمام والنبي: لا يدّعيه على نحو الاستقلالية، بل يدعي أن الله أطلع نبيّه وأهل بيته على الأمور الغيبية التي لم يطلع عليها أحداً.

وإن شئت قلت: علم الغيب لذات الشخص وبلا توسط من الغير هو العلم الثابت لواجب الوجود والذي هو عين الذات، وهذا مختص بالله ولغيره كفر.

أمّا العلم بالغيب الذي هو بتوسط الله تعالى وليس هو عين الذات، فهذا الذي علمته الأئمة ورسول الله صلى الله عليه وآله وعليه دلت الآيات والروايات:

فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «والله لقد أعطينا علم الأوّلين والآخرين».

فقال له رجل من أصحابه: «جعلت فداك أعندكم علم الغيب؟

فقال له عليه السلام: «ويحك إنّي أعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء، ويحكم وسّعوا صدوركم ولتبصر أعينكم ولتع قلوبكم، فنحن حجّة الله تعالى في خلقه ولن يسع ذلك إلاّ صدر كلّ مؤمن قوي قوّته كقوّة جبل تهامة إلاّ بإذن الله، والله لو أردت أن أحصي لكم كل حصاة عليها لأخبرتكم» بحار الانوار: ٢٦/ ٢٨ ح٢٨ باب جهات علومهم عن مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٧٤.

وقال رسول الله لعلي٨: «إنّ الله أطلعني على ما شاء من غيبه وحياً وتنزيلاً واطلعك عليه إلهاماً» مشارق أنوار اليقين: ١٣٥ . ١٣٦ و٢٥ وفي بحار الأنوار: ٢٦/ ٤ ح١: «أنا صاحب اللوح المحفوظ ألهمني الله علم ما فيه».

وقيل لأبي جعفر عليه السلام: إن شيعتك تدعي أنك تعلم كيل ما في دجلة. وكانا جالسين على دجلة.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «يقدر الله عز وجل أن يفوض علم ذلك إلى بعوضة من خلقه؟»

قال: نعم.

فقال عليه السلام: «أنا أكرم على الله من بعوضته» ثم خرج. إثبات الوصية: ١٩١ . ١٩٢.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة يصف فيها الإمام: «فهو الصدق والعدل. يطلع على الغيب ويعطى التصرف على الإطلاق» بحار الأنوار: ٢٥/ ١٧٠ ح٣٨ ومشارق أنوار اليقين: ١١٥.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «يا مفضل من زعم أن الإمام من آل محمد يعزب عنه شيء من الأمر المحتوم فقد كفر بما نزل على محمّد، وإنّا لنشهد أعمالكم ولا يخفى علينا شيء من أمركم، وإن أعمالكم لتعرض علينا، وإذا كانت الروح وارتاض البدن أشرقت أنوارها، وظهرت أسرارها وأدركت عالم الغيب» مشارق أنوار اليقين: ١٣٨.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا في رسول الله صلى الله عليه وآله، الا وإني مفضيه إلى الخاصّة» نهج البلاغة: ٢٥٠ الخطبة ١٧٥.

وقالت عائشة للإمام الحسن عليه السلام بعد أن أخبرها بما فعلته يوم وفاة الأمير ولم يطلع عليه أحد سواها: يا ابن خبوت جدّك وأبوك في علم الغيب، فمن ذا الذي أخبرك بهذا عنّي!! الهداية الكبرى: ١٩٧ . ١٩٨،

ستنصرون على هذه الفئة التي تلقونها غداً، فإن نصر جعل ذلك له حجة عند أصحابه وسماها معجزة، وإن لم ينصر قال لهم: تغيّرت نيّاتكم فمنعكم الله نصره ونحوه ذلك من القول.

ذيل الباب الرابع.
وعندما أخبرها بخفايا ضميرها وما أخبرها به رسول الله ﷺ من حربها الأمير عليه السلام قالت: جدّك أخبرك بذلك أم هذا من غيبك؟!
قال عليه السلام: «هذا من علم الله وعلم رسوله وعلم أمير المؤمنين» الهداية الكبرى: ١٩٧ ـ ١٩٨، ذيل الباب الرابع.
وقال الإمام الحسن العسكري عليه السلام لمن سأله عن القائم المنتظرعجل الله فرجه: «ألسنا قد قلنا لكم لا تسألونا عن علم الغيب فنخرج ما علمنا منه إليكم فيسمعه من لا يطيق استماعه فيكفر» الهداية الكبرى: ٣٣٤ باب ١٣.
وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «ألا إن للعبد أربع أعين: عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته]وأمر آخرته[» الخصال: ١/ ٢٤٠ ح٩٠ باب الأربعة.
ورواه المتقي الهندي في كنز العمال بلفظ: «ما من عبد إلاّ وفي وجهه عينان يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه؛ فأبصر بهما ما وعده بالغيب، فآمن بالغيب على الغيب» كنز العمّال: ٢/ ٤٢ ح٣٠٤٣.
وفي قصة أبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة ما يؤكّد علم الإمام الكاظم عليه السلام للغيب حيث قال أحدهما لصاحبه: جئنا لنسأله عن الفرض والسنّة وهو الآن جاء بشيء من علم الغيب.
فسألاه: من أين أدركت أمر هذا الرجل الموكل بك أنّه يموت في هذه الليلة؟
قال الإمام عليه السلام: «من الباب الذي أخبر بعلمه رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام» الخرايج والجرايح: ٢٨٧ ـ ٢٨٨ الباب الثامن.
وأيضاً في قصة إخبار الإمام الرضا عليه السلام ابن هذاب بما يجري عليه ما يزيل الشكّ في الباب حيث قال عليه السلام له: «إن أخبرتك أنّك ستبلى في هذه الأيام بذي رحم لك كنت مصدّقاً لي؟»
قال: لا، فإن الغيب لا يعلمه إلاّ الله تعالى.
قال عليه السلام: «أوليس الله يقول: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول فرسول الله ﷺ عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه، فعلّمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وإن الذي أخبرتك يا ابن هذاب لكائن إلى خمسة أيّام، فإن لم يصح ما قلت فبهذه المدّة، وإلاّ فإنّي كذّاب مفتر، وإن صحّ فتعلم أنّك الراد على الله وعلى رسوله.
ولك دلالة أخرى فتصاب ببصرك وتصير مكفوفاً فلا تبصر سهلاً ولا جبالاً وهذا كائن بعد أيام.
ولك عندي دلالة أخرى أنّك ستحلف يميناً كاذبة فتضرب بالبرص».
قال محمد بن الفضل: بالله لقد نزل ذلك كلّه بابن هذاب الخرايج والجرايح: ٣٠٦ الباب التاسع.
* أقول: هذه رواية صريحة في علمهم للغيب لا ينكرها إلاّ ناصبي.
وعن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «والإمام يا طارق بشر ملكي وجسد سماوي، وأمر إلهي وروح قدسي، ومقام عليّ ونور جليّ وسرّ خفيّ، فهو ملك الذات إلهي الصفات، زائد الحسنات عالم بالمغيبات؛ خصّاً من ربّ العالمين ونصّاً من الصادق الأمين» بحار الأنوار: ٢٥/ ١٧٢ ح٣٨ باب جامع في صفات الإمام.

والقسم الثّاني: الأخبار المفصلة عن الغيوب مثل هذا الخبر، فإنّه لا يحتمل التّلبيس لتقييده بالعدد المعين في أصحابه، وفي الخوارج ووقوع الأمر بعد الحرب بموجبه من غير زيادة ولا نقصان، وذلك أمر إلهيّ عرفه من جهة رسول الله وعرفه رسول الله من جهة الله سبحانه، والقوة البشرية تقصر عن إدراك مثل هذا، ولقد كان له من هذا الباب ما لم يكن لغيره.

وبمقتضى ما شاهد النّاس من معجزاته وأحواله المنافية للقوى البشرية، غلا فيه من غلا، حتّى نسب إلى أنّ الجوهر الإلهي حلّ في بدنه كما قالت النّصارى في عيسى، وقد أخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك، فقال: «يهلك فيك محبّ غال ومبغض قال»، وقال له تارة: «والذي

وعن أبي جعفر الجواد عليه السلام لما أخبر أمّ الفضل بنت المأمون بما فاجأها ممّا يعتري النساء عند العادة.
قالت له: لا يعلم الغيب إلاّ الله.
قال عليه السلام: «وأنا أعلمه من علم الله تعالى» الإرشاد إلى ولاية الفقيه: ٢٥٤.
* أقول: وهذه رواية أخرى تنص على علمهم للغيب فلا تغفل وأزل الشك من قلبك.
وفي خطبة لأمير المؤمنين يذكر فيها صفات الإمام جاء فيها: «ويلبس الهيبة وعلم الضمير، ويطلع على الغيب ويعطى التصرّف على الإطلاق» مشارق أنوار اليقين: ١١٥..
هذا إضافة إلى روايات إخبارهم بأمور غيبية جزئية ليس هنا محل ذكرها. وقال تعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول**﴾ [الجن: ٢٦].
قال الإمام الرضا عليه السلام لعمرو بن هذاب عندما نفى عن الأئمة: علم الغيب محتجاً بهذه الآية: «إن رسول الله هو المرتضى عند الله، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على غيبه فعلّمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة» بحار الأنوار: ١٢/ ٢٢ و١٥/ ٧٤. وقال أبو جعفر عليه السلام: «﴿**إلاّ من ارتضى من رسول**﴾ وكان والله محمد ممن ارتضاه» الإرشاد الى ولاية الفقيه: ٢٥٧، وقريب منه في الخرايج والجرايح: ٣٠٦.
وقال: ذلك ﴿**من أنباء الغيب نوحيه إليك. تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك**﴾ [آل عمران: ٤٤، هود: ٤٩، يوسف: ١٠٢].
وقال: ﴿**وعلّمك ما لم تكن تعلم**﴾ [النساء: ١١٣]، وهي عامة.
﴿**وكل شيء أحصيناه في إمام مبين**﴾ [يس: ١٢]. والإمام المبين هو أمير المؤمنين علي ج ينابيع المودة: ١/ ٧٧ ط. اسلامبول و٨٧ ط. النجف، وتفسير نور الثقلين: ٤/ ٣٧٩ مورد الآية والهداية الكبرى: ٩٨ الباب الثاني والأنوار النعمانية: ١/ ٤٧ و: ٢/ ١٨.
وقال تعالى: ﴿**وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين**﴾ [يونس: ٦١، وسبأ: ٣].
وقال عز من قائل: ﴿**وكل شيء أحصيناه كتاباً**﴾ [النبأ: ٢٩]. وهم الكتاب المبين ينابيع المودة: ١/ ٨١ ط. النجف و١/ ٧١ ط. تركيا ومشارق أنوار اليقين: ١٣٦.
وقال تعالى: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ [الأعراف: ١٥٦].
فروي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسيرها: «علم الإمام، ووسع علمه الذي هو من علمه كل شيء» نور الثقلين: ٢/ ٧٨ ح ٢٨٨ عن الكافي.
وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا رحمة الله التي وسعت كل شيء» الهداية الكبرى: ٤٠٠.

نفسي بيده لولا أنّي أشفق أن يقول طوائف من أمّتي فيك ما قالت النّصارى في ابن مريم لقلت: اليوم فيك مقالاً لا تمر بملأ من النّاس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة»[١].

قال الشّارح: وأوّل من جهر بالغلو في أيّامه عبد الله بن سبأ قام إليه وهو يخطب فقال له أنت أنت وجعل يكرّرها، فقال له ويلك من أنا، فقال: أنت الله فأمر بأخذه وأخذ قوم كانوا على رأيه.

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمّار الثقفي عن علي بن محمّد بن سليمان النّوفلي عن أبيه وعن غيره من مشيخته أنّ عليّاً قال: يهلك فيّ رجلان: محبّ مطر يضعني غير موضعي ويمدحني بما ليس فيّ، ومبغض مفتر يرميني بما أنا منه بريء.

قال أبو العباس: وهذا تأويل الحديث المروّي عن النبي ﷺ فيه وهو قوله ﷺ: «إنّ فيك مثلاً عن عيسى بن مريم، أحبته النّصارى فرفعته فوق قدره، وأبغضته اليهود حتّى بهتت أمّه».

قال أبو العباس: وقد كان علي عثر على قوم خرجوا من محبّته باستحواذ الشيطان عليهم إلى أن كفروا بربهم وجحدوا ما جاء به نبيّهم واتّخذوه ربّاً وإلهاً وقالوا: أنت خالقنا ورازقنا فاستتابهم وتوعدهم فأقاموا على قولهم فحفر لهم حفراً دخن عليهم طمعاً في رجوعهم فأبوا فحرقهم بالنّار[٢].

قال الشّارح: وروى أصحابنا في كتاب **«المقالات»** أنه لما حرقهم صاحوا إليه: الآن ظهر لنا ظهوراً بيّنا أنك أنت الإله لأن ابن عمك الذي أرسلته قال: لا يعذّب بالنار إلاّ رب النّار[٣].

وروى أبو العباس عن محمّد بن سليمان بن حبيب المصيصي عن عليّ بن محمّد النوفلي عن أبيه ومشيخته، أن عليّاً مرّ بهم وهم يأكلون في شهر رمضان نهاراً فقال: أسفر أم مرضى؟ قالوا: ولا واحدة، قال: أفمن أهل الكتاب أنتم؟ قالوا: لا، قال: فما بال الأكل في شهر رمضان نهاراً؟ قالوا: أنت أنت لم يزيدوه على ذلك، ففهم مرادهم ونزل عليه السلام عن فرسه فألصق خده بالتّراب ثمّ قال عليه السلام: ويلكم إنّما أنا عبد من عبيد الله فاتّقوا الله وارجعوا إلى الإسلام فأبوا فدعاهم مراراً فأقاموا على أمرهم فنهض عنهم، ثمّ قال شدّوهم وثاقاً وعليّ بالفعلة والنّار والحطب ثم أمر بحفر بئرين فحفرتا فجعل أحدهما سرباً والأخرى مكشوفة وألقى الحطب في المكشوفة وفتح بينهما فتحاً وألقى النّار في الحطب فدخن عليهم وجعل

(١) الكافي: ٨/٥٧.
(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٥/٥ و ٨/١٩٩.
(٣) انظر شرح أصول الكافي: ٤/١٧٩.

يهتف بهم ويناشدهم ارجعوا إلى الإسلام فأبوا فأمر بالحطب والنّار وألقى عليهم فاحترقوا فقال الشّاعر:

لترم بي المنية حيث شاءت إذا لم ترم بي في الحفرتين
إذا ما حشتا حطباً بنار فذاك الموت نقداً غير دين

قال أبو العباس: ثمّ إنّ جماعة من أصحاب علي منهم عبد الله بن عبّاس شفعوا في عبد الله بن سبأ خاصّة وقالوا: يا أمير المؤمنين إنّه قد تاب فاعف عنه فأطلقه بعد أن اشترط عليه أن لا يقيم بالكوفة، فقال: أين أذهب؟ قال: المدائن فنفاه إلى المدائن فلما قتل أمير المؤمنين أظهر مقالته وصارت له طائفة وفرقة يصدقونه ويتبعونه.

وقال: لمّا بلغه قتل علي عليه السلام: والله لو جئتمونا بدماغه في سبعين صرة لعلمنا أنّه لم يمت ولا يموت حتّى يسوق العرب بعصاه، فلما بلغ ابن عباس ذلك قال: لو علمنا لما تزوّجنا نساءه ولا قسمنا ميراثه.

قال أصحاب المقالات: واجتمع إلى عبد الله بن سبأ بالمدائن جماعة على هذا القول وتفاقم أمرهم وشاع بين النّاس قولهم وصار لهم دعوة يدعون إليها وشبهة يرجعون إليها وهي ما ظهر وشاع بين النّاس من إخباره بالمغيبات حالاً بعد حال، فقالوا: إنّ ذلك لا يمكن أن يكون إلاّ لله تعالى أو من حلت ذات الإله في جسده، ولعمري إنّه لا يقدر على ذلك إلاّ بأقدار الله تعالى إيّاه عليه، ولكن لا يلزم من إقداره إيّاه عليه أن يكون هو الإله أو تكون ذات الإله حالة فيه. هذا.

وحيث أنجرّ الكلام إلى هذا المقام فلا بأس بأن نحقّق الكلام في معنى الغلو والتّفويض ونشير إلى بعض الآيات والأخبار الواردة فيهما، ونذكر وجوه التفويض وما ينبغي أن يدان به ويعتقد عليه.

فأقول: قال الصّدوق في اعتقاداته: اعتقادنا في الغلاة والمفوضة أنّهم كفار بالله جل جلاله وأنّهم شرّ من اليهود والنصارى والمجوس والقدريّة والحرورية ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلة، وأنّه ما صغر الله جل جلاله تصغيرهم شيء وقال الله جلّ جلاله:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾، وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

وقال الله عز وجلّ:

﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا﴾ [النساء: ١٧١].

واعتقادنا في النبي والأئمة أنّ بعضهم قتلوا بالسيف وبعضهم بالسم وأنّ ذلك جرى

عليهم على الحقيقة وأنّه ما شبه أمرهم كما يزعمه من يتجاوز الحدّ فيهم «إلى أن قال» وكان الرّضا عليه السلام يقول في دعائه:

«اللّهمّ إنّي بريء إليك من الحول والقوّة، ولا حول ولا قوّة إلاّ بك، اللهم إنّي أعوذ بك وأبرأ إليك من الذين ادّعوا لنا ما ليس لنا بحقّ، اللهم إنّي أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا، اللهمّ لك الحق ومنك الرّزق وإياك نعبد وإياك نستعين، اللهمّ أنت خالقنا وخالق آباءنا الأوّلين وآباءنا الآخرين، اللهمّ لا تليق الرّبوبيّة إلاّ بك، ولا تصلح الألوهيّة إلاّ لك، فالعن النّصارى الذين صغّروا عظمتك، والعن المضاهئين لقولهم من بريّتك.

اللهم إنّا عبيدك وأبناء عبيدك، لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، اللهمّ من زعم أنّنا أرباب فنحن منه براء، ومن زعم أنّ إلينا الخلق وعلينا الرّزق، فنحن منه براء كبراءة عيسى ابن مريم من النّصارى، اللهمّ إنّا لم ندعهم إلى ما يزعمون، فلا تؤآخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما يدعون، ولا تدع على الأرض منهم دياراً، إنّك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً»[١].

وروي عن زرارة أنّه قال: قلت للصّادق عليه السلام إنّ رجلاً من ولد عبد الله بن سبأ يقول بالتّفويض، فقال: وما التّفويض؟ قلت: يقول إنّ الله خلق محمّداً وعليّاً صلوات الله عليهما ففوض الأمر إليهما فخلقا ورزقا وأماتا وأحييا، فقال: «كذب عدوّ الله إذا انصرفت إليه فاتل عليه هذه الآية التي في سورة الرّعد.

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾» [الرعد: ١٦].

فانصرفت إلى الرّجل فأخبرته بما قال الصّادق عليه السلام، فكأنّي ألقمته حجراً أو قال: فكأنّما خرس وقد فوّض الله عزّ وجلّ إلى نبيه أمر دينه فقال عز وجل:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقد فوض ذلك إلى الأئمة عليهم السّلام[٢].

وعن «المفيد» في شرح هذا الكلام: الغلوّ في اللغة هو تجاوز الحدّ والخروج عن القصد قال الله تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] الآية.

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٨، وعلل الشرائع: ١/ ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٥/ ٣٤٤، شرح أصول الكافي: ٦/ ٥٤.

فنهى عن تجاوز الحدّ في المسيح، وحذّر من الخروج عن القصد في القول، وجعل ما ادّعته النّصارى فيه غلوّاً لتعدية الحدّ على ما بيّناه، والغلاة من المتظاهرين بالإسلام الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريّته عليهم السّلام إلى الألوهيّة والنبوة، ووصفوهم من الفضل في الدّين والدّنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحدّ، وخرجوا عن القصد وهم ضالّون كفّار حكم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتّحريق بالنّار وقضت الأئمة عليهم السلام عليهم بالإكفار والخروج عن الإسلام، والمفوّضة صنف من الغلاة وقولهم الذي فارقوا به من سواهم من الغلاة اعترافهم بحدوث الأئمة وخلقهم، ونفي القدم عنهم وإضافة الخلق والرّزق مع ذلك إليهم، ودعواهم أنّ الله تفرّد بخلقهم خاصّة وأنّه فوّض إليهم خلق العالم بما فيه وجميع الأفعال انتهى كلامه رفع مقامه[1].

وقال المحدّث العلامة المجلسي طاب ثراه: اعلم أنّ الغلوّ في النّبيّ والأئمة عليهم الصّلاة والسّلام إنّما يكون بالقول بألوهيّتهم، أو بكونهم شركاء لله تعالى في المعبوديّة أو في الخلق والرّزق، أو أنّ الله تعالى حلّ فيهم، أو اتحد بهم، أو أنّهم يعلمون الغيب بغير وحي أو إلهام من الله تعالى، أو بالقول في الأئمة أنهم كانوا أنبياء أو القول بتناسخ أرواح بعضهم إلى بعض، أو القول بأنّ معرفتهم تغني عن جميع الطاعات ولا تكليف معها بترك المعاصي، والقول بكلّ منها إلحاد وكفر وخروج عن الدّين كما دلت عليه الأدلة العقلية والآيات والأخبار.

وقد عرفت أنّ الأئمة عليهم السّلام تبرّؤوا منهم وحكموا بكفرهم وأمروا بقتلهم وإن قرع سمعك شيء من الأخبار الموهمة لشيء من ذلك فهي إمّا مؤوّلة أو هي من مفتريات الغلاة، ولكن أفرط بعض المتكلمين والمحدّثين في الغلوّ لقصورهم عن معرفة الأئمة عليهم السّلام، وعجزهم عن إدراك غرائب أحوالهم وعجائب شؤونهم فقدحوا في كثير من الرّواة الثقاة لنقلهم بعض غرائب المعجزات حتّى قال بعضهم من الغلوّ نفي السّهو عنهم أو القول بأنّهم يعلمون ما كان وما يكون وغير ذلك.

مع أنّه قد ورد في أخبار كثيرة: لا تقولوا فينا ربّا وقولوا ما شئتم ولن تبلغوا، وورد أنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وورد لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله وغير ذلك.

فلا بد من المتدين أن لا يبادر برد ما ورد عنهم من فضائلهم ومعجزاتهم ومعالي أمورهم إذا ثبت خلافه بضرورة الدين أو بقواطع البراهين أو بالآيات المحكمة أو بالأخبار المتواترة، انتهى كلامه رفع مقامه.

---

(١) تصحيح الاعتقادات: ١٣٣، والبحار: ٢٥/٣٤٥.

وهو كاف في تحقيق المقام وتوضيح المرام وما ذكره (ره) هي الجادّة الوسطى والنّمط الأوسط والصّراط المستقيم الذي ينبغي سلوكه والمذهب الحقّ الواجب أخذه ولزومه، فالرّاغب عنه ما رق واللاّزم له لا حق المقصّر فيه زاهق.

وأما التفويض فالوارد في الأخبار الكثيرة المنع من القول به، وقد أكثروا فيها من ذمّ المفوّضة وتكذيبهم والتّبرّي منهم ومن ذلك ذهب جمع من الأصحاب إلى نفيه والمنع من القول به، ولكن الإنصاف أنّ القول بالمنع مطلقاً تفريط، كما أنّ القول بثبوته مطلقاً إفراط إذ الأخبار في طرفي المنع والثّبوت بالغة حد الإستفاضة لو لم تبلغ حدّ التواتر، فالعمل بإحدى الطائفتين وطرح الطائفة الأخرى بالمرة وإسقاطها عن درجة الإعتبار غير ممكن، فاللازم الأخذ بكلّ منهما في الجملة، ومقتضاه القول بالتفصيل في المسألة ويظهر ذلك برسم وجوه التّفويض.

فأقول وبالله التّوفيق أنّ التفويض عبارة عن تسليم الأمر إلى الخلق وردّه إليه، وهو على وجهين.

أحدهما: تفويض أمور الخلق إلى أنفسهم، وهو الذي قال به القدرية ويقال لها المفوّضة أيضاً ومحصّل ما ذهبوا إليه أنّ الله أوجد العباد وأقدرهم على أفعالهم وفوّض إليهم الإختيار فهم مستقلون بإيجادها على وفق مشيّئتهم وإرادتهم وطبق قدرتهم من دون أن يكون له سبحانه تأثير فيها بوجه من الوجوه، وبإزاء هؤلاء الجماعة جماعة أخرى ذهبت إلى أن لا مؤثر في الوجود إلا الله فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا علة لفعله ولا راد لقضائه.

وهذان الفريقان واقعان في طرفي التّضادّ، أحدهما يسمى بالقدرية والآخر بالجبرية، وزعمت الفرقة الأولى أنّ بالقول بالتّفويض يظهر فائدة التّكليف بالأمر والنّهي والوعد والوعيد، وبه يحصل استحقاق الثواب والعقاب، وبه ينزّه الله سبحانه عن إيجاد الشّرور والقبائح التي هي أنواع الكفر والمعاصي، وزعمت الفرقة الأخرى أنّ بالقول بالجبر يحصل سلطنة مالك الملوك في ملكوته وملكه وأنّ فيه تعظيماً لقدرة الله تعالى وتقديساً له عن شوائب النّقصان والإفتقار في التّأثير إلى شيء آخر.

وأنت خبير بأنّ القول الأوّل مستلزم للشّرك، والثّاني مستلزم للكفر، وقد ورد في الأخبار الكثيرة المنع منهما والرّد عليهما صريحاً بقولهم: لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين، وتحقيق الأمر بين الأمرين وتوضيح الرّد على الفريقين لعلنا نشير إليها في مقام مناسب إن شاء الله.

الوجه الثاني: تفويض أمور الخلق إلى النّبيّ والأئمة الطاهرين سلام الله عليهم، وردّها إلى اختيارهم وهو يتصوّر على أنحاء بعضها صحيح وبعضها باطل.

الأول

التّفويض في الخلق والإيجاد والتّربية والرّزق والإماتة والإحياء وغيرها من الأفعال، وقد أثبته بهذا المعنى بعض النّاقصين من الغلاة.

فإن كان مرادهم منه أنّهم يفعلون جميع ذلك بإرادتهم وقدرتهم وهم الفاعلون لها حقيقة كما هو ظاهر كلماتهم على ما حكى عنهم غير واحد، فهو كفر صريح دلّت على امتناعه الأدلة العقليّة والنّقلية، وقد مضى الإشارة إلى بعضها في كلامي الصّدوق والمفيد السابقين.

ويدلّ عليه صريحاً ما رواه في «**العيون**» عن الرّضا عليه السلام أنّه قال: «من زعم أن الله يفعل أفعالنا ثمّ يعذّبنا عليها فقد قال بالجبر، ومن زعم أنّ الله فوّض أمر الخلق والرّزق إلى حججه فقد قال بالتّفويض، والقائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مشرك»[1].

وفيه أيضاً بإسناده عن أبي هاشم الجعفري قال: سألت أبا الحسن الرّضا عليه السلام عن الغلاة والمفوّضة فقال: «الغلاة كفّار والمفوّضة مشركون من جالسهم أو خالطهم أو واكلهم أو شاربهم أو واصلهم أو زوّجهم أو تزوّج إليهم أو أمنهم أو ائتمنهم على أمانة أو صدق حديثهم أو أعانهم بشطر كلمة، خرج من ولاية الله عزّ وجلّ وولاية رسول الله وولايتنا أهل البيت»[2].

وفي «**البحار**» من كتاب الرّجال للكشّي بإسناده عن عبد الله بن شريك عن أبيه قال: بينا عليّ عند امرأة له من غنزة وهي أمّ عمرو إذ أتاه قنبر فقال: إنّ عشرة نفر بالباب يزعمون أنّك ربّهم فقال: أدخلهم قال: فدخلوا عليه فقال لهم: ما تقولون؟ فقالوا: إنّك ربّنا وأنت الذي خلقتنا وأنت الذي رزقتنا، فقال لهم: ويلكم ربّي وربّكم الله، ويلكم توبوا أو ارجعوا فقالوا: لا نرجع عن مقالتنا أنت ربّنا ترزقنا وأنت خلقتنا فقال: يا قنبر ائتني بالفعلة فخرج قنبر فأتاه بعشرة رجال مع الزّبل والمرود، فأمر أن يحفروا لهم في الأرض فلمّا حفروا خدّاً أمر بالحطب والنّار فطرح فيه حتّى صار ناراً تتوقّد قال لهم: توبوا قالوا: لا نرجع فقذف علي عليه السلام بعضهم ثمّ قذف بقيتهم في النّار قال عليه السلام:

إنّي إذا أبصرت شيئاً منكراً أوقدت ناري ودعوت قنبرا[3]

وعن «**العيون**» عن ماجيلويه، عن عليّ، عن أبيه، عن ياسر الخادم قال: قلت للرّضا عليه السلام ما تقول في التفويض؟ فقال: «إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى نبيّه أمر دينه» فقال:

(١) وسائل الشيعة: ٢٨/ ٣٤ ح ٣٤٩٠٧، الاحتجاج: ٢/ ١٩٨.

(٢) عيون الأخبار: ١/ ٢١٩ ح ٤، وبحار الأنوار: ٢٥/ ٢٧٣ ح ١٩.

(٣) بحار الأنوار: ٢٥/ ٢٩٩ ح ٦٣، وعبد الله بن سبأ: ٢/ ١٨٤ ح ٨.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

فأمّا الخلق والرّزق فلا، ثمّ قال: إنّ الله عزّ وجلّ خالق كلّ شيء وهو يقول عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [1] [الروم: ٤٠].

وفي «الإحتجاج» وعن «العيون» جميعاً عن عليّ بن أحمد الدّلال القمّي، قال: اختلف جماعة من الشّيعة في أنّ الله عزّ وجلّ فوّض إلى الأئمة أن يخلقوا ويرزقوا فقال قوم: هذا محال لا يجوز على الله، لأنَ الأجسام لا يقدر على خلقها غير الله عزّ وجلّ، وقال آخرون بل الله عزّ وجلّ أقدر الأَئمة على ذلك وفوّض إليهم، فخلقوا ورزقوا، وتنازعوا في ذلك نزاعاً شديداً فقال قائل: ما بالكم لا ترجعون إلى أبي جعفر محمّد بن عثمان فتسألونه عن ذلك ليوضح لكم الحقّ فيه فإنّه الطريق إلى صاحب الأمر عليه السلام، فرضيت الجماعة بأبي جعفر وسلّمت وأجابت إلى قوله، فكتبوا المسألة فأنفذوها إليه، فخرج إليهم من جهته توقيع نسخته.

إن الله تعالى هو الذي خلق الأجسام وقسّم الأرزاق، لأنّه ليس بجسم ولا حال في جسم، ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير، فأمّا الأئمة فإنّهم يسألون الله فيخلق ويسألونه فيرزق، ايجاباً لمسألتهم وإعظاماً لحقهم.

إلى غير هذه من الأَخبار الواردة في ردّ هذه المقالة الفاسدة وطعن القائلين به، فلا يستريب عاقل في الحكم بكفرهم إن كان مرادهم التّفويض بالاستقلال.

وإن كان مرادهم أنّ الله يفعل الأَشياء مقارناً لإرادتهم كشق القمر وإحياء الموتى وقلب العصا حية وغير ذلك من المعجزات، بمعنى أن يكون الفاعل لها حقيقة هو الله سبحانه ويكون هو الخالق والرّازق والمحيي والمميت والضار والنافع إلا أن ذلك لما كان مقارناً لإرادتهم ومقترناً لمشيئتهم فأطلق ذلك عليهم مجازاً.

وبعبارة أخرى لما كان وقوع هذه الأَفعال بسبب إرادتهم فصاروا بمنزلة الفاعل لها حقيقة، فهذا المعنى مما لا إباء للعقل عنه لأَنه لا يأبى عن أن يكون الله خلقهم وأكملهم وألهمهم ما يصلح لنظام العالم ثمّ خلق كل شيء بقدرته مقارناً لإرادتهم ومشيتهم.

إلا أنّ المحدّث المجلسي قال: إنّ الأَخبار الكثيرة تمنع من القول به فيما عدا المعجزات ظاهراً بل صريحاً، مع أنّ القول به قول بما لا يعلم، إذ لم يرد ذلك في الأَخبار

(١) عيون أخبار الرضا (ع): ٢١٩/١ ح ١٣٠، وبحار الأنوار: ٧/١٧ ح ٩.

المعتبرة فيما نعلم، وما ورد من الأخبار الدّالة على ذلك كخطبة البيان وأمثالها فلم يوجد إلا في كتب الغلاة وأشباههم، مع أنه يمكن أن يكون المراد كونهم علة غائية لجيمع الممكنات، وإيجاد جميع المكونات وإنه تعالى جعلهم مطاعين في الأرضين والسماوات، ويطيعهم بإذن الله تعالى كل شيء حتى الجمادات، وأنهم إذا شاؤوا أمراً لا يرد الله مشيئتهم ولكنهم لا يشاؤون إلاّ أن يشاء الله.

وأما ما ورد من الأخبار في نزول الملائكة والرّوح إليهم لكل أمر، وأنه لا ينزل من السماء ملك لأمر إلا بدأ بهم فليس ذلك لمدخلهم في ذلك ولا للاستشارة بهم، بل له الخلق والأَمر تعالى شأنه وليس ذلك إلاّ لتشريفهم وإكرامهم وإظهار رفعة مقامهم.

الثاني

التّفويض في أمر الدّين في الجملة وإنّما قيّدنا به وخالفنا ظاهر أكثر العبائر لأنّ كثيراً من الأمور الدّينيّة ممّا نطق به الكتاب العزيز، وبعضها ثبت بالأحاديث القدسيّة، فلا بد أن يكون التّفويض فيما عداها، وبه يظهر ما في إطلاقات الأكثر، فالمقصود بذلك أنّه سبحانه لمّا أكمل نبيّه بحيث لم يكن يختار من الأمور شيئاً إلا ما يوافق الحق والصّواب، ولم يكن يخطر بباله ما يخالف مشيّئة الله في كل باب، فوض إليه تعيين بعض الأمور كالزيادة في الصّلاة وتعيين النّوافل في الصّلاة والصّوم وطعمة بالجد، وتحريم كل مسكر ونحو ذلك ممّا سيأتي في ضمن الأخبار.

والتّفويض بذلك المعنى حق ثابت بالأَخبار المستفيضة وقد ذهب إليه جمع من الأَصحاب وهو الظّاهر من أكثر المحدثين بل صريح بعضهم كالكليني حيث عقد في **«الكافي»** باباً فيه والصّدوق في جملة من كتبه، فقد ذكر الأَخبار الدالة على ذلك من غير تعرض لردها، وصرح به في عقائده حسبما عرفت سابقاً، والمحدث المجلسي في جملة من كتبه وغيرهم.

فممّا يدلّ على ذلك رواية ياسر الخادم التي أسلفناها.

وما رواه في **«الكافي»** عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لبعض أصحاب قيس الماصر: إن الله عز وجلّ أدب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ثمّ فوض إليه أمر الدّين والأمّة ليسوس عباده فقال:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وإنّ رسول الله كان مسدّداً موفقاً مؤيّداً بروح القدس لا يذلّ «بزل ظ» ولا يخطيء بشيء ممّا يسوس به الخلق، فتأدّب بأداب الله ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ فرض الصّلاة ركعتين ركعتين عشر ركعات، فأضاف رسول الله ﷺ إلى الركعتين ركعتين وإلى المغرب ركعة، فصارت عديل الفريضة لا يجوز تركهن إلاّ في سفر، وأفرد الرّكعة في المغرب فتركها قائمة في السّفر والحضر، فأجاز الله له ذلك كلّه، فصارت الفريضة سبع عشر ركعة.

ثمّ سنّ رسول الله ﷺ النّوافل أربعاً وثلاثين ركعة مثلي الفريضة، فأجاز الله له ذلك، والفريضة النافلة إحدى وخمسون ركعة، منها ركعتان بعد العتمة جالساً تعد بركعة مكان الوتر، وفرض الله في السنّة صوم شهر رمضان، وسن رسول الله صوم شعبان وثلاثة أيّام في كل شهر مثلي الفريضة فأجاز الله له ذلك.

وحرم الله الخمر بعينها حرم رسول الله المسكر من كل شراب فأجاز الله ذلك وعاف رسول الله أشياء وكرهها لم ينه عنها نهي حرام إنما نهى عنها نهي إعاقة وكراهة، ثم رخص فيها فصار الأخذ برخصته واجباً على العباد كوجوب ما يأخذون بنهيه وعزائمه ولم يرخص لهم رسول الله فيما نهاهم عنه نهي حرام، ولا فيما أمر به أمر فرض لازم فكثر المسكر من الأشربة نهاهم عنه نهي حرام.

ولم يرخص رسول الله تقصير الركعتين اللتين ضمّهما إلى ما فرض الله بل ألزمهم ذلك إلزاماً واجباً لم يرخص لأحد في شيء من ذلك إلا للمسافر، وليس لأحد أن يرخص ما لم يرخصه رسول الله ﷺ فوافق أمر رسول الله أمر الله عز وجل، ونهيه نهي الله عز وجل، ووجب على العباد التسليم له كالتسليم لله تبارك وتعالى.

وفي **«الكافي»** أيضاً عن عبد الله بن سليمان العامري عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لما عرج برسول الله ﷺ نزل بالصلاة عشر ركعات ركعتين ركعتين، فلما ولد الحسن والحسين زاد رسول الله سبع ركعات شكراً لله فأجاز الله له ذلك وترك الفجر لم يزد فيها لضيق وقتها، لأنّه يحضرها ملائكة اللّيل وملائكة النّهار، فلمّا أمره الله تعالى بالتقصير في السّفر وضع عن أمّته ستّ ركعات وترك المغرب لم ينقص منها شيئاً»(١).

وفي **«البحار»** من كتاب الاختصاص بإسناده عن جابر بن يزيد، قال تلوت على أبي جعفر عليه السلام هذه الآية من قول الله:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فقال إنّ رسول الله ﷺ حرص أن يكون على وليّ الأمر من بعده فذلك الذي عنى الله.

---

(١) الكافي: ٣/ ٤٨٧ ح ٢، ووسائل الشيعة: ٤/ ٥٠ ح ٤٤٨٦.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وكيف لا يكون له من الأمر شيء وقد فوض الله إليه فقال: ما أحلّ النّبي فهو حلال وما حرّم النّبي فهو حرام.

وفيه أيضاً من بصائر الدّرجات بإسناده عن محمّد بن الحسن الميثمي، عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ الله أدّب رسوله حتّى قوّمه على ما أراد ثم فوض إليه فقال:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

فما فوّض الله إلى رسوله فقد فوّض إلينا، ورواه في **«الكافي»** أيضاً مثله.

وفي **«البحار»** من البصائر أيضاً عن أديم بن الحر، قال أديم: سأله موسى بن أشيم يعني أبا عبد الله عليه السلام عن آية من كتاب الله فخبّره بها، ولم يبرح حتّى دخل رجل فسأله عن تلك الآية بعينها فأخبره بخلاف ما أخبره، قال ابن أشيم: فدخلني من ذلك ما شاء الله حتّى كنت كاد قلبي أن يشرح بالسّكاكين، وقلت: تركت أبا قتادة بالشّام لا يخطىء في الحرف الواحد الواو وشبهها وجئت إلى من يخطىء هذا الخطأ كله، فبينا أنا كذلك إذ دخل عليه آخر فسأله عن تلك الآية بعينها فأخبره بخلاف ما أخبرني، والذي سأله بعدي فتجلى عنّي وعلمت أنّ ذلك تعمّداً منه، فحدّثت نفسي بشيء فالتفت إلى أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا ابن أشيم لا تفعل كذا وكذا فحدّثني عن الأمر الذي حدثت به نفسي ثمّ قال: يا ابن أشيم إنّ الله فوّض إلى سليمان بن داوود فقال:

﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩] وفوّض إلى نبيّه فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

فما فوّض إلى نبيّه فقد فوّضه إلينا، ورواه في **«الكافي»** نحوها إلى غير ذلك ممّا وردت في هذا الباب هذا.

والمستفاد من الرّوايتين الأخيرتين هو ثبوت التّفويض إلى الأئمة كما ثبت للنّبيّ صلى الله عليه وآله، وهو نصّ الصّدوق في عبارته التي نقلناها سابقاً، ولكنه مشكل جدّاً، وذلك لأنّ الظاهر من تفويض أمر الدّين إليهم حسبما ذكرناه سابقاً هو تسليم أمره إليهم وجعله موكولاً إلى اختيارهم، بمعنى أن يكون لهم الخيار في تحريم شيء أو تحليله والحكم بطهارة شيء أو نجاسته إلى غير ذلك من الأحكام الشّرعية والوضعيّة وهو مناف للأحاديث المستفيضة بل المتواترة الدّالة على أنّ جميع الأحكام ممّا علمه رسول الله عليّاً والأئمة من ولده، وأنّه ما بقي شيء يحتاج إليه الأمّة من الأحكام الشّرعيّة والمسائل الدّينيّة حتّى أرش الخدش إلاّ بيّنه صلى الله عليه وآله.

وتنافيه للتّفويض ظاهر، إذ المستفاد من هذه الأخبار أنّه لم يبق من أمر الدّين شيء إلاّ وأودعه ﷺ عندهم، فلم يبق حكم واقعي حتّى يفوّض الأمر فيه إليهم أو يحكموا به من تلقاء أنفسهم؛ بل الظاهر أنّ كلّ ما حكموا به فهو نور مقتبس من أنوار الرّسالة.

ومنه ينقدح إشكال آخر، وهو أنّ المستفاد من كثير من الأخبار والآيات أنّ في القرآن تبيان كلّ شيء، وأنّه لا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين، وأنّ جميع الأحكام ممّا نزل به الرّوح الأمين من عند ربّ العالمين، وذلك ينافي التفويض إلى النبي أيضاً بالتقريب الذي ذكرناه آنفاً، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩] ومن المعلوم أنّه كثيراً ما كان ينتظر الوحي ولا يجيب من تلقاء نفسه، فلو كان الأمر مفوّضاً إليه لما احتاج إلى ذلك.

ويمكن الجواب عن الإشكال الأوّل بحمل الأحكام المفوّضة إليهم على الأحكام الظاهريّة كالواردة في مقام التّقية، وربّما يشعر به الرّواية الأخيرة إلاّ أنّ المستفاد من ذيلها كالرّواية المتقدّمة عليها هو كون التّفويض إلى الأئمة على حدّ التّفويض إلى النّبيّ ﷺ وأنّ ما فوّض إلى رسول الله فوّض إلى الأئمة، وقد ظهر من رواية الفضيل أنّ التّفويض إليه ﷺ إنّما هو في الأحكام الواقعيّة فالأولى الجواب بأنّ المراد بالتّفويض إليهم هو التّفويض في تشريع الأحكام واختراعها.

لا يقال: إنّ تشريع الأحكام كان مختصّاً بالنّبي ﷺ إذ لم يبق بعده حكم حتّى يكون مفوّض التشريع إلى الأئمة.

لأنّا نقول: إنّ غاية ما يستفاد من الأخبار هو أنّ إكمال الدّين وإنزال جميع الأحكام كان في زمن النّبي ﷺ وأمّا تبليغه لها كلّها إلى الأمة فلا، بل لم يبلّغ صلوات الله عليه إلاّ قليلاً من الأحكام، وإنّما أودعها كلّها عند الأئمة وسلّمها إليهم وهم عليهم السّلام بلّغوا منها إلى الأمّة ما كانت محتاجة إليه، وبقي مخزوناً عندهم ما لم يكن لها إليه حاجة.

وبمثل هذا الجواب أيضاً يمكن الذب عن الإشكال الثّاني إلاّ أنّ التّحقيق في الجواب عنه أن يقال: إنّ كون جميع الأحكام ممّا أوحي بها إلى النّبيّ لا ينافي التّفويض إليه، لأنّ المستفاد من الأخبار أنّ تفويض أمور الدّين إليه ﷺ إنّما وقع بعد أن أدّبه الله سبحانه، والمراد بتأديبه هو اجتباؤه بالهداية إلى جميع ما فيه صلاح العباد في أمر المعاش والمعاد، وإكرامه بالعصمة المانعة من الخطأ والزّلل، وإكمال عقله وإقداره على معرفة جهات الأفعال من المصالح والمفاسد الواقعة فيها.

فيكون محصّل المراد بتلك الأخبار أنّ الله أكمل عقل نبيّه وعلّمه جميع المصالح والمفاسد الواقعيّة، فحسن علمه وكماله، ثمّ فوّض إليه أمر دينه أي أذن له في مراجعة عقله

في معرفة الأحكام، فعرف في شيء جهة حسن ملزم فحكم في نفسه بوجوبه، وفي شيء آخر جهة قبح ملزم فحكم في نفسه بحرمته، وهكذا ثمّ لحقه الإجازة من الله سبحانه، فحاله عند التحقيق كحال المجتهد إذا رجع الأدلة فحكم بحكم ثمّ عرض على المعصوم فأقره عليه وأجاز له ذلك.

وبعبارة أخرى: إنّ الله لمّا أكمل نبيّه بالعقل والعلم والعصمة والهداية، والنبي لمّا عرف الجهات الواقعيّة للأفعال، فعيّن في نفسه الشّريف لكلّ فعل حكماً من الأحكام على حسب ملاحظة الجهات ومراعاة اقتضاء المقتضيات الواقعيّة فلحقه الإجازة منه سبحانه بما عيّنه في نفسه، ثمّ كلف النّاس به بعد لحوق الإجازة فيكون وحياً ويندرج في أحكام الله سبحانه، ثمّ في الكتاب المشتمل عليها وعلى غيرها، وكيف كان فلا ينطق بما اختاره في نفسه إلاّ بعد الإجازة ونزول وحي يدلّ على تقريره عليه.

ومن هنا ذهب بعض أصحابنا الأصوليّين إلى أنّ المراد بقولهم كلما حكم به العقل حكم به الشّرع: هو العقل الكلّ العالم بالجهات المحسّنة والمقبحة العارف بالمصالح والمفاسد الواقعيّة، ويوضح ما حققناه، ما ورد في أمر تحويل القبلة من أنّ النبيّ كان متعبداً باستقبال بيت المقدّس، فلما عيرت به اليهود وقالوا له: إنك تابع لقبلتنا كره استقبال قبلتهم وأحبّ التحويل إلى الكعبة فأنزل الله سبحانه:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد اختار في نفسه التّحويل، ومع ذلك لم يكلف النّاس به من هوى نفسه وإنما كلفهم بعد نزول الوحي، فولى وجهه شطره فولوا وجوههم إليه، فافهم واغتنم.

الثالث

تفويض أمر الخلق إليهم من سياستهم وتأديبهم وتكميلهم وتعليمهم ووجوب إطاعتهم فيما أحبوا وكرهوا، وفيما علموا جهة المصلحة فيه وما لم يعلموا، وبعبارة أخرى أنه تعالى فوّض زمام الخلق إليهم وأوجب عليهم طاعتهم في كلّ ما يأمرون به وينهون عنه، سواء علموا جهة المصلحة أم لم يعلموا، وإنما الواجب عليهم الإذعان والإنقياد.

قال العلاّمة المجلسي (ره): وهذا المعنى حقّ دلت عليه الآيات والأخبار وأدلة العقل (ا ه)، أقول: من الآيات قوله تعالى:

﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ومن الأخبار ما رواه في «الكافي» بإسناده عن أبي إسحاق النحوي قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فسمعته يقول: إنّ الله أدّب نبيّه على محبته فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ثمّ فوّض إليه، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]

ثمّ قال: وإنّ نبيّ الله فوّض إلى عليّ وأئتمنه فسلمتم وجهد الناس فوالله لنحبكم (**لحسبكم خ ل**) أن تقولوا إذا قلنا، وأن تصمتوا إذا صمتنا ونحن فيما بينكم وبين الله ما جعل الله لأحد خيراً في خلاف أمرنا[1].

وفي «**الكافي**» و«**البحار**» من بصائر الدّرجات بإسنادهما عن زرارة قال سمعت أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام يقول: «إنّ الله فوّض إلى نبيه أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم» ثمّ تلي هذه الآية:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وعن زرارة أيضاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: «وضع رسول الله صلى الله عليه وآله دية العين ودية النفس ودية الأنف، وحرّم النبيذ وكلّ مسكر» فقال له رجل: فوضع هذا رسول الله من غير أن يكون جاء فيه شيء؟ قال: نعم ليعلم من يطع الرّسول ممن يعصيه[2].

الرابع

تفويض القول بما هو أصلح لهم أو للخلق بسبب اختلاف العقول والأفهام والأزمنة والحالات أو غير ذلك من الاعتبارات.

وبعبارة أوضح أنّه سبحانه فوّض إليهم بيان العلوم والأحكام بما أراد وأراد المصلحة فيها بسبب اختلاف عقول النّاس وبسبب التقيّة فيفتون بعض النّاس بالواقع من الأحكام وبعضهم بالتقيّة، ويبيّنون تفسير الآيات وتأويلها بحسب ما يحتمل عقل كلّ سائل، ولهم أن يبيّنوا ولهم أن يسكتوا بحسب ما يراهم الله من مصالح الوقت ويشهد بذلك رواية ابن أشيم السّالفة.

وما رواه الكلينيّ بإسناده عن الوشا عن الرّضا عليه السلام قال: قلت له: حقّا علينا أن نسألكم قال: نعم، قلت: حقاً عليكم أن تجيبونا، قال: لا ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل أما تسمع قول الله

---

(١) الأصول الستة عشر/ ٣٤، الكافي: ١/ ٢٦٥ ح (١).
(٢) بصائر الدرجات: ٤٠١ ح ١٤، شرح أصول الكافي: ٦/٥٨ ح ٧.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

وبإسناده عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن مسألة فأجابني ثمّ جاءه رجل آخر فسأله عنها فأجابه بخلاف ما أجابني، ثمّ جاء آخر فأجابه بخلاف ما أجابني وأجاب صاحبي، فلمّا خرج الرّجلان قلت له: يا ابن رسول الله رجلان من أهل العراق من شيعتكم قدما يسألان فأجبت كلّ واحد منهما بغير ما أجبت به صاحبه، فقال: يا زرارة إنّ هذا خير لنا ولكم وأبقى لنا ولكم ولو اجتمعتم على أمر واحد لما صدقكم النّاس علينا ولكان أقلّ لبقائنا ولبقائكم.

وعن الخصال بسنده عن حماد قال: قلت للصّادق عليه السلام: إن الأحاديث تختلف عنكم قال: فقال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف وأدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه ثمّ قال:

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

وفي «**الكافي**» مسنداً عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسألك عن المسألة فتجيبني فيها بالجواب، يجيئك غيري فتجيب فيها بجواب آخر، فقال: إنّا نجيب النّاس على الزّيادة والنقصان[١].

قال العلاّمة المجلسي: ولعلّ تخصيص هذا النحو من التفويض بالنّبي والأئمة عليهم السّلام لعدم تيسّر هذه التّوسعة لسائر الأنبياء والأوصياء، بل كانوا مكلّفين بعدم التّقية في بعض الموارد وإن أصابهم الضّرر[٢].

الخامس

التّفويض في قطع الخصومات ومقام القضاء، فلهم أن يحكموا بظاهر الشريعة ولهم أن يحكموا بعلمهم وبما يلهمهم الله من الواقع ومخ الحقّ في كلّ واقعة.

ويدلّ عليه ما رواه محمّد بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لا والله ما فوّض الله إلى أحد من خلقه إلاّ إلى الرسول وإلى الأئمة عليه وعليهم السّلام فقال:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وهي جارية في الأوصياء. فإنّ الظاهر أنّ المراد بالإراءة هو الإلهام وما يلقى في القلب

(١) الكافي ١/٦٥ ح ٣، بحار الأنوار: ٢/٢٢٨ ح ١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٢٥/٣٤٩.

فتدلّ على التّفويض بالمعنى المذكور، ويأتي تحقيق ذلك إن شاء الله في شرح كلامه المائة والتاسع عشر.

السادس

التفويض في العطاء والمنع، فإنّ الله تعالى خلق لهم الأرض وما فيها وجعل لهم الأنفال والخمس والصّفايا فلهم أن يعطوا من شاؤوا وأن يمنعوا من شاؤوا.

ويدلّ عليه ما رواه في «**البحار**» من كتاب «**الاختصاص**» و«**بصائر الدّرجات**»، عن محمّد بن خالد الطيالسي عن سيد بن عميرة عن أبي بكر الحضرمي عن رفيد مولى ابن هبيرة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام إذا رأيت القائم أعطى رجلاً مائة ألف وأعطى آخر درهماً فلا يكبر في صدرك، وفي رواية أخرى فلا يكبر ذلك في صدرك فإنّ الأمر مفوض إليه[١].

وفي هذا المعنى أخبار كثيرة أوردها الأصحاب بعضها في أبواب الخمس وبعضها في أبواب الجهاد هذا، وأنت بعدما أحطت خبراً بما ذكرناه من أقسام التّفويض وعرفت صحيحها وباطلها ظهر لك فساد القول بالنفي والإثبات على وجه الإطلاق، وعليك بالتّأمّل حقّ التأمل في هذا المقام فإنّه من مزالّ الأقدام[٢].

---

(١) البحار: ٢٥/٣٣٦، والبصائر: ٤٠٦.

(٢) **تحقيق في معنى التفويض**

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «من خصه الله بالروح فقد فوض اليه أمره ان يخلق باذنه»[١].

ـ وعن الفتح الجرجاني قال: قلت للرضا عليه السلام: جعلت فداك وغير الخالق الجليل خالق؟

قال: إن الله تعالى يقول: **﴿تبارك الله أحسن الخالقين فقد أخبر أن في عباده خالقين منهم عيسى ابن مريم، خلق من الطين كهيئة الطير باذن الله، فنفخ فيه فصار طائراً باذن الله﴾**[٢].

وفي زيارات أبي عبد الله الحسين عليه السلام التي رواها ابن قولويه بسند صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام جاء فيها: «بكم يباعد الله الزمان الكلب، وبكم يمحو الله ما يشاء وبكم يثبت، وبكم تنبت الأرض اشجارها وبكم تخرج الأرض اثمارها وبكم تنزل السماء قطرها ورزقها، وبكم ينزل الله الغيث، ارادة الرب في مقادير اموره تهبط اليكم وتصدر من بيوتكم»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في خبر طويل جاء فيه: «وصرت انا صاحب أمر النبي صلى الله عليه وآله قال الله: **﴿يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده﴾** وهو روح الله لا يعطيه ولا يلقي هذا الروح إلاّ على ملك مقرب او نبي مرسل او وصي منتجب، فمن اعطاه الله هذا الروح فقد ابانه من الناس، وفوض اليه القدرة واحيى الموتى»[٤].

---

(١) الهداية الكبرى: ٢٣٠ الباب السادس.

(٢) التوحيد للصدوق: ٦٣ باب ٢ باب التوحيد ح ١٨. (٣) كامل الزيارات: ٢٠٠ الباب ٧٩.

(٤) بحار الأنوار: ٢٦/٥ باب نادر في معرفتهم بالنورانية ح ١.

....

وقال عليه السلام: قال تعالى:{ يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده} ولا يعطى هذا الروح إلاّ من فوض اليه الامر والقدر، وانا احيي الموتى»[١].

وعن جابر الجعفي في حديث طويل مع الإمام الباقر عليه السلام جاء فيه:

قلت: يا سيدي وما معرفة روحه؟

قال عليه السلام: «ان يعرف كل من خصه الله تعالى بالروح فقد فوض اليه امره ؛ يخلق باذنه ويحيي باذنه ... فمن خصه الله تعالى بهذا الروح فهذا كامل غير ناقص يفعل ما يشاء باذن الله»[٢].

- وعن محمد بن سنان قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فاجريت اختلاف الشيعة فقال: «يا محمد ان الله تبارك وتعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة فمكثوا ألف دهر، ثم خلق جميع الاشياء فأشهدهم خلقها واجرى طاعتهم عليها وفوض امورها اليهم، فهم يحلون ما يشاؤون ويحرمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلاّ ان يشاء الله تبارك وتعالى.

ثم قال: يا محمد هذه الديانة التي من تقدمها مرق ومن تخلف عنها محق ومن لزمها لحق، خذها اليك يا محمد»[٣].

هذا لفظ الكافي وفي رياض الجنان جاء بلفظ:

«ان الله لم يزل متفرداً في الوحدانية، ثم خلق محمداً وعليا وفاطمة عليهم السلام: فمكثوا ألف دهر، ثم خلق الاشياء واشهدهم خلقها واجرى عليها طاعتهم وجعل فيهم ما شاء، وفوض أمر الاشياء اليهم في الحكم والتصرف والارشاد والامر والنهي في الخلق لانهم الولاة ؛ فلهم الامر والولاية والهداية، فهم ابوابه ونوابه وحجّابه يحللون ما شاء ويحرمون ما شاء ولا يفعلون إلاّ ماشاءُ، عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. الى ان يقول: خذها يا محمد فانها من مخزون العلم و مكنونه»[٤].

والمتتبّع للروايات يدرك ذلك وسوف أنقل لك كلام العلاّمة المجلسي الذي وقف على جلّ هذه الروايات وخرج بالنتيجة التالية قال:

فذلكة: اعلم ان الغلو في النبي والأئمّة: انّما يكون بالقول بألوهيتهم أو بكونهم شركاء لله تعالى في المعبودية أو في الخلق والرزق أو ان الله تعالى حلّ فيهم أو اتحد بهم، أو انّهم يعلمون الغيب بغير وحي أو إلهام من الله تعالى، أو بالقول في الأئمّة: انّهم كانوا أنبياء أو القول بتناسخ أرواح بعضهم إلى بعض أو القول بأن معرفتهم تغني عن جميع الطاعات ولا تكليف معها بترك المعاصي.

والقول بكل منها إلحاد وكفر وخروج عن الدين، كما دلّت عليه الأدلّة العقلية والآيات والأخبار السالفة وغيرها، وقد عرفت ان الأئمّة: تبرؤوا منهم وحكموا بكفرهم وامروا بقتلهم وان قرع سمعك شيء من الأخبار الموهمة لشيء من ذلك فهي اما مأوّلة أو هي من مفتريات الغلاة.

ولكن أفرط بعض المتكلّمين والمحدّثين في الغلو لقصورهم عن معرفة الأئمّة عليهم السلام: وعجزهم عن إدراك غرائب أحوالهم وعجائب شؤونهم فقدحوا في كثير من الرواة الثقات لنقلهم بعض غرائب المعجزات حتى قال بعضهم: من الغلو نفي السهو عنهم أو القول بأنّهم يعلمون ما كان وما يكون وغير ذلك.

---

(١) مشارق انوار اليقين: ١٦١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٦/ ١٤. ١٥ باب نادر في معرفتهم بالنورانية ح ٢.

(٣) اصول الكافي: ١/ ٤٤١ مولد النبي من ابواب التاريخ ح ٥، وبحار الأنوار: ٢٥/ ٣٤٠ ح ٢٤.

(٤) بحار الأنوار: ٢٥/ ٣٣٩ باب نفي الغلو من كتاب الامامة ح ٢١.

....

مع انّه قد ورد في أخبار كثيرة: «لا تقولوا فينا ربّاً وقولوا ما شئتم ولن تبلغوا» وورد: «ان أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبدٌ امتحن الله قلبه للايمان» وورد: «لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله»، وغير ذلك ممّا مرّ وسيأتي[١].

وقال في موضع آخر: قد عرفت مراراً ان نفي علم الغيب عنهم معناه انّهم لا يعلمون ذلك من أنفسهم بغير تعليمه تعالى بوحي أو إلهام وإلاّ، فظاهر أن عمدة معجزات الأنبياء والأوصياء: من هذا القبيل[٢].

وللعلاّمة الأميني كلام مشابه جميل لا بأس بالرجوع إليه[٣].

* خلاصة ودليل:

قد وجدت بعد ذلك رواية يدّعي فيها الجاثليق ان من أحيى الموتى فهو ربٌّ مستحق أن يُعبد، ولذلك قالوا بربوبية عيسى عليه السلام.

فأجابه الإمام الرضا٧ بأن احياء الموتى لا يؤدي للقول بالربوبية وذلك لأنّه يحيي بإذن الله تعالى.

قال الإمام الرضا ﷺ: «... فان اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى مشى على الماء وأحيا الموتى وابرأ الاكمه والأبرص، فلم يتخذه امته رباً ولم يعبده أحدٌ من دون الله.

ولقد صنع حزقيل النبي مثل ما صنع عيسى ابن مريم ﷺ فأحيا خمسة وثلاثين ألف رجل من بعد موتهم بستين سنة».

وساق الحديث وذكر إحياء النبي محمد ﷺ للموتى وابراء الاكمه والابرص فقال: «لقد ابرأ النبي محمد الاكمه والابرص والمجانين وكلمه البهائم والطير والجن والشياطين ولم نتخذه رباً من دون الله عزوجل»[٤].

وقوع التفويض في القرآن الكريم

١ ـ **﴿انّا نحن نزّلنا الذكر ـ نزل به الروح الأمين﴾**. [الحجر: ٩، الشعراء: ٩٣].

٢ـ **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** [الأنفال: ١٧].

٣ ـ **﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم وقال: الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ ﴿طيبين﴾** [السجدة: ١١، النحل: ٢٨ ـ ٣٢].

وقال تعالى: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾** [الزمر: ٤٢].

ففي عين نسبة الاماتة لملك الموت نسبها للملائكة ثم نسبها لنفسه تعالى. وهذا تفويض لملك الموت في الإماتة وليس هو بعرض إماتة الله للأنفس.

وأيضاً هنا تفويض آخر وهو تفويض جبرائيل الإماتة للملائكة أو الله للملائكة.

٤ ـ **﴿والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً﴾** [النازعات: ١ ـ ٥].

فأسند الله عزّوجلّ تدبير أمور الكون إلى الملائكة عموماً أو إلى الملائكة الأربعة المدبرة، فجبرائيل يدبر الرياح والجنود والوحي، وميكائيل يدبّر أمر القطر والنبات، وعزرائيل موكّل بقبض الأرواح، وإسرافيل

---

(١) البحار: ٣٤٦/٢٥ . ٣٤٧ باب نفي الغلو.

(٢) بحار الأنوار: ١٠٣/٢٦ باب انّهم لا يعلمون الغيب ح٦.

(٣) الغدير: ٥٢/٥ إلى ٦٥.

(٤) التوحيد للصدوق: ٤٢٣ باب ذكر مجلس الرضا ح١ باب ٦٥.

يتنزل بالأمر عليهم وهو صاحب الصور، وقيل إسرافيل موكّل بالاحياء[(١)].

قال صدر المتألهين: ولا شك لمن له قدم راسخ في العلم الإلهي والحكمة التي هي فوق العلوم الطبيعية، ان الموجودات كلّها من فعل الله بلا زمان ولا مكان، ولكن بتسخير القوى والنفوس والطبائع، وهو المحيي والمميت والرازق والهادي والمضل، ولكن المباشر للاحياء ملك اسمه اسرافيل، وللإماتة ملك اسمه عزرائيل يقبض الأرواح من الأبدان، وللأرزاق ملك اسمه ميكائيل يعلم مقادير الأغذية ومكائيلها، وللهداية ملك اسمه جبرائيل، وللإضلال دون الملائكة جوهر شيطاني اسمه عزازيل، ولكل من هذه الملائكة أعوان وجنود من القوى المسخّرة لأوامر الله[(٢)].

وقال الحافظ البرسي: .. فمظهر ركن الحياة إسرافيل ومظهر ركن العلم جبرائيل ومظهر ركن الإرادة ميكائيل، ومظهر ركن القدرة عزائيل[(٣)].

٦ ـ ﴿إذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ [المائدة: ١١٠].

٧ ـ ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٨ ـ تبارك الله أحسن الخالقين . المؤمنون: ١٤ . .

(١) يراجع تفسير الميزان: ٢٠/ ١٨٠، والأربعون حديثاً للإمام الخميني: ٤٩٠ .

(٢) شرح دعاء السحر: ٩٤ .

(٣) مشارق أنوار اليقين: ٣٢ .

الترجمة

و گفته اميرمؤمنان عليه التحية و السلام در وقتى كه عزم نمود بر حرب خوارج نهروان و گفته شده آن حضرت را كه خارجيان عبور كرده اند از پل نهروان:

مواضع هلاك شدن ايشان نزد آب نهروان است، به خدا سوگند نمى رهند از ايشان ده نفر و هلاك نمى شود از شما ده نفر.

شارح مى گويد به قرارى كه آن حضرت خبر داده بود، نه نفر از خوارج خلاصى يافت و نه نفر از اصحاب آن حضرت شهيد شد و اين از جمله اخبار غيبيه آن حضرت است.

وقال عليه السلام لما قتل الخوارج وهو التاسع والخمسون من المختار في باب الخطب

فقيل له يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم:

«كلاَ وَاللَّهِ إِنَّهُمْ نُطَفٌ في أَصْلاَبِ الرِّجالِ، وقَراراتِ النِّساءِ، كلَّما نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونُ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ»[1].

اللغة

(القرار) والقرارة بالفتح ما قرّ فيه شيء وسكن والمراد هنا الأرحام و**(نجم)** ينجم من باب نصر ظهر وطلع و**(القرن)** الرّدق من الحيوان وموضعه من رأس الإنسان أو الجانب الأعلى منه والقرن من القوم سيّدهم ورئيسهم و**(اللصوص)** جمع لص مثلثة و**(السّلب)** الاختلاس.

الإعراب

قوله: في أصلاب الرّجال، متعلق بالاستقرار المقدّر صفة للنطف، وسلاّبين حال مؤكدة.

المعنى

هذا الكلام أيضاً من جملة أخباره الغيبيّة حسبما عرفت في شرح كلامه السّابق فإنّ أصحابه لمّا توهّموا هلاك القوم جميعاً واستئصالهم ردعهم بقوله **(كلاّ والله إنّهم نطف)** مستقرّة **(في أصلاب الرّجال وقرارات النّساء)** يعني أنّ قوماً ممّن يرى رأيهم ويقول بمثل مقالتهم الآن موجودون بعضهم في أصلاب الأباء وبعضهم في أرحام الأمهات، وسيظهرون ويتّبعون لهم ويكون لهم رؤوساً ذو أتباع و**(كلّما نجم منهم قرن قطع)** أراد به استئصال رؤسائهم واستعار لهم لفظ القرن مرشحاً بذكر النجم والقطع لكونهما من ملائمات المستعار منه، ثمّ أشار إلى ما يصير إليه حالهم من الدّناءة والابتذال بقوله **(حتّى يكون آخرهم لصوصاً سلاّبين)** أي قطاعاً للطريق.

روي أنّ طائفة من الخوارج لم يحضروا القتال ولم يظفر بهم أمير المؤمنين ﷺ وقد عرفت في شرح الكلام السّابق أنّ المفلتين من القتل كانوا تسعة نفر، فتفرقوا في البلاد وشاعت

(١) شرح مئة كلمة: ٢٣٨، وبحار الأنوار: ٣٣/٤٣٣ ح ٦٤١.

بدعهم فيها وصاروا نحواً من عشرين فرقة وكبارها ستّ وقيل سبع.

إحداها المحكمة

وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليه السلام عند التحكيم وكفروه، وهم اثنا عشر ألف رجل كانوا أهل صلاة وصيام، وفيهم قال النّبي صلى الله عليه وآله: «يحقر صلاة أحدكم في جنب صلاتهم، وصوم أحدكم في جنب صومهم، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم»، قالوا: من نصب من قريش وغيرهم وعدل فيما بين النّاس فهو إمام، وإنّ غيّر السّيرة وجار وجب أن يعزل أو يقتل ولم يوجبوا نصب الإمام، وجوّزوا أن لا يكون في العالم إمام وكفروا عثمان وأكثر الصّحابة ومرتكب الكبيرة[1].

الثانية البيهسية

أصحاب أبي بيهس هيصم بن جابر وكان بالحجاز وقتل في زمن الوليد قالوا: الإيمان هو الإقرار والعلم بالله وبما جاء به الرّسول فمن وقع فيما لا يعرف أحلال هو أم حرام فهو كافر، لوجوب الفحص عليه حتّى يعلم الحقّ، وقيل لا يكفر حتّى يرجع أمره إلى الإمام فيحده وكلّما ليس فيه حدّ فمغفور، وقيل لا حرام إلاّ ما في قوله:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية.

وقالوا: إذا كفر الإمام كفرت الرّعيّة حاضراً أو غيباً، وقال بعضهم السّكر من شراب حلال لا يؤاخذ صاحبه.

الثالثة الأزارقة

أصحاب نافع بن الأزرق وكانوا أكبر الفرق غلبوا على الأهواز وبعض بلاد فارس وكرمان في أيّام عبد الله بن الزبير، وهم في ثلاثين ألف فارس فأنفذ إليهم المهلب ولم يزل في حربهم هو وأولاده تسع عشرة إلى أن فرغ من أمرهم في أيّام الحجّاج ومذهبهم أنّهم قالوا: كفر علي بالتّحكيم، وهو الذي أنزل الله في شأنه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وابن ملجم محقّ في قتله، وهو الذي أنزل في شأنه:

---

(١) راجع من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٥٤٤.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وفيه قال شاعرهم:

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً
إني لأذكره يوماً فأحسبه أو في البريّة عند الله ميزاناً

عليه وعليهم ألف ألف لعنة من الله والملائكة والنّاس أجمعين، وقالوا: أيضاً بكفر عثمان وطلحة والزّبير وعائشة وعبد الله بن العبّاس وسائر المسلمين معهم وقضوا بتخليدهم في النّار، وكفروا الذين قعدوا عن القتال وإن كانوا موافقين لهم في الدّين، وقالوا بتحريم التّقيّة في القول والعمل وبجواز قتل أولاد المخالفين ونسائهم وأنّه لا رجم على الزّاني المحصن إذ هو غير مذكور في القرآن، والمرأة إذا قذفت أحداً لاتحدّ، لأنّ المذكور في القرآن هو صيغة الذين وهي للمذكر، وجوّزوا أن يكون النبي كافراً وإن كان بعد النبوة، وقالوا: إنّ مرتكب الكبيرة كافر.

الرابعة النجدات

نسبتهم إلى نجدة بن عامر النّخعي وكان معه أميران يقال: لأحدهما عطية وللآخر أبو فديك، ففارقاه بشبهة ثمّ قتله أبو فديك وصار لكلّ منهما جمع عظيم؛ وقتلا في زمن عبد الملك، وهم افترقوا من حيث المذهب إلى فرق عديدة منها:

العاذرّية وهم الذين عذروا النّاس في الجهالات بالفروع وذلك أنّ نجدة وجد لعنه الله بجيش إلى أهل القطيف فقتلوهم وأسروا نساءهم ونكحوهن قبل القسمة وأكلوا من الغنيمة قبلها أيضاً فلمّا رجعوا إلى نجدة وأخبروه بما فعلوا قال: لم يسعكم ما فعلتم، فقالوا: لم نعلم أنّه لا يسعنا فعذروهم بجهالتهم وقال النّجدات كلّهم: لا حاجة للنّاس إلى الإمام بل الواجب عليهم رعاية النّصفة فيما بينهم ويجوز لهم نصبه إذا توقّفت عليه الأمور وخالفوا الأزارقة في غير التّكفير.

ومنها الأصغرية أصحاب زياد بن الأصغر يخالفون الأزارقة في تكفير من قعد عن القتال إذا كانوا موافقين لهم في الدّين وفي إسقاط الرّجم فإنّهم لم يسقطوه وجوّزوا التّقية في القول دون العمل، وقالوا المعصية الموجبة للحدّ لا يسمّى صاحبها إلاّ بها فيقال سارق مثلاً ولا يقال كافر وما لا حدّ فيه لعظمته كترك الصّلاة والصّوم يقال لصاحبه كافر.

الخامسة الأباضية

نسبتهم إلى عبد الله بن أباض كان في أيام مروان بن محمّد فوجد إليه عبد الله محمّد بن عطية فقاتله وقتله، وهؤلاء ذهبوا إلى أنّ مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين

يجوز مناكحتهم وغنيمة أموالهم حلال عند الحرب دون غيره، ودارهم دار الإسلام إلاّ معسكر سلطانهم، ومرتكب الكبيرة موحّد غير مؤمن بناء على أنّ الأعمال داخلة في الإيمان، وفعل العبد مخلوق لله تعالى ومرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة لا كفر ملّة، وتوقفوا في النّفاق أهو شرك أم لا وكفروا عليّاً وأكثر الصّحابة وتحت هذه الفرقة أيضاً فرق عديدة.

منهم الحفصيّة نسبتهم إلى أبي حفص بن أبي المقدام وزادوا على الإباضية أنّ بين الإيمان والشّرك معرفة الله تعالى فإنّها خصلة متوسطة بينهما، فمن عرف الله تعالى وكفر بما سواه من رسول أو جنّة أو نار أو بارتكاب كبيرة فكافر لا مشرك.

ومنهم اليزيدية وهم أصحاب يزيد بن أنيسة زادوا على الأباضية بقولهم: إنّه سيبعث نبيّ من العجم بكتاب يكتب في السماء وينزل جملة واحدة ويترك شريعة محمّد إلى ملّة الصّابئة المذكورة في القرآن، وقالوا أصحاب الحدود مشركون، وكلّ ذنب شرك صغيرة كانت أو كبيرة.

ومنهم الحارثية وهم أصحاب أبي الحارث الأباضي، خالفوا الأباضية في القدر أي كون أفعال العباد مخلوقة منه تعالى، وفي كون الاستطاعة قبل الفعل.

السادسة العجاردة

أصحاب عبد الكريم بن عجرد، زعموا أنّ العبد إذا أتى بما أمر به ولم يقصد الله كان ذلك طاعة، وقالوا أيضاً بوجوب التبرّي عن الطفل حتّى يدّعي الإسلام بعد البلوغ، ويجب دعاؤه إلى الإسلام إذا بلغ، وهذه الفرقة افترقوا فرقاً كثيرة:

منهم الميمونية نسبتهم إلى ميمون بن عمران قالوا: بإسناد الأفعال إلى قدر العباد، وتكون الاستطاعة قبل الفعل وأن الله يريد الخير دون الشر ولا يريد المعاصي كما هو مذهب المعتزلة، قالوا: وأطفال الكفّار في الجنّة، ويروي منهم تجويز نكاح البنات للبنين والبنين للبنات، وجوّزوا أيضاً نكاح بنات البنين وبنات البنات وبنات أولاد الأخوة والأخوات، ونقل عنهم إنكار سورة يوسف فإنهم زعموا أنّها قصّة من القصص، ولا يجوز أن تكون قصّة العشق قرآناً.

ومنهم الحمزية نسبتهم إلى حمزة بن أدرك وافقوا الميمونيّة إلاّ أنّهم قالوا أطفال الكفّار في النّار.

ومنهم الشّعيبيّة نسبتهم إلى شعيب بن محمّد وهم كالميمونيّة في بدعتهم إلاّ في القدر.

ومنهم الحازميّة نسبتهم إلى حازم بن عاصم وافقوا الشّعيبيّة ويحكى عنهم أنّهم يتوقفون في أمر علي ولا يصرّحون بالبراءة منه كما يصرحون بالبراءة من غيره.

ومنهم الخلفية أصحاب خلف الخارجي وهم خوارج كرمان أضافوا القدر خيره وشره إلى الله وحكموا بأنّ أطفال المشركين في النار بلا عمل وشرك.

ومنهم الأطرافية وهم على مذهب حمزة ورئيسهم رجل من سجستان يقال له: غالب إلاّ أنّهم قالوا بمعذورية أهل الأطراف فيما لم يعرفوه من الشريعة إذا أتوا بما يعرف لزومه من جهة العقل، ووافقوا أهل السّنة في أصولهم.

ومنهم المعلومية هم كالحازمية إلاّ أنّ المؤمن عندهم من عرف الله بجميع أسمائه وصفاته، ومن لم يعرفه كذلك فهو جاهل لا مؤمن وفعل العبد مخلوق لله تعالى.

ومنهم المجهولية ومذهبهم كمذهب الحازمية أيضاً إلاّ أنهم قالوا يكفي المعرفة ببعض أسمائه، فمن علمه كذلك فهو عارف به وفعل العبد مخلوق له.

ومنهم الصّلتية نسبتهم إلى عثمان بن أبي الصلت، وهم كالعجاردة لكن قالوا من أسلم واستجار بنا تولّينا وتبرأنا من أطفاله حتّى يبلغوا فيدعوا إلى الإسلام فيقبلوا.

السابعة الثعالبة

وربما عدت هذه من فرق العجاردة فتكون الفرق الكبار ستاً، وبعضهم جعلها ستاً بإسقاط المحكمة، وكيف كان فهم أصحاب ثعلبة بن عامر، قالوا بولاية الأطفال صغاراً كانوا أو كباراً حتى يظهر منهم إنكار الحقّ بعد البلوغ، ونقل عنهم أنهم يرون أخذ الزكاة من العبيد إذا استغنوا وإعطاءها لهم إذا افتقروا، وتفرّقوا إلى أربع فرق.

الأولى: الأخنسية أصحاب الأخنس بن قيس، وامتازوا عن الثعالبة بأن توقفوا فيمن هو في دار التقية من أهل القبلة فلم يحكموا عليه بإيمان ولا كفر، ونقل عنهم تجويز نكاح المسلمات من مشركي قهومهن.

الثانية: المعبدية نسبتهم إلى معبد بن عبد الرّحمن، خالفوا الأخنسية في تزويج المسلمات من المشركين وخالفوا الثعالبة في زكاة العبيد أي أخذها منهم ودفعها إليهم.

الثالثة: الشيبانية نسبتهم إلى شيبان بن سلمة قالوا بالجبر ونفي القدرة الحادثة.

الرّابعة: المكرمية نسبتهم إلى مكرم العجلي قالوا تارك الصلاة كافر لا لترك الصلاة بل لجهلهم بالله، فإنّ من علم أنه مطلع على سرّه وعلنه ومجازيه على طاعته ومعصيته لا يتصوّر منه الإقدام على ترك الصلاة، وكذا كلّ كبيرة فإنّ مرتكبها كافر بجهله بالله.

الترجمة

و فرموده آن حضرت وقتى كه قتل نمود خوارج را و عرض كردند به آن حضرت كه جميع طايفه خوارج هلاك و تمام شدند:

نيست و همچنين به خدا قسم به درستى كه ايشان نطفه ها هستند در پشت هاى مردان و در رحم هاى زنان هرگاه ظاهر شود از ايشان شاخى بريده شود تا اين كه مى باشد آخر ايشان دزدان ربايندگان يعنى مآل كارشان به جايى رسد كه در آخر از رذالت و دنائت نفس، قطاع الطريق و راهزن مى شوند.

وقال عليه السلام وهو الستون من المختار
في باب الخطب

«لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ»[1].

قال السّيد: يعني معاوية وأصحابه.

اللغة

المراد **(بالحقّ والباطل)** هنا كلما هو مطلوب لله سبحانه ومبغوض له.

الإعراب

الفاء في الموارد الثلاثة للسّببيّة إلاّ أنها في الأوّل بمعنى لام السّببيّة دون الأخيرين بل هي فيهما للسّبب والعطف.

وتوضيحه يظهر ممّا حقّقه نجم الأئمة الرّضي حيث قال: والفاء التي لغير العطف أيضاً لا تخلو من معنى التّرتيب وهي التي تسمّى فاء السّببيّة وتختص بالجمل وتدخل ما هو جزاء مع تقدّم كلمة الشّرط، نحو: إن لقيته فأكرمه، ومن جاءك فأعطه، وبدونها نحو: زيد فاضل فأكرمه، إلى أن قال: وكثيراً ما تكون فاء السّببية بمعنى لام السببيّة، وذلك إذا كان ما بعده سبباً لما قبله كقوله تعالى:

﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤].

وتقول: أكرم زيداً فإنه فاضل فهذه تدخل على ما هو الشّرط في المعنى كما أنّ الأولى دخلت على ما هو الجزاء في المعنى، وذلك إنّك تقول: زيد فاضل فأكرمه فهذا دخل على الجزاء فإذا عكست الكلام فقلت: أكرمه فإنّه فاضل فقد دخل على ما هو شرط، ثمّ اعلم أنه لا تنافي بين السببية والعاطفة، فقد تكون سببيّة وهي مع ذلك عاطفة جملة على جملة، نحو يقوم زيد فيغضب عمرو، لكن لا يلازمها العطف نحو إن لقيته فأكرمه، انتهى كلامه رفع مقامه.

المعنى

اعلم أنه ﷺ نهى عن قتل الخوارج بعده مشيراً إلى علّة النّهي بقوله **(لا تقتلوا الخوارج**

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٨٤، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤٣٤ ح ٦٤٢.

بعدي) فإنه (ليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه) ومحصّل التعليل أنّ استحقاق القتل إنّما هو بطلب الباطل والوقوع فيه عن علم وعمد لا مجرد الوقوع في الباطل ولو من حيث لا يشعر، والخوارج لمّا لم يكن مقصودهم بالذّات الإدرك الحقّ فأخطأوا فيه ووقعوا في الباطل من حيث لا يشعرون لا جرم نهى عن قتله، وأمّا معاوية وأصحابه فلما كان مطلوبهم بالذّات هو الباطل ومحق الحقّ لم يمنع عليه السلام عن قتلهم بل أمر به فيما سبق من كلامه بقوله: أما إنّه سيظهر عليكم من بعدي رجل رحب البلعوم إلى قوله: فاقتلوه ولن تقتلوه (اه).

أمّا أنّ الخوارج كان مقصودهم بالذّات هو الحقّ ووقوعهم في الباطل كان بالعرض، فلما عرفت من حالهم في شرح الخطبة السّادسة والثلاثين وأنّهم كانوا أهل عبادة وزهادة حتّى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في حقهم: «يخرج قوم من أمّتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صومكم إلى صومهم بشيء إلاّ أنّهم بالغوا في التّحري وشدّة الطلب للحقّ حتّى تجاوزوا عن فضيلة العدل فيه إلى رذيلة الإفراط، وزعموا أنّهم كفروا بالتحكيم، وزعموا كفر أمير المؤمنين بذلك أيضاً فوقعوا في الباطل ومرقوا من الدّين»[1].

وأما أن مقصود معاوية كان بالذّات هو الباطل وهكذا أصحابه، فلما عرفت في شرح الخطبة الخامسة والعشرين وغيرها وستعرف بعد ذلك أيضاً أنه كان أهل زندقة وإلحاد وذا تعرّض لرسول الله صلى الله عليه وآله ومحارباً لأمير المؤمنين عليه السلام وساباً له ولاعناً في الجمعة والأعياد، وكانت أحواله كلها مؤدية بانسلاخه عن العدالة وإصراره على الباطل عليه لعنة الله ولعنة اللاّعنين من الملائكة والإنس والجنّ أجمعين ملأ السّماوات والأرضين.

فإن قلت: إذا كان علة المنع من قتل الخوارج بعده هو عدم كونهم بالذّات طالبين للباطل، فهذه العلة بعينها كانت موجودة في زمانه فلم قاتلهم وقتلهم؟

قلت: أجاب الشّارح البحراني بأنّه نهى عن قتلهم على تقدير لزوم كل منهم نفسه واشتغالهم بها واستتارهم في بيوتهم، وهو إنّما قتلهم من حيث إنهم أفسدوا في الأرض وسفكوا الدّم الحرام وقتلوا جماعة من الصّالحين كعبد الله بن خباب، وشقوا بطن امرأته ودعوا النّاس إلى بدعتهم، ومع ذلك كان يقول لأصحابه: لا تبدؤوهم بالقتال حتّى يبدؤوكم، ولم يشرع في قتلهم حتّى بدؤوا بقتل جماعة من أصحابه.

قال؛ ويحتمل أن يقال: إنّه إنّما قتلهم لأنّه إمام عادل رأى الحقّ في ذلك وإنّما نهى عن

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٣٢٩ ح ٥٧٤، والغدير: ١٠/٥٤.

قتلهم بعده لأنّه علم أنه لا يلي هذا الأمر بعده من له بحكم الشريعة أن يقتل ويتولى الحدود.

أقول: والتحقيق في الجواب ما ذكره في «**البحار**» تبعاً للشارح المعتزلي حيث قال: لعلّ المراد لا تقتلوا الخوارج بعدي ما دام ملك معاوية وأضرابه كما يظهر من التعليل، وقد كان يسبّه عليه السلام ويبرأ منه في الجمع والأعياد ولم يكن إنكاره للحقّ عن شبهة كالخوارج، ولم يظهر منهم من الفسوق ما ظهر منه ولم يكن مجتهداً في العبادة وحفظ قوانين الشّرع مثلهم، فكان أولى بالجهاد، انتهى[١].

ويدلّ على ذلك ما رواه أبو العباس المبرد قال: وخرج من الخوارج على معاوية بعد قتل عليّ حوثرة الأسدي وحابس الطائي خرجا في جمعهما فصارا إلى موضع أصحاب النّخيلة ومعاوية يومئذٍ بالكوفة وقد دخلها في عام الجماعة، ووفد الحسن بن علي وخرج يزيد من المدينة فوجه إليه معاوية وقد تجاوز في طريقه يسأله أن يكون المتولي لمحاربة الخوارج فكان جواب الحسن: «والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين وذاك يسعني، أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أولى بالقتل منهم» وهذا الجواب مطابق لكلام أبيه عليه السلام، والمقصود منهما أنّ الخوارج أعذر من معاوية وأقل ضلالاً ومعاوية أولى بالمحاربة منهم[٢].

الترجمة

و فرموده است آن حضرت در شأن خوارج كه:

نكشيد خارجيان را بعد از من، پس نيست كسى كه طلب كند حق را، پس خطا كند در آن مثل كسى كه طلب كند باطل را، پس دريابد آن را، سيد رضى الله عنه گفته كه اراده فرموده حضرت به طالب باطل معاويه عليه الهاويه و اصحاب او را.

(١) البحار: ٣٣/ ٤٣٤.

(٢) البحار: ٤٤/ ١٠٦، وشرح النهج للمعتزلي: ٥/ ٩٨.

ومن كلام له عليه السلام لما خوف من الغيلة
وهو الحادي والستون من المختار في باب الخطب

«وإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللّهِ جُنَّةً حَصِينَةً، فَإِذا جآءَ يَوْمي إِنْفَرَجَتْ عَنّي وأَسْلَمَتْنِي فَحِينَئِذٍ لا يَطِيشُ السَّهْمُ، وَلاَ يَبْرَءُ الْكَلْمُ»[1].

اللغة

(الغيلة) بالكسر فعلة من الاغتيال وهو القتل على غفلة و(الجنّة) بضمّ الجيم ما يجنّ به أي يستتر من درع وترس ونحوهما و(طاش) السّهم يطيش من باب ضرب صدف عن الغرض وانحرف عنه و(الكلم) بفتح الكاف وسكون اللاّم الجرح.

الإعراب

عليّ خبر إن قدم على الاسم توسّعاً وعلى لاستعلاء المعنوي، ومن الله متعلق بمقدّر حال من فاعل حصينة وتقدّمه للتّوسع أيضاً.

المعنى

روي أنّه عليه السلام خوّف من غيلة ابن ملجم لعنه الله مراراً وأنّ الأشعث لقاه متقلداً سيفه فقال له: ما يقلدك السّيف وليس بأوان حرب؟ فقال لعنه الله: أردت أن أنحر به جذور القرية، فأتى الأشعث إليه عليه السلام فأخبره وقال: قد عرفت ابن ملجم وفتكه، فقال: ما قتلني بعد.

وروي أنّه عليه السلام: كان يخطب مرّة ويذكر أصحابه وابن ملجم تلقاء المنبر فسمعه يقول: والله لأريحنّهم منك، فلما انصرف عليه السلام أتوا به ملبّباً فأشرف عليهم، وقال: ما تريدون، فخبروه بما سمعوا عنه، فقال: فما قتلني بعد خلوا عنه[2].

(وإنّ عليّ من الله جنّة حصينة) استعار الجنة لعناية الله سبحانه بحفظ أسباب حياته في المدة الممكنة له في القضاء الإلهي؛ والجامع أنّ الجنّة كما أنّها حافظة للإنسان عن آلام السّهام ونحوها، فكذلك بقاء أسباب الحياة وثبات مادّتها حافظان له عن سهام الموت، فحسن استعارتها لها وذكر الحصينة ترشيح للاستعارة (فإذا جاء يومي) الذي قدّر فيه موتي (انفرجت) تلك الجنّة (عنّي وأسلمتني) للموت وكنّى بانفراجها عن انعدام بعض أسباب الحياة في حقّه، وهو ترشيح آخر للاستعارة المذكورة (فحينئذٍ لا يطيش السّهم) كما قال في الديوان المنسوب إليه.

---

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/٢٦٦ ح ٢٧٨، و بحار الأنوار: ٥/١٤٢.

(٢) ذخائر العقبى: ١١٢، ونهج السعادة: ٧/١٠٤.

للموت فينا سهام غير خاطئة إن فاته اليوم سهم لم يفته غداً

(ولا يبرء الكلم) وفي معنى هذا الكلام قال عليه الصّلاة والسّلام في الدّيوان:

أيّ يوميّ من الموت أفرّ يوم ما قدّر أو يوم قدر

يوم ما قدّر لم أخش الردى وإذا قدّر لا يغني الحذر

أقول: وفي هذا الكلام إشعار بأنّ للإنسان أجلاً موقوتاً وأمداً ممدوداً إذا أدركه يبطل حياته، وإلى ذلك ذهب جماعة، واستدلوا عليه بقوله سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقال أيضاً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

وبأنّ المقدّرات في الأزل والمكتوبات في اللّوح المحفوظ لا تتغير بالزّيادة والنّقصان، لاستحالة خلاف معلوم الله، وقد سبق العلم بوجود كل ممكن أراد وجوده وبعدم كلّ ممكن أراد عدمه الأزلي أو إعدامه بعد إيجاده، فكيف يمكن الحكم بزيادة العمر أو نقصانه بسبب من الأسباب.

وذهب آخرون إلى قبوله الزّيادة والنّقصان مستدلين بقوله: **﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلاّ في كتاب﴾**. وبالأخبار الكثيرة الدّالة على أنّ صلة الرّحم توجب الزّيادة في العمر والقطعية توجب النّقصان، وكذلك البرّ والعقوق هذا.

والتّحقيق في المقام هو التّفصيل بما يجمع به بين الأدلتين، وتوضيحه يحتاج إلى تمهيد مقدّمة، وهو أنّ المستفاد من بعض الآيات والأخبار هو أنّ الأجل على قمسين محتوم، وموقوف، قال سبحانه في سورة نوح:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٣ ـ ٤].

قال المفسّرون: الأجل المسمّى هو الأمد الأقصى الذي قدّر الله لهم بشرط الإيمان والطاعة وراء ما قدره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإن وصف الأجل بالمسمّى وتعليق تأخيرهم إليه بالإيمان صريح في أنّ لهم أجلاً آخر لا يجاوزونه إن لم يؤمنوا، وهو المراد بقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] أي ما قدر لكم على تقدير بقائكم على الكفر إذا جاء وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر والعصيان لا يؤخر، فبادروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتّى لا يتحقق شرطه الذي هو البقاء على الكفر، فلا يجيء ويتحقّق شرط التّأخير إلى الأجل المسمّى فتأخّروا إليه.

وفي «الكافي» بإسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن قول الله عزّ وجل:
﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].
قال هما أجلان: أجل محتوم، وأجل موقوف[١].

وعن علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في تفسير هذه الآية، قال: الأَجل المقضي هو المحتوم الذي قضاه وحتمه، والمسمّى هو الذي فيه البداء، ويقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير[٢].

إذا عرفت هذه المقدّمة ظهر لك أن من الأَجل قسما قابلاً للتغيير وقسماً ليس قابلاً له، وعليه فاللاّزم حمل الأدلة الأوليّة الدّالة على عدم التّغير في الأجال بالتقدم والتّأخر على الأَجل المحتوم، وحمل الأَدلة الثّانية على الأَجل الموقوف القابل للتغيّر بحصول شروط الزّيادة وأسبابها وعدمه، وعلى ذلك فإن كان مراد القائلين بثبوت التّغير والقائلين بعدمه هو ما ذكرناه فلا مشاحة بيننا وبينهم ويصير نزاع أحدهما مع الآخر أيضاً على ذلك لفظيّاً، وإن أرادوا ثبوت التّغير في مطلق الآجال وعدمه كذلك فالمنع على القولين واضح.

ثمّ لا يذهب عليك أنّ وجود التّغير في الأَجل الموقوف حسبما ذكرنا لا يوجب التّغير في علمه سبحانه حسبما يزعمه القائلون بالقول الأوّل، وذلك لأنّه سبحانه كما علم كمية العمر علم ارتباطه بسببه المخصوص، وكما علم من زيد دخول الجنّة علم ارتباطه بأسبابه المخصوصة من إيجاده، وخلق العقل له وبعث الأنبياء ونسب الإلطاف وحسن الاختيار والعمل بموجب الشّرع، وعلم أيضاً حصول تلك الأسباب في الخارج المحصّلة لوجود المسبّب، وبالجملة جميع ما يحدث في العالم فهو معلوم لله سبحانه على ما هو واقع عليه من شرط أو سبب.

توضيح ذلك أنّ الله سبحانه قد خلق لوحاً وسمّاه لوح المحو والإثبات قد كتب فيه الآجال والأرزاق وجميع ما يكون في عالم الكون معلقاً على الأسباب والشّرائط وهو الذي يقع في المحو والإثبات والتّغيير والبداء، مثلاً كتب أنّ عمر زيد عشر سنين إن لم يصل رحمه، وعشرون إن وصل، وأنّه إن أدّى الزّكاة يحصل له البركة في ماله وإن لم يؤدّه لم يحصل، وكذلك جميع الكائنات فهذا اللوح الذي أبدع فيه صور الموجودات على الوجه القابل للتّغيير، وخلق لوحاً آخر أبدع فيه صور الموجودات وجميع الأشياء مفصّلة معقولة محفوظة عن التّغيّر وهو المسمّى بأم الكتاب المشار إليه في قوله تعالى:

---

(١) الكافي: ١/١٤٧ ح ٤، شرح أصول الكافي: ٤/٢٣٨ ح ٤.

(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/٢٦٦ ح ٢٧٩ ـ ٢٨٠، وبحار الأنوار: ٤/٩٩ ح ٧.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقد كتب الله فيه الكائنات على ما علمه في الأزل ويسمّى ذلك بالعلم الملزم لا تغير فيه ولا تبدّل بوجه من الوجوه، لأنّ علمه بالأسباب والمسبّبات على نهج واحد، وقد علم وقوع الأسباب وعدم وقوعها وأنّ زيداً يصل رحمه فيكون عمره كذا، أولاً يصل رحمه فيكون كذا وقد علم في الأزل أحد الطرفين فكتبه في اللوح المحفوظ، وهذا هو المشار إليه في الأخبار بقولهم: جفّ القلم بما هو كائن، يعني أنّه كتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة فلن يكتب بعده أبداً إذ لم يبق شيء حتّى يكتب.

نعم يبقى الكلام في فائدة لوح المحو والإثبات وتغيير الكائنات وصفاتها فيه مع وجود اللوح المحفوظ، ولا حاجة لنا إلى البحث في ذلك الآن وإنّما الواجب التّسليم والإذعان بعد دلالة نصّ الأخبار عليهما والقرآن، والله العالم الخبير بأسرار عالم الإمكان.

الترجمة

از جمله كلام آن امام عالى مقام است در وقتى كه ترسانيدند او را از كشتن ابن ملجم ملعون غفلت مى فرمايد كه:

به درستى بر من است از جانب خداوند سپرى محكم كه عبارت است از بقاء اسباب حيات تا روز فوت، پس هرگاه بيايد روز مرگ من، واشود آن سپر از من و بازگذارد مرا به دست مرگ، پس اين هنگام خطا نمى كند تير موت و البته بر نشانه بدن واقع مى شود و خوب نشود اثر جراحت و روى به صحت نگذارد.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثانية والستون
من المختار في باب الخطب

«ألاَ وإِنَّ الدُّنيا دارٌ لاَ يُسْلَمُ مِنْهَا إلاَّ فيها، ولا يُنْجَى بشَيْءٍ كانَ لَها، أُبْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً، فَما أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وحُوسِبُوا عَلَيْهِ، وما أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وأَقامُوا فيهِ، فَإِنَّها عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ، بَيْنا تَراهُ سابِغاً حَتَّى قَلَصَ وزائداً حَتّىٰ نَقَصَ»[1].

اللغة

(فاء) الظلّ يفيء فيئاً رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق، قال الفيروز آبادي: الفيء ما كان مشمّساً فينسخه الظلّ و(سبغ) الشيء سبوغاً من باب قعدتمّ وكمل، وسبغ الدّرع طال من فوق إلى أسفل، وسبغ الظلّ طال إلى الأرض و(قلص) الظل انقبض.

الإعراب

فتنة مفعول مطلق بغير لفظ فعله، نحو قعدت جلوساً وانتصابه بالفعل المقدر على مذهب سيبويه أي ابتلى النّاس وفتنوا بها فتنة، وبالفعل الظاهر على مذهب المازني والمبرد والسيرافي، وهو الأولى إذ الأصل عدم التّقدير بلا ضرورة داعية إليه، وقول الشّارح البحراني بكونه منصوباً بالمفعول له أو كونه مصدراً بمعنى الضّلال سادّاً مسدّ الحال بعيد عن الصّواب.

وإضافة الفيء إلى الظلّ من قبيل إضافة الخاص إلى العام، وبينا أصله بين فأشبعت الفتحة فحدثت الألف، وقد يزاد ما فتقول: بينما، والمعنى واحد، والجملة بعدها مجرورة المحلّ إضافتها إليها، وهي في الظاهر مضافة إلى الجملة وفي المعنى إلى مصدرها كسائر ما يضاف إلى الجمل، تقول جئتك يوم قدم زيد، أي يوم قدومه والتّقدير بين رؤيتك إيّاه زائداً، وحتّى حرف ابتداء يعني أنّها حرف يستأنف بعدها الكلام، سواء كانت الجملة إسميّة أو فعليّة كقوله: حتّى يقول الرّسول، بالرّفع.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة واردة في مقام التّزهيد عن الدّنيا والترغيب في الآخرة وفيها إشارة إلى كونها دار بلاء وفتنة، وإلى أنّها قريبة الزوال سريعة الفناء فقوله **(ألا وإنّ الدّنيا دار لا يسلم**

(١) روضة الواعظين: ٤٤١، وعيون الحكم والمواعظ: ١٤٨.

منها إلاّ فيها) تنبيه على أنّ السّلامة من شرور الدّنيا ومفاسدها وما يترتّب عليها من العذاب الأليم والنّكال العظيم لا تكون إلاّ في دار الدّنيا بالزّهد والرّياضات وبملازمة التّقوى والطاعات، وذلك لأنّ التّكليف إنّما هو في دار الدّنيا، والآخرة ليست بدار تكليف بل هي دار جزاء، وبامتثال التّكاليف فيها يسلم من العقاب وينال حسن الثّواب كما أنّ بمخالفتها يحصل الشّقاوة ويستحق العقوبة.

وإلى ذلك الإشارة في حديث الهيثم بن واقد الحريري[1] المروي في «**الكافي**» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من زهد في الدّنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه وبصّره عيوب الدّنيا داءها ودواءها، وأخرجه من الدّنيا سالماً إلى دار السّلام (و) منه يعلم انه **(لا ينجي بشيء كان لها)** بيان ذلك أنّ الدّنيا والآخرة ضرّتان متضادّتان فما هو للدّنيا مضاد للآخرة فكيف يوجب النّجاة فيها كما أنّ ما هو للآخرة مضادّ للدّنيا ومضارّ لها، ولذلك قيل: إنّهما ككفتي الميزان بقدر ترجيح إحداهما تخف الأخرى.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن في طلب الدّنيا إضراراً بالآخرة وفي طلب الآخرة إضراراً بالدّنيا، فأضروا بالدّنيا فإنّها أحق بالإضرار»[2] وقال الله سبحانه:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

يعني أنّ المال والبنين يتفاخر بهما في الدنيا ويتزين بهما فيها ولا ينفعان في الآخرة إذ لا يبقى شيء منهما للإنسان فينتفع به فيها، والأعمال الصّالحة والطاعة الحسنة التي يبقى ثوابها أفضل ثواباً عند الله من المال والبنين وأصدق أملاً من زهرات الدنيا وزخارفها، لأنّها أمل لا يكذب فيها يؤمّل الثّواب وينجى من أليم العقاب.

وقوله: **(ابتلي النّاس بها فتنة)** إشارة إلى أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وأن الله ابتلى عباده فيها تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا قال الشّاعر:

ألا انـمـا الـدنـيـا بـلاء وفـتـنـة على كل حال أقبلت أو تولت

فصارت المنحة والمحنة كلاهما بلاء، فالمنحة مقتضية للشكر، والمحنة مقتضية للصّبر كما قال تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١) في نسخة: الجزري.

(٢) الكافي: ٢/ ١٣١ ح ١٢، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٣٧٢ ح ١٢.

قال الطبرسي: أي نعاملكم معاملة المختبر بالفقر والغنى والسّراء والضراء والشدة والرخاء، وقيل ممّا تكرهون وما تحبّون ليظهر صبركم فيما تكرهون وشكركم فيما تحبّون، وقيل: الشر غلبة الهوى على النفس والخير العصمة عن المعاصي.

واعلم أن أصل الابتلاء والاختبار أن يراد به الوقوف على حال المختبر بفتح الباء والاطلاع على ما يجهل من أمره، وقد يراد به إظهار جودته ورداءته وربما يقصد به الأمران، ولمّا كان الأول محالاً في حقه تعالى لاستلزامه الجهل لا بد أن يراد به حيثما نسب الابتلاء إليه سبحانه المعنى الثاني، فإذا قيل: بلاه الله بكذا وابتلاه فليس المراد إلا إظهار حسن طينته وخبث سريرته دون التعرف لحاله والوقوف على ما يجهل منه وعلى هذا يحمل الآيات القرآنية مثل:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وربما يحمل على معنى ثالث قال في «**الكشاف**» في تفسير الآية الأخيرة: اختبره بأوامر ونواهي واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين ما يريد الله وما يشتهيه العبد كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك.

وقال الطبرسي في تفسيرها: أي اختبر إبراهيم وهو مجاز وحقيقته أنّه أمر إبراهيم ربّه وكلّفه وسمّى ذلك اختباراً لأنّ ما يستعمل الأمر منافي مثل ذلك يجري على جهة الاختبار والامتحان فأجرى على أمره اسم أمور العباد توسّعاً، وأيضاً فإنّ الله لمّا عامل عباده معاملة المبتلي المختبر إذ لا يجازيهم على ما يعلمه منهم أنّهم سيفعلونه قبل أن يقع ذلك الفعل منهم كما لا يجازي المختبر للغير ما لم يقع الفعل منه، سمّى أمره ابتلاء، هذا.

ولمّا ظهر أنّ الدّنيا وما فيها إنّما خلقت لاختبار النّاس وابتلائهم لا بد وأن يكون همّتهم فيها مصروفة إلى ما هو محصّل للسّعادة في الآخرة حتّى يخلصوا عن قالب الامتحان، ويستحقّوا الدّرجات الرّفيعة العليّة، ولا يكون نظرهم مقصوراً على عاجل زهراتها الخسيسة الدّنيّة (ف) انّ **(ما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه)** ومن المعلوم أنّ العاقل لا يرجّح ما هي سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزّوال والفناء على ما هي دائمة البقاء خصوصاً إذا كانت الفانية حقيرة خسيسة والباقية خطيرة نفيسة، وذلك لأنّ خيرات الدّنيا حسيّة وخيرات العقبى عقليّة والعقليّة أشرف من الحسيّة بمراتب كثيرة لا سيّما إذا كانت الدّنيويّة محاسباً عليها مسؤولاً عنها.

قال أبو عبد الله عليه السلام: في رواية «**الكافي**» فيما وعظ به لقمان ابنه: يا بنيّ إنّ النّاس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له، وإنّما أنت عبد مستأجر قد

أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً، فأوف عملك واستوف أجرك، ولا تكن في هذه الدّنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتّى سمنت فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدّنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدّهر أخربها ولا تعمرها فإنّك لم تؤمر بعمارتها.

واعلم أنّك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجلّ عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، ومالك ممّا اكتسبته، وفيما أنفقته فتأهّب لذلك وأعدّ له جواباً، ولا تأس على ما فاتك من الدّنيا فإنّ قليل الدّنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك وجد في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك وتعرض لمعروف ربّك، وجدّد التّوبة في قلبك، واكمش في فراغك قبل أن يقصد قصدك، ويقضى قضاؤك، ويحال بينك وبين ما تريد[1].

(فإنّها عند ذوي العقول كفيء الظلّ بينا تراه سابغاً حتّى قلص وزائداً حتّى نقص) تخصيص ذوي العقول بالذكر من أجل أنّهم هم الذين عبروا بقدمي الذكر والفكر عن قشر الوجود الظلماني الفاني إلى لبّ الوجود الرّوحاني النّوراني الباقي فشاهدوا بعيون البصائر ونواظر الضّمائر سرعة زوال الدّنيا وانقضائها، وعرفوا أنّ بقائها عين حدوثها وتجدّدها ووجودها نفس زوالها وفنائها، وأمّا غيرهم فإنّهم عن الذّكر لمعزولون، وما هم مهتدون إن هم إلاّ كالأَنعام بل أضلّ سبيلاً، هذا.

وتشبيه الدّنيا بفيء الظل من التشبيهات السّائرة في الأَشعار والأَخبار.

قال الباقر عليه السلام لجابر الجعفي: يا جابر أنزل الدّنيا منك كمنزل نزلته تريد التّحوّل عنه، وهل الدّنيا إلاّ دابة ركبتها في منامك فاستيقظت وأنت على فراشك غير راكب، ولا أحد يعبؤ بها، أو كثوب لبسته أو كجارية وطئتها، يا جابر الدّنيا عند ذوي الأَلباب كفيء الظلال.

وعن **«العيون»**، عن البيهقي، عن الصّولي، عن محمّد بن يحيى بن أبي عباد، عن عمّه قال: سمعت الرّضا عليه التّحية والثّناء يوماً ينشد شعراً:

كلّنا نأمل مداً في الأَجل ... والمنايا هنّ آفات الأمل
لا يغرّنك أباطيل المنى ... والزم القصد ودع عنك العلل
إنّما الدّنيا كظلّ زائل ... حلّ فيه راكب ثمّ رحل[2]

ولبعضهم:

(١) الكافي: ٢/ ١٣٥، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٣٨٣.

(٢) وسائل الشيعة: ١٥/ ١٣٢ ح ٢، وخاتمة المستدرك: ٢/ ١٩٠.

ألا إنّـمـا الـدّنـيـا كـظـل غـمـامـة   أظـلـت يـسـيـراً ثـمّ حـفـت فـولـت

وقال آخر:

ألا إنّـمـا الـدّنـيـا كـظـلّ سـحـابـةٍ   أظلّتك يوماً ثمّ عنك اضمحلت

فلا تك فرحاناً بها حين أقبلت   ولا تك جزعاناً بها حين ولت

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است در مقام تنفير از دنيا و ترغيب در آخرت، مى فرمايد كه: بدانيد و آگاه باشيد كه دنيا سرايى است كه سلامت مانده نمى شود از آن مگر در آن و خلاصى يافته نمى شود به چيزى كه باشد از براى آن، امتحان شده اند مردمان با او امتحان شدنى، پس آن چه كه گرفته اند از براى دنيا بيرون كرده مى شوند از آن به صد رنج و عنا و حساب كرده مى شوند بر آن در روز جزا و آن چه كه گرفته آن را از دنيا از براى غيردنيا، يعنى از براى نجات عقبى، مى آيند بر او و مى ايستند در او؛ يعنى ثواب آن را درمى يابند و به جزاى آن نايل مى شوند.

به درستى دنيا در نزد صاحبان عقل و شعور مانند سايهٔ اى است در اين اثنا كه مى بينى آن را شايع و منتشر حتى آن كه برچيده مى شود در اين كه زايد و تمام است تا اين كه ناقص مى شود؛ يعنى دنيا در نظر مردم ثبات و دوام دارد، ليكن اگر تأمل و فكر درست بكنى، در معرض زوال و فنا است.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثالثة والستون من المختار في باب الخطب

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ وبادِرُوا آجالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتاعُوا ما يَبْقَى لَكُمْ بِما يَزُولُ عَنْكُمْ، وتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وكُونُوا قَوماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدارٍ فَاسْتَبْدِلُوا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، وما بَين أَحَدِكُمْ وبَينَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلاَّ الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ، وإِنَّ غايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدانِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الأَوْبَةِ، وإِنَّ قَادِماً يَقْدِمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لأَفْضَلِ الْعُدَّةِ، فَتَزَوَّدُوا في الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا ما تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً.

فَاتَّقَىٰ عَبْدٌ رَبَّهُ نَصَحَ نَفْسَهُ قَدَّمَ تَوْبَتَهُ غَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَها، ويُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، حَتَّى تَهْجَمَ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ ما يَكُونُ عَلَيْهَا، فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمْرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى شِقْوَةٍ، نَسْئَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ، وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طاعَةِ رَبِّه غايَةٌ، ولا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدامَةٌ ولا كَآبَةٌ»[1].

اللغة

(**بادره**) مبادرة وبداراً وبدر غيره إليه عاجله و(**جدّ بكم**) بصيغة المجهول أي عجل بكم وحثتم على الرّحيل و(**استعدّ**) له تهيأ و(**أظلني**) الشيء غشيني أو دنا مني حتّى ألقى على ظله و(**صيح بهم**) من الصّياح وهو الصّوت بأقصى الطاقة و(**استبدلوا**) بصيغة الأمر بمعنى أبدلوا و(**السّدى**) بالضّم وقد يفتح المهملة من الإبل يستعمل في الواحد والجمع و(**الجديدان**) والأجدان الليل والنّهار و(**الأوبة**) الرّجوع و(**العدة**) ما أعددته من مال أو سلاح أو غير ذلك والجمع عدد مثل غرفة وغرف و(**الحرز**) الحفظ وتحرزون إمّا ثلاثي مجرّد من باب نصر أو مزيد فيه من باب الأفعال و(**التّسويف**) المبطل وأصله أن يقول مرّة بعد أخرى سوف أفعل و(**البطر**) الطغيان و(**كئب**) الرّجل كآبة إذا صار كئيباً أي منكسراً حزناً.

الإعراب

الباء في قوله: بأعمالكم للمصاحبة، وفي قوله: بما يزول للمقابلة، وفي قوله: بكم

(١) ميزان الحكمة: ٤/٢٩٦٦ ح ٣٧٣٠، وجواهر المطالب في مناقب الإمام علي «ع» ١/٢٠٦.

للتعدية، والفاء في قوله: فقد جدّ بكم، وقوله: فقد أظلكم للسّببيّة، وفي قوله: فانتبهوا عاطفة، وفي قوله: فاستبدلوا فصيحة، وفي قوله: فإنّ الله للسّببيّة أيضاً.

وما في وما بين أحدكم للنفي، وقوله: أن ينزل به في محل رفع بدل من الموت، وقوله: وأنّ غاية (اه) عطف على قوله: فإنّ الليل والنّهار بدل من الجديدان أو عطف بيان، وجملة يزين (اه) منصوب المحل على الحالية، وأغفل منصوب بنزع الخافض أي في أغفل حالة، وقوله: يا لها حسرة منادى مستغاث، والحسرة منصوب على التمييز كأنّه قال: يا للحسرة على الغافلين ما أكثرك، أو أنّه مستغاث لأجله والمنادى محذوف أي يا قوم أدعوكم للحسرة، وفتحة اللاّم حينئذٍ من أجل دخولها على الضّمير، ومثل ذلك قول علي بن موسى الرّضا عليه التّحيّة والثّناء:

وقبر بطوس يا لها من مصيبة ألحت على الاحشاء بالزفرات

وقوله: أن يكون عمره (ا ه) في محل الجرّ على كونه بدلاً من كلّ ذي غفلة، وجملة: نسأل الله دعائية لا محلّ لها من الإعراب.

المعنى

إعلم أنّ المقصود بهذه الخطبة أيضاً هو التنفير عن الدّنيا نظراً إلى قصر مدتها وسرعة زوالها والتّرغيب في الآخرة لتحصيل ما هو وسيلة إلى ثوابها منجية عن عقابها وهو التّقوى ولزوم الأعمال الصّالحة المشار إليها بقوله **(فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم)** أي سارعوا إلى آجالكم الموعودة مصاحباً بأعمالكم الصالحة وهو كناية عن ترقّب الموت وعدم الغفلة عنه، وهو إنّما يكون بالتجافي عن دار الغرور والرّغبة إلى دار السّرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت **(وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم)** وهو أمر بشراء الآخرة بالدّنيا وتوصيف المبتاع بالبقاء والثمن بالزّوال ترغيباً وتحريصاً، إذ تبديل الزّائل بالباقي بيعة رابحة وكفة راجحة لا يرغب عنها العاقل، واستعمال المبايعة في هذه المبادلة والمعاوضة غير عزيز قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١].

واعلم أنّ البيع اعتماده على أركان أربعة: البائع، والمشتري، والثّمن، والمثمن، فالثّمن كما علمت هو متاع الحياة الدّنيا الفانية ولذائذها النّفسانية؛ والمبتاع نعيم الآخرة الباقية والجنّة التي أكلها دائم وظلها، والمشتري هو العبد، ومعلوم أنّ البائع لا بد أن يكون هو الله سبحانه إذ هو مالك ملك السّماوات والأرض وله الآخرة والأولى، وله جنّة المأوى.

فقد شبه عليه السلام دار الدّنيا بسوق تجارة عرض الله فيها متاع الآخرة للبيع وليس في بدء الخلق إلاّ دراهم مزيفة مغشوشة وهي زينة الحياة الدنيا، فأمر بابتياع ذلك المتاع بتلك الدّراهم، فمن كان له عقل وكياسة امتثل ذلك الأمر فربح وفاز فوزاً عظيماً ومن كان ذا حمق وجهالة تضرّ وخاب فخسر خسراناً مبيناً وقد وقع الإشارة إلى تلك التّجارة وما فيها من الرّبح العظيم والمنفعة الكثيرة في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

قال المفسّرون: في هذه الآية وجوه من الدّلالة على الحثّ والتّأكيد بتلك المعاملة.

الأوّل: إنّ حقيقة الاشتراء غير جائز في حقّه سبحانه، لأنَ المشتري إنّما يشتري ما لا يملك وهو سبحانه مالك الأشياء كلها، لكنّه ذكر لفظ الشّراء تلطفاً لتأكيد الجزاء لأنّه لمّا ضمن الثّواب على نفسه في مقابلة العبادات البدنيّة والماليّة جعل نفسه بمنزلة المشتري اللاّزم عليه ردّ الثّمن بعد أخذ المبيع.

الثّاني: أنّه جعل في مقابلة النّفس التي هي منبع الشّرور والمفاسد، والمال الذي هو منشأ الغرور والمهالك الجنّة الدّائمة والسّعادات الباقية وهذه تجارة لن تبور، فلا يرغب عنها عاقل ولا يستقيلها إلاّ جاهل. روي أنّ أعرابياً مرّ بباب المسجد فسمع النبي صلى الله عليه وآله يقرأ هذه الآية فقال هذا الكلام لمن؟ قالوا: لله سبحانه قال: متى وقع هذا البيع والشّرى؟

قالوا: في عالم الميثاق، قال: والله بيع مربح لا نقيل ولا نستقيل.

الثّالث: قوله: وعداً، ووعد الله حقّ.

الرّابع: قوله: عليه، وكلمة على للوجوب.

الخامس: قوله: حقّاً وهو التّأكيد للتّحقيق.

السّادس: قوله: ﴿في التّوراة والإنجيل والقرآن﴾ وذلك يجري مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والرّسل على هذه المعاملة.

السّابع: قوله: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ وهو في غاية التّأكيد إذ معناه أنه يفي ولا يخلف إذ عدم الوفاء للوعد، إمّا للعجز وعدم القدرة أو للبخل والدّناءة، وكلها مستحيلة في حقّ الله سبحانه مضافاً إلى ما فيه من الكذب والخيانة.

الثّامن: قوله: ﴿فاستبشروا ببيعكم﴾ وهو مبالغة في التّأكيد أي فافرحوا بهذه المبايعة لأنكم بعتم فانياً بباق وزائلاً بدائم.

التاسع: قوله: وذلك هو الفوز.

العاشر: قوله: العظيم، فثبت بهذه الوجوه العشرة عظم منفعة هذه المبايعة وجلالة قدرها وكثرة ربحها **(وترحّلوا فقد جدّ بكم)** وهو أمر بقطع منازل السّفر إلى الله وسلوك الطرق الموصلة إلى رضوان الله معللاً بأنّكم حثثتم على هذا السير والسّلوك وعجلتم على طي هذه المنازل، فشبه عليه السلام، الدّنيا بمنزل ينزل فيه قافلة ليستريحوا ساعة ثمّ ينادي فيهم بالرّحيل.

ونظيره ما يأتي منه عليه السلام في أواخر الكتاب قال: تغرّ وتضرّ وتمرّ إن الله لم يرضها ثواباً لأوليائه ولا عقاباً لأعدائه وإنّ أهل الدّنيا كركب بينا هم حلّوا إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا، وقال عليه السلام في الدّيوان المنسوب إليه.

تـزوّد مـن الـدنـيـا فـإنّـك راحـل	وبـادر فـإنّ الـمـوت لا شـك نـازل
ألا إنّـمـا الـدنـيـا كـمـنـزل راكـب	أراح عـشـيّـاً وهـو فـي الـصّـبـح راحـل

فإن قلت: ظاهر التّشبيه يعطي أنّ للنّاس في دار الدنيا منادياً ينادي فيهم الرّحيل وآمراً يأمرهم بالسّير والتعجيل، فمن ذلك المنادي، وما المراد بذلك الأمر؟

قلت: يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى الملك المأمور بالنداء من جانب الله سبحانه كما ورد في حديث أبي جعفر عليه السلام، وفي الديوان:

لـه مـلـك يـنـادي كـل يـوم	لـدوا لـلـمـوت وابـنـوا لـلـخـراب

ويحتمل أن يكون كناية عن توارد الأسباب التي تعدّ المزاج للفساد وتقربه إلى الآخرة وإلى ذلك أشار عليه السلام في الدّيوان أيضاً بقوله:

إلـى إلامَ تـجـر أذيـال الـتـصـابـي	وشـيـبـك قـد نـضـا بـرد الـشـبـاب
بـلال الـشّـيـب فـي فـوديـك نـادى	بـأعـلـى الـصّـوت حيّ عـلـى الـذهـاب
خـلـقـت مـن الـتّـراب وعـن قـريـب	تـغـيـب تـحـت أطـبـاق الـتّـراب
طـمـعـت إقـامـة فـي دار ظـعـن	فـلا تـطـمـع فـرجـلـك فـي الـركـاب
وأرخـيـت الـحـجـاب فـسـوف يـأتـي	رسـول لـيـس يـحـجـب بـالـحـجـاب
أعـامـر قـصـرك الـمـرفـوع أقـصـر	فـإنـك سـاكـن الـقـبـر الـخـراب

(واستعدّوا للموت فقد أظلكم) أي تهيّئوا له فإنّه قريب منكم وأشرف عليكم كأنّه أوقع ظلاله على رؤوسكم، والتّهيؤ له إنّما يحصل بالعلم بأنّ أمامه طريقاً بعيداً وسفراً مهولاً وممرّاً على الصّراط، وأنّ المسافر لا بدّ له من زاد، فمن لم يتزوّد وسافر هلك وعطب، فإذا علم ذلك استكمل نفسه وقصر أمله وأصلح عمله وقطع العلائق الدّنيويّة وترك الشّهوات النّفسانية وأشرب قلبه حبّ الآخرة فحينئذٍ لا يبالي أوقع على الموت أم الموت وقع عليه.

وإلى ما ذكرناه ينظر ما عن تفسير العسكري عن آبائه عليهم السّلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما الاستعداد للموت؟ قال: «أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والاشتمال على المكارم ثمّ لا يبالي إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه، والله ما يبالي ابن أبي طالب إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه **(وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا وعلموا أنّ الدّنيا ليست لهم بدار)** وهو أمر لهم بكونهم مثل أقوام التفتوا إلى منادي الله وهو لسان الشّريعة فحصل لهم بذلك الالتفات الانتباه من مراقد الطبيعة، وعلموا أنّ الدّنيا ليست لهم بدار وأن مأواهم الآخرة دار القرار فكانوا من الزّاهدين في الدّنيا الرّاغبين في الآخرة، واتّخذوا الأرض بساطاً، والتّراب فراشاً، والماء طيباً، وقرضوا من الدّنيا تقريضاً، فإنّ من اشتاق إلى الجنّة سلا من الشهوات، ومن أشفق من النّار رجع عن المحرّمات، ومن زهد في الدّنيا هانت عليه المصائب ألا إنّ لله عباداً كمن رأى أهل الجنّة في الجنّة مخلّدين، وكمن رأى أهل النّار في النار معذّبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة، صبروا أيّاماً قليلة فصاروا بعقبى راحة طويلة.

أمّا الليل فصافون أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم يجأرون إلى ربّهم يسعون في فكاك رقابهم من النّار، وأمّا النهار فحكماء علماء بررة أتقياء كأنهم القداح قد براهم الخوف من العبادة ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض، أم خولطوا فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار وما فيها **(فاستبدلوا)** أي أبدلوا الآخرة بالدّنيا»[1].

وهو تفريع على التشبيه يعني: أنّ القوم الذين صيح به كما أنهم علموا أنّ الدّنيا ليست لهم بدار وبدّلوها بالآخرة فكذلك أنتم إذا كنتم مثلهم فاستبدلوها بها **(فإنّ الله لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى)** إما علة لجميع ما أمر به سابقاً من التقوى والمبادرة إلى الآجال بالأعمال وابتياع الآخرة بالدّنيا وغيرها مما تلاها، أو لخصوص الأمر الأخير أعني الاستبدال، وكيف كان فالمقصود بذلك أنه سبحانه لم يخلق الناس عبثاً ولم يتركهم مهملين كالإبل المرسلة ترعى حيث تشاء وإنما خلقهم للمعرفة والعبادة كما قال سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فلا بدّ لهم من القيام بوظائف الطاعات وتحمل المشاق في أداء العبادات وتبديل سيئاتهم بالحسنات بتوبتهم من الخطيئات، ليتمكنوا من الوفود إلى الدّرجات العاليات.

وفي الحديث القدسي من منتخب التوراة: «يا ابن آدم إني لم أخلقكم عبثاً ولا جعلتكم سدى ولا أنا بغافل عما تعملون، وإنكم لن تنالوا ما عندي إلاّ بالصبر على ما تكرهون في طلب رضائي، والصبر على طاعتي أيسر عليكم من حرّ النار، وعذاب الدّنيا أيسر عليكم من

(١) الكافي: ٢/ ١٣٢، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٣٧٣ ح ١٥.

عذاب الآخرة، يا ابن آدم كلكم ضال إلاّ من هديته، وكلكم مريض إلا من شفيته، وكلكم فقير إلا من أغنيته، وكلكم هالك إلا من أنجيته، وكلكم مسيء إلا من عصمته، فتوبوا إليّ أرحمكم ولا تهتكوا أستاركم عند من لا يخفى عليه أسراركم»[1]، هذا.

ولما علل وجوب الأبدال بما ذكر أكد ذلك بقوله: **(وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به)** وذلك لأنَ العاقل إذا لاحظ أنه لا حجاب بينه وبين الجنة أو النار إلا موته فيقطع العلائق الدنيوية ويفرغ قلبه من حبها ويستبدل الآخرة بالدنيا، ويمتثل لقوله: موتوا قبل أن تموتوا، شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب.

ومقصوده عليه السلام بذلك الإشارة إلى قرب الساعة وما يكون فيها من الثواب والعقاب وأنها ليست بعيدة كما يزعمه أهل الحجاب.

بيان ذلك أن أهل الحجاب وأصحاب الشك والارتياب يزعمون يوم القيامة بعيداً من الإنسان بحسب الزمان.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] وبحسب المكان ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣].

وأما أهل العلم واليقين فيرونه قريباً بحسب الزمان.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١] حاضراً بحسب المكان﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧].

هذه هي القيامة الكبرى، وأما القيامة الصغرى فهي إذا انقطع علاقة الروح من الجسد كما قال: من مات فقد قامت قيامته ثم إن كان من السعداء فيكون قبره روضة من رياض الجنة؛ وإن كان من الأَشقياء فيكون القبر حفرة من حفر النيران، هذا بحسب مذاق أهل الشرع.

وأما مذاق أهل العرفان فهو على ما ذكروه أن كل من شاهد بنور البصيرة باطنه في الدنيا لرآه مشحوناً بأصناف السباع والمؤذيات مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرّياء وغيرها، وهي التي لا تزال تفرسه وتنهشه إن سها عنها بلحظة إلاّ أنّ أكثر النّاس محجوب العين عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء بالموت ووضع في قبره عاينتها وهي محدقة عليه، وقد تمثّلت بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها، فيرى بعينه العقارب والحيّات قد أحدقت وإنّما هي ملكاته وصفاته الحاضرة الآن، وقد انكشف له صورها الطبيعية وهذا عذاب القبر.

---

(١) أمالي الطوسي: ١٦٦، والبحار: ٦٨/ ١٤٠.

وإن كان سعيداً تمثّل له ما يناسب أخلاقه الحسنة وملكاته المرضيّة على وفق ما كانت تعتقدها أو فوقها من الجنات والحدائق والأنهار والغلمان والحور العين والكأس من المعين فهذا عقاب القبر وثوابه، ولذا قال صلوات الله عليه وآله: «القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّيران»(١)، فالقبر الحقيقي هذه الهيئة وثوابه وعذابه ما ذكر.

ثمّ إنّه عليه السلام علل وجوب الاستبدال بعلة ثانية مشيرة إلى سرعة زوال الدّنيا وفنائها وقصر مدّتها وانقضائها وهو قوله: (**وإنّ غاية تنقصها اللحظة وتهدمها السّاعة لجديرة بقصر المدّة**) أراد بالغاية أجل الإنسان ومدّة تعيّشه في دار الدنيا ونبّه على قصرها بأنّها تنقصها اللحظة أي النظرة لأنّ كلّ جزء من الزّمان فرصته قد مضى من مدّة الإنسان منقص لها، وبأنها تهدمها السّاعة أي ساعات الليل والنّهار، لأنّ الطبائع الجرميّة فلكية كانت أو عنصريّة متجددة الوجود والحدوث في كل آن، فوجودها نفس زوالها وحدوثها نفس فنائها والموادّ والأعراض تابعة للطبائع فإذن تكون السّاعات هادمة لها.

وقال الشّارح البحراني: كنى بالسّاعة عن وقت الموت ولا شكّ أنّ الآن الذي تنقطع فيه علاقة النّفس مع البدن غاية لأجل الإنسان، وغاية الشيء هي ما ينتهي عندها الشّيء فكنى بالهدم عن ذلك الانقطاع والانتهاء كناية بالمستعار (**وإن غائبا يحدوه الجديدان الليل والنّهار لحريّ بسرعة الأوبة**) المراد بالغائب الإنسان فإنّه غائب عن وطنه الأصلي ومنزله الحقيقي الذي إليه معاده ومسيره وهو دار الآخرة وشبّه الليل والنّهار بالحادي لكونهما مقرّبين للإنسان بتعاقبهما إلى وطنه موصلين له إليه كما أنّ الحادي يحدو الإبل ويحثها على السّير بحدائه حتّى يوصلها إلى المنزل، ومن المعلوم أنّ من كان حاديه الليل والنّهار فهو في غاية سرعة السّير والرّجوع إلى وطنه، وقيل المراد بالغائب الموت.

قال البحراني: وهو وإن كان محتملاً إلاّ أنه لا يطابقه لفظ الأوبة لأنّه لم يكن حتّى يرجع.

أقول: يمكن الجواب عنه بأنّ الموت لما كان عبارة عن العدم الطارىء للإنسان وكان الإنسان مسبوقاً بالعدم أيضاً سمي حلول الموت بالأوبة.

قال الصّدر الشيرازي: اعلم أنّ المبدأ هي الفطرة الأولى، والمعاد هو العود إليها، فالإشارة إلى الأولى كان الله ولم يكن معه شيء.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

فهذا خروج من العدم الأصلي إلى الوجود الكونيّ الحدوثي، والإشارة إلى الانتهاء.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمان: ٢٦ ـ ٢٧].

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٤٢، والمعجم الأوسط: ٨/ ٢٧٣.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وهذا خروج من هذا الوجود الخاص إلى العدم الفطري، فعلى هذا يصحّ توصيف الموت بأنّه يؤوب إلى الإنسان إلاّ أن توصيفه بكون الليل والنّهار حاديين له لا يخلو عن بعد فافهم **(وإنّ قادما يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة)** والمراد بالقادم بالفوز أو الشقوة هو الإنسان لما قد علمت أنه غائب عن وطنه الأصلي وسائر إليه، فهو حين قدومه على منزله إما أن يكون سعيداً فيفوز بالسعادة الباقية، وإما أن يكون شقياً فيقع في الخيبة الدائمة، ومن كان هذا شأنه فاللازم عليه أن يستعد أفضل العدة، ويدخر لنفسه أحسن الزاد والذخيرة حتى ينادى بنداء.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]

(فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً) يعني أن الإنسان إذا كان مستحقاً لأفضل العدة فلا بد له أن يتزود من دنياه ما يحفظ به نفسه غداً بعد الموت ويوم القيامة من حرّ النار ومن غضب الجبّار، لأنّ ذلك أفضل العدة وأحسن الزّاد وهذا هو التّقوى كما قال الله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وإليه أشار بقوله **(فاتقى عبد ربّه نصح نفسه قدم توبته غلب شهوته)** وهذه جُمَل خبريّة في معنى الإنشاء مفصّلة للزّاد الذي به يحصل حرز النّفس وحفظها، والمراد بنصح النّفس النّظر إلى مصالحها بأمرها بما هو محصّل لها الكمال ونهيها عمّا يوقعها في الضّلال وحثّها بالخيرات والحسنات ومنعها عن الشّرور والسّيئات، ومن جملة النّصح أن يقدمّ توبته على أجله ولا ينخدع بطول أمله ويستغفر ربّه فيما فات ويقصر عن شهوته فيما هو آتٍ.

(فإنّ أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشّيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها، ويمنّيه التّوبة ليسوفها، حتّى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عليها) وهذه كلّها علل لوجوب تقديم التوبة وتحذير عن هجوم الموت في حالة الغفلة.

بيان ذلك أنّ ستر الأَجل واختفائه عن الإنسان موجب لغفلته عن ذكره وطول الأمل خادع له يخدعه بطول الحياة كما قيل:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق الدّهر لولا فسحة الأمل

فإذا انضاف إلى ذلك خداع الشّيطان ووسوسته وتزيين المعصية في نظره وتسويفه للتّوبة وإلقائها في أمنيّته مع كونه موكلاً به ملازماً له، كانت الغفلة أشدّ والنّسيان آكد، فيهجم منيته عليه في نهاية غفلة من دون تمكّن من توبته ولا تدارك منه لمعصيته، فعند ذلك ينتبه من نوم

الغفلة والجهالة، ويقع في كمال الخيبة والنّدامة، وهو عند ذلك يقول:

﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

(فيا لها حسرة على كلّ ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجّة) أي شاهداً بلسان حاله على ما اكتسب فيه من الإثم والمعصية **(وأن يؤدّيه أيّامه)** التي أمهله الله فيها لتحصيل السّعادة **(إلى شقوة)** ثمّ دعا عليه السلام لنفسه وللمخاطبين بقوله: **(نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإيّاكم ممّن لا تبطره نعمة)** أي من الذين لا يوجب كثرة النعم له البطر والطغيان كما أنّ ذلك من جبلة الإنسان قال سبحانه:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦].

(ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية) أي لا تكون مقصراً في الطاعات لغرض من الأغراض الدّنيوية **(ولا يحل به بعد الموت)** حسرة و**(ندامة ولا)** حزن و**(كآبة)** لانغماره في المعصية وتسويفه التوبة وهجوم موته عليه في حالة الغفلة.

هداية فيها دراية

قد تحصل من كلامه عليه السلام أنّ اللاّزم على الإنسان أخذ الزّاد ليوم المعاد وأن لا يطمئن بطول الأَجل ولا يغتر بخداع الأَمل، إذ ربّ آمل شيء لا يدرك ما أمل كما قال عليه الصّلاة والسلام في الديوان:

يا من بدنياه اشتغل ... قد غرّه طول الأمل

والموت يأتي بغتة ... والقبر صندوق العمل

وقال آخر:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إنّ الحوادث قد يطرقن أسحاراً

لا تأمنن بليل طال أوّله ... فرب آخر ليل أجج النّارا

ولا سيما أن الشيطان اللعين عدوّ مبين وهو في الكمين:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [ياسين: ٦٢].

فينبغي للعاقل أن يحسن عمله ويقصر أمله ويقدم توبته أجله ويعجل في طلب الغفران ولا يغتر بتسويف الشيطان، ويتوب إلى الله سبحانه من صغائر ذنوبه وكبائرها، وبواطن سيئآته وظواهرها، وسوالف زلاته وحوادثها، توبة من لا يحدّث نفسه بمعصية، ولا يضمر أن يعود

في خطيئة، حتّى يصل بذلك إلى روح وريحان، ويتمكن من نزول الجنان، ولا يقع بعد الموت في الخيبة والخسران والحسرة والحرمان.

ولنذكر هنا حديثاً ينور القلوب، ويكشف الحجاب عن وجه المطلوب، ويظهر به عظم منفعة التّوبة، ويتّضح به معنى التسويف فيها وهو.

ما رواه في «الصّافي» من المجالس وبعض الأصحاب من الأمالي بإسنادهما عن عبد الرّحمٰن بن غنم الدّوسي قال: دخل معاذ بن جبل على رسول الله صلى الله عليه وآله باكياً، فسلم فرد عليه السلام ثم قال: ما يبكيك يا معاذ؟ فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ بالباب شابا طري الجسد نقي اللون حسن الصّورة يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: أدخل علي الشّاب يا معاذ فأدخله عليه فسلم، فرد عليه السّلام، ثم قال: ما يبكيك يا شاب؟ قال: كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوباً إن أخذني الله عزّ وجلّ ببعضها أدخلني نار جهنم ولا أراني إلاّ سيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً فقال رسول الله هل أشركت بالله شيئاً؟ قال: أعوذ بالله أن أشرك بربّي شيئاً، قال: أقتلت النفس التي حرّم الله؟ قال: لا، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يغفر الله لك ذنوبك وإن كان مثل الجبال الرّواسي قال الشّاب: فإنّها أعظم من الجبال الرّواسي.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: يغفر الله لك ذنوبك وإن كان مثل الأرضين السّبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق، قال الشّاب: فإنّها أعظم من الأرضين السّبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق، فقال النّبي صلى الله عليه وآله يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل السّماوات ونجومها ومثل العرش والكرسي، قال: فإنّها أعظم من ذلك، قال: فنظر النّبي إليه كهيئة الغضبان ثم قال: ويحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربّك؟ فخر الشّاب على وجهه وهو يقول سبحان ربّي ما من شيء أعظم من ربّي ربّي أعظم يا نبي الله من كل عظيم، فقال النبي صلى الله عليه وآله: فهل يغفر لك الذّنب العظيم إلاّ الرّب العظيم؟ قال الشّاب: لا والله يا رسول الله ثمّ سكت الشّاب، فقال له النّبي صلى الله عليه وآله: ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك؟ قال: بلى أخبرك.

إنّي كنت أنبش القبور سبع سنين أخرج الأموات وأنزع الأكفان، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار فلمّا حملت إلى قبرها ودفنت وانصرف عنها أهلها وجنّ عليهم الليل أتيت قبرها فنبشتها، ثمّ استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها وتركتها مجرّدة على شفير قبرها ومضيت منصرفاً، فأتاني الشّيطان فأقبل يزينها لي ويقول أما ترى بطنها وبياضها أما ترى وركيها، فلم يزل يقول لي هذا حتّى رجعت إليها ولم أملك نفسي حتّى جامعتها وتركتها مكانها، فإذاً أنا بصوت من ورائي يقول: يا شاب ويل لك من ديّان يوم الدّين يوم يقفني وإياك

كما تركتني عريانة في عساكر الموتى ونزعتني من حفرتي وسلبتني أكفاني وتركتني أقوم جنبة إلى حسابي، فويل لشبابك من النار، فما أظنّ أنّي أشم ريح الجنّة أبداً فما ترى لي يا رسول الله؟

فقال النبي ﷺ: تنحّ عنّي يا فاسق إنّي أخاف أن أحترق بنارك فما أقربك من النّار، ثمّ لم يزل يقول ويشير إليه حتّى أمعن أي أبعد من بين يديه، فذهب فأتى المدينة فتزوّد منها، ثمّ أتى بعض جبالها فتعبّد فيها، ولبس مسحاً وغل يديه جميعاً إلى عنقه ونادى:

يا ربّ هذا عبدك بهلول بين يديك مغلول يا ربّ أنت الذي تعرفني وزلّ منّي ما تعلم سيّدي يا ربّ إنّي أصبحت من النادمين وأتيت نبيّك تائباً فطردني وزادني خوفاً، فأسألك باسمك وجلالك وعظيم سلطانك أن لا تخيب رجائي سيدي ولا تبطل دعائي ولا تقنطني من رحمتك[1].

فلم يزل يقول ذلك أربعين يوماً وليلة تبكي له السّباع والوحوش، فلما تمت له أربعون يوماً وليلة رفع يديه إلى السّماء وقال:

اللهم ما فعلت في حاجتي إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوح إلى نبيّك، وإن لم تستجب دعائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردت عقوبتي فعجل بنار تحرقني أو عقوبة في الدنيا تهلكني وخلصني من فضيحة يوم القيامة فأنزل الله تعالى على نبيه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ يعني الزّنا ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

يعني بارتكاب ذنب أعظم من الزّنا ونبش القبور وأخذ الأكفان:

﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

يقول خافوا الله فعجلوا التوبة:

﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

يقول عزّ وجل: «أتاك عبدي تائباً فطردته فأين يذهب وإلى من يقصد ومن يسأل أن يغفر له ذنبه» غيري ثمّ قال عزّ وجل:

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

يقول الله عزّ وجل لم يقيموا على الزّنا ونبش القبور وأخذ الأكفان:

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ

---

(١) الأمالي: ٩٩، وروضة الواعظين: ٤٨٠.

ٱلْعَٰمِلِينَ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٦].

فلما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ خرج وهو يتلوها ويتبسّم، فقال لأصحابه من يدلني على ذلك الشّاب التائب؟ فقال معاذ: يا رسول الله بلغنا أنه في موضع كذا وكذا، فمضى رسول الله بأصحابه حتّى انتهوا إلى ذلك الجبل وصعدوا إليه يطلبون الشّاب، فإذاهم بالشّاب قائم بين صخرتين مغلولة يداه إلى عنقه قد اسود وجهه وتساقطت أشفار عينيه من البكاء وهو يقول:

سيدي قد أحسنت خلقي وأحسنت صورتي وليت شعري ماذا تريد بي، في النّار تحرقني أم في جوارك تسكنني، أللهم إنّك قد أكثرت الإحسان إلي وأنعمت علي فليت شعري ماذا يكون آخر أمري، إلى الجنّة تزفني، أم إلى النّار تسوقني، أللهم إنّ خطيئتي أعظم من السّماوات والأرض، ومن كرسيّك الواسع، وعرشك العظيم، فليت شعري تغفر خطيئتي أم تفضحني بها يوم القيامة.

فلم يزل يقول نحو هذا وهو يبكي ويحثو التّراب على رأسه وقد أحاطت به السّباع، وصفت فوقه الطير وهم يبكون لبكائه، فدنا رسول الله ﷺ فأطلق يديه من عنقه ونفض التراب عن رأسه وقال: يا بهلول أبشر فإنك عتيق من النّار، ثم قال هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول، ثمّ تلى عليه ما أنزل الله عزّ وجلّ وبشره بالجنّة[١].

وفي «الصّافي» و«البحار» من المجالس بإسناده عن قطر بن خليفة عن الصّادق جعفر بن محمد عليهما السلام قال: لما نزلت هذه الآية صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فقالوا: يا سيدنا لماذا دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها، فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، قال لست لها، فقال آخر مثل ذلك، فقال: لست لها، فقال الوسواس الخناس: أنا لها، قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنيهم التوبة، حتّى يواقعوا في الخطيئة فإذا وقعوا الخطيئة أنسيتهم الإستغفار، فقال: أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة.

أقول: ومن نظر إلى هاتين الرّوايتين بعين البصيرة وتفكر فيما تضمّنته الأولى من جلالة فائدة التوبة وتأمل فيما تضمّنته الثانية من عظم الخطر في تأخيرها وتسويفها وعرف أن التسويف والتأخير من وسوسة ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ ـ ٥]لا بدّ له أن يستيقظ من نوم الغفلة والجهالة ويتدارك الموت قبل حلوله ولا يغره الأمل بطوله.

---

(١) الأمالي: ٥٥١ ح ٧٣٦، ووسائل الشيعة: ١٦/٦٧.

وكذلك قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه:

«يا أبا ذر اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.

يا أبا ذر إياك والتسويف بأملك، فإنّك بيومك ولست بما بعده، فإن يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غداً لك لم تندم على ما فرطت في اليوم.

يا أبا ذر كم مستقبل يوم لا يستكمله. ومنتظر غداً لا يبلغه.

يا أبا ذر لو نظرت إلى الأَجل ومسيره، لأَبغضت الأَمل وغروره.

يا أبا ذر كن كأنك في الدّنيا عابر سبيل، وعد نفسك من أصحاب القبور.

يا أبا ذر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصّباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً»[١].

وبالجملة فالتعجيل في جميع الأمور قبيح إلا في التّوبة فإنه فيها حسن إذ التأخير مظنة الفوت الموجب للإقتحام في الهلكات مع ما في التأخير من خطر آخر، وهو أنّ التوبة إذا وقعت عقيب السيئة تؤثر فيها وتمحو أثرها، وإذا تأخرت يتراكم الرّين وظلمة الذّنوب على القلب فلا يقبل التأثير.

ولذلك قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة فإنّ الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين **أحدهما**: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو. **الثاني**: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو.

ولذلك أيضاً ورد في الخبر أنّ أكثر صياح أهل النار من التسويف، فما هلك من هلك إلاّ بالتسويف فيكون تسويده القلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسية إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب سقيم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، وإلى ما ذكرنا كله ينظر قوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾، وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧ ـ ١٨].

(١) وسائل الشيعة: ١/ ١١٤ ح ٢٨٥، ومستدرك الوسائل: ٢/ ١٠٧ ح ١٥٥٥.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام انام و حجت عالی مقام است که می فرماید: پرهيز نماييد از معبود به سزا ای بندگان خدا و بشتابيد به سوی اجل های خود با عمل های خود و بخريد آخرت باقی را در عوض دنيای فانی و رحلت نماييد به سوی آخرت، پس به تحقيق که تعجيل کرده شده است به شما و مهيا باشيد به مرگ که به تحقيق انداخته است بر شما و بشويد مثل طايفه ای که از طرف خدا ندا کرده شدند، پس بيدار شدند و دانستند که نيست دنيای فانی از برای ايشان خانه و سرای زندگانی.

پس بدل نماييد دنيا را به آخرت از جهت اين که خداوند عبث خلق نکرده است شما را و سرخود و مهمل نگذاشته است شما را و نيست ميان يکی از شما و ميان بهشت و جهنم مگر مرگ که نازل شود بر او و به درستی مدت و مسافت عمری که کم می گرداند آن را نگريستن و خراب می سازد آن را ساعت های شب و روز، هرآينه سزاوار است آن به کوتاهی مدت و به درستی غايبی که می رانند او را تازه آيندگان که عبارت است از شب و روز، هرآينه لايق است به سرعت بازگشت.

يعنی به سوی وطن اصلی که عبارت است از آخرت و به درستی که آينده ای که می آيد به سوی آخرت با سعادت يا شقاوت، هرآينه استحقاق دارد به بهترين توشه ای که عبارت است از عبادت و اطاعت تا برساند به سعادت، پس توشه برداريد در دنيا از دنيا، آن چيزی را که حفظ نماييد با آن نفس های خودتان را از عقوبت روز جزا.

پس متقی شد بنده برای پروردگار خود که نصيحت کرد نفس خود را و مقدم داشت توبه خود را و غلبه نمود بر شهوت خود، پس به درستی که اجل آن پنهان است از او و آرزوی او فريبنده او است و شيطان ملعون موکل او است که زينت می دهد از برای او معصيت را تا سوار شود بر او و آرزومند می سازد او را به توبه و انابه تا به تأخير اندازد آن را تا اين که هجوم آورد مرگ او به او در غافل ترين

حالتی که می باشد بر آن حالت.

ای حسرت حاضر باش بر هر صاحب غفلت که باشد عمر او بر او حجت در روز قیامت و برساند او را روزگار اوبه بدبختی و شقاوت، سؤال می کنیم از خداوند تعالی آن که برگرداند ماو شما را از کسانی که به طغیان نیندازد او را نعمت و مقصر نسازد او را از اطاعت پروردگار خود غرض و غایت، یعنی أغراض دنیویه مانع اطاعت او نگردد و از کسانی که حلول نکند به او بعد از مرگ و رحلت هیچ حسرت و ندامت و نه اندوه و محنت.

إلى هنا انتهى الجزء الرابع من هذه الطبعة البهية القيمة وذلك بتصحيح وتهذيب
من العبد «السيد إبراهيم الميانجي» ووقع الفراغ في أوائل
شهر جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ ويليه ان شاء الله
الجزء الخامس وأوله أول المختار الرابع والستين
والحمد لله رب العالمين.

محتوى الجزء الرابع من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

مِنهاجُ البَراعَةِ

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

منهاج البراعة

شرح

نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الخامس

دار احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ، شارع دكاش ـ هاتف: ٢٧٢٦٥٢ ـ ٢٧٢٦٥٥ ـ ٢٧٢٧٨٢ ـ ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ ـ ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ومن خطبة له عليه السلام وهي الرابعة والستون من المختار في باب الخطب

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حالٌ حالاً فَيَكُونَ أَوَّلاً قبل أَنْ يَكُونَ آخِراً، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ باطِناً، كل مُسَمَّى بِالْوَحْدَةِ غيرُهُ قليلٌ وكل عَزيزٍ غَيرُهُ ذَليلٌ، وكل قَوِيٍّ غَيرُهُ ضَعيفٌ، وكُلُّ مالك غيرُهُ مَمْلُوكٌ، وكُل عالِمٍ غَيرُهُ مُتَعَلِّمٌ، وكل قادِرٍ غَيرُهُ يَقْدِرُ ويَعْجِزُ، وكل سَميعٍ غيرُهُ يَصَّمُ عَنْ لَطيفِ الأَصْواتِ، وَيُصِمُّهُ كَبيرُها، ويَذْهَبُ عَنْهُ ما بَعدَ مِنها، وَكلُّ بَصيرٍ غَيرُهُ يَعْمَىٰ عَنْ خَفِيِّ الأَلْوانِ ولطيفِ الأَجْسَام، وكل ظاهِرٍ غَيرُهُ غيرُ باطِنٍ، وكل باطِنٍ غَيرُهُ غيرُ ظاهِرٍ، لَمْ يَخْلُقْ ما خَلَقَهُ لِتَشْديدِ سُلْطانٍ، وَلاَ تَخَوُّفٍ مِنْ عواقِبِ زَمانٍ، وَلاَ اسْتِعانَةٍ عَلى نِدٍّ مُثاوِرٍ، وَلاَ شَريكٍ مُكاثِرٍ، ولا ضِدٍّ مُنافِرٍ، وَلَكِنْ خَلائِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبادٌ داخِرُونَ، لَمْ يَحلُلْ في الأَشْياءِ فَيُقالَ هُوَ فيها كائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْها فَيُقالَ هُوَ مِنْهَا بائِنٌ، لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ ما ابْتَدَأَ، وَلا تَدْبيرُ ما ذَرَأَ، وَلاَ وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمّا خَلَقَ، وَلا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فيما قَضا وَقَدَّرَ، بَلْ قَضاءٌ مُتْقَنٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ، أَلْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ، أَلْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ[1].

اللغة

(صمت) الأذن صمماً من باب تعب بطل سمعها ويسند الفعل إلى الشّخص أيضاً فيقال صمّ يصمّ صمماً ويتعدّى بالهمزة فيقال أصمّه الله ولا يستعمل الثّلاثي متعدّياً و(النّد) المثل و(المثاور) من الثّوران وهو الوثب والهيجان يقال: ناوره مثاورة وثواراً وأثبه و(المكاثر) في أكثر النّسخ بالثاء المثلثة وفي نسخة الشّارح المعتزلي بالموحّدة ومعناهما قريب، يقال: كاثروهم فكثروهم غالبوهم في الكثرة فغلبوهم ويقال: كابرته مكابرة غالبته مغالبة وعاندته و(الدّاخر) الذّليل و(اده) الأمر يؤده أثقله و(ذرأ) خلق و(المبرم) كالمحكم لفظاً ومعناً.

الإعراب

لفظة (غير) في الموارد الثّمانية إمّا بالرّفع كما في أكثر النّسخ على أنّها صفة (الكلّ)،

---

(١) الغارات للثقفي: ١/ ١٧٤ ح ٩، وبحار الأنوار: ١/ ٣٠٩.

وإمّا بالنّصب كما في بعض النّسخ على الاستثناء أو على أنّها حال ممّا أضيف إليه (**كلّ**)، والعامل معنى الإضافة كما هو مذهب البعض في (**غير المغضوب**) حيث قال بكونه حالاً من (**الذين**) وأنّه عمل فيه معنى الإضافة، (**ولكن خلائق**) (ا ه) بتخفيف (**لكن**) وإلغائِها عن العمل ورفع ما بعدها على كونه خبراً لمبتدأ محذوف، قالوا: وحق (**لكن**) أن تقع بين كلامين متغايرين معنى بالنّفي والإثبات، ولا يلزم التغاير اللّفظي إذ يقال جاء زيد ولكن عمرواً لم يجيء، وقد يقال زيد حاضر ولكن عمرواً غائب، ولا يلزم أيضاً أن يكون بينهما تضادّ حقيقي بل التّنافي بوجه ما قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣].

فإن عدم الشّكر لا يناسب الإفضال، بل اللاّئق به أن يشكر، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام من هذا القبيل، قوله **فيقال**: في الموضعين بنصب المضارع وانتصابه بعد (**فاء**) السّببيّة مع تقدّم النّفي قاعدة كليّة، (**وقضاء متقن**) خبر لمبتدأ وهكذا ما بعده، وقوله (**المأمول مع النّقم**) أيضاً خبر أي هو المأمول والمرهوب.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشّريفة مشتملة على نكات لطيفة من العلوم الإلهيّة متضمّنة لجملة من الصّفات الكمالية.

الأولى: ما أشار إليه بقوله (**الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالاً فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً**) والمستفاد منه شيئان: **الأول**: أنّه سبحانه متّصف بالأوّلية والآخرية والظاهريّة والباطنية. **الثّاني** أنّ اتّصافه تعالى بها ليس على نحو السبق واللحوق والقبليّة والبعديّة.

أمّا الأوّل فقد أشير إليه في سورة الحديد قال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③﴾ [الحديد: ٣].

واختلف في معنى هذه الصّفات فقال الصّدوق في التّوحيد: هو الأوّل بغير ابتداء، والآخر بغير انتهاء، والظاهر بآياته التي أظهرها من شواهد قدرته وآثار حكمته وبيّنات حجّته التي عجز الخلق جميعاً عن إبداع أصغرها وإنشاء أيسرها وأحقرها عندهم كما قال عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

فليس شيء من خلقه إلاّ وهو شاهد له على وحدانيّته من جميع جهاته وأعرض تبارك وتعالى عن وصف ذاته وهو ظاهر بآياته محتجب بذاته.

ومعنى ثانٍ: أنّه ظاهر غالب قادر على ما يشاء ومنه قوله عزّ وجلّ: **﴿فأصبحوا ظاهرين﴾** [الصف: ١٤]، أي غالبين لهم.

والباطن معناه: أنّه قد بطن عن الأوهام وهو باطن لا يحيط به محيط لأنّه قدم أي تقدم الفكر فجنّب عنه، وسبق العلوم فلم يحط به، وفات الأوهام فلم يكتنهه، وحارت عنه الأبصار فلم تدركه، فهو باطن كلّ باطن، ومحتجب كلّ محتجب، بطن بالذّات وظهر بالآيات، فهو الباطن بلا حجاب والظاهر بلا اقتراب.

ومعنى ثان أنه باطن كلّ شيء أي خبير بصير بما يسرّون وما يعلنون ولكلّ ما ذرأ، وبطانة الرّجل وليجته من القوم الذين يداخلهم ويداخلونه في دخلة أمره، والمعنى أنّه عالم بسرائرهم لا أنّه عزّ وجلّ يبطن في شيء يواريه.

وفي «**مجمع البيان**»: هو الأوّل أي أوّل الموجودات، وتحقيقه أنّه سابق لجميع الموجودات بما لا يتناهى من تقدير الأوقات، لأنّه قديم وما عداه محدث والقديم يسبق المحدث بما لا يتناهي من الأوقات، والآخر بعد فناء كلّ شيء لأنّه يفني الأجسام كلّها وما فيها من الأعراض ويبقى وحده.

وقيل: الأوّل قبل كلّ شيء بلا ابتداء، والآخر بعد كل شيء بلا انتهاء، والظاهر هو العالي الغالب على كلّ شيء، فكلّ شيء دونه، والباطن العالم بما بطن فلا أحد أعلم منه، عن ابن عباس.

وقيل: الظاهر بالأدلة والشّواهد، والباطن الخبير بكلّ شيء وقيل: معنى الظاهر والباطن إنّه العالم بما ظهر، والعالم بما بطن وقيل: الظاهر بأدلته والباطن من إحساس خلقه، وقيل الأوّل بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب، قيل الأوّل ببرّه إذ هداك، والآخر بعفوه إذ قبل توبتك، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته عن السدى.

وقيل الأوّل بالخلق، والأخر بالرّزق، والظاهر بالإحياء، والباطن بالإماتة، عن ابن عمر وقيل: هو الذي أوّل الأوّل واخر الآخر وأظهر الظاهر وأبطن الباطن، عن الضّحاك، وقيل: الأوّل بالأزليّة، والآخر بالأبديّة، والظاهر بالأحديّة، والباطن بالصّمديّة عن أبي بكر الوراق، وقيل: إن الواوات مفتّحة والمعنى هو الأوّل والأخر والظاهر والباطن، لأنّ من كان منّا أوّلاً لا يكون آخراً، ومن كان ظاهراً لا يكون باطناً، عن عبد العزيز بن يحيى وقيل: هو الأوّل القديم، والآخر الرّحيم والظاهر الحكيم، والباطن العليم، عن يمان.

وأمّا الثّاني: فتحقيقه ما ذكره الشّارح البحراني وهو أنه لما ثبت أنّ السّبق والمقارنة والقبلية والبعديّة أمور تلحق الزمان لذاته وتلحق الزمانيات به وثبت أنّه تعالى منزّه عن الزّمان إذ

كان من لواحق الحركة المتأخّرة عن وجود الجسم المتأخّر عن وجود الله سبحانه كما علم ذلك في موضعه، لا جرم لم تلحق ذاته المقدّسة وما لها من صفات الكمال ونعوت الجلال شيء من لواحق الزّمان، فلم يجز إذاً أن يقال مثلاً كونه عالماً قبل كونه قادراً أو كونه قادراً قبل كونه مريداً أو كونه حيّاً قبل كونه عالماً ولا كونه أوّلاً للعالم قبل كونه آخراً له قبلية وسبقاً زمانياً.

بقي أن يقال إنّ القبلية والبعديّة قد تطلق بمعان أخرى كالقبليّة بالشّرف والذّات والفضيلة والعلية، وقد بيّنا أن كلّ ما يلحق ذاته المقدّسة من الصّفات فاعتبارات ذهنيّة تحدّثها العقول عند مقايسته إلى مخلوقاته وشيء من تلك الاعتبارات لا تفاوت أيضاً بالقبليّة والبعديّة بأحد المعاني المذكورة بالنّظر إلى ذاته المقدسة، فلا يقال مثلاً: هو المستحقّ لهذا الاعتبار قبل هذا الاعتبار أو بعده وإلا لكان كمال ذاته قابلاً للزيادة والنّقصان، بل استحقاقه بالنّظر إلى ذاته لما يصحّ أن يعتبر لها استحقاق وجه بالنّظر إلى جميعها دائماً.

فلا حال يفرض إلاّ وهو يستحق فيه أن يعتبر له الأوّليّة والآخريّة معاً استحقاقاً أوّليّاً ذاتياً، لا على وجه التّرتيب وإن تفاوتت الاعتبارات بالنّظر إلى اعتبارنا، وهذا بخلاف غيره من الأمور الزّمانية، فإنّ الجوهر مثلاً يصدق عليه كونه أوّلاً من العرض ولا يصدق عليه مع ذلك أنّه آخر له حتّى لو فرضنا عدم جميع الأعراض وبقاء الجوهر بعدها لم يكن استحقاقه للاعتبارين معاً بل استحقاقه لاعتبار الأوليّة متقدّم.

وقال الصّدر الشّيرازي في «**شرح الكافي**»: هو الأوّل والآخر لأنّه مبدأ كلّ شيء وغايته، والظاهر والباطن لأنّ غاية ظهوره منشأ بطونه بل حيثية ظهوره بعينها حيثيّة بطونه، فهو الظاهر من حيث هو الباطن، والباطن من حيث هو الظاهر.

والثانية: أن (**كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل**) والمراد بذلك أنّه سبحانه مع اتّصافه بالوحدة لا يتّصف بالقلة كما يتّصف بها غيره من المتّصفين بالوحدة.

بيان ذلك: أنّ الوحدة قد تطلق ويراد بها الوحدة التي هي مبدأ الكثرة وهي العاد والمكيال لها سواء كانت في المتّصل كالذّراع الواحد والفرسخ الواحد يعدان بوحدتيهما الأذرع والفراسخ الكثيرة، أو في المنفصل كالعشرة الواحدة والمائة الواحدة يعدان العشرات الكثيرة والمآت الكثيرة، وهي أشهر أقسام الوحدة، وقد يطلق ويراد بها الوحدة النّوعيّة والوحدة الجنسيّة، وهي الوحدة المبهمة التي يوصف بها الأنواع والأجناس والابهام في الجنس أشدّ وهي غير الوحدة بالنّوع والوحدة بالجنس لأنّ معروض هاتين الكثير من الأشخاص والأنواع ومعروض الوحدة الجنسية والنوعيّة المعنى الواحد المبهم.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ الوحدة بالمعاني المذكورة لا يجوز اتّصافه تعالى بها **أما**

الأول: فلأنّ الوحدة بالمعنى المذكور قليل بالنسبة إلى الكثرة التي هي عادّ لها والقلة والكثرة من أوصاف الممكن، **وأما الآخران**: فلأنّ الواجب سبحانه لا يكون نوعاً ولا جنساً ولا يندرج تحت نوع ولا جنس، لأنّ ذلك كله من خصائص الإمكان، ولمّا كان أكثر الناس لا يتصوّر من الوحدة إلاّ المعنى الأوّل بل لا يفهمون من كونه تعالى واحداً إلاّ هذا المعنى لا جرم جعل نفيها عنه مخصوصاً بالذّكر دفعاً لما يتوهّمون وإبطالاً لما يزعمون.

روى الصّدوق في التّوحيد بإسناده عن شريح بن هانيء، عن أبيه قال: إنّ أعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إنّ الله واحد؟ فحمل النّاس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإنّ الذي يريده الاعرابي هو الذي نريده من القوم، ثمّ قال: يا أعرابي إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ ووجهان يثبتان فيه.

فأمّا اللّذان لا يجوزان عليه فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال ثالث ثلاثة، وقول القائل هو واحد من النّاس يريد به النّوع من الجنس فهذا ما لا يجوز عليه لأنّه تشبيه وجلّ ربنا عن ذلك وتعالى.

وأمّا الوجهان اللّذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربّنا، وقول القائل إنّه أحدي المعنى يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم وكذلك ربّنا عزّ وجلّ[1].

(و) الثالثة: أنّ **(كل عزيز غيره ذليل)** قد يفسّر العزيز الذي هو من أسمائه سبحانه بأنّه الذي لا يعاد له شيء أو الغالب غير المغلوب.

وقال في التّوحيد العزيز: معناه أنّه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، فهو قاهر الأشياء غالب غير مغلوب، وقد يقال في المثل من عزيز أي من غلب سلب، وقوله عزّ وجلّ حكاية عن الخصمين وعزّني في الخطاب، أي غلبني، ومعنى ثانٍ أنّه الملك ويقال للملك عزيز كما قال أخوة يوسف ليوسف: يا أيها العزيز، والمراد يا أيّها الملك.

أقول: والظاهر أنّ المعنى الثاني أيضاً مأخوذ من الأوّل، وعليه فالعزيز في اللغة هو مطلق الغالب، فإذا استعمل في الله سبحانه ووصفناه به يراد به الغالب المطلق أعني الغالب غير المغلوب، وإذا وصف به أحد من الخلق فالمراد به الغالب بالنّسبة إلى من دونه وإن كان

(١) الخصال: ٢/١، ومعاني الأخبار: ٦.

مغلوباً بالنّسبة إلى من فوقه وذليلاً بالقياس إليه ويوضح ذلك أنّ السّحرة قالوا:

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

فوصفوا فرعون بالعزّة وقد صار مغلوباً لموسى وذليلاً عند إله موسى مقهوراً تحت قدرته.

(و) الرابعة: أنّ **(كل قوي غيره ضعيف)** القوّة هي مبدأ الأفعال الشّاقة وإذا وصف الله بها فتعود إلى تمام القدرة وإذا نسبت إلى غيره فالمراد بها القوة الجسمانية كقوّة البطش المعروف من المخلوقات ولا يصحّ نسبتها بهذا المعنى إليه سبحانه إذ البرهان قائم على أنّ كل قوّة جسمانية متناهية محتملة للزيادة والنّقصان فتحتاج إلى محدّد يحددها فيقوي عليها ويقهرها على الحدّ الذي لها، وتلك القوة الأخرى أيضاً إن كانت متناهية كان حكمها كذلك إلى أن ينتهي إلى قوّة غير جسمانيّة ولا متناهية دفعاً للتّسلسل أو الدّور، وأيضاً ما يحتمل الزّيادة كالأعداد والأجسام والمقادير والحركات والأزمنة وما يتعلق بها كالقوى والكيفيات فهي ناقصة أبداً غير تامّة، وكل ناقص محتاج إلى إكمال ومكمل فلا يكون قديماً واجباً لذاته.

وإلى ذلك أشار أبو جعفر الثاني ﷺ في رواية **«الكافي»** بقوله: وكذا سمّينا ربّنا قويّاً لا بقوّة البطش المعروف من المخلوق، ولو كانت قوّته قوّة البطش المعروف من المخلوق لوقع التّشبيه ولاحتمل الزّيادة، وما احتمل الزّيادة احتمل النّقصان، وما كان ناقصاً كان غير قديم، وما كان غير قديم كان عاجزاً[١].

(و) الخامسة: أنّ **(كلّ مالك غيره مملوك)** إذ كلّ ما سواه مستند إلى وجوده وفي تصريف قدرته ومشيّئته نافذ فيه أمره، جار فيه حكمه، فهو المالك للكلّ بالاستحقاق وعلى الإطلاق والكلّ مملوك له وإن صدق عليه في العرف أنّه مالك بالقياس إلى من دونه وما في يده.

(و) السادسة: أنّ **(كلّ عالم غيره متعلم)** إذ علمه عين ذاته وعلم غيره محتاج إلى التّعلم من الغير والاستفادة منه، ثمّ الغير من الغير إلى أن ينتهي إلى علمه سبحانه.

(و) السابعة: أنّ **(كلّ قادر غيره يقدر ويعجز)** لأنّ قدرته عين ذاته فيستحيل عليه العجز وأمّا قدرة غيره وهي القوّة الجسمانية المنبثّة في الأعضاء المحركة لها نحو الأفاعيل الاختيارية المقابلة للعجز تقابل العدم والملكة فهي خارجة عن ذات القادر قابلة للوجود والعدم، فإذا القادر المطلق هو مستند كلّ مخترع اختراعاً ينفرد به ويستغني فيه عن معاونة الغير وليس هو إلاّ الله سبحانه، وأمّا غيره من المتصفين بالقدرة فهو وإن كان في الجملة صاحب قدرة إلاّ أنّ

---

(١) الكافي: ١/١١٧، والاحتجاج: ٢/٢٤٠.

قدرتها ناقصة لتناولها بعض الممكنات وقصورها عن البعض الآخر، لأنّه بالذّات مستحقّ بالعجز وعدم القدرة وإنّما استحقاقه لها من وجوده تعالى فهو الفاعل المطلق الذي لا يعجزه شيء عن شيء ولا يستعصي على قدرته شيء.

فإن قلت: فهل يقدر أن يدخل الدّنيا كلها في بيضة لا تصغر الدّنيا ولا يكبر البيضة؟

قلت: لا، ولا يلزم منه نقص على عموم القدرة، بيان ذلك على ما حقّقه بعض علمائنا المحقّقين أنّ معنى كونه قادراً على كلّ شيء أنّ كلما له مهيّة إمكانية أو شيئيّة تصورية فيصحّ تعلق القدرة به، وأمّا الممتنعات فلا مهيّة لها ولا شيئيّة حتّى يصحّ كونها مقدورة له تعالى، وليس في نفي مقدوريّته نقص على عموم القدرة بل القدرة عامّة والفيض شامل والممتنع لا ذات له وإنّما يخترع العقل في وهمه مفهوماً يجعله عنواناً لأمر باطل الذّات كشريك الباري واللاّشيء واجتماع النّقيضين أو يركب بين معاني ممكنة آحادها تركيباً ممتنعاً، فإنّ كلا من المتناقضين كالحركة والسّكون أمر ممكن خارجاً وعقلاً، وكذا معنى التّركيب والاجتماع أمر ممكن عيناً وذهناً وأمّا اجتماع المتناقضين فلا ذات له لا في الخارج ولا في العقل، لكن العقل يتصوّر مفهوم اجتماع النّقيضين على وجه التّلفيق ويجعله عنواناً ليحكم على أفراده المقدّرة بامتناع الوجود وكون الكبير مع كبره في الصّغير من هذا القبيل.

إذا عرفت ذلك ظهر لك أنّ إدخال الدّنيا على كبرها في البيضة مع بقاء البيضة على صغرها أمر محال، والمحال غير مقدور إذ لا ذات له ولا شيئيّة.

وإلى ذلك وقعت الإشارة فيما رواه الصّدوق في كتاب التّوحيد بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربك أن يدخل الدّنيا في بيضة من غير أن يصغر الدّنيا أو يكبر البيضة؟ فقال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز والذي ذكرت لا يكون.

فإن مقصوده عليه السلام إنّ ما سأله الرّجل أمر ممتنع بالذّات محال والمحال غير مقدور عليه وأنّ الله على كلّ شيء قدير.

ومثله ما رواه أيضاً مسنداً عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أيقدر الله أن يدخل الأرض في بيضة ولا يصغر الأرض ولا يكبر البيضة؟ فقال: ويلك إنّ الله لا يوصف بالعجز ومن أقدر ممّن يلطف الأرض ويعظم البيضة[1].

فإنّ هذه الرّواية دالة على أنّ إدخال الكبير في الصّغير غير ممكن إلا بأن يصغر الكبير بنحو التكاثف والتخلل ونحوهما، أو يعظم الصّغير، وأنّ تصغير الأرض إلى حدّ تدخل في

---

(١) ميزان الحكمة: ٢/١٩١٦، والتوحيد: ١٣٠ ح ١٠.

بيضة أو تعظيم البيضة إلى حدّ تدخل فيه الأرض غاية القدرة.

(و) **الثامنة**: أنّ (**كلّ سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمّه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها**) بيان ذلك أنّ السّمع عبارة عن قوّة مودعة في العصبتين المفروشتين على سطح باطن الصّماخين كجلد الطبل النّافذتين من الدّماغ إليهما بهما يدرك الأصوات، والصّوت عبارة عن هيئة في الهواء حاصلة من تموجّه النّاشيء من حركة شديدة مسببة عن قرع أحد الجسمين في الآخر الذي هو إمساس عنيف، وعن قلع أحدهما عن الآخر الذي هو تفريق عنيف بشرط مقاومة المقروع للقارع والمقلوع للقالع.

ففي الأوّل: ينفلت الهواء من بين الجسمين بشدّة، وفي الثّاني: يلج بينهما بشدّة ويحصل من انفلاته وولوجه تموّج وحركة على هيئة مستديرة نحو ما يتصوّر عند وقوع الحجز في الماء، فإذا انتهى ذلك التموّج إلى الهواء الذي في الأذن يحرّك ذلك الهواء الراكد حركة مخصوصة بهيئة مخصوصة، فتنفعل العصبة المفروشة على الصماخ عن هذه الحركة وتدركها القوّة السّامعة ويسمّى هذا الإدراك سمعاً.

إذا عرفت ذلك فنقول: إن إدراك هذه القوّة للأصوات مشروط بأن يكون الصّوت قريباً لا بعيداً جدّاً، وأن يكون مع قربه على حدّ الاعتدال أي لا يكون قوياً كثيراً ولا ضعيفاً كذلك، لأنّه إذا كان ضعيفاً لا يحصل بسببه تموّج الهواء كما أنّه لو كان بعيداً لا يصل الهواء المتموج إلى الصّماخ، وعند قربه وقوّته ربّما يحدث الصّمم لشدّة قرعه للصّماخ وتفرق اتّصال الرّوح الحامل لقوّة السّمع عنه بحيث يبطل استعدادها لتأدية القوة إلى الصّماخ.

وإلى الأوّل أشار عليه السلام بقوله: يصم عن لطيف الأصوات، تشبيهاً لعجز السامعة عن إدراك الصّوت بخفائها وضعفه بالصّمم وإلى الثاني بقوله: ويذهب عنه ما بعد منها وإلى الثالث بقوله ويصمّه كبيرها.

ولما كان الله سبحانه وجلّت عظمته منزّهاً عن الجسميّة وآلات الجسم وكان سمعه عبارة عن علمه بالمسموعات على ما حقّقناه في شرح الفصل السّادس من فصول الخطبة الأولى لا جرم اختصّ الأوصاف المذكورة أعني العجز عن إدراك الضّعيف والصّمم بسماع القوي وعدم التّمكن من إدراك البعيد بمن كان له هذه الآلات واستحالت في حقّه سبحانه، إذ العلم لا يتفاوت بالنّسبة إلى القريب والبعيد والضّعيف والشّديد:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٦ ـ ٧].

(و) **التاسعة**: أنّ (**كلّ بصير غيره يعمي عن خفيّ الألوان ولطيف الأجسام**) والظاهر أنّ المراد بالألوان الخفيّة الألوان الغير المدركة بالأبصار لانتفاء شرط الإدراك وهو الضوء،

ويقابلها الألوان الظاهرة وهي التي تدركها الباصرة، وعلى هذا فيكون كلامه ﷺ دليلاً على بطلان القول بعدم وجود اللون في الظلم.

توضيح ذلك أنّ الشيخ الرّئيس وأتباعه ذهبوا إلى أنّ الألوان غير موجودة بالفعل في حال كونها مظلمة، معللاً بأنّا لا نراها في الظلمة فهو إمّا لعدمها أو لوجود عائق من الأبصار، والثّاني باطل لأن الظلمة عدميّة والهواء نفسه غير مانع من الرؤية كما إذا كنت في غارة مظلمة وفيها هواء كله على تلك الصّفة فإذا صار المرئي مستنيراً رأيته ولا يمنعك الهواء الواقف بينه وبينك.

ورده المتأخّرون بأنّه لا شك أن اللّون له مهيّة في نفسه وأنه يصح كونه مرئياً فلعل الموقوف على وجود الضوء هو هذا الحكم، وبالجملة للجسم مراتب ثلاث استعداد أن يكون له لون معيّن، ووجود ذلك اللون بالفعل، وكونه بحيث يصحّ أن يرى فلم لا يجوز أن يكون الموقوف على وجود الضوء هذا الحكم الثالث لا أصل اللّون؟

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ معنى قوله: هو أنّ كلّ بصير غيره تعالى لا يمكن له إدراك الألوان الخفيّة أي الألوان في حال كونها مظلمة لانتفاء شرط الإدراك الذي هو الضّوء كما أنّ الأعمى لا يمكن له إدراكها لانتفاء قوة الابصار له، فكنى عن عدم إدراك البصير لها بالعمى لشبهه بالأعمى في مشاركتهما في عدم التّمكن من الإدراك، وإن كان عدم التّمكن في حقّ الأوّل من جهة انتفاء الشّرط وفي الثّاني من جهة انتفاء الآلة أعني البصر، هذا.

ولعل المراد من لطيف الأجسام الأجسام الرّقيقة القوام كالبعوضة والذّرة ونحوهما، ولما كانت بصيرّيته سبحانه عبارة عن علمه بالمبصرات حسبما حقّقنا أيضاً في شرح الفصل السّادس من فصول الخطبة الأولى، اختص العجز عن إدراك الألوان الخفيّة والأجسام اللطيفة بغيره سبحانه وأما هو سبحانه فلا تفاوت في علمه بين الخفي والجلي واللطيف والكثيف.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. هذا.

ويشهد بما ذكرته في تفسير معنى السّميع والبصير والجسم اللطيف ما رواه في «**الكافي**» عن محمّد بن أبي عبد الله، رفعه إلى أبي هاشم الجعفري، قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فسأله رجل فقال: أخبرني عن الرّب تبارك وتعالى له أسماء وصفات في كتابه إلى أن قال: فقال الرّجل: فكيف سمّينا ربّنا سميعاً؟ فقال: لأنّه لا يخفى عليه ما يدرك بالأسماع ولم نصفه بالسّمع المعقول في الرّأس، وكذلك سمّيناه بصيراً لأنّه لا يخفى عليه ما يدرك بالأبصار من لون أو شخص أو غير ذلك ولم نصفه ببصر لحظة العين، وكذلك سميناه لطيفاً لعلمه بالشيء اللطيف مثل البعوضة وأخفى من ذلك وموضع النّشو منها والعقل والشّهوة

للسفاد والجذب على نسلها وأقام بعضها على بعض ونقلها الطعام والشراب إلى أولادها في الجبال والمفاوز والأودية والقفار[١].

قال بعض شارحي الحديث: يعني أنّه يعلم أعضاء البعوضة كالجناح والرّجل والعين، وقواها كالسّمع والبصر، وأحوالها كالإدراك والإرادة والشّهوة والمحبّة والشّفقة والإلفة والغضب والنّفرة والعداوة، وأفعالها كالحركة والسّكون والسفاد ونقل الطعام والشّراب إلى الأولاد وغير ذلك من أمورها كموتها وحياتها ونفعها وضرها وآجالها ومقادير أعمارها وأرزاقها وغيرها من لطائف صنعه ودقائق خلقه، فهو تعالى لطيف لعلمه بلطائف الأمور.

(و) العاشرة أنّ (كل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن غيره غير ظاهر) يعني أنّ من الممكنات ما هو ظاهر جلي لا يتّصف بالبطون والخفاء كالشّمس والقمر ونحوهما ومنها ما هو باطن خفيّ لا يتّصف بالظهور والجلاء كالهيولي والعدم وما تحت الثرى، وأمّا الله الحيّ القيّوم العظيم الشّأن فهو متّصف بالظهور والبطون معاً، فهو في كمال ظهوره باطن وفي غاية بطونه ظاهر، بل هو أجلى الأشياء وأظهرها، ومنتهى ظهوره صار سبباً لخفائه.

وتحقيق ذلك على ما حقّقه صدر المتألهين وأوضحه بالمثال تقريباً للأفهام وتشحيذاً للأذهان هو: إنّا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط كان كونه حيّاً عالماً قادراً مريداً عندنا من أظهر الأشياء، وهذه الصّفات أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ لا نعرف بعضها كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه، ونشك في بعضها كمقدار طوله وعرضه ولون بشرته وغير ذلك، وأمّا حياته وعلمه وقدرته وإرادته فإنّها جليّة عندنا من غير أن يتعلق الحسّ الظاهر بها لأنّها غير محسوسة بشيء من الحواس الظاهرة وليس عليها مع هذا الوضوح والجلاء إلاّ دليل واحد وهو الكتابة أو الخياطة.

وأمّا وجود الله تبارك وتعالى وقدرته وعلمه وإرادته وحياته فيشهد له جميع ما في الكون، وكل ما نشاهده أو ندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبحر وبرّ ونار وهواء بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا من الصّغر والكبر والقوّة والضّعف والصّحة والسّقم والرّضا والغضب والفرح والحزن والحبّ والبغض والشّهوة والكراهة والإناة والإرادة والرّغبة والرّهبة والرّجاء والياس إلى غير هذه.

وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا، ثمّ أحوالنا ومحسوساتنا بإحدى الحواس ثمّ مدركاتنا بالعقل والبصيرة، وكل واحد من هذه المدركات له دليل واحد وشاهد واحد، وجميع ما في

(١) الكافي: ١/ ١١٧، ومستدرك سفينة البحار: ٩/ ٢٥٥.

العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته، فإنّه كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس لها شاهد إلاّ حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصوّر شيء داخل نفوسنا وخارجها إلاّ وهو شاهد عليه، وما من ذرّة إلاّ تنادي بلسان حالها أنّه ليس وجودها ولا حركتها بذاتها وأنّها تحتاج إلى موجد ومحرّك.

فإذا علمت هذا فنقول: لما لم يبق في الوجود مدرك ولا محسوس ولا معقول ولا حاضر ولا غائب إلاّ وهو شاهد على وجوده معروف لعظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه فإنّ ما يعجز عنه فهم عقولنا له علتان **إحداهما**: خفائه في نفسه كالهيولي والعدم والزّمان والحركة والعدد والنّسبة وغيرها. **والثّانية**: غاية جلائه ووضوحه وقصور القوّة الإدراكيّة كمثال نور الشّمس وبصر الخفّاش، فإنّ بصره ضعيف يبهره نور الشّمس في النّهار إذا أشرقت ولهذا إذا امتزج الضّوء بالظلام وضعف ظهوره أبصر بالليل.

فكذلك عقول البشر ضعيفة وجمال الحضرة الإلهيّة في غاية الإشراق ونهاية الشّمول والاستغراق حتّى لم يشذ عن ظهوره ذرّة من السّماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه فسبحان من احتجب بشدّة ظهوره واختفى عن البصائر بإشراق نوره.

وأيضاً الأشياء قد يستبان بأضدادها وما عمّ وجوده وشموله حتّى لا ضدّ له كأصل الوجود عسر إدراكه، فلولا غروب لنور الشّمس و احتجاب له عن بعض مواضع الأرض لكنا ظننّا أن لا هيئة في الأجسام إلاّ سطوحها وألوانها، ولكن لما غابت الشّمس واظلمت بعض المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين وعرفنا وجود النّور بعدمه عند الغروب، ولولا عدمه ما كنا نطلع عليه إلا بعسر شديد، هذا.

مع أنّ النّور أظهر المحسوسات والله سبحانه أظهر الأشياء وبه ظهرت الأنوار كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغيّر لانهدمت الأرض والسّماء ولانعدمت الأشياء كلها وبطل الملك والملكوت، ولأدركت به الفرق بين الحالتين، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة في الدّلالة، ولكن وجوده دائم في الأحوال ودلالته عامة على نسق واحد في الأشياء، فلا جرم أورث شدّة الظهور خفائه.

(و) الحادية عشر: أنّه تعالى **(لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ولا استعانة)** منه **(على ندّ)** ونظير **(مثاور)** أي مواثب **(ولا شريك)** ومثل **(مكاثر)** أي متعرّض للغلبة **(ولا ضد منافر)** أي مسارع إليه بالمعادات، والمراد بذلك كله بيان أنّ الله سبحانه ليس لفعله داع وغرض غير ذاته، وأشار إليه بنفي أقسام الدّواعي والأغراض وما يلحقها من العوارض والحالات.

والبرهان على ذلك أنّه تعالى لو فعل لغرض لا يخلو إما أن يكون وجود ذلك الغرض

وعدمه بالنّسبة إليه على سواء أو لا يكون كذلك، والأوّل باطل وإلاّ لكان حصول الغرض له دون عدمه ترجيحاً من غير مرجّح، والثّاني أيضاً باطل لأنهما إذا لم يستويا في حقه تعالى كان حصول الغرض أولى به من لا حصوله فحينئذٍ يكون ذاته يستفيد من فعله غرضاً معتبراً في كماله ويكون بدونه فاقد كمال وعادم مقصد فيكون ناقصاً في ذاته تعالى عن النقصان علوّاً كبيراً.

كيف وكلّ كمال للمعلول فإنّما حصل له من جهة علة الموجبة فلا يكون أن يرجع المعطي للكمال إلى أن يستفيد من مستفيده شيئاً من الكمال الذي أفاده له؛ فقدعلم علماً كليّاً أنّ العلة الفاعلة ليس لها غرض ولا مقصود صحيح في مفعوله، بل ان كان غرض ومقصد للعالي فلا بدّ أن يكون ذلك له فيما هو أعلى وأجل منه، فلا التفات للعالي إلى السّافل بل إلى ما هو أعلى منه وإذ ليس للأوّل تعالى ما هو أعلى منه لأنّه أعلى العوالي ومبدأ المبادي فليس لفعله غاية غير ذاته، ولا له محبّة وابتهاج بالقصد الأول إلاّ لذاته الذي هو منبع كلّ خير وكمال، ويتوسط ابتهاجه يحب ويريد ما يصدر عن ذاته بالقصد الثاني لأنّ كل ما يصدر عن المحبوب محبوب بالتبع.

فإن قيل: ليست أولوية الغرض بالنسبة إلى ذاته تعالى، بل بالنّسبة إلى مخلوقاته وعباده، فيكون غرضه تعالى في فعله الإحسان إلى الغير وإيصال المنفعة إليه.

قيل: حصول الاحسان إلى الغير أو المنفعة أو أيّ شيء كان ولا حصوله إن كانا بالنّسبة إلى ذاته على سواء عاد حديث الرّجحان بلا مرجّح، وإن كان أحدهما أولى به عاد حديث الاستكمال بغيره والنّقصان في ذاته ولكن فيه تأمل تعرف وجهه في شرح الخطبة المائة والخامسة والثّمانين في التنبيه الذي في ذيله، وتمام التّحقيق في كون أفعاله تعالى معلّلة بالأغراض يأتي إن شاء الله هناك، هذا.

وإذا عرفت أنّه سبحانه لا يفعله لغرض ظهر لك أن خَلقهِ الخلق لم يكن لتشديد سلطان، ولا خوف من عواقب زمان، ولا غير ذلك ممّا ذكره عليه السلام وما لم يذكره، إذ كلّ ذلك أغراض زائدة على ذاته مضافاً إلى قيام الدليل القاطع على نفي هذه الأغراض المخصوصة المذكورة وراء الدّليل العام الذي ذكرنا وهو:

أن تشديد السّلطان إنما يحتاج إليه ذو النقصان في ملكه والضّعف في سلطنته، ولمّا كان تعالى شأنه هو الغني المطلق في كلّ شيء عن كلّ شيء وكان كلّ ما عداه مقهوراً تحت قدرته نافذاً فيه حكمه بالإيجاد والإبقاء والإفناء، لم يحتج في سلطانه إلى أحد من خلقه.

وأمّا التّخوف من عواقب الزّمان فلأنّ الضّرر والانتفاع وما يلحقهما من الخوف والرّجاء وغيرهما إنّما هي من لواحق الممكنات القابلة للنقصان والكمال وما هو في معرض التّغير

والزّوال في الذّات والصّفة والفعل، وواجب الوجود بحسب جميع الجهات وجوب بلا إمكان ووجود بلا عدم وتمام بلا نقص، فلا يمكن أن يكون غرضه من الإيجاد دفع ذلك الخوف عن نفسه.

وأمّا الاستعانة على الضّد والنّد والشّريك فلأَن الاستعانة يو طلب العون من الغير وهو من لوازم الضّعف والعجز وهما من تناهي القوة والقدرة، وإذ لا ضعف ولا عجز لكماله سبحانه قوة وقدرة فلا يتصور في حقه الاستعانة: وأيضاً لا ضدّ له ولا ندّ ولا شريك حتّى يحتاج في دفعهم إلى الاستعانة، لأَنّ كلّ شيء هو مخلوق له، والمخلوق لا يكون ضداً لخالقه ولا نداً ولا شريكاً، بل المخلوقات يكون بعضها بالنّسبة إلى بعض على هذه الصّفات والله سبحانه منزّه عن صفات المخلوقين وخواص المحدثين.

وإليه أشار بقوله (**ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون**) يعني ولكنّهم خلائق مربوبون لهم ربّ قاهر وعباد داخرون لهم معبود غالب فهم مقهورون مملوكون محتاجون إلى ربّهم لا يملكون لأَنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

والثانية عشر: أنّه تعالى (**لم يحلل في الأَشياء فيقال هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن**) يعني أنّه سبحانه أقرب إلى الأشياء من كلّ قريب ولكن لا بحلول فيها، وأبعد منها من كلّ بعيد ولكن لا بمباينة عنها، وذلك لأَنّه تعالى جعل لكل شيء حداً محدوداً وليس له حدّ ونهاية فلا يكون حالاً في موضع أو محلّ وإلاّ لكان وجوده فيه واختصاصه به كاختصاص الحال بالمحل والمتمكّن بالمكان، وذلك محال في حقّه إذ هو خالق المحل والمكان فيلزم افتقاره إلى ما يفتقر إليه وهو محال.

وأمّا أنّه ليس بناء عن الأَشياء أي بعيد فلأَنّه لو كان بعيداً لزم أن يكون مبايناً منها زائلاً عنها، وذلك أيضاً ممتنع لأَنّ قوام الأَشياء بوجوده سبحانه وما يتقوّم به وجود الشيء لا يكون بعيداً عنه، وقد مضى تحقيق الكلام على ذلك ممّا لا مزيد عليه في شرح الفصل الخامس والسّادس من فصول الخطبة الأولى عند بيان معنى قوله: (**ومن قال فيم فقد ضمنه**)، وقوله: (**مع كل شيء لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة**)، فتذكر.

والثالثة عشر: أنّه (**لم يؤده**) أي لم يثقله ولم يعيه (**خلق ما ابتدأ**) واخترع (**ولا**) يكله (**تدبير ما ذرأ**) وبرأ (**ولا وقف به عجز عمّا خلق**) حتّى اكتفى بما خلق ولم يخلق أزيد من ذلك (**ولا ولجت**) أي دخلت (**عليه شبهة فيما قضا وقدر**) بل ايجاده ما أوجد باقتضاء تام وحكمة بالغة وقضاؤه (**قضاء متقن**) خال عن التزلزل والاضطراب (**وعلم محكم**) بريء من فساد الشكّ وعروض الشبهة والغلط (**وأمر مبرم**) موثق لا يحتمل الزّيادة والنّقصان والمقصود بذلك كلّه تنزيهه تعالى عن صفات المخلوقين وتوضيح ذلك محتاج إلى تحقيق الكلام في معنى

الجملات الثلاث:

أمّا الأولى: فالمقصود بها أنّه تعالى لا يلحقه في خلقه ثقل وإعياء وتعب وكلل كما قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وإنّما لم تلحقه الأمور المذكورة لأنّ خلقه سبحانه وإيجاده وتدبيره ليس بتوسّط آلة جسمانيّة ولا استعمال رويّة نفسانيّة حتّى يطرءه التّعب والانفعال والثّقل والكلال، بل فعله الإفاضة وصنعه الإبداع النّاشي عن محض علمه وإرادته، ونحن لو كنّا بحيث لو وجد من نفس علمنا وإرادتنا شيء لم يلحقنا من وجوده تعب وانفعال لكنّا نحتاج في أفعالنا إلى حركة واستعمال آلة، على أنّ علمنا وإرادتنا زائدة على ذواتنا، فالله تعالى أولى بأن لا يلحقه تغيّر من صنعه وإنّما قال: خلق ما ابتدأ ليكون سلب الإعياء عنه أبلغ إذ ما ابتدأ من الأفعال تكون المشقة فيها أتم إذ الأفعال ربّما يكون بسبب اعتياد الفاعل أقلّ إتعاباً وإعياءً، وتدبيره تعالى لما ذرأ ويعود إلى تصريفه لجميع الذّوات والأفعال والصّفات تصريفاً كليّاً وجزئيّاً على وفق حكمته وعنايته من غير مباشرة.

وأما الثانية: فالمراد بها أنّ وقوفه عمّا خلق واكتفائه بما أوجد ليس بعجزه عن الزّائد وفتوره بسبب ما خلق من خلق ما سواه، لأنّ العجز والفتور من جهة تناهي القوّة الجسمانيّة وانفعالها وتأثرها ممّا يمانعها في التأثير وهو منزّه عن جميع ذلك.

وأمّا الثّالثة: فإشارة إلى كمال علمه وامتناع طريان الشّبهة عليه في مقضياته ومقدراته، وذلك لأنّ الشّبهة إنّما تعرض العقل في الأمور المعقولة الصّرفة الغير الضّروريّة بصحبة الوهم، لأنّ الوهم لا يصدق حكم العقل إلاّ في المحسوسات لا في المعقولات فيعارضه ويدخل الشّبهة عليه في المعقولات المحضة ولا يصدقه، فالعقل حال استفصاله وجه الحقّ فيها يكون معارضاً بالأحكام الوهميّة، فإذا كان المطلوب غامضاً فربّما كان في الأحكام الوهميّة ما يشبه بعض أسباب المطلوب فيتصور النّفس بصورته ويعتقد لما ليس بمبدأ مبدأ، فينتج الباطل في صورة المطلوب وليس به.

ولمّا كان الباري جلّ شأنه منزّهاً عن صحبة القوى المتعلقة بالأبدان التي رئيسها الوهم وكان علمه لذاته لم يجز أن يعرض لقضائه ولا لقدره وصمة شبهة أو يدخل عليه شكّ وريب، لكونها من عوارض العقل المقترنة بها، ولهذا قال: قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم، أي ليس في قضائه تزلزل وتلعثم، ولا في علمه إمكان شبهة وتردد، وليس لأمره رادّ ومانع.

الرابعة عشر: أنه تعالى هو **(المأمول مع النقم المرهوب مع النعم)** يعني أنّ العبد لمّا كان حال نزول البليّة وحلول النّقمة يستغفره سبحانه ويدعوه ويأمله ويفزع إليه لدفع البليّة ورفع الرّزيّة، كان هو المأمول له مع النّقم كما أنّه حال إفاضة النّعمة والعطيّة يستعدّ بالغفلة للإعراض عن شكرها، فيكون عند ذلك أهلاً لأن ينزل عليه بوادر النّقمة من الله سبحانه كان هو المرهوب منه مع النّعم فهو المأمول والمرهوب معاً، وما عداه فحلول نقمته غير مجامع لأمل رحمته، وقيام نعمته معاند لشمول رهبته، فلا مأمول ولا مرهوب في كلا الحالين سواه، ولا ملجأ ولا منجأ إلاّ هو، وإلى هذا المعنى ينظر شعر الشّارح المعتزلي.

وحقّ فضلك ما استيأست من نعم ... تسري إليّ وإن حلت بي النّقم

ولا أمنت نكالاً منك أرهبه ... وإن ترادفت الآلاء والنعم[1]

(١) شرح النهج: ١٦٧/٥.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است در بيان صفات كمال و نعوت جلال الهى مى فرمايد كه: حمد و ثنا، خداوند معبود به حقى را سزا است كه پيشى نگرفته است مراورا حالى بر حالى تا اين كه باشد اول پيش از آن كه باشد آخر و باشد ظاهر پيش از آن كه باشد باطن. هر ناميده شده به وحدت كه غير او است متّصف است به صفت قلّت و هر عزيزى كه غير او است موصوف است به صفت ذلت و هر صاحب قوتى كه غير او است ضعيف است و حقير و هر مالكى كه غير او است مملوك است و عبد و هر عالمى كه غير او است متعلم است و آموزنده و هر قادرى كه غير او است گاهى قادر مى شود و گاهى عاجز و هر صاحب سمعى كه غير او است عاجز است از ادراك آوازهاى آهسته و كر مى كند او را آوازهاى بزرگ و مى رود از او آوازهاى دور و هر صاحب بصرى كه غير او است كور است از رنگ هاى خفى و پنهان و از جسم هاى لطيف و رقيق القوام و هر ظاهرى كه غير او است غير باطن است و هر باطنى كه غير او است غير ظاهر است، بلكه او است ظاهر و باطن و آشكار و نهان:

از همه گان بى نياز و بر همه مشفق　　　از همه عالم نهان و بر همه پيدا

نيافريد آن چه كه آفريد آن را به جهت تقويت سلطنت و نه از براى خوف از عاقبت زمانه و نه بهواسطه يارى خواستن بر دفع همتاى برجهنده و نه بر دفع شريك غلبه كننده و نه بر دفع ضد مفاخرت نماينده، ولكن آن چه كه خلق شده اند خلقانى هستند پرورش يافتگان و بندگانى هستند خوارشدگان، حلول نكرده است خدا در چيزها تا گفته شود كه حاصل است در آن ها و دور نشده است از اشياء تا گفته شود كه از آن ها است جدا، عاجز و سنگين نگردانيد او را آفريدن آن چه كه ابتدا كرده او را در ايجاد و نه تدبير و اصلاح حال آن چه كه آفريده او را و باز نداشت او را عجز و ناتوانى از آن چه كه خلق فرمود و داخل نشد بر او شبهه در آنچه كه حكم كرده و تقدير نمود.

بلكه حكم او حكمى است محكم و استوار و علم او علمى است به غايت پايدار و امر او امرى است مستحكم و باقرار، اميد گرفته شده است او در حال نقمت و بليه و ترسيده شده است از او در حال نعمت و رفاهيت.

ومن كلام له عليه السلام وهو الخامس والستون من المختار في باب الخطب

كان يقول لأصحابه في بعض أيّام صفين وهو اليوم النّهي كانت عشيته ليلة الهرير على ما نسبه الشّارح المعتزلي إلى كثير من الرّوايات أو اليوم السّابع من الحرب، وكان يوم الخميس سابع شهر صفر على ما ستطلع عليه في رواية نصر بن مزاحم بسنده الآتي عن أبي عمر قال: إنّه خطب هذا اليوم فقال:

مَعاشر النّاس اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجلْبُبوا السَّكينَةَ، وعَضُّوا عَلى النَّواجِذِ، فَإنّه أَنبَىٰ لِلسيُوفِ عَنِ الْهام، وَأَكْمِلُوا اللّأْمَةَ، وقَلقِلُوا السُيوفَ في أغمادِها قَبْلَ سلّها، وَالْحَظُوا الْخزرَ، وَاطْعَنُوا الشَّزْرَ، وَنَافِحُوا بِالظُّبا، وصلوا السيُوف بِالْخَطا، وَاعْلَمُوا أنّكم بعَينِ اللّهِ ومَعَ ابنِ عَمّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، فعاودُوا الْكَرَّ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإنَّهُ عَارٌ فِي الأعْقابِ، وَنارٌ يَوْمَ الْحِسابِ، وَطيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نفساً، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً، وعَلَيْكُمْ بِهَذا السَّوَادِ الأَعْظَمِ، والرِّواقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ فَإِنَّ الشيطانَ كامِنٌ في كِسْرِهِ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَأَخّرَ لِلْنكُوصِ رِجْلاً، فَصَمْداً صَمْداً حَتّى يَتَجلى لَكُمْ عَمُودُ الْحَقّ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْن، وَاللّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ[1].

اللغة

(**المعشر**) الجماعة و(**الشعار**) من اللباس ما يلي شعر الجسد و (**تجلببوا**) مثل تدحرجوا مأخوذ من الجلباب بالكسر وهو القميص أو ثوب واسع للمرأة دون المخلقة أو المخلقة[2] أو الخمار أو ثوب كالمقنعة تغطي به المرأة رأسها وظهرها وصدرها، وفي «**المصباح**» أنّه ثوب أوسع من الخمار ودون الرّداء، وقال ابن فارس: ما يغطى به من ثوب وغيره والجمع الجلابيب.

و(**السكينة**) الوقار في الحركة والتأنّي في السّير و(**عضعضت**) اللقمة وبها وعليها أمسكتها بالأسنان و(**النواجذ**) جمع ناجذ وهي أواخر الأضراس تنبت بعد البلوغ والحلم وكمال العقل، وقيل الأضراس كلها نواجذ، وقيل هي الضواحك التي تبدو عند الضحك، وعن البارع النّواجذ للإنسان والحافر وهي من ذوات الخف الأنياب و(**نبا**) السّيف عن الضّريبة بتقديم

---

(١) مستدرك الوسائل: ١١/١٣٥، وعيون الحكم والمواعظ: ٣٠٤.

(٢) الملحفة صحيح في الموضعين، منه.

(النّون) على **(الباء)** نبواً من باب قتل رجع من غير قطع فهو ناب ونبا السّهم عن الهدف لم يصبه و**(الهام)** جمع هامة وهي رأس كل شيء.

و**(اللأمة)** باللام والهمزة السّاكنة على وزن تمرة الدّرع وقيل جمع آلات الحرب و**(القلقلة)** التحريك و**(الغمد)** بالكسر جفن السّيف و**(سل)** السّيف إخراجه من الغمد و**(لحظته)** بالعين ولحظت إليه لحظاً من باب نفع راقبته، ويقال نظرت إليه بمؤخّر العين عن يمين ويسار وهو أشدّ التفاتاً من الشّزر و**(الخزر)** بفتح **(الخاء)** **(والزاء)** المعجمتين مصدر خزرت العين خزراً من باب تعب صغرت وضاقت، والموجود في النّسخ الخزر بسكون **(الزّاء)** ولعله لملاحظة السجعة الثّانية و**(اطعنوا)** بضم **(العين)** من باب قتل وبالفتح من باب نفع.

و**(الشّزر)** بالفتح فالسكون الطعن عن اليمين واليسار ولا يستعمل الطعن تجاه الإنسان شزراً قيل أكثر ما يستعمل في الطعن عن اليمين خاصّة و **(المنافحة)** المضاربة والمدافعة و**(الظبا)** جمع ظبة بالتخفيف وبضمّ **(الظاء)** فيهما حد السيف و**(صلوا)** أمر من وصل الشيء بالشيء جعله متّصلاً به و**(الخطا)** جمع خطوة بالضمّ فيهما و**(الكر)** الرّجوع و**(الأعقاب)** أما جمع عقب بالضم وبضمتين أي العاقبة أو جمع عقب ككتف أو عقب بالفتح أي الولد وولد الولد و**(السّجح)** بضمّتين السّهل و**(سواد)** النّاس عامتهم.

و**(الرّواق)** ككتاب الفسطاط والفئة وقيل هو ما بين يدي البيت و**(المطنب)** المشدود بالأَطناب و**(ثبج)** الشيء بالتحريك وسطه و**(كمن)** من باب نصر وسمع استخفى و**(كسر)** الخباء بالكسر الشّقة السّفلى ترفع أحياناً وترخي أخرى و**(الوثبة)** الطفرة و**(النكوص)** الرجوع و**(الصّمد)** القصد و**(انجلى)** الشيء وتجلى أي انكشف وظهر و**(وترت)** زيداً حقه واتره من باب وعد نقصته.

الإعراب

(معاشر النّاس) منصوب على النّداء، **(والخزر والشّزر)** صفتان لمصدرين محذوفين أي الحظوا الحظا خزراً واطعنوا طعناً شزراً، و**(اللام)** للعهد **(وطيبوا عن أنفسكم)** نفساً يقال طابت نفسي بالشيء وطبت به نفساً إذا لم يكرهك عليه أحد وتعديته **(بعن)** لتضمين معنى التّجافي والتّجاوز، **(ونفساً)** منصوب على التّميز ولذلك وحده لأنّ حقّ التّميز أن يكون مفرداً مع الأمن من اللبس، قال البحراني: والمراد بالنّفس الأولى الزّائلة بالقتل وبالثّانية النفس المدبرة لهذا البدن، **(وصمداً صمداً)** منصوبان على المصدريّة والعامل محذوف والتّكرار للتّأكيد والتّحريص، **(والواو)** في قوله: **(وأنتم الأعلون)** للحال.

المعنى

إعلم أنّ المراد بهذه الخطبة تعليم رسوم الحرب وآدابها والإرشاد إلى كيفيّة المحاربة والقتال، إذ في مراعاتها والملازمة عليها رجاء الفتح والظفر من الله المتعال فقوله: **(معاشر النّاس استشعروا الخشية)** أي اجعلوا الخوف والخشية من الله سبحانه شعاراً لكم لازماً على أنفسكم لزوم الشّعار على الجسد **(وتجلببوا السّكينة)** أي اتّخذوا الوقار والطمأنينة في السّير والحركة غطاء لكم محيطاً بكم إحاطة الجلباب بالبدن.

(وعضّوا على النّواجذ) وهذا الأمر إمّا محمول على الحقيقة لأنّ العض يورث تصلب الأعضاء والعضلات فتكون على مقاومة السّيف أقدر ويكون تأثيره فيه أقل، ويشهد به ظاهر التّعليل بقوله **(فإنّه)** أي العض **(أنبأ للسّيوف عن الهام)** وإمّا كناية عن شدّة الاهتمام بأمر الحرب أو الصّبر وتسكين القلب وترك الاضطراب فإنّه أشدّ أبعاداً لسيف العدو عن الرأس وأقرب إلى النّصر **(وأكملوا اللأمة)** والمراد بإكمالها على التفسير الأول أعني كونها بمعنى الدّرع هو أن يراد عليها البيضة والسّواعد ونحوهما، وعلى التفسير الثاني اتخاذها كاملة شاملة للجسد.

(وقلقلوا السّيوف في أغمادها قبل سلها) ليسهل السّل وقت الحاجة، فإنّ طول مكثها في الإغماد ربّما يوجب الصّداء فيصعب السّل وقت الاحتياج **(والحظوا الخزر)** لأنّ النّظر بمؤخّر العين أمارة الغضب كما أنّ النّظر بتمام العين إلى العدوّ علامة الفشل **(واطعنوا الشّزر)** لأنّ الطعن عن اليمين والشّمال يوسع المجال على الطاعن وأكثر المناوشة للخصم في الحرب يكون عن يمينه وشماله، ويمكن أن تكون الفائدة أن احتراز العدو عن الطعن حذاء الوجه أسهل والغفلة عنه أقل.

(ونافحوا بالظبا) قيل: المعنى قاتلوا بالسّيوف وأصله أن يقرب أحد المتقابلين إلى الآخر بحيث يصل نفح كلّ منهما أي ريحه ونفسه إلى صاحبه، وقيل: أي ضاربوا بأطراف السّيوف وفائدته أن مخالطة العدو والقرب الكثير منه يشغل عن التّمكّن من حربه، وأيضاً لا يؤثّر الضّرب مع القرب المفرط كما ينبغي **(وصلوا السّيوف بالخطا)** يعني إذا قصرت السّيوف عن الضّريبة فتقدّموا تلحقوا ولا تصبروا حتّى يلحقكم العدو، وهذا التّقدم يورث الرّعب في قلب العدوّ، وإلى ذلك ينظر قول حميد بن ثور الهلالي:

ووصل الخطا بالسّيف والسيف با الخطا إذا ظنّ أنّ المرء ذا السيف قاصر

وقال آخر:

نصل السّيوف إذا قصرن بخطونا يوماً ونلحقها إذا لم تلحق

وقال آخر:

وإذا السّيوف قصرن طوّلها لنا حتّى تناول ما نريد خطانا

وقال رابع:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فتضارب

وروى عنه عليه السلام أنّه قيل له في بعض الغزوات: ما أقصر سيفك؟ قال عليه السلام: أطوله بخطوة **(واعلموا أنكم بعين الله)** يراكم ويسمع كلامكم ويعلم أعمالكم ويشهد أفعالكم، وهذا تمهيد للنّهي عن الفرار وتنبيه على أنّ الله سبحانه ينصرهم ويحفظهم **(و)** أنّه يجب عليهم التّثبت والثّبات **(مع ابن عم رسول الله ﷺ)** الذي طاعته كطاعته وحربه كحربه **(فعاودوا الكر)** أي الحملة والرّجوع عند التّحرف للقتال أو التّحيز إلى فئة أو عند الفرار جبنا لو اتّفق.

والمراد لا تقصروا على حملة واحدة لليأس عن حصول الغرض بل عاودوا واحملوا كرّة بعد أخرى **(واستحيوا من الفرّ فإنّه)** أي الفرار قبيح من جهتين.

إحداهما: أنّه **(عارٌ في الأعقاب)** يعني أنّه عار في عاقبة الأَمر ويتحدّث النّاس به في مستقبل الزّمان، هذا على كون الأَعقاب جمع عقب بالضمّ، وأمّا على كونها جمع عقب بفتح **(العين)** فالمعنى أنّه عار في أولادكم يعيرون به بعدكم ومن هنا روي أنّ أعرابيّاً رأى رجلاً من أولاد أبي موسى الأَشعري يمشي ويتبختر في مشيه، قال: ماله كان أباه غلب عمرو بن العاص في التّحكيم.

(و) الجهة الثانية أنّه **(نار يوم الحساب)** أي يوجب استحقاق النّار لكونه من المعاصي الكبيرة كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

(وطيبوا عن أنفسكم نفساً) أي طيّبوا أنفسكم متجاوزين عن نفوسكم الزّائلة ووطنوا قلوبكم على بذلها في سبيل الله وارضوا به للحياة الباقية واللذات الدّائمة **(وامشوا إلى الموت مشياً سجحاً)** سهلاً بدون تكلف.

(وعليكم بهذا السّواد الأَعظم) أي معظم القوم المجتمعين على معاوية **(والرّواق المطنب)** أراد به مضرب معاوية وكان في قبة عالية بأطناب عظيمة، وحوله من أهل الشام وصناديدهم مائة ألف كانوا تعاهدوا أن لا ينفرجوا عنه أو يقتلوا **(فاضربوا ثبجه)** أي وسطه **(فإنّ الشيطان كامن في كسره)** المراد بالشّيطان إمّا معاوية أو عمرو بن العاص، وإطلاق الشيطان عليهما لشباهتهما بالشيطان في الإضلال عن سبيل الله سبحانه، والأظهر أنّ المراد به معناه الحقيقي لأنّ معاوية كان بارزاً في الصدر لا كامناً في الكسر إلاّ أن يكون ذلك لبيان جبنه ولا ينافي إرادة الحقيقة.

قوله: **(قد قدم للوثبة يداً وأخر للنكوص رجلاً)** لأنّ إبليس كان من رفقاء معاوية وأصحابه كان يثب لوثوبهم ويرجع برجوعهم، ويمكن أن يراد بوثبته طمعه في غلبة أصحاب معاوية وتحريضه لهم على القتال، وبالنكوص ما يقابله **(فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق)** أي اقصدوهم قصداً واصبروا على الجهاد إلى أن يظهر لكم نور الحق.

قال المجلسي: عمود الحق لعله للتشبيه بالفجر الأوّل، وفيه إشعار بعدم الظهور لأكثر القوم كما ينبغي **(وأنتم الأعلون)** أي الغالبون على الأعداء بالظفر أو بأنكم على الحقّ **(والله معكم)** لأنكم أنصاره **(ولن يتركم أعمالكم)** أي لا ينقصكم الله جزاء أعمالكم وهذه اللفظة اقتباس من الآية الشريفة في سورة محمّد وهو قوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٤ ـ ٣٥].

تكملة

هذه الخطبة مروية في «**البحار**» من كتاب بشارة المصطفى عن إبراهيم بن الحسين البصري، عن محمّد بن الحسين بن عتبة، عن محمّد بن أحمد بن مخلد، عن أبي المفضل الشيباني، عن محمّد بن محمّد بن معقل، عن محمّد بن أبي الصحباني، عن البزنطي، عن أبان بن عثمان، عن أبان بن تغلب، عن عكرمة مولى عبد الله بن العباس رضي الله عنه.

قال: عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ما كشفت النساء ذيولهنّ عن مثله، لا والله ما رأيت فارساً محدثاً يوزن به لرأيته يوماً ونحن معه بصفين وعلى رأسه عمامة سوداء وكأن عينيه سراجاً سليط يتوقدان من تحتها يقف على شرذمة يخصمهم حتى انتهى إلى نفر أنا فيهم وطلعت خيل لمعاوية تدعى بالكتيبة الشهباء عشرة آلاف دارع على عشرة آلاف أشهب، فاقشعرّ النّاس لها لما رأوها وانحاز بعضهم إلى بعض فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

فيم النخع والخنع يا أهل العراق هل هي إلاّ أشخاص ماثلة فيها قلوب طائرة لو مسها قلوب أهل الحقّ لرأيتموها كجراد بقيعة سفته الرّيح في يوم عاصف، ألا فاستشعروا الخشية فتجلببوا السّكينة وادرعوا الصبر وخضوا الأصوات وقلقلوا الأسياف في الأغماد قبل السلة وانظروا الشزر واطعنوا الوجر وكافحوا بالظبا وصلوا السيوف بالخطا، والنبال بالرّماح، وعاودوا الكرّ واستحيوا من الفرّ فإنه عار في الأعقاب، ونار يوم الحساب، وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشية سحجاً، فإنكم بعين الله عزّ وجلّ ومع أخي رسول الله.

وعليكم بهذا السرادق الأولم، والرواق المظلم، فاضربوا ثبجه فإنّ الشيطان راقد في

كسره نافش حضنيه مفترش ذراعيه، قد قدّم للوثبة يداً وأخر للنكوص رجلاً، فصمداً صمداً حتى ينجلى لكم عمود الحقّ وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم، ها أنا شادٍ فشدّوا بسم الله حم لا ينصرون(١).

ثمّ حمل عليهم أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى ذرّيته حملة وتبعه خويلة لم تبلغ المائة فارس فأجالهم فيها جولان الرّحى المسرحة بثفالها، فارتفعت عجاجة منعتني النظر، ثم انجلت فأثبت النظر فلم نر إلاّ رأساً نادراً ويداً طائحة، فما كان بأسرع أن ولوا مدبرين كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة، فإذا أمير المؤمنين عليه السلام قد أقبل وسيفه ينطف ووجهه كشقة القمر وهو يقول:

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

ورواها في «**البحار**» أيضاً من تفسير فرات بن إبراهيم بسنده عن ابن عباس نحوه، ولا بأس بتفسير بعض ألفاظها الغريبة.

فأقول: «السليط» الزّيت «والنخع والخنع» الذّل والخضوع «والماثلة» القائمة أو المتمثلة بالمشبهة بالإنسان وفي بعض النسخ مائلة من الميل أي عادلة عن الحقّ فيها «قلوب طائرة» أي من الخوف و«سفت» الرّيح التراب بالتخفيف ذرته و«القيعة» الأرض المستوي و«الوجر» **(بالجيم) (والرّاء)** المهملة قال في «**القاموس**» أوجره الرّمح طعنه به في فيه و«المكافحة» المضاربة والمدافعة تلقاء الوجه و«النبال بالرّماح» أي أرموهم بالنبال فإذا قربتم فاستعملوا الرّماح والعكس أظهر أي إذا لم تصلوا الرّماح فاستعملوا النبال كأنكم وصلتموها بها فيكون النسب بالفقرة السّابقة و«الأولم» الأسود صورة أو معناً كالمظلم.

«نافش» حضنيه في بعض النسخ نافج وهو الأظهر لأنّ الأوّل غير مناسب للمقام يقال نفجت الشيء رفعته وكنى به عن التعظم والتكبر و«شد» في الحرب يشدّ بالكسر حمل على العدوّ «وحم لا ينصرون» عن ابن الأثير في «**النهاية**» في حديث الجهاد إذ أبيتم فقولوا حم لا ينصرون، قيل معناه اللهم لا ينصرون ويريد به الخبر لا الدّعاء وإلاّ لقال لا ينصروا مجزوماً، فكأنه قال والله لا ينصرون، وقيل إنّ السور التي أوّلها حم سور لها شأن فنبه أنّ ذكرها لشرف شأنها مما يستظهر به على استنزال النصر من الله، وقوله لا ينصرون كلام مستأنف كأنه حين قال: قولوا حم، قيل: ماذا يكون إذا قلناها، قال: لا ينصرون.

و«الخويلة» إما تصغير الخيل على غير قياس أو تصغير الخول بمعنى الخدم والحشم و«الثّفال» جلدة تبسط تحت رحى اليد ليقع عليها الدّقيق ويسمى الحجر الأسفل ثقالاً بها

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٦٠٢، وعيون المعجزات: ٤٢.

و«العجاجة» الغبار و«ندر» الرّأس سقط و«طاح» يطوح ويطيح هلك وأشرف على الهلاك وذهب وسقط و«القسورة» الأسد و«سيفه ينطف» أي يقطر دماً و«الشقة» بالكسر القطعة المشقوقة ونصف الشّيء إذا شقّ.

تذييل

قد مضى طرف من وقائع صفين في شرح بعض الخطب السّابقة، فذكرنا في شرح الفصل الثالث من فصول الخطبة السّادسة والعشرين كيفية إرسال أمير المؤمنين جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية بالرّسالة وكيفية بيعة عمرو بن العاص لمعاوية، وفي شرح كلامه الثّالث والأربعين تفصيل قصّة جرير ومكالماته مع معاوية ويأسه من بيعته حتّى رجع إلى العراق وانجرّ الأمر إلى حرب صفين، وفي شرح الخطبة الثامنة والأربعين كيفيّة خروج أمير المؤمنين عليه السلام من الكوفة متوجّهاً إلى صفين، وفي شرح الخطبة الإحدى والخمسين نزوله عليه السلام بصفين وغلبة أصحاب معاوية على الشريعة وفتح الفرات، وفي شرح الخطبة الخامسة والثلاثين قصّة ليلة الهرير وكيفية التّحكيم إلى آخر الحرب.

فأحببت أن أورد هنا بقيّة تلك الواقعة وهي من فتح الشريعة إلى ليلة الهرير لاقتضاء المقام ذلك وليكون شرحنا ذلك مشتملاً على تمام تلك الواقعة ولو إجمالاً ويستغني الناظر به عن الرجوع إلى غيره ولا يشذّ عنه جمل تلك الواقعة.

فأقول: روى المحدّث العلامة المجلسي في «البحار» والشّارح المعتزلي جميعاً من كتاب صفين لنصر بن مزاحم أنّه وصل أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين.

قال نصر: ولمّا ملك أمير المؤمنين الماء بصفين ثمّ سمح لأهل الشّام بالمشاركة فيه والمساهمة رجاء أن يعطفوا إليه واستمالة لقلوبهم وإظهاراً للمعدلة وحسن السيرة فيهم، مكث أيّاماً لا يرسل إلى معاوية ولا يأتيه من عند معاوية أحد واستبطأ أهل العراق إذنه لهم في القتال وقالوا: يا أمير المؤمنين خلفنا ذرارينا ونسائنا بالكوفة وجئنا إلى أطراف الشّام لنتّخذها وطناً، ائذن لنا في القتال فإنّ النّاس قد قالوا قال عليه السلام ما قالوا؟ فقال قائل منهم إن النّاس يظنون أنّك تكره الحرب كراهيّة للموت وأنّ من النّاس من يظنّ أنك في شك من قتال أهل الشّام.

أقول: فأجابهم بجواب مرّ ذكره فيما سبق وهو الكلام الرّابع والخمسون.

قال نصر: فقال عليه السلام: ومتى كنت كارهاً للحرب قط إنّ من العجب حبّي لها غلاماً ويفعاً وكراهتي لها شيخاً بعد نفاد العمر وقرب الوقت وأمّا شكّي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل البصرة فوالله لقد ضربت هذا الأمر ظهراً وبطناً فما وجدت أن يسعني إلاّ

القتال أو أن أعصي الله ورسوله ولكني أستأنى[١] بالقوم عسى أن يهتدوا أو يهتدي فيهم طائفة فإنّ رسول الله ﷺ قال لي يوم خيبر: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشّمس.

قال نصر: فبعث عليّ إلى معاوية بشر بن عمرو وسعيد بن قيس وشيث بن ربعي فقال ائتوا هذا الرّجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة وإلى اتباع أمر الله سبحانه، فقال شيث يا أمير المؤمنين ألا نطمعه في سلطان توليه إياه ومنزلة يكون له بها أثرة عندك إن هو بايعك؟ قال: ائتوه الآن والقوةُ واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه في هذا، فدخلوا عليه فابتدأ بشر بن عمرو بن محصن فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أمّا بعد يا معاوية فإنّ الدّنيا عنك زائلة وانك راجع إلى الآخرة وأنّ الله مجازيك لعملك ومحاسبك بما قدمت يداك، وإنّني أنشدك الله أن تفرّق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دمائها بينها.

فقطع معاوية عليه الكلام فقال: فهلا أوصيت صاحبك؟ فقال: سبحان الله إن صاحبي ليس مثلك صاحبي أحقّ الناس بهذا الأمر في الفضل والدّين والسّابقة في الإسلام والقرابة من الرّسول، قال معاوية: فتقول ماذا! قال: أدعوك إلى تقوى ربك وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحقّ فإنّه أسلم لك في دينك وخير لك في عاقبة أمرك، قال: ويطل دم عثمان؟ لا والرّحمن لا أفعل ذلك أبداً.

فذهب سعيد بن قيس ليتكلم فبدره شيث بن ربعي فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

يا معاوية قد فهمت ما رددت على ابن محصن أنّه لا يخفى علينا ما تطلب إنك لا تجد شيئاً تستغوي به النّاس ولا شيئاً تستميل به أهوائهم إلاّ أن قلت لهم قتل إمامكم مظلوماً فهلموا نطلب بدمه فاستجاب لك سفلة طغام رذال، وقد علمنا أنّك بطأت عنه بالنّصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي تطلب، وربّ مبتغ أمراً وطالب له يحول الله دونه وربّما أوتي المتمنّي أمنيته وربّما لم يؤتها، ووالله مالك في واحدة منهما خير، والله إن أخطأت ما ترجو أنّك لشرّ العرب حالاً ولئن أصبت ما تتمنّاه لا تصيبه حتّى تستحقّ صلى النّار، فاتّق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله.

فحمد معاوية الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد، فإنّ أوّل ما عرفت به سفهك وخفة علمك قطعك على هذا الحسيب الشّريف سيّد قومه منطقه ثمّ عتبت بعد فيما لا علم لك به، ولقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما وصفت، انصرفوا من عندي فإنّه ليس

(١) اي طلب التأني.

بيني وبينكم إلاّ السّيف، وغضب.

فخرج القوم وشيث يقول: أعلينا تهوّل بالسّيف أما والله لنعجلنه إليك.

قال نصر: خرج قرّاء أهل العراق وقرّاء أهل الشام فعسكروا في ناحية صفين في ثلاثين ألفاً.

قال: وعسكر علي عليه السلام على الماء وعسكر معاوية فوقه على الماء، ومشت القراء بين عليّ ومعاوية، منهم عبيدة السّلماني، وعلقمة بن قيس النخعي، وعبد الله بن عتبة، وعمار بن عبد القيس فدخلوا على معاوية فقالوا: يا معاوية ما الذي تطلب؟ قال: أطلب بدم عثمان، قالوا: ممّن تطلب بدم عثمان؟ قال: أطلبه من علي، قالوا أو علي قتله؟ قال: نعم هو قتله وأوى قتلته، فانصرفوا من عنده فدخلوا على علي وقالوا: إنّ معاوية زعم أنك قتلت عثمان، قال: اللهم لَكَذِبٌ عليّ لم أقتله.

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه فقال: إن لم يكن قتله فقد أمر ومالأ، فرجعوا إليه وقالوا: يزعم أنك إن لم تكن قتلت بيدك فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان، فقال: اللهم لكذب فيما قال، فرجعوا إلى معاوية فقالوا: إن علياً يزعم أنّه لم يفعل، فقال معاوية: إن كان صادقاً فليقدنا من قتلة عثمان فانّهم في عسكره وجنده وأصحابه وعضده فرجعوا إلى علي فقالوا: إنّ معاوية يقول لك إن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلة عثمان أو مكّنا منهم، فقال لهم: إنّ القوم تأولوا عليه القرآن ووقعت الفرقة وقتلوه في سلطانه وليس على ضربهم قود فخصم على معاوية.

فقال لهم معاوية: إن كان الأمر كما تزعمون فلم أبتز الأمر دوننا على غير مشورة منّا وممّن هٰهنا معنا، فقال علي عليه السلام: إنّ النّاس تبع المهاجرين والأنصار وهم شهود للمسلمين في البلاد وعلى ولاتهم وأمراء دينهم، فرضوا بي وبايعوني ولست أستحل أن أدع ضرب معاوية يحكم على هذه الأمة ويزكيهم ويشقّ عصاهم، فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك فقال: ليس كما يقول فما بال من هو منّا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر، فانصرفوا إليه عليه السلام فأخبروه بقوله، فقال: ويحكم هذا للبدريّين دون الصّحابة وليس في الأرض بدريّ إلاّ وقد بايعني وهو معي أو قد أقام ورضى فلا يغرّكم من أنفسكم ودينكم.

قال نصر: فراسلوا بذلك ثلاثة أشهر ربيع الآخر وجماديين وهم مع ذلك يفرغون الفرغة فيما بينهما ويرجف بعضهم إلى بعض ويحجز القراء بينهم.

قال: فرغوا في ثلاثة أشهر خمساً وثمانين فرغة كل فرغة يرجف بعضهم إلى بعض ويحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال.

قال نصر: خرج أبو أمامة الباهلي وأبو الدّرداء فدخلا على معاوية فقالا: يا معاوية علام

تقاتل هذا الرّجل فوالله لهو أقدم منك سلماً وأحقّ منك بهذا الأَمر وأقرب من رسول الله فعلام تقاتله؟ فقال: أقاتله على دم عثمان وأنه آوى قتلته فقولوا له فليقدنا من قتلته وأنا أوّل من أبايعه من أهل الشّام.

فانطلقوا إلى علي فأخبروه بقول معاوية فقال عليه السلام: إنّما يطلب الذين ترون فخرج عشرون ألفاً وأكثر متسربلين الحديد لا يرى منهم إلاّ الحدق فقالوا: كلنا قتله فإن شاؤوا فليروموا ذلك منّا، فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً في القتال حتّى إذا كان رجب وخشي معاوية أن يتابع القراء علياً أخذ في المكر وأخذ يحتال للقراء.

قال: فكتب في سهم من عبد الله النّاصح أنّي أخبركم أنّ معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فيغرقكم فخذوا حذركم، ثمّ رمى بالسّهم في عسكر علي فوقع السّهم في يد رجل فقرأه ثمّ أقرأه صاحبه فلما قرأه وقرأه النّاس وقرأه من أقبل وأدبر قالوا: هذا أخ لنا ناصح كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية فلم يزل السهم يقرأ ويرتفع حتّى رفع إلى علي عليه السلام.

وقد بعث معاوية مائتي رجل من العملة إلى عاقول من النهر بأيديهم المزور والزمل يحفرون فيها بحيال عسكر علي، فقال علي: ويحكم إنّ الذي يعالج معاوية لا يستقيم له ولا عليه إنّما يريد أن يزيلكم عن مكانكم فانتهوا عن ذلك ودعوه، فقالوا له: والله يحفرون والله لنرتحلن وإن شئت فأقم، فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم ملياً وارتحل علي في أخريات النّاس وهو يقول:

فلو أنّي اطعت عصمت قومي ... إلى ركن اليمامة[1] أو شآم
ولكنّي متى أبرمت أمراً ... منيت بخلف أراء الطغام[2]

قال: فارتحل معاوية ونزل بمعسكر علي الذي كان فيه، فدعا علي عليه السلام الأشتر فقال: ألم تغلبني على رأيي أنت والأشعث برأيكما، فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين سأداوي ما أفسدت اليوم من ذلك، فجمع كندة فقال لهم: يا معشر كنده لا تفضحوني اليوم ولا تخزوني فإنّما أنا قارع بكم أهل الشّام، فخرجوا معه رجالة يمشون وبيده رمح له يلقيه على الأرض ويقول: امشو قيس رمحي هذا، فيمشون فلم يزل يقيس لهم الأرض برمحه ويمشون معه حتّى أتى معاوية وسط بني سليم واقفاً على الماء، وقد جاءه أداني عسكره.

فاقتتلوا قتالاً شديداً على الماء ساعة وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا، وأقبل الأَشتر في جنده من أهل العراق فحمل إلى معاوية والأَشعث يحارب في ناحية أخرى فانحاز معاوية في بني سليم فردوا وجوه إبله قدر ثلاث فراسخ، ثمّ نزل ووضع أهل الشّام أثقالهم والأَشعث يهدر

(١) اليمامة: ناحية من الحجاز.
(٢) الطغام: الأوغاد.

ويقول: أرضيتك يا أمير المؤمنين، وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين قد غلب الله لك على الماء.

قال نصر: وكان كلّ واحد من علي ومعاوية يخرج الرجل الشريف في جماعة ويقاتل مثله وكانوا يكرهون أن يزاحفوا بجميع الفيلق مخافة الاستئصال والهلاك، فاقتتل الناس ذا الحجة كله فلما انقضى تداعوا إلى أن يكف بعضهم عن بعض إلى أن ينقضي المحرم لعل الله ان يجري صلحاً أو اجتماعاً، فكف الناس في المحرم بعضهم عن بعض.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد عن أبي المجاهد عن المحل بن خليفة، قال: لما توادعوا في المحرّم اختلفت الرّسل فيما بين الرّجلين رجاء الصّلح، فأرسل علي إلى معاوية عديّ بن حاتم، وشيث بن ربعي، ويزيد بن قيس، وزياد بن حفصة فلمّا دخلوا عليه حمد الله تعالى عديّ بن حاتم وأثنى عليه وقال أمّا بعد:

فقد أتيناك لندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ويحقن دماء المسلمين ندعوك إلى أفضل النّاس سابقة وأحسنهم في الإسلام آثاراً، وقد اجتمع له النّاس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا وأوتوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل.

فقال له معاوية: كأنّك إنّما جئت متهدّداً ولم تأت مصلحاً هيهات يا عدي إنّي لابن حرب ما يقعقع[1] لي بالشّنآن، أما والله إنّك من المجلبين على عثمان وإنّك لمن قتلته وإنّي لأرجو أن تكون ممّن يقتله الله.

فقال له شيث بن ربعي وزياد بن حفصة وتنازعا كلاماً واحداً: أتيناك فيما يصلحنا وإيّاك فأقبلت تضرب لنا الأمثال، دع ما لا ينفع من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإيّاك نفعه.

وتكلم يزيد بن قيس فقال: إنّا لم نأتك إلاّ لنبلّغك الذي بعثنا به إليك ولنؤدّي عنك ما سمعناه منك ولم ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننّا أنّ لنا فيه عليك حجّة أو أنّه راجع بك إلى الإلفة والجماعة، إنّ صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنّه يخفى عليك أنّ أهل الدّين والفضل لا يعدلونك بعلي ولا يساوون بينك وبينه، فاتّق الله يا معاوية ولا تخالف عليّاً فإنّا والله ما رأينا رجلاً قط أعلم بالتّقوى ولا أزهد في الدّنيا ولا أجمع لخصال الخير كلّها منه.

فحمد الله معاوية وأثنى عليه وقال: أمّا بعد فإنّكم دعوتم إلى الجماعة والطاعة فأمّا التي دعوتم إليها فنعمّا هي وأمّا الطاعة لصاحبكم فإنّا لا نرضى به إنّ صاحبكم قتل خليفتنا وفرّق جماعتنا وآوى ثارنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنّه لم يقتله فنحن لا نردّ ذلك عليه أرأيتم قتلة

---

(١) القعقة: تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره والشّنآن جمع الشن وهي القربة اليابسة وهم يحركونها إذا اردوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرا (بحار).

صاحبنا ألستم تعلمون أنّهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

فقال له شيث: أيسرك بالله يا معاوية إن أمكنت من عمّار بن ياسر فقتلته؟ قال: وما يمنعني من ذلك، والله لو أمكنني صاحبكم من ابن سمية ما أقتله بعثمان، ولكن كنت أقتله بنائلة مولى عثمان.

فقال شيث: وإله السّماء ما عدلت معدلاً ولا والذي لا إله إلاّ هو لا يصل إليك قتل ابن ياسر حتّى يندر الهام عن كواهل الرّجال، وتضيق الأرض الفضاء عليك بما رحبت.

فقال معاوية: إذا كان ذلك كانت عليك أضيق ثمّ رجع القوم عن معاوية فبعث معاوية إلى زياد بن حفصة من بينهم فأدخله عليه فحمد معاوية الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد يا أخ ربيعة فإنّ عليّاً قطع أرحامنا وقتل إمامنا وآوى قتلته وإنّي أسألك النّصرة عليه بأسرتك وعشيرتك، ولك عليّ عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليّك أيّ المصرين أحببت.

قال زياد: فلمّا قضى معاوية كلامه حمدت الله وأثنيت عليه ثمّ قلت: أمّا بعد فإنّي لعلى بيّنة من ربّي وبما أنعم الله عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين، ثمّ قمت فقال معاوية لعمرو بن العاص وكان إلى جانبه: ما لهم غضبهم الله ما في قلوبهم ما قلبهم إلاّ قلب رجل واحد.

قال نصر: وبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري إلى عليّ وشرجيل بن السّمط ومعن بن يزيد فدخلوا عليه، فتكلّم حبيب وحمد الله وأثنى عليه وقال أمّا بعد:

فإنّ عثمان بن عفّان كان خليفة مهديّاً يعمل بكتاب الله وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلة عثمان لنقتلهم به، فإن قلت إنّك لم تقتله فاعتزل أمر النّاس فيكون أمرهم هذا شورى بينهم يولّ النّاس أمرهم من أجمع رأيهم عليه.

فقال له عليّ عليه السلام: ومن أنت لا أمّ لك والولاية والعزل والدّخول في هذا الأمر اسكت فإنّك لست هناك ولا بأهل لذاك، فقام حبيب بن مسلمة وقال: والله لتراني حيث تكره، فقال عليّ: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك اذهب فصوّب وصعّد ما بدا لك فلا أبقى الله لك إن أبقيت، فقال شرحبيل بن السّمط: إن كلّمتك فلعمري ما كلامي لك إلاّ نحو كلام صاحبي فهل عندك جواب غير الذي أجبته؟ قال: نعم، قال: فقله، فحمد عليّ الله وأثنى عليه ثمّ قال أمّا بعد:

فإنّ الله سبحانه بعث محمّداً صلى الله عليه وآله فأنقذ به من الضّلالة ونعش به من الهلكة وجمع به بعد الفرقة، ثمّ قبضه الله إليه وقد أدّى ما عليه فاستخلف النّاس أبا بكر ثمّ استخلف أبو بكر عمر، فأحسنا السّيرة وعدلا في الأمّة وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل الرّسول وأحقّ

بالأمر فغفرنا ذلك لهما، ثمّ ولي أمر النّاس عثمان فعمل بأشياء عابها النّاس عليه فساء إليه ناس فقتلوه.

ثمّ أتاني النّاس وأنا معتزل أمرهم فقالوا لي: بايع فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع فإنّ الأمّة لا ترضى إلاّ بك وإنّا نخاف إن لم تفعل تفرّق النّاس، فبايعتهم فلم يرعني إلاّ شقاق رجلين قد بايعا وخلاف معاوية إيّاي الذي لم يجعل الله له سابقة في الدّين ولا سلف صدق في الإسلام، طليق بن طليق، وحزب من الأحزاب، لم يزل لله ولرسوله عدوّاً هو وأبوه حتّى دخلا في الإسلام كارهين مكرهين.

فيا عجباً لكم ولانقيادكم تدعون إلى «أهل» بيت نبيّكم الذين لا ينبغي شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا به أحداً من النّاس إنّي أدعوكم إلى كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيكم وإماتة الباطل وإحياء معالم الدّين، أقول قولي هذا واستغفر الله لنا ولكلّ مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة.

فقال له شرجيل ومعن بن يزيد: أشهد أنّ عثمان قتل مظلوماً فقال: لا أقول ذلك، قالا: فمن لا يشهد أنّ عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء، ثمّ قاما فانصرفا فقال علي:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠-٨١].

ثمّ أقبل على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء في ضلالتهم بأولى بالجدّ منكم في حقكم وطاعة إمامكم. ثمّ مكث النّاس إلى انسلاخ المحرّم فلمّا انسلخ واستقبل النّاس صفراً من سنة سبع وثلاثين بعث عليّ نفراً من أصحابه حتّى إذا كانوا في عسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصّوت قام مرثد بن الحرث[1] الحثيمي فنادى عند غروب الشّمس: يا أهل الشّام إنّ أمير المؤمنين علياً وأصحاب رسول الله يقولون لكم: إنا والله لم نكفّ عنكم شكاً في أمركم ولا إبقاء عليكم وإنّما كففنا عنكم لخروج المحرّم، وقد انسلخ، وإنا قد نبذنا إليكم على سواء فإنّ الله لا يحبّ كيد الخائنين، قال: فسار النّاس إلى رؤسائهم وأمرائهم[2].

قال نصر: وأمّا رواية عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي الزّبير أنّ نداء ابن مرثد الخثعمي كانت صورته: يا أهل الشّام ألا إنّ أمير المؤمنين يقول لكم: إنّي قد استأنيت لكم لتراجعوا إلى الحقّ وتنيبوا إليه احتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه، فلم تتناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حق، فإنّي قد نبذت إليكم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين.

---

(١) في نسخة: يزيد بن الحارث.
(٢) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٥٦، والغدير: ١٠/ ١٥٥ ح ٣٤.

قال: فسار النّاس إلى رؤسائهم وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتائب ويعبئان العسكر، وأوقدوا النّيران وجاؤوا بالشّموع وبات عليّ ليلته تلك كلها يعبي النّاس ويكتب الكتائب ويدور في النّاس ويحرضهم.

قال نصر: فخرجوا أوّل يوم من صفر سنة سبع وثلاثين وهو يوم الأَربعاء فاقتتلوا، وعلى من خرج يومئذٍ من أهل الكوفة الأشتر، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة فاقتتلوا قتالاً شديداً جلّ النهار، ثمّ تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض ثمّ خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عددها وعدتها، فخرج إليه من أهل الشام أبو الأَعور السلمي، فأقتتلوا يومهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ثمّ انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض.

وخرج في اليوم الثّالث عمّار بن ياسر وخرج إليه عمرو بن العاص فاقتتل النّاس كأشدّ قتال كان، وجعل عمّار يقول: يا أهل الإسلام أتريدون أن تنظروا إلى من عاد الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين فلمّا أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى إلى النّبي فأسلم وهو والله فيما يرى ذاهب غير راغب، ثم قبض الله رسوله، وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودّة المجرم، ألا وإنّه معاوية فقاتلوه والعنوه، فإنّه ممن يطفي نور الله ويظاهر أعداء الله.

قال: وكان مع عمّار زياد بن النّضر على الخيل فأمره أن يحمل في الخيل فحمل فصبروا له، وشدّ عمار في الرّجالة فأزال عمرو بن العاص عن موقفه ورجع النّاس يومهم ذلك.

قال نصر: وحدّثني أبو عبد الرّحمن المسعودي، عن يونس الأَرقم، عمّن حدّثه من شيوخ بكر بن وائل، قال: كنّا مع عليّ بصفين فرفع عمرو بن العاص شقة خميصة سوداء في رأس رمح فقال الناس: هذا لواء عقده له رسول الله، فلم يزالوا يتحدّثون حتّى وصل ذلك إلى عليّ فقال: أتدرون ما هذا اللواء إنّ عمراً أخرج له رسول الله هذه الشّقة فقال: من يأخذها بما فيها، فقال عمرو ما فيها يا رسول الله؟ فقال: لا تقاتل بها مسلماً ولا تقرّبها من كافر، فأخذها فقد والله قربها من المشركين وقاتل بها اليوم المسلمين، والذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة ما أسلموا ولكنّهم استسلموا وأسروا الكفر، فلما وجدوا أعواناً أظهروه.

قال نصر: فأمّا اليوم الرّابع فإنّ محمّد بن الحنفية خرج في جمع من أهل العراق فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمع من أهل الشام، فاقتتلوا، ثمّ إنّ عبيد الله بن عمر أرسل إلى محمّد بن الحنفية أن أخرج إلى أبارزك، فقال: نعم، ثمّ خرج إليه فبصر بهما عليّ عليه السلام فقال: من هذان المتبارزان؟ قيل: محمّد بن الحنفية وعبيد الله بن

عمر فحرّك دابته ثمّ دعا محمّداً إليه فجاءه فقال أمسك دابتي فأمسكها فمشى راجلاً بيده سيفه نحو عبيد الله وقال له: أبارزك فهلم إليَّ قال: لا أبارزك، ثمّ رجع إلى صفه فرجع عليّ عليه السلام فقال ابن الحنفية: يا أبت لم تمنعني من مبارزته فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله، قال: يا بنيّ لو بارزته أنا لقتلته ولو بارزته أنت لرجوت لك أن تقتله وما كنت آمن أن يقتلك، فقال: يا أبت أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدوّ الله، والله لو أبوه يسألك المبارزة لرغبت بك عنه.

قال نصر: وأما اليوم الخامس فإنه خرج فيه عبيد الله بن العباس فخرج إليه الوليد بن عقبة فأكثر من سب بني عبد المطلب وقال: يا ابن عباس قطعتم أرحامكم وقتلتم إمامكم فكيف رأيتم صنع الله بكم لم تعطوا ما طلبتم ولم تدركوا ما أملتم، فأرسل إليه ابن عباس أبرز إلى فأبى أن يفعل، وقاتل ابن عباس ذلك اليوم قتالاً شديداً ثمّ انصرفوا وكلّ غير غالب.

وخرج ذلك اليوم سمرة بن أبرهة بن الصباح الحميري فلحق بعليّ عليه السلام في ناس من قراء أهل الشام ففت ذلك في عضد معاوية وعمرو بن العاص.

وقال عمرو: يا معاوية إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلاً له من محمد صلى الله عليه وآله قرابة قريبة ورحم ماسة وقدم في الإسلام ليس لأحد مثله وقد سار إليك بأصحاب محمّد المعدودين وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم وقدمائهم في الإسلام، ولهم في النفوس مهابة ومهما نسيت فلا تنس فإنك على الباطل وإنّ علياً على الحقّ فبادر الأمر قبل اضطرابه عليك، فقام معاوية في أهل الشام خطيباً وحثهم على القتال فخطب عليّ عليه السلام أصحابه.

قال نصر: قال أبو[1] سنان الأسلمي كأني أنظر إليه متكئاً على قوسه وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وهم يلونه كأنه أحبّ أن يعلم الناس أنّ الصحابة متوافرون معه فقال بعد حمد الله والثناء عليه أما بعد:

فإنّ الخيلاء من التجبر وإنّ النخوة من التكبر وإنّ الشيطان عدوّ حاضر يعدكم الباطل، إلا إنّ المسلم أخ المسلم فلا تنابذوا ولا تجادلوا ألا إنّ شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة، من أخذ بها لحق ومن فارقها محق ومن تركها مرق، ليس المسلم بالخائن إذا أومن، ولا بالمخلف إذا وعد، ولا الكاذب إذا نطق، نحن أهل بيت الرّحمة، وقولنا الصدق، وفعلنا القصد، ومنا خاتم النبيين، وفينا قادة الإسلام، وفينا حملة الكتاب، أدعوكم إلى الله وإلى رسوله وإلى جهاد عدوّه والشدّة في أمره وابتغاء مرضاته وإقام الصلاة، وإيتاء الزّكاة، وحجّ البيت وصيام شهر رمضان، وتوفير الفيء على أهله.

---

(١) في نسخة: ابن.

ألا وإنّ من أعجب العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السّهمي أصبحا يحرّضان على طلب الدّين بزعمهما، ولقد علمتم أنّي لم أخالف رسول الله ﷺ قط، ولم أعصه في أمر قط، أقيه بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأَبطال، وترعد منها الفرائص بنجدة أكرمني الله سبحانه بها وله الحمد.

ولقد قبض رسول الله ﷺ وإنّ رأسه لفي حجري، ولقد وليت غسله بيدي وحدي يقلبه الملائكة المقرّبون معي، وأيم الله ما اختلفت أمّة بعد نبيّها إلاّ ظهر أهل باطلها على أهل حقّها إلاّ ما شاء الله.

قال أبو سنان: فأشهد لقد سمعت عمّار بن ياسر يقول: أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم إنّ الأمة لم تستقم عليه أوّلاً، ولن تستقيم عليه آخراً.

قال نصر: قال زيد بن وهب: إنّ علياً عليه السلام قال في هذه اللّيلة: حتّى متى لا نناهض القوم بأجمعنا، فقام في النّاس عشيّة الثلاثاء بعد العصر فقال:

الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض، ولا ينقض ما أبرم، ولو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة، ولا من خلقه، ولا تنازع البشر في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، ولقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار حتّى لفّت بيننا في هذا الموضع ونحن من ربّنا بمرئى ومسمع، ولو شاء لعجل النقمة ولكان منه التّغير حتّى يكذب الله الظالم ويعلم الحقّ أين مصيره، ولكنّه جعل الدّنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة دار الجزاء والقرار، ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[1].

ألاّ إنّكم لاقوا العدوّ غداً إنشاء الله فأطيلوا اللّيلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله الصّبر والنّصر، والقوهم بالجدّ والحزم، وكونوا صادقين.

قال: فوثب النّاس إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم يصلحونها، وخرج عليه السلام فعبأ النّاس ليلته تلك كلها حتّى أصبح، وعقد الألوية وأمر الأمراء وبعث إلى أهل الشّام منادياً ينادي اغدوا على مصافكم، فضجّ أهل الشّام في معسكرهم واجتمعوا إلى معاوية فعبأ خيله وعقد ألويته وأمر أمراءه وكتب كتائبه، وكان أهل الشّام أكثر من أهل العراق بالضّعف، ونصب لمعاوية منبر فقعد عليه في قبّة ضربها ألقى عليها الثياب والأرائك وأحاط به أهل اليمن، وقال: لا تقربنّ هذا المنبر أحد لا تعرفونه إلاّ قتلتموه كائناً من كان.

ثمّ تناهض القوم سادس صفر واقتتلوا إلى آخر نهارهم وانصرفوا عند المساء وكلّ غير غالب، فأما اليوم السّابع فكان القتال فيه شديداً والخطب عظيماً، وكان عبد الله بن بديل

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٤٦٤ ح ٤٠٣، نهج السعادة: ٢/١٨٩.

الخزاعي على ميمنة العراق، فزحف نحو حبيب بن مسلمة وهو على مسيرة أهل الشّام حتّى اضطرهم إلى قبّة معاوية وقت الظهر.

وقال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن عبد الرّحمن بن أبي عمرو عن أبيه أنّ عليّاً خطب هذا اليوم فقال: معاشر النّاس استشعروا الخشية وتجلببوا السّكينة إلى آخر ما مرّ في المتن.

وروى نصر بإسناده المذكور أيضاً أنّه خطب ذالك اليوم وقال: أيّها الناس إن الله تعالى ذكره قد دلكم على تجارة تنجيكم من العذاب، وتشفي بكم على الخير، إيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله، وجعل ثوابه مغفرة الذّنوب ومساكن طيّبة في جنات ورضوان من الله أكبر وأخبركم بالذي يحبّ فقال: إنّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدراع وأخروا الحاسر[١] وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبأ للسّيوف عن الهام، وأربط للجأش وأسكن للقلوب وأميتوا الأصوات فإنّه أطرد للفشل وأولى بالوقار والتووا في أطراف الرّماح فإنّه أمور للأسنّة ورايتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلاّ بأيدي شجعانكم المانعي الذّمار والصّبر عند نزول الحقائق أهل الحفاظ الذين يحفون برايتكم ويكتنفونها، يضربون خلفها وأمامها ولا تضيّعوها.

وهلاّ أجزء كلّ أمرء مسلم منكم قرنه وواسا أخاه بنفسه، ولم يكل قرنه إلى أخيه فيجمع عليه قرنه وقرن أخيه فكسب بذلك اللائمة ويأتي به دناءة أنّى هذا وكيف يكون هكذا، هذا يقابل اثنين، وهذا ممسك يده قد خلّى قرنه إلى أخيه هارباً منه أو قائماً ينظر إليه، من يفعل هذا مقته الله فلا تعرضوا لمقت الله فإنّما مردّكم إلى الله قال الله تعالى لقوم عابهم:

﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

وأيم الله إن فررتم من سيف[٢] العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة فاستعينوا بالصّدق والصّبر فإنّه بعد الصّبر ينزل النصر[٣].

قال نصر: ثمّ قام قيس بن سعد وخطب خطبة بليغة حث النّاس فيها على الجهاد، ثمّ قام الأشتر رضي الله عنه بمثل ذلك، وكذا يزيد بن قيس الأرحبي وغيرهم.

وروى عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، وزيد بن الحسن قالا: طلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يسوي صفوف أهل الشّام، فقال: يا معشر أهل الشّام

---

(١) الحابر: من لا مغفرة له ولا درع ولا جنة له.

(٢) في نسخة: الله.

(٣) وسائل الشيعة: ١٥/ ٦١، ومستدرك الوسائل: ١١/ ٨٥.

سوّوا صفوفكم قص الشارب، وأعيرونا جماجمكم ساعة، فإنه قد بلغ الحق مقطعه فلم يبق إلاّ ظالم أو مظلوم.

قال نصر: وأقبل أبو الهيثم بن التيهان وكان من أصحاب محمّد ﷺ بدريّاً عقبيّاً يسوّي صفوف أهل العراق وهو يقول: يا معشر أهل العراق إنّه ليس بينكم وبين الفتح العاجل إلا ساعة من النّهار، فارسوا أقدامكم وسووا صفوفكم وأعيروا ربّكم جماجمكم واستعينوا بالله ربّكم، واصبروا إنّ الأَرض الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبي أنّ أوّل فارسين التقيا في هذا اليوم وهو اليوم السّابع وكان من الأَيام العظيمة ذا أهوال شديدة حجر بن عدي من أصحاب علي عليه السلام وابن عم حجر المسمى بحجر أيضاً من أصحاب معاوية كليهما من كندة، فأطعنا برمحهما، وخرج خزيمة الأَسدي من عكسر معاوية فضرب حجر بن عدي ضربة برمحه فحمل أصحاب علي عليه السلام فقتلوا خزيمة ونجى ابن عمّ حجر هارباً فالتحق بصف معاوية، ثمّ برز ثانية فبرز إليه الحكم بن أزهر من أهل العراق فقتله.

ثمّ إنّ عليّاً دعا أصحابه إلى أن يذهب واحد منهم بمصحف كان في يده إلى أهل الشّام، فقال عليه السلام: من يذهب إليهم فيدعوهم إلى ما في هذا المصحف؟ فسكت النّاس وأقبل فتى اسمه سعيد فقال: أنا صاحبه، وقال ثانياً: فلم يجبه إلا الفتى، فسلّمه إليه، ثمّ أتاهم وناشدهم ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام لعبد الله بن بديل: احمل عليهم الآن، فحمل عليهم بمن معه من أهل الميمنة وعليه يومئذٍ سيفان ودرعان، فجعل يضرب قدما ويرتجز فلم يزل يحمل حتّى انتهى إلى معاوية والذين بايعوه على الموت فأمرهم أن يصمد والعبد الله بن بديل، وبعث إلى حبيب بن مسلمة الفهري وهو في الميسرة أن يحمل عليه بجميع أصحابه واختلط النّاس واصطدم، الصّفان ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشّام.

وأقبل ابن بديل يضرب النّاس بسيفه حتّى أزال معاوية عن موقفه، وجعل ينادي يا ثارات عثمان وإنّما يعني أخاً له قتل وظنّ معاوية وأصحابه أنّه يعني عثمان بن عفّان وتراجع معاوية عن مكانه القهقرى كثيراً وأشفق على نفسه وأرسل إلى حبيب بن مسلمة ثانية وثالثة يستنجده ويستصرخه ويحمل حبيب حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة عراق، فكشفها حتّى لم يبق مع ابن بديل إلا نحو مائة إنسان من القراء فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم.

ولجج ابن بديل في النّاس وصمّم على قتل معاوية وجعل يطلب موقفه حتّى انتهى إليه فنادى معاوية في الناس ويلكم الصّخرة والحجارة إذا عجزتم عن السّلاح، فرضَخهُ النّاس

بالحجارة حتّى اثخنوه، فسقط فأقبلوا عليه بسيوفهم فقتلوه فجاء معاوية وعبد الله بن عامر حتّى وقفا عليه فألقى عبد الله عمامته على وجهه وترحم عليه وكان له أخاً وصديقاً من قبل، فقال معاوية: اكشف عن وجهه فقال: لا والله لا يمثل به وفيّ روح، فقال معاوية: قد وهبناه لك فكشف عن وجهه فقال معاوية: هذا كبش القويم ورب الكعبة اللهم أظفرني بالأشتر النخعي والأشعث الكندي.

قال نصر: فاستعلا أهل الشّام عند قتل ابن بديل على أهل العراق يومئذٍ وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة وأجفلوا[١] إجفالاً شديداً فأمر علي عليه السلام سهل بن حنيف فاستقدم ممن كان معه ليرفد الميمنة ويعضدها، فاستقبلهم جموع أهل الشام في خيل عظيمة فحملت عليهم فألحقتهم بالميمنة، وكانت ميمنة أهل العراق متّصلة بموقف علي في القلب في أهل اليمن، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى علي فانصرف يمشي نحو الميسرة.

روى نصر عن زيد بن وهب قال: لقد مرّ علي عليه السلام يومئذٍ ومعه بنوه وإنّي لأرى النبل يمرّ بين عاتقه ومنكبه وما من بنيه إلا من يقيه بنفسه فيكره علي ذلك فيتقدّم عليه ويحول بينه وبين أهل الشّام ويأخذ بيده إذا فعل ذلك فيلقيه من ورائه، وبصر به أحمر مولى بني أمية وكان شجاعاً، فقال علي[٢] وربّ الكعبة قتلني الله إن لم أقتلك، فأقبل نحوه فخرج إليه كيسان مولى علي فاختلفا ضربتين فقتله أحمر وخالط عليّاً ليضربه بالسّيف فمد يده عليه السلام إلى جيب درعه فجذبه عن فرسه، وحمله على عاتقه والله لكأني أنظر إلى رجلي أحمر يختلفان على عنق علي عليه السلام ثمّ ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضديه وشدّ ابنا علي عليه السلام حسين ومحمّد، فضرباه بأسيافهما حتّى برد فكأنّي أنظر إلى علي قائماً وشبلاه يضربان الرّجل حتى إذا أتيا عليه أقبلا على أبيهما والحسن قائم معه فقال له علي: يا بني ما منعك أن تفعل كما فعل أخوك فقال: كفياني يا أمير المؤمنين.

قال: ثمّ إنّ أهل الشّام دنوا منه يريدونه والله ما يزيده قربهم منه ودنوّهم سرعة في مشيه، فقال له الحسن: ما أضرّك لو أسرعت حتّى تنتهي إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك، قال يعني ربيعة الميسرة، فقال علي: يا بنيّ إنّ لأبيك يوماً لا يبطيء به عنه السّعي ولا يقربه إليه الوقوف إنّ أباك لا يبالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه[٣].

قال نصر: وروى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي إسحاق قال: خرج علي يوماً من

(١) أجفلوا: أسرعوا.
(٢) في نسخة: لعلي.
(٣) بحار الأنوار: ٣٢/٤٦٩ ح ٤٠٧، وتاريخ الطبري: ٤/١٣.

أيّام صفين وفي يده عنزة، فمرّ على سعيد بن قيس الهمداني فقال له سعيد: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قريب عدوّك، فقال علي عليه السلام إنه ليس من أحد إلا وعليه حفظة من الله يحفظونه من أن يتردّى في قليب أو يخرب عليه حائط أو تصيبه آفة، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه(١).

قال: وحدّثنا عمرو، عن فضيل بن خديج، قال لما انهزمت ميمنة العراق يومئذٍ أقبل عليّ نحو الميسرة يركض ليستلب النّاس ويسوقهم ويأمرهم بالرّجوع نحو الفرغ، فمرّ بالأشتر فقال: يا مالك قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم عن الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم، فمضى الأشتر فاستقبل النّاس منهزمين فقال لهم: الكلمات، فناداهم أيّها النّاس أنا مالك بن الحرث، فلم يلتفت أحد منهم إليه فقال: أيّها النّاس أنا الأشتر، فأقبلت إليه طائفة وذهبت عنه طائفة فقال: عضضتم بهن أبيكم، ما أقبح ما قاتلتم اليوم.

أيّها النّاس غضّوا الأبصار وعضّوا على النّواجذ، فاستقبلوا النّاس بهامكم وشدّوا عليهم شدّة قوم موتورين بآبائهم وأبنائهم وإخوانهم حنفاء على عدوهم، قد وطنوا على الموت أنفسهم كي لا يسبقوا بثأر إنّ هؤلاء القوم والله لن يقاتلوكم إلا عن دينكم ليطفؤوا السّنة ويحيوا البدعة ويدخلوكم في أمركم قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة، فطيبوا عباد الله نفساً بدمائكم دون دينكم، فإنّ الفرار فيه سلب العزّ والغلبة على الفيء، وذل المحيا والممات وعار الدّنيا والآخرة وسخط الله وأليم عقابه ثمّ قال:

أيّها النّاس أخلصوا إلى مذحجاً فاجتمعت إليه مذحج فقال عضضتم بصمّ(٢) الجندل والله ما أرضيتم اليوم ربّكم ولا نصحتم له في عدوه وكيف وأنتم أبناء الحرب وأصحاب الغارات وفرسان الطراد وحتوف الأقران، ومذحج الطعان الذين لم يكونوا سبقوا بثأرهم، ولم تطل دماؤهم ولم يعرفوا في موطن من المواطن لحين وأنتم سادة مصركم واعرجي في قومكم، وما تفعلوا في هذا اليوم فهو مأثور بعد اليوم فابقوا مأثور الحديث في غد، واصدقوا عدوّكم اللقاء فإنّ الله مع الصّابرين.

والذي نفسي بيده ما من هؤلاء وأشار بيده إلى أهل الشّام رجل في مثل جناح البعوضة من دين الله أنتم ما أحسنتم اليوم القراع أجلوا سواد وجهي يرجع في وجهي ذمي(٣) عليكم بهذا السواد الأعظم فإنّ الله لو قد فضه تبعه من بجانبيه كما يتبع السّيل مقدمه، فقالوا: خذ بنا

---

(١) توحيد الصدوق: ٣٧٩، والبحار: ٣٢/ ٤٧٠ ح ٤٠٨.

(٢) حجر أصم وصخرة صماء.

(٣) في نسخة: احبسوا سواد وجهي رجع فيه دمي.

حيث أحببت فصمد بهم نحو عظمهم واستقبله سنام من همدان وهم نحو ثمانمائة مقاتل قد انهزموا آخر النّاس وكانوا قد صبروا في ميمنة علي حتّى قتل مائة وثمانون رجلاً وأصيب منهم أحد عشر رئيساً كلما قتل منهم رئيس أخذ الرّاية آخروهم بنو شريح الهمدانيون وغيرهم من رؤساء العشيرة.

فقال لهم الأَشتر إنّي أحالفكم وأعاقدكم على أن لا نرجع أبداً حتّى نظفر أو نهلك، فوقفوا معه على هذه النية والعزيمة وزحف نحو الميمنة وناب إليه أناس تراجعوا من أهل الصّبر والوفاء والحياء فأخذ لا يصمد لكتيبة إلاّ كشفها، ولا بجمع الإجازة وردّه.

قال نصر وحدّثنا عمرو، عن الحرث بن الصّباح، قال: كان بيد الأَشتر يومئذٍ صحيفة له يمانية إذا طأطأها خلت فيها ما ينصب، وإذا رفعها يكاد يغشى البصر شعاعها، وهو يضرب بها النّاس قدما يقول: الغمرات ثمّ ينجلينا.

قال: فبصر به الحرث بن جمهان الجعفي والأَشتر مقنع في الحديد فلم يعرفه فدنا منه، وقال له: جزاك الله منذ اليوم عن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين خيراً، فعرفه الأَشتر فقال: يا ابن جمهان أمثلك يتخلف اليوم عن مثل موطني هذا؟ فتأمله ابن جمهان فعرفه وكان الأَشتر من أطول الرّجال وأعظمهم إلاّ أنّ في لحمه خفة قليلة، فقال له جعلت فداك، والله ما علمت مكانك حتّى السّاعة لا أفارقك حتّى أموت.

قال نصر: وحدّثنا عمر عن فضيل بن خديج، قال: لمّا اجتمع إلى الأَشتر معظم من كان انهزم من الميمنة حمل على صفوف أهل الشّام حتّى كشفهم فألحقهم بمضارب معاوية، وذلك بين العصر والمغرب.

وعن زيد بن وهب أنّ عليّاً لما رأى ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافها وكشف من بإزائها حتّى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم، أقبل حتّى انتهى إليهم فقال: إنّي قد رأيت جولتكم وانحيازكم من صفوفكم يحوزكم الجفاة الطغاة [1] واعراب أهل الشّام وأنتم لها ميم العرب والسّنام الأَعظم وإعمار الليل بتلاوة القرآن وأهل دعوة الحقّ إذ ضل الخاطئون فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكرّكم بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزّحف دبره وكنتم فيما أرى من الهالكين.

ولقد هون عليّ بعض وجدي وشفا بعض وجع نفسي أني رأيتكم بأخره هزتموهم كما جازوكم وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم تحسونهم [2] بالسّيف يركب أوّلهم وآخرهم

(١) في نسخة: الطغام.

(٢) الحِسّ: القتل.

كالإبل المطرودة الهيم فالآن فاصبروا نزلت عليكم السّكينة وثبتكم الله باليقين وليعلم المنهزم أنّه يسخط ربّه ويوبق نفسه وفي الفرار موحدة الله عليه والذّل اللاّزم له وفساد العيش، وأنّ الفار لا يزيد الفرار في عمره ولا يرضى ربّه، فموت الرّجل محقاً قبل إتيان هذه الخصال خير من الرّضا بالتّلبس بها والإصرار عليها.

قال نصر: فحمل أبو الكعب الخثعمي رأس خثعم العراق على خثعم الشّام واقتتلوا قتالاً شديداً، فجعل أبو كعب يقول لأصحابه يا معشر خثعم خدموا أي اضربوا موضع الخدمة وهي الخلخال، يعني اضربوهم في سوقهم فناداه عبد الله بن حنش رأس خثعم الشّام يا أبا كعب الكلّ قومك فانصف، قال أي والله وأعظم واشتدّ قتالهم فحمل شمر[1] بن عبد الله الخثعمي على أبي كعب فطعنه فقتله.

ثمّ انصرف يبكي ويقول: يرحمك الله أبا كعب لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمس بي رحماً منهم وأحبّ إليّ منهم نفساً ولكني والله ما أدري ما أقول ولا أرى الشيطان إلاّ قد فتننا، ولا أرى قريشاً إلاّ وقد لعبت بنا، فوثب كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه فأخذها ففقئت عينه وصرع، ثمّ أخذها شريح بن مالك الخثعمي فقاتل القوم تحتها حتّى صرع منهم حول رايتهم ثمانون رجلاً وأصيب من خثعم الشّام مثلهم ثمّ ردّها شريح بن مالك إلى كعب بن أبي كعب.

قال نصر: إنّ راية بحيلة في صفين مع أهل العراق كانت في أخمس مع أبي شداد قيس بن المكسوخ، قالت البحيلة لأبي شدّاد، خذ رايتنا، فقال: غيري خير لكم منّي قالوا: لا نريد غيرك، قال: فوالله لئن اعطيتمونيها لانتهى بكم دون صاحب التّرس المذهب.

قالوا: وكان على رأس معاوية رجل قائم معه ترس مذهّب يستره من الشّمس فقالوا: اصنع ما شئت فأخذها ثمّ زحف بها وهم حوله يضربون النّاس بأسياف حتى انتهى إلى صاحب التّرس المذهب وهو في خيل عظيمة من أصحاب معاوية، وكان عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد، فاقتتل النّاس هناك قتالاً شديداً وشدّ أبو شدّاد بسيفه نحو صاحب التّرس فعرض له رومي من دونه لمعاوية فضرب قدم أبي شدّاد فقطعها، وضرب أبو شدّاد ذلك الرّومي فقتله، وأسرعت إليه الأسنة، فقتل، فأخذ الرّاية عبد الله بن قلع الأخمس وقاتل حتّى قتل، فأخذها بعده أخوه عبد الرّحمن بن قلع فقاتل حتّى قتل، ثمّ أخذها عفيف بن أياس الأخمس، فلم تزل بيده حتّى تحاجز النّاس قال نصر: وقال رجل من أصحاب علي: أما والله لأحملن على معاوية حتى أقتله. فركب فرساً ثمّ ضربه حتّى قام على سنابكه، ثمّ دفعه فلم ينهه شيء عن

(١) في نسخة: شمس.

الوقوف حتّى وقف على رأس معاوية، فهرب معاوية ودخل خبائه فنزل الرّجل عن فرسه ودخل عليه فخرج معاوية من جانب الخباء الآخر فخرج الرّجل في أثره فاستصرخ معاوية بالنّاس فأحاطوا به وحالوا بينهما فقال معاوية: ويحكم أنّ السيوف لم يؤذن لها في هذا ولولا ذلك لم تصل إليكم فعليكم بالحجارة فرضخوه بالحجارة حتّى همد ثم عاد معاوية إلى مجلسه.

قال: وحمل رجل من أصحاب علي عليه السلام يدعى أبا أيوب، وليس بأبي أيوب الأنصاري على صف أهل الشّام، ثمّ رجع فوافق رجلاً من أهل الشّام صادراً قد حمل على أهل العراق، ثم رجع فاختلفا ضربتين فنفحه أبو أيوب بالسّيف فأبان عنقه فثبت رأسه على جسده كما هو، وكذّب النّاس أن يكون هو ضربه فأرى بهم ذلك حتى إذا أدخلته فرسه في صف أهل الشّام بدر رأسه فوقع ميّتا.

فقال علي عليه السلام: والله لأنا من ثبات رأس الرّجل أشد تعجباً من الضّربة وإن كان إليها ينتهي وصف الواصفين، وجاء أبو أيوب فوقف بين يدي علي عليه السلام فقال له: أنت والله كما قال الشّاعر:

وعلمنا الضرب آباؤنا ونحن نعلم أيضاً بنينا

قال نصر: فلما انقضى هذا اليوم بما فيه أصبحوا في اليوم الثامن من صفر والفيلقان متقابلان، فخرج رجل من أهل الشام فسأل المبارزة فخرج إليه رجل من أهل العراق فاقتتلا بين الصفين قتالاً شديداً، ثمّ إن العراقي اعتنقه فوقعا جميعاً وغار الفرسان ثمّ إن العراقي قهره فجلس صدره وكشف المغفر عنه يريد ذبحه فإذا هو أخوه لأبيه وأمّه، فصاح به أصحاب علي ويحك أجهز عليه، قال: إنه أخي، قالوا: فاتركه، قال: لا والله حتّى يأذن أمير المؤمنين، فأخبر علي بذلك فأرسل إليه أن دعه فتركه فقام فعاد إلى صف معاوية.

قال نصر: وحدّثنا محمّد بن عبيد الله عن الجرجاني قال: كان فارس معاوية الذي يعدّه لكلّ مبارز ولكلّ عظيم حريث مولاه، وكان يلبس سلاح معاوية متشبّها به فإذا قاتل قال النّاس ذاك معاوية وإنّ معاوية دعاه فقال له: يا حريث اتّق عليّاً وضع رمحك حيث شئت، فأتاه عمرو بن العاص فقال: يا حريث والله لو كنت قرشياً لأحب لك معاوية أن تقتل عليّاً، ولكن كره أن يكون لك حظها فإن رأيت فرصة فاقتحم وخرج علي في هذا اليوم أمام الخيل فحمل عليه حريث.

قال نصر: فحدّثني عمرو بن شمر عن جابر قال: بل برز حريث هذا اليوم وكان شديداً أيداً ذا بأس لا يرام فصاح يا علي هل لك في المبارزة فأقدم أبا حسن إن شئت، فأقبل علي عليه السلام وهو يقول:

أنا علي وابن عبد المطلب نحن لعمر الله أولى بالكتب
منا النبيّ المصطفى غير كذب أهل اللواء والمقام والحجب
نحن نصرناه على كل العرب

ثمّ خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة فقطعه نصفيه فجزع معاوية عليه جزعاً شديداً وعاتب عمراً في إغرائه إيّاه بعلي وقال في ذلك شعراً:

حريث الم تعلم وجهلك ضائر بأن علياً للفوارس قاهر
وأنّ علياً لم يبارزه فارس من النّاس إلا اقصدته الأظافر
أمرتك أمراً حازماً فعصيتني فجدّك إذ لم تقبل النّصح حائر
ودلاك عمرو والحوادث جمة غروراً وما جرت عليك المقادر
وظن حريث أن عمراً نصيحه وقد يهلك الإنسان من لا يحاذر

قال نصر: فلما قتل حريث برز عمرو بن الحصين السّكسكي فنادى: يا أبا حسن هلم إلى المبارزة فأومأ علي إلى سعيد بن قيس الهمداني فبارزه فضربه بالسّيف فقتله[1].

قال نصر: وكان لهمدان بلاء عظيم في نصرة علي عليه السلام في صفين ومن الشّعر الذي لا يشكّ أنّه قاله لكثرة الرّواة له:

دعوت فلبّاني من القوم عصبة فوارس من همدان غير لئام
فوارس من همدان ليسوا بمعزل غداة الوغا من يشكر وشبام
بكل رويني[2] وعضب تخاله إذا اختلف الأقوام شعل ضرام
لهمدان أخلاق كرام تزينهم وبأس إذا لاقوا وحد خصام
وجد وصدق في الحروب ونجدة وقول إذا قالوا بغير اثام
متى تأتهم في دارهم تستضيفهم تبت ناعماً في خدمة وطعام
جزى الله همدان الجنان فإنّها سهام العدى في كلّ يوم زحام
ولو كنت بواباً على باب جنّة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

قال نصر: فحدّثني عمرو بن شمر قال: ثمّ قام عليّ بين الصّفين ونادى: يا معاوية يكرّرها، فقال معاوية اسألوه ما شأنه، قال: أحبّ أن يظهر لي فاكلمه كلمة واحدة، فبرز

---

(١) بطوله في البحار: ٣٢/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

(٢) الرويني: الرمح المنسوب إلى روينة وهو اسم امرأة، والعضب: الضرب.

معاوية ومعه عمرو بن العاص فلمّا قارباه لم يلتفت إلى عمرو وقال لمعاوية: ويحك علام تقتل النّاس بيني وبينك ويضرب بعضهم بعضاً أبرز إلى فأينا قتل صاحبه فالأمر له[1]، فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: ما ترى يا أبا عبد الله؟ قال: قد أنصفك الرّجل واعلم أنك إن نكلت عنه لم تزل مسبته عليك وعلى عقبك ما بقي على ظهر الأرض عربيّ، فقال معاوية: يا ابن العاص ليس مثلي يخدع عن نفسه والله ما بارز ابن أبي طالب شجاع قط إلاّ وسقى الأرض من دمه، ثم انصرف معاوية راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصّفوف وعمرو معه، فلمّا رأى عليّ ذلك ضحك وأعاد إلى موقفه.

قال نصر: وفي حديث الجرجاني أنّ معاوية قال لعمرو: ويحك ما أحمقك تدعوني إلى مبارزته ودوني علكّ وخدّام والأشعرون، قال: وحقدها معاوية على عمرو باطناً وقال له ظاهراً: ما أظنّك يا أبا عبد الله قلت ما قلته إلاّ مازحاً، فلمّا جلس معاوية عليه اللعنة والعذاب مجلسه أقبل عمرو يمشي حتّى جلس إلى جانبه، فقال معاوية:

ولقد ظننتك قلت مزحة مازح والهزل يحمله مقال الهازي
ما ذا الذي منتك نفسك خالياً قتلي جزيت بما نويت الجازي

فقال عمرو: إيّها أيّها الرّجل أتجبن عن خصمك وتتّهم نصيحك وقال مجيباً له:

معاوي ما اجترمت عليك ذنباً ولا أنا في الذي حدّثت خازي
وما ذنبي بأن نادى عليّ وكبش القوم يدعي للبراز
ولو بارزته بارزت ليثاً حديد النّاب يخطب كلّ باز
وتزعم أنّني أضمرت غشّاً جزاني بالذي أضمرت جازي

وفي «**البحار**» من تفسير العياشي عن أبي الأعزّ التّميمي قال: بينا أنا واقف بصفّين إذ مرّ بي العبّاس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب شاك في السّلاح على رأسه مغفر وبيده صحيفة يمانيّة يقلبها وهو على فرس له أدهم وكأن عينيه عينا أفعى، فبينا هو يروض فرسه ويلين عريكته إذ هتف به هاتف من أهل الشّام يقال له عرار بن أدهم: يا عبّاس هلم إلى البراز، قال: فالنّزول إذاً فإنّه أياس من الغفول، قال: فنزل الشّامي ووجد وهو يقول:

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإنّا معشر نزل

قال: وثنى عباس رجله وهو يقول:

ويصدّ عنك مخيلة الرّجل العرّيض موضحة عن العظم

---

(١) الغدير: ٢/١٦٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٤٧٧ ح ٤١٥.

بحسام سيفك أو لسانك والكلم الأصيل كارعب الكلم

ثم عصب فضلات درعه في حجزته ودفع فرسه إلى غلام له أسلم كأني أنظر إلى قلاقل شعره ودلف[١] كلّ واحد منهما إلى صاحبه قال فذكرت قول أبي ذؤيب:

فتنازلا وتوافقت خيلاهما وكلاهما بطل اللقاء مجدع

قال: ثمّ تكافحا بسيفهما ملياً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لامته إلى أن لحظ العبّاس وهناً في درع الشّامي فأهوى إليه بالسّيف فانتظم في درع الشّامي فأهوى إليه بيده فهتكه إلى ثندوته[٢] ثمّ عاد لمجادلته وقد اصحر[٣] له مفتق الدّرع فضربه العبّاس ضربة انتظم به جوانح صدره وخرّ الشّامي صريعاً بخدّه وسمى العبّاس في النّاس وكبّر النّاس تكبيرة ارتجت لها الأرض فسمعت قائلاً يقول من ورائي.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين عليّ فقال: يا أبا الأعزّ من المبارز لعدوّنا؟ قلت: هذا ابن[٤] العبّاس بن ربيعة فقال وإنّه لهو يا عبّاس، قال: لبّيك قال: ألم انهك وحسناً وحسيناً وعبد الله بن جعفر أن تخلوا بمركز أو تباشروا حدثاً؟ قال: إن ذلك لكذلك قال: فما عدا ممّا بدا، قال: أفأدعى إلى البراز يا أمير المؤمنين فلا أجيب جعلت فداك؟ قال: نعم طاعة إمامك أولى من إجابة عدوّك، ومعاوية أنّه ما بقي من بني هاشم نافخ ضرمة[٥] إلاّ طعن في نيطته[٦] إطفاء لنور الله.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

أما والله ليهلكنّهم منّا رجال ورجال يسومونهم الخسف حتّى يكفّفوا بأيديهم ويحفروا الآبار إن عادوا لك فعد لي، قال: ونما الخبر إلى معاوية فقال: الله دم عرار ألا رجل يطلب بدم العرار؟ قال: فانتدب له رجلان من لخم فقالا: نحن له، قال: اذهبا فأيّكما قتل العبّاس برازاً فله كذا وكذا، فأتياه فدعواه إلى البراز فقال: إنّ لي سيّداً أوامره قال: فأتى أمير

---

(١) الدلف: المشي بتثاقل.
(٢) الثندوة: كسنبلة لحم الثدي.
(٣) أصحر: أي اتسع.
(٤) في نسخة: شيخكم.
(٥) الضرمة: النار.
(٦) النيطة وهو العرق الذي بالقلب.

المؤمنين عليه السلام فأخبره فقال: ناقلني سلاحك بسلاحي، فناقله قال: وركب أمير المؤمنين عليه السلام على فرس العبّاس، ودفع فرسه إلى العبّاس وبرز إلى الشّاميين فلم يشكا أنّه العبّاس، فقالا له: أذن لك سيّدك فتحرّج أن يقول نعم فقال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

قال: فبرز إليه أحدهما فكأنّما اختطفه، ثمّ برز إليه الثّاني فألحقه بالأوّل وانصرف وهو يقول:

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ثمّ قال: يا عبّاس خذ سلاحك وهات سلاحي قال: ونما الخبر إلى معاوية فقال: قبّح الله اللجاج إنّه لقعود ما ركبته قط إلاّ خذلت، فقال عمرو بن العاص: المخذول والله اللخميان لا أنت، قال: اسكت أيّها الشّيخ فليس هذه من ساعاتك قال: فإن لم يكن فرحم الله اللخميّين وما أراه يفعل قال: ذلك والله أضيق لحجرك وأخسر لصفقتك قال: أجل ولولا مصر لقد كانت المنجاة منها، فقال: هي والله أعمتك لولاها لا ألفيت نصيراً.

ورواه في شرح المعتزلي من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة بأدنى تغيير.

قال نصر: ثمّ التقى النّاس فاقتتلوا قتالاً شديداً وحاربت طيّ مع أمير المؤمنين حرباً عظيماً وتداعت وارتجزت فقتل منها أبطال كثيرون، وقاتلت النّخع معه أيضاً ذلك اليوم قتالاً شديداً وقطعت رجل علقمة بن قيس النّخعي وقتل أخوه أبيّ بن قيس فكان علقمة يقول بعد ما أحبّ أن رجلي أصح ما كانت لما أرجو بها من حسب الثّواب وكان يقول أحبّ أن أبصر أخي في نومي فرأيته فقلت له: يا أخي ما الذي قدمتم عليه؟ فقال: التقينا وأهل الشّام بين يدي الله سبحانه فاحتججنا عنده فحججناهم، فما سررت بشيء منذ عقلت سروري بتلك الرّؤيا.

وروى نصر عن الحصين بن المنذر الرّقاشي قال: لمّا تصاف النّاس في هذا اليوم وحمل بعضهم على بعض تضعضعت ميمنة أهل العراق فجاءنا عليّ ومعه بنوه حتّى انتهى إلينا، فنادى بصوت عال جهير لمن هذه الرّايات؟ فقلنا: رايات ربيعة، وقال: بل هي رايات الله عصم الله أهلها وصبّرهم وثبّت أقدامهم، ثمّ قال لي وأنا حامل راية ربيعة يومئذٍ: يا فتى ألا تدني رايتك هذه ذراعاً؟ فقلت: بلى والله وعشرة أذرع فأدنيتها، فقال لي: حسبك مكانك.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر قال: لما أقبل الحصين بن المنذر يومئذٍ وهو غلام يزحف براية ربيعة وكانت حمراء فأعجب علياً زحفه وثباته فقال:

لمن راية حمراء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حصين تقدّما
ويدنو بها في الصّفّ حتّى يديرها ... جمام المنايا تقطر الموت والدّما
تراه إذا ما كان يوم عظيمة ... أبى فيه إلاّ عزّة وتكرّما
جزى الله قوماً صابروا في لقائهم ... لدى النّاس خيراً ما أعزّ وأكرما
وأحزم صبراً يوم يدعي إلى الوغا ... إذا كان أصوات الكماة تغمغما
ربيعة أعني أنّهم أهل نجدة ... وبأس إذ لاقوا خميساً غرمرما
وقد صبرت عك ولخم وحمير ... لمذحج حتّى لم يفارق دم دماً
ونادت جذام يا لمذحج ويحكم ... جزى الله شرّاً أيّنا كان أظلما
أما تتّقون الله في حرماتكم ... وما قرّب الرّحمن منها وعظما
أذقنا ابن حرب طعننا وضرابنا ... بأسيافنا حتّى تولى وأحجما
وفر ينادي زبرقان بن أظلم ... ونادى كلاعاً والكريث والغما
وعمراً وسفياناً وجهماً ومالكاً ... وحوشب والغازي شريحاً وأظلما
وكرز بن تيهان وعمرو بن جحدد ... وصبّاحا القيني يدعو واسلما

قال نصر: وأقبل ذو الكلاع في حمير ومن لف لفها ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من قرّاء أهل الشّام ذو الكلاع في حمير في الميمنة، وعبيد الله في القرّاء في الميسرة، فحملوا على ربيعة وهم في ميسرة أهل العراق وفيهم عبد الله بن العبّاس حملة شديدة فتضعضعت رايات ربيعة ثمّ إنّ أهل الشّام انصرفوا فلم يمكثوا إلاّ قليلاً حتّى كرّوا ثانية وعبيد الله بن عمر في أوائلهم يقول: يا أهل الشّام هذا الحيّ من العراق قتلة عثمان وأنصار عليّ فإن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان فشدّوا على النّاس شدّة عظيمة فثبتت لهم ربيعة وصبرت صبراً حسناً إلاّ قليلاً من الضّعفاء واشتدّ القتال بين ربيعة وحمير وعبيد الله بن عمرو وكثرت القتلى.

ثمّ خرج خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب عليّ على رؤوسهم البيض، وهم غائصون في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، وخرج إليهم من أهل الشّام نحوهم في العدّة فاقتتلوا بين الصّفين والنّاس وقوف تحت راياتهم، فلم يرجع من هؤلاء مخبر لا عراقيّ ولا شاميّ قتلوا جميعاً بين الصفّين، وكان بصفّين تلّ يلقى عليه الجماجم من الرّجال يدعى تلّ الجماجم.

قال نصر: ثمّ ذهب هذا اليوم بما فيه فأصبحوا من اليوم التّاسع من صفر، وقد خطب معاوية أهل الشّام وحرّضهم فقال: إنّه قد نزل من الأمر ما ترون وحضركم ما حضركم فإذا نهدتم إليهم إن شاء الله فقدموا الدّارع وأخّروا الحاسر وصفّوا الخيل وأجنبوها وكونوا كقصّ

الشّارب وأعيرونا جماجمكم ساعة فإنّما هو ظالم أو مظلوم وقد بلغ الحق مقطعه.

قال: وكانت التّعبية في هذا اليوم كالتّعبية في الذي قبله، فحمل عبيد الله بن عمر في قرّاء أهل الشّام ومعه ذو الكلاع في حمير على ربيعة وهي ميسرة عليّ عليه السلام فقاتلوا قتالاً شديداً فأتى زياد بن حفصة إلى عبد القيس فقال لهم: لا يكوننّ وائل بعد اليوم إنّ ذا الكلاع وعبيد الله أباد ربيعة فانهضوا لهم وإلاّ هلكوا، فركبت عبد القيس وجاءت كأنّها غمامة سوداء فشدّت أزار الميسرة فعظم القتال فقتل ذو الكلاع الحميري قتله رجل من بكر بن وائل اسمه خندف، وتضعضعت أركان حمير وثبتت بعد قتل ذي الكلاع تحارب مع عبيد الله بن عمر.

وأرسل عبيد الله إلى الحسن بن علي عليه السلام أن لي إليك حاجة فألقني فلقاه الحسن عليه السلام فقال عبيد الله: إنّ أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً وقد شَنَئهُ النّاس فهل لك في خلعه وأن تتولى أنت هذا الأَمر: فقال: كلاّ والله لا يكون ذلك، ثمّ قال: يا ابن الخطاب والله لكأنّي أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك أما إن الشيطان قد زيّن لك وخدعك حتّى أخرجك مخلقاً بالخلوق ترى نساء أهل الشّام موقفك وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلاً.

قال نصر: فوالله ما كان إلاّ بياض ذلك اليوم حتّى قتل عبيد الله وهو في كتيبة رقطاء وكانت تدعى الخضرية وكانوا أربعة ألف عليهم ثياب خضر، فمرّ الحسن فإذا رجل متوسد رجل قتيل قد ركز رمحه في عينه وربط فرسه برجله فقال الحسن لمن معه: انظروا من هذا فإذا رجل من همدان وإذا القتيل عبيد الله بن عمر قد قتله الهمداني في أوّل الليل وبات عليه حتّى أصبح.

قال نصر: وقد اختلفت الرّواة في قاتل عبيد الله فقالت الهمدان: نحن قتلناه قتله هانيء بن الخطاب الهمداني، وقالت حضرموت: نحن قتلناه قتله محرز بن الصّحصح، وروي أنّ قاتله حريث بن جابر الحنفي وكان رئيس بني حنيفة يوم صفين.

قال نصر: فأتى ذا الكلاع فقد ذكرنا مقتله وأنّ قاتله خندف البكري، وروى عمرو بن شمر عن جابر قال حمل ذا الكلاع ذلك اليوم بالفيلق العظيم من حمير على صفوف العراق، ناداهم أبو شجاع الحميري وكان من ذوي البصائر مع علي عليه السلام فقال: يا معشر حمير تبّت أيديكم أترون معاوية خيراً من علي أضل الله سعيكم، ثمّ أنت يا ذا الكلاع قد كنّا نرى لأنّ لك نيّة في الدّين فقال ذا الكلاع إيهاً يا أبا شجاع والله إنّي لأَعلم ما معاوية بأفضل من علي، ولكنّي أقاتل على دم عثمان، قال: فأصيب ذو الكلاع حينئذ قتله خندف في المعركة. قال معاوية لما قتل ذو الكلاع: لأنا أشدّ فرحاً بقتل ذي الكلاع مني بفتح مصر لو فتحها، لأَنّ ذا الكلاع كان يحجز على معاوية في أشياء كان يأمر بها.

قال نصر: فلما قتل ذو الكلاع اشتدّت الحرب وشدّ عك ولخم وخدام «جذام»

والأشعريون من أهل الشام على مذحج من أهل العراق جعلهم معاوية بإزائهم فنادى منادى مذحج بالمذحج: خدموا أي اضربوا مواضع الخدمة وهي السّوق فاعترضت مذحج سوق القوم فكان فيه بوار عامتهم.

قال نصر: حدّثني عمرو بن الزبير قال: سمعت الحصين المنذر يقول أعطاني على ذلك اليوم راية ربيعة وقال: بسم الله سرياً حصين واعلم أنك لا تخفق على رأسك راية مثلها أبداً، هذه راية رسول الله فجاء أبو عرفا جبلة بن عطية الذهلي إلى الحصين وقال: هل لك أن تعطيني الرّاية أحملها لك ذكرها ولي أجرها؟ فقال الحصين: وما غنى يا عم مع ذكرها عن أجرها قال: إنه لا غنى بك عن ذلك ولكن أعرها ساعة فما أسرع ما ترجع إليك، قال الحصين: فقلت أنّه قد استقبل وأنّه يريد أن يموت مجاهداً فقلت له: خذها فأخذها ثمّ قال لأصحابه:

إنّ عمل الجنّة كره كله وثقيل، وإنّ عمل النّار خفّ كله وخبيث إنّ الجنّة لا يدخلها إلاّ الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأوامره وليس شيء ممّا فرض الله على العباد أشدّ من الجهاد هو أفضل الأعمال ثواباً عند الله، فإذا رأيتموني قد شددت فشدّوا ويحكم أما تشتاقون إلى الجنّة أما تحبون أن يغفر الله لكم فشدّوا معه وقاتلوا قتالاً شديداً فقتل أبو عرفاء وشدّت ربيعة بعده شدّة عظيمة على صفوف أهل الشّام فنقضها.

قال نصر: فاضطرب النّاس يومئذٍ بالسّيوف حتّى تقطعت وتكسّرت وصارت كالمناجل وتطاعنوا بالرّماح حتّى تقصفت وتناثرت أنابيبها، ثمّ جثوا على الرّكب فتحاثوا بالتّراب يحثو بعضهم التّراب في وجه بعض ثمّ تعانقوا وتكاوموا بالأفواه ثمّ تراموا بالصّخر والحجارة ثمّ تحاجزوا فكان الرّجل من أهل العراق يمرّ على أهل الشّام فيقول كيف أجز إلى رايات بني فلان فيقولون هٰهنا لاهداك الله ويمرّ الرّجل من أهل الشّام على أهل العراق فيقول كيف أمضي إلى رايات بني فلان فيقولون هٰهنا لا هداك الله ولا عافاك.

قال نصر: وقال معاوية لعمرو بن العاص: أما ترى يا أبا عبد الله إلى ما قد وقعنا كيف ترى أهل الشّام غداً صانعين إنّا لبمعرض خطر عظيم فقال له إن أصبحت غداً ربيعة وهم متعطفون حول عليّ تعطف الإبل حول فحلها لقيت منهم جلاداً صادقاً وبأساً شديداً وكانت التي لا سوى لها فقال معاوية أيجوز إنّك تخوفنا يا أبا عبد الله، قال: إنك سألتني فأجبتك فلمّا أصبحوا في اليوم العاشر أصبحوا وربيعة محدقة بعلي إحداق بياض العين بسوادها.

قال نصر: حدّثني عمرو بن شمر قال: لمّا أصبح عليّ هذا اليوم جاء فوقف بين رايات ربيعة فقال عتاب بن لقيط البكري من بني قيس بن ثعلبة: يا معشر ربيعة حاموا عن عليّ منذ اليوم فإن أصيب فيكم افتضحتم ألا ترونه قائماً تحت راياتكم، وقال لهم شقيق بن ثور: يا

معشر ربيعة ليس لكم عذر عند العرب إن وصل إلى عليّ وفيكم رجل حيّ، فامنعوه اليوم واصدقوا عدوّكم اللقاء فإنه حمد الحياة تكسبونه فتعاهدت ربيعة وتحالفت بالإيمان العظيمة وتبايع منهم سبعة آلاف على أن لا ينظر رجل خلفه حتّى يردوا سرادق معاوية، فقاتلوا ذلك اليوم قتالاً شديداً لم يكن قبله مثله وأقبلوا نحو سرادق معاوية فلمّا نظر إليهم قد أقبلوا قال:

إذا قلت قد ولت ربيعة أقبلت ... كتائب منها كالجبال تجالد

ثمّ قال لعمرو: يا عمرو ما ترى؟ قال: أرى أن لا تحنث أخو إلى اليوم، فقام معاوية وخلاّ لهم سرادقه ورحله وخرج فارّاً عنه لائذاً ببعض مضارب العسكر في أخريات النّاس، وانتهبت ربيعة سرادقه ورحله وبعث إلى خالد بن المعمر أنّك قد ظفرت ولك أمارة خراسان إن لم تتمّ، فقطع خالد القتال، ولم يتمّه، وقال لربيعة: قد برت إيمانكم فحسبكم؛ فلما كان عام الجماعة وبايع النّاس معاوية أمّره معاوية على خراسان وبعثه إليها فمات قبل أن يبلغها.

قال نصر في حديث عمر بن سعد: إنّ عليّاً صلى بهم يومئذٍ صلاة الغداة ثمّ زحف بهم، فلمّا بصروه قد خرج استقبلوه بزحوفهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثمّ إن خيل أهل الشام حملت على خيل أهل العراق فاقتطعوا من أصحاب عليّ ألف رجل أو أكثر، فأحاطوا بهم وحالوا بينهم وبين أصحابهم فلم يروهم، فنادى عليّ: ألا رجل يشرى نفسه لله ويبيع دنيا بآخرته فأتاه رجل من جعف يقال له عبد العزيز بن الحرث على فرس أدهم كأنّه غراب مقنع في الحديد لا يرى منه إلا عيناه فقال: يا أمير المؤمنين مرني بأمرك فوالله لا تأمرني بشيء إلا صنعته فقال علي عليه السلام:

سمحت بأمر لا يطاق حفيظة ... وصدقا واخوان الوفاء قليل

جزاك اله الناس خيراً فإنه ... لعمرك فضل ما هناك جزيل

أبا الحرث شد الله ركنك إحمل على أهل الشّام حتّى تأتي أصحابك فتقول لهم إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليكم السّلام ويقول لكم هلّلوا وكبروا من ناحيتكم، ونهلل ونكبّر من هٰهنا واحملوا من جانبكم ونحمل من جانبنا على أهل الشّام فضرب الجعفي فرسه حتّى اذا أقامه غلى أطراف سنابكه حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب علي عليه السلام فطاعنهم ساعة وقاتلهم فأفرجوا له حتّى خلص إلى أصحابه.

فلمّا رأوه استبشروا به وفرحوا وقالوا: ما فعل أمير المؤمنين عليه السلام قال صالح يقرئكم السّلام ويقول لكم: هلّلوا وكبّروا واحملوا حملة رجل واحد من جانبكم ونهلل نحن من جانبنا ففعلوا ما أمرهم به وهللوا وكبروا وهلل عليّ وكبّر هو وأصحابه وحمل على أهل الشّام وحملوهم من وسط أهل الشّام فانفرج عنهم وخرجوا وما أصيب منهم رجل واحد، ولقد قتل من فرسان الشّام يومئذٍ زهاء سبعمائة إنسان، وقال علي عليه السلام: من أعظم النّاس اليوم عناء؟

فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين فقال: كلاّ ولكنه الجعفي.

قال نصر: وكان علي عليه السلام لا يعدل بربيعة أحداً من النّاس، فشقّ ذلك على مضر وأظهروا لهم[١] القبيح وأبدوا ذات أنفسهم، فقام أبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني وعمير بن عطارد التميمي وقبيصة بن جابر الأسدي وعبد الله بن الطفيل العامري في وجوه قبائلهم، فأتوا عليّاً فتكلم أبو الطفيل فقال: يا أمير المؤمنين إنا والله ما نحسد قوماً خصّهم الله منك بخير وإنّ هذا الحيّ من ربيعة قد ظنوا أنّهم أولى بك منك فاعفهم عن القتال أيّاماً واجعل لكل امرىء منا يوماً نقاتل فيه فإنا إذا اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا، فقال علي عليه السلام: نعم أعطيكم ما طلبتم، وأمر ربيعة أن تكفّ عن القتال وكانت بإزاء اليمن من صفوف أهل الشّام.

فغدا أبو الطفيل عامر بن وائلة في قومه من كنانة وهم جماعة عظيمة فتقدّم أمام الخيل واقتتلوا قتالاً شديداً ثمّ انصرف إلى عليّ فأثنى عليه السلام عليه خيراً.

ثمّ غدا في اليوم الثّاني عمير بن عطارد بجماعة من بني تميم وهو يومئذٍ سيد مضر الكوفة فقال: يا قوم إنّي أتبع آثار أبي الطفيل فاتبعوا آثار كنانة وقاتل أصحابه قتالاً شديداً حتّى أمسوا وانصرف عمير إلى عليّ عليه السلام وعليه سلاحه.

ثمّ غدا في اليوم الثّالث قبيصة بن جابر الأسدي في بني أسد وقال لأصحابه: يا بني أسد أما أنا فلا أقصر دون صاحبي وأمّا أنتم فذاك اليكم، ثم تقدّم فقاتل القوم إلى أن دخل الليل.

ثمّ غدا في اليوم الرّابع عبد الله بن الطفيل العامري في جماعة هوازن فحارب بهم حتى الليل ثمّ انصرفوا.

قال نصر: كتب عقبة بن مسعود عامل عليّ عليه السلام على الكوفة إلى سليمان بن صرد الخزاعي وهو مع علي: أمّا بعد فإنّهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً، فعليكم بالجهاد والصّبر مع أمير المؤمنين والسّلام.

قال: وحدّثنا عمر بن سعد وعمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قام علي عليه السلام فخطب النّاس بصفين فقال:

الحمد لله على نعمه الفاضلة على جميع من خلق من البرّ والفاجر، وعلى حججه البالغة على خلقه من أطاعه فيهم ومن عصاه، إن يرحم فبفضله ومنه، وإن عذب فبما كسبت أيديهم وإنّ الله ليس بظلام للعبيد، أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء، وأستعينه على ما نابنا من أمر الدّنيا والآخرة، وأتوكل عليه وكفى بالله وكيلاً.

(١) في نسخة: له.

ثمّ إنّي أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحقّ وارتضاه لذلك، وكان أهله واصطفاه لتبليغ رسالته وجعله رحمة منه على خلقه، فكان لعلمه منه[١] رؤوفاً رحيماً وأفضلهم علماً وأثقلهم حلماً وأوفاهم بعهد وآمنهم على عقد، لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بمظلمة قط، بل كان يظلم فيغفر ويقدر فيصفح حتّى مضى مطيعاً لله صابراً على ما أصابه مجاهداً في الله حق جهاده حتّى أتاه اليقين، فكان ذهابه أعظم المصيبة على أهل الأرض البرّ والفاجر.

ثمّ ترك فيكم كتاب الله يأمركم بطاعة الله وينهاكم عن معصيته، وقد عهد إليّ رسول الله ﷺ عهداً فلست أحيد عنه وقد حضرتم عدوّكم وعلمتم أن رئيسهم منافق ابن منافق يدعوهم إلى النّار، وابن عمّ نبيّكم معكم وبين أظهركم ويدعوكم إلى الجنّة وإلى طاعة ربّكم والعمل بسنّة نبيكم، ولا سوى من صلّى قبل كلّ ذكر لا يسبقني بصلاة مع رسول الله أحد وأنا من أهل بدر ومعاوية طليق ابن طليق، والله إنّا على الحقّ وإنّهم على الباطل فلا تجتمعن عليه وتتفرّقوا عن حقّكم حتّى يغلب باطلهم على حقّكم، قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم، فإن لم تفعلوا يعذّبهم بأيدي غيركم.

فقام أصحابه فقالوا: يا أمير المؤمنين انهض بنا إلى عدوّنا وعدوّك إذا شئت فوالله لا نريد بك بدلاً بل نموت معك ونحيا معك

فقال لهم: والذي نفسي بيده لنظر إليّ النّبي أضرب بين يديه بسيفي هذا فقال: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ، فقال لي: يا عليّ أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي وموتك وحياتك يا عليّ معي، والله ما كذب ولا كذبت ولا ضللت ولا نسيت ما عهد إليّ وإنّي على بيّنة من ربّي وعلى الطريق الواضح ألفظه لفظاً[٢]، ثمّ نهض إلى القوم فاقتتلوا من حين طلعت الشّمس حتّى غاب الشّفق الأحمر وما كانت صلاة القوم في ذلك اليوم إلاّ تكبيراً.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر عن جابر عن الشّعبي عن صعصعة بن صوحان قال: برز في أيّام صفّين رجل اشتهر بالبأس والنّجدة اسمه كريث بن الوضاح، فنادى من يبارز، فخرج إليه المرتفع بن وضاح الزّبيدي فقتله، ثمّ نادى من يبارز فخرج إليه الحارث بن الحلاّج فقتله، ثمّ نادى من يبارز فخرج إليه عائذ بن مسروق الهمداني فقتله، ثمّ رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض ونادى من يبارز.

---

(١) في نسخة: كعلمه فيه.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/٤٨٧، ونهج السعادة: ٢/٢٢١.

فخرج إليه عليّ عليه السلام وناداه: ويحك يا كريث إنّي احذرك الله وبأسه ونقمته وأدعوك إلى سنّة الله وسنّة رسوله ويحك لا يدخلنك معاوية النّار، فكان جوابه أن قال: أكثر ما قد سمعت منك هذه المقالة ولا حاجة لنا فيها، أقدم إذا شئت من يشتري سيفي وهذا أثره فقال عليّ عليه السلام: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، ثمّ مشى إليه فلم يمهله أن ضربه ضربة خرّ منها قتيلاً يشحط في دمه.

ثمّ نادى من يبرز فبرز إليه الحرث بن وداعة[1] الحميري فقتله، ثمّ نادى من يبرز فبرز إليه المطاع بن المطلب القيني فقتل مطاعاً، ثمّ نادى من يبرز فلم يبرز إليه أحد فنادى ﴿**الشّهر الحرام بالشّهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتّقين**﴾ [البقرة: ١٩٤].

يا معاوية هلم إليّ فبارزني ولا يقتلن النّاس فيما بيننا، فقال عمرو بن العاص: اغتنمه متهزاً قد قتل ثلاثة أبطال العرب وإنّي أطمع أن يظفرك الله به، فقال معاوية: والله لن تريد إلاّ أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي إذهب إليه فليس مثلي يخدع.

قال نصر: وخطب عبد الله بن العبّاس يومئذٍ فقال:

الحمد لله ربّ العالمين الذي دحى تحتنا سبعاً وسمك فوقنا سبعاً وخلق فيما بينهن خلقاً وأنزل لنا منهنّ رزقاً، جعل كلّ شيء يبلى ويفنى غير وجهه الحيّ القيوم الذي يحيي ويبقى، إنّ الله تعالى بعث أنبياءً ورسلاً فجعلهم حججاً على عباده عذراً ونذراً لا يطاع إلاّ بعلمه وإذنه بالطاعة على من يشاء من عباده، ثمّ يثيب عليها ويعصى فيعفو ويغفر بحلمه لا يقدر قدره ولا يبلغ شيء مكانه، أحصى كلّ شيء عدداً وأحاط بكل شيء علماً.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله إمام الهدى والنبيّ المصطفى، وقد ساقنا قدر الله إلى ما ترون حتّى كان ممّا اضطرب من جعل هذه الأمة وانتشر من امرها أنّ معاوية بن أبي سفيان وجد من طغام النّاس أعواناً على ابن عمّ رسول الله وصهره وأوّل ذكر صلى معه، بدري قد شهد مع رسول الله كلّ مشاهده التي فيها الفضل ومعاوية مشرك يعبد الأصنام.

والذي ملك الملك وحده وبان به لقد قاتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله وهو يقول: صدق الله ورسوله ومعاوية يقول كذب الله ورسوله، فعليكم بتقوى الله والجدّ والحزم والصّبر والله إنّكم لعلى حقّ، وإنّ القوم لعلى باطل، فلا يكوننّ أولى بالجدّ على باطلهم منكم في حقّكم، وإنّا لنعلم أنّ الله سيعذّبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم، اللهمّ أعنّا ولا تخذلنا

(١) في نسخة: الحارث بن وادعة.

وانصرنا على عدوّنا ولا تحل عنّا، وافتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين.

قال نصر: وحدّثنا عمرو عن عبد الرّحمٰن بن جندب عن جندب بن عبد الله قال: قام عمّار يوم صفّين فقال:

انهضوا معي عباد الله إلى قوم يزعمون أنّهم يطلبون بدم الظالم لنفسه الحاكم على عباد الله بغير ما في كتاب الله إنّما قتله الصّالحون المنكرون للعدوان الآمرون بالعدل والإحسان، فقالوا هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم لو درس هذا الدّين: لم قتلتموه؟ فقلنا: لإحداثه، فقالوا: إنّه لم يحدث شيئاً وذلك لأنّه مكنهم من الدّنيا فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو انهدمت الجبال، والله ما أظنّهم يطلبون بدم إنّهم ليعلمون أنّه لظالم ولكنّ القوم وافوا للدّنيا فاستحبّوها واستمروها وعلموا أنّ صاحب الحقّ لو ولاهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون منها.

إنّ القوم لم تكن لهم سابقة في الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً، تلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون، ولولاها ما بايعهم من النّاس رجل اللّهم إن تنصرنا فطال ما نصرت وإن تجعل لهم الأَمر فادّخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم.

ثمّ مضى ومضى معه أصحابه، فدنا من عمرو بن العاص فقال: يا عمرو بعت دينك بمصر فتباً لك فطال ما بغيت للإسلام عوجاً، ثمّ نادى عبيد الله بن عمرو ذلك قبل مقتله وقال: يا ابن عمر صرعك الله بعت دينك بالدّنيا من عدو الله وعدوّ الإسلام، قال: كلا ولكنّي أطلب بدم عثمان الشّهيد المظلوم، قال: كلاّ أشهد على علمي فيك أنك أصبحت لا تطلب في شيء من فعلك وجه الله، وأنّك إن لم تقتل اليوم فستموت فانظر إذا أعطى الله على نيّاتهم ما نيّتك ثمّ قال:

اللهمّ إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك في أن أقذف بنفسي هذا البحر لفعلت اللهمّ إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك أن أضع ظبية سيفي في بطني ثمّ أنحني عليه حتّى يخرج من ظهري لفعلت، اللهمّ إنّي أعلم ممّا علمتني أنّي لا أعمل عملاً اليوم هذا هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك منه لفعلت.

وفي «البحار» روى نصر عن عمر بن سعد عن مالك بن أعين عن زيد الجهني أنّ عمّار بن ياسر نادى يومئذٍ: أين من يبغي رضوان ربّه ولا يؤب إلى مال ولا ولد؟ قال: فأتته عصابة من النّاس فقال: يا أيّها النّاس اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبغون دم عثمان ويزعمون أنّه قتل مظلوماً، والله إن كان إلاّ ظالماً لنفسه الحاكم بغير ما أنزل الله.

فدفع عليّ عليه السلام الرّاية إلى هاشم بن عتبة وكان عليه درعان فقال له عليّ كهيئة المازح:

أبا هاشم أما تخشى على نفسك أن تكون أعوراً جباناً؟ قال: ستعلم يا أمير المؤمنين والله لألفنّ بين جماجم القوم لف رجل ينوي الآخرة، فأخذ رمحاً فهزّه فانكسر، ثمّ أخذ آخر فوجده جاسياً فألقاه، ثمّ دعا برمح ليّن فشدّ به لوائه.

ولمّا دفع عليّ عليه السلام الرّاية إلى هاشم قال له رجل من بكر بن وائل من أصحاب هاشم: أقدم مالك يا هاشم قد انتفخ سحرك عوراً وجبناً، قال: من هذا؟ قالوا: فلان قال: أهلها وخير منها إذا رأيتني صرعت فخذها ثمّ قال لأصحابه شدوا شسوع نعالكم وشدّوا إزركم فإذا رأيتموني قد هززت الرّاية ثلاثاً فاعلموا أنّ أحداً منكم لا يسبقني إلى الحملة.

ثمّ نظر هاشم إلى عسكر معاوية فرأى جمعاً عظيماً، فقال: من أولئك؟ قالوا: أصحاب ذي الكلاع ثمّ نظر فرأى جنداً آخر فقال: من أولئك؟ قالوا: جند أهل المدينة قريش، قال: قومي لا حاجة لي في قتالهم، قال: من عند هذه القبّة البيضاء؟ قيل: معاوية وجنده، فحمل حينئذٍ يرقل[1] ارقالاً.

وعن عبد العزيز بن سيّاح عن حبيب بن أبي ثابت قال: لمّا كان قتال صفّين والرّاية مع هاشم بن عتبة جعل عمّار بن ياسر يتناوله بالرّمح ويقول: أقدم يا أعور لا خير في أعور لا يأتي الفزع قال: فجعل يستحيي من عمّار وكان عالماً بالحرب فيتقدّم فيركز الرّاية فإذا سامت إليه الصّفوف قال عمّار: أقدم يا أعور لا خير في أعور لا يأتي الفزع فجعل عمرو بن العاص يقول: إنّي لأرى لصاحب الرّاية السّوداء عملاً لئن دام ليفنينّ العرب اليوم، فاقتتلوا قتالاً شديداً وجعل عمّار يقول صبراً عباد الله، الجنّة في ظلال البيض.

قال: وكانت علامة أهل العراق بصفين الصّوف الأبيض قد جعلوه في رؤوسهم وعلى أكتافهم، وشعارهم يا الله يا أحد يا صمد يا رحيم، وكانت علامة أهل الشّام خرقاً بيضاً قد جعلوه على رؤوسهم وأكتافهم، وكان شعارهم نحن عباد الله حقّاً يا لثارات عثمان.

قال: فاجتلدوا بالسّيوف وعمد الحديد، فما تحاجزنا حتّى حجز بيننا سواد الليل ولا يرى رجل منّا ولا منهم مولياً، فلمّا أصبحوا وذلك يوم الثلاثاء خرج النّاس إلى مصافهم.

فقال أبو نوح، فكنت في خيل عليّ عليه السلام فإذا أنا برجل من أهل الشّام يقول: من يدلني على الحميري أبو نوح، قال: قلت فقد وجدته فمن أنت؟ قال: أنا ذو الكلاع سر إليّ، فقال أبو نوح: معاذ الله أن أسير إليك إلاّ في كتيبة، قال ذو الكلاع: سر فلك ذمّة الله وذمّة رسوله وذمّة ذي الكلاع حتّى ترجع إلى خيلك فإنّما أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه.

فسار حتّى التقيا، فقال ذو الكلاع إنّما دعوتك أحدثك حديثاً حدّثنا عمرو بن العاص في

---

(١) يرقل أرقالاً: يسرع.

أمارة عمر بن الخطاب قال أبو نوح: وما هو؟ قال: حدّثنا عمرو بن العاص أنّ رسول الله ﷺ قال: يلتقي أهل الشّام وأهل العراق وفي إحدى الكتيبتين الحقّ وإمام الهدى ومعه عمّار بن ياسر[1]، قال أبو نوح: لعمر الله إنّه لفينا، قال: أجادّ هو على قتالنا؟ قال أبو نوح: نعم وربّ الكعبة فهو أشدّ على قتالكم منّي.

فقال ذو الكلاع: هل تستطيع أن تأتي معي صف أهل الشّام فأنا لك جار منهم حتّى تلقى عمرو بن العاص فتخبره عن عمّار وعن جدّه في قتالنا لعله يكون صلحاً بين هذين الجندين، فقال له أبو نوح إنّك رجل غادر وأنت في قوم غدر وإن لم تكن تريد الغدر أغدروك وإنّي إن أموت أحب إليّ أن أدخل مع معاوية وأدخل في دينه وأمره.

فقال ذو الكلاع: أنا جار لك من ذلك أن لا تقتل ولا تسلب ولا تكره على بيعة ولا تحبس عن جندك، وإنّما هي كلمة تبلغها عمراً لعلّ الله يصلح بين هذين الجندين ويضع عنهم الحرب والسّلاح، فسار معه حتّى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية وحوله النّاس وعبيد الله بن عمر يحرض النّاس.

فلما وقفا على القوم قال ذو الكلاع لعمرو: يا أبا عبد الله هل لك في رجل ناصح لبيب شفيق يخبرك عن عمّار بن ياسر ولا يكذبك؟ قال عمرو: ومن هذا معك؟ قال: هذا ابن عمّي وهو من أهل الكوفة، فقال له عمرو: إنّي لأرى عليك سيماء أبى تراب قال: سيماء محمّد ﷺ وأصحابه، وعليك سيماء أبي جهل وهو سيماء فرعون.

فقام أبو الأعور فسلّ سيفه ثمّ قال: أرى هذا الكذاب يشاتمنا بين أظهرنا وعليه سيماء أبي تراب، فقال ذو الكلاع: اقسم بالله لئن بسطت يدك إليه لأحطمنّ أنفك بالسّيف ابن عمي وجاري عقدت له ذمّتي وجئت به إليكم ليخبركم عمّا تماريتم فيه.

فقال له عمرو: أذكرك بالله يا أبا نوح إلاّ ما صدقت أفيكم عمّار بن ياسر؟ فقال له أبو نوح: ما أنا بمخبرك عنه حتّى تخبرني لم تسأل عنه فإنّ معنا من أصحاب رسول الله غيره وكلهم جادّ على قتالكم.

قال عمرو: سمعت رسول الله يقول: إنّ عمّاراً تقتله الفئة الباغية، وإنّه ليس ينبغي لعمّار أن يفارق الحقّ ولن تأكل النّار منه شيئاً، فقال أبو نوح: لا إله إلاّ الله والله أكبر إنّه لفينا جادّ على قتالكم.

فقال عمرو: والله إنّه لجاد على قتالنا؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلاّ هو لقد حدّثني يوم الجمل إنا سنظهر عليهم ولقد حدّثني أمس أن لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٢٧، ومواقف الشيعة: ٢/٤٩.

لعلمنا أنا على الحق وأنّهم على باطل، ولكانت قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النّار فقال له عمرو: هل تستطيع أن تجمع بيني وبينه؟ قال: نعم.

فلمّا أراد أن يبلغه أصحابه ركب عمرو بن العاص وابناه وعتبة بن أبي سفيان وذو الكلاع وأبو الأعور السلمي وحوشب والوليد بن أبي معيط فانطلقوا حتّى أتوا خيولهم وسار أبو نوح ومعه شرجيل بن ذي الكلاع حتّى انتهى إلى أصحابه فذهب أبو نوح إلى عمّار فوجده قاعداً مع أصحابه مع ابني بديل والهاشم والأشتر وجارية بن المثنّى وخالد بن المعتمر وعبد الله بن حجل وعبد الله بن العبّاس.

فقال أبو نوح: إنّه دعاني ذو الكلاع وهو ذو رحم فذكر ما جرى بينه وبينهم وقال: أخبرني عمرو بن العاص أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: عمّار تقتله الفئة الباغية، فقال عمّار: صدق وليضرّ به ما سمع ولا ينفعه، فقال أبو نوح: إنّه يريد أن يلقاك فقال عمّار لأصحابه: اركبوا.

قال: ونحن اثنا عشر رجلاً بعمار فسرنا حتّى لقيناهم ثمّ بعثنا إليهم فارساً من عبد القيس يسمّى عوف بن بشر، فذهب حتّى كان قريباً من القوم، ثمّ نادى أين عمرو بن العاص؟ قالوا: هٰهنا فأخبرهم بمكان عمّار وخيله، فقال عمرو: فليسر إلينا فقال له عوف: إني أخاف غدرانك، ثمّ جرى بينهما كلمات تركتها إلى أن قال:

أقبل عمّار مع أصحابه وعمرو مع أصحابه فتوافقا فقال عمرو: يا أبا اليقظان أذكرك الله إلاّ كففت سلاح أهل هذا العسكر وحقنت دمائهم فعلام تقاتلنا؟ أولسنا نعبد إلهاً واحداً ونصلّي قبلتكم وندعو دعوتكم ونقرأ كتابكم ونؤمن برسولكم؟

فقال عمار: الحمد لله الذي أخرجها من فيك، إنّها لي ولأصحابي القبلة والدّين وعبادة الرّحمٰن والنّبي والكتاب من دونك ودون أصحابك وجعلك ضالاً مضلاً ولا تعلم هاد أنت أم ضال، وجعلك أعمى وسأخبرك على ما قاتلتك عليه أنت وأصحابك أمرني رسول الله ﷺ أن أقاتل النّاكثين ففعلت، وأمرني أن أقاتل القاسطين فأنتم هم وأما المارقون فما أرى أدركهم أم لا.

أيّها الأبتر تعلم أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنا مولى الله ورسوله وعلي بعده وليس لك مولى.

فقال له عمرو: فما ترى في قتل عثمان؟ قال: فتح لكم باب سوء، قال عمرو: فعليّ قتله؟ قال عمّار: بل الله ربّ عليّ قتله وعلي معه، قال عمرو: أكنت فيمن قتله؟ قال: أنا مع من قتله وأنا اليوم أقاتل معه، قال: فلم قتلتموه؟ قال: أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه، قال عمرو: ألا تسمعون قد اعترف بقتل إمامكم قال عمّار: وقد قالها فرعون قبلك: ألا تسمعون.

فقام أهل الشّام ولهم زجل فركبوا خيولهم ورجعوا فبلغ معاوية ما كان بينهم فقال له: هلكت العرب إن أخذتهم خفّة العبد الأسود يعني عماراً، وخرج إلى القتال وصفت الخيول بعضها لبعض وزحف النّاس، وعلى عمّار درع وهو يقول: أيّها النّاس الرّواح إلى الجنّة، فاقتتل الناس قتالاً شديداً لم يسمع النّاس بمثله، وكثرت القتلى حتّى أن كان الرّجل ليشدّ طنب فسطاطه بيد الرّجل أو برجله.

فقال الأشعث: لقد رأيت أخبية صفّين وأروقتهم وما منها خباء ولا رواق ولا بناء ولا فسطاط إلاّ مربوطاً بيد رجل أو رجله وجعل أبو سماك الأسدي يأخذ أداوة من ماء وشفرة حديد فيطوف في القتلى فإذا رأى رجلاً جريحاً وبه رمق قام وسأل أمير المؤمنين عليه السلام فإن قال: عليّ غسل عنه الدّم وسقاه من الماء وإن سكت وجّاه بسكين حتّى يموت، قال: فكان يسمّى المخضخض.

وعن عمرو بن شمر عن جابر عن الشّعبي عن الأحنف بن قيس قال: والله إني إلى جانب عمّار فتقدّمنا حتّى إذا دنونا من هاشم بن عتبة قال له عمار: احمل فداك أبي وأمّي ونظر عمّار إلى رقة في الميمنة فقال له هاشم، رحمك الله يا عمار إنّك رجل تأخذك خفة في الحرب وإنّي إنّما أزحف باللواء زحفاً وأرجو أن أنال بذلك حاجتي، وإنّي إن خففت لم آمن الهلكة.

وقد قال معاوية لعمرو: ويحك يا عمرو إنّ اللواء مع هاشم كأنّه يرقل به إرقالاً وإنّه إن زحف به زحفا إنّه ليوم أطول لأهل الشّام، فلم يزل به عمّار حتّى حمل فبصر به معاوية فوجه إليه جملة أصحابه ومن برز بالنّاس منهم في ناحية وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو ومعه سيفان قد تقلد بواحد وهو يضرب بالآخر وأطاقت به خيل علي عليه السلام فقال عمرو: يا الله يا رحمن ابني ابني، وكان يقول معاوية: اصبر اصبر فإنّه لا بأس عليه قال عمرو: لو كان يزيد إذاً لصبرت.

ولم يزل حماة أهل الشّام يذبون عنه حتّى نجا هارباً على فرسه وأصيب هاشم في المعركة، قال: وقال عمار حين نظر إلى راية عمرو بن العاص: إنّ هذه الرّاية قد قاتلتها ثلاث عركات[1] وما هي بأرشدهنّ ثمّ حمل وهو يقول:

نحن ضربناكم على تنزيله ... فاليوم نضربكم على تأويله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله ... يا ربّ إنّي مؤمن بقيله

(١) عركات: أي مرات.

ثمّ استسقى واشتدّ ظماؤه، فأتته امرأة طويلة اليدين ما أدري أعس معها أم أداوة فيها ضياح[١] من لبن وقال الجنّة تحت الأسنة اليوم ألقى الأحبّة محمّد ﷺ وحزبه، والله لو أن لبونا حتّى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنّا على الحقّ وأنّهم على الباطل.

وحمل عليه ابن جوين السّكسكي وأبو العادية النزاري، فأما أبو العادية فطعنه وأمّا ابن جوين فاجتز رأسه عليهما لعنة الله.

فقال ذو الكلاع لعمرو: ويحك ما هذا؟ قال عمرو: إنّه سيرجع إلينا وذلك قبل أن يصاب عمّار، فأصيب عمّار مع عليّ وأصيب ذو الكلاع مع معاوية فقال عمرو: والله يا معاوية ما أدري بقتل أيّهما أنّا أشدّ فرحاً، والله لو بقي ذو الكلاع حتّى يقتل عمّار لمال بعامة قومه ولأفسد علينا جندنا.

قال: فكان لا يزال رجل يجيء فيقول: أنا قتلت عمّاراً فيقول عمرو فما سمعتموه يقول فيخلطون حتّى أقبل ابن جوين فقال: أنا قتلت عماراً فقال له عمرو: فما كان أخر منطقه؟ قال: سمعته يقول: اليوم القى الأحبة محمّداً وحزبه، قال عمرو: صدقت أنت أما والله ما ظفرت بذلك ولكن أسخطت ربك.

وفي **«الاحتجاج»** روى عن الصادق عليه السلام أنّه لمّا قتل عمار ارتعدت فرائص خلق كثير وقالوا: قد قال رسول الله ﷺ: عمار تقتله الفئة الباغية، فدخل عمرو بن العاص على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين قد هاج النّاس واضطربوا، قال: لماذا؟ قال: قتل عمار، قال: فماذا؟ قال: أليس قال رسول الله ﷺ: تقتله الفئة الباغية؟ فقال له معاوية. دحضت في قولك أنحن قتلناه إنّما قتله علي بن أبي طالب لما ألقاه بين رماحنا، فاتّصل ذلك بعلي بن أبي طالب، فقال: فإذاً رسول الله ﷺ هو الذي قتل حمزة وألقاه بين رماح المشركين[٢].

وفي **«البحار»** من كتاب الكشّي بإسناده عن إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت قيس بن أبي حازم قال: قال عمّار بن ياسر: ادفنوني في ثيابي فإنّي مخاصم.

ومن **«كشف الغمة»** قال: ونقلت من **«مناقب الخوارزمي»** قال: شهد خزيمة بن ثابت الأنصاري الجمل وهو لا يسلّ سيفاً وشهد صفّين وقال: لا أصلي أبداً خلف إمام حتّى يقتل عمار فأنظر من يقتله فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية، فلمّا قتل عمار قال خزيمة: قد حانت لي الصّلاة ثمّ اقترب وقاتل حتّى قتل.

وكان الذي قتل عمار أبو عادية المرّي طعنه برمح فسقط وكان يومئذٍ يقاتل وهو ابن أربع

---

(١) هو بالفتح كالضيح اللبن الممزوج بالماء.

(٢) معاني الأخبار: ٣٥، وعوالي اللئالي: ١/ ٤١٣.

وتسعين سنة، فلمّا وقع أكبّ عليه رجل فاجتز رأسه فأقبلا يختصمان كلاهما يقول أنا قتلته.

فقال عمرو بن العاص: والله إن يختصمان إلاّ في النّار، فسمعها معاوية فقال لعمرو، ما رأيت مثل ما صنعت قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما: إنكما تختصمان في النّار، فقال عمرو: هو والله ذلك وأنّك لتعلمه ولوددت أنّي مت قبل هذا بعشرين سنة.

وبالإسناد عن أبي سعيد الخدري قال: كنّا نعمّر مسجد رسول الله ﷺ وكنّا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فجعل ينفض التراب عن رأس عمار ويقول: يا عمار ألا تحمل كما يحمل أصحابك؟ قال: إني أريد الأجر من الله تعالى، قال: فجعل ينفض التّراب عنه ويقول: ويحك تقتلك الفئة الباغية تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النّار، قال عمار: أعوذ بالرّحمٰن أظنه قال من الفتن.

ومن كتاب «**الكفاية**» عن أبي المفضل الشيباني في حديث طويل مسنداً عن النبي ﷺ قال: يا عمّار ستكون بعدي فتنة فإذا كان ذلك فاتّبع عليّاً وحزبه فإنّه مع الحقّ والحقّ معه، يا عمار إنّك ستقاتل بعدي مع عليّ صنفين: النّاكثين والقاسطين، ثمّ تقتلك الفئة الباغية، قلت: يا رسول الله أليس ذلك على رضا الله ورضاك؟ قال: نعم، على رضا الله ورضاي ويكون آخر ذلك «زادك» شربة من لبن تشربه.

فلما كان يوم صفين خرج عمار بن ياسر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أخا رسول الله أتأذن لي في القتال؟ قال: مهلاً رحمك الله، فلمّا كان بعد ساعة أعاد عليه الكلام فأجابه بمثله، فأعاده ثالثاً فبكى أمير المؤمنين عليه السلام فنظر إليه عمّار فقال: يا أمير المؤمنين إنّه اليوم الذي وصف لي رسول الله.

فنزل أمير المؤمنين عليه السلام عن بغلته وعانق عماراً وودعه ثمّ قال: يا أبا اليقظان جزاك الله عن الله وعن نبيك خيراً فنعم الأخ كنت ونعم الصّاحب كنت ثم قال: والله يا أمير المؤمنين ما تبعتك إلاّ ببصيرة فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا عمار ستكون بعدي فتنة فإذا كان ذلك فاتبع عليّاً وحزبه فإنّه مع الحقّ والحق معه، وستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين، فجزاك الله يا أمير المؤمنين عن الإسلام أفضل الجزاء، فلقد أديت وبلغت ونصحت[1].

ثمّ ركب وركب أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ برز إلى القتال ثمّ دعا بشربة من ماء فقيل ما معنا ماء فقام إليه رجل من الأنصار فأسقاه شربة من لبن، ثمّ قال: هكذا عهد إليّ رسول الله أن يكون آخر زادي من الدّنيا شربة من اللبن.

ثمّ حمل على القوم فقتل ثمانية عشر نفساً فخرج إليه رجلان من أهل الشّام فطعنا فقتل رحمه الله، فلما كان الليل طاف أمير المؤمنين عليه السلام في القتلى فوجد عماراً ملقى، فجعل رأسه

(١) بحار الأنوار: ٣٣/١٩.

على فخذه ثمّ بكى عليه السلام وأنشأ يقول:

أيا موت كم هذا التفرق عنوة فلست تبقى لي خليل خليل
أراك بصيراً بالذين أحبّهم كأنك تمضي نحوهم بدليل

قال المجلسي: في الديوان هكذا:

ألا أيّها الموت الذي ليس تاركي أرحني فقد أفنيت كلّ خليل
أراك بصيراً بالذين أحبّهم كأنك تنحو نحوهم بدليل

قال نصر بن مزاحم: لما حدّث عمرو بن العاص في عمار ما قاله النبيّ صلى الله عليه وآله خرج عبد الله عمر العبسي وكان من عباد أهل زمانه ليلاً فأصبح في عسكر علي عليه السلام فحدث النّاس بقول عمرو في عمار فلما سمع معاوية هذا القول بعث إلى عمرو وقال: أفسدت على أهل الشام، أكل ما سمعته من رسول الله تقوله؟ فقال عمرو: قلتها ولست والله أعلم الغيب ولا أدري أنّ في صفين يكون عمار خصمنا، وقد رويت أنت فيه مثل الذي رويت فاسأل أهل الشّام فغضب معاوية وتنمّر لعمرو ومنعه وخيره، وقال عمرو: لا خير لي في جوار معاوية إن تجلت هذه الحرب عنّا وكان عمرو حمى الأنف فقال في ذلك:

تعاتبني إن قلت شيئاً سمعته وقد قلت لو انصفتني مثله قبلي
وما كان لي علم بصفين انها تكون وعمار يحث على قتلي
فلو كان لي بالغيب علم كتمتها وكايدت أقواماً مراجلهم تغلي

إلى آخر الأبيات، ثمّ أجابه معاوية بأبيات تشتمل على الاعتذار؛ فأتاه عمرو وأعتبه وصار أمرهما واحداً ثمّ إنّ علياً دعا هاشم بن عتبة ومعه لواؤه، وكان أعور، وقال: حتّى متى تأكل الخبز وتشرب الماء، فقال هاشم: لا يجهزنّ أن لا أرجع إليك أبداً.

قال نصر عن عمر بن سعد عن رجل عن أبي سلمة أنّ هاشم دعا في الناس عند المساء ألا من كان يريد الله والدّار والأخرة فليقبل فأقبل إليه ناس فشدّ في عصابة من أصحابه على أهل الشّام مراراً، فليس من وجه يحمل عليه إلاّ صبروا له وقوتل فيه قتالاً شديداً، فقال لأصحابه:

لايهولنّكم ما ترون من صبرهم فوالله ما ترون منهم إلا حميّة العرب وصبرها عند راياتها وعند مراكزها، وإنهم لعلى الضّلال وإنّكم لعلى الحقّ، يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا وامشوا بنا إلى عدوّنا على تؤئدة[1] رويداً واذكروا الله ولا يسلمنّ رجل أخاه ولا تكثروا

(١) التوئدة: التأني.

الإلتفات واصمدوا صمدهم وجالدوهم محتسبين حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فقال أبو سلمة فمضى في عصابة من القراء فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه حتى رأى بعض ما يسرون به إذ خرج عليهم فتى شاب وشدّ يضرب بسيفه ويلعن ويشتم ويكثر الكلام.

فقال له هاشم: إنّ هذا الكلام بعده الخصام وإن هذا القتال بعده الحساب فاتق الله فإنك راجع إلى ربّك فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به.

قال: فإنّي أقاتلكم لأنّ صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي وإنكم لا تصلون، وأقاتلكم لأنّ صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم وازرتموه على قتله.

فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان إنّما قتله أصحاب محمّد حين أحدث أحداثاً وخالف حكم الكتاب وأصحاب محمّد هم أصحاب الدين وأولى بالنظر في أمور المسلمين وما أظن أن أمر هذه ولا أمر هذا الدين عناك طرفة عين قط.

فقال الفتى: أجل والله لا أكذب فإنّ الكذب يضر ولا ينفع ويشين ولا يزين.

فقال له هاشم: إنّ هذا الأمر لا علم لك به فخله وأهل العلم، به قال: أظنك والله قد نصحتني، فقال هاشم: وأما قولك إنّ صاحبنا لا يصلي فهو أوّل من صلى لله مع رسول الله، وافقه في دين وأولى برسول الله، وأما من ترى معه فكلهم قاريء الكتاب لا ينام الليل تهجداً فلا يغررك عن دينك الأشقياء المغرورون.

قال الفتى: يا عبد الله إني لأظنك أمرء صالحاً أخبرني هل تجد لي من توبة؟ قال: نعم تب إلى الله يتب عليك، قال: فذهب الفتى راجعاً، فقال رجل من أهل الشام: خدعك العراقي، قال: ولكن نصحني.

وقاتل هاشم هو وأصحابه قتالاً شديداً حتّى قتل تسعة نفراً وعشرة، وحمل عليه الحرث ابن المنذر فطعنه فسقط، وبعث إليه عليّ أن قدّم لواءك، فقال للرسول أنظر إلى بطني فإذا هو قد انشقّ فأخذ الرّاية رجل من بكر بن وائل، ورفع هاشم رأسه فإذا هو بعبيد الله بن عمر بن الخطاب قتيلاً إلى جانبه فجثا حتّى دنى منه فعض على ثديه حتى تبينت أنيابه ثمّ مات هاشم وهو على صدر عبيد الله.

وضرب البكري فوقع فأبصر عبيد الله فعض على ثديه الآخر ومات أيضاً، فوجدا جميعاً ماتا على صدر عبيد الله، ولمّا قتل هاشم جزع النّاس عليه جزعاً شديداً وأصيب معه عصابة من أسلم من القرّاء، فمرّ عليهم عليّ عليه السلام وهم قتلى حوله فقال عليه السلام:

جزى الله خيراً عصبة أسلمية	صباح الوجوه صرعوا حول هاشم
يزيد وعبد الله بشر ومعبد	وسفيان وابنا هاشم ذي المكارم

وعروة لا يبعد ثناه وذكره إذا اخترط البيض الخفاف الصوارم[١]

ثمّ أخذ الرّاية عبد الله بن هاشم، قال نصر: حدّثنا عمرو بن شمر قال: لمّا انقضى أمر صفين وسلم الأمر الحسن إلى معاوية وفدت إليه الوفود وأشخص عبد الله بن هاشم أسيراً فأتى به معاوية، فلما دخل عليه وعنده عمرو بن العاص قال: يا أمير المؤمنين هذا المحتال بن المرقال فدونك الضب اللاحظ فإنّ العصيا من العصية وإنّما تلد الحيّة حيّة وجزاء السّيئة سيئة مثلها.

فقال له ابن هاشم: ما أنا بأوّل رجل خذله قومه وأدركه يومه، قال معاوية: تلك ضغائن صفين وما جنى عليك أبوك، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين أمكني منه فأشخب أوداجه على أثباجه[٢].

فقال له ابن هاشم: أفلا كانت هذه الشّجاعة منك يا ابن العاص أيّام صفين حين ندعوك إلى النزال وقد ابتلت أقدام الرّجال من نقع الجربال[٣] وقد تضايقت بك المسالك وأشرفت فيها على المهالك، وأيم الله لولا مكانك منه لنشبت لك مني خافية أرميك من خلالها أحد من وقع الأثافي[٤] فإنّك لا تزال تكثر في دهشك وتخبط في مرسك[٥] تخبط العشواء في الليلة الحندس الظلماء.

فأعجب معاوية ما سمع من كلام ابن هاشم فأمر به إلى السّجن وكفّ عن قتله هذا، ويأتي طرف آخر من بقية الوقعة في شرح بعض الكلمات الآتية إن ساعدنا التوفيق والمجال إن شاء الله.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٣٧، والدرجات الرفيعة: ٣٨١.
(٢) الثبج: ما بين الكاهل إلى الظهر.
(٣) الجربال: صبغ أحمر وحمرة الذهب.
(٤) الأثافي: لعل المراد بها هنا السنة التي تكون بها.
(٥) مرسك: المرسة: الحبل والجمع: المرس.

الترجمة

از جمله کلام آن حضرت است که می فرمود به اصحاب خود در بعض روزهای جنگ صفین:

ای جماعت مسلمان شعار خود گردانید خوف و خشیت کردگار را و پوشش اخذ نمایید به جهت خود تمکین و وقار را و بنهید دندان ها را بر دندان ها که به درستی این برمی گرداند شمشیرها را از کاسه سر و کامل نمایید زره را به سایر آلت های جنگ و حرکت بدهید شمشیرها را در غلاف ها پیش از کشیدن آن ها و بنگرید به گوشه چشم تنگ خشمناك و بزنید نیزه را به چپ و راست و دفع کنید دشمن را به اطراف شمشیرها و برسانید شمشیرها را به دشمن با قدم ها و بدانید که شما منظور نظر کردگارید و در خدمت پسرعم پیغمبر مختار می باشید.

پس مکرّراً رجوع کنید برطرف اشرار و حیا نماییدازگریز و فرار که فرار موجب عار است در اولاد و اعقاب و باعث آتش است در روز حساب و پاکیزه بشوید از حیثیت نفس در حالتی که تجاوزکننده باشید از نفس های زایله و فانیه خودتان و بروید به سوی مرگ، رفتن سهل و آسان. لازم کنید بر خود حمله آوردن بر سواد اعظم اهل عناد و بر چادر طناب دار معاویه بدبنیاد.

پس بزنید میان آن خیمه را از جهت این که شیطان پنهان است در جانب آن خیمه که به تحقیق پیش آورده است آن شیطان به جهت برجستن دستی را و پس کشیده است از برای گریختن پایی را، پس قصد نمایید دشمن را قصدکردنی تا این که ظاهر شود به شما ستون حق و حال آن که شما غالب و بلندمرتبه هستید و خداوند با شما است و ناصر شما است و ناقص نمی نماید از شما جزای عمل های شما را.

ومن كلام له عليه السلام في معنى الأنصار
وهو السادس والستون من المختار في باب الخطب

قالوا: لمّا انتهت إلى أمير المؤمنين أنباء السّقيفة بعد وفاة رسول الله ﷺ قال عليه السلام ما قالت الأنصار؟ قالوا قالت: منّا أمير ومنكم أمير قال عليه السلام:

فَهلاّ احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ وَصّىٰ بِأَنْ يُحْسِنَ إِلَىٰ مُحْسِنِهِمْ، وَيَتَجاوَزَ عَنْ مُسيئِهِمْ؟ قالوا: وما في هذا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِم؟ قال عليه السلام: لَوْ كانَتِ الإمارَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: فَماذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟ قالُوا: احْتَجَّتْ بِأَنَّها شَجَرَةُ الرَّسُول ﷺ فَقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: احْتَجوا بِالشَّجَرَةِ وأَضاعُوا الثَّمَرَةِ[١].

اللغة

(النبأ) كالخبر لفظاً ومعنا و**(السقيفة)** الصّفة وسقيفة بني ساعدة فعيلة بمعنى مفعولة وهي ظلة كانت مجمع الأنصار ودار ندوتهم لفصل القضايا و**(وصيت)** الشيء بالشيء أصيه من باب وعد ووصيته ووصيت إلى فلان توصيةً وأوصيته إيصاء والاسم الوصاية بالكسر والفتح لغة، وهو وصيٌ فعيل بمعنى مفعول والجمع الأوصياء وأوصيت له بمال جعلته له، وأوصيته بولده استعطفته عليه، وأوصيته بالصّلاة أمرته بها قال تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الإعراب

(هلا) من حروف التّحضيض، قال نجم الائمة الرّضي: ومعناها إذا دخلت على الماضي التّوبيخ واللوم على ترك الفعل، وفي المضارع الحضّ على الفعل والطلب له، فهي في المضارع بمعني الأمر ولا يكون التّحضيض في الماضي الذي قد فات إلاّ أنها تستعمل كثيراً في لوم المخاطب على أنه ترك في الماضي شيئاً يمكن تداركه في المستقبل، فكأنّها من حيث المعنى للتّحضيض على فعل مثل ما فات، قوله: **(فماذا قالت)**، يحتمل أن تكون **(ذا)** موصولة وأن تكون زائدة كما في قولهم: ماذا صنعت ومن ذا رأيت.

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٦١١ ح ٢٦، وخصائص الأئمة: ٨٦.

المعنى

اعلم أنّه (**لما انتهت إلى أمير المؤمنين أنباء أهل السقيفة بعد وفاة رسول الله ﷺ**) ومشاجرات المهاجرين والأنصار ودعوى كل منهما استحقاق الخلافة لنفسه واحتجاج كلّ من الطرفين على الآخر بذكر المناقب والسّوابق (**قال عليه السلام ما قالت الأنصار**) المهاجرين (**قالوا**) إنّهم (**قالت منّا أمير ومنكم أمير قال** عليه السلام **فهلا احتججتم عليهم بأنّ رسول الله ﷺ وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم**) وقد مرّت تلك الوصيّة في المقدّمة الثالثة من مقدمات الخطبة الشّقشقية في رواية «**الاحتجاج**» عن الشيباني ورواها الشّارح المعتزلي من صحيحي «**البخاري**» و«**مسلم**»[١] في مسنديهما عن أنس بن مالك قال:

مرّ أبو بكر والعباس بمجلس من الأنصار في مرض رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقالا: ما يبكيكم؟ قال: ذكرنا محاسن رسول الله ﷺ فدخلا على النبي وأخبراه بذلك فخرج وقد عصب على رأسه حاشية برده، فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

أوصيكم بالأنصار فإنّهم كرشي[٢] وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، هذا.

ولمّا لم يفهم المخاطبون كيفيّة حجيّة كلامه على الأنصار ودلالته على بطلان دعواهم استفهموا عنه عليه السلام و(**قالوا وما في هذا**) الكلام (**من الحجة عليهم فقال** عليه السلام **لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم**) لكنّها بهم فليست الإمارة لهم، بيان الملازمة أنّ العرف قاض بأنّ الوصية إنما تكون إلى الرئيس في حقّ المرؤوس لا بالعكس.

ثمّ قال: (**فماذا قالت قريش**) في مقام الاحتجاج على الأنصار (**قالوا احتجت بأنّها شجرة الرّسول**) كونهم شجرة الرّسول باعتبار أنّه صلوات الله عليه وآله منهم، فهو وإياهم جميعاً من أغصان أصل واحد وأولاد نضر بن كنانة (**فقال احتجوا بالشّجرة وأضاعوا الثّمرة**) الظاهر أنّه أراد بالثّمرة نفسه وأهل بيته وأراد بإضاعتها إهمالهم له ولأولاده من هذا الأمر والمقصود بهذا الكلام الاحتجاج على قريش بمثل ما احتجوا به على الأنصار.

بيان ذلك: أنهم استدلوا على أولويّتهم بأنّهم شجرة الرّسول فيكونون أقرب إليه من غيرهم ونحن نحتج عليهم بأنا ثمرة الرسول فنكون أقرب إليه منهم إذ للثمرة اختصاص بالمثمر ليس للغير ذلك الاختصاص، بل المراد بالشجر ليس إلاّ الثمر فإن كانت الشّجرة معتبرة

---

(١) كرشي: بمنزلة المعدة وهنا المعنى: عيال الرجل وأهل بيته.

(٢) صحيح البخاري: ٤/٢٢٦، ومسند أحمد: ٤/٢٥٩.

فبالأولى اعتبار الثمرة وإن لم يلتفت إلى الثمرة فلا التفات إلى الشّجرة، وقد وقع مثل ذلك التشبيه في قوله سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

روى في «**البحار**» من تفسير عليّ بن إبراهيم بإسناده عن سلام بن مستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال: الشّجرة رسول الله ونسبه ثابت في بني هاشم وفرع الشّجرة علي بن أبي طالب وغصن الشجرة فاطمة وثمرتها الأئمة، من ولد علي وفاطمة، وشيعتهم ورقها وان المؤمن من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة[1]، وأن المؤمن ليولد فتورق الشجرة ورقة، قلت: أرأيت قوله:

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

قال: يعني بذلك ما يفتون الأئمة شيعتهم في كلّ حجّ وعمرة من الحلال والحرام.

تنبيهان

الأول: قد قدمنا أخبار السقيفة في المقدمة الثالثة من مقدمات شرح الخطبة الشقشقية، ونزيد هنا على ما سبق ما رواه المحدّث المجلسي في «**البحار**» من الشيخ في «**تلخيص الشافي**» عن هشام بن محمّد عن أبي مخنف عن عبد الله بن عبد الرّحمٰن بن أبي عمر الأنصاري.

أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا: نولي هذا الأمر من بعد محمّد سعد بن عبادة وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض، قال: فلما اجتمعوا قال لابنه أو لبعض بني عمّه إنّي لا أقدر لشكواي اسمع القوم كلهم كلامي ولكن تلق منّي قولي فأسمعهم فكان يتكلم ويحفظ الرّجل قوله فيرفع به صوته ويسمع به أصحابه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

يا معاشر الأنصار إنّ لكم سابقة في الدّين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إنّ محمداً صلى الله عليه وآله لبث بضع عشر سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرّحمن وخلع الأوثان، ما آمن به من قومه إلاّ رجال قليل، والله ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسوله ويعززوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا حتّى إذا أراد بكم ربّكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصّكم بالنعمة ورزقكم الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والاعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه.

---

(١) بحار الأنوار: ٢١٨/٩، مستدرك الوسائل: ٣٦/٥.

وكنتم أشدّ النّاس على عدوّه منهم وأثقله على عدوّه من غيركم حتّى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً وآخراً، وحتّى أثخن الله لرسوله بكم في الأرض ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله تعالى إليه وهو عنكم راض وبكم قرير عين، استبدّوا بهذا الأمر دون النّاس فإنّه لكم دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم بأن قد وفقت في الرّأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت نوليك هذا الأمر دون الناس فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى.

ثمّ إنّهم ترادوا الكلام فقالوا فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأوّلون فعلام تنازعونا الأمر من بعده؟ قالت طائفة منهم: فإنا نقول إذاً منّا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبداً، فقال سعد بن عبادة حين سمعها هذا أوّل الوهن، وأتى عمر الخبر فأقبل إلى منزل النبي فأرسل إلى أبي بكر، وأبو بكر في الدّار وعلي بن أبي طالب دائب في جهاز النبي.

فأرسل إلى أبي بكر أن أخرج إلي فأرسل إليه إني مشتغل فأرسل إليه أن قد حدث أمر لا بد لك من حضوره، فخرج إليه فقال: أما علمت أنّ الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير، فمضيا مسرعين نحوهم فلقيا أبا عبيدة فتماشوا إليهم فلقاهم عاصم بن عدي وعويمر بن ساعدة فقالوا لهم: ارجعوا فإنه لا يكون إلا ما تحبون، فقالوا: لا نفعل، فجاؤوا وهم مجتمعون.

فقال عمر بن الخطاب: أتيناهم وقد كنت زوّرت كلاماً أردت أن أقوم به فيهم فلما اندفعت إليهم ذهبت لأبتدأ المنطق فقال لي أبو بكر: رويداً حتّى أتكلم، ثمّ أنطق بعد بما أحببت، فنطق، فقال عمر: فما شيء كنت أريد أن أقول به إلاّ وقد أتى عليه.

قال عبد الله بن عبد الرحمٰن: فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنّ الله بعث محمّداً رسولاً إلى خلقه وشهيداً على أمّته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى يزعمون أنها لمن عبدها شافعة ولهم نافعة وإنما هي من حجر منحوت خشب ومنجور ثم قرأ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فحض الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له والصّبر معه على شدّة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إيّاه، وكلّ النّاس لهم مخالف وعليهم زار، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وتشذّب الناس عنهم واجماع قومهم عليهم، فهم أوّل من عبد الله في الأرض وآمن بالله ورسوله، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق

الناس بهذا الأَمر من بعده، ولا ينازعهم في ذلك إلاّ ظالم.

وأنتم يا معشر الأَنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، وليس بعد المهاجرين الأَولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا نفتات[١] عليكم بمشورة، ولانقضي دونكم الأمور، فقام المنذر بن الحباب ابن الجموح.

هكذا روى الطبري والذي رواه غيره أنّ الحباب بن المنذر قال: يا معشر الأَنصار املكوا على أيديكم، وساق الحديث نحواً ممّا رواه ابن أبي الحديد عن الطبري إلى قوله فقاموا إليه فبايعوه.

أقول ما رواه ابن أبي الحديد عنه هكذا: فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإنّ النّاس في ظلكم ولن يجتري مجتري على خلافكم، ولا يصدر أحد إلاّ عن رأيكم، أنتم أهل العزّة والمنعة وأولوا العدد والكثرة وذوو البأس والنّجدة، وإنّما ينظر النّاس ما تصنعون فلا تختلفوا فتفسد عليكم أموركم، فإن أبى هؤلاء إلاّ ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد والله لا ترضى العرب أن تؤمركم وبينها من غيركم، ولا تمنع العرب أن تؤتى أمرها من كانت النبوة معهم، من ينازعنا سلطان محمّد ونحن أوليائه وعشيرته.

فقال الحباب بن المنذر: يا معشر الأَنصار املكوا أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم فاجلوا هذا من بلادكم فأنتم أحقّ بهذا الأَمر منهم فإنّه بأسيافكم وأنّ النّاس بهذا الدّين أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، أنا أبو شبل في عريسة الأَسد، والله إن شئتم لنعيدها جذعة.

فقال عمر: إذاً يقتلك الله، فقال بل إيّاك يقتل، فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار إنكم أوّل من نصر فلا تكونوا أول من بدل وغير.

فقام بشير بن سعد والد النّعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار ألا إنّ محمّداً من قريش وقومه أولى به وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأَمر، فقال: أبو بكر: هذا عمرو وأبو عبيدة بايعوا أيهما شئتم، فقالا: والله لا نتولى هذا الأَمر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة

(١) نفتات: نستبد.

رسول الله في الصّلاة وهي أفضل الدين أبسط يدك، فلما بسط يده ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه.

فناداه الحباب بن المنذر يا بشير عفاة[1] انفست على ابن عمك الإمارة، فقال أسيد بن حصين رئيس الأوس لأصحابه: والله لئن لم تبايعوا ليكونن للخزرج عليكم الفضيلة أبداً، فقاموا فبايعوا أبا بكر فانكسر على سعد بن عبادة والخزرج ما اجتمعوا عليه، وأقبل النّاس يبايعون أبا بكر من كلّ جانب[2].

قال في «**البحار**»: قال الشيخ قال هشام: قال أبو مخنف: وحدّثني أبو بكر بن محمّد الخزاعي أن أسلم أقبلت بجماعتها حتّى تضايقت بهم السكك ليبايعوا أبا بكر، فقال عمر: ما هو إلاّ أن رأيت أسلم فأيقنت.

قال هشام: عن أبي مخنف فقال: قال أبو عبد الله بن عبد الرحمٰن وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عبادة، فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعداً لا تطأوه، فقال عمر: اقتلوا سعداً قتله الله، ثمّ قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى يندر عضوك، فأخذ قيس بن سعد بلحيته ثم قال: والله لئن حصصت[3] منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة؛ فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر الرفق هٰهنا أبلغ فاعرض عنه.

وقال سعد: والله لو أرى من قومي ما أقوى على النّهوض لسمعتم منّي بأقطارها وسككها زئيراً يحجزك وأصحابك، أما والله إذاً لألحقك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع احملوني من هذا المكان، فحملوه فأدخلوه داره وترك أيّاماً.

ثمّ بعث إليه أن أقبل فبايع فقد بايع النّاس وبايع قومك، فقال أما والله حتّى أرميكم ما في كنانتي من نبل وأخضب منكم سنان رمحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي، ولا أفعل وأيم الله لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتّى أعرض على ربّي وأعلم ما حسابي.

فلمّا أتى أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعه حتّى يبايع، فقال بشير بن سعد إنّه قد لجّ وأبى فليس يبايعكم حتّى يقتل وليس بمقتول حتّى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فليس تركه بضاركم إنّما هو رجل واحد، فتركوه، وقبلوا مشورة بشير بن سعد واستنصحوه لما بدا لهم منه.

وكان سعد لا يصلّي بصلاتهم ولا يجمع معهم ويحجّ ولا يحجّ معهم، ويفيض فلا

---

(١) في نسخة: عفتك.

(٢) البحار: ٢٨/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٣) في نسخة: حصفت.

يفيض معهم بإفاضتهم فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر.

أقول: روى الشّارح المعتزلي خبر السّقيفة من كتاب السّقيفة لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري نحواً ممّا روينا وزاد في آخره بعد قوله: فلم يزل كذلك حتّى مات أبو بكر، ثم لقى عمر في خلافته وهو على فرس وعمر على بعير فقال له عمر: هيهات يا سعد فقال سعد: هيهات يا عمر، فقال: أنت صاحب من أنت صاحبه قال: نعم أنا ذاك، ثمّ قال لعمر: والله ما جاورني أحد هو أبغض إليّ جوراً منك ومن أصحابك، فلم يلبث سعد بعد ذلك قليلاً حتّى خرج إلى الشّام فخرج فيها، ولم يبايع لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما.

ثمّ قال: قال الرّاوي: وكثر النّاس على أبي بكر فبايعه معظم المسلمين في ذلك اليوم، واجتمعت بنو هاشم إلى عليّ بن أبي طالب ومعهم الزّبير وكان يعدّ نفسه رجلاً من بني هاشم كان عليّ عليه السلام يقول: ما زال الزّبير منّا أهل البيت حتّى نشأ بنوه فصرفوه عنّا.

واجتمعت بنو أميّة إلى عثمان بن عفّان واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمٰن فأقبل عمرو أبو عبيدة فقال: ما لي أراكم متخلفين، قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايع النّاس وبايعه الأنصار، فقام عثمان ومن معه وقام سعد وعبد الرّحمٰن ومن معهما فبايعوا أبا بكر، وذهب عمر ومعه عصابة إلى بيت فاطمة منهم أسيد بن حصين وسلم بن أسلم فقال لهم: انطلقوا فبايعوا فأبوا عليه.

وخرج الزّبير بسيفه فقال عمر، عليكم الكلب فوثب عليه سلم بن أسلم فأخذ السّيف من يده فضرب بيده الجدار ثمّ انطلقوا به وبعليّ ومعهما بنو هاشم وعليّ عليه السلام يقول: أنا عبد الله وأخو رسول الله حتّى انتهوا به إلى أبي بكر فقيل له: بايع، فقال: أنا أحقّ بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله فأعطوكم وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فانصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم واعرفوا للنّاس الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم وإلاّ فبوّؤا بالظلم وأنتم تعلمون.

فقال عمر: إنّك لست متروكاً حتّى تبايع، فقال له عليّ عليه السلام: احلب يا عمر حلباً لك شطره اشدد له اليوم أمره ليردّه عليك غداً، لا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه، فقال له أبو بكر: فإن لم تبايعني لا أكرهك.

فقال له أبو عبيدة: يا أبا الحسن إنّك حديث السّن وهؤلاء مشيخة قريش قومك ليس لك تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ولا أرى أبا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالاً له واضطلاعاً به، فسلم له هذا الأمر وارض به فإنّك إن تعيش ويطل عمرك فأنت بهذا الأمر خليق وبه حقيق في فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك.

قال عليّ عليه السلام: يا معشر المهاجرين الله الله لا تخرجوا سلطان محمّد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحقّ بهذا الأمر منكم، أما كان منّا القاريء لكتاب الله الفقيه في دين الله العالم بالسنّة المضطلع بأمر الرّعيّة، والله إنّه لفينا فلا تتّبعوا الهوى فتزدادوا من الحقّ بعداً[1].

فقال بشير بن سعد: لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار يا علي قبل بيعتهم لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان، ولكنّهم قد بايعوا، وانصرف عليّ إلى منزله ولم يبايع ولزم بيته حتّى ماتت فاطمة فبايع.

قال الشّارح: قلت: هذا الحديث يدلّ على بطلان ما يدّعي من النصّ على أمير المؤمنين وغيره، لأنّه لو كان هناك نصّ صريح لاحتجّ به ولم يجر للنّص ذكر وإنّما كان الاحتجاج منه ومن أبي بكر ومن الأنصار بالسّوابق والفضائل والقرب، فلو كان هناك نصّ صريح على أمير المؤمنين وعلى أبي بكر لاحتجّ به أبو بكر على الأنصار ولاحتج به أمير المؤمنين على أبي بكر.

فإنّ هذا الخبر وغيره من الأخبار المستفيضة يدلّ على أنّه قد كان كاشفهم وهتك القناع بينه وبينهم ألا تراه كيف نسبهم إلى التّعديّ عليه وظلمه وتمنّع من طاعتهم وأسمعهم من الكلام أشدّه وأغلظه، فلو كان هناك نصّ لذكره أو ذكره من شيعته وحزبه لأنّه لا عطر بعد عروس.

وهذا أيضاً يدلّ على أنّ الخبر الذي في أبي بكر في صحيحي **«البخاري»** و**«مسلم»** غير صحيح، وهو ما روى من قوله صلى الله عليه وآله لعائشة في مرضه: ادعي إلى أباك وأخاك حتّى أكتب لأبي بكر كتاباً، فإنّي أخاف أن يقول قائل أو يتمنّى متمنّي، ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر وهذا هو نصّ مذهب المعتزلة.

أقول: من نظر إلى هذا الحديث بعين البصيرة والاعتبار ولاحظ الانصاف وجانب حدّ الاعتساف، عرف منه ما فيه للناظرين معتبر واستفاد منه أشياء كلّ منها شاهد صدق على بطلان خلافة الثلاثة، وبرهان واضح على فساد دعوى تابعيهم استحقاقهم لها وأهليتهم للقيام بها.

منها: خلوه من احتجاج قريش على الأنصار جعل النبي الإمامة فيهم، لأنّه تتضمّن من احتجاجهم عليهم ما يخالف ذلك وأنّهم إنما ادعوا كونهم أحق بالأمر من حيث كون النبوة فيهم ومن حيث كونهم أقرب إلى النبي نسباً وأولاهم له اتباعاً.

ومنها: أنّ الأمر إنما بني السّقيفة على المغالبة والمخالسة، وانّ كلاّ منهم إنما كان

---

(١) السقيفة وفدك: ٦٣، بحار الأنوار: ٢٨/ ٣٤٩.

يجذبه لنفسه بما اتّفق له وعن من حق وباطل وقوي وضعيف.

ومنها: أنّ سبب ضعف الأَنصار وقوة المهاجرين عليهم انحياز بشير بن سعد حسداً لسعد بن عبادة، وانحياز الأَوس بانحيازه عن الأَنصار.

ومنها: أنّ خلاف سعد وأهله كان باقياً لم يرجعوا عنه، وإنّما أقعده عن الخلاف بالسّيف قلة الناصر.

ومنها: أنّه لو أراد أبو بكر الاجماع واتّفاق الكلّ على بيعته حتّى من سعد وأصحابه انجر الأَمر إلى قتل النّفوس وإهراق الدماء وفسد له الأمر.

ومنها: أن قول عمر في حقّ الزّبير: عليكم الكلب، دليل على بطلان خبر العشرة المبشرة إذ الكلب لا يكون في الجنّة.

ومنها: أن بيعة عمر لأَبي بكر لم يكن لتأسيس أساس الإسلام ورعاية مصلحة الدين وحفظ شرع سيد المرسلين، وإنّما كان نظره في ذلك ليتولى أبو بكر الأَمر ويوليه عليه بعده كما هو نصّ قوله عليه السلام اشدد له اليوم أمره ليردّ عليك غداً.

ومنها: أنّ حداثة السّن لو كان مانعاً عن الخلافة كما قاله أبو عبيدة وأخذه منه أهل السنة والجماعة، لكان مانعاً عن النبوة بطريق أولى وقد قال سبحانه:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

فقد أتى النبوة ليحيى وعيسى عليهما السّلام في حالة الصّباء.

ومنها: أن تجربة أبي بكر كما زعمه أبو عبيدة لو كان أزيد من أمير المؤمنين عليه السلام لم يعز له النبي من البعث بسورة براءة ولم يخلف عليّاً مقامه ولو كانت قوته أشدّ لسبق في يوم أحد وخيبر ولم يستأثر الفرّ على الكرّ.

ومنها: أنّ قول بشير بن سعد له لو كان هذا الكلام سمعته منك الأَنصار قبل البيعة لما اختلف عليك اثنان، دليل على أنّ بيعتهم لأَبي بكر لم تكن عن بصيرة وإنّما اقتحموا فيها من غير روية، وإنّما كان اللاّزم عليهم التّروي والتثبيت وملاحظة الأَطراف والجوانب، والتّفكر في العواقب والدّقة في جهات الاستحقاق فكيف تكون بيعة هؤلاء الجهلة الغفلة الفسقة التّابعة لهوى أنفسهم الأَمارة حجة شرعيّة لأَهل الملة.

وأمّا ما ذكره الشّارح من أنه لو كان هناك نصّ لاحتج به أمير المؤمنين ولما لم يحتج إلا بالسّوابق والقرب علم أنّه لم يكن هناك نصّ عليه، ففساده أظهر من الشمس في رابعة النّهار، إذ قد عرفت أنّ أوّل من حضر في السقيفة هو الأَنصار، وأوّل من ابتدأ بالكلام فيها سعد بن عبادة، فذكر مناقب الأَنصار ومآثرهم وكونهم أنصاراً لدين الله وذابين عن رسول الله، فاحتج

عليهم قريش بالقرب والنسب والسبق في التصديق والتقدم في الإيمان فحجوهم بذلك، فاقتضى المقام بمقتضى آداب المناظرة أن يحتج أمير المؤمنين عليه السلام بمثل ما احتجت به قريش على الأنصار، إذ في ذلك من الإلزام لهم ما ليس في غيره كما قال عليه السلام فيما يذكره السّيد في أواخر الكتاب.

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب

وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب

وكيف يدعي عدم النص بعد حديث المنزلة وخبر الغدير وقوله صلى الله عليه وآله علي مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه كيف دار[1]، إلى غير ذلك من الأخبار والآيات التي قدمناها في المقدمة الثانية من مقدمات الخطبة الشقشقية وغيرها، ومن لم يجعل الله له نوراً يستضيء به فما له من نور، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني

اعلم أنّ الشّارح المعتزلي قد روى في شرح هذا الكلام أخباراً من كتاب الجوهري قدم رواية أكثرها في شرح الخطبة السادسة والعشرين، ونحن أيضاً روينا بعضها هناك في شرح الفصل الثاني من فصول الخطبة المذكورة ونروي هنا بعض ما لم يتقدّم ذكره حذراً من التكرار كما وقع في شرح المعتزلي، وليس غرضنا من إيرادها مجرد الاقتصاص وإنّما المقصود بذلك إقامة الحجة على الطائفة الضالة من الكلاب الممطورة، والإبانة عن ضلالة الشّارح وغفلته، وإنّه مع روايته لتلك الأخبار واعترافه بوثاقة راويها كيف لم يتنبه من نومة الجهالة، وتاه في أودية الضّلالة.

فأقول: في الشّرح من كتاب السّقيفة لأحمد بن عبد العزيز الجوهري.

قال: حدثنا أبو سعيد عبد الرّحمن بن محمّد، قال: حدّثنا أحمد بن الحكم، قال حدثنا عبد الله بن وهب، عن الليث بن سعد، قال تخلف علي عليه السلام عن بيعة أبي بكر فأخرج ملبباً يمضي به رقصاً، وهو يقول: معاشر المسلمين على من يضرب عنق رجل من المسلمين، لم يتخلف لخلاف وإنما تخلف لحاجة فما من مجلس من المجالس إلا يقال له: اذهب فبايع .

أقول: هذا الحديث نصّ في أنه لو لم يبايع يضرب عنقه فيدل على أنه عليه السلام لم يكن في البيعة مختاراً، وهذا المعنى قد تضمّنته أخبار كثيرة عاميّة وخاصيّة بالغة حدّ الاستفاضة بل التواتر قد

---

(١) مجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٥، والغدير: ٣/ ١٧٦.

أورد طائفة منها السّيد (ره) في **«الشافي»**، وروى جملة كثيرة منها السّيد المحدّث البحراني في كتاب **«غاية المرام»**، وقد روينا في شرح الخطبة السادسة والعشرين قول الصّادق عليه السلام: والله ما بايع عليّ حتّى رأى الدّخان قد دخل عليه بيته[1]، ونقلنا قول السّيد هناك من أنه أيّ اختيار لمن يحرق عليه بابه حتّى يبايع.

قال الجوهري: وحدّثنا أبو زيد عمرو بن شيبة بإسناد رفعه إلى ابن عبّاس قال: إنّي لأماشي عمر في سكّة من سكك المدينة يده في يدي، فقال: يا ابن عبّاس ما أظنّ صاحبك إلاّ مظلوماً فقلت في نفسي والله ما يسبقني بها، فقلت: يا أمير المؤمنين فاردد إليه ظلامته، فانتزع يده من يدي ثمّ مرّ يهمهم ساعة ثمّ وقف فلحقته فقال: يا ابن عبّاس ما أظنّ القوم منعهم من صاحبك إلاّ أنّهم استصغروه، فقلت في نفسي هذه شرّ من الأولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر.

قال الجوهري: وحدّثني أبو زيد، قال حدّثني محمّد بن عبادة، قال حدّثني أخي سعيد بن عبادة، عن الليث بن سعد عن رجاله عن أبي بكر أنّه قال: ليتني لم أكشف بيت فاطمة ولو أغلق عليّ الحرب[2].

قال الشّارح: الصحيح عندي أنها ماتت وهي واجدة على أبي بكر وعمرو أنها أوصت أن لا يصليا عليها، وذلك عند أصحابنا من الأمور المغفورة لهما، وكان الأولى بهما اكرامها واحترام منزلها لكنهما خافا الآفة وأشفقا من الفتنة ففعلا ما هو الأصح بحسب ظنّهما، وكانا من الدّين وقوّة اليقين بمكان مكين لا شك في ذلك، الأمور الماضية يتعذّر الوقوف على عللها وأسبابها ولا يعلم حقائقها إلاّ من شاهدها ولابسها بل لعلّ الحاضرين المشاهدين لها لا يعلمون باطن الأمر، فلا يجوز العدول عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى، والله وليّ المغفرة والعفو، فإن هذا لو ثبت خطأه لم يكن كبيرة بل كان من باب الصّغائر التي لا يقتضي التّبرّي ولا يوجب التولي.

أقول: ما صحّحه من أنّها عليها السلام ماتت وهي واجدة غضبانة على الرّجلين فهو الصّحيح الذي لا ريب فيه ويشهد بذلك ملاحظة أخبار غصب فدك وغيرها ممّا مرّ في تضاعيف الشّرح ويأتي أيضاً.

وأمّا ما اعتذر به من أنّ ذلك من الصّغائر المعفوّة ففاسد جدّاً إذ كيف يكون ذلك من الصغائر مع ما روته العامة والخاصة من قول النبي صلى الله عليه وآله لها: يا فاطمة إنّ الله يغضب بغضبك

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ٢٧٠.

(٢) الأموال لأبي عبيدة: ١٩٤، والامامة والسياسة: ١/ ١٨، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٣٧.

ويرضى لرضاك، وقوله فيها: يؤذيني ما أذاها[١].

---

(١) **مصادر حديث البضعة**

المصنف لابن أبي شيبة: ٦/ ٣٩١ ح ٣٢٢٥٩ كتاب الفضائل ـ فضائل فاطمة. والفردوس بمأثور الخطاب: ١/ ٢٣٢ ح ٨٨٧ ط. دار الكتب العلمية، و٢٨٢ ح ٨٨٦ ط. دار الكتاب العربي.

وصحيح البخاري: ٥/ ٨٣ ح ٢٣٢ كتاب الفضائل ـ مناقب قرابة الرسول و٧/ ٧٣ كتاب النكاح باب (١١٠) ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والانصاف ح ١٥٩، وصحيح مسلم: ١٦/ ٢٢١ ح ٦٢٥٧ كتاب الفضائل ـ فضائل الصحابة ـ فاطمة، والفردوس بمأثور الخطاب: ٣/ ١٤٥ ح ٤٣٨٩ ط. دار الكتب العلمية و١٦١ ح ٤٢٨٢ ط. دار الكتاب العربي.

ومناقب ابن المغازلي: ٢٨٢ ح ٣٢٧، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ٣/ ٦٩ ح ١٠٩٩. ومناقب الخوارزمي: ٣٥٣ الفصل ٢٠، وجواهر العقدين: ٣٥٠ ـ ٣٥١ الباب الحادي عشر، والطبقات الكبرى: ٨/ ٢٠٦ ترجمة جويرية بنت أبي جهل (٤٢٠٥)، والتبصير في الدين للاسفرايني: ١١١ الباب الخامس عشر، وأهل البيت لتوفيق أبو علم: ١٢٤ خصائص فاطمة، والمعجم الكبير: ٢٠/ ١٨ ترجمة المسور ح ١٨ وما بعده منه، ومسند أحمد: ٤/ ٥ ـ ٣٢٣ ـ ٣٣٢ ـ ٣٢٨ ط.م و٥/ ٤٢٣ ـ ٤٣٥ ـ ٤٣٠ و٤/ ٥٧١ ط.ب ح ١٨٤٢٨ ـ ١٨٤٥١.

وفضائل الصحابة لاحمد: ٢/ ٧٥٥ ـ ٧٥٦ ح ـ ١٣١٧ ـ ١٣٢٨ ـ ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤ مناقب علي، ومستدرك الصحيحين: ٣/ ١٥٨ ـ ١٥٩ كتاب معرفة الصحابة ذكر مناقب فاطمة صححه وأقره الذهبي، والتبصرة لابن الجوزي: ١/ ٤٥٢ مجلس ٣١، والبيان والتعريف في أسباب ورود الحديث: ٢/ ١١٦ ح ٧٢١، والمعجم الكبير: ٢٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ترجمة فاطمة ـ مناقبها و٢٠/ ٢٦ ترجمة المسور ما روى عنه عبد الله بن ابي رافع، وخصائص النسائي: ١٢١ ـ ١٢٢ ح ١٣٢ ـ ١٣٠، وذخائر العقبى: ٣٧ ذكر غيرته ﷺ، وتاريخ الخميس: ١/ ٤١٢، وتذكرة الخواص: ٢٧٩ باب ١١ فضائل فاطمة، ومصابيح السنة: ٤/ ١٨٥ ح ٤٧٩٩ مناقب أهل البيت، ومشكاة المصابيح: ٣/ ١٧٣٢ ح ٦١٣٠ مناقب أهل البيت، والاحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ٩/ ٥٣ ح ٦٩١٦، ونوادر الاصول للحكيم الترمذي: ٣/ ١٨٤ الاصل الثاني والاربعون بعد المائة، ، ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٠٣ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٨ ح ١٥٢٠٣ كتاب المناقب، وفي بعضها: تقديم وتأخير في الالفاظ.

مصادر حديث غضب الله لغضب فاطمة

المعجم الكبير: ١/ ١٠٨ ح ١٨٢ ذيل ترجمة علي وبالهامش: «في هامش الاصل: هذا حديث صحيح الاسناد وروي من طرق عن علي رواه الحارث عن علي وروي مرسلاً، وهذا الحديث أحسن شيء رأيته وأصح اسناد قرأته» و٢٢/ ٤٠١ ترجمة فاطمة ـ مناقبها، وجواهر العقدين: ٣٥٠ الباب الحادي عشر، ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٠٣ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٨ ح ١٥٢٠٤ كتاب المناقب وقال: اسناده حسن.

وذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٧/ ١٤٠ ترجمة عثمان بن الحسين برقم ٤٢٦، وأخبار الدول للقرماني: ٨٧ ط. بغداد ١٢٨٢ هـ، وتهذيب التهذيب: ١٢/ ٤٤٢ ط حيدر آباد الاولى، ومقتل الحسين للخوارزمي: ١/ ٥٢ الفصل الخامس، ومناقب ابن المغازلي: ٣٥١ ح ٤٠٢، وذخائر العقبى: ٣٩ وقال: أخرجه أبو سعيد في شرف النبوة وابن المثنى في معجمه، ومستدرك الصحيحين: ٣/ ١٥٣ كتاب معرفة الصحابة ـ مناقب فاطمة، واسد الغابة: ٥/ ٥٢٢ ترجمة فاطمة، وكفاية الطالب: ٣٦٤ باب ٩٩، وميزان الاعتدال: ٢/ ٧٢

وما أخرجه أحمد بن حنبل والحاكم على الميسور بن مخرمة مرفوعاً: فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها ويبسطني ما يبسطها، وأنّ الانساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري، فإذا انضمّ إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

يعلم من ذلك أنّ ما فعلاه في حقها من أكبر الكبائر الموجب لكونهما في أسفل الدرك من الجحيم خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين.

وأما ما ذكره من أنهما كانا من الدين وقوّة اليقين بمكان مكين ففيه أنّك قد عرفت في شرح الخطبة الشقشقية وغيرها وستعرف أيضاً بعد ذلك أنهما لم يكونا من الدين في شيء، وكيف يجسر المتديّن أن يدخل من غير إذن بيتاً لم يكن يدخل فيها الملائكة إلاّ بإذن أو يحرق بابه أو يهتك ستره حتى يطمع فيه من لم يكن يطمع.

وأما قوله: إنّ الأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها ولا يعلم حقائقها إلا من قد شاهدها، ففيه أنّ الوقوف عليها والاطلاع على حقائقها يحصل بالنقل والسمع ولا حاجة في ذلك إلى الشهود والحضور، وقد حصل لنا في حقهما بطريق السمع والبيان ما هو مغن عن الحضور والعيان، وعرفنا أن الداعي لأفعالهما في جميع حركاتهما وسكناتهما لم يكن إلا اتباع هوى النفس الأمارة وإبطال الشريعة والملة وترويج البدعة وتضييع السنة.

وأما قوله: إنّ ذلك لا يقتضي التبري ولا يوجب التولي، فيه أنهما إذا كانا ممن غضب الله عليه بمقتضى ما ذكرنا يجب التّبري عنهما ولا يجوز التّولي لقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٣].

وأشدّ ممّا ذكرنا كله فظاعة وأظهر شناعة ما رواه الشّارح أيضاً عن الجوهري.

قال: حدّثنا الحسن بن الرّبيع، عن عبد الرّزاق، عن معمّر، عن الزّهري، عن عليّ بن

ط. مصر ـ السعادة ـ سنة ١٣٢٥، والذرية الطاهرة: ١٦٦ ح ٢٢٦، وتذكرة الخواص: ٢٧٩ باب ١١ فضائلها.

والتدوين في أخبار قزوين: ٣/ ١١ باب الذال ـ ترجمة أبو ذر بن رافع، ومسند شمس الاخبار: ١/ ١٠٩ الباب التاسع عن ابن المغازلي وعن كتاب الذكر لمحمد بن منصور وبالهامش: أخرجه الديلمي، والكامل لابن عدي: ٢/ ٣٥١ ترجمة الحسين بن زيد بن علي برقم ٣٨١، وأهل البيت لتوفيق أبو علم: ١٢٠ القسم الثاني ـ خصائص فاطمة ـ عن ابن سعد في شرف النبوة، والمدهش لابن الجوزي: ١٣٤ الفصل السادس والعشرون ـ في تزويج علي بفاطمة عليهما السلام

عبد الله بن العبّاس، عن أبيه قال: لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال رسول الله ﷺ: إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لاتظلوا بعدي، فقال عمر كلمة معناها: أنّ الوجع قد غلب على رسول الله، ثمّ قال: عندنا القرآن حسبنا كتاب الله، فمن قائل يقول: القول ما قال رسول الله ﷺ ومن قائل يقول: القول ما قال عمر، فلما اكثروا اللّفظ[١] واللغو والاختلاف غضب رسول الله ﷺ فقال: قوموا إنه لا ينبغي لنبي أن يختلف عنده هكذا[٢]، فقاموا فمات رسول الله ﷺ في ذلك اليوم فكان ابن عباس يقول: إنّ الرّزية كلّ الرّزية ما حال بيننا وبين رسول الله يعني الاختلاف واللفظ[٣].

قال الشّارح قلت: هذا الحديث قد خرّجه الشّيخان محمّد بن إسماعيل ومسلم بن الحجاج القشيري في صحيحيهما واتّفق المحدّثون كافة على روايته.

أقول: هذه الرّواية كما ذكرها الشّارح ممّا رواها الكل والرّواية في الجميع عن ابن عباس، وقوله فقال العمر كلمة معناها أنّ الوجع قد غلب (ا ه)، الظاهر أن تلك الكلمة في أكثر تلك الرّوايات من قوله: إنّ الرّجل ليهجر، وفي بعضها ما شأنه يهجر استفهموه، وفي بعض الآخر ما شأنه هجر، وفي غيرها ما يقرب من هذا اللفظ، وقد عدل الرّاوي عن رواية هذه اللفظة لكراهته نقلها إذ الهجر كما صرّح به غير واحد من اللغويين هو الهذيان وبذلك فسّر قوله تعالى:

﴿إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

فبدّل الرّاوي هذه الكلمة بغيرها استحياء واستصلاحاً لكلام عمر.

ولن يصلح العطار ما أفسد الدّهر.

فمن تأمّل في هذه الرّواية حقّ التأمّل عرف جفاوة الرّجل وفظاظته وخبث طينته وسوء سريرته وعناده ونفاقه من جهات عديدة:

الأولى: أنّ النبي ﷺ ما كان ينطق عن الهوى وإن كان كلامه لم يكن إلاّ وحياً يوحى، فنسبه مع ذلك عمر إلى الهذيان.

الثانية: أنّ قوله عندنا القرآن حسبنا كتاب الله رد على الله فضلاً عن رسول الله وقد قال الله:

---

(١) في نسخة: اللغط.

(٢) السقيفة وفدك: ٧٦، ومكاتيب الرسول: ٣/ ٦٩٩.

(٣) في نسخة اللغط.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

الثالثة: أنّ كتاب الله لو كان كافياً عمّا أراد صلوات الله عليه وآله كتابته لم يطلب ما يكتب أتراه يطلب عبثاً أم يريد لغواً؟ ونقول لِمَ لَمْ يكف الكتاب واختلت أمر الأمّة وانفصمت حبل الملة وتهدّمت أركان الهدى وانطمست أعلام التقى.

قال السّيد بن طاووس في محكي كلامه من كتاب «**الطرائف**»: من أعظم طرائف المسلمين أنّهم شهدوا جميعاً أن نبيهم أراد عند وفاته أن يكتب لهم كتاباً لا يضلون بعده أبداً، وأنّ عمر بن الخطاب كان سبب منعه من ذلك الكتاب وسبب ضلال من ضلّ من أمّته وسبب اختلافهم وسفك الدّماء بينهم وتلف الأموال واختلاف الشّريعة وهلاك اثنين وسبعين فرقة من أصل فرق الإسلام وسبب خلود من يخلد في النّار منهم.

ومع هذا كله فإنّ أكثرهم أطاع عمر بن الخطاب الذي قد شهدوا عليه بهذه الأحوال في الخلافة وعظموه وكفّروا بعد ذلك من يطعن فيه، وهم من جملة الطاعنين، وضللوا من يذمه وهم من جملة الذّامين، وتبرؤوا ممن يقبح ذكره وهم من جملة المقبحين.

الرّابعة: أنّ غيظ رسول الله وغضبه عليه وأمره له بالخروج من البيت والمتنازعين مع خلقه العظيم وعفوه الكريم وملاحظته في الفظاظة والغلظة انفضاض الخلق كما قال سبحانه:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لم يكن إلاّ لشدّة إساءته الأدب والوقاحة وبلوغه في أذى رسول الله ﷺ الغاية بحيث لم يتحملها صلوات الله عليه وآله وقد قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قال الجوهري: وحدّثنا أحمد بن سيّار عن سعيد بن كثير الأنصاري عن عبد الله بن عبد الله بن الرّحمن أن رسول الله ﷺ في مرض موته أمر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جلة المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرّحمٰن بن عوف وطلحة والزبير وأمره أن يغير على موتة حيث قتل أبوه زيد وأن يغزي وادي فلسطين، فتثاقل أسامة وتثاقل الجيش بتثاقله وجعل رسول الله ﷺ يثقل ويخفّ ويؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث.

حتّى قال له أسامة: بأبي أنت وأمي أتأذن لي أن أمكث أيّاماً حتّى يشفيك الله؟ فقال: اخرج وسر على بركة الله، فقال: يا رسول الله إنّي إن خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفي قلبي قرحة منك، فقال: ﷺ سر على النّصر والعافية، فقال: يا رسول الله إنّي أكره أن أسأل عنك الركبان، فقال ﷺ: انفذ لما أمرتك به[١].

ثمّ أغمي على رسول الله ﷺ وقام أسامة فجهز للخروج، فلما أفاق رسول الله ﷺ سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنّهم يتجهزون، فجعل يقول: انفذوا بعث أسامة لعن الله من تخلف عنه، ويكرّر ذلك.

فخرج أسامة واللواء على رأسه والصّحابة بين يديه، حتّى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أسيد بن حصين وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسول أم أيمن يقول له ادخل فإنّ رسول الله يموت، فقام من فوره ودخل المدينة واللواء معه فجاء به حتّى ركزه باب رسول الله ورسول الله ﷺ قد مات في تلك السّاعة، قال: فَلَما[٢] كان أبو بكر وعمر يخاطبان أسامة إلى أن ماتا بالأمير.

أقول: ونقل الشّارح بعث جيش أسامة قبل في شرح الخطبة الشّقشقية أيضاً بتغيير يسير لما أورده هنا من الجوهري، وقال هناك بعد نقله ما هذه عبارته.

وتزعم الشّيعة أن رسول الله ﷺ كان يعلم موته وأنّه سير أبا بكر وعمر في بعث أسامة لتخلو دار الهجرة منهما فيصفو الأمر لعلي عليه السلام ويبايعه من تخلف من المسلمين في مدينة على سكون وطمأنينة، فإذا جاءهما الخبر بموت رسول الله وبيعة النّاس لعلي بعده كانا عن المنازعة والخلاف أبعد لأنّ العرب كانت تلتزم بإتمام تلك البيعة وتحتاج في نقضها إلى حروب شديدة، فلم يتمّ له ما قدر وتثاقل بالجيش أيّاماً مع شدّة حث رسول الله على نفوذه وخروجه بالجيش حتّى مات وهما بالمدينة فسبقا علياً إلى البيعة وجرى ما جرى.

ثمّ قال: وهذا عندي غير منقدح لأنّه إن كان يعلم موته فهو أيضاً يعلم أنّ أبا بكر سيلي الخلافة وما يعلمه لا يحترس منه، وإنّما يتمّ هذا ويصحّ إذا فرضنا أنّه عليه السلام كان يظنّ موته ولا يعلمه حقيقة ويظنّ أن أبا بكر وعمر يتمالان على ابن عمه ويخاف وقوع ذلك منهما ولا يعلمه حقيقة فيجوز إن كانت الحال هكذا أن ينقدح هذا التّوهم ويتطرق هذا الظّن.

كالواحد منا له ولدان يخاف من أحدهما أن يتغلب بعد موته على جميع ماله ولا يوصل أخاه إلى شيء من حقّه فإنّه قد يخطر له عند مرضه الذي يتخوف أن يموت فيه أن يأمر الولد

(١) السقيفة وفدك: ٧٧، وكتاب الأربعين: ٥٢٧.

(٢) في نسخة: فما.

المخوف جانبه بالسّفر إلى بلد بعيد في تجارة يسلمها إليه يجعل ذلك طريقاً إلى دفع تغلبه على الولد الآخر.

أقول: ما نسبه إلينا معاشر الشّيعة حقّ لا ريب فيه، وما أورده علينا فظاهر الفساد إذ علم النبيّ بموته وبتولي أبي بكر الخلافة لا ينافي الأَمر ببعثه مع أسامة وإلاّ لتوجّه هذا الإشكال في أوامر الله سبحانه، فإنّه قد أمر العصاة بالإطاعة والكفار بالإسلام مع علمه بأنّهم لا يطيعون وأنّهم على كفرهم باقون، نعم هذا يناسب على أصول الأَشاعرة القائلين بالجبر والشّارح عدلي المذهب لا مساس لما أورده على مذهبه.

وتحقيق الكلام أنّ النبي ﷺ كان يعلم موته ويعلم أنّ أبا بكر يغصب الخلافة ومع علمه بذلك بعثه في الجيش ليفهم الخلق ويعرّفهم أنّه ليس راضياً بخلافته وينبههم على خلافه وعظم جرمه وجريرته ومخالفته للحكم الإلزاميّ المؤكد الذي كرّره صلوات الله عليه وآله مرّة بعد أخرى.

وليعلمهم أيضاً أنّه برجوعه إلى المدينة مستحقّ للعن الدائم والعذاب الأَليم مضافاً إلى ما في ذلك البعث من نكتة أخرى، وهو[1] التّنبيه على مقام أبي بكر وعمر والإيماء إلى أنّ من كان محكوماً عليه بحكم مثل أسامة ومأموراً بأمره لا يكون له قابليّة واستعداد لأَن يكون أميراً لجميع الأمّة وإماماً لهم.

والحاصل أنّ النبيّ ﷺ كان عالماً بموته وبأن ما قدره وأراده في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام لا يتمّ له، ومع ذلك سيّر الرّجلين إعلاماً للخلق بأنّه لا يرضى بهما خلافة وأنهما غير قابلين لذلك، وإفهاماً لهم بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو القابل له، وأنّه عليه السلام أراد قيامه عليه السلام مقامه ﷺ، فحالوا بينه وبينه.

(١) في نسخة: هي.

الترجمة

از جمله کلام آن جناب علیه الصلاة و السلام است در خصوص انصار، گفته اند راویان زمانی که رسید به امیرالمؤمنین خبرهای سقیفه بنی ساعده و احتجاجات مهاجرین و انصار در باب خلافت بعد از وفات حضرت رسول مختار، فرمود آن حضرت که چه گفتند انصار به مهاجرین؟ عرض کردند که چنین گفتند که باید از ما امیری باشد و از شما امیری فرمود:

پس چرا احتجاج نکردید برایشان به این که رسول خدا وصیت فرمود در حق ایشان به این که احسان بشود در حق نیکوکار ایشان و در گذرند از بدکردار ایشان؟ عرض کردند که چگونه باشد در این گفتار حجت بر انصار؟ پس فرمود آن حضرت که اگر بود خلافت در ایشان نمی بود وصیت پیغمبر به ایشان؛ یعنی لازم بود که پیغمبر دیگران را به ایشان بسپارد نه این که سفارش ایشان را به دیگران بکند بعد از آن فرمود آن حضرت:

پس قریش در مقام احتجاج چه گفتند به انصار؟ عرض کردند که حجت آوردند به این که ایشان شجره رسول خدایند، پس فرمود که: حجت آوردند به شجره و ضایع کردند ثمره او را؛ یعنی به درخت حجت می آوردند و ثمره او را که آل محمد علیه و علی آله الصلاة و السلام هستند مهمل می گذارند؛ اللهمّ وفقنا.

ومن كلام له عليه السلام وهو السابع والستون من المختار في باب الخطب

لما قلّد محمّد بن أبي بكر مصر فملك عليه وقتل رحمة الله عليه.

«وقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إيّاها لَما خَلّى لَهُمُ الْعَرْصَةَ، ولا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بِلاَ ذَمٍّ لِمُحَمَّدٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبيباً وَلِي رَبيباً»[1].

اللغة

(العرصة) كلّ بقعة من الدّور واسعة ليس فيها بناء والمراد هنا عرصة مصر و**(نهزت الفرصة)** انتهزتها اغتنمتها، وانهزت الفرصة بهمزة التّعدية أي انهزتها غيري و**(الربيب)** ابن امرأة الرّجل من غيره.

الإعراب

قوله **(بلا ذمّ)**، كلمة **(لا)** نافية معترضه بين الخافض والمخفوض، وقال الكوفيّون إنّها اسم بمعنى غير والجار داخل عليها نفسها وما بعدها مجرور بإضافتها إليه، وغيرهم يراها حرفاً ويسمّيها زائدة وإن كانت مفيدة معنى كما يسمّون كان في نحو زيد كان فاضلاً زائداً فهي زائدة لفظاً من حيث فصول عمل ما قبلها إلى ما بعدها غيرة زائدة معنى لإفادتها النّفي.

المعنى

اعلم أنّه **(لما قلّد محمّد بن أبي بكر مصر)** قبل وقعة صفّين أي جعله واليها كانت ولايتها قلادة في عنقه لكونه مسؤولاً عن خيرها وشرّها وانصرف النّاس من صفّين لم يزدد معاوية إلاّ قوّة فبعث جيشاً كثيفاً إلى مصر فقاتلوا محمّداً **(فملك)** مصر **(عليه)** أي أخذه معاوية منه قهراً واستولى عليه **(وقتل)** محمّد قتله معاوية بن حديج الكندي حسبما تعرفه فلمّا جاءه ﷺ نعي محمّد قال **(وقد أردت تولية مصر هاشم بن عتبة)** ابن أبي وقاص **(ولو وليّته إيّاها لما خلا لهم العرصة ولا انهزهم الفرصة)** كما انهزها محمّد إياهم وخلاها لهم وفرّ منها ظانّاً أنه بالفرار ينجو بنفسه فلم ينج وأخذ وقتل **(بلا ذمّ لمحمّد)** أي لست في كلامي ذلك ذامّاً له لكون تلك التخلية منه للعدوّ من العجز لا من التقصير والتّواني **(فـ)** بإنّه **(لقد كان إليّ حبيباً**

(١) الغارات: ١/ ٣٠١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٥٨٠ ح ٧٢٥.

و) كان (لي ربيباً).

تنبيهان

الأول: في ترجمة محمّد بن أبي بكر وهاشم بن عتبة.

أمّا محمّد فهو جليل القدر عظيم المنزلة من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام قال ابن طاووس: ولد في حجة الوداع قتل بمصر سنة ثمان وثلاثين من الهجرة.

وعن رجال الكشي عن الصّادق عليه السلام: أن محمّد بن أبي بكر أتته النجابة من قبل أمّه أسماء بنت عميس، وعنه أيضاً مسنداً عن أبي جعفر عليه السلام: أنّ محمّد بن أبي بكر بايع عليّاً على البراءة من أبيه، وفي شرح المعتزلي أمّ محمّد أسماء بنت عميس بن النّعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم كانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولدت له هناك عبد الله بن جعفر الجواد، ثمّ قتل عنها يوم موتة فخلف عليها أبو بكر فأولدها محمّداً، ثمّ مات عنها فخلف عليها عليّ بن أبي طالب عليه السلام وكان محمّد ربيبه وخريجه وجارياً عنده مجرى أولاده ورضع الولاء والتشيّع من زمن الصّبا فنشأ عليه فلم يكن يعرف أباً غير عليّ عليه السلام ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره حتّى قال عليّ: محمّد ابني من صلب أبي بكر[1]، وكان يكنّى أبا القاسم في قول ابن قتيبة، وقال غيره: بل يكنّى أبا عبد الرّحمن.

وكان محمّد من نسّاك قريش وكان ممّن أعان يوم الدار، واختلف هل باشر قتل عثمان أولاً، ومن ولد محمّد القاسم بن محمّد فقيه الحجاز وفاضلها، ومن ولد القاسم عبد الرحمن بن القاسم كان من فضلاء قريش يكنّى أبا محمّد ومن ولد القاسم أيضاً أم فروة تزوّجها الباقر أبو جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام، انتهى.

أقول: وقد تقدّم في شرح الخطبة الشّقشقيّة أنّ الصادق عليه السلام تولد من أمّ فروة.

وفي مجالس المؤمنين أنّ أهل السّنّة يسمّون معاوية بسبب اخته أمّ حبيبة خال المؤمنين ولا يسمّون محمّداً بذلك مع أنّ عائشة أخته وهي أمّ المؤمنين عندهم وذلك لنصب معاوية وعداوته لأمير المؤمنين عليه السلام وكون محمّد رضي الله عنه من خواص أصحابه وخلّص تلامذته، ومن شعره رضي الله عنه:

يا أبانا قد وجدنا ما صلح	خاب من أنت أبوه وافتضح
إنّما أخرجنا منك الذي	أخرج الدّرّ من الماء الملح
أنسبت العهد في خمّ وما	قاله المبعوث فيه وشرح

(١) بحار الأنوار: ٤٢/ ١٦٢، والمناظرات في الإمامة: ٨٦.

فيك وصّي أحمد في يومها … أم لمن أبواب خيرٍ قد فتح
أم بارث قد تقمصت بها … بعدما يحتجّ عجلك وكشح
وسألك المصطفى عما جرى … من قضاياكم ومن تلك القبح
ثمّ عن فاطمة وارثها … من روى فيه ومن فيه فضح
ما ترى عذرك في الحشر غداً … يا لك الويل إذ الحقّ اتضح
فعليك الخزى من ربّ السماء … كما ناح حمام وصدح
يا بني الزّهراء أنتم عدّتي … وبكم في الحشر ميزاني رجح
وإذا صحّ ولائي بكم … لا أبالي أيّ كلب قد نبح

وأما هاشم فهو ابن عتبة بن أبي وقاص وسمى المرقال لأنه كان يرقل في الحرب، وعن **«الاستيعاب»** أنه كان من أصحاب رسول الله ﷺ نزل الكوفة وكان من الفضلاء الخيار، وكان من الأبطال، وفقئت عينه يوم اليرموك؟ وكان خيراً فاضلاً شهد مع عليّ عليه السلام الجمل، وشهد صفين وأبلا بلاءً حسناً وبيده كانت راية عليّ على الرّجالة يوم صفين، ويومئذٍ قتل وكانت صفين سنة سبع وثلاثين.

أقول: وقد تقدّم كيفية قتاله وشجاعته وشهادته رضي الله عنه في شرح الخطبة الخامسة والستين.

الثاني

في الإشارة إلى بعض الفتن الحادثة بمصر، وشهادة محمّد بن أبي بكر رضي الله عنه.

فأقول: في **«شرح المعتزلي»** و**«البحار»** جميعاً من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمّد الثقفي.

قال إبراهيم: بإسناده عن الكلبي أنّ محمّد بن حذيفة هو الذي حرّض المصرّيين على قتل عثمان وندبهم إليه، وكان حينئذٍ بمصر، فلمّا ساروا إلى عثمان وحصروه وثب هو بمصر على عامل عثمان عليها، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح فطرده عنها وصلى بالناس، فخرج ابن أبي سرح من مصر ونزل على تخوم أرضِ مصر مما يلي فلسطين، وانتظر ما يكون من أمر عثمان، فلما بلغ إليه خبر قتله وبيعة الناس لأمير المؤمنين عليه السلام لحق بمعاوية.

قال: فلمّا ولي عليّ عليه السلام الخلافة وكان قيس بن سعد بن عبادة من شيعته ومناصحيه قال له: سر إلى مصر فقد وليتكها واخرج إلى ظاهر المدينة واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتّى تأتي مصر ومعك جند، فإنّ ذلك أرعب لعدوّك وأعزّ لوليّك، فإذا قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن واشدد على المريب، وارفق بالعامّة والخاصّة فالرّفق يمن.

فقال قيس: يا أمير المؤمنين قد فهمت ماذكرت، فأمّا الجند فإنّي أدعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريباً منك، وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا لك عدّة ولكني أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتي، وأمّا ما أوصيتني به من الرّفق والإحسان فالله هو المستعان على ذلك.

قال: فخرج قيس في سبعة نفر من أهله حتّى دخل مصر وصعد المنبر وأمر بكتاب معه يقرأ على النّاس فيه:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى من بلغه كتاب من المسلمين، سلام عليكم فإنّي أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد، فإنّ الله بحسن صنعه وقدره وتدبيره اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، وبعث أنبيائه إلى عباده، فكان ممّا أكرم الله عزّ وجلّ به هذه الأمة وخصّهم به من الفضل أن بعث محمّداً ﷺ إليهم فعلمهم الكتاب والحكمة والسّنّة والفرائض، وأدبهم لكيما يهتدوا وأجمعهم لكي لا يتفرّقوا، وزكاهم لكيما يتطهروا فلمّا قضى من ذلك ما عليه قبضه الله إليه، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه.

ثمّ إنّ المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم صالحين أحييا السّيرة ولم يعدوا لسنّة، ثم توفيا فولي بعدهما من أحدث احداثاً فوجدت الأمّة عليه مقالاً فقالوا ثمّ نقموا عليه فغيّروا ثمّ جاؤوني فبايعوني وأنا أستهدي الله للهدى وأستعينه على التقوى، ألا وإنّ لكم علينا العمل بكتاب الله وسنّة رسوله والقيام بحقه والنصح لكم بالغيب والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد بعثت لكم قيس بن سعد الأنصاري أميراً فوازروه وأعينوه على الحقّ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم والشّدة على مريبكم والرّفق بعوامكم وخواصكم وهو ممّن أرضى هديه وأرجو صلاحه ونصحه، نسأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً وثواباً جزيلاً ورحمة الله وبركاته[1]، وكتب عبيد الله بن أبي رافع في صفر سنة ستّ وثلاثين.

قال: فلمّا فرغ من قراءة الكتاب قام قيس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال:

الحمد لله الذي جاء بالحقّ وأمات الباطل وكبت الظالمين أيّها الناس إنا بايعنا خير من نعلم بعد نبيّنا فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنّة نبيّه فإن نحن لم نعمل فيكم بكتاب الله وسنّة رسول الله فلا بيعة لنا عليكم.

فقام النّاس فبايعوه واستقامت مصر وأعمالها لقيس وبعث عليها عماله إلاّ أنّ قرية فيها قد أعظم أهلها قتل عثمان وبها رجل من بني كنانة يقال له: يزيد بن الحرث فبعث إلى قيس

(١) الغارات: ١/ ٢١١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٥٣٥.

إنّا لا نأتيك فابعث عمّا لك فالأَرضِ أرضك ولكن اقرّنا على حالنا حتّى ننظر إلى ما يصير أمر النّاس ووثب مسلمة بن مخلد الأنصاري ودعى إلى الطلب بدم عثمان، فأرسل إليه قيس ويحك أعليٌّ تسبّ والله ما أحبّ أنّ لي ملك الشّام ومصر وإنّي قتلتك فأحقن دمك، فأرسل إليه مسلمة إنّي كاف عنك ما دمت والي مصر.

وكان قيس ذا رأيٍ وحزم فبعث إلى الذين اعتزلوا أنّي لا أكرهكم على البيعة ولكنّي أدعكم وأكفّ عنكم، فهادنهم وهادن مسلمة بن مخلد وجيء الخراج وليس أحد ينازعه.

قال إبراهيم: وخرج علي إلى الجمل وقيس على مصر ورجع إلى الكوفة من البصرة وهو بمكانه وكان أثقل خلق الله على معاوية لقرب مصر وأعمالها من الشّام فكتب معاوية إلى قيس وعلي عليه السلام يومئذٍ بالكوفة قبل أن يسير إلى صفين:

من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو أمّا بعد، إن كنتم نقمتم على عثمان في أثرة «عثرة» رأيتموها أو ضربة سوط ضربها أو في شتمه أو تمييزه أحداً أو في استعماله الفتيان من أهله فإنّكم قد علمتم إن كنتم تعلمون أنّ دمه لا يحل لكم بذلك، فقد ركبتم عظيماً من الأَمر وجئتم شيئاً إدّاً، فتب يا قيس إلى ربك إن كنت من المجلبين على عثمان إن كانت التوبة قبل الموت تغني شيئاً.

وأمّا صاحبك فقد استيقنا أنّه أغرى النّاس به وحملهم على قتله حتى قتلوه وأنّه لم يسلم من دمه عظم قومك، فإن استطعت يا قيس أن تكون ممّن يطلب بدم عثمان فافعل وبايعنا على عليّ في أمرنا هذا ولك سلطان العراقين إن أنا ظفرت ما بقيت ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلني من غير هذا نحب ما تحبّ فإنّك لا تسألني عن شيء إلا أديته فإنك امرؤٌ وأحب أن ندافعه ولا نبدي له أمره ولا نعجل له حربه واكتب إلى برأيك فيما كتبت إليك والسّلام.

فكتب إليه أمّا بعد فقد وصل إلي كتابك وفهمت الذي ذكرت من أمر عثمان وذلك أمر لم أقاربه وذكرت أنّ صاحبي هو الذي أغرى النّاس بعثمان ودسهم إليه حتّى قتلوه، وهذا أمر لم أطلع عليه، وذكرت لي أنّ عظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان فلعمري إنّ أولى النّاس كان في أمره عشيرتي.

وأما ما سألتني من مبايعتك على الطلب بدمه وما عرضته علي فقد فهمته وهذا أمر لي فيه نظر وفكر وليس رأس هذا ممّا يعجل إلى مثله وأنا كاف عنك وليس يأتيك من قبلي شيء تكرهه حتّى ترى ونرى إنشاء الله والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: فلما قرأ معاوية الكتاب لم يره إلاّ مقارباً مباعداً ولم يأمن أن يكون مخادعاً مكائداً فكتب إليه:

أما بعد، فقد قرأت كتابك فلم أراك تدنو فأعدك سلماً، ولم أراك تتباعد فأعدك حرباً أراك كالجمل الجرور[1] وليس مثلي بصانع بالخداع ولا يخدع بالمكائد ومعه عدد الرّجل واعنة الخيل، فإن قبلت الذي عرضت عليك فلك ما أعطيتك وإن أنت لم تفعل ملئت مصر عليك خيلاً ورجلاً والسّلام.

فلما قرأ قيس كتابه وعلم أنّه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة أظهر له ما في نفسه، فكتب إليه من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبي سفيان.

أما بعد: فالعجب من استسقاطك رأيي والطمع فيما تسومني لا أباً لغيرك من الخروج من طاعة أولى النّاس بالأمر وأقولهم بالحقّ وأهداهم سبيلاً وأقربهم من رسول الله وسيلة أتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد النّاس من هذا الأمر وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلاً وأنا هم من رسول الله وسيلة ولديك قوم ضالون مضلون طواغيت إبليس، وأما قولك إنّك تملأ عليّ مصر خيلاً ورجلاً فلئن لم أشغلك من ذلك حتّى يكون منك أنك ذو جدّ والسّلام.

فلما أتى معاوية كتاب قيس آيس وثقل مكانه عليه وكان يحب أن يكون مكانه غيره أعجب لما يعلم من قوته وبأسه ونجدته، فاشتد أمره على معاوية فأظهر للنّاس أن قيساً قد بايعكم فادعوا الله له وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه واختلق كتاباً نسبه إلى قيس فقرأه على النّاس للأمير معاوية من أبي سفيان من قيس بن سعد.

أما بعد، إنّ قتل عثمان حدث في الإسلام عظيماً وقد نظرت لنفسي وديني فلم أر يسعني وديني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا ونسأله العصمة لديننا ألا وإنّي قد ألقيت إليك بالسّلم وأجبتك إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم فاطلب منّي ما أحببت من الأمور والرّجال اعجله إليك إن شاء الله، والسّلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قال: فشاع في الشام كلها أنّ قيساً صالح معاوية وأتت عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك، فأعظمه وأكبره وتعجب له ودعا ابنيه حسناً وحسيناً وابنه محمّداً وعبد الله بن جعفر فأعلمهم بذلك وقال: ما رأيكم؟ فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين دع ما يريبك إلى ما لا يريبك اعزل قيساً عن مصر، قال علي عليه السلام والله إنّي غير مصدق بهذا على قيس، فقال عبد الله: اعزله يا أمير المؤمنين فإن كان ما قد قيل حقّاً لا يعتزل لك إن عزلته.

قال: وانّهم لكذلك إذ جاءهم كتاب من قيس بن سعد فيه:

أمّا بعد، فإنّي أخبرك يا أمير المؤمنين أكرمك الله وأعزّك، أن قبلي رجالاً معتزلين

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٥٣٨، والدرجات الرفيعة: ٣٤٠.

سألوني ان اكفّ عنهم وأدعهم على حالهم حتّى يستقيم أمر النّاس ونرى ويرون، وقد رأيت أن أكفّ عنهم ولا أعجل بحربهم وأن أتالفهم بين ذلك لعل الله أن يقبل بقلوبهم ويفرّقهم عن ضلالتهم إن شاء الله والسّلام.

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين إنّك إن أطعته في تركهم واعتزالهم استسرى الأمر وتفاقمت الفتنة وقعد عن بيعتك كثير ممّن تريده على الدّخول فيها ولكن مره بقتالهم، فكتب إليه:

أمّا بعد، فسر إلى القوم الذين ذكرت فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلاّ فناجزهم والسّلام.

فلما أتى هذا الكتاب قيساً فقرأه لم يتمالك أن كتب إلى علي عليه السلام.

أمّا بعد يا أمير المؤمنين تأمرني بقتل قوم كافين عنك لم يمدّوا يداً للفتنة ولا أرصدوا لها فأطعني يا أمير المؤمنين وكف عنهم فإنّ الرّأي تركهم والسّلام.

فلما أتاه الكتاب قال عبد الله بن جعفر، يا أمير المؤمنين ابعث محمّد بن أبي بكر إلى مصر يكفيك واعزل قيساً فوالله ليبلغني أنّ قيساً يقول أنّ سلطاناً لا يتمّ إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء والله ما أحب أن لي سلطان الشّام مع سلطان مصر وإنّني قتلت ابن مخلد.

وكان عبد الله بن جعفر أخا محمّد بن أبي بكر لأمّه وكان يحبّ أن يكون له أمرة وسلطان فاستعمل عليّ محمّد بن أبي بكر مصر لمحبّته له ولهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه وكتب معه كتاباً إلى أهل مصر فسار حتّى قدمها فقال له قيس: ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل أحد بيني وبينه؟ قال: لا وهذا السلطان سلطانك وكان بينهما نسب وكان تحت قيس قريبة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر فكان قيس زوج عمّته، فقال قيس: لا والله لا أقيم معك ساعة واحدة فغضب وخرج من مصر مقبلاً إلى المدينة ولم يمض إلى عليّ بالكوفة.

فلما قدم المدينة جاء حسان بن ثابت شامتاً به وكان عثمانياً فقال له: نزعك علي بن أبي طالب وقد قتلت عثمان فبقي عليك الإثم ولم يحسن عليك الشكر، فزجره قيس وقال: يا أعمى البصر والله لولا أن ألقى بيني وبين رهطك حرباً لضربت عنقك ثمّ أخرجه من عنده.

ثمّ إنّ قيساً وسهل بن حنيف خرجا حتّى قدما على علي عليه السلام الكوفة فخبره قيس الخبر وما كان بمصر، فصدقه وشهد مع علي بصفين هو وسهل بن حنيف وكان قيس طوالاً أطول النّاس وأمدّهم قامة وكان سبطاً أصلع شجاعاً مجرياً مناصحاً لعلي عليه السلام ولولده ولم يزل على ذلك إلى أن مات.

وعن هشام بن عروة قال: كان قيس على مقدّمة علي بصفين معه خمسة آلاف قد حلقوا

رؤوسهم.

وفي «**البحار**» وجدت في بعض الكتب أنّ عزل قيس من مصر ممّا غلب أمير المؤمنين أصحابه واضطروه إلى ذلك ولم يكن هذا رأيه كالتحكيم ولعله أظهر وأصوب.

قال إبراهيم وكان عهد علي عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر:

هذا ما عهد عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى محمّد بن أبي بكر حين ولاه مصر؛ أمره بتقوى الله في السّر والعلانية وخوف الله في المغيب والمشهد، وأمره باللين على المسلم والغلظة على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمة وبالانصاف للمظلوم وما يشده على الظالم، وبالعفو على النّاس وبالإحسان ما استطاع والله يجزي المسحنين ويعذّب المجرمين، وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة فإنّ لهم في ذلك من العافية وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه[1].

وأمره أن يجبي خراج الأَرض على ما كانت تجبي عليه من قبل لا ينتقص ولا يبتدع ثمّ يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل، وإن تكن لهم حاجة يواسي بينهم في مجلسه ووجهه ليكون القريب والبعيد عنده على سواء، وأمره أن يحكم بين النّاس بالحق وأن يقوم بالقسطاس ولا يتبع الهوى ولا يخاف في الله لومة لائم فإنّ الله مع من اتّقاه وآثر طاعته على من سواه، وكتب عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله بغرّة شهر رمضان سنة ستّ وثلاثين.

قال إبراهيم: ثمّ قام محمّد بن أبي بكر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أمّا بعد فالحمد الله الذي هدانا وإيّاكم لما اختلف فيه من الحقّ، وبصّرنا وإيّاكم كثيراً ممّا عمى عنه الجاهلون ألا وإنّ أمير المؤمنين، ولاني أموركم وعهد إلي بما سمعتم وأوصاني بكثير منه مشافهة ولن الوكم جهداً ما استطعت، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب، فإن يكن ما ترون من آثاري وأعمالي طاعة لله وتقوى فاحمدوا الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادي إليه، وإن رأيتم من ذلك عملاً بغير الحقّ فارفعوه إليّ فإنّي بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون، وفقنا الله وإيّاكم لصالح العمل.

أقول: ولأَمير المؤمنين عليه السلام كتاب آخر مبسوط إلى محمّد وأهل مصر ورواه إبراهيم نرويه إنشاء الله في باب الكتب إن ساعدنا التّوفيق والمجال.

ثمّ قال إبراهيم: فلم يلبث محمّد بن أبي بكر شهراً كاملاً حتّى بعث إلى أولئك المعتزلون الذين كان قيس بن سعد موادعاً لهم، فقال: يا هؤلاء إمّا أن تدخلوا في طاعتنا وإمّا

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٥٤٠.

أن تخرجوا من بلادنا، فبعثوا إليه إنّا لا نفعل فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر النّاس فلا تعجل علينا فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم، ثمّ كانت وقعة صفين وهم لمحمّد هايبون.

فلمّا أتاهم خبر معاوية وأهل الشّام ثمّ صار الأمر إلى الحكومة وأن عليّاً وأهل العراق قد غفلوا عن معاوية والشّام إلى عراقهم، اجتروا على محمّد وأظهروا المنابذة له، فلما رأى محمّد ذلك بعث إليهم ابن جمهان البلوى ومعه يزيد بن الحرث الكناني فقاتلاهم فقتلوهما.

ثمّ بعث إليهم رجلاً من كلب فقتلوه أيضاً، وخرج معاوية بن حديج من السّكاسك يدعو إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه القوم وناس كثير آخرون وفسدت مصر على محمّد بن أبي بكر، فبلغ عليّاً توبتهم عليه، فقال: ما لي أرى لمصر إلاّ أحد الرّجلين صاحبنا الذي عزلناه بالأمس يعني قيس بن سعد أو مالك بن الحرث الأشتر.

وكان عليّ حين رجع عن صفين ردّ الأشتر إلى عمله بالجزيرة وقال لقيس بن سعد: أقم أنت معي على شرطتي حتّى نفرغ من أمر هذه الحكومة ثمّ أخرج إلى أذربيجان فكان قيس مقيماً على شرطته.

فلمّا انقضى أمر الحكومة كتب إلى الأشتر وهو يومئذٍ بنصيبين وطلبه إليه وبعثه إلى مصر ومات قبل الوصول إليه بتفصيل تطلع عليه في باب الكتب أيضاً إن شاء الله.

قال إبراهيم: فحدث محمّد بن عبد الله عن أبي سيف المدائني عن أبي جهضم الأزدي أنّ أهل الشّام لمّا انصرفوا عن صفين وأتى بمعاوية خبر الحكمين وبايعه أهل الشّام بالخلافة لم يزدادوا إلاّ قوّة ولم يكن لهم همّ إلاّ مصر فدعا عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أرطاة والضّحاك بن قيس وعبد الرّحمٰن بن خالد وشرجيل بن السّمط وأبا الأعور السّلمي وحمزة بن مالك فاستشارهم في ذلك.

قال عمرو بن العاص: نعم الرّأي رأيت في افتتاحها عزّك وعزّ أصحابك وذلّ عدوّك، وقال آخرون نرى ما رأى عمرو، فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري وإلى معاوية بن حديج الكندي وكانا قد خالفا عليّاً فدعاهما إلى الطلب بدم عثمان، فأجابا وكتبا إليه: عجّل إلينا بخيلك ورجلك فإنّا ننصرك ويفتح الله عليك.

فبعث معاوية عمر بن العاص في ستّة آلاف فسار عمرو في الجيش حتّى دنى من مصر فاجتمعت إليه العثمانيّة فأقام، وكتب إلى محمّد بن أبي بكر.

أمّا بعد فتنحّ عنّي يا ابن أبي بكر فإنّي لا أحبّ أن يصيبك منّي ظفر وأنّ النّاس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك وهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطنان، فاخرج منها فإنّي لك من النّاصحين والسّلام.

قال: وبعث عمرو إلى محمّد مع هذا الكتاب كتاب معاوية إليه هو:

أمّا بعد فإنّ غب الظلم والبغي عظيم الوبال وأنّ سفك الدّم الحرام لا يسلم صاحبه من النّقمة في الدّنيا والتّبعة الموبقة في الآخرة، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ولا أسوء له عيناً ولا أشدّ عليه خلافاً منك، سعيت عليه في السّاعين وساعدت عليه في المساعدين وسفكت دمه مع السّافكين، ثمّ تظنّ أنّي نائم عنك فتأتي بلدة فتأمن فيها وجل أهلها أنصاري يرون رأيي ويرفعون قولك ويرقبون عليك وقد بعثت إليك قوماً حناقاً عليك يسفكون دمك ويتقرّبون إلى الله عزّ وجلّ بجهادك وقد أعطوا الله عهداً ليقتلنك ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدي غيرهم من أوليائه، وأنا أحذّرك وأنظرك فإنّ الله مقيد منك ومقتص لوليّه وخليفته بظلمك به وبغيك عليه ووقيعتك فيه وعداوتك يوم الدّار عليه، تطعن بمشاقصك فيما بين احشائه وأوداجه، ومع هذا فإنّي أكره قتلك ولا أحبّ أن أتولى ذلك منك ولن يسلمك الله من النّقمة أين كنت أبداً فتنحّ وانج بنفسك والسّلام.

قال: فطوى محمّد بن أبي بكر كتابيهما وبعث بهما إلى عليّ عليه السلام وكتب إليه:

أمّا بعد يا أمير المؤمنين فإنّ العاصي ابن العاص قد نزل أدنى مصر واجتمع إليه من أهل البلد كلّ من كان يرى رأيهم وهو في جيش جرّار وقد رأيت ممّن قبلي بعض الفشل فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامددني بالأموال والرّجال، والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب عليه السلام إليه: «فقد أتاني رسولك بكتاب تذكر أنّ ابن العاص قد نزل أدنى مصر في جيش جرّار وأنّ من كان على مثل رأيه قد خرج إليه وخروج من كان على رأيه خير من اقامته عندك، وذكرت أنك قد رأيت ممّن قبلك فشلاً فلا تفشل وإن فشلوا، حصّن قريتك واضمم إليك شيعتك، وأوّل الحرس في عسكرك واندب إلى القوم كنانة بن بشر المعروف بالنّصيحة والتّجربة والبأس، فأنا نادب إليك النّاس على الصعب والذّلول فاصبر لعدوّك وامض بصيرتك وقاتلهم على نيّتك وجاهدهم محتسباً منه سبحانه، وإن كان فئتك أقلّ الفئتين فإنّ الله تعالى يعين القليل ويخذل الكثير.

وقد قرأت كتاب الفاجرين المتحابّين[1] على المعصية والمتلائمين على الضلالة والمرتشين في الحكومة والمنكرين على أهل الدّين الذين استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم، فلا يضرّنك إرعادهما وإبراقهما، وإجبهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله، فإنّك تجد مقالاً ما شئت والسّلام»[2].

---

(١) في نسخة: المتحامين.
(٢) بحار الأنوار: ٣٣/٥٥٩، وتاريخ الطبري: ٤/٧٧.

قال: فكتب محمّد بن أبي بكر إلى معاوية جواب كتابه:

أمّا بعد فقد أتاني كتابك تذكر من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه وتأمرني بالتنحي عنك كأنك لي ناصح وتخوّفني بالحرب كأنّك عليّ شفيق، وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم وأن يخذلكم الله في الواقعة وأن ينزل بكم الذّل وأن تولوا الدّبر، فإن يكن لكم الأمر في الدّنيا فكم وكم لعمري من ظالم قد نصرتم وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به وإلى الله المصير، وإليه ترد الأمور، وهو أرحم الرّاحمين، والله المستعان على ما تصفون.

وكتب إلى عمرو بن العاص:

أمّا بعد، فقد فهمت كتابك وعلمت ما ذكرت وزعمت أنّك لا تحبّ أن يصيبني منك الظفر، فاشهد بالله أنّك لمن المبطلين، وزعمت أنّك لي ناصح وأقسم أنّك عندي ظنين، وزعمت أنّ أهل البلد قد رفضوني وندموا على اتباعي فأولئك حزبك وحزب الشّيطان الرّجيم، وحسبنا الله ربّ العالمين، وتوكلت على الله العزيز الرّحيم، ربّ العرش العظيم.

قال إبراهيم: فحدّثنا محمّد بن عبد الله عن المدائني قال: فأقبل عمرو بن العاص يقصد قصد مصر فقام محمّد بن أبي بكر في النّاس فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

أمّا بعد يا معاشر المسلمين فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ويغشون أرض الضّلالة ويستطيلون بالجبرية قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بالجنود، فمن أراد الجنّة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم في الله، انتدبوا رحمكم الله مع كنانة بن بشر.

ثمّ ندب معه ألفي رجل، وتخلف محمّد في ألفين واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمّد فلمّا دنى عمرو من كنانة سرح إليه الكتائب كتيبة بعد كتيبة، فلم تأته كتيبة من كتائب أهل الشّام إلاّ شدّ عليها بمن معه فيضربها حتّى يلحقها بعمرو، ففعل ذلك مراراً، فلمّا رأى عمرو ذلك بعث معاوية بن حديج الكندي فأتاه في مثل الدّهم، فلمّا رأى كنانة ذلك الجيش نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه وضاربهم بسيفه حتّى استشهد.

قال: فلمّا قتل كنانة أقبل ابن العاص نحو محمّد وقد تفرّق عنه أصحابه، فخرج محمّد فمضى في طريق حتّى انتهى إلى خربة فآوى إليها، وجاء عمرو بن العاص حتّى دخل الفسطاط وخرج ابن حديج في طلب محمّد حتّى انتهى إلى علوج على قارعة الطريق فسألهم هل مرّ بكم أحد تنكرونه؟ قالوا: لا قال أحدهم: إني دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل جالس، قال ابن حديج: هو هو ورب الكعبة.

فانطلقوا يركضون حتّى دخلوا على محمد فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، فاقبلوا به نحو الفسطاط فوثب أخوه عبد الرّحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص وكان في جنده فقال: لا والله لا يقتل أخي صبراً ابعث إلى معاوية بن حديج فانهه، فأرسل عمرو بن العاص ان ائتني

بمحمّد، فقال معاوية: اقتلتم كنانة بن بشر ابن عمّي وأخلّى عن محمّد، هيهات هيهات أكفّاركم خير من أوليائكم أم لكم براءة في الزّبير.

فقال محمّد: اسقوني قطرة من ماء، فقال له ابن حديج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً، إنّكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتّى قتلتموه صائماً محرماً فسقاه الله من الرّحيق المختوم والله لأَقتلنّك يا ابن أبي بكر وأنت ظمآن ويسقيك الله من الحميم والغسلين.

فقال محمّد: يا ابن اليهودية النسّاجة ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان وإنّما ذلك إلى الله يسقي أولياءه ويظميء أعداءه وهم أنت وقرناؤك ومن تولاك وتولّيته، والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم منّي ما بلغتم، فقال له معاوية بن حديج: أتدري ما أصنع بك أدخلك جوف هذا الحمار الميت ثمّ أحرقه عليك بالنّار.

قال: إن فعلتم ذلك بي فطال ما فعلتم ذاك بأولياء الله وأيم الله إنّي لأَرجو أن يجعل الله هذه النّار التي تخوّفني بها برداً وسلاماً كما جعلها الله على إبراهيم خليله وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وعلى أوليائه وإنّي لأرجو أن يحرقك الله وإمامك معاوية وهذا، وأشار إلى عمرو بن العاص، بنار تلظى عليكم كلما خبت زادها الله عليكم سعيراً.

فقال معاوية بن حديج: إنّي لأَقتلك ظمآناً إنّما أقتلك بعثمان بن عفّان، قال محمّد: وما أنت وعثمان رجل عمل بالجور وبدّل حكم الله والقرآن وقد قال الله عزّ وجل:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فنقمنا عليه أشياء عملها فأردناه أن يختلع من عملنا فلم يفعل فقتله من قتله من النّاس، فغضب معاوية بن حديج فضرب عنقه ثمّ ألقاه في جوف حمار وأحرقه بالنّار.

فلمّا بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وقنتت في دبر كلّ صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج، وقبضت عيال محمّد أخيها وولده إليها فكان القاسم بن محمّد في عيالها، وحلفت عائشة أن لا تأكل شوي أبداً بعد قتل محمّد، فلم تأكل شوي حتى لحقت بالله، وما عثرت قطّ إلا قالت تعس معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج.

قال إبراهيم: وحدّثني محمّد بن عبد الله عن المدائني عن الحرث بن كعب عن حبيب بن عبد الله، قال والله إنّي عند علي إذ جاءه عبد الله بن معين من قبل محمّد بن أبي بكر يستصرخه قبل الوقعة، فقام عليّ عليه السلام فنادى في النّاس الصّلاة جامعة فاجتمع النّاس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وذكر رسول الله ثمّ قال عليه السلام:

«أمّا بعد فهذا صريخ محمّد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر قد سار إليهم ابن

النّابغة عدوّ الله وعدوّ من والاه وولاّ من عاد الله، فلا يكونن أهل الضّلال إلى باطلهم والرّكون إلى سبيل الطاغوت أشدّ اجتماعاً على باطلهم منكم على حقّكم، وقد بدؤوكم وإخوانكم بالغزو فاعجلوا إليهم بالمواساة والنّصر، عباد الله إن مصر أعظم من الشّام خيراً وخير أهلاً فلا تغلبوا على مصر فإنّ بقاء مصر في أيديكم عزّلكم وكبت لعدوّكم اخرجوا إلى الجزعة «والجزعة بين الحيرة والكوفة» لنتوافى هناك كلنا غداً إن شاء الله.

قال: فلمّا كان الغد خرج يمشي فأقام حتّى انتصب النّهار فلم يوافه مائة رجل فرجع فلما كان العشاء بعث إلى الأشراف فجمعهم فدخلوا عليه القصر وهو كئيب حزين فقال عليه السلام.

الحمد لله على ما قضى من أمر وقدر من فعل وابتلاني بكم أيّها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتها، ولا تجيب إذا دعوتها، لا أبا لغيركم ماذا تنتظرون بنصركم والجهاد على حقّكم، الموت خير من الذّلّ في هذه الدّنيا لغير الحقّ، والله إن جاءني الموت وليأتيني فليفرقنّ بيني وبينكم لتجدنّني لصحبتكم جدّ.

قال: ألا دين يجمعكم ألا حمية تغيظكم ألا تسمعون بعدوّكم ينتقص بلادكم ويشن الغارة عليكم أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطّغام الظلمة فيتّبعونه على غير عطاء ومعونة ويجيبونه في السّنة المرّة والمرّتين والثلاث إلى أيّ وجه شاء ثمّ أنا أدعوكم وأنتم أولوا النّهى وبقيّة النّاس تختلفون وتفرّقون منّي وتعصونني وتخالفون علي»[١].

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبي فقال: يا أمير المؤمنين اندب النّاس معي فإنّه لا عطر بعد عروس، وإنّ الأجر لا يأتي إلاّ بالكره، ثمّ التفت إلى النّاس، وقال: اتقوا الله وأجيبوا دعوة إمامكم وأنصروا دعوته وقاتلوا عدوّكم إنا نسير إليهم يا أمير المؤمنين.

فأمر علي عليه السلام سعداً مولاه أن ينادي ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر وكان وجهاً مكروهاً فلم يجتمعوا إليه شهراً، فلما اجتمع له منهم ما اجتمع خرج بهم مالك بن كعب فعسكر ظاهر الكوفة وخرج معه علي عليه السلام فنظر فإذا جميع النّاس نحو من ألفين فقال عليّ عليه السلام سيروا والله أنتم ما أخالكم تدركون القوم حتى ينقضي أمركم، وخرج مالك بهم وسار خمس ليال.

وقدم الحجاج بن عرية الأنصاري على علي عليه السلام وقدم عليه عبد الرّحمن بن المسيّب الفرازي من الشّام، فأمّا الفرازي فكان عيناً لعلي لا ينام وأما الأنصاري فكان مع محمّد بن أبي بكر، فحدّثه الأنصاري بما عاين وشاهد وأخبره بهلاك محمّد وأخبره الفرازي انه لم يخرج من الشّام حتّى قدمت البشرى من قبل عمرو بن العاص فيتبع بعضها بعضاً بفتح مصر وقتل

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٥٦٤، وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٩٠.

محمّد بن أبي بكر وحتّى أذن معاوية بقتله على المنبر.

وقال: يا أمير المؤمنين ما رأيت يوماً قط سروراً مثل ما رأيته بالشام حين أتاهم قتل ابن أبي بكر، فقال عليّ عليه السلام: أما إنّ حزننا على قتله على قدر سرورهم به لا بل يزيد أضعافاً.

قال: وحزن علي عليه السلام على محمّد حتّى رؤي ذلك فيه وتبيّن في وجهه وقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

ألا وإن، المصر قد افتتحها الفجرة أولياء الجور والظلم الذين صدوا عن سبيل الله ويغوا الإسلام عوجاً، ألا وإنّ محمّد بن أبي بكر قد استشهد رحمة الله عليه وعند الله نحتسبه، أما والله لقد كان ما عملت ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحبّ سمت المؤمن، إنّي والله ما ألوم نفسي على تقصير ولا عجز وإنّي لمقاساة الحرب مجد بصير إني لأقدم على الحرب وأعرف وجه الحزم وأقوم بالرّأي المصيب فأستصرخكم وأناديكم مستغيثاً فلا تسمعون قولاً ولا تطيعون لي أمراً حتّى تصير الأمور إلى عواقب المساءة وأنتم القوم لا يدرك بكم الثّأر ولا ينقص بكم الأوتار، دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلاً فجرجرتم عليّ جرجرة الجمل الأشر وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نيّة له في الجهاد ولا رأي في الإكتساب للأجر، ثمّ خرج إلي منكم جنيد متذائب ضعيف كأنما تساقون إلى الموت وهم ينظرون فأفّ لكم[1]، ثمّ نزل فدخل رحله.

قال المدائني: إنّ علياً عليه السلام قال: رحم الله محمّداً كان غلاماً حدثاً لقد كنت أردت أن أولي المرقال هاشم بن عتبة مصراً فإنّه والله لو وليها ما خلى لابن العاص وأعوانه العرصة ولا قتل إلاّ وسيفه في يده بلا ذم لمحمد فلقد أحمد نفسه وقضا ما عليه.

قال المدائني وقيل لعلي عليه السلام: لقد جزعت يا أمير المؤمنين على محمّد بن أبي بكر، فقال: وما يمنعني إنّه كان لي ربيباً وكان لي أخاً وكنت له والداً أعده ولداً.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٥٦٥، ونهج السعادة: ٢/ ٤٧٤.

الترجمة

از جمله كلام آن امام انام است در وقتى كه ايالت مصر را به محمد بن ابى بكر تفويض فرمود:

پس مملوك شد مصر و مقتول گرديد محمد؛ يعنى محمد را به امر معاويه ملعون شهيد كردند و به مصر مستولى شدند و به تحقيق كه مى خواستم هاشم بن عتبه را والى مصر نمايم و اگر او را والى مصر كرده بودم، هرآينه خالى نمى كرد از براى دشمنان عرصه مصر را و نمى داد به ايشان فرصت را در حالتى كه مذمت نمى كنم محمد را، پس به تحقيق كه بود محمد به سوى من دوست مخلص و بود مرا پسر زن از جهت اين كه مادر او اسماء بنت عميس زوجه جعفر بن ابى طالب بود و بعد از او ابوبكر او را تزويج نمود و محمد از او متولد شد و بعد از وفات ابى بكر، اميرالمؤمنين آن را به نكاح خود درآورد.

ومن كلام له عليه السلام وهو الثامن والستون
من المختار في باب الخطب

«كَمْ أُدارِيكُمْ كَمَا تُدارَى الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ، وَالثِّيابُ الْمُتَداعِيَةُ، كُلَّما حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّما أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَانْحَجَرَ انْحِجَارَ الضَّبَةِ في جُحْرِهَا وَالضَّبُعِ في وِجَارِها، الذَّلِيلُ وَاللَّهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ، وَمَنْ رَمَىٰ بِكُمْ فَقَدْ رَمَىٰ بِأَفْوَقِ ناصِلٍ، وَوَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَكِثيرٌ في الْباحاتِ، قَليلٌ تَحْتَ الرّاياتِ وَإِنّي لَعَالَمٌ بِما يُصْلِحُكُمْ ويُقيمُ أَوَدَكُمْ، وَلٰكِنّي لاَ أَرَى إِصلاَحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسي، أَضْرَعَ اللَّهُ خُدُودَكُمْ، وأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ، لا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْباطِلَ، ولا تُبْطِلُونَ الْباطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ»[1].

اللغة

(البكار) بالكسر جمع بكر بالفتح وهو الفتى من الإبل و**(العمدة)** بكسر الميم من العمد الورم والدّبر وقيل العمدة التي كسرها ثقل حملها، وقيل: التي قد انشدخت أسنمتها من داخلها وظاهرها صحيح و**(المتداعية)** الخلقة التي تنخرق وإنّما سمّيت متداعية لأنّ بعضها يتخرّق فيدعو الباقي إلى الانخراق.

و**(الحوص)** الخياطة يقال حاص الثوب يحوصه حوصاً خاطه و**(اطل)** عليه بالطاء المهملة أشرف وفي بعض النسخ بالمعجمة أي أقبل إليكم ودنى منكم و**(المنسر)** كمجلس وكمنبر القطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكثير و**(الجحر)** بالضّم كلّ شيء يحتفره السّباع والهوام لأنفسها وحجر الضّب كمنع دخله وحجره غيره أدخله فانحجر وتحجّر وكذلك أحجره و**(الضبّة)** أنثى الضّباب وهي دابة برّية.

و**(الضّبع)** مؤنثه و**(وجارها)** بالكسر جحرها و**(الأفوق)** المكسور الفوق و**(الناصل)** المنزوع النّصل و**(الباحة)** السياحة وفي بعض النّسخ الساحات و**(الراية)** العلم و**(الأود)** بالتّحريك العوج و**(ضرع)** إليه بالتثليث ضرعاً بالتحريك وضراعة خضع وذل واستكان وأضرعه الله أذله و**(التّعس)** الهلاك والانحطاط.

و**(الجدود)** بالضّم جمع الجد بالفتح كالجدودة والأجداد وهو البخت والحظ وفي

---

(١) الإرشاد للمفيد: ١/ ٢٧٢، والغارات للثقفي: ٢/ ٤٢٤ ح ٥.

الكتاب الكريم:

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ٣﴾ [الجن: ٣].

الإعراب

جملة (**كلما حيصت**) في محل الرّفع صفة للثياب، وجملة (**كلما أطل**) استئنافية وتحتمل الاستئناف البياني فكأنه سئل عن سبب المداراة فأشار إلى الجواب بها، وقوله (**الذّليل والله ما**) (ا ه)، جملة القسم معترضه بين الخبر والمبتدأ وتقديم الخبر لقصد الحصر، وجملة (**أضرع الله خدودكم، وأنعس جدودكم**) دعائيتان لا محل لهما من الإعراب.

المعنى

اعلم أنّ المقصود بهذا الكلام توبيخ أصحابه، وذمّهم بتثاقلهم عن الجهاد، وتقاعدهم عن النّهوض إلى حرب أهل الشّام، فأشار أوّلاً إلى كونهم محتاجين إلى المداراة الكثيرة البعيدة عن شيمة أهل النّجدة والشّجاعة وذوي الفتوة والكياسة ونبّه على ذلك بقوله:

(**كم أداريكم كما تداري البكار العمدة والثياب المتداعية**) أي كما يداري صاحب البعير بعيره المنشدخ السّنام ولابس الأثواب ثيابه الخلقة المنخرقة، ووجه تشبيههم بالبكار العمدة هو قلة صبرهم وشدّة إشفاقهم وعدم تحملهم لمشاق الجهاد والقتال كما يشتدّ جرجرة البكر العمد ويقل صبره ولا يتحمل ثقال الأحمال.

ووجه التّشبيه بالثياب المتداعية أنّ الثياب الموصوفة كما أنّها (**كلما حيصت من جانب تهتك من جانب آخر**) فكذلك أصحابه كلما أصلح حال بعضهم وانتظم أمرهم للحرب فسد عليه البعض الآخر (**كلما أطل عليكم**) وأشرف (**منسر من مناسر أهل الشّام أغلق كل رجل منكم بابه**) ولزم بيته من شدّة الجبن والخوف و(**انحجر انحجار الضبّة في حجرها والضّبع في وجارها**).

تخصيصهما من بين سائر الحيوانات بالذّكر لاتّصاف الأولى بالجهل والعقوق حتّى صار يضرب بها المثل في الجهل، ولذلك لا تحفر جحرها إلا عند صخرة لئلا تضلّ عنه إذا خرجت لطلب الطعام ومن عقوقها أنّها تأكل حسولها[(١)] واتصاف الثانية بالحمق كما عرفت ذلك في شرح سادس المختار في باب الخطب، وخصّ الإناث منهما أيضاً لأنّهما أولى بالمخافة من الذّكر.

(١) حسول: ولد الضب حين يخرج من بيضته.

أنّ (**الذليل والله من نصرتموه**) لاتّصاف المخاطبين في أنفسهم بالذلة فيلزم اتّصاف المنتصرين بهم بها أيضاً (**ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل**) شبّههم بالسّهم المكسور الفوق المنزوع النّصل لعدم الانتفاع بهم في الحرب كما لا ينتفع بالسّهم الموصوف وقد مضى مثل هذه العبارة في الخطبة التّاسعة والعشرين، وذكرنا هنالك ما يوجب زيادة توضيحها.

(**ووالله إنّكم لكثير في الباحات قليل تحت الرايات**) وصفهم بالكثرة في الأندية والقلة تحت الألوية إشارة إلى جبنهم، فإنّ هذين الوصفين من لوازم الجبن والخوف كما أن مقابلهما من لوازم الفتوة والشجاعة ولذلك يهجو الشّعراء بالأوّل ويمدحون بالثّاني قال الشّاعر:

أما إنكم تحت الخوافق والقنا   لثكلاء لا زهراء من نسوة زهر

الستم أقل النّاس تحت لوائهم   وأكثرهم عند الذّبيحة والقدر

وقال آخر:

ثقال إذا لانوا خفاف إذا دعوا   قليل إذا عدوا كثير إذا شدّوا

(**و**) الله (**إنّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم**) وهو إقامة مراسم السّياسة فيهم من القتل والتّعذيب واستعمال وجوه الحيل والتّدبير والمخالفة لأمر الله سبحانه، ولذلك استدرك بقوله (**ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي**) يعني أنّ إصلاحكم بالقتل والسّياسة موجب لفساد نفسي وديني ولا أرضى به كما يرتضيه ملوك الدّنيا ورؤسائها بلحاظ صلاح ملكهم وانتظام أمر مملكتهم لكون نظرهم مقصوراً على زخارف الدّنيا وزهراتها العاجلة وغفلتهم بالكليّة عن الآخرة.

وأما هو عليه السلام فراعى صلاح نفسه وقدمه على إصلاح حال الغير لانحصار همته في الآخرة وانقطاعه بكليّته عن الدّنيا الفانية، فلم يكن يستحلّ منهم ما يستحلّ سائر الملوك من رعيّتهم من القتل والتّعذيب الموجبين للإثم والمعصية المستلزمين لفساد الدّين والسّخط في الآخرة.

ثمّ دعى عليه السلام عليهم بقوله (**أضرع الله خدودكم**) وهو كناية عن ذلة النّفس والاستكانة وبقوله (**وأتعس جدودكم**) وهو كناية عن الخسران والخيبة.

ثم نبههم على علّة استحقاقهم للدّعاء بقوله (**لا تعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل**) أراد به جهلهم بما يلزم عليهم من القيام بوظائف التّكاليف الشّرعية والأحكام الإلهية واشتغالهم بالأمور الدّنيوية الباطلة (**ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحقّ**) أراد به عدم إبطالهم للمنكر كإبطالهم للمعروف.

الترجمة

از جمله کلام آن حضرت است در مذمت اصحاب خود:

چه قدر مدارا کنم با شما چنان که مدارا کنند با شترانی که کوفناك باشد کوهان ایشان و هم چنان که مدارا کنند با لباس های کهنه پاره پاره به مرتبه ای که هر وقت دوخته شود از جانبی، دریده می شود از جانب دیگر، هروقت که مشرف شود بر شما دسته لشگری از لشگرهای اهل شام می بندد هر مردی از شما در خانه خود از ترس و درآید در سوراخ، همچو در آمدن سوسمار در سوراخ خود و همچو درآمدن کفتار در خانه خود.

به خدا سوگند که ذلیل آن کسی است که شما ناصر آن شده باشید و کسی که تیراندازد با شما به دشمنان، پس به تحقیق که می اندازد به تیر سوفار شکسته بی پیکان. قسم به خدا که به درستی شما هرآینه بسیارید در عرصه ها و اندکید در زیر علم ها و به درستی من دانا هستم به چیزی که اصلاح نماید شما را و راست گرداند کجی شما را ولیکن من به خدا سوگند نمی بینم اصلاح شما را با فساد نفس خود.

خوار گرداند خدا رخسارهای شما را و تباه گرداند نصیب های شما را. نمی شناسید شما حق کامل را چنان چه می شناسید باطل را و باطل نمی گردانید باطل را همچو باطل گردانیدن شما حق را؛ یعنی شما به امور دنیویه باطله مشغولید و از امور اخرویه غافل.

وقال عليه السلام في سحرة اليوم الذي ضرب فيه وهو التاسع والستون من المختار باب الخطب

«مَلَكَتْنِي عَيْنِي وأَنا جالِسٌ فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ماذا لَقِيْتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الأَوَدِ واللَّدَدِ؟ فَقالَ: أُدْعُ عَلَيْهِمْ، فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْراً لِي مِنْهُمْ، وأَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي»[١].

قال السّيد (ره): يعني بالأَولاد الاعوجاج، واللدد الخصام وهو من أفصح الكلام.

اللغة

(**السّحر**) بالتّحريك قبيل الصّبح والسّحرة بالضّم السّحر الأعلى و(**سنح**) لي رأى كمنع سنوحاً وسنحاً بالفتح وسنحاع بالضّم عرض و(**أود**) يا وداودا من باب الفرح.

الإعراب

جملة (**أنا جالس**) حال من مفعول (**ملكت**)، وما في قوله ماذا لقيت استفهامية استعظامية كما في قوله تعالى ﴿ٱلْحَآقَّةُ ١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ٢﴾ [الحاقة: ١-٢]، (**وذا**) إمّا موصولة أو زائدة كما قلناه في ما سبق، (**والباء**) في قوله (**بهم وبي**) للمقابلة.

المعنى

قال الشّارح البحراني: قوله (**ملكتني عيني**) استعارة حسنة وتجوّز في التركيب أمّا الاستعارة فلفظ الملك للنوم ووجه الاستعارة دخول النائم في غلبة النوم وقهره ومنعه له أن يتصرف في نفسه كما يمنع المالك المملوك من التّصرف في أمره، وأمّا التّجوز ففي العين وفي الاسناد إليها، أمّا الأوّل فأطلق لفظ العين على النوم لما بينهما من الملابسة إذا طباق الجفون من عوارضهما، وأمّا الثاني فإسناد الملك إلى النوم المتجوّز فيه بلفظ لعين.

أقول: حاصله أنّه من باب الاستعارة التّبعية مثل قولهم: نطقت الحال بكذا، ومحصّله أن الملك استعارة عن غلبة النوم والعين مجاز عن النّوم بعلاقة المجاورة واسناد الغلبة إلى النوم مجاز عقلي فافهم، فالمعنى غلبني نومي (**وأنا جالس فسنح لي رسول الله**) أي رأيته في المنام أو مرّ بي معترضاً (**فقلت يا رسول الله ماذا لقيت من أمّتك من الأود واللدد فقال: ادع**

---

(١) نهج السعادة: ٢/ ٧٢٣، وميزان الحكمة: ٢/ ٨٦٥ ح ١١٨٨.

عليهم) شكايته منهم إلى رسول الله ﷺ دليل على غاية كربه منهم من جهة تقصيرهم في الإجابة إلى دعائه والتّلبية لندائِه وتوانيهم في القتال والجهاد، وترخيص رسول الله في دعائه عليهم دليل على عدم رضائه عنهم.

وقوله: **(فقلت أبدلني الله بهم خيراً لي منهم وأبدلهم بي شرّاً لهم منّي)** لا يدلّ على اتّصافه بالشّر إذ صيغة أفعل لم يرد بها التّفضيل بل المراد مجرد الوصف أو بناء التّفضيل على اعتقاد القوم فإنّهم لما لم يطيعوه حق الطاعة فكأنّهم زعموا فيه شراً، وقد مرّ مزيد تحقيق لهذه الفقرة في شرح الخطبة الخامسة والعشرين فتذكر هذا.

وروى في **«البحار»** من **«الإرشاد»** عن عمّار الدّهني، عن أبي صالح الحنفي قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: رأيت رسول الله ﷺ في منامي فشكوت إليه ما لقيته من أمّته من الأود واللدد وبكيت، فقال لي: لا تبك يا علي والتفت وإذا رجلان مصفدان[١] وإذا جلاميد ترضخ بهما رؤوسهما[٢]، قال أبو صالح: فغدوت إليه من الغد كما كنت أغدو إليه كلّ يوم حتّى إذا كنت في الجزارين لقيت الناس يقولون قتل أمير المؤمنين.

تذييلات

الأول: في كيفية شهادته عليه السلام وفيها روايات كثيرة وأبسطها ما رواه في المجلد.

التاسع من البحار

قال: رأيت في بعض الكتب القديمة رواية في كيفية شهادته أوردنا منه شيئاً مما يناسب كتابنا هذا على وجه الاختصار.

قال: روى أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمّد البكري، عن لوط بن يحيى، عن أشياخه وأسلافه قالوا: لمّا توفي عثمان وبايع النّاس أمير المؤمنين كان رجل يقال له حبيب بن المنتجب والياً على بعض أطراف اليمن من قبل عثمان فأقرّه عليّ عليه السلام على عمله وكتب كتاباً يقول فيه:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم من عبد الله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى حبيب بن المنتجب سلام عليك، أمّا بعد، فإنّي أحمد الله الذي لا إله إلاّ هو، وصلي على محمد عبده ورسوله، وبعد فإنّي وليتك ما كنت عليه لمن كان من قبل فامكث على عملك وإنّي أوصيك بالعدل في رعيتك والاحسان إلى أهل مملكتك، واعلم أنّ من ولي على رقاب عشرة من

(١) صفده: أي شده وأوثقه.

(٢) الإرشاد: ١/ ١٥، ونهج السعادة: ٧/ ١٠١.

المسلمين ولم يعدل بينهم حشره الله يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه لا يفكها إلا عدله في دار الدّنيا، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على من قبلك من أهل اليمن وخذ لي البيعة على من حضرك من المسلمين فإذا بايع القوم مثل بيعة الرّضوان فامكث في عملك وانفذ إلي منهم عشرة يكونون من عقلائهم وفصحائهم وثقاتهم ممّن يكون أشدّهم عوناً من أهل الفهم والشّجاعة عارفين بالله عالمين بأديانهم ومالهم وما عليهم وأجودهم رأياً، وعليك وعليهم السّلام»[١].

وطوى الكتاب وختمه وأرسله مع أعرابيّ، فلمّا وصله قبّله ووضعه على عينيه ورأسه فلمّا قرأه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمّد وآله ثمّ قال:

أيّها النّاس اعلموا أنّ عثمان قد قضى نحبه وقد بايع النّاس من بعده العبد الصّالح والإمام النّاصح أخا رسول الله وخليفته وهو أحقّ بالخلافة وهو أخو رسول الله وابن عمه وكاشف الكرب عن وجهه وزوج ابنته ووصيه وأبو سبطيه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فما تقولون في بيعته والدّخول في طاعته؟

قال: فضجّ النّاس بالبكاء والنّحيب وقالوا: سمعاً وطاعة وحبّاً وكرامة لله ولرسوله ولأخي رسوله، فأخذ له عليه السلام البيعة عليهم عامّة، فلمّا بايعوا قال لهم: أريد عشرة منكم من رؤسائكم وشجعانكم أنفذهم إليه كما أمرني به فقالوا: سمعاً وطاعة فاختار منهم مائة، ثمّ من المائة سبعين، ثمّ من السّبعين ثلاثين، ثمّ من الثلاثين عشرة فيهم عبد الرّحمن بن ملجم المرادي لعنه الله وخرجوا من ساعتهم.

فلمّا أتوه عليه السلام سلموا عليه وهنّوه بالخلافة، فردّ عليهم السلام ورحّب بهم، فتقدّم ابن ملجم وقام بين يديه وقال:

السّلام عليكم أيّها الإمام العادل والبدر التّمام واللّيث الهمام والبطل الضرغام والفارس القمقام ومن فضّله الله على سائر الأنام صلى الله عليك وعلى آلك الكرام، أشهد أنّك أمير المؤمنين صدقاً وحقاً وأنّك وصي رسول الله والخليفة من بعده ووارث علمه لعن الله من جحد حقّك ومقامك أصبحت أميرها وعميدها، لقد اشتهر بين البريّة عدلك، وهطلت شآبيب فضلك وسحائب رحمتك ورأفتك عليهم، ولقد أنهضنا الأمير إليك فسررنا بالقدوم عليك فبوركت بهذه الطلعة المرضيّة وهنئت بالخلافة في الرّعية.

ففتح أمير المؤمنين عليه السلام عينيه في وجهه ونظر إلى الوفد فقرّبهم وأدناهم فلمّا جالسوا دفعوا الكتاب ففضّه وقرأه وسرّ بما فيه فأمر بكلّ واحد منهم بحلة يمانيّة ورداء عدنية وفرس

(١) بحار الأنوار: ٤٢/٢٥٩ ـ ٢٦٠.

عربية وأمر أن يفتقدوا ويكرموا، فلما نهضوا قام ابن ملجم ووقف بين يديه وأنشد:

أنت المهيمن والمهذّب ذو الندى ... وابن الضراغم في الطراز الأوّل
الله خصّك يا وصيّ محمدٍ ... وحباك فضلاً في الكتاب المنزل
وحباك بالزّهراء بنت محمّدٍ ... حوريّة بنت النبيّ المرسل

ثمّ قال: يا أمير المؤمنين ارم بنا حيث شئت لترى منّا ما يسرّك فوالله ما فينا إلا كل بطل أهيس[1] وحازم أكيس وشجاع أشوس ورثنا ذلك عن الآباء والأجداد وكذلك نورثه صالح الأولاد.

قال: فاستحسن أمير المؤمنين كلامه من بين الوفد فقال له: ما اسمك يا غلام؟ قال: اسمي عبد الرّحمن، قال: ابن من؟ قال: ابن ملجم المرادي، قال: أمراديّ أنت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: إنّا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

قال: وجعل أمير المؤمنين يكرّر النّظر إليه ويضرب إحدى يديه على الأخرى ويسترجع ثمّ قال له: ويحك أمرادي أنت؟ قال: نعم فعندها تمثّل بقوله:

أنا أنصحك منّي بالوداد ... مكاشفة وأنت من الأعادي
أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مرادي

قال الأصبغ بن نباتة: لما دخل الوفد إلى أمير المؤمنين وبايعوه وبايعه ابن ملجم فلما أدبر عنه دعاه أمير المؤمنين ثانياً فتوثق منه بالعهود والمواثيق أن لا يغدر ولا ينكث ففعل ثمّ سار عنه، ثمّ استدعاه ثالثاً ثمّ توثق منه فقال ابن ملجم: يا أمير المؤمنين ما رأيتك فعلت هذا بأحد غيري فقال عليه السلام: امض لشأنك فما أراك تفي بما بايعت عليه.

فقال ابن ملجم: كأنّك تكره وفودي عليك لما سمعته من اسمي وإنّي والله لأحب الإقامة معك والجهاد بين يديك وإنّ قلبي محبّ لك وإنّي والله أوالي وليك وأعادي عدوّك.

قال: فتبسم عليه السلام وقال: «بالله يا أخا مراد إنّ سألتك عن شيء تصدقني فيه؟ قال: أي وعيشك يا أمير المؤمنين، فقال له: هل كان لك داية يهوديّة فكانت إذا بكيت تضربك وتلطم جبينك وتقول لك: اسكت فإنك أشقى من عاقر ناقة صالح وإنّك ستجني في كبرك جناية عظيمة يغضب الله بها عليك ويكون مصيرك إلى النّار؟

فقال: قد كان ذلك ولكنك والله يا أمير المؤمنين أحب إلى من كل أحد، فقال أمير المؤمنين: والله ما كذبت ولا كذبت ولقد نطقت حقّاً وقلت صدقاً وأنت والله قاتلي لا محالة

---

(١) أهيس: شجاع.

ستخضب هذه من هذه، وأشار إلى لحيته ورأسه، ولقد قرب وقتك وحان زمانك.

فقال ابن ملجم: والله يا أمير المؤمنين انّك أحب إلي من كل ما طلعت عليه الشّمس، ولكن إذا عرفت ذلك منّي غيرني إلى مكان تكون ديارك من دياري بعيدة فقال: كن مع أصحابك حتّى أذن لكم في الرّجوع إلى بلادكم.

ثمّ أمرهم بالنّزول في بني تميم فأقاموا ثلاثة أيّام، ثمّ أمرهم بالرّجوع إلى اليمن، فلما عزموا على الخروج مرض ابن ملجم مرضاً شديداً فذهبوا وتركوه، فلما برأ أتى أمير المؤمنين وكان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً أو يسارع في قضاء حوائجه وكان يكرمه ويدعوه إلى منزله ويقرّبه، وكان مع ذلك يقول له: أنت قاتلي ويكرّر عليه الشّعر:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مرادي

فيقول له: يا أمير المؤمنين إذا عرفت ذلك منّي فاقتلني، فيقول: إنّه لا يحلّ ذلك أن أقتل رجلاً قبل أن يفعل بي شيئاً، وفي خبر آخر قال: إذا قتلتك فمن يقتلني.

قال: فسمعت الشّيعة ذلك فوثب مالك الأَشتر والحرث بن الأَعور وغيرهما من الشّيعة فجرّدوا سيوفهم وقالوا: يا أمير المؤمنين من هذا الكلب الذي تخاطبه بمثل هذا الخطاب مراراً وأنت إمامنا ووليّنا وابن عمّ نبيّنا، فمرنا بقتله، فقال لهم: اغمدوا سيوفكم بارك الله فيكم ولا تشقوا عصا هذه الأمّة أترون أني أقتل رجلاً لم يصنع بي شيئاً.

فلما انصرف عليه السلام إلى منزله اجتمعت الشّيعة وأخبر بعضهم بعضاً بما سمعوا وقالوا: إنّ أمير المؤمنين يغلس إلى الجامع وقد سمعتم خطابه لهذا المرادي وهو ما يقول إلاّ حقّاً وقد علمتم عدله وإشفاقه علينا ونخاف أن يغتاله هذا المرادي فتعالوا نقترع على أن تحوطه كلّ ليلة منّا قبيلة.

فوقعت القرعة في الليلة الأولى والثانية والثالثة على أهل الكناس، فتقلدوا سيوفهم وأقبلوا في ليلتهم إلى الجامع، فلما خرج عليه السلام رآهم على تلك الحالة فقال ما شأنكم؟ فأخبروه فدعى لهم فتبسّم ضاحكاً، وقال: جئتم تحفظوني من أهل السّماء أم من أهل الأرض؟ قالوا: من أهل الأرض، قال: ما يكون شيء في السماء إلاّ هو في الأرض وما يكون شيء في الأَرض إلاّ هو في السّماء ثمّ تلى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

ثمّ أمرهم أن يأتوا منازلهم ولا يعودوا لمثلها، ثمّ إنّه صعد المأذنه وكان إذا تنحنح يقول السّامع ما أشبهه بصوت رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فتأهب النّاس بصلاة الفجر وكان إذا أذّن يصل صوته إلى نواحي الكوفة كلها، ثمّ نزل عليه السلام فصلى وكانت هذه عادته.

قال: وأقام ابن ملجم بالكوفة إلى أن خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى غزاة النهروان فخرج ابن ملجم معه وقاتل بين يديه قتالاً شديداً فلما رجع إلى الكوفة وقد فتح الله على يديه قال ابن ملجم لعنه الله: يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أتقدمك إلى المصر لأبشر أهلها بما فتح الله عليك من النّصر؟ فقال: ما ترجو بذلك؟ قال: الثواب من الله والشّكر من النّاس وأفرح الأَولياء وأكمد الأعداء، فقال: شأنك.

ثمّ أمر له بخلعة سنيّة وعمامتين وفرسين وسيفين ورمحين فسار ابن ملجم ودخل الكوفة وجعل يخترق ازقتها وشوارعها، وهو يبشّر الناس بما فتح الله على أمير المؤمنين وقد دخله العجب في نفسه، فانتهى به الطريق إلى محلة بني تميم.

فمرّ على دار تعرف بالقبيلة وهي أعلا دار بها وكانت لقطام بنت سخينة بن عوف بن تيم اللاّت، وكانت موصوفة بالحسن والجمال والكمال والبهاء، فلما سمعت كلامه بعثت إليه وسألته النزول عندها ساعة لتسأله عن أهلها، فلما قرب من منزلها وأراد النّزول عن فرسه خرجت إليه ثم كشفت له عن وجهها وأظهرت له محاسنها.

فلما رآها أعجبته وهواها من وقته فنزل عن فرسه ودخل إليها وجلس في دهليز الدار وقد أخذت بمجامع قلبه فبسطت له بساطاً ووضعت له متكئاً وأمرت خادمتها أن تنزع أخفافه وأمرت له بماء فغسل وجهه ويديه وقدمت إليه طعاماً فأكل وشرب، وأقبلت عليه تروحه من الحرّ فجعل لا يمل من النظر إليها وهي مع ذلك متبسمة في وجهه سافرة له عن نقابها بارزة عن جميع محاسنها ما ظهر منها وما بطن.

فقال لها: أيتها الكريمة لقد فعلت اليوم بي ما وجب به بل ببعضه على مدخل وشكرك دهري كله فهل من حاجة أتشرف بها وأسعى في قضائها؟

قال: فسألته عن الحرب ومن قتل فيه فجعل يخبرها ويقول فلان قتله الحسن وفلان قتله الحسين إلى أن بلغ قومها وعشيرتها، وكانت قطام لعنها الله على رأي الخوارج وقد قتل أمير المؤمنين في هذا الحرب من قومها جماعة كثيرة منهم أبوها وأخوها وعمّها، فلما سمعت منه ذلك صرخت باكية ثمّ لطمت خدّها وقامت من عنده ودخلت البيت وهي تندبهم طويلاً.

قال: فندم ابن ملجم فلما خرجت إليه قالت: يعزّ عليَّ فراقهم من لي بعدهم أفلا ناصر ينصرني ويأخذ لي بثاري ويكشف عن عاري فكنت أهب له نفسي وأمكنه منها ومن مالي وجمالي، فرق لها ابن ملجم وقال لها: غضي صوتك وارفقي بنفسك فإنك تعطين مرادك.

قال: فسكتت من بكائها وطمعت في قوله، ثمّ أقبلت عليه بكلامها وهي كاشفة عن صدرها ومسبلة شعرها، فلما تمكن هواها من قلبه مال إليها بكليّته ثم جذبها إليه وقال لها: كان أبوك صديقاً لي وقد خطبتك منه فأنعم لي بذلك فسبق إليه الموت فزوّجيني نفسك لآخذ

لك بثأرك.

قال: ففرحت بكلامه وقالت قد خطبني الأشراف من قومي وسادات عشيرتي فما أنعمت إلاّ لمن يأخذ لي بثأري ولما سمعت عنك أنك تقاوم الأقران وتقتل الشجعان فأحببت أن تكون لي بعلاً وأكون لك أهلاً.

فقال لها: فأنا والله كفو كريم فاقترحي على ما شئت من مال وفعال، فقالت له: إن قدمت على العطيّة والشرط فها أنا بين يديك فتحكم كيف شئت، فقال لها: وما العطية والشرط؟ فقالت له: أما العطيّة فثلاثة آلاف دينار وعبد وقينة[1] فقال: هذا أنا مليء به، فما الشرط المذكور؟ قالت: نم على فراشك حتّى أعود إليك.

ثمّ إنّها دخلت خدرها فلبست أفخر ثيابها ولبست قميصاً رقيقاً يرى صدرها وحليتها وزادت في الحلي والطيب وخرجت في معصفرها فجعلت تباشره بمحاسنها ليرى حسنها وجمالها، وأرخت عشرة ذوائب من شعرها منظومة بالدّر والجواهر.

فلما دخلت إليه أرخت لثامها عن وجهها ورفعت معصفرها وكشفت عن صدرها وإعكانها وقالت: إن قدمت على الشرط المشروط ظفرت بهذا جميعه وأنت مسرور مغبوط.

قال: فمد ابن ملجم عينيه إليها فحار عقله وهوى لحينه مغشيّاً عليه ساعة فلما أفاق قال: يا منية النفس ما شرطك فاذكريه لي فإنّي سأفعله ولو كان دونه قطع القفار وخوض البحار وقطع الرؤوس واختلاس النفوس، قالت له الملعونة: شرطي عليك أن تقتل علي بن أبي طالب بضربة واحدة بهذا السّيف في مفرق رأسه يأخذ منه ما يأخذ ويبقى ما يبقى.

فلما سمع ابن ملجم كلامها استرجع ورجع إلى عقله وأغاظه وأقلقه ثمّ صاح بأعلى صوته: ويحك ما هذا الذي واجهتني به بئس ما حدّثتك به نفسك من المحال، ثم طأطأ رأسه يسيل عرقاً وهو متفكّر في أمره، ثمّ رفع رأسه إليها وقال:

ويلك من يقدر على قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المستجاب الدعاء المنصور من السّماء، والأرض ترجف من هيبته، والملائكة تسرع إلى خدمته.

يا ويلك ومن يقدر على قتل علي بن أبي طالب وهو مؤيد من السّماء، والملائكة تحوطه بكرة وعشيّة، ولقد كان في أيّام رسول الله إذا قاتل يكون جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره وملك الموت بين يديه فمن هو هكذا لا طاقة لأحد بقتله ولا سبيل لمخلوق على اغتياله.

(١) القينة: الأمة المغنية.

ومع ذلك فإنّه قد أعزّني وأكرمني وأحبّني ورفعني وآثرني على غيري، فلا يكون ذلك جزاؤه منّي أبداً، فإن كان غيره قتلته لك شرّ قتلة ولو كان أفرس أهل زمانه، وأمّا أمير المؤمنين فلا سبيل لي عليه.

قال: فصبرت عنه حتّى سكن غيظه ودخلت معه في المداعبة والملاعبة وعلمت أنّه قد نسي ذلك القول، ثمّ قالت له: يا هذا ما يمنعك عن قتل علي بن أبي طالب وترغب في هذا المال وتتنعّم بهذا الجمال وما أنت بأعفّ وأزهد من الذين قاتلوه وقتلهم وكانوا من الصّوامين والقوامين، فلما نظروا إليه وقد قتل المسلمين ظلماً وعدواناً اعتزلوه وحاربوه، ومع ذلك فإنّه قد قتل المسلمين وحكم بغير حكم الله وخلع نفسه من الخلافة وأمرة المؤمنين، فلما رأوه قومي على ذلك اعتزلوه فقتلهم بغير حجة له عليهم.

فقال لها ابن ملجم: يا هذه كفّي عنّي فقد أفسدت عليَّ ديني وأدخلت الشك في قلبي وما أدري ما أقول لك وقد عزمت على رأي ثمّ أنشد:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علي بالحسام المصمّم
فلا مهر اغلا من قطام وان غلا ... ولافتك إلا دون فتك ابن ملجم
فأقسمت بالبيت الحرام ومن أتى ... إليه ولبى من محلّ ومحرم
لقد أفسدت عقلي قطام وأنّني ... لمنها على شك عظيم مذمم
لقتل عليّ خير من وطأ الثرى ... أخى العلم الهادي النبي المكرم

ثمّ أمسك ساعة وقال:

فلم أر مهراً ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علي بالحسام المصمم
فلا مهر أغلا من علي وإن غلا ... ولافتك إلاّ دون فتك ابن ملجم
فأقسمت بالبيت الحرام ومن أتى ... إليه جهاراً من محلّ ومحرم
لقد خاب من يسعى لقتل إمامه ... وويل له من حرّ نار جهنم

إلى آخر ما أنشد من الأبيات ثم قال لها: اجليني ليلتي هذه حتّى أنظر في أمري وآتيك غداً بما يقوى عليه عزمي.

فلما همّ بالخروج أقبلت إليه وضمّته إلى صدرها وقبلت ما بين عينيه وأمرته بالاستعجال في أمرها وسايرته إلى باب الدّار وهي تشجعه وأنشدت له أبيات، فخرج الملعون من عندها وقد سلبت فؤاده وأذهبت رقاده ورشاده، فبات ليلته قلقاً متفكّراً فمرّة يعاتب نفسه ومرّة يفكر في دنياه وآخرته.

فلما كان وقت السّحر أتاه طارق فطرق الباب فلما فتحه إذا برجل من بني عمه على نجيب وإذا هو رسول من إخوته إليه يعزونه في أبيه وعمه ويعرفونه أنه خلّف مالاً جزيلاً وانهم دعوه سريعاً ليحوز ذلك المال.

فلما سمع ذلك بقي متحيراً في أمره إذ جاءه ما يشغله عمّا عزم عليه من أمر قطام فلم يزل مفكراً في أمره حتّى عزم على الخروج، وكان له إخوان لأَبيه وأمه كانت من زبيد يقال لها عدنية وهي ابنة علي بن ماشوج وكان أبوه مرادياً، وكانوا يسكنون عجران صنعاء.

فلمّا وصل إلى النّجف ذكر قطام ومنزلتها في قلبه ورجع إليها فلمّا طرق الباب اطلعت عليه وقالت من الطارق! فعرفته على حالة السّفر فنزلت إليه وسلمت عليه وسألته عن حاله فأخبرها بخبره ووعدها بقضاء حاجتها إذا رجع من سفره وتملكها جميع ما يجيء به من المال، فعدلت عنه مغضبة فدنى منها وقبّلها وودّعها وحلف لها أنه يبلغها مأمولها في جميع ما سألته.

فخرج وجاء إلى أمير المؤمنين وأخبره بما جاؤوا إليه لأَجله وسأله أن يكتب إلى ابن المنتجب كتاباً ليعينه على استخلاص حقّه فأمر كاتبه فكتب له ما أراد.

ثمّ أعطاه فرساً من جياد خيله فخرج وسار سيراً حثيثاً حتّى وصل إلى بعض أودية اليمن، فأظلم عليه الليل فبات في بعضها، فلمّا مضى من الليل نصفه إذا هو بزعقة عظيمة من صدر الوادي ودخان يفور ونار مضرمة فانزعج لذلك وتغيّر لونه ونظر إلى صدر الوادي وإذا بالدّخان قد أقبل كالجبل العظيم وهو واقع عليه والنّار تخرج من جوانبه، فخرّ مغشيّاً عليه فلمّا أفاق وإذاً بهاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول:

إسمع وع القول يا ابن ملجم   إنّك في أمرٍ مهولٍ معظمِ
تضمر قتل الفارس المكرّم   أكرم من طاف ولبى واحرم
ذاك عليّ ذو التقاء الأقدم   فارجع إلى الله لكيلا تندم

فلمّا سمع توهم أنّه من طوارق الجنّ وإذا بالهاتف يقول:

يا شقيّ ابن الشّقي أمّا ما أضمرت من قتل الزّاهد العابد العادل الرّاكع السّاجد امام الهدى وعلم التّقى والعروة الوثقى فإنّا علمنا بما تريد أن تفعله بأمير المؤمنين ونحن من الجنّ الذين أسلمنا على يديه ونحن نازلون بهذا الوادي فإنّا لا ندعك تبيت فيه فإنّك ميشوم على نفسك ثمّ جعلوا يرمونه بقطع الجنادل فصعد فوق شاهق فبات بقيّة ليله.

فلمّا أصبح سار ليلاً ونهاراً حتّى وصل إلى اليمن وأقام عندهم شهرين وقلبه على حرّ الجمر من أجل قطام ثمّ إنّه أخذ الذي أصابه من المال والمتاع والأثاث والجواهر وخرج.

فبينا هو في بعض الطريق إذا خرجت عليه حراميّة فسايرهم وسايروه فلمّا قربوا من الكوفة حاربوه وأخذوا جميع ما كان معه ونجى بنفسه وفرسه وقليل من الذهب على وسطه وما كان تحته، فهرب على وجهه حتّى كاد أن يهلك عطشاً.

وأقبل سائراً في الفلاة مهموماً جائعاً عطشاناً فلاح له شبح فقصده، فإذا بيوت من أبيات الحرب فقصد منها بيتاً فنزل عندهم واستسقاهم شربة ماء فسقوه وطلب لبناً فأتوه به فنام ساعة.

فلمّا استيقظ أتاه رجلان وقدما إليه طعاماً فأكل وأكلا معه وجعلا يسألانه عن الطريق فأخبرهما، ثمّ قالا له: ممّن الرّجل؟ قال: من مراد، قالا: أين تقصد؟ قال: الكوفة، قالا: كأنّك من أصحاب أبي تراب؟ قال: نعم، فاحمرّت أعينهما غيظاً وعزما على قتله ليلاً، وأسرا ذلك ونهضا، فتبين له ما عزما عليه فندم على كلامه.

فبينما هو متحير إذ أقبل كلبهم ونام قريباً منهم، فأقبل اللعين يمسح بيده على الكلب ويشفق عليه ويقول مرحباً بكلب قوم أكرموني فاستحسنا ذلك وسألاه ما اسمك؟ قال: عبد الرّحمن بن ملجم، فقالا له: ما أردت بصنعك هذا في كلبنا؟ فقال: أكرمته لأجلكم حيث أكرمتموني فوجب عليّ شكركم، وكان هذا منه خديعة ومكراً فقالا: الله أكبر الآن والله وجب حقّك علينا ونحن نكشف لك عمّا في ضمائرنا.

نحن نرى رأي الخوارج وقد قتل أعمامنا وأخوالنا وأهالينا كما علمت، فلما أخبرتنا أنّك من أصحابه عزمنا على قتلك في هذه اللّيلة فلمّا رأينا صنعك هذا بكلبنا صفحنا عنك ونحن الآن نطلعك على ما قد عزمنا عليه فسألهما عن أسمائهما فقال أحدهما أنا البرك بن عبد الله التميمي، وهذا عبد الله بن عثمان العنبري صهري.

وقد نظرنا إلى ما نحن عليه من مذهبنا فرأينا أن فساد الأرض والأمة كلها من ثلاثة نفر أبو[1] تراب، ومعاوية، وعمرو بن العاص، فأمّا أبو تراب فإنّه قتل رجالنا كما رأيت، وافتكرنا أيضاً في الرّجلين معاوية وابن العاص وقد وليا علينا هذا الظالم الغشوم بسر بن أرطاة يطرقنا في كلّ وقت ويأخذ أموالنا وقد عزمنا على قتل هؤلاء الثلاثة فإذا قتلناهم توطأت الأرض واقعد النّاس لهم إماماً يرضونه.

فلمّا سمع ابن ملجم كلامهما صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة وتردّى بالعظمة إنّي لثالثكما وإنّي موافقكما على رأيكما وأنا أكفيكما أمر عليّ بن أبي طالب.

---

(١) في نسخة: أبي.

فنظرا إليه متعجّبين من كلامه قال: والله ما أقول لكما إلاّ حقاً، ثمّ ذكر لهما قصّته فلمّا سمعا كلامه عرفا صحّته وقالا إنّ قطام من قومنا وأهلها كانوا من عشيرتنا فنحن نحمد الله على اتّفاقنا فهذا لا يتمّ إلاّ بالإيمان المغلظة فنركب الآن مطايانا ونأتي الكعبة ونتعاقد عندها على الوفاء.

فلمّا أصبحوا وركبوا حضر عندهم بعض قومهم فأشاروا عليهم وقالوا لا تفعلوا ذلك فما منكم أحد إلا ويندم ندامة عظيمة، فلم يقبلوا وساروا جميعاً حتّى أتوا البيت وتعاهدوا عنده.

فقال البرك: أنا لعمرو بن العاص، وقال العنبري: وأنا لمعاوية، وقال ابن ملجم لعنه الله: أنا لعلي، فتحالفوا على ذلك بالأيمان المغلظة ودخلوا المدينة وحلفوا عند قبر النبيّ على ذلك ثمّ افترقوا وقد عينوا يوماً معلوماً يقتلون فيه الجميع، ثمّ سار كلّ منهم على طريقه.

فأمّا البرك فأتى المصر ودخل الجامع وأقام فيه أيّاماً، فخرج عمرو بن العاص ذات يوم إلى الجامع وجلس فيه بعد صلاته فجاء البرك إليه وسلم عليه ثمّ حادثه في فنون الأخبار وطرف الكلام والأشعار، فشغف به عمرو بن العاص وقرّبه وأدناه وصار يأكل معه على مائدة واحدة، فأقام إلى الليلة التي تواعدوا فيها فخرج إلى نيل مصر وجلس مفكراً فلمّا غربت الشمس أتى الجامع وجلس فيه.

فلمّا كان وقت الإفطار افتقده عمرو بن العاص فلم يره فقال لولده: ما فعل صاحبنا وأين مضى فإنّي لا أراه فبعث إليه يدعوه فقال له: إنّ هذه الليلة ليست كالليالي وقد أحببت أن أقيم ليلتي هذه في الجامع رغبة فيما عند الله وأحبّ أن أشرك للأمير في ذلك.

فلمّا رجع إليه وأخبره بذلك سرّه سروراً عظيماً وبعث إليه مائدة فأكل وبات ليلته ينتظر قدوم عمرو، وكان هو الذي يصلي بهم فلمّا كان عند طلوع الفجر أقبل المؤذن إلى باب عمرو وأذّن وقال: الصّلاة يرحمك الله الصّلاة.

فانتبه فأتى بالماء وتوضّأ وتطيّب وذهب ليخرج إلى الصّلاة فزلق فوقع على جنبه فاعتوره عرق النّساء فأشغلته[1] عن الخروج، فقال قدموا خارجة بن تميم القاضي يصلي بالنّاس، فأتى القاضي ودخل المحراب في غلس فجاء البرك فوقف خلفه وسيفه تحت ثيابه وهو لا يشك أنّه عمرو فأمهله حتّى سجد وجلس من سجوده فسلّ سيفه ونادى:

لا حكم إلاّ لله ولا طاعة لمن عصى الله، ثمّ ضربه بالسّيف على أم رأسه فقضى نحبه لوقته، فبادر النّاس وقبضوا عليه وأخذوا سيفه من يده وأوجعوه ضرباً وقالوا له: يا عدوّ الله قتلت رجلاً مسلماً ساجداً في محرابه فقال: يا حمير أهل مصر إنّه يستحق القتل قالوا: بماذا

(١) في نسخة: مشغلته.

ويلك؟ قال: لسعيه في الفتنة لأنّه الدّاهية الدّهماء الذي أثار الفتنة ونبذها وقوّاها وزيّن لمعاوية محاربة عليّ.

فقالوا له: يا ويلك من تعني؟ قال: الطاغي الباغي الكافر الزّنديق عمرو بن العاص الذي شقّ عصا المسلمين وهتك حرمة الدّين، قالوا: لقد خاب ظنّك وطاش سهمك إن الذي قتلته ما هو إنّما هو خارجة، فقال: يا قوم المعذرة إلى الله وإليكم فوالله ما أردت خارجة وإنّما أردت قتل عمرو.

فأوثقوه كتافاً وأتوا به إلى عمرو، فلمّا رآه، قال: أليس هذا هو صاحبنا الحجازي، قالوا له: نعم قال: ما باله؟ قالوا: إنّه قد قتل خارجة فدهش عمرو لذلك وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

ثمّ التفت إليه وقال: يا هذا لـم فعلت ذلك؟ فقال له: والله يا فاسق ما طلبت غيرك ولا أردت سواك، قال: ولـم ذلك؟ قال: إنّا ثلاثة تعاهدنا بمكة على قتلك وقتل عليّ بن أبي طالب وقتل معاوية في هذه الليلة، فإن صدق صاحباي فقد قتل علي بالكوفة ومعاوية بالشّام وأمّا أنت فقد سلمت، فقال عمرو: يا غلام احبسه حتّى نكتب إلى معاوية، فحبسه حتّى أمره معاوية بقتله فقتله.

وأما عبد الله العنبري فقصد دمشق واستخبر عن معاوية فأرشد إليه فجعل يتردّد إلى داره فلا يتمكن من الدّخول عليه إلى أن أذن معاوية يوماً للناس إذناً عاماً فدخل إليه مع النّاس وسلم عليه وحادثه ساعة وذكر له ملوك قحطان ومن له كلام مصيب حتّى ذكر له بني عمّه وهم أوّل ملوك قحطان وشيئاً من أخبارهم فلمّا تفرّقوا بقي عنده مع خواص أصحابه وكان فصيحاً خبيراً بأنساب العرب وأشعارهم.

فأحبّه معاوية حباً شديداً فقال: قد أذنت لك في كلّ وقت نجلس فيه أن تدخل علينا من غير مانع ولا دافع، فكان يتردّد إليه إلى ليلة تسع عشرة وكان قد عرف المكان الذي يصلي فيه معاوية.

فلمّا أذن المؤذّن للفجر وأتى معاوية المسجد ودخل محرابه ثار إليه بالسّيف وضربه فراغ عنه، فأراد ضرب عنقه فانصاع عنه فوقع السّيف في إليته وكانت ضربته ضربة جبان، فقال معاوية: لا يفوتنكم الرّجل فاستخلف بعض أصحابه للصّلاة ونهض إلى داره.

وأمّا العنبري فأخذه النّاس وأوثقوه وأتوا به إلى معاوية وكان مغشيّاً عليه فلمّا أفاق قال له: ويلك يا لكع لقد خاب ظنّي فيك ما الذي حملك على هذا؟ فقال له: دعني من كلامك أعلم أنّنا ثلاثة تحالفنا على قتلك وقتل عمرو بن العاص وعليّ بن أبي طالب فإن صدقا صاحباي فقد قتل عليّ وعمرو، وأمّا أنت فقد روغ أجلك كروغك الثعلب.

فقال له معاوية: على رغم أنفك فأمر به إلى الحبس فأتاه الساعدي وكان طبيباً فلمّا نظر إليه قال له: اختر إحدى الخصلتين إمّا أن أحمي حديدة فأضعها موضع السّيف، وإمّا أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها، لأَنّ ضربتك مسمومة.

فقال معاوية: أمّا النّار فلا صبر لي عليها، وأمّا انقطاع الولد فإنّ في يزيد وعبد الله ما تقرّ به عينيّ، فسقاه الشّربة فبريء ولم يولد له بعدها.

وأما ابن ملجم لعنه الله فإنّه سار حتّى دخل الكوفة واجتاز على الجامع وكان أمير المؤمنين جالساً على باب كندة فلم يدخله ولم يسلم عليه، وكان إلى جانبه الحسن والحسين ومعه جماعة من أصحابه فلمّا نظروا إلى ابن ملجم وعبوره قالوا: ألا ترى إلى ابن ملجم عبّر ولم يسلم عليك؟ قال عليه السلام: دعوه فإنّ له شأناً من الشّأن، والله ليخضبنّ هذه من هذه وأشار إلى لحيته وهامته ثمّ قال عليه السلام:

ما من الموت لإنسان نجا	كلّ امرء لا بد يأتيه الفنا
تبارك الله وسبحانه	لكلّ شيء مدّة وانتهى
يقدر الإنسان في نفسه	أمراً ويأتيه عليه القضاء
لا تأمننّ الدهر في أهله	لكلّ شيء آخر وانقضاء
بين ترى الإنسان في غبطة	يمسي وقد حلّ عليه القضا

ثمّ جعل يطيل النّظر إليه حتّى غاب عن عينه وأطرق الأرض يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال: وسار ابن ملجم حتّى وصل إلى دار قطام وكانت قد أيست من رجوعه إليها، وعرضت نفسها على بني عمها وعشيرتها وشرطت عليهم قتل أمير المؤمنين فلم يقدم أحد على ذلك، فلما طرق الباب قالت من الطارق؟ قال: أنا عبد الرّحمن، ففرحت قطام به وخرجت إليه واعتنقته وأدخلته دارها وفرشت له فرش الدّيباج وأحضرت له الطعام والمدام فأكل وشرب حتّى سكر وسألته عن حاله فحدثها بجميع ما جرى له في طريقه.

ثم أمرته بالاغتسال وتغيير ثيابه، ففعل ذلك وأمرت جارية لها ففرشت الدّار بأنواع الفرش وحضرت له شراباً وجواري فشرب مع الجواري وهن يلعبن له بالعيدان والمعازف والدّفوف فلما أخذ الشّراب منه أقبل عليها وقال: ما بالك لا تجالسيني ولا تحادثيني يا قرة عيني ولا تمازحيني، فقالت له: بلى سمعاً وطاعة.

ثمّ أنّها نهضت ودخلت إلى خدرها ولبست أفخر ثيابها وتزينت وتطيبت وخرجت إليه وقد كشفت له عن رأسها وصدرها ونهودها وأبرزت له عن فخذها وهي في طاق غلالة رومي

يبيّن له منها جميع جسدها وهي تتبختر في مشيتها والجواري حولها يلعبن.

فقام المعلون واعتنقها وترشقها وحملها حتى أجلسها مجلسها وقد بهت وتحير واستحوذ عليه الشّيطان فضربت بيدها على زرّ قميصها فحلّته، وكان في حلقها عقد جوهر ليست له قيمة فلما أراد مجامعتها لم تمكّنه من ذلك فقال لم تمانعيني عن نفسك وأنا وأنت على العهد الذي عاهدناك عليه من قتل علي ولو أحببت لقتلت معه شبليه الحسن والحسين.

ثمّ ضرب يده على هميانه فحله من وسطه ورماه إليها وقال خذيه فإنّ فيه أكثر من ثلاثة آلاف دينار وعبد وقينة، فقالت له: والله لا أمكنك من نفسي حتّى تحلف لي بالإيمان المغلظة إنّك تقتله فحملته القساوة على ذلك وباع آخرته بدنياه وتحكم الشيطان فيه بالإيمان المغلظة إنّه يقتله ولو قطعوه إرباً إرباً.

فمالت إليه عند ذلك وقبلته وقبلها فأراد وطيها فمانعته وبات عندها تلك الليلة من غير نكاح فلما كان من الغد تزّوج بها سرّاً وطاب قلبه فلما أفاق من سكرته ندم على ما كان منه وعاتب نفسه ولعنها فلم تزل ترادعه في كلّ ليلة وتعده بوصالها فلما دنت الليلة الموعودة مد يده إليها ليضاجعها ويجامعها فأبت عليه وقالت ما يكون ذلك إلاّ أن تفي بوعدك وكان الملعون اعتلّ علة شديدة فبرأ منها، وكانت الملعونة لا تمكنه من نفسها مخافة أن تبرد ناره فيخلّ بقضاء حاجتها.

فقال لها: يا قطام. أقتل لك في هذه الليلة عليّ بن أبي طالب، فأخذ سيفه ومضى به إلى الصّيقل فأجاد صقاله وجاء به إليها فقالت إنّي أريد أن أعمل فيه سمّا قال: وما تصنعي بالسّم لو وقع على جبل لهده، فقالت: دعني أعمل فيه السّم فإنّك لو رأيت عليّاً لطاش عقلك وارتعشت يداك وربّما ضربته ضربة لا تعمل فيه شيئاً، فإذا كان مسموماً فإن لم تعمل الضّربة عمل السّم.

فقال لها: يا ويلك أتخوفيني من علي فوالله لا أرهب عليّاً ولا غيره، فقالت له: دعني من قولك هذا فإنّ عليّاً ليس كمن لاقيت من الشجعان فأطرت في مدحه وذكرت شجاعته وكان غرضها أن يحمل الملعون على الغضب ويحرّضه على الأمر فأخذت السّيف وأنفذته إلى الصّيقل فسقاه السّم ورده إلى غمده.

وكان ابن ملجم قد خرج في ذلك اليوم ويمشي في أزقة الكوفة فلقاه صديق له وهو عبد الله بن جابر الحارثي فسلم عليه وهنّأه بزواج قطام، ثمّ تحادثا ساعة فحدثه بحديثه من أوله إلى آخره فسرّ بذلك سروراً عظيماً، فقال له: أنا أعاونك.

فقال ابن ملجم: دعني من هذا الحديث فإنّ عليّاً أروغ من الثعلب وأشدّ من الأسد، ثم مضى ابن ملجم لعنه الله يدور في شوارع الكوفة، فاجتاز على أمير المؤمنين وهو جالس عند

ميثم التّمار فخطف عنه كي لا يراه ففطن به فبعث خلفه رسولاً فلما أتاه وقف بين يديه وسلم عليه وتضرع لديه.

فقال له: ما تعمل هٰهنا؟ قال: أطوف في أسواق الكوفة وانظر إليها، فقال: عليك بالمساجد فإنّها خير لك من البقاع كلها وشرّها الأسواق ما لم يذكر اسم الله فيها ثمّ حادثه ساعة وانصرف.

فلما ولى جعل أمير المؤمنين يطيل النظر إليه ويقول يا لك من عدوّ لي من مراد ثمّ قال: أريد حياته ويريد قتلي، ويأبى الله إلا أن يشاء.

ثم قال عليه السلام: يا ميثم هذا والله قاتلي لا محالة أخبرني به حبيبي رسول الله ﷺ، فقال ميثم: يا أمير المؤمنين فلم لا تقتله أنت قبل ذلك؟ فقال: يا ميثم لا يحل القصاص قبل الفعل، فقال ميثم: يا مولاي إذا لم تقتله فاطرده، فقال: يا ميثم لولا آية في كتاب الله:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

وأيضاً أنّه بعد ما جنى جناية فيؤخذ بها ولا يجوز أن يعاقب قبل الفعل، فقال ميثم: جعل يومنا قبل يومك ولا أرانا الله فيك سوء أبداً ومتى يكون ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنّ الله تفرد بخمسة أشياء لا يطلع عليها نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب فقال عزّ من قائل:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية.

يا ميثم هذه خمسة لا يطلع عليها إلاّ الله وما اطلع عليها نبيّ ولا وصيّ ولا ملك مقرّب، يا ميثم لا حذر من قدر، يا ميثم إذ جاء القضاء فلا مفرّ، فرجع ابن ملجم ودخل على قطام لعنهما الله وكانت تلك الليلة ليلة تسع عشر من شهر رمضان.

قالت أمّ كلثوم بنت أمير المؤمنين عليه السلام: لما كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قدمت إليه عند إفطاره طبقاً من قرصان من خبز الشعير وقصعة فيها لبن وملح جريش، فلما فرغ من صلاته أقبل على فطوره، فلما نظر إليه وتأمله حرك رأسه وبكى بكاءً شديداً عالياً وقال: يا بنية ما ظننت أن بنتاً تسوء أباها كما قد أسأت أنت إليّ، قالت: وماذا يا أبتا؟ قال: يا بنية اتقدّمين إلى أبيك أدامين في فرد طبق واحد أتريدين أن يطول وقوفي غداً بين يدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة أنا أريد أن أتبع أخي وابن عمّي رسول الله ﷺ ما قدم إليه طعامان في طبق واحد إلى أن قبضه الله.

يا بنية ما من رجل طاب مطعمه ومشربه وملبسه إلاّ طال وقوفه بين يدي الله عزّ وجل يوم القيامة، يا بنية إنّ الدّنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب.

وقد أخبرني حبيبي رسول الله أنّ جبرئيل نزل إليه ومعه مفاتيح كنوز الأرض وقال: يا

محمّد الله يقرؤك السّلام ويقول لك إن شئت سيّرت معك جبال تهامة ذهباً وفضة وخذ هذه مفاتيح كنوز الأَرض ولا ينقص ذلك من حظك يوم القيامة، قال: يا جبرئيل وما يكون بعد ذلك؟ قال الموت، فقال: إذن لا حاجة لي في الدّنيا دعني أجوع يوماً وأشبع يوماً، فاليوم الذي أجوع فيه أتضرّع إلى ربي وأسأله، واليوم الذي أشبع فيه أشكر ربّي وأحمده، فقال له جبرئيل: وفّقت لكلّ خير ثم قال:

يا بنية الدّنيا دار غرور ودار هوان فمن قدم شيئاً وجده، يا بنية والله لا آكل شيئاً حتّى ترفعين أحد الأدامين، فلما رفعته تقدّم إلى الطعام فأكل قرصاً واحداً بالملح الجريش.

ثمّ حمد الله وأثنى عليه ثمّ قام إلى صلاته فصلى فلم يزل راكعاً وساجداً ومبتهلاً ومتضرّعاً إلى الله سبحانه ويكثر الدّخول والخروج وهو ينظر إلى السّماء وهو قلق يتململ، ثم قرأ سورة يس حتّى ختمها، ثم رقد هنيئة وانتبه مرعوباً وجعل يمسح وجهه بثوبه ونهض قائماً على قدميه وهو يقول: اللهمّ بارك لنا في لقائك ويكثر من قول لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، ثمّ صلّى حتّى ذهب بعض الليل، ثمّ جلس للتعقيب، ثمّ نامت عيناه وهو جالس، ثمّ انتبه من نومته مرعوباً.

قالت أم كلثوم: كأنّي به وقد جمع أولاده وأهله وقال لهم: في هذا الشّهر تفقدوني إنّي رأيت في هذه الليلة رؤيا هالتني وأريد أن أقصّها عليكم، قالوا: وما هي؟ قال: إني رأيت الساعة رسول الله في منامي وهو يقول لي: يا أبا الحسن إنّك قادم إلينا عن قريب يجيء إليك أشقاها فيخضب شيبتك من دم رأسك وأنا والله مشتاق إليك وإنّك عندنا في العشر الآخر من شهر رمضان فهلم إلينا فما عندنا خير لك وأبقى.

قال: فلما سمعوا كلامه ضجّوا بالبكاء والنحيب وأبدوا العويل فأقسم عليهم بالسّكوت فسكتوا، ثمّ أقبل عليهم يوصيهم ويأمرهم بالخير وينهيهم عن الشر.

قالت أم كلثوم فلم يزل تلك الليلة قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، ثم يخرج ساعة بعد ساعة يقلب طرفه في السماء وينظر في الكواكب وهو يقول والله ما كذبت ولا كذبت وإنها الليلة التي وعدت بها.

ثمّ يعود إلى مصلاه ويقول: اللهم بارك لي في الموت ويكثر من قول إنا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ويصلي على النبي وآله ويستغفر الله كثيراً.

قالت أم كلثوم: فلما رأيته في تلك الليلة قلقاً متململاً كثير الذّكر والاستغفار أرقت معه ليلتي وقلت يا أبتاه ما لي أراك هذه الليلة لا تذوق طعم الرّقاد، قال: يا بنية إنّ أباك قتل الأبطال وخاض الأَهوال وما دخل الجوف له خوف وما دخل في قلبي رعب أكثر ممّا دخل في هذه الليلة، ثمّ قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، فقلت: يا أباه ما لك تنعي نفسك منذ الليلة،

قال: يا بنية قد قرب الأَجل وانقطع الأَمل.

قالت أم كلثوم: فبكيت، فقال لي: يا بنية لا تبكين فإنّي لم أقل ذلك إلاّ بما عهد إليّ النبي، ثمّ إنّه ﷺ نعس وطوى ساعة ثمّ استيقظ من نومه، وقال: يا بنية إذا قرب وقت الأذان فاعلميني، ثم رجع إلى ما كان عليه أوّل الليل من الصّلاة والدّعاء والتضرع إلى الله سبحانه.

قالت أم كلثوم: فجعلت أرقب وقت الأَذان فلما لاح الوقت أتيته ومعي إناء فيه ماء ثمّ أيقظته أسبغ الوضوء وقام ولبس ثيابه وفتح بابه، ثم نزل إلى الدّار وكان في الدار إوز قد أهدى إلى أخي الحسين فلما نزل خرجن وراءه ورفرفن وصحن في وجهه وكان قبل تلك لم يصحن، فقال: لا إله إلا الله.

صوارخ تتبعها نوايح　　　وفي غداة غد يظهر القضا

فقلت له: يا أبا هكذا تتطير، فقال: يا بنية ما منّا أهل البيت من يتطير ولا يتطير به ولكن قول جرى على لساني، ثمّ قال: يا بنية بحقي عليك إلاّ ما اطلقتيه فقد حبست ما ليس له لسان ولا يقدر على الكلام إذا جاع أو عطش فأطعميه واسقيه وإلاّ خلي سبيله يأكل من حشائش الأرض، فلما وصل إلى الباب فعالجه ليفتحه فانحل مئزره حتى سقط فأخذه وشدّه وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا　　　ولا تجزع من الموت إذا حل يناديكا

ولا تغتر بالدّهر وإن كان يواتيكا　　　كما اضحكك الدّهر كذاك الدهر يبكيكا

ثمّ قال: اللهم بارك لنا في الموت اللهم بارك لي في لقاءك.

قالت أمّ كلثوم: وكنت أمشي خلفه فلما سمعته يقول ذلك، قلت: واغوثاه يا أبتاه أراك تنعي نفسك منذ الليلة، قال: يا بنية ما هو بنعاء ولكنها دلالات وعلامات للموت تتبع بعضها بعضاً فامسكي عن الجواب، ثم فتح الباب وخرج.

قالت أم كلثوم: فجئت إلى أخي الحسن فقلت: يا أخي قد كان من أمر أبيك الليلة كذا وكذا، وهو قد خرج في هذا الليل الغلس فالحقه، فقام الحسن بن عليّ ﷺ وتبعه فلحق به قبل أن يدخل الجامع فقال: يا أباه ما أخرجك في هذه السّاعة وقد بقي من الليل ثلثه.

فقال: يا حبيبي ويا قرّة عيني خرجت لرؤيا رأيتها في هذه الليلة هالتني وأزعجتني وأقلقتني، فقال له: خيراً رأيت وخيراً يكون فقصّها عليّ.

فقال: يا بنيّ رأيت كان جبرئيل قد نزل من السّماء على جبل أبي قبيس فتناول منه حجرين ومضى بهما إلى الكعبة وتركهما على ظهرها وضرب أحدهما على الآخر فصار كالرّميم، ثمّ ذراهما في الرّيح فما بقي بمكة ولا بالمدينة بيت إلاّ ودخله من ذلك الرّماد فقال

له: يا أبت وما تأويلها؟

فقال: يا بنيّ إن صدقت رؤياي فإنّ أباك مقتول ولا يبقى بمكة حينئذٍ ولا بالمدينة بيت إلاّ ويدخله من ذلك غمّ ومصيبة من أجلي، فقال الحسن عليه السلام: وهل تدري متى يكون ذلك يا أبت؟ قال: يا بنيّ إنّ الله يقول:

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولكن عهد إليّ حبيبي رسول الله أنّه يكون في العشر الآخر من شهر رمضان يقتلني ابن ملجم المرادي، فقلت له: يا أبتاه إذا علمت ذلك منه فاقتله، قال: يا بنيّ لا يجوز القصاص قبل الجناية والجناية لم تحصل منه، يا بنيّ لو اجتمع الثقلان الإنس والجن على أن يدفعوا ذلك لما قدروا، يا بنيّ ارجع إلى فراشك، فقال الحسن يا أبتاه أريد أمضي معك إلى موضع صلاتك.

فقال له: أقسمت بحقّي عليك إلا ما رجعت إلى فراشك لئلا يتنغص عليك نومك ولا تعصني في ذلك، قال: فرجع الحسن فوجد أخته أم كلثوم قائمة خلف الباب تنتظره فدخل فأخبرها بذلك وجلسا يتحادثان وهما محزونان حتى غلب عليهما النعاس فقاما ودخلا إلى فراشهما وناما.

قال أبو مخنف وغيره: وسار أمير المؤمنين حتّى دخل المسجد والقناديل قد خمد ضوؤها فصلى في المسجد وتمّ ورده وعقّب ساعة ثمّ إنّه قام وصلى ركعتين ثمّ علا المأذنه ووضع سبابتيه في أذنيه وتنحنح، ثمّ أذّن وكان صلوات الله عليه إذا أذّن لم يبق في الكوفة بيت إلاّ اخترقه صوته.

قال الرّاوي: وأمّا ابن ملجم فبات في تلك الليلة يفكر في نفسه ولا يدري ما يصنع فتارة يعاتب نفسه ويوبخها ويخاف من عقبى فعله فيهمّ أن يرجع عن ذلك، وتارة يذكر قطام لعنها الله وحسنها وجمالها وكثرة مالها فتميل نفسه إليها، فبقي عامة ليله يتقلب على فراشه وهو يترنّم بشعره ذلك إذا أتته الملعونة ونامت معه في فراشه وقالت: يا هذا من يكون على هذا العزم يرقد.

فقال لها: والله إنّي أقتله لك السّاعة، فقالت: اقتله وارجع إليّ قرير العين مسروراً وافعل ما تريد فإنّي منتظرة لك، فقال لها: بل أقتله وأرجع إليك سخين العين منحوساً محسوراً، فقالت أعوذ بالله من تطيرك الوحش.

قال: فوثب الملعون كأنّه الفحل من الإبل، قال: هلمي إليّ بالسّيف، ثمّ إنّه اتزر بمئزر واتشح بإزار وجعل السّيف تحت الإزار من بطنه، وقال: افتحي لي الباب ففي هذه السّاعة أقتل لك عليّاً، فقامت فرحة مسرورة وقبلت صدره وبقي يقبّلها ويتشرقها ساعة ثمّ راودها عن

نفسها فقالت: هذا عليّ أقبل إلى الجامع وأذّن فقم إليه فاقتله ثمّ عد إليّ فها أنا منتظرة رجوعك، فخرج من الباب وهي خلفه تحرّضه بهذه الأبيات:

أقول إذا ماحيّة أعيت الرّقا وكان ذعاف[1] الموت منه شرابها

دسسنا إليها في الظلام ابن ملجم همام إذا ما الحرب شبّ لهابها

فخذها عليّ فوق رأسك ضربةً بكفّ سعيد سوف يلقا ثوابها

قال الرّاوي: فالتفت إليها وقال أفسدت والله الشّعر في هذا البيت الآخر، قالت: ولم ذلك؟ قال لها: هلا قلت:

بكف شقيّ سوف يلقا عقابها

قال مصنف هذا الكتاب قدس الله روحه: هذا الخبر غير صحيح بل إنّا كتبناه كما وجدناه، والرّواية الصحيحة أنّه بات في المسجد ومعه رجلان أحدهما شبيب بن بحيرة والآخر وردان بن مجالد يساعدانه على قتل عليّ، فلمّا أذّن نزل من المأذنه وجعل يسبّح الله ويقدّسه ويكبّره ويكثر من الصّلاة على النبي ﷺ.

قال الرّاوي: وكان من أكرم أخلاقه أن يفتقد النّائمين في المسجد ويقول للنّائم: الصلاة يرحمك الله الصلاة ثم إلى الصلاة المكتوبة ثمّ يتلو:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ففعل ذلك كما كان يفعله على جاري عاداته مع النائمين في المسجد حتى إذا بلغ إلى الملعون فرآه نائماً على وجهه قال له: يا هذا قم من نومك هذا فإنّها نومة يمقتها الله وهي نومة الشّيطان ونومة أهل النّار، بل نم على يمينك فإنّها نومة العلماء أو على يسارك فإنّها نومة الحكماء أو على ظهرك فإنّها نومة الأنبياء.

قال: فتحرّك الملعون كأنّه يريد أن يقوم وهو من مكانه لا يبرح فقال له أمير المؤمنين: لقد هممت بشيء تكاد السّموات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدًا، ولو شئت لأنبأتك بما تحت ثيابك، ثمّ تركه وعدل عنه إلى محرابه وقام قائماً يصلّي وكان يطيل الرّكوع والسّجود في الصلاة كعادته في الفرائض والنوافل حاضراً قلبه.

فلمّا أحسّ به فنهض الملعون مسرعاً وأقبل يمشي حتّى وقف بإزاء الأسطوانة التي كان الإمام يصلي عليها، فأمهله حتّى صلى الرّكعة الأولى وركع وسجد السجدة الأولى منها، ورفع رأسه فعند ذلك أخذ السّيف وهزّه ثمّ ضربه على رأسه المكرّم الشّريف فوقعت الضّربة على

(١) الذعف: السقي.

الضّربة التي ضربها عمرو بن عبدود العامري ثمّ أخذت الضّربة إلى مفرق رأسه إلى موضع السّجود.

فلمّا أحسّ الإمام بالضرب لم يتأوّه وصبر واحتسب ووقع على وجهه وليس عنده أحد قائلاً: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ثمّ صاح وقال: قتلني ابن ملجم قتلني اللّعين ابن اليهودية وربّ الكعبة أيّها النّاس لا يفوتنكم ابن ملجم وسار السم في رأسه وبدنه وثار جميع من في المسجد في طلب الملعون وماجوا بالسلاح فما كنت أرى إلاّ صفق الأيدي على الهامات وعلوّ الصرخات.

وكان ابن ملجم ضربه ضربة خائفاً مرعوباً، ثمّ ولى هارباً وخرج من المسجد وأحاط الناس بأمير المؤمنين وهو في محرابه يشدّ الضربة ويأخذ التراب ويضعه عليها ثمّ تلا قوله تعالى:

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

ثـم قال: جاء أمر الله وصدق رسول الله، ثـم إنه لـما ضربه الملعون ارتجت الأَرض وياحت البحار والسماوات واصطفقت أبواب الجامع.

قال: وضربه اللعين شبيب بن بحيرة، فأخطأه ووقعت الضربة في الطاق.

قال الراوي: فلما سمع الناس الضجة ثار إليه كل من كان في المسجد وصاروا يدورون لا يدرون أين يذهبون من شدة الصدمة والدهشة، ثم أحاطوا بأمير المؤمنين وهو يشد رأسه بميزره والدم يجري على وجهه ولحيته وقد خضب بدمائه وهو يقول: هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله.

قال الرّاوي: فاصطفقت أبواب الجامع وضجّت الملائكة في السّماء بالدّعاء وهبّت ريح عاصف سوداء مظلمة، ونادى جبرئيل بين السّماء والأرض بصوت يسمعه كلّ مستيقظ: تهدّمت والله أركان الهدى، وانطمست والله نجوم السّماء وأعلام التّقى وانفصمت والله العروة الوثقى، قتل ابن عمّ محمّد المصطفى قتل الوصيّ المجتبى قتل عليّ المرتضى، قتل والله سيّد الأَوصياء، قتله أشقى الأشقياء.

قال: فلمّا سمعت أم كلثوم نعي جبرئيل فلطمت على وجهها وخدّها وشقّت جيبها وصاحت وأبتاه واعليّاه وامحمّداه واسيّداه، ثم أقبلت إلى أخويها الحسن والحسين عليهما السلام فأيقظتهما وقالت لهما لقد قتل أبوكما، فقاما يبكيان فقال لها الحسن: يا أختاه كفي عن البكاء حتّى نعرف صحة الخبر كي لا تشمت الأَعداء.

فخرجا فإذا النّاس ينوحون وينادون وإماماه وأمير المؤمنين قتل والله إمام عابد مجاهد لم يسجد لصنم قط كان أشبه النّاس برسول الله.

فلمّا سمع الحسن والحسين صرخات النّاس ناديا واأبتاه واعليّاه ليت الموت أعدمنا الحياة، فلمّا وصلا الجامع ودخلا وجدا أبا جعدة بن هبيرة ومعه جماعة من النّاس وهم يجتهدون أن يقيموا الإمام في المحراب ليصلي بالناس فلم يطق على النهوض وتأخر عن الصف وتقدّم الحسن فصلى بالناس وأمير المؤمنين يصلي إيماءً عن جلوس وهو يمسح الدّم عن وجهه وكريمه الشريف يميل تارة ويسكن أخرى والحسن ينادي وانقطاع ظهراه يعزّ والله عليّ أن أراك هكذا.

ففتح عينه وقال: يا بنيّ لا جزع على أبيك بعد اليوم، هذا جدك محمّد المصطفى وجدّتك خديجة الكبرى وأمك فاطمة الزّهراء والحور العين محدقون منتظرون قدوم أبيك، فطب نفسا وقرّ عيناً وكفّ عن البكاء فإنّ الملائكة قد ارتفعت أصواتهم إلى السماء.

قال: ثمّ إنّ الخبر شاع في جوانب الكوفة وانحشر الناس حتى المخدّرات خرجن من خدرهن إلى الجامع ينظرن إلى أمير المؤمنين، فدخل الناس الجامع فوجدوا الحسن ورأس أبيه في حجره وقد غسل الدّم عنه وشدّ الضّربة وهي بعدها تشخب دماً ووجهه قد زاد بياضاً بصفرة وهو يرمق السّماء بطرفه ولسانه يسبّح الله ويوحده وهو يقول:

أسألك يا ربّ الرّفيع الأعلى، فأخذ الحسن رأسه في حجره فوجده مغشيّاً عليه فعندها بكى بكاء شديداً وجعل يقبل وجه أبيه وما بين عينيه وموضع سجوده، فسقط من سجوده قطرات على وجه أمير المؤمنين ففتح عينيه فرآه باكياً فقال: يا بني يا حسن ما هذا البكاء يا بني لا روع على أبيك بعد اليوم هذا جدّك محمّد المصطفى وخديجة وفاطمة والحور العين محدقون منتظرون قدوم أبيك فطب نفساً وقرّ عيناً واكفف عن البكاء فإنّ الملائكة قد ارتفعت أصواتهم إلى السّماء.

يا بني اتجزع على أبيك وغداً تقتل بعدي مسموماً مظلوماً وأخوك يقتل بالسيف هكذا وتلحقان بجدّكما وأبيكما وأمّكما فقال له الحسن: ما تعرفنا من قتلك ومن فعل بك هذا، قال: قتلني ابن اليهوديّة عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي، فقال: يا أباه من أيّ طريق مضى قال: لا يمضي أحد في طلبه فإنّه سيطلع عليكم من هذا الباب وأشار بيده الشّريفة إلى باب كندة.

قال: ولم يزل السّم يسري في رأسه وفي بدنه، ثمّ أغمي عليه ساعة والنّاس ينتظرون قدوم الملعون من باب كندة، واشتغل النّاس بالنّظر إلى الباب ويرقبون قدوم الملعون وقد غصّ المسجد بالعالم ما بين باك ومحزون، فما كان إلاّ ساعة وإذا بالصّيحة قد ارتفعت وزمرة من النّاس وقد جاؤوا بعد والله ابن ملجم مكتوفاً وهذا يلعنه وهذا يضربه.

قال: فوقع النّاس بعضهم على بعض ينظرون إليه فأقبلوا باللعين مكتوفاً وهذا يلعنه وهذا

يضربه وهم ينهشون لحمه بأسنانهم ويقولون له: يا عدوّ الله ما فعلت أهلكت أمّة محمّد وقتلت خير النّاس وإنّه لصامت وبين يديه رجل يقال له حذيفة النّخعي بيده سيف مشهور وهو يرد النّاس عن قتله وهو يقول: هذا قاتل الإمام عليّ عليه السلام حتّى أدخلوه المسجد.

قال الشّعبي: كأنّي أنظر إليه وعيناه قد طارتا في أمّ رأسه كأنّهما قطعتا علق وقد وقعت في وجهه ضربة قد هشمت وجهه وأنفه والدم يسيل على صدره وهو ينظر يميناً وشمالاً وعيناه قد طارتا في أم رأسه وهو أسمر اللون حسن الوجه وفي وجهه أثر السّجود وكان على رأسه شعر أسود منثور على وجهه كأنّه الشّيطان الرّجيم، فلما حاذاني سمعته يترنم بهذه الأبيات:

أقول لنفسي بعدما كنت أنهيها ... وقد كنت أسناها وكنت أكيدها

أيا نفس كفي عن طلابك واصبري ... ولا تطلبي هما عليك يبيدها

فما قبلت نصحي وقد كنت ناصحاً ... كنصح ولو غاب عنها وليدها

فما طلبت إلا عنائي وشقوتي ... فيا طول مكثي في الجحيم بعيدها

فلما جاؤوا به أوقفوه بين يدي أمير المؤمنين فلما نظر إليه الحسن عليه السلام قال له: يا ويلك يا لعين يا عدو الله أنت قاتل أمير المؤمنين وإمام المسلمين، هذا جزاؤه منك حيث آواك وقرّبك وأدناك وآثرك على غيرك، وهل كان بئس الإمام لك حتّى جازيته هذا الجزاء يا شقي.

قال: فلم يتكلم بل دمعت عيناه فانكب الحسن عليه السلام على أبيه يقبله وقال له: هذا قاتلك يا أباه قد أمكن الله منه فلم يجبه عليه السلام وكان نائماً فكره أن يوقظه من نومه، ثمّ التفت إلى ابن ملجم وقال له: يا عدو الله هذا كان جزاؤه منك بوأك وأدناك وقربك وحباك وفضلك على غيرك هل كان بئس الإمام حتّى جازيته هذا الجزاء يا شقي الأشقياء.

فقال له الملعون: يا أبا محمّدَ أفأنت تنقذ من في النّار فعند ذلك ضجت النّاس بالبكاء والنحيب فأمرهم الحسن عليه السلام بالسكوت.

ثمّ التفت الحسن عليه السلام إلى الذي جاء به حذيفة رضي الله عنه، فقال له: كيف ظفرت بعدوّ الله وأين لقيته: فقال: يا مولاي إنّ حديثي معه لعجيب.

وذلك إنّي كنت البارحة نائماً في داري وزوجتي إلى جانبي وهي من غطفان وأنا راقد وهي مستيقظة إذ سمعت هي الزّعقة وناعياً ينعى أمير المؤمنين وهو يقول: تهدّمت والله أركان الهدى، وانطمست والله أعلام التقى، قتل ابن عمّ محمّد المصطفى قتل علي المرتضى قتله أشقى الأشقياء، فأيقظتني وقالت لي: أنت نائم وقد قتل إمامك عليّ بن أبي طالب.

فانتبهت من كلامها فزعاً مرعوباً وقلت لها: يا ويلك ما هذا الكلام رَضّى الله فاك لعلّ الشّيطان قد ألقي في سمعك هذا أو حلم ألقي عليك، يا ويلك إنّ أمير المؤمنين ليس لأحد

من خلق الله قبله تبعة ولا ظلامة وإنّه لليتيم كالأَب الرّحيم وللأرملة كالزّوج العطوف، وبعد ذلك فمن الذي يقدر على قتل علي أمير المؤمنين وهو الأسد الضّرغام والبطل الهمام والفارس القمقام.

فأكثرت عليّ وقالت: إنّي سمعت ما لم تسمع وعلمت ما لم تعلم، فقلت لها وما سمعت فأخبرتني بالصّوت، فقالت سمعت نادياً ينادي بأعلى صوته: تهدّمت والله أركان الهدى وانطمست والله أعلام التّقى قتل ابن عمّ محمّد المصطفى قتل عليّ المرتضى قتله أشقى الأَشقياء.

ثمّ قالت: وما أظنّ بيتاً إلا وقد دخله هذا الصّوت، قال فبينما أنا وهي في مراجعة الكلام وإذا بصيحة عظيمة وجلبة وضجة عظيمة وقائل يقول: قتل أمير المؤمنين.

فحس قلبي بالشّر فمددت يدي إلى سيفي وسللته من غمده وأخذته ونزلت مسرعاً وفتحت باب داري وخرجت فلما صرت في وسط الجادة فنظرت يميناً وشمالاً وإذا بعدوّ الله يحول فيها يطلب مهرباً فلم يجد وإذا قد انسدّت الطرقات في وجهه فلما نظرت إليه وهو كذلك رابني أمره فناديته:

يا ويلك من أنت وما تريد لا أم لك في وسط هذا الدّرب تمرّ وتجيء فتسمى بغير اسمه وانتمى بغير كنيته، فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: من منزلي قلت: وإلى أين تريد تمضي في هذا الوقت قال: إلى الحيرة، فقلت، ولم لا تقعد حتّى تصلي مع أمير المؤمنين صلاة الغداة وتمضي في حاجتك؟ فقال: أخشى أن أقعد للصّلاة فتفوت حاجتي فقلت: يا ويلك إني سمعت صيحة وقائلاً يقول قتل أمير المؤمنين فهل عندك من ذلك خبر؟ قال: لا علم لي بذلك فقلت له: فلم لا تمضي معي حتّى تحقق الخبر وتمضي في حاجتك؟ فقال: أنا ماض في حاجتي وهي أهمّ من ذلك.

فلما قال لي مثل ذلك القول قلت يا لكع الرّجال حاجتك أحب إليك من التحسس لأمير المؤمنين وإمام المسلمين إذاً والله يا لكع مالك عند الله من خلاق، وحملت عليه بسيفي وهممت أن أعلو به فراغ عنّي.

فبينما أنا أخاطبه وهو يخاطبني إذ هبّت الرّيح فكشفت إزاره وإذاً بسيفه يلمع تحت الإزار كأنّه مرءاة مصقولة، فلما رأيت بريقه تحت ثيابه قلت: يا ويلك ما هذا السّيف المشهور تحت ثيابك لعلك أنت قاتل أمير المؤمنين فأراد أن يقول لا فأنطق الله لسانه بالحقّ فقال: نعم.

فرفعت سيفي وضربته فرفع هو سيفه وهمّ أن يعلوني فانحرفت عنه فضربته على ساقيه فأوقفته ووقع لحينه ووقعت عليه وصرخت صرخة شديدة وأردت أن أخذ سيفه فمانعني عنه، فخرج أهل الحيرة فأعانوني عليه حتّى أوثقته كتافاً وجئتك به فها هو بين يديك جعلني الله

فداك فاصنع به ما شئت.

فقال الحسن: الحمد الله الذي نصر وليّه وخذل عدوّه، ثمّ انكب الحسن على أبيه يقبله وقال له: يا أباه هذا عدوّ الله وعدوّك قد أمكن الله منه فلم يجبه وكان نائماً فكره أن يوقظه من نومه فرقد ساعة ثمّ فتح عينيه وهو يقول: ارفقوا بي يا ملائكة ربّي.

فقال له الحسن عليه السلام: هذا عدوّ الله وعدوّك ابن ملجم قد أمكن الله منه وقد حضر بين يديك قال: ففتح أمير المؤمنين عليه السلام عينيه ونظر إليه وهو مكتوف وسيفه معلّق في عنقه فقال له بضعف وانكسار صوت ورأفة ورحمة: يا هذا لقد جئت عظيماً وارتكبت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً أبئس الإمام كنت لك حتّى جازيتني بهذا الجزاء؟ ألم أكن شفيقاً عليك وآثرتك على غيرك وأحسنت إليك وزدت في إعطائك؟ ألم يكن يقال لي فيك كذا وكذا فخليت لك السّبيل ومنحتك عطائي؟ وقد كنت أعلم أنّك قاتلي لا محالة ولكن رجوت بذلك الاستظهار من الله تعالى عليك يا لكع وعلى أن ترجع عن غيك فغلبت عليك الشّقاوة فقتلتني يا أشقى الأشقياء.

قال: فدمعت عينا ابن ملجم لعنه الله وقال: يا أمير المؤمنين أفأنت تنقذ من في النّار، قال له: صدقت، ثمّ التفت إلى ولده الحسن وقال له: ارفق يا ولدي بأسيرك وارحمه واحسن إليه واشفق عليه ألا ترى إلى عينيه قد طارتا في أم رأسه وقلبه يرجف خوفاً ورعباً وفزعاً.

فقال له الحسن: يا أباه قد قتلك هذا اللّعين الفاجر وأفجعنا فيك وأنت تأمرنا بالرّفق به فقال له: نعم يا بني نحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا كرماً وعفواً والرّحمة والشّفقة من شيمتنا لا من شيمة عدوّنا.

بحقّي عليك فأطعمه يا بنيّ ممّا تأكل واسقه مما تشرب ولا تقيد له قدماً ولا تغل له يداً فإن أنا متّ فاقتص منه بأن تقتله وتضربه ضربة واحدة وتحرقه بالنار ولا تمثل بالرّجل فإني سمعت جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور، وإن أنا عشت فأنا أولى به بالعفو عنه وأنا أعلم بما أفعل به فإن عفوت فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً.

قال مخنف بن حنيف: إنّي والله ليلة تسع عشرة في الجامع في رجال نصلّي قريباً من السدّة التي يدخل منها أمير المؤمنين فبينما نحن نصلي إذ دخل أمير المؤمنين من السدّة وهو ينادي الصّلاة ثمّ صعد المأذنة فأذن ثمّ نزل فعبر على قوم نيام في المسجد فناداهم الصّلاة ثمّ قصد المحراب.

فما أدري دخل في الصّلاة أم لا إذ سمعت قائلاً يقول: الحكم لله لا لك يا علي، قال: فسمعت عند ذلك أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا يفوتنكم الرّجل، قال: فشد الناس عليه وأنا معهم وإذا هو ورد ان بن مجالد، وأمّا ابن ملجم لعنه الله فإنّه هرب من ساعته ودخل الكوفة

ورأينا أمير المؤمنين مجروحاً في رأسه.

قال محمّد بن الحنفيّة رضي الله عنه: ثمّ إن أبي قال: احملوني إلى موضع مصلاّي في منزلي قال فحملناه إليه وهو مدنف والنّاس حوله وهم في أسر عظيم باكين محزونين قد أشرفوا على الهلاك من شدّة البكاء والنّحيب.

ثمّ التفت إليه الحسن وهو يبكي فقال له: يا أبتاه من لنا بعدك لا كيومك إلا يوم رسول الله من أجلك تعلمت البكاء يعزّ والله عليّ أن أراك هكذا فناداه عليه السلام وقال: يا حسين يا أبا عبد الله ادن منّي، فدنا منه وقد قرحت أجفان عينيه من البكاء فمسح الدّموع من عينيه ووضع يده على قلبه وقال له: يا بنيّ ربط الله قلبك بالصّبر وأجزل لك ولإخوانك عظيم الأجر، فسكن روعتك واهديء من بكائك، فإن الله قد آجرك على عظيم مصابك ثمّ أدخل إلى حجرته وجلس في محرابه.

قال الرّاوي: وأقبلت زينب وأم كلثوم حتّى جلستا معه على فراشه واقبلتا تندبانه وتقولان: يا أبتاه من للصّغير حتّى يكبر، ومن للكبير بين الملاء، يا أبتاه حزننا عليك طويل وعبرتنا لا ترقى.

قال: فضجّ النّاس من وراء الحجرة بالبكاء والنّحيب وفاضت دموع أمير المؤمنين عند ذلك وجعل يقلب طرفه وينظر إلى أهل بيته وأولاده، ثمّ دعا الحسن والحسين عليهما السّلام وجعل يحضنهما ويقبلهما.

ثمّ أغمي عليه ساعة طويلة وأفاق، وكذلك رسول الله يغمي عليه ساعة طويلة ويفيق أخرى لأنّه صلى الله عليه وآله كان مسموماً فلما أفاق ناوله الحسن قعباً من لبن فشرب منه قليلاً ثم نحاه عن فيه وقال: احملوه إلى أسيركم.

ثمّ قال للحسن: بحقّي عليك يا بنيّ إلاّ ما طيبتم مطعمه ومشربه وأرفقوا به إلى حين موتي وتطعمه ممّا تأكل وتسقيه ممّا تشرب حتّى تكون أكرم منه، فعند ذلك حملوا إليه اللبن وأخبروه بما قال أمير المؤمنين في حقّه فأخذ اللبن وشربه.

قال: ولما حمل أمير المؤمنين إلى منزله جاؤوا باللعين مكتوفاً إلى بيت من بيوت القصر فحبسوه فيه فقالت له أمّ كلثوم وهي تبكي: يا ويلك أما أبي فإنّه لا بأس عليه وإنّ الله مخزيك في الدّنيا والآخرة وإنّ مصيرك إلى النّار خالداً فيها، فقال لها ابن ملجم لعنه الله: ابكي إنْ كنت باكية فوالله لقد اشتريت سيفي هذا بألف وسممته بألف، ولو كانت ضربتي هذه لجميع أهل الكوفة ما نجا منهم أحد وفي ذلك يقول الفرزدق:

فلا غرو للأشراف إن ظفرت بها ذئاب الأعادي من فصيح واعجم

فحربة وحشيّ سقت حمزة الردى وحتف علي من حسام ابن ملجم

قال محمّد بن الحنفية رضي الله عنه: وبتنا ليلة عشرين من شهر رمضان مع أبي وقد نزل السّم إلى قدميه وكان يصلي تلك الليلة من جلوس ولم يزل يوصينا بوصاياه ويعزينا من نفسه ويخبرنا بأمره وتبيانه إلى حين طلوع الفجر.

فلما أصبح استأذن النّاس عليه فأذن لهم بالدّخول فدخلوا عليه وأقبلوا يسلمون عليه وهو يردّ عليهم السّلام، ثمّ قال: أيّها النّاس اسألوني قبل أن تفقدوني وخفّفوا سؤالكم لمصيبة إمامكم.

قال: فبكى النّاس عند ذلك بكاء شديداً وأشفقوا أن يسألوه تخفيفاً عنه، فقام إليه حجر بن عدي الطائي وقال:

فيا اسفا على المولى التّقيّ أبو الأطهار حيدر الزّكيّ

قتله كافر حنث زنيم لعين فاسق نغل شقيّ

فيلعن ربّنا من حاد عنكم ويبرأ منكم لعنا وبيّ

لانكم بيوم الحشر ذخري وأنتم عترة الهادي النبيّ

فلمّا بَصُرَ بِه وسمع شعره قال له: كيف لي بك إذا دعيت إلى البراءة منّي فما عساك أن تقول؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو قطعت بالسّيف إرباً إرباً واضرم لي النّار وألقيت فيها لآثرت ذلك على البراءة منك، فقال: وفّقت لكلّ خير يا حجر جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيّك.

ثمّ قال: هل من شربة من لبن؟ فأتوه بلبن في قعب فأخذه وشربه كله فذكر الملعون ابن ملجم وأنّه لم يخلف له شيئاً فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً، اعلموا أنّي شربت الجميع ولم أبق لأسيركم شيئاً من هذا ألا وإنّه آخر رزقي من الدّنيا فبالله عليك يا بنيّ إلاّ ما أسقيته مثل ما شربت فحمل إليه ذلك فشربه.

قال محمّد بن الحنفيّة رضي الله عنه: لمّا كانت ليلة إحدى وعشرين وأظلم الليل وهي الليلة الثانية من الكائنة، جمع أبي أولاده وأهل بيته وودّعهم، ثمّ قال لهم: الله خليفتي عليكم وهو حسبي ونعم الوكيل، وأوصاهم الجميع منهم بلزوم الإيمان والأديان والأحكام التي أوصاه بها رسول الله ﷺ.

فمن ذلك ما نقل عنه أوصى به الحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه الملعون ابن ملجم وهي هذه: أوصيكما بتقوى الله، إلى آخر ما يأتي في الكتاب برواية السّيد في باب المختار من وصاياه إن شاء الله.

قال: ثمّ تزايد ولوج السمّ في جسده الشريف حتّى نظرنا إلى قدميه وقد احمرتا جميعاً، فكبر ذلك علينا وآيسنا منه ثمّ أصبح فأمرهم ونهاهم وأوصاهم ثمّ عرضنا عليه المأكول والمشروب فأبى أن يشرب فنظرنا إلى شفتيه وهما يختلجان بذكر الله تعالى، وجعل جبينه يرشح عرقاً وهو يمسحه بيده.

قلت: يا أبت أراك تمسح جبينك، فقال: يا بنيّ إنّي سمعت جدّك رسول الله ﷺ يقول: إنّ المؤمن إذا نزل به الموت ودنت وفاته عرق جبينه وصار كاللؤلؤ الرطب وسكن أنينه.

ثمّ قال: يا أبا عبد الله ويا عون، ثمّ نادى أولاده كلّهم بأسمائهم صغيراً وكبيراً، واحداً بعد واحد وجعل يودّعهم ويقول: الله خليفتي عليكم أستودعكم الله، وهم يبكون.

فقال الحسن عليه السلام يا أبه ما دعاك إلى هذا، فقال له: يا بنيّ إنّي رأيت جدّك رسول الله في منامي قبل هذه الكائنة بليلة فشكوت إليه ما أنا فيه من التذلل والأذى من هذه الأمة، فقال لي: ادع عليهم فقلت: اللهم أبدلهم بي شرّاً منّي وأبدلني بهم خيراً منهم، فقال لي قد استجاب الله دعاك سينقلك إلينا بعد ثلاث، وقد مضت الثلاث.

يا أبا محمّد أوصيك ويا أبا عبد الله خيراً فأنتما منّي وأنا منكما، ثمّ التفت إلى أولاده الذين من غير فاطمة وأوصاهم أن لا يخالفوا أولاد فاطمة يعني الحسن والحسين.

ثمّ قال: أحسن الله لكم العزاء ألا وإنّي منصرف عنكم وراحل في ليلتي هذه ولاحق بحبيبي محمّد كما وعدني فإذا أنا متّ يا أبا محمّد فغسلني وكفني وحنّطني ببقية حنوط جدّك رسول الله فإنّه من كافور الجنّة جاء به جبرئيل إليه، ثمّ ضعني على سريري ولا يتقدّم أحد منكم مقدّم السرير واحملوا مؤخره واتّبعوا مقدّمه فأيّ موضع وضع المقدّم فضعوا المؤخر فحيث قام سريري فهو موضع قبري.

ثمّ تقدّم يا أبا محمّد وصلّ علي يا بني يا حسن وكبّر عليّ سبعاً واعلم أنّه لا يحلّ ذلك على أحد غيري إلاّ على رجل يخرج في آخر الزّمن اسمه القائم المهدي من ولد أخيك الحسين يقيم اعوجاج الحقّ.

فإذا أنت صليت يا حسن فنح السرير عن موضعه ثمّ اكشف التراب عنه فترى قبراً محفوراً ولحداً مثقوباً وساجة منقوبة فاضجعني فيها، فإذا أردت الخروج من قبري فافتقدني فإنّك لا تجدني وأنّي لاحق بجدّك رسول الله.

واعلم يا بنيّ ما من نبيّ يموت وإن كان مدفوناً بالمشرق ويموت وصيه بالمغرب إلاّ ويجمع الله عزّ وجلّ بين روحيهما وجسديهما ثمّ يفترقان فيرجع كلّ واحد منهما إلى موضع قبره وإلى موضعه الذي حط فيه.

ثمّ أشرج اللحد باللبن وأهل التراب عليّ ثمّ غيب قبري، وكان غرضه بذلك لئلا يعلم بموضع قبره أحد من بني أميّة فإنّهم لو علموا بموضع قبره لحفروه وأخرجوه وأحرقوه كما فعلوا بزيد بن علي بن الحسين.

ثمّ يا بنيّ بعد ذلك إذا أصبح الصّباح أخرجوا تابوتاً إلى ظاهر الكوفة على ناقة وأمر بمن يسيرها بما عليها كأنّها تريد المدينة بحيث يخفى على العامة موضع قبري الذي تضعني فيه، وكأنّي بكم وقد خرجت عليكم الفتن من هٰهنا وهٰهنا فعليكم بالصّبر فهو محمود العاقبة.

ثمّ قال: يا أبا محمّد ويا أبا عبد الله كأنّي بكما وقد خرجت عليكما من بعدي الفتن من ههنا فاصبروا حتّى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ثمّ قال: يا أبا عبد الله أنت شهيد هذه الأمّة فعليك بتقوى الله والصّبر على بلائه، ثمّ أغمي عليه ساعة وأفاق وقال: هذا رسول الله وعمّي حمزة وأخي جعفر وأصحاب رسول الله كلهم يقولون عجل قدومك علينا فإنّا إليك مشتاقون.

ثمّ أدار عينيه في أهل بيته كلهم، وقال: أستودعكم الله جميعاً سدّدكم الله جميعاً، حفظكم الله جميعاً خليفتي عليكم الله وكفى بالله خليفة، ثمّ قال وعليكم السّلام يا رسل ربّي ثمّ قال:

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨].

وعرق جبينه وهو يذكر الله كثيراً وما زال يذكر الله ويتشهّد الشّهادتين، ثمّ استقبل القبلة وغمض عينيه ومدّ رجليه ويديه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

ثمّ قضى نحبه عليه السلام وكانت وفاته في ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان وكانت ليلة الجمعة سنة أربعين من الهجرة[١].

قال: فعند ذلك صرخت زينب بنت علي وأم كلثوم وجميع نسائه وقد شقّوا الجيوب ولطموا الخدود وارتفعت الصّيحة في القصر فعلم أهل الكوفة أنّ أمير المؤمنين قد قبض، فأقبل النّساء والرّجال يهرعون أفواجاً أفواجاً وصاحوا صيحة عظيمة فارتجت الكوفة بأهلها، وكثر البكاء والنّحيب وكثر الضّجيج بالكوفة وقبائلها ودورها وجميع أقطارها، فكان ذلك كيوم مات فيه رسول الله.

---

(١) بحار الأنوار: ٤٢/٢٩٢، والأنوار العلوية: ٣٨٧.

فلما أظلم الليل تغيّر أفق السّماء وارتجت الأرض وجميع من عليها بكوه وكنّا نسمع جلبة وتسبيحاً في الهواء فعلمنا أنها أصوات الملائكة، فلم يزل كذلك إلى أن طلع الفجر ثمّ ارتفعت الأصوات وسمعنا هاتفاً بصوت يسمعه الحاضرون ولا يرون شخصه يقول:

بنفسي ومالي ثمّ أهلي وأسرتي ... فداء لمن أضحى قتيل ابن ملجم
على رقا فوق الخلائق في الوغا ... فهدّت له أركان بيت المحرّم
على أمير المؤمنين ومن بكت ... لمقتله البطحاء واكناف زمزم
يكاد الصّفا والمشعرين كلاهما ... يهدّاوبان النّقص في ماء زمزم
وأصبحت الشّمس المنير ضياؤها ... لقتل علي لونها لون دهلم
وظل له أفق السّماء كآبة ... كشقة ثوب لونها لون عندم
وناحت عليه الجن إذ فجعت به ... حنيناً كثكلى نوحها يترنّم
لفقد على خير من وطأ الحصى ... أخى العلم الهادي النبي المعظم

قال محمّد بن الحنفية رضي الله عنه: ثمّ أخذنا في جهازه ليلاً، وكان الحسن عليه السلام يغسله والحسين عليه السلام يصبّ الماء عليه وكان لا يحتاج إلى من كان يقلبه بل يتقلب كما يريد الغاسل يميناً وشمالاً، وكانت رائحته أطيب من رائحة المسك والعنبر، ثمّ نادى الحسن بأخته زينب وأم كلثوم وقال: يا أختاه هلمي بحنوط جدّي رسول الله، فبادرت زينب مسرعة حتّى أتته به.

قال الرّاوي: فلما فتحته فاحت الدّار وجميع الكوفة وشوارعها لشدّة رائحة ذلك الطيب، ثمّ لفوه بخمسة أثواب كما أمر عليه السلام ثمّ وضعوه على السرير وتقدم الحسن والحسين إلى السرير من مؤخره وإذا مقدّمه قد ارتفع ولا يرى حامله، وكان حاملاه من مقدّمه جبرئيل وميكائيل فما مرّ بشيء على وجه الأرض إلا انحنى له ساجداً وخرج السّرير من مائل باب كنده فحملا مؤخره وسائران يتبعان مقدمه.

قال ابن الحنفيّة رضي الله عنه: والله لقد نظرت إلى السّرير وأنّه ليمرّ بالحيطان والنّخل فتنحى له خشوعاً ومضى مستقيماً إلى النّجف إلى موضع قبره الآن.

قال: وضجت الكوفة بالبكاء والنّحيب وخرجن النّساء يتبعنه لاطمات حاسرات فمنعهم الحسن عليه السلام ونهاهم عن البكاء والعويل وردّهن إلى أماكنهن، والحسين عليه السلام يقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم إنّا لله وإنّا إليه راجعون يا أباه وا انقطاع ظهراه من أجلك تعلمت البكاء إلى الله المشتكى[1].

(١) كلمات الإمام الحسين (ع): ١٥١، وبحار الأنوار: ٤٢/ ٢٩٥.

فلما انتهيا إلى قبره وإذا مقدّم السرير قد وضع فوضع الحسن مؤخره، ثمّ قام الحسن وصلى عليه والجماعة خلفه فكبر سبعاً كما أمره به أبوه، ثمّ زحزحا سريره وكشفا التّراب وإذا بقبر محفور ولحد مشقوق وساجة منقورة مكتوب عليها: هذا ما ادخره له جدّه نوح النبي.

فلما أرادوا نزوله سمعوا هاتفاً يقول: أنزلوه إلى التّربة الطاهرة فقد اشتاق الحبيب إلى الحبيب، فدهش النّاس عند ذلك وتحيروا وألحد أمير المؤمنين قبل طلوع الفجر وانصرف النّاس ورجع أولاد أمير المؤمنين وشيعتهم إلى الكوفة ولم يشعر بهم أحد من النّاس.

فلما طلع الصّباح وبزغت الشّمس أخرجوا تابوتاً من دار أمير المؤمنين وأتوا به إلى المصلى بظاهر الكوفة، ثمّ تقدّم الحسن وصلى عليه ورفعه على ناقة وسيرها مع بعض العبيد.

قال في **«البحار»**: روى البرسي في **«مشارق الأنوار»** عن محدّثي أهل الكوفة أنّ أمير المؤمنين لما حمله الحسن والحسين على سريره إلى مكان البئر المختلف فيه إلى نجف الكوفة وجدوا فارساً يتضوع منه رائحة المسك فسلم عليهما.

ثمّ قال للحسن: أنت الحسن بن عليّ رضيع الوحي والتّنزيل وفطيم العلم والشّرف الجليل خليفة أمير المؤمنين وسيد الوصيّين؟ قال: نعم قال: وهذا الحسين ابن أمير المؤمنين وسيد الوصيين سبط الرّحمة ورضيع العصمة وربيب الحكمة ووالد الأئمة؟ قال: نعم، قال: سلماه إليّ وامضيا في دعة الله.

فقال له الحسن: إنّه أوصى إلينا أن لا نسلمه إلاّ إلى أحد رجلين جبرئيل أو الخضر فمن أنت منهما؟ فكشف النقاب فإذا هو أمير المؤمنين، ثمّ قال: يا أبا محمّد إنّه لا تموت نفس إلا ويشهدها[١] فما يشهد جسده[٢].

قال البرسي وروى عن الحسن بن علي عليه السلام أن أمير المؤمنين قال للحسن والحسين: إذا وضعتماني في الضّريح فصليا ركعتين قبل أن تهيلا عليّ التّراب وانظرا ما يكون، فلما وضعاه في الضّريح المقدس فعلا ما أمرا به وإذا الضّريح مغطى بثوب من سندس فكشف الحسن ممّا يلي وجه أمير المؤمنين فوجد رسول الله وآدم وإبراهيم (ع) يتحدّثون مع أمير المؤمنين، وكشف الحسين مما يلي رجليه فوجد الزهراء وحواء ومريم وآسية عليهن السّلام ينحن على أمير المؤمنين ويندبنه[٣].

قال المجلسي: ولم أر هذين الخبرين إلاّ من طريق البرسي ولا أعتمد على ما يتفرّد

---

(١) أي ويحضرها أمير المؤمنين.

(٢) مدينة المعاجز: ٣/٦١، وبحار الأنوار: ٤٢/٣٠١.

(٣) مدينة المعاجز: ٣/٧٧ ح ٧٤١، وبحار الأنوار: ٤٢/٣٠١.

بنقله ولا أردهما لورود الأخبار الكثيرة الدّالة على ظهورهم بعد موتهم في أجسادهم المثاليّة.

وفي «**البحار**» من «**إرشاد المفيد**»: كانت إمامة أمير المؤمنين بعد النبي ثلاثين سنة منها أربع وعشرون سنة وأشهر ممنوعاً من التّصرف في أحكامها مستعملاً للتقيّة والمداراة ومنها خمس سنين وستّة أشهر ممتحناً بجهاد المنافقين من النّاكثين والقاسطين والمارقين، ومضطهداً بفتن الضّالين.

كما كان رسول الله ﷺ ثلاثة عشر سنة من نبوّته ممنوعا من أحكامها خائفاً ومحبوساً وهارباً ومطروداً لا يتمكن من جهاد الكافرين ولا يستطيع دفعاً عن المؤمنين، ثمّ هاجر وأقام بعد الهجرة عشرة سنين مجاهداً للمشركين ممتحناً بالمنافقين إلى أن قبضه الله إليه وأسكنه جنات النّعيم.

وكانت وفات أمير المؤمنين عليه السلام قبيل الفجر من ليلة الجمعة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، قالت سودة بن[1] عمارة الهمدانية ونعم ما قالت:

صلّى الإله على روح تضمّنها قبر فاصبح فيه العدل مدفوناً

قد حالف الخير لا يبغي به بدلاً فصار بالحقّ والإيمان مقروناً

ومن «**أمالي الصّدوق**» في حديث، فلمّا كان من الغدو أصبح الحسن قام خطيباً على المنبر فحمد الله وأثنا عليه ثمّ قال:

أيّها النّاس في هذه الليلة نزل القرآن وفي هذه الليلة رفع عيسى بن مريم وفي هذه الليلة قتل يوشع بن نون وفي هذه الليلة مات أبي أمير المؤمنين والله لا يسبق أبي أحد كان قبله من الأوصياء إلى الجنّة، ولا من يكون بعده وإن كان رسول الله ليبعثه في السّرية فيقاتل جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره وما ترك صفراء ولا بيضاء إلاّ سبعمائة درهم ليشتري بها خادماً لأهله[2].

ومن «**المناقب**» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ السّماء والأرض لتبكي على المؤمن إذا مات أربعين صباحاً وإنّها لتبكي على العالم إذا مات أربعين شهراً وإنّ السّماء والأرض ليبكيان على الرّسول أربعين سنة وإنّ السّماء والأرض ليبكيان عليك يا علي إذا قتلت أربعين سنة[3].

---

(١) في نسخة: بنت.

(٢) الأمالي: ٣٩٧، وروضة الواعظين: ١٣٨.

(٣) بحار الأنوار: ٣٠٨/٤٢ ح ٩.

قال ابن عباس: لقد قتل أمير المؤمنين على الأرض بالكوفة فأمطرت السّماء ثلاثة أيّام دماً.

عن أبو حمزة عن الصّادق عليه السلام وقد روى أيضاً عن سعيد بن المسيب أنه لمّا قبض أمير المؤمنين عليه السلام لم يرفع من وجه الأرض حجر إلاّ وجد تحته دم عبيط.

عن أربعين الخطيب وتاريخ النّسوي أنّه سئل عن عبد الملك بن مروان الزّهري ما كانت علامة يوم قتل عليّ عليه السلام قال: ما رفع حصاة من بيت المقدس إلاّ كان تحتها دم عبيط، ولمّا ضرب في المسجد سمع صوت لله الحكم لا لك يا علي ولا لأصحابك، فلمّا توفي سمع في داره:

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠] الآية.

ثمّ هتف آخر مات رسول الله ومات أبوكم.

وفي «**أخبار الطالبين**» أنّ الرّوم أسروا قوماً من المسلمين فأتى بهم إلى الملك فعرض عليهم الكفر فأبوا فأمر بإلقائهم في الزّيت المغلي وأطلق منهم رجلاً يخبر بحالهم، فبينما هو يسير إذ سمع وقع حوافر الخيل فوقف فنظر إلى أصحابه الذين ألقوا في الزّيت فقال لهم في ذلك، فقالوا: قد كان ذلك فناد مناد من السّماء في الشّهداء البرّ والبحر إنّ علي بن أبي طالب قد استشهد في هذه الليلة فصلوا عليه فصلينا عليه ونحن راجعون إلى مصارعنا.

تسلى هم وتسكين فؤاد في أحوال قاتله وكيفية قتله

ففي «**البحار**» من كتاب «**قصص الأنبياء**» عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ عاقر ناقة صالح كان أزرق ابن بغي، وإنّ قاتل علي صلوات الله عليه ابن بغي وكانت مراد تقول ما نعرف له فينا أباً ولا نسباً وإنّ قاتل الحسين بن علي صلوات الله عليه ابن بغي، ولم يقتل الأنبياء ولا أولاد الأنبياء إلاّ أولاد البغايا[1].

وفيه أيضاً في ذيل الرّواية السّالفة التي قدمناها في كيفية شهادته عليه السلام عن لوط بن يحيى:

قال الرّاوي: ثمّ إنّه لما رجع أولاد أمير المؤمنين وأصحابه إلى الكوفة واجتمعوا لقتل اللعين عدوّ الله ابن ملجم فقال عبد الله بن جعفر: اقطعوا يديه ورجليه ولسانه واقتلوه بعد ذلك، وقال محمّد بن الحنفية: اجعلوه غرض النّشاب واحرقوه بالنار، وقال آخر: أصلبوه حياً حتّى يموت فقال الحسن: أنا ممتثل فيه ما أمرني به أمير المؤمنين أضربه ضربة بالسّيف

(١) قصص الأنبياء: ٢٢٢ ح ٢٩٢ الأنوار العلوية: ٤٠٠.

حتّى يموت فيها وأحرقه بالنّار بعد ذلك.

قال الرّاوي: فأمر الحسن أن يأتوه، فجاؤوا به مكتوفاً حتّى أدخلوه الموضع الذي ضرب فيه الإمام والنّاس يلعنونه ويوبخونه وهو ساكت لا يتكلم، فقال الحسن يا عدوّ الله قتلت أمير المؤمنين وإمام المسلمين وأعظمت الفساد في الدّين.

فقال لهما: يا حسن ويا حسين ما تريد ان أن تصعنا لي؟ قالا: نريد أن نقتلك كما قتلت سيدنا ومولانا، فقال لهما: اصنعا ما شئتما أن تصنعا ولا تعنّفا من استزله الشيطان فصده عن السّبيل، ولقد زجرت نفسي فلم تنزجر ونهيتها فلم تنته فدعها تذوق وبال أمرها ولها عذاب شديد ثمّ بكى.

فقال له: يا ويلك ما هذه الرّقة اين كانت حين وضعت قدمك وركبت خطيئتك، فقال ابن ملجم:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

ولقد انقضى التّوبيخ والمعايرة وإنّما قتلت أباك وحصلت بين يديك فاصنع ما شئت وخذ بحقك منّي كيف شئت ثمّ برك على ركبتيه وقال: يا ابن رسول الله الحمد لله [الذي] أجرى قتلي على يديك، فرق له الحسن لأنّ قلبه كان رحيماً صلى الله عليه، فقام الحسن فأخذ السّيف بيده وجرّده من غمده وندّبه[1] حتّى لاح الموت في حدّه ثم ضربه ضربة أراد بها عنقه فاشتدّ زحام النّاس عليه وعلت أصواتهم فلم يتمكن من فتح باعه فارتفع السّيف إلى باعه «رأسه» فأبراه فانقلب عدو لله على قفاه يخور في دمه.

فقام الحسين إلى أخيه وقال: يا أخي أليس الأَب واحداً والأَم واحدة ولي نصيب في هذه الضّربة ولي حقّ في قتله فدعني أضربه ضربة أشفي بها بعض ما أجده[2]، فناوله الحسن السّيف فأخذه وهزّه وضربه على الضّربة التي ضربها الحسن فبلغ إلى طرف أنفه وقطع جانبه الآخر وابتدره النّاس بأسيافهم بعد ذلك فقطعوه إرباً إرباً، فعجل الله بروحه إلى النّار وبئس القرار ثمّ جمعوا جثته وأخرجوه من المسجد وجمعوا له حطباً وأحرقوه بالنّار.

وفي «المناقب» استوهبت أم الهيثم بنت الأسود النّخعيّة جيفته لتتولى إحراقها فوهبها لها فأحرقتها بالنّار.

---

(١) في نسخة: نزته.

(٢) بحار الأنوار: ٤٢/٢٩٨، وكلمات الإمام الحسين (ع): ١٥٤.

وقيل: طرحوه في حفرة وطموه بالتّراب فهو يعوي كعوي الكلاب في حفرته إلى يوم القيامة.

وأقبلوا إلى قطام الملعونة وأخذوها فقطعوها بالسّيف إرباً إرباً ونهبوا دارها ثم أخذوها وأخرجوها إلى ظاهر الكوفة وأحرقوها بالنّار وعجل الله بروحها إلى النّار وغضب الجبار.

وأمّا الرّجلان اللذان تحالفا معه فاحدهما قتله معاوية بن أبي سفيان بالشّام والآخر قتله عمرو بن العاص بمصر لا رضي الله عنهما.

وأمّا الرّجلان اللذان كانا مع ابن ملجم بالجامع يساعدانه على قتل علي عليه السلام فقتلا من ليلتهما لعنهما الله وحشرهما محشر المنافقين الظالمين في جهنم خالدين مع السّالفين.

وفي **«البحار»** من الخرايج مسنداً عن عمرو بن أحمد بن محمّد بن عمرو، عن الحسن بن محمّد المعروف يابن الرّفا، قال: سمعته يقول: كنت بالمسجد الحرام فرأيت النّاس مجتمعين حول مقام إبراهيم فقلت ما هذا؟ قالوا: راهب أسلم فأشرفت عليه فإذا بشيخ كبير عليه جبّة صوف وقلنسوة صوف عظيم الخلقة وهو قاعد بحذاء مقام إبراهيم فسمعته يقول:

كنت قاعداً في صومعة فأشرفت منها وإذا طائر كالنّسر قد سقط على صخرة على شاطىء البحر فتقيأ فرمى بربع إنسان، ثمّ طار فتفقّدته فعاد فتقيأ فرمى بربع إنسان، ثمّ طار فجاء فتقيأ بربع إنسان، ثمّ طار فجاء فتقيأ بربع إنسان ثم طار فدنت الأرباع فقام رجلاً فهو قائم وأنا أتعجب منه.

ثمّ انحدر الطير فضربه وأخذ ربعه فطار، ثمّ رجع فأخذ ربعه فطار، ثمّ رجع فأخذ ربعه فطار، ثمّ انحدر الطير فأخذ الرّبع الآخر فطار، فبقيت أتفكر وتحسرت ألا أكون لحقته وسألته من هو فبقيت أتفقد الصّخرة حتّى رأيت الطير قد أقبل فتقيأ بربع إنسان فنزلت فقمت بإزائه، فلم أزل حتّى تقيأ بالرّبع الرّابع، ثمّ طار فالتأم رجلاً فقام قائماً.

فدنوت منه فسألت فقلت: من أنت؟ فسكت عنّي فقلت بحقّ من خلقك من أنت؟ قال: أنا ابن ملجم، فقلت له وأيّ شيء عملت قال: قتلت عليّ بن أبي طالب فوكل بي هذا الطير يقتلني كلّ يوم قتلة فهو بينا يخبرني إذا انقض الطائر فأخذ ربعه فطار فسألت عن عليّ عليه السلام فقالوا: هو ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله فأسلمت.

التذييل الثاني في موضع قبره الشريف والإشارة إلى من بناه فنقول

إنّه كان في بعض الأزمان بين المخالفين اختلاف في موضع قبره صلوات الله عليه، فذهب جماعة منهم إلى إنّه دفن في رحبة مسجد الكوفة وقيل: إنّه دفن في قصر الإمارة،

وقيل: إنّه أخرجه الحسن معه إلى المدينة ودفنه بالبقيع وكان بعض جهلة الشيعة يزورونه بمشهد في الكرخ.

وقد اجتمعت الشيعة على أنّه مدفون بالغرى في الموضع المعروف عند الخاص والعام، وهو عندهم من المتواترات رووه خلفاً عن سلف إلى أئمة الذّين صلوات الله عليهم أجمعين وكان السّبب في هذا الاختلاف إخفاء قبره خوفاً من الخوارج والمنافقين وكان لا يعرف ذلك إلاّ خاص الخاص من الشّيعة إلى أن ورد الصادق عليه السلام الحيرة في زمن السّفاح فأظهره لشيعته.

ومن هذا اليوم يزوره كافّة الشّيعة في هذا المكان، ولا حاجة لنا إلى ذكر ما ورد في تعيين موضع القبر الشّريف من الأَخبار المرويّة عن الأئمة الأَطهار، وإنّما الأَنسب ذكر كيفيّة بناء المرقد الشّريف والقبّة المباركة زادها الله شرفاً، فأقول: روى عن الصّادق عليه السلام إذا ركب نوح في السّفينة أتت إلى مكان البيت وطاف له أسبوعاً، فأوحى الله إليه أن أنزل عن السّفينة وأخرج عظام آدم وجسده وأدخله في السّفينة فنزل نوح وكان الماء إلى ركبته فأخرج تابوتاً فيه جسد آدم فأوقعه في السّفينة، ولمّا وصلت السّفينة إلى مسجد الكوفة فاستقرّ هناك فأنزل نوح جسده من السّفينة فدفنه في النّجف وجعل نوح لنفسه قبراً في أمامه وصيّر صندوقاً لعليّ يدفن فيه في أمام صدره.

وفي كتاب «**رياض الجنّة**» تأليف بعض أصحابنا قدّس الله روحه: مشهد النّجف على ساكنه ألف تحيّة وتحف واقع على طرف القبلة من الكوفة بنصف فرسخ.

وأوّل من بنى القبر الشّريف هارون العبّاسي على ما ستطلع عليه، ثمّ بعد مائة وثمانين سنة ونيّفاً بنى عضد الدّولة الديلمي القبّة الشّريفة، ثمّ زاد الملوك على ذلك يوماً فيوماً إلى أن صار بلدة صغيرة جاور النّاس فيها.

ولمّا وصل دورة السّلطنة إلى السّلطان نادر أمر بتذهيب القبّة المباركة وبناء الأَيوان والمنارتين وتذهيبها وصرف على ذلك خمسين ألف تومان نادريّ وصرفت زوجته كوهر شاد أمّ ابنيه قلي ميرزا ونصر الله ميرزا مائة ألف ربعية على تعمير الصّحن المقدّس وبناء جدرانه بالكاشي وصرفت أمّ سلطان وسائر زوجاته عشرين ألف تومان نادري على بناء المسجد الواقع في ظهر الرّأس الشّريف.

وأرسلن إلى الرّوضات المطهّرة عشرين حمل بعير من الفرس والبساط، وكان الفراغ من جميع ذلك في سنة سبع وخمسين ومائة بعد الأَلف، وقيل في تاريخ تمام المنارة الشّماليّة.

تعالى شأنه الله أكبر

وفي تمام المنارة الجنوبيّة.

تكرر أربعاً الله أكبر

أراد أربعة (**الله أكبر**) ثمّ لمّا صار نوبة السلطنة إلى السّلطان على مراد خان زند في سنة سبع وتسعين ومائة وألف بعث جمعاً من حذقة المهندسين بواحد من ثقاته إلى تعمير ما خرب من جدران البقعة الشّريفة وتجديد كواشي الجدران والطاقات وتنقية بئر الصّحن المقدّس وسائر آبار المشهد وإصلاح مجرى مياهها وأهدى إلى المشاهد المشرفة ولا سيّما مشهد أمير المؤمنين بالفرش النّفيسة والقناديل المرصّعة بالدّرر والجواهر وأعطى الخدّام والمجاورين هناك عطايا عظيمة وصلات جزيلة.

ثمّ أمر بصنعة صندوق من الخاتم يوضع فوق القبر الشّريف وتوفي قبل تمامه ثمّ اشتغل به حذقة الصّانعين بأمر جعفر خان، وتوفي ولم يتمّ، وأتمّه لطف علي خان بن جعفر خان وكان مدّة الاشتغال بصنعته ستّ سنين.

ثمّ بنى الضريح المقدّس المفضّض السّلطان آقا محمّد خان قدّس الله روحه، وكان آصف الدّولة الهندي أراد أن يجري نهراً إلى المشهد من الفرات من جنب جسر المسيّب على أربعة وعشرين فرسخاً فلم يتيسّر.

ثمّ عزم الحاج محمّد عليّ البغدادي إلى نهر من سمت ذي الكفل وصرف مصارف كثيرة عليه ولم يمكن.

أقول: ولله الحمد والمنّة فقد جرى النّهر في زمان اشتغالنا بالتّحصيل في المشهد بسعي السّيد الفاضل الجليل العالم العلامة الزّاهد الورع الحاج سيّد أسد الله الأصفهاني قدّس الله سرّه ونوّر ضريحه من تحت الأرض منتهياً إلى البحر، وأرّخ بعضهم جريان الماء بقوله: جاء ماء الغرى شكر الله مساعي المتصدّين لبناء المشاهد المشرفة والسّاعين في تعمير البقاع المتبرّكة وحشرهم مع مواليهم الطاهرين.

وعن سيّد السّند نعمة الله الجزائري في مقامات النّجاة أن أمير المؤمنين عليه السلام مدفون بالغري ويقال له الغريان أيضاً وهما قبرا مالك وعقيل نديمي حذيمة الأبرش سمّيا غريين لأنّ النّعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله إذا خرج في يوم بأسه.

وقيل: كان ينادم النّعمان رجلان من العرب خالد بن مفضل وعمرو بن مسعود الأسديّان، فشرب معهما ليلة فرجفاه الكلام فغضب وأمر بأن يجعلا في تابوتين ويدفنا بظهر الكوفة، فلمّا أصبح سأل عنهما فأخبره بصنيعه فندم وركب حتّى وقف عليهما وأمر ببناء

الغريّين وجعل لنفسه كلّ سنة يوم نعم ويوم بؤس وكان يضع سريره بينهما.

فإذا كان يوم نعمه فأوّل من يطلع عليه يؤتيه مائة من الإبل، وإذا كان يوم بؤسه فأوّل من يطلع يؤتيه رأس طربال وهي دويبة منتنة الرّيح وأمر بقتله فقتل ويغري به الرغيّان وبقي هذا حاله إلى وقوع قضيّة الطائي وشريك نديم النّعمان، وقد مضى ذكر تلك القضيّة منّا في شرح الخطبة الحادية والأربعين فتذكر.

التذييل الثالث في ذكر نبذ من المعجزات الظاهرة منه ومن قبره الشريف بعد وفاته

فمن هذه ما عن إرشاد الديلمي عند الاستدلال على كونه مدفوناً بالغري قال: والدليل الواضح والبرهان اللائح على ذلك من وجوه:

الأوّل: تواتر أخبار الأئمة يرويه خلف عن سلف.

الثاني: إجماع الشّيعة والاجماع حجّة.

الثالث: ما حصل عنده من الأسرار والآيات وظهور المعجزات كقيام الزّمن وردّ بصر الأعمى وغيرها.

فمنها: ما روى عن عبد الله بن حازم قال خرجنا يوماً مع الرشيد من الكوفة فصرنا إلى ناحية الغريين فرأينا ظباء فأرسلنا عليها الصقور والكلاب فجادلتها ساعة ثمّ لجأت الظباء إلى أكمة فراجعت الصّقور والكلاب عنها، فتعجب الرّشيد من ذلك، ثمّ إنّ الظباء هبطت من الأكمة فسقطت الطيور والكلاب عنها فرجعت الظباء إلى الأكمة فتراجعت الصّقور والكلاب عنها مرّة ثانية، ثمّ فعلت ذلك مرّة أخرى.

فقال الرّشيد: اركضوا إلى الكوفة فأتوني بأكبرها سنّاً، فأتى بشيخ من بني أسد فقال الرّشيد: أخبرني ما هذه الأكمة؟ فقال: حدّثني أبي عن آبائه أنّهم كانوا يقولون: إنّ هذه الأكمة قبر عليّ بن أبي طالب جعله الله تعالى حرماً لا يأوي إليه شيء إلاّ أمن.

فنزل هارون ودعى بماء وتوضّأ وصلّى عند الأكمة وجعل يدعو ويبكي ويتمرّغ عليها بوجهه وأمر أن يبني قبة بأربعة أبواب فبنى، وبقي إلى أيّام السّلطان عضد الدّولة فجاء فأقام في ذلك الطريق قريباً من سنة هو وعسكره فبعث فأتى بالصّناع والاستادية من الأطراف وخرب تلك العمارة وصرف أموالاً كثيرة جزيلة وعمّر عمارة جليلة حسنة وهي العمارة التي كانت قبل عمارة اليوم.

ومنها: ما حكى عن جماعة خرجوا بليل مختفين إلى الغري لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام

قالوا: فلمّا وصلنا إلى القبر الشّريف وكان يومئذٍ قبراً حوله حجارة ولا بناء عنده، وذلك بعد أن أظهره الرّشيد وقبل أن يعمره، فبينا نحن عنده بعضنا يقرا وبعضنا يصلي وبعضنا يزور وإذا نحن بأسد مقبل نحونا، فلمّا قرب منّا قدر رمح قال بعضنا لبعض: ابعدوا عن القبر لننظر ما يصنع، فتباعدنا عن القبر الشريف فجاء الأسد وجعل يمرغ ذراعيه على القبر، فمضى رجل منّا فشاهده فعاد فأعلمنا فزال الرّعب عنّا فجئنا بأجمعنا فشاهدناه يمرغ ذراعيه على القبر وفيه جراح فلم يزل يمرّغه ساعة، ثمّ نزح عن القبر فمضى، فعدنا إلى ما كنّا عليه من الزّيارة والصّلاة والقرآن.

وعن **«مزار البحار»** قال: وقد شاع في زماننا من شفاء المرضى ومعافاة أصحاب البلوى وصحة العميان والزّمن أكثر من أن يحصى.

ولقد أخبرني جماعة كثيرة من الثقات أنّ عند محاصرة الرّوم لعنهم الله المشهد الشّريف في سنة أربع وثلاثين وألف من الهجرة تحصّن أهله بالبلد وإغلاق الأبواب عليهم والتعرّض لدفعهم مع قلة عددهم وعدّتهم وكثرة المحاصرين لهم وقوّتهم وشوكتهم، وجلسوا زماناً طويلاً ولم يظفروا بهم وكانوا يرمون بالبنادق الصّغار والكبار عليهم شبه الأمطار ولم يقع على أحد منهم، وكانت الصّبيان في السّكك ينتظرون وقوعها ليلعبوا بها حتّى أنّهم يروون أن بندقاً كبيراً دخل في كمّ جارية رفعت يدها لحاجة على بعض السّطوح وسقط من ذيلها ولم يصبها.

ويروى عن بعض الصّلحاء الأفاضل من أهل المشهد أنّه رأى في تلك الأيام أمير المؤمنين عليه السلام في المنام وفي يده سواد فسأله عن ذلك فقال: لكثرة دفع الرّصاص عنكم، والغرائب التي ينقلونها في تلك الواقعة كثيرة.

فأما التي اشتهرت بين أهل المشهد بحيث لا ينكره أحد منهم.

فمنها: قصّة الدّهن وهو أن خازن الرّوضة المقدّسة المولى الصّالح البارع التّقي مولانا محمود قدس الله روحه كان هو المتوجّه لإصلاح العسكر الذيُ كانوا في البلد، وكانوا محتاجين إلى مشاعل كثيرة لمحافظة أطراف الحصار فلمّا ضاق الأمر ولم يبق في السّوق ولا في البيوت شيء من الدّهن أعطاهم من الحياض التي كانوا يصبون فيها الدّهن لإسراج الرّوضة وحواليها، فبعد إتمام جميع ما في الحياض ويأسهم من حصوله من مكان آخر رجعوا إليها فوجدوها مترعة من الدّهن فأخذوا منها وكفاهم إلى انقضاء وطرهم.

ومنها: أنّهم كانوا يرون في الليالي في رؤوس الجدران وأطراف العمارات والمنارات نوراً ساطعاً بيّناً حتّى أنّ النّاس إذا كانوا يرفعون أيدهم إلى السّماء كانوا يرون أنامله كالشّموع المشتعلة.

ولقد سمعت من بعض أشارف الثّقات من غير أهل المشهد أنّه قال: كنت ذات ليلة

نائماً في بعض سطوح المشهد الشّريف فانتبهت فرأيت النّور ساطعاً من الرّوضة المقدّسة ومن أطراف جميع جدران البلد فعجبت من ذلك ومسحت يدي على عيني فنظرت فرأيت مثل ذلك فأيقظت رجلاً كان نائماً بجنبي فأخبرني بمثل ما رأيت وبقي هكذا زماناً طويلاً ثمّ ارتفع.

وسمعت أيضاً من بعض الثّقات قال: كنت نائماً في بعض اللّيالي على بعض سطوح البلد الشّريف فانتبهت فرأيت كوكباً نزل من السّماء بحذاء القبّة السّامية حتّى وصل إليها وطاف حولها مراراً بحيث أراه يغيب من جانب ويطلع من آخر ثم صعد إلى السّماء.

ومن الأمور المشهورة التي وقعت قريباً من زماننا أنّ جماعة من صلحاء أهل البحرين أتوا لزيارة الحسين عليه السلام لإدراك بعض الزيارات المخصوصة فأبطأوا ولم يصلوا إليه ووصلوا ذلك اليوم إلى الغري وكان يوم مطر وطين وكان مولانا محمود أغلق أبواب الرّوضة وقالوا قد حرمنا من زيارة ولدك فلا تحرمنا زيارتك فإنّا من شيعتك وقد أتيناك من شقّة بعيدة، فبيناهم في ذلك إذ سقطت الأقفال وفتحت الأبواب ودخلوا وزاروا.

وهذا مشهور بين أهل المشهد وبين أهل البحرين غاية الاشتهار.

ومنها ما تواترت به الأَخبار ونظموها في الأَشعار وشاع في جميع الأصقاع والأقطار واشتهر اشتهار الشّمس في رابعة النّهار وكان بالقرب من تاريخ الكتابة سنة اثنين وسبعين بعد الأَلف من الهجرة، وكان كيفيّة تلك الواقعة على ما سمعته من الثّقات أنّه:

كان في المشهد الغروي عجوز تسمّى بمريم، وكانت معروفة بالعبادة والتقوى فمرضت مرضاً شديداً وامتدّ بها حتّى صارت مقهورة مزمنة وبقيت كذلك قريباً من سنتين بحيث اشتهر أمرها وكونها مزمنة في الغري.

ثمّ إنّها لتسع ليال خلون من رجب تضرعت لدفع ضرّها إلى الله تعالى واستشفت بمولانا أمير المؤمنين عليه السلام وشكت إليه في ذلك ونامت، فرأت في منامها ثلاث نسوة دخلن إليها واحدهن كالقمر ليلة البدر نوراً وصفاء وقلن لها لا تخافي ولا تحزني فإنّ فرجك في اللّيلة الثّاني عشر من الشّهر المبارك.

فانتبهت فرحاً وقصّت رؤياها على من حضرها وكانت منتظرة ليلة ثاني عشر رجب فمرّت بها ولم تر شيئاً، ثمّ ترقّبت ليلة ثاني عشر شعبان فلم تر شيئاً أيضاً، فلما كانت ليلة تاسع شهر رمضان رأت في منامها تلك النسوة بأعيانهنّ وهنّ يبشّرنها، فقلن لها: إذا كانت ليلة الثّاني عشر من هذا الشّهر فامضي إلى روضة أمير المؤمنين وارسلي إلى فلانة وفلانة وسمين نسوة معروفات وباقيات إلى حين هذا التحرير واذهبي بهن معك إليها.

فلما أصبحت قصّت رؤياها وبقيت مسرورة مستبشرة بذلك إلى أن دخلت تلك اللّيلة فأمرت بغسل ثيابها وتطهير جسدها وأرسلت إلى تلك النّسوة ودعتهن فأجبن وذهبن بها

محمولة لأنّها كانت لا تقدر على المشي.

فلما مضى قريب من ربع الليل خرجت واحدة واعتذرت منها وبقيت معها اثنتان وانصرف عنهن جميع من حضر الروضة المقدّسة وغلقت الأبواب ولم يبق في الرّواق غيرهنّ فلما كان وقت السّحر وأرادت صاحبتاها أكل السّحور أو شرب التتن فاستحييا من الضّريح المقدّس فتركتاها عند الشّباك المقابل للضريح المقدس في جانب القبلة وذهبتا إلى الباب الذي في جانب خلفه يفتح إلى الصّحن وخلفه الشّباك، فدخلتا هناك وأغلقتا الباب لحاجتهما.

فلما رجعتا إليها بعد قضاء وطرهما لم تجداها في الموضع الذي تركتاها ملقاة فيه، فتحيّرتا فمضتا يميناً وشمالاً فإذا بها تمشي في نهاية الصّحة والاعتدال.

فسألتاها عن حالها وما جرى عليها فأخبرتهما أنكما لمّا انصرفتما عنّي رأيت تلك النسوة اللاّتي رأيتهن في المنام أقبلن وحملنني وأدخلنني داخل القبّة المنورة وأنا لا أعلم كيف دخلت ومن أين دخلت.

فلما قربت من الضّريح المقدّس سمعت صوتاً من القبر يقول: حرّكن المراة الصّالحة وطفن بها ثلاث مرّات فطفن بي ثلاث مرّات حول القبر، ثمّ سمعت صوتاً آخر أخرجن المرأة الصّالحة من باب الفرج فأخرجوني من الباب الغربي الذي يكون خلف من يصلي بين البابين بحذاء الرّأس وخلف الباب شباك يمنع الاستطراق ولم يكن الباب معروفاً قبل ذلك بهذا الاسم.

قالت فالآن مضين عنّي وجئتماني وأنا لا أر بي شيئاً ممّا كان من المرض والألم والضّعف وأنا في غاية الصّحة والقوّة، فلما كان آخر الليل جاء خازن الحضرة الشّريفة وفتح الأبواب فرآهن يمشين بحيث لا يتميّز واحدة منهن.

وإنّي سمعت من المولى الصّالح التّقى مولينا محمّد طاهر الذي بيده مفاتيح الرّوضة المقدّسة ومن جماعة كثيرة من الصّلحاء الذين كانوا حاضرين في تلك الليلة في الحضرة الشّريفة أنّهم رأوها في أوّل الليلة محمولة عند دخولها وفي آخر الليل سائرة أحسن ما يكون عند خروجها.

وفي المجلد التّاسع من «**البحار**» من بعض مؤلفات أصحابنا عن زيد النساخ قال: كان لي جار وهو شيخ كبير عليه آثار النّسك والصّلاح، وكان يدخل إلى بيته ويعتزل عن النّاس ولا يخرج إلاّ يوم الجمعة.

قال زيد النسّاج: فمضيت يوم الجمعة إلى زيارة زين العابدين عليه السلام فدخلت إلى مشهده فإذا أنا بالشّيخ الذي هو جاري قد أخذ من البئر ما يريد أن يغتسل غسل الجمعة والزّيارة.

فلما نزع ثيابه وإذا في ظهره ضربة عظيمة فتحها أكثر من شبر وهي تسيل قيحاً ومدة، فاشمئز قلبي منها فحانت منه التفاتة فرآني فخجل فقال أنت زيد النساج؟ فقلت: نعم، فقال لي: يا بني عاوني على غسلي فقلت لا والله لا أعاونك حتّى تخبرني بقصّة هذه الضّربة التي بين كتفيك ومن كف من خرجت وأيّ شيء كان سببها.

فقال: يا زيد أخبرك بها بشرط أن تحدث بها أحد من النّاس إلاّ بعد موتي فقلت: لك ذلك، فقال: عاوني على غسلي فإذا لبست أطماري حدثتك بقصتي، قال زيد فساعدته فاغتسل ولبس ثيابه وجلس في الشّمس وجلست إلى جانبه وقلت له حدّثني يرحمك الله.

فقال لي: اعلم أنّا كنّا عشرة أنفس قد تواخينا على الباطل وتوافقنا على قطع الطريق وارتكاب الآثام، وكانت بيننا نوبة نديرها في كلّ ليلة على واحد منا ليصنع لنا طعاماً نفيساً وخمراً عتيقاً وغير ذلك.

فلما كانت الليلة التاسعة وكنّا قد تعشينا عند واحد من أصحابنا وشربن الخمر ثمّ تفرقنا وجئت إلى منزلي ونمت، أيقظتني زوجتي وقالت لي أنّ الليلة الآتية نوبتها عليك ولا عندنا في البيت حبّة من الحنطة.

قال: فانتبهت وقد طار السّكر من رأسي وقلت كيف أعمل وما الحيلة وإلى أين أتوجه؟ فقالت لي زوجتي: الليلة ليلة الجمعة ولا يخلو مشهد مولانا عليّ بن أبي طالب من زوّار يأتون إليه يزورونه فقم وامض واكمن على الطريق فلا بدّ أن ترى أحداً فتأخذ ثيابه فتبيعها وتشتري شيئاً من الطعام لتتم مروّتك عند أصحابك وتكافيهم على ضيفهم.

قال: فقمت وأخذت سيفي وحجفتي[1] ومضيت مبادراً وكمنت في الخندق الذي في ظهر الكوفة، وكانت ليلة مظلمة ذات رعد وبرق فأبرقت برقة فإذا أنا بشخصين مقبلين من ناحية الكوفة، فلما قربا منّي برقت برقة أخرى فإذا هما امراتان، فقلت في نفسي في مثل هذه السّاعة أتاني امرأتان ففرحت ووثبت إليهما وقلت لهما انزعا الحلي الذي عليكما سريعاً فطرحا.

فأبرقت السّماء برقة أخرى فإذا إحداهما عجوز والأخرى شابة من أحسن النساء وجهاً كأنّها ظبية قنّاص أو درّة غوّاص، فوسوس لي الشّيطان على أن أفعل بها القبيح، فقلت في نفسي مثل هذه الشّابة التي لا يوجد مثلها حصلت عندي في هذا الموضع وأخليها، فراودتها عن نفسها.

فقالت العجوز: يا هذا أنت في حل مما أخذته منّا من الثياب والحلي فخلنا نمضي إلى

(١) الحجفة: الترس، مجمع البحرين: ١/ ٤٦٤.

أهلنا فوالله إنّها بنت يتيمة من أمها وأبيها وأنا خالتها وفي هذه الليلة القابلة تزفّ إلى بعلها وأنّها قالت لي: يا خالة إنّ الليلة القابلة أزفّ إلى ابن عمّي وأنا والله راغبة في زيارة سيّدي علي بن أبي طالب عليه السلام وإني إذا مضيت عند بعلي ربّما لا يأذن لي بزيارته فلما كانت هذه الليلة الجمعة خرجت بها لأزوّرها مولاها وسيدها أمير المؤمنين فبالله عليك لاتهتك سترها ولا تفض ختمها ولا تفضحها بين قومها.

فقلت لها: إليك عنّي وضربتها وجعلت أدور حول الصّبية وهي تلوذ بالعجوز وهي عريانة ما عليها غير السّروال وهي في تلك الحال تعقد تكتها وتوثقها عقداً.

فدفعت العجوز عن الجارية وصرعتها إلى الأَرض وجلست على صدرها ومسكت يديها بيد واحدة وجعلت احل عقد التكة باليد الأخرى وهي تضطرب تحتي كالسمكة في يد الصّياد وهي تقول: المستغاث بك يا الله المستغاث بك يا عليّ بن أبي طالب خلصني من يد هذا الظالم.

قال: فوالله ما استتم كلامها إلاّ وحس حافر فرس خلفي، فقلت في نفسي هذا فارس واحد وأنا أقوى منه وكانت لي قوة زائدة وكنت لا أهاب الرّجال قليلاً أو كثيراً، فلما دنا منّي فإذا عليه ثياب بيض وتحته فرس أشهب تفوح منه رائحة المسك فقال لي: يا ويلك خلّ المرأة فقلت له: إذهب لشأنك فأنت نجوت بنفسك تريد تنجي غيرك؟

قال: فغضب من قولي ونفقني بذبال سيفه بشيء قليل فوقعت مغشياً عليّ لا أدري أنا في الأَرض أو في غيرها وانعقد لساني وذهبت قوتي لكنّي أسمع الصوت وأعي الكلام.

فقال لهما: قوماً البسا ثيابكما، فقالت العجوز: فمن أنت يرحمك الله وقد منّ الله علينا بك وإنّي أريد منك أن توصلنا إلى زيارة سيدنا ومولانا عليّ بن أبي طالب قال فتبسم في وجوههما وقال لهما: أنا عليّ بن أبي طالب ارجعا إلى أهلكما فقد قبلت زيارتكما.

قال: فقامت العجوز والصّبية وقبلا يديه ورجليه وانصرفا في سرور وعافية.

قال الرّجل: فأفقت من غشوتي وانطلق لساني فقلت له: يا سيدي أنا تائب إلى الله على يدك وإني لاعدت أدخل في معصية أبداً، فقال: إن تبت تاب الله عليك، فقلت له: تبت والله على ما أقول شهيد.

ثمّ قلت له: يا سيدي تركتني وفي هذه الضّربة هلكت بلا شك، قال: فرجع إليّ وأخذ بيده قبضة من تراب ثمّ وضعها على الضّربة ومسح بيده الشّريفة عليها فالتحمت بقدرة الله تعالى.

قال زيد النساج: فقلت: كيف التحمت وهذه حالتها فقال لي: إنّها والله كانت ضربة

مهولة أعظم ممّا تراها الآن ولكنها بقيت موعظة لمن يسمع ويرى.

ومن فرحة الغري معنعناً عن عليّ بن الحسن بن الحجاج من حفظه، قال: كنا جلوساً في مجلس ابن عمي أبي عبد الله محمّد بن عمر بن الحجاج وفيه جماعة من أهل الكوفة من المشايخ وفيمن حضر العباس بن أحمد العباس وكانوا قد حضروا عند ابن عمّي يهنونه بالسّلامة، لأنّه حضر وقت سقوط سقيفة سيدي أبي عبد الله الحسين عليه السلام في ذي الحجة من سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

فبينا هم قعود يتحدّثون إذ حضر المجلس إسماعيل بن عيسى العباسي، فلما نظرت الجماعة إليه أحجمت عمّا كانت فيه وأطال إسماعيل الجلوس، فلما نظر إليهم قال لهم: يا أصحابنا أعزّكم الله لعلي قطعت حديثكم بمجيئي.

قال أبو الحسن عليّ بن يحيى السليماني وكان شيخ الجماعة ومقدّما فيهم: لا والله يا أبا عبد الله أعزّك الله ما أمسكنا بحال من الأحوال، فقال لهم: يا أصحابنا اعلموا أنّ الله عزّ وجلّ مسائلي عمّا أقول لكم وما أعتقده من المذهب حتّى حلف بعتق جواريه ومماليكه وحبس دوابه أنّه لا يعتقد إلاّ ولاية عليّ بن أبي طالب والسّادة من الأئمة عليهم السّلام وعدّهم واحداً واحداً وساق الحديث، فأبسط إليه أصحابنا وسألوهم وسألوه.

ثمّ قال لهم: رجعنا يوم جمعة من الصّلاة من المسجد الجامع مع عمي داوود فلما كان قبل منازلنا وقبل منزله وقد خلا الطريق قال لنا أينما كنتم قبل أن تغرب الشّمس فصيروا إلي ولا يكون أحد منكم على حال فيتخلف لأنّه كان جمرة بني هاشم.

فصرنا إليه آخر النّهار وهو جالس يتنظرنا، فقال صيحوا بفلان وفلان من الفعلة فجاء رجلان معهما آلتهما والتفت إلينا فقال: اجتمعوا كلكم فاركبوا في وقتكم هذا وخذوا معكم الجمل غلاماً كان له أسود يعرف بالجمل، وكان لو حمل هذا الغلام على سكر دجلة لسكرها من شدّته وبأسه، وامضوا إلى هذا القبر الذي قد افتتن به النّاس ويقولون إنّه قبر عليّ حتّى تنبشوه وتجيبوني بأقصى ما فيه.

فمضينا إلى الموضع فقلنا دونكم وما أمر به، فحفر الحفارون وهم يقولون: لا حول ولا قوة إلاّ بالله في أنفسهم ونحن في ناحية حتّى نزلوا خمسة أذرع، فلما بلغوا إلى الصّلابة قال الحفارون: قد بلغنا إلى موضع صلب وليس نقوى بنقره، فانزلوا الحبشي فأخذ المنقار فضرب ضربة سمعنا لها طنيناً شديداً في البرّ، ثم ضرب ثانية فسمعنا طنيناً أشد من ذلك، ثم ضرب الثالثة فسمعنا أشدّ ممّا تقدّم.

ثمّ صاح الغلام صيحة فقمنا فأشرفنا عليه وقلنا للذين كانوا معه: اسألوه ما باله فلم يجبهم، وهو يستغيث فشدّوه وأخرجوه بالحبل فإذا على يده من أطراف أصابعه إلى مرفقه دم

هو يستغيث لا يكلمنا ولا يحير جواباً، فحملناه على البغل ورجعنا طائرين.

ولم يزل لحم الغلام ينثر من عضده وجنبيه وسائر شقّه الأيمن حتّى انتهينا إلى عمّي فقال: ايش وراءكم؟ فقلنا: ما ترى وحدّثناه بالصّورة.

فالتفت إلى القبلة وتاب ممّا هو عليه ورجع عن المذهب وتولى وتبرّى وركب بعد ذلك في الليل على مصعب بن جابر فسأله أن يعمل على القبر صندوقاً ولم يخبره بشيء ممّا جرى، ووجه من طمّ الموضع وعمر الصّندوق عليه ومات الغلام الأسود من وقته.

وقال أبو الحسن الحجاج رأينا هذا الصندوق الذي هذا حديثه لطيفاً[١].

أقول: وما ظهر منه عليه السلام من هذا القبيل فوق حد الإحصاء ولا حاجة إلى الإطالة، فسبحان من آثر أولياءه بالكرامات الظاهرة والمعجزات القاهرة، وخصّهم بالمناقب السّنية والمآثر الرّفيعة.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولشيخنا البهائي قدس الله روحه في مدح حرم الغري سلام الله على مشرّفه:

في ذا الحرم الأقدس بيت معمور　　في خدمته ملائك العرش حضور
فيه القبس الذي ابن عمران رأى　　فيه النور الذي تجلى للطور

وقال أيضاً:

هذا الحرم الأقدس قد لاح لديك　　فاسجد متخشعاً وعفر خديك
ذا طور سنين فاغضض الطرف به　　هذا حرم العزّة فاخلع نعليك

وقال أيضاً:

هذا النباء العظيم ما فيه خلاف　　هذا لملائك السّماوات مطاف
هذا حرم الله لمن حج وطاف　　من حل به فهو من النار معاف

(١) بحار الأنوار: ٤٢/٣٣٧.

الترجمة

و فرمود آن حضرت در سحر آن روزی که ضربت یافت در او:

مالك شد مرا چشم من، یعنی غلبه نمود خواب بر من در حالتی که من نشسته بودم، پس ظاهر شد به من رسول خدا (ﷺ)، پس گفتم یا رسول الله چیست این ها که رسیدم از امت تو از کجی و دشمنی؟ پس حضرت رسالت فرمود که ای علی، دعای بد کن بر ایشان. پس گفتم که بدل گرداند و عوض دهد مرا خدای تعالی به ایشان بهتری از برای من از ایشان، یعنی به جای ایشان جماعتی بهتر به من کرامت فرماید و بدل گرداند و عوض دهد ایشان را به من بدتر کسی از برای ایشان به جای من تا این که ایشان را به جزا و سزای عمل های بدشان برساند.

ومن كلام له عليه السلام في ذم أهل العراق وهو السبعون من المختار في باب الخطب

والظاهر أنها ملتقطة من خطبة طويلة منا روايتها عن «**الاحتجاج**» و«**الإرشاد**» في شرح الخطبة التاسعة والعشرين فليراجع هناك:

«أَمّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنّما أَنْتُمْ كَالْمَرأَةِ الْحَامِلِ حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وماتَ قَيِّمُها، وطال تَأَيُّمُها، وورِثَها أَبْعَدُهَا، أما واللَّهِ ما أَتَيْتُكَمْ اخْتِياراً، ولَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عَلِيٌّ يَكْذِبُ، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ، فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ؟ أَعَلَى اللَّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، كَلاّ وَاللَّهِ، وَلَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْها، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِها، وَيْلُ أُمِّهِ كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَنٍ لَوْ كَانَ لَهُ وِعاءٌ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»[١].

اللغة

(**أملصت**) الحامل ألقت ولدها ميّتاً والمملاص معتادته و(**قيم**) المرأة زوجها لأنه يقوم بأمرها و(**تأيم**) المرأة خلوها من الزّوج، والأيم في الأصل التي لا زوج لها قال سبحانه:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

و(**السّوق**) الاضطرار وفي بعض النّسخ ولاجئت إليكم شوقاً بالشّين المعجمة و(**اللّهجة**) بسكون الهاء وفتحها اللسان ويكنى بها عن الكلام.

قال الفيروز آبادي: (**الويل**) حلول الشّر وبهاء الفضيحة، أو هو تفجيع يقال: ويله وويلك وويلي وفي النّدبة يقال ويلاه، (**وويل**) كلمة عذاب وواد في جهنم أو بئر أو باب لها ورجل ويلمه بكسر (**اللاّم**) وضمّها (**واه**) ويقال للمتجاه (**ويلمه**) أي ويل لأمه كقولهم لا أب لك فركبوه وجعلوه كالشّيء الواحد ثمّ الحقوه الهاء مبالغة كداهية.

الإعراب

قال الجوهري: تقول ويل لزيد وويلا لزيد، فالنّصب على إضمار الفعل والرفع على الابتداء هذا إذا لم تضفه فإذا أضفت فليس إلاّ النّصب لأنّك لو رفعته لم يكن له خبر.

وقال نجم الأئمة الرّضي في باب حذف عامل المفعول المطلق من «**شرح الكافية**»: ومنها أي من جملة ما يحذف عامله أسماء الأصوات قامت مقام المصادر كآهاً منك أي

---

(١) بطوله في بحار الأنوار: ٤٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧.

توجعاً، وواها لك أي طيباً، وأفاً لك أي كراهة، إلى أن قال: والأصوات القائمة مقام المصادر يجوز إعرابها نصباً إلاّ أن تكون على حرفين ثانيهما حرف مدّ نحو وى لزيد، وذلك نحواها وويها، ويجوز إبقائها على البناء الأصلي نحو أفّ لكما واوه من اخواني واه من ذنوبي.

والظاهر أنّ ويلك وويحك ووليك وويبك من هذا الباب وأصل كلها **(وي)** على ما قال الفراء جيء بلام الجر بعدها مفتوحة مع المضمر نحو**(وي لك ووى له)** ثمّ خلط اللاّم بوي حتّى صارت لام الكلمة كما خلطوا اللاّم بياقي قوله:

فخير نحن عند النّاس منكم إذ الدّاعي المثوب قال يالا

فصار معرباً بإتمامه ثلاثياً فجاز أن يدخل بعدها **(لام)** أخرى نحو ويل لك لصيرورة الأولى **(لام)** الكلمة ثمّ نقل إلى باب المبتدأ فقيل ويل لك كما في سلام عليك.

أقول: وتحقيق الكلام أنك إذا قلت: ويل لزيد، فيجوز الرّفع على الابتداء والنّصب على المفعولية أي حلّ الشر به حلولاً أو عذّب الله عذاباً أو هلكاً له، وجوّز جرّه في **«القاموس»** ولا أرى له وجهاً.

وإذا قلت: ويل زيد، فيجوز الضّم على الابتداء وحذف الخبر أي عذابه أو هلاكه مطلوب، والكسر على أنّ أصله **(وي)** لزيد فكلمة **(وي)** بمعنى الحزن والخسران اتصلت لام الجرّ بها لكثرة الاستعمال فقيل: ويل زيد، والفتح على أنها بعد الاتّصال بلام الجرّ حسبما قلناه خففوا **(اللاّم)** بالفتح.

وأمّا قولهم: رجل ويلمه، بكسر اللاّم وضمّه فأرادوا به أنّه **(واه)** يستعملونه في مقام التّعجب من دهاء الرّجل وذكائه، وأصله ويل لأمّه فركب الكلمتان بعد التّخفيف بحذف **(اللاّم)** واسقاط الهمزة فصار ويلمه.

قال في **«الاقيانوس»**: **(وي)** فيها كلمة مفردة معناها التّعجب كأنّه يتعجب من أمّه أنّها ولدت هذا الولد الذي لا نظير له في العقل والفراسة، أو أنّه من قبيل: قاتله الله وترتب يداه يعني أنّ الجملة موضوعة للتّعجب ملغاة عن معناها الأصلي أو أن الويل بمعنى العذاب والخسران كأنّه يريد عذاب أمّه كيف ولدت هذا الولد الدّاهي الظالم فيكون مستعملاً في مقام الأسف والانفعال، أو أنّ المراد بذلك الحسرة والتأسف من أمّه وأنّها ولدت هذا الولد فردا ولم تلد له ثانياً كفوا فيكون مستعملاً في مقام التّعجب والاستجادة.

وقيل: إنّ أصل ذلك **(ويل)** لأم كما أنّ قولهم: لاب لك، مخفّف لا أب لك، فالحق به الهاء كمالاً للمبالغة كما في الدّاهية فصار **(ويل)** لامّه فخفّف وصار **(ويلمه)** وعلى ذلك **(فالهاء)** ليست ضميراً ولكن المستفاد من كلام الزّمخشري أنّه مخفّف من قولهم **(ويل)** لأمّه أو

من قولهم **(وي)** لأمّه، والهاء ضمير يفسّره ما بعده من باب الاضمار على شريطة التّفسير كما في قولهم ربّه رجلاً يقال **(ويلُمِه)** رجلاً قال ذو الرّمة:

ويلمها روحة والرّيح معصفة والغيث مرتجز والليل مقترب

وعن **«النّهاية»** ومنه حديث عليّ كرم الله وجهه **(ويلمه)** كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء أي يكيل العلوم الجمة بلا عوض إلاّ أنّه لا يصادف داعياً الويل للتعجب، وقيل: ويل، كلمة مفردة ولأُمه مفردة وهي كلمة تفجع وتعجب وحذفت الهمزة من أمّه تخفيفاً وألقيت حركتها على **(اللاّم)** وينصب ما بعدها على التميز، انتهى[1].

وفي شرح المعتزلي: انتصب **(كيلاً)** لأنّه مصدر في موضع الحال، ويمكن أن ينتصب على التّمييز كقولهم لله درّه فارساً[2].

المعنى

قد ظهر من رواية **«الاحتجاج»** المتقدّمة في شرح الخطبة التاسعة والعشرين أن هذه الخطبة واردة في ذمّ أهل العراق بتثاقلهم عن جهاد معاوية وأتباعه فقال لهم **(أمّا بعد يا أهل العراق فإنّما أنتم كالمرأة الحامل حملت فلما أتمّت)** حملها وتكاملت أيّامه **(أملصت)** وأسقطت ولدها ميّتاً **(ومات قيمها)** أي زوجها **(وطال تأيمها)** بقاؤها بلا زوج **(وورثها أبعدها)** لفقدان الوارث القريب.

شبّهم بالمرأة الموصوفة بالأوصاف الخمسة التي هي وجه الشّبه بينها وبينهم، فحملها يشبه تهيؤهم للحرب واستعدادهم لها، وإتمام الحمل يشبه مشارفتهم لاستئصال أهل الشّام والظفر على المقصود، والإملاص يشبه بإجابتهم إلى التّحكيم وجنوحهم إلى السّلم ورجوعهم عن العدوّ بعد قرب الظفر وظهور أمارات الفتح، فإنّ ذلك رجوع غير طبيعي وغير معتاد للعقلاء كما أنّ الإملاص أمر غير طبيعيّ وخارج عن العادة وموت القيم وطول الأيّم يشبه بقائهم بلا صاحب الجاري مجرى موته عنهم وطول ضعفهم وتمادى ذلتهم، كما أنّ موت قيم المرأة مستلزم لطول ضعفها وتمادي عجزها.

وأمّا وراثة الأبعدين فإشارة إلى أنّهم لتقصيرهم في الأمر أخذ عدوّهم الذين هم أبعد النّاس عنهم بلادهم وتسلطوا عليهم وصاروا بمنزلة الوارثين لها، كما أنّ المرأة الموصوفة بسبب أملاصها وموت زوجها لا يبقى لها وارث قريب نسبيّ وسببي فيرثها البعيد عنها.

ثمّ أقسم تضجّراً من حالهم بقوله: **(أما والله ما أتيتكم اختياراً)** وإيثاراً للمقام بينكم وحبّاً

(١) النهاية لابن الأثير: ٥/٢٣٦.

(٢) شرح النهج: ٦/١٣٤.

لكم ولبلادكم **(ولكن جئت إليكم سوقاً)** واضطراراً كان القضاء ساقه إليهم، إذ خروجه من المدينة دار الهجرة لم يكن إلاّ لقتال أهل الجمل واحتاج إلى الاستنصار بأهل الكوفة إذ لم يكن جيش الحجاز وافياً بمقاتلتهم، ثمّ اتّصلت تلك الفتنة بفتنة أهل الشام فاضطرّ إلى المقام بينهم.

ثمّ قال **(ولقد بلغني أنكم تقولون عليّ يكذب)** فإنّه ﷺ كان كثيراً ما يخبرهم عن الملاحم والأمور الغيبية وما يكون قبل كونه كما مضى نبذ من ذلك في شرح كلامه السّادس والخمسين، ويأتي كثير منها في تضاعيف الشّرح أيضاً فكان منافقو أصحابه ينسبونه في هذه الاخبارات الغيبية إلى الكذب لضعف عقولهم وقصور أفهامهم ويقولون إنّه يكذب فدعا عليهم بقوله **(قاتلكم الله)** أي لعنكم وأبعدكم عن رحمته.

ثمّ ردّ زعمهم الفاسد واعتقادهم الكاسد بقوله: **(فعلى من أكذب أعلى الله فأنا أوّل من آمن به، أم على نبيه فأنا أوّل من صدقه)** يعني أنّ هذه الأخبار ما أخبركم بها من تلقاء نفسي، وإنّما هي أخبار عن الله وعن رسوله فكيف أكذب على الله وأنا أوّل المؤمنين به وأوّل مؤمن به لا يكون أوّل مكذب، وكيف أكذب على الرّسول وأنا أوّل المصدّقين له والتّابعين لملته فكيف أكون مكذّباً عليه.

(كلاّ والله) أي لا والله أو حقاً والله **(ولكنها)** أي تلك الاخبارات الغيبية **(لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها)** أي غابت عقولكم الضّعيفة عن إدراكها وتحصيل منافعها وإدراك ثمراتها ولستم أهلاً لفهمها، أو أنكم كنتم غائبين عنها حين أخبرني بها رسول الله ﷺ فسمعت كلامه ولم تسمعوه ولو سمعتموه أيضاً لم تكونوا من أهله.

(ويل أمّه كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء) أنت بعد الخبرة بما حققناه في بيان الإعراب تعرف احتمال رجوع ضمير أمّه فيه إلى المكذب له فيكون تعجباً من قوة جهلهم أو استعظاماً لمقالتهم أو دعاء عليهم أي عذّبه الله وقاتله فإنّي أكيل العلم لهم كيلاً بلا ثمن لو وجدت له حاملاً.

أو أنّه راجع إلى نفس العلم فيكون وارداً في مقام الاستجادة والاستعظام والتّعجب كأنّه يتعجب من علمه حيث يكال كيلاً بلا ثمن لو كان له واعياً، وسائر الاحتمالات غير خفي على البصير النّاقد لما قدّمنا.

وقوله: **(ولتعلمنّ نبأه بعد حين)** اقتباس عن الآية الشّريفة أي لتعلمنّ ثمرة جهلكم وتكذيبكم وإعراضكم عمّا أقول بعد مفارقتي عنكم وحين مماتي حيثما تسلط عليكم بنو أميّة والعباس وسقاكم سوق العبيد وابتليتم بالقتل والذّل والصغار أو أنّكم تعلمون جزاء ذلك وتجدونه بعد مفارقة الدّنيا ومصيركم إلى الآخرة حين ما وقعتم في النّدامة الدّائمة والحسرة الباقية.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت نظام آن عالی مقام است در مذمت اهل عراق و توبیخ ایشان می فرماید:

پس از حمد الهی و درود حضرت رسالت پناهی ای اهل عراق، پس به درستی که شما مثل زن آبستن هستید که حامله شود، پس چون تمام نماید حمل را بیندازد و سقط کند آن بچه را و بمیرد شوهر او که قایم امر او است و طول یابد بی شوهر ماندن او و وارث شود بر او دورتر ورّاث آن زن.

وجه تشبیه اهل عراق به زن موصوف این است که استعداد و مهیا شدن ایشان به حرب اهل شام مشابه حمل آن زن است و مشارفه ایشان بر غلبه به دشمن در جنگ صفین شبیه است به اتمام ولد و برگشتن ایشان از دشمن بعد از ظهور علامات فتح و ظفر مانند سقط کردن او است بچه اش را و رجوع ایشان از رأی آن حضرت و تفرق ایشان که باعث ذلتشان شد شبیه است به مردن شوهر ضعیفه و بی صاحب ماندن او که مستلزم عجز و مذلتش است و تسلط اعداء بر شهرهای ایشان به منزله وارث شدن دورترین است از آن زن.

باری، حضرت ولایت مآب بعد از این که ایشان را به این نوع مذمت فرمود می فرماید که:

آگاه باشید، قسم به خدا نیامدم به سوی شما ای اهل کوفه از روی رغبت و میل و اختیار، ولکن آمدم من به سوی شما از روی اضطرار که دست قضا و قدر خداوندی از گریبان من گرفته به سوی شما کشید، به جهت این که حرکت آن حضرت از مدینه به جهت حرب اهل بصره بود و محتاج شد به یاری اهل کوفه و بعد از انقضاء حرب جمل وقعه صفین اتفاق افتاد که لابد شدن از ماندن کوفه، پس فرمود:

و به تحقیق که رسید به من این که شما می گویید علی بن ابی طالب دروغ می گوید در آن چه خبر می دهد از اخبار آینده، خدا از رحمت کنار نماید شما را، به که دروغ می بندم؟ آیا بر خدا افترا می گویم و حال آن که من اول کسی هستم که

ایمان آورده ام به او؛ یا بر رسول خدا کذب می گویم و حال آن که من اول کسی هستم که پیغمبر را تصدیق نمود.

نه چنین است قسم به خدا، ولیکن این سخنان که می گویم به شما گفتار فصیحی است که غایب بودید شما از آن در وقتی که پیغمبر به من تعلیم فرمود و نبودید شما از اهل آن.

مادر تکذیب کننده من به ماتم آن بنشیند، من می پیمایم علم ربانی را پیمودنی بدون بها، اگر باشد در میان شما آن را حافظی که ظرفیت و دارایی آن را داشته باشد.

و هر آینه البته خواهید دانست ثمره کردار و گفتار خودتان را بعد از زمانی؛ یعنی در وقتی که من از میان شما بروم و امراء جور بنی امیه به شما مسلط شوند.

ومن خطبة له عليه السلام علم فيها الناس الصلاة على النبي ﷺ وهي الحادية والسبعون من المختار في باب الخطب

وهي مروية في المجلد السّابع عشر من «**البحار**» من مناقب ابن الجوزي عن الحسن بن عرفة عن سعيد بن عمير عن أمير المؤمنين عليه السلام بتغيير يسير.

«أَللَّهُمَّ داحِيَ الْمَدْحُوّاتِ، وداعِمَ الْمَسْمُوكاتِ، وجابِلَ الْقلُوبِ عَلىٰ فِطْرتِها، شَقِيِّها وسَعيدِها، إِجْعَلْ شَرائِفَ صَلَواتِكَ ونَوامِيَ بَرَكاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، الْخاتِمِ لِما سَبَقَ، وَالْفاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَيْشاتِ الأَباطِيلِ، وَالدّامِغِ صَوْلاتِ الأَضالِيلِ، كَما حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضاتِكَ، غير ناكِلٍ عَنْ قُدُمٍ، وَلا واهٍ في عَزْمٍ، واعِياً لِوَحْيِكَ، حافِظاً عَلى عَهْدِكَ ماضِياً عَلى نَفاذِ أَمْرِكَ، حَتّى أَوْرَىٰ قَبَسَ الْقابِسِ، وأَضاءَ الطَّرِيقَ للخابِطِ، وهُدِيَتْ به الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضاتِ الْفِتَنِ، وأَقامَ مُوضِحاتِ الأَعْلاَمِ، ونَيِّراتِ الأَحْكام، فَهُوَ أَمينُكَ الْمأمُونِ، وخازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وشَهيدُكَ يَوْمَ الدّينِ، وبَعيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَي الْخَلْقِ.

أَللَّهُمَّ افسَحْ لَهُ مَفْسَحاً في ظِلِّكَ، وأَجْزِهِ مُضاعَفاتِ الْخَيرِ مِنْ فَضْلِكَ اللَّهُمَّ واعْلِ عَلَى بَناءِ الْبانِينَ بِناءَهُ، وأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وأَجْزِهِ مِنَ ابْتَعاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهادَةِ، ومَرْضِيَّ الْمَقالَةِ، ذا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وخُطَّةِ فَصْلٍ، اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنا وبَيْنَهُ في بَرْدِ الْعَيْشِ وقَرارِ النِّعْمَةِ، ومِنَى الشَّهَواتِ، وأَهْواءِ اللَّذّاتِ، ورَخاءِ الدَّعَةِ، ومُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وتُحَفِ الْكَرامَةِ»[1].

اللغة

(**دحى**) الله الأرض دحواً بسطها فهي مدحوة و(**دعمت**) الشيء من باب نفع دعماً حفظته بالدّعامة وهي بالكسر ما يستند به الحائط والسّقف ونحوهما يمنعهما السّقوط و(**سمكه**) سمكاً رفعه، والمسمكات كمكرمات السّماوات، والمسموكات لغة و(**الجبل**) الخلق و(**النامي**) الزائد و(**الجيشات**) جمع جيشة من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها.

و (**بطل**) الشّيء يبطل بطلاً وبطولاً وبطلاناً بضمّ الأوائل فسدا وسقط حكمه فهو باطل

(١) الغارات: ١/ ١٦٠ ح ٦، وبحار الأنوار: ٩١/ ٨٤.

والجمع بواطل وأباطيل على غير قياس، وقال أبو حاتم: الأباطيل جمع أبطولة بضمّ الهمزة وقيل جمع أبطالة و(**دمغته**) دمغا من باب نفع كسرت عظم دماغه، فالشجة دامغة وهي التي تخسف الدّماغ ولا يبقى معها حياة و(**الصّولة**) السّطوة و(**الأضاليل**) جمع الضّلال على غير القياس.

و(**ضلع**) الشّيء بالضّم ضلاعة قوي، وفرس ضليع غليظ الألَواح شديد العصب ورجل ضليع قوي و(**الفوز**) العجلة واستوفز في قعدته قعد منتصباً غير مطمئن و(**نكل**) نكولاً نكص وجبن و(**ورى**) الزّند يورى خرج ناره وأوريته أنا، ومنه قوله سبحانه:

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ [العاديات: ٢].

و(**القبس**) بفتحتين شعلة من النّار قال سبحانه:

﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠].

والقابس هو الذي يطلب النّار يقال قبس ناراً يقبسها من باب ضرب أخذها وقبس علماً تعلمه وقبست الرّجل علماً يتعدي ولا يتعدى وأقبسته ناراً وعلماً بالألف و(**الخابط**) الذي يسير على غير جادة ليلاً و(**العلم**) بالتّحريك ما يستدلّ به على الطريق.

و(**البعيث**) بمعنى المبعوث كالجريح والقتيل و(**فسحت**) له في المجلس فسحاً من باب نفع فرجت له من مكان يسعه، والمفسح إما مصدر أو اسم مكان، وبعثته رسولاً بعثاً أوصلته وابتعثته كذلك وفي المطاوع فانبعث مثل كسرته فانكسر وكل شيء ينبعث بنفسه يتعدى الفعل إليه بنفسه فيقال بعثه، وكل شيء لا ينبعث بنفسه كالكتاب والهدية يتعدّى الفعل إليه بالباء فيقال: بعثت به.

و(**الخطة**) بالضمّ الخصلة والحالة، وفي أكثر النسخ وخطبة فصل وهو الأظهر و(**برد العيش**) قال المعتزلي: العرب تقول عيش بارد وعيشة باردة أي لا حرب فيها ولا نزاع، لأن البرد والسّكون متلازمان كتلازم الحرّ والحركة و(**قرّ**) الشيء قراً من باب ضرب استقرّ والاسم القرار.

و(**الاهواء**) جمع هوى بالقصر وهو ما تحبه النّفوس وتميل إليه من هويته هوى من باب تعب إذا احببته وعلقت به و(**رخى**) ورخو من باب تعب وقرب رخاوة بالفتح إذا لآن، وكذلك العيش رخي ورخو إذا اتسع فهو رخيّ على فعيل والاسم الرّخاء و(**الدعة**) بفتح الدّال السّكون والسّعة في العيش و(**الطمأنينة**) اسم من اطمأن القلب إذا سكن و(**التحف**) جمع التّحفة بالضّم وكهمزة البرّ واللطف والطرفة وأصلها وحفة بالواو.

الإعراب

(داحي المدحوات وداعم المسموكات) منصوبان على النّداء، **(وشقيها وسعيدها)** بالجر على البدل من القلوب، واضافة الشّرائف والنوامي من باب اضافة الصّفة إلى الموصوف، والكاف في قوله **(كما حمل)** إما بمعنى لام التعليل كما في قول الشّاعر:

فقلت أبا الملحاة خذها كما أوسعتنا بغياً وعدواً

أي خذ هذه الضّربة لأجل بغيك وتعديك علينا، ويحتمل كونها على أصل التشبيه وقوله: **(قائماً)**، منصوب على الحال وكذلك المنصوبات بعده أعني **(مستوفزاً وغير ناكل)** وما عطف عليه، **(وواعيا وحافظاً وماضياً واضافة الخوضات إلى الفتن)** ظرفية، وإضافة **(الموضحات والنيرات إلى الأعلام والأحكام)** من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، **(والمخزون)** بالجر صفة علمك، **(ومقبول الشهادة)** وكذلك **(مرضي المقالة)** منصوب على المفعولية من **(أجزه)**، **(وذا منطق)** منصوب على الحال.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة مشتملة على فصول ثلاثة **الأول**: في صفات المدعو وتمجيده، وهو الله سبحانه. **الثاني**: في صفات المدعو له وهو النبيّ ﷺ. **الثالث**: في أنواع المدعو به.

أما الأول

فإليه الإشارة بقوله **(اللهم داحي المدحوّات)** أي باسط الأرضين السّبع المبسوطة، ووصفها بالبسط لا ينافي كرويّتها إذ بسطها باعتبار سطحها البارز الذي هو مسكن الحيوان فإنّه في الأوهام سطح مبسوط وإن كان بالاعتبار العقلي محدّباً وإلى ذلك ينظر قوله سبحانه:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ [نوح: ١٩] ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

(وداعم المسموكات) أي حافظ السّماوات المرفوعة بالدّعامة التي هي القدرة على ما مر تحقيقه في شرح الفصل الثّامن من فصول الخطبة الأولى **(وجابل القلوب على فطرتها شقيّها وسعيدها)** أراد كونه سبحانه خالق شقي القلوب وسعيدها على فطراتها الأصليّة المكتوبة في اللوح المحفوظ، والمراد بالقلوب النّفوس.

وأهل العرفان كثيراً ما يعبّرون عن النّفس بالقلب، وبالسّعادة ما يوجب دخول الجنّة والنّعمة الدّائمة واللذة الأبدية، وبالشّقاوة ما يوجب دخول النّار والعقوبات الأبديّة والآلام الدّائمة.

فمحصّل المعنى أنّه خالق النّفوس وموجدها في الخارج موافقاً لفطراتها التي كتبت في الألواح السّماويّة قبل خلق الخلق وقدّرت أنّها من أهل الجنّة أو من أهل النّار موافقاً لعلمه سبحانه التّابع لما يختارونه بعد وجودهم وتكليفهم بإرادتهم واختيارهم.

وإلى هذا ينظر ما رواه في «**الكافي**» بإسناده عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الله خلق السّعادة والشقاوة قبل أن يخلق خلقه، فمن خلق الله سعيداً لم يبغضه أبداً وإن عمل شرّاً أبغض عمله ولم يبغضه، وإن كان شقيّاً لم يحبه أبداً وإن عمل صالحاً أحبّ عمله وأبغضه لما يصير إليه، فإذا أحب الله شيئاً لم يبغضه أبداً وإذا أبغض شيئاً لم يحبه أبداً[1].

وأما الثاني

فإليه أشار بقوله: **(اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمّد عبدك ورسولك)** قيل في تفسير العبد: **(العين)** علمه بالله، **(والباء)** بونه عن الخلق، والدّال دنوّه من الله بلا إشارة ولا كيف، يعني أنّ العبد لا يكون كامل العبودية إلاّ إذا كان عارفاً بالله سبحانه قريباً منه بالقرب المعنوي وبائناً من الخلق بأن يكون فيهم ولا يكون منهم، وذلك مستلزم لاستغراقه في طاعة معبوده إذ لولاه لما حصل التّقرب ولا يتحصّل معنى العبودية.

ومن هنا قيل: إن حقيقة العبودية عنوان ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً لأن العبيد لا يكون لهم ملك بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، ويكون جملة اشتغاله فيما أمر الله تعالى ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد فيما خوله الله ملكاً هان عليه الانفاق وإذا فوّض العبد نفسه إلى مدبّرها هانت عليه مصائب الدّنيا، وإذا اشتغل العبد فيما أمره الله ونهاه لا يتفرّغ منهما إلى المراء والمباهات مع النّاس.

فإذا اكرم الله العبد بهذه الثّلاث هانت عليه الدّنيا ولا يطلب الدّنيا تفاخراً وتكاثراً ولا يطلب عند النّاس عزّاً وعلوّاً ولا يدع أيّامه باطلة فيكون تاركاً لدنياه وفارغاً لطاعة مولاه، فإذا وصل العبد إلى هذا المقام انكشفت له الحجابات الغيبية وأدركته الألطاف الرّبانية، وتحصل له معنى العبودية [وهي] جوهرة كنهها الربوبية، ويصير مظهراً لصفات الكمال ومصدراً لنعوت الجلال.

وإلى هذا المعنى ينظر الحديث القدسي: إنّ عبدي ليتقرّب إليّ بالنّافلة حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش

---

(١) الكافي: ١/١٥٣، والتوحيد: ٣٥٨.

بها إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته، ولمّا كان هذا المعنى غاية الكمال وصف الله سبحانه جملة من أوليائه المقربين في كتابه المجيد بذلك فقال:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥] وقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

إلى غير هذا، ثمّ انّه لما كانت مرتبة الرّسالة فوق مرتبة العبودية ومن عادتهم تقديم غير الأبلغ على الأبلغ كما يقولون: عالم نحرير وجواد فياض لا جرم قدم توصيفه بالعبودية على توصيفه بالرّسالة، وإنّما قلنا إنّ درجة الرّسالة فوق هذه الدّرجة لأنّ الرّسول من يسع قلبه الجانبين ولا يحجب بشهود الحقّ عن الخلق، فهو أكمل ممن يستغرق فيه تعالى غافلاً عن خلقه.

ويدلّ على تقدّمها عليها رواية زيد الشّحام التي مرّت في شرح الفصل الثاني من فصول الخطبة الثّانية فتذكّر (**الخاتم لما سبق**) إن جاز استعمال كلمة (ما) في ذوي العقول فالمراد بها النّبيّون والمرسلون، وإلاّ فالمراد أنّه خاتم لشرعه للشرائع والأديان السّابقة.

(**والفاتح لما انغلق**) من باب الهدى وطريق الرّشاد والجنّة، وإنّما كان منغلقاً لغلبة أمر الجاهلية واندراس الشّرائع السّابقة (**والمعلن الحقّ بالحقّ**) قال الشّارح المعتزلي: أي المظهر الحقّ الذي هو خلاف الباطل بالحقّ أي بالحرب والخصومة يقال حاق فلان فلاناً أي خاصمه فخصمه.

أقول: ومنه الحاقة للقيامة قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٢]، سمّيت بذلك لأنها تحاق الكفّار الذين حاقوا الأنبياء أي خاصموهم هذا، والأظهر أن يكون المراد بالحقّ الأول الدّين وبالثّاني الحق المرادف للصدق أي مظهر الدّين بقول حقّ ثابت في نفس الأمر وبيان صواب.

(**والدّافع جيشات الأباطيل**) أي لثوران فتن المشركين واجتماعهم على إطفاء نور الله أو لفتنتهم التي كانت عادة بينهم واستمرت عليها سجيتهم من القتل والغارة وحرب بعضهم لبعض، فإنّ هذا كله أمور خارجة عن قانون العدالة وقد اندفع ذلك كله بميامن قدومه صلوات الله عليه وآله.

(**والدّامغ صولات الأضاليل**) أي المهلك لسطوات الضّلالات وقامع هيبات أهل الضّلال المنحرفين عن سبيل الله وسبيل الرّشاد إلى الفساد (**كما حمل فاضطلع**) معناه على جعل (**الكاف**) بمعنى اللاّم: اجعل شرائف صلواتك عليه لأجل أنّه حمل أعباء الرّسالة فنهض بها قويّاً، وعلى جعلها بمعناها الأصلي صلّ عليه صلاة مناسبة مشابهة لتحميلك له الرّسالة إذ

الجزاء من الحكيم العدل لا بدّ أن يكون مناسباً للعمل المجزي عليه.

(**قائماً بأمرك مستوفزاً في مرضاتك**) أي مستعجلاً في تحصيل رضاء الله سبحانه ورضوانه غير بطيء فيه حاثاً نفسه عليه (**غير ناكِلٍ عن قدم ولا واه في عزم**) أراد كونه غير جبان عن التقدّم فيما يلزمه التقدم فيه ولا متوان في الاتيان بما عزم عليه (**واعيا لوحيك**) ضابطاً له قوي النفس على قبوله (**حافظاً لعهدك**) المأخوذ عليه في تبليغ الرّسالة وأداء الأمانة (**ماضياً على انفاذ امرك**) مصرّاً في إجرائه وفي جذب الخلق إلى سلوك سبيل الآخرة.

(**حتّى**) انتهى في إصراره في هداية الخلق وجذبهم إلى الآخرة إلى النهاية وبلغ الغاية فـ(**ـأورى قبس القابس**) أي أخرج نور الحقّ وأشعله لطالبيه والمقتبسين له (**وأضاء الطريق**) طريق الجنّة والصّراط المستقيم (**للخابط**) في ظلمات الجهل السّالك على غير جادّة واضحة.

(**وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن**) والآثام واللازمة عما اجترحته من السّيئات (**وأقام موضحات الأعلام**) أي الأدلة الواضحة على الحق التي هي كالأعلام المستدلّ بها على الطريق (**ونيرات الأحكام**) أي الأحكام الشّرعية والتكاليف الإلهية ذوات النور المستنبطة من الأدلة الواضحة.

(**فهو أمينك المأمون**) أي ائتمنه على وحيه ورسالته والمأمون تأكيد للأمين (**وخازن علمك المخزون**) أراد به علمه الذي لا يقدر على حمله عموم الخلق وهو المشار إليه بقوله: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول**﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

روى سدير قال: سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام ويقول: أرأيت قوله: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، فقال له أبو جعفر عليه السلام: إلاّ من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً، وكان والله محمّد ممّن ارتضاه، وأما قوله عالم الغيب، فإن الله تبارك وتعالى عالم بما غاب عن خلقه ممّا يقدر من شيء ويقضيه في علمه فذلك يا حمران علم موقوف عنده إليه فيه المشيئة فيقضيه إذا أراد ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأما العلم الذي يقدره الله ويقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله ثمّ إلينا[1].

(**وشهيدك يوم الدّين**) يحتمل أن يكون المراد بذلك شهادته على أمّته وشهادته على أئمة الدّين خصوصاً وجميع الحجج الذين لم يخل الله سبحانه أرضه منهم من لدن آدم إلى آخر الدهر وقد وردت الاحتمالات الثلاثة في أخبار أهل البيت ومثل كلامه قوله تعالى في سورة النحل:

---

(١) بحار الأنوار: ٤/ ١١٠ ح ٢٩، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ٤٤٢.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وفي سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفي سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ٤١﴾ [النساء: ٤١].

قال الطبرسي في تفسير هذه الآية: إنّ الله يستشهد يوم القيامة كل نبيّ على أمّته فيشهد لهم وعليهم ويستشهد نبينا على أمّته.

وفي «**البحار**» في الأخبار ما يدلّ على أنّ حجة كل زمان شهيد على أهل ذلك الزمان ونبينا ﷺ شهيد على الشهداء.

وفيه من «**الكافي**» بإسناده عن سماعة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: في قول الله عزّ وجل:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ٤١﴾ [النساء: ٤١].

نزلت في أمّة محمّد خاصة في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم ومحمّد شاهد علينا[١].

قال المجلسي: يمكن أن يكون المراد تخصيص الشّاهد والمشهود عليهم جميعاً بهذه الأمة فيكون المراد بكل أمّة في الآية كلّ قرن من تلك الأمة واحد من الأئمة عليهم السّلام شاهداً على من في عصرهم من هذه الأمة وعلى جميع من مضى من الأمم، والأوّل أظهر لفظاً والثاني معناً وإن كان بحسب اللفظ يحتاج إلى تكلفات.

أقول: ويدلّ على الوجه الأوّل ما عن تفسير فرات بن إبراهيم عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية الثانية قال: منا شهيد على كل زمان علي بن أبي طالب في زمانه والحسن في زمانه والحسين في زمانه وكل من يدعو منّا إلى أمر الله.

وعلى الثاني ما عن تفسير علي بن إبراهيم في تفسير الآية الثانية أيضاً بإسناده عن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن تفسير هذه الآية قال: نحن الأمّة الوسط ونحن شهداء الله على خلقه وحجته في أرضه.

---

(١) شرح الأخبار: ١/ ٤٢٠ ح ١٧، وخاتمة المستدرك: ٥/ ٣٤١.

وما عن «**بصائر الدّرجات**» بإسناده عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام **قال: إنّ** الله طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه وحجته في أرضه وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا لا نفارقه ولا يفارقنا[١].

وعلى هذا فمعنى كونهم شهداء أنّهم عليهم السلام يشهدون على الأنبياء أنّ الله أرسلهم ويشهدون للأنبياء أنّهم بلغوا رسالات ربّهم ويشهدون لمن أجابهم وأطاعهم باجابته وإطاعته وعلى من خالفهم وعصاهم بمخالفته وعصيانه ويشهدون على محمّد أنّ الله أرسله ويشهدون له أنّه بلغ ما أمر بتبليغه وعلى أمته ولهم كذلك ويشهد رسول الله عليهم بما حملهم من أمر الخلافة ولهم بما أدّوا ما حملوا ولمن أجاب بما أجاب ولمن عصى بالعصيان، هذا.

وغير خفيّ على الفطن العارف أنّ الشّهادة لما كانت مشروطة بالعلم واليقين ومن ذلك أنّ رسول الله أرى للشّاهد الشّمس وقال على مثل هذا فاشهد أو دَعْ، فاللازم من كونهم صلوات الله عليهم شهداء على النّاس أن يكونوا عالمين بأعمال النّاس غير غائبين عنها، ويستفاد ذلك من الأخبار وهي على قسمين:

أحدهما: ما دلت على أنّه سبحانه أعطى الإمام عموداً من نور يرى فيه أعمال الخلائق كرؤية الشّخص في المرآة وأنّ الدّنيا بأسرها وما فيها عند الإمام كالدرهم في يد أحدكم يقلبه كيف شاء.

فمن ذلك ما في «**البحار**» من «**بصائر الدّرجات**» عن معاوية بن حكيم عن أبي داوود المشرق عن محمّد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الإمام يسمع الصّوت في بطن أمّه فإذا بلغ أربعة أشهر كتب على عضده الأيمن:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فإذا وضعته أمه سطع له نور ما بين السّماء والأرض فإذا درج رفع له عمود من نور يرى ما بين المشرق والمغرب[٢].

ومنه بإسناده عن ابن ظبيان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الإمام يسمع في بطن أمّه فإذا ولد خط على منكبيه، ثمّ قال هكذا بيده فذلك قول الله تعالى:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وجعل له في كل قرية عموداً من نور يرى به ما يعمل أهلها فيها.

وعن محمّد بن الفضيل عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام الإمام يسمع الكلام في

---

(١) بصائر الدراجات: ١٠٣، والكافي: ١/ ١٩١ ح ٥.

(٢) البصائر: ٤٥٥، والبحار: ٢٦/ ١٣٢.

بطن أمّه فإذا سقط إلى الأرض نصب له عمود في بلاده وهو يرى ما في غيرها.

وعن محمّد بن مروان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ الإمام يسمع في بطن أمّه فإذا ولد خط بين كتفيه:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فإذا صار الأمر إليه جعل الله له عموداً من نور يبصر به ما يعمل به أهل كل بلدة[١].

وعن إسحاق القمي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام ما قدر الإمام؟ قال يسمع في بطن أمّه فإذا وصل إلى الأرض كان على منكبه الأيمن مكتوباً:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

ثمّ يبعث أيضاً له عموداً من نور من تحت بطنان العرش إلى الأرض يرى فيه أعمال الخلائق كلها، ثمّ ينشعب له عمود آخر من عند الله إلى أذن الإمام كلّما احتاج إلى مزيد أفرغ فيه إفراغاً[٢].

أقول: والعمود الآخر ما أشير إليه في رواية صالح بن سهل.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كنت جالساً عنده فقال لي ابتداء منه: يا صالح بن سهل إنّ الله جعل بينه وبين الرّسول رسولاً ولم يجعل بينه وبين الإمام رسولاً، قال: قلت: وكيف ذاك؟ قال: جعل بينه وبين الإمام عموداً من نور ينظر الله به إلى الإمام وينظر الإمام به إليه فإذا أراد علم شيء نظر في ذلك النّور فعرفه.

قال المحدّث المجلسي: نظر الله تعالى إليه كناية عن إفاضاته عليه ونظره إليه كناية عن غاية عرفانه.

والقسم الثاني

من الأخبار ما دلت على عرض أعمال العباد على النبي صلى الله عليه وآله وعلى الأئمة عليهم السلام وإلى ذلك أشير في الكتاب العزيز:

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

(١) الكافي: ١/٣٨٧ ح ٤، وبحار الأنوار: ٢٦/ ١٣٤ ح ٧.

(٢) بصائر الدرجات: ٤٦٢، وبحار الأنوار: ٢٦/ ١٣٥ ح ١٢.

روى في «البحار» من تفسير عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن محمّد بن الحسن الصّفار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من مؤمن يموت أو كافر يوضع في قبره حتّى يعرض عمله على رسول الله ﷺ وعلى أمير المؤمنين عليه السلام وهلم جرّاً إلى آخر ما فرض الله طاعته فذلك قوله:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وعنه عليه السلام قال: إنّ أعمال العباد تعرض على رسول الله كل صباح أبرارها وفجارها فاحذروا فليستحي أحدكم ان يعرض على نبيّه العمل القبيح[١].

ومن «بصائر الدّرجات» بإسناده عن معلي بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

قال: هو رسول الله والأئمة تعرض عليهم أعمال العباد كلّ خميس.

وعن محمّد بن مسلم وزرارة قالا سألنا أبا عبد الله عليه السلام عن الأعمال تعرض على رسول الله؟ قال: ما فيه شكّ، ثمّ تلا هذه الآية:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

قال: إنّ لله شهداء في أرضه.

وعن ابن أبي عمير عن غير واحد من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، قالوا: أما حياتك يا رسول الله فقد عرفناه، فما في وفاتك؟ قال: أمّا حياتي فإنّ الله يقول: وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، وأمّا وفاتي فتعرض عليّ أعمالكم فأستغفر لكم.

وعن داوود الرّقي قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال: يا داوود أعمالكم عرضت عليّ يوم الخميس فرأيت لك فيها شيئاً فرحني وذلك صلتك لابن عمك أما أنه سيمحق أجله ولا ينقص رزقك[٢]، قال داوود: وكان لي ابن عمّ ناصب كثير العيال محتاج، فلما خرجت إلى مكة أمرت له بصلة، فلما دخلت على أبي عبد الله عليه السلام أخبرني بهذا، هذا.

وقد تحصل ممّا ذكرنا كله اطلاع النبي واطلاع الأئمة على جميع أفعال النّاس وأعمالهم من خير أو شرّ وأنّه لا تفاوت في ذلك بين حالتي الموت والحياة.

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦/١١٣ ح ٢١١١٩، وينابيع المعاجز: ١٠٣.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣/٣٤٧ ح ٤٨، ومستدرك سفينة البحار: ٤/١٠٤.

فإن قلت: ما فائدة تلك الشّهادة وما ثمرة عرض الأعمال عليهم واطلاعهم بذلك والنّاس كلهم يردون إلى عالم الغيب والشّهادة وينبئهم بما كانوا يعملون.

قلت: ثمرة ذلك أنّ النّاس إذا علموا أنّ لهم شهداء ورقباء وكتاباً يكتبون ما يفعلون لا يغادرون صغيرة ولا كبيرة وأنّ النبي والأئمة تعرض عليهم الأعمال ويطلعون بما يعملون كان ذلك رادعاً للنّفس الأمارة عن الانهماك في الشّهوات ومانعاً لها عن متابعة الأهواء واللذات، فلا بدّ للعاقل البصير أن ينظر إلى عمله ويحذر من عرض عمله القبيح على نبيّه وأئمته ويستحي من ذلك ولا يفعل ما يوجب مساءة حالهم واستحيائهم من الله سبحانه من قبائح أعمال شيعتهم والله وليّ التوفيق.

(وبعيثك بالحق ورسولك إلى الخلق) أراد كونه مبعوثاً بالدّين الثابت الباقي نفعه إلى الخلق ورسولاً إليهم، وهذان الوصفان كسائر الأوصاف المذكورة في هذا الفصل إشارة إلى جهات استحقاق الصّلاة والرّحمة.

الفصل الثالث

في أنواع المدعوّ به، وإليها الإشارة بقوله **(اللهم افسح له مفسحاً في ظلك)** أي مكاناً متّسعاً في حظيرة قدسك، والظل إمّا استعارة للجود والافضال ووجه الشّبه استراحة المستظل بالظل من حرارة الشّمس وكذلك الملتجي إلى وجود الله سبحانه وافضاله يستريح بجوده تعالى من شديد العذاب الأليم وحرّ نار الجحيم، ويحتمل أن يكون المراد معناه الحقيقي كما في قوله تعالى:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٠].

قال في **«مجمع البيان»** أي دائم لا تنسخه الشّمس فهو باق لا يزول، وقد ورد في الخبر أنّ في الجنّة شجرة يسير الرّاكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها[1]، وروى أيضاً أن أوقات الجنة كغدوات الصّيف لا يكون فيها حرّ ولا برد[2].

(وأجزه مضاعفات الخير من فضلك) أراد به أن يضاعف له الكمالات من نعمه إذ مراتب استحقاق نعمه سبحانه غير متناهية **(اللهم واعل على بناء البانين بناءه)** المراد بالبانين إمّا الأنبياء وببنائهم ما شيّدوه من أمر الدّين فيكون المقصود بالدّعاء علوّ دينه وظهوره على الدّين كله ولو كره المشركون، وإما مطلق عباد الله الصّالحين البانين بأعمالهم الصّالحة غرفاً في الجنّة وقصوراً فيها فيكون المقصود علو منزله على سائر المنازل **(واكرم لديك منزلته)** بانزاله المنزل

(١) الوسائل: ١/ ٢٤.
(٢) البحار: ٨/ ١٠٩.

المبارك الموعود وهو سبحانه خير المنزلين، قال تعالى مخاطباً لنوح:

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

(واتمم له نوره) المراد بذلك اتمام نوره يوم القيامة بحيث يطفيء سائر الأنوار وهو النّور الذي يسعى بين أيدي الأمة حتّى ينزلوا منازلهم في الجنّة، وإليه الإشارة في قوله.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

قال الطبرسي: يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم على الصّراط يوم القيامة وهو دليلهم إلى الجنّة ويريد بالنّور الضّياء الذي يرونه ويمرّون فيه، عن قتادة، وقيل: نورهم هداهم عن الضّحاك، قال قتادة: إنّ المؤمن يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعا ودون ذلك حتّى أنّ من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلاّ موضع قدميه[١].

قال الشّارح المعتزلي: قد روى أنّه يطفيء سائر الأنوار إلاّ نور محمّد، ثمّ يعطي المخلصون من أصحابه أنواراً يسيرة يبصرون بها مواطيء الأقدام فيدعون الله بزيادة تلك الأنوار وإتمامها، ثمّ إنّ الله يتمّ نور محمّد فيستطيل حتّى يملأ الآفاق فذلك إتمام نوره[٢].

(وأجزه من انبعاثك له مقبول الشّهادة ومرضي المقالة) أراد به أن يجزيه الله سبحانه من بعثته له الشهادة المقبولة عنده والمقالة المرضيّة لديه بأن تكون شهادته ﷺ على أمته وغيرها نافذة وشفاعته فيهم ماضية حال كونه **(ذا منطق عدل وخطة فصل)** أي صاحب نطق عادل وخصلة فاصلة بين الحق والباطل أو ذا قول غير هازل كما قال تعالى: «إنّه لقول فصل وما هو بالهزل».

والمطلوب بهذه الاعتبارات كلها على اختلاف مفاهيمها أمر واحد وهو زيادة كمالاته ﷺ وقربه من الله سبحانه، ثمّ إنّه ﷺ بعد الصّلاة على الرسول دعى لنفسه وللمؤمنين من خالصي شيعته بقوله **(اللهم اجمع بيننا وبينه في برد العيش)** الذي لا كلفة فيها من الحرب والخصومة **(وقرار النّعمة)** مستقرها في الحضرة الرّبوبية **(ومنى الشهوات)** في حظيرة القدس **(وأهواء اللذّات)** في الجنة العالية، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين **(ورخاء الدّعة ومنتهى الطمأنينة)** أي سعة سكون النّفس ونهاية اتساع عيشها في دار الخلد **(وتحف الكرامة)** المعدة لأهل اليقين من أولياء الله المقربين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) البحار: ٧/ ١٦٥.

(٢) شرح النهج: ٦/ ١٤٢.

تنبيهات

الأول: الصّلاة على النبيّ ﷺ ممّا أمر الله تعالى به وحث عليه بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وينبغي لنا أن نحقق الكلام في ذلك ونذكر ما أتى به الفاضل المقداد صاحب **«كنز العرفان»** في تفسير هذه الآية وما يرتبط عليها ونفصّل بعض ما أجمله قدس الله روحه.

قال «ره» قرأ شاذاً برفع ملائكته فقال الكوفيون بعطفها على أصل (إنّ) واسمها وقال البصريون مرفوعة بالابتداء وخبر (إنّ) محذوف أي إنّ الله يصلّي وملائكته يصلون فحذف للقرينة ونظائره كثيرة كقول الشّاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما   عندك راض والرّأي مختلف

أي نحن راضون، والصّلاة وإن كانت من الله الرّحمة فالمراد بها هنا هو الاعتناء بإظهار شرفه ورفع شأنه، ومن هنا قال بعضهم تشريف الله محمّداً بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

أبلغ من تشريف آدم بالسّجود له والتسليم، قيل المراد به الانقياد كما في قوله:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٥].

وقيل هو قولهم: السّلام عليك أيّها النّبي قاله الزمخشري والقاضي في تفسيرهما وذكره الشّيخ في تبيانه وهو الحقّ لقضية العطف ولأنّه المتبادر إلى الفهم عرفاً ولرواية كعب الآتية وغيرها إذا تقرر ذلك فهنا فوائد.

الأولى: ذهب أصحابنا والشّافعي وأحمد إلى وجوب الصّلاة على النبي في الصلاة خلافاً لمالك وأبي حنيفة فإنّهما لم يوجباها ولم يجعلاها شرطاً في الصّلاة واستدل بعض الفقهاء بما تقريره:

شيء من الصّلاة على النّبي واجب ولا شيء من ذلك في غير الصّلاة بواجب ينتج أنها في الصّلاة واجب، أمّا الصّغرى فلقوله تعالى: ﴿صلّوا﴾، والأمر حقيقة في الوجوب، وأمّا الكبرى فظاهرة، وفيه نظر لمنع الكبرى كما يجيء وحينئذٍ فالأولى الاستدلال على الوجوب بدليل خارج.

أمّا من طرقهم فما رووه عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقبل صلاة

إلا بطهور وبالصّلاة عليّ، وكذا عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: إذا صلّى أحدكم فليبدأ بحمد الله ثمّ ليصل عليّ[١].

ومن طرقنا ما رواه أبو بصير وغيره عن الصّادق عليه السلام قال: من صلى ولم يصلّ على النبيّ وتركه متعمّداً فلا صلاة له[٢]، حتّى أنّ الشّيخ جعلها ركناً في الصّلاة فإن عني الوجوب والبطلان بتركها عمداً فهو صحيح وإن عنى تفسير الرّكن بأنّه ما يبطل الصّلاة بتركه عمداً وسهواً فلا.

الثانية: قال علماؤنا اجمع: إنّ الصّلاة على النبيّ ﷺ واجبة في التشهدين وبه قال أحمد، وقال الشّافعي: مستحبّة في الأوّل واجبة في الآخر، وقال مالك وأبو حنيفة: مستحبّة فيهما، دليل أصحابنا روايات كثيرة عن أئمّتهم عليهم السّلام.

الثالثة: هل تجب الصّلاة على النّبي في غير الصّلاة أم لا؟ ذهب الكرخي إلى وجوبها في العمر مرّة، وقال الطحاوي كلّما ذكر، واختاره الزّمخشري، ونقل عن ابن بابويه من أصحابنا، وقال بعضهم: في كلّ مجلس مرّة، والمختار الوجوب كلما ذكر لدلالة ذلك على التّنويه برفع شأنه والشكر لإحسانه المأمور به، ولأنه لولاه لكان كذكر بعضنا بعضاً وهو منهي عنه في آية النّور.

أقول: وأشار بها إلى قوله سبحانه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] ولما روى عنه ﷺ: من ذكرت عنده فلم يصل عليّ فدخل النّار فأبعده الله، والوعيد إمارة الوجوب.

وروى أنّه قيل له: يا رسول الله أرأيت قول الله إنّ الله وملائكته يصلون على النّبي؟ فقال: هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إنّ الله عزّ وجلّ وكل بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي عليّ إلاّ قال له ذلك الملكان غفر الله لك، وقال الله وملائكته: آمين، ولا أذكر عند مسلم فلا يصلي عليّ إلاّ قال له الملكان: لاغفر الله لك وقال الله وملائكته: آمين[٣].

أقول: ومثل ذلك في إفادة الوعيد ما رواه الصّدوق في عقاب الأعمال بإسناده عن محمّد بن هارون عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا صلى أحدكم ولم يصلّ على النبيّ خطى به

(١) تحفة الأحوذي: ٢/ ١٦٩، وشرح مسلم للنووي: ٤/ ١٢٤.

(٢) راجع كتاب الصلاة: ٤/ ٢٧٠، وكشف اللثام للهندي: ١/ ٢٣٢.

(٣) خاتمة المستدرك: ٢/ ٩٤، وبحار الأنوار: ٨٢/ ٢٧٩.

طريق الجنّة[١].

وقال النّبيّ ﷺ: من ذكرت عنده فنسي الصّلاة عليّ خطىء به طريق الجنّة.

قال (ره): وأمّا عند عدم ذكره صلوات الله عليه فيستحبّ استحباباً مؤكداً، لتظافر الرّوايات أنّ الصّلاة عليه وآله تهدم الذّنوب وتوجب إجابة الدّعاء المقرون بها.

الرابعة: روى كعب بن عجرة قال: لمّا نزلت الآية قلنا: يا رسول الله هذا السّلام عليك فقد عرفناه فكيف الصّلاة عليك؟ فقال قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد، وبارك على محمّد وآل محمّد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد، وعلى هذا الحديث سؤال مشهور بين العلماء ذكرناه في نضد القواعد وذكرنا ما قيل في أجوبته من أراده وقف عليه هناك.

أقول: ولا يحضرني كتاب نضد القواعد حتّى نقف على ما ذكره ولعل المراد بالسؤال المشهور ما ذكروه من أنّ التّشبيه يقتضي أن يكون المشبه به أقوى من المشبّه فيلزم أن يكون التّشبيه الواقع فيه من باب إلحاق النّاقص بالكامل، وأجيب تارة بأنّ التّشبيه لبيان حال من يعرف بمن لا يعرف، وثانية بأنّ التّشبيه في أصل الصّلاة لا في قدر الصّلاة، وثالثة بأنّ معناه: اجعل لمحمّد صلاة بمقدار الصّلاة لإبراهيم وآله وفي آل إبراهيم خلائق لا يحصون من الأَنبياء، وليس في الله نبيّ فطلب إلحاق جملة فيها نبيّ واحد بما فيه الأنبياء، وربّما أجيب بأجوبة أُخرى ولا حاجة إليها والأَظهر الأَوسط.

الخامسة: دلّ حديث كعب المذكور على مشروعيّة الصّلاة على الآل تبعاً له ﷺ، وعليه إجماع المسلمين، وهل يجوز عليهم لا تبعاً بل إفراداً كقولنا: اللهمّ صلّ على آل محمّد بل الواحد منهم لا غير أم لا؟ قال أصحابنا: بجواز ذلك، وقال الجمهور: بكراهته لأَنّ الصّلاة على النبي صارت شعاراً فلا يطلق على غيره ولا يهامه الرّفض والحقّ ما قاله الأَصحاب لوجوه.

الأوّل: قوله تعالى مخاطباً للمؤمنين كافة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وهو نصّ في الباب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦] ولا ريب أنّ أهل البيت أصيبوا بأعظم المصائب الذي من جملتها اغتصابهم مقام إمامتهم.

(١) الكافي: ٢/٤٩٥ ح ١٩، ووسائل الشيعة: ٦/٤٠٨ ح ٣.

أقول: وهذا الدّليل لعله مأخوذ من العلامة قدس الله روحه وقد حكى في «**لؤلؤة البحرين**» من كتاب «**حياة القلوب**» أنه قدّس الله سره ناظر أهل الخلاف في مجلس سلطان محمّد خدا بنده أنار الله برهانه وبعد اتمام المناظرة وبيان حقّية مذهب الإمامية الاثنى عشرية خطب قدّس الله لطفه خطبة بليغة مشتملة على حمد الله والصّلاة على رسوله والأئمة عليهم السلام.

فلمّا سمع ذلك السّيد الموصلي الذي هو من جملة المسكوتين بالمناظرة قال: ما الدّليل على جواز توجيه الصّلاة على غير الأنبياء؟ فقرأ الشّيخ العلامة في جوابه بلا انقطاع الكلام: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦]، الآية فقال الموصلي بطريق المكابرة: ما المصيبة التي أصابت إليهم حتّى أنهم يستوجبون بها الصّلاة؟ فقال الشّيخ: من أشنع المصائب وأشدّها أن حصل من ذراريهم مثلك الذي ترجح المنافقين الجهّال المستوجبين اللعنة والنكال على آل رسول المتعال، فاستضحك الحاضرون وتعجّبوا من بداعة آية الله في العالمين وقد أنشد بعض:

إذا لعلوي تابع ناصبيّاً ... بمذهبه فما هو من أبيه

وكان الكلب خيراً منه قطعاً ... لأنّ الكلب طبع أبيه فيه

الثّالث: أنه لمّا أتى أبو أوفى بزكاته قال النبيّ ﷺ: اللهم صل على أبي أوفى وآل أبي أوفى، فيجوز على أهل البيت بطريق أولى.

الرّابع: أنّ الصّلاة من الله بمعنى الرّحمة وتجوز الرّحمة عليهم إجماعاً فيجوز مرادفها لما تقرّر في الأصول من أنه يجوز إقامة أحد المترادفين مقام الآخر.

الخامس: قولهم إنّه صار شعاراً للرسول قلنا مصادرة على المطلوب، لأنّها كما دلت على الاعتناء برفع شأنه كذلك تدلّ على الاعتناء برفع شأن أهله القائمين مقامه فيكون الفرق بينه وبينهم وجوبها في حقه ﷺ كلما ذكر كما اخترناه.

أقول: التفريق بذلك غير خال عن التّأمل.

فإن قلت: عادة السّلف قصره على الأنبياء.

قلت: العادة لا تخصص كما تقرّر في «**الأصول**»، هذا مع أنّ من أعظم السّلف الباقر والصّادق ﷺ، ولم يقولا بذلك.

السادس: أنّ قولهم: إنّ ذلك يوهم الرّفض تعصب محض وعناد ظاهر، نظير قولهم: من السنّة تسطيح القبور لكن لما اتخذته الرّافضة لقبورهم عدلنا منه إلى التسنيم، فعلى هذا كان يجب عليهم أنّ كلّ مسألة قال بها الإمامية أن يفتوا بخلافها وذلك محض التعصب والعناد،

نعوذ بالله من الأهواء المضلة والآراء الفاسدة.

السادسة: مذهب علمائنا أجمع أنّه تجب الصلاة على آل محمّد في التشهدين، وبه قال

---

(١)الصلاة على الآل ووجوبها

(قال العلماء) فسؤالهم بعد نزول الآية واجابتهم: باللهم صل على محمد وعلى آل محمد.. الى آخره، دليل على ان الامر بالصلاة على أهل بيته وبقية آله مراد من هذه الآية، وإلاّ لم يسألوا عن الصلاة على أهل بيته وآله عقب نزولها، ولم يجابوا بما ذكر، فلمّا اجيبوا به دل على ان الصلاة عليهم من جملة المأمور به، وانه صلى الله عليه وآله وسلم أقامهم في ذلك مقام نفسه، لأن القصد من الصلاة عليه مزيد تعظيمه ومنه تعظيمهم (يراجع، وجواهر العقدين: ٢١٦ الباب الثاني، والصلات والبشر: ٦٨ ـ ١٠٩، والاعتقاد للبيهقي: ١٦٤ باب القول في أهل البيت، وجلاء الافهام فقد ذكر الادلة على الوجوب بالتفصيل: ١٩٣ ـ ١٩٤ وما بعدها ـ الباب الرابع، وللشيخ الرفاعي كلاماً مشابهاً مفيداً فليراجع ضوء الشمس: ١/ ١١١).

ويروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «لا تصلوا الصلاة البتراء».

قالوا: وما الصلاة البتراء يا رسول الله؟

قال: «تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» (جواهر العقدين: ٢١٧ الباب الثاني، والصواعق: ١٤٦ ط. مصر و٢٢٥ ط. بيروت الاية الثانية، وأهل البيت للشرقاوي: ٦ ـ ٧، وتفسير آية المودة: ١٣٥.

وخرجه الشعراني وزاد فيه: فقيل من أهلك يا رسول الله؟

قال: علي وفاطمة والحسن والحسين» كشف الغمة للشعراني: ١/ ٢١٩ فصل في الامر بالصلاة على النبي.

هذا: وأخرجه الديلمي بلفظ: «من ذكرت بين يديه فلم يصل علي صلاة تامة فلا هو مني ولا أنا منه».

الفردوس: ٣/ ٦٣٤ ح ٥٩٨٦.

وقد أخرج الديلمي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: الدعاء محجوب حتى يصلى على محمد أهل بيته.

اللهم صل على محمد وعلى آله (المعجم الاوسط للطبراني: ١/ ٤٠٨ ح ٧٢٥ بلفظ: كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد وآل محمد»، ومجمع الزوائد: ١٠/ ١٦٠ ط. مصر و٢٤٧ ح ١٧٢٧٨ من البغية وقال الهيثمي: رجاله ثقات، والجامع الكبير للسيوطي: ١/ ٤١٢ وعزاه لابي الشيخ في الثواب وللبيهقي في الشعب عن علي، وتحفة الذاكرين للشوكاني: ٥٠ ط. القاهرة مكتبة المتنبي ـ بلفظ: كل دعاء» وقال: قال المنذري رواته ثقات، وشعب الايمان ٢/ ٢١٦، و الشفا للقاضي: ٢/ ٦٥ فصل في مواطن الصلاة عن علي بلفظ: الدعاء معلق حتى يصلى على محمد وآل محمد»، وجواهر العقدين: ٢٢٣ ونسبه للديلمي، والصواعق المحرقة: ١٤٨ ط. مصر و٢٢٧ ط. بيروت عن الديلمي.

نعم في فردوس الديلمي المطبوع خذف: آل محمد، فدوّن الحديث عن علي بلفظ: كل دعاء محجوب حتى يصلى على النبي». الفردوس: ٣/ ٢٥٥ ح ٤٧٥٤ ط. دار الكتب العلمية).

(قال العلامة) ابن حجر الهيتمي وغيره: وكان قضية الاحاديث السابقة وجوب الصلاة على الآل في التشهد الاخير، كما هو قول للشافعي خلافاً لما يوهمه كلام الروضة واصلها، ورجحه بعض أصحابه ومال اليه البيهقي، ومن ادعى الاجماع على عدم الوجوب فقد سها (وهو ابن كثير في تفسيره: ٣/ ٥٥٩ مورد آية ٥٦ من الاحزاب)، لكن بقية الاصحاب ردوا الى اختلاف تلك الروايات من اجل انها وقائع متعددة، فلم يوجبوا إلاّ ما اتفقت الطرق عليه، وهو اصل الصلاة عليه، وما زاد فهو من قبيل الاكمل، وكذا استدلوا على عدم وجوب قوله: كما صليت على ابراهيم» بسقوطه في بعض الطرق.

بعض الشافعية، وفي إحدى الرّوايتين عن أحمد، وقال الشافعي بالاستحباب لنا رواية كعب

وللشافعي:

يا أهل بيت رسول الله حبكم　　فرض من الله في القرآن انزله

يكفيكم من عظيم القدر انكم　　من لم يصل عليكم لا صلاة له

فيحتمل لا صلاة له صحيحة، فيكون موافقاً لقوله بوجوب الصلاة على الآل، ويحتمل لا صلاة كاملة فيوافق أظهر قوليه. انتهى كلام العلامة ابن حجر (الصواعق المحرقة: ١٤٧ ـ ١٤٨ ط. مصر و٢٢٨ ط. بيروت الاية الثانية من الباب ١١).

(وقال البيهقي) في شعب الإيمان: سمعت أبا بكر الطرسوسي يقول: سمعت أبا اسحاق المروزي يقول: انا اعتقد ان الصلاة على آل النبي صلى الله عليه آله وسلم واجبة في التشهد الاخير من الصلاة. قال: وفي الاحاديث التي وردت في كيفية الصلاة الدلالة على ما قاله أبو اسحاق. انتهى (جواهر العقدين: ٢٢٤، المشرع الروي: ١/ ٧ عن البيعقي، ونقل في الشعب الوجوب عن أبي الحسن الماسرجي: ٢/ ٢٢٤)

وقال المروزي: أنفضلها (الصلاة) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كلما ذكره الذاكرون وسها عنه الغافلون. (سفر السعادة: ٤٦).

أوجب الصلاة على الآل كل من:

ذكر من قال بوجوب الصلاة على الال

الشافعي واتباعه والكوفيون والشعبي واسحاق بن راهويه واحمد ومالك من التابعين وابن مسعود وابن عمر وجابر وابي سعيد من الصحابة. راجع الصواعق المحرقة ١٤٧ ط. مصر وط. بيروت: ٢٢٦ ـ ٢٢٧ الباب ١١ الآيات النازلة فيهم الآية الثانية، وجلاء الافهام: ٢٧٦ ـ ٢٧٧ الباب السادس.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: أكثر أصحاب الشافعي على وجوب الصلاة على الآل في الصلاة. شرح النهج لابن أبي الحديد: ٦/ ١٤٤ الخطبة ٧١.

وممن جرى على الوجوب ابن كثير وذكر في تفسيره: ٥٥٨/٣ ـ ٥٥٩ مورد اية ٥٦ من الاحزاب: ذهاب الشعبي والباقر ومقاتل والامام أحمد كما حكاه أبو زرعة واسحاق بن راهويه والفقيه محمد بن المواز المالكي، قال: وبعض أصحابنا أوجب الصلاة على آله فيما حكاه البندنيجي وسليم الرازي وصاحبه نصر بن ابراهيم المقدسي ونقله امام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي.

وممن انتصر للشافعي الفيروزآبادي وأبي امامة ابن النقاش والسمهودي وابن القيم. راجع الصلات والبشر: ١١٠ ـ ١١١، والمواهب اللدنية: ٥٠٩/٢ الفصل الثاني من المقصد السابع، وجواهر العقدين: ٢٢٢، وأحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٥٨٤، والشفا: ٢/ ٦٢ الباب الرابع، وتفسير آية المودة: ١٣٦.

وروايات الصلاة عى النبي المتضمنة للصلاة على الآل مستفيضة تصل الى حدّ التواتر على بعض المباني، رويت عن كل من: أبي مسعود والحديث صحيح رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي وصححه، وكعب بن عجرة وهو لا مغمز فيه، وأبي سعيد الخدري رواه البخاري في الصحيح، وأبي هريرة في حديث صحيح على شرط الشيخين، وبريدة بن الحصيب، وابن مسعود صححه الحاكم، وعبد الرحمن بن بشر بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبي معشر عن ابراهيم، وموسى بن طلحة عن أبيه. يراجع جلاء الافهام: ١٧٢ الباب الثالث ـ الفصل السابع، و٢٢٤ ـ ٢٣٨ الباب الرابع الموطن السادس، و٢٧٦ الباب السادس.

* قال ابن القيم: أكثر الاحاديث الصحاح والحسان بل كلها صريح بذكر النبي وبذكر آله وقال: آل النبي يصلى عليهم بلا خلاف بين الامة. جلاء الافهام: ١٧٢ الباب الثالث ـ الفصل السابع، و٢٢٤ ـ ٢٣٨ الباب الرابع الموطن السادس، و٢٧٦ الباب السادس..

وقد تقدّمت في كيفية الصلاة عليه وإذا كانت الصلاة عليه واجبة كانت كيفيتها أيضاً واجبة[١].

وروى كعب أنّ النبيّ ﷺ كان يقول ذلك في صلاته وقال: صلوا كما رأيتموني أصلي.

وعن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام عن ابن مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ من صلى صلاة ولم يصل فيها عليّ وعلى آلي وأهل بيتي لم تقبل منه[٢].

السابعة: الآل الذين تجب الصلاة عليهم في الصلاة ويستحب في غيرها هم الأئمة المعصومون، لإطباق الأصحاب على أنهم هم الآل ولأنّ الأمر بذلك مشعر بغاية التعظيم المطلق الذي لا يستوجبه إلاّ المعصوم، وأما فاطمة عليها السلام فتدخل أيضاً لأنّها بضعة منه.

الثاني

قال الجمهور: الصلاة من الله الرّحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن الآدميين الدّعاء، واستبعد تارة باقتضائه كونه مشتركاً لفظياً والأصل العدم، وأخرى بأنا لا نعرف في العربية مسنداً واحداً يختلف معناه باختلاف المسند إليه إذا كان الإسناد حقيقياً، وثالثة بأن الرحمة فعلها متعد والصلاة فعلها قاصر وتفسير القاصر بالمتعدي غير مناسب، ورابعة بأنّه لو قيل مكان صلى عليه دعى عليه انعكس المعنى ولو كانا مترادفين صح حلول كل منهما محل الآخر.

وقال المحقّقون: إنه لغة بمعنى العطف والعطف بالنّسبة إلى الله الرّحمة اللائقة وإلى الملائكة الاستغفار وإلى الآدميّين دعاء بعضهم لبعض، قال السّهيلي: الصّلاة كلها وإن اختلفت معانيها راجعة إلى أصل واحد فلا تظنها لفظ اشتراك ولا استعارة إنّما معناها العطف ويكون محسوساً ومعقولاً انتهى. فعلى ما ذكروه يكون مشتركاً معنوياً وهو أولى من الاشتراك اللفظي إذا دار الأمر بينه وبينه.

الثالث

قال الشّهيد الثاني نور الله مضجعه في «الرّوضة»: غاية السؤال بالصّلاة عائدة إلى

---

* وقال الفيروزابادي: المسألة العاشرة: هل يدخل في مثل هذا الخطاب النساء؟ ذهب جمهور الاصوليين أنهنّ لا يدخلن، ونصّ عليه الشافعي، وانتقد عليه وخطىء المنتقد. الصلات والبشر في الصلاة على خير البشر: ٣٢ الباب الاول ـ المسألة العاشرة.

وقال السخاوي في القول البديع في بيان صيغة الصلاة في التشهد: فالمرجع أنهم من حرمت عليهم الصدقة، وذكر أنه اختيار الجمهور ونصّ الشافعي، وأن مذهب أحمد أنهم أهل البيت، وقيل المراد أزواجه وذريته ـ عن هامش الصواعق المحرقة لعبد الوهاب عبد اللطيف: ١٤٦ ط. مصر١٣٨٥.

(١) مستدرك الوسائل: ٥/ ١٥ ح ٥٢٥٦، وبحار الأنوار: ٨٢/ ٢٧٩.

المصلي لأنّ الله تعالى قد أعطى نبيه من المنزلة والزّلفى لديه ما لا يؤثر فيه صلاة مصلّ كما نطقت به الأخبار وصرح به العلماء الأخيار.

أقول: أمّا انتفاع المصلي بالصّلاة واستحقاقه بها الثواب الجزيل والجزاء الجميل فممّا لا غبار عليه وستطلع على ذلك في التنبيه الآتي، وأمّا عدم تأثيره في حقه صلوات الله عليه وآله فممنوع، لأنّ مراتب القرب إليه تعالى والزّلفى لديه غير متناهية فيجوز أن توجب كلّ صلاة عليه الارتقاء من مرتبة إلى مرتبة فوقها.

فإن قلت: يستلزم ذلك أن يكون صلوات الله عليه ناقصاً في ذاته ومرتبته مستكملاً بالصّلاة والدّعاء.

قلت: إن أردت نقصه بالنّسبة إلى الواجب فمسلم ولا ضير فيه وإن أردت النقص بالنسبة إلى الموجودات الممكنة فلا، بيان ذلك أنّه أفضل الموجودات وأشرف المجعولات وأكمل المخلوقات، لا موجود سواه إلاّ وهو دونه ولا مجعول غيره إلاّ وهو ناقص بالنسبة إليه، لكنّه صلوات الله عليه وآله مع ذلك كله ممكن محتاج في وجوده وبقائه واستكمال ذاته إلى الواجب تعالى وهو قديم وفيضه غير متناه، وهو قابل بذاته لكسب الفيوضات وازدياد الدّرجات وهو تعالى ولي الخيرات والحسنات، وهو على كل شيء قدير، هذا.

وقد عثرت بعدما حقّقت المقام على كلام المحدّث العلامة المجلسي في هذا المرام ذكره في كتاب «**مرآة العقول**» على بسط وتفصيل فأحببت نقل ما أورده لتضمّنه فوائد سنيّة.

قال «ره»: اختلف العلماء في أنّه هل تنفعهم الصّلاة شيئاً أم ليس إلاّ لانتفاعنا فذهب الأكثر إلى أنّهم صلوات الله عليهم لم يبق لهم كمال منتظر بل حصلت لهم جميع الخصال السّنية والكمالات البشرية ولا يتصوّر للبشر أكثر ما منحهم الله تعالى، فلا يزيدهم صلواتنا عليهم شيئاً بل يصل نفعها إلينا وإنّما أمرنا بذلك لإظهار حبهم وولائهم، بل هي إنشاء لإظهار الإخلاص والولاء لنا، وليس الغرض طلب شيء لهم.

ويترتب عليه أن يفيض الله علينا بسبب هذا الإظهار فيوضه ومواهبه وعطاياه كما أنّه إذا كان لأحد محبوب يحبه حبّاً شديداً وقد أعطاه كلما يمكن فإذا كان لرجل حاجة عند المحبّ يتقرّب إليه بالثّناء على محبوبه وطلب شيء له تقرّباً إليه بإظهار حبّه وتصويبه في إكرامه وأنّه مستحق لما أعطله حقيق بما أولاه.

وهذا الكلام عندي مدخول بل يمكن توجيهه بوجوه أخرى لكلّ منها شواهد من الأخبار.

الأوّل: أن تكون الصّلاة سبباً لمزيد قربهم وكمالاتهم ولم يدل دليل على عدم ترقيهم إلى ما لا يتناهى من الدّرجات العليا في الآخرة والأولى، وكثير من الأخبار يدل على خلافه

كما ورد في كثير من أخبار التفويض أنه إذا أراد الله سبحانه أن يفيض شيئاً على إمام العصر يفيضه أوّلاً على رسول الله ثمّ على إمام إمام حتّى ينتهي إلى إمام الزمان لئلا يكون آخرهم أعلم من أوّلهم.

وكما أنّ بيننا وبين موالينا صلوات الله عليهم من أرباب العصمة والطهارة درجات غير متناهية لا يمكن لأحدنا وإن عرج على معارج القرب والكمال أن يصل إلى أدنى منازلهم، فكذا بينهم عليهم السّلام وبين جناب الألوهية وساحة الرّبوبية معارج غير متناهية كلما صعدوا بأجنحة الرفعة والكمال على منازل القرب والجلال لا تنتهي تلك المعارج ويعدون أنفسهم في جنب ساحة القدس مثل الذّرة أو دونها.

وقد أفيض على وجه وجيه في استغفار النبي والأئمة صلوات الله عليهم يناسب هذا الوجه وهو: أنّهم صلوات الله عليهم لمّا كانوا دائماً في الترقي في مدارج المعرفة والقرب والكمال ففي كلّ آن تحصل لهم معرفة جديدة وقرب جليل وكمال عتيد عدّوا أنفسهم مقصّرين في المرتبة السّابقة في المعرفة والقرب والطاعة كانوا يستغفرون منها، وهكذا إلى ما لا نهاية لها.

وقد ورد في الرّوايات الكثيرة أنّ أشرف علومنا علم ما يحدث بالليل والنّهار آناً فآناً وساعة فساعة، ويؤيّده ما روى في تفسير قوله سبحانه: ولدينا مزيد، أنّ أهل الجنّة في كلّ يوم جمعة يجتمعون في موضع يتجلى لهم الرّب تبارك وتعالى بأنوار جلاله، فيرجع المؤمن بسبعين ضعفاً ممّا في يديه فيتضاعف نوره وضياؤه، وهذا كناية عن تضاعف قربه ومعرفته.

الثاني: أن تكون سبباً لزيادة المثوبات الأخرويّة وإن لم تصر سبباً لمزيد قربهم وكمالهم.

وكيف يمنع ذلك عنهم وقد ورد في الأخبار الكثيرة وصول آثار الصّدقات الجارية والأولاد والمصحف وتعليم العلوم والعبادات إلى أموات المؤمنين والمؤمنات وأي دليل دلّ على استثنائهم عن تلك الفضائل والمثوبات، بل هم آباء هذه الأمة المرحومة والأمة عبيدهم وببركتهم فازوا بالسّعادات ونجوا من المهلكات، وكلما صدر عن الأمة من خير وسعادة وطاعة يصل إليهم نفعها وبركتها ولا منقصة لهم في ذلك مع أنّ جميع ذلك من آثار مساعيهم الجميلة وأياديهم الجليلة.

الثالث: أن تصير سبباً لأمور تنسب إليهم من رواج دينهم وكثرة أمّتهم واستيلاء قائمهم وتعظيمهم وذكرهم في الملاء الأعلى بالجميل وبالتّفخيم والتبجيل.

وقد ورد في بعض الأخبار في معنى السّلام عليهم: أنّ المراد سلامتهم وسلامة دينهم وشيعتهم في زمن القائم عليه السلام، انتهى كلامه رفع مقامه.

الرابع: في فضيلة الصّلاة وثوابها، والأخبار في ذلك كثيرة لا تحصى.

فمنها: ما في ثواب الأعمال للصّدوق بإسناده عن عباس بن ضمرة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: الصّلاة على النبي وآله ﷺ أمحق للخطايا من الماء إلى النّار والسّلام على النبي وآله أفضل من عتق رقاب وحب رسول الله أفضل من مهج الأنفس أو قال ضرب السّيوف في سبيل الله.

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا ذكر النبي ﷺ فأكثروا الصّلاة عليه فإنّه من صلى على النبي صلاة واحدة صلى الله عليه ألف صلاة في ألف صفّ من الملائكة ولم يبق شيء ممّا خلق الله إلاّ صلى على ذلك العبد لصلاة الله عليه وصلاة ملائكته، ولا يرغب عن هذا إلاّ جاهل مغرور قد برىء الله منه ورسوله[1]، ورواه أيضاً في «**جامع الأخبار**» كالكليني في «**الكافي**» نحوه.

وعن أبي البختري عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول الله ﷺ: أنا عند الميزان يوم القيامة فمن ثقلت سيئاته على حسناته جئت بالصّلاة عليّ حتّى أثقل بها حسناته[2]، ورواه في «**جامع الأخبار**» مثله.

وعن عبد السّلام بن نعيم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي دخلت البيت فلم يحضرني شيء من الدّعاء إلاّ الصّلاة على النبي ﷺ فقال عليه السلام ولم يخرج أحد بأفضل ممّا خرجت[3].

وعن الحارث الأعور قال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: كلّ دعاء محجوب عن السّماء حتّى يصلي على محمّد وآله[4].

وعن الصّباح بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ألا أعلمك شيئاً يقي الله وجهك من حرّ جهنم؟ قال: قلت: بلى، قال: قل بعد الفجر: اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد مائة مرة يقي الله به وجهك من حرّ جهنم.

وعن محمّد بن أبي عمير عمن أخبره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وجدت في بعض الكتب: من صلى على محمّد وآل محمّد كتب الله له مائة حسنة، ومن قال صلى الله على محمّد وأهل بيته كتب الله له ألف حسنة.

• وعن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الرّضا قال: قال رسول الله ﷺ: من صلى

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٩٢ ح ٦، ووسائل الشيعة: ٧/ ١٩٣ ح ٤.

(٢) ثواب الأعمال: ١٥٥، وبحار الأنوار: ٧/ ٣٠٤ ح ٧٢.

(٣) الكافي: ٢/ ٤٩٤ ح ١٧، وثواب الأعمال: ١٥٥.

(٤) تأويل الآيات: ٢/ ٤٦٢ ح ٣١، والكافي: ٥٢/ ٤٩٣ ح ١٠.

عليّ يوم الجمعة مائة صلاة قضى الله له ستين حاجة ثلاثون للدّنيا وثلاثون للآخرة.

وعن أبي المغيرة قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: من قال في دبر صلاة الصّبح وصلاة المغرب قبل أن يثني رجليه أو يكلم أحداً: إنّ الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً اللهم صل على محمّد وذريته قضى الله له مائة حاجة «سبعون» في الدّنيا «ثلاثون» في الآخرة، قال: قلت: ما معنى صلوات الله وصلوات ملائكته وصلوات المؤمن؟ قال: صلوات الله رحمة من الله وصلوات الملائكة تزكية منهم له، وصلوات المؤمنين دعاء منهم له[(١)].

ومن سرّ آل محمّد في الصّلاة على النبي وآله: اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد في الأولين، وصلّ على محمّد وآل محمّد في الآخرين، وصلّ على محمّد وآل محمّد في الملاء الأعلى، وصلّ على محمّد وآل محمّد في المرسلين اللهم أعط محمّداً الوسيلة والشرف والفضيلة والدّرجة الكبيرة، اللهم إنّي آمنت بمحمد ولم أره فلا تحرمني يوم القيامة رؤيته، وارزقني صحبته وتوفني على ملته واسقني من حوضه مشرباً[(٢)] روياً سائغاً هنيئاً لا ظمأ بعده أبداً إنّك على كلّ شيء قدير اللهم كما آمنت بمحمد ولم أره فعرفني في الجنان وجهه اللهم بلغ روح محمّد تحيّة كثيرة وسلاماً.

فإنّ من صلى على النبي بهذه الصّلاة هدمت ذنوبه ومحيت خطاياه ودام سروره واستجيب دعاؤه وأعطي أمله وبسط له في رزقه وأعين على عدوه وهيىء له سبب أنواع الخير ويجعل من رفقاء نبيّه في الجنان الأعلى، يقولهنّ ثلاث مرّات غدوة وثلاث مرّات عشيّة.

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم لأمير المؤمنين: ألا أبشرك؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي، فإنّك لم تزل مبشّراً بكل خير فقال: أخبرني جبرئيل آنفاً بالعجب، فقال أمير المؤمنين عليه السلام وما الذي أخبرك يا رسول الله؟ قال: أخبرني أنّ الرّجل من امّتي إذا صلى عليّ فاتبع بالصلاة على أهل بيتي فتحت له أبواب السّماء وصلت عليه الملائكة سبعين صلاة وإنّه إن كان من المذنبين تحات عنه الذنوب كما تحات الورق من الشّجر، ويقول الله تبارك وتعالى: لبّيك عبدي وسعديك يا ملائكتي أنتم تصلون عليه سبعين صلاة وأنا أصلي عليه سبعمائة صلاة، فإن صلى عليّ ولم يتبع بالصّلاة على أهل بيتي كان بينها وبين السّماء سبعون حجاباً ويقول الله جل جلاله: لا لبيك ولا سعديك يا ملائكتي لا تصعدوا دعاءه إلاّ أن يلحق بالنبي عترته، فلا يزال محجوباً حتّى يلحق بي أهل بيتي.

---

(١) ثواب الأعمال: ١٥٦، وبحار الأنوار: ٨٣/٩٦.

(٢) في نسخة: شربا.

وعن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قال في يوم مائة مرّة رب صلّ على محمّد وعلى أهل بيته، قضى الله له مائة حاجة ثلاثون منها للدّنيا، وسبعون منها للآخرة.

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ارفعوا أصواتكم بالصّلاة عليّ فإنّها تذهب بالنّفاق[١].

وفي «**جامع الأخبار**» عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: من صلى علي في كتابه لم تزل الملائكة تصلّي عليه ما دام ذلك مكتوباً إلى يوم القيامة.

وفيه أيضاً قال رسول الله ﷺ: من صلى عليّ مرّة صلى الله عليه ألف مرّة لا يعذّبه في النّار أبداً، وقال: من صلى علي مرّة فتح الله عليه باباً من العافية، وقال من صلى: علي مرة لم يبق من ذنوبه ذرّة.

وروى عن عبد الله بن مسعود أنّ النبي ﷺ قال: إنّ أولى النّاس في يوم القيامة أكثرهم صلاة، وقال النبي ﷺ في الوصية: يا علي من صلى كلّ يوم أو كل ليلة وجبت له شفاعتي ولو كان من أهل الكبائر.

عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: إنّ أقربكم مني يوم القيامة في كلّ موطن أكثركم عليّ صلاة في دار الدّنيا، ومن صلى في يوم الجمعة أو في ليلة الجمعة مائة مرّة قضى الله له مائة حاجة سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدّنيا، ثمّ يوكل الله له بكل صلاة ملكاً يدخل في قبري كما يدخل أحدكم الهدايا ويخبرني من صلّى عليّ باسمه ونسبه إلى عشيرته فاثبته عندي في صحيفة بيضاء[٢].

عن الرّضا عليه السلام: من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه فليكثر من الصّلاة على محمّد وآله فإنّها تهدم الذّنوب هدماً[٣].

وقال النبي ﷺ من قال: صلى الله على محمّد وآل محمّد أعطاه الله أجر اثنين وسبعين شهيداً وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

روى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: ما من أحد يذكرني ثمّ صلى عليّ إلاّ غفر الله له ذنوبه وإن كانت أكثر من رمل عالج.

وقال صلوات الله عليه وآله: من صلى علي يوم الجمعة مائة مرّة غفر الله له خطيئته

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٩٤ ح ١٣، وثواب الأعمال: ١٥٩.

(٢) فضائل الأوقات: ٤٩٩، كنز العمال: ١/٥٠٦ ح ٢٢٣٧.

(٣) الأمالي: ١٣١ ح ١٢٣، ووسائل الشيعة: ٧/ ١٩٤ ح ٧.

ثمانين سنة.

وقال ﷺ: من صلى عليّ مرة خلق الله تعالى يوم القيامة على رأسه نوراً وعلى يمينه نوراً وعلى شماله نوراً وعلى فوقه نوراً وعلى تحته نوراً، وفي جميع أعضائه نوراً.

وقال ﷺ: لن يلج النّار من صلى عليّ.

وقال ﷺ: الصّلاة عليّ نور على الصّراط، ومن كان له على الصّراط من النور لم يكن من أهل النّار.

وفي رواية عبد الرحمن بن عوف أنّه قال: جائني جبرئيل وقال: إنّه لا يصلي عليك أحد إلاّ ويصلي عليه سبعون ألف ملك وكان من أهل الجنة.

عن أنس عن النبي ﷺ أنّه قال: من صلى عليّ ألف مرّة لم يمت حتّى يبشّر بالجنّة.

وقال قال رسول الله ﷺ: من صلى عليّ وعلى آلي تعظيماً خلق الله من ذلك القول ملكاً يرى جناح له بالمغرب والآخر بالمشرق ورجلاه مغموستان من الأرض السّفلى وعنقه ملتوي تحت العرش، فيقول الله عزّ وجلّ: صلّ على عبدي كما صلى على النبي، فهو يصلي عليه إلى يوم القيامة[1].

إلى غير هذه من الأخبار المتجاوزة عن حدّ الإحصاء.

والحمد لله الذي جعل صلاتنا عليه وآله ما خصّنا به من ولايتهم طيباً لخلقنا وطهارة لأنفسنا وتزكية لنا وكفارة لذنوبنا، وله الشّكر على ما آثرنا بذلك وخصّصنا به دون غيرنا كثيراً كثيراً.

(١) نظم درر السمطين: ٤٦.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است که تعلیم فرموده خلق را در آن صلوات فرستادن به پیغمبر را:

ای خداوند ما، ای گستراننده گسترده ها چون هفت طبقه زمین و ای نگه دارنده بلندشده ها چون طبقات چرخ برین و ای مجبول نماینده قلب ها بر فطرت اصلیه آن ها که مجبول نموده قلب های باشقاوت را به شقاوت و قلب های باسعادت را به سعادت، بگردان شریف ترین درودهای خود را و بلندترین و افزون ترین برکت های خود بر محمد بن عبدالله که بنده برگزیده و رسول پسندیده تو است که ختم کننده آن چیزی است که گذشته از پیش از شریعت و ملت و گشاینده آن چیزی است که بسته شده از باب رشاد و هدایت و اظهارکننده دین حق است با بیان درست و حق و دفع کننده قلب های باطلان و شکننده صولت های گمراهان.

صلوات فرست بر آن حضرت، صلواتی که مشابه باشد به رسالتی که برداشت آن را و قوی شد به برداشتن او در حالتی که استاده بود به فرمان تو و صاحب تعجیل بود در تحصیل رضای تو و در حالتی که جبون نبود از پیشی گرفتن در اداء اوامر شریعت و سست نبود در عزیمت به ابلاغ احکام ملت، نگاه دارنده بود وحی تو را، حفظ کننده بود عهد تورا، گذرنده به اجراء فرمان تو تا آن که برافروخت شعله نور حق را به جهت طالبین و روشن ساخت راه شرع متین را از برای خبط کننده و جاهلین و هدایت یافته شده بهوجود مبارك آن، قلب ها بعد از غوطه خوردن در فتنه ها و برپا نمود علم های راه نماینده و احکام روشنی دهنده را.

پس او امین تو است و خزینه دار علم مخزون و سرّ مکنون تو و شاهد تو است در روز جزا و فرستاده تو به سوی خلق.

بارخدایا گشاده گردان از برای آن حضرت مکان باوسعت در سایه کشیده خود و جزا بده او را زیادت های خیر را از فضل و رحمت خود.

بارخدایا، بلند گردان بر بنای بانیان، بنای او را که عبارت است از دین مبین و شرع متین و گرامی دار نزد خود منزل او را که جنت عدن است و فردوس برین و

تمام گردان از برای او نور او را که احاطه نماید به همه خلایق و پاداش ده او را از جهت مبعوث نمودن تو او را شهادت پذیرفته شده و گفتار پسندیده در حالتی که او صاحب نطق عادل است و صاحب خصلت جداکننده میان حق و باطل.

بارخدایا جمع کن میان ما و میان او در خوشی زندگانی و در ثبات نعمت جاودانی و در مطلوب های آرزوها و در خواهشات لذت ها و در گشادگی آسایش و راحت و در پایان آرامی و استراحت و در تحف های کرامت که معدّا است و مهیا برای اهل جنت.

ومن كلام له عليه السلام قاله لمروان بن الحكم بالبصرة وهو الثاني والسبعون من المختار في باب الخطب

قالوا: أخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلّماه فيه فخلى سبيله فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين.

فقال: «أَوَلَمْ يُبايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ؟ لاَ حاجَةَ لي في بَيْعَتِهِ، إِنَّها كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ لَوْ بايَعَني بِكفِّه لَغَدَر بِسبَّتِهِ، أما إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ، وَهُوَ أَبُو الأَكْبُشِ الأَرْبَعَةِ، وَسَتَلْقَى الأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَده يَوْماً أَحْمَرَ»[١].

اللغة

قال الشّارح المعتزلي يقال استشفعت فلاناً إلى فلان وسألته أن يشفع لي إليه وتشفّعت إلى فلان في فلان فشفّعني فيه تشفيعاً، وقول النّاس استشفعت بفلان إلى فلان ليس بذلك الجيد انتهى، و(**السّبة**) بالفتح الأست، و(**الأمرة**) بالكسر مصدر كالإمارة وقيل اسم و(**لعقه**) كسمعه لحسه لعقة ويضمّ و(**كبش**) القوم رئيسهم و(**الولد**) بالتّحريك مفرد وجمع.

الإعراب

فاعل (**استشفع**) في كلام السّيد راجع إلى مروان، قوله: (**إنّها**) وارد في مقام التّعليل لعدم الحاجة وحذف منه الجار، والضّمير فيه راجع إلى (**الكفّ**) المفهوم من البيعة لجريان العادة بوضع المبايع كفّه في كفّ المتباع، (**ويهودية**) بالرّفع صفة لكف.

المعنى

اعلم أنّ مروان الملعون هو ابن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان أبوه الحكم لعنه الله عمّ عثمان بن عفّان وقد طرده رسول الله صلى الله عليه وآله ونفاه عن المدينة مع ابنه مروان، وكان مروان يومئذٍ طفلاً فلم يزالا بالطائف حتّى ولي عثمان فردّه إلى المدينة مع ولده.

واختلف في السّبب الموجب لنفيه له فقيل: إنّه يتحيل ويستخفي ويسمع ما يسرّه رسول الله إلى أكابر الصّحابة في مشركي قريش وسائر الكفّار والمنافقين، وقيل: يتجسّس على

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٢٣٥، وشجرة طوبى: ١/ ١٣٠.

رسول الله وهو عند نسائه ويصغي إلى ما لا يجوز الإطلاع عليه ثمّ يحدث به المنافقين على طريق الاستهزاء، وقيل: كان يحكيه في بعض مشيه وبعض حركاته، فقد قيل: إنّ النبيّ ﷺ إذا مشى يتكفّأ، وكان الحكم بن العاص يحكيه وكان شانئاً له حاسداً مبغضاً، فالتفت رسول الله يوماً فرآه يمشي خلفه يحكي في مشيته فقال له كذلك فلتكن يا حكم، فكان الحكم مختلجاً يرتعش من يومئذٍ.

وفي شرح المعتزلي من كتاب الاستيعاب بإسناد ذكره عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ رسول الله ﷺ قال: يدخل عليكم رجل لعين، قال: وكنت قد رأيت أبي يلبس ثيابه ليقبل إلى رسول الله فلم أزل مشفقاً أن يكون أوّل من يدخل، فدخل الحكم بن أبي العاص.

وعن **«النهاية»** في حديث عائشة قالت لمروان: إنّ الله لعن أباك وأنت فضض من لعنة الله أي قطعة وطائفة منها، ورواه بعضهم فظاظة من لعنة الله بظائين من الفظيظة وهو ماء الكرش. وقال الزّمخشري افتظظت الكرش اعتصرت مائها كأنّها عصارة من لعنة الله.

وكيف كان فهو الطريد ابن الطريد، واللعين ابن اللعين ومنافق ابن منافق، ولذلك أنّ الحسنين عليهما السلام لمّا قالا لأمير المؤمنين عليه السلام إنّه يبايعك يا أمير المؤمنين فقال **(أولم يبايعني بعد قتل عثمان)** فغدر وحضر فيمن حضر حرب الجمل **(لا حاجة لي في بيعته إنّها)** أي كفّه **(كفّ يهوديّة)** غادرة والنّسبة إلى اليهود لشيوع الغدر فيهم كما نبّه عليه السلام على ذلك بقوله **(لو بايعني بيده لغدر بسبّته)** أراد أنّه لو بايع في الظاهر لغدر في الباطن وذكر السّبة إهانة له.

(أما أنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه) أشار بذلك إلى قصر مدّة إمارته، فقد قيل: إنّه ولي الأمر تسعة أشهر، وقيل: ستّة أشهر، وقيل أربعة أشهر وعشرة أيّام **(وهو أبو الكبش الأربعة)** فسّر الأكثر ذلك ببني عبد الملك بن مروان: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام، ولم يل الخلافة من بني أميّة ولا من غيرهم أربعة اخوة إلا هؤلاء.

قال المعتزلي: وعندي أنّه يجوز أن يعني به بني مروان لصلبه، وهم عبد الملك الذي ولي الخلافة، وبشر الذي ولي العراق، ومحمّد الذي ولي الجزيرة، وعبد العزيز الذي ولي مصر، ولكلّ منهم آثار مشهورة **(وستلقى الأمّة منه ومن ولده يوماً أحمر)** أي شديداً وفي بعض النّسخ موتاً أحمر وهو كناية عن القتل.

تكملة

هذا الكلام مرويّ بنحو آخر، وهو ما رواه في **«البحار»** من الخرائج عن بن الصّيرفي عن رجل من مراد قال: كنت واقفاً على رأس أمير المؤمنين عليه السلام يوم البصرة إذ أتاه ابن عبّاس بعد القتال فقال: إنّ لي حاجة فقال ما أعرفني ما الحاجة التي جئت فيها تطلب الأمان لابن

الحكم؟ قال: نعم أريد أن تؤمنه قال أمنته ولكن اذهب وجئني به ولا تجئني به إلاّ رديفاً فإنّه أذلّ له.

فجاء به ابن عباس ردفاً خلفه كأنّه قرد قال أمير المؤمنين عليه السلام: أتبايع؟ قال: نعم، وفي النّفس ما فيها قال: الله أعلم بما في القلوب فلمّا بسط يده ليبايعه أخذ كفّه عن كفّ مروان فترها فقال لا حاجة لي فيها إنّها كفّ يهوديّة لو بايعني بيده عشرين مرّة لنكث باسته، ثمّ قال:

هيه هيه يا ابن الحكم خفت على رأسك أن تقع في هذه المعمعة، كلا والله حتّى يخرج من صلبك فلان وفلان يسومون هذه الأمّة خسفاً ويسقونه كأساً مصيرة[1].

قال المجلسي: قوله فترّها، كذا في أكثر النّسخ **(بالتّاء)** **(والراء)** المهملة في **«القاموس»** ترّ العظم ويترّ تريراً وترور أبان وانقطع، وقطع كأترّ والتّرتر كالتزلزل والتّقلقل، وفي بعض النّسخ فنثرها **(بالنّون)** **(والثّاء)** المثلثة أي نفضها، وفي بعضها فنترها **(بالنّون)** **(والتّاء)** المثنّاة من النّتر وهو الجذب بقوّة وفي **«القاموس»** يقال لشيء يطرد هيه هيه بالكسر وهي كلمة استزادة أيضاً، وفي **«النهاية»** المعامع شدّة الموت والجدّ في القتال والمعمعة في الأصل صوت الحريق والمعمان شدّة الحرّ.

أقول: ولعله أراد بقوله **(كأساً مصبرة)** كأساً مرّة كان فيها صبراً.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٢٣٥، وشجرة طوبى: ١/ ١٣٠.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است كه فرمود از براى مروان بن حكم در شهر بصره؛ راويان گويند كه گرفتند مروان بن حكم را اسير در روز حرب جمل، پس شفيع نمود حسن و حسين(عليهما السلام) را مروان به سوى اميرالمؤمنين (عليه السلام)، پس سخن گفتند آن دو بزرگوار به آن حضرت درخصوص آن بى اخلاص، پس رها كرد آن را، پس عرض كردند ايشان كه بيعت مى كند مروان به تو اى اميرمؤمنان، پس آن حضرت فرمود كه:

آيا بيعت نكرد آن بى دين بعد از كشته شدن عثمان لعين؟ هيچ حاجت نيست مرا در بيعت آن بدبخت، به درستى كه دست آن ملعون دست يهودى است؛ يعنى مثل طايفه يهود مكار و غدار است. اگر بيعت كند به من به دست خود هر آينه غدر كند با دبر خود؛ يعنى اگر ظاهراً بيعت نمايد، باطناً نقض آن را خواهد نمود.

آگاه باشد كه به درستى باشد او را امارتى به غايت كوتاه مانند ليسيدن سگ بينى خود را و او است پدر چهار رئيس؛ مراد عبدالملك و عبدالعزيز و بشر و محمد است كه همه پسران مروان بودند و زود باشد كه برسند اين امت از جانب مروان و از جانب پسران او روز باشدت؛ مراد قتل و غارتى است كه از ايشان صادر شد.

ومن كلام له عليه السلام لما عزموا على بيعة عثمان وهو الثالث والسبعون من المختار في باب الخطب

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنّي أَحَقُّ بِها مِنْ غَيْري، وَوَاللَّهِ لأَسَلِّمَنَّ ما سَلِمَت أُمُورُ الْمُسْلِمينَ، وَلَمْ يَكُنْ فيها جَوْرٌ إلاّ عَلَيَّ خاصَّةً الْتِماساً لأَجْرِ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِهِ، وزهْداً فيما تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِها وزِبْرِجِهَا»[١].

اللغة

(نافست) في الشيء منافسة ونفاساً إذا رغبت فيه على وجه المبارات و**(الزّخرف)** بالضمّ الذّهب وكمال حسن الشيء قال تعالى: «حتّى إذا أخذت الأرضُ زخرفها» و**(الزّبرج)** بالكسر الزّينة.

الإعراب

كلمة (ما) في قوله **(ما سلمت)** ظرفيّة مصدرية، **(وخاصّة)** منصوب على الحاليّة، **(والتماساً)** مفعول له والعامل **(لأسلمن)** **(ومن زخرفها)** بيان **(لما)**.

المعنى

المستفاد من شرح المعتزلي أنّ هذا الكلام صدر منه عليه السلام بعد أن بايع أهل الشورى عثمان وعدّ عليه السلام فضائله وسوابقه، وناشد أصحاب الشّورى فقطع عبد الرّحمن بن عوف كلامه وقال يا علي: قد أبى النّاس إلاّ على عثمان فلا تجعلنّ على نفسك سبيلاً، ثمّ قال عليه السلام: يا أبا طلحة ما الذي أمرك به عمر؟ قال: أن أقتل من شقّ عصا الجماعة، فقال عبد الرّحمٰن لأمير المؤمنين بايع إذاً وإلاّ كنت متّبعاً غير سبيل المؤمنين وأنفذنا فيك ما أمرنا به فعند ذلك قال:

(لقد علمتم أنّي أحق بها) أي بالخلافة المستفادة من قرينة المقام **(من غيري)** لاستجماعه عليه السلام الكمالات النفسانية والفضائل الدّاخليّة والخارجيّة مضافاً إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وآله بها، فيكون أولى وأحقّ وذلك لا يستلزم كون غيره حقيقاً أيضاً إذا سم التّفضيل في كلامه نحوه في قوله تعالى:

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٦١٢ ح ٢٧، وسبيل النجاة: ٢٨١.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥] .

ثمّ نبه عليهما السلام على أنّ رغبته فيها ليست حرصاً على زخارف الدّنيا وزينتها وامارتها كما هي في غيره، وإنما هي لرعاية مصلحة الإسلام وصلاح حال المسلمين فقال **(ووالله لأسلمنّ)** وأتركن المخالفة **(ما سلمت أمور المسلمين)** أي مهما كان في تسليمي سلامة أمور المسلمين **(ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصّة)** وإنّما سلمت ذلك **(التماساً لأجر ذلك من فضله)** أيّ لأجر المظلوميّة والجور الواقع في حقّي من فضل الله سبحانه **(وزهداً فيما تنافستموه)** ورغبة عما رغبتم فيه **(من زخرفها وزبرجها)** أي ذهب الدّنيا وزينتها.

قال المحدّث المجلسي: في هذا الكلام دلالة على أنّ خلافة غيره جور مطلقاً وأنّ التّسليم على التّقدير المفروض وهو سلامة أمور المسلمين وإن لم يتحقّق الفرض لرعاية مصالح الإسلام والتّقية، انتهى.

وبذلك يظهر ما في كلام الشّارح المعتزلي حيث قال:

فإن قلت: فهلا سلم إلى معاوية وإلى أصحاب الجمل وأغضى على اغتصاب حقّه حفظاً للإسلام من الفتنة.

قلت: إنّ الجور الدّاخل عليه من أصحاب الجمل ومن معاوية وأهل الشّام لم يكن مقصوراً عليه خاصّة، بل كان يعمّ الإسلام والمسلمين جميعاً، لأنّهم عنده لم يكونوا ممّن يصلح لرياسة الأمّة وتحمل أعباء الخلافة، فلم يكن الشّرط الذي أشترطه متحقّقاً وهو قوله: ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصّة.

ثمّ قال: وهذا الكلام يدلّ على أنّه عليه السلام لم يكن يذهب إلى أن خلافة عثمان يتضمّن جوراً على المسلمين والإسلام وإنّما يتضمن جوراً عليه خاصّة وإنّما وقعت على جهة مخالفة الأولى لا على جهة الفساد الكلي والبطلان الأصلي وهذا محض مذهب أصحابنا، انتهى.

وأقول: أما ما ذكره من التفرقة بين المتخلفين الثلاثة وبين النّاكثين والقاسطين بكون جور الأولين مقصوراً عليه خاصّة وجور الآخرين عامّاً له وللإسلام والمسلمين، فضعيف جدّاً كضعف توهّمه صلاحية الأولين عنده عليه السلام لرئاسة الأمة وعدم صلاحية الآخرين لها.

أما أوّلاً: فلمنع انحصار جور الأولين فيه خاصّة ألم يبعث الأوّل خالد بن الوليد لعنه الله إلى مالك بن نويرة فقتله وأصحابه وزنى بامرأته بمجرّد إمساكه عن الزّكاة ومنع بضعة الرّسول من فدك أليس جوراً بيناً وظلماً فاحشاً فضلاً عن سائر ما صدر عنه؟

أولم يأمر الثّاني بإحراق بيت الصّديقة ومنعها حقّها وأعطى عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم في كلّ سنة وظلم المسلمين في بيت مالهم؟

أولاً: تنظر إلى الثالث كيف أخرج أبي ذر إلى الرّبذة وكسر ضلع عبد الله بن المسعود وحمل بني أبي معيط على رقاب النّاس وأتلف مال المسلمين وظلمهم في حقّهم وقام معه بنو أميّة «أبيه» يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الرّبيع؟ ولو لم يكن منهم جور إلاّ في حقّه عليه السلام لكفى في بطلان خلافتهم إذ الجائر لا يكون إماما لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥].

وأما ثانياً: فلمنع صلاحيّة الأوّلين عنده عليه السلام للرئاسة، وكيف يتوهّم ذلك مع تصريحه في الخطبة الشّقشقيّة وغيرها ممّا مرّت ويأتي بعد ذلك ببطلان خلافتهم واغتصابهم حقّه فضلاً عما حقّقنا سابقاً في غير موضع فساد خلافتهم وبطلان دعواهم لها.

فإن قلت: فلم أمسك عنهم ونهض إلى معاوية وأصحاب الجمل؟

قلت: قد بيّنا جواب ذلك فيما سبق وقلنا إنّ إمساكه النّكير على الأوّلين لعدم وجود ناصر ومعين له يومئذٍ ينصره ويحمي له فأمسك عنهم تقيّةً وحقناً لدمه بخلاف يوم الجمل وصفّين كما مر تفصيلاً في تنبيهات كلامه السّابع والثّلاثين، وبالجملة لا ريب في بطلان خلافة الجميع وكون الكل جائراً ظالماً في حقّه وفي حق المسلمين، غاية الأمر أن معاوية وأصحاب الجمل هتكوا حرمة الإسلام بالمرة وأعلنوا بعداوته عليه السلام وشهروا سيوفهم عليه، والأوّلين لم يبلغوا هذه المثابة.

وبهذا كله ظهر فساد ما توهّمه أخيراً ونسبه إليه عليه السلام من عدم ذهابه إلى بطلان خلافة عثمان أصلاً ورأساً وإنّما كان يذهب إلى أنها متضمنة للجور عليه خاصة، فافهم جيداً.

الترجمة

از جمله كلام آن امام همام است كه فرموده در زمانى كه عزم كردند اهل شورى به بيعت عثمان:

به تحقيق، هرآينه دانسته ايد كه آن كه به درستى من سزاوارترم به خلافت از غير من و قسم به ذات خداوند كه هر آينه تسليم مى كنم مادامى كه سلامت باشد كارهاى مسلمانان و نباشد در خلافت ديگران ستمى مگر بر من تنها از جهت خواهش نمودن ثواب آن را از فضل خداوند تبارك و تعالى و از جهت اعراض نمودن در آن چه شما رغبت نموديد در آن از طلاى آن و زينت و آرايش آن.

ومن كلام له عليه السلام لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان وهو الرابع والسبعون من المختار في باب الخطب

«أَوَلَمْ يَنْهَ أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بي عَنْ قَرْفي؟ أَوَما وَزَعَ الْجُهّال سابِقَتي عَنْ تُهَمتي؟ وَلَما وعَظَهُمُ اللَّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِساني أَنَا حَجيجُ الْمارِقينَ، وخَصيمُ الْمُرتابين، وعَلَىٰ كِتابِ اللَّهِ تُعْرَضُ الأَمْثالُ، وبِما في الصُّدورِ تُجازَى الْعِبادُ»[1].

اللغة

قوله (**أولم ينه أميّة**) في بعض النّسخ بني أمية وكلاهما صحيحان، والمراد القبيلة يقال كليب وبنو كليب ويراد بهما القبيلة قال الشّاعر:

أشارت كليب بالأكف الأصابع

وقال آخر:

أبنـــي كـلـيـب إن عـمـى الــلــذا

و(**قرف**) فلاناً من باب ضرب اتهمه وعابه و(**وزعه**) عنه صرفه وكفّه و(**السّابقة**) الفضيلة والتّقدّم و(**الحجيج**) المحاج من حجّ فلان فلاناً إذا غلبه بالحجة و(**المارق**) الخارج من الدّين و(**الخصيم**) المخاصم.

الإعراب

(**الهمزة**) في قوله (**أولم ينه**) (**وأو ما وزع**) استفهام على سبيل الإنكار التّوبيخي نحو قوله تعالى:

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦].

(**والواو**) في قوله (**ولما وعظهم**) يحتمل القسم والاستئناف والحال.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام له وارد في توبيخ بني أمية والطعن عليهم، فإنّه عليه السلام لما بلغه

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٥٠٠ ح ٢.

اتهامهم له بالمشاركة في دم عثمان وبخهم بقوله **(أولم ينه أمية علمها بي عن قرفي)** قال الشارح المعتزلي: يقول عليه السلام أما كان في علم بني أميّة بحالي ما ينهيها عن قرفي واتّهامي بدم عثمان، وحاله التي أشار إليها وذكر أنّ علمهم بها يقتضي أن لا يقرفوه بذلك هي منزلته في الدّين التي لا منزلة أعلى منها، وما نطق به الكتاب الصّادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته في قوله:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقول النبي صلى الله عليه وآله أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، وذلك يقتضي عصمته عن الدّم الحرام كما أن هارون معصوم عن مثل ذلك ثمّ أكد ذلك بقوله **(أو ما وزع الجهال)** وردعهم **(سابقتي)** في الإسلام **(عن تهمتي)** ثمّ اعتذر عليه السلام لنفسه في عدم تأثير موعظته فيهم بقوله **(ولما وعظهم الله به)** في كتابه **(أبلغ من لساني)** وقولي.

يعني أنّ كلام الله سبحانه مع كونه أبلغ الموعظة وأكمل في الرّدع والتحذير لا يوجب وزعمهم وردعهم عن القول والاعتقاد بما لا يجوز ولا يؤثر فيهم، فكيف بكلام وهذا الكلام نظير قوله في الخطبة الرّابعة: وقر سمع لم يفقه الواعية وكيف يراعي النبأة من أصمته الصّيحة، والمراد بما وعظهم الله به الآيات النّاهية عن الظنّ والرّادعة عن الغيبة والمحذرة من إيذاء المؤمنين مثل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

إلى غير ذلك وهو كثير في القرآن ثمّ قال **(أنا حجيج المارقين وخصيم المرتابين)** أي مغالب الخارجين عن الدّين بإظهار الحجة عليهم في الدّنيا والآخرة ومخاصم الشّاكين في الدّين أو في كلّ حقّ في خصوص الإمامة من بني أميّة وغيرهم.

روى في **«غاية المرام»** عن الشّيخ في **«أماليه»** بإسناده عن قيس بن سعد بن عبادة قال: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول: أنا أوّل من يجثو بين يدي الله عزّ وجل للخصومة[1].

أقول: وإلى تلك المخاصمة أشيرت في قوله تعالى:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩-٢١].

روى في **«غاية المرام»** عن ابن بابويه مسنداً عن النّصر بن مالك قال: قلت للحسين بن

(١) بحار الأنوار: ٢٩/٥٧٨ ح ٣.

علي بن أبي طالب عليهما السّلام: يا أبا عبد الله حدثني عن قول الله عز وجلّ:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

قال: نحن وبنو أميّة اختصمنا في الله عزّ وجلّ قلنا صدق الله وقالوا كذب الله فنحن وإيّاهم الخصمان يوم القيامة.

ومن **«كشف الغمة»** عن مسلم والبخاري في حديث في قوله تعالى:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الحج: ١٩].

نزلت في علي وحمزة وعبيدة بن الحارث الذين بارزوا المشركين يوم بدر عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة[١].

ومن تفسير علي بن إبراهيم في معنى الآية قال: قال يعني الصّادق عليه السلام نحن وبنو أميّة نحن قلنا صدق الله ورسوله، وقالت بنو أميّة كذب الله ورسوله:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحج: ٢٠] يعني بني أُمَيَّة ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ٢٠]. إلى قوله: ﴿حَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢٠].

قال قال عليه السلام: يغشاهم من النار بما يثوب للإنسان فتسترخي شفته حتّى يبلغ سرّته وتتعلق شفته العليا حتّى تبلغ وسط رأسه، ولهم مقامع من حديد، قال: قال الأعمدة التي يضربون بها[٢].

ومن **«تفسير الثعلبي»** في تفسير قوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣١].

قال: روى خلف بن خليفة عن أبي هاشم عن أبي سعيد الخدري قال: كنا نقول ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة، فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا[٣].

ثمّ قال عليه السلام **(وعلى كتاب الله تعرض الأمثال)** يريد نحو قوله تعالى:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الحج: ١٩] الآية. وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

---

(١) البحار: ٣٦/ ٢٢، وكشف الغمة: ١/ ٣١٩، وصحيح البخاري: ٥/ ٦.
(٢) شرح أصول الكافي: ٧/ ٨٤، وبحار الأنوار: ٨/ ٢٢٧.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٤٨.

روى في «**غاية المرام**» من طريق العامة عن ابن عبّاس في قوله:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ص: ٢٨] قال علي وحمزة وعبيدة ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٨] عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [ص: ٢٨].

هؤلاءِ علي وأصحابه «كَالْفُجّارِ» عتبة وأصحابه، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قال ابن عبّاس: فالذين آمنوا بنو هاشم وبنو عبد المطلب، والذين اجترحوا السّيئات بنو عبد شمس، وقال بعضهم: لما كان في أقواله وأفعاله عليه السلام ما يشبه الأَمر بالقتل أو فعله فأوقع في نفوس الجهّال شبهة القتل نحو ما روي عنه عليه السلام الله قتله وأنا معه وكتخلفه عن الخروج يوم قتل عثمان حسبما تقدّم في شرح كلامه التاسع والعشرين فقال عليه السلام: ينبغي أن يعرض ذلك على كتاب الله فإن دلّ على كون شيء من ذلك قتلاً فيحكم به وإلاّ فلا ولن يدل عليه أبداً[1].

قال المحدّث العلامة المجلسي: ويحتمل أن يراد بالأَمثال الحجج أو الأَحاديث كما ذكر في «**القاموس**» أي ما احتجّ به في مخاصمة المارقين والمرتابين وما يحتجون به في مخاصمتي ينبغي عرضها على كتاب الله حتّى يظهر صحّتهما وفسادهما، أو ما يسندون إليّ في أمر عثمان وما يروى في أمري وأمر عثمان يعرض على كتاب الله (**وبما في الصّدور تجازى العباد**) أي بالنيّات والعقائد أو بما يعلمه الله من مكنون الضّمائر لا على وفق ما يظهره المتخاصمون عند الاحتجاج يجازي الله العباد.

(١) بحار الأنوار: ٥٠٢/٣١.

الترجمة

از جمله کلام آن عالی مقام است در حینی که رسید به او متهم کردن بنی امیه او را به شریك شدن او در خون عثمان علیه اللعنة و النیران:

آیا نهی نکرد بنی امیه را علم ایشان به حالت من از متهم داشتن من؟ آیا منع و ردع نکرد جاهلان را سابقه فضیلت من از اتهام من؟ و هرآینه آن چه که موعظه فرموده است خداوند ایشان را به او ابلغ است از کلام من، من احتجاج کننده ام با کسانی که از دین خارجند و خصومت کننده ام با اشخاصی که در دین شك دارند بر کتاب خدا عرض و تطبیق شود شبهه ها و مثل ها و به آن چه در سینه ها است از اعتقادهای نیك و بد جزا داده می شوند بندگان در این جهان و آن جهان.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخامسة والسبعون
من المختار في باب الخطب

«رَحِمَ اللّٰهُ عَبْداً «امْرَءً» سَمِعَ حُكماً فوَعَىٰ، ودُعِيَ إِلَىٰ رَشَادٍ فَدَنَىٰ، وأَخَذَ بحُجْزَةِ هادٍ فَنَجى، راقَبَ رَبَّهُ، وخافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خالِصاً، وعَمِلَ صالِحاً، اكْتَسَبَ مَذْخوراً، وَاجْتَنَبَ مَحْذُوراً، رَمىٰ غَرَضاً، وأَحْرَزَ عِوَضاً، كابَرَ هَواهُ، وكَذَّبَ مُناهُ، جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجاتِهِ، والتَّقْوىٰ عُدَّةِ وفاتِهِ، رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرّاءَ، ولَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضاءَ، اغْتَنَمَ الْمَهَلَ وبادَرَ الأَجَلَ، وتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ»[1].

اللغة

(وعيت) الحديث حفظته قال تعالى: «وتعيها أذن واعية» و**(الحجزة)** بالضم معقد الإزار و**(رقبته)** ارقبه من باب قتل حفظته وأنا رقيب وراقبت الله خفت عذابه و**(اكتسب)** بمعنى كسب و**(الغرض)** ما يرمي بالسّهام وفي بعض النّسخ عرضاً بالعين المهملة وهو متاع الدّنيا و**(كابرته)** مكابرة غالبته وعاندته، وفي بعض النّسخ كاثر **(بالثاء)** المثلثة وهو بمعنى غالب أيضاً، يقال: كاثرناهم فكثرناهم أي غلبناهم بالكثرة و**(المطيّة)** المركب و**(الغراء)** و**(البيضاء)** بمعنى و**(المحجة)** بالفتح معظم الطريق و**(المهل)** بالفتح فالسّكون وبفتحتين أيضاً اسم من المهلة أو مصدر.

الإعراب

جملة **(سمع)** وما بعدها منصوب المحل على الوصفيّة وقوله: **(راقب ربّه)**، **(وقدّم خالصاً)**، وما بعدهما من الأفعال بحذف العواطف فيها نوع من الفصاحة كثير في استعمالهم قال سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-١٣].

(وربّه وذنبه) مفعولان بالواسطة ونسبة الخوف إلى الذّنب مجاز لأنّه إنّما هو من الله سبحانه إلاّ

(١) الكافي: ٨/ ١٧٢، وتحف العقول: ٢٠٨.

أنّه لمّا كان سببه الذّنب نسب إليه وحقيقة الكلام خاف من الله لأجل ذنبه.

المعنى

اعلم أنّه عليه السلام ترحّم في كلامه ذلك على عبد اتّصف بما ذكر فيه من الأوصاف وفيه حثّ وترغيب على ملازمة تلك الصّفات والاتّصاف بهذه الأوصاف وهي على ما ذكره عليه السلام عشرون.

الأوّل: ما أشار إليه بقوله **(رحم الله عبداً سمع حكماً فوعى)** أراد بالحكم الحكمة الأعمّ من العلميّة والعمليّة كما في قوله تعالى:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

الثّاني: قوله **(ودعى إلى رشاد فدنى)** أي رشد وهداية فدنى من الداعي وقرب من المرشد والهادي.

الثّالث: قوله **(وأخذ بحجزة هاد فنجى)** أي اعتصم به والتجأ إليه واستهدى به فهداه من الضّلالة وانقذه من الجهالة فاهتدى ونجى من الهلكة وأمن من العقوبة والهادي في كلامه وإن كان مطلقاً إلاّ أنّ الأظهر عندي أنّ المراد به الأئمة الذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون، فيكون المراد بالأخذ بحجزتهم المتمسّكين بحبل الولاية والمقتبسين من أنوارها، ويدلّ على ما استظهرته ما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، بطرق كثيرة أنّ الهادي هو أمير المؤمنين وولده المعصومون سلام الله عليهم أجمعين.

فمنها ما في «**غاية المرام**» من تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عليهم السّلام قال: قال أمير المؤمنين: فينا نزلت هذه الآية:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا المنذر وأنت الهادي يا عليّ، فمنّا الهادي والنّجاة والسّعادة إلى يوم القيامة.

ومنه أيضاً عن بريد، عن معاوية عن أبي جعفر عليه السلام.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا المنذر وفي كل زمان إمام منّا يهديهم إلى ما جاء به نبي الله والهداة من بعده عليّ ثمّ الأوصياء من بعده واحد بعد واحد، والله ما ذهبت منّا وما زالت فينا إلى السّاعة، رسول الله صلى الله عليه وآله المنذر وبعليّ يهتدي المهتدون[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٥/ ٤٠٤ ح ٢٣.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة بالغة حدّ الاستفاضة يطول الكتاب بذكرها وقد روى في **«غاية المرام»** ثلاثين رواية من طريق العامّة والخاصّة في ذلك من أراد الإطلاع فليراجع إليه.

الرابع: قوله (**راقب ربّه**) والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان وهي على ما قيل رتبة عظيمة من رتب السّالكين، وحقيقتها أنّها حالة للنّفس يثمرها نوع خاص من المعرفة ولها تأثير خاصّ في القلب والجوارح أمّا الحالة فهي مراعاة القلب للرّقيب واشتغاله به، وأما العلم المثمر لها فهو العلم بأنّ الله تعالى مطلع على الضمائر والسّرائر قائم على كلّ نفس بما كسبت كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

فهذه المعرفة إذا استولت على القلب ولم يبق فيها شبهة فلا بدّ أن تجذبه إلى مراعاة الرّقيب، والموقنون بهذه المعرفة طائفتان.

إحداها: الصّديقون ومراقبتهم التّعظيم والإجلال واستغراق قلبهم بملاحظة ذلك الجلال والانكسار تحت الهيبة والعظمة بحيث لا يبقى فيه مجال للالتفات إلى الغير أصلاً، وجوارحهم معطلة عن الالتفات والتلفّت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات وإذا تحرّكت بالطاعة كانت كالمستعمل لها فلا تصلح لغيرها ولا يحتاج إلى تدبير في ضبطها على سنن السّداد، ومن نال هذه المرتبة فقد يغفل عن الخلق حتّى لا يبصرهم ولا يسمع أقوالهم.

والطائفة الثّانية الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب بعض اطلاعات الله على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال، بل بقيت قلوبهم على الاعتدال متسعة للتّلفت، إلى الأقوال والأعمال إلاّ أنّها مع مدارستها للعمل لا تخلو عن المراقبة فقد غلب الحياء من الله على قلوبهم فلا يقدمون ولا يجحمون[1] إلاّ عن تثبت فيمتنعون عن كلّ أمر فاضح يوم القيامة إذ يرون الله مشاهداً لأعمالهم في الدّنيا كما يرونه مشاهداً في القيامة.

ولا بدّ لأهل هذه الدّرجة من المراقبة في جميع حركاته وسكناته ويلزم عليه أن يرصد كلّ خاطر يسنح له، فإن كان إلهيّاً يعجل مقتضاه، وإن كان شيطانيّاً يبادر إلى قمعه، وإن شك فيه توقف إلى أن يظهر له بنور الحقّ من أيّ جانب هو.

روى في **«الوسائل»** عن محمّد بن يعقوب عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن داوود الرّقي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجل:

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمان: ٤٦].

---

(١) في نسخة: يحجمون.

قال: من علم أنّ الله يراه أو يسمع ما يقول ويعلم ما يفعله من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النّفس عن الهوى.

الخامس: قوله (**وخاف ذنبه**) والخوف توقع حلول مكروه أو فوات محبوب وإذا علق بالذّوات كما تقول خفت الله وخفت زيداً فمعناه توقع مكروه أو حرمان يقع من جهته وإلاّ فالذّوات لا يتعلق بها خوف فمعنى الخوف من الذّنب الخوف ممّا يكون الذّنب سبباً له من العقوبة الدّنيويّة أو الأخروية أو نقصان الدّرجة وانحطاط الرّتبة وحرمان الجنّة.

قال بعض العلماء: خوف الخائفين من الله قد يكون لأمور مكروهة لذاتها وقد يكون لأمور مكروهة لأدائها إلى ما هو مكروه لذاته.

أمّا القسم الأوّل فمثل أن يتمثّل في نفوسهم ما هو المكروه لذاته كسكرات الموت وشدّته أو سؤال القبر أو عذابه أو هول الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف السّر والسؤال عن كلّ صغيرة وكبيرة، أو الخوف عن المرور على الصّراط مع حدّته أو من النّار وأهوالها وأغلالها أو من حرمان الجنّة أو من نقصان الدّرجات فيها أو خوف الحجاب من الله، وكلّ هذه الأسباب مكروهة في أنفسها وتختلف أحوال السّالكين إلى الله فيها وأعلاها رتبة خوف الفراق والحجاب عن الله وهو خوف العارفين وما قبل ذلك فهو خوف العابدين والصّلحاء والزاهدين.

وأما القسم الثّاني فأقسام كثيرة كخوف الموت قبل التّوبة أو خوف نقص التّوبة أو خوف الانحراف عن القصد في عبادة الله أو خوف استيلاء القوى الشّهوانيّة بحسب مجرى العادة في استعمال الشّهوات المألوفة أو خوف تبعات النفس عنده أو خوف سوء الخاتمة أو خوف سبق الشّقاوة في علم الله، وكل هذه ونحوها مخاوف عباد الله الصّالحين وأغلبها على قلوب المتّقين خوف الخاتمة فإنّ الأمر فيه خطير.

قال بعض أولي الألباب: إذا أسكن الخوف القلب أحرق الشّهوة وأطرد عنه الغفلة.

السّادس: قوله (**قدّم خالصاً**) قال الصّادق عليه السلام: العمل الخالص الذي لا تريد أن يمدحك عليه أحد إلاّ الله[1] وهذا هو معنى الإخلاص قال تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البنية: ٥].

وللقوم في تعريف الإخلاص عبارات فقيل: هو تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين حتى عن ملاحظة النفس فلا يشهد غير الله، وقد مر تفصيل ذلك في شرح الخطبة الأولى عند

(١) الكافي: ٢/٦٩ ح ٨، وعدة الداعي: ١٣٨.

قوله عليه السلام وكمال توحيده الإخلاص له، وقيل: هو تنزيه العمل عن ان يكون لغير الله فيه نصيب، وقيل: هو إخراج الخلق عن معاملة الحقّ، وقيل: هو ستر العمل من الخلائق وتصفيته من العلائق، وقيل: إنّه لا يريد عامله عليه عوضاً في الدّارين وهذه درجة رفيعة وإليهاأشار أمير المؤمنين وسيّد الموحّدين بقوله: ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك[١].

السّابع: قوله **(وعمل صالحاً)** والعمل ما صدر عن الحيوان بقصده قلبيّاً أو قالبيّاً فهو أخصّ من الفعل، والمراد بالعمل الصّالح إتيان المأمور به كما أمر به ويقابله العمل الفاسد قال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال في سورة الفاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

قال الصّادق عليه السلام: الكلم الطّيب قول المؤمن لا إله إلا الله محمّد رسول الله عليّ ولي الله وخليفة رسول الله[٢] قال عليه السلام: والعمل الصّالح الاعتقاد بالقلب أن هذا هو الحق من عند الله لا شكّ فيه من ربّ العالمين.

أقول: ولعل مقصوده عليه السلام أنّ العمل الصّالح الموجب لرفع الكلم الطّيب بالمعنى الذي ذكره هو الاعتقاد الذي نبّه عليه، لما قد علمت أنّ متعلق العمل أعمّ من الاعتقاد.

الثّامن: قوله **(اكتسب مذخوراً)** أي ذخيرة مرجوّة ليوم فاقته وزاداً معدّاً لوقت حاجته وخير الزّاد هو التّقوى كما أفصح به الكتاب المبين وصرّح به أخبار سيّد المرسلين.

التّاسع: قوله **(واجتنب محذوراً)** أي تجنّب ممّا يلزم الحذر منه ويجب الاحتراز عنه وهو مخالفة الأوامر الشّرعيّة ومنابذة التكاليف الإلزاميّة قال سبحانه:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أوجب الحذر لمخالفي أمره من إصابة الفتنة وهي العقوبة الدّنيوية وإصابة العذاب الألَيم وهي العقوبة الأخرويّة.

العاشر: قوله **(رمى غرضاً)** أي رمى بسهام أعماله الصّالحة الباطنة والظاهرة فأصاب الغرض غير خاطيء فأدرك مناه وحاز ما تمنّاه، وعلى رواية عرضاً بالمهملة فالمعنى أنّه رمى عرض الدّنيا وحذف متاعها ورفض حطامها وأخرج حبّها من قلبه علماً منه بسرعة زوالها وفنائها.

---

(١) شرح أصول الكافي: ١/ ٢٥٧، وشرح مئة كلمة: ٢١٩.

(٢) الكافي: ١/ ٤٣٠، ومن لا يحضره الفقيه: ٢٠٠.

الحادي عشر: قوله: **(واحرز عوضاً)** أي احرز متاع الآخرة الباقية الذي هو عوض من متاع الدّنيا الفانية، وادّخر ما يفاض عليه من الحسنات وأعد ما يثاب عليه من الصالحات.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

الثّاني عشر: قوله **(كابر هواه)** أي غالب هواه بوفور عقله ويجاهد نفسه الأمارة ويطوّعها لقوّته العاقلة، قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

أي: نهى نفسه عن المحارم التي تهويها وتشتهيها فإنّ الجنّة مستقرّه ومأواه.

روى في **«الوسائل»** عن الصّدوق بإسناده عن الحسين بن زيد عن الصّادق عن آبائه عليهم السّلام عن رسول الله ﷺ في حديث المناهي قال: من عرضت له فاحشة أو شهوة فاجتنبها مخافة الله عزّ وجلّ حرّم الله عليه النّار وآمنه من الفزع الأكبر وأنجز له ما وعده في كتابه:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمان: ٤٦].

ألا ومن عرضت له دنيا وآخرة فاختار الدّنيا على الآخرة لقى الله عزّ وجلّ يوم القيامة وليست له حسنة يتّقي بها النّار، ومن اختار الآخرة وترك الدّنيا رضي الله عنه وغفر له مساويء عمله[1].

وعن عبد الله بن سنان قال سألت أبا عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام فقلت الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب: إنّ الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة وركب في البهائم شهوة بلا عقل وركب في بني آدم كليتهما من غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم[2].

وعن السكوني عن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد لم يره[3].

الثالث عشر: قوله **(وكذب مناه)** أي قابل ما يلقيه إليه الشيطان من الأماني الباطلة بالتكذيب، قال تعالى:

---

(١) الأمالي: ٥١٥، ووسائل الشيعة: ١٥/٢٠٩ ح ٢٠٢٩٧.

(٢) علل الشرائع: ١/٤ ح ١، ووسائل الشيعة: ١٥/٢٠٩ ح ٢٠٢٩٨.

(٣) الخصال: ٣، وثواب الأعمال: ١٧٧.

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١].

قال في **«مجمع البيان»** في تفسير قوله **(ولأمنينهم)** يعني أمنيهم طول البقاء في الدّنيا فيؤثرون بذلك الدنيا ونعيمها على الآخرة، وقيل معناه أقول لهم ليس وراءكم بعث ولا نشر ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فافعلوا ما شئتم عن الكلبي، وقيل: أمنينهم بالأهواء الباطلة الدّاعية إلى المعصية وازين لهم شهوات الدّنيا وزهراتها أدعو كلاً منهم إلى نوع ميل طبعه إليه فأصده بذلك عن الطاعة وألقيه في المعصية.

الرّابع عشر: قوله **(جعل الصبر مطية نجاته)** والصبر قوّة ثابتة وملكة راسخة بها يقتدر على حسب النفس ومنعه عن قبائح اللذات ومنى الشهوات وعلى حمله على مشاق العبادات والتكليفات وعلى التحمل على المصائب والآفات والدّواهي والبليات وبها تحصل النجاة والخلاص من غضب الجبار وعذاب النار، ولذلك جعلها مطية يتمكن بها من الهرب والفرار عن العدوّ في مقام الحاجة والاضطرار، والآيات القرآنية والأخبار المعصومية في مدحها وفضلها والحثّ عليها أكثر من أن تحصى، ولعلنا نشبع الكلام في تحقيقها وبيان أقسامها في شرح الخطبة المائة والثانية والسبعين ونقتصر هنا على بعض ما ورد فيها على ما اقتضاه المقام.

فأقول في **«الوسائل»** من **«الكافي»** بإسناده عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة فيقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيقال من أنتم، فيقولون نحن أهل الصبر، فيقال لهم على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله فيقول الله عزّ وجل: صدقوا ادخلوهم الجنة(١) وهو قول الله عزّ وجل:

﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن عمرو بن شمر اليماني يرفع الحديث إلى عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصّبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر عند الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتّى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدّرجة إلى الدّرجة كما بين السّماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدّرجة إلى الدّرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين

(١) الكافي: ٢/١٠٨، وكتاب التمحيص: ٤٦ ح ٦٦.

الدرجة إلى الدّرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش[١].

وعن عثمان بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اصبروا على الدّنيا فإنّما هي ساعة فما مضى منه لا تجد له ألماً ولا سروراً، وما لم يجيء فلا ندري ما هو وإنّما هي ساعتك التي أنت فيها، فاصبر فيها على طاعة الله واصبر فيها عن معصية الله[٢].

الخامس عشر: **(والتّقوى عدّة وفاته)** قد مر معنى التّقوى وبعض ما ورد فيها في شرح الخطبة الثالثة والعشرين، وأقول هنا إنّ العدّة لما كانت عبارة عمّا أعدّها الإنسان وهيئها لحوادث دهره وملمات زمانه وكان الموت أعظم الحوادث، وبالتّقوى يحصل الوقاية من سكراته وغمراته وبه يتّقي من شدائد البرزخ وكرباته ويستراح من طول الموقف ومخاوفه، لا جرم جعلها عليه السلام عدّة للوفات ووقاية تحصل بها النجاة، واستعار عنها الكتاب المجيد بالزاد فقال:

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

بملاحظة أنّ الزّاد لمّا كان هو الطعام الذي يتّخذ للسّفر لتقوى به الطبيعة على الحركات الحسّية وكانت تقوى الله ممّا تقوى به النّفس على الوصول إلى حظيرة القدس حسن الاستعارة به عنها لما بين المعنيين من كمال المشابهة وتمامها.

قال بعض العارفين: ليس السّفر من الدّنيا أهون من السّفر في الدّنيا وهذا لا بد له من زاد وكذلك ذلك بل يزداد، فإنّ زاد الدّنيا يخلصك عن عذاب منقطع موهوم وزاد الآخرة ينجيك من عذاب مقطوع معلوم، زاد الدّنيا يوصلك إلى متاع الغرور وزاد الآخرة يبلغك دار السّرور، زاد الدّنيا سبب حظوظ النّفس وزاد الآخرة سبب الوصول إلى عتبة الجلال والقدس.

السّادس عشر: قوله **(ركب الطريقة الغرّاء)** أي سلك جادّة الشّريعة الواضحة المستقيمة الموصلة لسالكها إلى الجنان ومقام القرب والرّضوان.

السّابع عشر: قوله **(ولزم المحجة البيضاء)** قال الشّارح البحراني والفرق بين ذلك والذي قبله أنّ الأوّل أمر بركوب الطريقة الغرّاء والثّاني أمر بلزومها وعدم مفارقتها وأنّها وإن كانت واضحة إلاّ أنّها طويلة كثيرة المخاوف وسالكها أبداً محارب للشّيطان وهو في معرض أن يستنزله عنها.

الثّامن عشر: قوله **(اغتنم المهل)** أي أيام مهلته وهو مدّة عمره وأيّام حياته في دار الدّنيا.

---

(١) الكافي: ٢/ ٩٠ ح ١١، وتحف العقول: ٢١٦.

(٢) الكافي: ٢/ ٤٥٤ ح ٤، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٣٧ ح ٢٠٣٧٢.

قال زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق من الصّحيفة: اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد ونبّهني لذكرك في أوقات الغفلة واستعملني بطاعتك في أيّام المهلة وانهج لي إلى محبّتك سبيلاً سهلة[١].

وإنّما عبّر عنها بأيام المهلة لأنّ العناية الأزلية لمّا كانت مقتضية لسوق كلّ ناقص إلى كماله فاقتضت العناية عدم معاجلة العباد بالعقوبة والسّخط والأخذ بالذّنوب والمعصية في هذه الحياة الدّنيا ليرجعوا إلى التّوبة ويراجعوا الإنابة فكأنّه تعالى أمهلهم مدّة حياتهم في الدّنيا وأنظرهم طول بقائهم فيها وجعلهم في النّظرة والمهلة.

التّاسع عشر: قوله (**بادر الأجل**) أي سارع إلى أجله الموعود بصحبة عمله الصّالح وهو كناية عن جعله الموت نصب عينيه وعدم غفلته عنه وترقبه له فإذا كان كذلك لا يخاف من حلول الموت ونزوله ولا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.

العشرون: قوله: (**وتزود من العمل**) أي تزود من أعماله الصالحة لقطع منازل الآخرة نسأل الله سبحانه أن يوفقنا للاتّصاف بتلك الأوصاف الشّامخة الفائقة حتّى نستوجب بذلك رحمته العامة الواسعة بمحمّد وعترته الطاهرة.

(١) الصحيفة السجادية: ١١١، وميزان الحكمة: ٢/ ٩٧١.

الترجمة

از جمله خطبه های شریفه آن حضرت است که می فرماید:

خداوند رحمت کند بنده ای را که بشنود حکمت را، پس گوش گیرد و حفظ نماید و خوانده شود به سوی رشد و صلاح، پس اجابت کند و نزدیك آید و بگیرد کمرگاه هدایت کننده را و معتصم او بشود، پس نجات یابد، مراقب باشد پروردگار خود را و بترسد از گناه خود، پیش فرستد کردار پاکیزه و عمل کند عمل شایسته، کسب نماید چیزی را که ذخیره می شود از برای آخرت و اجتناب نماید از چیزی که باعث حذر است و ندامت.

بیندازد با تیر اعمال حسنه به سوی غرض و نشانه و جمع کند متاع دار جاودانی را به عوض متاع دنیای فانی، غلبه نماید به هوا و هوس و شهوات نفسانیه و تکذیب نماید آمال و امانی باطله شیطانیه، بگرداند صبر و شکیبایی را مرکب نجات خویش و تقوی و پرهیزکاری را توشه وفات خود، سوار بشود بر طریقه روشن شریعت و لازم شود بر جاده آشکار ملت، غنیمت شمارد ایام مهلت حیات را و مبادرت نماید به نیکوکاری قبل از ممات و توشه بگیرد از اعمال صالحه به جهت سفر آخرت.

ومن كلام له عليه السلام وهو السادس والسبعون من المختار في باب الخطب

«إِنَّ بَني أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَني تُراثَ مُحَمَّدٍ ﷺ تَفويقاً، وَاللَّهِ لَئِنْ بَقيتُ لَهُمْ لأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحامِ الْوِذامَ التَّرِبَةَ»[١].

قال السّيد: ويروي (التّراب الوذمة) وهو على القلب، قوله عليه السلام: (ليفوقونني) أي يعطونني من المال قليلاً قليلاً كفواق الناقة وهي الحلبة الواحدة من لبنها، والوذام جمع وذمة وهي الحزّة من الكرش والكبد يقع في التراب فتنفض.

اللغة

(التراث) بضمّ **(التاء)** الإرث **(والتّاء)** والهمزة فيهما بدل من **(الواو)**، و**(نفضه)** نفضاً من باب قتل حرّكه ليزول عنه الغبار ونحوه فانتفض أي تحرّك لذلك ونفضت الورق من الشّجر نفضاً أسقطته والنفض بفتحتين ما تساقط فعل بمعنى مفعول و**(اللحام)** القصّاب و**(الوذام)** ككتاب جمع وذمة محرّكة و**(ترب)** الشّيء يترب من باب تعب لصق بالتراب، وفي **«القاموس»** التّراب بالكسر أصل ذراع الشّاة ومنه التراب الوذمة أو هي جمع ترب مخفّف ترب والصواب الوذام التربة، انتهى.

و«الحزّة» بالضّم القطعة من اللحم ونحوه تقطع طولاً والجمع حزز كغرفة وغرف و«الكرش» لذي الخف والظلف كالمعدة للإنسان.

الإعراب

إضافة **(تراث)** إلى **(محمّد)** من قبيل الحذف والإيصال أي يفوقونني تراثي من محمّد **(والتربة)** صفة للوذام.

المعنى

قوله **(أنّ بني أميّة ليفوقونني تراث محمّد ﷺ** تفويقاً) أي يعطونني إرثي من رسول الله وهو الفيء الحاصل ببركته صلوات الله عليه وآله قليلاً قليلاً، استعار لفظ التّفريق عن إعطائهم المال قليلاً بمشابهة القلة وكونه في دفعات كما يدفع الفصيل ضرع أمّه لتدر ثم يدفع عنها

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ١٠/ ٢٧٤.

لتحلب ثمّ يعاد إليها لتدر وهكذا، ثمّ قال **(والله لئن بقيت)** وصرت أميراً **(لهم لأنفضنّهم نفض اللحام الوذام التربة)**.

قيل الظاهر أنّ المراد من نفضهم منعهم من غصب الأموال وأخذ ما في أيديهم من الأموال المغصوبة ودفع بغيهم وظلمهم ومجازاتهم بسيئات أعمالهم.

وقال الشارح البحراني: أقسم عليه السلام ان بقي لبني اميّة ليحرمنهم التّقدم في الأمور، واستعار لفظ النفض لإبعادهم عن ذلك وشبه نفضه لهم بنفض القصاب القطعة من الكبد أو الكرش من التّراب إذا أصابته.

أقول: والأظهر عندي أنه شبّههم بالوذام التّربة من حيث إنّ الوذمة إذا وقعت في التّراب وتلطخت به يتنفر عنها الطباع ولا يرغب إليها النّاس فينفضها القصاب أي يسقطها ويعزلها عن سائر لحماته لمكان ذلك التنفر فيقول عليه السلام: **(إني لو بقيت لهم لأسقطهم عن درجة الاعتبار واعزلهم عن الإمارة)** والمداخلة لأمور المسلمين بحيث لا يرغب إليهم أحد ويتنفر النّاس عنهم ويكونون حقيرين عندهم كما لا يرغبون إلى الوذام لحقارتها والله العالم بحقائق كلام وليه، هذا.

وقد روى عنه عليه السلام هذا الكلام في رواية أخرى بزيادة ونقصان وتفاوت لما هنا وهي ما رواها أبو الفرج في كتاب الأغاني بإسناد رفعه إلى الحرب بن جيش قال:

بعثني سعيد بن العاص وهو يومئذٍ أمير الكوفة من قبل عثمان بهدايا إلى المدينة وبعث معي هدية إلى علي عليه السلام وكتب إليه إني لم أبعث إلى أحد ممّا بعثت به إليك إلاّ إلى أمير المؤمنين فلما أتيت علياً وقرأ كتابه قال: **(لشدّ ما يخطر عليّ بنو أمية تراث محمّد أما والله لأن وليتها لأنفضنّها نفض القصاب التراب الوذمة)**.

قال أبو الفرج هذا خطأ إنّما هو الوذام التّربة قال: وقد حدثني بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن أبي يزيد عمر بن شيبة بإسناد ذكره في الكتاب أن سعيد بن العاص حيث كان أمير الكوفة بعث مع ابن أبي العائشة مولاه إلى علي بن أبي طالب بصلة فقال علي: والله لا يزال غلام من غلمان بني أميّة يبعث إلينا ممّا أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة، والله لئن بقيت لهم لأنفضنّها نفض القصاب الوذام التربة[1].

---

(١) السقيفة وفدك: ٧٧، وبحار الأنوار: ٢١/ ٤٧١.

تذييبات

الأول: في بيان نسب بني أمية.

فأقول: في «البحار» من كامل البهائي أن أمّية كان غلاماً روميّاً لعبد الشمس فلما ألفاه كيساً فطناً أعتقه وتبناه فقيل: أميّة بن عبد الشمس كما كانوا يقولون قبل نزول الآية: زيد بن محمّد، ولذا روى عن الصّادقين عليهما السّلام في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢﴾ [الروم: ١-٢]، أنّهم بنو أميّة ومن هنا يظهر نسب عثمان ومعاوية وحسبهما وأنّهما لا يصلحان للخلافة لقوله ﷺ، الأئمة من قريش.

وقال مؤلف كتاب «إلزام النّواصب»: أميّة لم يكن من صلب عبد شمس وإنّما هو من الرّوم فاستلحقه عبد شمس فنسب إليه فبنو أميّة كلهم ليس من صميم قريش وإنّما هم يلحقون بهم ويصدق ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: إن بني أميّة لصاق وليسوا صحيحي النسب إلى عبد مناف ولم يستطع معاوية إنكار ذلك[1].

الثاني

في ذكر بعض ما ورد من الآيات والأخبار في لعن بني أميّة وكفرهم والحادهم.

فأقول: في «الكافي» عن الصادق عليه السلام: رأى رسول الله ﷺ في منامه أن بني أمّية يصعدون على منبره ويضلّون النّاس عن الصّراط القهقري، فأصبح كئيباً حزيناً، قال عليه السلام فهبط عليه جبرئيل فقال: يا رسول الله ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ قال: يا جبرئيل إني رأيت رجالاً في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون النّاس عن الصّراط القهقرى، فقال: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً إني ما اطلعت عليه فعرج إلى السّماء فلم يلبث أن نزل بآي من القرآن يؤنسه بها قال:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] وأنزل عليه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ١-٣].

جعل الله ليلة القدر لنبيّه خيراً من ألف شهر ملك بني أميّة.

وفي مفتتح الصحيفة الكاملة السّجادية على صاحبها ألف سلام وتحيّة عن الصّادق عليه السلام قال: إنّ أبي حدّثني عن أبيه عن جدّه أنّ رسول الله ﷺ أخذته نعسة وهو على منبره فرأى في منامه رجالاً ينزون على منبره نزو القردة يردّون النّاس على أعقابهم القهقري، فاستوى

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٥٤٤.

رسول الله ﷺ جالساً والحزن يعرف في وجهه فأتاه جبرئيل بهذه الآية:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

يعني بني أميّة قال: يا جبرئيل أعلى عهدي يكونون وفي زمني؟ قال: لا ولكن تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشراً، ثمّ تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمساً، ثم لا بدّ من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها، ثم ملك الفراعنة وأنزل الله في ذلك.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ١ـ٣].

يملكها بنو أميّة ليس فيها ليلة القدر[1].

أقول: قوله: والشّجرة الملعونة في القرآن فيه تقديم وتأخير أي وما جعلنا الرّؤيا التي أريناك والشّجرة الملعونة في القرآن إلاّ فتنة للنّاس، وقيل: الشجرة الملعونة بالرّفع مبتدأ وحذف الخبر أي والشّجرة الملعونة كذلك أي فتنة للناس وقوله: يعني بني أميّة تفسير للشجرة الملعونة، وقوله: تدور رحى الإسلام من مهاجرك، أي من هجرتك فتلبث بذلك عشراً أي عشر سنين هي مدّة حياته ثمّ تدور على رأس خمس وثلاثين هي العشر المذكورة ومدّة خلافة المتخلفين، وهي خمس وعشرون سنة فتلك خمس وثلاثون، قوله: فتلبث بذلك خمساً هي مدّة خلافة أمير المؤمنين، ثمّ لا بد من رحى ضلالة إشارة إلى ملك بني أميّة، وقوله: ثم ملك الفراعنة إشارة إلى ملك بني عباس.

وفي «**مجمع البيان**» في تفسير قوله تعالى:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦﴾ [إبراهيم: ٢٦].

قال: هي كلمة الشّرك والكفر، وقيل: كل كلام في معصية الله كشجرة خبيثة غير زاكية وهي شجرة الحنظل، وقيل: إنّها شجرة هذه صفتها وهو أنّه لا قرار لها في الأرض، وروى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنّ هذا مثل لبني أميّة.

وفيه أيضاً في تفسير قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩].

---

(١) الصحيفة السجادية: ١٥، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ٢٢ ح ٤٤.

قال: سأل رجل أمير المؤمنين عن هذه الآية، فقال: هما الأفجران من قريش بنو أميّة وبنو المغيرة، فأمّا بنو أميّة فمتعوا إلى حين وأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر[١].

وفي «البحار» من تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

قال: نزلت في بني أميّة حيث خالفوهم على أن لا يردّوا الأمر في بني هاشم، وفي قوله:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ الأنعام: ٢٧].

قال: نزلت في بني أميّة ثم قال:

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قال: من عداوة أمير المؤمنين.

﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: نزلت في بني أميّة فهم شرّ خلق الله هم الذين كفروا في باطن القرآن فهم لا يؤمنون[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام أيضاً في قوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦] يعني بني أُميّة.

ومن «كنز جامع الفوائد» و«تأويل الآيات» بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن تفسير﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١-٢]، قال: هم بني[٣] أميّة وإنّما أنزلها الله ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١-٢] بنو أميّة في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، عند قيام القائم[٤].

---

(١) التفسير الصافي: ٢/ ٨٧ ح ٢٩، وتدوين القرآن: ١١٧.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/ ٥١٤ ح ١٠.

(٣) في نسخة: بنو.

(٤) الكافي: ١/ ٤٣٢ ح ٩١، والاستبصار: ٣/ ٧٠.

أقول: كذا في النّسخ غلبت الرّوم بنو أميّة، فيحتمل أنّ أصل الكلام غلبت بنو أميّة فزاد النّساخ لفظ الرّوم كما احتمله في «**البحار**» أو أنّه كذلك وبنو أميّة بدل من الرّوم، وعلى كلّ تقدير فلا بدّ أن يكون غلبت على ذلك بصيغة المعلوم، وقوله: سيغلبون بصيغة المجهول والتعبير عن بني أميّة بالروم من حيث إنّها نسبهم إلى عبد رومي حسبما قدّمنا، والله العالم.

ومن تفسير الثعلبي في قوله تعالى:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

نزلت في بني أميّة وبني هاشم.

وفي «**غاية المرام**» عن الكليني بإسناده عن صالح بن سعد الهمداني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجل:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فاطمة عليها السّلام ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الحسن ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ الحسين ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ فاطمة فكوكب درّي بين نساء أهل الدّنيا ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ إبراهيم ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا يهوديّة ولا نصرانيّة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يعني يكاد العلم ينفجر ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ إمام منها بعد إمام ﴿يَهْدِي اللَّهُ (لِنُورِهِ ظ) لِلأَئِمَّةِ ﴿مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ قلت: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ قال: الأوّل وصاحبه ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ الثّالث ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ الثّاني ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فتن بني أميّة ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ﴾ [النور: ٣٥-٤٠] المؤمن في ظلمة فتنتهم ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ [النور: ٤٠] أماماً[1] من ولد فاطمة ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وم القيامة[2].

هذا، والآيات والرّوايات في هذا المعنى كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لمن اهتدى أو ألقى السّمع وهو شهيد.

---

(١) في نسخة: إماماً.

(٢) تأويل الآيات: ١/٣٦٤، والبحار: ٢٣/٣٠٥.

الترجمة

از جمله کلام آن حضرت است، فرمود آن را هنگامی که فرستاده بود سعید بن عاص اموی که امیر عراق بود از جانب عثمان هدیه به خدمت آن حضرت از مال غنیمت و از کمی آن اعتذار کرده بود:

به درستی بنی امیه می دهند اندك اندك به من میراث محمد بن عبد الله (ﷺ) را اندك اندك دادنی، به خدا قسم اگر بمانم از برای آن قوم عنود و والی امر بشوم، هر آینه ساقط می کنم ایشان را از درجه اعتبار همچو ساقط نمودن قصاب شکنبه یا جگر پاره خاك آلود را از میان سایر گوشت های گوسفند یا این که بیفشانم ایشان را همچو افشاندن قصاب شکنبه و پاره جگر خاك آلود را و این استعاره می شود از دور کردن ایشان از امر خلافت و از باز گرفتن اموال مغصوبه از دست ایشان علیهم اللعنة و النیران.

ومن كلمات له عليه السلام كان يدعو بها
وهي السابعة والسبعون من المختار في باب الخطب

«أَللّهُمَّ اغْفِرْ لي ما أنتَ أعلمُ به مني فإن عُدْتُ فعد عليّ بالمغفرةِ اللهمَّ اغفر لي ما وَأيتُ مِنْ نفسي وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفاءَ عِنْدِي، أَللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما تَقَرَّبْتُ بِهِ إلَيْكَ بِلِساني ثُمَّ خالَفَهُ قَلْبي، أَللهُمَّ اغْفِر لي رَمَزاتِ الألحاظِ، وسَقَطات الألفاظ، وشَهَواتِ الْجِنانِ، وهَفَواتِ اللِّسانِ»[1].

اللغة

(غفر) الله له ذنبه غفراً وغفراناً من باب ضرب صفح عنه وستر عليه ذنبه وغطاه، وأصل الغفر السّتر يقال الصّبغ أغفر للوسخ أي أستر له و(الوأي) الوعد الذي يوثقه الرّجل على نفسه ويعزم على الوفاء به، ومنه وأيته وأياً وعدته و(الرّمز) هو تحريك الشفتين في اللفظ من غير اثباته بصوت وقد يكون إشارة بالعين والحاجب و(اللحظ) النظر بمؤخر العين و(السقط) بالتحريك ردى المتاع والخطأ من القول والفعل و(الهفوة) الزلة.

الإعراب

قوله (ما وإيت) كلمة (ما) موصول اسمي بمعنى الذي، و(وأيت) صلته، والعائد محذوف وقول البحراني (إنّ) ما ههنا مصدرية، لا أرى له وجهاً، (ومن) في قوله: من نفسي نشويّة، وجملة (ولم تجد) في محلّ النّصب على الحال، والباء في قوله: تقربت به، سببيّة، وفي قوله: بلساني، استعانة.

المعنى

اعلم أنّ المطلوب بهذا الكلام هو غفران الله سبحانه له، ومغفرة الله للعبد عبارة عن صفحه عما يؤدي إلى الفضاحة في الدّنيا والهلكة في الآخرة وستره عليه عيوباته الباطنة والظاهرة وأن يوّفقه لأسباب السّعادة الرّادعة عن متابعة الشيطان والنّفس الأمارة، وهذا كله في حق غيره عليه السلام وأما طلبه سلام الله عليه وآله للمغفرة وكذلك استغفار سائر المعصومين من الأنبياء وأئمة الدين سلام الله عليهم أجمعين فقد قدّمنا تحقيقه بما لا مزيد عليه في التّنبيه الثالث من تنبيهات الفصل الثالث عشر من فصول الخطبة الأولى، فليتذكر.

---

(١) مطلوب كل طالب: ٤٦، وشرح مائة كلمة: ٢١٣.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى شرح ما يؤديه ظاهر كلامه عليه السلام فأقول: قوله: **(اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به منّي فإن عدت فعد عليّ بالمغفرة)** طلب للمغفرة ممّا هو عند الله معصية وسيئة في حقّه وهو لا يعلمها فيفعلها أو يعلمها لا كعلم الله سبحانه إن كان صيغة التّفضيل على معناها الأصلي وطلب لتكرار المغفرة لما يعاوده ويكرّره كذلك.

فإن قلت: الطاعة والمعصية عبارة عن امتثال التّكليف ومخالفته وهو فرع العلم به ومع الجهل وعدم العلم لا أمر ولا نهي ولا خطاب ولا طاعة ولا معصية ولا ثواب ولا عقاب إذ النّاس في سعة ممّا لا يعلمون ولا يكلّف الله نفساً إلاّ ما آتيها.

قلت: الجهل بالتّكليف قد يكون ناشئاً عن القصور وقد يكون ناشئاً من التقصير في تحصيل العلم فحينئذٍ لا يقبح المؤاخذة عليه كما لا يقبح المؤاخذة عن النّسيان إن نشأ عن قلة المبالاة وعن التقصير في المقدّمات، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، مع أنّ المؤاخذة عليه مرفوعة عن الأمّة بحكم حديث رفع التسعة، هذا.

مع أنّ العلم بأنّ ما وقع عن الجهل والنّسيان معفو عنه وغير مؤآخذ عليه لا يمنع من حسن طلب العفو عنه بالدّعاء، فربما يدعو الداعي بما يعلم أنّه حاصل قبل الدّعاء من فضل الله تعالى إمّا لاعتداد تلك النّعمة وإما لاستدامتها أو لغير ذلك كقوله تعالى:

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وقول إبراهيم ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الشعراء: ٨٧].

(اللهم اغفر لي ما وأيت من نفسي ولم تجد له وفاء عندي) وهو استغفار مما وعده من نفسه وعاهد عليه الله فعلاً أو تركاً زجراً أو شكراً ثمّ لم يف به، وذلك لأن حنث اليمين ونقض العهد موجب للخذلان ومعقب للخسران كما صرح عليه في غير آية من القرآن، قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

وفي سورة بني إسرائيل: ﴿أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وفي سورة النحل: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

قال الطبرسي في تفسير الآية الأخيرة: قال ابن عباس: الوعد من العهد، وقال المفسرون: العهد الذي يجب الوفاء به والوعد هو الذي يحسن فعله وعاهد الله ليفعلنه فإنّه يصير واجباً عليه، ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها، هذا نهي منه سبحانه عن حنث الإيمان

وهو أن ينقضها بمخالفة موجبها وارتكاب ما يخالف عقدها، وقوله: **بعد توكيدها** أي بعد عقدها وإبرامها وتوثيقها باسم الله تعالى وقيل: بعد تشديدها وتغليظها بالعزم والعقد على اليمين بخلاف لغو اليمين.

(**اللهم اغفر لي ما تقرّبت به إليك**) أي ما عملته لك (**بلساني**) ويدي ورجلي وبصري وسائر جوارحي (**ثمّ خالفه قلبي**) وجعله مشوباً بالرّيا والسّمعة المنافي للقربة (**اللهم اغفر لي رمزات الالحاظ**) أي إشارات اللحاظ لتعييب شخص وهجائه ونحو ذلك (**وسقطات الألفاظ**) أي ردّيتها وساقطتها عن مناط الاعتبار بأن لا يكون له مبالاة في قوله وكلامه.

روى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا رأيتم الرّجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل له فهو شرك شيطان (**وشهوات الجنان**) أي مشتهيات القلوب المخالفة للشّرع[١].

وروى في «**الوسائل**» عن الكليني بإسناده عن أبي محمّد الوابشي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: احذروا أهواءكم كما تحذرون أعدائكم فليس بشيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم[٢].

وعن عبد الرحمٰن بن الحجاج قال: كان أبو الحسن عليه السلام يقول: لا تدع النفس وهواها فإنّ هواها في رداها وترك النّفس وما تهوى أذاها، وترك النفس عما تهوى دواؤها[٣]، هذا.

وفي بعض النّسخ سهوات القلوب بالسين المهملة فالمراد بها غفلاتها كما في قوله سبحانه:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

أي غافلون عنها تاركين لها أو تحمل سهواتها على سهواتها الناشئة عن ترك التّحفظ وقلة المبالاة فإنّها لا تقبح المؤاخذة عليها حينئذٍ كما أشرنا إليه آنفاً في شرح قوله اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به منّي، فإنّ السهو والنسيان متقاربان وكلاهما من الشيطان بهما يقطع العبد عن سلوك سبيل الجنان والرّضوان كما قال أمير المؤمنين في رواية «**الكافي**» لمتان لمة من الشيطان ولمة من الملك فلمة الملك الرّقة والفهم ولمة الشيطان السّهو والقسوة[٤]، هذا.

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ٣٥، مكاتب الرسول: ٣/ ٥٨١.
(٢) الكافي: ٢/ ٣٣٥ ح ٢٣، شرح أصول الكافي: ٩/ ٣٨٨ ح ١.
(٣) وسائل الشيعة: ١٦/ ٥٨ ح ٢٠٩٧٣.
(٤) الكافي: ٢/ ٣٣٠ ح ٣، وسائل الشيعة: ١٦/ ٤٤ ح ٢٠٩٤٣.

وذكر قوله: **(وهفوات اللسان)** بعد سقطات الألفاظ إما من قبيل التّأكيد أو ذكر الخاص بعد العام لمزيد الاهتمام بأن يكون المراد بسقطات الألفاظ ما ليس فيها ثمرة أخرويّة سواء كانت حراماً ومضرّة في الآخرة أو لا يكون فيها نفع ولا ضرر كالكلام اللغو، وبهفوات اللسان خصوص ما يوجب المؤآخذة في الآخرة كالغيبة والبهت والنميمة والسعاية والاستهزاء والتهمة والسّب والكذب إلى غير ذلك، فإنّ كلّ ذلك مباين لمكارم الأخلاق وحسن الشّيمة مناف لمقتضى الإيمان والتّقوى والمروّة ومعقب للخسران والندامة في الآخرة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: طوبى لمن أنفق فضلات ماله وأمسك فضلات لسانه.

وقال أيضاً: إن مقعد ملكيك على ثنيك[1] لسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجري فيما لا يعنيك ولا تستحي من الله ولا منهما[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: يعذّب اللسان بعذاب لا يعذب به شيء من الجوارح فيقول: أي ربّ عذبتني بعذاب لا تعذب به شيئاً من الجوارح قال: فيقال له: خرجت منك كلمة فبلغت مشارق الأرض ومغاربها فسفك بها الدّم الحرام وأخذ بها المال الحرام وانتهك بها الفرج الحرام فوعزّتي لأعذبنك بعذاب لا أعذّب به شيئاً من جوارحك[3]، رواه في **«الكافي»** عن أبي عبد الله عليه السلام عن رسول الله ﷺ نحوه.

ومن غريب ما وقع لأبي يوسف وهو من أكابر علماء الأدبية وعظماء الشيعة وهو من أصحاب الجواد والهادي عليهما السلام أنه قال في التّحذير من عثرات اللسان:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرّجل

فعثرته في القول تذهب رأسه ... وعثرته في الرّجل تذهب عن مهل

فاتّفق أنّ المتوكل العباسي ألزمه تأديب ولديه المعتز والمؤيد، فقال له يوماً: أيّما احبّ إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ فقال: والله إنّ قنبر الخادم خادم علي خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكل لعنه الله لأتراكه: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا فمات رحمة الله عليه.

وروي عن سيّد السّاجدين عليه السلام قال: لسان ابن آدم يشرف كلّ يوم على جوارحه فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير إن تركتنا ويقولون: الله الله فينا ويناشدونه ويقولون: إنّما نثاب ونعاقب بك[4].

---

(١) أي ثنايا الأسنان.

(٢) زاد المسير: ٧/ ١٩٣، تفسير القرطبي ١٧/ ١٠.

(٣) الكافي: ٢/ ١١٥ ح ١٣، الخصال: ٦.

(٤) الإمامة والتبصرة: ١٧٦، الكافي: ٢/ ١١٥ ح ١٦.

إلى غير هذه من الأَخبار الواردة في مدح الصّمت وذم التكلم ويأتي إن شاء الله جملة منها في شرح الخطبة المائة والثالثة والتّسعين، فاللاّزم على العاقل الصمت والسّكوت بقدر الإمكان كي يسلم عن زلاّت اللسان وعثرات البيان وفضول الكلام وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.

الترجمة

از جمله کلمات آن امام است که دعا می کرد به آن ها و می گفت:

بارخدایا، بیامرز از برای من آن چیزی را که تو داناتری به آن از من، پس اگر من بازگردم به سوی آن، پس بازگرد تو از برای من به آمرزیدن، خداوندا، بیامرز از برای من آن چیزی را که من وعده کردم از نفس خود از برای تو و نیافتی مر اورا وفا در نزد من؛ بارخدایا، بیامرز از برای من عمل هایی که تقرب جستم با آن ها به سوی تو، پس مخالفت نمود آن را قلب من. بارخدایا، بیامرز از برای من اشارت های گوشه های چشم به بدی ها و بیهوده های گفتارها و شهوات قلب و لغزشات زبان را و لنعم ماقیل:

زبان بسیار سر بر باد داد است — زبان سر را عدوی خانه زاد است
عدوی خانه خنجر تیز کرده — تو از خصم برون پرهیز کرده
نشد خاموش کبك کوهساری — از آن شد طعمه باز شکاری
اگر طوطی زبان می بست در کام — نه خود را در قفس دیدی نه در دام
خموشی پرده پوش راز باشد — نه مانند سخن غمّاز باشد

ومن كلام له عليه السلام وهو الثامن والسبعون
من المختار في باب الخطب

وهو مرويّ في غير واحد من الكتب المعتبرة باختلافات كثيرة على ما ستطلع عليها، وفي «**الاحتجاج**» مثل الكتاب قاله عليه السلام لبعض أصحابه لمّا عزم على المسير إلى الخوارج فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النّجوم فقال:

«تَزْعَمُ أَنَّكَ تَهْدي إِلى السّاعَةِ الَّتي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ وَتُخَوِّفُ السّاعَةَ الَّتي مَنْ سارَ فِيهَا حاقَ بِهِ الضُّرُّ، فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهذا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ وَاسْتَغْنَى عَنِ الإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ في نَيْلِ الْمَحْبُوبِ ودَفْعِ الْمَكْرُوهِ، ويَنْبَغِي في قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُوَلِّيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لأَنَّكَ بِزَعْمِكَ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السّاعَةِ الَّتي نالَ فِيهَا النَّفْعَ وَأَمِنَ الضَّرَّ، ثُم أَقْبَلَ عليه السلام عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: أَيُّهَا النّاسُ إِيّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلاّ ما يُهْتَدِي بِهِ في بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ فَإِنَّها تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ، الْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَالْكاهِنُ كَالسّاحِرِ، وَالسّاحِرُ كَالْكافِرِ، وَالْكافِرُ في النّارِ سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ»[(١)].

اللغة

(**حاق به الضرّ**) أحاط قال تعالى: ولا يحيق المكر السّيء إلاّ بأهله، والضرّ بالضمّ وفي بعض النّسخ بالفتح ضدّ النّفع أو بالفتح مصدر وبالضمّ اسم أو بالفتح ضدّ النفع وبالضمّ سوء الحال قال تعالى: ربّ أني مسني الضرّ، و(**يوليك**) مضارع باب الأفعال أو من باب التّفعيل يقال أوليته الأمر وليته إيّاه أي جعلته والياً له ومتسلطاً عليه و(**كهن**) له من باب نصر ومنع وكرم كهانة بالفتح وتكهن تكهناً قضى له بالغيب فهو كاهن والجمع كهنة وكهان وحرفته الكهانة بالكسر.

الإعراب

(**الفاء**) في قوله (**فمن صدقك**) فصيحة أي أنت إذا زعمت هذا فمن صدّقك بهذا (ا ه)، وقوله: (**وينبغي في قولك**) أي على قولك (**أو**) بسبب قولك أو هي للظرفيّة المجازية، وقوله دون ربّه، ظرف مستقرّ متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل (**يولي**) أي متجاوزاً ربه ودون ممّا

(١) وسائل الشيعة: ١١/ ٣٧٤، الاحتجاج: ١/ ٣٥٧.

يتوسّع فيه ويستعمل في كلّ مجاوز حدّ إلى حد وتخطي أمر إلى أمر، وقوله **(أنت هديته)**، لفظ أنت إمّا تأكيد لكاف أنّك أو ضمير فصل بين الاسم والخبر على حد قوله: **(إنك أنت السّميع العليم)**.

وقوله **(أيّها النّاس)** كلمة **(أيّ)** اسم وضع للتوصّل إلى نداء ما فيه **(ال)** استكراهاً لاجتماع آلتي التعريف أعني النّداء وحرف التعريف فحاولوا أن يفصلوا بينهما بشيء فطلبوا اسماً مبهماً غير دالّ على ماهيّة معيّنة محتاجاً بالوضع في الدّلالة عليها إلى شيء آخر يزيل عنه الابهام يقع النّداء في الظاهر على ذلك الاسم المبهم وفي الحقيقة على ذلك المخصص الرافع للإبهام عنه.

فوجدوا الاسم المتّصف بهذه الصّفة **(أيّاً)** بشرط قطعه عن الإضافة واسم الإشارة حيث وضعها مبهمين مشروطاً بإزالة ابهامها بشيء أما اسم الإشارة فبالإشارة الحسيّة وأمّا أيّ فباسم آخر بعده إلا أنّ **(أيّ)** لما كان أدخل في الإبهام من اسم الإشارة وأحوج إلى الوصف منه لأنَ زوال إبهامه إنّما هو باسم بعده بخلاف اسم الإشارة فإنّه قد يزول إبهامه بالإشارة الحسيّة حسبما ذكرنا، ولهذا جاز يا هذا ولم يجز يا **(أيّ)** لا جرم خصّوا الفصل بين حرف النداء **(واللام)** التعريف به وجعلوا المعرّف **(باللام)** المزيل عنه الإبهام وصفاً له.

(فأيّ) في قوله **(أيّها النّاس)** منادى مفرد معرفة مبني على الضّم **(وها)** حرف تنبيه **(والنّاس)** صفة **(لأيّ)** وقال الأخفش في يا أيّها الرّجل: إنّ **(أيّاً)** لا تكون وصلة وإنّما هو موصول وذو اللام بعده خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة أيّ وإنّما وجب هذا المبتدأ لمناسبة التخفيف للمنادى ولا سيّما إذا زيد عليه كلمتان أعني **(أيّها)** فالمعنى يا من هو الرّجل.

قال الرّضي: ويصح تقوية مذهبه بكثرة وقوع **(أيّ)** موصولة في غير هذا الموضع وندور كونها موصوفة وقوله: **(إيّاكم وتعلم النّجوم)** تحذير وقال ابن الحاجب في **«الكافية»** التحذير معمول بتقدير اتق تحذيراً ممّا بعده أو ذكر المحذر منه مكرّراً نحو إيّاك والأسد وإيّاك وأن تحذف والطريق الطريق.

وقال نجم الأئمة الرّضي في شرحه: قال المصنّف: كان أصل إيّاك والأسد اتقك ثم إنّهم لما كانوا لا يجمعون بين ضمير الفاعل والمفعول لواحد إذا اتصلا جاؤوا بالنّفس مضافاً إلى الكاف فقالوا اتق نفسك ثمّ حذفوا الفعل لكثرة الاستعمال، ثمّ حذفوا النّفس لعدم الاحتياج إليه لأنّ اجتماع الضميرين زال بحذف الفاعل مع الفعل فرجع الكاف، ولم يجز أن يكون متصلاً لأنّ عامله مقدّم كما يجيء في باب المضمر فصار منفصلاً.

قال الرّضي: وأرى أنّ هذا الذي ارتكبه تطويل مستغنى عنه والأولى أن يقال هو بتقدير إيّاك باعد أونح بإضمار العامل بعد المفعول وإنّما جاز اجتماع ضميري الفاعل والمفعول

لواحد لكون أحدهما منفصلاً كما جاز ما ضربت إلاّ إيّاك وما ضربت إلاّ إيّاي، إلى أن قال وإنّما وجب حذف الفاعل في نحو إيّاك لأنّه في معنى المكرّر الذي ذكرناه أنّه يجب حذف فعله لأنّ معنى إيّاك أي بعد نفسك من الأسد.

وفحوى هذا الكلام احذر الأسد ومعنى الأسد أي بعد الأسد عن نفسك وهو أيضاً بمعنى: احذر الأسد، لأنّ تبعيد الأسد عن نفسك بأن تتباعد عنه فكأنّك قلت: الأسد الأسد.

فإن قلت المعطوف في حكم المعطوف عليه وإيّاك محذّر والأسد المحذّر منه وهما متخالفان فكيف جاز العطف؟

فالجواب أنّه لا يجب مشاركة الاسم المعطوف للمعطوف عليه إلاّ في الجهة المنتسب بها المعطوف عليه إلى عامله وجهة انتساب إياك إلى عامله كونه مفعولاً به أي مبعداً وكذا الأسد إذ المعنى إيّاك بعّد وبعّد الأسد.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام قاله (**لمّا عزم إلى المسير إلى**) حرب (**الخوارج فقال له بعض أصحابه**) وهو عفيف بن قيس اخو أشعث بن القيس الكندي الملعون رأس المنافقين ومثير الفتن في أيّام خلافة أمير المؤمنين ولا سيّما وقعة صفّين حسبما عرفت فيما سبق.

وكيف كان فقال له عفيف (**يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك**) الذي هو الغلبة على أهل النهر (**من طريق علم النّجوم**) فقال له على سبيل الاستفهام التقريري (**أتزعم أنك تهدي إلى السّاعة التي من سار فيها صرف عنه السّوء**) لسعود السّاعة (**وتخوف**) من (**السّاعة التي من سار فيها حاق به الضرّ**) وأحاط به سوء الحال بملاحظة نحوس السّاعة (**فمن صدّقك بهذا فقد كذب القرآن**) أي من صدّقك بدعواك العلم بالسّاعتين فقد كذّب كتاب الله لأنّ الله تعالى يقول:

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] و﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إلى غير ذلك ممّا أفاد انحصار العلوم الغيبية في الله سبحانه.

وقال العلامة المجلسي (ره): ويمكن حمل الكلام على وجه آخر وهو أنّ قول المنجم بأنّ صرف السّوء ونزول الضرّ تابع للسّاعة سواء قال إنّ الأوضاع العلويّة مؤثرة تامة في السّفليات ولا يجوز تخلّف الآثار عنها أو قال بأنها مؤثرات ناقصة ولكن باقي المؤثرات أمور لا يتطرق إليها التغيير أو قال بأنها علامات تدلّ على وقوع الحوادث حتما فهو مخالف لما ثبت من الدين من أنّه سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت وأنّه يقبض ويبسط ويفعل ما يشاء ويحكم

ما يريد، ولم يفرغ من الأمر وهو تعالى كل يوم في شأن.

والظاهر من أحوال المنجّمين السّابقين وكلماتهم جلهم بل كلهم أنّهم لا يقولون بالتّخلف وقوعاً أو إمكاناً فيكون تصديقهم مخالفاً لتصديق القرآن وما علم من الدّين والإيمان من هذا الوجه.

ولو كان منهم من يقول بجواز التخلف ووقوعه بقدرة الله واختياره وأنّه تزول نحوسة السّاعة بالتوكل والدّعاء والتوسل والتصدّق وينقلب السّعد نحساً والنّحس سعداً وبأنّ الحوادث لا يعلم وقوعها إلاّ إذا علم أنّ الله سبحانه لم تتعلق حكمته بتبديل أحكامها، كان كلامه عليه السلام مخصوصاً بمن لم يكن كذلك، فالمراد بقوله صرف عنه السّوء وحاق به الضّر أي حتما هذا.

ولمّا نبّه على فساد زعم المنجم بكون تصديقه موجباً لتكذيب كلام الله سبحانه نبّه على فساده ثانياً بقوله **(واستغنى)** أي مصدّقك ومتبعك **(عن الاستعانة بالله)** تعالى **(في نيل المحبوب ودفع المكروه)** لأنّك إذا كنت عارفاً بالسّاعة السّعد والسّاعة النّحس وهادياً إليهما فيهتدي بك التابعون لك والمصدّقون بك ويتراقبون بعد السّاعات فينالون الخير والسّعادة ويتّقون نحسها فيسلمون من النحوسة والكراهة فيلزم على ذلك استغنائهم بك عن الله وغناهم برأيك عن اللجأ إلى الله والفزع إليه سبحانه.

(و) أيضاً **(ينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربّه لأنّك بزعمك أنت هديته إلى السّاعة التي نال فيها النفع وآمن فيها الضرّ)** فكنت أنت المنعم عليه بتلك النعمة فلا بدّ أن تستحقّ الحمد والثّناء بذلك ولزم أن يكون حمده على تلك النعمة راجعاً إليك.

(ثم) إنّه بعد التنبيه على فساد زعم المنجم بالوجوه الثلاثة **(اقبل على الناس)** ونهاهم عن الأخذ بالنجوم وحذرهم عن تعلمها**(فقال أيها الناس إياكم وتعلم النجوم)** قال الشارح البحراني: الذي يلوح من سر نهي الحكم النبوية عن تعلم النجوم أمران:

الأوّل: اشتغال متعلمها بها واعتماد كثير من الخلق السامعين لأَحكامها فيما يرجون ويخافون عليه فيما يسنده إلى الكواكب والأوقات والاشتغال بالفزع إليه وإلى ملاحظة الكواكب عن الفزع إلى الله والغفلة عن الرّجوع إليه فيما يهم من الأحوال وقد علمت أنّ ذلك يضادّ مطلوب الشارع إذ كان غرضه ليس إلاّ دوام التفات الخلق إلى الله وتذكرهم لمعبودهم بدوام حاجتهم إليه.

الثاني: أنّ الأَحكام النجومية اخبارات عن أمور ستكون وهي تشبه الاطلاع على الأمور الغيبية وأكثر الخلق من العوام والنساء والصبيان لا يتميزون بينها وبين علم الغيب والإخبار به فكان تعلم تلك الأَحكام والحكم بها سبباً لضلال كثير من الخلق وموهناً لاعتقاداتهم في المعجزات أو الأخبار عن الكائنات منها وكذلك في عظمة بارئهم ويشككهم في عموم الآيات

الدّالة على اختصاص علم الغيب بالله سبحانه، وكان هذين الوجهين هما المقتضيان لتحريم الكهانة والسحر والعزائم ونحوهما.

وكيف كان فلما نهى الناس عن تعلم النجوم بالوجهين الذين عرفت استثنى عن ذلك قوله (**إلاّ ما يهتدي به في برٍ أو بحر**) لعدم استلزام ذلك الجهتين المذكورتين وقد نص على جواز الاهتداء بها الآيات الكريمة مضافة إلى الأخبار الكثيرة قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قال الطبرسي: لأنّ من النجوم ما يكون بين يدي الإنسان ومنها ما يكون خلفه ومنها ما يكون عن يمينه ومنها ما يكون عن يساره ويهتدي بها في الأسفار وفي البلاد وفي القبلة وأوقات الليل وإلى الطرق في مسالك البراري والبحار، وقيل: أراد الاهتداء به في القبلة، قال ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ عنه فقال: الجدي علامة قبلتكم وبه تهتدون في بركم وبحركم[١].

أقول: وهذه الرّواية موافقة لما رواه الصدوق مرسلاً قال: قال رجل للصادق عليه السلام: أنا أكون في السفر ولا أهتدي إلى القبلة بالليل، قال: أتعرف الكوكب الذي يقال له جدي؟ قلت: نعم قال: اجعله على يمينك وإذا كنت في طريق الحج فاجعله بين كتفيك[٢].

وروى أيضاً محمّد بن سنان عن أحدهما عليه السلام قال: سألته عن القبلة قال: ضع الجدي في قفاك وصل، هذا.

ولا ينحصر جواز تعلمها فيما ذكر بل ربّما يجوز التعلم لما يترتب عليها من الأحكام الشّرعية المتعلقة بها في أبواب العبادات والمعاملات بل قد يجب لوجوب الحكم المرتب عليها فتجب معرفتها من باب المقدّمة مثلاً لوجوب معرفة الأوقات الخمسة للصّلاة ومعرفة الحول المضروبة للزّكاة واتيان الحج والعمرة في الأشهر المعلومات وضبط عدد الحولين لرضاع الحاملات وتعيين أيام العدة للمتوفي عنها زوجها وللحامل وسائر المطلقات، والعلم بما ضربت للدّين المؤجل من الأوقات كما أشير إلى ذلك في غير واحدة من الآيات قال تعالى:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/٢٤ ح ١، تفسير مجمع البيان: ١٤٦/٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢٨٠/١ ح ٢٦٠، وسائل الشيعة: ٣٠٦/٤ ح ٥٢٢٤.

وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: ٥].

وقد مضى في سادس تنبيهات الفصل الثامن من فصول الخطبة الأولى ما يوجب ازدياد بصيرتك في المقام فتذكر، وقوله: **(فإنها تدعو إلى الكهانة)** تعليل للنّهي عن النّجوم والكهانة بالكسر.

قال في **«البحار»** هي عمل يوجب طاعة بعض الجان له بحيث يأتيه بالأخبار الغائبة وهو قريب من السّحر قيل: قد كان في العرب كهنة كشق وسطيح وغيرهما فمنهم من يزعم أنّ له تابعاً من الجنّ ورئياً يلقى إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدّمات وأسباب يستدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله وهذا يخصونه باسم العراف كالذي يدعي معرفة الشّيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما.

ودعوة علم النّجوم إلى الكهانة إما لأنه ينجرّ أمر النجم إلى الرغبة في تعلم الكهانة والتّكسب به أو ادعاء ما يدّعيه الكاهن، ثمّ إنه شبّه المنجم بالكاهن وقال **(المنجم كالكاهن)** ووجه الشّبه إما الاشتراك في الأخبار عن الغائبات أو في الكذب والأخبار بالظن والتخمين والاستناد إلى الامارات الضعيفة والمناسبات السّخيفة أو في العدول والانحراف عن سبيل الحق والتمسك في نيل المطالب ودرك المآرب بأسباب خارجة عن حدود الشّريعة وصدهم عن التوصل إلى الله بالدعاء والصدقة وسائر أصناف الطاعة، أو في البعد عن الرحمة والمغفرة.

ويجري بعض هذه الوجوه في التشبيهين في قوله: **(والكاهن كالساحر والساحر كالكافر)** والمشبه به في التشبيهات أقوى.

والسحر على ما قيل كلام أو كتابة أو رقية أو أقسام وعزائم ونحوها يحدث بسببها ضرر على الغير، ومنه عقد الرّجل عن زوجته والقاء البغضاء بين الناس، ومنه استخدام الملائكة والجن واستنزال الشّياطين في كشف الغائبات وعلاج المصاب واستحضارهم وتلبسهم ببدن صبيّ أو امرأة وكشف الغائبات على لسانه، انتهى.

والظاهر أنّه لا يختصّ بالضّرر بل ربّما يفعل لعباً أو لإبداء أمر غريب، وعن صاحب العين(١): السّحر عمل يقرب إلى الشّياطين ومن السّحر الأخذة التي تأخذ العين حتّى تظن أنّ الأمر كما ترى، وليس الأمر كما ترى فالسحر عمل خفيّ لخفاء سببه يصوّر الشّيء بخلاف صورته ويقلبه من جنسه في الظاهر ولا يقلبه من جنسه في الحقيقة ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

---

(١) كتاب العين للفراهيدي: ٣/ ١٣٥.

وقال: الشّيخ في محكي كلامه عن «**التبيان**» قيل في معنى السّحر أربعة أقوال:

أحدها: أنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة يخيل إلى المسحور أنها حقيقة.

والثاني: أنّه أخذ بالعين على وجه الحيلة.

والثالث: أنّه قلب الحيوان من صورة إلى صورة وإنشاء الأجسام على وجه الاختراع فيمكن السّاحر أن يقلب الإنسان حماراً وينشيء أجساماً.

والرّابع: أنه ضرب من خدمة الجن وأقرب الأقوال الأوّل لأنّ كل شيء خرج عن العادة الجارية فإنّه سحر لا يجوز أنّ يأتي من السّاحر، ومن جوز شيئاً من هذا فقد كفر لأنّه لا يمكن مع ذلك العلم بصحة المعجزات الدّالة على النبوات لأنّه أجاز مثله على جهة الحيلة والسّحر وفي الرّياض والسّحر عرف تارة بما في الكتاب قال تعالى:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وفي «**الاحتجاج**» من أكبر السّحر النميمة يفرق بها بين المتحابين ويجلب العداوة بين المتصادقين، قيل: ومنه استخدام الجن وعرف بأنه عمل يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة وأخرى لوجه يدخل فيه العلم الطلسمات والنّيرنجات وغير ذلك، وذلك أن يقال هو استحداث الخوارق إمّا بمجرد التأثيرات النفسانية وهو السّحر أو بالاستعانة بالفلكيات فقط وهو دعوة الكواكب، أو على تمزيج القوى السّماوية بالقوى الأرضية وهو الطلسمات، أو على سبيل الاستعانة بالأرواح السّاذجة وهو العزائم قيل: والكل حرام في شريعة الإسلام.

وظاهره اجماع المسلمين عليه وهو الحجة مضافاً إلى النّصوص المستفيضة منها، ويدخل فيه النيرنجات على ما ورد في الساحر أنّ دم السّاحر حلال وأنّ تعلم السّحر آخر العهد بالله تعالى وحدّه القتل ونحو ذلك، وظاهرها التّحريم مطلقاً وقد استثنى منه السّحر للتوقي ودفع المتنبي وربّما وجب كفاية.

وروى في «**العيون**» في تفسير آية هاروت وماروت أنّه كان بعد نوح قد كثرت السّحرة والمموهون فبعث الله ملكين إلى نبيّ ذلك الزّمان يذكر ما يسحر به السحرة وذكر ما يبطل به سحرهم ويرد به كيدهم فتلقاه النبي من الملكين وأداه إلى عباد الله بأمر الله أن يقفوا به على السّحر وأن يبطلوه ونهاهم أن يسحروا به الناس، وربّما خصت روايات الحلّ بغير السّحر كالقرآن والذّكر والتعويذ ونحوها جمعاً وهو أحوط.

ثمّ إنّه بعد تشبيه المنجم بالكاهن والكاهن بالساحر والساحر بالكافر أشار بقوله **(والكافر في النّار)** إلى نتيجة الجميع وهو دخول النّار إما على وجه الخلود كما في الكافر أولاً كما في غيره، ولما فرغ من تنفير أصحابه عن تعلم النجوم وقبول أحكامها أمرهم بالمسير بقوله: **(سيروا على اسم الله)** وعونه.

وينبغي تذييل المقام بأمور مهمة

الأول: اعلم أنّ هذا الكلام ممّا اشتهرت روايته بين الخاصّة والعامة وقد روي بطرق مختلفة مع اختلاف كثير في متنه ولا بأس بالإشارة إلى بعض تلك الطرق استبصاراً واطلاعاً منك على مواقع الاختلاف واستظهاراً واستنصاراً لما أورد السّيد في الكتاب فأقول:

منها: ما في شرح المعتزلي عند شرح خطبة السّادس والثلاثين قال: روى ابن ديزيل قال: عزم على الخروج من الكوفة إلى الحروريّة وكان في أصحابه منجم فقال له يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه السّاعة وسر على ثلاث ساعات مضين من النهار فإنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك أذى وضر شديد، وإن سرت في ساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت.

فقال له عليّ: أتدري ما في بطن فرسي هذه أذكر هو أم أنثى؟ قال: إن حسبت علمت، فقال من صدّقك بهذا فقد كذب القرآن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية.

ثم قال: إنّ محمّداً ما كان يدعي علم ما ادّعيت علمه، أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة التي تصيب النفع من سار فيها وتصرف عن الساعة التي يحيق السوء لمن سار فيها فمن صدّقك فقد استغنى عن الاستعانة بالله جلّ ذكره في صرف المكروه عنه وينبغي للمؤمن بأمرك أن يوليك الحمد دون الله جل جلاله لأنّك بزعمك هديته إلى السّاعة التي تصيب النفع من سار فيها، وصرفته عن الساعة التي تحيق السوء بمن سار فيها فمن آمَنَ بك في هذا لم آمِنْ عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضداً ونداً، اللهم لا طير إلا طيرك ولا ضير إلا ضيرك ولا إله غيرك.

ثمّ قال: نخالف ونسير في الساعة التي نهيتنا عنها، ثمّ أقبل على الناس فقال: أيها النّاس إياكم والتعلم للنجوم إلا ما يهتدي به في ظلمات البر والبحر إنّما المنجم كالكاهن والكاهن كالكافر والكافر في النّار، أما والله لأن بلغني أنك تعمل بالنّجوم لأَخلدنك في السجن أبداً ما بقيت ولأحرمنك العطاء ما كان لي من سلطان.

ثم سار في الساعة التي نهاه عنها المنجم فظفر بأهل النهر وظهر عليهم، ثمّ قال عليه السلام: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم لقال الناس سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر وظهر أما أنّه ما كان لمحمّد صلى الله عليه وآله منجم ولا لنا من بعده حتّى فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر أيّها الناس توكلوا على الله واتّقوا به فإنكم يكفي ممن سواه[1].

ومنها: ما في **«البحار»** من **«مجالس الصّدوق»** عن محمّد بن علي ماجيلويه عن

(١) شرح النهج: ٢/ ٢٧٠.

محمّد بن أبي القاسم عن محمّد بن عليّ القرشي عن نصر بن مزاحم عن عمر بن سعد عن يوسف بن يزيد عن عبد الله بن عوف بن الأحمر.

قال: لما أراد أمير المؤمنين المسير إلى النهر وإذ أتاه منجم فقال له: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة وسر في ثلاث ساعات مضين من النهار، فقال أمير المؤمنين: ولم ذلك؟ قال: لأنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك أذى وضرّ شديد وإن سرت في الساعة التي أمرتك ظفرت وظهرت وأصبت كما طلبت.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: تدري ما في بطن هذا الدابة ذكر أم أنثى؟ قال: إن حسبت علمت، قال له أمير المؤمنين عليه السلام: من صدّقك على هذا القول كذب بالقرآن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ما كان محمّد يدعي ما ادعيت أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه سوء والساعة التي من سار فيها حاق به الضّر من صدقك بهذا استغنى بقولك عن الاستعانة بالله عزّ وجل، وفي ذلك الوجه وأحوج إلى الرّغبة إليك في دفع المكروه عنه وينبغي له أن يوليك دون ربه عزّ وجل فمن آمن لك بهذا فقد اتخذك من دون الله نداً وضداً.

ثمّ قال: اللهم لا طير إلا طيرك ولا ضير إلا ضيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك بل نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي نهيت عنها[1].

قال المحدّث المجلسي بعد ما أورد الرّواية: قوله: من صدّقك على هذا القول فقد كذب بالقرآن لادّعائه العلم الذي أخبر الله سبحانه أنه مختص به إذ ظاهر قوله تعالى عنده الاختصاص.

فان قيل: فقد أخبر النبي فالأئمة بالخمسة المذكورة في الآية في مواطن كثيرة فكيف ذلك؟

قلنا: المراد أنه لا يعلمها أحد بغير تعليمه سبحانه وما أخبروه من ذلك فإنّما كان بالوحي والإلهام أو التعلم من النبي الذي علمه بالوحي.

لا يقال: علم النجوم أيضاً من هذا القبيل لما سيأتي من الأخبار الدّالة على أنّ له أصلاً وأنه ممّا علمه الله أنبياءه فكيف يكون تصديق المنجم تكذيباً بالقرآن؟

لأنا نقول الذي سيظهر من الأخبار أنّ نوعاً من هذا العلم حقاً يعلمه الأنبياء والأوصياء وأمّا أنّ ما في أيدي الناس من ذلك فلا.

---

(١) الأمالي: ٥٠١، بحار الأنوار: ٥٥/٢٢٤.

وقوله: أن يوليك الحمد، على بناء الأفعال أو التّفعيل أي يقربك من الحمد من الولي بمعنى القرب أو من قولهم ولاه الأَمير عمل كذا أي قلده إيّاه أي يجعلك وليّاً لمحمّد[١] وأهلاً له أو من قولهم أوليته معروفاً أي أنعمت عليه لا طير إلا طيرك الطير من الطيرة وهي التّشاؤم بالشّيء أي لا تأثير للطيرة إلا طيرك أي قضاؤك وقدرك على المشاكلة ويدلّ على أنّ ضرر النّجوم من جهة الطيرة، والضير الضرر.

الثاني

قال السّيد الجليل عليّ بن طاووس (ره) في محكي كلامه عن كتاب «النّجوم» بعدما أورد هذا الكلام له عليه السلام نقلاً عن الرّضى (ره) في الكتاب:

إنّني رأيت فيما وقفت عليه في كتاب «عيون الجواهر» تأليف أبي جعفر محمّد بن بابويه (ره) حديث المنجّم الذي عرض لمولانا عليّ عليه السلام عند مسيره إلى النهروان مسنداً عن محمّد بن عليّ ماجيلويه عن عمّه محمّد بن أبي القاسم عن محمّد بن عليّ القرشي عن نصر بن مزاحم المعرّي عن عمر بن سعد عن يوسف بن يزيد عن عبد الله بن عوف بن الأَحمر قال: لمّا أراد أمير المؤمنين عليه السلام المسير إلى النّهروان أتاه منجّم، ثمّ ذكر حديثه.

قال: فأقول إنّ في هذا الحديث عدّة رجال لا تعمل علماء أهل البيت عليهم السّلام على روايتهم ويمنع من يجوّز العمل بإخبار الآحاد من العمل بأخبارهم وشهادتهم وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص مقاتل الحسين عليه السلام فإنّ أخباره ورواياته مهجورة ولا يلتفت عارف بحاله إلى ما يرويه أو يسند إليه.

ثمّ طعن في الرّواية بأنّها لو كانت صحيحة لكان عليه السلام قد حكم في هذا على صاحبه الذي قد شهد مصنف «نهج البلاغة» أنّه من أصحابه أيضاً بأحكام الكفار إمّا بكونه مرتدّاً عن الفطرة فيقتله في الحال أو يردّه عن غير الفطرة فيتوبه أو يمتنع من التّوبة فيقتل لأَنّ الرّواية قد تضمنت أنّ المنجّم كالكافر أو كانت تجري عليه أحكام الكهنة أو السّحرة لأَنّ الرّواية تضمنت أنه كالكاهن والسّاحر وما عرفنا إلى وقتنا هذا أنه حكم على هذا المنجم أحكام الكفار ولا السّحرة ولا الكهنة ولا أبعده ولا عزره بل قال: سيروا على إسم الله والمنجم من جملتهم لأنّه صاحبه.

وهذا يدلك على تباعد الرّواية من صحّة النّقل أو يكون لها تأويل غير ظاهر موافق للعقل.

ثمّ قال: وممّا نذكره من التّنبيه على بطلان ظاهر الرّواية بتحريم علم النّجوم قول الرّاوي

---

(١) في نسخة: للحمد.

فيها إنّ من صدقك فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله ونعلم أنّ الطلائع للحروب مديون على السّلامة من هجوم الجيش وكثير من النّحوس ويبشرون بالسّلامة وما ألزم من ذلك أن يوليهم الحمد دون ربّهم ثمّ إنّنا وجدنا في الدّعوات الكثيرة التّعوذ من أهل الكهانة والسّحرة فلو كان المنجم مثلهم كان قد تضمن بعض الأدعية التّعوّذ منه وما عرفنا في الأدعية التعوّذ من النجوم والمنجّم إلى وقتنا هذا.

ومن التنبيه على بطلان ظاهر هذه الرّواية أنّ الدّعوات تتضمن كثير منها وغيرها من صفات النبيّ ﷺ أنّه لم يكن كاهناً ولا ساحراً وما وجدنا إلى الآن ولا كان عالماً بالنّجوم، فلو كان المنجم كالكاهن والساحر ما كان يبعد أن تتضمنه بعض الرّوايات والدعوات في ذكر الصّفات انتهى كلامه رفع مقامه.

وأورد عليه المحدث المجلسي (ره) بعد نقل كلامه في «**البحار**» بقوله: وأقول: أمّا قدحه في سند الرّواية فهي من المشهورات بين الخاصّة والعامّة ولذا أورده السيّد (ره) في «**النهج**» إذ دأبه فيه أن يروى ما كان مقبول الطرفين وضعف سند الرّواية التي أوردها الصّدوق لا يدلّ على ضعف سائر الأسانيد.

وعمر بن سعد الذي يروي عنه نصر بن مزاحم ليس الملعون الذي كان محارب الحسين عليه السلام كما يظهر من كتابه كتاب «**الصّفين**» الذي عندنا، فإن أكثر ما رواه فيه رواه عن هذا الرّجل وفي كثير من المواضع عمر ومكان عمر، ولم يكن الملعون من جملة رواة الحديث وحملة الأخبار حتّى يروى عنه هذه الأخبار الكثيرة.

وأيضاً رواية نصر عنه بعيد جدّاً فإنّ نصر كان من أصحاب الباقر عليه السلام والملعون لم يبق بعد شهادة الحسين عليه السلام إلاّ قليلاً، والشّواهد على كونه غيره كثيرة لا تخفى على المتدرب في الأخبار العارفة بأحوال الرّجال، وهذا من السّيد غريب.

وأمّا قوله إنّه لم يحكم بكفر المنجّم فيرد عليه أنّ ظاهر التشبيه بالكافر أنّه ليس بكافر وإنّما يدلّ على اشتراكه معه في بعض الصفات لا في جميع الأحكام كقتله في الحال أو بعد امتناعه من التوبة على أنّه عليه السلام لم يشبهه بالكافر بل بالمشبه بالكافر.

وأما قوله: ولا أبعده ولا عزّره، ففيه أنه قد ظهر مما رواه ابن أبي الحديد الإبعاد بالحبس المؤبد والتحريم من العطاء، ولم يعلم أنه أصرّ المنجم على العمل بالنجوم بعد ذلك حتى يستحقّ تعزيراً أو نكالاً وعدم اشتمال رواية السيد على هذه الزّيارة لا يدل على عدمها، فإنّ عادة السيد الإختصار على ما اختاره من كلامه عليه السلام بزعمه استيفاء النقل والرّواية مع عدم النقل في مثل هذا لا يدل على العدم.

وكونه من أصحابه عليه السلام وبينهم لا يدل على كونه مرضياً فإن جيشه عليه السلام كان مشتملاً

على كثير من الخوارج والمنافقين كالأشعث أخي هذا المنجم على ما ذكره السيد وغيره أنه كان عفيف بن قيس أخا الأشعث رأس المنافقين ومثير أكثر الفتن.

وأما قياسه على طلائع الحروب فالفرق بين الأمرين بيّن، فإن ما يهدي إليه الطلائع ونحوهم ليست أموراً يترتب عليها صرف السوء ونيل المحبوب حتماً بل يتوقف على إجتماع أمور كوجود الشرائط وارتفاع الموانع وكل ذلك لا يتيسر الظفر بها إلا بفضل مسبب الأسباب بخلاف ما ادعاه المنجم من أن الظفر يترتب حتماً على على الخروج في الساعة التي اختاره.

وأما عدم التعوذ من النجوم والمنجم فلأن المنجم إنما يعود ضرره إلى نفسه بخلاف السّاحر والكاهن فإنه يترتب منهما ضرر كثير على الناس، مع أن الدعاء الذي رواه السيد في كتاب الإستخارات وأوردناه في هذا الباب يتضمن البراءة إلى الله من اللجأ إلى العمل بالنجوم وطلب الإختيارات منها.

وأما عدم وصف النبي بأنه لم يكن منجماً لأن الكفار إنما كانوا يصفونه بالسحر والكهانة والشعر فورد براءته عنها رداً عليهم ولم يكونوا يصفونه بالنجوم مع أنه كان عالماً بما هو الحق من علم النجوم وكان من فضائله ﷺ.

الثالث

روى في «**الاحتجاج**» و«**البحار**» قصّة المنجّم معه عليه السلام بنحو آخر مشتمل على مطالب غريبة وأحكام عجيبة أحببت إيراد ذلك ضناً مني أن يخلو الشرح عن ذلك فأقول.

في «**الاحتجاج**» عن سعيد بن جبير قال إستقبل أمير المؤمنين دهقان من دهاقين الفرس فقال له بعد التهنية: يا أمير المؤمنين تناحست النّجوم الطالعات وتناحست السّعود بالنّحوس وإذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء ويومك هذا يوم صعب قد انقلب فيه[1] وانقدح من برجك النّيران وليس الحرب لك بمكان.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام ويحك يا دهقان المنبىء بالآثار المحذر من الأقدار ما قصّة صاحب الميزان وقصّة صاحب السّرطان؟ وكم المطالع من الأسد والسّاعات من المحركات وكم بين السراري والدّراري؟

قال: سأنظر، وأومأ بيده إلى كمّه وأخرج منه أسطرلاباً ينظر فيه، فتبسم عليه السلام فقال: «أتدري ما حدث البارحة؟ وقع بيت بالصّين، وانفرج برج ماجين، وسقط سور سرانديب، وانهزم بطريق الرّوم بارمنيه[2]، وفقد ديّان اليهودي بأيلة، وهاج النّمل بوادي النّمل، وهلك

(١) في نسخة: كوكبان.

(٢) في نسخة: بأرمينية.

ملك أفريقيّة أكنت عالماً بهذا»؟ قال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: البارحة سعد سبعون ألف عالم، وولد في كلّ عالم سبعون ألفاً والليلة يموت مثلهم وهذا منهم، وأومأ بيده إلى سعد بن مسعدة الحارثي لعنه الله وكان جاسوساً للخوارج في عسكر أمير المؤمنين، فظنّ الملعون أنه يقول خذوه فأخذ بنفسه فمات، فخرّ الدّهقان ساجداً.

فقال أمير المؤمنين: ألم أرِكَ من عين التّوفيق؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام: «أنا وصاحبي لا شرقيّ ولا غربيّ نحن ناشئة القطب وأعلام الفلك أما قولك انقدح من برجك النيران، فكان الواجب أن تحكم به لي لا عليّ، وأمّا نوره وضياؤه فعندي وأمّا حريقه ولهيبه فذهب عنّي فهذه مسألة عميقة احسبها إن كنت حاسباً»[١].

قال المحدّث المجلسي في شرحه بعدما أورده في **«البحار»**: «ما قصّة صاحب الميزان» أي الكواكب التي الآن في برج الميزان أو الكواكب المتعلّقة بتلك البرج المناسبة لها، وكذا صاحب السّرطان و«كم المطالع» أي كم طلع من ذلك البرج الآن و«السّاعات» أي كم مضى من طلوع السّاعات من طلوع سائر المحرّكات.

ولعلّ المراد «بالسّراري» الكواكب الخفية تشبيهاً لها بالسّرية «والدّراري» الكواكب الكبيرة المضيئة أو اصطلاحان في الكواكب لا يعرفهما المنجّمون، والغرض أنّه لو كان هذا العلم فإنّما يمكن الحكم به بعد الإحاطة بجميع أوضاع الكواكب وأحوالها وخواصّها في كلّ آن وزمان والمنجّمون لم يرصدوا من الكواكب إلاّ أقلها ومناط أحكامهم أوضاع السّيارات فقط مع عدم إحاطتهم بأحوال تلك أيضاً.

ثمّ نبّهه عليه السلام على عدم إحاطته بذلك العلم أو عدم كفايته للعلم بالحوادث بجهله بكثير من الأمور الحادثة، وفي **«القاموس»** «البطريق» ككبريت القائد من قوّاد الرّوم تحت يده عشرة آلاف رجل انتهى و«ديّان اليهود» عالمهم وفي بعض النّسخ بالنون جمع دن وهو الجب العظيم «وصاحبي» أي النّبي «لا شرقي ولا غربي» إيماء إلى قوله سبحانه لا شرقيّة ولا غربية، والغرض لسنا كسائر النّاس حتّى تحكم علينا بأحكامهم كالنّجوم المنسوبة إلى العرب أو إلى الملوك أو إلى العلماء والأشراف فإنا فوق ذلك كلّه.

«نحن ناشئة القطب» أي الفرقة النّاشئة المنسوبة إلى القطب أي حقيقة لثباتهم واستقرارهم في درجات العزّ والكمال أو كناية عن أنّهم غير منسوبين إلى الفلك والكواكب بل هي منسوبة إليهم وسعادتها بسببهم، أو أنّهم قطب الفلك إذ الفلك يدور ببركتهم «و» هم

---

(١) بحار الأنوار: ٥٥/ ٢٢٢، مستدرك سفينة البحار: ٩/ ٥٥٤.

أعلام الفلك بهم يتزيّن ويتبرّك ويسعد.

ثمّ ألزم عليه في قوله (انقدح من برجك النيران) بأنّ للنّار جهتين جهة نور وجهة إحراق فنورها لنا وإحراقها على عدوّنا، ويحتمل أن يكون المراد به أنّ الله يدفع ضررها عنا بتوسلنا به تعالى وتوكلنا عليه «فهذه مسألة عميقة» أي كوننا ممتازين عن سائر الخلق في الأحكام أو كون النيران خيراً لنا وشرّاً لعدوّنا وأن التوسل والدّعاء يدفع النحوس والبلاء مسألة عميقة خارجة عن قانون نجومك وحسابك ويبطل جميع ما تظنّ من ذلك.

وفي «البحار» روينا بإسنادنا إلى الشيخ سعيد بن محمّد بن رستم بن جرير الطبري الإمامي عن الحسين بن عبد الله الجرمي ومحمّد بن هارون التلعكبري عن محمّد بن أحمد بن محروم عن أحمد بن القاسم عن يحيى بن عبد الرحمٰن عن علي بن صالح بن حي الكوفي عن زياد بن المنذر عن قيس بن سعد قال:

كنت كثيراً أسائر أمير المؤمنين إذا سار إلى وجه من الوجوه فلما قصد أهل النهروان وصرنا بالمدائن وكنت يومئذٍ مسائراً له إذ خرج إليه قوم من أهل المدائن من دهاقينهم معهم براذين قد جاؤوا بها هدية إليه فقبلها، وكان فيمن تلقاه دهقان من دهاقين المدائن يدعى سرسفيل، وكانت الفرس تحكم برأيه فيما مضى وترجع إلى قوله فيما سلف فلما بصر بأمير المؤمنين قال له:

يا أمير المؤمنين لترجع عما قصدت، قال ولم ذلك يا دهقان؟ قال: يا أمير المؤمنين تناحست النجوم الطوالع فنحس أصحاب السعود وسعد أصحاب النحوس ولزم الحكيم في مثل هذا اليوم الإستخفاء والجلوس، وأن يومك هذا يوم مميت قد اقترن فيه كوكبان قتّالان، وشرف فيه بهرام في برج الميزان، وانقدح[1] من برجك النيران وليس الحرب لك بمكان.

فتبسّم أمير المؤمنين ثمّ قال: أيها الدّهقان المنبيء بالأخبار والمحذر من الأقدار ما نزل البارحة في آخر الميزان وأيّ نجم حلّ في السّرطان؟ قال: سأنظر ذلك وأخرج من كمه إسطرلاباً وتقويماً، قال له أمير المؤمنين: أنت مسير الجاريات؟ قال: لا، قال: فأنت تقضي على الثابتات؟ قال: لا، قال: فأخبرني عن طول الأسد وتباعده من المطالع والمراجع وما الزّهرة من التوابع والجوامع؟ قال: لا علم لي بذلك.

قال : فما بين السواري إلى الدّراري وما بين السّاعات إلى المعجزات وكم قدر شعاع المبدرات وكم تحصل الفجر في الغدوات؟ قال: لا علم لي بذلك، قال: فهل علمت يا دهقان أنّ الملك اليوم انتقل من بيت إلى بيت بالصّين وانقلب برج ماجين واحترق دور بالزّنج

(١) في نسخة: وأنفذت.

وطفح جبّ سرانديب وتهدم حصن الأندلس وهاج نمل الشّيخ وانهزم مراق الهندي وفقد ديان اليهود بأيلة وهزم بطريك الرّوم برومية وعمى راهب عموديّة وسقطت شرفات القسطنطنية أفعالم أنت بهذه الحوادث وما الذي أحدثها شرقيها أو غربيها من الفلك؟ قال: لا علم لي بذلك.

قال: وبأيّ الكواكب تقضي في أعلى القطب وبأيّها تنحس من تنحس؟ قال: لا علم لي بذلك قال: فهل علمت أنه سعد اليوم إثنان وسبعون عالماً في كل عالم سبعون عالماً، منهم في البر ومنهم في البحر وبعض في الجبال وبعض في الغياض وبعض في العمران وما الذي اسعدهم؟ قال: لا علم لي بذلك.

قال: يا دهقان أظنك حكمت على اقتران المشتري وزحل لما استنار لك في الغسق وظهر تلألأ شعاع المريخ وتشريقه في السحر وقد سار فاتصل جرمه بجرم تربيع القمر، وذلك دليل على استحقاق ألف ألف من البشر كلهم يولدون اليوم والليلة ويموت مثلهم وأشار بيده إلى جاسوس في عسكره لمعاوية فقال: ويموت هذا فإنّه منهم.

فلما قال عليه السلام ذلك ظنّ الرّجل أنه قال: خذوه فأخذه شيء بقلبه وتكسرت نفسه في صدره فمات لوقته.

فقال: يا دهقان ألم أُرك عين[1] التقدير في غاية التصوير؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين قال: يا دهقان أنا مخبرك إني وصحبي هؤلاء لا شرقيون ولا غربيون إنّما نحن ناشئة القطب وما زعمت أنه انقدح البارحة من برجي النيران فقد كان يجب أن تحكم معه لي لأن نوره وضياءه عنده فلهبه ذاهب عنّي.

يا دهقان هذه قضية عيص فاحسبها وولدها ما إن كنت عالماً بالأكوار والأدوار»[2]، فقال: لو علمت ذلك لعلمت تحصي عقود القصب في هذه الأجمة.

ومضى أمير المؤمنين فهزم أهل النهروان وقتلهم وعاد بالغنيمة والظفر، فقال الدّهقان: ليس هذا العلم بما في أيدي أهل زماننا هذا علم مادته في السّماء.

قال المجلسي: أكثر السّؤالات المذكورة في الرّواية على تقدير صحّتها وضبطها مبنيّة على اصطلاحات معرفتها مختصة بهم أوردها لبيان عجزه وجهله وعدم إحاطة علمه بما لا بد منه في هذا العلم **(وكم تحصل الفجر في الغدوات)** يحتمل أن يكون المراد به زمان ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فإنّ ذلك يختلف في الفصول و**(طفح جبّ سرانديب)** امتلأ

(١) في نسخة: غير.

(٢) دلائل الإمامة: ٦١، فرج الهموم: ١٠٤.

وارتفع، ومنه سكران طافح و«الشّيح» نبت معروف ويحتمل أن يكون المراد هنا الوادي الذي هو منبته.

و«العمودية» ماء للنّصارى يغمسون فيه أولادهم و(**ما الذي أحدثها**) أي بزعمك (**شرقيها**) أي الكواكب (**ألم أرك غير التقدير**) بكسر الغين وفتح الياء أي التغيرات النّاشئة من تقديرات الله تعالى وفي بعض النّسخ عين التّقدير أي أصله (**هذه قضية عيص**) بالإضافة إلى الأصل في «**القاموس**» العيص بالكسر الأصل وفي بعض النّسخ عويصة أي صعبة شديدة و(**ولدها**) بصيغة الأمر وتشديد اللاّم أي استنتج منها.

الرابع

في تحقيق الكلام في علم النجوم وجواز العمل بأحكامه، وقد اختلفت في ذلك الأَخبار ككلمات علمائنا الأَخيار والبحث في مقامات ثلاثة.

المقام الأول

في بطلان ما زعمه قدماء المنجمين من أن الكواكب تفعل في الأَرض ومن عليها أفعالاً يسندونها إلى طباعها.

فأقول: إن إعتقاد ذلك كفر وزندقة وإلحاد دلت على امتناعه الأَدلة النقلية والبراهين العقلية.

قال الشّيخ إبراهيم بن نوبخت في كتاب «**الياقوت**»: قول المنجمين يبطله قدم الصّانع واشتراط اختياره ويلزم عليهم أن لا يستقر الفعل على حال من الأَحوال وقول أهل الطبائع يبطل بمثل ذلك.

وقال العلامة في شرح ذلك: اختلف قول المنجمين على قسمين: أحدهما قول من قال إنّ الكواكب السّبعة حية مختارة، والثاني قول من قال إنّها موجبة والقولان باطلان أما الأوّل فلأنّها أجسام محدثة فلا تكون آلهة، ولأنّها محتاجة إلى محدث غير جسم فلا بدّ من القول بالصّانع، وأما الثاني فلأن الكواكب المعين كالمريخ مثلاً إذا كان مقتضياً للحرب لزم دوام وقوع الهرج والمرج في العالم وأن لا تستقر أفعالهم على حال من الأَحوال ولما كان ذلك باطلاً كان ما ذكروه باطلاً، وأما القائلون بالطبائع الذين يسندون الأَفعال إلى مجرد الطبيعة فيبطل قولهم بمثل ذلك أيضاً فإنّ الطبيعة قوة جسمانية في كلّ جسم محدث فكلّ قوة حالة فهي محدثة تفتقر إلى محدث غير طبيعة وإلا لزم التسلسل فلا بدّ من القول بالصّانع سبحانه.

وقال أيضاً في محكي كتاب «**المنتهى**»: التنجيم حرام وكذا تعلم النجوم مع اعتقاد أنّها مؤثرة أو أنّ لها مدخلاً في التأثير بالنفع والضّرر وبالجملة كلّ من يعتقد ربط الحركات النفسانية والطبيعية بالحركات الفلكية والإتّصالات الكوكبية كافر وأخذ الأجرة على ذلك حرام.

وقال علم الهدى في كتاب «**الغرر والدرر**»: وقد فرغ المتكلمون من الكلام في أنّ الكواكب لا يجوز أن تكون فينا فاعلة وتكلمنا نحن أيضاً في مواضع على ذلك وبينا بطلان الطبائع التي يهذون بذكرها وإضافة الأفعال إليها وبينا أنّ الفاعل لا بدّ أن يكون حياً قادراً وقد علمنا أنّ الكواكب ليست بهذه الصفة فكيف تفعل وما يصحح الأفعال مفقود فيها.

وقد سطر المتكلمون طرفاً كثيرة في أنها ليست بحيّة ولا قادرة أكثرها معترض وأشف[1] ما قيل في ذلك أن الحياة معلوم أنّ الحرارة الشّديدة كحرارة النّار تنفيها ولا تثبت معها ومعلومة أنّ حرارة الشمس أشد وأقوى من حرارة النّار بكثير لأنّ الذي يصل إلينا على بعد المسافة من حرارة الشّمس بشعاعها يماثل أو يزيد على حرارة النار وما كان بهذه الصّفة من الحرارة يستحيل كونه حيّاً.

وأقوى من ذلك كله في نفي كون الفلك وما فيه من شمس وقمر وكوكب احياء السمع والاجماع وأنّه لا خلاف بين المسلمين في ارتفاع الحياة عن الفلك وما يشتمل عليه من الكواكب وأنّها مسخّرة مدبّرة مصرفة، وذلك معلوم من دين رسول الله ضرورة وإذا قطعنا على نفي الحياة والقدرة عن الكواكب فكيف تكون فاعلة.

وعلى إننا قد سلمنا لهم استظهاراً في الحجة أنّها قادرة قلنا إن الجسم وإن كان قادراً قدراً فأنّه لا يجوز أن يفعل في غيره إلاّ على سبيل التوليد، ولا بد من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه، والكواكب غير مماسة لنا ولا وصلة بيننا وبينها فكيف تكون فاعلة فينا، فإن ادّعى أن الوصلة بيننا الهواء فالهواء أوّلا لا يجوز أن يكون آلة في الحركات الشّديدة وحمل الأثقال، ثم لو كان الهواء آلة تحرّكنا بها الكواكب لوجب أن نحسّ بذلك ونعلم أن الهواء يحرّكنا ويصرفنا كما نعلم في غيرنا من الأجسام إذا حرّكنا بآلة على أنّ في الحوادث الحادثة فينا ما لا يجوز أن يفعل بآلة ولا يتولد عن سبب كالإرادات والاعتقادات وأشياء كثيرة فكيف فعلت الكواكب ذلك فينا.

وهي لا تصحّ أن تكون مخترعة للأفعال لأن الجسم لا يجوز أن يكون قادراً إلاّ بقدرة والقدرة لا تجوز لأمر يرجع إلى نوعها أن تخترع بها الأفعال فأمّا الأدمة فليس تؤثرها الشّمس على الحقيقة في وجوهنا وأبداننا وإنّما الله تعالى هو المؤثر لها وفاعلها بتوسّط حرارة الشّمس كما أنّه تعالى هو المحرّق على الحقيقة بحرارة النّار والهاشم لما يهشمه الحجر بثقله وحرارة الشّمس مسودة الأجسام من جهة معقولة مفهومة كما أنّ النّار تحرق الأجسام على وجه معقول فأيّ تأثير للكواكب فينا يجري هذا المجري في تمييزه والعلم بصحته فليشر إليه فإنّ ذلك لا قدرة عليه.

---

(١) أشف: أي افضل.

وممّا يمكن أن يعتمد في إبطال أن تكون الكواكب فاعلة ومصرّفة لنا أن ذلك يقتضي سقوط الأمر والنهي والمدح والذّم عنّا، ونكون معذورين في كلّ إساءة تقع منا ونجيئها بأيدينا وغير مشكورين على شيء من الإحسان والإفضال وكل شيء نفسد به قول المجبرة فهو مفسد لهذا المذهب.

الثاني

في أنه بعد ما تحقق بطلان كون الكواكب عللاً مؤثرة مدّبرة لهذا العالم السّفلي موجدة لما فيه فهل يمكن كونها أمارات وعلامات على وقوع بعض الحوادث في هذا العالم ممّا يوجده الله تعالى بقدرته، وهل يمكن الإطلاع بالحوادث الاستقبالية من أشكال الكواكب واتّصالاتها وما يعرض لها من الأوضاع والهيئات بقرب بعضها من بعض أو بعده بأن يجري عادة الله سبحانه على فعل كذا عند كذا.

الحقّ إمكان ذلك وفاقاً لأكثر الأصحاب لما سمعنا وشاهدنا من إصابة كثير من المنجمين في أحكامهم النّجوميّة، وإن كان خطأهم فيها كثيراً أيضاً، ويبعد بأن تكون تلك الإصابة كلها من باب البخت والاتفاق.

وقد خالف في ذلك المرتضى وبالغ كلّ المبالغة في إنكار أصل هذا العلم وزعم أنّ جميع ما اتفق من أخبار المنجمين من باب الإتفاق والتخمين نحو ما يقوله القوّالون:

قال في كتاب «الغرر» و«الدرر» ما ملخصه: إنّ جريان عادة الله بأن يفعل أفعالاً مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتّصاله أو مفارقته وإن كان جائزاً لكن لا طريق إلى العلم بأنّ ذلك قد وقع وثبت من أين لنا بأنّ الله تعالى قد أجرى العادة بأن يكون زحلاً والمرّيخ إذا كان في درجة الطالع كان نحساً، وأنّ المشتري إذا كان كذلك كان سعداً، وأيّ سمع مقطوع به جاء بذلك وأي نبي خبر به واستفيد من جهته.

فإن عوّلوا في ذلك على التجربة بأنّا جرّبنا ذلك ومن كان قبلنا فوجدناه على هذه الصّفة وإذا لم يكن موجباً وجب أن يكون معتاداً.

قلنا: ومن سلم لكم صحّة هذه التّجربة وانتظامها واطرادها وقدر أن أخطاءكم فيها أكثر من صوابكم وصدقكم أقل من كذبكم فإلا نسبتم الصّحة إذا اتفقت منكم إلى الاتفاق الذي يقع من المخمن والمنجّم، فقد رأينا من نصيب من هؤلاء أكثر ممن يخطيء وهو غير أصل معتمد ولا قاعدة صحيحة.

فإذا قلتم: سبب خطأ المنجم زلل دخل عليه في أخذ الطالع أو تسيير الكواكب، قلنا ولم لا كانت اصابته سببها التخمين وإنّما كان يصحّ لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على

صحّة أحكام النجوم دليل قاطع هو غير إصابة المنجم، فأمّا إذا كان دليل صحّة الأحكام الإصابة فإذا كان دليل فسادها الخطأ فما أحدهما في المقابلة إلاّ كصاحبه إلى أن قال.

وبعض الرّؤساء بل الوزراء ممّن كان فاضلاً في الأدب والكتابة ومشغوفاً بالنجوم عاملاً عليها قال لي يوماً وقد جرى حديث يتعلق بأحكام النجوم ورأى من مخايلي التعجب ممّن يتشاغل بذلك ويفنى زمانه به: أريد أن أسألك عن شيء في نفسي، فقلت: سل عمّا بدا لك، فقال: أريد أن تعرّفني هل بلغ بك التّكذيب بأحكام النّجوم إلى أن لا تختار يوماً لسفر ولبس ثوب جديد وتوجه في حاجة؟ فقلت: قد بلغت إلى ذلك والحمد لله وزيادة عليه وما في داري تقويم ولا أنظر فيه وما رأيت مع ذلك إلاّ خيراً.

ثم أقبلت عليه فقلت: ندع ما يدلّ على بطلان أحكام النجوم ممّا يحتاج إلى ظن دقيق وروية طويلة وهٰهنا شيء قريب لا يخفى على أحد ممن علت طبقته في الفهم أو انخفضت.

خبرني لو فرضنا جادة مسلوكة وطريقاً يمشي فيه النّاس ليلاً ونهاراً وفي محجته آبار متقاربة وبين بعضها وبعض طريق يحتاج سالكه إلى تأمّل وتوقف حتّى يتخلّص من السّقوط في بعض تلك الآبار هل يجوز أن يكون سلامة من يمشي في هذا الطريق من العميان كسلامة من يمشي من البصراء، وقد فرضنا أنّه لا يخلو طرفة عين من المشاة فيه بصراء وعميان وهل يجوز أن يكون عطب البصراء يقارب عطب العميان أو سلامة العميان مقاربة بسلامة البصراء؟

فقال: هذا ممّا لا يجوز بل الواجب أن تكون سلامة البصراء أكثر من سلامة العميان ولا يجوز في مثل هذا التّقارب.

فقلت: إذا كان هذا محالاً فأحيلوا نظيره وما لا فرق بينه وبينه وأنتم تجيزون شبيه ما ذكرناه وعديله، لأنّ البصراء هم الذين يعرفون أحكام النّجوم ويميزون سعدها من نحسها ويتوقون بهذه المعرفة مضارّ الزّمان ويتحفّظونها ويعتمدون منافعها ويقصدونها، ومثال العميان كلّ من لا يحسن تعلّم النّجوم ولا يلتفت إليه من الفقهاء والفهماء وأهل الدّيانات والعبادات ثمّ سائر العوام والأعراب والأكراد وهم أضعاف أضعاف من يراعي عدد النّجوم، ومثال الطريق الذي فيه الآبار الزّمان الذي يمضي عليه الخلق أجمعون، ومثال آباره مصائبه ونوائبه ومحنه.

وقد كان يجب لو صحّ العلم بالنجوم وأحكامها أن تكون سلامة المنجّمين أكثر ومصائبهم أقلّ لأنّهم يتوقون المحن لعلمهم بها قبل كونها وتكون محن كلّ من ذكرناه من الطبقات الكثيرة أوفر وأظهر حتّى تكون السّلامة هي الطريقة الغريبة وقد علمنا خلاف ذلك أن السّلامة والمحن متقاربة غير متفاوته.

فقال: ربّما اتفق مثل ذلك، فقلت له: فيجب أن نصدّق من خبرنا في ذلك الطريق المسلوك الذي فرضناه بأنّ سلامة العميان كسلامة البصراء، ونقول لعلّ ذلك اتفق، وبعد فإنّ الاتّفاق لا يستمر بل ينقطع وهذا الذي ذكرناه مستمرّ غير منقطع إلى أن قال:

ومن أدلّ الدّليل على بطلان أحكام النّجوم إنّا قد علمنا أنّ من جملة معجزات الأنبياء عليهم السلام الأخبار عن الغيوب وعدّ ذلك خارقاً للعادات كإحياء الميّت وإبراء الأكمه والأبرص، ولو كان العلم بما يحدث طريقاً نجومياً لم يكن ما ذكرناه معجزاً ولا خارقاً للعادة، وكيف يشتبه على مسلم بطلان أحكام النّجوم.

وقد أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تكذيب المنجمين والشّهادة بفساد مذاهبهم وبطلان أحكامهم، ومعلوم من دين الرّسول ﷺ ضرورة التّكذيب بما يدعيه والإزراء عليهم والتعجيز لهم وفي الرّوايات عنه ﷺ من ذلك ما لا يحصى كثرة وكذلك عن علماء أهل بيته عليهم السّلام وخيار أصحابه فما زالوا يبرون من مذاهب المنجمين ويعدّونها ضلالاً ومحالاً وما اشتهر هذه الشهرة في دين الإسلام كيف يفتي بخلافه منتسب إلى الملة ومُصليٌ إلى القبلة.

فإمّا إصابتهم في الأخبار عن الكسوفات فلأجل أن الكسوفات واقترانات الكواكب وانفصالها طريقة الحساب وتسيير الكواكب، وله أصول صحيحة وقواعد سديدة، وليس كذلك ما يدعونه من تأثيرات الكواكب في الخير والشّر والنّفع والضّر، انتهى كلامه رفع مقامه.

ومثله شيخ المتكلمين محمود بن علي الحمصي قال في محكي كلامه في «**البحار**»: إنّا لا نردّ عليهم فيما يتعلق بالحساب في تسيير النّجوم واتّصالاتها التي يذكرونها فإنّ ذلك ممّا لا يهمنا ولا هو مما يقابل بإنكار ورد ثمّ قال:

فإن قيل: كيف تنكرون الأحكام وقد علمنا أنّهم يحكمون بالكسوف ورؤية الأهلة ويكون الأمر على ما يحكمون في ذلك، وكذلك يخبرون عن أمور مستقبلة تجري على الإنسان وتجري تلك الأمور على ما أخبروا عنها فمع وضوح الأمر فيما ذكرناه كيف تدفع الأحكام؟

قلنا: إنّ إخبارهم عن الكسوف والخسوف ورؤية الأهلة فليس من الأحكام وإنّما هو من باب الحساب إنّما الحكم أن يقولوا إذا كان كسوف أو خسوف كان من الحوادث كذا وكذا، فأمّا الأمور المستقبلة التي يخبرون عنها فأكثرها لا تقع على ما يخبرون عنه وإنّما يقع قليل منه بالاتفاق ومثل ذلك يتفق لأصحاب الفال والزّجر الذين لا يعرفون النجوم بل للعجائز اللواتي يتفألن بالأحجار والذي قد يخبر المصروع وكثير من ناقصي العقول عن أشياء فيتّفق وقوع ما يخبرون عنه، انتهى[1].

ونحوهما الشّيخ محمّد بن الحسين الكيدري قال في شرحه على الكتاب على ما حكى عنه في «**البحار**»: كيف يمكن أن يكون الإنسان يعرف الحوادث وأسبابها في الحال حتّى يعرف المسبّبات في المستقبل كما في الجزر والمدّ، ومن ادّعى أنّه يعرف أسباب الكائنات فمقدّماته ليست برهانية وإنّما هي تجربية أو شعريّة أو خطابية مؤلفة من المشهورات في الظاهر

(١) البحار: ٥٥/٢٩٨.

أو المقبولات والمظنونات.

ومع ذلك فلا يمكنه أن يتعرض إلاّ لجنس من أجناس الأَسباب وهو تعرض بعض الأَسباب العلويّة ولا يمكنه أن يتعرض لجميع الأسباب السّماوية والقوابل وإذا تغيرت القوابل عن أحوالها تغير أثر الفاعل فيها فإنّ النّار في الحطب اليابس مؤثرة تأثيراً لا تؤثر في الرّماد وكذلك معرفة بقائها على استعداد القبول شرط ويمكن أن كْون القوابل عوائق فلا يعلم تلك الأَسباب والمسببات إلاّ الله تعالى.

وأيضاً فإنّ المنجم يحكم على مفردات الكواكب ولا يحكم على جميعها ممتزجة وكما أنّ أحكام مفردات الترياق وسائر المعاجين غير أحكام المركب الذي حصلت له صورة نوعية، كذلك حكم الكواكب المركوزة في الأفلاك غير حكم أفرادها، وإذا لم يْمكن المنجم الحكم إلاّ على المفردات كان الحكم ناقصاً غير موثوق به.

ثمّ إنّه ربّما يحصل التوأمان في غشاء فيكشف عنهما فإذا فيه صبيان حيان وعلى قوانين الأحكاميين يجب أن يكونا مثلين في الصورة والعمر والحركات حتّى لا يجوز أن يخلفا في شيء من الأَشياء ولا يجوز أن يسكت أحدهما في وقت كلام الآخر ولا يقوم في وقت قعود الآخر ولا ينام في وقت لا ينام فيه الآخر، وإذا دخلا بيتاً فيه باب ضيق فلا يمكنهما الدّخول فإنّه لا بد هيهنا من التّقدم والتّأخر، ولا يجوز أن يمس الإنسان أحدهما دون الآخر، ولا يجوز أن يكون في التزويج إمرأة أحدهما غير إمرأة الآخر ولا أن يكون مكان أحدهما غير مكان الآخر في الأَرض وهذا ما لا يخفى فساده.

وأيضاً فإنّ الحكم الكلي عند أكثرهم يغلب الجزئي ألا ترى أنّ طالع ناحية أو بلد إذا كان فاسداً فإنّه لا يفيد عطية **(الكدخدا)**[1] لإنسان فكيف يعتمد على الطوالع والاختيارات مع نفي العلم بالكليات.

ومن شنيع قولهم إنّهم يقولون إذا ولد للملك في حال ولد ولسوقي ولد، فإنّ الكواكب تدلّ لابن الملك بخلاف ما تدلّ لابن السوقي مع اتّفاقهما في كمية العمر لأَنّ حيلاجهما وكد خداهما لا يختلفان، فإذا جاز دلالة النّجوم مختلفة في سعادة هذين الولدين فما أنكروا أن يكون مقادير أعمارهما أيضاً مختلفة.

واختلفوا في تقويم الكواكب باختلاف الزّيجات ولا برهان على فساد بعضها وصواب بعضها فربما يوجد في تقويم الشّمس من التّفاوت خمس درج وتختلف درج الطوالع وبروج التّحاويل بسبب ذلك فتفسد الأحكام[2].

---

(١) البحار: ٥٥/٢٨٠.

(٢) كذا في الأصل والمصدر، والكدخدا: بيت الرزق عند أهل النجوم.

ثمّ أورد عليهم كثيراً من الاختلافات والتّناقضات لا نطيل الكلام بإيرادها.

أقول: وما ذكره هؤلاء الأَفاضل من الاختلافات والتناقضات والاستبعادات كلها مسلم إلاّ أنّ دلالتها على بطلان علم النّجوم من أصله ممنوعة، ونحن لا نتضايق من كثرة خطأ المنجمين وخبطهم في أحكامهم إلاّ أن إصابتهم فيها أيضاً غير عزيز ودعوى أنّ كل هذه الإصابة على كثرتها من باب الاتفاق كما ترى، وسرّ كثرة وقوع الخطأ فيها أنّ ما في أيدي النّاس من هذا العلم غير تامّ وتمامه إنّما هو عند أئمة الدين الذين هم خزّان العلم واليقين.

ويشهد بما ذكرناه من صحّة هذا العلم في الجملة وعلى أنّ له أصلاً الأخبار والاعتبار.

أما الاخبار فهي كثيرة لا تحصى.

منها روايتا **«الاحتجاج»** و**«البحار»** السالفتان في التنبيه الثالث.

ومنها ما رواه في **«الكافي»** بإسناده عن معلي بن خنيس قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن النّجوم أحق هي؟ قال: نعم إنّ الله عزّ وجل بعث المشتري إلى الأَرض في صورة رجل فأخذ رجلاً من العجم فعلّمه النجوم حتّى ظن أنّه قد بلغ، ثمّ قال له: أنظر أين المشتري، فقال: ما أراه في الفلك وما أدري أين هو، قال: فنحاه وأخذ بيد رجل من الهند فعلمه حتّى ظن أنّه قد بلغ، وقال: أنظر إلى المشتري أين هو؟ فقال: إنّ حسابي ليدلّ على أنك أنت المشتري، وقال: فشهق شهقة فمات وورث علمه أهله فالعلم هناك[١].

ومنها ما في **«البحار»** من كتاب **«النجوم»** عن الرّيان بن الصّلت، وذكر اجتماع العلماء بحضرة المأمون وحضور الصّباح بن نصر الهندي عند مولانا الرّضا ﷺ وسؤاله عن مسائل كثيرة منها سؤاله عن علم النجوم فقال ﷺ ما هذا لفظه:

هو علم في أصل صحيح ذكروا أنّ أوّل من تكلم في النجوم إدريس وكان ذو القرنين بها ماهراً وأصل هذا العلم من عند الله عزّ وجل ويقال إنّ الله بعث النجم الذي يقال له المشتري إلى الأَرض في صورة رجل فأتى بلد العجم فعلمهم في حديث طويل فلم يستكملوا ذلك، فأتى بلد الهند فعلم رجلاً منهم فمن هناك صار علم النجوم بها، وقد قال قوم هو علم من علم الأَنبياء خصّوا به لأَسباب شتّى فلم يستدرك المنجمون الدّقيق منها فشابوا الحقّ بالكذب[٢].

هذا آخر لفظ مولانا عليّ بن موسى الرّضا ﷺ في هذه الرواية الجليلة الأَسناد

---

(١) الكافي: ٨/ ٣٣ ح ٥٠٧، شرح أصول الكافي: ١٢/ ٤٦١.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٣/ ١٠٠ ح ١٤٨٩٠، فرج الهموم: ٩٤.

وقوله عليه السلام حجة على العباد، وقوله عليه السلام ذكروا ويقال فإنّ عادته عند التقية من المخالفين والعامة يقول نحو هذا الكلام وتارة يقول كان أبي يقول وتارة روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومنها ما فيه أيضاً من كتاب «**النجوم**» وجادة في كتاب عتيق عن عطا قال: قيل لعلي بن أبي طالب عليه السلام: هل كان للنجوم أصل؟ قال: نعم نبي من الأنبياء قال له قومه إنا لا نؤمن بك حتّى تعلمنا بدء الخلق وآجاله فأوحى الله عزّ وجل إلى غمامة فأمطرتهم واستنقع حول الجبل ماء صافياً، ثمّ أوحى الله عزّ وجل إلى الشّمس والقمر والنجوم أن تجري في ذلك الماء، ثمّ أوحى الله عزّ وجلّ إلى ذلك النبي أن يرتقي هو وقومه على الجبل فارتقوا الجبل فقاموا على الماء حتّى عرفوا بدء الخلق وآجاله بمجاري الشّمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنّهار.

وكان أحدهم يعلم متى يموت ومتى يمرض ومن ذا الذي يولد له ومن ذا الذي لا يولد له فبقوا كذلك برهة من دهرهم.

ثمّ إنّ داوود عليه السلام قاتلهم على الكفر فأخرجوا إلى داوود في القتال من لم يحضر أجله ومن حضر أجله أخلفوه في بيوتهم فكان يقتل من أصحاب داوود ولا يقتل من هؤلاء واحد، فقال داوود عليه السلام: ربّ أقاتل على طاعتك ويقاتل هؤلاء على معصيتك فيقتل أصحابي ولا يقتل من هؤلاء أحد؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إنّي كنت علمتهم بدء الخلق وآجاله إنّما أخرجوا إليك من لم يحضر أجله ومن حضر أجله خلفوه في بيوتهم فمن ثمّ يقتل من أصحابك ولا يقتل منهم أحد قال داوود: يا ربّ على ماذا علمتهم؟ قال تعالى: على مجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار.

قال عليه السلام فدعا الله عزّ وجل فحبس الشمس عليهم فزاد في النّهار واختلط الزّيادة بالليل والنهار فلم يعرفوا قدر الزّيادة فاختلط حسابهم قال علي عليه السلام فمن ثمّ كره النظر في علم النجوم[١]، ورواه فيه أيضاً عن «**الدّر المنثور**»، نعم زاد فيه أنّ النبي المذكور كان يوشع بن نون.

ومنها ما رواه يونس بن عبد الرحمٰن قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك أخبرني عن علم النجوم ما هو؟ قال عليه السلام هو علم من علم الأنبياء، قال: فقلت: كان علي بن أبي طالب عليه السلام يعلمه؟ فقال: كان أعلم الناس به[٢].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة لا نطيل بذكرها ومن أراد الزّيادة فليراجع إلى كتاب السّماء والعالم من «**البحار**»، فقد عقد المجلسي «ره» فيه باباً على ذلك واستوفى الكلام فيه.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٣/ ١٠٠، فرج الهموم: ٢٣.

(٢) فرج الهموم: ٢.

واما الإعتبار فهو إنا قد سمعنا تظافراً بل تواتراً وحصل لنا العلم وجداناً بأن من المنجمين من حصل له العلم بجملة من الحوادث الإستقبالية في موارد شتى من طريق النجوم وحكموا فيه فكان حكمه مطابقاً للواقع ولا بأس بالإشارة إلى بعض تلك الموارد تأييداً واستظهاراً.

فمنها دلالة النجوم على نبوّة نوح فقد رواه في «**البحار**» من كتاب التجمل بإسناده عن جميل عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام عمن ذكره قال: قد كان علم نبوّة نوح بالنجوم[١].

ومنها دلالتها على إبراهيم ففي «**البحار**» أيضاً من كتاب النجوم من كتاب التجمل إنّ آذر أبا إبراهيم كان منجماً لنمرود ولم يكن يصدر إلاّ عن أمره فنظر ليلة في النجوم فأصبح وهو يقول لنمرود لقد رأيت في النجوم عجباً، قال: وما هو؟ قال: رأيت مولوداً يولد في زماننا يكون هلاكنا على يديه ولا يلبث إلا قليلاً حتى يحمل به قال: فتعجب من ذلك ثم قال: هل حملت به النساء بعد؟ قال: لا، فحجب الرّجال عن النساء ولم يدع امرأة إلا جعلها في المدينة ولا يخلص إليها بعلها.

قال: فوقع آذر على أهله فحملت بإبراهيم فظنّ أنّه صاحبه فأرسل إلى قوابل ذلك الزّمان وكن أعلم النّاس بالجنين ولا يكون في الرّحم شيء إلا عرفنه وعلمن به، فنظرن فألزم ما في الرّحم الظهر فقلن: ما نرى في بطنها شيئاً، قال: وكان ممّا أوتي من العلم أنّ المولود سيحرق بالنار ولم يؤت علماً أنّ الله سينجيه منها.

قال المجلسي: وقد روى هذا الحديث عليّ بن إبراهيم في كتاب تفسير القرآن بأبسط من هذه الرّواية ورواه أيضاً أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري في الجزء الأول من «**تاريخه**»، ورواه أيضاً سعيد بن هبة الله الراوندي في كتاب «**قصص الأنبياء**»، ورواه الثعلبي في «**تفسيره**» وغيره من العلماء[٢].

ومنها دلالتها على نبوّة موسى عليه السلام وكتب التواريخ مشحونة بذلك وقد روى المجلسي من كتاب «**العرائس**» للثعلبي قال: إنّ فرعون رأى في منامه أنّ ناراً قد أقبلت من بيت المقدس حتّى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فدعى فرعون السّحرة والكهنة والمعبرين والمنجمين وسألهم عن رؤياه فقالوا له: إنّه يولد في بني إسرائيل غلام يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك، ويخرجك وقومك من أرضك ويذلّ دينك وقد أظلك زمانه الذي يولد فيه.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٥/ ٢٣٥.

(٢) الكافي: ٨/ ٣٦٧، وتفسير نور الثقلين: ١/ ٧٢٩.

ومنها دلالتها على نبوة عيسى عليه السلام روى في «**البحار**» من كتاب النبوة لابن بابويه في باب سياقه حديث عيسى ابن مريم فقال ما هذا لفظه: وقدم عليها وفد من علماء المجوس زائرين معظمين لأمر ابنها وقالوا إنا قوم ننظر في النجوم فلما ولد ابنك طلع بمولده نجم من نجوم الملك فنظرنا فيه فإذا ملكه ملك نبوة لا يزول عنه ولا يفارقه حتى يرفعه إلى السماء ويجاور ربّه عز وجل ما كانت الدنيا مكانها ثم يصير إلى ملك هو أطول وأبقى مما كان فيه.

فخرجنا من قبل حتّى رفعنا إلى هذا المكان فوجدنا النجم متطلعاً عليه من فوقه فبذلك عرفنا موضعه وقد اهدينا له هدية جعلناها له قرباناً لم يقرب مثله لأحد قط وذلك إنا وجدنا هذا القربان يشبه أمره وهو الذهب والمرّ واللبان لأن الذهب سيد المتاع كله وكذلك إبنك سيد الناس ما كان حيّاً، ولأن المرّ جبار الجراحات والعاهات كلها ولأن اللّبان يبلغ دخانه السّماء ولن يبلغها دخان شيء غيره وكذلك ابنك يرفعه الله عزّ وجلّ إلى السّماء وليس يرفع من أهل زمانه غيره.

ومنها دلالتها على النبي صلى الله عليه وآله ففي «**البحار**» وجاده في كتاب «**دلائل النبوّة**» جمع أبي القاسم الحسين بن محمّد السّكوني بإسناده عن حسان بن ثابت قال إني والله لغلام يافع ابن سبع أو ثمان سنين أعقل كلما سمعت إذ سمعت يهوديّاً وهو على أكمة يثرب يصرخ يا معشر اليهود فلما اجتمعوا قالوا ويلك مالك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يبعث به الليلة.

قال: ووجدت كتاباً عندنا الآن اسمه كتاب اليد الصيني عمله كشينا ملك الهند يذكر فيه تفصيل دلالة النّجوم على نبوة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله.

ومنها موارد متفرقة ذكر السّيد بن طاووس (ره) في رسالته التي دونها في النّجوم وذكر جماعة من العلماء المعتنين بهذا العلم العارفين به تأييداً لصحته.

قال المجلسي: والسّيد الجليل النبيل علي بن طاوس (ره) لأنس قليل له بهذا العلم عمل في ذلك رسالة وبالغ في الإنكار على من اعتقد أنّ النّجوم ذوات إرادة فاعلة أو مؤثرة واستدلّ على ذلك بدلائل كثيرة وأيده بكلام جمّ غفير من الأفاضل إلاّ أنّه أنكر على السّيد الأَجل المرتضى (ره) في تحريمه وذهب إلى أنه من العلوم المباحات وأنّ النّجوم علامات ودلالات على الحادثات لكن يجوز للقادر الحكيم أن يغيرها بالبرّ والصدقة والدّعاء وغير ذلك من الأسباب والدّواعي على وفق أرائه وحكمته، وجوّز تعليم علم النجوم وتعلمه والنظر فيه والعمل به إذا لم يعتقد أنها مؤثرة، وحمل أخبار النّهي والذّم على ما إذا اعتقد ذلك.

ثمّ ذكر تأييداً لصحّة هذا العلم أسماء جماعة من الشيعة كانوا عارفين به فقال: إنّ جماعة من بني نوبخت كانوا علماء بالنجوم وقدوة في هذا الباب ووقفت على عدّة مصنّفات لهم في النّجوم وأنها دلالات على الحادثات.

منهم الحسن بن موسى النّوبختي.

ومن علماء المنجمين من الشيعة أحمد بن محمّد بن خالد البرقي وذكر النجاشي في كتبه كتاب «**النّجوم**».

ومنهم أحمد بن محمّد بن طلحة، فقد عد الشيخ والنجاشي من كتبه كتاب «**النجوم**» والشيخ النجاشي كان له تصنيف في «**النجوم**».

ومن المذكورين بعلم النّجوم الجلودي البصري.

ومنهم علي بن محمّد بن العدوي والشّمشاطي فإنّه ذكر النجاشي أن له رسالة في إبطال أحكام النجوم.

ومنهم علي بن محمّد العباس فإنّ النجاشي ذكر في كتبه كتاب الرّد على المنجمين كتاب الرّد على الفلاسفة.

ومنهم محمّد بن أبي عمير.

ومنهم محمّد بن مسعود العياشي فإنّه ذكر في تصانيفه كتاب «**النجوم**».

ومنهم موسى بن الحسن بن عباس بن إسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت قال النجاشي كان حسن المعرفة بالنجوم وله مصنّفات فيه وكان مع ذلك حسن العبادة والدّين.

ومنهم الفضل بن أبي سهل بن نوبخت وصل إلينا من تصانيفه ما يدلّ على قوة معرفته بالنجوم وذكر عن «**العيون**» ما أوردته في أبواب تاريخ الرّضا عليه السلام من أنّه أخبر المأمون بخطأ المنجمين في السّاعة التي إختاروها لولاية العهد، فزجره المأمون ونهاه أن يخبر به أحداً فعلم أنّه تعمد ذلك.

أقول: والظاهر أنّ المراد بها هي ما رواها في «**العيون**» عن البيهقي عن الصّولي عن عون بن محمّد قال: حدّثني الفضل بن أبي سهل النوبختي أو عن أخ له قال: لما عزم المأمون على العقد للرّضا عليه السلام بالعهد قلت والله لأعتبر ما في نفس المأمون من هذا الأمر أيحب تمامه أو هو تصنع به، فكتبت إليه على يد خادم له كان يكاتبني بأسراره على يده:

قد عزم ذو الرّئاستين على عقد العهد والطالع السّرطان وفيه المشتري والسّرطان وإن كان شرف المشتري فهو برج منقلب لا يتمّ أمر يعقد فيه ومع هذا فإنّ المريخ في الميزان في بيت العاقبة وهذا يدلّ على نكبة المعقود له وعرفت أمير المؤمنين ذلك لئلا يعتب عليّ إذا وقف على هذا من غيري.

فكتب إليّ: إذا قرأت جوابي إليك فأردده إليّ مع الخادم، ونفسك أن يقف أحد على ما

عرفتنيه أو أن يرجع ذو الرّئاستين عن عزمه فإنّه إن فعل ذلك الحقت الذّنب بك وعلمت أنك سببه، قال فضاقت عليّ الدّنيا وتمنّيت أنّي ما كنت كتبت إليه.

ثمّ بلغني أنّ الفضل بن سهل ذو الرّئاستين قد تنبّه على الأمر ورجع عن عزمه وكان حسن العلم بالنجوم فخفت والله على نفسي وركبت إليه فقلت له: أتعلم نجماً في السّماء أسعد من المشتري؟ قال: لا قلت: أفتعلم أنّ في الكواكب نجماً تكون في حال أسعد منها في شرفها؟ قال: لا، قلت: فامض العزم على رأيك إذ كنت تعتقد أن الفلك في أسعد حالاته فأمضى الأمر على ذلك فما علمت أنّي من أهل الدّنيا حتّى وقع العقد فزعاً من المأمون.

قال: ومنهم السّيد الفاضل علي بن أبي الحسن العلويّ المعروف بابن الأعلم وكان صاحب الزّيج.

ومنهم: أبو الحسن النقيب الملقب أبا قيراط.

ومنهم: الشّيخ الفاضل الشّيعي عليّ بن الحسين بن عليّ بن المسعودي مصنّف كتاب **«مروج الذّهب»**.

ومنهم أبو القاسم ابن نافع من أصحابنا الشّيعة.

ومنهم: إبراهيم الفزاري صاحب القصيدة في **«النّجوم»** وكان منجماً لمنصور.

ومنهم: الشّيخ الفاضل أحمد بن يوسف بن إبراهيم المصري كاتب آل طولون.

ومنهم: الشّيخ الفاضل محمّد بن عبد الله بن عمر البازيار القميّ تلميذ أبي معشر.

ومنهم: الشيخ الفاضل أبو الحسين بن أبي الخضيب القمي.

ومنهم: أبو جعفر السقاء المنجم ذكره الشّيخ في الرّجال.

ومنهم: محمّد بن أحمد بن سليم الجعفي مصنّف كتاب الفاخر.

ومنهم: محمود بن الحسين بن السّندي بن شاهك المعروف بكشاجم ذكر ابن شهر آشوب أنّه كان شاعراً منجماً متكلّماً.

ومنهم: العفيف بن قيس أخو الأشعث ذكره المبرد، وقد مرّ أنّه قيل إنه هو الذي أشار إلى أمير المؤمنين بترك قتال الخوارج في السّاعة التي أراد.

ثمّ قال (ره): وممّن أدركته من علماء الشّيعة العارفين بالنجوم وعرفت بعض إصاباته الفقيه العالم الزّاهد الملقب خطير الدّين محمود بن محمّد.

وممّن رأيته الشيخ الفاضل أبو نصر الحسن بن علي القمي، ثمّ عدّ من اشتهر بعلم

النّجوم وقيل: إنّه من الشّيعة فقال:

منهم: أحمد بن محمّد السّنجري، والشّيخ الفاضل علي بن أحمد العمراني، والفاضل إسحاق بن يعقوب الكندي.

قال: وممّن اشتهر بالنجوم من بني العباس محمّد بن عبد العزيز الهاشمي وعلي بن القاسم القصري، وقال وجدت فيما وقفت عليه أنّ علي بن الحسين بن بابويه القمي كان ممن أخذ طالعه في النّجوم وأنّ ميلاده بالسنبلة، ثمّ قال روى الشيخ في اختيار الكشي في بيان حال أبي خالد السجستاني حمدويه وإبراهيم عن محمّد بن عثمان قال: حدّثنا أبو خالد السجستاني أنّه لما مضى أبو الحسن عليه السلام وقف عليه ثمّ نظر في نجومه فزعم أنه قد مات فقطع على موته وخالف أصحابه.

ثمّ قال: ففي هذا عدّة فوائد:

منها: أن هذا أبو خالد كان واقفياً يعتد أن أبا الحسن موسى عليه السلام ما مات فدله الله تعالى بعلم النجوم على موته وقد كان هذا العلم سبب هدايته.

ومنها: أنّه كان من أصحاب الكاظم عليه السلام ولم يبلغنا أنّه عليه السلام أنكر عليه علم النّجوم.

ومنها: أنّه لو علم أبو خالد أنّ علم النّجوم منكر عند إمامه لما اعتمد عليه في عقيدته.

ومنها: اختيار جدي الطوسي لهذا الحديث وتصحيحه وقد تقدم ثناؤه على جماعة من العلماء بالنجوم ثم قال:

وممّن اشتهر بعلمه من بني نوبخت عبد الله بن أبي سهل.

ومن العلماء بالنّجوم محمّد بن إسحاق النديم كان منجماً للعلوي المصري.

ومن المذكورين بالتصنيف في علم النّجوم حسن بن أحمد بن محمّد بن عاصم المعروف بالعاصمي المحدّث الكوفي ثقة سكن بغداد فمن كتبه الكتب النّجومية ذكر ذلك ابن شهر آشوب في كتاب معالم العلماء.

وممن اشتهر بعلم النّجوم من المنسوبين إلى مذهب الإماميّة الفضل بن سهل وزير المأمون فروى محمّد بن عبدوس الجهشياري وغيره ما معناه أنّه لما وقع بين الأمين والمأمون ما وقع واضطربت خراسان وطلب جند المأمون أرزاقهم وتوجه عليّ بن عيسى بن ماهان من العراق لحرب المأمون وصعد المأمون إلى منظرة للخوف على نفسه من جنده ومعه الفضل وقد ضاق عليه مجال التدبير وعزم على مفارقة ما هو فيه أخذ الفضل طالعه ورفع إسطرلاباً وقال ما تنزل من هذه المنزلة إلاّ خليفة غالباً لأخيك الأمين فلا تعجل وما زال يسكنه ويثبته حتّى ورد عليهم في تلك الساعة رأس علي بن عيسى وقد قتله طاهر وثبت ملكه وزال ما كان

يخافه وظفر بالأمان وروى خبراً آخر مثل ذلك.

ثم قال وممّن كان عالماً بالنجوم من المنسوبين إلى الشيعة الحسن بن سهل ثمّ ذكر ما أخرجنا من «العيون» في أبواب تاريخ الرّضا عليه السلام من حديث الحمام وقتل الفضل فيه.

أقول: الرّواية في «العيون» بسنده عن ياسر الخادم يذكر فيها خروج الرّضا عليه السلام والمأمون وذي الرّئاستين من مرو إلى المدينة وفيها:

وخرج المأمون وخرجنا مع الرّضا عليه السلام فلما كان بعد ذلك بأيام ونحن في بعض المنازل ورد على ذي الرّئاستين كتاب عن أخيه الحسن بن سهل إنّي نظرت في تحويل هذه السنة في حساب النجوم فوجدت فيه أنّك تذوق في شهر كذا يوم الأربعاء حرّ الحديد وحرّ النار وأرى أن تدخل أنت والرّضا عليه السلام وأمير المؤمنين الحمام في ذلك اليوم فتحتجم أنت فيه وتصب الدّم ليزول نحسه عنك.

فبعث الفضل إلى المأمون وكتب إليه بذلك وسأله أن يدخل الحمام معه وسأل أبا الحسن عليه السلام أيضاً ذلك فكتب المأمون إلى الرّضا عليه السلام رقعة في ذلك فسأله أن يدخل الحمام معه فكتب إليه أبو الحسن عليه السلام لست بداخل غداً الحمام ولا أرى لك يا أمير المؤمنين أن تدخل الحمام غداً ولا أرى الفضل أن يدخل الحمام غداً فأعاد إليه مرتين فكتب إليه أبو الحسن عليه السلام لست بداخل غداً الحمام ولا أرى لك يا أمير المؤمنين أن تدخل الحمام غداً ولا أرى الفضل أن يدخل الحمام غداً فأعاد إليه مرتين فكتب إليه أبو الحسن لست بداخل غداً الحمام فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في النوم في هذه الليلة يقول لي: يا علي لا تدخل الحمام غداً فكتب إليه المأمون: صدقت يا سيدي وصدق رسول الله لست بداخل غداً الحمام والفضل فهو أعلم وما فعله.

قال ياسر: فلما أمسينا وغابت الشمس، فقال لنا الرّضا عليه السلام: قولوا: نعوذ بالله من شرّ ما ينزل في هذه الليلة فأقبلنا نقول ذلك، فلما صلى الرّضا عليه السلام الصّبح قال لنا: قولوا نعوذ بالله من شر ما ينزل في هذا اليوم، فما زلنا نقول ذلك.

فلما كان قريباً من طلوع الشمس قال لي الرّضا عليه السلام: أصعد السّطح فاستمع هل تسمع شيئاً فلما صعدت سمعت الضّيحة[1] والنّحيب وكثرة ذلك فإذا بالمأمون قد دخل من الباب الذي كان إلى داره من دار أبي الحسن عليه السلام يقول: يا سيدي يا أبا الحسن آجرك الله في الفضل وكان دخل الحمام فدخل عليه قوم بالسّيوف وأخذ من دخل عليه في الحمام وكانوا ثلاثة نفر أحدهم ابن خالة الفضل ذو العلمين قال واجتمع القواد والجند ومن كان من جند ذي الرّئاستين

---

(١) في نسخة: الضجة.

على باب المأمون فقالوا اغتاله وقتله فلنطلبن بدمه.

فقال المأمون للرضا عليه السلام: يا سيدي ترى أن تخرج إليهم فتفرقهم قال ياسر: فركب الرّضا عليه السلام وقال لي إركب فلما خرجنا من الباب نزل الرّضا عليه السلام إليهم وقد اجتمعوا وجاؤوا بالنّيران ليحرقوا الباب فصاح بهم وأومى إليهم بيده تفرّقوا، فتفرّقوا قال ياسر: فأقبل النّاس والله يقع بعضهم على بعض وما أشار إلى أحد إلاّ ركض ومرّ ولم يقف به[1].

ثمّ قال السّيد: رأيت في كتاب «**الوزراء**» جمع عبد الرّحمٰن بن المبارك أنّه ذكر محمّد بن سعيد أنّه وجد على كتاب من كتب ذي الرّئاستين بخطه هذه السنة الفلانية التي تكون فيها النكبة وإلى الله نرغب في رفعها وإن صحّ من حساب الفلك شيء فالأمر واقع فيها لا محالة ونسأل الله أن يختم لنا بخير بمنه، وكان يعمل لذي الرّئاستين تقويم في كل سنة فيوقع عليه هذا يوم يصلح لكذا ويجتنب في هذا اليوم كذا، فلما كان في السّنة التي قتل فيها عرض عليه اليوم فجعل يوقع فيه ما يصلح حتّى انتهى إلى اليوم الذي قتل فيه فقال: افٍّ لهذا اليوم ما أشرّه عليّ ورمى بالتّقويم.

وروى عن أخت الفضل قالت: دخل الفضل إلى أمّه في الليلة التي قتل في صبيحتها فقعد إلى جانبها وأقبل يعظها ويعزيها عن نفسه ويذكرها حوادث الدهر وتقضي أمور العباد، ثم قبل صدرها وثديها وودّعها وداع المفارق، ثمّ قام فخرج وهو قلق منزعج لما دله عليه الحساب، فجعل ينتقل من موضع إلى موضع ومن مجلس إلى مجلس وامتنع عليه النوم.

فلما كان السّحر قام إلى الحمام وقدر أن يجعل غمه وحرارته وكربه هو الذي دلت عليه النّجوم، وقدّمت له بغلة فركبها وكان الحمام في آخر البستان فكبت به البغلة فسرّه ذلك وقدر أنّها هي النكبة التي كان يتخوفها، ثمّ مشى إلى الحمام ولم يزل حتّى دخل الحمام واغتسل فيه فقتل.

قال: ومن المذكورين بعلم النجوم بوران بنت الحسن بن سهل، وجدت في مجموع عتيق أنّ بوران كانت في المنزلة العليا بأصناف العلوم لا سيّما في النجوم فإنّها برعت فيه وبلغت أقصى نهايته وكانت ترفع الإسطرلاب كل وقت وتنظر إلى مولد المعتصم فعثرت يوماً بقطع عليه سببه الخشب.

فقالت لوالدها الحسن: انصرف إلى أمير المؤمنين وعرّفه أنّ الجارية فلانة قد نظرت إلى المولد ورفعت الاسطرلاب فدلّ الحساب والله أعلم أنّ قطعاً يلحق أمير المؤمنين من خشب في السّاعة الفلانية من يوم بعينه.

---

(١) عيون أخبار الرضا (ع) ١/ ١٧٤، بحار الأنوار: ٤٩/ ١٦٩.

قال الحسن: يا قرّة عيني يا سيدّة الحرائر إنّ أمير المؤمنين قد تغيّر علينا وربّما أصغى إلى شيء بخلاف ما يقتضيه وجه المشورة والنّصيحة، قالت: يا أبه وما عليك من نصيحة إمامك لأنّه خطر بروح لا عوض منها، فإن قبلها وإلاّ كنت قد أدّيت المفروض عليك.

قال: فانصرف الحسن إلى المعتصم وعرفه ما قالت بوران؛ قال المعتصم: أيّها الحسن أحسن الله جزاءها وجزاءك انصرف إليها وخصّها عني بالسّلام واسألها ثانياً وأحضر عندي اليوم الذي عيّنت عليه ولازمني حتّى ينصرم النوم ويذهب فلست أشاركك في هذه المشورة والتّدبير أحداً من البشر.

قال: فلما كان صباح ذلك اليوم دخل عليه الحسن فأمر المعتصم حتّى خرج كل من في المجلس وخلا إليه وأشار عليه أن ينتقل عن المجلس السقفي إلى مجلس ابن أزجي[1] لا يوجد فيه وزن درهم واحد من الخشب، وما زال الحسن يحدثه والمعتصم يمازحه وينشطه حتّى أظهر النّهار وضربت نوبة الصّلاة فقام المعتصم ليتوضّأ فقال الحسن لا تخرج أمير المؤمنين عن هذا المجلس ويكون الوضوء والصّلاة وكل ما تريد فيه حتّى ينصرم اليوم.

فجاءه خادم ومعه المشط والمسواك فقال الحسن للخادم أمتشط بالمشط واستك بالسّواك فامتنع وقال: وكيف أتناول آلة أمير المؤمنين، قال المعتصم: ويلك امتثل قول الحسن ولا تخالف ففعل فسقطت ثناياه وانتفخ دماغه وخر مغشيّاً عليه ورفع ميتاً، وقام الحسن ليخرج فاستدعاه المعتصم إليه واحتضنه ولم يفارقه حتّى قبل عينيه وردّ على بوران أملاكاً وضيعاً، وكان ابن الزّيات سلبها عنها وذكر مثله برواية أخرى[2].

وروى من كتاب الوزراء لمحمد بن عبدوس عن إسماعيل بن صبيح قال: كنت يوماً بين يدي يحيى بن خالد البرمكي فدخل عليه جعفر بن يحيى فلما رآه صاح وأعرض بوجهه عنه وقطب وكره رؤيته فلما انصرف قلت له: أطال الله بقاءك تفعل هذا بابنك وحاله عند أمير المؤمنين حالة لا يقدم عليه ولداً ولا وليّاً، فقال: إليك عني أيّها الرّجل فوالله لا يكون هلاك أهل هذا البيت إلاّ بسببه.

فلما كان بعد مدّة من ذلك دخل عليه أيضاً جعفر وأنا بحضرته ففعل مثل ما فعل الأوّل وأكدت عليه القول فقال: ادن منّي الدّوات، فأدنيتها وكتب كلمات يسيرة في رقعة وختمها ودفعها إلي وقال: بلى ليكن عندك فإذا دخلت سنة سبع وثمانية ومائة ومضى النّجوم فانظر فيها، فلما كان في صفر أوقع الرّشيد بهم فنظرت في الرقعة فكان الوقت الذي ذكره، قال إسماعيل: وكان يحيى أعلم النّاس بالنّجوم.

---

(١) في البحار: أرخى.

(٢) خرج المهموم: ١٣٧، والبحار: ٥٥/ ٣٠٢.

وروى أيضاً عن محمّد بن عبدوس صاحب كتاب «الوزراء» عن موسى بن نصر الوصيف عن أبيه قال: غدوت إلى يحيى بن خالد في آخر أمره أريد عيادته من علة كان يجدها، فوجدت في دهليزه بغلاً مسرجاً فدخلت إليه فكان يأنس بي ويفضي إليّ بسرّه، فوجدته مفكراً مهموماً ورأيته مستخلياً مشتغلاً بحساب النّجوم وهو ينظر فيه فقلت له:

إني لما رأيت بغلاً مسرّجاً سرّني لأنّي قدرت انصراف العلة وأنّ عزمك الرّكوب، ثمّ قد غمّني ما أراه من همك قال: فقال لي: إنّ لهذا البغل قصّة إنّي رأيت البارحة في النّوم كأنّي راكبة حتّى وافيت رأس الجسر من الجانب الأيسر فوقفت فإذا بصائح يصيح من الجانب الآخر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال: فضربت يدي على قربوس السّرج وقلت:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

ثمّ انتبهت فلجأت إلى أخذ الطالع فأخذته وضربت الأمر ظهراً لبطن فوقفت على أنّه لا بد من انقضاء مدّتنا وزوال أمرنا، قال: فما كان يكاد يفرغ من كلامه حتّى دخل عليه مسرور الخادم بخوانة مغطاة وفيها رأس جعفر بن يحيى وقال له: يقول لك أمير المؤمنين: كيف رأيت نقمة الله في الفاجر، فقال له يحيى قوله: يا أمير المؤمنين أرى أنّك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك.

ثمّ قال: ومن رأيت ذكره في علماء النّجوم وإن لم أعلم مذهبه إبراهيم بن السّندي بن شاهك وكان منجماً طبيباً متكلماً.

ومن العلماء بالنّجوم عضد الدولة ابن بويه وكان منسوباً إلى التشيع ولعله كان يرى مذهب الزّيدية.

ومنهم الشّيخ المعظم محمود بن علي الحمصي كما حكينا عنه.

ومنهم جابر بن حيّان صاحب الصّادق عليه السلام وذكره ابن النديم في رجال الشّيعة.

وممّن ذكر بعلم النجوم من الوزراء أبو أيوب سليمان بن مخلد المورياني.

ومن ظهر فيه العمل على النجوم البرامكة ذكر عبد الله بن المبارك أن جعفراً لما عزم على الانتقال إلى قصره الذي بناه وجمع المنجمين لاختيار وقت ينتقل فيه فاختاروا له وقتاً من الليل، فلما حضر الوقت خرج على حمار من الموضع الذي ينزل على قصره والطرق خالية والنّاس ساكنون فلما وصل إلى سوق يحيى رأى رجلاً يقول:

يدبر بالنجوم وليس يدري وربّ النّجم يفعل ما يريد

فاستوحش ووقف ودعا بالرّجل فقال له: أعد عليّ ما قلت فأعاده فقال: ما أردت بهذا؟

قال: والله ما أردت به معنى من المعاني لكنّه عرض لي وجاء على لساني، فأمر له بدنانير.

ثمّ ذكر إصابات كثيرة من المنجمين نقلاً من كتبهم، ونقل من كتاب «**ربيع الأبرار**» أنّ رجلاً دخل أصبعيه في حلقتي مقراض وقال لمنجم: إيش ترى في يدي؟ فقال: خاتمي حديد.

وقال: فقدت في دار بعض الرّؤساء مشربة فضة فوجه إلى ابن هامان يسأله فقال: المشربة سرقت نفسها، فضحك منه واغتاض وقال: هل في الدار جارية اسمها فضّة أخذت الفضة فكان كما قال.

وقال: سعى بمنجم فأمر بصلبه فقيل له هل رأيت هذا في نجومك؟ فقال: رأيت ارتفاعاً ولكن لم أعلم أنّه فوق خشبة.

وقال: من الملوك المشهورين بعلم النجوم وتقريب أهله المأمون، وذكر محمّد بن إسحاق أنّه كان سبب نقل كتب النجوم من بلاد الرّوم ونشرها بين المسلمين.

وذكر المسعودي في حديث وفاة المأمون قال: فأمرنا بإحضار جماعة من أهل الموضع فسألهم ما تفسير التديون فقالوا: تفسيره مدّ رجليك، فلما سمع المأمون بذلك اضطرب وتطير بهذا الإسم وقال سلوهم ما اسم هذا الموضع بالعربية قالوا: إسمه بالعربيّة الرقة، وكان فيما عمل من مولد المأمون أنّه يموت بالرقة، فلما سمع إسم الرقة عرفه أنّه الموضع الذي ذكر في مولده وأنّه لا يموت إلاّ برقة فمات به كما اقتضت دلالة النّجوم، انتهى ما أردنا إيراده من كلام السّيد(١).

فقد بان وظهر منه وممّا قدّمنا أنّ الإصابة في النّجوم غير عزيزة وإن كان الخطأ فيها كثيراً أيضاً إلاّ أنّ وقوع الخطأ لا يدلّ على بطلانها من أصلها وسرّ كثرة الخطأ هو ما أشرنا إليه سابقاً من عسر الضّبط والإحاطة بأقطارها.

وإليه الإشارة في خبر عبد الرّحمٰن بن السّيابة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك إنّ النّاس يقولون إنّ النّجوم لا يحل النّظر فيها فإن كان يضرّ بديني فلا حاجة لي في شيء يضرّ بديني، وإن كان لا يضرّ بديني فوالله إنّي لاشتهيها واشتهي النّظر إليها، فقال عليه السلام: ليس كما يقولون لا يضرّ بدينك، ثمّ قال عليه السلام: إنّكم تنظرون في شيء كثيره لا يدرك وقليله لا ينفع(٢).

وفي خبر هشام قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: كيف بصرك في النجوم؟ قلت: ما خلفت بالعراق أبصر بالنّجوم [مني] ثمّ سأله عن أشياء لم يعرفها، ثمّ قال عليه السلام: فما بال العسكرين يلتقيان في هذا وفي ذاك فيحسب هذا لصاحبه بالظفر ويحسب هذا لصاحبه بالظفر

(١) البحار: ٥٥/ ٣٠٥.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٦٨ ح ٢٤٠٣.

فيلتقيان فيهزم أحدهما الآخر فأين كانت النّجوم؟ قال: فقلت: والله ما أعلم ذلك، فقال عليه السلام: إنّ أصل الحساب حقّ ولكن لا يعلم ذلك إلاّ من علم مواليد الخلق[١].

الأمر الخامس

في الحكم الشرعي للعمل بالنّجوم وأنّه هل يجوز تعليمه وتعلمه واستنباط الأحكام منه والأخبار عن الحوادث الإستقبالية على وجه القطع أو الظنّ من طريق النّجوم.

المستفاد من السّيد بن طاووس (ره) في كلامه الذي قدّمناه ذكره في المقام الثاني هو الجواز بحمل الأخبار النّاهية على ما إذا اعتقد التأثير.

ومثله شيخنا البهائي (ره) في محكي كلامه وما يدّعيه المنجّمون من ارتباط بعض الحوادث السفليّة بالأجرام العلويّة إن زعموا أنّ تلك الأجرام هي العلّة المؤثرة في تلك الحوادث بالاستقلال أو أنّها شريكة في التأثير فهذا لا يحلّ للمسلم اعتقاده، وعلم النّجوم المبتني على هذا كفر والعياذ بالله، وعلى هذا حمل ما ورد في الحديث من التّحذير عن علم النّجوم والنّهي عن اعتقاد صحّته.

وإن قالوا إنّ اتصالات تلك الأجرام وما يعرض لها من الأوضاع علامات على بعض حوادث هذا العالم ممّا يوجده الله سبحانه بقدرته وإرادته كما أنّ حركات النّبض واختلافات أوضاعه علامات يستدلّ بها الطبيب على ما يعرض للبدن من قرب الصّحة واشتداد المرض ونحو ذلك، وكما يستدلّ باختلاج بعض الأعضاء على بعض الأحوال المستقبلة، فهذا لا مانع منه ولا حرج في اعتقاده، وما روي من صحّة علم النّجوم وجواز نقله محمول على هذا المعنى.

ثمّ قال: الأمور التي يحكم بها المنجمون من الحوادث الاستقباليّة أصول بعضها مأخوذة من أصحاب الوحي سلام الله عليهم، وبعضها يدّعون فيها التّجربة، وبعضها مبتن على أمور منشعبة لا تفي قوّة البشريّة في الأغلب بضبطها والإحاطة بها كما يومي إليه قول الصّادق عليه السلام: كثيره لا يدرك وقليله لا ينتج[٢]، فلذلك وجد الاختلاف في كلامهم وتطرق الخطأ إلى بعض أحكامهم ومن اتفق له الجري على الأصول الصّحيحة صحّ كلامه وصدقت أحكامه لا محالة كما نطق به كلام الصّادق عليه السلام في الرّواية المذكورة قبيل هذا الفصل يعني رواية ابن سيابة، ولكن هذا أمر عزيز المنازل لا يظفر به إلا القليل والله الهادي إلى سواء السّبيل.

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٥٢، وسائل الشيعة: ١٧/ ١٤٢.

(٢) كتاب المكاسب: ١/ ٢٢٤ وجواهر الكلام: ٢٢/ ١٠٣ وفيه: لا ينتفع به.

أقول: ولقد أجاد (ره) فيما أفاد إلاّ أنّ في الأخبار النّاهية ما يأبى عن الحمل الذي ذكره مثل خبر المنجّم الذي عرض لأمير المؤمنين عليه السلام عند المسير إلى النّهروان على ما تقدّم روايته منّا ومن السّيد (ره) في المتن، فإنّ الظاهر منها أنّ المنجّم المذكور لم يكن معتقداً للتّأثير في النّجوم ومع ذلك فقد نهاه عليه السلام عنه بمحض حكمه المستند إليه، فافهم.

ويظهر من شيخنا صاحب الجواهر الميل إلى الجواز أيضاً حيث قال: والتّحقيق أنّه لا بأس بالنّظر في هذا العلم وتعلّمه وتعليمه والأخبار عمّا يقتضيه ممّا وصل إليه من قواعده لا على جهة الجزم بل على معنى جريان عادة الله بفعل كذا عند كذا وعدم اطّراده غير قادح، فإنّ الله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب، بل قد يتوقف في الكراهة فضلاً عن الحرمة، بل يمكن حصول زيادة العرفان بمعرفته والترقي إلى بعض درجات الإيمان بممارسته.

ودعوى أنّ فيه تعريضاً للوقوع في المحظور من اعتقاد التّأثير فيحرم لذلك أو لأنّ أحكامه تخمينيّة كما ترى خصوصاً الثّاني ضرورة عدم حرمة مراعات الظنون في أمثال ذلك بل لعلّ المعلوم من سيرة النّاس وطريقتهم خلافه في الطبّ وغيره والتّعريض المزبور مع أنّه ممنوع لا يكفي في الحرمة وإلاّ لحرّم النّظر في علم الكلام الذي خطره أعظم من ذلك فلا ريب في رجحان ما ذكرناه بل لا يبعد أن يكون النّظر فيه نحو النّظر في علم هيئة الأفلاك الذي يحصل بسببه الإطلاع على حكمة الله وعظم قدرته.

نعم لا ينبغي الجزم بشيء من مقتضياته لاستيثار الله بعلم الغيب، انتهى.

وذهب المرتضى (ره) إلى الحرمة، وهو ظاهر المحدّث المجلسي بل صريحه في **«البحار»** حيث قال بعد بسط الكلام في علم النّجوم ونقل الأخبار وأقوال العلماء فيه ما لفظه: وأمّا كونها إمارات وعلامات جعلها الله دلالة على حدوث الحوادث في عالم الكون والفساد فغير بعيد عن السداد وقد عرفت أنّ كثيراً من الأخبار تدلّ على ذلك.

وهي إمّا مفيدة للعلم العادي لكنّه مخصوص ببعض الأنبياء والأئمة عليهم السلام ومن أخذها منهم لأنّ الطريق إلى العلم بعدم ما يرفع دلالتها من وحي أو إلهام والإحاطة بجميع الشّرائط والموانع والقوابل مختصّة بهم.

أو مفيدة للظنّ، ووقوع مدلولاتها مشروط بتحقّق شروط ورفع موانع، وما في أيدي النّاس ليس ذلك العلم أصلاً أو بعضه منه لكنّه غير معلوم بخصوصه ولا يفيد العلم قطعاً؛ وإفادته نوعاً من الظنّ مشكوك فيه.

وأمّا تعليمه وتعلّمه والعمل به والأخبار بالأمور الخفيّة والمستقبلة وأخذ الطوالع والحكم بها على الأعمار والأحوال الظاهر حرمة ذلك لشمول النهي له، وما ورد أنّها دلالات وعلامات لا يدلّ على التّجويز لغير من أحاط علمه بجميع ذلك من المعصومين وما دل على

الجواز فاخبار أكثرها ضعيفة.

ويمكن حملها على التقية لشيوع العمل بها في زمن خلفاء الجور والسلاطين في أكثر الأعصار وتقرّب المنجّمين عندهم وربّما يؤمي بعض الأخبار إليه، ويمكن حمل أخبار النّهي على الكراهة الشّديدة والجواز على الإباحة أو حمل أخبار النّهي على ما إذا اعتقد التأثير والجواز على عدمه كما فعله السّيد بن طاووس وغيره ولكن الأوّل أظهر وأحوط.

أقول: والأظهر عندي هو الجواز مع الكراهة، أمّا الجواز فللأخبار المجوّزة وأمّا الكراهة فخروجاً عن خلاف من منعه ولوجود أخبار النّهي المحمولة عليها.

فإن قلت: أخبار النّهي ظاهرة في الحرمة فلم لا تحملها على ظاهرها.

قلت: إبقاؤها على ظواهرها موجب لطرح الأخبار الأخرى والجمع بقدر الإمكان أولى، فلا بدّ من صرفها عن الظاهر بحملها على الكراهة أو بالحمل على صورة اعتقاد التأثير وذلك إنّما يجري في بعضها حسبما أشرنا، وأمّا حمل الأخبار المجوّزة على التّقية فبعيد لاشتهار العمل بها بين الخاصّة كالعامّة كما عرفت في المقام الثّالث وعمل بعض أصحاب الأئمة عليهم السّلام بها مع عدم منعهم عن ذلك حسبما قدمنا.

وإلى ذلك ذهب المحقّق الكركي (ره) حيث قال بعد الحكم بحرمة اعتقاد التأثير وكونه كفراً: أمّا التّنجيم لا على هذا الوجه مع التّحرز عن الكذب فإنّه جائز فقد ثبت كراهيّة التّزويج وسفر الحجّ في العقرب وذلك من هذا القبيل، نعم هو مكروه ولا ينجر إلى الاعتقاد الفاسد وقد ورد النّهي عنه مطلقاً حسماً للمادّة.

وهو أيضاً مذهب شيخنا العلامة الأنصاري في المكاسب، قال بعد ذكر الأخبار الدّالة على أنّ للنّجوم أصلاً والأخبار الدّالة على كثرة خطأ المنجّمين ما هذا لفظه: ومن تتبّع هذه الأخبار لم يحصل له ظنّ بالأحكام المستخرجة عنها فضلاً عن القطع، نعم قد يحصل من التّجربة خلفاً عن سلف الظنّ بل العلم بمقارنة حادث من الحوادث لبعض الأوضاع الفلكية، فالأولى التجنّب عن الحكم بها ومع الارتكاب فالأولى الحكم على سبيل التقريب وأنّه لا يبعد أن يقع كذا عنه كذا، والله المسدّد.

الترجمة

از جمله كلام هدايت نظام آن حضرت است كه فرموده است آن را از براى بعض اصحاب خود در حينى كه عزم فرموده بود بر رفتن به سوى خوارج نهروان، پس گفت آن حضرت را بعض اصحاب او: اى اميرمؤمنان اگر سير بفرمايى در اين وقت، مى ترسم كه نرسى به مقصود خويش از طريقه و قاعده علم نجوم، پس فرمود او را كه:

آيا گمان مى كنى كه تو راه مى يابى به ساعتى كه هركه سفر كند در آن بگردد از او بدى و مى ترسانى از ساعتى كه هركه سيرنمايد در آن احاطه كند به او ضرر، هركه تصديق كند تو را به اين سخنان، پس به تحقيق كه تكذيب نموده است بر قرآن و مستغنى شده است از يارى جستن به خدا در رسيدن به امر محبوب و در دفع كردن مكروه و سزاوار است در گفتار تو اين كه تو را حمد نمايد نه پروردگار خود را از جهت اين كه تو به گمان خود راهنما شدى او را به ساعتى كه رسيده در آن به منفعت، خاطر جمع شد در آن از مضرت. بعد از آن توجه فرمود آن حضرت به مردمان، پس فرمود كه:

اى مردمان، حذر نماييد از تعلم علم نجوم مگر آن چيزى كه هدايت بيابيد به آن در بيابان يا در دريا، پس به درستى كه معرفت نجوم داعى مى شود بر كاهنى و منجّم همچو كاهن است و كاهن همچو ساحر است و ساحر همچو كافر است و كافر در آتش است. بعد از آن حضرت فرمود به اصحاب خود كه: سير كنيد به سوى دشمن بر نام خداوند و يارى او.

ومن كلام له عليه السلام وهو التاسع والسبعون من المختار في باب الخطب بعد حرب الجمل في ذم النساء

«مَعَاشِرَ النّاسِ إنَّ النِّسَاءَ نَواقِصُ الإيمانِ، نواقِصُ الْحُظُوظ، نَواقِصُ الْعُقولِ، فَأَمّا نُقْصَانُ إيمانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلاةِ وَالصِّيَامِ في أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وأَمّا نُقْصانُ عُقُولِهِنَّ فَشهادَةُ امْرَأتَينِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْواحِدِ وَأَمّا نُقْصانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوارِيثُهُنَّ عَلَى الإنْصافِ مِنْ مَوارِيثِ الرِّجالِ، فَاتَّقُوا شِرارَهُنَّ وكُونوا مِنْ خيارِهِنَّ عَلى حَذَرٍ، وَلاَ تُطيعُوهُنَّ في الْمَعْرُوفِ حَتّىٰ لا يَطْمَعْنَ في الْمُنْكَرِ»[1].

اللغة

(المعاشر) جمع المعشر وهي الجماعة من النّاس و**(الانصاف)** بفتح الهمزة وكسرها وقد يضمّ كما في **«القاموس»** جمع النّصف بتثليث النّون وهو أحد جزأي الشيء.

الإعراب

(الفاء) في قوله **(فأمّا نقصان إيمانهن)** عاطفة قال الرّضي (ره) في مبحث (فاء) العطف وإن عطفت **(الفاء)** جملة على جملة أفادت كون مضمون الجملة التي بعدها عقيب مضمون التي قبلها بلا فصل، نحو قام زيد فقعد عمرو، وقد تفيد **(فاء)** العطف في الجمل كون المذكور بعدها كلاماً مرتباً في الذّكر على ما قبلها لا إنّ مضمونه عقيب مضمون ما قبلها في الزّمان كقوله تعالى:

﴿فَادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

فإنّ ذكر ذمّ الشّيء أو مدحه يصح بعد جري ذكره، قال: ومن هذا الباب عطف تفصيل المُجْمَل على المُجمَّل كقوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [نوح: ٤٥].

وتقول: أجبته فقلت: لبيك، انتهى.

---

(١) خصائص الأئمة: ١٠٠، ووسائل الشيعة: ٢/٥٨٦ ح ٤.

وكلام الإمام عليه السلام من هذا القبيل لأنّه بعد الإشارة إلى نقصان إيمانهن وعقولهن وحظوظهن لجمالاً نبه على تفصيل جهة النّقصان بقوله فأما نقصان إيمانهن (ا ه)، ونظيرها **(الفاء)** في قوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٧].

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ [البقرة: ٢٦].

فافهم، **(والفاء)** في قوله: **(فقعودهن)** رابطة للجواب وفي قوله **(فاتقوا شرارهن)** فصيحة.

المعنى

إعلم أنّ الغرض من هذا الكلام التّعريض على عائشة وتوبيخها وذمّ من تبعها وإرشاد النّاس إلى ترك طاعة النّساء والاتقاء منهنّ لكونهنّ ناقصات في أنفسهنّ ولا ينبغي للكامل لطاعة النّاقص والإتمام به ووجوه النّقصان ثلاثة كما نبّه عليها بقوله: **(معاشر النّاس إنّ النساء نواقص الإيمان نواقص الحظوظ نواقص العقول)** ولما نبّه على نقصانهن بهذه الوجوه الثّلاثة أشار إلى علة جهات النقص بقوله **(فأمّا نقصان ايمانهن فقعودهنّ عن الصّلاة والصّيام في أيام حيضهنّ)** وقعودهن عنها وإن كان بأمر الله سبحانه إلاّ أنّ سقوط التّكليف لنوع من النقص فيهنّ وسبب النّقص هو حالة الاستقذار والحدث المانعة من القرب المعنوي المشروط في العبادات وفي كلامه دلالة على كون الأعمال اجزاء الإيمان.

ويشهد به ما رواه في **«الكافي»** بإسناده عن أبي الصّباح الكناني عن أبي جعفر عليه السلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله كان مؤمناً؟ قال: فأين فرائض الله؟ قال: وسمعته يقول: لو كان الإيمان كلاماً لم ينزل فيه صوم ولا صلاة ولا حلال ولا حرام[1].

(وأما نقصان عقولهنّ فشهادة امرأتين كشهادة الرّجل الواحد) قال تعالى:

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

روى في **«الوسائل»** عن تفسير العسكري عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٣ ح ٢، ووسائل الشيعة: ١/ ٢٣ ح ١٤.

هذه الآية قال: عدلت امرأتان في الشهادة برجل واحد فإذا كان رجلان أو رجل وامرأتان أقاموا الشّهادة قضي بشهادتهم.

قال عليه السلام: «وجاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: ما بال الامرأتين برجل في الشهادة في الميراث، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ ذلك قضاء من ملك عدل حكيم لا يجور ولا يحيف أيّتها المرأة لأنكنّ ناقصات الدين والعقل إن إحداكنّ تقعد نصف دهرها لا تصلي بحيضة، وأنّكنّ تكثرن اللعن وتكفرن العشير تمكث إحداكن عند الرّجل عشر سنين فصاعداً يحسن إليها وينعم عليها فإذا ضاقت يده يوماً أو ساعة خاصمته وقالت: ما رأيت منك خيراً قط».

وفيه عن محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ قال مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله على نسوة فوقف عليهنّ ثمّ قال صلى الله عليه وآله: يا معاشر النساء ما رأيت نواقص عقول ودين أذهب بعقول ذوي الألباب منكنّ إني رأيت أنكن أكثر أهل النّار عذاباً فتقرّبن إلى الله ما استطعتن، فقالت امرأة منهنّ: يا رسول الله ما نقصان ديننا وعقولنا؟ فقال: أما نقصان دينكنّ فالحيض الذي يصيبكنّ فتمكث احداكن ما شاء الله لا تصلي ولا تصوم، وأمّا نقصان عقولكن فشهادتكن إنّما شهادة المرأة نصف شهادة الرّجل»[١].

وقال وهب بن منبه: قد عاقب الله النساء بعشر خصال: بشدّة النّفاس والحيض وجعل ميراث اثنتين ميراث رجل وشهادتهما شهادة واحد وجعلها ناقصة الدّين والعقل لا تصلي أيّام حيضها ولا تسلم على النساء، وليس عليها جمعة ولا جماعة ولا يكون منها نبي ولا تسافر إلاّ بولي، هذا.

وقوله: **(وأما نقصان حظوظهن فمواريثهنّ على الإنصاف من مواريث الرّجال)** قد مرّ في ثالث تذنيبات الفصل الثّاني عشر من فصول الخطبة الأولى علة زيادة حظ الذّكر على الأنثى في الميراث ونقول هنا مضافاً إلى ما سبق: إنّه قد ذكر لها في بعض الأخبار علل وأسرار أخرى.

وهو ما في **«الوسائل»** عن ثقة الإسلام الكليني بإسناده عن الأحول قال: قال ابن أبي العوجاء: ما بال المرأة المسكينة الضعيفة تأخذ سهماً واحداً ويأخذ الرّجل سهمين؟ قال: فذكر ذلك بعض أصحابنا لأبي عبد الله عليه السلام فقال: إنّ المرأة ليس عليها جهاد ولا نفقة ولا معقلة وإنّما ذلك على الرّجال فلذلك جعل للمرأة سهماً واحداً وللرّجل سهمين[٢].

وفيه عن الصّدوق بإسناده عن محمّد بن سنان أنّ الرّضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: علة إعطاء النساء نصف ما يعطي الرّجال من الميراث لأن المرأة إذا تزوجت أخذت والرّجل يعطي فلذلك وفّر على الرجل، وعلة أخرى في إعطاء الذكر مثلي ما تعطي

(١) وسائل الشيعة: ٢٠/ ٢٥ ح ٢٤٩٣٦.

(٢) الكافي: ٧/ ٨٥ ح ٣، ووسائل الشيعة: ٢٦/ ٩٣ ح ٣٢٥٥٩.

الأنثى لأنّ الأنثى في عيال الذكر إن احتاجت وعليه أن يعولها وعليه نفقتها، وليس على المرأة أن تعول الرّجل ولا تؤخذ بنفقته إن احتاج فوفّر على الرّجال لذلك[١] وذلك قول الله عزّ وجل:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤].

وعنه أيضاً بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لأيّ علة صار الميراث للذكر مثل حظ الانثيين؟ قال: لما جعله الله لها من الصّداق.

وبإسناده عن علي بن سالم عن أبيه قال سألت أبا عبد عليه السلام فقلت له: كيف صار الميراث للذكر مثل حظ الانثيين؟ فقال: لأن الحبات التي أكل آدم وحواء في الجنّة كانت ثمانية عشر حبّة أكل آدم منها اثنتي عشرة حبة وأكلت حواء ستّاً فلذلك صار الميراث للذكر مثل حظ الانثيين[٢].

ثمّ إنّه عليه السلام بعد التّنبيه على جهة النّقصان في النساء أمر بقوله: **(فاتّقوا شرارهنّ)** على التجنب والهرب من الشّرار، وبقوله: **(وكونوا من خيارهنّ على حذر)** على الحذر من الخيار، قال البحراني: ويفهم من ذلك أنّه لا بدّ من مقاربتهن وكان الإنسان إنّما يختار مقاربة الخيرة منهنّ فينبغي أن يكون معها على تحرز وتثبت في سياستها وسياسة نفسه معها إذا لم تكن الخيرة منهنّ خيرة إلاّ بالقياس إلى الشّريرة.

روى في «**الفقيه**» عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ قال فتذاكرنا النساء وفضل بعضهنّ على بعض فقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير نسائكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله فأخبرنا، قال: إنّ من خير نسائكم الولود الودود السّتيرة العفيفة العزيزة في أهلها الذليلة مع بعلها المتبرّجة مع زوجها الحصان مع غيره التي تسمع قوله وتطيع أمره وإذا خلا بها بذلت له ما أراد منها ولم تبذل له تبذّل الرّجل.

قال: وقال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بشرّ نسائكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله فأخبرنا قال: من شرّ نسائكم الذليلة في أهلها العزيزة مع بعلها العقيم الحقود لا تتورّع عن قبيح المتبرجة إذا غاب عنها زوجها الحصان معه إذا حضر التي لا تسمع قوله ولا تطيع أمره فإذا خلا بها تمنّعت تمنّع الصّعبة عند ركوبها ولا تقبل له عذراً ولا تغفر له ذنباً»[٣].

---

(١) علل الشرائع: ٢/ ٥٧٠ ح ١، وبحار الأنوار: ١٠١.

(٢) وسائل الشيعة: ٩٦/٢٦، ٣٢٦ ح ١.

(٣) الكافي: ٥/ ٣٢٥ ح ١، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ٣٩١ ح ٤٣٧٦.

ورواه في **«الكافي»** عن جابر بن عبد الله نحوه في كتاب النكاح في باب خير النساء وشرار النساء، وروى فيه أخباراً أخرى في معنى الخير والشرّ.

وقوله: **(ولا تطيعوهنّ في المعروف حتّى لا يطمعن في المنكر)** من قبيل المثل السائر: لا تعط عبدك كراعاً فيأخذ ذراعاً قال العلامة المجلسي: وترك طاعتهن في المعروف إما بالعدول إلى فرد آخر منه أو فعله على وجه يظهر أنه ليس لطاعتهن بل لكونه معروفاً أو ترك بعض المستحبات ويكون الترك حينئذٍ مستحباً كما ورد تركها في بعض الأحوال كمال الحلال، هذا.

وقد ورد الحثّ على ترك طاعتهن في غير واحد من الأَخبار مثل ما في **«الفقيه»** عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال في النّساء: لا تشوروهن في النجوى ولا تطيعوهن في ذي قرابة إنّ المرأة إذا كبرت ذهب خير شطريها وبقي شرّهما، ذهب جمالها واحتدّ لسانها وعقم رحمها، وإنّ الرجل إذا كبر ذهب شرّ شطريه وبقي خيرهما ثبت عقله واستحكم رأيه وقل جهله[1].

وفيه أيضاً قال علي عليه السلام: كل امرء تديره امرأة فهو ملعون، وقال: في خلافهن البركة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد الحرب دعى نساءه فاستشارهنّ ثمّ خالفهن.

وفي بعض الرّوايات العاميّة قال أمير المؤمنين عليه السلام «لا تطيعوا النساء على حال ولا تأمنوهنّ على مال، ولا تذروهن لتدبير العيال، فإنّهنّ إن تركن وما يرون أوردن المهالك، وأذلن الممالك، لا دين لهنّ عند لذّتهن، ولا ورع لهنّ عند شهوتهنّ، ينسين الخير ويحفظن الشّر، يتهافتن بالبهتان ويتمارين للطغيان يتصدين للشّيطان»[2].

ومن طريق العامة أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وآله: شاوروهن خالفوهن.

تنبيه ظريف

ينبغي لنا أن نذكر هنا شطراً من أوصاف النساء وأخبارهن وبعض مكايدهنّ من طريق الأَخبار وغيرها، والمقصود بذلك التحذير عنهن والتنبيه على كيدهن، حيث وصفه الله سبحانه في كتابه العزيز بالعظمة مع أنّه جعل كيد الشيطان ضعيفاً حيث قال:

﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٨] وقال: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

ولذلك قال بعض أهل العرفان: أنا من النسوان أحذر من الشّيطان، فأقول:

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/٤٦٨ ح ٤٦٢١، ومكارم الأخلاق: ٢٣١.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣/٥٥٤، وعلل الشرائع: ٢/٥١٣.

قال رسول الله: شاوروهن وخالفوهن. **وقيل**: إيّاك وموافقة النساء فرأيهن إلى أفن[١] وعزمهنّ إلى وهن، **وقيل**: أكثروا لهنّ من لا، فإنّ نعم يغريهنّ.

بالمثلة قال الشاعر:

تعيرني بالغزو عرسي وما درت بأنّي لها في كل ما أمرت ضد

ورأى سقراط امرأة تحمل ناراً فقال نار تحمل ناراً والحامل شرّ من المحمول.

وقيل له: أيّ السّباع شرّ قال: المرأة. **وقيل**: المرأة إذا أحبّتك آذتك وإذا أبغضتك خانتك فحبّها أذى وبغضها داء. **وقيل**: المرأة سبع معاشر. **وقيل**: حيوان شرير.

وفي الحديث: أنّه لما خلقت المرأة نظر إليها إبليس فقال أنت سؤلي وموضع سرّي ونصف جندي وسهمي الذي أرمي به فلا أخطىء وإذا اختصمت هي وزوجها في البيت قام في كل زاوية من زوايا البيت شيطان يصفق ويقول فرح الله من فرحني حتّى إذا اصطلحا خرجوا عمياً يتعادون يقولون: أذهب الله نور من ذهب بنورنا.

وفي «**الفقيه**» عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث إنّ إبراهيم خليل الرّحمٰن شكى إلى الله خلق سارة فأوحى الله عزّ وجلّ إليه إنّ مثل المرأة مثل الضّلع إن أقمته انكسر وإن تركته استمتعت به[٢].

وفي حديث إبليس مع يحيى بن زكريا على نبيّنا وعليهما السّلام المروي في المجلد السماء والعالم من «**البحار**» وجادة في كتاب الترمذي قال أي إبليس: يا نبيّ الله فأوّل ما أصيد به المؤمن من قبل النّساء «إلى أن قال» يا نبي الله إنّ أرجى الأشياء عندي وأدعمه لظهري وأقرّه لعيني النّساء، فإنّها حبالي ومصائدي وسهمي الذي به لا أخطيء بآبائي هنّ لو لم يكن هن ما اسطعت إضلال أدنى آدميّ، قرّت عيني بهنّ اظفر بمقراتي وبهنّ أوقع في المهالك إذا اغتممت ليشت[٣] على النّساك والعبّاد والعلماء غلبوني بعد ما أرسلت عليهم الجيوش فانهزموا وبعدما ركبت وقهرت ذكرت النّساء طاب وسَكنَ غضبي واطمأنّ كظمي وانكشف غيظي وسلمت كآبتي وقرّت عيني واشتدّ أزري، ولولا هنّ من نسل آدم لسجدتهنّ فهنّ سيّداتي وعلى عنقي سكناهن وعليّ تمماهنّ ما اشتهت امرأة من حبالي حاجة إلاّ كنت أسعى برأسي دون رجلي في إسعافها بحاجتها، لأنّهنّ رجائي وظهري وعصمتي وسندي وثقتي وغوثي، الحديث[٤].

أقول: النّسخة كانت سقيمة جدّاً فأثبته كما وجدت.

---

(١) الأفن: النقص.

(٢) مكارم الأخلاق: ٢١٦، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ٤٤٠ ح ٤٥٢٧.

(٣) ليشت: أيش وأش فرح.

(٤) البحار: ٦٠/ ٢٢٩.

وفي **«الأنوار النعمانية»** للسّيد نعمة الله الجزائري: ومن أسباب الدّنيا والميل إليها النّساء وإطاعتهنّ.

روى أنّ رجلاً من بني إسرائيل رأى في المنام أنّه خُيِّر ثلاث دعوات مستجابات بأن يصرفها حيث شاء، فشاور امرأته في محل الصّرف فرأت أن يصرف واحدة منها في حسنها وجمالها ليزيد حسن المعاشرة بينهما فصرفها في ذلك فصارت جميلة فيما بين بني إسرائيل فاشتهرت فاشتهر أمرها إلى أن غصبها ملك ظالم فدعى الرّجل غيرة بأن يصيرها الله تعالى على صورة كلب فصارت كلباً أسود وجاءت إلى باب زوجها وتضرّعت إليه مّدة حتّى رق قلبه فدعا بأن يصيرها الله على صورتها الأولى، فضاعت الدّعوات الثلاث فيها وهي كما كانت بشؤم مشاورة المرأة.

وحكى أنّ خسرو الملك أتى إليه رجل بسمكة كبيرة فأمر له بأربعة آلاف درهم فقالت شيرين فكيف تصنع إذا احتقر من أعطيته شيئاً من حشمك وقال: أعطاني ما أعطى الصّياد أو أقل، فقال خسرو الملك إنّ الرّجوع عن الهبة قبيح خصوصاً من الملوك فقالت شيرين: التّدبير أن تدعوه وتقول له هذه السّمكة ذكر أو أنثى، فإن قال ذكر فتقول له إنّما أردت أنثى، وإن قال أنثى فتقول له إنما أردت ذكراً فاستدعاه فسأله عن ذلك فقال: أيّها الملك إنّها خنثى لا ذكر ولا أنثى، فاستحسن جوابه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى، فلمّا تسلم الصّياد ثمانية آلاف درهم من الخزّان ورجع سقط منها في الطريق درهم فاشتغل بأخذ الدّرهم الساقط فقالت شيرين للملك: أنظر إلى خسّته وغلبة حرصه، فاستدعاه وسأله عن غرضه في اشتغاله بأخذه فقال أيّها الملك: كان عليه اسمك وحكمك فخفت أن يطأه أحد برجله غافلاً عنه، فاستحسن أيضاً جوابه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى وذهب الصّياد باثني عشر ألف درهم.

وفي موضع آخر منه أنّ كلّ فتنة وقعت في العالم فإنّما جاءت من قبلهنّ وذلك:

إنّ الفتنة الأولى وهي أكل آدم من الشّجرة وإخراجه إلى الأَرض إنّما جاء من قبل حوّاء، لأنّ آدم لمّا لم يقبل وساوس الشيطان وسوس إلى حوّاء فجاءت إلى آدم وكلمته في أمر الأكل من الشّجرة حتى حملته عليه.

وأمّا الفتنة الأخيرة التي نشأ منها خراب العالم وهي غصب خلافة أمير المؤمنين عليه السلام واستظهارهم واتّفاقهم على عداوته فإنّما جاء من قبل عائشة وعداوتها وحسدها لفاطمة عليها السّلام بسبب أن النّبي صلى الله عليه وآله كان يظهر المحبّة لها ولولديها فغارت من هذا عائشة وأضمرت العداوة لها ثمّ أظهرتها فتخطت تلك العداوة من النّساء إلى الرّجال فبغض علياً عليه السلام أبو بكر وعمر ففعلا ما فعلا وفعلت عائشة بعدهما ما فعلت.

أقول: وشهادة أمير المؤمنين عليه السلام بسبب قطام وسمّ جعدة للحسن بن عليّ عليهما السلام غير خفيّ.

وفي «**البحار**» روى عن جعفر بن محمّد الصّادق عليهما السلام أنّه قال: كان في بني إسرائيل رجل صالح وكان له مع الله معاملة حسنة وكان له زوجة وكان ظنيناً بها وكانت من أجمل أهل زمانها مفرطة في الجمال والحسن، وكان يقفل عليها الباب فنظرت يوماً شابّاً فهوته وهواها فعمل لها مفتاحاً على باب دارها وكان يخرج ويدخل ليلاً ونهاراً متى شاء وزوجها لم يشعر بذلك.

فبقيا على ذلك زماناً طويلاً فقال لها زوجها يوماً وكان أعبد بني إسرائيل وأزهدهم: إنّك قد تغيّرت عليّ ولم أعلم ما سببه وقد توسوس قلبي عليّ وكان قد أخذها بكراً، ثمّ قال واشتهي منك أنك تحلفي لي أنّك لم تعرفي رجلاً غيري، وكان لبني إسرائيل جبل يقسمون به ويتحاكمون عنده وكان الجبل خارج المدينة عنده نهر جار وكان لا يحلف أحد عنده كاذباً إلاّ هلك، فقالت له ويطيب قلبك إذا حلفت لك عند الجبل؟ قال: نعم، قالت: متى شئت فعلت.

فلمّا خرج العابد لقضاء حاجته دخل عليها الشّاب فأخبرته بما جرى لها مع زوجها وأنّها تريد أن تحلف له عند الجبل وقالت ما يمكنني أن أحلف كاذبة ولا أقول لزوجي فبهت الشّاب وتحيّر وقال فما تصنعين؟ فقالت بكر غداً والبس ثوب مكار وخذ حماراً واجلس على باب المدينة فإذا خرجنا فأنا أدعه يكتري منك الحمار فإذا اكتراه منك بادر واحملني وارفعني فوق الحمار حتّى احلف له وأنا صادقة أنّه ما مسّني أحد غيرك وغير هذا المكاري، فقال: حبّاً وكرامة.

وأنّه لمّا جاء زوجها قال لها قومي إلى الجبل لتحلفي به قالت ما لي طاقة بالمشي فقال: اخرجي فإن وجدت مكارياً اكتريت لك فقامت ولم تلبس لباسها فلمّا خرج العابد وزوجته رأت الشّاب ينتظرها فصاحت به يا مكاري اكتري «كذا» حمارك بنصف درهم إلى الجبل قال: نعم.

ثمّ تقدّم ورفعها على الحمار وساروا حتّى وصلوا إلى الجبل فقالت للشّاب أنزلني عن الحمار حتّى أصعد الجبل، فلمّا تقدّم الشّاب إليها القت بنفسها إلى الأرض فانكشفت عورتها فشتمت الشاب فقال: والله مالي ذنب.

ثمّ مدّت يدها إلى الجبل وحلفت له أنه لم يمسّها أحد ولا نظر إنسان مثل نظرك إليّ مذ عرفتك غيرك وهذا المكاري، فاضطرب الجبل اضطراباً شديداً وزال عن مكانه وانكرت بنو إسرائيل، فذلك قوله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وفي زهر الرّبيع كان في الهند رجل شجاع وغيور وله امرأة جميلة فاتفق أنّه سافر عنها، فجلست يوماً على قصرها فرأت برهمن من براهمة الهند شابّاً فحصل بينهما عشق ووصال وكان يأتي إليها متى ما أراد، فخرجت يوماً إلى بيت جارها وأتى ذلك الشّاب إلى منزلها فلم يجدها فخرج في طلبها فلمّا دخلت أخذ الشّاب الهندي سوطاً كان معه وضربها.

وكان في تلك الحالة أتى زوجها من السّفر فقال لها برهمن: هذا زوجك أتى فكيف الحيلة؟ فقالت: اضربني بهذا السّوط فإذا دخل زوجي وسألك فقل إنّ هذه المرأة فيها صرع أتى إليها بعد سفرك وطلبوني لأعوذ بها بالأسماء وأقرأ عليها وأضربها حتّى يخرج منها الجنّ، فتكدّرت على زوجها عيشه وخرج الشّاب الهندي.

وبعد هذا صارت كلما اشتهت وصال الشّاب الهندي صرعت نفسها ومضى زوجها يلتمس من الهندي والهندي يمن عليه ويأخذ منه حق الجعالة حتى يأتي إلى منزله لأجل أن يعوّذها ممّا عنده فصار الرّجل الغيور قواداً ديوثاً.

وفي حكمة آل داوود امرأة السّوء مثل شرك الصّياد لا ينجو منها إلا من رضي الله عنه والمرأة السّوء غل يلقيه الله في عنق من يشاء.

وقال داوود عليه السلام: المرأة السّوء كالحمل الثّقيل على الشّيخ الكبير، والمرأة الصّالحة كالتّاج المرصع بالذهب كلّما رآها قرّت عينه.

وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] قال عليه السلام: المرأة الحسنة الصّالحة ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] حوريّة من حور العين ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] امرأة السّوء.

قال بعضهم:

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتي ولكن قرين السّوء باق معمّر
فيا ليتها صارت إلى القبر عاجلاً وعذّبها فيه نكير ومنكر

أقول: وحيث انجرّ الكلام إلى هذا المقام فينبغي أن نختمه بحديث المتكلمة بالقرآن تذكرةً للعاقلين وتنبيهاً للغافلين وإشارة إلى أنّ الأخبار المطلقة في مذمّة النّساء محمولة على الأفراد الغالبة وإلاّ ففيها من لا يوجد مثلها في الرّجال زهداً وورعاً وصلاحاً.

قال عبد الله بن المبارك: خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام فبينما أنا في بعض الطريق فإذا أنا بسواد يلوح فإذا هي عجوز فقلت: السّلام عليك، فقالت: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾

[يس: ٥٨]، فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، فعلمت أنها قضت حجّها وتريد بيت المقدّس.

فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ فقالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، قلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين قالت: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]، قلت: فبأيّ شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء: ٤٣] قلت: إنّ معي طعاماً فهل تأكلين؟ قالت: و﴿أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، قلت: ليس هذا شهر رمضان قالت: ومن تطوّع خيراً فهو خير له، قلت: قد أبيح لنا الأفطار في السّفر قالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قلت: فلم لا تتكلمين مثل كلامي؟ قالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، قلت: من أي النّاس أنت؟ قالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، قلت: قد أخطأت فاجعليني في حلّ، قالت: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]، قلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي فتدركي القافلة؟ قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]

فأنخت ناقتي: فقالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، فغضضت بصري عنها فلمّا أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

فشددت لها الناقة فقلت: اركبي، فركبت فقالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٤]، قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح، فقالت: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، فجعلت امشي رويداً وأترنم بالشعر فقالت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فقلت لها: لقد أوتيت خيراً كثيراً، قالت ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، فسرت حتى أدركت القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها؟ قالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، فعلمت أن لها أولاداً قلت: وما شأنهم في الحجّ قالت: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: ١٦]، فعلمت أنهم أولاد الرّكب فقصدت بها القباب والعماريات.

وقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذاً بشبان كأنهم الدنانير قد أقبلوا.

فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩]، فمضى أحدهم واشترى طعاماً فقدموه فقالت﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] فقلت الآن طعامكم حرام عليّ حتى تخبروني بأمرها فقالوا: إنها أمّنا ولها منذ أربعين سنة لا تتكلم إلاّ بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرّحمٰن.

تنبيه وتحقيق

قال الشّارح المعتزلي في شرح هذا الكلام له عليه السلام: وهذا الفصل كله رمز إلى عائشة ولا يختلف أصحابنا في انّها أخطأت فيما فعلت ثم تابت وماتت تائبة وأنّها من أهل الجنّة.

قال: قال كلّ من صنّف في السير والأخبار إن عائشة كانت من أشدّ النّاس على عثمان حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله فنصبته في منزلها وكانت تقول للدّاخلين إليها هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبل وعثمان قد أبلى سنّته.

قالوا: أول من سمّى عثمان نعثلاً عائشة والنعثل الكثير شعر اللحية والجسد، وكانت تقول اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً.

وروى المدائني في كتاب الجمل قال: لما قتل عثمان كانت عائشة بمكة وبلغ قتله إليها وهي بشراف فلم يشك في أن طلحة هو صاحب الأمر وقالت بعداً لنعثل وسحقاً أيد ذا الأصبع أيداً بأشيل أيد يا ابن عمّ لكأنّي انظر إلى أصبعه وهو يبايع له حثواً الإبل ودعدعتها[1] ثم قال وقال أبو مخنف: إنّ عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة أقبلت مسرعة وهي تقول أيد ذا الأصبع لله أبوك أما أنّهم وجدوا طلحة لها كفواً.

فلما انتهت إلى شراف استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي فقالت له: ما عندك؟ قال: قتل عثمان قالت: ثم ماذا؟ قال: ثم جاز بهم الأمور إلى خير مجاز بايعوا علياً، فقالت: لوددت أن السّماء انطبقت على الأرض إن تمّ هذا ويحك انظر ماذا تقول قال: هو ما قلت لك يا أمّ المؤمنين فولولت، فقال لها: ما شأنك يا أم المؤمنين والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه ولا أحق ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته؟ قال: فما ردّت عليه جواباً.

---

(١) دعدعتها: حركتها.

وفي «**روضة الصفا**» وقال عبيدة بن أبي سلمة في هذا المعنى أبياتاً منها قوله:

فمنك البدار ومنك السفر ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقاتله عندنا من أمر

قال أبو مخنف: وقد روى من طرق مختلفة أنّ عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة قالت: أبعده الله ذلك بما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد.

قال: وقد روى قيس بن أبي حازم أنه حجّ في العام الذي قتل فيه عثمان وكان معه عائشة لما بلغتها قتلته فتحمل إلى المدينة قال فسمعها تقول في بعض الطريق: أيد ذا الأصبع وإذا ذكرت عثمان قالت: أبعده الله حتّى أتاها خبر بيعة علي فقالت: لوددت إن هذه وقعت على هذه، ثمّ أمرت برد ركابيها إلى مكة فرددت معها ورأيتها في مسيرها إلى مكة تخاطب نفسها كأنها تخاطب أحداً: قتلوا ابن عفان مظلوماً.

فقلت لها: يا أم المؤمنين ألم اسمعك آنفاً تقولين أبعده الله وقد كنت قبل أشد الناس عليه وأقبحهم فيه قولاً فقالت: لقد كان ذلك ولكني نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه حتى تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً محرماً في شهر حرام فقتلوه.

ثم قال: قال أبو مخنف جاءت عائشة إلى أم السلمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان، فقالت لها: يا بنت أبي أميّة أنت أول مهاجرة في أزواج رسول الله ﷺ وأنت كبيرة امهات المؤمنين وكان رسول الله ﷺ يقسم لنا من بيتك وكان جبرئيل أكثر ما يكون في منزلك فقالت: أم السّلمة: لأَمر ما قلت هذه المقالة؟ فقالت عائشة:

إنّ عبد الله أخبرني أنّ القوم استتابوا عثمان، فلما تاب قتلوه صائماً في شهر حرامٍ، وقد عزمت الخروج إلى البصرة ومعي الزّبير وطلحة فاخرجي معنا لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا.

فقالت: أنا أمّ سلمة إنّك كنت بالأَمس تحرضين على عثمان، وتقولين انها فيه أخبث القول وما كان أسمه عندك إلاّ نعثلا وإنك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب عليه السلام كانت عند رسول الله ﷺ فأذكرك؟ قالت: نعم.

قالت: أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه حتّى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعلي عليه السلام يناجيه، فأطال فأردت أن تهجمين عليهما فنهيتك فعصيتني فهجمت عليهما، فما لبثت أن رجعت باكية فقلت: ما شأنك؟ فقلت: إنّي هجمت عليهما وهما يتناجيان، فقلت لعلي: ليس لي من رسول الله ﷺ إلاّ يوم من تسعة أيّام، أفما تدعني يا بن أبي طالب ويومي فأقبل رسول الله ﷺ علي وهو غضبان محمرّ الوجه فقال: ارجعي وراءك والله لا يبغضه أحد من

أهل بيتي ولا من غيرهم من النّاس إلاّ هو خارج من الإيمان، فرجعت نادمة ساقطة.

فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك.

قالت: وأذكرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ وأنت تغسلين رأسه وأنا أحيس له حيساً[١]، وكان الحيس يعجبه فرفع ﷺ رأسه وقال: ليت شعري أيتُكنّ صاحب[٢] الجمل الأذنب[٣] تنبحها كلاب الحوئب فتكون ناكبة عن الصراط فرفعت يدي من الحيس فقلت: أعوذ بالله وبرسوله ﷺ من ذلك، ثمّ ضرب على ظهرك وقال ﷺ إياك أن تكونيها، ثم قال: يا بنت أبي أميّة إياك أن تكونيها، يا حميراء، أما إنّي فقد أنذرتك.

قالت عائشة؟ نعم أذكر هذا.

قالت: وأذكرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ في سفر له، وكان علي يتعاهد نعلي رسول الله ﷺ فيخصفها ويتعاهد أثوابه فيغسلها، فبقيت له نعل يومئذٍ يخصفها، وبعد في ظل سمرة، وجاء أبوك ومعه عمر، فاستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب ودخلا يحادثاه فيما أرادا، ثمّ قالا: يا رسول الله إنا لا ندري قدر ما تصحبنا، فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون بعدك لنا مفزعاً، فقال لهما: أما أنّي أرى مكانه ولو فعلت لتفرقتم عنه، كما تفرّقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران، فسكتا ثمّ خرجا، فلما خرجنا إلى رسول الله قلت له: وكنت أجرأ عليه منّا من كنت يا رسول الله مستخلفاً عليهم؟ فقال عليه السلام: خاصف النّعل، فنزلنا ولم نر أحداً إلا علياً، فقلت: يا رسول الله ما نرى إلاّ علياً، فقال: هو ذاك[٤].

فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك.

فقالت: فأيّ خروج تخرجين بعد هذا؟ فقالت: إنّما أخرج للإصلاح بين النّاس وأرجو فيه الأَجر إن شاء الله، فقالت: أنت ورأيك فانصرفت عائشة عنها فكتبت أمّ سلمة ما قالت وقيل لها إلى علي.

قال الشّارح بعد نقل هذه الرّواية: فإنّ قلت فهذا نصّ صريح في إمامة علي عليه السلام، فما تصنع أنت وأصحابك المعتزلة فيه؟

---

(١) حيساً: الحيس: تمر يخلط بسمن وأقط.

(٢) في نسخة: صاحبة.

(٣) الجمل الأذنب: الكثير الشعر.

(٤) بحار الأنوار: ٣٢/ ١٧٠، والغدير: ٢/ ٣١٩.

قلت: كلاّ إنّه ليس بنصّ كما ظننت لأنّه لم يقل: قد استخلفت، وإنّما قال: لو استخلف أحداً لاستخلفته، وذلك لا يقتضي حصول الاستخلاف ويجوز أن تكون مصلحة المسلمين متعلقة بالتّعب عليه لو كان النبي مأموراً بأن ينصّ على إمام بعينه من بعده، فيكون من مصلحتهم أن يختاروا لأنفسهم من شاؤوا إذا تركهم النبي وأراهم ولم يعين أحداً.

ثمّ قال: قال أبو مخنف: وأرسلت إلى حفصة تسألها الخروج والمسير، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فأتى أخته فعزم عليها، فأقامت وحطت الرّحال بعد ما همّت.

قال: وكتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهي بمكة: أمّا بعد، فإنّك ظعينة رسول الله، وقد أمرك أن تقري في بيتك فإن فعلت فهو خير لك، فإن أبيت إلاّ أن تأخذي منسئتك[١] وتلقى جلبابك وتبدي للنّاس شعيراتك قاتلتك حتّى أردّك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك.

فكتبت إليه في الجواب، أما بعد، فإنّك أوّل العرب شب الفتنة ودعا إلى الفرقة وخالفت الأئمة، وقد علمت أنّك لن تعجز الله حتّى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءني كتابك وفهمت ما فيه، وسيكفينك وكلّ من أصبح مماثلاً لك في ضلالك وغيك إن شاء الله.

قال أبو مخنف: لما انتهت عائشة في مسيرها إلى الحوئب وهو ماء لبني عامر بن صعصعة نبحتها الكلاب حتّى نفرت صعاب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألا ترون ما أكثر كلاب الحوئب وما أشد نباحها، فأمسكت زمام بعيرها وقالت: وإنّها لكلاب الحوئب ردّوني ردّوني فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول، وذكرت الخبر، فقال قائل: يرحمك الله فقد جزنا ماء الحوئب فقالت: فهل من شاهد؟ فلفقوا لها خمسين أعرابيّاً جعلوا لهم جعلاً فحلفوا أنّ هذا ليس بماء الحوئب فسارت لوجهها. انتهى ما أهمّنا نقله من كلامه هبط مقامه.

أقول: لا يخفى على الناقد البصير والذكي الخبير المراقب للعدل والإنصاف والمجانب للتّعصب والاعتساف وجوه الدّلالة فيما أورده الشّارح، ورواه عن مطاعن عائشة أمّ الفاسقين وفضائح المتخلفين الذين هم أئمّة النّار وجنود إبليس اللعين، ولا يخفى عليه أيضاً عصبية الشّارح ومن حذا حذوه من أصحاب المعتزلة في حقّ الخاطئة وأوليائهم الثلاثة، ولا بأس بالتّنبيه على بعض تلك الوجوه فأقول.

أولاً: إنّ ما ذكره من خطأ الخاطئة مسلم وما عقبه به من توبتها وكونها من أهل الجنّة ممنوع، ولا بدّ للمدّعي لها من الإثبات وأنى لهم بذلك، بل الظاهر من حالات عائشة، وفرط

---

(١) منسئتك: عصاك.

بغضها وشدة عداوتها لعلي هو العدم، ويؤيد ذلك أنها كانت في مقام اللجاجة والعداوة مع خليفتهم عثمان حتّى سمته نعثلا، والنعثل على ما في القاموس الشيخ الأحمق ويهودي كان بالمدينة، ورجل لحياني كان يشبه به عثمان إذا نيل منه وكانت تقول: اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا، وكانت باقية على عداوتها بعد وفاته أيضاً حيث إنّها كانت تقول بعداً لنعثل وسحقاً، وتقول أبعده الله ذلك بما قدمت يداه، وما ربّك بظلام للعبيد، وكذلك نار غضبها ونائرة حسدها لأمير المؤمنين عليه السلام لم تكن بحيث تطفى.

يدلك على ذلك ما رواه الحميدي في «**الجمع بين الصّحيحين**» أنّ ابن الزّبير دخل على عائشة في مرضها فقالت له: إنّي قاتلت فلاناً وسمَّت المقاتل برجل قاتلته، وقالت لوددت أنّي كنت نسياً منسيّاً، فإنّ تعبيرها عنه عليه السلام بالرّجل وبفلان من دون أن يذكر لقبه الشّريف أو اسمه السّامي مقروناً بالتعظيم يدل على فرط عصبيتها واستنكافها من التّصريح بالإسم واللقب.

وأظهر من ذلك ما رواه الشّارح في هذا المقام من أنه لمّا بعث أمير المؤمنين ابن عبّاس بعد انقضاء حرب الجمل إلى عائشة يأمرها بالرّحيل إلى المدينة قال لها: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أرسلني إليك يأمرك بالرّحيل إلى المدينة، فقالت: وأين أمير المؤمنين ذاك عمر، فقال: عمر وعلي، قالت: أثبت، إلى أن قالت إني معجلة الرحيل إلى بلادي إن شاء الله والله ما من بلد أبغض من بلد أنتم فيه.

فإنّ استكراهها من إطلاق لفظ أمير المؤمنين عليه الذي لقبه الله تعالى به، وأمر رسوله بأن يأمر أصحابه على السّلام عليه بامرة المؤمنين، على ما ورد في غير واحد من الرّوايات، دليل على كراهتها لحكم الله وإنكارها لأمر رسوله، وما ذلك إلاّ من فرط الحقد والحسد.

وبيالي إنّي رأيت في بعض الرّوايات أنّها سمت بعد وفاة أمير المؤمنين وشهادته أحد غلمانها عبد الرّحمٰن أخذاً من إسم عبد الرّحمٰن قاتل أمير المؤمنين شغفاً بقتله وتيمّناً بإسمه.

وهنا لطيفة وهي أنّ بهلول العاقل مر يوماً بجماعة يذاكرون الحديث ويروون عن عائشة أنها قالت: لو أدركت ليلة القدر لما سألت ربّي إلاّ العفو والعافية، فقال بهلول: والظفر بعلي بن أبي طالب، يعني أنّها كانت أهمّ مسؤولاتها الظفر عليه عليه السلام.

هذا كله مضافاً إلى أنّ توبتها لا يمكن أن تحصل بمجرد النّدم على الخروج من البيت والحرب، بل يتوقف على التّفصي عمّا أراقته من دماء المسلمين من الأنصار والمهاجرين، وما نهبت من بيت مال المسلمين إلى غير ذلك من المفاسد والمظالم، ولم يتحقق منها شيء من ذلك وأنى لها بذلك.

وثانياً: أنها إن كانت صادقة في قولها أنّ عثمان قد أبلى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله فعليه لعنة الله، وإن كانت كاذبة فعليها غضب الله.

وثالثاً: أنّ اللازم عليها أن تكون سالماً لمن سالمه رسول الله ﷺ وحرباً لمن حاربه محبة لمن أحبه ومبغضة لمن أبغضه وشغفها بكون الخلافة لطلحة واستنكافها من كونها لأمير المؤمنين يدلّ على عكس ذلك.

وذلك لأنّ رسول الله ﷺ توفي وهو ساخط على طلحة للكلمة التي قالها يوم نزلت آية الحجاب على ما قدّمنا روايتها في تذييل الثاني من تذييلات الفصل الثالث من فصول الخطبة الثالثة، وفي الطعن الثالث عشر من مطاعن عثمان التي أوردنا في التذييل الثاني من تذييلات كلامه الثالث والأربعين، ومات وهو راض عن أمير المؤمنين عليه السلام فكانت عائشة ساخطة لأمير المؤمنين راضية عن طلحة مؤذية لرسول الله مخالفة لرأيه طارحة للغيرة والحمية.

ورابعاً: أنّ هجومها على رسول الله وعليّ حين ما يتناجيان، وقولها لعليّ ليس لي من رسول الله إلاّ يوم من تسعة أيام، أفما تدعني يا بن أبي طالب ويومي، يدلّ على قلة حيائها وعدم مبالاتها.

وخامساً: أنّ قول رسول الله لها وهو غضبان محمر الوجه: ارجعي وراءك والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان، تدلّ على كونها مبغضة لأمير المؤمنين عليه السلام خارجة من الإيمان ورجوعها بعد إلى الإيمان محتاج إلى البينة والبرهان، ولم يثبت بالبديهة والعيان.

وسادساً: أن سؤال رجلين عن رسول الله من الخليفة والخلافة في حال السفر مع عدم اقتضاء الحال والمقام لذلك لما عليهم من تعب السفر ووصيته، إما أن يكون رعاية لمصلحة الإسلام وإشفاقاً للأمة وشدّة في الدّين والإيمان، أم استخباراً من وقت وفات الرّسول وتحصيلاً للعلم بأنّهما متى يكونان مطلقي العنان، أم طمعاً منهما في الخلافة وحرصاً في الولاية ورجاء لأن ينص على أحدهما ويبدي البيان.

لا سبيل إلى الأوّل حتماً زعمه الشارح المعتزلي وصرح به في كلامه الذي حكيناه في أواخر المقدّمة الثانية من مقدمات الخطبة الشّقشقية، وفي غيره من كلماته أيضاً في تضاعيف الشّرح إذ لو كان غرضهما الرّعاية لجانب الدّين والشّفقة على الأمّة كان اللازم عليهما الإصرار على السؤال والإكمال في الكلام، حتّى يسفر لهما وضح الحق، وكان ينبغي لهما بعد ما أجاب لهما رسوّل الله بقوله: إنّي قد أرى مكانه ولو فعلت لتفرقتم عنه أن يقولا: دلنا يا رسول الله على مكانه نعرفه ونلازمه وكيف يمكن أن نتفرّق عنه بعد تعيينك إيّاه، وأمرك باتّباعه، فلمّا لم يصرّا على السؤال ولم يتفوها بشيء من ذلك وسكتا وخرجا بمجرّد أن قال لهما رسول الله: أرى مكانه علم أن غرضهما لم يكن الإشفاق على الأمة ولحاظ مصلحة الإسلام، وإنّما كان الطمع في الخلافة، فلمّا قال أرى مكانه يأساً منهما وعلماً أنّ الخليفة

غيرهما فسكتا وخرجا.

وسابعاً: أنّ قوله: لتفرّقتم عنه كما تفرّقت بنو إسرائيل عن هارون، لا يخفى ما في هذا التّشبيه من النكتة، فإنّ هارون كان وصي موسى وبنو إسرائيل قد تفرّقوا عنه واتخذوا عجلاً جسداً له خوار، لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً، فأظهر صلوات الله عليه بهذا الكلام ما في قلبهما من النّفاق، وأعلمهم أنّهم يتفرّقون عن وصيّة ولا يطيعون أمره كما خالف بنو إسرائيل موسى وتفرّقوا عن هارون.

وثامناً: أنّ إنكار الشّارح لدلالة الرّواية على خلافة أمير المؤمنين لا معنى له، إذ قوله: لو فعلت لتفرّقتم وإن لم يكن مستلزماً لوقوع الفعل إلاّ أنّ الضّمير في أرى مكانه راجع إلى المسئول عنه، وقد سألا عن المستخلف والمفزع فقال: أرى مكانه فيدلّ على أنّ المستخلف والمفزع كان موجوداً حين السؤال وإلاّ لزم أن يكون كلامه غير مطابق للواقع ونعوذ بالله من ذلك.

وهذا كلّه بعد الغض عن صحّة الرّواية وعن تصحيف العامة فيها، وإلاّ فقد قدمنا هذه الرّواية من الاحتجاج في **«التّنبيه الثّاني»** من تنبيهات الكلام الثالث عشر، وفيها أنّهما قالا: يا رسول الله فهل استخلفت أحداً؟ قال: «ما خليفتي فيكم إلاّ خاصف النّعل، فمرّا على عليّ وهو يخصف نعل رسول الله»[1]، وعليه فالرّواية ناصّة على خلافته من هذه الجهة أيضاً.

وتاسعاً: ما زعمه الشّارح من جواز كون المصلحة في اختيار الأمّة لأنفسهم من شاؤوا، وترك النبي لهم فآرائهم فاسدة جداً، إذ قد أثبتنا في المقدمة الثّانية من مقدّمات الخطبة الشّقشقية وجوب عصمة الإمام، والعصمة ملكة خفيّة لا يمكن أن يبلغها الجهّال والضّلال ويدركوها بأوهامهم فيقيموا إماماً بارائهم.

وقد مرّ في **«شرح الخطبة الثّانية»** إبطال الرّضا عليه السلام لهذا الزّعم الفاسد والرّأي الكاسد حيث قدّمنا هناك منه رواية شريفة في معرفة شأن الإمام، وقوله عليه السلام فيها: إنّ الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلا مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها النّاس بعقولهم أو ينالوها بارائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم[2] إلى آخر ما قاله، وفيه كفاية لمن له علم ودراية، هذا.

وقد مرّ في شرح الكلام الثالث عشر بعض مطاعن عائشة وشطر من الكلام فيها فليراجع، ثمّة.

---

(١) رسائل المرتضى: ٤/ ٦٨، والاحتجاج: ١/ ٢٤٤.

(٢) الكافي: ١/ ١٩٩، وعيون أخبار الرضا (ع): ٢/ ١٩٦.

الترجمة

از جمله خطبه های آن حضرت است بعد از انقضاء حرب جمل، در مذمت زنان می فرماید و مقصود آن حضرت طعن بر عایشه بود و توبیخ به اهل بصره که تابع آن خاطئه بودند:

جماعا مردمان، به درستی که طایفه زنان ناقص الایمانند و ناقص النصیبند و ناقص العقلند، اما نقص ایمان ایشان، پس نشستن ایشان است از نماز و روزه در ایام حیضشان و اما نقصان عقل ایشان، پس شهادت دو زن مثل شهادت یك مرد است و اما ناقص بودن نصیب ایشان، پس میراث های ایشان بر نصف ها است از میراث مردان، پس بترسید از بدترین زنان و بباشید از خوب ترین آن ها برحذر و اطاعت نکنید آن ها را در کارهای پسندیده تا این که طمع ننمایند در کارهای ناپسندیده و نعم ماقیل:

زن بد در سرای مرد نکو هم درین عالم است دوزخ او
زینهار از قرین بد زنهار و قنا ربّنا عذاب النار

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثمانون من المختار في باب الخطب

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهادةُ قَصْرُ الأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ، وَالوَرَعُ عِنْدَ الْمَحارِمِ، فَإِنْ عَزَبَ ذٰلِكَ عَنْكُمْ فَلا يَغْلِبِ الْحَرامُ صَبْرَكُمْ، وَلا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ وكُتُبٍ بارِزَةِ الْعُذْرِ واضِحَةٍ[١]».

اللغة

(الزّهادة) كسعادة والزّهد بمعنى وهو ترك الميل إلى الشيء، وفي الاصطلاح إعراض النّفس عن الدّنيا وطيّباتها، وقيل: هو ترك راحة الدّنيا طلباً لراحة الآخرة، و **(عزب)** الشيء بالعين المهملة والزّاء المعجمة غاب وذهب و **(أعذر الله إليكم)** أظهر عذره والأظهر أن تكون الهمزة للسلب كما قيل في الحديث: أعذر الله إلى من بلغ من العمر ستين سنة[٢]، أي أزال عذره، قال في **«النهاية»** أي لم يبق فيه موضعاً للاعتذار حيث أمهله طول هذه المدة ولم يعتذر.

الإعراب

(الواو) في قوله، **(والشكر والورع)** عاطفة تفيد الجمع مع المصاحبة، قوله: **(وكتب بارزة العذر)** واضحة، اعلم أنه قد حقق في الأدبيّة أنّ النعت لا بدّ أن يطابق منعوته في وجوه الإعراب الثلاثة الرّفع والنّصب والجرّ، وفي التّعريف والتنكير تقول جاء زيد الفاضل بالرّفع فيهما، وجاءني رجل فاضل كذلك، وهكذا.

وأن يطابقه في الإفراد والتّثنية والجمع والتذكير والتّأنيث أيضاً إن أسند النّعت إلى ضمير المنعوت حقيقة، أو تأويلاً ونعني بالإسناد الحقيقي أن يجري النعت على من هو له، تقول: جاءتني امرأة كريمة ورجل كريم ورجلان كريمان ورجال كرام، وهكذا، ففي الوصف في الجميع ضمير مستتر عائد إلى الموصوف باعتبار حاله في التأنيث ونقيضه والإفراد ونقيضيه، ونعني بالإسناد التأويلي أن يجري النعت على غير من هو له إذا حول الإسناد عن الظاهر إلى ضمير المنعوت.

وجرّ الظاهر بالإضافة إن كان معرفة ونصب على التميز إن كان نكرة، تقول: جاءتني

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/٤٧، وعيون الحكم والمواعظ: ١٤٨.

(٢) بتفاوت في البحار: ٦/١٢٠، و٨٤/٣٣٧.

امرأة كريمة الأب بالإضافة أو كريمة أباً بالتمييز وجاءني رجلان كريما الأب أو كريمان أباً، ورجال كرام الآباء أو كرام أباء، فإن الوصف في جميع ذلك رافع ضمير الموصوف تحويلاً وتأويلاً.

وإن أسند النعت إلى الاسم الظاهر أو إلى الضّمير البارز لا يلاحظ حال المنعوت في الإفراد، ونقيضيه والتذكير ونقيضه بل يعطي الوصف حكم الفعل تقول: مررت برجل قائمة أمّه وبامرأة قائم أبوها، كما تقول قامت أمّه وقام أبوها، وهكذا تقول أيضاً جاءني غلام امرأة ضاربة هي وأمة رجل ضاربها هو، كما تقول ضربته هي وضربه هو، وهكذا.

إذا عرفت ذلك فأقول: إنّ قوله عليه السلام **(بارزة العذر)** صفة للكتب مسند إلى ضمير موصوفه تأويلاً، وقوله واضحة صفة أيضاً، لكنها مسندة إلى الضمير حقيقة أو محذوفة الفاعل بقرينة المذكور، ولذلك وافقتا مع الموصوف في الإعراب والتأنيث والتّنكير، وإنّما أتى بهما مفرداً إمّا باعتبار فاعلهما أو باعتبار تأويل الموصوف بالمفرد، فافهم.

المعنى

إعلم أن مقصوده بهذه الخطبة بيان معنى الزّهد والتنبيه على لزومه لكونه من عظائم مكارم الصالحين، وجلائل صفات المتّقين وعمدة مقامات السالكين إلى الله تعالى بقدمي الطاعة واليقين، والرّغبة ضدّه والأوّل من جنود العقل والثّاني من جنود الجهل، وقد فسّره بقوله: **(أيّها النّاس الزّهادة قصر الأمل والشّكر عند النّعم والورع عن المحارم)** وهذه الثّلاثة من لوازم الزّهد فتكون تعريفاً بالخاصّة المركبة.

وإنّما قلنا إنّها من لوازمه لأنّ الزّهد في الحقيقة عبارة عن أعراض النّفس عن الدّنيا وإقبالها إلى الآخرة، ومن هنا قيل: إنّه جعل القلب حيّاً بمشاهدة أحوال الآخرة وميّتاً في طمع الدّنيا، ومن المعلوم أن إعراض النّفس عن الدّنيا مستلزم لقصر الأمل فيها، والإقبال إلى الآخرة مستلزم للشّكر إذ الكفران موجب للعذاب باعث للسّخط والعقاب كما قال تعالى:

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وكذلك يلزمه الورع عن المحارم والكفّ عنها إذ لا ينال ما عند الله إلاّ بالورع، قال الصّادق عليه السلام في **«رواية الوسائل»**: عليكم بالورع فإنّه الدّين الذي نلازمه وندين الله تعالى به ونريده ممّن يوالينا لا تتعبونا بالشّفاعة(١).

وفي حديث أبي ذر قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«يا أبا ذر من لم يأت يوم القيامة بثلاث فقد خسر، قلت: وما الثلاث فداك أبي وأمّي؟ قال: ورع يحجزه عمّا حرّم الله عزّ وجلّ عليه،**

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥/٢٤٨ ح ٢٠٤١١، والأمالي: ٢٨١ ح ٥٤٤.

وحلم يردّ به جهل السّفيه، وخلق يداري به النّاس»[1]، هذا.

ولما كان ملازمة هذه الأمور الثلاثة بأجمعها شاقة صعبة في حقّ الأغلب من النّاس لا جرم رخّص لهم في طول الأمل بقوله: **(فإن عزب)** وبعد **(ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم ولا تنسوا عند النّعم شكركم)** يعني أنّكم إن لم تتمكنوا من الإتيان بالأمور الثلاثة فلا محالة لا تتركوا الاثنين إذ ما لا يدرك كله لا يترك كله، وإنّما رخّص في ترك طول الأمل ولم يرخص في ترك الشّكر أو الورع، لأنّ طول الأمل ليس محرماً بالذّات، وإن كان ينجرّ إلى المحرم أحياناً بخلاف الكفران والتّقحم في المحارم، فإنّهما محرمان بالذّات والتّرخيص فيهما موجب للإغراء بالقبيح.

ثمّ أكد ملازمة الزّهادة وعلل لزومها بقوله: **(فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة وكتب بارزة العذر واضحة)** يعني أظهر عذره إليكم في تعذيبكم لو خالفتم تكاليفه بإقامة الحجج الظاهرة المضيئة وإنزال الكتب الواضحة التي أبرز فيها عذره، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة، ولئلا يكون للنّاس على الله حجة بعد الرّسل.

أو أنّه سبحانه أزال عذره بإقامة البراهين العقليّة والنّقلية والحجج الباطنيّة والظاهرية، فلم يبق لكم مقام للاعتذار وأن تقولوا يوم القيامة ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى.

تبصرة

ينبغي أن نشير إلى بعض ما ورد في فضيلة صفة الزهادة وذم نقيضها أعني الرغبة من الآيات والأخبار ونردف ذلك بذكر أقسام الزّهد.

فأقول قال سبحانه:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

فنسب الزّهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم، وهو غاية المدح والثناء وقال:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ١٣١] وقال ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

(١) مكارم الأخلاق: ٤٦٨، وبحار الأنوار: ٧٤/ ٨٧.

وأما الأخبار: ففي «**الكافي**» في باب ذم الدّنيا والزّهد فيها بإسناده عن الهيثم بن واقد الحريري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من زهد في الدّنيا أثبت الله الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه وبصّره عيوب الدّنيا دائها ودوائها، وأخرجه من الدّنيا سالماً إلى دار السّلام.

وعن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزّهد في الدّنيا[(١)].

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ من أعون الأخلاق على الدّين الزّهد في الدّنيا[(٢)].

وعن علي بن هاشم بن البريد عن أبيه أنّ رجلاً سأل علي بن الحسين عليهما السّلام عن الزّهد فقال: عشرة أشياء فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرّضا، ألا وإنّ الزّهد في آية من كتاب[(٣)] الله عزّ وجل:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وعن سفيان بن عيينة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وهو يقول: كل قلب فيه شك أو شرب فهو ساقط، وإنّما أرادوا بالزّهد في الدّنيا لتفرغ قلوبهم في الآخرة.

وعن محمّد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام أنّ علامة الرّاغب في ثواب الآخرة زهده في عاجل زهرة الحياة الدّنيا، أما إنّ زهد الزّاهد في هذه الدّنيا لا ينقصه ممّا قسم الله عزّ وجل له فيها وإن زهد، وإن حرص الحريص على عاجل زهرة الدّنيا لا يزيده فيها، وإن حرص، فالمغبون من حرّم حظه من الآخرة[(٤)].

إلى غير ما في هذا المعنى من الرّوايات، وقد عقد في «**الكافي**» باباً لها ومضى شطراً منها في شرح الخطبة الثامنة والعشرين إذا عرفت ذلك، فلنذكر أقسام الزّهد.

فأقول: إنّه ينقسم على ما ذكره أبو حامد الغزالي في «**إحياء العلوم**»، تارة بالنظر إلى نفسه، وأخرى بالنّظر إلى المرغوب فيه، وثالثة بالنّظر إلى المرغوب عنه.

أما الأول: فهو إنّه يتفاوت بحسب الشدّة والضّعف والكمال والنقصان على مراتب ثلاث.

---

(١) الكافي: ٢/ ٢١٨ ح ٢، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٣٦١ ح ٢.
(٢) شرح أصول الكافي: ٨/ ٣٦٢ ح ٣، ومستدرك سفينة البحار: ٤/ ٣٨٠.
(٣) الكافي: ٢/ ٦٢ ح ١٠، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٥٣ ح ٣٥٥٦.
(٤) الكافي: ٢/ ١٢٩ ح ٦، ومستدرك الوسائل: ١٢/ ٤٣ ح ١٣٤٦٨.

المرتبة الأولى: وهي السّفلى أن يزهد في الدّنيا، وهو لها راغب والقلب إليها مائل، ونفسه لها مشتهية، ولكنّه يجاهدها ويكفّها وهذا يسمّى المتزّهد.

المرتبة الثانية: ترك الدّنيا طوعاً لاستحقاره إيّاها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لأجل درهمين، فإنّه لا يشق عليه ذلك، وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزّاهد لا محالة يرى زهده ويلتفت إليه، ويكون معجباً بنفسه ويزهده ويظن في نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه.

المرتبة الثالثة: وهي العليا الزّهد طوعاً والزّهد في الزهد بأن لا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئاً لمعرفته بأنّ الدنيا لا شيء، كمن ترك قذرة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً إذ الدنيا بالنّسبة إلى الآخرة أخسّ من قذرة بالنّسبة إلى الجوهرة، فهذا هو الكمال في الزّهد وسببه كمال المعرفة.

وأما الثاني: فهو أنّه ينقسم بالنّسبة إلى المرغوب فيه أيضاً على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يكون المرغوب فيه النّجاة من النّار، ومن سائر الآلام كعذاب القبر وطول الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي الإنسان من الأهوال على ما وردت في الأخبار.

المرتبة الثانية: أن يكون المرغوب فيه اللذائذ الموعودة والنعم الموجودة في الجنّة من الحور والقصور والأنهار والأثمار وسائر ما أعدّت للمتقين، وهذا زهد الراجين فإنّهم لم يتركوا الدنيا قناعة بالعدم وخلاصاً من الألم، وإنّما تركوها رغبة في وجود دائم وطمعاً في نعمة غير منقطعة.

المرتبة الثالثة: أن لا يكون له رغبة إلاّ في الله وفي لقائه فلا يكون له توجه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا التفات إلى النعم ليقصد الفوز بها، بل هو مستغرق الهم بالله وهو الذي أصبح وهمه هم واحد، وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله إذ طلب غيره سبحانه لا يخلو من شرك خفيّ.

وهذه المرتبة مختصّة بالتّامين في المحبة والكاملين في مقام الرضا، وليس غرضهم إلاّ تحصيل الرّضوان ولا لهم نظر إلى الحور والقصور وسائر اللذائذ الموجودة في الجنان؛ لأن لذائذ الجنّة كلها عندهم بالنسبة إلى لذة الاستغراق والفناء مثل لذة اللعب بالعصفور والاستيلاء عليه بالنّسبة إلى لذة الملك، والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة والكمال كالصبي الطالب للّعب بالعصفور التارك للذّة السّلطنة والملك من حيث قصوره عن إدراك هذه اللذة وإلى هذه أشير في قوله:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً

فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

أي الرّضوان من الله أكبر من جميع ما في الجنات من اللذات وهو الفوز العظيم إذ هو غاية كل لذة ومنتهى كل سعادة يستحقر دونه كل بهجة.

وأما الثالث: أعني الانقسام بالنّسبة إلى المرغوب عنه فنقول: إنّ الأقسام بالنّسبة إلى ذلك كثيرة غير محصورة، إلاّ أنّ هناك مجامع محيطة بها إجمالاً وهي أيضاً متفاوتة المراتب بعضها أجمل وبعضها أشرح لآحاد الأقسام وأقرب إلى التفصيل.

أمّا الإجمال في الدّرجة الأولى فهو كل ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتّى يزهد في نفسه أيضاً.

وأمّا الإجمال في الدّرجة الثّانية فهو أن يزهد في كل صفة للنّفس فيها تمتع وشهوة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرّئاسة والمال والجاه وغيرها.

وأمّا الإجمال في الدرّجة الثّالثة فهو أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النّفس.

وأما الإجمال في الدّرجة الرّابعة فهو أن يزهد في العلم والقدرة والدّينار والدرهم والجاه إذ الأموال، وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة، وأعني به كلّ علم وقدرة يتعلّق بملك القلوب، فإنّ المقصود بالجاه ملك القلوب والقدرة والاستيلاء عليها مع الشّعور بذلك، كما أنّ المقصود بالمال ملك الأعيان والقدرة عليها، فإن جاوزنا عن هذا التفصيل الإجمالي إلى شرح وتفصيل أبلغ من ذلك يكاد يخرج ما فيه الزّهد عن الحصر، وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثمّ ردها في آية أخرى إلى خمسة فقال عزّ وجل:

﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثمّ ردّها في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى:

﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثمّ ردّ الكل إلى واحد فقال:

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

فالهوى لفظ جامع لجميع حظوظ النّفس في الدّنيا، فينبغي أن يكون الزّهد فيه، فأعلى مراتب الزهد بالنسّبة إلى المرغوب عنه هو الزّهد عن ما سوى الله، وبعدها الزّهد عن حظوظ النّفس وأدناها الزّهد عن المحرمات الشّرعيّة، والله ولي التّوفيق.

الترجمة

از جمله خطب آن مقتدای عالمیان است که ترغیب فرموده مردم را به آن به ورع و زهادت وشکر وسپاس حضرت عزت به این نحو که:

ای مردمان زاهد بودن کوتاهی آرزوها است و شکر کردن است بر نعمت ها و پرهیزکاری است از حرام ها، پس اگر بعید باشد استجماع این امور از شما، پس لازم است که غالب نشود حرام صبر شما را و فراموش ننمایید نزد نعمت ها شکرگذاری خود را، پس به تحقیق که اظهار فرمود حضرت کردگار عذر خود را به سوی شما در تعذیب شما به حجت های شما روشن و نمایان و کتاب های سماویه که عذر آن ظاهر است و عیان در میان مردمان.

ومن كلام له عليه السلام في صفة الدنيا وهو الحادي والثمانون من المختار في باب الخطب

ما أَصِفُ مِنْ دارٍ أَوَّلُها عَناءٌ، وآخِرُها فَناءٌ، في حَلالِها حِسابٌ، وفي حَرامِها عِقابٌ، مَنِ اسْتَغْنى فيها فُتِنَ ومَنِ افْتَقَرَ فيها حَزِنَ، ومَنْ ساعاها فاتَتْهُ، ومَنْ قَعَدَ عَنْها واتَتْهُ، ومَنْ أَبْصَرَ بِها بَصَّرَتْهُ، ومَنْ أَبْصَرَ إِلَيْها أَعْمَتْهُ[1].

قال السّيد: أقول: وإذا تأمّل المتأمل قوله عليه السلام: من أبصر بها بصّرته، وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لا يبلغ غايته ولا يدرك غوره، ولا سيّما إذا قرن إليه قوله: **(ومن أبصر إليها أعمته)**، فإنّه يجد الفرق بين أبصر بها وأبصر إليها واضحاً نيّراً وعجيباً باهراً.

اللغة

(العناء) بالمدّ التّعب والمشقة و **(فتن)** بالبناء على المجهول من الفتنة بمعنى الضلالة و **(حزن)** بالبناء على المعلوم من باب فرح **(وأتته)** من المواتاة قال الطريحي: وهو حسن المطاوعة والموافقة وأصله الهمزة خفف وكثر حتى يقال بالواو الخالصة ومنه الحديث: خير النساء المؤاتية لزوجها[2]، وفي **«المصباح»** أتيته على الأمر وافقته، وفي لغة لأهل اليمن تبدل الهمزة **(واواً)**، فيقال وأتيته على الأمر مواتاة، وهي المشهورة على ألسنة الناس و **(الغور)** بالفتح من كل شيء قعره.

الإعراب

الضمير في قوله: **(فاتته)** منصوب المحل بنزع الخافض أي فاتت منه، **(والباء)** في قوله **(من أبصر بها)** للاستعانة أعني الداخلة على آلة الفعل، وتعدية أبصر بالحرف في قوله: **(ومن أبصر إليها)** مع كون الفعل في أصله متعدّياً بنفسه، إمّا من أجل تضمينه معنى التّوجه والالتفات، أو من أجل تضمين معنى النظر، والأوّل أنسب وأقرب، لزيادة ظهور الفرق الذي أشار إليه السّيد بين الفعلين أعني الجملتين على ذلك، وإن كان الثّاني صحيحاً أيضاً، **(وغايته وغوره)**، إمّا بالرفع على النيابة عن الفاعل، وإمّا بالنّصب على كون الفعلين مبنيّان للمعلوم، وفاعلهما الضّمير المستتر الرّاجع إلى المتأمل.

---

(١) خصائص الأئمة: ١١٨، ومشكاة الأنوار: ٤٦٩.

(٢) البحار: ٢٩٠/٦٤.

المعنى

إعلم أنّ هذا الكلام له عليه السلام مسوق للتنفير عن الدّنيا والذّم لها، وقد ذكر من أوصافها أموراً عشرة.

الأَوّل: قوله: **(ما أصف من دار أوّلها عناء)** أي: مشقّة وتعب، وذلك لأن مبدأ نشور الإنسان على ما حقّق في الطب هو الماء الدافق يخرج من بين الصّلب والتّرائب، وذلك الماء إذا وقع في الرّحم اختلط بماء المرأة ودمها وغلظ، ثمّ الرّيح يمخض ذلك الماء حتّى يتركه كالرّائب الغليظ، ثم يقسمه في الأعضاء، فإن كان ذكراً فوجهه قبل ظهر أمّه، وإن كان أنثى، فوجهها قبل بطن أمّها وذقنها على ركبتيها، ويداها على جنبيها مقبضة في المشيمة كأنها مصرورة في صرّة، وتتنفس من متنفّس شاقّ، وليس منها عضو إلاّ كأنه مقموط فوقه حرّ البطن وتحته ما تحته، وهو منوط بمعاء من سرّتها إلى سرّة أمّها، ومنها تمتص وتعيش من طعام أمها وشرابها.

فهو بهذه الحالة في الغمّ والظلمات والضيق حتّى إذا كان وقت ولادته سلط الله الرّيح على بطن أمّه، وقوى عليه التحريك فتصوب رأسه قبل المخرج فيجد من ضيق المخرج وعصره ما يجده صاحب الرّهق، فإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو مسته يد وجد من ذلك من الأَلم ما لا يجده من سلخ جلده.

ثم هو في ألوان من العذاب إن جاع فليس له استطعام، وإن عطش فليس له استسقاء أو وجع فليس له استغاثة مع ما يلقاه من الرفع والوضع واللف والحل، إذا أنيم على ظهره لا يستطيع تقلباً، أو أقعد لا يستطيع تمدّداً.

فلا يزال في أصناف هذا العذاب ما دام رضيعاً، فإذا أفلت من ذلك أخذ بعذاب الأدب فأذيق منه ألواناً، وإذا أدرك فهم المال والأَولاد والشّره والحرص ومخاطرة الطلب والسعي.

وكل هذا يتقلب فيها معه أعدائه الأَربعة: المرة والبلغم والدّم والرّيح، والسم المميت والحياة اللاذعة مع خوف السّباع والناس وخوف البرد، والحرّ ثمّ ألوان أوصاب الهرم إن بلغه.

(و) الثاني إنّ **(آخرها فناء)** إذ كل نفس ذائقة الموت، مشرفة على الفوت ومفارقة للأَهل والأَولاد مهاجرة عن الوطن والبلاد، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وكل إنسان ملاق ربه.

والثالث أنه **(في حلالها حساب)** قال سبحانه:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦] وقال أيضاً ﴿وَإِن

كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

قال الطبرسي: لا يشغله حساب عن حساب فيحاسب الجميع على أفعالهم في حالة واحدة، وسئل أمير المؤمنين عليه السلام كيف يحاسبهم في حالة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في حالة واحدة(١).

واعلم أنّ الحساب في القيامة مما يجب أن يؤمن به، وأما أنّ المحاسب عليه والمسئول عنه ماذا فقد اختلف فيه الأخبار، فبعضها كالآيات واردة على نحو العموم أو الإطلاق، وبعضها مخصوصة أو مقيدة.

ففي النبوي المعروف بين الخاصة والعامة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يزال قدم عبد يوم القيامة من بين يدي الله عزّ وجل حتى يسأل عن أربع خصال: عمرك فيما أفنيته وجسدك فيما أبليته، ومالك من أين اكتسبته وأين وضعته، وعن حبّنا أهل البيت، فقال عمر بن الخطاب: وما علامة حبكم يا رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: محبّة هذا(٢)، ووضع يده على رأس أمير المؤمنين عليه السلام.

وروى الصّدوق بإسناده عن إبراهيم بن العباس الصّولي قال: كنّا بين يدي علي بن موسى الرّضا عليهما السلام فقال: ليس في الدّنيا نعيم حقيقي، فقال له بعض الفقهاء ممن بحضرته: قول الله عز وجل:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

أما هذا النعيم في الدّنيا وهو الماء البارد، فقال له الرّضا عليه السلام وعلا صوته: هكذا فسّرتموه أنتم وجعلتموه على ضروب فقالت طائفة: هو البارد من الماء، وقال غيرهم: هو الطعام الطيب، وقال آخرون: هو النوم الطيب.

ولقد حدثني أبي عن أبيه أبي عبد الله عليه السلام إنّ أقوالكم هذه ذكرت عنده في قوله تعالى:

﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

فغضب وقال: إن الله تعالى لا يسأل عباده عمّا تفضل عليهم به، ولا يمن بذلك عليهم، والامتنان مستقبح من المخلوقين فكيف يضاف إلى الخالق عزّ وجل ما لا يرضى به

(١) تفسير مجمع البيان: ٧/٢٥٦، وتفسير نور الثقلين: ٣/٦١١ ح ١٩٥.

(٢) خاتمة المستدرك: ٣/٢٤٦، ومسند الرضا (ع): ١٢٧.

للمخلوقين، ولكن النعيم حبّنا أهل البيت وموالاتنا، يسأل الله عنه بعد التوحيد والنبوة لأنّ العبد إذا وافى بذلك أداه إلى نعيم الجنة الذي لا يزول.

ولقد حدثني بذلك أبي عن محمّد بن علي عن أبيه عن الحسين بن علي عن أبيه عليهم السلام أنّه قاله وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي أول ما يسأل عنه العبد بعد موته شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وأنك ولي المؤمنين بما جعله الله[1] لك، فمن أقر بذلك وكان معتقده صار إلى النّعيم الذي لا زوال له[2].

وفي «**جامع الأخبار**» وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى منادياً فينادي أين الفقراء؟ فيقوم عنق من النّاس فيؤمر بهم إلى الجنّة فيقول: خزنة الجنّة قبل الحساب، فيقولون ما أعطونا شيئاً فيحاسبونا عليه، فيقول الله تعالى: صدقوا عبادي ما أفقرتكم هواناً بكم، ولكن ادّخرت بهذا لكم بهذا اليوم، انظروا وتصفحوا وجوه النّاس فمن أتى إليكم معروفاً فخذوا بيده وأدخلوا الجنّة.

وعن الإرشاد عن النبي صلى الله عليه وآله: دخل الفقراء على الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم، ومقداره خمسمائة عام، هذا.

وقال المحدّث المجلسي في كتاب «**حقّ اليقين**»: إن المعلوم من الآيات والأخبار أن الحساب والسّؤال حقّ، وأما الخصوصيّة في المسئول والمسئول عنه والمحاسب والمحاسب عليه فغير معلومة.

فذهب جمع إلى أنّ السّؤال من جميع النّعم والأموال الدّنيوية، وتدلّ عليه الأخبار الخاصيّة والعاميّة الدّالة على أنّ في حلالها حساباً وفي حرامها عقاباً، والمستفاد من طائفة من الرّوايات أنّ المؤمن لا حساب عليه، وفي بعضها أنّه لا حساب في المأكول والملبوس والمنكوح، ويستفاد من بعض الأخبار أنّ قوماً يدخلون الجنّة بغير حساب كما مرّ في «**رواية جامع الأخبار**» ومن بعضها أن بعض الأعمال الصّالحة توجب دخول صاحبه على الجنة بلا حساب، فهذه مخصوصة لعمومات أدلة الحساب.

ويمكن الجمع بين الرّوايات بوجهين:

أحدهما: حمل الأخبار النّافية للحساب على انتفائه في حقّ المؤمن، والأخبار المثبتة على ثبوته في حقّ غير المؤمن.

---

(١) في نسخة: جعلته.

(٢) بحار الأنوار: ٧/ ٢٧٣، وعيون أخبار الرضا: ١/ ١٣٧.

والثاني: حمل الأخبار الأولة على عدمه في الأمور الضرورية مثل الثلاثة السّابقة، وحمل الأخبار الثّانية على وجوده في غير الأمور الضرورية كالإسراف والتبذير والصّرف في المحرّمات، والكسب من غير الوجوه المشروعة أو زائداً على قدر الحاجة الموجب تحصيله لتضييع العمر وتفويت الزّمان، فافهم.

(و) الرّابع أنّه **(في حرامها عقاب)** وهو واضح لا غبار عليه، وإلى هذا الوصف وسابقه نظر الشّاعر في قوله:

الدّهر يومان فيوم مضى عنك بما فيه ويوم جديد
حلال يوميك حساب وفي حرام يوميك عقاب شديد
تجمع ما يأكله وارث وأنت في القبر وحيد فريد
أنّي لغير واعظ تارك نفسي وقولي من فعالى بعيد
حلاوة الدّنيا ولذاتها تكلف العاقل ما لا يريد

الخامس: أنّ **(من استغنى فيها فتن)** لأنّ الاستغناء شاغل عن ذكر الله مضل عن سبيل الله فهو بلاء ابتلاه الله به، كما نطق به القرآن الكريم.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ٩].

(و) السّادس: إنّ **(من افتقر فيها حزن)** لظهور أنّ الافتقار فيها لطالبها موجب لشدّة المحنة ومنتهى الحزن والكآبة.

وفي **«جامع الأخبار»** قال النّبي ﷺ: الفقر أشد من القتل، وقال أوحى الله إلى إبراهيم فقال يا إبراهيم: خلقتك وابتليتك بنار نمرود، فلو ابتليتك بالفقر ورفعت عنك الصبر فما تصنع؟ قال إبراهيم: يا ربّ الفقر إليّ أشدّ من نار نمرود، قال الله تعالى: فبعزّتي وجلالي ما خلقت في السّماء والأرض أشدّ من الفقر، الحديث.

وقال ﷺ: «الفقر الموت الأكبر»، وقال «لولا رحمة ربّي على فقراء أمّتي كاد الفقر أن يكون كفراً»، هذا[1].

ولشدّته دعا سيد العابدين وزين السّاجدين سلام الله عليه وعلى آبائه الطاهرين أن يصرفه الله عنه ولا يبتليه به حيث قال:

اللهم لا طاقة لي بالجهد ولا صبر لي على البلاء، ولا قوة لي على الفقر، فلا تخطر عليّ رزقي ولا تكلني إلى خلقك، بل تفرّد بحاجتي وتول كفايتي وانظر إلي وانظر لي في

---

(١) بحار الأنوار: ٦٩/٤٧ ح ٥٨، وميزان الحكمة: ٣/٢٤٤٢.

جميع أموري، فإنّك إن وكلتني إلى نفسي عجزت عنها، ولم أقم ما فيه مصلحتها، وإن وكلتني إلى خلقك تجهموا لي، وإن ألجاتني إلى قرابتي حرموني، وإن أعطوني أعطوني قليلاً نكداً ومنّوا عليّ طويلاً وذموا كثيراً، فبفضلك اللهم فاغنني وبعظمتك فانعشني، وبسعتك فابسط يدي وبما عندك فاكفني[١].

(و) **السابع** أنّ (**من ساعاها فاتته** و) **الثامن** أنّ (**من قعد عنها واتته**) وعللهما الشّارح البحراني بأنّ أقوى أسباب هذا الفوات أنّ تحصيلها أكثر ما يكون بمنازعة أهلها عليها ومجاذبتهم إيّاها، وقد علمت ثوران الشّهوة والغضب والحرص عند المجاذبة للشيء وقوّة منع الإنسان له وتجاذب الخلق للشيء وعزته عندهم سبب لتفويت بعضهم له على بعض، والقعود عنها وتركها، وإن كان الغرض منهما المواتاة سبب لمواتاتها كما يفعله أهل الزّهد الظاهري المشوب بالرّيا الذي ترك الدّنيا للدّنيا، فإنّ الزّهد الظاهري أيضاً مطلوب الشّارع إذ كان وسيلة إلى الزهد الحقيقي كما قال الرّسول صلى الله عليه وآله: «الرّيا قنطرة الإخلاص»[٢].

أقول: والأظهر عندي غير هذا المعنى وهو أن يكون المراد بفواتها في حقّ السّاعين لها عدم بقائهما في حقهم لسرعة زوالها وفنائها، فيصبحون مع شدّة رغبتهم إليها وطلبهم إياها، وأيديهم عارية من حطامها خالية من زبرجها وزخرفها لحلول الموت ونزول الفوت.

ويحتمل إرادة فواتهما عنهم في حال الحياة فيكون كلامه عليه السلام محمولاً على الغالب، فإن أكثر النّاس وأغلبهم مع كونهم تابعين للدنيا راغبين عن الآخرة لا تقع الدّنيا في أيديهم، وإن خلعوا عن أعينهم الكرى وطال لهم السّهر، وهذا بخلاف التّاركين لها والزّاهدين فيها زهداً حقيقياً، فإنّ الدنيا مطيعة لهم مقبلة إليهم وهم معرضون عنها غير ناظرين إليها.

ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين عليه السلام: يا دنيا إليك عنّي أبي تعرّضت أم إليّ تشوفت لا حان حينك، هيهات غرّي غيري لا حاجة فيك قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها[٣].

وفي النبوي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله جل جلاله أوحى إلى الدّنيا أن أتعبي من خدمك واخدمي من رفضك»[٤].

وفي رواية أخرى الزّاهد في الدّنيا يريح قلبه وبدنه، والرّاغب فيها يتعب قلبه وبدنه.

التاسع والعاشر: ما أشار إليه بقوله: (**ومن أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته**)،

---

(١) بحار الأنوار: ٩٥/ ٥١، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ١٣٣ ح ٦٣.

(٢) شرح مائة كلمة للبحراني: ٣٦ ـ ١٩٨.

(٣) شرح مائة كلمة: ٢٢٧، وعيون الحكم والمواعظ: ٥٥٧.

(٤) الأمالي: ٣٥٤، ومستدرك الوسائل: ٥/ ٢٠٧ ح ٥٧٠٨.

يعني من جعلها آلة لإبصاره ومرآتاً للوصول إلى الغير تجعله الدنيا صاحب بصيرة، ومن كان نظره وتوجهه إليها وهمته معطوفاً عليها تجعله الدّنيا أعمى.

توضيح ذلك أنّ النظر إلى الدنيا يتصور على وجهين:

أحدهما: أن يكون المطلوب بالذّات من ذلك النظر هو الدنيا نفسها، ولا شك أنّ الدنيا حينئذٍ تكون شاغلة له عن ذكر الله صارفة عن سلوك سبيل الحقّ، فيكون ضالاً عن الصّراط المستقيم ناكباً عن قصد الهدى، وهو المراد بكونه أعمى يعني أن الدّنيا حينئذٍ تكون موجبة لعماء عين قلبه عن إدراك المطالب الحقّة، وعن الاهتداء إلى سلوك سبيل الآخرة، ولذلك خاطب الله سبحانه النبي ﷺ ظاهراً وأراد أمّته باطناً بقوله:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

والثاني: أن يكون الغرض بالنظر إلى الدنيا، هو التبصر بها والاهتداء إلى المبدأ والمعاد إذ ما من شيء فيها إلا وهو من آثار الصنع وأدلة القدرة وعلامة العزة والسّلطنة.

ففي كل شيء له آية تدل على أنّه واحد

وسنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم، فبالنظر إلى الأنفس والآفاق تحصل البصيرة والكمال، ويتمكن من المعرفة والوصول إلى حضرت ذي الجلال، كما يهتدي إلى الآخرة ويرغب عن الدّنيا بالنّظر إلى الأمم الماضية والقرون الفانية والملوك العاتية، كيف انتسفتهم الأيام فأفناهم الحمام فامتحت من الدّنيا آثارهم وبقيت فيها أخبارهم.

تكملة

يستفاد من كشف الغمة أنّ هذا الكلام له عليه السلام ملتقط من كلام طويل أسقط السّيد بعض فقراته على عادته قال: قال علي عليه السلام يوماً، وقد أحدق به النّاس:

أحذّركم الدّنيا فإنّها منزل قلعة وليست بدار نجعة، هانت على ربّها فخلط شرّها بخيرها وحلوها بمرّها، لم يصفها الله لأوليائه ولم يضنّ بها على أعدائه، وهي دار ممرّ لا دار مستقر، والنّاس فيها رجلان: رجل باع نفسه فأوبقها ورجل ابتاع نفسه فأعتقها، إن أعذو ذب جانب منها فحلاً أمرّ منها جانب فأوبى، أوّلها عناء وآخرها فناء، من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها وأتته ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته، فالإنسان فيها غرض المنايا مع كلّ جرعة شرق، ومع كل أكلة غصص، لا ينال منها نعمة إلاّ بفراق أخرى[1].

---

(١) نهج السعادة: ٣/ ١٥٤، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٠١٤ ح ١٠.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در مقام ذمّ دنيا و تنفير از آن كه مى فرمايد:

چه تعريف كنم سرايى را كه اول آن رنج است و عنا و آخر آن فوت است و فنا؟ در حلال آن حساب است و در حرام آن عذاب، هركس غنى شد در آن مبتلا شد به انواع بلا و افتاد در فتنه و ضلال و هركس محتاج گرديد در او گرفتار شد به اندوه و ملال و هركه سعى نمود و شتافت به سوى آن فوت شد از آن به سبب حلول موت و هركه قدم پس نهاد و ترك كرد آن را موافقت نمود او را و مساعدت و هركه دنيا را آلت بصيرت و واسطه معرفت خود گردانيد، دنيا او را صاحب بصيرت نمود و هركه نظر همت خود را به دنيا مصروف داشت، كور نمود دنيا او را.

ومن خطبة له عليه السلام عجيبة وهي الثانية والثمانون من المختار في باب الخطب

وشرحها في ضمن فصول، وبعض فصولها مرويّ في «**البحار**» بتفاوت واختلاف لما في الكتاب تطلع عليه عند الفراغ من شرح الخطبة في التكملة الآتية فانتظر.

الفصل الأول

أَلْحَمْدُ للهِ الَّذي عَلا بِحَوْلِه، ودَنا بِطَوْلِه، مانِحِ كُلِّ غَنيمَةٍ وفَضْلٍ وكاشِفِ كُلِّ عَظيمَةٍ وأَزْلٍ، أَحْمَدُهُ عَلى عَواطِفِ كَرَمِه، وسَوابغِ نِعمِه، وأُؤْمِنُ بِه أَوَّلاً بادياً، وأَسْتَهْديهِ قَريباً هادِياً، وأَسْتَعينُهُ قاهِراً قادِراً، وأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كافِياً ناصِراً، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحمَّداً صلى الله عليه وآله عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ لإنْفاذِ أَمْرِه، وإِنْهاءِ عُذْرِه، وتَقْديمِ نُذْرِه[١].

اللغة

(**الحول**) القوة و (**الطول**) الفضل والسّعة و (**منحه**) أعطاه و (**الأزل**) بفتح الهمزة وسكون الزّاء المعجمة الشّدة والضّيق و (**عطفته**) عطفاً ثنيته و (**أسبع نعمه**) عليكم أي أتمه و (**البادي**) الظاهر ومنه قوله تعالى: (**باديء الرّأي**)، أي ظاهره يقال: بدا يبدو بدواً أي ظهر فهو باد أو من البداية مقابل النّهاية (**والإنهاء**) الإبلاغ و (**العذر**) و (**النذر**) في قوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، أي حجة وتخويفاً أو إعذاراً وإنذاراً، أي تخويفاً ووعيداً.

الإعراب

أولاً: (**وبادياً**) إما منصوب على الظرفية فتكون متعلقاً (**بأؤمن**) وعليه فيكون بادياً من البداءة، أي: أو من به ابتداء قبل كل شيء، أو منصوبان على الحالية من الضّمير في به فيكونان في المعنى وصفين لله سبحانه، وهذا هو الأظهر من حيث السياق لأن المنصوبات السّتة بعدهما من أوصاف الله تعالى، إلاّ أنّ الأوّل أقرب من حيث المعنى، فافهم وتأمل.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة له عليه السلام، كما ذكره السّيد من الخطب العجيبة مشتملة على نكات بديعة ومطالب أنيقة، حسبما تعرف إليها الإشارة، وهذا الفصل منها مسوغ للثناء على الله

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٣٣٠٩، وتفسير مجمع البيان: ٨/ ٨٨.

سبحانه باعتبار نعوت جلاله وصفات كماله.

فقوله: **(الحمد لله الذي علا بحوله)** إشارة إلى علوه عزّ وجل على كل شيء، لكن لا بالمعنى المتعارف في الخلق من الفوقية الحسيّة والخيالية، بل العلو بالغلبة والقهر والاستعلاء بالقدرة والقوة، وقوله: **(ودنا بطوله)** إشارة إلى قربه من كل شيء، لكن لا بالمعنى المتعارف في الأجسام المتقارنة بل القرب بالفضل والسعة والدنو والإحسان والعطية.

وقد قدّمنا الكلام في علوه سبحانه ودنوه بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الخامس والسادس من فصول الخطبة الأولى، وفي شرح الخطبة التاسعة والأربعين أيضاً، ولئن رجعت إلى ما حقّقناه هناك عرفت أن علوه سبحانه على الأشياء لا ينافي قربة منها، وأن قربه بها لا ينافي بعده عنها، فهو تعالى في كمال علوه على خلقه منهم قريب، وفي منتهى قربه إلى الخلق عنهم بعيد.

وهو سبحانه: **(مانح كل غنيمة وفضل وكاشف كل)** داهية **(عظيمة وأزل)**، لأن كل نعمة مبدؤها وجوده، وكل عطية منشؤها كرمه وجوده، فهو منزل النّعم الجسام ومنفس الكرب العظام، وهو الصّارف لطارق البلاء والدافع للبأساء والضراء وهو مجيب المضطر إذا دعاه وكاشف السوء عنه حين ناداه.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣-٥٤].

(أحمده على عواطف كرمه) والكريم من أسمائه تعالى وهو الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، ويفيض الخير عنه من غير بخل، ومنع على كل قابل بقدر قابليته، وعواطف كرمه سبحانه عبارة عن فيوضاته العائدة إلى العباد مرة بعد أخرى، وعن خيراته النازلة إليهم تترى فإنه تعالى لا يفتقر عن كثرة العطاء، ولا يعجز عن الجزاء، وجوده يعلو كل جواد وبه جاد كل من جاد:

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

(و) نشكره على **(سوابغ نعمه)** أي: نعمه التامة الكاملة وآلآئه الظاهرة والباطنة كما قال عز من قائل:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

قال الطبرسي: النعمة الظاهرة مالا يمكنكم جحده من خلقكم وإحيائكم وإقداركم وخلق الشهوة فيكم وغيرها من ضروب النعم، والباطنة ما لا يعرفها إلا من أمعن النظر فيها.

وعن ابن عباس الباطنة مصالح الدين والدنيا مما يعلمه الله وغاب عن العباد علمه.

وعنه قال: سألت النبي ﷺ عنه فقال: يا بن عباس أما ما ظهر فالإسلام وسوى الله من خلقك، وما أفاض عليك من الرزق، وأما ما بطن فستر مساوي عملك ولم يفضحك به يا ابن عباس إن الله تعالى يقول ثلاثة جعلتهن للمؤمن ولم تكن له: صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله، وجعلت له ثلث ماله يكفر خطاياه، والثالثة سترت مساويء عمله فلم أفضحه بشيء منه، ولو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم[1].

وقيل: الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة، وقيل: الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم الآخرة، وقيل: الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء، والباطنة الإمداد بالملائكة، وقيل: الظاهرة نعم الجوارح والباطنة نعم القلب.

وقال الرازي في «**التفسير الكبير**»: الظاهرة هي ما في الأعضاء من السّلامة، والباطنة ما في القوى، فإن العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر، وفي كل واحد معنى باطن من الأبصار والسمع والذوق والشم، وكذلك كل عضو، وقد تبطل القوة ويبقى عضو قائماً.

أقول: والكل لا بأس به إذ الجميع من نعم الله على عباده، وفي تفسير أهل البيت عليهم السّلام: النعمة الظاهرة الرسالة، والنعمة الباطنة الولاية، (**و أؤمنُ به أولاً بادياً**)، أي: أصدق به وأعتقد بإلٰهيته ووحدانيّته أوّلاً، وابتداءً قبل الاستهداء والاستعانة منه ومقدماً على التوكل عليه إذ ما لم يؤمن به ولم يصدق لا يمكن الإستهداء والإستعانة والتوكل، لأَن ذلك كله فرع المعرفة والإيمان وهو ظاهر بالعيان، وعلى جعل انتصابهما على الحال فالإشارة بهما إلى الجهة التي هي مبدأ الإيمان إذ باعتبار أوّلية وجب وجوده، وباعتبار كونه بادياً أظهر الموجودات وظهرت منه الآيات في الأنفس والآفاق، فكان ظاهراً بادياً في العقل بظهور آثاره ووضوح آياته، فباعتبار ظهوره مع أولية يجب الإيمان بوجوب وجوده والاذعان بآلهيته.

(**وأستهديه قريباً هادياً**) والإشارة بهذين الوصفين كما في سابقيهما إذ من لا يتصّف بالهداية كيف يتصوّر الاستهداء منه، ومن كان بعيداً كيف يطلب منه الإرشاد إلى الرشاد والدلالة على السداد، (**وأستعينه قاهراً قادراً**) والكلام فيهما كما في سوابقهما إذ العاجز والضعيف لا يتمكن من نفسه، فكيف يكون معاوناً للغير أو يطلب منه الإعانة؟ (**واتوكل عليه كافياً ناصراً**) والكلام فيهما أيضاً كما فيما تقدم إذ التوكل عبارة عن الوكول والاعتماد فيما يخاف.

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ١٣٤ (محمد عبده).

وإليه يرجع ما عن معاني الأَخبار مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ وهو أنّه جاء جبرئيل إليه فقال له: يا جبرئيل وما التّوكل؟ قال: العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال الياس من النّاس، فإذا كان العبد كذلك لم يعتمد على أحد سوى الله ولم يَرْجُ ولم يخف سوى الله، ولم يطمع على أحد سوى الله وقال سبحانه:

﴿عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

يعني من يفوّض أمره إليه سبحانه ويوثق بحسن تدبيره فهو كافيه يكفيه أمر الدّنيا والآخرة، أنه يبلغ أمره وما أراده من قضاياه وتدابيره على ما أراده، ولا يقدر أحد على منعه ممّا أراده، لاراد لقضائه ولا مبدّل لحكمه، وقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ التّوكل من شؤونات الإيمان ومن فروع المعرفة، ولذلك وصف سبحانه المؤمنين بذلك حيث قال:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

(وأشهد أنّ محمّداً ﷺ عبده ورسوله) قد تقدّم الكلام في ثواب الشّهادة بالرّسالة في شرح الخطبة الثّانية، ومضى تحقيق معنى العبد والرّسول في شرح الخطبة الحادية والسّبعين فليراجع.

ثمّ أشار إلى بعض دواعي الرّسالة بقوله: **(أرسله لإنفاذ أمره)** يعني أرسله الله سبحانه لإجراء أحكامه الشرعيّه وأحكام قوانينه العدليّة في الخلق ليقرّوا له بالعبودية وليمحّضوا له بالطاعة **(وإنهاء عذره)**، أي: إعلام معذرته وإبلاغ عذره إلى الخلق في تعذيبهم إن عصوه، وقد مضى تحقيق ذلك في شرح الخطبة الثّمانين **(وتقديم نذره)** أي ليقدّم إنذار الله إلى الخلق وتخويفه لهم من عقابه وليبلغهم ذلك قبل يوم لقائه ليكون ذلك جاذباً لهم إلى الطاعة رادعاً لهم عن المعصية.

الترجمة

از جمله خطبه های عجيبه آن حضرت است:

حمد و ثنا مرمعبود به حق را سزا است كه بلند است بر همه خلق با قدرت و قوت و نزديك است از همه با فضل و عظمت و عطاكننده هرمنفعت است و زايل سازنده هر بلای بزرگ و شدت.

حمد می نمايم او را بر متكرّرات كرم او و بر تمام های نعم او و ايمان می آورم به او سبحانه در حالتی كه اوّل است و هويدا و طلب هدايت می كنم از او در حالتی كه نزديك است و راهنما و طلب ياری می كنم از او در حالتی كه غالب است و قادر و توكل می كنم به او در حالتی كه كفايت كننده است و ناصر و گواهی می دهم به اين كه محمد بن عبدالله (ﷺ) بنده برگزيده او است و رسول پسنديده او كه فرستاد او را به جهت اجرای امر شريعت او و اعلام عذر و معذرت او و مقدم داشتن ترسانيدن از عقوبت او و پيش از لقاء روز آخرت.

الفصل الثاني

أُوصيكُمْ عِبادَ اللهِ بتَقْوَى اللهِ الَّذي ضَرَبَ لَكُمُ الأَمْثالَ، ووَقَّتَ لَكُمُ الآجالَ، وألْبَسَكُمُ الرِّياشَ، وأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعاشَ، وأَحاطَ بِكُمُ الإِحْصاءَ، وأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزاءَ، وآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوابِغِ، وَالرِّفَدِ الرَّوافِعِ، وأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ البَوالِغِ، فَأَحْصاكُمْ عَدَداً، ووَظَّفَ لَكُمْ مدَداً، في قَرارِ خُبْرَةٍ، ودارِ عِبْرَةٍ، أَنْتُمْ مُخْتَبرُونَ فيها، ومُحاسَبُونَ عَلَيْها، فَإِنَّ الدُّنيا رَنِقٌ مَشْرَبُها، رَدِغٌ مَشْرَعُها، يُونِقُ مَنْظَرُها، ويُوبِقُ مَخْبَرُها، غُرُورٌ حائِلٌ، وضَوْءٌ آفِلٌ، وظِلٌّ زائِلٌ، وسِنادٌ مائِلٌ، حَتّى إِذا أَنِسَ نافِرُها، وَاطْمَأَنَّ ناكِرُها، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِها، وقَنَصَتْ بِأَحْبُلِها، وأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِها، وأَعْلَقَتِ المَرْءَ أَوْهاقَ المَنِيَّةِ، قائِدَةً لهُ إِلى ضَنْكِ المَضْجَعِ، ووَحْشَةِ المَرْجِعِ، ومُعايَنَةِ المَحَلِّ، وثَوابِ الْعَمَلِ، وكذلِكَ الْخَلَفُ بِعَقِبِ السَّلَفِ، لا تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِراماً، وَلا يَرْعَوِي الباقُونَ اجْتِراماً، يَحْتَذُونَ مِثالاً، ويَمْضُونَ أَرْسالاً، إِلى غايَةِ الإِنْتِهاءِ، وصَيُّورِ الْفَناءِ[1].

اللغة

(**الرّياش**) والريش واحد قال تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٦] وهو ما ظهر من اللّباس الفاخر، وفي «**المصباح**» الرّيش الخير والرّياش بالكسر المال والحالة الجميلة.

أقول: ومنه قولهم ارتاش فلان أي حسنت حاله و (**أرفغ**) بالغين المعجمة من الرّفغ وهو السّعة والخصب يقال: رفغ عيشه بالضمّ رفاغة اتّسع و (**الرّفد**) جمع رفدة وهي العطية والصّلة، و (**التوظيف**) التّعيين و (**القرار**) والقرارة ما قرّ فيه والمطمئنّ من الأرض و (**الخبرة**) بالضمّ والكسر اسم من الاختبار كالعبرة من الاعتبار، يقال اختبرت فلاناً واعتبرته امتحنته، قال ويكون الاعتبار بمعنى الاتعاظ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ قال الخليل: العبرة والاعتبار بما مضى أي الاتّعاظ والتّذكر و (**رنق**) الماء من باب فرح ونصر رنقا ورنقاً ورنوقاً كدر فهو رنق ورنق ورنق كعدل وكتف وجبل ومكان، (**ردغ**) ككتف كثير الوحل و(**يونق**) مضارع باب الأفعال يقال آنقني الشيء أعجبني، والمجرّد أنق كفرح يقال أنق الشيء أنقاً أي راق حسنه وأعجب، و (**يوبق**) من باب الأفعال أيضاً، والمجرّد (**وبق**) من باب وعد ووجل وورث يقال، وبق الرّجل ويبق ويوبق وبوقا هلك، و (**المخبر**) كالمنظر مصدر أو اسم مكان و (**الغرور**) بالفتح من غرّته الدّنيا غرورا من باب قعد خدعته بزينتها فهي غرور مثل رسول اسم

(١) بحار الأنوار: ٩/ ١١٢، وتفسير مجمع البيان: ٦/ ٧٤.

فاعل مبالغة، و **(الحائل)** المتغيّر اللّون و **(أفل)** أفولاً من باب ضرب، ونصر وعلم غاب و **(السّناد)** والسّند بفتحتين ما استندت إليه من حائط ونحوه.

و **(أنس)** به أنساً من باب علم، وفي لغة من باب ضرب والأنس بالضّم اسم منه، واستأنست به وتآنست به إذا سكن القلب ولم ينفر، ورجل **(ناكر)**، ونكر فاعل من نكر الأمر من باب فرح، أي: أنكره و **(قمص)** الفرس وغيره عند الرّكوب قمصاً من باب ضرب وقتل وهو أن يرفع يديه معا ويضعهما معاً، و **(قنصه)** يقنصه صاده فهو قانص وقنيص وقناص، و **(أقصد)** السهم أصاب فقتل مكانه وفلاناً طعنه فلم يخطئه و **(الأوهاق)** جمع وهق محرّكة ويسكن وهو الحبل يرمى في عنق الشخص يؤخذ به ويوثق، وأصله للدّواب ويقال في طرفه النشوطه، وهي بالضمّ ربطة دون العقدة إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت.

و **(الضنك)** بسكون النون الضّيق و **(ضجع)** ضجعاً وضجوعاً من باب منع وضع جنبه بالأرض كاضطجع والمضجع كمقعد موضع الضجع و **(المرجع)** كمنزل مصدر من رجع رجوعاً كالمرجعة وهما شاذان؛ لأن المصادر من فعل يفعل بالفتح.

وكذلك الخلف بعقب السّلف **(العقب)** بكسر القاف وبسكونها للتخفيف، يقال جاءني عقبه وأصل الكلمة جاء زيد يطأ عقب عمرو، والمعنى كلما رفع عمرو قدماً وضع زيد قدمه مكانها، ثم كثر حتى قيل جاء عقبه، ثم كثر حتى استعمل بمعنيين.

أحدهما: المتابعة والموالاة، فإذا قيل جاء في عقبه فالمعنى في أثره قال ابن السّكيت بنو فلان يسقي إبلهم عقب بني فلان، أي بعدهم، وقال ابن فارس فرس ذو عقب أي جري بعد جري، وذكر تصاريف الكلمة، ثمّ قال: والباب كله يرجع إلى أصل واحد وهو أن يجيء الشيء بعقب الشيء، أي: متأخراً عنه ومنه قولهم: خلف فلان بعقبي أي أقام بعدي وعقبت زيداً عقباً وعقوباً من باب قتل جئت بعده.

«والمعنى الثاني»: إدراك جزء من المذكور معه يقال: جاء في عقب شهر رمضان إذا جاء، وقد بقي منه بقيّة، ويقال إذا برأ المريض، وقد بقي شيء من المرض: هو في عقب المرض.

إذا عرفت ذلك فمعنى قوله عليه السلام: **(وكذلك الخلف بعقب السّلف)**، كذلك جاء الخلف متأخراً عن السّلف، وبعدهم أو جاؤوا، وقد بقي منهم بقيّة، وفي بعض النسخ يعقب السّلف بصيغة المضارع، أي: يجيء بعد السّلف ويتأخر عنهم، أو مع بقاء بقيّة منهم، و **(قلعه)** قلعاً من باب منع انتزعه من أصله والإقلاع عن الأمر الكف عنه، و **(اخترمته)** المنيّة أخذته، والقوم استأصلتهم واقتطعتهم، و **(ارعوى)** عن القبيح ارتدع و **(الاجترام)** اكتساب الجرم والذنب و **(احتذيت)** به إذا اقتديت به في أموره وأصله من حذوت النعل بالنّعل قدرتها بها وقطعتها على

مثالها، وقدرها و **(الإرسال)** جمع رسل بفتحتين مثل سبب وأسباب وهو القطيع من الابل وشبه به النّاس، فقيل: جاؤوا إرسالاً أي متتابعاً و **(صير)** الأَمر بالكسر ويفتح مسيره وعاقبته كالصّيور والصّيّورة.

الإعراب

قوله عليه السلام: **(وأحاط بكم الإحصاء)** قال الشّارح المعتزلي: يمكن أن ينصب الإحصاء على أنّه مصدر فيه **(اللام)**، والعامل فيه غير لفظه، ويجوز أن ينصب بأنّه مفعول به ويكون ذلك على وجهين.

أحدهما: أن يكون من حاط ثلاثياً تقول حاط فلان كرمه، أي: جعل عليه حائطاً فكأنّه جعل الإحصاء والعد كالحائط المدار عليهم، لأنّهم لا يعدونه ولا يخرجون عنه.

الثّاني: أن يكون من حاط يحوط بالواو بمعنى جمع، فأدخل الهمزة كأنّه جعل الإحصاء يحوطهم ويجمعهم، تقول ضربت زيداً وأضربته أي جعلته ذا ضرب كأنّه جعل الإحصاء ذا تحويط عليهم بالاعتبار الأولى، أو جعله ذا جمع لهم بالاعتبار الثّاني.

ويمكن فيه وجه آخر وهو أن يكون الإحصاء مفعولاً له ويكون في الكلام محذوف تقديره، وأحاط بكم حفظته وملائكته للإحصاء ودخول **(اللام)** في المفعول له كثير، انتهى.

والأظهر هو الانتصاب بالمصدر، ومثله قوله عليه السلام: **(وأحصاكم عدداً)** فإنّه أيضاً مصدر بغير لفظة الفعل على ما ذهب إليه الزّجاج من تجويز كون العدد مصدراً مستدلاً بقوله تعالى: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١] وعلى هذا فيكون أصل كلامه أحصاكم وعدّكم عدداً على حذ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤].

وأمّا على مذهب المشهور وهو الحقّ من كون العدد كالعديد اسم مصدر فهو تمييز منقول من المفعول به كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، والأصل أحصا عددكم، ويمكن أن يكون حالاً أي أحصاكم معدوداً محصوراً.

وجوّز هذا الوجه مع الوجه الأوّل صاحب **«الكشّاف»** في قوله: وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً حيث قال: **(عدداً)** حال أي وضبط كل شيء معدوداً محصوراً أو مصدر في معنى الإحصاء.

قوله: **(وأعلقت المرء أوهاق المنية)** بنصب **(المرء)** **(والأوهاق)** على المفعوليّة والفاعل الضمير الرّاجع إلى الدّنيا، **(والباء)** في قوله **(بعقب السّلف)** بمعنى **(في)** كما في قوله: بالبكاء الكثير بالإطلال،

واختراماً واجتراماً) منصوبان بنزع الخافض أي لا يكفون عن اخترام ولا يرتدعون عن اجترام، **(وأرسالاً)** منتصب على الحال.

المعنى

إعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة مسوق للوصيّة بالتّقوى والخشية من الله، ومتضمّن للتنفّر عن الدّنيا بذكر معائبها ومثالبها فأمر أوّلاً بالتّقوى بقوله: (**أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال**) أي: ضربها لكم في القرآن للتذكرة والموعظة كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧].

أي: ليتذكروا بتلك الأمثال ويتدبّروا فيها فيعتبروا، والأمثال التي ضربها لهم فيه كثيرة منها قوله تعالى بعد الآية السّابقة:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

فإنّه مثل ضربه سبحانه لعبدة الأَصنام وللمخلصين بتوحيده، ويعني بقوله رجلاً فيه شركاء أنّه يعبد آلهة مختلفة وأصناماً، وهم متشاجرون متعاسرون هذا يأمره وهذا ينهاه، ويريد كل واحد منهم أن يفرّده بالخدمة، ثم يكل كلّ منهم أمره إلى الآخر ويكل الآخر إلى آخر، فيبقى هو خالياً من المنافع وهذا حال من يخدم جماعة مختلفة الآراء والأَهواء وهو مثل الكافر.

وأمّا مثل المؤمن الموحّد فرجل سلم أي خالص يخدم مالكاً واحداً لا يشوب بخدمته خدمة غيره، ولا يأمل سواه، ومن كان بهذه الصفة نال ثمرة خدمته لا سيّما إذا كان المخدوم قادراً كريماً حكيماً.

ومنها قوله تعالى في سورة يونس:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

فإنّ هذا مثل ضربه الله للتزهيد في الدّنيا والتّرغيب في الآخرة، فقد قيل إنّ المقصود بهذه الآية تشبيه الحياة الدّنيا بالماء فيما يكون به من الانتفاع، ثم الانقطاع، وقيل: إنّ المشبّه به النّبات على ما وصفه من الاغترار به، ثمّ المصير إلى الزّوال، وقيل: إنّ المقصود تشبيه الحياة الدنيا بحياة مقدّرة على هذه الأوصاف.

وعلى أيّ تقدير فمعنى الآية أنّ مثل الحياة الدّنيا مثل الماء النازل من السّماء المختلط بسببه نبات الأَرض بعضه ببعض حتّى إذا أخذت الأَرض حسنها وبهجتها وتزيّنت في نظر أهلها وظن مالكها أنّهم قادرون على الانتفاع بها باقتطاعها وحصادها أتاها أمر الله سبحانه أي عذابه

وبلاؤه من برد أو برد، فصارت محصودة مقلوعة يابسة كأن لم تقم على تلك الصّفة بالأمس.

ونحوه في سورة الكهف: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

ونحوهما قوله سبحانه في سورة الحديد: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: ٢٠].

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

فإنّه تعالى شبه الكلمة الطيبة أعني شهادة أن لا إله إلاّ الله، أو كل كلام أمر به الله بالشّجرة الطيبة التي أصلها ثابت راسخ في الأرض وأغصانها في السّماء، وأراد به المبالغة في الارتفاع تخرج هذه الشّجرة ما يؤكل منها في كل ستّة أشهر أو في كل سنة أو كل غدوة وعشيّة.

وشبّه الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر والشّرك أو كل كلام في معصية الله بالشّجرة الخبيثة اقتلعت جثّتها من الأرض مالها من ثبات يعني أنّ الكلمة الطيبة مثل الشّجرة الطيبة ينتفع بها صاحبها عاجلاً وآجلاً، والكلمة الخبيثة كالشّجرة الخبيثة لا ينتفع بها صاحبها ولا يثبت له منها نفع ولا ثمر.

وفي تفسير أهل البيت عليهم السّلام: أن الشّجرة الطيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وفرعها علي عليه السلام وعنصر الشّجرة فاطمة وثمرتها أولادها وأغصانها وأوراقها شيعتنا ثم قال: إن الرجل من شيعتنا ليموت فيسقط من الشّجرة ورقة، وإنّ المولود من شيعتنا ليولد فيورق مكان تلك الورقة، وعلى هذا فالمراد بقوله سبحانه: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ [إبراهيم: ٢٥] ما يفتى به الأئمة من آل محمّد شيعتهم في الحلال والحرام.

وفي «**رواية أبي الجارود**» عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: كلمة خبيثة كشجرة خبيثة، إنّ هذا مثل بني أميّة[(١)]، وكيف كان فإنّ المقصود من هذه الأمثال المضروبة في القرآن ونحوها ممّا هي فوق حدّ الإحصاء هو تنبيه الخلق وتذكيرهم وإيقاظهم من نوم الغفلة والجهالة وحثهم وترغيبهم على ملازمة المعرفة والتقوى والطاعة.

---

(١) بحار الأنوار: ٢١٨/٩ ح ٩٧، وتفسير القمي: ٣٦٩/١.

ولذلك قال عليه السلام: **(أوصيكم بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال)**، فإنّ في التّعبير بهذه اللفظة إشارة إلى أنّ ضربها للتقوى مما يجري أن يتّقيه الخلق، وكذلك المقصود بالأوصاف التي يذكرها بعد ذلك هو الجذب إليه، والحثّ عليه أعني قوله: **(ووقت لكم الآجال)** أي: عينها لكم وكتبها بقلم القضاء في أمّ الكتاب كما قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

فمن علم أنّ له أجلاً إذا جاء لا يؤخر، وأن له إياباً إلى ربّه الذي يؤاخذ بما قدّم، وأخر فاجدر أن يخاف منه ويحذر، **(وألبسكم الرّياش وأرفغ لكم المعاش)** أي أنزل عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى وأوسع عيشكم ورزقكم من الطيبات لتطيعوه في السر والإعلان ولا تجاهروه بالكفر والعدوان كما قال:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

(وأحاط بكم الإحصاء وأرصد لكم الجزاء) يعني أنّه سبحانه محيط بكم عالم بعدد نفوسكم لا يشذه منكم أحد، وهو تعالى أعدّ لكم جزاء أعمالكم من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذٍ آمنون، ومن جاء بالسّيئة فكبت وجوههم في النّار هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون، **(وآثركم بالنّعم السّوابغ والرفد الروافع)** أي: أنّه تعالى اختاركم بنعمه التامة الكاملة، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأعطاكم الصّلات الجليلة الرّفيعة العالية، **(وأنذركم بالحجج البوالغ)** ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرّسل، وكان الله عزيز حكيماً، **(فأحصاكم عدداً ووظف لكم مدداً)** يعني أنّه أحصا عددكم وعين مدّة عمركم.

وإنّما أعاد عليه السلام ذكر هذين الوصفين مع إغناء قوله: ووقت لكم الآجال وأحاط بكم الإحصاء عنه، للتّاكيد والمبالغة، لأنّ ذكر توقيت المدد وتوظيف الآجال من أشدّ الجواذب إلى التّقوى، وكذلك المعرفة بإحاطة علمه بجزئيات النّفوس وعدم شذوذ شيء منها عنه رادعة لها عن المهالك والمعاطب.

فإن قيل: أي نكتة في الإتيان بالتّمييز أعني عدداً بعد لفظ الإحصاء مع أنه لا إبهام فيه ولا خفاء بل هو مغن عنه.

قلت: السّر في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وهو بيان أنّ علمه تعالى بالأشياء ليس على وجه إجماليّ، بل على وجه تفصيليّ، فإن الإحصاء قد يراد به الإحاطة الإجماليّة كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، أي لا تقدروا على حصرها إجمالاً فضلاً عن التّفصيل.

وذلك لأنّ أصل الإحصاء أنّ الحاسب إذ بلغ عقداً معيّناً من عقود الأعداء كالعشرة

والمائة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كميّة ذلك العقد، فيبنى على ذلك حسابه وقوله: **(في قرار خبرة ودار عبرة)** أراد به أنّه سبحانه عيّن لكم المدد في مقرّ البلاء والاختيار ودار الاتعاظ والاعتبار.

وهي الدّار التي **(أنتم مختبرون فيها)** بما أعطاكم الله فيها ليميز الله الخبيث من الطيب والمفسد من المصلح، حتّى يزيد في إحسان المحسن ويؤاخذ بعصيان المسيء **(ومحاسبون عليها)** أي: على نعيمها كلاً أو بعضاً على ما مضى تحقيقاً وتفصيلاً في شرح كلامه الثمانين، ومضى هناك أيضاً توضيح الاتعاظ بالدّنيا والاعتبار فيها، فليراجع ثمّة.

ثمّ إنّه عليه السلام لما وصى بالتّقوى وأمر بلزومه بذكر بعض الجواذب إليه أكده وعلله بقوله: **(فإنّ الدّنيا رنق مشربها)** وهو كناية من كدر لذاتها من حيث شوبها بالتّعب والمصائب والهموم والأحزان، **(ردغ مشرعها)** لأنّ مواردتنا ولها والشّروع فيها من مزالق الأقدام عن سواء الصّراط إلى طرفي التفريط والإفراط، وذلك لكثرة الشبهات وغلبة المشتبهات، **(يونق منظرها)** لما في ظاهرها من الحسن والبهجة والرّدغ والنضرة الموجبة لإعجاب الناظرين إليها والتذاذهم بها، **(ويوبق مخبرها)** لما في باطنها من السمّ القاتل الباعث على وبوق المتناولين لها وهلاك المفتتنين بها، ووقوعهم في الخزي العظيم والعذاب الأليم.

وهي **(غرور حائل)** لأنّها تغرّ الخلق وتخدعهم بزخرفها وزبرجها فيتوهمون دوامها وثباتها، ثمّ تنتقل عنهم وتتغير في زمان يسير ومدّة قليلة، **(وضوء آفل)** استعار لفظ الضوء لما يظهر منها من الحسن في عيون الغافلين من قولهم على فلان ضوء إذا كان حسن المنظر، يعني إنّها ذو حسن وضياء إلاّ أنّ حسنها قليل لا يدوم ويغيب فلا يبقى، **(وظل زائل)** أي: يستريح فيها أهلها ويستظلون بها إلاّ أنّها في معرض الفناء والزّوال، **(وسناد مائل)** يستند إليها الغافلون ويعتمدون عليها مع أنّها لا ثبات لها ولا قرار.

(حتّى إذا أنس نافرها واطمئن ناكرها) أي: إذا استأنس بها من كان باقتضاء عقله نافراً عنها وسكن إليها من كان بمقتضى فطرته منكراً لها، **(قمصت بأرجلها)** كالدّابة القامصة الممتنعة عن ركوب الإنسان المولية عنه.

وقمصها كناية عن امتناعها على الإنسان حين حضور أجله كأنّها تدفعه برجليها مثل الدّابة الموصوفة، والإتيان بصيغة الجمع مع أنّ الدّابة لها رجلان من باب التغليب واعتبار اليدين، وإنّما عبّر بالرّجل دون اليد لكون القمص إلى الرّجل أنسب.

(وقنصت بأحبلها) كالقناص الذي يقنص الصيد ويصيده بشركه وحبائله، وهو كناية عن تمكن العلائق الدّنيوية وحبائل محبتها والهيآت الرّدية المكتسبة عنها في عنقة بحيث لا يتمكن من الامتناع والتجنب عنها كالصّيد الواقع في الشرك، **(وأقصدت بأسهمها)** كالرّامي الذي يرمي

بسهامه فيصيب الغرض ولا يخطئه وأسهمها كناية عن الأمراض وأسباب الموت.

(وأعلقت المرء أوهاق المنية) أي: أعلقته حبالها يعني ما تجذب بها إلى الموت من سائر أسبابه أيضاً **(قائدة)** بتلك الحبال **(له إلى ضنك المضجع)** وضيق القبر **(ووحشة المرجع)** وهو إشارة إلى ما يجده أهل الدّنيا من الوحشة عند مفارقة الأموال والأولاد والأحبة **(ومعاينة المحل)** أي: مشاهدة الموضع الذي يحل به بعد الموت وهو دار الآخرة **(وثواب العمل)** أي: جزائه من خير أو شرّ لا الجزاء بالمعنى الأخص الذي هو عوض الطاعة.

(وكذلك الخلف بعقب السلف) أي: هكذا حال الخلف بعد السّلف يفعل الدّنيا بهم مثل ما فعلت بأسلافهم، وكذلك هم في الدّنيا يعملون مثل ما عمله آبائهم **(فلا تقلع المنية)** منهم **(اختراماً ولا يرعوي الباقون اجتراماً)**، يعني لا يكلف المنيّة عن إهلاكهم واستئصال نفوسهم ولا يرتدع الباقون منهم عن جرمهم وجرائرهم بل **(يحتذون مثالاً)** ويقتدون بأمثالهم الماضين في الأعمال والأفعال **(ويمضون)** على ذلك **(إرسالاً)** ومتتابعاً **(إلى غاية الانتهاء وصيور الفناء)**، أي: إلى منتهى ما يسيرون إليه بمطايا الأبدان وعاقبة ما يكون أمرهم عليه من الفناء والعرض على الملك الدّيان.

أقول: ونرجو من الله سبحانه عند ذلك الرّحمة والغفران بالكرم والامتنان.

الترجمة

وصيت می كنم شما را ای بندگان خدا به تقوی و پرهيزكاری خدا، چنان خدايی كه بيان فرمود از برای شما مثل ها و معين كرد از برای شما اجل ها و بپوشانيد شما را لباس های فاخر و وسعت داد به شما با طعام های طيب و طاهر و احاطه كرد به شما احاطه كردنی و مهيا نمود از برای شما جزای عمل های شما را و برگزيد شما را به نعمت های تامه كامله و عطايای جليله عاليه و ترساند شما را با حجت های واضحه بالغه و شمرد شما را شمردنی و تعيين نمود از برای شما مدت های اعمار در مقرّ امتحان و اختبار و در سرای اعتبار.

شما امتحان شده گانيد در دار فانی و حساب كرده شده گانيد در آن به نعمت ها و زندگانی، پس به درستی دنيا ناصاف است، محل آب خوردن آن گل آلود است، محل آب برداشتن آن تعجب می آورد در نظر جاهلان تماشاگاه آن و هلاك می سازد محل آزمايش آن در وقت التذاذ به لذات آن و آن فريبنده ای است تغييريابنده و صاحب حسنی است فرورونده و سايه ای است زايل شونده و تكيه گاهی است ميل نماينده.

تا زمانی كه انس گيرد به او نفرت كننده از او و خاطرجمع شود به او انكاركننده او، برجهد به پاهای خود كه بيندازد او را بر زمين مذلت و شكار كند او را به دام های خود تا گرفتار شود به مشقت و محنت و برساند به او تيرهای مرگ و هلاكت در حالتی كه كشنده باشد او را به ضيق و تنگی خوابگاه و وحشت بازگشت و به مشاهده كردن جای جزا و ثواب كردار.

و همچنين است حال پس آيندگان بعد از پيش رفتگان و رحلت نمايندگان، نه امساك می كند مرگ از استيصال نمودن و نه بازمی ايستند باقی ماندگان از جرم و گناه كردن، بلكه اقتدا می كنند بر مثال گذشتگان و می گذرند پياپی تا به غايت نهايت كه عبارت است از موت و عاقبت امر كه عبارت است از فنا و فوت.

الفصل الثالث

حَتّى إذَا تَصَرَّمتِ الأُمُورُ، وتَقَضَّتِ الدُهُورُ، وأَزِفَ النُّشُورُ، أَخرَجَهُمْ مِنْ ضَرائِحِ الْقُبُورِ، وأَوْكارِ الطُّيُورِ، وأَوْجِرَةِ السِّباعِ، ومَطارِحِ المَهالِكِ، سِراعاً إِلى أَمْرِهِ، مُهْطِعينَ إِلى مَعادِهِ، رَعِيلاً صُمُوتاً، قِياماً صُفُوفاً، يَنفذُهُمُ البَصَرُ، ويُسْمِعُهُمُ الدّاعي، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الإِستِكانَةِ، وضَرَعُ الإِستِسْلامِ وَالذِّلَّةِ، قَدْ ضَلَّتِ الحِيَلُ، وَانْقَطَعَ الأَمَلُ، وهَوَتِ الأَفْئِدَةُ كاظِمَةً، وخَشَعَتِ الأَصْواتُ مُهَيْنِمَةً، وأَلْجَمَ الْعَرَقُ، وعَظُمَ الشَّفَقُ، وأُرْعِدَتِ الأَسْماعُ لِزَبْرَةِ الّداعي إلى فَصْلِ الْخطابِ، ومُقايَضَةِ الْجَزاءِ ونَكالِ الْعِقابِ، ونَوالِ الثَّوابِ[1].

اللغة

(صرمت) النّخل قطعته وانصرم اللّيل وتصرّم ذهب و **(قضّ)** الشيء يقضّه قطعه و **(ازف)** شخوص فلان يازف ازفا من باب تعب قرب ودنا ومنه قوله: أزفت الآزفة، أي قربت القيامة ودنت، سميت بذلك لأَنّ كلّ ما هو آت قريب و **(نشر)** الموتى نشوراً من باب قعد حيّوا ونشرهم الله يتعدّي ولا يتعدى، وقد يتعدي بالهمزة يقال انشرهم الله وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ [عبس: ٢٢]، أي أحياه بعد إماتته.

و **(الضّريح)** الشّق في وسط القبر في جانب فعيل بمعنى مفعول، و **(أوجرة)** السّباع جمع وجاء بالكسر وهو جحرها الذي تأوى إليه و **(هطع)** يهطع من باب منع أسرع مقبلاً وأهطع في عدوه أسرع، ومنه قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨]، أي مسرعين إليه في خوف.

و **(الرّعيل)** القطعة من الخيل والجماعة من النّاس و **(الصّموت)** جمع صامت كالصّمت والصّمات مصدر بمعنى السّكوت من صمت يصمت من باب قتل.

و **(اللّبوس)** بفتح **(اللام)** ما يلبس قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ [الأنبياء: ٨٠] يعني الدّرع و **(الاستكانه)** الخضوع و **(ضرع)** له يضرع من باب منع ضراعة ذلّ وخضع، وضرع ضرعاً من باب تعب لغة، وضرع ضرعاً وزان شرف ضعف، وتضرّع إلى الله ابتهل، و **(كظم)** يكظم كظماً من باب ضرب، وسكت ورجل كظيم ومكظوم مكروب.

و **(الهينمة)** الصّوت الخفي و **(الجم العرق)** بلغ الفم فصار كاللجام، و **(الشفق)**

---

(١) بحار الأنوار: ٧/ ١١٢ ح ٤٦.

الخوف، و (**ارعدت الاسماع**) بالبناء على المجهول أخذتها الرّعدة، و (**الزّبرة**) من زبره زبراً من باب ضرب زجره ونهره، و (**قايضته**) به بالياء المثناة التّحتانيّة عارضته عرضاً بعرض، و (**نكل**) به تنكيلاً صنع به صنعاً يحذر غيره، والنّكال اسم منه أو هو العقوبة، و (**النّوال**) العطا.

الإعراب

(**سراعاً**)، منتصب على الحال من مفعول (**أخرج**)، وكذلك المنصوبات بعده، (**ولبوس الاستكانة**) مرفوع على الابتداء قدّم عليه خبره للتّوسع، وقوله (**إلى فصل الخطاب**) متعلق بالدّاعي.

المعنى

إعلم أنّ هذا الفصل من الكلام قد ساقه عليه السلام لبيان ما يحل على النّاس بعد الموت، ويلحق بهم من شدائد القيامة وأهوالها، وأشار به إلى النّشر والمعاد فقال: (**حتّى إذا تصرّمت الأمور وتقضت الدّهور**)، أي: تعطلت أمور النّاس بموتهم وانقضت الأزمان وتقطعت، (**وأزف النّشور**) أي: دنى وقرب وقت إحيائهم بعد إماتتهم أمر الله سبحانه بنفخ الصوّر فنشرهم وحشرهم.

و (**أخرجهم من ضرائح القبور**) إن كانوا مدفونين فيها، (**واوكار الطيور**)، إن كانوا أكيل طير (**وأوجرة السّباع**) إن كانوا فريسة سبع، (**ومطارح المهالك**) إن قتلوا في معركة حرب ونحو ذلك، وبالجملة ينشرهم الله ويأتي بهم جميعاً أينما كانوا، (**سراعاً إلى أمره**) وقضائه غير لابثين (**مهطعين إلى معاده**) غير مماكسين كما قال تعالى في سورة ق.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤].

أي يسرعون إلى أمره بلا مكث وتأخير، وفي سورة القمر.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٦-٧].

(**رعيلاً صموتاً قياماً صفوفاً**) أي: جماعة ساكتين قائمين صافين لا يقدرون على الكلام ولا يرخّص لهم في القعود كما قال تعالى في سورة النّبأ:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ [النبأ: ٣٨] أي: بنو آدم على أحد التّفاسير ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وفيها أيضاً ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨].

روى في «**المجمع**»: عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه سئل عن هذه الآية فقال: **يحشر عشرة أصناف**

من أمّتي أشتاتاً قد ميّزهم الله من المسلمين وبدل صورهم، فبعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت، ثمّ يسحبون عليها، وبعضهم عمى يترددون، وبعضهم صمّ بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من النّار، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم[1].

فأمّا الذين على صورة القردة فالقادة من النّاس، وأمّا الذين على صورة الخنازير فأهل السّحت، وأمّا المنكوسون على رؤوسهم فآكلة الرّبا، والعمى الجائرون في الحكم، والصمّ البكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم العلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار فالسّعاة بالنّاس إلى السلطان، والذين أشدّ نتناً من الجيف فالذين يتمتّعون بالشّهوات واللذات، ويمنعون حقّ الله في أموالهم، والذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء.

(**ينفذهم البصر**) بصر الجبّار تعالى أي لا يخفى أحد منهم مع كثرتهم عن إدراكه سبحانه ولا يعزب عن علمه كما قال في سورة الحاقة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨﴾ [الحاقة: ١٨]، (**ويسمعهم الدّاعي**) يعني أنّهم مع هذه الكثرة أيضاً يشملهم ويحيط بهم عموم دعاء الدّاعي إلى فصل الخطاب ويسمع آخرهم، كما يسمع أوّلهم نداء المنادي إلى الموقف والحساب، وإليه الإشارة بقوله تعالى في سورة ق:

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١-٤٢].

قال الطبرسي: وإنّما قال من مكان قريب؛ لأنّه يسمعه الخلائق كلّهم على حدّ واحد فلا يخفى على أحد قريب ولا بعيد فكأنّهم نودوا من مكان يقرب منهم (**عليهم لبوس**) الخضوع والخشوع، و (**الاستكانة، وضرع**) التذلل و (**الاستسلام والذلة**) من هول هذا اليوم وفزعه كما قال سبحانه في سورة طه:

﴿۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ١١١﴾ [طه: ١١].

قال الطبرسي: أي: خضعت وذلت خضوع الأسير في يد من قهره، والمراد خضع أرباب الوجوه واستسلموا لحكم الحيّ الذي لم يمت ولا يموت، وإنّما أسند الفعل إلى الوجوه لأنّ أثر الذّل يظهر عليها، وقيل: المراد بالوجوه الرّؤساء والقادة والملوك أي يذلون وينسلخون عن ملكهم وعزّهم، وفي سورة المعارج.

---

(١) بحار الأنوار: ٨٩/٧، وشجرة طوبى: ٤٣٧/٢.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤].

أي: يخرجون من القبور مسرعين كأنهم يسعون إلى علم نصب لهم خاضعة أبصارهم لا يستطيعون النّظر من هول ذلك اليوم، وتغشيهم المذلة **(قد ضلت الحيل)** أي: الحيل الدّنيوية فلا يستطيعون الخلاص ممّا هم فيه بالحيلة والتّدبير كما كانوا يخلصون من بعض آلام الدّنيا بها، **(وانقطع الأمل)** أي: أملهم في الدّنيا لامتناع عودهم إليها و انقطاع طمعهم عنها **(وهوت الأفئدة كاظمة)** أي دخلت من الفرح والسرور بل وفي كل شيء حال كونها ساكتة أو مكروبة ومخروبة وهو مأخوذ من قوله تعالى في سورة إبراهيم:

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٣].

قال الطبرسي: مهطعين أي مسرعين، وقيل: يريد دائمي النظر إلى ما يرون لا يطرفون مقنعي رؤوسهم، أي: رافعي رؤوسهم إلى السّماء حتّى لا يرى الرّجل مكان قدمه من شدّة رفع الرأس، وذلك من هول يوم القيامة، وقال: مورج ناكسي رؤوسهم بلغة قريش لا يرتدّ إليهم طرفهم أي لا ترجع إليهم أعينهم ولا يطبقونها ولا يغمضونها، وإنّما هو نظر دائم وأفئدتهم هواء أي قلوبهم خالية من كل شيء، وقيل: خالية من كلّ سرور وطمع في الخير لشدّة ما يرون من الأهوال كالهواء الذي بين السّماء والأرض، وقيل: معناه وأفئدتهم زائلة عن مواضعها قد ارتفعت إلى حلوقهم لا تخرج ولا تعود إلى أماكنها بمنزلة الشيء الذاهب في جهات مختلفة المتردّد في الهواء، وقيل معناه خالية عن عقولهم، **(وخشعت الأصوات مهينمة)** أي: حال كونها ذات هينمة وخفاء قال:

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

قال في «**مجمع البيان**»: أي خضعت الأصوات بالسّكون لعظمة الرّحمٰن، والهمس هو صوت الأقدام أي لا تسمع من صوت الأقدام، أي: لا تسمع من صوت أقدامهم إلا صوتاً خفياً كما يسمع من أخفاف الإبل عند سيرها، وقيل: الهمس إخفاء الكلام، وقيل: معناه إنّ الأصوات العالية بالأمر والنّهي في الدّنيا ينخفض ويذلّ أصحابها فلا يسمع منهم إلاّ الهمس، **(والجم العرق)** أي: بلغ أفواههم، قال الشّارح المعتزلي: وفي الحديث أنّ العرق ليجري منهم حتّى أنّ منهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ صدره، ومنهم من يلجمه وهم أعظمهم مشقّة.

أقول: وعن الإرشاد عن الصّادق عليه السلام في حديث: إنّ الغني ليوقف للحساب ويسيل منه العرق حتّى لو شرب منه أربعون بعيراً لصدر.

ويأتي لهذا مزيد تفصيل في «**شرح المختار**» المائة والتّاسع والثمانين إن شاء الله، **(وعظم الشّفق)**، وفي بعض الرّوايات أنّ شعر رأس النّاس وبدنهم يبيض من شدّة الخوف والإشفاق

بعد ما كان أسود، **(وأرعدت الأسماع لزبرة الدّاعي إلى فصل الخطاب)** أي: أخذتها الرّعدة والاضطراب من زجر الدّاعي ونهره وهيبة صوته، قال الطبرسي في تفسير قوله:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١].

قيل: إنّه يناد المناد من صخرة بيت المقدّس أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزّقة قومي لفصل القضاء وما أعدّ الله لكم من الجزاء، وقيل: إنّ المنادي هو إسرافيل يقول: يا معشر الخلائق قوموا للحساب، **(ومقايضة الجزاء)** مبادلتها ومعاوضتها **(ونكال العقاب)** إن كسبت يداه في الدّنيا سيئة **(ونوال الثّواب)** إن اقترف فيها حسنة.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

تنبيه وتحقيق

اعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة كبعض الخطب الآتية نصّ صريح في ثبوت المعاد الجسماني، وعليه قد دلت الآيات القرآنيّة مما ذكرناها وما لم يذكر، والسّنن النّبوية المتواترة بل هو ضروري الدين وعليه إتفاق المسلمين ومع ذلك كله لا يعبأ بخلاف الحكماء، ومنعهم منه بناء على امتناع إعادة المعدوم من حيث امتناع عود أسبابه بعينها من الوقت والدّورة الفلكية المعيّنة وغيرهما، وربّما قال بعض الحكماء أي حكماء الإسلام بجواز عود المثل، وربّما قلد بعضهم ظاهر الشّريعة في أمر المعاد الجسماني، وإثبات السّعادة والشقاوة البدنيّة مع الرّوحانيّة.

قال الصّدر الشّيرازي في «**شرح الهداية للميبدي**»: واعلم أنّه قد زعمت الفلاسفة الطبيعيون وأوساخ الدّهرية الذين لا اعتداد بأقوالهم وآرائهم في الملة ولا في الفلسفة إنكار المعاد مطلقاً للإنسان زعماً منهم أنّه متكون من مزج وامتزاج لهذا الهيكل المحسوس بما له من القوى والأعراض، وذلك يفنى بالموت ولا يبقى فيه إلاّ المواد العنصرية ولا إعادة للمعدوم فمهما فسد لا يرجى له عائدة فحكموا بأنّه إذا مات مات ونيل سعادته أو شقاوته قد فات، كما حكى الله عنهم في كتابه المجيد:

﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

مثل العشب والمرعى فيصير غثاء أهوى، فلهذا السّبب أنكروا النّبوة المنذرة بالبعث وفوائدها وأصروا صريحاً على منع نشر موائدها، وفي هذا تكذيب العقل على ما يراه المحقّقون من أهل الفلسفة والشّرع على ما قرره المحقّقون من أهل الملة.

واتّفق المحققون من الفلاسفة والملّيين على ثبوت المعاد وحقيّته لكنّهم اختلفوا في كيفيّته.

فذهب جمهور المسلمين على أنّه جسماني فقط، لأنّ الرّوح عندهم جسم سار في البدن سريان الزّيت في الزّيتون وماء الورد في الورد والنّار في الفحم.

وذهب جمهور الفلاسفة إلى أنّه روحاني، فقط، لأنّ البدن ينعدم بصوره وأعراضه فلا يعاد والنّفس جوهر مجرّد باق لا سبيل إليه للفساد.

وما تزيّن به كثير من علماء الإسلام كأصحابنا الإماميّة، والشّيخ الغزالي والكعبي والحلبي والرّاغب الأصفهاني هو القول بالمعادين: الرّوحاني والجسماني جميعاً ذهابا إلى أن النّفس جوهر مجرد يعود إلى البدن، وهذا رأي كثير من الصّوفيّة والكراميّة وبه يقول جمهور النّصارى والتّناسخيّة.

قال الإمام الرّازي: إلا أنّ الفرق أنّ المسلمين يقولون بحدوث الأرواح وردّها إلى البدن لا في هذا العالم بل في الآخرة، والتّناسخيّة بقدمها وردها إليه في هذا العالم وينكرون الآخرة والجنّة والنّار.

أقول: وممّن قال بالمعادين الشّيخ الرّئيس أبو علي بن سينا، قال في محكى كلامه من **«الشفا»**: يجب أن يعلم أنّ المعاد منه ما هو مقبول من الشّرع ولا سبيل إلى إثباته إلاّ من طريق الشّريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذي للبدن عند البعث وخيرات البدن وشروره معلومة لا تحتاج أن تعلم، وقد بسطت الشّريعة الحقة التي أتانا بها سيدنا ومولانا محمّد ﷺ حال السّعادة والشّقاوة اللتين بحسب البدن.

ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني، وقد صدقه النبوة وهو السّعادة والشّقاوة البالغتان الثابتتان بالمقاييس اللتان للأنفس، وإن كانت الأوهام منّا تقصر عن تصورها الآن، لما نوضح من العلل والحكماء الإلهيّون رغبتهم في إصابة هذه السّعادة أعظم من رغبتهم في إصابة السّعادة البدنيّة بل كأنّهم لا يلتفتون إلى تلك، وإن أعطوها ولا يستعظمونها في جنب هذه السّعادة التي هي مقاربة الحقّ الأوّل، انتهى كلامه.

وقال المحقّق الشيرازي أيضاً في **«شرح الهداية»**: اعلم أنّ إعادة النّفس إلى بدن مثل بدنها الذي كان لها في الدّنيا مخلوق من سنخ هذا البدن بعد مفارقتها عنه في القيامة، كما نطقت به الشّريعة من نصوص التّنزيل وروايات كثيرة متظافرة لأصحاب العصمة والهداية غير قابلة للتّأويل كقوله تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝﴾ [القيامة: ٣-٤].

أمر ممكن غير مستحيل، فوجب التّصديق بها لكونها من ضروريّات الدّين وإنكاره كفر مبين ولا استبعاد أيضاً فيها، بل الاستبعاد والتّعجب من تعلق النّفس إليه في أوّل الأمر أظهر من تعجب عوده إليه إلى أن قال: ولا يضرّنا أيضاً كون البدن المعاد غير البدن الأوّل بحسب الشّخص لاستحالة كون المعدوم بعينه معاداً، وما شهد من النّصوص من كون أهل الجنّة جرداً مرداً، وكون ضرس الكافر مثل جبل أحد، وكذا ما روي من قوله يحشر بعض النّاس يوم القيامة على صورة يحسن عندها القردة والخنازير، يعضد ذلك، وكذا قوله: كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها.

فإن قيل: فعلى هذا يكون المثاب والمعاقب باللذات والآلام الجسمانيّة غير من صدرت منه الطاعات والخيرات، وارتكب المعاصي والشّرور.

قلنا: العبرة في ذلك الجوهر المدرك وهو النّفس، ولو بواسطة الآلات وهي باقية بعينها، وكذا المادة والسنخ كالأجزاء الأصليّة في البدن أو غيرها، ولهذا يقال للشّخص مع انتقاله من الصّبا إلى الشّيخوخيّة والتّجددات والاستحالات الواقعة فيما بين أنّه هو بعينه، وإن تبدّلت الصّور والهيئات وكثير من الأعضاء والآلات، ولا يقال لمن جنى في الشّباب وعوقب في المشيب أنّه عقاب بغير الجاني، انتهى. وأنت إذا أحطت خبراً بالأقوال في المسألة فلا بأس بالإشارة إلى بعض شبه المنكرين مع إبطال شبههم حسبما أشير إليه في الكتاب العزيز قال سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٠].

روى أنّ أمية بن خلف أو العاص بن وائل السّهمي أو أُبي بن خلف وهو المروي عن الصّادق عليه السلام أيضاً: جاء بِعَظم بالٍ متفتت وقال: يا محمّد أتزعم أنّ الله يبعث هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم، ويدخلك جهنّم فنزلت الآية، وهو المراد بالإنسان في الآية وإن كان الحكم جارياً في حقّ كل من ينكر البعث والحشر إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب على ما تقرر في الأصول، فالمعنى:

أولم يعلم الإنسان أنا خلقناه من نطفة، ثمّ نقلناه من النّطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة، ومن المضغة إلى العظام، وكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر كامل العقل والفهم، فإذا كمل عقله وفهمه صار متكلماً مخاصماً، فمن قدر على مثل هذا فكيف لا يقدر على الإعادة والإحياء مع أنّها أسهل من الإنشاء والابتداء؟

ثمّ أكد سبحانه الإنكار عليه فقال: وضرب لنا مثلاً، أي ضرب المثل في إنكار البعث بالعظم البالي وفته بيده، ونسي خلقه، أي ترك النّظر في خلق نفسه مع أنه من أدلّ الدلائل على جواز البعث وإمكانه، لما ذكرناه من أنّه مخلوق من نطفة متشابهة الأجزاء مع كونه مختلف الأعضاء إذ لو كان خلقه من أشياء مختلفة الصّور لأمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو، وكذلك الحال في كل عضو، ولما كان خلقه من متشابهة الأجزاء مع اختلاف صوره كان ذلك دليلاً على كمال الاختيار والقدرة.

مضافاً إلى القوة العاقلة والفاهمة والناطقة التي أعطاها الله له وأبدعها فيه، فقدر معها على المخاصمة والاحتجاج مع أن تلك القوة لم تكن في النطفة أصلاً ولم تكن من مقتضياتها، ودلالة ذلك على الاختيار والاقتدار أقوى.

ثم إنّ المنكرين للبعث منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة، وإنّما اكتفى بمجرّد الاستبعاد، وادعى الضرورة والبداهة في استحالة المعاد وهم الأكثرون، ويدلّ عليه ما حكاه تعالى عنهم في غير موضع كما قال: وقالوا: أئذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد، إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً فإنّا لمبعثون، إنك لمن المصدقين إإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً، إنّا لمدينون إلى غير ذلك.

ومثلها ما حكاه هنا بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، على طريق الاستبعاد، وهو المراد بالمثل الذي ضربه الإنسان المذكور، ولما كان استبعاده من جهة التفتت والتفرق اختار العظم للذكر لبعده عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلا والتفتت وقال: هي رميم، وقد دفع الله سبحانه بقوله: ونسي خلقه، إذ لو كان تدبر في خلقه وعرف قدرة خالقه واختياره وعلمه لما استبعد ذلك.

ومنهم من ذكر شبهة وإن كان مرجعها بالآخرة إلى الاستبعاد أيضاً وهي على وجهين:

أحدهما: أنّه بعد العدم لا يبقى شيء فكيف يصح على المعدوم الحكم بالوجود ودفعها بقوله: قل يحييها الذي أنشأها أول مرة، يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً.

وثانيهما: أنّ من تفرقت أجزاؤه في مشارق الأرض ومغاربها وصار بعضه في أبدان السباع، وبعضه في حدران الرّباع وبعضه في ضرائح القبور، وبعضه في أوكار الطيور كيف يجمع.

وأبعد من ذلك أنّه قد يأكل الإنسان سبع ويأكل السّبع طائر، ويأكل الطائر إنسان آخر، ومن المعلوم أنّ أجزاء المأكول يصير جزء بدن الآكل، فإذا حشر الإنسان والحيوان على ما هو المذهب الحق، فتلك الأجزاء المفروضة إمّا أن تعاد في بدن الآكل أو في بدن المأكول أو فيهما

معاً، فإن أعيدت في بدن الآكل لزم أن لا يعاد المأكول، وإن أعيد المأكول لزم أن لا يعاد الآكل، وإن كان الثالث لزم المحال، لأنّ الجزء الواحد لا يكون في موضعين.

فقال تعالى في إبطال هذه الشبهة: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، وتوضيحه أن في بدن الآكل أجزاء أصليّة وأجزاء فضليّة، وفي المأكول كذلك، فإذا أكل الإنسان سبع صار الأصلي من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصليّة للآكل هي ما كان له قبل الأكل، والله بكل خلق عليم، يعلم الأصلي من الفضلي فيجمع الأجزاء الأصليّة للآكل، وينفخ فيها روحه، ويجمع الأجزاء الأصليّة للمأكول فينفخ فيها روحه، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة من البقاع والأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة.

ثم بالغ سبحانه في إبطال إنكارهم بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، فإذا أنتم منه توقدون، ووجه المبالغة هو أنّ الإنسان مشتمل على جسم يحسّ به وحياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فإن النار في الشّجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تشهدونه حيث إنكم منه توقدون.

وإذا حقّقت ما ذكرناه ووضح لك صحّة المعاد الجسماني وضوح الشّمس في رابعة النّهار.

وظهر لك فساد ما ربّما قيل أو يقال: من أنّ الآيات المشعرة بالمعاد الجسماني ليست أكثر وأظهر من الآيات المفيدة للتّجسّم والتّشبه والجبر والقدر ونحو ذلك، وقد وجب تأويلها قطعاً وصرفها عن ظواهرها.

قلنا: دل هذه الآيات أيضاً إلى بيان المعاد الرّوحاني وأحوال سعادة النّفس وشقاوتها بعد مفارقة الأبدان والأجسام على وجه يفهمه العوام، فإنّ الأنبياء مبعوثون إلى كافة الخلق للإرشاد بقدر الاستعداد إلى سبيل الحق وتكميل النفوس بحسب القوة النظرية والعملية وتبقية النظام المفضي إلى صلاح الكل.

وذلك بالتّرغيب والتّرهيب بالوعد والوعيد والبشارة بما يعتقدونه لذّة وكمالاً والإنذار عمّا تعدونه ألماً ونقصاناً، وأكثرهم عوام تقصر عقولهم لا يفهمون عالم الأشباح والمحسوسات عن ذات المبدأ الأوّل والشّريعة تحاكيها بمثالاتها المأخوذة من المباديء الجسمانية وتحاكي الأفعال الإلهية بأفعال المباديء المدنية من الملوك والسلاطين القهارين، وهكذا.

فوجب أن يخاطبهم الأنبياء في باب المعاد بما هو مثال للمعاد الحقيقي ترغيباً وترهيباً للعوام وتتميماً للنظام، ولهذا قيل إنّ الكلام مثل وأشباح للفلسفة.

وجه ظهور الفساد أنّ الذّهاب إلى المجاز إنّما هو عند تعذر إرادة الحقيقة والمصير إلى التأويل عند عدم إمكان الظاهر كما في آيات الجبر والقدر والتجسم، وما نحن فيه ليس من

هذا القبيل إذ لا تعذر هٰهنا سيّما على قول من يقول بكون البدن والمعاد مثل الأول لا عينه.

وحمل كلام الشريعة ونصوص الكتاب على الأمثال والأشباح والإشارة إلى معاد النفس والرّعاية لمصلحة العامّة التوجب[1] نسبة المتصدعين للشرع إلى الكذب فيما يتعلق بالتبليغ والقصد إلى تضليل أكثر الخلائق والتعصب طول العمر لترويج الباطل وإخفاء الحق لأنّهم لا يفهمون من الكلام إلا ظاهره الذي لا حقيقة له على ما زعمه هذا القائل، وما هذه إلا فرية بينة وبهتان عظيم.

وبذلك كله ظهر أن ما حكاه في «**شرح البحراني**» من تأويل بعض الفضلاء كلام الإمام عليه السلام في هذا الفصل على ما يناسب مذهب القائلين بالمعاد الروحاني مما لا طائل تحته بل تطويل الكتاب بمثل تلك التأويلات الباردة الفاسدة موجب لتفويت الوقت وتضييع القوة القدسية.

عصمنا الله سبحانه من هفوات الجنان، وعثرات اللسان بحق محمّد وآله البررة الكرام عليه وعليهم السّلام إلى يوم البعث والقيام.

هداية وإرشاد

في الإشارة إلى معنى الحشر على ما حققه صدر المتألهين في كتابه المسمى بـ«**مفاتح الغيب**» وإيراد بعض الأخبار الواردة في ذلك وما يناسب ذلك.

فاعلم أن الزمان علة التّغير والتعاقب والاحتجاب بوجه، والمكان علة التفرق والتكثر والاغتياب بوجه، فهما سببان لاختفاء الموجودات واحتجاب بعضها عن بعض، فإذا ارتفعا في القيامة ارتفع الحجب بين الخلائق فيجتمع الخلائق كلّهم والأوّلون والآخرون قل إن الأوّلين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم فهي يوم الجمع ذلك يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن.

وبوجه آخر، ذلك يوم الفصل لأن الدنيا دار مغالطة واشتباه يتشابك فيها الحق والباطل، ويتعانق فيها الوجود والعدم والخير والشر والنور والظلمة، وفي الآخرة يتقابل المتخاصمان ويتفرق المتخالفان، ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون.

وفيها يتميز المتشابهان، ليميز الخبيث من الطيب؛ وينفصل الخصمان، ليحق الحق ويبطل الباطل، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة.

ولا منافاة بين هذا الفصل وذلك الجمع بل هذا يوجب ذلك، ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ

---

(١) في نسخة: توجب.

وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، والحشر أيضاً بمعنى الجمع، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] إذا عرفت ذلك فأقول قال سبحانه:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧٠].

قال الطبرسي في تفسير الصور: وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل ووجه الحكمة في ذلك أنها علامة جعلها الله ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف، ثم تجديد الخلق فشبه ذلك بما يتعارفونه من بوق الرحيل والنزول، ولا تتصوّره النفوس بأحسن من هذه الطريقة، وقوله: فصعق من في السموات ومن في الأرض، أي يموت من شدة تلك الصّيحة التي تخرج من الصّور جميع من السموات والأرض يقال: صعق فلان إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة العظيمة[1].

واختلف في المستثنى بقول إلاّ من شاء الله، وفي «**المجمع**» روى مرفوعاً هم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وفي رواية أن النبيّ ﷺ سأل جبرئيل عن هذه الآية من ذا الذي لم يشاء الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، أراد النفخة الثانية ويسمّى النفخة الأولى بنفخة الصعق، والثانية بنفخة البعث أي ثم نفخ فيه نفخة أخرى، فإذا هم قائمون من قبورهم يقلبون أبصارهم في الجوانب، وقال الطبرسي أي ينتظرون ما يفعل بهم وما يؤمرون به.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القمي بإسناده عن ثوير بن أبي فاخته عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال:

سئل عن النفختين كم بينهما؟ قال: ما شاء الله، فقيل له: فأخبرني يا ابن رسول الله كيف ينفخ فيه؟ فقال: أما النّفخة الأولى فإن الله يأمر إسرافيل فيهبط إلى الأرض ومعه الصّور وللصور رأس واحد وطرفان وبين رأس كلّ طرف منهما إلى الآخر ما بين السماء والأرض، فإذا رأت الملائكة إسرافيل وقد هبط إلى الدّنيا ومعه الصور قالوا: قد أذن الله في موت أهل الأرض وفي موت أهل السّماء.

قال: فهبط إسرافيل بحظيرة القدس وهو مستقبل الكعبة، فإذا رأوه أهل الأرض قالوا: قد أذن الله عز وجلّ في موت أهل الأرض، فينفخ فيه نفخة فيخرج الصّوت من الطرف الذي يلي الأرض فلا يبقى في الأرض ذو روح إلا صعق ومات، ويخرج الصّوت من الطرف الذي

---

(١) مجمع البيان: ٨/ ٤١٦.

يلي السّماوات، فلا يبقى في السّماوات ذو روح إلاّ صعق ومات إلا إسرافيل.

قال: فيقول الله لإسرافيل: يا إسرافيل مت، فيموت إسرافيل فيمكثون في ذلك ما شاء الله، ثمّ يأمر السّماوات فتمور ويأمر بالجبال فتسير وهو قوله:

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠].

يعني يبسط ويبدل الأرض غير الأرض يعني بأرض لم تكسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أوّل مرّة ويعيد عرشه على الماء، كما كان أوّل مرّة مستقلاً بعظمته وقدرته.

قال: فعند ذلك ينادي الجبّار جلّ جلاله بصوت من قبله جوهري[١] يسمع أقطار السّماوات والأرضين: لمن الملك اليوم؟ فلا يجبه مجيب، فعند ذلك يقول الجبّار عزّ وجلّ مجيباً لنفسه: ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وأنا قهرت الخلائق كلهم وأمتّهم إنّي أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ولا وزير وأنا خلقت خلقي بيدي وأنا أمتّهم بمشيّئتي وأنا أحييهم بقدرتي.

قال: فينفخ الجبّار نفخة أخرى في الصّور فيخرج الصّوت من أحد الطرفين الذي يلي السّماء، فلا يبقى في السّماوات أحد إلاّ حيّ، وقام كما كان، ويعود حملة العرش، ويحضر الجنّة والنّار ويحشر الخلائق للحساب[٢].

قال الرّاوي: فرأيت عليّ بن الحسين يبكي عند ذلك بكاءً شديداً.

فإن قلت: إذا فنت الأجساد وانعدمت الأجسام فما الفائدة في خطاب لمن الملك؟

قلنا: ما يصدر عن الحكيم العليم لا بدّ، وأن يكون متضمّناً للحكمة والمصلحة، وإن كانت مختفية عندنا، ويمكن أن يكون فيه اللطف بالنّسبة إلى المكلفين من حيث إنّ المخبر الصّادق إذا أخبرهم بوقوع ذلك الخطاب يوجب ذلك حقارة الدّنيا في نظرهم وعدم اغترارهم بمكلها وسلطنتها، ويوجب زيادة علمهم بقدرة الله وعزته وبتفرّده في تدبير العالم، تعالى علواً كبيراً، هذا.

وروى عليّ بن إبراهيم أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وأتى جبرئيل رسول الله وأخذ بيده وأخرجه إلى البقيع فانتهى به إلى قبر فصوّت بصاحبه فقال: قم بإذن الله فخرج منه رجل أبيض الرّأس واللحية يمسح التّراب عن وجهه وهو يقول: الحمد لله والله أكبر، فقال جبرئيل:

(١) في نسخة: جهوري.
(٢) بحار الأنوار: ٦/ ٣٢٥، والتفسير الصافي: ٤/ ٣٣٠.

عد بإذن الله تعالى، ثمّ انتهى به إلى قبر آخر فقال: قم بإذن الله، فخرج منه رجل مسوّد الوجه وهو يقول: يا حسرتاه يا ثبوراه، ثم قال له جبرئيل: عد إلى ما كنت فيه بإذن الله تعالى، فقال: يا محمّد هكذا يحشرون يوم القيامة، فالمؤمنون يقولون هذا القول وهؤلاء يقولون ما ترى(١).

وفي «الأنوار النعمانية» للسيد الجزائري قال: روى شيخنا الكليني قدّس الله روحه وتغمده الله برحمته في «الصحيح» عن يعقوب الأحمر قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام نعزيه بإسماعيل فترحم عليه، ثمّ قال: إنّ الله تعالى نعى إلى نبيه نفسه فقال: إنك ميت وإنهم ميتون، وكلّ نفس ذائقة الموت ثم أنشأ عليه السلام يحدّث فقال:

إنه يموت أهل الأرض حتى لا يبقى أحد، ثمّ يموت أهل السماء حتى لا يبقى أحد إلاّ ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل.

قال: فيجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله تعالى فيقول له، من بقي؟ وهو أعلم، فيقول: يا ربّ لم يبق إلاّ ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل فيقال له، قل لجبرئيل وميكائيل فليموتا، فتقول الملائكة عند ذلك يا ربّ رسوليك وأمينيك، فيقول تعالى: إني قضيت على كلّ نفس فيها الرّوح الموت.

ثمّ يجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله عزّ وجلّ فيقول له: من بقي؟ وهو أعلم، فيقول: يا ربّ لم يبق إلاّ ملك الموت وحملة العرش، فيقول: قل لحملة العرش فليموتوا، ثمّ يجيء كئيباً حزيناً لا يرفع طرفه فيقول له من بقي؟ وهو أعلم، فيقول: يا ربّ لم يبق إلاّ ملك الموت، فيقول له: مت يا ملك الموت، فيموت.

ثمّ يأخذ الأرض بيمينه والسّماوات بشماله فيقول: أين الذين كانوا يدعون معي شريكاً؟ أين الذين يجعلون معي إلهاً آخر؟(٢)

وفي «الأنوار» أيضاً إنّ النّفخة الأولى هي الّتي للهلاك تأتي النّاس بغتة وهم في أسواقهم وطلب معائشهم، فإذا سمعوا صوت الصّور تقطعت قلوبهم وأكبادهم من شدّته فيموتوا دفعة واحدة، فيبقى الجبّار جلّ جلاله فيأمر عاصفة فتقلع الجبال من أماكنها وتلقاها في البحار وتفور مياه البحار، وكلّ ما في الأرض وتسطح الأرض كلها للحساب فلا يبقى جبل ولا شجر ولا بحر ولا وهدة ولا تلعة فتكون أرضاً بيضاء حتّى أنه روى لو وضعت بيضة في المشرق رأيت في المغرب، فيبقى سبحانه على هذا الحال مقدار أربعين سنة.

---

(١) بحار الأنوار: ٧/ ٢٩ ح ٨، وميزان الحكمة: ٣/ ٢١٦١.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٥٧، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٢٩ ح ١٤.

فإذا أراد أن يبعث الخلق ـ قال مولانا الصّادق عليه السلام ـ أمطر السّماء على الأَرض أربعين صباحاً، فاجتمعت الأَوصال ونبتت اللحوم ويأمر الله تعالى ريحاً حتّى تجمع التّراب الذي كان لحماً، واختلط بعضه ببعض وتفرق في البراري والبحار وفي بطون السّباع فتجمعه تلك الريح في القبر.

فعند ذلك يجيء إسرافيل وصوره معه ويأمره بالنفخة الثانية، وينفخ فيه النفخة الثّانية، فإذا نفخ تركبت اللحوم والأعضاء وأعيدت الأَرواح إلى أبدانها،وانشقت القبور فخرج الناس خائفين من تلك الصيحة ينفضون التراب عن رؤوسهم فيجيء إلى كل واحد ملكان عند خروجه من القبر يقبض كلّ واحد منهما عضداً منه فيقولان له: أجب رب العزّة، فيتحيّر من لقائهما ويأخذه الخوف والفزع حتّى أنّه في تلك الساعة يبيض شعر رأسه وبدنه بعد ما كان أسود.

وعند ذلك تكثر في الأَرض الزلزال حتّى يخرج ما فيها من الأثقال ويشيب كلّ الأَطفال وتضع كل ذات حمل حملها، وترى النّاس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد[1].

وفي «**روضة الكافي**» بإسناده عن ثوير بن أبي فاختة قال: سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يحدّث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: حدّثني أبي أنّه سمع أباه عليّ بن أبي طالب عليه السلام يحدّث النّاس.

قال: إذا كان يوم القيامة بعث الله تبارك وتعالى الناس من حفرهم عزلاً مهلاً جرداً في صعيد واحد يسوقهم النّور وتجمعهم الظلمة حتّى يقفوا على عقبة المحشر، فيركب بعضهم بعضاً ويزدحمون دونها فيمنعون من المضي فيشتدّ أنفاسهم ويكثر عرقهم وتضيق بهم أمورهم، ويشتدّ ضجيجهم ويرتفع أصواتهم.

قال عليه السلام: وهو أوّل هول من أهوال القيامة، قال: فيشرف الجبّار تبارك وتعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة فيأمر ملكاً من الملائكة فينادي فيهم: يا معشر الخلائق أنصتوا واستمعوا مناد الجبّار، قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أولهم قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك وتخشع أبصارهم وتضطرب فرائضهم وتفزع قلوبهم ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصّوت مهطعين إلى الداعي قال: فعند ذلك يقول الكافر: هذا يوم عسر.

قال: فيشرف الجبّار عزّ ذكره عليهم فيقول: أنا الله لا إله إلاّ أنا الحكم العدل الذي لا يجور اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي لا يظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخذ للضعيف من

---

(١) روضة الواعظين: ٤٩٧، ومستدرك الوسائل: ١٥/ ٢٠٧ ح ١٨٠٢٧.

القوي بحقه ولصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات والسّيئات، وأثيب على الهبات ولا يجوز هذه العقبة عندي ظالم ولا أحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها لصاحبها، وأثيبه عليها وآخذ له بها عند الحساب فتلازموا أيها الخلائق واطلبوا بمظالمكم عند من ظلمكم بها في الدّنيا، وأنا شاهد لكم عليهم وكفى لي شهيداً.

قال: فيتعارفون ويتلازمون فلا يبقى لأحد له عند أحد مظلمة أو حقّ إلاّ لزمه بها.

قال: فيمكثون ما شاء الله فيشتدّ حالهم ويكثر عرقهم ويشتدّ غمهم وترتفع أصواتهم بضجيج شديد فيتمنون المخلص منه بترك مظالمهم لأهلها.

قال: ويطلع الله عزّ وجلّ على جهدهم فينادي مناد من عند الله تبارك يسمع آخرهم كما يسمع أولهم: يا معشر الخلائق انصتوا الداعي الله تبارك وتعالى واسمعوا إنّ الله تبارك وتعالى يقول: أنا الوهاب إن أحببتم أن تواهبوا فواهبوا، وإن لم تواهبوا أخذت لكم بمظالمكم.

قال: فيفرحون بذلك لشدّة جهدهم وضيق مسلكهم وتزاحمهم.

قال عليه السلام: فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أن يتخلصوا مما هم فيه، ويبقى بعضهم فيقول: يا ربّ مظالمنا أعظم من أن نهبها.

قال عليه السلام: فينادي مناد من تلقاء العرش أين رضوان خازن الجنان جنان الفردوس قال: فيأمر الله عزّ وجل أن يطلع من الفردوس قصر من فضة بما فيه من الآنية والخدم قال: فيطلعه عليهم في حفافة القصر الوصائف والخدم.

قال: فينادي مناد من عند الله تبارك وتعالى: يا معشر الخلائق ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر، قال: فيرفعون رؤوسهم فكلهم يتمناه، قال: فينادي مناد من عند الله، يا معشر الخلائق هذا لكل من عفى من مؤمن، قال: فيعفون كلهم إلاّ القليل.

قال: فيقول الله عزّ وجل لا يجوز إلى جنّتي اليوم ظالم ولا يجوز إلى ناري اليوم ظالم، ولا أحد من المسلمين عنده مظلمة حتى يأخذها منه عند الحساب أيها الخلائق استعدوا للحساب.

قال: ثمّ يخلى سبيلهم فينطلقون إلى العقبة يلوذ بعضهم بعضاً حتّى ينتهوا إلى العرصة والجبار تبارك وتعالى على العرش قد نشرت الدواوين ونصبت الموازين، أحْضَرَ النبيون والشهداء وهم الأئمة يشهد كل إمام على أهل عالمه بأنّهم قد قام فيهم بأمر الله عزّ وجل ودعاهم إلى سبيل الله.

قال: فقال له رجل من قريش: يا بن رسول الله إذا كان للرّجل المؤمن عند الرّجل الكافر مظلمة أيّ شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النّار؟ قال: فقال له علي بن الحسين

عليهما السّلام: تطرح من المسلم من سيئآته بقدر ما له على الكفار فيعذب الكفار بها مع عذابه بكفره عذاباً بقدر ما للمسلم قبله من مظلمة.

قال: فقال له القرشي: فإذا كانت المظلمة لمسلم عند مسلم كيف يؤخذ مظلمته من المسلم؟ قال: يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حق المظلوم فيزاد على حسنات المظلوم.

قال: فقال له القرشي: فإن لم يكن للظالم حسنات، قال: للمظلوم سيئات يؤخذ من سيئات المظلوم فتزاد على سيئات الظالم[1].

(١) الكافي: ٨/ ١٠٦، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٣٤.

الترجمة

تا آن که چون بریده شود کارها و به سرآید روزگارها و نزدیك شود زنده شدن مرده ها، خارج می نماید ایشان را خدای تبارك و تعالی از میان های قبرها و از آشیان های مرغ ها و مأواهای درنده ها و محل افتادن و هلاك شدن آن ها، در حالتی که شتابان باشند به سوی امر پروردگار سرعت کننده باشند به معاد آفریدگار، جمع شوندگان، ساکت شدگان، ایستادگان و صف کشیدگان.

نافذ می شود در ایشان نظر ربّ الارباب، می شنواند ایشان را خواننده ای به سوی فصل خطاب، بر ایشان است لباس خضوع و فروتنی و زاری تسلیم و خواری، به تحقیق که کم شده باشد در آن روز حیل ها و بریده شود آرزوها.

و خالی می شود قلب ها از فرح و سرور در حالتی که ساکت باشند و ترسان باشد صوت ها در حالتی که نهان باشند و رسیده شود عرق به دهان و بزرگ شود ترس از گناهان و مضطرب می باشد گوش ها به جهت زجر و هیبت صوت نداکننده به سوی حکم و خطاب فاصل در میان حق و باطل و به عوض دادن جزا به آن چه کرده اند از خیر و شر در دنیا و گرفتار شدن حذرناك عذاب و عقاب و عطاکردن اصناف ثواب.

الفصل الرابع

عِبادٌ مَخْلوُقُونَ اقْتِداراً، ومَرْبُوبُونَ اقْتِساراً، ومَقْبُوضُونَ احْتِضاراً، ومُضَمَّنُونَ أَجْداثاً، وكائِنُونَ رُفاتاً، ومَبْعُوثُونَ أَفراداً، ومَدينُونَ جَزاءً، ومُمَيَّزُونَ حِساباً، قَدْ أُمْهِلُوا في طَلَبِ الْمَخْرَجِ، وهُدُوا سَبيلَ الْمَنْهجِ، وعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتِبِ، وكشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ، وخُلُّوا لِمِضْمارِ الْجِيادِ، ورَوِيَّةِ الإرْتِيادِ، وأَناةِ الْمُقْتَبِسِ المُرتادِ، في مُدَّةِ الأَجَلِ، ومُضْطَرَبِ الْمَهَلِ، فَيا لَها أَمْثالاً صائِبَةً، ومَواعِظَ شافِيَةً، لوْ صادَفَتْ قُلُوباً زاكِيَةً، وأَسْماعاً واعِيةً، وآراءً عازِمَةً، وأَلْباباً حازِمَةً، فَاتَّقُوا الله تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، واقْتَرَف فاعترف ووجل فعمل حاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعُبِّر فاعتبرَ، وحُذِّرَ فَازدَجَرَ، وأجابَ فَأَنابَ، وراجَعَ فَتابَ، واقْتَدى فَاحتذَى، وأُرِيَ فَرَأَى، فَأَسْرَعَ طالِباً، ونَجا هارِباً، فَأَفادَ ذَخيرَةً، وأَطابَ سَريرَةً، وعَمَّرَ مَعاداً، وَاسْتَظْهَرَ زاداً، لِيَوْمِ رَحيلِه، ووَجْهِ سَبيلِه، وحالِ حاجتِه، ومَوْطِنِ فاقتِه، وقَدَّمَ أَمامَهُ لِدارِ مُقامِه، فَاتَّقُوا اللهَ عِبادَ الله جَهَةَ ما خَلَقَكُمْ لَهُ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ ما حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِه، وَاسْتَحِقُّوا مِنْهُ ما أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنجزِ لِصِدْقِ ميعادِه، وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعادِهِ[١].

اللغة

(**قسره**) على الأمر قسراً من باب ضرب قهره واقتسره كذلك، و (**حضره**) الموت واحتضره أشرف عليه فهو في النّزع وهو محضور محتضر بالفتح.

قال الطريحي: وفي الحديث ذكر الاحتضار وهو السوق سمّي به قيل لحضور الموت والملائكة الموكلين به وإخوانه وأهله عنده، وفلان محتضر أي قريب من الموت، ومنه إذا احتضر الإنسان وجه يعني جهة القبلة، و (**الأجداث**) جمع الجدث كأسباب وسبب وهو القبر، وهذه لغة أهل تهامة، وأمّا أهل نجد فيقولون جدف بالفاء، و (**الرفات**) كالفتات بالضّم ومعناً وهو ما تناثر من كل شيء، و (**المنهج**) كالنهج والمنهاج الطريق الواضح، و (**العتبى**) بالضّم الرّضا واستعتبه أعطاه العتبى كأعتبه، وطلب إليه العتبى من الأضداد.

قال الفيومي: عتب عليه عتباً من بابي ضرب، وقيل لامه في تسخط وأعتبني الهمزة للسبب أي أزال الشكوى والعتاب، واستعتب طلب الأعتاب والعتبى اسم من الأعتاب، و(**السّدف**) جمع سدفة، كغرفة وغرف وهي الظلمة، و (**ضمر**) الفرس ضموراً من باب قعد، وضمر ضمراً من باب قرب، قَلَّ لحمه وهزل، وضمرته وأضمرته أعددته للسباق وهو أن تعلفه

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٨٩.

قوتاً بعد السّمن، أي: يعلف حتّى يسمن، ثمّ يرد إلى قوته الأوّل ليخف لحمه وذلك في أربعين يوماً، والمضمار الموضع الذي تضمر فيه الخيل.

و **(الرّوية)** الفكر والتّدبر وهي كلمة جرت على ألسنتهم بغير همز تخفيفاً وهي من روأت في الأَمر بالهمز، أي: نظرت فيه و **(الارتياد)** الطلب، و **(تأنّي)** في الأمر تمكث ولم يعجل، والإناة وزان حصاة اسم منه، و **(المقتبس)** كالقابس هو طالب العلم والنار، و **(صاب)** السّهم الغرض صوباً من باب قال: وصابه يصيبه من باب باع كأصابه وصل الغرض، وما أخطأه، وفي المثل وفي الخواطي سهم صائب و **(حزم)** فلان رأيه حزماً أتقنه، و **(التقية)** كالتّقوى اسم من اتقيت الله إتقاء، و **(اقترف)** لأهله اقترافاً اكتسب من مال حلال أو حرام، و **(حذر)** الشّيء وحاذره خافه.

ويحتمل أن يراد من حاذر كثرة الخوف بناء على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، و **(عبر)** أي أرى العبر كثيراً بناء على أن التّشديد دليل المبالغة، و **(زجره)** زجراً منعه ونهاه كازدجر فانزجر وازدجر، فازدجر يستعمل مطاوع ازدجر وهو غريب، و **(أفاد)** المال استفاده وأعطاه وهو من الأضداد، و **(استظهرت)** به استعنت و **(المقام)** بضم الميم مصدر كالإقامة يقال: قام بالمكان إقامة ومقاماً، و **(كنه)** الشّيء حقيقته وغايته ونهايته يقال: عرفته كنه المعرفة.

و **(نجز)** الوعد نجزاً من باب قتل تعجل، والنّجز مثل قفل اسم منه، ويعدى بالهمزة والحرف فيقال أنجزته ونجزت به إذا أعجلته، واستنجز حاجته وتنجزها طلب قضاءها ممّن وعده إيّاها.

الإعراب

(عباد) خبر مبتدأ محذوف، **(واقتداراً واقتساراً)** منصوبان على التّميز، **(واحتضاراً)** منصوب على الحال المؤكدة من قبيل قوله **(ولى مدبراً)**، فيؤل بالمشتق أي مقبوضون محتضرين، مثل قولهم اجتهد وحدك أي منفرداً، **(وأجداثاً)** مفعول فيه وهو وإن لم يكن من ظروف المكان المبهمة أعني الجهات السّت وما أشبهها من عند ولدي ونحوهما إلا أنّه قد انتصب بفي مقدّرة لما في الكلام من معنى الاستقرار كما قال الرّضي.

وأما **(انتصاب)** نحو: قعدت مقعده وجلست مكانه ونمت مبيته فلكونه متضمناً لمصدر معناه الاستقرار في ظرف فمضمونه مشعر بكونه ظرفاً لحدث بمعنى الاستقرار، كما أنّ **(نفسه)** ظرف لمضمونه بخلاف نحو: المضرب والمقتل فلا جرم لم ينصبه على الظرفية إلاّ ما فيه معنى الاستقرار (ا هـ)، **(وإفراداً)** منصوب على الحال كانتصاب فرداً في قوله تعالى:

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [مريم: ٩٥]

(وجزاء) مصدر على غير لفظ فعله **(وحساباً)** منصوب بنزع الخافض وما قاله البحراني من أنه مصدر منصوب بغير فعله ليس بشيء، وفي طلب المخرج **(في)** للظرفيّة المجازية كما في قولهم في نفس المؤمنة مات من الإبل أي في قتلها، فالسّبب الذي هو القتل متضمن للدّية تضمن الظرف للمظروف، وهذه هي التي يقال إنّها للسّببية.

(ومهل المستعتب) بحذف الموصوف مفعول مطلق مجازي من غير المصادر أي أمهلوا وعمروا مثل مهل المستعتب، وما توهمه الشّارح البحراني من أنه مصدر فاسد، وقوله **(في مدة الأَجل)** متعلق بقوله **(خلوا)**، وقوله **(فيا لها أمثالاً صائبة)** منادي تفخيم وتعجب، **(وانتصاب)** أمثالاً على التميز من الضمير المبهم.

قال الرّضي في «**باب التميز من شرح الكافية**»: وقد يكون الاسم في نفسه تاماً لا لشيء آخر، أعني لا يجوز إضافته فينصب عنه التميز، وذلك في شيئين: أحدهما الضمير وهو الأكثر، وذلك في الأغلب فيما فيه معنى المبالغة والتفخيم كواضع التعجب نحو يا له رجلاً ويا لها قصّة، ويا لك ليلاً، إلى آخر ما قال، **(وذخيرة وسريرة)** منصوبان على المفعول به.

وقوله: **(جهة ما خلقكم)** (ا هـ) قال الشّارح المعتزلي، نصب جهة بفعل مقدر تقديره **(واقصدوا جهة ما خلقكم له)** يعني العبادة، فحذف الفعل واستغنى عنه بقوله: **(فاتقوا الله)** لأنَّ التّقوى ملازمة لقصد المكلف العبادة فدلّت عليه واستغنى بها عن إظهاره.

قيل: ويجوز انتصابها على الظرفية أي اجعلوا تقواكم في تلك الجهة، أي: نظراً إلى تلك الجهة لا للرّياء والسمعة، **(والحذر)** بالجر عطف على **(التّنجز)**.

المعنى

إعلم أنّ هذا الفصل مسوق لشرح حال النّاس والكشف عن أوصافهم والتّنبيه على ما خلقوا لأجله وما يصير أمرهم إليه، واستدرج ذلك بمواعظ شافية ونصائح وافية، والمقصود بذلك كله تنبّههم عن نوم الغفلة والجهالة وإفاقتهم من سكر الحيرة والضّلالة.

فقوله: **(عباد مخلوقون اقتداراً)** يعني أنّ النّاس الذين شرحنا حالهم وذكرنا كيفيّة حشرهم ومعادهم هم عباد خلقهم الله سبحانه من قدرته التّامّة الكاملة وحكمته الجامعة البالغة، وليس خلقهم لذواتهم ومن اتّصف بذلك لا يجوز له العصيان لخالقه وبارئه.

(ومربوبون اقتساراً) أي: مملوكون من قهر وغلبة وربّاهم الله سبحانه من صغرهم إلى كبرهم لا عن اختيار منهم حتّى يكون لهم الخيرة في معصية ربّهم ومالكهم، **(ومقبوضون احتضاراً)** أي مقبوضون بالموت محتضرين إلى حضرة ذي العزّة فيجازيهم بالحسنة والسّيئة،

(ومضمّنون أجداثاً) أي: في قبور هي دار الوحدة والوحشة، **(وكائنون رفاتاً)** وعظاماً فتاتاً أي أجزاء شتاتاً، **(ومبعوثون أفراداً)** أي وحداناً لا مال لهم ولا ولد كما فسّر بذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]

قال في **«مجمع البيان»**: أي: جئتمونا وحداناً لا مال لكم ولا حول ولا ولد ولا حشم، وقيل: واحداً واحداً على حده، وقيل: كلّ واحد منكم منفرداً من شريكه في الغيّ وشفيقه كما خلقناكم أوّل مرّة أي خلقناكم في بطون أمّهاتكم لا ناصر لكم ولا معين، وقيل: معناه ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: تحشرون حفاةً عراةً غرلاً، والغرل هم الغلف[١].

وروي إنّ عائشة قالت لرسول الله ﷺ حين سمعت ذلك: واسوأتاه ينظر بعضهم إلى سوءة بعض من الرّجال والنّساء قال ﷺ: لكلّ امرء منهم يومئذٍ شأن يغنيه، ويشغل بعضهم عن بعض[٢].

(وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم)، معناه تركتم ما ملكناكم في الدّنيا ممّا كنتم تتباهون به من الأموال خلف ظهوركم، والمراد تركتم الأموال في الدّنيا وحملتم من الذّنوب الأحمال واستمتع غيركم بما خلفتم وحوسبتم عليه فيا لها حسرة **(ومدينون جزاء)** أي: مجزيّون بأعمالهم جزاء إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠].

(ومميزون حساباً) أي: في حساب يعني يتميّز المؤمن من المجرم والتقي من الشّقي والجيّد من الرّديء في يوم الحساب، ومقام المحاسبة كما قال سبحانه:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩].

أي اعتزلوا من أهل الجنّة وكونوا فرقة على حدة.

نقل أنّه إذا جمع الله الخلق يوم القيامة بقوا قياماً على أقدامهم حتّى يلجمهم العرق، فينادون يا ربّنا حاسبنا ولو إلى النار فيبعث الله رياحاً فتضرب بينهم وينادي مناد: وامتازوا اليوم أيها المجرمون، فتميزوا بينهم فصار المجرمون إلى النار ومن كان في قلبه إيمان صار إلى الجنة.

(١) المستدرك للحاكم: ٢/٢٥١، ومجمع البيان: ٤/١١٥.
(٢) بحار الأنوار: ٧/٦٩، وتفسير مجمع البيان: ٤/١١٥.

(قد أمهلوا في طالب المخرج) يعني أنّ الله سبحانه أمهلهم في دار الدّنيا لطلب نجاتهم وخلاصهم من الظلمات إلى النور وخروجهم من الضلالة إلى السداد، ومن الغواية إلى الرشاد **(وهدوا سبيل المنهج)** أي: هداهم الله تعالى بما جعل لهم من العقول وبعث إليهم من الأنبياء والرّسل إلى المنهج القويم والصّراط المستقيم الموصل لسالكه إلى حظيرة القدس وجنّة الفردوس.

(وعمروا مهل المستعتب) يعني: أعطاهم الله العمر وأمهلهم في الدّنيا مثل مهل من يطلب رضاءه وأعتابه أي إزالة اللّوم والشكوى عنه، ولما كان من يطلب إزالة اللّوم عنه ويقصد رجوعه عن غيّه بمهل طويلاً ويداري شبّه عليه السلام مهلة الله لخلقه مدّة أعمارهم ليرجعوا إلى طاعته ويعملوا صالحاً بذلك، فافهم جيّداً.

(وكشف عنهم سدف الرّيب) أي: أزيلت عنهم ظلمات الشّكوكات والشّبهات بما منهم الله من العقول مؤيداً بالرّسل، **(وخلّوا المضمار الجياد)** أي: خلاهم الله وتركهم في الدّنيا ليضمروا أنفسهم ويستعدّوا السّباق في الآخرة كما يترك الجياد من الخيل في المضمار وتضمر ليحصل لها الاستعداد للمسابقة ويحاز بها قصب السّبق ويؤخذ بها السّبق.

وفي الإتيان بلفظة الجياد تنبيه على أن يكونوا من جياد مضمارهم، وقد مرّ توضيح تشبيه الدّنيا بالمضمار في «**شرح الخطبة السابعة والعشرين**» فليراجع، **(و)** كذلك خلّوا لـ **(روية** الارتياد وإناة المقتبس المرتاد) أي: للتفكر في طلب الحق وليتأنوا أناة المتعلّم للعلوم الحقّة المحتاج في تعلّمه إلى التأنّي والمهلة الطالب للأنوار الإلهيّة ليهتدي بها في ظلمات الجهل والغفلة **(في مدّة الأجل)** الذي عيّنه سبحانه لهم **(ومضطرب المهل)** الذي قدّر في حقّهم.

ثمّ نبّه عليه السلام على كمال كلامه وفضل موعظته وعرّض على عدم القلوب الحاملة لها بقوله: **(فيا لها أمثالاً صائبة ومواعظ شافية)** أي: أمثالاً مطابقة لممثلانها متّصفة بالصّواب خالية عن الأخطاء ومواعظ شافية لأمراض الجهل مبرءة عن آلام الهوى **(لو صادفت)** تلك الأمثال والمواعظ **(قلوباً)** طاهرة **(زاكية وأسماعاً)** حافظة **(واعية)** أي: قلوباً مستعدّة لقبول الهداية وأسماعاً قابلة لحفظ النّصيحة **(وآراء عازمة)** قاصدة على الرّشد والسّداد **(وألباباً حازمة)** متقنة لما فيه الصّلاح والرّشاد.

وعن «**معاني الأخبار**»: الحزم أن تنتظر فرصتك وتعاجل ما أمكنك.

وفي الحديث: الحزم بضاعة والتواني إضاعة، وفيه: الظفر بالحزم والحزم بإجالة الرّأي والرأي بتحصين الأسرار[1].

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/٦٦، والبحار: ٦٨/٣٤١.

قال بعض شرّاح الحديث، أشار إلى أسباب الظفر القريب والمتوسّط والبعيد فالحزم أن تقدم العمل للحوادث الممكنة قبل وقوعها بما هو أبعد عن الغرور وأقرب إلى السّلامة، وهو السبب الأقرب للظفر بالمطالب والمتوسط هو إجالة الرّأي وإعماله في تحصيل الوجه الأحزم وهو سبب أقرب للحزم، والأبعد هو أسرار ما يطلب وهو سبب أقرب للرّأي الصّالح إذ قلّ ما يتمّ رأي، ويظفر بمطلوب مع ظهور إرادته، هذا.

وفي **«رواية الحزم»** في القلب والرّحمة والغلظ في الكبد، والحياء في الرّية.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد التّنبيه على فضل موعظته والإشارة إلى أسباب قبول الموعظ حثّ على التّقوى أيضاً ورغّب فيها لكونها الغرض الأصلي من هذه الخطبة فقال:

(فاتّقوا الله) تقيّة مثل **(تقيّة من سمع)** نداء الله **(فخشع)** قلبه لله **(واقترف)** الإثم والشّقاء **(فاعترف)** بالتّقصير والخطأ **(ووجل)** العقبى **(فعمل)** الحسنى **(وحاذر)** العقوبة **(فبادر)**، المثوبة، **(وأيقن)** أجله، **(فأحسن)** عمله، **(وعبّر)** بما فيه اتعاظ واعتبار **(فاعتبر)** وحصل له إنابة وانزجار **(وحذر)** بالسّخط والنكال، **(فازدجر)** وانزجر عن سوء الأعمال **(وأجاب)** دعوة الدّاع إذا دعاه **(فأناب)** إلى ربّه حين ناداه **(وراجع)** عقله وتفكر **(فتاب)** عمّا فرط وقصر **(واقتدى)** بالأنبياء والمرسلين، **(فاحتذى)** حذو عباد الله المتّقين، **(وأرى)** الآيات في الآفاق والأنفس **(فرأى)** الحقيقة بعيان الحس.

(فأسرع) إلى الخير **(طالباً)** راغباً **(ونجى)** من الشرّ **(هارباً)** واهباً **(فأفاد ذخيرة)** لسلوك سبيل الرّحمٰن **(وأطاب سريرة)** من الرّجس ودنس الشّيطان **(وعمر معاداً)** بصالح الأعمال **(واستظهر زاداً)** من التّقي ومكارم الخصال **(ليوم رحيله)** من الدّنيا **(ووجه سبيله)** إلى العقبى **(وحال حاجته)** في الحشر والمعاد **(ومواطن فاقته)** يوم التّناد **(وقدم)** التّقوى **(أمامه)** ليكون عدّة **(لدار)** مقيله و **(مقامه فاتّقوا الله)** سبحانه يا **(عباد الله)** واقصدو **(جهة ما خلقكم له)** من تحصيل العرفان واليقين وتكميل الإخلاص في الدّين كما قال عزّ من قائل:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

(واحذروا منه كنه ما حذّركم من نفسه).

بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٥-٨].

(واستحقّوا منه) تعالى **(ما أعدّ)** ه **(لكم)** رهياه في حقّكم ويشير به بقوله:

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

واستحقاق ذلك إمّا (**بالتنجز لصدق ميعاده**) أي: بطلب انجاز وعده الصّادق والتماس وفائه بالجزاء اللائق، وذلك الطلب إنّما هو بعد الإقبال بالطاعات والاجتهاد في إتيان الصّالحات (**و**) إمّا با (**الحذر من هول معاده**) وهو إنّما يكون بالارتداع من الخطيئات والازدجار عن السّيئآت، وفّقنا الله سبحانه للإقبال والابتهال وللانتهار والانزجار، وأنّى لنا بذلك مع ما نحن عليه من الاغترار بالدّنيا ولذّاتها والافتتان بشهواتها.

كأنّا نرى أن لا نشور وانّتا	سدى مالنا بعد الفناء بصائر
ألا لا ولكنّا نغر نفوسنا	وتشغلنا اللذات عمّا نحاذر
وكيف يلذّ العيش من هو موقن	بموقف عدل حين تبلى السرائر

الترجمة

ايشان بندگانند مخلوق شده از روى قدرت فاعل مختار و مملوك از روى قهر و جبر بى اختيار و قبض كرده شده در حالتى كه محتضرند و مرتحل به دار قرار و نهاده شده اند در درون قبور و گرديده اند اجزاء متفرقه چون هباء منثور و مبعوث شده اند در حالتى كه منفردند از اهل و مال و جزا داده شده اند جزادادنى به حسب اعمال و تميز داده شده اند در مقام حساب ربّ الارباب.

به تحقيق كه مهلت داده شده اند در دنيا به جهت طلب خروج از ظلمت جهالت و راه نموده شده اند به راه راست رشادت و معمّر شده اند و مهلت داده شده همچو مهلت كسى كه طلب كننده باشد رضا و ازاله ملامت حضرت عزّت را از خود به توبه و انابت و زايل گردانيده شده است از ايشان ظلمات شك و گمان با بيّنه و برهان و واگذاشته شده اند در دنيا از براى رياضت دادن نفس اماره، بهواسطه حمل كردن به اسباب تقوى و اثقال طاعت چون رياضت دادن و لاغر نمودن اسب هاى خوب از براى سبقت در ميدان مسابقت.

و همچنين واگذاشته شده اند از براى تفكر در طلب حق و از براى تأنّى كردن همچو تأنّى كردن طالب نور الهى به تحصيل سعادت و جوينده آن به كسب كمالات در مدت اجلى كه معين شده است برايشان و محل اضطراب مهلتى كه مقدر شده است در حق ايشان، پس اى قوم تعجب نماييد از اين پندها از حيثيت مثل هاى موصوفه به درستى و صواب و نصيحت هاى شفادهنده به امراض نادانى و جهالت اگر برسد به قلوب متّصفه به جودت و ذكاوت و به گوش هاى حفظ كننده نصيحت و به رأى هاى صاحب عزم و علوّ همت و به عقل هاى صاحب حزم و بلندمرتبت.

پس بپرهيزيد از خدا همچو پرهيز نمودن كسى كه شنيد امر خدا را، پس فروتنى نمود به خدا و كسب گناه كرد، پس اعتراف به تقصير نمود و ترسيد از آخرت، پس عمل شايسته نمود و حذر نمود از عقوبت، پس بشتافت به سوى طاعت و يقين كرد به اجل، پس نيكو كرد عمل را و عبرت داده شد، پس قبول عبرت نمود و ترسانيده شد از عذاب و سخط، پس منزجر شد از معصيت و اجابت

نمود دعوت را، پس رجوع نمود به زبان معذرت و مراجعه نمود به عقل خود، پس توبه کرد از خطیئت و اقتدا نمود به انبیا و مرسلین، پس تابع شد به سلف صالحین.

و نموده شد به وی آیات قدرت، پس معرفت رساند به حقیقت، پس سرعت کرد به سوی خیر در حالتی که طالب و راغب بود و نجات یافت از شر در حالتی که گریزان و هارب بود، پس کسب نمود ذخیره را از برای سلوك سبیل رحمان و پاکیزه نمود باطن خود را از رجس و شرك شیطان و معمور نمود معاد خود را به صالح اعمال و پشت قوی کرد به توشه برداشتن از تقوی و محاسن خصال از برای رحلت خود در دنیا و جهت راه خود به عقبی و برای حال احتیاج خود و موضع درویشی خود و فرستاد پیش از خود، توشه طاعت از برای سرای اقامت.

پس بپرهیزید از خدا ای بندگان خدا و قصد نمایید جهت آن چه را که خلق نمود شما را از برای آن که عبارت است از تحصیل معرفت و عبادت با اخلاص نیت و بترسید از خدا به نهایت آن چه ترسانید شما را از نفس خود و استحقاق پیدا کنید از او آن چیزی را که مهیا کرده است از برای شما با طلب وفا نمودن مروعده صادق او را و با حذر نمودن از هول معاد او.

و معلوم است که این طلب وفا و این حذر متصوّر نمی شود مگر با اقبال به طاعات و با ارتداع از سیئات؛ اللّهمّ وفّقنا بحقّ محمّد سید السادات.

الفصل الخامس

جَعَلَ لَكُمْ أَسماعاً لِتَعِيَ ما عَناها، وأَبصاراً لِتَجلوَ عَنْ عَشاها، وأَشْلاَءَ جامِعَةً لأَعْضائِها، مُلائِمَةً لأَحْنائِها، في تَرْكيبِ صُوَرِها، ومُدَدِ عُمُرِها، بِأَبدانٍ قائِمَةٍ بِأَرْفاقِها، وقلوبٍ رائِدَةٍ لأَرزاقِها، في مُجَلِّلاتِ نِعَمِهِ، ومُوجِباتِ مِنَنِهِ، وحواجِزِ عافِيَتِهِ، وقَدَّرَ لَكُمْ أَعْماراً سَتَرَها عَنْكُمْ، وخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثارِ الْماضين قَبْلَكُمْ مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاقِهِمْ، وَمُسْتَفْسَحِ خِناقِهِم، أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنايا دُونَ الآمالِ، وشَذَّ بِهِمْ عَنها تَخَرُّمُ الآجالِ، لَمْ يَمْهَدُوا في سَلامة الأَبْدانِ، ولَمْ يَعْتَبِرُوا في أُنُفِ الأَوانِ، فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضاضَةِ الشَّبابِ إلاّ حَوانِيَ الْهَرَم، وأَهْلُ غَضارَةِ الصِّحَّةِ إلاّ نَوازِلَ السَّقَم، وأهْلُ مُدَّةِ البقاءِ إلاّ آوِنَةَ الْفَناءِ مَعَ قُرْبِ الزِّيالِ، وأُزُوفِ الإِنتِقالِ، وعَلَزِ الْقَلَقِ، وألم المَضَضِ، وغُصَصِ الجَرَضِ، وتَلَفُّتِ الإِستِغاثَةِ بِنُصْرَةِ الحَفَدَةِ والأَقْرِباءِ، والأَعِزَّةِ وَالقُرَناءِ، فَهَلْ دَفَعَتِ الأَقارِبُ؟ أوْ نَفَعَتِ النَّواحِبُ؟ وقَدْ غُودِرَ في مَحَلَّةِ الأَمْواتِ رَهِيناً، وفي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً، قَدْ هَتَكَتِ الهَوامُّ جِلْدَتَهُ، وَأَبْلَتِ النَّواهِكُ جِدَّتَهُ، وعَفَتِ الْعَواصِفُ آثارَهُ، ومَحَى الْحَدَثانُ مَعالِمَهُ، وصارَتِ الأَجْسادُ شَحِبَةً بَعْد بَضَّتِها، وَالْعِظامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِها، وَالأَرْواحُ مُرْتَهِنَةً بِثِقْلِ أَعْبائِها، مُوْقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبائِها، لا تُسْتَزادُ مِنْ صالِحِ عَمَلِها، ولا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّءِ زَلَلِها، أَوَلَسْتُمْ أَبناءَ الْقَوْمِ وَالآباءِ؟ وإِخْوانَهُمْ والأَقْرِباءَ؟ تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ، وتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ وتَطَأُونَ جادَّتَهُمْ، فَالقُلُوبُ قاسِيَةٌ عَنْ حَظِّها، لاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِها، سالِكَةٌ في غَيرِ مِضْمارِها، كَأَنَّ الْمَعْنِيَّ سِواها، وكَأَنَّ الرُّشْدَ في إِحْرازِ دُنْياها[1].

اللغة

(عنيته) عنياً من باب رمي قصدته وعناه الأمر أهمه و **(عشى)** عشا من باب تعب ضعف بصره وأبصر نهاراً ولم يبصر ليلاً فهو أعشى، والمرأة عشواء و **(الأشلاء)** جمع الشّلو مثل أحمال، وحمل وهو العضو وقال في **«القاموس»**: الشّلو بالكسر العضو والجسد من كل شيء.

و **(الحنو)** بالفتح والكسر كل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم الحجاج واللحى والضلع ومن غيره كالقف والحقف وكل عود معوج في القتب والرحل والسّرج والحنو أيضاً الجانب، وعن النهاية ملائمة لاحنائها أي معاطفها، و **(الرّفق)** النّفع يقال ارتفقت به أي انتفعت، وقال في **«القاموس»**: الرّفق بالكسر ما استعين به، ويروى بإرماقها بدل بإرفاقها وهو جمع الرمق بقية الرّوح.

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٢٦، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٦١١ ح ٣٤٠١.

(**ومجللات النعم**) ما تعم الخلق من جلل الشيء تجليلاً أي عم، ومنه السحاب المجلل وهو الذي يجلل الأرض بماء المطر، أي: يعمه، وفي حديث الكافي والعيون الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم، و (**المستمتع**) اسم مكان من استمتعت بكذا انتفعت به، و(**الخلاق**) بالفتح النّصيب و (**المستفسح**) محل الفسحة وهي السّعة، (**والخناق**) ككتاب الحبل الذي يخنق به يقال خنقه يخنقه خنقاً ككتف إذا عصر حلقه حتّى يموت فهو خانق وخناق، وربّما يطلق الخناق على الحلق يقال أخذه بخناقه ومخنقه أي بحلقه.

و (**ارهقت**) الشيء أدركته وأرهقت الرّجل أمراً يتعدّى إلى مفعولين أعجلته وكلفته حمله، و (**الأنف**) بضّمتين أوّل الأمر و (**بضض**) الرّجل بالفتح والكسر بضاضة وبضوضة فهو بضّ أي رخص الجسد رقيق الجلد ممتلىء، و (**الحواني**) جمع الحانية وهي العلة التي تحنى شطاط[1] الجسد وتمنعه عن الاستقامة، و (**الهرم**) محركة أقصى الكبر و (**الغضارة**) طيب العيش والسّعة والنّعمة، و (**الأونة**) جمع أوان كأزفة وزمان، و (**العلز**) بالتّحريك خفة وهلع يصيب المريض والأسير والمحتضر ورجل علز أي هلع لا ينام، و (**الم**) محرّكة وجع المصيبة (**جرض**) بريقه ابتلعه بالجهد على همّ وحزن وأجرضه الله بريقه أغصه، و (**التّلفت**) والالتفات بمعنى وهو الانصراف يقال التفت إليّ التفاتا انصرف بوجهه نحوي، والتّلفت أكثر منه و(**الحفدة**) الأعوان والخدم، وقيل أولاد الأولاد.

والنساء (**النواحب**) اللاّتي يرفعن أصواتهنّ بالبكاء من النّحب وهو شدّة البكاء، ويروى النّوادب بدلها و (**غادره**) مغادرة تركه وبقاه و (**هتك**) السّتر وغيره جذبه فقطعه من موضعه، و(**الهامة**) من الحيوان ماله سمّ يقتل كالحيّات والجمع الهوام كدابّة ودواب، وربّما يطلق على ما لا يقتل كالحشرات و (**نهكته**) الحمى نهكا من باب ضرب هزلته وجدته وأضنته، ونهكه السّلطان بالغ في عقوبته والنّاهك والنهيك المبالغ في الأشياء و (**الجدة**) بكسر الجيم مصدر يقال جد يجد من باب ضرب يضرب جدة إذا صار جديداً وهو ضد البلى و (**عفت**) بالتّخفيف ويروى بالتّشديد و (**شحب**) لونه من باب جمع ونصر وكرم شحوباً وشحوبة تغير من هزال أو جوع أو سفر، و (**تستعتب**) بالبناء على المفعول و (**القدّة**) بكسر القاف والدّال المهملة الطريقة، و (**المعنى**) بالتّشديد والمعنى والمعناة والمعنية بمعنى واحد.

الإعراب

لفظة (**عن**) في قوله (**لتجلو عن عشاها**) إمّا زائدة أو بمعنى بعد كما جوزه الشّارح المعتزلي مستشهداً بقول الشّاعر لعجب حرب وائل عن حيال، أي بعد حيال فيكون قد حذف

(١) شطاط: كسحاب، وكتاب القامة وحسن القوام.

المفعول والتّقدير لتجلو الأذى بعد عشاها، والأَظهر ما قاله الشارح البحراني من أنّ **(عن)** ليست بزائدة لأنّ الجلاء يستدعي مجلواً والمجلوّ عنه، فذكر المجلو وأقامه مقام المجلوّ عنه فكأنّه عليه السلام قال: لتجلو عن قواها عشاها، وفي تركيب صورها متعلّق بملائمة، وقوله: **(بأبدان)** متعلق بجعل والباء للمصاحبة، **(والباء)** في **(بإرفاقها)** للصّلة وعلى رواية **(بإرماقها)** إمّا للسّببيّة أو للاستعانة.

وقوله **(في مجللات نعمه)** متعلق بمقدر حال من فاعل **(جعل)** أو من ضمير الخطاب في **(لكم)** أي جعل لكم الأَسماع حال كونكم في مجللات نعمه، **(ومن مستمتع خلاقهم)** بيان للعبر، ودون في قوله **(دون الآمال)** بمعنى عند، وجملة **(لم يمهدوا)** في محل النّصب على الحال من مفعول **(أرهقتهم)**.

(فهل ينتظر)(اه) استفهام إنكاريّ توبيخيّ من قبيل قوله سبحانه: أتعبدون ما تنحتون، وكلمة **(إلاّ)** في المواقع الثّلاثة أعني قوله: **(إلاّ حوانى الهرم)**، **(وإلاّ نوازل السّقم)**، **(وإلاّ أوبة الفناء)** إن كانت للاستثناء فيتوجه عليه أنّ الاستثناء المفرّغ غير جائز في الكلام الموجب، وإن كانت بمعنى غير كما يظهر من شرح البحراني ففيه أنّ **(إلاّ)** بمعنى **(غير)** لا يجوز حذف موصوفها كما يجوز حذف موصوف **(غير)** يقال جاءني غير زيد ولا يصحّ أن يقال جاءني إلاّ زيد كما صرّح به ابن هشام وغيره، وبذلك فرّقوا بين **(إلاّ)** وكلمة **(غير)**.

ويمكن توجيهه بأن يقال: أنّ **(إلاّ)** للاستثناء، وأنّ جواز التّفريغ هنا لاستقامة المعنى وحصول الفائدة كما جوزوه في قولهم، قرأت إلاّ يوم كذا معللين بأنّه لا يبعد أن يقرء في جميع الأَيام إلا اليوم المعين، فعلى هذا التّوجيه يكون المراد بالكلام أنّه ينتظر هؤلاء جميع اللذائذ الدّنيويّة والشّهوات النّفسانية **(إلاّ حوانى الهرم ونوازل السّقم)**، فافهم.

(والباء) في قوله **(بنصرة الحفدة)**، متعلق بالاستغاثة، وقوله **(فهل دفعت الأَقارب)** استفهام إنكاري إبطالي على حدّ قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله: **(وقد غودر)** في محل النصب على الحال والعامل نفعت، وكذلك **(رهيناً ووحيداً)** منتصبان على الحال، والعامل غودر، وهكذا جملة قد هتكت وأبلت وعفت ومحى (ا هـ)، وقوله: **(وصارت)** عطف على غودر، وجملة **(لا تستزاد)** **(ولا تستعتب)** في محلّ النصب أيضاً على الحالية، وقوله **(أولستم)** استفهام تقريري.

المعنى

إعلم أنّ صدر هذا الفصل تذكير لعباد الله بضروب نعم الله سبحانه ومنّته عليهم، وتنبيه على الغاية من تلك النّعم، وذيله مسوغ لبيان حال السّلف ليعتبر به الخلف فقوله عليه السلام: **(جعل**

لكم أسماعاً لتعي ما عناها وأبصاراً لتجلو عن عشاها)، إشارة إلى ما هو الغرض منهما.

فالمقصود أنّه سبحانه خلق لانتفاعكم قوّة سامعة لتحفظ ما أهمّها، وقوّة باصرة لتجلو العشا عن الأبصار، فعلى هذا يكون قوله **(وأبصاراً) (ا هـ)** من باب الاستخدام حيث أريد بالأبصار القوة وبضمير عشاها الراجع إليه العضو المحسوس المخلوق من الشّحم المركب من السّواد والبياض، فبتلك القوة حصل له الإدراك والأبصار بعد ما لم يكن في نفسه مبصراً مدركاً فكانت جلاء عن عشاها.

ويوضح ذلك ما رواه في «**البحار**» من المناقب لابن شهر آشوب مما أجاب الرّضا عليه السلام بحضرة المأمون لضباع بن نصر الهندي وعمران الصّابي عن مسائلهما قال عمران: العين نور مركبة أم الرّوح تبصر الأشياء من منظرها؟ قال عليه السلام: العين شحمة وهو البياض والسّواد والنّظر للرّوح دليله إنك تنظر فيه وترى صورتك في وسطه والإنسان لا يرى صورته إلاّ في ماء أو مرآة وما أشبه ذلك.

قال ضباع: إذا عميت العين كيف صارت الرّوح قائمة والنظر ذاهب؟ قال عليه السلام: كالشّمس طالعة يغشاها الظلام، قالا: أين تذهب الرّوح؟ قال عليه السلام، أين يذهب الضوء الطالع من الكوة في البيت إذا سدّت الكوة، قالا: أوضح لنا ذلك، قال عليه السلام: الرّوح مسكنها في الدّماغ وشعاعها منبث في الجسد بمنزلة الشمس دارتها في السّماء وشعاعها منبسط على الأرض، فإذا غابت الدّارة فلا شمس، وإذا قطعت الرّأس فلا روح[(١)].

فإنّ غرض السّائل أنّ المدرك هو العضو أم الرّوح تبصر الأشياء، وهذا منظره، فاختار عليه السلام الثاني وعلله بأنّ العضو مثل سائر الأجسام الصقيلة يري فيها الوجه كالماء والمرآة، فكما أنّها ليست مدركة لما ينطبع فيها، فكذا العين وغيرها من المشاعر، هذا.

وقد أشير إلى منافع السمع والبصر وبعض حكمهما في حديث المفضل المعروف عن الصادق عليه السلام حيث قال:

انظر يا مفضّل إلى هذه الحواس الخمس التي خصّ بها الإنسان في خلقه وشرف بها على غيره كيف جعلت العينان في الرّأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكّن من مطالعة الأشياء ولم تجعل في الأعضاء التي تحتهنّ كاليدين والرّجلين فتعرضها الآفات ويصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعللها ويؤثّر فيها وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر تقلبها وإطلاعها نحو الأشياء.

فلمّا لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أسنى المواضع للحواس

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ١١١ ح ٦، ومناقب آل أبي طالب (ع): ٣/ ٤٦٤.

وهو بمنزلة الصّومعة لها، فجعل الحواس خمساً تلقى خمساً لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات، فخلق البصر ليدرك الألوان فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها لم يكن فيها منفعة.

وخلق السّمع ليدرك الأصوات فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن فيها أرب، وكذلك سائر الحواس، ثمّ يرجع هذا متكافئاً فلو كان بصر، ولم يكن الألوان لما كان للبصر معنى، ولو كان سمع ولم يكن أصوات لم يكن للسّمع موضع، فانظر كيف قدر بعضها يلقي بعضاً فجعل لكلّ حاسة محسوساً يعمل فيه، ولكل محسوس حاسّة تدركه.

ومع هذا فقد جعلت أشياء متوسّطة بين الحواس والمحسوسات لا يتمّ الحواس إلاّ بها كمثل الضياء والهواء، فإنّه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر لم يكن البصر يدرك اللون، ولو لم يكن هواء يؤدي الصّوت إلى السّمع لم يكن يدرك الصوت.

فهل يخفى على من صحّ نظره وأعمل فكره إنّ مثل هذا الذي وصفت من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها يلقى بعضاً، وتهيئة أشياء أخرى بها يتمّ الحواس لا يكون إلاّ بعمد وتقدير من لطيف خبير؟

فكّر يا مفضل فيمن عدم البصر من النّاس وما يناله من الخلل في أموره فإنّه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه، فلا يفرق بين الألوان وبين المنظر الحسن والقبيح، فلا يرى حفرة إن هجم عليها ولا عدوّاً إن هوى إليه بسيف، ولا يكون له سبيل إلى أن يعمل شيئاً من هذه الصّناعات مثل الكتابة والتّجارة والصّياغة حتّى أنّه لولا نفاد ذهنه لكان كالحجر الملقى.

وكذلك من عدم السّمع يختلّ في أمور كثيرة، فإنّه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذّة الأصوات واللحون الشّجية المطربة، وتعظم المؤنة على النّاس في محاورته حتّى تبرّموا به ولا يسمع شيئاً من أخبار النّاس وأحاديثهم حتّى يكون كالغائب وهو شاهد وكالمّيت وهو حيّ[١].

وقوله: **(وأشلاء جامعة لأعضائها)** الظاهر أنّ المراد بالشّلو هنا العضو وليس كناية عن الجسد كما زعمه البحراني إذ الأبدان مذكورة بعد ذلك، فيلزم التكرار مع أنّ إرادة الجسد على تقدير صحّتها لا حاجة فيها إلى الكناية لما قد عرفت من اشتراكه لغة بين الجسد والعضو.

فإن قلت: إرادة العضو ينافيها قوله عليه السلام (جامعة لأعضائها)، إذ الشيء لا يجمع نفسه.

---

(١) التوحيد: ٢٣، وبحار الأنوار: ٣/ ٧٠.

قلت: يمكن توجيهه بما وجّهه الشّارح المعتزلي من جعل المراد بالأشلاء الأعضاء الظاهرة، وبالأعضاء الأعضاء الباطنة ولا ريب أن الأعضاء الظاهرة تجمع الأعضاء الباطنة، **(ملائمة لإحنائها في تركيب صورها ومدد عمرها)**، أي: جعل الأعضاء مناسبة موافقة للجهات والجوانب التي جعلت فيها ملائمة لها في صورها التركيبيّة.

مثلاً جعل اليدين في اليمين واليسار أنسب من كونهما في الرّأس، وكون العينين في الرّأس أولى من كونهما في الظهر أو البطن، وكذلك كون ثقب الأنف في أسفله أنسب وأحسن من كونه في أعلاه، وكون المثانة والمعدة في أسافل البدن أليق، وهكذا وقد مرّ حكمة بعض ذلك في رواية المفضل، وستعرف البعض في التّبصرة الآتية مضافاً إلى الحسن والبهجة والالتئام والمناسبة المقررة في هذه الصّور المجعولة، ألا ترى أن من لم يكن له حاجب فوق عينه أو سقطت الأشفار من طرف عينه كيف يكون قبيح الصّورة كريه المنظر؟ وهكذا سائر الأعضاء، هذا كلّه لو كان الحنو في كلامه بمعنى الجانب والجهة، ولو جعلناه بمعنى العضو المعوج فيكون المراد أنّه تعالى جعل الأعضاء المستقيمة من البدن ملائمة للأعضاء المعوّجة في صورها المركبة، فلا يناسب المستقيمة موضع المعوّجة ولا المعوّجة موضع المستقيمة ولا يصادم حسن الاستقامة للاعوجاج ولا الاعوجاج للاستقامة، إذ كلّ منهما في موقعهما حسن، وأحسن فتبارك الله أحسن الخالقين.

وأمّا قوله عليه السلام: **(ومدد عمرها)**، فالظاهر أنّه أراد به أن الله جعل مدد عمر كلّ من الأعضاء ملائمة للآخر مقارنة له بحيث لا يفنى بعض الأعضاء قبل فناء الآخر فيكون الكلام محمولاً على الغالب، فافهم.

وقوله عليه السلام: **(بأبدان قائمة بإرفاقها وقلوب رائدة لإرزاقها)** أي: قائمة بمصالحها ومنافعها أو أنّ قوامها باستعانة أرواحها على الرّواية الأخرى السّالفة في بيان اللغة وقلوب طالبة لأرزاقها جالبة لها إليها.

والضمير في أرزاقها يحتمل رجوعه إلى الأبدان، ورجوعه إلى نفس القلوب، وعلى الأوّل فالمراد بالرّزق الرّزق الجسماني، وعلى الثاني فالمراد به الرزق الرّوحاني أعني العلوم الحقّة والمعارف الشرعية والعقائد الإلهيّة الموجبة للسّعادة في الدّارين، والمحصلة للعزّة في النّشأتين، فإنّ القلب هو الطالب الجالب لتلك الأرزاق إلى نفسها كما أنّه هو الطالب الجالب للأرزاق إلى البدن ولو يتوسط الآلات البدنيّة.

إذ هو العالم بالله، وهو المتقرّب إلى الله، وهو المحصّل لرضوان الله، وهو السّاعي إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله، وهو في الحقيقة سلطان مملكة البدن يستخدم الآلات والجوارح يأمرها وينهيها ويستعملها استعمال المالك لعبده، والسّلطان لرعيّته، وتحقيق ذلك

موقوف على شرح حال القلب ومعرفة عجائب صفاته.

فأقول: إنّ القلب كما حقّقه الغزالي يطلق على معنيين:

أحدهما: اللحم الصّنوبري الشّكل المودع في الجانب الأيسر من الصّدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الرّوح ومعدنه، وهو بهذا المعنى موجود للإنسان والحيوان والحيّ والميّت، ومرئي بحس العيان ويدركه الحيوان بحاسة البصر كما يدركه الإنسان ولا يتعلق به غرضنا في المقام.

«الثاني»: هو جوهرة لطيفة ربّانيّة نورانيّة روحانيّة لها تعلق بالقلب الجسماني الذي ذكرناه وهي حقيقة الإنسان وبها تمامه وكماله، وهو المدرك العالم العارف وهو المخاطب والمطالب، وله جنود وأعوان وأنصار فمن تلك الجنود ما يرى بالأبصار كالأعضاء الظاهرة من اليد والرّجل والعين والأذن واللسان ونحوها، وما لا يرى بالأبصار كالحواس الباطنة والشّهوة والغضب ونحوها، فجميعها خادمة للقلب منقادة لحكمه مسخّرة له، وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرّداً.

فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت وبالانطباق انطبقت، والرّجل بالحركة تحركت وبالسّكون امتثلت واللسان بالكلام تكلّم، وبالسّكوت أمسك، وكذا سائر الأعضاء.

وإنّما افتقر إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب، والزّاد لسفره الذي يجب له سلوكه، ولأجل مسيره خلق، وهو السّفر إلى الله وقطع المنازل إلى لقائه ومركبه البدن وزاده المعرفة، والأسباب التي توصله إلى الزّاد وتمكّنه من التّزود هو العمل الصالح.

فليس يمكن العبد أن يصل إلى الله ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدّنيا، فإنّ المنزل الأدنى لا بدّ من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى، فالدّنيا مزرعة الآخرة وهي منزل من منازل الهدى، وإنّما سمّيت الدّنيا لكونها أدنى المنزلتين فاضطرّ إلى أن يتزوّد من هذا العالم.

فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم، فافتقر إلى تعهّد البدن وحفظه وإنّما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء ويطلب له ما يناسبه من الرّزق، وأن يدفع عنه ما ينافيه ويضارّه من أسباب الهلاك، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين باطن وهو الشّهوة، وظاهر وهو الأعضاء الجالبة للغذا من اليد ونحوها.

فخلق في القلب من الشّهوات ما كان محتاجاً إليه، وخلقت الأعضاء لكونها آلة للشّهوة وافتقر لأجل دفع المضار والمهلكات أيضاً إلى جندين: باطن وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء، وظاهر وهو الجوارح التي بها يعمل بمقتضى الغضب من اليد والرّجل ونحوهما.

ثمّ المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تحصل له شهوة الغذاء فافتقر للمعرفة إلى جندين، باطن وهو إدراك السّمع والبصر والشّم واللمس والذّوق، وظاهر وهو العين والأذن والأنف وغيرها.

فجملة جنود القلب منحصرة في ثلاثة أصناف: صنف باعث ومستحثّ، إمّا إلى جلب النّافع الموافق كالشهوة، وإمّا إلى دفع الضار المنافي كالغضب، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة، والصّنف الثّاني هو المحرّك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبّر عنه بالقدرة وهي مبثوثة في سائر الأعضاء لا سيّما العضلات منها والأوتار، والصّنف الثّالث هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس وهي قوّة البصر والسّمع والشمّ والذّوق واللمس المبثوثة في الأعضاء المعيّنة وقوّة التخيل والتّحفظ والتفكر ونحوها المودعة في تجاويف الدّماغ.

وهذه كلّها ممّا قد أنعم الله بها على سائر أصناف الحيوان سوى الآدمي إذ للحيوان أيضاً الشّهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة، فكلاهما شريكان فيها، وإنّما اختصّ الإنسان بما لأجله عظم شرفه وعلا قدره واستأهل القرب.

وهو راجع إلى علم وإرادة، أمّا العلم فهو العلم بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة والحقائق العقلية، وهذه أمور وراء المحسوسات ولا تشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكليّة الضّروريّة من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأنّ الشّخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالةٍ واحدة، وهذا حكم منه على كلّ شخص ومعلوم أنّه لم يدرك بالحسّ إلاّ بعض الأشخاص، فحكمه على الجميع زائد على ما أدركه الحسّ، وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضّروري فهو في سائر النّظريّات أظهر.

وأمّا الإرادة فإنّه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وجهة المصلحة فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشّهوة وإرادة الحيوانات، بل ربّما يكون على ضدّ الشّهوة.

ألا ترى أنّ الشّهوة تنفر عن الفصد والحجامة، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل لها المال، والشّهوة تميل حين المرض إلى لذائذ الأطعمة والعقل يردعها عنها، ولو خلق الله العقل العارف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرّك للأعضاء على العمل بمقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعاً على التّحقيق.

فإذاً اختصّ قلب الإنسان بعلم وإرادة يمتاز بهما من سائر الحيوان، ومن هذه الجملة ظهر أن خاصيّة الإنسان العلم والحكمة، وللعلم مراتب ودرجات لا تحصى من حيث كثرة المعلومات وقلتها، وشرف المعلوم وخسّته، ومن حيث إنّ حصوله قد يكون بالهام ربّانيّ على سبيل المكاشفة كما للأنبياء والأولياء، وقد يكون بطريق الكسب والاستدلال، وفي الكسب أيضاً قد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول.

وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأولياء والأنبياء، فدرجات الترقي غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه غير متناهية، ومراقي هذه الدّرجات هي منازل السّائرين إلى الله ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل.

وأمّا ما بين يديه فلا يحيط به علماً كما لا يعرف الجنين حال الطفل، ولا الطفل حال المميّز ولا المميز حال المراهق، ولا المراهق حال العاقل، وما اكتسبه من العلوم النّظرية، فكذا لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] وهذه الرّحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه غير مضنون بها على أحد، ولكن إنّما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات الرّحمة كما قال ﷺ:

«إنّ لرّبكم في أيّام دهركم لنفحات ألا فتعرضوها»[(١)]، والتعرض لها إنّما هو بتطهير القلب وتزكيته من الكدر والخبث الحاصلين من الأخلاق المذمومة.

فظهر بذلك معنى تمام الإنسان وكماله وخاصته التي بها امتاز عن سائر أفراد الحيوان، وتحقّق أنّ البدن مركب للقلب، والقلب محل للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان وأنّ العلم والمعرفة هو الذي خلق الإنسان لأجله كما قال:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

أي ليعرفون كما ظهر لك معنى رزق البدن وزاد القلب، واتّضح أنّ القلب هو الطالب الجالب للرّزق والزاد لإصلاح المعاش والمعاد.

وقوله عليه السلام: **(في مجللات نعمه وموجبات مننه)** العطف بمنزلة التّفسير يعني أنكم متنعمون بنعمة العامة الشّاملة وآلائه التّامة الكاملة الموجبة لمنته سبحانه عليكم، فالمراد بمجللات النّعم ما أنعم بها على جميع الموجودات والمخلوقات بمقتضى رحمته الرّحمانيّة كما قال سبحانه: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وبموجبات المنن أنّ تلك النّعم موجبة لمنة الله سبحانه عليهم، فلا بدّ أن يقوم العبد بلوازم الشّكر والامتنان، ولا يقابل بالطغيان والكفران، وأعظم ما منّ الله به على عباده أن هداهم للإسلام والإيمان وأرشدهم إلى سلوك سبيل الجنان، وبعث فيهم رسولاً يدلهم على الهدى وينجيهم من الرّدى كما قال تعالى:

(١) التوحيد للصدوق: ٣٣٠ ح ٩، وأمالي المفيد: ٢٠٦، وفيهما: إنّ لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله: **(وحواجز عافيته)** قال الشارح المعتزلي: أي في عافية تحجز وتمنع عنكم المضار.

أقول: وهو مبني على كون الإضافة من قبيل إضافة الصّفة إلى الموصوف، والأظهر الأقوى أنّ الإضافة لاميّة، والمراد والموانع التي تمنع العافية عن الزّوال والعدم، وتكون عائقة عن طريان المضارّ والآلام وعروض الأوجاع والأسقام على الأبدان والأجسام، وعلى أيّ تقدير فالمراد بها نعمة الصّحة والسّلامة التي هي من أعظم نعم الله سبحانه، بل هي رأس كلّ نعمة وبها يدرك كل لذة وبهجة.

ثمّ قال: **(وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم)** وهذا أيضاً من أعظم ما أنعم الله تعالى به على خلقه إذ في إظهار مدّة العمر عليهم مفاسد لا تحصى كما أنّ في إخفائها منافع جاوزت حدّ الاستقصاء كما أشار إليها سادس الأئمة وصادق الأمّة أبو عبد الله جعفر بن محمّد سلام الله عليهما وعلى آبائهما وأولادهما الطيبين الطاهرين.

حيث قال في حديث المفضل: تأمّل الآن يا مفضل ما ستر عن الإنسان علمه من مدّة حياته، فإنّه لو عرف مقدار عمره وكان قصيراً لم يتهنّا بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد أعرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فُني ماله أو قارب الفناء، فقد استشعر الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر على أنّ الذي يدخل على الإنسان من فناء العمل أعظم ممّا يدخل عليه من فناء المال، لأنّ من يقل ماله يأمل أنّ يستخلف منه فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس.

وإن كان طويل العمر ثمّ عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك في اللذات والمعاصي وعمل على أنّه يبلغ من ذلك شهوته، ثمّ يتوب في آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله، ألا ترى لو أنّ عبداً لك عمل على أنّه يسخطك سنة ويرضيك يوماً أو شهراً لم تقبل ذلك منه، ولم يحلّ عندك محل العبد الصالح دون أن يضمر طاعتك ونصحك في كل الأمور في كل الأوقات على تصرف الحالات[1].

فإن قلت: أو ليس قد يقيم الإنسان على المعصية حيناً، ثمّ يتوب قبل توبته؟

قلنا: إنّ ذلك شيء يكون من الإنسان لغلبة الشهوات له وتركه مخالفتها من غير أن يقدره في نفسه ويبني عليه أمره فيصفح الله عنه ويتفضل عليه بالمغفرة.

---

(١) التوحيد للصدوق: ٤٢، والبحار: ٣/ ٨٤.

فأمّا من قدر أمره على أن يعصي ما بداله ثم يتوب اخر ذلك فإنّما يحاول خديعة من لا يخادع، أن يتسلف التلذذ في العاجل ويعد ويمنى نفسه التّوبة في الآجل، ولأنّه لا يفي بما يعد من ذلك، فإن النزوع من الترفه والتلذذ ومعاناة التّوبة ولا سيما عند الكبر وضعف البدن أمر صعب، ولا يؤمن على الإنسان مع مدافعة التوبة أن يرهقه الموت فيخرج من الدّنيا غير تائب كما قد يكون على الواحد دين، وقد يقدر على قضائه فلا يزال يدافع بذلك حتّى يحل الأَجل، وقد نفد المال فيبقى الدين قائماً عليه.

فكان خير الأَشياء للإنسان أن يستر عنه مبلغ عمره فيكون طول عمره يترقب الموت، فيترك المعاصي ويؤثر العمل الصّالح.

فإن قلت: وما هو الآن قد ستر عنه مقدار حياته وصار يترقب الموت في كل ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم.

قلنا: إن وجه التّدبير في هذا الباب هو الذي جرى عليه الأمر فيه، فإن كان الإنسان مع ذلك لا يرعوي ولا ينصرف عن المساوىء، فإنّما ذلك من مرحه ومن قساوة لا من خطأ في التدبير، كما أن الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به، فإن كان المريض مخالفاً لقول الطبيب لا يعمل بما أمره ولا ينتهي عمّا ينهاه عنه، ولم ينتفع بصفته لم تكن الإساءة في ذلك للطبيب بل للمريض حيث لم يقبل منه.

ولئن كان الإنسان مع ترقبه الموت كل ساعة لا يمتنع عن المعاصي، فإنّه لو وثق بطول البقاء كان أحرى أن يخرج إلى الكبائر الفظيعة فترقب الموت على كل حال خير له من الثقة بالبقاء.

وإن كان صنف من النّاس ينهون عنه ولا يتعظون به فقد يتّعظ به صنف آخر منهم، وينزعون عن المعاصي ويؤثرون العمل الصالح ويجودون بالأموال والعقائل النفسية والصّدقة على الفقراء والمساكين، فلم يكن من العدل أن يحرم هؤلاء الانتفاع بهذه الخصلة ليضيع أولئك حظهم.

وبالجملة فقد وضح، واتضح كل الوضوح أن ستر مدد الأعمار عن الخلق من جلائل النعم وأعظم ما من الله سبحانه به عليهم.

ومثله نعمة أخرى هي أيضاً من أسبغ الآلاء وأسنى النّعماء من حيث كونها موجبة للتّجافي عن دار الغرور جاذبة إلى دار السّرور باعثة على السّعادة الأبدّية موقعة في العناية السّرمدّية، **(و)** هي أنّه سبحانه **(خلف لكم عبراً)** تعتبرون بها، وأبقى أثاراً تتذكرون منها **(من آثار الماضين قبلكم)** من الأهلين والأقربين والأولين والآخرين، وممن كان أطول منكم أعماراً

وأشدّ بطشاً وأعمر دياراً **(من مستمتع خلاقهم ومستفسح خناقهم)**، أي: الدّنيا التي كانت محل استمتاعهم بخلاقهم وانتفاعهم بحظوظهم وانصبائهم ومحل الفسحة لأعناقهم من ضيق حبائل الموت ودار أمهالهم من انشاب مخالب الفناء والفوت.

فأنتم فيها كالذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون، **(أهرقتهم المنايا دون الآمال وشذبهم عنها تخرم الآجال)** أي: اخترمتهم أيدي المنون من قرون بعد قرون، فحالت بينهم وبين الآمال وفرّقتهم من الأولاد والأموال:

تخرمهم ريب المنون فلم تكن لتنفعهم جناتهم والحدائق
ولا حملتهم حين ولوا بجمعهم نجائبهم والصّافنات السّوابق
وزاحوا عن الأموال صفراً وخلفوا دخائرهم بالرّغم منهم وفارقوا

(لم يمهّدوا في سلامة الأبدان ولم يعتبروا في أنف الأوان)، أي: لم يهيئوا في حال الصّحة والسّلامة ليوم المعاد ولم يعتبروا في أوّل الأزمنة بالعبر النافعة بل الكل مال عنها وحاد، فالشّباب للهرم والصّحة للسّقم والوجود للعدم بذلك جرى في اللوح القلم.

(فهل ينتظر أهل بضاضة الشّباب إلاّ حواني الهرم، وأهل غضارة الصّحة إلاّ نوازل السّقم، وأهل مدة البقاء إلاّ أونة الفناء)، والعدم استفهام على سبيل الإنكار والتّوبيخ عما ينتظر الشّبان الناعمة الجسد الرّقيقة الجلد غير حواني الهرم التي تحنى ظهورهم وعما ينتظر أهل النعمة والصّحة غير نوازل السّقم التي تنزل عليهم، وعمّا ينتظر المعمرون بطول أعمارهم غير الفناء والعدم الذي يفنيهم.

وإنّما وبخهم على ذلك لأَن من كان مصير أمره إلى الهرم والسّقم والفناء والزّوال ينبغي أن يأخذ العدة والذّخيرة لنفسه، وينتظر ما يصير أمره إليه ويراقبه ولا يشتغل بغيره.

فهؤلاء لما قصروا هممهم في غير ذلك وأوقعوا أنفسهم في مطارح المهالك وبخهم عليه السلام بذلك وأكد بقوله: **(مع قرب الزيال)** وازوفه **(وازوف الانتقال)** وقربه **(وعلز القلق)** وهلعه **(وألم المضض)** ووجعه **(وغصص الجرض)** وشجاه، **(وتلفت الاستغاثة بنصرة الحفدة والأقرباء والأعزة والقرناء)** أراد أنّهم في حال سكرات الموت يلتفتون إلى أهلهم وأولادهم، ويقلبون وجوههم ذات اليمين وذات الشّمال إلى أحبّتهم وعوادهم يستغيثونهم ويستنصرونهم فلا يقدرون على النصرة والإغاثة، ويستعينوهم ويستنجدونهم فلا يستطيعون الانجاد والإعانة:

أحاطت به أفاته وهمومه وأبلس[١] لما أعجزته المعاذر
فليس له من كربة الموت فارج وليس له مما يحاذر ناصر
وقد حشات خوف المنية نفسه ترددها دون اللهاة الحناجر

(فهل دفعت الأقارب أو نفعت النّواحب) أو انتفع بسلطانه أو ذب الموت عنه جنوده وأعوانه.

فما صرفت كفّ المنيّة إذ أتت مبادرة تهوى إليه الذّخائر
ولا دفعت عنه الحصون التي بنا وحفّ بها أنهارها والدّساكر[٢]
ولا قارعت عنه المنيّة خيله ولا طمعت في الذّب عنه العساكر

(وقد غودر في محلّة الأموات رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً) والتحق بمن مضى من أسلافه ومن وارثه الأرض من الافك[٣].

وأضحوا رميماً في التراب وأقفرت مجالس منهم عطلت ومقاصر
وحلوا بدار لا تزاور بينهم وأنّى لسكّان القبور التّزاور
فما أن ترى إلاّ جثى قد ثووا بها مسنمة تسفى عليه الأعاصر

(قد هتكت الهوام جلدته وأبلت النواهك جدته)، أي قطع هوام الأرض جلده وصار طعمة العقارب والحيّات والحشرات المؤذيات، وأخلقت مبالعات الدّهر التي أجهدته وأضنته وهزلته جدته ونضرة شبابه، فصار خلقاً بالياً بعد ما كان جديداً غضيضاً طريّاً بمصائب الدّهر ونوائبه وأوصابه وأتعابه، **(وعفت)** الرّياح **(العواصف آثاره ومحى)** النوائب و **(الحدثان معالمه)** فلم يبق في وجه الأرض منه خبر ولا عن قبره عين ولا أثر، حيث فقدته العيون وتوالت عليه السّنون **(وصارت الأجساد شحبة)** متغيّرة هزلة **(بعد بضّتها)** ونعومتها وامتلائها **(والعظام نخرة)** بالية متفتتة، **(بعد قوّتها)** وشدّتها **(والأرواح مرتهنة)** مقبوضة **(بثقل أعمالها)** وأحمالها كما قال تعالى:

﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]

أي محبوس بعمله حتّى يعامل بما يستحقّه ويجازي بما عمله إن عمل طاعة أثيب وإن عمل معصية عوقب، وفي سورة المدّثر:

---

(١) أبلس: الإبلاس: اليأس.

(٢) الدسكرة: القرية والصومعة.

(٣) أنظر الصحيفة السجادية: ٥٠٠، والبحار: ٤٦/ ٨٢.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٣٩]

قال الطبرسي: أي مرهونة بعملها محبوسة به مطالبة بما كسبته من طاعة أو معصية، فالرّهن أخذ الشيء بأمر على أن لا يرد إلاّ بالخروج منه، فكذلك هؤلاء الضّلال قد أخذوا برهن لافكاك له، والكسب هو كلّ ما يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر ويدخل فيه الفعل وإلا يفعل.

ثمّ استثنى سبحانه أصحاب اليمين فقال: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٩]، وهم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم قال الباقر عليه السلام: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين[1]، وقوله: **(موقنة بغيب أنبائها)** أي متيقنة بالأخبار الغيبية التي أخبر بها الرّسل وأنبأ بها الكتب من أخبار القيامة من البرزخ والبعث والحساب والكتاب والجنّة والنّار وسائر ما كانت غائبة عنه مختفية له، حتّى رآها بحسّ العين فحصل له اليقين بعد ما كانت منها في ريب وظنّ، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقال سبحانه حكاية عن الكفّار والمجرمين:

أي: كنّا نكذّب يوم الجزاء حتى جاءنا العلم اليقين بأن عايناه، وقال سبحانه في حقّ المتّقين.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣-٤]

قال الطبرسي: وإنّما خصّهم بالايقان بالآخرة، وإن كان الإيمان بالغيب قد شملها لما كان من كفر المشركين بها وجحدهم إيّاها في نحو ما حكى عنهم في قوله:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤].

فكان في تخصيصهم بذلك مدح عظيم **(لا تستزاد من صالح عملها ولا تستعتب من سيىء زللها)**، أي لا يطلب منها زيادة في العمل الصّالح ولا يطلب منها التّوبة من العمل القبيح، كما كان يطلب ذلك منها في الدّنيا، وذلك لأنّ التّكليف والعمل إنّما هو في الدّنيا والآخرة دار الجزاء لا تكليف فيها كما قال تعالى في سورة الجاثية:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

---

(١) بحار الأنوار: ٩/٢٤ ح ٢٥، وتفسير أبي حمزة الثمالي ٣٤٤ ح ٣٤٥.

أي: لا يخرجون من النّار ولا يطلب منهم الاعتاب والاعتذار لما قلناه من أنّ التكليف قد زال، وفي سورة الرّوم.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وكما أنهم لا يطلب منهم التّوبة والمعذرة، فكذلك لا ينفعهم الاعتذار والإنابة كما قال سبحانه:

﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

أي: إن يطلبوا إزالة اللوم والعقوبة ويسألوا رضا الله عنهم فليس لهم طريق إلى الأعتاب ولا لهم نجاة من العقاب.

بلى أوردته بعد عزّ ومنعة ... موارد سوء ما لهنّ مصادر

فلمّا رأى أن لا نجاة وأنّه ... هو الموت لا ينجيه منه الموازر

تندم لو يغنيه طول ندامة ... عليه وأبكته الذّنوب الكبائر

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ، لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

(أولستم أبناء القوم) الذين وصفنا حالهم وشرحنا مالهم، **(والآباء وإخوانهم والأقرباء)** وأمثالهم.

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها ... محاسنهم فيها بوال دواثر

خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم ... وساقتهم نحو المنايا المقادر

وخلوا عن الدّنيا وما جمعوا لها ... وضمّنهم تحت التراب الحفائر

فلكم اليوم بالقوم اعتبار، وسوف تحلون مثلهم دار البوار، فالبدار البدار والحذار الحذار من الدّنيا ومكائدها وما نصبت لكم من مصائدها وتجلى لكم من زينتها واستشرف لكم من فتنتها.

وفي دون ما عاينت من فجعاتها ... إلى رفضها داع وبالزهد آمر

فجدّ ولا تغفل فعيشك زائل ... وأنت إلى دار المنيّة صائر

فهل يحرص عليها لبيب، أو يسرّ بلذتها أريب، وهو على ثقة من فنائها وغير طامع في بقائها، أم كيف تنام عين من يخشى البيات أو تسكن نفس من يتوقع الممات، أم كيف، **(تحتذون أمثلتهم وتركبون قدتهم وتطأون جادّتهم)** تفعلون مثل أفعالهم وتقتفون آثارهم وتسلكون مسالكهم وتقولون: «إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون»، **(فالقلوب**

قاسية عن حظها) جافية عن إدراك نصيبها الذي ينبغي لها إدراكه، **(لاهية عن رشدها)** غافلة عن طلب هدايتها، **(سالكة في غير مضمارها)** الذي يلزم عليها سلوكه.

يعني أنّ اللازم على القلوب تحصيل المعارف اليقينيّة والعقائد الحقّة والتفكّر في آثار الجبروت والقدرة والاتعاظ بالحكم والموعظة الحسنة فهي لقسوتها وجفاوتها بكثرة الذنوب التي اقترفتها لم يبق لها قابليّة واستعداد لإدراك حظها ونصيبها الذي ذكرناه، وغفلت عن الاهتداء بالأنوار الإلهية وسلكت في غير جادة الشريعة، **(كان المعنى)** والمقصود بالأحكام الشّرعيّة والتّكاليف الإلهيّة، **(سواها وكان الرشد)** الذي أمرت به **(في إحراز دنياها)**.

فيا عاقلاً راحلاً ولبيباً جاهلاً ومتيقظاً غافلاً، ما هذه الحيرة والسبيل واضح والمشير ناصح، والصّواب لائح، عقلت فأغفلت وعرفت فأنكرت، وعلمت فأمهلت[1] هذا هو الدّاء الذي عز دواؤه، والمرض الذي لا يرجى شفاؤه، إلى كم ذا التشاغل بالتّجائر والأرباح، إلى كم ذا التّهور بالسّرور والأفراح، وحتام التّغرير بالسّلامة في مراكب النّياح، كيف تتهنّأ بحياتك وهي مطيتك إلى مماتك أم كيف تسيغ طعامك وأنت منتظر حمامك[2].

لِم تتزوّد للرّحيل وقد دنا	وأنت على حال وشيكاً مسافر
تخرّب ما يبقى وتعمر فانياً	ولا ذاك موفور ولا ذاك عامر
وهل لك إن وافاك حتفك بغتة	ولم تكتسب خير لدى الله عاذر
أترضى بأن تفنى الحياة وتنقضي	ودينك منقوص ومالك وافر
فيا ويح نفسي كم أسوّف توبتي	وعمري فإن والرّدى لي ناظر
وكل الذي أسلفت في الصحف مثبت	يجازي عليه عادل الحكم قاهر
مليك عزيز لا يردّ قضاؤه	عليم حكيم نافذ الأمر قادر
عنى كل ذي عز بعزة وجهه	فكل عزيز للمهيمن صاغر
لقد خشعت واستسلمت وتضالت	لعزة ذي العرش الملوك الجبابر

فبك الهنا نستجير يا عليم يا خبير، من نؤمل لفكاك رقابنا غيرك، ومن نرجو بغفران ذنوبنا سواك، وأنت المتفضل المنان القائم الديان العائد علينا بالإحسان بعد الإساءة منّا والعصيان، يا ذا العزة والسّلطان والقوة والبرهان أجرنا من عذابك الأليم واجعلنا من سكان دار النعيم يا أرحم الراحمين.

---

(١) في نسخة: فأهملت.

(٢) الحمام: الموت.

تبصرة

لما كان صدر هذا الفصل متضمناً للإشارة إلى بعض الحكم والمصالح فيما جعله الله سبحانه للإنسان من الأعضاء والجوارح، وكان توضيح ذلك موقوفاً على التشريح أحببت أن أورد هنا شطراً يسيراً من ذلك مما صدر عن مصدر الولاية إذ تشريح جميع الأعضاء على ما حققه الحكماء والأطباء مما يوجب الطول ويخرج عن الغرض، وفيما نورده هداية للمسترشد وكفاية للطالب.

فأقول: روى في **«البحار»** من العلل والخصال عن محمّد بن إبراهيم الطالقاني عن الحسن بن علي العدوي عن عباد بن صهيب بن عباد بن صهيب عن أبيه عن جده عن الربيع صاحب المنصور قال:

حضر أبو عبد الله عليه السلام مجلس المنصور يوماً وعنده رجل من الهند يقرأ كتب الطب، فجعل أبو عبد الله عليه السلام ينصت لقراءته، فلما فرغ الهندي قال له يا أبا عبد الله أتريد ممّا معي شيئاً؟ قال عليه السلام: لا، فإنّ معي ما هو خير ممّا معك قال: وما هو؟ قال عليه السلام:

أُداوي الحار بالبارد والبارد بالحارّ، والرّطب باليابس واليابس بالرّطب؛ وأورد الأَمر كله إلى الله عزّ وجل واستعمل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله: واعلم أنّ المعدة بيت الداء والحمية هي الدواء، وأعود البدن ما اعتاد، فقال الهندي: وهل الطب إلاّ هذا.

فقال الصّادق عليه السلام: أفتراني من كتب الطب أخذت؟ قال: نعم قال عليه السلام: لا والله ما أخذت إلا عن الله سبحانه، فأخبرني أنا أعلم بالطب أم أنت؟ قال الهندي: لا بل أنا، قال الصّادق عليه السلام: فأسألك شيئاً؟ قال: سل، قال الصّادق عليه السلام: أخبرني يا هندي لم كان في الرّأس شئون[1] قال: لا أعلم، قال عليه السلام فلم جعل الشّعر عليه من فوق؟ قال: لا أعلم.

قال عليه السلام: فلم خلت الجبهة من الشّعر؟ قال: لا أعلم قال عليه السلام، فلم كان لها تخطيط وأسارير؟ قال: لا أعلم، قال عليه السلام، فلم كان الحاجبان من فوق العينين؟ قال: لا أعلم، قال عليه السلام: فلم جعل العينان كاللوزتين؟ قال: لا أعلم، قال عليه السلام: فلم جعل الأنف بينهما؟ قال: لا أعلم.

قال عليه السلام: فلم كان ثقب الأنف في أسفله؟ قال: لا أعلم، قال عليه السلام: فلم جعلت الشّفة والشّارب من فوق الفم، قال: لا أعلم، قال عليه السلام: فلم أحدّ السن وعرض الضرس والناب؟ قال: لا أعلم قال عليه السلام: فلم جعلت اللحية للرّجال؟ قال: لا أعلم، قال عليه السلام: فلم خلت الكفار من الشّعر؟ قال: لا أعلم، قال عليه السلام: فلم خلا الظفر والشعر من الحياة؟ قال: لا

(١) الشأن: واحد الشؤن وهي مواصل قبائل الرأس وملتقاها وفيها تخرج الدموع.

أعلم، قال عليه السلام: فلم كان القلب كحب الصنوبر؟ قال: لا أعلم.

قال عليه السلام: فلم كانت الرّئة قطعتين وجعل حركتها في موضعها؟ قال: لا أعلم. قال عليه السلام: فلم كانت الكبد حدباء قال: لا أعلم، قال عليه السلام: فلم كانت الكلية كحبّ اللوبيا؟ قال: لا أعلم، قال عليه السلام: فلم جعل طيّ الركبة إلى خلف؟ قال: لا أعلم، قال فلم انحضرت[١] القدم؟ قال: لا أعلم، فقال الصّادق عليه السلام: لكني أعلم، قال: فأجب.

فقال الصّادق عليه السلام: كان في الرّأس شئون لأن المجوف إذا كان بلا فصل أسرع إليه الصداع، فإذا جعل ذا فصول كان الصداع منه أبعد، وجعل الشعر من فوقه ليوصل بوصوله الأدهان إلى الدماغ، ويخرج بأطرافه البخار منه ويرد الحرّ والبرد الواردين عليه، وخلت الجبهة من الشّعر لأنها مصبّ النور إلى العينين، وجعل فيها التخطيط والأسارير ليحبس العرق الوارد من الرّأس عن العين قدر ما يميطه الإنسان من نفسه كالأنهار في الأرض التي تحبس المياه.

وجعل الحاجبان من فوق العينين ليوردا من النّور عليهما قدر الكفاية ألا ترى يا هندي إنّ من غلبه النّور جعل يده بين عينيه ليرد عليهما قدر كفايتهما منه، وجعل الأنف فيما بينهما ليقسم النّور قسمين إلى كل عين سواء وكانت العين كاللوزة ليجري فيها الميل بالدواء ويخرج منها الداء، ولو كانت مرّبعة أو مدورة ما جرى فيها الميل وما وصل إليها دواء ولا خرج منها داء.

وجعل ثقب الأنف في أسفله لينزل منه الأدواء المنحدرة من الدّماغ ويصعد فيها الأرابيح إلى المشام ولو كان في أعلاه لما ينزل داء ولا وجد رائحة، وجعل الشّارب والشّفة فوق الفم لحبس ما ينزل من الدّماغ عن الفم لئلا يتنغص على الإنسان طعامه وشرابه فيميطه عن نفسه، وجعلت اللحية للرجل ليستغنى بها عن الكشف في المنظر ويعلم بها الذكر والأنثى.

وجعل السن حاداً لأنّ به يقع العض وجعل الضرس عريضاً لأنّ به يقع الطحن والمضغ وكان الناب طويلاً ليشدّ الأضراب والأسنان كالأسطوانة، في البناء، وخلا الكفان من الشعر لأن بهما يقع اللمس فلو كان بهما شعر ما دري الإنسان ما يقابله ويلمسه، وخلا الشعر والظفر من الحياة، لأن طولهما سمج بقبح وقصهما حسن فلو كان فيهما حياة لألم الإنسان لقصهما.

وكان القلب كحب الصنوبر لأنه منكس فجعل رأسه رقيقاً ليدخل في الرّئة فيتروح عنه ببردها لئلا يشيط الدماغ بحره، وجعلت الرّئة قطعتين ليدخل مصاعظها[٢] فتروح عنه بحركتها، وكانت الكبد حدباء ليثقل المعدة وتقع جميعه عليها فتعصرها فيخرج ما فيها من البخار.

---

(١) رجل محضر القدمين إذا كانت قدمه تمس الأرض من مقدمها وتحوى أخمصها.

(٢) مصاعيظها: أي بين قطعتي الرئة.

وجعلت الكلية كحب اللوبيا لأن عليها مصب المني نقطة بعد نقطة، فلو كانت مرّبعة أو مدورة لاحتبست النقطة الأولى الثانية فلا يلتذ بخروجها الحيّ إذ المني ينزل من فقار الطهر إلى الكلية فهي كالدودة تنقبض وتنبسط ترميه أوّلاً فأولاً إلى المثانة كالبندقة من القوس.

وجعل طيّ الرّكبة إلى خلف لأن الإنسان يمشي إلى ما بين يديه فتعدل الحركات، ولولا ذلك لسقط في المشي، وجعلت القدم متحضرة لأنّ الشيء إذا وقع على الأرض جميعه نقل ثقل حجر الرّحى، وإذا كان على حرفه دفعه الصّبي، وإذا وقع على وجهه صعب ثقله على الرجل.

فقال الهندي: من أين لك هذا العلم؟ فقال عليه السلام: أخذته عن آبائي عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن ربّ العالمين جل جلاله الذي خلق الأجساد والأرواح، فقال الهندي: صدقت وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وأنّك أعلم من أهل زمانك[1].

(١) مستدرك سفينة البحار: ٦/٤٩٧، والحفال: ٥١٤.

الترجمة

گردانید حق سبحانه و تعالی از برای شما گوش ها را تا این که حفظ نمایند و نگه بدارند آن چه که مهم باشد ایشان را و ضروری و آفرید چشم ها را تا این که روشنی بخشند از شب کوری و خلق فرمود اعضاء ظاهره که جمع کننده اعضای باطنه بودند در حالتی که مناسب و موافق بودند با اطراف و جوانب متناهیه خود در ترکیب صورت های آن ها و مدت های عمرهای آن ها با بدن هایی که قائمند به منافع خود و با قلب هایی که طالبند مررزق های خود را در حالتی که شما در توی نعمت های کامله می باشید و اسباب منتهای شامله و موانع صحت بدن از امراض و محن.

و مقدر فرمود از برای شما عمرها که پوشانید آن ها را از شما و باقی گذاشت از برای شما عبرت ها از آثار گذشتگان پیش از شما از محل لذت یافتن ایشان با نصیب خودشان و از مکان گشاده بودن ریسمان مرگ از گردن ایشان.

شتاب نمود ایشان را مرگ ها بی رسیدن به آرزوها و متفرق ساخت ایشان را از آرزوها بریده شدن اجل ها، در حالتی که مهیا نساختند از عمل های شایسته در سلامتی بدن ها و عبرت نگرفتند از عبرت های نافعه در اول زمان ها.

پس آیا انتظار می کشند اهل قوت و امتلاء جوانی مگر قد خم کننده های پیری و ناتوانی را و اهل خوشی و صحت و تن درستی مگر نازل شونده های بیماری را و اهل مدت بقا مگر زمان های فنا و نابودی را با وجود نزدیکی مفارقت و قرب انتقال به سوی آخرت و با وجود جزع اضطراب و درد مصیبت و بسیار به گلو ماندن آب دهان از اندوه و محنت و با وجود این طرف و آن طرف نگریستن برای فریادرس خواستن به یاری دادن اعوان و خویشان و اولاد و عزیزان.

پس آیا دفع نمود مرگ را از او خویشان یا نفع بخشید گریه گریه کنندگان و حال آن که ترك کرده شد در محله مردگان محبوس گناه و در تنگی خوابگاه بی یار و همراه، به تحقیق که پاره نمود حشرات الارض پوست تن او را و کهنه نمود لاغرکنندگان تازگی بدن او را و مندرس نمود بادهای سخت جهنده اثرهای او را و

محو نمود حوادث روزگار علامت های او را و بگردید بدن های متغیر و لاغر بعد از تازگی و قوت و استخوان ها پوسیده و متفرق بعد از توانایی و شدت.

و روح ها گرد کرده شد به بار گران گناهان، در حالتی که یقین کننده باشند به اخبار غایبه از ایشان، طالب نمی شود از آن ها زیاده کردن از اعمال صالحه و طلب نمی شود از ایشان راضی کردن حق از اعمال باطله. آیا نیستید شما پسران قوم خود و پدران ایشان و برادران قوم خود و خویشان ایشان؟ اندازه می گیرید در کارها بر مثل های آن ها و سوار می شوید بر طریقه ایشان در اقوال و افعال و سلوك می کنید در راه های ایشان به همه حال.

پس قلب ها سختند از قبول بهره سودمند خود، غافلند از طلب هدایت خود، سالکند در غیر میدان با منفعت خود، گویا که مخاطب و مقصود به اوامر و نواهی غیر از آن دل ها است و گویا که رشادت و مصلحت آن ها در حفظ متاع دنیا است.

هذا آخر الجزء الخامس من هذه الطبعة الجديدة الثمنية القيمة؛ تم تصحيحه وتهذيبه وترتيبه بيد العبد «السيد إبراهيم الميانجي» عفى عنه وعن والديه ووقع الفراغ في العشر الأول من شهر رجب الأصب ۱۳۷۹.

ويليه إن شاء الله الجزء السادس وأوله: «الفصل السادس» من المختار الثاني والثمانين، والحمد لله رب العالمين.

محتوى الجزء الخامس من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

مِنهاجُ البَراعَة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاج البَراعة

شرح

نَهجُ البَلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد السادس

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل السادس

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ ومَزالِقِ دَحْضِه، وأَهاويلِ زَلَلِه، وتاراتِ أَهْوالِهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةَ ذي لُبِّ شَغَلَ التَّفكرُ قَلْبَهُ وأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ، وأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرارَ نَوْمِهِ، وأَظْمَأَ الرَّجاءُ هَواجِرَ يَوْمِهِ، وظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَواتِهِ، وأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسانِهِ، وقَدَمَ الْخَوْفَ لأَمانِه، وَتَنكَّبَ الْمَخالِجَ عَنْ وَضحِ السَّبِيلِ، وسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسالِكَ إِلَى النَّهجِ الْمطلُوبِ، وَلَمْ تَفْتِلْهُ فاتِلاتُ الْغُرورِ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهاتُ الأُمورِ، ظافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرىٰ، وراحَةِ النُّعْمىٰ، في أَنْعَم نَوْمِهِ، وآمَنِ يَوْمِه، قَدْ عَبَرَ مَعْبَر الْعاجِلَةِ حَميداً، وقَدَّمَ زادَ[1] الآجِلَةِ سَعيداً، وبادَرَ مِنْ وَجَلٍ، وأَكْمَشَ في مَهَلٍ، ورَغِبَ في طَلَبٍ، وذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وراقَبَ في يَوْمِهِ غَدَهُ، ونَظَرَ قُدُماً أَمامَهُ، فَكَفىٰ بِالْجَنَّةِ ثَواباً ونَوالاً، وكَفى بالنارِ عِقاباً ووَبالاً، وكَفىٰ بِاللَّهِ مُنْتَقِماً ونَصيراً، وكَفَىٰ بِالْكِتابِ حَجِيجاً وخَصيماً، أُوصيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذي أَعْذَرَ بِما أَنْذَرَ، وَاحْتَجَّ بِما نَهَجَ، وحَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ في الصُّدُورِ خَفِيّاً، ونَفَثَ في الآذانِ نَجِيّاً، فَأَضَلَّ وأَرْدَىٰ، وَوَعَدَ فَمَنّىٰ، وزَيَّنَ سَيِّئاتِ الْجَرائِمِ، وهَوَّنَ مُوبِقاتِ الْعَظائِمِ، حَتّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَاسْتَغْلَقَ رَهينَتَهُ، أَنْكَرَ ما زَيَّنَ، وَاسْتَعْظَمَ ما هَوَّنَ، وحَذَّرَ ما آمَنَ[2]»[3] «أَمَّنَ خ».

اللغة

(**المزالق**) جمع المزلق وهو الموضع الذي يزلق فيه القدم ولا تثبت ومكان (**دحض**) ويحرّك زلق و(**التارات**) جمع تارة وهي المرّة والحين و(**النصب**) التعب و(**هجد وتهجد**) نام وهجد وتهجد سهر واستيقظ فهو من الأضداد و(**الغرار**) بكسر (**الغين**) المعجمة القليل من النوم و(**الظمأ**) العطش و(**الهواجر**) جمع الهاجرة وهو نصف النهار عند اشتداد الحرّ يقال أتينا أهلنا مهجرين أي سائرين في الهاجرة و(**ظلف**) نفسه عنه يظلفها من باب ضرب منعها من أن تفعله أو تأتيه أو كفّها عنه و(**أوجف**) في سيره أسرع والوجيف ضرب من سير الإبل والخيل.

---

(١) في نسخة: قَدِمَ.

(٢) في نسخة: أمَّنَ.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٥٠٧، وميزان الحكمة: ٢/ ١٤٥١.

(وقدم الخوف لأمانه) هكذا في نسختين للمعتزلي والبحراني وفي بعض النّسخ لإبانه **(بالباء)** الموحّدة المشدّدة بعد الهمزة المكسورة وبعد **(الباء)** **(بالنون)**. قال في «القاموس» ابّان الشيء بالكسر حينه أو أوّله والأوّل أظهر وأوفق و**(نكب)** عنه من باب نصر وفرح نكْباً ونكَباً ونكوباً عدل كنكب وتنكب ونكبه تنكيباً لازم متعدّ وطريق منكوب على غير قصد.

و**(المخالج)** المشاغل من خلج يخلج أي شغل وجذب و**(الوضح)** محجة الطريق و**(فتله)** يفتله من باب ضرب لواه وفتل وجهه عنهم صرف و**(النعمى)** والنّعيم الخفض والدّعة والمال كالنّعمة، وأنعم الله صباحك من النّعومة جعله ذا رفاهيّة و**(أكمش)** أسرع و**(القدم)** بالضمّ وبضمّتين والقدمة كالقدم محركة السّابقة في الأمر و**(نفث)** ينفث من باب نصر وضرب من النّفث وهو كالنّفخ ومنه ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ ونفث الشّيطان في قلبه القاه و**(استدرجه)** خدعه وأدناه وقرين الشّيطان و**(قرينته)** التابع لرأيه.

قال الشّارح المعتزلي: القرينة هٰهنا الإنسان الذي قارنه الشّيطان ولفظه لفظ التّأنيث وهو مذكر أراه القرين و**(غلق)** الرّهن من باب فرح إذا استحقّه المرتهن وذلك إذا لم يفتكك في الوقت المشروط.

الإعراب

(شهواته) منصوب بنزع الخافض، **(وأوجف الذّكر)** في كثير من النّسخ بنصب الذّكر فتكون **(الباء)** في قوله بلسانه للاستعانة وفي بعض النّسخ بالرّفع فتكون الباء زائدة كأن المعنى حرك الذّكر لسانه مسرعاً، **(وقدم الخوف لأمانه)** **(اللاّم)** للتّعليل، **(وعن وضح السّبيل)** متعلّق بالمخالج، **(وحميداً وسعيداً)** حالان من فاعل **(عبر وزاد)**، قوله: **(وبادر من وجل)**، كلمة تعليليّة كما في قوله **(ممّا خطيئاتهم اغرقوا)**، **(والباء)** في قوله **(بالجنّة وبالنّار وبالله وبالكتاب)** زائدة، **(وثواباً ونوالاً وعقاباً ووبالاً)** منصوبات على التميز، **(ومنتقماً ونصيراً وحجيجاً وخصيماً)** منصوبات على الحال.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل متضمّن للإنذار بالصّراط والتّحذير من أهواله والأمر بالتّقوى تأكيداً لأوامره السّابقة فانذر أوّلاً بالصّراط حيث قال **(واعلموا أنّ مجازكم على الصّراط)** الذي هو جسر جهنّم وعليه ممرّ جميع الخلائق حسبما تعرفه تفصيلاً **(ومزالق دحضه وأهاويل زلله)** لكونه أدقّ من الشعر وأحدّ من السّيف كما يأتي في الأخبار الآتية.

وفي النّبوي قال ﷺ: «ثلاث مواطن لا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتّى يعلم أيخفّ ميزانه أو يثقل، وعند تطاير الصّحف حتّى يعلم أيقع كتابه في يمينه أم شماله أم من وراء

ظهره، وعند الصّراط إذا وضع بين ظهر جهنّم حتّى يجوز»[١].

قال الشّارح المعتزلي **(وتارات أهواله)** هو كقولك دفعات أهواله وإنما جعل أهواله تارات لأنّ الأمور الهائلة إذا استمرّت لم يكن في الازعاج والتّرويع كما يكون إذا طرأت تارة وسكنت تارة.

ثمّ أمر عليه السلام بملازمة التّقوى وتحصيله في أقصى مراتب كماله مثل تقوى من كمل في مقام العبوديّة واستجمع صفات الإيمان فقال عليه السلام (فاتّقوا الله عباد الله تقيّة ذي لبّ شغل التّفكر) في الله وفي صنعه **(قلبه)** من التّوجّه والالتفات إلى الدّنيا وأباطيلها **(وأنصب الخوف)** من الله ومن عذابه **(بدنه)** حتّى صار ناحل الجسم من ذكر النّار وأهاويلها **(وأسهر التّهجّد)** وعبادة اللّيل **(غرار نومه)** فلم تترك له نوماً حتّى كان قائم اللّيل **(وأظمأ الرّجاء)** رجاء ما اعدّ لأولياء الله **(هواجر يومه)** فأكثر صوماً حتّى كان صائم النّهار.

ونسبة السّهر إلى الغرار والظّمأ إلى الهواجر من باب التّوسّع والمجاز على حدّ قولهم: قام ليله وصام نهاره، فأقيم الظرف مقام المظروف أي أسهره التّهجّد من غرار نومه وأظمأه الرّجاء في هواجر يومه.

روى في «الوسائل» عن سهل بن سعد قال: جاء جبرئيل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد عش ما شئت فإنّك ميّت، وأحبب ما شئت فإنّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنّك تجزى به، واعلم أنّ شرف الرّجل قيامه باللّيل، وعزّه استغناؤه عن النّاس.

وفيه أيضاً عن «المفيد» في «المقنعة» قال: روى أنّ صلاة اللّيل تدر الرّزق وتحسن الوجه وترضى الرّب وتنفي السّيئات.

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله «إذا قام العبد من لذيذ مضجعه والنّعاس في عينيه ليرضي ربّه بصلاة ليله باهى الله به الملائكة»[٢] وقال تعالى: ﴿اشهدوا أني غفرت له﴾.

قال: وقال: كذب من زعم أنه يصلي باللّيل ويجوع بالنّهار.

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ البيوت التي تصلّى فيها باللّيل وبتلاوة القرآن تضيء لأهل السّماء كما تضيء نجوم السّماء لأهل الأرض»[٣].

---

(١) معاني القرآن: ٤/ ٣٧٣، وتفسير الثعالبي: ٤/ ١٦٣.

(٢) بحار الأنوار: ٨٤/ ١٥٦ ح ٤٠، ومستدرك الوسائل: ٦/ ٣٣٢ ح ٦٩٣٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٤٧٣ ح ١٣٦٧، وثواب الأعمال: ٤٢.

وفيه أيضاً عن جعفر بن محمّد عليهما السلام قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وثمان ركعات في آخر اللّيل والوتر زينة الآخرة[١]، وتأتي أخبار أخر في هذا المعنى إن شاء الله في شرح المختار المائة والثاني والثمانين **(وظلف الزهد)** في الدّنيا **(شهواته)** وكفّه منها **(وأوجف)** إلى **(الذّكر بلسانه)** ولم يبطىء فيه أو أسرع الذّكر لسانه فلم يسكت عنه قال تعالى:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

(وقدم الخوف) من الله **(لامانه)** أي ليأمن به من عذابه الأليم **(ونكب المخالج عن وضح السّبيل)** أي نَحتّهُ الشّواغل والصّوارف عن صراطه المستقيم **(وسلك أقصد المسالك)** وأعدلها **(إلى النّهج المطلوب الذي هو منهج الشّرع القويم (ولم تفتله فاتلات الغرور)** من الاتيان بالطاعات **(ولم تعم عليه مشتبهات الأمور)** فيقتحم في الهلكات **(ظافراً بفرحة البشرى وراحة النعمى)** أي مستبشراً بخطاب ،(بشريكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار) ومستريحاً بسعة العيشة ولذّة النّعمة في دار القرار **(في أنعم نومه وآمن يومه)** أي في أطيب راحته وآمن أوقاته واطلاق اسم النّوم على الرّاحة من باب اطلاق اسم الملزوم على اللازم وإلى الأمن والاستراحة اشير في الآية قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨].

أي يقال لهم ادخلوا الجنات بسلامة من الآفات وبراءة من المكاره والمضرّات آمنين من الإخراج منها ساكني النّفس إلى انتفاء الضرر فيها **(قد عبر معبر العاجلة حميداً وقدّم زاد الآجلة سعيداً)** أي جاز مجاز الدّنيا العاجلة حميداً في فعاله، وقدم الزاد الآخرة سعيداً في أحواله.

والمقصود بذلك أنه زهد في الدّنيا فترك العيش العاجل ورغب في الآخرة فنال الثواب الأجل **(وبادر من وجل واكمش في مهل)** يعني عليه السلام بادر إلى الطاعات من أجل الخوف من العقوبة وأسرع إلى العبادات في أيّام الرفق والمهلة **(ورغب في طلب وذهب عن هرب)** أي كان طلبه للحقّ وسعيه إليه عن شوق ورغبة، وذهابه عن الباطل وبعده عنه عن خوف ورهبة.

قال المحقّق الطوسي في محكي كلامه عن أوصاف الأشراف في تفسير الرّهبة: هو تألّم النّفس من العقاب بسبب ارتكاب المنهيّات والتّقصير في الطاعات كما في أكثر الخلق، وقد يحصل بمعرفة عظمة الحق ومشاهدة هيبته كما في الأنبياء والأولياء.

---

(١) بحار الأنوار: ٨٤/ ١٥٠ ح ٢٦.

وفرّق بعض العارفين بين الخوف والرّهبة فقال: الخوف هو توقّع الوعيد وهو سوط الله يقوّم به الشّاردين عن بابه ويسير بهم على صراطه حتّى يستقيم به أمر من كان مغلوباً على رشده، ومن علامته قصر الأمل وطول البكاء، والرّهبة هي انصباب إلى وجهة الهرب بل هي الهرب رهب وهرب مثل جبذ وجذب، فصاحبها يهرب أبداً لتوقّع العقوبة ومن علاماتها حركة القلب إلى الانقباض من الداخل وهربه وانزعاجه عن انبساط حتى أنّه يكاد أن يبلغ الرّهابة في الباطن مع ظهور الكمد(١) والكآبة على الظاهر، انتهى.

والرّهابة كسحابة عظم في الصّدر مشرف على البطن **(وراقب في يومه غده ونظر قدماً أمامه)** أي لاحظ في دنياه آخرته فادّخر لها ونظر في سابقة أمره إلى ما بين يديه ولم يلتفت إلى غيره.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله **(فكفى بالجنّة ثواباً ونوالاً)** وهو ترغيب إلى السّعي إليها **(وكفى بالنّار عقاباً ووبالاً)** وهو تنبيه على وجوب الهرب منها **(وكفى بالله منتقماً ونصيراً)** وهو إشارة إلى لزوم قصر الخشية والاستعانة عليه سبحانه **(وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً)** أي كفى كتاب الله محاجّاً ومخاصماً، وهو إشارة إلى وجوب تعليم القرآن وتعلّمه وإكرامه وحرمة إضاعته وإهانته.

قال الشّارح البحراني ونسب الاحتجاج والخصام إلى الكتاب مجازاً.

أقول: بل هو حقيقة إذ المستفاد من الأخبار أنّه يؤتى به يوم القيامة في صورة إنسان فيكون بنفسه حجيجاً خصيماً.

فقد روى في «الوسائل» عن محمّد بن يعقوب الكلينيّ معنعناً عن سعد الخفاف عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: يا سعد تعلّموا القرآن فإنّ القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق «إلى أن قال» حتّى ينتهي إلى ربّ العزّة فيناديه تبارك وتعالى يا حجّتي في الأرض وكلامي الصّادق النّاطق ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفّع كيف رأيت عبادي؟ فيقول: يا ربّ منهم من صانني وحافظ عليّ، ومنهم من ضيّعني واستخفّ بي وكذب بي وأنا حجّتك على جميع خلقك، فيقول الله عزّ وجل: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبنّ اليوم عليك أحسن الثّواب، ولأعاقبن عليك اليوم أليم العقاب الحديث.

وبإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: يجيء القرآن يوم القيامة في أحسن منظور إليه صورة «إلى أن قال» حتّى ينتهي إلى ربّ العزّة فيقول: يا ربّ فلان بن فلان اظمأت هَوَاجِرُهُ وأسهرت ليله في دار الدّنيا، وفلان بن فلان لم أظم هَوَاجِرُهُ ولم أسهر ليله، فيقول

---

(١) الكمد هو تغير اللون وذهاب صفائه.

تبارك وتعالى: أدخلهم الجنة على منازلهم فيقوم فيتبعونه فيقول للمؤمن: اقرأوا وارقه، قال عليه السلام: «فيقرء ويرقا حتّى بلغ كلّ رجل منهم منزلته التي هي له فينزلها»[١].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة وفيما أوردناه كفاية في المقام والزّيادة على ذلك تطلب في شرح المائة والخامسة والسبعين، ونروي تمام رواية الخفاف السّالفة هناك إن شاء الله من أصل كتاب الكلينيّ.

ثمّ عاد عليه السلام إلى الحث على التّقوى أيضاً بقوله: (**أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر**) أي أزال العذر عنه بما أنذركم به من العقوبات (**واحتج بما نهج**) أي أقام الحجّة عليكم بما أوضحه لكم من الأدلة والآيات (**وحذّركم عدوّاً نفذ في الصّدور خفياً ونفث في الآذان نجيّاً**) أراد به تحذير الله سبحانه وتعالى في غير واحدة من آيات كتابه الكريم من عداوة الشيطان اللّعين كما قال في سورة البقرة:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وفي سورة يوسف: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وفي سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

إلى غير ذلك، وتوصيفه بالنّفوذ في الصّدور والنّفث في الأذان إشارة إلى أنّه ليس مثل سائر الأعداء يرى بالأبصار ويدرك بالعيان، بل هو عدوّ ينفذ في القلوب ويجري من ابن آدم مجرى الدّم في العروق، ويلقى في الآذان زخرف القول وغروره، ويمكن أن يراد بالعدو الأعمّ من شيطان الجنّ والانس فيكون الوصف بالنّفوذ بالنظر إلى شيطان الجنّ، والوصف بالنّفث بالنظر إلى شيطان الإنس كما قال سبحانه:

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ٤ ـ ٦].

قال المفسّر أي من شرذي الوسواس الذي يوسوس في الصّدور، ثمّ فسّره بقوله: من الجنّة والنّاس كما يقال نعوذ بالله من شرّ كلّ مارد من الجن والإنس، وعلى هذا فيكون وسواس الجنّة هو وسواس الشّيطان، ووسواس الإنس اغواء من يغويه من النّاس، فشيطان الجنّ يوسوس وشيطان الإنس يأتي علانية ويرى أنّه ينصح وقصده الشرّ ويموه ويلقى في سمعه زخرف القول الذي يستحسن ظاهره ويقبح باطنه.

(**فأضلّ وأردى ووعد فمنى**) أي أضلّ بنفوذه في الصدور ووسوسته في القلوب عن طريق

(١) شرح أصول الكافي: ١١/١٩ ح ١١، ووسائل الشيعة: ٦/١٦٦ ح ٧٦٣٧.

الهداية وأوقع في أودية الهلاكة أعني هلاكة الآخرة الموجبة لاستحقاق النار ولغضب الجبار ووعدهم بالمواعيد الكاذبة ومَنّاهُمُ الأماني الباطلة كما قال سبحانه:

﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١] الآية.

أي يمنّيهم الأهواء الباطلة ويلقيها في قلب الإنسان فيمنّيه طول البقاء وأنه ينال من الدّنيا مقصوده ويستولي على أعدائه ويوقع في نفسه أن الدّنيا دول فربّما تيسّرت لي كما تيسّرت لغيري، ويشوّش بذلك فكره في استخراج الحيل الدّقيقة والوسائل اللّطيفة في تحصيل مطالبه الشّهويّة والغضبيّة، فيصدّه عن الطاعة ويوقعه في المعصية وتسويف التّوبة.

وهذه الأماني انما تنشأ من الثّقة بقوله والوثوق بوعده، ووعده تارة يكون بإلقاء الخواطر الفاسدة وأخرى بألسنة أوليائه من شياطين الإنس، فربّما يعد بالمغفرة مع الكبيرة كما قال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وربّما يعد أنّه لا قيامة ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب ويقول للإنسان اجتهد في استيفاء اللّذات العاجلة واغتنم الحياة الزّائلة.

(**وزيّن سيئات الجرائم وهوّن موبقات العظائم**) أي زين في نظر الإنسان قبائح المعاصي وهوّن مهلكات الكبائر ومنشأ تزيينه للسّيئات كتهوينه الموبقات أيضاً مواعيده الكاذبة وأمانيه الباطلة فما لم يثق بقوله ولا يطمئنّ بوعده لا يهوّن الإنسان ما هون، ولا يميل إلى ما زيّن.

توضيح ذلك وتحقيقه أنّ مقصود الشّيطان هو التّرغيب في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن اعتقاد الحقّ وعمل الحقّ، ومعلوم أنّ التّرغيب في الشيء لا يمكن إلاّ بان يقرّر عنده أنّه لا مضرّة في فعله، ومع ذلك فإنّه يفيد المنافع العظيمة والتّنفير عن الشيء لا يمكن إلاّ بأن يقرّر عنده أنّه لا فائدة في فعله ومع ذلك فيفيد المضارّ العظيمة.

إذا ثبت هذا فنقول إنّ الشّيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد وأن يقرّر أوّلاً أنّه لا مضرّة في فعله البتّة، وذلك لا يمكن إلاّ إذا قال لا معاد ولا جنّة ولا نار ولا حياة بعد هذه الحياة، فهذا الطريق يقرّر عنده أنه لا مضرّة البتّة في فعل هذه المعاصي وإذا فرغ من هذا المقام قرّر عنده وزيّن في نظره أن هذا الفعل يفيد أنواعاً من اللّذة والسّرور ولا حياة للإنسان إلاّ في هذه الدّنيا فتفويتها غبن وحسرة.

وأمّا طريق التّنفير عن الطاعات فهو أن يقرّر أوّلاً عنده أنّه لا فائدة فيها من وجهين:

الأول: أنه لا جنّة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب.

والثاني: أنّ هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد ولا للمعبود فكانت عبثاً محضاً، وإذا فرغ من هذا المقام قال: إنّها توجب التّعب والمحنة وذلك أعظم المضارّ فهذه مجامع تلبيس إبليس وتوضيح وعده وأمانيه وتزيينه وتهوينه.

(حتّى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينته) أي إذا خدع قرينه وتابعه بتزيين الباطل في نظره وتنفيره عن الحق وأوقعه في الغلق بالذّنوب التي اكتسبها كالرّهن المغلق في مقابل المال **(انكر ما زيّن واستعظم ما هوّن وحذر ما أمن)** كما قال سبحانه في سورة الأنفال:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

قال الطبرسي: أي أذكر إذ زيّن الشّيطان للمشركين أعمالهم أي أحسنها في نفوسهم وذلك أنّ إبليس حسّن لقريش مسيرهم إلى بدر لقتال النبي ﷺ، وقال: لا يغلبكم أحد من النّاس لكثرة عددكم وقوّتكم وإنّي مع ذلك جار لكم أي ناصر لكم ودافع عنكم السّوء، وإنّي عاقد لكم عقد الأمان من عدوّكم، فلمّا التقت الفرقتان نكص على عقبيه، أي رجع القهقرى منهزماً ورائه، وقال: إنّي بريء منكم، أي رجعت عمّا ضمنت لكم من الأمان والسّلامة لأنّي أرى من الملائكة الذين جاؤوا لنصر المسلمين ما لا ترون، وكان إبليس يعرف الملائكة وهم كانوا يعرفونه، إنّي أخاف الله، أي أخاف عذاب الله على أيدي من أراهم، والله شديد العقاب، لا يطاق عقابه وفي سورة الحشر:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

أي مثل المنافقين في إغراء اليهود أي بني النّضير للقتال كمثل الشّيطان في إغرائه للإنسان، فإنّه أبداً يدعو الإنسان إلى الكفر ثمّ يتبرّأ منه وقت الحاجة مخافة أن يشاركه في العذاب ويقول: إنّي أخاف الله رب العالمين، ولا ينفعه ذلك كما قال: فكان عاقبتهما أي الدّاعي والمدعوّ من الشّيطان ومن أغواه، أنهما معذّبان في النّار.

قال ابن عبّاس: إنّ المراد بالإنسان في هذه الآية هو عابد بني إسرائيل قال: إنّه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصاً عبد الله زماناً من الدّهر حتّى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوّذهم فيبرؤون على يده، وأنّه أتى بامرأة في شرف قد جنّت وكان لها اخوة فأتوه بها فكانت عنده فلم يزل به الشّيطان يزيّن له حتّى وقع عليها فحملت، فلمّا استبان حملها قتلها ودفنها، فلمّا فعل ذلك ذهب الشّيطان حتّى لقى أحد إخوتها فأخبره بالذي فعل الرّاهب وأنّه دفنها في مكان كذا.

ثمّ أتى بقيّة إخوتها رجلاً رجلاً فذكر ذلك له فجعل الرّجل يلقى أخاه فيقول والله لقد أتاني آت فذكر لي شيئاً يكبر عليّ ذكره، فذكر بعضهم لبعض حتّى بلغ ذلك ملكهم فصار الملك والنّاس، فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذي فعل فأمر الملك به فصلب، فلمّا رفع على خشبته تمثّل له الشّيطان فقال: أنا الذي ألقيتك في هذا فهل أنت مطيعي فيما أقول اخلّصك ممّا أنت فيه؟ قال: نعم، قال: اسجد لي سجدة واحدة، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة؟ فقال: أكتفي منك بالإيماء، فأومى له بالسّجود فكفر بالله وقتل الرّجل، فهو قوله: كمثل الشّيطان إذ قال للإنسان اكفر.

اللّهم إنّا نعوذ بك من خداع إبليس ومن شرور الأنفس ومن سوء الخاتمة.

تنبيهات ثلاثة متضمنة لتحقيق بعض ما تضمنه هذا الفصل

الأول

في تحقيق الصراط وبيانه

فأقول: إنّ الصّراط ممّا يجب الإيمان به وهو من جملة ضروريات الدّين وهو جسر جهنم.

قال الصدوق (ره) في محكي كلامه عن اعتقاداته: اعتقادنا في الصراط أنّه حق وأنه جسر جهنم وأنّ عليه ممرّ جميع الخلق قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴿٧١﴾﴾.

قال (ره): والصراط في وجه آخر اسم حجج الله فمن عرفهم في الدّنيا وأطاعهم أعطاه الله جوازاً على الصراط الذي هو جسر جهنم قال (ره) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا عليّ إذا كان يوم القيامة أقعد أنا وأنت وجبرئيل على الصراط ولا يجوز على الصراط أحد إلاّ من كان معه براءة بولايتك»[١] وقال المفيد «ره»: الصراط بمعنى الطريق ولذلك يقال على ولاية أمير المؤمنين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام: الصراط، لكونها طريق النجاة.

أقول: الصراط بهذين المعنيين مما أشير إليه في غير واحد من الأخبار، ففي «الصافي» و«البحار» من «معاني الأخبار» وتفسير الإمام عليه السلام في تفسير قوله:

---

(١) معاني الأخبار: ٣٦، وبحار الأنوار: ٨/٦٦ ح ٤.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

عن الصّادق عليه السلام: يعني ارشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبّتك والمبلّغ إلى جنّتك والمانع من أن نتّبع أهوائنا فنعطب أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك[١].

وعنه أيضاً هي الطريق إلى معرفة الله وهما صراطان صراط في الدّنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط في الدّنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدّنيا واقتدى بهداه مرّ على الصّراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدّنيا زلت قدمه عن الصّراط في الآخرة فتردى في نار جهنّم، وفي رواية نحن الصّراط المستقيم.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي عن حفص بن غياث قال: وصف أبو عبد الله عليه السلام الصّراط فقال: «ألف سنة صعود وألف سنة هبوط وألف سنة حذال».

وفيه عن سعد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الصّراط فقال: «هو أدقّ من الشّعر وأحد من السّيف، فمنهم من يمرّ عليه مثل البرق، ومنهم من يمرّ عليه مثل الفرس، ومنهم من يمرّ عليه ماشياً، ومنهم من يمرّ عليه حبواً، ومنهم من يمرّ عليه متعلّقاً فتأخذ النّار بعضه وتترك بعضه»[٢].

وفيه قال: حدّثني أبي عن عمر بن عثمان عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا نزلت هذه الآية:

﴿وَجِاْىٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾.

سئل عن رسول الله فقال صلى الله عليه وآله: أخبرني الرّوح الأمين أنّ الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجمع الأوّلين والآخرين أتى بجهنّم تقاد بألف زمام أخذ بكلّ زمام مائة ألف ملك تقودها من الغلاظ الشّداد لها هدّة وغضب وزفير وشهيق وأنّها لتزفر الزّفرة فلولا أنّ الله أخرهم للحساب لأهلكت الجميع، ثم يخرج منها عنق فيحيط بالخلائق البرّ والفاجر ما خلق الله عبداً من عباد الله ملكاً ولا نبيّاً إلاّ ينادي ربّ نفسي نفسي وأنت يا نبيّ الله تنادي أمّتي أمّتي، ثمّ يوضع عليها الصراط أدقّ من حدّ السّيف عليها ثلاث قناطر فأمّا واحدة فعليها الأمانة والرّحم، والثّانية فعليها الصّلاة، والثالثة فعليها ربّ العالمين لا إله غيره فيكلفون بالممرّ عليها فيحبسهم الرّحم والأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصّلاة فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين وهو قوله:

---

(١) وسائل الشيعة: ٤٩/٢٧، وبحار الأنوار: ٩/٢٤ ح ١.

(٢) التفسير الصافي: ٨٥/١، وتفسير نور الثقلين: ٢١/١ ح ٩٣.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

والنّاس على الصراط فمتعلّق بيد وتزلّ قدم وتستمسك بالقدم والملائكة حولها ينادون حولها يا حليم اعف واصفح وعد بفضلك وسلّم سلّم والنّاس يتهافتون في النّار كالفراش فيها فإذا نجى ناج برحمة الله مرّ بها فقال: الحمد لله وبنعمته تتمّ الصّالحات وتزكو الحسنات والحمد لله الذي نجاني منك بعد اياس بمنّه وفضله إنّ ربّنا لغفور شكور[١].

وفي «غاية المرام» للسّيد هاشم البحراني من طريق العامة عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: إذا كان يوم القيامة أمر الله مالكاً أن يسعر النّيران السّبع وأمر رضوان أن يزخرف الجنان الثّمان ويقول: يا ميكائيل مدّ الصّراط على متن جهنّم ويقول: يا جبرائيل انصب ميزان العدل تحت العرش وينادي يا محمّد: قرب أمّتك للحساب.

ثمّ يأمر الله تعالى أن يعقد على الصّراط سبع قناطر طول كلّ قنطرة سبع عشر ألف فرسخ، وعلى كلّ قنطرة سبعون ألف ملك قيام فيسألون هذه الأمّة نسائهم ورجالهم على القنطرة الأولى عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وحبّ أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله فمن أتى به جاز على القنطرة الأولى كالبرق الخاطف ومن لم يحب أهل بيته نبيّه صلى الله عليه وآله سقط على أمّ رأسه على قعر جهنّم ولو كان معه من أعمال البر عمل سبعين صدّيقاً.

وعلى القنطرة الثّانية فيسألون عن الصّلاة، وعلى الثّالثة يسألون عن الزكاة، وعلى الرّابعة عن الصيام، وعلى الخامسة عن الحجّ، وعلى السّادسة عن الجهاد، وعلى السّابعة عن العدل، فمن أتى بشيء من ذلك جاز على الصّراط كالبرق الخاطف ومن لم يأت عذّب وذلك قوله تعالى: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ يعني معاشر الملائكة قفوهم يعني العباد على القنطرة الأولى انّهم مسؤولون عن ولاية عليّ عليه السلام وحبّ أهل البيت عليهم السلام.

وفي «البحار» من تفسير الإمام عليه السلام المفسر بإسناده إلى أبي محمّد العسكري عليه السلام في قوله:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال: أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيّامنا حتّى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا، والصّراط المستقيم هو صراطان: صراط في الدّنيا، وصراط في الآخرة فأمّا الصّراط المستقيم في الدّنيا فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير واستقام فلم يعدل إلى شيء من

(١) بحار الأنوار: ٧/ ١٢٦، والتفسير الصافي: ٥/ ٣٢٧.

(٢) معاني الأخبار: ٣٣ ج ٤، وبحار الأنوار: ٨/ ٧٠.

الباطل وأمّا الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنّة الذي هو مستقيم لا يعدلون عن الجنة إلى النّار ولا إلى غير النّار سوى الجنّة[١].

الثاني

في تحقيق الذكر والمستفاد من قوله عليه السلام: وأوجف الذكر بلسانه الحث والترغيب عليه

فأقول: إنّ ذكر الله عزّ وجلّ على أقسام:

الأول: أن يذكره تعالى عند إرادة المعصية الّتي يريد ارتكابها فيتركها له.

الثاني: ذكره عند الطاعة فيسهل عليه مشقّة العبادة.

الثالث: ذكره عند الرّفاهية والنّعمة فيذكره ويؤدّي شكره.

الرّابع: ذكره عند الابتلاء والمحنة فيتضرّع له لصرف البلاء والصّبر عليه.

الخامس: ذكره بالقلب بأن يتفكّر في صفاته الجلالية ونعوته الجماليّة وغيرها من العلوم ومعارف الحقّة.

السادس: الذكر باللّسان بأن يسبّح له ويقدّسه ويمجّده ويشتغل بذكر فضائل أهل البيت وتعليم القرآن وتدريس العلوم الشّرعيّة وأنحائها.

وكلّ ذلك ممّا ورد الحثّ عليه في الأخبار والآيات.

قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] وقال أيضاً: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال الطبرسي (ره) هو عام في الأذكار وقراءة القرآن والدّعاء والتّسبيح والتهليل وتضرعاً وخيفة أي متضرّعاً وخائفاً، ودون الجهر من القول، أي ومتكلّماً كلاماً دون الجهر، لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص وأبعد من الرّيا وأقرب إلى القبول.

---

(١) وسائل الشيعة: ٧/١٤٩ ح ١، وقصص الأنبياء: ط٣٤.

وفي «الكافي» و«عدّة الدّاعي» لأحمد بن فهد الحلّي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: مكتوب في التّوراة الّتي لم تغير أنّ موسى سأل ربّه فقال: يا ربّ أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فأوحى الله إليه يا موسى أنا جليس من ذكرني، فقال موسى: فمن في سترك يوم لا ستر إلاّ سترك؟ فقال تعالى: ﴿الذين يذكروني فأذكرهم ويتحابون لي فأحبهم فأولئك الذين إذا أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء ذكرتهم فدفعت عنهم بهم﴾[١]

وفي عدّة الدّاعي عن النّبي صلى الله عليه وآله: «ما جلس قوم يذكرون الله إلاّ قعد معهم عدّة من الملائكة».

وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما اجتمع قوم في مجلس لم يذكروا الله ولم يذكرونا إلاّ كان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة»، ثمّ قال: قال أبو جعفر عليه السلام إنّ ذكرنا من ذكر الله وذكر عدوّنا من ذكر الشّيطان[٢].

وروى الحسن بن الحسن الدّيلمي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الملائكة يمرّون على حلق الذّكر فيقومون على رؤوسهم ويبكون لبكائهم ويؤمنون لدعائهم، فإذا صعدوا إلى السّماء يقول الله تعالى: يا ملائكتي أين كنتم؟ وهو أعلم، فيقولون: «يا ربّنا إنّا حضرنا مجلساً من مجالس الذكر فرأينا أقواماً يسبّحونك ويمجّدونك ويقدّسونك ويخافون نارك، فيقول الله سبحانه: يا ملائكتي أذودها عنهم وأشهدكم أنّي قد غفرت لهم وامنتهم ممّا يخافون»، فيقولون: ربّنا إنّ فيهم فلاناً وإنّه لم يذكرك فيقول تعالى: «قد غفرت له بمجالسته لهم»، الحديث.

وعنه أيضاً من ذكر الله في السّوق مخلصاً عند غفلة النّاس وشغلهم كتب الله له ألف حسنة ويغفر الله له يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر.

وفي «عدّة الدّاعي» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ موسى عليه السلام انطلق ينظر إلى أعمال العبّاد فأتى رجلاً من أعبد النّاس فلمّا أمسى حرّك الرّجل شجرة إلى جنبه فإذا فيها رمانتان قال فقال: يا عبد الله من أنت إنّك عبد صالح أنا هٰهنا منذ ما شاء الله ما أجد في هذه الشّجرة إلاّ رمّانة واحدة ولولا أنّك عبد صالح ما وجدت رمّانتين قال: أنا رجل أسكن أرض موسى بن عمران.

قال: فلمّا أصبح قال تعلم أحداً أعبد منك؟ قال: نعم فلان الفلاني، قال: فانطلق إليه فإذا هو أعبد منه كثيراً فلمّا أمسى أوتي برغيفين وماء فقال: يا عبد الله من أنت إنك عبد صالح أنا هٰهنا منذ ما شاء الله وما أوتي إلاّ برغيف واحد ولولا أنّك عبد صالح ما أوتيت برغيفين

(١) وسائل الشيعة: ٧/ ١٥٣ ح ٨٩٨١، وبحار الأنوار: ٧٢ج٤٦٨ ح ٢٠.

(٢) وسائل الشيعة: ٤/ ١٢٤٠، وبحار الأنوار: ٧٢/ ٤٦٨ ح ٢٠.

قال: أنا رجل أسكن أرض موسى بن عمران.

ثمّ قال موسى: هل تعلم أحداً أعبد منك؟ قال: نعم فلان الحداد في مدينة كذا وكذا، قال: فأتاه فنظر إلى رجل ليس بصاحب العبادة بل إنّما هو ذاكر لله تعالى وإذا دخل وقت الصّلاة قام فصلّى فلمّا أمسى نظر إلى غلّته فوجدها قد أضعفت قال: يا عبد الله من أنت إنّك عبد صالح أنا هٰهنا منذ ما شاء الله غلتي قرب بعضها من بعض واللّيلة قد أضعفت فمن أنت؟ قال: أنا رجل أسكن في أرض موسى بن عمران.

قال: فأخذ ثلث غلّته فتصّدق بها، وثلثاً أعطى مولىً له، وثلثاً اشترى له طعاماً فأكل هو وموسى، قال: فتبسّم موسى عليه السلام فقال: من أيّ شيء تبسّمت؟ قال: دلّني نبيّ بني إسرائيل على فلان فوجدته من أعبد الخلق فدلّني على فلان فوجدته أعبد منه فدلّني فلان عليك وزعم أنّك أعبد منه ولست أراك شبه القوم.

قال: أنا رجل مملوك أليس تراني ذاكر الله تعالى أوليس تراني أصلي الصّلاة لوقتها وإن أقبلت إلى الصّلاة أضررت بغلّة مولاي وأضررت بعمل النّاس أتريد أن تأتي بلادك؟ قال: نعم.

قال: فمرّت به سحابة فقال الحدّاد: يا سحابة تعالي، قال: فجاءت، قال: أين تريدين؟ فقالت: أريد كذا وكذا، قال: انصرفي ثمّ مرّت به أخرى قال: يا سحابة تعالي فجاءت فقال: أين تريدين؟ فقالت أريد أرض كذا وكذا، قال: انصرفي ثمّ مرت به أخرى قال: يا سحابة تعالي فجاءته فقال أين تريدين؟ قالت: أريد أرض موسى بن عمران قال: تعالي واحملي هذا حمل دقيق وضعيه في أرض موسى بن عمران وضعاً دقيقاً.

قال: فلمّا بلغ موسى عليه السلام بلاده قال: يا ربّ بما بلغت هذا ما أرى؟ قال تعالى: إنّ عبدي هذا يصبر على بلائي ويرضى بقضائي، ويشكر على نعمائي[١].

وفي «البحار» من تفسير الإمام عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الا فاذكروا يا أمّة محمّداً محمّداً وآله عند نوائبكم وشدائدكم لينصرنّ الله بهم ملائكتكم على الشّياطين الذين يقصدونكم، فإنّ كل واحد منكم معه ملك عن يمينه يكتب حسناته وملك عن يساره يكتب سيئاته، ومعه شيطانان من عند إبليس يغويانه».

فإذا وسوسا في قلبه ذكر الله وقال: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم وصلّى الله على محمّد وآله حبس الشّيطانان ثمّ صارا إلى إبليس فشكواه وقالا له: قد اعيانا أمره فامددنا بالمردة ولا يزال يمدّهما حتّى يمدّهما بألف مارد فيأتونه فكلّما راموه ذكر الله وصلّى على

(١) مستدرك الوسائل: ١٥/٤٨٦، وبحار الأنوار: ١٣/٣٤٧.

محمّد وآله الطّيّبين لم يجدوا عليه طريقاً ولا منفذاً».

قالوا لإبليس ليس له غيرك تباشره بجنودك فتغلبه فتغويه فيقصده إبليس بجنوده، فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: ﴿هذا إبليس قد قصد عبدي فلاناً أو أمتي فلانة بجنوده الا فقاتلو﴾، فيقاتلوه بإزاء كلّ شيطان رجيم منهم مائة ألف ملك وهم على أفراس من نار بأيديهم سيوف من نار ورماح من نار وقسي ونشاشيب[١] وسكاكين وأسحلتهم من نار.

فلا يزالون يجرحونهم ويقتلونهم بها ويأسرون إبليس فيضعون عليه تلك الأسلحة فيقول: يا ربّ وعدك وعدك قد أجلتني إلى يوم الوقت المعلوم، فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: وعدته أن لا أميته ولم أعده ان لا أسلّط عليه السّلاح والعذاب والآلام اشتقوا منه ضرباً بأسلحتكم فإنّي لا أميته فيسخنونه بألجراحات ثمّ يدعونه، فلا يزال سخين العين على نفسه وأولاده المقتولين المقتّلين ولا يندمل شيء من جراحاته، إلاّ بسماعه أصوات المشركين بكفرهم.

فإن بقي هذا المؤمن على طاعة الله وذكره والصّلاة على محمّد وآله بقي إبليس على تلك الجراحات، فإن زال العبد عن ذلك وانهمك في مخالفة الله عزّ وجلّ ومعاصيه اندملت جراحات إبليس ثمّ قوى على ذلك العبد حتّى يلجمه ويسرج على ظهره ويركبه ثمّ ينزل عنه ويركب ظهره شيطاناً من شياطينه ويقول لأصحابه أما تذكرون ما أصابنا من شأن هذا ذلّ وانقاد لنا الآن حتّى صار يركبه هذا.

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فإن أردتم أن تديموا على إبليس سخنة عينه وألم جراحاته فداوموا على طاعة الله وذكره والصّلاة على محمّد وآله، وإن زلتم عن ذلك كنتم أسراء إبليس فيركب أقفيتكم بعض مردته هذا، والله المستعان وبه الاعتصام في النّجاة من مكائد الشّيطان»[٢].

---

(١) نشاشيب جمع النشاشب وهو النبل.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٧٢، وتفسير الإمام العسكري: ٣٩٨.

الثالث

في تحقيق معنى الرجاء والخوف على في ما شرح البحراني أخذاً من «إحياء العلوم»

لأبي حامد الغزالي بتغيير وتصرف يسير

فاعلم أنّ الرّجاء من جملة مقامات السالكين وحالات الطالبين، وهو ارتياح النّفس لانتظار ما هو محبوب عندها فهو حالة لها فصدر عن علم وتقتضي عملاً.

بيان ذلك أن ما تتصوّره النّفس من محبوب أو مكروه فإمّا أن يكون موجوداً في الماضي أو في الحال أو يوجد في الاستقبال، والأوّل يسمى ذكراً وتذكيراً، والثّاني يسمى وجداً لأنّها حالة تجدها من نفسك، والثّالث وهو أن يغلب على ظنّك وجود شيء في الاستقبال لنفسك به تعلق يسمّى ذلك إنتظاراً وتوقعاً، فإن كان مكروهاً حدث منه في القلب تألم يسمّى خوفاً واشفاقاً، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به لذة للنفس وارتياح بأخطار وجوده بالبال يسمّى ذلك الارتياح رجاءً.

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب، فإن كان توقعه لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان إنتظاره مع العلم بإنتفاء أسبابه فإطلاق إسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن كانت الأسباب غير معلومة الوجود ولا معلومة العدم فاسم التمنّي أصدق على انتظاره.

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ أرباب القلوب والعرفان قد علموا أنّ الدّنيا مزرعة الآخرة، فالقلب كالأرض والبذر هو الإيمان والمعارف الإلهيّة وتأثر القلب بالمواعظ والنّصائح والاتيان بالطّاعات جار مجرى تقليب الأرض واصلاحها ومجرى سياق الماء إليها واعدادها للزراعة.

والقلب المستغرق بحب الدّنيا والميل إليها كالأرض الصلبة أو السبخة التي لا تقبل الزّرع والانبات ولا تنمو فيها البذر لصلب الأرض أو لمخالطة الأجزاء المحلية، ويوم القيامة يوم الحصاد ولا حصاد إلا من زرع، ولا زرع إلا من بذر وكما لا ينفع الزّرع في أرض صلبة سبخة كذلك لا ينفع إيمان مع حب القلب وقساوته وسوء الأخلاق.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد لمغفرة الله ورضوانه برجاء صاحب الزّرع وكما أن من طلب أرضاً طيّبة وقلبها وألقى فيها بذراً جيّداً غير متعفّن ولا مسوس ثمّ أمدّه بالماء العذب وسائر ما يحتاج إليه في أوقاته، ثمّ طهره عن مخالطة ما يمنع نباته من الشّوك والحشيش ونحوهما، ثمّ جلس منتظراً من فضل الله رفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتمّ الزّرع ويبلغ غايته كان ذلك رجاء في موضعه واستحق اسم الرجاء إذا كان في مظنة أن يفوز بمقصده من ذلك الزّرع.

ومن بذر في أرض كذلك إلاّ أنّه بذر في أخريات النّاس ولم يبادر إليه في أوّل الأوقات أو قصر في بعض أسبابه مع حصول غالب الأسباب، ثمّ أخذ ينتظر ثمرة ذلك الزّرع ويرجو الله سبحانه في سلامة له فهو من جملة الرّاجين أيضاً.

ومن لم يحصل بذراً أو بذر في أرض سبخة أو صلبة غير قابلة للإنبات، ثمّ أخذ ينتظر الحصاد فذلك الانتظار حمق فكان اسم الرجاء إنّما يصدق على انتظار ما حصل جميع أسبابه أو غالبها الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلاّ مالا يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف المضّار والمفسدات.

كذلك حال العبد إن بذر المعارف الإلهية في قلبه في وقته وهو أنف البلوغ ومبدأ التكليف ودام على سقيه بماء الطاعات واجتهد في تطهير نفسه عن شوك الأخلاق الردية التي تمنع نماء العلم وزيادة الإيمان وانتظر من فضل الله أن يثبته على ذلك إلى زمان وصوله وحصاد عمله فذلك الانتظار هو الرجاء الحقيقي المحمود وهو درجة السّابقين.

وإن ألقى بذر الإيمان في نفسه لكنه قصر في بعض الأسباب إما بتأخير في البذر أو تسامح في السقي في الجملة ثمّ أخذ ينتظر وقت الحصاد ويتوقع من فضل الله تعالى أن يبارك له ويعتمد عليه على أنه الرّزاق ذو القوة المتين فيصدق عليه أنه راج أيضاً لحصول أكثر الأسباب.

وأما من لم يزرع من قواعد الإيمان في قلبه شيئاً أو زرع ولم يسقه بماء الطاعة أو لم يطهر نفسه من رزائل الأخلاق واشتغل بالسّيئات أو انهمك في الشهوات ثمّ انتظر المغفرة والفضل من الله فانتظاره حمق وغرور.

قال سبحانه: ﴿خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة»[1]، قال الشّاعر:

إذا أنت لم تزرع وعاينت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر

فأعظم الحمق والاغترار التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنّة ببذر النّار وطلب دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمني على الله مع الإفراط والتجري.

ترجو النّجاة ولم تسلك مسالكها إن السّفينة لا تجري على اليبس

---

(١) الإيضاح: ١١٦، وميزان الحكمة: ٢/ ٨٩٠ ح ١٢١١.

الترجمة

و بدانید ای مردمان که عبور شما بر صراط است و بر محل های لغزش او است و خوف های لغزیدن او است و هول های مکرر او است، پس بپرهیزید از خدا همچو پرهیز نمودن شخصی که مشغول نماید تفکر در معارف حقه قلب او را و بر تعب اندازد ترس خدا بدن او را و بیدار گردانیده باشد عبادت شب خواب اندك او را و تشنه ساخته باشد رجاء به خدا روزهای گرم او را.

مانع شده باشد زهد از شهوت آن و سرعت نماید ذکر به زبان آن و مقدم بدارد خوف را به جهت امن از عقوبت و کناره جوئی کند از چیزهایی که شاغل است از راه روشن هدایت و سلوك نماید در اعدل راه ها به سوی منهج مطلوب که عبارت است از ثواب و جزاء مرغوب و صارف نشود صوارف نخوت و غرور و پوشیده نشود بر او مشتبهات امور در حالتی که فایز است به شادی بشارت و راحت نعمت در آسوده ترین خواب و ایمن ترین وقت.

به تحقیق که گذشته باشد از گذرگاه دنیا در حالتی که پسندیده است و مقدم داشته باشد توشه آخرت را در حالتی که سعید است و شتافته است به عمل خیر از ترس خداوندگار و سرعت نموده است به کردار خوب در مهلت روزگار و رغبت نموده در طلب خشنودی و رضای پروردگار و در رفته از باطل به جهت خوف از کردگار و ملاحظه کرده در دنیای خود آخرت خود را و نظر کرده در اول امر خود پیش روی خود را.

پس کفایت است بهشت از حیثیت عطا و ثواب و کافی است جهنم از حیثیت عذاب و وبال و کافی است خداوند در حالتی که انتقام کشنده است و یاری کننده و کافی است کتاب خدا در حالتی که حجت آرنده است و خصومت کننده.

وصیت می کنم شما را به پرهیزکاری خدا، آن خدائی که عذر را زایل نمود از خود با آنچه که ترسانید خلایق را به آن از انواع عقوبات و اقامه حجت نمود بر ایشان با آنچه که روشن نمود از براهین و بینات و ترسانیده شما را از دشمنی که نفوذ کرد و روان شد در سینه ها در حالتی که پنهان است از نظر و دمید در گوش

ها در حالتی که نجوی کننده است به سر، پس گمراه کرد تابع خود را و به هلاکت انداخت و وعده کرد مطیع خود را.

پس آرزومند نمود و زینت داد بدی های جرم ها را در نظر او و آسان کرد مهلکات معصیت ها را در نزد او تا آنکه چون خدعه نمود قرین و همنشین خود را و به غلق انداخت و فروبست رهین خود را، انکار کرد آن چیزی را که زینت داده بود در نظر او و بزرگ شمرد آن چیز را که آسان کرده بود در نزد او و ترسانید از آن چیزی که ایمن کرده بود او را از آن.

و مقصود از همه این، تحذیر است از مکاید شیطان لعین و از تدلیسات آن عدوّ مبین که انسان را به ارتکاب معاصی جری می کند و بعد از ارتکاب از او تبرّی می نماید.

غافل مشو که مرکب مردمان راه را   در سنگلاخ وسوسه پی ها بریده اند

الفصل السابع منها في صفة خلق الإنسان

«أَمْ هٰذَا الَّذي أَنْشَأَهُ في ظُلُماتِ الأَرْحَام وشُغُفِ الأَسْتَارِ نُطْفَةً دهاقاً، وعَلَقَةً مُحاقاً، وجَنيناً وراضِعاً، ووَليداً ويافِعاً، ثُمْ مَنَحَهُ قَلْباً حافِظاً، ولِساناً لافِظاً، وبَصَراً لاحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، ويَقْصِرَ مُزْدَجِراً حَتّى إذا قامَ اعْتِدَالُهُ، واسْتَوىٰ مِثالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً، وخَبَطَ سادِراً ماتِحاً في غَرْبِ هَواهُ، كادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ، في لَذَاتِ طَرَبِهِ، وبَدَوَاتِ أَرَبِهِ، لاَ يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، ولا يَخْشَعُ تَقِيَّةً، فَماتَ في فَتْنَتِهِ غَريراً، وعاشَ في هَفْوَتِهِ يَسيراً، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً، دَهِمَتْهُ فَجَعاتُ الْمَنِيَّةِ في غُبَّرِ جِماحِهِ، وسَنَنِ مِراحِه، فَظَلَّ سادِراً، وباتَ ساهِراً، في غَمَراتِ الآلاَم، وطَوارِقِ الأَوْجَاعِ والأَسْقَام، بَينَ أَخ شَقيقٍ، ووالِدٍ شَفيقٍ، وداعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً، ولا دِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً، وَالْمَرْءُ في سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ، وغَمْرَةٍ كارِثَةٍ، وأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ، وجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ، وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ، ثُمَّ أُدْرِجَ في أَكْفَانِهِ مُبْلِساً، وجُذِبَ مُنْقاداً سَلِساً، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الأَعْوادِ رَجيعَ وَصَبٍ، ونِضْوَ سَقَم، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلدانِ، وَحَشَدَةُ الإِخْوَانِ، إِلىٰ دَارِ غُرْبَتِهِ، ومُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ، حَتّىٰ إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ، ورَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ في حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤالِ، وعَثْرَةِ الإِمْتِحَانِ، وأَعْظَمُ ما هُنالِكَ بَلِيَّةً نُزُلُ الْحَمِيمِ، وتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ، وفَوْرَاتُ السَّعيرِ، وسَوْرَاتُ الزَّفيرِ، لا فَتْرَةٌ مُريحَةٌ، وَلا دَعَةٌ مُزيحَةٌ، وَلاَ قُوَّةٌ حاجِزَةٌ، ولا مَوْتَةٌ ناجِزَةٌ، ولا سِنَةٌ مُسْلِيَةٌ، بَينَ أَطْوارِ الْمَوْتَاتِ، وعَذَابِ السّاعاتِ، إِنّا بِاللَّهِ عائِذُونَ»[1].

اللغة

(**الشّغف**) بضمتين جمع شغاف كسحاب وهو غلاف القلب و(**الدّهاق**) (**بالدال**) المهملة من دهق الماء أفرغه إفراغاً شديداً، وفي بعض النّسخ دفاقاً من دفق الماء دفقاً من باب قتل انصب لشدة ويقال أيضاً دفقت الماء أي صببته يتعدى فهو دافق ومدفوق، وأنكر الأصمعي استعماله لازماً قال: وأمّا قوله تعالى من ماء دافق فهو على أسلوب أهل الحجاز وهو أنّهم يحوّلون المفعول فاعلاً إذا كان في موضع نعت والمعنى من ماء مدفوق، وقال ابن القوطبة ما يوافقه سرّ كاتم أي مكتوم وعارف أي معروف وعاصم أي معصوم.

و(**المحاق**) بضم (**الميم**) والكسر لغة قال الفيومي: محقه محقاً من باب نفع نقصه وأذهب منه بركة، وقيل هو ذهاب الشيء كله حتى لا يرى له أثر منه ويمحق الله الربا وانمحق الهلال الثلاث ليال في آخر الشهر لا يكاد يرى لخفائه والاسم المحاق بالضم والكسر لغة.

(١) تفسير نور الثقلين: ٥/ ٢٣٠ ح ١١٦.

وفي «القاموس» المحاق مثلثة آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره أو أن يستتر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية سمي به لأنه طلع مع الشمس فمحقته.

وغلام (**يافع**) ويفع ويفعة مرتفع و(**السادر**) المتحير والذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع و(**الماتح**) الذي يستسق الماء من البئر وهو على رأسها والمائح الذي نزل البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلاء فالفرق بين المعنيين كالفرق بين النقطتين و(**الغرب**) الدلو العظيم و(**كدح**) في العمل من باب منع سعى و(**بدا**) بدوا وبدوّاً وبداء وبدوء وبداوة ظهر، وبداوة الشيء أول ما يبدو منه؛ وباديء الرأي ظاهره، وبدا له في الأمر بدواً وبداءةً نشأ له فيه رأي وهو ذو بدوات.

قال الفيومي و(**الأرب**) بفتحتين والأربة بالكسر والمأربة بفتح الراء وضمها الحاجة، والجمع المآرب، والأرب في الأصل مصدر من باب تعب يقال أرب الرّجل إلى الشيء إذا احتاج إليه فهو أرب على فاعل و(**دهمه**) الشيء من باب سمع ومنع غشيه و(**غبر**) الشيء بضم (**الغين**) وتشديد (**الباء**) بقاياه جمع غابر كركّع وراكع و(**جمح**) الفرس جمحا وجماحاً بالكسر اغتر فارسه وغلبه وجمح الرّجل ركب هواه و(**سنن**) الطريق مثلثة وبضمتين نهجه وجهته و(**مرح**) مرحاً من باب فرح نشط وتبختر والمراح ككتاب اسم منه.

و(**غمرة**) الشيء شدته ومزدحمه والجمع غمرات وغمار و(**لهث**) لهثاً من باب سمع ولهاثاً بالضم أخرج لسانه عطشاً وتعباً أو إعياء، وفي بعض النسخ وسكرة ملهية (**بالياء**) أي مشغلة و(**كرثه**) الغم يكرثه من باب نصر أشدّ عليه وبلغ المشقّة وهو كريث الأمر إذا ضعف وجبن و(**أنّ**) المريض إنا إذا تأوه و(**أبلس**) يئس وتحير ومنه سمى إبليس وناقة (**رجع**) سفر ورجيع سفر قد رجع فيه مراراً و(**الوصب**) محرّكة المرض والوجع.

و(**النضو**) بالكسر المهزول من الإبل وغيره و(**السّقم**) كالجبل المرض و(**الحشدة**) جمع حاشد من حشدت القوم من باب قتل وضرب وحشد القوم يعدي ولا يعدي إذا دعوا فأجابوا مسرعين أو اجتمعوا لأمر واحد وحفوا في التعاون و(**البهت**) بالفتح الأخذ بغتة والتحير والانقطاع و(**النزل**) بضمتين طعام النزيل الذي يهيؤ له قال سبحانه: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝٥٦﴾ [الواقعة: ٥٦].

و(**الحميم**) الماء الحار و(**تصلية**) النار تسخينها و(**السورة**) الحدة والشدة و(**زفر**) النّار تسمع لتوقدها صوت و(**الدعة**) السعة في العيش والسكون و(**الإزاحة**) الإزالة.

الإعراب

اختلف الشراح في كلمة (**أم**) في قوله (**أم هذا الذي أنشأه**)، ففي شرح المعتزلي (**أم**) هٰهنا إما استفهامية على حقيقتها كأنه قال: أعظكم واذكركم بحال الشيطان وإغوائه أم بحال

الإنسان منذ ابتداء وجوده إلى حين مماته، وإما أن تكون منقطعة بمعنى بل كأنه قال عادلاً وتاركاً لما وعظهم به بل أتلو عليهم نبأ هذا الإنسان الذي حاله كذا وكذا.

وفي شرح البحراني (**أم**) للاستفهام وهو استفهام في معرض التقريع للإنسان وأمره باعتبار حال نفسه ودلالة خلقته على جزئيات نعم الله عليه مع كفرانه لها وكأن (**أم**) معادلة لهمزة الاستفهام قبلها، والتقدير أليس فيما أظهره الله لكم من عجائب مصنوعاته عبرة أم هذا الإنسان وتقلبه في أطوار خلقته وحالته إلى يوم نشوره.

أقول: لا يخفى ما في ما ذكره من الاغلاق والابهام بل عدم خلوه من الفساد، إذ لم يفهم من كلامه أن (**أم**) متصلة أم منفصلة، فان قوله: (**أم**) للإستفهام مع قوله: وكأن (**أم**) معادلة لهمزة الاستفهام يفيد كون (**أم**) متصلة إلاّ أنه ينافيه قوله هو استفهام في معرض التّقريع لأنّ (**أم**) المتّصلة لا بدّ أن تقع بعد همزة التسوية ونحو قوله تعالى:

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: ٦].

أو بعد همزة الاستفهام الّتي يطلب بها (**وبأم**) التعيين مثل أزيد عندك (**أم**) عمرو، ولا بد أن يكون الاستفهام على حقيقة لتكون معادلة لها في افادة الاستفهام كمعادلتها لهمزة التسوية في إفادة التّسوية ولذلك أيضاً سمّيت متّصلة لاتصالها بالهمزة حتّى صارتا في إفادة الاستفهام بمنزلة كلمة واحدة، ألا ترى أنهما جميعاً بمعنى (**أي**) وينافيه أيضاً قوله والتقدير أليس فيما أظهره (**آه**) بظهوره في كون الاستفهام للانكار التوبيخي وإن جعل (**أم**) منفصلة فلا يحتاج إلى المعادل الذي ذكره، فالأولى ما ذكره الشارح المعتزلي وإن كان هو أيضاً لا يخلو عن شيء.

والتحقيق عندي هو أن (**أم**) يجوز جعلها متّصلة مسبوقة بهمزة الاستفهام أي أذكركم وأعظكم بما ذكرته وشرحته لكم أم أذكركم بهذا الذي حاله كذا وكذا، ويجوز جعلها منفصلة مسبوقة بالهمزة للاستفهام الانكاري الإبطالي، والتقدير أليس فيما ذكرته تذكرة للمتذكر وتبصرة للمتبصر، بل في هذا الإنسان الذي حاله فلان فيكون من قبيل قوله سبحانه:

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وهذا كلّه مبني على عدم كون الخطبة ملتقطة وأن لا يكون قبل قوله عليه السلام أم هذا (**آه**)، حذف وإسقاط من السّيد، وإلا فمعرفة حال (**أم**) موقوفة على الاطلاع والعثور بتمام الخطبة، هذا.

والمنصوبات الاثنان والعشرون أعني (**نطفة وعلقة وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً ومعتبراً ومزدجراً ومستكبراً وسادراً وماتحاً وكادحاً ولا يحسب ولا يخشع وغريراً ومبلساً ومنقاداً وسلساً ورجيع وصب ونضو سقم ونجياً**)، كلّها أحوال، والعامل في كلّ حال ما قبله من الأفعال.

(وسعياً) مصدر بغير لفظ عامله من قبيل **(أفنضرب عنكم الذكر صفحاً)**، وفي لذّات طربه متعلّق بقوله كادحاً، ويحتمل الحاليّة، وتقيّة مفعول لأجله، **(ويسيراً)** صفة للظرف المحذوف بقرينة المقام أي زماناً يسيراً، **(وجزعاً وقلقاً)** منصوبان على المفعول له.

المعنى

إعلم أنه لما وعظ المخاطبين بالحكم والمواعظ الحسنة عقب ذلك وأكده بذكر حال الإنسان وما أنعم الله به عليه من النعم الظاهرة والباطنة بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً حتّى أنه إذا كبر وبلغ أشده نفر واستكبر ولم يأت ما أمر ولم ينته عما ازدجر ثم أدركه الموت في حال عتوّه وغروره فصار في محلة الأموات رهين أعماله مأخوذاً بأفعاله مبتلاً بشدائد البرزخ وأهواله كما قال عليه السلام.

(أم هذا الذي أنشأه) الله سبحانه بقدرته الكاملة وحكمته التامة الجامعة **(في ظلمات الأرحام وشغف الأستار)** العطف كالتفسير، والمراد بالظلمات هي ما أشيرت إليها في قوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]، وهي إما ظلمة البطن والرحم والمشيمة أو الصلب والرحم والبطن والأوّل رواه الطبرسي عن أبي جعفر عليه السلام (نطفة دهاقاً) أي مفرغة إفراغاً شديداً **(وعلقة محاقاً)** أي ناقصة لم تتصور بعد بصورة الإنسانية في الاتيان بهذه الأوصاف تحقيراً للإنسان كما أومى إليه بالإشارة **(وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً)** رهذه الأوصاف الأربعة كسابقيها مسوقة على الترتب الطبيعي المشار إليه بقوله سبحانه:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤].

فإنّه سبحانه قد خلق الإنسان أولاً عناصر ثمّ مركبات يغذي الإنسان ثمّ أخلاطاً ثمّ نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظاماً ولحوماً كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

ثمّ إنّه ما دام في الرّحم يسمى جنينا كما قال: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وبعد ولادته يكون راضعاً يرضع أمّه أي يمتص ثديها، ثم يكون وليداً أي فطيماً فإذا ارتفع قيل يافع.

قال في «سر الأدب» في ترتيب أحوال الإنسان: هو ما دام في الرحم جنين فإذا ولد فوليد: ثمّ ما دام يرضع فرضيع، ثمّ إذا قطع منه اللّبن فهو فطيم، ثمّ إذا دب ونمى فهو دارج،

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي، فإذا سقطت رواضعه فهو مشغور، فإذا نبتت أسنانه بعد السّقوط فهو مثغر، فإذا تجاوز العشر أو جاوزها فهو مترعرع وناشىء، فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق، فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو حزّ، واسمه في جميع هذه الأحوال غلام فإذا اخضر شاربه قيل قد بقل وجهه، فإذا صارفتاة فهو فتى وشارح، فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه فهو مجتمع، ثمّ ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شابّ، ثمّ هو كهل إلى أن يستوفي الستين وقيل إذا جاوز أربعاً وثلاثين إلى إحدى وخمسين، فإذا جاوزها فهو شيخ.

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى شرح قوله عليه السلام (ثمّ منحه قلباً حافظاً ولساناً لافظاً وبصراً لاحظاً) أي أعطاه عقلاً ونطقاً ونظراً ومنحه ذلك ومنَّ عليه بذلك (**ليفهم معتبراً ويقصر مزدجراً**) أي ليعتبر بحال الماضين وما نزل بساحة العاصين وينتهي عما يفضيه إلى أليم النّكال وشديد الوبال، وليفهم دلائل الصنع والقدرة ويستدل بشواهد الربوبية على وجوب الطاعة والانتهاء عن المعصية فينزجر عن الخلاف والعصيان ويتخلص عن الخيبة والخسران.

(**حتّى إذا قام اعتداله**) بالتناسب والاستقامة والتوسط بين الحالين في كم أو كيف أي تمّ خلقته وصورته وتناسب أعضاؤه وخلت عن الزّيادة والنّقصان، وكمل قواه المحتاج إليها (**واستوى مثاله**) أي اعتدل مقداره وصفته، ويقال استوى الرجل إذا بلغ أشده أي قوته وهو ما بين ثمانية عشر إلى ثلاثين (**نفر**) وفرعن امتثال الأحكام الشّرعيّة والتّكاليف الإلهيّة (**مستكبراً**) ومتعنّتاً (**وخبط**) أي سلك وسار على غير هداية (**سادراً**) لا يبالي ما صنع (**ما تحافي غرب هواه**) شبّه الهوا بالغرب لأن ذي الغرب إنما يستسقي بغرب الماء ليروي غلله وكذلك صاحب الهوى يجلب بهواه ما تشتهيه نفسه وتلتذ به وتروي به غليل صدره وذكر المتح ترشيح للتشبيه.

وأما ما قاله البحراني من أنه استعار الغرب لهواه الذي يملأ به صحائف أعماله من المآثم كما يملأ ذو الغرب غربه من الماء ورشح تلك الاستعارة بذكر المتح فليس بشيء، أمّا أوّلاً: فلأنّ طرفي التشبيه مذكور في كلامه عليه السلام فكيف يكون استعارة بل هو تشبيه بليغ، وأمّا ثانياً: فلأنّ الهوى الذي يكون سبباً لملأ صحائف الأعمال لا ربط له بالغرب الذي يملأ فيه الماء إذ المملوّ بالماء هو الغرب والمملو بالمآثم هو الصحائف لا الهوا نفسه، وكذلك لا مناسبة بين الإثم والماء والوجه ما ذكرناه، فافهم جيّداً.

وقوله: (**كادحاً سعياً لدنياه**) أي كان سعيه وهمته من جميع جهاته مقصورة في دنياه غير مراقب بوجه لآخرته (**في لذات طربه وبدوات إربه**) أي حاجته التي تبدو له وتظهر وتختلف فيها آرائه ودواعيه (**لا يحتسب رزية ولا يخشع تقيّة**) يعني لم يكن يظن أن تنزل عليه مصيبة ولم يكن يخشع ويخاف من الله لأجل تقيّة وذلك من فرط اغتراره بالدّنيا وشدّة تماديه في الشّهوات.

(فمات في فتنته) أي في ضلالته **(غريراً)** ومغروراً **(وعاش في هفوته)** وزلته زماناً **(يسيراً)** قليلاً **(لم يفد عوضاً ولم يقض مفترضاً)** أي لم يستفد ولم يكتسب من الكمالات والخيرات عوضاً ممّا أنعم الله سبحانه به عليه، ولم يأت شيئاً من الطاعات والتكاليف التي فرض الله تعالى عليه.

(دهمته فجعات المنية في غبر جماحه وسنن مراحه) يعني فاجأته دواهي الموت في بقايا ركوبه هواه وفي طرق نشاطه **(فظل سادراً)** متحيراً **(وبات ساهراً في غمرات الآلام)** وشدائدها **(وطوارق الأوجاع والأسقام)** ونوازلها **(بين أخ شقيق)** عطوف **(ووالد شفيق)** رؤوف وشقّ الشيء وشقيقه هو نصفه.

وتوصيف الأخ بالشّقيق لكونه كالشق منه وبمنزلة جزء بدنه وقلبه **(وداعية بالويل جزعاً)** من النّساء والأماء **(ولا دمة للصدر قلقاً)** من البنات والأمهات وهذا كلّه تشريح لحال أهل الميّت فإنّه، إذا يئس عنه الطّبيب وأبلس الحبيب فهنالك خفّ عنه عوّاده وأسلمه أهله وأولاده، فشقت جيوبها نساؤه، ولطمت صدورها اماؤه، واعول لفقده جيرانه، وتوجع لرزيته إخوانه؛ وغضّوا بأيديهم عينيه، ومدّوا عند خروج نفسه يديه ورجليه.

فكم موجع يبكي عليه تفجعاً ومستنجداً صبراً وما هو صابر
ومسترجع داعٍ له الله مخلصاً يعدّ ومنه خير ما هو ذاكر
وكم شامتٍ مستبشرٍ بوفاته وعما قليل كالذي صار صائر

هذا حالهم، وأمّا حال الميّت فقد أشار إليه بقوله **(والمرء في سكرة ملهثة)** يولك لسانه ويخرجه تعباً وعطشاً **(وغمرة كارثة)** أي شدّة بلغ الغاية من المشقّة.

روى في «الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الله بن المغيرة عن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الميّت إذا حضره الموت أوثقه ملك الموت ولولا ذلك استقر[1] **(وأنّة موجعة)** أي تأوه موجب لوجع الحاضرين والسّامعين **(وجذبة مكربة وسوقة متعبة)** والمراد بهما جذب الملائكة للرّوح وسوقهم له إلى خارج البدن كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢-٩٣].

قال الطّبرسي: أي في شدائد الموت عند النّزع والملائكة الذين يقبضون الأرواح باسطو أيديهم لقبض أرواحهم يقولون أخرجوا أنفسكم من أجسادكم عند معاينة الموت ازهاقاً لهم وتغليظاً عليهم وإن كان إخراجها من فعل غيرهم.

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٥ ح ٢، وبحار الأنوار: ٦/ ١٦٦ ح ٣٧.

وقال الشّارح البحراني: اعلم أنّ تلك الجذبة تعود إلى ما يجده الميّت حال النّزع وهو عبارة عن ألم ينزل بنفس الرّوح يستغرق جميع أجزائه المنتشرة في أعماق البدن وليس هو كسائر ما يجده الرّوح المختص ببعض الأعضاء كعضو شاكته شوكة ونحوها، لاختصاص ذلك بموضع واحد فألم النّزع يهجم على نفس الرّوح ويستغرق جميع أجزائه وهو المجذوب من كلّ عرق وعصب وجزء من الأجزاء ومن أصل كلّ شعرة وبشرة لا تسألن عن بدن يجذب منه كلّ عرق من عروقه، وقد يمثّل ذلك بشجرة شوك كانت داخل البدن ثمّ جذبت منه فهي الجذبة المكربة، ولمّا كان موت كلّ عضو عقيب الأمراض التي ربّما طالت تدريجاً فتلك هي السّوقة المتعبة (**ثمّ أدرج في أكفانه مبلساً**) أي آيساً أو حزيناً (**وجذب**) من وطنه إلى الخارج (**منقاداً سلساً**) أي سهلاً ليّناً (**ثمّ ألقي على الأعواد**) أي الأسرّة حال كونه (**رجيع وصب ونضو سقم**) يعني أنّه من جهة إبتلائه بتارات الأمراض وتردّده في أطوار الأتعاب والأوصاب صار كالإبل الرّجيع الذي يردد في الأسفار مرّة بعد أخرى ولأجل نحول جسمه من الأسقام كان كالجمل النّضو الذي يهزل من كثرة الأحمال والأثقال (**تحمله حفدة الولدان وحشدة الإخوان**) يعني أنّه بعد الفراغ من تغسيله وتكفينه وحمله على سريره أقبلوا على جهازه وشمروا لإبرازه وحمله أعوانه وولدانه وأحباؤه واخوانه.

فظل احبّ القوم كان لقربه يحث على تجهيزه ويبادر
وشمر من قد احضروه لغسله ووجه لما فاظ[1] للقبر حافر
وكفّن في ثوبين فاجتمعت له مشيّعة إخوانه والعشائر

ثمّ أخرج من بين صحبته (**إلى دار غربته و**) من محلّ عزته إلى (**منقطع زورته**) ومن سعة قصره إلى ضيق قبره فحثّوا بأيديهم التراب وأكثروا التلدد والإنتحاب، ووقفوا ساعة عليه وقد يئسوا من النّظر إليه، ثمّ رجعوا عنه معولين، وولّوا مدبرين (**حتّى إذا انصرف المشيع ورجع المتفجّع**) انتبه من نومته وأفاق من غشيته و(**أقعد في حفرته نجياً لبهتة السّؤال**) ودهشته (**وعثرة الامتحان**) وزلّته.

ولعلّ المراد به أنّه يقعد في قبره مناجياً للمنكر والنكير أي مخاطباً ومجاوباً لهما سرّاً لعدم قدرته على الإعلان من أجل الدّهشة والحيرة العارضة له من سؤالهما والعثرة التي ظهرت منه بسبب اختيارهما، أو المراد أنّه يناجي ربّه في تلك الحال من هول الامتحان والسؤال ويقول ربّ ارجعون لعليّ اعمل صالحاً (**واعظم ما هنالك بليّة**) وابتلاء (**نزل الحميم وتصلية الجحيم**) كما قال تعالى:

---

(١) فاظ الرجل: أي مات، م.

﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ٥٦ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٥-٥٧] وفي سورة النّبأ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥].

قال بعض المفسرين: إنّ **(الغسّاق)** عين في جهنم يسيل إليها سمّ كلّ ذات حمة من حية وعقرب، وقيل هو ما يسيل من دموعهم يسقونه من الحميم، وقيل هو القيح الذي يسيل منهم يجمع ويسقونه، وقيل إنّ الحميم الماء الحارّ الذي انتهت حرارته **(والغسّاق)** الماء البارد الذي انتهت برودته فهذا يحرق ببرده وذاك يحرق بحرّه.

وقال الطّريحي: الحميم الماء الحارّ الشّديد الحرارة يسقى منه أهل النار أو يصبّ على أبدانهم، وعن ابن عبّاس لو سقطت منه نقطة على جبال الدّنيا لأذابتها، وكيف كان فقوله عليه السلام مأخوذ من الآية الشّريفة في سورة الواقعة قال سبحانه:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

وأمّا قوله: **(وفورات السّعير)** فأراد به شدّة غليان نار الجحيم ولهبها، وكذلك أراد بقوله **(وسورات الزّفير)** شدّة صوت توقد النّار **(لا فترة مريحة)** لهم من العذاب **(ولا دعة مزيحة)** عنهم العقاب كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥].

(ولا قوة حاجزة) تمنعه عن النّكال **(ولا موتة ناجزة)** أي عاجلة تريحه من ألم الوبال إذ الموت ربّما يكون نعمة ويعده الإنسان راحة كما قال مجنون العامري ونعم ما قال:

فــلا مــلــك الــمــوت الــمــريــح يــريــحــنــي

(ولا سنة مسلية) لهمّه ونومة منسية لغمّه وفي الحديث: إنّ الله ألقى على عباده السّلوة بعد المصيبة لولا ذلك لانقطع النّسل **(بين أطوار الموتات وعذاب السّاعات)** أراد بالموتات الآلام الشّديدة والمشاق العظيمة مجازاً فلا ينافي قوله عليه الصّلاة والسّلام: «ولا موتة ناجزة»، فإنّ المراد به الحقيقة **(انا بالله عائذون)** أي ملتجئون من شرّ المال وسوء الحال؛ وقد راعى في أكثر فقرات هذا الفصل السّجع المتوازي، هذا.

وينبغي تذييل المقام بأمور مهمة

الأول

في تحقيق بدو خلق الإنسان فأقول

قال سبحانه في سورة المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وهذه الآية الشّريفة أجمع الآيات لأَدوار الخلقة وأشملها لمراتب الفطرة، وهذه المراتب على ما أشيرت إليها فيها سبع.

المرتبة الأولى: ما أشار إليه بقوله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢].

أي من خلاصة من طين وهو مبدأ نشو الآدمي لتولد النطفة منها، وذلك لأَنّ النطفة إنّما تتولّد من فضل الهضم الرّابع، وهو إنّما يتولّد من الأَغذية، وهي إمّا حيوانية وإمّا نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية والنّبات إنّما يتولّد من صفو الأَرض والماء، فالإنسان بالحقيقة يكون متولّداً من سلالة من طين.

المرتبة الثانية: أنّ السلالة بعدما تواردت عليها أدوار الفطرة تكون نطفة في أصلاب الآباء فتقذف بالجماع إلى أرحام النّساء التي هي قرار مكين لها وإليه أشار سبحانه بقوله:

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٦-٧].

المرتبة الثالثة: أنّ النّطفة بعد ما استقرت في الرّحم أربعين يوماً تصير علقة وهي الدّم الجامد.

المرتبة الرّابعة: أنّ العلقة بعدما مكثت في الرّحم أربعين يوماً أيضاً تصير مضغة أي قطعة لحم حمراء كأنّها مقدار ما يمضغ.

المرتبة الخامسة: أنّ المضغة تمكث فيه أربعين ثالثة ويجعلها الله صلباً فتكون عظاماً.

المرتبة السّادسة: ما أشار إليه بقوله: فكسونا العظام لحماً أي ممّا بقي من المضغة أو ممّا أنبته عليها ممّا يصل إليها وإنّما جعل اللحم كسوة لستره العظم كما يستر اللّباس البدن.

المرتبة السابعة: ما أشار إليه بقوله: (**ثمّ أنشأناه خلقاً آخر**) أي خلقاً متبايناً للخلق الأوّل

بإضافة الرّوح إليه مبايناً ما أبعدها، وذلك بعد تمام ثلاثة أربعين أي كمال أربعة أشهر فكان حيواناً بعد ما كان جماداً، وحيّاً بعد ما كان ميتاً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم؛ وبصيراً وكان أعمى، وأودع باطنه وظاهره بل كلّ عضو من أعضائه عجائب صنعته وبدائع حكمته التي لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشّارحين، فتبارك الله أحسن الخالقين، هذا.

وروى الصّدوق (ره) في «الفقيه» عن محمّد بن عليّ الكوفيّ، عن إسماعيل بن مهران، عن مرازم، عن جابر بن يزيد، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا وقع الولد في جوف أمّه صار وجهه قِبَلَ ظهر أمّه إن كان ذكراً، وإن كان أنثى صار وجهها قبل بطن أمّها ويداها على وجنتيها وذقنها على ركبتيها كهيئة الحزين المهموم، فهو كالمصرور منوط بمعاء من سرّته إلى سرّة أمّه، فبتلك السرّة يغتذي من طعام أمّه وشرابها إلى الوقت المقدّر لولادته، فيبعث الله عزّ وجلّ ملكاً إليه فيكتب على جبهته: شقيّ أو سعيد، مؤمن أو كافر غنيّ أو فقير، ويكتب أجله ورزقه وسقمه وصحّته.

فإذا انقطع الرّزق المقدّر له من سرّة أمّه زجره الملك زجرة فانقلب فزعاً من الزّجرة وصار رأسه قبل الفرج، فإذا وقع إلى الأرض وقع إلى هول عظيم وعذاب أليم إن أصابته ريح أو مشقّة أو مسّته يد وجد لذلك من الألم ما يجد المسلوخ عنه جلده.

يجوع فلا يقدر على الاستطعام، ويعطش فلا يقدر على الاستسقاء، ويتوجّع فلا يقدر على الاستغاثة، فيوكّل الله تبارك وتعالى برحمته والشّفقة عليه والمحبّة له أمّه فتقيه الحرّ والبرد بنفسها، وتكاد تفديه بروحها، وتصير من التّعطف عليه بحال لا تبالي أن تجوع إذا شبع وتعطش إذا روى، وتعرى إذا كسى.

وجعل الله تعالى ذكره رزقه في ثدي أمّه في إحداهما شرابه وفي الأخرى طعامه، حتّى إذا رضع أتاه الله عزّ وجلّ في كلّ يوم بما قدر له فيه من رزق، فإذا أدرك فهمّه الأهل والمال والشّره والحرص، ثمّ هو مع ذلك معرض الآفات والعاهات والبليّات من كلّ وجه، والملائكة ترشده وتهديه، والشّياطين تضلّه وتغويه، فهو هالك إلاّ أن ينجيه الله عزّ وجلّ»، وقد ذكر الله تعالى ذكره نسبة الإنسان في محكم كتابه فقال عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

قال جابر بن عبد الله الأنصاري: فقلت: يا رسول الله هذه حالنا فكيف حالك وحال

الأَوصياء بعدك في الولادة؟ فسكت رسول الله ﷺ مليّاً ثمّ قال: «يا جابر لقد سألت عن أمر جسيم لا يحتمله إلاّ ذو حظ عظيم، إن الأَنبياء والأَوصياء مخلوقون من نور عظمة الله عزّ وجلّ ثناؤه يودع الله أنوارهم أصلاباً طيّبة وأرحاماً طاهرة يحفظها بملائكته ويربّيها بحكمته ويغذوها بعلمه، فأمرهم يجلّ عن أن يوصف، وأحوالهم تدّق عن أن تعلم، لأنّهم نجوم الله في أرضه، وأعلامه في بريته، وخلفاؤه على عباده، وأنواره في بلاده، وحججه على خلقه، يا جابر هذا من مكنون العلم ومخزونه فاكتمه إلاّ من أهله»[١].

وفي توحيد المفضّل عن الصّادق عليه السلام قال: وسنبتدأ يا مفضّل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأوّل ذلك ما يدبّر به الجنين في الرّحم وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرّحم، وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرّة، فإنّه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النّبات فلا يزال ذلك غذاه.

حتّى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه على مباشرة الهواء ويبصره على ملاقات الضّياء هاج الطّلق بأمّه فأزعجه أشدّ إزعاج وأعنفه حتّى يولد، فإذا ولد صرف ذلك الدّم الّذي كان يغذوه من دم أمّه إلى ثدييها، فانقلب الطّعم واللّون إلى ضرب آخر من الغذاء، وهو أشدّ موافقة للمولود من الدّم فيوافيه في وقت حاجته إليه فحين يولد قد تلمظ وحرّك شفتيه طلباً للرّضاع فهو يحدي ثدي أمّه كالاداوتين المعلقتين لحاجته، فلا يزال يغتذي باللّبن ما دام رطب البدن رقيق الأَمعاء ليّن الأَعضاء.

حتّى إذا تحرّك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتدّ ويستوي بدنه وطلعت له الطّواحين والأَضراس ليمضغ به الطعام فيلين عليه ويسهل له إساغته فلا يزال كذلك حتّى يدرك، فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشّعر في وجهه فكان ذلك علامة الذّكر وعزّ الرّجل الذي يخرج به عن حد الصّبا وشبه النّساء وإن كانت انثى يبقى وجهها نقيّاً من الشّعر لتبقى لها البهجة والنّضارة التي تحرّك الرّجال لما فيه دوام النسل وبقاؤه، الحديث[٢].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٤١٤، وبحار الأنوار: ٥٧/ ٣٥٣.

(٢) شرح أصول الكافي: ١/ ١٠٣، وبحار الأنوار: ٣/ ٦٣.

الثاني

في تحقيق السؤال في القبر وذكر شبهة المنكرين له ودفعها

اعلم أنّ كلام الإمام عليه السلام في هذا الفصل صريح في ثبوت السؤال في القبر وهو حقّ يجب الإيمان والإذعان به، وعليه قد انعقد إجماع المسلمين بل هو من ضروريات الدّين، ومنكره كافر خالد في الجحيم لا يفتر عنه العذاب الأليم، ولم يخالف فيه إلا بعض من انتسب إلى الإسلام كضرار بن عمر وطائفة من المعتزلة وجمع من الملاحدة مموهين على العوام الّذين يصغون إلى كلّ ناعق بأنّ الميّت بعد وضعه في قبره إن حشى فمه بالجصّ ونحوه ودفن ثمّ يؤتى إليه في اليوم الآخر وينبش قبره فإنّك تراه على حاله لم يتغيّر فلو كان في القبر سؤال وحساب لتغيّرت حالته ولانفتح فمه وسقط الجصّ، وأيضاً فإنّا لا نسمع عذابه في القبر مع شدّته وصعوبته.

وفساد ذلك الكلام غنيّ عن البيان، لأنّ هذه العين والأذن لا تصلحان لمشاهدة الأمور الملكوتيّة وسماعها؛ وكلّ ما يتعلّق بالآخرة فهو من عالم الملكوت.

ألا ترى أنّ الصّحابة كانوا يجلسون عند النّبي صلى الله عليه وآله حين نزول جبرئيل عليه وهو يراه ويتكلّم معه في حضورهم والنّاس لا يرونه ولا يسمعون كلامه؟ وكذلك ملكا القبر لا يمكن للنّاس أن يدركوا سؤالهما وجواب الميّت لهما بهذه الحواس، وكذلك الحيّات والعقارب في القبر ليس من جنس الحيّات والعقارب في هذا العالم حتّى تدرك بالحس.

ويوضح ذلك أنّ النّائم بحضور الجالسين قد يشاهد في نومه الحيّات والعقارب وسائر المؤلمات والمؤذيات تؤلمه وتؤذيه وتلدغه فيتألم ويتأذى بحيث يرشح جبينه ويعرق ويبكي في نومه من شدّة الألم والأذى ومع ذلك كلّه فلا يرى الحاضرون ممّا يرى ويسمع شيئاً.

وبالجملة فلا يعتد بهذه التّرهات والتمويهات، والمنكر قد وجد جزاء إنكاره وهو الآن في قبره مقرّ بما أنكر مذعن بما كفر مدرك لما أنكره بالسّمع والبصر، والحمد لله الذي منّ علينا بالإيمان بالغيب، وخلّص قلوبنا من الشّك والرّيب.

قال الصّادق عليه السلام في رواية الصّدوق: ليس من شيعتنا من أنكر ثلاثة: المعراج، وسؤال القبر، والشفاعة[1].

وفي كتاب «السّماء والعالم» للمحدّث المجلسي عن «الكافي» عن بعض أصحابه عن عليّ بن العبّاس عن الحسن بن عبد الرّحمٰن عن أبي الحسن الأوّل قال: إنّ الأحلام لم تكن

---

(١) الأمالي: ٣٧٠ ح ٤٦٤ وبحار الأنوار: ٦/ ٢٢٣ ح ٢٣.

فيما مضى في أوّل الخلق وإنّما حدثت، فقلت: وما العلّة في ذلك؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله عزّ ذكره بعث رسولاً إلى أهل زمانه فدعاهم إلى عبادة الله وطاعته سبحانه فقالوا: إن فعلنا ذلك فمالنا فوالله ما أنت بأكثرنا مالاً ولا بأعزّنا عشيرة قال لهم: إنّكم إن أطعتموني أدخلكم الله الجنّة، وإن عصيتموني أدخلكم الله النّار، فقالوا: وما الجنّة وما النّار؟ فوصف لهم ذلك، فقالوا: متى نصير إلى ذلك؟ فقال: إذا متم، فقالوا: لقد رأينا أمواتنا صاروا عظاماً ورفاتاً فازدادوا له تكذيباً وبه استخفافاً، فأحدث الله عزّ وجلّ فيهم الأحلام فأتوا فأخبروه بما رأوا وما أنكروا من ذلك، فقال لهم: إنّ الله سبحانه أراد أن يحتجّ عليكم بهذا، هكذا تكون أرواحكم إذا متّم وإن بليت أبدانكم تصير الأرواح إلى عقاب حتّى تبعث الأبدان[(١)]»، هذا.

وبقي الكلام في عموم سؤال القبر قال العلاّمة المجلسي (ره) المشهور بين متكلّمي الإماميّة عدم عمومه واختصاصه بمحض المؤمن ومحض الكافر وأنّه ليس على المستضعفين ولا على الصّبيان والمجانين سؤال، وحكى عن الشّهيد (ره) انّه قال: إنّ السؤال حقّ اجماعاً إلا في من يلقن حجّته.

أقول: ويدلّ على ذلك وعلى اختصاصه بالمؤمن والكافر المحض الأخبار المتظافرة في «الكافي» وغيره وسيجيء بعضها في ضمن الأخبار الآتية.

الثالث

في حالات الميت حين أشرف على الموت وحين إزهاق روحه وعند الغسل والتكفين وحمله على سريره وإذا وضع في قبره وكيفية السؤال في القبر وضغطة القبر وبعض عقوباته في البرزخ ومثوباته

ونحن نشرح كلّ ذلك بما وصل إلينا في ذلك الباب من الأخبار المرويّة عن أئمّتنا الأطياب الأطهار سلام الله عليهم ما تعاقب اللّيل والنّهار، فأقول:

أما حالة الاحتضار

وأعني بها حالة إشراف الميّت على الموت فهي حالة يلهو المرء فيها بكليّته عن الدّنيا ويكون توجّهه إلى الآخرة، ويحضر حينئذٍ عنده رسول الله والأئمة سلام الله عليهم والملائكة الموكّلون بقبض روحه كما يحضر عنده أهله وعياله وأحبّاؤه وأقرباؤه فتارة تكون مخاطبته مع

(١) الكافي: ٨/ ٩٠ ح ٥٧، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٤٣ ح ٦٨.

الأوّلين وأخرى مع الآخرين.

روى عليّ بن إبراهيم القمّي في تفسير قوله:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

بإسناده عن سويد بن الغفلة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّ آدم إذا كان في آخر يوم من الدّنيا وأوّل يوم من الآخرة مثّل له أهله وماله وولده وعمله، فينظر إلى ماله فيقول: والله إنّي كنت عليك لحريصاً شحيحاً فماذا عندك؟ فيقول: خذ منّي كفنك، ثم يلتفت إلى ولده فيقول: والله إنّي كنت لكم لمحباً وإنّي كنت عليكم لمحامياً فماذا عندكم؟ فيقولون: نؤدّيك إلى حفرتك ونواريك فيها، ثمّ يلتفت إلى عمله فيقول: والله إنّي كنت من الزّاهدين فيك وإنّك كنت عليّ ثقيلاً فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم حشرك حتّى اعرض أنا وأنت على ربّك.

فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب النّاس ريحاً أحسنهم منظراً وأزينهم رياشاً فيقول: أبشر بروح من الله وريحان وجنّة النّعيم قد قدمت خير مقدم فيقول: من أنت؟ قال: أنا عملك الصّالح ارتحل من الدّنيا إلى الجنّة وأنّه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجله.

فإذا أدخل قبره أتاه ملكان وهما فتّان القبر يجران أشعارهما ويبحثان الأرض بأنيابهما وأصواتهما كالرّعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقولون له: من ربّك، ومن نبيّك وما دينك؟ فيقول: الله ربي ومحمّد نبيّي والإسلام ديني فيقولان له: ثبّتك الله بما تحبّ وترضى وهو قول الله:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] الآية.

فيفسحان له في قبره مدّ بصره ويفتحان له باباً إلى الجنّة ويقولان له: نم قرير العين نوم الشّاب النّاعم، وهو قوله:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤].

وإذا كان لربّه عدوّاً فإنّه يأتيه أقبح من خلق الله رياشاً وأنتنه ريحاً فيقول: من أنت؟ فيقول: عملك فيقول: ابشر بنزل من حميم وتصلية جحيم، وأنّه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يحبسه.

فإذا ادخل قبره أتياه ممتحناً القبر فألقيا أكفانه ثمّ قالا له: من ربّك، ومن نبيّك، وما دينك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان: لا دريت ولا هديت، فيضربانه بمرزبة ضربة ما خلق الله دابّة إلاّ وتذعر لها ما خلا الثّقلين، ثمّ يفتحان له باباً إلى النّار، ثمّ يقولان له: نم بشر حال.

فهو من الضيق مثل ما فيه القنا[١] من الزّج حتّى أن دماغه يخرج من ما بين ظفره ولحمه، ويسلّط الله عليه حيّات الأرض وعقاربها وهوامها فتنهشه حتّى يبعث الله من قبره. وأنّه ليتمنّى قيام السّاعة ممّا هو فيه من الشّر[٢].

ورواه في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن سويد بن غفلة عنه عليه السلام مثله.

وفي «الكافي» عن أبي اليقظان عمّار الأسدي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو أنّ مؤمناً أقسم على ربّه أن لا يميته ما أماته أبداً، ولكن إذا كان ذلك أو إذا حضر أجله بعث الله عزّ وجلّ إليه ريحين: ريحاً يقال لها المنسية وريحاً يقال المسخية، فأمّا المنسية فإنّها تنسيه أهله وماله، وأمّا المسخية فانّها تسخي نفسه عن الدّنيا حتّى يختار ما عند الله»[٣].

وعن أبي خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من أحد يحضره الموت إلاّ وكل به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشكّكه في دينه حتّى يخرج نفسه، فمن كان مؤمناً لم يقدر عليه فإذا حضرتم موتاكم فلقّنوهم شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله حتّى يموت»[٤].

وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وآله: «فلقنه كلمات الفرج والشّهادتين ويسمى له الإقرار بالأئمة عليهم السلام واحداً بعد واحد حتى يتقطع عنه الكلام»[٥].

وعن سدير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك يا ابن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال عليه السلام: لا والله إنه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له مَلك الموت: يا وليّ الله لا تجزع فوالّذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر قال: ويمثّل له رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذرّيّتهم عليهم السلام فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧] إلى محمّد وأهل بيته ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾

---

(١) القنا جمع قناة وهو الرمح والزج بالضم حديدة في أسفل الرمح منه.

(٢) الكافي: ٣/٢٣٣، والأمالي: ٣٤٩.

(٣) معاني الأخبار: ١٤٣، وبحار الأنوار: ٦/١٥٣ ح ٧.

(٤) الكافي: ٣/١٢٣ ح ٦، من لا يحضره الفقيه: ١/١٣٣ ح ٣٥٠.

(٥) الكافي: ٣/١٣٤، وسائل الشيعة: ٢/٤٥٨ ح ٢٦٤٣.

[الفجر: ٢٨] بالولاية ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٨] بالثواب ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾ [الفجر: ٢٩] يعني محمّداً وأهل بيته ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: ٣٠] فما شيء أحبّ إليه من استلال روحه(١).

وعن عليّ بن عقبة عن أبيه قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا عقبة لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلاّ هذا الأمر الذي أنتم عليه، وما بين أحدكم وبين أن يرى ما يقربه عينه إلاّ أن تبلغ نفسه إلى هذه، ثمّ اهوى بيده إلى الوريد، ثمّ اتكى».

وكان معي المعلّى فغمزني أن أسأله فقلت: يا ابن رسول الله فإذا بلغت نفسه هذه أيّ شيء يرى؟ فقلت له بضعة عشر مرّة: أيّ شيء يرى، فقال في كلّها: يرى، لا يزيد عليها، ثمّ جلس في آخرها فقال: يا عقبة، فقلت: لبّيك وسعديك، فقال: أبيت إلا أن تعلم؟ فقلت: نعم يا ابن رسول الله إنّما ديني مع دينك فإذا ذهب ديني كان ذلك كيف لي بك يا ابن رسول الله كلّ ساعة وبكيت. فرق لي فقال: يراهما والله، فقلت: بأبي وأمي من هما؟ قال: ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام يا عقبة لن تموت نفس مؤمنة أبداً حتى تراهما قلت: فإذا نظر إليهما المؤمن أيرجع إلى الدّنيا؟ فقال: لا، يمضي أمامه إذا نظر إليهما مضى أمامه فقلت له: يقولان شيئاً؟ قال: نعم يدخلان جميعاً على المؤمن.

فيجلس رسول الله صلى الله عليه وآله عند رأسه وعليّ عليه السلام عند رجليه فيكبّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: «يا ولي الله أبشر أنا رسول إنّي خير لك ممّا تركت من الدّنيا».

ثمّ ينهض رسول الله صلى الله عليه وآله فيقوم عليّ عليه السلام حتّى يكب عليه فيقول: «يا وليّ الله أبشر أنا عليّ بن أبي طالب الذي كنت تحبّ أنا لأنفعنك»، ثمّ قال عليه السلام: «إنّ هذا في كتاب الله عزّ وجل»، فقلت: أين جعلني الله فداك هذا من كتاب الله؟ قال: في يونس قول الله عزّ وجل هٰهنا:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٣-٦٤].

وعن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام إذا حيل بينه وبين الكلام أتاه رسول الله ومن شاء الله فجلس رسول الله عن يمينه والآخر عن يساره فيقول له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أمّا ما كنت ترجو فهو ذا أمامك، وأمّا ما كنت تخاف منه فقد أمنت منه».

ثمّ يفتح له باب إلى الجنّة فيقول هذا منزلك من الجنّة فإن شئت رددناك إلى الدّنيا ولك فيها ذهب وفضة، فيقول: لا حاجة لي في الدّنيا فعند ذلك يبيض لونه ويرشح جبينه وتقلص

(١) الكافي: ٣/ ١٣، دعائم الإسلام: ١/ ٣٢٠.

شفتاه وتنتشر منخراه وتدمع عينه اليسرى فأي هذه العلامات رأيت فاكتف بها، فإذا خرجت النفس من الجسد فيعرض عليها كما عرض عليه وهي في الجسد فتختار الآخرة، الحديث(١).

أقول: والأخبار في رؤية النبي والأئمة صلوات الله عليه وعليهم كثيرة كادت تبلغ حد التواتر، ويأتي بعضها بعد ذلك، وبتلك الأخبار تطيب نفوسنا وتسكن قلوبنا إلى الموت، وبها أيضاً يعلم أنّ كراهة المؤمن للموت على ما في الحديث القدسي من قول الله سبحانه: ما تردّدت في شيء أنا فاعله كتردّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته إنّما هي قبل الاستبشار برؤيتهم عليهم السلام، وأمّا بعد معاينتهم فليس شيء أحبّ إليه من الموت كما عرفت في الرّوايات.

ويدلّ عليه صريحاً في «الكافي» عن عبد الصّمد بن بشير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: «أصلحك الله من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه؟ ومن أبغض لقاء الله أبغض الله لقاءه!» قال عليه السلام: «نعم»، قلت: «فوالله إنا لنكره الموت»، فقال عليه السلام: «ليس ذلك حيث تذهب إنّما ذلك عند المعاينة إذا رأى ما يحبّ فليس شيء أحبّ إليه من أن يتقدّم والله تعالى يحبّ لقاءه وهو يحبّ لقاء الله حينئذٍ وإذا رأى ما يكره فليس شيء أبغض إليه من لقاء الله والله يبغض لقاءه».

وفيه عن يحيى بن سابور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «في الميّت تدمع عيناه عند الموت» فقال عليه السلام: «ذلك عند معاينة رسول الله صلى الله عليه وآله فيرى ما يسرّه»، ثمّ قال عليه السلام: «أما ترى الرّجل يرى ما يسرّه وما يحبّ فتدمع عينه لذلك ويضحك»(٢).

وأما صفة ملك الموت وكيفية قبض الروح

فروى السّيد السّند السّيد نعمة الله الجزائري أنّ الخليل عليه السلام قال لملك الموت يوماً: يا ملك الموت أحبّ أن أراك على الصّورة الّتي تقبض فيها روح المؤمن، فقال: يا إبراهيم اعرض عنّي بوجهك حتّى أتصوّر على تلك الصّورة، فلمّا رآه إبراهيم عليه السلام رأى صورة شابّ حسن الوجه أبيض اللون تعلوه الأنوار في أحسن ما يتخيّل من الهيئة فقال: يا إبراهيم في هذه الصّورة اقبض روح المؤمن فقال عليه السلام: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن إلاّ لقائك لكفاه راحة.

ثمّ قال عليه السلام: أريد أن أراك على الصّفة التي تقبض فيها روح الكافر، فقال: يا إبراهيم لا تقدر، فقال: أحبّ ذلك، فقال: أعرض بوجهك فأعرض بوجهه ثمّ قال: أنظر فنظر إليه

(١) الكافي: ٣/١٣٢ ح ٦، معاني الأخبار: ٢٣٦ ح ٢.

فإذا هو أسود كاللّيل المظلم وقامته كالنّخل الطّويل والنار والدّخان يخرجان من منخريه وفمه إلى عنان السّماء.

فلمّا نظر إليه غشي على إبراهيم عليه السلام فرجع ملك الموت إلى حالته فلمّا أفاق الخليل عليه السلام قال: يا ملك الموت لو لم يكن للكافر هول من الموت إلاّ رؤيتك لكفاه عن سائر الأهوال.

فإذا أتى إلى المؤمن سلّ روحه سلاً رقيقاً لطيفاً حتّى أنه يحصل له الرّاحة من ذلك السّل لما يشاهده من مكانه في الجنّة وإن كان كافراً أتى إليه بحديدة محميّة بنار جهنّم فأدخلها في حلقومه وجذب روحه بها يخيل إليه أنّ أطباق السّماوات والأرض قد وقعت عليه وطبقته حتّى تخرج زبدة على فمه كالبعير.

أقول: ويدلّ عليه ما في «الكافي» عن ابن الفضيل عن أبي حمزة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ آية المؤمن إذا حضره الموت بياض وجهه أشد من بياض لونه ويرشح جبينه ويسيل من عينيه كهيئة الدّموع فيكون ذلك خروج نفسه، وإنّ الكافر تخرج نفسه سلاً من شدقه كزبد البعير أو كما تخرج نفس البعير[1].

وفيه بإسناده عن عمّار بن مروان قال: حدّثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: منكم والله يقبل، ولكم والله يغفر إنّه ليس بين أحدكم وبين أن يغتبط ويرى السّرور وقرّة العين إلاّ أن تبلغ نفسه هٰهنا وأومى بيده إلى حلقه.

ثمّ قال عليه السلام: إنّه إذا كان ذلك واحتضر حضره رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام وجبرئيل وملك الموت فيدنو منه عليّ عليه السلام فيقول: يا سول الله إنّ هذا كان يحبّنا أهل البيت فأحبّه، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا جبرئيل إنّ هذا يحبّ الله ورسوله وأهل بيت رسوله فأحبّه»، ويقول جبرئيل عليه السلام: يا ملك الموت إن هذا يحبّ الله ورسوله وأهل بيت رسوله فأحبّه وأرفق به.

فيدنو منه ملك الموت فيقول: يا عبد الله أخذت فكاك رقبتك أخذت أمان براءتك تمسّكت بالعصمة الكبرى في الحياة الدّنيا؟ قال: فيوفّقه الله عزّ وجلّ فيقول: نعم، فيقول: وما ذاك؟ فيقول: ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام فيقول: صدقت أما الذي كنت تحذره فقد آمنك الله منه، وأمّا الذي كنت ترجوه فقد أدركته أبشر بالسّلف الصّالح مرافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة عليهما السلام.

ثمّ يسلّ نفسه سلاً رفيقاً، ثمّ ينزل بكفنه من الجنّة وحنوطه من الجنّة بمسك أذفر فيكفن

---

(١) الكافي: ٣/ ١٣٤ ح ١١، من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٣٥ ح ٣.

بذلك الكفن ويحنط بذلك الحنوط، ثمّ يكسى حلّة صفراء من حلل الجنّة.

فإذا وضع في قبره فتح له باب من أبواب الجنّة يدخل عليه من روحها وريحانها، ثمّ يفتح له عن أمامه مسيرة شهر وعن يمينه وعن يساره، ثمّ يقال له: نم نومة العروس على فراشها أبشر بروح ريحان وجنّة نعيم وربّ غير غضبان.

ثمّ يزور آل محمّد سلام الله عليهم في جنان رضوى فيأكل معهم من طعامهم، ويشرب معهم من شرابهم، ويتحدّث معهم في مجالسهم حتّى يقوم قائمنا فإذا قام قائمنا بعثهم الله تعالى فأقبلوا معه يلبون زمراً زمراً وعند ذلك يرتاب المبطلون ويضمحلّ المحلّون وقليل ما يكونون هلكت المحاضرون ونجا المقرّبون[١].

من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام: «أنت أخي وميعاد ما بيني وبينك وادي السّلام».

قال عليه السلام وإذا احتضر الكافر حضره رسول الله ﷺ وعليّ عليه السلام وجبرئيل وملك الموت فيدنو منه عليّ عليه السلام فيقول: «يا رسول الله إنّ هذا كان يبغضنا أهل البيت فأبغضه» ويقول رسول الله ﷺ: «يا جبرئيل إنّ هذا كان يبغض الله ورسوله وأهل بيت رسوله فأبغضه»، فيقول جبرئيل عليه السلام: يا ملك الموت إنّ هذا كان يبغض الله ورسوله وأهل بيت رسوله فأبغضه وأعنف عليه.

فيدنو منه ملك الموت فيقول: يا عبد الله أخذت فكاك رهانك وأمان براءتك تمسّكت بالعصمة الكبرى في الحياة الدّنيا؟ فيقول: لا، فيقول: أبشر يا عدو الله بسخط الله عزّ وجلّ وعذابه والنّار؛ أمّا الذي كنت تحذر فقد نزل بك.

ثمّ يسلّ نفسه سلا عنيفاً ثمّ يوكّل بروحه ثلاثمائة شيطان كلّهم يبزق في وجهه ويتأذى بروحه فإذا وضع في قبره فتح له باب من أبواب النّار فيدخل عليه من فيحها ولهبها[٢].

وعن الهيثم بن واقد عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل من أصحابه وهو يجود بنفسه فقال ﷺ: «يا ملك الموت أرفق بصاحبي فإنّه مؤمن»، فقال: أبشر يا محمّد فإنّي بكلّ مؤمن رفيق.

واعلم يا محمّد أني أقبض روح ابن آدم فيجزع أهله فأقوم في ناحية من دارهم فأقول ما هذا الجزع فوالله ما تعجلناه قبل أجله وما كان لنا في قبضه من ذنب فإن تحتسبوه وتصبروا

(١) في نسخة: المقربون.

(٢) الكافي: ٣/ ١٣٢، وبحار الأنوار: ٦/ ١٩٩.

تؤجروا، وإن تجزعوا تأثموا وتوزروا، واعلموا أنّ لنا فيكم عودة ثمّ عودة فالحذر ثم الحذر إنّه ليس في شرقها ولا في غربها أهل بيت مدر ولا وبر إلاّ وأنا أتصفحهم في كلّ يوم خمس مرّات ولأنّا أعلم بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ولو أردت قبض روح بعوضة ما قدرت عليها حتّى يأمرني ربّي بها.

فقال رسول الله ﷺ: «إنّما يتصفحهم في مواقيت الصّلاة فإن كان ممّن يواظب عليها عند مواقيتها لقّنه شهادة أن لا إله إلاّ الله ونحى عنه ملك الموت إبليس».

وعن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السّلام قال: «إنّ الميّت إذا حضره الموت أوثقه ملك الموت ولولا ذلك ما استقرّ»(١).

وأما التغسيل والتكفين

فقد ورد في الرّوايات أنّ الرّوح بعد خروجها من الجسد تكون مطلاً على الجسد وأنّه ليرى ما يفعل به.

وفي رواية أصبع بن نباتة أنّه يناشد الغاسل ويقول له عند تغسيله: بالله عليك يا عبد الله رفقاً بالبدن الضّعيف فوالله ما خرجت من عرق إلاّ انقطع، ولا من عضو إلاّ انصدع، فوالله لو سمع الغاسل ذلك القول لما غسل ميّتاً أبداً.

وفي «جامع الأخبار» قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفس محمّد بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهبوا عن ميّتهم ولبكوا على نفوسهم حتّى إذا حمل الميّت على نعشه رفرفت روحه فوق النّعش وهو ينادي: يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدّنيا كما لعبت بي»(٢)، الحديث هذا.

وفي «الوسائل» في عدّة روايات الأمر بإجادة الأكفان والمغالات في أثمانها معلّلاً بأنّ الموتى يبعثون بها وبأنّهم يتباهون بأكفانهم.

وفيه أنّ موسى بن جعفر عليه السلام كفن في حبرة استعملت له بمبلغ خمسمائة دينار عليها القرآن كلّه.

وفيه عن يونس بن يعقوب عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّي كفنت أبي في ثوبين شطويين كان يحرم فيهما وقميص من قمصه وعمامة كانت لعليّ بن

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٥٠ ح ٢، وبحار الأنوار: ٦/ ١٦٦ ح ٣٧.

(٢) بحار الأنوار: ٦/ ١٦١ ح ٢٨، ودرر الأخبار: ٨٢.

الحسين عليهما السلام وفي برد اشتريته بأربعين ديناراً، ولو كان اليوم ساوى أربعمائة دينار[١].

وأما حالته إذا حمل على سريره

فهو أنّه إن كان مؤمناً خرجت روحه تمشي بين يدي القوم قدماً وتلقاه أرواح المؤمنين ويبشّرونه بما أعدّ الله له جلّ ثناؤه من النعيم.

وإن كان عدوّاً لله سبحانه فهو كما ورد في رواية الكلينيّ عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا حمل عدوّ الله إلى قبره نادى حملته ألا تسمعون يا إخوتاه إنّي أشكو إليكم ما وقع فيه أخوكم الشّقي إنّ عدوّ الله خدعني فأوردني ثمّ لم يصدرني وأقسم لي أنّه ناصح لي فغشّني وأشكو إليكم دنيا غرّتني حتّى إذا اطمأننت إليها صرعتني، وأشكو إليكم أخلاّء الهوى منّوني ثمّ تبرّؤوا منّي وخذلوني، وأشكو إليكم أولاداً حميت عنهم وآثرتهم على نفسي فأكلوا مالي وأسلموني.

وأشكو إليكم مالاً ضيّعت فيه حق الله سبحانه فكان وباله عليّ وكان نفعه لغيري، وأشكو إليكم داراً أنفقت عليها حريبتي[٢] وصار سكانها غيري أشكو إليكم طول الثواء في قبري ينادي أنا بيت الدّود وأنا بيت الظلمة والوحشة والضّيق.

يا إخوتاه فاحبسوني ما استطعتم واحذروا مثل ما لقيت فإنّي قد بشّرت بالنّار وبالذّل والصّغار وغضب العزيز الجبّار، واحسرتاه على ما فرّطت في جنب الله ويا طول عولتاه فمالي من شفيع يطاع ولا صديق يرحمني فلو أنّ لي كرّة فأكون من المؤمنين»[٣].

وفي رواية أنّ أبي جعفر عليه السلام كان يبكي إذا ذكر هذا الحديث.

ثمّ إنّه إذا أتيت بالميّت إلى شفير قبره فأمهله ساعة فإنّه يأخذ أهبته للسّؤال كما وردت رواية أبي الحسن موسى عليه السلام.

وإذا حضر المؤمنين للصّلاة عليه وشهدوا له بالخير والصّلاح فقد ورد في الخبر أنّ الله سبحانه يجيز شهادتهم ويكتبه عنده من الأخيار وإن كان في علمه عزّ وجلّ من الأشرار.

قال الصّادق عليه السلام: إذا حضر الميت أربعون رجلاً فقالوا: اللهمّ إنّا لا نعلم منه إلاّ خيراً، قال الله تعالى: قد قبلت شهادتكم له وغفرت له ما علمت ممّا لا تعلمون[٤].

---

(١) الكافي: ١/ ٤٧٦.

(٢) حريبة الرجل: ما يعيش به.

(٣) الكافي: ٣/ ٢٣٣ ح ٤٧١٠، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٥٨ ح ٩٤.

(٤) الكافي: ٣/ ٢٥٤ ح ١٤، والدر المنثور: ١/ ١٤٥.

قال السّيد الجزائري في «الأنوار النّعمانيّة» روى الشّيخ الكليني قدّس الله روحه بإسناده إلى الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام قال:

كان في بني إسرائيل عابد فأوحى الله تعالى إلى داود على نبيّنا وعليه السلام أنّه مرائي قال: ثمّ إنّه مات فلم يشهد جنازته داود، فقام أربعون من بني إسرائيل فقالوا اللهمّ إنا لا نعلم منه إلاّ خيراً وأنت أعلم به منّا فاغفر له «قال فلمّا غسل أتى إليه أربعون غير الأربعين وقالوا: اللّهمّ إنّا لا نعلم منه إلاّ خيراً فأنت أعلم به منّا فاغفر له قال عليه السلام فأوحى الله إلى داود: ما منعك أن تصلّي قال داود: للذي أخبرتني به، قال: فأوحى الله إليه إنّه قد شهد له قومه فأجزت شهادتهم وغفرت له وعلمت ما لم تعلموا.

وأما حاله بعد وضعه في قبره

ففي الحديث: إنّ الرّوح يدخل إلى حقويه ويسمع لفظ أيدي القوم من تراب قبره فعند ذلك ينظر يميناً وشمالاً فلا يرى إلاّ ظلمات ثلاث: ظلمة الأرض، وظلمة العمل، وظلمة الوحشة فيا لها من داهية عظيمة ورزيّة جسيمة، وأوّل ملك يدخل عليه يسمّى رومان فتان القبور، وفي رواية اصبغ بن نباتة يسمي منبّه.

قال السّيد الجزائري رحمه الله: روى عبد الله بن سلام أنّه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن أوّل ملك يدخل في القبر على الميت قبل منكر ونكير، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ملك يتلألأ وجهه كالشّمس اسمه رمان يدخل على الميّت ثمّ يقول له: اكتب ما عملت ومن سيّئته، فيقول بأي شيء أكتب أين قلمي ودواتي ومدادي؟ فيقول له: ريقك مدادك وقلمك أصبعك، فيقول: على أيّ شيء أكتب وليس معي صحيفة؟ قال: صحيفتك كفنك فاكتبه فيكتب ما عمله في الدّنيا خيراً.

فإذا بلغ سيئاته يستحي منه فيقول له الملك: يا خاطيء ما تستحي من خالقك حين عملتها في الدّنيا وتستحي الآن، فيرفع الملك العمود ليضربه فيقول العبد: ارفع عنّي حتّى أكتبها، فيكتب فيها جميع حسناته وسيئاته ثمّ يأمره أن يطوي ويختم فيقول له: بأيّ شيء أختمه وليس معي خاتم؟ فيقول له: اختمه بظفرك وعلّقه في عنقك إلى يوم القيامة»[1] كما قال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣].

---

(١) بتفاوت في بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٣٤، ومجمع البحرين: ٣/ ٨٢.

وفي رواية أخرى أنّه يأتي إلى الميت فيسمه فإن عرف منه خيراً أخبر منكراً ونكيراً حتّى يرفقا به وقت السؤال، وإن عرف منه شراً أخبرهما حتّى يشدّدا عليه الحال والعذاب.

وأما السؤال عنه

فقد علمت سابقاً أنّه من ضروريّات الدّين وعليه اتّفاق المسلمين وفي الأخبار الكثيرة أنّ لله سبحانه ملكين يسمّى أحدهما منكراً والآخر نكيراً وكّل تعالى السؤال إليهما.

وفي بعض الرّوايات أنّهما بالنّسبة إلى المؤمن مبشر وبشير، وبالنّسبة إلى الكافر منكر ونكير، لأنّهما يأتيان إلى المؤمن بصورة حسنة ويبشّرانه بالثواب والنّعيم، ويأتيان إلى الكافر والمخالف بصورة نكرة مهيبة ويوعدانه بالعذاب والجحيم.

روى في «الكافي» بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ المؤمن إذا خرج من بيته شيّعته الملائكة إلى قبره ويزدحمون عليه حتّى إذا انتهى به إلى قبره قالت له الأرض: مرحباً بك وأهلاً أما والله لقد كنت أحبّ أن يمشي عليّ مثلك لترين ما أصنع بك فيوسع له مد بصره.

ويدخل عليه ملكا القبر وهما قعيدا القبر منكر ونكير فيلقيان فيه الرّوح إلى حقويه فيقعدانه ويسألانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: الله تعالى، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان: ومن نبيّك؟ فيقول محمّد صلى الله عليه وآله فيقولان: ومن امامك؟ فيقول: فلان، قال: فينادي مناد من السّماء صدق عبدي افرشوا له في قبره من الجنّة وافتحوا له في قبره باباً إلى الجنّة وألبسوه من ثياب الجنّة حتّى يأتينا وما عندنا خير له، ثمّ يقال له نم نومة عروس، نم نومة لا حلم فيها».

قال عليه السلام: «وإن كان كافراً خرجت الملائكة شيّعته إلى قبره يلعنونه حتّى إذا انتهى إلى قبره قالت له الأرض: لا مرحباً بك ولا أهلاً أما والله لقد كنت أبغض أن يمشي عليّ مثلك لا جرم لترين ما اصنع بك اليوم، فتضيق عليه حتّى يلتقي جوانحه».

قال عليه السلام: «ثمّ يدخل عليه ملكا القبر وهما قعيدا القبر منكر ونكير».

قال أبو بصير: جعلت فداك يدخلان على المؤمن والكافر في صورة واحدة؟ فقال عليه السلام: لا.

قال: فيقعدانه فيلقيان فيه الرّوح إلى حقويه فيقولان: من ربّك؟ فيتلجلج ويقول: قد سمعت النّاس يقولون، فيقولان: لا دريت، ويقولان له: ما دينك؟ فيتلجلج فيقولان له: لا دريب، ويقولان له من نبيّك؟ فيقول: قد سمعت النّاس يقولون فيقولان له: لا دريت ويسأل عن إمام زمانه.

قال عليه السلام: «وينادي مناد من السّماء كذب عبدي افرشوا له في قبره من النّار وافتحوا له باباً إلى النّار حتّى يأتينا وما عندنا شرّ له فيضربانه بمرزبة ثلاث ضربات ليس منها ضربة إلا ويتطاير منها قبره ناراً لو ضرب بتلك المرزبة جبال تهامة لكانت رميماً».

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «ويسلّط الله عليه في قبره الحّيات تنهشه نهشاً والشّيطان يغمّه غمّاً، قال ويسمع عذابه من خلق الله إلاّ الجنّ والإنس»، وقال عليه السلام «إنّه ليسمع خفق نعالهم ونفض أيديهم وهو قول الله عزّ وجل[١]:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وعن إبراهيم بن أبي البلاد عن بعض أصحابه عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: يقال للمؤمن في قبره: من ربّك؟ قال: فيقول الله، فيقال له: ما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقال: من نبيّك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وآله، فيقال: من إمامك؟ فيقول: فلان فيقال: كيف علمت بذلك؟ فيقول: أمر هداني الله له وثبتني عليه، فيقال له: نم نومة لا حلم فيها نومة العروس، ثمّ يفتح له باب إلى الجنّة فيدخل إليه من روحها وريحانها ليقول: يا رب عجل قيام السّاعة لعلي أرجع إلى أهلي ومالي.

ويقال للكافر: من ربّك؟ فيقول: الله، فيقال: من نبيّك؟ فيقول: محمّد صلى الله عليه وآله فيقال: ما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقال: من أين علمت ذلك؟ فيقول: سمعت النّاس يقولون فقلته، فيضربانه بمرزبة لو اجتمع عليه الثّقلان الإنس والجن لم يطيقوها.

قال عليه السلام: «فيذوب كما يذوب الرّصاص، ثم يعيدان فيه الرّوح فيوضع قلبه بين لوحين من نار فيقول: يا رب أخّر قيام السّاعة[٢].

وعن جابر قال قال أبو جعفر عليه السلام: قال النّبي صلى الله عليه وآله: «إنّي كنت أنظر إلى الإبل والغنم وأنا أرعاها وليس من نبيّ إلاّ وقد رعى الغنم، وكنت أنظر إليها قبل النبوّة وهي متمكّنة في[٣] المكينة ما حولها شيء يهيجها حتّى تذعر فتطير فأقول ما هذا وأعجب، حتّى حدّثني جبرئيل عليه السلام أنّ الكافر يضرب ضربة ما خلق الله شيئاً إلا سمعها ويذعر لها إلاّ الثّقلين فقلنا: ذلك لضربة الكافر، فنعوذ بالله من عذاب القبر»[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ٢٦٥، والتفسير الصافي: ٣/ ٨٧.
(٢) الكافي: ٣/ ٢٣٩، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٦٣ ح ١٠٧.
(٣) في نسخة: ممتلية. الكافي: ٣/ ٢٣٣ ح ٤٧٠٩.
(٤) بحار الأنوار: ٦/ ٢٢٦ ح ٢٨، والكافي: ٣/ ٢٣٣ ح ٤٧٠٩.

وعن بشير الدّهان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يجيء الملكان منكر ونكير إلى الميت حين يدفن أصواتهما كالرّعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف، يخطان الأرض بأنيابهما ويطآن في شعورهما فيسألان الميت من ربّك وما دينك؟»

قال عليه السلام: «فإذا كان مؤمناً قال: الله ربّي، وديني الإسلام، فيقولان له: ما تقول في هذا الرّجل الذي خرج بين ظهرانيكم؟ فيقول: أعن محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله تسألاني؟ فيقولان: تشهد أنّه رسول الله؟ فيقول: أشهد أنّه رسول الله، فيقولان له: نم نومة لا حلم فيها ويفسح له في قبره تسعة أذرع ويفتح له باب إلى الجنّة ويرى مقعده فيها».

وإذا كان الرّجل كافراً دخلا عليه وأقيم الشّيطان بين يديه عيناه من نحاس فيقولان له: من ربّك وما دينك؟ وما تقول في هذا الرّجل الذي خرج من بين ظهرانيكم؟ فيقول: لا أدري فيخليان بينه وبين الشيطان، فيسلّط عليه في قبره تسعة وتسعين تنيناً لو أن تنيناً واحداً منها نفخت في الأرض ما أنبتت شجراً أبداً، ويفتح له باباً إلى النار ويرى مقعده فيها.

وعن محمّد بن أحمد الخراساني عن أبيه رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام «يسأل الميت في قبره عن خمس، عن صلاته وزكاته وحجّه وصيامه وولايته إيانا أهل البيت فتقول الولاية من جانب القبر للأربع: ما دخل فيكن من نقص فعليّ تمامه»[١].

وفي «الوسائل» عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام ما على أحدكم إذا دفن ميّته وسوى عليه وانصرف عن قبره أن يتخلّف عند قبره ثمّ يقول: يا فلان بن فلان أنت على العهد الذي عهدناك به من شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله وأنّ عليّاً أمير المؤمنين إمامك، وفلان وفلان حتّى يأتي آخرهم، فإنّه إذا فعل ذلك قال أحد الملكين لصاحبه: قد كفينا الوصول إليه ومسألتنا إيّاه فإنّه قد لقّن حجته فينصرفان عنه ولا يدخلان إليه[٢].

وفيه عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ينبغي أن يتخلّف عند قبر الميّت أولى النّاس به بعد انصراف عنه ويقبض على التّراب بكفّيه ويلقّنه برفيع صوته، فإذا فعل ذلك كفى الميت المسألة في قبره»[٣].

وفي «الكافي» بإسناده عن أبي بكر الحضرمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لا يسأل في القبر إلاّ من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً والآخرون يلهون عنه[٤].

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٤١ ح ٤٧٢٧، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٦٦.
(٢) وسائل الشيعة ٣/ ٢٠٢، ووسائل الشيعة: ٢/ ٨٦٣ ح ٢.
(٣) علل الشرائع: ١/ ٣٠٨.
(٤) الكافي: ١/ ٢٩٦ ح ٥، وبحار الأوار: ٦/ ١٨٤ ح ١٧ في نسخة: فترات.

ونحوه أخبار أخر فيه عنه عليه السلام، وظاهر الكليني كالصّدوق هو الأخذ بظواهر هذه الأَخبار لروايتهما لها من غير تعرّض لتأويلها، وقد حكى ذلك عن الشّيخ البهائي (ره).

وقال الشّهيد (ره) في محكي كلامه: إنّ هذا الخبر محمول على سؤال خاصّ ليوافق الأَخبار العامّة في سؤال القبر.

وقال السّيد الجزائري رحمه الله ويمكن أن يراد بالملهو عنهم الذين وردت الأَخبار في شأنهم أنهم يكلفون يوم القيامة بأن تؤجج لهم نار فيؤمروا بالدّخول فيها مثل البله والمجانين ومن كان في فطرات الأَنبياء والشّيخ الفاني والعجوز الفانية ونحوهم، وهؤلاء لم يمحضوا الإيمان وهو ظاهر، ولم يمحضوا الكفر أيضاً لقصورهم عن ورود الموردين فيبقون على حالتهم في قبورهم حتّى يمنحهم الله سبحانه في القيامة قوّة إدراك التّكاليف والعقل القابل له.

وأما ضغطة القبر وضمته

ففي «الكافي» بإسناده عن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من موضع قبر إلاّ وهو ينطق كلّ يوم ثلاث مرّات: أنا بيت التّراب أنا بيت البلاء أنا بيت الدّود»، قال عليه السلام «فإذا دخله عبد مؤمن قال: مرحباً وأهلاً أما والله لقد كنت أحبّك وأنت تمشي على ظهري فكيف إذا دخلت بطني فسترى ذلك».

قال عليه السلام: «فيفسح له مدّ البصر ويفتح له باب يرى مقعده من الجنّة»، قال عليه السلام: «ويخرج من ذلك رجل لم تر عيناه شيئاً قطّ أحسن منه فيقول: يا عبد الله ما رأيت شيئاً قط أحسن منك فيقول: أنا رأيك الحسن الذي كنت عليه وعملك الصالح الذي كنت تعمله».

قال عليه السلام: «ثمّ تؤخذ روحه فتوضع في الجنّة حيث رأى منزله، ثمّ يقال له: نم قرير العين فلا تزال نفحة من الجنة تصيب جسده ويجد لذّتها وطيبها حتّى يبعث».

قال عليه السلام: «وإذا دخل الكافر قبره قالت الأرض: لا مرحباً بك ولا أهلاً أما والله لقد كنت أبغضك وأنت تمشي على ظهري فكيف إذا دخلت بطني سترى ذلك.

قال: فتضمّ عليه فتجعله رميماً ويعاد كما كان ويفتح له باب إلى النّار فيرى مقعده من النّار، ثمّ قال: ثمّ انه يخرج منه رجل أقبح من رأى قط قال: فيقول يا عبد الله من أنت ما رأيت شيئاً أقبح منك، قال: فيقول: أنا عملك السيّىء الذي كنت تعمله ورأيك الخبيث.

قال ثمّ تؤخذ روحه فتوضع حيث رأى مقعده من النّار، ثمّ لم تزل نفحة من النّار تصيب جسده فيجد ألمها وحرّها في جسده إلى يوم يبعث، ويسلّط الله على روحه تسعة وتسعين تنّيناً

تنهشه ليس فيها تنين ينفخ على ظهر الأرض فتنبت شيئاً[١].

وهذه الضّغطة هي التي ضمنها رسول الله ﷺ لفاطمة بنت أسد أمّ أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد روى أنّه لما حفر لها قبر اضطجع فيه رسول الله ﷺ فقيل له ﷺ في ذلك فقال: إنّي ذكرت ضغطه القبر عندها يوماً وذكرت شدّتها فقالت: واضعفاه ليس لي طاقة عليها فقلت لها: إنّي أضمن لك على الله فاضطجعت في قبرها لذلك[٢].

وفي «الكافي» عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «أيفلت من ضغطة القبر أحد؟» قال: فقال عليه السلام: «نعوذ بالله منها ما أقلّ من يفلت من ضغطة القبر، إنّ رقيّة لمّا قتلها عثمان وقف رسول الله ﷺ على قبرها فرفع رأسه إلى السّماء فدمعت عيناه وقال للنّاس: ذكرت هذه وما لقيت فرققت لها واستوهبتها من ضمّة القبر، قال: فقال: اللّهم هب لي رقية من ضمّة القبر فوهبها الله له».

قال عليه السلام: «وإنّ رسول الله ﷺ خرج في جنازة سعد وقد شيعه سبعون ألف ملك فرفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السّماء ثمّ قال: مثل سعد يضمّ؟ قال: قلت جعلت فداك: إنا نحدّث أنّه كان يستخف بالبول، فقال عليه السلام: معاذ الله إنّما كان من زعارة في خلقه على أهله قال: فقالت أمّ سعد هنيئاً لك يا سعد، قال: فقال لها رسول الله ﷺ: يا أمّ سعد لا تحتمي على الله»[٣].

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يسأل وهو مضغوط.

قال المحدّث المجلسي «ره» في حقّ اليقين: يفهم من الأحاديث المعتبرة أنّ ضغطة القبر للبدن الأصلي وأنّها تابعة للسؤال، فمن لا سؤال عنه لا ضغطة له.

وفيه عن الصّدوق عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ أنّ ضغطة القبر للمؤمن كفّارة عمّا صدر عنه من تضييع نعم الله سبحانه»[٤].

وفي «الكافي» عن يونس قال: سألته عن المصلوب يعذّب عذاب القبر؟ قال: فقال: نعم إنّ الله عزّ وجلّ يأمر الهواء أن يضغطه.

وفي رواية أخرى سئل أبو عبد الله ﷺ عن المصلوب يصيبه عذاب القبر، فقال عليه السلام: إنّ ربّ الأرض هو ربّ الهواء فيوحي الله عزّ وجلّ إلى الهواء فيضغطه ضغطة هو أشدّ من

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٤٢، وتفسير نور الثقلين: ٣/ ٥٥٧.
(٢) الكافي: ١/ ٤٥٤، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٧٩.
(٣) بحار الأنوار: ٢٢/ ١٤٤ ح ١٣٣.
(٤) علل الشرائع: ١/ ٣٠٩، والأمالي: ٦٣٣ ح ٨٤٥.

ضغطة القبر،

وفيه في رواية أبي بصير التي تقدّم صدرها في ذكر حالة الإحتضار عن أبي عبد الله عليه السلام، فإذا أدرج في أكفانه ووضع على سريره خرجت روحه تمشي بين أيدي القوم قدماً وتلقاه أرواح المؤمن ويبشرونه بما أعدّ الله له جلّ ثناؤه من النعيم، فإذا وضع في قبره رد إليه الرّوح إلى وركيه ثمّ يسأل عمّا يعلم فإذا جاء بما يعلم فتح له ذلك الباب الذي أراه رسول الله صلى الله عليه وآله، فيدخل عليه من نورها وبردها وطيب ريحها.

قال: قلت جعلت فداك فأين ضغطة القبر؟ فقال عليه السلام: «هيهات ما على المؤمنين منها شيء والله إنّ هذه الأرض لتفتخر على هذه فيقول: وطىء على ظهري مؤمن ولم يطأ على ظهرك مؤمن، والله لقد كنت أحبّك وأنت تمشي على ظهري فأما إذا وليتك فستعلم ماذا أصنع بك فتفسح له مدّ بصره»، هذا[1].

وفي «الحقّ اليقين» بعد إيراده الأخبار الواردة في الضغطة ممّا قدّمنا روايتها وما لم يتقدّم قال: والجمع بين هذه الأخبار في غاية الإشكال إذ لو حملنا المؤمن فيها على المؤمن الكامل فأيّ كامل أكمل من فاطمة بنت أسد ورقيّة إبنة النّبي صلى الله عليه وآله وسعد بن معاذ.

اللّهمّ إلاّ أن يحمل ما في فاطمة ورقيّة على الاحتياط والاطمئنان وحصول الاضطجاع والدّعاء أو يقال المراد بالمؤمن المعصوم ومن يتلو مرتبة العصمة كسلمان وأبي ذر ونظرائهما، ويمكن حمل أخبار عدم الضغطة للمؤمن على عدم الضّغطة الشّديدة أو حمل أخبار عدم الضّغطة له على ما تكون على وجه الغضب، وما تدلّ عليها على ما تكون على وجه اللطف وليكون قابلاً لدخول الجنّة كما أنّ ابتلاءه بمحن الدّنيا وبلاياها كان لذلك.

ويمكن أن يقال: إنها كانت في صدر الإسلام عامّة للمؤمن وغيره، ثمّ اختصّت بغيرهم بشفاعة الرّسول والأئمة صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، هذا.

وبقي الكلام فيما يوجب ارتفاع الضّغطة والأمن من بعض عقوبات البرزخ وهي أمور كثيرة.

منها: رش الماء على القبر فقد روي في «الكافي» عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «يتجافي عنه العذاب ما دام النّدى في التّراب»[2].

ومنها الجريدتان ففي «الوسائل» عن الصّدوق بإسناده إلى زرارة قال: قلت لأبي

---

(١) الكافي: ٣/ ١٣٠، وبحار الأنوار: ٦/ ١٩٧.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٠٠ ح ٦، ووسائل الشيعة: ٣/ ١٩٦ ح ٣٣٨٩.

جعفر عليه السلام: أرأيت الميت إذا مات لم تجعل معه الجريدتان؟ فقال عليه السلام: يتجافى عنه العذاب أو الحساب ما دام العود رطباً إنّما العذاب والحساب كلّه في يوم واحد في ساعة واحدة قدر ما يدخل القبر ويرجع القوم وإنّما جعلت السعفتان لذلك فلا يصيبه عذاب ولا حساب بعد جفوفهما إن شاء الله[(١)].

ومنها: الوفاة ليلة الجمعة أو يومها ففي «الأنوار» للسّيد الجزائري رحمه الله قد ورد في «الأخبار المعتبرة»، أنّ من مات من المؤمنين ليلة الجمعة أو يومها أمن من ضغطة القبر، قال «ره» وربّما ورد أن بعض أعمال البر والأدعية المأثورة تدفعها أيضاً، وهو ليس ببعيد فإن رحمة الله قريبة من المحسنين.

ومنها الدّفن في وادي السّلام فقد روى في «الأنوار» أيضاً من كتاب «إرشاد القلوب» في فضل المشهد الشّريف الغروي وما لتربته والدّفن فيها من المزيّة والشّرف.

روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «الغري قطعة من الجبل الذي كلّم الله موسى عليه تكليماً، وقدّس عليه تقديساً واتّخذ عليه إبراهيم خليلاً، ومحمّداً صلى الله عليه وآله حبيباً وجعله للنّبيّين مسكناً».

وروي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام نظر إلى ظهر الكوفة فقال: «ما أحسن منظرك وأطيب قعرك، اللّهمّ اجعل قبري بها»[(٢)].

قال: ومن خواص تربته إسقاط عذاب القبر وترك محاسبة منكر ونكير من المدفون هناك كما وردت به الأخبار الصّحيحة عن أهل البيت عليهم السّلام.

أقول: ونظير ما رواه عن أمير المؤمنين عليه السلام ما رواه في «الكافي» عن حبّة العرني قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر فوقف بوادي السّلام كأنّه مخاطب لأقوام، فقمت بقيامه حتّى أعييت، ثم جلست حتّى مللت، ثمّ قمت حتى نالني مثل ما نالني أوّلاً، ثمّ جلست حتّى مللت.

ثمّ قمت وجمعت ردائي فقلت يا أمير المؤمنين إنّي قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة، ثمّ طرحت الرّداء ليجلس عليه فقال لي: يا حبة إن هو إلا محادثة مؤمن أو مؤانسته قال: قلت: يا أمير المؤمنين وإنّهم كذلك؟ قال: نعم، ولو كشف لرأيتهم حلقاً حلقاً محتبين يتحادثون، فقلت: أجساد أم أرواح؟ فقال لي: أرواح وما من مؤمن يموت في بقعة

---

(١) الكافي: ٣/ ١٥٢ ح ٤، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢١.

(٢) مستدرك سفينة البحار: ٩/ ٥٤ظ

من بقاع الأرض إلاّ قيل: ألحقي بوادي السّلام وإنّها لبقعة من جنّة عدن[١].

والمستفاد من هذه الرّواية وكثير من الأخبار المعتبرة أنّها جنّة الدّنيا وأنّ أرواح المؤمنين فيها كما أنّ أرواح الكفّار في بشر البرهوت.

فقد روي في «الكافي» عن أحمد بن عمر رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: إنّ أخي ببغداد وأخاف أن يموت بها، فقال عليه السلام: «ما يبالي حيث ما مات أما أنّه لا يبقى في شرق الأرض وغربها إلاّ حشر الله روحه إلى وادي السّلام»، قال: قلت له: وأين وادي السّلام؟ قال عليه السلام: «ظهر الكوفة أما أنّي كأنّي بهم حلق حلق قعود يتحدّثون»[٢].

وعن محمّد بن أحمد بإسناد له قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: «شرّ بئر في النّار البرهوت الذي فيه أرواح الكفّار»[٣].

وعن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «شرّ ماء على وجه الأرض ماء برهوت، وهو واد بحضرموت ترد عليه هام الكفّار»[٤].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة ولا حاجة إلى ذكرها نعم في المقام خبر يستلذّ النّفس ويسرّ القلب به وهو ما رواه في «الأنوار» عن القاضي بن بدر الهمداني الكوفي وكان رجلاً صالحاً متعبّداً.

قال: كنت في جامع الكوفة ذات ليلة مطيرة فدقّ باب مسلم جماعة ففتح لهم وذكر بعضهم أنّ معهم جنازة فأدخلوها وجعلوها على الصّفة التي تجاه باب مسلم بن عقيل، ثمّ إنّ أحدهم نعس فنام فرأى في منامه قائلاً يقول لآخر: ما تبصره حتّى نبصر هل لنا معه حساب أم لا، فكشف عن وجه الميّت وقال لصاحبه بل لنا معه حساب وينبغي أن نأخذه معجلاً قبل أن يتعدّى الرّصافة فما يبقى لنا معه طريق.

فانتبه وحكى لهم المنام وقال: خذوه عجلاً فأخذوه ومضوا به في الحال إلى المشهد الشّريف صلوات الله وسلامه على مشرّفها.

أقول: رزقنا الله سبحانه وإخواني المؤمنين مجاورة حضرت مولاي ومولى العالمين عليه الصّلاة والسّلام حيّاً وميّتاً، وأنا أوصي خليفتي ووليّ أمري بعدي أن يدفنني في ذلك المقام

(١) الذكر: ٧٨، والكافي: ٣/ ٢٤٣ ح ٤٧٣٤.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٤٣ ح ٤٧٣٥، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٦٨ ح ١١٨.

(٣) الكافي: ٣/ ٢٤٣ ح ٤٧٣٥، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٦٨ ح ١١٨.

(٤) الكافي: ٣/ ٣٤٦ ح ٣، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٨٩ ح ١١.

الشّريف.

وأقول له:

إذا مت فادفني إلى جنب حيدرٍ أبي شُبرٍ أكرم به وشبير
فلست أخاف النّار عند جواره ولا أتّقي من منكرٍ ونكير
فعار على حامي الحمى وهو في الحمى إذا ضلّ في البيداء عقال بعير

ثم أقول:

ولايتي لأَمير النّحل تكفيني عند الممات وتغسيلي وتكفيني
وطينتي عجنت من قبل تكويني بحب حيدر كيف النّار تكويني

ثم أناجي ربي وأقول:

وفدتُ على الكريم بغير زادٍ من الحسنات والقلب السليم
فحمل الزّاد أقبح كل شيء إذا كان الوفود على الكريم

الترجمة

و بعض دیگر از این خطبه شریفه در صفت خلقت انسان است که می فرماید:

آیا یادآوری نمایم شما را به این انسانی که ایجاد فرمود او را صانع حکیم در ظلمت های رحم ها و در غلاف های پرده ها در حالتی که نطفه ای بود رخته شده و علقه ای ناقص گشته و بچه پنهان در شکم زنان و طفل شیرخواره و از شیر بازگرفته و به سن احتلام رسیده.

پس از آن عطا فرمود او را قلب حفظ کننده و زبان گوینده و دیده نگرنده تا فهم کند در حالتی که عبرت گیرنده باشد و بازایستد از معصیت در حالتی که نفس خود را زجرکننده شود تا اینکه قایم شد حد اعتدال او و راست شد پیکر و مثال او، رمید و نفرت نمود از حق در حالتی که گردن کش بود و خبط کرد در حالتی که بی باك بود.

آب کشنده بود در دلو بزرگ هوس و هوای خود، رنج کشنده بود و سعی کننده از برای دنیای خود در لذّت های شادیش و در حاجت های خطور کننده قلب خویش در حالتی که گمان نمی نمود مصیبتی که برسد به او و نمی ترسید از محذوری که وارد شود به او، پس مرد در ضلالت خود در حالتی که غافل بود از غضب مالك الملك و زندگانی کرد در لغزیدن خود در زمان اندك.

کسب ننمود عوض نعمت ها را در دنیا و به جا نیاورد فرایض لازمه بر خود را، هجوم آور شد بر او اندوه های مرگ در بقایای سواری او بر هوای خود و در راه های سرور و شادی خود؛ پس متحیّر گشت و شب را بر بیداری به روز آورد در شدّت های دردها و نازل شده های الم ها و بیماری ها در میان برادر که شقّه ای است از جان و پدر مهربان و مادر واویلاگوینده از روی جزع و خواهر به سینه زننده از روی اضطراب و فزع و حال آنکه آن مرد در سکرات موت است مشتمله بر تعب و شدتو در غمرات مرگ است متّصفه با نهایت مشقّت و در ناله های دردآورنده و در کشش روح اندوه آورنده و راندن رنجاننده.

پس پیچیده شد در کفن های خود در حالتی که مأیوس و حزین و کشیده شد

در حالتى كه اطاعت كننده بود آسان و ليّن، پس انداخته شد در چوب هاى نعش مثل شتر مردّد در اسفار و همچو شتر لاغر از كثرت بار، در حالتى كه بردارند او را فرزندان يارى دهنده و برادران جمع شونده به سوى قبر كه سراى غربت او است و جاى بريدن زيارت از او است.

تا آنكه چون رجوع كند تشييع كننده و برمى گردد اندوه خورنده، نشانده مى شود در قبر در حالتى كه رازگوينده باشد از جهت بهت و حيرتى كه حاصل مى شود او را از سؤال و به جهت لغزش در امتحانى كه او را است در عقايد و اعمال و بزرگترين چيزى كه آنجا است از حيثيت بلا، پيشكش آب گرم و جوشان است و درآوردن او است در آتش سوزان و جوشش هاى آتش سرخ شده و شدت هاى صداى نار موقده.

نيست آنجا سستى كه راحت كننده از عذاب باشد و نه آرميدنى كه زايل كننده عقاب باشد و نه مرگ حاضر كه باعث استراحت او شود و نه خواب اندك كه سبب فراموشى زحمت او گردد، بلكه هميشه در ميان انواع مرگ ها باشد و در ميان عذاب هاى ساعت به ساعت، به درستى كه پناه مى بريم به خدا از اين عذاب و عنا.

الفصل الثامن

«عِبادَ اللّهِ، أَيْنَ الَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعَمُوا، وعُلِّمُوا فَفَهِمُوا، وَأُنْظِرُوا فَلَهَوْا، وسُلِّمُوا فَنَسَوا، أُمْهِلُوا طَويلاً، وَمُنِحُوا جَميلاً، وَحُذِّرُوا أَلِيماً، وَوُعِدُوا جَسيماً، احْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُورِطَةَ، وَالْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ، أُولِي الأَبْصارِ والأَسْمَاعِ، وَالْعافِيَةِ وَالْمَتَاعِ، هَلْ مِنْ مَناصٍ أَوْ خِلاصٍ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلاَذٍ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحارٍ، أَمْ لاَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ، أَمْ بِماذَا تَغْتَرُّونَ، وَإِنَّما حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ أَرْضٍ، ذاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ، قَيْدُ قَدِّهِ، مُنْعَفِراً عَلَى خَدِّهِ، الآنَ عِبَادَ اللّهِ وَالْخِنَاقُ مُهْمَلٌ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ، في فِينَةِ الإِرْشَادِ، ورَاحَةِ الأَجْسَادِ، وبَاحَةِ الإِحْتِشَادِ، ومَهَلِ الْبَقِيَّةِ، وأُنُفِ الْمَشِيَّةِ، وإِنْظارِ التَّوْبَةِ، وانْفِسَاحِ الْحَوْبَةِ، قَبْلَ الضَّنْكِ، وَالرَّوْعِ والزُّهُوقِ، وقَبْلَ قُدُومِ الْغَائِبِ الْمُنْتَظَرِ، وأَخْذَةِ الْعزيزِ الْمُقْتَدِرِ».

قال السّيّد (ره) وفي الخبر أنّه عليه السلام لمّا خطب بهذه الخطبة إقشعرّت لها الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب، ومن النّاس من يسمي هذه الخطبة الغرّاء.

اللغة

(**إحذروا**) أمر من حذر بالكسر من باب علم و(**الورطة**) الهلكة وأرض مطمئنّة لا طريق فيها وأورطه ألقاه فيها و(**المناص**) الملجأ و(**المحار**) المرجع من حار يحور أي رجع قال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾ [الإنشقاق: ١٤].

و(**افك**) من باب ضرب وعلم افكا بالفتح والكسر والتّحريك كذب وافكه عنه يأفكه صرفه وقلبه أو قلب رأيه و(**القيد**) كالقاد المقدار و(**المعفر**) محرّكه التّراب وعفره في التّراب يعفره من باب ضرب وعفّره فانعفر وتعفّر مرّغه فيه أو دسّه و(**الخناق**) ككتاب حبل يخنق به ويقال أخذ بخناقه أي بحلقه لأنّه موضع الخناق فأطلق عليه مجازاً و(**فينة**) السّاعة والحين يقال لقيتة الفينة بعد الفينة وقد تحذف (**اللاّم**) ويقال لقيته فينة بعد فينة.

وفي بعض النّسخ الارتياد بدل (**الإرشاد**) وهو الطّلب و(**الباحة**) السّاحة والفضاء و(**الاحتشاد**) الاجتماع و(**أنف**) الشيء بضمّتين أوّله و(**الانفساح**) من الفسحة وهو السّعة و(**الحوبة**) الحالة والحاجة و(**الضّنك**) والضّيق بمعنى واحد و(**المضيق**) ما ضاق من المكان والمراد هنا القبر و(**الرّوع**) الفزع و(**زهق**) نفسه من باب منع وسمع زهوقاً خرجت وزهق الشيء بطل وهلك.

و«اقشعر جلده» أخذته قشعريرة أي رعدة و«رجفت القلوب» اضطربت و«الخطبة الغرّاء» بالغين المعجمة أي المتّصفة بالغرة قال في «القاموس»: والغرّة من المتاع خياره ومن القوم شريفهم ومن الرّجل وجهه وكلّ ما بدا لك من ضوء أو صبح فقد بدت غرته.

الإعراب

قوله: **(عباد الله)** منصوب على النّداء بحذف حرفه؛ وكذلك قوله عليه السلام: **(أولي الأبصار)**، وقوله: **(هل من مناص)** استفهام على سبيل الإنكار والإبطال، وأم في قوله **(أم لا)** منقطعة بمعنى بل فهي مثل **(أم)** في قوله:

﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

والشّاهد في الثّانيه فإنّه سبحانه بعد إبطال استواء الأعمى والبصير والظلمات والنّور أضرب عن ذلك وأخبر عن حالهم بأنّهم جعلوا لله شركاء، وكذلك الإمام عليه السلام بعد إنكار المناص والخلاص وإبطاله أضرب عن ذلك وأخبر بأنّه ليس هناك مناص ولا خلاص.

وقوله: **(فأنّى تؤفكون)**، **(أنّى)** بمعنى **(كيف)** أو بمعنى **(أين)** ومن مقدرة قبلها أي من أين تؤفكون، صرّح به نجم الأئمة الرّضي في مبحث الظروف من شرح «الكافية»، **(وذا)** في قوله **(أم بماذا تغترون)** إمّا زائدة وهو الأظهر أو بمعنى **(الذي)** كما في ماذا لقيت، **(ومنعفراً)** حال من الضّمير في قده.

وقوله: **(الآن)** من ظروف الزمان مبنيّ على الفتح واختلفوا في علّة البناء والأظهر ما قاله أبو عليّ من أنّه متضمّن لمعنى **(ال)** الحضوري لأنّ معناه الزّمن الحاضر، **(واللام)** فيه زائدة لازمة وليست للتّعريف كما توهّم السّيرافي وابن عصفور إذ لا تعرف أنّ التي للتّعريف تكون لازمة وهذه لازمة لأنّ الآن لم يسمع مجرّداً عنها، **(وكيف)** فهو مفعول فيه والعامل محذوف، والتّقدير **(اعملوا واغتنموا الفرصة الآن)**.

وجملة **(والخناق مهمل)**، في محل الانتصاب على الحال من عباد الله والعامل النّداء المحذوف لكونه في معنى الفعل، **(واللام)** في الخناق عوض عن المضاف إليه أي خناقكم على حدّ وعلّم آدم الأسماء، أي أسماء المسمّيات، وكذا في الرّوح وقوله في «فينة الإرشاد»، متعلق بقوله مرسل **(وفي)** للظرفية المجازيّة، وقيل **(الضنك)** ظرف للفعل المحذوف الذي جعلناه العامل في **(الآن)**.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل متضمّن للتذكير بحال السّلف وللأمر بالكف عن المعاصي وللحث على التّدارك للذنوب قبل الموت بتحصيل التوبة والإنابة وهو قوله:

(**عباد الله أين الذين عمروا فنعموا**) أي أعطاهم الله العمر فصاروا ناعمين أي صاحبي سعة في العيش والغذاء (**وعلموا ففهموا**) أي علمهم الأحكام ففهموا الحلال والحرام (**وانظروا**) في مدة الأجل (**فلهوا**) بطول الأمل (**وسلموا**) في العاجلة (**فنسوا**) العاجلة (**أمهلوا**) زماناً (**طويلاً**) وأمداً بعيداً (**ومنحوا**) عطاء (**جميلاً**) وعيشاً رغيداً (**وحذروا عذاباً أليماً**) وجحيماً (**ووعدوا**) ثواباً (**جسيماً**) وعظيماً (**إحذروا الذنوب المورطة**) أي المعاصي الموقعة في ورطة الهلاكة والعقاب (**والعيوب المسخطة**) أي المساويء الموجبة لغضب رب الأرباب.

(**أولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع**) وإنّما خصّ هؤلاء بالنّداء وخصّصهم بالخطاب لأنهم القابلون للاتعاظ والاذكار واللائقون للانتهار والانزجار بما أعطاهم الله من الأبصار والبصائر منحهم من الأسماع والضمائر وبذل لهم من الصّحة والسّلامة في الأجساد ومنّ به عليهم من المتاع والأموال والأولاد الموجبة للأعراض عن العقبا والرّغبة إلى الدّنيا والباعثة على ترك سبيل الرّحمٰن وسلوك سبيل الشّيطان والداعية إلى ترك الطّاعات والاقتحام في الهلكات.

ثم استفهم على سبيل التكذيب والانكار بقوله: (**هل من مناص**) من العذاب (**أو خلاص**) من العقاب (**أو معاذ**) من الوبال (**أو ملاذ**) من النكال (**أو فرار**) من الحميم (**أو محار**) من الجحيم (**أم لا وليس فأنّى تؤفكون**) وتنقلبون (**أم أين تصرفون**) وتلفتون (**أم بماذا تغترون**) وتفتنون (**وانّما حظ أحدكم من الأرض**) الغبراء (**ذات الطول والعرض**) والارجاء (**قيد قده**) وقامته (**منعفراً على خده**) ووجنته.

اعملوا (**الآن**) واغتنموا الفرصة في هذا الزّمان يا (**عباد الله والخناق مهمل والرّوح مرسل**) أي أعناق نفوسكم مهملة من الأخذ بخناق الموت وأرواحكم متروكة من الجذب بحبال الفناء والفوت (**في فينة الإرشاد**) والهداية إلى الجنان (**وراحة الأجساد**) واستراحة الأبدان (**وباحة الاحتشاد**) أي ساحة اجتماع الأشباه والأقران (**ومهل البقية وأنف المشية**) أي مهملة بقيّة الحياة وأول أزمنة الإرادات.

وأشار بذلك إلى أن اللاّزم على الإنسان أن يجعل أوّل زمان إرادته وميل خاطره إلى اكتساب الفضائل واجتناب الرّذائل وتكون همّته يومئذٍ مصروفة في اتيان الطاعات واقتناء الحسنات ليكون ما يرد على لوح نفسه من الكمالات وارداً على لوح صاف من الكدورات سالم عن رين الشّبهات إذ لو انعكس الأمر وجعل أوائل ميوله وإرادته منصرفة إلى اتيان المعاصي والخطيئات تسودّ وجه نفسه بسوء الملكات فلم يكد يقبل بعد ذلك الاستضاءة بنور الحقّ والاهتداء إلى الخيرات.

(**وإنظار التّوبة وانفساح الحوبة**) أراد به إمهال الله لهم لأجل تحصيل التوبة وإعطائه لهم

اتساع الحالة ووسعة المجال لاكتساب الحسنات والأعمال **(قبل الضّنك والمضيق)** أي قبل ضيق الزّمان ومضيق المكان **(والرّوع والزّهوق)** أي الفزع وخروج الرّوح من الأبدان **(وقبل قدوم)** الموت الذي هو **(الغائب المنتظر وأخذة)** الذي هو **(العزيز)** الغالب **(المقتدر)** فإنّه إذا قدم الموت بطل التكليف واستحال تدارك الذنوب ولا ينفع النّدامة.

ولذلك قال أبو جعفر عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الموت الموت ألا ولا بدّ من الموت، جاء الموت بما فيه جاء بالرّوح والرّاحة والكرّة المباركة إلى جنة عالية لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم، وجاء الموت بما فيه بالشّقوة والنّدامة والكرّة الخاسرة إلى نار حامية لأهل دار الغرور الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم».

ثمّ قال: «وقال إذا استحقّت ولاية الله والسّعادة جاء الأجل بين العينين وذهب الأمل وراء الظهر، وإذا استحقت ولاية الشّيطان جاء الأمل بين العينين وذهب الأجل وراء الظهر».

قال عليه السلام: «وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله أيّ المؤمنين أكيس؟ فقال: أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم له استعداداً»(١).

قال السّيد (ره) وفي الخبر أنّه لمّا خطب بهذه الخطبة اقشعرّت لها الجلود وأرعدت وبكت العيون واسكبت ورجفت القلوب واضطربت ومن النّاس من يسمّى هذه الخطبة الغرّاء.

أقول: وهي حقيقة بهذه التسمية لكونها من خيار خطبه وشرائفها ووجوهها لما تضمّنه معناها من الحكمة والموعظة الحسنة وهي كافية في «الهداية» و«الإرشاد» للطّالب الرّاغب إلى الثّواب ووافية في مقام التحذير والإنذار للهارب الرّاهب من العقاب.

ولما اشتملت عليه ألفاظها من أنواع المحسّنات البيانيّة والبديعيّة من الإنسجاء والترصيع والتجنيس والسّجع والمقابلة والموازنة والمجاز والاستعارة والكناية وغيرها.

وناهيك حسناً قوله عليه السلام في هذا الفصل: «هل من مناص أو خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو محار»، وقوله في الفصل الرّابع، «فاتقوا الله تقية من سمع فخشع واقترف فاعترف ووجل فعمل» إلى آخر ما قاله.

فانّك إذا لاحظت كلّ لفظة منها وجدتها آخذة برقبة قرينتها، جاذبة لها إليها دالّة عليها بذاتها ومحسّنات كلامه غنيّة عن الاظهار غير محتاجة إلى التّذكار إذ تكلّف الاستدلال على أنّ الشّمس مضيئة يتعب وصاحبه ينسب إلى السّفه وليس جاحداً لأمور المعلومة بالضرورة بأشد سفهاً ممّن رام الاستدلال عليها.

---

(١) الكافي: ٣/٢٥٨ ح ١٧ والأمالي: ٥٣٢.

تكملة

اعلم أن بعض فصول هذه الخطبة مروي في «البحار» من كتاب «عيون الحكمة والمواعظ» لعليّ بن محمّد الواسطي باختلاف يسير لما هنا، وهو من الفصل الخامس إلى آخرها ولا حاجة لنا إلى إيراده نعم روي كلام آخر له عليه السلام فيه من الكتاب الذي أشرنا إليه بعض فصول هذه الخطبة مدرّج فيه وأحببت ايراده لاقتضاء المقام ذلك.

قال (ره) ومن كلامه له عليه السلام: «إنّكم مخلوقون اقتداراً، ومربوبون ايتساراً» إلى آخر ما يأتي إن شاء الله في تكملة الشّرح الخطبة المائتين والرّابعة والعشرين.

الترجمة

ای بندگان خدا، کجایند آن کسانی که معمّر شدند، پس منعم شدند به ناز و نعمت و تعلیم شدند، پس فهمیدند به ذکاء و فطنت و مهلت داده شدند، پس غفلت ورزیدند از طاعت و سالم گردانیده شدند، پس فراموشی اختیار کردند بر تذکیرات. حذر نمائید از ذنوبی که می اندازد به ورطه هلاکت و از عیوبی که باعث می شود به خشم حضرت عزّت.

ای صاحبان دیده های بینا و گوش های شنوا و خداوندان سلامتی و متاع دنیا، آیا هیچ پناهگاهی هست از عذاب یا خلاصی هست از عقاب یا هیچ ملجائی هست از شدت یا ملاذی هست از عقوبت یا هیچ گریزی هست از آتش جحیم یا مرجعی هست از عذاب الیم یا اینکه چاره و علاج نیست و مفرّ و مناص نه؟

پس چگونه گردانیده می شوید از فرمان خدا؟ یا کجا صرف کرده می شوید؟ یا به چه چیز مغرور می باشید؟ و جز این نیست که نصیب هر یکی از شما از زمینی که صاحب طول است و عرض، مقدار قامت او است در حالتی که خاك آلوده باشد بر رخسار خود.

عمل بکنید و فرصت غنیمت شمارید الان ای بندگان خدا و حال آنکه آن چیزی که به آن اخذ کرده می شود گردن های نفوس شما که مرگ است واداشته شده است و روح های شما ترك کرده شده است در ساعت رشادت؛ یعنی کسب کردن چیزهایی که باعث رشد است و در راحت بدن ها و در مهلت بقیه حیات و در اول ازمنه ارادات و در مهلت دادن به جهت تحصیل توبه و در وسعت فراخی حالت پیش از زمان کوتاه و مکان تنگ و قبل از ترس و رفتن جان از بدن و پیش از آمدن غایب انتظار کشیده شده که عبارت است از موت و پیش از اخذ نمودن خدای غالب صاحب قدرت او را در سلسله عقوبت.

قال الشارح عفى الله عنه: وليكن هذا آخر ما أردنا ايراده في هذا المجلّد وهو المجلّد الثّاني من مجلّدات «منهاج البراعة في شرح النّهج»، ويتلوه إن شاء الله المجلّد الثّالث إن ساعدنا الوقت والمجال بتوفيق الله الملك المتعال، وهذه هي النسخة الأَصل التي كتبتها بيميني وأرجو من الله سبحانه أن يثبتها في صحائف أعمالي ويرجح بها ميزان حسناتي وأن يؤتيها بيميني كما أمليتها بيميني إنّه على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير، وكان الفراغ منه في فجر العشرين من شهر ربيع الآخر ١٣٠٣.

بسم الله الرحمٰن الرحيم وبه نستعين

«الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصّلاة والسّلام على عبده ورسوله محمّد حبيب الله، وعلى آله الذين فضّلهم على العالمين وجعلهم أفضل عباد الله، واختصّهم بالإمامة والولاية فصاروا أئمة الدّين وأولياء الله، وأهل بيته الذين اذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً، ولعنة الله على أعدائهم الذين جعل مأواهم جهنّم لهم فيها زفير وشهيق وساءت مقاماً ومصيراً».

وبعد فهذا هو المجلد الثالث من مجلّدات «منهاج البراعة» املاء راجي عفو ربّه الغنيّ «حبيب الله بن محمد بن هاشم الهاشمي العلوي الموسوي» أعطاه الله كتابه بيمناه، وجعل عقباه خيراً من أولاه، والمرجوّ منه سبحانه أن يمنّ عليّ باتمامه بقرب محمّد وآله.

فأقول: قال السّيّد (ره):

ومن كلام له عليه السلام في ذكر عمرو بن العاص وهو الثالث والثمانون من المختار في باب الخطب

وقد رواه غير واحد من المحدّثين على اختلاف تطلع عليه في التّذنيب الثاني إن شاء الله.

«عَجَباً لابْنِ النّابِغَةِ يَزعَمُ لأَهْلِ الشّام أَنَّ فِيَّ دُعابَةٌ وَإِنّي امْرُءٌ تِلْعابَةٌ أُعافِسُ وأُمارِسُ، لَقَدْ قالَ باطِلاً، ونَطَقَ آثِماً، أما وشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ، إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، ويَعِد فَيُخْلِفُ، ويَسْئَلُ فَيُلْحِفُ، ويُسْئَلُ فَيَبْخَلُ، ويخُونُ الْعَهْدَ، ويَقْطَعُ الإِلَّ، فَإذا كانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زاجِرٍ وآمِرٍ هُوَ مَا لَمْ يَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذا كانَ ذَلِكَ كانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سَبَّتَهُ، أَما وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعَبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلُ الْحَقِّ نِسْيَانُ الآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبايِع مُعْوِيَةَ حَتّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً، ويَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً».

اللغة

(**النّابغة**) أم عمرو بن العاص سمّيت بها لظهورها وشهرتها بالبغي، مأخوذة من نبغ الشيء نبوغاً أي ظهر و(**يزعم**) بمعنى يقول، قال الفيومي: وعليه قوله تعالى:

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ [الإسراء: ٩٢].

أي كما أخبرت قال المرزوقي: أكثر ما يستعمل الزّعم فيما كان باطلاً أو فيه ارتياب، قال الخطاني: ولهذا قيل زعم مطيّة الكذب وزعم غير مزعم قال غير مقول صالح وادّعى ما لا يمكن، وقال أبو البقاء: الزّعم بالضم اعتقاد الباطل بلا تقوّل وبالفتح اعتقاد الباطل بتقوّل، وقيل: بالفتح قول مع الظنّ وبالضم ظن بلا قول، ومن عادة العرب أن من قال كلاماً وكان عندهم كاذباً قالوا: زعم فلان قال شريح: لكلّ شيء كنية وكنية الكذب زعم، وقد جاء في القرآن في كلّ موضع ذمّاً للقائلين.

و(**الدعابة**) بضمّ (**الدال**) المزاح من دعب يدعب مثل مزح يمزح وزنا ومعنىً وفي لغة من باب تعب وفي الحديث قلت: وما الدّعابة؟ قال: هي المزاح وما يستملح و(**التلعابة**) بكسر (**التّاء**) كثير اللعب والمزاح (**والتّاء**) للمبالغة، والتّلعاب بالفتح مصدر لعب و(**العافسة**) المعالجة في الصراع من العفس وهو الجذب إلى الأرض في ضغط شديد والضرب على الأرض بالرّجل و(**الممارسة**) المعالجة والمزاولة و(**ألحف**) السائل إلحافاً ألحّ و(**الألّ**) العهد والقرابة قال تعالى:

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

و(**السبة**) الاست و(**الآتية**) كالعطية لفظاً ومعنى و(**الرضيخة**) الرّشوة من رضخ له رضخاً من باب نفع ورضيخة أعطاه شيئاً ليس بالكثير.

الإعراب

(**عجباً**) منصوب على المصدرية بحذف عامله، وجملة (**يزعم**) إمّا في محل النّصب على الحال من (**ابن النابغة**) لكونه مفعولاً بالواسطة، أو لا محلّ لها من الإعراب لكونها إستئنافاً بيانياً، فكأنّه عليه السلام سئل عن علّة التعجب فأجاب بأنه يزعم وهو الأظهر وجملة (**أعافس وأمارس**) في محل الرّفع صفة بعد صفة (**لامرء**) وهي في المعنى تأكيد لقوله تلعابة ولكمال الاتّصال بينهما ترك حرف العطف وهو من المحسّنات البيانية.

وجملة (**لقد قال باطلاً**) قسمية (**وباطلاً**) صفة لمصدر محذوف، (**وآثماً**) منصوب على الحال ويحتمل أن يكون صفة لمحذوف أيضاً أي نطق نطقاً آثماً فيكون اسناد آثماً إليه من باب التّوسع.

قوله (**فأيّ زاجر وآمر هو**)، لفظة أيّ منصوبة على الحالية وحذف عاملها للقرينة وهي اسم موضوع للدّلالة على معنى الكمال ويستعمل في مقام التّعجب، تقول: مررت برجل أيّ رجل، أي كامل في الرّجولية وبزيد أيّ رجل أي كاملاً فيها قالوا: إنّه إذا وقع بعد المعرفة فحال وإذا وقع بعد النكرة فصفة، وتقدير كلامه عليه السلام فهو زاجر أيّ زاجر.

قال الرّضي في «شرح الكافية» بعد ما حكى عنهم كون (**أي**) إسماً موضوعاً للدلالة على معنى (**في**) متبوعه: والذي يقوي عندي أن (**أيّ**) رجل لا يدلّ بالوضع على معنى (**في**) متبوعه، بل هو منقول عن (**أيّ**) الاستفهاميّة، وذلك أن الاستفهاميّة للسؤال عن التّعيين، وذلك لا يكون إلاّ عند جهالة المسؤول عنه فاستعيرت لوصف الشّيء بالكمال في معنى من المعاني والتّعجب من حاله، والجامع بينهما أن الكامل البالغ غاية الكمال بحيث يتعجب منه يكون مجهول الحال بحيث يحتاج إلى السؤال عنه.

المعنى

اعلم أن عمرو بن العاص اللّعين ابن اللّعين لمّا كان عدوّاً لأمير المؤمنين سلام الله عليه وآله، معلناً بعداوته كما كان أبوه العاص بن وائل عدواً لرسول الله صلى الله عليه وآله لا جرم كان همّة اللّعين مصروفة في الكذب والافتراء عليه عليه السلام وكان يروم بذلك أن يعيبه عند النّاس ويسقط محلته عليه السلام من القلوب ومن جملة ما افترى عليه كذباً أنه قال لأهل الشّام: إنّما أخّرنا علياً لأَنّ فيه هزلاً لاَ جِدّ معه، فنسبه عليه السلام إلى الدّعابة وكثرة المزاح كما نسبه عليه السلام إلى ذلك عمر بن الخطاب وهذه النسبة من عمرو سيّئة من سيّئات عمر.

فأراد عليه السلام بكلامه ذلك دفع هذه النسبة واثبات أنه افتراء وبهتان في حقه وذكر أوّلاً ما قاله ابن العاص ثم اتّبعه بردّه فقال:

(عجباً لابن النابغة) وإنّما كنى عنه بأمّه إذ من عادة العرب النسبة إلى الأم إذا كانت مشهورة بالخسّة والدّناءة يريدون بذلك ذمّه والقدح فيه، وقد ينسبونه إليها إذا كانت معروفة بالشّرف يريدون بذلك شرفه ومدحه **(يزعم لأهل الشّام)** ويقول لهم قصداً للقدح والتّعييب **(أنّ فيّ)** مزاح و**(دعابة وأنى امرء تلعابة)** وكثير الممازحة حتّى أنّي **(أعافس)** وأصارع **(وأمارس)** وأعالج فعل من اتّصف بفراغ القلب فاستغرق أوقاته باللّهو واللّعب، والله **(لقد قال)** قولاً **(باطلاً ونطق)** عاصياً **(آثماً)** لأنّه كذب فأذنب وافترى فعصى **(أما وشرّ القول الكذب)** والافتراء من حيث العقل والنّقل والدّين والدّنيا كما ستطلع عليه فيما عليك يتلى.

وهذا الملعون قد اتصف بذلك وبغيره ممّا يوقعه في المهالك ولقد كان جامعاً لجملة من الصّفات الخبيثة الشّيطان ومتصفاً بجملة من الرّذائل الخسيسة النّفسانية مضافة إلى ما فيه من فساد الإعتقاد والكفر والعناد وهي على ما نبّه عليها أمور:

الأول: (أنه ليقول فيكذب) ورذالة هذه الصّفة وقباحته معلومة من حيث العقل والنّقل.

أمّا العقل فلأن الوجدان شاهد بأن الكذب يوجب اسوداد لوح القلب ويمنعه من انتقاش صور الحق والصّدق فيه ويفسد المنامات والالهامات، وربما يكون سبباً لخراب البلاد وفساد أمر العباد، جالباً للعداوة والبغضاء، باعثاً على سفك الدّماء ولذلك اتفق العقلاء من المليّين وغيرهم على قبحه، وقالت المعتزلة: قبحه معلوم بالضرورة.

وأمّا النّقل فقد قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] وقال في صفة المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار» رواه في «جامع الأخبار».

وفيه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك وخرج من قلبه نتن حتّى يبلغ العرش فيلعنه حملة العرش وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية أهونها كمن يزني مع أمّه»[١].

---

(١) مستدرك الوسائل: ٩/٨٦، وبحار الأنوار: ٦٩/٢٦٣ ح ٤٨.

وقال موسى عليه السلام: يا رب أيّ عبادك خير عملاً؟ قال: من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه.

وقال العسكري عليه السلام: جعلت الخبائث كلّها في بيت وجعل مفتاحها الكذب[١].

وفي عقاب الأعمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله عزّ وجلّ جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقبال الشراب والشرّ من الشراب الكذب»[٢].

وفي «الوسائل» من «الكافي» بإسناده عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ أوّل من يُكذّب الكذّاب الله عزّ وجلّ ثم الملكان اللّذان معه ثمّ هو يعلم أنه كاذب.

وعن عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى عن أبيه عمّن ذكره عن أبي جعفر عليه السلام قال: الكذب هو خرّاب الإيمان[٣].

وعن عبيد بن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن مما أعان الله به على الكذابين النسيان.

وعن محسن بن طريف عن أبيه عمّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: من كثر كذبه ذهب بهاؤه[٤].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة وفيما أوردناه كفاية لمن له دراية وسيأتي تحقيق الكلام فيه وفي أقسامه في شرح الخطبة الخامسة والثمانين، فانتظر.

(و) الثاني: أنّه **(يعد فيخلف)** وهذا أيضاً من شئونات الكذب ففيه ما فيه وزيادة، ويقابله الوفاء وهو توأم الصدق كما قد مرّ مشروحاً في الخطبة الحادية والأربعين.

(و) الثالث: أنه **(يسأل فيلحف)** ودنائة هذه الصّفة أيضاً واضحة إذ الاصرار في المطالبة والالحاح في السّؤال من أوصاف الأرذال موجبة للإبتذال لا محالة.

(و) الرابع: أنّه **(يسأل فيبخل)** يعني أنّه يمنع السّائل وينهره ويبخل من أداء الحقوق الواجبة وصرفها في جهتها، وقد قال سبحانه:

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ١٠] وقال أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿

(١) بحار الأنوار: ٦٩/ ٢٦٣ ح ٤٨.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٣٩ ح ٧، وبحار الأنوار: ٦٩/ ٢٣٧.

(٣) الكافي: ٢/ ٣٣٩ ح ٤.

(٤) الكافي: ٢/ ٣٤١ ح ١٣، ووسائل الشيعة: ١٢/ ٢٤٤ ح ١٦٢٠٨.

لِلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥] وقال في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠] وفي سورة آل عمران: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠] وفي سورة التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٥].

روى في «الوسائل» من «الكافي» بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن جعفر عن آبائه عليهم السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام سمع رجلاً يقول: إن الشحيح أعذر من الظالم، فقال له: كذبت إن الظالم قد يتوب ويستغفر ويردّ الظلامة على أهلها، والشّحيح إذا شح منع الزكاة والصّدقة وصلة الرّحم وقرى الضيف والنفقة في سبيل الله وأبواب البرّ، وحرام على الجنّة أن يدخلها شحيح[1].

وفيه عن عبد العليّ بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أنّ البخيل من كسب مالاً من غير حلّه وأنفقه في غير حقه.

وعن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

أهو سوى الزّكاة؟ فقال: هو الرّجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة والأقل والأكثر فيصل به رحمه ويحمل به الكلّ عن قومه[2].

ويجيء اشباع الكلام في هذا المقام زيادة على ذلك في شرح المائة والتّسع من المختار في باب الخطب إن شاء الله.

(و) الخامس: أنّه **(يخون العهد)** وهي رذيلة داخلة تحت الفجور، ويقابلها الوفاء قال سبحانه:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ [النحل: ٩١-٩٢].

---

(١) الكافي: ٤/ ٤٤ ح ١، ووسائل الشيعة: ٩/ ٣٥ ح ١١٤٥٨.

(٢) وسائل الشيعة: ٦/ ٢٩ ح ٥.

وقد مضى تفصيل الكلام فيه في شرح كلماته السّابعة والسّبعين.

(و) السادس: أنه **(يقطع الألّ)** إن كان المراد بالألّ العهد فالعطف بمنزلة التّفسير وإن كان المراد به القرابة كما هو الأظهر فالمقصود به قطع الرّحم، ويقابله الصّلة وقد مضى الكلام فيهما في الفصل الثّاني من الخطبة الثالثة والعشرين.

والسابع: الجبن ويقابله الشّجاعة وإليه أشار عليه السلام بقوله **(فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو)** بالقتال وبراز الأبطال **(ما لم يأخذ السّيوف مأخذها)** والرّماح مراكزها **(فإذا كان ذلك)** والتحم الحرب وشبّ لظاها وعلا سناها **(كان أكبر مكيدته)** في الذّب عنه وأعظم حيلته في الخلاص عن حدّ السّيف والنجاة منه **(أن يمنح القوم سبّته)** كما ستطلع عليه في التّذنيب الآتي.

ثم إنّه عليه السلام رجع إلى إبطال دعوى عمرو وبيّن وجه البطلان بأمرين: **أحدهما**: راجع إليه عليه السلام وهو قوله **(أما والله إنّه ليمنعني من اللّعب ذكر الموت)** فإنّ مذاكرة الموت ومراقبة الآخرة تكون شاغلة عن الدّنيا معرضة عن الالتفات إليها وإلى شهواتها من اللّعب ونحوه لكونه وجلاً من الله ومترصّداً لهجوم الموت وهو واضح بالمشاهدة والعيان ويشهد عليه البداهة والوجدان، **وثانيها**: راجع إلى عمرو وهو قوله **(وانه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة)** فإن نسيان الآخرة يوجب صرف الهمّة إلى الدّنيا وطول الأمل فيها ويبعث على الانهماك في الشّهوات والانغمار في اللّذات ومن كان هذه حاله لا يبالي بما قال وما يقول ويقدم بدواعي شهواته الكذب على الصدق والباطل على الحق ليصل غرضه وينال مناه.

ثمّ نبّه عليه السلام على بعض ما ترتب على نسيان الآخرة بقوله **(انه لم يبايع معاوية حتى شرط له أن يؤتيه على البيعة أتية ويرضخ له على ترك الدّين)** والعدول عن الحق **(رضيخة)** فأعطاه مصر ثمناً وطعمةً على ما قد مضى مفصّلاً في شرح الفصل الثالث من فصول الخطبة السّادسة والعشرين.

تذنيبات الأول

في ذكر نسب عمرو بن العاص اللّعين ابن اللّعين عليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين أبد الآبدين وبيان بعض حالاته الدالة على كفره وشقاوته مع الإشارة إلى ما صدر عنه في صفين من كشف سوءته فأقول:

اعلم أن العاص بن وائل أباه كان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله والمعلنين له بالعداوة والأذى، وفيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى:

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر: ٩٥].

وكان يلقّب في الإسلام بالأَبتر لأَنه قال لقريش: سيموت هذا الأَبتر غداً فينقطع ذكره، يعني رسول الله ﷺ ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة، لأنه ﷺ كان يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة فكان يجعل الحجارة في طريقه ليعثر بها، وهو أحد القوم الذين خرجوا إلى زينب إبنة رسول الله ﷺ لما خرجت من مكة مهاجرة إلى المدينة فروعوها وقرعوا هودجها بكعوب الرّماح حتى أجهضت جنيناً ميتاً من أبي العاص بن الرّبيع بعلها، فلمّا بلغ ذلك رسول الله نال منه وشقّ عليه مشقّة شديدة ولعنهم، رواه الشّارح المعتزلي عن الواقدي[١].

وروي عنه وعن غيره من أهل الحديث أن عمرو بن العاص هجا رسول الله ﷺ هجا كثيراً كان تعلمه صبيان مكة فينشدونه ويصيحون رسول الله ﷺ إذا مرّ بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء فقال رسول الله ﷺ وهو يصلّي بالحجر: «اللّهمّ إن عمرو بن العاص هجاني ولست بشاعر فالعنه بعدد ما هجاني»[٢].

قال: وروى أهل الحديث أن النّضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص عمدوا إلى سلا جمل فرفعوه بينهم ووضعوا على رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد بفناء الكعبة فسال عليه فصبر ولم يرفع رأسه وبكى في سجوده ودعا عليهم فجاءت ابنته فاطمة عليها السّلام وهي باكية فاحتضنت ذلك السّلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكي فرفع رأسه ﷺ وقال: «اللهمّ عليك بقريش» قالها ثلاثاً، ثمّ قال ﷺ رافعاً صوته: «إنّي مظلوم فانتصر»[٣]، قالها ثلاثاً، ثمّ قام فدخل منزله وذلك بعد وفاة عمّه أبي طالب بشهرين.

قال: ولشدّة عداوة عمرو بن العاص رسول الله ﷺ أرسله أهل مكّة إلى النّجاشي ليزهده في الدّين وليطرد عن بلاده مهاجرة حبشة وليقتل جعفر بن أبي طالب عنده إن أمكنه قتله، فكان منه في أمر جعفر هناك ما هو مذكور مشهور في السّير.

فأما النّابغة: فقد ذكر الزمخشري في كتاب «ربيع الأبرار» قال: كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمة لرجل من عنزة فسبيت فاشتراها عبد الله بن جذعان التّيمي بمكة فكانت بغياً، ثمّ أعتقها فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب وأميّة بن خلف الجهمي وهشام بن المغيرة المخزومي وأبو سفيان بن الحرب والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد فولدت عمراً فادّعاه كلّهم فحكمت أمّه فيه فقالت: هو من العاص بن وائل، وذلك لأَن العاص بن وائل ينفق عليها كثيراً، قالوا: وكان أشبه بأبي سفيان.

قال: وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب «الأنساب» أن عمراً اختصم فيه يوم

---

(١) شرح النهج: ٦/ ٢٨٢.
(٢) الإيضاح: ٨٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٢٢٩.
(٣) بحار الأنوار: ٣٣/ ٢٢٩ ح ٥١٦.

ولادته رجلان: أبو سفيان بن الحرب والعاص بن وائل، فقيل: لتحكم أمّه فقالت أمّه: من العاص بن وائل، فقال أبو سفيان: أما أني لا أشك أني وضعته في بطن[1] أمّه فأبت إلاّ العاص فقيل لها: أبو سفيان أشرف نسباً، فقالت: ان العاص بن وائل كثير النّفقة عليّ وأبو سفيان شحيح، ففي ذلك يقول حسان بن ثابت لعمرو بن العاص حيث هجاه مكافئاً له عن هجاء رسول الله ﷺ:

أبوك أبو سفيان لا شكّ قد بدت ... لنا فيك منه بيّنات الشّمائل

ففاخر به إمّا فخرت ولا تكن ... تفاخر بالعاص الهجين بن وائل

وإنّ الّتي في ذاك يا عمر وحكمت ... فقالت رجاءً عند ذاك لنائل

من العاص عمرو تخبر النّاس كلما ... تجمعت الأقوام عند المحافل

وفي «البحار» من «الاحتجاج» في حديث طويل قال الحسن عليه السلام مخاطباً لابن العاص: وأما أنت يا عمرو بن العاص الشّاني اللّعين الأبتر فإنما أنت كلب أوّل أمرك امّك لبغية أنّك ولدت على فراش مشترك فتحاكمت فيك رجال قريش منهم أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وعثمان بن الحارث والنّضر بن الحارث بن كلدة والعاص بن وائل كلّهم يزعم أنك ابنه فغلبهم عليك من بين قريش الأمهم حسباً وأخبثهم منصباً وأعظمهم بغية ثمّ قمت خطيباً وقلت أنا شانيء محمّد، وقال العاص بن وائل: إنّ محمّداً رجل أبتر لا ولد له فلو قد مات انقطع ذكره فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣].

وكانت أمّك تمشي إلى عبد قيس يطلب البغية تأتيهم في دورهم وفي رحالهم وبطون أوديتهم، ثمّ كنت في كلّ مشهد يشهده رسول الله ﷺ من عدوّه أشدّهم له عداوة وأشدّهم له تكذيباً، الحديث.

وفي «البحار» من كتاب سليم بن قيس الهلالي عن أبان بن أبي عيّاش عن سليم قال: إن عمرو بن العاص خطب الناس بالشّام فقال: بعثني رسول الله ﷺ على جيش فيه أبو بكر وعمر فظننت أنّه إنّما بعثني لكرامتي عليه فلمّا قدمت قلت يا رسول الله أي الناس أحبّ إليك؟ فقال ﷺ: عائشة، فقلت: من الرّجال؟ قال: أبوها، وهذا عليّ يطعن على أبي بكر وعمر وعثمان، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله ضرب بالحقّ على لسان عمر وقلبه، وقال في عثمان: إنّ الملائكة تستحيي من عثمان.

(١) في نسخة: رحم.

وقد سمعت عليّاً وإلاّ فصمّتا يعني أذنيه يروى على عهد عمر أنّ نبي الله نظر إلى أبي بكر وعمر مقبلين، فقال: يا عليّ هذان سيّدا كهول أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين ما خلا النّبيين منهم والمرسلين ولا تحدثهما بذلك فيهلكا.

فقام عليّ عليه السلام فقال: «العجب لطغاة أهل الشّام حيث يقبلون قول عمرو ويصدقونه وقد بلغ من حديثه وكذبه وقلة ورعه أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله سبعين لعنة ولعن صاحبه الذي يدعو إليه في غير موطن».

وذلك أنّه هجا رسول الله صلى الله عليه وآله بقصيدة سبعين بيتاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللّهم إنّي لا أقول الشّعر ولا أحلّه فالعنه أنت وملائكتك بكلّ بيت لعنة تترى على عقبه إلى يوم القيامة»[1].

ثمّ لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إن محمّداً قد صار أبتر لا عقب له وإنّي لأشنأ الناس له وأقولهم فيه سوء فأنزل فيه:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣].

يعني هو الأبتر من الايمان من كلّ خير ما لقيت من هذه الأمة من كذابيها ومنافقيها لكأنّي بالقراء الضعفة المتهجدين رووا حديثه وصدّقوه فيه واحتجّوا علينا أهل البيت بكذبه: انا نقول خير هذه الأمة أبو بكر وعمر ولو شئت لسمّيت الثالث، والله ما أراد بقوله في عائشة وانتهى الإرضاء معاوية بسخط الله عزّ وجلّ، ولقد استرضاه بسخط الله.

وأمّا حديثه الذي يزعم أنّه سمعه منّي فلا والذي فلق الحبّة وبرىء النسمة ليعلم أنّه قد كذب عليّ يقيناً وأنّ الله لم يسمعه منّي سرّاً ولا جهراً، اللهمّ إلعن عمراً والعن معاوية بصدّهما عن سبيلك وكذبهما على كتابك واستخفافهما نبيّك صلى الله عليه وآله وكذبهما عليه وعليّ.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد وفيه عمرو بن العاص والحكم بن أبي العاص قال عمرو: يا أبا الأبتر وكان الرّجل في الجاهليّة إذا لم يكن له ولد سمي ابتر ثمّ قال عمرو: إنّي لأشنأ محمّداً أي ابغضه فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] إلى قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣].

أي مبغضك عمرو بن العاص لا دين له ولا حسب، وبما ذكر كلّه ظهر كفر ابن العاص اللّعين وكفر أبيه كما ظهر عداوته لأمير المؤمنين عليه السلام وبغضه وهو ليس ببعيد من أولاد الزنا ولنعم ما قال الشّاعر:

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٢٢٤ ح ٥١٣، وكتاب سليم بن قيس: ٢٧٨.

بحبّ عليّ تزول الشكوك وتزكو النفوس وتصفو البخار
ومهما رأيت محبّاً له فثمّ الذّكاء (الزكاء) وثمّ الفخار
ومهما رأيت عدوّاً له ففي أصله نسب مستعار
فلا تعذلوه على فعله فحيطان دار أبيه قصار

وأمّا خبر عمرو في صفين ففي «البحار» من «المناقب» وبرز أمير المؤمنين عليه السلام ودعا معاوية قال: واسألك أن تحقن الدّماء وتبرز إليّ وأبرز إليك فيكون الأمر لمن غلب[1]، فبهت معاوية ولم ينطق بحرف، فحمل أمير المؤمنين عليه السلام على الميمنة فأزالها، ثمّ حمل على الميسر فطحنها، ثمّ حمل على القلب وقتل منهم جماعة وأنشد:

فهل لك في أبي حسن عليّ لعلّ الله يمكن من قفاكا
دعاك إلى البراز فعكت عنه ولو بارزته تربت يداكا

فانصرف أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ برز متنكراً فخرج عمرو بن العاص مرتجزاً:

يا قادة الكوفة من أهل الفتن يا قاتلي عثمان ذاك المؤتمن
كفى بهذا حزناً عن الحزن أضربكم ولا أرى أبا الحسن

فتناكل عنه عليّ عليه السلام حتّى تبعه عمرو ثمّ ارتجز:

أن الغلام القرشي المؤتمن الماجد الأبيض ليث كالشّطن
يرضى به السادة من أهل اليمن أبو الحسين فاعلمن أبو الحسن

فولّى عمرو هارباً فطعنه أمير المؤمنين عليه السلام فوقعت في ذيل درعه فاستلقا على قفاه وأبدا عورته فصفح عليه السلام استحياء وتكرّما، فقال معاوية: أحمد الله عافاك وأحمد استك الذي وقاك، قال أبو نواس:

فلا خير في دفع الرّدى بمذلة كما ردّها يوماً بسوءته عمرو

قال وبرز عليّ عليه السلام ودعا معاوية فنكل عنه فخرج بسر بن أرطاة يطمع في عليّ عليه السلام فصرعه أمير المؤمنين فاستلقى على قفاه وكشف عن عورته فانصرف عنه عليّ عليه السلام فقالوا: ويلكم يا أهل الشّام أما تستحيون من معاملة المخانيث لقد علّمكم رأس المخانيث عمرو، ولقد روى هذه السّيرة عن أبيه عن جدّه في «كشف الأستاه» وسط عرصة الحروب.

قال الشّارح المعتزلي: وللشعراء فيهما أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب منها

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٥٨٤، والأنوار العلوية: ٢٣٧.

فيما ذكر الكلبي والمدائني قول الحرث بن نضر الخثعمي وكان عدواً لعمرو بن العاص وبسر بن أرطاة:

أفي كل يوم فارس ليس يتقي ... وعورته وسط العجاجة بادية
يكف لها عنه عليّ سنانه ... ويضحك منه في الخلاء معاوية
بدت أمس من عمرو فقنع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذ وحاذية
فقولا لعمرو ثمّ بسرألا أنظرا ... سبيلكما لا تلقيا اللّيث ثانية
ولا تحمدا إلاّ الحيا وخصاكما ... هما كانتا والله للنّفس واقية
ولولاهما لم تنجوا من سنانه ... وتلك بما فيها من العود ماهية
متى تلفيا الخيل المشيحة صيحة ... وفيها عليّ فاتركا الخيل ناحية
وكونا بعيداً حيث لا يبلغ القنا ... نحوركما إنّ التجارب كافية

قال نضر بن مزاحم: حدثنا عمرو بن شمر عن النخعي عن ابن عبّاس قال: تعرض عمرو بن العاص لعليّ عليه السلام يوماً من أيّام صفّين وظن أنّه يطمع منه في غرّة فيصيبه فحمل عليّ عليه السلام فلمّا كاد أن يخالطه أذرى نفسه عن فرسه ودفع ثوبه وشفر برجله فبدت عورته فضرب عليه السلام وجهه عنه وقام معفراً بالتراب هازماً على رجليه معتصماً بصفوفه فقال أهل العراق: يا أمير المؤمنين أفلت الرّجل، فقال عليه السلام أتدرون من هو؟ قالوا: لا، قال عليه السلام: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بسوءة فصرفت وجهي عنه، ورجع عمرو إلى معاوية فقال: ما صنعت يا أبا عبد الله؟ فقال: لقيني عليّ فصرعني قال: إحمد الله وعورتك، والله إنّي لأظنك لو عرفته لما أقمحت عليه، وقال معاوية في ذلك:

ألا لله من هفوات عمرو ... يعاتبني على تركي برازي
فقد لاقى أبا حسن عليّاً ... فآب الوائليّ مآب خازى
فلو لم يبد عورته لطارت ... بمهجته قوادم أيّ بازي
فإن تكن المنيّة أخطأته ... فقد غنى بها أهل الحجاز

وروى الواقدي قال: قال معاوية يوماً بعد استقرار الخلافة لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله لا أراك إلاّ ويغلبني الضّحك، قال: بماذا؟ قال: ذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفّين فأذريت نفسك فرقاً من شبا سنانه وكشفت سؤتك له، فقال عمرو: أنا منك أشدّ ضحكاً إني لا أذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ منخرك وربا لسانك في فمك وعصب ريقك وارتعدت فرائصك وبدا منك ما أكره ذكره، فقال معاوية: لم يكن هذا كله وكيف يكون ودوني عمّك والأشعرون، قال: إنّك لتعلم أنّ الذي وضعت دون ما أصابك وقد نزل ذلك بك ودونك

عمك والأشعرون فكيف كانت حالك لوجمعكما مآقط الحرب؟ قال: يا أبا عبد الله خض بنا الهزل إلى الجدّ إن الجبن والفرار من عليّ لا عار على أحد فيهما(١).

الثاني

إعلم أن ما رواه السّيد (ره) من كلامه عليه السلام مرويّ في غير واحد من الكتب المعتبرة، ففي «الاحتجاج» مثل الكتاب، وفي «البحار» من «أمالي المفيد» عن محمّد بن عمران عن الحسن بن عليّ عن أحمد بن سعيد عن الزبير بن بكار عن عليّ بن محمّد قال: كان عمرو بن العاص يقول: إنّ في عليّ دعابة، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «زعم ابن النابغة إنى تلعابة مزاحة ذو دعابة أعافس وأمارس، هيهات يمنع من العفاس والمراس ذكر الموت وخوف البعث والحساب ومن كان له قلب ففي هذا عن هذاله واعظ وزاجر، أما وشر القول الكذب وإنّه ليحدث فيكذب ويعد فيحلف فإذا كان يوم البأس فأيّ زاجر وأين هو ما لم يأخذ السيوف هام الرّجال، فإذا كان ذلك فأعظم مكيدته في نفسه أن يمنح القوم استه(٢).

وفيه من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمّد الثقفي قال: بلغ علياً عليه السلام أن ابن العاص ينتقصه عند أهل الشام، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: يا عجباً عجباً لا ينقضي لابن النابغة يزعم لأهل الشام، إلى آخر الكلام وجمع بين الرّوايتين.

وكيف كان فقد ظهر وتحقق من هذه الرّوايات وممّا قدمناه في التذنيب الأوّل أن نسبة ابن العاص له عليه السلام إلى الدعابة كان منشأها شدّة العناد والعداوة كما قد ظهر كذب اللّعين ابن اللّعين في ذلك بتكذيبه له عليه السلام مع ما ذكره عليه السلام من البيّنة والبرهان على كذبه، وهو أن من كان قلبه مستغرقاً بذكر الآخرة وما فيها لا يكون له فراغ إلى التلفت إلى الدّنيا ومالها.

قال الشّارح المعتزلي: وأنت إذا تأمّلت حال عليّ عليه السلام في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وجدته بعيداً عن أن ينسب إلى الدّعابة والمزاح لأنّه لم ينقل عنه شيء من ذلك أصلاً لا في الشّيعة ولا في كتب المحدّثين، وكذلك إذا تأمّلت حاله في أيام أبي بكر وعمر لم تجد في كتب السيرة حديثاً واحداً يمكن أن يتعلّق به متعلّق في دعابته ومزاحه إلى أن قال:

ولعمر الله لقد كان أبعد من ذلك وأيّ وقت كان يتسع لعليّ عليه السلام حتّى يكون فيه على الصّفات، فإن زمانه كلها في العبادة والذكر والصّلاة والفتاوى والعلم واختلاف النّاس إليه في الأحكام وتفسير القرآن، ونهاره كلّه أو معظمه مشغول بالصّوم، وليله كلّه أو معظمه مشغول بالصّلاة، هذا في أيّام سلمه، فأمّا أيّام حربه فالسّيف الشّهير والنّشاب الطّرير وركوب الخيل وقود الجيش ومباشرة الحروب.

---

(١) الغدير: ٢/ ١٦٤.

(٢) الأمالي: ١٣٢، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٢٢٣ ح ٥١١.

ولقد صدق عليه السلام في قوله إنّه ليمنعني من اللّعب ذكر الموت ولكن الرّجل الشريف النبيل الذي لا يستطيع أعداؤه أن يذكروا له عيباً أو يعدوا عليه وصمة لا بد أن يحتالوا ويبذلوا جهدهم في تحصيل أمرٍ ما وإن ضعف يجعلون عذراً له في دمه ويتوسلون به على أتباعهم في تحسينهم لهم مفارقته والإنحراف عنه، وما زال المشركون والمنافقون يضعون لرسول الله صلى الله عليه وآله الموضوعات وينسبون إليه ما قد برأه الله عنه من العيوب والمطاعن في حياته وبعد وفاته إلى زماننا هذا، وما يزيده الله سبحانه إلا رفعة وعلوّاً.

فغير منكر أن يعيب علياً عليه السلام عمرو بن العاص وأمثاله من أعدائه بما إذا تأمله المتأمل علم أنّهم باعتمادهم وتعلّقهم به قد اجتهدوا في مدحه والثناء عليه لأنهم لو وجدوا غيره عيباً لذكروه[١].

أقول: ولعلّه إلى ذلك ينظر الشاعر في قوله:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأنّي كامل

ولعمري أنّه لا بيان فوق ما أتى به الشارح من البيان في توضيح براءة ساحته عليه السلام مما قاله ابن العاص في حقه من الكذب والبهتان إلاّ أنّه لو أنصف لعلم أن كلّ الصّيد في جوف الفرا، وأن أوّل من فتح أمثال ذلك الباب لابن العاص ونظرائه هو عمر بن الخطاب إذ هو أوّل من صدر عنه هذه اللّفظة فحذا ابن العاص حذوه كما سبق ذلك في التذييل الثاني من تذييلات الفصل الثالث من فصول الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقيّة.

وقد اعترف به الشّارح نفسه أيضاً هٰهنا حيث قال: وأمّا ما كان يقوله عمرو بن العاص في عليّ لأهل الشام: إن فيه دعابة، يروم أن يعيبه بذلك عندهم فأصل ذلك كلمة قالها عمر فتلقفها أعداؤه حتّى جعلها أعداؤه عيباً له وطعناً عليه.

واستند في ذلك إلى رواية أحمد بن يحيى في كتاب «الأمالي» قال: كان عبد الله بن عبّاس عند عمر فتنفّس عمر نفساً عالياً قال ابن عبّاس حتّى ظننت أنّ أضلاعه قد انفرجت فقلت له: ما أخرج هذا النّفس منك يا أمير المؤمنين إلاّ همّ شديد؟ قال: أي والله يا ابن عبّاس فكرت فلم أدر فيمن أجعل هذا الأمر بعدي، ثمّ قال: لعلّك ترى صاحبك لها أهلاً؟ قلت: وما يمنعه من ذلك من جهاده وسابقته وقرابته وعلمه قال: صدقت ولكنه امرء فيه دعابة.

ثمّ ذكر الخمسة الباقية من أمر أهل الشورى وأثبت لكلّ منهم عيباً نحو ما تقدّم ذكره في شرح الخطبة الشقشقية ثمّ قال: إنّ أحراهم أن يحملهم على كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم لصاحبك والله لئن وليها ليحملنّهم على المحجّة البيضاء والصّراط المستقيم[٢].

---

(١) شرح النهج: ٦/٣٢٩.

(٢) شرح النهج: ٦/٣٢٧، وعمر بن الخطاب: ٢١٠.

ثمّ اعتذر الشارح عن جانب عمر بأن عمر لما كان شديد الغلظة، وعر الجانب خشن الملمس، دائم العبوس، كان يعتقد أن ذلك هو الفضيلة وأن خلافه نقص ولو كان سهلاً طلقاً مطبوعاً على البشاشة وسماحة الخلق لكان يعتقد أن ذاك هو الفضيلة وأن خلافه نقص حتى لو قدّرنا أن خلقه حاصل لعليّ وخلق عليّ عليه السلام حاصل له لقال في علي لولا شراسة فيه، فهو غير ملوم عندي فيما قاله ولا منسوب إلى أنّه أراد الغض من عليّ عليه السلام والقدح فيه ولكنه أخبر عن خلقه ظانّاً أن الخلافة لا تصلح إلاّ للشديد الشكيمة العظيم الوعورة.

إلى أن قال: وجملة الأمر أنّه لم يقصد عيب عليّ عليه السلام ولا كان عنده معيباً ولا منقوصاً، ألا ترى أنه قال في آخر الخبر أن أحراهم أن يحملهم على كتاب الله وسنّة رسوله لصاحبك، ثمّ أكد ذلك بأن قال لئن وليهم ليحملنّهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم، فلو كان أطلق تلك اللّفظة وعنى بها ما حملها عليه الخصوم لم يقل في خاتمة كلامه ما قاله، انتهى ما أردنا إيراده من كلامه.

وأقول: لا أدري إلى من يتعصّب هذا الرّجل في حق عمر؟ وحتّام يستصلح عثراته؟ وأيّ شيء رأى منه حتّى اغتر به؟ وأيّ داع له إلى تأويل كلامه؟ فإن لفظة الدّعابة في كلام ابن العاص وابن الخطاب واحدة فلم يبقيها في حق ابن العاص على ظاهرها ويجريها على أقبح وجهها ويأوّلها في حق ابن الخطاب ويخرّجها على أحسن وجهها مع أن الشمس لا يستر بالحجاب والحقّ لا يخفى على أولي الألباب.

وأهل المعرفة يعرف أن كلّ ما يتوجّه في هذا الباب على ابن العاص يتوجه على ابن الخطاب بل وزيادة إذ هو أوّل من صدر عنه هذا التشنيع وأوّل من اتهمه عليه السلام بهذا الأمر الفظيع.

ثمّ أقول: كيف خفي عن الشارح التناقض في كلام عمر مع وضوحه حيث إنّه صدق ابن عبّاس أوّلاً في كون أمير المؤمنين عليه السلام أهلاً للخلافة إلاّ أنّه استدرك بقوله: ولكنه فيه دعابة فجعل الدعابة مانعة له عنها موجبة لسقوطه عن أهليّتها وذلك يناقض صريحاً قوله في آخر الرّواية لئن وليها ليحملنّهم على المحجة البيضاء.

وبعبارة أخرى إن كانت الدّعابة التي نسبها إليه عليه السلام أمراً خارجاً عن حدّ الاعتدال مخالفاً للشريعة الغراء كيف يمكن معها حمل الناس على المحجّة البيضاء وعلى الكتاب والسّنة والطريقة المستقيمة وإن لم يكن أمراً منافياً لحملهم على ما ذكر فأي مانعية له عن استحقاق الخلافة والولاية.

وأمّا ما اعتذر به الشارح من أن عمر إنّما قال ذلك بمقتضى شدّة غلظته وخشونة جبلته ظانّاً أن الخلافة لا تصلح إلاّ للشديد الشكيمة العظيم الوعورة.

ففيه أن الشدّة والغلظة لو كانت شرطاً للخلافة كما ظنه عمر لوجب أن يكون شرطاً للنبوة بطريق أولى مع أنه سبحانه قال:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومدح نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

فاللازم لعمر الذي جعلوه خليفتهم أن يكون سيره وسلوكه على طبق الكتاب لا أن ينبذ الكتاب وراء ظهره ويتكلّم بمقتضى طبيعته وبجانب الاقتداء بنبيّه ﷺ في أفعاله وأعماله[١].

والإنصاف أن من لاحظ وجنات حال عمر يعرف أن كلّ ما صدر عنه من الأقوال والأفعال أو أغلبه كان ناشئاً من فرط قوته الغضبية والشهوية ومقتضى هوى نفسه الأمارة، ولم يكن ملاحظاً جانب الشريعة وقدّماً لها على دواعي نفسه ومقتضى جبلته، بل من راجع محاوراته عرف أنّه كان مثل حيّة سمّه في لسانه تلسع المخالف والمؤالف، وعقرب عوجاء لا تفرق بين البرّ والفاجر.

وكفى بذلك شاهداً ما قاله لرسول الله ﷺ حين وفاته ﷺ على ما قدّمناه مفصّلاً في شرح الكلام السّادس والسّتين في التّنبيه الثاني منه، وما قاله لأهل الشّورى حين وصيّته كما مرّ في ثاني تذييلات الفصل الثالث من شرح الخطبة الثّالثة، وما توعد به جبلة بن الأيهم حتى عاد إلى النّصرانية حسب ما مر في شرح الفصل الثّاني من الخطبة الثالثة ومرّ هناك أيضاً أن ابن عبّاس أضمر بطلان القول بالعول في حياته وأظهره بعد وفاته خوفاً منه وأنّه أساء الأدب في الكلام بالنسبة إلى رسول الله ﷺ في صلح الحديبيّة إلى غير ذلك ممّا لو أردنا إشباع الكلام فيها لطال.

ويؤيد ذلك كلّه ما رواه الشّارح في شرح هذا الكلام من أنه إذا غضب على أهله لم يسكن غضبه حتّى يعضّ يده عضاً شديداً حتى يدميها.

وبعد ذلك كلّه لا يكاد ينقضي عجبي من الشّارح وأمثاله حيث إنّهم يوردون مثل ما أوردناه في كتبهم ويذكرون مثالب عمر ومطاعنه ثم يغمضون عنها ولا يعرفون مع فضلهم وزكائهم في العلوم أن أدنى شيء من ذلك يوجب سقوط الرّجل عن مرتبة الكمال وعن درجة القبول والإعتبار فكيف بذلك كلّه وكيف بمرتبة الخلافة ومنصب الولاية.

ولا أدري بأي مناقبه يجعلونه قابلاً لولاية الله، ومستحقاً لخلافة رسول الله، ولائقاً لرئاسة الدّين، وأهلاً لأمارة المؤمنين أبحسن حاله؟ أم مزيد كماله؟ أم شرافة نسبه؟ أم كرامة

(١) في نسخة: وأخلاقه.

حسبه؟ أم عذوبة لسانه؟ أم فصاحة بيانه؟ أم علوّ قدره؟ أم طهارة مولده؟ أم كثرة علمه؟ أم وفور فضله؟

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

الثالث

في تحقيق الكلام في جواز المزاح وعدمه فأقول إنّ الأَخبار في طرفي النفي والإثبات كثيرة جداً إلاّ أن مقتضى الجمع بينها هو حمل أدلة النفي على الكثير منه الخارج عن حدّ الإعتدال وأدلّة الجواز على القليل كما قال الشّاعر:

أفد طبعك المصدود بالجد راحة يجمّ[1] وعلله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطي الطّعام من الملح

ويدلّ على هذا الجمع الأَدلة المفصلة والسّيرة المستمرة، فإنّ المشاهد من حالات النّبي ﷺ والأَئمة أنهم كانوا قد يمزحون إدخالاً للسّرور في قلب المؤمنين ومداراة للخلق ومخالطة معهم أو نحو ذلك، وكذلك نوّابهم القائمون مقامهم من المجتهدين والعلماء العاملين، فإنّهم مع كثرة زهدهم وشدّة ورعهم ربما يمزحون ويدعبون.

وبالجملة فالحق في المقام هو الجواز في الجملة للأَدلة الدّالة على ذلك قولاً وفعلاً وتقريراً.

فمنها ما في «الوسائل» عن الكلينيّ بإسناده عن معمّر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام فقلت جعلت فداك الرّجل يكون مع القوم فيجري بينهم كلام يمزحون ويضحكون، فقال: لا بأس ما لم يكن، فظننت أنه عنى الفحش ثمّ قال: إنّ رسول الله ﷺ كان يأتيه الأَعرابي فيأتي إليه الهدية ثمّ يقول مكانه أعطنا ثمن هديتنا فيضحك رسول الله ﷺ وكان إذا اغتم يقول ما فعل الأَعرابي ليته أتانا[2].

وعن إبراهيم بن مهزم عمّن ذكره عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال: كان يحيى بن زكريّا يبكي ولا يضحك، وكان عيسى ابن مريم يضحك ويبكي، وكان الذي يصنع عيسى عليه السلام أفضل من الذي كان يصنع يحيى عليه السلام[3].

---

(١) يجم: أي يستريح.

(٢) شرح أصول الكافي: ١١/١٤٤ ح ١، وميزان الحكمة: ٤/٢٨٩٦.

(٣) الكافي: ٢/٦٦٥ ح ٢٠، وبحار الأنوار: ١٤/١١٨.

وعن الفضل بن أبي قرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: ما من مؤمن إلاّ وفيه دعابة، قلت: وما الدّعابة؟ قال: المزاح.

وعن يونس بن الشيباني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟ قلت: قليل قال: فلا تفعلوا فإن المداعبة من حسن الخلق وإنّك لتدخل بها السّرور على أخيك، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يداعب الرّجل يريد أن يسرّه[١].

أقول: ويستفاد من هذه الرّواية استحبا بها لشمول أدلّة استحباب حسن الخلق وإدخال السّرور في قلب المؤمن عليها.

روى في «الوسائل» عن الصّدوق في المجالس مسنداً عن محمّد بن علي الرّضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللّقاء فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوها بأخلاقكم[٢].

وفي «شرح المعتزلي» روى الناس قاطبة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني أمزح ولا أقول إلاّ حقاً.

وفيه أتت عجوز من الأنصار إليه صلى الله عليه وآله فسألته أن يدعو الله تعالى لها بالجنّة فقال صلى الله عليه وآله: إنّ الجنّة لا تدخلها العجز، فصاحت فتبسّم عليه السلام فقال:

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٦].

قال وكان صلى الله عليه وآله يمازح ابني بنته مزاحاً مشهوراً وكان يأخذ الحسين عليه السلام فيجعله على بطنه وهو صلى الله عليه وآله نائم على ظهره ويقول ترّقه ترقه ترّق عين بقّة[٣].

قال: وجاء في الخبر أن يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام وعيسى مبتسم فقال يحيى: ما لي أراك لاهياً كأنّك آمن، فقال أراك عابساً كأنّك آيس فقال: لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي فأوحى الله إليهما أحبّكما إليّ الطّلق البسام أحسنكم ظنّاً بي.

قال: ورأى نعيمان يبيع أعرابي عكّة عسل فاشتراها منه فجاءها إلى بيت عائشة في يومها، وقال: خذوها فظنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أهداها إليه ومضى نعيمان فنزل الأعرابي على

---

(١) الكافي: ٢/٦٦٣ ح ٣، ووسائل الشيعة: ١٢/١١٣.
(٢) الكافي: ٢/١٠٣ ح ١.
(٣) كفاية الأثر: ٨٥.

الباب فلما طال قعوده نادى يا هؤلاء إمّا أن تعطونا ثمن العسل أو تردّوه علينا، فعلم رسول الله ﷺ بالقصة وأعطى الأعرابي الثمن وقال ﷺ لنعيمان: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيتك يا رسول الله تحب العسل ورأيت العكّة مع الأعرابي، فضحك رسول الله ﷺ ولم ينكر(١).

وفي «زهر الرّبيع» تأليف السّيد نعمة الله الجزائري «قده» روي أنه كان يأكل رطباً مع ابن عمه أمير المؤمنين عليه السلام وكان يضع النوى قدام علي عليه السلام فلما فرغا من الأكل كان النّوى مجتمعاً عنده، فقال ﷺ: «يا علي إنّك لأكول»، فقال: «يا رسول الله الأكول من يأكل الرطب والنواة».

وروى أنه أتته امرأة في حاجة لزوجها فقال لها: ومن زوجك؟ قالت: فلان فقال ﷺ: «الذي في عينه بياض» فقالت: لا، فقال: بلى فانصرفت عجلا إلى زوجها وجعلت تتأمّل عينه فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: أخبرني رسول الله ﷺ إن في عينك بياضاً، فقال: أما ترين بياض عيني أكثر من سواده؟

قال: واستدبر ﷺ رجلاً من وراءه وأخذ بعضده وقال من يشتري هذا العبد يعني أنه عبد الله.

وقال: قال ﷺ لرجل: «لا تنس يا ذا الأذنين».

ورأى جملاً يمشي وعليه حنطة فقال ﷺ: «تمشي الهريسة».

وجاء أعرابي فقال: يا رسول الله ﷺ بلغنا أنّ الدّجال يأتي بالثريد وقد هلكوا جميعاً جوعاً أفترى بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففا؟ فضحك رسول الله ﷺ ثمّ قال: بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين.

وقبل خالد القسري خد امرأة فشكت إلى النّبيّ ﷺ فأرسل إليه فاعترف وقال: إن شاءت أن تقتصّ فلتقتصّ فإن من دينك القصاص فتبسّم رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: أو لا تعود: فقال: لا والله يا رسول الله فعفى ﷺ.

وقال رجل: إحملني يا رسول الله، فقال ﷺ «أنا حاملوك على ولد ناقة» فقال: ما أصنع بولد ناقة؟ قال ﷺ: «وهل يلد الإبل إلاّ النّوق؟»

---

(١) مستدرك الوسائل: ٨/٤١٣، ومناقب آل أبي طالب: ١/١٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/٢٩٤ ح ١.

الرابع

في طائفة من طرائف الكلم وظرائف الحكم ونوادر الأخبار، وغرائب الآثار، أردت أن أوردها هنا ليرتفع بها الكلال ويرجع إليها عند الملال، فإن القلوب قد تمل والأرواح تكلّ كما تكلّ الأبدان فتحتاج إلى التنزه والارتياح والتفرج والسّراح.

فأقول: روي إن أبا حنيفة قال يوماً لمؤمن الطاق: يا أبا جعفر أنت قائل بالرّجعة؟ قال: نعم، قال: فاقرض لي خمسمائة دينار أؤدّيك في الرّجعة، فأجاب «ره» إن من جملة أحكام الرجعة عندنا أن بعض مبغضي آل محمّد سلام الله عليه وعليهم يرجعون بصورة الكلاب والخنازير فلا بد أن تؤتيني ضامناً على أنك ترجع بصورة الإنسان وأخاف أن ترجع بصورة الخنزير.

وقال أيضاً له يوماً: يا أبا جعفر لو كان لعلي حق في الخلافة فلم لم يطالبها؟ قال: خاف أن يقتلها الأجنّة بحماية أبي بكر وعمر كما قتلت سعد بن عبادة.

قال الراغب في المحاضرات: إن بقزوين قرية أهلها متناهون بالتشيّع فمرّ بهم رجل فسألوه عن إسمه فقال: عمر، فضربوه ضرباً شديداً، فقال: ليس اسمي عمر بل عمران، فقالوا: هذا أشد من الأوّل فإن فيه عمر وحرفان من عثمان فهو أحق بالضّرب.

ومضى رجل إلى بغداد فاتّهموه بسب الشيخين فأخذوه إلى القاضي فسأله القاضي، فقال: كذبوا عليّ أنا رجل عاقل أعرف أن هذه البلاد بلاد أهل الخلاف لا ينبغي اللعن والسب والطّعن فيها هذا شيء يجوز في بلادنا أمّا هذه البلاد فلا وكان القاضي منصفاً فضحك وخلاّه.

روى في «حواشي المغني» عن أبي بكر الأنباري بسنده إلى هشام بن الكلبيّ قال: عاش عبيد بن شرية الجرهمي ثلاث مائة سنة وأدرك الإسلام فأسلم ودخل على معاوية بالشّام وهو خليفة، فقال: حدّثني بأعجب ما رأيت، فقال: مررت ذات يوم بقوم يدفنون ميّتاً لهم فلما انتهيت إليهم إغرورقت عيناي بالدّموع فتمثّلت بقول الشّاعر:

يا قلب إنّك من أسماء مغرور — فاذكر وهل ينفعنك اليوم تذكير
قد بحت بالحبّ ما تخفيه من أحدٍ — حتى جرت لك إطلاقاً محاضير
تبغي أموراً فما تدري أعاجلها — أدنى لرشدك أم ما فيه تأخير
فاستقدر الله خيراً وأرضين به — فبينما العسر إذ دارت مياسير
وبينما المرء في الأحياء مغتبط — إذ صار في الرّمس يعفوه الأعاصير
يبكي عليه الغريب ليس يعرفه — وذو قرابته في الحيّ مسرور

قال: فقال لي رجل: أتعرف من قال هذا الشعر؟ قلت: لا، قال: إن قائله هو الذي

دفناه السّاعة وأنت الغريب تبكي عليه ولا تعرفه، وهذا الذي خرج من قبره أمسّ الناس رحماً به وأسرّهم بموته فقال له معاوية: لقد رأيت عجباً، فمن الميت قال: هو عنتر بن لبيد الغدري.

روى أن مؤمن الطاق كان بينه وبين أبي حنيفة مزاح وكان يمشي معه يوماً فنادى رجل: من يدلّني على صبيّ ضال؟ فقال مؤمن الطّاق أمّا الصبي الضّالّ فلا أدري إن كنت تبغي الشيخ الضّال فهو هذا، وأشار إلى أبي حنيفة.

وقيل إن أبا حنيفة كان جالساً مع أصحابه فجاء مؤمن الطاق فقال أبو حنيفة لأَصحابه: جاءكم الشيطان وسمعه مؤمن الطّاق فقرأ:

﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣].

أقول: مؤمن الطاق لقب هشام بن الحكم عند الشيعة وهو من أصحاب الصّادق عليه السلام ويسمونه المخالفون شيطان الطاق وله بسطة يد في المناظرات.

قيل: مكتوب في خاتمة التوراة هذه الكلمات: كلّ غنيّ لا راحة له من ماله فهو والأجير سواء، وكل امرأة لا تجالس في بيتها فهي والأمة سواء، وكلّ فقير تواضع الأَغنياء لغناه فهو والكلب سواء، وكلّ ملكٍ لا عدل له فهو وفرعون سواء وكلّ عالم لا يعمل بعلمه فهو وإبليس سواء.

المدائني، رأيت رجلاً يطوف بين الصّفا والمروة على بغل ثمّ رأيته راجلاً في سفر فقلت له: تمشي ويركب الناس؟ فقال: ركبت حيث يمشي الناس وحقّ على الله أن يرجلني حيث يركب النّاس.

ارسطاطاليس، حركة الإقبال بطيئة حركة الإدبار سريعة لأَن المقبل كالصّاعد من مرقاة إلى مرقاة والمدبر كالمقذوف به من علوّ إلى سفل.

أرسل رجل سنّي إلى شيعي مقداراً من الحنطة وكانت حنطة عتيقة فردّها عليه ثمّ أرسل إليه عوضاً جديدة ولكن فيها تراب فقبلها وكتب إليه بهذا الشّعر:

بعثت لنا بدال البرّ برّاً … رجاء للجزيل من الثّواب
رفضناه عتيقاً وارتضينا … به إذ جاء وهو أبو تراب

أقول: وغير خفي لطفه فإن عتيق إسم أبي بكر وأبو تراب كنية أمير المؤمنين عليه السلام.

سئل نصراني عيسى عليه السلام أفضل أم موسى؟ فقال: إنّ عيسى يحيي الموتى وموسى وكز

رجلاً فقضى عليه، وعيسى تكلّم في المهد صبيّاً وموسى قال بعد ثمانين سنة: **(واحلل عقدة من لساني)** فانظر أيّهما أفضل.

نقل انّه لما مات عمر بن عبد العزيز وتخلّف بعده يزيد بن عبد الملك قال لوزرائه: دلّوني على خزائن ابن عبد العزيز فدلّوه على حجرة كان يخلو فيها، فلمّا فتحوا قفلها رأوها قاعاً بيضاء وفي وسطها تراب متحجر من بكائه وفيها ثياب خشنة وغل من الحديد يضعه في عنقه ويبكي إذا تفرّد بنفسه.

قيل إن أهل خراسان علموا بموته بالشام يوم وفاته قالوا: كنا نرى الذّئب مع الغنم والسباع مع الأنعام حتى افترقت ذات يوم من الأيّام فعلمنا أنه قد مات.

وقال الشّيخ الرّئيس: النساء من ثلاث إلى عشر سنين لعبة اللاّعبين، ومن عشرة إلى خمسة عشرهنّ حور عين، ومن خمسة عشر إلى عشرين هنّ لحم وشحم ولين، ومن عشرين إلى ثلاثين هنّ أمّهات البنات والبنين، ومن ثلاثين إلى أربعين هنّ عجوز في الغابرين، ومن أربعين إلى خمسين اقتلوهن بالسّكين، ومن خمسين إلى ستّين عليهنّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

قيل دخلت امرأة على داود النّبي عليه السلام فقالت: يا نبي الله ربّك عادل أم ظالم؟ فقال عليه السلام: ويحك هو العدل الذي لا يجور ثم قال لها: ما قصّتك؟ قالت: إني امرأة أرملة وعندي ثلاث بنات وإنّي أقوم عليهنّ من غزل يدي فلمّا كان أمس شدّيت غزلي في خرقة حمراء وأردت أن أذهب به إلى السوق وأبيعه فاشتري الطعام للأطفال فإذا بطائر قد انقض عليّ وأخذ الخرقة والغزل وطار، وبقيت حزينة مالي شيء أبلغ به أطفالي.

قال الراوي فبينما المرأة مع داود عليه السلام في الكلام فإذا بطارق يطرق الباب فأذن داود عليه السلام بالدّخول وإذا هم عشرة من التجار ومع كلّ واحدة مائة دينار فقالوا: يا نبيّ الله بمستحقها فقال عليه السلام لهم وما سبب إخراجكم هذا المال؟ قالوا: كنا في مركب فهاجت علينا الريح فعاب المركب وأشرفنا على الغرق وإذا نحن بطائر قد ألقى إلينا خرقة حمراء وفيها غزل فسددنا به عيب المركب فانسدّ ونذرنا أن يصدّق كلّ واحد منا مائة دينار من ماله، وهذا المال بين يديك تصدّق به على من أردت، فالتفت داود إلى المرأة وقال عليه السلام: ربك يتّجر لك في البحر وتجعلينه ظالماً؟ ثمّ أعطاها الألف دينار وقال: إذهبي بها وأنفقيها على أطفالك والله أعلم بحالك.

حكى أن جماعة من المصريّين لعنهم الله نقبوا في جوار روضة النّبي صلى الله عليه وآله وقصدوا إخراج جسده الشريف ونقله إلى مصر وكان ذلك في نصف اللّيل فسمع أهل المدينة من الجوّ: احفظوا نبيكم صلى الله عليه وآله، فأوقدوا السّراج وطافوا فرأوا ذلك النقب في الجدار وحوله

الجماعة موتى.

قال السّيد الجزائري: حكى لي جماعة من الثقات أنّه في بعض السّنين نزلت صاعقة فيها نار من السّماء على الضّريح المقدّس النبويّ ﷺ في المدينة فأحرقت طرفاً منه فقال بعض النواصب شعراً

لم يحترق حرم النبي لحادث ولكلّ شيء مبتدأ وإزار
لكنما أيدي الرّوافض لامست ذاك الجناب فطهّرته النار

فقال بعض الشّيعة في الجواب:

لم يحترق حرم النبيّ لحادث ولكل شيء مبتدأ وعواقب
لكن شيطانين قد نزلا به ولكل شيطان شهاب ثاقب

روى في «البحار» أن يحيى بن خالد البرمكي سأل مؤمن الطّاق هشام بن الحكم بمحضر من الرّشيد فقال: أخبرني يا هشام هل يكون الحق في جهتين مختلفتين؟ قال هشام: الظاهر لا، قال فأخبرني عن رجلين اختصما في حكم في الدّين وتنازعا هل يخلو من أن يكونا محقين أو مبطلين أو أن يكون أحدهما محقاً والآخر مبطلاً؟ فقال هشام: لا يخلو من ذلك.

قال يحيى: فأخبرني عن عليّ والعبّاس لمّا اختصما إلى أبي بكر في الميراث أيّهما كان المحق ومن المبطل إذ كنت لا تقول أنهما كانا محقّين ولا مبطلين؟ قال هشام: فنظرت فإذا إنّني إن قلت إن عليّاً عليه السلام كان مبطلاً كفرت وخرجت من مذهبي، وإن قلت: إنّ العباس كان مبطلاً ضرب الرّشيد عنقي ووردت عليّ مسألة لم أكن سئلت عنها قبل ذلك الوقت ولا أعددت لها جواباً.

فذكرت قول أبي عبد الله عليه السلام يا هشام لا تزال مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك فعلمت أنّي لا أخذل وعنّ لي الجواب في الحال فقلت له: لم يكن لأحدهما خطأ حقيقة وكانا جميعاً محقّين ولهذا نظير قد نطق به القرآن في قصّة داود عليه السلام يقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهَلْ أَتَنكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] إلى قوله: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢].

فأي الملكين كان مخطئاً وأيّهما كان مصيباً أم تقول إنهما كانا مخطئين فجوابك في ذلك جوابي فقال يحيى: لست أقول إن الملكين أخطأ بل أقول إنهما أصابا وذلك إنّهما لم يختصما في الحقيقة ولم يختلفا في الحكم وإنّهما أظهرا ذلك لينبّها على داود عليه السلام في الخطيئة ويعرّفاه الحكم ويوقفاه عليه.

قال هشام: قلت له كذلك عليّ عليه السلام والعبّاس لم يختلفا في الحكم ولم يختصما في الحقيقة وإنما أظهرا الاختلاف والخصومة لينبّها أبا بكر على خطأه ويدلاّه على أنّ لهما في الميراث حقّاً ولم يكونا في ريب من أمرهما وإنما كان ذلك منهما على حدّ ما كان من الملكين، فاستحسن الرّشيد ذلك الجواب.

صلّى إعرابي خلف إمام فقرأ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ثمّ وقف وجعل يرددها، فقال الأعرابي: أرسل غيره يرحمك الله وأرحنا وأرح نفسك وصلّى أخر خلف امام فقرأ:

﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: ٨٠].

فوقف وجعل يردّدها، فقال الأَعرابي: يا فقيه إن لم يأذن لك أبوك في هذه اللّيلة نظل نحن وقوفاً إلى الصّباح؟ ثمّ تركه وانصرف.

في الأَثران: الجاحظ كان من العلماء النّواصب وهو قبيح الصّورة حتّى قال الشاعر:

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلاّ دون قبح الجاحظ

قال يوماً لتلامذته: ما أخجلني إلاّ امرأة أتت بي إلى صائغ فقالت: مثل هذا، فبقيت حائراً في كلامها، فلمّا ذهبت سألت الصّائغ فقال: استعملتني لأصوغ لها صورة جني فقلت: لا أدري كيف صورته فأتت بك.

في الحديث إن شيطاناً سمينا لقى شيطاناً مهزولاً فقال: لم صرت مهزولاً؟ قال: إنّي مسلّط على رجل إذا أكل أو شرب أو أتى أهله يقول: بسم الله فحرمت المشاركة معه فصرت مهزولاً، وأنت لم صرت سميناً؟ قال: إني مسلّط على رجل غافل عن التّسمية يأكل ويشرب ويأتي أهله غافلاً فشاركته فيها كما قال تعالى:

﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤].

حكي إنّ عالماً سئل عن مسألة فقال: لا أدري فقال السّائل: ليس هذا مكان الجهال، فقال العالم: المكان لمن يعلم شيئاً ولا يعلم شيئاً فأما الذي يعلم كلّ شيء فلا مكان له.

وسئل أبو بكر الواعظ عن مسألة فقال: لا أدري قيل له: ليس المنبر موضع الجهّال، فقال: إنّما علوت بقدر علمي ولو علوت بقدر جهلي لبلغت السّماء.

دخل لص دار رجل يسرق طحيناً في اللّيل فبسط رداءه ومضى إلى الطّحين ففطن به صاحب المنزل ومدّ يده وجر الرداء إليه فأتى اللّص بالطّحين ووضعه يظن أنّه فوق الرّداء وإذا

هو في الأرض فصاح به صاحب الدّار سارق سارق فانفلت اللص هارباً وهو يقول قد علم أيّنا السّارق أنا أو أنت.

قال الأصمعي: دخلت البادية ومعي كيس فأودعته عند امرأة منهم فلما طلبته أنكرته فقدمتها إلى شيخ فأقامت على انكارها، فقال: ليس عليها إلاّ يمين فقلت كأنّك لم تسمع قوله تعالى:

ولا تقبل لسارقة يميناً ولو حلفت بربّ العالمينا

فقال: صدقت ثمّ تهددها فأقرت وردّت إليّ مالي ثمّ التفت إليّ الشّيخ فقال في أي سورة تلك الآية؟ فقلت في سورة:

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

قال: سبحان الله لقد كنت ظننت أنها في سورة إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً.

ونظيره أن رجلاً أحضر ولده إلى القاضي فقال: يا مولانا إن ولدي هذا يشرب الخمر ولا يصلي، فأنكر ولده ذلك فقال أبوه: أتكون صلاة بغير قراءة؟ فقال الولد إنّي أقرأ القرآن وأعرف القراءة فقال له القاضي: إقرأ حتى أسمع فقال:

علق القلب رباباً بعدما شابت وشابا

إنّ دين الله حقّ لا ترى فيه ارتياباً

فقال له أبوه: إنّه لم يتعلّم هذا إلاّ البارحة سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه فقال له القاضي: قاتلكم الله يتعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به.

قيل: ما وضعت سرى عند أحد فأفشاه فلمته لأنّي أحق باللوم منه إذ كنت أضيق صدراً منه قال الشّاعر:

إذ المرء أفشا سرّه بلسانه فصدر الذي يستودع السرّ أضيق

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ولام عليه آخراً فهو أحمق

رأى الحسن عليه السلام يهودي في أبهى زيّ وأحسنه واليهودي في حال رديء وحال رثة، فقال: أليس قال رسولكم: الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر؟ قال عليه السلام نعم، فقال: هذا حالي وهذا حالك، فقال عليه السلام: غلطت يا أخا اليهودي ولو رأيت ما وعدني الله من الثّواب وما أعدّ لك من العقاب لعلمت أنّك في الجنّة وانّي في السّجن[١].

---

(١) تصحيح اعتقدات الإمامية: ٩٧.

حكى صاحب «الأغاني» قال: صلى دلال يوماً خلف امام بمكّة فقال:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [ياسين: ٢٢].

فقال: ما أدرى والله، فضحك النّاس وقطعوا الصّلاة، فلمّا فرغوا عاتبه الإمام وقال: ويلك لا تدع الجنون والسّفه قال: كنت عندي إنّك تعبد الله فلمّا سمعتك تستفهم ظننت أنك قد شككت في ربك فتب إليه.

قيل: دخل أعرابي في الجامع ليصلي وكان اسمه موسى ووجد في طريقه كيساً فيه دنانير فقرأ الإمام: «وما تلك بيمينك يا موسى» فرمى إليه الكيس وقال: والله إنّك لساحر.

حكى أنّ بعضهم تمنّى في منزله وقال: يكون عندنا لحم فنطبخه على مرق فما لبث أن جاء جاره بصحن فقال: اغرفوا لنا فيه قليلاً من المرق، فقال: إن جيراننا يشمّون رائحة الأماني.

قال أبو عليّ بن سينا في رسالة المعراج: إنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام مركز الحكمة وفلك الحقيقة وخزانة العقل، ولقد كان بين الصحابة كالمعقول بين المحسوس.

روى أن طائفة من العامة تناظروا مع شيخنا بهاء الملة والدّين فقالوا: كيف تجوزون قتل عثمان مع ما ورد من قوله صلى الله عليه وآله: «مثل أصحابي كمثل النّجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم؟ فقال: جوّزنا قتله بهذا الحديث لأن بعض الصّحابة افتى بقتله وبعضهم باشر قتله».

قال الحجاج يوماً لرجل: اقرء شيئاً من القرآن فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر: ١، ٢].

فقال: ليس كذلك بل هي يدخلون في دين الله، قال: ذلك قبل ولايتك ولكنهم الآن يخرجون بسبّبك، فضحك وأعطاه.

صلى معروف الكرخي خلف إمام فلمّا فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف من أين تأكل؟ قال: اصبر حتى أعيد صلاتي خلفك لأن من شكّ في رزقه شك في خالقه.

قال في «مجمع البيان» في ذكر حكم لقمان: إن مولاه دعاه فقال اذبح شاة فأتني بأطيب مضغتين منها، فذبح شاة وأتاه بالقلب واللسان، فسأله عن ذلك فقال: إنهما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا.

وفيه قال عبد الله بن دينار: قدم لقمان من سفر فلقى غلامه في الطّريق فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات؛ قال: ملكت أمري، قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جدّدت فراشي، قال: ما فعلت أختي؟ قال: ماتت، قال: سترت عورتي، قال: ما فعل أخي؟ قال: مات، قال: انقطع ظهري.

عن كشكول البهائي (ره) أن أباه حسين بن عبد الصّمد الحارثي وجد في مسجد الكوفة فصّ عقيق مكتوب عليه:

أنا درّ من السّماء نثروني يوم تزويج والد السّبطين
كنت أصفى من اللّجين بياضاً صبغتني دماء نحر الحسين

قال نعمة الله الموسوي الجزائري (ره): وجدنا في نهر تستر صخرة صغيرة صفراء أخرجها الحفّارون من تحت الأرض وعليها مكتوب بخط من لونها: بسم الله الرّحمن الرّحيم لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله عليّ وليّ الله لمّا قتل الحسين بن عليّ بن أبي طالب بأرض كربلاء كتب دمه على أرض حصباء: وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

في رياض الجنّة تأليف بعض أصحابنا أنّ الباري عزّ وجلّ قال لعزرائيل: هل رحمت أحداً وهل هبت من أحد؟ فقال: يا رب أنت أعلم، فقال سبحانه تعالى: صدقت يا عزرائيل ولكن أحب أن تقول ذلك، فقال عزرائيل: إني يا رب رحمت طفلاً يرتضع ثدي أمّه وكان هو وأمه في مركب في البحر فغرق المركب فأمرتني أن أقبض روح أمّه فقبضتها وبقي الولد في البحر طائفاً على صدر أمّه فرحمته، وإنّي يا ربّ خفت[1] من رجل أمرتني أن أقبض روحه وكان ذا سلطان ومملكة وغلمان كثيرة وهو جالس على سريره في نهاية العافية فلما أردت قبض روحه دخلني خوف ورعب، فقال الباري سبحانه: يا عزرائيل الذي رحمته هو الذي خفت منه، ثمّ قال: المشهور أن الرّجل المذكور هو الشّداد المعروف، والعلم عند الله.

وفيه وفي غيره أنّ بهلول وقت جنونه مرّ يوماً على باب دار أبي حنيفة فوقف عند الباب ساعة فسمع أبا حنيفة يحدّث أصحابه ويقول: إنّ جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام يقول: إنّ الله لا يمكن رؤيته ومحال عليه الرؤية، وأيضاً إنّ العبد فاعل مختار يفعل فعله بالاختيار، ويقول: إنّ الشّيطان يعذّب بالنار وهذه الأقوال الثّلاثة غير معقولة عندي.

أمّا الأوّل: فلأنّ الله تعالى موجود وكلّ موجود يمكن رؤيته، والثاني إنّ العبد لا اختيار له، والثالث إنّ الشّيطان خلق من النّار فلا يعذّب إذ النّار لا يعذّب بعضها بعضاً.

فلمّا سمع البهلول ذلك الكلام اغتاظ وأخذ مدراً من الأرض فضرب أبا حنيفة فأصاب رأسه وأوجعه ومضى يعدو، فتلاحقه أصحاب أبي حنيفة وجاؤوا به إليه ولأجل قرابته من المنصور الخليفة لم يقدروا أن يصلوا إليه بشيء من الضرب قال أبو حنيفة: اذهبوا به إلى الخليفة وأخبروه بما فعل، فلما أخبر المنصور بالقصّة عاتبه وقال له: لم فعلت ذلك وطلب أبا

(١) في نسخة: هِبْتُ.

حنيفة يعتذر إليه بحضرة البهلول، فطلب البهلول الرخصة منه في التّكلم مع أبي حنيفة فأذن له.

فقال: يا أبا حنيفة ما أصابك منّي؟ قال: ضربتني بالمدر فوجع رأسي، فقال البهلول: أرني الوجع حتى أنظر إليه، فقال أبو حنيفة: يا مجنون الوجع كيف يرى؟ وكيف يمكن أن تنظر إليه؟ فقال بهلول: يا ملعون الوجع موجود أم لا؟ قال: بل موجود، قال بهلول: إنّك ادّعيت أنّ الله يرى لأنّه موجود والوجع أيضاً موجود فلم لا يرى؟ فلمّا سمع أبو حنيفة ذلك أطرق رأسه وأفحم.

ثمّ قال: يا أبا حنيفة ينبغي أن لا يوجع المدر رأسك لأنّك خلقت من التّراب وهو تراب، ثمّ قال: يا أبا حنيفة العبد لا فعل له ولا اختيار حسب ما زعمت فلأيّ شيء تؤاخذني بما صدر منّي ولا قدرة لي عليه؟ فلما سمع الخليفة أقواله استحسن مقاله ورخصه في الانصراف بغير عتاب.

في «زهر الرّبيع» أن أبا العلى المعرّي كان يتعصّب لأبي الطيب فحضر يوماً مجلس المرتضى «ره» فذكر أبو الطيب فأخذ المرتضى في ذمه والإزراء عليه، فقال المعري: لو لم يكن له من الشعر إلاّ قصيدته اللاّمية وهي:

لك يا منازل في القلوب منازل   أقفرت أنت وهنّ منك أواهل

لكفى في فضله، فغضب المرتضى وأمر بسحب المعري فسحب وضرب، فلما أُخرج قال المرتضى لمن بحضرته: هل تدرون ما عنى الأعمى إنّما عنى قول المتنبي في أثناء قصيدته:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ   فهي الشهادة لي بأني كامل

ولما بلغ الخبر إلى أبي العلى قال: قاتله الله ما أشدّ فهمه وزكاه، والله ما عنيت غيره.

أقول: أبو العلى ذلك كان من النّواصب فصار من الزنادقة ومعروف أن المرتضى «ره» أمر بقلع عينيه وله إعتراضات على الشريعة وحكمة الله سبحانه ومن جملتها قوله:

يد بخمس مئينٍ عسجدٍ وديت   ما باله قطعت في ربع دينار

وأجابه المرتضى بقوله:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها   ذلّ الخيانة فانظر حكمة الباري

وربما ينسب هذا الجواب إلى أخيه الرضي «ره».

في «البحار» من كتاب «الفردوس» عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيت حية في الطّريق فاقتلها فإنّي قد شرطت على الجنّ أن لا يظهروا في صورة الحيات فمن ظهر فقد أحلّ بنفسه»(١).

أقول: ويناسب ذلك ويؤيّده ما ذكره شارح ديوان أمير المؤمنين في فواتحه عن أستاذه جلال الدّين الدّواني عن السّيد صفي الدّين عبد الرحمن اللايجي أنه قال: ذكر لي العالم الفاضل المتقي شيخ أبو بكر عن الشّيخ برهان الدّين الموصلي وهو رجل عالم فاضل ورع أنا توجّهنا من مصر إلى مكّة نريد الحج ونزلنا منزلاً وخرج عليه ثعبان فسار النّاس إلى قتله فقتله ابن عمي فاختطف ونحن نرى سعيه وتبادر النّاس على الخيل والركاب يريدون ردّه فلم يقدروا على ذلك فحصل للناس من ذلك أمر عظيم.

فلما كان آخر النّهار جاء وعليه السّكينة والوقار فسألناه ما شأنك؟ فقال: ما هو إلاّ أن قتلت هذا الثّعبان الذي رأيتموه فصنع بي ما رأيتم، فإذا أنا بين قوم من الجنّ يقول بعضهم قتلت أبي وبعضهم قتلت ابن عمي فتكاثروا عليّ وإذا رجل لصق بي وقال لي قل: أنا أرضى بالله وبالشريعة المحمدية صلى الله عليه وآله فقلت ذلك فأشار إليهم أن سيروا إلى الشّرع فسرنا حتّى وصلنا إلى شيخ كبير على مصطبة، فلما صرنا بين يديه قال: خلّوا سبيله وادّعوا عليه فقال الأولاد ندّعي عليه أنّه قتل أبانا فقلت: حاشا لله أنا نحن وفد بيت الله الحرام نزلنا هذا المنزل فخرج علينا الثّعبان فتبادر النّاس إلى قتله فضربته فقتلته فلما سمع الشّيخ مقالتي قال: خلّوا سبيله سمعت ببطن نخل عن النّبي صلى الله عليه وآله من تزيا بغير زيّه فقتل فلا دية ولا قود.

في «البحار» عن حيوة الحيوان، روى البيهقي في «دلائل النبوّة» عن أبي دجانة واسمه سماك بن خرشة قال: شكوت إلى النّبي صلى الله عليه وآله أني نمت في فراشي فسمعت صريراً كصرير الرحى ودوياً كدويّ النحل ولمعاناً كلمعان البرق فرفعت رأسي فإذا أنا بظلّ أسود يعلو ويطول بصحن داري فمسست جلده فإذا هو كجلد القنفذ فرمى في وجهي مثل شرر النّار فقال صلى الله عليه وآله: «عامر دارك يا أبا دجانة» ثمّ طلب دواتاً وقرطاساً وأمر عليّاً عليه السلام أن يكتب:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا كتاب من رسول ربّ العالمين إلى من طرق الدار من العمار والزوار إلاّ طارقاً يطرق بخير أمّا بعد، فإن لنا ولكم في الحقّ سعة فإن يكن عاشقاً مولعاً فاجراً مقتحماً فهذا كتاب الله ينطق علينا وعليكم إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون إنّ رسلنا يكتبون ما تمكرون، اتركوا صاحب كتابي هذا وانطلقوا إلى عبدة الأصنام وإلى من يزعم أنّ مع الله إلهاً آخر لا إله إلاّ هو كلّ شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون حمّ لا

(١) بحار الأنوار: ٦٠/١٢٦ ح ١١٥، وتحف العقول: ١٢.

ينصرون حمعسق تفرق أعداء الله وبلغت حجة الله لا حول ولا قوّة إلاّ بالله فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم».

قال أبو دجانة فأخذت الكتاب وأدرجته وحملته إلى داري وجعلته تحت رأسي فبت ليلتي فما انتبهت إلاّ من صراخ صارخ يقول: يا أبا دجانة أحرقتنا هذه الكلمات فبحق صاحبك إلاّ ما رفعت عنا هذا الكتاب فلا عود لنا في دارك ولا في جوارك ولا في موضع يكون فيه هذا الكتاب قال أبو دجانة: لا أرفعه حتّى استأذن رسول الله ﷺ.

قال أبو دجانة ولقد طالت عليّ ليلتي ممّا سمعت من أنين الجن وصراخهم وبكائهم حتّى أصبحت فغدوت فصلّيت الصّبح مع رسول الله ﷺ وأخبرته بما سمعت من الجنّ وما قلت لهم فقال ﷺ: «يا أبا دجانة أرفع عن القوم فوالذي بعثني بالحقّ نبيّاً إنّهم ليجدون ألم العذاب إلى يوم القيامة».

في «المحاسن» مسنداً عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا ضللت في الطريق فناد: يا صالح يا أبا صالح أرشدونا إلى الطريق رحمكم الله[1]، قال عبد الله: فأصابنا ذلك فأمرنا بعض من معنا أن يتنحى وينادي كذلك قال: فتنحى فنادى ثمّ أتانا فأخبرنا أنّه سمع صوتاً برز دقيقاً يقول: الطريق يمنة أو قال يسرة، فوجدناه كما قال.

في «البحار» قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحداً منكم وحشة أو نزل بأرض مجنّة فليقل: أعوذ بكلمات الله التّامات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر من شرّ ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السّماء وما يعرج فيها ومن فتن اللّيل ومن طوارق النهار إلاّ طارقاً يطرق بخير»[2].

إذا قلّ مال المرء قلّ بهاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه

إذا قلّ مال المرء لم يرض عقله ... بنوه ولم يعصب له أولياؤه

قيل كلّ عضو من الأعضاء فرد فهو مذكر إلاّ الكبد والطحال، وكلّ ما كان في الجسد اثنين فهو مؤنث إلا الحاجب والخد والجنب.

في الأثر أن الرّبيع بن خثيم حفر في داره قبراً فكان إذا وجد من قلبه قسوة اضطجع فيه فمكث ما شاء ثمّ يقول ربّ ارجعون لعليّ أعمل صالحاً فيما تركت ثمّ يردّ على نفسه فيقول قد ارجعتك فجد.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/١٢٦.

قيل كان ملك يسير ومعه نديم له فبينما هما كذلك إذا بكلب بال على قبر فقال الملك: لعلّ هذا قبر رافضي يبول عليه الكلب، فقال نديمه: إن كان هذا رافضيّاً فالكلب لا بدّ أن يكون سنّياً.

قال الرّشيد للبهلول: أتحبّ أن تكون خليفة؟ قال: لا، وذلك إنّي رأيت موت ثلاث خلفاء ولم ير الخليفة موت بهلولين.

وفي «زهر الرّبيع» دخل رجل من أهل حمص إلى بلد فرأى فيها منارة فقال لصاحبه: ما أطول قامة من بنى هذه المنارة، فقال له صاحبه: يا أخي هل في الدّنيا من تكون قامته مثل هذه المنارة وإنّما بنوها في الأرض وهي نائمة ثمّ أقاموها.

في «زهر الرّبيع» رأيت رسالة في المشهد الرّضوي على مشرفه السّلام سنة ثمان بعد المائة والألف للإمام الجويني من أكابر علماء مذهب الشّافعي ردّ بها على مذهب الحنفية وذكر فيها أشياء كثيرة من أكاذيب أبي حنيفة وزخارفه وخلافه على ملة النّبي ﷺ وذكر من جملة الطّعون عليه: أن السّلطان محمود بن سبكتكين كان على مذهب أبي حنيفة وكان مولعاً بعلم الحديث يقرأ بين يديه وهو يسمع فوجد الأحاديث أكثرها موافقاً لمذهب الشّافعي فالتمس من العلماء الكلام في ترجيح أحد المذهبين فوقع الاتفاق على أن يصلّوا بين يديه ركعتين على مذهب الشافعي وركعتين على مذهب أبي حنيفة لينظر فيه السّلطان ويتفكّر ويختار ما هو أحسن.

فصلى القفال المروزي من أصحاب الشّافعي ركعتين على مذهب الشّافعيّ بالأركان والأذكار والطّمأنينة والطّهارة ممّا لم يجوّز غيره الشّافعي، ثمّ أمر القفال أن يصلّي بين يديه ركعتين على ما يجوّزه أبو حنيفة، فقام ولبس جلد كلب مدبوغ ولطخ ربعه بالنجاسة لأنّ أبا حنيفة يجوز الصّلاة على هذا الحال، وتوضأ بنبيذ التّمر فاجتمع عليه الذباب وتوضأ معكوساً منكوساً ثمّ استقبل القبلة فأحرم بالصّلاة من غير نيّة وأتى بالتكبير بالفارسيّة ثمّ قرأ آية بالفارسية «دو برك سبز» ثمّ نقر نقرتين كنقر الدّيك من غير فصل ومن غير ركوع وتشهد.

فقال القفال: أيّها السّلطان هذه صلاة أبي حنيفة فقال السّلطان إن لم تكن هذه لقتلتك فأنكر أصحاب أبي حنيفة هذه صلاته فأمر القفال بإحضار كتب العراقيين وأمر السّلطان نصرانيّاً يقرأ كتب المذهبين فوجدت الصّلاة على مذهب أبي حنيفة كما حكاه القفال فعدل السلطان إلى مذهب الشّافعي وهذه المقالة نقلها علي بن سلطان الهروي الحنفي.

ثمّ عارض الشّافعية بأنّهم يقولون: إذا كان جماعة معهم من الماء قلتين وذلك لا يكفيهم لطهارتهم ولو كمّلوه ببولهم لكفاهم فإنّه يجب عليهم تكميله بالبول أو الغائط وهذا ممّا تمجّه العقول وتدفعه النقول.

ثمّ عارض تلك الصّلاة بما جوزه الشّافعي في الصّلاة فقال: إنّ واحداً منهم إذا اجتمع عندهم ماء بالوعة نجس حتّى صار قلّتين فتمضمض به واستنشق منه ثمّ قال نويت أن اطهّر بهذا الماء الطاهر المطهّر للصّلاة ثمّ غسل وجهه ويديه ومسح برأسه على شعرة أو شعرتين ثلاثاً أو مرّتين وغسل رجليه ثمّ انغمس فيه معكوساً ومنكوساً لكمال الطّهارة ومع هذا رعف وقاء وفصد واحتجم ولبس جلد خنزير بحري، وتحنى في اليدين والرّجلين مشبّهاً بالمخانيث والنّساء، ولطخ جميع بدنه وثيابه بماء مني منفصل عن ذنب حمار حتى اجتمع عليه الذّباب وهو فوق جبل أبي قبيس يقتدي بإمام عند الكعبة، ومع هذا همز الله أو أكبر ثمّ وقف والإمام انتقل من ركن إلى ركن وهو يقول: بس بس بسمى الله ونحوه وهو جاهل بالقرآن غير عالم بمخارج الحروف ثمّ يقول: ملك يوم الدّين بإسكان **(اللام)** والمستقيم **(بالغين)** والذين **(بالزا)** وأنعمت بتحريك **(النون)** ويختم بقوله غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين **(بالقاف)** عوض **(الغين)** أو **(بالذال)** بدل **(الضّاد)** هذه صفة صلاة الشّافعي وأطال في التشنيع عليه قال الشّاعر:

ومصطنع المعروف من غير أهله ... يلاقي كما لاقى مغيث أم عامر

قيل إنّ أمّ عامر كنية الضبع وان صيّاداً أراد صيدها فطردها فالتجأت إلى بيت أعرابي فأجارها فلما جاء اللّيل أطعمها وأنامها فقامت في اللّيل إلى صبيّ فمزّقت بطنه وأكلت رأسه وخرجت ليلاً قال أبو الطيب:

ووضع النّدى في موضع السيف بالعلى ... مضر كوضع السّيف في موضع النّدى

قال بعض الخلفاء لبعض الزّهاد: إنّك لعظيم الزّهد، فقال: إنّك أزهد منّي لأنّك زهدت في نعيم الآخرة وهو نعيم دائم عظيم وزهدت أنا في نعيم الدّنيا الحقير المنقطع.

كان بعضهم في أيّام صغره أشدّ منه ورعاً في أيّام كبره فقال:

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما ... أتتني اللّيالي بالمشيب وبالكبر

أطعت الهوى عكس القضية ليتني ... خلقت كبيراً ثمّ عدت إلى الصّغر

الترجمة

از جمله كلام آن جناب ولايت مآب است در ذكر عمرو بن عاص بى اخلاص، مى فرمايد:

تعجب مى كنم، تعجب كردنى به پسر نابغه باغيه مى گويد به اهل شام به درستى كه در من است مزاحى و به درستى كه من مردى هستم بسيار بازى كننده، شوخى مى كنم و بازى مى نمايم، به تحقيق كه گفته است آن روسياه حرف باطل و تباه را و گويا شده است در حالتى كه گناه كننده است.

آگاه باشيد كه بدترين گفتار دروغ است و به درستى آن بدبنياد حرف مى زند، پس دروغ مى گويد و وعده مى دهد، پس خلف وعده مى كند و سؤال مى كند، پس اصرار مى نمايد در سؤال و سؤال كرده مى شود، پس بخل ميورزد از قضاء آمال و خيانت مى كند در عهد و پيمان و قطع رحم مى كند از خويشان، پس اگر واقع شود آن بدخصال در نزد قتال و جدال، پس چه بزرگ نهى كننده است و امرنماينده مادامى كه شمشيرها شروع نكرده اند در محل شروع خود.

يعنى مادامى كه نايره حرب مشتعل نشده است دعوى سركردگى مى كند و مشغول امر و نهى مى شود، پس چون زمان ضرب و شست رسيد و شجاعان روزگار مشغول كارزار گرديد مى باشد بزرگ ترين حيله آن با تزوير اينكه بذل كند به مردمان دُبر خود را و به اين واسطه و تدبير از دم شمشير آب دار نجات يابد، چنانچه در جنگ صفين امام عالميان قصد آن بدبخت بى دين را نمود و او خودش را از اسب به زمين انداخت و آن مردود ابتر علاجى از مرگ به غير از كشف از قُبل و دبر خويش نيافت، پس آن معدن حيا و عفت از سوئت آن بدبخت رو بتافت و بازگشت.

پس مى فرمايد:

آگاه باشيد به خدا سوگند كه بازمى دارد مرا از بازى كردن ذكر موت و بازمى

دارد ابن نابغه را از گفتار حق فراموشی آخرت، به درستی که آن بیعت نکرد به معاویه تا اینکه شرط کرد از برای وی که عطا کند به او عطاء قلیلی و ببخشد او را بر ترك دین رشوت حقیری که عبارت باشد از حکومت دو روزه مصر. ص

ومن خطبة له عليه السلام وهي الرابعة والثمانون من المختار في باب الخطب

«وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، الأَوَّلُ لا شَيْءَ قَبْلَهُ وَالآخِرُ لا غايَةَ لَهُ، لا تَقَعُ الأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ، وَلاَ تَعقِدُ الْقُلُوبُ مِنهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ، وَلاَ تَنَالُهُ التَّجْزِءةُ وَالتَّبْعِيضُ، ولا تُحِيطُ بِهِ الأَبْصَارُ وَالْقُلوبُ.

منها

«فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوافِعِ، وَاعْتَبِرُوا بِالأَيِ السَّواطِعِ، وَازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوالِغِ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَواعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخالِبُ الْمَنِيَّةِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلاَئِقُ الأُمْنِيَّةِ، وَدَهَمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ، وَالسِّياقَةِ إِلى الْوِرْدِ الْمَوْرُودِ، وكُلّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وشَهِيدٌ، سائِقٌ يَسُوقُها إِلَىٰ مَحْشَرِها، وَشاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِها».

ومنها في صفة الجنة

«دَرَجَاتٌ مُتَفاضِلاتٌ، ومَنازِلَ مُتَفاوِتاتٌ، لاَ يَنْقَطِعُ نَعِيمُها، وَلاَ يَظْعَنُ مُقِيماً، وَلاَ يَهْرَمُ خالِدُها، وَلاَ يَبْأَسُ[1] ساكِنُها»[2].

اللغة

(**العبر**) جمع عبرة وهي ما يعتبر به أي يتّعظ و(**الآي**) جمع آية وهي العلامة وآية القرآن كلّ كلام متصل إلى انقطاعه، وقيل ما يحسن السكوت عليه و(**سطع**) الشيء يسطع من باب منع ارتفع و(**النذر**) بضمّتين جمع نذير وهو المنذر أي المخوف، قال الشّارح المعتزلي: والأحسن أن يكون النذر هي الانذارات نفسها، لأنّه قد وصف ذلك بالبوالغ وبوالغ لا تكون في الأكثر إلاّ صفة المؤنث.

أقول: وعليه حمل قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦].

أي كيف رأيتم انتقامي منهم وإنذاري إيّاهم مرّة بعد أخرى فالجمع للمصدر باعتبار اختلاف الأجناس والأنواع و(**علق**) الشوك بالثوب من باب تعب إذا نشب و(**المخلب**) من

(١) في نسخة: ييأس.

(٢) بحار الأنوار: ٨/ ١٦٢ ح ١٠٣، وميزان الحكمة: ١/ ٤٣٤ ح ٥٦٠.

الحيوان بمنزله الظفر للإنسان و(**مفظعات الأمور**) (**بالفاء والظاء**) المعجمة شدائدها الشنيعة و(**ظعن**) ظعناً من باب نفع ارتحل (**ولا يبأس**) (**بالباء**) الموحدة مضارع بئس كسمع يقال بئس فلان إذا أصاب بؤساً وهو الضر والشدّة، وفي بعض النّسخ لا ييأس (**بالياء**) المثناة التحتانية من اليأس بمعنى القنوط يقال يأس ييأس من باب منع، ومن باب ضرب شاذ وفي لغة كحسب.

الإعراب

قوله: (**فكأن قد علقتكم**) مخففة (**كان**) وملغاة عن العمل على الاستعمال الفصيح لفوات مشابهة الفعل بفوات فتحه الآخر ولذلك ارتفع بعدها الإسم في قوله:

ونحرٍ مشرق اللّون كأن ثدياه حقّان

وإن أعملتها قلت ثدييه لكنه استعمال غير فصيح ومثله قوله:

ويوماً توافينا بوجه مقسمٍ كأن ظبية تعطوا إلى وارق السّلم

برفع (**ظبية**) على (**الاهمال**) ونصبها على (**الأعمال**) ويروى جرّها على جعل (**أن**) زائدة أي كظبية وإذا لم تعملهافقيه ضمير شأن مقدر كما في (**أن**) المخففة ويجوز أن يقال بعدم التقدير لعدم الدّاعي عليها، ثمّ هل هي في قوله للتحقيق كما قاله الكوفيون في قوله:

فأصبح بطن مكة مقشعراً كأنّ الأرض ليس بها هشام

أو للتقريب كما في قولهم: كأنّك بالشتاء مقبل، وكأنّك بالدّنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل، الوجهان محتملان وإن كان الأظهر هو الأوّل وقوله ﷺ: (**لا ينقطع نعيمها**) إما في محلّ النّصب على الحال أو في محل الرّفع على الوصف.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة كما يظهر من الكتاب مأخوذة وملتقطة من خطبة طويلة ولم نعثر بعد على أصلها وما أورده السيد «ره» هنا يدور على فصول ثلاثة:

الفصل الأول

في الشهادة بالتّوحيد وذكر بعض صفات الجمال والجلال وهو قوله: (**وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده**) في ذاته وصفاته (**لا شريك له**) في أفعاله ومخلوقاته، وقد مضى تحقيق الكلام في ذلك في شرح الفصل الثّاني من فصول الخطبة الثانية فلا حاجة إلى الإعادة (**الأول**) بالأزليّة فـ (**لا شيء قبله والآخر**) بالأبديّة فـ (**لا غاية له**) قد مضى تحقيق الأول والآخر في شرح الخطبة الرّابعة والستين، وقدّمنا هناك أن أوليّته سبحانه لا تنافي آخريته، وآخريّته لا تنافي أوّليته

كما تتنافيان في غيره سبحانه.

ونقول هنا مضافاً إلى ما سبق: أنّه سبحانه أوّل الأشياء وقبل كلّ شيء فلا يكون شيء قبله، وذلك لإستناد جميع الموجودات على تفاوت مراتبها وكمالاتها إليه، وهو مبدأ كلّ موجود فلم يكن قبله أوّل بل هو الأوّل الّذي لم يكن قبله شيء.

قال النّيسابوري في محكي كلامه: وهو سبحانه متقدّم على ما سواه بجميع أقسام التقدّمات الخمسة التي هي تقدّم التأثير والطبع والشرف والمكان والزمان، أمّا بالتّأثير فظاهر، وأمّا بالطّبع فلأنّ ذات الواجب من حيث هو لا يفتقر إلى الممكن من حيث هو وحال الممكن بالخلاف، وأما بالشرف فظاهر، وأمّا بالمكان فلأنّه وراء كلّ الأماكن ومعها كقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقد جاء في الحديث لو دليتم بحبل إلى الأرض السّفلى لهبط إلى الله ثمّ قرأ: هو الأوّل والآخر، وأما بالزّمان فأظهر.

وأما آخريّته فلأنه هو الباقي بعد فناء وجود الممكنات وإليه تنتهي كلّ الموجودات فهو غاية الغايات فلا يكون له غاية.

قال بعض العارفين: هو الآخر بمعنى أنّه غاية القصوى تطلبها الأشياء والخير الأعظم الّذي يتشوّقه الكلّ ويقصده طبعاً وإرادةً، والعرفاء المتألهون حكموا بسريان نور المحبّة له والشوق إليه سبحانه في جميع المخلوقات على تفاوت طبقاتهم وإن الكائنات السّفلية كالمبدعات العلويّة على اغتراف شوق من هذا البحر العظيم واعتراف شاهد مقرّ بوحدانيّة الحق القديم.

فهو الأوّل الذي ابتدأ أمر العالم حتّى انتهى إلى أرض الأجسام والأشباح وهو الآخر الذي ينساق إليه وجود الأشياء حتى يرتقي إلى سماع العقول والأرواح وهو آخر أيضاً بالإضافة إلى سير المسافرين، فإنهم لا يزالون مترقّين من رتبة إلى رتبة حتى يقع الرجوع إلى تلك الحضرة بفنائهم عن ذواتهم واندكاك جبال هويّاتهم، فهو تعالى أوّل من حيث الوجود، وآخر من حيث الوصول والشهود، وقيل أوليّته أخبار عن قدمه وآخريّته أخبار عن استحالة عدمه.

وفي «الكافي» بإسناده عن ميمون البان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وقد سئل عن الأوّل والآخر فقال عليه السلام: «الأوّل لا عن أوّل قبله ولا عن بديء سبقه، والآخر لا عن نهاية كما يعقل عن صفات المخلوقين ولكن قديم أوّل آخر لم يزل ولا يزول بلا بديء ولا نهاية لا يقع عليه الحدوث ولا يحول من حال إلى حال، خالق كلّ شيء»[1].

---

(١) الكافي: ١/١١٦ ح ٦، والتوحيد: ٣١٣.

ويأتي إن شاء الله شرح هذا الحديث في شرح الخطبة المائة.

(لا تقع الأوهام له على صفة) أراد ﷺ أنه لا تناله الأوهام ولا تلحقه فتقع منه على صفة إذ الوهم لا يدرك إلاّ ما كان ذا وضع ومادّة، فأمّا الأمور المجرّدة عن الوضع والمادّة فالوهم ينكر وجودها فضلاً أن يصدق في إثبات صفة لها، والباري سبحانه مع بساطة ذاته وتجرّده ليس له صفة زائدة حتّى تدركه الأوهام أو تصفه بصفة، وقد مرّ بعض القول في ذلك في شرح الفصل الثّاني من الخطبة الأولى.

(ولا تعقد القلوب منه على كيفية) إذ ليس لذاته تعالى كيفيّة حتّى تعقد عليها القلوب فلا يعرف بالكيفوفية، وتحقيق ذلك يتوقف على معرفة معنى الكيف فنقول: إن الكيف كما قيل هي هيئة قارة في المحلّ لا يوجب اعتبار وجودها فيه نسبة إلى أمر خارج عنه ولا قسمةً في ذاته ولا نسبة واقعة في أجزائه، وبهذه القيود تفارق الأعراض الثمانية الباقية.

وأقسام الكيفيّات وأوائلها أربعة، لأنّها إمّا أن تختصّ بالكميّات من جهة ما هي كمّ كالمثلّثيّة والمربعيّة للأشكال، والاستقامة والانحناء للخطوط، والزوجية والفردية للأعداد وإما أن لا تختص بها وهي إمّا أن تكون مدركة بالحسّ راسخة كانت كصفرة الذهب وحلاوة العسل، أو غير راسخة كحمرة الخجل وصفرة الوجل وإما أن لا تكون مدركة بالحسّ وهي إمّا استعدادات للكمالات كالإستعداد للمقاومة والدّفع وللانفعال وتسمّى قوّة طبيعية كالصّلابة والمصحاحية، أو للنّقائص كالاستعداد بسرعة للإنفعال وتسمّى ضعفاً ولا قوة طبيعيّة كاللين والممراضية، وإمّا أن لا تكون استعداداً للكمالات والنقائص بل تكون في أنفسها كمالات أو نقائص فما كان منها ثابتاً يسمى ملكة كالعلم والقدرة والشّجاعة، وما كان سريع الزوال يمسّى حالاً كغضب الحليم وحلم الغضبان فهذه أقسام الكيف وأجناسها ويتدرج تحتها أنواع كثيرة.

إذا عرفت ذلك فنقول: إن من المحال أن يتصف سبحانه بها لكونها حادثة بالذّات ممكنة الوجود مفتقرة إلى جاعل يوجدها بريء الذّات عن الاتّصاف بها، أمّا حدوثها وإمكانها فلكونها ذات ماهيّة غير الوجود فكونها عرضاً قائماً بمحلّه فهي مفتقرة إلى جاعل وينتهي إفتقارها بالأخرة إلى الله سبحانه، وأمّا براءة ذاته سبحانه من الاتّصاف بها فلأنّ موجد الشيء متقدّم عليه بالوجود فيستحيل أن يكون المكيف بالكسر أي جاعل الكيف مكيفاً بالفتح أي منفعلاً وإلاّ لزم تقدّم الشيء على نفسه وكون الشيء الواحد فاعلاً وقابلاً لشيء واحد.

(ولا تناله التجزءة والتبعيض) عطف التبعيض على التجزءة إما من باب التّأكيد أو المراد بالأوّل نفي الأجزاء العقليّة كالجنس وبالفصل الثاني نفي الأجزاء الخارجية كما في الأجسام، وعلى كلّ تقدير فالمقصود به نفي التركيب عنه إذ كلّ مركب ممكن.

وأمّا ما قاله الشّارح البحراني: من أنّه إشارة إلى نفي الكميّة عنه إذ كانت التجزءة

والتبعيض من لواحقها وقد علمت أن الكمّ من لواحق الجسم والباري تعالى ليس بجسم ولي بكمّ.

ففيه أنّه خلاف الظاهر إذ التّجزئة أعمّ من التجزئة العقليّة والخارجيّة ولا دليل على التّخصيص بالثانيّة لو لم تكن ظاهرة في الأولى حسب ما أشرنا إليه فيكون مفادها على ذلك مفاد قوله عليه السلام في الخطبة الأولى: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزاه.

(ولا تحيط به الأبصار والقلوب) وقد مرّ تحقيق ذلك في شرح الخطبة الثالثة والأربعين بما لا مزيد عليه وفي شرح الفصل الثاني من الخطبة الأولى.

الفصل الثاني

(منها) في التذكير والموعظة وهو قوله عليه السلام **(فاتّعظوا عباد الله بالعبر النوافع)** أي اعتبروا بالعبر النافعة واتعظوا بما حلّ بأهل القرون الخالية كيف صارت أجسادهم شحبةً بعد بضتها، وعظامهم نخرة بعد قوّتها، وكيف انجلوا عن الرّباع والدّور وارتحلوا عن الضياع والقصور، وطوّحت بهم طوائح الزّمن وهجرتهم[1] عن الأموال والأولاد والوطن **(واعتبروا بالآي السّواطع)** من آثار القدرة وعلامات الجلال والجبروت والعزّة أو بالآيات القرآنية المعذرة والمنذرة وبراهينها السّاطعة المشرقة.

(وازدجروا بالنّذر البوالغ) أي بالإنذارات الكاملة والتّخويفات البالغة الواردة في الكتاب والسنّة**(وانتفعوا بالذكر والمواعظ)** النافعة التي تضمّنتها آيات الكتاب المبين وأخبار سيّد المرسلين **(فكأنّ قد علقتكم مخالب المنية)** شبه المنيّة بالسّبع من باب الإستعارة بالكناية وإثبات المخالب تخييل وذكر العلوق ترشيح **(وانقطعت منكم علائق الأمنية)** لأنَ الأَجل إذ حلّ والموت إذا نزل انقطع الأهل وضلّ الحيل وتنغص اللذات وانتقض الشّهوات **(ودهمتكم مفظعات الأمور)** أي الأمور الموجبة للفظع والدّواهي الموقعة في الفزع من سكرات الموت وغمرات الفوت والجذبة المكربة والسوقة المتعبة والهجرة إلى دار الوحدة وبيت الوحشة وما يليها من شدائد البرزخ وأهوال القيامة.

(والسّياقة إلى الورد المورود) أي المكان الذي يرده الخلائق وعليه محشرها ومنشرها **(وكلّ نفس معها سائق وشهيد)** إقتباس من الآية في سورة قٓ وهو قوله:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ * وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢٠-٢١].

---

(١) في نسخة: وأزعجتهم.

أي تجيء كلّ نفس من المكلّفين يوم الوعيد ومعها **(سائق)** من الملائكة **(يسوقها إلى محشرها)** أي يحثها على السّير إليه **(وشاهد)** منهم أو من الأنبياء والرّسل والأئمة على ما سبق في شرح الخطبة الواحدة والسّبعين أو من الأعضاء والجوارح كما ورد في غير واحد من الآيات ويأتي التصريح به في الكلام المائة والثّامن والتّسعين إن شاء الله **(يشهد عليها بعملها)** وبما يعلم من حالها.

الفصل الثالث

(منها في صفة الجنة): وهو قوله: **(درجات متفاضلات ومنازل متفاوتات)** كما قال سبحانه:

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

وتفاوت الدّرجات وتفاضل المنازل إنّما هو بتفاوت أهل الإيمان في مراتب المعرفة والكمال، فالمؤمنون الكاملون من مراتب العمل والإخلاص ذوو الدّرجات العلى والنّاقصون فيها ذوو الدّرجات السّفلى وقد جاء في الخبر أنّ أهل الجنّة ليرون أهل علّيين كما يرى النجم في أفق السّماء.

وفي الحديث أن في الجنّة مائة درجة بين كلّ درجتين منها مثل ما بين السّماء والأرض وأعلى درجاتها الفردوس وعليها يكون العرش وهي أوسط شيء في الجنة ومنها تفجر أنهار الجنّة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس.

وفي بعض الرّوايات أن أقلّ ما يعطي المؤمن فيها ما يقابل الدّنيا وأشرف المنازل وأرفع المراتب هو مرتبة الرّضوان كما قال سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

أي رضاء الله عنهم ومحبّته أيّاهم أكبر من كلّ لذّات الجنّة، وهذه اللّذة لا يدركها كلّ أحد وإنّما هي مختصة بالأولياء التامّين في مقام المحبّة الكاملين في العبودية.

وفي رواية زرارة الواردة في ثواب البكاء على الحسين عليه السلام عن الصّادق عليه السلام وما من عبد يحشر إلاّ وعيناه باكية إلاّ الباكين على جدّي فإنّه يحشر وعينه قريرة والبشارة تلقّاه والسّرور على وجهه والخلق يعرضون وهم حدّاث الحسين تحت العرش وفي ظل العرش لا يخافون سوء الحساب يقال لهم: أدخلوا الجنّة فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه، وأنّ الحور

لترسل إليهم إنّا قد اشتقناكم مع الولدان المخلّدين فما يرفعون رؤوسهم لما يرون في مجلسهم من السّرور والكرامة[١] الحديث.

فلا تظنن أن أعلى الدّرجات هو أعالي الجنان والجلوس مع الحور والغلمان فإن هذا من لذات البدن والرّضوان من لذّات الرّوح، ولذا كان مطمح نظر الأئمة عليهم آلاف الصّلاة والتحية تلك اللّذة المعنويّة كما يشير إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[٢] وتقابل هذه المرتبة أعني مرتبة الرّضوان لأهل السّعادة مرتبة الخذلان لأهل الشقاوة كما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

فإنّ قولهم أخزيته دون أحرقته أو عذّبته دليل على أنّ ألم الخزي عندهم أشدّ وأفظع من ألم الإحتراق بالنار، وذلك لأن الخزي عذاب روحانيّ وعذاب الإحتراق والأفاعي والعقارب وسائر ما أعد في جهنّم عذاب جسماني، ولا شكّ أن الأوّل أشدّ وآكد.

ثم أشار عليه السلام إلى دوام نعيم الجنّة بقوله: **(لا ينقطع نعيمها)** وقد أشير إلى ذلك في غير واحدة من الآيات مثل قوله سبحانه:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ، فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾، وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾، وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾، لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٧ـ٣٣] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤].

وإنّما لم يكن لنعمها نفاد وانقطاع لأنّ استحقاق تلك النعم إنما نشأ من ملكات ثابتة في جوهره لا تتغير ولا تتبدّل ومهما دام الاستحقاق القابل للنعمة والجود وجب دوام الإفاضة والانعام من واجب الوجود، إذ هو الجواد المطلق الذي لا بخل من جهته ولا نفاد في خزائنه **(ولا يظعن مقيمها)** أي لا يسير عنها والمراد به إما نفي سيره عنها إلى الخارج فيكون المقصود به الإشارة إلى أنها دار خلود ودوام وعلى ذلك فهذه الجملة تأكيد للجملة السّابقة، وإما نفي السير عن مقامه إلى مقام آخر فيها طلباً لما هو أحسن منه وإلى الأوّل أشير في قوله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: ١٥] الآية وعلى الثّاني أشير في ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

---

(١) كامل الزيارات: ١٦٩، ومدينة المعاجز: ٤/١٦٨.

(٢) شرح أصول الكافي: ١/٢٥٧، وشرح مئة كلمة: ٢١٩.

قال في «مجمع البيان»: أي دائمين فيها لا يطلبون عن تلك الجنّات تحولاً إلى موضع آخر لطيبها وحصول مرادهم فيها[١].

(ولا يهرم خالدها ولا يبأس ساكنها) لأن الهرم والبؤس متلازمان للتعب والنّصب المنفيين في حقّ أهل الجنة كما قال سبحانه حكاية عنهم:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾، ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤ـ٣٥].

أي لا يمسّنا فيها عناء ومشقّة ولا يصيبنا فيها إعياء ومتعبة.

(١) بحار الأنوار: ٨/ ٨٩، وتفسير مجمع البيان: ٦/ ٣٩٥.

الترجمة

از جمله خطبه های آن حضرت است که مشتمل است به سه فصل:

فصل اول: در مقام شهادت به توحید می فرماید:

و گواهی می دهم که نیست هیچ معبودی به سزا به جز خدا در حالتی که یگانه است و نیست شریك او را، اوّلی است که نیست هیچ چیزی پیش از او در بدایه و آخری است که نیست مراورا غایت و نهایت، واقع نمی شود وهم ها از برای او برصفتی و بسته نمی شود عقل ها از او بر کیفیّتی، از جهت اینکه او منزّه است از صفت زایده بر ذات و مبرّا است از کیفیت و چگونگی حالات و نمی رسد به دایره ذات او تجزّی و تبعّض به جهت اتصاف او به وحدت و نمی تواند احاطه کند به او ابصار و قلوب و ادراك کنند او را به حقیقت.

فصل دوم: در مقام موعظه و نصیحت می فرماید:

پس قبول موعظه نمایید ای بندگان خدا با عبرت های نافعه و عبرت بردارید به آیات باهره و منزجر بشوید با ترسانیدن های بی پایان و منتفع باشید به ذکر متذکران و موعظه های واعظان، پس گویا فرو رفته است به شما چنگال های مرگ خون آشام و بریده شده است از شما علاقه های آرزوها به ناکام و رسیده است ناگهان به شما فظع آورنده کارها و راندن به سوی محشر که محلّ ورود خلایق است آنجا و هر نفس او را است راننده و گواهی دهنده ای که گواهی می دهد به عمل ناپسندیده او.

فصل سیم: در صفت جنّت می فرماید:

درجه های بهشت بعضی تفاضل دارد به بعضی و بعض دیگر منازل آن با تفاوت است با یکدیگر، بریده نمی شود نعیم بهشت و رحلت نمی کند مقیم بهشت و پیر نمی شود کسی که مخلّد است در آن و محزون نمی شود یا مأیوس نمی گردد کسی که ساکن است در آن، بلکه ساکنان آن جوانان تازه و رعنا است و مقیمان آن ملتذّند با لذایذ بی حدّ و انتها.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخامسة والثمانون من المختار في باب الخطب

«قَدْ عَلِمَ السَّرائِرَ، وخَبَرَ الضَّمائِرَ، لَهُ الإحاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُ مِنْكُمْ في أيّامِ مَهلِهِ قَبْلَ إزهاقِ أَجلِهِ، وفي فراغِهِ قَبْلَ أوانِ شُغلِهِ، وفي مُتَنَفَسِه قَبْلَ أَنْ يُؤخَذَ بِكَظمِهِ، وَلْيُمَهِّدْ لِنَفسِهِ وقَدَمِهِ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دارِ ظَعنِهِ لِدارِ إقامَتِهِ.

فَاللَّهَ اللَّهَ أَيُّهَا النّاسُ فيمَا إسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتابِهِ، وَاسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللّهَ لَمْ يَخلُقَكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَترُكَكُمْ سُدَى، وَلَمْ يَدَعْكُمْ في جَهالَةٍ وَلاَ عَمًى، قَدْ سَمّى آثارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمالَكُمْ، وكَتَبَ آجالَكُمْ.

وَأَنْزَلَ عَلَيْكُم الْكِتابَ تِبْياناً، وعَمَّرَ فيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْماناً، حَتى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فيما أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دينَهُ الَّذي رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسانِهِ مَحابَّهُ مِنَ الأَعْمالِ ومَكارِهَهُ، ونَواهِيَهُ وأوامِرَهُ، فَأَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ الْمَعْذِرَةَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وقَدَّمَ إِلَيْكُم بِالْوعيدِ، وأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديدٍ، فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَها أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّها قَليلٌ في كَثيرِ الأَيّامِ الَّتي تَكُونُ مِنكُمْ[1] الْغَفْلَةُ، وَالتَّشاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ، وَلاَ تُرَخِّصُوا لأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ فيها مَذاهِبَ الظَّلَمَةِ، وَلاَ تُداهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الإدهانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

عِبادَ اللّهِ إِنَّ أَنْصَحَ النّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصاهُمْ لِرَبِّهِ، وَالْمَغْبُونُ مَنْ غَبِنَ نَفْسَهُ، وَالمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دينُهُ، وَالسَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَواهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسيرَ الرِّياءِ شِرْكٌ، ومُجالَسَة أَهْلِ الْهَوىٰ مَنْسَأَةٌ للإِيمانِ، ومَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ جانِبُوا الكِذْبَ فَإِنَّهُ مُجانِبٌ للإيمانِ، الصّادِقُ عَلىٰ شفا مَنْجاةٍ وكَرامَةٍ، وَالْكاذِبُ عَلى شَرَف مَهْواةٍ ومَهانَةٍ، ولا تُحاسِدُوا فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الإِيمانُ كما تَأْكُلُ النّارُ الْحَطَبَ، وَلاَ تُباغِضُوا فَإِنَّها الْحالِقَةُ، واعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهي الْعَقْلَ، ويُنْسي الذِّكْرَ، فَأَكذِبُوا الأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصاحِبُهُ مَغْرُورٌ»[2].

---

(١) في نسخة: فيها.

(٢) ميزان الحكمة: ١/ ١٠٣، وتفسير نور الثقلين: ٣/٣ ح ١٠.

اللغة

(السّر والسّريرة) ما يكتم وجمع الأول أسرار والثاني السّرائر **(خبرت)** الشيء من باب قتل علمته وامتحنته، وفي «القاموس» خبر ككرم وفي بعض النسخ خبر الضّمائر بكسر **(الباء)**، قال الشارح المعتزلي: خبر الضمائر **(امتحنها وابتلاها)** ومن رواه بكسر الباء اراد علم انتهى، فافهم.

و**(ضمير)** الإنسان قلبه وباطنه كما في «المصباح» والجمع الضّمائر، وفي «القاموس» الضمير السّر وداخل الخاطر، وعلى ذلك فهو إمّا حقيقة في الأوّل مجاز في الثاني أو بالعكس بعلاقة الحال والمحل و**(المهل)** محركة المهلة و**(الإرهاق)** الإعجال و**(الكظم)** محركة مخرج النفس و**(الظعن)** الإرتحال و**(الانهاء)** الإعلام والإبلاغ و**(الرّخصة)** التّسهيل في الأمر والجمع رخص كغرفة وغرف و**(الإدهان)** والمداهنة اظهار خلاف ما تضمر والغش.

و**(المنساة)** و**(المحضرة)** محلّ النسيان والحضور، **(والتاء)** فيهما للتكثير كما يقال أرض مسبعة أي كثير فيها السّباع و**(الشفا)** طرف كلّ شيء و**(الشرف)** محركة المكان العالي و**(المهواة)** محل السقوط و**(المهانة)** الذلة والحقارة و**(الحالقة)** الخصلة التي فيها حلق أي شؤم قال في «القاموس»: والحالق المشؤوم كالحالقة **(فالتاء)** للمبالغة وفي «القاموس» أيضاً الحالقة قطيعة الرّحم والتي تحلق رأسها في المصيبة، قال شارح «القاموس» ومنه الحديث دبّ إليكم داء الأمم البغضاء الحالقة، وهي قطيعة الرّحم، انتهى.

وأمّا تفسير الحالقة بالمستأصلة للشعر كما في شرح المعتزلي والبحراني فلم أجده في كتب اللّغة وكذلك لم أجد تفسير الحالق بما يحلق به الشّعر بل المستفاد من «القاموس» خلافه حيث ذكر للحالق معاني ولم يذكر ذلك فيها، وقال: المحلق كمنبر الموسى، فيفهم منه أن ما يحلق به الشعر ويستأصل به على وزن مفعل لا على وزن الفاعل والفاعلة.

الإعراب

(الفاء) في قوله: **(فليعمل)** فصيحة، **(فالله الله)** منصوب على الإغراء، أي فاتقوا الله، وتكرير اللّفظ نيابة عن الفعل المقدر، **(وتبايناً)** منصوب على الحالية، **(وازماناً)** على الظرفية، **(والباء)** في قوله **(بالوعيد)** زائدة، **(وبقية أيامكم)** منصوب على الظرف، **(واصبروا لها)** **(اللاّم)** بمعنى **(على)** بدليل قوله: **(فما أصبرهم على النار)**، وقوله **(فإنها قليل)** أي شيء قليل فحذف الموصوف كما حذف في قوله تعالى:

﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾.

أي قبيلاً، **(ونفسه)** بالنصب مفعول **(غبن)**، **(ودينه)** بالرفع فاعل سلم.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة مسوقة للتذكير والموعظة، والمقصود بها جذب الخلق إلى طرف الحق وصدرها بالإشارة إلى بعض أوصافه سبحانه لتكون مقدمة للمقصد فقال عليه السلام **(قد علم السّرائر)** وهو كقوله سبحانه:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴿٧﴾﴾ [طه: ٧] وقوله تعالى: **﴿يعلم سركم ونجواكم﴾** [الأنعام: ٣].

وقد مضى القول في ذلك في شرح الخطبة التاسعة والأربعين، وتمام القول في علمه تعالى بالكليّات والجزئيات والسرّ والإعلان في تنبيهات الفصل السّابع من فصول الخطبة الأولى ونقول هنا مضافاً إلى ما سبق: إن عموم علمه سبحانه مما اتفق عليه المتكلّمون والحكماء.

أمّا المتكلّمون فظاهر لأنهم تابعون للشّرع والشرع قد ورد بذلك حسبما عرفت مفصلاً في شرح الخطبتين المذكورتين.

وأمّا الحكماء فملخّص كلامهم على ما في شرح البحراني أنّه يعلم ذاته بذاته ويتحد هناك المدرك والمدرك والإدراك ولا يتعدّد إلا بحسب الاعتبارات العقلية التي تحدثها العقول البشرية، وأمّا علمه بمعلولاته القريبة منه فيكون بأعيان ذواتها، ويتّخذ هناك المدرك والإدراك ولا يتعدّدان إلاّ بالإعتبار العقلي ويغايرهما المدرك وأمّا بمعلولاته البعيدة كالماديّات والمعدومات التي من شأنها إمكان أن توجد في وقت أو تتعلّق بموجود فيكون بارتسام صورها المعقولة من المعلولات القريبة التي هي المدركات لها أوّلاً وبالذّات، وكذلك ينتهي إلى إدراك المحسوسات بارتسامها في آلات مدركاتها.

قالوا: وذلك لأَن الموجود في الحاضر حاضر والمدرك للحاضر مدرك لما يحضر معه فإذاً لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السّموات ولا في الأَرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكون ذوات معلولاته القريبة مرتسمة بجميع الصور، وهي التي يعبّر عنها تارة بالكتاب المبين، وتارة باللّوح المحفوظ، وتسمّى عندهم عقولاً فعّالة.

هذا ما حققه محققو الحكماء في كيفية علمه سبحانه، إلاّ أنّ الكلام بعد في صحة القول بالارتسام، وقد مضى ما فيها في شرح الفصل السّابع من الخطبة الأولى، وكيف كان فلا ريب في عموم علمه وإن لم نعلم كيفية ذلك ولم نعرفه بكنهه **(وخبر الضّمائر)** أي امتحن القلوب الخير والشر أو أنّه عالم بالقلوب وبما فيها من الأَسرار وخبير بما في الصّدور على الاختلاف

المتقدّم في بيان اللّغة قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩-١١].

قال بعض المحققين: الخبير هو الذي لا تعزب عنه الأَخبار الباطنة فلا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلاّ ويكون عنده خبرة، وهو بمعنى العليم لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمّى خبرة وسمى صاحبها خبيراً فهو أخصّ من مطلق العلم **(له الإحاطة بكلّ شيء)** أي علماً وحفظاً، أو إستيلاء وقدرة كما قال تعالى:

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وقد مضى تفسيرها في شرح الفصل السابع من الخطبة الأولى **(والغلبة لكل شيء)** كما قال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وقد مرّ بعض القول في غالبيته في شرح الخطبة الرابعة والسّتين وأقول هنا إنّ معنى غلبته بكلّ شيء يعود إلى تمام قدرته عليه وكونه قاهراً على جميع الأَشياء، وليس قهره تعالى وغلبته على نحو ما يتصور فينا، بل على معنى آخر.

كما أشار إليه أبو الحسن الرّضا عليه السلام في حديث «الكافي» بقوله: وأمّا القاهر فليس على معنى نصب وعلاج واحتيال ومداراة ومكر كما يقهر العباد بعضهم بعضاً والمقهور منهم يعود قاهراً والقاهر يعود مقهوراً، ولكن ذلك من الله تعالى على أنّ جميع ما خلق ملبّس به الذلّ لفاعله وقلّة الامتناع لما أراد به لم يخرج منه طرفة عين أن يقول له كن فيكون والقاهر منا على ما ذكرت ووصفت[١].

توضيحه أن الله سبحانه لا يحتاج في قهره وغلبته إلى عمل وآلة ومدافعة وتعب وخديعة ومخالطة وحيلة كما يحتاج العباد في قهر بعضهم بعضاً إلى ذلك، إذ هذه كلّها من صفات النّقص وزائدة على الذّات ومن العوارض التي يجوز انفكاكها عن المعروض فيجوز أن يكون القاهر في وقت ما لوقوع تدبيره على وفق مطلوبه مقهوراً في وقت آخر لعدم وقوع تدبيره على وفق مقصوده أو لوقوع تدبير المقهور على نحو إرادته وغلبته على تدبير القاهر كما هو المشاهد في تدبيرات السّلاطين والملوك وسائر النّاس.

بل قاهريته سبحانه عبارة عن ذلّ الخلائق لفاعلهم القديم ودخولهم في استكانة الإمكان

---

(١) الكافي: ١/ ١٢٣، وعيون أخبار الرضا (ع): ٢/ ١٣٥.

تحت غلبته واحتياجهم في أسر الحاجة إلى كمال قدرته بحيث لا يقدرون على الامتناع لما أراد من ذواتهم وصفاتهم وهيئاتهم ومقاديرهم وكمالاتهم ونفعهم وضرّهم وخيرهم وشرّهم للزوم حاجتهم في الذوات والصّفات وجميع الحالات إليه ورفع أيدي الإمكان والافتقار لهم من جميع الجهات بين يديه.

ولعلّ لفظ القلّة في الحديث إشارة إلى صدور الامتناع عن بعضهم قليلاً فيما أراد منهم من أفعالهم الإختيارية، وليس ذلك لقهرهم وغلبتهم عليه، بل لأنه تركهم على حالهم ولم يجبرهم تحقيقاً لمعنى التّكليف والاختيار.

وقوله عليه السلام: **(لم يخرج منه طرفة عين أن يقول)** (ا ه) حال عن فاعله أو عن فاعل أراد، وضمير منه راجع إليه، وأن يقول فاعل لم يخرج يعني لم يخرج منه سبحانه في سلطانه على الخلق وقهره عليهم طرفة عين قول كن فيكون، فهو إشارة إلى أنّه قاهر دائماً ولا يصير مقهوراً أبداً، وفيه تنبيه على أن الممكن في بقائه يحتاج إليه سبحانه كما يحتاج إليه في وجوده.

قال بهمنيار في محكي كلامه: إن كلّ ممكن بالقياس إلى ذاته باطل وبه تعالى حقّ يرشد إليه قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فهو آنافأنا يحتاج إلى أن يقول له الفاعل الحق كن ويفيض عليه الوجود بحيث لو أمسك عنه هذا القول والإفاضة طرفة عين لعاد إلى البطلان الذاتي والزّوال الأَصلي كما أن ضوء الشمس لو زال عن سطح المستضيء لعاد إلى ظلمته الأَصلية.

(والقوة على كلّ شيء) وهو أيضاً يعود إلى تمام القدرة، وليس المراد به قوة البطش المعروف من المخلوق الذي هو الأَخذ الشديدة عند ثوران الغضب التناول عند الصّولة أو قوة التّعلق بالشيء وأخذه على الشّدة، لأَنّ القوة بهذا المعنى من الصّفات الجسمانية كالقوّة الشّهوية والغضبيّة وقابلة للزّيادة والنقصان، فلا يمكن اتصاف الواجب القديم بذلك بالبديهة والعيان، لكونه من صفات الإمكان كما مرّ تفصيلاً وتحقيقاً في شرح الخطبة الرّابعة والستين.

ثمّ إنه عليه السلام لمّا أشار إلى أنّه سبحانه عالم بما في الصّدور وغالب على كلّ مقدور وكان ذلك مقتضياً لانجذاب الخلق إليه ليفوزوا بما لديه علماً منهم بأنّه سبحانه طالب كلّ راغب ومدرك كلّ هارب أمر بعد ذلك بالطاعات وحذر عن الخطيئات فقال:

(فليعمل العامل منكم في أيّام مهله قبل إرهاق أجله) وهو أمر بالمبادرة إلى العمل قبل حلول الأجل، لأَنّ الميت إذا حلّ ارتفع التّكليف وبطل، فليبادر في أيّام المهل قبل أن يحلّ الموت وينزل وقبل أن يحول بينه وبين العمل.

(وفي فراغه) من شدائد الأَهوال **(قبل أوان شغله)** بفجائع الآجال **(وفي متنفّسه)** أي سعة نفسه وخلافه **(قبل أن يؤخذ بكظمه)** وخناقه **(وليمهد لنفسه وقدمه)** قبل أن لا ينفعه ندمه

(وليتزوّد من دار ظعنه) ورحلته **(لدار إقامته)** ومحلّ فاقته، وإنّما أمر بذلك لأن سفر الآخرة مهول والسّبيل طويل والخطر جليل فمن لم يمهّد لنفسه زاداً يتقوى به ولا لقدمه محلاً يضعها عليه مع حزونة الطّريق وخشونته صعب له الوصول إلى المحلّ بل تاه في المهامة[١] وضلّ.

(فالله الله عباد الله فيما استحفظكم من كتابه) وطلب منكم تدبّر ما فيه من تكليفه وخطابه **(واستودعكم من حقوقه)** المؤدية إلى ثوابه وعقابه **(فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً)** لعباً **(ولم يترككم سدى)** هملاً كالإبل الرّتاع والجمل الرّعاع، وإنّما خلقكم على وجه الحكمة والصّواب وجعلكم عاقلاً قابلاً للتّكليف والخطاب لتستفيدوا محاسن الآداب، وتنافسوا في المكارم، وتسارعوا في المغانم وتحصّلوا المعارف والطّاعات، وتنتهوا عن المعاصي والسّيئات.

فإنه قد نصب لكم أعلام الهدى **(ولم يدعكم في جهالة ولا عمى)** فمن خبط بعد ذلك وطغى فقد ضلّ وغوى، ومن أطاع فاتّقى فلسوف يعطيه ما يرضى و**(قد سمى آثاركم)** خيرها وشرّها ورفع أخباركم نفعها وضرّها **(وعلم أعمالكم)** صغيرها وكبيرها **(وكتب آجالكم)** طويلها وقصيرها **(وأنزل عليكم الكتاب تبياناً)** وبرهاناً **(وعمّر فيكم نبيّه)** ﷺ آزنة و**(أزماناً)** لانتظام معاشكم وإصلاح معادكم وإقامة للحجّة عليكم.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

(حتّى أكمل له ﷺ ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضى لنفسه) وأتمّ عليكم نعمته التي اختارها له ولكم من إسلامه وشرعه كما قال عزّ من قائل:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ١٥].

(وأنهى إليكم) وأعلمكم **(على لسانه)** سلام الله عليه وآله **(محابه من الأعمال)** الحسنة **(ومكارهه)** من الأفعال القبيحة **(ونواهيه)** الموجبة للشّقاوة **(وأوامره)** المحصّلة للسعادة **(فألقى إليكم المعذرة)** أي العذر في عقوبتكم يوم القيامة حتّى لا يكون لكم الحجة عليه بل يكون له الحجة عليكم **(واتخذ عليكم الحجة)** بما أنزله في كتابه لئلا تكونوا عن آياته في غفلة **(وقدم إليكم بالوعيد وأنذركم بين يدي عذاب شديد)** أي قدّم إليكم الوعيد وخوّفكم أمام العذاب الشّديد ليكون الوعيد قبل حلول العقاب والإنذار قبل نزول العقاب، لأن العقاب من دون بيان قبيح والتأديب بعد التّكليف حسن ومليح كما قال تعالى شأنه:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فأرسل سبحانه رسله مبشرين ومنذرين وبعث رسوله بالكتاب المبين كي لا تقولوا يوم

---

(١) المهامة أي المفازة، جمع مهمة.

القيامة: إنّا كنّا عن هذا غافلين **(فاستدركوا بقية أيامكم واصبروا لها أنفسكم)** أي تداركوا ما أسلفتم من الذنوب والخطيئات فيما بقي لكم من الأوقات واحبسوا أنفسكم عليها بتحمل مشاق الطاعات.

وفي الحديث: الصّبر صبران صبر على ما تكره وصبر عمّا تحبّ، فالصّبر الأول: مقاومة النّفس للمكاره الواردة عليها وثباتها وعدم انفعالها، وقد يسمى سعة الصّدر وهو داخل تحت الشجاعة، والصّبر الثّاني: مقاومة النّفس لقوّتها الشهوية وهو فضيلة داخلة تحت العفة **(فإنّها قليل في كثير الأيام التي تكون منكم الغفلة والتشاغل عن الموعظة)** يعني أن الأيام الباقية الّتي يمكن فيها الاستدراك والتدارك قليلة في جنب الأيام الّتي تكون فيها الغفلة والتّشاغل وهي كثيرة بالنسبة إليها.

ولعلّ الاتيان بلفظة **(تكون)** دون **(كانت)** للأشعار بأن غفلتهم ليست مختصّة بما مضى، بل ربما تكون فيما يأتي أيضاً، وذلك لما علم من حالهم أنّهم لا يستغرقون أوقاتهم الآتية بالتدارك والطاعة فأمر عليه السلام بالتدراك فيما هو آت إذ ما مضى قد فات فافهم.

(ولا ترخّصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرّخص فيها مذاهب الظلمة) أي مسالكها، والظاهر أن المراد بالترخيص للنفوس المسامحة المساهلة لها، فيكون المقصود بالنّهي المواظبة عليها ومجاهدتها.

روى الكلينيّ بإسناده عن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ النّبي صلى الله عليه وآله بعث سرية فلمّا رجعوا قال صلى الله عليه وآله: «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر» فقيل: يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال: «جهاد النّفس»[(١)].

وفي «الوسائل» عن الصّدوق بإسناده عن شعيب العقرقوفي عن الصّادق عليه السلام قال: من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضى حرّم الله جسده على النار[(٢)].

وعن الكلينيّ عن عدّة من أصحابنا عن محمّد بن محمّد بن خالد رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام أقصر نفسك عمّا يضرّها من قبل أن تفارقك، واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك فإنّ نفسك رهينة بعملك[(٣)]، هذا.

---

(١) الكافي: ٥/ ١٢ ح ٥٣ والأمالي: ٥٥٣ ح ٧٤٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٤٠٠ ح ٥٨٦٠، والأمالي: ٤٠٨ ح ٥٢٧.

(٣) الكافي: ٢/ ٤٥٥ ح ٨، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٩٧ ٢٠٥٦٠.

ويحتمل أن يكون المراد به الترخيص في الشبهات المؤدي إلى الإقتحام في الهلكات فيكون مساقة مساق ما رواه الصّدوق عنه عليه السلام قال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب الناس فقال في كلام ذكره: «حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان له أترك، والمعاصي حمى الله فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها»[١].

ونظيره ما رواه في «الوسائل» عن الكراجكي في كتاب «كنز الفوائد» مسنداً عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أيها النّاس حلالي حلال إلى يوم القيامة وحرامي حرام إلى يوم القيامة ألا وقد بيّنهما الله عزّ وجلّ في الكتاب وبيّنتهما لكم في سنّتي وسيرتي، وبينهما شبهات من الشّيطان وبدع بعدي من تركها صلح له أمر دينه وصلحت له مروّته وعرضه، ومن تلبّس بها ووقع فيها واتبعها كان كمن رعى غنمه قرب الحمى، ومن رعى ماشيته قرب الحمى نازعته نفسه إلى أن يرعها في الحمى، ألا وإنّ لكلّ ملك حمى ألا وإن حمى الله عزّ وجلّ محارمه فتوقوا حمى الله ومحارمه[٢]، الحديث.

(ولا تداهنوا فيهجم بكم الأَدهان على المعصية) والمراد بالمداهنة إمّا المساهلة للنفس فتكون هذه الجملة تأكيداً للجملة السّابقة، وإمّا ترك المناصحة والصّدق وإظهار خلاف ما تضمر أعني النّفاق وهو الأظهر.

ومنه الحديث القدسي لعيسى عليه السلام قل لمن تمرد عليّ بالعصيان وعمل بالادهان لتتوقع عقوبتي.

ومثله في حديث الباقر عليه السلام قال: أوحى الله عزّ وجلّ إلى شعيب النبيّ عليه السلام أنّي معذّب من قومك مائة ألف أربعين ألفاً من شرارهم، وستّين ألفاً من خيارهم فقال: يا ربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى إليه داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي[٣].

(عباد الله إن أنصح النّاس لنفسه أطوعهم لربّه) وذلك لأنّه لما كان مقصود الناصح بنصحه إيصال المنفعة إلى المنتصح وكانت أعظم المنافع وأجلّها هي السّعادة الأبدية والعناية السّرمدية المستفادة من طاعة الحضرة الرّبوبيّة، لا جرم كان أنصح النّاس لنفسه أكثرها طاعة لربّه.

(وإن أغش النّاس لنفسه أعصاهم لربّه) والغشّ خلاف النّصح وهو عبارة عن عدم الخلوص وعن إظهار خلاف ما يضمر، ولما كان غرض الغاشّ من غشّه إيصال الضّرر إلى

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٧٥ ح ٥١٤٩، ووسائل الشيعة: ٢٧/ ١٦١ ح ٣٣٤٩٠.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٧/ ١٦٩ ح ٣٣٥١٥، وكنز الفوائد: ١٦٤.

(٣) تهذيب الأحكام: ٦/ ١٨١ وسائل الشيعة: ١٦/ ١٤٦ ح ٢١٢٠١.

المستغش وكان أعظم المضارّ هو الشّقاوة الأبديّة والعقوبة الدّائمة النّاشئة عن عصيان الحضرة الإلهيّة، لا جرم كان أغشّ النّاس لنفسه أكثرهم معصية لربّه.

وفي هاتين الجملتين من الأمر بالطاعة والتحذير عن المعصية ما لا يخفى، إذ أحبّ الأشياء إلى الإنسان نفس الإنسان فهو دائماً طالب لمحابّها ومنافعها، هارب عن مضارّها ومكارهها، فيلزم له الإتيان بالطّاعة والحذر عن المعصية لكون الأولى جالبة للمحبوب والأخرى كاسبة للمكروه.

(والمغبون من غبن نفسه) أصل الغبن هو الخداع فالغابن خادع والمغبون مخدوع والغبن في البيع هو بيع الكثير بالقليل، ولمّا كانت الشهوات الدّنيوية واللّذائذ العاجلة زهيدة قليلة في جنب الثّمرات الأخرويّة والمنافع الآجلة، وكان المشتغل باللّذات الدّنية والصّارف عمره في الشّهوات الخسيسة قد فوت على نفسه المنافع الكثيرة والنّعم الخطيرة، فكأنّه قد باع الكثير بالقليل وفوّت على نفسه الخطير بالحقير، لا جرم كان هو غابناً لنفسه وخادعاً لها حيث بخسها ما تستحقه من ثواب الله ورضوانه، ومنه قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

قال الطبرسي في «تفسيره»: هو تفاعل من الغبن وهو أخذ شرّ وترك خير أو أخذ خير وترك شرّ فالمؤمن ترك حظه من الدّنيا وأخذ حظه من الآخرة فترك ما هو شر له وأخذ ما هو خير له فكان غابناً والكافر ترك حظه من الآخرة وأخذ حظّه من الدّنيا فترك الخير وأخذ الشّر فيكون مغبوناً، فيظهر في ذلك اليوم الغابن والمغبون، هذا.

ولما كانت السعادات الأخرويّة أنفس متاع لا متاع فوقه، والغبن فيها أعظم غبن لا غبن مثله، لذلك حصر عليه السلام المغبون فيمن غبن في ذلك وقال: المغبون من غبن نفسه على طريق المبالغة، ومثله قوله عليه السلام (والمغبوط من سلم له دينه) فإن سلامة الدّين لما كانت أعظم نعمة لا نعمة فوقها كان المنعم بذلك أحقّ بأن يغبط ويتمنّى مثل ماله من غير أن تريد زواله، وبهذا القيد يفترق الغَبطة من الحسد حسبما ستعرف.

(والسعيد من وعظ بغيره) أي السّعيد في الآخرة من لاحظ حال الغير فاتّعظ به بأن ينظر إلى حال الصّالحين ومالهم وما اعدّ الله لهم وبشّرهم به في كتابه الكريم من الجنان والغلمان والحور العين والشراب من الكوثر والتّسنيم فيحذو حذوهم ويسلك مسالكهم ويلاحظ مصير المجرمين ومقرّهم وما هيّأ الله لهم وأنذرهم به من الجحيم وظلّ من يحموم وشراب من الزّقوم والحميم فيعدل عن جادّتهم ويتنحى عن قذّتهم.

(والشّقي من انخدع لهواه) وغروره كما قال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

[القصص: ٥٠] وقال أيضاً: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

أي الخداع الذي لا حقيقة له وهو المتاع الرديء الذي يدلّس به على طالبه حتّى يشتريه ثمّ يتبيّن له رداءته والشّيطان هو المدلس **(واعلموا أن يسير الرّيا شرك)** فكيف بكثيره كما مضى تفصيلاً في شرح الخطبة الثالثة والعشرين بما لا مزيد عليه **(ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان ومحضرة للشيطان)** أراد بمجالسة أهل الهوى مجالسة أهل المعاصي وقد مضى بعض الأخبار النّاهية عنها في شرح كلامه الثالث عشر.

وأقول هنا: إن كون مجالسة أهل المعصية ومخالطتهم موجبة لنسيان الإيمان ولحضور الشّيطان واضح، لأن الفساق بإقبالهم إلى اللّعب واللّهو والفسق والفجور والسّيئات بما فيهم من دواعي الهوى والشّهوات يسود ألواح خاطرهم ويرين وجه قلوبهم فيغفلون بذلك عن ذكر الحق وتذكّر الآخرة ويزيد الغفلة شيئاً فشيئاً ويشتدّ فيخرج نور الإيمان من قلوبهم ويضمحلّ ويمحو ويحضر الشيطان في مجالسهم لإغوائهم وإضلالهم، فمن جالس معهم وخالطهم يكون المجالسة والمخالطة لا محالة مؤثرة فيه، إذ المرء على دين خليله وقرينه فيقتدي بهم ويحذو حذوهم ويعمل عملهم فيكون ناسي الإيمان وقرين الشّيطان مثلهم.

ويدل على ذلك الأخبار المستفيضة بل المتواترة ففي «الوسائل» عن الكليني مسنداً عن غياث بن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: ما اجتمع ثلاثة من الجاحدين إلاّ حضرهم عشرة أضعافهم من الشّياطين، فان تكلّموا تكلّم الشّياطين بنحو كلامهم، وإذا ضحكوا ضحكوا معهم، فإذا نالوا من أولياء الله نالوا معهم، فمن ابتلى من المؤمنين بهم فإذا خاضوا في ذلك فليقم ولا يكون شرك شيطان ولا جليسه، فإن غضب الله لا يقوم له شيء ولعنته لا يردّها شيء ثمّ قال: فإن لم يستطع فلينكر بقلبه وليقم ولو حلب شاة أو فواق ناقة(١).

وعن عمرو بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند النّاس كواحد منهم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المرء على دين خليله وقرينه»(٢).

وعن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل: إيّاكم وصحبة العاصية ومعونة الظّالمين ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم وتباعدوا من ساحتهم(٣).

---

(١) الكافي: ٢/ ١٨٨، وشرح أصول الكافي ٩/ ٦٩ ح ٦.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٧٥ ح ٣، وشرح أصول الكافي: ١/ ١٥٩.

(٣) الكافي: ٨/ ١٦ تحف العقول: ٢٥٤.

وفيه من «علل الشرائع» مسنداً عن عليّ بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: قال عليّ بن الحسين عليه السلام ليس لك أن تقعد مع من شئت لأنّ الله تبارك وتعالى[١] يقول:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]. الحديث.

ومن كتاب «صفات الشيعة» معنعناً عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عن آبائه عن عليّ سلام الله عليه وعليهم قال: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظّن بالأخيار، ومجالسة الأخيار تلحق الأشراب بالأخيار، ومجالسة الفجّار للأبرار تلحق الفجار بالأبرار فمن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، وإن لم يكن على دين الله فلا حظّ لهم في دين الله، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يواخين كافراً ولا يخالطن فاجراً، ومن آخى كافراً أو خالط فاجراً كان فاجراً كافراً»[٢] ولنعم ما قيل في هذا المعنى:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ومن مجالس الشيخ حسن ابن شيخنا الطوسي قدّس الله رسمهما مسنداً عن أبي الخير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما مجالسة الموتى؟ قال: «كلّ ضالّ عن الإيمان وجائر[٣] عن الأحكام»[٤]، والأخبار في هذا المعنى كثيرة ولا حاجة إلى الزّيادة.

ثمّ أمر بمجانبة الكذب بقوله: **(جانبوا الكذب)** وقد مرّ الكلام في قبحه عقلاً وشرعاً في شرح كلامه الثالث والثمانين ويأتي تفصيل أقسامه في التذنيب الآتي، وعلل عليه السلام قبحه هنا بقوله: **(فإنّه مجانب للإيمان)** وأراد عليه السلام بذلك أن كلاً من الكذب والإيمان مجانب من الآخر وأن بينهما تباعداً وتجانباً.

وذلك على القول بكون الإيمان عبارة عن مجموع المعرفة وما يتبعها من الأعمال الصّالحة واضح، لأنّ الصّدق على ذلك جزء للإيمان والكذب مضاد له فيكون مضاداً للإيمان، وأمّا على كونه عبارة عن نفس المعرفة فلأنّ الإيمان من أعظم الفضائل المنجية والكذب من أخس الرّذائل المهلكة والتباعد بين الفضيلة والرّذيلة والإنجاء والإهلاك أيضاً ظاهر.

---

(١) مسائل علي بن جعفر: ٣٤٤، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٢٦٥.

(٢) وسائل الشيعة: ١٦/ ٢٦٥.

(٣) في نسخة: حائر.

(٤) بحار الأنوار: ٧١/ ١٩٢ ح ١٠، ومستدرك سفينة البحار: ٨/ ٥٧١.

كما أشار إلى ذلك وأوضحه بقوله: **(الصّادق على شفا منجاة وكرامة)** أي على طرف من النجاة والكرامة ومشارف عليهما أو على طرف من محلّ النّجاة وقريب منها يكاد أن يقع فيها وفي الكرامة الدنيوية والأخروية **(والكاذب على شرف مهواة ومهانة)** أي على مكان عال من الهوى والهوان أو مشارف لمحل السقوط والذّلّة يكاد أن يسقط منها إلى الجحيم ويقع في العذاب الأليم قال الشّاعر:

لا يكذب المرء إلاّ من مهانته أو عادة السوء أو من قلّة الأدب
لعفن جيفة كلب خير رائحة من كذبة المرء في جدٍ وفي لعبِ

ثمّ نهى عن الحسد بقوله: **(ولا تحاسدوا)** وهو من أعظم الموبقات على ما ستعرف تفصيلاً في التذنيب الآتي إن شاء الله، وعلّله بقوله **(فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب)** وهذا التعليل ممّا تظافرت الأخبار به عن النّبي ﷺ وأولاده المعصومين سلام الله عليهم.

وقد اتفقت الأخبار ككلام علمائنا الأبرار على أن الحسد مضرّ بالنّفس والجسد.

أما بالنّفس فقد قال الصّادق عليه السلام: الحاسد مضرّ بنفسه قبل أن يضرّ بالمحسود كإبليس لعنه الله أورث بحسده له اللّعنة ولآدم عليه السلام الاجتباء والهدى والرّفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء، فكن محسوداً ولا تكن حاسداً، فإن ميزان الحاسد أبداً خفيف يثقل ميزان المحسود، والرّزق مقسوم فماذا ينفع الحسد الحاسد وماذا يضرّ المحسود الحسد؟[1]

وقال العلماء: إن الحسد يذهل نفس الحاسد ويغرق فكره بالاهتمام بأمر المحسود حتّى لا يبقى له فراغ بتحصيل المنافع العائدة إليها بل ويمحو ما حصلت لها من الملكات الخيريّة والحسنات المنقوشة في جوهرها بطول تعود الحسد وتمادي اشتغال الفكر فيه وكثرة الحزن والهمّ، لأن نعم الله سبحانه على عباده غير معدودة، وفيوضاته غير متناهية، فإذا كان حسد الحاسد على الخلق بتلك الآلاء، والنعم دام عليه الهمّ والغمّ فيضيق وقته بل ينقطع عن اتيان الحسنات ويلقى نفسه في المهلكات وهو معنى قولهم عليهم السلام: إنّه يأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب؛ أي يستأصله ويفنيه ويبطله مثل إستئصال النّار للحطب وإفنائها له.

وأمّا بالجسد فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام فيما يرويه السّيد «ره» في الكتاب: «صحّة الجسد من قلّة الحسد»[2].

وسرّه أنّ الحسود إذا دام عليه الحزن والغم بتواتر الآلاءِ والنعم على المنعم أورث ذلك

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ١٨ ح ١٣٣٩٠، ومصباح الشريعة: ١٠٤.

(٢) وسائل الشيعة: ١٥/ ٣٦٨ ح ٢٠٧٦٧، وبحار الأنوار: ٧٠/ ٢٥٦ ح ٢٨.

له طول السهر وتمادى الفكر وضيق العيش وضنك المعيشة وقلّة الراحة ومضيق الباحة، فينقطع عنه الابتهاج ويؤدي ذلك إلى فساد المزاج.

ثمّ نهى عن العداوة والبغضاء بقوله **(ولا تباغضوا فإنّها الحالقة)** أي البغضاء خصلة مشؤومة كما أن المحبة والإلفة ميمونة، أو أنّها موجبة لقطيعة الرّحم، وعلى تفسير الحالقة بما تحلق الشّعر وتستأصله من موسى ونحوه كما في شرحي المعتزلي والبحراني وإن لم أجده في كتب اللّغة فالكلام مبني على الاستعارة، يعني أنّها مستأصلة للخلق أو للدّين أو كليهما كما أن موسى مستأصلة للشّعر.

نعم يدلّ على تفسيرهما ما رواه الغزالي في كتاب «إحياء العلوم» في باب ذم الحسد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: وقال: «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضة هي الحالقة لا أقول حالقة الشّعر ولكن حالقة الدّين والذي نفس محمّد بيده لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتّى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السّلام بينكم»[١].

ومثله في «الكافي» بإسناده عن مسمع بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث: «ألا إن في التباغض الحالقة لا أعني حالقه الشّعر ولكن حالقة الدّين»[٢].

وكيف كان فيدل على كراهة هذه الصّفة وشؤمها وإيجابها للقطيعة ولاستئصال النفوس والدّين والإيمان أن نوع الإنسان مدني بالطّبع يحتاج في انتظام أمر ومعاشه معاده إلى الاجتماع والائتلاف والتعاون والتضافر، وكان أقوى أسباب الاجتماع والتعاون هو المودّة والمحبة والمواخاة، ولذلك آخا رسول الله صلى الله عليه وآله بين الأصحاب وحثّ على الجمعة والجماعة لتصفو الإلفة وتخلص المحبة، ونهى عن التباغض لما يستلزمه من التقاطع وعدم التعاون وتسلّط أيادي الحاسدين عليهم وتحكم آراء المعاندين وأهوائهم فيهم، بل ربما ينجر إلى حسد بعضهم بعضاً وبغي بعضهم على بعض، فلا تسلم لهم نعمة ولا تصفو لهم لذّة، ولا يكون لهم فراغ العبادة، بل يكون بذلك بوارهم وهلاكهم في الدّنيا والآخرة.

ولذلك ورد في غير واحد من الأخبار النّهي عنها والحثّ على التّحاب والإلفة.

مثل ما رواه الغزالي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سيصيب أمّتي داء الأمم»، قالوا: وما داء الأمم؟ قال عليه السلام: «الأشر والبطر والتكاثر والتّنافس في الدّنيا والتباعد والتحاسد حتّى يكون البغي ثمّ الهرج»[٣].

---

(١) مشكاة الأنوار: ١٥٧.

(٢) الكافي: ٢/٣٤٦ والأمالي مالي: ١٨١.

(٣) ألف حديث في المؤمن: ٣١٣.

وفي «الكافي» بإسناده عن مالك بن أعين الجهني عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحا أدخل الله عزّ وجلّ يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدّهما حبّاً لصاحبه، فإذا أقبل الله بوجهه عليهما تحاتت عنهما الذّنوب كما يتحات الورق من الشّجر(١).

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زار أخاه في بيته قال الله عزّ وجلّ: أنت ضيفي وزائري علي قراك وقد أوجبت لك الجنة بحبك إياه»(٢).

وعن عدّة من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «المؤمن مألوف لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وعن حبيب الخثعمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فاضلكم أحسنكم أخلاقاً الموطؤون أكتافاً الذين يألفون ويؤلفون وتوطأ رحالهم»(٣).

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله قال: سمعته يقول: المتحابون في الله يوم القيامة على منابر من نور قد أضاء نور وجوههم ونور أجسادهم ونور منابرهم كلّ شيء حتى يعرفوا به فيقال: هؤلاء المتحابون في الله.

وعن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: إن المسلمين يلتقيان بأفضلهما أشدهما حباً لصاحبه. وعن أبي عبد الجارود عن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: المتحابون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظلّ عرشه عن يمينه وكلتا يديه يمين، وجوههم أشد بياضاً وأضوء من الشّمس الطالعة، يغبطهم بمنزلتهم كلّ ملك مقرّب وكلّ نبي مرسل يقول الناس: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله(٤).

وعن أبي حمزة الثمالي عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: إذا جمع الله الأوّلين والآخرين فنادى مناد يسمع النّاس فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من النّاس فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنّة بغير حساب، قال: فتلقيهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنّة بغير حساب، قال: فيقولون: فأيّ ضرب أنتم من النّاس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله، قال: فيقولون: وأي شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحبّ في الله ونبغض في الله، قال عليه السلام: فيقولون: نعم أجر العاملين.

---

(١) الكافي: ٢/١٧٩ ح ١.

(٢) الكافي: ٢/١٧٧، وبحار الأنوار: ٧١/٣٤٥ ح ٦.

(٣) الكافي: ٢/١٠٢ ح ١٦، وتحف العقول: ٤٥.

(٤) المحاسن: ١/٢٦٤ ح ٣٣٦، والكافي: ٢/١٢٦ ح ٨.

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبّك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك والمرء مع من أحبّ، هذا[1].

وبهذه الأخبار يعلم أن المقصود بالحب والبغض في الأخبار المطلقة الآمرة بالأوّل والناهية عن الثاني هو حبّ المؤمن وبغضه، فيجب تقييد إطلاقها بذلك وإلا فقد علمت أن بغض المنافق والكافر والعاصي مطلوب كحبّ المؤمن وبغضه منهيّ عنه كحبّهم، فالمدار في الحبّ والبغض على ما كان لله وفي الله.

ثمّ إنّه نبّه على مفاسد طول الأمل ونهى عنه بقوله **(واعلموا أن)** طول **(الأمل)** في الدّنيا **(يسهى العقل)** ويغفله عمّا يجذبه إلى الله **(وينسى الذكر)** أي يوجب نسيان ذكر الموت والآخرة وما هو نافع فيها.

وذلك لأن طويل الأمل لافتتانه بالدّنيا ولذّاتها وشهواتها وحبّه لها وتمنيه طول البقاء فيها تكون أوقاته مستغرقة في ذكرها وحديثها، وهمّته مصروفة إلى تهيّة مقتضيات هواه، ونظره مقصوراً في تحصيل مآربه ومناه، فيوجب ذلك غفلة العقل ونسيان الذكر إذ من أحبّ شيئاً كره الفكر فيما يضادّه ويعانده ومضادّه العقل للهوى وذكر الآخرة لذكر الدّنيا واضح لا غبار عليها كما قد مضى مفصّلاً في شرح الخطبة الثانية والأربعين.

(فاكذبوا الأمل) بكثرة ذكر الموت ودوام إخطاره بالبال في الأيام واللّيال، وملاحظة أهوال المعاد وشدائد يوم التّناد، فإن ذلك يوجب ردّ الأمل وتكذيبه.

وإنّما سمّى ردّ الأمل تكذيباً له، لأن النفس حال تمنيها للمأمول تحكم حكماً وهمياً بنيله وإدراكه، فإذا رجعت إلى صرف العقل وجوّزت بحكمه إمكان نزول الأجل قبل بلوغ الأمل كان تجويزها ذلك مكذّباً لما جزم به الوهم من الأحكام وراداً له عن ذلك.

وعلل تكذيبه بقوله: **(فإنه غرور وصاحبه مغرور)** يعني أنّ الأمل موجب للغرور والغفلة ولا أصل له ولا حقيقة إذ ربّ شيء تأمله النفس تنقطع دونه فهو في الحقيقة ونفس الأمر:

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

(١) المحاسن: ١/٢٦٣ ح ٣٣١، والكافي: ٢/١٢٧.

تذنيبان الأول في الكذب

وقد مرّ شطر من الكلام في قبحه عقلاً وشرعاً مع طائفة من الأخبار الواردة فيه في شرح الكلام الثالث والثمانين، وأردنا هنا إشباع الكلام فيه وفي تفصيل أقسامه وأحكامه.

فأقول: إن الكذب من قبائح الذنوب وفواحش العيوب ويترتّب عليه من المفاسد الدّينية والدّنيويّة ما لا يحصى، مثل كونه خرّاباً للإيمان، وجلا بالسخط الرّحمٰن، وموجباً لإهراق الدّماء وانتهاب الأموال، وباعثاً على تحليل الفرج الحرام وتحريم فرج الحلال.

إذ من دناءة الكذب أنّه يردّ شهادة صاحبه وإن كان صادقاً، ومن شرافة الصّدق أنه يقبل شهادة المتّصف به وإن كان كاذباً، ومنشأ الكذب دناءة الهمّة وقلّة المروّة وغلبة الحرص والخسة، ومنشأ الصّدق ارتفاع الهمة وغلبة المروّة وكمال الفتوّة.

والكذب شعار خلق، ومورد رنق، وأدب سيء، وخلق رديء، وعادة خسيسة، وصفة خبيثة، وقل ما يجلب به الألفة، وقلّ من ألفه إلاّ أتلفه، والصّدق لباس بهي وجوهر دري؛ وصفة وصيفة، وحالة شريفة، جالبة للإلفة، كاسبة للمودّة، خدمته القلوب بالمحبّة، لحظته العيوب بالمهابة.

وكفى لقبحه شرعاً لو لم يرد به خبر إلاّ قول أمير المؤمنين في رواية «الكافي» عن أصبغ بن نباتة عنه عليه السلام: لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب هزله وجدله[1][2] وكيف بذلك والأخبار الواردة فيه فوق حدّ الاستفاضة كما مضى سابقاً.

ويزيد على سائر المعاصي بأنّ أصحاب الكبائر ربّما يلحقهم الحياء والخجل من سوء عملهم، ويرجعون عن عملهم القبيح ويتوبون عنه، وأمّا الكاذب فلا يستحيي من كذبه لكونه كثير الاستعمال ومأنوساً مرفوع القبح عن نظره، ومن تعوّد نفسه بذلك قل أن يرتدع عنه.

ومن هنا قيل رأيت شريب خمر نزع، ولصا أقلع، وصاحب فواحش ارتدع وما رأيت كاذباً رجع.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ الكذب على قسمين: شرعي وغير شرعي، وأعني بالشّرعي ما يجوز في الشّرع جوازاً بالمعنى الأعم، وبالغير الشرعي خلافه وأعني به الحرام وهو على قسمين جلي وخفي **أما الجلي** فهو على قسمين:

أحدهما: الكذب في حقّ النّاس أو في حق نفسه أو غيرهما، بأن يقول: وعدني فلان

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٤٠ ح ١١، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٤٠١ ح ١١.

(٢) في نسخة: جدّه.

كذا مع أنه لم يعده بشيء أو يقول أعطيت فلاناً كذا مع أنّه لم يعطه شيئاً، أو أنّي عالم بكذا مع أنه جاهل به، أو نحو ذلك.

ومحصّله أن يخبر عن نفسه أو عن الغير كائناً ما كان بخبر مخالف للواقع، وأكثر الأخبار الواردة فيه محمول على هذا القسم ويزيد شناعته بأن يكذب ثمّ يروّج كذبه بالحلف بالله، وهو الذي بارز الله بالمحاربة ويمينه هذه تذر الديّار بلاقع من أهلها وتثقل الرّحم وتوجب انقطاع النسل وتدخل النّار وتبعث غضب الجبّار كما ورد في غير واحد من الأخبار، وقد عقد في «الوسائل» باباً عليها.

وثانيهما: الكذب على الله ورسوله والأئمة قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

ومن هذا القسم الأخبار الموضوعة والأحاديث المجعولة في زمن النبيّ ﷺ وبعده في زمن بني أميّة وبني العبّاس لعنهم الله.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في رواية «الكافي» الطّويلة: وقد كذب على رسول الله ﷺ في عهده حتى قام خطيباً فقال: أيها النّاس قد كثرت عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوء مقعده من نار[(١)]، هذا.

وأول من فتح باب هذا الكذب بعد النبيّ هم المتخلفون الثلاثة حيث إنّهم قالوا إن النبيّ مات ولم يوص في الخلافة بشيء فاغتصبوا بذلك الخلافة ورووا حديثاً مجعولاً من النّبيّ ﷺ فنهبوا حق فاطمة سلام الله عليها وغصبوا فدك ولحقهم التابعون وحذوا حذوهم.

ومن عجيب ما روى أن علم الهدى **(قده)** وقع بينه وبين علماء العامة مناظرة فانجرّ الكلام إلى الأخبار التي وضعوها في فضائل مشايخهم قال **(ره)**: إنّ هذه الأخبار كلّها موضوعة فقالوا من يقدر أن يكذب على رسول الله ﷺ فقال لهم: قد ورد في الرواية عنه أنه ﷺ قال في حياته: ستكثر عليّ الكذابة بعد موتي فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوء مقعده من النّار[(٢)]، فهذا الحديث إمّا صدق أو كذب وعلى التّقديرين يثبت المطلوب.

وكيف كان فأكثر من ابتلا بهذا القسم من الكذب العلماء السوء، ويلحق به ما اعتاده النّاس في محاوراتهم من إنهم يكذبون ثمّ يقولون الله ورسوله أعلم.

---

(١) الكافي: ١/ ٦٢ ح١، وتحف العقول: ١٩٣.

(٢) الكافي: ١/ ٤٧ ح ٦، والمحاسن: ١/ ١١٨ ح ١٢٧.

روى في «الوسائل» من «الكافي» بإسناده عن وهب بن عبد ربه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قال الله يعلم فيما لا يعلم اهتزّ لذلك عرشه إعظاماً له».

وعن أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا قال العبد علم الله وكان كاذباً قال الله: وما وجدت أحداً تكذب عليه غيري؟[1]

وهذا القسم من الكذب أعني الكذب على الله ورسوله والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم ممّا ورد في الأخبار أنّه ينقض الوضوء والصّوم.

أمّا نقضه الصّوم فهو المشهور بين علمائنا الأخيار.

وأمّا نقضه الوضوء فليس بذلك، وحملها الشّيخ قدّس الله روحه على نقضه الفضل والكمال والوجه الذي يستحق به الثواب، وبعض من قال بإبطاله الصّوم ربّما عمّمه بكونه في الدّنيا والدّين سواء كان في الأحكام أو في «الفتاوى»، وسواء أسنده إلى الله وإليهم عليهم السلام أم لا، وسواء كانت الأخبار بالقول أم بالكتابة أم الإشارة والتفصيل في كتب الفقه.

وأما الكذب الخفي: فهو أن تخبر عن نفسك أو تخاطب ربّك بما لا حقيقة له ولا أصل أو تقول شيئاً وأنت تعمل بخلافه مثل أن تقول: أستغفر الله وأتوب إليه فإنّك تظهر التّوبة وأنت غير راجع عن الخطيئة ولا قالع عن المعصية.

ولذلك روى عن ربيع بن خثيم إنّه قال: لا تقل أستغفر الله وأتوب إليه، فإنّه كذب بل قل أستغفر الله وأسأله التّوبة.

أو تقوم بين يدي ربّك في كلّ يوم وليلة وتقرأ فاتحة الكتاب في صلواتك وأقلّه عشر مرّات وتقول لربّك الحمد والثناء لك أيها المربي لنا الرحمٰن الرحيم بنا المالك لأمورنا في يوم وفودنا عليك فنحن نخصك بالعبادة لا نعبد سواك، فإنّا لو رجعنا إلى أنفسنا وأنصفنا نعرف أنّنا كاذبون في ذلك المقال وخاطِؤن في تلك الدّعوى، وكيف نكون صادقين مع ما نحن عليه من إطاعة الشّيطان وعبادته وانقياد أمره ونهيه وانفاذ حكمه والعمل بما يريده، ومن إطاعه النّفس الأمّارة والقيام بما تهويه وتشتهيه مضافاً إلى الرّيا والشّرك الذي نخفيه.

ونعم ما قال ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى:

﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النحل: ٥١].

إنّه تعالى نهاك عن الإثنين وأنت اتّخذت الألوف فما أقلّ حياؤك وقال تعالى:

(١) الكافي: ٧/٤٣٧ ح ١، ووسائل الشيعة: ٢٣/٢٠٩ ح ٢٩٣٨٦.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

فقد جعل سبحانه إرادة النفس وأمنيّاتها الباطلة إلهاً، وإذا كانت هذه حالنا فكيف يصح منا دعوى تخصيصه تعالى بالعبادة، وكيف نجتري على مواجهته بذلك الخطاب الكاذب مع علمه بما في الصّدور والضّمائر وإحاطته بالبواطن والسّرائر، فكأنه ظننّا أنه سبحانه أعجز عن جميع الآلهة حتّى خصصّناه بالكذب.

ومثله قولنا: إيّاك نستعين، على طريق الحصر فإنا إذا رجعنا إلى وجداننا ولاحظنا حالنا عرفنا أنّا نستعين في أمورنا من كلّ من سواه سبحانه نعم إذا آيسنا من الخلق رجعنا إلى الخالق فكيف نخصصه بالاستعانة ونطلب منه الاعانة، ولو تأمّلنا في هذا الكذب الخفي وجدناه أضرّ بأحوالنا من الكذب الجلي لما نعيته من قبول الطّاعات ومن التأهّل للقيام على بساط المناجات، وإيراثه الحسرة والندامة وملامة النّفس اللوّامة يوم القيامة.

فواحسرتاه على ما فرّطنا في جنب الله، وواطول كربتاه على ما استخففنا في عباد الله.

أيّتها النّفس الخاطئة والقلب الجاهل القاسي بأنّك لو واجهت أحداً من النّاس وقلت له: إنّي لا أتردّد إلاّ إلى بيتك، ولا ثقة لي إلاّ بك، ولا عون لي سواك، ولا رجاء لي غيرك، ولا صديق لي دونك، مع علمك بأنّه يعلم أنّك تتردّد إلى كلّ أحد وتثق بكلّ أحد وتستعين من غيره أكثر من التردد والوثوق والاستعانة منه، ولك أصدقاء كثيرون سواه، لاستحييت من عندك وكنت خجلاً من هذا الكذب الذي واجهته به وتنفعل من ملاقاته والمراجعة إليه إلاّ بعد زمان طويل ومدّة متطاولة وأنت هنا إذ كان أوّل النّهار قلت إيّاك نستعين، ثمّ إذا جاء الظّهر قلت مثل ذلك، وهكذا مع أنّك تعمل بين هذين القولين وفيهما وبعدهما بخلاف ما قلت وتستعين الخلق وتأملهم وترجو منهم.

أفلا تعلم أن من توجّه بحاجته إلى الخلق أو جعله سبب نجحها فقد تعرض للحرمان واستحقّ من عنده سبحانه الخسران وفوات الإحسان.

فإن شئت أن تعرف ذلك بعين اليقين فانظر إلى موسى بن عمران فإنه توسّل بالفقر إلى الحق وقال:

﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

فقبض الله له شعيباً عليه السلام حتّى دعاه وآواه وزوّجه بنته وأعطاه العصا واليد البيضاء وبلغ أمره إلى ما بلغ.

وانظر إلى يوسف بن يعقوب كيف خاب حيث استعان من المخلوق.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ

﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

روى في «الكافي» عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ في بعض الكتب انّ الله تعالى يقول: وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعنّ أمل كلّ مؤمّل من الناس أمل غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلّة عند النّاس، ولأنحينّه من قربى، ولأبعدّنه من وصلي أيؤمّل غيري في الشّدائد والشّدائد بيدي، ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني، فمن ذا الذي أمّلني لنوائبه فقطعته دونها، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجائه منّي، جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممّن لا يملّ من تسبيحي، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي. فلم يثقوا بقولي ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلاّ من بعد إذني، فما لي أراه لاهياً عنّي أعطيته بجودي ما لا يسألني ثم انتزعته عنه فلم يسألني ردّه وسأل غيري، أفيراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة ثمّ أسأل فلا أجيب سائلي أبخيل أنا فيبخلني عبدي، أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس العفو والرحمة بيدي؟ أوليس أن محلّ الآمال فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟ فلو أن أهل سماواتي وأهل أرض أملوا جميعاً ثم أعطيت كلّ واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثقال ذرّة، (**وكيف ينقص ملك أنا قيمه؟**) فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني، هذا[1].

وبقي الكلام في الكذب الشرعي وأعني ما هو سائغ في الشرع المطهّر وتحقيقه يحتاج إلى تمهيد مقدّمة وهي:

أنا قد حقّقنا في الأصول أن الأحكام الشّرعية تابعة للمصالح والمفاسد الواقعيّة وبيّنا هناك أن حكم الشّارع المقدّس بوجوب شيء أو حرمته من جهة أنّه أدرك فيه حسناً ملزماً واقعياً فحكم بوجوبه، أو قبحاً ملزماً واقعيّاً فحكم بحرمته، خلافاً للأشاعرة القائلين بأن الحسن والقبح إنّما هو تابع للأمر والنّهي وبأن الصّلاة مثلاً إنّما هي حسنة لتعلّق الأمر بها والكذب قبيح لتعلّق النهي عليه؛ وأنّه لو نهى الشارع عن الأولى وأمر بالثّاني لكانت الأولى قبيحة والثّاني حسناً، وقد حقّقنا بطلان هذا المذهب وفساد هذا القول في «الأصول» بما لا مزيد عليه.

إذا عرفت ذلك فنقول: إن حرمة الكذب إنّما هي من أجل ما فيه من المفسدة الواقعيّة، كالضّرر على المخاطب أو غيره أو نحو ذلك ممّا قدّمنا، وأقلّ درجات تلك المفسدة هو إلقاء

(١) الكافي: ٢/ ٦٧، والأمالي: ٥٨٤ ح ١٢٠٨.

المخاطب في بيداء الجهالة واعتقاده للشيء على خلاف ما هو عليه، فتلك المفسدة فيه صارت مقتضية لحرمته.

فلو فرضنا أن هذه المفسدة الواقعية كانت متعارضة بجهة حسن ومصلحة في الظاهر متداركة بها تلك المفسدة كالكذب المتضمّن لإنجاء نفس محترمة من القتل مثلاً ارتفعت الحرمة قطعاً، لانتفاء سببها.

ومثله المصلحة الواقعيّة التي في الصّدق، فإنّها اقتضت وجوبها، فلو فرضنا معارضتها لمفسدة ظاهرية راجحة عليها كالصدق المتضمّن لقتل نبيّ مثلاً تبدّل حكم الوجوب فيه بالحرمة فيكون الصدق حينئذٍ حراماً.

ثم أقول: إن جهات المفسدة الواقعية في الكذب لو كانت مساوية لجهات المصلحة الظاهرية فيه كان الكذب حينئذٍ مباحاً، لتساوي مقتضيات الحسن والقبح، وذلك كالكذب في الوعد للأَهل والأَولاد على ما سيأتي في الأَخبار، ولو كانت جهة المفسدة راجحة فهو حينئذٍ باق على حرمته.

ولو كانت جهة المصلحة راجحة، فامّا أن تكون ملزمة له فيكون حينئذٍ واجباً كالكذب والخديعة في الحرب توصّلاً إلى قتل الكافر الواجب؛ وإمّا أن لا تكون ملزمة فيكون حينئذٍ مستبحاً كالكذب لإصلاح ذات البين.

وإذا ظهر لك ذلك فاعلم أنّه قد رخّص لنا أهل البيت الأَطهار سلام الله وصلواته عليهم ما تعاقب اللّيل والنّهار في بعض أقسام الكذب في أخبارهم المأثورة ولا بأس بالإشارة إليها.

فأقول: روى ثقة الإسلام الكليني في «الكافي» عن محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد بن عيسى عن أبي يحيى الواسطي عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الكلام ثلاثة: صدق وكذب وإصلاح بين الناس»، قال: قيل له: جعلت فداك ما الإصلاح بين النّاس؟ قال: تسمع من الرّجل كلاماً يبلغه فيخبث نفسه فتلقاه فتقول قد سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعت منه.

وعن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن صفوان عن أبي مخلد السّراج عن عيسى بن حسان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كلّ كذب مسؤول عنه صاحبه يوماً إلا كذباً في ثلاثة: رجل كايد في حربه فهو موضوع عنه، ورجل أصلح بين اثنين يلقي هذا بغير ما يلقي به هذا يريد بذلك الإصلاح بينهما، ورجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتمّ لهم»[١].

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٤٢ ح ١٨، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٤٠٥ ح ١٨.

بل المستفاد من الأَخبار الأُخرى جواز الحلف باليمين الكاذبة لدفع ظلم الظّالم عن نفسه أو ماله أو نفس أخيه المؤمن أو ماله.

مثل ما رواه في «الوسائل» عن الصدوق بإسناده عن ابن بكير عن زرارة قال: قلت لأَبي جعفر عليه السلام: نمرّ بالمال على العشّار فيطلبون منّا أن نحلف لهم فيخلّون سبيلنا ولا يرضون منّا إلاّ بذلك، قال عليه السلام فاحلف لهم فهو أحلى من التمر والزّبد، قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: التّقية في كلّ ضرورة وصاحبها أعلم بها حتى تنزل[١].

وعنه بإسناده عن الحلبيّ أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام: عن الرّجل يحلف لصاحب العشور يحرز بذلك ماله، قال: نعم.

قال: وقال الصّادق عليه السلام: اليمين على وجهين إلى أن قال: فأمّا الذي يوجر عليها الرّجل إذا حلف كاذباً ولم تلزمه الكافرة فهو أن يحلف الرّجل في خلاص امرء مسلم أو خلاص ماله من متعدّ يتعدى عليه من لص أو غيره[٢].

وفيه عن الشّيخ بإسناده عن السّكوني عن جعفر عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إحلف بالله كاذباً ونج أخاك من القتل»[٣].

إلى غيره مما رواه فيه وعقد عليه باباً، والله الهادي وهو العاصم من هفوات الجنان وسقطات اللسان.

الثاني في الحسد

وهو من أعضل الداء وأكبر المعاصي وأفسدها للقلب وجرح لا يبرأ، والكلام فيه في مقامات:

المقام الأول في حده

وقد عرف بأنه انبعاث القوّة الشهوية إلى تمنّي مال الغير وحاله التي هو عليها وزوالها عن ذلك الغير، وهو مستلزم لحركة القوّة الغضبيّة وعرّفه الغزالي في «إحياء العلوم» بأنّه كراهة النّعمة وحبّ زوالها من المنعم عليه، ويقابله الغبطة وهو أن لا تحبّ زوال النعمة ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها، والثاني أعم من الأَول لشموله ما لو أحبّ زوال

---

(١) النوادر: ٧٣ ح ١٥٣، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ٣٦٣ ح ٤٢٨٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٣٦٦، ووسائل الشيعة: ٢٣/ ٢٢٦ ح ٢٩٤٣٣.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٣/ ٢٢٥ ح ٢٩٤٢٨، ووسائل الشيعة: ١٦/ ١٣٤ ح ٤.

النّعمة عن المنعم عليه وإن كان لا يتمنّاها لنفسه، وهو ناشيء عن غاية خبث الطّينة وسوء السّريرة، وأشد مما لو أحبّ زوالها عنه وانتقالها إليه فالحدّ الثّاني أولى.

الثاني في الآيات والأخبار الواردة فيه

فأقول قال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

فقد أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالاستعاذة من شر الحاسد بعد أن أمره بالاستعاذة من شرّ السّاحر فأنزله منزلته، وقال في معرض التوبيخ:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فإن مساءتهم من إصابة الحسنة وفرحهم بإصابة السّيّئة دليل على حسدهم وقال:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾.

وفي «الكافي» عن داود الرّقي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «اتّقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام كان من شرائعه السيح في البلاد فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير وكان كثير اللّزوم لعيسى عليه السلام فلما انتهى عيسى إلى البحر قال: بسم الله، بصحّة يقين منه فمشى على ظهر الماء، فقال الرّجل القصير حين نظر إلى عيسى عليه السلام جازه: بسم الله بصحّة يقين منه فمشى على الماء ولحق بعيسى عليه السلام فدخل العجب بنفسه فقال: هذا عيسى عليه السلام روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فما فضله عليّ قال: فرمس في الماء فاستغاث بعيسى عليه السلام فتناوله من الماء فأخرجه ثمّ قال عليه السلام له: ما قلت يا قصير قال: قلت: هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فدخلني من ذلك عجب فقال له عيسى عليه السلام: لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ما قلت فتب إلى الله عزّ وجلّ ممّا قلت قال عليه السلام: فتاب الرّجل وعاد إلى مرتبته الّتي وضعه الله فيها فاتّقوا الله ولا يحسدن بعضكم بعضاً».

وعن معاوية بن وهب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام آفة الدّين الحسد والعجب والفخر.

وعن داود الرّقي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى لموسى بن عمران: لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي ولا تمدن عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك فإن الحاسد ساخط لنعمي صاد لقسمي الذي قسمت بين عبادي ومن كان كذلك فلست منه وليس مني.

وعن فضيل بن عياض عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد والمنافق يحسد ولا يغبط[١].

وعن محمّد بن مسلم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إنّ الرّجل ليأتي بأدنى بادرة فيكفر وإنّ الحسد ليأكل الإيمان كما يأكل النار الحطب[٢].

وفي «الوسائل» من «المجالس» مسنداً عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله الصّادق عليه السلام أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد[٣].

وفي «الأنوار النعمانية» للسّيد المحدّث الجزائري قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ستّة يدخلون النّار قبل الحساب بستّة: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبيّة والدّهاقين بالكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرّستاق بالجهالة، والعلماء بالحسد[٤].

قال وفي حديث آخر إن الحسد عشرة أجزاء منها تسعة بين العلماء وواحد في النّاس ولهم من ذلك الجزء الحظ الأوفر، وروى ما رواه أولاً الغزالي في «إحياء العلوم» عن النّبي صلى الله عليه وآله مثله إلى غير هذه ممّا وردت فيه.

وقد استفيد منها ومن الآيات السّابقة حرمته وكونه من أعظم الموبقات مضافاً إلى إجماع علماء الإسلام عليه.

فإن قلت: فكيف التّوفيق بين هذه الأدلّة وبين حديث رفع التسعة المعروف بين الفريقين، والمروي في «الوسائل» عن الصّدوق في التّوحيد والخصال بسند صحيح عن حريز بن عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رفع عن أمتي تسعة أشياء: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطرّوا إليه، والحسد، والطيرة، والتّفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطقوا بشفة، فإن المراد برفع تلك الأمور إمّا رفع جميع آثارها التي منها المؤاخذة عليها، أو رفع خصوص المؤاخذة، وعلى التقدير فيدلّ على رفع المؤاخذة على الحسد وعدم كونه معصية فينا في الأدلّة السابقة.

قلت: قد جمع بينهما شيخنا العلاّمة المرتضى الأنصاري (قد) في «الرسائل» بحمله على ما لم يظهر الحاسد أثر حسده بلسان أو غيره بجعل عدم النطق باللّسان قيداً له.

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٠٧ ح ٧، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٣١٩ ح ٧.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٠٦ ح ١، وسائل الشيعة: ١٥/ ٣٦٥ ح ٢٠٧٥٤.

(٣) الكافي: ٢/ ٢٨٩، الخصال: ٩٠ ح ٢٨.

(٤) منية المريد / ٢٢٤، ميزان الحكمة: ١/ ٦٢٦.

قال (ره): ويؤيده تأخير الحسد عن الكلّ في مرفوعة الهندي عن أبي عبد الله عليه السلام المروية في أواخر أبواب الكفر والإيمان من «أصول الكافي» قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وضع عن أمّتي تسعة أشياء: الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطرّوا إليه، وما استكرهوا عليه والطيرة، والوسوسة في التفكّر في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد[1]، الحديث.

قال (ره): ولعلّ الاقتصار في النبوي الأوّل على قوله ما لم ينطق لكونه أدنى مراتب الأظهار.

قال: وروي ثلاثة لا يسلم منها أحد: الطيرة، والحسد، والظّن، قيل: فما نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقّق، والبغي عبارة عن استعمال الحسد.

قال: ولأجل ذلك عد في الدّروس من الكبائر في باب الشّهادات إظهار الحسد لأنفسه، وفي الشرائع أن الحسد معصية وكذا بغض المؤمن والتظاهر بذلك قادح في العدالة، ثمّ قال: والانصاف أن في كثير من أخبار الحسد إشارة إلى ذلك، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: أما استشهاده بكلام صاحب «الشّرائع» ففيه ما لا يخفى لصراحتها في كون نفس الحسد معصية، وكون التظاهر به قادحاً في العدالة إنّما هو لأجل كونه طريقاً إليه لا من حيث موضوعيته فيه، ولعلّ ذلك أيضاً مراد الشّهيد في الدّروس، فانظر ماذا ترى.

وأما ما قاله من أن في كثير من أخبار الحسد إشارة إلى ذلك فهو صحيح ومن جملة تلك الأخبار، ما رواه في الوسائل من مجالس الشّيخ حسن ابن شيخنا الطوسي (ره) معنعناً عن عليّ بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم لأصحابه: ألا إنّه قد دبّ إليكم داء الأمم من قبلكم وهو الحسد ليس بحالق الشعر لكنه حالق الدين وينجي فيه أن يكفّ الإنسان يده ويخزن لسانه ولا يكون ذا غمر على أخيه المؤمن[2].

قال صاحب «الوسائل» بعد روايته: وتقدّم ما يدلّ على العفو عن الحسد الذي لا يظهر أثره.

وفيه من «الكافي» بإسناده عن حمزة بن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ثلاثة لم ينج منها نبيّ فمن دونه: التّفكّر في الوسوسة في الخلق، والطيرة، والحسد إلاّ أن المؤمن لا

---

(١) الكافي: ٢/٤٦٣ ح ٢، تحف العقول: ٥٠ ح ٢.

(٢) مسائل علي بن جعفر: ٣٣٧ ح ٨٣٠، وسائل الشيعة: ١٥/٣٦٨ ح ٢٠٧٦٨.

يستعمل حسده[1]، هذا.

وقال شيخنا السّيد قدّس الله روحه في مجلس الدّرس: الأقرب حمل رفع المؤاخذة على الحسد في حديث رفع التّسعة على ما كان من قبيل الخطرات القلبيّة الزائلة بسرعة وحمل ما دل على حرمته وكونه من الكبائر على ما عداه ممّا اشتدّ وتأكّد.

الثّالث في أساب الحسد

وهي كثيرة وحصرها الغزالي في «إحياء العلوم» في سبعة: العداوة، والتعزز والتكبّر، والتعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحبّ الرئاسة، وخبث النّفس.

أمّا العداوة وهي أشد الأسباب ومعناها أن تكره النّعمة على غيرك لكونه عدوّاً لك وكونك مبغضاً له فإنّ البعض إذا رسخ في النّفس يقتضي التشفي والانتقام وربما يعجز المبغض عن أن يشتفى بنفسه فيتمنى زوال النعمة من المبغوض ويكون زوالها منه موجباً لفرحه كما أنّه يفرح إذا ابتلى ببلية أو أصابته مصيبة ويكون ذلك تشفيّاً لخاطره، وقد وصف الله سبحانه الكفار بهذه الصّفة في قوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] وقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وهذا القسم من الحسد ربما يفضي إلى القتال والجدال واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسّعاية وطلب أسباب زوالها على كلّ حال.

وأمّا التعزّز فهو أن يثقل عليه ترفع غيره عليه، فإذا أصاب بعض نظرائه وأمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف من تكبره عليه وهو يشقّ عليه ذلك ولا يسمح نفسه تحمل ذلك فلا يرضى بكونه منعماً عليه بتلك النّعمة حذراً من ذلك، ومحصله الخوف من تفاخر الغير عليه لا حبّ تفاخره على الغير وربما يرضى بمساواته له.

وأمّا التكبّر فهو أن يكون في طبعه أن يتكبّر على الغير ويترفع عليه ويكون الغير منقاداً له مطيعاً لأمره ونهيه صاغراً عنده، فإذا نال نعمة خاف من عدم إطاعته وانقياده له وعدم إمكان ترفعه عليه كما كان أو ترقيه إلى مقام يترفع هو عليه فيكون مطيعاً بعد ما كان مطاعاً، ومتكبّراً عليه بعد ما كان متكبراً، ومن هذا الباب كان حسد كفّار قريش في حقّ النبيّ ﷺ إذ قالوا كيف يتقدّم علينا غلام يتيم ويكون رسولاً علينا ونكون مطيعين له كما حكى الله عنهم بقوله:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وأرادوا بذلك نزوله على الوليد بن المغيرة لعنه الله أو أبي مسعود عروة بن مسعود

(١) الكافي: ٨/١٠٨ ح ٨٦، شرح أصول الكافي: ١٢/ ٤٤.

الثقفي أو غيرهما لأجل كون هؤلاء من رؤساء القبائل وذوي الأموال الجسيمة وعظيم المنزلة عندهم لا يثقل عليهم التواضع والطاعة لهم كما كان يثقل عليهم طاعته صلى الله عليه وآله.

وأمّا التعجب فهو أن تكون النعمة عظيمة والمنصب جليلاً فيتعجّب من فوز مثله بمثل تلك النعمة كما حكى الله سبحانه عن الأمم السّابقة بقوله:

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤].

فتعجّبوا من أن يفوز برتبة الرسالة الوحي والزلفى من الله بشر مثلهم فحسدوا وأحبّوا زوال النبوة عنهم إشفاقاً من أن يفضل عليهم من هو مثلهم في البشريّة ولم يكن مقصودهم إظهار كبر ولا طلب رئاسة ولا بينهم سابقة عداوة أو نحو ذلك من سائر أسباب الحسد.

وأمّا الخوف من فوت المقاصد العظيمة فهو يختصّ بمتزاحمين على مقصود واحد، فإنّ كلّ واحد منهما يحسد صاحبه ويريد انفراده بذلك المقصود، ومن هذا الباب تحاسد الضرّات في مقاصد الزّوجية وتحاسد الأخوة من أجل تزاحمهم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصّل إلى مقاصد الكرامة والشرافة أو المال والعزّة كما وقع من اخوة يوسف عليه السلام في حقّه ومن قابيل في حق هابيل، ومنه أيضاً تحاسد الواعظين والرّاثين ونحوهما.

وأمّا حبّ الرئاسة فمنشأه حبّ الاختصاص بنعمة لا يشاركه فيها غيره، وحب ثناء النّاس له وفرحه بتفرّده بها، فإذا رأى مشاركاً له فيها ساءه ذلك، وهو غالب في العلماء السّوء فإنّهم يحبّون أن يكونوا مرجعاً للنّاس وملجئاً، ويكون تردّدهم إليهم ولا يرضون بمشاركة الغير لهم.

ومن هذا الباب كان حسد علماء اليهود لرسول الله صلى الله عليه وآله فإنّهم كانوا ينكرون معرفته ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رئاستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم.

ومنه أيضاً كان حسد الخلفاء الثلاثة لأمير المؤمنين عليه السلام مضافاً إلى العداوة والبغضاء التي كانت فيهم وغير ذلك من الأسباب السابقة، إذ لا امتناع في اجتماع الأسباب المتعددة.

والفرق بين هذا القسم وسابقه اشتراط التّزاحم على المقصود في السّابق دون ذلك، إذ ربّما ترى عالماً أو صانعاً يختصّ بفنّ مخصوص من العلم أو الصّناعة يمدحه النّاس بأنّه فريد دهره ووحيد عصره في ذلك الفنّ أو الصّناعة، فإنّه لو سمع في أقصى البلاد بنظيرٍ له فيه لساءه ذلك وأحبّ موته أو زوال النّعمة عنه.

وأمّا خبث النّفس فالحسد بذلك خارج عن جميع الأقسام السّابقة، فإنّك ترى من النّاس من ليس غرضه في رئاسة ولا تعزّز ولا تكبّر إذا وصف عنده حال عبد من عباد الله فيما أنعم

الله به عليه يشقّ عليه ذلك وإذا وصف له اضطراب أمور النّاس وإدبارهم يفرح بذلك، فهو دائماً يحبّ الإدبار لغيره ويبخل بنعم الله على عباده كأنّهم يأخذونها من ملكه وخزانته، وليس لذلك سبق ظاهر إلاّ خبث النّفس وشقائها ورذالة الطبع ودناءته ومعالجته شديدة إذ الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصوّر زوالها ويرجى إزالته، وهذا ناشيء من خبث الطّينة وسوء السريرة فيعسر زواله وإلى ذلك ينظر ما قيل.

كلّ العداوة قد ترجى إماطتها[1] إلاّ عداوة من عاداك من حسد

وهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعضها أو أكثرها أو جميعها في شخص فيشتدّ حسده ويتضاعف، وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأَسباب وقلما يتجرّد سبب واحد منها، نعوذ بالله من شرور النفس وشحّ الأنفس.

الرابع

في بيان سبب كثرة الحسد بين العلماء على ما أخبر به رسول الله ﷺ من أنّه عشرة أجزاء منها تسعة بين العلماء وواحد في النّاس ولهم من ذلك الجزء الحظّ الأوفر.

فأقول: العلماء إمّا علماء الدّنيا أو علماء الآخرة، والمراد بالأوّل من كان غرضه من العلم هو الدّنيا وتحصيل رئاستها وحبّ شهواتها وقنياتها وطلب الوقع في قلوب النّاس وابتغاء إقبالهم إليه، وبالثّاني هم العارفون بالله والراغبون في الآخرة والزّاهدون في الدّنيا المعرضون عنها.

والحسد إنّما هو بين الطائفة الأولى، وسببه تزاحمهم على غرض واحد إذ كل منهم يريد الفضل لنفسه دون صاحبه، ويتمنّى الاجتهاد والمرجعيّة والرئاسة وصداء النّعلين ونحو ذلك، ويريد ذلك بعينه غيره من أبناء جنسه فيتزاحمان على غرض واحد.

ومن أجل التّزاحم أيضاً ينشأ الحسد بين أفراد جنس واحد وأبناء نوع واحد كالتّاجر للتّاجر، والواعظ للواعظ، والبزّاز للبزّاز وهكذا، فإنّ الغالب أن البزّاز يحسد للبزاز دون العطار ودون الواعظ، والعالم يحسد العالم دون الصّانع.

ولما ذكرناه ترى الحسد بين علماء بلدة واحدة أكثر مما بين علماء بلدتين وما بين البلدتين القريبتين أكثر ممّا بين البلدتين النائيتين لزيادة التزاحم في الأولى على الثّانية، ومنشأ ذلك كلّه هو حبّ الدّنيا، فإنّ الدّنيا هي الّتي تضيق على المتزاحمين.

وأما علماء الآخرة العارفون بالله والمبتهجون بمعرفته سبحانه فلا يكون بينهم تحاسد،

---

(١) الإماطة: الابعاد.

لأنّ غرضهم هو الآخرة ومقصدهم هو المعرفة ولا ضيق في شيء منهما كالدّنيا ألا ترى أنّ من أحبّ معرفته سبحانه ومعرفة صفاته وأفعاله من عجائب ملوكت سمائه وأرضه لا يعادي ولا يبغض غيره ممّن كان يحبّ معرفة ذلك أيضاً؟ وذلك لسعة بحر المعرفة وعدم الضّيق فيه، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذّ به ولا ينتقص لذّة أحدهم بسبب غيره، بل يحصل بكثرة العارفين ثمرة الإفادة والاستفادة والإنس والصّحبة، وغرضهم إنّما هو تحصيل المنزلة عند الله والزّلفى لديه وما عند الله أعظم من أن يضيق على الطّالبين ولا يسع الرّاغبين، إذ البحر لا ينفذ بالقطر، والشّمس لا ينقص بالذّر، وليس كمال الدّنيا إذا وقع في يد أحد خلت عنه يد الآخر أو كجاهها إذا اتصف به شخص حرم عنه غيره، إذ الجاه عبارة عن ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة فيكون سبباً للمحاسدة.

وبالجملة فنعمة العارف وجنّته معرفته الّتي هي صفة ذاته، وهو دائماً يجني ثمارها ويغتذي بفواكهها، وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية وإن غمض العين الظاهرة فروحه ترتع كلّ الأوقات في جنّة عالية ورياض زاهرة وكثرتهم لا توجب تحاسدهم بل كانوا كما قال ربّ العالمين:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

وهذا حالهم وهم في الدّنيا فما ظنّك بهم إذا انكشف عنهم الغطاء وشاهدوا المحبوب في العقبى فأهل العرفان واليقين براء من الحسد في الدّنيا والآخرة جميعاً، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة علّيين إلى ضيق سجّين، ولذلك وسم به الشّيطان اللّعين، حيث أظهر الحسد والبغضاء لما رأى اختصاص آدم بالخلافة والاجتباء ولمّا دعى إلى السجود استكبر وأبى، وتمرّد وعصى، فاستحقّ الجحيم وقيل له:

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧].

وإذا عرفت أنّ منشأ الحسد هو التّوارد على مقصود يضيق عن الوفاء لمن ابتغى فعليك بمقصد لا تزاحم فيه أصلاً ولذّة لا نفاد لها ونعمة لا زحمة فيها ولا يوجد ذلك في الدّنيا إلاّ في معرفة الحق تعالى ومعرفة صفاته العلياء وإن لم تكن تشتاق إلى ذلك ولا تجد لذّة لذلك فأنت في ذلك معذور لأنّك في يد هواك مغمور مقهور والصّبي لا يعرف لذة الملك والسّلطنة، وإنّما لذته في اللّهو واللّعبة، فإنّ هذه لذّة يختص بإدراكها الرّجال دون الصّبيان، والأطفال، والمعرفة مختصّة بأهل الكمال وهم الذين لا غرض لهم إلاّ الله وهم.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

ولا يشتاق إلى هذه اللّذة غيرهم، لأنّ الشوق بعد الذّوق، ومن لم يذق لم يعرف ومن

لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المجرمين في أسفل السّافلين.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

الخامس

في معالجة الحسد الذي هو من موبقات الذّنوب ومن الأمراض العظيمة للقلوب، والدّواء النّافع له هو أن تعرف أنّه مضرّ عليك في الدّنيا والدّين وغير مضرّ بالمحسود في الدّنيا والدّين، بل نافع له فيهما، ومهما عرفت هذا عن بصيرة وكنت صديقاً لنفسك شقيقاً لها ولم تكن عدوّاً ومبغضاً لها فارقت الحسد لا محالة.

أمّا كونه مضرّاً عليك في الدّين فلما مرّ في الأخبار السّابقة من كونه سبباً لسخط الجبّار وآكلاً للإيمان أكل الحطب للنار، بل الحاسد في الحقيقة ساخط لقضاء الله وغضبان على قدر الله كاره للنعم الّتي قسّمت بين عباد الله، وحسده في الحقيقة اعتراض على الخالق فيما منحه على الخلائق وإيراد على الحكمة وجناية على حدقة التّوحيد، وفيه متابعة الشّيطان اللّعين وأوليائه من الكفّار والمنافقين حيث إنّه حسد وقال:

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وكذلك أولياؤه لم يزالوا حاسدين معاندين للمؤمنين، مبغضين لهم وبعداوتهم معلنين متألّمين بفرحهم وبتألّمهم مسرورين، فمن كان حاسداً فهو للشيطان وأوليائه قرين، وهو معهم في أسفل السّافلين.

وأمّا كونه مضرّاً عليك في الدّنيا فلأنّك تتألّم بحسدك فيها وتتعذّب به دائماً ولا تزال في همّ وغم، إذ نعم الله سبحانه في الدّنيا في حق البرّ والفاجر والمؤمن والكافر غير معدودة، وفيوضاته غير متناهية وأنت كلّما رأيت تنعّم المحسود بنعمة تألّمت وتأثّرت، فلا يحصل لك خلاص من الحزن والألم لعدم انقطاع الآلاء والنّعم، ولا يكون لك فراغ من الفكر ويطول عليك الهجود والسّهر فليطرق عليك النّصب والآلام، ويتراكم عليك الأوصاب والأسقام، لسراية المرض من القلب إلى البدن ومن الخلد إلى الجسد.

ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: صحة الجسد من قلة الحسد[1]، وقيل الحسد يضرّ

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٣٦٧ ح ٢٠٧٦٦، بحار الأنوار: ٧/ ٦٥٦ ح ٢٨.

بنفس الحاسد قبل إضراره بالمحسود.

وقد روي أن رجلاً كان يغشي بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه اساءته، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول يزعم أن الملك أبخر، فقال الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فإنّه إذ دنا منك وضع يده على أنفه لئلاّ يشمّ ريح البحر فقال له: انصرف حتى أنظر.

فخرج من عند الملك فدعى الرّجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم؛ فخرج الرّجل من عنده فقام بحذاء الملك على عادته فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فقال له الملك: ادن منّي، فدنا منه فوضع يده على فيه حذراً من أن يشمّ الملك منه رائحة الثّوم فقال الملك: ما أرى فلاناً إلاّ قد صدق وكان الملك لا يكتب بخطّه إلاّ بجائزة أو صلة، فكتب له كتاباً بخطّه إلى عامل من عمّاله:

إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه وحشّ جلده تبناً وابعث به إليّ، فأخذ الكتاب وخرج، فلقاه الرّجل الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: خطّ الملك لي بجائزة، فقال: هبه لي فوهبه له، فأخذه ومضى إلى العامل فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك، قال: إنّ الكتاب ليس هو لي فالله الله في أمري حتى تراجع الملك، فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشي جلده تبناً وبعث به.

ثمّ عاد الرّجل كعادته إلى الملك وقال مثل قوله، فتعجب الملك وقال: ما فعلت الكتاب؟ فقال لقاني فلان فاستوهبه مني فوهبته له، قال الملك: إنّه ذكر لي أنّك تزعم أنّي أبخر، قال: ما قلت ذلك، قال: فلم وضعت يدك على فيك؟ قال: لأنّه أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمّه، قال: صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفاك المسيء إساءته.

وأمّا عدم كونه مضرّاً بالمحسود في الدّنيا والدّين فواضح.

أمّا الدّنيا فلأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدّره الله في حقّه من النعمة والإقبال ومن طيب العيش وحسن الحال لا بدّ أن يدوم إلى أجل معلوم، لاراد لحكمه ولا دافع لقضائه، إذ كلّ شيء عنده بمقدار، ولكلّ أجل كتاب ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المسحود ضرر.

ولعلك تقول: ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي فهذا غاية الجهالة والسفاهة لأنّه بلاء تشتهيه أوّلاً لنفسك، فإنّك أيضاً لا تخلو من حاسد يحسدك فلو كانت النعمة تزول بالحسد للزوم أن تنقطع عنك النعم وعن كلّ أحد بل يزول الإيمان عن المؤمنين لأنّ الكفار حاسدون لهم في ذلك محبّون ارتفاعه عنهم كما قال سبحانه:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

وان اشتهيت أن تزول النعمة عن محسودك بحسدك ولا تزول عندك بحسد حاسدك، فهذا غاية الغباوة والحماقة، لأن كلّ واحد من الحساد يشتهي الاختصاص بهذه الخاصية فأيّ ترجيح لك على غيرك؟

فإن قلت: سلّمنا هذا كلّه ولكن ما تقول فيما رواه في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النّوفلي عن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر[1]، فإن المستفاد من هذه الرّواية أن الحسد له تأثير في زوال النعمة.

قلت: هذه لا تكافيء الأدلة السّابقة، لعدم سلامة سندها وقلتها بالنسبة إليها، مع إمكان الجمع بينهما بأن يقال بتأثير الحسد في الجملة كالعين الصائبة إلا أنه لا يوجب زوال النعمة بالمرّة فيمكن أن تزول النعمة التي صارت سبباً لحسد الحاسد عن المحسود ثمّ ينتقل المحسود إلى نعمة أخرى أشرف وأجل ممّا زالت منه، لما قد روي في الأخبار من أن الرّزق مقسوم، ومن قوله صلى الله عليه وآله لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فتأمل.

وأمّا عدم كونه مضرّاً بالمحسود في الدّين فواضح مستغن عن البيان.

وأمّا انتفاعه به في الدّين والدّنيا فظاهر أيضاً.

أمّا الدّين: فلأنّه مظلوم من جهتك وأنت ظالم له وميزانه ثقيل وميزانك خفيف كما مرّ في الأخبار، وأيضاً فإنّه بصبره وتحمله على أذاك يفوز فوزاً عظيماً ويدرك ما أعدّ الله من عظيم الأجر للصّابرين كما يشهد به ما في «الوسائل» عن الصّدوق بإسناده عن معاوية بن وهب عن الصّادق جعفر بن محمّد عليه السلام قال: اصبر على أعداء النّعم فانّك لن تكافيء من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه[2]، ومثله رواية عمّار بن مروان عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام ونحوهما أخبار أخر.

وأمّا انتفاعه به في الدّنيا: فهو إن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وألذّ عيشهم أن يكون أعداؤهم معذّبين، ولا عذاب أشد ممّا أنت فيه من ألم الحسد وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غمّ وحسرة بسببهم، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوّك موتك بل يشتهي طول حياتك لتنظر ما أنعم الله به عليه وينقطع نياط قلبك

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٠٧ ح ٤، الخصال: ١٢.

(٢) الكافي: ٢/ ١٠٩ ح ٣، ومن لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٩٨ ح ٥٨٥٢.

حسداً كلّما رأيته، ولذلك قيل:

لا مات أعداؤك بل خلدوا حتّى يروا فيك الذي يكمد
لا زلت محسوداً على نعمةٍ فإنّما الكامل من يحسد

وإن شئت زيادة وضوح إضرار الحاسد بنفسه وانتفاع المحسود بحسده فاختبر ذلك بقصة يوسف عليه السلام واخوته حيث حسدوه وقالوا:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ﴾ [يوسف: ٩]﴿يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ﴾ [يوسف: ١٠] ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ يوسف: ٢٠].

فأدركته العناية الأزليّة والرحمة الإلهية وأعطي بمحسوديته الملك والمملكة والعزّ والسّلطنة وابتلوا بحاسديّتهم بالفقر والفاقه والضر والمسكنة حتّى صاروا محتاجين إليه بسوء الأعمال'فدخلوا عليه ونادوه بلسان الابتهال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨] وسوء الحال ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

فأصبحوا بفضله مذعنين وعن علوّ شأنه مفصحين بقوله:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ، وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ٩١].

بعد أن كانوا له حسداً، وأنت أيّها النّاقد البصير والزّكي الخبير إذا احطت خبراً بما تلوناه عليك وعرفت مضارّ الحسد ومفاسده فراقب الانصاف وجانب الاعتساف ولاحظ نفسك وامحض لها نصحك ولا تكسب لها الخسارة في الحال ولا تجلب لها الشّقاوة في المآل، ولا تبخس حظّك عند الخالق، ولا تسقط وقعك من قلوب الخلائق، ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت، باقية كرهت أم رضيت، فلا تكن للشّيطان وليّاً ولا لنفسك عدوّاً ولا للمؤمنين خصيصاً، فلا تفت على نفسك فوائد الحبّة، ولا تحرمها من منافع الإلفة والمودّة، ولا توقعها في مضار البغضاء والعداوة، أفما دريت في شرح هذه الخطبة أنها حالقة للدين والإيمان، ساخطة للرّحمن، وبالله أستعيذ من خبث النفس وشرور الأنفس، وبه أعتصم من مكائد الشّيطان وموبقات الإيمان، ومنه التوفيق وعليه التكلان وهو المستعان.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام انام است كه فرمود:

به تحقيق كه عالم است حقّ سبحانه و تعالى به سرها و خبير است به ضميرها، مراورا است احاطه به جميع اشياء از حيثيت علم و حفظ و غلبه به جميع مخلوقات با قهر و سلطنت و قوّت به همه موجودات با كمال اقتدار و قدرت، پس بايد عمل نمايد عمل كننده از شما در ايّام مهلت پيش از سرعت اجل او و در زمان فراغت قبل از اشتغال او و در زمان وسعت نفس زدن پيش از آنكه گرفته شود راه نفس او و بايست مهيّا نمايد از براى نفس خود توشه طاعات و از براى استوارى قدم خود بر صراط و بايد توشه بردارد از سراى رحلت خود براى سراى اقامت خود.

پس بترسيد از خدا اى بندگان خدا در آنچه كه خواسته است از شما حفظ كردن آن را از كتاب خود و در آنچه امانت نهاده پيش شما از حقوق خود، پس به درستى خداوند عالم خلق نفرموده شما را به عبث و فرونگذاشته است شما را مهمل و نگذاشته است شما را در جهالت و كورى.

به تحقيق كه بلند نموده است خبرهاى شما را و عالم است عمل هاى شما را و نوشته است اجل هاى شما را و نازل كرد بر شما كتاب را به جهت بيان هر شىء و زندگانى داد در ميان شما پيغمبر خود را زمانى چند تا آنكه كامل ساخت از براى او و از براى شما در آنچه كه نازل فرموده بود از كتاب خود دين خود را كه پسنديده بود از براى خود و اعلام نمود به شما به زبان پيغمبر خود محبوب ها و مكروه هاى خود را از عمل ها و كارها و نواهى خود را و اوامر خود را.

پس القا كرد به سوى شما معذرت خود را در عقوبت شما و أخذ نمود بر شما حجّت خود را و پيش انداخت به سوى شما تهديد و وعيد را و ترسانيد شما را پيش از عذاب شديد.

پس تدارك نمائيد در بقيّه روزگار خود و بازداريد دربقيّه أيّام نفس خود را از عمل ناشايست و متحمل باشيد به مشقت عبادت، پس به درستى كه آن بقيه ايام كم

است در میان روزگار بسیار که می باشد از شما غفلت و بی خبری و مشغول شدن از پندگیری و رخصت ندهید نفس های خود را تا اینکه ببرد شما را آن رخصت ها در راه های ظالمان و ستمکاران و مداهنه و مسامحه ننمائید با فاسقان تا اینکه بیاورد شما را آن مداهنه به معصیت.

ای بندگان خدا، به درستی که نصیحت کننده ترین خلق بر نفس سرکش خود، اطاعت کننده ترین ایشان است پرودگار خود را و به درستی که فریب دهنده ترین خلق نفس خود را، عاصی ترین ایشان است بر آفریدگار خود و زیان کار کسی است که زیان رساند نفس خود را و سودمند کسی است که سالم شود از برای او دین او و صاحب سعادت آن کسی است که پند گیرد به حال غیر خود و صاحب شقاوت آن کسی است که فریب خورد به هوا و غرور خود.

و بدانید که اندکی از ریا شرك است به خدا و هم نشینی اهل معصیت و هوا محل فراموشی ایمان است و مکان حضور شیطان و کناره جوئی کنید از کذب و بهتان که آن بیگانه است از ایمان، راست گو بر کناره نجات است و بزرگواری و دروغ گو بر گوشه هوس است و خواری و بر یکدیگر حسد مبرید، پس به درستی که می خورد حسد دین را همچنان که می خورد آتش هیزم را.

هر که را پیشه بود حقد و حسد — هرگز از آتش دوزخ نرهد
کینه از سینه خود بیرون کن — زین عمل قدر و شرف افزون کند
بیخ حقد و حسد از دل بر کن — بر فلك ساز چه عیسی مسکن

و دشمنی نکنید بر یکدیگر، پس به درستی که عداوت تراشنده ایمان است و بدانید که آرزوی دور و دراز باعث سهو عقل می شود و سبب نسیان ذکر، پس تکذیب نمائید آرزوی خود را از جهت اینکه آمال و امانی دروغ است و فریب و صاحب آن مغرور است و مفتون.

ومن خطبة له عليه السلام وهي السادسة والثمانون

من المختار في باب الخطب

وشرحها في ضمن فصول:

الفصل الأول

عِبادَ اللَّهِ إنَّ مِنْ أَحَبَّ عِبادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعانَهُ اللَّهُ عَلىٰ نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ وتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَىٰ في قَلْبِهِ، وأَعَدَّ الْقِرَىٰ لِيَوْمِهِ النازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وهَوَّنَ الشَّدِيدَ، نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وَارْتَوىٰ مِنْ عَذْبٍ فُراتٍ سُهِّلَتْ لَهُ مَوارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهلاً، وسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً، قَدْ خَلَعَ سَرابِيلَ الشَّهَواتِ، وتَخَلَّىٰ مِنَ الْهُمُومِ إلاّ هَمّاً واحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمىٰ ومُشارَكَةِ أَهْلِ الْهَوىٰ، وصارَ مِنْ مَفاتِيحِ أَبْوابِ الْهُدَىٰ ومَغالِيقِ أَبْوابِ الرَّدي، قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وسَلَكَ سَبِيلَهُ، وعَرَفَ مَنارَهُ، وَقَطَعَ غِمارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مَنَ الْعُرَىٰ بِأَوْثَقِها، ومِنَ الْجِبالِ بِأَمْتَنِها، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَىٰ مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ سُبْحانَهُ في أَرْفَعِ الأُمُورِ، مِنْ إِصْدارِ كُلِّ وارِدٍ عَلَيْهِ، وتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلىٰ أَصْلِهِ، مِصْبَاحُ ظُلُماتٍ، كَشَّافُ عَشَواتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَماتٍ، دَفّاعُ مُعْضَلاتٍ، دَلِيلُ فَلَواتٍ، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، ويَسْكُتُ فَيَسْلَمُ، قَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعادِهِ دِينِهِ، وأَوْتادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكانَ أَوَّلُ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوىٰ عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ ويَعْمَلُ بِهِ، وَلاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غايَةً إِلاّ أَمَّها، وَلا مَظِنَّةً إِلاّ قَصَدَها، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتابَ مِنْ زِمامِهِ، فَهُوَ قائِدُهُ وإِمامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، ويَنْزِلُ حَيْثُ كانَ مَنْزِلُهُ(١).

اللغة

(**الشعار**) من الثوب ما يلي شعر الجسد و(**الجلباب**) القميص أو غيره ممّا مضى في شرح الكلام الخامس والستين و(**زهر**) الشيء يزهر من باب منع صفا لونه وأضاء و(**القرى**) من قرى الضّيف من باب رمى قرى بالكسر والقصر والفتح والمدّ أضافه، وفي «المصباح» قرى بالكسر والقصر والاسم القراء بالفتح والمدّ و(**فرات**) الماء العذب (**وباللام**) اسم نهر معروف.

و(**نهل**) البعير نهلاً من باب تعب شرب الشّرب الأوّل حتّى روى و(**الجدد**) بالتحريك المستوى من الأرض و(**السّربال**) القميص و(**الغمار**) بالكسر إما جمع الغمر كالغمور وهو الماء الكثير ومعظم البحر أو جمع الغرة كالغمرات وهي الشدة والزحمة و(**العرى**) بالقصر مثل

(١) شرح مئة كلمة: ٢٢٨، بحار الأنوار: ٢/ ٥٧.

العروة من الدّلو والكوز ونحوهما مقبضها و(**عشوات**) بالتحريك جمع العشوة بالتّثليث وهي الأَمر الملتبس.

(**والمعضلات**) الشدائد والأمور التي لا تهدي لوجهها من أعضل الأمر إذا اشتدّ و(**المعادن**) جمع معدن كمجلس وهو محل الجوهر و(**أمّه**) أمّا من باب قتل قصده و(**مظنة**) الشيء المكان الذي يظن فيه وجوه و(**الثقل**) متاع المسافر وحشمه والجمع اثقال كسبب وأسباب.

الإعراب

(**الفاء**) في قوله: (**فاستشعر الحزن**) عاطفة مشعرة بسببية ما قبلها لما بعدها كما في قولك يقوم زيد فيغضب عمرو، وكذلك أكثر الفاءات بعدها، وقوله: (**فهو من اليقين على مثل (آه)** هو مبتدأ (**وعلى**) مثل خبر له (**ومن اليقين**) حال إمّا من المبتدأ والعامل فيه الخبر وهو مبنيّ على جواز الاختلاف بين عامل الحال وعامل صاحبه، وإمّا من الضمير المستكن في الخبر فيتحد العاملان وإنما قدّمت الحال على عاملها لتوسعهم في الظروف قالوا: ومن ذلك البرّ الكرّ بستّين أي الكرّ منه بستين فمنه حال والعامل فيه بستين.

وقوله ﷺ: (**مصباح ظلمات**) بالرفع خبر بعد خبر، وقوله: (**فكان أوّل عدله نفي الهوى**) يجوز جعل أوّل اسما ونفي الهوى خبراً وبالعكس إلاّ أن مقتضى الإعراب الموجود في نسح الكتاب هو الأوّل حيث اعرب الأوّل مرفوعاً والنفي منصوباً وهو أيضاً مقتضى الأَصل.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من كلامه ﷺ مسوق بشرح حال المتقين وبيان صفات العارفين الكملين من عباد الله الصّالحين، وفي الحقيقة والمعنى هو شرح لحال نفسه الشريف وحال أولاده المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، إذ الأَوصاف الآتية لم تجمع إلاّ فيهم ولم تشاهد إلاّ منهم.

وهم المتّصفون بالفناء في الله والبقاء بالله، والمبتغون لمرضاة الله وهم أحب النّاس إلى الله والله أحبّ إليهم وأولى بهم من أنفسهم، فهم التّامون في محبّة الله والمخلصون في توحيد الله والمظهرون لأمر الله ونهيه وعباده المكرمون ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: ٣٧].

إذا عرفت هذا فأقول قوله ﷺ (**إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه**) أراد بمحبّته سبحانه له إفاضة الكمالات النفسانية عليه المعدّة له بالقرب إليه تعالى والقبول بفضله وجوده، ويأتي في شرح المختار المائتين والخامس والعشرين إن شاء الله تفصيل الكلام في

معنى محبّته تعالى، ومعنى إعانته له على نفسه إعانته جنود عقله على جنود جهله وتقوية عقله على قهر نفسه الأمّارة، فإذا قوي عقله وأعين له اتّصف بأوصاف أشار عليه السلام إليها.

أوّلها: أنّه **(استشعر)** الحزن أي اتصف بالحزن وجعله ملازماً له لزوم الشّعار للجسد، وإنّما صار محزوناً لما صدر منه في الأيّام الماضية من التفريط في جنب الله حيث لم يكتسب فيها من موجبات القرب والاختصاص اضعاف ما اكتسبه.

(و) الثاني: أنه **(تجلبب الخوف)** أي جعله لازماً له لزوم الجلباب للبدن، وقد مضى تحقيق الكلام في الخوف وفي أقسامه في شرح الخطبة الخامسة والسّبعين.

والثالث: أنّه حيث اتّصف بالحزن والخوف **(ف)** استعدّ بذلك لأن **(زهر مصباح الهدى في قلبه)** أي أضاء أنوار المعارف الحقّة الإلهيّة في قلبه فصار سبباً لاهتدائه ووصوله إلى مقام القرب.

(و) الرّابع: انّه **(أعدّ القرى ليومه النّازل به)** شبّه يوم الموت وما بعده بالضّيف المتوقّع نزوله وكما أنّ من توقع نزول ضيف به يهيّأ له قرى ليبيض به وجهه عند الضيف ويكسب به المحمدة منه ولا ينفعل منه عند نزوله، فكذلك الرّجل الموصوف لمّا توقّع نزول الموت وعلم أنّه قادم لا محالة أعدّ له من وظائف الطّاعات والعبادات ما يكون موجباً لبياض[1] وجهه عند نزوله واكتسابه المحمدة والثّناء، وذلك أيضاً من ثمرات الخوف المقدم ذكره ومن شئوناته.

والخامس: أنه حيث أعدّ قرى ضيفه **(فقرب على نفسه البعيد)** والظّاهر أن المراد بالبعيد هو الموت الذي يراه الغافلون بعيداً وبتقريبه على نفسه هو مبادرته إليه وجعله له نصب عينيه وترقّبه له وعدم غفلته عنه صباحاً ومساءاً، لأنّه بعدما هيّأ أسبابه وأعدّ القرى له لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، وأمّا ما ذكره الشّارح البحراني من احتمال كون المراد بالبعيد هو رحمة الله البعيد عن مستحقّها، وبتقريبه تحسين العمل أو كون المراد به أمله الطّويل في الدنيا وبتقريبه تقصير الأمل، فمضافاً إلى بعده في نفسه غير ملائم لظاهر العطف بالفاء وإن أمكن توجيهه بتكلف.

(و) السّادس: أنّه **(هوّن الشديد)** يحتمل أن يكون المراد بالشديد شدائد الموت ودواهيه وما يتلو ذلك، فيكون المراد بتهوينها تسهيلها بالأعمال الصّالحة وهو من ثمرات إعداده القرى للموت، وأن يكون المراد به شدائد الطاعات وكلفة المجاهدات والرّياضات، فيكون المراد بتهوينها تحملها والصّبر وحبس النّفس عليها، وهو من فروع شروق مصباح الهدى في قلبه.

والسّابع: أنّه **(نظر فأبصر)** أي تفكّر في الملك والملكوت فصار ذا معرفة وبصيرة كما قال سبحانه:

---

(١) في نسخة: لابيضاض.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

(و) الثامن: أنه **(ذكر فاستكثر)** أي ذكر الله فاستكثر من ذكره إذ بذكره تسكن النفوس كما قال سبحانه:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وبكثرة ذكره تنال المحمدة والثناء عند الله كما قال تعالى:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

(و) التاسع: أنه **(ارتوى من عذب فرات سهلت له موارده)** شبه عليه السلام العلوم الحقّة والمعارف الإلهيّة المفاضة على العارف بالماء الصّافي العذب الزّلال فاستعاره لها ورشحه بذكر الارتواء كما أنّه استعار في الكلام السّابع عشر للعقائد الباطلة والآراء الفاسدة لفظ الآجن حيث قال عليه السلام في ذكر أوصاف القضاة السوء: **(حتّى إذا ارتوى من آجن)**، والمراد بسهولة موارده عدم كونها ردغة وحلة وهو كناية عن سرعة استعداده لقبول تلك العلوم المفاضة من محالها ومواردها أعني الألواح السّماويّة وألسن الملائكة ولسان النّبي صلى الله عليه وآله والرّوع في القلب والنّكث في القلوب ونحوها إن كان المراد بالموصوف الأئمة عليهم السلام على ما قدّمنا، والنّبي والأئمة سلام الله عليه وعليهم إن كان المقصود به مطلق العارف هذا وقوله عليه السلام **(فشرب نهلا)** إشارة إلى أنّه لما شرب من العذب الفرات وارتوى اكتفى بذلك وصار شربه الأوّل كافياً ولم يحتج بعده إلى الشّرب الثّاني لأنّه شرب من رحيق التحقيق ومن عين التوفيق شربة لا ظمأ بعدها أبداً.

(و) العاشر: أنه **(سلك سبيلاً جدداً)** أي طريقاً مستوية عدلاً مصونة عن طرفي الإفراط والتفريط إذ اليمين والشّمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادّة الموصلة لسالكها إلى حظيرة القدس، وقد مضى تفصيلاً وتحقيقاً في شرح الفصل الثاني من الكلام السادس عشر، فتذكر.

والحادي عشر: أنه **(قد خلع سرابيل الشّهوات)** أي نزع لباس الشهوات وخلى نفسه منها لكونها موجبة لصداء مرآت القلب مانعة عن انطباع صور الحق فيها.

(و) الثاني عشر: أنه قد **(تخلّى من الهموم)** أي هموم الدّنيا كلّها لكونها مجانبة للحق شاغلة عنه **(إلاّ همّاً واحداً انفرد به)** وهو همّه بالوصول إلى مولاه الذي به لذته وبالإنفراد بذكره ومناجاته سروره وبهجته وبمطالعة جلاله وكبريائه شعفه وفرحته.

والثّالث عشر: أنّه حيثما تخلّى من الهموم وانحصر همّه في الهمّ الواحد **(فخرج به من صفة العمى و)** عن **(مشاركة أهل الهوى)** أراد أنه باتّصافه بفضيلة العلم والحكمة خرج من صفة الجهالة وعن مشاركة أهل الهوى والشّهوة لكون الاشتراك معهم موجباً للضّلالة، وإليه

الإشارة بقوله سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

(و) **الرابع عشر**: أنّه من أجل اتصافه بالعلم والحكمة أيضاً (**صار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى**) فبه تنفتح أبواب الرّشاد والهداية للمهتدين، وتنغلق أبواب الغوى والضّلالة للجاهلين، لكونه فاتحاً لباب المعروف سادّاً لباب المنكر فبنور وجوده يهتدي الجاهلون، وبكمال ذاته يرتدع الضّالون.

والخامس عشر: أنه (**قد أبصر طريقه وسلك سبله**) أي أبصر بنور بصيرته طريقه المأمور بسلوكها فسلكها، وإلى هذا السّبيل والطريق أشير في قوله:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن﴾ [الأنعام: ١٥٣] وفي قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

كما مضى مشروحاً في شرح الفصل الثاني من الكلام السّادس عشر، فتذكر.

(و) **السّادس عشر**: أنّه (**عرف الذين هم مناره**) أصل المنار هو العلم المنصوب على الطّريق ليأمن به المارّة من الخروج عن الجادّة فمن عرف مناره أمن الضّلالة، والمراد به هنا هم أئمة الدّين الذي هم أعلام اليقين، فالسّالك إلى الله بقدمي الصّدق والعرفان إذا عرفهم ولزمهم وأخذ بحجزتهم أمن من الضّلال ووصل إلى حظيرة القدس والجلال التي هي منتهى الآمال، هذا إن كان الموصوف بالصّفات مطلق العارف وإن كان المقصود به هم (**عليهم السلام**) حسبما أشرنا إليه سابقاً فالمراد بالمنار هو النّبي ﷺ.

(و) السابع عشر: أنه (**قطع غماره**) أشار بالغمار إلى ما كان مغموراً فيه من مشاق الدّنيا وهمومها والتّألم بسبب فقدها ومجاذبة أهلها لها وتزاحمهم عليها، فإن العارف بمعزل عن ذلك وإنما هو شأن الجاهلين الذين هم في غمرة ساهون.

(و) **الثامن عشر**: (**استمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها**) والمراد بأوثق العرى وأمتن الحبال ما أشير إليها في سورة البقرة بقوله:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] وفي سورة آل عمران بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد فسّر العروة في الظاهر بالإيمان والحبل به وبالقرآن، وقد فسّرا في الباطن بالولاية، روى في «البحار» من «كنز جامع الفوائد» وتأويل الآيات قال: ذكر صاحب «نهج الإيمان» في

تأويل قوله:

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

روى أبو عبد الله الحسين بن جبير في كتاب «نخب المناقب» لآل أبي طالب حديثاً مسنداً إلى الرّضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أحبّ أن يستمسك بالعروة الوثقى فليستمسك بحبّ عليّ بن أبي طالب[1] عليه السلام»، وروى أيضاً في الكتاب المذكور مسنداً عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد عليهما السلام قال: نحن حبل الله الذي قال الله تعالى:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والأخبار في هذا المعنى متظافرة.

والتاسع عشر: أنه لما استمسك بالعروة الوثقى والحبل الأمتن فترقى بذلك إلى أعلى مدارج العلم والعرفان (فـ) ـكان (**هو من اليقين على مثل ضوء الشمس**) يعني أنه رأى بعين اليقين الحقائق وشاهد دقائق الملك والملكوت لا يختلجه في ذلك شك ووهم كما يرى ببصره نور الشمس في الوضوح والجلا.

والعشرون: أنه لكمال ذاته (**قد نصب نفسه**) وعيّنها) (لـ) ـأجل ابتغاء مرضاة (**الله سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كل وارد عليه وتصيير كلّ فرع إلى أصله**) أراد عليه السلام أنه لما كمل ذاته نصب نفسه لأرفع الأمور من هداية الخلق وارشادهم إلى ما فيه رشادهم فقام بإصدار الأجوبة عن كلّ ما ورد عليه من الأسئلة ونهض برد كلّ فرع من فروع العلم إلى أصله المتشعّب عنه، وفيه إشعار وتنبيه على جواز الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية كما عليه بناء المجتهدين من أصحابنا، خلافاً لأصحابنا الأخباريين والتفصيل معنون في «الأصول».

والحادي والعشرون: أنّه (**مصباح ظلمات**) يقتبس منه العالمون أنوار العالم ويهتدي به التائهون في ظلمات الجهل.

والثّاني والعشرون: أنه (**كشاف عشوات**) يكشف به ويميّز الأمور الملتبسة وفي بعض النسخ غشوات (**بالغين**) المعجمة فالمراد أنه يكشف النقاب عن وجه الحق.

والثالث والعشرون: أنه (**مفتاح مبهمات**) به يفتح أبواب الأحكام المبهمة المغلقة.

والرّابع والعشرون: أنه (**دفاع معضلات**) يعني أنه يدفع الأعضال عن المسائل المعضلة الشرعية ويرفع الأشكال عن الأحكام المشكلة الأصلية والفرعية بكلامه الوافي وبيانه الشافي.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٤/٨٣ ح ١، تفسير كنز الدقائق: ١/٦١٥.

والخامس والعشرون: أنه (**دليل فلوات**) أراد عليه السلام أن السّالك في مسالك الفلوات كما لا يهتدي إليها إلاّ بدلالة الأدلاء الذين اعتادوا سلوكها وضبطوا مراحلها ومنازلها، فكذلك السّائر في فلوات المعقولات الطالب لطيّ مراحلها الباغي للنّزول إلى ساحة الحق والوصول إلى حظيرة القدس لا يهتدي إليها ولا يمكنه النّزول فيها إلاّ بهداية دليل هاد وإرشاد مرشد يرشد إلى الرشاد، وهو العارف المعتاد بسلوك تلك المسالك فمن لم يسلك بدلالته فهو ضال وهالك.

والسادس والعشرون: أنه (**يقول فيفهم ويسكت فيسلم**) يعني أنه يقول: إذا اقتضت الحال فيفهم لمخاطبة المقال ويسكت في مقام السّكوت فيسلم من عثرات اللّسان.

والسابع والعشرون: أنه (**قد أخلص لله فاستخلصه**) أي أخلص عمله لله وجعله خالصاً عن شوب الرّياء والشّرك على ما مضى في شرح الفصل الرّابع من فصول الخطبة الأولى، وحيث أنه أخلص لله فاستخلصه الله واختاره واختصه من بين أبناء جنسه بالرّضا عنه وإفاضة الكمالات عليه وإدنائه إلى مقام القدس.

والثّامن والعشرون: أنّه إذا اتصف بالإخلاص والاستخلاص (فـ) ـصار (**هو من معادن دينه وأوتاد أرضه**) شبهه عليه السلام من حيث كونه محلاً للدين ومستقراً له بالمعدن الذي يستقرّ فيه الجوهر فكما أنّ المعدن يستخرج منه الجوهر وينتزع منه، فكذلك الذي الّذين هو جوهر عقلاني يستفاد من ذلك الموصوف ويكتسب منه، وأمّا معنى كونه من أوتاد أرضه فهو أنّك قد عرفت في شرح الفصل الثالث من فصول الخطبة الأولى أنه سبحانه وتد بالصّخور والجبال ميدان أرضه واضطرابه وأنت إذا أخذت بين مجامع هذا الكلام وما تقدم ظهر لك أنّه عليه السلام جعل الموصوف بمنزلة جبل يكون وتداً للأرض مانعاً لها عن الاضطراب، وهو إمّا جار على الحقيقة إن أراد بالموصوف نفسه الشّريف ومن هو بمنزلته من أولاده المعصومين الذين لولاهم لماجت الارض بأهلها وساخت، وإمّا على المجاز بأن يكون المراد به العموم فإن الرّجل الموصوف لما كان سبباً لانتظام أمر الدّنيا وعدم اضطراب أحوال أهلها كان كالوتد للأرض، فافهم.

والتاسع والعشرون: أنه (**قد ألزم نفسه العدل فكان أوّل عدله نفي الهوى عن نفسه**) لما كان العدالة ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال الفاضلة خلقاً لا تخلّقاً وأصولها عبارة عن الحكمة والعفّة والشجاعة، وسائر الفضائل فروعاً لها وكان العارف قد أرضى نفسه بالعبادة وغيرها حتى حصل على هذه الفضائل الخلقيّة لا جرم كان بسعيه في حصولها قد ألزم نفسه العدل.

قال الشّارح البحراني: ولما كان العدل في القوّة الشّهوية الذي هو أن يصير عفيفاً لا

خامد الشهوة ولا فاجراً أصعب من العدل على سائر القوى لكثرة موارد الشّهوة وميلها بالإنسان إلى طرف الإفراط، ولذلك قال أكثر المناهي الواردة في الشريعة هي موارد الشهوة لا جرم كان مقتضى المدح أن يبدأ بذكر نفي الهوى عن نفسه، ولأنّ السّالك أوّل ما يبدأ في تكميل القوّة العمليّة بإصلاح القوّة الشهويّة فيقف عند حدود الله ولا يتجاوزها في مأكول أو منكوح أو كسب ونحوه.

والثّلاثون: أنّه (**يصف الحقّ ويعمل به**) أي يطابق فعله قوله ويوافق قوله عمله فإن من يأمر ولا يأتمر وينهي ولا يزدجر لا يؤثر وعظه ولا يثمر إرشاده فإن الموعظة إذا صدرت عن اللّسان لا تتجاوز الآذان وإذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وقد ذمّ الله أقواماً خالفت أفعالهم أقوالهم بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٣﴾ [الصف: ٢-٣].

(و) **الحادي والثلاثون**: أنه (**لا يدع للخير غاية إلاّ أمّها ولا مظنة إلا قصدها**) يعني أنّه همّته مقصورة على سلوك مسالك الخير وقصد مظان البرّ ليفوز غايته ويدرك نهايته.

والثاني والثلاثون: أنه (**قد أمكن الكتاب**) أي كتاب الله (**من زمانه**) أدّى زمام نفسه إلى الكتاب وفوّضه إليه ومكنه منه وهو كناية عن كونه منقاداً له مطيعاً لما اشتمل عليه من الأوامر والنواهي (**فهو قائده وإمامه**) يقوده إلى الله ويأمّه في سلوك سبيل رضوان الله (**يحلّ حيث حلّ ثقله وينزل حيث كان منزله**) قال الشارح البحراني: استعار عليه السلام وصفي الحلول والنّزول الذين هما من صفات المسافر وكنّى بحلوله حيث حلّ عن لزوم أثره والعمل بمقتضاه ومتابعته له في طريق سفره إلى الله بحيث لا ينفكّ عنه وجوداً وعدماً.

أقول: هذا إن كان المراد بالموصوف نفسه الشّريف ومن حذا حذوه، وأمّا إن أريد به مطلق العارف فالمراد بمحل القرآن ومنزله هو بيت الرّسالة والإمامة أعني مهبط الوحي ومعدن الذكر، فيكون المقصود بحلول الموصوف ونزله فيه كالقرآن كونه مقتدياً بالرّسول صلى الله عليه وآله والأئمة مقتبساً لهداهم آخذاً بولايتهم صلوات الله وتحيّاته عليه وعليهم أجمعين.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام زمان و مقتداى عالميان است در وصف حال متّقين، فرموده كه:

اى بندگان خدا، به درستى از محبوب ترين بندگان خدا است به سوى او، بنده اى كه اعانت فرموده و غالب نمود خداى تعالى او را بر نفس خود، پس شعار خود گردانيد حزن را و سرپوش خود نمود ترس را، پس روشن شد چراغ هدايت در قلب او و مهيا نمود مهمانى را براى روزى كه فرود آيد به او، پس نزديك گردانيد بر نفس خود دور را كه عبارت است از موت و احوال آخرت و آسان نمود كار سخت را كه عبارت است از كلفت و مشاق عبادت، نگاه كرد به ديده عبرت به ملك و ملكوت، پس شد صاحب معرفت و بصيرت و ذكر كرد خداوند را، پس بسيار نمود از ذكر ربّ العزّت و سيراب شد از آب خوش شيرين كه آسان گردانيده شد از براى او موارد آن، پس آشاميد آب را اول بار و سبقت نمود بر سايرين و محتاج نشد به آشاميدن دوّمين و سلوك كرد راه راست محفوظ از تفريط و افراط را.

به تحقيق كه بر كند از خود پيراهن هاى شهوت ها را و خالى شد از همه همّ ها و غم ها مگر همّ واحدى كه منفرد شده است به او كه عبارت است از همّ وصول به قرب حق، پس بيرون آمد از صفت كورى و از مشاركت اهل هوا و غفلت و گرديد از كليدهاى درهاى هدايت و از آلت هاى بستن درهاى هلاكت.

به تحقيق كه ديد راه صواب خود را و سلوك نمود در راه راست خود و شناخت نشان هدايت خود را از دلايل واضحات و بريد از خود آنچه فرو رفته بود در آن از شهوات و چنگ زد از بندها به محكم ترين آنها و از ريسمان ها به استوارترين آنها، پس او از يقين بر مثال نور آفتاب است در تابندگى و درخشندگى، پس نصب كرد نفس خود را از براى خداوند در بلندترين كارها كه عبارت باشد از بازگردانيدن جواب هر واردكننده سؤال بر او و از ردّ نمودن هر فرع از فروع علوم به سوى اصل خود. چراغ تاريكى ها است، كشف كننده امرهاى مشتبه است،

راهنمای بیابان ها است، سخن می گوید، پس می فهماند و ساکت می شود، پس به سلامت می ماند.

به تحقیق که خالص نمود عبادت را از برای خدا، پس خالص نمود خداوند او را از برای خود و برگزید او را با بنای جنس به افاضه فیوضات و کمالات، پس او از معدن های دین خدا است و از میخ های زمین حق تعالی است.

به تحقیق که لازم گردانیده بر نفس خود عدل را، پس هست اوّل عدالت او دور نمودن هوا و هوس از نفس خود، تعریف می کند حق را و عمل می کند به آن، ترك نمی نماید عمل خیر را هیچ غایتی مگر اینکه قصد می کند آن را و نمی گذارد مظنه خیری مگر آنکه آهنگ می نماید آن را.

به تحقیق که متمکّن ساخت کتاب الله المجید را از مهار خود و جلوی خود را به دست او واگذار نمود، پس کتاب عزیز قائد و پیشوای او است، حلول می کند هرجا که حلول می کند بار نفیس کتاب و نزول می نماید هر مکانی که منزل نموده در آن کتاب؛ والله أعلم بالصّواب.

الفصل الثاني

وَآخَرُ قَدْ تَسَمّىٰ عالِماً ولَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهائِلَ مِنْ جُهّالٍ، وَأَضاليلَ مِنْ ضُلاّلٍ، ونَصَبَ لِلنّاسِ أَشْراكاً مِنْ حَبائِلِ غُرُورٍ، وقَوْلِ زُورٍ، قَدْ حَمَلَ الْكِتابَ علىٰ آرائِهِ، وعَطَفَ الْحَقَّ عَلَىٰ أَهْوائِهِ، يُؤْمِنُ النّاسَ مِنَ الْعَظائِمِ، ويُهَوِّنُ كَبيرَ الْجَرائِمِ، يَقُولُ أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهاتِ وَفيها وَقَعَ، ويَقُولُ أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ وَبَيْنَها اضْطَجَعَ، فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوانٍ، لاَ يَعْرِفُ باب الْهُدَىٰ فَيَتَّبِعَهُ، ولا بَابَ الْعَمىٰ فَيَصُدَّ عَنْهُ، وذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْياءِ[1].

اللغة

(قد تسمّى) تسمّى بفتح **(التاء)** المثناة الفوقانية. قال في «القاموس» تسمّى بكذا وبالقوم وإليهم انتسب، وفي بعض النسخ يسمّى بصيغة المضارع المجهول من باب فعل وهو الأظهر **(الجهائل)** جمع الجهالة كالعلائق والعلاقة و**(الأضاليل)** من الضّلال جمع لا واحد له من لفظه و**(ضلال)** بضم **(الضّاد)** جمع ضالّ كجاهل وجهّال وعامر وعمّار و**(الاشراك)** جمع الشّرك محركة وهو ما يصاد به و**(الزّور)** الكذب ومزخرف الكلام قال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ و**(ضجعت)** ضجوعاً من باب نفع، وضعت جنبي بالأرض واضطجعت مثله.

الإعراب

قوله: **(وآخر)** بالرّفع صفة لمحذوف معطوف على محلّ اسم **(أنّ)** السّابق في أوّل الفصل السّابق، قوله: **(وليس به)**، من زيادة **(الباء)** في الخبر واسم **(ليس)** ضمير مستتر، **(واللاّم)** في الصورة والقلب إمّا عوض عن الضمير المضاف إليه كما هو مذهب الكوفيّين وبعض البصريين أي صورته صورة إنسان وقلبه قلب حيوان وعليه خرج الكوفيّون قوله سبحانه: فإنّ الجنّة هي المأوى، والمانعون يقولون في مثل ذلك إنّ **(اللام)** للعهد والضمير محذوف أي الصورة له أو منه وقالوا في الآية: هي المأوى له.

المعنى

اعلم أنّه لما شرح حال أحبّ العباد إلى الله سبحانه في الفصل السّابق أردف ذلك بشرح حال المبغوضين عنده تعالى فقال: **(وآخر قد تسمّى عالماً وليس به)** أي وعبد آخر قد انتسب إلى أهل العلم ونسب نفسه إليهم وليس هو بذلك أو سمّاه العوام عالماً **(فاقتبس جهائل من**

(١) ينابيع المودى لذوي القربى: ٣/ ٤٣٢، بحار الأنوار: ٢/ ٥٧.

جهال وأضاليل من ضلال) أي تعلم جهالات مركّبة وعقائد باطلة من أهل الجهالة واكتسب الآراء الموجبة للانحراف عن قصد السّبيل عن أهل الضّلالة فحذا حذوهم وسلك سبيلهم وصار جاهلاً ضالاً مثلهم **(ونصب للنّاس أشراكاً من حبائل غرور وقول زور)** يعني أنه يغرّ الخلق بأقواله الباطلة وأفعاله المزخرفة ويجذبهم بها إليه ويوقعهم في شركه وحبالته كما يغرّ الصياد الصّيد يخدعه حتى يوقعه في شركه الذي نصبه له **(قد حمل الكتاب على آرائه)** أراد عليه السلام أنه حمل كتاب الله على مقتضى رأيه وهواه، وذلك لجهله بفحواه ومعناه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من فسّر القرآن برأيه فليتبوّء مقعده من النّار[1]، وكفى بكلامه عليه السلام شاهداً أن كلاً من الفرق المختلفة كالمشبّهة والمجسّمة والكراميّة والأشعرية والمعتزلة وغيرها على كثرتها قد تعلّق في إثبات مذهبه بالقرآن، فكلّ يأوّله على رأيه ويخرجه على معتقده مع أن قول الكل باطل وتأويل الجميع فاسد.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وقوله عليه السلام (وعطف الحق على أهوائه) عطف تفسير وتوضيح إذ الكتاب حقّ وما فيه ومن حمله على رأيه فقد عطف الحق على هواه وجعل هواه حقّاً بتأويل ما.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

(يؤمن الناس من العظائم ويهون) في نظرهم **(كبير الجرائم)** بذكر الآيات الدّالة على الوعد والأحاديث المحصّلة للطمع والرّجا كقوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وقوله صلى الله عليه وآله: **(حبّ عليّ حسنة لا يضرّ معها سيئة)**، ونحو ذلك وإنما يهوّنها في نظرهم ويؤمنهم منها استجلاباً لقلوبهم وطلباً للوقع عند الجهال من الأمرا وأرباب المناصب ونحوهم من المنهمكين في الشّهوات والباغين للّذات والمقتحمين في الشبهات والمحرمات الذين لا يبالون في شيء منها طمعاً في أنه سبحانه قابل التّوبات وغافر الخطيئات وماحي السّيئات.

وهذا من تسويلات الشّيطان اللّعين وتدليسات ذلك الفاسق المتوسم بسمة العالم إذ الخوف توأم الرجاء والوعد ردف الوعيد، وهو تعالى قهّار كما أنّه غفّار، فاللاّزم للعالم أن يلاحظ المقام وينظر مواقع الكلام فيورد أدلّة الرجاء في مجالس الخائفين، وآيات الخوف في مجالس الآمنين كي لا ييأس الخائف من روح الله ولا يأمن الآمن من غضب الله.

---

(١) عوالي اللئالي: ٤/ ١٠٤، نور البراهين: ١/ ١٨٧.

(يقول أقف عند الشبهات) توقياً وتورّعاً **(وفيها وقع)** لجهله بها وغفلته عنها والوقوف عندها فرع العلم **(ويقول اعتزل البدع)** المخالفة للقوانين الشرعية **(وبينها اضطجع)** لجهله بها أيضاً **(فالصّورة صورة إنسان)** تامّ الأعضاء والأركان بهيّ الهيئة عذب اللسان **(والقلب قلب حيوان)** له أذنان محجوب عن إدراك حقائق العرفان.

وكأين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلّم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلاّ صورة اللّحم والدّم

(لا يعرف باب الهدى فيتبعه ولا باب العمى فيصدّ عنه) يعني أنه بسبب جهله المركب لا يعرف قانون الهداية إلى الرّشاد فيلزمه، ولا واجه الدّخول في الباطل فيتركه، وذلك لأن الجاهل المركب لما أُلحد عن سبيل الله واعتقد بخلاف الواقع امتنع مع ذلك أن يعرف باب الهدى ومبدأ الدّخول إليه فلا يمكن له اتّباعه، ولمّا اعتقد أنّ ما جزم به من الباطل هو الحق امتنع معه أن يعرف مبدأ دخوله في الجهل وهو باب العمى فامتنع منه أن يصدّ عنه.

(فذلك ميت الأَحياء) يعني أنه ميّت في سلك الأحياء، وإنّما كان ميّتاً إذ المقصود بالحياة في الحقيقة هو استكمال النّفس واكتساب الفضائل الّتي هي سبب السّعادة الأبدية والعناية السّرمديّة، ولما كان الجاهل بمعزل عن ذلك فكان بمنزلة الميّت بل ميّتاً في الحقيقة قال الشّاعر:

ليس من مات فاستراح بميّت إنّما الميت ميّت الأحياء

تنبيه

هذا الفصل من كلام الإمام عليه آلاف التحية والسّلام كاف في ذم العلماء السوء والقدح عليهم والطّعن فيهم، وأعني بالعلماء السوء المتّصفين بالأوصاف المذكورة في هذا الفصل، وهم العلماء الآخذون بالبدع والآراء، والعاملون بالمقاييس والأهواء، كعلماء العامة وقضاتها الّذين لم يأخذوا العلم من ينابيعه، ولم يتعلّموا القرآن من أهله واستغنوا عن عترة النّبي ﷺ وحيث ضاق بهم المجال في الوصول إلى حقيقة الحال اضطروا إلى الأخذ بالرّأي والقياس ففسّروا القرآن بآرائهم، وعطفوا الحقّ على أهوائهم، وعملوا في مسائل الحلال والحرام والحدود والأحكام بأقيستهم، فأبدعوا في الدّين، وغيّروا شرح سيّد المرسلين صلوات الله عليه وآله أجمعين، هذا.

ومثلهم في استحقاق الذّم والطّعن العلماء السوء منّا، وهم الذين تعلّموا العلم من أهله، وأخذوه من أحاديث الأئمة، ورجعوا في تفسير القرآن إلى تفسير خير الأمة إلا أنّهم لم يعملوا بعلمهم، ووصفوا الحقّ فخالف فعلهم قولهم، وهم علماء الدّنيا الذين قصدهم من العلم التّنعم بالدّنيا والتوصّل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها.

والآيات والأخبار في ذمّ هؤلاء وتشديد الأمر عليهم فوق حدّ الاحصاء ومتجاوزة مرتبة الاستقصاء، وينبغي أن نورد هنا شطراً منها ممّا يناسب المقام.

فأقول: روى ثقة الإسلام الكلينيّ في «الكافي» عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: منهومان لا يشبعان: طالب دنيا، وطالب علم، فمن اقتصر من الدّنيا على ما أحلّ الله له سلم، ومن تناولها من غير حلّها هلك إلاّ أن يتوب أو يراجع، ومن أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا، ومن أراد الدّنيا فهي حظّه[١].

وعن أبي خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أراد الحديث لمنفعة الدّنيا لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدّنيا والآخرة.

وعن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا رأيتم العالم محبّاً لدنياه فاتّهموه على دينكم، فإن كلّ محبّ شيء يحوط ما أحبّ وقال عليه السلام: أوحى الله إلى داود عليه السلام لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدّنيا فيصدّك عن طريق محبّتي، فإنّ أولئك قطّاع طريق عبادي المريدين إليّ، إنّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم[٢].

وعن ربعي بن عبد الله عمّن حدّثه عن أبي جعفر عليه السلام قال: من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السّفهاء أو يصرف به وجوه النّاس إليه فليتبوّء مقعده من النّار، إنّ الرئاسة لا تصلح إلاّ لأهلها[٣].

وعن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا حفص يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد.

وعن حفص أيضاً قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: ويل للعلماء السوء كيف تلظى عليهم النّار[٤].

وعن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤].

قال: هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثمّ خالفوه إلى غيره[٥].

---

(١) الكافي: ١/٤٦ ح ١، تهذيب الأحكام: ٦/٣٢٨ ح ٩٠٦.
(٢) الكافي: ١/٤٦ ح ٤، علل الشرائع: ٢/٣٩٥.
(٣) الكافي: ١/٤٧ ح ٦، شرح أصول الكافي: ٢/١٦٣ ح ٦.
(٤) الكافي: ١/٤٧ ح ٢، شرح أصول الكافي ٢/١٦٦ ح ٢.
(٥) المحاسن: ١/١٢١ ح ١٣٥.

وعن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يحدّث عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال في كلام له: العلماء رجلان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النّار ليتأذّون من ريح العالم التّارك لعلمه، وإن أشدّ أهل النّار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه فأطاع الله فأدخله الله الجنة فأدخل الداعي النّار بترك علمه واتباعه الهوى وطول الأمل، أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة[١].

وعن عبد الله بن القاسم الجعفري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصّفا.

أقول: ونعم ما قيل في هذا المعنى:

يا واعظ النّاس قد أصبحت متّهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً فالموبقات لعمري أنت جائيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وفيه عن عليّ بن هاشم بن البريد عن أبيه قال: جاء رجل إلى عليّ بن الحسين عليه السلام فسأله عن مسائل فأجاب ثمّ عاد ليسأل عن مثلها فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: مكتوب في الإنجيل لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولما تعملوا بما علمتم فإنّ العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلاّ كفراً ولم يزدد من الله إلاّ بعداً[٢].

وعن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: بم يعرف النّاجي؟ قال عليه السلام: من كان فعله لقوله موافقاً فأثبت له الشهادة، ومن لم يكن فعله لقوله موافقاً فإنّما ذلك مستودع[٣].

أقول: قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

هذا والأخبار العامية في ذلك الباب كثيرة جدّاً وقد أكثر أبو حامد الغزالي في «إحياء العلوم» من رواياتها.

ففيه قال صلى الله عليه وآله: «إنّ أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه». وعنه صلى الله عليه وآله

---

(١) مستدرك الوسائل: ١١/ ٣٠٥ ح ١٣١٠٧ عوالي اللئالي: ٤/ ٧٦.

(٢) الكافي: ١/ ٤٥، وشرح أصول الكافي: ٢/ ١٤٤ ح ٤.

(٣) المحاسن: ١/ ٢٥٢ ح ٢٧٤، والكافي: ١/ ٤٥ ح ٥.

أنّه قال: «لا يكون المرء عالماً حتّى يكون بعلمه عاملاً»، وقال ﷺ: «العلم علمان علم على اللّسان فذلك حجّة الله على خلقه وعلم في القلب فذلك العلم النّافع»، وقال ﷺ «إنّ العالم ليعذّب عذاباً يطيف به أهل النّار استعظاماً لشدّة عذابه»، وقال أسامة بن زيد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النّار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحى فيطيف به أهل النّار فيقولون مالك؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهي عن الشّرور وآتيها»[١].

وروى معاذ بن جبل موقوفاً[٢] وموفوعاً في رواية عن النبيّ ﷺ قال: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع، وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ، وفي الصّمت سلامة وعلم.

ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك في الدّرك الأوّل من النّار، ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السّلطان إن ردّ عليه شيء من علمه أو تهوّن بشيء من حقّه غضب، فذلك في الدّرك الثاني من النار، ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً فذلك في الدّرك الثالث من النّار، ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ والله تعالى يبغض المتكلّفين، فذلك في الدّرك الرّابع من النّار، ومن العلماء من يتكلّم بكلام اليهود والنّصارى ليعزّز به علمه، فذلك في الدّرك الخامس من النّار، ومن العلماء من يتّخذ علمه مروّة ونيلاً وذكراً في النّاس، فذلك في الدّرك السادس من النّار، ومن العلماء من يستفزّه الزهو والعجب فإن وعظ أنف، فذلك في الدّرك السّابع من النّار، إلى غير هذه مما رواه فيه، وهي كافية في الدّلالة على عظم وزر العالم في معاصيه وكون عذابه أشدّ وحسرته أدوم.

وسرّ ذلك أمران: **الأول**: أن العالم إذا عصى يزل بعصيانه خلق كثير كما قيل: إذا فسد العالم فسد العالم، فمن تناول شيئاً من المحرمات وقال للنّاس لا تتناولوه سخر به النّاس واستهزؤوه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون لولا أنه أطيب شيء وألذه لما كان يستأثر به نفسه ويقدم عليه فيقتدي به الخلق في سوء عمله ويتبعونه فيلحق به مثل وزرهم، مضافاً إلى وزر نفسه كما قال: من سنّ سنّة سيّئة كان له مثل وزر من عمل بها.

وعن أمير المؤمنين ؏ قصم ظهري رجلان: عالم متهتّك، وجاهل متنسّك فالجاهل يغرّ النّاس بتنسكه والعالم يغرّهم بتهتّكه[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٣٨ ح ٦٤، وميزان الحكمة: ١/ ٤٧٣ ح ٦١٨.

(٢) الموضوعات: ١/ ٢٦٥.

(٣) معدن الجواهر: ٢٦، وعيون الحكم والمواعظ: ٤٧٩.

والثاني: أن عصيان العالم مع اتّصافه بصفة العلم كاشف عن منتهى خبث طينته وسوء سريرته وغاية جرءته على مولاه، وذلك بخلاف الجاهل فإنه إمّا جاهل ساذج فلا تكليف في حقّه إذ الجهل مانع من أن يتوجّه إليه حكم أو خطاب، فليس في حقّه أمر ولا نهي فلا ثواب ولا عقاب، وإمّا جاهل في الجملة فليس له معرفة مثل المعرفة الّتي للعالم ولذلك جعل الله سبحانه ثواب المطيعات من نساء النبيّ ﷺ والعاصيات منهنّ ضعف ما لغيرهنّ، لكونهنّ عارفات عالمات بإدراكهن حضور النبي ﷺ وصحبته كما قال عزّ من قائل:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠، ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحٗا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقٗا كَرِيمٗا ۝٣١﴾ [الأحزاب: ٣٠ـ٣١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

لأنّهم جحدوا بعد العلم وجعل اليهود شراً من النّصارى مع أنهم ما جعلوا لله تعالى ولداً ولا قالوا: إنّه سبحانه ثالث ثلاثة إلاّ أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله:

﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال: ﴿جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] وفي سورة الجمعة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾.

إذا ظهر لك أيها العالم ذلك فلا يغرّنّك الشّيطان ولا يصدنّك عن سبيل ربّك ولا ينبغي لك أن تعرّض نفسك للهوان ولغضب الرحمٰن، ولا يجوز لك أن تؤثر دنياك على آخرتك ولا أن تتبع هوى نفسك أو تأمر النّاس بالبرّ وتنسى نفسك، أو تقول ما لا تفعل، فقد كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون فالويل كلّ الويل لمن اتبع هواه وباع آخرته بدنياه.

عجبت لمبتاع الضّلالة بالهدى ... ومن يشتري دنياه بالدّين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... دنيا سواه فهو من ذين أعجب

الترجمة

و شخص ديگرى هست كه نسبت داده شده به اهل علم و حال آنكه عالم نيست، پس كسب نمود جهالت ها را از جهال روزگار و ضلالت ها را از گمراهان نابكار و نصب نمود از جهت فريفتن مردم دام هاى حيل ها را از ريسمان هاى فريب و از گفتار دروغ. به تحقيق كه حمل كرده كتاب مجيد را بر رأى هاى باطل خود و ميل داده حق را بر آرزوهاى عاطل خود، ايمن ميگرداند مردم را از گناهان عظيم و آسان مى گرداند جرم هاى بزرگ را.

مى گويد كه وقوف مى كنم و باز مى ايستم از شبهه ها و حال آنكه در آنها افتاده و مى گويد كه اعتزال مى كنم و كناره جوئى مى نمايم از بدعت ها و حال آنكه در ميان آنها خواب كرده، پس صورت آن مثل صورت انسان است و قلب آن مثل قلب حيوان، پس نمى شناسد باب هدايت را تا پيروى كند آن را و نه باب ضلالت را، پس باز ايستد از آن، پس اين شخص كذائى مرده زنده است، چه متّصف است به جهل ابدى كه موت است در صورت حيات.

الفصل الثالث

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، والأَعْلامُ قائِمَةٌ، وَالآيَاتُ واضِحَةٌ، وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَأَيْنَ يُتاهُ بِكُمْ، بَلْ كَيْفَ تَعْمَهُونَ، وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ، وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وأَعْلامُ الدِّينِ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ، فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطاشِ، أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوها عَنْ خاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ ماتَ مِنّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَىٰ مَنْ بَلَى مِنّا وَلَيْسَ ببالٍ، فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فيما تُنْكِرُونَ، وأَعْذِرُوا مَنْ لا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَأَنا هُوَ، أَلَمْ أَعْمَلْ فيكُمْ بِالثِّقْلِ الأَكْبَرِ، وَأَتْرُكْ فيكُمْ الثِّقْلَ الأَصْغَرَ، ورَكَزْتُ فيكُمْ رايَةَ الإِيمَانِ، ووَقَّفْتُكُمْ عَلى حُدُودِ الْحَلالِ وَالْحَرام، وأَلْبَسْتُكُمُ الْعافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وفِعْلِي، وأَرَيْتُكُمْ كرائِمَ الأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي، فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فيما لا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، ولا يَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ[١].

اللغة

(**أفك**) افكاً كذب وافكه عنه صرفه وقلبه أو قلب رأيه و(**المنار**) العلم المنصوب في الطريق ليهتدي به الضّال والموضع المرتفع الذي يوقد في أعلاه النّار و(**تاه**) تيهاً وتيهاناً ضلّ وتحير وتاه في الأرض ذهب متحيّراً ومنه قوله تعالى:

﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

أي يحارون ويضلّون و(**عمه**) في طغيانه عمها من باب تعب إذا تردد متحيّراً قال سبحانه:

﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

ورجل عمه وعامه أي متحيّر حائر عن الطريق و(**ورد**) البعير وغيره الماء ورداً وروداً بلغه ووافاه من غير دخول وقد يحصل دخول فيه و(**الهيم**) بالكسر الإبل العطاش و(**بلى**) الثوب يبلى من باب رضى بلىً بالكسر والقصر وبلاء بالضمّ والمدّ.

و(**الثقل الأكبر**) في بعض نسخ الكتاب بكسر (**الثاء**) وسكون (**القاف**) و(**الثقل الأصغر**) بالتحريك قال بعض شراح الحديث في شرح قول النبيّ ﷺ إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي: إنه من الثقيل سمّيا بذلك لكون العمل بهما ثقيلاً والأكثر على أنه من الثقل محرّكة.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٢/٣٠٢ ح ٩، والأصول الأصلية: ١٢٢.

قال في «القاموس» والثقل محرّكة متاع المسافر وحشمه وكلّ شيء نفيس مصون، ومنه الحديث إنّي تارك فيكم الثّقلين (آه) و(**ركزت الرمح**) ونحوه ركزاً من باب قتل أثبته بالأرض فارتكز و(**فرشت**) البساط وغيره فرشاً من باب قتل وضرب بسطته و(**تغلغل**) تغلغلاً أسرع.

الإعراب

(**أين**) اسم استفهام سؤال عن المكان، (**وأنّى تؤفكون**) بمعنى كيف كما فسّر به قوله:

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

والمقصود بالاستفهام التوبيخ، (**والواو**) في قوله عليه السلام: (**والإعلام قائمة**) للحال، وكذلك في قوله (**وبينكم**)، (**والفاء**) في قوله (**فانزلوهم**) فصيحة، والضمير في قوله (**خذوها**) راجع إلى ما يفهم من المقام من الفائدة والرّواية ونحوهما على حدّ قوله: (**توارت بالحجاب**) وقوله: (**ألم أعمل**) إما استفهام تقريري لما بعد النّفي أو إنكار إبطالي وهو الأظهر، وجملة (**أنه يموت**) (آ ه) بدل من مفعول خذوها، فإن المشهور جواز ابدال الظاهر من الضمير إذا كان غائباً.

اعلم أنّه عليه السلام لما شرح في الفصلين السّابقين حال المتقين والفاسقين وذكر في بيان صفات الفسّاق أنهم أخذوا الجهالة والضلالة من الجهّال والضّلال عقب ذلك بالأمر بملازمة أئمة الدّين وأعلام اليقين لكونهم القادة الهداة أدّلاء على طريق النّجاة وكون لزومهم باعثاً على التّقوى ومحصلاً للقربى ووبخ المخاطبين أوّلاً بصدّهم عن الحقّ وميلهم إلى الباطل وعدولهم عن أئمة الأنام عليهم الصّلاة والسّلام بقوله: (**فأين تذهبون**) أي أيّ طريق تسلكون أبين من طريق الحقّ وهذه الجملة مأخوذة من قوله سبحانه في سورة التكوير:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٢ ـ ٢٨].

روى علي بن إبراهيم في تفسير هذه الآية عن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: حدّثنا عبد الله بن موسى عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: قوله:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٢٢].

قال: يعني النبيّ صلى الله عليه وآله ما هو بمجنون في نصبه أمير المؤمنين عليه السلام علماً للنّاس. قلت قوله:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤].

قال ما هو تبارك وتعالى على نبيه بغيبه بضنين عليه قلت:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير: ٢٥].

قال: كهنة الذين كانوا في قريش فنسب كلامهم إلى كلام الشّيطان الّذين كانوا معهم يتكلّمون على ألسنتهم فقال: وما هو بقول شيطان رجيم مثل أولئك قلت:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير: ٢٦، ٢٧].

قال عليه السلام: أين تذهبون في عليّ يعني ولايته أين تفرّون منها إن هو إلاّ ذكر للعالمين أخذ الله ميثاقه على ولايته، قلت: قوله:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨].

قال: في طاعة عليّ والأئمة عليهم السلام من بعده **(وانّى تؤفكون)** أي تصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره وتقلبون عن طريق الهدى إلى سمت الضلالة والرّدى كما قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وفي سورة الملائكة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ وفي سورة غافر:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٦٣﴾ [غافر: ٦٢-٦٣].

قال الطبرسي في تفسير هذه الآية: أي الذي أظهر هذه الدّلالات وأنعم بهذه النّعم هو الله خالقكم ومالككم خالق كلّ شيء من السّماوات والأرض وما بينهما لا يستحقّ العبادة سواه فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع وضوح الدّلالة على توحيده[1]، هذا.

ولا يخفى عليك أن ما ذكرته في شرح هذه الفقرة إنّما هو أخذاً بظاهر كلامه عليه السلام ولكن الأظهر بمقتضى السّياق أنه عليه السلام أراد بها توبيخ المخاطبين على العدول عنه فيكون معنى قوله: أنّى تؤفكون أنى تقلبون عني وعن ولايتي وملازمتي.

ومثل ذلك قوله عليه السلام (والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة) فإنه يجوز أن يراد به أعلام القدرة وآيات المقدرة وآثار التوحيد ومنار التفريد وأدلة الوجود من المهاد

---

(١) مجمع البيان: ٨/٤٥٢.

الموضوع والسّماء المرفوع واختلاف اللّيل والنّهار والفلك الجاري في البحر الزخّار والمطر النّازل من السّحاب الذي أحيي به الأرض بعد موتها وبث فيها من الدّواب إلى غير هذه من دلائل التوحيد والجلال وعلائم الكمال والجمال.

إلاّ أنّ الأظهر أن المراد بها هو أعلام الدّين وآيات اليقين ومنار الهدى وأئمة الورى، ويشهد بذلك ما ورد في حديث وصفهم عليهم السلام: جعلتهم أعلاماً لعبادك ومناراً في بلادك أي هداة يهتدي بهم.

ويدلّ عليه الأخبار الواردة في أنّهم عليهم السلام آيات الله وبيّناته، مثل ما في البحار من تفسير عليّ بن إبراهيم مسنداً عن أبي حمزة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

قال أبو جعفر عليه السلام: نزلت في الّذين كذّبوا في أوصيائهم صمّ وبكم كما قال الله في الظّلمات من كان من ولد إبليس فإنّه لا يصدق بالأوصياء ولا يؤمن بهم أبداً، وهم الذين أضلّهم الله ومن كان من ولد آدم عليه السلام آمن بالأوصياء وهم على صراط مستقيم. قال: وسمعته يقول؛ كذبوا بآياتنا كلّها في بطن القرآن إن كذبوا بالأوصياء كلّهم[1]، ومنهم في قوله:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧].

قال أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة صلوات الله عليهم، والدّليل على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: ما لله آية أكبر منّي[2].

ومنه بإسناده عن داود بن كثير الرّقي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله:

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال عليه السلام: الآيات الأئمة والنّذر الأنبياء عليهم السلام.

ومنه عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

قال: تخضع رقابهم يعني بني أمية[3]، وهي الصّيحة من السّماء باسم صاحب

(١) بحار الأنوار: ٣٦/ ١٧٥ ح ١٦٤.
(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٠٦ ح ١، وتفسير أبي حمزة الثمالي: ١٦٣ ح ٨٩.
(٣) بحار الأنوار: ٩/ ٢٢٨ ح ١١٦، ومعجم أحاديث الإمام المهدي: ٥/ ٢٩٦ ح ١٧٢٦.

الأمر عليه السلام إلى غير ذلك مما ورد عنهم عليهم السلام في تفسير الآيات القرآنية مما لا نطيل برواياتها، فقد ظهر بذلك كلّه أنهم المراد بالآيات الواضحة فيكون إطلاقها عليهم باعتبار أنهم علامات جليلة واضحة لعظمة الله وقدرته وعلمه ولطفه ورحمته.

فما آية لله أكبر منهم فهم آية من دونهم كلّ آية

سرى سرّهم في الكائنات جميعها فمن سرّهم لم يخل مثقال ذرّةٍ

هذا وقوله (**فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون**) تأكيد لقوله فأين تذهبون وأنّى تؤفكون، فإنه لمّا سألهم عن إفكهم وذهابهم ووبخهم عليه أكده بذلك مشيراً به إلى أن الإفك والذّهاب موجب لتيههم وتحيّرهم وعمههم وضلالتهم.

وأكد الجملة الحالية السّابقة أعني قوله: (**والاعلام قائمة**) الخ بقوله (**وبينكم عترة نبيّكم**) مشيراً به إلى أنّهم المراد بالإعلام والآيات، والمراد بعترة النّبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام.

ويدلّ عليها ما في «البحار» من «العيون» و«معاني الأخبار» عن الهمداني عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن غياث بن إبراهيم عن الصّادق عن آبائه عليهم السلام قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، من العترة؟ فقال: أنا والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد الحسين عليهم السلام تاسعهم مهديهم وقائمهم لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم حتّى يردوا على رسول الله صلى الله عليه وآله حوضه[1].

وسيأتي في شرح الخطبة الثّالثة والتسعين مزيد تحقيق في معنى العترة إن شاء الله (**وهم أزمة الحقّ وألسنة الصدق**) يعني أنّهم عليهم السلام القائدون يقودون الخلق إلى الحقّ كما تقاد النّاقة بالزمام إلى الطريق، وهم تراجمة الوحي كما أن اللّسان ترجمان النفس ويدلّ على الأوّل وصفهم في فقرات الزيارة الجامعة بقوله: وقادة الأمم، يعني أنهم عليهم السلام قادة الأمم إلى معرفة الله ودينه يقودونهم بدعائهم وتعريفهم وأمرهم وترغيبهم إلى المعرفة والدّين، فمن أجاب قادوه إلى الجنة ومن أناب ساقوه إلى النّار كما قال عليه السلام: أنا قسيم الجنّة والنّار، وهو نعمة الله على الأبرار ونقمته على الفجّار.

ويدلّ على الثاني وصفهم عليهم السلام في فقرات الزيارة المذكورة بقوله: وتراجمة لوحيه، يعني أنّهم المؤدّون من الحق إلى الخلق فلا يخفى ما بين القرينتين في كلامه عليه السلام من الحسن واللّطف حيث إن محصل معناهما أنهم عليهم السلام دلائل للخلق على الحق ووسائط للحق إلى الخلق، هذا.

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ١١٤، وكتاب سليم بن قيس: ٢٩٧.

ويجوز أن يكون المراد بقوله: **(وهم أزمة الحقّ)** أن زمام الحق بيدهم عليهم السلام فيكون مساقه مساق قول رسول الله ﷺ: الحقّ مع عليّ وهو مع الحق أينما دار[١].

ومن طرق الخاصة متواتراً عن النّبي ﷺ والأَئمة صلوات الله وسلامه عليه وعليهم: الحق مع الأئمة الاثنى عشر، وفي فقرات الزيارة الجامعة: والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه[٢].

وأن يكون المراد بقوله عليه السلام (وألسنة الصدق) أنهم لا يقولون إلاّ صدقاً وحقّاً فيكون تصديقاً لدعاء إبراهيم حيث إنّه دعا ربّه بما حكاه الله عنه بقوله في سورة الشعراء:

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

أي اجعل صادقاً من ذرّيتي يجد أصل ديني ويدعو النّاس إلى ما كنت أدعوهم إليه، فاستجاب الله دعوته واصطفى من ذرّيته محمّداً وآله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم وجعلهم لسان صدق له.

ويؤيد ذلك ما في تفسير القمي عند قوله:

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [الشعراء: ٨٤].

قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام. وفي «مجمع البيان» في تفسير قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

قال الطّبرسي أي اتّقوا معاصي الله واجتنبوا وكونوا مع الصّادقين الذي يصدقون في أخبارهم ولا يكذبون، ومعناه كونوا على مذهب من يستعمل الصدق في أقواله وأفعاله وصاحبوهم ورافِقوهم وقد وصف الله الصّادقين في سورة البقرة بقوله:

﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فأمر سبحانه بالاقتداء بهؤلاء، وقيل: المراد بالصّادقين هم الذين ذكرهم الله في كتابه وهو قوله:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

يعني حمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب.

---

(١) بحار الأنوار: ٩٩/ ١٢٩، وشرح الزيادة الجامعة: ٢٤.

(٢) الكافي: ١/ ٢٩٤، والخصال: ٥٥٩.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الاحزاب: ٢٣] يعني علي بن أبي طالب عليه السلام.

وروى الكليني عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال: كونوا مع الصّادقين مع عليّ عليه السلام وأصحابه.

وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله وكونوا مع الصّادقين، قال: مع آل محمّد سلام الله عليهم[1].

ثمّ إنّه عليه السلام بعد توصيف العترة الطّاهرة بأنّهم أزمة الحقّ وألسنة الصدق أمر بتعظيمهم وإجلالهم بقوله: **(فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن)** قال الشّارح المعتزلي في شرحه: إنّه عليه السلام أمر المكلّفين أن يحروا العترة في إجلالها وإعظامها والانقياد والطّاعة لأوامرها مجرى القرآن.

وقال الشّارح البحراني: اعلم أن للقرآن منازل: الأولى القلب وهو فيه بمنزلتين: **إحداهما**: منزلة الإكرام والتّعظيم، **والثانية**: منزلة التصور فقط، **الثالثة**: منزلته في الوجود اللّساني بالتلاوة، **الرابعة**: منزلته في الدفاتر والكتب، وأحسن منازله هي الأولى فالمراد إذاً الوصية بإكرامهم ومحبّتهم وتعظيمهم كما يكرم القرآن بالمحبّة والتّعظيم.

أقول: فعلى ما ذكراه يكون معنى كلامه عليه السلام أنزلوهم بأحسن المنازل التي كان للقرآن، والأظهر عندي أن معناه أنزلوهم بأحسن المنازل التي أثبتها القرآن لهم، فإن المنازل الثابتة لهم عليهم السلام بالآيات القرآنيّة متفاوتة مختلفة في العلوّ والرفعة فأمر عليه السلام بإنزالهم بأحسن المنازل وأسنى المراتب، وهو بأن يستمسكوا بأظهر الآيات دلالة على رفعة شأنهم وعلوّ مقامهم مثل قوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥] الدّال على خلافتهم وولايتهم (ع) بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. الدّال على عصمتهم وطهارتهم وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] الدّال على ملازمتهم ومودّتهم.

روى الطّبرسي في «مجمع البيان» في تفسير الآية الأخيرة من كتاب شواهد التنزيل مرفوعاً إلى أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله خلق الأنبياء من أشجار شتى وخلقت أنا وعليّ من شجرة واحدة فأنا أصلها وعلي فرعها والحسن والحسين ثمارها وشيعتنا أوراقها، فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجا، ومن زاغ هوى، ولو أنّ عبداً عبد الله بين الصّفا والمروة ألف عام ثمّ ألف عام ثمّ ألف عام حتى يصير كالشن البالي ثمّ لم يدرك محبّتنا أكبّه

(١) بحار الأنوار: ٢٤/٣٠ ح ٢٦، والتبيان: ٥/٣١٨.

الله على منخريه في النّار[1] ثمّ تلا:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

قال الطبرسي: وروى زاذان عن عليّ عليه السلام قال: فينا في **(ال حم)** آية لا يحفظ مودّتنا إلاّ كلّ مؤمن[2] ثمّ قرأ هذه الآية وإلى هذا أشار الكميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية   تأوّلها منّا تقيّ ومعرب

وفي «البحار» ذكر أبو حمزة الثّمالي في تفسيره حدّثني عثمان بن عمير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ حين قدم المدينة واستحكم الإسلام قالت الأنصار فيما بينهم: نأتي رسول الله فنقول له: إنه تعروك أمور فهذه أموالنا فاحكم فيها غير حرج ولا محظور عليك، فأتوه في ذلك فنزل:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

فقرأها عليهم فقال: تودّون قرابتي من بعدي، فخرجوا من عنده مسلمين لقوله، فقال المنافقون: إنّ هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد بذلك أن يذلّلنا لقرابته من بعده فنزلت:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤].

فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتدّ عليهم فأنزل الله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥] الآية.

فأرسل في أثرهم فبشّرهم وقال: **(ويستجيب الله الذين آمنوا)**[3] وهم الذين سلّموا لقوله ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

أي من فعل طاعة نزد له في تلك الطاعة حسناً بأن نوجب له الثواب.

وذكر أبو حمزة الثمالي عن السّدي أنّه قال: اقتراف الحسنة المودّة لآل محمّد ﷺ.

وصحّ عن الحسن بن عليّ عليهما السلام أنّه خطب النّاس فقال في خطبته: أنا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم فقال:

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٣٠، والإمام علي: ٧٣.
(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٣٠، والغدير: ٢/ ٣٠٨ ح ٦.
(٣) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٣١، وتفسير الصافي: ٤/ ٣٧٦.
(٤) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٦.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت[١].

وروى إسماعيل بن عبد الخالق عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إنّها نزلت فينا أهل البيت أصحاب الكساءِ[٢]، انتهى كلامه رفع مقامه.

وقال الفخر الرّازي في التفسير الكبير: نقل صاحب «الكشاف» عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: من مات على حبّ آل محمّد مات شهيداً، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات تائباً، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد بشره ملك الموت بالجنّة ثمّ منكر ونكير، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد يزفّ إلى الجنّة كما تزفّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرّحمة، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة والجماعة.

ألا ومن ومات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمّد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمّد، لم يشمّ رائحة الجنّة[٣]، قال: هذا هو الذي رواه صاحب «الكشّاف».

وأنا أقول: آل محمّد صلى الله عليه وآله هم الذين يؤول أمرهم إليه فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل ولا شكّ أن فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله أشدّ التّعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنّقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضاً اختلف النّاس في الآل فقيل: هم الأقارب، وقيل: هم أمّته فإن حملناه على القرابة فهم الآل وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل، فثبت أنّ على جميع التقديرات هم الآل وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه.

قال: وروى صاحب «الكشاف» أنّه لمّا نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال صلى الله عليه وآله: «عليّ وفاطمة وابناهما»، فثبت أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النبيّ صلى الله عليه وآله وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التّعظيم.

---

(١) مقاتل الطالبين: ٣٣، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٢٣٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٥١ ح ٢٦.

(٣) شرح أصول الكافي: ٧/ ٥٥ ح ٧، وبحار الأنوار: ٧/ ٢٢٢.

ويدلّ عليه وجوه:

الأوّل: قوله تعالى: «إلاّ المودّة في القربى»، **والثاني**: لا شكّ أنّ النبي ﷺ كان يحبّ فاطمة عليها السلام قال ﷺ: «فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما يؤذيها»[1]، وثبت بالنقل المتواتر من محمّد ﷺ أنّه كان يحبّ عليّاً والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كلّ الأمّة مثله لقوله:

﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ولقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

الثالث: أنّ الدّعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدّعاء خاتمة التشهّد في الصّلاة وهو قوله: اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد وارحم محمّداً وآل محمّد، وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير الآل فكلّ ذلك يدلّ على أن حبّ آل محمّد واجب، وقال الشافعي:

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبّ آل محمّد ... فليشهد الثقلان أنّي رافضي

انتهى كلام الرازي خذله الله.

أقول: ولا يكاد ينقضي عجبي من هذا النّاصب أنّه مع نقله تلك الأخبار المستفيضة المتفق عليها بين الفريقين وإقراره بهذه الفضائل للآل كيف يتعصّب في حق أئمته ويرضى بخلافتهم ويذعن بإمامتهم مع أن دلالة هذه الأخبار على كفرهم وشقاوتهم غير خفية إذ بغضهم لأهل بيت الرّسول في حياته وبعد وفاته ظاهر، وأذاهم لبضعته في إحراق بابها وإسقاط جنينها وغصب فدك منها واضح، وتسليطهم بني أميّة وبني أبي معيط على رقاب أهل البيت وما جرى من الظلم والجور بسبب ذلك عليهم السلام غني عن البيان، وإنما أنطق الله لسانه على الحقّ إتماماً للحجّة وإكمالاً للبيّنة لئلا يقول يوم القيامة:

﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ثمّ إنّ الشّارح المعتزلي قال في شرح هذه الفقرة أعني قوله ﷺ: (**فأنزلوهم بأحسن**

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٢٣٤.
(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٣٤، وشجرة طوبى: ١/ ٧.

منازل القرآن) بعد كلامه الذي قدّمنا ذكره:

فإن قلت: فهذا القول منه عليه السلام يشعر بأن العترة معصومة فما قول أصحابكم في ذلك؟

قلت: نصّ أبو محمّد بن مثنويه في كتاب «الكفاية» على أنّ عليّاً عليه السلام معصوم وإن لم يكن واجب العصمة ولا العصمة شرط في الإمامة لكن أدلّة النصوص قد دلّت على عصمته والقطع على باطنه ونفسه وإنّ ذلك أمر اختصّ هو به دون غيره من الصّحابة، والفرق ظاهر بين قولنا: زيد معصوم وبين قولنا: زيد واجب العصمة، لأنّه إمام ومن شرط الإمام أن يكون معصوماً فالاعتبار الأوّل مذهبنا والاعتبار الثّاني مذهب الإماميّة، انتهى كلامه هبط مقامه.

وفيه أنّك قد عرفت في مقدّمات شرح الخطبة الشقشقيّة بما لا مزيد عليه وفي غيرها أيضاً أن العصمة شرط في الإمامة، ومحصّل ما قلناه هناك: أنّ غير المعصوم لا يؤمن منه الخطأ والضّلال فكيف يأمنه النّاس في ضلالته وخطئه، وإن شئت زيادة الاستبصار، فارجع ثمة.

وأما قوله عليه السلام: (وردوهم ورود الهيم العطاش) فأشار به إلى اقتباس العلوم واكتساب الأنوار منهم، فإنهم **(عليهم السلام)** لما كانوا ينابيع العلوم وكان علمهم بمنزلة العذب الفرات وكان الخلق محتاجين إليهم في ذلك حسن منه عليه السلام أن يأمرهم بورودهم ويشبه ورودهم بورود الإبل الظّمآن على الماء وهو نظير قوله سبحانه:

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

قال الحارث: سألت أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية قال: والله إنّا لنحن أهل الذّكر نحن أهل العلم نحن معدن التأويل والتنزيل.

ثمّ إنّه عليه السلام لما ذكر فضائل الآل ومناقبهم عقّب ذلك وأكده بذكر منقبة أخرى وفضيلة عظمى رواها عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: **(أيها الناس خذوها عن خاتم النّبيين)** وسيّد المرسلين (صلى الله عليه وآله) أجمعين **(إنّه يموت من مات منّا وليس بميت ويبلى من بلي منّا وليس ببال)**.

اعلم أنّ هذا الحديث من مشكلات الأحاديث ومتشابهاتها وقد اختلف في توجيهه أنظار الشّراح وتأوّله كلّ بما يقتضيه سليقته ومذاقه، وأعظمهم خبطاً وأشدّهم وهماً الشارح البحراني مع فضله وذكائه وبراعته في علم الحكمة حسبما تطلع عليه ولا غرو فيه فإن الحكمة بعيدة عن مذاق الأخبار وحاجبة من اقتباس الأنوار والأسرار المودعة في كنوز أحاديث الأئمة الأطهار.

وأنا أتمسّك في شرح المقام بحبل العناية الأزليّة وأستمد من الحضرة الإلهية وأستمسك بذيل أهل بيت العصمة والطّهارة، وأبين أوّلاً جهة الإشكال وهو أن كلامه عليه السلام بظاهره

متناقض حيث إنّه نفى الموت والبلا عنهم بعد إثباتها عليهم والإيجاب يناقض السلب والسّلب للإيجاب، وأيضاً إنهم عليهم السّلام هل يحكم بموتهم وبلاهم في الواقع ونفس الأمر على ما هو مقتضى الشطر الإيجابي من القضيتين أو لا يحكم بشيء منهما في حقهم على ما يقتضيه الجزء السّلبي منهما.

فأقول: وبالله التوفيق، إنّ حلّ الإشكال في المقام موقوف على تحقيق الكلام في كلّ من القضيتين وبه يرتفع التناقض من البين.

فأمّا القضية الأولى فمحصّل القول فيها أنّ النّبي والأئمة صلوات الله وسلامه عليه وعليهم إلاّ الحجّة المنتظر عجلّ الله فرجه قد انتقلوا من دار الدّنيا إلى دار الآخرة وخرجت أرواحهم من أبدانهم وجرى الموت عليهم حقيقة كما هو نص الجزء الإيجابي من هذه القضية، ونفي الموت عنهم إنما هو من مفتريات عبد الله بن سبأ ومن حذا حذوه من الغلاة مخالف لإجماع الأمة ولنّص الكتاب والسنّة وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴿٣٠﴾﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وأمّا سلب الموت عنهم **(عليهم السلام)** في الجزء الثّاني من القضية فهو محمول على حياتهم بأجسادهم المثالية كما هو مذهب جمع من أصحابنا على ما حكى عنهم الطّبرسي في «مجمع البيان» في تفسير قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وإليه ذهب المحدّث المجلسي في كتاب حق اليقين ونسبه فيه على ما ببالي إلى المفيد (ره).

وقال في «البحار» في المجلد الرابع عشر منه: ونحن لا ننكر الأجساد المثالية وتعلق الأرواح بها بعد الموت بل نثبتها لدلالة الأحاديث المعتبرة عليها، بل لا يبعد عندي وجودها قبل الموت أيضاً فتتعلق بها الأرواح في حال النوم وشبهه من الأحوال لضعف تعلقها بالأجساد الأصلية فيسير بها في عوالم الملك والملكوت ولا أستبعد في الأرواح القوية تعلقها بالأجساد المثالثة الكثيرة، وتصرفها في جميعها في حاله فلا يستبعد حضورهم عليهم السلام في آن واحد عند جمع كثير من المحتضرين وغيرهم[1].

وقال (ره) في المجلد التاسع منه بعد نقله رواية البرسي في «مشارق الأنوار» استقبال أمير المؤمنين وحضوره جنازة نفسه في ظهر الكوفة عند تشييع الحسنين **(عليهما السلام)** لها:

(١) البحار: ٥٤: ٣٥٥.

ولا أردّ هذه الرّواية لورود الأخبار الكثيرة الدالة على ظهورهم **(عليهم السلام)** بعد موتهم في أجسادهم المثالية كما نقلنا عنه في شرح الكلام التاسع والسّتين، ولا بعد في ذلك أي في ثبوت الأجساد المثالية لهم، فقد ثبت ذلك في حق المؤمنين الذين هم من فاضل طينتهم وأشعة أنوارهم فكيف وهو عليه السلام أمير المؤمنين وهو وأولاده المعصومون سادات أهل الإيمان واليقين بهم سعد من سعد وبولايتهم فاز من فاز وكلّ الكمالات فيهم ومنهم وبهم وإليهم.

روى الكلينيّ في «الكافي» بإسناده عن القاسم بن محمّد عن الحسين بن أحمد عن يونس بن ظبيان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال: ما يقول النّاس في أرواح المؤمنين؟ فقلت: يقولون: تكون في حواصل طيور خضر في قناديل تحت العرش، فقال أبو عبد الله عليه السلام: سبحان الله المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير، يا يونس إذا كان ذلك أتاه محمّد صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والملائكة والمقرّبون **(عليهم السلام)** فإذا قبضه الله عزّ وجلّ صيّر تلك الروح في قالب كقالبه في الدّنيا فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصّورة التي كانت في الدّنيا[1].

ورواه في «مجمع البيان» عن «تهذيب الأَحكام» للشيخ عن القاسم بن محمّد نحوه.

وفي «الكافي» بإسناده عن أبي بصير قال: قلت لأَبي عبد الله عليه السلام: إنا نتحدث عن أرواح المؤمنين أنّها في حواصل طيور خضر ترعى في الجنّة وتأوي إلى قناديل تحتْ العرش فقال عليه السلام: لا إذاً ما هي في حواصل طير، قلت: فأين هي؟ فقال عليه السلام: في روضة كهيئة الأَجساد في الجنة[2].

وفي «مجمع البيان» و«الصافي» من «التهذيب» عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أرواح المؤمنين، فقال: في الجنة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان[3].

وكيف كان فلا غبار على ذلك، وإطباق المشايخ على القدح في يونس بن ظبيان ونسبتهم له إلى الغلو والكذب مع مدح بعضهم له وتلقي جمع منهم روايته هذه بالقبول وبنائهم على مضمونها مع اعتضادها بالرّوايات الأخرى لا يقدح في روايته هذه والعمل عليها، هذا هو الذي يقتضيه النظر الجليل في توجيه سلب الموت عنهم **(عليهم السلام)**.

وأمّا الذي يقتضيه النظر الدقيق فهو أن يقال بحياتهم بعد موتهم بأجسادهم الأَصلية التي

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٤٥ ح ٤٧٤١، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٧٠.

(٢) مستدرك سفينة البحار: ٤/ ٢٢١.

(٣) تهذيب الأحكام: ١/ج٦٦ ٤ ح ١٥٢٧، وتفسير الصافي: ١/ ٢٠٤.

كانت في الدنيا، ولا غرو فيه بعد دلالة الأخبار المعتبرة عليه.

مثل ما في «الوسائل» في باب كراهة الإشراف على قبر النبيّ ﷺ من فوق عن الكلينيّ عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد البرقي عن جعفر بن المثنى الخطيب قال: كنت بالمدينة وسقف المسجد الذي يشرف على القبر قد سقط، والفعلة يصعدون وينزلون ونحن جماعة، فقلت لأصحابنا: من منكم له موعد يدخل على أبي عبد الله عليه السلام الليلة؟ فقال مهران بن أبي نصر: أنا، وقال إسماعيل بن عمّار الصّيرفي: أنا، فقلنا: سلاه عن الصّعود لنشرف على قبر النبي ﷺ، فلما كان من الغد لقيناهما فاجتمعنا جميعاً، فقال إسماعيل: قد سألناه لكم عمّا ذكرتم فقال: ما أحب لأحد منهم أن يعلوه فوقه ولا آمنه أن يرى منه شيئاً يذهب منه بصره أو يراه قائماً يصلي أو يراه مع بعض أزواجه.

وفي «البحار» من «المناقب» لابن شهر آشوب عن عبد الله بن سليمان وزياد بن المنذور والحسن العباس بن حريش كلّهم عن أبي جعفر عليه السلام وأبان بن تغلب ومعاوية بن عمّار وأبو سعيد المكاري كلّهم عن أبي عبد الله عليه السلام: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لقي الأوّل فاحتج عليه ثمّ قال: أترضى برسول الله ﷺ بيني وبينك؟ فقال: وكيف بذلك؟ فأخذ بيده فأتى به مسجد قبا فإذا رسول الله ﷺ فيه فقضى له على الأوّل.

وفيه من «إرشاد القلوب» عن الصّادق عليه السلام في حديث طويل ذكر فيه احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على أبي بكر بحديث الغدير وغيره فقال أبو بكر: لقد ذكرتني يا أمير المؤمنين أمراً لو يكون رسول الله ﷺ شاهداً فأسمعه منه، فقال أمير المؤمنين: الله ورسوله عليك من الشّاهدين يا أبا بكر إذا رأيت رسول الله ﷺ حيّاً ويقول لك إنّك ظالم لي في أخذ حقّي الذي جعله الله لي ولرسوله دونك ودون المسلمين أتسلّم هذا الأمر إليّ وتخلع نفسك منه؟ فقال أبو بكر: يا أبا الحسن وهذا يكون أرى رسول الله ﷺ حيّاً بعد موته يقول لي ذلك؟ فقال أمير المؤمنين: نعم يا أبا بكر، قال: فأرني ذلك إن كان حقّاً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: الله ورسوله عليك من الشّاهدين إنك تفي بما قلت؟ قال أبو بكر: نعم فضرب أمير المؤمنين عليه السلام على يده وقال: تسعى معي نحو مسجد قبا فلمّا ورداه تقدّم أمير المؤمنين عليه السلام فدخل المسجد وأبو بكر من ورائه فإذا برسول الله ﷺ في قبلة المسجد، فلمّا رآه أبو بكر سقط لوجهه كالمغشيّ عليه فناداه رسول الله ﷺ: ارفع رأسك أيها الضّليل المفتون، فرفع أبو بكر رأسه وقال: لبيّك يا رسول الله أحياة بعد الموت يا رسول الله؟ فقال عليه السلام: ويلك يا أبا بكر[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] الحديث، ونحوها أخبار أخرى.

---

(١) مدينة المعاجز: ٣/ ١٦.

وأنت بعد ذلك لو سنحت بخاطرك سوانح الشبهات وخالجتك الشكوك واحتملت تأويل هذه الأخبار بالأجساد المثالية وأردت أن يطمئن قلبك بجواز الحياة على الأجساد الأصلية.

فراجع إلى ما رواه في «البحار» من «المناقب» عن أبان بن تغلب والحسين بن معاوية وسليمان الجعفري وإسماعيل بن عبد الله بن جعفر كلّهم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لمّا حضر رسول الله المماة دخل عليه عليّ عليه السلام فأدخل رأسه معه ثمّ قال: يا علي إذا أنا متّ فغسلني وكفني ثمّ اقعدني وسائلني واكتب، ومن «تهذيب الأحكام» فخذ بمجامع كفني ثمّ اسألني عما شئت فوالله لا تسألني عن شيء إلاّ أجبتك[١].

ورواه فيه من «البصائر» و«الكافي» و«الخرائج» عن البزنطي عن فضيل عن أبي عبد الله عليه السلام مثله، وفيه وفي رواية أبي عوانة بإسناده قال عليّ عليه السلام: ففعلت فأنبأني بما هو كائن إلى يوم القيامة.

وفي «البحار» أيضاً من «الخرائج» عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله إذا توفي أن أستسقي سبع قرب من بئر غرس فأغسله بها، فإذا غسلته وفرغت من غسله أخرجت من في البيت قال: فإذا أخرجتهم فضع فاك على فيّ ثمّ سلني عمّا هو كائن إلى أن تقوم الساعة من أمر الفتن، قال عليّ عليه السلام: ففعلت ذلك فأنبأني بما يكون إلى أن تقوم الساعة، وما من فئة تكون إلاّ وأنا أعرف أهل ضلالها من أهل حقها[٢].

ومن «الخرائج» أيضاً عن حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين: إذا أنا متّ فغسّلني وكفّني وما أملي عليك فاكتب قلت: ففعل؟ قال: نعم[٣].

ويزيد توضيحاً لذلك الأخبار الواردة في كتاب المقاتل من أنّ الرّأس الأطيب الأطهر الأنور للسّيد الشّهداء روحي وجسمي له الفداء كان ينظر ويتحرّك ويتكلّم بعد قتله عليه السلام فيكبّر تارة ويحوقل أخرى ويقرأ من القرآن آية الكهف وغيرها على السّنان ويخبر عن ما سنح بخاطر ابن وكيدة بالكوفة، إلى غير هذه ممّا شوهدت منه من المعجزات والكرامات، أفيمكن لك أن تقول إن ذلك لم يكن رأسه الأصلي وإنّما كان رأسه المثالي؟ فإذا جازت الحياة على الرأس الذي هو جزء من البدن الشريف سلام الله عليه فكيف بالبدن تمامه.

---

(١) بصائر الدرجات: ٣٠٤ ح ٩، والكافي: ٣/ ١٥٠ ح ١.
(٢) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥١٧ ح ٢٥، والأنوار البهية: ٤٦.
(٣) مكاسب الرسول: ١/ ٤١٧ ح ١.

وقد روى غير واحد من أرباب المقاتل المعتبرة جلوس الجسد المذبوح عند وداع أهل بيته عليه السلام له ومعانقته لبنته الصغيرة ووصيّته إليها بأن يقول لشيعته:

شيعتي ما إن شربتم ماء عذب فاذكروني أو سمعتم بغريب أو شهيد فاندبوني

إلى آخر الأبيات التي خرجت من الحلقوم الشّريف لعن الله قاتليه وظالميه أبد الآبدين ودهر الداهرين.

فحاصل الكلام وفذلكة المرام أني لا أمنع من تصرّفات أرواحهم الكليّة في أجسادهم الأصليّة كتصرّفها في الأجساد المثالية على ما عليه أساطين العلماء بأقدار من الله سبحانه وإفاضة منه الحياة عليهم بعد موتهم إظهاراً لشرفهم ورفعتهم وكرامتهم وإتماماً للحجة في بعض المقامات.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولا أرى مانعاً من ذلك إلاّ ما في المجلس التّاسع عشر من كتاب «أسرار الشّهادات» من أنّ القول بتعلق الأرواح بالأجساد الدّنيويّة الأصليّة قبل قيام السّاعة أو قبل الرّجعة ممّا قام الإجماع على بطلانه.

ولكنّك خبير بما فيه إذ المسألة غير معنونة في كلام الأصحاب فكيف يمكن دعوى الإجماع وبعد الغضّ عن ذلك غايته أنّه إجماع منقول بخبر الواحد وهو على القول بحجيته لا يكافيء الأخبار المستفيضة الدّالّة على خلافه.

ويؤيّد ما ذكرته ويقربه ما في «مجمع البيان» في تفسير الآية السّابقة أعني قوله:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌۢ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤].

فإنّه بعد ما أشكل في حياة الشهداء بقوله: فإن قيل: فنحن نرى جثة الشهداء مطروحة على الأرض لا تنصرف ولا يرى فيه شيء من علامات الأحياء، قال (ره) ما نصّ عبارته:

فالجواب أمّا على مذهب من يقول من أصحابنا أن الإنسان هو النفس إن الله يجعل لهم أجساماً كأجسامهم في دار الدّنيا يتنعمون فيها دون أجسامهم التي في القبور فإنّ النّعيم والعذاب إنّما يحصل عنده إلى النّفس التي هي الإنسان المكلّف عنده دون الجثة إلى أن قال: فأمّا على مذهب من قال من أصحابنا إنّ الإنسان هذه الجمل المشاهدة وإن الرّوح هو النّفس المتردّدة في مخارق الحيوان وهو أجزاء الجوّ فالقول أنه يلطف أجزاء من الإنسان لا يمكن أن يكون الحيّ حيّاً بأقلّ مما يوصل إليها النّعيم وإن لم تكن تلك الجملة بكمالها، لأنّه لا يعتبر الأطراف وأجزاء السّمن في كون الحي حيّاً، فإنّ الحي لا يخرج بمفارقتها من كونه حيّاً[1].

(١) مجمع البيان: ١/ ٤٣٩.

وربّما قيل: بأن الجثة يجوز أن تكون مطروحة في الصورة ولا تكون ميتة فتصل إليها اللّذات كما أنّ النّائم حيّ وتصل إليه اللّذات مع أنه لا يحسّ ولا يشعر بشيء من ذلك، فيرى في النوم ما يجد به السّرور والالتذاذ حتى يودّ أن يطول نومه فلا ينتبه.

وقد جاء في الحديث أنّه يفسح له مدّ بصره ويقال له: نم نومة العروس، وقريب منه ما في التّفسير الكبير للفخر الرّازي حيث قال:

فإن قيل: نحن نشاهد أجسادهم ميتة في القبور فكيف يصح ما ذهبتم إليه؟

قلنا: أما عندنا فالبينة ليست شرطاً في الحياة ولا امتناع في أن يعيد الله الحياة إلى كلّ واحد من تلك الذّرات والأجزاء الصّغيرة من غير حاجة إلى التركيب والتأليف، وأمّا عند المعتزلة فلا يبعد أن يعيد الله إلى الأجزاء التي لا بدّ منها في ماهية الحيّ ولا يعتبر بالأطراف ويحتمل أيضاً أن يحييهم إذا لم يشاهدوا.

وبالجملة فقد تقرّر ممّا ذكرنا جواز الحياة على الأبدان الأصلية في الجملة وارتفع بعد ذلك في نظرك بما نسبه الطبرسي إلى جمع من أصحابنا والفخر الرّازي إلى المعتزلة مع أنه لا يعبؤ باستبعاد العقول بعد دلالة نصّ الآية وقيام الأخبار المستفيضة عليه، هذا.

وأمّا القضية الثانية أعني قوله: **(ويبلى من بلى منا)** وليس ببال، فقد ظهر تحقيق الكلام فيها مما سبق إذ بعد القول بحياة الأبدان على الوجه الذي قلناه لا يتصوّر البلى لمنافاتها له، نعم لا ينافيها على الوجه الذي اختاره الأشاعرة والوجه الذي ذهب إليه المعتزلة وجمع من أصحابنا على ما عرفت في نقل كلامهم.

ويدلّ على ذلك أي على عدم البلى ظواهر الأخبار السّابقة مضافة إلى ما في «الكافي» عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد عن عليّ بن الحكم عن زياد بن أبي الجلال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من نبيّ ولا وصيّ نبيّ يبقى في الأرض أكثر من ثلاثة أيام حتّى ترفع روحه وعظمه إلى السّماء وإنّما يؤتى مواضع آثارهم ويبلغونهم من بعيد السّلام ويسمعونهم في مواضع آثارهم من قريب[١].

وفي «الوسائل» عن الشيخ بإسناده عن محمّد بن سنان عن المفضل بن عمر قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: إني أشتاق إلى الغرّي فقال: ما شوقك إليه؟ فقلت له: إنّي أحب أن أزور أمير المؤمنين عليه السلام، فقال عليه السلام: هل تعرف فضل زيارته؟ قلت: لا إلاّ أن تعرّفني، فقال عليه السلام: إذا زرت أمير المؤمنين عليه السلام فاعلم أنّك زائر عظام آدم وبدن نوح وجسم عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٢]، الحديث.

(١) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٥٠ ح ٣، وكامل الزيارات: ٥٤٤ ح ٨٣١.

(٢) وسائل الشيعة: ١٤/ ٣٨٤ ح ٢٧، وبحار الأنوار: ٩٧/ ٢٥٨.

وما في شرح المعتزلي عن النّبي ﷺ أن الأَرض لم تسلّط عليّ وأنها لا تأكل لي لحماً ولا تشرب لي دماً.

وفي «الفقيه» عن الصّادق عليه السلام إن الله عزّ وجلّ حرّم عظامنا على الأَرض وحرّم لحومنا على الدود أن يطعم منها شيئاً.

وقال النّبي ﷺ: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم»، قالوا: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال ﷺ: «أما حياتي فإن الله عزّ وجل يقول: **﴿وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم﴾** [الأنفال: ٣٣]، وأمّا مفارقتي إيّاكم فإن أعمالكم تعرض عليّ كلّ يوم فما كان من حسن استزدت الله لكم وما كان من قبيح استغفرت الله لكم»، قالوا: وقد رحمت يا رسول الله ﷺ يعنون صرت رميماً فقال ﷺ: «كلاّ إنّ الله تبارك وتعالى حرّم لحومنا على الأَرض أن يطعم منها شيئاً»، هذا[١].

ومقتضى الجمع بين هذه الأَخبار والأَخبار الدالة على نقل عظام آدم عليه السلام إلى الغريّ وعظام يوسف إلى الأَرض المقدسة هو اختصاص حكم عدم البلى بهذه الشجرة المباركة أعني خاتم النبيّين وأوصيائه المعصومين سلام الله عليهم أجمعين.

فإن قلت: فإذا قلت بعدم البلى على ما يقتضيه قوله عليه السلام: ليس ببال، فكيف التوفيق بينه وبين قوله: ويبلى من بلى منّا المقتضي لثبوت البلى؟

قلت: ذلك محمول على زعم أغلب الخلق فإن أسراء عالم الحواس من الناس لمّا زعموا أن الموت ملازم للبلى وقاسوا أولياء الله وعباده المصطفين بسائر الخلق ولم يعرفوا أنّهم لا يقاس بهم أحد فأثبتوا البلى في حقّهم ولذلك عقب عليه السلام الإيجاب بالسّلب كما أنّ الله سبحانه ردّ حسبان الخلق وزعمهم لكون القتل مستلزماً للموت في سورة البقرة بقوله:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] وفي سورة آل عمران بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩] فإن قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

في الآية الأولى دليل على أنّهم لم يكن لهم شعور بحياتهم فإذا لم يكن لهم شعور بذلك فلا يكون لهم شعور بعدم البلى البتة من حيث الملازمة بينه وبين الموت في نظرهم كملازمة الموت للقتل عندهم، هذا.

وأما حمل البلى على بلى الأَكفان فبعيد، وأبعد منه حمله على بلى الأَبدان وحمل عدم البلى على عدمه للأَرواح كما يظهر من شرح البحراني حيث قال في شرح هاتين الفقرتين ما

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/١٩١ ح ٥٨٢، ووسائل الشيعة: ١٦/١٠٩ ح ٢١١٠٨.

نصّ عبارته: وإشارة النّبي ﷺ بهذه الكلمة تقرير لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية.

ولما اتفقت عليه كلمة العلماء ونطقت به البراهين العقلية أن أولياء الله لا يموتون ولا يبلون وإن بليت أجسادهم.

قال بعض الخائضين فيما لا يعنيه: قوله: ويبلى من بلى منّا، نصّ جلي على أن أجساد الأَولياء تبلى، وذلك يخالف ما يعتقده النّاس من أن أجسادهم باقية إلى يوم القيامة.

قلت: الاعتقاد المذكور لبعض الناس إنّما نشأ من قول الرسول ﷺ في قتلى بدر: زمّلوهم بكلومهم ودمائهم فإنهم يحشرون يوم القيامة وأوداجهم تشخب دماً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، الآية وليس ولا واحد منهما بدال على أن الأَجساد لا تموت ولا تبلى.

أمّا الخبر فليس مقتضاه أنها تبقى صحيحة تشخب دماً إلى يوم القيامة، بل ذلك ممّا يشهد ببطلانه الحس، بل يحمل على أنها كما تعاد يوم القيامة تعاد مجروحة تشخب جراحها دماً كهيئتها يوم موتها.

وأمّا الآية فالذي أجمع عليه علماء المفسّرين أنّ الحياة المذكورة فيها هي حياة النّفوس، وهو ظاهر في سبب نزولها عن ابن عباس (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظلّ العرش فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنّا أنّا في الجنّة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يتكلّموا عند الحرب؟ فقال الله عزّ وجلّ: أنا أبلّغهم عنكم فنزلت: ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا﴾ [آل عمران: ١٦٩]، الآية»، (١).

فإذاً لا منافاة بين كلامه عليه السلام وما ورد في القرآن والخبر، ومقصوده عليه السلام بهذه الكلمة تقرير فضيلتهم وأنّهم أولياء باقون عند ربّهم في ظل كرامته، انتهى كلامه.

وقد تحصل منه أنه (ره) يحمل الموت والبلى في كلامه عليه السلام على بلى الأَجساد وموتها ويحمل عدم الموت والبلى فيه على حياة النفوس والأَرواح وبقائها وأنت خبير بما فيه:

أمّا أوّلاً: فلأَن القول ببلى أجساد الأَئمة وموتها خلاف ما هو المستفاد من الأَخبار المستفيضة السّابقة.

---

(١) تفسير الميزان: ٤/٧٢، وفتح القدير: ١/٤٠١.

وثانياً: أن الإمام عليه السلام إنّما أتى بالحديث النبوي صلى الله عليه وآله إظهاراً للرفعة والكرامة ومقصوده عليه السلام به المفاخرة وبيان فضيلة ومنقبة مختصة بهم **(عليهم السلام)**، ومن المعلوم أن بقاء الأرواح مع بلى الأَجساد ليس فضيلة مخصوصة بأهل بيت الرسالة بل هي جارية في حق سائر النّاس من المؤمنين والكفّار، وقد مرّ في شرح الخطبة الثّانية والثمانين أن أرواح المؤمنين في وادي السّلام وأرواح الكفّار في البرهوت، فأيّ معنى لحمل عدم البلى فيه على عدم بلى الأرواح، مع أن استعمال لفظ البلى وعدم البلى إنّما هو مصطلح في الأَجساد والأجسام دون الأنفس والأرواح وهو واضح لا يخفى، بل الأرواح لا يتصوّر في حقها البلى فلا معنى لنفي البلى عنها إلاّ على وجه السالبة بانتفاء الموضوع.

وثالثاً: قوله (ره): قلت: الاعتقاد المذكور إنّما نشأ من قول الرسول صلى الله عليه وآله (آه) فيه أن سند الاعتقاد المذكور ليس منحصراً فيما ذكره بل قد دلّ عليه ما قدّمناه من الأدلة.

ورابعاً: أن دعوى اتّفاق المفسّرين على كون الحياة المذكورة في الآية هي حياة النفوس ممنوعة، لما عرفت سابقاً اختلاف المفسّرين فيها، فمنهم من يحملها على الحياة بالأجساد المثالية، ومنهم من يحملها على الحياة بالأبدان الأصليّة، ومنهم من يحملها على حياة النفوس فكيف يمكن مع هذا الخلاف دعوى الاتفاق، وما أبعد ما بين هذه الدّعوى وبين إنكار البعض حديث الأرواح مستدلاً بكون الروح عرضاً لا يتنعم، فإن دعوى الشارح للاتفاق واقع في طرف الإفراط كما أن إنكار هذا البعض في جانب التفريط من حيث أنّ الروح جسم لطيف هوائي حسّاسة فعّالة وليس عرضاً كما توهّمه، فيجوز أن يتنعّم ويلتذّ.

وخامساً: أن الحديث الذي نقله عن ابن عباس في مقام الاستظهار به قد عرفت ردّ الصادق عليه السلام له في روايتي يونس بن ظبيان وأبي بصير المتقدّمتين، والله العالم بحقائق الأمور، والمحصّل لما في الصدور وإنّما أطنبت الكلام في المقام لكونه من مزالق الأقدام محتاجاً إلى كشف الحجاب عن المرام وقد وضح لك فيه ما اقتضت الأدلة من الكتاب والسّنة ومن الله سبحانه أسأل العصمة والسداد من الخطأ في القول والاعتقاد بمحمد وآله الأطهار الأمجاد.

ثم إنّه عليه السلام لمّا ذكر مناقب آل العباء ومن خصّه الله بالولاية والولاء وأكّده بحديث سلب الموت والبلى وكان ذلك بعيداً عن مذاق العوام وأمراً عجيباً عند العقول والأوهام ومظنة للرد والإنكار لا جرم أردفه بقوله: **(ولا تقولوا بما لا تعرفون فإنّ أكثر الحق فيما تنكرون)** وهو نهي لهم عن القول في حق العترة بما لا يعرفون وعن التسرع إلى رد ما يستعجبون معلّلاً بأن أكثر الحق فيما ينكرون.

والمقصود به أن صاحب الولاية لا يقاس بالنّاس إذ شؤونات الولاية المطلقة بعيدة عن

الوهم والقياس وإدراكات الخلق أغلبها مقصورة على عالم الحواس، والجاهل ربما ينكر بداء جهالته الحق إذا خالف طبعه أو عجز عن إدراكه فهمه أو سبق إليه اعتقاده ضدّه بشبهة أو تقليد أو بما انقدح في وهمه من شك وترديد، فلا يجوز الخوض في اللّجاج والعناد بمجرد الاستغراب والاستبعاد.

وقوله: **(واعذروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو)**، أما من الأعذار بمعنى الإنصاف من أعذر الرّجل إذا أنصف، أو من الأعذار بمعنى إثبات العذر وهو الأنسب الأظهر، فالمقصود به على ذلك أنّه عليه السلام كان مأموراً من الله سبحانه ومن رسوله صلى الله عليه وآله بالإبلاغ والتذكير والإنذار والتحذير، وقد بلّغ وذكّر وأنذر وحذّر، فكان له الحجة على المخاطبين وثبت له العذر في مقام السؤال كما أن لله وكذلك لرسوله الحجة على جميع الخلائق حيث احتجّ بما نهج وأعذر بما أنذر، وهذا بخلاف ما لو فرّط عليه السلام وقصّر في الإبلاغ والتذكار فيكون حينئذٍ لهم الحجة عليه ويثبت لهم العذر فيما يلحقهم من العذاب بأن يقولوا:

﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وبه جاهلين، فلا يجوز لك أن تؤاخذنا بما لم نعلم وتعذّبنا بما لم نفهم، فطلب عليه السلام منهم أن يثبتوا له العذر فيما يلحقهم من العذاب ونكال العقاب لا لأنفسهم حيث أوضح لهم المحجة البيضاء ودلهم على الطريقة الوسطى وهداهم إلى الشريعة الغرّاء.

كما أفصح عليه السلام عن ذلك بقوله: **(ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر)** وهو استفهام تقريري يقول عليه السلام: إني قد عملت فيكم بكتاب الله وبما فيه من الحلال والحرام والحدود والأحكام، وتركت فيكم عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وحفظت وصيّته بالإعزاز والإكرام، وعبّر عنهما بالثقلين تبعاً للحديث النبوي صلى الله عليه وآله المعروف بين الفريقين.

وإنما سمّيا بذلك إمّا لعظم خطرهما وجلالة قدرهما من الثقل وهو المتاع النفيس، وإمّا لكون العمل بهما ثقيلاً وإمّا لأجل أنّ الثقل متاع المسافر وحشمه فكأنّه عليه السلام لما شارف الانتقال إلى جوار ربّه تعالى جعل نفسه كالمسافر الذي ينتقل من منزل إلى منزل وجعل الكتاب والعترة كمتاعه وحشمه، لأنهما أخصّ الأشياء به، قاله الشارح المعتزلي.

والأظهر ما قلناه إذ متاع المسافر وحشمه يكونان معه ولا يخلفان بعده، هذا.

وأمّا تسمية القرآن بالأكبر والعترة بالأصغر مع كون العترة أفضل من القرآن عندنا وكونهم قيمين له فقد قال الشارح البحراني: أشار بكونه أكبر إلى أنه الأصل المتّبع المقتدى به.

أقول: وليس بشيء إذ العترة أيضاً أصل متّبع مقتدى، ويحتمل أن يكون وصفه به من جهة أنه لما كان معجزاً للرسالة وسنداً لها والولاية وأساساً للدّين وسناداً للشرع المبين ولولاه لم يثبت رسالة ولا شريعة ولا ولاية ولا دين ولا إيمان لا جرم وصفه به.

ويمكن استظهار ذلك ممّا رواه أبو سعيد الخدري قال: قال النّبي ﷺ: إنّي تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا على الحوض.

وأظهر منه ما في رواية أبي جعفر عليه السلام عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: يا أيّها النّاس إنّي تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر والثقل الأصغر إن تمسكتم بهما لن تضلّوا ولن تبدّلوا، فإنّي سألت الله اللّطيف الخبير لا يفترقان حتّى يردا على الحوض فأعطيت، فقيل: فما الثقل الأكبر وما الثقل الأصغر؟ فقال: الثقل الأكبر كتاب الله عزّ وجلّ سبب طرفه بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم والثقل الأصغر عترتي أهل بيتي[١].

ويمكن أن يقال: إن كتاب الله لما كان حجة على عموم الخلق من النبيّ ﷺ والأئمة (**عليهم السلام**) وأمتهم، وحجية العترة كانت مخصوصة بالأمة فقط جعله أكبر لذلك، هذا.

وفي قوله عليه السلام: (ألم أعمل فيكم) (آه) تعريض وإشعار بعدم عمل غيره به وهو كذلك.

ويوضحه ما في «غاية المرام» من تفسير عليّ بن إبراهيم قال: حدثني أبي عن صفوان بن يحيى عن أبي الجارود عن عمران بن ميثم عن مالك بن ضمرة عن أبي ذر (ره) قال: لما نزلت هذه الآية:

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

قال رسول الله ﷺ: «ترد عليّ أمّتي يوم القيامة على خمس رايات فراية مع عجل هذه الأمة فأسألهم ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟» فيقولون: أمّا الأكبر فحرفناه ونبذناه وراء ظهورنا، وأمّا الأصغر فعاديناه وأبغضناه وظلمناه فأقول: «ردّوا إلى النّار ظماء مظمئين مسودّة وجوهكم».

ثمّ ترد عليّ راية مع فرعون هذه الأمّة فأقول لهم ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فحرّفناه ومزّقناه وخالفناه، وأما الأصغر فعاديناه وقاتلناه، فأقول: ردّوا إلى النّار ظماء مظمئين مسودّة وجوهكم.

ثمّ تردّ عليّ راية هي مع سامريّ هذه الأمّة فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فعصيناه وتركناه، وأما الأصغر فخذلناه وضيّعناه فأقول: ردّوا إلى النّار ظماء مظمئين مسودة وجوهكم.

ثمّ ترد عليّ راية ذي الثدية مع أوّل الخوارج وآخرهم وأسألهم: ما فعلتم بالثقلين من

(١) بصائر الدرجات: ٤٣٤، وبحار الأنوار: ٢٣/ ١٤٠ ح ٨٩.

بعدي؟ فيقولون: أمّا الأَكبر فمزقناه وبرءنا منه وأمّا الأصغر فقاتلناه وقتلناه فأقول: ردّوا إلى النّار ظماء مظمئين مسودّة وجوهكم.

ثمّ ترد عليّ راية مع إمام المتّقين وسيّد المسلمين وقائد الغرّ المحجلين ووصيّ رسول ربّ العالمين فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فاتبعناه وأطعناه، وأمّا الأَصغر فأحببناه وواليناه وزرناه ونصرناه حتّى أهريقت فيهم دمائنا، فأقول: ردّوا إلى الجنّة رواء مرويّين مبيضّة وجوهكم ثمّ تلى رسول الله ﷺ:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

وقد أخذ السّيد إسماعيل الحميري مضمون هذا الحديث في أبيات من قصيدته المعروفة، وهي هذه الأبيات:

والنّاس يوم الحشر راياتهم ... خمس فمنها هالك أربع
فراية العجل وفرعونها ... وسامري الأُمّة المشنع
وراية يقدمها أبكم ... عبد لئيم لكع أكوع
وراية يقدمها نعثل ... لا بردّ الله له مضجع
وراية يقدمها حبتر ... للزّور والبهتان قد أبدع
وراية يقدمها حيدر ... ووجهه كالشمس إذ تطلع
مولى له الجنة معمورة ... والنّار من إجلاله يفزع
إمام صدق وله شيعة ... يرووا من الحوض ولم يمنعوا
بذاك جاء الوحي من ربنا ... يا شيعة الحقّ فلا تجزعوا

ثمّ قال عليه السلام: (وركزت فيكم راية الإيمان) شبه عليه السلام الإيمان بالراية لأنّه يهتدي به إلى سلوك سبيل الحقّ كما يهتدي بالراية أمام الجيش ونحوها، وذكر الركز ترشيح للتشبيه والمقصود إني أثبت فيكم الإيمان **(ووقفتكم على حدود الحلال والحرام)** أي جعلتكم واقفين عليهما مطلعين على جهاتهما **(وألبستكم العافية من عدلي)** أراد بالعافية السلامة من الظلم ومن أذى الظالمين واستعار لفظ اللّباس لها **(وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي)** المعروف اسم لكلّ ما عرف من طاعة الله والتّقرب إليه والإحسان إلى النّاس وكلّ ما يندب إليه الشرع من

(١) بحار الأنوار: ٣٧/٣٤٦ ح ٣، وتفسير الصافي: ١/٣٧٠.

المحسنات والمقبحات، وإن شئت قلت: المعروف اسم لكل فعل يعرف حسنه بالشرع والعقل يقول عليه السلام: **(بسطت بساط المعروف بالأقوال والأفعال) (وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي)** أي أوضحتها لكم وشاهدتموها مني متكرّره.

وقد سئل الصّادق عليه السلام عن مكارم الأخلاق فقال عليه السلام: العفو عمن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك، وقول الحقّ ولو على نفسك[١].

وفي حديث آخر في «الكافي» عن الصّادق عليه السلام قال: إنّ الله عزّ وجلّ خص رسله بمكارم الأخلاق فامتحنوا أنفسكم فإن كانت فيكم فاحمدوا الله واعلموا أنّ ذلك من خير وإلاّ تكن فيكم فاسألوا الله وارغبوا إليه فيها فذكرها عشرة: اليقين، والقناعة، والصبر، والشكر، والحلم، وحسن الخلق، والسخاء، والغيرة، والشجاعة، والمروة[٢] وفي الدّيوان المنسوب إليه عليه السلام:

إنّ المكارم أخلاق مطهرة فالدّين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والفضل سادسها
والبرّ سابعها والصّبر ثامنها والشكر تاسعها واللين باقيها
والنفس تعلم أنّي لا أصادقها ولست أرشد إلاّ حين أعصيها

وكيف كان فكونه عليه السلام مبدأ مكارم الأخلا ومنشأ محاسن الآداب مما لا ريب فيه بل ذلك غنيّ عن البيان، ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما ورد في حسن خلقه وبشره وحلمه وعفوه وإشفاقه وعطفه صلوات الله عليه تيمناً وتوضيحاً.

ففي «البحار» من «مناقب ابن شهر آشوب» عن «مختار التّمار» عن أبي مطر البصري أن أمير المؤمنين مرّ بأصحاب التّمر فإذا هو بجارية تبكي فقال: يا جارية ما يبكيك؟ فقالت: بعثني مولاي بدرهم فابتعت من هذا تمراً فأتيتهم به فلم يرضوه فلمّا أتيته به أبى أن يقبله، قال عليه السلام: يا عبد الله إنّها خادم ليس لها أمر فاردد إليها درهمها وخذ التمر، فقام إليه الرّجل فلكزه فقال النّاس: هذا أمير المؤمنين عليه السلام فربا الرّجل واصفرّ وأخذ التمر ورد إليها درهمها، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين ارض عني فقال: ما أرضاني عنك أن أصلحت أمرك[٣].

وفي «فضائل أحمد» إذا وفيت النّاس حقوقهم[٤]، ودعا غلاماً له مراراً فلم يجبه فخرج

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ١٩٩ ح ٢٠٢٧٢، وبحار الأنوار: ٦٦/ ٣٦٨ ح ٦.

(٢) المحاسن: ١/ ١٩٢، والكافي: ٢/ ٥٦ ح ٢.

(٣) الغارات: ٢/ ٧١٤، وبحار الأنوار: ٤١/ ٤٨ ح ١.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٧٩..

فوجده على باب البيت فقال عليه السلام: ما حملك على ترك إجابتي؟ قال: كسلت إجابتك وأمنت عقوبتك، فقال عليه السلام: الحمد لله الذي جعلني ممن تأمنه خلقه امض، فأنت حرّ لوجه الله.

وجاءه أبو هريرة وكان تكلّم فيه وأسمعه في اليوم الماضي وسأله حوائجه فقضيها فعاتبه أصحابه على ذلك فقال عليه السلام: إنّي لأستحيي أن يغلب جهله علمي وذنبه عفوي ومسألته جودي.

ولما أدرك عمرو بن عبدود لم يضربه فوقعوا في عليّ فردّ عنه حذيفة فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: مه يا حذيفة فإنّ علياً سيذكر سبب وقفته ثمّ إنّه ضربه فلما جاء سأله النّبي عن ذلك فقال عليه السلام: قد كان شتم بي وتفل في وجهي فخشيت أن أضربه بحظ نفسي فتركته حتى سكن ما بي ثم قتلته في الله(١).

وكان عليه السلام بشره دائم وثغره باسم غيث لمن رغب وغياث لمن ذهب مآل الآمل وثمال الأرامل يتعطف على رعيته ويتصرف على مشيته ويكفّه بحجته وتكفيه بمهجته.

ونظر إلى امرأة على كتفها قربة ماء فأخذ منها القربة فحملها إلى موضعها وسألها عن حالها فقالت: بعث علي بن أبي طالب زوجي إلى بعض الثغور فقتل وترك عليّ صبياناً يتامى وليس عندي شيء فقد ألجأتني الضّرورة إلى خدمة الناس، فانصرف عليه السلام وبات ليلته قلقاً فلما أصبح حمل زنبيلاً فيه طعام فقال بعضهم: أعطني أحمله عنك، فقال عليه السلام: من يحمل وزري عنّي يوم القيامة فأتى وقرع الباب فقالت: من هذا؟ قال: أنا ذلك العبد الذي حمل معك القربة فافتحي فإن معي شيئاً للصّبيان فقالت: رضي الله عنك وحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب، فدخل وقال: إنّي أحببت اكتساب الثواب فاختاري بين أن تعجنين وتخبزين وبين أن تعلّلين الصبيان لأخبز أنا، فقالت: أنا بالخبز أبصر وعليه أقدر ولكن شأنك والصّبيان فعلّلهم حتى أفرغ من الخبز. قال: فعمدت إلى الدّقيق فعجنته وعمد علي عليه السلام إلى اللّحم فطبخه وجعل يلقم الصبيان من اللّحم والتمر وغيره، فكلّما ناول الصبيان من ذلك شيئاً قال له: يا بنيّ اجعل عليّ بن أبي طالب في حل ممّا أمر في أمرك فلما اختمر العجين قالت: يا عبد الله اسجر التنور، فبادر عليه السلام بسجره فلما أشعله ولفح في وجهه يقول: ذق يا علي هذا جزاء من ضيّع الأرامل واليتامى، فرأته امرأة تعرفه عليه السلام، فقالت: ويحك هذا أمير المؤمنين عليه السلام، قال: فبادرت المرأة وهي تقول: وا حيائي منك يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: بل وا حيائي منك يا أمة الله فيما قصرت في أمرك(٢).

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٨/٢٨، وبحار الأنوار: ٤١/٥١.

(٢) بحار الأنوار: ٤١/٥٢، والأنوار العلوية: ١١٨.

ثمّ إنّه ﷺ بعد ما أشار إلى جملة من فضائله ومناقبه أردفه بقوله: (**فلا تستعملوا الرّأي فيما لا يدرك قعره البصر ولا يتغلغل**) أي لا يسرع ولا يدخل (**إليه الفكر**) والمقصود بذلك النهي عن استعمال الرأي فيما ذكره ﷺ من خصائص العترة الطّاهرة وعجائب ما خصهم الله به من الأنوار الباهرة.

يقول ﷺ: إن أمرنا صعب لا تهتدي إليه العقول والأنظار، ولا تدرك قعره الأبصار، ولا تغلغل فيه الأفكار، فلا تجوز المبادرة إلى ردّ ما تأبى عنه العقول والأفهام في حقّهم عليهم السّلام، فإن حديثهم صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.

تنبيه

لما كان هذا الفصل من كلامه ﷺ مسوقاً لإظهار مناقب الآل ومشتملاً على فضائل العترة الطّاهرين سلام الله عليهم أجمعين أحببت أن أورد هنا شطراً من كراماتهم ومعجزاتهم وعجائب شؤوناتهم المروية بالأسانيد الغرية.

فمنها

ما في المجلّد التاسع من «البحار» وجادة في بعض الكتب قال: حدثنا محمّد بن زكريا العلا قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفّار المعروف بابن المعافا عن وكيع عن زاذان عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال:

كنا مع مولانا أمير المؤمنين فقلت: يا أمير المؤمنين أحب أن أرى من معجزاتك شيئاً، قال: (**صلوات الله عليه**): أفعل إن شاء الله عزّ وجلّ، ثمّ قام ودخل منزله وخرج إليّ وتحته فرس أدهم وعليه قباء أبيض وقلنسوة بيضاء، ثمّ نادى يا قنبر أخرج إليّ ذلك الفرس فأخرج فرس آخر أدهم فقال ﷺ: اركب يا أبا عبد الله.

قال سلمان: فركبته فإذا له جناحان ملتصقان إلى جنبه قال: فصاح به الإمام (**صلوات الله عليه**) فتعلق في الهواء وكنت أسمع خفيف أجنحة الملائكة وتسبيحها تحت العرش، ثمّ خطونا على ساحل بحر عجاج مغطمط[1] الأمواج فنظر إليه الإمام شزراً فسكن البحر من غليانه فقلت له: يا مولاي سكن البحر من غليانه من نظرك إليه، فقال صلوات الله عليه: يا سلمان خُشي أن آمر فيه بأمر.

ثمّ قبض على يدي وسار على وجه الماء والفرسان تتبعان لا يقودهما أحد، فوالله ما

(١) الغطمطة: اضطراب موج البحر.

ابتلّت أقدامنا ولا حوافر الخيل.

قال سلمان: فعبرنا ذلك البحر فدفعنا إلى جزيرة كثيرة الأَشجار والأَثمار والأَطيار والأَنهار، وإذا شجرة عظيمة بلا صدع ولا زهر فهزّها **(صلوات الله عليه)** بقضيب كان في يده فانشقّت وخرج منها ناقة طولها ثمانون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً وخلفها قلوص فقال **(صلوات الله عليه)**: ادن منها واشرب من لبنها.

قال سلمان: فدنوت منها وشربت حتى رويت وكان لبنها أعذب من الشهد وألين من الزّبد وقد اكتفيت. قال **(صلوات الله عليه)**: هذا حسن يا سلمان، فقلت: مولاي حسن؛ فقال صلوات الله عليه: تريد أن أريك ما هو أحسن منه؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

قال سلمان: فنادى مولاي أمير المؤمنين اخرجي يا حسناء قال: فخرجت ناقة طولها عشرون ومائة ذراع وعرضها ستّون ذراعاً ورأسها من الياقوت الأَحمر وصدرها من العنبر الأَشهب وقوائمها من الزبرجد الأَخضر وزمامها من الياقوت الأَصفر وجنبها الأَيمن من الذهب وجنبها الأَيسر من الفضة وعرفها من اللّؤلؤ الرطب فقال **(صلوات الله عليه)**: يا سلمان اشرب من لبنها.

قال سلمان: فالتقمت الضّرع فإذا هي تحلب عسلاً صافياً مخلصاً، فقلت: يا سيّدي هذه لمن؟ قال عليه السلام: لك ولك ولسائر الشيعة من أوليائي، ثمّ قال: ارجعي إلى الصّخرة ورجعت من الوقت وسار بي في تلك الجزيرة حتى ورد بي إلى شجرة عظيمة عليها طعام يفوح منه رائحة المسك، فإذا بطائر في صورة النسر العظيم.

قال سلمان رضي الله عنه: فوثب ذلك الطّائر فسلم عليه **(صلوات الله عليه)** ورجع إلى موضعه فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذه المائدة؟ فقال عليه السلام: هذه منصوبة في هذا المكان للشيعة من مواليّ إلى يوم القيامة فقلت: ما هذا الطّائر؟ قال **(صلوات الله عليه)**: ملك موكّل بها إلى يوم القيامة فقلت: وحده يا سيّدي، فقال عليه السلام: يجتاز به الخضر عليه السلام في كلّ يوم مرّة.

ثمّ قبض عليه السلام على يدي وسار إلى بحر ثانٍ فعبرنا وإذا جزيرة عظيمة فيها قصر لبنة من ذهب ولبنة من فضة بيضاء شرفها من عقيق أصفر وعلى كلّ ركن من القصر سبعون صفاً من الملائكة فأتوا وسلّموا، ثمّ أذن لهم فرجعوا إلى مواضعهم.

قال سلمان رحمه الله تعالى: ثمّ دخل أمير المؤمنين عليه السلام القصر فإذا أشجار وأثمار وأنهار وأطيار وألوان النبات فجعل الإمام عليه السلام يمشي فيه حتّى وصل إلى آخره فوقف عليه السلام على بركة كانت في البستان ثمّ صعد إلى قصر فإذا كرسيّ من الذّهب الأَحمر فجلس عليه

(**صلوات الله عليه**) وأشرفنا على القصر فإذا بحر أسود يغطمط أمواجه كالجبال الرّاسيات، فنظر (**صلوات الله عليه**) شزراً فسكن من غليانه حتّى كان كالمذنب.

فقلت: يا سيّدي سكن البحر من غليانه لما نظرت إليه فقال عليه السلام: خشي أن آمر فيه بأمر أتدري يا سلمان أيّ بحر هذا؟ فقلت: لا يا سيّدي، فقال: هذا الذي غرق فيه فرعون وملائه المذنبة حملها جناح جبرئيل عليه السلام ثمّ زجّها في هذا البحر فهو يهوي لا يبلغ قراره إلى يوم القيامة.

فقلت: يا أمير المؤمنين هل سرنا فرسخين؟ فقال عليه السلام: يا سلمان سرت خمسين ألف فرسخ ودرت حول الدّنيا عشر مرات.

فقلت: يا سيّدي وكيف هذا؟ قال عليه السلام: إذا كان ذو القرنين طاف شرقها وغربها وبلغ إلى سدّ يأجوج ومأجوج فأنا يتعذر عليّ وأنا أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين، يا سلمان أما قرأت قول الله عزّ وجلّ حيث يقول:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

فقلت: بلى يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام: أنا ذلك المرتضى من الرسول الذي أظهره الله عزّ وجلّ على غيبه أنا العالم الرّباني أنا الذي هون الله له الشّدائد فطوى له البعيد.

قال سلمان رضي الله عنه: فسمعت صائحاً يصيح في السّماء أسمع الصوت ولا أرى الشخص وهو يقول: صدقت صدقت أنت الصّادق المصدّق صلوات الله عليك.

قال: ثمّ نهض صلوات الله عليه فركب الفرس وركبت معه وصاح بهما فطارا في الهواء ثم خطونا على باب الكوفة هذا كلّه وقد مضى من اللّيل ثلاث ساعات.

فقال صلوات الله عليه لي: يا سلمان الويل كلّ الويل لمن لا يعرفنا حقّ معرفتنا وأنكر ولايتنا أيّما أفضل محمّد صلى الله عليه وآله أم سليمان عليه السلام؟ قلت: بل محمّد صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال عليه السلام: فهذا آصف بن برخيا قدر أن يحمل عرش بلقيس من فارس بطرفة وعنده علم من الكتاب ولا أفعل أنا ذلك وعندي مائة كتاب وأربعة وعشرون كتاباً أنزل الله تعالى على شيث بن آدم عليه السلام خمسين صحيفة، وعلى إدريس النبيّ عليه السلام ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عليه السلام عشرين صحيفة، والتوراة، والإنجيل، والزّبور والفرقان.

فقلت: صدقت يا أمير المؤمنين هكذا يكون الإمام صلوات الله عليه، فقال عليه السلام: إنّ الشّاك في أمورنا وعلومنا كالممتري في معرفتنا وحقوقنا، قد فرض الله عزّ وجلّ في كتابه في

غير موضع، وبيّن فينا ما وجب العمل به، وهو غير مكشوف(١).

ومنها

ما فيه أيضاً من الكتاب المذكور قال: روى الأصبغ بن نباتة قال: كنت يوماً مع مولانا أمير المؤمنين عليه السلام إذ دخل عليه نفر من أصحابه منهم أبو موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وأبو هريرة والمغيرة بن شعبة وحذيفة بن اليمان وغيرهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين أرنا شيئاً من معجزاتك الّتي خصك الله بها.

فقال عليه السلام: ما أنتم وذلك وما سؤالكم عمّا لا ترضون به؟ والله تعالى يقول: وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني إنّي لا أعذّب أحداً من خلقي إلاّ بحجّة وبرهان وعلم وبيان، لأنّ رحمتي سبقت غضبي وكتبت الرّحمة عليّ فأنا الرّاحم الرّحيم والودود العلي، وأنا المنان العظيم، وأنا العزيز الكريم، فإذا أرسلت رسولاً أعطيته برهاناً وأنزلت عليه كتاباً فمن آمن بي وبرسولي فأولئك هم المفلحون الفائزون ومن كفر بي وبرسولي فأولئك هم الخاسرون الذين استحقّوا عذابي، فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن آمنّا بالله وبرسوله وتوكّلنا عليه.

فقال عليّ عليه السلام: اللّهم أشهد على ما يقولون وأنا العليم الخبير بما يفعلون، ثمّ قال: قوموا على اسم الله وبركاته، قال: فقمنا معه حتى أتى بالجبانة ولم يكن في ذلك الموضع ماء قال: فنظرنا فإذا روضة خضراء ذات ماء، وإذا في الروضة غدران وفي الغدران حيتان، فقلنا: والله إنّها لدلالة الإمامة فأرنا غيرها يا أمير المؤمنين وإلاّ قد أدركنا بعض ما أردنا.

فقال عليه السلام: حسبي الله ونعم الوكيل ثمّ أشار عليه السلام بيده العليا نحو الجبّانة فإذا قصور كثيرة مكلّلة بالدّر والياقوت والجواهر وأبوابها من الزّبرجد الأخضر وإذا في القصور حور وغلمان وأنهار وأشجار وطيور ونبات كثير، فبقينا متحيرين متعجبين وإذا وصائف وجواري وولدان وغلمان كاللؤلؤ المكنون فقالوا: يا أمير المؤمنين لقد اشتدّ شوقنا إليك وإلى شيعتك وأوليائك، فأومأ إليهم بالسّكون.

ثمّ ركض الأرض برجله عليه السلام فانفلقت الأرض من منبر من ياقوت أحمر فارتقى إليه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال عليه السلام: غمضوا أعينكم فغمضنا أعيننا فسمعنا حفيف أجنحة الملائكة بالتّسبيح والتّهليل والتحميد والتعظيم والتقديس، ثمّ قاموا بين يديه قالوا: مرنا بأمرك يا أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين صلوات الله عليك.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٨/٢٧ ح ١٠، والمحتضر: ١٦٠.

فقال ﷺ: يا ملائكة ربّي ائتوني بإبليس الأبالسة وفرعون الفراعنة قال: فوالله ما كان بأسرع من طرفة عين حتى أحضروه عنده.

فقال ﷺ: ارفعوا أعينكم، قال: فرفعنا أعيننا ونحن لا نستطيع أن ننظر إليه من شعاع نور الملائكة، فقلنا: يا أمير المؤمنين الله الله في أبصارنا فما ننظر شيئاً البتة وسمعنا صلصلة السّلاسل واصطكاك الأغلال وهبت ريح عظيمة فقالت الملائكة: يا خليفة الله زد المعلون لعنة وضاعف عليه العذاب فقلنا: يا أمير المؤمنين الله الله في أبصارنا ومسامعنا فوالله ما نقدر على احتمال هذا السر والقدر قال: فلمّا جرّه بين يديه قام وقال: واويلاه من ظلم آل محمّد ﷺ واويلاه من اجترائي عليهم ثمّ قال: يا سيّدي ارحمني فإنّي لا أحتمل هذا العذاب فقال ﷺ: لارحمك الله ولاغفر لك أيّها الرّجس النجس الخبيث المخبث الشّيطان.

ثمّ التفت ﷺ إلينا وقال: تعرفون هذا باسمه وحسبه؟ قلنا: نعم يا أمير المؤمنين فقال: سلوه حتّى يخبركم من هو، فقالوا: من أنت؟ فقال: أنا إبليس الأبالسة وفرعون هذه الأمة، أنا الذي جحدت سيّدي ومولاي أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين وأنكرت آياته ومعجزاته.

ثمّ قال أمير المؤمنين: غمّضوا أعينكم فغمضنا، فتكلّم ﷺ بكلام أخفى فإذا نحن في الموضع الذي كنا فيه لا قصور ولا ماء ولا غدران ولا أشجار.

قال الأصبغ بن نباتة رضي الله عنه: والذي أكرمني بما رأيت من تلك الدلائل والمعجزات ما تفرّق القوم حتى ارتابوا وشكّوا وقال بعضهم: سحر وكهانة وإفك فقال أمير المؤمنين (**عليه السلام**): إنّ بني إسرائيل لم يعاقبوا ولم يمسخوا إلاّ بعد ما سألوا الآيات والدّلالات فقد حلّت عقوبة الله بهم والآن حلت لعنته فيكم وعقوبته عليكم[1]، قال الأصبغ بن نباتة رضي الله عنه: إنّي أيقنت أن العقوبة حلت بتكذيبهم الدّلالات والمعجزات.

ومنها

ما في المجلد السّابع من «البحار» من كتاب «الاختصاص» عن ابن أبي الخطاب عن موسى بن سعدان عن حفص الأبيض التّمار قال: دخلت على أبي عبد الله ﷺ أيّام قتل المعلى بن خنيس وصلبه (ره) فقال ﷺ: يا حفص إني أمرت لمعلى بن خنيس بأمر فخالفني فابتلي بالحديد:

إنّي نظرت إليه يوماً وهو كئيب حزين فقلت: مالك يا معلّى كأنّك ذكرت أهلك ومالك

(١) بحار الأنوار: ٤٢/ ٥٥، والأنوار العلوية: ١٦٠.

وعيالك؟ فقال: أجل فقلت: ادن منّي فدنى منّي فمسحت وجهه فقلت: أين تراك؟ فقال: أراني في بيتي هذه زوجتي وهؤلاء ولدي فتركته حتى تملأ منهم واستترت منه حتّى نال ما ينال الرجل من أهله.

ثم قلت له: ادن مني، فمسحت وجهه فقلت: أين تراك؟ فقال: أراني معك بالمدينة وهذا بيتك فقلت له: يا معلّى إنّ لنا حديثاً من حفظه علينا حفظ الله عليه دينه ودنياه، يا معلّى لا تكونوا أسراء في أيدي النّاس بحديثنا إن شاؤوا منّوا عليكم وإن شاؤوا قتلوكم، يا معلّى إنّ من كتم الصّعب من حديثنا جعله الله نوراً بين عينيه ورزقه الله العزة في النّاس، ومن أذاع الصّعب من حديثنا لم يمت حتّى يعضّه السّلاح أو يموت بخيل، يا معلى فأنت مقتول فاستعدّ[1].

ومنها

ما فيه من «الخرائج» قال: روى أبو القاسم بن قولويه عن محمّد بن يعقوب عن محمّد بن إدريس عن محمّد بن حسان عن عليّ بن خالد قال: كنت بالعسكر فبلغني أنّ هناك رجلاً محبوساً أتى من ناحية الشام مكبولاً وقالوا: إنّه تنبأ، فأتيت الباب وداريت البوّابين حتّى وصلت إليه فإذا رجل له فهم وعقل فقلت له: ما قصّتك؟ قال:

إنّي كنت بالشّام أعبد الله في الموضع الذي يقال: إنّه نصب فيه رأس الحسين عليه السلام، فبينما أنا ذات ليلة في موضعي مقبل على المحراب أذكر الله إذ نظرت شخصاً بين يدي فنظرت إليه، فقال لي: قم، فقمت معه فمشى بي قليلاً فإذا أنا في مسجد الكوفة قال: أتعرف هذا المسجد؟ قلت: نعم هذا مسجد الكوفة فصلّى وصلّيت معه ثمّ خرج وخرجت معه فمشى بي قليلاً وإذا نحن بمسجد الرّسول صلى الله عليه وآله، فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّمت وصلّى وصلّيت معه، ثم خرج وخرجت معه فمشى بي قليلاً وإذا نحن بمكّة وطاف بالبيت فطفت معه فخرج ومشى بي قليلاً فإذا أنا في موضعي الذي كنت أعبد الله فيه بالشّام وغاب الشخص عن عيني فتعجبت ممّا رأيت.

فلمّا كان في العام المقبل رأيت ذلك الشخص فاستبشرت به ودعاني فأجبته وفعل كما فعل في العام الأوّل فلمّا أراد مفارقتي بالشام قلت: سألتك بالذي أقدرك على ما رأيت من أنت؟ قال:

أنا محمد بن عليّ بن جعفر، فحدّثت من كان يصير إليّ بخبره فرقى ذلك إلى

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٧٤ ح ٤٢، وكتاب الغيبة: ٣٨.

محمّد بن عبد الملك الزيّات فبعث إلي فأجلدني وكبلني في الحديد وحملني إلى العراق وحبست كما ترى وادّعى عليّ المحال فقلت: أرفع عنك القصة إليه؟ قال: ارفع فكتبت عنه قصّته شرحت أمره فيها ودفعتها إلى الزّيات فوقع في ظهرها: قل للذي أخرجك من الشّام في ليلة إلى الكوفة إلى المدينة إلى مكة أن يخرجك من حبسي.

قال علي بن خالد: فغمني ذلك من أمره ورققت له وانصرفت محزوناً فلمّا أصبحت باكرت الحبس لأعلمه بالحال وآمره بالصّبر والعزاء فوجدت الجند والحراس وصاحب السجن وخلقاً كثيراً من النّاس يهرعون، فسألت عنهم وعن الحال فقيل: إن المحمول من الشام المتنبي فقد البارحة من الحبس فلا يدرى خسف به الأرض أو اختطفته الطير وكان هذا المرسل أعني عليّ بن خالد زيدياً فقال بالإمامة، وحسن اعتقاده[1].

ومنها

حديث البساط المعروف ورويته من نسخة قديمة عندي قال الرّاوي: خبر من خزانة مولانا مفترض الطاعة على الخلق أجمعين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

حدّثنا أبو عبد الله بن زكريّا عن ابن جوهر بن الأسود عن محمّد بن سابغ يرفعه إلى سلمان الفارسي (رض) انه قال:

كنا جلوساً عند مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم أنا وولديه الحسن والحسين عليهم السلام ومحمّد بن حنيفة ومحمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر ومقداد بن أسود الكندي، فإذا التفت إليه الحسن عليه السلام وقال: يا أمير المؤمنين إن سليمان بن داود قال: فهب لي من لدنك ملكاً لا ينبغي لأحد من النّاس وأعطاه الله تعالى ذلك، فهل ملكت شيئاً من ملك سليمان؟ فقال له أمير المؤمنين: والذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة لقد ملك أبوك ملكاً لا يملك أحد قبله ولا بعده، فقال الحسن عليه السلام: إنّا نحبّ أن ننظر مما ملّكه الله إيّاك من الملكوت ليزداد النّاس إيمانهم.

فقال عليه السلام: نعم وكرامة وقام وصلّى ركعتين ثمّ ذهب إلى صحن داره ونحن نراه، فمدّ يده نحو المغرب حتّى بان لنا من كفّه سحابة وهو يمدّها حتّى أوقفها على الدّار، وإلى جانب تلك السحابة سحابة أخرى، ثم أشار إلى ريح وقال: اهبطي إلينا أيّتها الرّيح فوالله العظيم لقد رأينا السّحاب والرّيح قد هبطا يقولان:

نشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ونشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ونشهد أنّك وصي رسول كريم محمّدٍ رسول الله وأنت وليّه، من شكّ فيكم فقد هلك ومن تمسّك بك فقد سلك سبيل النّجاة.

---

(١) الكافي: ١/٤٩٣، الثاقب في المناقب: ٥١١.

ثمّ تطأطأت السّحابتان حتى صارتا كأنهما بساطان ورائحتهما كالمسك الأذفر فقال لنا أمير المؤمنين عليه السلام: اجلسوا على الغمام فجلسنا وأخذنا مواضعنا.

ثمّ قال سلمان: إنّ أمير المؤمنين قال: أيتها الرّيح ارفعينا، فرفعتنا رفعاً رفيعاً فإذا نحن وأمير المؤمنين في تلك على كرسيّ من نور وعليه ثوبان أصفران وعلى رأسه تاج من ياقوتة صفراء وفي رجليه شراك من ياقوت يتلألأ وفي يده خاتم من درّة بيضاء يكاد نور وجهه يذهب الأبصار.

فقال له: يا أبتاه إنّ سليمان بن داود كان يطاع بخاتمه وأمير المؤمنين عليه السلام بماذا يطاع؟ فقال عليه السلام: يا ولدي أنا وجه الله، وعين الله، ولسان الله، وأنا ولي الله، وأنا نور الله، وأنا كنز الله في الأرض، وأنا القدرة المقدّرة، وأنا الجنة والنّار، وأنا سيّد الفريقين.

يا ولدي أتحبّ أن أريك خاتم سليمان بن داود؟ قال: نعم، فأدخل يده تحت ثيابه واستخرج خاتماً عليه فصّ من ياقوت مكتوب عليها أربعة أسطر، وقال: هذا والله خاتم سليمان بن داود.

قال سلمان: فبقينا متعجبين من ذلك فقال عليه السلام: من أي تعجبون وما هذا العجب إنّي لأرينكم اليوم ما لم يره أحد قبلي إلى بعدي.

فقال الحسن عليه السلام: يا أمير المؤمنين إنا نحب أن ترينا يأجوج ومأجوج والسّد فقال عليه السلام للرّيح: سيري، فقال سلمان: فوالله لمّا سمعت الريح قوله دخلت تلك السّحاب ورفعنا إلى الهواء حتّى أتينا إلى جبل شامخ في الهواء وعليه شجرة جافة وتساقط أوراقها فقلنا: ما بال هذه الشجرة قد جفت وماتت، قال: سلوها فإنها تخبركم فقال الحسن عليه السلام: ما بالك أيّتها الشجرة قد حلّ بك ما نراه منك؟ فما أجابت، فقال لها أمير المؤمنين: بحقي عليك أيتها الشجرة أجيبيهم.

قال سلمان: فوالله لقد سمعنا وهي تقول: لبّيك لبّيك يا وصيّ رسول الله وخليفته من بعده حقّاً، فقالت للحسين: يا أبا محمّد إنّ أباك أمير المؤمنين يجيئني في كلّ ليلة ويسبّح عندي الله عزّ وجلّ ويستظلّ بي فإذا فرغ من تسبيحه جاءته غمامة بيضاء تفوح منها مسك وعليها كرسيّ فيجلس عليها ثمّ يسير به فلا أراه إلى وقته ذلك، وكان يتعاهدني كلّ ليلة وكنت أعيش من رائحته فقطعني منذ أربعين ليلة لم أعرف له خبراً والذي تراه مني مما أنكرته من فقده والغم والحزن فاسأله يا سيدي حتّى يتعاهدني بجلوسه عندي فقد عشت من رائحته في هذا الوقت وبنظري إليه، قال: فبقينا متعجبين من ذلك فقام عليه السلام ومسح يده المباركة عليها.

قال سلمان: والله الذي نفسي بيده لقد سمعت لها أنيناً وأنا أراه وهي تخضر حتّى أنبتت ورقاً وأثمرت بقدرة الله عز وجل وببركاته عليه السلام، فأكلنا فكانت أحلى من السّكر، فقلنا: يا أمير

المؤمنين هذا عجب فقال عليه السلام: الذي ترون بعدها أعجب ثمّ عاد عليه السلام إلى موضعه وقال للرّيح: سيري بنا، فدخلت الريح تحت السّحابة ورفعنا حتى رأينا الدنيا بمثل دور الرأس ورأينا في الهواء ملكاً رأسه تحت الشمس ورجلاه في قعر البحور ويده في المغرب والأخرى في المشرق فلما خبرنا به قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله وأنّك وصيّه حقاً لا شك فيك ومن شكّ فيك فهو كافر.

فقلنا: يا أمير المؤمنين من هذا الملك وما بال يده في المغرب وأخرى في المشرق؟ فقال عليه السلام: أنا أقمته بإذن الله هٰهنا ووكلته بظلمات الليل وضوء النّهار ولا يزال كذلك إلى يوم القيامة وإنّي أدبر أمر الدّنيا وأصنع ما أريد بإذن الله وأمره وأعمال الخلائق إليّ وأنا أدفعها إلى الله عزّ وجلّ.

ثمّ سار بنا حتى وقفنا على يأجوج ومأجوج، فقال عليه السلام للريح: اهبطي تحت هذا الجبل وأشار بيده إلى جبل شامخ إلى قرب السدّ ارتفاعه مد البصر وإذا به سواد كأنه قطعة ليلة يفور منه دخان فقال عليه السلام: يا أبا محمّد أنا صاحب هذا السّد على هؤلاء العبد.

فقال سلمان: فرأيتهم ثلاثة أصناف: صنف طوله مائة وعشرون ذراعاً من عرض ستّين ذراعاً، والصّنف الثّاني طوله مائة وسبعون ذراعاً من عرض ثمانين ذراعاً، والصّنف الثالث أحدهم يفرش إذنه تحت والأخرى فوقه.

ثمّ قال للريح: سيري بنا إلى قاف فسارت بنا إلى جبل من ياقوتة خضراء وهو محيط بالدّنيا وعليه ملك في صورة بني آدم وهذا الموكل بقاف فلما نزل الملك إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: تريد أن تسألني أن آذن لك فقد أذنت فأسرع الملك وقال: بسم الله الرّحمن الرّحيم ثمّ طار.

قال سلمان: وطفنا في ذلك حتى انتهينا إلى شجرة جافة من الشجرة الأولى فقلنا: يا أمير المؤمنين ما بال هذه الشّجرة قد ماتت؟ فقال: سلوها قال الحسن عليه السلام: وقمت ودنوت أنا وأبي عليه السلام وقلت لها: أقسمت عليك بحقّ أمير المؤمنين أن تخبرينا ما بالك وأنت في هذا المكان قال سلمان: فكلّمت بلسان طلق وهي تقول:

يا أبا محمّد إني كنت أفتخر على الأشجار فصارت الأشجار تفتخر عليّ وذلك أن أباك كان يجيئني في كلّ ليلة عند الثلث الأول من اللّيل يستظل بي ساعة ثمّ يأتيه فرس أدهم فيركبه ويمضي فلا أراه إلى وقته وكنت أعيش من رائحته وأفتخر به فقطعني منذ أربعين ليلة فغمّني ذلك فصرت كما ترى.

فقلنا: يا أمير المؤمنين اسأل الله في ردّها كما كانت فمسح يده المباركة ثمّ قال: يا شاه شاهان فسمعنا لها أنيناً وهي تقول: أشهد أنك أمين هذه الأمّة ووصي رسول الله من تمسّك

بك فقد نجا ومن خالفك فقد غوى، ثمّ اخضرت وأورقت فجلسنا تحتها وهي خضرة نضرة.

فقلنا: أين ذهب هذا الملك الموكّل بقاف؟ قال عليه السلام: إلى زيارة الملك الموكل على ظلمات اللّيل وضوء النّهار فقلنا: يا أمير المؤمنين ما يزالون عن مواضعهم إلاّ بإذنك؟ فقال عليه السلام: والذي رفع السّماء بغير عمد ما أظنّ أحداً يزول عن موضعه بغير إذني إلاّ احترق.

فقلنا: يا أمير المؤمنين كنت معنا جالساً في منزلك فأيّ وقت كنت في قاف؟ فقال عليه السلام لنا: غمّضوا أعينكم فغمضناها ثمّ قال عليه السلام: افتحوها، ففتحناها فإذا نحن قد بلغنا مكّة، فقال عليه السلام: لقد بلغنا ولم يشعر أحد فكذلك كنت بقاف ولم يشعر أحد منكم.

فقلنا: يا أمير المؤمنين هذا العجب من وصيّ رسول الله فقال: والله إنّي أملك من الملكوت ما لو عاينتموه لقلتم أنت أنت، وأنا وأنا عبد الله مخلوق من الخلائق آكل وأشرب.

ثمّ أتينا إلى روضة نضرة كأنها من رياض الجنّة فإذا نحن بشاب يصلّي بين قبرين، فقلنا: يا أمير المؤمنين من هذا الشّاب؟ فقال: أخي صالح وهذان قبر أبويه يعبد الله بينهما، فلمّا نظر إلينا صالح أتى إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يبكي، فلمّا فرغ من بكائه فقلنا: ممّا تبكي؟ فقال: إن أمير المؤمنين كان يمرّ بي كلّ يوم عند الصّبح وكنت آنس به وأزداد في العبادة فقطعني منذ أربعين يوماً فأهمّني ذلك ولم أملك من شدة شوقي إليه وأصابني ما تراه، فقلنا: يا أمير المؤمنين هذا هو العجب من كلّ ما رأينا أنت معنا في كلّ يوم وتأتي إلى هذا الفتى.

فقال عليه السلام: أتحبّون أن أرينكم سليمان بن داود؟ فقلنا: نعم، فقام عليه السلام وقمنا معه ومشينا حتى دخلنا بستان لم نر قطّ مثله وفيه من جميع الفاكهة والأنهار تجري والأطيار تتغنّى، فلما نظرت الأطيار إلى أمير المؤمنين عليه السلام جعلت تظلّ على رأسه.

فإذا نحن بسرير عليه شابّ ملقى على ظهره وليس في يده خاتم وعند رأسه ثعبان وعند رجليه ثعبان فلمّا نظرا إلى أمير المؤمنين عليه السلام انكبّا على قدميه يمرغان وجوههما على التراب ثمّ صارا كالتّراب فقلنا: يا أمير المؤمنين هذا هو سليمان؟ قال: نعم وهذا خاتمه ثمّ أخرج من يده الخاتم وجعله في يد سليمان ثمّ قال: قم يا سليمان بإذن من يحيي العظام وهي رميم وهو الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم القهّار ربّ السّماوات والأرضين ربّي وربّ آبائنا الأوّلين.

قال سلمان: فسمعنا سليمان يقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كله ولو كره المشركون، وأشهد أنّك وصيّ رسول الله الأمين الهادي، وإنّي سألت ربّي عز وجلّ أن أكون من شيعتك ولولا ذلك ما ملكت شيئاً.

قال سلمان: فلما سمعت ذلك وثبت وقبلت أقدام أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ نام سليمان

وقمنا ندور في قاف فسألته ما وراء قاف؟ فقال عليه السلام: وراءه أربعين دنيا كلّ دنيا مثل الدّنيا التي جئنا أربعين مرّة، فقلت له: يا أمير المؤمنين كيف علمك بذلك؟ قال عليه السلام: كعلمي بهذه الدّنيا ومن فيها وبطرف السّماوات والأرضين.

يا سلمان كتبت على اللّيل فأظلم، وعلى النهار فأضاء، أنا المحنة الواقعة على الأعداء الطامة الكبرى، أسماؤنا كتبت على العرش حتّى استند، وعلى السّماوات فقامت، وكتبت على الأرض فسكنت، وعلى الرّياح فذرت، وعلى البرق فلمع وعلى النّور فسطع، وعلى الرّعد فخشع، وأسماؤنا مكتوبة على جبهة إسرافيل الذي جناحه في المشرق والمغرب وهو يقول: سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والرّوح.

ثمّ قال عليه السلام لنا: اغمضوا أعينكم فغمضنا ثمّ قال عليه السلام: افتحوها ففتحنا فإذا نحن بمدينة لم نر أكبر منها وإذا الأسواق بائرة وأهلها قوم لم نر أطول منهم خلقاً كلّ واحدة كالنخلة، فقلنا: من هؤلاء القوم فما رأينا أعظم منهم خلقاً؟ قال عليه السلام: هؤلاء قوم عاد وهم كفّار لا يؤمنون بيوم الميعاد وبمحمّد صلى الله عليه وآله، فأحببت أن أرينكم إيّاهم في هذا الموضع ولقد مضيت بقدرة الله تعالى، واقتلعت مدينتهم وهي مدائن الشّرق وأتيتكم بها وأنتم لا تشعرون، وأحببت أن أقاتل بين يديكم.

ثمّ دنا منهم فدعاهم إلى الإيمان فأبوا فحمل عليه السلام عليهم وحملوا عليه ونحن نراهم ولا يرونا فتباعد عنهم ودنا منا فمسح يده عليه السلام على أبداننا وقلوبنا وقال: ثبتوا على الإيمان ثمّ مشى إليهم ودعاهم ثانية إلى الإيمان ونحن نراهم فأبوا ثم زعق زعقة.

قال سلمان: فوالذي نفسي بيده لقد ظننت أن الأرض قد انقلبت والجبال قد تدكدكت ورأيتهم صرعى كأعجاز نخل خاوية قال: لا أضعف إيمانكم.

قال لنا: أتحبّون أن أرينكم ما هو أعجب من هذا؟ فقلنا: يا أمير المؤمنين ما لنا قوّة والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فعلى من لا يؤمن بك لعنة الله ولعنة الملائكة والنّاس أجمعين.

ثمّ صاح عليه السلام بالغمامة، فإذا هي قد أقبلت فقال: اجلسوا على السحابة فجلسنا وجلس هو على الأخرى ثمّ تكلّم بما لم نفهمه فما استتم كلامه حتّى طارت بنا في الهواء، ثمّ رفعتنا حتى رأينا الدنيا مثل دور الدراهم ثمّ حططنا دار أمير المؤمنين علي عليه السلام في أقلّ من طرفة عين وأنزلنا والمؤذن يؤذّن للظهر وكنا مضينا عند طلوع الشمس، فقلنا: هذا هو العجب كنّا في قاف وقطعنا ورجعنا في خمس ساعات، فقال أمير المؤمنين: لو أردت أطوف بكم الدّنيا وجميع السماوات والأرض في أقل من مدّ البصر لفعلت بقدرة الله تعالى وجلاله وبركة رسوله صلى الله عليه وآله وأنا وصيّه ولكن أكثر النّاس لا يعلمون.

فقال سلمان: قلنا: لعن الله من جحدك وغصب حقّك وضاعف عليهم العذاب الأليم وجعلنا ممن لا يفارق منك ساعة في الدّنيا والآخرة بمحمّد وآله عليهم السّلام.

أقول: ورواه المحدث العلاّمة المجلسي طاب ثراه في المجلد السابع من «البحار» من كتاب «المختصر»[1] للشيخ حسن بن سليمان من كتاب «منهج التحقيق إلى سوء الطريق» لبعض علماء الإمامية بإسناده عن سلمان الفارسي نحو ما رويناه وقال بعد ما أورده: أقول: هذا خبر غريب لم نره في «الأصول» التي عندنا ولا نردها ونردّ علمها إليهم عليهم السلام.

ومنها

ما في المجلّد الثّامن من «البحار» من كتاب «المحتضر» عن بعض العلماء في كتابه عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: إنّ أمير المؤمنين كان يخرج في كلّ جمعة ظاهر المدينة ولا يعلم أحد أين يمضي، قال: فبقي على ذلك برهة من الزّمان، فلما كان في بعض الليالي قال عمر بن الخطاب: لا بد من أن أخرج وأبصر أين يمضي عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال: فقعد له عند باب المدينة حتى خرج ومضى على عادته فتبعه عمر وكان كلّما وضع عليّ عليه السلام قدمه في موضع وضع عمر رجله مكانها، فما كان إلا قليلاً حتى وصل إلى بلدة عظيمة ذات نخل وشجر ومياه غزيرة ثمّ أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل إلى حديقة بها ماء جار فتوضأ ووقف بين النخل يصلّي إلى أن مضى من اللّيل أكثره.

وأمّا عمر فإنّه نام فلما قضى أمير المؤمنين عليه السلام وطره من الصّلاة عاد ورجع إلى المدينة حتى وقف خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلّى معه الفجر فانتبه عمر فلم يجد أمير المؤمنين في موضعه فلما أصبح رأى موضعاً لا يعرفه وقوماً لا يعرفهم ولا يعرفونه فوقف على رجل منهم.

فقال له الرجل: من أنت ومن أين أنت؟ فقال عمر: من يثرب مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له الرّجل: يا شيخ تأمل أمرك وأبصر ما تقول فقال: هذا الذي أقوله لك قال الرّجل: متى خرجت من المدينة؟ قال: البارحة قال له: اسكت لا يسمع الناس منك فتقتل أو يقولون: هذا مجنون، فقال: الذي أقول حق.

فقال له الرّجل: حدّثني كيف حالك ومجيئك إلى هٰهنا؟ فقال عمر رضي الله عنه: كان عليّ بن أبي طالب في كلّ ليلة جمعة يخرج من المدينة ولا نعلم أين يمضي فلمّا كان في هذه اللّيلة تبعته وقلت: أريد أن أبصر أين يمضي فوصلنا إلى هٰهنا فوقف يصلي ونمت ولا أدري ما صنع.

فقال له الرّجل: ادخل هذه المدينة وأبصر الناس واقطع أيامك إلى ليلة الجمعة فما لك

---

(١) المحتضر: ٦٦، والبحار: ٣٠/٣٣٣ ح ١٥٧.

أن يحملك إلى الموضع الذي جئت منه إلاّ الرّجل الذي جاء بك، فبيننا وبين المدينة أزيد من مسيرة سنتين فإذا رأينا من يرى المدينة ورأى رسول الله ﷺ نتبرك به ونزوره وفي بعض الأحيان نرى من أتى بك فتقول أنت قد جئتك في بعض ليلة من المدينة.

فدخل عمر إلى المدينة فرأى النّاس كلّهم يلعنون ظالمي أهل بيت محمد ﷺ ويسمونهم بأسمائهم واحداً واحداً وكلّ صاحب صناعة يقول ذلك وهو على صناعته، فلما سمع عمر ذلك ضاقت عليه الأَرض بما رحبت وطالت عليه الأيّام.

حتّى جاء ليلة الجمعة فمضى إلى ذلك المكان فوصل أمير المؤمنين عليه السلام إليه على عادته فكان عمر يترقّبه حتى مضى معظم اللّيل وفرغ من صلاته وهم بالرّجوع فتبعه عمر حتّى وصلا الفجر المدينة، فدخل أمير المؤمنين عليه السلام المسجد وصلّى خلف رسول الله ﷺ وصلّى عمر أيضاً ثمّ التفت النبيّ إلى عمر فقال: يا عمر أين كنت أسبوعاً لا نراك عندنا فقال عمر: يا رسول الله كان من شأني كذا وكذا وقصّ عليه ما جرى له فقال النبي ﷺ: لا تنس ما شاهدت بنظرك، فلمّا سأله من سأله عن ذلك فقال: نفذ فيّ سحر بني هاشم[1].

قال المجلسي (ره) أقول: هذا حديث غريب لم أره إلاّ في الكتاب المذكور، هذا.

وغرائب شؤوناتهم عليهم السلام متجاوزة عن حد الإحصاء ولو أردت ذكر يسير من كثير لصار كتاباً كبير الحجم وفيما أوردته كفاية للمستبصر وهداية للمهتدي، والله العالم الخبير بمقامات حججه وأوليائه الكرام عليهم الصّلاة والسّلام.

(١) المحتضر: ٦٨، وبحار الأنوار: ٣٠/ ٣٣٥.

الترجمة

پس كدام راه مى رويد اى مردمان گمراه؟ و كجا بازگردانيده مى شويد اى خلق تباه؟ وحال آنكه علامات هدايت برپا است و آيات قدرت روشن و هويدا است و مناره هاى بلندپايه به جهت هدايت مركوز و منصوب است. پس كجا حيران گردانيده مى شويد در تباهى؟ بلكه چگونه متردّد مى باشيد در گمراهى؟ و حال آنكه در ميان شما است اهل بيت پيغمبر شما و ايشان زمام هاى حق اند و زبان هاى صدق، پس نازل نماييد ايشان را در نيكوترين منزل هاى قرآن و وارد شويد به ايشان مثل وارد شدن شتران عطشان به آب فرات و روان.

اى مردمان اخذ نمائيد اين روايت را از حضرت خاتم الانبياء عليه التحية والثناء: به درستى كه مى ميرد كسى كه مرد از ما و حال آنكه مرده نيست به حقيقت و مى پوسد آنكه پوسيده از ما و حال آنكه پوسيده نيست در واقع، پس قائل نشويد به چيزى كه معرفت نداريد به آن، زيرا كه اكثر حق در آن چيزى است كه شما انكار مى نماييد آن را و معذور داريد شخصى را كه حجت نيست شما را بر او و منم آن شخص.

آيا عمل نكردم در ميان شما به بار گران بزرگتر كه عبارت است از قرآن؟ و آيا نگذاشتم در ميان شما بار گران كوچكتر كه عبارت است از عترت سيّدالبشر؟ و مركوز ساختم در ميان شما رايت ايمان و اسلام را و واقف گردانيدم شما را به حدود حلال و حرام و پوشانيدم به شما لباس عافيت را از عدل و انصاف خود و گسترانيدم از براى شما بساط امر معروف را از گفتار و كردار خود و بنمودم به شما خلق هاى پسنديده از نفس خود، پس استعمال نكنيد رأى هاى خود را در آنچه كه درك نمى نمايد نهايت آن را بصر و سرعت نمى تواند كند به سوى آن فكرهاى ارباب فكر و نظر و آن عبارت است از مقامات نورانيّه ائمه أنام عليهم الصلاة و السّلام.

الفصل الرابع

منها حَتّى يَظُنَّ الظّانُ إنَّ الدُّنْيا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَني أُمَيَّةَ، تَمْنَحُهُمْ دَرَّها، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَها، وَلاَ يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلاَ سَيْفُها، وَكَذِبَ الظّانُّ لِذلِكَ، بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِن لَذيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَها بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَها جُمْلَةً[١].

اللغة

(عقلت) البعير عقلاً من باب ضرب حبسته بعقال و**(منح)** زيد عمراً يمنح من باب منع أعطاه ومنه المنحة بالكسر وهي الشاة أو النّاقة المعادة للبنها و**(الدّر)** في الأصل اللّبن ثمّ استعمل في كلّ خير ونفع ومنه قولهم: لله درّه و**(مجّ)** الشراب من فيه مجّاً قذفه ورماه وانمجّت نقطة من القلم ترششت، والمجّة في النسخ بفتح **(الميم)** والأنسب أن يكون بالضمّ وهو على ما في «القاموس» نقط العسل على الحجارة و**(البرهة)** مدّة من الزّمان لها طول.

الإعراب

(حتّى) لانتهاء الغاية وقد حذف المغيا وترك ذكره في الكتاب، **(والواو)** في قوله: **(وكذب الظّان)** حالية، وجملة **(يتطعّمونها)** في محل الرفع صفة لمجّة.

المعنى

اعلم أن المستفاد من شرح المعتزلي أنّ هذه الخطبة ملتقطة من خطبة طويلة حذف السّيد منها كثيراً ولم أعثر بعد على تمامها، وهذا الفصل من جملة أخباره الغيبية مسوق لبيان حال بني أميّة وابتلاء الخلق بهم، ولعل ما قبل هذا الفصل أنّه:

يليكم ولاة يتمادون في الطّغيان والغفلة، ويكون النّاس بهم في طول عناء وشدّة **(حتى يظنّ الظانّ أنّ الدّنيا معقولة على بني أمية)** أي محبوسة في أيديهم لا تتجاوز عنهم إلى غيرهم كالناقة المحبوسة بالعقال **(تمنحهم درّها وتوردهم صفوها)** أي تعطيهم منفعتها وتبذل لهم صافي فوائدها كما أن المنحة تعطي لبنها لحالبها وتبذله له **(ولا يرفع عن هذه الأمة سوطها ولا سيفها)** أي لا يرفع عن الأمّة عذاب الدّنيا بهم وتجوز بلفظ السوط والسّيف عن القتل والاستئصال والعذاب لكونهما آلتين لهما **(وكذب الظان لذلك)** في ظنه وزعمه **(بل هي مجّة**

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/٥٤٨ ح ٥٠، ينابيع المودة لذوي القربى: ٣/ ٤٣٣.

من لذيذ العيش) أي حقيرة قليلة كالريقة التي تمجّ من الفم **(يتطعّمونها برهة)** من الزمان ويلتذون بها مدّة ملكهم وإمارتهم **(ثمّ يلفظونها جملة)** أي يرمونها بكلّيتها وهو كناية عن زوالها عنهم بالمرّة.

أقول: وقد كان الأمر على ما أخبر به الإمام عليه السلام فإن بني أميّة قد تسلّطوا على العباد، وتملكوا البلاد، ونهبوا الأموال، وقتلوا الرّجال، وأراقوا دماء الشّيعة بكلّ بلدة، وقطعوا الأيدي والأرجل على الظنّة، ولم يخرج عليهم خارج إلا وظفروا عليه وقهروه، ولم يقم لإزالة ملكهم قائم إلاّ وغلبوا عليه وقتلوه، حتّى ظنّ الناس أن الدّنيا معقولة عليهم، وسلطنتها دائمة في حقّهم، فأذن الله في هلاكهم وأراد زوال ملكهم فاختلفت كلمتهم وتضعضع أمرهم فزالت دولتهم:

﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقد كانت مدّة ملك السّلطنة ألف شهر على ما أخبر الله به نبيّه صلى الله عليه وآله.

كما قال الصّادق عليه السلام في رواية «الكافي»: أري رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه أن بني أميّة يصعدون على منبره من بعده ويضلّون النّاس عن الصراط القهقري فأصبح كئيباً حزيناً قال: يا جبرئيل إنّي رأيت بني أميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري يضلّون الناس عن الصّراط القهقري، فقال: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً إني ما اطلعت فعرج إلى السّماء، فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يونسه بها:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] وأنزل عليه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ١-٣].

ملك بني أميّة[1].

وبمعناه أخبار أخرى.

(١) الكافي: ٤/١٥٩ ح ١٠، وبحار الأنوار: ٢٨/٧٧ ح ٣٦.

الترجمة

این فصل متضمن اخبار از ابتلاء اهل روزگار به بنی امیّه کج رفتار و زوال ملك از آن طایفه بدکردار است، می فرماید:

تا اینکه گمان می کند گمان کننده اینکه دنیا محبوس است و مربوط به بنی امیه در حالتی که می دهد به ایشان منفعت خود را و وارد می کند ایشان را به آب صافی خود و رفع نمی شود از این امت تازیانه دنیا و نه شمشیر آن و حال آنکه دروغ گفت گمان برنده آن؛ یعنی ظن او به دوام دولت بنی امیّه فاسد است، بلکه آن دولت ایشان چیز قلیل و حقیری است از لذت زندگانی به منزله آبی که از دهن می اندازند، ملتذ می شوند با آن زمانی، پس بیندازند آن را بالمرّه چون انداختن لقمه از دهان و این کنایه است از زوال ملك ایشان بالكلّیه.

ومن خطبة له عليه السلام وهي السابعة والثمانون من المختار في باب الخطب

وهي مرويّة في كتاب «الرّوضة» من «الكافي» باختلاف كثير تطلع عليه إن شاء الله بعد الفراغ من شرح ما أورده السيد (ره) في الكتاب وهو قوله عليه السلام:

أمّا بَعد فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقْصِمْ جَبّاري دَهْرٍ قَطُّ إلاّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ ورَخاءٍ، وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ إلاّ بَعْد أَزْلٍ وَبَلاءٍ، وفي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ، وَاسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ، وما كُلُّ ذي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ، وَلاَ كُلُّ ذي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ، وَلا كُلُّ ذي ناظِرٍ بَصير، فَيا عَجَباً وَمَا لِي لا أَعْجَبُ مِنْ خَطَأ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَىٰ اخْتِلاَفِ حُجَجِها في دِينِها، لا يَقْتَصون أَثَرَ نَبِيٍّ، وَلاَ يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ، لاَ يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، وَلاَ يَعْفُونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ في الشُّبُهاتِ، وَيَسيرُونَ في الشَّهَواتِ، الْمعرُوفُ فيهِمْ ما عَرَفُوا، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ ما أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ في الْمُعْضَلاتِ إلىٰ أَنْفُسِهِمْ، وتَعْوِيلُهُمْ في الْمُبْهَماتِ عَلىٰ آرائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ إمامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فيما يَرىٰ بِعُرىً وَثِقاتٍ وأَسْبابٍ مُحْكَماتٍ[١].

اللغة

(**قصمه**) يقصمه من باب ضرب كسره وأبانه أو كسره وإن لم يبن و(**الجبار**) كلّ عات و(**مهله**) تمهيلاً أجله و(**رخى**) العيش ورخو (**بالياء**) (**والواو**) رخاوة من باب تعب وقرب إذا اتّسع فهو رخيّ على وزن فعيل والرّخا اسم منه، وفي بعض النسخ الإرجاء (**بالجيم**) من باب الأفعال وهو التّأخير فيكون عطفه على التّمهيل من باب التوضيح والتّفسير و(**جبرت**) العظم جبراً من باب قتل أصلحته و(**الأزل**) الضّيق والشدّة و(**العتب**) بالسّكون الموحدة ويروى بفتح (**التاء**) وهو الشّدة والأمر الكريه و(**الخطب**) الأمر المعظم كما في قوله: فما خطبك يا سامري، ويروى من خصب (**بالصاد**) المهملة وهو السّعة ورخاء العيش.

وفي بعض النسخ استقبلتم من خطب واستدبرتم من عتب، وفي بعض النسخ فياعجبي بالإضافة إلى (ياء) المتكلم (**يقتصون**) وما بعده من الأفعال في بعض النسخ بصيغة المذكر باعتبار المعنى وفي بعضها بصيغة التأنيث باعتبار ملاحظة لفظ الفرقة وعود الضمير فيها إليها و(**عفّ**) يعف من باب ضرب عفّاً وعفافاً وعفافة بفتحهن وعفة بالكسر فهو عف وعفيف كفّ عما لا يحلّ وامتنع منه.

(١) الأصول الأصلية: ١٢٢، عيون الحكم والمواعظ: ٣٦١.

وفي بعض النسخ يعفون بسكون (**العين**) والتخفيف من العفو وهو الصفح وترك عقوبة المستحق و(**المعضلات**) في النسخ بفتح الضاد وكذلك في الخطبة السابقة والمضبوط في «القاموس» و«الأوقيانوس» بصيغة الفاعل وهي الشدائد من أعضل الأمر إذا اشتد و(**العرى**) جمع العروة كمدية ومدى وهو ما يستمسك به الشيء ومنه عروة الكوز لمقبضه وإذنه و(**السبب**) الحبل وما يتوصل به إلى الاستعلاء[١] ثمّ استعير لكلّ شيء يتوصلّ به إلى أمر من الأمور.

الإعراب

(**قطّ**) من ظروف الزّمان ومعناه الوقت الماضي عموماً ولا يستعمل إلاّ بمعنى أبداً والغالب استعماله في الماضي المنفيّ وقد يستعمل بدون النّفي لفظاً ومعنى، نحو كنت أراه قطّ أي دائماً وقد استعمل بدونه لفظاً لا معنى، نحو هل رأيت الذّئب قطّ وهو مبنيّ لأن بعض لغاته على وضع الحروف وبنائه على الضّم حملاً على أخيه عوض لأن عوض للمستقبل المنفي وهو للماضي المنفي وبني عوض على الضمّ لانقطاعه عن الإضافة كقبل وبعد.

قال الرّضي: الأولى أن يقال بنى لتضمنه لام الاستغراق لزوماً لاستغراقه جميع الماضي بخلاف أبداً فليس الاستغراق لازماً لمعناه، ألا ترى إلى قولهم: طال الأَبد على أبد، (**ودون**) ظرف مبني على الفتح يقال: هذا دون ذلك أي أقرب منه، ومنه المثل دونه خرط القتاد، (**وعجباً**) إما منصوب على النّداء والتنوين عوض عن المضاف إليه أي يا عجبي أحضر، أو منتصب على المصدر أي يا نفس أعجب عجباً، (**وما**) استفهامية (**ومن خطأ**) إما متعلّق بعجباً أو أعجب على سبيل التنازع، وعلى اختلاف إما بمعنى (**اللام**) كما في قوله:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فتكون علّة للخطأ، وإمّا بمعنى (**مع**) كما في قوله تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨].

بناء على عود الضّمير في حبّه إلى الطعام دون الله سبحانه، ويحتمل أن يكون للاستعلاء المجازي والمتعلّق محذوف والتقدير من (**خطأ هذه الفرق**) مبنيّاً على اختلاف حججها، (**وفي دينها**) متعلّق بالخطأ، وجملة (**لا يقتصّون**) استئناف بيانيّ مسوق لبيان جهة الخطأ أو جهة الاختلاف على سبيل منع الخلو، فافهم جيّداً، وتحتمل الحالية والأوّل أظهر، (**وكانّ كلّ امرء**) من حروف المشبّهة وفي بعض النسّخ بحذفها وإسقاطها، قال الشّارح المعتزلي وهو

---

(١) في نسخة: الغير.

حسن أقول: بل إثباتها أحسن ويظهر وجهه بالتأمّل.

المعنى

اعلم أن مقصوده عليه السلام بهذه الخطبة توبيخ النّاس وذمّهم على اختلافهم في الدّين وعدولهم عن الإمام المبين واستبدادهم بالآراء واعتمادهم على الأهواء فمهد عليه السلام أوّلاً مقدّمة متضمّنة للتّخويف والتّحذير والتّنبيه والتّذكير وقال:

(أمّا بعد) حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله وآله (فإن) عادة (الله سبحانه) قد جرت في القرون الخالية والأمم الماضية على أنّه (لم يقصم جبّاري دهر قط) ولم يكسر عظام أحد منهم ولم يهلكهم (إلاّ بعد تمهيل ورخاء) أفلم تر أولاد سبأ فلقد آتاهم الله سوابغ الآلاء وروافغ النّعماء وكان لهم في مسكنهم جنّتان.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا﴾ [سبأ: ١٥].

فأرسل عليهم سيل العرم ومزّقهم بما كفروا كلّ ممزق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

أولم تر إلى شدّاد بن عاد كيف بنى:

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ٧-١٠].

الذي طغى في البلاد، ومن حذا حذوهما ممّن ملك الرّقاب وتسلّط على العباد فأكثر فيهم الفساد.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

ومقصوده عليه السلام بهذا الكلام إنذار من قصده بالأفهام من أهل زمانه وتحذيرهم من الانغماس في الغفلة والافتتان بالرخاء والدّعة والاغترار ببضاضة الشّباب وغضارة الصّحة كي لا يلحقهم ما لحق من قبلهم ولا يأخذهم ربّهم بسوء فعلهم فيكونوا عبرة لمن بعدهم (ولم يجبر عظم أحد من الأمم) ولم يظهرهم على عدوّهم (إلا بعد أزل وبلاء) وضيق وعناء.

وتصديق ذلك في الأمم الماضية بما وقع لبني إسرائيل من فرعون حيث جعلهم في الأرض شيعاً يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم وفيه بلاء مبين فلما تمّت البليّة وعظمت الرزية جبر الله كسرهم وشدّ أزرهم وأغرق فرعون وجنوده أجمعين ومنّ على الذين استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين.

وفي الأمة المرحومة بما وقع يوم الأحزاب عند اجتماع العرب الأتراب إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً وقالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً وقال المنافقون: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً فلما ابتلوا بذاك وأيقنوا بالقتل والهلاك أنعم الله عليهم وأعانهم بريح وجنودٍ لم يروها وكان الله قوياً عزيزاً.

وفي هذا الكلام تنبيه على الثبات والصبر ورجاء الظّفر والصبر وعدم اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله عند ضيق المسالك والتقحم في المهالك، هذا.

ويحتمل أن يكون مقصوده عليه السلام بالفقرة الأولى أعني قوله: **(لم يقصم جبّاري دهر) (اه)** الإشارة إلى مآل حال معاوية وأمثاله من جبابرة دهره عليه السلام والباغين عليه من طلحة والزّبير ومن حذا حذوهما من العتاة، والتنبيه على أن الله يقصم ظهرهم ويكسر صولتهم ويسلبهم ملكهم ودولتهم وإن طالت مدّتهم وشوكتهم كما قال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

وبالفقرة الثانية أعني قوله: **(ولم يجبر عظم أحد) (اه)** تسلّي هم أصحابه وكآبتهم بالوهن والضعف والضّنك والضّيق الذي أصابهم من المتخلفين ومعاوية وأصحابه رضي الله عنهم وحثّهم على الاتفاق والائتلاف وتحذيرهم من التّفرق والاختلاف، إذ في الاجتماع رجاء النّصرة والاختلاف مظنة المغلوبية.

ويؤيد هذا الاحتمال في الفقرتين ويعاضده التّأمل في سائر فقرات الخطبة على رواية الرّوضة الآتية **(وفي دون ما استقبلتم من عتب واستدبرتم من خطب معتبر)** يحتمل أن يكون المراد بالعتب الذي استقبلوه عتابه عليه السلام وموجدته عليهم بتشتّت الآراء وتفرّق الأهواء، وهو على رواية العتب بسكون **(التاء)**، وبالخطب الذي استدبروه الأمور المعظمة والملاحم التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يوم السّقيفة ويوم الشورى ويوم الدّار وأن يكون المراد بالعتب الشدائد والكراية التي أصابتهم من المتخلّفين وهو على رواية العتب بفتح **(التاء)** وبالخطب الأَهوال التي كانوا يرونها من المشركين في بدء الإسلام حيث كانوا قليلين وكان المشركون كثيرين فأيّدهم الله بنصره بالتأليف بين قلوب المؤمنين وأظهرهم على الكافرين.

(و) كيف كان فهو عليه السلام يقول: **(إن فيما استقبلتم واستدبرتم من الأمور المفيدة للاتّعاظ والاعتبار لعبرة لأولي الفهم والعقل والذكاء، وموعظة لذوي الأبصار والأسماع)**، وإنما يتذكر أولو الألباب، ويعتبر السّميع البصير المميّز للقشر من اللّباب، لأنهم المنتفعون بالعبر

والحائزون قصب السّبق في مضمار الاعتبار بصحيح النّظر إذ (**ما كلّ ذي قلب بلبيب ولا كلّ ذي سمع بسميع ولا كلّ ذي ناظر ببصير**) فربّ قوم لهم أرجل لا يمشون بها، ولهم أيد لا يبطشون بها، ولهم عقول لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، وفي ذلك تحريض على الاتّعاظ والاعتبار وترغيب في الازدجار والادّكار.

(**فيا عجباً وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها**) وأدلتها (**في دينها**) تعجّب عليه السلام من اختلاف الفرق وأخطائهم في الدين وافتراقهم في شرع سيّد المرسلين اعتماداً منهم على أدلتهم المتشتّتة وحججهم المختلفة، واتّكالاً على أصولهم التي أصّلوها وقواعدهم التي فصّلوها، واستبداداً منهم بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة:

وبيّن عليه السلام جهة الخطأ والاختلاف بأنهم (لا يقتصّون أثر نبيّ) لأنّهم لو اقتصوه واتّبعوه لما اختلفوا إذ ما جاء به النّبي صلى الله عليه وآله واحد وشرعه واحد وكتابه واحد فلو اقتفوه لاتّفقوا وأصابوا حسبما مرّ توضيحه في الكلام الثّامن عشر وشرحه (ولا يقتدون بعمل وصيّ) إذ الوصيّ مقتد في عمله بالنّبي صلى الله عليه وآله فلو اقتدوا به لكانوا مقتدين بالنّبيّ وبه مهتدين ولم يكن هناك اختلاف وخطأ حسبما عرفت آنفاً وحيث اختلفوا علم أنّهم كانوا تاركين أثره غير مقتدين عمله.

ويوضح ذلك ما في «غاية المرام» من «أمالي الشّيخ» مسنداً عن المجاشعي عن الرّضا عن آبائه عليهم السلام قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول لرأس اليهود: على كم افترقتم؟ فقال: على كذا وكذا فرقة، فقال عليّ عليه السلام: كذبت، ثمّ أقبل على الناس وقال: والله لو ثنّيت لي الوسادة لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل القرآن بقرآنهم، افترقت اليهود على أحد وسبعين فرقة سبعون منها في النّار وواحدة ناجية في الجنة وهي التي اتّبعت يوشع بن نون وصيّ موسى، وافترقت النّصارى على اثنتين وسبعين فرقة إحدى وسبعون فرقة في النّار وواحدة في الجنة وهي التي اتبعت شمعون وصيّ عيسى (ع)، وتفترق هذه الأمّة على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنّة وهي الّتي اتّبعت وصيّ محمّد صلى الله عليه وآله وضرب بيده على صدره ثمّ قال عليه السلام: ثلاث عشرة فرقة من الثلاث وسبعين فرقة كلّها تنتحل مودّتي وحبّي واحدة منها في الجنّة وهم النمط الأوسط واثنتا عشرة في النار[1].

و(لا يؤمنون بغيب) المراد بالغيب إما القرآن الذي يصدّق بعضه بعضاً.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وإمّا مطلق ما غاب من الحواس من توحيد الله ونبوّة الأنبياء وولاية الأوصياء والرجعة

(١) الأمالي: ٥٢٤، والاحتجاج: ١/٣٩٢.

والبعث والحساب والجنّة والنّار وسائر الأمور التي يلزم الإيمان بها ممّا لا يعرف بالمشاهدة وإنّما يعرف بالبراهين والأدلة التي نصبها الله عليه، وعلى أيّ تقدير فانتفاء الإيمان بالغيب أيضاً من أسباب اختلاف الفرق وجهات أخطائها في المذاهب إذ لو كانوا يؤمنون بالغيب وبه مذعنين لكانوا مهتدين إلى الحق والصّواب في كلّ باب فإن:

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] و﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢-٣].

(ولا يعفون عن عيب) إذ ملكه العفاف والوقوف عند المحرّمات والشّبهات مانعة عن الاستبداد بالآراء التي نشأت منها الفرقة والاختلاف موجبة للفحص عن الحق والاهتداء إلى صوب الصّواب، وحيث لم يكن لهم عفاف وحائطة في الدين لم يبالوا في أيّ واد يهيمون، وعلى رواية لا يعفون بالتخفيف، فالمراد به عدم العفو عن عيوب النّاس، وعلى هذه الرّواية فهو من فروعات الخطأ في الدّين إذ العفو عن عيوب المذنبين من صفات المتّقين والمصيبين من المؤمنين كما شهد به الكتاب المبين:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

(يعملون في الشّبهات) أي لا يقفون في ما اشتبه عليهم أمره ولا يبحثون عن وجه الحق فيه بل يعملون فيه بما أدّى هواهم اليه وإليه الإشارة في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: ٢٧] وفي قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

روى في «الوسائل» من تفسير عليّ بن إبراهيم عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية الأولى قال عليه السلام: هؤلاء أهل البدع والشّبهات والشّهوات يسود الله وجوههم يوم يلقونه[1].

وعنه عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية الثّانية قال: هم النّصارى والقسّيسون والرّهبان وأهل الشّبهات والأهواء من أهل القبلة والحرورية وأهل البدع[2].

(١) وسائل الشيعة: ٢٧/ ١٧٢ ح ٣٣٥٢٢، تفسير القمي: ١/ ٣١١.
(٢) وسائل الشيعة: ١٨/ ١٢٦ ح ٣٣٥٠٠، بحار الأنوار: ٢/ ٢٩٨ ح ٢٣.

(ويسيرون في الشّهوات) لما لاحظ عليه السلام ميل طباعهم إلى اللّذات الدّنيوية وانهماكهم في الشّهوات النفسانية قاطعين مراحل الأوقات بالتّلذذ بتلك اللّذات والشّهوات لا جرم جعل الشّهوات بمنزلة طرق مسلوكة وجعل اشتغالهم بها بمنزلة السّير في تلك الطرق (المعروف فيهم ما عرفوه) بعقولهم الفاسدة وإن لم يكن معروفاً في الشريعة (والمنكر عندهم ما أنكروا) بآرائهم الكاسدة وإن لم يكن منكراً في الحقيقة (مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم) دون الأئمة الذين يهدون بالحق وبه يعدلون (وتعويلهم في المبهمات على آرائهم) دون أهل الذكر الذين أمر بسؤالهم بقوله:

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(كان كلّ امرىء منهم إمام نفسه) وكأنّ دليل كلّ واحد منهم رأيه وهواه **(قد أخذ منها فيما يرى)** ويظنّ **(بعرى وثقات)** لا انفصام لها **(وأسباب محكمات)** لا يضل من تمسّك بها وإنّما مثلهم في ذلك:

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

تكملة

هذه الخطبة مرويّة في كتاب «الرّوضة» باختلاف كثير عن أحمد بن محمّد الكوفي عن جعفر بن عبد الله المحمّدي عن أبي روح فرج بن قرة عن جعفر بن عبد الله عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بالمدينة فحمد الله فأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال عليه السلام:

أمّا بعد، فإنّ الله تبارك وتعالى لم يقصم جبّاري دهر إلاّ من بعد تمهيل ورخاءٍ، ولم يجبر كسر عظم من الأمم إلاّ بعد أزل وبلاء، أيها النّاس في دون ما استقبلتم من خطب واستدبرتم من خطب معتبر، وما كلّ ذي قلب بلبيب، ولا كلّ ذي سمع بسميع، ولا كلّ ذي ناظر عين ببصير.

عباد الله أحسنوا فيما يعنيكم النّظر فيه ثمّ انظروا إلى عرصات من قد أفاده الله بعلمه كانوا على سنّة من آل فرعون أهل جنّات وعيون وزروع ومقام كريم، ثمّ انظروا بما ختم الله لهم من النّضرة والسّرور والأمر والنّهي ولمن صبر منكم العاقبة في الجنان والله مخلّدون ولله عاقبة الأمور.

فيا عجباً وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها لا

يقتفون أثر نبيّ ولا يقتدون بعمل وصيّ ولا يؤمنون بغيب ولا يعفون عن عيب، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، وكلّ امرئ منهم إمام نفسه وأخذ منها فيما يرى بعرى وثيقات وأسباب محكمات فلا يزالون بجور ولم[1] يزدادوا إلاّ خطأ لا ينالون تقرّباً ولن يزدادوا إلاّ بعداً من الله عزّ وجلّ أنس بعضهم ببعض وتصديق بعضهم لبعض، كلّ ذلك وحشة مما ورّث النّبيّ الأميّ ﷺ ونفوراً ممّا أدّى إليهم من أخبار فاطر السّماوات والأرض.

أهل حسرات وكهوف وشبهات، وأهل عشوات وضلالة وريبة، من وكله الله إلى نفسه ورأيه فهو مأمون عند من يجهله غير المتّهم عند من لا يعرفه، فما أشبه هؤلاء بأنعام قد غاب عنها رعاؤها.

وواأسفاً من فعلات شيعتي من بعد قرب مودّتها اليوم كيف يستذلّ بعدي بعضها بعضاً، وكيف يقتل بعضها بعضاً، المتشتّتة غداً من الأصل النّازلة بالفرع المؤمّلة الفتح من غير جهة، كلّ حزب منهم آخذ بغصن أينما مال الغصن مال معه.

إنّ الله وله الحمد سيجمع هؤلاءِ لشرّ يوم لبني أميّة كما يجمع قزع الخريف يؤلّف بينهم ثمّ يجعلهم ركاماً كركام السّحاب، ثمّ يفتح لهم أبواباً يسيلون من مستشارهم كسيل الجنتين سيل العرم، حيث بعث عليهم فارة فلم يثبت عليه أكمّة ولم يردّ سننه رض طود يذعذهم الله في بطون أودية ثمّ يسلكهم ينابيع في الأرض يأخذ بهم من قوم حقوق قوم، ويمكّن من قوم لديار قوم، تشريداً لبني أميّة، ولكي لا يغتصبوا ما غصبوا، يضعضع الله بهم ركناً وينقض الله بهم طي الجنادل من أرم ويملأ منهم بطنان الزّيتون.

فوالذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ليكونن ذلك وكأنّي أسمع صهيل خيلهم وطمطمة رجالهم وأيم الله ليذوبنّ ما في أيديهم بعد العلوّ والتّمكين في البلاد كما تذوب الألية على النّار، من مات منهم مات ضالاً والله عزّ وجلّ يقضي منهم من درج ويتوب الله عزّ وجلّ على من تاب، ولعل الله يجمع شيعتي بعد التّشتت لشرّ يوم لهؤلاء، وليس لأحد على الله عزّ ذكره الخيرة بل لله الخيرة والأمر جميعاً.

أيها النّاس إنّ المنتحلين للإمامة من غير أهلها كثير ولو لم تتخاذلوا عن مرّ الحقّ ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يتشجّع عليكم من ليس مثلكم، ولم يقومن قوي عليكم على هضم الطاعة وإزوائها عن أهلها، لكن تهتم كما تاهت بنو إسرائيل على عهد موسى عليه السلام، ولعمري ليضاعفنّ عليكم البتّة بعدي أضعاف ما تاهت بنو إسرائيل.

ولعمري أن لو قد استكملتم من بعدي مدة سلطان بني أميّة لقد اجتمعت على سلطان

---

(١) في نسخة: لن.

الداعي إلى الضّلالة وأحييتم الباطل وخلفتم الحقّ وراء ظهوركم، وقطعتم الأدنى من أهل بدر ووصلتم الأبعد من أبناءِ الحرب لرسول الله.

ولعمري أن لو قد ذاب ما في أيديهم لدنا التمحيص للجزاء وقرب الوعد وانقضت المدة وبدا لكم النجم ذو الذّنب من قبل المشرق، ولاح لكم القمر المنير، فإذا كان ذلك فراجعوا التّوبة واعلموا أنكم إن اتّبعتم طالع المشرق سلك بكم مناهج الرسول ﷺ فتداويتم من العمى والصّمم والبكم، وكفيتم مؤنة الطلب والتعسّف ونبذتم الثقل الفادح من الأعناق، ولا يبعد الله إلاّ من أبى وظلم واعتسف وأخذ ما ليس له[1].

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، هذا.

ورواها المفيد في «الإرشاد» عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام إلى قوله: (**بل لله الخيرة والأمر جميعاً**) باختلاف كثير وزيادات كثيرة على رواية «الروضة»، وروى قوله عليه السلام: (لو لم تتخاذلوا عن نصرة الحق) إلى آخر رواية «الروضة» في ضمن خطبة أخرى رواها عن مسعدة عن أبي عبد الله عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال أنه خطبها بالكوفة وبينها وبين رواية «الروضة» أيضاً اختلاف كثير من أراد الاطلاع، فليراجع «الإرشاد».

توضيح

(**العرصات**) جمع العرصة وهي كلّ بقعة من الدّور واسعة ليس فيها بناء (**أفاده الله بعلمه**) في بعض النسخ (**بالفاء**) من أفدت المال أعطيته وفي بعضها (**بالقاف**) من أقاده خيلاً أعطاه ليقودها ولعلّ المعنى أنه أعطاه الله زينة الحياة الدنيا مع علمه بحاله بحسب اقتضاء حكمته ومقتضى عدالته كما قال في سورة هود عليه السلام:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٥-١٦] الآية.

والمراد بمن أفاده الله هو المتخلفون الغاصبون للخلافة، وفي رواية «الإرشاد» أباده بدل أفاده وهو الأنسب وعليه فالضّمير في (**بعلمه**) راجع إلى من أي كان علمه سبباً للهلاكة (**والسنة**) الطريقة أي كانوا على طريقة من طرائق آل فرعون و(**أهل جنات**) بالكسر عطف بيان لآل فرعون.

وقوله: (**في الجنان**) متعلّق بقوله: مخلّدون، والقسم معترض بين الظرف ومتعلّقه (**فلا**

---

(١) الكافي: ٨/٦٦، شرح أصول الكافي: ١١/٤٠٤.

يزالون بجور) **(الباء)** امّا بمعنى **(في)** أو للمصاحبة والملابسة **(كلّ ذلك)** بالنّصب مفعول به للفعل المحذوف و**(وحشةً)** مفعول له أي ارتكبوا كلّ ذلك وحشة.

والمراد بما ورث النّبي ﷺ ما ورثه آله المعصومين من الخلافة والولاية **(والفاطر)** المخترع **(أهل حسرات)** خبر محذوف المبتدأ أي هم أهل حسرات في الآخرة و**(الكهوف)** جمع كهف وهو الغار الواسع في الجبل، وفي بعض النسخ كفوف شبهات وهو جمع كف والكلام جار على الاستعارة والنّاقة **(العشواء)** لا تبصر أمامها و**(من وكله الله)** مبتدأ وخبره **(فهو مأمون)** ووكله إلى نفسه تركه إليها، وفي هذا كلّه تعريض على الخلفاء كما لا يخفى **(والرّعا)** بكسر **(الرّاء)** جمع الرّاعي و**(الفعلات)** جمع الفعلة وهي العادة **(المتشتّتة)** إما بالجر صفة لشيعتي وإمّا بالرّفع على أنّه خبر مبتدؤه أي هم المتشتّتة.

ولعلّ المراد بتشتّتهم عن الأَصل وبنزولهم بالفرع ما صدر من بعض الشيعة كالزّيدية والأفطحية والإسماعيلية ونحوهم حيث عدلوا عن الإمام الأصل وتعلّقوا بالفرع وأملوا الفتح من غير جهة فأخطأوا و**(القزع)** محركة قطع من السحاب والواحدة قزعة و**(الرّكام)** الأوّل بالضّم من الرّكم وهو جمع شيء فوق آخر، والثّاني بالفتح وهو السحاب المتراكم و**(المستثار)** محل الاستثارة من الثور وهو الهيجان والوثوب ونهوض القطا والجراد.

و**(سيل العرم)** جمع عرمة كفرحة وهو سدّ يعترض به الوادي جمع عرم أو هو جمع بلا واحداً وهو الإحباس تبني في البادية الأودية والجرذ الذكر والمطر الشّديد وواد وبكلّ فسر قوله تعالى سيل العرم و**(الأكمة)** كالقصبة التل الصّغيرة و**(لم يردّ سننه)** من سنّ الماء صبّها أو من سنّ الطريقة سارها و**(الرض)** هنا الحجارة و**(الطّود)** الجبل أو عظيمه و**(ذعذع)** المال وغيره فرّقه وبدّده و**(ضعضعه)** هدمه حتّى الأَرض و**(ينقض الله)** من النقض **(بالضاد)** المعجمة.

ولعلّه عليه السلام كنّى بـ **(طي الجنادل من أرم)** القصور والبساتين المشرفة المطويّة بالحجارات المسنّدة التي كانت لبني أميّة و**(بطنان الزيتون)** كناية عن الشّام كما في قوله تعالى: والتّين والزّيتون و**(الطمطمة)** العجمة في اللّسان و**(درج)** يدرج من باب قعد وسمع درجاً ودروجاً مشى و**(المنتحلين للإمامة)** المدّعين لها لنفسه وهو لغيره و**(من غير أهلها)** بيان للمنتحلين و**(إزوائها عن أهلها)** أي صرفها وطيّها عنه و**(التمحيص)** **(بالصاد)** المهملة الابتلاء.

واعلم أنّ هذه الخطبة الشّريفة متضمّنة لجملة من الأَخبار الغيبيّة وفقراتها الأَخيرة من قبيل المتشابهات وعلمها موكول إليهم **(عليهم السلام)** إذ أهل البيت أدرى بما فيه إلاّ أنا نورد في تفسيرها على سبيل الاحتمال ما أورده الخليل القزويني في شرحه على «الروضة» بتغيير يسير منّا، فأقول:

لعلّ مراده عليه السلام بقوله: **(مع أن الله وله الحمد)** - **(١٥)** أنّه سبحانه يجمع هذه الفرق

المختلفة على اختلافهم لاستئصال بني أميّة وهو شرّ يوم لهم وقد كان ذلك في سنة اثنتين وثلاثين ومائة حسبما أخبر عليه السلام به حيث انقرضت سلطنة بني أميّة لظهور دولة العبّاسيّة واجتماع الجنود من خراسان على أبي مسلم المروزيّ لكن دفعوا الفاسد بالأفسد.

وشبّه عليه السلام اجتماعهم باجتماع سحاب الخريف المتراكم يقول عليه السلام: (**إنّ الله يفتح لهم بعد اجتماعهم أبواباً يهيجون من مكانهم**)، كسيل الجنّتين اللّتين كانتا لأولاد سبأ، وهو سيل العرم حيث بعث الله الجرذ وهو الفأرة الكبيرة على السّد الذي كان لهم فقلع الصّخر منهم وخرب السّد فسال الماء وغشيهم السّيل وخرب دور أولاد سبأ وقصورهم وبساتينهم ولم يثبت عليه التّلال ولم تردّه أحجار الجبال.

وكذلك هؤلاء يخرجون على كثرتهم واحتشامهم لاستئصال بني أمية وتخريب الدور والقصور منهم من مستشارهم وهو خراسان وقد وقع ذلك على ما أخبر عليه السلام حيث اجتمع الجيش واتفقوا على أبي مسلم المروزي وجعلوه أميراً لهم وتوجّهوا نحو مروان الحمار وهو آخر خلفاء بني أميّة.

وقوله عليه السلام: (يذعذعهم الله) ـ (ا ه) إشارة إلى تفرّقهم في الأودية وكونهم كتائب مختلفة يسلكون فيها سلوك الينابيع في الأرض وجريانها فيها.

(**يأخذ بهم من قوم حقوق قوم**) (ا ه) أي يأخذ الله ببني العبّاس من بني أميّة حقوق بني هاشم ويقاصّ بهم منهم ويجزيهم بهم جزاء ما ظلموا في حقّ آل محمّد صلى الله عليه وآله وإن لم يصل الحق إليهم ويمكّن بهم (**عليهم السلام**) لقوم من بني العباس في ديار قوم من بني أميّة كلّ ذلك طرداً لبني أميّة وإبعاداً لهم، ولكي لا يغتصبوا ما غصبوا من بني هاشم وبني عباس وغيرهم يهدم الله بهم أركان بني أمية ويكسر بهم قصورهم المسندة المطويّة بالأحجار التي كانت بالشّام ويملأ من جيوشهم بلاد الشّام.

فوالله الفالق الباري إنّ ذلك لكائن لا محالة وكأنّي أسمع أصوات خيولهم وطمطمة رجالهم، أي كلماتهم العجمية وذلك أنّ لسانهم كان لسان العجم.

وقوله عليه السلام: (**وايم الله ليذوبنّ**) (ا ه) بيان لحال بني العبّاس بعد القهر والغلبة يقول عليه السلام: إنّهم بعد العلوّ والتمكّن في البلاد وقوام الأمر وتمام السلطنة ينقرضون ويفنون كما تفنى وتذوب الألية على النّار، وقد كان ذلك في سنة خمسين وستمائة حيث قتل المستعصم وهو آخر خلفاء العباسيّة على يد هولاكو ويحتمل أن يكون إشارة إلى حال بني أمية.

وقوله عليه السلام: (**والله عزّ وجلّ يفضي منهم من درج**)، في النسخ (**بالفاء**) والظاهر أن يكون تحريفاً ويكون (**بالقاف**) أي الله يميت من سعى من بني أمية فيكون كناية عن أن من أراد

الخروج منهم يقتله الله، وفي بعض النسخ وإلى الله يقضي وهو الصحيح أي وإلى الله ينتهي منهم من درج فيكون كناية عن ما ذكرنا وإشارة إلى أن من تاب منهم تاب ضالاً وأمره إلى الله يعذبه كيف يشاء ويتوب على من تاب كمعاوية بن يزيد ونحوه من بني أميّة.

(ولعلّ الله يجمع شيعتي بعد التشتت)، لعلّه إشارة إلى ظهور دولة الحقّة القائميّة ولا يلزم اتّصالها بملكهم.

(وليس لأحد) إلى قوله: **(جميعاً)** إشارة إلى كون هذه الأمور سهلةً بيد الله سبحانه إذ هو القاهر القادر فوق عباده وهو المختار الفعّال لما يشاء ليس لأحد معه الاختيار وهو على كلّ شيء قدير.

وقوله عليه السلام: (أيّها النّاس) (ا ه) إشارة إلى اغتصاب الخلافة وتوبيخ لهم على التثاقل والتخاذل يقول عليه السلام: إن المدّعين للخلافة من الذين لم يكونوا أهلاً لها كثير ولو لم يكن منكم التّخاذل يوم السّقيفة والشورى عن إقامة الحقّ والوهن عن توهين الباطل لم يجسر عليكم أحد ولم يقدر على غلبة الطّاعة وصرفها عن أهلها ولكنكم تحيّرتم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كما تحيّرت بنو إسرائيل على عهد موسى بن عمران عليه السلام وليكوننّ تحيّركم بعدي أضعاف ما تحيّرت بنو إسرائيل.

وقوله: **(لقد اجتمعتم على سلطان الدّاعي إلى الضّلالة)**، أراد به اجتماعهم على بني العبّاس ودعائهم إلى الضّلالة لترويجهم مذهب الزنادقة.

وقطعتم الأدنى من أهل بدر، أراد به أولاده المعصومين **(عليهم السلام)** حيث إن الظّفر في بدر لم يكن إلاّ بأبيهم سلام الله عليهم وكان أقرب النّاس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وكذلك أولاده عليهم السلام.

(ووصلتم الأبعد من أبناء الحرب) (ا ه) أراد به بني العباس حيث أن أباهم كان من جملة المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة بدر ثمّ تاب وأسلم والمراد بقطع الأوّلين ووصل الآخرين أخذهم بني العباس خلفاء لهم دون الأئمة عليهم السلام.

ثمّ قال: **(ولعمري أن لو قد ذاب ما في أيديهم)**، أي أيدي بني أميّة وهو الشام وما والاها وأشار عليه السلام بذوبانها إلى قتل وليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان واختلاف أهل الشام واضطراب دولة بني أميّة وقد كان في السّنة ست وعشرين ومائة وامتدّت سلطنتهم بعد ذلك إلى ستّ سنين بمنتهى التزلزل والاضطراب ولذلك قال عليه السلام: (لدنى التمحيص للجزاء)، أي قرب ابتلاؤهم بجزاء أعمالهم وذلك بقتل الأحياء منهم وإخراج الأموات منهم من القبور كما هو في السّير مشهور وفي الكتب مسطور.

(وانقضت المدّة)، أراد به المدة المقدرة لبني أميّة وكانت ألف شهر.

(وبدا لكم النجم ذو الذّنب)، أراد به أبا مسلم المروزي حيث خرج من خراسان وهو من بلاد المشرق مع جنوده نحو الشّام وتسميته بالنجم لكونه كالنجم يرمى به الشياطين من بني أميّة وتوصيفه بذي الذنب لكون ظهوره لانتصار بني العباس دون آل محمّد سلام الله عليهم.

(ولاح لكم القمر المنير)، أراد به أبا الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه وعلى آبائه آلاف التحيّة والثّناء فقد طلع في المشرق وانتشرت أنوار علمه في الآفاق ثمّ غاب هناك بغدر المأمون.

(فإذا كان ذلك)، أي ذوبان ما في أيديهم أو انقضاء المدة أو طلوع القمر المنير، فراجعوا التوبة.

ثمّ قال عليه السلام: **(واعلموا أنّكم إن اتبعتم طالع المشرق)**، أراد به القمر المنير سلك بكم منهج الطّريقة البيضاء والصّراط المستقيم، فتداويتم من الضّلالة والغواية وكفيتم مؤنة طلب العلم من غير مظانه، وسلمتم من التعسّف والأخذ على غير الطريق المستقيم، ونبذتم ثقل استنباط التكاليف الشّرعية من أعناقكم حيث أنّكم تأخذونها من أهلها فيكفيكم مؤنتها ولا يبعد الله من رحمته إلاّ من أبى من قبول الحق وظلم أهل الحق وأخذ على غير الطريق وانتحل ما ليس له بحقّ.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، هذا.

وبنحو ما قلناه في شرح هذا الحديث الشريف فسّره المحدث العلاّمة المجلسي (ره) في «البحار» إلاّ أنّه خالفنا في شرح الفقرات الأخيرة حيث قال: قوله عليه السلام: **(لو قد ذاب ما في أيديهم)** أي ذهب ملك بني العبّاس، **(لدنى التمحيص للجزاء)** أي قرب قيام القائم عليه السلام وفيه التّمحيص والابتلاء ليجزي الكافرين ويعذّبهم في الدّنيا، **(وقرب الوعد)** أي وعد الفرج، **(وانقضت المدة)** أي قرب انقضاء مدّة أهل الباطل، **(والنجم ذو الذنب)** من علامات ظهور القائم عليه السلام، والمراد بالقمر المنير القائم عليه السلام، وكذا طالع المشرق إذ مكة شرقية بالنسبة إلى المدينة، أو لأنّ اجتماع العساكر إليه عليه السلام وتوجهه إلى فتح البلاد من الكوفة وهي كالشرقية بالنسبة إلى الحرمين ولا يبعد أن يكون ذكر القمر ترشيحاً للاستعارة أي القمر الطّالع من مشرقه.

(والثقل القادح) الديون المثقلة والمظالم أو بيعة أهل الجور وطاعتهم وظلمهم إلاّ من أبى أي من طاعة القائم عليه السلام أو الرّب تعالى، واعتسف أي مال عن طريق الحق إلى غيره أو ظلم على غيره، انتهى كلامه فتكون هذه الفقرات على ما ذكره أيضاً إشارة إلى ظهور دولة الحقة والله العالم.

الترجمة

این خطبه شریفه متضمن توبیخ و مذمت خلق است به جهت اختلاف ایشان در دین و تشتّت آراءشان در احکام شرع مبین و عدول ایشان از تمسك حبل المتین که عبارت است از امام زمان و زمین، می فرماید:

اما بعد از حمد و ثنای الهی و صلوات بر حضرت رسالت پناهی، پس به درستی که خداوند تعالی نشکست هرگز گردن کشان روزگار را مگر بعد از مهلت و وسعت در حیات و اصلاح نفرموده است استخوان شکسته احدی را از امّت های پیغمبران مگر بعد از شدّت و تنگی و امتحان و در نزد آنچه استقبال نمودید از ملامت و عتاب من و استدبار کردید از اهوال و کارهای بزرگ زمن عبرت است صاحب عبرت و بصیرت را و نیست هر صاحب قلب عاقل و دانا و نه هر صاحب گوش سمیع و شنوا و نه هر صاحب نظر بصیر و بینا.

پس ای نفس تعجب کن و چیست مرا که تعجب نکنم از خطای این فرقه های بی ادب بر اختلاف حجت های ایشان در دین و مذهب که متابعت نمی کنند بر اثر خیرالبشر و اقتدا نمی نمایند بر عمل وصی پیغمبر، ایمان نمی آورند به غیب و عفت نمیورزند از گناه و عیب، عمل می کنند در شبهه ها و سیر می نمایند در شهوت ها، معروف در میان ایشان چیزی است که خود شناخته اند او را به میل طبیعت ومنکر نزد ایشان چیزی است که خود انکار کرده اند آن را نه به مقتضای شریعت.

مرجع ایشان در شداید به نفس خودشان است نه بر أئمه و اعتماد ایشان در مبهمات به رأی خودشان است نه به عترت خیرالبشر؛ گویا هر مردی از ایشان امام و مقتدای خودش هست در دین. به تحقیق که تمسك نموده است از نفس خود در چیزی که ظن می کند به بندهای استوار و ریسمان های محکم تاب دار؛ یعنی اعتقادش این است آنچه اخذ نموده است آن را از نفس خود در احکام در استحکام مانند حکم الهی است.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثامنة والثمانون من المختار في باب الخطب

وأوّل فقراتها مرويّة في «الكافي» وفي ديباجة تفسير عليّ بن إبراهيم القمي أيضاً باختلاف تطلع عليه.

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ، واعْتِزامٍ مِنَ الْفِتَنِ، وانْتِشارٍ مِنَ الأُمُورِ، وتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، والدُّنْيا كاسِفَةُ النُّورِ، ظاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اصْفِرارٍ مِنْ ورَقِها، وإِياسٍ مِنْ ثَمَرِها، واغْوِرارٍ مِنْ مائِها، قَدْ دَرَسَتْ مَنارُ الْهُدَى، وظَهَرَتْ أَعْلامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَهَجِّمَةٌ لأَهْلِها، عابِسَةٌ في وَجْهِ طالِبِها، ثَمَرَتُهَا الْفِتْنَةُ، وطَعامُها الْجِيفَةُ، وشِعارُهَا الْخَوْفُ، ودِثارُهَا السَّيْفِ، فاعْتَبِرُوا عِبادَ اللهِ وَاذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آباؤُكُمْ وإِخْوانُكم بِها مُرْتَهَنُونَ، وعَلَيْهَا مُحاسَبُونَ، ولَعَمْري ما تَقادَمَتْ بِكُمْ ولا بِهِمُ الْعُهُودُ، ولا خَلَتْ فيما بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمُ الأَحْقابُ وَالْقُرُونُ، وما أَنْتُمُ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمِ كُنْتُمْ في أَصْلاَبِهِمْ بِبَعِيدٍ، وَاللَّهِ ما أَسْمَعَهُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلاَّ وَها أَنَا ذَا الْيَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ، وماَ أَسْمَاعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْماعِهِمْ بِالأَمْسِ، وَلاَ شُقَّتْ لَهُمُ الأَبْصارُ، وَلاَ جُعِلَتْ لَهُمُ الأَفْئِدَةُ في ذَلِكَ الأَوانِ إِلاَّ وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا في هَذَا الزَّمانِ، ووَاللَّهِ ما بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، ولا أُصْفِيتُمْ بِهِ وحُرِمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ الْبَلِيَّةُ جائِلاً خِطامُها، رَخْواً بِطانُها، فَلا يَغُرَّنَّكُمْ ما أَصْبَحَ فيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّما هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ[1].

اللغة

(الفترة) ما بين الرّسولين من رسول الله و**(الهجعة)** بفتح **(الهاء)** وسكون **(الجيم)** النومة ليلاً من الهجوع بالضّم كالجلسة من الجلوس و**(الاعتزام)** العزم من اعتزمه وعليه وتعزم أراد فعله وقطع عليه ويروى واعترام **(بالراء)** المهملة من عرام الجيش بالضم كغراب حدّتهم وشدّتهم وكثرتهم والعرام من الرّجل الشراسة والأذى و**(التلظى)** التلهب و**(كسف)** الشمس والقمر كسوف أو ذهب نورهما واحتجبا و**(اغور)** الماء اغوراراً كاحمر وتغور ذهب في الأرض واغورّت الشمس غابت قال سبحانه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

أي صار ماؤكم غائراً **(فهي متهجّمة)** من هجم عليه هجوماً انتهى إليه بغتة وهجم البيت

(١) الكافي: ١/ ٦٠ ح ٧، شرح أصول الكافي: ٢/ ٢٨٧ ح ٧.

انهدم وفي النسخ متجهّمة بتقديم **(الجيم)** على **(الهاء)** من تجهّمه فلان استقبله بوجه كريه، وبهما روى بيت الصّديقة الطّاهرة سلام الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها عند غصب فدك:

تهجمنا رجال واستخف بنا لما فقدت وكلّ الأرض مغتصب

و**(الأحقاب)** جمع حقب بضم **(الحاء)** و**(القاف)** وبسكون **(القاف)** أيضاً ثمانون سنة أو أكثر وقيل: الدهر وقيل: السّنة وقيل: السنون و**(القرون)** جمع القرن قال الفيروزآبادي: أربعون سنة أو عشرة أو عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو ستّون أو سبعون أو ثمانون أو مائة أو مائة وعشرون **(ولا أصفيتم)** على البناء للمفعول من باب الأفعال، قال سبحانه:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠].

أي آثركم و**(جائلاً خطامها)** أي مضطرباً غير مستقر من الجولان والخطام من الدّابة **(بالخاء)** المعجمة **(والطاء)** المهملة مقدم أنفها وفمها، ويطلق على الزمام، وهو المراد هنا باعتبار أنه يقع على الفم أو الأنف وما يليه، ومنه الحديث كأن خطام جمله عليه السلام ليف و**(البطان)** حزام القتب يقال: أبطن البعير أي سدّ بطانه.

الإعراب

(على حين فترة) للاستعلاء المجازي، وجملة **(والدّنيا كاسفة النّور)**، منصوبة المحل على الحاليّة من ضمير أرسله، **(وعلى حين اصفرار)** ظرف مستقرّ خبر ثان **(للدّنيا)** ويحتمل الحال أيضاً وجملة **(قد درست)** حال أيضاً، **(ولعمري)** جملة قسميّة، وقوله: **(وما أنتم اليوم)** **(ما)** حجازيّة عاملة عمل ليس، **(وأنتم)** اسمها **(وببعيد)** خبرها زيد فيه **(الباء)** كما تزاد في خبر **(ليس)** مطّرداً، **(واليوم)** متعلّق به، وكذلك من يوم وجملة **(جهلوه)** صفة لشيئاً.

وجملة **(وحرموه)** حال من ضمير به وفيه دليل على عدم لزوم **(قد)** في الجملة الحالية الماضية المثبتة كما عليه جمهور علماء الأدبية، اللهمّ إلاّ أن يقال: إن الجملة في معنى النفي إذ مقصوده عليه السلام نفي الإصفاء عن المخاطبين والمحرومية عن الغائبين معاً ولذلك جيء بالواو والضمير، **(والفاء)** في قوله: **(فلا يغرّنكم)** فصيحة.

المعنى

اعلم أنّ مقصوده عليه السلام بهذه الخطبة هو التذكير والموعظة والتّنبيه عن نوم الغفلة والتحذير من الغرور والفتنة، ومهّد أوّلاً مقدمة متضمنة للإشارة إلى حالة النّاس حين البعثة وأيّام الفترة وأنّه سبحانه أرسل إليهم رسولاً يزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وآثرهم بتلك النّعمة العظيمة والموهبة الجسيمة بعد ما كانوا في شدّة الابتلاء والمحنة ومنتهى الاضطراب والخشية وسوء الحال والكآبة، ليتذكر السّامعون بتلك النّعمة العظمى والمنحة الكبرى فيشكروا

لله ويلازموا طاعة الله ويسلكوا سبيل الله سبحانه فقال عليه السلام:

(أرسله) أي محمّداً صلى الله عليه وآله (على حين فترة من الرّسل) أي على حين سكون وانقطاع من الرّسل وذلك أنّ الرسل إلى وقت رفع عيسى كانت متواترة وبعد رفعه (ع) انقطع الوحي والرّسالة خمسمائة سنة على ما في بعض روايات أصحابنا أو ستّمائة سنة كما عن البخاري عن سلمان، والأوّل أشهر وأقوى ويأتي حديث آخر في ذلك إن شاء الله في شرح الفصل السّادس من الخطبة المائة والحادية والتسعين وهي الخطبة المعروفة بالقاصعة ثمّ بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله.

وإنّما قيّد صلى الله عليه وآله نعمة الإرسال والإنزال بتلك الحال وما يتلوها من الأحوال بياناً للواقع وإظهاراً لجلالة تلك النعمة وجزالة تلك الموهبة حسبما أشرنا إليه فإنّ النعمة يتزايد قدرها بحسب تزايد منافعها، ولا ريب أنّ خلوّ الزمان عن الرّسول يستلزم ظهور الفساد والشّرور وانتشار البغي والفجور وكثرة الهرج والمرج، وتلك أحوال مذمومة وأفعال مشؤومة توجب تبدّل النّظام واختلال الأحكام والانهماك في الجهالات والتورّط في الضّلالات ولحوق الذّم بهم بمقدار ما يلحقهم من المدح في حال الطاعة والقيام بوظائف العبادة المتفرّعة على وجود الدليل وبعث الرّسول صلى الله عليه وآله.

(وطول هجعة من الأمم) استعار لفظ الهجعة التي هي عبارة من النّوم في اللّيل لانغماسهم في ظلمة الجهالة والضّلالة، ورشحها بذكر الطول الذي هو من ملائمات المستعار منه على حد قوله:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت﴾ [البقرة: ١٦].

(واعتزام من الفتن) نسبة الاعتزام إلى الفتن مجاز كنّى به عن فروعها بينهم كأنها قاصدة لهم مريدة إيّاهم وعلى رواية الاعترام **(بالرّاء)** المهملة فالمراد كثرتها وشدّتها وتأذي الناس بها **(وانتشار من الأمور)** أي تفرق أمور الخلق في معاشهم وعدم جريانها على قانون منتظم **(وتلظّ من الحروب)** شبّه الحرب بالنّار في الإفساد والإهلاك وأسند إليها التّلظّي الذي هو الاشتعال والالتهاب على سبيل الاستعارة وكنّى به عن هيجانها وثورانها أيّام الفترة ففي الكلام استعارة مكنية وتخييليّة.

(والدّنيا كاسفة النّور) استعار النور للعلم المقتبس من الأنبياء والحجج بشباهة أن كلاًّ منهما سبب لهداية الأنام في الضّلالة والظلام، ورشحها بذكر الكسف الذي من ملائمات النّور وأراد به عدم وجود هذا النّور في ذلك الزمان **(ظاهرة الغرور)** أراد ظهور اغترار النّاس بها وشيوع افتتانهم بشهواتها ولذاتها **(على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها واغورار من مائها)** شبّه عليه السلام الدنيا بشجرة مثمرة مورقة في اشتمالها على ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين على سبيل الاستعارة بالكناية وذكر الورق والثمر والماء تخييل. وإثبات الاصفرار والإياس

والاغورار ترشيح، وأراد بتلك الترشيحات بيان خلوّ الدنيا يومئذٍ عن آثار العلم والهداية وما يوجب السعادة في البداية والنهاية.

ويمكن جعله مركّباً من استعارات متعدّدة ويكون المراد بيان خلوّ الدنيا حينئذٍ من الأَمن والرّفاهية والمنافع الدّنيوية ليكون ما يذكر بعده تأسيساً.

وتوضيح ذلك الوجه ما ذكره الشارح البحراني حيث قال: استعار لفظ الثمرة والورق لمتاعها وزينتها ولفظ الاصفرار لتغيّر تلك الزينة عن العرب في ذلك الوقت وعدم طراوة عيشهم إذاً وخشونة مطاعمهم كما يذهب حسن الشّجرة باصفرار ورقها فلا يلتذّ بالنّظر إليها، وعنى بالإياس من ثمرها انقطاع مآل العرب إذاً من الملك والدّولة وما يستلزمه من الحصول على طيبات الدّنيا.

وكذلك استعار لفظ الماء لموادّ متاع الدّنيا وطرق لذّاتها ولفظ الاعورار لعدم تلك الموادّ من ضعف التجارات والمكاسب وعدم التملّك للأمصار وكلّ ذلك لعدم النظام العدلي بينهم وكلّها استعارات بالكناية.

ووجه الاستعارة الأولى أن الورق كما أنّه زينة الشّجر وبه كماله كذلك لذّات الدّنيا وزينتها، ووجه الثّانية أنّ الثمر كما أنّه مقصود الشجرة غالباً وغايتها كذلك متاع الدّنيا والانتفاع به هو مقصودها المطلوب منها لأَكثر الخلق، ووجه الثّالثة أنّ الماء كما أنّه مادّة الشجرة وبه حياتها وقيامها في الوجود كذلك موادّ تلك اللّذّات هي المكاسب والتجارات والصّناعات، وقد كانت العرب خالية من ذلك ووجوه باقي الاستعارات ظاهرة.

(**قد درست «منار الهدى»**) كناية عن فقدان حجج الدّين وانتفاء أدلّة الحق (**وظهرت أعلام الرّدى**) كناية عن غلبة أدلة الباطل وظهور أئمّة الضّلال (**فهي متهجّمة لأهلها**) أي داخلة عليهم عنفاً لكونها غير موافقة لرضاهم أو منهدمة عليهم غير باقية في حقّهم أو ملاقية لهم بوجه كريه وهو على رواية متجهمة بتقديم (**الجيم**) على (**الهاء**) (**عابسة في وجه طالبها**) أراد به عدم حصول بغية الطالبين منها كما لا تحصل من الرّجل المنقبض الوجه الذي يلوي بشرته. قال سبحانه:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢].

(**ثمرتها الفتنة**) أي الضّلال عن طريق الحق والتيه في ظلمة الباطل وفيه استعارة مكنية وتخييليّة حيث شبّه الدّنيا بشجرة مثمرة وأثبت الثّمرة لها وجعل ثمرتها الفتنة إمّا من باب التهكم أو من حيث إن الثمرة كما أنها الغاية المقصودة من الشجرة فكذلك غاية الدّنيا عند أهلها هي الفتنة والضّلال (**وطعامها الجيفة**) يحتمل أن يكون المراد بالجيفة الميتة والحيوان الغير المزكى ممّا كان العرب يأكلها في أيّام الفترة حتى حرّمتها الآية الشريفة أعني قوله:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: ٣].

أي المضروبة بالخشب حتى تموت ويبقى الدّم فيها فيكون أطيب كما زعمه المجوس «وَالْمُتَرَدِّيَةُ» أي التي تردّت من علوّ فماتت وقد مرّ في شرح الخطبة السّادسة والعشرين أن أكثر طعام العرب كان الخشب والخبائث، ويجوز أن يراد بالجيفة الأعمّ من ذلك أعني مطلق ما لا يحلّ في الشريعة المطهّرة سواء كان من قبيل الخبائث والميتات أو من قبيل الأموال المغصوبة المأخوذة بالنّهب والغارة والسّرقة ونحوها على ما جرت عليه عادة العرب وكانت دأباً لهم **(وشعارها الخوف ودثارها السّيف)** الشّعار ما يلي شعر الجسد من الثّياب والدّثار ما فوق الشّعار من الأثواب ومناسبة الخوف بالشّعار والسّيف بالدّثار غير خفية على ذوي الأنظار.

ثمّ إنّه بعدما مهد المقدمة الشريفة وفرغ من بيان حالة العرب في أيّام الفترة شرع في الموعظة والنّصيحة بقوله: **(فاعتبروا عباد الله)** بما كانت عليه الإخوان والآباء والأقران والأقرباء **(واذكروا تيك)** الأعمال القبيحة والأحوال الذميمة **(التي آباؤكم وإخوانكم بها مرتهنون)** ومحبوسون وعليها محاسبون ومأخوذون.

ثمّ أشار عليه السلام إلى تقارب الأزمان وتشابه الأحوال بين الماضي والغابرين بقوله: **(ولعمري ما تقادمت بكم ولا بهم العهود)** حتّى تغفلوا **(ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون)** حتّى تذهلوا **(وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلابهم ببعيد)** حتّى تنسوا ولا تعتبروا فلكم اليوم بالقوم اعتبار وفيما جرت عليهم تبصرة وتذكار.

(والله ما أسمعهم الرّسول شيئاً إلاّ وها أناذا مسمعكموه) فليس لكم عليّ حجّة بعدم الإبلاغ والإسماع **(وما إسماعكم اليوم بدون إسماعهم بالأمس)** فليس لكم معذرة بالوقر في الآذان والأسماع **(ولا شقت لهم الأبصار)** المبصرة **(ولا جعلت لهم الأفئدة)** المتدبرة **(في ذلك الأوان إلا وقد أعطيتم مثلها في هذا الزّمان)** فلا يمكن لكم أن تقولوا إنّا كنّا في عمى من هذا وكنّا به جاهلين، ولا أن تعتذروا بأنّه لم يجعل لنا أفئدة وكنّا منه غافلين.

(ووالله ما بصّرتم بعدهم شيئاً جهلوه) بل علّموا ما علّمتم **(ولا أصفيتم)** وأوثرتم **(به وحرموه)** بل منحوا ما بذلتم فلم يبق بينكم وبينهم فرق في شيء من الحالات وكنتم مثلهم في جميع الجهات فإذا انتفى الفارق فما بالكم لا تسمعون ولا تبصرون ولا تفهمون ولا تذكرون، وقد أسمع أسلافكم فسمعوا، وبصّروا فتبصروا وذكروا فتذكّروا وعمروا فنعموا، وعلّموا ففهموا.

ثمّ حذرهم وأنذرهم بإشراف الابتلاء والمحنة ونزول البلية بقوله: **(ولقد نزلت بكم البلية)** لعلّه أراد بها فتنة معاوية ودولة بني أميّة **(جائلاً خطامها رخواً بطانها)** استعارة بالكناية عن

خطرها وصعوبة حال من يعتمد عليها ويركن إليها كما أنّ من ركن إلى النّاقة التي جال خطامها ولم تستقر في وجهها وأنفها وارتخى حزامها فركبها كان في معرض السّقوط والهلاك.

ثمّ أردف ذلك بالنّهي عن الاغترار بالدّنيا فقال: **(ولا يغرنّكم ما أصبح فيه أهل الغرور)** من الاغترار بزخارفها ولذّاتها والانهماك في شهواتها وطيّباتها بظنّ دوامها وثباتها **(فإنّما هو ظلّ ممدود إلى أجل)** محدود **(معدود)** بيناً ترونه سابغاً حتّى قلص وزائداً حتّى نقص.

تكملة

قد أشرنا سابقاً إلى أن أوّل فقرات هذه الخطبة مرويّة في «الكافي» باختلاف لما هنا فأحببت أن أوردها على ما هو دِيننا في الشّرح فأقول:

روى الكلينيّ عن محمّد بن يحيى عن بعض أصحابه عن هارون بن مسلم عن مسعدة ابن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: أيّها النّاس إنّ الله تبارك وتعالى أرسل إليكم الرّسول صلى الله عليه وآله، وأنزل عليه الكتاب وأنتم أميّون عن الكتاب ومن أنزله وعن الرسول ومن أرسله على حين فترة من الرّسل، وطول هجعة من الأمم، وانبساط من الجهل، واعتراض من الفتنة، وانتقاض عن المبرم، وعمى عن الحق، واعتساف من الجور، وامتحاق من الدّين، وتلظّ من الحروب، على حين اصفرار من رياض جنّات الدّنيا، ويبس من أغصانها، وانتشار من ورقها، وإياس من ثمرها، واغورار من مائها.

قد درست أعلام الهدى، وظهرت أعلام الردى، فالدّنيا متهجّمة[1] في وجوه أهلها؛ مكفهرة مدبرة غير مقبلة، ثمرتها الفتنة، وطعامها الجيفة، وثمارها الخوف، ودثارها السّيف، مزّقتم كلّ ممزّق، وقد أعمت عيون أهلها، وأظلمت عليها أيّامها، قد قطعوا أرحامهم، وسفكوا دماءهم، ودفنوا في التّراب الموؤودة بينهم من أولادهم، يحتاز دونهم طيب العيش ورفاهية خفوض الدّنيا، لا يرجون من الله ثواباً، ولا يخافون والله منه عقاباً.

حيّهم أعمى نجس، وميّتهم في النّار مبلس، فجاءهم صلى الله عليه وآله بنسخة ما في الصحف الأولى وتصديق الذي بين يديه وتفصيل الحلال من ريب الحرام، ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم أخبركم عنه أنّ فيه علم ما مضى وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة وحكم ما بينكم وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتموني عنه لعلّمتكم[2].

ورواه عليّ بن إبراهيم القمي أيضاً في ديباجة تفسيره نحوه ولقلة موارد الاختلاف لم نطل بروايتها.

---

(١) في نسخة: متجهمة.

(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٤٨٣ ح ٦٧٨، تفسير نور الثقلين: ٣/ ٧٥ ح ١٨١.

بيان

قال في «النهاية»: إنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب أراد أنّهم على أصل ولادة أمّهم لم يتعلّموا الكتاب والحساب فهم على جبلّتهم الأولى، وقيل: الأمي الذي لا يكتب ومنه الحديث بعثت إلى أمّة أميّة قيل للعرب: أميّون لأنّ الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة، انتهى.

قال بعض شراح الحديث: ولعل المراد هنا من لا يعرف الكتابة والخط والعلم والمعارف وضمن معنى ما يعدى بعن كالنّوم والغفلة، قوله: واعتراض من الفتنة يحتمل أن يكون عروضها وانتشارها في الآفاق، قوله: وانتقاض عن المبرم المبرم المحكم وقد أشار به إلى ما كان الخلق عليه من استحكام أمورهم بمتابعة الأنبياء وأراد بانتفاضه فساده.

والمكفهرّ من الوجوه من اكفهرّ على وزن اقشعر القليل اللّحم الغليظ الذي لا يستحيي والمتعبس، قوله: مزّقتم كلّ ممزّق التفات من الغيبة إلى الخطاب والممزّق مصدر بمعنى التمزيق وهو التفريق والتّقطيع، والمراد به تفرقهم في البلدان للخوف أو تفرّقهم في الأديان والآراء، والموؤودة البنت المدفونة حيّة وكانوا يفعلون ذلك في الجاهليّة ببناتهم لخوف الإملاق أو العار كما قال سبحانه:

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

يجتاز دونهم طيب العيش ورفاهيّة خفوض الدّنيا، يجتاز **(بالجيم) (والزاء)** المعجمة من الاجتياز وهو المرور والتجاوز، والرفاهية السعة في المعاش، والخفوض جمع الخفض وهي الدعة والرّاحة أي يمرّ طيب العيش والرّفاهية التي هي خفض الدّنيا أو في خفوضها متجاوزاً عنهم من غير تلبث عندهم، قوله: **(أعمى نجس) (بالنّون) (والجيم)** وفي بعض النسخ **(بالحاء)** المهملة من النّحوسة والمبلس من الإبلاس وهو الإياس من رحمة الله ومنه سمي إبليس، قوله: **(بما في الصّحف الأولى)** أي التوراة والإنجيل والزّبور وغيرها من الكتب المنزلة وهو المراد بالذي بين يديه كما قال تعالى:

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقوله: **(فاستنطقوه الأمر)** للتعجيز، وسائر الفقرات واضحة ممّا قدّمنا.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است كه متضمن مى باشد بعثت حضرت خاتم رسالت را در ايام فترت و بيان حالت خلق را در ايام جاهليت و مشتمل است به موعظه و نصيحت و تنبيه از نوم غفلت و جهالت، مى فرمايد:

فرستاد حق سبحانه و تعالی پیغمبر آخرالزّمان را، درحین فتور و انقطاع از پیغمبران و در زمان درازی خواب غفلت از امّتان و در هنگام عزم از فتنه ها و در وقت انتشار از کارها و در حین اشتعال از نائره حروب و کارزارها و در حالتی که دنیا منکسف بود نور او، ظاهر بود غرور او، ثابت بود بر زردی برگ خود و مأیوسی از ثمر خود و فرورفتن آب خود. به تحقیق که مندرس شده بود علم های هدایت و ظاهر گشته بود نشان های ضلالت.

پس دنیا هجوم آورنده بود بر اهل خود و عبوس بود در روی طالبان خود، میوه او فتنه بود و طعام او جیفه و پوشش او ترس بود از دشمنان و لباس بیرونی او شمشیر برّان، پس عبرت بردارید ای بندگان خدا و یاد آورید آن حالت را که بود پدران شما و برادران شما به سبب آن حالت مرهون و محبوس و به جهت آن محاسب و مأخوذ و قسم به زندگانی خود که دیر نشده است به شما و نه به ایشان عهدها و زمان ها و نگذشته است در مابین شما و ایشان روزگارها و قرن ها و نیستید شما امروز از روزی که بودید در پشت های ایشان دور، یعنی مدتی نیست که شما در اصلاب آباء خود بودید ایشان با سایر خویشان از شما مفارقت کردند و شما هم در اندك زمانی به ایشان ملحق خواهید شد.

به خدا سوگند که نشنوانید به شما رسول خدا علیه التحیة والثناء چیزی را مگر این که من شنواننده ام به شما آن را و نیست سمع های شما امروز کم از سمع های ایشان دیروز و شکافته نشد ایشان را دیده ها و گردانیده نشد ایشان را قلب ها در آن زمان، مگر اینکه عطا شدید شما مثل آن را در این زمان.

و به خدا قسم که نموده نشدید شما بعد از ایشان چیزی را که ایشان جاهل آن بوده باشند و برگزیده نشدید به چیزی در حالتی که ایشان محروم بوده باشند از او و به تحقیق که فرود آمد به شما بلاها در حالتی که جولان کننده است مهار آن، سست بی ثبات است تنگ آن، پس مغرور نسازد شما را آنچه که صباح کرد در آن اهل غرور و ارباب شرور، پس این است و جز این نیست که آن دنیا سایه ای است کشیده شده تا مدت شمرده شده، مشحون به انواع قصور و محتوی به کمال و ضعف و فتور.

ومن خطبة له عليه السلام وهي التاسعة والثمانون من المختار في باب الخطب

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيرِ رُؤْيَةٍ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيرِ رَوِيَّةٍ، الَّذي لَمْ يَزَلْ قائماً دائماً، إذْ لاَ سَماءٌ ذَاتُ أَبْراجٍ، وَلاَ حُجُبٌ ذاتُ أَرْتاجٍ، وَلاَ لَيْلٌ داجٍ، ولا بَحْرٌ ساجٍ، ولا جَبَلٌ ذُو فُجاجٍ، ولا فَجٌّ ذُو اعْوِجاجٍ، ولا أَرْضٌ ذاتُ مِهادٍ، ولا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ، ذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ ووارِثُهُ، وإِلٰهُ الْخلْقِ ورازِقُهُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دائِبانِ في مَرْضاتِهِ، يُبْلِيانِ كُلَّ جَديدٍ، ويُقَرِّبانِ كُل بَعيدٍ، قَسَّمَ أَرْزَاقَهُمْ، وأَحصىٰ آثارَهُمْ وأَعْمالَهُمْ وَعَدَ أَنْفاسِهِمْ وخائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ وما تُخْفي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، ومُسْتَقَرَّهُمْ ومُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَىٰ أَنْ تَتناهى بِهِمُ الْغاياتِ، هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نَقْمَتُهُ على أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لأَوْلِيائِهِ في شِدَّةِ نَقْمَتِهِ، قاهِرُ مَنْ عازَّهُ، ومُدَمِّرُ مَنْ شاقَّهُ، ومُذِلُّ مَنْ ناواهُ، وغالِبُ مَنْ عاداهُ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفاهُ، ومَنْ سَأَلَهُ أَعْطاهُ، ومَنْ أَقْرَضَهُ قَضاهُ، ومَنْ شَكَرَهُ جَزاهُ، عِبادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا وحاسِبُوها مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِناقِ، وَانْقادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّياقِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنِ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا واعِظٌ وزاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيرِها زاجِرٌ ولا واعِظٌ[١].

اللغة

(الزوية) من روات في الأمر أي تفكّرت فيه وأصلها رؤيته واستعمالها في «لسان العرب» بغير همز ومثلها برية و**(الأبراج)** جمع البرج كالأركان والرّكن لفظاً ومعنى و**(الأرتاج)** إما مصدر باب الأفعال من ارتج الباب أغلقه أو جمع الرّتج محركة كالأسباب والسّبب وهو الباب العظيم[٢].

قال الشارح المعتزلي: ويبعد رواية من رواه ذات أرتاج لأنّ فعالاً قل أن يجمع على أفعال «انتهى» وأراد به أن أرتاج على تقدير جمعيته واحدة رتاج وجمعه عليه قليل، وفيه أنه يرتفع الاستبعاد بجعله جمعاً للرتج حسبما قلنا وهو كثير.

و**(دجى)** اللّيل دجوّا ودجوا أظلم فهو داج وليلة داجية و**(سجى)** البحر سجواً سكن و**(الفجاج)** جمع الفجّ فهو الطريق الواسع بين جبلين و**(المهاد)** الفراش و**(عازه)** معازه غالبه قال

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٣٦٠٠ ح ٤١٣٩، وبحار الأنوار: ٤/ ٣١٠ ح ٣٨.

(٢) الرتاج: ككتاب وهو الباب المغلق وعليه باب صغير.

سبحانه: وعزني في الخطاب أي غلبني و(**دمّره**) تدميراً أهلكه و(**شاقه**) مشاقة وشقاقاً خالفه وعاداه و(**ناواه**) أي عاداه واللفظة مهموزة وإنما لينها لملاحظة السّجع وأصلها من النواء وهو النّهوض لأن كلّ المتعاديين ينهض إلى قتال الآخر و(**العسف**) بالضم ضد الرفق.

الإعراب

قوله: (**إذ لا سماء**) (**إذ**) ظرف للزمان الماضي وملازم للإضافة إلى الجمل، (**ولا**) بمعنى (**ليس**)، (**وسماء**) اسمها وخبرها محذوف منصوباً على الأعمال كما هو مذهب أهل الحجاز، أو (**سماء**) مرفوع على الابتداء وخبره موجود بالرّفع على الإهمال وهو مذهب بني تميم والأوّل أقوى، وجملة (**والشّمس والقمر**) (ا ه) مستأنفة، وجملة (**يبليان**) في محلّ النّصب على الحال من ضمير دائبان، (**وعدد أنفاسهم**) في بعض النسخ بجرّ أنفاسهم على إضافة العدد إليها وكونه اسمه فيكون عطفاً على آثارهم وفي بعضها بنصبها على كونه مفعولاً لعدد وجعله فعلاً مجرّداً من باب قتل أو مزيداً من باب التفعيل أي أحصى أنفاسهم، وعلى هذا فتكون الجملة معطوفة على الجملة السّابقة، (**وخائنة**) بالنّصب عطف على (**آثارهم أو أنفاسهم**) على الاحتمال الثّاني أو عدد على الاحتمال الأوّل، وكذلك (**مستقرّهم ومستودعهم**)، (**ومن الأرحام**) والظّهور متعلّق بالمستقرّ والمستودع على إرادة التّكرار وقوله: (**حتّى يكون قيد للمنفي**) أعني يعن دون النفي.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام صدّر هذه الخطبة الشّريفة بجملة من الصّفات الجمالية والجلالية الإلهية، وذيلها بالموعظة والنّصيحة والحث على التزود والاستعداد للآخرة فقال عليه السلام: (**الحمد لله المعروف من غير رؤية**) يعني أنّه سبحانه معروف بدلائل الملك والملكوت وآثار القدرة والجبروت ومدرك بحقائق الإيمان من غير رؤية ومشاهدة بالعيان، لكونها من لواحق الإمكان كما مرّ توضيحاً وتحقيقاً في شرح الخطبة التاسعة والأربعين (**والخالق من غير روية**) أراد أنه تعالى خالق للأشياء بنفس قدرته التّامة الكاملة غير محتاج في خلقها إلى رويّة وفكرة كما يحتاج إليها نوع الإنسان في إيجاد شيء، وذلك أن فائدة القوّة المفكّرة تحصيل المطالب المجهولة من المباديء المعلومة والجهل محال على الله سبحانه (**الذي لم يزل قائماً دائماً**) أمّا دوامه سبحانه فلأنّ وجوب الوجود يستحيل عليه العدم في الأزل والأبد، وأمّا قيامه فالمراد به إما الدّوام والبقاء وإمّا القيام بأمور العالم والقيمومة على كلّ شيء بمراعاة حاله ودرجة كماله والحافظ لكلّ شيء والمدبّر لأمره أو الرّقيب على كلّ شيء والحافظ عليه وبه فسّر قوله سبحانه:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

والأَوّل أنسب بقوله: **(إذ لا سماء ذات أبراج)** لأَن القيمومة بالمعنى الأَوّل من صفات الذّات وبالمعنى الثاني من صفات الفعل وبعد السّماء ووجود العالم لأَنّه إذا لم يكن العالم مخلوقاً بعد لم يصدق عليه أنه قائم بأمره إلاّ بالقوّة لا بالفعل، فافهم. والمراد بالأبراج إمّا الأَركان كما هي معناها في اللغة وإمّا ما فسّر به قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج: ١].

ولهم في تفسيره ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها هي البروج الاثنا عشر التي فيها عجيب الحكمة إذ سير الشّمس فيها ومصالح العالم السّفلي مرتبطة بسير الشّمس.

وثانيها: أن البروج هي منازل القمر.

وثالثها: أنها هي عظام الكواكب سمّيت بروجاً لظهورها وسيأتي تفصيل الكلام في ذلك في شرح الفصل الرابع من الخطبة الآتية **(ولا حجب ذات أرتاج)** أي ذات أبواب أو ذات أغلاق.

واعلم أنه قد كثر في الأَخبار العاميّة والخاصيّة ذكر الحجب والسّرادقات وتظافرت الأَخبار في وجودها من جملة تلك الرّوايات رواية الحسن البكري التي تقدّمت في التذييل الأَوّل من تذييلات الفصل الثامن من فصول الخطبة الأولى.

ومنها ما في «البحار» من «الدرّ المنثور» للسيوطي عن سهل بن سعد وعبد الله بن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ: دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ما يسمع من نفسٍ من حسن تلك الحجب إلاّ زهقت نفسه[١].

ومنها ما فيه عن شرح النهج للكيدري عن النّبي ﷺ في حديث المعراج قال: فخرجت من سدرة المنتهى حتّى وصلت إلى حجاب من حجب العزة ثمّ إلى حجاب آخر حتّى قطعت سبعين حجاباً وأنا على البراق وبين كلّ حجاب وحجاب مسيرة خمسمائة سنة إلى أن قال: ورأيت في علّيين بحاراً وأنواراً وحجباً غيرها لولا تلك لاحترق كل ما تحت العرش من نور العرش[٢].

قال: وفي الحديث أن جبرئيل عليه السلام: قال: لله دون العرش سبعون حجاباً لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجه ربّنا.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٥/ ٤٤ ح ٢، الدر المنثور: ٦/ ١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٥٥/ ٤٥.

أقول: قال النّوري في «المحكي» عن «شرح صحيح مسلم»: سبحات بضم السّين والباء أي نوره وأراد بالوجه الذّات، وقال في «البحار»: سبحات الله جلاله وعظمته وهي في الأصل جمع سبحة، وقيل: أضواء وجهه، وقيل: سبحات الوجه محاسنه لأنك إذا رأيت الوجه الحسن قلت: سبحان الله، هذا.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة روى شطراً منها في «البحار» وقال بعد روايتها: والتحقيق أن لتلك الأخبار ظهراً وبطناً وكلاهما حقّ.

فأما ظهرها فإنّه سبحانه كما خلق العرش والكرسي مع عدم احتياجه إليهما كذلك خلق عندهما حجباً وأستاراً وسرادقات، وحشاها من أنواره الغريبة المخلوقة له ليظهر لمن يشاهدها من الملائكة وبعض النبيّين ولمن يسمعها من غيرهم عظمة قدرته وجلال هيبته وسعة فيضه ورحمته، ولعلّ اختلاف الأعداد باعتبار أن في بعض الإطلاقات اعتبرت الأنواع، وفي بعضها الأصناف والأشخاص أو ضمّ بعضها إلى بعض في بعض التعبيرات أو اكتفى بذكر بعضها في بعض الرّوايات.

وأمّا بطنها فلأنّ الحجب المانعة عن وصول الخلق إلى معرفة كنه ذاته وصفاته سبحانه أمور كثيرة:

منها: ما يرجع إلى نقص المخلوق وقواه ومداركه بسبب الإمكان والافتقار والاحتياج والحدوث وما يتبع ذلك من جهات النّقص والعجز وهي الحجب الظلمانية.

ومنها: ما يرجع إلى نوريّته وتجرّده وتقدّسه ووجوب وجوده وكمال عظمته وجلاله وسائر ما يتبع ذلك وهي الحجب النورانية وارتفاع تلك الحجب بنوعيه محال، فلو ارتفعت لم يبق بغير ذات الحق شيء، أو المراد بكشفها رفعها في الجملة بالتخلي عن الصفات الشهوانية والأخلاق الحيوانيّة والتخلق بالأخلاق الرّبانية بكثرة العبادات والرّياضات والمجاهدات وممارسة العلوم الحقة، فترتفع الحجب بينه وبين الله سبحانه في الجملة فيحرق ما يظهر عليهم من أنوار جلاله تعيناتهم وإرادتهم وشهواتهم فيرون بعين اليقين كماله سبحانه ونقصهم، وبقائه وفنائهم، وعزّه، وذلّهم، وغناه وافتقارهم، بل يرون وجودهم المستعار في جنب وجوده الكامل عدماً، وقدرتهم الناقصة في جنب قدرته الكاملة عجزاً بل يتخلّون عن إرادتهم وعلمهم وقدرتهم فيتصرف فيهم إرادته وقدرته وعلمه سبحانه، فلا يشاؤون إلاّ أن يشاء الله، ولا يريدون سوى ما أراد الله، ويتصرفون في الأشياء بقدرة الله، فيحيون الموتى ويردّون الشمس ويشقّون القمر كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية بل بقوّة ربانيّة، والمعنى الذي يمكن فهمه ولا ينافي أصول الدّين من الفناء في الله والبقاء بالله هو هذا المعنى.

وبعبارة أخرى الحجب النّورانية الموانع التي للعبد عن الوصول إلى قربه وغاية ما يمكنه

من معرفته سبحانه من جهة العبادات كالرّياء والعجب والسّمعة وأشباهها والظلمانية ما يحجبه من المعاصي عن الوصول إليه، فإذا ارتفعت تلك الحجب تجلى الله له في قلبه وأحرق محبته ما سواه حتّى نفسه عن نفسه، وكل ذلك لا يوجب عدم الإيمان بظواهرها، إلاّ بمعارضة نصوص صحيحة صريحة صارفة عنها، وأوّل الإلحاد سلوك التأويل من غير دليل والله الهادي إلى سواء السّبيل، انتهى كلامه رفع مقامه[1]، هذا.

والأشبه أن يراد بقوله عليه السلام: **(ولا حجب ذات أرتاج)** المعاني الظاهرة لها وإن أمكن إرادة معانيها الباطنة في الجملة، وأما احتمال أن يراد بالحجب السّماوات كما في شرحي المعتزلي والبحراني فبعيد مع سبق قوله عليه السلام: (إذ لا سماء ذات أبراج) **(ولا ليل داج)** أي مظلم **(ولا بحر ساج)** أي ساكن **(ولا جبل ذو فجاج ولا فج ذو اعوجاج)** وهو مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩-٢٠].

أي طرقاً واسعة، وقيل: طرقاً مختلفة عن ابن عبّاس، وقيل: سبلاً في الصّحاري وفجاجاً في الجبال **(ولا أرض ذات مهاد)** وهو مأخوذ من قوله سبحانه:

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨].

أي مهدناها ليستقروا عليها فنعم الماهدون نحن، وفي سورة النّبأ.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ ٦].

أي وطأ وقراراً ومهيئاً للتصرف فيه من غير أذيّة، والمصدر بمعنى المفعول أو الحمل على المبالغة أو المعنى ذات مهاد **(ولا خلق ذو اعتماد)** أي صاحب قوّة وبطش.

(ذلك) المتّصف بالصّفات الأزليّة والموصوف بأوصاف السّرمديّة **(مبتدع الخلق)** ومخترعه على غير مثال سبق أو موجده من العدم المحض **(ووارثه)** الباقي بعد فنائه **(وإله الخلق)** ومعبوده **(ورازقه)** بجميل آلائه وجزيل نعمائه **(والشمس والقمر دائبان في مرضاته)** هو مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وأصل الدئب هو مرور الشيء في العمل على عادة مطردة أراد عليه السلام أن الشّمس والقمر يدأبان في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وفي إصلاح النبات والحيوان على ما فيه رضاؤه سبحانه وتقتضيه حكمته البالغة ويرتضيه تدبيره التام الكامل **(يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد)** نسبه إبلاء الجديد وتقريب البعيد إليهما باعتبار كون حركاتهما من الأسباب المعدّة لحدوث الحوادث في هذا العالم وفيهما تنبيه على وجوب التجافي عن الدّنيا

(١) بحار الأنوار: ٥٥/٤٧.

والاستعداد للآخرة، وإشارة إلى أن ما يتجدد ويحدث من لذات الدنيا وزخارفها فهو في معرض البلى والزّوال وأن ما يستبعده أهل الغفلة من الموت والفناء قريب إليه وإن كان بعيداً في نظره **(قسم أرزاقهم)** بينهم على وفق ما جرى عليه قلم التقدير وكتبه يد التّدبير في الكتاب المكنون واللّوح المحفوظ كما قال سبحانه:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

(وأحصى آثارهم وأعمالهم) وإحصائهما كناية عن العلم بهما كما قال سبحانه:

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

أي ما قدموا من الأعمال وما سنوه بعدهم حسنة كانت أو قبيحة ومنه:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الإنفطار: ٥].

وقيل: آثارهم أي أقدامهم في الأرض وأراد مشيهم إلى العبادة وخطاهم إلى المساجد **(وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم وما تخفي صدورهم من الضمير)** وهو اقتباس من قوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

قال في «مجمع البيان»: أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النّظر إليه والخائنة مصدر كما أن الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب واللّغو وقيل: إن تقديره يعلم الأعين الخائنة، وقيل هو الرمز بالعين وفيه أقوال أخرى **(ومستقرهم ومستودعهم من الأرحام والظهور)** وفيه ملامحة إلى قوله سبحانه:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦].

أي يعلم موضع قرارها والموضع الذي أودعها فيه من أرحام الأمهات وأصلاب الآباء وظهورهم، ويعلم كل أحوالهم من حين ابتدائهم **(إلى أن تتناهى بهم الغايات)** ويقف كل عند غايته المكتوبة من خير أو شرّ **(هو الذي اشتدت نقمته على أعدائه في سعة رحمته واتسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته)** لا يخفى ما في هذه القرينة من حسن المقابلة.

قال الشارح البحراني: وأشار بذلك إلى كمال ذاته بالنّسبة إلى ملوك الدّنيا مثلاً، فإنّ أحدهم في حالة غضبه على عدوّه لا يتسع لرحمته ولا رحمة غيره، وكذلك في رحمته لأوليائه لا يجتمع معها غضبه عليهم؛ ولمّا ثبت أنه تعالى هو الغني المطلق المنزّه عن صفات المخلوقين وأنّه المعطي لكل قابل ما يستحقه من غير توقف في وجوده على أمر من ذاته، وكان أعداء الله مستعدّون ببعدهم عنه لقبول سخطه وشدّة نقمته في الآخرة، لا جرم أولاهم ذلك وإن كانوا في الدنيا في سعة رحمته وشمول نعمته، وكذلك أولياؤه لما استعدّوا القبول

رحمته وشمول نعمته أفاضها عليهم فهم في حظيرة قدسه على غاية من البهجة والسّعادة وضروب الكرامة وإن كانوا بأجسادهم في ضروب من العذاب وشقاوة الفقر والضنك في الدّنيا، وذلك لا يملكه إلاّ حليم لا يشغله غضب عن رحمته، عدل حكيم لا تمنعه رحمته عن إنزال عقوبته سبحانه ليس إلاّ هو.

(قاهر من عازه) أي غالبه وعتى عن أمره كفرعون إذ قال: أنا ربّكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى وغيره من العتاة والطغاة، حيث قسم الله سبحانه ظهرهم وكسر عظمهم وقهرهم بالموت والإذلال، وأنزل عليهم شديد النكال **(ومدمّر من شاقه)** أي مهلك من كان مشاقاً له ومنحرفاً عن طريق الهدى إلى سمت الرّدى **(ومذل من ناواه)** يجعله محتاجاً إلى غيره **(وغالب من عاداه)** أي المستولي عليه بقهره **(من توكل عليه كفاه)** كما قال في كتابه العزيز:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

أي الكافي له يكفيه أمر دنياه وآخرته **(ومن سأله أعطاه)** إذ لا تفنى خزائنه السؤال، ولا تدخل عليها نقص ولا زوال.

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي شيئاً إلاّ كما ينقص المخيط إذا دخل البحر»[١].

أي لا ينقص شيئاً وإنما ضرب المثل بالمخيط والبحر لأنّه وإن كان يرجع شيء قليل محسوس لكنه لقلّته بالنسبة إلى أعظم المرئيات عياناً لا يرى ولا يعد شيئاً فكأنّه لم ينقص منه شيء.

(ومن أقرضه قضاه) أي من أنفق ماله في سبيله وطاعته أعطاه الله عوض ما أنفق وإنّما سمّى الإنفاق قرضاً تلطفاً للدّعاء إلى فعله وتأكيداً للجزاء عليه، فإن القرض يوجب الجزاء وهو مأخوذ من قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

روى الطبرسي عن الصادق عليه السلام أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ربّ زدني» فأنزل الله[٢]:

(١) سبل السلام: ٤/ ١٧٦، وكنز العمال: ١٥/ ٩٢٤.

(٢) معاني الأخبار: ٣٩٨، والأربعون حديثاً: ٦٧.

﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: ١٦١].

فقال رسول الله ﷺ: «زدني» فأنزل الله سبحانه:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

والكثير عند الله لا يحصى.

قال الكلبي في سبب نزول هذه الآية: إنّ النبيّ ﷺ قال: «من تصدّق بصدقة فله مثلاها في الجنّة»[١]، فقال أبو الدحداح الأنصاري واسمه عمرو بن الدحداح: يا رسول الله إنّ لي حديقتين إن تصدقت بإحداهما فإنّ لي مثليهما في الجنّة؟ قال: نعم، وأمّ الدّحداح معي؟ قال: نعم، قال: والصبية معي؟ قال: نعم، فتصدق بأفضل حديقته فدفعها إلى رسول الله فنزلت الآية فضاعف الله له صدقته ألفي ألف، وذلك قوله أضعافاً كثيرة قال: فرجع أبو الدحداح فوجد أمّ الدّحداح والصّبية في الحديقة التي جعلها صدقة فقام على باب الحديقة وتحرّج أن يدخلها فنادى يا أم الدّحداح، قالت: لبيك يا أبا الدّحداح، قال: إني جعلت حديقتي هذه صدقة واشتريت مثليها في الجنّة وأمّ الدّحداح معي والصّبية معي قالت: بارك الله لك فيما شريت وفيما اشتريت فخرجوا منها وأسلموا الحديقة إلى النبي ﷺ فقال النبي: «كم من نخلة متدل عذوقها لأبي الدحداح في الجنّة».

وفي «منهج الصادقين» قال النبيّ ﷺ: «كم من عذق رواح ودار فياح في الجنّة لأبي الدّحداح»[٢].

(ومن شكره جزاه) أي من اعترف بنعمته سبحانه وفعل ما يجب فعله من الطاعة وترك ما يجب تركه من المعصية أعطاه الله سبحانه بشكره الجزاء الجميل والثواب الجزيل.

ثم إنه بعد ما ذكر جملة من النعوت الجلالية والصفات الجمالية لله سبحانه أردف ذلك بالعظة والنصيحة فقال: **(عباد الله زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا)** أي زنوها في الدنيا قبل الوزن في الآخرة فأما الوزن في الدنيا فهو اعتبار الأعمال وضبطها بميزان العدل أي مراعاة الاستقامة على حاق الوسط المصون من طرفي التفريط والإفراط، فإن اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادّة، وأمّا الوزن الأخروي فقد أشير إليه في قوله سبحانه:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: ٩٨].

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٢/ ١٣٧، ومستدرك الوسائل: ٧/ ٢٦٢ ح ٨١٩٦.

(٢) مستدرك الوسائل: ٧/ ٢٦٢ ح ٨١٩٦، وتفسير مجمع البيان: ٢/ ١٣٧.

قال الطبرسي في معناه قيل: إن الوزن عبارة عن العدل في الآخرة وأنه لا ظلم فيها وقيل: إن الله ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة فيوزن به أعمال العباد الحسنات والسيئات، ثم اختلفوا في كيفيّة الوزن لأنَ الأعمال أعراض لا يجوز وزنها فقيل: توزنُ صحائف الأَعمال، وقيل: يظهر علامات الحسنات والسّيئات في الكفتين فيراها الإنسان، وقيل: تظهر الحسنات في صورة حسنة والسّيئات في صورة سيئة، وقيل: توزن نفس المؤمن ونفس الكافر، وقيل: المراد بالوزن ظهور مقدار المؤمن في العظم ومقدار الكافر في الذلة كما قال سبحانه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥][(١)].

---

(١) قال الفيض الكاشاني في كتاب «قرة العيون» في وزن الأعمال: كلّ ما يدركه الإنسان بحواسه يرتفع منه أثر إلى روحه ويجتمع في صحيفة ذاته وخزانة مدركاته، وكذلك كلّ مثقال ذرّة من خير أو شرّ يعمله يرى أثره مكتوباً ثمّة سيّما ما رسخت بسببه الهيئآت وتأكّدت به الصّفات وصار خلقاً وملكة، فإنّ ذلك ممّا يوجب خلود الثواب والعقاب، فكلّ إنسان نفسه صحيفة أعماله وهو كتاب منطو اليوم عن مشاهدة الأبصار، وإنّما ينكشف بالموت ورفع ما تورده الشواغل الحسّية المعبّر عنه بقوله تعالى: **﴿وإذا الصّحف نشرت﴾**. سورة التكوير: ١٠.
فإذا حان حين ذلك وهو يوم تبلى السرائر صار الغيب شهادة والسّر علانيّة والخبر عياناً فيقال: **﴿لقد كنت في غفله من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾**. سورة ق: ٢٢، **﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾**. سورة الجاثية: ٢٩.
فمن كان في غفلة من حساب سرّه فإذا وقع بصره على ذلك والتفت إلى صفحة باطنة وصحيفة قلبه يقول: **﴿ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها﴾**. سورة الكهف: ٤٩.
ثمّ من كان من أهل السعادة وأصحاب اليمين وكانت معلوماته أموراً قدسيّة واعماله صالحة وأخلاقه حسنة فقد أوتي كتابه بيمينه من جهة علّيين، **﴿إنّ كتاب الأبرار لفي علّيين وما أدريك ما علّييون كتاب مرقوم يشهده المقرّبون﴾**. سورة المطففين: ١٨ ـ ٢١، وذلك لأنّ كتابه به جنس الألواح العالية والصحف المكرّمة المرفوعة المطهّرة **﴿بأيدي سفرة كرام بررة﴾**، فليس عليه سوى العرض كما قال سبحانه: **﴿فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه﴾** إلى قوله: **﴿في الأيّام الخالية﴾**. سورة الحاقة: ١٩ ـ ٢٤.
ومن كان من الأشقياء المردودين وكانت معلوماته مقصورة على الجرميّات وأعماله خبيثة وأخلاقه سيّئة فقد أوتي كتابه بشماله من جهة سجّين، **﴿كلا إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين وما أدريك ما سجّين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذّبين﴾**. سورة المطففين: ٧ ـ ١٠، وذلك لأنّ كتابه من جنس الأوراق السفلية والصحائف الحسّية القابلة للاحراق، فلا جرم يعذّب بالنّار كما قال سبحانه: **﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه﴾** إلى قوله: **﴿لا يأكله إلاّ الخاطئون﴾**. سورة الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧.
﴿وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهره﴾. سورة الانشقاق: ١٠ فهم الذين اوتوا الكتاب **﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا﴾**. سورة آل عمران: ١٨٧ فقيل لهم **﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾**. سورة الحديد: ١٣؛ فإنّه حين نبذه وراء ظهره **﴿ظنّ أن لن يحور﴾**. سورة الانشقاق: ١٤ **﴿فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً﴾**. سورة الانشقاق: ١١ ـ ١٢، وميزان كلّ شيء هو المعيار الذي يعرف به قدر ذلك الشيء. قد تقدم من المصنف (قد) في الرابعة من التاسعة تفصيل ذلك فراجع فميزان يوم القيامة ما يوزن به قدر كلّ إنسان وقيمته على حسب عقيدته وخلقه وعمله، **﴿لتجزى كلّ نفس بما كسبت﴾**. سورة الجاثية: ٢٢.
وليس ذلك إلاّ الإمام المعصوم، إذ به وباقتفاء آثاره وترك ذلك والقرب عن طريقته والبعد عنها يعرف مقدار النّاس وقدر حسناتهم وسيئآتهم، فميزان كلّ أُمّة نبي تلك الأمّة ووصي نبيّها والشريعة التي أتى بها **﴿فمن**

(وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا) أي حاسبوها في الدّنيا قبل المحاسبة في الآخرة أما المحاسبة الأخروية فقد مرّ في شرح الكلام الحادي والثمانين تحقيق الكلام فيها وأما المحاسبة الدّنيوية فهي عبارة عن ضبط الإنسان على نفسه أعمالها الخيرية والشرية ليزكيها بما ينبغي لها ويعاقبها على فعل ما لا ينبغي وستطلع على مزيد توضيح لها في ضمن الأخبار الآتية **(وتنفّسوا قبل ضيق الخناق)** وهو استعارة لانتهاز الفرصة للعمل قبل تعذره بحلول الأجل وتعلق حبائل الموت وإنشاب أظفار المنية والفوت **(وانقادوا)** لأوامر الله سبحانه ونواهيه **(قبل عنف السياق)** أي قبل السّوق العنيف وهو سوق ملك الموت بالجذبة المكربة التي تقدّمت الإشارة إليها في شرح الفصل السّابع من فصول الخطبة الثّانية والثمانين.

(واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها

ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾. سورة الأعراف: ٨. ٩، سورة المؤمنون: ١٠٢. ١٠٣. قال الطبرسي أعلا الله مقامه في تفسير قوله تعالى: **﴿والوزن يومئذ الحق﴾** من سورة الأعراف ما ملخصه: ذكر فيه أقوال (أحدها) أن الوزن عبارة عن العدل في الآخرة وأنه لا ظلم فيها على أحد، (ثانيها) أن الله ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة فتوزن به أعمال العباد، (ثالثها) إن المراد بالوزن ظهور مقدار المؤمن في العِظم ومقدار الكافر في الذلة فمن أتى بالعمل الصالح الذي يثقل وزنه أي يعظم قدره فقد أفلح ومن أتى بالعمل السيء الذي لا وزن له ولار قيمة فقد خسر. وقال في كيفية الوزن: واختلفوا في كيفية الوزن لأن الأعمال أعراض ولا تجوز عليها الأعادة لا يكون لها وزن فقيل: توزن صحائف الأعمال، وقيل: تظهر علامات للحسنات وعلامات للسيئات في الكفتين فتراها الناس وقيل: تظهر للحسنات صورة حسنة وللسيئات صورة سيئة وقيل: توزن نفس المؤمن والكافر قال: يؤتى بالرجل العظيم الجثة فلا يزن جناح بعوضة. وقال العلامة المجلسي أعلا الله مقامه في آخر كلامه في باب الميزان من البحار: فنحن نؤمن بالميزان ونرد علمه إلى حملة القرآن ولا نتكلف علم ما لم يوضح لنا بصريح البيان والله الموفق وعليه التكلان.

روى الصدوق بإسناده عن هشام بن سالم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجلّ: **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾**. سورة الأنبياء: ٤٧ قال: «هم الأنبياء والأوصياء». التوحيد: ٢٦٨، معاني الأخبار: ٣٢.

وفي رواية أخرى عنهم **﴿عليهم السلام﴾** «نحن الموازين القسط ليوم القيامة». بحار الأنوار: ٧ / ٢٤٣، وما ورد أنّه يوزن به الصّحف فالمراد بالصّحف النفوس الإنسانيّة كما دريت، وما ورد أن له لساناً وكفّتين فتمثيل للمعنى بالصورة كما ورد في سائر نظائره.

وفي الاحتجاج عن الصّادق عليه السلام إنّه قيل له: أو ليس توزن الأعمال؟ قال: «لا، لأنّ الأعمال ليست أجساماً، وإنّما هي صفة ما عملوا، وإنّما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء، ولا يعرف ثقلها وخفّتها، وإن الله لا يخفى عليه شيء». قيل: فما معنى الميزان؟ قال: «العدل» قال: فما معناه في كتابه **﴿فمن ثقلت موازينه؟﴾** قال: «فمن رجّح عمله». الاحتجاج: ٢ / ٩٨. ٩٩.

وفي كتاب التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: **﴿فأمّا من ثقلت موازينه﴾**. سورة القارعة: ٦ و **﴿من خفّت موازينه﴾**. سورة القارعة: ٨ قال: «الحسنات ثقل الميزان والسّيئآت خفة الميزان». التوحيد: ٢٦٨.

زاجر ولا واعظ) يعني من لم يعنه الله سبحانه على نفسه حتّى يجعل له منها واعظاً وزاجراً لم ينفعه الزّجر والوعظ من غيرها.

والمراد بإعانة الله له أن يعدّ نفسه النّاطقة لقبول الخيرات ويؤيّدها على نفسه الأمّارة بالسّوء حتى تكون مقهورة عندها فيحصل له الاستعداد لقبول المواعظ والزواجر ويكمل له الانتفاع بها.

روى في «الوسائل» عن محمّد بن إدريس في «السّرائر» نقلاً من كتاب «المشيخة» للحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثمالي قال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: ابن آدم إنّك لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك، وما كانت المحاسبة من همّتك، وما كان الخوف لك شعاراً والحزن لك دثاراً، ابن آدم إنّك ميّت ومبعوث وموقوف بين يدي الله عزّ وجلّ فأعدّ جواباً[1].

إيقاظ في ذكر نبذ من الأخبار الواردة في محاسبة النفس وبيان كيفية المحاسبة فأقول

روى في «الوسائل» من «الكافي» بإسناده عن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه[2].

ومن «الخصال» و«معاني الأخبار» للصدوق مسنداً عن عطاء عن أبي ذر «ره» في حديث قال: قلت: يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال صلى الله عليه وآله: كانت أمثالاً كلّها أيّها الملك المبتلى المغرور إنّي لم أبعثك لتجمع الدّنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عنّي دعوة المظلوم فإنّي لا أردّها وإن كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكّر فيها صنع الله إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال فإن هذه الساعة عون لتلك السّاعات واستجمام للقلوب وتفريغ لها[3].

ومن مجالس الشيخ بإسناده عن أبي ذر ره، في وصيّة النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: «يا أبا ذر حاسب نفسك قبل أن تحاسب فإنّه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزن، وتجهز

---

(١) تحف العقول: ٢٨٠، ووسائل الشيعة: ١٦/٩٦ ح ٢١٠٧٦.

(٢) الكافي: ٢/٤٥٣ ح ١، وتحف العقول: ٣٩٦.

(٣) وسائل الشيعة: ١١/٣٨٧ ح ٤، وبحار الأنوار: ١٢/٧١ ح ١٤.

للعرض الأكبر يوم تعرض لا تخفى على الله خافية إلى أن قال: يا أبا ذر لا يكون الرّجل من المتّقين حتّى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه من حلال أو من حرام، يا أبا ذر من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النّار»[1].

ومن تفسير العسكري عن آبائه عن عليّ عن النّبي سلام الله عليه وعليهم قال عليه السلام: أكيس الكيّسين من حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت، فقال رجل: يا أمير المؤمنين كيف يحاسب نفسه؟ قال: إذا أصبح ثمّ أمسى رجع إلى نفسه وقال: يا نفس إنّ هذا يوم مضى عليك لا يعود إليك أبداً والله يسألك عنه بما أفنيته فما الذي عملت فيه أذكرت الله أم حمدته أقضيت حوائج مؤمن فيه أنفست عنه كربة أحفظته بظهر الغيب في أهله وولده أحفظته بعد الموت في مخلفيه أكففت عن غيبة أخ مؤمن أعنت مسلماً ما الذي صنعت فيه؟ فيذكر ما كان منه فإن ذكر أنه جرى منه خير حمد الله وكبّره على توفيقه، وإن ذكر معصيةً أو تقصيراً استغفر الله وعزم على ترك معاودته[2].

وعن عليّ بن موسى بن طاوس في كتاب محاسبة النّفس قال: ورأيت في كتاب مسعدة بن زياد من أصول الشيعة فيما رواه عن الصّادق عليه السلام عن أبيه قال: اللّيل إذا أقبل نادى مناد بصوت يسمعه الخلائق إلاّ الثقلين يا ابن آدم إنّي خلق جديد إنّي على ما فيّ شهيد فخذ منّي فإنّي لو طلعت الشّمس لم أرجع إلى الدّنيا ولم تزدد فيّ من حسنة ولم تستعتب فيّ من سيئة وكذلك يقول النّهار إذا أدبر اللّيل[3]، وبالله التّوفيق.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام انام است عليه الصلوةوالسلام كه فاتحه اش متضمّن است بعض صفات كماليه الهيّه را و خاتمه اش مشتمل است بر موعظه و نصيحت مى فرمايد:

حمد و ثنا خداوند معبود به حقى را سزا است كه شناخته شده است بى حس و بصر و خلق نموده بى فكر و نظر، آنچنان پروردگارى كه دايم است بالذات و متصف است به بقا و ثبات در وقتى كه نبود هيچ آسمان صاحب برج ها و نه حجاب هاى صاحب درها و نه شب

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦/٩٨ ح ٢١٠٨٠، وسائل الشيعة: ١١/٣٧٩ ح ٢١٠٨٠.
(٢) وسائل الشيعة: ١٦/٩٨ ح ٢١٠٨١، وبحار الأنوار: ٦٧/٧٠.
(٣) وسائل الشيعة: ١٦/٩٩ ح ٢١٠٨٥، ومستدرك الوسائل: ٥/٢٠٤ ح ٥٦٩٩.

تاريك و نه بحر ساكن غيرمتحرك و نه كوهى كه صاحب راه هاى فراخ است و نه راه هاى فراخ كه متصف است به اعوجاج و كجى و نه زمينى كه صاحب فرش است و قرار و نه خلقى كه صاحب قوّت است و اقتدار.

اين ذات موصوف به صفات كمالات آفريننده خلايق است و وارث ايشان و معبود مخلوقات است و رزق دهنده ايشان و آفتاب تابنده و ماه درخشنده حركت كننده اند به عادت مستمره بر طبق رضاى او در حالتى كه فانى مى كنند هر جديد را و نزديك مى نمايند هر بعيد را، قسمت فرموده است روزى هاى خلق را و شمرده است اثرها و عمل هاى ايشان را و تعداد نموده نفس هاى ايشان را و عالم است به خيانت چشم هاى ايشان و به آنچه پنهان مى كند سينه هاى ايشان از آنچه كه در دل مى گيرند از قصد عصيان و غير آن و دانا است به قرارگاه و محل وديعه ايشان از ارحام مادران و اصلاب پدران تا آنكه به نهايت مى رسد ايشان را غايت ها؛ يعنى خبير است به جميع احوال و اعمال ايشان از ابتدا تا انتها.

آن خداوندى كه شديد است عقوبت او بر اعداء خود در وسعت رحمت او و وسعت دارد رحمت او بر اولياء خود در شدت عقوبت او، قهركننده كسى است كه غلبه گى جويد بر او و هلاك كننده كسى است كه نزاع كند با او و ذليل كننده كسى است كه عناد ورزد با او و غلبه كننده كسى است كه عداوت نمايد او را، هركه توكل كرد بر او كفايت نمود او را و هركس سؤال كرد از او عطا فرمود او را و هركه قرض داد به او و مال خود را در راه او صرف نمود، عوض داد به او و هر كه شكرانه نعمت او را به جا آورد جزاى خير داد به او.

اى بندگان خدا بسنجيد نفس هاى خود را به ميزان عدل در دنيا پيش از آنكه سنجيده شويد به ميزان عمل در آخرت و محاسبه كنيد با نفس هاى خود پيش از آن كه به مقام محاسبه آورده شويد در قيامت و نفس زنيد و فرصت غنيمت شماريد پيش از تنگ شدن گلو و مطيع و منقاد باشيد پيش از رانده شدن با مشقت به سوى آخرت.

و بدانيد آن كسى كه اعانت فرموده نشده بر نفس خود تا آنكه باشد او را از آن نفس پنددهنده و زجركننده، نيست او را از غير نفس او زجركننده و نه پنددهنده؛ يعنى كسى كه اعانت نفرموده باشد خداوند او را بر غلبه نفس امّاره او تا اينكه مستعد و قابل شود بر قبول موعظه و نصيحت از پيش خود ثمرى نمى بخشد او را موعظه و نصيحت ديگران؛ والله اعلم.

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح وهي التسعون من المختار في باب الخطب

وهي من خطبه المشهورة روى بعض فقراتها المحدث العلاّمة المجلسي (ره) في «البحار» من كتاب «مطالب السّؤول» لمحمّد بن طلحة الشافعي، ورواها الصّدوق في التّوحيد مسنداً باختصار واختلاف كثير لما أورده السّيد (ره) في الكتاب.

قال: حدّثني عليّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقّاق (ره)، قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبد الله الكوفي، قال: حدّثنا محمّد بن إسماعيل البرمكيّ، قال: حدّثني عليّ بن العبّاس، قال: حدّثني إسماعيل بن مهران الكوفيّ عن إسماعيل بن إسحاق الجهني عن فرج بن فروة عن مسعدة بن صدقة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على المنبر بالكوفة إذ قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين صف لنا ربّك تبارك وتعالى لنزداد له حبّاً وبه معرفة، فغضب أمير المؤمنين ونادى: الصّلاة جامعة فاجتمع النّاس حتّى غصّ المسجد بأهله ثمّ قام متغيّر اللّون فقال: الحمد لله إلى آخر ما رواه هذا، وشرح ما أورده السّيد (ره) هنا في ضمن فصول:

الفصل الأول

قال السّيد (ره): وهي من جلائل خطبه عليه السلام وكان سأله سائل أن يصف الله له حتّى كأنّه يره عياناً، فغضب عليه السلام لذلك:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لا يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ، وَلا يُكْدِيهِ الإِعْطاءُ وَالْجُودُ.

إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِواهُ، وكُلُّ مانِعٍ مَذْمُومٌ ما خَلاهُ، هُوَ الْمَنّانُ بِفَوائِدِ النِّعَم، وعَوائِدِ الْمزيدِ وَالْقِسَم، عِيالُهُ الْخَلْقُ، ضَمِنَ أَرْزاقَهُمْ، وقَدَّرَ أَقْواتَهُمْ وَنَهَجَ سَبيلَ الرّاغِبينَ إِلَيْهِ، وَالطّالِبينَ مَا لَدَيْهِ، ولَيْسَ بِما سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِما لَمْ يُسْأَل، الأَوَّلُ الَّذي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَالآخِرُ الَّذي لَيْسَ لَهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، وَالرّادِعُ أَناسِيَّ الأَبْصارِ عَنْ أَنْ تَنالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحَالُ، ولا كانَ في مَكانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانْتِقالُ، وَلَوْ وَهَبَ ما تَنَفَّسَتْ عَنْهُ الْحالُ، ولا كانَ في مَكانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانْتِقالُ، وَلَوْ وَهَبَ ما تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعادِنُ الْجِبالِ، وضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدافُ الْبِحارِ مِنْ فِلِزِّ اللُّجينِ وَالْعِقْيانِ، ونُثارَةِ الدُّرِّ وحَصيدِ الْمَرْجانِ، ما أَثَّرَ ذَلِكَ في جُودِهِ، وَلاَ أَنْفَدَ سِعَةَ ما عِنْدَهُ، ولَكانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخائِرِ الأَنْعامِ، ما لا

تَنفذهُ مَطالِبُ الأنَامِ، لأنَّهُ الْجَوادُ الَّذي لا يَغيضُهُ سُؤالُ السّائِلينَ، وَلاَ يُبْخِلُهُ إلْحاحُ الْمُلِحِّينَ[1].

اللغة

(**الأشباح**) جمع الشبح وهو الشخص كالأسباب والسبب و(**وفر**) الشيء يفر من باب وعد وفوراً تمّ وكمل، ووفرته وفراً من باب وعد أيضاً أتممته وأكملته يتعدى ولا يتعدى والمصدر فارق و(**اكدى**) الرّجل إذا بخل أو قلّ خيره أو قلل عطائه قال سبحانه: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ [النجم: ٣٤].

وأصله كدى كرمى ومنه أرض كادئة بطيئة الإنبات و(**الأناسي**) جمع الإنسان وهو المثال الّذي يرى في سواد العين و(**الأصداف**) جمع الصدف بالتّحريك وهو غشاء الدّر و(**الفلز**) بكسر (**الفاء**) (**واللام**) وتشديد (**الزاء**) وكعتل. قال في «القاموس»: نحاس أبيض تجعل منه القدور المفرغة أو خبث الحديث أو الحجارة أو جواهر الأرض كلها أو ما ينفيه الكير من كل ما يذاب منها و(**العقيان**) الذّهب الخالص ويقال: هو ما ينبت نباتاً وليس ممّا يحصل من الحجارة و(**نثارة**) الدر ما تناثر منه.

قال الشّارح المعتزلي: وتأتي فعالة تارة للجيد المختار وتارة للسّاقط المتروك فالأوّل نحو الخلاصة والثاني نحو القلامة و(**الدر**) جمع الدّرة وهي اللّؤلؤة العظيمة و(**غاض**) الماء نقص وغاضه الله كإغاضه أنقصه يتعدى بنفسه وبالهمز و(**أبخلته**) وجدته بخيلاً.

الإعراب

قوله عليه السلام: (**وكل مانع مذموم ما خلاه**) الأصل في خلا أنه لازم يتعدى إلى المفعول (**بمن**) نحو خلت الدار من الأنيس، وقد تضمن معنى جاوز فيتعدى بنفسه كقولهم: افعل هذا وخلاك ذم أي جاوزك.

قال الرّضي: وألزموها هذا التضمن في باب الاستثناء فيكون ما بعدها في صورة المستثنى (**بإلاّ**) التي هي أمّ الباب ولهذا الغرض التزموا إضمار فاعله إلى أن قال: وفاعل خلا عند النحاة بعضهم، وفيه نظر لأن المقصود في جاءني القوم خلا زيداً أنّ زيداً لم يكن معهم أصلاً ولا يلزم من مجاوزة بعض القوم إياه وخلو بعضهم منه مجاوزة الكلّ وخلوّ الكل، والأولى أن يضمر فيه ضمير راجعاً إلى مصدر الفعل المتقدم أي جاءني القوم خلا مجيئهم زيداً، كقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

(١) بحار الأنوار: ٥٤/١٠٧، ونهج السعادة: ١/٥٤٤.

فيكون مفسر الضمير سياق القول، هذا.

(وما) فيه مصدرية ولذلك التزم انتصاب ما بعده لأنَ **(ما)** المصدرية تدخل على الفعلية غالباً، والاسمية قليلاً وليس بعدها اسمية فتعين الفعلية فتعين أن يكون فعلاً فوجب النصب والمضاف محذوف أي وقت ما خلا مجيئهم زيداً، وذلك أن الحين كثيراً ما يحذف مع **(ما)** المصدرية نحو: ما ذر شارق ونحوه ذكر ذلك كله نجم الأئمة الرضى **(ره)**.

قال: وجوّز الجرمي الجر بعد ماخلا وما عدا على أن **(ما)** زائدة، ولم يثبت، انتهى.

أقول: حمل **(ما)** على الزيادة في كلام الإمام عليه السلام على تقدير ثبوته أقرب إلى المعنى كما لا يخفى، وحملها على المصدرية محتاج إلى التكلف كما هو غير خفي على الفطن العارف، وإضافة الفوائد إلى النعم بيانية، وفي قوله **(وعوائد المزيد)** من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، **(والقسم)** عطف على **(العوائد)**، وجملة **(ضمن)** في محل النصب على الحالية من ضمير عياله.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة كما ذكره السيد (ره) من جلائل خطبه عليه السلام ومشاهرها وتسمى بخطبة الأشباح لاشتمالها على ذكر الأشباح والأشخاص من الملائكة وكيفية خلقهم وبيان أقسامهم، ولعل غضبه عليه السلام على السائل من أجل أن غرض السائل كان وصفه تعالى بصفات الأجسام وزعمه جواز معرفته سبحانه بالاكتناه كما يشهد به قوله: **(كأنه يراه عياناً)**، فغضب عليه السلام لذلك وتغير لونه لأجل ذلك ووصفه بأوصاف العزّ والكمال وصفات الجبروت والجلال فقال:

(الحمد لله الذي لا يفره المنع والجمود) أي لا يوجب وفور ماله المنع والإمساك **(ولا يكديه الإعطاء والجود)** أي لا يقلل إعطاءه البذل والإحسان يقول عليه السلام: إنه سبحانه ليس كملوك الدنيا يتزيد بالإمساك وينتقص بالإنفاق إذ مقدوراته سبحانه غير متناهية وما عنده لا يدخله نقص ولا فناء، بل يدخلان الفاني المحدود ويشهد به ما مر في شرح الخطبة السابقة من الحديث القدسي: **(يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً إلاّ كما ينقص المخيط إذا دخل البحر)** أي لا ينقص شيئاً.

وإلى ما ذكرنا أشار عليه السلام بقوله: **(إذ كل معط منتقص سواه)** وبحار فضله لا ينقص بالإفضال، وخزائن كرمه لا تقل بالإنعام والنوال.

ولما نبه عليه السلام على عدم إمكان دخول النقصان في بحر فضله وجوده أردف ذلك بنفي لحوق الذم بمنعه على وجوده بقوله: **(وكل مانع مذموم ما خلاه)** وذلك لأنَ كل مانع غيره إنما

يمنع لخوف الضيق والمسكنة وخشية الفقر والفاقة أو بخل نفسه الأمارة، فحري أن تلحقه المذمة والملامة وأما الله القدوس السبحان فلما كان منزهاً عن صفات النقصان؛ ومحالاً أن يلحقه طواريء الإمكان، فليس منعه لضيق أو بخل، وإنّما يمنع بمقتضى حكمة بالغة وداعي مصلحة خفية أو ظاهرة، فمنعه في الحقيقة عين الفضل والإحسان والعطاء والامتنان.

كما ورد في الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك»[١].

وفي حديث آخر: وإن من عبادي المؤمنين لعباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم فصلح إليهم أمر دينهم وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين[٢].

فيصلح **(هو المنان فوائد النعم)** أي كثير الإنعام على العباد والمعطي لهم ابتداء من غير سبق سؤال، وبه فسّره الفيروزآبادي.

ويدلّ عليه ما رواه الطريحي قال: وفي حديث عليّ عليه السلام وقد سئل عن الحنّان والمنّان فقال: الحنّان هو الذي يقبل على من أعرض عنه، والمنّان هو الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال[٣].

وبذلك ظهر أن جعل المنّان مبالغة في المنّة وإظهار الاصطناع كما في شرح البحراني ممّا لا وجه له بل هو تفسير بالرأي في مقابلة النصّ، ولا بأس بذكر كلامه لتوضيح مرامه.

قال في شرح هذه الفقرة: المنة تذكير المنعم للمنعم عليه بنعمته والتطاول عليه بها كقوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

في غير موضع من كتابه وهي صفة مدح للحق سبحانه وإن كان صفة ذم لخلقه. والسّبب الفارق أن كلّ منعم سواه يحتمل أن يتوقع لنعمته جزاء ويستفيد كمالاً يعود إليه ممّا أفاده، وأيسره توقع الذكر ويقبح ممّن يعامل بنعمته ويتوقع جزاء أن يمنّ بها لما يسلتزمه المن من التّطاول والكبر وتوقع الجزاء والحاجة إليه مع التّطاول والكبر مما لا يجتمعان في العرف، إذ التّطاول والكبر إنما يليقان بالغنى عن ثمرة ما تطاول به إلى آخر ما ذكره.

أقول: أمّا قبح الامتنان من المخلوق فممّا لا ريب فيه، لكونه ناشئاً من خسّة النفس ودناءة الهمّة ولذلك مدح الله سبحانه عباده المتقين بما حكى عنهم بقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩].

---

(١) عوالي اللئالي: ٢/١٠٨، وتفسير مجمع البيان: ٩/٥٢.
(٢) الكافي: ٢/٦٠، وشرح أصول الكافي: ٨/١٩٩ ح ٣.
(٣) مستدرك سفينة البحار: ٢/٤٥١، ومجمع البحرين: ١/٥٩٠.

كما أنه لا ريب في جوازه على الله سبحانه، ويدلّ عليه صريح الكتاب والسّنة، وأما جعل المنّان من أسمائه سبحانه بذلك المعنى فلا دليل عليه، بل الدليل قائم على خلافه حسبما عرفت، مع أن إرادة هذا المعنى في هذا المقام أعني كلام الإمام عليه السلام على فرض ثبوت أصله ممّا يأبى عنه الذوق السّليم والطبع المستقيم إذ المعنى الذي ذكرنا أولى بالتمدح منه كما لا يخفى، هذا.

وما أبعد ما بين ما ذكره الشّارح وما ذهب إليه السّيد عليخان شارح الصحيفة السّجادية من نفي جواز المنة على الله رأساً كعدم جوازه على الخلق حيث قال في شرح دعاء طلب الحوائج عند شرح قوله عليه السلام: **(يا من لا يبيع نعمه بالأثمان، ويا من لا يكدّر عطاياه بالامتنان)**: الامتنان افتعال من المنّ وهو إظهار الاصطناع واعتداد الصنائع كأن تقول: ألم أعطك كذا، ألم أحسن إليك، ألم أغنك؟ وهو تعبير يكدّر المعروف وينغصه، فلهذا نهى الشارح عنه بقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ومن هنا قيل: سيّان من منح النائل ومنّ، ومن منح السّائل وضنّ، والمراد بنفي تكديره تعالى عطاياه بالامتنان نفي الامتنان عنه رأساً فهو من باب نفي الشيء بلازمه أي لا امتنان فلا تكدير.

ثمّ لما كان الامتنان بالمعنى المذكور رذيلة ناشئة عن دناءة النّفس وصغر الهمة واستعظام النعمة والإحسان كان تعالى منزّه عن الامتنان، لأن كلّ نعمة من نعمه تعالى وإن عظمت وكلّ عطيّة من عطاياه وإن جلّت بالنّسبة إلى العبد المعطي والمنعم عليه فهي حقيرة بالنّسبة إلى عظمته جلّت قدرته، وشأنه تعالى أجلّ من أن تكون لها عنده موقع فيمنّ بها ويعتدّ بها على من أعطاه وأنعم عليه، وقول بعض العلماء: إنّ المنّة بالمعنى المذكور صفة مدح للحقّ سبحانه وإن كان صفة ذمّ للمخلوق ليس بشيء وعبارة الدّعاء تشهد ببطلانه، انتهى.

أقول: والإنصاف أن نفي الامتنان عنه سبحانه رأساً لا وجه له مع نصّ الآية الشّريفة أعني قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

بخلافه ودلالة الآيات الواردة في مقام الامتنان عليه بل المنفي عنه هو الامتنان المتصور في الخلائق.

بيان ذلك أن الامتنان من المنعم على المنعم عليه تارة يكون لإرادة مكافأة الأنعام وطلب العوض من الثّواب الآجل والثناء العاجل، وبعبارة أخرى لتوقع منفعة عائدة على المنعم بإنعامه، وأخرى إرادة تذكّر المنعم عليه للنّعمة واستعداده بذلك لقبول نعمة أخرى وتحصيل منفعة ثانية من دون أن يكون للمنعم فيه تحصيل فائدة واكتساب منفعة لنفسه أصلاً.

فالامتنان على الوجه الأوّل هو القبيح وإليه يعود منه الخلائق، وأمّا الثاني فلا قبح فيه

أصلاً بل هو حسن يشهد به الوجدان فلا غبار على جوازه على الله سبحانه وعلى ما حققته فمعنى قوله ﷺ: **(يا من لا يكدّر عطاياه بالامتنان)**: أن امتنانه لا يوجب التكدّر كما يوجبه امتنان غيره إذ غرضه تعالى منه ليس إلاّ محض التّفضل والتّطول وإيصال نعمة أخرى إلى الممتنّ عليه، وغرض غيره منه تحصيل منفعة لنفسه فمنّته تكشف عن عدم خلوص إحسانه وكونه مشوباً بالأغراض النّفسانية، وعلى ذلك فالمنفي في كلام الإمام ﷺ هو التكدير لا أصل الامتنان وإلاّ امتنع الجمع بينه وبين الأدلّة الدّالة على الامتنان ويكون مناقضاً صريحاً لها، فافهم واغتنم، والله العالم.

وقوله: **(وعوائد المزيد والقسم)** قال البحرانيّ: أي معتادهما، وهو سهو إذ العوائد جمع العائدة لا العادة حتّى يكون بمعنى المعتاد، والعائدة كما في «القاموس» المعروف والصّلة والعطف والمنفعة، والمزيد مصدر إما بمعنى الفاعل أو المفعول وإضافة العائدة إليه من باب إضافة الموصوف إلى صفته لا بالعكس كما هو لازم ما فسّره البحراني، والمراد أنّه سبحانه منّان على العباد بصلاته وعطوفاته الزائدة أو المزيد وقسمه المقدرة.

(عياله الخلق ضمن أرزاقهم وقدّر أقواتهم) لما كان عيال الرّجال عبارة عمن يمونه وينفق عليه ويصلح حاله استعار لفظه للخلائق بالنّسبة إلى ربّهم لخلقه لهم وتربيته في حقّهم وإصلاحه حالهم في المعاش والمعاد.

قال البحراني: واستعار لفظ الضّمان لما وجب في الحكمة الإلهيّة من وجود ما لا بدّ منه في تدبير إصلاح حالهم من الأقوات والأرزاق وتقدير أقواتهم إعطاء كلّ ما كتب له في اللّوح المحفوظ من زائد وناقص، انتهى، وهذا هو المشار إليه بقوله سبحانه:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

واعلم أن الرزق في اللّغة هو العطاء ويطلق على النصيب المعطى، وأمّا في العرف فقالت الأشاعرة: هو مطلق ما ينتفع به حيّ مباحاً كان أو حراماً بالتغذي أو بغيره، وذهب أصحابنا كالمعتزلة إلى أنه ما صحّ انتفاع الحيوان به وليس لأحد منعه منه فلا يكون الحرام رزقاً، لأنّ الله سبحانه منع من الانتفاع به وأمر بالزّجر عنه ولا بأس بذكر أدلّة الطرفين ليتّضح الحق من البين.

فأقول: استدلّ الأشاعرة بما رووه عن صفوان بن أميّة قال: كنّا عند رسول الله ﷺ إذ جاء عمر بن قرّة فقال: يا رسول الله إنّ الله كتب عليّ الشّقوة فلا أراني أرزق إلاّ من دفي يكفي فأذن لي في الغناء، فقال ﷺ: «لا آذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت أي عدوّ الله والله لقد رزقك الله حلالاً طيباً، فاخترت ما حرّم الله عليك مكان ما أحلّ الله لك من حلاله»[1]،

(١) بحار الأنوار: ٥/ ١٥٠، ونور البراهين: ٢/ ٣٢٥.

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

تقريب الاستدلال ما ذكره الفخر الرّازي في التفسير الكبير حيث قال: تعلّق أصحابنا بهذه الآية في إثبات أن الرّزق قد يكون حراماً قالوا: لأنّه ثبت أن إيصال الرّزق إلى كلّ حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق، والله تعالى لا يخلّ بالواجب، ثمّ قد نرى إنساناً لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقاً لكان الله تعالى ما أوصل رزقه إليه فيكون تعالى قد أخلّ بالواجب وذلك محال، فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقاً.

وأجيب عن الأوّل تارة بالطّعن في السّند، وأخرى بأنّه على تقدير صحّته لا بد من تأويله بأن إطلاق الرّزق على الحرام فيه لمشاكلة قوله فلا أراني أرزق، على حد قوله: ومكروا ومكر الله، وباب المشاكلة وإن كان نوعاً من المجاز لكنه واسع كثير الورود في الكتاب والسنة معروف الاستعمال في نظم البلغاء ونثرهم فلا بد من المصير إليه جمعاً بين الأدلّة.

وعن الثّاني يمنع وجود مادة النقض إذ لا نسلم وجود حيوان لا يرزق إلاّ بالحرام مدّة عمره، أمّا غير الإنسان فواضح إذ لا يتصور بالنّسبة إليه حلّ ولا حرمة.

أمّا الإنسان فلأنّه في أيّام الصّبا وعدم التّكليف لا يتّصف ما يأكله بالحرمة كعدم اتصافه بالإباحة، بل هو كالحيوان في عدم اتصاف أفعاله بشيء من الأحكام الخمسة.

وأما بعد البلوغ فلأنّه بعد ما كان الرّزق أعم من الغذاءِ باتفاق المعتزلة والأشاعرة يشمل التنفّس في الهواء ومعلوم أنه مباح في حقّه قطعاً فلم يوجد حيوان لا يرزق إلاّ بالحرام طول عمره، ويوضحه أنّه لو مات إنسان قبل أن يأكل شيئاً حلالاً أو حراماً لزم أن يكون غير مرزوق فما هو جواب الأشاعرة فهو جوابنا.

واستدلّ المعتزلة على المذهب المختار بقوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

حيث مدحهم بإنفاقهم من رزقه فلا بد أن يكون الرّزق حلالاً إذ الإنفاق من الحرام بمعزل عن إيجاب المدح.

أقول: ولا يخفى ما فيه: إذ يجوز جعل (من) تبعيضيّة فيكون معنى الآية أنّهم ينفقون بعض ما رزقهم الله، ومدحهم بذلك يستلزم أن يكون ما أنفقوه حلالاً ولا يستلزم أن يكون جميع ما رزقهم الله حلالاً، وهو واضح.

واستدل بعض أصحابنا بما رواها العامة والخاصّة من خطبته ﷺ في حجة الوداع وهي صريحة غير قابلة للتّأويل. ورواها الكليني بإسناده إلى الإمام أبي جعفر محمّد بن علي

الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: ألاَ إن الرّوح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتّى تستكمل رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرّزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً، فمن اتقى الله وصبر أتاه رزقه من حلّه، ومن هتك حجاب ستر الله وعجل وأخذه من غير حلّه قصّ به من رزقه الحلال وحوسب عليه يوم القيامة[١]، هذا.

وبقي الكلام في أن الرزق هل يقبل الزيادة والنّقصان بالسّعي وعدمه ظاهر بعض الأخبار العدم، وهو ما رواه في «الكافي» بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: أيّها النّاس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به ألا وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال إنّ المال مسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم وضمنه وسيفي لكم، والعلم مخزون عند أهله وقد أمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه[٢].

وفي دعاء الصّحيفة السجادية على صاحبها آلاف الصّلاة والسّلام والتّحية: جعل لكل روح منهم قوتاً معلوماً مقسوماً من رزقه لا ينقص من زاده ناقص ولا يزيد من نقص منهم زائد[٣].

يعني أن من زاد الله رزقه منهم لا ينقصه ناقص، ومن نقصه سبحانه لا يزيده زائد، وتقديم المفعول في الفقرتين لمزيد الاعتناء ببيان فعله من الزيادة والنقصان وهو نصّ في أن غيره تعالى لا يستطيع أن يتصرف في الرزق المقسوم بالزيادة والنقص.

وفي رواية أخرى: إن أرزاقكم تطلبكم كما تطلبكم آجالكم فلن تفوتوا الأرزاق كما لم تفوتوا الآجال.

والمستفاد من الأدلة الأخر مدخلية الطلب والسّعي فيها، مثل ما رواه في «الوسائل» من «كنز الفوائد» للكراجكي قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: الدّنيا دول فاطلب حظك منها بأجمل الطلب[٤].

وفيه عن شيخنا الطوسي قدس الله روحه بإسناده عن عليّ بن عبد العزيز قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما فعل عمر بن مسلم؟ قلت: جعلت فداك أقبل على العبادة وترك التجارة، فقال: ويحه أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له دعوة، إن قوماً من أصحاب

---

(١) شرح أصول الكافي: ٨/ ٢٣٦، الفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٢٧٠.
(٢) الكافي: ١/ ٣٠ ح ٤، وشرح أصول الكافي ٢/ ٧ ح ٤.
(٣) الصحيفة السجادية: ٢٢.
(٤) الخصال: ٦٣٣، ووسائل الشيعة ١٧/ ٤٧ ح ٢١٩٤٧.

رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فقال: «ما حملكم على ما صنعتم؟» فقالوا: يا رسول الله تكفّل الله لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، فقال: «إنّه من فعل ذلك لم يستجب له عليكم بالطلب»[1].

وعن الكليني بإسناده عن عمر بن يزيد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: أرأيت لو أنّ رجلاً دخل بيته وأغلق بابه أكان يسقط عليه شيء من السّماء؟

وعن أحمد بن فهد في «عدّة الدّاعي» عن عمر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إني لأركب في الحاجة التي كفانيها الله، ما أركب فيها إلاّ الالتماس أن يراني الله أضحي في طلب الحلال أما تسمع قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

أرأيت لو أنّ رجلاً دخل بيتاً وطين عليه بابه وقال: رزقي ينزل عليّ كأين يكون هذا أما أنّه يكون أحد الثّلاثة الذين لا يستجاب لهم دعوة، قلت: من هؤلاء؟ قال عليه السلام: رجل عنده المرأة فيدعو عليها فلا يستجاب له، لأنّ عصمتها في يده ولو شاء أن يخلي سبيلها، والرّجل يكون له الحق على الرجل فلا يشهد عليه فيجحد حقه فيدعو عليه فلا يستجاب له لأنه ترك ما أمر به، والرجل يكون عنده الشّيء فيجلس في بيته فلا ينتشر ولا يطلب ولا يلتمس الرّزق حتّى يأكله فيدعو فلا يستجاب له[2]، وبمعناها روايات أخر.

ويمكن الجمع بينها وبين الأخبار السّابقة بجعل الرزق على قسمين: **أحدهما**: ما ليس للطلب والسعي مدخلية فيه، **والثاني**: ما لا ينال إلاّ بالطلب فيحمل الأخبار السّابقة على القسم الأوّل، والأدلة الأخيرة على القسم الثّاني.

ويشهد على هذا الجمع ما رواه في «الوسائل» من «مقنعة المفيد» قال: قال الصادق عليه السلام: الرزق مقسوم على ضربين: **أحدهما**: واصل إلى صاحبه وإن لم يطلبه، **والآخر**: معلق بطلبه فالذي قسم للعبد على كل حال آتيه وإن لم يسع له والذي قسم له بالسّعي فينبغي أن يلتمسه من وجوهه وهو ما أحلّه الله دون غيره، فإن طلبه من جهة الحرام فوجده حسب عليه يرزقه وحوسب به[3].

---

(١) الكافي: ٥/ ٨٤ ح ٥، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٩٢ ح ٣٧٢١.
(٢) وسائل الشيعة: ١٧/ ٢٨ ح ٢١٨٩٦، ونهج السعادة: ٧/ ٣٣٦.
(٣) وسائل الشيعة: ١٧/ ٤٧ ح ٢١٩٤٦، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٢٧٣ ح ٢٩٦.

(ونهج سبيل الراغبين إليه والطالبين ما لديه) كما قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨].

أراد أنّه تعالى أوضح السّبيل للراغبين إلى النظر إلى وجهه الكريم، والطالبين لما عنده من الفوز العظيم بما وضعه لهم من الشرع القويم والدين المستقيم **(وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل)** تنزيه له سبحانه عن صفات الخلق فإنّهم يتحركون بالسؤال وتهزهم الطلبات فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألوا، لكونه أسهل عندهم وأقرب إلى الإنجاح، إذ السائل لا يسأل ما ليس في وسع المسؤول عنه وما هو أعزّ عنده ولذلك كانوا بما سئلوا أجود، وأما الله تبارك وتعالى فليس في عموم جوده وخزانة كرمه تفاوت بين المسؤول وغير المسؤول.

بيان ذلك على ما حققه الشّارح البحراني (ره) أن فيضان ما صدر عنه سبحانه له اعتباران:

أحدهما: بالنظر إلى جوده، وهو من تلك الجهة غير مختلف في جميع الموجودات بل نسبتها إليه على سواء بذلك الاعتبار فلا يقال: هو بكذا أجود منه بكذا وإلاّ لاستلزم ذلك أن يكون ببعض الأشياء أبخل أو إليها أحوج فيلزمه النقصان تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الثاني: بالنظر إلى الممكن نفسه، والاختلاف الواقع في القرب والبعد إلى جوده إنّما هو من تلك الجهة فكل ممكن كان أتم استعداداً وأقبل للوجود وأقل شرطاً ومعانداً كان أقرب إلى جوده.

إذا عرفت ذلك ظهر لك أن السّائل إن حصل له ما سأله من الله دون ما لم يسأل فليس حرمانه مما لم يسأل لعزّته عند الله، وليس بينه وبين المسؤول بالنسبة إلى جوده تفاوت، بل إنّما خصّ بالمسؤول لوجوب وجوده له عند تمام قبوله له بسؤاله دون ما لم يسأله ولو سأل ما لم يسأله واستحق وجوده لما كان في الجود الإلهي بخل به ولا منع في حقه، وإن عظم خطره وجلّ قدره ولم يكن له أثر نقصان في خزائن ملكه وعموم جوده.

(الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده) قد سبق في شرح الخطبة الرابعة والستين معنى أوليّته وآخريته تعالى وظهر لك هناك أنّ أوليّته لا تنافي آخريّته، وآخريّته لا تنافي أوليّته ونزيد هنا بياناً ونقول: إن الأشياء في سلسلة الوجود بداية ونهاية منتهية إليه سبحانه، فهو أوّل الأشياء وآخرها ليس شيء قبله ولا شيء بعده.

قال النيسابوري في تفسيره: معنى الأول والآخر أنه أوّل في ترتيب الوجود وآخر إذا عكس الترتيب، فإنه ينطبق على السلسلة المترتبة من العلل إلى المعلولات ومن الأشرف إلى الأخس وعلى الأخذ من الوحدة إلى الكثرة مما يلي الأزل إلى ما يلي الأبد ومما يلي المحيط

إلى ما يقرب من المركز، فهو تعالى أوّل بالترتيب الطبيعي وآخر بالترتيب المنعكس، انتهى.

ومراده بالترتيب المنعكس أن الأشياء إذا نسبت إلى أسبابها وقفت عنده، وذلك أنك إذا نظرت إلى وجود شيء وفتّشت عن سببه ثم عن سبب سببه وهكذا فتنتهي بالآخرة إليه تعالى، لأنّه آخر ما ينحلّ إليه اجتماع أسباب الشيء، فظهر بذلك أن كونه أوّلاً وآخراً إنما هو بالنّظر إلى ذاته المقدس لا باعتبار تقدّمه زماناً وتأخره زماناً، لكون الزمان متأخراً عنه تعالى إذ هو من لواحق الحركة المتأخرة عن الجسم المتأخر عن علّته، فلا تلحقه القبليّة والبعديّة الزمانية فضلاً أن تسبق عليه أو تلحق به، فلم يكن شيء قبله ولا بعده لا من الزمانيات ولا من غيرها.

وذكر الشّارح المعتزلي في المقام وجهاً آخر وهو أن يكون المراد أنه الذي لم يكن محدثاً أي موجوداً قد سبقه عدم فيقال إنه مسبوق بشيء من الأشياء أما المؤثر فيه أو الزمان المقدم عليه وأنه ليس بذات يمكن فناؤها وعدمها فيما لا يزال فيقال: إنه ينقضي وينصرف فيكون بعده شيء من الأشياء الزمان أو غيره.

(والرادع أناسيّ الأبصار عن أن تناله أو تدركه) أراد به امتناع رؤيته سبحانه لكونه تعالى منزهاً عن الجهة والمكان، والباصرة لا تتعلق إلاّ بما كان فيهما وقد تقدّم تفصيل ذلك وتحقيقه بما لا مزيد عليه في شرح الخطبة التاسعة والأربعين وهذا اللّفظ وإن كان بظاهره يعطي مذهب الأشاعرة من أن يجوز إدراكه ورؤيته ولكنه خلق في الأبصار مانعاً عن إدراكه، إلاّ أنّه لا بدّ من تأويله وحمله على ما ذكرنا بعد قيام الأدلة القاطعة من العقل والنقل على استحالة إدراكه من حيث ذاته.

(ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال) أراد بذلك كونه منزّهاً عن لحوق الزمان وعن التغيّرات الجارية على الزّمانيات فان مبدأ التّغيرات والاختلاف في الأحوال هو الزمان، فلما كان متعالياً عن الزمان كان منزهاً عن اختلاف الحالات الذي هو من لواحق الإمكان.

ويوضح ذلك ما رواه في «الكافي» بإسناده عن ابن يعفور قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾.

وقلت: أمّا الأوّل فقد عرفناه، وأمّا الآخر فبين لنا تفسيره، فقال: إنه ليس شيء إلاّ يبيد أو يتغير أو يدخله التغير والزوال أو ينتقل من لون إلى لون ومن هيئة إلى هيئة ومن صفة إلى صفة ومن زيادة إلى نقصان ومن نقصان إلى زيادة إلاّ ربّ العالمين فإنّه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، هو الأوّل قبل كل شيء وهو الآخر على ما لم يزل، ولا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره مثل الإنسان الذي يكون تراباً مرّة، ومرّةً لحماً ودماً ومرّة رفاتاً ورميماً، وكالبسر الذي يكون مرّةً بلحاً، ومرّة بسراً، ومرة تمراً، فتتبدّل عليه الأسماء والصّفات والله عزّ وجلّ بخلاف ذلك.

(ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال) أراد بذلك تنزيهه عن الكون في المكان

لاستلزامه الافتقار الذي هو من صفات الإمكان وإذا لم يكن في مكان فلا يجوز عليه الانتقال منه إلى غيره، إذ جواز الانتقال إنما هو من شأن ذي المكان بل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

ونسبة جميع الأَمكنة إليه تعالى على سواء: ﴿وهو يعلم سركم ونجواكم﴾ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقد مرّ تحقيق ذلك في شرح الفصل الخامس والسّادس من فصول الخطبة الأولى فتذكر.

(ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عند أصداف البحار من فلزّ اللّجين والعقيان ونثارة الدّر وحصيد المرجان ما أثر ذلك في جوده) أشار عليه السلام بذلك إلى سعة جوده سبحانه وعموم كرمه وكمال قدرته وعدم تناهي مقدوراته، ولا يخفى ما فيه من فخامة اللفظ مع عظم المعنى، حيث إنّه عليه السلام شبّه المعادن بحيوان يتنفس فيخرج من جوفه الهواء، وكذلك المعادن يخرج من بطونها الفلزات، ثم شبه الأَصداف بإنسان يضحك وأثبت لها الضّحك بملاحظة أن الصّدف أوّل ما ينشق وينفتح ويبدو منه اللؤلؤ يشبه بفم الإنسان الضاحك واللؤلؤ فيه يشبه بالأسنان واللّحمة فيه تشبه اللّسان في رقّة طرفه ولطافته.

ولما ذكر ما يخرج من المعادن والأصداف مجملاً، فصّل.

بقوله: من فلزّ اللّجين والعقيان، وهو تفسير لما يخرج من معادن الجبال وإنّما خصهما بالذكر مع عدم الاختصاص لأَنهما أعظم ما يتنافس فيه المتنافسون ويغتنمه أبناء الزمان، ولا عبرة بالنحاس والرّصاص ونحوهما في جنبهما.

وبقوله: **(ونثارة الدّر وحصيد المرجان)**، وهو بيان لما يخرج من الأَصداف والدّر كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره ولصغره شبهه عليه السلام بالحبّ الحصيد وربما يطلق المرجان على الخرز الأَحمر المعروف قال الشاعر:

أدمى لها المرجان صفحة خدّه ... وبكى عليها اللّؤلؤ المكنون

هو خرز يخرج من البحر أيضاً، وربما فسّر به قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠] ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ولكنه ليس مراداً في كلام الإمام عليه السلام ولا يمكن حمله عليه كما هو ظاهر.

وكيف كان فالمقصود أنه سبحانه لو بذل جميع ما في الأَرض من الكنوز والمعادن البرّية والبحرية لأَحد لم يؤثر ذلك في جوده **(ولا أنفد سعة ما عنده)** من خزائن كرمه **(ولكان عنده من ذخائر الإنعام ما لا تنفده مطالب الأنام)** وذلك لعدم إمكان إحصاء ما عنده بعدّ، وعدم

وقوفه وانتهائه إلى حدّ **(لأنّه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السّائلين ولا يبخله إلحاح الملحين)** يعني لا يوجب سؤال السّائلين على كثرته نقصاناً في جوده ولا إصرار المصرين بخلاً في كرمه، لأن البخل والنقصان من توابع المزاج ولواحق الإمكان، وهو منزّه عن ذلك بالضرورة والعيان، بل عنده نيل السؤلات وإنجاح الحاجات، وما يسأله السائلون على كثرته يسير في وجده، وما يستوهبه الطالبون على خطره حقير في وسعه وكرمه لا يضيق عن سؤال أحد، ويده بالعطاء أعلى من كل يد.

الترجمة

از جمله خطب آن حضرت است كه معروف است به خطبه اشباح و اين خطبه هاى جليله او است و بود سؤال نمود سائلى از او اينكه وصف كند پرودگار عالم را از براى او به اندازه اى كه گويا آن را آشكارا مى بيند، پس غضب كرد آن حضرت از اين جهت و فرمود:

حمد و ثنا خدايى را سزا است كه بسيار نمى گرداند مال او را منع و امساك نمودن و كم نمى گرداند عطاء او را بذل و بخشش كردن از جهت اينكه هر عطاكننده كم كننده است مال خود را سواى او و هر منع نماينده مذموم است غير از حضرت او سبحانه.

او است بسيار احسان كننده به فوايد نعمت ها و به منفعت هاى زايده و قسمت هاى مقدره، عيال او است مخلوقات، ضامن شده است به روزى هاى ايشان و مقدر فرموده است قوت هاى ايشان را، واضح نموده است راه راغبان را به سوى خود و راه طالبان را به آنچه نزد او است و نيست او به آنچه كه سؤال كرده شده باجودتر از او به آنچه كه درخواسته نشده.

اوّلى است كه نيست او را پيش تا اينكه باشد چيزى قبل از او و آخرى است كه نيست او را بعد تا اينكه شود چيزى پس از آن، منع كننده است مردمك هاى ديده ها را از اينكه برسد به ذات او يا درك نمايد او را، مختلف نشده است بر او روزگار، پس مختلف شود از او حال و نبوده است در مكان تا جايز باشد بر او انتقال.

و اگر ببخشد آنچه كه نفس كشيده است از او معدن هاى كوه ها و خنديده است از او صدف هاى درياها كه عبارت باشد از گداخته نقره و طلا و از پاشيده درّ در ديده مرجان، اثر نمى كند اين همه در جود واجب الوجود و تمام نمى سازد وسعت آنچه را كه نزد او است و هر آينه هست نزد او از ذخيره هاى نعمت ها آنقدرى كه به پايان نمى رساند آن را مطلوب هاى خلايق از جهت آنكه او است جواد و بخشنده كه ناقص نمى نمايد جود او را سؤال سؤال كننده ها و بخيل نمى سازد او را اصرار و مبالغه نمودن مبالغه كننده ها.

الفصل الثاني

فَانْظُرْ أَيُّهَا السّائِلُ فما دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ، وَاسْتَضِيءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وما كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمّا لَيْسَ في الْكِتابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، ولا في سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ وأَئِمَّةِ الْهُدَىٰ أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ مُنْتَهَىٰ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الرّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْناهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الإِقْرارُ بِجُمْلَةِ ما جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللَّهُ اعْتِرافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَناوُلِ ما لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فيما لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فَاقْتَصِرْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ، ولا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ قَدْرِ عَقْلِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ.

هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّءُ مِنْ خَطَراتِ الْوَساوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ في عَمِيقاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ في كَيْفِيَّةِ صِفاتِهِ، وغَمَضَتْ مَداخِلُ الْعُقُولِ في حَيْثُ لا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنالَ عِلْمَ ذاتِهِ، رَدَعَها وَهِيَ تَجُوبُ مَهاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لا يُنالُ بِجَوْرِ الاعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلالِ عِزَّتِهِ، الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلى غَيْرِ مِثالٍ امْتَثَلَهُ، ولا مِقْدارٍ احْتَذَىٰ عَلَيْهِ، مِنْ خالِقٍ مَعْبُودٍ كانَ قَبْلَهُ، وأَرانا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ وعَجائِبِ ما نَطَقَتْ بِهِ آثارُ حِكْمَتِهِ اعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلى أَنْ يُقِيمَها بِمَسَاكِ قُوَّتِهِ، ما دَلَّنا بِاضْطِرارِ قِيامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وظَهَرَتْ في الْبَدائِعِ الَّتِي أَحْدَثَها آثارُ صَنْعَتِهِ، وأَعْلامُ حِكْمَتِهِ، فَصارَ كُلُّ ما خَلَقَ حُجَّةً لَهُ، ودَلِيلاً عَلَيْهِ، وإِنْ كانَ خَلْقاً صامِتاً فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ ناطِقَةٌ، ودَلالَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قائِمَةٌ.

وأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبايُنِ أَعْضاءِ خَلْقِكَ، وتَلاحُمِ حِقاقِ مَفاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ، وَلَمْ يُباشِرْ قَلْبَه الْيَمِينُ[1] بِأَنَّهُ لاَنِدَّ لَكَ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ، إِذْ يَقُولُونَ: «تَاللَّهِ إِنْ كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» كَذِبَ الْعادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنامِهِمْ، ونَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّأُوكَ تَجْزِءَةَ الْمُجَسَّماتِ بِخَواطِرِهِمْ، وقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَىٰ بِقَرائِحِ عُقُولِهِمْ، وأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ ساواكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَالْعادِلُ بِكَ كافِرٌ بِما تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحكَماتُ آياتِكَ، ونَطَقَتْ عَنْهُ شَواهِدُ حُجَجِ بَيِّناتِكَ، وأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَناهَ في الْعُقُولِ

(١) في نسخة: اليقين.

فَتَكُونَ في مَهَبِّ فِكَرِهَا مُكَيَّفاً، وَلا في رَوِيَّاتِ خَواطِرِها فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً[١].

اللغة

(**رسخ**) في العلم يرسخ من باب رسوخاً إذا ثبت فيه و(**الاقتحام**) الدّخول في الشّيء مغالبة وبشدّة من غير روية و(**السّدد**) جمع السدّة كغرف وغرفة وهي كالسّقيفة فوق باب الدار ليقيها من المطر، وقيل: هي الباب نفسه ومنه حديث أمّ السلمة أنّها قالت لعائشة لما أرادت الخروج إلى البصرة: إنّك سدّة بين رسول الله وبين أمّته فمتى أصيب ذلك الباب شيء فقد دخل على رسول الله ﷺ في حريمه.

و(**التعمق**) في الأمر المبالغة لطلب أقصى غايته و(**ارتمى**) القوم بالنّبل أي تراموا و(**خطرات الوساوس**) ما تقع في الباب وفي بعض النسخ خطر الوساوس وهو بسكون (**الطاء**) الهاجس كالخاطر و(**تولهت**) القلوب إليه أصابها الوله وهو بالتحريك التحيّر أو ذهاب العقل و(**غمض**) الحق غموضاً من باب قعد خفي مأخذه وغمض بالضم لغة و(**علم ذاته**) قال الشّارح المعتزلي: أنكر قوم جواز إطلاق الذّات على الله سبحانه لأنّها لفظة تأنيث والباري سبحانه منزّه عن الأسماء والصّفات المؤنثة، وأجاز آخرون إطلاقها عليه واستعمالها فيه لوجهين:

أحدهما: أنها جاءت في الشعر القديم قال جنيب الصخار عند صلبه:

وذلك في ذات الإله وإن يشاء يبارك على أوصال شلو[٢] موزع

ويروى ممرغ أي مفرق وقال النابغة:

محلّتهم ذات الإله ودينهم قديم فما يخشون غير العواقب

والثاني: أنها لفظة اصطلاحية لأنها على مؤنث لكنها تستعمل ارتجالاً في مسمّاها الذي عبر عنه بها أرباب النّظر الإلهي كما استعملوا لفظ الجوهر والعرض في غير ما كان أهل اللّغة يستعملونها فيه.

و(**جاب**) الأرض يجوبها جوباً قطعها و(**المهاوي**) جمع المهواة وهي ما بين الجبلين و(**السّدف**) جمع السدفة وهي الظلمة و(**جبهه**) كمنعه ضرب جبهته وردّها و(**عسف**) عن الطّريق مال وعدل كاعتسف وتعسف أو خبط على غير هداية و(**المثال**) المقدار يقال: هذا على مثاله أي على مقداره وصفة الشيء يقال هذا على مثال ذاك أي على صفته و(**امتثله**) وتمثل به أي اقتداه واتبعه يقال: امتثل طريقته إذا تبعها فلم يعدها و(**حذا**) النعل بالنعل أي قطعها وقدرها

(١) بحار الأنوار: ٥٤/١٠٨، وميزان الحكمة ٣/١٩٠٢.

(٢) شلو: العضو من الجسد.

عليها وحذا حذو زيد إذا فعل فعله.

و(**المساك**) ما يمسك به و(**التلاحم**) كالالتحام التلاؤم والالتئام لفظاً ومعنى يقال: تلاحم الجرح والتحم للبرء إذا التأم و(**الحقاق**) جمع حقه يقال: إنه لنزع الحقاق أي منازع في صغار الأشياء مأخوذ من حقاق العرفط وهي صغاره و(**المحتجبة**) بصيغة المفعول المستترة أي المستورة، وفي أكثر النسخ بصيغة الفاعل أي: المتخذة لأنفسها حجاجاً ففائدة الافتعال الاتحاد و(**اليمين**) أما بمعنى القوّة أو بمعنى القسم وفي بعض النسخ اليقين بدله وهو أظهر إلاّ أنّ الأوّل أبلغ كما تطلع عليه و(**الند**) المثل و(**العادلون بك**) من العدل وهو المثل والنظير ومنه: عدلوا بالله، أي أشركوا وجعلوا له مثلاً و(**النحلة**) النسبة بالباطل ومنه انتحال المبطلين و(**الخلقة**) بالكسر الفطرة كالخلق.

الإعراب

(**الإقرار**) بالضم فاعل (**أغناهم**)، (**وعلماً**) منصوب على التميز، (**ورسوخاً**) مفعول ثان لسمّى، (**وردعها**) جواب (**إذا ارتمت**)، وجملة (**وهي تجوب**) في محل النصب على الحال والعامل ردع، (**ومتخلّصة**) حال أيضاً إما من مفعول ردع أو فاعل تجوب، (**ومعترفة**) حال من فاعل (**رجعت**)، (**ومن خالق**) متعلّق بمقدر صفة بمقدار أي صادر من خالق أو مأخوذ من خالق.

وجملة (**وأرانا**) عطف على ابتدع، (**واعتراف**) بالجر عطف على عجائب، (**وإلى أن**) متعلق بالحاجة، (**وما دلنا**) مفعول ثان (**لأرانا**)، وجملة (**وظهرت**) عطف على ابتدع أيضاً؛ ولم يعقد بالبناء على الفاعل خبر أن، وغيب ضميره بالنصب مفعوله، وفي بعض النسخ بالبناء على المفعول فيكون غيب ضميره بالرفع ساداً مسد الفاعل (**والباء**) في قوله: (**بما تنزّلت**) سببية.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما حمد الله سبحانه وأثنى عليه في الفصل السّابق بما يليق ذاته تعالى من صفات الجمال ونعوت الجلال، عقبه بهذا الفصل المتضمن لتنبيه السّائل على أخطائه في سؤاله الناشيء عن توهمه جواز معرفة الله سبحانه على وجه تكون بمنزلة الرّؤية بالعيان، ولما كان ذلك محالاً في حق الله القدّوس السّبوح السّبحان أوجب ذلك السؤال غضبه وتغيّر لونه عليه السلام كما تقدّم ذكره سابقاً.

وهذا الفصل مشتمل على مقاصد ثلاثة:

المقصد الأول

متضمن لتأديب السّائل ولسائر النّاس من الحاضرين والغائبين في وصفهم لله سبحانه ولتعليمهم كيفية السلوك في مدح الله والثناء عليه بما هو أهله، وللنّهي عن التعمق والخوض في ذات الله وصفاته، والتّكليف فيها بما فوق الاستطاعة، والخطاب فيه وإن كان مخصوصاً بالسّائل إلاّ أنّه عام لجميع النّاس، إذا العبرة بعموم الغرض لا بخصوص الخطاب والمخاطب ولذلك نادى: الصّلاة جامعة وقصد اجتماع النّاس.

وكيف كان وإلى ما ذكرنا نبّه بقوله: (**فانظر أيها السّائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فائتم به واستضيء بنور هدايته**) أمر عليه السلام بالرّجوع إلى القرآن الكريم والكتاب الحكيم والاقتداء به والاستضاءة بأنوار هدايته والأخذ بأوصاف القدس والجلال ونعوت العظمة والكمال المدرجة فيه، فإنه أدلّ دليل وأوضح سبيل وهو كلام الحقّ سبحانه وهو أعلم بصفاته من غيره فما وصف به فيه نفسه فهو الحقّ أحقّ أن يتّبع، وما نزه ذاته عنه فهو الباطل ينبغي تنزيهه منه.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ * وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤].

وقد دلّت الآيات الكريمة على أنّه تعالى ربّ، رحمان، رحيم، شهيد، عليم، حكيم، قادر، قاهر، خالق، رازق، كريم، سميع، بصير، خبير، غفور، شكور، مجير، عزيز، متكبر، جبار، قوي منتقم، قهار، إلى غير هذه ممّا فيها من الأسماء الحسنى والأمثال العليا، وقد تضمّنت مضافاً إلى ذلك أنّه:

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنفال: ١٠٣] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١٠].

فإن هذه الآيات الثلاث نصّ في عدم إمكان معرفته حق المعرفة وعدم جواز إدراكه بالأبصار وبمشاهدة العيان **أما الآية الأولى**: فظاهرة، **وأما الثّانية**: فلأن كلّ من أبصر شيئاً فقد أحاط به علماً لا خلاف لأحد فيه. **وأما الثالثة**: فلأن الأبصار عبارة عن حصول صورة الشيء في حسّ البصر فما لا مثل له لا يمكن حصول صورته في الحسّ وحيث إنه ليس كمثله شيء امتنع تعلّق الأبصار به فظهر من كلّ ذلك بطلان ما توهّمه السّائل.

ونظير إرشاده عليه السلام للسّائل إلى الرجوع إلى القرآن والائتمام به إرشاد أبي الحسن الرّضا عليه السلام لأبي هاشم الجعفري إلى الرجوع إليه والأخذ به على ما رواه في «الكافي» عن محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد عن أبي هاشم الجعفري عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال: سألته عن الله هل يوصف؟ فقال عليه السلام: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: أما تقرأ قوله تعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قال: فتعرفون الأبصار؟ قلت: بلى، قال: ما هي؟ قلت: أبصار العيون قال عليه السلام: إنّ أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون، فهو لا تدركه الأوهام وهو يدرك الأوهام[١].

فإنّ السّائل لما استفهم عن جواز وصفه تعالى بالرؤية أراد عليه السلام التنبيه والإرشاد له على نفي الرّؤية مطلقاً عنه تعالى بآية القرآن، ولما ظهر من حال السّائل أنه قرأ القرآن وقرأ قوله تعالى: لا تدرك الأبصار، ولم يعرف من الأبصار إلاّ أبصار العيون عرّفه عليه السلام أنّ أوهام القلوب أكبر وأقوى في باب الإدراك من أبصار العيون، لسعة دائرة الأولى وقصور دائرة الثانية من حيث إنّ الوهم رئيس الحواس الظّاهرة والباطنة ومستخدمها ومستعملها، كما أن القلب أعني العقل رئيس الوهم ومخدومه، فالأولى أن يكون معنى الآية لا تدركه الأوهام ليدلّ على نفي الإدراك مطلقاً إذ كلّ ما يدركه الوهم لا يدركه البصر بخلاف العكس.

وفي «الكافي» بإسناده عن عبد الرحيم بن عتيك القصير قال: كتبت على يدي عبد الملك بن أعين إلى أبي عبد الله عليه السلام: إنّ قوماً بالعراق يصفون الله تعالى بالصورة والتخطيط، فإن رأيت جعلني الله فداك أن تكتب إليّ بالمذهب الصحيح من التّوحيد؟ فكتب إليّ: سألت رحمك الله عن التّوحيد وما ذهب إليه من قبلك فتعالى الله الذي ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير، تعالى عما يصفه الواصفون المشبّهون الله بخلقه المفترين على الله، فاعلم رحمك الله أن المذهب الصحيح في التّوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله تعالى، فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه فلا نفي ولا تشبيه هو الله الثابت الموجود تعالى الله عمّا يصفه الواصفون ولا تعدوا القرآن فتضلّوا بعد البيان[٢].

قال صدر المتألهين: وفي شرح الحديث: قوله عليه السلام: **(فانف عن الله البطلان والتشبيه)** أمر بنفي التعطيل والتشبيه فإن جماعة أرادوا تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات فوقعوا في التعطيل ونفي الصفات رأساً وجماعة أخرى أرادوا أن يصفوه بصفاته العليا وأسمائه الحسنى فأثبتوا له صفات زائدة على ذاته فشبهوه بخلقه فأكثر النّاس إلاّ القليل النادر منهم بين المعطل والمشبه.

قوله عليه السلام: **(فلا نفي ولا تشبيه)**، أي يجب على المسلم أن لا يقول بنفي الصفات ولا بإثباتها على وجه التشبيه، وقوله: **(هو الله الثابت الموجود)**، إشارة إلى نفي التعطيل والبطلان، وقوله: **(تعالى عمّا يصفه الواصفون)** إشارة إلى نفي التشبيه، فإن الواصفين هم

(١) شرح أصول الكافي ١١/٣٠١، والكافي ١/٩٩.

(٢) الكافي: ١/١٠٠ ح ١، وشرح أصول الكافي: ٣/١٩٧ ح ١.

الذين يصفون الله بصفات زائدة ويقال لهم: الصّفاتية وكل من أثبت لله صفة زائدة فهو مشبه لا محالة.

وقوله عليه السلام: **(فلا تعدوا القرآن فتضلّوا بعد البيان)**، أي فلا تجاوزوا ما في القرآن بأن تنفوا عن الله ما ورد في القرآن حتّى تقعوا في ضلالة التعطيل والله يقول:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أو تثبتوا من الصّفات ما يجب التنزيه عنها حتّى تقعوا في زيغ التشبيه والله يقول:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠] هذه.

ولما أمر عليه السلام بالرجوع إلى القرآن والاقتداء به والاستضاءة بأنواره والأخذ بما ورد فيه من صفات الحق تعالى شأنه وتقدّس ذاته أردفه بقوله: **(وما كلّفك الشيطان علمه ممّا ليس في الكتاب عليك فرضه ولا في سنة النبي** صلى الله عليه وآله **(وأئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه فإنّ ذلك منتهى حقّ الله عليك)** ومراده عليه السلام بذلك المنع من تكلّف ما لم يفرض علمه على المكلّفين، والرّدع عن الخوض فيما لم يثبت وجوب معرفته على العباد في الكتاب المبين، ولا في سنّة النبي الأمين وأئمة الدّين سلام الله عليهم أجمعين، معللاً بأنّ منتهى حق الله على العباد أن يقولوا بما دل عليه القرآن، ويصفوه بالأوصاف الثابتة في الفرقان، وينتهوا عما رفع علمه عنهم ويكلوا علمه ويفوّضوه إلى الله السّبحان مشيراً إلى أن تكلّف ما يزيد على ذلك من تكليفات الشيطان اللّعين وتدليساته ووساوسه ليضلّ به عن النهج القويم والصّراط المستقيم.

وإن شئت توضيح ذلك فأقول: إنّ الكتاب الكريم قد دلّ على أنه سبحانه عالم وأنه بكلّ شيءٍ محيط، فيجب لنا الإذعان بذلك وعقد القلب عليه، وأمّا البحث عن كيفيّة علمه وأنه على أيّ نحوٍ هو فلا يجب علينا، وربما يؤدي التعمق فيه إلى الضّلال كما ضلّ فيه كثير من الحكماء.

فمنهم من تحيّر في معرفته فنفاه رأساً، ومنهم من ضاق به الخناق إلى الإطلاق فنفى علمه بالجزئيات، ومنهم من قرّره على وجه أوجب القول بكون الذّات فاعلاً وقابلاً وبكونه متّصفاً بصفات غير سلبية ولا إضافية إلى غير ذلك من المفاسد التي نشأت من كثرة البحث فيه على ما مرّ تفصيلاً في تنبيه الفصل السّابع من فصول الخطبة الأولى.

وكذلك قد ورد في القرآن أنه تعالى خالق الأشياء ومبدعها، فيجب لنا الاعتقاد به وليس بفرض علينا أن نتكلف البحث في كيفيّة الخلقة حتّى نقع في الضلال البعيد كما وقع فيه الفلاسفة المثبتة للعقولات العشرة المبتنية على ما ذهبوا إليه من أن الواحد لا يصدر منه إلاّ الواحد، فإنّهم لمّا ذهبوا إلى أنّ الواحد لا يصدر منه إلاّ الواحد ألجأهم ذلك واضطرهم إلى القول بالعقولات مع أنه مخالف لأصول الشّريعة ولم يرد به كتاب ولا سنّة.

وهكذا البحث والتعمق في سائر الصفات، ومثله البحث في متشابهات الآيات مثل قوله سبحانه:

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وغير ذلك، فالواجب في كلّ ذلك وكول علمه إلى الله سبحانه وردّه عليه كما أبان عنه الكتاب العزيز في سورة آل عمران حيث قال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ القرآن زاجر وآمر يأمر بالجنّة ويزجر عن النّار وفيه محكم ومتشابه، فأمّا المحكم فيؤمن به ويعمل به ويدين به وأمّا المتشابه فيؤمن به ولا يعمل به[(١)] وهو قول الله:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] الآية هذا.

(واعلم أنّ الرّاسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السّدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب) يعني أنّ الرّاسخين في العلم إذا وصلوا إلى المتشابهات وإلى ما جهلوا كشف القناع والغطاء عنها وقفوا عندها واعترفوا بها إجمالاً كما حكى الله عنهم بقوله:

﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ولا يتعدون عن ذلك حتى يقتحموا في المهالك.

فإن قلت: من المراد بالرّاسخين في العلم وما المراد بالغيب المحجوب وماذا أراد عليه السلام بالسّدد المضروبة دون الغيوب؟

قلت: أما الرّاسخون في العلم فهم الثابتون فيه والضابطون له كأئمة الدّين وأولياء اليقين الحاملين لأسرار النّبوة وأعباء الولاية وبعض خواصهم المقتبسين من أنوار الهداية والمهتدين بنور الإمامة.

وأمّا المراد بالغيب المحجوب فهو ما غاب عن الخلق علمه وخفي مأخذه إما لعدم

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ١٩١ وتفسير القمي: ٢/ ٤٥١.

الاستعداد والقابليّة وقصور الطبيعة عن الإدراك كذات الله وصفاته الذّاتية؛ وإمّا لاقتضاء الحكمة والمصلحة للإخفاء، كعلم السّاعة وما في الأرحام ونحوهما ممّا حجب الله علمه عن العباد، ومن ذلك القبيل الآيات المتشابهة.

وأمّا المراد بالسّدد المضروبة فهي الحجب المانعة من الوصول إلى الغيب، وهي بالنسبة إلى الغيب المحجوب بها على قسمين:

أحدهما: ما هي قابلة للارتفاع إمّا بالرّياضيات والمجاهدات كما يحصل للبعض فيعرف ضمائر بعض العباد ويطلع على بعض المخبيات ويخبر عن بعض المغيبات، وإمّا بتعليم من الله سبحانه كما كان في حق الأنبياء والأولياء فإن عمدة معجزاتهم كانت من قبيل معرفتهم بالغيب وإخبارهم من المغيبات، وإليه الإشارة في قوله تعالى:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

يعني أنّه عالم بكلّ شيء من مبتدءات الأمور وعواقبها، وأنّه الذي يفتح باب العلم ويرفع الحجاب عن الغيب لمن يريد من الأنبياء والأولياء، لأنّه لا يعلم الغيب سواه، ولا يقدر أحد أن يفتح باب العلم به للعباد إلاّ الله، وقال سبحانه:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

أراد أن من ارتضاه واختاره للنبوة والرّسالة فإنّه يطلعه على ما شاء من غيبه على حسب ما يراه من المصلحة.

وعن «الخرائج» عن الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآية فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرّسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة[1].

ومن هذا الباب معرفتهم بالمتشابهات وعلمهم بتأويلها بسبب تعليمه تعالى بوحي أو إلهام، ولا منافة بين إقرارهم بجملة ما جهلوا تفسيره منها من تلقاءِ نفسهم ووكول ذلك إلى ربّهم كما حكاه الله وحكاه عليه السلام عن الرّاسخين وبين معرفتهم الحاصلة بتعليمه سبحانه بل ربما يشير إليه قوله سبحانه:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فافهم جيّداً.

---

(١) الثاقب في المناقب: ١٨٩ والخرائج والجرائح: ١/ ٣٤٣.

القسم الثاني: ما هي غير قابلة للارتفاع كحجب النور المانعة من الوصول إلى الحق والاكتناه في ذاته.

بيان ذلك: أنّ الله سبحانه متجلّ لذاته بذاته ومحتجب عن مخلوقاته، واحتجابه ليس لخفاء ذاته بل لشدّة نوره وغاية ظهوره وكمال ذاته، فغاية ظهوره أوجب بطونه، وشدّة نوره أوجب اختفائه واحتجابه، من حيث قصور عقول البشر عن إدراكه كمثال نور الشّمس وبصر الخفاش على ما حققناه في شرح الخطبة الرّابعة والسّتين، وعلى هذا فلا سبيل إلى معرفة الحق سبحانه إلاّ بواسطة صفاته السّلبية والإضافية، ولا نهاية لهذه الصّفات ولمراتبها، فالعبد لا يزال يكون مترقّياً فيها فإن وصل إلى درجة وبقي فيها كان استغراقه في مشاهدة تلك الدّرجة حجاباً له عن الترقي إلى ما فوقها.

ولما كان لا نهاية لهذه الدّرجات كان العبد دائماً في السير والانتقال بحسب قوّة عقله واستعداد ذاته إلى أن يبلغ إلى مقام عجز عن التّرقي إلى ما فوقه، ويقصر عن إدراكه، وهذا شأن الرّاسخين السّالكين في مقام السّلوك بقدمي العرفان المترقين في مقام المعرفة من مرتبة إلى مرتبة حتّى يقصروا عن الترقي إلى ما فوقها فيغنيهم حينئذٍ عن اقتحام السدد المضروبة اعترافهم بجملة ما جهلوا تفسيره على ما أشار إليه الإمام عليه السلام (فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً وسمّى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً).

عجز الواصفون عن صفتك اعتصام الورى بمغفرتك
تب علينا فإنّنا بشر ما عرفناك حقّ معرفتك

(فاقتصر) أيّها السّائل **(على ذلك)** أي على ما دلّ عليه الكتاب العزيز من صفته **(ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين)** الذين اعتقدوا أنّ عقلهم قدّره سبحانه وأحاط به علماً، وصغروا عظمته سبحانه عقلهم الضعيف مع أن عظمته تعالى أجلّ وأعظم من أن يضبطها عقل بشري، وإنّما منشأ ذلك الحكم لمن حصل له هو الوهم الحاكم لمثليّة الله لمدركاته من الأجسام والجسمانيات، وذلك في الحقيقة كفر لاعتقاد غير الصّانع صانعاً، وضلال عن طريق معرفة الله، مستلزم للهلاك الدّائم، والخزي العظيم.

المقصد الثاني

متضمن للتنبيه على عجز العقول عن الاكتناه في ذاته تعالى وعن معرفتها به حق المعرفة، ولبيان أنّ حقّها وحظّها الاستدلال عليه بآيات العظمة وآثار الصّنع والقدرة ودلائل الملك والملكوت.

أما الأول: فهو قوله: **(هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وحاول**

الفكر المبرء من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفيّة صفاته وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصّفات لتنال علم ذاته ردعها) وهذه الجملة أعني قوله ﷺ: (إذا ارتمت) إلى الآخر شرطية متصلة متعدّدة المقدم متّحدة التّالي وهو ردعها، وهي بمنزلة شرطيّات متعدّدة.

والمقصود بذلك أنّ الأوهام إذا ترامت واسترسلت مجدّة في التفتيش عن منتهى قدرته، نكصت عن ذلك، لأنّ قدرته تعالى متعلّقة بجميع المقدورات لا نهاية لها حتّى تبلغ الأوهام إلى غايته ومنتهاه.

وإنّ الفكر الصافي الخالي عن وساوس الشّيطان وشوائب الأوهام إذا قصد أن يقع على ذاته ويستثبتها بكلّ ما ينبغي لها من الكمالات في عميقات مغيبات عزته وسلطانه ومملكته، كلّ وحسر لقصوره عن إدراك ما لا نهاية له.

وإنّ القلوب إذا اشتدّ شوقها إليه وتولهت نحوه لتقف على كيفيّة صفاته عجزت، وذلك لأنّ صفاته كذاته قديمة والكيف مهيّة إمكانيّة مفتقرة إلى الجعل حادثة وهو سبحانه منزّه عن كونه محلاً للحوادث فليس لذاته وصفاته كيفيّة حتّى تقف عليها العقول ولذلك قال أبو عبد الله ﷺ: وكيف أصفه بالكيف وهو الذي كيف الكيف حتّى صار كيفاً، فعرّف الكيف بما كيف لنا من الكيف[1].

وأنّ العقول إذا غمضت مداخلها أي خفيت مواقع دخولها في دقائق العلوم النّظرية الإلهية بحيث لا توصف لدقتها طالبة أن تعلم حقيقة ذاته انقطعت وأعيت لقصور العقول عن الوصول إلى حقيقة ما ليس بذي حدّ ولا تركيب.

ومحصل الكلام أنّ هذه القوى التي هي أعظم المشاهر الإنسانية لو حاولت التعمق والاستقصاء في معرفة ذات الله الأعلى وصفاته الحسنى وأرادت الخوض في بحار ملكه وملكوته، وقفت خاسئة ورجعت حسيرة، لقصورها عن إدراك هذه المطالب العظيمة وردعها الله تعالى عن ذلك ومنعها من أن تحوم حول ذلك.

(وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه) أي تقطع مهاوي ظلمات الغيوب حال كونها متوجهة بكليتها إليه سبحانه في طلب إدراكه تعالى **(فرجعت إذ جبهت)** وردت **(معترفة)** ومذعنة **(بأنّه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته)** أي لا ينال باعتساف المسافات التي بينها وبينه وبشدّة الجولان في تلك المنازل إلى كنه معرفته سبحانه.

إذ بينه وبين خلقه منازل غير متناهية، ومعارج غير مستقصاة بعضها نورانية وبعضها

(١) الكافي: ١/ ١٠٣ ح ١٢، والتوحيد/ ١١٥ ح ١٤.

ظلمانيّة لا بد للسّالك من قطع جميعها حتّى يصل إلى باب الرّبوبية، وأنى له بذلك وأين التراب من ربّ الأرباب فجور الاعتساف غير نافع في تحصيل ما لا يمكن.

(و) لذلك اعترفت العقول بأنه لا ينال بذلك كنه معرفته كما اعترفت بأنه **(لا تخطر ببال أولي الرّويات خاطرة من تقدير جلال عزته)** إذ كلّ ما يخطر ببال أرباب الفكر وكل ما يتصوره أولو النظر في حقه سبحانه وإن كان جليلاً عظيماً فهو أجلّ وأعظم من ذلك، لأن ذلك صفة الواصفين لا صفة الرّب العظيم.

قال فضيل بن يسار فيما رواه عنه في «الكافي»: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله لا يوصف وكيف يوصف وقد قال في كتابه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

فلا يوصف بقدر إلاّ كان أعظم من ذلك[١].

وروى عن محمّد بن علي الباقر عليه السلام أن كلّ ما تصوّره أحد في عقله أو وهمه أو خياله فالله سبحانه غيره وراءه، لأنه مخلوق والمخلوق لا يكون من صفات الخالق.

(الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه من خالق معبود كان قبله) أراد بذلك التنبيه على كون إيجاده للعالم بمحض الإبداع والاختراع وعدم كونه مستفاداً من الغير.

بيان ذلك أن الصّنائع البشريّة إنما تحصل بعد أن يرتسم في القوة المتخيلة صورة المصنوع بل وكلّ فعل لا يصدر إلا بعد تصوّر وصفه وكيفيته أولاً.

وهذه التصورات تارة تحصل عن أمثلة للمصنوع ومقادير خارجيّة له يشاهدها الصّانع ويحذو حذوها كما يفعل التلميذ في الصّباغة شيئاً قد مثل له أستاذه هيئته وصورته فيفعل نظيره.

وتارة بمحض الإلهام والإفاضة على قلبه كما يفاض على أذهان كثير من الأذكياء والمصورين صورة شكل لم يسبق إليه غيره، فيصوره في قلبه ويبرز صورته في الخارج على طبق ما أفيض على قلبه، وكيفيّة صنع الله سبحانه منزّهة عن كونها على أحد الوجهين.

أما الوجه الأوّل: فلما مر في شرح الفصل السّابق من أنه سبحانه قبل القبل بلا قبل فليس قبله خالق مثل مثالاً فاتبعه سبحانه، ولا قدر مقداراً فقطع على قدره واحتذى عليه تعالى شأنه.

وأما الوجه الثاني: فلأن الصورة المفاضة والمثال الملهم مستندان إلى المفيض والملهم

(١) كتاب المؤمن: ٣٠ ح ٥٥، والكافي: ١/١٠٣ ح ١١.

مستفادان من الغير فعلان له، وليس قبله تعالى غير حتّى يستفيد ويستفيض منه مضافاً إلى استلزامه الافتقار تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، هذا.

وأما الثاني: أعني بيان جواز الاستدلال عليه تعالى وإمكان معرفته بآيات القدرة وأدلة العظمة فهو قوله: **(وأرنا من ملكوت قدرته)** أي من ملكها كما قال الله:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

أي بقدرته ونسبته إلى القدرة لكون القدرة مبدأ الوجود كلّه فهي مبدأ المالكيّة **(وعجائب ما نطقت به آثار حكمته)** أي عجائب ما أفصحت عنه الأفعال والأحكام الصادرة عن وجه الحكمة والمصلحة على أحسن ترتيب ونظام، وتمام إتقان وانتظام.

(واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قوته) الموجود في النسخ التي رأيناها يقيمها بضمير التأنيث فلا بدّ من رجوعه إلى الخلق باعتبار ملاحظة المعنى، إذ المراد المخلوقات بجميعها، ويحتمل رجوعه إلى الحاجة على تكلف، والمقصود إقرار الخلائق واعترافهم بالاحتياج والافتقار إلى أن يقيمهم ويجبر فاقتهم بقدرته وقوته الماسكة التي تمسك السّماء والأرض أن تزولا، واعتراف بعضهم بلسان الحال وبعضهم بلسان الحال والمقال.

(ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته) أي أرانا من ملكوت القدرة وآثار الحكمة واعتراف الموجودات بالحاجة دليلاً وافياً وبرهاناً كافياً دلنا على معرفته سبحانه، بسبب قيام الحجة له تعالى بالضّرورة والبداهة.

وبعبارة أخرى أرانا ممّا ذكر ما كان لنا دليلاً على معرفته من أجل ضرورية الحجة القائمة له على الخلائق في باب المعرفة وبداهتها **(وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته)** أي ظهرت في الحوادث البديعة المعجبة التي أحدثها وأوجدها آثار تدل على صانعيّته وعلامات يستدل بها على حكمته **(فصار كلّ ما خلق)** في الأنفس والآفاق **(حجة له ودليلاً عليه وإن كان خلقاً صامتاً)** لأن افتقاره الذاتي دليل على حاجته إلى المؤثر المبدع وإن لم يكن مفصحاً عنه بلسانه، إما لعدم كونه ذا لسان كالجماد والنبات؛ وإما لكفره وإلحاده كبعض أفراد الإنسان.

(فحجته بالتّدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة) يحتمل رجوع الضمير في حجته ودلالته إلى الخلق الصامت، ويحتمل رجوعه إلى الله سبحانه، والثاني أظهر، والمراد أن حجته تعالى ناطقة بكونه مدبراً، ودليله قائم على كونه مبدعاً مؤثراً.

فحاصل الكلام وفذلكة المرام أن في ما أبدعه سبحانه في عالم الكون وأحدثه في الأنفس والآفاق شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلالة بارئها، معربة عن كمال حكمته وتدبيره فيها، منادية لأرباب القلوب بنغماتها، قائلة:

أما تراني وما ترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف أحوالي وكثرة فوائدي، أتظن أني خلقت بنفسي أو خلقني أحد من جنسي، وفعلت هذه الأفاعيل وما يترتب عليها من المنافع بطبعي وذاتي؟

أو ما تستحيي تنظر إلى كلمة مرقومة في ثلاثة أحرف فتقطع أنه صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب هذه الخطوط المرقومة على وجه الإنسان بالقلم الإلهي الذي لا يدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك من جلالة صانعه؟

وكذلك النطفة التي كأنها قطرة من الماء المتشابه الأجزاء يقول لمن له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد لا الذين هم عن السّمع لمعزولون: توهمني في ظلمة الأحشاء مغموساً في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي، وقد نقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي، فترى النقوش تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج ولا ترى داخل الرّحم ولا خارجه أحداً ولا خبر منها للأمّ ولا للأب ولا للنطفة ولا للرّحم فما هذا النقاش؟

أفلم يكن بأعجب ممن يشاهده ينقش بقلمه صورة عجيبة لو نظر إليها مرّتين أو أكثر لتعلّمه فهل يقدر أن يتعلم هذا الجنس من النقش الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة النطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟

فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تعلم أن الذي صور ونقش هذه النقوش والأشكال والصّور والأمثال مما لا شبه له ولا ندّ ولا شريك له ولا ضدّ، كما أن صنعه ونقشه لا يساويه نقش وصنع والتباعد والمباينة بين الفاعلين كما بين الفعلين فعدم تعجبك أعجب من كل عجيب، فإنّ الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك اليقين مع هذا البيان جدير بأن يتعجب منه:

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وأضلّ وأغوى، وفتح بصائر أحبائه فشاهدوه وهم به مؤمنون وأعمى قلوب أعدائه فقال فيهم:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فله الخلق والأمر لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

المقصد الثالث

متضمن للشهادة بالتنزيه والتقديس وأنه سبحانه وتعالى شأنه عن مشابهة مصنوعاته ومجانسة مخلوقاته وهو قوله:

(وأشهد أنّ من شبهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك لم يعقد غيب ضميره على معرفتك ولم يباشر قلبه اليمين بأنه لا ندّ لك) ولا يخفى ما فيه من المحسنات البيانية.

أوّلها: أنه ﷺ غير أسلوب الكلام والتفت من الغيبة إلى الخطاب على حد قوله تعالى: إياك نعبد، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب آخر كان أحسن تطرءة لنشاط السّامع، وأكثر إيقاظاً للإصغاء إلى ذلك الكلام.

وثانيها: أن التشبيه يعتمد على أركان: المشبه، والمشبه، والمشبه به، فالمشبه في هذا المقام هو القايس له سبحانه على خلقه، والمشبه هو الله العزيز المتعال، والمشبه به في الحقيقة هو الخلق المتباينة الأعضاء والمتلائمة حقاق المفاصل إلاّ أنه عليه السلام جعل المشبه به تباين الأعضاء وتلاحم الحقاق تعريضاً على ذم المشبه وتوبيخه، وتنبيهاً على غلطه وفي تشبيهه، وذلك لأن تباين الأعضاء وتلاحمها من لوازم المشبه به، وهما مستلزمان للتركيب واجتماع المفردات المستلزمين للافتقار إلى المركب والجامع، فمن كان ملزوماً للحاجة والافتقار كيف يجوز أن يشبه به العزيز الغني المتكبر الجبّار، فجعلها نفس المشبّه به تنبيهاً على كونهما بمنزلة الوسط في لزوم التركيب للمشبّه به الحقيقي حتّى يظهر بذلك تقدسه عن التّشبه به.

وثالثها: أنّه وصف المفاصل بكونها محتجبة معللاً احتجابها بأنه من تدبيرات حكمته تعالى ومقتضياتها، وذلك لأنها لو لم تحتجب وخلقت بارزة عارية عن الغطاء والغشاء ليبست رباطاتها وقست فيعذر تصرف الحيوان بها كما هو الآن مضافاً إلى كونها معرضة للآفات المفسدة لها وغير ذلك من خفي تدبيره ولطيف حكمته.

ورابعها: أنه عليه السلام شهد في حق المشبهة بعدم عقد ضميرهم المكنون على معرفة الله سبحانه وعدم اعتقادهم ويقينهم بأنه لا مثل له تعالى، وإنّما عبر عن عدم اليقين بعدم اليمين إشعاراً بأن اللازم على العبد في مقام تنزيهه سبحانه عن المثل والنّظير أن يكون تنزييه له صادراً عن وجه كمال اليقين بحيث لو أراد الحلف بذلك أمكنه ذلك.

هذا إن جعلنا اليمين بمعنى القسم، وإن كان بمعنى القوّة فالمقصود الإشعار بأن يكون تنزيهه صادراً عن قوّة القلب ولا يكون مضطرباً فيه.

ولما شهد عليه السلام في حق المشبّه بأنه لم يعقد قلبه على معرفة الله سبحانه ولم يتيقّن تنزيهه عن المثل أكد ذلك بقوله: **(وكأنه)** أي المشبّه لله بخلقه **(لم يسمع تبرأ التّابعين)** وهم عبدة الأصنام والأوثان **(من المتبوعين)** أي من آلهتهم يوم القيامة **(إذ يقولون)** حين ألقوا.

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤-٩٥].

(تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا) أي قد كنا (**لفي ضَلالٍ مُبينٍ إِذْ تُسَوّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ**) ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠٢].

فإنّ المشبّهين لو سمعوا ذلك وعرفوا بذلك أي بتبرؤ التابعين من المتبوعين وبما حكى الله عنهم في الكتاب المبين، لعقدوا قلبهم على المعرفة، ونزّهوه سبحانه عن المثل والصفة، كي لا يقعوا في الضلالة الدّائمة والحسرة الباقية، كما وقع فيها التّابعون بتلك الجهة.

فإنّهم شهدوا على أنفسهم بالقسم البارّ بأنّهم في ضلال مبين، وتحسّروا بأنهم ليس لهم من شافعين ولا صديق حميم، وتمنّوا الرّجوع إلى الدّنيا ليكونوا من المؤمنين، كلّ ذلك من أجل تشبيههم الخالق بالخلائق وإبدائهم المساواة بين معبوداتهم الباطلة وبين ربّ العالمين، وعدم كونهم بعلوّ شأنه سبحانه وجلالة قدره موقنين مذعنين.

(**كذب العادلون بك**) أي الجاعلون لك عديلاً ومثلاً (**إذ شبّهوك بأصنامهم**) الباطلة (**ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم**) الفاسدة (**وجزؤوك تجزءة المجسّمات بخواطرهم**) الكاسدة (**وقدّروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم**) الجامدة.

أمّا كذبهم في تشبيههم له سبحانه بالأصنام فواضح، حيث اعترفوا بأنهم في ضلال مبين من جهة تسويتهم الأصنام برب العالمين.

وأمّا كذبهم في نحلتهم له حلية المخلوقين، وتجزءتهم له تجزءة المجسّمات وتقديرهم له على الخلقة المختلفة القوى كقولهم: بأنّه في صورة غلام أمرد في رجليه نعلان من ذهب، وقولهم: بأنّه أجوف من فيه إلى صدره وما سوى ذلك فصمت، وغير ذلك من هذياناتهم فأشدّ وضوحاً إذ الأعضاء المختلفة إنّما تتولّد وتكمل بواسطة قوى طبيعيّة ونباتيّة وحيوانيّة وغيرها، وهي قوى مختلفة بحقائقها متضادّة في أفعالها محتاجة إلى المركّب والجامع، والاحتياج مستحيل على واجب الوجود تعالى عمّا يقول الظّالمون علوّاً كبيراً.

(**وأشهد أنّ من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك والعادل بك كافر بما تنزّلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيّناتك**) شهادة ثانية على كفر المشبّهة متفرّعة على ما سبق.

وجهة كفرهم أنهم لمّا شبّهوه بخلقه وسووه به حيث اعتقدوا أن خالقهم وصانعهم هو ما توهّموه بأوهامهم الفاسدة ووصفوه بعقولهم الكاسدة مع عدم كونه خالقهم بل هو مخلوق لهم مصنوع مثلهم لا جرم كانوا بذلك متخذين غير الخالق خالقاً جاعلين لله سبحانه نداً وعديلاً، وهو الكفر والضّلال كما شهدت به محكمات الآيات وأفصحت عنه شواهد أدلة البيّنات قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] إلى أن

قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] وفي سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٣٠] وفي سورة الزُّمر: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ وفي سورة فصّلت:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩].

إلى غير هذه من الآيات الباهرة والحجج القاهرة.

(و) أشهد (**أنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول فتكون في مهبّ فكرها مكيفاً، ولا في رويات خواطرها فتكون محدوداً مصرّفاً**) وهي شهادة ثالثة على تنزهه من إحاطة العقول البشريّة فنفاها بنفي ما يترتّب عليها من كونه تعالى ذا نهاية، إذ معنى الإحاطة بالشيء هو إدراكه بكنهه ومعرفته بجميع جهاته وبلوغ العقل غايته ونهايته بحيث لا يكون وراء ما أدركه شيء آخر ونفي انتهائه بنفي ما يترتّب عليه من كونه ذا كيفيّة تكيّفه بها القوى المتخيّلة لتثبته بها العقول، وكونه محدوداً أي ذا حد ونهاية أي محدوداً بحدّ يحدّه ويعرّفه إذ إدراك العقول للحقائق بكنهها إنما هو من حدودها ومعرّفاتها.

وهذا مبنيّ على كون المحدود مأخوذاً من الحدّ الذي هو معرف الشيء والقول الشّارح له كما أنّ الأوّل مبنيّ على أخذه من الحدّ بمعنى النهاية، وهو بكلا المعنيين محال على الله سبحانه وكونه مصرّفاً أي ذا تصريف وتقليب مأخوذ من تصريف الرّياح وهو تحويلها من وجه إلى وجه ومن حال إلى حال لأنّه إذا كانت العقول والفكر متعلّقة به لا بد أن تتصرّف فيه العقول والأفكار، وتحوّله من وجه إلى وجه لتبلغ غايته وتعرفه بكنهه وهو معنى كونه مصرّفاً.

ولما كانت هذه اللوازم كلّها باطلة مستحيلة في حقّه تعالى كان ملزومها وهو إحاطة العقول به وتناهيه فيها محالاً.

أمّا بطلان اللازم الأوّل فلأنّ الكيف حادث بالذات ممكن الوجود مفتقر إلى جاعل يوجده بريء الذات من الاتصاف به، أما حدوثه فلكونه عرضاً قائماً بالمحلّ فهو مفتقر إلى جاعل وينتهي افتقاره بالآخرة إلى الحق تعالى، وأمّا براءة ذات المحدث من الاتصاف به فلأنّ موجد الشيء مقدّم عليه بالوجود فيستحيل أن يكون المكيّف بالكسر أي موجد الكيف وجاعله مكيّفاً أي منفعلاً ذا كيفيّة وإلاّ لزم تقدّم الشيء على نفسه وكون الشيء الواحد فاعلاً قابلاً وهو محال.

وأما بطلان اللاّزم الثّاني وهو كونه محدوداً أي ذا نهاية فلأنه لا غاية لوجوده ولا منتهى

لذاته، لأَن وجوده وراء ما لا يتناهى مدّة وعدّة بما لا يتناهى قوّة وشدّة وأمّا إن جعلنا الحدّ بالمعنى الثاني الذي أشرنا إليه فلأَنّ حدّ الشيء عبارة عن معرّفه المركب من الجنس والفصل والله سبحانه بسيط الذّات لا جزء له وما لا جزء له لا جنس له وما ليس له جنس ليس له حدّ وقول شارح يعرّف به، وما ليس له حدّ لا يكون محدوداً.

وأمّا بطلان اللازم الثالث أعني كونه مصرّفاً فلاستحالة التغيّر والانتقال من حال إلى حال على الله تعالى شأنه.

الترجمة

پس نظر كن اى سؤال كننده از صفات پروردگار، پس آن چيزى كه دلالت دارد قرآن بر آن از صفت حضرت آفريدگار، پس اقتدا كن به آن و طلب روشنايى كن به نور هدايت او و آنچه كه تكليف كرده آن را شيطان ملعون دانستن او را از چيزى كه نيست در قرآن بر تو فرض آن و نه در سنّت پيغمبر خدا (ﷺ) و نه ائمه هدى علامت و نشانه او، پس واگذار دانستن آن را به خداى تعالى، پس به درستى كه اين منتهاى حق خداوند است بر تو و زياده از اين برتو لازم نيست.

و بدان كه جماعتى كه رسوخ دارند در علم و استوارند در دانش، ايشان كسانى هستند كه بى نياز ساخته ايشان را از بى فكر داخل شدن حجاباتى كه زده شده در پيش غيب ها، اقرار و اعتراف ايشان با جمال آنچه كه جاهل شده اند به تفسير و توضيح آن از غيبى كه پوشيده است، پس مدح فرموده حق سبحانه و تعالى اعتراف به عجز كردن ايشان را از اخذ نمودن آنچه كه احاطه نكرده اند به آن از حيثيت علم و نام نهاده ترك تعمّق و خوض كردن ايشان را در چيزى كه تكليف نكرده بر ايشان بحث نمودن از حقيقت آن را به رسوخ.

پس قناعت كن اى سائل در باب معرفت به اين مقدار و تقدير مكن عظمت پرودگار را به اندازه عقل خود تا اينكه شوى از هالكين.

او سبحانه قادرى است كه اگر مجدّ شوند وهمها تا دريابند نهايت توانايى آن را و طلب كند فكرى كه مبرّا است از خطرات وساوس شيطانيّه، آنكه واقع شود در اسرار عميقه پادشاهى او و واله و متحير باشند قلب ها به سوى او تا اينكه جارى شوند در چگونگى صفت هاى او و غامض و خفى باشد محل دخول عقل ها به اندازه اى كه خارج از وصف باشد به جهت طلب علم به ذات او سبحانه ردع مى كند و بازدارد خداوند تعالى آن عقول و اوهام را از معرفت به ذات و صفات خود و حال آنكه قطع كند آن اوهام و عقول مواضع هلاك تاريكى هاى غيب ها را در حالتى كه رهيده باشد از غير و نزديكى جويند به سوى حق سبحانه.

پس برگشتند زمانى كه بازداشته شدند در حالتى كه اعتراف كننده باشند به اينكه

رسیده نمی شود به شدت جولان در بیداء جلال و عزّت و حقیقت معرفت او و به اینکه خطور نمی کند به دل صاحبان فکرها خطورکننده از اندازه کردن بزرگی عزّت او.

آن خداوندی که ایجاد کرد مخلوقات را بدون سبق مثالی که متابعت کرده باشد بر آن و بی تقدّم مقدار و اندازه که عمل کرده باشد بر وفق آن که صادر شده باشد آن مثال و مقدار از خالق معبودی که بوده باشد قبل از او و بنموده ما را از پادشاهی قدرت خود و از عجایب آن چیزی که گویا شده است به آن نشان های حکمت او و از اعتراف نمودن خلایق به احتیاج خودشان به اینکه اقامه نماید و به پا داشته باشد ایشان را به نگه داشت قوّه خود دلیل وافی و برهان شافی ما را به سبب ضروری و بدیهی بودن حجتی که قائم است مراورا به معرفت او و ظاهر گردید در اشیاء بدیعه که ایجاد فرموده نشان های صنعت او و علامت های حکمت او.

پس گردید هر چیزی که خلق فرموده برهان قاطع مر الوهیت آن را و دلیل ساطع بر وجوب وجود آن و اگرچه بوده باشد آن مخلوق خلق غیر ناطق و جماد ساکت، پس حجت حق تعالی به تدبیر حکمت او گویا است و دلیل او بر وجود مبدع برپا.

پس شهادت می دهم بر اینکه کسی که تشبیه کرده تو را به اعضای متباینه مخلوقات تو و خورده های به هم پیوسته مفاصل ایشان که پوشیده شده است به تدبیر حکمت تو، عقد ننموده فکر باطنی خود را بر معرفت تو و مباشر نکرده به قلب خودش یقین را به اینکه نیست هیچ مثلی تو را.

و گویا که نشنیده آن تشبیه کننده بیزاری جستن تابعان را از متبوعان در روز قیامت و زمان انداخته شدن ایشان بر آتش وقتی که گویند: قسم به خدا که هرآینه بودیم ما در ضلالت هویدا، در وقتی که برابر کردیم ما شما را با پرودگار عالمیان.

دروغ گفتند کسانی که به تو مثل و عدیل قرار دادند وقتی که تشبیه کردند تو را به بت های خودشان و بخشیدند به تو صفات مخلوقات را به وهم های خود و تجزیه کردند تو را همچون مجزّاکردن اشیاء مجسمه با خاطرهای خود و اندازه

کردند تو را بر هیکلی و شکلی که مختلف است قوت های او با عقل های خود.

پس شهادت می دهم بر اینکه هرکس که مساوی ساخت تو رابا چیزی از مخلوق تو، پس به تحقیق که عدیل قرار داد تو را و هرکس که عدیل قرار داد به تو، کافر است به حکم آن چیزی که نازل شده با آن آیات محکمات تو و به حکم آن چیزی که ناطق شد از آن گواهان حجت های واضحه تو.

و شهادت می دهم بر اینکه تویی معبود به حق که پایان نداری در عقل ها تا اینکه باشی در محلّ وزیدن اندیشه های آن عقول مکیّف با کیفیّتی و نه در اندیشه های خاطرهای آن عقول صاحب حدّ و نهایتی و موصوف به تغییر از حالت به حالتی.

الفصل الثالث

منها قدَّرَ ما خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقديرَهُ، ودَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبيرَهُ، ووَجَّهَهُ لِوَجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الانْتِهاءِ إلى غايَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إرادَتِهِ، وَكَيْفَ؟ وإِنَّما صَدَرَتِ الأُمُورِ عَنْ مَشيئَةِ الْمُنْشِيءِ أَصْنافَ الأَشْياءَ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْها، وَلاَ قَريحَةِ غَريزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْها، وَلاَ تَجْرُبَةٍ أَفادَها مِنْ حَوادِثِ الدُّهُورِ، وَلاَ شَرِيكٍ أَعانَهُ عَلَى ابْتِداعِ عَجائِبِ الأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ وأَذْعَنَ لطاعَتِهِ، وأَجابَ إلىٰ دَعْوَتِهِ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِي، وَلا أَناةُ المُتَلَكِّي، فَأَقَامَ مِنَ الأَشْياءِ أَودَهَا، ونَهَجَ حُدُودَها، ولاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَينَ مُتَضادِّها، ووَصَلَ أَسْبابَ قَرائِنِها، وفَرَّقَها أَجْناساً مُخْتَلِفاتٍ، في الْحُدُودِ والأَقْدارِ والْغَرائِزِ وَالْهَيْئاتِ، بَدايا[1] خَلاَئِقَ أَحْكَمَ صُنْعَها، وفَطَرَها عَلَى ما أَرادَ وَابْتَدَعَها[2].

اللغة

(**التدبير**) في الأمور النّظر إلى ما يؤل إليه عاقبتها و(**وجهة**) الشيء بالكسر جهة الشّيء يتوجه إليها قال تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

و(**قصر**) السهم عن الهدف إذا لم يبلغه وقصرت عن الشيء أي عجزت عنه و(**دون**) الشّيء أي قريباً منه وقبل الوصول إليه و(**آل**) إليه رجع و(**الغريزة**) الطبيعة و(**قريحة الغريزة**) ما يستنبطه الذّهن.

قال الجوهري: القريحة أوّل ما يستنبط من البئر ومنه قولهم: لفلان قريحة جيّدة يراد استنباط العلم بجودة الطبع و(**أضمر عليها**) أي بلغ الغاية واستقصى عليها من الإضمار بمعنى الاستقصاء، وقيل: من الإضمار بمعنى الإخفاء وليس بشيء لتعديه بنفسه يقال: أضمره وأخفاه ولا يقال: أخفى وأضمر عليه و(**الإفادة**) الاستفادة و(**اعترض**) الشيء دون الشيء حال، واعترض صار كالخشبة المعترضة في النهر و(**الريث**) الإبطاء و(**الأناة**) كقناة: الحلم والوقار مأخوذ من تأنّى في الأمر أي تثبت و(**تلكاء**) عليه اعتلّ وعنه أبطأ و(**الأود**) محركة الاعوجاج و(**قرائنها**) جمع القرينة وهي الأنفس ويحتمل أن يراد بها مقارنات الأشياء كما تطلع عليه.

---

(١) في نسخة: برايا.

(٢) التوحيد: ٥٤، وبحار الأنوار: ٤/ ٢٧٦.

قال الشّارح المعتزلي: و**(بدايا)** هٰهنا جمع بدية وهي الحالة العجيبة بدأ الرّجل إذا جاء بالأمر البدء أي المعجب والبدية أيضاً الحالة المبتكرة المبتدءة ومنه قولهم: فعله باديء بديء على وزن فعل أي أوّل كلّ شيء.

الإعراب

قوله: **(وكيف)** استفهام على سبيل الإنكار وإنما صدرت جملة حالية والعامل محذوف أي كيف يستصعب وإنّما صدرت الأمور، وجملة **(لم يعترض)** حال أيضاً من فاعل المصدر أعني دعوته، قوله: **(أجناساً)** حال من مفعول فرق أو منصوب بنزع الخافض أي فرقها بأجناس أو على أجناس مختلفة، وقوله: **(بدايا خلائق)** خبر لمبتدأ محذوف أي هي بدايا خلائق، وإضافة بدايا إلى خلائق من باب اضافة الصّفة إلى موصوفها، قال الشّارح المعتزلي: ويجوز أن لا تكون **(بدايا)** إضافة إليها بل تكون بدلاً من أجناساً.

أقول: فعلى هذا الاحتمال تكون بدايا صفة ثانية لأَجناساً وما ذكرناه أظهر فتدبّر.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من الخطبة متضمن لتنزيه الله سبحانه في كيفية إيجاده للأَشياء وخلقه لها عن صفات المصنوعين، وفيه تنبيه على كون المخلوقين مذلّين لانقياده حكمه، مطيعين لأَمره، ماضين على إرادته، غير متمردين عن طاعته كما قال ﷺ: **(قدّر ما خلق فأحكم تقديره)** يعني أنّ كلّ مخلوق قدره في الوجود فعلى وفق حكمته بحيث لو زاد على ذلك المقدار أو نقص منه لاختلت مصلحة ذلك المقدر وتغيرت جهة المنفعة فيه **(ودبّره فألطف تدبيره)** يعني أنّه أوجد الأَشياء على وفق المصلحة ونظام الخير فتصرّف فيها تصرّفات كلّية وجزئية من غير شعور غيره ذلك.

(ووجّهه لوجهته فلم يتعدّ حدود منزلته ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته) أراد أنّه سبحانه وجه كل ما خلق إلى الجهة التي وجّهه إليها، وألهم كلاً ويسّره لما خلق له، كالسحاب للمطر والحمار للحمل والنّحل للشمع والعسل وهكذا فلم يتجاوز شيء منها مرسوم تلك المنزلة المحدود له المعيّنة في حقه، ولم يقصر دون الانتهاء إلى الغاية التي كتبت له في اللّوح المحفوظ وإلاّ لزم التّغيّر في علمه وعدم النفاذ في أمره وهما محالان.

(ولم يستصعب إذ أمر بالمضيّ على إرادته) أي لم يستصعب أحد من المخلوق التّوجّه إلى الجهة التي وجّهه إليها، ولم يمكنه التّخلّف من المضيّ إليها على وفق إرادته وحكمته بعد أمره له بذلك أمر تكوين لا تشريع.

(وكيف) يستصعب ويتخلّف **(وإنّما صدرت الأمور عن مشيئة المنشيء أصناف الأَشياء)**

يعني أنّ جميع الآثار مستندة إلى مشيّة إذ كلّ أثر فهو واجب عن مؤثره والكلّ منته في سلسلة الحاجة إلى إرادته فهو واجب عنها.

ويدلّ عليه ما رواه في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خلق الله المشيئة بنفسها ثمّ خلق الأشياء بالمشيئة[١].

وسيأتي تحقيق الكلام في ذلك بعد الفراغ من شرح الفصل، هذا.

وقوله عليه السلام: **(بلا روية فكر آل إليها ولا قريحة غريزة أضمر عليها ولا تجربة أفادها من حوادث الدّهور ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور)** إشارة إلى تنزّهه في إيجاد المخلوقات عن الافتقار إلى هذه الأمور، وأن ذاته بذاته مصدر جميع الأمور وأن خلقه سبحانه لها غير موقوف على شيء منها.

أمّا روية الفكر فلأنها عبارة عن حركة القوة المفكّرة في تحصيل المطالب من المبادىء وانتقالها منها إليها وهي محال على الله سبحانه: «أمّا أوّلاً» فلكون القوّة المفكّرة من خواصّ نوع الإنسان «وأمّا ثانياً» فلأن فائدتها تحصيل المطالب المجهولة من المعلومات والجهل محال في حقه تعالى.

وأمّا قريحة الغريزة فلأنها على ما عرفت عبارة عن استنباط العلم بجودة الذهن، واستحالته على الله واضحة إذ العلم عين ذاته وهو تعالى غير فاقد له حتّى يكون محتاجاً إلى التعمّق والاستنباط والنظر في موارده ومصادره والاستقصاء عليه وبلوغ الغاية فيه.

وأمّا التجربة فلأنها عبارة عن حكم العقل بأمر على أمر بواسطة مشاهدات متكررة معدّة لليقين بسبب انضمام قياس خفيّ إليها، وهو أنّه لو كان هذا الأمر اتفاقياً لما كان دائماً أو أكثرياً استحالتها على الله من وجهين: **أحدهما**: أنها مركبة من مقتضى الحس والعقل، وذلك أنّ الحسّ يشاهد وقوع الإسهال مثلاً عقيب شرب الدّواء مرة بعد مرة فينتزع العقل من تلك المشاهدة حكماً كلّياً بأن ذلك الدّواء مسهل ومعلوم أنّ اجتماع الحسّ والعقل من خصائص نوع الإنسان، **وثانيهما**: أن التّجربة إنما تفيد علماً لم يكن قبل فالمحتاج إلى التجربة لاستفادة العلم بها ناقص بذاته مستكمل بها والمستكمل بالغير محتاج إليه فيكون ممكناً.

وأمّا الشريك المعين فلانتفاء الشريك أوّلاً كما مرّ في شرح الفصل الرابع من فصول الخطبة الأولى، ولانتفاء مبدأ الاستعانة ثانياً لأنّ مبدئها هو العجز من الفعل والعجز عبارة عن تناهي القوّة والقدرة، وقدس الحق منزّه عن ذلك.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٣/ ٢٧٠، ومحاضرات في أصول الفقه: ٢/ ٣٧.

فقد وضح واتّضح بذلك كلّ الوضوح أنّ الله سبحانه غير محتاج في إبداع الخلائق وإيجادها إلى الفكر والرّوية، ولا قريحة الطّبيعة ولا تجربة ولا مشاركة وإنّما مستنداً لإيجاد نفس الإرادة والمشيئة وأنّه سبحانه:

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

(فتمّ خلقه) بمشيئته **(وأذعن)** الكلّ **(لطاعته)** بمقتضى إمكانه وحاجته **(وأجاب)** الجميع **(إلى دعوته)** حيث دعاهم إلى بساط الوجود بمقتضى عموم الإفاضة والجود **(و)** الحال أنّه **(لم يعترض دونه ريث المبطيء ولا أناة المتلكي)** أي لم يحل دون نفاذ أمره إبطاء المبطيء ولا تثبت المتوقف المعتلّ بل انقادت له جميع الأشياء وأسرعوا إلى أمره عند الدّعاء من غير تعلّل ولا إبطاء لكون الكلّ مقهوراً تحت قدرته أذلة تحت عزّته كما قال عزّ من قائل:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

يعني أنّه إذا أراد فعله وخلقه يقول له ذلك بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكّر، فقوله: كن إشارة إلى هبة ما ينبغي لذلك المأمور وبذل ما يعدّه لإجابة أمره بالكون في الوجود، وقوله: فيكون إشارة إلى وجوده، و**(الفاء)** المقتضية للتعقيب بلا مهلة دليل على اللّزوم وعدم التأخّر، هذا.

ويحتمل أن يكون المراد بنفي اعتراض الرّيث والإناة نفي اعتراضهما بالنّظر إلى ذاته من حيث فاعليته، فيكون المقصود بذلك تنزيهه من أن يعرض له شيء من هذه الكيفيّات كما يعرض على أحدنا إذا أردنا فعل شيء من حيث قصور قدرتنا وضعف قوّتنا **(فأقام من الأشياء أودها)** واعوجاجها، وإقامتها كناية عن إعداده ما ينبغي لها وإفاضته الكمال بالنسبة إليها **(ونهج حدودها)** وغاياتها أراد به إيضاحه لكلّ شيء وجهته وتيسيرها له **(ولائم بقدرته بين متضادها)** كما جمع بين العناصر الأربعة على تضادّ كيفيّتها في مزاج واحد **(ووصل أسباب قرائنها)** ونفوسها بتعديل أمزجتها لأنّ اعتدال المزاج سبب بقائها.

قال الشارح البحراني: ويحتمل أن يكون معنى الوصل لأسبابها هدايتها إلى عبادته وما هو الأولى بها في معاشها ومعادها وسوقها إلى ذلك، إذ المفهوم من قول القائل: وصل الملك أسباب فلان إذا علّقه عليه ووصله إلى برّه وإنعامه، هذا إن جعلنا القرائن بمعنى الأنفس وإن كانت بمعنى مقارنات الشيء فهو إشارة إلى أن الموجودات لا تنفك عن أشياء يقترن بها من هيئة أو شكل أو غريزة ونحوها، واقتران الشيئين لا محالة مستلزم لاقتران أسبابهما، لاستحالة قيام الموجود بدون أسبابه، وذلك الاقتران والاتّصال مستند إلى كمال قدرته إذ هو مسبب الأسباب.

(وفرقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات) أي جعلها أقساماً

مختلفة النهايات والمقادير متفاوتة الطبائع والصفات، فجعل بعضها طويلاً وبعضها قصيراً وبعضها صغيراً وبعضها كبيراً، وجعل سجيّة بعضها شجاعاً وبعضها جباناً وبعضها شحيحة وبعضها كريمة وهيئة بعضها حسنةً وبعضها قبيحة وهكذا، هذا إن كان الحدود في كلامه عليه السلام بمعنى النهايات.

قال الشارح البحرانيّ: وإن حملنا الحدود على ما هو المتعارف كان حسناً، فإن حكمة الخالق سبحانه اقتضت تميّز بعض الموجودات عن بعض بحدودها وحقائقها، وبعضها بأشكالها وهيئاتها ومقاديرها وغرائزها وأخلاقها كما يقتضيه نظام الوجود وأحكام الصّنع وحكم الإرادة الإلهيّة.

(بدايا خلائق أحكم صنعها وفطرها على ما أراد وابتدعها) أي هي مخلوقات عجيبة أو مبتكرة غير محتذي بها حذو خالق سابق، جعل صنعها محكماً متقناً، وأوجدها على وفق إرادته وأبدعها من العدم المحض إلى الوجود من دون أن تكون لها مادة أصلاً لها كما زعمت الفلاسفة من أن الأجسام لها أصل أزلّ هي المادّة فهو المخترع للمكنات بما فيها من المقادير والأشكال والهيئات، والمبتدع للموجودات بمالها من الحدود والغايات والنّهايات بمحض القدرة على وفق الإرادة ومقتضى الحكمة.

تنبيه

اعلم أنّه لما جرت في هذا الفصل ذكر حديث صدور الأشياء عن مشيئته سبحانه أحببت تنقيح ذلك المرام وعزمت على تحقيق الكلام في هذا المقام لكونه من مزال الأقدام.

فأقول: وبالله التكلان وهو المستعان إن الكلام في هذا الباب يقع في مقامات ثلاثة:

المقام الأول

في معنى المشيئة، وقد فسّرها أهل اللغة بالإرادة قال في «القاموس»: شئته أشاءه شيئاً ومشيئة ومشاءة ومشائية أردته، وفي «مجمع البحرين»: والمشيئة الإرادة من شاء زيد يشاء من باب قال أراد، وفي «المصباح» شاء زيد الأمر يشاءه شيئاً من باب قال أراده، والمشيئة اسم منه بالهمز، والإدغام غير سائغ إلا على قياس من يحمل الأصلي على الزّائد لكنّه غير منقول ونحوها في سائر كتب اللغة.

وأما في الأخبار وأحاديث أئمّتنا الأبرار الأخيار فتارة أطلقتا على معنى واحد مثل ما رواه الطريحي عن الرّضا عليه السلام إن الإبداع والمشيئة والإرادة معناها واحد والأسماء ثلاثة، وأخرى وهو الأكثر على معنيين مختلفين يجعل مرتبة المشيئة متقدّمة على مرتبة الإرادة وكون نسبتها إليها نسبة القوة إلى الضعف.

ويدلّ عليه ما رواه المحدث المجلسي من «المحاسن» للبرقي قال: حدثني أبي عن يونس عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال: قلت: لا يكون إلاّ ما شاء الله وأراد وقضى؟ فقال عليه السلام: لا يكون إلا ما شاء الله وقدر وقضى، قلت: فما معنى شاء؟ قال: ابتدأ الفعل، قلت: فما معنى أراد؟ قال عليه السلام: الثبوت عليه، قلت: فما معنى قدر؟ قال: تقدير الشيء من طوله وعرضه، قلت: فما معنى قضى؟ قال عليه السلام: إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مردّ له[١].

ورواه في «الكافي» مسنداً عن عليّ بن إبراهيم الهاشمي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام نحوه إلاّ أنّه ليس فيه قوله: قلت: فما معنى أراد قال: الثبوت عليه، ولعلّه سقط من الكتاب والظّاهر أنّ مراده منه هو ما ذكرنا كما فهمه شراح الحديث.

قال في «مرآة العقول»: قوله عليه السلام: (ابتدأ الفعل) أي أوّل الكتابة في اللّوح المحفوظ أو أوّل ما يحصل من جانب الفاعل ويصدر عنه ممّا يؤدي إلى وجود المعلول وعلى ما في «المحاسن» يدلّ على أن الإرادة تأكّد المشيئة وفي الله سبحانه تكون عبارة عن الكتابة في الألواح وتسبيب أسباب وجوده، وقوله: تقدير الشيء، أي تعيين خصوصيّاته في اللّوح أو تعيين بعض الأسباب المؤدية إلى تعيين المعلول وتحديده وخصوصيّاته إذا قضى أمضاه، أي إذا أوجبه باستكمال شرائط وجوده وجميع ما يتوقّف عليه المعلول أوجده، وذلك الذي لا مردّ له لاستحالة تخلف المعلول عن الموجب التام.

وقال الصّالح المازندراني في شرح على «أصول الكافي»: لما كان قوله عليه السلام: **(لا يكون شيء إلاّ ما شاء الله)**، دالاً بحسب الظاهر على أن المعاصي تقع بمشيئته تعالى وإرادته وهذا لا يستقيم على المذهب الحقّ، سأل السائل عن معنى المشيئة حتى يظهر له وجه الاستقامة، فأجاب عليه السلام بأن المشيئة ابتداء الفعل وأوله، ولعلّ المراد بابتداء الفعل أن مشيئته تعالى أوّل فعل من الأفعال، وكلّ فعل غيرها يتوقّف عليها ويصدر بعدها كما يدلّ عليه ما عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خلق الله المشيئة بنفسها ثمّ خلق الأشياء بالمشيئة[٢]، يعني خلق أفعاله بها وكذا خلق أفعال عباده لكن بتوسط مشيئة جازمة صادرة منهم، فإذا سلسلة جميع الأفعال منتهية إلى مشيئته تعالى، والمراد به أن مشيئته أوّل المشيئات، وكلّ مشيئة سواها تابعة لها، كما أنّه تعالى هو الفاعل الأوّل وكلّ فاعل بعدها فاعل ثانوي يسند فعله إليه بلا واسطة، وإلى الفاعل الأوّل بواسطة، وهذا معنى مشيئته تعالى لأفعال العباد ومعنى إسناد فعلهم إلى مشيئته.

وفي «محاسن البرقي» بعد هذا السؤال والجواب قلت: فما معنى أراد؟ قال: الثبوت عليه، يعني على ابتداء الفعل ومن ههنا فسر بعضهم الإرادة تارة بأنّها عزيمة على المشيئة،

---

(١) المحاسن: ١/ ٢٤٤ ح ٢٣٧، والكافي: ١/ ١٥٠ ح١.

(٢) شرح أصول الكافي: ٣/ ٢٧٠ ح ٤، ومحاضرات في أصول الفقه: ٢/ ٣٧.

وتارة بأنها الإتمام لها، وتارة بأنّها الجدّ عليها.

وقال صدر المتألّهين: نسبة المشيئة إلى الإرادة كنسبة الضعف إلى القوّة ونسبة الظنّ إلى الجزم، فإنّك ربما تشاء أشياء ولا تريدها، فظهر أن المشيئة ابتداء العزم على الفعل، هذا.

وفي «الكافي» عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد بن خالد عن أبيه ومحمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد بن عيسى عن الحسين بن سعيد ومحمّد بن خالد جميعاً عن فضالة ابن أيوب عن محمّد بن عمارة عن حريز بن عبد الله وعبد الله بن مسكان جميعاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يكون شيء في الأرض ولا في السّماء إلاّ بهذه الخصال السّبع، بمشيئة، وإرادة، وقدر، وقضاء، وإذن، وكتاب، وأجل، فمن زعم أنه يقدر على نقص واحدة فقد كفر[١].

قال في «مرآة العقول»: يمكن حمل الخصال السبع على اختلاف مراتب التقدير في الألواح السّماويّة، أو اختلاف مراتب تسبب الأسباب السّماويّة والأرضيّة، أو يكون بعضها في الأمور التكوينيّة وبعضها في الأحكام التكليفيّة، أو كلّها في الأمور التكوينيّة.

فالمشيئة وهي العزم؛ والإرادة وهي تأكدها في الأمور التكوينيّة ظاهرتان وأمّا في التكليفيّة فلعلّ عدم تعلّق الإرادة الحتميّة بالترك عبّر عنه بإرادة الفعل مجازاً.

والحاصل أن الإرادة متعلّقة بالأشياء كلّها لكن تعلّقها بها على وجوه مختلفة إذ تعلقها بأفعال نفسه بمعنى إيجادها والرضا بها والأمر بها، وبالمباحاة بمعنى الرّخصة بها، وبالمعاصي إرادة أن لا يمنع منها بالجبر لتحقق الابتلاء والتكليف كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧].

أو يقال: تعلّقها بأفعال العباد على سبيل التجوز باعتبار إيجاد الآلة والقدرة عليها وعدم المنع منها فكأنّه أرادها.

وبالقدر تقدير الموجودات طولاً وعرضاً وكيلاً ووزناً وحدّاً ووصفاً وكمّاً وكيفاً، وبالقضاء الحكم عليها بالثواب والعقاب أو تسبيب أسبابه البعيدة كما مرّ والمراد بالإذن إما العلم أو الأمر في الطّاعات أو رفع الموانع، وبالكتاب الكتابة في الألواح السّماوية أو الفرض والإيجاب كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وكتب على نفسه الرّحمة، وبالأجل الأمد المعيّن والوقت المقدر عنده تعالى.

وفي «الكافي» أيضاً عن الحسين بن محمّد بن معلّى بن محمّد قال: سئل العالم عليه السلام

---

(١) المحاسن: ١/ ٢٤٤ ح ٢٣٦، وبحار الأنوار: ٥/ ١٢١ ح ٦٥.

كيف علم الله؟ قال: علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى وقضى ما قدر وقدر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الإمضاء[1] الحديث.

قال صدر المتألّهين في شرحه: هذا السّائل سأله عليه السلام عن كيفيّة علمه تعالى بالجزئيات الزّمانيّة والمكانيّة، فأجابه عليه السلام عنها بما أفاده من المراتب السّتة المرتب بعضها على بعض.

أوّلها: العلم، لأنّه المبدأ الأوّل لجميع الأفعال الاختياريّة، فإنّ الفاعل المختار لا يصدر عنه فعل إلاّ بعد القصد والإرادة، ولا يصدر عنه القصد والإرادة إلاّ بعد تصور ما يدعوه إلى ذلك الميل وتلك الإرادة والتّصديق به تصديقاً جازماً أو ظنّاً راجحاً، فالعلم مبدأ مبادىء الأفعال الاختياريّة، واعلم أن المراد بهذا العلم المقدم على المشيئة والإرادة وما بعدهما بحسب الاعتبار أو التحقق هو العلم الأزلي الذاتي الإلهيّ أو القضائي المحفوظ عن التغير، فينبعث منه ما بعده وأشار إليه بقوله: علم، أي علم دائماً عن غير زوال وتبدل.

وثانيها: المشيئة، والمراد بها مطلق الإرادة سواء بلغت حدّ العزم والإجماع أم لا، وقد تنفك المشيئة فينا عن الإرادة الجازمة كما نشتاق أو نشتهي شيئاً ولا نعزم على فعله لمانع عقليّ أو شرعي وإليها أشار بقوله: وشاء.

وثالثها: الإرادة، وهي العزم على الفعل أو الترك بعد تصوّره وتصور غاية المترتبة عليه من خير أو نفع أو لذة، لكن الله بريء عن أن يفعل لأجل غرض يعود إلى ذاته وإليها الإشارة بقوله: (أراد).

ورابعها: التقدير، فإن الفاعل لفعل جزئي من أفعال طبيعة واحدة مشتركة إذا عزم على تكوينه في الخارج كما إذا عزم الإنسان على بناء بيت فلا بدّ قبل الشروع أن يعيّن مكانه الذي يبني عليه، وزمانه الذي يشرع فيه، ومقداره الذي يكوّنه عليه من كبر أو صغر أو طول أو عرض، وشكله ووصفه ولونه وغير ذلك من صفاته وأحواله، وهذه كلّها داخلة في التقدير.

وخامسها: القضاء، والمراد هنا إيجاب الفعل واقتضاء الفعل من القوة الفاعلة المباشرة، فإن الشيء ما لم يجب لم يوجد، وهذه القوة الموجبة بوقوع الفعل منّا هي القوّة التي تقوم في العضلة والعصب من العضو الذي توقع القوّة الفاعلة فيها قبضاً وتشنجاً؛ أو بسطاً وإرخاء أوّلاً فتتبعه حركة العضو فتتبعه صورة الفعل في الخارج من كتابة أو بناء أو غيرهما، والفرق بين هذا الإيجاب وبين وجود الفعل في العين كالفرق بين الميل الذي في المتحرك وبين حركته، وقد ينفك الميل كما تحس يدك من الحجر المسكن باليد في الهواء، ومعنى هذا الإيجاب

---

(١) الكافي: ١/١٤٨ ح ١٦، وشرح أصول الكافي: ٤/٢٥١ ح ١٦.

والميل من القوة المحرّكة أنه لولا هناك اتفاق مانع أو دافع من خارج لوقعت الحركة ضرورة إذ لم يبق من جانب الفاعل شيء منتظر فقوله عليه السلام: **(وقضى)**، إشارة إلى هذا الاقتضاء والإيجاب الذي ذكرنا أنه لا بد من تحققه قبل الفعل قبلية بالذات لا بالزمان إلاّ أن يدفعه دافع من خارج، وليس المراد منه القضاء الأزلي لأنه نفس العلم، ومرتبة العلم قبل المشيئة والإرادة والتقدير.

وسادسها: نفس الإيجاد وهو أيضاً متقدّم على وجود الشيء المقدّر في الخارج ولهذا يعدّه أهل العلم والتحقيق من المراتب السّابقة على الوجود الممكن في الخارج فيقال: أوجب فوجب، فأوجد فوجد.

فإن قلت: أليس الإيجاد والوجود وكذا الإيجاب والوجوب متضايفين والمتضايفان معان في الوجود؟

قلت: المتضايفان وإن كانا من حيث مفهوميهما الإضافين ومن حيث اتصاف الذاتين بهما معاً كما ذكرت، لكن المراد ههنا ليس حال المفهومين، فإن كلا من الموجد بالفعل أو المقتضى أو المحرك قد يراد به المعنى الإضافي والمفهوم النّسبي وحكمه كما ذكرت من كون تحققه مع تحقق ما أضيف إليه من حيث إنه أضيف إليه، وقد يراد به كون الشيء بحيث يكون وجوده مستتبعاً لوجود شيء آخر وهذا الكون لا محالة متقدم على كون شيء آخر هو تابعه ومقتضاه الموجود بسبب هذا الاقتضاء أو الإيجاد.

كما في تحريك اليد بحركتها للمفتاح، تقول: تحرك اليد فتحرك المفتاح فإن **(الفاء)** تدل على الترتيب وإن كانا معاً في الزّمان وربما يتقدّم المقتضي على المقتضي زماناً في عالم الاتفاقات إذا كان هناك مانع من خارج كما في المثال الذي ذكرناه.

وكما في اقتضاء الشمس لإضاءة ما يحاذيها من وجه الأرض فحال بينهما حائل، فعدم استضاءة ذلك الموضع ليس لأجل فتور أو نقصان في جانب المقتضي، لأن حاله في الاقتضاء والإضاءة لم يتغيّر عما كان، وإنّما التخلف في الاستضاءة لأجل شيء من جانب القابل، فقوله عليه السلام: فأمضى، إشارة إلى هذا الإيجاد الذي بيّنا أنه قبل الوجود والصدور.

المقام الثاني

في تحقيق أن المشيئة والإرادة من صفات الفعل لا من صفات الذات، وتوضيح ذلك موقوف على رسم مقدّمة متضمنة لقاعدة كلّية بها يعرف الفرق بين صفات الذات وصفات الفعل، وقد أشار إليها ثقة الإسلام الكليني عطّر الله مضجعه في «الكافي» أيضاً وهي:

أن الفرق بينهما من وجوه ثلاثة:

الأوّل: أن كلّ صفة وجودية لها مقابل وجودي فهي من صفات الفعل لا من صفات الذات، لأن صفاته الذاتية كلّها عين ذاته وذاته مما لا ضدّ له، فكذلك كلّما هو عين ذاته، مثال ذلك أنّك تقول: إن الله سبحانه رضي وسخط وأحب وأبغض وأحيى وأمات، وهكذا ولا يجوز أن تقول: علم وجهل وقدر وعجز وعزّ وذلّ، فبذلك يعرف أن الحب والإحياء والرّضا من صفات الفعل لأن البغض والإماتة والسّخط مقابلاتها ناقضات لها، فلو كانت من صفات الذّات لزم أن يكون مقابلاتها ناقضات للذات الأحدية وهو محال، لأنّه لا ضدّ له كما لا ندّ له فاتصاف ذاته بصفتين ذاتيّتين متقابلتين محال.

الثاني: أن كلّ صفة صحّ تعلق القدرة بها فهي من صفات الفعل وكلّما لا تصح تعلّقها بها فهي صفة الذات، وذلك لأن القدرة صفة ذاتية تتعلّق بالممكنات لا غير، فلا تتعلّق بالواجب ولا بالممتنع، فكل ما هو صفة الذات فهو أزليّ غير مقدور وكلّ ما هو صفة الفعل فهو ممكن مقدور فيصح أن تقول: يقدر أن يخلق وأن لا يخلق ويقدر أن يميت ويحيي وأن يثيب ويعاقب وهكذا، ولا يصح أن تقول: يقدر أن يعلم وأن لا يعلم، لأنّ علمه بالأشياء ضروري واجب بالذّات، وعدم علمه بها محال ممتنع بالذات ومصحّح المقدوريّة هو الإمكان، ومثله صفة الملك والعزة والعظمة والكبرياء والجلال والجمال والجبروت وأمثالها.

الثالث: أنّ كلّ صفة صح تعلق الإرادة بها فهي صفة فعل، وما لا يصحّ تعلّقها بها في صفة الذّات، وذلك لأن الإرادة من توابع القدرة إذ هي عبارة عن اختيار أحد طرفي المقدور والعزم عليه لأجل تحقق الدّاعي، فما لا يكون مقدوراً لا يكون مراداً، وأيضاً الإرادة صفة فعل حادثة والحادث لا يؤثر في القديم.

إذا عرفت هذه المقدمة الشريفة فأقول:

إن الإرادة كما حققه صدر المتألّهين في شرح «الكافي» تطلق على معنيين:

أحدهما: ما يفهمه الجمهور، وهو الذي ضدّه الكراهة، وهي التي قد تحصل فينا عقيب تصور الشيء الملائم وعقيب التردد حتى يترجح عندنا الأمر الداعي إلى الفعل أو الترك فيصدر أحدهما منا، وهذا المعنى فينا من الصفات النفسانية، وهي والكراهة فينا كالشهوة والغضب فينا، وهذا المعنى لا يجوز على الله سبحانه، بل إرادته نفس صدور الأفعال الحسنة منه من جهة علمه بوجه الخير وكراهته عدم صدور الفعل القبيح من جهة علمه بقبحه.

كما قال المفيد (ره): إن الإرادة من الله جلّ اسمه نفس الفعل ومن الخلق الضمير وأشباهه مما لا يجوز إلاّ على ذوي الحاجة والنقص وذلك لأن العقول شاهدة بأن القصد لا يكون إلاّ بقلب كما لا تكون الشهوة والمحبة إلا لذي قلب ولا تصح النيّة والضمير والعزم إلا على ذي خاطر يضطر معه في الفعل الذي يقلب عليه إلى الإرادة له والنيّة فيه والعزم ولما كان

الله تعالى يجل عن الحاجات ويستحيل عليه الوصف بالجوارح والأدوات ولا تجوز عليه الدّواعي والخطرات، بطل أن يكون محتاجاً في الأفعال إلى القصود والعزمات، وثبت أنّ وصفها بالإرادة مخالف في معناه لوصف العباد وأنها نفس فعله الأشياء وبذلك جاء الخبر عن أئمة الهدى.

ثم أورد رواية صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال: فقال عليه السلام: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنه تعالى لا يروّي ولا يتفكر ولا يهمّ وهذه الصّفات منتفية عنه وهي صفات الخلق فإرادة الله تعالى الفعل يقول له كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما لا كيف له تعالى[١].

المعنى الثاني: للإرادة كون ذاته سبحانه بحيث تصدر عنه الأشياء لأجل علمه بنظام الخير فيها التابع لعلمه بذاته، لا كإنباع الضوء للمضيء والسخونة للمسخن، ولا كفعل الطبائع لا عن علم وشعور، ولا كفعل المجبورين والمسخّرين، ولا كفعل المختارين بقصد زائد أو إرادة ظنيّة تحتمل الطرف المقابل.

وقد تحقّقت أن قيوم الكلّ إنّما يفعل الكلّ عن علم هو نفس ذاته العليم الذي هو أتمّ العلوم، فإذاً هو سبحانه فاعل للأشياء كلّها بإرادة ترجع إلى علمه بذاته المتبع لعلمه بغيره المقتضي لوجود غيره في الخارج لا لغرض زائد وجلب منفعة أو طلب محمدة أو ثناء أو التخلّص من مذمّة، بل غاية فعله محبة ذاته فهذه الأشياء الصادرة عنه كلّها مرادة لأجل ذاته لأنها من توابع ذاته وعلمه بذاته، فلو كنت تعشق شيئاً لكان جميع ما يصدر عنه معشوقاً لك لأجل ذلك الشيء.

وإليه الإشارة بما ورد في الحديث الإلهي عن نفسه: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف.

وإذا ظهر لك ذلك اتضح عندك أنّ الإرادة بالمعنى الثاني لا غبار على كونها من صفات الذّات لكونها عبارة أخرى للعلم بالأصلح والنّظام الخير والعلم صفة ذات له سبحانه، وبالمعنى الأول هي صفة فعل ولذلك صحّ سلبها عنه سبحانه.

ويشهد به ما رواه في «الكافي» بإسناده عن عاصم بن حميد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: لم يزل الله مريداً قال: إنّ المريد لا يكون إلا المراد معه، لم يزل الله عالماً قادراً ثم أراد[٢].

---

(١) الكافي: ١/١٠٩ ح ٣، وأوائل المقالات: ٣٦٩.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٤/٣٩٧ ح ٩٧، وزبدة الأصول: ١/١٩٧.

فإنّه كما ترى يدلّ على كونها من الصّفات الإضافيّة المتجدّدة كخالقيته تعالى ورازقيّته، وتشهد به أخبار أخرى أيضاً لا حاجة إلى إيرادها بعد وضوح المراد.

المقام الثالث

في تحقيق الحديث المعروف المروي في «الكافي» عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خلق الله المشيئة بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشيئة.

وقد ذكروا في تأويله وجوهاً أشار إليها المحدث العلامة المجلسي طاب رمسه في «مرآة العقول».

الأوّل: أن لا يكون المراد بالمشيئة الإرادة بل إحدى مراتب التّقديرات التي اقتضت الحكمة جعلها من أسباب وجود الشّيء، كالتّقدير في اللّوح مثلاً والإثبات فيه، فإن اللّوح وما أثبت فيه لم يحصل بتقدير أخر في لوح سوى ذلك اللّوح وإنما وجد سائر الأشياء بما قدّر في ذلك اللّوح وربما يلوح هذا المعنى من بعض الأخبار، وعلى هذا المعنى يحتمل أن يكون الخلق بمعنى التقدير.

الثّاني: أن يكون خلق المشيئة بنفسها كناية عن كونها لازمة لذاته تعالى غير متوقفة على تعلّق إرادة أخرى بها، فتكون نسبة الخلق إليها مجازاً عن تحققها بنفسها منزعة عن ذاته تعالى بلا توقف على مشيئة أخرى، أو إنه كناية عن أنّه اقتضى علمه الكامل وحكمته الشّاملة كون جميع الأشياء حاصلة بالعلم بالأصلح، فالمعنى أنه لما اقتضى كمال ذاته أن لا يصدر عنه شيء إلاّ على الوجه الأصلح الأكمل فلذا لا يصدر شيء عنه تعالى إلاّ بإرادته المقتضية لذلك.

الثّالث: ما ذكره السّيد داماد قدس الله روحه وهو: أن المراد بالمشيئة هنا مشيئة العباد لأفعالهم الاختيارية، لتقدّسه تعالى عن مشيئة مخلوقة زائدة على ذاته عزّ وجلّ وبالأشياء أفاعيلهم المترتب وجودها على تلك المشيئة، وبذلك تنحل شبهة ربما أوردت هٰهنا، وهي: أنه لو كانت أفعال العباد مسبوقة بإرادتهم لكانت الإرادة مسبوقة بإرادة أخرى وتسلسلت الإرادات لا إلى نهاية.

الرّابع: ما ذكره بعض الأفاضل وهو: أن للمشيئة معنيين:

أحدهما: متعلّق بالشّائي وهي صفة كمالية قديمة هي نفس ذاته سبحانه، وهي كون ذاته سبحانه بحيث يختار ما هو الخير والصّلاح.

والآخر: يتعلّق بالمشيء وهو حادث بحدوث المخلوقات لا تتخلف المخلوقات عنه، وهو إيجاده سبحانه إيّاها بحسب اختياره، وليست صفة زائدة على ذاته عزّ وجلّ وعلى

المخلوقات بل هي نسبة بينهما تحدث بحدوث المخلوقات لفرعيتها على المنتسبين معاً فلنقول إنه لما كان هٰهنا مظنة شبهة هي: أنه إن كان الله عزّ وجلّ خلق الأشياء بالمشيئة فبم خلق المشيئة أبمشيئة أخرى فيلزم أن تكون قبل كل مشيئة مشيئة إلى ما لا نهاية له، فأفاد الإمام عليه السلام أن الأشياء مخلوقة بالمشيئة وأما المشيئة نفسها فلا يحتاج خلقها إلى مشيئة أخرى، بل هي مخلوقة بنفسها لأنها إضافة ونسبة بين الشائي والمشيء تتحصل بوجوديهما العيني والعلمي، ولذا أضاف خلقها إلى الله سبحانه لأنّ كل الوجودين له وفيه ومنه، وفي قوله: بنفسها، دون أن يقول بنفسه إشارة لطيفة إلى ذلك، نظير ذلك ما يقال: إن الأشياء إنما توجد بالوجود وأما الوجود نفسه فلا يفتقر على وجود آخر بل إنما يوجد بنفسه.

الخامس: ما ذكره بعض المحققين بعدما حقق: أن إرادة الله المتحققة المتجددة هي نفس أفعاله المتجددة الكائنة الفاسدة، فإرادته لكلّ حادث بالمعنى الإضافة يرجع إلى إيجاده، وبمعنى المرادية ترجع إلى وجوده.

قال: نحن إذا فعلنا شيئاً بقدرتنا واختيارنا فأردناه أوّلاً ثم فعلناه بسبب الإرادة فالإرادة نشأت من أنفسنا بذاتها لا بإرادة أخرى وإلا لتسلسل الأمر لا إلى نهاية فالإرادة مرادة لذاتها والفعل مراد بالإرادة، وكذا الشهوة في الحيوان مشتهاة لذاتها لذيذة بنفسها وسائر الأشياء مرغوبة بالشهوة.

فعلى هذا المثال حال مشيئة الله المخلوقة وهي وجودات الأشياء، فإن الوجود خير ومؤثر لذاته ومجعول بنفسه والأشياء بالوجود موجودة والوجود مشيء بالذات والأشياء مشيئة بالوجود، وكما أن الوجود حقيقة واحدة متفاوتة بالشدة والضعف والكمال والنقص، فكذا الخيرية والمشيئة، وليس الخير المحض الذي لا يشوبه شرّ إلاّ الوجود البحت الذي لا يمازجه عدم ونقص، وهو ذات الباري جلّ مجده فهو المراد الحقيقي إلى آخر ما حققه.

قال المحدّث المجلسي (ره) بعد إيراد هذه الوجوه: والأوفق بأصولنا هو الوجه الأوّل.

أقول: بل ما سوى الوجه الأخير كلها أوفق وإن كانت متفاوتة بالقرب والبعد، وإنما الوجه الأخير الذي مرجعه إلى القول بوحدة الوجود مخالف للأخبار وأصول الأئمة الأطهار سلام الله عليهم ما تعاقب اللّيل والنّهار، والله العالم بحقائق صفاته والمتعالي عن مجانسة مخلوقاته.

الترجمة

بعضى ديگر از آن خطبه شريفه اين است كه فرموده:

تقدير كرده خداوند تعالى هرچيزى را كه آفريده، پس محكم گردانيده اندازه و تقدير آن را و تدبير نموده هر چيزى را كه خلق فرموده، پس لطيف گردانيده تدبير آن را و توجيه نموده هر شىء را به سوى جهت خود، پس تجاوز ننمود آن شىء از حد و سدّ مكان خود و قاصر نشد نزد منتهى نشدن به غايت خود و صعب و دشوار نشمرد آنچه كه ايجاد فرمود مضى بر وفق اراده او را وقتى كه مامور شد به اين و چطور مى باشد كه دشوار شمارد و حال آنكه جميع امور صادرشده از مشيت قاهره خداوندى كه انشاء و ايجاد فرموده اصناف و احساس اشياء را بدون رويه و فكرى كه رجوع نمايد به آن و بدون استنباط طبيعتى كه اضمار نمايد و به غايت برسد در آن و بدون تجربه كه استفاده نموده باشد آن را از حوادثات روزگار و بى شريك و معاونى كه اعانت و يارى نمايد او را بر ايجاد عجائب امورات.

پس تمام شد مخلوق او سبحانه و گردن نهاد به فرمان بردارى او و اجابت نمود به سوى دعوت او در حالتى كه حايل نشد نزد نفاذ امر او دير كردن دير كننده و نه توقف نمودن توقف نماينده، پس راست فرمود از اشياء كجى آن ها را و روشن نمود حدود آنها را و الفت داد با قدرت خويش در ميان اضداد آنها و متصل ساخت اسباب نفوس آن ها را و متفرق نمود آن ها را به اقسام مختلفه گوناگون در نهايات و مقادير و در طبيعت ها و هيئت ها، عجايب مخلوقاتى كه محكم گردانيد صنعت آن ها را و آفريد آنها را بر وجهى كه اراده كرده و ابداع فرموده آنها را از كتم عدم با قدرت كامله و حكمت شامله.

والفصل الرابع

منها في صفة السّماءِ: ونَظَمَ بلا تَعلقٍ رَهواتِ فُرَجِها، وَلاحَمَ صُدُوعَ انفِراجِها، ووشّجَ بَيْنَها وبَيْنَ أَزْواجِهَا، وذَلّلَ لِلهابِطينَ بأَمْرِهِ وَالصّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا، وناداها بَعْدَ إذْ هِيَ دُخانٌ فَالْتَحَمَتْ عُرى أَشْراجِها، وفَتَقَ بَعْدَ الارْتِتاقِ صَوامِتَ أَبْوابِها، وأقامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثّواقِبِ عَلَىٰ نِقابِها، وأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ في خَرْقِ الْهَواءِ بأَيْدِهِ، وأمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لأَمْرِهِ، وجَعَلَ شَمْسَها آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهارِها، وقَمَرَها آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِها، وأَجْرٰيهُما في مَناقِلِ مَجْرِيهُما، وقَدَّر مَسيرَهُما في مَدارِجِ دَرَجِها، لِيُمَيِّزَ بَينَ اللّيْلِ وَالنَّهارِ بِهِما، ولِيُعْلَمَ عَدَدُ السّنينِ وَالْحِسَابُ بِمَقاديرِهِما، ثُمّ عَلَّقَ في جَوِّها فَلَكَها، وَناطَ بِها زينَتَها مِنْ خَفِيّاتِ دَرارِيِّها، ومَصابيحِ كَواكِبِها، ورَمى مُسْتَرِقَ السَّمْعِ بِثَواقِبِ شُهُبِها، وأَجراها عَلى أَذْلالِ تَسْخيرِها، مِنْ ثُباتِ ثابِتِها، ومَسيرِ سائِرِها، وهُبُوطِها وصُعُودِها، ونُحُوسِها وسُعودِها[١].

اللغة

(**الرّهوات**) جمع رهوة وهي المكان المرتفع والمنخفض أيضاً يجتمع فيه ماء المطر، وهو من الأضداد، وعن «النهاية» تفسيرها بالمواضع المنفتحة، وهو مأخوذ من قولهم: رها رجليه رهواً أي فتح و(**الفرج**) جمع الفرجة وهي المكان الخالي و(**لاحم**) ألصق و(**الصدع**) الشق و(**وشّج**) بتشديد الشين فالجيم المعجمة شبّك و(**ذلل**) البعير جمله ذلولاً وهو ضد الصّعب الذي لا ينقاد من الذل بالكسر وهو اللّين و(**الحزونة**) خلاف السّهولة و(**المعراج**) السّلّم والمصعد و(**العروة**) من الدّلو والكوز المقبض ومن الثوب أخت زرّه كالعرى ويكسر و(**الأشراج**) جمع الشرج محركة كالأسباب والسّبب، وهي العروة للعيبة وقيل: وقد تطلق الأشراج على حروف العيبة التي تخاط وهو الأنسب في المقام.

قال الشارح المعتزلي: وتسمّى مجرّة السّماء شرجاً تشبيهاً بشرج العيبة وأشراج الوادي ما انفسح منه وانشق و(**فتق**) الثوب فتقاً شقه ونقض خياطته حتّى انفصل بعضه عن بعض و(**الرتق**) ضد الفتق و(**صوامت**) الأبواب مغلقاتها و(**الرصد**) جمع راصد كخدم وخادم أو اسم جمع ويكون مصدراً كالرّصد بالفتح، والرّاصد هو القاعد على الطريق منتظراً لغيره للاستلاب أو المنع، والمرصاد الطريق والمكان يرصد فيه العدوّ وأرصدت له أعددت.

و(**النقاب**) بالكسر جمع نقب كسهام وسهم وهو الثقب والخرق والطريق في الجبل

(١) فرج المهموم: ٥٦، وبحار الأنوار: ١٠٩/٥٤.

و(**المور**) الموج والاضطراب والحركة قال تعالى: يوم تمور السّماء موراً و(**الخرق**) يكون بمعنى الثقب في الحائط والشق في الثوب وغيره، وهو في الأصل مصدر خرقته إذا قطعته ومزقته، يكون بمعنى القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرّياح أي تهب وتشتدّ و(**الهواء**) يقال: للجسم الذي هو أحد العناصر ويقال: لكل خال قال سبحانه: وأفئدتهم هواء، أي خالية من العقل أو الخير و(**الأيد**) القوة و(**المنقل**) في الأصل الطريق في الجبل و(**المدارج**) جمع المدرج وهو المسلك و(**درج**) الصّبي دروجاً ودرجاناً مشى ودرجهما بالتّحريك الطريق، وفي بعض النسخ درجيهما بصيغة التثنية، وفي نسخة الشارح البحراني درجتهما بالتّاء الفوقانية.

و(**الجو**) الهواء و(**النياط**) التعليق و(**الدّراري**) الكواكب المضيئة جمع الدّري بتثليث الدّال نسبت إلى الدرّ لبياضها، وعن الفراء الكوكب الدّري عند العرب عظيم المقدار، وقيل: هو أحد الكواكب الخمسة السيارة، ولا يخفى أن وصفه عليه السلام الدّراري بالخفيات ينافي القولين ظاهراً و(**مسترق السمع**) المستمع مختفياً، وفي النسخ مسترقي السّمع بصيغة الجمع و(**الأذلال**) بفتح الألف والذال المعجمة جمع الذل بالكسر يقال: أمور الله جارية أذلالها بالنصب وعلى أذلالها أي مجاريها ويقال: دعه على إذلاله أي حاله بلا واحد وجاء على إذلاله أي وجهه.

الإعراب

قوله عليه السلام: (**وناداها بعد إذ هي دخان**)، قال الشارح المعتزلي: روي بإضافة (**بعد**) إلى (**إذ**)، وروي بضم بعد أي وناداها بعد ذلك إذ هي دخان والأوّل أحسن وأصوب، لأنّها على الضّم تكون (**دخاناً بعد فتور رهوات فروجها وملائمة صدوعها**) والحال تقتضي أن دخانيّتها قبل ذلك لا بعده (ا ه).

وقوله: (**وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده**) الظرف الأوّل أعني في خرق الهواء يجوز تعلّقه بأمسك ويجوز تعلقه بتمور، وأما الثّاني فهو متعلّق بالإمساك لا غير، ومن في قوله: (**من ليلها**) إما لابتداء الغاية أو لبيان الجنس وتتعلّق بممحوة أو بجعل، وقوله عليه السلام: (ثم علّق في جوها فلكها)، الظاهر كون (**ثم**) هنا للترتيب الذكري، (**ومن خفيات دراريها**) إما متعلق بناط أو بيان للزينة.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما ذكر في الفصل السّابع عظمة قدرة الله سبحانه في الخلق والتقدير واللّطف والتدبير كمال حكمته في الفطر والإبداع والإيجاد والاختراع على نحو الإجمال والإطلاق، عقبه بهذا الفصل المتضمن لعجيب خلقة السماء وبديع ما أودعه فيها لدلالتها

المخصوصة على عظمة بارئها، وشهادتها المحسوسة على قدرة صانعها وكفايتها للمستبصر وغنيتها للمستهدي، وقد مرّ في تذييلات الفصل الثامن من فصول الخطبة الأولى ما فيه كفاية لشرح هذا المقام ودراية لذوي الأفهام إلاّ أنّا نعيد هنا بعض ما قدّمناه هناك ونزيد هٰهنا بعض ما لم نورده ثمة باقتضاء المقام وتوضيحاً لكلام الإمام عليه السلام فأقول:

قال: (**ونظم بلا تعليق رهوات فرجها**) أي: جمع وألف أجزاء السماء المنفرجة المتصفة بالارتفاع والانخفاض فسوّاها بقدرته الكاملة من غير أن يعلق بعضها ببعض بخياطة وعلاقة كما ينظم الإنسان ثوباً بثوب أو نحوهما بالقيد والتعليق، وهو مناسب لما مر في شرح الخطبة الأولى من أن مادتها الدّخان المرتفع من الماء إذ مثل ذلك يكون قطعاً ذات فرج.

وأما ما في شرح البحراني من تأويل ذلك بتباين أجزاء المركب لولا التركيب والتأليف، أو بالفواصل التي كانت بين أطباق السماوات فخلقها الله سبحانه أكراً متماسّة لا خلا بينها، فمبني على قواعد الفلاسفة وتقليدهم (**ولاحم صدوع انفراجها**) هذا العطف بمنزلة التفسير والتوكيد للجملة السابقة أي ألصق أجزاءها ذوات الصدوع بعضها ببعض وإضافة الصّدوع إلى الانفراج من إضافة الخاص إلى العام (**ووشّج بينها وبين أزواجها**) أي شبّك بينهما.

قال الشارح البحراني: أراد بأزواجها نفوسها التي هي الملائكة السّماوية بمعنى قرائنها وكل قرين زوج أي ربط ما بينها وبين نفوسها بقبول كلّ جرم سماوي لنفسه التي لا يقبلها غيره.

وأورد عليه المحدث العلامة المجلسي (ره) بأن القول بكون السّماوات حيوانات ذات نفوس مخالف للمشهور بين أهل الإسلام، بل نقل السّيد المرتضى رضي الله عنه إجماع المسلمين على أن الأفلاك لا شعور لها ولا إرادة، بل هي أجسام جمادية يحرّكها خالقها.

ثم قال (ره): ويمكن أن يراد بالأزواج الملائكة الموكلون بها، أو القاطنون فيها، أو المراد أشباهها من الكواكب والأفلاك الجزئية، ويمكن أن يكون المراد أشباهها في الجسمية والإمكان من الأرضيات ويناسب ما جرى على الألسن من تشبيه العلويات بالآباء والسّفليّات بالأمهات (**وذلل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها**) أي ذلل للملائكة النّازلين بأمره التكوينيّ والتشريعي وللكرام الكاتبين الصّاعدين بأعمال خلقه حزونة المعراج إلى السماء.

وقد تقدم شرح حال الفرقة الأولى أعني المدبّرات أمراً في شرح الفصل التاسع من فصول الخطبة الأولى وشرح حال الفرقة الثانية في شرح الفصل الأوّل من الخطبة الثانية والعشرين في المقام الثاني من تكملة ذلك الفصل، هذا.

وقال الشارح البحراني في شرح هذه الفقرة: قد سبقت الإشارة إلى أن الملائكة ليست

أجساماً كسائر الحيوان، فإذاً أليس هبوطها وصعودها الهبوط والصعود المحسوسين؟، وإلا لكان الباري جلّ قدسه عن أوهام المتوهّمين في جهة إليه يصعد وعنه ينزل، فإذاً هو استعارة لفظ النزول من الجهة المحسوسة إلى أسفل للنزول المعقول من سماء جود الإلهي إلى أراضي المواد القابلة للإفاضات العالية، وبذلك المعنى يكون هبوط الملائكة عبارة عن إيصالها إلى كل ما دونها كماله متوسطة بينه وبين مبدعه وموجده وهم المرسلون من الملائكة بالوحي وغيره، وكذلك الصاعدون بأعمال الخلق هم الملائكة أيضاً.

وأما معنى الصّعود بها فيعود إلى كونها منقوشة في ذوات الصّاعدين بها، وقد لاح فيما سبق أنّ علمه تعالى بمعلولاته البعيدة كالزمانيات والمعدومات التي من شأنها أن توجد في وقت وتتعلق بزمان يكون بارتسام صورها المعقولة في تلك الألواح، وهو أيضاً مستعار كلفظ الهبوط للمعنى الذي ذكرناه من أراضي النفوس إلى الألواح.

فأمّا الانفراج الذي ذلل حزونته لهم وسهل عليهم سلوكه فيعود إلى عدم حجبها ومنعها لنفوذ علوم الملائكة بأعمال الخلائق وما يجري في هذا العالم، وكما أن الجسم المتصدع لا يمنع نفوذ جسم آخر فيه من حيث هو متصدّع والوصول إلى ما ورائه، كذلك السّماء لا تحجب علوم الملائكة أن تتعلق بما في هذا العالم من الموجودات، فجرت مجرى المنفرج من الأجسام فأطلق عليه لفظ الانفراج وتذليله لحزونة ذلك الانفراج لهم هو كونها غير مانعة بوجه لجريان علوم الملائكة المقربين في هذا العالم.

أقول: وأنت خبير بما فيه، فإن ما ذكره كله تأويل لا داعي إليه موجب لطرح ظواهر الآيات المتوافرة ونصوص الأخبار المتواترة المثبتة للهبوط والصعود المحسوسين للملائكة، بعيد عن لسان الشريعة، وإنما دعاه إلى ذلك استيناسه بحكمة الفلاسفة المخالفة للكتاب والسنّة.

(وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها) المراد بندائها حكمه وأمره التكويني النافذ فيها بالوجود بالتحام عرى أشراجها تمام خلقها وفيضان الصور السماوية عليها، وذلك باعتبار تركيبها وانضمام جزئها الصوري إلى جزئها المادي كما يلتحم طرفا العيبة بتشريج عراها، وفيه تلميح إلى قوله سبحانه:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١١-١٢].

فقوله عليه السلام: **(وناداها)** إشارة إلى قوله: ائتيا طوعاً أو كرهاً، وقوله عليه السلام: **(بعد إذ هي دخان)**، موافق لقوله: ﴿وهي دخان﴾، وقوله عليه السلام: **(فالتحمت)** (ا ه) مساوق لقوله: ﴿فقضيهن﴾ الآية.

قال البيضاوي في تفسيرها: قصد نحو السماء وهي دخان أمر ظلماني، ولعله أراد به مادتها والأجزاء المتفرقة التي ركبت منها، فقال لها وللأرض ائتيا بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر وإبراز ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة أو ائتيا في الوجود أو إتيان السماء حدوثها وإتيان الأرض أن تصير مدحوة، طوعاً أو كرهاً شئتما ذلك أو أبيتما، والمراد إظهار قدرته ووجوب وقوع مراده لا إثبات الطوع والكره لهما. قالتا: أتينا طائعين منقادين بالذات والأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيهما وتأثرهما بالذات عنها وتمثيلها بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله: كن فيكون، فقضيهن سبع سموات خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن.

وقال الطبرسي في «مجمع البيان»: أي ثم قصد إلى خلق السماء وكانت السماء دخاناً، وقال ابن عباس: كانت بخار الأرض وأصل الاستواء الاستقامة، والقصد التدبير المستقيم تسوية له:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

قال ابن عباس أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وأتت الأرض بما فيها من الأنهار والأشجار والثمار وليس هناك أمر بالقول على الحقيقة ولا جواب لذلك القول بل أخبر الله سبحانه عن اختراعه السماوات والأرض وإنشائه لهما من غير تعذر ولا كلفة ولا مشقة بمنزلة ما يقال للمأمور افعل فيفعل من غير تلبث ولا توقف فعبر عن ذلك بالأمر والطاعة وهو كقوله:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وإنما قال أتينا طائعين ولم يقل أتينا طائعتين لأن المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء فغلب حكم العقلاء وقيل: إنه لما خوطبن خطاب من يعقل جمعن جمع من يعقل كما قال:

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

(وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها) وهو إما كناية عن إيجاد الأبواب فيها وخرقها بعد ما كانت رتقاً لا باب فيها، أو فتح الأبواب المخلوقة فيها حين إيجادها، وهذه الأبواب هي التي منها عروج الملائكة وهبوطها وصعود أعمال العباد وأدعيتهم وأرواحهم كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

أو التي تنزل منها الأمطار كما أشار إليه بقوله:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر: ١١].

ويؤيد الأخير ما رواه الطبرسي (ره) في تفسير قوله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام وعكرمة وعطية وابن زيد: أنّ السماء كانت رتقاً لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت ففتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات، هذا[١].

ولا يخفى عليك أنه بعد دلالة كلام الإمام عليه السلام كغير واحد من الآيات والأخبار على أن للسماء أبواباً لا يعبأ بما قاله الفلاسفة من استحالة الخرق والالتئام على الفلك المبتنية على قواعدهم الفاسدة وعقولهم الكاسدة.

ولعل الشارح البحراني ألجاه التقليد بهم إلى تأويل كلامه عليه السلام في هذا المقام بما لا ينافي أصولهم حيث قال: وافتتاق صوامت أبوابها بعد الارتتاق هو جعلها أسباباً لنزول رحمته مدبرات تنزل بواسطة حركاتها على هذا العالم أنواع رحمة الله فكانت حركاتها تشبه الأبواب إذ هي أبواب رحمته ومفاتيح جوده.

ومثله ما ذكره في شرح قوله عليه السلام: **(وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها)** حيث قال: إنه استعار لفظ النقاب لكونها بحيث لا يمنع تعلّق العلوم بما ورائها من الأجسام والمجردات، وأنت خبير بأن كل ذلك تكلّف لا داعي إليه والأدلة على إمكان الخرق ووجود الأبواب فوق حدّ الإحصاء، ولعلّنا نشبع الكلام في ذلك في مقام مناسب، والمهم الآن شرح معنى كلامه عليه السلام على مقتضى أسلوبنا وسليقتنا المفادة من الآيات والأخبار فأقول: مراده عليه السلام بنقابها طرائقها كما قال سبحانه:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات: ٧].

فالمقصود بذلك إقامة الشهب وإرصادها على المرصاد لطرد الشياطين عن استراق السّمع كما حكى الله ذلك في سورة الجنّ بقوله:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩].

قال الطبرسي: ثم حكى الله الجن وقولهم:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾[الجن: ٨].

أي مسّناها، وقيل: طلبنا الصعود إلى السّماء فعبر عن ذلك بالمس مجازاً.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٦٨/٢، وبحار الأنوار: ١٣/٥٤.

﴿فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾[الجن: ٨] أي حفظة من الملائكة شداداً ﴿وَشُهُبًا﴾[الجن: ٨].

والتقدير ملئت السّماء من الحرس والشهب وهو جمع شهاب وهو نور يمتدّ من السّماء كالنار.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾[الجن: ٩].

أي لاستراق السّمع أي كان يتهيأ لنا فيما قبل القعود في مواضع الاستماع فنسمع صوت الملائكة وكلامهم:

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾[الجن: ٩] منا ﴿ٱلْـَٔانَ﴾ [الجن: ٩] ذلك ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[الجن: ٩].

يرمى به ويرصد له، وشهاباً مفعول به ورصداً صفته قال معمر: قلت للزّهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله:

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ [الجن: ٩].

الآية. قال: غلظ وشدّد أمرها حين بعث النّبي ﷺ: **(وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده)** أي أمسكها بقدرته وقوته من الحركة والاضطراب في الهواء الذي هو أحد العناصر إذ لا دليل على انحصاره في الذي بين السماء والأرض في المكان الخالي الموهوم أو الموجود طبعاً أو قسراً، والمراد حركة أجزائها فيما بين السماء والأرض ويؤيده قوله سبحانه:

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

(وأمرها أن تقف مستسلمة لأمر) أي أمرها بالوقوف والقيام وأراد منها ذلك منقادة لإرادته كما قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

قال الطبرسي: بلا دعامة تدعمهما ولا علاقة تتعلّق بهما بأمره لهما بالقيام كقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

وقيل بأمره: أي بفعله وإمساكه إلا أن أفعال الله عز اسمه مضاف إليه بلفظ الأَمر لأنه أبلغ في الاقتدار فإنّ قول القائل أراد فكان أو أمر فكان أبلغ في الدلالة على الاقتدار من أن يقول فعل فكان، ومعنى القيام الثبات والدّوام **(وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوة من ليلها)** هو مأخوذ من قوله سبحانه في سورة الأسرى أو الإسراء:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ

وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

وفيه قولان:

أحدهما: أن يراد أنّ اللّيل والنهار آيتان في أنفسهما فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتّبيين كإضافة العدد إلى المعدود، أي فمحونا الآية التي هي اللّيل فكانت مظلمة وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة.

والثاني: أن يراد: وجعلنا آيتي اللّيل والنّهار أي نيّريهما آيتين، فيكون المراد بهما الشمس والقمر وظاهر كلام الإمام عليه السلام ربما يشعر بهذا القول، ويدل على القولين قوله سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

أمّا كون الأوّلين آيتين فلأنّ كلّ واحد منهما مضاد للآخر معاند له، فكونهما متعاقبين على الدوام من أقوى الدّلائل على أنّهما غير موجودين بالذات بل لا بدّ لهما من فاعل يدبّرهما ويقدّرهما بالمقادير المخصوصة، مضافاً إلى أن مقتضى التّضاد بين الشيئين أن يتفاسدا لا أن يتعاونا على سبيل المصالح، وهما مع تضادّهما وتنافيهما متعاونان على تحصيل منافع الخلق ومصالحهم، فلولا اللّيل لما حصل السكون والراحة، ولولا النّهار لما أمكن الكسب والمعيشة، ولولا الليل لفسدت الزراعات بالحرارة، ولولا النّهار لفسدت بالبرودة، فهما من أقوى الآيات وأظهر البيّنات.

وأمّا كون الآخرين آيتين للصانع ودليلين على وجود القادر المختار فلأن الأجسام متماثلة فاختصاصهما بالحركة الدّائمة دون السّكون لا بدّ له من مخصّص، وأيضاً أنّ كلّ واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفيّة معينة من البطوء والسّرعة فلا بدّ له أيضاً من مخصّص على أن تقدير تلك الحركات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها ودوراتها متساوية بحسب المدّة حالة عجيبة وصنعة بديعة لا بدّ لها من مدبّر مقدّر ومبدع مقتدر، هذا.

وأما المقصود بمحو آية اللّيل فلهم فيه قولان:

أحدهما: أنه هو ما يظهر في القمر من الزّيادة والنقصان في النور فيبدو في أول الأمر في صورة الهلال ثم لا يزال يتزايد نوره حتّى يصير بدراً كاملاً، ثم يأخذ في الانتقاص قليلاً قليلاً وذلك هو المحو إلى أن يعود إلى المحاق.

والثاني: أنه هو الكلف في وجه القمر وكونه مطموس النّور، فإنه بعدما كان مساوياً للشمس في الضوء والنّور أرسل الله جبرئيل فأمرّ جناحه على وجهه فطمس عنه الضوء، ومعنى

المحو في اللّغة إذهاب الأثر، وقد استظهرنا هذا القول في التذييل السادس من تذييلات الفصل الثامن من فصول الخطبة الأولى ببعض الأخبار التي أوردناها هناك.

وربما يستظهر القول الأول بقوله سبحانه:

﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

لأن المحو إنما يؤثر في ابتغاء فضل الله إذا حملناه على زيادة نور القمر ونقصانه فإن أهل التجارب تبينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحها مثل أحوال البحار في المد والجزر ومثل أحوال البحرانات على ما يذكره الأطباء في كتبهم وأيضاً بسبب زيادة نور القمر ونقصانه تحصل الشهور وبسبب معاودة الشهور تحصل السنون العربية المبنية على رؤية الأهلة.

وأمّا المراد بجعل آية النهار مبصرة ففيه أيضاً قولان:

أحدهما: أن معنى كونها مبصرة كونها مضيئة نيّرة، قال الكسائي: العرب تقول: أبصر النّهار إذا أضاء أقول: ولعل ذلك من حيث إن الإضاءة لما كانت سبباً للأبصار فأُطلق اسم الأبصار على الإضاءة إطلاقاً لاسم المسبّب على السّبب.

وثانيهما: أن المبصرة التي أهلها بصراء فيها قال أبو عبيدة يقال: قد أبصر النّهار إذا صار الناس يبصرون فيه، كقولهم: رجل مخبث إذا كان أصحابه خبثاء ورجل مضعف إذا كان دوابه ضعفاء، هذا.

وبقي الكلام في إضافة اللّيل والنّهار إلى السماء في كلامه عليه السلام، ووجهها أن استنادهما لما كان إلى حركة الفلك أضافها إليها لتلك المناسبة **(وأجراهما في مناقل مجريهما وقدر سيرهما في مدارج درجيهما)** أراد بالمناقل والمدارج منازل الشمس والقمر.

قال ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلاً كل يوم لها منزل وذلك في ستة أشهر ثم إنها تعود إلى واحد منها في ستة أشهر مرّة أخرى، والقمر له

وتحقيق المقام أنهم قسّموا دور الفلك الذي تسير فيه الكواكب اثنا عشر قسماً وسموا كلّ قسم برجاً كما قال سبحانه:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝﴾ [البروج: ١] وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

قال الرازي: البروج هي القصور العالية سمّيت بروج الكواكب لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها، ثمّ إنهم قسّموا كلّ برج ثلاثين قسماً وسموا كلّ قسم درجة وسموا البروج بهذه الأسماء:

«الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد: السنبلة، الميزان، العقرب، القوس،

الجدي، الدلو، الحوت»، والشمس تسير كلّ برج منها في شهر واحد، فتحصل تمام دورتها لتلك البروج في سنة كاملة وبه تحصل السنة وهي ثلاثمائة وخمسة وستّون يوماً وشيء تنزل كلّ يوم في منزل وما قاله ابن عباس في كلامه الذي حكيناه لعله مبنيّ على ما هو الشّائع في ألسنة النّاس من تقدير السنة بثلاثمائة وستّين يوماً وإن لم يكن مطابقاً لشيء من حركتي الشمس والقمر، فتأمل هذا.

وما ذكرناه في سير الشمس إنّما هو بحسب حركتها الذاتية، وأما حركتها بسبب حركة الفلك الأعظم فتتم في اليوم بليلته، وأمّا القمر فيسير كلّ برج في أزيد من يومين ونقص من ثلاثة أيّام وتمام دورتها في ثمانية وعشرين ليلة، وله في كلّ ليلة منزل.

فمنازله ثمانية وعشرون مسمّاة بتلك الأسماء:

«الشرطين، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرفة، الجبهة، الدبرة، الصرفة، العواء، السماك، الغفر، الزبانا، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر، الرشا، وهو بطن الحوت»(١).

وإلى تلك المنازل أشير في قوله سبحانه:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

أي قدّرنا مسيره منازل أو سيره في منازل ينزل كلّ ليلة في واحدة منها، فإذا كان في آخر منازله دقّ واستقوس حتّى عاد كالعرجون أي كالشمراخ المعوج القديم العتيق.

قال نصير الملّة والدّين (ره) في محكي كلامه من «التذكرة»: وأمّا منازل القمر فهي من الكواكب القريبة من منطقة البروج جعلها العرب علامات الأقسام الثمانية والعشرين التي قسّمت المنطقة بها لتكون مطابقة لعدد أيام دور القمر.

وقال الخفري في شرحه: والمراد من المنزل المسافة التي يقطعها القمر في يوم بليلته، ومنازل القمر عند الهند سبعة وعشرون يوماً بليلة وثلث، فحذفوا الثلث لكونه أقل من النّصف كما هو عادة أهل التنجيم.

وأما عند العرب فهي ثمانية وعشرون، لا لأنّهم تمّموا الثلث واحداً كما قال البعض، بل لأنّه لمّا كان سنوهم لكونها باعتبار الأهلّة مختلفة الأوائل بوقوعها في وسط الصّيف تارة وفي وسط الشّتاء أخرى، احتاجوا إلى ضبط سنة الشّمس لمعرفة فصول السنة حتّى يشتغلوا في

---

(١) بحار الأنوار: ٥٥/١٣٦، ولسان العرب: ٢/٢١٢ ـ ٢١٣.

استقبال كلّ فصل منها بما يهمّهم، فنظروا إلى القمر فوجدوه يعود إلى وضع له من الشّمس في قريب من ثلاثين يوماً ويختفي في هذا الشّهر ليلتين أو أكثر أو أقل فأسقطوا يومين من الثلاثين فبقي ثمانية وعشرون وهو الزّمان الواقع في الأغلب بين رؤيته في العشيات في أوّل الشّهر ورؤيته بالغدوات في آخره، فقسموا دور الفلك عليه، فكان كلّ منزل اثنتي عشرة درجة وإحدى وخمسين دقيقة تقريباً أي ستة أسباع درجة فتصيب كلّ برج منزلان وثلث.

ثمّ وجدوا الشّمس تقطع كلّ منزل في ثلاثة عشر يوماً في التقريب فسارت المنازل في ثلاثمائة وأربعة وستّين يوماً، لكن عودت الشمس إلى كلّ منزل إنّما تكون في ثلاثمائة وخمسة وستّين يوماً، فزادوا يوماً في أيّام منازل غفر وقد يحتاج إلى زيادة للكبيسة حتّى تصير أيّامه خمسة عشر ويكون انقضاء أيّام السنة الشّمسية مع انقضاء أيّام المنازل ورجوع الأمر إلى منزل جعل مبدأ.

ثم إنّهم جعلوا علامات المنازل من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب ممرّ القمر أو يحاذيه، فيرى كلّ ليلة نازلاً بقرب أحدها فإن سترها يقال كفحه فكافحه أي واجهه فغلبه ولا يتفاءل به وإن لم يستره يقال: عدل القمر ويتفاءل به.

وقوله: (**ليميز بين اللّيل والنّهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما**) الظاهر كون التميز والعلم غايتين لمجموع الأفعال السابقة على حد قوله سبحانه في سورة الأسرى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

وقوله في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

ويحتمل كون التميز غاية للأوّل والعلم غاية للأخير أو الأخيرين فيكون نشراً على ترتيب اللّف، ومعناه على ذلك أنّه تعالى جعل الشمس آية مبصرة والقمر آية ممحوة ليحصل التميز بين الليل والنّهار بهما، وأجرى الشمس والقمر في منازلهما وقدّر سيرهما في مناقلهما ليحصل العلم بعدد السّنين والحساب بمقادير سيرهما وتفاوت أحوالهما، هذا.

والمراد بالحساب حساب ما يحتاج إليه النّاس في أمور دينهم ودنياهم ليتمكّنوا بذلك من إتيان الحجّ والصّوم والصّلوات في أوقاتها، ويعرفوا عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها، ومدّة حلول آجال الدّيون وانقضائها، ويرتّبوا معاشهم بالزراعة والحراثة والفلاحة في ساعاتها ويهيّئوا مهمّات الشّتاء والصّيف وضروريّات العيش في آنائها إلى غير هذه ممّا يحتاجون إليها في الدّنيا والدّين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

(ثمّ علق في جوّها فلكها) هذه العبارة من مشكلات كلامه عليه السلام.

وجهة الإشكال فيها من ثلاثة وجوه:

أحدها: أنّه عليه السلام قال في صدر هذا الفصل: ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، فنفى التعليق في نظم الأجزاء ثمة ينافي إثباته هنا.

وثانيها: أن الجوّ عبارة عن ما بين السّماء والأرض من الهواء فما معنى تعليق الفلك فيه، ثمّ ما معنى الإضافة.

وثالثها: أن المشهور أن الفلك هو السّماء والإضافة في كلامه عليه السلام يفيد التغاير.

ويرفع الإشكال عن الأوّل بحمل التّعليق المنفي فيما سبق على التعليق بالعلائق المحسوسة والتعليق المثبت هنا على التّعليق بالقدرة، وعن الثّاني بحمل الجو على الفضاء الواسع الموهوم أو الموجود الذي هو مكان الفلك ووجه إضافته إليها واضح وعن الثّالث بجعل المراد بالفلك مدار النّجوم كما فسّره به في «القاموس».

وقال الشّارح المعتزلي: أراد به دائرة معدل النهار، وقيل: المراد به سماء الدّنيا، وهو مبنيّ على كون النّجوم فيها على وفق قوله سبحانه:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦].

وعلى المشهور من عدم كون جميعها في السّماء الدّنيا فلعلّ الأظهر أن يراد بالفلك ما ارتكز فيه من السّماوات كوكب يتحرّك بحركته، قاله في «البحار» ثمّ قال: ويمكن على طريقة الاستخدام أو بدونه أن يراد بضمير السّماء الذي أحاط بجميع ما ارتكزت فيه الكواكب المدبّر لها فكون فلكها في جوّها ظاهر أو يراد بالسّماء الأفلاك الكليّة وبالفلك الأفلاك الجزئية الواقعة في جوفها **(وناط بها زينتها من خفيّات دراريها ومصابيح كواكبها)** أي علق بالسّماء ما يزيّنها من الكواكب الخفيّة الّتي هي كالدّر في الصّفاء والضياء، والكواكب التي هي بمنزلة المصباح يضيء وكونها زينة لها إمّا بضوئها أو باشتمالها على الأشكال المختلفة العجيبة **(ورمى مسترق السّمع بثواقب شهبها)** وفيه تلميح إلى قوله سبحانه:

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٨].

أي إلاّ من حاول أخذ مسموع من السّماء في خفية فلحقه شعلة نار ظاهر لأهل الأرض بيّن لمن رآه، وإلى قوله سبحانه:

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

قال الطبرسي: والتقدير لا يتسمّعون إلى الملائكة إلاّ من وثب الوثبة إلى قريب من

السّماء فاختلس خلسة من الملائكة واستلب استلاباً بسرعة فلحقه وأصابته نار مضيئة محرقة، والثاقب النيّر المضيء[(١)].

فإن قلت: تقدّم ذكر الشهب في قوله: **(وأقام رصداً من الشّهب الثواقب على نقابها)** فما وجه إعادتها؟

قلنا: إنّه عليه السلام ذكر سابقاً أنه أقامها رصداً، ونبّه هٰهنا على أن إرصادها لرمي مسترق السّمع، روى عن ابن عباس أنه كان في الجاهليّة كهنة ومع كلّ واحد شيطان فكان يقعد من السّماء مقاعد للسّمع فيستمع من الملائكة ما هو كائن في الأرض فينزل ويخبر به الكاهن فيفشيه الكاهن إلى النّاس، فلما بعث الله عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات، ولمّا بعث محمّد صلى الله عليه وآله منعوا من السّماوات كلّها؛ وحرست السّماء بالنّجوم والشّهاب من معجزات نبيّنا صلى الله عليه وآله لأنّه لم ير قبل زمانه، وقيل: إن الشهاب يقتل الشياطين، وقيل: لا يقتلهم.

قال الفخر الرّازي بعدما عدد جملة من منافع النجوم:

ومنها: أنه تعالى جعلها رجوماً للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمة الكفر، يروى أن السّبب في ذلك أن الجن كانت تسمع بخبر السّماء، فلما بعث محمّداً صلى الله عليه وآله حرست السماء ورصدت الشياطين فمن جاء منهم مسترقاً للسّمع رمي بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النّبي صلى الله عليه وآله أمره ويرتاب الناس بخبره، وهذا هو السّبب في انقضاض الشّهب، فهذا هو المراد من قوله تعالى: وجعلناه رجوماً للشّياطين.

ومن الناس من طعن في هذا من وجوه:

أحدها: أن انقضاض الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة قالوا: إن الأرض إذا سخّنت بالشّمس ارتفع منها بخار يابس فإذا بلغ النار التي دون الفلك احترق بها فتلك الشعلة هي الشّهاب.

وثانيها: أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحداً وألفاً من جنسهم يسترقون السّمع فيحرقون ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صفتهم فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرّة ومراراً امتنع أن يعود إليه من غير فائدة.

وثالثها: أنه يقال: في ثخن السّماء مسيرة خمسمائة عام فهؤلاء الجن إن نفذوا في جرم السّماء وخرقوا له فهذا باطل لأنّه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ

(١) تفسير مجمع البيان: ٨/ ٢٩٧.

تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك]، وإن كانوا لا ينفذون في جرم السّماء فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم فلم لا يسمعون كلام الملائكة حال كونهم في الأَرض.

ورابعها: أن الملائكة إنما اطلعوا على الأَحوال المستقبلة إما لأَنهم طالعوها من اللّوح المحفوظ، أو لأنهم يتلقونها من وحي الله تعالى إليهم، وعلى التّقديرين فلم لا يمسكوا عن ذكرها حتّى لا يتمكن الجن عن الوقوف عليها.

وخامسها: أن الشّياطين مخلوقون من النّار والنار لا تحرق النّار بل تقويها فكيف يحتمل أن يقال: الشّيطان زجر من استراق السّمع بهذه الشهب.

وسادسها: أنه إن كان هذا القذف لأَجل النبوّة فلم دام بعد وفاة الرّسول ﷺ.

وسابعها: أنّ هذه الرّجوم إنما تحدث بالقرب من الأَرض بدليل أنّا نشاهد حركاتها بالغة ولو كانت قريبة من الفلك لما شاهدنا حركاتها كما لم نشاهد حركات الكواكب، وإذا ثبت أنّ هذه الشهب إنما تحدث بالقرب من الأَرض كيف يقال: إنّها تمنع الشّياطين من الوصول إلى الفلك.

وثامنها: أنّ هؤلاء الشّياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفّار حتّى يتوسّل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضّرر بهم.

وتاسعها: لِمَ لَمْ يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السّماء حتّى لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب.

والجواب عن السؤال الأَول أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ وقد يوجد بسبب آخر وهو دفع الجنّ وزجرهم، يروى أنه قيل للزهري: أكان يرمى في الجاهلية؟ قال: نعم، قال: أفرأيت قوله تعالى:

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ٩﴾ [الجن: ٩].

قال: غلظت وشدّد أمرها حين بعث النّبي ﷺ.

والجواب عن السّؤال الثاني أنه إذا جاء القدر عمي البصر، فإذا قضى الله على طائفة منهم الحرق لطغيانها وضلالها قيض له من الدواعي المطمعة في درك المقصود ما عندها يقدم على العمل المفضي إلى الهلاك والبوار.

والجواب عن السؤال الثالث أن البعد بين السّماء والأَرض مسيرة خمسمائة عام فأما

ثخن الفلك فلعلّه لا يكون عظيماً.

والجواب عن السؤال الرابع ما روى الزهري عن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن ابن عباس (ره) قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالس في نفر من أصحابه إذ رمى بنجم فاستنار فقال صلى الله عليه وآله: ما كنتم تقولون في الجاهليّة إذا حدث مثل هذا؟ قالوا: كنا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم، قال النبي صلى الله عليه وآله: فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربّنا تعالى إذا قضى الأمر في السماء سبّحت حملة العرش ثم سبّح أهل السّماء وسبح كلّ سماء حتّى ينتهي التّسبيح إلى هذه السّماء ويستخبر أهل السّماء حملة العرش ماذا قال ربّكم؟ فيخبرونهم ولا يزال ينتهي ذلك الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ويتخطف الجنّ فيرمون. فما جاؤوا به فهو حق ولكنّهم يزيدون فيه[1].

والجواب عن السؤال الخامس أن النّار قد تكون أقوى من نار أخرى فالأَقوى يبطل الأَضعف.

والجواب عن السّؤال السادس أنه إنما دام لأَنه صلى الله عليه وآله أخبر ببطلان الكهنة فلو لم يدم هذا القذف لعادت الكهانة وذلك يقدح في خبر الرّسول صلى الله عليه وآله عن بطلان الكهانة.

والجواب عن السؤال السّابع أن البعد على مذهبنا غير مانع من السّماع فلعله تعالى أجرى عادته بأنهم إذا وقعوا في تلك المواضع سمعوا كلام الملائكة.

والجواب عن السؤال الثامن لعله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين.

والجواب عن السّؤال التاسع أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فهذا ما يتعلّق بهذا الباب على سبيل الاختصار، انتهى.

وقال المحدّث المجلسي (ره) بعد نقل كلام الرازي وأجوبته: أقول: الأَصوب في الجواب عن الثالث أن يقال: قد ظهر أنّ للسماء أبواباً يصعد منها الملائكة وصعد منها نبيّنا صلى الله عليه وآله وعيسى وإدريس عليهما السلام بل أجساد سائر الأَنبياء والأَوصياء بعد وفاتهم على قول، وقد ورد في الأَخبار أنّ الجن كانوا يصعدون قبل عيسى عليه السلام إلى ما تحت العرش وبعد بعثته كانوا يصعدون إلى الرابعة وبعد بعثة النّبي صلى الله عليه وآله منعوا عن صعود السماء مطلقاً بالشّهب، فصعودهم إمّا من أبوابها أو لكونهم أجساماً لطيفة يمكنهم النفوذ في جرمها ولعل المراد بالفطور فيها أن ترى فيها شقوق وثقب أو تنهدم وتنحلّ أجزائها فلا إشكال في ذلك.

---

(١) بحار الأنوار: ٨٦/٥٥، وتفسير ابن كثير: ٥٦٨/٢.

(وأجراها على إذلال تسخيرها) أي على مجاري تسخيرها أو وجوه مقهوريّتها وفيه تلميح إلى قوله تعالى:

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال الطبرسي (ره): أي مذللات جاريات في مجاريهنّ بتدبيره وصنعه خلقهن لمنافع العباد.

وقال الفخر الرازي: كون الشّمس والقمر والنّجوم مسخرّات بأمره يحتمل وجودها:

أحدها: أنا قد دللنا أنّ الأجسام متماثلة، ومتى كان كذلك كان اختصاص جسم الشمس بذلك النور المخصوص والضوء الباهر والتسخين الشّديد والتّدبيرات العجيبة في العالم العلوي والسّفلي لا بدّ وأن يكون لأجل أن الفاعل الحكيم والمقدّر العليم خصّ ذلك الجسم بهذه الصّفات، فجسم كل واحد من الكواكب والنيّرات كالمسخر في قبول تلك القوى والخواص عن قدرة المدبّر العليم.

وثانيها: أن يقال: إن لكل واحد من أجرام الشمس والقمر والكواكب سيراً خاصّاً بطيئاً من المغرب إلى المشرق وسيراً آخر سريعاً بسبب حركة الفلك الأعظم، فالحقّ سبحانه خصّ جرم الفلك الأعظم بقوة زائدة على أجرام سائر الأفلاك وباعتبارها صارت مستولية عليها قادرة على تحريكها على سبيل القهر من المشرق إلى المغرب فأجرام الأفلاك والكواكب صارت كالمسخرة لهذا القهر والقسر ثم ذكر باقي الوجوه ولا طائل تحتها.

وقوله عليه السلام: **(من ثبات ثابتها ومسير سائرها)** بيان لوجه تسخيرها وثبات الثوابت بالنسبة إلى سير السيارات.

والمراد بالسيارات الكواكب السبعة وهي: القمر، وعطارد، وزهرة، والشمس والمرّيخ، والمشتري، والزحل، ويسمى الشمس والقمر بالنيّرين، والخمسة الباقية بالمتحيّرة لأنّ لكلّ واحد منها استقامة ثمّ وقوفاً ثمّ رجوعاً ثمّ وقوفاً ثانياً ثمّ عوداً إلى الاستقامة وليس للنيّرين غير الاستقامة، والمراد بالثّوابت إمّا سائر الكواكب على السماء غير هذه السّبعة أو خصوص ما في كرة البروج.

وفي «توحيد المفضّل» قال: قال الصّادق عليه السلام: فكّر يا مفضّل في النجوم واختلاف مسيرها فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك ولا تسير إلاّ مجتمعة، وبعضها تنتقل في البروج وتفترق في مسيرها، فكلّ واحد منها يسير سيرين مختلفين، أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق كالنملة التي تدور على الرّحا، فالرّحا تدور ذات اليمين والنّملة تدور ذات الشمال والنّملة تتحرّك في تلك حركتين مختلفتين، إحداهما بنفسه

فتتوجه أمامها، والأخرى مستكرهة مع الرّحا تجذبها إلى خلفها، فاسأل الزّاعمين أن النّجوم صارت على ما هي عليه بالإهمال من غير عمد ولا صانع لها ما منعها كلّها أن تكون راتبة أو تكون كلّها متنقّلة[1]؟ فإنّ الإهمال معنى واحد فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن وتقدير؟ ففي هذا بيان أنّ مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير وحكمة وتقدير وليس بإهمال كما تزعمه المعطلة.

فإن قال قائل: ولم صار بعض النّجوم راتباً وبعضها متنقّلاً؟

قلنا: إنّها لو كانت كلّها راتبة لبطلت الدلالات التي يستدلّ بها من تنقّل المنقلّة ومسيرها في كلّ برج من البروج كما قد يستدلّ على أشياء ممّا يحدث في العالم بتنقّل الشّمس والنّجوم في منازلها، ولو كانت كلّها متنقّلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يوقف عليه، لأنّه إنما يوقف بمسير المتنقلة منها لتنقلها في البروج الرّاتبة كما يستدلّ على سير السّائر على الأرض بالمنازل يجتاز عليها، ولو كان تنقّلها بحال واحدة لاختلط نظامها وبطلت المآرب فيها ولساغ لقائل أن يقول: إن كينونيّتها على حال واحدة توجب عليها الإهمال من الجهة التي وصفنا. ففي اختلاف سيرها وتصرّفها وما في ذلك من المآرب والمصلحة أبين دليل على العمد والتدبير فيها.

(وهبوطها وصعودها ونحوسها وسعودها) المراد بالهبوط إما مقابل الشرف كما هو مصطلح المنجّمين، أو التوجه إلى حضيض الحامل فإنّ للكواكب صعوداً في الأوج وهبوطاً في الحضيض أو التوجه إلى الغروب فيكون الهبوط حسّاً ويقابله الصعود فيما ذكر.

والمراد بالسعود والنحوس كون اتصالات الكواكب أسباباً لصلاح حال شيء من الأشياء من أحوال هذا العالم وأسباباً لفساده.

قال المنجّمون: زحل والمريخ نحسان أكبرهما زحل، والمشتري والزّهرة سعدان أكبرهما المشتري، وعطارد سعد مع السعود ونحس مع النحوس، والنيّران سعدان من التثليث والتسديس نحسان من المقابلة والتربيع والمقارنة، والرّأس سعد والذنب والكبد نحسان، والله العالم بحقائق ملكه وملكوته.

---

(١) بحار الأنوار: ٣/ ١١٤.

الترجمة

بعض ديگر از این خطبه در صفت آسمان است، می فرماید:

ترتیب داد حق سبحانه و تعالی بدون قید و علاقه پست و بلندی فرجه های آن را و ملتئم نمود و به هم در آورد شکاف های گشادگی آن را و به هم پیوست میان آنها و میان زوج های آنها و ذلیل و آسان نمود به جهت ملائکه که نزول کننده اند به امر او سبحانه و صعودنماینده اند با عمل های بندگان او دشواری نردبان های آسمان ها را و ندا نمود آنها را بعد از اینکه بود دود، پس به هم آمد بندهای ریسمان های آنها و گشود بعد از به هم پیوستن درهای بسته آنها را و برپا نمود دیده بان ها از شهاب های درخشان بر راه ها و منفذهای آنها و نگه داشت آنها را از این که حرکت نمایند و مضطرب گردند در شکاف هوا با قوت خود و امر کرد آنها را به اینکه بایستند در حالتی که انقیاد و تسلیم نمایند فرمان او را.

و گردانید آفتاب آسمان رابرای روز آن و ماه آن را علامتی محو شده از شب آن و جاری فرمود مهر و ماه را در مواضع انتقال که جای جریان ایشان است و مقدّر کرد سیر ایشان را در راه های درجه های ایشان تا تمیز دهد شب و روز را به آن مهر و ماه و تا دانسته شود شماره سال ها و حساب ها به مقدار حرکات این دو کوکب، پس از آن درآویخت در فضای آسمان فلك را که محل دوران کوکب است و منوط ساخت به آن زینت آن را از ستارگان پنهان که مثل درّاند در صفا و از چراغ های ستاره ها و انداخت به سوی شیاطین که به دزدی و سرقت گوش دهنده گانند تا اینکه اسرار ملائکه رامطّلع شوند به شهاب های درخشنده سوراخ کننده و جاری ساخت ستارگان را بر مجاری تسخیر و مقهوریت آنها از ثبات کواکب ثابته و سیر کردن ستارگان رونده و از هبوط کردن ایشان به حضیض حامل و صعود نمودن ایشان به اوج حامل و از سعادت آنها و نحوست آنها.

الفصل الخامس

منها في صفة الملائكة ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لإِسْكَانِ سَمٰوَاتِهِ، وَعِمارَةِ الصَّفْحِ الأَعْلى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَديعاً مِنْ ملائكَتِهِ، مَلأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجاجِها، وحَشا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوائِها، وبَيْنَ فَجُوجاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمسَبِّحين مِنْهُمْ في حَظائِرِ الْقُدْسِ، وسُتُرَاتِ الْحُجُبِ، وسُرادِقاتِ الْمجْدِ، ووَراءِ ذٰلِكَ الرَّجيجُ الَّذي تَسْتَكُّ مِنْهُ الأَسْماعُ سُبُحاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الأَبْصارَ عَنْ بُلُوغِها، فَتَقِفُ خاسِئَةً عَلى حُدُودِها، أَنْشَأَهُمْ عَلى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وأَقْدارٍ مُتَفاوِتاتٍ، أُولي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جلالَ عِزَّتِهِ، لاَ يَنْتَحِلُونَ ما ظَهَرَ في الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، ولا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمّا انْفَرَدَ بِهِ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ، لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ.

جَعَلَهُمْ فيما هُنالِكَ أَهْلَ الأَمانَةِ عَلى وَحْيِه، وحَمَّلَهُمْ إِلى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، وعصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَما مِنْهُمْ زَائِغٌ مِنْ سَبيلِ مَرْضاتِهِ، وأَمَدَّهُمْ بِفَوائِدِ الْمَعُونَةِ، وأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَواضُعَ إِخْباتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْواباً ذُلُلاً إِلى تَماجيدِهِ، ونَصَبَ لَهُمْ مَناراً واضِحَةً عَلى أَعْلام تَوْحِيدِهِ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُوصِراتُ الآثام، وَلَمْ تَرتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيالي والأَيَّام، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوازِعِها عَزيمَةَ إِيمانِهِم، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلى معاقِدِ يَقِينِهِمْ، وَلاَ قَدَحَتْ قادِحَةُ الأَحَنِ فيما بَيْنَهُمْ، ولا سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ ما لاَقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمائِرِهِمْ، وما سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وهَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ في أَثْناءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَساوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَينِها عَلى فِكَرِهِمْ.

مِنْهُمْ مَنْ هُوَ في خَلْقِ الْغَمامِ الدُّلَّحِ، وفي عِظَمِ الْجِبالِ الشُّمَّخِ، وَفي قُتْرَةِ الظَّلامِ الأَيْهَمِ، ومِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدامُهُمْ تُخُومَ الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَهِيَ كَراياتٍ بيضٍ قَدْ نَفَذَتْ في مَخارِقِ الْهَواءِ، وتَحْتَهَا ريحٌ هَفّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَناهِيَةِ، قَدِ اسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغالُ عِبادَتِهِ، ووَصَلَتْ حَقائِقُ الإِيمانِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وقَطَعَهُمُ الإِيقانُ بِهِ إِلَىٰ الْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجاوِزْ رَغَباتُهُمْ ما عِنْدَهُ إِلَىٰ ما عِنْدَ غَيْرِهِ.

قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْداءِ قُلُوبِهِمْ وَشيجَةُ خيفَتِهِ، فَحَنُوا بِطُولِ الطّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِدْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلاَ أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ الإِعْجابُ فَيَسْتَكْثِرُوا ما سَلَفَ مِنْهُمْ ولا تَرَكَتْ لَهُمُ اسْتِكانَةُ الإِجْلالِ نَصيباً في تَعْظِيمِ حَسَناتِهِمْ، وَلَمْ تَجْرِ الْفَتَرَاتُ فيهِمْ عَلى طُولِ دُؤُوبِهِمْ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَباتُهُمْ فَيُخالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُناجاةِ أَسَلاتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ مَلَكَتْهُمُ الأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤارِ إِلَيْهِ أَصْواتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ في مَقاوِمِ الطّاعَةِ مَناكِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَىٰ راحَةِ التَّقْصِيرِ في أَمْرِهِ رِقابُهُمْ، وَلاَ تَعْدُوا عَلى عَزيمَةِ جِدِّهِمْ بَلادَةُ الْغَفَلاَتِ، وَلاَ تَنْتَضِلُ في هِمَمِهِمْ خَدائِعُ الشَّهَواتِ.

قَدِ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخيرَةً لِيَوْمِ فاقَتِهِم، ويَمَّمُوهُ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لا يَقْطَعُونَ أَمَدَ غايَةِ عِبادَتِهِ، وَلاَ يَرْجِعُ بِهِمُ الاسْتِهْتَارُ بِلُزُومِ طاعَتِهِ، إِلاَّ إِلى مَوادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غيرَ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجائِهِ ومَخافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ فَيَنُوا في جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ الأَطْماعُ فَيُؤْثِرُوا وَشيكَ السَّعْيِ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا ما مَضى مِنْ أَعْمالِهِمْ، وَلَوْ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجاءُ مِنْهُمْ شَفَقاتِ وَجَلِهِمْ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا في رَبِّهِمْ بِاسْتِحْواذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقاطُعِ، وَلاَ تَوَلاَّهُمْ غِلُّ التَّحاسُدِ، وَلاَ شَعَّبَتْهُمْ مَصارِفُ الرِّيَبِ، وَلاَ اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيافُ الْهِمَمِ، فَهُمْ أَسَراءُ إِيمانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلاَ عُدُولٌ، وَلاَ وَنًا وَلاَ فُتُورٌ، وَلَيْسَ في أَطْباقِ السَّمْوَاتِ مَوْضِعُ إِهابٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ مَلَكٌ ساجِدٌ، أَوْ ساعٍ حافِدٌ، يَزْدادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وتَزْدادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ في قُلُوبِهِمْ عِظَماً.

اللغة

(**عمارة**) المنزل جعله أهلاً ضدّ الخراب الذي لا أهل له يقال: عمر الله منزلك عمارة وأعمره جعله أهلاً و(**الصفيح**) السّماء ووجه كلّ شيء عريض قاله في «القاموس»، ووصفه بالأعلى بالنسبة إلى الأرض لأنّه الصفيح الأسفل، فما في شرح المعتزلي من تفسيره بسطح الفلك الأعظم ليس بشيء بل مخالف لكلام الإمام عليه السلام مضافاً إلى مخالفته لتفسير أهل اللغة إذ كلامه هنا وفي الخطبة الأولى صريح في عدم اختصاص مسكن الملائكة بالفلك الأعظم، حيث قال ثمة: ثم فتق ما بين السّماوات العلى فملأهنّ أطواراً من ملائكته، وذكر هنا أنه تعالى (**ملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها**).

و(**الملكوت**) كرهبوت العز والسلطان، قال بعض اللّغويين: إن أهل التحقيق يستعلمون الملك في العالم الظاهر والملكوت في العالم الباطن، وقال: إن (**الواو**) و(**التاء**) فيه كما في رهبوت ورغبوت وجبروت وتربوت زيدتا للمبالغة فيكون معنى الملكوت الملك العظيم و(**الفجاج**) بكسر (**الفاء**) جمع فجّ بفتحها قال سبحانه:

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وهو الطريق الواسع بين الجبلين و(**حشوت**) الوسادة بالقطن جعلتها مملوءة منه و(**الفجوات**) جمع فجوة وهي الفرجة والموضع المتّسع بين الشيئين و(**الزجل**) محرّكة رفع الصّوت مصدر زجل كفرح و(**الحظيرة**) (**بالحاء**) المهملة (**والظاء المعجمة الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الإبل والغنم وغيرهما ليقيها من الحرّ والبرد و(القدس)**) بسكون (**الدّال**) وضمها الطهر و(**السترات**) بضمّتين جمع سترة بالضّم وهو ما يستتر به كالسّتارة و(**السرادق**) الذي يمدّ فوق صحن البيت والبيت من الكرسف و(**المجد**) الشرف والعظمة و(**الرجيج**) الزلزلة والاضطراب ومنه رجيج البحر و(**استكت**) المسامع ضاقت وصمت.

قال الشّاعر:

ونبئت خير النّاس إنّك لمتني وتلك التي تستك منه المسامع

و(السّبحات) بضمتين النور والبهاء والجلال والعظمة وقيل: سبحات الوجه محاسنه لأنّك إذا رأيت الوجه الحسن قلت: سبحان الله تعجباً و(ردعه) كمنعه كفّه وردّه و(خسأ) البصر كلّ من باب منع والخاسىء من الكلاب ونحوها المبعد الذي لا يترك أن يدنو من النّاس و(تسبّح) من التّسبيح وفي بعض النسخ تسبح من السّباحة وفي هذه النسخة (خلال) بالخاء المعجمة المكسورة وهو وسط الشّيء أو جمع خلل بالتحريك وهو الفرجة بين الشيئين، وفي بعضها جلال بحار عزّته و(انتحل) الشيء إذا ادّعاه لنفسه وهو لغيره و(حمّلهم) بتشديد (الميم) و(الزّيغ) العدول عن الحق قال سبحانه:

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧].

و(استعنت به) فأعانني وقد يتعدى بنفسه فيقال: استعنته فأعانني والاسم منه العون والمعانة والمعونة بفتح (الميم) وضم (الواو) على وزن مكرمة وبضم (العين) أيضاً واتباع (الواو) على وزن مقولة.

قال الفيومي: وزن المعونة مفعلة بضم (العين) وبعضهم يجعل (الميم) أصلية ويقول: هي مأخوذة من الماعون ويقول: هي فعولة و(أشعر) قلوبهم من شعرت بالشيء شعوراً من باب قعد علمت وقيل: مأخوذ من الشعار وهو ما يلبس تحت الدّثار أي ألزم قلوبهم تشبيهاً بلزوم الشعار للبدن و(أخبت) الرجل خضع لله وخشع قلبه و(السكينة) الوقار والطمأنينة والمهابة و(الذّلل) بضمّتين جمع الذّلول وهو ضد الصّعب و(مجّده) تمجيداً عظمه وأثنا عليه والجمع للدّلالة على الأنواع و(الأعلام) جمع علم بالتحريك وهو الجبل الطويل قال الشاعر:

ربما أوفيت في علم ترفعن ثوبي شمالات

و(الأصر) الثقل و(العقب) جمع العقبة كغرف وغرفة وهي النوبة واللّيل والنّهار يتعاقبان أي يتناوبان ويجيء كلّ منهما بعد الآخر و(نوازعها) في بعض النسخ (بالعين) المهملة من نزع في القوس إذا مدّها وفي بعضها (بالغين) المعجمة من نزغ الشيطان بين القوم أي أفسد و(الاعتراك) الازدحام و(قدح) بالزند من باب منع أي رام الإيراء به وهو استخراج النّار و(أحن) الرّجل من باب تعب حقد وأضمر العداوة، والأحنة اسم منه والجمع إحن كسدرة وسدر و(لاق) الشّيء بغيره أي لزق ومنه الليقة للصوق المداد بها و(الاقتراع) الضرب بالقرعة والاختيار.

وفي شرح المعتزلي: هو من الاقتراع بالسهام بأن يتناوب كل من الوساوس عليها، والأنسب أن يجعل المزيد بمعنى المجرد يقال: قرعته بالمقرعة ضربته بها، وفي بعض النسخ

فتفترع (**بالفاء**) من فرعه أي علاه والأول أنسب بالطبع و(**الرّين**) بالنون كما في بعض النسخ وهو الدنس والطبع والغطاء وران ذنبه على قلبه ريناً غلب، وفي بعضها (**بالباء**) الموحدة بمعنى الشّك.

و(الغمام) جمع الغمامة و(الدلح) (**بالحاء**) المهملة جمع دالح كراكع وركع يقال سحاب دالح أي ثقيل بكثرة مائه و(**الشمّخ**) (**بالخاء**) المعجمة جمع الشامخ وهو المرتفع العالي و(**القترة**) بالضم بيت الصائد الذي يستتر به عند تصيده من خصّ ونحوه، والجمع قتر مثل غرفة وغرف و(**الأيهم**) الذي لا يهتدي فيه ومنه فلاة يهماء و(**تخوم**) الأرض بالضّم حدودها ومعالمها، قال الفيومي: التخم حدّ الأرض والجمع تخوم مثل فلس وفلوس، وقال ابن الأعرابي وابن السّكيت: الواحد تخوم والجمع تخم مثل رسول ورسل.

و(**ريح هفافة**) طيبة ساكنة و(**وصلت**) في بعض النسخ (**بالسين**) المهملة المشدّدة يقال: وسّل إلى الله توسيلاً وتوسل أي عمل عملاً يقرب به إليه و(**الوله**) محركة شدة الوجد أو ذهاب العقل و(**شربوا بالكأس**) بتثليث (**الرّاء**) والكاس مؤنثة و(**الرّوية**) المرويُة التي تزيل العطش و(**سويداء**) القلب وسودلؤة حبته و(**الوشيجة**) في الأصل عرق الشجرة يقال: وشجت العروق والأغصان أي اشتبكت و(**حنيت**) العود ثنيته وحنّيت ضلعي عوّجته ويقال للرّجل إذا انحنى من الكبر: حناه الدّهر.

و(**اعجب**) زيد بنفسه على البناء للمفعول إذا ترفّع وسرّ بفضائله وأعجبني حسن زيد إذا أعجبت منه قال الفيومي: والتعجب على وجهين أحدهما ما يحمده الفاعل ومعناه الاستحسان والإخبار عن رضاه به، والثاني ما يكرهه ومعناه الإنكار والذم له ففي الاستحسان يقال: أعجبني بالألف وفي الذم والإنكار عجبت وزان تعبت و(**الفترات**) جمع الفترة مصدر بنيت للمرّة من فتر الشيء فتوراً سكن بعد حدّة ولانَ بعد شدّة.

و(**دأب**) في عمله من باب منع دأباً ودآباً بالتحريك ودؤباً بالضم جدّ وتعب.

و(**غاض**) الماء غيضاً من باب سار قل ونقص و(**أسلة**) اللسان طرفه ومستدقه و(**الهمس**) محركة الصوت الخفي و(**الجواز**) وزان غراب رفع الصوت بالدّعاء والتضرع و(**المقاوم**) جمع مقام و(**ثنا**) الشيء يثني ويثنو من باب رمى ودعا ردّ بعضه على بعض وثنيته أيضاً أي صرفته إلى حاجته و(**بلد**) الرّجل بالضم بلادة فهو بليد أي غير فطن ولا زكي و(**ناضلته**) مناضلة راميته فنضلته نضلاً من باب قتل غلبته في الرّمي وانتضل القوم رموا للسبق و(**الهمة**) ما همّ به من أمر ليفعل و(**يممته**) قصدته و(**الأمد**) المنتهي وقد يكون بمعنى امتداد المسافة و(**رجع**) يكون لازماً ومتعدّياً تقول: رجع زيد ورجعته أنا و(**اهتر**) فلان بكذا واستهتر بالبناء للمفعول فهو مهتر ومستهتر بالفتح أولع به لا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره، والاستهتار الولع بالشيء لا يبالي بما

فعل فيه وشتم له.

و(**الوني**) الضّعف والفتور من ونى في الأمر من باب تعب ووعد و(**الوشيك**) القريب والسّريع و(**نسخ**) الشيء إزالته وإبطاله و(**استحوذ**) عليه الشيطان استولى و(**التقاطع**) التعادي وترك البرّ والإحسان و(**تولّيت**) الأمر قمت به و(**الغلّ**) الحقد و(**الشعبة**) من كلّ شيء الطائفة منه وشعّبهم أي فرقهم وفي بعض النّسخ تشعبّتهم على التفعل والأوّل أظهر و(**الرّيب**) جمع الريبة وهو الشّك.

و(**أخياف**) الهمم اختلافها وأصله من الخيف بالتحريك مصدر من باب تعب وهو أن يكون إحدى العينين من الفرس زرقاء والأخرى كحلاء، فالفرس أخيف والنّاس أخياف أي مختلفون، ومنه قيل لأخوة الأمّ أخياف لاختلافهم من حيث الأب و(**الإهاب**) ككتاب الجلد و(**الحافد**) المسرع والخفيف في العمل ويجمع على حفد بالتحريك ويطلق على الخدم لإسراعه في الخدمة و(**العظم**) وزان عنب خلاف الصّغر مصدر عظم وفي بعض النّسخ بالضمّ وزان قفل وهو اسم من تعظم أي تكبّر.

الإعراب

قوله: (**وبين فجوات**) (آه) الجملة حال من مفعول حشا، وقوله: (**وراء ذلك**) خبر قدم على مبتدئِهِ وهو (**سبحات**)، (**والأبصار**) في بعض النسخ بالنصب على أنّه مفعول تردع وفاعله راجع إلى سبحات، وفي بعضها بالرّفع على بناء تردع للمفعول، (**وأنشأهم**) عطف على (**ملأ بهم**)، (**وأولي أجنحة**) حال من مفعول أنشأ، وجملة (**تسبح**) صفة لأولي أجنحة أو لأجنحة، وجملة (**لا ينتحلون**) حال، (**واللاّم**) في قوله: (**بالقول**) عوض عن المضاف إليه أي لا يسبقون الله بقولهم.

وقوله: (**إلى المرسلين**) متعلق بحملهم على تضمين معنى البعث أو الإرسال أو نحوه، (**وودائع أمره**) بالنصب مفعول حمّلهم، وجملة (**لم تثقلهم**) استئناف بياني، (**والباء**) في قوله عليه السلام: (**وشربوا بالكأس**) إمّا للاستعانة، أو بمعنى (**من**) وربما يضمن الشّرب معنى الالتذاذ ليتعدى (**بالباء**) وكلمة (**من**) في قوله عليه السلام: (**من قلوبهم**) ابتدائية أي إلى موادّ ناشئة من قلوبهم، وفي قوله عليه السلام: (**من رجائه**) بيانيّة، فالمراد الخوف والرجاء الباعثان لهم على لزوم الطاعة، ويحتمل أن (**تكون**) الأولى بيانية أو ابتدائية والثانية صلة للانقطاع.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمّن لبيان صفات الملائكة وكيفية خلقتهم وحالة عبوديتهم وخشوعهم وذلّتهم لمعبودهم، وقد مضى شطر واف من الكلام على هذا العنوان في

شرح الفصل التاسع من فصول الخطبة الأولى، وتقدّم ثمة ما ينفعك في هذا المقام ولما كان العرض من هذه الخطبة الإشارة إلى عظمة الله سبحانه وقدرته والإبانة عن الصّفات الجمالية والجلالية له تعالى، وكان ملائكة السماوات من أفضل الموجودات وأشرف المجعولات وعجائب الخلائق وبدائع الصّنائع وعظم المخلوق كان دالاً على عظم الخالق وبديع صنعة المصنوع كان دليلاً على كمال قدرة الصّانع وتدبيره وحكمته، لا جرم ساق عليه السلام هذا الفصل لبيان حالهم وضمنه ذكر أوصافهم المختلفة وشؤوناتهم المتفاوتة بعبارات رائقة وبدائع فائقة.

قال الشّارح المعتزلي ولنعم ما قال: إذا جاء هذا الكلام الرّباني واللّفظ القدسي بطلت فصاحة العرب وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه نسبة التراب إلى النضار الخالص، ولو فرضنا أن العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة أو المقاربة لهذه الألفاظ من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السّمائية ليتهيأ لها التعبير عنها.

أما الجاهلية فإنّهم إنما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش أو ثور فلاة أو صفة جبال أو فلوات ونحو ذلك.

وأما الصّحابة المذكورون منهم بفصاحة إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة إما في موعظة تتضمّن ذكر الموت أو ذم الدنيا وما يتعلّق بحرب وقتال من ترغيب أو ترهيب.

فأمّا الكلام في الملائكة وصفاتها وعبادتها وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبّها له وولهها إليه وما جرى مجرى ذلك ممّا تضمّنه هذا الفصل بطوله فإنّه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التّفصيل، نعم ربّما علموه جملة غير مقسمة هذا التقسيم ولا مرتبة هذا الترتيب بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم، فثبت أن هذه الأمور الدقيقة مثل هذه العبارة الفصيحة لم تحصل إلا لعلي عليه السلام وحده، وأقسم أن هذا الكلام إذا تأمّله اللّبيب اقشعر جلده ورجف قلبه واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وخلده وهام نحوه وغلب الوجد عليه وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً وأن يفارق هيكله صبابة ووجداً[1].

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى شرح كلامه عليه السلام فأقول: قال عليه السلام: **(ثم خلق سبحانه لإسكان سمواته وعمارة الصّفيح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته)** ظاهر كلمة (ثم) المفيد للترتيب الحقيقي كون خلق الملائكة بعد خلقة السّماوات، ويدل عليه أخبار كثيرة إلاّ أن في بعض الرّوايات سبق خلقة الملائكة على خلقة السّماوات، ويمكن الجمع بالتخصيص ههنا

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٢٦.

بسكان السّماوات الذين لا يفارقونها، والمراد بالصفيح الأعلى سطح كلّ سماء، ويقابله الصفيح الأسفل الذي هو الأرض، ويظهر من ذلك عدم تلاصق السّماوات على ما ذهبت إليه الفلاسفة من غير دليل يعتمد عليه.

وأمّا ما في شرح البحراني من أنّه يحتمل أن يشير عليه السلام بالصّفيح الأعلى إلى الفلك التاسع وهو العرش لكونه أعظم الأجرام وأعلاها وسكانه الملائكة المدبّرون له، فمبني على أصول الفلاسفة مخالف للأخبار وكلام أهل اللغة حسبما عرفت آنفاً في ترجمة لفظ الصفيح، ومخالف أيضاً لظاهر قوله عليه السلام: (فملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها) إذ المستفاد من ذلك أن ما بين السّماوات مملوّة بهم فتكون السّطوح المحدّ به منها محل إسكان الملائكة ومكان عبادتهم لله سبحانه بأنواع العبادة ويستفاد منه أيضاً تجسم الملائكة وهو المستفاد من الأخبار المتواترة معنى.

والعجب أن شارح البحراني أوّل ذلك أيضاً بناء على الأصول الفاسدة بأنه عليه السلام استعار لفظ الفروج والفجاج والفتوق لما يتصور بين أجزاء الفلك من التباين لولد الملائكة الذين هم أرواح الأفلاك وبها قام وجودها، وبقاء جواهرها محفوظة بها، ووجه المشابهة ظاهر، ورشح تلك الاستعارة بذكر الملاء والحشو، وأما فجاجها وفروجها فإشارة إلى ما يعقل بين أجزائها وأجوائها المنتظمة على التباس لولا الناظم لها بوجود الملائكة، فيكون حشو تلك الفرج بالملائكة كناية عن نظامها بوجودها وجعلها مدبرة لها، انتهى.

وقد مضى فساد ذلك وبطلانه في شرح الفصل التاسع من فصول الخطبة الأولى فتذكر (**وبين فجوات تلك الفروج**) ومتسعاتها (**زجل المسبّحين منهم**) وأصواتهم الرفيعة العالية بالتضرع والابتهال والمسكنة (**في حظائر القدس وسترات الحجب وسرادقات المجد**) لعلّ المراد بها المواضع المعدّة لعبادة الملائكة بين أطباق السّماوات ووصفها بالقدس من حيث اتصافها بالطهارة والنزاهة من الأدناس والأرجاس ويمكن أن تكون الإشارة بها إلى ما فوق السماء السّابعة من الحجب والسّرادقات النورانية.

ففي الخبر أنّ ما فوق السّماء السابعة صحاري من نور، ولا يعلم فوق ذلك إلاّ الله[(١)].

وعن وهب بن منبه فوق السّماوات حجب فيها ملائكة لا يعرف بعضهم بعضاً لكثرتهم يسبّحون الله تعالى بلغات مختلفة وأصوات كالرّعد العاصف، هذا.

وقد أشار عليه السلام إلى تفصيل الحجب والسرادقات فيما رواه الصّدوق في «التوحيد» بإسناده عن زيد بن وهب قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الحجب، فقال عليه السلام: أوّل

(١) بحار الأنوار: ٥٥/١٠٤ ح ٣٠، وسبل الهدى والرشد: ٣/١٨.

الحجب سبعة غلظ كل حجاب منها مسيرة خمسمائة عام وبين كل حجابين مسيرة خمسمائة عام، والحجاب الثاني سبعون حجاباً بين كلّ حجابين مسيرة خمسمائة عام وطوله خمسمائة عام حجبة كلّ حجاب منها سبعون ألف ملك قوة كلّ ملك منهم قوة الثقلين منها ظلمة، ومنها نور، ومنها نار، ومنها دخان، ومنها سحاب، ومنها برق، ومنها مطر، ومنها رعد، ومنها ضوء، ومنها رمل، ومنها جبل، ومنها عجاج، ومنها ماء، ومنها أنهار، وهي حجب مختلفة غلظ كلّ حجاب مسيرة سبعين ألف عام.

ثم سرادقات الجلال وهي ستون «سبعون» سرادقاً في كلّ سرادق سبعون ألف ملك بين كلّ سرادق وسرادق مسيرة خمسمائة عام، ثم سرادقات العز، ثم سرادق الكبرياء، ثم سرادق العظمة، ثم سرادق القدس، ثم سرادق الجبروت، ثم سرادق الفخر، ثم سرادق النور الأبيض، ثم سرادق الوحدانية، وهو مسيرة سبعين ألف عام في سبعين ألف عام، ثم الحجاب الأعلى، وانقضى كلامه عليه السلام وسكت، فقال له عمر: لابقيت ليوم لا أراك فيه يا أبا الحسن[1].

قال المجلسي (ره) بعد رواية ذلك في «البحار»: قوله عليه السلام: **(منها ظلمة)**، لعلّ المراد من مطلق الحجب لا من الحجب المتقدّمة كما يدلّ عليه قوله: **(غلظ كلّ حجاب) (ا ه)** **(ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع)** والزجل الذي تنسدّ منه الأذان **(سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها)** وتمنع الأعين عن وصولها لشدّة ضيائها وفرط بهائها **(فتقف)** الأبصار **(خاسئة)** حسيرة **(على حدودها)** أي حدود تلك السبحات، ويستفاد من شرح المعتزلي رجوع الضمير إلى الأبصار، قال: أي تقف حيث تنتهي قوتها، لأنّ قوتها متناهية فإذا بلغت حدها وقفت، هذا.

والمراد بسبحات النور إما الأنوار التي تغشي العرش.

ويدلّ عليه ما روي عن ميسرة قال: لا تستطيع الملائكة الذين يحملون العرش أن ينظروا إلى ما فوقهم من شعاع النور.

وعن زاذان قال: حملة العرش أرجلهم في التخوم لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور.

وفي حديث المعراج قال: ورأيت في علّيين بحاراً وأنواراً وحجباً وغيرها لولا تلك لاحترق كلّ ما تحت العرش من نور العرش، وأمّا حجب النور التي دون العرش، ويؤيّده ما في الحديث أن جبرئيل عليه السلام قال لله سبحانه: دون العرش سبعون حجاباً لو دنونا من أحدها

---
(١) الخصال: ٤٠١، وروضة الواعظين: ٤٥.

لأحرقتنا سبحات وجه ربّنا، وفي حديث آخر من طرق المخالفين حجابه النّور والنّار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كلّ شيء أدركه بصره.

وقال الشّارح البحراني (ره): أشار عليه السلام بسبحات النّور الّتي وراء ذلك الرّجيج إلى جلال وجه الله وعظمته وتنزيهه أن يصل إليه أبصار البصائر، ونبّه بكون ذلك وراء رجيجهم على أنّ معارفهم لا تتعلّق به كما هو، بل وراء علومهم وعباداتهم أطوار أخرى من جلاله تقصر معارفهم عنها وتردع أبصار البصائر عن إدراكها فترجع حسيرة متحيّرة واقفة عند حدودها وغاياتها من الإدراك.

أقول: وهو لا ينافي ما ذكرناه إذ ما ذكرته تفسير للظّاهر وما ذكره الشّارح تأويل للباطن، وقد تقدّم في شرح الخطبة التي قبل هذه الخطبة ما ينفعك ذكره في هذا المقام (**أنشأهم على صور مختلفات وأقدار متفاوتات أولي أجنحة تسبّح جلال عزّته**) قال الشّارح البحراني: اختلاف صورهم كناية عن اختلافهم بالحقائق وتفاوت أقدارهم تفاوت مراتبهم في الكمال والقرب منه، ولفظ الأجنحة مستعار لقواهم التي بها حصلوا على المعارف الإلهيّة وتفاوتها بالزيادة والنّقصان كما قال تعالى:

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١].

كناية عن تفاوت إدراكهم لجلال الله وعلومهم بما ينبغي له، ولذلك جعل الأَجنحة هي التي تسبّح جلال عزّته فإن علمهم بجلاله منزّه عمّا لا ينبغي لكرم وجهه ولا يناسب جلال عزّته.

أقول: تسليط يد التّأويل على الظواهر من غير دليل هدم لأَساس الشّريعة وحمل اللّفظ على المجازات إنّما هو عند تعذر إرادة الحقيقة، وأمّا مع إمكانها ودلالة الدّليل عليها فهو خلاف السيرة المستمرة مناف لمقتضى الأصول اللفظية المتداولة بين أهل اللّسان من العرب ومن حذا حذوهم من علماء الأصول والأدب.

بل المراد إنشاءهم على صور مختلفة وأشكال متشتّتة فبعضهم على صورة الإنسان وبعضهم على صورة الحيوان من الأَسد والثور والدّيك وغيرها من أصناف الحيوان على ما ورد في الأَخبار، وبعضهم أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد سبحانه عليها ما يشاء على وفق حكمته ومقتضى تدبيره وإرادته.

وإيجادهم على أقدار متفاوتة في الصغر والكبر والطّول والقصر، روى علي بن إبراهيم القميّ (ره) في تفسير قوله سبحانه:

﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١].

عن الصّادق عليه السلام أنه قال: خلق الله الملائكة مختلفين، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل وله ستمائة جناح على ساقه الدّر مثل القطر على البقل قد ملأ ما بين السّماء والأرض، وقال: إذا أمر الله ميكائيل بالهبوط إلى الدّنيا صارت رجله اليمنى في السّماء السّابعة والأخرى في الأرض السّابعة، وأن لله ملائكة أنصافهم من برد وأنصافهم من نار يقولون: يا مؤلّفاً بين البرد والنّار ثبّت قلوبنا على طاعتك، وقال: إنّ لله ملكاً بعد ما بين شحمة أذنه إلى عينه مسير خمسمائة عام بخفقان الطير، وقال عليه السلام: إنّ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون وإنما يعيشون بنسيم العرش وإن لله ملائكة ركعاً إلى يوم القيامة وإنّ لله ملائكة سجداً إلى يوم القيامة[١].

ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من شيء ممّا خلق الله أكثر من الملائكة وأنّه ليهبط في كلّ يوم أو في كلّ ليلة سبعون ألف ملك فيأتون البيت الحرام فيطوفون به ثم يأتون رسول الله صلى الله عليه وآله ثم يأتون أمير المؤمنين عليه السلام فيسلّمون عليه ثم يأتون الحسين عليه السلام فيقيمون عنده، فإذا كان وقت السّحر وضع لهم معراج إلى السّماء ثمّ لا يعودون أبداً[٢].

وفي «التّوحيد»: بإسناده عن زيد بن وهب قال: سئل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن قدرة الله جلّت عظمته، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

إنّ لله تبارك وتعالى ملائكة لو أنّ ملكاً منهم هبط إلى الأرض ما وسعته لعظمة خلقته وكثرة أجنحته، ومنهم من لو كلّفت الجنّ والإنس أن يصفوه ما وصفوه لبعد ما بين مفاصله وحسن تركيب صورته، وكيف يوصف من ملائكته من سبعمائة عام ما بين منكبيه وشحمة أذنيه، ومنهم من يسدّ الأفق بجناح من أجنحته دون عظم بدنه، ومنهم من السّماوات إلى حجزته[٣]، ومنهم من قدمه على غير قرار في جوّ الهواء الأسفل والأرضون إلى ركبتيه، ومنهم من لو ألقى في نقرة إبهامه جميع المياه لوسعتها، ومنهم من لو ألقيت السفن في دموع عينه لجرت دهر الداهرين فتبارك الله أحسن الخالقين[٤].

وفيه بإسناده عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: إنّ لله تبارك وتعالى ديكاً رجلاه في تخوم الأرض السّابعة ورأسه عند العرش ثاني عنقه تحت العرش «إلى أن قال»: ولذلك الدّيك جناحان إذا نشرهما جاوز المشرق والمغرب، فإذا كان في آخر اللّيل نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح يقول: سبحان الملك القدّوس الكبير المتعال لا إله إلا الله الحي القيوم، فإذا

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٧٤ ح ٤، وميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٣١ ح ٣٧٠٨.

(٢) كامل الزيارات: ٢٢٤ ح ٣٣٠، ووسائل الشيعة: ١٤/ ٣٧٥ ح ١٩٤١٩.

(٣) الحجزة معقد الأزار.

(٤) الخصال: ٤٠١، والتوحيد: ٢٧٨.

فعل ذلك سبحت ديكة الأرض كلّها وخفقت بأجنحتها وأخذت في الصّراخ، فإذا سكن ذلك الدّيك في السّماء سكنت الديكة في الأرض فإذا كان في بعض السحر نشر جناحيه فجاوز بهما المشرق والمغرب وخفق بهما وصرخ بالتسبيح سبحان الله العظيم العزيز القهار سبحان الله ذي العرش المجيد سبحان الله ربّ العرش الرّفيع، فإذا فعل ذلك سبّحت ديكة الأرض فإذا هاج هاجت الدّيكة في الأرض تجاوبه بالتسبيح والتقديس لله عزّ وجل ولذلك الدّيك ريش أبيض كأشدّ بياض رأيته قط وله زغباً خضر تحت ريشه الأبيض كأشد خضرة رأيتها قط فما زلت مشتاقاً إلى أن أنظر إلى ريش ذلك الدّيك.

وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: إنّ لله تبارك وتعالى ملكاً من الملائكة نصف جسده الأعلى نار ونصفه الأسفل ثلج، فلا النّار تذيب الثلج ولا الثلج تطفيء النّار وهو قائم ينادي بصوت رفيع: سبحان الله الذي كفّ حرّ هذه النّار فلا يذيب الثلج وكفّ برد هذا الثلج فلا يطفيء حر النّار اللّهم يا مؤلّفاً بين الثلج والنّار ألّف بين قلوب عبادك المؤمنين على طاعتك[1]، هذا.

وبقي الكلام في قوله عليه السلام: (أولي أجنحة تسبح جلال عزته)، فأقول: إن كانت تسبح بالتخفيف والخلال بالخاء المعجمة فالمراد سباحتهم وسيرهم في أطباق السّماوات وفوقها أو نزولهم وصعودهم لأداء الرّسالات وغيرها أو سيرهم في مراتب القرب بالعبادة والتسبيح.

وأمّا على رواية التشديد وكون الجلال **(بالجيم)** فالجملة إما صفة لأولي أجنحة فالتأنيث باعتبار الجماعة والمقصود أنهم يسبحونه ويقدّسون جلاله وعظمته وعزته وقوله سبحانه من النقائص:

إما صفة لأجنحة فالمقصود بالتسبيح.

وإما التنزيه والتقديس بلسان الحال إذ كلّ جناح من أجنحتهم بل كل ذرّة من ذرّات وجودهم ناطقة بلسان حالها شارحة لعظمة بارئها ومبدعها، برهان صدق على قدرته وقوته وكماله، ودليل متين على تدبيره وحكمته وجلاله، وهذا عام لجميع الملائكة.

وإما التنزيه بلسان المقال وهو مخصوص ببعض الملائكة.

ويشهد به ما رواه في «التوحيد» بإسناده عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: إنّ لله تبارك وتعالى ملائكة ليس شيء من أطباق أجسادهم إلا وهو يسبح الله عزّ وجلّ ويحمده من ناحية بأصوات مختلفة لا يرفعون رؤوسهم إلى السماء ولا يخفضونها إلى أقدامهم من البكاء والخشية لله عزّ وجلّ[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٧/ ٢٤٩.

(٢) التوحيد: ٢٨ ح ٦، وبحار الأنوار: ١٨/ ٣٢٤.

وعن جميل بن درّاج قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام هل في السماء بحار؟ قال عليه السلام: **نعم** أخبرني أبي عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنّ في السماوات السبع** لبحاراً عمق أحدها مسيرة خمسمائة عام فيها ملائكة قيام منذ خلقهم الله عزّ وجلّ والماء إلى ركبهم ليس فيهم ملك إلاّ وله ألف وأربع مائة جناح في كلّ جناح أربعة وجوه في كلّ وجوه[١] أربعة ألسن ليس فيها جناح ولا وجه ولا لسان ولا فم إلا وهو يسبح الله عزّ وجلّ بتسبيح لا يشبه نوع منه صاحبه، والله أعلم بحقائق ملكه وملكوته، وآثار جلاله وجبروته[٢].

ثمّ وصف عليه السلام الملائكة بأنهم **(لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه مما انفرد به)** أي لا يدعون الرّبوبية لأنفسهم كما يدّعيه البشر لهم ولأنفسهم فالفقرة الأولى لنفي ادعاء الاستبداد والثانية لنفي ادّعاء المشاركة أو الأولى لنفي ادعائهم الخالقية فيما هم وسائط وجوده ولهم مدخل فيه بأمره سبحانه والثانية لنفي ذلك فيما خلقه الله سبحانه بمجرّد أمره من دون توسط الوسائط **(بل)** هم **(عبادع مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)** وهو اقتباس من قوله سبحانه في سورة الأنبياء:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧] الآية.

قيل: نزلت في خزاعة حيث قالت: الملائكة بنات الله، فنزّه الله سبحانه نفسه عن ذلك وقال سبحانه أنفة له: بل هؤلاء الذين زعموا أنهم ولد الله ليسوا أولاده، بل هم عباد مكرمون أكرمهم الله واصطفاهم لا يسبقونه بالقول ولا يتكلّمون إلاّ بما يأمرهم به ربهم، فكلّ أقوالهم طاعة لربهم ويكفي بذلك جلالة قدرهم، وهم بأمره يعملون، ومن كان بهذه الصفة لا يوصف بأنه ولد.

(جعلهم) الله **(فيما هنالك أهل الأَمانة على وحيه، وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه)** لعلّ هذا الوصف مختص ببعض الملائكة ويشهد به قوله سبحانه:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [الحج: ٧٥].

ويكفي للنسبة إلى الجميع كون بعضهم كذلك وما هنالك عبارة عن مراتب الملائكة ويدل على الاختصاص بالبعض أيضاً قوله عليه السلام في الفصل التاسع من الخطبة الأولى: **(ومنهم أمناء على وحيه وألسنة إلى رسوله ومختلفون بقضائه وأمره)**، وقد تقدّم في شرح ذلك الفصل

(١) في نسخة: وجه.

(٢) التوحيد: ٢٨١ ح ٩، ونور البراهين: ١٠٧/٢ ح ٩.

ما ينفعك ذكره في المقام وبينا ثمة وجه الحاجة في أداء الأمانة إلى وجود الواسطة من الملائكة وأشرنا إلى جهة وصفهم بالأمانة.

ومحصله أنه لما كان ذو الأمانة هو الحافظ لما ائتمن عليه ليؤدّيه إلى مستحقه وكانت الرّسلات النازلة بواسطة الملائكة نازلة كما هي محفوظة عن الخلل الصادر عن سهو لعدم أسباب السّهو هناك أو عن عمد لعدم الدّاعي إليه لقوله تعالى:

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

صدق أنهم أهل الأمانة على وحيه ورسالاته **(وعصمهم من ريب الشبهات فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته)** هذا الوصف عام لجميع الملائكة لأنهم معصومون من الشك والاشتباه الناشيء من معارضة النفس الأمارة للقوة العاقلة إذ ليس لهم هذه النفس فلا يتصور في حقّهم العدول عن سبيل رضوان الله والانحراف عن القصد لانتفاء سببه الذي هو وجود هذه النفوس.

(وأمدّهم بفوائد المعونة وأشعر قلوبهم تواضع أخبات السّكينة) لعلّ المراد أنّه سبحانه أعطاهم المدد والقوّة وأيّدهم بأسباب الطاعات والقربات والألطاف والمعارف الصّارفة لهم عن المعصية وأنه ألزم قلوبهم التواضع والذلة والخضوع والاستكانة لزوم الشعار للجسد أو أنه أعلمهم ذلك، ومحصّله عدم انفكاكهم عن الخوف والخشوع وقد مرّ بعض الأخبار فيه في شرح الفصل التاسع من الخطبة الأولى.

(وفتح لهم أبواباً ذللاً إلى تماجيده) أي فتح لهم أبواباً سهلة إلى تعظيماته والثناء عليه، والجمع باعتبار أنواع التحيات وفتح الأبواب كناية عن إلهامها عليهم وتسهيلها لهم لعدم معارضة شيطان أو نفس أمارة بالسوء، بل خلقهم خلقة يلتذون بها كما ورد: أن شرابهم التّسبيح وطعامهم التقديس.

(ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده) استعار لفظ الإعلام لأدلة التّوحيد وبراهين التفريد ووجه المشابهة إيصال كلّ منهما إلى المطلوب، ولعله أراد بالمنار الواضحة المنصوبة على تلك الأعلام ما يوجب لهم الاهتداء إلى تلك الأدلة من الوحي والإلهام.

وربما قيل في شرح ذلك: أنه استعار المنار الواضحة للوسائط من الملائكة المقربين بينهم وبين الحق سبحانه إذ إخباره عن الملائكة السّماوية ولفظ الإعلام لصور المعقولات في ذواتهم المستلزمة لتوحيده وتنزيهه عن الكثرة، ووجه المشابهة أن المنار والإعلام كما تكون وسائط في حصول العلم بالمطلوب كذلك الملائكة المقرّبون والمعارف الحاصلة بواسطتهم تكون وسائط في الوصول إلى المطلوب الأول محرّك الكلّ عز سلطانه، وهو قريب مما قلناه إلا إن ما قلناه أظهروا أشبه هذا.

وأمّا توصيف المنار بوصف الوضوح فمن أجل وفور أسباب الهداية وكثرة الدلائل في

حقهم لقربهم من سياحة عزّه وملكوته ومشاهدتهم ما يخفى علينا من آثار ملكه وجبروته.

(**لم تثقلهم موصرات الآثام**) أي مثقلاتها وأشار ﷺ بذلك إلى عصمتهم من المعاصي لعدم خلق الشهوات فيهم وانتفاء النفس الأمارة الداعية إلى المعصية (**ولم ترتحلهم عقب اللّيالي والأيام**) أي لم يزعجهم تعاقبهما ولم يوجب رحيلهم عن دارهم، والمقصود تنزيههم عما يعرض للبشر من ضعف القوى أو القرب من الموت بكرور اللّيالي ومرور الأيام.

(**ولم ترم الشّكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم**) عزيمة إيمانهم ما لزم ذواتهم من التّصديق بمبدعهم وما ينبغي له، والمراد أنه لم ترم الشكوك بمحركاتها وهي شهواتها ما عزموا عليه من الإيمان والتّصديق، هذا على رواية نوازعها (**بالعين**) المهملة وأما على روايتها (**بالغين**) المعجمة فالمقصود عدم انبعاث نفوسهم الأمارة بالشكوكات والشبهات وإلقائها الخواطر الفاسدة إلى أنفسهم المطمئنة.

(**ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم**) المراد بالظنّ إمّا الاعتقاد الراجح غير الجازم أو الشّك أو ما يشملهما، ولعل الأَخير أظهر هنا، فالمقصود نفى ازدحام الظنون والأوهام على قلوبهم التي هي معاقد عقائدهم اليقينة.

(**ولا قدحت قادحة الإحن فيما بينهم**) أي لا تثير الأَحقاد والعداوات بينهم فتنة كما تثير النار قادحتها لتنزّههم من القوة الغضبيّة (**ولاسلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم وسكن من عظمته وهيبة جلاله في أثناء صدورهم**) لمّا كانت الضيرة عبارة عن عدم الاهتداء إلى وجه الصواب من حيث تردّد العقل في أن أي الأَمرين أولى بالطلب والاختيار، وكان منشأ ذلك معارضة الوهم والخيال للعقل ولم يكن لهم وهم ولا خيال، لا جرم لا حيرة تخالط عقائدهم وتزيل هيبة عظمته من صدورهم.

قال المجلسي (ره): ويحتمل أن يكون المراد بالحيرة الوله لشدّة الحب وكمال المعرفة كما سيأتي، فالمعنى أن شدّة ولههم لا توجب نقصاً في معرفتهم وغفلة عن ملاحظة العظمة والجلال كما في البشر، وعلى هذا فالسلب في كلامه ﷺ راجع إلى المحمول كما أنه على ما قلناه راجع إلى الموضوع (**ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم**) أي لم تطمع فيهم الوساوس الشّيطانية والنّفسانية فتتناوب أو تضرب بأدناسها على قلوبهم، والغرض نفي عروض الوساوس على عقولهم كما تعرض للبشر لانتفاء أسبابها في حقهم.

(**منهم**) أي من مطلق الملائكة (**من هو في خلق الغمام الدّلح**) أي السحاب الثقيلة بالمطر، والمراد بذلك الصّنف هم الذين مكانهم السحاب وهم خزان المطر وزواجر السحاب المشار إليهم بقوله سبحانه: والزاجرات زجراً.

قال ابن عباس: يعني الملائكة الموكلين بالسحاب فيشمل لمشيعي الثلج والبرد

والهابطين مع قطر المطر إذا نزل وإن كان السحاب مكانهم قبل النّزول قال سيّد السّاجدين عليه السلام في دعائه في الصّلاة على حملة العرش وسائر الملائكة من الصحيفة الكاملة: وخزان المطروز واجر السحاب والذي بصوت زجره يسمع زجل الرعود وإذا سبحت به حفيفة السحاب التمعت صواعق البروق ومشيعي الثلج والبرد والهابطين مع قطر المطر إذا نزل، هذا.

ويحتمل أن يكون المقصود تشبيههم في لطافة الجسم بالسحاب، فيكون المعنى أنهم في الخلقة مثل خلق الغمام.

وكذلك قوله عليه السلام: (وفي عظم الجبال الشّمخ) يحتمل أن يراد به الملائكة الموكلون بالجبال للحفظ وسائر المصالح، وأن يراد به تشبيههم بالجبال في عظمة الخلقة.

وهكذا قوله: **(وفي قترة الظلام الأيهم)** محتمل لأن يراد به الملائكة السّاكنون في الظلمات لهداية الخلق وحفظهم أو غير ذلك، ولأن يراد به تشبيههم في السّواد بالظلمة.

(ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السّفلى، فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء وتحتها ريح هفّافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية) لعل المراد بهم الملائكة الموكلون بالأرض يقول عليه السلام: إنهم قد خرقت أقدامهم حدود الأرض السفلى ومعالمها وأقدامهم بمنزلة أعلام بيض قد نفذت في مخارق الهواء، وأراد بها المواضع التي تمكنت فيها تلك الأعلام بخرق الهواء، وتحت هذه الأعلام ريح طيبة ساكنة أي ليست بمضطربة فتموج تلك الرّايات تحبسها حيث انتهت، هذا.

وقال الشّارح البحراني: يشبه أن يكون هذا القسم من الملائكة السّماوية أيضاً واستعار لفظ الأقدام لعلومهم المحيطة بأقطار الأرض السفلى ونهاياتها، وجه الشبه كون العلوم قاطعة للمعلوم وسارية فيه واصلة إلى نهايته كما أن الأقدام تقطع الطريق وتصل إلى الغاية منها.

وتشبيهها بالرّايات البيض من وجهين:

أحدهما: في البياض لأن البياض لما استلزم الصّفاء عن الكدور والسّواد كذلك علومهم صافية عن كدورات الباطل وظلمات الشبه.

الثاني: في نفوذها في أجزاء المعلوم كما تنفذ الرّايات في الهواء، وأشار بالريح التي تحبس الأقدام إلى حكمة الله التي أعطت كلاماً يستحقه وقصرت كل موجود على حده وبهفوفها إلى لطف تصرّفها وجريانها في المصنوعات.

أقول: ولا بأس به وإن كان خروجاً عن الظاهر.

ثم أشار إلى استغراقهم في العبادة وثباتهم في المعرفة والمحبة بقوله: **(قد استفرغتهم أشغال عبادته)** أي جعلتهم فارغين عن غيرها **(ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته)** أراد

بحقائق الإيمان العقائد اليقينية تحقّ أن تسمى إيماناً أو البراهين الموجبة له، وكونها وصلة بينهم وبين معرفته من حيث إن التّصديق بوجود الشّيء الواجب تحصيله أقوى الأسباب الباعثة على طلبه فصار الإيمان والتصديق الحق بوجوده جامعاً بينهم وبين معرفته ووسيلة لهم إليه.

(وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه) أي صرفهم اليقين بوجوب وجوده عن التوجه والالتفات إلى غيره إلى ولههم إليه وتحيرهم من شدّة الوجد **(ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره)** أي رغباتهم مقصورة على ما عنده سبحانه من قربه وثوابه وكرمه، فإنه منتهى رغبة الراغبين وهو غاية قصد الطالبين.

(قد ذاقوا حلاوة معرفته) استعار عليه السلام لفظ الذّوق لتعقّلاتهم ورشحه بذكر الحلاوة وكنى بها عن كمال ما يجدونه من اللذّة بمعرفته كما يلتذ ذائق الحلاوة بها **(وشربوا بالكأس الرّوية من محبّته)** استعار لفظ الشرب لما تمكن في ذواتهم من كمال المحبة ورشحه بذكر الكأس الرويّة أي من شأنها أن تروي وتزيل العطش **(وتمكنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته)** لما كان كمال استقرار العوارض القلبية من الحب والخوف ونحوهما عبارة عن بلوغها إلى سويداء القلب وتمكنها فيها عبر عليه السلام بها مبالغة وأشار عليه السلام بوشيجة خيفته إلى جهات الخوف المتشعبة في ذواتهم الناشئة من زيادة معرفتهم بعزّته وقدرته ومقهوريتهم تحت قوّته.

(فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم) أي عوّجوا ظهورهم المعتدلة المستقيمة بطاعاتهم الطويلة، وهو كناية عن كمال خضوعهم.

(ولم ينفد طول الرّغبة إليه مادّة تضرّعهم) أراد به عدم إفناء طول رغبتهم إليه دواعي تضرّعهم له سبحانه كما في البشر فإنّ أحدنا إذا كان له رغبة في أمر وأراد الوصول إليه من عند أحد تضرّع إليه وابتهل وإذا طال رغبته ولم ينل إلى مطلوبه حصل له الملال والكلال وانقطع دواعي نفسه وميول قلبه وينعدم ما كان سبباً لتضرّعه وابتهاله، ولمّا كان الملال والكلال من عوارض المركبات العنصرية وكانت الملائكة السماوية منزهة عنها لا جرم حسن سلبها عنهم.

(ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم) لما كان من شأن مقربي الملوك والسّلاطين أنهم كلّما ازدادت زلفاهم وقرباهم إليهم انتقص خضوعهم وخشوعهم وتواضعهم من أجل أنه يخف هيبتهم وسطوتهم في نظرهم لكونهم بشراً مثلهم ولم يكن كذلك حال من كان مقربي الحضرة الرّبوبيّة بل هم كلّما ازدادوا قرباً ازدادوا خشوعاً من حيث عدم انتهاء السّلطنة الإلهيّة وعدم انتهاء مراتب العرفان واليقين الدّاعيين إلى التضرع والعبادة وعدم وقوفها على حد، لا جرم لم يطلق عظم قربهم أعناق ذلهم عن ربقة الابتهال، فهم بقدر صعودهم في مدارج الطاعة يزداد قربهم، وكلّما ازداد قربهم تضاعف علمهم بعظمته فيحصل بزيادة العلم بالعظمة كمال الخشوع والذلة.

(ولم يتولهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم) المراد بذلك نفي استيلاء العجب عليهم والإشارة إلى أنهم لا يستعظمون ما سلف منهم من العبادات، ولا يستكثرون ما تقدّم منهم من الطاعات، وأنهم لم يترك لهم خضوعهم الناشيء عن ملاحظة جلال الله وولههم النّاشيء من شدّة المحبّة إليه نصيباً في تعظيم الحسنات وحظاً في إعظام القربات، لأن منشأ العجب هو النّفس الأمارة وهو من أحكام الأَوهام والملائكة السماوية مبرؤون منها ومنزهون عنها.

(ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم) يعني أنهم على طول جدّهم في العبادة لا يحصل لهم فتور ولا قصور، وقد مضى بيان ذلك في شرح الفصل التاسع من الخطبة الأولى. قال زين العابدين وسيد السّاجدين عليه السلام في الصلاة على حملة العرش: اللّهم وحملة عرشك الذين لا يفترون عن تسبيحك ولا يملون عن تقديسك(١).

والعجب من الشارح البحراني حيث قال في شرح هذه الفقرة: قد ثبت أنّ الملائكة السّماوية دائمة التّحريك لأجرامها حركة لا يتخللها سكون ولا يكلها ويفترها إعياء وتعب، ولبيان ذلك البراهين أصول ممهدة في مواضعها وأمّا بالقرآن فلقوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠] انتهى.

أقول: وهو تأويل من غير دليل مقبول مبتن على «أصول الفلاسفة» الجاعلين الملائكة بالنسبة إلى أجرام السّماء بمنزلة النفوس الناطقة بالنّسبة إلى أبدان البشر القائلين بكونها مدّبرة لأَمرها كما أن النّفوس مدبّرة للأَبدان، وهو مخالف للأُصول الشّرعية موجب لطرح ظواهر الأَدلة من الكتاب والسنّة، فالأَولى الإعراض عنه والرجوع إلى ما قاله المفسّرون في تفسير الآية الشريفة.

قال الطبرسي: أي ينزهون الله عن جميع ما لا يليق بصفاته على الدّوام في اللّيل والنهار لا يضعفون عنه، قال كعب: جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النّفس في السّهولة، وقيل: معنى لا يفترون لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلاً بفراغ أو بشغل آخر، وأورد عليه أنهم قد يشتغلون باللّعن كما قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١].

وأجيب بأن التّسبيح لهم كالتنفس لنا لا يمنعهم عن الاشتغال بشيء آخر.

واعترض بأن آلة التّنفس لنا مغايرة لآله التكلّم فلهذا صح اجتماع التنفس والتكلم،

---

(١) الصحيفة السجادية: ٣٣، وبحار الأنوار: ٥٦/ ٢١٧.

وأجيب بأنّه لا يستبعد أن يكون لهم ألسن كثيرة أو يكون المراد بعدم الفترة أنهم لا يتركون التسبيح في أوقاته اللاّئقة به.

(ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربّهم) أي لم يتنقص رغباتهم إلى ما عنده فيعدلوا عن الرّجاء إليه، وذلك لأنّ أشواقهم إلى كمالاتهم دائمة وعلمهم بعظمة خالقهم وبحاجتهم إليه وبأنّه مفيض الكمالات وواهب الخيرات لا يتطرق إليه نقص فلا ينقطع رجاؤهم عنه ولا ييأسون من فضله.

(ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم) أراد عليه السلام به عدم عروض الفتور والكلال عليهم في مناجاتهم كما يعرض علينا وتجفّ ألسنتنا بسبب طول المناجاة **(ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم)** أي ليست لهم أشغال خارجة عن العبادة حتّى تنقطع لأجلها أصواتهم بسبب خفاء تضرّعهم إليه، وبعبارة أخرى ليست لهم أشغال خارجة فتكون لأجلها أصواتهم المرتفعة خافية ساكنة.

(ولم يختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم) أي لم ينحرف مناكبهم أولم يتقدّم بعضهم على بعض في مقامات الطاعة وصفوف العبادة **(ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم)** يعني لم يصرفوا رقابهم من أجل تعب العبادات وكثرتها إلى الرّاحة الحاصلة بإقلال العبادة أو تركها بعد التّعب فيقصروا في أوامره، والمقصود نفي اتصافهم بالتعب والرّاحة لكونهما من عوارض الأجسام البشريّة وتوابع المزاج الحيواني.

(ولا تعدو على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات) المراد أنهم لا تغلب على عزيمتهم وجدّهم في العبادة بلادة ولا غفلة لكونهما من عوارض هذا البدن **(ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات)** أي لا ترمي الشهوات بسهام خدائعها هممهم، والمقصود نفي توارد وساوس الشّهوات الصارفة عن العبادة وتتابعها عنهم لبراءتهم من القوة الشهوية.

(قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم) ذو العرش هو الله سبحانه كما في غير واحدة من الآيات القرآنية، والمراد بيوم فاقتهم يوم حاجتهم وهو يوم قبض أرواحهم كما يظهر من بعض الأخبار.

قال المجلسي (ره): ولا يبعد أن يكون لهم نوع من الثّواب على طاعاتهم بازدياد القرب وافاضة المعارف وذكره سبحانه لهم وتعظيمه إيّاهم وغير ذلك، فيكون إشارة إلى يوم جزائهم **(ويمّموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم)** أي قصدوه بتضرّعهم إليه سبحانه عند انصراف الخلق وانقطاعهم منه إلى المخلوقين ويحتمل رجوع ضمير رغبتهم إلى الخلق وإليهم وإلى الملائكة على سبيل التنازع.

(لا يقطعون أمد غاية عبادته) أراد أنّه لا يمكنهم الوصول إلى منتهى نهاية عبادته الذي

هو عبارة عن كمال معرفته، وذلك لكون مراتب العرفان ودرجاته غير متناهية فلا يمكنهم قطعها **(ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته إلاّ إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته)** أي لا يرجعهم الولع بلزوم طاعته سبحانه إلاّ إلى موادّ ناشئة من قلوبهم غير منقطعة وهذه الموادّ هو رجاءه ومخافته الباعثان لهم على لزوم طاعته، والغرض إثبات دوام خوفهم ورجائهم الموجبين لعدم انفكاكهم عن الطاعة بل لزيادتها كما يشعر به لفظ الموادّ.

قال الشارح البحراني: لما كانوا غرقى في محبته عالمين بكمال عظمته وأن ما يرجونه من جوده أشرف المطالب وأربح المكاسب وما يخشى من انقطاع جوده ونزول حرمانه أعظم المهالك والمعاطب، لا جرم دام رجاؤهم له وخضوعهم في رق الحاجة إليه والفزع من حرمانه، وكان ذلك الخوف والرجاء هو مادّة استهتارهم بلزوم طاعته التي يرجعون إليها من قلوبهم فلم ينقطع استهتارهم بلزومها.

(لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدّهم) أي لم تنقطع أسباب الخوف منهم فيفتروا في الجدّ في العبادة وأسباب الخوف هي حاجتهم إليه سبحانه وافتقارهم إلى إفاضته وجوده، فإن الحاجة الضّرورية إلى الغير في مطلوب يستلزم الخوف منه في عدم قضائه ويوجب الإقبال على الاستعداد بجوده بلزوم طاعته والقيام بوظائف عبادته.

(ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السّعي على اجتهادهم) أي لم تجعلهم الأطماع أسراء وليسوا مأسورين في ربقة الطمع حتّى يختاروا السّعي القريب في تحصيل المطموع من الدّنيا الفانية على اجتهادهم الطويل في تحصيل السّعادة الباقية كما هو شأن البشر، وذلك لكون الملائكة منزهين عن الشهوات وما يلزمها من الأطماع الكاذبة.

(ولم يستعظموا ما مضى من ذلك) قد مرّ معناه في شرح قوله: **(ولم يتولهم الإعجاب)** (آه) وإنّما أعاد ذلك مع إغناء السّابق عنه وكفايته في الدلالة على نفي العجب للإشارة إلى دليله وهو قوله: **(ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم)** يعني أنّهم لو استعظموا سالف أعمالهم لأوجب ذلك اغترارهم وزيادة رجائهم لثواب أعمالهم فيبطل ذلك ويزيل مادات وجلهم وخوفهم، ألا ترى أن الإنسان إذا عمل لبعض الملوك عملاً يستعظمه فإنه يرى في نفسه استحقاق أجزل جزاء له ويجد التّطاول به فيهون ذلك ما يجده من خوفه؟ وكلّما ازداد استعظامه لخدمته ازداد اعتقاده في قربه من الملك قوّة وبمقدار ذلك ينقص خوفه وتقل هيبته في نظره، لكن الملائكة خائفون دائماً لقوله سبحانه:

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فينتج أنّهم لا يستعظمون سالف عباداتهم **(ولم يختلفوا في ربّهم باستحواذ الشيطان عليهم)** أي لم يختلفوا فيه من حيث الإثبات والنفي أو التعيين أو الصّفات كالتّجرد والتجسم وكيفية العلم وغير ذلك، وقيل: أي في استحقاق كمال العبادة، والمقصود نفي الاختلاف

عنهم باستيلاء الشيطان كما هو في الإنسان لأنّه:

﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

(ولم يفرقهم سوء التقاطع) والتعادي وترك البر والإحسان **(ولا تولاهم غلّ التحاسد)** الناشيء من النفس الأمارة بالحق والعدوان **(ولا شعبتهم مصارف الرّيب)** ووجوهات شكوك الأذهان **(ولا اقتسمتهم أخياف الهمم)** واختلافاتها لانحصار همّهم في طاعة الله الرّحيم الرّحمن **(فهم أسراء الإيمان لم يفكهم من ربقته زيغ)** وجور **(ولا عدول ولاونا)** ووهن **(ولا فتور)**.

ثمّ أشار عليه السلام إلى كثرة الملائكة بقوله: **(وليس في أطباق السموات موضع إهاب)** وجلد **(إلاّ وعليه ملك ساجد)** خاشع لربّه **(أو ساع)** مسرع **(حافد)** في طاعة معبوده **(يزدادون على طول الطاعة بربّهم علماً ويقيناً)** **(وتزداد عزة ربّهم في قلوبهم عظماً)** وكمالاً.

قال الشارح البحراني: اعلم أن للسماء ملائكة مباشرة لتحريكها، وملائكة أعلى رتبة من أولئك هم الآمرون لهم بالتحريك، فيشبه أن يكون الإشارة بالساجدين منهم إلى الآمرين، والسجود كناية عن كمال عبادتهم كناية بالمستعار، وتكون الإشارة بالساعين المسرعين إلى المتولّين للتحريك، فأمّا زيادتهم بطول طاعتهم علماً بربّهم فلما ثبت أن حركاتهم إنما هي شوقيّة للتشبّه بملائكة أعلى رتبة منهم في كمالهم بالمعارف الإلهية وظهور ما في ذواتهم بالقوة إلى الفعل، وزيادة عزة ربّهم عندهم عظماً بحسب زيادة معرفتهم له تابعة لها.

أقول: وقد مضى الإشارة منّا إلى أن هذا كلّه مبني على الأصول الحكمية وعدول عن طريق الشريعة النبويّة على صادعها آلاف الصّلاة والسّلام والتحيّة وقدّمنا الأخبار المناسبة للمقام في شرح الفصل التّاسع من الخطبة الأولى فتذكّر وينبغي تذييل المقام بأمرين مهمّين:

أحدهما في عصمة الملائكة

وهو مذهب أصحابنا الإماميّة رضوان الله عليهم وعليه دلت الآيات القرآنية والأخبار الكثيرة من طرقنا، ولنقتصر على رواية واحدة، وهي:

ما رواه في «الصّافي» قال: قال الرّاوي: قلت لأبي محمّد عليه السلام: فإنّ قوماً عندنا يزعمون أن هاروت وماروت ملكان اختارتهما الملائكة لما كثر عصيان بني آدم، وأنزلهما الله مع ثالث لهما إلى الدّنيا، وأنهم افتتنا بالزهرة وأرادا الزنا وشربا الخمر وقتلا النفس المحرّمة؛ وأن الله يعذّبهما ببابل، وأن السحرة منهما يتعلّمون السّحر وأن الله مسخ تلك المرأة هذا الكوكب الذي هو الزهرة.

فقال الإمام عليه السلام: معاذ الله من ذلك إن ملائكة الله معصومون محفوظون من الكفر

والقبائح بألطاف الله تعالى[(١)] قال الله فيهم:

﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٩] يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقال في الملائكة أيضاً: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧] إلى قوله: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

ومثله في «البحار» عن يوسف بن محمّد بن زياد وعليّ بن محمّد بن سيّار عن أبويهما أنهما قالا: فقلنا للحسن أبي القائم عليهما السلام: فإن قوماً إلى آخر الخبر، ورواه أيضاً في «الاحتجاج» عن أبي محمّد العسكري عليه السلام مثله.

نعم في بعض الرّوايات ما يدلّ على خلاف ذلك، وهو ما رواه عليّ بن إبراهيم القمّي (ره) عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن عليّ بن رئاب عن محمّد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: سأله عطا ونحن بمكّة عن هاروت وماروت، فقال عليه السلام: إن الملائكة كانوا ينزلون من السّماء إلى الأرض في كلّ يوم وليلة يحفظون أعمال أوساط أهل الأرض من ولد آدم عليه السلام والجنّ ويسطرونها ويعرجون بها إلى السّماء قال: فضجّ أهل السّماء من معاصي أوساط أهل الأرض فتوامروا فيما بينهم ممّا يسمعون ويرون من افترائهم الكذب على الله تبارك وجرأتهم عليه ونزهوا الله تعالى ممّا يقول فيه خلقه ويصفون، فقالت طائفة من الملائكة: يا ربّنا ما تغضب مما يعمل خلقك في أرضك وممّا يصفون فيك الكذب ويقولون الزّور ويرتكبون المعاصي، وقد نهيتهم عنها، ثمّ أنت تحلم عنهم وهم في قبضتك وقدرتك وخلال عافيتك، قال عليه السلام: فأحب الله عزّ وجلّ أن يري الملائكة سابق علمه في جميع خلقه ويعرفهم ما من به عليهم ممّا عدل به عنهم من صنع خلقه وما طبعهم عليه من الطاعة وعصمهم به من الذّنوب.

قال عليه السلام: فأوحى الله إلى الملائكة أن انتدبوا منكم ملكين حتّى أهبطهما إلى الأرض ثمّ أجعل فيهما من طبائع المطعم والمشرب والشّهوة والحرص والأمل مثل ما جعلته في ولد آدم، ثمّ أختبرهما في الطّاعة، قال عليه السلام: فندبوا لذلك هاروت وماروت وكانا أشدّ الملائكة قولاً في العيب لولد آدم واستيثار غضب الله عليهم.

قال عليه السلام: فأوحى الله إليهما أن اهبطا إلى الأرض فقد جعلت فيكما من طبائع المطعم والمشرب والشّهوة والحرص والأمل مثل ما جعلت في ولد آدم قال عليه السلام ثمّ أوحى الله إليهما: انظرا أن لا تشركا بي شيئاً ولا تقتلا النّفس التي حرّم الله ولا تزنيا ولا تشربا الخمر.

(١) الاحتجاج: ٢/ ٢٦٥، والفصول المهمة: ١/ ٤٤٣ ح ٦٢٠.

قال عليه السلام: ثمّ كشط عن السّماوات السّبع ليريهما قدرته، ثم أُهبطا إلى الأَرض في صورة البشر ولباسهم، فهبطا ناحية بابل فرفع لهما بناء مشرف فأقبلا نحوه فإذا بحضرته امرأة جميلة حسناء مزينة معطرة مسفرة مقبلة.

قال عليه السلام فلمّا نظرا إليها وناطقاها وتأملاها وقعت في قلوبهما موقعاً شديداً لموضع الشّهوة التي جعلت فيهما، فرجعا إليها رجوع فتنة وخذلان وراوداها عن نفسها، فقالت لهما: إن لي ديناً أدين به وليس أقدر في ديني على أن أجيبكما إلى ما تريدان إلاّ أن تدخلا في ديني الذي أدين به، فقالا لها: وما دينك؟ قالت: لي إله من عبده وسجد له كان لي السبيل إلى أن أجيبه إلى كلّ ما سألني، فقالا لها: وما إلهك؟ قالت: إلهي هذا الصّنم.

قال عليه السلام: فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال: هاتان خصلتان مما نهانا عنها الشّرك والزّنا، لأنّا إن سجدنا لهذا الصّنم وعبدناه أشركنا بالله وإنّما نشرك بالله لنصل إلى الزّنا وهو ذا نحن نطلب الزّنا فليس نعطى إلاّ بالشّرك.

فقال عليه السلام: فائتمرا بينهما فغلبتهما الشّهوة التي جعلت فيهما، فقالا لها: نجيبك إلى ما سألت، فقالت: فدونكما فاشربا هذا الخمر فإنّه قربان لكما وبه تصلان إلى ما تريدان، فائتمرا بينهما فقالا: هذه ثلاث خصال ممّا نهانا ربّنا عنها: الشرك والزّنا، وشرب الخمر، وإنّما ندخل في شرب الخمر والشّرك حتّى نصل إلى الزّنا، فائتمرا بينهما فقالا: ما أعظم البليّة بك قد أجبناك إلى ما سألت، قالت: فدونكما فاشربا من هذا الخمر، واعبدا هذا الصّنم، واسجدا له، فشربا الخمر وعبدا الصّنم ثمّ راوداها عن نفسها.

فلمّا تهيّأت لهما وتهيأ، لها دخل عليها سائل يسأل هذه، فلمّا رآهما ورأياه ذعرا منه، فقال لهما: إنكما لامرآن ذعران، فدخلتما بهذه المرأة المعطرة الحسناء إنكما لرجلا سوء، وخرج عنهما، فقالت لهما: وإلهي ما تصلان الآن إليّ وقد اطلع هذا الرجل على حالكما وعرف مكانكما، ويخرج الآن ويخبر بخبركما ولكن بادرا إلى هذا الرجل فاقتلاه قبل أن يفضحكما ويفضحني ثم دونكما فاقضيا حاجتكما وأنتما مطمئنان آمنان.

قال عليه السلام: فقاما إلى الرّجل فأدركاه فقتلاه ثم رجعا إليها فلم يرياها وبدت لهما سوآتهما ونزع عنهما رياشهما وأُسقطا في أيديهما، فأوحى الله إليهما أن أهبطتكما إلى الأَرض مع خلقي ساعة من النّهار فعصيتماني بأربع من معاصي كلّها قد نهيتكما عنها وتقدّمت إليكما فيها فلم تراقباني ولم تستحييا مني، وقد كنتما أشدّ من نقم على أهل الأَرض بالمعاصي واستجر أسفي وغضبي عليهم لما جعلت فيكما من طبع خلقي وعصمتي إيّاكما من المعاصي فكيف رأيتما موضع خذلاني فيكما.

اختارا عذاب الدّنيا أو عذاب الآخرة، فقال أحدهما لصاحبه، نتمتع من شهواتنا في

الدّنيا إذ صرنا إليها إلى أن نصير إلى عذاب الآخرة، فقال الآخر: إنّ عذاب الدّنيا له مدّة وانقطاع وعذاب الآخرة قائم لا انقطاع له فلسنا نختار عذاب الآخرة الشديد الدّائم على عذاب الدّنيا المنقطع الفاني.

قال عليه السلام: فاختارا عذاب الدّنيا فكانا يعلمان النّاس السّحر في أرض بابل ثمّ لما علّما النّاس السّحر رفعا من الأرض إلى الهواء، فهما معذّبان منكسان معلّقان في الهواء إلى يوم القيامة[1]، ورواه في «البحار» عن العيّاشي عن محمّد بن قيس مثله، وبمعناه أخبار أخرى، ويمكن حملها على التقيّة، ويشعر به كون السائل في هذه الرّواية من علماء العامة.

وما رواه في «البحار» عن «العلل» عن الصّادق عليه السلام في حديث قال: وأمّا الزّهرة فانّها كانت امرأة تسمى ناهيد[2] وهي الّتي تقول للناس: إنّه افتتن بها هاروت وماروت[3]، فإن في نسبة افتتانهما إلى النّاس إشارة إلى ما ذكرناه كما لا يخفى.

وقال بعض أهل العرفان بعد ما أورد الرّوايات الدّالة على تكذيب أمر هاروت وماروت والرّوايات الدّالة على صحّة قصّتهما:

والوجه في الجمع والتوفيق أن يحمل روايات الصّحة على كونها من مرموزات الأوائل وإشاراتهم، وأنّهم عليهم السلام لمّا رأوا أن حكاتها كانوا يحملونها على ظاهرها كذّبوها ثمّ قال: وأمّا حلّها فلعلّ المراد بالملكين الرّوح والعقل فإنّهما من العالم الرّوحاني أُهبطا إلى العالم الجسماني لإقامة الحق فافتتنا بزهرة الحياة الدّنيا، ووقعا في شبكة الشهوة، فشربا خمر الغفلة، وعبدا صنم الهوى، وقتلا عقلهما النّاصح لهما بمنع تغذيته بالعلم والتقوى، ومحو أثر نصحه عن أنفسهما، وتهيّئا للزّنا ببغي الدّنيا الدّنيّة التي تلي تربية النشاط والطرب فيها الكوكب المسمّى بالزّهرة، فهربت الدّنيا منهما وفاتتهما لما كان من عادتهما أن تهرب من طالبيها لأنّها متاع الغرور وبقي إشراق حسنها في موضع مرتفع بحيث لا تنالها أيدي طلابها ما دامت الزّهرة باقية في السّماء وحملهما حبّها في قلبهما إلى أن وضعها طرائق من السّحر وهو ما لطف مأخذه ودقّ، فخيّرا للتخلص منها فاختارا بعد التنبّه وعود العقل إليهما أهون العذابين، ثمّ رفعا إلى البرزخ معذبين ورأسهما بعد إلى أسفل إلى يوم القيامة.

هذا ما خطر بالبال في حلّ هذا الرّمز والله الهادي.

---

(١) بحار الأنوار: ٣١٨/٥٦، ومسند محمد بن قيس: ١٤٤.

(٢) في نسخة: ناهيل.

(٣) علل الشرائع: ٤٨٦/٢ ح ٢، ووسائل الشيعة: ١١١/٢٤.

الثاني

اختلف المسلمون في أن الأنبياء والملائكة أيهم أفضل أي أكثر ثواباً؟ فذهب أكثر الأشاعرة إلى أنّ الأنبياء أفضل، وقال المعتزلة كما في شرح المعتزلي: إن نوع الملائكة أفضل من نوع البشر، والملائكة المقرّبون أفضل من نوع الأنبياء وليس كلّ ملك عند الإطلاق أفضل من محمّد ﷺ، بل بعض المقرّبين أفضل منه، وهو ﷺ أفضل من ملائكة أخرى غير الأوّلين.

ولا خلاف بين علماء الإماميّة قدّس الله أرواحهم في أن الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم أفضل من جميع الملائكة، وأخبارهم على ذلك مستفيضة، وقد حققوا ذلك في كتب «الأصول» ولا حاجة لنا الآن إلى بسط الكلام في ذلك المقام، وإنّما نقتصر على رواية واحدة توضيحاً للمرام.

وهو ما رواه الصّدوق في كتاب إكمال الدّين وإتمام النّعمة قال: حدّثنا الحسن بن محمّد بن سعيد الهاشمي، قال: حدثنا فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي قال: حدّثنا محمّد بن عليّ بن أحمد الهمداني، قال: حدثني أبو الفضيل العبّاس بن عبد الله البخاري، قال: حدثنا محمّد بن القاسم بن إبراهيم بن عبد الله بن القاسم بن محمّد بن أبي بكر، قال: حدّثنا عبد السّلام بن صالح الهروي عن عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليهم السلام.

قال: قال رسول الله ﷺ: ما خلق الله خلقاً أفضل منّي ولا أكرم عليه منّي قال عليّ عليه السلام: فقلت: يا رسول الله فأنت أفضل أم جبرئيل؟ فقال: إنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين وفضّلني على جميع النّبيّين والمرسلين والفضل بعدي لك يا عليّ والأئمة من بعدك، فإنّ الملائكة لخدّامنا وخدّام محبّينا يا علي.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

بولايتنا، يا عليّ لولا نحن ما خلق الله آدم عليه السلام ولا حوّاء ولا الجنّة ولا النّار ولا السّماء ولا الأرض، وكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى التّوحيد ومعرفة ربّنا عزّ وجلّ وتسبيحه وتقديسه وتهليله، لأنّ أوّل ما خلق الله عزّ وجل أرواحنا، فأنطقنا بتوحيده وتمجيده ثمّ خلق الملائكة فلمّا شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمورنا فسبّحنا لتعلم الملائكة أنّا خلق مخلوقون وأنّه منزّه عن صفاتنا فسبّحت الملائكة لتسبيحنا ونزهته عن صفاتنا.

فلمّا شاهدوا أعظم شأننا هللنا لتعلم الملائكة أن لا إله إلاّ الله فلمّا شاهدوا كبر محلّنا

كبّرنا الله لتعلم الملائكة أنّ الله أكبر من أن تنال وأنّه عظيم المحلّ فلمّا شاهدوا ما جعل الله لنا من القدرة والقوّة قلنا: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، لتعلم الملائكة أن لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

فلمّا شاهدوا ما أنعم الله به علينا وأوجبه من فرض الطاعة قلنا: الحمد لله، لتعلم الملائكة ما يحق الله تعالى ذكره علينا من الحمد على نعمه فقالت الملائكة الحمد لله فبنا اهتدوا إلى معرفة الله وتسبيحه وتهليله وتحميده، ثمّ إن الله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام وأودعنا صلبه وأمر الملائكة بالسّجود له تعظيماً لنا وإكراماً، وكان سجودهم لله عزّ وجل عبودية ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم عليه السلام كلّهم أجمعون.

وأنّه لما عرج بي إلى السّماء أذن جبرئيل عليه السلام مثنى مثنى ثمّ قال: تقدّم يا محمّد، فقلت: يا جبرئيل أتقدّم عليك؟ فقال: نعم لأنّ الله تبارك وتعالى اسمه فضل أنبياءه على ملائكته أجمعين وفضلك خاصّة، فتقدّمت وصلّيت بهم ولا فخر فلمّا انتهينا إلى حجب النّور قال لي جبرئيل عليه السلام: تقدّم يا محمّد وتخلّف عني، فقلت: يا جبرئيل في مثل هذا الموضع تفارقني؟ فقال: يا محمّد إنّ هذا انتهاء حدي الذي وضعه الله لي في هذا المكان فإن تجاوزته احترقت أجنحتي لتعدي حدود ربّي جلّ جلاله، فزجّ بي ربّي زجّة في النّور حتّى انتهيت إلى حيث ما شاء الله عزّ وجلّ من ملكوته.

فنوديت: يا محمّد، فقلت: لبّيك ربّي وسعديك تباركت وتعاليت؛ فنوديت يا محمّد أنت عبدي وأنا ربّك فإيّاي فاعبد وعليّ فتوكّل فإنّك نوري في عبادي ورسولي إلى خلقي وحجّتي في بريّتي، لمن تبعك خلقت جنّتي ولمن عصاك وخالفك خلقت ناري، ولأوصيائك أوجبت كرامتي، ولشيعتك أوجبت ثوابي.

فقلت: يا رب ومن أوصيائي؟ فنوديت: يا محمّد إنّ أوصياءك المكتوبون على ساق العرش، فنظرت وأنا بين يدي ربّي إلى ساق العرش فرأيت اثنا عشر نوراً في كلّ نور سطر أخضر مكتوب عليه اسم كلّ وصيّ من أوصيائي أوّلهم عليّ بن أبي طالب وآخرهم مهديّ أمّتي.

فقلت: يا ربّ هؤلاء أوصيائي من بعدي؟ فنوديت: يا محمّد هؤلاء أوليائي وأحبّائي وأصفيائي حجّتي بعدك على بريّتي، وهم أوصياؤك وخلفاؤك وخير خلقي بعدك، وعزّتي وجلالي لأظهرنّ بهم ديني، ولأعلينّ بهم كلمتي ولأطهرنّ الأرض بآخرهم من أعدائي، ولأملكنّه مشارق الأرض ومغاربها، ولأسخرنّ له الرّياح ولأذللنّ الرّقاب الصّعار، ولأرقبه في الأسباب، ولأنصرنّه بجندي، ولأمدّنه بملائكتي حتّى يعلو دعوتي ويجمع الخلق على توحيدي، ثمّ لأديمنّ ملكه ولأداولنّ الأيام بين أوليائي إلى يوم القيامة(١).

والحمد لله رب العالمين والصّلاة على نبيّنا محمّد وآله الطّيبين الطاهرين وسلم تسليماً وإنّما ذكرت الرّواية بطولها مع كون ذيلها خارجاً عن الغرض لتضمّنه مناقب أهل البيت الأَطهار، وكونه نصّاً في خلافة الأئمة الأبرار ولعاً مني بإيراد فضائلهم ومناقبهم ما تعاقب على اللّيل والنّهار، سلام الله عليهم أجمعين، ولعنة الله على أعدائهم ومنكري فضائلهم إلى يوم الدّين.

الترجمة

بعضى ديگر از اين خطبه شريفه در صفت ملائكه است، مى فرمايد:

بعد از خلق آسمان بيافريد حق سبحانه و تعالى از براى ساكن فرمودن در آسمان هاى خود و معمور ساختن صفحه پهن بلند از ملكوت خود خلقى عجيب از ملائكه خود، پس پر ساخت به ايشان فرج هاى گشادگى هاى آسمان را و مملو نمود به ايشان گشادگى هاى فضاهاى آن را و ميان وسعت هاى اين گشادگى ها است صوت هاى بلند تسبيح كنندگان از ايشان در حرم هاى قدس و طهارت و پرده هاى حجاب هاى عظمت و سراپرده هاى بزرگى و عزّت و در پس اين زلزله و اضطرابى كه كر مى شود از آن گوش ها، اشراقات نورى است كه بازمى دارد ديده ها را از رسيدن به آن، پس مى ايستد آن ديده ها ذليل و متحيّر بر حدود آن.

آفريد خداوند متعال آن ملائكه را بر صورت هاى مختلفه و اندازه هاى متفاوته در حالتى كه صاحبان بال ها هستند كه تسبيح مى كنند بزرگى عزّت او را، در حالتيكه به خود نمى بندند آنچه كه ظاهر شده در مخلوقات از صنع قدر او و ادّعا نمى كنند اين كه ايشان مى آفرينند چيزى را با آفريدگار از آن چيزى كه يگانه است او سبحانه به آفريدن آن، بلكه ايشان بندگانى هستند گرامى داشته شده در حالتى كه پيشى نمى گيرند به خدا در گفتار خودشان و ايشان به فرمان او سبحانه عمل مى نمايند.

(١) الصراط المستقيم: ٢/ ١٢٥، ومستدرك سفينة البحار: ٧/ ١٥٠.

گردانید حق تعالی ایشان را در آنجا که هستند، یعنی در مقامات خودشان که حظایر قدس است اهل امانت بر وحی خود و تحمیل نمود ایشان را در حالتی که ارسال می شوند به سوی پیغمبران امانت های اوامر و نواهی خود را و معصوم ساخت ایشان را از شك كردن در شبهه ها، پس نیست از ایشان میل کننده از راه رضای او و مدد نمود ایشان را به فایده های اعانت به سوی طاعات و لازم فرمود قلب های ایشان را تواضع، خضوع و وقار را و گشود به جهت ایشان درهای سهل و آسان به سوی تمجیدات خود و برپا نمود از برای ایشان منارهای آشکار بر نشان های توحید خود.

گران نکرد ایشان را گران سازنده های گناه ها و ضعیف ننمود ایشان را تعاقب و تناوب شب ها و روزها و نینداخت شك ها به محرّكات فاسده خود محکمی ایمان ایشان را و عارض نشد ظنّ ها و وهم ها بر مواضع عقد یقین ایشان و برنیفروخت برافروزندگی های حقد و حسد در میان ایشان و سلب نکرد از ایشان حیرت چیزی را که چسبیده از معرفت او و به قلب ایشان و ساکن شده از عظمت و هیبت او در میان سینه های ایشان و طمع ننموده در ایشان وسوسه ها تا اینکه بکوبد با استیلای خود یا اینکه تناوب نماید با چرك خود به فکرهای ایشان.

بعضی از ایشان آنانند که قرار گرفته در ابرهای مخلوق شده گران بار به باران و در کوه های بزرگ بلند و در سیاهی تاریکی که هدایت یافته نمی شود در آن و بعضی دیگر آنانند که دریده است قدم های ایشان حدود زمین پائین را، پس آن قدم ها به منزله علم های سفیدند که فرو رفته باشند در مواضع خرق هوا و شکاف آن و در زیر آن علم ها است بادی که ساکن است و پاکیزه که بازداشته است آن علم ها را بر مکانی که منتهی شده آن علم ها از حدود به نهایت رسیده.

به تحقیق که فارغ نموده ایشان را از ماسوا شغل های عبادت او سبحانه و وصل نموده است حقیقت های ایمان میان ایشان و میان معرفت آن را و بریده است ایشان را یقین و اذعان به خدا از غیر آن و مایل ساخته ایشان را به سوی حیرانی او و درنگذشته است رغبت های ایشان از آن چیزی که نزد او است به سوی آن چیزی که نزد غیر او است.

به تحقیق که چشیده اند شیرینی معرفت او را و آشامیده اند با کاسه سیراب

كننده از شراب محبّت او و متمكّن و برقرار شده از ته دل هاى ايشان رگ هاى خوف و خشيت او، پس خم كرده اند به درازى عبادت راستى پشت هاى خودشان را و تمام نكرده درازى رغبت به سوى او، مادّه تضرع ايشان را و رها نكرده از گردن هاى ايشان بزرگى قرب و منزلت به حضرت ربّ العزّه ريسمان خشوع و ذلت را و غالب نشده بر ايشان عجب و خودپسندى تا اينكه بسيار شمارند آنچه كه پيش گذشته از ايشان از طاعات و عبادات و نگذاشته از براى ايشان خوارى كه ناشى شده از ملاحظه جلال پرودگار نصيب و بهره در تعظيم و بزرگ دانستن حسنات خودشان و جارى نشده سستى ها در ايشان با درازى جدّ و جهد ايشان.

و ناقص نگشته رغبت هاى ايشان تا مخالفت كنند و عدول نمايند از اميدوارى پرودگار خودشان و خشك نگشته به جهت طول راز و نياز اطراف زبان هاى ايشان و مالك نشده است ايشان را شغل هاى خارج از عبادت تا اينكه منقطع شود به سبب پنهانى تضرّع ايشان به سوى او و آوازهاى بلند ايشان و مختلف نشده در صف هاى عبادت دوش هاى ايشان و ملتفت نساخته اند به سوى راحتى كه باعث تقصير در امر او است گردن هاى خودشان را و غالب نمى شود بر عزم جدّ و جهد ايشان بى خردى غفلت ها و تير نمى اندازند در همّت هاى ايشان فريب دهنده گان شهوت ها.

به تحقيق كه اخذ نموده اند صاحب عرش را ذخيره به جهت روز حاجتشان و قصد كرده اند او را نزد بريده شدن خلق به سوى مخلوقات به رغبتشان، قطع نمى توانند كنند پايان غايت عبادت او را و بازنمى گرداند ايشان را حرص و محبّت به لزوم طاعت او مگر به سوى مادّه هايى كه بريده نمى شوند آن مادّه ها كه از دل ايشان است كه عبارت اند از خوف و رجاء آن، بريده نشده اسباب ترس از ايشان تا سست شوند در جدّ و جهد خودشان.

و اسير ننموده ايشان را طمع هاى دنيوى تا اينكه اختيار نمايند سعى نزديك در تحصيل دنيا را بر كوشش خودشان در تحصيل سعادت آخرت و بزرگ نمى شمارند آنچه كه گذشته از اعمال ايشان و اگر بزرگ شمارند اعمال خودشان هرآينه باطل و زايل مى نمايد رجاء و اميدوارى ايشان ترس هاى ايشان را و اختلاف نمى نمايند در ذات و صفات پروردگار به سبب غلبه شيطان بر ايشان و پراكنده نساخته ايشان را بدى بريدن از يكديگر و مالك نشده ايشان را خيانت حسد بردن به يكديگر و

متفرّق نساخته ایشان را مواضع صرف شك و گمان و منقسم نگردانیده ایشان را اختلاف های همّت ها.

پس ایشان اسیران ایمانند که رها ننموده ایشان را از بند ایمان میل نمودن از حق و نه عدول کردن از منهج صدق و نه سستی در عبادت و نه کاهلی در طاعت و نیست در طبق های آسمان جای پوستی مگر که بر او است ملك سجده کننده یا سعی نماینده شتابنده که زیاده می گردانند بر درازی طاعت به پروردگار خودشان علم و یقین را و افزون می گرداند عزّت کردگار ایشان در دل های ایشان عظم و شأن را.

هذا آخر الجزء السادس من هذه الطبعة النفيسة وقد تم تصحيحه وتهذيبه بيد العبد «السيد إبراهيم الميانجي» عفى عنه وعن والديه في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة الحرام سنة ۱۳۷۹ ويليه إن شاء الله الجزء السابع وأوله: «الفصل السادس» من المختار التسعين والحمد لله أولاً وآخراً

محتوى الجزء السادس من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

طبع على مطابع

دار إحياء التراث العربي

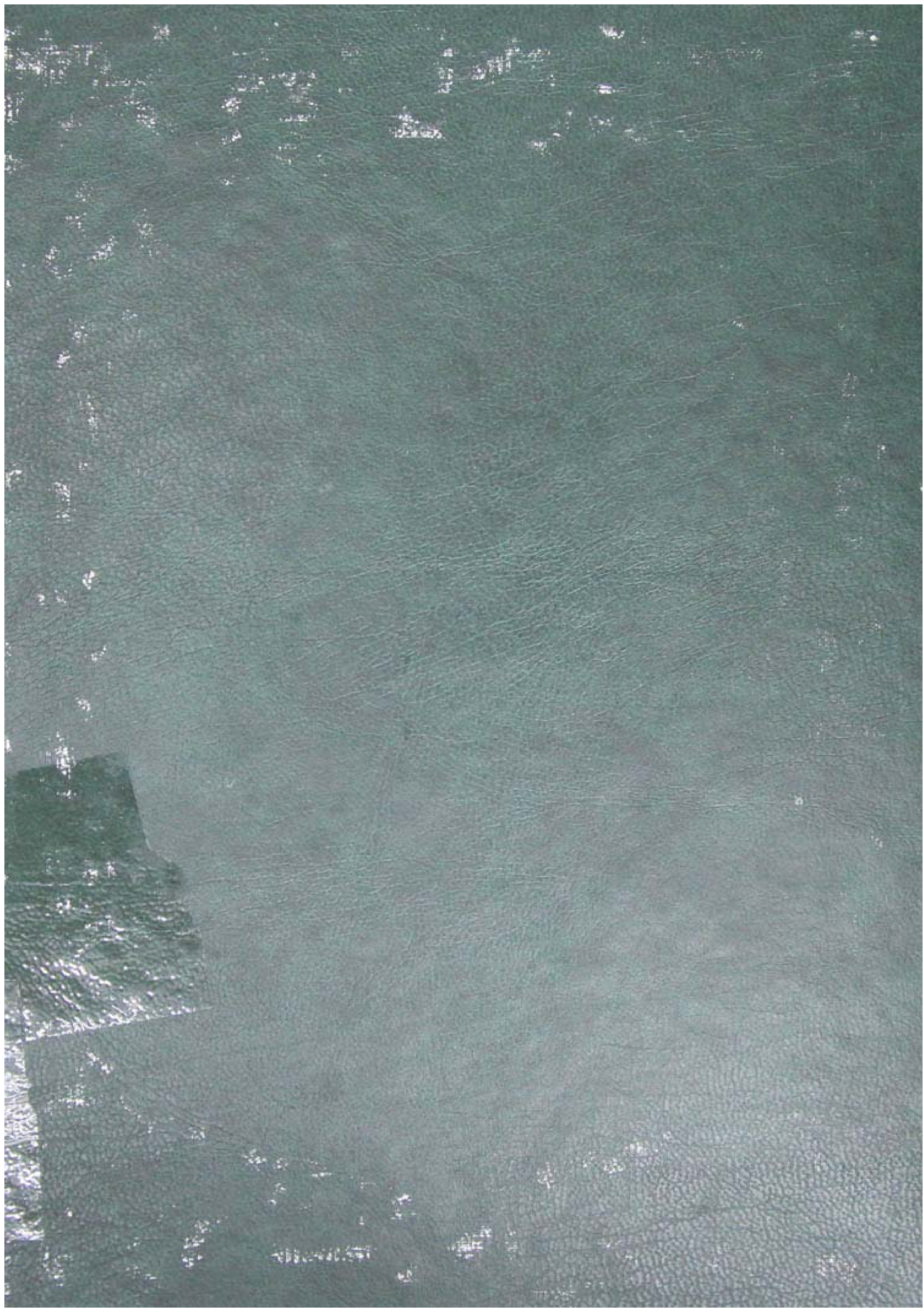

منهاج البراعة

شرح

نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

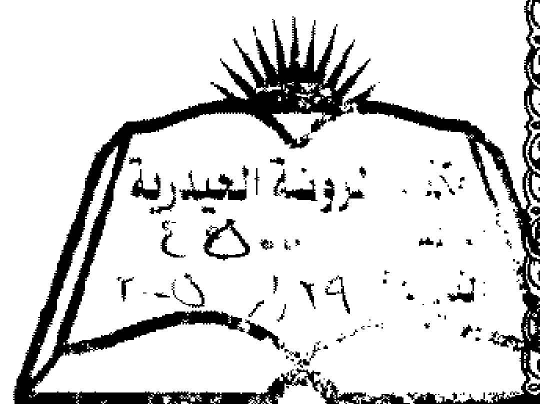

المجلد السابع

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل السادس

منها في صفة الأرض ودحوها على الماء.

«كَبَسَ الأَرْضَ عَلى مَوْرِ أَمْواجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، ولُجَجِ بِحارٍ زاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَواذِيُّ أَمْواجِها، وتَصْطَفِقُ مُتَقاذِفاتُ أَثْباجِها، وترغو زَبَداً كَالفُحُولِ عِنْدَ هياجِها، فَخَضَعَ جِماحُ الماءِ المُتَلاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِها، وسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِها، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَواهِلِها، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخابِ أَمْواجِه ساجِياً مَقْهُوراً، وفي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقاداً أَسيراً، وسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً في لُجَّةِ تَيّارِه، ورَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَاعْتِلائِه، وشُمُوخِ أَنْفِه، وسُمُوِّ غُلَوائِه وكَعَمَتْهُ على كِظَّةِ جَرْيَتِه، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقاتِه، ولَبَدَ بَعْدَ زَيَفانِ وَثَباتِه، فَلَمّا سَكَنَ هَيْجُ السماءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنافِها، وحَمَلَ شَواهِقَ الْجِبالِ الْبُذَّخِ عَلى أَكْتافِها، فَجَّرَ يَنابيعَ العُيُونِ مِنْ عَرانينِ أُنُوفِها، وفَرَّقَها في سُهُوبِ بيدِها وأَخاديدِها، وعَدَّلَ حَرَكاتِها بِالرّاسِياتِ مِنْ جَلاميدِها، وذَواتِ الشَّناخيبِ الشُّمِّ مِن صَياخيدِها، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيدانِ بِرُسُوبِ الْجِبالِ في قِطَعِ أَديمِها وتَغَلْغُلِها، مُتَسَرِّبَةً في جَوْباتِ خَياشيمِها ورُكُوبِها أَعْناقَ سُهُولِ الأَرَضينَ وجَراثيمِها، وفَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ وبَيْنَها، وأَعَدَّ الْهَواءَ مُتَنَسَّماً لِساكِنِها، وأَخْرَجَ إِلَيْها أَهْلَها على تَمامِ مَرافِقِها، ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الأَرْضِ الَّتي تَقْصُرُ مِياهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوابيها، ولا تَجِدُ جَداوِلُ الأَنْهارِ ذَريعَةً إِلى بُلُوغِها، حَتّى أَنْشَأَ لَها ناشِئَةَ سَحابٍ تُحْيي مَواتَها، وتَسْتَخْرِجُ نَباتَها، أَلَّفَ غَمامَها بَعْدَ افْتِراقِ لُمَعِه، وتَبايُنِ قُزَعِه، حَتّى إِذا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فيه، وَالْتَمَعَ بَرْقُهُ في كُفَفِه، ولَمْ يَنَمْ وميضُهُ في كَنَهْوَرِ رَبابِه، ومُتَراكِمِ سَحابِه، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدارِكاً قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ، تَمْريهِ الْجَنُوبُ دِرَرَ أَهاضيبِه، ودُفَعَ شَآبيبِه، فَلَمّا أَلْقَتِ السَّحابُ بَرْكَ بَوانيها، وبَعاعَ ما اسْتَقَلَّتْ بِه مِنَ الْعِبْءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْها، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوامِدِ الأَرْضِ النَّباتَ، ومِنْ زُعْرِ الجِبالِ الأَعْشابَ فَهِيَ تَبْهَجُ بِزينَةِ رِياضِها، وتَزْدَهي بِما أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزاهيرِها، وحِلْيَةِ ما سُمِطَتْ بِه مِنْ ناضِرِ أَنْوارِها، وجَعَلَ ذلِكَ بَلاغاً لِلأَنامِ، ورِزْقاً للأَنْعامِ، وخَرَقَ الْفِجاجَ في آفاقِها، وأَقامَ الْمَنارَ لِلسّالِكينَ في جَوادِّ طُرُقِها»[1].

(١) بحار الأنوار: ٥٤/١١٢، وشرح نهج البلاغة: ٦/٤٣٨.

اللغة

(**دحا**) الله الأرض يدحوها دحواً بسطها ودحياً لغة، و (**كبس**) الرجل رأسه في قميصه إذا أدخله فيه، وكبس البئر والنهر إذ طمّها بالتراب، وفي «**شرح المعتزلي**» كبس الأرض أي أدخلها الماء بقوة واعتماد شديد، و (**استفحل**) الأمر تفاقم واشتدّ و (**اللجج**) جمع اللّجة وهي معظم الماء قال سبحانه:

﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠].

و (**الاواذى**) جمع الآذى بالمد والتشديد وهو الموج الشديد، و (**الصفق**) الضرب يسمع له صوت والصرف والرّد، و (**الثبج**) بتقديم الثاء المثلثة على الباء الموحدة معظم البحر والجمع أثباج كسبب وأسباب، وفي «**شرح المعتزلي**» أصل الثبج ما بين الكاهل إلى الظهر، والمراد أعالي الأمواج و (**ترغو زبداً**) من الرغا وهو صوت الإبل، وقيل: من الرّغوة مثلثة وهي الزّبد يعلو الشيء عند غليانه يقال: رغا اللّبن أي صارت له رغوة ففيه تجريد، و (**جماح**) الماء غليانه من جمح الفرس إذا غلب فارسه ولم يملكه، و (**هيج**) الماء ثورانه وفورته و (**الارتماء**) الترامي والتقاذف، وأصل (**الوطى**) **الدوس بالقدم، و** (**الكلكل**) بالتخفيف الصدر قال امرء القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وربما جاء في ضرورة الشّعر بتشديد اللام الثانية، و (**ذّل**) أي صار ذليلاً أو ذلولاً ضد الصّعب، وفي بعض النسخ كلّ أي عرض له الكلال من كل السّيف إذا لم يقطع، و (**المستخذى**) بغير همز كما في النسخ الخاضع والمنقاد، وقد يهمز على الأصل و (**تمعكت**) الدابة تمرغت في التراب، و (**الكاهل**) ما بين الكتفين، و (**الاصطخاب**) افتعال من الصخب وهو كثرة الصّياح واضطراب الأصوات، و (**الحكمة**) محركة وزن قصبة حديدة في اللّجام تكون على حنك الفرس تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماح ونحوه مأخوذة من الحكم وهو المنع يقال: حكمت عليه بكذا إذا منعته من خلافه فلم يقدر على الخروج منه.

و (**التيار**) الموج، وقيل أعظم الموج، ولجّته أعمقه، و (**النخوة**) الافتخار والتعظم والأنفة والحمية و (**البأو**) الكبر والفخر، يقال بأي كسعي وكدعا قليل بأواً وبأواء فخر وتكبّر ونفسه رفعها وفخر بها، و (**شمخ**) الجبل شموخاً علا وطال والرجل بأنفه تكبر، و (**الغلواء**) بضم الغين المعجمة وفتح اللام، وقد تسكن الغلو وأوّل الشّباب وسرعته ومثله الغلوان بالضم، و (**كعمت**) البعير من باب منع شددت فاه بالكعام وهو على وزن كتاب شيء يجعل في فيه إذا هاج لئلا يعض أو يأكل.

و (**الكظة**) شيء يعترى الممتلى من الطعام يقول: كظه الطعام ملأه حتى لا يطيق التنفس، واكتظ المسيل بالماء ضاق به لكثرته أو هو من الكظاظ، وزن كتاب وهو الشدة

والتّعب وطول الملازمة، و (**الجرية**) بكسر الجيم مصدر جرى الماء أو حالة الجريان، و (**همدت**) الريح سكنت وهمود النار خمودها، و (**نزق**) الفرس من باب نصر وضرب وسمع نزقاً ونزوقاً نزى ووثب والنزقات دفعاته.

و (**لبد**) بالأرض من باب نصر لبوداً لزمها وأقام بها، ومنها اللبد وزن صرد وكتف لمن لا يبرح منزله ولا يطلب معاشاً، و (**زاف**) البعير يزيف زيفاً وزيفاناً تبختر في مشيته، وفي بعض النسخ بعد زفيان وثباته بتقديم الفاء على الياء وهوشدة هبوب الريح يقال: زفت الريح السحاب إذا طردته، و (**الوثبة**) الطفرة، و (**الاكناف**) بالنون جمع الكنف محركة كالأسباب والسبب وهو الجانب والناحية، و (**شواهق**) الجبال عواليها، و (**البذخ**) جمع الباذخ وهو العالي، و (**الينبوع**) ما انفجر من الأرض من الماء وقيل الجدول الكثير الماء، و (**عرنين الأنف**) أوّله تحت مجتمع الحاجبين و (**السّهب**) الفلاة البعيدة الأكناف والأطراف و (**البيد**) بالكسر جمع بيداء وهي الفلاة التي تبيد سالكها أي ينقطع ويهلك، و (**الأخاديد**) جمع الأخدود وهو الشق في الأرض قال تعالى:

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ۝٤﴾ [البروج: ٤].

و (**الراسيات**) جمع الراسية من رسى السّفينة وقفت على البحر وأرسيته قال تعالى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ٤١]

و (**الجلاميد**) جمع جلمدوزن جعفر وهو الصخر كالجلمود بضم، و (**الشناخيب**) جمع شنخوب بالضّم أيضاً وهو أعلى الجبل، و (**الشم**) جمع الشميم أي المرتفع و (**الصياخيد**) جمع الصّيخود وهي الصخرة الصلبة (**في قطع**) اديمها في بعض النسخ وزن عنب جمع قطعة بالكسر وهي الطائفة من الشيء تقطع، والطائفة من الأرض إذا كانت مفروزة وفي بعضها بسكون الطاء، وزن حبر وهي طنفسة[١] يجعلها الراكب تحته ويغطي كتفي البعير وجمعه قطوع وأقطاع.

و (**أديم**) الأرض وجهها والأديم أيضاً الجلد المدبوغ، و (**التغلغل**) الدخول و (**السّرب**) محركة بيت في الأرض لا منفذ له يقال: تسرب الوحش وانسرب في جحره أي دخل و (**الجوبة**) الحفرة والفرجة و (**الخيشوم**) أقصى الأنف، و (**جرثومة**) الشيء أصله وقيل التراب المجتمع في أصول الشجرة وهو الأنسب، و (**فسح**) له من باب منع أي وسّع و (**المتنسم**) موضع التنسّم والتّنفس من تنسّم إذ طلب النسيم واستنشقه، و (**مرافق**) الدّار ما يستعين به أهلها ويحتاج إليه في التعيش، وفي «**القاموس**» مرافق الدار مصاب الماء ونحوها، و (**الجرز**) بضمتين الأرض التي لا نبات بها ولا ماء وقال تعالى:

---

(١) الطنفسة مثلثة الطاء والفاء وبكسر الطاء وفتح الفاء بالعكس: واحدة الطنافس للبسط والثياب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة: ٢٧].

و (**الرابية**) ما ارتفع من الأرض، وكذلك الربوة بالضم، و (**الجدول**) وزن جعفر النهر الصغير و (**ناشئة**) السّحاب أوّل ما ينشأ منه أي يبتدء ظهوره، ويقال: نشأت السّحاب إذا ارتفعت، و (**الغمام**) جمع غمامة بالفتح فيهما وهي السحابة البيضاء، و (**اللّمع**) على وزن صرد جمع لمعة وهي في الأصل قطعة من النبت إذا أخذت في اليبس كأنها تلمع وتضيء من بين سائر البقاع، و (**القزع**) جمع قزعة بالتحريك فيهما وهي القطعة من الغيم، وفي الحديث كأنهم قزع الخريف، و (**تمخضت**) أي تحركت بقوّة من المخض وهو تحريك السقاء الذي فيه اللّبن ليخرج زبده، و (**المزن**) بضم الميم جمع مزنة وهي السحابة، و (**كففه**) حواشيه وجوانبه وطرف كل شيء كفه بالضم.

وعن الأصمعي كلَ ما استطال كحاشية الثوب والرّمل فهو كفة بالضم، وكل ما استدار ككفة الميزان فهو كفة بالكسر، ويجوز فيه الفتح، و (**وميض**) البرق لمعانه، و (**الكنهور**) وزن سفرجل قطع من السحاب كالجبال أو المتراكم منه، و (**الرباب**) السّحاب الأبيض جمع ربابة، وفي «**شرح المعتزلي**» يقال: أنه السحاب الذي تراه كأنه دون السحاب، وقد يكون أسود وقد يكون أبيض، و (**المتراكم**) والمرتكم المجتمع، و (**السح**) الصب والسّيلان من فوق، و (**تدارك**) القوم إذا لحق آخرهم أولهم، و (**أسفّ**) الطائر دنا من الأرض، و (**الهيدب**) السحاب المتدلي أو ذيله من هدبت العين طال هدبها وتدلى أشفارها، و (**تمريه**) الجنوب من مري الناقة يمريها أي مسح ضرعها فأمرت هي أي درّ لبنها وعدى ههنا إلى مفعولين.

وفي بعض النسخ: تمري، بدون الضمير، هكذا قال في «**البحار**» والأنسب عندي أن يجعل تمري على تقدير وجود الضمير، كما في أكثر النسخ بمعنى تستخرج يقال: مري الشيء إذا استخرجه وهو أحد معانيه كما في «**القاموس**»، و (**الدرر**) كعنب جمع درة بالكسر وهو الصب والاندفاق، و (**الأهاضيب**) جمع هضاب وهو جمع هضب وهو المطر، و (**دفع**) جمع دفعة بضم الدال فيهما وهي المرة من المطر، و (**الشآبيب**) جمع شؤبوب وهو ما ينزل من المطر دفعة بشدّة وقوة، و (**البرك**) الصدر، و (**البواني**) قوائم الناقة.

وفي «**شرح المعتزلي**»: بوانيها بفتح النون تثنية بوان على فعال بكسر الفاء وهو عمود الخيمة والجمع بون، قال في «**البحار**» في النسخ القديمة المصححة على صيغة الجمع، وفي «**النهاية**» فسّر البواني بأركان البنية، وفي «**القاموس**» بقوائم الناقة قال: والبواني[1] أضلاع الزور[2] وقوائم الناقة، والقي بوانيه أقام وثبت (**والبعاع**) كالسحاب ثقلة من المطر، و

---

(١) الزور: وسط الصدر.

(٢) وفي القاموس في باب النون البوان بالضم والكسر عمود للخباء جمعه أبونه وبون بالضم كصرد.

(استقلت) أي: نهضت وارتفعت واستقلت به حملته ورفعته، و **(العبء)** بالكسر وزن حبر الحمل والثقل، و **(الهوامد)** من الأرض التي لا نبات بها، و **(زعر)** الجبال بالضم جمع أزعر كحمر واحمر وهي القليلة النبات وأصله من الزعر بالتحريك وهو قلة الشعر في الرأس يقال، رجل أزعر و **(الأعشاب)** جمع عشب كقفل وهو الرطب من الكلاء.

(وبهج) يبهج من باب منع سرّ وفرح، وفي بعض النسخ بضم الهاء من باب شرف أي حسن، و **(تزدهي)** افتعال من الزهو وهو الكبر والفخر، و **(ألبسته)** في بعض النسخ بالبناء على الفاعل، وفي بعضها بالبناء على المفعول، و **(الريط)** جمع ريطة بالفتح فيها وهي كل ملأة غير ذات لفقين أي قطعتين كلها نسج واحد وقطعة واحدة، أو كل ثوب رقيق ليّن و **(الأزاهير)** جمع أزهار جمع زهرة بالفتح وهي النبات أو نورها، وقيل: الأصفر منه وأصل الزهرة الحسن والبهجة، و **(الحلية)** ما يتزين به من مصوغ الذهب والفضة والمعدنيات.

و **(سمّطت)** بالسين المهملة على البناء للمفعول من باب التفعيل، أي علّقت، وفي بعض النسخ الصحيحة بالشين المعجمة من الشمط محركة وهو بياض الرأس يخالط سواده، فمن النبات ما يخالط سواده النور الأبيض، وفي «**القاموس**» شمطه يشمطه خلطه والإناء ملأه والنخلة انتشر بسرها، والشجر انتشر ورقه والشميط من النبات ما بعضه هائج وبعضه أخضر، و **(البلاغ)** ما يبتلغ به ويتوسل إلى الشيء المطلوب، و **(الفج)** الطريق الواسع بين الجبلين والفجاج جمعه، و **(الجادة)** وسط الطريق ومعظمه.

الإعراب

(على) في قوله عليه السلام على مور بمعنى في كما في قوله تعالى: دخل المدينة على حين غفلة، وجملة **(تلتطم)** منصوبة المحل على الحالية، **(وأواذي)** بالرفع فاعله، وترغو زبداً إن كان ترغو من الرغا فزبداً منصوب بمقدر أي ترغو قاذفة زبداً، وإن كان من الرّغوة فانتصابه به على التجريد، أي ترمي زبداً ويشعر بتضمنه معنى ترمي قوله عليه السلام في الخطبة الأولى: فرمى بالزّبد ركامه، فافهم.

(ومدحوّه) منصوبة على الحال، و **(في لجة)** إما للظرفية أو بمعنى على، والأول أولى إذ الأصل الحقيقة وقوله: **(ردّت)** فاعله ضمير مستكن عائد إلى الأرض ومفعوله محذوف وهو الضمير الراجع إلى جماح الماء **(والباء)** في قوله، بالراسيات تحتمل الصلة والسّببية كما سنشير إليه، **(وذوات الشناخيب)** بالكسر عطف على جلاميدها، **(وتغلغلها)** **(وركوبها)** بالجرّ معطوفان على الرسوب، وقوله: **(متسربة)** حال مؤكدة من ضمير تغلغلها على حدّ قوله تعالى: ولى مُدبراً، وعلى في قوله على تمام مرافقها للاستعلاء متعلق بمحذوف أي مستقرين ومتمكّنين

على تمام مرافقها، و (**أرسله**) جواب إذا تمخضت، (**وسحاً**) حال من مفعول أرسل والمصدر بمعنى الفاعل.

وقوله: (**تمريه الجنوب درر أحاضيبه**)، الضمير في تمريه مفعول بالواسطة والجنوب فاعله والدّرر مفعول به، أي: تمري الجنوب منه درر أهاضيبه، والإضافة في (**برك بوانيها**) لأدنى ملابسة.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من كلامه عليه السلام مسوق للإشارة إلى قدرته سبحانه وتدبيره في كيفية إيجاد الأرض ودحوها على الماء وخلقة الغمام والمطر والبرق والنبات والأنهار والأزهار ومتضمن لما أعد الله للناس فيها من المنافع العظيمة والفوائد الجسيمة، والرفد، الروافع، والنعم السوابغ وهو قوله عليه السلام:

(**كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة**) استعار لفظ الكبس لخلقه لها غائصاً معظمها في الماء كما يغوص ويكبس بعض الزق المنفوخ، ونحوه في الماء بالاعتماد عليه، ووصف الأمواج بالاستفحال لشدّتها أو لكونها كالفحول في الصّولة، (**ولجج بحار زاخرة**) أي: كثيرة ماؤها مرتفعة أمواجها حال كونها (**تلتطم أواذي أمواجها**) أي: تضرب شدائد أمواجها بعضها بعضاً، (**وتصطفق متقاذفات أثباجها**) أي ترد مترامیات أمواجها العالية المعظمة (**وترغو زبداً كالفحول عند هياجها**) أي: تصوت قاذفة زبداً أو ترمي زبداً عند اضطرابه وغليانه كالفحول الهائجة، (**فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها**) استعار لفظ الجماح لغليان الماء واضطرابه وجريانه على غير نسق كما يجمع الفرس الجموح بحيث لا يتمكن من ردّه ومنعه يقول عليه السلام: (**ذلّ اضطراب الماء لثقل حمل الأرض عليه**).

(**وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها**) أي: سكن ثوران ترامیه وتقاذفه حين وطئته الأرض وداسته بصدرها تشبيهاً لها بالناقة وتخصيص الصدر بالذكر لقوته، (**وذل مستخذياً إذ تمعّكت عليه بكواهلها**) أي: صار ذليلاً منقاداً حين تمرغت عليه الأرض كالدابة المتمرغة وتخصيص الكواهل بالذكر للقوة أيضاً، (**فأصبح بعد اصطخاب أمواجه**) واضطرابها (**ساجياً مقهوراً**) أي ساكناً مغلوباً، (**وفي حكمة الذل منقاداً أسيراً**) كالدابة المذللة بالحكمة المنقادة لصاحبها، هذا.

ومحصل كلامه عليه السلام من قوله: فخضع إلى هنا أن هيجان الماء وغليانه وموجه سكن بوضع الأرض عليه.

واستشكل فيه بأنّ ذلك خلاف ما نشاهده وخلاف ما يقتضيه العقل، لأنَ الماء السّاكن إذا جعل فيه جسم ثقيل اضطرب وتموّج وصعد علوّاً، فكيف الماء المتموج يسكن بطرح الجسم الثقيل فيه.

وأجيب بأن الماء إذا كان تموّجه من قبل ريح هائجة جاز أن يسكن هيجانه بجسم يحول بينه وبين تلك الرّيح، ولذلك إذا جعلنا في الإناء ماء وروّحناه بمروحة يموّجه فإنه يتحرّك، فإن جعلنا على سطح الماء جسماً يملؤ حافات الإناء وروّحناه بالمروحة، فإن الماء لا يتحرك لأن ذلك الجسم قد حال بين الهواء المجتلب بالمروحة وبين سطح الماء، فمن الجائز أن يكون الماء الأول هائجاً لأجل ريح محرّكة له فإذا وضعت الأرض عليه حال بين سطح الماء وبين تلك الريح.

وقد مرّ في كلامه عليه السلام في الفصل الثامن من فصول الخطبة الأولى ذكر هذه الرّيح وهو قوله عليه السلام: **(ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها وأدام مربها)** إلى أن قال: **(أمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار فمخضه مخض السّقاء وعصفت به عصفها بالفضاء)**، إلى آخر ما مر.

قال المحدث العلامة المجلسي ره في **«البحار»** بعد ذكر هذا الأشكال والجواب: والأولى أن يقال: إن غرضه عليه السلام ليس نفي التموّج مطلقاً بل نفي الشديد الذي كان للماء إذ حمله سبحانه على متن الريح العاصفة والزعزع القاصفة بقدرته الكاملة، وأنشأ ريحاً تمخضه مخض السقاء فكانت كُرة الماء تدفق من جميع الجوانب وترد الرّيح أوّله على آخره وساجيه على مائره كما مر في كلامه عليه السلام أي في الفصل المذكور من الخطبة الأولى، ثم لما كبس الأرض بحيث لم يحط الماء بجميعها فلا ريب في انقطاع الهبوب والتمويج من ذلك الجانب المماس للأرض من الماء[1].

وأيضاً لمّا منعت الأرض سيلان الماء من ذلك الجانب إذ ليست الأرض كالهواء المنفتق المتحرّك الذي كان ينتهي إليه ذلك الحد من الماء كان ذلك أيضاً من أسباب ضعف التموج وقلة التلاطم.

وأيضاً لمّا تفرقت كرة الماء في أطراف الأرض ومال الماء بطبعه إلى المواضع المنخفضة من الأرض وصار البحر الواحد المجتمع بحاراً متعدّدة، وإن اتّصل بعضها ببعض وأحاطت السواحل بأطراف البحار بحيث منعت الهبوب إلا من جهة السّطح الظاهر سكنت الفورة الشديدة بذلك التفرق وقلة التعمّق وانقطاع الهبوب، وكل ذلك من أسباب السّكون الذي أشار إليه عليه السّلام.

وأقول: وممّا يبين ذلك أنه إذا فرضنا حوضاً يكون فرسخاً في فرسخ، وقدّرنا بناء عمارة عظيمة في وسطه فلا ريب في أنه يقل بذلك أمواجه، وكلّما وصل موج من جانب من الجوانب إليه يرتدع ويرجع.

---

(١) البحار: ١٤٣/٥٤.

ثم إن هذه الوجوه إنما تبدي جرياً على قواعد الطبيعيين وخيالاتهم الواهية وإلا فبعد ما ذكره عليه السلام لا حاجة لنا إلى إبداء وجه، بل يمكن أن يكون لخلق الأرض وكبسها في الماء نوع آخر من التأثير في سكونه لا تحيط به عقولنا الضعيفة كما قال عليه السلام: **(وسكنت الأرض)** حال كونها **(مدحوّة)** مبسوطة، **(في لجة تياره)** أي: أعمق موجه ومعظمه، **(وردّت الماء من نخوة بَأوِه واعتلائه)** أي: فخره وترفعه **(وشموخ أنفه وسموّ غلوائه)** أي: تكبّره وعلوّ غلوّه.

وهذه كلّها استعارات للماء في هيجانه واضطرابه بملاحظة مشابهته بالإنسان المتجبر المتكبر التّياه في حركاته وأفعاله والغرض بيان سكون الأرض في الماء المتلاطم ومنعها إيّاه من تموّجه وهيجانه، **(وكعمته على كظّة جريته)**، والمراد بكظّة الجرية ما يشاهد من الماء الكثير في جريانه من الثقل نحو ما يعتري المملي من الطعام، أو أراد به شدّة جريانه وطول ملازمته له، أو التعب العارض له من الجريان على سبيل الاستعارة تشبيهاً له بالإنسان المتعب من كثرة المزاولة لفعل **(فهمد بعد نزقاته)** أراد به سكونه بعد وثباته **(ولبد بعد زيفان وثباته)**، أي: أقام بعد تبختره في طفراته.

(فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها) يعني أطراف الأرض وجوانبها **(وحمل شواهق الجبال البذخ على أكتافها)** استعار عليه السلام لفظ الاكتاف للأرض لكونها محلاً لحمل ما يثقل من الجبال كما أن كتف الإنسان وغيره من الحيوان محلّ لحمل الأثقال.

(فجرينا بيع العيون) لعله عليه السلام اعتبر في الينبوع الجريان بالفعل فيكون من قبيل إضافة الخاص إلى العام، أو التكرار للمبالغة، وإن كان الينبوع بمعنى الجدول الكثير الماء على ما مرّ فهو مستغن عن التكلف وقوله:

(من عرانين أنوفها) من باب الاستعارة تشبيهاً للجبال بالإنسان ولأعاليها ورؤوسها بعرنينه وأنفه، وإنما خص الجبال بتفجر العيون فيها لأن العيون أكثر ما يتفجر من الجبال والأماكن المرتفعة وأثر القدرة فيها أظهر ونفعها أتم، **(وفرقها)** أي: الينابيع **(في سهوب بيدها وأخاديدها)** المراد بالأخاديد مجاري الأنهار **(وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها)**.

قال المحدث المجلسي: «قد» لعل تعديل الحركات بالراسيات أي الجبال الثابتات جعلها عديلاً للحركات بحيث لا تغلبه أسباب الحركة فيستفاد سكونها فالباء صلة لا سببية، أو المعنى سوّى الحركات في الجهات أي جعل الميول متساوية بالجبال فسكنت لعدم المرجع فالباء سببية، ويحتمل أن يكون المراد أنه جعلها بالجبال بحيث قد تتحرك بالزلازل وقد لا تتحرك ولم يجعل الحركة غالبة على السّكون مع احتمال كونها دائماً متحركة بحركة ضعيفة غير محسوسة، ومن ذهب إلى استناد الحركة السريعة إلى الأرض لا يحتاج إلى تكلف.

وكيف كان فالمعنى أنه سبحانه عدل حركات الأرض بالجبال الثابتة من صخورها

و (**بذوات الشناخيب الشم من صياخيدها**) أي بصاحبات الرؤوس المرتفعة من صخورها الصلبة (**فسكنت**) الأرض (**من الميدان**) والاضطراب (**برسوب الجبال في قطع أديمها**) أي دخولها في قطعات وجه الأرض وأعماقها (**وتغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها**) أي دخولها حال كونها نافذة في حفرات أنوف الأرض وفرجاتها (**وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها**) استعار لفظ الركوب للجبال والأعناق للأرضين كناية عن إلحاقهما بالقاهر والمقهور، وذكر السّهول ترشيح، ولعل المراد بجراثيمها المواضع المرتفعة منها.

ومفاد هذه الفقرات أن الأرض كانت متحركة مضطربة قبل خلق الجبال فسكنت بها، وظاهره أن لنفوذ الجبال في أعماق الأرض وظهورها وارتفاعها عن الأرض كليهما مدخلاً في سكونها، وقد مر الكلام في ذلك في شرح الفصل الثالث من فصول الخطبة الأولى فتذكر.

(**وفسح بين الجو وبينها**) لعل في الكلام تقدير مضاف أي وسع بين منتهى الجو وبينها، أو المراد بالجوّ منتهاه أي السّطح المقعر للسماء (**وأعد الهواء متنسّماً لساكنها**) أي: جعل الهواء محلاً لطلب النسيم واستنشاقه وفائدته ترويح القلب حتى لا يتأذى بغلبة الحرارة، (**وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها**) والمراد به إيجادهم وإسكانهم فيها بعد تهيئة ما يصلحهم لمعاشهم والتزود لمعادهم.

(**ثم لم يدع**) سبحانه وتعالى (**جرز الأرض التي**) لا نبات بها ولا ماء من حيث إنها(**تقصر مياه العيون عن**) سقي (**روابيها**) ومرتفعاتها (**ولا تجد جداول الأنهار ذريعة**) ووسيلة (**إلى بلوغها**) والوصول إليها (**حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها**) من باب المجاز في الإسناد (و) كذلك (**تستخرج نباتها**) لأن المحيى والمخرج هو الله سبحانه والسحاب سبب قال الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النحل: ٦٥].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

(**ألف**) تعالى (**غمامها**) النمير راجع إلى الأرض كسائر الضمائر والإضافة لأدنى ملابسة، والمراد أنه سبحانه ركب السحاب المعدّة لسقيها (**بعد افتراق لمعه وتباين قزعه**) أي: بعدما كانت أجزاؤها اللامعة متفرقة وقطعاتها متباينة متباعدة (**حتى إذا تمَخَّضَتْ لجة المزن فيه**) الضمير راجع إلى المزن أي حتى إذا تحركت اللجة أي معظم الماء المستودع في الغيم، واستعدت للنزول (**والتمع برقه في كففه**) أي: أضاء البرق في جوانبه وحواشيه (**ولم ينم وميضه**) أي: لم ينقطع لمعان البرق (**في كنهور ربابه**) أي: في القطع العظيمة من سحابه

البيض **(ومتراكم سحابه)** أي: المجتمع الذي ركب بعضه بعضاً.

(أرسله) الله سبحانه **(سحّا متداركاً)** أي حال كونه يصبّ الماء صبّاً متلاحقاً **(قد أسفّ هيدبه)** ودنا من الأرض ما تدلى منه حال كونه **(تمريه الجنوب درر أهاضيبه)** أي: تستخرج منه الجنوب أمطاره المنصبّة، والجنوب ريح مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، وهي أدرّ للمطر ولذا خصّها بالذكر.

وقوله عليه السلام: **(ودفع شآبيبه)** أراد به الدفعات من المطر المنزلة بشدة وقوة، **(فلما ألقت السحاب برك بوانيها)** استعار عليه السلام لفظ البرك والبوان للسحاب وأسند إليه الإلقاء تشبيهاً لها بالجمل الذي أثقله الحمل، فرمى بصدره الأرض، أو بالخيمة التي جرّ عمودها على اختلاف التفسرين المتقدمين، **(وبعاع ما استقلت به من العبء المحمول عليها)**، أي: ثقل ما ارتفعت به الحمل المحمول عليها يعني المطر، **(أخرج)** سبحانه **(به)** أي: بذلك العبء **(من هوامد الأرض)** التي لا حياة بها ولا عود **(النبات)** كما قال تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

(ومن زعر الجبال) أي: المواضع القليلة النبات منها **(الأعشاب)** والرّطب من الكلا **(فهي)** أي: الأرض **(تبهج)** وتفرح **(بزينة رياضها)** ومستنقع مياهها **(وتزدهي)** وتفتخر **(بما ألبسته من ريط أزاهيرها)** أي: بأشجار البست الأرض إيّاها لباس أنوارها، وعلى ما في بعض النسخ من كون ألبسته بصيغة المجهول فالمعنى أن الأرض تفتخر بما اكتسبت به من النبات والأزهار والأنوار فيكون لفظة من على هذا بياناً لها كما أنها على الأول صلة لألبسته، والثاني أظهر.

(و) تتكبر بـ **(حلية ما سمّطت)** وعلّقت **(به من ناضر أنوارها)** أي: أنوارها المتصفة بالنضرة والحسن والطراوة **(وجعل)** الله سبحانه **(ذلك)** أي: ما أنبت من الأرض **(بلاغاً للأنام)** يبتلغون به ويتوسلون إلى مقاصدهم ومطالبهم **(ورزقاً للأنعام)** تأكل منه وترعى عند جوعها وحاجتها قال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

(وخرق الفجاج في آفاقها) أي: خلق الطرق على الهيئة المخصوصة بين الجبال في نواحي الأرض وأطرافها قال سبحانه:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠] وقال ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۞ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩ ـ ٢٠].

(وأقام المنار للسالكين في جواد طرقها) والمراد بالمنار العلامات التي يهتدي بها السالكون من الجبال والتلال أو النجوم، والأول أظهر بملاحظة المقام.

واعلم أن هذا الفصل لمّا كان متضمناً لبعض ما في عالم العناصر من دلائل القدرة وبدائع الحكمة وعجائب الصنعة، وما أودع الله سبحانه فيه من المنافع العامة والفوائد التّامة لا جرم أحببت تذييل المقام بهدايات فيها دراية على مقتضى الترتيب الذّكري الّذي جرى عليه هذا الفصل.

فأقول: وبالله التكلان وهو المستعان.

الهداية الأولى

في دلائل القدرة في الأرض والمنافع المعدّة فيها للخلق وهي كثيرة لا تحصى، لكنّا نقتصر على البعض بما ورد في الكتاب وأفاده أولوا الألباب.

فمنها: أنه سبحانه جعلها مدحوة على الماء وبارزة منه مع اقتضاء طبعها الغوص فيه وإحاطة البحار بها، وذلك لحكمة الافتراش وأن يكون بساطاً للنّاس كما قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقال:

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩].

فلو كانت غائصة في الماء لبطل تلك الحكمة فأخرج سبحانه بعض جوانبها من الماء كالجزيرة البارزة حتى صلحت، لأن تكون فراشاً ومهاداً.

ومنها: كونها ساكنة في حيزها الطبيعي وهو وسط الأفلاك؛ لأن الأثقال بالطبع تميل إلى تحت كما أن الخفاف بالطبع تميل إلى فوق، والفوق من جميع الجوانب ما يلي السماء والتحت ما يلي المركز، فكما أنه يستبعد حركة الأرض فيما بيننا إلى جهة السماء، فكذلك يستبعد هبوطها في مقابلة ذلك لأن ذلك الهبوط صعود أيضاً إلى السماء، فإذن لا حاجة في سكون الأرض وقرارها إلى علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها، بل يكفي في ذلك ما أعطاها خالقها، وركز فيها من الميل الطبيعي إلى الوسط الحقيقي بقدرته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

ومنها: توسّطها في الصلاة واللّين:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥].

إذ لو كانت في غاية الصلابة كالحجر لكان المشي والنوم عليها ممّا يؤلم البدن، ولتعذرت الزراعة عليها ولامتنع إجراء الأنهار وحفر الآبار فيها ولم يمكن اتخاذ الأبنية والآنية منها لتعذر تركيبها، ولو كانت في غاية اللين بحيث تغوص فيه الرّجل كالماء لامتنع الاستقرار والافتراش والنوم والمشي واستحال الزرع والحرث.

ومنها: أنه جعل لونها الغبراء لتكون قابلة للإنارة والضياء إذ ما كان في غاية اللّطافة والشفّافية لا يستقر النور عليه، وما كان كذلك فإنه لا يتسخن بالشمس فكان يبرد جدّاً ولا يمكن جواره، هكذا قال الرازي وصدر المتألهين. والأَولى ما في «**شرح البحراني**» «قد» من أنها لو كانت مخلوقة في غاية الشفافية واللطافة، فإمّا أن تكون مع ذلك جسماً سيالاً كالهواء لم يتمكن من الاستقرار عليه، أو يكون جسماً ثابتاً صقيلاً براقاً احترق الحيوان وما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس عليها كما يحرق القطن إذا قرب من المرايا المحاذية للشّمس والبلور، لكنه خلقها غبراء ليستقر النّور على وجهها فيحصل فيها نوع من السخونة، وخلقها كثيفة لئلا تنعكس الأَشعة منها على ما فيها فتحرقه، فصارت معتدلة في الحر والبرد تصلح أن تكون فراشاً ومسكناً للحيوان.

ومنها: كونها يتولّد منها النبات والحيوان والمعادن.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: ١٩].

ومنها: أن يتخمر الرّطب بها فيحصل التماسك في أبدان المركبات.

ومنها: اختلاف بقاعها فمنها أرض رخوة وصلبة ورملة وسبخة وعذبة وحزنة وسهلة، وقال تعالى:

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ [الرعد: ٤].

ومنها: اختلاف ألوانها فأحمر وأبيض وأسود ورمادي اللّون وأغبر، قال سبحانه:

﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ [فاطر: ٢٧].

ومنها: انصداعها بالنبات ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ [الطارق: ١٢].

ومنها: كونها خازنة للماء المنزل من السماء.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

ومنها: إجراء العيون والأنهار فيها.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٢١] ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ [النمل: ٦١].

ومنها: أن لها طبع السماحة والجود تدفع إليها حبّة واحدة وهي تردها عليك سبعمائة.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومنها: موتها في الشّتاء وحياتها في الربيع.

﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

ومنها: إنبثاث الدّواب المختلفة فيها:

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

ومنها: كونها مبدأ الخلائق ومنشأها.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]

وجعل ظهرها مقر الأحياء وبطنها موطن الأموات.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۞ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦].

ومنها: ما فيها من النباتات المختلفة الألوان والأنواع والمنافع.

﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

فبعضها للإنسان وبعضها للحيوان.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه: ٥٤].

وما للإنسان بعضها طعام وبعضها إدام وبعضها فواكه وبعضها دواء وبعضها لباس كالقطن والكتان.

ومنها: ما فيها من الأحجار المختلفة، فبعضها للزينة كالدرّ والياقوت والعقيق ونحوها، وبعضها للحاجة كما تستخرج منه النّار، فانظر إلى قلة الأول وكثرة الثاني، ثم انظر إلى قلّة المنفعة بذلك الخطير وكثرة المنفعة بذلك الحقير إلى غير ذلك من آثار القدرة ودلائل الصنع والعظمة والعجائب والغرائب التي يعجز عن إدراك معشارها عقول البشر، ويحتار في البلوغ إليها الأذهان والفكر.

الثانية

في انفجار الينابيع والعيون من الأرض المشار إليه بقوله عليه السلام: **(فجر ينابيع الأرض من عرانين أنوفها)**، فأقول: ظاهر قوله سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٦٩].

هو كون ماء العيون والأنهار هو الماء المنزل من السحاب، وبه صرّح جمع من الأصحاب في باب طهورية الماء بقول مطلق بعد الاستدلال عليها بقوله سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ويدلّ عليه ما رواه علي بن إبراهيم في «**تفسيره**» قال في «**رواية أبي الجارود**» عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

في الأنهار والعيون والآبار، ومحصل ذلك أن القادر المختار أنزل بقدرته الكاملة وحكمته البالغة من السّماء ماء فأسكنه في الأرض وأخرج منه العيون والآبار والقنى والأنهار ما اقتضاه الحكمة والتدبير في بقاء نوع الإنسان والحيوان وإصلاح النّباتات والزراعات وغير ذلك من وجوه الحاجات، وإليه ذهب أبو البركات البغدادي حيث قال: إن هذه المياه متولدة من أجزاء مائية متولدة من أجزاء متفرقة في ثقب أعماق الأرض ومنافذها إذا اجتمعت، ويدلّ عليه أن مياه العيون والأنهار تزيد بزيادة الثلوج والأمطار.

وقالت الحكماء: إن البخار إذا احتبس في داخل من الأرض لما فيها من ثقب وفرج يميل إلى جهة فيبرد بها فينقلب مياها مختلطة بأجزاء بخارية، فإذا كثر لوصول مدد متدافع إليه بحيث لا تسعه الأرض أوجب انشقاق الأرض وانفجرت منه العيون.

أمّا الجارية على الولاء فهي إما لدفع تاليها سابقها أو لانجذابه إليه لضرورة عدم الخلاء بأن يكون البخار الذي انقلب ماء وفاض إلى وجه الأرض ينجذب إلى مكانه ما يقوم مقامه لئلا يكون خلاء، فينقلب هو أيضاً ماء ويفيض، وهكذا استتبع كلّ جزء منه جزء آخر.

وأما العيون الرّاكدة فهي حادثة من أبخرة لم تبلغ من قوّتها وكثرة موادّها أن يحصل منها معاونة شديدة أو يدفع اللاحق السابق.

وأما مياه القنى والآبار فهي متولدة من أبخرة ناقصة القوة عن أن يشقّ الأرض، فإذا أزيل ثقل الأرض عن وجهها صادفت منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة، فإن لم يجعل هناك مسيل فهو البئر، وإن جعل فهو القناة، ونسبة القنا إلى الآبار كنسبة العيون السيالة إلى الراكدة، وإنما كثر تفجر العيون في الجبال والأماكن المرتفعة لشدة احتقان الأبخرة تحتها بالنسبة إلى سائر الأماكن

الهابطة الرخوة، فإنّ الأَرض إذا كانت رخوة نفضت[١] فلا يكاد يجتمع منه قدر ما يعتدّ به.

وقال الشيخ: هذه الأبخرة إذا انبعث عيوناً أمدّت البحار بصب الأنهار إليها، ثم ارتفع من البحار والبطاح والأَنهار وبطون الجبال خاصة أبخرة أخرى، ثمّ قطرت ثانياً إليها فقامت بدل ما يتحلّل منها على الدّور دائماً.

الثالثة

في حكمة خلق الهواء المشار إليها بقوله: **(وأعد الهواء متنسماً لساكنها)**، فأقول: فيه نفع عظيم للإنسان والحيوان، لأَنّه من ضروريّات العيش لأَنها مادّة النفس الذي لو انقطع ساعة عن الحيوان لمات، وقيل هنا: إن كل ما كانت الحاجة إليه أشدّ كان وجدانه أسهل، ولمّا كان احتياج الإنسان إلى الهواء أعظم الحاجات حتّى لو انقطع عنه لحظة لمات لا جرم كان وجدانه أسهل من وجدان كل شيء، وبعد الهواء الماء، فإن الحاجة إليه أيضاً شديدة فلا جرم سهل أيضاً وجدان الماء، ولكن وجدان الهواء أسهل لأَن الماء لا بد فيه من تكلف الاغتراف بخلاف الهواء فإن الآلات المهيأة لجذبه حاضرة أبداً.

ثمّ بعد الماء الحاجة إلى الطعام شديدة، ولكن دون الحاجة إلى الماء فلا جرم كان تحصيل الطعام أصعب من تحصيل الماء، وبعد الطعام الحاجة إلى تحصيل المعاجين والأدوية النّادرة قليلة فلا جرم عزّت هذه الأَشياء، وبعد المعاجين الحاجة إلى أنواع الجواهر من الياقوت والزبرجد نادرة جداً، فلا جرم كانت في نهاية العزة، فثبت أن كل ما كان الاحتياج إليه أشدّ كان وجدانه أسهل، وكل ما كان الحاجة إليه أقلّ كان وجدانه أصعب، وما ذاك إلاّ رحمة منه سبحانه على العباد قال الشاعر:

سبحان من خصّ القليل بعزة ... والنّاس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكلّ ذي ... نفس لمحتاج إلى أنفاسه

الرابعة

في دلائل القدرة وبراهين الجلال والجبروت في خلق السّحاب والمطر والبرد والثلج والرّعد والبرق والصواعق قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢ ـ ١٣].

---

(١) (نفذت): في نسخة.

قال الرازي: في كونها خوفاً وطمعاً وجوه **الأول** عند لمعان البرق يخاف وقوع الصّواعق ويطمع في نزول الغيث، **الثاني** أنه يخاف من المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في خزينته التمر والزبيب ويطمع فيه من له نفع، **الثالث** أن كل شيء يحصل في الدنيا فهو خير بالنسبة إلى قوم وشرّ بالنسبة إلى آخر، فكذلك المطر خير في حق من يحتاج في أوانه وشرّ في حق من يضرّه ذلك إما بحسب المكان أو بحسب الزّمان.

ثم اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله سبحانه وبيانه أن السحاب لا شك أنه جسم مركب من أجزاء مائية وأجزاء هوائية[1]، ولا شك أنّ الغالب عليه الأجزاء المائية والماء جسم بارد رطب والنّار جسم حارّ يابس، فظهور الضّد من الضدّ التام على خلاف العقل فلا بدّ من صانع مختار يظهر الضد من الضد.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إن الرّيح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره، فانجمد السطح الظاهر منه، ثم إنّ ذلك الرّيح يمزقه تمزيقاً عنيفاً فيتولد من ذلك التمزيق الشّديد حركة عنيفة، والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق.

فالجواب أن كلّ ما ذكرتموه خلاف المعقول من وجوه:

الأوّل: أنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال أينما حصل البرق، فلا بد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحاصل من تمزق السحاب ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك، فإنه كثيراً ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد.

الثّاني: أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة بالطبيعة المائية الموجبة للبرد، وعند حصول هذا المعارض القوي كيف تحدث النّارية بل نقول: النيران العظيمة ينتفي لصبّ الماء عليها، والسّحاب كلّه ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية.

الثالث: من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة، فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة في أجزاء السحاب، لكن من أين حدث ذلك اللّون الأحمر، فثبت أن السبب الذي ذكروه ضعيف، وأنّ حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالصاً لا يمكن إلا بقدرة القادر الحكيم.

وقال في قوله: **(وينشىء السحاب الثقال)**: السحاب اسم الجنس والواحدة سحابة، والثقال جمع ثقيلة أي الثقال بالماء.

وأعلم أن هذا أيضاً من دلائل القدرة والعظمة، وذلك لأنَ هذه الأجزاء المائية إمّا يقال

---

(١) (نارية): في نسخة.

إنّها حدثت في جوّ الهواء، أو يقال إنها تصاعدت من وجه الأرض، فإن كان الأول وجب أن يكون حدوثها بأحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب، وإن كان الثاني وهو أن يقال إن تلك الأَجزاء تصاعدت من الأَرض، فلمّا وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت ورجعت إلى الأرض.

فنقول: هذا باطل، وذلك لأَن الأَمطار مختلفة، فتارة تكون القطرات كبيرة، وتارة صغيرة، وتارة تكون متقاربة، وأخرى تكون متباعدة، وتارة تدوم مدة نزول المطر زماناً طويلاً، وتارة قليلاً، فاختلاف الأَمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأَرض واحدة وطبيعة الأَشعة المسخنة للبخارات واحدة لا بدّ وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار.

وأيضاً فالتجربة دلت على أنّ للدّعاء والتضرع في نزول الغيث أثراً عظيماً، ولذلك شرعت صلاة الاستسقاء فعلمنا أن المؤثر فيه قدرة الفاعل لا الطبيعة الخاصة.

وفي «**الصافي**» في قوله: ويسبح الرّعد بحمده، روى عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرعد فقال: ملك موكل بالسحاب مع مخاريق من النار يسوق بها السحاب[١].

وفي «**الفقيه**» روى أن الرّعد صوت ملك أكبر من الذباب وأصغر من الزنبور، وفيه عن الصادق ؑ أنّه بمنزلة الرجل يكون في الإبل فيزجرها هاى هاى كهيئة ذلك[٢] وقوله:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] من خوفه وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣] من عباده فيهلكه ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١٣].

حيث يكذبون رسول الله ﷺ فيما يصفه تعالى من التفرد بالألوهية ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

أي: المماحلة والمكايدة لأَعدائه وقيل: من المحل أي شديد القوة، وقال علي بن إبراهيم القمي أي شديد الغضب هذا، وقال الرّازي في تفسير قوله سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣].

قال أهل الطبائع: إنّ تكونّ السحاب والمطر والثلج والبرد والطلّ والصقيع في أكثر الأَمر يكون من تكاثف البخار، وفي الأَقل من تكاثف الهواء، أمّا الأَول فالبخار الصّاعد أن كان قليلاً وكان في الهواء، من الحرارة ما يحلّل ذلك البخار فحينئذٍ ينحل وينقلب هواء، وإمّا إن

(١) بحار الأنوار: ٥٦/٣٥٧، والتفسير الصافي: ٣/٦١.
(٢) مستدرك سفينة البحار: ٤/١٦٦، وتفسير القرآن الكريم: ٤/٢٠٢.

كان البخار كثيراً ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلّله، فتلك الأبخرة المتصاعدة إمّا أن يبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ، فإن بلغت فإمّا أن يكون البرد قويّاً أو لا يكون، فإن لم يكن البرد هناك قوياً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر، فالبخار المجتمع هو السحاب، والمتقاطر هو المطر والديمة، والوابل إنما يكون من أمثال هذه الغيوم.

وأمّا إن كان البرد شديداً فلا يخلو، إما أن يصل البرد إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبّات كباراً، أو بعد صيرورتها كذلك، فإن كان على الوجه الأوّل نزل ثلجاً، وإن كان على الوجه الثاني نزل برداً.

وأمّا إذا لم تبلغ الأبخرة إلى الطبقة الباردة فهي: إمّا أن تكون قليلة أو تكون كثيرة، فإن كانت كثيرة فهي تنعقد سحاباً ماطراً وقد لا تنعقد، أمّا الأوّل فذاك لأحد أسباب خمسة **أولها**: إذا منع هبوب الرّياح عن تصاعد تلك الأبخرة، **وثانيها**: أن تكون الرّياح ضاغطة لها إلى اجتماع بسبب وقوف جبال أمام الرّيح، **وثالثها**: أن تكون هناك رياح متقابلة متضادّة فتمنع صعود الأبخرة حينئذٍ، **ورابعها**: أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطوء حركته، ثم تلتصق به سائر الأجزاء الكثيرة المدد، **وخامسها**: لشدّة برد الهواء القريب من الأرض فقد يشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنّه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون، والذين يكونون فوقها يكونون في الشمس.

أمّا إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة، فإذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء يكون محسوساً ونزل نزولاً متفرّقاً لا يحسّ به إلاّ عند اجتماع شيء يعتدّ به، فإن لم يجمد كان طلاً، وإن جمد كان صقيعاً، ونسبة الصقيع إلى الطل نسبة الثلج إلى المطر، وأمّا أن تكون السحاب من انقباض الهواء وذلك عندما يبرد الهواء وينقبض، وحينئذٍ تحصل منه الأقسام المذكورة.

والجواب: أنّا لما دللنا على حدوث الأجسام وتوسّلنا بذلك إلى كونه قادراً مختاراً يمكنه إيجاد الأجسام لم يمكنا القطع بما ذكرتموه، لاحتمال أنه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه، وأيضاً فهب أنّ الأمر كما ذكرتم، ولكن الأجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلا بدّ لها من مؤثر، ثم إنّها متماثلة فاختصاص كلّ واحد منها بصفة معينة من الصعود والهبوط واللّطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بدّ له من مخصّص، فإذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الأحوال، وخالق السّبب وخالق المسبب فكان سبحانه هو الذي يزجى سحاباً، لأنّه هو الذي خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الأبخرة من باطن الأرض إلى جوّ الهواء، ثم إن تلك الأبخرة إذا ترادفت في صعودها والتصق

بعضها بالبعض فهو سبحانه الذي: جعلها ركاماً، فثبت على جميع التقريرات أنّ وجه الاستدلال بهذه الأشياء على القدرة والحكمة ظاهر بيّن، انتهى.

وتحقيق المقام هو ما ذكره بما لا مزيد عليه.

وأقول: دلائل القدرة في خلق السحاب مضافاً إلى ما ذكره هو أن الماء بطبعه ثقيل يقتضي النزول، فبقاؤه في الجوّ خلاف الطبع، ولذلك إذا انفصل منه قطرة نزلت دفعة فلا بدّ من قادر قاهر يمسكه في الجوّ على ثقله بقهره وقدرته.

وأيضاً، لو دام السحاب لعظم ضرره حيث يستر ضوء الشمس، وتكثر الأمطار وتبتلّ المركبات فتفسد، ولو انقطع لعظم ضرره لإفضائه إلى القحط فيهلك المواشي والإنسان، فكان تقديره بالمقدار المعلوم مقتضى الحكمة والمصلحة.

وأيضاً ترى السّحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاضلة لا يدرك قطرة منها قطرة، ولا يعلم عددها إلاّ الذي أوجدها، ثم إن كلّ قطرة منها عيّنت لجزء من الأرض ولحيوان معيّن فيها من طير ووحش ودود مكتوب عليها بخط غيبي غير محسوس أنه رزق الحيوان الفلاني في الموضع الفلاني في الوقت الفلاني هذا، مع ما في انعقاد البرد الصّلب من الماء اللّطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى، كلّ ذلك عناية من الله سبحانه ورحمة منه على العباد، وفيها هداية لمن استهدى ودراية لمن ابتغى الرشاد.

الخامسة

في دلائل القدرة والعظمة في إنبات النبات والأشجار قال سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠] وقال ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ ـ ١١].

ودلائل القدرة في ذلك من وجوه:

الأول: أن الماء ثقيل بطبعه، كما قلنا سابقاً إنّه إذا انفصل قطرة منه من المزن تنزل إلى الأرض ولا تبقى في الجو بمقتضى طبعه، فانظر إلى قدرته تعالى كيف رقا الماء المصبوب في أسفل الأشجار مع هذا الطبع والثقل إلى أعالي أغصانها، فهوى إلى سفل ثمّ ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث ينتشر في جمع الأوراق، فغذاء كل جزء من كل ورقة تجري إليه في تجاويف العروق، ففي كل ورقة عرق ممتد طولاً وينشعب منه عروق صغار كثيرة عرضاً وطولاً، فكان الكبير نهراً وما انشعب عنها جداول، ثم ينشعب من الجداول سواقي أصغر منها، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوت دقيقة خارجة عن إدراك البصر حتى تنبسط

في جميع عرض الورق، فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورق لتسقيها وتغذيها بمنزلة العروق المبثوثة في بدن الإنسان والحيوان، لتوصل الغذاء إلى كل جزء منه، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه، فإن الماء المتحرك بطبعه إلى أسفل كيف انجذب إلى فوق من غير حامل أو قاسر، فعلم أن له جاذباً آخر ومحركاً خارجاً عن الحس ليسخّره ويدبّره وينتهي بالآخرة إلى مدبّر السماوات والأَرض جلّت عظمته وتعالى شأنه.

الثاني: أن أصناف النبات والأَشجار لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم في بقاء نضرته وطراوته كحاجة الحيوان إلى الغذاء ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان جعل لها أصول مركوزة في الأَرض لتنزع منها الغذا فتؤديه إليها، فصارت الأَرض كالأم المرَبية وصارت أصولها كالأَفواه الملتقمة للأَرض، وأيضاً لولا تلك الأصول لما انتصبت تلك الأَشجار الطّوال العظام ولم يكن لها ثبات ودوام في الريح العاصف، فهي لها بمنزلة عُمد الفساطيط والخيم تمدّ بالأَطناب من كلّ جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل، ثم انظر إلى هذه العروق الصغار المنشعبة من الأصول المركوزة وأنها على دقّتها وضعفها كيف تجري في أعماق الأَرض وتسير فيها على صلبها عرضاً وطولاً.

الثالث: إخراج أنواع مختلفة من النبات وأصناف متشتة من الأَشجار من حبّ وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمّان وفواكه كثيرة مختلفة الأَشكال والأَلوان والطعوم والروائح يفضل بعضها على بعض في الأكل مع أنّها جميعاً يسقي بماء واحد ويخرج من أرض واحدة.

فإن قلت: سبب اختلافها بذورها وحبوبها.

قلنا: هل يكفي ذلك في ترتب هذه الآثار؟ فإن الحبوب على اختلافها متشابهة في الصورة والجوهر فكيف يصير بهذا الاختلاف موجبة لهذه الأَنواع المتباعدة المتباينة في الصور الجوهرية والكيفيّات والخاصيّة، فهل كان في النواة نخلة مطوّقة بعناقيد الرّطب؟

سلّمنا أن اختلافها من المرجّحات، لكن نسوق الكلام إلى موجد هذه الاختلافات وفاعلها، فانظر إلى اختلاف طبائع النبات وخواصها ومنافعها فهذا يغذي وهذا يقوي، وهذا يقتل وهذا يحي، وهذا داء وهذا دواء، وهذا يسخّن وهذا يبرّد، وهذا يسهل الصّفرا وهذا يولد السّوداء، وهذا يقمع البلغم وهذا يولده، وهذا يستحيل دماً وهذا يطفيه، وهذا يسكر وهذا ينوّم، وهذا يفرّح وهذا يضعف، إلى غير هذا ممّا لو أردنا استقصاء العجائب المودعة فيها انقضت الأَيام.

ومع ذلك فالحكم الباطنة والمصالح الكامنة فيها أكثر جدّاً مما وصلت إليه عقولنا القاصرة، فهذه هي دلائل القدرة وعلامات العظمة وآثار الصنع والحكمة في الأشياء المذكورة نبّهنا عليها على وجه الاختصار إذ الاستقصاء فيها خارج عن الطّوع والاختيار، فسبحان من

أقام الحجة على مخلوقاته بما أراهم من بدائع آياته وجعلها تذكرة لأولي الألباب، وهو أعلم بالصواب.

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه در صفت زمین و گسترانیدن او است بر روی آب، می فرماید:

فرو برد حضرت باری تعالی زمین را بر بالای موج های باشدّت و صولت و بر روی لجّه های دریاهای پرشدّت برآمده، درحالتی که می زدند موج های باشدّت آنها بعضی بعضی را و ردّ می کردند یکدیگر را دفع کننده های موج های بزرگ و بلند آنها و می انداختند کف را مانند شتران نر در وقت هیجان آنها، پس فروتنی نمود سرکشی آب موج زننده و ردکننده یکدیگر به جهت سنگینی باران زمین و ساکن گردید هیجان مدافعه آن وقتی که درنوردید زمین، آن آب را به سینه خود و خوار شد آب در حالتی که خاضع و فروتن بود وقتی که غلطید زمین بر او به دوش های خود مانند غلطیدن حیوان در خاك.

پس گردید آب بعد از اضطراب و شدّت موج های او ساکن و ذلیل و در حلقه آهنین لجام ذلت گردن نهاده و گرفتار و ساکن شد زمین درحالتی که گسترانیده شده بود در میان موج عمیق آن آب و بازگردانید آب را از نخوت فخر و بلندی آن و از پربادی دماغ آن و بلندی از اندازه گذشتن آن و ببست آب را بر پری روان شدن آن، پس ساکن شد آب بعد از سبکی و جهیدن های خود و ایستاد بعد از تبختر کردن در جستن های خود، پس چون ساکن گردید هیجان آب از زیر اطراف زمین و بار فرمود حق تعالی کوه های بلند بالا را بر دوش های زمین، روان گردانید چشمه های آب را از بالای بینی های زمین و پراکنده ساخت آن چشمه ها را در بیابان های گشاده آن و مجاری نهرهای آن و تعدیل فرمود حرکت های زمین را به کوه های ثابت شونده از سنگ های آن و به کوه هایی که صاحب سرهای بلندند از سختی های سنگ های آن.

پس ساکن شد زمین از اضطراب به جهت فرورفتن کوه ها در قطعه های سطح

آن و به سبب درآمدن کوه ها در عمق زمین در حالتی که درآمده اند در خانه های اندرون بینی های زمین بهواسطه سوار شدن کوه ها بر گردن های زمین های هموار و بر بلندی های آن و فراخ کرد حق تعالی میان هوا و میان زمین را و مهیّا فرمود هوا را محل تنفس کشیدن از برای ساکنین آن و بیرون آورد به سوی زمین اهل آن را بر تمامیت منافع و مصالح آن.

پس از آن ترك نکرد زمین بی گیاه را که قاصر باشد آب های چشمه ها از سیراب نمودن بلندی های آن زمین و نمی یابد رودخانه ها وسیله رسیدن بدان زمین تا این که ایجاد فرمود از برای آن ابری ظاهرشده که زنده می کند مرده های آن را و بیرون می آورد گیاه آن را، جمع و ترکیب فرمود ابرهای سفید آن را بعد از تفرّق قطعه های درخشان آن ابر و مباینت پاره های آن تا این که چون متحرّك شد معظم ابرهای سفید در آن ابر و درخشان گشت برق آن درجوانب و اطراف آن و خواب نکرد، یعنی ساکن نشد لمعان آن در میان پاره های ابر سفید آن و میان متراکم ابر کشیده آن، فرستاد حق تعالی آن ابر را در حالتی که ریزاننده آب است و دریابنده بعضی بعضی را.

به تحقیق که نزدیك شد به زمین ابری که بهواسطه ثقل مایل است به زمین که بیرون می آورد باد جنوب از ابر باران های به هم ریخته او را و دفعه دفعه های باران های با شدّت او را، پس چون افکند ابر سینه که قریب به اضلاع او است چون شتر گران بار که سینَه خود بر زمین نهد و انداخت گرانی چیزی را که بلند شده بود با او و از باد گرانی که بار شده بود بر آن، بیرون آورد به آن آب از موضع بی گیاه زمین گیاه روییده را و از کوه های کم گیاه گیاه های تر و تازه را.

پس آن زمین بهجت می نماید به زینت مرغزارهای خود و تفاخر می کند به آنچه که پوشانیده شده به او از چادرهای شکوفه های نوردهنده خوش شکل و خوش بوی خود و تکبر می نماید به زیور آنچه که معلّق شده به آن از شکوفه های بانضرت و طراوت آن و گردانیده است حق سبحانه و تعالی آن را که بیرون آورده از زمین مایه وصول عالمیان به مقصود خودشان و روزی از برای چهارپایان و شکافت حضرت باری راه های گشاده را در اطراف زمین و برپا نمود نشانه ها از برای سالکین بر میان های راه های زمین.

الفصل السابع

«فَلَمّا مَهَّدَ أَرْضَهُ، وأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتارَ آدَمَ عليه السلام خِيرَةً مِنْ خَلْقِه، وجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبلَّتِهِ، وأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وأَرْغَدَ فيها أُكُلَهُ، وأَوْعَزَ إِلَيْهِ فيما نَهاهُ عَنْهُ، وأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقدامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِه، وَالمُخاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِه، فَأَقْدَمَ عَلى ما نَهاهُ عَنْهُ مُوافاةً لِسابِقِ عِلْمِه، فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِه، ولِيُقيمَ الحُجَّةَ بِهِ عَلى عِبادِه، ولَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِه، ويَصِلُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَعْرِفَتِه، بَلْ تَعاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلى أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيائِه، ومُتَحَمِّلي ودائِعِ رِسالاتِه، قَرْناً فَقَرْناً، حَتّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله حُجَّتُهُ، وبَلَغَ المَقْطَعَ عُذْرُهُ ونُذْرُهُ، وقَدَّرَ الأَرْزاقَ، فَكَثَّرَها وقَلَّلَها، وقَسَّمَها عَلى الضِّيقِ وَالسَّعةِ، فَعَدَلَ فيها، لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرادَ بِمَيْسُورِها ومَعْسُورِها، ولِيَخْتَبِرَ بِذلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّها وفَقيرِها، ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِها عَقابيلَ فاقَتِها، وبِسَلامَتِها طَوارِقَ آفاتِها، وبِفُرَجِ أَفْراحِها غُصَصَ أَتْراحِها، وخَلَقَ الآجالَ، فَأَطالَها وقَصَّرَها، وقَدَّمَها وأَخَّرَها، ووَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبابَها، وجَعَلَهُ خالِجاً لأَشْطانِها، وقاطِعاً لِمَرائِرِ أَقْرانِها»[1].

اللغة

(**الخيرة**) على وزن العنبة المختار، وقد يسكن الياء، وفي «**القاموس**» خار الرجل على غيره خيرة وخيراً وخيرة، فضله على غيره كخيرة، وفي «**شرح المعتزلي**» الخيرة اسم من اختاره الله يقال: محمّد صلى الله عليه وآله خيرة الله و (**الجبلّة**) بكسر الجيم والباء وتشديد اللاّم الخلقة والطبيعة وقيل في قوله تعالى:

﴿خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

أي ذوي الجبلّة، ويحتمل أن يكون من قبيل الخلق بمعنى المخلوق، وقيل الجبلّة الجماعة من الناس، و (**الأكل**) بضمّتين الرزق والحظ قال تعالى:

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

و (**أوعزت**) إلى فلان في فعل أو ترك، أي تقدّمت وأمرت، و (**خاطر**) بنفسه وماله أشفاهما على خطر وألقاهما في المهلكة قال في المغرب: (**تعهد**) الصيغة وتعاهدها أتاها وأصلحها وحقيقته جدّد العهد بها، و (**القرن**) أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه المقدار

---

(١) بحار الأنوار: ٥/١٤٨ ح ١١، وميزان الحكمة: ٤/٢٩٥٤.

الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم فقيل: أربعون سنة وقيل ثمانون سنة وقيل: مائة، و **(مقطع)** الشيء منتهاه كأنه قطع من هناك، و **(العذر والنذر)** إما مصدران بمعنى الأعذار والانذار أو ما بيّن للمكلّفين من الأعذار في عقوبته لهم إن عصوه، وما أنذرهم به من الحوادث وقوله:

(فعدل) بالتخفيف وفي بعض النسخ بالتشديد، و **(الميسور والمعسور)** مصدران بمعنى اليسر والعسر كالمفتون بمعنى الفتنة، ويمتنع عند سيبويه مجيء المصدر على وزن مفعول قال: الميسور الزمان الذي يوسر فيه، و **(العقابيل)** جمع عقبول وعقبولة، وهي قروح صغار تخرك غبّ الحمى بالشفة و **(الفرج)** جمع فرجة وهي التفصي من الهم، و **(الغصص)** جمع غصّة وهي ما اعترض في الحلق، و **(الاتراح)** جمع الترح محركة كأسباب وسبب الهم والهلاك والانقطاع، و **(خلجه)** يخلجه من باب نصر جذبه، و **(الاشطان)** جمع الشطن بالتحريك وهو الحبل أو الطويل منه.

و **(المرائر)** جمع مرير ومريرة وهي الحبال المفتولة على أكثر من طاق وقيل: الحبال الشّديدة الفتل وقيل: الطوال الدّقاق منها، و **(الأقران)** جمع قرن بالتحريك وهو حبل يجمع به البعيران.

الإعراب

قوله: **(خيرة)** منصوب إمّا على المصدر أو على كونه إسماً منه، كما حكيناه عن **«القاموس»** وعن **«شرح المعتزلي»**، فيكون المعنى اختاره اختياراً أي فضله تفضيلاً واختاره خياراً، وانتصاب اسم المصدر بالفعل أيضاً غير عزيز يقال: توضأ وضوء وتطير طيرة، وافتدى فدية، وعلى كونه بمعنى المختار فهو منصوب على الحال، **(وموافاة)** منصوب على الحدث بحذف العامل أي فوافى المعصية موافاة، وطابق بها سابق العلم مطابقة، ولا يجوز جعله مفعولاً له حتى يكون علة للفعل لاستلزامه كون علمه السّابق علّة لإقدامه على المعصية وهو لا يستقيم على أصول العدلية.

المعنى

إعلم أنّ هذا الفصل متضمن لتمجيد الله سبحانه باعتبار خلقه آدم عليه السلام وتفضيله على غيره وإتمام نعمته عليه ومقابلته بالعصيان ومقابلة عصيانه بقبول توبته وإهباطه إلى الأرض وإكرام ذرّيته بعده ببعث الأنبياء فيهم، وقسمته بينهم معيشتهم وآجالهم بالقلة والكثرة والضيق والسعة وابتلائه لهم بذلك.

فقوله عليه السلام: **(فلمّا مهد أرضه)** أي: سواها وأصلحها أو بسطها على الماء، ولعلّ المراد

هنا إتمام خلق الأَرض على ما تقتضيه المصلحة في نظام أمور ساكنيها، وفي «**شرح البحراني**» أي جعلها مهاداً كقوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

أو جعلها مهداً كقوله تعالى:

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠].

وعلى التقدير الأَوّل أراد أنه خلقها بحيث يسهل على العباد أن يتصرفوا فيها بالقعود والقيام والزراعة وسائر جهات المنفعة، وعلى التقدير الثاني يكون لفظ المهد استعارة لها بملاحظة تشبيهها بمهد الصبي في كونها محل الراحة والنوم، (**وأنفذ أمره**) أي: أمضى أمره التكويني في إيجاد المخلوقات وإتمامها، وكان من تمامها خلقة نوع الإنسان وترجيحه على الأشباه والأقران، كما أشار إليه بقوله: (**اختار**) أبا البشر (آدم) على نبينا وآله وعليه السّلام (**خيرة من خلقه**) وفضله سبحانه وذرّيته على سائر مخلوقاته كما قال عزّ من قائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

وقد أشير إلى بعض جهات التفضيل والاصطفاء في الآيات الشريفة.

فمنها: أنه سبحانه شرفه بالاستخلاف كما قال:

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾ [البقرة: ٣٠].

ومنها: إضافة روحه إليه كما قال:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

ومنها: إضافة خلقته إلى يديه كما قال:

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

ومنها: أمر الملائكة بالسجود له كما قال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

ومنها: تعليمه الأَسماء وإيثاره بذلك على ملائكة السّماء كما قال:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

ومنها: تكرمته وذريّته بما أشير إليه بقوله:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومنها: جعلهم قابلاً لإتيان الطّاعات وحمل الأمانات كما قال:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومنها: تصويره لهم بالصور الحسنة كما قال:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [غافر: ٦٤].

ومنها: تعليمهم البيان كما قال:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ٣ ـ ٤].

ومنها: تعديل الأَعضاء واستقامة القامة كما قال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ومنها: التّعليم بالقلم كما قال:

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ ـ ٥].

ومنها: كونه نسخة جامعة لما في الملك والملكوت وكتاباً مبيناً لأسرار القدرة والجبروت، ولذلك عقب بيان خلقته بقوله:

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام فيما نسب إليه:

دواءك فيك فلا تبصر ... داؤك منك فلا تشعر

وأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه تظهر المضمر

أتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

فقد ظهر بذلك كلّه أنه سبحانه اختاره على غيره **(وجعله أول جبلته)** أي: أوّل شخص من نوع الإنسان وأوّل خليفة خلقت في الأَرض. وفيه ردّ على من قال بقدم الأَنواع المتوالدة **(وأسكنه جنته)** وأباحها له بقوله:

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

(وأرغد فيها أكله) أي: جعله واسعاً طيباً وقال له ولزوجته:

﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

(وأوعز إليه فيما نهاه عنه) أي تقدّم إليه في الأكل من الشجرة ونهاه عن ذلك وعاهده في ذلك كما قال:

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥].

(وأعلمه أن في الأقدام عليه) أي على ما نهاه عنه **(التعرّض لمعصيته)** كما قال:

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

(والمخاطرة بمنزلته) أي: إشراف منزلته على الخطر وانحطاط درجته كما قال:

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

فالضمير في منزلته راجع إلى آدم، ويحتمل رجوعه إليه سبحانه كضمير معصيته على الظاهر **(فأقدم على ما نهاه عنه)**.

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]

وقد مرّ تأويل تلك المعصية وأضرابها في شرح الفصل الثاني عشر والفصل الثالث عشر من فصول الخطبة الأولى، ولا حاجة إلى الإعادة وقوله: **(موافاة لسابق علمه) أراد أنه وافى بالمعصية وطابق بها سابق العلم، فأقدم على المنهي عنه بما قدر عليه وكتب في حقه في القضاء الإلهي السابق على وجوده.**

يدلّ عليه ما ورد في بعض الأخبار أن آدم عليه السلام حجّ لموسى عليه السلام فقال موسى: «أنت خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته فلم عصيته؟» قال آدم عليه السلام له: «أنت موسى الذي اتخذك الله كليماً وأنزل عليك التوراة؟» قال له: نعم قال له: «كم من سنة وجدت الذنب قدر عليّ قبل فعله؟» قال: «كتب عليك قبل أن تفعله بخمسين ألف عام»، قال: «يا موسى أتلومني على أمر قد كتب عليّ فعله قبل أن أفعله بخمسين ألف سنة؟»[1].

فإن قلت: إذا كانت المعصية مكتوبة عليه مقدرة في حقه ثابتة في العلم الإلهي قبل وجوده، فلا بدّ أن يكون مجبوراً فيها غير متمكن من تركها.

قلت: العلم ليس علّة للمعلوم بل حكاية له، وكونها مقدّرة في حقه لا يستلزم اضطراره إذا لم يكن ذلك قدراً حتماً وقضاء لازماً، وإلاّ لما استحق اللّوم والعتاب بقوله:

﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ولم ينسبا العصيان إلى أنفسهما ولم يقولا:

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/٢٧٨.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فإن قلت: كيف لم يكن قدراً حتماً والمستفاد من بعض الأخبار أنّ أكلهما منها كانا بمشيّة حتم وإرادة ملزمة، وهو ما رواه في «**الكافي**» عن عليّ بن إبراهيم عن عليّ بن معبد عن واصل بن سليمان عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «أمر الله ولم يشأ وشاء ولم يأمر، أمر إبليس أن يسجد لآدم عليه السلام وشاء أن لا يسجد ولو شاء لسجد، ونهى آدم عليه السلام من أكل الشجرة وشاء أن يأكل منها ولو لم يشأ لم يأكل»(١).

وعن عليّ بن إبراهيم أيضاً عن المختار بن محمّد الهمداني ومحمّد بن الحسن عن عبد الله بن الحسن العلوي جميعاً عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام قال: «إنّ لله إرادتين ومشيئتين: إرادة حتم، وإرادة عزم، ينهي وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء، أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك، ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت شهوتهما مشيئة الله تعالى، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يذبح إسحاق ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشيئة إبراهيم عليه السلام مشيئة الله»(٢).

قلت: ظاهر الخبرين وإن كان يفيد أنّ صدور الأكل منهما إنّما كان عن مشيئته الملزمة وأنّه لو لم يشأ الأكل أي شاء عدم الأكل لما أمكن لهما الأقدام عليه وإلا لزم غلبة مشيئتهما مشيئته سبحانه، فيلزم منه العجز تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، إلا أنّه يمكن توجيههما على وجه يطابق الأصول العدلية ولا ينافيها.

فنقول: أمّا الرّواية الأولى فقد وجّهت بوجوه:

الأوّل: حملها على التقيّة لكونها موافقة لأصول الجبرية.

الثاني: أن يقال المراد بالمشيئة العلم، فالمقصود أنه أمر بشيء ولم يعلم وقوع ذلك الشيء لعدم وقوعه، فلا يتعلّق علمه بوقوعه، وشاء يعني علم وقوع شيء ولم يأمر به لكونه غير مرضيّ له.

الثالث: أن يقال: المراد بمشيئة الطاعة هداياته وألطافه الخاصة التي ليست من ضروريات التكليف، وبمشيئة المعصية خذلانه وعدم فعل تلك الألطاف بالنسبة إليه وشيء منهما لا يوجب جبره على الفعل والترك، ولا ينافي استحقاق الثواب والعقاب.

الرابع ما قيل: إنّ المراد تهيئة أسباب فعل العبد بعد إرادة العبد ذلك الفعل.

(١) الكافي: ١/١٥١ ح ٣، وتفسير نور الثقلين: ١/٦٢ ح ١١٩.
(٢) الكافي: ١/١٥١ ح ٤، وشرح أصول الكافي: ٤/٢٦٧ ح ٤.

الخامس: أنه إسناد للفعل إلى العلّة البعيدة، فإن العبد وقدرته وإرادته لما كانت مخلوقة لله تعالى فهو جلّ وعلا علّة بعيدة لجميع أفعاله.

السادس أن يقال: إن المراد بمشيئته عدم جبره على فعل الطاعة أو ترك المعصية، وبعبارة أخرى سمي عدم المشيئة مشيئة العدم، فمعنى الحديث أنه أمر الله بشيء على وجه الاختيار وأراده على وجه التفويض والاختيار، ولم يشأ ذلك الشيء مشيئة جبر ولم يرد إرادة قسر، وشاء ولم يأمر يعني شاء شيئاً مشيئة تكليفيّة وإرادة تخييرية، ولم يأمر به على وجه القسر ولم يرده على وجه الجبر.

ثم أوضح ذلك بقوله: أمر إبليس أن يسجد لأدم عليه السلام على سبيل الاختيار، وأراد منه السجود من غير القسر والإجبار، وشاء أن لا يسجد بالجبر والقسر ولو شاء لسجد، أي لو شاء سجوده لآدم على الجبر والقسر لسجد له، لأن الأفعال القسرية لا تخلف عن الفاعل وحيث لم يسجد علم انتفاء المشيئة القسرية والإرادة الجبرية، ونهى آدم عليه السلام عن أكل الشجرة على وجه الاختيار وكره منه أكل ثمرتها من غير الإلجاء والإجبار، وشاء أن يأكل منها أي شاء أن يكون الأكل أمراً اختيارياً، وأراد أن لا يكون مجبوراً في تركه وفي قبول النهي عنه، ولو لم يشأ لم يأكل، أي لو لم يشأ أن يكون له اختيار في أكله، وكان مجبوراً على تركه لم يأكل، لأن المجبور على ترك الشيء ومسلوب الاختيار عن فعله لا يقدر على الإتيان به، وحيث أكل علم أنه صاحب القدرة والاختيار فيه، وأنه تعالى أراد أن يكون فعل العبد وتركه بقدرته واختياره حفظاً لنظام التكليف وتحقيقاً لمعنى الثواب والعقاب.

وإمّا الرّواية الثّانية فقد وجهها الصدوق «ره» بمثل التوجيه السّادس في الرواية السّابقة، قال ره في «**محكي كلامه**» عن كتاب التّوحيد بعد إيراد الرواية:

إن الله تعالى نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة، وقد علم أنهما يأكلان منها لكنه عزّ وجلّ شاء أن لا يحول بينهما وبين الأكل بالجبر والقدرة، كما منعهما من الأكل منها بالنهي والزجر، فهذا معنى مشيئته فيهما، ولو شاء عزّ وجلّ منعهما عن الأكل بالجبر، ثم أكلا منها لكان مشيئتهما قد غلبت مشيئة الله، كما قال العالم عليه السلام، تعالى الله عن العجز علوّاً كبيراً انتهى.

أقول: وسائر الوجوه السّابقة جارية هنا أيضاً كما لا يخفى، ولعلّنا نشبع الكلام على هذا المرام عند تحقيق مسألة الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين في مقام مناسب لذلك إن شاء الله هذا.

وقوله عليه السلام: **(فأهبطه بعد التوبة)** نصّ صريح في كون التوبة قبل الإهباط وهو المطابق للترتيب الذكري في آية طه قال تعالى:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعًاۢ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ١٢٣].

إلا أنّا استظهرنا في التنبيه الأوّل من تنبيهات الفصل الثالث عشر من فصول الخطبة الأولى أنّ الإهباط كان قبل التوبة لدلالة الأخبار الكثيرة على ذلك، ويمكن الجمع بين الأدلّة بحمل ما دلّ على تقدم التوبة على الهبوط على نفس التوبة، وما دلّ على تأخرها عنها على قبولها ويقال: بتأخّره عن التوبة، أو حمل ما دلّ على تأخرها على التوبة الكاملة، والله العالم.

وكيف كان فإنما أهبطه سبحانه **(ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجة به على عباده)**، قد مر كيفية ابتداء النسل في شرح الفصل الرابع عشر من الخطبة الأولى، وأمّا إقامة الحجة به على عباده فالمراد به كونه خليفة لله سبحانه في أرضه وحجّته على خلقه ممن كان معه من أولاده ومن أتى بعده من الذين كانوا على شرعه، وقال الشارح المعتزلي: المراد بإقامة الحجة به أنّه إذا كان أبوهم أخرج من الجنّة بخطيئة واحدة فأخلق بها أن لا يدخلها ذو خطايا جمّة، والأظهر ما قلناه.

(ولم يخلهم بعد أن قبضه) الله سبحانه إليه **(مما يؤكد عليهم حجّة ربوبيته ويصل بينهم وبين معرفته)**، أراد أنه لم يخل الخلق بعد قبض آدم إليه من الحجج المؤكدة لأدلّة ربوبيّته والموصلة للخلق إلى معرفته، وفي الإتيان بلفظ التّأكيد إشارة إلى أن أدلّة الرّبوبيّة وآيات القدرة وبراهين التّوحيد وشواهد التفريد للخالق تعالى ساطعة قائمة، وآثار الجلال والجبروت في الأنفس والآفاق للحقّ سبحانه نيّرة واضحة، وإنما الغرض من بعث الرّسل وإنزال الكتب محض التأكيد والتأييد، وإلاّ فالأدلة العقليّة في مقام الحجيّة كافية وافية.

وقوله: **(بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملي ودائع رسالاته قرناً فقرناً)**، أي أصلحهم وجدد العهد بهم في كل قرن بالحجج الجارية على ألسن الأنبياء والرّسل، والمودعة في الصحف والكتب حسبما مر توضيحه في شرح الفصل الرّابع عشر من الخطبة الأولى في الرّواية الطويلة لأبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام.

(حتى تمّت بنبينا محمّد صلى الله عليه وآله **حجّته)** وأكمل به دينه وختم به أنبياءه ورسله **(وبلغ المقطع عذره ونذره)** أي: بلغ الغاية والنهاية إعذاره وإنذاره، وقيل المراد بالعذر ما بيّن الله سبحانه للمكلّفين من الأعذار في عقوبته لهم إن عصوه، وبالنّذر ما أنذرهم به من الحوادث وخوّفهم به، وقد مرّ **(وقدّر الأرزاق)** في حق الخلائق وكتبها في أمّ الكتاب كما قال سبحانه:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

قيل: أي في السّماء تقدير رزقكم أي ما قسمه لكم مكتوب في اللّوح المحفوظ لأنّه في السّماء **(فكثرها وقلّلها)** أي: كثرها في حقّ طائفة وقلّلها في حقّ طائفة أخرى على ما تقتضيه

الحكمة، أو كثّرها وقلّلها بالنسبة إلى شخص واحد بحسب اختلاف الأزمان والحالات، **(وقسمها على الضيق والسّعة)** لما كان المتبادر من القسمة البسط على التساوي بيّن ما أراده بذكر الضيق والسّعة، ولمّا كان ذلك موهماً للجور أردفع بذكر العدل وقال: **(فعدل فيها)** أي في تلك القسمة.

ثمّ أشار إلى نكتة العدل وحكمته بقوله: **(ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها)** نشر على ترتيب اللّف على الظاهر والضمير فيهما راجع إلى الأرزاق وفي الإضافة توسع، ويحتمل عوده إلى الأشخاص المفهوم من المقام أو إلى الدّنيا أو إلى الأرض، ولعلّ أحديهما أنسب ببعض الضمائر الآتية، وقد مرّ تحقيق معنى اختبار الله سبحانه وابتلائه في شرح الخطبة الثانية والستين.

ومحصّل المراد أنّه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ويجعل بعضهم غنيّاً وبعضهم فقيراً، ويختبر بذلك الشكر من الأغنياء والصبر من الفقراء، لإعظام مثوباتهم وإعلاء درجاتهم إن شكروا وقنعوا، وتشديد عقوباتهم واحتطاط مقاماتهم إن كفروا وجزعوا، ويجيء لذلك إن شاء الله مزيد توضيح في شرح الخطبة القاصعة.

(ثمّ قرن بسعتها عقابيل فاقتها) لا يخفى ما في تشبيه الفاقة وهي الفقر والحاجة أو آثارها بالعقابيل من اللّطف، لكونها مما يقبح في المنظر وتخرج في العضو الذي لا يتيسّر ستره عن النّاس، وتشتمل على فوائد خفية، وكذلك الفقر وما يتبعه، وأيضاً تكون غالباً بعد التلذذ والتنعم **(وبسلامتها طوارق آفاتها)** أراد بها متجددات المصائب وما يأتي بغتة من الطروق وهو الإتيان باللّيل **(وبفرج أفراجها غصص أتراحها)** أراد أن التفصي من همومها مقارن لغصصها، ونشاطها معقب لهلاكها قال الأعشى:

ولكن أرى الدّهر الذي هو خائن ... إذا صلحت كفاي عاد فأفسدا
شباب وشيب وافتقار وثروة ... فلله هذا الدّهر كيف ترددا

وقال الحريري:

وقع الشّوائب شيّب ... والدّهر بالنّاس قلّب
إن دان يوماً لشخص ... ففي غد يتغلّب
فلا تثق بوميض من ... برقه فهو خلّب

وقال آخر:

استقدر الله خيراً وأرضين به ... فبينما العسر إذ دارت مياسير
وبينما المرء في الإحياء مغتبط ... إذ صار في الرّمس تعفوه الأعاصير

(وخلق الاجال فأطالها وقصرها وقدّمها وأخّرها) قال في «البحار»: الأَجل محرّكة مدّة الشيء وغاية الوقت في الموت وحلول الدّين، وتعليق الإطالة والتقصير على الأوّل واضح، وأما التقديم والتأخير فيمكن أن يكون باعتبار أن لكلّ مدة غاية، وحينئذٍ يرجع التقديم إلى التقصير والإطالة إلى التأخير، ويكون العطف للتفسير تأكيداً، ويحتمل أن يكون المراد بالتقديم جعل بعض الأعمار سابقاً على بعض وتقديم بعض الأمم على بعض مثلاً فيكون تأسيساً، ويمكن أن يراد بتقديم الآجال قطع بعض الأعمال لبعض الأسباب كقطع الرّحم مثلاً، كما ورد في الأخبار وبتأخيرها مدّها لبعض الأسباب فيعود الضمير في قدّمها وأخّرها إلى الأجل بالمعنى الثاني على وجه الاستخدام أو نوع من التجوّز في التعليق كما مرّ.

(ووصل بالموت أسبابها) الضمير راجع إلى الآجال، والمراد باتصال أسبابها به على كون الأَجل بمعنى مدّة العمر هو اتصال أسباب انقضاء الاجال به، وعلى المعنى الثاني هو اتصال أسباب نفس الاجال به، والمراد بالأسباب على ذلك هي بعض الأمراض المفضية إلى الموت ونحوها من الأسباب المؤدّية إليه.

(وجعله خالجاً لأَشطانها) أي: جعل الموت جاذباً لحبائل الآجال إليه وأراد بها الأَعمار تشبيهاً لها بالأَشطان في الطول والامتداد، واستعار لفظ الخلج للموت باعتبار استلزام الموت لقرب الأَجل كما أن الجاذب يقرب المجذوب إلى نفسه، **(وقاطعاً لمرائر أقرانها)** قال المجلسي: ولعلّ المراد بمرائر أقران الآجال الأَعمار التي يرجى امتدادها لقوّة المزاج أو البنية ونحوها، والله العالم.

الترجمة

پس چون بسط فرمود و گسترانید حقّ سبحانه و تعالی زمین خود را و اجراء کرد امر خود را، اختیار نمود جناب آدم (عليه السلام) را اختیار کردنی یا اینکه برگزید او را برگزیده شده از میان خلقان و گردانید او را اوّل طبیعتی از نوع انسان و ساکن فرمود او را در بهشت خود و وسعت داد در آنجا رزق او را و مقدّم داشت به سوی وی در آنچه نهی کرد او را از آن، یعنی اکل از شجره و اعلام کرد او را که در اقدام نمودن بر آن فعل، متعرّض شدن است به معصیت او و در خطر افکندن و ضایع ساختن است منزلت و مرتبت او، پس اقدام کرد جناب آدم بر آنچه که نهی فرموده بود خدا از آن و موافقت کرد این موافقت نمودنی با علم سابق حضرت باری.

پس فرود آورد او را به زمین بعد از توبه و انابت تا اینکه آباد نماید زمین خود را با نسل او و تا اینکه اقامه حجت نماید با او به بندگان خود و خالی نگذاشت بندگان خود را بعد از قبض فرمودن روح آدم (عليه السلام) از چیزی که مؤکّد شود حجت پروردگاری او را و وصل کند میان ایشان و میان معرفت او، بلکه تجدید عهد فرمود با ایشان به حجت ها و دلیل ها بر زبان برگزیدگان از پیغمبران خود و متحملان امانت های پیغام های خود در قرنی بعد از قرنی تا اینکه تمام شد به پیغمبر ما که محمّد بن عبدالله صلوات الله علیه و آله است حجّت بالغه او و به نهایت رسید عذر او در عذاب عاصیان و ترساندن او از آتش سوزان.

و مقدّر فرمود روزی ها را، پس بسیار گردانید آن را بر بعضی و کم گردانید آن را بر بعض آخر و قسمت کرد آنها را بر تنگی و وسعت، پس عدالت کرد در آن قسمت تا اینکه امتحان نماید هرکه را بخواهد با آسانی روزی و دشواری آن و تا اینکه اختیار نماید با این، شکر و صبر را از توانگر و درویش آن.

پس از آن مقارن ساخت به فراخی روزی ها، تبخال های فقر و فاقه آن و به سلامتی های آن، مصیبت های ناگهان آن را و به گشادگی های شادی های آن، غصّه های هلاکت های آن را و خلق کرد اجل ها را، پس دراز نمود آن را و کوتاه گردانید و مقدّم فرمود بعض آن را و تأخیر انداخت بعض دیگر را و چشانید به مرگ اسباب اجل ها را و گردانید مرگ را کشنده ریسمان های اجل ها و برنده ریسمان های محکم پرتاب آنها.

الفصل الثامن

«عالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمائِرِ الْمُضْمِرِينَ، ونَجْوَى الْمُتَخافِتِينَ، وخَواطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وعُقَدِ عَزِيماتِ اليَقِينِ، ومَسارِقِ إِيْماضِ الجُفُونِ، وما ضَمِنَتْهُ أكْنانُ القُلُوبِ، وغَيابَاتُ الغُيُوبِ، وما أَصْغَتْ لاسْتِراقِه مَصائِخُ الأَسْماعِ، ومَصائِفِ الذَّرِّ، ومَشاتِي الْهَوامِّ، ورَجْعِ الحَنِينِ مِنَ الْمُولَهاتِ وهَمْسِ الأَقْدامِ، ومُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلائِجِ غُلُفِ الأَكْمامِ، ومُنْقَمَعِ الْوُحُوشِ مِنْ غِيرانِ الجِبالِ وأَوْدِيَتِها، ومُخْتَبَىءِ البَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الأَشْجارِ وَأَلْحِيَتِها، ومَغْرَزِ الأَوْراقِ مِنَ الأَفْنانِ، ومَحَطِّ الأَمْشاجِ مِنْ مَسارِبِ الأَصْلابِ، وناشِئَةِ الْغُيُومِ ومُتَلاحِمِها، ودُرُورِ قَطْرِ السَّحابِ في مُتَراكِمِها، وما تَسْفِي الأَعاصِيرُ بِذُيُولِها، وتَعْفُو الأَمْطارُ بِسُيُولِها، وعَوْمِ نَباتِ الأَرْضِ في كُثْبانِ الرِّمالِ، ومُسْتَقَرِّ ذَواتِ الأَجْنِحَةِ بِذُرى شَناخِيبِ الجِبالِ، وتَغْرِيدِ ذَواتِ الْمَنْطِقِ في دَياجِيرِ الأَوْكارِ، وما أَوْعَتْهُ الأَصْدافُ وحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْواجُ الْبِحارِ، وما غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شارِقُ نَهارٍ، ومَا اعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْباقُ الدَّياجِيرِ وسُبُحاتُ النُّورِ، وأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، ورَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، ومُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، ومِثْقالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وهَماهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هامَّةٍ، وما عَلَيْها مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ ساقِطِ وَرَقَةٍ، أَوْ قَرارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقاعَةِ دَمٍ ومُضْغَةٍ، أَوْ ناشِئَةِ خَلْقٍ وسُلالَةٍ، لَمْ يَلْحَقْهُ في ذٰلِكَ كُلْفَةٌ، وَلاَ اعْتَرَضَتْهُ في حِفْظِ مَا ابْتَدَعَهُ مِنْ خَلْقِهِ عارِضَةٌ، ولاَ اعْتَوَرَتْهُ في تَنْفِيذِ الأُمورِ وتَدابِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلالَةٌ ولا فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَ فِيهِمْ عِلْمُهُ، وأَحْصاهُمْ عَدُّهُ، ووَسِعَهُمْ عَدْلُهُ، وغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ ما هُوَ أَهْلُهُ.

أَللّٰهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدادِ الكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مأمُولٍ، وإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُوٍّ، أَللّٰهُمَّ وقَدْ بَسَطْتَ لي فيما لا أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، ولا أُثْنِي بِهِ عَلى أَحَدٍ سِواكَ، ولا أُوَجِّهُهُ إِلى مَعادِنِ الخَيْبَةِ، ومَواضِعِ الرِّيبَةِ، وعَدَلْتَ بِلِساني عَنْ مَدائِحِ الآدَمِيِّينَ، وَالثَّناءِ عَلى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ، أَللّٰهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ على مَنْ أَثْنى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزاءٍ، أَوْ عارِفَةٌ مِنْ عَطاءٍ، وقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً على ذَخائِرِ الرَّحْمَةِ، وكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ.

أَللّٰهُمَّ وهذا مَقامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذي هُوَ لَكَ، ولَمْ يَرَ مُسْتَحِقًّا لِهذِهِ المَحامِدِ وَالْمَمادِحِ غَيْرَكَ، وبِي فاقَةٌ إِلَيْكَ، لا يَجْبُرُ مَسْكَنَتَها إِلاَّ فَضْلُكَ، ولا يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِها إِلاَّ مَنُّكَ وجُودُكَ، فَهَبْ لَنا في هذَا المَقامِ رِضاكَ، وأَغْنِنا عَنْ مَدِّ الأَيْدي إِلى سِواكَ، إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٤/ ١١٤، وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٣١.

اللغة

(**السرّ**) هو ما يكتم وهو خلاف الإعلان، و (**ضمير**) الإنسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر على التشبيه بسريرة وسرائر، لأن باب فعيل إذا كان اسماً لمذكر يجمع كجمع رغيف وأرغفة ورغفان قاله الفيومي، وفي «**القاموس**» الضمير السّر وداخل الخاطر و (**النجوى**) اسم مصدر بمعنى المسارة من انتجى القوم وتناجوا تسارّوا و (**التخافت**) كالإخفات خلاف الجهر قال الشّاعر:

أخاطب جهراً إذ لهن تخافت وشتان بين الجهر والمنطق الخفت

و (**الخاطر**) ما يخطر في القلب من تدبير أمر ونحوه، و (**العقد**) جمع عقدة بالضمّ وعقدة كلّ شيء الموضع الذي عقد منه وأحكم و (**أومضت**) المرأة إذا سارقت النظر وأومض البرق إذا لمع لمعاً خفيفاً وأومض فلان أشار إشارة خفية، و (**الاكنان**) والاكنة جمع الكنّ وهو اسم لكلّ ما يستتر فيه الإنسان لدفع الحرّ والبرد من الابنية ونحوها وستر كلّ شيء ووقائه قال تعالى:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١].

قال الشّارح المعتزلي: ويروى أكنة القلوب وهي غلقها وأغطيتها قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الانعام: ٢٥].

و (**غيابة**) البئر قعره قال تعالى:

﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠].

وغيابة كلّ شيء ما يسترك منه و (**استراق**) السّمع الاستماع في خفيّة قال تعالى:

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨].

و (**الذّر**) جمع ذرّة وهي صغار النّمل و (**الهوام**) جمع الهامّة وهو كلّ ذات سمّ يقتل كبعض الحيّات وما لا يقتل فهو السّامة كالزنبور، وقد يطلق الهوام على ما يدبّ من الحيوان كالحشرات و (**منفسح**) الثمرة بالنون والحاء المهملة من باب الانفعال موضع انفساحها، ويروى متفسخ الثمرة بالتاء والسّين المشددة والخاء المعجمة من باب التّفعل يقال: تفسخ الشعر عن الجلد زال، و (**الولايج**) المواضع السّاترة جمع وليجة وهي كالكهف يستتر فيه المارّة من مطر أو غيره ويقال: أيضاً في جمعه ولج وأولاج، و (**الغلف**) بضمة أو ضمتين جمع غلاف ككتاب ويوجد في النّسخ على الوجهين و (**الاكمام**) جمع الكمّ بالكسر وهو وعاء الطلع وغطاء النّور، ويجمع أيضاً على الأكمة وكمام.

و **(منقمع)** الوحوش من باب الانفعال محلّ الانقماع والاختفاء، وفي بعض النسخ من باب التفعل بمعناه و **(الغيران)** جمع غار وهو ما ينحت في الجبل شبه المغارة، فإذا اتسع قيل كهف، وقيل: الغار الحجر يأوي إليه الوحش أو كل مطمئن في الأَرض أو المنخفض من الجبل و **(الالحية)** جمع اللّحاء ككساء وهي قشر الشجر و **(الامشاج)** قيل: مفرد وقيل جمع مشج بالفتح أو بالتحريك أو مشيج وزن يتيم وأيتام أي المختلط.

و **(المسارب)** المواضع الذي يتسرب فيها المني أي يسيل أو يختفي من قولهم تسرب الوحش إذا دخل في سربه أي جحره، واختفى أو مجاري المني من السرب بمعنى الطريق، وتفسيرها بالأخلاط التي يتولد منها المني كما احتمله «**الشارح البحراني**» بعيد **(في متراكمها)** في بعض النسخ ومتراكمها بالواو، و **(الأعاصير)** جمع الأعصار وهو بالكسر الريح التي تهب صاعداً من الأرض نحو السّماء كالعمود وقيل: التي فيها نار وقيل: التي فيها العصار وهو الغبار الشديد، و **(العوم)** السباحة وسير السّفينة، و **(بنات الأرض)** بتقديم الباء على النون على ما في أكثر النسخ وفي بعضها بالعكس، و **(ذرى)** جمع ذروة بالكسر والضمّ، **(وغرد)** الطائر كفرح وغرّد تغريداً رفع صوته وطرب به، و **(الحضن)** بالكسر ما دون الابط إلى الكشح أو الصدر والعضدان وما بينهما، وحضن الصبي من باب نصر جعله في حضنه.

و **(ذرت)** الشمس تذر ذروا أي طلعت وشرقت، و **(شرقت)** **الشمس وأشرقت أي أضاءت، و (التّعداد)** بالفتح مصدر للمبالغة والتكثير، وقال الكوفيون أصله التفعيل الذي يفيد المبالغة قلبت ياؤه ألفاً وبالكسر شاذ، و **(المحامد)** جمع المحمدة بفتح العين وكسرها يقال: حمده كسمعه حمداً ومحمِداً ومحمَداً ومحمِدة ومحمَدة أثنا عليه.

الإعراب

(عالم السرّ) خبر لمبتدأ محذوف بدلالة المقام، وكلمة **(من)** في قوله: **(من ضمائر المضمرين)** بيانية إن كان الضمير بمعنى السرّ وهو الأَظهر، وبمعنى **(في)** على حد قوله تعالى:

﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

إن كان بمعنى القلب، ونجوى المتخافتين على كون **(من)** بيانية عطف على الضّمائر، وعلى كونها بمعنى **(في)** يكون عطفاً على السّر والأوّل أظهر، لأنّ نجوى المتخافتين وما يتلوه من المعطوفات كلّها من قبيل الأسرار، وقوله: **(من ولائج غلف الأكمام)** حرف من بيانيّة أو تبعيضية على رواية منفسح بالنون والحاء المهملة، وصلة أو بيانية على روايته بالتاء والخاء المعجمة، وإضافة الغلف إلى الأكمام من قبيل إضافة العام إلى الخاص لإفادة الاختصاص إذ كل كمّ غلاف دون العكس، وجملة **(لم يلحقه)** إما حال من فاعل عالم السر المصدرية الفصل أو استئناف بياني، والثّاني أظهر.

وقوله: **(فخير مأمول)** خبر لمبتدأ محذوف، وقوله: **(بسطت لي فيما لا أمدح)** كلمة **(في)** إما زائدة أو للظرفيّة المجازية، ومفعول بسطت محذوف أي بسطت لي القدرة أو اللّسان أو الكلام فيما لا أمدح، و**(الباء)** في قوله: **(عدلت بلساني)** للتعدية ودليلاً منصوب إمّا على الحال من مفعول رجوتك أو مفعول له، و**(من)** في قوله: **(من خلّتها)** زائدة، و**(الفاء)** في قوله: **(فهب لنا فصيحة)**.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما ذكر في الفصول السّابقة عجائب قدرته تعالى وبدائع صنعته ودلائل حكمته وبراهين عظمته، أردفها بهذا الفصل للتنبيه على عموم علمه سبحانه بجزئيات الأمور وخفايا الأسرار، وقد مضى بعض الكلام في هذا المعنى في الخطبة الخامسة والثمانين والخطبة التاسعة والأربعين، ومر تحقيق عموم علمه بجميع الأشياء في تنبيه الفصل السّابع من فصول الخطبة الأولى، إلاّ أن هذا الفصل قد تضمن ما لم تتضمنه الخطب السابقة، فإنّ فيه مع جزالة اللّفظ وعظم خطر المعنى وفصاحة العبارة وغزارة الفحوى الإشارة إلى أصناف خلقه وأنواع بريّته وعجائب ربويته، وقد أحصا عليه السلام فيه من خفيّات المخلوقات وخبيّات الموجودات ومكنونات المصنوعات ما لا يوجد في كلام غيره بل لا يقدر عليه سواه، تنبيهاً بذلك على برهان علمه تعالى بها، لأن خلقه لها وحفظه وتربيته لكل منها وإظهار بدائع الحكمة في كل صفة من أوصافها وحال من أحوالها لا يتعقّل إلاّ ممن هو عالم بها مدرك لحقائقها، كما قال عز من قائل:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

قال الشّارح المعتزلي[١] ولنعم ما قال: لو سمع هذا الكلام أرسطو طاليس القائل بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات هذا الكلام له عليه السلام لخشع قلبه ووقفّ شعره واضطرب فكره، ألا ترى ما عليه من الرُّواء والمهابة والعظمة والفخام والمتانة والجزالة مع ما قد أشرب من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه، فإن هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة، وجدول من ذلك البحر، وجذوة من تلك النار كأنّه شرح قوله تعالى:

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فلنعد إلى شرح كلامه عليه السلام لعجز اللسان وقصور البيان عن إحصاء فضائله واستقصاء خصائصه فأقول قوله: **(عالم السرّ من ضمائر المضمرين)** أراد به أنه خبير بمكتوبات السرائر

(١) بحار الأنوار: ١٥٧/٥٤.

ومحيط بمكنونات الضمائر، لا يعزب عن علمه شيء منها كما قال عز من قائل:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧].

(ونجوى المتخافتين) أي مسارة الذين يسرّون المنطق كما قال تعالى:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

(وخواطر رجم الظنون) يعني ما يخطر بالقلب ممّا يسبق إليه الظّنون من غير برهان، **(وعقد عزيمات اليقين)** أي: محكمات العقائد الناشئة عن اليقين التي عقد عليها القلب واطمأنت إليها النّفس **(ومسارق إيماض الجفون)** يعني خفيات إشارة الجفون، أو المراد بالجفون العيون مجازاً وبالمسارق النظرات الخفية التي للعيون كأنّها تسرق النظر لإخفائها فيكون المقصود علمه بالنّظرات الخفيّة للعيون حين تومض أي تلمع لمعاً خفيفاً يبرز لمعانها تارة، ويختفي أخرى عند فتح الجفون وطبقها كوميض البرق.

(وما ضمنته أكنان القلوب) أي: أستارها وأغطيتها **(وغيابات الغيوب)** أي: ستراتها وحجاباتها المانعة من إدراك ما فيها **(وما أصغت لاستراقه مصائخ الإسماع)** يعني: تسمعت ومالت إلى استماعه خفية مخارق الأسماع التي تسمع وتصاخ بها، **(ومصائف الذر ومشاتي الهوام)** يعني: المواضع التي يصيف فيها أي يقيم بالصّيف صغار النمل والمواضع التي تشتو فيها، أي تأوى بالشتاء حشرات الأرض، **(ورجع الحنين من المولهات)** أراد به ترجيع الصوت وترديد شدة البكاء من النوق وكلّ أنثى حيل بينها وبين أولادها، **(وهمس الأقدام)** أخفى ما يكون من صوتها.

(ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام) أي: موضع نموّها أو محلّ انقطاعها من بطانة الأكمام والمواضع المستترة منها **(ومنقمع الوحوش)** محلّ اختفائها **(من غيران الجبال)** وأغوارها أي حجراتها التي تأوى إليها الوحش، **(وأوديتها)** الضمير راجع إلى الجبال، وفي الإضافة توسع **(ومختبيء البعوض)** موضع اختفاء البق **(بين سوق الأشجار وألحيتها)** أي: بين جذعها وقشرها **(ومغرز الأوراق من الأفنان)** محلّ وصلها من الاغصان **(ومحط الامشاج من مسارب الأصلاب)** أي: انحدار الأخلاط أو محل انحدارها من مجاري الأصلاب ومسيلها أو مخفاها. قيل في قوله تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢].

أي: أخلاط من الطبائع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وقيل: من الأجزاء المختلفة في الاستعداد، وقيل: أي أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة وكل منهما مختلفة الأجزاء في الرقة والقوام والخواص، ولذلك يصير كلّ جزء منهما مادّة عضو وقيل: ألوان فإن

ماء الرّجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اختلطا اخضرا، وكلامه عليه السلام يؤيد بعض الوجوه كما لا يخفى فيكون محطّ الأَمشاج مقرّ النطفة من الرّحم أو من الأَصلاب على بعض الوجوه في المسارب فافهم.

(وناشئة الغيوم ومتلاحمها) أراد أوّل ما ينشأ منها ولم يتكامل اجتماعها وما يلتصق بعضها ببعض ويلتحم **(ودرور قطر السحاب في متراكمها)** أي: سيلان المطر في متكاثف السّحاب ومجتمعها **(وما تسفي الأعاصير)** أي تذروه وتثيره من التراب ونحوه **(بذيولها)** بأطرافها التي تجرها على الأَرض، ولطف الاستعارة ظاهر **(وتعفو الأَمطار بسيولها)** أي: تمحوه وتدرسه من الآثار بمائها الكثير السّائل.

(وعوم بنات الأَرض في كثبان الرّمال) أراد عليه السلام ببنات الأَرض الحشرات والهوام التي تكون في تلال الرّمال وتنشأ فيها، استعار لحركتها فيها لفظ العوم الذي هو السّباحة في الماءِ بمشابهة عدم استقرارها أو غوصها فيها، وعلى ما في بعض النسخ من تقديم النون فلفظ العوم استعارة لحركة عروق النباتات فيها كأَرجل السّابحين وأيديهم في الماء.

(ومستقر ذوات الأَجنحة من الطيور بذرى شناخيب الجبال) وأعالي رؤوسها **(وتغريد ذوات المنطق)** أي: تطريب صاحبات النطق من الأَطيار ورفع أصواتها بالغناء **(في دياجير الأَوكار)** وظلماتها **(وما أوعنه الأَصداف)** أي حفظته وجمعته من اللّئالي، **(وحضنت عليه أمواج البحار)** من السمك والعنبر وغيرهما، استعار لفظ الحضن للأَمواج في انطباقها بملاحظة شبهها بالحواضن في ضم فرخها وبيضها إلى حضنها، **(وما غشيته)** وغطته **(سدفة ليل)** وظلمتها **(أو ذرّ عليه شارق نهار)** أي: طلعت عليه الشّمس المضيئة بالنهار.

(وما اعتقبت) وتعاقبت **(عليه أطباق الدياجير)** وأغطية الظلم **(وسبحات النور)** أي: ما يجري ويسبح عليه النور من سبح الفرس وهو جريه، والمراد بما تعاقب عليه النور والظلمة ما تغطيه ظلمة بعد نور ونور بعد ظلمة، ويحتمل أن يراد تعاقب أفراد كل منهما **(وأثر كلّ خطوة)** أي: علامة كل مشيئة تبقى في الأَرض، **(وحسّ كلّ حركة)** وصوتها الخفي، **(ورجع كل كلمة)** أراد به ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده في فكرك، أو جواب الكلمة أو ترديد الصوت وترجيعه عند التلفظ بالكلمة أو إرجاع النفس للتلفظ بكلمة بعد الوقف على كلمة.

(وتحريك كلّ شفة ومستقر كل نسمة) أي: كل إنسان أو كلّ دابة فيها روح، ومستقرها إما الصّلب أو الرّحم أو القبر أو مكانه في الدّنيا أو في الآخرة أو الأعم **(ومثقال كلّ ذرّة)** يعني وزنها لا المثقال المعروف كما قال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

(وهماهم كلّ نفس هامة) أراد عليه السلام ترديدات الصّوت في الحلق أو تردداته في الصدر من

الهم والحزن من كلّ نفس ذات همة تعزم على أمر، **(وما عليها)** أي: على الأرض المفهومة بقرينة المقام، وإن لم يسبق لها ذكر في الكلام على حدّ قوله تعالى: كلّ من عليها فإن **(من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نطفة)** مستقرها **(أو نقاعة دم)** أي: نقرة يجتمع فيها الدّم **(ومضغة)** قطعة لحم بقدر ما يمضغ، **(أو ناشئة خلق)** أي: الصّورة ينشئها سبحانه في البدن أو الرّوح التي ينفخها فيه، **(وسلالة)** وهي في الأصل ما استلّ واستخرج من شيء وسمي الولد، ونطفة الإنسان سلالة باعتبار أنّهما استلا منه، وفي هذه الفقرات إشارة إلى قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

ثمّ إنّه بعد بيان عموم علمه بالمخلوقات على اختلاف أنواعها وأصنافها نبّه على تنزّهه سبحانه في ذلك عن صفات البشر فقال: **(لم يلحقه في ذلك)** أي: في علمه بالجزئيات المذكورة أو في خلقه لها على اختلاف موادّها وماهيّاتها وخواصّها وحالاتها **(كلفة)** ومشقّة **(ولا اعترضته)** ومنعته **(في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة)**، أي حالة أو خصلة مانعة عن الحفظ **(ولا اعتورته)** قيل أحاطت به **(في تنفيذ الأمور)** وإمضائها **(وتدابير المخلوقين)** وإجراء أمورهم على وفق المصلحة والعلم بالعواقب **(ملالة)** وضجر **(ولا فترة)** أي: كسر بعد حدّة ولين بعد شدّة.

(بل نفذ فيهم علمه) وأحاط بظواهرهم وبواطنهم لا يعزب عنه شيء منه، **(وأحصاهم عدّة)**، وفي بعض النسخ عدوه **(ووسعهم عدله وغمرهم)** أي غطاهم وشملهم وسترهم **(فضله)** ونواله **(مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله)** وحقيقة ما هو مستحقه من الثناء الجميل والوصف على جهة التعظيم والتبجيل، وأن يعبد حق العبادة، ويعرف حق المعرفة.

وفيه تنبيه على حقارة ثنائهم وعبادتهم في جنب جلاله وعظمته واستحقاقه لما هو أهله ليدوم شكرهم وثناؤهم ولا يستكثروا شيئاً من طاعاتهم وعباداتهم، ثمّ إنه لما حمد الله وأثنا عليه ووصفه بأوصاف الكمال ونعوت الكبرياء والجلال أردفه بالدّعاء والسؤال والتضرع والابتهال فقال:

(اللهمّ أنت أهل الوصف الجميل) دون غيرك لاتّصافك بالصّفات الحسنى والأمثال العليا **(والتعداد الكثير)** من النعم والالاء والمنن والعطايا **(إن تؤمل)** للكرم والامتنان **(فـ) أنت (خير مأمول وإن ترج)** للرحمة والغفران **(فـ) أنت (أكرم مرجو)** لأنّ كرمك لا يضيق عن سؤال أحد ويدك بالعطاء أعلى من كلّ يد.

(اللّهمّ وقد بسطت لي) القدرة **(فيما)** كناية عن بلاغة الكلام وفصاحة البيان وعذوبة

اللّسان **(لا أمدح به غيرك ولا أثنى به على أحد سواك)** لاختصاصك بالفضل والكمال وتفردك بالعظمة والجلال، **(ولا أوجّهه)** أي: لا أصرف ما أعطيتني من الفصاحة والبلاغة في الحمد والمدح **(إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة)** يعني: أني أقصر حمدي وثنائي عليك ولا أصرفه إلى أحد غيرك من المخلوقين علماً منّي بأنهم معادن الخيبة ومظان الحرمان، لأنّ عطاياهم قليلة فانية، مع أنّهم لا يعطون غالباً فإن أعطوا قلّوا وإن لم يعطوا ملّوا، وعرفاناً مني بأنهم مواضع الرّيبة والتهمة لعدم الاعتماد على إعطائهم وعدم الوثوق بمواعيدهم، لكونهم عاجزين محتاجين مفتقرين مثل السّائلين عنهم، فمن توجّه بحاجة إليهم وأناخ مطايا الرجاء في بابهم فقد تعرّض للحرمان واستحق فوت الإحسان.

اللهم **(و)** قد **(عدلت بلساني عن مدائح الآدميين)** إلى مدائحك **(والثناء على المربوبين المخلوقين)** إلى الثناء عليك.

(اللّهم ولكلّ مثن) ومادح **(على من)** مدحه و **(أثنا عليه مثوبة من جزاء)** مكافأة على ثنائه **(أو عارفة من عطاء)** مقابلة لمدحه **(وقد رجوتك)** وقصرت رجائي عليك لكونك **(دليلاً على ذخائر الرحمة)** موصلاً إلى أسبابها بالتوفيق والتأييد والعناية والمراد بها عظائم العطايا المذخورة ليوم الحاجة والمعدّة لحال الفاقة، **(و)** أملتك هادياً إلى **(كنوز المغفرة)** أراد بها خزائن الغفران ومعادن الإحسان وكونه سبحانه هادياً ودليلاً عليهما باعتبار أنه بيده مفاتيح الكرم والجود وهو ولي الرّحمة والمغفرة لكلّ موجد موجود.

(اللّهم وهذا) المقام الذي أنا فيه مشغول بتعظيمك وتوحيدك وخطيب بمحاسن محامدك **(مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك)** والتمجيد الذي هو مختص بك، **(ولم ير مستحقاً لهذه المحامد والممادح غيرك)** لانحصار أوصاف الجمال ونعوت الكمال التي بها يستحق الحمد والثناء فيك **(وبي)** فقر و **(فاقة إليك)** وهي الحاجة إلى كرمه وإحسانه ورحمته وغفرانه ومرضاته ورضوانه مما لا ينجحها أحد من المخلوقين ولا يقدر على رفعها إلاّ ربّ العالمين، ولذلك قصر، عليه وقال: **(لا يجبر مسكنتها إلاّ فضلك ولا ينعش من خلّتها إلاّ منك وجودك)** أي: لا يصلح ذلّ تلك الفاقة وسوء حالها إلاّ فضلك ولا يرفع خصاصتها إلاّ منك **(فهب لنا في هذا المقام رضاك، وأغننا من مد الأيدي إلى سواك، إنّك على كلّ شيء قدير)** وبالإجابة حقيق جدير.

قال الشارح المسكين: وأنا أتأسى في هذا المقام بجدي أمير المؤمنين وسيد الوصيّين، وأتوسّل به إلى حضرة ذي الجلال، وأناديه بلسان التضرع والابتهال، وأقول:

يا ربي وربّ كلّ شيء قد كثرت ذنوبي، وجمّت خطيئتي، وأوقرت الخطايا ظهري، وأنت الغفور الرّحيم، العزيز الكريم، وكثير ما أسألك يسير في وجدك وخطير ما أستوهبك

حقير في وسعك، فاجعل ما أوضحته في شرح هذه الخطبة الشريفة من دلائل توحيدك، وبراهين تفريدك، وكشفت الغطاء عنه من شواهد ربوبيّتك، وأدلّة قدرتك، وأسرار تدبيرك وحكمتك، ذخيرة مأمولة ليوم فقري وفاقتي، وعدّة مرجوّة لحال مسكنتي وحاجتي، وممحاة لكبائر سيأتي، ووسيلة لارتفاع درجتي، ولا تقطع رجائي منك، ولا تبت سببي عنك، وتفضّل عليّ بإتمام شرح الكتاب بمحمّد وآله الأطياب، إنّك أنت المفضّل الوهّاب.

الترجمة

خداوند تعالى، عالم راز و سرّ است از ضميرهاى صاحبان ضمير و از نجواى راز گويندگان و از خاطرهاى انداخته شده ظن و گمان؛ يعنى خاطرهايى كه سبقت نمايد به سوى آن ظنّ ها و از آنچه منعقد مى شود در قلب از عزيمت هاى يقين و از نظرهاى خفيه چشم ها در وقت نگريستن و از آنچه كه در برگرفته است او را پرده هاى قلب ها و حجاب هاى غيب ها و از آنچه كه گوش داده است از براى نهان شنيدن آن مواضع سوراخ گوش ها و از جاى هاى تابستانى موران و از جاى هاى زمستانى جنبندگان و از بازگردانيدن آواز آه و ناله از مادران جداشده از فرزندان و از صوت نهان قدم ها و از جاى روييدن ميوه از مداخل و بواطن غلاف هايى كه در آن ميوه مخلوق مى شود و از محل اختفاء وحش ها از غارهاى كوه ها و از رودخانه هاى آنها و از موضع پنهان شدن پشّه ها در ميان ساقه هاى درختان و پوست هاى آنها و از مكان رستن برگ ها از شاخه ها و از محلّ فرود آمدن اخلاط نطفه از مجارى صلب ها و از تازه برآمده ابرها و به هم پيوسته آنها و از ريزان شدن قطره ها از ابرها و به هم برنشسته آنها و از آنچه كه مى پاشد آن را گردبادها به دامن هاى خود و محو مى كند آن را باران ها به سيل هاى خود و از فرورفتن و سيرنمودن حشرات الارض در تل هاى ريگ ها و از محل استقرار صاحبان بال ها به بلندى هاى سرهاى كوه ها و از آواز گردانيدن به نغمات و سرود صاحبان نطق از مرغان در تاريكى هاى آشيان ها و از آنچه كه حفظ نموده است آن را صدف ها، يعنى از لؤلؤ و مرواريد و دايگى نموده است آن را موج هاى درياها، يعنى از عنبر و ماهى و از آنچه كه پوشيده آن را تاريكى شب يا طلوع نموده بر آن روشنى دهنده روز و از آنچه كه پى درپى مى آيد بر او طبق هاى ظلمت ها و مجارى نور و از علامت هر كام و از حسّ و حركت هر جسمى از اجسام و از بازگردانيدن جواب هر كلمه و از حركت دادن هر لب و از قرارگاه هر آفريده و از مقدار هر ذرّه و از آوازهاى پنهان هر نفس صاحب همّت و از آنچه كه بر زمين است از ميوه درختى يا از افتاده برگى يا از آرام گرفتن نطفه يا نقاعه اى كه محلّ اجتماع خون است و مضغه يا صورتى كه آفريده شده در بدن و نطفه اى كه بيرون كشيده شده از

پشت حيوان.

نرسيده است به ذات باری تعالى در اين چيزها كه آفريده مشقتی و عارض نشده است او را در حفظ آنچه كه ايجاد فرموده از مخلوقات عارضه و احاطه نكرده او را در اجراء امورات و تدبير مخلوقات ملالت و كدورتی و نه ضعف و فتوری، بلكه نافذ شده در ايشان علم او و به شماره درآورده ايشان را شمردن او و فراگرفته است ايشان را عدالت او و پوشيده گناهان ايشان را فضل او، با وجود تقصير كردن ايشان از پايان رسانيدن آنچه كه خداوند سبحانه سزاوار او است از مراتب معرفت و عبادت.

بارپروردگارا، تويی سزاوار اوصاف حسنه بی شمار و اهل شمار نمودن شماره های بسيار اگر اميد گرفته شوی تو، پس تو بهترين اميد داشته شده هايی و اگر رجا به تو باشد، پس تو گرامی ترين رجا داشته شده گانی.

بار خدايا، به تحقيق كه گسترانيدی از برای من قدرت را در آنچه كه مدح نمی كنم با او غير تو را و ثنا نمی كنم با او بر احدی غير از تو و متوجّه نمی كنم مدح و ثنای خود را به سوی مخلوقين كه معدن های نوميدی و محل های تهمت می باشند و بازداشته ای زبان مرا از مدح های آدميان و ثنا گفتن بر مخلوقان كه تربيت يافته نعمت تواند.

بار خدايا، هر ثناكننده را بر كسی كه در حقّ او ثنا گفته ثوابی هست از پاداش آن يا خوبی از عطا كردن و به تحقيق كه اميد گرفتم به تو از جهت اينكه تو ره نمايی بر ذخيره های بخشش و خزانه های مغفرت و آمرزش.

بارخدايا، اين مقامی كه مشغول هستم به ذكر حمد و ثنای تو، مقام كسی است كه منحصر دانست تو را به يگانگی كه اختصاص دارد به تو و نديد كسی را كه مستحق باشد مراين ستايش ها و ثناها را غير از ذات تو و مرا است حاجتی به سوی تو كه جبر و اصلاح نمی كند ذلّت آن را مگر فضل تو و برنمی دارد فقر و فاقت آن را مگر عطا و جود تو، پس ببخش ما را در اين مقام، رضا و خشنودی خود را و مستغنی كن ما را از دراز نمودن دست ها به سوی غير تو؛ به درستی كه تو بر آنچه می خواهی صاحب قدرت می باشی.

ومن كلام له عليه السلام لما أريد على البيعة وهو الواحد والتسعون من المختار في باب الخطب

وقد رواه غير واحد من العامة والخاصة حسبما نشير إليه: «دَعُوني وَالْتَمِسُوا غيري، فَإنّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، ولا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وإنَّ الآفاقَ قَدْ أغامَتْ، والْمُحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ، وَاعْلَمُوا أَنّي إنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ ما أَعْلَمُ، ولَمْ أُصغِ إلى قَولِ القَائِلِ، وعَتْبِ العاتِبِ، وإِنْ تَرَكْتُمُوني فَأَنا كَأَحَدِكُمْ، ولَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وأَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيرٌ لَكُمْ مِنِّي أَميراً»[١].

اللغة

(غامت) الأفاق وأغامت وأغيمت وغيمت تغييماً وتغيمت غطاها الغيم، وغيم اللّيل جاء كالغيم، و **(المحجّة)** الطريق الواضح، و **(التنكر)** التغير عن حال تسرّك إلى حال تكرهها والاسم النّكير، و **(العتب)** كالعتاب الملامة، و **(الوزير)** حباء الملك أي جليسه الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه.

الإعراب

قوله عليه السلام: **(وأنا لكم)** الواو للحال، والجملة بعدها منصوبة المحل على الحاليّة، **(وأنا)** مبتدأ **(وخير)** خبره، والظرفان متعلقان به، **(ووزيراً وأميراً)** منصوبان على الحال، واختلف علماء الأدبية في عامل الحال إذا وقع في مثل هذا المثال، فمنهم من جعله أفعل التفضيل، ومنهم من جعله كان محذوفة تامة صلة لإذا، والتقدير أنا إذا كنت لكم وزيراً خير مني لكم إذا كنت أميراً.

وتحقيق ذلك أنّهم بعد حكمهم على عدم جواز تقديم الحال على عامله إذا كان إسم تفضيل من حيث ضعفه في العمل لأجل شباهته بالفعل الجامد في عدم قبوله علامة التأنيث والتثنية والجمع كما يقبلها أسماء الفاعلين والمفعولين والصفة المشبهة فلا يتصرف[٢] في

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٣٦، وميزان الحكمة: ١/٣٢٠.

(٢) يعني أن الفعل الجامد لا يتصرف في مفعوله وكذلك أشبهه فيجب تأخير الحال فيهما يقال ما أحسنه مقبلاً وهذا أفصح الناس خطيباً.

معموله بالتقديم، كما لا يتصرّف في الفعل الجامد، استثنوا من ذلك ما إذا كان اسم التفضيل عاملاً في حالين: إحداهما مفضلة على الأخرى فإنه يجب حينئذٍ تقديم الحال الفاضلة لخوف اللبس، ومثلوا له بقولهم هذا بسراً أطيب منه رطباً، قال سيبويه في «**المحكي**» عنه: انتصب بسراً على الحال من الضمير في أطيب، وانتصب رطباً على الحال أيضاً من الضمير المجرور بمن، والعامل فيهما أطيب بما فيه من معنى المفاضلة بين شيئين، كأنه قال: هذا في حال كونه بسراً أطيب من نفسه في حال كونه رطباً، تريد أن تفضل البسر على الرطب، قال: فأطيب ناب مناب عاملين، لأنّ التقدير يزيد طيبه في حال كونه بسراً على طيبه في حال كونه رطباً، وأشار بذلك إلى التمر، والمعنى بسره أطيب من رطبه انتهى.

وبه قال غير واحد من النحاة كالمازني والفارسي وابن كيسان وابن جني وابن هشام في «**التوضيح**»، وذهب المبرّد والزّجاج وابن السّراج والسّيرافي إلى أن النّاصب في المثال كان محذوفة تامة صلة لإذا، وإذا فإن قلت ذلك وهو بلح فالمقدر إذاً وان قلته وهو تمر فالمقدر إذ، والصاحبان المضمران في كان لا المضمر في أطيب، والمجرور بمن وقدم الظرف يعني إذا وإذا على أطيب لاتساعهم في الظروف، ولهذا جاز كلّ يوم لك ثوب ولم يجز زيد جالساً في الدّار.

وكيف كان فقد اتفق الفريقان بعد اختلافهم في عامل الحال على وجوب تقديم أحد الحالين على اسم التفضيل وتأخير الآخر ليظهر الفضل بين المفضّل والمفضل عليه إذ لو أخّرا جميعاً حصل الالتباس.

فإن قيل: إن جعل أحدهما تالياً لأفعل لا يحصل الالتباس، قلنا: يؤدّي إلى الفصل بين أفعل وبين من ومجرورها وهو غير جائز لكونهما بمنزلة الصّلة والموصول.

فإن قلت: فكيف فصل بالظرف في كلام الإمام عليه السلام؟ قلت: ذلك فصل جائز للاتساع في الظروف بما لا يتسع في غيره.

المعنى

اعلم أن المستفاد من الروايات الآتية وغيرها في سبب هذا الكلام هو أن خلفاء الجور بعدما غيّروا سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرته التي كان يسيرها من العدل بالقسمة والمواساة بين الرّعية، ففضّلوا العرب على العجم، والموالي على العبيد، والرؤساء على السفلة، وآثر عثمان أقاربه من بني أمية على سائر الناس وجرى على ذلك ديدنهم سنين عديدة، واعتاد الناس ذلك أزمنة متطاولة حتّى نسوا سيرة الرّسول صلى الله عليه وآله، وكان غرض الطالبين لبيعته عليه السلام أن يسير عليه السلام فيهم مثل سيرة من سبق عليه من المتخلّفين من تفضيل الشريف على الوضيع، وكان عليه السلام تفرّس ذلك منهم وعرفه من وجنات حالهم.

خاطبهم بهذا الكلام إتماماً للحجة وإعلاماً لهم بأنه عليه السلام إن قام فيهم بالأمر لا يجيبهم إلى ما طمعوا فيه من الترجيح والتفضيل.

فقال عليه السلام: (**دعوني والتمسوا غيري**) للبيعة (**فأنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان**) وهو إنذار لهم بالحرب وإخبار عن ظهور الفتنة واختلاف الكلمات وتشتّت الآراء وتفرق الأهواء، يعني أني إن أجبت إلى ملتمسكم فلا بدّ من ابتلاء أمر له أحكام صعبة وتكاليف شاقة من محاربة الناكثين والقاسطين والمارقين والتسوية في القسمة والعدل بين الرّعيّة إلى غير ذلك، وهو مما (**لا تقوم له القلوب**) أي لا تصبر عليه (**ولا تثبت عليه العقول**) بل تنكره (**وإن الآفاق قد أغامت**) أي أظلمت بظهور البدع وخفاء شمس الحق تحت سحاب شبه أهل الباطل، (**والمحجة قد تنكرت**) أراد به تغيّر الحنيفية البيضاء والملة الغراء وجهالة جادّة الحق، (**وأعلموا أني إن أجبتكم**) إلى ما تلتمسونه منّي (**ركبت بكم ما أعلم**) أي جعلتكم راكبين على محض الحق وأسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، (**ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب**) أي لم يأخذني في الله لومة لائم (**وإن تركتموني فأنا كأحدكم**) يعني إن تركتموني فهو أنفع لكم وأرفه لحالكم لأنّي حينئذٍ أكون مثل واحد منكم.

والمراد بتركهم إيّاه عدم طاعتهم له واختيار غيره للبيعة حتى لا تتمّ شرائط الخلافة لعدم النّاصر، كما قال في «**الخطبة الشقشقية**»: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر لألقيت حبلها على غاربها»، وليس الغرض ردعهم عن البيعة الواجبة بل إتمام للحجة وتوطئة لإبطال ما علم عليه السلام منهم من ادعاء الإكراه بعد البيعة، كما فعل طلحة والزّبير بعد النّكث.

وقوله: (**ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم**) لعله عليه السلام أراد أنه إذا تولى الغير أمر الإمامة ولم تتم الشرائط في خلافته عليه السلام لم يكن ليعدل عن مقتضي التقيّة فيكون أكثر الناس إطاعة لوالي الأمر بخلاف سائر النّاس، فإنّه يجوز عليهم الخطأ.

(**وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً**) يعني وزارتي خير لكم من إمارتي، لأنّ فيه موافقة الغرض أو سهولة الحال في الدنيا، فإنّه على تقدير الإمارة وبسط اليد يجب عليه القيام بمحض الحق وهو صعب على النفوس ولا يحصل به آمال الطامعين بخلاف ما إذا كان وزيراً، فإن تكليف الوزير هو الإشارة بالرأي مع تجويز التأثير في الأمير وعدم الخوف ونحوه من شرائط الأمر بالمعروف، ولعلّ الأمير الذي يولونه الأمر يرى في كثير من الأمور ما يوافق آمال القوم، ويطابق أطماعهم ولا يعمل بما يشير الوزير فيكون وزارته أوفق لمقصود القوم.

فالحاصل أن ما قصدتموه وطمعتم فيه من بيعتي لا يتم لكم، ووزارتي أوفق لغرضكم، والمقصود إتمام الحجّة وإفهام حقيقة الأمر كيلا يعترضوا عليه بعد البيعة إذا لم يحصل غرضهم منه عليه السلام ولا يقولوا: إنّا كنّا عن هذا غافلين، هذا.

واعلم أنّ ما ذكرته في شرح هذا الكلام له عليه السلام هو الذي ينبغي أن يحمل الكلام عليه وهو أقرب وأظهر ممّا قاله الشّارح البحراني «قد» من أن مراده عليه السلام بكلامه ذلك هو التمنع عليهم لتقوى رغبتهم إليه، فإنّه لا بدّ لكلّ مطلوب على أمر من تعزز فيه وتمنع، والحكمة في ذلك أن الطالب له يكون بذلك أرغب فيما يطلب، فإن الطبع حريص على ما منع، سريع النفرة عمّا سورع إلى إجابته فيه.

وأمّا الشّارح المعتزلي فقد تمشي فيه على مذهبه وقال: هذا الكلام يحمله أصحابنا على ظاهره ويقولون: إنّه عليه السلام لم يكن منصوصاً عليه بالإمامة من جهة الرّسول صلى الله عليه وآله، وإن كان أولى النّاس بها وأحقهم بمنزلتها، لأنه لو كان منصوصاً عليه بالإمامة من جهة الرسول صلى الله عليه وآله لما جاز له أن يقول: دعوني والتمسوا غيري، ولا أن يقول: ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ولا أن يقول: وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً.

ثمّ ذكر تأويل الإمامية بأن الخطاب للطالبين منه أن يسير فيهم مثل سيرة الخلفاء بتفضيل بعضهم على بعض في القسمة والعطاء، فاستعفاهم وسألهم أن يطلبوا غيره ممن يسير بسيرتهما إلى أن قال: وقد حمل بعضهم كلامه عليه السلام على محمل آخر فقال: هذا كلام مستزيد شاك من أصحابه يقول عليه السلام لهم: دعوني والتمسوا غيري، على طريق التّضجر منهم والتّسخط لأفعالهم، لأنّهم كانوا عدلوا عنه من قبل واختاروا غيره عليه، فلما طلبوه بعد أجابهم جواب العاتب المتسخّط.

ثمّ قال: وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر فقالوا: إنّه أخرجه مخرج التّهكّم والسّخرية، أي أنا لكم وزيراً خير منّي لكم أميراً فيما تعتقدونه كما قال سبحانه:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

أي بزعمك واعتقادك ثمّ قال: واعلم أن ما ذكروه ليس ببعيد أن يحمل الكلام عليه لو كان الدّليل قد دلّ على ذلك، فأمّا إذا لم يدلّ عليه دليل فلا يجوز صرف اللّفظ عن ظاهره. ونحن نتمسّك بالظاهر إلى أن يقوم دلالة على مذهبهم تصدّنا عن حمل اللّفظ على ظاهره، ولو جاز أن يصرف الألفاظ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدّ عنها لم يبق وثوق بكلام الله عزّ وجلّ وبكلام رسوله، انتهى كلامه هبط مقامه.

وأورد عليه المحدّث العلامة المجلسي طاب رمسه في المجلّد الثّامن من البحار بعد نقل كلامه بقوله: ولا يخفى على اللّبيب بعد الإغماض عن الأدلّة القاهرة والنّصوص المتواترة لا فرق بين المذهبين في جوب التّأويل ولا يستقيم الحمل على ظاهره إلاّ على القول بأنّ إمامته عليه السلام كان مرجوحاً وأنّ كونه وزيراً كان أولى من كونه أميراً، وهو ينافي القول بالتفضيل الذي قال به، فإنّه عليه السلام إذا كان أحقّ بالإمامة وبطل تفضيل المفضول على ما هو الحق، واختاره أيضاً كيف يجوز للناس أن يعدلوا عنه إلى غيره وكيف يجوز له عليه السلام أن يأمر الناس بتركه

والعدول عنه إلى غيره مع عدم ضرورة تدعو إلى ترك الإمامة؟ ومع وجود الضرورة كما جاز ترك الإمامة الواجبة بالدّليل جاز ترك الإمامة المنصوص عليها، فالتأويل واجب على التقديرين ولا نعلم أحداً، قال بتفضيل غيره عليه ورجحان العدول إلى أحد سواه في ذلك الزمان، على أن الظّاهر للمتأمّل في أجزاء الكلام حيث علّل الأمر بالتماس الغير باستقبال أمر لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، ويتنكّر المحجة وأنّه إن أجابهم حملهم على محض الحق، هو أنّ السّبب في ذلك وجود المانع دون عدم النّص وأنه لم يكن متعيّناً للإمامة أو لم يكن أحق وأولى به ونحو ذلك[1].

تنبيه

متضمّن لبعض الأخبار المناسبة للمقام، قال ابن الأثير في «المحكي» عنه في كتاب الكامل: لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار، وفيهم طلحة والزّبير فأتوا عليّاً عليه السلام فقالوا له: لا بدّ للنّاس من إمام، قال: لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به، فقالوا: ما نختار غيرك وتردّدوا إليه مراراً، وقالوا في آخر ذلك: إنّا لا نعلم أحداً أحقّ به منك ولا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً، فقالوا: والله ما نحن بفاعلين حتّى نبايعك.

قال عليه السلام: ففي المسجد فإنّ بيعتي لا يكون خفيّاً ولا يكون إلاّ في المسجد، وكان عليه السلام في بيته، وقيل: في حائط لبني عمرو بن منذر، فخرج إلى المسجد وعليه إزار وقميص وعمامة خز ونعلاه في يده متوكّئاً على قوسه، فبايعه الناس فكان أوّل من بايعه طلحة بن عبيد الله، فنظر إليه حبيب بن ذويب فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أوّل من بدأ بالبيعة يد شلاء لا يتمّ هذا الأمر، وبايعه الزبير وقالا بعد ذلك: إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا، وهربا إلى مكّة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر وبايعه الناس.

وجاءوا بسعد بن أبي وقاص فقال عليّ عليه السلام: بايع، قال: لا حتّى يبايع النّاس والله ما عليك منّي باس، فقال عليه السلام: خلّوا سبيله، وجاءوا بابن عمر فقالوا: بايع، فقال: لا حتى يبايع الناس، قال: ائتني بكفيل، قال: لا أرى كفيلاً، قال الأشتر: دعني أضرب عنقه قال عليه السلام: دعوه أنا كفيله.

وبايعت الأنصار إلاّ نفراً يسيراً منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمّد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك، ورافع خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة كانوا عثمانية، فأمّا النعمان بن بشير فإنه أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت وقميص عثمان الذي قتل فيه،

---

(١) البحار: ٣٢/ ٣٧ ح١.

فلحق بالشام فكان معاوية يعلّق قميص عثمان وفيه الأصابع، فإذا رأوا ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً وجدّوا في أمرهم[١].

قال: وروى أنهم لمّا أتوا عليّاً عليه السلام ليبايعوه قال: **(دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول)**، فقالوا ننشدك الله ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال: قد أجبتكم واعلموا أني إن أجبتكم أركب بكم ما أعلم فإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلاّ أنّي من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه.

وروى الشّارح المعتزلي عن الطبري وغيره أن الناس غشوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته وهو عليه السلام يأبى ذلك ويقول: دعوني والتمسوا غيري فأنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تثبت عليه العقول ولا تقوم له القلوب، قالوا: ننشدك الله ألا ترى الفتنة؟ ألا ترى إلى ما حدث في الإسلام؟ ألا تخاف الله؟ فقال عليه السلام: قد أجبتكم لما أرى منكم واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدكم بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، فقالوا: ما نحن تاركيك.

قال عليه السلام: إن كان لا بدّ من ذلك ففي المسجد إنّ بيعتي لا يكون خفيّاً ولا يكون إلاّ عن رضاء المسلمين وفي ملأ وجماعة، فقام والنّاس حوله فدخل المسجد وانثال عليه المسلمون فبايعوه وفيهم طلحة والزبير[٢].

وفي «**البحار**» من المناقب في جمل أنساب الأشراف أنه قال الشعبي في خبر: لما قتل عثمان أقبل الناس إلى عليّ عليه السلام ليبايعوه ومالوا إليه فمدّوا يده فكفها، وبسطوها فقبضها حتى بايعوه.

وفي سائر التواريخ أن أوّل من بايعه طلحة بن عبد الله وكانت إصبعه أصيبت يوم أحد فشلّت، فبصر بها إعرابي حين بايع فقال: ابتدأ هذا الأمر يد شلاء لا يتم، ثمّ بايعه الناس في المسجد، ويروى أن الرّجل كان عبيد بن ذويب فقال: يد شلاء وبيعة لا يتم.

وفي «**البحار**» وبويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين من الهجرة، وعن المعلّى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام: أن اليوم الذي بويع فيه أمير المؤمنين ثانية كان يوم النيروز[٣]، هذا.

ولمّا بويع عليه السلام أنشد عطيّة هذه الأبيات:

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٨.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/٢٤، وشرح نهج البلاغة: ١١/٩.

(٣) بحار الأنوار: ٣٢/٣٥ ح ٢٢.

رأيت علياً خير من وطىء الحصا وأكرم خلق الله من بعد أحمد
وصي رسول المرتضى وابن عمّه وفارسه المشهور في كل مشهد
تخيره الرّحمٰن من خير أسرة لأطهر مولود وأطيب مولد
إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا ببيعته بعد النبيّ محمّد ﷺ

وأنشد خزيمة بن ثابت:

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا أبو حسن ممّا نخاف من الفتن
وجدناه أولى الناس بالنّاس أنه أطبّ قريش بالكتاب وبالسنن
وإنّ قريشاً لا تشق غباره إذا ما جرى يوماً على ضمر البدن
ففيه الذي فيهم من الخير كله وما فيهم مثل الذي فيه من حسن
وصي رسول الله من دون أهله وفارسه قد كان في سالف الزّمن
وأوّل من صلّى من الناس كلّهم سوى خيرة النسوان والله ذي المنن
وصاحب كبش القوم في كلّ وقعة يكون لها نفس الشجاع لدى الذقن
فذاك الذي تثنى الخناصر باسمه إمامهم حتّى أغيب في الكفن

الترجمة

از جمله کلام بلاغت نظام آن امام عالی مقام است وقتی که اراده شد بر بیعت بعد از کشته شدن عثمان بی ایمان، می فرماید:

ترك نمایید مرا از این کار و معاف بدارید و طلب کنید غیر مرا، پس به درستی که ما استقبال نماینده گانیم کاری را که مراورا است وجه ها و رنگ های گوناگون که نمی ایستد و صبر نمی نماید آن کار را قلب ها و ثابت نمی شود بر آن عقل ها و به درستی که آفاق و اطراف عالم را ظلمت گرفته و راه روشن شریعت تغییر یافته و بدانید اینکه به درستی من اگر اجابت نمایم و قبول کنم حرف شما را، سوار گردانم شما را به آنچه که خودم می دانم و گوش نمی دهم به گفتار گوینده و ملامت ملامت کننده و اگر بگذارید مرا به حال خود ومعذور بدارید، پس من می باشم مثل یکی از شماها و شاید اینکه گوش دادن و اطاعت نمودن من بیشتر از شماها باشد به کسی که والی امر خود قرار بدهید و من از برای شما در حالتی که وزیر باشم بهترم از برای شما از من در حالتی که امیر باشم.

زیرا که در حالت امارت و بسط ید، تکلیف من قیام نمودن است به محض حق و آن صعب است در حق اکثر مردم و امّا در حالت وزارت، تکلیف من نصیحت است و مشاورت و بس، خواه والی امر قبول نماید و خواه قبول ننماید.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثانية والتسعون من المختار في باب الخطب

خطب بها بعد انقضاء أمر النهروان، وهي من خطبه المشهورة رواها غير واحد حسبما تطلع عليه وشرحها في ضمن فصلين:

الفصل الأول

«أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَأَنَا فَقَأْتُ عَينَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ عَلَيْها أَحَدٌ غيري بَعْدَ أَنْ ماجَ غَيْهَبُها، وَاشْتَدَّ كَلَبُها، فَاسْأَلُوني قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُوني فَوالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لا تَسْأَلُوني عَنْ شَيْءٍ فيما بَيْنَكُمْ وبَينَ السّاعَةِ، وَلا عَنْ فِئَةٍ تَهْدي مائةً وتُضِلُّ مائةً، إلاّ أَنْبأْتُكُمْ بِناعِقِها، وَقائِدِها، وسائِقِها ومُناخِ رِكابِها، ومَحَطِّ رِحالِها، ومَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِها قَتْلاً، ويَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً، وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُوني ونَزَلَتْ بِكُمْ كَرائِهُ الأُمُورِ، وحَوازِبُ الْخُطُوبِ، لأَطْرَقَ كَثيرٌ مِنَ السّائِلينَ، وفَشِلَ كَثيرٌ مِنَ الْمَسْؤولينَ، وذلِكَ إذا قَلَصَتْ حَرْبُكُمْ، وشَمَّرَتْ عَنْ ساقٍ، وضاقَتِ الدُّنْيا عَلَيْكُمْ ضَيْقاً، تَسْتَطيلُونَ أَيّامَ البَلاءِ عَلَيْكُمْ، حَتّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبرارِ مِنْكُمْ، إنَّ الْفِتَنَ إذا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وإذا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ، يُنْكَرْونَ مُقْبلاتٍ، ويُعْرَفْنَ مُدْبِراتٍ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّياحِ، يُصِبْنَ بَلَداً، ويُخْطِينَ بَلَداً»[١].

اللغة

(**فقأت**) عين الفتنة من باب منع قلعتها وشققتها و (**الغيهب**) الظلمة و (**كلب**) الكلب كلباً فهو كلب من باب تعب وهو داء يشبه الجنون يأخذه فيعقر الناس، وفي «**القاموس**» الكلب بالتحريك صياح من عضة الكلب الكلب وجنون الكلاب المعتري من أكل لحوم الإنسان وشبه جنونها المعتري للإنسان من عضها، و (نعق) **بغنمه من باب منع وضرب صاح بها لتعود إليه وزجرها ونعق الغراب صاح**.

و (**مناخ**) الإبل بضم الميم موضع إناختها أي مبركها، وفي «**شرح المعتزلي**» يجوز جعله مصدراً كالمقام بالضّم بمعنى الإقامة، و (**الركاب**) بالكسر المطي أي الإبل التي يسار عليها

(١) الغارات: ٢/ ٦٧٧، وبحار الأنوار: ٤١/ ٣٤٩.

واحدتها راحلة من غير لفظها، والجمع الرّكب ككتب، و (**المحط**) بفتح الميم قال الشارح المعتزلي: يجوز كونه مصدراً كالمرد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]، وكونه موضعاً كالمقتل و (**الرّحال**) كأرحل جمع الرّحل وهو مركب للبعير، ويقال له راحول أيضاً و (**الحوازب**) جمع الحازب من حزبه الأمر إذا اشتدّ عليه أو ضغطه، و (**الخطوب**) جمع الخطب وهو معظم الأمر، و (**الاطراق**) السّكوت والإقبال بالبصر إلى الصّدر و (**فشل**) فشلاً فهو فشل من باب تعب وهو الجبان الضّعيف القلب.

(**إذا قلصت حربكم**) بتخفيف اللام من باب ضرب أي كثرت وتزايدت، وفي «**المصباح**» قلصت شفته انزوت وقلص الثوب انزوى بعد غسله، وفي بعض النسخ عن حربكم، وفي بعض النسخ بالتشديد أي انضمّت واجتمعت، و (**شبّهت**) بالبناء على المعلوم أي جعلت أنفسها شبيهة بالحق أو على المجهول، أي أشكل أمرها والتبس على الناس و (**نبهته**) من النوم أيقظته و (**حام**) الطائر حول الماء إذا دار وطاف لينزل عليه و (**يخطين**) من الخطو وهو المشي.

الإعراب

جملة (**ولو قد فقدتموني**) إمّا استئنافية أو قسمية بحذف المقسم به بدلالة السّياق، ولو الشرطية بمعنى أن مفيدة للتعليق في الاستقبال إلا أنه جيء بالشرط والجزاء بصيغة الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعهما لا محالة، وهو من المحسنات البيانية، (**والحرب**) مؤنث سماعي، ولذا أنث الفعل المسند إليه، ومفعول (**شمّرت**) محذوف أيضاً، وضاقت عطف على شمرت، وجملة تستطيلون حال من المجرور في عليكم، وجملة (**ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات**) بدل كلّ من جملة (**إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت كما**) في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩].

وجملة (**يحمن**) منصوب المحل على الحال.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من كلامه عليه السلام مسوق لإظهار مناقبه الجّمة وفضائله الدثرة. والتنبيه على علو مقامه ورفعة مكانه والغرض به التعريض على المخاطبين بغفلتهم عن سمو شأنه وجهالتهم بقدره وعدم معرفتهم به حقّ المعرفة، ليرقدوا بذلك عن نوم الغفلة والجهالة ويعرفوه حق المعرفة، ويعظموا قدره ومنزلته ويقيموا بوظائف طاعته على ما يليق به سلام الله عليه وآله.

وأشار عليه السلام أوّلا إلى فضيلته وشجاعته وكمال مهابته بقوله: (**أما بعد أيها النّاس فأنا فقأت عين الفتنة**) أي: شققتها وقلعتها بشحمها أو أدخلت الأصبع فيها، وهو استعارة لكسر

ثورانها وإسكان هيجانها، والمراد بالفتنة إمّا خصوص فتنة أهل البصرة والنهروان كما وقع الإشارة إليه منه عليه السلام في رواية إبراهيم الثقفي وسليم بن قيس الهلالي الآتية في ذيل شرح الفصل الثاني، أو عموم فتن المنافقين والكافرين والمصدر المحلي باللام، وإن لم يكن مفيداً للعموم بحسب الوضع اللّغوي حسبما قرر في «**الأصول**»، إلاّ أنّه لا ينافي إفادته له بقرينة الحال.

فقد ظهر واتضح لنا ظهور الشمس في رابعة النهار أنه عليه السلام ردّ نخوة بأو الكفار واعتلائهم يوم بدر، وشموخ أنفهم وسموّ غلوائهم يوم أحد، وكسر صولتهم يوم خيبر وفقأ أعينهم بقتل ابن عبد ودّ يوم الأحزاب، وهكذا سائر الحروب والخطوب فقد علمنا علماً يقيناً أنه لولا سيفه عليه السلام لما قام للإسلام عمود، ولا أخضر للإيمان عود.

ولذلك قدم المسند إليه على المسند ليفيد التخصيص، وجعل المسند جملة للتقوى كما قرر في علم المعان، وأكده بقوله: **(ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري) وتصديق ذلك أمّا في وقعة الجمل والنهروان فلأنّ الناس كانوا لا يتجاسرون على قتال أهل القبلة ويخافون من ذلك الإثم والعصيان، وكانوا يحسنون الظن بطلحة والزبير مع كون زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله** فيهم.

وأهل النّهروان كانوا أهل قرآن وصلاة واجتهاد وعبادة، وكان النّاس يهابون قتالهم ويقولون كيف نقاتل من يصلي كصلاتنا ويؤذن كأذاننا ويصوم كصومنا على ما عرفت في شرح الخطبة السادسة والثلاثين.

وكذا التبس الأمر في وقعة صفين، ولذلك أمسك مثل خزيمة بن ثابت الأنصاري عن القتال حتّى قتل عمار، فتيقن ضلالة القاسطين وقاتل حتى قتل كما مر مشروحاً في تذييل الكلام الخامس والستين.

وأمّا في سائر الوقائع والحروب التي كانت في زمن الرسول صلى الله عليه وآله: فقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وظنّوا بالله الظّنونا واضطرب المؤمنون ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] ودارت أعين المنافقين ﴿كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] وقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] بوجوده عليه السلام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] وأنزل في حقه عليه السلام وفي عمّه حمزة وأخيه جعفر ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وإلى شدّة تلك الفتن وظلمتها أشار بقوله: **(بعد أن ماج غيهبها)** وكنى بتموّج، ظلمتها عن شمول ظل لها لأنّ الظلمة إذا تموجت شملت أماكن كثيرة غير الأماكن التي تشملها لو كانت ساكنة، وإلى غلبة شرّها وأذاها بقوله: **(واشتدّ كلبها)** ثمّ أشار إلى فضيلة علمه بقول ما زال يقوله وهو قوله: **(فاسألوني قبل أن تفقدوني)** قال الشارح المعتزلي: روى صاحب كتاب

الاستيعاب وهو أبو عمر محمّد بن عبد البر عن جماعة من الرّواة والمحدثين قالوا لم يقل أحد من الصحابة عنهم سلوني إلا علي ابن أبي طالب، وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافي في كتاب نقض العثمانية عن علي بن الجعد عن ابن شبرمه قال: ليس لأحد من النّاس أن يقول على المنبر سلوني إلاّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

أقول: وذلك لأن أنواع السّؤلات غير محصورة ولا محصاة، وأصناف الطلبات غير معدودة ولا مستقصاة، فبعضها يتعلق بالمعقول وبعضها بالمنقول، وبعضها بعالم الشهود وبعضها بعالم الغيب، وبعضها بما كان وبعضها بما يكون وبعضها بما هو كائن، وهكذا فلا يمكن الجواب عن هذا كله ولا يقدر على مثل ذلك إلاّ من تأيّد بقوّة ربانيّة، واقتدر بقدرة الهيّة، ونفث في روعه الرّوح الأمين، وتعلّم علوم الأولين والآخرين، وصار منبع العلم والحكمة، وينبوع الكمال والمعرفة، وهو أمير المؤمنين ويعسوب الدين، ووارث علم النبيين وبغية الطّالبين، وحلاّل مشكلات السائلين فلا ينصب نفسه في هذا المنصب إلا جاهل، ولا يدعي لنفسه هذا المقام إلا تائه غافل، وفي هذا المقام قال الشاعر:

ومن ذا يساميه بمجد ولم يزل ... يقول سلوني ما يحل ويحرم

سلوني ففي جنبي علم ورثته ... عن المصطفى ما فات مني به الفم

سلوني عن طرق السموات إنني ... بها عن سلوك الطرق في الأرض أعلم

ولو كشف الله الغطا لم أزد به ... يقيناً على ما كنت أدري وأفهم

وقد روينا في «**التذييل**» الثاني من شرح الكلام الثالث والأربعين أن ابن الجوزي قال يوماً على منبره: سلوني قبل أن تفقدوني، فسألته امرأة عمّا روي أن عليّاً سار في ليلة إلى سلمان فجهزه ورجع، فقال: روي ذلك، قالت فعثمان ثمّ ثلاثة أيّام منبوذاً في المزابل، وعليّ عليه السلام حاضر، قال: نعم، فقالت: فقد لزم الخطأ لأحدهما، فقال: إن كنت خرجت من بيتك بغير إذن زوجك فعليك لعنة الله وإلاّ فعليه، فقالت: خرجت عائشة إلى حرب عليّ بإذن النبي صلى الله عليه وآله أو لا؟ فانقطع ولم يحر جواباً.

ورووا أيضاً أن قتادة دخل الكوفة فالتفت إليه الناس فقال: اسألوني عما شئتم وكان أبو حنيفة حاضراً وهو إذا غلام حدث السن، فقال: اسألوه عن نملة سليمان أكان ذكراً أم انثى، فسألوه فانقطع، فقال أبو حنيفة كان أنثى فقيل له بم عرفت ذلك؟ قال من كتاب الله وهو قوله تعالى قالت نملة، ولو كان ذكراً لقال: قال نملة وذلك لأن لفظ النملة يقع على الذكر والأنثى كلفظ الحمامة والشاة[١]، وإنما يميز بينهما بعلامة التأنيث.

---

(١) حاشية سفلية ص ٧٥. بحار الأنوار: ٦١/٢٤٦.

فانظر إلى هذين المغرورين المعجبين كيف عَيِياً عن جواب أدنى مسألة، فكيف بهما إذا سئلا عن حجب الأسرار، وسرادقات الأنوار، والغيب المكنون، والسرّ المكتوم، وعجائب الملكوت، وبدائع الجبروت، فاشهد أن عريف ذلك والخبير بكل ذلك لم يكن إلاّ أمير المؤمنين، ووصي رسول ربّ العالمين، وعنده علم الكتاب كله، وفيه خبر السّماء وخبر الأرض وخبر ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة كما قال عز من قائل:

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

أي في إمام مبين، وقد سئل عليه السلام في مقامات شتى عن مسائل مشكلة متفرقة فأجاب عنها بأجوبة شافية تاهت فيها العقول ودهشت بها القلوب حسبما نشير إلى بعضها بعد الفراغ عن شرح الفصل.

ثمّ أقسم عليه السلام بالقسم البارّ أنه عالم بما هو كائن إلى يوم القيامة وقال: (**فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلاّ أنبأتكم به**)، ونحوه ما رواه في «**البحار**» من بصائر الدّرجات بإسناده عن أبي بصير عن جعفر عليه السلام قال: سئل عليّ عليه السلام عن علم النبي صلى الله عليه وآله، فقال: علم النّبي صلى الله عليه وآله علم جميع النبيّين وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام السّاعة، ثم قال عليه السلام: والذي نفسي بيده إنّي لأعلم علم النبي وعلم ما كان وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام السّاعة[١].

(**ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة**) تخصيص هذا العدد بالبيان ليس لقصد الاختصاص وإنما هو جار على سبيل المثل وإشارة إلى الكثرة إذ ما دون مائة حقير لا يعتدّ به قال الأعشى:

الواهب المائة الهجان وعبدها … عوذاً يزجى خلفها أطفالها

وقال أيضاً:

هو الواهب المائة المصطفاة … إمّا مخاضاً وإمّا عشاراً

وقد كثر في الأخبار ذكر السبعين على سبيل المثل، وقيل في قوله سبحانه:

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

إنّ المقصود به نفي الغفران جملة وإنّما جاء السّبعون مجرى المثل للتكثير وكيف كان فمفهوم العدد ليس بحجة كما قرر في «**الأصول**»، والغرض أنه لا تسألوني عن جماعة هادية لطائفة كثيرة ومضلّة لطائفة كثيرة أخرى، (**إلا أنبأتكم بناعقها**) أي الداعي إليها وزاجرها (**وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها**) قال الشارح البحراني: استعار عليه السلام أوصاف

(١) بحار الأنوار: ٢٦/ ١١٠ ح ٦، والإمام علي للهمداني: ٣٤٩ ح ٩.

الإبل ورعائها وأصحابها من الناعق والقائد والسائق والمناخ والرّكاب والرّحال للفئة المهدية والضالة ومن يهديهم ويضلّهم ملاحظة لشبههم بالإبل في الاجتماع والانقياد لقائد وراع **(ومن يقتل من أهلها)** أي أهل الفئة المذكورة **(قتلاً ويموت منهم موتاً)**.

ثم نبّه عليه السلام على أنّه أعظم نعمة أنعم الله سبحانه بوجوده عليهم، وأن قدره مجهول عندهم وهم غافلون عن فوائد مقامه بين أظهرهم وأنهم سوف يعلمون إذا نزلت بهم الدواهي وحلت بهم الرزايا فقال:

(ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور) أي المصائب التي تكرهها النفوس **(وحوازب الخطوب)** أي شدائد الأحوال **(لأطرق كثير من السائلين)** أي أرخوا أعينهم ينظرون إلى الأرض، وذلك لصعوبة الأمر وشدّته حتى أنه يبهته عن السؤال ويتحير كيف يسأل **(وفشل كثير من المسؤولين)** أي جبنوا عن ردّ الجواب لجهلهم بعواقب تلك الخطوب وما يسألون عنه منها، **(وذلك إذا قلصت حربكم)** أي إطراق السائلين وفشل المسؤولين إذا تزايدت حربكم وكثرت أو انضمّت واجتمعت، وهو كناية عن شدّتها وصعوبتها، لأنّ الجيوش إذا اجتمعت كلها واصطدم الفيلقان كان الأمر أصعب وأشدّ من أن تتفرّق ويحارب كل كتيبة كتيبة أخرى في بلاد متباعدة، ومن روى قلصت عن حربكم فالمراد إذا انكشفت كرائه الأمور وحوازب الخطوب عن حربكم.

(وشمّرت عن ساق) أي شمّرت الحرب ورفعت السّاتر عن ساقها وهو كناية عن اشتدادها والتحامها على سبيل الاستعارة، والغرض تشبيه الحرب بالمجد في أمر الساعي فيه، فإنّ الإنسان إذا جدَّ في السّعي شمّر عن ساقه ودفع ثوبه لئلا يعوقه ويمنعه، وربما قيل بأنه جار على الحقيقة، ومعنى السّاق الشدّة، أي كشفت عن شدة ومشقة وبه فسّر قوله سبحانه:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢].

(وضاقت الدنيا عليكم ضيقاً) بطروق الخطوب وابتلاء المصائب حال كونكم **(تستطيلون أيام البلاء عليكم)**، وذلك لأنّ أيام البلاء تكون في نظر الإنسان طويلة وأيام السعة والرّخاء قصيرة قال الشاعر:

فأيّام الهموم مقصّصات وأيّام السّرور تطير طيراً

(حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم) يحتمل أن يكون المراد ببقية الأبرار أولادهم، وإن لم يكونوا أبراراً في أنفسهم إن كان إشارة إلى ظهور دولة بني العباس إلاّ أن الأظهر أن المراد هو ظهور الدّولة الحقّة القائمية عجل الله له الفرج وأقرّ الله عيون مواليه بظهوره عليه السلام.

(إن الفتن إذا أقبلت شبّهت) أي جعلت نفسها أي الأمور الباطنة شبيهة بالحق، أو أشكل أمرها والتبس على الناس، **(وإذا أدبرت نبهت)** أي: أيقظت القوم من نوم الجهالة وظهرت

بطلانها عليهم، ألا ترى أن الناس كانوا في بدو فتنة الجمل والنهروان في حيرة واشتباه لا يدرون أنّ الحق في أي الجانبين، فلمّا انقضت الحرب ووضعت أوزارها ارتفع الاشتباه وتميّز الحقّ من الباطل وانتبه القوم من جهالتهم.

وأكد عليه السلام هذا المعنى بقوله: (**ينكرن مقبلات**) أي لا يعرف حالهنّ في حالة إقبالها (**ويعرفن مدبرات**) ثمّ وصفها بأنها (**يحمن حوم الرّياح**) أي يطفن مثل طواف الرّياح (**يصبن بلداً ويخطين بلداً**).

تنبيهان الأول

قد قلنا إنه قوله عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني» كلام ما زال عليه السلام يقوله حتى أنه عليه السلام كان يقوله بعد ما ضربه ابن ملجم لعنه الله وقبل وفاته بيوم كما مر في شرح الكلام التاسع والستين، ونكتة ذلك أن اللاّزم على إمام الزّمان أن يبذل فيوضاته للمواد القابلة بقدر الإمكان.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

روى الصدوق في التّوحيد قال: حدثنا أحمد بن الحسن القطان وعلي بن أحمد بن محمّد بن عمران الدّقاق قال: حدّثنا أحمد بن يحيى بن زكريّا القطان قال: حدّثنا محمد بن العبّاس قال: حدّثني محمد بن أبي السّري قال: حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس عن سعد الكناني عن الأصبغ بن نباته قال: لما جلس علي عليه السلام على الخلافة وبايعه النّاس خرج إلى المسجد متعمماً بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله لابساً بردة رسول الله صلى الله عليه وآله متنعّلاً نعل رسول الله صلى الله عليه وآله متلّقداً سيف رسول الله صلى الله عليه وآله فصعد إلى المنبر فجلس عليه متمكناً، ثم شبّك بين أصابعه فوضعها أسفل بطنه.

ثم قال: «يا معشر النّاس سلوني قبل أن تفقدوني هذا سفط[١] العلم، هذا لعاب رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا ما زقني رسول الله صلى الله عليه وآله زقّاً زقّاً، سلوني فإن عندي علم الأولين والآخرين، أم والله لو ثنيت لي الوسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التّوراة بتوراتهم حتّى تنطق التّوراة فتقول: صدق عليّ ما كذب لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيت أهل الإنجيل بانجيلهم حتى ينطق الإنجيل فيقول: صدق عليّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتّى ينطق القرآن فيقول: صدق عليّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحد يعلم ما أنزل فيه، ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وهي هذه الآية:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]».

---

(١) السفط بالطاء ما يخبى فيه الطيب ونحوه، مصباح.

ثمّ قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالّذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة لو سألتموني عن أية آية في ليل نزلت أو في نهارٍ أنزلت مكّيها، ومدنيّها، سفريها، وحضريها، ناسخها، ومنسوخها، محكمها، ومتشابهها، وتأويلها، وتنزيلها، لأخبرتكم».

فقام إليه رجل يقال له: ذعلب وكان ذرب[1] اللّسان بليغاً في الخطب شجاع القلب فقال: لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقاةً صعبة لأخجلته اليوم لكم في مسألتي إيّاه فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك؟ قال: «ويلك يا ذعلب لم أكن بالّذي أعبد رباً لم أره»، قال: كيف رأيته صفه لنا، قال عليه السلام: «ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذعلب إنّ ربّي لا يوصف بالبعد ولا بالحركة ولا بالسّكون ولا بقيام قيام انتصاب، ولا بمجيء ولا بذهاب، لطيف اللطافة لا يوصف باللّطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقة، مؤمن لا بعبادة، مدرك لا بمحسّة، قائل لا بلفظ، هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كل شيء فلا يقال شيء فوقه، وأمام كل شيء فلا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج»، فخرّ ذعلب مغشياً عليه ثمّ قال: تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب والله لا عدت إلى مثلها.

ثمّ قال عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني»، فقام إليه الأشعث بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين كيف يؤخذ من المجوس الجزية ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث إليهم نبي؟ قال عليه السلام: «بلى يا أشعث قد أنزل الله عليهم كتاباً وبعث إليهم رسولاً حتى كان لهم ملك سكر ذات ليلة، فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبها، فلما أصبح تسامع به قومه فاجتمعوا إلى بابه فقالوا: أيها الملك دنّست علينا ديننا وأهلكته، فأخرج نطهّرك ونقيم عليك الحدّ، وقال لهم: اجتمعوا واسمعوا كلامي، فإن يكن لي مخرج ممّا ارتكبت وإلاّ فشأنكم، فاجتمعوا فقال لهم: هل علمتم أن الله لم يخلق خلقاً أكرم عليه من أبينا آدم وامّناحوّا؟ قالوا: صدقت أيها الملك، قال: أفليس قد زوّج بنيه بناته وبناته من بنيه؟ قالوا: صدقت هذا هو الدّين فتعاقدو على ذلك، فمحا الله تعالى ما في صدورهم من العلم ورفع عنهم الكتاب، فهم الكفرة يدخلون النّار بلا حساب، والمنافقون أشدّ حالاً منهم»، قال الأشعث: والله ما سمعت بمثل هذا الجواب والله لأعدت إلى مثلها أبداً.

ثمّ قال: «سلوني قبل أن تفقدوني»، فقام رجل من أقصى المسجد متوكّئاً على عصاه فلم يزل يتخطأ النّاس حتّى دنا منه فقال: يا أمير المؤمنين دلّني على عمل إذا أنا عملت نجاني الله من النّار.

---

(١) لسان ذريب أي فيه حدة.

قال له: «اسمع يا هذا، ثمّ افهم، ثمّ استيقن، قامت الدنيا بثلاثة: بعالم ناطق مستعمل لعلمه، وبغني لا يبخل بماله على أهل دين الله، وبفقير صابر، فإذا كتم العالم علمه وبخل الغني بماله ولم يصبر الفقير فعندها الويل والثبور، وعندها يعرف العارفون أنّ الدّار قد رجعت إلى بديّها أي الكفر بعد الإيمان.

أيّها السّائل فلا تغترن بكثرة المساجد وجماعة أقوام أجسادهم مجتمعة وقلوبهم شتى إنما النّاس ثلاثة: زاهد، وراغب، وصابر، **فأما الزاهد** فلا يفرح بشيء من الدّنيا أتاه ولا يحزن منها على شيء فاته، **فأما الصابر** فيتمناها بقلبه، فإن أدرك منها شيئاً صرف عنها نفسه لما يعلم من سوء عاقبتها، **وأما الراغب** فلا يبالي من حلّ أصابها أم من حرام»، قال له يا أمير المؤمنين فما علامة المؤمن في ذلك الزّمان؟ قال: «ينظر إلى ما أوجب الله عليه من حق فيتولاّه وينظر إلى ما خالفه فيتبرّأ منه، وإن كان حميماً قريباً»، قال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، ثمّ غاب الرّجل فلم نره فطلبه الناس فلم يجدوه، فتبسم عليّ عليه السلام على المنبر ثم قال: «ما لكم هذا أخي الخضر عليه السلام».

ثمّ قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فلم يقم إليه أحد فحمد الله وأثنا عليه وصلّى على نبيّه صلى الله عليه وآله».

ثمّ قال عليه السلام للحسن: «يا حسن قم فاصعد المنبر، فتكلّم بكلام لا يجهلك قريش من بعدي، فيقولون إن الحسن بن عليّ لا يحسن شيئاً»، قال الحسن عليه السلام: «يا أبه كيف أصعد وأتكلّم وأنت في النّاس تسمع وترى؟» قال له: «بأبي وأمي أواري نفسي عنك واسمع وأرى ولا تراني»، فصعد الحسن عليه السلام المنبر فحمد الله بمحامد بليغة شريفة وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله صلاة موجزة، ثم قال: «أيها النّاس سمعت جدي رسول الله عليه السلام يقول: أنا مدينة العلم وعليّ بابها، وهل تدخل المدينة إلاّ من بابها» ثمّ نزل، فوثب إليه عليه عليه السلام فحمله وضمّه إلى صدره.

ثمّ قال للحسين: «يا بني قم فاصعد المنبر وتكلّم بكلام لا يجهلك قريش من بعدي، فيقولون إن الحسين بن علّي لا يبصر شيئاً، وليكن كلامك تبعاً لكلام أخيك»، فصعد الحسين عليه السلام المنبر فحمد الله وأثنا عليه وصلّى على نبيّه صلى الله عليه وآله صلاة موجزة ثم قال: «معاشر النّاس سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: إن عليّا هو مدينة هدى، فمن دخلها نجى ومن تخلف عنها هلك»، فوثب إليه عليّ عليه السلام فضمه إلى صدره وقبله.

ثمّ قال: «معاشر النّاس اشهدوا أنهما فرخا رسول الله صلى الله عليه وآله ووديعته التي استودعنيها، وأنا استودعكموها، معاشر النّاس ورسول الله صلى الله عليه وآله سائلكم عنهما»[1].

(١) الأمالي: ٤٢٥، والتوحيد: ٣٠٨ ح ١.

الثاني

اعلم أن هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمَّن للتنبيه على علمه بالأخبار الغيبية والوقائع الآتية وما يكون بعده إلى يوم القيامة، وقد تقدم في شرح الكلام السادس والخمسين شطر من تلك الوقائع والأخبار.

وقال الشارح المعتزلي في «**شرح هذا الفصل**»: أعلم أنّه قد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده أنّهم لا يسألون عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلاّ أخبرهم به، وأنّه ما من طائفة من الناس تهتدي بها مائة وتضل بها مائة إلاّ وهو مخبر لهم إن سألوه برعاتها وقائديها وسائقيها، ومواضع نزول ركابها وخيولها ومن يقتل منها قتلاً ومن يموت منها موتاً، وهذه الدعوى منه عليه السلام ليست ادعاء الرّبوبية ولا ادعاء النبوة، ولكنه كان يقول إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك.

ولقد امتحنا أخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة.

كأخباره عن الضربة التي تضرب في رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليه السلام وما قاله في كربلا حيث مرّ بها، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج وعن يوسف بن عمر، وما أخبره من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدّمه إلى أصحابه من أخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب، وإخباره بقتال النّاكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لمّا شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزّبير وقوله عليه السلام فيه: «خبّ ضبّ[1] يروم امراً[2]، ولا يدركه ينصب حبالة الدّين لاصطياد الدّنيا وهو بعد مصلوب قريش».

وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة أخرى بالزنج وهو الذي صحفه قوم فقالوا بالرّيح، وكإخباره عن الأئمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي[3] وغيرهما في قوله عليه السلام: وإن لآل محمّد صلى الله عليه وآله بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاة حتّى تقوم بإذن الله فتدعو إلى دين الله[4].

وكإخباره عن ظهور الرّايات السود من خراسان وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق بتقديم المهملة وهم آل مصعب منهم طاهر بن الحسين وإسحاق ابن إبراهيم،

---

(١) خب الرجل منع ما عنده ونزل المنهبط من الأرض ليجهل موضعه بخلاف فلان، خب ضب أي خداع خبيث مراوغ وقيل خب ضب إذا كان فاسداً مفسداً مراً، منه.

(٢) أي الخلافة.

(٣) هو حسن بن علي الملقب بالناصر الكبير وناصر الحق، وحسن بن زيد الملقب بالداعي الكبير ومحمد بن زيد الملقب بالداعي الصغير وكان ابتداء إمارتهم في طبرستان في سنة مأتين وخمسين.

(٤) الغارات: ٢/ ٦٨٠، وبحار الأنوار: ٤١/ ٣٥٢.

وكانوا هم وسلفهم دعاة الدّولة العباسيّة، وكإخباره عن مقتل النّفس الزّكيّة[١] بالمدينة وقوله عليه السلام: أنه يقتل عند أحجار الزيت، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول يقتل بعد أن يظهر ويقهر بعد أن يقهر، وقوله عليه السلام فيه أيضاً يأتيه سهم عزب[٢] يكون فيه منيته فيا بؤس للرامي شلّت يده ووهن عضده.

وكإخباره عن قتلى فخ وقوله عليه السلام فيهم: «هم خير أهل الأَرض»، أو «من خير أهل الأَرض» وكإخباره عن المملكة العلويّة[٣] بالغرب وتصريحه بذكر كتائته[٤] وهم الذين نصروا أبا عبد الله الدّاعي المعلّم، وكقوله يشير إلى عبيد الله المهدي، وهو أوّلهم: ثمّ يظهر صاحب القيروان[٥] الغض البض[٦] ذو النسب المحض المنتجب من سلالة ذي البداء المسجى بالرّدا، وكان عبيد الله المهدي مترفاً مشرباً رخص البدن تار الأطراف وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمّد عليه السلام لأن أباه أبا عبد الله جعفراً عليه السلام سجّاه برداه لمّا مات، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبهة[٧] في أمره.

وكإخباره عن بني بويه وقوله عليه السلام فيهم: «ويخرج من ديلمان بنو الصياد»، وكقوله فيهم: «ثم يستشرى أمرهم حتّى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء» إشارة إليهم، وكان أبوهم صياد السمك يصيد منه بيده ما يتقوت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة[٨]، ونشر ذريتهم حتّى ضربت الأمثال بملكهم، وكقوله عليه السلام فيهم: «والمترف بن الأَجذم يقتله ابن عمه على دجلة»، وهو إشارة إلى عز الدّولة بختيار بن معزّ الدولة أبي الحسين، وكان معزّ الدّولة أقطع اليد قطعت يده في الحرب، وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترفاً صاحب لهو وشرب، قتله عضد الدّولة فنّاخسر وابن عمه بقصر الجصّ على دجلة في الحرب وسلبه ملكه، فأمّا خلعهم للخلفاء فإن معز الدّولة خلع المستكفي ورتب عوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدّولة خلع الطائع ورتّب عوضه القادر وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام.

---

(١) هو محمد بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن (ع) منه.
(٢) أي لا يدري راميه.
(٣) هم إدريس بن عبد الله المحض وعشرة من ولده.
(٤) الكتائت في نسخة الشارح المعتزلي بالتائني والظاهر أنه من الكتيت وهو كما في القاموس: صوت في صدر الرجل كصوت البكر في شدة الغيظ والبخل، ويحتمل التحريف في النسخة ويكون الأصل كتائبه بدله هي جمع الكتيبة، منه.
(٥) أمراء مصر وقيروان من الإسماعيلية.
(٦) الطري القوي.
(٧) أي شبهة الإمامة.
(٨) وهم عماد الدولة علي بن بابويه، وركن الدولة حسن بن بابويه، ومعز الدولة أحمد بن بويه وولدهم، منه.

وكإخباره لعبد الله بن العباس (ره) عن انتقال الأمر إلى أولاده، فإن عليّ بن عبد الله لمّا ولد أخرجه أبوه عبد الله إلى عليّ عليه السلام فأخذه وتفل في فيه وحنّكه بتمرة قد لاكها ودفعه إليه وقال: خذ إليك أبا الأملاك، هكذا الرواية الصحيحة وهي التي ذكرها أبو العباس المبرد في «**الكامل**» وليست الرواية التي يذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه[1].

وكم له عليه السلام من الأخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى ممّا لو أردنا استقصاءه لكرسنا له كراريس كثيرة وكتب السّير يشتمل عليها مشروحة.

(١) الغارات: ٢/ ٦٨١، والبحار: ٤١/ ٣٥٣.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن امام مبین است که اشاره فرموده در آن به کمالات نفسانیه و مقامات معنویه خود و بعضی ازاخبار غیبیه، به این نحو که فرموده:

امّا بعد از حمد و ثنای الهی و درود نامعدود بر حضرت رسالت پناهی، ای گروه خلایق، پس من برکندم چشم فتنه را و حال آنکه نبود هیچ کس که جرأت نماید بر دفع آن فتنه غیر از من، بعد از آنکه مضطرب شد ظلمت آن فتنه و سخت گردید شرّ و اذیت آن، پس سؤال نمایید از من از مسائل مشکله و مطالب معضله پیش از آنکه نیابید مرا، پس قسم به خداوندی که نفس من در قبضه اقتدار او است، سؤال نمی نمایید از من از چیزی که در میان شما است و در میان روز قیامت و نه از گروهی که هدایت نمایند صد کس را و گمراه سازند صد کس دیگر را، مگر اینکه خبر دهم شما را به خواننده آن و کشنده آن و راننده آن و محل فرود آمدن شتران بارگیر ایشان و جای فرودآوردن بارها با پالان های ایشان و به آنکه کشته می شود از ایشان کشته شدنی و آنکه می میرد از ایشان مردنی.

و اگر مفقود کنید مرا و نازل بشود بر شما امورات مکروهه و حالات شدیده، هرآینه سردرپیش اندازند بسیاری از سائلان و می ترسند بسیاری از مسؤولان و این آن زمانی است که درهم کشیده شود و جمع شود حرب شما و بردارد رخت را از ساق خود و تنگ باشد دنیا به شما تنگ شدنی در حالتی که دراز شمارید ایام بلا را بر خودتان تا آنکه فتح کند خداوند از برای بقیّه نیکوکاران از شما.

به درستی که فتنه ها زمانی که روآورند، شبهه می اندازند مردمان را و زمانی که پشت برگردانند، آگاه می نمایند ایشان را، شناخته نمی شوند آن فتنه ها در حالتی که اقبال می کنند و شناخته می شوند در حالتی که ادبار می نمایند، دوران می کنند و برمی گردند آنها مثل گردیدن بادها، می رسند به شهری و تخطی می کنند و دور می گذرند از شهری دیگر.

الفصل الثاني

«أَلا إِنَّ أَخوَفَ الْفِتَنِ عِنْدي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّها فِتْنَةٌ عَمياءُ مُظْلِمَةٌ، عَمَّتْ خُطَّتُها، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُها، وأَصابَ الْبَلاءُ مَنْ أَبْصَرَ فيها، وَأَخطَأَ الْبَلاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْها، وأَيْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبابَ سُوءٍ بَعْدي كَالنّابِ الضَّرُوسِ، تَعْذِمُ بِفيها، وتَخْبِطُ بِيَدِها، وتَزْبِنُ بِرِجْلِها، وتَمْنَعُ دَرَّها، لا يَزالُونَ بِكُمْ حَتّى لا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلاّ نافِعاً لَهُمْ، أَوْ غَيرَ ضائِرٍ بِهِمْ، ولا يَزالُ بَلاؤُهُمْ حَتّى لا يَكُونَ انْتِصارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلاّ مِثْلَ انْتِصارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّه، وَالصّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوهاءَ مَخْشِيَّةً، وقِطَعاً جاهِلِيَّةً، لَيْسَ فيها مَنارُ هُدى، ولا عَلَمٌ يُرى، نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْها بِمَنْجاةٍ، ولَسْنا فيها بِدُعاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُ اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الأَديمِ بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً، ويَسْقيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ، ولا يُعْطيهِمْ إِلاّ السَّيْفَ، ولا يَحْلِسُهُمْ إِلاّ الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذلِكَ تَوَدُّ قُرَيْش بِالدُّنْيا وما فيها لَوْ يَرَوْنَني مَقاماً واحِداً ولَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ، لأَقْبَلَ مِنْهُمْ ما أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ، فَلا يُعْطُونَني»[١].

اللغة

(**الخطّة**) بالضم: الأمر والجهل والخصلة والحالة وشبه القصّة، و (**النّاب**) الأنثى المسنة من النوق وجمعها نيب وأنياب، و (**الضروس**) الناقة السيئة الخلق تعضّ حالبها و (**عذم**) الفرس يعذم من باب ضرب عضّ أو أكل بجفاء، و (**خبط**) البعير الأرض ضربها بيده، و (**زبنت**) النّاقة حالبها زبناً: من باب ضرب دفعته برجلها فهي زبون بالفتح فعول بمعنى فاعل، و (**الدرّ**) اللّبن.

و (**الصاحب من مستصحبه**) قال في «**المصباح**»: صحبته أصحبة صحبة فأنا صاحب، والأصل في هذا الإطلاق لمن حصل له رؤية ومجالسة، وكلّ شيء لازم شيئاً فقد استصحبه قاله ابن الفارس وغيره، و (**الشوه**) قبح الخلقة وهو مصدر شوه من باب تعب، ورجل اشوه قبيح المنظر وامرأة شوهاء، والجمع شوه مثل أحمر وحمراء وحمر وشاهت الوجوه تشوه قبحت، و (**القطعة**) الطائفة من الشيء والقطع جمعها مثل سدرة، وسدر، و (**المنجاة**) مصدر بمعنى النجاة واسم مكان، و (**سام**) فلاناً الأمر كلفه إيّاه أو أولاه إيّاه كسوّمه، وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر، و (**الخسف**) الذّهاب في الأرض والغيبة فيها، وفي «**القاموس**» سامه خسفاً إذا أولاه ذلاّ و (**العنف**) مثلثة ضدّ الرفق.

---

(١) الغارات: ١/ ١٢ ح ٨، وبحار الأنوار: ٤١/ ٣٤٩.

و **(المصبرة)** الممزوجة بالصّبر وهو وزن كتف عصارة شجر مرّ، ويجوز أن يكون المصبرة بمعنى المملؤة إلى أصبارها، قال في «**القاموس**» ملأ الكاس إلى أصبارها أي رأسه وأخذه بأصباره بجميعه، و **(حلس)** البعير يحلسه: غشاه بحلس وهو كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله، والجمع أحلاس كحمل وأحمال، و **(الجزور)** الناقة التي تجزر أي تنحر.

الإعراب

كلمة **(أيمن)** إسم استعمل في القسم والتزم رفعه، كما التزم رفع لعمر الله، وهمزته عند البصريين وصل واشتقاقه عندهم من اليمن وهو البركة، قالوا ولم يأت في الأسماء همزة وصل مفتوحة غيرها، وعند الكوفيين قطع لأنّه جمع يمين عندهم، وقد يختصر عنه فيقال: وأيم الله بحذف النون، ويختصر ثانياً فيقال أم الله بضم الميم وكسرها، وقد يدخل عليها اللام لتأكيد الابتداء قال الشاعر:

فقال فريق القوم لمّا نشدتهم   نعم وفريق ليمن الله ما ندري

ورفعه بالابتداء وخبره محذوف وجوباً، أي أيمن الله قسمي، وإذا خاطبت به أحداً تقول: ليمنك كما تقول لعمرك، وقوله: **(لا يزالون بكم)**، الظرف متعلّق بمحذوف معلوم بقرينة المقام خبر لزال، أي لا يزالون قائمين بكم أو موذين بكم أو نحو ذلك، و **(شوهاء)** منصوبة على الحالية من فاعل ترد وهو العامل فيها، و **(جاهلية)** صفة لقطعاً، وجملة **(ليس فيها)** إمّا استئنافية بيانية أو مرفوعة المحل على كونها صفة لفتنتهم، أو منصوبة على كونها صفة لقطعاً و**(الباء)** في قوله بالدنيا للبدل على حد قول الحماسي:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا   شدّوا الإغارة فرساناً وركباناً

و**(ما فيها)** عطف على الدّنيا، و**(ما)** موصولة ولفظة **(لو)**في قوله: لو يرونني، حرف مصدر بمعنى إن إلاّ أنها لا تنصب كما تنصب إن قال سبحانه:

﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ۝٩﴾ [القلم: ٩].

وفي قوله **(ولو قدر جزر جزور)** بمعنى إن الوصلية، وحذف بعده كان كما هو الغالب وقوله: **(لأقبل)** متعلّق بتوّد وقوله: **(فلا يعطونني)** فاعل يعطون ضمير قريش وضمير المتكلّم مفعوله الأوّل، وحذف مفعوله الثاني، وفي بعض النسخ فلا يعطونني بإثبات المفعولين كليهما.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمن للأخبار عن فتن بني أمية لعنهم الله قاطبة وما يرد على الناس فيها من الشدائد والمكاره، وعن انقراض دولتهم بعد سلطنتهم واستيلائهم

كما قال عليه السلام: **(ألا إنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية)** وإنما كانت أخوف الفتن لشدّتها وكثرة بلوى أهل الدّين بها، وعظم رزء المسلمين فيها، ويكفي في عظمها هتكهم حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وقتلهم سبطيه وهدمهم البيت الحرام وإساءتهم الأدب بالنسبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام على رؤوس منابر الإسلام ثمانين سنة حتى راب عليه الصغير وهرم عليه الكبير، وأمرهم للناس بالتبري منه عليه السلام وقتلهم كل من امتنع من ذلك واستئصالهم وتخريب دورهم وتشريدهم من البلاد وجعلهم البدعة سنّة والسّنة بدعة.

كما يشير إلى ذلك كله قوله: **(فإنها فتنة عمياء مظلمة)** أي فتنة موجبة للعمى والظّلام لا يهتدى فيها إلى سبيل الحق، كما لا يهتدي الأعمى والسالك في الظلمة إلى النّهج المطلوب.

ومحصل المراد أنها فتنة موجبة للضّلال والعدول عن منهج الحق، ويحتمل أن يكون من باب التشبيه المحذوف الأداة مبالغة أي فتنة بمنزلة العمياء في كون جريانها على غير استقامة وهي فتنة **(عمّت خطّتها)** لكونها رئاسة كليّة وسلطنة عامّة، **(وخصّت بليّتها)** بأئمّة الدّين ومواليهم المؤمنين وشيعتهم المخلصين من أهل التقوى واليقين، **(وأصاب البلاء من أبصر فيها)** أي: من كان ذا بصيرة فيها وهو مصاب بأنواع البلاء لحزنه في نفسه بما يشاهد من أفعالهم السّوْءَة وقصدهم له بأصناف العقوبة والأذى، **(وأخطأ البلاء من عمى عنها)** أي: من كان ذا عمى وجهالة عن تلك الفتنة فهو في أمن وسلامة من إصابة البلية لكونه منقاداً لدعوتهم منساقاً تحت رايتهم، مطيعاً لأوامرهم ممتثلاً لنواهيهم، **(وأيم الله لتجدنّ بني أميّة لكم أرباب سوء بعدي)** يطلق الرّبّ على المالك والمنعم والسيّد والمتمّم والمدبّر والمربي، ويصح إرادة كلّ منها في المقام ولا يطلق على الإطلاق إلاّ على الله سبحانه.

وبيّن جهة السّوء بقوله: **(كالنّاب الضّروس تعذم بفيها وتخبط بيدها وتزين برجلها وتمنع درّها)** شبّههم عليه السلام بالناقة السّيئة الخلق المتّصفة بالأوصاف الرّدية المذكورة أراد عليه السلام أنها كما تعضّ بفيها وتضرب بيدها وتدفع حالبها برجلها وتمنع الناس من لبنها، فكذلك هؤلاء في أفعالهم الرّديّة وحركاتهم المؤذية من قصد الناس بالقتل والضرب والأذية ومنعهم ما يستحقونه من بيت المال **(لا يزالون)** قائمين **(بكم)** مسلّطين عليكم قاصدين لكم، **(حتى لا يتركوا منكم)** في الأرض ولا يبقوا **(إلاّ نافعاً لهم)** سالكاً مسلكهم ينفعهم في مقاصدهم **(أو غير ضائر بهم)** بإنكار المنكرات عليهم أي من لا يكون مضراً لهم في أمور دولتهم، **(ولا يزال بلاؤهم)** عليكم **(حتى لا يكون انتصار أحدكم)** أي انتقامه **(منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه)** وانتقامه من مولاه **(و)** كانتصار **(الصّاحب)** الملازم التابع **(من مستصحبه)** أي ممن اتبعه ولزمه.

والغرض بذلك إمّا نفي إمكان الانتقام رأساً فيكون المقصود بالإثبات هو النفي، أي كما لا يمكن للعبد الانتقام من مولاه وللمستصحب الذي من شأنه الضّعف وعدم الاستقلال الانتصار من مستصحبه، فكذلك هؤلاء الموجودون في تلك الأزمان النّاجون من سيف البغي

والعدوان لا يمكنهم الانتصار من بني أميّة ومروان، لكونهم أذلآء مقهورين بمنزلة العبيد المملوكين، وإمّا إثبات الانتصار في الجملة عند الغيبة بمثل الغيبة والسّب والذّم ونحوها مع الأمن من الوصول إلى المغتاب والمسلوب والمذموم مع إظهار الطّاعة والانقياد عند الحضور، ويؤيّد ذلك ما يأتي في رواية الثقفي من الزّيادة وهو قوله عليه السلام: **(حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه إذا رآه أطاعه وإذا توارى عنه شتمه)**.

(ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشيّة) أي: حال كونها قبيحة عقلاً وشرعاً مخوّفة للنفوس مرعبّة للقلوب **(وقطعاً جاهليّة)** أي: طوائف ودفعات منسوبة إلى الجهالة متصفة بالضّلالة لكونها على غير قانون عدل، وما يظهر من كلام الشراح من كون المراد بالجاهلية الحالة التي كانت العرب عليها قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدّين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر والتعصب والأخلاق الذّميمة، فيه أن معنى الجاهلية وإن كان ذلك إلاّ أن ظاهر التركيب لا يساعد حمله على ذلك المعنى في المقام ولو كان مراده عليه السلام ذلك لقال: وقطع الجاهليّة أي قطعاً مثل قطع الجاهلية فافهم.

وقوله عليه السلام: **(ليس فيها منار هدى ولا علم يرى)** بيان لوجه الجهالة أي ليس فيها إمام هدى يهتدى به ويستضاء بنوره، ولا قانون عدل يسلك به سبيل الحق.

ثمّ أشار عليه السلام إلى براءة ساحتهم من تلك الفتنة بقوله: **(نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة)** أراد نجاتهم من الدخول فيها ومن لحوق آثامها وتبعاتها وعدم كونهم من الداعين إليها وإلى مثلها، وليس المراد نجاتهم من أذيّتها وخلاصهم من بليّتها لكونهم عليهم السلام أعظم النّاس بليّة وأشدّهم أذيّة فيها، وكفى بذلك شاهداً شهادة الحسين عليه السلام وأولاده وأصحابه وهتك حريمه ونهب أمواله، وما أصاب سائر أئمة الدّين من الطغاة الظالمين لعنهم الله أجمعين.

ثمّ بشر بظهور الفرج بقوله: **(ثمّ يفرج الله)** ويكشف عنكم **(كتفريج الأديم)** قيل أي ككشف الجلد عن اللّحم حتى يظهر ما تحته.

وقال في «**البحار**»: يحتمل أن يكون المراد بالأديم الجلد الذي يلفّ الإنسان فيه للتّعذيب لأنّه يضغطه شديداً إذا جفّ، وفي تفريجه راحة، وكيف كان فالمقصود انفتاح باب الفرج لهم **(بمن يسومهم خسفاً)** أي: يكلّفهم ويوليهم ذلاً وهواناً أو خسفاً في الأرض، **(ويسوقهم عنفاً)** أي بعنف وشدّة **(ويسقيهم بكأس مصبرة)** ممزوجة بالصّبر أو المراد مملوة إلى أصبارها **(ولا يعطيهم إلاّ السّيف ولا يحلسهم إلاّ الخوف)** استعار لفظ الاحلاس بمشابهة جعلهم الخوف شعاراً لهم غير منفك عنهم كالحلس الملازم للبعير الذي يكسى على ظهره ويلاصق جسده.

قال الشراح: وهذه الفقرات إشارة إلى انقراض دولة بني أميّة بظهور بني العباس، وإنّ بني العباس أولوهم ذلاً وهواناً وأذاقوهم كأس العذاب طعوماً مختلفة وأروهم عيان الموت ألواناً شتّى كما هو مذكور في كتب السير والتواريخ.

أقول: والأَظهر بملاحظة الزيادات الآتية في رواية سليم بن قيس الهلالي وإبراهيم الثقفي أنها إشارة إلى ظهور السلطنة الإلهية والدولة القائميّة، وعلى هذا يكون قوله: يسومهم خسفاً إشارة إلى خسف الأرض بجيش السفياني في البيداء كما هو مرويّ في أخبار الرجعة.

ثمّ أشار إلى مآل حال الفرقة المنقلبة من قريش ومنتهى ذلّتهم وضعفهم بقوله: (**فعند ذلك تودّ قريش بالدّنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً ولو قدر جزر جزور لأَقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونني**) أي: حينئذٍ يتمنّى قريش بدل الدّنيا وما فيها أن يروني مقاماً قصيراً بمقدار جزء جزور فيطيعوني إطاعة كاملة، وقد رضيت منهم اليوم بأن يطيعوني إطاعة ناقصة فلم يقبلوا.

ويصدّق هذا ما روي في السّير أنّ مروان بن محمّد وهو آخر ملوك بني أمية قال يوم الزاب[1] لمّا شاهد عبد الله بن محمّد بن علّي بن عبد الله بن العبّاس بإزائه في صفّ خراسان: لوددت أنّ عليّ بن أبي طالب تحت هذه الرّاية بدلاً من هذا الفتى، وعلى ما استظهرناه فيكون الإشارة بذلك إلى التمني عند قيام القائم عليه السلام.

تكملة

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة ملتقطة من خطبة طويلة أوردها في «**البحار**» بزيادة واختلاف كثير لما أورده السّيد (ره) في الكتاب أحببت أن أورد تمامها توضيحاً للمرام وغيرة على ما أسقطه السيد (ره) **اختصاراً أو اقتصاراً من عقائل الكلام فأقول**:

روى المحدّث العلامة المجلسي (ره) من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمّد الثقفي، عن إسماعيل بن أبان عن عبد الغفار بن القسم عن المنصور بن عمر عن زر بن حبيش، وعن أحمد بن عمران بن محمّد بن أبي ليلى عن أبيه عن ابن أبي ليلى عن المنهال ابن عمرو عن زرّ بن حبيش قال: خطب عليّ عليه السلام بالنّهروان فحمد الله وأثنا عليه ثمّ قال:

«أيّها النّاس: أمّا بعد أنا فقأت عين الفتنة لم يكن أحد ليجتري عليها غيري»، وفي حديث ابن أبي ليلى «لم يكن ليقفاها أحد غيري ولو لم أك فيكم ما قوتل أصحاب الجمل ولا أهل صفّين ولا أهل النّهروان، وأيم الله لولا أن تتكلّموا وتدعوا العمل لحدّثتكم بما قضى الله

(١) الزاب: نهر بالموصل.

على لسان نبيّكم لمن قاتلهم مبصراً لضلالتهم عارفاً للهدى الذي نحن عليه».

ثم قال: «سلوني قبل أن تفقدوني سلوني عمّا شئتم سلوني قبل أن تفقدوني إني ميّت أو مقتول بلى[١] قتل ما ينتظر أشقاها أن يخضبها من فوقها بدم، وضرب بيده إلى لحيته، والذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تضلّ مائة أو تهدي مائة إلاّ نبّأتكم بناعقها وسائقها».

فقام إليه رجل فقال: حدثنا يا أمير المؤمنين عن البلاء، قال عليه السلام: «إنكم في زمان إذا سأل سائل فليعقل، وإذا سئل مسؤول فليثبت، ألا وإنّ من ورائكم أموراً أتتكم جللاً مزوجاً وبلاء مكلحاً، والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة أن لو فقدتموني ونزلت بكم كرايه[٢] الأمور وحقائق البلاء لقد أطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤولين، وذلك إذا قلصت حربكم وشمّرت عن ساق وكانت الدّنيا بلاء عليكم وعلى أهل بيتي حتّى يفتح الله لبقيّة الأبرار فانصروا أقواماً كانوا أصحاب رايات يوم بدر ويوم حنين تنصروا وتوجروا، ولا تسبقوهم فتصرعكم البلية».

فقام إليه رجل آخر فقال: يا أمير المؤمنين حدثنا عن الفتن قال: «إن الفتنة إذا أقبلت شبّهت، وإذا أدبرت أسفرت يشبهن مقبلات ويعرفن مدبرات، إنّ الفتن تحوم كالرّياح يصبن بلداً ويخطين أخرى، ألا إنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أميّة إنّها فتنة عمياء مظلمة مطينة عمّت فتنتها وخصت بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ البلاء من عمى عنها، يظهر أهل باطلها على أهل حقّها حتى يملأ الأرض عدواناً وبدعاً، وإن أوّل من يضع جبروتها ويكسر عمدها وينزع أوتادها الله ربّ العالمين.

وأيم الله لتجدنّ بني أميّة أرباب سوء لكم بعدي كالناب الضّروس تعضّ بفيها وتخبط بيديها وتضرب برجليها وتمنع درّها لا يزالون بكم حتّى لا يتركوا في مصركم إلاّ تابعاً لهم أو غير ضار، ولا يزال بلاؤهم بكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه إذا رآه أطاعه، وإذا توارى عنه شتمه.

وأيم الله لو فرقوكم تحت كلّ حجر لجمعكم الله شرّ يوم لهم ألا إنّ من بعدي جمّاع شتى، ألا إنّ قبلتكم واحدة وحجّكم واحد وعمرتكم واحدة والقلوب مختلفة»، ثمّ أدخل أصابعه بعضها في بعض فقام رجل فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: «هذا هكذا يقتل هذا هذا ويقتل هذا هذا قطعاً جاهلية ليس فيها هدى ولا علم يرى، نحن أهل البيت منها بنجاة ولسنا فيها بدعاة».

---

(١) «بل» في نسخة.

(٢) جمع كريهة.

فقام رجل فقال: يا أمير المؤمنين ما نصنع في ذلك الزّمان؟ قال عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيكم فإن لبدوا فالبدوا، وإن استصرخوكم فانصروهم توجروا، ولا تسبقوهم فتصرعكم البليّة».

فقام رجل آخر فقال: ثمّ ما يكون بعد هذا يا أمير المؤمنين؟.

قال عليه السلام: «ثمّ إنّ الله يفرج الفتن برجل منّا أهل البيت كتفريج الأديم، بأبي ابن خيرة الإماء يسومهم خسفاً ويسقيهم بكأس مصبرة، ولا يعطيهم إلا السّيف هرجاً هرجاً، يضع السّيف على عاتقه ثمانية أشهر، ودّت قريش عند ذلك بالدّنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً قدرحلب شاة أو جزر جزور لأقبل منهم بعض الذي يرد عليهم حتى تقول قريش لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا، فيغريه الله ببني أمية فجعلهم»[1]:

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١ ـ ٦٢].

بيان

ورواه في «**البحار**» أيضاً من كتاب سليم بن قيس الهلالي نحو ما رواه من كتاب «**الغارات**» مع زيادات كثيرة في آخره، ولا حاجة لنا إلى إيرادها، وإنما المهم تفسير بعض الألفاظ الغريبة في تلك الرّواية فأقول: «الجلل» بالضم جمع جليّ وزن ربّي وهو الأمر العظيم و «مزوجاً» في النسخة بالزّاء المعجمة، والظاهر أنه تصحيف والصحيح مروجا بالمهملة من راج الريح اختلطت، ولا يدري من أين يجيء، ويمكن تصحيحه بجعله من زاج بينهم يزوج زوجاً إذا أفسد بينهم وحرش و «كلح» كلوحاً تكشر في عبوس كتلكح ودهر كالح شديد، و «طان» الرجل البيت والسطح يطينه من باب باع طلاه بالطين وطينه بالتثقيل مبالغة وتكثير، والمطينة فاعل منه، وفي رواية سليم بن قيس بدلها مطبقة، و «جمّاع» النّاس كرمان، أخلاطهم من قبائل شتى ومن كلّ شيء مجتمع أصله، وكل ما تجمع وانضمّ بعضه إلى بعض، و «لبد» بالمكان من باب نصر وفرح لبداً ولبوداً أقام ولزق.

وقوله: «بأبي ابن خيرة الإماء» إشارة إلى إمام الزمان الغائب المنتظر عجّل الله فرجه وسهل مخرجه، و «هرجاً هرجا» منصوبان على المصدر قال في «**القاموس**» هرج النّاس يهرجون وقعوا في فتنة واختلاط وقتل، وفي رواية سليم بن قيس حتّى يقولوا ما هذا من قريش لو كان هذا من قريش ومن ولد فاطمة لرحمنا، و «غرى» بالشيء غرى من باب تعب أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل وأغريته به إغراء.

---

(١) شرح الأخبار ٢/ ٢٨٨، وكتاب الغيبة: ٢٢٩ ح ١١.

الترجمة

آگاه باشید و به درستی که ترسناك ترین فتنه ها نزد من بر شما فتنه بنی امیه است، پس به درستی که آن فتنه، فتنه ای است که باعث کوری و ظلمت است که عام است حالت آن به جهت احاطه او به جمیع مسلمانان و خاص است بلیه آن بر خواص اهل ایمان و یقین و رسید بلای آن به کسی که صاحب بصیرت است در او و خطا نمود بلاء از کسی که کور و بی بصیرت گشت از آن و قسم به خدا، هرآینه البته می یابید بنی امیّه را از برای خود صاحبان بد بعد از من، مثل ناقه بدخلق گزنده در وقت دوشیدن که دندان می گیرد با دهان خود و میزند با دست های خود و لگد می زند با پاهای خود و منع می نماید از شیر خود.

همیشه باشند اذیّت کننده به شما تا اینکه نگذارند از شما احدی را مگر اینکه فایده دهنده به ایشان یا ضررنرساننده بر ایشان و همیشه باشد با شما بلاء ایشان تا اینکه نباشد انتقام یکی از شما از ایشان مگر مثل انتقام کشیدن غلام از آقای خود و مثل انتقام کشیدن تابع از متبوع خود. وارد می شود بر شما فتنه ایشان در حالتی که قبیح است و ترسیده شده و طایفه به طایفه که منسوب است به جهالت که نباشد در میان آن فتنه های مناره هدایت و نه علامت دیده شده.

ما اهل بیت از آن فتنه در نجات هستیم و نیستیم در آن، دعوت کننده به مثل آن، پس از آن بگشاید خداوند آن فتنه را از شما مثل شکافتن و جدا نمودن پوست از گوشت، به دست آن کسی که بنماید به ایشان ذلّت را و براند ایشان را به درشتی و سیراب می نماید ایشان را با کاسه که تلخ شده باشد و ندهد بر ایشان مگر شمشیر خون آشام و نمی پوشاند بر ایشان مگر لباس خوف را، پس نزد آن واقعه دوست می دارد قریش عوض دنیا و مافی ها، اینکه ببینند مرا در یك مکانی اگرچه بوده باشد آن زمان دیدن، به قدر کشتن شتر قربانی تا اینکه قبول نمایم از ایشان آنچه را که می خواهم از ایشان امروز بعض آن را، پس نمی دهند آن را به من.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثالثة والتسعون من المختار في باب الخطب

«فَتَبارَكَ اللهُ الَّذي لا يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، ولا يَنالُهُ حِسُّ[١] الفِطَنِ، الأَوَّلُ الَّذي لا غايَةَ لَهُ فَيَنْتَهي، وَلا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِي».

منها[٢]: «فاسْتَوْدَعَهُمْ في أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وأَقَرَّهُمْ في خَيرِ مُسْتَقَرٍّ، تَناسَخَتْهُمْ كَرائِمُ الأَصْلابِ، إِلى مُطَهَّراتِ الأَرْحام، كُلَّما مَضى مِنْهُمْ سَلَفٌ، قامَ مِنْهُمْ بِدينِ اللهِ خَلَفٌ، حَتّى أَفْضَتْ كَرامَةُ اللهِ سُبْحانَهُ إِلى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعادِنِ مَنْبَتاً، وأَعَزِّ الأَرُوماتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتي صَدَعَ مِنْها أَنْبِياءَهُ، وَانْتَخَبَ مِنْها أُمناءَهُ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ، وشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ في حَرَمٍ، وبَسَقَتْ في كَرَمٍ، لَها فُرُوعٌ طِوالٌ، وثَمَرَةٌ لا تُنالُ، فَهُوَ إِمامُ مَنِ اتَّقى، وبَصيرَةُ مَنِ اهْتَدى، سِراجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وشِهابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سيرَتُهُ الْقَصْدُ، وسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وكَلامُهُ الْفَصْلُ، وحُكْمُهُ العَدْلُ، أَرْسَلَهُ عَلى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ، وغَباوَةٍ مِنَ الأُمَمِ، إِعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللهُ على أَعْلامٍ بَيِّنَةٍ، فَالطَّريقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلى دارِ السَّلامِ، وأَنْتُمْ في دارِ مُسْتَعْتَبٍ، عَلى مَهَلٍ وفَراغٍ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، والأَقْلامُ جارِيَةٌ، وَالأَبْدانُ صَحيحَةٌ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوبَةُ مَسْمُوعَةٌ، والأَعْمالُ مَقْبُولَةٌ»[٣].

اللغة

(تبارك الله) من البركة وهو كثرة الخير وزيادته يقال: بارك الله لك وفيك وعليك وباركك بالتعدية بنفسه و **(النسخ)** الإزالة والنقل يقال: نسخت الشمس الظل أي أزالته ونسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته، أي نقلت ما فيه والمنقول منه النسخة بالضمّ، و **(السلف)** كل من تقدّمك من آبائك أو قرابتك، والجمع سلاف وأسلاف و **(الخلف)** بالتحريك الولد الصّالح ويقال: على من حضر من الحي، وإذا كان الولد فاسداً يقال خلف بسكون اللام وربما استعمل كلّ منهما مكان الآخر، و **(الإفضاء)** إلى الشيء الوصول والانتهاء إليه، و **(المعدن)** وزن مجلس منبت الجواهر من ذهب ونحوه، و **(الأرومات)** جمع الأرومة بفتح الهمزة وضمّها أصل الشيء والجمع أيضاً على الأروم، و **(غرس)** الشجر يغرسه من باب ضرب أثبته في الأرض كأغرسه، و **(الصّدع)** الشق في شيء صلب ونبات الأرض قال سبحانه: والأرض ذات الصّدع.

---

(١) في بعض المصادر: حوس، وفي بعض خطب النهج: غوص. وفي أخرى خدْسُ وحُسْنُ.

(٢) منها في وصف الأنبياء.

(٣) ميزان الحكمة: ٣/ ٢١٢١ ـ ١٨٩٤، والبحار: ١٦/ ٣٧٩.

و **(العترة)** نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون من مضى وغبر، كذا في **«القاموس»** وسيأتي تحقيق الكلام فيه و **(أسرة)** الرجل وزن غرفة رهطه وعشيرته الأدنون وأهل بيته، والجمع أسر كغرب، و **(بسق)** النخل بسوقاً من باب قعد طال قال سبحانه: والنخل باسقات و **(الطوال)** بالكسر جمع الطويل، والطوال بالضمّ، و **(الشهاب)** كلّ شيء مضيء، و **(الزند)** بالفتح فالسكون العود الذي يقدح به النّار وهو الأعلى والسفلى الزندة، و **(برقت)** السماء بروقاً وبرقاناً لمعت أو جاء ببرق وبرق الشيء برقاً وبريقاً وبرقاناً لمع، و **(الفترة)** ما بين كلّ نبيّين ورسولين، و **(الغباوة)** الجهل وقلة الفطنة، و **(نهج)** الطريق الواضح منه، و **(المستعتب)** يجوز كونه مصدراً ومكاناً من استعتبه أي استرضاه وطلب إليه العتبى أي الرّضا.

الإعراب

يجوز في محلّ الموصول أعني قوله عليه السلام: الذي لا يبلغه، الرفع على كونه تابعاً لله بكونه بدلاً منه أو نعتاً له، والنصب على تقدير المدح أي أعني الذي أو أمدح الذي، وإضافة البعد إلى الهمم والحس إلى الفطن لامية، والأوّل إمّا خبر لمبتدأ محذوف أو تابع لله.

واستشكل الشارح المعتزلي في **(الفاء)** العاطفة في قوله عليه السلام: فينتهي فينقضي، بأن الفاء إنّما تدخل فيما إذا كان الثاني غير الأوّل، كقولهم: ما تأتينا فتحدثنا وليس الثاني ههنا غير الأوّل؛ لأن الانقضاء هو الآخرية بعينها فكأنّه قال: لا آخر له فيكون له آخر، وكذلك القول في اللّفظة الأولى.

وأجاب بأن المراد لا آخر له بالإمكان والقوة، فينقضي بالفعل فيما لا يزال، ولا هو أيضاً ممكن الوجود فيما مضى، فيلزم أن يكون وجوده مسبوقاً بالعدم وهو معنى قوله فينتهي، بل هو واجب الوجود في الحالين فيما مضى وفي المستقبل، وهذان مفهومان متغايران وهما العدم وإمكان العدم، فاندفع الأشكال انتهى كلامه(١).

أقول: وفيه نظر إذ الغالب في **(الفاء)** العاطفة لجملة على جملة على ما صرّح به علماء الأدب أن يكون مضمون الجملة الثانية عقيب مضمون الجملة الأولى، تقول قام زيد فقعد عمرو، وأمّا اشتراط التغاير بين الجملتين فممنوع، وقد تفيد الفاء كون المذكور بعدها كلاماً مرتّباً في الذكر على ما قبلها لا أن مضمونه عقيب مضمون ما قبلها في الزمان كقوله تعالى:

﴿فَادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

---

(١) شرح النهج: ٧/ ٦٢.

فإن ذكر ذم الشيء ومدحه يصح بعد جري ذكره، ومن هذا الباب عطف تفصيل المجمل على المجمل؛ لأنّ موضع ذكر التفصيل بعد الإجمال قال سبحانه:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥].

وتقول أجبته فقلت لبيك، ومن هذا علم أن شرطية التغاير غير معتبرة فلا حاجة إلى ما تكلّفه في الجواب، وإنّما مساق كلام الإمام عليه السلام مساق هذه الآية الشريفة ومساق قوله:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ [الأعراف: ٤].

فإن ذكر نفي الانتهاء للشيء، إنّما يصح بعد ذكر نفي النهاية والغاية عنه، وكذا ذكر نفي الانقضاء يحسن بعد ذكر نفي الآخر عنه، وسيأتي له مزيد توضيح في بيان المعنى، وجملة نبتت في حرم استئنافية بيانية، وكذا جملة لها فروع طوال، والفاء في قوله: فهو امام فصيحة، و**(الواو)** في قوله **(وأنتم في دار مسعتب حالية)**.

ودار في أكثر ما رأيناه من النسخ بالتنوين فلا بدّ من جعل مستعتب اسم مكان بدلاً منه أو عطف بيان على ما هو الحق الذي ذهب إليه الكوفيون من جواز البيان في النكرات، إلاّ أنه يبعده ويبعد الوصفية أن الدار من المؤنثات السماعيّة، فكان اللاّزم أن يقال: مستعتبة بالتاء للزوم المطابقة بين الصفة والموصوف، والبيان والمبين في التذكير والتأنيث وإن أمكن التصحيح بالتأويل في الموصوف أو عدم لزوم المطابقة في الصفة إذا كانت من أسماء المكان فليتأمل.

وفي نسخة الشارح المعتزلي بلا تنوين على الإضافة وهو أولى، فيصح على ذلك جعل مستعتب مصدراً فيكون إضافة دار إليه لامية، وجعله اسم مكان فتكون الإضافة بيانية، و**(على)** في قوله على مهل، للاستعلاء المجازي.

المعنى

اعلم أنه صدّر هذه الخطبة بتقديس الله سبحانه وتنزيهه عن صفات النّقص والإمكان، وعقبه بذكر وصف الأنبياء والأولياء، وذيله بالموعظة والنّصيحة، فقال سلام الله عليه وآله **(فتبارك الله)** أي: ثبت الخير والبركة عنده، وفي خزائنه وقيل: أي تعالى الله لأنّ البركة ترجع معناها إلى الامتداد والزيادة وكل ما زاد على الشيء فقد علاه، وقيل أصله من البروك وهو الثبات فكأنه قال: والبقاء والدّوام والثّبات له فهو المستحق للتعظيم والثّناء **(الذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حسّ الفطن)** قد مضى الكلام في شرح هذه الفقرة في الفصل الثّاني من فصول الخطبة الأولى وأقول هنا:

إن نعوت الجلال وصفات الكمال لله سبحانه المتعال لمّا كانت غير متناهية ولا محدودة نبّه عليه السلام بذلك على عدم إمكان الوصول إليها، وتعذّر إدراكها، إذ كلّ مدرك متناه محدود،

فالمعنى أنه تعالى لا يبلغه الهمم والقصود على بعدها وعلوّها، ولا يصل إليه إدراك الفطن، وإن ذكت واشتدّت في ذكائها وحدّتها وسرعة انتقالها من المبادىء إلى المطالب، بل كل سابح في بحار جلاله غريق وكلّ مريد للوصول إلى أنوار جماله حريق.

(الأوّل الذي لا غاية له فينتهي ولا آخر له فينقضي) تقدّم تحقيق الكلام في أوليّته وآخريّته سبحانه في شرح الخطبة الرّابعة والسّتين، والفصل الأوّل من فصول الخطبة التسعين بما لا مزيد عليه، والمراد هنا أنه تعالى أول الأشياء لا غاية له في البداية فينتهي إليها، ولا آخر له في النهاية فيكون له الانصرام والانقضاء عندها، بل هو أزليّ باق غير منقطع الوجود بداية ونهاية، وبرهان ذلك أنّ الغاية والنهاية من عوارض الأجسام ذوات الأوضاع والمقادير تعرض لها بالذّات، وللواحقها كالأزمنة والحركات، وللأمور المتعلقة بها كالقوى والكيفيات بالعرض، والأول سبحانه ليس بجسم ولا جسماني ولا متعلّق به ضرباً من التعلّق فهو منزّه عن الحدّ والنهاية.

قال السيد ره **(منها)** أي: بعض فصول تلك الخطبة في شرح حال الأنبياء عليهم السلام وهو قوله عليه السلام: **(فاستودعهم في أفضل مستودع)** وهو أصلاب الأباء **(وأقرّهم في خير مستقرّ) وهو أرحام الأمهات قال سبحانه:**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

(تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام) أي نقلتهم الأصلاب الكريمة إلى الأرحام المطهرّة من السفاح، كما لو وقع عقد النكاح على غير الوجه الشرعي لخلل في لفظ العقد أو في القصد بأن يقع على غير المقصود إنكاحه أو نكاحه أو بغير رضا الطرفين، أو أحدهما أو من يعتبر رضاه أو لوقوعه على المحارم ونحو ذلك. روى عن أمير المؤمنين عليه السلام بطريق العامة عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى:

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال: نسباً وصهراً وحسباً ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلّنا بنكاح، قال الكلبي: كتبت للنبي صلى الله عليه وآله خمسمائة أمّ، فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان عليه أهل الجاهليّة[1]. هذا.

وقال الشّارح البحراني: وتناسخ الأصلاب لهم إلى مطهرات الأرحام نقلهم إليها نطفاً، وكرائم الأصلاب ما كرم منها، وحق لأصلاب سمحت بمثلهم أن توصف بالكرم، ومطهرات الأرحام ما طهر منها، وحق لما استعدّ منها لانتاج مثل هذه الأمزجة وقبولها أن تكون طاهرة

(١) الدر المنثور: ٣/ ٢٩٤، والشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/ ١٥.

من كدر الفساد، والشّيعة يطهّرون أصول الأنبياء من طرف الآباء والأمهات عن الشرك، ونحوه قول رسول الله ﷺ نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية[1].

وفي حديث جابر المروي في «**الفقيه**» في كيفية خلقة الإنسان وولادته قال: فقلت: يا رسول الله هذه حالنا فكيف حالك وحال الأوصياء بعدك في الولادة؟ فسكت رسول الله ﷺ مليّاً ثمّ قال: يا جابر لقد سألت عن أمر جسيم لا يحتمله إلاّ ذو حظّ عظيم، إنّ الأنبياء والأوصياء مخلوقون من نور عظمة الله جلّ ثناؤه يودع الله أنوارهم أصلاباً طيبة وأرحاماً طاهرة يحفظها بملائكته، ويربّيها بحكمته ويغذوها بعلمه، فأمرهم يجلّ عن أن يوصف، وأحوالهم تدّق عن أن تُعلم، لأنّهم نجوم الله في أرضه، وأعلامه في بريّته، وخلفاؤه على عباده، وأنواره في بلاده، وحججه على خلقه، هذا من مكنون العلم ومخزونه فاكتمه إلاّ من أهله[2].

وبالجملة فالمراد أنه تعالى خلق الأنبياء عليهم السلام وأودع أنوارهم في الأصلاب والأرحام، وأخرجهم إلى وجه الأرض على تعاقب الزمان وكرور الأيام، وأرسلهم تترى لمسيس الحاجة واقتضاء المصلحة، وهو الدّلالة على التوحيد والمعرفة، وإكمال الدّين والملّة، ولم يخل الخلق منهم بل (**كلما مضى منهم سلف**) وارتحلوا من الدّنيا إلى العقبا، (**قام منهم بدين الله**) ونشر شرائعه وأحكامه، (**خلف حتى أفضت كرامة الله**) وانتهت نبوّته (**إلى محمّد ﷺ**) وبلغت بوجوده الشريف سلسلة النّبوة والرسالة الغاية. وأشرق وجه الأرض بنور جماله، وأضاءت الدّنيا بأشعّة كماله، وقد كان في عالم المعنى الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة قشوراً لذلك اللّب أحاطت به إحاطة الأشعّة بالسراج، فهو مفارق لتلك المحالّ الشّريفة في التقدير، وإن كان مقارناً لها في التدبير.

ولأجل هذا كان كلّ من انتقل إليه ذلك النّور أشرق وجهه حتى يعرف بذلك النور إلى أن ينتقل منه إلى رحم الطاهرة، فيسلب منه النور ويتلألأ بوجه الحامل إلى أن تضع الجنين فيخرج مشرقاً بما فيه فيسلب الله النور.

روى الصدوق بإسناده إلى أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: خلقت أنا وعلي بن أبي طالب من نور واحد نسبّح الله يمنة العرش قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما أن خلق الله آدم عليه السلام جعل ذلك النور في صلبه، ولقد سكن الجنة ونحن في صلبه، ولقد همّ بالخطيئة ونحن في صلبه، ولقد ركب نوح بالسفينة ونحن في صلبه، ولقد قذف إبراهيم عليه السلام في النار ونحن في صلبه، فلم يزل ينقلنا الله عزّ وجل من أصلاب طاهرة إلى أرحام طاهرة حتى انتهى بنا إلى عبد المطلب، فقسمنا فجعلني في صلب عبد الله وجعل عليّاً عليه السلام في

(١) ميزان الحكمة: ٤/٣٠١٩ ح ٣٧٧٥، ومستدرك سفينة البحار: ١/ ٤٢.
(٢) المحتضر: ١٤٧، وبحار الأنوار: ٥٧/٣٥٣.

صلب أبي طالب، وجعل فيّ النبوة والبركة، وجعل في عليّ الفصاحة والفروسية، وشقّ لنا اسمين من أسمائه، فذو العرش محمود وأنا محمّد، والله العلّي الأعلى وهذا عليّ[(١)].

وعن المناقب لأحمد بن حنبل والنّائي عن عليّ عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله خلق خلقه في ظلمة، ثمّ رشّ عليهم من نوره فمن أصابه من النّور شيء اهتدى ومن أخطأه ضل»[(٢)].

ثمّ فسره عليّ عليه السلام فقال: «إنّ الله عزّ وجل حين شاء تقدير الخليقة وذرء البريّة وإبداع المبدعات ضرب الخلق في صور كالهباء قبل وجود الأرض والسماء وهو سبحانه في انفراد ملكوته وتوحّد جبروته، فأشاع نوراً من نوره فلمع، وقبأ من ضيائه فسطع، ثم اجتمع ذلك النور في وسط تلك الصور الخفية فوافق صورة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وقال الله له: أنت المختار المنتخب وعندك ثابت نوري، وأنت كنوز هدايتي، ثم أخفى الخليقة في غيبه وسترها في مكنون علمه، ثم وسط العالم وبسط الزمان وموج الماء، وأثار الزبد وأفاج الرّيح، فطفى عرشه على الماء فسطح الأرض على ظهر الماء، ثمّ أنشأ الملائكة من أنوار ابتدأها وأنوار اخترعها، وقرن بتوحيده نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ظاهراً فهو أبو الأرواح ويعسوبها كما أنّ آدم عليه السلام أبو الأجساد وسببها، ثم انتقل النور في جميع العوالم عالماً بعد عالم وطبقاً بعد طبق وقرناً بعد قرن إلى أن ظهر محمّد صلى الله عليه وآله بالصورة والمعنى في آخر الزمان، ويطابق هذا الكلام قول عمي العبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: يا رسول الله أريد أن أمدحك قال: قل لا يفضض الله فاك قال (ره):

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حيث يخصف الورق
ثمّ انبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السّفين وقد ... الجمت نسراً وأهله الغرق
وردت نار الخليل مكتتماً ... تجول فيها ولست تحترق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق
حتّى احتوى بيتك المهيمن ... من خندف[(٣)] عليا تحتها النّطق
وأنت لمّا ولدت أشرقت الأرض ... و ضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي ... النّور وسبل الرّشاد تحترق[(٤)]

(١) بحار الأنوار: ٢٣/١١٦ ح ٢٥، وكتاب السنة: ١٠٧ ح ٢٤١.
(٢) روضة الواعظين: ٦٧، وبحار الأنوار: ١٥/١١ ح ١٢.
(٣) خندف وزن زبرج أم مدركة بن الياس أحد أجداد النبي واسمها ليلى كما في القاموس.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ١/٢٧، وتفسير القرطبي: ١٣/١٤٦.

(فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً وأعز الأرومات مغرساً) يحتمل أن يكون المراد بذلك مكّة زادها الله شرفاً لأنها لمّا سمحت بمثله صلوات الله وسلامه عليه صار أجدر بأن تكون أفضل المعادن وأعزّ الأصول، ويشعر به قول الآتي: [**نبتت في حرم**)، فافهم.

والأَظهر أن يراد به إما إبراهيم خليل الله أو إسماعيل ذبيح الله، فإن كلا منهما لما كان محلاً لجوهر الرسالة وأصلاً لشجرة النبوة صار حقيقاً بأن يكون أفضل المعادن وأعزّ الأصول، ويستعار لهما هذان اللفظان.

ويناسب ذلك قوله عليه السلام **(من الشجرة التي صدع منها أنبياءه وانتجب منها أمناءه)**، فإن الأَظهر أن المراد بها أحدهما عليه السلام لكون الأَنبياء من فروع تلك الشجرة المباركة وانتهاء سلسلة النبوة الخاصة لمحمّد صلى الله عليه وآله إليهما، ويعرف ذلك بذكر نسبه الشريف وهو كما في «**البحار**» أنه محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب واسمه شيبة بن الحمد بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف، واسمه المغيرة بن قصيّ[١]، واسمه زيد بن كلاب[٢] بن مرة بن كعب بن لوي[٣] بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر[٤] بن نزار بن معد[٥] بن عدنان بن أدّ بن أود بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ابن تارخ بن ناخور بن ساروع[٦] بن ارغوا بن فالغ[٧] بن عابر، وهو هود بن شالح بن أرفحشد بن سام بن نوح بن ملك بن متوشلخ[٨] بن اخنوخ، وهو إدريس[٩] بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث، وهو هبة الله بن آدم أبي البشر عليه السلام جميعاً.

روى مسلم عن واثلة بن الأَسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**»[١٠].

و **(عترته خير العتر)** وهم الذين أوصى فيهم النبي صلى الله عليه وآله وقال: إنّي مخلف فيكم الثقلين

(١) بفتح القاف والصاد وتشديد الياء، منه.
(٢) بكسر الكاف وفتح اللام.
(٣) بضم اللام وفتح الواو وتشديد الياء، منه.
(٤) بضم الميم وفتح الصاد المعجمة.
(٥) بفتح الميم والعين المهملة وشديد الدال.
(٦) وفي بعض الروايات بدلها شاروع وفي بعضها شروغ بالشين والغين المعجمتين.
(٧) فالع في نسخة.
(٨) بميم مفتوحة ثم تاء مشددة ثم واو ساكنة ثم شين معجمة ثم مفتوحتين ثم خاء معجمة عن جواهر اللغة.
(٩) سمى إدريس لكثرة تدريسه كتاب الله.
(١٠) الأمالي: ٢١٦، والجامع الصغير: ١/٢٥٦ح ١٦٨٣.

كتاب الله وعترتي وأنهما، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كهاتين، وضم سبابتيه فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا رسول الله ومن عترتك؟ قال: عليّ والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليه السلام إلى يوم القيامة رواه الصدوق في كتاب إكمال الدّين ومعاني الأخبار بإسناده عن الصّادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقال الصّدوق (ره): **في «محكي كلامه»** حكى محمّد بن بحر الشيباني عن محمّد بن عبد الواحد صاحب أبي العبّاس تغلب في كتابه الذي سماه كتاب الياقوتة أنه قال: حدثني أبو العبّاس تغلب قال: حدثني ابن الأعرابي، قال:

العترة قطاع المسك الكبار في النافجة وتصغيرها عتيرة، والعترة الريقة العذبة. والعترة شجرة تنبت على باب وجار الضب وأحسبه أراد وجار الضبع؛ لأن الذي للضب مكو وللضبع وجار، ثم قال: وإذا خرجت الضب من وجارها تمرغت على تلك الشجرة فهي لذلك لا تنمو ولا تكبر، والعرب تضرب مثلاً للذليل والذلة فيقولون أقل من عترة، والعترة ولد الرّجل وذريته من صلبه، فلذلك سميت ذرّية محمّد صلى الله عليه وآله من عليّ وفاطمة: عترة محمّد.

قال تغلب: فقلت لابن الأعرابي: فما معنى قول أبي بكر في السقيفة: نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أراد بلدته وبيضته، وعترة محمّد صلى الله عليه وآله لا محالة ولد فاطمة عليها السلام، والدّليل على ذلك ردّ أبي بكر وإنفاذ عليّ عليه السلام بسورة براءة وقوله عليه السلام: «أمرت أن لا يبلغها عني إلاّ أنا أو رجل مني»، فأخذها منه ودفعها إلى من كان منه دونه، فلو كان أبو بكر من العترة نسباً دون تفسير ابن الأعرابي أنه أراد البلدة لكان محالاً أخذ سورة براءة منه ودفعها إلى عليّ عليه السلام.

وقد قيل: إنّ العترة الصّخرة العظيمة يتّخذ الضب عندها جحراً يأوى إليه وهذا لقلّة هدايته، وقد قيل إن العترة أصل الشجرة المقطوعة التي تنبت من أصولها وعروقها، والعترة في غير هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا فرعة ولا عتيرة».

قال الأصمعي: كان الرّجل في الجاهلية ينذر نذراً على أنه إذا بلغت غنمه مائة أن يذبح رجبية[1] وعتاير فكان الرّجل ربما بخل بشاته فيصيد الظباء يذبحها عن غنمه عن آلهتهم ليوفى بها نذره، وأنشد الحرث بن حلزة:

عنناً باطلاً ظلماً كما تعتر عن حجرة الربيض الظباء

يعني يأخذونها بذنب غيرها كما يذبح أولئك الظباء عن غنمهم، وقال الأصمعي: والعترة الريح والعترة أيضاً شجرة كثيرة اللّبن صغيرة يكون (**نحو القامة** ويقال: العترة الذكر

(١) قال في القاموس: الترجيب ذبح السائك ولعل الرجبية مأخوذة منه.

وعتر يعتر عتراً إذا الغظ وقال الرياشي سألت الأصمعي عن العترة فقال هو نبت مثل المرزنجوش[١] ينبت متفرقاً.

ثمّ قال الصّدوق: العترة عليّ بن أبي طالب عليه السلام وذرّيته من فاطمة وسلالة النبيّ صلى الله عليه وآله، وهم الذين نص الله عليهم بالإمامة على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله وهم اثنا عشر أوّلهم عليّ عليه السلام وآخرهم القائم عليهم السّلام على جميع ما ذهبت إليه العرب من معنى العترة[٢].

وذلك إنّ الأئمة عليهم السّلام من بين جميع بني هاشم ومن بين جميع ولد أبي طالب كقطاع المسك الكبار في النافجة وعلومهم العذبة عند أهل الحكمة والعقل، وهم الشجرة التي رسول الله صلى الله عليه وآله أصلها وأمير المؤمنين فرعها والأئمة من ولده أغصانها وشيعتهم ورقها وعلمهم ثمرتها، وهم عليهم السّلام أصول الإسلام على معنى البلدة والبيضة. وهم عليهم السلام الهداة على معنى الصخرة العظيمة التي يتخذ الضب عندها جحراً يأوي إليه لقلّة هدايته، وهم أصل الشجرة المقطوعة لأنهم وتروا وظلموا وجفوا وقطعوا ولم يوصلوا، فنبتوا من أصولهم وعروقهم لا يضرّهم قطع من قطعهم وإدبار من أدبر عنهم، إذ كانوا من قبل الله منصوصاً عليهم على لسان نبي الله، ومن معنى العترة هم المظلومون المؤاخذون بما لم يجرموه ولم يذنبوه ومنافعهم كثيرة.

وهم عليهم السلام ينابيع العلم على معنى الشجرة الكثيرة اللبن، وهم عليهم السلام ذكران غير إناث على قول من قال إن العترة هم الذكر، وهم جند الله عزّ وجل وحزبه على معنى قول الأصمعي إن العترة الريح، قال النبي صلى الله عليه وآله: الريح جند الله الأكبر في حديث مشهور عنه، والريح عذاب على قوم ورحمة للآخرين، وهم عليهم السلام كذلك كالقرآن المقرون إليهم بقول النبيّ صلى الله عليه وآله: إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

وهم أصحاب المشاهد المتفرقة على المعنى الذي ذهب إليه من قال إن العترة هو نبت مثل المرزنجوش ينبت متفرقاً وبركاتهم منبثة في المشرق والمغرب.

(وأسرته) أي رهطه وعشيرته **(خير الأسر)**، ويدل عليه ما في تفسير الإمام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله عزّ وجل خياراً من كلّ ما خلقه: فله من

---

(١) وهو المردقوش.

(٢) كمال الدين: ٢٤٦، ومعاني الأخبار: ٩٢.

البقاع خيار وله من الليالي والأيام خيار، وله من الشهور خيار، وله من عباده خيار، وله من خيارهم خيار.

فأمّا خياره من البقاع فمكّة والمدينة وبيت المقدس، وإن صلاتاً في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى، يعني مكّة وبيت المقدّس، وأمّا خياره من اللّيالي فليالي الجمع وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر وليلة العيد، وأما خياره من الأيام فأيّام الجمع والأعياد، وأمّا خياره من الشهور فرجب وشعبان وشهر رمضان، وأما خياره من عباده فولد آدم عليه السلام، وخياره من ولد آدم من اختاره على علم منه بهم، فإن الله عز وجل لما اختار خلقه اختار ولد آدم عليه السلام، ثمّ اختار من ولد آدم العرب، ثمّ اختار من العرب مضر، ثمّ اختار من مضر، قريشاً، ثم اختار من قريش هاشماً، ثمّ اختارني من هاشم، وأهل بيتي كذلك، فمن أحبّ العرب فيحبني وأحبّهم ومن أبغض العرب فيبغضني وأبغضهم» ونعم ما قيل:

لله في عالمه صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم

وصفوة الصفوة من هاشم محمّد الطّهر أبو القاسم

ويشهد به أيضاً ما روي بطريق العامة عن عائشة عن النّبي صلى الله عليه وآله قال: «أتاني جبرئيل فقال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمّد صلى الله عليه وآله، ولم أر ابن أب أفضل من بني هاشم».

وفي رواية ابن عمر أنه صلى الله عليه وآله قال: «إن الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً، ثمّ اختار قريشاً فاختار منهم بني هاشم، ثمّ اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم أزل خياراً من خيار ألا من أحب العرب فيحبني أحبّهم ومن أبغض العرب فيبغضني أبغضهم»[1].

(وشجرته خير الشجر) أي أصله خير الأصول، وأراد بها إمّا هاشماً أو إسماعيل على سبيل الاستعارة، ويجوز أن يراد بها نفسه صلوات الله وسلامه عليه وآله على كون الإضافة بيانية.

ويدل عليه ما في «**البحار**» من معاني الأخبار بإسناده عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجلّ:

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

(١) بحار الأنوار: ٣٧/ ٥٣، والمعجم الأوسط: ٦/ ٢٠٠.

قال عليه السلام: أمّا الشجرة فرسول الله صلى الله عليه وآله، وفروعها عليّ عليه السلام، وغصن الشجرة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وثمرها أولادها عليهم السّلام، وورقها شيعتنا ثمّ قال عليه السلام: إن المؤمن من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة، وإن المولود من شيعتنا ليولد فتورق الشجرة ورقة.

وبمعناه أخبار كثيرة، وقد نظم بعض الشعراء مضمونها وقال:

يا حبذا دوحة في الخلد نابتة ... ما مثلها نبتت في الخلد من شجر

المصطفى أصلها والفرع فاطمة ... ثمّ اللّقاح عليّ سيّد البشر

والهاشميّان سبطاه لها ثمر ... والشّيعة الورق الملتفّ بالثمر

هذا مقال رسول الله جاء به ... أهل الرّواية في العالي من الخبر

وقيل: أراد بالشجرة إبراهيم الخليل وهو بعيد لمنافاته بظاهر قوله: **(نبتت في حرم)** لظهوره في مكّة إلاّ أن يراد به حرم العز والمنعة، **(وبسقت في كرم)** أي طالت وارتفعت في العز والكرامة، **(لها فروع طوال)** إن كان المراد بالشجرة إبراهيم أو إسماعيل، فالمراد بالفروع الأنبياء من ذرّيتها، وإن كان المراد بها هاشم أو النبيّ صلى الله عليه وآله فأراد بها الأئمة عليهم السّلام ووصفها بالطول إشارة إلى بلوغها في الشّرف والكمال منتهى النّهاية **(وثمرة لا تنال)** كنى بها عن علوم الأنبياء والأئمة أو مكارم أخلاقهم ومحاسن مآثرهم، وبعدم نيلها عن شرفها وغموض أسرارها يعني أنها لشرفها وعلوّها لا يمكن الوصول إليها، أو أنها لغموضها ودقّتها لا تصل الأذهان إليها.

(فهو إمام من اتقى وبصيرة من اهتدى) يعني أنّه صلوات الله عليه وآله قدوة المتقين وتبصرة المهتدين لهم فيه اسوة حسنة وهو **(سراج لمع ضوؤه وشهاب سطع نوره وزند برق لمعه)** شبهه عليه السلام بالسراج والشهاب والزند في كونه سبب هداية الخلق كما أن هذه الثلاثة كذلك، ورشح التشبيه الأوّل بلمعان الضوء، والثّاني بارتفاع النّور، والثالث ببروق اللّمع، ويحتمل أن يكون وجه الشبه في الثالث إثارة أنوار الهداية.

(سيرته القصد) والاعتدال **(وسنته الرّشد)** والصواب، **(وكلامه الفصل)** بين الحق والباطل **(وحكمه العدل)** خال عن الحرف والميل، **(أرسله على حين فترة من الرّسل)** أي: على حين سكون وانقطاع من الرّسل، وقد تقدم توضيح ذلك في شرح الخطبة الثامنة والثمانين فتذكر، **(وهفوة من العمل)**، أي زلة منه **(وغباوة من الأمم)** أي: غفلة منها، وذلك لأن خلو الزمان من الرسول موجب لكثرة الزلات وتزايد الغفلات وفرط الجهالات، فتخصيص إرساله بذلك الزّمان وتلك الحال إشارة إلى كمال تلك النعمة وعظمة هذه الموهبة حيث هداهم بوجوده صلى الله عليه وآله من الضلالة وأنقذهم بمكانه صلى الله عليه وآله من الجهالة، هذا.

ولمّا فرغ من شرح حال الرّسالة عقبه بالذكرى والموعظة فقال: **(اعملوا رحمكم الله على أعلام بيّنة)** أي: اعملوا الصّالحات على ما دلّت عليها الأعلام البيّنات والمنار الواضحات الظّاهرات، وكنّى بها عن أئمة الدّين ومصابيح اليقين فإنهم علامات الهدى في غياهب الدّجى **(فالطّريق)** أي طريق الشريعة **(نهج)** **واضح** **(يدعو)** ويؤدي **(إلى دار السّلام وأنتم في دار مستعتب)** أي: يمكنكم فيها استعتاب الخالق سبحانه واسترضاؤه بصالح الأعمال وإصلاح الحال، لأنكم **(على مهل وفراغ)** أي: على إمهال وإنظار وفراغ من عوائق الموت.

(و) **الحال أن (الصّحف)** أي: صحائف أعمالكم **(منشورة)** لم تطو بعد **(والأقلام)** أي: أقلام كرام الكاتبين **(جارية)** لم تجف **(والأبدان صحيحة)** وسالمة من الأمراض المانعة من القيام لوظائف العبودية **(والألسن مطلقه)** من الخرس والاعتقال **(والتوبة مسموعة والأعمال مقبولة)** لأنكم في دار التكليف يمكنكم فيها تدارك ما فات، والورود على ما هو آت، وأما بعد طي الصحف وجفّ الأقلام واعتقال اللسان وخروج الأرواح من الأبدان، فلا يمكنكم الاستزادة من صالح العمل ولا الاستعتاب من سيّء الزّلل كما قال تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

الترجمة

از جمله خطبه هاى شريفه آن جناب ولايت مآب است كه مى فرمايد:

پس بلند است معبود به حق، آن معبودى كه نمى رسد به او همّت هاى بعيده و درك نمى نمايد او را ادراك ذكاوت ها، اوّلى كه هيچ غايتى نيست او را، پس نهايت برسد و آخرى ندارد او را تا اينكه منقضى شود.

بعضى از اين خطبه در صفت انبيا است، مى فرمايد:

پس امانت نهاد خداوند متعال ايشان را در افضل محل امانت ها كه عبارت است از صلب هاى پدران و برقرار فرمود ايشان را در بهترين مقرها كه عبارت است از رحم هاى مادران، نقل نمود آنها را از صلب هاى كريمه پدرها به رحم هاى پاكيزه مادرها، هرگاه گذشت از ايشان سلفى، ايستاد به ترويج دين خدا از ايشان خلفى تا اينكه منجر شد كرامت حق سبحانه و تعالى كه عبارت است از منصب نبوّت به محمّد بن عبدالله صلوات الله و سلامه عليه و آله، پس بيرون آورد

آن بزرگوار را از بهترین معدن ها از حیثیت روییدن و عزیزترین اصل ها از حیثیت نشاندن، از درختی که شکافته و بیرون آورده از آن پیغمبران خود را و برگزیده از آن امینان خود را.

عترت آن حضرت بهترین عترت ها است و قبیله آن حضرت بهترین قبیله ها است و درخت آن حضرت بهترین درخت ها است در حالتی که روییده است آن درخت در حرم محترم و بلند شده در مجد و کرم، مر آن درخت را است شاخه های بلند و میوه هایی که دست نمی رسد به آن.

پس آنحضرت پیشوای کسی است که متّصف است به صفت تقوی و بینایی کسی است که متّصف است به صفت اهتدا، چراغی است که درخشان است روشنایی او و ستاره ای است که ظاهر است نور او و آتش زنه ای است که برق می دهد لمعان او، روش آن حضرت میانه روی است و طریقه او رشادت است و کلام او جداکننده است میان حقّ و باطل و حکم او عدل است.

فرستاد حق تعالی او را در حین فتور و انقطاع از پیغمبران و زمان لغزش عاملان از عمل و وقوع غفلت از امت ها، عمل نمایید، خدا رحمت کند بر شما، بر طبق آنچه که دلالت نموده بر آن علامات ظاهره، پس طریق حق واضح و روشن است که دعوت می نماید و می خواند به دار سلامت که عبارت است از جنت و حال آنکه شما در سرایی هستید که ممکن است شما را ترضیه پروردگار و بر مهلت و فراغت می باشد در حالتی که نام های اعمال نشر کرده شده و پیچیده نیست و قلم های کرام الکاتبین روان است و بدن ها صحیح است و زبان ها روان است و گویان و توبه، شنوده شده است و عمل ها مقبول است، پس فرصت را غنیمت شمارید و وقت را از دست مگذارید.

من خطبة له عليه السلام وهي الرابعة والتسعون
من المختار في باب الخطب

بَعَثَهُ وَالنّاسُ ضُلاّلٌ في حَيْرَةٍ، وخابِطُونَ في فِتْنَةٍ، قَدِ استَهوتَهُمُ الأَهْواءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الكِبْرِياءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجاهِلِيَّةُ الجِهْلاءُ، حيارى في زِلْزالٍ مِنَ الأَمْرِ، وبَلاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبالَغَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ في النَّصيحَة، ومَضى عَلىَ الطَّريقَةِ، ودَعى إلى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ[١].

اللغة

(خابطون) بالخاء المعجمة والباء الموحدة بعدها الطاء من الخبط وهو السير على غير هدى، وفي بعض النسخ حاطبون بالحاء المهملة بعدها الطّاء جمع حاطب وهو الذي يجمع الحطب، و **(حيارى)** بفتح الحاء وضمّها جمع حاير من حار يحار حيراً وحيرة وحيراناً نظر إلى الشيء فغشي عليه ولم يهتد لسبيله فهو حيران وحائر وهم حيارى.

الإعراب

الواو في قوله عليه السلام: والناس حالية، **(وفي حيرة)** خبر بعد خبر أو متعلّق بضلال، ووصف الجاهلية بالجهلاء للتوكيد من قبيل ليل أليل ووتد واتد وداهية دهياً وقوله: **(حيارى)** حال من مفعول استخفتهم، وقوله: في **(زلزال من الأمر)** حال مؤكدة من فاعل حيارى على حد قوله: فتبسم ضاحكاً.

المعنى

أعلم أن المقصود بهذا الفصل تقرير فضيلة النبيّ صلى الله عليه وآله والتنبيه على فوائد بعثته، وقد مضى بعض القول في ذلك المعنى في شرح الفصل السادس عشر من فصول الخطبة الأولى، وفي شرح الفصل الأوّل من فصول الخطبة السادسة والعشرين، ونقول هنا: قوله عليه السلام.

(بعثه والنّاس ضلال في حيرة) أراد به أنه تعالى بعثه صلى الله عليه وآله حال كون الناس ضالين عن طريق الحق في حيرة من أمر الدّين، **(وخابطون في فتنة)** أي: كانت حركاتهم على غير نظام وكانوا في فتنة وضلال، وأما على رواية حاطبون فهو استعارة، والمراد أنهم جامعون في

(١) بحار الأنوار: ١٨/ ٢١٩ ح ٥١، ومكاتب الرسول: ١/ ١٩٠.

ضلالهم وفتنتهم بين الغث والسمين مأخوذاً من قولهم في المثل: فلان حاطب ليل أي يجمع بين الحقّ والباطل والصّواب والخطأ، وأصله أن الحاطب كذلك يجمع في حبله ما لا يبصر.

(قد استهوتهم الأهواء) أي جذبتهم الأهواء الباطلة والآراء العاطلة إلى مهاوي الهلاك أو إلى أنفسها، **(واستزلتهم الكبرياء)** أي: قادهم التكبر والتجبر إلى الخطأ والخطل والهفوة والزلل **(واستخفتهم الجاهلية الجهلاء)** أي: جعلتهم حالة الجاهلية إخفّاء العقول سفهاء الحلوم حال كونهم **(حيارى)** أي حائرين تائهين مغمورين **(في زلزال)** واضطراب **(من الأمر)** لا يهتدون إلى وجوه مصالحهم **(وبلاء من الجهل)** أي: ابتلاء بالقتل والغارات ناشئاً من جهالتهم لعواقب الأمورات، **(فبالغ ﷺ** في النصيحة) للأمة **(ومضى على الطريقة)** المستقيمة **(ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة)** أي: دعا إلى سبيل الله بهما امتثالاً لأمر الله سبحانه وهو قوله:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال الطبرسي: أي أدع إلى دينه لأنّه السبيل إلى مرضاته، بالحكمة أي بالقرآن، وسمّى القرآن حكمة لأنّه يتضمن الأمر بالحسن والنهي عن القبيح، وأصل الحكمة المنع ومنه حكمة اللجام، وإنّما قيل لها حكمة لأنها بمنزلة المانع من الفساد وما لا ينبغي أن يختار، وقيل: إنّ الحكمة هي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن والقبح والصّلاح والفساد، لأن بمعرفة ذلك يقع المنع من الفساد والاستعمال للصّدق والصّواب في الأفعال والأقوال.

والموعظة الحسنة، معناه الوعظ الحسن وهو الصّرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه والتزهيد في فعله، وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع وقيل: إن الحكمة هي النبوّة والموعظة الحسنة مواعظ القرآن.

وجادلهم بالتي هي أحسن، أي ناظرهم بالقرآن وبأحسن ما عندك من الحجج وتقديره بالكلمة التي هي أحسن، والمعنى اقتل المشركين واصرفهم عما هم عليه من الشرك بالرفق والسكينة ولين الجانب في النصيحة ليكونوا أقرب إلى الإجابة، فإن الجدل هو قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج، وقيل: هو أن يجادلهم على قدر ما يحتملونه كما جاء في الحديث: لأمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم النّاس على قدر عقولهم».

(١) مجمع البيان: ٦/ ٢١١.

الترجمة

از جمله خطب شريفه در ذكر وصف خاتم نبوّت و بيان منافع بعثت مى فرمايد كه :

خداوند عزّوجلّ، مبعوث و برانگيخته فرمود حضرت خاتم الانبياء محمّد مصطفى (صلى الله عليه وآله) را و حال آنكه مردمان گمراه بودند در تحيّر و سرگردانى و خبط كننده در فتنه و بلا. به تحقيق كه از راه برده بود ايشان را خواهشات نفسانيّه و لغزانيده بود ايشان را غرور و نخوت شيطانيه و سبك گردانيده بود ايشان را نادانى و جاهليت در حالتى كه حيران بودند، در اضطراب بودند از كار خود و در ابتلا بودند از جهالت، پس مبالغه فرمود حضرت خاتم الانبياء، عليه سلام الرّب الاعلى، در نصيحت و گذشت بر طريقه حضرت عزّت كه عبارت است از جادّه شريعت و دعوت فرمود مردمان را به حكمت كه برهان وافى است و به موعظه كه بيان شافى است؛ ولنعم ما قيل:

از ظلمات ضلال راه كه بردى برون گر نشدى نور او شمع ره رهروان

ومن أخرى وهي الخامسة والتسعون من المختار في باب الخطب

أَلْحَمْدُ للهِ الأَوَّلِ فَلا شَيْءَ قَبْلَهُ وَالآخِرِ فَلا شَيْءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلا شَيْءَ فَوْقَهُ، وَالْباطِنِ فَلا شَيْءَ دُونَهُ.

منها في ذكر الرسول ﷺ: «مُسْتَقَرُّهُ خَيرُ مُسْتَقَرٍّ، ومَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، في مَعادِنِ الكَرَامَةِ، ومَماهِدِ السَّلامَةِ، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الأَبرارِ، وثُنِيَتْ إِلَيه أَزِمَّةُ الأَبْصارِ، دَفَنَ اللّهُ بِهِ الضَّغائِنَ، وأَطْفَأَ بِهِ النَّوائِرَ، أَلَّفَ بِه إِخْواناً، وفَرَّقَ بِه أَقْراناً، أَعَزَّ بِه الذِّلَّةَ، وأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّة، كَلامُهُ بَيانٌ، وصُمْتُهُ لِسانٌ»[١].

اللغة

(المهد) والمهاد الفراش وموضع تهيّأ للصبي، وجمع الأوّل مهود كفلس وفلوس، وجمع الثاني مهد ككتاب وكتب، وأمّا المماهد فلم يضبط فيما رأيته من كتب اللغة، قال الشارح البحراني: جمع ممهد والميم زائدة، وقال الشّارح المعتزلي: المهاد الفراش، ولما قال عليه السلام في معادن وهي جمع معدن قال بحكم القرينة والازدواج ومماهد، وإن لم يكن الواحد منها ممهداً كما قالوا: الغدايا والعشايا ومأجورات ومأزورات ونحو ذلك **(وثنيت)** الشيء ثنياً من باب رمي إذا عطفته ورددته، و **(الضغاين)** جمع الضّغينة وهي الحقد، و **(النوائر)** جمع النائرة وهي العداوة والمخاصمة.

الإعراب

قوله: **(في معادن الكرامة)** خبر بعد خبر، ويجوز كونه صفة أو حالاً من الخبر لكونه نكرة غير محضة، وجملة قد صرفت في محل النصب على الحال، **(وقد)** للتحقيق.

المعنى

صدر هذه الخطبة الشريفة مسوق للثناء على الواجب تعالى باعتبار نعوت العظمة والجلال، وصفات العزة والكمال، وذيلها بمدح الرسول والإشارة إلى فوائد البعثة فقال: **(الحمد لله الأوّل فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده)**، وقد مر معنى الأوّل والآخر في شرح

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٨٠ ح ٩٢، ومكاتب الرسول: ١/ ١٩٠.

الخطبة الرابعة والستّين، وفي شرح الفصل الأوّل من فصول الخطبة التسعين بما لا مزيد عليه، **(والظاهر فلا شيء فوقه والباطن فلا شيء دونه)** وقد مرّ معنى الظاهر والباطن في شرح الخطبة الرابعة والسّتين أيضاً.

وأقول هنا: يحتمل أن يكون المراد بالظاهر والباطن كونه تعالى ظاهراً بآياته وآثار قدرته فلا شيء فوقه من حيث الظهور والجلاء، بل هو أجلى الأشياء وأظهرها، وباطناً من حيث ذاته وحقيقته فلا شيء دونه من حيث البطون والخفاء، وقد أوضحناه في شرح قوله عليه السلام: كلّ ظاهر غيره غير باطن من الخطبة التي أشرنا إليها، وأن يكون المراد بالظاهر الغالب القاهر على كلّ شيء فكلّ شيء مقهور دون قدرته، ذليل تحت عزّته، وبالباطن العالم بما بطن من خفيّات الأمور فلا شيء دونه أي أقرب منه سبحانه إليه، هذا.

قال السّيد (ره) منها أي: بعض فصول تلك الخطبة **(في ذكر الرسول** صلى الله عليه وآله**)** وبيان شرفه ومناقبه الجميلة وهو قوله: **(مستقرّه خير مستقر ومنبته أشرف منبت)** يمكن أن يكون المراد بالمستقر والمنبت الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، وأن يكون المراد بالأول مكّة وبالثاني الطيبة **(في معادن الكرامة)** أي: الرسالة أو ما هو أعمّ من هذه، **(ومماهد السّلامة)** أي: المهد المتّصفة بالسّلامة من الأدناس والأرجاس، والبراءة من العيوب الظاهرة والباطنة **(قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار)** أي: صرف الله سبحانه أفئدتهم إليه **(وثنيت إليه أزمّة الأبصار)** أي: عطفت إليه أزمّة مطايا البصائر والقلوب، وهذا كلّه كناية من إلتفات الخلق إليه وتلقيهم له بقلوبهم ومحبة الأبرار له عليه السلام إجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أي أسكنت بعض ولدي وهو إسماعيل عليه السلام ومن ولد منه، وعن العيّاشي عن الباقر عليه السلام «نحن هم ونحن بقية تلك الذرّية»، وفي **«المجمع»** عنه عليه السلام أنه قال «نحن بقية تلك العترة». وقال «كانت دعوة إبراهيم لنا خاصة»(١).

وقوله: فاجعل أفئدة من الناس أراد بعضهم وهو المؤمنون الأبرار كما أشير في كلام الإمام عليه السلام وصرّح به الباقر عليه السلام في **«رواية العياشي»** قال: «أما أنه لم يعن الناس كلّهم أنتم أولئك ونظراؤكم إنما مثلكم في النّاس مثل الشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو مثل الشّعرة السّوداء في الثور الأبيض، ينبغي للناس أن يحجوا هذا البيت ويعظّموه لتعظيم الله إياه، وأن تلقونا حيث كنّا نحن الأدلاء على الله»(٢).

---

(١) بحار الأنوار: ١٢/٨٩، وتفسير مجمع البيان: ٦/٨٤.

(٢) التفسير الصافي: ٣/٩١، وبحار الأنوار: ٦٥/٨٦ ح ٩.

وفي «الصّافي» عن الكافي عنه عليه السلام في قوله تعالى: تهوى إليهم، ولم يعن البيت فيقول إليه، فنحن والله دعوة إبراهيم.

وعن الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام: «والأفئدة من الناس تهوى إلينا، وذلك دعوة إبراهيم حيث قال أفئدة من النّاس تهوى إليهم».

وروى عليّ بن إبراهيم عن الصّادق عليه السلام أنه تعالى عنى بقوله: وارزقهم من الثمرات، ثمرات القلوب أي أحبّهم إلى النّاس ليأتوا[1] إليهم **(دفن به الضغائن وأطفأ به النوائر)** أي: **أخفى بوجوده الشّريف الأحقاد العربية بعد أن كانت ظاهرة علانية، وأطفأ به نوائر العداوات وخصومات الجاهلية بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة،** و **(ألف به)** على الإسلام **(إخواناً)** كما كان بين أمير المؤمنين عليه السلام وسلمان، **(وفرق به)** على الشرك **(أقراناً)** كما كان بين حمزة وأبي لهب **(أعزّ به الذلة وأذل به العزة)** أي: أعز به ذلّة الإسلام وأذلّ به عزّة الكفر، فقد رفع الإسلام سلمان فارس، وقد وضع الكفر أبا لهب، **(كلامه بيان)** للأحكام **(وصمته لسان)** لحدود الحلال والحرام، أراد أن سكوته صلى الله عليه وآله كان كالتكلّم والبيان في الاشتمال على الفائدة، فإن سكوت المعصوم في مقام التقرير حجّة كقوله وأيضاً ربما كان يسكت عن بعض المطالب إفهاماً للناس عدم جواز خوضهم فيها.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/ ٧٤، والتفسير الصافي: ٣/ ٩١.

الترجمة

از جمله خطبه های دیگر آن حضرت است:

حمد و ثنا خداوند را سزا است که اوّل است، پس نیست هیچ چیز پیش از او و آخر است، پس نیست هیچ چیز بعد از او و ظاهری است، پس نیست هیچ چیز بالاتر از او در ظهور و جلا و باطنی است، پس نیست هیچ چیز نزدیك تر از او به اشیاء.

و بعض دیگر از این خطبه در ذکر رسالت مآب (ﷺ) است:

محل استقرار او بهترین محل استقرارها است و مکان روییدن او شریف ترین روییدن ها است، ثابت است در معدن های بزرگواری و کرامت و مواضع امنیّت و سلامت، در حالتی که گردانیده شده به طرف او قلب های نیکوکاران و میل داده شده به سوی او مهارهای بصیرت های مؤمنان، دفن کرد و برطرف فرمود بهوجود شریف او کینه های دیرینه را و خاموش نمود و زایل فرمود به سبب ذات او آتش های عداوت در سینه های پرکینه والفت داد به واسطه او میان برادران از اهل ایمان و پراکنده ساخت به جهت او اقران را از مشرکان، عزیز گردانید به او ذلّت اسلام را و ذلیل گردانید به او عزّت کفر را. کلام او بیان شرایع و احکام است و سکوت او زبانی است حدود حلال و حرام را، از جهت اینکه تقریر معصوم مثل فعل او و قول او حجت و سند شرعی است.

ومن كلام له عليه السلام وهو السادس والتسعون من المختار في باب الخطب

وَلَئِنْ أَمْهَلَ اللهُ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وهُوَ لَهُ بِالْمِرصادِ عَلى مَجاز طَرِيقِه، وبِمَوْضِعِ الشَّجى مِنْ مَساغ رِيقه، أَما وَالَّذي نَفسي بِيَدِه لَيَظْهَرَنَّ هؤُلاءِ الْقَوْم عَلَيْكُمْ، لَيسَ لأَنَّهُمْ أَوْلى بِالْحَقِّ مِنْكُم، وَلَكِنْ لإِسْراعِهِمْ إِلى باطِلِ صاحِبِهِمْ، وإِبْطائِكُمْ عَنْ حَقِّي، وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الأُمَمُ يَخافُ ظُلْمُ رُعاتِها، وأَصْبَحْتُ أَخافُ ظُلْمَ رَعِيَّتي، إِسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلجهادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، ودَعوتُكُمْ سِرّاً وجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجيبُوا، ونَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَشُهُودٌ كَغُيّابٍ، وعَبيدٌ كَأَرْبابٍ، أَتْلُوا عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْها، وأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ البالِغةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْها، وأَحُثُّكُمْ على جِهادِ أَهْلِ الْبَغْي فَما آتي عَلَى آخِرُ قَوْلي حَتّى أَراكُمْ مُتَفَرِّقينَ أَيادي سَبا، تَرْجِعُونَ إِلى مَجالِسِكُمْ، وتَتَخادَعُونَ عَنْ مَواعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقَوِّمُ، وأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ.

أَيُّهَا الشّاهِدَةُ أَبْدانُهُمْ، الْغائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْواؤُهُمْ الْمُبْتَلى بِهِمْ أُمَراؤُهُمْ، صاحِبُكُمْ يُطيعُ اللهَ وأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وصاحِبُ أَهْلِ الشّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطيعُونَهُ، لَوَدِدْتُ واللهِ إِنَّ مُعاوِيَةَ صارَفَني بِكُمْ صَرْفَ الدِّينارِ بِالدِّرْهَم، فَأَخَذَ مِنّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وأَعْطاني رَجُلاً مِنْهُمْ، يا أَهْلَ الْكُوفَةِ مُنيتُ مِنْكُمْ بِثَلاثٍ وإِثْنَتَيْن: صُمٌّ ذَوُو أَسْماعٍ، وبُكْمٌ ذَوُو كَلامٍ، وعُمْيٌ ذَوُو أَبْصارٍ، لا أَحْرارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقاءِ، ولا إِخوانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلاءِ، تَرِبَتْ أَيديكُمْ، يا أَشْباهَ الإِبِلِ غابَ عَنْها رُعاتُها، كُلَّما جُمِعَتْ مِنْ جانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَاللهِ لَكَأَنّي بِكُمْ فيما أَخالُ أَنْ لَوْ حَمِسَ الوَغى، وحَمِيَ الضِّرابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنْ ابن أَبي طالِبٍ انْفِراجَ الْمَرأَةِ عَنْ قُبُلِها، وإِنّي لَعَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي، ومِنْهاجٍ مِنْ نَبِيّي، وإِنّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْواضِحِ، أَلْقُطُهُ لَقْطاً.

أُنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُعيدُوكُمْ في رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتُهْلِكُوا، لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحابَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَما أَرى أَحَداً مِنْكُمْ يُشْبِهُهُمْ، لَقَدْ كانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، قَدْ باتُوا سُجَّداً وقِياماً، يُراوِحُونَ بَيْنَ جِباهِهِمْ وخُدُودِهِمْ، ويَقِفُونَ عَلى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعادِهِمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبُ المِعْزى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ، إِذا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وماذُوا كَما يَميدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرّيحِ الْعاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقابِ، ورَجاءً لِلثَّوابِ[1].

---

(١) نهج السعادة: ٢/٦٣٨، وبحار الأنوار: ٣٠٧/٦٦ ح ٢٩.

اللغة

(**رصد**) فلاناً من باب نصر رقبه كترصده والمرصاد الطريق والمكان يرصد فيه العدو و (**الشجى**) ما ينشب في الحلق من عظم أو غيره وموضع الشجى هو الحلق نفسه، و (**المساغ**) اسم مكان من ساغ الشّراب سوغا سهل مدخله قال الشاعر:

وساغ لي الشّراب وكنت قبلا أكاد أغص بالماء الفرات

ويقال أيضاً سغت الشّراب أسوغه أي أوصلته إلى المعدة باللزوم والتّعدية، و (**ظهر**) عليه غلب و (**الرعاة**) كالرعاء بالهمز جمع الراعي وهو كلّ من ولي أمر قوم والقوم رعيّته، و (**الاستنفار**) الاستنصار أو طلب النّفور والإسراع إلى الجهاد و (**تنفرون**) منها من نفرت الدّابة نفوراً من بابي نصر وضرب شرد، و (**أيادي سبا**) مثل يضرب للمتفرّقين وأصله قوله تعالى عن أهل سبا: ومزقناهم كلّ ممزق، وسبأ بالهمزة وزن جبل يصرف ولا يصرف وهو بلدة بلقيس ولقب ابن يشحب بن يعرب بن قحطان اسمه عبد شمس، و (**الأيادي**) جمع الأيدي وهو جمع اليد، قال الرّضى: وهو كناية عن الأبناء والأسرة لأنّهم في التقوى والبطش بهم بمنزلة الأيدي، ويقال ذهبوا أيدي سبا وأيادي سبا الياء ساكنة، وكذلك الألف هكذا نقل المثل أي ذهبوا متفرّقين، وهما اسمان جعلا اسماً واحداً مثل معدى كرب ضرب المثل بهم لأنّهم لما غرق مكانهم وذهبت جنّاتهم تبدّدوا في البلاد.

روى الطبرسي في تفسير سورة سبأ في قصة تفرّق أولاد سبأ عن الكلبي عن أبي صالح قال: ألقت طريفة الكاهنة إلى عمرو بن عامر الذي يقال له مزيقيا بن ماء السّماء وكانت قد رأت في كهانتها أن سدّ مأرب سيخرب وأنّه سيأتي سيل العرم فيخرب الجنتين، فباع عمرو بن عامر أمواله وسار هو وقومه حتّى انتهوا إلى مكة فأقاموا بها وما حولها فأصابتهم الحمى، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابهم فقالت لهم: قد أصابني الذي تشكون وهو مفرّق بيننا، قالوا: فماذا تأمرين؟ قالت: من كان منكم ذا همّ بعيد وجمل شديد ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان المشيد وكانت أزد عمان[1]، ثم قالت: من كان منكم ذا جلد وقسر وصبر على أزمات الدّهر فعليه بالأراك من بطن مر[2]، وكانت خزاعة، ثم قالت: من كان منكم يريد الرّاسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل، وكانت الأوس والخزرج ثم قالت: من كان منكم يريد الخمر والخمير والملك والتأمير وملابس التاج والحرير فليلحق ببصري وعوير وهما من أرض الشام وكان الذين سكنوها آل خفية بن غسان. ثم قالت: من كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق وكنوز

(١) وكانت ازد عمان أي كانت القبيلة الملحقة لقصر عمان.

(٢) «نمر» في نسخة.

الأرزاق والدّم المهراق، فليلحق بأرض العراق وكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة وآل محرق.

(وتتخادعون) قال في **«القاموس»**: تخادع فلان أرى أنّه مخدوع وليس به، انتهى ولا يجوز إرادة هذا المعنى في المقام بل الأظهر أنّه من قولهم سوق خادعة مختلفة متلونة، وخلق خادع متلوّن أي تختلفون وتتلونون في قبول الوعظ، ولكنه يبعده لفظة عن، اللّهم إلاّ أن يضمن معنى الإعراض فافهم، ويأت له معنى آخر إن شاء الله.

و **(الحنية)** وزن غنية القوس والجمع حنى وحنايا، و **(المقوّم)** الأوّل على زنة الفاعل، والثاني على زنة المفعول، و **(تربت)** أيديكم كلمة يدعا بها على الإنسان قال في **«القاموس»**: ترب كثير ترابه وصار في يده التّراب ولزق بالتراب وخسر وافتقر ترباً ومترباً ويداه لا أصاب خيراً، وعن النّهاية هذه الكلمة جارية على ألسن العرب لا يريدون بها الدّعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر بها، كما يقولون: قاتل الله وقيل: معناه لله درّك، قال: وكثيراً يرد للعرب ألفاظ ظاهرها الذم وإنما يريدون بها المدح كقولهم لا أب لك ولا أمّ لك ولا أرض لك ونحو ذلك.

و **(خال)** الشيء يخاله أي ظنه وتقول خلت أخال بكسر الهمزة وبالفتح لغة بني أسد، كما في أكثر النسخ و **(حمس)** كفرح اشتدّ و **(حمي)** كرضى اشتد حرّه، و **(ألقطه لقطاً)** في أكثر النسخ بالقاف المثناة والطاء المهملة من الالتقاط وفي بعضها الفظه لفظاً بالفاء والظاء المعجمة أي أبينه بياناً، و **(لبد)** الشيء بالأرض من باب نصر التصق بها و **(الجمر)** جمع جمرة وهي النّار الموقدة، و **(ركب المعزى)** جمع الرّكبة بالضمّ فيهما و **(هملت)** عينه هملاً من باب نصر وضرب فاضت.

الإعراب

قوله عليه السلام: **(فلن يفوت أخذه) برفع أخذه على الفاعلية والمفعول محذوف، أي لن يفوته أخذه، وقوله: (على مجاز طريقه)** بدل من قوله بالمرصاد، وقوله: **(ليظهرنّ)** منصوب بأن مضمرة في محل رفع على الابتداء، وجملة **(ليس لأنهم)** مرفوعة المحل على الخبر، وجملة المبتدأ والخبر جواب القسم، ويحتمل أن يكون جملة **(ليظهرنّ)** فقط جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة **(ليس لأنهم)** استئنافاً بيانيّاً.

وقوله: **(أشهود كغيّاب)** استفهام تقريري أو توبيخي، وفي بعض النّسخ بلا همز وعليه فهو خبر محذوف المبدأ، **(وأيادي سبا)** منتصب على إقامته مقام المصدر، أي متفرّقين تفرّق أيادي سبا، ويجوز أن يكون حالاً مؤكدة بتقدير المضاف، أي مثل أيادي سبا، وقوله: **(أيها**

الشاهدة) برفع الشاهدة صفة محذوف الموصوف وجملة **(كلّما جمعت)** بدل بعض من جملة غاب عنها على حدّ قوله سبحانه.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٣].

المعنى

اعلم أنّ المقصود بهذه الخطبة الشريفة ذم أصحابه عليه السلام وتوبيخهم على تثاقلهم من جهاد معاوية وأصحابه لعنهم الله، وصدّر الكلام بالتهديد والتعريض لأهل الشام أو لأصحابه، كما سيأتي من نسبة الظلم إليهم فقال عليه السلام: **(ولئن أمهل الله الظالم)** ومتّعه في دار الدّنيا **(فلن يفوته أخذه)** وعقوبته كما قال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

قال أبو القاسم البلخي معناه: ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم رضا بأفعالهم وقبول لها بل هو شرّ لهم لأنّا نملي لهم وهم يزدادون إثماً يستحقون به العذاب الأليم، فالمقصود أنه سبحانه وإن أمهل الظالم وهو مغمور في ظلمه مستبشر بجوره ولكنه مدركه لا محالة وآخذه بالنّكال العظيم والعذاب الأليم.

(وهو له بالمرصاد) وعليه طريق العباد فلا يفوته أحد وهو من ألفاظ الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، قال الطبرسي: والمعنى أنّه لا يفوته شيء من أعمالهم لأنّه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم كما لا يفوت من هو بالمرصاد، وروى عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «معناه إنّ ربّك قادر على أن يجزى أهل المعاصي جزاؤهم»[١]، وعن الصّادق عليه السلام أنه قال: «المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد»[٢]، وقال عطا: يعني يجازي كلّ أحد وينتصف من الظالم للمظلوم، انتهى.

أقول: ما رواه عن الصادق عليه السلام هو المعنى الحقيقي للمرصاد، وما رواه عن عليّ عليه السلام بيان للمراد عن كونه سبحانه على المرصاد، ومحصّله أنه تعالى أجل وأعلى من أن يكون في المكان لأن ذلك من صفات الإمكان فلا بد من حمل كونه بالمرصاد على التوسع والمجاز وإرادة عدم إمكان الهرب والفوت منه، كما لا يمكن الفوت ممن هو بالرّصد والترقب، وهذا هو المراد أيضاً بقوله **(على مجاز طريقه)** ونظيره قوله: **(وبموضع الشجى من مساغ ريقه)** أراد أنه سبحانه يكاد أن يغصّه بشجيء عقوباته ويشجوه بغصص نقماته بما هو عليه من رحب بلعومه وسوغه اللذائذ.

---

(١) بحار الأنوار: ٨/ ٦٤، والتفسير الصافي: ٥/ ٣٢٥.

(٢) بحار الأنوار: ٧٢/ ٣٢٣ ح ٥٤، والتفسير الصافي: ٥/ ٣٢٥.

ثمّ أردف عليه السلام ذلك بالقسم البارّ بظهور أهل الشّام عليهم وقال: **(أما والذي نفسي بيده ليظهرنّ هؤلاء القوم عليكم)** ونبّه على دفع ما لعلهم يتوهمون من كون علّة ظهورهم وغلبتهم كونهم على الحق وكون أصحابه عليه السلام على الباطل بقوله: **(ليس لأنهم أولى بالحقّ منكم)** وأنتم أولى بالباطل منهم.

وأشار إلى علّة الظهور بقوله: **(ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي)** أراد بذلك أن ظهورهم عليكم ليس من جهة كونهم أهل حق وكونكم أهل باطل حتّى يوجب ذلك تخاذلكم عن جهادهم، وإنما ظهورهم من أجل اتفاق كلمتهم واجتماعهم على طاعة إمامهم الباطل واختلاف آرائكم وتشتت أهوائكم في طاعة الإمام الحقّ، ومن المعلوم أن مدار الفتح والظفر والنصرة والغلبة في الحرب على الاتفاق والاجتماع بطاعة الجيش للرّئيس الموجب لانتظام أمرهم لا على أحقية العقيدة وإلاّ لما ظهر أهل الشرك على أهل التوحيد أصلاً، والوجدان كثيراً ما يشهد بخلافه.

وأوضح عليه السلام هذا المعنى بقوله: **(ولقد أصبحت الأمم يخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي)** وغرضه عليه السلام بذلك الحاق التقصير واللائمة في المغلوبيّة عليهم والإشارة إلى أن له الحجّة على الحق لا لهم عليه مع التنبيه على كونهم ظالمين في حقّه عاصين له، فإنّ شان الرعيّة الخوف من الوالي وبه يستقيم له أمور الولاية وينتظم أمور الرّعية، وأما إذا كان الأمر بالعكس فلا يكون له حينئذٍ في الرّعية رأى نافذ ويختل الأمر ويطمع فيه وفي رعيته غيره كما هو معلوم بالوجدان ومشاهد بالعيان.

ومن كان خبيراً بأحواله عليه السلام في خلافته، وتأمل مجاري حالاته مع رعيّته عرف صدق هذا الكلام وظهر له أنّه عليه السلام كان كالمحجور عليه لا يتمكّن من إظهار ما في نفسه، إذ العارفون بحاله والمخلصون له كانوا قليلين، وكان السّواد الأعظم لا يعتقدون فيه الأمر الذي يجب اعتقاده فيه، وكان يتعامل معهم بالتقيّة، ويداري معهم بحسن التدبير والسّلوك والاناة مع ما كان يشاهده عليه السلام منهم غير مرة من التمرد والعصيان، كما أشار إليه بقوله: **(استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا ودعوتكم سرّاً وجهراً فلم تستجيبوا)** دعوتي **(ونصحت لكم فلم تقبلوا)** نصيحتي.

ثمّ شبّههم عليه السلام بقوله: **(أشهود كغيّاب)** بالغائبين مع كونهم شاهدين، لأنّ ثمرة المشاهدة هو الاستفادة والانتفاع ومع عدمها فالشاهد والغائب سواء.

وكذلك شبههم بقوله عليه السلام: **(وعبيد كأرباب)** بالأرباب مع كونهم عبيداً، وهو إمّا من باب القلب ومبنيّ على المبالغة أي أنتم أرباب من صناديد العرب ورؤسائها، ولكنكم كالعبيد في رزالة النفس ودناءة الهمة، أو المراد أنّكم عبيد ورعايا لي مفترض طاعتي عليكم، ولكنكم

تأبون عنها وتمردون عنها كالسادات، وهذا أنسب بالفقرة السّابقة، أو أنّ أخلاقكم أخلاق العبيد من الخلاف والنفاق ودناءة الأنفس والتواني والتخاذل، وأنتم مع ذلك تدّعون الاستقلال وتتكبّرون وتتغرّون وتستبدّون بالآراءِ كالأرباب والأحرار.

ثمّ أشار عليه السلام إلى وجه تقصيرهم بقوله: **(أتلو عليكم الحكم)** الحسنة **(فتنفرون منها وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي)** أراد به أهل الشّام **(فما أتى على آخر قولي حتّى أراكم متفرقين)** مثل تفرّق **(أيادي سبأ ترجعون إلى)** بيوتكم و **(مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم)** أي تتلوّنون وتختلفون معرضين عن قبول المواعظ، وقال الشّارح المعتزلي: أي تمسكون عن الاتّعاظ من قولهم: كان فلان يعطي ثمّ خدع أي أمسك وأقلع، وقال الشّارح البحراني: المخادعة هي الاستغفال عن المصلحة أي أنّهم إذا رجعوا من مجلس وعظه أخذ كلّ منهم يستغفل صاحبه عن تذكّر الموعظة ويشغله بغير ذلك من الأحاديث، وإن لم يكن عن قصد خداع بل تقع منهم صورة المخادعة.

(أقومكم غدوة) بإصلاح أخلاقكم وإرشادكم السّداد والرشاد **(وترجعون إلى عشيّة كظهر الحنيّة)** أي معوّجين كظهر القوس منحرفين عن مكارم الأخلاق **(عجز المقوّم)** أراد به نفسه الشريف **(وأعضل المقوّم)** أراد به قومه أي أشكل تقويمهم وأعياني داؤهم علاجاً.

ثمّ ناداهم عليه السلام بذكر معايبهم تنفيراً لهم عنها فقال: **(أيها) الفئة (الشاهدة أبدانهم الغائبة عنهم عقولهم)** لعل المراد بغيبة العقول ذهابها أو عدم قيامهم بما تقتضيها والثاني أظهر، **(المختلفة أهواؤهم المبتلى بهم أمراؤهم)** أي ابتلى امراؤهم بسبب نفاقهم بسوء الحال وعدم انتظام الأمر **(صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه)** وهو إشارة إلى اتصافهم برذيلة مخالفة الأمر مع كون أميرهم مطيعاً لله سبحانه **(صواحب أهل الشّام يعصي الله وهم يطيعونه)** وهو إشارة إلى اتصاف أهل الشّام بفضيلة الطاعة مع كون أميرهم عاصياً له تعالى، وجعل ذلك مقايسه بينهم ليظهر الفرق فتدركهم الغيرة.

ثمّ أردفه لتحقيرهم وتفضيل عدّوهم عليهم في البأس والنجدة فقال: **(لوددت والله إن معاوية)** لعنه الله **(صارفني بكم صرف الدّينار بالدرّهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم)** ولا يخفى ما في هذا الكلام من وجوه التحقير حيث جعل عليه السلام أهل الشّام بمنزلة الذهب وجعل أصحابه بمنزلة الفضّة ورجّح واحداً منهم على عشرة من أصحابه حيث ودّ مبادلتهم به وأكّد ذلك بالقسم البارّ واللاّم وإنّ.

ثمّ نبّه على ما ابتلى به منهم فقال: **(يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنتين)** أي ابتليت منكم بخمس خصال وإنّما لم يجمع الخمس لكون الثلاث من جنس والاثنتين من آخر، أو لكون الثلاث إيجابية والاثنتين سلبية.

أمّا الثلاث الأول فهو أنّكم **(صمّ ذوو أسماع وبكم ذوو كلام وعمى ذوو أبصار)** توصيفهم بها مع أضدادها وارد في مقام التعجب ومعرض التوبيخ حيث إن المقصود بخلق هذه الجوارح والآلات في الإنسان انتفاعه بها وصرفه لها في المصالح الدينيّة والدّنيوية لينتظم بها أمر معاشه ومعاده، وإذا لم تنتفع بها كان واجدها وفاقدها سواء، وأحرى أن يلحق بالبهائم والأنعام بل هو أضلّ سبيلاً.

وأما الإثنتان الباقيتان فنبّه عليهما بقوله: **(لا أحرار صدق عند اللقاء)** أي لا يرى منكم عند الحرب ولقاء الأبطال ما يصدق حرّيتكم من البأس والنّجدة والشّجاعة، بل يشاهد منكم صفات العبد من التخاذل ودناءة الهمة وبقوله: **(ولا إخوان ثقة عند البلاء)** أي لستم ممّن يوثق بأخوتكم عند الابتلاء بالنوازل **(تربت أيديكم)** دعا بعدم إصابة الخير **(يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلّما جمعت من جانب تفرقت من آخر)** شبّههم عليه السلام بالإبل الموصوفة وعقبّه بذكر وجه الشبه وهو فقد الانتظام بفقدان الراعي الناظم، وأشار به إلى عصيانهم له وكونهم مطلقي العنان بمنزلة من لا أمير لهم.

(والله لكأني) أبصر **(بكم فيما أخال)** وأظنّ بظهور الإمارات والمخائل التي توجب الظن **(أن لو حمس الوغا)** وعظم الحرب **(وحمى الضراب)** واشتد حرّ الطّعان **(قد)** تفرقتم و **(انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها)**. قال الشّارح المعتزلي: أي وقت الولادة، وقال البحراني: شبّه انفراجهم عنه بانفراج المرأة عن قبلها ليرجعوا إلى الأنفة وتسليم المرأة قبلها وانفراجها عنه إما وقت الولادة أو وقت الطعان «انتهى» وقيل: تسليم المرأة لقبلها وانفراجها عنه وقت الولادة أو وقت الطعان والتشبيه في العجز والدّنائة والغرض إرجاع القوم إلى الأنفة والحمية وتنبيههم على الخطأ في تفرجهم وعدم انقيادهم له عليه السلام.

أقول: وجميع ما قالوه كما ترى مما ينفر عنه الذوق السّليم ويأباه الطبع المستقيم لا سيّما التأويل بوقت الطّعان أقبح سماجة، ولعلّ الأظهر أن يجعل الانفراج عن القبل كناية عن الانفراج عن الولادة أو مجازاً مرسلاً بعلاقة كون القبل محل الولادة، ويكون المراد بالتشبيه الإشارة إلى شدّة محبّتهم في الانفراج ومنتهى رغبتهم في التفرق عنه، فإن المرأة في حال المخاض على غاية الشدة والاضطراب لا شيء أحبّ إليها من الطلق والانفراج، فإذا طلقت استراحت ورجعت إليها نفسها وسكن وجعها، والغرض بذلك توبيخهم ولومهم وتشبيه حالتهم عند حضور الجهاد واشتعال نائرة الحرب بحالة المرأة التي أخذها المخاض ووجع الولادة، وحسن هذا المعنى مما لا يخفى على أولي الأذهان السليمة والأفهام المستقيمة، هذا.

ويحتمل بعيداً أن يكون أصل الرواية عن قبلها بفتحتين، وإن كان النسخ لا يساعده، في **«القاموس»** والقبل محركة ضرب من الخرز يؤخّذ بها، أو شيء من عاج مستدير يتلألأ يعلق في صدر المرأة.

ثمّ عاد عليه السلام في ذكر مناقبه الجميلة المحركة لهم إلى أتباعه ومتابعته فقال عليه السلام **(وإنّي لعلى بيّنة)** وحجّة واضحة **(من ربي)** وهي الآيات الباهرة والأدلة الزاهرة المفيدة لمعرفته وتوحيده سبحانه **(ومنهاج)** وجادّة مستقيمة **(من نبيّي)** وهي السّنة النّبويّة والطريقة المصطفويّة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام والتحية، **(وإني لعلى الطريق الواضح)** وهو طريق الدّين ونهج الشّرح المبين **(القطه)** من بين الطرق الضلال **(لقطاً)** ولعل في التعبير بلفظ اللقطة إشارة إلى غلبة طرق الضلال وكثرتها وتنبيها على أن سالك طريق الهدى يحتاج إلى الجد والاجتهاد والاهتمام حتّى يميزه من بينها ويلتقطه من ههنا وههنا، فإن سالك طريقة مكتنفة بالشوك والقتاد من جانبيها يحتاج إلى أن يلتقط المنهج التقاطاً.

ثمّ نبّه على وجوب طاعته وملازمته فقال **(انظروا أهل بيت نبيكم)** أراد به نفسه الشريف والطّيبين من أولاده الأئمة الأحد عشر **(فألزمو سمتهم)** أي جهتهم وطريقتهم **(واتّبعوا أثرهم)** وعلل وجوب الاقتداء والإئتمام بهم بقوله **(فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى)** أي: ردى الجاهلية والضّلال القديم، فإنّهم خير أمّة أخرجت للنّاس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وفيه تعريض على أن متابعة غيرهم توجب الخروج من الهدى والعود إلى الرّدى.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥].

(فإن لبدوا فالبدوا) أي إن قعدوا عن طلب الخلافة أو الجهاد ولزموا البيوت فتابعوهم **(وإن نهضوا فانهضوا)** أي: إن قاموا بالخلافة فانصروهم **(ولا تسبقوهم)** فيما لم يأمروكم به ولا تفعلوا ذلك **(فتضلّوا)** لأنَ متقدّم الدّليل شأنه الضّلال عن القصد **(ولا تتأخروا عنهم)** فيما يأمرونكم به ولا تخالفوهم **(فتهلكوا)** لأنّ المتخلف عن الهاد يتيه عن الرشاد فلا يدري إنه هلك في أيّ واد.

ثمّ نبّه عليه السلام على بعض أوصاف الأصحاب الأنجاب للتهييج والالهاب فقال عليه السلام: و**(لقد رأيت أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله)** وهم الذين أدركوا صحبته بالإيمان وماتوا بالإيمان **(فما أرى أحداً منكم بشبههم)** في الزّهد والورع والخوف والخشية من الحقّ سبحانه **(لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً)** أي متغيري الشّعر ومغبّر الرّؤوس من غير استحداد ولا تنظف من قشف العبادة وكثرة الرياضة **(قد باتوا)** وأحيوا لياليهم **(سجّداً وقياماً يراوحون بين جباههم وخدودهم)** أي: يسجدون بالجبهة مرّة وبالخدود أخرى تذللاً وخضوعاً **(ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم)** كناية عن قلقهم واضطرابهم من خوف المعاد **(كأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم)** وأراد ببين أعينهم جباههم مجازاً يعني أن جباههم من طول السجود وكثرة مسّ الأرض صارت كركب المعزى وثفنات البعير في الغلظة والخشونة **(إذا ذكر الله هملت أعينهم)** وسالت **(حتّى تبل جيوبهم)**، وفي بعض النسخ جباههم بدل جيوبهم وبلها ممكن في حال السّجود **(ومادوا كما يميد الشجر)** أي اضطربوا مثل اضطراب الشجر **(يوم الريح العاصف**

خوفاً من العقاب ورجاء للثواب) يعني أن اضطرابهم تارة يكون من الخوف والوجل وأخرى من الرجاء والاشتياق وهذا هو شأن المؤمن المخلص الآخذ بين مرتبتي الخوف والرجاء والآمل من الله الحسنى إنّه الغفور الرّحيم ذو المنّ العظيم.

تكملة

هذا الكلام له عليه السلام يشبه أن يكون ملتقطاً من خطبة طويلة قدّمنا روايتها من كتاب الاحتجاج والإرشاد في شرح الخطبة التاسعة والعشرين، وتقدم أيضاً بعض فقراتها في التنبيه الثاني من شرح الكلام السّابع والثلاثين في ضمن رواية سليم ابن قيس الهلالي، فتذكر.

الترجمة

از جمله كلام آن قدوه انام است، مى فرمايد:

و اگر مهلت بدهد خداوند ظالم را، پس هرگز فوت نمى شود از او عقوبت او و حق تعالى مر ظالم را بر محل ترقب و نگهبانى است بر مكان گذشتن راه او و به موضع چيزهاى گلوگير است از جاى فرو بردن آب دهان او. آگاه باش، قسم به آن خدايى كه نفس من در قبضه اقتدار او است، هر آينه قالب شدن اين قوم كه عبارت باشند از اهل شام به شما نيست، به جهت اينكه ايشان اقرب به حق اند از شما، ولكن به جهت شتافتن ايشان است به سوى باطل صاحب خودشان و اهمال نمودن شما است از حق من و هرآينه به تحقيق كه صباح كردند امّت ها در حالتى كه مى ترسند از ستم واليان خودشان و صباح كردم من در حالتى كه مى ترسم از جور رعيت خود.

طلب يارى كردم از شما به جهت جهاد، پس يارى نكرديد و شنواندم شما را قول حق را، پس گوش نداديد و خواندم شما را به حق در نهان و آشكار، پس اجابت نكرديد و نصيحت نمودم شما را، پس قبول ننموديد. آيا شما حاضران هستيد مثل غايبان و غلامان هستيد مثل خواجه گان؟ تلاوت مى كنم به شما حكمت هاى حسنه را، پس رم مى كنيد از آن و موعظه مى كنم شما را با موعظه بالغه، پس پراكنده مى شويد از آن و ترغيب مى كنم شما را بر جهاد اهل بغى و ظلم، پس نمى آيد به من آخر گفتار خودم تا اينكه مى بينم شما را متفرّق مى شويد

مثل متفرق شدن اولاد سبا، برمی گردید به مجالس خودتان و اختلاف می نمایید از مواعظ خودتان، راست می گردانم شما را در بامداد و بازمی گردید به سوی من در شبانگاه مانند پشت کمان کج شده، عاجز شد راست سازنده و مشکل شد راست شده.

ای جماعتی که حاضر است بدن های ایشان و غایب است از ایشان عقل های ایشان، مختلف است خواهش های ایشان، مبتلا است به جهت ایشان امیران ایشان، صاحب شما اطاعت می کند خدای را و شما عصیان می نمایید او را و صاحب اهل شام نافرمانی می کند حق را و ایشان اطاعت می نمایند او را، هرآینه دوست می دارم قسم به خدا، اینکه معاویه صرّافی کند با من شما را، مثل صرافی دینار به درهم، پس بگیرد از من ده نفر از شما را و عوض دهد به من یك نفر از اهل شام را.

ای اهل کوفه، مبتلا شدم من از شما به سه خصلت و دو خصلت؛ اما سه خصلت این است که هستید کران صاحب گوش ها، گنگان صاحب گفتار، کوران صاحب چشم ها؛ اما دو خصلت این است که نیستید آزادگان راست، در وقت ملاقات شجاعان و نه برادران محل وثوق و اطمینان، هنگام ابتلائات زمان، خاك آلود باد دست های شما.

ای امثال شتران در حالتی که غایب باشد از ایشان شتربانان ایشان که هروقت جمع کرده شوند از طرفی، پراکنده شوند از طرف دیگر؛ قسم به خدا گوئیا می بینم شما را در آنچه ظن و خیال می کنم اینکه اگر شدت بیابد جنگ و سخت شود حرارت کارزار، به تحقیق که منکشف شوید از پسر ابی طالب همچو منکشف شدن زن از زاییدن خود و به درستی که من برحجت و بینه هستم از جانب پروردگار خود و بر جادّه مستقیمه هستم از جانب پیغمبر خود و به درستی که من بر راه روشن می باشم که پیدا می کنم آن راه را، پیدا کردنی.

نظر نمایید به سوی پیغمبر خودتان، پس لازم شوید به سمت ایشان و متابعت نمایید اثر ایشان را، پس هرگز خارج نمی کنند ایشان شما را از هدایت و هرگز برنمی گردانند ایشان شما را به ضلالت و هلاکت، پس اگر بازایستند از طلب امری، باز ایستید شما و اگر بایستند به امری، بایستید شما و پیشی نگیرید به

ایشان، پس گمراه شوید و پس نیفتید از ایشان، پس هلاك شوید.

و به تحقیق دیدم من اصحاب حضرت رسالت مآب (ﷺ) را، پس ندیدم هیچ یکی از شما را که شبیه ایشان باشید، به تحقیق که بودند ایشان صباح می کردند ژولیده مویی غبارآلوده سر، به تحقیق که شب را به روز می آوردند در حالتی که سجده کنندگان و ایستادگان بودند، راحت می نمودند میان پیشانی و رخساره های خودشان را؛ یعنی گاهی به پیشانی سجده می نمودند و گاهی رویشان را به زمین می نهادند و می ایستادند مثل اخگر از یاد کردن قیامت و معاد خودشان، گوئیا که میان چشمان ایشان زانوهای بز است که پینه است از درازی سجده ایشان. هرگاه ذکر شود خداوند سبحانه، ریزان می گردید آب چشم های ایشان تا آنکه تر می شد گریبان های ایشان از اشك چشم و مضطرب می شدند مثل مضطرب شدن و جنبیدن درخت در روز باد تند به سبب ترسیدن از عذاب و به سبب امیدواری در ثواب.

ومن كلام له عليه السلام وهو السابع والتسعون من المختار في باب الخطب

ويستفاد من كتاب الغارات أنه قاله بعد أمر الخوارج والنهروان، ورواه في **«البحار»** عن المسيّب بن نجبة الفزاري نحوه وسنشير إليه إن شاء الله.

«وَاللهِ لا يَزالُونَ حَتّى لا يَدَعُوا للهِ مُحَرَّماً إلاّ اسْتَحَلُّوهُ، ولا عَقْداً إلاّ حَلُّوهُ، وحَتّى لا يَبْقى بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إلاّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، ونَبا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وحَتّى يَقُومَ الباكِيانِ يَبْكِيانِ: باكٍ يَبْكي لِدينِه، وباكٍ يَبْكي لِدُنياهُ، وحَتى يَكُونَ نُصْرَةُ أَحدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِم كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ: إذا شَهِدَ أَطاعَهُ، وإِذا غابَ اغْتابَهُ، وحَتّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فيها عَناءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنًّا، فَإِنْ أَتاكُمُ اللهُ بِعافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ العاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»[1].

اللغة

(**محرماً**) في أكثر النسخ وزن مقعد بفتح الميم وتخفيف الراء وهو ما حرّمه الله سبحانه والجمع محارم، وعن بعضها محرّماً بضم الميم وتشديد الرّاء وجمعه محارم ومحرمات، (**ونبا**) منزله به بتقديم النون على الباء إذا لم يوافقه، و (**رعيهم**) في أكثر النسخ بالياء المثناة التحتانية مصدر رعا يرعى بمعنى الحكومة والإمارة، وفي بعض النسخ بالتاء الفوقانية مصدر ورع يقال ورع يرع بالكسر فيهما، ورعا ورعة وهو التقوى، و (**ابتليتم**) بالبناء على المفعول.

الإعراب

خبر (**زال**) محذوف أي لا يزالون على الجور أو ظالمين، وإضافة نصرة أحدكم ونصرة العبد من إضافة المصدر إلى فاعله، (**وأعظمكم**) بالنصب خبر كان قدم على إسمها وهو أحسنكم ويروى برفع الأوّل ونصب الثاني على العكس والأوّل أنسب.

المعنى

اعلم أن المقصود بهذا الكلام الإشارة إلى شدّة طغيان بني أميّة وما يصيب المسلمين منهم من الجور والظلم والأذية، وصدر الكلام بالقسم البار تحقيقاً وتصديقاً فقال: (**والله لا يزالون**) ظالمين (**حتى لا يدعو الله محرماً إلاّ استحلوه**) أي عدّوه حلالاً واستعملوه استعمال

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٥٤٥ ح ٤٨، ونهج السعادة: ٢/ ٥٨٢.

المحلّلات ولا يبالون به، ويشهد بذلك ما صدر منهم من القتل وإتلاف النفوس الّتي لا تحصى، فإذا كان حالهم في أعظم الكبائر ذلك فكيف بغيرها.

(ولا) يتركوا **(عقداً إلاّ حلّوه)** والمراد به إمّا العقد والعهود المعاهدة بينهم وبين الناس، فالمراد بحلّها نقضها، وأول ما وقع من ذلك ما كان من معاوية حيث نقض المعاهدة بينه وبين الحسن عليه السلام، وإمّا العهود المأخوذة عليهم من الله تعالى وهو أحكام الدّين وقوانين الشرع المبين، فيكون حلّها عبارة عن مخالفتها وعدم العمل بها، **(وحتّى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلاّ دخله ظلمهم)** أراد ببيت المدر ما يعمل من الطين والجص ونحوه في القرى والبلدان، وببيت الوبر الخباء والخيم المتّخذة من الشعر والصوف والوبر ونحوها في البوادي **(ونبا به سوء رعيهم)** أي ضره وخالفه سوء إمارتهم أو سوء تقواهم.

(وحتّى يقوم الباكيان يبكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه) لعلّ المراد بالباكي لدينه من لم يكن متمكّناً من إظهار معالم الدّين من القيام بوظائف شرع سيّد المرسلين، وبالباكي لدنياه من كان مصاباً بنهب الأموال ومبتلى بسوء الحال، **(وحتّى يكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه)** الظاهر أن المراد بالنصرة في المقامين هو الانتصار فيكون المجرد بمعنى المزيد، وقد مرّ نظير هذه العبارة في الخطبة الثّانية والتّسعين وأوضحنا معناها هنالك.

قال الشّارح المعتزلي: وقد حمل قوم هذا المصدر أي نصرة أحدكم على الإضافة إلى المفعول، وكذلك نصرة العبد وتقدير الكلام: حتى يكون نصرة أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيّد العبد السّيء الطريقة إياه، ومن في الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره من جانب أحدهم ومن جانب سيّده.

قال الشّارح: وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله إذا شهد أطاعه، وهو الكلام الذي إذا استمر المعنى جعل حالاً من العبد لقوله من سيّده[١].

أقول: لعلّ مراد الشّارح بما ذكره في وجه الضعف من استلزام الفصل هو اختلال نظام الكلام من حيث المعنى لا من حيث التركيب النحوى، فإن الاتساع في الظروف وشبهها ممّا هو معروف، والفصل بهما بين أجزاء الكلام بما لا يسوغ لغيرهما مشهور مأثور، نعم اختلال المعنى لا ريب فيه فإن محصل معنى الكلام على ما ذكره القوم حتى يكون منصورية أحدكم من جانب أحدهم كمنصورية العبد من جانب سيده، وعلى ذلك فلا يلائمه قوله عليه السلام: **(إذا شهد)** أطاعه (آه) فإن ظاهر هذا الكلام يعطي كونه بياناً لحالة نصرة العبد سيّده بمعنى ناصريته له، لا لحالة منصوريته منه فافهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٧/ ٩٧.

(وحتى يكون أعظمكم فيها) أي في هذه الفتنة المفهومة بسياق الكلام **(عناء)** وجهداً **(أحسنكم بالله ظنّاً)** لظهور أن حسن الظن بالله من صفات المؤمنين والأولياء الكاملين، ومعلوم أن عداوتهم لهم تكون أشد، وعناءهم وتعبهم منهم يكون أكثر وآكد، **(فإن أتاكم الله بعافية)** ونجاة من تلك البلية **(فاقبلوها بقبول حسن)** واشكروا له سبحانه **(وإن ابتليتم)** وأصبتم بمصيبة **(فاصبروا)** عليها وتحاملوا بها **(فإنّ العاقبة للمتقين)** والله لا يضيع أجر المحسنين.

تنبيه

اعلم أن المستفاد من كتاب الغارات لإبراهيم الثقفي على ما حكى عنه في «**البحار**» أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد واقعة النّهروان بعد ما رجع إلى الكوفة وأغار سفيان بن عوف العامري بأمر معاوية على الأنبار على ما تقدّم تفصيله في شرح الخطبة السّابعة والعشرين.

قال صاحب «**الغارات**» بعد ما أورد شطراً من الآثار في غارة سفيان: وعن ثعلبة بن يزيد الحماني أنه قال: بينما أنا في السّوق إذ سمعت منادياً ينادي الصّلاة جامعة، فجئت أهرول والنّاس يهرعون فدخلت الرّحبة فإذا علي عليه السلام على منبر من طين مجصص وهو غضبان قد بلغه أن أناساً قد أغاروا بالسّواد، فسمعته يقول: «أما وربّ السّماء والأرض، ثم ربّ السّماء والأرض إنّه لعهد النّبي صلى الله عليه وآله إن الأمّة ستغدر بي».

وعن المسيب بن نجبة الفزاري أنه قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: «إنّي قد خشيت أن يدال هؤلاء القوم عليكم، بطاعتهم إمامهم ومعصيتكم إمامكم، وبأدائهم الأمانة وخيانتكم، وبصلاحهم في أرضهم وفسادكم في أرضكم، وباجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقّكم حتّى تطول دولتهم وحتى لا يدعو لله محرماً إلاّ استحلّوه حتى لا يبقى بيت وبر ولا بيت مدر إلاّ دخله جورهم وظلمهم حتى يقوم الباكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه، وحتّى لا يكون منكم إلاّ نافعاً لهم أو غير ضارّ بهم، وحتى يكون نصرة أحدكم منهم كنصرة العبد من سيّده إذا شهد أطاعه وإذا غاب سبّه، فإن أتاكم الله بالعافية فاقبلوا، وإن ابتلاكم فاصبروا، فإن العاقبة للمتقين»[1]، هذا.

وأقول: لا يخفى على الناقد الخبير بالأخبار والمطلع على الآثار أنّ ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام، وأشار إليه في هذا الكلام من عموم جور بني أميّة، وانتهاكهم المحارم، واستحلالهم الدّماء وإضرارهم بالمسلمين، وسعيهم في إطفاء نور ربّ العالمين، فقد وقع كلّه مطابقاً لما أخبر به.

---

(١) نهج السعادة: ٢/ ٥٨٢، والمعجم الكبير: ٣/ ١٠٢ ح ٢٨٠١.

(٢) الغارات: ٢/ ٤٨٦.

فقد روى في «**البحار**» من كتاب سليم بن قيس الهلالي عن أبان عن سليم وعمر ابن أبي سلمة قالا: قدم معاوية لعنه الله حاجاً في خلافته المدينة بعد ما قتل أمير المؤمنين صلوات الله عليه وصالح الحسن عليه السلام، وفي رواية أخرى بعد ما مات الحسن عليه السلام واستقبله أهل المدينة فنظر فإذا الذي استقبله من قريش أكثر من الأنصار، فسأل عن ذلك فقيل: إنّهم محتاجون ليست لهم دواب.

فالتفت معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة فقال: يا معشر الأنصار ما لكم لا تستقبلوني مع إخوانكم من قريش.

فقال قيس وكان سيّد الأنصار وابن سيدهم: أقعدنا يا أمير المؤمنين إن لم يكن لنا دواب، قال معاوية: فأين النواضح، فقال قيس: افنيناها يوم بدر واحد وما بعدهما في مشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله حين ضربناك وأباك على الإسلام حتى ظهر أمر الله وأنتم كارهون، قال معاوية: اللّهم غفراً[١].

قال قيس: أما إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «سترون بعدي أثرة»، ثم قال: «يا معاوية تعيّرنا بنواضحنا والله لقد لقيناكم عليها يوم بدر وأنتم جاهدون على إطفاء نور الله وأن تكون كلمة الشّيطان هي العليا، ثم دخلت أنت وأبوك كرهاً في الإسلام الذي ضربناكم عليه»[٢]، فقال معاوية: كأنّك تمنّ علينا بنصرتكم إيّانا فللّه ولقريش بذلك المنّ والطّول، ألستم تمنّون علينا يا معشر الأنصار بنصرتكم رسول الله صلى الله عليه وآله وهو من قريش وهو ابن عمّنا ومنّا؟ فلنا المنّ والطّول أن جعلكم الله أنصارنا وأتباعنا فهداكم بنا.

وقال قيس: إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين، فبعثه إلى الناس كافة وإلى الجنّ والإنس والأسود والأحمر والأَبيض، اختاره لنبوته واختصّه برسالته فكان أوّل من صدّقه وآمن به ابن عمّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأبو طالب يذبّ عنه ويمنعه ويحول بين كفّار قريش وبين أن يروعوه ويؤذوه، وأمر أن يبلغ رسالة ربه فلم يزل ممنوعاً من الضيم والأذى حتى مات عمّه أبو طالب وأمر ابنه بموازرته فوازره ونصره وجعل نفسه دونه في كلّ شدة وضيق وكل خوف، واختص الله بذلك عليّاً عليه السلام من بين قريش وأكرمه من بين جميع العرب والعجم، فجمع رسول الله صلى الله عليه وآله جميع بني عبد المطلب فيهم أبو طالب وأبو لهب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله ونادمه عليّ عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله في حجر عمّه أبي طالب فقال: «أيّكم ينتدب أن يكون أخي ووزيري ووصيي وخليفتي في أمّتي ووليّ كل مؤمن من بعدي»، فأمسك القوم حتى أعادها ثلاثاً فقال علي عليه السلام: «أنا يا رسول الله»، فوضع رأسه في حجره وتفل في

---

(١) أي اللهم اغفر لي غفراً واللهم افتتاح الكلام والخطاب لقيس أي اغفر ما وقع مني واستر معائبي، بحار.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/١٧٤، والغدير: ٢/١٠٦.

فيه وقال: «اللّهم املأ جوفه علماً وفهماً وحكماً»، ثم قال لأبي طالب: «يا أبا طالب اسمع الآن لابنك وأطع فقد جعله الله من نبيّه بمنزلة هارون من موسى»، وآخا صلى الله عليه وآله بين عليّ عليه السلام وبين نفسه.

فلم يدع قيس شيئاً من مناقبه عليه السلام إلاّ ذكرها واحتجّ بها، وقال: منهم جعفر ابن أبي طالب الطيّار في الجنّة بجناحين اختصّه الله بذلك من بين النّاس، ومنهم حمزة سيّد الشّهداء، ومنهم فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة، فإذا وضعت من قريش رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته وعترته الطيّبين فنحن والله خير منكم يا معشر قريش وأحبّ إلى الله ورسوله وإلى أهل بيته منكم، لقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله فاجتمعت الأنصار إلى أبي ثمّ قالوا: نبايع سعداً فجاءت قريش فخاصمونا بحجّة عليّ وأهل بيته وخاصمونا بحقّه وقرابته فما يعدو قريش أن يكونوا ظلموا الأنصار وظلموا آل محمّد صلى الله عليه وآله، ولعمري ما لأحد من الأنصار ولا لقريش ولا لأحد من العرب والعجم في الخلافة حقّ مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام وولده من بعده.

فغضب معاوية وقال: يا بن سعد عمّن أخذت هذا؟ وعمّن رويته؟ وعمن سمعته؟ أبوك أخبرك بذلك وعنه أخذته؟

فقال قيس: سمعته وأخذته ممن هو خير من أبي وأعظم عليّ حقاً من أبي، قال: من؟ قال: عليّ بن أبي طالب عليه السلام عالم هذه الأمّة وصدّيقها الذي أنزل الله فيه:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] فلم يدع آية نزلت في عليّ عليه السلام إلاّ ذكرها.

قال معاوية: فإن صدّيقها أبو بكر وفاروقها عمر والذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام.

قال قيس: أحق هذه الأسماء وأولى بها الذي أنزل الله فيه:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧].

والذي نصبه رسول الله بغدير خم فقال: «من كنت مولاه أولى به من نفسه فعليّ أولى به من نفسه»، وقال في غزوة تبوك «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي».

وكان معاوية يومئذٍ بالمدينة فعند ذلك نادى مناديه وكتب بذلك نسخة إلى عُماله ألا برأت الذّمة ممن روى حديثاً في مناقب عليّ وأهل بيته، وقامت الخطبة في كلّ مكان على المنابر بلعن عليّ بن أبي طالب والبراءة منه والوقيعة في أهل بيته واللّعنة لهم بما ليس فيهم عليهم السلام.

ثمّ إنّ معاوية لعنه الله مرّ بحلقة من قريش، فلمّا رأوه قاموا إليه غير عبد الله بن عبّاس،

فقال له: يا ابن عبّاس ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلاّ لموجدة عليّ بقتالي إيّاكم يوم صفين، يا ابن عبّاس إنّ عمّي عثمان قتل مظلوماً، قال ابن عبّاس: فعمر بن الخطاب قد قتل قبله مظلوماً، قال: فتسلم الأمر إلى ولده وهذا ابنه قال: إن عمر قتله مشرك، قال ابن عبّاس: فمن قتل عثمان؟ قال: قتله المسلمون، قال: فذلك أدحض لحجّتك وأحلّ لدمه إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلا بحقّ.

قال: فإنّا كتبنا في الآفاق ننهي عن ذكر مناقب عليّ وأهل بيته، فكفّ لسانك يا بن عبّاس وأربع على نفسك، قال: فتنهانا عن قراءة القرآن؟ قال: لا، قال: فتنهانا عن تأويله؟ قال: نعم، قال: فنقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به؟ قال: نعم، قال: فأيّما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟ قال: العمل به، قال: فكيف نعمل حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟

قال: يسأل ممّن يتأوّله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك، قال: إنّما نزل القرآن على أهل بيتي فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط واليهود والنّصارى والمجوس؟ قال: فقد عدلتني بهؤلاء؟ قال: لعمري ما أعدلك بهم إلا إذا نهيت الأمّة أن يعبدوا الله بالقرآن وبما فيه من أمر أو نهي أو حلال أو حرام أو ناسخ أو منسوخ أو عام أو خاص أو محكم أو متشابه، وإن لم تسأل الأمّة عن ذلك هلكوا واختلفوا وتاهوا، قال: فاقرأوا القرآن ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم ومما قال رسول الله ﷺ وارووا ما سوى ذلك.

قال: ابن عباس: قال الله تعالى في القرآن:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

قال معاوية: يا ابن عبّاس اكفني عن نفسك وكفّ عنّي لسانك، وإن كنت لا بدّ فاعلاً فليكن سرّاً ولا يسمعه أحد علانية، ثمّ رجع إلى منزله فبعث إليه بخمسين ألف درهم، وفي رواية أخرى مائة ألف درهم.

ثمّ اشتد البلاء بالأمصار كلّها على شيعة عليّ عليه السلام وأهل بيته، وكان أشدّ النّاس بليّة أهل الكوفة لكثرة من بها من الشّيعة، واستعمل عليها زياداً ضمها إليه مع البصرة وجمع له العراقين، وكان يتبع الشيعة وهو بهم عالم، لأنّه كان منهم قد عرفهم وسمع كلامهم أوّل شيء، فقتلهم تحت كلّ كوكب وتحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل منهم وصلبهم على جذوع النّخل وسمل أعينهم وطردهم وشردهم حتى انتزحوا على العراق فلم يبق بها أحد منهم إلا مقتول أو مصلوب أو طريد أو هارب.

وكتب معاوية إلى عُمّاله وولاته في جميع الأرضين والأمصار ألا يجيز لأحد من شيعة عليّ ولا من أهل بيته ولا من أهل ولايته الذين يروون فضله ويتحدّثون بمناقبه شهادة.

وكتب إلى عُمّالِه: انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل بيته وأهل ولايته الذين يروون فضله، ويتحدّثون بمناقبه فأدنوا مجالسهم وأكرموهم وقربوهم وشرفوهم واكتبوا إلي بما يروي كل واحد منهم فيه باسمه واسم أبيه وممّن هو.

ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في عثمان الحديث، وبعث إليهم بالصلات والكساء وأكثر لهم القطائع من العرب والموالي، فكثروا في كلّ مصر وتنافسوا في المنازل والضياع واتسعت عليهم الدّنيا فلم يكن أحد يأتي عامل مصر من الأَمصار ولا قرية، فيروي في عثمان منقبة أو يذكر له فضيلة إلا كتب اسمه وقرب وشفع فمكثوا بذلك ما شاء الله.

ثمّ كتب إلى عُمالِه أن الحديث قد كثر في عثمان وفشا في كلّ مصر ومن كلّ ناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوهم إلى الرّواية في أبي بكر وعمر، فإنّ فضلهما وسوابقهما أحبّ إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجّة أهل هذا البيت وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله، فقرأ كل قاض وأمير من ولاية كتابه على النّاس، وأخذ النّاس في الرّوايات فيهم وفي مناقبهم.

ثمّ كتب نسخة جمع فيها جميع ما روى فيهم من المناقب والفضائل، وأنفذهما إلى عماله وأمرهم بقراءتها على المنابر في كل كورة وفي كل مسجد، وأمرهم أن ينفذوا إلى معلّمي الكتاتيب أن يعلّموها صبيانهم حتى يرووها ويتعلّموها كما يتعلّمون القرآن حتّى علّموها بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثمّ كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحبّ عليّاً وأهل بيته فامحوه من الدّيوان ولا تجيزوا له شهادة.

ثمّ كتب كتاباً آخر: من اتهمتموه ولم تقم عليه بيّنة فاقتلوه، فقتلوهم على التّهم والظّن والشّبه تحت كل كوكب حتّى لقد كان الرّجل يسقط بالكلمة فيضرب عنقه.

ولم يكن ذلك البلاء في بلد أشد ولا أكبر منه بالعراق، ولا سيّما بالكوفة حتّى أنّ الرّجل من شيعة عليّ وممّن بقي من أصحابه بالمدينة وغيرها ليأتيه من يثق به فيدخل بيته، ثمّ يلقي عليه ستراً فيخاف من خادمه ومملوكه فلا يحدّثه حتى يأخذ الأيمان المغلظة عليه ليكتمنّ عليه.

وجعل الأَمر لا يزداد إلاّ شدة وكثر عندهم عدوّهم وأظهروا أحاديثهم الكاذبة في أصحابهم من الزور والبهتان، فينشأ النّاس على ذلك ولا يتعلّمون إلاّ منهم ومضى على ذلك قضاتهم وولاتهم وفقهاؤهم.

وكان أعظم النّاس في ذلك بلاء وفتنة القرّاء المراؤون المتصنّعون الذين يظهرون لهم الحزن والخشوع والنسك، ويكذبون ويعلّمون الأَحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويدنوا لذلك مجالسهم، ويصيبوا بذلك الأَموال والقطائع والمنازل حتّى صارت أحاديثهم تلك

ورواياتهم في أيدي من يحسب أنّها حقّ وأنها صدق، فرووها وقبلوها وتعلّموها وعلّموها وأحبّوا عليها وأبغضوا وصارت بأيدي النّاس الذين لا يستحلّون الكذب ويبغضون عليه أهله فقبلوها وهم يرون أنها حق، ولو علموا أنّها باطل لم يرووها ولم يتديّنوا بها، فصار الحقّ في ذلك الزّمان باطلاً، والباطل حقّاً، والصّدق كذباً، والكذب صدقاً.

وقد قال رسول الله ﷺ «ليشملنّكم فتنة يربو فيها الوليد، وينشأ فيها الكبير يجري النّاس عليها ويتّخذونها سنّة، فإذا غيّر منها شيء قالوا أتى النّاس منكراً غيّرت السنّة».

فلمّا مات الحسن بن عليّ عليه السلام لم يزل البلاء والفتنة يعظمان ويشتدّان فلم يبقى وليّ لله إلاّ خائفاً على دمه، وفي رواية أخرى إلاّ خائفاً على دمه أنّه مقتول، وإلاّ طريداً وشريداً، ولم يبق عدو لله إلاّ مظهر الحجّة غير مستتر ببدعته وضلالته، الحديث[1].

ألا لعنة الله على القوم الظّالمين وسيعلم الّذين ظلموا آل محمّد ﷺ أيّ منقلب ينقلبون.

(١) كتاب سليم بن قيس: ٣١٩، والاحتجاج: ١/٣٩٢.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت نظام آن امام انام است که اشاره فرموده در آن به أعمال قبیحه بنی امیه و گفته:

به خدا سوگند که همیشه باشند بنی امیه تا اینکه نگذارند مرخداوند عالم را حرامی مگر که حلال شمارند آن را و نه گرهی از گره های دین مگر اینکه بگشایند آن را و تا اینکه باقی نماند خانه ای از کلوخ ساخته شده و نه خیمه ای از پشم برپا بوده مگر اینکه داخل شود در او ظلم آنها و متزلزل سازد آن را بدی حکومت و امارت ایشان تا آنکه برخیزد دو شخص گریه کننده که گریه کند؛ یك گریه کننده گریه کند از برای دین خود و گریه کننده دیگر گریه کند از برای دنیای خود و تا اینکه باشد انتقام کشیدن یکی از شما از یکی از ایشان مثل انتقام کشیدن بنده از مولای خود، به این وجه که اگر حاضر باشد نزد مولایش، اطاعت او را می نماید و هر گاه غایب باشد از او، غیبت او می کند تا آنکه باشد بزرگترین شما از روی مشقّت نیکوترین شما از روی گمان و امیدواری به خدا، پس اگر عطا کند خداوند شما را سلامتی و عافیتی، پس قبول نمایید و اگر مبتلا شوید به بلایی، پس صبر نمایید، پس به درستی که عاقبت کار پرهیزکاران را است.

ومن خطبة له عليه السلام وهي الثامنة والتسعون من المختار في باب الخطب

«نَحْمَدُهُ عَلى ما كانَ، ونَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنا عَلى ما يَكُونُ، ونَسْأَلُه الْمُعافاةَ في الأَدْيان، كَما نَسْأَلُهُ الْمُعافاةَ في الأَبْدانِ.

عِبادَ اللهِ أُوصيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهذِهِ الدُّنيا التّارِكَةِ لَكُمْ وإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَها، وَالْمُبْلِيَةِ لأَجْسامِكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ تَجْديدَها، فَإِنَّما مَثَلُكُمْ ومَثَلُها كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبيلاً فكأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوه، وكَمْ عَسَى الْمُجْري إِلَى الْغايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْها حَتّى يَبْلُغَها، وما عَسى أَنْ يَكُونَ بَقاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لا يَعْدُوهُ، وطالِبٌ حَثيثٌ يَحْدُوهُ في الدُّنْيا حَتّى يُفارِقَها، فَلا تَنافَسُوا في عِزِّ الدُّنيا وفَخْرِها، وَلا تَعْجَبُوا بِزينَتِها ونَعيمِها، ولا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرّائِها وبُؤْسِها، فَإِنَّ عِزَّها وفَخْرَها إِلَى انْقِطاعٍ، وإِنَّ زينَتَها ونَعيمَها إِلى زَوالٍ، وضَرّاءَها وبُؤْسَها إِلى نَفادٍ، وكُلُّ مُدَّةٍ فيها إِلى انْتِهاءٍ، وكُلُّ حَيٍّ فيها إِلى فَناءٍ، أَوَلَيْسَ لَكُمْ في آثارِ الأَوَّلينَ مُزْدَجَرٌ، وفي آبائكُمُ الماضينَ تَبْصِرَةٌ ومُعْتَبَرٌ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ! أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْماضينَ مِنْكُمْ لا يَرْجِعُونَ، وإِلى الخَلَفِ الباقينَ لا يَبْقُونَ! أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنيا يُمْسُونَ ويُصْبِحُونَ عَلى أَحْوالٍ شَتّى: فَمَيِّتٌ يُبْكى، وآخَرُ يُعَزّى وصَريعٌ مُبْتَلى وعائدٌ يَعُودُ، وآخَرُ بِنَفْسِه يَجُودُ، وطالِبٌ لِلدُّنيا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وغافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وعَلى أَثَرِ الْماضي ما يَمْضي الْباقي! أَلا فَاذْكُرُوا هادِمَ اللَّذّاتِ، ومُنَغِّصَ الشَّهواتِ، وقاطِعَ الامْنِيّاتِ عِنْدَ الْمُساوَرَةِ لِلأَعمالِ القَبيحَةِ، واسْتَعينُوا اللهَ على أَداءِ واجِبِ حَقِّه، وما لا يُحْصى مِنْ أَعْدادِ نِعَمه وإِحْسانِه»[١].

اللغة

(عافاه) الله من المكروه معافاة وعافية وهب الله له العافية من العلل والبلاء كإعفاء والعافية دفاع الله عن العبد، و **(رفضت)** الدّنيا رفضاً من باب نصر وضرب تركتها و **(سفر)** بسكون العين جمع سافر كركب وراكب وصحب وصاحب، و **(جرى)** الفرس جرياً وأجريته أنا أرسلته وحملته على السير، و **(حثثت)** الإنسان على الشيء حثّاً من باب قتل حرضته عليه وذهب حثيثاً أي مسرعاً، و **(حدوت)** بالإبل حثثتها على السير بالحداء وزن غراب وهو الغناء لها وحدوته على كذا بعثته عليه، و **(الصّريع)** من الأغصان ما تهدّل وسقط إلى الأرض ومنه قيل للقتيل صريع، وفي بعض النّسخ ضريع بالضاد المعجمة من ضرع ضرعاً وزن شرف ضعف، وأضرعته الحمى أوهنته، و **(المساورة)** المواثبة.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٨١/٧، ونهج السعادة: ٥٠١/١ ح ١١.

الإعراب

قوله: **(وكم عسى المجرى)**، أما لفظة **(كم)** استفهاميّة للتحقير بمعنى أي مدة، **(وعسى)** فعل من أفعال المقاربة مفيد للرجاء والطمع، والمرفوع بعده في مثل عسى زيد أن يخرج اسمه وأن مع الفعل في محلّ النصب على الخبر، أي رجا زيد الخروج وقال الكوفيون: إن مع الفعل في محل رفع بدلاً ممّا قبله بدل الاشتمال كقوله تعالى:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ [الممتحنة: ٨] إلى قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾.

أي لا ينهيكم الله عن أن تبرّوهم، وعلى هذا فمعنى عسى زيد أن يخرج يتوقع ويرجا خروج زيد، والأشهر الأوّل هذا.

وقد يقع أن مع الفعل فاعلاً له مستغناً به عن الخبر لكونه حينئذٍ تامّاً بمعنى قرب تقول عسى أن يخرج زيد أي قرب خروجه.

وقال الرّضي: **(إنّ)** من ذهب إلى أن مع الفعل في عسى زيد أن يخرج خبر عسى، جاز أن يقول في عسى أن يخرج زيد أن **(أن يخرج)** خبر أيضاً وهو من باب التنازع يعني يجوز في المثال جعل زيد اسماً لعسى، وأن مع الفعل خبراً مقدماً له في محلّ النّصب فيضمر في الفعل ضمير عائد إلى زيد، كما يجوز جعل زيد فاعلاً للفعل وجعل عسى مسنداً إلى أن والفعل مستغنى بهما عن الخبر.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن لفظة عسى في قوله عليه السلام كم عسى ناقصة والمجرى اسمها، وأن يجري إليها خبرها، وفي قوله وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه تامّة وقعت بعد ما النافية، وأن يكون في محل الرّفع على الفاعل ويكون تامة أيضاً بمعنى يوجد، والواو في قوله وطالب آه للحال والضمير في قوله عليه السلام: **(يحدوه عائد)** إلى **(من)** الموصولة **(والفاء)** في قوله عليه السلام: **(فلا تنافسوا فصيحة)**، والهمزة في قوله عليه السلام **(أوليس لكم)** استفهام على سبيل الإنكار الإبطالي، ويحتمل جعلها تقريراً بما بعد النفي كما ذهب إليه الزمخشري في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

ومثلها الهمزة في قوله: **(أولستم ترون) (آه)**، وما في قوله عليه السلام: **(ما يمضي الباقي)** مصدرية أو زائدة.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة مسوقة للوصيّة بالتّقوى والأمر برفض الدّنيا والتنفير عنها

بذكر معايبها ومثالبها، وافتتح الكلام بحمد الملك المتعال واستعانة الرّب ذي الجلال لأن ذكره سبحانه مفتاح للمطالب، ووسيلة إلى المآرب فقال:

(نحمده على ما كان ونستعينه من أمرنا على ما يكون) تخصيص الحمد بما كان والاستعانة بما يكون من حيث إن الثناء على النعمة موقوف ومترتب على وقوعها فيما مضى، وطلب العون على أمر لا يتصور إلاّ فيما يأتي وما هو بصدد أن يفعله.

(ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان)، فإن الأديان لها سقم وشفاء كما للأبدان، ومرض الأولى أشدّ وآكد وتأثيره أكثر وأزيد، ولذلك قدم طلب العافية لها، لأن مرض الأبدان عبارة عن انحراف المزاج الحيواني عن حدّ الاعتدال، ونقصانه يقع على الأعضاء والجوارح الظاهرة، ومرض الأديان عبارة عن ميل القلب عن الصراط المستقيم والمنهج القويم، وتأثيره يقع على القلب، وضرره يعود إلى القوة القدسيّة ونعم ما قيل:

وإذا مرضت من الذّنوب فداوها ... بالذكر إنّ الذكر خير دواء

والسّقم في الأبدان ليس بضائر ... والسّقم في الأديان شرّ بلاء

(عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدّنيا التاركة لكم، وإن لم تحبّوا تركها) أمر برفض الدّنيا وتركها ونفّر عنها بالتنبيه على أنها تاركة لكم لا محالة، مفارقة إياكم وإن كانت محبوبة عندكم عزيزاً عليكم فراقها، فإن طبعها التلطف في الاستدراج أوّلاً والتوصّل إلى الإهلاك آخراً، وهي كامرأة تتزين للخطاب حتّى إذا نكحوها ذبحتهم، فمن كان ذا بصيرة لا يعقد قلبه على محبّة محبوبة كذلك، ولا يخاطب امرأة شأنها ذلك.

وقد روى أن الصادق عليه السلام كان يقول لأصحابه: «يا بني آدم اهربوا من الدنيا إلى الله وأخرجوا قلوبكم عنها فإنكم لا تصلحون لها ولا تصلح لكم، ولا تبقون لها ولا تبقى لكم، هي الخدّاعة الفجّاعة المغرور من اغترّ بها، والمفتون من اطمأنّ إليها، الهالك من أحبّها وأرادها»[١].

وروى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدّنيا فرآها في صورة عجوز هتماء[٢] عليها من كلّ زينة فقال عليه السلام لها: كم تزوّجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال فكلّهم مات عنك أم كلّهم طلّقك؟ قالت بل كلّهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، وكيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر.

ثمّ نبّه عليه السلام على عيب لها آخر بقوله: **(والمبلية لأجسادكم وإن كنتم تحبون تجديدها)**

---

(١) الأمالي: ٦٥٠ ح ٨٨٤، وبحار الأنوار: ١٤/٢٨٨ ح ١٣.

(٢) أي الساقطة أسنانها أو المنكسرة ثناياها من أصولها.

وهذا الوصف أيضاً منفّر عنها، لأن تجديد الأجساد والأبدان إذا كان محبوباً للإنسان وكانت الدّنيا حائلة بينه وبين محبوبه مانعة له عن نيله ووصوله بسهام الأسقام ونشاشيب الأمراض والأوصاب، فمن شأنها أن تبغض وترفض وتجتنب ولا تحب.

قال بعض الحكماء: الأيّام سهام والنّاس أغراض والدّهر يرميك كلّ يوم بسهامه، ويخترمك بلياليه وأيّامه، حتى يستغرق جميع أجزائك، فكيف بقاء لسلامتك مع وقوع الأيام بك، وسرعة الليالي في بدنك، لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النّقص لاستوحشت من كلّ يوم يأتي عليك، واستثقلت ممر الساعات بك، ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار.

ثمّ ضرب عليه السلام للدّنيا مثلاً في قصر مدّتها بقوله: **(فإنّما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلاً فكأنّهم قد قطعوه، وأمّوا علماً فكأنهم قد بلغوه)** جعل أهل الدّنيا والكائنين فيها بمنزلة المسافرين، جعلها بمنزلة سبيل يسلكه المسافر، وجعل سرعة سيرهم وانتقالهم فيها وقربهم من الموت الذي هو آخر منازلها بمنزلة قطع المسافر منازله، وبلوغ قاصد علم ومنار مقصده، يعني أنهم في حال كونهم غير قاطعين له كأنّهم قاطعون له، وفي حال كونهم غير بالغين له كأنهم بالغون له، لأنه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الحالة الأخرى شبّهوا وهم في الحال الأولى بهم أنفسهم وهم على الحالة الثّانية ولنعم ما قيل:

يا راقد اللّيل مسروراً بأوّلها ... إنّ الحوادث قد يطرقن أسحاراً
أفنى القرون التي كانت منعمة ... كرّ الجديدين إقبالاً وإدباراً
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ... قد كان في الدهر نفاعاً وضراراً
يا من يعانق دنياً لا بقاء لها ... يمسي ويصبح في دنياه سفاراً
هلاّ تركت من الدنيا معانقة ... حتّى تعانق في الفردوس أبكاراً
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن النّارا

(وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتّى يبلغها) يعني أي مدّة يرجو ويطمع المرسل مركوبه إلى وصول غاية إرساله إليها حتى يصلها، والغرض منه تحقير ما يرجوه من مدّة الجري وهي مدة الحياة أي لا تظنن لها طولاً ولا تغترن بتماديها فإنها عن قليل تنقضي وتنصرم، وفي هذا المعنى قال عليه السلام في الدّيوان:

ألا إنّما الدّنيا كمنزل راكب ... أناخ عشيّاً وهو في الصّبح راحل

(وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه) يعني ما قرب وجود البقاء لمن له يوم لا يجاوزه، وهو تحقير لما يؤمل من مدّة البقاء أي بقاء من له يوم ليس وراءه بقاء وهو يوم الموت ليس بشيء يعتدّ به (و) الحال أنه له **(طالب حثيث يحدوه في الدّنيا حتى يفارقها)** لعلّه أراد بالطالب الحثيث الموت وكنى بحدائه له عن سوق أسباب الموت ومقدّماته التي هي كرّ

اللّيالي ومرّ الأيّام له إليه.

وإذا كانت الدّنيا بهذه المثابة (**فلا تنافسوا**) أي لا تحاسدوا ولا تضنّوا (**في عزّ الدّنيا وفخرها ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرّائها وبؤسها**) نهى عن المنافسة فيها والإعجاب بها والجزع منها معللاً وجوب الانتهاء عن الأوّل بقوله: (**فإن عزّها وفخرها إلى انقطاع**) وما كان منقطعاً لا يحرص عليه لبيب ولا ينافس فيه أريب، وعلل وجوب الانتهاء عن الثاني بقوله: (**وزينتها ونعيمها إلى زوال**) وما كان زائلاً لا يرغب إليه العاقل ولا يعجب به إلا جاهل، وعن الثّالث بقوله: (**وضراءها وبؤسها إلى نفاد**) وما كان نافداً فانياً أحرى بأن يصبر عليه ولا يجزع منه، (**وكلّ مدة فيها إلى انتهاء**) سواء كانت مدّة عز ومتعة أو زينة ونعمة أو ضر وشدّة، (**وكلّ حيّ فيها إلى فناء**) سواء كان ذي شرف ورفعة أو ذلّ ومحنة أو ابتهاج ولذة.

وكلّ شباب أو جديد إلى البلى وكلّ امرء يوماً إلى الله صائر

(**أوليس لكم في آثار الأوّلين**) من الإخوان والأقران والآلاّف والأسلاف (**مزدجر وفي آبائكم الماضين**) الأقربين منهم والأبعدين (**تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون**) بلى في النظر إلى أدنى ما جرى عليهم تبصرة واعتبار، والفكر في أهون ما لاقوه تذكرة وانزجار عد إلى ذكر المنقول إلى الثرى والمدفوع إلى هول ما ترى:

هوى مصرعاً في لحده وتوزعت مواريثه أرحامه والأواصر

وأنحوا على أمواله بخصومة[1] فما حامد منهم عليها وشاكر

فيا عامر الدّنيا ويا ساعياً لها ويا آمناً من أن تدور الدّوائر

كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائر إليها لا محالة (**أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون**) فما لهم يذهبون ولا يعودون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا (**وإلى الخلق الباقين لا يبقون**) بل يمضون إرسالاً ويحتذون مثالاً قال قسّ ابن ساعدة الأيادي:

في الأوّلين الذاهبين من القرون لنا بصائر ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقين غابر أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقال زهير بن أبي سلمى:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

بدى لي أنّ النّاس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدّهر فانياً

---

(١) يخضمونها» في نسخة.

وإني متى أهبط من الأرض تلعة[١] أجد أثراً قبلي جديداً وعافياً
أراني إذا أصبحت أصبحت ذا هوى فثم إذا أمسيت أمسيت عادياً
إلى حفرة[٢] أهوى إليها مضمة يحث إليها سائق من ورائيا
كأني وقد خلفت سبعين حجة[٣] خلعت بها إن منكبي ردائيا
بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً
وما أن أرى نفسي تقيها[٤] عزيمتي وما أن تقي نفسي كرائم ماليا
ألا لا أرى على الحوادث باقياً ولا خالداً إلاّ الجبال الرّواسيا
وإلاّ السّماء والبلاد وربّنا وأيّامنا معدودة والليّاليا
أراني إذا ما شئت لاقيت آية تذكّرني بعض الذي كنت ناسياً
ألم تر أنّ الله أهلك تبعاً وأهلك لقمان بن عاد وعادياً[٥]
وأهلك ذا القرنين من قبل ما يرى وفرعون جبّار معاً والنّجاشيا
ألا لا أرى ذا أمّة أصبحت به فتتركه الأيام وهي كماهيا
ألم تر للنعمان كان بنجوة[٦] من الشرّ لو أنّ امرء كان ناجياً
فغيّر عنه رشد عشرين حجّة من الدّهر يوم واحد كان غادياً
فلم أر مسلوباً له مثل ملكه أقلّ صديقاً صافياً ومواليا
فأين الذي قد كان يعطي جياده[٧] بإرسانهنّ والحسان الحواليا[٨]
وأين الذين كان يعطيهم القرى بغلاتهنّ والمثين الغواليا[٩]
وأين الذين يحضرون جفانه إذا قدّمت القوا عليها المراسيا[١٠]

---

(١) التلعة: اسم ما على من مسيل الوادي وما سفل.
(٢) الحفرة: القبر.
(٣) الحجة: السنة.
(٤) تقيها: تصونها.
(٥) عادياً: هو أبو السمول كان له حصين يقال له الأبلق.
(٦) النجوة بالجيم الارتفاع لغةً.
(٧) والفرس الجواد بين الجودة جمعه جياد.
(٨) والحوالي لعله جمه الحولى وهو ما أتى عليه حول من ذي يحافر وغيره منه.
(٩) الإبل الغالية الأثمان لغة.
(١٠) وقدر راسية لا تبرح مكانها لعظمها.

رأيتهم لم يشركوا[1] بنفوسهم منيّته لمّا رأوا انهاهيا

هذا ولمّا أرشد عليه السّلام إلى الاتّعاظ بأحوال السّلف الماضين وبفناء الغابرين الباقين نبّه على اختلاف حالات أهل الدّنيا ليستدلّ به السامعون على عدم بقائها، ويستفيدوا به عبرة أخرى فقال: (**أولستم ترون أهل الدّنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتى**) وحالات مختلفة (**فـ**) **منهم** (**ميت يبكي**) عليه ويشق الجيوب لديه ويخرج من سعة قصره إلى ضيق قبره، ويحثون بأيديهم عليه التراب ويكثرون عنده التلدد والانتحاب (**وآخر يعزى**) ويسلّى إذا يئس عن برء عليله أو جزم بموت خليله، (**وصريع مبتلي**) بأنواع الأوجاع والأسقام وطوارق الأمراض والآلام (**وعائد يعود**) المريض عند المرض ويتحسّر عليه إذا شاهده على غصص الجرض، (**وآخر بنفسه يجود**) إبلس عنه زواره وعوّاده وأسلمه أهله وأولاده وغضوا بأيديهم عينيه ومدّوا إلى جنبيه يديه ورجليه، وهو في سكرة ملهثة وغمرة كارثة وأنة موجعة وسوقة مكربة وجذبة متعبة.

(**و**) منهم (**طالب للدّنيا**) ساع لها (**والموت يطلبه**) ويحثه حتّى يدخله في حفرته (**و**) منهم (**غافل**) عمّا خلقه الله لأجله (**وليس بمغفول عنه**) بل الله عالم به ومجزيه بأعماله (**وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي**) قال سيّد العابدين عليه السّلام في هذه المعنى:

إذا كان هذا نهج من كان قبلنا فإنّا على آثارهم نتلاحق

فكن عالماً أن سوف تدرك من مضى ولو عصمتك الرّاسيات الشّواهق

ثمّ أمرهم عليه السّلام بذكر الموت ووصفه بلوازمه المنفرة عنه فقال عليه السّلام (**ألا فاذكروا هادم اللّذات**) الدنيوية (**ومنغص الشهوات**) النفسانية (**وقاطع الأمنيات**) والآمال الباطلة (**عند المساورة**) والمواثبة (**للأعمال القبيحة**) لترتدعوا بذكره عنها (**واستعينوا الله**) سبحانه واطلبوا منه التوفيق (**على أداء واجب حقه**) الذي أوجبه عليكم وهو الإتيان بالطّاعات والقيام بوظائف العبادات (**و**) على أداء واجب (**ما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه**) الذي أنعمه عليكم وأحسنه إليكم وهو القيام بوظائف الحمد والثبات بمراسم الثناء.

قال عليه السّلام في بعض كلماته: أيّها النّاس إنّ لله في كلّ نعمة حقاً، فمن أدّاه زاده، ومن قصّر عنه خاطر بزوال النعمة وتعجّل العقوبة، فليراكم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من الذنوب فرقين.

(١) لم يشركوا أي لن يواسوه بنفوسهم.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آنحضرت است که متضمن تنفیر از دنیا و از محبت آن غدّار بیوفا است، چنانچه فرموده:

حمد می کنیم خداوند را بر آنچه بوده است از نعمت ها و استعانت می نماییم از خدا از کارهای خود بر آنچه می باشد و سؤال می کنیم از او بذل عافیت را در بدن ها همچنانکه سؤال می کنیم از او بذل عافیت را در دین ها.

ای بندگان خدا، وصیت می کنم شما را به ترك نمودن این دنیایی که ترك نماینده است شما را و اگرچه دوست ندارید ترك نمودن او را و کهنه کننده است جسدهای شما را و اگرچه دوست دارید تازگی آنها را، پس به درستی که مثل شما و مثل دنیا همچو مسافرانی است که روند به راهی، پس گویا که ایشان قطع نموده باشند آن راه را و قصد نمایند نشانه و علامتی را پس گویا که ایشان رسیده باشند به آن مقصد و چقدر مدت را امید می گیرد شخصی که جاری کننده است مرکب خود را به سوی غایتی جاری نمودن آن را به سوی آن غایت تا برسد به آن و چه چیز امید گرفته می شود باقی ماندن کسی که اورا است یك روزی که تجاوز نمی نماید از آن و حال آنکه او را است طلب کننده شتاباننده که می راند او را در دنیا تا اینکه مفارقت نماید از آن.

پس حسد و بخل نکنید بر یکدیگر در عزّت دنیا و فخر آن و خوشحال و دلشاد نشوید به زینت و نعمت آن و جزع ننمایید از دشواری و سختی آن، از جهت اینکه عزّت و فخر آن منتهی می شود به انقطاع و نعمت و زینت آن منتهی می شود به زوال و فنا و دشواری و سختی آن منجر می شود به نیستی و نابودی و هر مدّتی که در او است می کشد به انتها و هر زنده که در او است باز می گردد به فنا.

آیا نیست مر شمارا در اثرهای پیشینیان و در پدران گذشتگان شما بینایی و عبرت اگر بوده باشید تعقل کننده؟ آیا نگاه نمی کنید به سوی گذشتگان از خودتان که بازنمی گردند و به سوی خلف هایی باقی ماندگان که باقی نمی مانند؟

آیا نیستید شما که می بینید اهل دنیا را که شام و صباح می نمایند بر حالت

های مختلفه؟ پس بعضی مرده است که بر او گریه می کنند و بعضی را سر سلامتی می دهند و بعضی دیگر ضعیف است مبتلا به انواع مرض ها و برخی عیادت کننده است بیمار را که می رود به عیادت و دیگری در حال جان دادن است و یکی طلب کننده است دنیا را و حال آنکه مرگ طلب می کند او را و یکی هست که بی خبر است از آخرت و حال آنکه غفلت نشده از او در هیچ حالت و بر اثر گذشته است گذشتن باقی مانده.

آگاه باشید، پس یاد آورید مرگ را که شکننده لذت ها است و مکدّرنماینده شهوت ها و قطع کننده آرزوها است در هنگام جستن برای اعمال قبیحه و حرکات ناشایست و طلب یاری نمایید از خدا بر ادا کردن حق واجب او را و ادا کردن آن چیزی که شمرده نمی شود از شمارهای نعمت ها و احسان بی پایان آن؛ والله اعلم بالصّواب.

ومن أخرى وهي التاسعة والتسعون
من المختار في باب الخطب

خطب بها في الجمعة الثالثة من خلافته كما في شرح المعتزلي:

«أَلْحَمْدُ اللهِ النَّاشِرِ في الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْباسِطِ فيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ، نَحْمَدُهُ في جَميعِ أُمورِهِ، ونَسْتَعينُهُ عَلى رِعايَةِ حُقُوقِهِ، ونَشْهَدُ أَنْ لا إله غَيرُهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صادِعاً، وبِذِكرِهِ ناطِقاً، فَأَدّى أَميناً، ومَضى رَشيداً، وَخَلَّفَ فينا رايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَها مَرَقَ، ومَنْ تَخَلَّفَ عَنْها زَهَقَ، ومَنْ لَزِمَها لَحِقَ، دَليلُها مَكيثُ الْكَلامِ، بَطيءُ الْقِيامِ، سَريعٌ إِذا قامَ، فَإِذا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقابَكُمْ، وأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصابِعِكُمْ، جاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ ما شاءَ اللهُ حَتّى يَطْلَعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ ويَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلا تَطْمَعُوا في غَيرِ مُقْبِلٍ، وَلا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسى أَنْ تَزِلَّ إِحْدى قائِمَتَيهِ وتَثْبُتَ الأُخْرى فَتَرْجِعا حَتّى تَثْبُتا جَميعاً، أَلا إِنَّ مَثَلَ آلِ مَحمَّدٍ ﷺ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّماءِ، إِذا خَوى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكامَلَتْ مِنَ اللهِ فيكُمُ الصَّنائِعُ، وأَراكُمْ ما كُنْتُمْ تَأْمَلُونَ»[1].

اللغة

(**الرّشد**) إصابة الصّواب وقيل الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه، وبهما فسّر قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]، (**ومرق**) السهم من الرّمية خرج عن المرمى، و (**زهق**) الشيء: من باب منع بطل وهلك، و (**المكيث**) البطيء و (**خوى**) النجم مال للمغيب، و (**الصنائع**) جمع الصنيعة وهي الإحسان.

الإعراب

(**فضله ويده**) منصوبان على المفعولية، (**وغيره**) منصوب على الوصف، (**وصادعاً وناطقاً**) حالان من مفعول أرسله ويحتمل كون الأول حالاً من أمره والثّاني من ذكره على نحو قوله:

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

(**وأميناً ورشيداً**) منصوبان على الحال أيضاً، وجملة (**من تقدمها**) في محل النّصب صفة للراية، ودليلها بالرفع مبتدأ (**ومكيث الكلام**) خبره.

(١) ميزان الحكمة: ١/١٣١، وعصر الظهور: ٣٤١.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة من جملة الأخبار الغيبية لأمير المؤمنين عليه السلام أخبر فيها بما يكون بعده عليه السلام من أمر الأئمة عليهم السلام، وأعلم النّاس بموته عليه السلام بعد اشتهار أمره واجتماع الخلق له، وافتتح بالحمد والثناء والشهادة بالتّوحيد والرّسالة، وذكر وصف الرسول صلى الله عليه وآله أوّلاً فقال عليه السلام:

(الحمد لله الناشر) أي المفرّق **(في الخلق فضله)** وإحسانه **(والباسط فيهم بالجود يده)** أي: نعمته من باب إطلاق اسم السبب على المسبب أو بسط اليد كناية عن العطاء **(نحمده)** سبحانه **(في جميع أموره)** الصادرة عنه سواء كان من قبيل العطاء والنعمة أو البلاء والشّدة، فإن كلّ ما صدر عنه سبحانه نعمة كان أو غيرها جميل اختياريّ يستحق به حمداً وثناء، ولازم حق العبوديّة ومقتضى كمال المعرفة القيام بوظائف الحمد في كلّ باب، والرّضاء بالقضاء على جميع الأحوال.

ولا حاجة إلى ما تمحله الشّارح البحراني «ره» وتكلّفه من أنّ الحمد بالشّدائد الّلاحقة باعتبار كونها من نعمه أيضاً فإنها إذا قوبلت بصبر جميل استلزمت ثواباً جزيلاً كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وظاهر أنّ أسباب النّعم نعم.

(ونستعينه على رعاية حقوقه) الواجبة والإتيان بها سواء كانت حقوقاً مالية كالخمس والزّكاة والحجّ ونحوها، أو غير مالية كسائر ما أوجبه على عباده **(ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمّداً)** صلى الله عليه وآله **(عبده ورسوله)** ذكر الشهادتين في هذه الخطبة كأكثر الخطب لما روى من أن كلّ خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء.

(أرسله) سبحانه **(بأمره صادعاً)** أي مظهراً مجاهراً امتثالاً لقوله سبحانه:

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

(وبذكره ناطقاً) اطاعة لما أمره بقوله:

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

(فادى) ما حمّله، **(أميناً)** مؤتمناً، **(ومضى)** إلى الحق، **(رشيداً)** صائباً، **(وخلّف فينا راية الحق)** المراد بها إما الثقلان المخلّفان أعني كتاب الله والعترة، أو الثقل الأكبر فقط، والاستعارة عنهما بالراية باعتبار أنهما يهتدي بهما السّالكون في سبيل الله كما أن الرّاية سبب الهداية في منازل الدّنيا، **(من تقدّمها)** ولم يعتدّ بها، **(مرق)** من الدّين مروق السهم من الرّمية، **(ومن تخلّف عنها)** ولم يتابعها، **(زهق)** وهلك في الوادي الضّلالة **(ومن لزمها)** ولم يفارق عنها **(لحق)** بالحق وأصاب الصّواب في كلّ باب.

قال الشارح البحراني: أشار براية الحق إلى كتاب الله وسنته، وأشار بتقدّمها والتخلف عنها إلى طرفي الإفراط والتفريط من فضيلة الاستقامة عليها أي أنّ من كان تحتها لاحقاً بها فهو على حاقّ الوسط من الفضائل، ومن تقدّمها كان على طرف الإفراط، وقد تعدّى في طلب الدّين وأغلى فيه على جهل منه كما فعلت الخوارج ومن تخلّف عنها كان على طرف التفريط والتقصير فهلك في طرق الضّلال والحيرة.

(دليلها) أي دليل تلك الراية، وأراد به حاملها، أو الدّليل الذي يكون أمام الراية ويتبعه حاملها فإن المسافرين والقوافل ربما يكون معهم راية ودليل، يتقدمهم الدليل ويتبعه حامل الراية ويكون سيرها معه ويتبعهما المسافرون ويسيرون بهما، والاحتمال الثاني أظهر، وعلى كلّ تقدير فاستعار به عن نفسه الشريف سلام الله عليه وآله، ووجه الاستعارة على الاحتمال الأوّل واضح، لأنه عليه السلام حامل الكتاب والعالم بما فيه، وأمّا على الثاني فلعلّه باعتبار أن الكتاب لا يفارقه وهو لا يفارق الكتاب، كما يدلّ عليه أخبار الثقلين وأنّه عليه السلام أمام الكتاب، لكونه مفسّراً له مظهراً عمّا فيه.

وقوله: **(مكيث الكلام)** أي بطيئه يعني أنّه عليه السلام ذو تدبّر وتثبت في أقواله، فإن قلّة الكلام من صفات المدح، وكثرته من صفات الذم، ومن هنا قيل: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكّر فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل من وراء لسانه فإن همّ بالكلام تكلّم به من غير تروٍ سواء كان له أم عليه، ويأتي عنه عليه السلام نظيره في أواخر الكتاب.

وقوله: **(بطيء القيام)** إشارة إلى تأنيّه في الأمور فإن التؤدة من صفات العقل والتسرع من صفات الجهل.

روى في «**الوسائل**» عن الصّدوق بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمحمّد بن الحنيفة قال عليه السلام: «من استقبل وجوه الآراءِ عرف مواقع الخطأ، ومن تورّط في الأمور غير ناظر في العواقب فقد تعرّض لمفظعات النّوائب، والتدبير قبل العمل يؤمّنك من الندم، والعاقل وعظه التجارب، وفي التجارب علم مستأنف، وفي تقلّب الأحوال علم تجارب الرّجال»(١).

وفيه من مجالس الشيخ بإسناده عن أبي قتادة القمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام «ليس لحاقن رأي، ولا لملول صديق، ولا لحسود غني، وليس بحازم من لا ينظر في العواقب والنظر في العواقب تلقيح للقلوب»(٢).

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣٨٨/٤، ووسائل الشيعة: ٢٨١/١٥ ح ٢٠٥١٧.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٨٢/١٥ ح ٢٥٠٢١، وبحار الأنوار: ١٩٧/٧٥ ح ١٩.

ومن محاسن البرقي مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: علّمني يا رسول الله صلى الله عليه وآله: عليك باليأس ممّا في أيدي النّاس فإنّه الغنى الحاضر، قال: زدني يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: إيّاك والطمع فإنّه الفقر الحاضر، قال: زدني يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته فإن يك خيراً ورشداً فاتبعه، وإن يك غياً فاجتنبه»(١).

والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وفيه قال الشاعر:

وكلّ أناة في المواطن سؤدد ... ولا كأناة من قدير محكم
وما الرّأي إلاّ بعد طول تثبت ... ولا الحزم إلاّ بعد طول تلوّم

وقوله عليه السلام: **(سريع إذا قام)** يعني أنه إذا ظهر له بعد التثبت والتروّي وجه المصلحة في القيام بأمر بادر إليه، وقام به سريعاً وانتهض الفرصة.

ثمّ أخذ عليه السلام يذكّرهم بموته بقوله: **(فإذا أنتم النتم له رقابكم)** وهو كناية عن طاعتهم له وانقيادهم لأمره **(وأشرتم إليه بأصابعكم)** وهو كناية عن الإجلال، **(جاءه الموت فذهب به)**.

قال الشّارح المعتزلي: نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشدّ اجتماعاً عليه من الشهر الذي قتل فيه، وجاء في الأخبار أنّه عليه السلام عقد للحسن عليه السلام ابنه على عشرة آلاف، ولأبي أيّوب الأنصاري على عشرة آلاف، ولفلان وفلان حتّى اجتمع له مائة ألف سيف، وأخرج مقدمته أمامه يريد الشّام فضربه اللعين ابن ملجم وكان من أمره ما كان وانقضت تلك الجموع وكانت كالغنم فقد راعيها **(فلبثتم بعده ما شاء الله)** عدم التعيين لمدة اللبث إشارة إلى طولها **(حتى يطلع الله)** ويظهر **(لكم من يجمعكم ويضمّ نشركم)** أي تفرّقكم، وأشار عليه السلام به إلى الأمام المنتظر أعني المهدي صاحب الزّمان عليه السلام، وقيل: أشار به إلى قائم بني العباس بعد انقضاء دولة بني أمية والأوّل أظهر.

(فلا تطمعوا في غير مقبل) قال المجلسي (ره): أي من لم يقبل على طلب هذا الأمر ممّن هو أهله فلا تطمعوا فيه، فإن ذلك لاختلال بعض شرائط الطلب كما كان شأن أكثر أئمتنا عليهم السلام، وقيل: أراد بغير المقبل من انحرف عن الدّين بارتكاب منكر، فإنه لا يجوز الطمع في أن يكون أميراً لكم، وفي بعض النسخ فلا تطعنوا في عين مقبل أي من أقبل على هذا الأمر من أهل البيت فلا تدفعوه عما يريد.

(ولا تيأسوا من مدبر) قال المجلسي (ره): أي من أدبر عن طلب الخلافة ممّن هو أهل

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٢٨٢ ح ٢٠٥٢٢، والكافي: ٨/ ١٥٠ ح ١٣٠.

لها فلا تيأسوا من عوده وإقباله على الطّلب، فإن إدباره يكون فقد بعض الشّروط كقلّة الناصر **(فإنّ المدبر عسى أن تزلّ إحدى قائمتيه)** وهو كناية عن اختلال بعض الشروط **(وتثبت الأخرى)** وهو كناية عن وجود بعضها **(فترجعا حتّى تثبتا جميعاً)** وهو كناية عن استكمال الشرائط، ولا ينافي النهي عن الإياس النّهي عن الطّمع، لأن عدم الياس هو التجويز، والطّمع فوق التجويز، أو لأنّ النهي عن الطمع في حال عدم الشروط والإعراض عن الطّلب لذلك أيضاً، والنّهي عن الإياس لجواز حصول الشرائط هذا.

وقوله عليه السلام: **(ألا إنّ مثل آل محمّد كمثل نجوم السّماء)** أراد به الأئمة الاثنى عشر سلام الله عليهم أجمعين، وتشبيههم بالنجوم إمّا من حيث أنهم يهتدى بهم في سبيل الله كما يهتدي بالنّجم في ظلمات البرّ والبحر قال سبحانه:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

ويدلّ عليه ما في تفسير عليّ بن إبراهيم في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

قال: النّجوم آل محمّد[1]، وقد مرّ توضيح ذلك بما لا مزيد عليه في شرح الخطبة الرّابعة، وإمّا من حيث أنهم كلّما مضى منهم إمام قام مقامه آخر كالنجوم **(إذا خوى نجم)** أي مال للمغيب **(طلع نجم)** آخر.

ثمّ بشّرهم بقوله: **(فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع)** أي النّعم والآلاء **(وأراكم)** الله **(ما كنتم تأملون)** أي لا تيأسوا عسى الله أن يأتي بالفرج عن قريب، والمتحقق الوقوع قريب وإن كان بعيداً، ويمكن أن يكون إراءة المخاطبين مأمولهم في الرّجعة، والله العالم.

(١) بحار الأنوار: ٢٤/٧٦ ح ١٥، ومستدرك سفينة البحار: ٩/٥٤٧.

الترجمة

از جمله خطب شريفه ديگر آن امام انام است كه فرموده: حمد و سپاس خداوند را سزا است كه پراكنده كننده است در ميان خلق فضل و اكرام خود را و گستراننده در ميان ايشان به جود و بخشش احسان و انعام خود را. حمد مى كنيم او را در همه كارهاى او و طلب يارى مى كنيم از او بر رعايت حقّ هاى او و شهادت مى دهيم آنكه نيست هيچ معبودى به حق غير از او و آنكه محمّد بن عبدالله صلوات الله عليه و آله بنده و رسول او است، فرستاده او را، در حالتى كه اظهاركننده بود امر او را و گوينده بود ذكر او را و يا اينكه فرستاده او را به امر خود، در حالتى كه شكافنده بود آن امر بيضه شرك را و به ذكر خود، در حالتى كه گوينده بود آن ذكر حقّ را.

پس ادا نمود حضرت خاتم نبوّت اوامر و احكام حق را، در حالتى كه امين بود در تبليغ رسالت و گذشت به سوى حقّ، در حالتى كه راستكار يا مستقيم بود بر طريق هدايت و واپس گذاشت در ميان ما علم حق را كه عبارت باشد از كتاب الله و عترت، چنان علمى كه هركس به پيش افتاد از او، خارج شد از دين و ملّت و هركس تخلّف نمود از آن، هلاك شد در بيابان هاى ضلالت و هركه ملازم شد آن را، لاحق گرديد به ارباب كمال و سعادت.

دليل و حامل آن علم، صاحب تأنّى است در تكلّم نمودن و صاحب بطوء است در ايستادن، يعنى كلام و قيام او با فكر و تدبير و با ملاحظه مآل كار و عاقبت انديشى است و صاحب سرعت است آنوقتى كه ايستاد به امرى از امور اسلام.

و اينها همه اشاره است به نفس شريف خود آن امام (عليه السلام) چنانچه مى فرمايد:

پس زمانى كه شما نرم نموديد براى او گردن هاى خود را به اطاعت و تسليم و اشاره نموديد به سوى آن به انگشتان خود از روى اجلال و تعظيم، بيايد به سوى او مرگ، پس ببرد او را، پس درنگ نماييد بعد از او به مقدارى كه خواهد خدا تا

اینکه ظاهر سازد خداوند از برای شما کسی را که جمع کند شما را و به هم آورد پراکندگی شما را، پس طمع نکنید در کسی که اقبال ننماید به خلافت و مأیوس و ناامید نشوید از کسی که ادبار نماید به خلافت از جهت اینکه این ادبارکننده شاید که بلغزد یکی از دوقائمه او و این کنایه است از انتفاء بعض شرایط و ثابت شود قائمه دیگر او و این کنایه است از وجود بعض شرایط، پس رجوع نمایند هر دو قائمه تا اینکه ثابت شوند هردوتا و این کنایه است از استکمال شروط.

آگاه باشید، به درستی که مثل اهلبیت پیغمبر صلوات الله علیه و آله، مثل ستاره های آسمان است، هرگاه میل کند به غروب ستاره ای، طلوع نماید ستاره دیگر، پس گویا شما به تحقیق کامل شده از جانب خدا در حق شما نعمت ها و احسان ها و نموده به شما چیزی را که بودید آرزو می کردید آن را و این بشارت است مر ایشان را به قرب فرج و کرامت.

ومن أخرى وهي المائة
من المختار في باب الخطب

ومن الخطب التي تشتمل على ذكر الملاحم.

«الأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالآخِرُ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، بِأَوَّلِيَّته وَجَبَ أَنْ لا أَوَّلَ لَهُ، وبِآخِرِيَّته وَجَبَ أَنْ لا آخِرَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِله إِلاَّ اللهُ شَهادَةً يُوافِقُ فيهَا السِّرُّ الإِعْلانَ، وَالقَلْبُ اللِّسانَ، أَيُّهَا النّاسُ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقي، وَلا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْياني، وَلا تَترامَوْا بِالأَبْصارِ عِنْدَما تَسْمَعُونَهُ مِنّي، فَوَالَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذي أُنَبِّئُكُمْ بِه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ما كَذَبَ الْمُبَلِّغُ، وَلا جَهِلَ السّامِعُ، لَكَأَنّي أَنْظُرُ إِلى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشّام، وفَحَصَ بِراياته في ضَواحي كُوفانَ، فَإِذا فَغَرَت فاغِرَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكيمَتُهُ، وثَقُلَتْ في الأَرْضِ وَطْأَتُهُ، عَضَّتِ الفِتْنَةُ أَبْناءَها بِأَنْيابِها، وماجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْواجِها، وبَدا مِنَ الأَيّامِ كُلُوحُها، ومِنَ اللَّيالي كُدُوحُها، فَإِذا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وقامَ عَلى يَنْعِه، وهَدَرَتْ شَقاشِقُهُ، وبَرَقَتْ بَوارِقُهُ، عُقِدَتْ راياتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ، وأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِم، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِم، هذا وَكَمْ يَخْرُقِ الْكُوفَةَ مِنْ قاصِفٍ، ويَمُرُّ عَلَيْها مِنْ عاصِفٍ، وعَنْ قَليلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، ويُحْصَدُ القائِمُ، ويُحْطَمُ الْمَحْصُودُ»[1].

اللغة

(الملحمة) الوقعة العظيمة القتل مأخوذة من التحم القتال، أي اشتبك واختلط اشتباك لحمة الثوب بالسّدى و **(النسمة)** محرّكة الرّيح كالنّسيم، ثمّ سمّيت بها النفس والجمع نسم مثل قصبة وقصب و **(ضلّيل)** وزن سكّيت الكثير الضّلال، و **(نعق)** الراعي لغنمه من باب ضرب صاح بها وزجرها، و **(فحص)** القطا التراب اتخذ فيه مفحصاً بفتح الميم والحاء وهو يجثمه والموضع الذي تبيض فيه، و **(ضاحية)** البلد ناحيته القريبة منه.

و **(الكوفان)** الكوفة قال الفيومي: وهي مدينة مشهورة بالعراق قيل: سمّيت كوفة لاستدارة بنائها، لأنّه يقال تكوّف القوم إذا اجتمعوا واستداروا، وفي **«القاموس»** الكوفة بالضّم الرّملة الحمراء المستديرة أو كل رملة يخالطها حصباء ومدينة العراق الكبرى، وقبّة الإسلام ودار هجرة المسلمين، مصّرها سعد بن أبي وقاص، وكان منزل نوح عليه السلام وبنى مسجدها، سمّيت بها لاستدارتها واجتماع النّاس بها، ويقال لها: كوفان ويفتح، وكوفة الجند لأنه

(١) بحار الأنوار: ٤١/٣٥٦ ح ٦٤، وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٩٨.

اختطّت فيها خطط العرب أيّام عثمان خطّطها السّائب بن الأقرع الثقفي، أو سميت بكوفان وهو جبل صغير فسهلوه واختطوا عليه، أو من الكيف القطع لأنّ أبرويزا قطعه لبهرام، أو لأنّها قطعة من البلاد والأصل كيفة، فلمّا سكنت الياء وانضمّ ما قبلها جعلت واواً، أو من قولهم هم في كوفان بالضمّ، ويفتح وكوّفان محركة مشدّدة الواو أي في عزّ ومنعة، أو لأنّ جبل ساتيدما محيط بها، أو لأن سعداً لما ارتاد هذه المنزلة للمسلمين قال لهم: تكوّفوا، أو لأنّه قال كوّفوا هذه الرّملة أي نحّوها.

و **(فغر)** الفم فغراً من باب نصر ونفع انفتح، وفغرته فتحته يتعدّى ولا يتعدّي و **(الفاغرة)** أصول النّيلوفر ويستعار للفم باعتبار انفتاحها يقال: وفغرت فاغرته أي انفتح فوه و **(الشكيمة)** في اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس والجمع شكائم، يقال: فلان شديد الشكيمة أنف أبي لا ينقاد، لأن شدة الشكيمة وقوتها تدل على قوة الفرس و **(الوطأ)** الدوس بالقدم والوطأة الأخذة الشديدة والضغطة و **(كلح)** يكلح من باب منع، كلوحاً وكلاحاً يضمهما تكشر في عبوس و **(الكدوح)** بالضمّ جمع كدح وهو الخدش وأثر الجراحة.

و **(أينع)** الزّرع وزن أكرم، وكذلك ينع من باب منع وضرب ينعاً إذا نضج وحان قطافه وقام على ينعه أي على نضجه فيكون مصدراً: ويحتمل أن يكون جمع يانع مثل صحب وصاحب واليانع الثمر الناضج و **(هدر)** البعير هدراً من باب ضرب صوّت و **(الشقاشق)** جمع الشقشقة بالكسر وهو شيء يشبه الرّية يخرج من فم البعير عند الهياج، ويقال للخطيب ذو شقشقة تشبيهاً له بالفحل، ومنه الخطبة الشقشقية وقد مرّ.

و **(المعضلة)** كالمشكلة لفظاً ومعنى يقال: أعضل الأمر أي أشكل وأعضلني الأمر أي أعياني يتعدى ولا يتعدي، وداء عضال لا يهتدي بعلاجه و **(المظلم)** كمحسن الكثير الظلام و **(التطم)** البحر ضرب أمواجه بعضها بعضاً فهو يلتطم، و **(حصد)** الزرع قطعه بالمنجل و **(الحطم)** الكسر.

الإعراب

(الأوّل) خبر لمبتدأ محذوف، والضمير في ما تسمعونه راجع إلى الكلام المستفاد بالسّياق على حدّ قوله تعالى: ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] أي الشمس، أو يجعل ما موصولة والضمير راجعاً إليها، وعن النّبي متعلّق بمقدّر خبر أنّ أي صادر عن النبيّ أو مأخوذ عنه ونحو ذلك. وجملة ما كذب المبلّغ استئناف بياني، واللام في قوله لكانّي جواب قسم محذوف، وكانّ للتقريب، وفاغرته بالضمّ فاعل فغرت، وعلى في قوله على ينعه للاستعلاء المجازي، **(وكم)** في قوله كم يخرق خبرية بمعنى كثير على حدّ قوله سبحانه:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: ٤].

ومن قاصف تميز لكم، و(عن) في قوله (**وعن قليل**) بمعنى (**بعد**) على حدّ قوله:
﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة من الخطب التي تشتمل على ذكر الملاحم والوقائع العظيمة التي اتفقت بعده عليه السلام أخبر فيها عمّا يكون قبل كونه، وافتتحها بأوصاف العظمة والكمال لله المتعال فقال: (**الأوّل قبل كلّ أوّل والآخر بعد كلّ آخر**) قد مضى تحقيق الكلام مستقصى في أوّليته وآخريّته سبحانه، وأنّه لا شيء قبله وبعده في شرح الخطبة الرابعة والسّتين والرابعة والثمانين والخطبة التسعين.

وأقول هنا إن قوله الأوّل قبل كلّ أوّل، أخبار عن قدمه، وقوله والآخر بعد كل آخر، أخبار عن استحالة عدمه، يعني أنه تعالى قديم أزلي ودائم أبدي وهو أوّل الأوائل وآخر الأواخر، فلو فرض وجود شيء قبله لزم بطلان قدمه، ولو فرض وجود شيء بعده لزم جواز عدمه، وكلاهما محال لتنافيهما لوجوب الوجود.

ولا بأس بتحقيق الكلام في قدمه تعالى فنقول: إن القديم على ما حققه بعض المتألّهين له معنيان بل معان ثلاثة:

أحدها: القديم الزّماني، وهو أن لا يكون للزّمان ووجوده ابتداء والله سبحانه لا يتّصف بالقدم بهذا المعنى، لأنه تعالى بريء عن مقارنة الزّمان والتغيّر والتقدّر بالمقدار، سواء كان مقداراً قارّاً كالجسم والخطّ، أو غير قار كالزّمان.

والثاني: القديم الذاتي، وهو أن لا يكون ذاته من حيث ذاته مفتقراً إلى غيره حتّى يكون متأخرّاً عنه بالذّات، ولا أن يكون معه شيء آخر معيّة بالذات حتّى يتأخرا جميعاً عن شيء ثالث تأخّراً بالذّات، فإنّ المعية الذاتية بين شيئين هو أن لا يمكن انفكاك أحدهما نظراً إلى ذاته عن صاحبه، وهذا المعنى يستلزم أن يكون كلاهما معلولي علّة واحدة، فإن الذّاتين إذا لم يكن بينهما علاقة ذاتية افتقاريه بأن يكون إحديهما سبباً للأخرى، أو يكونا جميعاً مسبّبين عن ثالث موجب لهما، فيجوز عند العقل انفكاك كلّ منهما عن صاحبه، فكانت مصاحبتهما لا بالذّات بل بالاتفاق في زمان أو نحوه.

فالحق تعالى إذ هو مبدأ كلّ شيء كان الزّمان مخلوقاً له متأخّراً عنه، فلم يكن قديماً بالزّمان، فهو قديم بالذّات لأن ذاته غير متعلّق بشيء فلا شيء قبله قبليّة بالذات، ولا معه معيّة بالذات لما علمت، وإذ كلّ ما سواه مفتقر الذات إليه فيكون متأخّراً عنه فيكون حادثاً.

فظهر بذلك عدم جواز كون شيء قبله أو معه، لأنّه لو كان معه شيء لم يكن الله سبباً

موجداً له، بل يلزم أن يكون ثالث موجداً لهما، ولو كان قبله شيء لكان ذلك القبل خالقاً والخالق مخلوقاً له.

وتحقق من ذلك بطلان قول من قال: إن العالم قديم، لأنّه إن أراد به أنه قديم بالذات فهو يناقض كونه عالماً مفتقراً إلى غيره، وإن أراد أنّ ذاته مع ذات الباري فحيث ذات الباري لم يكن له وجود في تلك المرتبة أصلاً، وإن قال إنّه قديم بالزّمان فالزّمان ليس إلا كمية الحركة وعددها والحركة ليست حقيقتها إلاّ الحدوث والتجدد، فكذلك كل ما فيها أو معها بذلك أن لا قديم بالذّات إلا الأوّل تعالى.

وإذا أطلق على غيره كان بمعنى ثالث نسبي غير حقيقي وهو أن يكون ما مضى من وجود شيء أكثر مما مضى من وجود شيء آخر وهو القديم العرفي هذا.

ولما عرفت أن معنى أوليّته سبحانه كونه قديماً بالذات ومبدأً للموجودات ومعنى آخريّته كونه أبدياً وغاية الغايات تعرف بذلك أنه سبحانه (**بأوليته وجب أن لا أوّل له وبآخريّته وجب أن لا آخر له**) يعني أنّه سبحانه لما كان بذاته أولاً آخراً لا يمكن أن يكون لذاته أوّل وبداية، ولا له آخر ونهاية، كما لا يمكن أن يكون له أوّل سبقه، ولا له آخر بعده.

ويوضح ذلك رواية ميمون البان التي تقدّمت في شرح الخطبة الرابعة والثمانين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وقد سئل عن الأول والآخر، فقال: «الأوّل لا عن أوّل قبله ولا عن بدىء سبقه، وآخر لا عن نهاية كما يعقل عن صفة المخلوقين، ولكن قديم أوّل آخر لم يزل ولا يزول بلا بدىء ولا نهاية، لا يقع عليه الحدوث ولا يحول من حال إلى حال، خالق كلّ شيء»[1].

قال بعض شراح الحديث: البديء فعيل بمعنى المصدر أي البداية لوقوعه في مقابل النهاية، وعن الثانية بمعنى إلى، والمراد أن أوّليته تعالى لا عن ابتداء وآخريّته لا إلى نهاية، فهو الأوّل لم يزل بلا أوّل سبقه ولا بداية له، وهو الآخر لا يزول بلا آخر بعده ولا نهاية له.

وقوله عليه السلام: (**ولكن قديم**) أوّل آخر بترك الواو العاطفة إشارة إلى أن أوليّته عين آخريته ليدلّ على أن كونه قديماً ليس بمعنى القديم الزماني، أي الامتداد الكمي بلا نهاية إذ وجوده ليس بزماني سواء كان الزّمان متناهياً أو غير متناه، وإلاّ لزم التغير والتجدد في ذاته بل وجوده فوق الزمان، والدّهر نسبته إلى الأزل كنسبته إلى الأبد، فهو بما هو أزلي أبديّ، وبما هو أبديّ أزليّ، وأنّه وإن كان مع الأزل والأبد، لكنه ليس في الأزل ولا في الأبد حتّى يتغيّر ذاته، وإليه الإشارة بقوله: لا يقع عليه الحدوث إذ كلّ زمان وزماني، وإن لم يكن ذا بداية فهو حادث إذ

(١) مستدرك سفينة البحار: ٨/ ٤٤٥.

كلّ من وجوده مسبوق بعدم سابق فهو حادث.

وقوله عليه السلام **(لا يحول من حال إلى حال)**، إمّا تفسير للحدوث، وإمّا إشارة إلى أن لا تغيّر أصلاً في صفاته كما لا تغير في ذاته، فليست ذاته ولا صفاته الحقيقية واقعة في الزمان والتّغير.

وقوله عليه السلام **(خالق كلّ شيء)**، كالبرهان لما ذكر، فإنه تعالى لما كان خالق كلّ شيء سواء كان خالقاً للزمان والدّهر، فيكون وجوده قبل الزّمان قبلية بالذات لا بالزمان، وإلاّ لزم تقدّم الزّمان على نفسه وهو محال، فإذا حيث هو تعالى لا زمان ولا حركة ولا تغيّر أصلاً فهو تعالى أوّل بما هو آخر وآخر بما هو أوّل، نسبته إلى الأزل والأباد نسبة واحدة ومعيّة قيومية غير زمانية.

(وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة يوافق فيها السرّ الإعلان والقلب اللّسان) أي شهادة صادرة عن صميم القلب خالصة عن شؤب النفاق والجحود هذا.

ولمّا كان قصده عليه السلام إخبارهم عمّا يكبر في صدورهم ويضعف عنه قلوبهم، ويكاد أن ينسبوه إلى الكذب فيه لا جرم أيّهم أوّلاً وحذّرهم عن التكذيب بقوله: **(أيّها الناس لا يجرمنكم شقاقي)** أي لا يحملنّكم معاداتي وخلافي على أن تكذّبوني، **(ولا يستهيونكم عصياني)** أي لا يذهبنّ معصيتي بهواكم وعقلكم، وقيل: أي لا تستهيمنكم ويجعلكم هائمين وهو قريب ممّا قلناه، **(ولا تتراموا بالأبصار عند ما تسمعونه منّي)** أي لا ينظر بعضكم بعضاً فعل المنكر المكذّب عند سماع الأخبار الغيبية منّي **(فوالذي فلق الحبّة)** أي خلقها أو شقّها بإخراج النبات منها **(وبرأ النسمة)** أي خلق النّفس الإنساني وأوجدها **(إنّ الذي انبئكم به)** ما أقوله من تلقاء نفسي فتسرعوا وتبادروا إلى تكذيبي، وإنما هو متلقى ومأخوذ **(عن النّبي)** الصّادق الأمين (صلى الله عليه وآله) أجمعين **(ما كذب المبلّغ ولا جهل السّامع)** أراد بالمبلّغ رسول الله صلى الله عليه وآله في تبليغه عن الله سبحانه وبالسّامع نفسه الشّريف، فيكون فيه إشعار بأن ما يخبرهم به مأخوذ من الله سبحانه.

قال الشّارح المعتزلي: «والمبلغ والسّامع هو نفسه عليه السلام، يقول: ما كذبت على الرّسول تعمداً ولا جهلت ما قاله فانقل عنه غلطاً»[١]، والأول أظهر هذا.

ولمّا وطن نفوس السّامعين لقبول ما يقوله ونحّاهم من الاستيحاش شرع في مقصده وما هو بصدده من الأخبار عمّا سيكون فقال **(لكأنّي)** أي تالله لكانّي **(انظر إلى ضلّيل)** أي إلى رجل كثير الضلال واختلف في هذا الرّجل فقيل: إنّه السّفياني الموعود، وقيل: إنّه معاوية، وقيل: بل يمكن أن يريد به شخصاً آخر يظهر بعد بالشام، والأشبه كما في شرح المعتزلي أنه

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ الخطبة رقم (١٠٠) ـ الجزء السابع.

أراد به عبد الملك بن مروان.

واستبعد الشّارح كون المراد به معاوية بأنّ ظاهر الكلام يدل على إنسان ينعق فيما بعد ومعاويه كان في أيّام أمير المؤمنين عليه السلام نعق بالشام ودعاهم إلى نفسه، واستقرب عبد الملك بأنّ هذه الصّفات والإمارات كان فيه أتمّ منها في غيره فإنه **(قد نعق بالشام)** أي صاح فيه حين دعا أهله إلى نفسه، أو صاح بهم وزجرهم حين الشّخوص إلى العراق، **(وفحص براياته في ضواحي كوفان)** أي: أخذ نواحي كوفة مفحصاً لراياته كما تأخذ القطاة في الأرض مفحصاً لها، وذلك حين شخص عبد الملك بنفسه إلى العراق وقتل مصعباً واستخلف الأمراء من بشر بن مروان أخيه وغيره عليه حتى انتهى الأمر إلى الحجاج.

(فإذا فغرت فاغرته) أي انفتح فوه وهو استعارة لافتحامه للناس وافتراسه لهم بالفتك والقتل كما يفتح الأسد فاه عند افتراس فريسته.

وما في شرح المعتزلي وغيره من أن تأنيث الفاغرة للفتنة لا يفهم معناه، بل الظّاهر أن التأنيث بملاحظة أصل المعنى المستعار منه على ما قدمناه.

(واشتدّت شكيمته) وهو كناية عن شدّة بأسه وقوته، لأن الفرس القوي شديد الرأس يحتاج إلى قوة الشكيمة **(وثقلت في الأرض وطأته)** وهو كناية عن شدّة جوره وظلمه قال الشارح المعتزلي: وذلك حين ولي الحجاج على العراق فصعب الأمر جداً وعند ذلك **(عضت الفتنة أبناءها بأنيابها)** شبّه الفتنة بحيوان صائل، وأثبت لها النّاب على سبيل التخييل ورشح الاستعارة بذكر العض وأراد بأبناء الفتنة أهلها، والمراد أنه إذا قويت سلطنة ذلك الضلّيل كثرت الفتن ويقع أهلها في الشدّة والألم.

قال الشارح: وهو إشارة إلى تفاقم الفتن بين عبد الملك وبين الخوارج وعبد الرّحمن بن الأشعث **(وماجت الحرب بأمواجها)** كالبحر المتلاطم التيار المتراكم الزّخار **(وبدا من الأيام كلوحها)** نسبة الكلوح إلى الأيام من التوسع في الإسناد وأراد به كثرة ما يلقى الناس فيها من العبوس وسوء الحال، وكذلك نسبة الكدوح إلى الليالي في قوله: **(ومن اللّيالي كدوحها)** وهو إشارة إلى ما يبتلى به النّاس فيها من المصائب الشبيهة بآثار الجراحات والخدوش والجنايات.

(فإذا أينع زرعه) أراد به انتظام أمره وكمال شوكته **(وقام على ينعه)** أي على نضجه وكماله **(وهدرت شقاشقه)** وهو إشارة إلى ظهور طغيانه وبأسه **(وبرقت بوارقه)** أي سيوفه ورماحه البارقة **(عقدت رايات الفتن المعضلة)** أي الموجبة للأعضال والأشكال أو التي يعيى عن رفعها وعلاجها **(وأقبلن كاللّيل المظلم)** وجه تشبيهها بالليل كونها لا يهتدي فيها إلى حق كما لا يهتدي في ظلمة اللّيل إلى المقصد **(والبحر الملتطم)** أي كثير الأمواج وتشبيهها به في

عظمها، وفي التّوصيف بالملتطم إشارة إلى خلط الخلق فيها بعضهم ببعض ومحق بعضهم بعضاً كما تلطم الأمواج بعضها بعضاً هذا.

وقال الشارح: أراد بعقد رايات الفتن الموصوفة بالأوصاف المذكورة ما وقع بعد عبد الملك من حروب أولاده مع بني المهلّب وحروبهم مع زيد بن عليّ عليه السلام والفتن الكائنة بالكوفة أيّام يوسف بن عمر وخالد القسرى وعمر بن هبيرة وغيرهم وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال وذهاب النفوس.

وإلى ذلك أشار عليه السلام بقوله: **(هذا وكم يخرق الكوفة)** أي يجوبها ويقطعها **(من)** ريح **(قاصف)** وهي التي تقصف كلّ ما مرت عليه **(وتمرّ عليها من)** ريح **(عاصف)** قال الشارح البحراني: استعار وصفي القاصف والعاصف لما يمرّ بها ويجري على أهلها من الشدائد.

ثمّ قال عليه السلام: **(وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون ويحصد القائم ويحطم المحصود)** أي بعد برهة من الزّمان تجتمع الأمم بالأمم وتختلط أجيال النّاس بعضهم ببعض، وحصد القائم وحطم المحصود، قيل: إشارة إلى عموم البلاء وحصد القائم كناية عن قتل القوى، وحطم المحصود كناية عن استئصال الضّعيف.

وقال الشارح البحراني: كنى عليه السلام بالتفاف بعضهم ببعض عن اجتماعهم في بطن الأرض، واستعار لهم لفظ الحصد والحطم لمشابهتهم الزّرع يحصد قائمه ويحطم محصوده، فكنّى بحصدهم عن قتلهم أو موتهم، وبحطم محصودهم عن فنائهم وتفرّق أوصالهم في التراب.

وقال الشارح المعتزلي: وهو كناية عن الدّولة العبّاسية التي ظهرت على دولة بني أميّة، ويحصد القائم ويحطم المحصود كناية عن قتل الأمراء من بني أميّة في الحرب، ثم قتل المأسورين منهم صبراً، فحصد القائم قتل المحاربة، وحطم الحصيد القتل صبراً، وهكذا وقعت الحال مع عبد الله بن علي وأبي العبّاس السّفاح.

وقيل: التفافهم كناية عن جمعهم في موقف الحساب أو طلب بعضهم مظالمهم من بعض، وحصدهم عن إزالتهم عن موضع قيامهم أي الموقف وسوقهم إلى النّار، وحطمهم عن تعذيبهم في نار جهنم، والله العالم بحقائق الكلام.

الترجمة

از جمله خطب دیگر است که متضمّن اخبارات غیبیه است و مشتمل می باشد بر ذکر واقعه های عظیمه، می فرماید:

خداوند تعالی اولی است پیش از هر اوّل و آخری است بعد از هر آخر، به مقتضای اوّل بودنش واجب است که نبوده باشد هیچ اوّل مراورا و به مقتضای آخر بودنش واجب است که نبوده باشد هیچ آخر مراورا و شهادت می دهم آنکه نیست هیچ معبودی به حق غیر از واجب الوجود بالذات، چنان شهادتی که موافقت نماید در او باطن با ظاهر و قلب با زبان.

ای مردمان، باید که باعث نشود شما را عداوت و مخالفت من بر تکذیب من و متحیّر نگرداند شما را نافرمانی کردن با من و میندازید دیده ها را به یکدیگر نزد شنیدن اخبار غریبه از من، پس قسم به حق آن کسی که شکافت دانه را و خلق فرمود انسان را به درستی که آنچه خبر می دهم شما را به آن، اخذ شده است از پیغمبر (ﷺ)، دروغ نگفته رساننده آن خبر که عبارت است از پیغمبر و جاهل نبوده شنونده آن که عبارت است از نفس نفیس خود.

گویا که نگاه می کنم به مردی که متصف است به نهایت گمراهی که بانگ زده در شام و منزل اخذ می کند به علم های خودش در اطراف کوفه، پس هرگاه که گشوده شود دهان او و سخت شود دهنه لجام او و گران شود در زمین گام زدن او، بگزد فتنه پسران خود را به دندان های خود و موج زند جنگ به موج های خود و ظاهر می شود از روزها بسیاری عبوس و ترش رویی او و از شب ها اثرهای جراحت او.

پس چون به سرحدّ کمال رسد زراعت آن مرد گمراه و بایستد بر کمال خود و آواز دهد شقشق های او که عبارت است از چیزهایی که مثل شش از دهن شتر بیرون می آید در حال مستی و درخشان شود شمشیرها و نیزه های برّاق او، بسته شود علم های فتنه ها و روی آورند مانند شب تاریک و مثل دریاهای موّاج، فراگیر این مطلب را و بسا می شود که بدرّد کوفه را باد سخت شکننده و بگذرد به کوفه

باد تند جهنده (و این کنایه است از شدّت ها و مصیبت ها که وارد می شود به اهل کوفه) و بعد از زمان قلیلی جمع شود قرن ها با قرن ها و مختلط شود گروهی با گروهی و درویده می شود ایستاده و شکسته می شود درویده شده (و این کنایه است از استیصال و هلاك شدن صاحب قوت و صاحب ضعف).

ومن خطبة له عليه السلام يجري هذا المجرى
وهي المائة والواحدة من المختار في باب الخطب

«وذلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فيهِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ لِنقاشِ الحِسابِ، وجَزآءِ الأَعْمالِ، خُضُوعاً قِياماً، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، ورَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ فَأَحْسَنُهُمْ حالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، ولِنَفْسِه مُتَّسَعاً.

منها: فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، لا تَقُومُ لَها قائِمَةٌ، ولا تُرَدُّ لَها رايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً يَحْفِزُها قائِدُها، ويَجْهَدُها راكِبُها، أَهْلُها قَوْمٌ شَديدٌ كَلَبُهُمْ، قَليلٌ سَلَبُهُمْ، يُجاهِدُهُمْ في سَبيلِ اللهِ، قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرينَ، في الأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وفي السَّماءِ مَعْرُوفُونَ، فَوَيْلٌ لَكَ يا بَصْرَةُ عِنْدَ ذلِكَ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللهِ لا رَهَجَ لَهُ وَلا حِسَّ، وسَيُبْتَلى أَهْلُكَ بِالْمَوْتِ الأَحْمَرِ، وَالْجُوعِ الأَغْبَرِ»[1].

اللغة

(ناقشته) مناقشة استقصيته في الحساب، **(والقطع)** قطعة كسدر وسدرة وهي الطائفة من الشيء قال الشارح المعتزلي: قطع اللّيل جمع قطع وهو الظّلمة قال تعالى:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١].

ولعلّه سهو و **(زممت)** البعير زمّاً شددت عليه زمامه فهو مزموم و **(الرّحل)** كلّ شيء يعد للرّحيل من وعاء المتاع ومركب البعير والحلس والرّسن وجمعه رحال وأرحل مثل سهام وأفلس و **(جهدت)** الدّابة واجهدتها حملت عليها في السّير فوق طاقتها و **(الكلب)** محرّكة الشر والأذى و **(السّلب)** محركة أيضاً ما يأخذه أحد القرنين في القتال من قرنه ممّا يكون عليه من ثوب أو سلاح أو درع أو غيرها و **(النقم)** جمع نقمة وهي العقوبة و **(الرهيج)** محركة الغبار.

الإعراب

(خضوعاً قياماً) منصوبان على الحال من مفعول يجمع، وجملة **(لا تقوم)** مرفوعة المحلّ على أنّها وصف لفتن، وجملة **(تأتيكم)** استئنافيّة أو حال من مفعول تقوم وجملة **(يحفزها)** حال من فاعل تأتيكم، ومجهولون وصف ثان لقوم.

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٣١٩، وسفينة البحار: ١/ ٣٦٢.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة تجري مجرى الأخبار عن الملاحم أيضاً كالخطبة السّالفة حيث إنها مشتملة على فصلين، والفصل الثاني منها من هذا القبيل، وأمّا الفصل الأوّل فمتضمن لبيان بعض أهوال يوم القيامة وشدائدها، وقد مضى الكلام فيها مفصّلاً في الفصل الثّالث من فصول الخطبة الثانية والثمانين وشرحه.

وقال عليه السلام: هنا **(وذلك يوم يجمع الله فيه الأوّلين والأخرين)** كما قال تعالى في سورة هود.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وفي سورة الواقعة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠].

وإنما جمعهم **(لنقاش الحساب وجزاء الأعمال)** أي ليناقش في حسابهم ويستقصى فيه ويجزى كلّ جزاء عمله، إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨].

(خضوعاً قياماً) أي خاضعين خاشعين من هول المعاد، قائمين لربّ العباد **(قد ألجمهم العرق)** أي بلغ محلّ لجامهم من كثرة التزاحم والاجتماع وشدّة الحرارة قال الطبرسي في تفسير قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

المعنى يوم يقوم النّاس من قبورهم لأمر ربّ العالمين ولجزائه أو حسابه، وجاء في الحديث أنّهم يقومون في رشحهم إلى إنصاف آذانهم، وفي حديث آخر يقومون حتّى يبلغ الرشح إلى أطراف آذانهم.

وفي الحديث عن سليم بن عامر عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون الشمس بقدر ميل أو ميلين، قال سليم فلا أدري أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين، ثمّ قال صهرتهم الشّمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه إلى عقبه، ومنهم من يلجمه إلجاماً، قال: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يشير بيده إلى فيه قال يلجمه إلجاماً»[1].

---

(١)مجمع البيان: ١٠/ ٢٩١، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ٥٢٨ ح ٧.

(ورجفت بهم الأرض) لعله إشارة إلى الرّجفة في النفخة الثّانية على ما أشير إليها في قوله سبحانه:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٤].

(فأحسنهم حالاً) في هذا اليوم **(من وجد لقدميه موضعاً ولنفسه متسعاً)** وهو إشارة إلى شدّة الضيق على النّاس فيه هذا والفصل الثاني الذي التقطه السيّد (ره).

منها: قوله عليه السلام: **(فتن كقطع اللّيل المظلم)** في عدم الاهتداء فيها إلى النهج الحقّ والصّراط المستقيم **(لا تقوم لها قائمة)** أي لا تنهض لدفعها فئة قائمة أو لا تقوم لها قائمة من قوائم الخيل، وهو كناية عن عدم إمكان مقابلتها بالحرب وعدم التمكن من قتال أهلها، أو لا تقوم لها بنية أو قلعة قائمة، بل تخرب وتنهدم فيكون كناية عن قوّتهم، وكذلك قوله عليه السلام: **(ولا تردّ لها راية)** أي لا تنهزم راية من راية تلك الفتنة ولا تفرّ بل تكون غالبة دائماً، أو لا ترجع لحربها راية من الرّايات التي هربت عنها.

ثمّ شبّهها بناقة تامّة الأدوات كاملة الآلات، واستعار لها أوصافها فقال **(تأتيكم مزمومة مرحولة)** أي كناقة معدّة للركوب عليها زمامها ورحالها، **(يحفزها قائدها)** أي يسوقها بشدّة، وأراد بالقائد أعوانها **(ويجهدها راكبها)** أي يوقعها في الجهد والمشقّة ويحمل عليها في السّير فوق الطّاقة، وأراد بالرّاكب أرباب تلك الفتنة وكنّى بالحفز والجهد عن سرعتهم ومبادرتهم إليها **(أهلها قوم شديد كلبهم قليل سلبهم)** أي شديد شرّهم وأذاهم وقليل ما سلبوه من الخصم إذ همّتهم القتل لا السّلب كما قال الشاعر:

هُم الاسود أسود الغاب همّتها يوم الكريهة في المسلوب لا السّلب

واختلف في تلك الفتنة وأهلها: فقال الشّارح المعتزلي: إشارة إلى ملحمة تجري في آخر الزمان ولم يأت بعد، واستقر به المحدث المجلسي «ره» في **«البحار»**، وقال الشارح البحراني: إشارة إلى فتنة صاحب الزنج لاتصافهم بشدة الكلب وقلة السّلب إذ لم يكونوا أصحاب حرب وعدّة وخيل كما يعرف ذلك من قصتهم المشهورة، وسيذكر طرف منها في شرح بعض الخطب الآتية وهي الخطبة المائة والثامنة والعشرون.

واستبعده في **«البحار»** بأن مجاهديهم لم يكونوا على الأوصاف التي أشار إليها بقوله: **(يجاهدهم في الله قوم أذلّة عند المتكبّرين في الأرض مجهولون، وفي السّماء معروفون)** إلاّ أن يقال: لشقاوة الطّرف الآخر أمدّهم الله بالملائكة، وهم مجهولون في الأرض لعدم كونهم من أبناء الدنيا المشهورين بنعيمها، ومعروفون في السماء لكونهم من أهل العلم والعرفان يعرفهم

ربهم بالطّاعة ويعرفهم سائر الملائكة بالعبادة[١] ولا يخفى بعده، وقال الشّارح المعتزلي: كونهم مجهولين في الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد[٢].

ثمّ خاطب عليه السلام البصرة على سبيل إنذار أهلها وقال: **(فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حسّ)** قال الشّارح البحراني وهو إشارة إلى فتنة الزنج وظاهر أنّهم لم يكن لهم غبار ولا أصوات إذ لم يكونوا أهل خيل ولا قعقعة لجم، فإذا لا رهج لهم ولا حس، وظاهر كونهم من نقم الله للعصاة وإن عمت الفتنة إذ قلما تخصّ العقوبة النّازلة بقوم دون بعضهم كما قال تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفيه أن ظاهر عبارته عليه السلام مشعر بكون هذا الجيش غير ما أخبر به أوّلا، فإذا كان الأوّل إشارة إلى صاحب الزّنج وجيشه حسبما زعمه الشارح فكيف يمكن جعل ذلك إشارة إليهم أيضاً، وإن كانوا بالأوصاف المذكورة، وقال الشارح المعتزلي كنى عليه السلام بهذا الجيش عن طاعون يصيبهم حتى يبيدهم.

أقول: والأولى وكول علم ذلك إليهم عليهم السلام لأن أهل البيت أدرى بما فيه ثم قال: **(وسيبتلي أهلكِ بالموت الأحمر والجوع الأغبر)** الموت الأحمر إمّا كناية عن الوباء ووصفه بالحمرة لشدته، ووصف الجوع بأنه أغبر لأن الجائع يرى الأفاق كانّ عليها غبرة وظلاماً كما في شرح المعتزلي، أو الأول كناية عن قتلهم بالسيف كما قيل، أو عن هلاكهم بالغرق كما في شرح البحراني، قال ووصف الجوع بالأغبر لأنّ شدة الجوع ما أغبر معه الوجه لقلة مادة الغذاء أو رداءته أو لأنّه يلصق بالغبراء وهي الأرض.

أقول: ويمكن أن يكون وصف الجوع به من حيث كونه ناشئاً من كثرة اغبرار الأرض وجدبها بقلة الأمطار، والله العالم.

تنبيه

قد تقدّم في أوّل تنبيهات الكلام الثالث عشر خطبة طويلة له عليه السلام خطب بها بعد الفراغ من قتال أهل البصرة وهي متضمّنة لأكثر فقرات هذه الخطبة ومشتملة على زيادات كثيرة فعليك بالرجوع إليها فإنه لا يخلو من منفعة.

---

(١) البحار: ٣٢/٢٤٩.

(٢) شرح النهج: ٧/١٠٤

الترجمة

و از جمله خطب شریفه آن سرور عالمیان و امام متقیان است که جاری شده در موضع اخبار از ملاحم مثل خطبه سابقه، می فرماید:

و آن (یعنی روز قیامت) روزی است که جمع می کند خداوند عالم، اوّلین و آخرین را از برای استقصاء و دقّت نمودن در حساب و جزا دادن بر عمل ها، در حالتی که همه خضوع کننده باشند و ایستاده به جهت امر پروردگار. به تحقیق که رسیده باشد عرق به دهان ایشان از کثرت حرارت و شدّت ازدحام خلقان و بلرزد بر ایشان عرصه زمین، پس نیکوترین ایشان از حیثیت حال کسی است که بیابد به جهت قدم های خود مکانی و به جهت نفس خود محلّ وسعت و فضایی.

از جمله فقرات این خطبه که متضمّن اخبار از وقایع آتیه است این است که فرموده:

فتنه هایی است مثل پاره های شب تاریك که برنخیزد از برای دفع آن جماعتی ایستاده و بازنگرداند از برای او علم برپا شده، بیاید به سوی شما مانند شتری که افسار کرده باشد و پالان برنهاده در حالتی که می راند آن را با شدّت کشنده آن و به مشقّت می اندازد آن را سوارشونده آن، اهل فتنه ها گروهی هستند که شدید باشد اذیّت و شرارت ایشان و کم باشد ثیاب و سلاح دریافت نشده از خصم ایشان و آن کنایه از این است که غرض ایشان کشتن خصم است نه غنیمت بردن، جهاد می کند با ایشان گروهی که خوار و ذلیل باشند در نزد متکبرین، گم نام باشند در نزد اهل زمین، مشهور باشند در پیش اهل آسمان برین.

پس وای باشد تو را ای بصره از لشگری که پدید آید از غضب و عقوبت خدا در حالتی که نباشد آن لشگر را گرد و غباری و نه حس و حرکتی از جهت اینکه ایشان را خیل وقعقعه سلاح نباشد و به زودی مبتلا شوند اهل تو ای بصره به مرگ سرخ که کشته شدن است با شمشیر و به گرسنگی غبار آلوده.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثانية من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين:

الفصل الأول

«أُنْظُرُوا إِلَى الدُّنْيا نَظَرَ الزاهدينَ فيها، الصّادِفينَ عَنْها، فَإِنَّها وَاللهِ عَمّا قَليلٍ تُزيلُ الثّاوِيَ السّاكِنَ، وتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ، لا يَرْجِعُ ما تَوَلّى مِنْها فَأَدْبَرَ، ولا يُدْرى ما هُوَ آتٍ مِنْها فَيُنْتَظَرُ، سُرُورُها مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وجَلَدُ الرِّجالِ فيها إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلا تَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ ما يُعْجِبُكُمْ فيها لِقِلَّةِ ما يَصْحَبُكُمْ مِنها، رَحِمَ اللهُ امْرَءً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ ما هُوَ كائِنٌ مِنَ الدُّنيا عَنْ قَليلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ ما هُوَ كائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمّا قَليلٍ لَمْ يَزَلْ، وكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وكُلُّ آتٍ قَريبٌ دانٍ.

منها العالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وكَفى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ لا يَعْرِفَ قَدْرَهُ، وإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجالِ إِلى اللهِ لَعَبْدٌ وَكَّلَهُ اللهُ إِلى نَفْسِه، جائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبيلِ، سائِرٌ بِغَيرِ دَليلٍ، إِنْ دُعِيَ إِلى حَرْثِ الدُّنيا عَمِلَ، وإِنْ دُعِيَ إِلى حَرْثِ الآخِرَةِ كَسِلَ، كَأَنَّ ما عَمِلَ لَهُ واجِبٌ عَلَيْهِ، وكَأَنَّ ما وَنى فيهِ ساقِطٌ عَنْهُ»[١].

اللغة

(**صدفت**) عنه أصدف من باب ضرب أعرضت وصدفت المرأة فهي صدوف وهي التي تعرض وجهها عليك، ثمّ تصدف عنك و (**ثوى**) بالمكان وفيه وربّما يتعدّى بنفسه من باب رمى يثوى ثواء بالمدّ أقام فهو ثاو قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥].

و (**فجعه**) يفجعه من باب منع وجعه كفجّعه أو الفجع أن يوجع الإنسان بشيء يكرم عليه فيعدمه و (**اترفته**) النعمة أطغته والمترف وزن مكرم المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع و (**الجلد**) محركة الشدة والقوة فهو جلد وجليد أي شديد قويّ و (**النّقض**) كالانتقاض ضد الإبرام، وفي بعض النسخ منتقض بدل منقض و (**ونى**) في الأمر ينى ونياً من باب وعد ضعف وفتر فهو وان، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/٢ ح ٣٧، وميزان الحكمة: ٢٧٠٤/٣.

الإعراب

(الفاء) في قوله فأدبر عاطفة للجملة على جملة الصّلة، وفي قوله فلا تغرّنّكم فصيحة، وجملة **(رحم الله أمرء)** دعائية لا محل لها من الإعراب، **(وعن)** في قوله عن قليل بمعنى بعد، وكذلك في قوله عليه السلام **(عمّا قليل)** **(وما)** زائدة على حد قوله سبحانه:

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

(واللام) في قوله العالم من عرف قدره للجنس والتعريف لقصد الحصر مبالغة ومن في قوله عليه السلام «**إنّ من أبغض الرّجال لعبد)** زائدة في إسم إنّ ولعبد بالرّفع خبرها كما زيدت في اسم كان في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وإليه ذهب الكسائي في قوله عليه السلام: إنّ من أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة المصوّرون وفي نسخة للشارح المعتزلي لعبداً بالنّصب، وكذلك جائراً وسائراً فيكون حينئذٍ من للتبعيض وهي مع مدخولها خبر إن مقدّماً ولعبداً اسم لها، وجائراً وسائراً يحتملان الحال والوصف.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من الخطبة متضمّن للتّزهيد عن الدّنيا والتّنفير منها بالتنبيه على عيوبها المرغّبة عنها، وقد مضى الكلام في هذا المعنى مستوفاً في الخطبة الثانية والعشرين وشرحها وفي غيرها من الخطب السّالفة وقال عليه السلام هنا: **(انظروا إلى الدّنيا نظر الزّاهدين فيها الصّادفين عنها) قد مرّ تحقيق معنى الزّهد وبيان مراتبه وأقسامه بما لا مزيد عليه في شرح الخطبة التاسعة والسبعين، وقدّمنا هنالك بعض الأخبار الواردة فيه ونورد هنا بعض ما لم نروه فأقول:**

روى في «**الكافي**» عن عليّ بن إبراهيم عن عليّ بن محمّد القاساني عمّن ذكره عن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال «إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدّنيا وفقهه في الدّين وبصّر عيوبها ومن أوتيهنّ فقد أوتي خير الدّنيا والآخرة».

وقال عليه السلام: لم «يطلب أحد الحقّ من باب أفضل من الزّهد في الدنيا، وهو ضدّ لما طلب أعداء الحقّ قلت: جعلت فداك ممّاذا؟ قال: من الرغبة فيها».

وقال عليه السلام: «ألا من صبّار كريم فإنّما هي أيّام قلائل إلاّ أنّه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتّى تزهدوا في الدّنيا».

قال: وسمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا تخلّى المؤمن[1] من الدّنيا سما ووجد حلاوة

(١) لعله من أخل بالشيء إذا ترك وغاب عنه.

حب الله وكان عند أهل الدّنيا كأنّه قد خولط، وإنّما خالط القوم حلاوة حبّ الله فلم يشتغلوا بغيره».

قال: وسمعته يقول «إنّ المؤمن إذا صفا ضاقت به الأَرض حتى يسمو»(١).

وبإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام إن من أعون الأَخلاق على الدّين الزّهد في الدّنيا»(٢)، هذا.

ولما أمر عليه السلام بالنّظر إلى الدّنيا نظر الزّاهدين المعرضين من الأَنبياء والمرسلين والأئمة المعصومين وغيرهم من عباد الله الصّالحين، وأوجب اقتفاء آثارهم والتأسي بهم علّل ذلك بقوله: **(فإنّها والله عمّا قليل تزيل الثاوي السّاكن وتفجع المترف الأمن)** مؤكداً بالقسم البارّ تنزيلاً للمخاطبين منزلة المنكر لما شاهد منهم رغبتهم إليها واعتمادهم بها، يعني أنّ من شأنها نقل المقيمين السّاكنين بها إلى دار الآخرة وإفجاع المنعمين الامنين بحيلولتها بينهم وبين ما يحبّونه، فإذا كان شأنها ذلك فكيف الأمن بها والرّكون إليها شعر:

هب الدّنيا إليك تساق عفواً ... أليس مصير ذاك إلى انتقال

وما دنياك إلاّ مثل فيء ... أظلّك ثمّ آذن بالزّوال

(لا يرجع ما تولّى منها فأدبر ولا يدري ما هو آت منها فينتظر) يعني ما كنت مبتهجاً به فيها من الشّباب والقوّة والنعمة والعزّة واللّذة قد أدبر وتولّى ومضى وانقضى فلا رجوع له أخرى، وما يأتي بعد ذلك فهو غير معلوم لك إذ لا تدري أنّه نعمة أو نقمة، عزّة أو ذلّة، ثروة أو مسكنة، حياة أم ممات، ضيق أو سعة، وبالجملة لا تدري أنه ملائم لطبعك فتنتظر أو مناف له فتنفر، قال الشّاعر:

واضيعة العمر لا الماضي انتفعت به ... ولا حصلت على علم من الباقي

(سرورها مشوب بالحزن وجلد الرّجال فيها إلى الضّعف والوهن) وهذا مدرك بالوجدان مشاهد بالعيان إذ قلّ ما ترى مسروراً فيها ومبتهجاً بها إلاّ ومبتلاً في كلّ لمحة وآن يفوت مطلوب أو فقد محبوب، ونرى بضاضة الشّباب مبدلة بحواني الهرم، وغضارة الصحة مرهونة بنوازل السّقم **(فلا يغرّنّكم كثرة ما يعجبكم فيها)** من عزّ وسلطان وجنود وأعوان وحصون ومقاصر وضياع ودساكر ونساء وبنين وعشيرة وأقربين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والأنعام والخيل المسوّمة **(لقلّة ما يصحبكم منها)** إذ ليس إلاّ كفن وحنوط وقطن وعود قال الشّاعر:

فما تزود ممّا كان يجمعه ... إلا حنوطاً غداة البين في خرق

(١) شرح أصول الكافي: ٨/٣٦٨ ح ١٠، والكافي: ٢/١٣٠.

(٢) الكافي: ٢/١٢٨ ح ٣، ووسائل الشيعة: ١٦/١٢ ح ٢٠٨٣٠.

وغيــر نــفــحــة أعــواد شــبــبــن لــه   وقــل ذلــك مــن زاد لــمــنــطــلــق[١]

ثم دعا عليه السلام وترحّم لأولى الفكر بقوله: **(رحم الله امرء تفكر)** في أمر نفسه ومبدأه ومعاده **(فاعتبر)** أي فكان ذا اعتبار واتّعاظ **(واعتبر فابصر)** أي أوجب اعتبار حاله نور بصيرة، وذلك إنّما يحصل بالانقطاع من الشّهوات والتجافي عن الأمنيات.

قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم: «يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاثة فكأنّما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطول أمله، ومحى طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنّما أعان هواه على هدم عقله. ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه.

ثمّ نبّه على سرعة انقضاء متاع الدّنيا بقوله: **(فكأن ما هو كائن من الدّنيا عن قليل لم يكن)** يعني أن ما هو كائن من الدّنيا من زبرجها وزخارفها ولذائذها سيصير بعد زمان قليل معدوماً فكأنّه لم يكن موجوداً أصلاً ولم يكن شيئاً مذكوراً.

ونبّه على سرعة لحوق الآخرة بقوله: **(وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل)** يعني أنّ ما هو كائن من شدائد الآخرة وأحوالها وأهوالها بعد زمان قليل قصير يكون موجوداً ثانياً، والإتيان بلفظ كأنّ في المقامين للتقريب وتشبيه وجود الدّنيا بعدمه في الأوّل وتنزيل عدم الآخرة منزلة الوجود في الثاني تأكيداً ومبالغة في قصر زمان تصرم الدنيا وقلّة زمان لحوق الآخرة.

ثمّ قال: **(وكلّ معدود منقض)** أراد أن أيّام العمر ولياليه وساعاته وأنفاس الحياة معدودة محصاة، وكل ما هي معدودة فهي منقضة منصرمة منقضية منتهية **(وكلّ متوقع آت وكلّ آت قريب دان)** فكلّ متوقّع قريب دان، وأراد بالمتوقع الموت.

ونظير هذه الفقرة من كلامه عليه السلام قول قس بن ساعدة الأيادي: مالي أرى النّاس يذهبون ثمّ لا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا أقسم قس قسماً إن في السماء لخبراً، وفي الأرض لعبراً، سقف مرفوع، ومهاد موضوع ونجوم تمور، وبحار لا تغور، اسمعوا أيّها النّاس وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت هذا، قال السّيد (ره).

(منها): أي بعض فصول تلك الخطبة قوله عليه السلام: **(العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره)** يعني أن العالم الكامل الحقيق بأن يطلق عليه اسم العالم حقيقة من اتّصف بعرفان قدره وعدم تجاوز طوره، ومن لم يعرف ذلك فهو حقيق بأن يطلق عليه اسم الجاهل، وذلك كاف في جهالته، والمراد بقدره مقداره المعيّن ومحلّه المرسوم ومرتبته المقررة

(١) النفحة من العود القطعة منه ونفحة القوس المتروك منه وشببن له أي رفعن له من شب الفرس شباباً رفع بيديه، منه.

له في الوجود، وذلك إنّما يكون بكمال العقل.

كما قال الصّادق عليه السلام: «ما أخال رجلاً يرفع نفسه فوق قدرها إلا من خلل في عقله»[١].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «ما هلك امرء عرف قدره».

يعني أن من عرف قدره ولم يتعد طوره المرسوم له في دائرة الوجود، وعرف أنّه ما هو ولأي شيء خلق خلص من ظلمات الجهالة، ونجى من بوادي الهلاكة لأنّه يلازم قدره المقدر ومقامه المعيّن ويسلك الطّريق المؤدي إلى النّجاة، ويحترز من طرفي التفريط والإفراط.

ويوضح ذلك ما رواه في «**الكافي**» عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد مرسلاً قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النّور كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً فهماً، فعلم بذلك كيف ولم وحيث، وعرف من نصحه ومن غشه، فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانيّة لله والإقرار بالطّاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات وواردأ على ما هو آت يعرف ما هو فيه ولأيّ شيء هو ههنا، ومن أين يأتيه وإلى ما هو صائر وذلك كلّه من تأييد العقل»[٢].

يعني أنّ قيام أمر الإنسان ونظام حاله بالعقل فهو له كالعمود للبيت ومنه يحصل الفطنة وسرعة إدراك الأمور على الاستقامة، ويحصل الفهم والحفظ والعلم وبه يكمل الإنسان، وهو دليله على الحق وموجب لكونه ذا بصيرة ومفتاح لأمره، به يفتح ما أغلق عليه من الأمور الدينية والدنيويّة والمسائل المعضلة الغامضة، فإذا كان عقله مؤيّداً بالنّور أي بنور الحق وخلا عن شوائب الأوهام، وكان عالماً بما يحتاج إليه، حافظاً لعلمه بحيث لا يتطرق عليه سهو أو نسيان أصلاً أو غالباً، ذاكراً لربّه فطناً فهماً في غاية الكمال من القوتين النظرية والعملية، فعلم بذلك كيف أي كيفيّة الأعمال والأخلاق، أو كيفية السّلوك إلى الآخرة والوصول إلى الدّرجات العالية، أو حقائق الأشياء وحقيقة نفسه أهو من المقربين أم من المبعدين ولم يعي علّة الأشياء، وعلل وجودها وما يؤدّي إليها كعلّة الأخلاق الحسنة حتّى يكتسبها، وعلّة الأخلاق الرّذيلة حتّى يجتنبها، أو يتفكر في علّة العلل وسائر العلل المتوسّطة، أو يتفكّر في علّة وجوده وأنّه إنّما خلقه الله للمعرفة والطّاعة، وحيث أي يعلم مواضع الأمور ويعرف مقام نفسه فيضعها فيه ولا يتعدى قدره، وعرف النّاصح له ممّن غشه فيقبل النّصح من الأوّل وإن كان عدواً له، ويحترز من تدليس الثاني، وإن كان صديقاً له فإذا عرف ذلك عرف مجراه أي سبيله الذي

(١) مشكاة الأنوار: ٤٣٠، وشرح نهج البلاغة: ١٠٨/٧.
(٢) الكافي: ١/ ٢٥ ح ٢٣، ومستدرك الوسائل: ١١/ ٢١٠ ح ١٢٧٦٦.

يجري فيه إلى الحق أو يعلم أنه متوجه إلى الآخرة فيعمل بمقتضى هذا العلم ولا يتشبّث بالدّنيا وشهواتها، وموصوله ومفصوله، أي ما ينبغي الوصل معه من الأعمال والأشخاص وما ينبغي الفصل منه، وأخلص الوحدانيّة لله سبحانه، وعلم أنه الواحد الحقيقي لا جزء له عقلاً وذهناً وخارجاً ولا شريك له أصلاً، وأقرّ بأنه لا يستحق الطاعة غيره، فإذا فعل ذلك أي الإخلاص والإقرار، كان مستدركاً في غابر الزمان لما فات منه في سالف الأيّام من التكاليف التي كان يلزم عليه القيام بها، واستدراكها إنّما هو بالتوبة والقيامة بوظائفها، ووارد على ما هو آت من الأعمال الحسنة أو المراتب العالية، يعرف ما هو فيه أي النشأة الفانية وفنائها ومعائبها، ولأيّ شيء هو ههنا يعني يعرف أنه إنما أنزله الله تعالى إلى دار الدّنيا للمعرفة وتحصيل السّعادات الأخروية، فيبذل همته وجهده فيها، ومن أين يأتيه أي النّعم والخيرات، ويعلم موليها فيشكره ويتوكل عليه ويتوسل به لا بغيره أو الأعمّ منها، ومن البلايا والشرور والأفات والمعاصي، فيعلم أن المعاصي من نفسه الأمارة ومن الشّيطان فيحترس منهما، وإلى ما هو صائر أي الموت وأحوال القبر وأهوال الآخرة ونعيمها وعذابها، أو الأعم منها ومن درجات الكمال ودركات النقص، وذلك كلّه من تأييد العقل أي من ثمرات كون العقل مؤيداً بالنّور حسبما عرفت فافهم واغتنم هذا.

وقد ظهر بما ذكرنا كلّه أن العالم من كمل عقله وعرف قدره ولازم مقامه ولا يرفع نفسه فوق قدرها ولا يتعدّى وظيفته ولا يدّعي الأنيّة له، فإن الرئاسة لا تصلح إلاّ لأهلها **(وإنّ من أبغض الرّجال إلى الله)** سبحانه المغضوب عنده المصروف عنه نظر العناية الأزليّة والألطاف الرّبانيّة **(لعبد)** استبدّ برأيه واستقل بظنه فـ **(وكله الله إلى نفسه)** وجعله وكوله واعتماده عليها حيث زعم لنفسه الاستقلال وتمرّد عن طاعة الرّب المتعال فهو **(جائر عن قصد السّبيل)** الموصل له إلى قرب الرّحمٰن المؤدّي له إلى روض الجنان **(سائر بغير دليل)** ينجيه من المهالك ومن سار بغير دليل فهالك.

والمراد بالدليل من يدله على مناهج الدّين ويرشده إلى شرائع الشرع المبين، وهم أمناء الرّحمٰن وأبواب الإيمان وحملة أسرار الجليل وتراجمة الوحي والتنزيل، من تخلّف عنهم هلك ومن تقدّمهم مرق ومن لازمهم لحق.

(إن دُعيَ) هذا الرّجل المبغوض **(إلى حرث الدّنيا)** استعارة للأفعال والأعمال المتوقع نفعها وثمرتها فيها من التجارة والزّراعة والفلاحة ونحوها **(عمل)** واشتغل به واستغرق أوقاته فيه **(وان دعى إلى حرث الآخرة)** استعارة للطّاعات والعبادات التي ترجى ثمرتها فيها **(كسل)** وتوانى وأعرض ونآب جانبه **(كانّ ما عمل له)** أي لنفسه من أشغال الدّنيا **(واجب عليه وكان ماونى فيه)** من أعمال الآخرة **(ساقط عنه)** مع أنّ ما كسل عنه أولى بالقيام وما اشتغل به أحرى بالسقوط.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام مبين و وليّ مؤمنين است كه فرموده:

نظر نماييد به سوى دنيا، همچو نظر كسانى كه زاهد شوند در دنيا و اعراض نمايند از آن، پس به درستى كه آن دنيا به حقّ خدا بعد از اندك زمانى زايل مى سازد مقيم آرام گرفته را و فجعه مى آورد بى باك و ايمن را به آن، نمى گردد آنچه كه روگردان شد از آن، پس پشت كرد و دانسته نمى شود آن چيزى كه آينده است از آن تا اينكه انتظار كشيده شود و شادى آن آميخته شده به اندوه و قوّت مردان در آن منتقل است به سوى ضعف و سستى.

پس البته مغرور ننمايد شما را زيادتى آن چيزى كه خوش آيند شما است در آن از جهت قلت و كمى چيزى كه مصاحب و همراه باشد شما را از آن كه عبارت است از قطن و كفن، رحمت كند خداوند مردى را كه تفكّر كند، پس عبرت بگيرد و عبرت بگيرد، پس صاحب بصيرت شود، پس گويا آنچه واقع است در دنيا، پس از اندكى نبوده است و گويا آنچه كه واقع خواهد شد از آخرت، پس در اندك زمانى ثابت و موجود است و هر شمرده شده به نهايت خواهد رسيد و هر انتظاركشيده شده خواهد آمد و هر آينده نزديك است و قريب.

بعض ديگر از فصل هاى آن خطبه اين است كه فرموده:

عالم كسى است كه بشناسد قدر خود را و كفايت مى نمايد به مرد از حيثيت جهالت و نادانى آنكه نشناسد قدر خود را و به درستى كه از دشمن ترين مردان به سوى خدا هرآينه بنده اى است كه واگذارد خداى تعالى او را با نفس خودش، عدول كننده باشد از ميانه راه حق، سيركننده باشد بدون راهنما، اگر خوانده شود به سوى كشف و زراعت دنيا، عمل مى كند و مشغول شود و اگر خوانده شود به سوى كشت و زراعت آخرت، كسالت مى گيرد و كاهل مى باشد، گويا آنچه كه عمل كرد از براى خود از امور دنيا واجب است بر او و گويا آنچه كه كاهلى نمود در آن از امور آخرت ساقط است از او.

الفصل الثاني

منها: وذلِكَ زَمانٌ لا يَنْجُو فيهِ إلاّ كُلُّ مُؤمِنٍ نُوَمَةٍ، إنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وإنْ غابَ لَمْ يُفتَقَدْ، أُولئِكَ مَصابيحُ الهُدى، وأعْلامُ السُّرى، لَيْسُوا بالمَسايِيحِ ولاَ المَذاييعِ البُذُرِ، أُولئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أبوابَ رَحْمَتِهِ، ويَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرّآءَ نِقْمَتِهِ، أيُّها النّاسُ سَيأتِي عَلَيْكُمْ زَمانٌ يُكفأُ فيه الإسْلامُ كَما يُكفأُ الإناءُ بمائِهِ[1]، أيُّها النّاسُ إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أعاذَكُمْ مِنْ أنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قالَ جَلَّ مِنْ قائِلٍ «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾»[2] [المؤمنون: ٣٠].

قال السيد (ره) قوله: (**كلّ مؤمن نوَمة**)، فإنّما أراد الخامل الذكر القليل الشرّ، و(**المسايِيح**) جمع مسياح وهو الذي يسيح بين النّاس بالفساد والنمائم، و(**المذاييع**) جمع مذياع وهو الذي إذا سمع لغيره فاحشة أذاعها ونوّه بها، و(**البذر**) جمع بذور وهو الذي يكثر سفهه ويلغو منقطه.

اللغة

(**نؤمة**) وزن همزة في بعض النسخ بالواو وفي بعضها بالهمزة قال ابن الأثير في «**المحكى**» عن النهاية في حديث علي عليه السلام أنه ذكر آخر الزمان والفتن ثم قال: «خير أهل ذلك الزمان كلّ مؤمن نؤمة»، بوزن الهمزة الخامل الذّكر لا يؤبه به وفي «**القاموس**» نؤمة كهمزة أمير مغفل أو خامل.

أقول: ولعلّه مأخوذ عن النّوم لأنّ الإنسان إذا نام يخمل ويخمل عنه، ويؤيده ما في «**القاموس**» قال النوم النعاس أو الرقاد كالنيام بالكسر والاسم النئمة بالكسر وهو نائم ونؤم ونؤمة كهمزة وصرد.

و (**السّرى**) كالهدى سير عامة الليل وقوله تعالى: أسرى بعبده ليلاً، تأكيد و (**المذياع**) من لا يكتم السّر بل يذيعه ويفشيه ويظهره أو ينادي به في النّاس، و (**البذر**) جمع بذور كزبر وزبور وصبر وصبور قال الشارح المعتزلي: وهو الذي يذيع الأسرار وليس كما قال الرضى (ره) **فقد يكون الإنسان بذوراً، وإن لم يكثر سفهه ولم يلغ منطقه، بأن يكون علنة مذياعاً من غير سفه ولا لغو.**

أقول: ويؤيده ما في «**القاموس**» قال البذور والبذير النّمام ومن لا يستطيع كتم سرّه،

(١) «بما فيه» في نسخة.
(٢) ميزان الحكمة: ١/ ٣٠٠ ح ٣٩٥، والتفسير الصافي: ٣/ ٣٩٩.

ورجل بذر ككتف وبيذار وبيذارة، وتبذار كتبيان وبيذراتي كثير الكلام و **(يكفأ)** بالبناء على المفعول من كفاه كمنعه وصرفه وكلبه قلّبه و «نوّه» بها أي رفعها.

الإعراب

جملة **(ليسوا بالمسابيح)** منصوبة المحل على الحال، وتحتمل البدل من الخبر وقوله عليه السلام: وقد قال جلّ من قائل، جملة **(وقد قال)** حال مؤكدّة من فاعل **(يعذكم)** وجملة **(جل)** حال من فاعل **(قال)**، **(ومن قائل)** تميز لرفع إبهام النسبة في **(جل)** إلى فاعله.

المعنى

اعلم أنه أشار في هذا الفصل إلى ما يكون بعده من غلبة الفساد والشرور على أهل الزّمان وعدم النجاة فيه إلاّ لأهل الإيمان كما قال عليه السلام: **(وذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ كل مؤمن نوّمة)** أراد به خامل الذكر منهم المشتغل بربّه عنهم كما فسّره بقوله: **(إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد)** يعني أنه إن حضر مجالس أهل ذلك الزمان لا يعرفوه وإن غاب عنهم لا يفتقدوه، أي لا يسألون عنه ولا يقولون: أين هو وكيف صار وما يضع، وذلك لكونه بمعزل عنهم وعدم انتفاعهم بوجوده، وسنشير إلى فوائد العزلة وثمراتها بعد الفراغ من شرح الفصل.

(أولئك مصابيح الهدى وأعلام السّرى) يهتدي لهم السّالكون في سبيل الله ويصلون بنور وجودهم إلى حظائر القدس **(ليسوا بالمسابيح)** أي الذين يسيحون ويجرون بين الناس بالفساد والنميمة **(ولا المذاييع البذر)** أي الذين يذيعون الأسرار ويفشون الفواحش **(أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته)** ورأفته **(ويكشف عنهم ضراء نقمته)** وشدّة عقوبته وفي بعض النسخ يفتح الله بهم ويكشف بهم، أي ببركات وجودهم ينزل الخيرات ويكشف النقمات.

ثمّ أخبر عليه السلام عما يكون بعده من الفتن والفساد فقال عليه السلام: **(أيها الناس سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بمائة)** قال الشّارح البحراني: شبه عليه السلام قلبهم للإسلام بقلب الإناء بما فيه، ووجه الشبه خروج الإسلام عن كونه منتفعاً به بعد تركهم للعمل به كما يخرج ما في الإناء الذي كبّ عن الانتفاع، يعني أنه يأتي زمان ينقلب فيه الأمور الدّينيّة إلى أضدادها ولا يبقى من الإسلام إلاّ اسمه ولا من الكتاب إلاّ درسه، وأشار عليه السلام إلى أنّ ذلك منه سبحانه ليس من باب الظلم والجور، بل من باب الاختيار والامتحان، ليجزي الذين أحسنوا الحسنى جزاء أعمالهم، ويذيق الذين عملوا السّوء نكال وبالهم وهو قوله:

(أيها الناس إنّ الله قد أعاذكم) أي عصمكم **(من أن يجور عليكم)** وقد قال: وما ربّك بظلام للعبيد **(ولم يعذكم)** أي لم يعصمكم **(من أن يبتليكم)** ويختبركم، يعني أنه إذا غلب على أهل الزمان الفساد لا يلجاهم إلى الصّلاح والسّداد، ولكن يتركهم واختيارهم امتحاناً لهم واختباراً **(وقد قال جلّ من قائل)** في سورة المؤمنين بعد حكاية حال سفينة نوح عليه السلام ﴿إِنَّ فِي

﴿ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠] قال الطّبرسي: أي في أمر نوح والسّفينة وهلاك أعداء الله دلالات للعقلاء يستدلون بها على التوحيد، وإن كنّا مختبرين إياهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره ومتعبدين عبادنا بالاستدلال بتلك الآيات على قدرتنا ومعرفتنا.

أقول: غرضه عليه السلام من الاستدلال بالآية الشريفة الإشارة إلى أن عادة الله سبحانه جارية في الأمم الماضية والقرون الخالية، وكذلك في غابر الزّمان ومستقبل الأيام على اختبار عباده وابتلائهم لإظهار جودة العبد ورداءته ليثب تمام العيار في قالب الامتحان ويعاقب النّاقص الجوهر بالخزى والخذلان، وقد مرّ في شرح الخطبة الثانية والسّتين تحقيق معنى البلاء والابتلاء ولا حاجة إلى الإعادة، هذا.

وينبعي التنبيه على أمور: الأول

في فوائد العزلة وخمول الذكر وهي على ما ذكره أبو حامد الغزالي: تنقسم إلى فوائد دينيّة ودنيويّة، والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم، وإلى تخلص من ارتكاب المناهي يتعرض لها الإنسان بالمخالطة كالرياء والغيبة والسّكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الردّيئة والأعمال الخبيثة من جلساء السّوء.

وأمّا الدّنيوية فتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة كتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرّض لها بالمخالطة كالنّظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطمعه في النّاس وطمع النّاس فيه، وانكشاف ستر مروته بالمخالطة والتّأذي بسوء خلق الجليس في مرائه أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذي بثقله وتشويه خلقته، وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة، فلنحصر ستّ فوائد:

الفائدة الأولى

التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف أسرار الله في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السّماوات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله في بدو أمره يتبتل في جبل حرّاء ويختار العزلة لنفسه حتى بعث وأمر بالتبليغ، فخالط النّاس وكان ببدنه معهم وبقلبه مقبلاً على الله، ولا يحجب مخالطتهم عن توجّهه بالباطن، ولن يسع الجمع بين المخالطة ظاهراً والإقبال باطناً إلاّ قوّة النبوّة والولاية، فلا ينبغي أن يغتر كلّ ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، فإن المخالطة مانعة لهم عن الفكر والذكر، والعزلة أولى بهم.

ولذلك قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة؟ فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبّت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيّبة ويذوقوا حلاوة المعرفة.

وقيل لبعض الرّهبان: ما أصبرك على الوحدة؟ فقال: ما أنا وحدي أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صلّيت.

وقيل: بينما أويس القرني جالس إذا أتاه رجل فقال له أويس: ما جاء بك؟ قال: جئت لآنس بك، فقال أويس: ما كنت أرى أنّ أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره.

وقال الفضيل: إذا رأيت اللّيل مقبلاً فرحت به وقلت أخلو بربّي، وإذا رأيت الصّبح أدركني استرجعت كراهة لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي.

وقال بعض الصّالحين: بينما أنا أسير في بعض بلاد الشّام إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال، فلمّا نظر إليّ تنحّى إلى أصل شجرة وتستر بها، فقلت: سبحان الله تبخل عليّ بالنّظر إليك؟ فقال: يا هذا إنّي أقمت في هذا الجبل دهراً طويلاً أعالج قلبي في الصّبر عن الدّنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري، فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظّي من أيّامي في مجاهدة قلبي، فسكنه الله تعالى عن الاضطراب وألفه الوحدة والانفراد، أنا نظرت إليك فخفت أن أقع في الأمر الأوّل، فإليك عنّي فإنّي أعوذ من شرّك بربّ العارفين وحبيب القانتين، ثمّ صاح واغمّاه من طول المكث في الدّنيا، ثم حوّل وجهه عنّي، ثم نفض يديه. وقال: إليك عنّي يا دنيا لغيري فتزيني وأهلك فغرّي، ثم قال سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذّة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان، وجمع همتهم في ذكره فلا شيء ألذّ عندهم من مناجاته، ثم مضى وهو يقول: قدّوس قدّوس.

فإذاً في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله، وفي مثل ذلك قيل:

وإنّي لأستغشى وما بي غشوة لعلّ خيالاً منك يلقي خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلّني أحدث عنك النفس بالسرّ خالياً

قال بعض الحكماء: إنّما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذٍ ملاقاة النّاس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة، وقد قيل: الاستئناس بالنّاس من علامات الإفلاس.

فقد وضح بذلك كلّه أن التجرد والعزلة في حق الخواص أفضل من المخالطة بالناس، لأنّ غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان عارفاً بالله محباً له ولا محبّة إلاّ بالأنس

الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلاّ بدوام الفكر وفراغ القلب شرط في كلّ واحد منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

الفائدة الثانية

التخلّص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرّض الإنسان غالباً لها بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة، وهي أربعة: الغيبة، والرّياء، والسّكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرّديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدّنيا.

أما الغيبة: فإن التحرز منها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلاّ الصديقون لأنّ عادة الناس كافة التمضمض بأعراض النّاس والتّفكه والتنقّل بحلاوتها، وهي طعمتهم ولذّتهم، وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرّضت لسخط الله، وإن سكتّ كنت شريكاً، والمستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك، فازدادوا غيبة إلى غيبة، وربّما تعدّوا عن الغيبة إلى الاستخفاف والاستهزاء والشتم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن خالط النّاس فلا بدّ له من مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصى الله به، وإن أنكر تعرّض لأنواع من الضرر والأذى، وفي العزلة خلاص من ذلك، فإن الأمر في إهماله شديد، والقيام به شاق، فإنّه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه، فإذا سقط عليه يقول: يا ليتني تركته مائلاً، نعم لو وجد أعواناً أمسكوا الحائط حتّى يحكمه بدعامة لاستقام، وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وأنج بنفسك قال الشّاعر:

وكم سقت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصّح

وأما الرياء فهو الداء العضال الذي يعسر الاحتراز منه على الأوتاد والأبدال وهو إمّا في العبادات أو في العادات، وقد مرّ تحقيق الكلام في الأوّل في شرح الخطبة الثّالثة والعشرين، وعرف هنالك أن الاعتزال من النّاس علاجه ودواؤه النّافع له.

وأمّا الثاني أعني الرّياء في العادات فكلّ من خالط النّاس داراهم ومن داراهم رآهم ومن رآهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك، وأقل ما يلزم فيه النّفاق فإنك إن ترى متعاديين ولم تلق كلّ واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتهما كنت عن شرار النّاس.

قال عليه السلام: «إن من شرار النّاس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

وفي «**الكافي**» بإسناده عن ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام «من لقى المسلمين

بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسان من نار»[١].

وعن عبد الرّحمٰن بن حماد رفعه قال: قال الله تبارك وتعالى لعيسى عليه السلام يا عيسى لتكن لسانك في السرّ والعلانية لساناً واحداً، وكذلك قلبك، إني أحذّرك نفسك وكفى بي خبيراً لا يصلح لسانان في فم واحد ولا سيفان في غمد واحد ولا قلبان في صدر واحد وكذلك الأذهان.

وأقلّ ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه، ولا يخلو ذلك عن كذب إمّا في الأصل وإمّا في الزيادة وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك كيف أنت وكيف أهلك وأنت في الباطن فارغ عن همومه وهو نفاق محض وآية ذلك أنّك تقول كيف أنت ويقول الآخر كيف أنت، فالسّائل لا ينتظر بالجواب والمسؤول يشتغل بالسؤال ولا يجيب، وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلّف، ولعلّ القلوب لا تخلو من ضغائن الأحقاد والألسن تنطق بالسؤال.

قال بعضهم: إنّي لأعرف أقواماً كانوا لا يتلاقون ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ماله لبذله، وأرى الآن أقواماً يتلاقون ويتساءلون حتّى عن الدّجاجة في البيت، ولو انبسط أحدهم لحبّة من مال صاحبه لمنعه، هل هذا إلاّ مجرد الرّياء والنّفاق، وكلّ ذلك مذموم بعضه محرّم وبعضه مكروه، وفي العزلة خلاص منه، فإنّ من لقي الخلق ولم يتخلق بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمّروا لإيذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم.

وأما مسارقة الطبع مما يشاهد من أخلاق النّاس وأعمالهم فهو داء دفين قلّما ينتبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقاً مدة مع كونه منكراً عليه في باطنه إلاّ ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد، فاستثقاله إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له، وإنّما الوازع عنه شدّة وقعه في القلب، فإذا صار مستصغراً بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استصغر الصّغائر واستحقرها من نفسه.

ولذلك يزدري إلى الأغنياء نعمة الله عليه، فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أبيح له من النعم، وكذلك النظر إلى المطيعين والعاصين وهذا تأثيره في الطبع.

فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال أولياء الدّين والسّلف الصّالحين في العبادة

---

(١) الكافي: ٢/٣٤٣ ح ١، ووسائل الشيعة: ١٢/٢٥٦ ح ١٤٣.

والمجاهدة والزّهد عن الدّنيا لا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار، وإلى عبادته بعين الاستحقار فيجتهد في العبادة ويرغب في الطاعة ويزهد في الدّنيا استكمالاً واستتماماً للاقتداء بهم والحذو بمثلهم، ومن نظر إلى غالب أهل الزمان ورأى أعراضهم عن الله وإقبالهم على الدّنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه، وذلك هو الهلاك ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشّر فضلاً عن مشاهدته.

فبهذه النكتة يعرف سرّ قوله: عند ذكر الصّالحين ينزل الرّحمة، وإنّما الرحمة دخول الجنة ولقاء الحق، ولا ينزل عند ذكر الصّالحين عين ذلك، ولكن سببه الذي هو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عمّا هو ملابس له من القصور والتقصير، ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصّالحين فهذا معنى نزول الرحمة.

ويفهم من فحوى ذلك أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة، لأن كثرة ذكرهم تهوّن على الطبع أمر المعاصي واللعنة هي البعد من الحق ومبدأ البعد هو المعاصي والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشّهوات الحاضرة المخطورة، ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب، ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السّماع، وإذا كان هذا حال ذكر الصّالحين والفاسقين فما ظنّك بمشاهدتهم ومخالطتهم.

وقد مرّ في شرح الخطبة الخامسة والثّمانين وشرح الكلام الثالث عشر أخبار كثيرة في النهي عن مجالسة أهل المعاصي والبدع ومخالطتهم، وظهر هناك أنّ مجالستهم منساة للإيمان محضرة للشّيطان، فعليك بمراجعة المقامين.

وبالجملة فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ الطبيعة سرّاقة تستفيد الخير والشّر من مشاهدة الغير، فعليك بالفرار من الناس، إذ لا ترى منهم إلاّ ما يوجب زيادة حرصك على الدّنيا وغفلتك عن الآخرة، ويهوّن عليك المعصية ويسقط وقعها عن قلبك.

وممّا يوضح سقوط وقع المعاصي من القلوب بكثرة المشاهدة أنّ أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أفطر في شهر رمضان من غير عذر استبعدوا ذلك استبعاداً يكاد يفضى إلى اعتقادهم كفره، وربّما يشاهدون من يخرج الصّلاة عن أوقاتها ويترك بعضها أحياناً ولا تنفر عنه طباعهم كما تنفرون عن المفطر في شهر رمضان، مع أنّ الصّلاة أفضل من الصيام قطعاً ولا سبب لذلك إلاّ أنّ الصّلاة تتكرر والتساهل فيها يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب بخلاف الصّوم.

فعليك بالعزلة والوحدة إلاّ من الجليس الصّالح الذي يوجب مجالسته الرغبة في الطاعات والميل إلى العبادات، وينفرك مصاحبته عن الدنيا وزخارفها وشهواتها ويشوّقك

مخالطته إلى الرّغبة في الآخرة ونعيمها ودرجاتها.

الفائدة الثالثة

الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدّين والنفس عن الخوض فيها والتّعرّض لأخطارها، وقلّما تخلو البلاد عن تعصبات وخصومات فالمعتزل في سلامة منها.

روى أبو سعيد الخدري أنه عليه السلام قال: يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن من شاهق إلى شاهق.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: خير النّاس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة[١] طار إليها أو رجل في شعفة في غنيمة ويعبد الله حتى يأتيه الموت[٢].

وروى عبد الله بن مسعود أنّه صلى الله عليه وآله قال: «سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلاّ من فرّ بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروغ، قيل له: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي الله، فإذا كان ذلك الزّمان حلّت العزوبة قالوا: وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج؟ قال صلى الله عليه وآله: إذا كان ذلك الزّمان كان هلاك الرّجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده، فإن لم يكن فعلى يدي قرابته، قالوا وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يعيّرونه بضيق اليد فيتكلّف ما لا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة»[٣].

وهذا الحديث وإن كان في العزوبة إلاّ أنّه يدل على حسن العزلة إذ لا يستغني المتأهّل عن المعيشة والمخالطة، ثمّ لا ينال المعيشة إلاّ بمعصية الله حسبما استفيد من الرّواية.

قيل: لما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له: لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: رأيت مساجدكم لاهية، وأسواقكم لاغية، والفاحشة في فجاجكم عالية، وفيما هناك عمّا أنتم فيه عافية، فإذا الحذر من الخصومات ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة.

الفائدة الرابعة الخلاص من شر الناس

فإنّهم يؤذونك مرّة بالغيبة، ومرّة بسوء الظن والتّهمة، ومرّة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة والكذب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال

---

(١) قال جار الله الهيعة: الصيحة التي يفزع منها، أصلها من هاع يهيع إذا جبن. والشعفة رأس الجبل والمعنى خير الناس رجل أخذ بعنان فرسه واستعد للجهاد في سبيل الله ورجل اعتزل الناس وسكن في بعض رؤوس الجبال في غنم له قليل يرعاها ويكتفي بها في أمر معاشه ويعبد الله حتى يأتيه الموت.

(٢) مستدرك الوسائل: ١١/٣٨٨، وشرح نهج البلاغة: ١٠/٤٧.

ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة يدّخرونها لوقت تظهر فيه فرصة الشر، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التّحفظ عن جميع ذلك.

ولذلك قال بعض الحكماء لغيره: اعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم، قال: ما هما؟ قال:

اخفض الصّوت إن نطقت بليل والتفت بالنّهار قبل المقال

ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بجمال

ولا شكّ أنّ من اختلط بالنّاس وشاركهم في الأعمال لا ينفك من حاسد وعدوّ يسيء الظّن به ويتوهم أنه يستعدّ لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتدسيس غائلة ورائه، والنّاس مهما اشتدّ حرصهم على أمر يحسبون كلّ صيحة عليهم هم العدوّ وقد اشتد حرصهم على الدّنيا فلا يظنّون بغيرهم إلاّ الحرص عليها قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّم

وعادى محبّيه بقول عداته فأصبح في ليل من الشك مظلم

وقد قيل: معاشرة الأشرار تورث سوء الظّن بالأبرار، وأنواع الشر الّذي يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة، ولا حاجة إلى تفصيلها وفي العزلة خلاص من جميعها.

وعن الحسن عليه السلام أنه أراد الحج فسمع بذلك ثابت البناني فقال له: بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك، فقال له الحسن عليه السلام: ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إنّي أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه[1].

وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة، وهو بقاء السرّ على الدّين والمروّة والأخلاق والفقر وسائر العورات، وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] قال الشاعر:

ولا عار أن زالت عن الحرّ نعمة ولكنّ عاراً أن يزول التّجمّل

ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى في الدّين والدّنيا سترها ولا تبقى السّلامة مع انكشافها.

قال أبو الدّرداء: كان النّاس ورقاً لا شوك فيه فالنّاس اليوم شوك لا ورق فيه، فإذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأوّل فما حال أمثال زماننا.

وقال أبو الدّرداء أيضاً: اتّقوا الله واحذروا النّاس فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلاّ أدبروه ولا

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/٤٨.

ظهر جواد إلاّ عقروه ولا قلب مؤمن إلاّ خربوه.

وقال بعضهم: أقلّ المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك وأخف لسقوط الحقوق عنك، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع.

وقال آخر: أنكر من تعرف، ولا تتعرّف إلى من لا تعرف.

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع النّاس عنك وطمعك عن النّاس، فأما انقطاع طمع النّاس عنك ففيه منافع كثيرة، فإن رضاء النّاس لا تضبط وأغراضهم لا تدرك والاشتغال بإصلاح النفس أولى من الاشتغال بإتيان مقصود الغير وتحصيل رضائه.

ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولائم وزيارة الأحباء، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات، وربما تعوق عن بعضها العوائق والموانع وتستقبل فيها المعاذير ولا يمكن إظهار كلّ الأعذار فيقولون قمت في حق فلان وقصرت في حقّنا، ويصير ذلك سبباً للعداوة.

فقد قيل: من لم يعد مريضاً في وقت العيادة فقد اشتهى موته مخافة الخجالة إذا عاد المريض إلى السّلامة، ومن عمّم النّاس كلّهم بالحرمان رضوا عنه كلّهم ولو خصص البعض استوحشوا، ولو قام بحقوق الجميع لم يف له طول اللّيل والنهار ولو تجرد به فكيف من له مهمّ يشغله في دينه أو دنياه، ومن هنا قيل كثرة الأصدقاء كثرة العرناء وقال الشّاعر:

عدوّك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنّ من الصّحاب

فإنّ الدّاء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة أخرى جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدّنيا وزينتها تحرك وانبعث بقوة الحرص وطمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك، ومهما اعتزل لم يشاهد، ومتى لم يشاهد لم يشته ولم يطمع، ولذلك قال الله سبحانه:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١].

وقال ﷺ: «انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[١].

وقال بعضهم: كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموماً كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي

(١) المعجم الصغير: ٢/ ١٢١.

وفرساً أفره من دابتي، فجالست الفقراء فاسترحت.

وبالجملة فمن شاهد زينة الدّنيا فأمّا أن يقوى دينه ويقينه فيصبر فيكون محتاجاً إلى أن يتجرع مرارة الصّبر، وهو أمرّ من الصّبر أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدّنيا فيهلك هلاكاً مؤبّداً، أمّا في الدّنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات فليس كلّ من يطلب الدّنيا يتيسّر له.

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه تجري الرّياح بما لا تشتهي السفن

وأمّا في الآخرة فبإيثاره زينة الحياة الدّنيا على متاع الآخرة، ولذلك قال ابن الأعرابي:

إذا كان باب الذّل من جانب الغنى سموت إلى العليا من جانب الفقر

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والسّفهاء ومقاساة حمقهم وأخلاقهم، فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر.

قال جالينوس: لكلّ شيء حمّى وحمّى الرّوح النظر إلى الثقلاء، وقال الشّافعي: ما جالست ثقيلاً إلاّ وجدت الجانب الذي يليه من بدني أثقل عليّ من الجانب الآخر.

ويحكي أنّه دخل أبو حنيفة على الأعمش فقال له: إن من سلب الله كريمتيه عوّضه الله عنهما ما هو خير منهما فما الذي عوّضك؟ فقال له في معرض المطايبة عوّضني عنهما أنّه كفاني رؤية الثقلاء وأنت منهم.

وهذه فوائد العزلة وثمراتها بعضها متعلّق بالدّنيا وبعضها متعلّق بالآخرة، والله سبحانه ولي التوفيق وإليه مصير العاقبة.

الثاني

في النّميمة، وهو إسم من نمّ الحديث ينمّه من بابي ضرب وقتل سعى به ليوقع فتنة أو وحشة فهو نمّ ونمّام قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [القلم: ١٠ - ١٣].

قال في «التفسير»: أي لا تطع كثير الحلف بالباطل لقلّة مبالاته بالكذب، وصاحب المهانة أي قلّة الرّأي والتّميز أو صاحب الذّلة والحقارة عند الله سبحانه، والقارع في النّاس المغتاب، والقتّاة السّاعي بين النّاس بالنميمة طلباً للفساد وضرب بعضهم ببعض، والبخيل بالمال كثير المنع منه والمتجاوز عن الحقّ الغشوم الظّلوم والأثيم الفاجر، وقيل معتد في ظلم

غيره أثيم في ظلم نفسه، عتلّ بعد ذلك زنيم أي هو مع كونه منّاعاً للخير معتدياً أثيماً فاحش سيء الخلق، وزنيم أي دعيّ ملصق إلى قوم ليس منهم وقال سبحانه:

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد: ٤].

قيل: إنّها كانت تنمّ على رسول الله ﷺ وقال رسول الله ﷺ في «**رواية الكافي**»: «ألا أنبئكم بشراركم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «المشّاؤون بالنّميمة المفرّقون بين الأحبّة الباغون للبراء المعائب»[١].

وعن أبي ذر عنه ﷺ قال: «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حقّ شانه الله بها في النار يوم القيامة».

وعن أبي الدّرداء عنه ﷺ قال: «أيّما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء ليشينه بها في الدّنيا كان حقّاً على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار»[٢].

ويقال اتبع رجل حكيماً سبع مائة فرسخ في سبع كلمات، فلما قدم عليه قال: إنّي جئتك للّذي أتاك الله من العلم أخبرني عن السّماء وما أثقل منها، وعن الأرض وما أوسع منها، وعن الصّخر وما أقسى منها، وعن النّار وما أحرّ منها، وعن الزمهرير وما أبرد منه، وعن البحر وما أغنى منه وعن اليتيم وما أذلّ منه؟

فقال له الحكيم: البهتان على البريء أثقل من السّماوات، والحق أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر، والحرص والحسد أحرّ من النّار، والحاجة إلى القريب إذا لم ينجح أبرد من الزمهرير، قلب الكافر أقسى من الحجر، والنّمام إذا بان أمره أذلّ من اليتيم هذا.

وينبغي أن يعلم أن مراد النّمام بنميمته إمّا إرادة السّوء للمحكيّ عنه، أو إظهار الحب للمحكيّ له أو التفرّج بالحديث والخوض في الفضول والباطل، وعلى كلّ تقدير فاللازم للمحكي له عندما سمع النّميمة أمور ستّة:

الأوّل: أن لا يصّدقه لأن النّمام فاسق وهو مردود الرّواية قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ الحجرات: ٦].

وقد روى إن عمر بن عبد العزيز دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر:

(١) مصباح الفقاهة: ١/ ٤٣٢، ومصباح المنهاج: ٣٨٥.

(٢) الجامع الصغير: ١/ ٤٥٨ ح ٢٩٦٦، وكنز العمال: ١٦/ ٣٨.

إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: إن جاءكم فاسق، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: همّاز مشّاء بنميم، وإن شئت عفونا عنك، قال: العفو لا أعود إليه أبداً.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى:

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

روى في بعض مؤلفات أصحابنا من إرشاد القلوب أنّ رجلاً دخل على عليّ بن الحسين عليه السلام وقال له: إنّ فلاناً لا يزال يذكرك في قصصه بشرّ، فقال عليه السلام له: «يا هذا والله ما راعيت حقّ مجالسة الرّجل حيث نقلت إلينا حديثه وخنته فيما ائتمنك به. ولا أذيت حقّي أيضاً حين أعلمتني ما أكره، أما علمت أنّ النّمام من سكان النّار؟ ولكن قل له: إن الموت يعمّنا، والقبر يضمنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين»[١]، نقلناه بالمعنى.

الثالث: أن يبغضه في الله فإنّه بغيض عند الله، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى، وأيضاً فإنّه قد واجهك بما لم يواجهك به من حكى عنه، حيث استحياك وذكرك بسوء في غيبتك والنمام ذكرك بسوء في مواجهتك ولم يستح منك، وقد قيل: سبّك من بلّغك.

روي إنّ أمير المؤمنين عليه السلام سُعِيَ إليه برجل، فقال: يا هذا نحن نسأل عمّا قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين[٢].

الرّابع: ألا تظن بأخيك الغائب السوء لقوله تعالى:

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميراً: بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال حتى أظهر كذبه عندك، قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني، وحسبي أنّي لم أصدقه فيما قال، ولا أقطع عنك الوصال.

الخامس: أن لا يحملك ما حكى لك على التجسّس والبحث عن حقيقة ما قاله لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

السّادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النّمام عنه ولا تحكي نميمته فتكون نمّاماً ومغتاباً وتكون قد أتيت ما نهيت عنه.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٣٨١/٩ ح ٤، وبحار الأنوار: ٢٤٦/٧٢ ح ٨.

(٢) بحار الأنوار: ٢٧٠/٧٢، ومستدرك سفينة البحار: ١٥٧/١٠.

روى كعب الأَخبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرّات فما سقوا، فأوحى الله تعالى إليه أني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام قد أصر على النميمة، فقال موسى عليه السلام: يا ربّ من هو دلّني عليه حتى أخرجه من بيننا قال: يا موسى أنهيكم عن النميمة وأكون نمّاماً، فتابوا جميعاً فسقوا.

بقي الكلام في السعاية وهي النميمة إلاّ أنها إذا كانت إلى من يخاف من جانبه كالسلطان والأَمير ونحوهما تسمى سعاية وهي أقبح من النّميمة وأفحش منها لما يترتب عليها من المضار.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «السّاعي بالنّاس إلى النّاس لغير رشدة»[١]، قيل: يعني ليس بولد حلال، وذكرت السعاية عند بعض الصّالحين فقال: ما ظنّكم بقوم يحمد الصّدق من كلّ طائفة من النّاس إلا منهم.

ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبّه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقّع على ظهرها: «السّعاية قبيحة وإن كانت صحيحة فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الرّبح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكاً في مستور، ولولا أنّك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوقّ يا ملعون العيب، فإنّ الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمره الله، والساعي لعنه الله».

وبالجملة فشرُّ النّمام عظيم وخطره جسيم ينبغي التوقي منه والحذر من نميمته كيلا تقع في طول حسرة وندامة.

فقد روى حمّاد بن سلمة أنّه باع عبداً وقال للمشتري: ما فيه عيب إلاّ النميمة قال: قد رضيت، فاشتراه فمكث الغلام أيّاماً، ثم قال لزوجة مولاه: إن سيّدي لا يحبّك وهو يريد أن يتسرى[٢] عليك فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثمّ قال للزّوج: إنّ امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظنّ أنّها تريد قتله فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة وقتلوا الزوج ووقع القتال بين القبيلتين واشتد الفساد في البين.

الثالث

في إذاعة الأسرار وإفشاء الفواحش وقد نهى عنهما في الشرع الأَنور لما فيهما من الأَذى والتهاون بحق الإخوان والأصدقاء، وحذر عن الثاني في الكتاب الكريم قال تعالى:

---

(١) الجواهر السنية: ٧٨، وبحار الأنوار: ٧٢/٢٦٨.

(٢) التسري: الزواج بالسر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ولا يخفي دلالته على المقصود، فإن إفشاء الفاحشة لا يكون إلاّ عن محبّة إشاعتها وإن كان حبّ الإشاعة أعمّ، إذ يصدق على حبّ شيوعها بين المؤمنين، وإن لم يكن الإشاعة من المحبّ نفسه.

وحذّر عن الأوّل في غير واحد من الأخبار، مثل ما روى في **«الكافي»** بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: قلت له: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ قال: «نعم»: قلت: تعني سفلويه؟ قال: «ليس حيث تذهب إنما هو إذاعة سرّه»(١).

وعن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «فيما جاء في الحديث عورة المؤمن على المؤمن حرام»، قال عليه السلام: «ما هو أن ينكشف فترى منه شيئاً إنّما هو تروى عليه أو تعيبه».

وعن محمّد بن عجلان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ الله عزّ وجلّ عيّر أقواماً بالإذاعة في قوله»(٢):

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣].

فإيّاكم والإذاعة.

وعن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام قال: «يحشر العبد يوم القيامة وما ندى دماً فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك فيقال: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب إنّك لتعلم أنّك قبضتني وما سفكت دماً، فيقول: بلى سمعت من فلان رواية كذا وكذا فرويتها عليه فنقلت حتّى صارت إلى فلان الجبار فقتله عليها فهذا سهمك من دمه»، هذا.

ويتأكّد الحرمة في إذاعة أسرار الأنبياء والأئمة عليهم السلام ويدلّ عليه ما في **«الكافي»** بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجلّ:

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢].

فقال: «أما والله ما قتلوهم بأسيافهم، ولكن أذاعوا سرّهم وأفشوا عليهم فقتلوا».

وعن يونس بن يعقوب عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما قتلنا من أذاع حديثنا قتل خطأ ولكن قتلنا قتل عمد».

---

(١) مجمع الفائدة: ١٢/ ٣٥٠، وكتاب الطهارة: ٣/ ٣٥٣.
(٢) الكافي: ٢/ ٣٧٠، والمحاسن: ١/ ٢٥٦ ح ٢٩٣.

وعن محمّد الخزاز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أذاع علينا حديثنا فهو بمنزلة من جحدنا حقنا»[١].

وعن نصر بن ساعد مولى أبي عبد الله عن أبيه عليه السلام: قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «مذيع السرّ شاك، وقائله عند غير أهله كافر. ومن تمسّك بالعروة الوثقى فهو ناج، قلت: ما هو؟ قال التّسليم».

وعن أبي خالد الكابلي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله جعل الدّولتين دولتين: دولة آدم وهي دولة الله، ودولة إبليس، فإذا أراد الله أن يعبد علانية كانت دولة آدم، وإذا أراد الله أن يعبد في السر كانت دولة إبليس، والمذيع لما أراد الله ستره مارق من الدّين».

وعن عبد الرّحمٰن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من استفتح نهاره بإذاعة سرّنا سلّط الله عليه حرّ الحديد وضيق المحابس»[٢]، هذا.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وفيما رويناه كفاية لمن له دراية، والله الهادي.

---

(١) مجمع الفائدة: ١٢/٣٤٩، والكافي: ٢/٣٧٠ ح ٢.

(٢) الكافي: ٢/٣٧٢ ح ١٢، وتحف العقول: ٣١١.

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه اشاره است به فساد زمان بنی امیه و بنی مروان و حال روزگار سایر مخالفان، چنانچه فرموده:

و آن زمان زمانی است که نجات نیابد در آن مگر هر مؤمنی که گمنام باشد، اگر حاضر شود آن مؤمن در مجالس نشناسند او را و اگر غایب شود نجویند او را، ایشانند چراغ های هدایت در صراط مستقیم و نشان های سیر و حرکت در شب به سوی منهج قویم، نیستند در میان مردمان گردش کنندگان با فساد و سخن چینی و نه فاش سازندگان اسرار و عیب های بندگان، ایشان می گشاید حق تعالی از برای ایشان درهای رحمت خود را و ببرد از ایشان شدت عقوبت خود را.

ای گروه مردمان، زود باشد که بیاید بر شما زمانی که سرنگون کرده می شود در او اسلام همچنان که سرنگون می شود ظرف با آنچه در او است. ای جماعت مردمان، به درستی که خداوند تعالی نگاه داشته شما را از اینکه ظلم و جور نماید در حق شما و نگه نداشته شما را از اینکه امتحان نماید شما را و گفته در حالتی که بزرگ است از حیثیت گویندگی: "إنّ في ذلك لأيات و إن كنّا لمبتلين"؛ یعنی به درستی که در این نشان ها و علامت هایی است و اگرچه هستیم ما آزمایش و امتحان کنندگان.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثالثة من المختار في باب الخطب

خطب بها عند خروجه إلى البصرة وقد تقدّم مختارها بخلاف هذه الرّواية وهي الخطبة الثالثة والثلاثون.

«أَمّا بعْد، فَإِنَّ الله سُبْحانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله ولَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتاباً، ولا يَدَّعِي نُبُوَّةً ولا وَحْياً، فَقاتَلَ بِمَنْ أَطاعَهُ مَنْ عَصاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلى مَنْجاتِهِمْ، ويُبادِرُ بِهِمُ السّاعةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ، ويَقِفُ الكَسِيرُ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتّى يُلْحِقَهُ غايَتَهُ إِلاّ هالِكاً لا خَيْرَ فيهِ، حَتّى أَراهُمْ مَنْجاتَهُمْ، وبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدارَتْ رَحاهُمْ، وَاسْتَقامَتْ قَناتُهُمْ، وأَيْمُ اللهِ لَقَدْ كُنْتُ في ساقَتِها حَتّى تَوَلَّتْ بِحَذافيرِها، وَاسْتَوْسَقَتْ في قِيادِها، ما ضَعُفْتُ ولا جَبُنْتُ، ولا خُنْتُ ولا وَهَنْتُ، وَأَيْمُ اللهِ لأَبْقُرَنَّ الْباطِلَ حَتّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خاصِرَتِه»[1].

اللغة

(**المنجاة**) محلّ النجاة ويحتمل المصدر و (**حسر**) البصر يحسر حسوراً من باب قعد كلّ وانقطع من طول مدى ونحوه وهو حسير، وحسر البعير ساقه حتّى أعياه كأحسره، وحسر البعير أيضاً من باب ضرب وفرح أعيا كاستحسر فهو حسير يتعدّى ولا يتعدّي وناقة (**كسير**) مكسورة و (**استوسقت**) الإبل اجتمعت و (**قياد**) وزن كتاب حبل يقاد ومضى تفسير سائر الألفاظ في شرح الخطبة المشار إليها المتقدمة.

الإعراب

جملة (**ليس أحد**) حال من فاعل بعث والرابط الواو، وجملة (**يسوقهم**) حال من فاعل قاتل والرابط الضمير، وقوله (**أن تنزل بهم**) إما بدل من السّاعة أو مفعول له ليبادر أي مخافة أن تنزل بهم على حدّ قوله تعالى:

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

أي كراهة أن تضلّوا، وإلاّ هالكاً إما استثناء من مفعول يلحقه أو من الضّمير في عليه، والثاني أظهر لأنّه كان مقيماً على الهالك وغيره إلاّ أنّ الإلحاق إلى الغاية كان مختصماً بغير

(١) الإرشاد: ١/٢٤٨.

الهالك فحسن الاستثناء.

فإن قلت: إذا كان إقامته عليهما على السواء فما معنى الاستثناء من الضمير؟

قلت: إنّه صلى الله عليه وآله وإن كان مبعوثاً إلى الناس كافة مقيماً عليهم مريداً لإلحاقهم إلى الغاية طامعاً في إيمانهم جميعاً، إلاّ أنّ اللّحوق المترتب على الإلحاق الذي كان غاية للإقامة لما لم يكن ممكناً في حق الهالك فجاز الاستثناء من كل من الإقامة والإلحاق باعتبار اللّحوق المترتب عليهما، ووجه أظهرية الاستثناء في الثاني هو أن ترتب اللّحوق عليه بلا واسطة وعلى الأوّل مع الواسطة فافهم، ويوضح ما ذكرته من كونه مقيماً على الكل حريصاً على إيمانهم وإن لم يؤمنوا قوله تعالى:

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٥ ـ ٧] وقوله﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

المعنى

اعلم أنّه قد تقدّم في شرح الخطبة الثالثة والثّلاثين أنه عليه السلام خطب بهذه الخطبة عند الخروج لحرب أهل الجمل وأن غرضه عليه السلام منه التّنبيه على أن حربه عليه السلام معهم إنّما هي لإقامة الحق وإزالة الباطل، وتقدّم أيضاً تحقيق الكلام فيها وفي توضيح أكثر فقراتها ولا حاجة إلى إعادة ما تقدّم ونذكر هنا ما لم يسبق ذكره ثمة فنقول:

قوله عليه السلام: (**أمّا بعد فإن الله سبحانه بعث محمداً** صلى الله عليه وآله **وليس أحد من العرب**) حين بعثه (**يقرأ كتاباً ولا يدّعي نبوة**) وهو محمول على بعض العرب أي الغالب منهم أو المراد بالكتاب الكتاب الحق إن أريد بهم العموم فلا ينافي وجود الصحف المحرفة من التوراة والإنجيل والزبور بينهم حسبما مرّت إليه الإشارة.

(**فقاتل بمن أطاعه من عصاه**) أي جاهد باستعانة المؤمن الموحّد العاصي المتمرّد (**يسوقهم إلى منجاتهم ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم**) أي يسارع بهم إلى الإرشاد والهداية، ويعجل في انقاذهم من الجهالة مخافة أن تنزل بهم السّاعة على ما هم عليه من العمى والضلالة فيستحقّوا بذلك السّخط والعقاب ويستوجبوا به أليم العذاب.

(**يحسر الحسير ويقف الكسير فيقيم عليه حتى يلحقه غايته**) يقول عليه السلام إنّه كان ينقطع الغيّ العاجز ويقف المكسور فكان الرّسول صلى الله عليه وآله لا يزال مقيماً عليه حتى يلحقه الغاية ويوصله الغرض وهو من باب الاستعارة شبّه النّاس في سلوكهم طريق الآخرة بابل يسار بها في الأسفار، وأثبت لهم وصف الحسير والكسير الذي هو من أوصاف الإبل.

والمراد أن من عجز ووقف قدم عقله في سلوك طريق الحق لضعف في اعتقاده أو

قصور في آلة إدراكه لا يزال النبي ﷺ مقيماً عليه آخذاً بعضده جاذباً له بأنواع التدبير والجواذب إلى ما يمكن من العقيدة المرضية والأعمال الزّكيّة التي هي الغاية القصوى من خلقة الإنسان.

وقريب من ذلك ما في شرح المعتزلي قال: هذا الكلام من باب الاستعارة والمجاز يقول عليه السلام: كان النبيّ ﷺ لحرصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ورأفته بهم يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده أو عرضت له شبهة أو حدث عنده ريب لا يزال يوضح له، ويرشده حتّى يزيل ما خامر سرّه من وساوس الشيطان ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين ولم يكن ليقصّر في مراعاة أحد من المكلّفين في هذا المعنى **(إلا هالكاً لا خير فيه)** أصلاً لعناده وإصراره على الباطل ومكابرته للحقّ كأبي جهل وأبي لهب ونظرائهما **(حتّى أراهم منجاتهم وبوأهم محلتهم)** أراد بهما دين الإسلام إذ به ينجي في العقبى وينزل في أشرف المنازل ويؤتى.

(فاستدارت) به عليه السلام **(رحاهم واستقامت قناتهم)** كنى باستدارة رحاهم عن انتظام أمورهم لأنَ الرّحى لا تستدير إلاّ بعد تكامل الآلة وانتظام أدواته، وأراد باستقامة قناتهم ظهور قهرهم وغلبتهم وحصول القوة لهم، لأنَ القناة سبب للقوة ولا تستقيم إلاّ في حال الظفر والغلبة.

(وأيم الله لقد كنت في ساقتها حتى تولّت بحذافيرها) قال الشّارح المعتزلي: هذا الضّمير المؤنث يرجع إلى غير مذكور لفظاً، والمراد الجاهلية كأنّه جعلها مثل كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه حتى فرّت وأدبرت وأتبعها يسوقها سوقاً وهي مولية بين يديه حتى أدبرت بحذافيرها أي كلّها عن آخرها[1] **(واستوسقت في قيادها)** أي اجتمعت في ذل الانقياد كالإبل التي تستوثق في قيادها.

ثمّ أشار عليه السلام إلى شجاعته وأمانته بقوله: **(ما ضعفت)** في القتال **(ولا جبنت)** من لقاء الأبطال **(ولا خنت)** في تبليغ أمر الله **(ولا وهنت)** في إقامة دين الله **(وأيم الله)** سبحانه **(لأبقرنّ الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته)** تقدّم معناه فيما سبق فليراجع ثمة.

تكملة

هذه الخطبة رواها المحدّث العلامة المجلسي (ره) **في** «**البحار**» من إرشاد الشيخ بنحو آخر أوجبت الحال إيرادها قال:

لما توجه أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى البصرة نزل الرّبذه فلقاه بها آخر الحاج فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه وهو في خبانه قال ابن عباس رضي الله عنه، فأتيته فوجدته

(١) شرح نهج البلاغة ـ خطبة (١٠٣) ـ الجزء السابع.

يخصف نعلاً فقلت له عليه السلام: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منها إلى ما تصنع فلم يكلّمني حتى فرغ من نعله، ثمّ ضمّها إلى صاحبتها وقال عليه السلام لي: قوّمهما، فقلت: ليس لهما قيمة، قال: على ذلك[1] قلت: كسر درهم، قال عليه السلام: والله لهما أحبّ إليّ من أمركم هذا إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً، قلت: إن الحاج اجتمعوا ليستمعوا من كلامك فتأذن لي أن أتكلم فإن كان حسناً كان منك، وإن كان غير ذلك كان منّي، قال عليه السلام: لا، أنا أتكلّم، ثمّ وضع عليه السلام يده على صدري وكان ستن الكفين فآلمني ثم قام فأخذت بثوبه وقلت: نشدتك[2] الله والرّحم قال عليه السلام: لا تنشدني ثم خرج فاجتمعوا عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أمّا بعد، فإن الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وليس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدّعى نبوة فساق الناس إلى منجاتهم، أم والله ما زلت في ساقتها ما غيّرت ولا بدّلت ولا خنت حتى تولّت بحذافيرها، مالي ولقريش، أم والله لقد قاتلتهم كافرين ولاقاتلنّهم مفتونين، وإن مسيري هذا عن عهد إليّ فيه، أم والله لأبقرنّ الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته، ما تنقم منّا قريش، إلاّ أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيّزنا وأنشد:

أدمت لعمري شربك المحض خالصاً ... وأكلك بالزبد المقشرة التمرا
ونحن وهبناك العلاء ولم تكن ... علياً وحطنا حولك الجرد والسمرا»[3]

ولمّا نزل عليه السلام بذي قار أخذ البيعة على من حضره، ثمّ تكلّم فأكثر من الحمد لله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال:

«قد جرت أمور صبرنا عليها وفي أعيننا القذى تسليماً لأمر الله فيما امتحننا به رجاء الثّواب على ذلك، وكان الصّبر عليها أمثل من أن يتفرّق المسلمون ويسفك دماؤهم نحن أهل البيت وعترة الرّسول صلى الله عليه وآله وأحق الخلق بسلطان الرّسالة ومعدن الكرامة الّتي ابتدأ الله بها هذه الأمّة، وهذا طلحة والزّبير ليسا من أهل النّبوة ولا من ذريّة الرّسول صلى الله عليه وآله حين رأيا أنّ الله قد ردّ علينا حقّنا بعد أعصر لم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتّى وثبا عليّ دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقي ويفرقا جماعة المسلمين عنّي»[4]، ثم دعا عليه السلام عليهما.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/١١٣ ح ٩٠، والإرشاد: ١/٢٤٧. أي على ذلك التحقير الذي تظهره.

(٢) الإرشاد: ١/٢٤٨، ونهج السعادة: ١/ ٢٥٠. لعله نشره على أن يدع الكلام إليه ظناً منه إن المصلحة في ذلك.

(٣) الإرشاد: ١/ ٢٤٩، ونهج السعادة: ١/ ٢٦٨. الجزء فضاء لا نبات فيه والسمرة بالضم من شجر الطلح والجمع السمر ومضى في شرح الخطبة الثالثة والثلاثين لها معنى آخر أحسن من ذلك فليتذكر، منه.

(٤) نهج السعادة: ١/ ٢٢٢ ح ١٢، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٢٢٢.

الترجمة

از جمله خطب عالية المضامين آن امام مبين است كه فرموده:

امّا بعد از حمد خدا و درود بر حضرت مصطفى (ﷺ)، پس به درستى كه حق تعالى برانگيخت محمّد بن عبدالله (ﷺ) را در حالتى كه نبود هيچ احدى از عرب كه بخواند كتاب حق را و نه دعوى نبوتى بكند و نه وحى و خطابى را از جانب خدا، پس مقاتله كرد به معونت كسانى كه اطاعت نمودند او را با كسانى كه معصيت و نافرمانى كردند به او، در حالتى كه مى راند ايشان را به جانب راستگارى.

و مبادرت مى نمود بر ايشان بر ساعت موت كه مبادا نازل شود بر ايشان در حالتى كه عاجز مى شد عاجز شونده و مى ايستاد شكسته، پس اقامت مى نمود ختمى مآب سلام الله عليه و آله و ثابت قدم مى شد بر آن عاجز پريشان و شكسته ناتوان تا اينكه مى رسانيد هريك از ايشان را به مقصد خودشان مگر كسى كه در هلاكت بوده كه در آن هيچ اميد خيرى و صلاحى نبوده باشد.

تا اينكه بنمود به مردم محل نجات ايشان را و جاى داد ايشان را در مقام خودشان، پس دوران نمود آسياى ايشان و راست شد نيزه ايشان.

و سوگند به خدا، به تحقيق كه بودم من از جمله راننده هاى لشگر جهالت و ضلالت تا اينكه بازگشتند آن لشگر به تمامى و مجتمع شدند در قيد و ريسمان خودشان كه جامع ايشان بود، در حالتى كه ضعيف نشدم و نترسيدم و خيانت ننمودم و سستى نكردم و قسم به خدا، هرآينه البته مى شكافم باطل را تا اينكه بيرون آورم حق را از تهى گاه آن.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والرابعة من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين:

الفصل الأول

«حَتى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله شَهيداً وبَشيراً ونَذيراً خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وأَنْجَبَها كَهْلاً، وأَطْهَرَ الْمُطَهَّرينَ شيمَةً، وأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرينَ دَيْمَةً، فَما أَحْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيا في لَذّاتِها، ولا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضاعِ أَخْلافِها، إلاّ مِنْ بَعْدِ ما صادَفْتُموها جائِلاً خِطامُها، قَلِقاً وَضينُها، قَدْ صارَ حَرامُها عِنْدَ أَقْوامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ المَخْضُودِ، وحَلالُها بَعيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وصادَفْتُموها وَاللهِ ظِلاًّ مَمْدُوداً إلى أَجَلٍ مَعْدُودٍ، فَالأَرْضُ لَكُمْ شاغِرَةٌ، وأَيْديكُمْ فيها مَبْسُوطَةٌ، وأَيْدي القادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ، وسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ، أَلا إنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثائِراً، ولِكُلِّ حَقٍّ طالِباً، وإنَّ الثّائِرَ في دِمائِنا كَالْحاكِمِ في حَقِّ نَفْسِهِ، وهُوَ اللهُ الَّذي لا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، ولا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ، فَاُقْسِمُ بِاللهِ يا بَني أُمَيَّةَ عَمّا قَليلٍ لَتَعْرِفُنَّها في أَيْدي غَيْرِكُمْ، وفي دارِ عَدُوِّكُمْ»(١).

اللغة

(**الكهل**) بفتح الأوّل من جاوز الثلاثين، وقيل من بلغ الأربعين، وقيل من جاوز أربعاً وثلاثين إلى إحدى وخمسين، و (**جادت**) السماء جوداً بالفتح أمطرت وقيل الجود المطر الغزير و (**المستمطرين**) في أكثر النسخ بصيغة المفعول وهو الأظهر، وفي بعض النسخ بصيغة الفاعل و (**الدّيمة**) المطر الدّائم في سكون.

و (**احلولى**) الشيء صار حلواً، و (**الرّضاع**) بالفتح مصدر رضع الصّبي أمّه بالكسر أي امتصّ ثديها، و (**الأخلاف**) جمع خلف بالكسر وهو حلمة ضرع الناقة أو نفس الضرع لكلّ ذات خف وظلف، و (**الخطام**) بالكسر ما يقاد به البعير، و (**قلق**) ككتف المضطرب المتحرّك الذي لا يستقر في مكانه، و (**الوضين**) بطان منسوج بعضه ببعض يشدّ به الرّحل على البعير كالحزام للسّرج.

وقال الشّارح المعتزلي: ما يشدّ به الهودج على بطن البعير كالبطان للقتب والتصدير

---

(١) نهج السعادة: ١/ ٢٥١، والإرشاد: ١/ ٢٤٨.

للرحل والحزام للسرج، و (**المخضد**) عطف العود اللّين يقال خضدت العود فانخضد أي ثنيته فانثنى من غير كسر وخضدت الشجر أي قطعت شوكه والسدر المخضود الذي انثنى أغصانه من كثرة الحمل أو الذي قطع شوكه فصار ناعماً أملس.

و (**شغرت**) الأرض كمنعت أي لم يبق بها أحد يجمعها ويضبطها، وبلدة شاغرة برجها إذا لم تمنع من غارة أحد، وعن النهاية قيل الشغر الاتساع ومنه حديث علي عليه السلام: «فالأرض لكم شاغرة» أي واسعة، و (**الثار**) الدّم والطّلب به وثار به كمنع طلب دمه كثاره وقتل قاتله والثائر الذي لا يبقى على شيء حتى يدرك ثاره.

الإعراب

(**شهيداً وبشيراً ونذيراً**) منصوبات على الحال من مفعول بعث، (**وخير البرية**) والمعطوفات عليه منصوبات على الوصف، وتحتمل الحال أيضاً، (**وطفلاً وكهلاً**) منصوبان على الحال أيضاً، وإضافة أطهر إلى المطهّرين معنويّة، وشيمة تميز، وإضافة أجود إلى المستمطرين معنوية أيضاً بمعنى من إن كان المضاف إليه بصيغة المفعول كما في أكثر النسخ، وبمعنى اللام إن كان بصيغة الفاعل.

(**وديمة**) تميز على الأوّل وعلى الثاني يحتمل التميز وهو الأظهر، ويحتمل أن يكون مفعولاً للمستمطرين فتدبر، (**والفاء**) في قوله: (**فالأرض فصيحة**)، (**وعن**) في قوله عمّا قليل بمعنى بعد، وما زائدة كما مرّة غير مرّة.

المعنى

اعلم أن صدر هذا الفصل من كلامه عليه السلام مسوق لذكر محامد رسول الله صلى الله عليه وآله ومناقبه، وبعده إشارة إلى بيان حال بني أميّة لعنهم الله قاطبة، وذيله أخبار بما سيكون من مآل حال بني أميّة وتنبيه على أنهم يسعون في دماء عترة الرّسول فينتقم الله منهم ويجزيهم بما كسبت أيديهم، والله عزيز ذو انتقام.

قال عليه السلام: (**حتّى بعث الله محمّداً** صلى الله عليه وآله شهيداً) على أوصيائه وأمّته وعلى الأنبياء وأممهم كما قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وقد مرّ تحقيق هذه الشهادة في شرح الخطبة الإحدى والسّبعين بما لا مزيد عليه فليرجع إليه (وبشيراً ونذيراً) وهما من ألفاظ الكتاب العزيز قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩].

قال الطبرسي: أرسلناك يا محمّد بالحق قيل: بالقرآن، وقيل: بالإسلام، وقيل على الحقّ بشيراً من أتبعك بالثواب، ونذيراً من خالفك بالعقاب ولا تسأل عن أصحاب الجحيم أي لا تسأل عن أحوالهم، وفيه تسلية للنّبي صلى الله عليه وآله إذ قيل له: إنّما أنت بشير ونذير ولست تسأل عن أصحاب الجحيم، وليس عليك إجبارهم على القبول منك[1].

(**خير البرية طفلاً**) لأنَ الخيرية إنّما هي بالأعمال الصّالحة والأخلاق الفاضلة، والتسديد بسلوك سبيل الحقّ وهو صلى الله عليه وآله منذ أيّام طفوليته وصباه كان ملازماً لذلك سابقاً فيه على غيره.

(**وأنجبها كهلاً**) أي أفضلها، وقيل: أكرمها فلقد كان صلى الله عليه وآله في حال كهوليّته ودعوته منبع كلّ كرم وفضل، (**أطهر المطهرين شيمة**) أي طبيعة وجبلة وخلقاً لم تدنسه الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسه من مدلهمات ثيابها، (**وأجود المستمطرين ديمة**) أي أجود الأشخاص الذين يطلب منهم الأمطار ويرجى منهم الإحسان[2]، أو أكثر جوداً للّذين يطلبون البذل والإنعام، وعلى كلّ تقدير فقد شبهه عليه السلام بالسّحاب الماطر والغيث الهاطل، وأراد بذلك كثرة جوده وعطاياه، فلفظ المستمطرين استعارة للراجين أو المرجوّين منهم الإحسان، وذكر الجود والدّيمة ترشيح للاستعارة، هذا.

وقوله عليه السلام: (**فما احلولت لكم الدّنيا في لذّاتها**) قال الشارح المعتزلي الخطاب لمن في عمره من بقايا الصّحابة ولغيرهم من التّابعين الذين لم يدركوا عصر النّبي صلى الله عليه وآله وقيل: الخطاب لبني أمية وأمثالهم، والأول أوفق بظاهر المخاطبة، والثّاني أظهر بملاحظة سياق الكلام والفقرات الآتية.

وكيف كان فالمعنى أنّه ما صارت لكم الدّنيا حلوة في لذّاتها، (**ولا تمكنتم من رضاع أخلافها**) **استعارة بالكناية شبه** عليه السلام الدّنيا بناقة مرضعة تنتفع بها ويمتص من ثدييها، والجامع وجوه الانتفاع وأثبت لها الأخلاف تخييلاً، وذكر الرّضاع ترشيح، والمقصود أنكم ما تمكنتم من الانتفاع بالدّنيا والابتهاج بلذاتها، (**إلاّ من بعد ما صادفتموها**) أي أصبتموها ووجدتّموها (**جائلاً خطامها قلقاً وضينها**) استعارة بالكناية أيضاً، وذكر الخطام والوضين تخييل، وذكر الجولان والقلق ترشيح.

قال المحدث المجلسي (ره): والغرض عدم تمكّنهم من الانتفاع بالدّنيا وصعوبتها عليهم وعدم انقيادها لهم كما يستصعب النّاقة على راكبها إذا كانت جائلة الخطام قلقة الوضين

---

(١) مجمع البيان: ١/ ٣٦٨.

(٢) هذا مبني على كون المستمطرين بصيغة المفعول وإضافة أجود إليه بمعنى من والثاني مبني على كونه بصيغة الفاعل وكون الإضافة بمعنى اللام، فافهم.

لا يثبت رحلها تحت راكبها.

أقول: والأظهر عندي أن الغرض بذلك الإشارة إلى أنّهم لم يتمكّنوا من الانتفاع بالدّنيا ومن رضاع أخلافها وتولية أمرها إلاّ من بعد ما أصابوها وليس لها صاحب ولا فيها أمر وسلطان حق يمنعهم من تولي أمرها والتّصرف فيها بمنزلة ناقة ليس لها صاحب ولا لها راكب، فإن النّاقة إذا كان لها راكب يركبها يمسك خطامها ويشدّ وضينها ويملك أمرها ويمنع من تسلّط الغير عليها، فجولان الخطام، واضطراب الوضين إنّما يكونان مع عدم من يملك أمرها وبتلك الحال يتمكّن منها من يصادفها.

ويؤيد ما ذكرته قوله **(قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود)** فإنّه ظاهر في أنّ المراد بالأقوام الخلفاء المتقدّمين الّذي ولوها بلا وجه شرعيّ فانجرّ الأمر منهم إلى بني أميّة وتداولوها بينهم دولة جاهلية هذا.

وتشبيه الحرام بالسّدر المخضود إشارة إلى كثرة أكلهم له ورغبتهم به إن كان المخضود بمعنى المعطوف من كثرة الحمل، وإن كان بمعنى مقطوع الشّوك فوجه الشّبه أن نواهي الله سبحانه ووعيداته[1] على فعل الحرام تجري مجرى الشوك للسّدر في كونها مانعة منه زاجرة عنه كما يمنع الشوك عن اجتناء ثمرة السّدر، ولما كان هؤلاء الأقوام قد اغمضوا عن النّواهي والوعيدات[2] ولم يبالوا بها فصار الحرام عندهم بمنزلة السّدر النّاعم الأملس الخالي عن الشّوك في سهولة التناول **(و)** من أجل عدم المبالاة أيضاً صار **(حلالها بعيداً غير موجود)** أي بين هؤلاء الأقوام أو بين عموم الناس لعدم دليل لهم يرشدهم إلى الحلال وينقذهم من الحرام.

ثمّ نبّه عليه السلام على سرعة زوال الدّنيا وانقضائها بقوله: **(وصاد فتموها والله ظلاّ ممدوداً إلى أجل معدود)** تهديداً لهم عن الابتهاج بها وتحذيراً عن الاغترار بلذّاتها.

ثم أشار إلى تسلّطهم في الأرض وتمكّنهم من التّصرف فيها بأيّ نحو شاؤوا وقال **(فالأرض لكم شاغرة)** أي ليس بها حام يحميها ولا أمير يضبطها ويمنعكم منها بل هي مخلاة لكم أو أنها غير ضيقة عليكم وأنتم فيها في اتساع **(وأيديكم فيها مبسوطة)** بالجور والعدوان ووجوه التّصرف بأيّ نحو كان **(وأيدي القادة)** أي الولاة الحقّ **(عنكم مكفوفة)** لقلّة النّاصر والمعين وغلبة الشقاق والنّفاق **(وسيوفكم عليهم مسلّطة وسيوفهم عنكم مقبوضة)** وكأنه إشارة إلى وقعة كربلا وما كان من بني أميّة وتابعيهم فيها من سفك الدّماء.

ونبّه عليه السلام على أن الدّم الذي سفكوه لا يكون هدراً، وأن له طالباً يطلبه فقال **(ألا إن لكلّ دم ثائراً ولكلّ حق طالباً وأن الثائر في دمائنا)** والطّالب لحقنا **(كالحاكم في حقّ نفسه)**

(١) (٢) وعيده.

يستوفي حقه بنفسه ويحكم بعلمه من غير افتقار إلى بيّنة وإثبات وحكم حاكم آخر **(وهو الله الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب)** أي: لا يعجزه مطلوب ولا يفوته هارب بل ينتقم منه ويأخذ بقوده.

ولا يخفى ما في هذه الفقرات من التأكيد والتهديد، حيث استفتح الكلام أوّلاً بكلمة ألا الاستفتاحية المفيدة للإيقاظ والتنبيه، وأكّده بكلمة إنّ واللاّم والجملة الإسميّة، وعقبه بأن ثائر دمهم هو الله القويّ العزيز الشأن، ووصفه بأنه حاكم مختار غير مفتقر وقادر قاهر مدرك مقتدر.

ثمّ لا يخفى ما في حصر ثائرهم في الله، فإنّ دماءهم فقد سفكت بالله ولله وفي سبيل الله، فحري لها أن يكون ثائرها هو الله تعالى، لإضافة تلك الدماء الطيّبة إليه سبحانه وتعلّقها عليه دون غيره.

ويشير إلى ذلك المعنى ما في زيارته عليه السلام: السّلام عليك يا ثار الله وابن ثاره، فإن معنى الإضافة هو أنهم عليهم السلام لمّا قتلوا مظلومين في سبيل الله، ولم يسفك دماؤهم إلاّ أن قالوا: ربنا الله، فصار تلك الدّماء حقيقاً بأن تضاف إليه سبحانه وتكون حقّاً له مختصة به تعالى، ويحقّ له جلّ شأنه أن يكون ثائرها بالاستقلال بالانتقام أو نصرة من وليّه على القصاص وقد قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

روى في **«الكافي»** عن الصّادق عليه السلام «أنها نزلت في الحسين عليه السلام لو قتل أهل الأرض به ما كان مسرفاً»[1]، هذا.

ويجوز أن يكون الإضافة في ثار الله تشريفاً وتكريماً، فإن الله أجلّ وأعلى من أن يوصف بأوصاف الجسم ويكون له ثار ودم ونحوهما، وإنما يضاف إليه بعض الأشياء إظهاراً لرفعه شأنه وعلو قدره، كما يقال روح الله وبيت الله.

ثمّ إنّه لما هدّدهم بانتقام الله منهم أخبرهم بزوال الملك عنهم فقال عليه السلام: **(فاقسم بالله يا بني أمية عما قيل لتعرفنّها)** أي الخلافة والإمارة، أو الدّنيا كما هي مرجع الضمائر المتقدّمة **(في أيدي غيركم وفي دار عدوّكم)** وقد وقع الأمر بموجب إخباره عليه السلام، فإن الأمر بقي في أيدي بني أميّة نيفاً وثمانين سنة، ثمّ عاد إلى البيت الهاشمي، وانتقل إلى أشدّ النّاس عداوة لهم أعني بني العباس.

قال الشارح المعتزلي: سار عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس في جمع عظيم للقاء مروان بن محمّد بن مروان، وهو آخر خلفاء الأمويّين، فالتقيا بالزّاب من أرض الموصل

(١) شرح أصول الكافي: ١٢/ ٣٥٠ ح ٣٦٧٤، والتفسير الصافي: ٣/ ١٩١.

ومروان في جموع عظيمة وأعداد كثيرة، فهزم مروان، واستولى عبد الله بن عليّ على عسكره، وقتل من أصحابه قتلاً عظيماً، وفرّ مروان هارباً حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه فسار إلى مصر فأتبعه عبد الله بجنوده، فقتله بنو صبر الاشمونين من صعيد مصر، وقتل خواصه وبطانته كلّها.

وقد كان عبد الله قتل من بني أميّة على نهر أبي فطرس من بلاد فلسطين قريباً من ثمانين رجلاً قتلهم مُثْلَة، واحتذى أخوه داود بن عليّ بالحجاز فعله، قتل منهم قريباً من هذه العدّة بأنواع المثل.

وكان مع مروان حين قتل ابناه عبد الله وعبيد الله، وكانا وليّيَ عهده، فهربا في خواصهما إلى اسوان من صعيد مصر، ثمّ صارا إلى بلاد النّوبة ونالهم جهد شديد وضرّ عظيم.

فهلك عبد الله بن مروان في جماعة ممّن كان معه قتلاً وعطشاً وضرّاً، وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب المكاره.

ووقع عبيد الله في عدّة ممن نجا معه من أهله ومواليه في البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً، فظفر بعبيد الله أيّام السّفاح فحبس فلم يزل في السّجن بقيّة أيّام السّفاح، وأيّام المنصور، وأيّام المهدي، وأيّام الهادي، وبعض أيام الرّشيد وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير، فسأله عن خبره فقال حبست غلاماً بصيراً وأخرجت شيخاً ضريراً. وقتل عبد الله بن عليّ بدمشق خلقاً كثيراً من أصحاب مروان وموالي بني أمية وأتباعهم، ونزل عبد الله على نهر أبي فطرس فقتل من بني أمية هناك بضعاً وثمانين رجلاً، وذلك في ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني قال: نظر عبد الله بن عليّ في الحرب إلى فتى عليه أبهة الشرف وهو يحارب مستقبلاً فناداه يا فتى لك الأمان ولو كنت مروان بن محمّد قال: إن لا أكنه فلست بدونه، فقال: لك الأمان ولو كنت من كنت فأطرق ثمّ أنشد:

أذلّ الحياة ذكرة الممات فكلا أراه طعاماً وبيلاً

وإن لم يكن غير إحداهما فسيراً إلى الموت سيراً جميلاً

ثمّ قاتل حتّى قتل فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك بن مروان[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ الجزء السابع ـ الخطبة ١٤٠.

أقول: انقراض الدّولة الأمويّة واستئصالهم وقتل نفوسهم كان بيد عبد الله بن محمّد المكنّى بأبي العباس الملقب بالسّفاح، وهو أوّل خلفاء العبّاسية كما صرّح به وباسمه ولقبه في «**القاموس**»، والمعروف أنّ اسمه أحمد، وقد بويع له بالخلافة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر الرّبيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة صعد المنبر يوم بويع وخطب النّاس، فقام إليه السيد الحميري فأنشد:

ردتكموها يا بني هاشم	فجددوا من آيها الطامسا
ردتكموها لا على كعب من	أمسى عليكم ملكها نافساً
ردتكموها فألبسوا تاجها	لا تعدموا منكم له لابساً
خلافة الله وسلطانه	وعنصر كان لكم دارساً
قد ساسها قبلكم ساسة	لم يتركوا رطباً ولا يابساً
لو خيّر المنبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارساً
والملك لو شودر في سائس	لما ارتضى غيركم سايساً
لم يبق عبد الله بالشام من	آل أبي العاص امرءاً عاطساً
فلست من أن تملكوها إلى	هبوط عيسى منكم آيساً

وقد روى حديثه مع بني أمية أبو مخنف لوط بن يحيى بطرز غريب ونهج عجيب، بعبارات فصيحة، وألفاظ بليغة أحببت إيرادها بعينها.

قال: حديث السّفاح مّا جلس على كرسيّ الإمارة للخلافة وسبب قتل بني أميّة على يده تحريض العبد سديف مولى بني هاشم رضي الله عنه.

قال: حدّثنا محمّد بن قتادة عن زيد بن علي أنه كان في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وقد سمع أنّ ملك بني أمية إذا ماد وانقضى رجعت الخلافة إلى بني العبّاس، وأول من وليّها السّفاح، وقد تسامعت به ملوك الأرض وأذعنوا له بالطّاعة وخطبوا له في مشارق الأرض ومغاربها، وقد نقش اسمه على الدّراهم، وخافت الملوك والتجأت إليه الأمم وهربت من سطوته شياطين العرب والعجم، وتطايرت بنو أميّة شرقاً وغرباً وسهلاً وجبلاً مخافة من سلطانه وشدّة بأسه وسيفه وقهره، ولما كان بينهم من الضغائن والحقود القديمة والأمور السالفة.

ثمّ إنهم كتبوا إليه يطلبون منه الأمان، ويسألوه التعطف والإحسان، وأن لا يؤآخذهم بما كان من المداخلة، وأن يجعلهم أهل بطانته وظهارته وأهل مملكته.

فكتب لهم كتاباً وذكر لهم أنه غير غنيّ عنهم وأنه يحتاج إلى خدمتهم، وضمن لهم الأموال والعطايا والإقطاع.

واجتمع إليه منهم الكبير والصّغير، والرّؤساء وآل زياد وآل مروان وآل يزيد بن معاوية فلمّا اجتمعوا كلّهم إليه وكان عدّتهم سبعين ألف فارس ويقدمهم يزيد بن عبد الملك بن مروان ساروا في رتبتهم وعددهم حتى قدموا الأنبار ودخلوا إلى أبي العباس أحمد السّفاح على مراتبهم، وأعدّ لهم كراسي من الذهب والفضّة ليجلسوا عليها يسلّمون عن يمينه وشماله.

ثمّ إنّه جعل منهم أمراء وحجاباً وندماً ووكلاء وكانوا يجلسون من حوله وأقرب النّاس إليه وأعزّهم عليه وكان الخاص والعام يتعجبون منه ومن فعله بهم ويقولون ما رأينا رجلاً أعجب من هذا الرّجل قطّ، يقرّب أعداءه ويقفى أشغالهم ويعطيهم أمواله وضياعه، وكان العاقل يقول إنما يفعل بهم ذلك ليبيدهم وينعم عليهم حتى يجتمعوا ويتكاملوا ثم يأخذهم أخذة شديدة فينذرهم.

قال أبو الحسن: فبينما هو ذات يوم جالس على مرتبته وبنو أميّة من حوله وعليهم الدّروع المطرزة بطراز الذهب والعمائم الملوّنة متقلدين بالسيوف المحلاة بالذهب والفضة، وفي أوساطهم المناطق المحلاة بالجوهر.

إذ دخل بعض حجابه وهو مذعور، فقال له: يا أمير المؤمنين العجب كلّ العجب، فقال له: وما ذلك العجب؟ قال: يا أمير المؤمنين إن على الباب رجلاً ذميم المنظر عظيم المخبر شخب اللّون رث الأطمار وعلاه الغبار ممّا حلّ به من الأسفار ومن تحته مطية بالية قد قطع بها غياهب الدّجى ومهامه[1] الثرى فلو أنّ لها لساناً لنطقت به ممّا لحقها من التعب والنصب، والرّجل فوقها جالس كالنسر البالي والشيخ الفاني، فإني أتعجب منه ومن مطيته وقد أناخها ببابك وعقلها بفاضل زمامها ثمّ قال لها بشرى يا ناقتي بالكرامة الكبرى والمسرّة العظمى، وقد بلغت ما هو لك في سرور وحبور[2] وحللت بمن هو أهل للمحل السعد وقد نال أعلى المراتب فالحمد لله فما عليك بعد اليوم سفر ولا تعب ولا جهد، فقلت له: إنّك لعديم العقل تخاطب ناقة عجماء فقال: نعم أخاطبها وأبشرها ثم أنشأ يقول:

أقول لها يا ناق سيري وابشري	بجود كريم الوالدين هجان
فتى ابتغى منه الكرامة والعطاء	ومن سفري تعفى وطول هواني
ألا أيّها السّفاح والسّيد الذي	له همم تسطو بكل مكان
أتت ناقتي تشكو إليك تأسفاً	فصنها من الأسفار والسّيران

(١) المهامة جمع مهمهة وهي المفازة البعيدة والبلد القفراء.

(٢) حبور: سرور.

ثمّ إنّه أقبل يريد الدّخول عليك عاجلاً والورود إليك راجلاً فمنعته من ذلك وقلت له: ما الذي تريد منه؟ فقال: استأذن بالدخول على أمير المؤمنين فإنّي قد أتيت إليه من بلد بعيد وسفر صعب شاق شديد، كنت أخوض سواد اللّيل وحنادس الظلام وأقطع المهامه والآكام[١] شوقاً إلى طلعته ومحبته في بهجته، وأريد التطلع إلى رؤيته والأمور كامنة في الجوارح، والنّيران مضرمة في الجوانح، أريد برؤيته إخمادها واطفاء شهوقها من كلامه وفتح منظره ومرآه.

فقلت له: امض وتطيب وغير أثوابك ليطرد منك وعث السفر ثمّ أقبلك حتى أوصلك إلى أمير المؤمنين.

فنظر إلى بعين الغضب وهو مزور[٢] وقال: إنّي آليت على نفسي أن لا أنزع ثوباً ولا أستعمل طيباً ولا ألذّ بعيش حتى أصل إلى أمير المؤمنين وها هو على الباب منتظر رد الجواب عن أمير المؤمنين.

قال: فلمّا سمع السّفاح بنعته وصفته قال صاحبنا وعبدنا سديف ورب الكعبة ثمّ إنّه أذن له بالدخول عليه وقال: إنّه عزيز علينا قريب إلى قلوبنا.

قال: فلما سمع بنو أمية بذكر سديف تغيّر لونهم واقشعرّت منهم الأبدان ونظر بعضهم إلى بعض وارتعدت منهم الفرائص وأخذهم الجزع والهلع قبل دخول سديف عليهم.

قال أبو الحسن: وكان من خبر سديف معهم أنّه كان عبداً لبني هاشم وكان فصيح اللّسان قويّ الجنان شاعراً ماهراً يصول بلسانه مقتدراً بكلامه، وكان كل موسم من مواسم الحج يخرج فيعلو قبّة زمزم ثم يصيح بالناس فيجتمعوا إليه ويعتمدوا بين يديه، فإذا تكاملوا عنده يبسط لسانه بمدح مواليه من بني هاشم ويهجو بني أميّة ويصغر ملكهم ويحرّض النّاس عليهم ليخلعوا الخلافة منهم ويجعلوها في بني هاشم الذين جعلها الله فيهم وهم أهل بيت محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله.

فلمّا كان في بعض الأعوام وقد حضر النّاس الموسم أكمل ما يكون من المواسم أقبل سديف فصعد زمزم ثمّ صاح برفيع صوته يا أهل الأرض ويا أهل الأبطح والصّفا وباب مكّة والكعبة العليا ومن سائر الأقطار شرقاً وغرباً، فدونكم فاسمعوا ما أقول والله على ما أقول وكيل.

ثمّ تكلّم في بني أميّة بكلّ شؤم فأخذه بنو أميّة فضربوه حتّى ظنّوا أنّهم قد قتلوه وألقوه

(١) الآكام جمع أكمة وهي التلة الصغيرة.
(٢) أي نظر بمؤخر عينيه.

على مزبلة فأقبلت إليه امرأة فسقته شراباً ولجأ إلى رؤوس الجبال.

قال: فلمّا سمع بنو أميّة الذين هم عند السّفاح بذكر سديف قال بعضهم لبعض: أليس قد قتل الله سديفاً فأراحنا منه وإنّا لنراه قد عاش بعد موته لينال مناه منّا.

ثمّ انه دخل على السّفاح ونظر إلى بني أميّة وما هم عليه وانشأ يقول:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس
طلبوا ثأر هاشم فسقوها ... بعد ميل من الزمان ويأس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعوا كلّ وصلة وغراس
ذلها أظهر التودّد منها ... وبها منكم كجزء[1] المواسي
فلقد غاظني وغاظ سواي ... قربها من نمارق وكراسي
أنزلوها بحث انزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد ... وقتيلاً بجانب المهراس[2]
والقتيل الذي بحرّان أضحى[3] ... ثاوياً بين غربة وتناسي

وقيل: أنّ سديف دخل على السّفاح ويده على يد سليمان بن عبد الله ثمّ أنشأ يقول:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إنّ بين الضّلوع داءاً دويا
فضع السّيف وارفع الصوت حتى ... لا ترى فوق ظهرها امويا
طيب نفسك وقرّ عينك هنيّة ... إنّ صبرك هو الجميل اديّا

قال: فقال له السّفاح: أهلاً بطلعتك ومرحباً برؤيتك، قدمت خير مقدم، وغنمت خير مغنم، فلك الإكرام والإنعام، وأما ما أنت له من الأعداء فالصّفح أجمل، فان أكرم النّاس من عفا إذا قدر، وصفح إذا ظفر.

ثمّ إنّ السّفاح نادى يا غلام عليّ بتخت من الثياب وكيس من الورق، فأتاه بذلك، فقال السّفاح: خذه وغير ثيابك وأصلح حالك وعد إلينا في غداة غد إن شاء الله فلك عندنا ما تحبّ وترضى، وستبلغ الرضا وفوق الرّضا.

قال: فخرج سديف من عند السّفاح وهو فرحان شديد الفرح.

(١) «كحد» في نسخة.
(٢) أراد به حمزة، والمهراس ماء بأحد.
(٣) هو إبراهيم بن محمد.

قال: وإن بني أميّة بقوا في دهشة وبهتة وحيرة ينظر بعضهم إلى بعض، فعلم السّفاح ما عندهم وما خامرهم فأراد أن يطمئنهم حتّى يطمئنّوا إليه ويقبلوا بأجمعهم إليه.

فقال لهم: يا بني أميّة لا يكبرنّ عليكم ما سمعتم من هذا العبد، فانه ما تكلم إلا بقلّة عقله وكثرة جهله، وليس له رأي سديد ولا ينبغي أن يلتفت إلى قوله ولا إلى رأي العبيد، ولعمري إنّه ما كان الواجب أن يذكر مواليه وأن يفعل ذلك الفعال التي لا يفعلها إلاّ الجهال، فترك ما في قلوبهم وما خامرهم، فقال: إنّ لكم عليّ أفضل الهبات وفوق ما تأملون من الكرامات، فإنّ هذا زمان وذاك زمان ونحن جرثومة العفو ودعامته فابشروا وطيبوا قلوبكم، فإنّي أقدّم لكم العطايا، وأحسن لكم الجزاء وأبلغكم الأمل والمنى.

فخرجوا من عنده وقد كشف السّفاح بعض ما كانوا يحذرون من الهمّ والغم ثمّ اجتمعوا في مسائهم بالمشورة.

فقال قائلهم: الهرب الهرب ما دام العبد سديف لكم في الطلب، والله لا قرّ لكم قرار، ولا كان لكم منجأ ولا من طلبه وثاره ملجأ، وقد كان يعاديكم وهو وحيد فريد لا معين له ولا نصير ولا مجير، فكيف وقد أتت أيّامه وارتفعت أعلامه وظهرت عداوته، فخذوا لأنفسكم وانظروا أمامكم من قبل أن يغشيكم من هذا الرّجل أمر شنيع.

فقالوا: يا ويلك إن أمير المؤمنين قد أحسن إلينا في الخطاب، ووعدنا بجائزة وسديف أقلّ عنده من ذلك وتفرّقوا إلى منازلهم.

فلمّا كان من الغد بكر القوم إلى السّفاح فدخلوا إليه، وسلّموا إليه، فردّ عليهم بأحسن ردّ، وقرّب مراتبهم، وأعلى منازلهم، ورفع مجالسهم، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، ثمّ أقبل إليهم وسألهم من حالهم ومجيئهم إليه وقضى لهم الحوائج.

فبينما هم في أسر ما كانوا فيه إذ دخل عليهم سديف وقد غيّر أثوابه، فسلّم على السّفاح وأشار إليه بيده، وقال: نعم صباحك، وبان فلاحك، وظهر نجاحك كشف الله بك رواكد الهموم، وفداك أبي لأنّك آخذ بالثّار، وكاشف عن قومك وضيمة[1] العار، والضارب بالسّيف من بني هاشم، والسّراة من بني عبد مناف ثم أنشأ يقول:

أصبح الملك عالي الدّرجات ... بكرام وسادة وحمات

يا سليل المطهرين من الرجس ... ويا رأس منبر الحاجات

لك أعني خليفة الله في الأرض ... ذا المجد وأهل الحياة والممات

(١) وضيمة: الظلم.

غدرونا بنو أميّة حتى | صار جسمي سقيما بالمصيبات
واستباحوا حريمنا وسبونا | ورمونا بالذّل والنكبات
أين زيد واين عون ومن | حلّ ثاوياً بالفرات
والإمام الذي بحران أضحى | هو إمام الهدى ورأس الثقات
كيف أسلو ممن قتلوه جهراً | وهتكوا بعد ذلك الحرمات

قال: فلما سمع السّفاح كلام سديف أطرق إلى الأرض زماناً حتى سكن ما لحقه ثمّ إنه رفع رأسه وقال له: قل كلامك وتذكر ما فات، وخذ ما هو آت، فان أحلم الناس من صفح عمن ثلمه، وصان عرضه عمن ظلمه، فلك عندنا أفضل الكرامة والجزاء، وحسن المنظر وبلوغ المنى، فانصرف يا سديف ولا تعد إلى مثلها أبداً.

فخرج سديد من عند السّفاح يفور غضباً ويذمّ صحبته. فلمّا خرج من عندهم أقبل السّفاح على بني أميّة وهم مطرقون وجلون، فقال لهم: إنّي أعلم أنّ كلام هذا الشّيخ العبد قد أرجفكم وقد أثّر في قلوبكم، فلا تعبأوا بكلامه، فإنّي لكم كما تحبون وفوق ما تأملون، وسأزيد لكم العطاء، وأقرب لكم الجزاء واقدّمكم على غيركم.

فخرجوا من عنده وقد سكن ما بهم، واجتمعوا للمشورة فيما بينهم.

فقال قائل منهم: هلمّوا بنا حتى ندخل بكليتنا على السّفاح ونسأله أن يسلّم الينا العبد فنقتله أو نستعبده، فجدّوا يا قوم في طلبه فانّ السّفاح لا يمنعنا من ذلك ولا يعصينا ونحن سبعون ألف سيّد لأجل عبد ذميم، وإنّكم إن فاتكم أو توانيتم لم يزل العبد معه حتى يهلككم ويدمّركم، وأنه لا شك قد نصب لكم أشراكاً فلا يفلت منكم أحد فاحذروا ثم احذروا.

وقال قائل منهم: إنّ السّفاح إنما يظهر لكم ما يظهر لتطمئنّوا إليه ثم لتؤخذوا على ما كان منكم، فلا تعبأوا بكلام السّفاح.

فقال بعضهم: فما كان يمنعه منا وهو مالك رقابنا وما نراه إلاّ محسناً إلينا ووطأ مجالسنا ورفع مواضعنا ووعدنا بالخير والعطاء الجزيل.

قال: يا قوم قد أضعتم قولي وعصيتم أمري وخالفتموني فإذا دخلتم عليه فليدخل بعضكم ويبقى بعضكم على الباب حتّى ننظر ما يكون، فإذا أكرم قوماً بالجزاء والعطاء دخل الباقون ويفعلون مثل ما فعلوا أوّل مرّة، وقدّموا عليه وأنتم آمنون على هذا الترتيب.

قال: فلمّا انسدل الظلام وهجع النوام بعث السّفاح إلى سديف فأحضره عنده فلمّا دخل عليه سديف قال له: يا ويلك يا سديف إنّك لعجول في أمرك، مُفش لسرّك، لا تستعمل الكتمان.

فقال سديف: الكتمان قد قتلني، والتحمّل أمرضني، والنظر إلى هؤلاء الظالمين قد أسقمني، ولن يخفى عليك شيء من أمري وما حلّ بي وبأهلك وعشيرتك ومواليك وأقاربك: من قتل الرّجال، وذبح الأطفال، وهتك النسوان، وحمل حريم رسول الله ﷺ على الأقتاب بغير غطاء ولا وطاء، يطاف بهم البلدان، فأيّ عين لا ترقا مدامعها، وأيّ قلب لا يتفجع عليهم، فاستوف لهم الدّماء، واضرب بحسامك العدى، وخذ بالثّأر من الظلمة لأئمة الهدى ومصابيح الدّجى، وسادة الآخرة والأولى.

ثمّ إن سديفاً بكى وأنشأ يقول:

يحق لي أن أدم ما عشت في حزن ... أجرى الدموع على الخدّين والذّقن
يا آل محمد ما قد كان حزبكم ... كأن حزبكم في النّاس لم يكن
رجالكم قتلوا من غير ذي سبب ... وأهلكم هتكوا جهراً على البدن
سكينة لست انسيها وقد خرجت ... في هيئة فجعة من شدّة الحزن
أبكي الحسين أم أبكي نسوة هتكت ... أم أبكي فاطمة أم أبكي الحسن
أم أبكي ليث الوغا في الروع حيدرة ... أم أبكي ابن رسول الله ذي المنن
أشكو إلى الله ما ألقاه من أمم ... ما ارتضى منهم بالفعل والسّنن

قال: فعند ذلك بكى السّفاح بكاء شديداً وزاد عليه الأمر حتى اصفر لونه ونادى بأعلى صوته: وامحمّداه واعليّاه واسيّداه واقوماه واهلاه واعشيرتاه وبكى سديف حتّى اغمي عليه.

فلمّا أفاق قال له السّفاح: يا سديف قد بلغ الكتاب أجله، وقد حان وقرب ما تؤمله فكان بي وقد أطلقت لك السّبيل تضرب بسيفك في أعراضهم كيف شئت.

قال سديف: أما والله لأن أطلقت لي السّبيل لأرضين الجليل، وآخذ منهم ثأر الرّسول ﷺ وأرضينك يا مولاي.

قال له السّفاح: نم ليلتك قرير العين وأتني في غداة غد أعطيك أملك، وأبلغك رجاك.

قال: فبات سديف في تلك الليلة أرقاً قلقاً يدعو ربّه ويسأله تمام ما وعده السّفاح.

ثمّ إنّ السّفاح لمّا أصبح ذلك اليوم سمّاه يوم النيروز وهو الذي سمّاه بنو العبّاس نوروز القتل لأنه اليوم الذي قتل السفاح فيه بني أمية وسنّ تلك بنو العباس، فأمر السّفاح منادياً ينادي، إنّ أمير المؤمنين أبا العبّاس السّفاح قد بسط الأنطاع، وصبّ عليها خزائنه وقال: اليوم يوم عطاء وجوائز، وضربت البوقات والطّبول، ونشرت الرّايات وخفقت الأعلام.

ثم إنّ السّفاح نصب سرير ملكه وزيّن قصره وبسط الأنطاع بين يديه، وأفرغ الدّنانير

والدّراهم والأَسورة ومناطق المراكب الثقال من الذهب والفضّة.

قال: فلما فرغ من ذلك، ورتب الزينة والعدّة عمد إلى أربع مائة من غلمانه أشدّهم وأشجعهم، فدفع إليهم الأعمدة والسّيوف، وقال لهم: كونوا في الخبرة وأسبلوا عليكم السّتور، فإذا رأيتموني قد جلدت بقلنسوتي الأَرض اخرجوا وضعوا السّيوف في رقاب كل من ترونه ولو كانوا من بني عمي.

قالوا: سمعاً وطاعة، وقرّر معهم الوصيّة، فلما تعالى النّهار أقبل إليه النّاس في الزّينة والبهجة الحسنة للسلام والعطاء.

قال: وأقبل بنو أميّة حتّى تكاملوا السّبعين ألف من آل يزيد وآل مروان فلمّا بلغوا القصر نزلوا عن خيولهم ودفعوا عدادهم وسيوفهم إلى عبيدهم ودخلوا على جاري عادتهم وهم يرفلون في حللهم وأثوابهم ولم يعلموا ما يراد بهم، ويزعمون أنّهم مسرورون.

قال: وكان فيهم رجل من جلساء السّفاح وكان شاعراً وقد مدح السّفاح بقصيدة حسنة، وقد أجازه السّفاح عليها فقال له الحجاب الذين عرفوه: ارجع فما هو يوم عطاء وإنّما هو يوم مكر وخداع، فلا تورد نفسك مورد الهلاك والموت، فقد رأينا أمير المؤمنين قد أعطاك وأرضاك، فما نحبّ أن تقع في الهلاك، قال: رضيت أن أرد مورد قومي، وأصدر مصدرهم، فقال له: ادخل إلى اللعنة والخزي، فدخل مع القوم على مراتبهم.

وصعد السّفاح إلى أعلى البيت وهو متقلّد بسيفه، ثم التفت إلى بني أميّة فقال: هذا اليوم الذي كنت أعدكم فيه الجزاء والعطاء فمن تحبون أن أبدأ بالعطاء؟ فقالوا ليقربوا إليه ويدخلوا في قلبه: يا أمير المؤمنين ابدأ ببني هاشم واحداً بعد واحد، فإنهم خير العالم وأرباب المراسم، فصاح السّفاح بعبد كان عن يمينه وقد أعلمه بما يريد وكان فصيح اللّسان فرفعه حتى صار دونه.

ثمّ قال له: ناد يا غلام بني هاشم واحداً بعد واحد حتى نجزل لهم العطاء ونحسن لهم الجوائز عن رضى بلا غضب.

فنادى الغلام برفيع صوته وقال:

أين أبو عبيدة بن الحارث بن هاشم هلمّ إلينا فاقبض عطاك، فقال سديف: يا شيخ وأين أبو عبيدة بن الحارث، قال: وما فعل الله به قال: قتله شيخ من هؤلاء القوم يقال له: شيبة بن ربيعة بن عبد الشّمس، فقال: ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا غاب وادع لنا غيره.

فنادى الغلام اين أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب بن هاشم هلمّ إلينا

واقبض عطاك، فقال سديف: وأين حمزة؟ فقال السّفاح: ما فعل الله به؟ قال: قتلته امرأة من هؤلاء القوم يقال لها هند بنت عتبة بن ربيعة في أحد، وذلك لأنها أعطت الوحشي مولى حيدر بن طاهر عدة حتّى قتله، وأقبلت فشقت جوفه وأخذت كبدته لتأكلها فحوّلها الله تعالى في فيها حجراً فسميت آكلة الأَكباد، فلمّا لم تقدر أن تأكلها قطعت أصابعه وجعلتها قلاّدة في عنقها، فقال السّفاح: ما علمت بذلك يا غلام اضرب باسمه إذا غاب وادع لنا غيره.

قال فنادى الغلام أين عقيل بن عبد المطلب بن هاشم هلمّ إلينا وخذ عطاك، قال سديف: يا أمير المؤمنين وأين عقيل؟ قال: وما فعل الله به؟ قال: قتله هؤلاء القوم وهو خارج من الشام يريد مدينة الرّسول ﷺ، قال السّفاح: ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره.

فنادى الغلام اين مسلم بن عقيل هلمّ إلينا واقبض عطاءك، قال سديف: يا مولاي وأين مسلم بن عقيل؟ قال: وما فعل الله به؟ قال: قتله هؤلاء القوم فأخذه عبيد الله بن زياد فرمى به عن قصر الإمارة وربطوا برجليه حبلاً وجرّوه في أسواق الكوفة ونادوا هذا جزاء من خرج على خلافة بني أميّة وسبّوا آباءه وجدّه، قال: ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره.

فنادى الغلام أين أولى النّاس إسلاماً وأفضل الوصيين ويعسوب الدين والإمام البطين علي بن أبي طالب: هلمّ إلينا وخذ عطاءك، فقال سديف: يا مولاي وأين عليّ بن أبي طالب؟ قال: وما فعل الله به؟ قال: قتله المرادي عبد الرّحمٰن بن ملجم وزيّن معاوية الشّام بقتله أيّاماً وفرح فرحاً شديداً فقال السفّاح: ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره.

فنادى الغلام أين ابن بنت رسول الله الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام سيّد شباب أهل الجنة هلمّ إلينا فاقبض عطاءك، فبكى سديف وقال: يا مولاي وأين الحسن بن عليّ بن أبي طالب؟ قال السفاح: وما فعل بولد رسول الله ﷺ؟ قال: قتلته جعدة امرأته بسمّ دسه إليها معاوية من الشّام، فقال: ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره.

فنادى الغلام اين ابن بنت رسول الله وسيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام هلمّ إلينا فاقبض عطاءك، فبكى سديف وقال: يا مولاي وأين الحسين بن عليّ بن أبي طالب؟ قال السفّاح: وما فعل لولد رسول الله ﷺ؟ قال: قتله أمير هؤلاء الذين هم مقرّبون وهم على كراسيّ الذّهب والفضّة بحضرتك قاعدون، قتلوه بأرض كربلاء عطشاناً والفرات ملآن، وأخذوا رأسه وجعلوه على رمح طويل وحملوه من الكوفة إلى أن أدخلوه دمشق إلى يزيد بن معاوية حتّى ندبته الجن، ثم رثاه رجل من بعض النّاس يقول:

هـلال بـدا وهـلال أفـل كـذلـك يـجـري صـروف الـدول

ونادى الغلام وابن العباس بن علي بن أبي طالب أخو الحسين عليهم السلام هلمّ إلينا فاقبض عطاءك، فقطع سديف عليه الكلام، ثمّ قال: كأنّك يا أمير المؤمنين تريد تؤاخذ هؤلاء القوم بما فعلوا أو تجازيهم بما صنعوا هؤلاء الذين ذكرتهم بكأس المنية قتلهم هؤلاء بأرض كربلا جياعاً عطاشاً عرايا، قال السّفاح: ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره.

فقال الغلام وأين زيد بن علي بن أبي طالب هلمّ إلينا فاقبض عطاءك، قال سديف: يا مولاي وأين زيد؟ قال السّفاح: وما فعل الله به؟ قال: قتله واحد من هؤلاء القوم يقال له هشام ابن عبد الملك بن مروان، وصلبه منكوساً وعششت الفاختة جوفه، ثمّ إنهم بعد ذلك أحرقوه بالنار وسحقوا عظامه في الهاون وذروه في الهوى فاجتمع على وجه الماء ثمّ غاص وخرج خلقاً سويّاً وهو ينادي برفيع صوته: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] وقتلوا ولده من بعده وقبره هنالك، فقال السّفاح: ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه وهات غيره.

ثمّ نادى الغلام: اين الإمام إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن العباس هلمّ إلينا واقبض عطاءك، فسكت سديف ولم يعد قولاً ولا ردّ جواباً، وأيقن بنو أميّة بالهلاك، لأنّهم هم الذين قتلوه، فقال السّفاح: ويلك يا سديف كنت إذا ذكر لك رجل من بني هاشم تسرع في الجواب فما لك قد عجزت عن الخطاب عند ذكر أخي قال: لأنّي أستحيي أن أقابلك فأواجهك بما قد فعل بأخيك، فقال السّفاح: سألتك بالله إلاّ ما تخبرني ما فعل بأخي، قال: قبضه رجل من هؤلاء القوم يقال له مروان وأدخل رأسه في جراب بقر وركب في أسفله كور الحدّادين وأمر النافخ أن ينفخ والجلاّد يجلد حتى ضربه عشرة آلاف سوط في ثلاثة أيّام.

فقام من أوسط القوم رجل يقال له: يزيد بن عبد الملك وقال: يا ويلك يا عبد السوء لقد عظم تعريضك على بني أميّة لقد أشرف أمير المؤمنين على هلاكنا أجمع فقال: إن مقصودي ذلك، فرهق السّفاح لسديف بمؤخر عينيه وقد امتلأ حنقاً وغيظاً ثمّ أنشأ يقول:

حـسـبـت أمـيـة أن سـتـرضـى هـاشـم عـنـهـا ويـذهـب زيـدهـا وحـسـيـنـهـا
كـذبـت وحـقّ مـحـمّـد ووصـيّـه حـقّـاً سـتـبـصـر مـا يـسـيء ظـنـونـهـا
سـتـعـلـم لـيـلـى أيّ ديـن تـدايـنـت وأيّ ديـون فـي الـبـرايـا ديـونـهـا

قال: ثم إنّ السّفاح بكى وعلا صياحه، ثم خلع قلنسوته عن رأسه وجلد بها سرير ملكه، ونادى: يا لثارات الحسين، يا لثارات بني هاشم، يا لثارات بني عبد المطلب.

قال: فلمّا نظر الغلمان إلى السّفاح وفعاله فتحوا أبواب الخزائن وخرجوا وفي أيديهم السيوف والأعمدة فوضعوها في رقاب بني أميّة فعاد الشاعر يدور بينهم يميناً وشمالاً وهو

يقول: أنا الذي مدحت السّفاح فقال السّفاح لو لم تكن منهم لما دخلت معهم، فقتله السّفاح بيده، وجرّد سيفه وعاد يضرب يميناً وشمالاً فلم تكن إلاّ ساعة أو كحلب ناقة حتى قتلوا عن آخرهم.

فبينما العبيد والخدم والغلمان حول القصر إذ خرج إليهم الدم من الأفنية وامتلأ البواليع من دماء القتلى كأنّه السّيل أو كأفواه القرب، فعظّموا ذلك وأنكروه.

فلمّا فرغ السّفاح من القوم أمرهم أن يجمعوا القتلى ويجعلوهم مثل المصطبة ويفرشوا فوقهم الأنطاع، ففعلوا ذلك وجلس عليها السّفاح وسديف وجماعة من بني هاشم وحشمه.

ثمّ أمر بالموائد فنصبت، ونقلوا إليها الطعام فأكل السفاح وأهله وقومه وجعل القتلى يضطربون من تحتهم.

ثمّ أقبل السّفاح على سديف وقال له: برّد ما بقلبك من الغليل؟ فقال: والله يا سيدي ما أكلت أطيب من أكلتي هذه أبداً.

ثمّ إنّ سديف قال: والله لقتل هؤلاء القوم وكبرائهم وأشرافهم في منازلهم قد تفرقوا في أقطاعهم وأعمالهم، قال: يا سديف ليت شعري ما أخرج هؤلاء القوم خفت أن يعلموا ما حلّ بقومهم فينهزموا شرقاً وغرباً وسهلاً وجبلاً، ولكن يا سديف الذي عمل هذه الحيلة قادر أن يعملها على الباقين حتى لا يبقى منهم صغير ولا كبير على وجه الأرض فقال سديف: فيها يكون زوال القرحة.

فقال السّفاح: يا سديف سترى مني حيلة ما سبقني إليها أحد وتبلغ ما تحبه، فأحضر الصّناع فقال لهم: أمكنكم من الأموال ومن كلّ ما تريدون ثم رسم لهم الأساس فحفروه وكانوا ألف وخمس مائة صانع، فلمّا فرغوا من حفر الأساس نقل على الحمير والبغال الملح وسدّ به الأساس ولم يزالوا كذلك حتى اكتفى الأساس من الملح.

ثمّ أمرهم أن يجعلوا اللّبن فوق الملح ففعلوا ذلك واستحلف الصناع بالإيمان المغلّظة أنّهم لا يفشون ذلك إلى أحد وأنهم متى فعلوا ذلك حلّ دماؤهم وأموالهم فكتموه ولم يظهروه ووعدهم أن يجزل لهم العطا وأمرهم أن يكونوا في جوانب القصر وأن يخرقوا مجاري القصر للماء إلى الأساس ويصبروا عليه إلى وقت الحاجة ففعلوا ذلك وأحكموه.

ثمّ إنّهم أخذوا في البناء والعمل ورتّب قوماً في البناء وقوماً في عمل المقاصير وقوماً في السّقوف وقوماً في التجصيص وقوماً يزوّقون الأبواب بالذّهب والفضّة وقوماً في نحت العاج والآبنوس، فما مضت عليهم إلاّ أيّام قلائل حتّى فرغوا من القصر وسقوفه وجميع آلاته، ورفعوا مجالسه وركبوا أبوابه وأضاؤوا مقاصيره، فلما فرغوا من جميع ذلك علّقوا السّتور الملوّنة.

ثمّ إنّهم فرشوه وزيّنوه وحملوا إليه جميع الآلات الحسنة الرّفيعة الغالية من أفخر ما

يكون، ثم أذن للناس بالدّخول والتّفرج والتّنزه فيه، فدخل الخاص والعام وجنح إليه الناس من جميع الأقطار يتعجبون من حسنه وكماله.

ودخل بنو أميّة أوّلهم وآخرهم صغيرهم وكبيرهم، فلما نظروه وعاينوه حاروا ودهشوا وتحالفوا أنه أشبه بإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد. وجعلوا يقولون لمن عمل هذا القصر واعدّت هذه الآلات المفتخرة والزينة، فقال قوم: لا شك أن يكون هذا القصر لأخيه أبي جعفر المنصور، وقال آخرون: ما هو إلاّ لعمه صالح، واختلفت أقاويلهم فيه.

وبلغ ذلك أبا العباس السّفاح فركب إليهم وقال: يا بني أميّة سيروا إليّ حتى أجزل لكم العطاء، وأفضلكم على العرب والسّادات من ذوي الرتب، فنفروا منه نفوراً عظيماً، فبعث إليهم يقول: يا بني أميّة ما عملت هذا القصر إلاّ لكم فاطمئنوا بكلامي وثقوا بما أقول، فانّ قومكم أخبروني بما دخل قلوبكم من الاضطراب وأنّكم تتخلّفون فزعاً مني ومن سطوتي وبأسي، ومن يمنعني منكم إذا أردت بكم بأساً، فادخلوا القصر ولا تدخلوا إلا وهو لكم وأنا أحلف لكم بالله ورسوله إنّه لكم.

قال: فلمّا جاءتهم البشارة اطمأنّوا بها وقال بعضهم: يا ويلكم اسعوا إلى مقاصيركم ومنازلكم لكن ألبسوا سلاحكم وشدّوا عدّتكم، فإن ثار عليكم أحد من النّاس القوه، ثم إنّكم إن تحصّنوا في هذا القصر لا يقدر عليكم أحد، فقالوا هذا هو الرّأي والصواب الذي ليس فيه ارتياب، وقال بعضهم: إنا نخشى أنا إذا حصلنا توثق علينا أبوابه وتركب علينا العساكر فنحاصر في القصر فتصير المقاصير والأحجار قبورنا، فقال أحدهم: هيهات هيهات ما يكون ذلك أبداً، لأنّه رجل وله اتصال برسول الله وهو زعيم القوم وخليفة الله على خلقه.

ثمّ اجتمع رأيهم على الانتقال إلى القصر وشاع في النّاس أنه لم ير قطّ أحلم من السّفاح، لأنه عمد إلى قوم قتلوا أسلافه وعشيرته فاقطعهم القطائع وبنى لهم الجنان ورفع لهم المراتب.

قال: فأقبلت إليه السّادات ينقلون إلى القصر واحداً بعد واحد يتسابقون إليه وكلّ واحد يطلب له موضعاً، فإذا استوى الرّجل في مقامه لم يغالبه فيه أحد.

ثمّ إنّهم لم يطمئنوا حتى أوقفوا نفراً مع عبيدهم على الباب بالسّلاح مخافة الكبسة.

فلمّا تكاملوا أمر السّفاح أن يبسط لهم البسط وعمل سماطاً حسناً، وأكثر من الذبائح والحلاوات ثمّ إنّه أجلس القوم على الموائد وجاء إليه الناصح من خلف ظهره وأعلمه بأنّهم كلّهم قد حصلوا في القصر إن أردت أن تقتلهم فافعل فما بقي من أعداء الله ورسوله إلا وقد حضر في القصر.

فلم يكن إلاّ ساعة حتّى إذا دار الماء بجوانب القصر وذاب الملح والقوم في القصر على الموائد ما يدرون ما حلّ بهم فارتج القصر وانصدع فهمّوا بالهزيمة وتصايحت حيطانه

وانهدمت أركانه واهتزّت العمد ففزع القوم من ذلك ودهشوا ووضعوا رؤوسهم على ركبهم وظنّوا أن الأمر من السّماء قد نزل بهم، فقال قائلهم: قد أخذنا بما كان منّا، فهم في الكلام إذ سقطت الجدران وانهدمت الأركان ووقع القصر عليهم بأجمعهم فعجّل الله بأرواحهم إلى النّار وبئس القرار، فأهلكوهم وعبيدهم وإماءهم ونسلهم وذراريهم فكأنما الأرض قد ابتلعتهم.

وبلغ ذلك السّفاح، فركب وركب سديف معه وساروا إلى القصر فوجدوهم قد هلكوا، فسجدوا لله شكراً.

فقال السّفاح لسديف: هل أخذت بثأرك وثأر مواليك؟ فقال سديف: والله لو قتل مثل هؤلاء ألف ضعف ما وفي ولا عدل شسع نعل الحسين عليه السلام ولا لأحد من مواليه عليه السلام، وقد بلغني أن بالشام خلقاً كثيراً من الأمويين وأن دمشق مملوّة منهم ومن أكابرهم فأنا أرجو من الله أن لا يفوتني منهم أحد.

فقال السّفاح قلت في هذا المعنى شيئاً يا سديف؟ قال، نعم يا مولاي واسمع ما أقول:

ألا أبلغن سادات هاشم معشري ... وجمع قريش والقبائل من فهر
تميماً ومخزوماً وابناء غالب ... وسكّان بيت الله والركن والحجر
ومن كان منهم بالمدينة ثاوياً ... قريباً من النور المغيب في القبر
ومن بالقرى افدي ومن سكن الغرى ... وصيّ نبي صاحب النهي والأمر
ومن سكن الطف المعظم قدره ... حسين الرضا المدفون في البلد القفر
ومن حوله من أهله ومواليه ... واخوته من خير نسل ومن طهر
بانّ سديفاً قد شفى الله قلبه ... بزرق طوال ثمّ مرهفة تبر
فعلت أبا العبّاس فعل أهالك ... فأوفيت ما انذرت في سالف الدهر
من أخذ لثارات الحسين بن حيدر ... وفاطمة والسّبط الحسن البرّ
ومن حلّ بالنهرين في أرض كربلا ... ومن حوله صرعى من الأنجم الزهر
سلام ورضوان على سادة الورى ... خيار بني حوّا وآدم ذو الطهر
صلاة من الرحمن تغشى ائمة ... هداة اصيبوا بالخديعة والمكر
فاحمد أبا العبّاس يا خير ناصر ... سديف يرجى منك ان تجلي الفقر
وتجلي كما أجليت منهم قلوبنا ... فقد أيدك ربّ البرية بالنصر
على الأرض منهم لا تخلى واحداً ... واشف نفوساً صادعات من الضرّ
فانك منصور ونور مشرق ... وحسبك ان الحقّ أيدك بالنصر

وكم كربة اجليتها من قلوبنا بعزم وتأييد تساوي البحر
فيا سائر الأذقان خرّوا وأسجدوا لهيبة أبي العباس في الليل والفجر
ولا تقنطوا من فضل من بان فضله فمنه إليكم يعقب النهي والأمر
على ظالميهم لعنة الله ما دجى سحير وما أضواه ليل من الهجر

قال أبو مخنف: ثمّ إن السفاح رجع إلى قصره وبات تلك اللّيلة فرحاناً مسروراً بما أناله الله من العزّ والهيبة.

فلمّا أصبح دعا بعمّه صالح بن عبد الله بن العبّاس، وعقد له لواء على عسكر واختار من خيار فرسانه وأمره بالمسير إلى الشّام وقال له: وكلتك دمشق وأعمالها فسر إليها وجاز المحسن على إحسانه والمسيء على قدر اساءته، وانظر إلى من بيننا وبينه معاداة فلا تقصر في إهلاكه ودماره، وهذا سديف عندنا فخذه في صحبتك فقد علمت نصحه ومروته فلا تمنعه أمراً يريده وامنه على صحبتك وعشيرتك.

فقال صالح: حبّاً وكرامة ولو لم توص به لكان حقاً عليّ أن لا أفعل شيئاً حتّى أوقعه عليه وأشاوره فيه.

فلمّا سمع السّفاح كلام عمّه شكره وجزاه خيراً وجرّد الجيش معه وضمّ إليه سديفاً وساروا جميعاً يجدون في سيرهم حتّى دخلوا دمشق فلمّا دخلوها وجلسوا دار الإمارة جعل يرتّب الأعمال في المواضع من أعمالها.

فلما استقرّ أمره جعل يسأل عن أولاد يزيد وآل مروان بن الحكم فيحضرون بين يديه، وكان يقطعهم القطائع الجيّدة ويعطي لكل منهم ما يطلبه، وسديف يستأذن فيهم ويحمل عليهم فيبيدهم ضرباً وطعناً حتى قتل منهم بدمشق ثلاثين ألفاً وهو يقول: والله لو قتلت اضعافاً مضاعفة من بني أميّة بل كل من طلعت عليه الشمس منهم لما وافى شسع نعل مولى الحسين عليه السلام.

وبلغ السّفاح ما فعل سديف فسرّه ذلك، فكتب إلى سديف كتاباً وأعاد فيه الشعر الذي قاله فيه قبل سيره مع صالح، فلما فعل صالح ما فعل وقتل من بقي من بني أميّة انهزم قوم منهم إلى الساحل وركبوا البحر طالبين إلى بلاد العرب، فجعل يتابعهم ويأخذ خبرهم فأخبر أنهم ركبوا البحر، فبعث خلفهم سريّة وقتل كل من انهزم ولم يسلم منهم أحد إلا قوم ترسموا بزينة النّسوان وهم الملثمة إلى يومنا هذا.

فلمّا عاد صالح إلى دمشق وفى بنذر السّفاح وكان قد نذر أنّه متى أفنى بني أميّة أن يخرب ديارهم، فاخربها جميعاً ولم يبق لهم غير الجامع نعمان ودام ملك بني العباس إلى أن ملك منهم أربعون.

حتّى تمّ قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعمّه العبّاس لما قال له: يا ابن أخي رأيت كأن قد ظهر

من دبري أربعون زنبوراً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عم سيظهر لك من مليك أربعون رجلاً ويأخذون الخلافة»، فحزن العباس وهجم نفسه، فقال ﷺ: «لا يا عمّ فقد قضى الأمر وحق بالقول وكان ذلك في الكتاب مسطوراً»[١].

أقول: هذا ما انتهى إلينا من خبر السّفاح وسديف وانقراض الدولة الأموية ورويته كما وجدته ولم يكن النسخة التي نقلنا منها خالية من السّقم والاختلال فأصلحت ما أمكن بحسب ما أدّى إليه النّظر، وأستعيذ بالله من هفوات اللّسان وزلاّت البيان.

وقد روى الشارح المعتزلي في الشرح بعض الرّوايات في هذا المعنى من كتاب **«الكامل»** للمبرد، وكتاب **«الأغاني»** لأبي الفرج الأصفهاني، **«ومروج الذّهب»** للمسعودي وغيرها على غير نظم وترتيب، واستطرفت بعض ما أوردها، لاشتماله على أشعار جيدة وأحببت أن لا يخلو الشرح منها.

فأقول: في الشّرح سئل بعض شيوخ بني أميّة عقيب زوال الملك عنهم ما كان سبب زوال ملكهم؟ فقال: جار عمّالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فحملوا عنها، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وامضوا اموراً دوننا أخفوا علمها عنّا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا منهم لقلّة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال ملكنا.

وفيه لما أتي أبو العباس برأس مروان سجد فأطال، ثم رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأرنا قبلك وقبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرنا بك وأظهرنا عليك، ما أبالي متى طرقني الموت، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بني أميّة واحرقت شلو هشام بابن عمّي زيد بن علي كما أحرقوا شلوه وتمثل:

لو يشربون دمي لم يُروَ شاربهم ولا دمائهم جمعاً تروّيني

ثمّ حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثم جلس فتمثل:

أيا قومنا ان تنصفونا فانصفت قواطع في أيماننا تقطر الدّما

إذا خالطت هام الرجال تركتها كبيض نعام في الثرى قد تحطما

ثمّ قال: فأمّا مروان فقتلناه بأخي إبراهيم، وقتلنا سائر بني أميّة بالحسين عليه السلام ومن قتل معه وبعده من بني عمّنا أبي طالب.

وفيه عن أبي الفرج الأصفهاني قال حدث الزبير بن بكار عن عمه أنّ السّفاح[٢] أنشد

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٧/ ١٥٢، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٨٣.

(٢) «سديفاً» في نسخة.

يوماً قصيدة مدح بها أبا العباس وعنده قوم من بني أمية كان آمنهم على أنفسهم فأقبل على بعضهم فقال: أين هذا مما مدحتم؟ فقال: هيهات والله لا يقول أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيات فينا:

ما نقموا من بني أميّة إلا انهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب

فقال له: يا ماص كذا من امّه وان الخلافة لفي نفسك بعد خذوهم فاخذوا فقتلوا.

وروى أبو الفرج أيضاً أن أبا العباس دعا بالغداء حين قتلوا وأمر ببساط فبسط عليهم فجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته، فلما فرغ قال ما أعلم أني أكلت أكلة قط كانت أطيب ولا أهنأ في نفسي من هذه، فلما فرغ من الأكل قال: جروا بأرجلهم وألقوهم في الطّريق ليلعنهم النّاس أمواتاً كما لعنوهم أحياء، قال: فلقد رأينا الكلاب يجر بأرجلهم وعليهم سراويلات الوشي حتّى أنتنوا، ثمّ حفروا لهم بئراً فألقوا فيها.

وفيه عن أبي الفرج أيضاً في كتاب «**الأغاني**» إن سديفاً أنشد أبا العباس وعنده رجال بني أمية فقال:

يا ابن عمّ النبي أنت ضياء إستنبا بك اليقين الجليّا
جرد السيف وارفع العفو حتى لا ترى فوق ظهرها امويّا
قطن البغض في القديم وأضحى ثابتاً في قلوبهم مطويّاً

وهي طويلة فقال أبو العبّاس: يا سديف خلق الإنسان من عجل، ثمّ أنشد أبو العبّاس متمثلاً:

أحيى الضّغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء ابناء

ثمّ أمر بمن عنده فقتلوا.

قال أبو الفرج: وأخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال: أنشدني محمّد بن يزيد المبرد لرجل من شيعة بني العباس يحضهم على بني أمية:

إيّاكم أن تلينوا لاعتذارهم فليس ذلك إلا الخوف والطّمع
لو انهم أمنوا أبدوا عداوتهم لكنهم قمعوا بالذل فانقمعوا
أليس في ألف شهر قد مضت لهم سقيتم جرعاً من بعدها جرع
حتّى إذا ما انقضت أيّام مدتهم متوا إليكم بالأرحام التي قطعوا
هيهات لأبدان يسقوا بكأسهم رياً وإن يحصدوا الزرع الذي زرعوا

إنا واخواننا الأنصار شيعتكم إذا تفرّقت الأهواء والشيع

وفيه دخلت احدى نساء بني أمية على سليمان بن عليّ وهو يقتل بني أمية بالبصرة فقالت: أيها الأمير إن العدل ليمل من الإكثار منه والإسراف فيه، فكيف لا تمل من الجور وقطيعة الرحم؟ فأطرق، ثم قال لها:

سننتم علينا القتل لا تنكرونه فذوقوا كما ذقنا على سالف الدهر

ثمّ قال: يا أمّة الله أوّل راض سنة من يسيرها ألم تحاربوا عليّاً وتدفعوا حقه؟ ألم تسمّوا حسناً عليه السلام وتنقضوا شرطه؟ ألم تقتلوا حسيناً وتسيروا رأسه؟ ألم تقتلوا زيداً وتصلبوا جسده؟ ألم تقتلوا يحيى وتمثلوا به؟ ألم تلعنوا عليّاً عليه السلام على منابركم؟ ألم تضربوا أبانا عليّ بن عبد الله بسياطكم؟ ألم تخنقوا الإمام بجراب النورة في حبسكم؟ ثمّ قال : ألك حاجة؟ قالت: قبض عمّالك أموالي، فأمر بردّ أموالها عليها[1].

وفيه لما استوسق الأمر لأبي العباس السّفاح وفد إليه عشرة من أمراء الشام فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم وبأيمان البيعة أنّهم لا يعلمون إلى أن قتل مروان أن لرسول الله ﷺ أهلاً ولا قرابة إلاّ بني أميّة.

أقول وذلك لأنهم أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

(١) شرح النهج: ٧/١٥١.

الترجمة

از جمله خطب بليغه آن حضرت است كه صدر آن متضمن بيان محامد حضرت رسالت مآب (ﷺ) و ذيل آن اشاره است به احوال بنى اميه لعنهم الله و مآل كار ايشان، چنانچه فرموده:

تا آنكه مبعوث فرموده خداوند متعال محمّد مصطفى را درحالتى كه شاهد بود بر امّتان و بشارت دهنده بود به مطيعان و ترساننده بود عاصيان را، كه بهترين خلايق بود در حال كودكى و كريم ترين مردمان بود در حال پيرى، پاكيزه ترين پاك شدگان بود از حيثيت طبيعت و بخشنده ترين اشخاصى بود كه از ايشان اميد باران احسان گرفته شود از حيثيت بارش.

پس شيرين نشد از براى شما دنيا در لذّت هاى خود و متمكن نشديد از مكيدن پستان هاى آن مگر بعد از اينكه يافتيد آن را و رسيديد به آن، درحالتى كه در جولان بود مهار آن و مضطرب بود تنگ پالان آن.

به تحقيق كه گرديده بود حرام آن در نزد طايفه اى به منزله درخت سدر پربار خالى از خار و حلال آن دور بلكه غير موجود در نزد اهل روزگار و يافتيد آن را قسم به خدا درحالتى كه سايه بود كشديده شده تا وقت شمرده شده، پس صفحه زمين از براى شما خالى است از معارض و مانع و دست هاى شما در آن گشاده شده است و دست هاى پيشوايان از شما باز داشته شده و شمشيرهاى شما بر ايشان مسلّط است و شمشيرهاى ايشان از شما بازگرفته شده.

آگاه باشيد، به درستى كه هر خونى را خونخواهى است و هر حقى را طالبى هست و به درستى كه طالب قصاص در خون هاى ما همچو حكم كننده اى است در حق نفس خود و آن عبارت است از حق سبحانه كه عاجز نمى كند او را كسى كه او سبحانه طلب كند او را و فوت نمى شود از او كسى كه فرار نمايد از او.

پس سوگند مى خورم به خداى لايزال اى بنى اميه، پس از زمان اندكى هر آينه البته مى شناسيد دنيا را يا خلافت و امارت را در دست هاى غير خودتان و در خانه دشمنان خود كه عبارت است از بنى عباس كه انتقال خلافت به ايشان شد.

الفصل الثاني

«أَلاَ إِنَّ أَبْصَرَ الأَبْصارِ مَا نَفَذَ في الْخَيْرِ طَرْفُهُ، أَلا إِنَّ أَسْمَعَ الأَسْماعِ ما وَعِيَ التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ! أَيُّهَا النَّاسُ: اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْباحٍ واعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَامْتاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ، عِبادَ اللَّهِ لاَ تَرْكَنُوا إِلى جَهالَتِكُمْ، وَلاَ تَنْقادُوا إِلى أَهْوائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهذَا الْمَنْزِلِ نازِلٌ بِشَفا جُرُفٍ هارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَىٰ عَنْ ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلىٰ مَوْضِعٍ لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ ما لاَ يَلْتَصِقُ، ويُقَرِّبَ ما لا يَتَقارَبُ، فَاللَّهَ اللَّهَ أَنْ تَشْكُوا إِلىٰ مَنْ لا يُشْكِىٰ شَجْوَكُمْ، وَلاَ يُنْقِضُ بِرَأْيِهِ ما قَدْ أُبْرِمَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الإِمامِ إِلاّ ما حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّه: الإِبْلاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالإِجْتِهَادُ في النَّصِيحَةِ، وَالإِحْياءُ لِلسُّنَّةِ، وإِقامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيها، وإِصْدارُ السُّهْمانِ عَلَى أَهْلِها، فبادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِه، ومِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَانْهَوا غَيْرَكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَناهُوا عَنْهُ، فَإِنَّما أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّناهي»[1].

اللغة

(**الطرف**) بالفتح نظر العين، و(**استصبح**) بالمصباح استسرج به، و(**الامتياح**) نزول البئر وملؤ الدلاء منها، و(**الترويق**) التصفية ومنه الرواق بالكسر وهو الصافي من الماء وغيره، و(**الشفا**) شفير الشيء وجانبه، و(**الجرف**) بالضمّ وبضمّتين ما تجرّفته السّيول وأكلته من الأرض، و(**الهار**) الضعيف الساقط المنهدم يقال هار الجرف يهور هوراً فهو هائر وهار كقاض.

و(**اشكيت**) زيداً بهمزة الأفعال أزلت شكايته، و(**الشجو**) الهمّ والحزن، و(**أبرم**) الأمر أي أحكمه، والحبل أي جعله طاقين ثم فتله، و(**الإصدار**) الإرجاع من الصدر وهو الرّجوع، و(**السهمان**) كالسهمة بالضمّ فيهما جمع السهم وهو الحظ والنّصيب، (**صوّح**) النبت أي: يبس وتشقق أو جفّ أعلاه، و(**المستثار**) مصدر بمعنى الاستثارة وهو الإنهاض والتهييج.

الإعراب

(**مصباح**) في بعض النسخ بالتّنوين فيكون واعظ بدلاً وفي بعضها بلا تنوين بالإضافة، وعلى ذلك فيحتمل أن يكون الإضافة لامية وأن تكون من إضافة المشبه به إلى المشبه من قبيل لجين الماء، وفي نسخة الشارح المعتزلي من شعلة بمصباح واعظ بتنوين شعلة واضافة مصباح

(١) وسائل الشيعة: ١١/ ٤٢٠ ح ١٢، وميزان الحكمة: ٣/١٩٤٩.

مع الباء الجارة وهي باء الآلة متعلّقة باستصبحوا.

وينقل الرّدى عن ظهره (عن) بمعنى (على) كما في قوله:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب عني ولا أنت ديّاني فتخزوني

أي لله در ابن عمّك لا أفضلت في حسب عليّ، وفي أكثر النّسخ على ظهره وهو الأنسب، وقوله (**فالله الله**) بالنصب فيهما والعامل محذوف أي اتقوا الله، واحذّركم الله وقوله: الإبلاغ في النّصيحة بالرفع بدل بعض من ما.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما نبّه في الفصل السّابق على تقصير المخاطبين من بني أميّة ومن يحذو حذوهم فيما يجب عليهم رعايته، وأشار إلى أن المقصرين في حقهم والظالمين لهم والسّاعين في دمائهم مؤاخذون بتقصيرهم مجزيّون بسوء أعمالهم، عقّبه بهذا الفصل حثاً لهم على طاعته وملازمته، وترغيباً على الاقتباس من أنوار هدايته، وتحذيراً من الركون إلى الجهالة والتيه في بوادي الرّدى والضّلالة، وصدّر ذلك بذكر محاسن التفكّر والبصيرة توطئة وتمهيداً فقال:

(**ألا إن أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفه**) أراد بنفوذه في الخير رؤيته المحاسن واتباعها، فإن أفضل أبصار البصر ما يفيد للمبصر بصيرة ويجلب له فائدة في تحصيل السّعادة الأبدية والكمالات النفسانية، (**ألا إن أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبله**) أي أفضل سماع الأسماع أن يحفظ التذكير والمواعظ ويتدبّر فيها فيقبلها.

(**أيها النّاس استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متّعظ**) أي استسرجوا من شعلة سراج واعظ لغيره متّعظ في نفسه، فان من لم يكن متعظاً في نفسه لا يكون موعظته مؤثرة في القلوب، بل تكون القلوب نافرة منه والنفوس مشمئزة قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ولا يخفى عليك أن إضافة مصباح إلى واعظ إن كانت من إضافة المشبه به إلى المشبه فذكر الشعلة والاستصباح ترشيح الاستعارة، ويحتمل أن يكون ذكر الشعلة تخييلا والاستصباح ترشيحاً على ما ذهب إليه بعض البيانيين من عدم الملازمة بين التخييل والاستعارة بالكناية وإمكان وجوده بدونها، وكذلك لو كان مصباح منوّناً وواعظ بدلاً منه إلاّ أن المستعار له على الأوّل هو الموعظة، وعلى الثاني يحتمل أن يكون الموعظة وأن يكون نفس الواعظ.

وكيف كان فالإشارة بالواعظ المتّعظ إلى نفسه الشريف ومثله قوله: (**وامتاحوا من صفو عين قد روّقت من الكدر**) فإنه استعار صفو العين للعلوم الحقة وهو من استعارة المحسوس للمعقول الجامع أنّ العلم به حياة للأرواح كما أن صفو العين به حياة الأبدان وذكر

الترويق والامتياح ترشيح للاستعارة أو الترويق تخييل والامتياح ترشيح على ما مرّ وأراد الترويق من الكدر خلو تلك العلوم من شوائب الأوهام وبالامتياح أخذها من منبعها وهو أمر لهم باقتباس العلوم الشّرعية والمعارف الحقة منه عليه السلام.

ولما أمر بذلك أردفه بالنهي عن الركون إلى الجهالة فقال عليه السلام **(عباد الله لا تركنوا إلى جهالتكم)** أي لا تميلوا إليها، **(ولا تنقادوا إلى أهوائكم)** إلى الأهواء الباطلة المخرجة عن كرائم الأخلاق إلى رذائلها وعن حقّ المصالح إلى باطلها **(فإن النازل بهذا المنزل)**.

يحتمل أن يكون المراد به من ادّعى الخلافة من غير استحقاق لها الذي وضع نفسه في مقام ونزل بمنزل ليس له أهليّة به ويشعر بذلك ما سيأتي من نهيه عليه السلام عن الشكاية إلى من لا يقدر على إزالة الشكوى وما ذكر بعده من أوصاف الإمام الحق عليه السلام.

إلا أنّ الأظهر بقرينة ما سبق أن المقصود به من نزل منزل الركون إلى الجهالة ومقام الانقياد إلى الأهواء، فإنّه لما نهى عن الركون والانقياد علله بذلك وأردفه به، يعني أن من ركن إلى جهالته وانقاد إلى هواه واستبدّ برأيه واستغنى به عن امامه فقد أسّس بنيان دينه على باطل لا قوام له ولا ثبات.

ومثله مثل **(نازل بشفا جرف هار)** مشرف على السقوط والانهدام وهو اقتباس من قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

يعني من أسّس بنيان دينه على قاعدة محكمة هي الحقّ الذي هو التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة خير أمن أسّس بنيانه على قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلّة الثبات والاستمساك.

قال الزمخشري في «**الكشاف**»: وضع شفا الجرف في مقابل التقوى لأنّه جعله مجازاً عمّا ينافي التقوى ثمّ قال:

فإن قلت: فما معنى قوله فانهار به في نار جهنم؟

قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل فانهار به في نار جهنم على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم إلاّ أنّه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصوّر أن المبطل كأنّه أسّس بنيانه على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره منه، هذا.

ولما نبّه عليه السلام على أن الرّاكن إلى جهالته والمنقاد إلى هواه المستبدّ برأيه الزاعم لنفسه الاستقلال مقيم على باطل ونازل بمنزل في معرض السّقوط والتهدم، وكان الباطل مستلزماً للهلاك الدّائم، عقبه بقوله عليه السلام: **(ينقل الرّدى)** أي الهلاك الناشيء عن باطله **(عن ظهره من**

موضع إلى موضع لرأي) فاسد **(يحدثه بعد رأي يريد أن يلصق ما لا يلتصق ويقرّب ما لا يتقارب)** أي يريد إثبات باطله بحجج باطلة.

ثمّ حذّرهم عن الرّجوع إلى الجهّال وعن اتباع أئمة الضّلال بقوله: **(فالله الله أن تشكو إلى من لا يشكو شجوكم)** أي لا يقدر على إزالة حزنكم برفع الأسباب الموجبة له، وذلك لعدم بصيرته في مجاري الأمور وعدم معرفته بوجوه المصالح **(ولا ينقض برأيه ما قد أبرم لكم)** أي لا يقدر على كشف المعضلات وحلّ المشكلات في المعاش والمعاد لقلّة البصيرة والمعرفة، وفي بعض النسخ: وينقض برأيه بدون لا، وهو أولى، أي لا تشكوا إلى من ينقض برأيه الفاسد ونظره الكاسد ما قد أحكمه الشرع في حقكم بالآيات الباهرة والسنّة الزاهرة.

ثمّ لمّا نهاهم من الرجوع إلى من لا يتمكن من إزالة الشكوى والشجوى ولا يستطيع حلّ المبرمات المغلقات، أردفه ببيان ما يجب على الإمام بالنسبة إلى رعيّته ليعرفوا وظائف الإمام ولوازم الإمامة، فيتابعوا من اتصف بها ويرجعوا إليه في أمر الدّين والدّنيا، ويرفضوا غيره وينتهوا عنه فقال عليه السلام.

(إنه ليس على الإمام) الحق **(إلاّ)** القيام بـ **(ما حمل من أمر ربّه)** وهو أمور خمسة: **(الإبلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنة، وإقامة الحدود على مستحقيها، وإصدار السّهمان على أهلها)** ومن المعلوم أنه عليه السلام قام بتلك الوظائف فأدّى ما حمّله وبالغ في الموعظة والنصيحة وكفى به شهيداً ما ضمنه خطبه الشريفة، وأحيا الشريعة وأمات البدعة، وأقام الحدود من دون أن يأخذه في الله لومة لائم، وعدل في القسمة شهد بكلّ ذلك المؤالف والمخالف.

وأمّا غيره عليه السلام من المنتحلين للخلافة فقد قصّروا في ذلك وأحيوا البدعة، وفرّطوا في اجراء الحدود، وفضلّوا في قسمة السّهام كما يظهر ذلك بالرّجوع إلى ما ذكره الأَصحاب من مطاعنهم، وقد تقدمت في غير موضع من الشرح وتأتي أيضاً في مقاماتها اللائقة، هذا.

ولعل غرضه من النفي أعني قوله عليه السلام ليس على الإمام إلاّ ما حمّل قطع الأَطماع الفاسدة والتوقع للتفضل في القسمة كما كان دأب المتخلفين وديدنهم.

ولما نهاهم عن الرّكون إلى الجهل والرّجوع إلى قادة الضلال عرّفهم ما يجب رعايته على الإمام من لوازم منصب الإمامة وأمرهم بالرجوع إليه وبالأخذ من قبسات علمه فقال عليه السلام:

(فبادروا العلم من قبل توصيح نبته) أي من قبل أن يجفّ نباته، وهو كناية عن ذهاب رونقه أو عن اختفائه بفقدانه عليه السلام **(ومن قبل أن تشغلوا بأنفسكم عن مستثار العلم من عند أهل)** أي من قبل أن تكونوا مشغولين بتخليص أنفسكم من شرور بني أمية وفتنها التي ستنزل بكم

عن استثارة العلم وتهييجه واستخراجه من عند أهله، وأراد بأهله نفسه الشريف **(وانهوا غيركم عن المنكر وتناهوا عنه فانما أمرتم بالنهي بعد التناهي)**.

قال الشارح المعتزلي: في هذا الموضع إشكال، وذلك أن لقائل أن يقول النهي عن المنكر واجب على العدل والفاسق فكيف قال: **(إنّما امرتم بالنّهي بعد التناهي)**.

والجواب إنه لم يرد أن جواب النهي عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهي من المنكر، وإنما أراد أني لم آمركم بالنّهي عن المنكر إلاّ بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر فالترتيب إنما هو في أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين لا في نهيهم وتناهيهم.

فإن قلت: فلماذا قدم أمرهم بالانتهاء على أمرهم بالنهي؟

قلت: لأن إصلاح المرء لنفسه أهمّ من الاعتناء بإصلاحه لغيره انتهى.

وأقول: لا حاجة إلى ما تكلفه في الجواب، والأولى أن يقال: إنه عليه السلام أمر بالنهي والتناهي معاً أوّلاً، وهو دليل على وجوب الأمرين كليهما، واتبعه بقوله: **(فإنما أمرتم بالنهي)** تنبيهاً على أن التناهي في نظر الشارع مقدم على النّهي ووجوبه آكد، لأن إصلاح النفس مقدم على إصلاح حال الغير، ولأن النهي إنما يثمر بعد التناهي، ويكون تأثيره في النفوس أقوى، وانفعال الطّبائع منه أشد وآكد كما يشهد به العقول السليمة والتجربة المستمرة وتوافقت عليه الشرائع والآراء ودلت عليه الأحاديث والأخبار.

ففي «**الوسائل**» عن الكليني بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قال عليه السلام «كانوا ثلاثة أصناف: صنف ائتمروا وأمروا فنجوا، وصنف ائتمروا ولم يأمروا فمسخوا، وصنف لم يأتمروا ولم يأمروا فهلكوا»[١].

وعن الصّدوق بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال في وصيّته لولده محمّد بن الحنفية: «يا بني إقبل من الحكماء مواعظهم وتدبّر أحكامهم، وكن آخذ النّاس بما تأمر به، وأكفّ النّاس عما تنهي عنه وأمر بالمعروف تكن من أهله، فإن استتمام الأمور عند الله تبارك وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢].

ومن الخصال مسنداً عن محمّد بن أبي عمير رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّما

---

(١) الكافي: ٨/١٥٨ ح ١٥١، والخصال: ١٠٠ ح ٥٤.
(٢) وسائل الشيعة: ١٦/ ١٥٠، ومن لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٨٧.

يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر من كانت فيه ثلاث خصال: عامل بما يأمر به تارك لما ينهى عنه، عادل فيما يأمر عادل فيما ينهى، رفيق فيما يأمر رفيق فيما ينهى».

ومن «**المجالس**» بإسناده عن المفضل بن عمر قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام بم يعرف الناجي؟ فقال: «من كان فعله لقوله موافقاً فهو ناج، ومن لم يكن فعله لقوله موافقاً فإنما ذلك مستودع»[1].

وعن أبي حمزة عن عليّ بن الحسين عليهما السلام في حديث وصف المؤمن والمنافق قال عليه السلام: «والمنافق ينهي ولا ينتهي ويأمر بما يأتي»[2].

وعن «**الإرشاد**» للحسن بن محمّد الدّيلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رأيت ليلة أسري بي إلى السماء قوماً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ثم يرمى، فقلت يا جبرئيل من هؤلاء؟ فقال: خطباء أمّتك يأمرون النّاس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون».

والرّوايات في هذا المعنى كثيرة وفيما رويناه كفاية لمن له دراية، وفي هذا المعنى قال أبو الأسود الدّؤلي:

وإذا جريت مع السّفيه كما جرى ... فكلاكما في جريه مذموم
وإذا عتبت على السّفيه ولمته ... في مثل ما تأتي فأنت ظلوم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن عيبها ... فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما وعظت ويقتدي ... بالعلم منك وينفع التعليم

والله الهادي وهو الموفق.

(١) الكافي: ١/ ٤٥ ح ٥، والأمالي: ٤٤٠ ح ٥٨٣.

(٢) وسائل الشيعة: ١٦/ ١٥٠ ح ٢١٢١٢.

الترجمة

فصل دویم از این خطبه متضمن نهی از رکون به جهالت و امر به اقتباس انوار علم و هدایت است، چنانچه فرموده:

آگاه باشید، به درستی که بیناترین چشم ها آن چشمی است که نفوذ کند در امر خیر نظر با بصیرت او؛ آگاه باشید، به درستی که شنواترین گوش ها آن گوشی است که حفظ کند نصیحت را و قبول نماید آن را.

ای گروه مردمان، طلب افروختن چراغ نمایید از شعله چراغ پنددهنده و پندگیرنده و بکشید دلو آب معرفت را از چشمه صافی زلال که صافی شده باشد از کدورت و تیرگی شبهات باطله.

ای بندگان خدا، میل ننمایید به سوی جهالت خود و اطاعت نکنید مرخواهش های نفسانیه خود را، پس به تحقیق که نازل شونده به این منزل نازل شده است به کنار رودخانه سیل برده افتاده، در حالتی که نقل می کند هلاکت را بر پشت خود از محلّی به محلّی به جهت رأی فاسدی که پدید می آرد آن را بعد از رأی فاسد دیگر، اراده می کند که بچسباند چیزی را که قابل چسبیدن نیست و نزدیك گرداند چیزی را که قابل نزدیك شدن نیست.

پس می ترسانم شما را از خدا از اینکه شکایت کنید به کسی که زایل نتواند نماید اندوه شکایت شما را و به کسی که نتواند بشکند با رای صائب خود آن چیزی را که محکم شده برای شما، یعنی نتواند حل مشکلات شما را نماید.

به درستی که نیست بر امام مگر آنچه که بار کرده شده است بر او از امر پروردگار خود و آن عبارت است از اکمال موعظه و جهد نمودن در نصیحت و زنده کردن سنّت نبویّه و اقامه حدود بر مستحقان آن و بازگردانیدن سهم ها و نصیب ها بر اهل آن، پس مبادرت کنید به علم و معرفت پیش از خشك شدن گیاه آن و پیش از اینکه مشغول شده باشید به خلاصی نفس خود از فتنه ها از بیرون آوردن علم از نزد اهل آن و نهی کنید از کار زشت و قبیح و بازایستید از آن، پس جز این نیست که مأمور شده اید شما به نهی کردن غیر، بعد از بازایستادن خود.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والخامسة من المختار في باب الخطب

وشرحها في ضمن فصلين، وصدرها مروية في «الكافي» باختلاف كثير تطلع بعد الفراغ من شرح الفصل إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي شَرَعَ الإِسْلاَمَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ، وسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وشاهِداً لِمَنْ خاصَمَ بِهِ، ونُوراً لِمَنْ اسْتَضَاءَ بِهِ، وفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، ولُباً لِمَنْ تَدَبَّرَ، وآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وعِبْرَةً لِمَنْ اتَّعَظَ، ونَجاةً لِمَنْ صَدَّقَ، وثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وراحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ، فَهُوَ أَبْلَجُ الْمناهِجِ، وأَوْضَحُ الْوَلائِجِ، مُشْرِفُ الْمَنارِ، مُشْرِقُ الْجَوادِّ، مُضيءُ الْمَصابيحِ، كَريمُ الْمِضْمارِ، رَفيعُ الْغايَةِ، جامِعُ الْحَلْبَةِ، مُتَنافِسُ السَّبَقَةِ، شَريفُ الْفُرْسَانِ، التَّصْدِيقُ مِنْهاجُهُ، وَالصَّالِحاتُ مَنارُهُ، وَالْمَوْتُ غايَتُهُ، وَالدُّنْيا مِضْمارُهُ، وَالْقِيامَةُ حَلْبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سَبَقَتُهُ».

مِنها في ذكر النَّبيِّ صلى الله عليه وآله:

«حَتَّى أَوْرَىٰ قَبَساً لِقَابِسٍ، وأَنَارَ عَلَماً لِحابِسٍ، فَهُوَ أَمينُكَ الْمأْمُونُ، وشَهيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وبَعيثُكَ نِعْمَةً، ورَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً، اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَاجْزِهِ مُضاعَفاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِناءِ الْبانينَ بِناءَهُ، وأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وشَرِّفْ مَنْزِلَتَهُ، وآتِهِ الْوَسيلَةَ، وأَعْطِهِ السَّناءَ وَالْفَضيلَةَ، وَاحْشُرْنا في زُمْرَتِهِ غَيرَ خَزايا ولا نَادِمينَ، ولا ناكِبينَ، وَلاَ ناكِثينَ، ولا ضالِّينَ، وَلاَ مُضِلِّينَ، وَلاَ مَفْتُونينَ»(١).

قال السيّد (ره): وقد مضى هذا الكلام فيما تقدّم إلاّ أنّا كرّرناه ههنا لما في الرّوايتين من الاختلاف.

اللغة

(**شرع**) الله لنا كذا من باب منع أي أوضحه وأظهره وسنّه والشّريعة كالمشرعة مورد الناس للاستسقا سميت بذلك لوضوحها وظهورها، قال الأزهري ولا تسمّيها العرب مشرعة

(١) الغارات: ١/١٦١، وميزان الحكمة: ٢/١٧٠٨ ح ٢٣٧٩.

حتى يكون الماء عدّا لا انقطاع له كماء الأنهار، ويكون ظاهراً معيّناً ولا يستقى منه برشاء فإن كان من ماء الأمطار فهو الكرع بفتحتين.

و(**السّلم**) بكسر السين وسكون اللام الصّلح يقال خذوا بالسّلم أي بالصّلح ويطلق على المسالم أي المصالح كما يطلق الحرب على المحارب وعليه ما في الزّيارة: أنا سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم.

و(**توسم**) الشيء تفرسه وتخيّله، و(**الابلج**) المتّضح من بلج الصّبح أضاء وأشرق و(**المنهج**) الطريق الواضح المستقيم، و(**الوليجة**) بطانة الرّجل وخاصّته، وفي شرح المعتزلي هو المدخل إلى الوادي وغيره، و(**المشرف**) المرتفع، و(**المضمار**) موضع يضمر فيه الخيل للسّباق أو زمان التضمير.

و(**الحلبة**) بالحاء المهملة والباء الموحدة وزن سجدة خيل تجمع للسباق من كلّ أوب ولا تخرج من وجه واحد يقال جاءت الفرس في آخر الحلبة أي في آخر الخيل، و(**السبقة**) محركة ما يتراهن عليه المستابقان، و(**القبس**) الشعلة، و(**أورى**) أشعل، و(**العلم**) محركة المنار والجبل ونحوهما مما يرشد به إلى الطريق، و(**الحابس**) الواقف بالمكان، و(**النزل**) بضمتين ما يهيأ للنزيل من الطعام، و(**السناء**) الرّفعة، و(**الزمرة**) الجماعة من النّاس، وخزى خزياً من باب علم ذلّ وهان، و (**خزايا**) جمع خزيان مثل حيران وحيارى وغيران وغياري.

الإعراب

(**قبساً**) بالنصب مفعول أورى أي أورى رسول الله صلى الله عليه وآله قبساً ولا يجوز جعله حالاً من فاعل أورى إذ لم يسمع أورى إلاّ متعدّياً يقال: ورى الزند كوعى خرجت ناره وأوريته ووريته بالتضعيف أخرجت ناره، وعلماً منصوباً على المفعول أيضاً ويحتمل الحال لأن أنار يستعمل متعدّياً ولازماً.

قال الفيومي: النور الضّوء وهو خلاف الظلمة والجمع أنوار، وأنار الصّبح أنارة أضاء ونوّر تنويراً واستنار استنارة كلّها لازمة بمعنى، ونار الشيء ينور نياراً بالكسر أضاء أيضاً فهو نيّر وهذا يتعدى بالهمزة والتضعيف، انتهى.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام ملتقط من فصلين أوّلهما في ذكر وصف الإسلام وبيان فضائله، وثانيهما في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وتعظيمه وتبجيله وذكر أوصافه الكماليّة، وعقبه بالدّعاء الخير عليه صلى الله عليه وآله.

أما الفصل الأول

فهو قوله **(الحمد لله الذي شرع الإسلام)** أي سن الإسلام أو أوضحه وأظهره، **(فسهل شرايعه لمن ورده)** شبه الإسلام بنهر جار دائم الجريان واستعار عنه على سبيل الكناية والجامع أن كلا منهما يروي الغليل والعطشان إلاّ أن الماء يروي من غلل الأبدان والإسلام من غل الأرواح، أو أن بكلّ منهما يحصل الطهارة والنظافة إلا أن الماء يطهر من القذر والنّجس، والإسلام من الكفر والرجس واستعار الشرايع للإسلام على سبيل التخييل، والمراد أنه سبحانه سهل موارد العقول لمن أراد الدخول إلى الإسلام.

قال الشارح البحراني: وتسهيله له إيضاح قواعده وخطاباته بحيث يفهمهما الفصيح والألكن، ويشارك الغبي في ورد مناهله الفطن الذكي.

(وأعزّ أركانه على من غالبه) استعارة بالكناية أيضاً فإنه شبهه بحصن عال وقصر مشيد مستحكم البنيان، وحكم القواعد والأركان واثبات الأركان تخييل، والجامع كونهما محفوظاً من أن يهدم ويغالب، يعني أنه سبحانه أعزّه وحماه من أن يتسلّط عليه المشركون ويغلب عليه الكافرون كما قال تعالى:

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

(فجعله أمناً لمن علقه) لا يخفى ما في هذه الفقرة وما يتلوها من حسن الخطابة حيث ناط بكل واحدة من اللّفظات لفظة تلائمها وتناسبها لو نيطت بغيرها لما انطبقت عليها ولا استقرت في قرارها، ألا تراه كيف رتب الأمن على التعلّق، والسّلم على الدّخول، والبرهان على التكلّم، والشهادة على المخاصمة وكذا غيرها، فلو غيّر الأسلوب وقال: أمنا لمن تكلّم، وبرهاناً لمن دخل لكان الإسلام معيباً مختل المعنى خارجاً عن قانون الخطابة.

إذا عرفت ذلك فأقول: مراده عليه السلام بهذه الفقرة أنه سبحانه جعل الإسلام سبباً لأمن من تعلّق به في الدنيا من إراقة الدماء وفي الآخرة من النار ومن غضب الجبار **(وسلماً لمن دخله)**.

قيل: استعار عليه السلام لفظ السّلم باعتبار عدم أذاه لمن دخله فهو كالمسالم له.

أقول: والأشبه أن يكون المراد أن من دخل الإسلام يكون الإسلام صلحاً بينه وبين المسلمين به يحقن دمه ويقرّ على ما يملكه.

(وبرهاناً لمن تكلّم به) أي من تكلّم مصاحباً بالإسلام ومتصفاً به فهو برهان له بمعنى أنّ فيه بينة وحجة يدلّ على أحقيته **(وشاهداً لمن خاصم به)** أي من كان من المسلمين في مقام المخاصمة بالملل الخارجة فالإسلام شاهد له، يعني أن فيه ما هو شاهد ويشهد بصحة قوله قال سبحانه:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾ [هود: ١٧].

قال الطريحي: أي برهان من الله وبيان وحجة على أنّ دين الإسلام حق، وهو دليل العقل ويتلوه العقل أي يتبع ذلك البرهان شاهد يشهد بصحّته وهو القرآن **(ونوراً لمن استضاء به)** إذ به يهتدى إلى الجنّة، ويسلك إليه كما يهتدى بالنور **(وفهماً لمن عقل)** إذ بالدخول فيه وبرياضة النّفس بقواعده وأركانه يتهيّأ الذّهن لقبول الأنوار الإلهية وفهم الأسرار الحقة فهو سبب للفهم الذي هو جودةُ تهيؤ الذّهن لقبول ما يرد عليه فأطلق لفظه عليه مجازاً من باب إطلاق اسم المسبب على السّبب.

(ولبّاً لمن تدبر) قال البحراني: لما كان اللب هو العقل أطلق عليه لفظ العقل وإن كان سبباً له، وأراد العقل بالملكة وما فوقه من مراتب العقل فإن الإسلام وقواعده أقوى الأسباب لحصول العقل بمراتبه **(وآية لمن توسم)** أي علامة يهتدى به إلى الحق للمتوسم وهو المتفرس المتأمل المتثبت في نظره حتّى يعرف حقيقة سمت الشيء **(وتبصرة لمن عزم)** يعني أنه موجب لبصيرة من قصد على فعل الخير وتبصرة له في إتيانه به على ما ينبغي أن يكون عليه.

(وعبرة لمن اتعظ) يعني من كان متديّناً بدين الإسلام ونظر فيما وقع في القرون الخالية للأمم الماضية وأنهم كيف اخترمتهم أيدي المنون وانتسفتهم القرون فهو يعتبر بذلك ويتعظ به.

ويحتمل أن يكون المراد أن نفس الإسلام عبرة للمتّعظين، وذلك لأن من لاحظ رونق الإسلام ونظر في علوّ قدره وارتفاع كلمته وظهور سلطانه وظفر المسلمين على قلّتهم على المشركين مع كثرتهم. يحصل له بذلك عبرة وبصيرة في الرّجوع إلى الحق.

(ونجاة لمن صدق) يعني أنّه سبب لنجاة من صدق الرسول صلى الله عليه وآله فيما جاء به من عند الله سبحانه به يحصل له الخلاص في الدّنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب **(وثقة لمن توكل)** إذ من دان بدين الإسلام وعرف المواعيد الكريمة الثابتة في الكتاب والسنّة للمتوكلين يحصل له بذلك توكّل على الله وحسن ثقة به **(وراحة لمن فوّض)** فإن المسلم إذا كمل إسلامه وفوّض أمره إلى الله سبحانه كفاه الله جميع أموره وأراحه من الاهتمام لها وبه يشعر قوله سبحانه:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

(وجنّة لمن صبر) أي من صبر على ما فيه من مشاق الطّاعات وكلفة العبادات المالية والبدنيّة يكون الإسلام وقاية له وجنّة من عذاب النّار وحرّ الجحيم.

(فهو أبلج المناهج) أي معروف الطرق وسيأتي بيانها **(وأوضح الولايج)** أي ظاهر البواطن والأسرار لمن نظر إليه بعين الاعتبار، أو أنه واضح المداخل معروف المسالك كما مرّ في تفسير قوله عليه السلام فسهل شرايعه لمن ورده.

(مشرف المنار) أي رفيعة الإعلام، وسيأتي بيان ذلك أيضاً **(مشرق الجواد)** وهو قريب من أبلج المناهج **(مضيء المصابيح)** المراد بها إما الأدلة والبراهين الدالة على أحقيته من

الكتاب والسنّة، واستعار لها لفظ المصابيح باعتبار أنها يهتدى بها إليه كما يهتدى بالمصباح في الظلمات، وإمّا الأئمة الهادون إليه والمرشدون إلى معالمه، وذكر الإضاءة ترشيح.

(كريم المضمار رفيع الغاية جامع الحلبة متنافس السبقة شريف الفرسان) قال الشارح المعتزلي: كأنه جعل الإسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم وغايتها رفيعة عالية وحلبتها جامعة حاوية وسبقتها متنافس فيها وفرسانها أشراف.

أقول: أراد بالفرسان المسلمين المؤمنين، وفسّر سائر ما كان محتاجاً إلي التّفسير بقوله: **(التصديق منهاجه)** الذي تقدم وصفه بأنه أبلج وأراد به التّصديق بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله سبحانه والاتيان بلفظ الجمع فيما سبق وبصيغة الإفراد هنا أن الجمع باعتبار تعدد أفراده والافراد بملاحظة نفس النوع ومعلوم أن هذه التصديقات أنوار واضحة الهدى.

(والصّالحات مناره) أراد بها الأعمال الصّالحة وجعلها مناراً باعتبار إضائتها واشراقها **(والموت غايته)** وإنما جعله غاية له باعتبار انقطاع التكليف عنده وانتهائه إليه ووصفه بالرفعة فيما سبق باعتبار أنه باب الوصول إلى حظيرة القدس والجنّة المأوى التي هي أرفع الغايات ومنتهى المقاصد.

(والدّنيا مضماره) لأنه دار مجاز لا دار قرار، ووصفها بالكرم سابقاً باعتبار أن فيها يحصل الاستعداد للفوز بالدّرجات العالية والمقامات المتعالية، ولا ينافي ما ورد في ذمّها، لأنه ناظر إلى ذمّ من ركن إليها وقصّر نظره فيها وغفل عما وراءها، فان من أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته.

(والقيامة حلبته) أي ذات حلبته وموضعها الذي يجتمع الكلّ فيها من كل ناحية لأنها يوم الجمع **(والجنّة سبقته)** جعلها الله سبحانه جزاء للسابقين، وفي مثلها فليتنافس المتنافسون.

وأما الفصل الثاني

المسوق لبيان تمجيد الرّسول ﷺ وتعظيمه فهو ما أشار إليه السّيد بقوله: منها في ذكر النبي ﷺ **(حتى أورى قبساً لقباس)** أي أظهر نور الحق وأخرج شعلة الهداية للطالبين المهتدين **(وأنا علما لحابس)** أصل إنارة العلم للحابس أن يوقد عليه النار ويستنار ليهتدي به الضّال الحابس أي الذي حبس ناقته ووقف لا يدري كيف يهتدي المنهج، واستعاره هنا لإظهاره ﷺ أنوار الهداية ليهتدي بها من حبسته ظلمة الحيرة والشبهة عن سلوك سبيل الحق.

والمراد بأنوار الهداية المعجزات الباهرة والأدلّة القاهرة من الكتاب والسنّة، ويحتمل أن يكون العلم مستعاراً لأئمة الدين والإنارة كناية عن النصّ عليهم بالإمامة **(فهو أمينك المأمون)** على أداء رسالاتك **(وشهيدك يوم الدّين)** على مخلوقاتك وقد تقدّم تحقيق هذه الشهادة في شرح الخطبة الحادية والسّبعين **(وبعيثك نعمة)** أي مبعوثك إلى الخلق نعمة عليهم بهدايتهم به

إلى جنتك (**ورسولك بالحقّ رحمة**) لعبادك أن يقعوا في مهاوي الهلاك بسخطك كما قال عزّ من قائل:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثم دعا في حقّه صلوات الله عليه وآله بقوله: (**اللّهمّ اقسم له مقسماً من عدلك**) أي قسمة وحظّاً ونصيباً هو مقتضى عدلك، وهو أن يبلغ نفسه النفيس الذي هو محلّ الرّسالة أقصى مراتب القرب والوصول بما له من الاستعداد والقابلية والكمالات النفسانية التي جعلته قابلاً لذلك.

ولما دعا له صلى الله عليه وآله بما يستحقه زاد على ذلك فدعا له بقوله (**واجزه مضاعفات الخير من فضلك**) وسأل بذلك أن يتفضّل عليه بزيادة من فضله فيضاعف له الخير بمقتضى فضله وكرمه.

(**اللهمّ واعل على بناء البانين بناءه**) والمراد به إمّا إعلاء ما بناه صلى الله عليه وآله من الشريعة وشيّده من الدّين على سائر ما شيّده الأنبياء وبنوه من الشّرائع والدّين، وإمّا إعلاء ما بناه لنفسه من مراتب الكمال ودرجات العزّ والجلال، وعلى التقديرين فلفظ البناء استعارة والإعلاء ترشيح.

(**وأكرم لديك نزله**) استعار عليه السلام لفظ النزل لما هيّأه الله سبحانه في حقّه صلى الله عليه وآله من الثواب الجزيل والأجر الجميل (**وشرّف عندك منزله**) في حظيرة القدس (**وآته الوسيلة**) وهو امتثال لما طلبه من أمته بقوله: سلوا الله لي الوسيلة.

قال الشارح البحراني: دعا عليه السلام أن يؤتيه ما يتوسّل به إليه ويقربه منه وهو أن يكمل استعداده لما هو أتم القوة على الوصول إليه.

أقول: وليس بشيء، بل المراد بها ما ورد في الأخبار من أنها اعلا درجة في الجنة لها ألف مرقاة ما بين المرقاة إلى المرقاة حضر الفرس الجواد مائة عام، وهي ما بين مرقاة جوهر إلى مرقات ياقوت إلى مرقاة ذهب إلى مرقاة فضّة، فيؤتى بها يوم القيامة حتّى تنصب مع درجة النّبيّين كالقمر بين الكواكب، فلا يبقى يومئذٍ نبي ولا صدّيق ولا شهيد إلاّ قال: طوبى لمن كانت هذه الدّرجة درجته (**واعطه السّناء**) أي الرفعة (**والفضيلة**).

ثمّ دعا عليه السلام لنفسه ولصالحي المؤمنين بقوله: (**واحشرنا في زمرته**) وجماعته (**غير خزايا**) وخجلين بمعصية الله (**ولا نادمين**) على التفريط في جنب الله (**ولا ناكبين**) منحرفين عن سبيل الله (**ولا ناكثين**) ناقضين لعهد[1] الله (**ولا ضالّين**) عن سواء السبيل (**ولا مفتونين**) باللغو والأباطيل.

---

(١) المراد به ما عهده لعباده من أن يعبدوه ويخلصوا له الدين كما قال عز من قائل **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً أفلم تكونوا تعقلون﴾**، منه.

واعلم أن هذا الفصل أعني الفصل الثاني من هذا الكلام قد مضى روايته من السّيد (ره) في الكتاب وهي الخطبة الحادية والسّبعون إلاّ أنه (ره) كرره ههنا لما في الروايتين من الاختلاف وبالمراجعة إليهما يعرف مواقعه، وقد قدّمنا في شرح ما سبق نكات بديعة وفوائد نافعة من أراد الانتفاع فليراجع إليه.

وهنا لطيفة يعجبني إيرادها في المقام

وهي أن الشارح المعتزلي قال بعد الفراغ من شرح هذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

قلت: سألت النقيب أبا جعفر وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية عن هذا الموضع فقلت له: وقد وقفت على كلام الصحابة وخطبهم فلم أر فيهم من يعظم رسول الله صلى الله عليه وآله تعيظم هذا الرجل ولا يدعو كدعائه، فإنا قد وقفنا من «**نهج البلاغة**» ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل تدلّ على إجلال عظيم وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال: ومن أين لغيره من الصحابة كلام مدون لتعلم منه كيفيّة ذكرهم للنبيّ صلى الله عليه وآله، وهل وجد لهم إلاّ كلمات متبددة لا طائل تحتها.

ثمّ قال: إنّ علياً عليه السلام كان قويّ الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتّصديق له، ثابت اليقين قاطعاً بالأمر متحققاً له، وكان مع ذلك يحب رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه وتربيته له واختصاصه به من دون الصّحابة وبعد فشرفه له لأنّهما نفس واحدة في جسمين الأب واحد، والدّار واحدة، والاخلاق مناسبة، فإذا عظّمه فقد عظّم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه، ولقد كان يودّ أن تطبق دعوة الإسلام مشارق الأرض، ومغاربها، لأن جمال ذلك لاحق به وعائد إليه، فكيف لا يعظمه ويبجله ويجتهد في اعلاء كلمته؟

قال الشّارح فقلت له: قد كنت اليوم أنا وجعفر بن مكي الشاعر نتجاري هذا الحديث.

فقال جعفر: لم ينصر رسول الله صلى الله عليه وآله أحد نصرة أبي طالب وبنيه له أمّا أبو طالب عليه السلام فكفّله وربّاه ثمّ حماه من قريش عند إظهار الدّعوة بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله، وأمّا ابنه جعفر فهاجر بجماعة من المسلمين إلى حبشة فنشر دعوته بها، وأمّا عليّ عليه السلام فإنّه أقام عماد الملة بالمدينة.

ثمّ لم يمن أحد من القتل والهواء والتشريد بما مني به بنو أبي طالب أمّا جعفر فقتل يوم مؤتة، وأما علي عليه السلام فقتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الحنظل وتمنّى الموت، ولو تأخر قتل ابن ملجم له لمات أسفاً وكمداً، ثمّ قتل ابناه بالسمّ والسّيف وقتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطّف وحملت نساؤهم على الأقطاب سبايا إلى الشام ولقيت ذرّيتهم وأخلافهم بعد ذلك من

القتل والهوان والصلب والتشريد في البلاد والحبس والضرب ما لا يحيط الوصف بكنهه، فأيّ خير أصاب هذا البيت من نصرته ومحبّته وتعظيمه بالقول والفعل؟

فقال وأصاب فيما قال: فهلا قلت:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ثمّ قال: إنّ الله زوى الدّنيا عن صالحي عباده وأهل الإخلاص له لأنّه لم يرها ثمناً لعبادتهم ولا كفواً لإخلاصهم وأرجا جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدّار في مثلها فليتنافس المتنافسون[1].

أقول: لله درّ النّقيب فلقد أبدع في الكلام وأصاب في الجواب وراعى الانصاف وجانب الاعتساف وأفصح عن الحق وأبان الصّدق إلاّ أنّه لا يكاد ينقضي عجبي منه ومن مثله انه مع هذا الفضل والذكاء كيف تشبث بأذيال المتخلفين ولم يتمسّك بالعروة الوثقى والحبل المتين، فان محصل ما ذكره يرجع إلى وجوه:

الأوّل: أن غيره عليه السلام من الصّحابة لم يوجد لهم كلام منظم ولا بيان منتظم حتّى يعرف منه كيفيّة تعظيمهم للنّبي صلى الله عليه وآله وتبجيلهم له ولا بدّ أن يكون سرّ ذلك إمّا قلّة معرفتهم بأساس البلاغة أو وهن اعتقادهم في أمر الرّسالة وزعمهم أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله بشر مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ومثل ذلك لا يستحق بهذا التبجيل والإكرام والتوقير والإعظام.

الثّاني: أن صدور أمثال هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام كان من قوّة الإيمان والإيقان وشدة التحقيق والتصديق والقطع واليقين الذي كان له عليه السلام في أمر الرسالة وهو بظاهره يفيد أن غيره عليه السلام لم يكن لهم هذا القطع واليقين ولا لهم معرفة تلك المعرفة وكانوا يظنونه ظنّاً وما هم بمعتقدين، ومع ذلك كيف يجوز ترجيحهم عليه وتقديمهم وتأخيره وتعظيمهم وتحقيره، ومن المعلوم أن الخلافة هو النيابة والنائب كلّما كان أشدّ معرفة بمراتب المنوب عنه وآكد يقيناً بشؤونه كان قيامه بوظائف النيابة وإتيانه بمطلوب المنوب عنه ومقاصده أكمل وأتم، ولو لم يكن له معرفة بها فكيف يقوم بالأمر ويتصرف فيه.

الثّالث: أنّه كان يحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وكان له نسبة مخصوصة إليه واختصاص خاص به صلى الله عليه وآله ولم يكن لسائر الصحابة ذلك الاختصاص والنسبة والمحبة.

أقول: وبعد الاعتراف بذلك كيف يجوز القول بخلافة غيره؟ فإن التجربة والوجدان شاهدان على أن المرء إذا نزلت به داهية أو وقع في بلية أو دنا أجله يفوّض أمره إلى خاصته وبطانته ويوصي إليه وصيّته ولا يقدّم الأجانب على الأقارب والأباعد على الخواص.

---

(١) شرح النهج: ٧/١٧٦.

الرّابع: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مع النّبي صلى الله عليه وآله بمنزلة نفس واحدة، وهو كذلك فقد شهدت به آية المباهلة، وهي تدلّ على منتهى كماله عليه السلام وفضله وشرفه وبلوغه في ذلك الغاية وتقدمه فيه على الكلّ حيث جعله سبحانه بمنزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله ومع ذلك كلّه كيف جاز ترجيح غيره عليه.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

وقوله ولقد كان عليه السلام يود أن يطبق دعوة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها.

أقول: فلقد كان كذلك وأما غيره فلقد كانوا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨] هذا.

وأمّا ما رواه من جعفر بن مكي في «**المذاكرة**» التي كانت بينه وبينه من أنه لم ينصر أحد رسول الله صلى الله عليه وآله نصرة أبي طالب عليه السلام وبنيه وأنه ما ابتلى أحد فيه صلى الله عليه وآله بمثل ما ابتلى فيه هؤلاء فهو كما قال إلاّ أنّه غلط في قوله: وأي خير أصاب هذا البيت من نصرته ومحبته وتعظيمه بالقول والفعل.

أما أوّلاً: فلأنه ليس لأمثال هؤلاء الجهال أن يتفوّهوا بمثل هذا الكلام الدال على إبداء المغايرة بين البيتين والمجانبة بين الجسمين الذين هما بمنزلة نفس واحدة حسبما قدّمناه.

وأما ثانياً: فلأنه كما قال النقيب ليس لآل أبي طالب عليه السلام منّة في ذلك على النّبي صلى الله عليه وآله، بل المنّة لله ولرسوله على جميع الخلائق.

وأما ثالثاً: فلأنه لم يكن غرض آل أبي طالب فيما فعلوا من الموازرة والنصرة والحماية للنبي صلى الله عليه وآله والجهاد بين يديه به صلى الله عليه وآله وبعده جلب المنفعة وطلب الخير وإنما كان قصدهم إحياء السنة وإعلاء لواء الشريعة وإقامة أعمدة الإسلام والملة، طلباً لرضوان الحق، وحباً له ووفاء بعهده، كما يفصح عن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقوله صلى الله عليه وآله: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله**»، الحديث.

وأمّا رابعاً: فلأنّ قوله وأيّ خير أصاب؟

إن أراد به خير الدنيا ففيه أن القنيات الدّنيوية وزخارفها وزبرجها إنما لها وقع في نظر أهلها لا في نظرهم وإنّما هي عندهم بجميع ما فيها أهون وأزهد من عراق[1] خنزير في يد مجذوم.

(١) وهو العظم الذي نحت عنه اللحم.

وإن أراد خير الآخرة فأقول: وأي خير أعظم من أن هذا البيت كان تالي بيت الرسالة، فقد جعل الله الرسالة في بيت عبد الله والخلافة في بيت أبي طالب وأتى رسول الله صلى الله عليه وآله جوامع الكلم، وعليّاً عليه السلام جوامع الكلام، وجعله مدينة العلم والحكمة، وجعل عليّاً عليه السلام بابها وجعله منه بمنزلة هارون من موسى عليه السلام، وجعله وأولاده شهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء وصار نعمة الله على الأبرار ونقمته على الفجار، وفوض إليه سقاية الكوثر وقسمة الجنّة والنّار وجعله حامل لواء الحمد وأمين مفاتيح الجنّة.

ففي «**كشف الغمّة**» من «**أمالي**» الطوسي عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «أعطاني الله تبارك وتعالى خمساً وأعطى عليّاً خمساً: أعطاني جوامع الكلم وأعطى عليّاً جوامع العلم، وجعلني نبيّاً وجعله وصيّاً، وأعطاني الكوثر وأعطاه السّلسبيل، وأعطاني الوحي وأعطاه الإلهام، وأسرى بي إليه وفتح له أبواب السماء والحجب حتّى نظر إليّ ونظرت إليه»[(١)].

إلى غير هذه مما روته الخاصة والعامّة والله وليّ التوفيق.

تكملة

الفصل الأوّل من فصيل هذا الفصل من هذه الخطبة مروي في «**الكافي**» بطريق آخر أحببت إيراده قال:

روى عليّ بن إبراهيم عن أبيه ومحمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد بن عيسى وعدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد بن خالد جميعاً عن الحسن بن محبوب عن يعقوب بن السراج عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام، وبأسانيد مختلفة عن الأصبغ بن نباته قال: خطبنا أمير المؤمنين عليه السلام في داره أو قال في القصر ونحن مجتمعون ثمّ أمر صلوات الله عليه فكتب في كتاب وقرأ على النّاس.

وروى غيره أنّ ابن الكوّا سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن صفة الإسلام والإيمان والكفر والنفاق فقال عليه السلام:

«أما بعد فإنّ الله تبارك وتعالى شرع الإسلام وسهل شرايعه لمن ورده وأعزّ أركانه لمن حاربه وجعله عزاً لمن تولاّه وسلماً لمن دخله وهدى لمن ائتم به وزينة لمن تجلله وعذراً لمن انتحله وعروة لمن اعتصم به وحبلاً لمن استمسك به وبرهاناً لمن تكلم به ونوراً لمن استضاء به وشاهداً لمن خاصم به وفلجاً لمن حاجّ به وعلماً لمن وعاه وحديثاً لمن درى وحكماً لمن

(١) الأمالي: ١٠٥، وبحار الأنوار: ٢٨/٨ ح ٣١.

قضى وحلماً لمن حرب ولباساً لمن تدبّر وفهماً لمن تفطن ويقيناً لمن عقل وبصيرة لمن عزم وآية لمن توسّم وعبرة لمن اتعظ ونجاة لمن صدق وتؤدة لمن أصلح وزلفى لمن أقرب وثقة لمن توكّل ورخاء لمن فوض وسبقة لمن أحسن وخيراً لمن سارع وجنة لمن صبر ولباساً لمن اتقى وظهيراً لمن رشد وكهفاً لمن آمن وأمنة لمن أسلم وروحاً لمن صدق وغنى لمن قنع»[1].

فذلك الحق سبيله الهدى ومأثرته المجد وصفته الحسنى فهو أبلج المنهاج مشرق المنار زكي المصباح رفيع الغاية يسير المضمار جامع الحلبة سريع السبقة اليم النقمة كامل العدة كريم الفرسان.

فالإيمان منهاجه والصّالحات مناره والفقه مصابيحه والدنيا مضماره والموت غايته والقيامة حلبته والجنّة سبقته والنّار نقمته والتّقوى عدّته والمحسنون فرسانه.

فبالإيمان يستدل على الصّالحات وبالصّالحات تعمر الفقه وبالفقه يرهب الموت وبالموت تختم الدّنيا وبالدّنيا تجوز القيامة وبالقيامة تزلف الجنّة والجنّة حسرة أهل النّار والنّار موعظة للمتقين والتّقوى سنخ الإيمان.

(١) الكافي: ٢/ ٥٠، وبحار الأنوار: ٦٥/ ٣٥٠.

الترجمة

و از جمله خطب شريفه آن امام مبين و وارث علم النّبيين است صلواة الله عليه و آله اجمعين، در ذكر فضايل ملّت اسلام و مناقب حضرت سيّدالانام عليه و آله آلاف التّحية و السّلام، مى فرمايد:

حمد بى حدّ معبود به حقى را سزا است كه پديد آورد و ظاهر نمود دين اسلام را، پس آسان گردانيد راه هاى آن را به جهت كسى كه بخواهد وارد آن شود و عزيز گردانيد ركن هاى آن را بركسى كه بخواهد غلبه آن نمايد، پس گردانيد آن را ايمنى از عذاب از براى كسى كه درآويخت به آن و صلح و آشتى از براى كسى كه داخل شد در آن و دليل روشن از براى كسى كه تكلّم كرد به آن و گواه از براى كسى كه مخاصمه نمود بهوسيله آن و نور هدايت از براى كسى كه روشنى جست به آن و فهم از براى كسى كه عاقل شود و عقل از براى كسى كه تدبر نمايد و علامت و نشانه از براى كسى كه تفرّس و تأمّل نمايد و آلت بصيرت از براى كسى كه صاحب عزم باشد و عبرت از براى كسى كه پند گيرد و نجات و خلاصى از براى كسى كه تصديق كرد و وثوق و اعتماد از براى كسى كه توكّل نمود و راحت و آسايش مركسى را كه تفويض كرد كار خود را به خدا، سپر مركسى را كه صبر نمود به رنج و عنا.

پس آن اسلام روشن تر است راه هاى آن، آشكارتر است سرّهاى آن، بلند است مناره آن، تابان است راه هاى آن، درخشان است چراغ هاى آن، گرامى است ميدان آن، بلند است نهايت آن، جمع كننده است حلبه آن، يعنى اسبانى كه فراهم آورده مى شود از اطراف و نواحى متعدّده به جهت اسب دوانى و مسابقت؛ رغبت كرده شده است سبقت آن، يعنى چيزى كه مقرر شده به جهت سقبت كننده از اسب دوان ها، بزرگوار است سوارهاى آن.

تصديق به خدا و رسول، راه راست اسلام است و عمل هاى صالح مناره او است و مرگ غايت او است و دار دنيا ميدان اسب دوانى او است و روز قيامت صاحب حلبه او و بهشت عنبرسرشت سبقت او.

بعضی دیگر از این، در ذکر حضرت رسالت مآب صلواة الله و سلامه علیه و آله است که فرمود:

تا اینکه برافروخت پیغمبر خدا شعله انوار دین مبین از برای آتش گیرنده اقتباس نور کننده و روشن گردانید علامت و نشانه را از برای حبس کننده، یعنی کسی که ایستاده باشد در وادی حیرت و ضلالت و مرکب خودش را نگه بدارد به جهت یافتن راه هدایت.

پس حضرت رسالت امین مؤتمن تو است در تبلیغ احکام و شاهد تو است بر امّتان و مبعوث و برانگیخته تو است از روی نعمت بر جمیع عالمیان و رسول تو است از روی رحمت به آدمیان.

بار خدایا، قسمت بده از برای او حظ وافر را از عدل کامل خودت و جزا بده به او زیادتی های خیر را از فضل شامل خود.

بار خدایا و بلند گردان بر بنای بناکنندگان بنای او را و گرامی دار نزد خودت اجر و جزای او را و بده او را وسیله و عطا کن او را بلندی و فضیلت را و محشور گردان ما را در میان گروه او و از مؤمنان و صالحان در حالتی که رسوا و خوار نباشیم نزد خلقان، نه پشیمانان و نه از راه راست منحرف شوندگان و نه شکنندگان عهد و پیمان و نه گمراهان و نه گمراه کنندگان و نه در فتنه افتاده شدگان.

الفصل الثاني

منها في خطاب أصحابه: «وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِها إِماؤكُمْ، وتُوصَلُ بِها جِيرانُكُمْ، ويُعَظِّمُكُمْ مَنْ لاَ فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلاَ يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، ويَهابُكُمْ مَنْ لاَ يَخافُ لَكُمْ سَطْوَةً، وَلا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ، وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللَّهِ مَنْقُوضَةً، فَلاَ تَغْضَبُونَ، وأَنْتُم لِنَقْضِ ذِمَمِ آبائِكُمْ تَأْنَفُونَ، وكانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ في أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ في الشُّبُهَاتِ، ويَسيرُونَ في الشَّهَواتِ، وأَيْمُ اللَّهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ لَجَمَعَكُمُ اللَّهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ»(١).

اللغة

(**الوصل**) ضدّ القطع، و(**الذّمة**) العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، و(**اليد**) النّعمة، و(**انف**) انفاً من باب فرح استنكف.

الإعراب

(**الواو**) في قوله عليه السلام: (**وانتم**) للحال، والجملة بعدها حال من فاعل تغضبون، وجملة (**يعملون في الشبهات**) استئنافية بيانية أو حال من الضمير المجرور في أيديهم (**ولو**) في قوله: (**ولو فرقوكم**)، بمعنى أن الشرطية إذ لو أبقيت على معناها الأصليّ لدلّت على الانتفاء عند الانتفاء كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهو باطل والإتيان بالشرط والجواب ماضيين إشارة إلى تصوير غير الحاصل بصورة الحاصل أو تنبيهاً على وقوعهما لا محالة.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام كما قال الشارح المعتزلي خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية التي كان يغير بها على أطراف أعمال عليّ عليه السلام كالأنبار وغيرها ممّا تقدّم ذكرها في الشرح فقال عليه السلام لهم.

(**وقد بلغتم من كرامة الله لكم**) بالإسلام بعد ان كنتم مجوساً وصابئة وعبدة أصنام

(١) الغارات: ١/ ١١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٦٧.

(منزلة) عظيمة **(تكرم بها إماؤكم)** وعبيدكم ومن كان مظنة المهانة والمذلة **(وتوصل بها جيرانكم)** أي الملتجئين إليكم من معاهد أو ذميّ، فإنّ الله تعالى حفظ لهم ذمام المجاورة لكم حتّى عصم دماءهم وأموالهم، ويحتمل أن يراد به المجاورون في المسكن.

(ويعظمكم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده) كالروم والحبشة، فقد عظموا مسلمي العرب لتقمّصهم بلباس الإسلام واظهارهم شعاره **(ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة ولا لكم عليه إمرة)** أي أمارة وسلطنة كالملوك في أقاصي البلاد مثل الهند والصّين ونحوها، فانهم هابوا دولة الإسلام وإن لم يخافوا سطوتها وسيوفها وذلك لأنّه شاع وذاع أنّهم قوم صالحون إذا دعوا الله استجاب الله دعوتهم وينصرهم بملائكته ويمدّهم بجنوده، هذا.

ولما قرّر نعمة الله ومنته عليهم أردفه بالتوبيخ لهم على التقصير في أداء واجب حقّه، وأشار إلى ارتكابهم بعض مسببات كفران نعمته بقوله: **(وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون)** أراد بذلك رؤيتهم من أهل الشّام وأمثالهم فعل المنكرات من مخالفة الأحكام الشّرعية والأوامر الإلهية والبغي والخروج على الإمام المفترض الطّاعة، والإغارة على المسلمين والمعاهدين وعدم إنكارهم على ذلك وسكوتهم عليه مع تمكّنهم من إزالته ودفعه بالجهاد والجدل.

وبالجملة فالمراد أنكم ترون عهود الله التي أخذها على العباد باتيان الواجبات وترك المنهيّات منقوضة فلا تنكرونه وتسكتون عليه **(وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون)** وتستنكفون، ولا ريب أنّ السكوت عن انكار تلك المنكرات مع الاستنكاف عن نقض ذمم الآباء يدل على أنّ عهود الله سبحانه أهون وأضعف عندهم من عهود آبائهم، وهو في حد الكفر.

(وكانت أمور الله عليكم ترد وعنكم تصدر وإليكم ترجع) قال العلامة المجلسي (ره): أي أنتم المخاطبون بالأوامر والنواهي، أو كنتم قبل ذلك في أيام الرّسول ﷺ موارد الأمور ومصادرها مطيعين له منكرين للمنكرات، وكان المراد بالورود السّؤال وبالصدور الجواب وبالرّجوع التحاكم. ويمكن تعميم المراد بالورود والصّدور، فالمراد بالرّجوع رجوع النفع والضرر في الدّارين.

وقال الشّارح المعتزلي: كانت الأحكام الشّرعية إليكم ترد منّي ومن تعليمي إيّاكم وتثقيفي[1] لكم، ثمّ يصدر عنكم إلى من تعلّمونه إيّاها من أتباعكم وتلامذتكم، ثمّ يرجع إليكم بأن يتعلّمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الاتباع والتّلامذة.

(فـ) فررتم من الزّحف لما أغارت جيوش الشام عليكم و**(مكّنتم الظلمة من منزلتكم)**

---

(١) التثقيف: التفهيم من ثقفت الحديث فهمته لبرعة، منه.

بتخاذلكم عن جهادكم (**وألقيتم إليهم أزمّتكم**) كالدّابة التي زمامها بيد راكبها يوجهها اين شاء ويتصرّف فيها كيف يشاء (**وأسلمتم أمور الله في أيديهم**) أي جعلتم أمور الله وأحكامه الجارية في بلاده وعباده مسلّمة مفوّضة إليهم موكولة إلى آرائهم، وكلّ ذلك بالتقصير عن مجاهدتهم.

(**يعملون في**) التكاليف الشرعية والأحكام الإلهيّة با(**الشبهات**) الفاسدة والآراء الكاسدة يزعمونها حججاً باهرة وبراهين ساطعة (**ويسيرون في الشّهوات**) النفسانية وينهمكون فيها.

ثمّ أخبر بمآل حال بني أميّة المشار إليهم بالظلمة تحذيراً لهم وإنذاراً بقوله: (**وأيم الله لو فرّقوكم تحت كلّ كوكب**) وبذّروكم في البلاد (**لجمعكم الله لشر يوم لهم**) وينتقم بسوء أعمالهم منهم، وكنّى بشر اليوم عن ظهور المسودة من أهل العراق وخراسان وانتقامهم من بني أميّة وأهل الشام، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ظهور إمام الزّمان عليه السلام وجمعهم في الرّجعة، والمراد جمع صنفهم والله وليّ التّوفيق.

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه شریفه در خطاب به اصحاب خود و توبیخ و ملامت ایشان به تقصیر از جهاد اهل شام و اتباع معاویه بی ایمان است، می فرماید:

و به تحقیق که رسیدید شما از کرامت و نوازش حضرت عزّت مرشمارا که عبارت است از مشرف نمودن شما به شرف اسلام به منزله و مقامی که گرامی داشته می شود به سبب آن منزلت کنیزهای شما و پیوند می شود اشخاصی که در امان شما می باشند از اهل ذمه و معاهدین و تعظیم می کند شما را کسی که هیچ فضیلت و مزیتی نیست شما را بر او و هیچ نعمتی نیست شما را در نزد او و می ترسد از شما کسی که نمی ترسد از قهر و غلبه شما و نیست مرشمارا بر او امارت و حکومت.

و به تحقیق می بینید شما عهدهای خداوند شکسته شده، پس غضب نمی کنید و متغیّر نمی شوید و حال آنکه شما از برای شکستن عهدهای پدران خود استنکاف دارید و بود امرهای خدا بر شما وارد می شد و از شما صادر می گردید و به شما راجع بود.

پس تمکین دادید ظالمین را از بنی امیه و بنی مروان و سایر اهل شام به منزل خودتان و بیفکندید به سوی ایشان جلو خودتان و مطیع و منقاد شدید به ایشان و سپردید کارهای خدا را در دست ایشان. عمل می کنند آنها به شبهه های باطله و سیر می کنند در شهوات و خواهشات نفسانیه و به خدا سوگند اگر پراکنده کنند ایشان شما را در زیر هر اختری، هرآینه جمع کند شما را خدا برای بدترین روزی که از برای ایشان است که عبارت است از روز ظهور امام زمان (عليه السلام).

ومن خطبة له عليه السلام في بعض أيام صفين وهي المائة والسادسة من المختار في باب الخطب

«وقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ وَانْحِيازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ الْجُفاةُ الطَّغامُ، وأَعْرابُ أَهْلِ الشّامِ، وأَنْتُمْ لَهامِيمُ الْعَرَبِ، ويَآفيخُ الشَّرَفِ، والأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنامُ الأَعْظَمُ، ولَقَدْ شَفَى وَحاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِآخِرِهِ تَحُوزُونَهُمْ كَما حازُوكُمْ، وتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَواقِفِهِمْ كَما أَزالُوكُمْ، حَسّاً بِالنِّصالِ، وشَجْراً بِالرِّماحِ، تَرْكَبُ أُولاهُمْ أُخراهُمْ كَالإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ، تُرْمَىٰ عَنْ حِياضِهَا، وتُذادُ عَنْ مُوارِدِها»[1].

اللغة

(**جال**) الفرس في الميدان يجول جولة وجولانا قطع جوانبه، وجال القوم جولة انكشفوا ثمّ كرّوا و(**انحاز**) الرجل إلى القوم بمعنى تحيّز إليهم، قال تعالى: أو متحيّزاً إلى فئة، أي مائلاً إلى جماعة من المسلمين، وفي «**القاموس**» انحاز القوم تركوا مراكزهم و(**حزت**) الشيء جمعته وضممته وحزته أيضاً غلبته و(**الجفاة**) جمع جاف وهو الغليظ من النّاس و(**الطغام**) بالطاء المهملة والغين المعجمة وزن سحاب الأوغاد من النّاس، وهي جمع وغد وهو الأحمق الضّعيف الرّذل الدّني.

و(**العرب**) محركة خلاف العجم مؤنث وهم سكّان الأمصار أو عامّ والأعراب منهم سكان البادية لا واحد لها ويقال للواحد أعرابي و(**اللّهاميم**) جمع اللّهميم بالكسر كالقنديل والقناديل وهو السّابق الجواد من النّاس والخيل أو جمع اللّهموم بالفتح كاليعسوب واليعاسيب وهي النّاقة الغزيرة والسّحابة الغريزة القطر و(**اليآفيخ**) جمع يافوخ وهو ملتقى عظم مقدم الرأس ومؤخره ويقال لمعظم الشيء أيضاً و(**الوحاوح**) جمع الوحوحة وهو صوت معه بحح و(**الحسّ**) القتل قال تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، و(**الشجر**) الطعن و(**الهيم**) من الإبل العطاش.

الإعراب

جملة (**وأنتم لهاميم العرب**) في محلّ النّصب على الحال من مفعول تحوز، وقوله (**أن رأيتكم**) على التأويل بالمصدر فاعل شفى، (**وحساً وشجراً**) منصوبان على المصدر.

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٩٥ ح ٤٢٧، والمعيار والموازنة: ١٤٩.

المعنى

اعلم أنه قد تقدّم في شرح الكلام الخامس والستّين رواية هذه الخطبة عن نصر بن مزاحم عن زيد بن وهب باختلاف لما هنا وظهر لك ثمة أنّه عليه السّلام خطب هذه الخطبة لما انهزم ميمنة أهل العراق ثمّ عادت إلى موقفها واجتمعت إلى الأشتر وحمل الأشتر معهم على صفوف أهل الشام وكشف من بإزائهم فخاطبهم أمير المؤمنين بهذا الكلام فقال:

(وقد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم) أي انكشافكم وميلكم عن صفوفكم وهو كناية عن هزيمتهم وهربهم عدل عليه السّلام في التعبير عن اللّفظ المنفر إلى لفظ غير منفر قال الشارح المعتزلي: وهو باب من أبواب البيان لطيف وهو حسن التّوصل بإيراد كلام غير مزعج عوضاً عن لفظ يتضمّن تقريعاً.

(تحوزكم) أي تغلبكم **(الجفاة الطّغام)** أي الغلاظ الأوغاد **(وأعراب أهل الشام)** والإتيان بلفظ الأعراب إمّا بيان للواقع أو تبكيت لأصحابه وتوبيخ لهم بأنه لا يليق بمثلهم في الشرف والسّودد أن يحوزه أراذل العرب والبدوي منهم.

وربما يشعر بذلك قوله عليه السّلام **(وأنتم لهاميم العرب)** وساداتها **(ويآفيخ الشرف)** تشبيههم باليآفيخ لكونهم في علوّهم وشرفهم بالنسبة إلى العرب كاليآفيخ بالنسبة إلى الأبدان **(و)** كذلك التشبيه با**(الانف المقدم والسنام الأعظم)** واستعارة لفظي الأنف والسنام لهم باعتبار العز والشرف، فان الأنف أعزّ الأعضاء وأشرفها ومتقدّم عليها وحسن الوجه به قال الشاعر:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذّنبا

وهكذا السنام في عزته وعلوّه بالنسبة إلى باقي أعضاء الجمل **(ولقد شفى وحاوح صدري)** وهي كناية عن تألّمه وحرقة قلبه الناشي عن غلبة العدو **(أن رأيتكم بآخره)** أي آخر الأمر **(تحوزونهم كما حازوكم وتزيلونهم عن مواقفهم)** ومراكزهم **(كما ازالوكم حسّاً بالنضال وشجراً بالرماح)** أي تقتلونهم قتلاً بالمراماة، وتطعنونهم طعناً بالرّماح حال كونهم **(تركب أولاهم أخراهم)** أي الكتيبة الأولى منهم الكتيبة الأخرى مولّين مدبرين **(كالإبل الهيم)** العطاش المجتمعة على الحياض للشرب **(المطرودة)** بعد اجتماعها **(ترمى)** بالسهام وتدفع **(عن حياضها وتذاد)** وتطرد **(عن مواردها)** فإن طردها على ذلك الاجتماع يوجب ركوب بعضها بعضاً ووقوع بعضها على بعض وكذلك تلك الكتائب.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن بزرگوار و سيّد ابرار است در بعض ايام صفين كه خطاب نموده به اصحاب خود در وقتى كه شكست خوردند و در مقابل اهل شام فرار را برقرار اختيار كردند، پس در مقام تعرض ملامت ايشان فرمود كه:

به تحقيق ديدم جولان كردن و هزيمت نمودن و شكست خوردن شما را در صفهاى خودتان كه جمع مى كردند و بهم مى چسباندند شما را مردمان زبر و خشن و رذل و عرب هاى باديه نشين اهل شام و حال آنكه شما جوانمردان عربيد و سرهاى شرف و ادب و بينى و پيشى گرفته بر ديگران و كوهان بزرگتر از همه.

و به تحقيق شفا داد آوازهاى سينه مرا آنكه ديدم شما را در آخر كار جمع مى كرديد و به هم مى چسبانيد ايشان را چنانچه آنها جمع و حيازت مى كردند شما را و زايل مى كرديد ايشان را از محل ها و مقام هاى خودشان چنانچه ايشان شما را زايل مى كردند.

مى كشتيد و مستأصل مى نموديد ايشان را كشتنى با تيراندازى وطعن مى كرديد به ايشان طعنه با نيزه ها، در حالتى كه برهم مى نشستند اوّل ايشان به آخر ايشان مثل شتران تشنه رانده شده كه انداخته شده باشند از حوض هاى خود و دفع كرده شده باشند از مواضع ورود بر آب.

ومن خطبة له عليه السلام وهي من خطب الملاحم والمائة والسابعة من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين:

الفصل الأول

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ، خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيرِ رَوِيَّةٍ إِذْ كانَتِ الرَّوِيَّاتُ لاَ تَليقُ إلاّ بِذَوِي الضَّمائِرِ وَلَيْسَ بِذي ضَميرٍ في نَفْسِهِ، خَرَقَ عِلْمُهُ باطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ، وأَحَاطَ بِغمُوضِ عَقَائِدِ السَّريراتِ.

(منها في ذكر النَّبيّ صلى الله عليه وآله) اخْتارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِياءِ، ومِشْكاة الضِّياءِ، وذُؤابَةِ الْعَلْياءِ، وسُرَّةِ الْبَطْحاءِ، ومَصابيحِ الظُّلْمَةِ، ويَنابيعِ الْحِكْمَةِ.

(منها) طَبيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّه، قَدْ أَحْكَمَ مَراهِمَهُ، وأَحْمىٰ مَواسِمَهُ، يَضَعُ مِنْ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وآذانٍ صُمٍّ، وأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَواضِعَ الْغَفْلَةِ، ومَواطِنَ الْحيرَةِ. لَمْ يَسْتَضيئُوا بِأَضواءِ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنادِ الْعُلُوم الثاقِبَةِ، فَهُمْ في ذَلِكَ كالأَنْعَامِ السّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقاسِيَةِ، قَدْ انجابَتِ السَّرائِرُ، لأَهْلِ الْبَصائِرِ، ووَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخابِطِها، وأَسْفَرَتِ السّاعَةُ عَنْ وَجْهِها، وظَهَرَتِ الْعَلاَمَةُ لِمُتَوَسِّمِها، ما لي أَراكُمْ أَشْباحاً بِلا أَرْواحٍ، وأَرْواحاً بِلاَ أَشْباحٍ ونُسّاكاً بِلاَ صَلاحٍ، وتُجّاراً بِلا أَرْبَاحٍ. وأَيْقاظاً نُوَّماً، وشُهُوداً غُيَّباً، وناظِرَةً عُمْياً، وسامِعَةً صُمّاً، وناطِقَةً بُكْماً»[1].

اللغة

قد مضى تفسير الملحمة بأنها الحرب والقتال والوقعة العظيمة فيها وموضع القتال مأخوذة من اشتباك الناس فيها كاشتباك لحمة الثوب بالسّدي و**(ضمير)** الإنسان قلبه وباطنه وما يضمره من الصّور، وجمع على الضمائر تشبيهاً بالسريرة والسّرائر لأن باب فعيل إذا كان اسماً لمذكر يجمع على أفعلة وفعلان كرغيف وأرغفة ورغفان و**(السّترة)** بالضّم ما استترت به كائناً ما كان و**(السّريرة)** كالسّر هو ما يكتم و**(المشكاة)** كوّة غير نافذة يجعل فيها المصباح أو عمود القنديل الذي فيه الفتيلة أو القنديل.

(١) ميزان الحكمة: ٣/٢١٦٢، وشرح نهج البلاغة: ٧/١٨٧.

و(**الذّؤابة**) بالضم مهموزاً النّاصية أو منتهاها من الرأس أو الطّائفة من شعر الرأس و(**العليا**) بالفتح والمد كلّ مكان مشرف والسّماء ورأس الجبل و(**السرّة**) ما تقطعه القابلة وسرة الوادي أفضل مواضعه و(**البطحاء**) والأبطح مسيل واسع فيه زقاق الحصا و(**المراهم**) جمع المرهم وهو دواء مركّب وطلاء لين يطلى به القروح والجروح قيل إنّه مأخوذ من الراهمة بالكسر وهو المطر الضعيف و(**المواسم**) كالمياسم جمع الميسم وهو المكواة والحديد الذي يوسم به الخيل وغيرها.

و(**قدح**) بالزند رام الإيراء به واستخرج النار منه، والزند الذي يقدح به النار وهو الأعلى والسّفلى الزندة بالهاء والجمع زناد كسهم وسهام و(**ثقبت**) النّار اتّقدت والكواكب اضاءت و(**السّائمة**) من الأنعام خلاف المعلوفة و(**القاسية**) الشديدة الغليظة و(**انجابت**) السّحابة انكشفت و(**المحجة**) بالفتح جادة الطريق و(**الخابط**) السّائر على غير هدى و(**سفر**) الصبح وأسفر أضاء، وأسفرت المرأة عن وجهها كشفت النقاب عنه و(**الشبح**) محركة سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد و(**النوّم**) و(**الغيب**) وزن ركع وسجّد جمع نائم وغائب و(**العمى**) و(**الصمّ**) و(**البكم**) كلها بالضمّ.

قال الطّبرسي في تفسير قوله سبحانه:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

الأصمّ الذي ولد كذلك وكذلك الابكم وهو الذي ولد أخرساً، وأصل الصمّ السّد فالصمم سدّ الأذن بما لا يقع منه سمع، وأصل البكم الاعتقال في اللّسان، وهو آفة يمنع من الكلام، وأصل العمى ذهاب الإدراك بالعين، والعمى في القلب مثل العمى في العين آفة تمنع من الفهم ويقال: ما أعماه من عمي القلب ولا يقال ذلك في العين وإنما يقال ما أشدّ عماه وما يجري مجراه.

الإعراب

قوله (**وليس بذي**) ضمير في نفسه، الجار والمجرور متعلّق بمقدر صفة لضمير أي كائن في نفسه، ويحتمل على بعد أن يجعل (**في**) بمعنى (**على**) ويكون الظّرف متعلّقاً بمقدر حالاً من إسم ليس، أي ليس هو بصاحب ضمير مستقراً أو متمكّناً على نفسه، والأوّل أظهر وأصح لاحتياج الثاني إلى تكلّف وابتنائه على إعمال الفعل الناقص أعني ليس في الحال وهو خلاف المشهور.

وقوله عليه السلام (**طبيب دوّار**)، الظاهر أنه خبر محذوف المبتدأ أو مذكور في أصل الكلام وأسقطه السّيد (ره) حين الالتقاط، ويحتمل أن يكون مبتدأ لكونه نكرة موصوفة، وجملة

يضع، خبره، وجملة **(قد أحكم)**: حال من فاعل دوّار، وعلى الاحتمال الأوّل أعني جعل طبيب خبراً يجوز جعل جملة يضع استئنافاً بيانياً والإشارة بلفظ ذلك إلى طبّه.

و**(حيث)**، ظرف مكان ليضع مبنيّة على الضمّ للزوم إضافتها إلى الجملة اسمية أو فعلية نحو جلست حيث زيد جالس وحيث جلس زيد، قال ابن مالك في منظومة النحو:

وألزموا إضافة إلى الجمل   حيث وإذ وإن ينوّن يحتمل

والحاجة، بالضم كما في أكثر النسخ مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف أو فاعل الفعل محذوف أي حيث كانت الحاجة إليه أو حيث الحاجة إليه حاصلة والجملة مجرورة المحل بإضافة حيث إليها، وفي بعض النسخ بجرّ الحاجة والأوّل أظهر، لأنَ إضافة حيث إلى المفرد شاذة كما قال في قوله: ألا ترى حيث سهيل طالعاً بجر سهيل على إضافة حيث إليه وربما قيل: بأن سهيل مرفوع على الإبتداء وخبره محذوف فحيث مضافة إلى الجملة والتقدير حيث سهيل مستقرّ طالعاً.

ومتتبع، خبر لمبتدأ محذوف، وجملة لم يستضيئوا منصوبة المحل على الحالية من مفعول متتبع، وقوله: ما لي أراكم أشباحاً، استفهام توبيخي، و**(لا)**، **في قوله بلا أرواح وبلا أشباح، زائدة كما في قولهم جئت بلا زاد وغضبت من لا شيء ومعنى الزيادة أنها وقعت بين شيئين متطالبين لا أنها لو أسقطت لم يخل المعنى.**

المعنى

اعلم أنّ الفصل الثاني من هذه الخطبة الشريفة في ذكر الملاحم والإشارة إلى الوقائع العظيمة الخطوب الّتي تكون بعده، وهذا الفصل الذي نحن بصدد شرحه مداره على أمور ثلاثة.

الأوّل: تحميد الله سبحانه وتمجيده باعتبار نعوته الجلالية والجمالية.

والثّاني: تبجيل النبيّ ﷺ وتعظيمه وترجيحه على الأنبياء والرّسل.

والثالث: الإشارة إلى بعض كمالات نفسه وكرامات ذاته وأتبعه بتوبيخ الجاهلين من المخاطبين وغيرهم الغافلين عن اقتباس أنواره واكتساب فيوضاته.

أما الأول: فهو قوله **(الحمد لله المتجلّي لخلقه بخلقه)** أي الظّاهر المنكشف لمخلوقاته بواسطة ايجاده وابداعه المخلوقات بقدرته الشاملة وحكمته الكاملة، ويجوز أن يكون المصدر الثاني أيضاً بمعنى المفعول، فالمعنى أنه سبحانه تجلى للخلق وأجلا معرفته لقلوب عباده بما أوجده من المصنوعات والموجودات حتّى أشبهت كل ذرّة منها مرآة ظهر بها لهم فهم

يشاهدونه على قدر قبولهم لمشاهدته وتفاوت مراتب المشاهدة بحسب تفاوت أشعة أبصار البصائر.

وقد تقدّم في شرح الخطبة الرابعة والستين في بيان معنى قوله: وكلّ ظاهر غيره غير باطن تحقيق أنه تعالى أظهر الأشياء وأجلاها وأن منتهى ظهوره صار سبباً لخفائه فليراجع ثمة، فان هناك فوائد جمّة.

(والظّاهر لقلوبهم بحجّته) أي الواضح وجوده لقلوب الّذين أنكروه بأوهامهم وألسنتهم بقيام حجته الباهرة، وأدلّته القاهرة عليهم بذلك، فانّه سبحانه لم يحجبهم عن واجب معرفته، وقد مرّ تحقيقه في شرح قوله: فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود، في الخطبة التاسعة والأربعين.

(خلق الخلق من غير رويّة) وفكر في كيفيّة خلقه لأن الفكر عبارة عن حركة القوّة المفكّرة في تحصيل المطالب من المبادىء وانتقالها منها وإليها، وهي محال عليه سبحانه.

أما أولاً فلما أشار إليه بقوله: **(اذ كانت الرّويات لا تليق إلا بذوي الضّمائر)** والقلوب والمشاعر البدنيّة **(وليس بذي ضمير في نفسه)** فليس له سبحانه روية.

وأما ثانياً: فلأن فائدة الروية هو تحصيل المطالب المجهولة من المعلومات والجهل محال على الله سبحانه، وقد تقدّم ذلك في شرح الفصل الثالث من خطبة الأشباح وهي الخطبة التّسعون.

(خرق علمه باطن غيب السّترات) أي نفذ علمه في كلّ مستتر وغائب بحيث لا يحجبه ستر ولا يستره حجاب **(وأحاط بغموض عقائد السّريرات)** أي بما دقّ وخفى من عقائد أسرار القلوب كما قال تعالى:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقد مرّ بيان علمه بالسّرائر في شرح الخطبة الخامسة والثمانين.

وأما الثاني منها: وهو الذي في ذكر النّبي صلى الله عليه وآله وتبجيله وتعظيمه فهو قوله **(اختاره من شجرة الأنبياء)** استعار عليه السلام لفظة الشجرة لصنف الأنبياء باعتبار أنّ هذا الصنف له فروع وأثمار وأوراق كالشجرة، ففروعه أشخاص الأنبياء وآحادهم وأثماره العلوم والكمالات والكرامات التي لهم، وأوراقه المؤمنون والمخلصون من أممهم.

(ومشكاة الضّياء) قال البحراني (ره) **استعار** عليه السلام لفظ المشكاة لآل إبراهيم ووجه المشابهة أن هؤلاء قد ظهرت منهم الأنبياء وسطع من بينهم أنوار النّبوة والهداية كما يظهر نور المصباح من المشكاة.

أقول: هذا مبني على كون المشكاة بمعنى القنديل أو الكوّة وعلى كونها بمعنى عمود القنديل الحامل للفتيلة فوجه المشابهة هو أنّ هؤلاء محال أنوار النّبوة باعتبار أن أكثر الأَنبياء فيهم كما أن المشكاة محلّ النور.

(وذؤابة العلياء) قال الشارح: ويشبه أن يشير به إلى قريش، ووجه المشابهة تدليهم في أغصان الشرف والعلو عن آبائهم كتدلي ذوابة الشّعر عن الرأس.

أقول: وهو مبنيّ على كون الذّوابة طائفة من الشعر وأما على كونها بمعنى النّاصية فوجه المشابهة بروز شرفهم وظهور علوّهم وفضيلتهم، كما أن الناصية بارزة ظاهرة ولها تفضيل على سائر الأَعضاء في العزة والجلاء.

(وسرة البطحاء) أي أوسطها من باب استعمال المقيد في المطلق كالمشفر في شفة الإنسان أو أفضلها، وعلى كل تقدير فالمراد بالبطحاء مكة للمسيل الواسع الذي فيه ويسمى بالأَبطح، قال الشارح المعتزلي: وبنو كعب بن لوي يفتخرون على بني عامر بن لوي بأنهم سكنوا البطاح وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكة وسكن معها بنو فهر بن مالك رهط أبي عبيدة بن الجراح وغيره قال الشاعر:

فحللت منها بالبطاح وحل غيرك بالظّواهر

وقال بعض الطالبيين:

وأنا بن معتلج[1] البطاح إذا غدا غيري وراح على متون ظواهر

يفتر عنّي ركنها وحطيمها كالجفن يفتح عن سواد النّاظر

كجبالها شرفي ومثل سهولها خلقي ومثل ظبائهن مجاوري

(ومصابيح الظلمة وينابيع الحكمة) استعار عليه السلام لفظ المصابيح والينابيع للأَنبياء الأَدلاّء على الحق باعتبار أنهم يهتدي بهم من ظلمة الجهالة ويروى بهم من غلل الضّلالة.

وأما الثالث منها: فهو قوله عليه السلام **(طبيب دوّار بطبّه)** استعار عليه السلام لفظ الطبيب لنفسه الشريف باعتبار كونه معالجاً لأَسقام الأَرواح كمعالجة الأَطبّاء لأَمراض الأبدان، وذكر الدّوار ترشيح للاستعارة، ووصفه به إشارة إلى كماله لأَن الدّوار أَكثر تجربة وحذاقة من غيره، ورشحها أيضاً بقوله **(قد احكم مراهمه)** أي أتقنها ومنعها من الفساد، وبقوله: **(وأحمى مواسمه)** أي أسخنها وهيّأها ليكوي بها، ويمكن أن يكونا من باب الاستعارة التمثيلية فيكون المراد بإحكام المراهم البشارة بالثواب أو الأَمر بالمعروف، وباحماء المواسم الإنذار من العقاب أو النهي عن المنكر.

(١) اعتلجوا: اتخذوا صراعاً وقتالاً.

وقوله عليه السلام **(يضع من ذلك)** أي من طبّه أو من كل مراهمه ومواسمه **(حيث)** كانت **(الحاجة إليه من قلوب عمي)** فيفتح عماها باعدادها لقبول أنوار العلم والهداية **(وآذان صمّ)** فيشفي صممها ويعدّها لقبول المواعظ والنّصائح **(وألسنة بكم)** فيعالجها ويعدّها للتكلّم بالحق والقول بالصّدق.

(متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة) وهي قلوب الجهال وضمائر الضّلال، هذا.

ولا يخفى عليك أنّه لو كان الإشارة بلفظة ذلك في قوله عليه السلام: يضع من ذلك إلى المراهم والمواسم لابد ان أن يكون قوله، قد أحكم مراهمه واحمى مواسمه، من باب التمثيل على سبيل الاستعارة، إذ المراهم والمواسم بمعناهما الحقيقي لا ينفعان للقلوب المتصفة بالعمى، فلا معنى لوضعهما فيها، ولو كان المشار إليه به الطبّ كان جملة يضع وما يتلوها إلى قوله: ومواطن الحيرة، من باب التجريد، فيكون كلامه جامعاً بين الاستعارة التحقيقية والترشيح والتجريد، حيث ذكر لفظ الطّبيب وأراد نفسه، وهو استعارة تحقيقية وقرنها بما يلائم المستعار منه أعني قوله: دوّار إلى قوله: مواسمه، وهو الترشيح، ثمّ قرنها بما يلائم المستعار له أعني قوله: يضع، إلى آخر الكلام، وهو التجريد، ومثله قول الشاعر:

لدى أسد شاكي السّلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تقلّم

حيث استعار الأسد للرّجل الشجاع ووصفه بشاكي السلاح وهو تجريد لملاءمة المستعار له، ورشحه بذكر اللبد والأظفار لمناسبة المستعار منه فافهم ذلك واغتنم.

ثمّ لا يخفى عليك أن وصفه عليه السلام القلوب بالعمى باعتبار أن القلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر في العين وقوّة الأبصار لطيفة تفقد في العمى ويوجد في البصير، وكذلك القوّة العقلانية في القلب الجاهل دون العاقل فنسبة البصيرة الباطنة إلى القلب كنسبة الأبصار إلى البصر إلاّ أنّه لا مناسبة بينهما في الشرف لأن القلب بمنزلة الفارس والبدن بمنزلة الفرس وعمى الفارس أضرّ عليه من عمى الفرس، ولموازنة البصيرة للبصر الظّاهر سماه الله تعالى باسمه فقال:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١].

سمّى إدراك الفؤاد رؤية كما سمّى عدم إدراكه عمى في قوله:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وفي قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

ولمّا كان عمى القلب أضرّ على الإنسان من عمى البصر، ومعالجته أهمّ أثر القلوب على الأبصار وقال: وقلوب عمي، ولم يقل وأبصار عمي، وقد استفيد من كلامه عليه السلام أنّ

القلوب والآذان والألسنة الموصوفة بالأوصاف المذكورة كلّها مريضة محتاجة إلى الطبيب.

وهو كذلك، فان كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به ومرضه أن يتعذّر عليه فعله الذي خلق لأجله حتّى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه بنوع من الاضطرار.

فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض الأذن أن يتعذّر عليها السّماع ومرض العين أن يتعذّر عليها الأبصار، ومرض اللسان أن يتعذر عليه التكلم، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على غيره والاستعانة بجميع الأعضاء عليه كما قال:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ففي كلّ عضو فائدة مخصوصة، وفائدة القلب الحكمة والمعرفة وخاصية النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم، فانه لم يتميّز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والأبصار ونحوها، بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله سبحانه، فلو عرف كلّ شيء ولم يعرف الله تعالى فكأنه لم يعرف شيئاً، وهو علامة لمرض قلبه كما أنّه لو لم يؤثر المواعظ والنصائح في أذنه، والعبر والآيات في نظره ولم يجر الحق على لسانه عرف بذلك أن هذه الجوارح منه مريضة، لكونها علامات لمرضها يستدل بها عليها فلا بدّ له من معالجتها والخلاص من ألمها.

وربّما يحصل له الغفلة عن مرضه فلا يمكن له العلاج بنفسه، فيلزم حينئذٍ وجود طبيب حاذق دوّار بطبّه لينبّهه على مرضه ويداوي له، وليس ذلك إلا أمير المؤمنين عليه السلام والطّيبون من أولاده، فإن غيرهم من الأطبّاء أعني سائر العلماء قد استولى عليهم المرض، والطبيب إذا كان بنفسه مريضاً كيف يعالج غيره، فهو طبيب إلهي متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة معالج لأمراض القلوب وأسقام الأرواح والنفوس وآفات الأعضاء والمشاعر.

وقد روى بعض القدماء في أصل له عن الرّضا عليه السلام مسنداً عن عمّار بن ياسر قال: بينا أنا أمشي بأرض الكوفة إذ رأيت أمير المؤمنين عليه السلام جالساً وعنده جماعة من الناس، وهو يصف لكل انسان ما يصلح له، فقلت له: يا أمير المؤمنين أيوجد عندك دواء الذنوب؟ فقال عليه السلام: نعم اجلس، فجثوت على ركبتي حتى تفرق عنه النّاس، ثمّ أقبل عليّ وقال: خذ دواء ما أقول لك، قال: قلت: قل يا أمير المؤمنين، قال عليه السلام: «عليك بورق الفقر، وعروق الصبر، وهليلج الكتمان، وبليلج الرضا، وغاريقون الفكر، وسقمونيا الأحزان واشربه بماء الأجفان، وأغله في طبخير الغلق، ودعه تحت نيران الفرق، وصفّه بمنخل الأرق، واشرب على الحرق، فذاك دواؤك وشفاؤك يا عليل»[1].

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/١٧١ ح ١٣٨٠٣، وميزان الحكمة: ٢/٩٩٧.

وروى في «**الاحتجاج**» عن أبي محمّد العسكري عن عليّ بن الحسين زين العابدين عليهم السلام أنه قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام قاعداً ذات يوم فأقبل إليه رجل من اليونانيين المدّعين للفلسفة والطبّ، فقال له: يا أبا الحسن بلغني خبر صاحبك وأنّ به جنوناً وجئت لأعالجه فلحقته قد مضى لسبيله وفاتني ما أردت من ذلك، وقد قيل لي: إنّك ابن عمه وصهره وارى بك صفاراً قد علاك وساقين دقيقين وما أراهما تقلانك[1] فأما الصّفار فعندي دواؤه، وأما السّاقان الدّقيقان فلا حيلة لتغليظهما والوجه أن ترفق بنفسك في المشي تقلّله ولا تكثره وفيما تحمله على ظهرك وتحتضنه بصدرك أن تقلّلهما ولا تكثرهما، فإن ساقيك دقيقان لا يؤمن عند حمل ثقيل انقصافهما[2] وأما الصفّار فدواؤه عندي وهو هذا.

واخرج دواء وقال: هذا لا يؤذيك ولا يخيّسك ولكنه يلزمك حمية من اللّحم أربعين صباحاً ثم يزيل صفارك.

فقال له عليّ عليه السلام: قد ذكرت نفع هذا الدّواء الصّفاري فهل تعرف شيئاً يزيد فيه ويضره؟ فقال الرّجل: بلى حبّة من هذا وأشار إلى دواء معه، وقال: إن تناوله الإنسان وبه صفار أماته من ساعته وإن كان لا صفار به صار به صفار حتى يموت في يومه.

فقال عليه السلام له فأرني هذا الضار، فأعطاه إيّاه فقال له عليه السلام كم قدر هذا؟ قال قدر مثقالين سم ناقع قدر كلّ حبّة منه يقتل رجلاً، فتناوله عليّ عليه السلام فقمحه وعرق عرقاً خفيفاً وجعل الرّجل يرتعد في نفسه ويقول: الآن أوخذ بابن أبي طالب ويقال قتلته ولا يقبل مني قولي أنه هو الجاني على نفسه، فتبسّم علي عليه السلام وقال: يا عبد الله أصحّ ما كنت بدناً الآن لم يضرني ما زعمت أنه سمّ.

ثم قال عليه السلام: فغمّض عينيك فغمض ثم قال: افتح عينيك ففتح ونظر إلى وجه عليّ عليه السلام فإذا هو أبيض أحمر مشرب الحمرة فارتعد الرجل لما رآه، فتبسّم عليّ عليه السلام وقال: أين الصفّار الذي زعمت أنه بي؟ فقال: والله لكأنّك لست من رأيت قبل كنت مصفاراً وأنت الآن مورّد فقال علي عليه السلام: فزال عني الصّفار بسمّك الذي تزعم أنه قاتلي.

وأمّا ساقاي هاتان ومدّ رجليه وكشف عن ساقيه، فانّك زعمت أني احتاج إلى أن أرفق ببدني في حمل ما أحمل عليه لئلا ينقصف السّاقان وأنا أريك أن طبّ الله عزّ وجلّ طبّ خلاف طبّك، وضرب بيده إلى اسطوانة خشب عظيمة على رأسها سطح مجلسه الذي هو فيه وفوقه حجرتان إحداهما فوق الأخرى وحرّكها فاحتملها فارتفع السّطح والحيطان وفوقهما الغرفتان.

---

(١) أي تحملانك من أقللته أي حملته.

(٢) القصف الكسر.

فعشى على اليوناني فقال أمير المؤمنين عليه السلام: صبّوا عليه ماء فصبّوا عليه ماء فأفاق وهو يقول: والله ما رأيت كاليوم عجباً، فقال له عليّ عليه السلام هذه قوّة السّاقين الدّقيقين واحتمالهما أفي طبك هذا يا يوناني.

فقال اليوناني: أمثلك كان محمّد؟ فقال عليّ عليه السلام: وهل علمي إلاّ من علمه، وعقلي إلاّ من عقله وقوّتي إلاّ من قوّته، لقد أتاه الثقفي وكان أطبّ العرب فقال له صلى الله عليه وآله: إن كان بك جنون داويتك، فقال له محمّد صلى الله عليه وآله أتحب أن أريك آية لتعلم بها غناي عن طبّك وحاجتك إلى طبّي؟ فقال: نعم، قال: أيّ آية تريد؟ قال: تدعو إليّ ذلك العذق[1] وأشار إلى نخلة سحوق فدعاها فانقلع أصلها من الأرض وهي تخدّ الأرض خدّاً حتى وقفت بين يديه، فقال صلى الله عليه وآله له: أكفاك؟ قال: لا، قال: فتريد ماذا؟ قال: تأمرها أن ترجع إلى حيث جاءت منه وتستقرّ في مقرّها الذي انقلعت منه، فأمرها، فرجعت واستقرّت في مقرّها.

فقال اليوناني لأمير المؤمنين عليه السلام: هذا الذي تذكره عن محمّد غائب عني، وأنا أقتصر منك على أقل من ذلك، أنا أتباعد عنك فادعني وأنا لا اختار الإجابة، فإن جئت بي إليك فهو آية.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: هذا إنما يكون آية لك وحدك لأنّك تعلم من نفسك أنك لم ترده وإنّي لازلت اختيارك من غير أن باشرت مني شيئاً أو ممّن أمرته بأن يباشرك، أو ممن قصد إلى إجبارك وان لم آمره إلاّ ما يكون من قدرة الله القاهرة وأنت يا يوناني يمكنك ان تدعي ويمكن غيرك أن يقول إني واطأتك على ذلك، فاقترح ان كنت مقترحاً ما هو آية لجميع العالمين.

فقال اليوناني إن جعلت الاقتراح إليّ فأنا اقترح أن تفصل أجزاء تلك النخلة وتفرقها وتباعد ما بينها ثم تجمعها وتعيدها كما كانت.

فقال عليّ عليه السلام: هذه آية وأنت رسولي إليها يعني إلى النخلة فقل لها: إنّ وصيّ محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر أجزاءك أن تفترق وتتباعد.

فذهب فقال لها: فتفاصلت وتهافتت وتناثرت وتصاغرت أجزاؤها حتّى لم ير لها عين ولا أثر حتى كأن لم تكن هناك نخلة قط.

فارتعدت فرائص اليوناني وقال: يا وصي محمّد رسول الله قد أعطيتني اقتراحي الأوّل فاعطني الآخر فأمرها أن تجتمع وتعود كما كانت.

فقال عليّ عليه السلام: أنت رسولي إليها فعد فقل لها: يا اجزاء النخلة إن وصي محمّد رسول الله يأمرك أن تجتمعي وأن تعودي كما كنت.

---

(١) العذق بالفتح النخلة بحملها والسحوق من النخلة الطويلة، ق.

فنادى اليوناني فقال ذلك: فارتفعت في الهواء كهيئة الهباء المنثور ثم جعلت تجتمع جزأً جزأً حتى تصوّر لها القضبان والأوراق وأصول السّعف وشماريخ الأعذاق ثم تالفت وتجمعت واستطالت وعرضت واستقرّ أصلها في مستقرّها وتمكن عليها ساقها وترقت على الساق قضبانها وعلى القضبان أوراقها وفي اكمتها اعذاقها وكانت في الابتداء شماريخها متجردة لبعدها من أوان الرّطب والبسر والخلال.

فقال اليوناني: وأخرى أحبّ أن تخرج شماريخها خلالها وتقلبها من خضرة إلى صفرة وحمرة وترطيب وبلوغ أناه لتأكل وتطعمني ومن حضرك منها.

فقال عليّ عليه السلام: أنت رسولي إليها بذلك فمرهابه.

فقال لها اليوناني يأمرك أمير المؤمنين عليه السلام بأن تظهري لنا رطباً فأخلت، وأبسرت واصفرت واحمرت وترطبت وثقلت أعذاقها برطبها.

فقال اليوناني: وأخرى أحبّها أن تقرّب من بين يدي أعذاقها أو تطول يدي لتناولها وأحبّ شيء إلى أن تنزل إلي إحداها وتطول يدي إلى الأخرى الّتي هي أختها.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: مد اليد التي تريد أن تناولها وقل يا مقرب البعيد قرب يدي منها، واقبض الأخرى التي تريد أن ينزل العذق إليها وقل يا مسهّل العسير سهّل لي تناول ما يبعد منها، ففعل ذلك وقاله: فطالت يمناه فوصلت إلى العذق، وانحطت الأعذاق الأخر فسقطت على الأرض وقد طالت عراجينها.

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّك إن أكلت منها ولم تؤمن بمن أظهر لك عجائبها عجّل الله عليك من العقوبة التي يبتليك بها ما يعتبر به عقلاء خلقه وجهّالهم.

فقال اليوناني: إني إن كفرت بعد ما رأيت فقد بالغت في العناد وتناهيت في التعرّض للهلاك، أشهد أنّك من خاصة الله صادق في جميع أقوالك عن الله فأمرني بما تشاء اطعتك.

قال علي عليه السلام: آمرك أن تفرد الله بالوحدانية وتشهد له بالجودة والحكمة وتنزّهه عن العبث والفساد، وعن ظلم الإماء والعباد، وتشهد أنّ محمّداً الذي أنا وصيّه سيّد الأنام، وأفضل رتبة أهل الإسلام[1]، وتشهد أنّ علياً الذي أراك ما أراك، وأولاك من النّعم ما أولادك خير خلق الله بعد محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وأحق خلق الله بمقام محمّد صلى الله عليه وآله بعده وبالقيام لشرائعه وأحكامه، وتشهد أنّ أولياءه أولياء الله وأعداءه أعداء الله، وأن المؤمنين المشاركين لك فيما كلفتك المساعدين لك على ما به أمرتك خير أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وصفوة شيعته.

---

(١) «دار السلام» في نسخة.

وآمرك أن تواسي اخوانك المطابقين لك على تصديق محمّد ﷺ وتصديقي، والانقياد له ولي ممّا رزقك الله وفضلك على من فضلك به منهم، تسدّ فاقتهم، وتجبر كسرهم، وخلّتهم، ومن كان منهم في درجتك في الإيمان ساويته في مالك بنفسك ومن كان منهم فاضلاً عليك في دينك آثرته بمالك على نفسك حتى يعلم الله منك أن دينه آثر عندك من مالك، وإنّ أولياءه أكرم عليك من أهلك وعيالك.

وآمرك أن تصون دينك وعلمنا الذي أودعناك وأسرارنا التي حملناك ولا تبدِ علومنا لمن يقابلها بالعناد ويقابلك من أجلها بالشتم واللعن والتناول من العرض والبدن ولا تفش سرنا إلى من يشنع علينا وعند الجاهلين بأحوالنا ويعرّض أولياءنا لبوادر الجهال.

وآمرك أن تستعمل التّقية في دينك فان الله عزّ وجلّ يقول:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقد أذنت لك في تفضيل أعدائنا إن ألجأك الخوف إليه، وفي إظهار البراءة منا إن حملك الوجل عليه، وفي ترك الصلاة المكتوبات إذا خشيت على حشاشتك الآفات والعاهات، فان تفضيلك أعداءنا علينا عند خوفك لا ينفعهم ولا يضرّنا، وإن إظهار براءتك منّا عند تقيتك لا يقدح فينا ولا ينقصنا، ولأن تتبرّأ منّا ساعة بلسانك وأنت موال لنا بجنانك لتبقى على نفسك روحها التي بها قوامها ومالها الذي به قيامها وجاهها الذي به تماسكها وتصول من عرف بك وعرفت به من أوليائنا وإخواننا وأخواتنا من بعد ذلك بشهور وسنين إلى أن يفرج الله تلك الكربة وتزول تلك النعمة فإن ذلك أفضل من أن تتعرض للهلاك، وتنقطع به عن عمل في الدّين وصلاح اخوانك المؤمنين.

وإيّاك ثم إيّاك أن تترك التقية التي أمرتك بها، فانك شائط بدمك ودماء إخوانك، معرّض لنعمك ونعمتهم على الزّوال، مذلّ لك ولهم في أيدي أعداء دين الله، وقد أمرك الله باعزازهم، فانك إذا خالفت وصيتي كان ضررك على نفسك وإخوانك أشدّ من ضرر الناصب لنا الكافر بنا[١].

وقد ذكرت الرواية بتمامها على طولها لاشتمالها على مناقب دثرة وفوائد جمّة، وتضمّنها توضيح الطب الإلهي.

ثمّ انه عليه السلام لما وصف نفسه بدورانه بطبه وتتبعه بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة، وتفقّده حال مرضاء القلوب والأفئدة أردفه بتوبيخ الغافلين الحائرين الجاهلين المفتونين بعدم رجوعهم إليه وتداويهم به واهتدائهم بأنواره وأخذهم من علومه وحكمه وبقائهم على مرضهم

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ٢٢٩، والاحتجاج: ١/ ٣٥٥.

وابتلائهم بالآلام والأسقام فقال عليه السلام:

(**لم يستضيئوا بأضواءِ الحكمة**) أي لم يكتسبوا شيئاً من أنوار العلوم والأخلاق الفاضلة (**ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة**) أي لم يستخرجوا المطالب الحقة بالعلوم المضيئة استخراج النّار بالزناد (**فهم في ذلك**) المعنى أي في عدم الاستضائة والقدح (**كالأنعام السّائمة**) في الغفلة والإنخراط في سلك الغضب والشهوة بل هم أضل سبيلاً (**والصخور القاسية**) في القساوة وعدم اللّين بسماع الآيات الحقة كما قال تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

ثمّ قال عليه السلام (**قد انجابت السّرائر لأهل البصائر**) أي انكشفت، قال العلامة المجلسي (ره): والمراد بالسرائر ما أضمره المعاندون للحق في قلوبهم من إطفاء نور الله وهدم أركان الشريعة، وقال الشارح البحراني: إشارة إلى انكشاف ما يكون بعده لنفسه القدسيّة ولأهل البصائر من استيلاء بني أمية وعموم ظلمهم أو انكشاف أسرار الشريعة لأهلها.

(**ووضحت محجّة الحق لخابطها**) أي لمن سار فيها على غير هدى، ولعل المراد به الإشارة إلى عدم العذر للخابطين في خبطهم وجهالاتهم مع وضوح معالم الدين والتنبيه على أنّ ضلالهم ليس لخفاء الحق، بل للإصرار على الشّقاق والنفاق.

(**وأسفرت الساعة عن وجهها**) وهذه الفقرة وما يتلوها واردة في مقام التحذير والانذار بقرب القيامة وشبهها بانسان مقبل وأثبت لها الوجه الذي هو من خواص المشبه به على سبيل الاستعارة التخييلية، فإن أول ما يبدو من الشخص المقبل وجهه وذكر الاسفار ترشيح.

(**وظهرت العلامة لمتوسمها**) أي لمتفرّسها قال المجلسي (ره): والمراد باسفار الساعة وظهور العلامة قرب القيامة بعدم بقاء نبيّ ينتظر بعثته وظهور الفتن والوقائع التي هي من أشراطها.

(**مالي أراكم أشباحاً بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح**) هذا الكلام يفسّر بوجوه:

أحدها: أن المراد بالفقرة الأولى تشبيههم بالجمادات والأموات في عدم انتفاعهم بالعقل وعدم تأثير المواعظ فيهم كما قال تعالى: ﴿وكأنّهم خشب مسندة﴾ [المنافقون: ٤]، وبالفقرة الثانية التنبيه على خفتهم وطيشهم.

الثاني: أن المراد الإشارة إلى قصورهم عما يراد بهم من القيام بأمر الجهاد والتنبيه على أنّ بعضهم بمنزلة الميت والجماد وكجسد بلا روح وبعضهم له عقل وفهم ولكن لا قوة له على الحرب كروح بلا جسد، فان الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الاعتماد والتّحريك اللّذين كانا من فعلها، حيث كانت تدبر الجسد فالمقصود ان الجميع عاطلون عمّا يراد منهم.

الثالث: أنّه كناية عن عدم نهوض بعضهم بعضهم إلى الحرب دون بعض إذا دعوا إليه كما يقوم البدن بدون الرّوح والرّوح بدون البدن.

الرّابع: أن المراد أنهم إذا خافوا ذهلت عقولهم وطارت ألبابهم وكانوا كأجسام بلا أرواح، وإذا أمنوا تركوا الاهتمام بأمورهم كأنهم أرواح لا تعلّق لها بالأجسام.

(ونساكاً بلا صلاح) أي عباداً ليست عبادتهم على وجه الخلوص وبالوجه المأمور به مقرونة بالشرائط المعتبرة، فان منها معرفة الإمام وطاعته.

(وتجاراً بلا أرباح) لعدم ترتب الثواب أو المنفعة على أعمالهم **(وأيقاظاً نوماً)** أي أيقاظاً بأجسامهم ونوماً بنفوسهم في مراقد الطبيعة ومماهد الغفلة **(وشهوداً غيباً)** أي شاهدين بأبدانهم غائبين بعقولهم عن التّفطن للمطالب الحقة والتلقي لأنوار الهداية **(وناظرة عمياً)** أي ناظرة الأبصار عمياً بالبصائر **(وسامعة صمّاً)** أي سامعة بالآذان صمّاً بالقلوب **(وناطقة بكماً)** أي ناطقة بالألسن الظاهر بكماً بالمشاعر الباطنة.

أو استعارة لفظ العمى والصمّ والبكم لهم مع توصيفهم بأضدادها باعتبار تقصيرهم وقصورهم عن النظر في آيات الله والسّماع لنداء الله والقول بكلام الله فهؤلاء حيث لم ينتفعوا بالأبصار والألسن والأذان صاروا بمنزلة: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ۱۷۱].

الترجمة

و از جمله خطب شریفه آن امام مبین و حبل الله المتین است و آن از جمله خطبه هایی است که ذکر فرموده در آن حوادث روزگار و فتنه های خونخوار را، چنانچه فرموده:

حمد بی قیاس معبود به حق را سزا است که ظاهر است و هویدا به خلق خود به سبب ایجاد فرمودن مخلوقات خود و آشکار است از برای قلوب منکرین با دلیل های روشن و متین خود، خلق کرد مخلوقات را بدون فکر و رویّه از جهت اینکه فکرها لایق نیست مگر به صاحبان قلب ها و نیست خداوند متعال صاحب قلب در نفس خود و نافذ شد و درید علم او باطن آنچه که غایب است از امور مستوره و احاطه کرد به پنهانی عقیده های غیرظاهره.

بعض دیگر از این خطبه در ذکر اوصاف حضرت خاتم الانبیاء علیه آلاف

التحية والثنا است، چنانچه می فرماید:

اختیار نمود حضرت عزّت آن جناب را از شجره طیبه پیغمبران و از چراغدان روشنی و از چنین مکان عالی و از نافه مکّه معظمه و از چراغ های تاریکی و ظلمت و از چشمه های علم و حکمت.

بعض دیگر از این خطبه اشاره است به فضایل خود و ملامت اصحاب، می فرماید:

طبیبی است حاذق که بسیار گردنده است با طبّ خود، در حالتی که محکم نموده مرهم های خود را و گرم نموده آلت های داغ خود را، می گذارد آن طبیب طب خود را به محلی که حاجت بوده باشد به آن از قلب های کور و گوش های کر و زبان های گنگ، تتبع کننده است آن طبیب به دوای خود محلّ های غفلت و موطن های حیرت را، کسب روشنی نکرده اند ایشان به روشنی های حکمت و عرفان و آتش نیفروخته اند به آتش زنه های علم های درخشان، پس ایشان در این ظلمت و غفلت مانند چهارپایان چراکننده هستند و مثل سنگ های سخت می باشند.

به تحقیق که منکشف ظاهر شد سرها به جهت اهل بصیرت ها و واضح و روشن گردید جادّه حق از برای خبط کننده گمراه و کشف نقاب نمود قیامت از روی خود و ظاهر گشت علامت قیامت از برای دریابنده آن به فراست.

چیست مرا که می بینم شما را قالب های بی روح و روح های بی غالب و عبادت کنندگان بی صلاحیت و تجارت کنندگان بی منفعت و بیداران خواب رفته و حاضران غایب شونده و بینایان کور و شنوندگان کر و گویندگان لال، یعنی شما به حسب مشاعر ظاهره، بیدار و حاضر و بصیر و سمیع و ناطق می باشید و به ملاحظه مشاعر باطنه، در خواب و غایب و کور و کر و لال هستید.

الفصل الثاني

رايَةُ ضَلالَةٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِها، وتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِها، تَكيلُكُمْ بِصاعِها، وتَخْبِطُكُمْ بِباعِها، قائِدُها خارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قائِمٌ عَلَى الضَّلَّةِ، فَلاَ يَبْقَىٰ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلاَّ ثُفالَةٌ كَثُفالَةِ الْقِدْرِ، أَوْ نُفاضَةٌ كَنُفاضَةِ الْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الأَديمِ، وتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصيدِ، وتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اسْتِخْلاصَ الطَّيرِ الحَبَّةَ الْبَطينَةَ مِنْ بَينِ هَزِيلِ الْحَبِّ.

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذاهِبُ، وتَتيهُ بِكُمُ الْغَياهِبُ، وتَخْدَعُكُمُ الكَواذِبُ، ومِنْ أَيْنَ تُؤْتُونَ، وَأَنّى تُؤْفَكُونَ، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ، ولِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيابٌ، فَاسْتَمِعُوهُ مِنْ رَبّانِيِّكُمْ، وأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ، وَلْيَصْدُقْ رائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ، وقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْباطِلُ مَآخِذَهُ، ورَكِبَ الْجَهْلُ مَراكِبَهُ، وعَظُمَتِ الطّاغِيَةُ، وقَلَّتِ الدّاعِيَةُ، وصَالَ الدَّهْرُ صِيالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ، وهَدَرَ فَنيقُ الْباطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ، وتَواخَى النّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وتَهاجَرُوا عَلَى الدّينِ، وتَحابُّوا عَلَى الْكِذْبِ، وتَباغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ.

فَإِذا كانَ ذَلِكَ كانَ الْوَلَدُ غَيْظاً، وَالْمَطَرُ قَيْظاً، وتَفيضُ اللِّئامُ فَيْضاً وتَغيضُ الْكِرامُ غَيْضاً، وكانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمانِ ذِئاباً، وسَلاطينُهُ سِباعاً، وأَوْساطُهُ أَكالاً، وفُقَراؤُهُ أَمْواتاً، وغارَ الصِّدْقُ، وفاضَ الْكِذْبُ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسانِ، وتَشاجَرَ النّاسُ بِالْقُلُوبِ، وصارَ الْفُسُوقُ نَسَباً، وَالْعَفافُ عَجَباً، ولُبِسَ الإِسْلامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً[1].

اللغة

(**القطب**) حديدة تدور عليها الرحى وملاك الأمر ومداره، وسيّد القوم و(**الشعب**) بضم الأوّل وفتح الثاني جمع شعبة كغرفة وغرف وهي الطائفة من الشيء، ومن الشجرة الغصن المتفرّع منها، وفي بعض النسخ لشعبها بفتح الأوّل وسكون الثاني وزن فلس وهي القبيلة العظيمة.

و(**الخبط**) بالفتح ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها، وخبط البعير الأرض بيده ضربها، و(**الباع**) قدر مدّ اليدين، و(**ثفالة**) القدر بالضمّ ما سفل فيه من الطبيخ والثفل ما استقر تحت الشيء من الكدر، و(**النفاضة**) بالضمّ ما سقط من المنفوض من نفض الثوب حركه لينتفض، و(**العكم**) بالكسر العدل ونمط تجعل فيه المرأة ذخيرتها.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٠٤ ح ٥٤١٤، ومعجم أحاديث الإمام المهدي (عج): ٣/ ١٩.

و(**داس**) الرّجل الحنطة دقّها ليخرج الحبّ من السّنبل و(**البطينة**) السّمينة و(**الهزيل**) ضدّ البطين و(**تاه**) يتيه تيهاً بالفتح والكسر تحير، و(**الغيهب**) الظلمة والشديد السّواد من الليل، و(**تؤتون**) بالبناء على المفعول، و(**الرّباني**) منسوب إلى الرب وفسّر بالمتأله العارف بالله، أو الذي يطلب بعلمه وجه الله، أو العالم العامل المعلّم، و(**الرائد**) الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث، و(**الفلق**) الشق، و(**الخرزة**) محركة الجوهر وما ينظم، و(**قرفت**) الشيء قرفاً من باب ضرب قشرته.

و(**الصمغ**) ما ينحلب من شجر العضا ونحوها وفي «**القاموس**» ولكلّ شجر صمغ والصمغ العربي غراء القرظ والواحدة صمغة والجمع صموغ مثل تمر وتمرة وتمور في المثل، وتركته على مثل مقرف الصمغة، ويروى مقلع لأنّ الصمغة إذا قرفت لم يبق لها أثر.

و(**الهدر**) ترديد الصوت في الحنجرة من غير شقشقة، و(**الفنيق**) بتقديم النون على الياء وزن أمير الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب، و(**الكظوم**) الإمساك والسّكوت، و(**القيظ**) بالظاء صميم الصّيف وفي بعض النسخ فيضاً بالضاد أي كثيراً.

و(**اكُالاّ**) بالضم والتّشديد جمع آكل مثل طلاب وقال الشّارح المعتزلي بعد روايته أكالا بفتح الهمزة وتخفيف الكاف يقال ما ذقت أكالا أي طعاماً، ثم قال: وفي هذا الموضع إشكال لأنّه لم ينقل هذا الحرف إلا في الجحد خاصة كقولهم ما بها صافر فالأجود الرّواية الأخرى وهي آكالاً بمدّ الهمزة على افعال جمع أكل وهو ما أكل كقفل وأقفال، وقد روى أكالاً بضم الهمزة على فعال وقالوا إنه جمع أكل كعرق وعراق وظئر وظؤار إلاّ أنّه شاذ عن القياس ووزن واحدهما مخالف لوزن اكال لو كان جمعاً و(**غار**) **الماء في الأرض ذهب و(فاض) أي كثر حتى سال**.

الإعراب

قوله (**راية ضلالة**) خبر لمبتدأ محذوف، وجملة (**تعرككم**)، إمّا صفة لراية أو حال من فاعل قامت، و(**الباء**) في قوله عليه السلام أين تذهب بكم المذاهب، للتعدية، (**وكذا**) **في قوله** تتيه بكم، و(**إن**) في قوله عليه السلام (**ان هتف بكم**)، بكسر الهمزة شرطية وفي بعض النسخ بالفتح فتكون مصدريّة أي لهتافه بكم، وفاعل فلق راجع إلى الرائد، (**والطّاغية**) فاعل عظمت وهو مصدر بمعنى الطّغيان وقيل إنه صفة لمحذوف أي الفئة الطّاغية، (**وكذا**) الداعية تحتمل الوجهين.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من كلامه عليه السلام منقطع عمّا قبله التقطه السّيد (**ره**) **من كلامه وأسقط** ما قبله على ما هو عادته في الكتاب ولعلّه إشارة إلى ما يأتي ويحدث في آخر الزمان من الفتن

كظهور السّفياني وغيره ولما كان المخبر به محقق الوقوع لكونه مأخوذاً من معدن الرسالة متلقى من الوحي الإلهي بدأ الكلام بالجملة الماضويّة مقرونة بحرف التحقيق فقال عليه السلام:

(راية ضلالة) أي: هذه راية ضلالة **(قد قامت على قطبها)** وهو كناية عن انتظام أمرها، **(وتفرقت بشعبها)** أي: بطوائفها فيكون كناية عن انتشار فتنها في الآفاق وتولد فتن أخرى عنها أو بفروعها فيكون استعارة تشبيهاً لها بالشجرة ذات الأغصان المتفرعة عنها.

وفي شرح المعتزلي ليس التفرّق للرّاية نفسها بل لنُصارها وأصحابها، فحذف المضاف ومعنى تفرقهم أنهم يدعون إلى تلك الدّعوة مخصوصة في بلاد متفرقة أي تفرق ذلك الجمع العظيم في الأقطار واعين إلى أمر واحد انتهى.

أقول: هذا المعنى مبني على رواية شعبها بسكون العين، وعلى ذلك فلا حاجة إلى تقدير المضاف إذ نص معنى الكلام على ذلك أنه تفرقت راية الضلالة بقبيلتها.

وقوله: **(تكيلكم بصاعها)** بصيغة المضارع جرياً على الأصل لكون المخبر به من الأمور المستقبلة، وهو استعارة بالكناية، والمراد به أنها تأخذكم للإهلاك زمرة زمرة كالكيّال يأخذ ما يكيل جملة جملة، أو أنه يقهركم أربابها على الدخول في أمرهم ويتلاعبون بكم يرفعونكم ويضعونكم كما يفعل كيّال البرّ به إذا كاله بصاعه، أو تكيل لكم بصاعها على حذف اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]، أي تحملكم على دينها ودعوتها وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها، أو تفرز لكم من فتنتها شيئاً ويصل إلى كلّ منكم نصيب منها.

(وتخبطكم بباعها) أي تضربكم بيدها كالضارب للشجر بعصاه أو البعير الضارب بيده الأرض وعلى الوجهين يفيد الذلة والانقهار، والتعبير بالباع دون اليد لكونه أبلغ في إفادة قوّة الخبط.

(قائدها خارج عن الملة) أي: ملة الإسلام، **(قائم على الضلة)** أي: مصرّ على الضلال، **(فلا يبقى يومئذٍ)** أي: يوم قيامها على قطبها وتفرقها بشعبها **(منكم إلاثفالة كثفالة القدر)** واستعار لفظ الثفالة للبقية منهم باعتبار عدم الخير والمنفعة فيهم وبملاحظة كونهم من الأرذال ليس لهم ذكر بين الناس ولا لهم شهرة ولا يعتنى بقتلهم كما لا يعتنيى بثفالة القدر ولا يلتفت إليها.

وكذلك الكلام في قوله **(أو نفاضة كنفاضة العكم)** والمراد بها ما يبقي في العدل بعد التخلية من غبار أو بقية زاد لا يعبأ بها فينتفض، **(تعرككم عرك الأديم)** أي تدلككم وتحككم كما يدلك الجلد المدبوغ ويحك، وأراد به تغليب الفتن لهم وتذلّلهم بها، **(وتدوسكم دوس الحصيد)** أي تدقكم دق الزرع المحصود المقطوع وأشار به إلى منتهى ذلتهم واهانتهم.

(وتستخلص المؤمن) أي: تشخصه لنفسه **(من بينكم)** مثل **(استخلاص الطير الحبة**

البطينة) السمينة (**من بين هزيل الحب**) والغرض به أنها شخص المؤمن بالقتل والأذى وايقاع المكروه به وتستخلصه من بين سائر الناس بشدة النكاية والأذية.

ثمّ استفهم عليه السلام عنهم على سبيل التقريع لهم والتوبيخ ببقائهم على ضلالتهم وقال (**أين تذهب بكم المذاهب**) أي: الطرق المنحرفة عن الحق، والمراد بها العقائد الفاسدة، واسناد الإذهاب إليها على المجاز مبالغة، (**وتتيه بكم الغياهب**) أي تجعلكم ظلمات الجهالات تائهين متحيرين في بوادي الضّلال، (**وتخدعكم الكواذب**) أي تمكر بكم الامنيات الكاذبة والأوهام الباطلة التي لا أصل لها.

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

(**من أين تؤتون**) أي من أيّ جهة وطريق يأتيكم من يضلّكم من الشياطين أو تأتيكم تلك الأمراض المزمنة (**وانّى تؤفكون**) أي كيف[١] تصرفون عن قصد السبيل أو أين تقلبون وتذهبون، أو متى يكون انصرافكم عن الغفلة والجهالة.

وقوله: (**فلكل أجل كتاب ولكلّ غيبة إياب**) يحتمل أن يكون منقطعاً عمّا قبله ويكون بينه وبين ما قبله ما يربطه به فأسقط السيد (ره) على مجرى عادته وأن يكون متّصلاً به، فإنه لما استفهم عن تيههم وانخداعهم وتقلبهم توبيخاً وتقريعاً وتنبيهاً على غفلتهم عن الحق أردفه بذلك توكيداً لما أراد وأشار به إلى أنهم ليسوا بمهملين، بل كلّ ما عملوه في زمان الغفلة محفوظ مكتوب وأنهم ليسوا في الدنيا بباقين، وسوف يخرجون منها وينزعون فيكون تهديداً لهم بالإشارة إلى قرب الموت وأنهم بمعرض أن يأخذهم على غفلتهم، والمعنى أنه لكلّ أمد ووقت حكم مكتوب على العباد، ولكلّ غيبة اياب ورجوع.

ثمّ أكده ثانياً بقوله (**فاستمعوا من ربّانيكم**) أي اصغوا إلى الحكم والمواعظ وما ينجيكم من الردى ويدلكم على الرّشاد من المتأله العارف بالله المبتغي بعلمه وجه الله سبحانه، وأراد به نفسه الشريف (**وأحضروه قلوبكم**) أراد إقبالهم بكلّهم إليه لا الغيبة بالقلوب والحضور بالأبدان فقط (**واستيقظوا ان هتف بكم**) أي استيقظوا من نوم الغفلة إن ناداكم وتنبّهوا من رقدة الضلّة إن دعاكم (**وليصدق رائد أهله**) أي وظيفة الرائد أن يصدق، وفي المثل: الرائد لا يكذب أهله.

ولعل المراد بالرائد نفسه أي وظيفتي الصدق فيما أخبركم به ممّا تردون عليه من الأمور المستقبلة في الدنيا والآخرة، كما أنّ وظيفتكم التوجه والاستماع واحضار القلب (**وليجمع شمله**) أي ما تشتت من أمره، والمراد به الأفكار والعزائم أي يجب عليّ نصحكم وتذكيركم

---

(١) هذه التفاسير مبنية على الاختلاف في معنى (أنى) الاستفهامية فقيل: إنها بمعنى كيف، وقيل: بمعنى ابن وقيل: بمعنى متى وإلى كل ذهب فريق في قوله تعالى: **﴿نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** وبذلك اختلف آراء الفقهاء في مسألة جواز الوغى في الدبر، منه.

بقلب فارغ من الخطرات والوساوس، والتوجه إلى هدايتكم وإرشادكم بإقبال تامّ، ويجوز أن يراد بالشّمل من تفرق من القوم في فيافي الضّلالة **(وليحضر ذهنه)** فيما يقول ويتفوه به.

(فلقد فلق) الرائد **(لكم الأمر فلق الخرزة)** أي أوضح لكم أمر الدّين وما جهلتموه من أحكام الشرع المبين، أو أمر ما يحدث من الفتن ايضاحاً تامّاً، فاظهر لكم باطن الأمر كما يرى باطن الخرزة بعد شقّها.

(وقرفه قرف الصمغة) أي ألقاه بكليته إليكم ولم يدّخر شيئاً عنكم كما أن قارف الصمغة لا يترك منها شيئاً إذا قرفها ولا يبقى منها أثر بعد قرفها.

وقوله عليه السلام: **(فعند ذلك)** **قال** الشارح البحراني متصل بقوله من بين هزيل الحب، فيكون التشويش من السّيد (ره)، **وفي «البحار»** ويمكن أن يكون إشارة إلى كلام آخر سقط من البين.

أقول: والأظهر أن يكون الإشارة به إلى ما سبق من الأمور المذكورة، أي عندما قامت راية الضّلال على قطبها، وتفرقت بشعبها، وعركتكم عرك الأديم، واستخلصت المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبّ البطين **(أخذ الباطل مآخذه)** أي ثبت واستحكم **(وركب الجهل مراكبه)** أي قوى سلطانه وظهر شوكته **(وعظمت الطّاغية)** أي الطّغيان والضلال أو الفتنة الطاغية **(وقلّت الدّاعية)** أي الدّعوة إلى الحق أو الفرقة الدّاعية إلى الهدى.

(وصال الدّهر) وحمل على أهله **(صيال السّبع العقور)** تشبيه الدّهر بالسبع في الصّيال باعتبار كونه منشأً لتلك الشرور والمفاسد **(وهدر فنيق الباطل بعد كظوم)** تشبيه الباطل بالفنيق باعتبار كونه مكرماً عند أهله، وذكر الهدر والكظوم من باب ترشيح التشبيه وأراد بهما ظهوره بعد خفائه وخمول أهله في زمان ظهور الحق وقوته.

(وتواخى الناس على الفجور) أي كان محبّة بعضهم لبعض واتّصال أحدهم بالأخر على الفجور واتباع الأهواء **(وتهاجروا على الدّين)** أي كان مهاجرة بعضهم عن بعض من جهة كون المهجور عنه صاحب معرفة ودين **(وتحابّوا على الكذب)** وهو من شؤونات التواخي على الفجور **(وتباغضوا على الصّدق)** وهو من شؤونات التّهاجر على الدّين.

(فإذا كان ذلك) وحدثت تلك الأمور **(كان الولد غيظاً)** على والده عاقّاً له أو مبغوضاً لوالده لاشتغال كلّ أمرء بنفسه من شدّة تلك البلية فيتمنى أن لا يكون له ولد **(والمطر قيظاً)** قد مرّ أن القيظ هو صميم الصّيف قال في **«البحار»**: فيحتمل أن يكون المراد تبدّل المطر بشدّة الحر أو قلّة المطر أو كثرته في الصّيف دون الرّبيع والشتاء، أو المراد أنه يصير سبباً لاشتداد الحر لكثرته في الصّيف إذ يثور به الأبخرة ويفسد الهواء أو يصير على خلاف العادة سبباً لشدّة الحرّ، وعن النهاية بعد تفسيره القيظ بما ذكرناه قال: ومنه حديث أشراط السّاعة أن يكون

الولد غيظاً والمطر قيظاً، لأن المطر إنما يراد للنبات وبرد الهواء والقيظ ضدّ ذلك[١]، هذا.

وعلى ما في بعض النسخ من رواية فيضاً بالضاد فالمقصود كونه كثيراً مجاوزاً عن الحدّ، لكونه حينئذ مفسداً للزرع والثمار كما هو المشاهد بالتجربة والعيان **(وتفيض اللّئام)** أي تكثر **(فيضاً وتغيض الكرام)** أي تقل **(غيضاً)**.

ثمّ قسم أهل ذلك الزّمان بقوله: **(وكان أهل ذلك الزّمان ذئاباً وسلاطينه سباعاً وأوساطه اكالاً وفقراؤه أمواتاً)** قال البحراني **(ره)**: أهل كلّ زمان ينقسمون إلى ملوك وأكابر وأوساط وأداني، فإذا كان زمان العدل كان أهله في نظام سلكه فيفيض عدل الملوك على من يليهم، ثمّ بواسطتهم على من يليهم حتّى ينتهي إلى أداني النّاس، وإذا كان زمان الجور فاض الجور كذلك فكانت السّلاطين سباعاً ضارية مفترسة لكلّ ذي سمن وكان أهل ذلك الزمان وأكابره ذئاباً ضارية على أوساط الناس، وكانت الأوساط اكالاً لهم، وكانت الفقراء أمواتاً لانقطاع مادة حياتهم ممّن هو أعلى منهم رتبة، وتجوّز بلفظ الأموات عن غاية الشدّة والبلاء لكون الموت غاية ذلك إطلاقاً لاسم السّبب الغائي على مسبّبه.

(وغار الصّدق) أي قل وذهب كالماء الغائر في الأرض **(وفاض الكذب)** أي كثر وظهر كالماء الفائض السّائل **(واستعملت المودة باللسان وتشاجر الناس بالقلوب)** لكثرة النّفاق وغلبة الشقاق **(وصار الفسوق نسباً)** أي يحصل أنسابهم من الزنا، وقيل أي يصير الفاسق صديقاً للفاسق حتى يكون ذلك كالنّسب بينهم **(و)** صار **(العفاف عجباً)** لقلّة وجوده بينهم وندرته.

(ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً) الموجود في النسخ رفع الإسلام على أنه فاعل لبس فيكون من باب المجاز العقلي، والمقصود أنهم لبسوا الإسلام كلبس الفرو المقلوب، قال المحدّث العلامة المجلسي **(ره)**: الظاهر أن المراد به تبديل شرائع الإسلام وقلب أحكامه واظهار النيات والأفعال الحسنة وإبطان خلافها، وفي شرح البحراني: لما كان الغرض الأصلي من الاسلام أن يكون باطناً ينتفع به القلب ويظهر فيه منفعته، فقلب المنافقون غرضه واستعملوه بظاهر ألسنتهم دون قلوبهم أشبه قلبهم له لبس الفرو إذ كان أصله أن يكون خمله ظاهراً لمنفعة الحيوان الذي هو لباسه فاستعمله الناس مقلوباً، والله وليّ التوفيق.

(١) البحار: ٦/٣٠٩.

الترجمة

این رایت، رایت گمراهی است که قایم شده بر مدار خود و پراکنده شده با فرع ها و شاخه های خود، کیل کند شما را به صاع خود و فرو کوبد شما را با دست خود، کشنده آن رایت خارج است از دین، ایستاده است بر گمراهی.

پس باقی نمی ماند در آن روز از شما مگر دردی واپس مانده دیگ، یا خورده ریز ته مانده مثل خورده ریز ته مانده جوال، بمالد شما را آن رایت مثل مالیدن چرم و بکوبد شما را مانند کوفتن زرع درویده در خرمن و برگزیند مؤمن را از میان شما به جهت انداختن در بلا مثل برگزیدن مرغ دانه چاق و فربه را از میان دانه لاغر.

کجا می برد شما را راه های کج و متحیّر می سازد شما را ظلمت های جهالت و فریب می دهد شما را آرزوهای کاذبه و از کجا آورده می شوید و چطور برگردانیده می شوید از جادّه حق، پس مرهراجلی را از آجال کتابی است و هر غیبت را بازگشتی است.

پس گوش کنید و بشنوید نصیحت را از ربانی خودتان، یعنی از کسی که اهل الله است و عارف است به احکام الله و مراد، خود نفس نفیس آن بزرگوار است و حاضر نمایید به سوی آن ربانی قلب های خود را و بیدار شوید از خواب غفلت اگر صدا کند شما را و باید که راست گوید مرشد قوم به اهل خود و باید که جمع کند آن مرشد تفرقه خواطر خود را و باید که حاضر سازد ذهن خود را.

پس به تحقیق که شکافت از برای شما کار دین را و واضح نمود مثل شکافتن مهره که ظاهر شود باطن آن و مقشّر نمود آن کار را مثل مقشّر نمودن صمغ از درخت، یعنی تمام امر را به جهت شما القاء نمود و هیچ چیز از آن فرونگذاشت، چنانچه کسی که از درخت صمغ را بازگیرد تمامی آن را بازگیرد که هیچ چیز از آن باقی نمی گذارد.

پس نزد آن حال فرا گیرد باطل محلّ فرا گرفتن خود را و سوار شود جهالت بر مرکب های خود و بزرگ شود طغیان و کم شود دعوت به سوی حق و حمله آورد روزگار همچو حمله حیوان درّنده گزنده و آواز دهد شتر نر باطل بعد از سکوت و

خاموشی و مواخات و آشتی کنند مردمان بر فعل ناشایست و مهاجرت می کنند و دوری می کنند از یکدیگر بر دین و دوستی می کنند با یکدیگر بر دروغ و دشمنی کنند بر راستی.

پس زمانی که حال بر این منوال باشد می باشد فرزند سبب خشم پدر و باران سبب گرمایی و حرارت و بسیار شوند لئیم ها بسیار شدنی و کم شوند کریم ها کم شدنی و می باشد اهل آن زمانی گرگان و پادشاهی آن زمان درندگان و مردمان میانه آن زمان طعمه های ستمکاران و فقرای آن زمان مردگان و نقصان پذیرد و فرو می رود راستی و زیاد می شود دروغ و ناراستی و استعمال کرده می شود دوستی به زبان و تشاجر و تنازع می کنند مردمان به قلب ها در آن آوان و بگردد فسق فجور نسب و اصل ایشان و پاکدامنی و عفت مایه شگفت و تعجب و می پوشد اسلام لباس پوستین را در حالتی که بوده باشد آن پوستین پشت رو کرده شده و این کنایه است از تقلب احوال دین و تبدّل احکام شرع مبین؛ والله العالم بحقایق کلام ولیّه.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثامنة من المختار في باب الخطب

الفصل الأول

«كُلُّ شَيْءٍ خاضِعٌ لَهُ، وكُلُّ شَيْءٍ قائِمٌ بِهِ، غِنى كُلِّ فَقيرٍ، وعِزُّ كُلِّ ذَليلٍ، وقُوَّةُ كُلِّ ضَعيفٍ، ومَفزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ، مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، ومَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، ومَنْ عاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، ومَنْ ماتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ، لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْواصِفينَ مِنْ خَلْقِكَ، لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلاَ اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، ولا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، ولا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَلاَ يُنْقِصُ سُلْطانَكَ مَنْ عَصاكَ، ولا يَزيدُ في مُلْكِكَ مَنْ أطاعَكَ، ولا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضاءَكَ، ولا يَسْتَغْنِيْ عَنْكَ مَنْ تَوَلّى عَنْ أَمْرِكَ، كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلانِيَةٌ وكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهادَةٌ، أَنْتَ الأَبَدُ لا أَمَدَ لَكَ، وأَنْتَ الْمُنْتَهىٰ لا مَحيصَ عَنْكَ، وأَنْتَ الْمَوْعِدُ لا مَنْجا مِنْكَ إلاّ إِلَيْكَ، بِيَدِكَ ناصِيَةُ كُلِّ دابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ، سُبْحانَكَ ما أَعْظَمَ ما نَرىٰ مِنْ خَلْقِكَ، وما أَصْغَرَ عِظَمَهُ في جَنْبِ قُدْرَتِكَ، وما أَهْوَلَ ما نَرىٰ مِنْ مَلَكُوتِكَ، وما أَحْقَرَ ذلِكَ في ما غابَ عَنّا مِنْ سُلْطانِكَ، وما أَسْبَغَ نِعَمَكَ في الدُّنْيا، وما أَصْغَرَها في نِعَمِ الآخِرَةِ».

منها: «مِنْ مَلائِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمٰواتِكَ، ورَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ، هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ، لَمْ يَسْكُنُوا الأَصْلاَبَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الأَرْحامَ، وَلَمْ يُخلَقُوا مِنْ ماءٍ مهينٍ، وَلَمْ يُشَعِّبْهُمْ رَيْبُ الْمَنُونِ، وإِنَّهُمْ عَلَى مَكانِهِمْ مِنْكَ، ومَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ واسْتِجْماعِ أَهْوائِهِمْ فِيكَ، وكَثْرَةِ طاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عايَنُوا كُنْهَ ما خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ، لَحَقَّرُوا أَعْمالَهُمْ، ولَزَرَوْا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ، ولَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبادَتِكَ، وَلَمْ يُطيعُوكَ حَقَّ طاعَتِكَ»[1].

اللغة

(لهف) لهفاً من باب فرح حزن وتحسّر، واللّهوف واللّهيف واللّهفان واللاهف المظلوم المضطر يستغيث ويتحسّر و**(أفلت)** الطائر وغيره إفلاتاً تخلص وأفلته إذا أطلقته وخلّصته يستعمل لازماً ومتعدّياً، وفلت فلتاً من باب ضرب لغة وفلته أنا يستعمل أيضاً لازماً ومتعدّياً.

و**(الناصية)** الشعر المسترسل في مقدم الرأس أي شعر الجبهة وقال الأزهري منبت الشعر

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ١٨٠٤ ح ٥٢٠٢، وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٠٠.

واطلاقها على الشعر مجاز من باب تسمية الحال باسم المحل و(**ماء مهين**) أي ضعيف حقير وهي النطفة و(**انشعبت**) اغصان الشجرة وتشعبت تفرقت و(**المنون**) الدّهر من مننت الشيء قطعته، لأنه يقطع الاعمار و(**زرى**) عليه زرياً من باب رمى وزرية وزراية بالكسر عابه واستهزأ به قال أبو عمر الشيباني الزاري على الإنسان هو الذي ينكر عليه ولا يعدّه شيئاً.

الإعراب

قوله: (**لم ترك العيون فتخبر عنك**)، في بعض النسخ تخبر بالنصب وهو الأظهر وفي بعضها بالجزم، والأوّل مبنيّ على كونه منصوباً بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببيّة المسبوقة بالنفي، والثاني مبني على جعل الفاء لمجرد عطف ما بعدها على ما قبلها، فيكون ما بعدها شريكاً لما قبلها في الإعراب.

قال في «**التصريح**»: ولك في نحو ما تأتيني فاكرمك أن تقدر الفاء لمجرد عطف لفظ الفعل على لفظ ما قبلها فيكون شريكه في اعرابه فيجب هنا الرّفع لأن الفعل الذي قبلها مرفوع والمعطوف شريك المعطوف عليه وكأنك قلت ما تأتيني فما أكرمك فهو شريكه في النفي الداخل عليه.

وإن تقدر الفاء أيضاً لعطف مصدر الفعل الذي بعدها على المصدر المؤول ممّا قبلها، ولكن يقدر النفي منصباً على المعطوف عليه وينتفي المعطوف لأنه مسبّب عنه وقد انتفى، والمعنى ما يكون منك اتيان فكيف يكون منى اكرام.

وقوله عليه السلام: (**لا يفلتك**)، من باب الحذف والإيصال أي لا يفلت منك على حد قوله:

استغفر الله ذنباً لست محصيه　　　ربّ العباد إليه الوجه والعمل

أي من ذنب، وقوله: (**سبحانك ما أعظم ما نرى**)، (**سبحانك**) منصوب على المصدر وعامله محذوف وجوباً، أي أسبح سبحاناً فحذف الفعل لسدّ المصدر مسدّه وتبعه اللام أيضاً في الحذف تخفيفاً فأضيف المصدر إلى كاف الخطاب، وهذه اللفظة واردة في هذا المقام للتعجب كما في قوله صلى الله عليه وآله في رواية أبي هريرة: سبحان الله إنّ المؤمن لا ينجس[1]، صرّح به في «**التوضيح**»، ومعنى التعجب إنفعال يعرض للنّفس عند الشعور بأمر يخفى سببه، ولهذا قيل: إذا ظهر السّبب بطل العجب، ويشترط أن يكون المتعجب منه عادم النظير أو قليل النّظائر، فما يكثر نظائره في الوجود لا يستعظم فلا يتعجب منه.

قوله عليه السلام ما أعظم ما نرى، تأكيد للعجب، فإن ما في ما أعظم تعجبية أيضاً وما الثانية موصولة، وقد طال التشاجر بين علماء الأدبيّة في ما التّعجب وصيغة أفعل بعدها بعد اتفاقهم

(١) المصنف: ١٩٩.

على اسميتها وكونها مبتدأ، فالمحكي عن سيبويه وجمهور البصرين أنّها نكرة تامّة بمعنى شيء وابتدأ بها على نكارتها لتضمنها معنى التّعجب.

قال الرّضى (ره): فإن التعجب كما ذكرنا إنّما يكون فيما يجهل سببه فالتنكير يناسب معنى التعجّب، فكان معنى ما أحسن زيداً، في الأصل شيء من الأشياء لا أعرفه جعل زيداً حسناً، ثم انتقل إلى إنشاء التعجب وانمحى عنه معنى الجعل فجاز استعماله في التعجب عن شيء يستحيل كونه جعل جاعل، نحو ما اقدر الله وما أعلمه، وذلك لأنه اقتصر من اللفظ على ثمرته وهي التعجب من الشيء سواء كان مجعولاً وله سبب أولاً، فما مبتدأ وافعل فعل ماض خبره وفيه ضمير راجع إلى ما هو فاعله والمنصوب بعده مفعوله، فعلى ذلك يكون فتحة أفعل فتحة بناء فإعراب ما أحسن زيداً مثل إعراب زيد ضرب عمراً حرفاً بحرف[١].

وقال الأَخفش في أحد قوله إن **(ما)** موصولة بمعنى الذي وما بعدها من الجملة الفعلية صلة لها لا محلّ لها من الإعراب، أو نكرة موصوفة بمعنى شيء وما بعدها صفة لها، فمحلّها رفع تبعاً لمحل ما، وعلى التقديرين فالخبر محذوف وجوباً أي الذي أحسن زيداً أو شيء أحسن زيداً موجود أو شيء عظيم.

واستعبدوه بأن فيه التزام وجوب حذف الخبر مع عدم ما يسدّ مسدّه، وبأنه ليس فيه معنى الإبهام اللائق بالتعجب، وأيضاً إذا تضمن الكلام إفهاماً وإبهاماً فالمعتاد تقدم الإبهام، وفيما ذكره يكون الأَمر بخلاف ذلك إذ فيه تقديم الافهام بالصّلة أو الصفة وتأخير الإبهام بالتزام حذف الخبر.

وذهب الفراء وابن درستويه وربما عزّى إلى الكوفيين إلى أن **(ما)** استفهامية ما بعدها خبرها.

قال نجم الأَئمة وهو قوي من حيث المعنى، لأَنّه كان جهل سبب حسنه فاستفهم عنه، وقد يستفاد من الاستفهام معنى التعجب نحو: ما أدراك ما يوم الدين وأتدري من هو، ولله درّه أي رجل كان قال ولله غنياً خيراً أيما فتى.

وربما يضعف بأن فيه نقل من الاستفهام إلى التعجب والنقل من إنشاء إلى إنشاء مما لم يثبت، هذا.

وبقي الكلام في أفعل وقد ظهر من كلام البصريّين أنه فعل ماض وفتحته فتحة بناء للزومه مع ياء المتكلم نون الوقاية نحو ما أفقرني إلى رحمة الله وما أحوجني إليها، وقال

---

(١) ومذهب السيبويه ضعيف من وجه وهو إن استعمال ما نكرة غير موصوفة نادر نحو فنعما هي على قول ولم يسمع مع ذلك مبتدأ، شرح الرضي.

الكوفيون غير الكسائي[١] إنه اسم وفتحته فتحة إعراب كفتحة عندك في زيد عندك، ويؤيد قولهم تصغيرهم اياه[٢] في نحو ما أحيسنه وما أميلحه قال الشاعر:

يا ما أميلح غزلانا شددن لنا

واعتذروا عن فتحة الخبر بأن مخالفة الخبر للمبتدأ تقتضي نصبه وأحسن إنما هو في المعنى وصف لزيد لا لضمير ما، فلذلك كان منصوباً، بيان ذلك، أن الخبر إذا كان في المعنى هو المبتدأ كالله ربنا أو مشبه به نحو: أزواجه امّهاتهم، ارتفع ارتفاعه، وإذا كان مخالفاً له بحيث لا يحمل عليه حقيقة أو حكماً خالفه في الإعراب كما في زيد عندك، والناصب له عندهم معنوي وهو معنى المخالفة التي اتّصف بها، ولا حاجة على قولهم إلى شيء يتعلّق به الخبر، وامّا انتصاب زيداً فلمشابهة المفعول به، لأن ناصبه وصف قاصر فأشبه نصب الوجه في قولك زيد حسن الوجه هكذا قال في «**التوضيح**» وشرحه.

وقال نجم الأئمة بعد حكاية هذا المذهب أعني مذهب الكوفيّة في أفعل وكونه اسماً كأفعل التفضيل: ولولا انفتاح أفعل التعجب وانتصاب ما بعده انتصاب المفعول به لكان مذهبهم جديراً بأن ينصر.

وقد اعتذروا لفتح آخره لكونه متضمّناً لمعنى التعجب الذي كان حقيقاً بأن يوضع له حرف كما مر في بناء إسم الإشارة، فبنى لتضمنه معنى الحرف وبنى على الفتح لكونه أخف.

واعتذروا لنصب المتعجب منه بعد أفعل بكونه مشابهاً للمفعول لمجيئه بعد افعل المشابه لفعل مضمر فاعله فموقعه موقع المفعول به فانتصب انتصابه فهو نحو قوله:

ولدنا بعده بذناب[٣] عيش اجبّ الظّهر ليس له سنام

بنصب الظهر، وهو ضعيف، لأن النّصب في مثل أجب الظهر وحسن الوجه توطئة لصحة الإضافة إلى ذلك المنصوب ولا يضاف أفعل إلى المتعجب منه هذا.

وقوله عليه السلام: **(لم يخلقوا من ماء مهين)**، حرف **(من)** ابتدائية نشوية، وقوله: **(وأنّهم على مكانهم)**، جملة مستأنفة وخبر إن الجملة الشرطية الآتية أعني قوله: **(لو عاينوا)**، و**(على)** في قوله: على مكانهم، للاستعلاء المجازي، والمعنى أنهم حال كونهم مستقرين على مكانهم المعين لهم منك ومنزلتهم الموجودة لهم عندك لو عاينوا ما خفى عليهم لحقّروا أعمالهم.

---

(١) فإنه وافق البصريين في القول بكونه فعلاً، منه.
(٢) وأجيب بأن التصغير في افعل شاذ ووجه تصغيره أنه اشبه الأسماء عموماً لجموده وأنه لا مصدر له وأشبه افعل التفضيل خصوصاً بكونه على وزنه وبدلالته على الزيادة، منه.
(٣) ذناب كل شيء عقبه والجب القطع وبعير اجب بين الجبب أي مقطوع السنام.

المعنى

قال الشارح المعتزلي: من أراد أن يتعلّم الفصاحة والبلاغة ويعرف فضل الكلام بعضهم على بعض فليتأمّل هذه الخطبة، فان نسبتها إلى كل فصيح من الكلام عدا كلام الله ورسوله نسبة الكواكب المنيرة الفلكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية، ثمّ لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء والجلالة والرواء والدّيباجة وما يحدثه من الروعة والرهبة والمخافة والخشية، حتى لو تليت على زنديق ملحد ومصمم على الاعتقاد نفي البعث والنشور، لهدت قواه ورعبت قلبه، وأصعقت على نفسه وزلزلت اعتقاده.

فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به ولياً من أوليائه، فما أبلغ نصرته له تارة بيده وسيفه، وتارة بلسانه ونطقه، وتارة بقلبه وفكره.

إن قيل: جهاد وحرب فهو سيّد المجاهدين والمحاربين، وإن قيل: وعظ وتذكير فهو أبلغ الواعظين والمذكِرين، وإن قيل: فقه وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين، وإن قيل: عدل وتوحيد فهو إمام أهل العدل والموحّدين، وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد[١].

ثم نعود إلى الشرح فنقول: افتتح عليه السلام كلامه بالتوحيد والتنزيه والاجلال وذكر نعوت الجمال والجلال، وعقّبه بالموعظة والتذكير والانذار والتحذير فقال **(كلّ شيء خاشع له)** أو خاضع له كما في بعض النسخ، أي متذلل معترف بالفاقة إليه سبحانه والحاجة إلى تحليقه وتكوينه، وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده.

فالمراد بالخشوع الخضوع التكويني والافتقار الذاتي اللاّزم المهية الممكن مثل نفس الإمكان، هذا.

وقال الشارح البحراني (ره): الخشوع هنا مراد بحسب الاشتراك اللفظي إذ الخشوع من الناس يعود إلى تطامنهم وخضوعهم لله، ومن الملائكة دؤبهم في عبادتهم ملاحظة لعظمته سبحانه ومن سائر الممكنات انفعالها عن قدرته وخضوعها في رق الإمكان والحاجة إليه، والمشترك وإن كان لا يستعمل في جميع مفهوماته حقيقة فقد بينا أنّه يجوز استعماله مجازاً فيها بحسب القرينة، وهي هنا إضافته لكلّ شيء، أو لأنه في قوّة المتعدد كقوله تعالى: إنّ الله وملائكته يصلّون على النبي فكأنه قال: الملك خاشع له والبشر خاشع له، انتهى.

أقول: وأنت خبير بما فيه.

أمّا أوّلاً: فلأن كونه من المشتركات اللّفظية ممنوع، بل المستفاد من كلام أكثر اللّغويين

(١) شرح النهج: ٢٠٣/٧.

أنه موضوع لمطلق الخضوع أعني الذل والاستكانة، وربما يفرق بينه وبين الخضوع كما في **«مجمع البحرين»** وغيره بأن الأوّل في البدن والبصر والقلوب والثاني في البدن، وقال الفيومي خشع خشوعاً خضع وخشع في صلاته ودعائه أقبل بقلبه، وهو مأخوذ من خشعت الأرض إذا سكنت واطمأنّت، وقال خضع خضوعاً ذلّ واستكان، والخضوع قريب من الخشوع إلاّ أنّ الخضوع أكثر ما يستعمل في الأعناق والخشوع في الصوت، وقال الفيروز آبادي الخشوع الخضوع أو قريب منه أو هو في البدن والخشوع في الصوت والبصر، وقال خضع خضوعاً تطامن وتواضع وقريب من ذلك كلام سائر أهل اللّغة.

وعلى قولهم فهو إما من باب الاشتراك المعنوي فيكون استعماله في الإنسان والملك وغيرها من باب استعمال العام في إفراده.

وإما من باب الحقيقة والمجاز إن خصّصناه بذوات الأبدان والأبصار، فيكون إطلاقه على غيرها مجازاً واستعماله في الجميع بعنوان عموم المجاز، وعلى أي تقدير فالقول بكونه مشتركاً لفظياً وتوهم تعدد الوضع فيه باطل.

وأمّا ثانياً: فلأنّ تجويز استعمال اللّفظ المشترك في معانيه المتعددة ولو بالمجاز والقرينة خلاف ما عليه المحققون من الأصوليّين، وقد حقّقناه في ديباجة هذا الشرح وفي حواشينا على قوانين الأصول بما لا مزيد عليه.

نعم لا بأس بجواز استعماله في معنى عام شامل للمعاني المتعددة بعنوان عموم الاشتراك كاستعمال لفظ الأمر في مطلق الطلب الشامل للوجوب والندب على القول بكونه حقيقة فيهما، كما لا ريب في جواز استعمال اللّفظ في معنى عام شامل لمعناه الحقيقي والمجازي ويسمّى بعموم المجاز كالمثال الذي ذكرناه على القول بكون الأمر حقيقة في الوجوب مجازاً في الندب، ولا يمكن حمل مراد الشارح على ذلك، لمنافاته بقوله: والخشوع هنا مراد بحسب الإشتراك اللّفظي فافهم.

وأمّا ثالثاً: فلأنّ جعل خاشع بمنزلة المتعدّد بالعطف قياساً بقوله يصلّون في الآية الشريفة فاسد، فان يصلّون في الآية لفظ جمع وخاشع لفظ مفرد وكون الأوّل في قوّة المتعدد لا يدلّ على كون الثّاني كذلك مع امكان منع أصل الدّعوى في الآية أيضاً لاحتمال حذف الخبر فيها أي إنّ الله يصلّي وملائكته يصلّون على حدّ قوله: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرّأي مختلف.

أو كونها من باب عموم الاشتراك بأن يكون معنى يصلّون يعتنون بإظهار شرف النبيّ صلى الله عليه وآله وتعظيمه كما فسّرها به الطبرسي والبيضاوي وغيرهما على ما مرّ تفصيلاً وتوضيحاً في ديباجة الشرح.

وهذا كلّه مبنيّ على التنزّل والمماشاة وإلاّ فنقول: إن كون الآية بمنزلة المفرد المتكرّر المتعدّد لا يوجب إلحاقها به في جميع الأحكام، فإن المفرد المتكرر شيء، وما بمنزلته شيء آخر، فإطلاق المكررات وإرادة المعاني المتعددة منها لا يوجب جواز إرادة المعاني المتعدّدة مما هو بمنزلتها كما لا يخفى.

فقد وضح واتّضح بما ذكرنا كلّه أن الآية الشريفة لا دلالة فيها على جواز استعمال اللفظ المشترك في أكثر من معنى، وأن كلام الإمام عليه السلام ليس من هذا القبيل فافهم ذلك واغتنم.

(وكلّ شيء قائم به) لأن جميع الممكنات إمّا جواهر أو أعراض، وليس شيء منها يقوم بذاته في الوجود أمّا الأعراض فظاهر، لظهور حاجتها إلى المحلّ الجوهري، وأما الجواهر فلأن قوامها في الوجود انما هو بعللها، وتنتهي إلى المبدأ الأوّل وعلّة العلل جلّت عظمته فهو إذاً الفاعل المطلق الذي به قوام وجود كلّ موجود، هكذا قال الشارح البحراني، ثمّ قال: وإذا ثبت أنّه تعالى غنيّ عن كلّ شيء في كلّ شيء ثبت أن به قوام كلّ شيء فثبت أنه القيوم المطلق إذ مفهوم القيّوم هو القائم بذاته المقيم لغيره، فكان هذا الاعتبار مستلزماً لهذا الوصف.

(غني كلّ فقير) قال الشارح: ويجب أن يحمل الفقير على ما هو أعمّ من الفقر المتعارف وهو مطلق الحاجة ليعم التمجيد كما أن الغنى هو سلب مطلق الحاجة وإذا ثبت أن كل ممكن فهو مفتقر في طرفيه منته في سلسلة الحاجة إليه وأنه تعالى المقيم له في الوجود ثبت أنه تعالى رافع حاجة كلّ موجود بل كلّ ممكن، وهو المراد بكونه غنيّ له وأطلق عليه تعالى لفظ الغنى وإن كان الغنى به مجازاً إطلاقاً لاسم السّبب على المسبّب.

(وعزّ كلّ ذليل) يعني أنه سبحانه سبب عزّة كلّ من كان به ذلّة، لأنّه العزيز المطلق الذي لا يعادله شيء ولا يغلبه شيء، فكلّ عزّة لكلّ موجود منتهية إليه سبحانه، وقد سبق تفسير العزيز في شرح الخطبة الرّابعة والسّتين.

(وقوّة كلّ ضعيف) معنى هذه الفقرة كسابقتها، وقد مرّ تفسير القوي من أسمائه سبحانه في شرح الخطبة الرابعة والسّتين أيضاً، وروى أن الحسن عليه السلام قال: واعجباً لنبي الله لوط إذ قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ﴾ [هود: ٨٠].

أتراه أراد ركناً أشدّ من الله[1]، وفي «**المجمع**» عن الصادق عليه السلام: لو يعلم أي قوة له، وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «رحم الله أخي لوطاً لو يدري من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حيث[2] يقول، لو إن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد»، أيّ ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة

(١) تفسير مجمع البيان: ٣١٠/٥، والتفسير الأصفى: ٥٤٩/١.

(٢) حين» في نسخة.

ورواه في عقاب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام مثله.

(ومفزع كلّ ملهوف) يعني أنه تعالى ملجأ كلّ مضطر محزون حال حزنه واضطراره فيفرج همّه ويكشف ضرّه ويرفع اضطراره كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وهذا العطف يستلزم عموم قدرته وشمول علمه تعالى بشهادة فطرة المضطر بنسبة جميع أحوال وجوده إلى جوده وشهادة فطرته أيضاً بعلمه بحاله واطلاعه على ضرورته ووجوه اللهف والاضطرار غير معدودة، وجهات الحاجة والإفتقار غير محصورة، ولا يقدر الإجابة لها على كثرتها إلاّ الحق والقادر المطلق، واما غيره سبحانه فإنما يكون مفزعاً وملجأ لمضطر لا لكل مضطر فكونه مفزعاً مجاز لا حقيقة واتصافه به إضافي لا حقيقي.

فمفزع جميع العباد في الداهية والناوية[1] ليس إلاّ الله الحيّ القيوم السّميع البصير العالم القادر الخبير المجيب الدّعوات الكاشف للكربات المنجح للطّلبات المنفّس لكلّ حزن وهم المفرج من كل ألم وغم وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

يعني إذا كنتم في البحر وخفتم الغرق ذهب عن خواطركم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلاّ إيّاه وحده، فلا ترجون هناك النجاة إلا من عنده.

روى في «**التوحيد**» انه قال رجل للصّادق عليه السلام: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله دلني على الله ما هو فقد أكثر علي المجادلون وحيروني، فقال عليه السلام: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: بلى، قال: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: بلى، قال: فهل تعلق قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟ قال: بلى، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجي وعلى الاغاثة حيث لا مغيث[2].

و**(من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سرّه)** يعني أنه سبحانه سميع عليم محيط بما أظهره العبد وأبداه، خبير بما أسره وأخفاه في حالتي نطقه وسكوته، وهو إشارة إلى عموم علمه وإحاطته سبحانه وعدم التفاوت فيه بين السرّ والإعلان، والإظهار والكتمان، وقد مضى تحقيق الكلام في هذا المعنى في شرح الفصل السادس والسّابع من الخطبة الأولى وفي شرح الخطبة الرابعة والسّتين.

---

(١) الناوية وزن سحاب: الداهية.

(٢) علل الشرائع: ٢/ ٥٥٢، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٤٥٦ ح ٥٠٥.

(ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه) يعني أنه مرجع العباد الأَحياء منهم والأَموات، وبه قيام وجودهم حالتي الحياة والممات، وتقدّم تحقيق الكلام في الرزق في شرح الفصل الأوّل من فصول الخطبة التسعين.

(لم ترك العيون فتخبر عنك) التفات من الغيبة إلى الخطاب، يعني امتنع الرؤية من العيون لك فامتنع اخبارها عنك، وقد تقدم بيان وجه امتناع الرؤية في شرح الخطبة التاسعة والأربعين، وفي إسناد الأخبار إلى العيون توسع، والمراد نفي إمكان الإخبار المستند إلى المشاهد الحسيّة عنه تعالى.

(بل كنت قبل الواصفين من خلقك) أي بالذات والعلية، وهو وارد في مقام التعلل لنفي الرؤية.

قال الشارح المعتزلي: فإن قلت فأي منافاة بين هذين الأَمرين أليس من الممكن أن يكون سبحانه قبل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالإبصار إذا خلق خلقه ثمّ يصفونه رؤي عين.

قلت: بل ههنا منافاة ظاهرة وذلك لأَنه إذا كان قديماً لم يكن جسماً ولا عرضاً وما ليس بجسم ولا عرض يستحيل رؤيته فيستحيل أن يخبر عنه على سبيل المشاهدة.

(لم تخلق الخلق لوحشة) لاستحالة الاستيحاش كالاستئناس في حقه سبحانه حسب ما عرفت تفصيلاً في شرح الفصل السادس من فصول الخطبة الأولى **(ولا استعملتهم لمنفعة)** تعود إليك وإنما هي عائدة إليهم لنقصانهم في ذاتهم ولو كانت عائدة إليه سبحانه لزم نقصه في ذاته واستكماله بغيره وهو محال، وقد تقدّم توضيح ذلك في شرح الخطبة الرابعة والستين.

و**(لا يسبقك من طلبت)** أي لا تطلب أحداً فيسبقك ويفوتك **(ولا يفلتك من أخذت)** أي من أخذته لا يفلت منك بعد أخذه، والغرض بهذين الوصفين الإشارة إلى كمال قدرته وتمام ملكه، فإن ملوك الدّنيا أيهم فرضت ربما يفوت منهم هارب وينجو من قيد أسرهم المأخوذ بحيلة ونحوها، وأما الله العزيز القادر القاهر فلا يمكن في حقه ذلك.

(ولا ينقص من سلطانك من عصاك ولا يزيد من ملكك من أطاعك) وهو تزيد له سبحانه عن قياس سلطانه وملكه بسلطنة ملوك الزّمان، فان كمال سلطان أحدهم إنما هو بزيادة جنوده وكثرة مطيعيه وقلّة مخالفيه وعصاته، ونقصان سلطانه إنما هو بعكس ذلك، فأما الحق تعالى فلما كان سلطانه بذاته لا لغيره مالك الملك يعطي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء لم يتصوّر خروج العاصي بعصيانه عن كمال سلطانه حتّى يؤثر في نقصانه، ولا طاعة المطيع في ازدياد ملكه حتى تؤثر في زيادته.

ومحصل ذلك كلّه أنه تعالى كامل من جميع الجهات في ذاته وصفاته بذاته ولذاته ولا حاجة له في عزه وسلطانه إلى الغير، ولا تأثير للغير في ملكه وسلطنته بالنقصان والزيادة، وإلا

لزم نقصه في ذاته استكماله بغيره، وهو باطل.

(ولا يردّ أمرك من سخط قضائك) المراد بالأمر هنا التّكويني المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وأريد الأمر لكونه بارتفاع الوسائط لا بدّ فيه من وقوع المأمور به لا محالة من غير احتمال تمرّد وعصيان وأما الأمر التشريعي كما في قوله: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ونحوهما فهو لكونه بالواسطة وعلى ألسنة الرّسل والملائكة، فيمكن فيه العصيان وعدم الطّاعة فمعنى قوله: **(انه لا يردّ أمرك الملزم)** أي المقدّرات الحادثة على طبق العلم الأزلي من سخط قضائك وكرهه، وقد مرّ في شرح الفصل التاسع من فصول الخطبة الأولى ماله ربط بتوضيح المقام، وفي هذه الفقرة أيضاً دلالة على كمال قدرته وعموم سلطانه لإفادته أن كلّ ما علم وجوده فلا بد من وجوده، سواء كان محبوباً للعبد أو مبغوضاً له كما قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] وقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧ ـ ٨].

وتخصيص السّاخط للقضاء بالعجز عن ردّ الأمر لأنّ من شأنه أن لو قدر على ردّ الأمر والقدر لفعل.

(ولا يستغنى عنك من تولى عن أمرك) أراد به الأمر التشريعي، ومن المعلوم أن من تمرّد عن أمره وخالفه أشدّ افتقاراً وحاجة إلى غفرانه ورحمته ممن قام بوظائف الطاعة والعبادة، والأظهر أن يراد به الأعمّ من ذلك، ويكون المعنى ان من أدبر وتولى عن حكمه ولم يرض بقضائه وقدره لا يمكن استغناؤه عنه وانقطاع افتقاره منه.

ويوضح ذلك ما رواه الصّدوق في «**التوحيد**» بإسناده عن سعد الخفاف عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل: «ان كنت لا تطيع خالقك فلا تأكل رزقه، وإن كنت واليت عدوّه فاخرج من ملكه، وإن كنت غير قانع بقضائه وقدره فاطلب ربّا سواه»[1].

(كلّ سرّ عندك علانية وكلّ غيب عندك شهادة) وهما إشارتان إلى عموم علمه وإحاطته، وقد مرّ ذلك في شرح الفصل السّابع من الخطبة الأولى ونقول هنا مضافاً إلى ما مرّ: ان واجب الوجود سبحانه مجرّد غاية التجرّد، والغيبة والخفاء إنّما يتصوّران بالنسبة إلى القلوب المحجوبة بحجب الطّبيعة وسترات الهيئات البدنية والأرواح المستولى عليها نقصان الإمكان الحاكم عليها بجهل أحوال ما هو أكمل منها، والواجب تعالى لتجرّده وبساطته ومنتهى كماله

(١) التوحيد: ٣٧٢ ح ١٣، ونور البراهين: ٢/ ٣٢٢ ح ١٣.

لا يحجبه شيء عن شيء وفوق كل شيء ليس فوقه حتى يقصر عن إدراكه.

(أنت الأبد فلا أمد لك) أي أنت الدّائم فلا غاية لك يقف عندها وجودك وذلك لاستلزام وجوب الوجود امتناع العدم والانتهاء إلى الغاية، ويمكن أن يكون إطلاق الأبد عليه سبحانه من باب المجاز مبالغة في الدّوام، والأصل أنت ذو الأبد على حدّ قوله: فانما هي إقبال وإدبار، وقوله: فأنت إطلاق، وهذا المجاز شائع في عرف العرب.

(وأنت المنتهى فلا محيص عنك) أي إليه مصير الخلائق ووقوفهم عنده وإليه انتهاؤهم وإيابهم فيجزى كلّ أحد ما يستحقّه من الثواب والعقاب، فلا محيد عن حكمه ولا مهرب عن أمره ولا معدل يلجأون إليه كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦].

(وأنت الموعد فلا منجي منك إلاّ إليك) ومعناها قريب من سابقتها أي لا مخلص ولا ملجأ لأحد منه سبحانه إلاّ إليه، ولا عاصم من عذابه إلاّ هو عز وجل فيعصم منه ويرفعه عنه اما بالتوبة والإنابة، أو بالمنّ والرّحمة.

(بيدك ناصية كل دابّة) أي أنت مالك لها قادر عليها تصرفها كيف تشاء غير مستعصية عليك، فان الأخذ بالناصية تمثيل لذلك قال المفسّرون في تفسير قوله سبحانه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

هو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل، وكان العرب إذا أسر الأسير فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزّوا ناصيته فكان علامه لقهره.

وقال الشارح البحراني: وإنما خصت النّاصية لحكم الوهم بأنّه تعالى في جهة فوق فيكون أخذه بالناصية، ولأنها أشرف ما في الدابة فسلطانه تعالى على الأشرف يستلزم القهر والغلبة وتمام القدرة.

أقول: والأظهر أن تخصيصها من جهة جريان العادة بان الممسك للدابة والمريد لتسخيرها إنّما يستمسك ويقبض ناصيتها بيده، فأجرى كلامه تعالى وكلام وليه عليه السلام على ما هو المتعارف المعتاد.

(وإليك مصير كلّ نسمة) أي مرجع كلّ نفس ثمّ نزّهه سبحانه وقدّسه عن أحكام الأوهام بكونه تعالى مشابهاً لمدركاتها فقال: **(سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك وما أصغر عظمه في جنب قدرتك)** وهو تعجب في معرض التمجيد من عظم ما يشاهد من مخلوقاته تعالى من الأرض والسّماء والجوّ والهواء والنبات والماء والشجر والحجر والشّمس والقمر والإنسان والحيوان والبرّ والبحر واللّيل والنّهار والسّحاب والغمام والضّياء والظّلام إلى غير هذه مما لا ينتهي إلى حدّ ولا يستقصي بعدّ ثم من حقارة هذه كلّها بالنسبة إلى ما تعتبره العقول من

مقدوراته وما يمكن في كمال قدرته من الممكنات الغير المتناهية ومن البيّن أن قياس الموجود على الممكن ونسبته إليه في العظم والكثرة يستلزم صغره وحقارته.

ثمّ قال **(وما أهول ما نرى من ملكوتك وما أحقر ذلك فيما غاب عنّا من سلطانك)** وهو تعجب من هول ما وصلت إليه العقول من عظمة ملكوته ثم من حقارته بالنسبة إلى ما غاب عنها وخفى عليها مما هو محتجب تحت أستار القدرة وحجب العزة من بدائع الملأ الأعلى وعجائب العالم العلوي وسكّان حظائر القدس.

ثمّ قال **(وما أسبغ نعمك في الدّنيا وما أصغرها في نعم الآخرة)** وهو تعجب من سبوغ نعمه على عباده في الدّنيا بما لا تحصى ثمّ من حقارتها بالقياس إلى نعم الآخرة وما أعدّه للمؤمنين فيها من الجزاء الأوفى، فان نسبتها إليها نسبة المتناهي إلى ما لا يتناهى كما هو ظاهر لا يخفى.

ثمّ إنّه سلام الله عليه وآله لما افتتح كلامه بذكر أوصاف العظمة والكبرياء للرّب العزيز تبارك وتعالى عقبه بذكر حالات ملائكة السماء وأنهم على ما هم عليه من القدس والطهارة والفضائل الجمة والكمالات الدثرة التي فضّلوا بها على الأشباح والأقران وتميّزوا بها عن نوع الإنسان، ومن العلم والمعرفة التي لهم بخالقهم، والخوف والخشية التي لهم من بارئهم، والخضوع والخشوع الذي لهم لمعبودهم لم يعبدوه حق عبادته ولم يطيعوه حق طاعته.

فقال: **(من ملائكة أسكنتهم سماواتك ورفعتهم عن أرضك)** هذا محمول على الأغلب أو المراد أن مسكنهم الأصلي هو السّماء، فلا ينافي كون بعضهم في الأرض لاقتضاء المصلحة والتّدبير مثل الكرام الكاتبين والمجاورين بمرقد الحسين عليه السلام ونظرائهم.

(هو أعلم خلقك بك) لتجرّدهم وبعد علومهم من منازعة النفس الأمارة التي هي مبدأ السّهو والنسيان والغفلة، فيكونون أبلغ معرفة وأكمل علماً **(وأخوفهم لك)** لأن العلم كلما كان أكمل كان الخوف آكد والخشية أشدّ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الطبرسي أي ليس يخاف الله حق خوفه ولا يحذر معاصيه خوفاً من نقمته إلاّ العلماء الذين يعرفونه حق معرفته وإنما خص العلماء بالخشية لأن العالم أحذر لعقاب الله من الجاهل، حيث يختص بمعرفة التوحيد والعدل ويصدّق بالبعث والحساب والجنّة والنّار[١].

(وأقربهم منك) أي من حيث الشرف والرتبة لا بالمكان والمنزلة، لتنزهه سبحانه عن المحلّ والمكان وتقدّسه من لوازم الإمكان، وغير خفي أن تفضيلهم على غيرهم في القرب

(١) مجمع البيان: ٨/ ٢٤٢.

والشرف إنما هو إضافي لا حقيقي فقد قدّمنا في شرح الفصل الخامس من فصول الخطبة التسعين أن بعض أفراد البشر كالنبيّ والأئمة عليهم السلام أفضل منهم وأشرف، وقد تقدّم في الفصل المذكور شرح حالاتِ الملائكة مستوفاً، وكذلك في شرح الفصل التّاسع من فصول الخطبة الأولى من أراد الاطّلاع فليراجع إليه.

وقوله: **(لم يسكنوا الأصلاب)** وما يتلوه من الجملات الثّلاث السّلبية إشارة إلى ارتفاعهم عن النقصانات البشرية، أي لم يسكنوا أصلاب الآباء **(ولم يضمّنوا الأرحام)** أي أرحام الأمّهات يعني لم يخالطوا المحال المستقذرة **(ولم يخلقوا من ماء مهين) أي ضعيف حقير (ولم يشعبهم ريب المنون)** أي لم تفرقهم حوادث الدهر، وهو إشارة إلى سلامتهم من الأمراض والأسقام البدنية العارضة للمواد العنصرية المانعة من الاستغراق التام، والتّوجه الكلّي لشهود أنوار الحضرة الرّبوبية.

(وانهم على مكانهم منك ومنزلتهم عندك) يعني أنهم على ما هم عليه من القرب والزلفى **(واستجماع اهوائهم فيك)** أي كمال محبتهم لك ورغبتهم وشوقهم إليك **(وكثرة طاعتهم لك)** بحيث لا يفترون عن تسبيحك ولا يسأمون عن تقديسك **(وقلّة غفلتهم عن أمرك)** التعبير بقلّة الغفلة لمحض المشاكلة والمقابلة بكثرة الطاعة، وإلاّ فلا يتصوّر في حقهم الغفلة كما يدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

وفي دعاء الصّحيفة العلويّة السجّادية على صاحبها آلاف الصّلاة والسّلام والتحيّة في الصّلاة على حملة العرش: اللّهمّ وحملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك ولا يسأمون من تقديسك ولا يستحسرون عن عبادتك ولا يؤثرون التقصير على الجدّ في أمرك ولا يغفلون عن الوله إليك.

فإن المقصود ذلك كله الإشارة إلى كمال مراتبهم في صنوف العبادات والتأكيد لاستغراقهم في مقام المعرفة والمحبّة وبيان خلو عبوديتهم من النقصانات اللاحقة، فان كلاً من هذه الصّفات المنفية لو وجد كان نقصاناً فيما يتعلق به واعراضاً عن الجهة المقصودة.

وبالجملة فالغرض أن هؤلاء الملائكة الرّوحانيات مع هذه المراتب والكمالات التي لهم **(لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك)** أي لو عرفوك حق معرفتك **(لحقروا أعمالهم)** علماً منهم بأنها لا تليق بحضرتك **(ولزروا على أنفسهم)** أي عابوها وعاتبوها لمعرفتهم بكونهم مقصّرين في القيام بوظائف عبوديتك **(ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك ولم يطيعوك حق طاعتك)** لظهور أن العبادة والطاعة إنما هي على قدر المعرفة وكلّما كانت المعرفة أكمل كانت العبادة أكمل، فعبادتهم الحالية على قدر معرفتهم الموجودة، فلو ازدادت المعرفة ازدادت العبادة لا محالة.

الترجمة

از جمله خطب فصيحه آن سرور عالميان و مقتداى آدميان است در ذكر صفات كمال و نعوت جلال خداوند متعال و اوصاف فرشتگان و غرور بندگان به متاع اين جهان و بيان حشر و نشر انسان و ذكر صفات پيغمبر آخرالزّمان عليه و آله افضل الصّلاة و السّلام، چنانچه فرموده:

هر چيز فروتنى كننده است بر حضرت عزّت و هرچيز قايم است در وجود به جناب احديت او، توانگرى هر فقير است و عزّت هر ذليل و حقير و قوّت هر ضعيف و ناتوان و پناهگاه هر مضطرّ و محزون، هركس تكلّم نمود، شنود او گفتار او را و هركه خاموش شد، دانست اسرار او را و هركه زندگانى نمايد، بر او است روزى او و هركه وفات نمايد، به سوى او است بازگشت او، نديد تو را چشم ها تا خبر دهد از تو صاحبان ديده ها، بلكه بودى تو پيش از وصف كنندگان از خلايق خودت، نيافريدى خلق را از جهت ترس و وحشت و طلب عمل ننمودى از ايشان به جهت جلب منفعت، پيشى نمى گيرد به تو كسى كه طلب كردى تو او را و خلاصى نيافت از تو كسى كه اخذ نمودى تو او را و كم نمى نمايد پادشاهى تو را كسى كه معصيت تو را نمود و زياد نمى كند در ملك تو كسى كه اطاعت تو را كرد، ردّ نمى كند امر تو را كسى كه ناخوش دارد حكم تو را و مستغنى نمى باشد از تو كسى كه روگردان شود از فرمان تو، هر نهانى در نزد تو آشكار است و هر غايبى در نزد تو حاضر، تويى صاحب دوام، پس هيچ نهايتى نيست تو را و تويى محلّ نهايت خلايق، پس هيچ گريزگاهى نيست از تو و تويى وعده گاه همه، پس جاى نجاتى نيست از تو مگر به سوى تو، در دست قدرت تو است موى پيشانى هر جنبنده و به سوى تو است بازگشت هر نفس.

تنزيه مى كنم تو را تنزيه كردنى، چه بزرگ است آنچه كه مى بينيم از مخلوقات و چه كوچك است بزرگى آن در جنب قدرت تو و چه هولناك است آنچه كه مشاهده مى كنيم از پادشاهى تو و چه حقير است اين در جنب آنچه كه پنهان است از ما در سلطنت تو و چه وافر است نعمت هاى تو در دنيا و چه كوچك است اين نعمت ها در جنب نعمت هاى آخرت.

بعض دیگر از این خطبه در صفت فرشتگان فرموده:

از ملائکه که ساکن نمودی ایشان را در آسمان های خود و برداشتی ایشان را از زمین خود، ایشان داناترین مخلوقات تو است به تو و ترسنده ترین خلایق است مر تو را و مقرّب ترین ایشان است از تو، ساکن نشده اند ایشان در پشت پدران و نهاده نشده اند در رحم های مادران و آفریده نشده اند از نطفه که ضعیف است و بی مقدار و پراکنده نساخته است ایشان را حوادث روزگار.

و به درستی که ایشان در مکان قربی که ایشان را است از تو و منزلت و مرتبتی که ایشان را است نزد تو و کمال خواهش هایی است که ایشان را است در تو و کثرت عبادتی که ایشان را است به تو و کمی غفلتی که ایشان را است از امر تو اگر مشاهده کنند پایان آنچه که پنهان است بر ایشان در معرفت و هرآینه حقیر می شمارند عمل های خودشان را و هرآینه عتاب می نمایند بر نفس های خود و هرآینه می دانند که ایشان نپرستیده اند تو را حقّ پرستش و فرمان نبرده اند تو را همچنانکه لایق فرمان برداری تو است.

الفصل الثاني

«سُبْحَانَكَ خالِقاً ومَعْبُوداً، بِحُسْنِ بَلائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ، خَلَقْتَ داراً وجَعَلْتَ فيها مَأْدبَةً، مَشْرَباً، ومَطْعَماً، وأَزْوَاجاً، وخَدماً، وقُصوراً، وأنهاراً، وزُرُوعاً، وثِماراً، ثُمَّ أرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْها، فَلاَ الدَّاعِي أَجابُوا، ولا فيما رَغَّبْتَ إِلَيْهِ رَغِبُوا، ولاَ إِلىٰ[1] ما شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتاقُوا، أَقْبَلُوا عَلى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلى حُبِّها، ومَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشىٰ بَصَرَهُ، وأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، ويَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَواتُ عَقْلَهُ، وأَماتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، ووَلِهَتْ عَلَيْها نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَها، ولِمَنْ في يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْها، حَيْثُما زالَت زَالَ إِلَيْها، وحَيْثُما أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا، لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِواعِظٍ، وهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لاَ إِقالَةَ ولا رَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ ما كانوا يَجْهَلُونَ، وجاءَهُمْ مِنْ فِراقِ الدُّنْيا ما كانُوا يَأْمَنُونَ، وقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى ما كانُوا يُوعَدُونَ.

فَغَيْرُ مَوصُوفٍ ما نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَها أَطْرَافُهُمْ، وتَغَيَّرتْ لَها أَلْوانُهُمْ، ثُمَّ ازْدادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ، يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، ويَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلىٰ صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وبَقاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وفيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ، ويَتَذَكَّرُ أَمْوالاً جَمَعَها، أَغْمَضَ في مَطالِبِها، وأَخَذَها مِنْ مُصَرَّحاتِها، ومُشْتَبِهاتِها، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعاتُ جَمْعِها، وأَشْرَفَ عَلَى فِراقِها، تَبْقىٰ لِمَنْ وَرَاءَهُ، يُنَعَّمُونَ فيها، ويَتَمَتَّعُونَ بِها، فَيَكُونُ الْمَهْنَاءُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِها، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدامَةً عَلَى ما أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، ويَزْهَدُ فيما كانَ يَرْغَبُ فيهِ أَيّامَ عُمْرِهِ، ويَتَمَنّىٰ أَنَّ الَّذي كانَ يُغْبِطُهُ بِها، ويَحْسُدُهُ عَلَيْها قَدْ حازَها دُونَهُ.

فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبالِغُ في جَسَدِهِ، حَتى خالَطَ لِسانُهُ سَمْعَهُ، فصارَ بَينَ أَهْلِهِ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ في وُجُوهِهِمْ، يَرىٰ حَرَكاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلامِهِمْ، ثُمَّ ازْدادَ الْمَوْتُ الْتِياطاً به، فَقَبَضَ بَصَرَهُ كَما قَبَضَ سَمْعَهُ، وخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جيفَةً بَينَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جانِبِهِ، وتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لاَ يُسْعِدُ باكِياً، ولا يُجيبُ داعِياً، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلىٰ مَخَطٍّ مِنَ الأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فيهِ إِلىٰ عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ[2].

---

(١) «على» في نسخة.

(٢) نهج السعادة: ٢/ ٦٥٢، وبحار الأنوار: ٦/ ١٦٥.

اللغة

(**المأدبة**) بفتح الهمزة وضمّها وزن مسعدة ومكرمة طعام صنع لدعوة أو عرس من أدب فلان أدباً من باب ضرب إذا عمل مأدبة و(**وله**) الرّجل من باب ضرب ومنع وحسب إذا تحير من شدّة الوجد وفي بعض النسخ ولهت بالتضعيف ونصب نفسه على المفعول و(**الغرة**) بكسر الغين المعجمة الاغترار والغفلة يقال اغتره فلان أي أتاه على غرّة منه و(**أطراف**) البدن الرأس واليدان والرّجلان و(**ولج**) يلج ولوجاً أي دخل و(**المصرح**) خلاف المشتبه وهو الظاهر البين و(**التبعات**) جمع التبعة وهو الإثم.

و(**المهنا**) المصدر من هنأ الطعام يهنأ وهنوء يهنوء بالكسر والضم إذا صار هنيئاً و(**العبء**) الثقل و(**أصحر**) أي ظهر وانكشف وأصله من أصحر القوم إذا برزوا من المكمن إلى الصحرا و(**رجع**) الكلام ما يتراجع منه و(**الالتياط**) الالتصاق و(**الاسعاد**) الاعانة و(**المخط من الأرض**) بالخاء المعجمة كناية عن القبر يخط أولاً ثم يحفر، وفي بعض النسخ بالحاء المهملة وهو المنزل من حط القوم إذا نزلوا.

الإعراب

(**خالقاً ومعبوداً**) منصوبان على الحال من كاف الخطاب في سبحانك، (**والعامل**) **فيهما هو المصدر لتضمنه معنى الفعل ويحتملان الانتصاب على التميز**.

قال الشارح المعتزلي: (**والباء**) في قوله بحسن بلائك، للتعليل كقوله تعالى: ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم، أي لأنهم، فتكون متعلقة بما في سبحانك من معنى الفعل أي اسبّحك لحسن بلائك، ويجوز أن تتعلق بمعبود أي يعبد لذلك، انتهى.

والأظهر أن تكون متعلقة بقوله خلقت، وتقديمها عليه للتوسع، والمعنى خلقت داراً بسبب حسن بلائك كما تقول ضربت زيداً بسوء أدبه، وقوله مأدبه قال الشارح البحراني: المأدبة هنا الجنة، والمنصوبات الثمانية مميزات لتلك المأدبة.

أقول: وهو غلط إذ المأدبة سواء أريد به معناه الأصلي أو المجازي أعني الجنة لا إبهام فيه حتى يحتاج إلى التميز، بل الظاهر أن المراد به في المقام مطلق ما يصنع لدعوة من طعام أو غيره.

وانتصاب المنصوبات الثمانية إما على أنها عطف بيان كما هو مذهب الكوفيين وجماعة من البصريين من علماء الأدبيّة حيث جوزوا عطف البيان في النكرات وجعلوا منه قوله سبحانه: أو كفّارة طعام مسكين، فيمن نوّن كفّارة.

وإما على البدل كما هو مذهب جمهور البصريين حيث خصّوا عطف البيان بالمعارف

زعماً منهم أن البيان بيان كاسمه، والنكرة مجهولة والمجهول لا يبين المجهول.

وفيه أن بعض النكرات قد يكون أخص من بعض والأخص يبين غير الأخص كما في كلام الإمام عليه السلام، وقوله: ولا فيما رغبت رغبوا، الظرف متعلق برغبوا، ورغبت صلة ما، والعائد محذوف بقرينة المقام ودلالة الكلام أي فيما رغبت فيه، وجملة أقبلوا، استئناف بياني، ونفسه بالضم فاعل ولهت، ولمن في يديه، عطف على لها.

وجملة **(وهو يرى)**، منصوبة المحل على الحال من فاعل يتعظ، وقوله: **(فغير)** موصوف ما نزل بهم، غير بالرّفع خبر مقدم على مبتدئه أعني ماء الموصولة لإفادة الحصر والدّلالة على أن غير ما نزل قابل لأن يوصف كما في قوله سبحانه: لا فيها غول، أي ليس غول في خمور الجنة بخلاف خمور الدّنيا وإيراد المسند إليه بلفظ الموصول للتفخيم والتهويل كما في قوله: فغشيهم من اليمّ ما غشيهم.

ووصل جملة اجتمعت لسابقتها لما بينهما من كمال الاتّصال وكون الثانية أو في بتمام المراد واقتضاء المقام الاعتناء بشأنه لكونه فظيعاً في نفسه ونظيرها قوله سبحانه:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤].

فإن المراد التنبيه على نعم الله، والثانية أو في بتأديته لدلالتها عليها بالتفصيل، فالجملة الثانية في المقامين منزلة منزلة بدل البعض، وكذلك وصل جملة يفكر لسابقتها لما بينهما من كمال الاتصال أيضاً لكونها من سابقتها بمنزلة التأكيد المعنوي مثل: لا ريب فيه، في قوله تعالى: ذلك الكتاب لا ريب فيه، وزنهما وزن جائني زيد نفسه، وهذا كله من محسنات البيان وإنما نبهنا عليه مع عدم مدخلية في الإعراب إشارة إلى بعض وجوه الحسن في كلامه عليه السلام.

المعنى

اعلم أن هذا الفصل من كلامه تحذير للمتمرّدين العصاة والمذنبين الغواة، وتنفير لهم عن الركون إلى الدّنيا وإلى زخارفها وما فيها، وتذكير لهم بما يحلّ بساحتهم من سكرات الموت وينزل بفنائهم من حسرات الفناء والفوت.

وافتتح بتسبيحه تعالى وتقديسه فقال: **(سبحانك خالقاً ومعبوداً)** أي أنزهك تنزيهاً عن الشركاء والأمثال في حالة خلقك ومعبوديتك لا موجد غيرك ولا معبود سواك **(بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً)** أي خلقت داراً بسبب ابتلاء عبادك وامتحاناً لهم وتميزاً بينهم وتفرقة بين السعداء أعني الطالبين المشتاقين إلى تلك الدار، وبين الأشقياء وهم الرّاغبون المعرضون عنها، والمراد بالدار دار الآخرة، وما في شرح البحراني من أن لفظ الدّار مستعار للإسلام

باعتبار أنه يجمع أهله ويحميهم كالدّار، لا يخفى بعده والأظهر ما ذكرناه، ويشعر به قوله سبحانه:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

ويؤيّده قوله: **(وجعلت فيها مأدبة)** فإنّه لو أريد بالدّار الإسلام لا بدّ من حمل الظرف أعني قوله: **(فيها)**، على المجاز بخلاف ما لو أريد بها الآخرة والأصل في الكلام الحقيقة، والمراد بالمأدبة الجنة التي هيأت للمتقين ودعي إليها عباد الله الصّالحون، وأعدّ الله سبحانه لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وما تشتهيه أنفسهم.

(مشرباً ومطعماً) أي شراباً وطعاماً **(وأزواجاً)** من الحور العين **(وخدماً)** من الولدان المخلدين **(وقصوراً)** عالية **(وأنهاراً)** جارية **(وزروعاً)** زاكية **(وثماراً)** طيّبة **(ثمّ أرسلت داعياً يدعو) الناس (إليها)** أي إلى هذه الدّار أو المأدبة، وأراد بالداعي محمّداً ﷺ أو إياه مع سائر الأنبياء.

(فلا الدّاعي أجابوا ولا فيما رغبت إليه) من الدار الآخرة الباقية ونعيمها **(رغبوا ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا)** من حور الجنة وقصورها وانهارها وثمارها وسائر ما أعدّ فيها.

(أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها) استعار عليه السلام لفظ الجيفة للدنيا باعتبار نفرة طباع أهل البصيرة والمعرفة عنها وكونها مستقذرة في نظر أرباب اليقين وأولياء الدين كالجيفة المنتنة التي ينفر عنها النّاس ويفرّون منها، أو باعتبار اجتماع أهلها عليها وفرط رغبتهم إليها وكون همّ كلّ واحد جذبها إلى نفسه بمنزلة جيفة منبوذة تجتمع عليها الكلاب ويجذبها كل إليه قال الشاعر:

وما هي إلاّ جيفة مستحيلة   عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها   وان تجتذ بها نازعتك كلابها

وأما افتضاحهم بأكلها فلأنها بعد ما كانت بمنزلة الجيفة يكون آكلها مفتضحاً بأكلها لا محالة، وهو ترشيح للاستعارة.

وقوله عليه السلام: **(واصطلحوا على حبّها)** أي اتفقوا على محبّتها وتوافقوا عليها، فإن أصل الصلح هو التراضي بين المتنازعين وتجوز به عن التوافق والاتفاق للملازمة بينهما **(ومن عشق شيئاً)** أي كان مولعاً به شديد المحبّة له، فإن العشق هو الإفراط في الحب والتجاوز عن حد الاعتدال.

قال جالينوس الحكيم: العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدّماغ والقلب والكبد،

وفي الدماغ ثلاث مساكن التخيل في مقدمه، والفكر في وسطه، والذكر في آخره فلا يكون أحد عاشقاً حتى إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيّله وفكره وذكره فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال قلبه وكبده من النوم باشتغال الدّماغ بالتخيّل والذكر والفكر للمعشوق، فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به، ومتى لم يكن كذلك لم يكن عاشقاً.

وكيف كان فالمراد أن من أفرط في محبّة شيء (**أغشى**) ذلك الشيء (**بصره وأمرض قلبه**) أي يكون فرط حبّه لذلك الشيء مانعاً عن توجهه إلى ما يلزمه التوجه إليه وحاجباً عن النظر إلى مصالحه وما يلزمه الاشتغال به فيكون غافلاً عما عداه، صارفاً أوقاته بكلّيته إلى هواه، ويكون[1] عشقه مانعاً عن إدراكه العقول، ويكون عشقه أيضاً مانعاً عن إدراكه لعيوب المعشوق، وعن التفاته إلى مساويه، ومن هنا قيل:

وعين الرّضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

وغرضه عليه السلام أن أهل الدّنيا لكثرة حبّهم لها وفرط رغبتهم إليها قصرت أبصارهم عن النظر إلى اخراهم، ومرضت قلوبهم عن التوجه إلى عقباهم، وصرفوا أوقاتهم بكليتها إليها وإلى زخارفها وقنياتها غافلين عن إدراك عيوباتها ومساويها ولم يعرفوا أنها غدارة مكارة، غرّارة يونق منظرها ويوبق مخبرها، ولم تف إلى الآن لأحد من عشاقها، ولم تصدق ظن أحد من طالبيها وراغبيها.

(**فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة**) لغفلته عما سوى المحبوب وعدم تنبّهه بما فيه من العيوب فلا ينظر إليه بنظر البصيرة والاعتبار حتى يبصر ما فيه من المفاسد والمضار، ولا يستمع إلى المواعظ والزواجر والنواهي والأوامر حتّى يأخذ عدّته ليوم تبلى السرائر.

(**قد خرقت الشهوات عقله**) شبه العقل بالثوب إذ كما أن الثوب زينة الإنسان ووقاية للبدن من الحرّ والبرد فكذلك العقل زينة للمرء ووقاية له من حرّ نار الجحيم يعبد به الرّحمٰن ويكتسب به الجنان، وجعل عقل الرجل الموصوف بمنزلة ثوب خلق ورشح الاستعارة بذكر الخرق إذ الثوب إذا كان خرقاً خلقاً ممزقاً لا ينتفع به صاحبه فكذلك العقل إذا كان مفرقاً بالشهوات الباطلة مصروفاً في اللّذات العاجلة لا ينتفع به فيما خلق لأجله البتة وفي الحقيقة هذه القوة نكر أو شيطنة وليست بالعقل وإنما هي شبيهة بالعقل.

(**وأماتت الدّنيا قلبه**) فلا انتفاع له به كميت لا نفع له (**وولهت عليها نفسه**) أي صار في

(١) قال أرسطو العشق عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب وهو من الأمراض المعروفة من أنواع الماليخوليا الذي هو تشويش الظنون والفكر إلى الفساد والخوف، وعن الأمالي عن المفضل بن عمر قال: سألت الصادق (ع) عن العشق فقال (ع): قلوب خلت عن ذكر الله فأذاقها الله حب غيره، منه.

فرط محبّته للدنيا بمنزلة الواله عليها والمفتون بها **(فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها)** لأنه إذا كانت همته مصروفة إليها وأوقاته مستغرقة في جمعها وجبايتها صار زمام أمره بيدها **(حيثما زالت زال اليها وحيثما أقبلت أقبل عليها)** كعبد دائر في حركاته وسكناته مدار مولاه بل عبوديته لها أشدّ وأخسّ من عبودية العبد لسيّده. إذ طاعة العبد وانقياده لسيّده ربما يكون قسرياً وخدمة ذلك لدنياه عن وجه الشّوق والرّغبة والرضاء والمحبة وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ما النّاس إلاّ مع الدّنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا

يعظمون أخا الدّنيا فان وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

(لا ينزجر من الله بزاجر ولا يتعظ منه بواعظ وهو يرى) الكتب الإلهية والصحف السّماويّة والأخبار النّبويّة المشحونة بذم الدّنيا النّاهية عن الركون إليها والاعتماد عليها، مضافاً إلى رؤيته المخرجين عن الدّنيا بجبر وقهر، والمقلعين عنها بكره وقسر **(المأخوذين على الغرة)** وحالة الاغترار والغفلة المشغولين بالدنيا وشهواتها الغافلين عن هادم اللّذات وسكراته **(حيث لا إقالة)** لهم عن ذنوبهم **(ولا رجعة) لهم إلى الدّنيا ليتداركوا سيئات أعمالهم**.

(كيف نزل بهم) من شدائد الأهوال **(ما كانوا يجهلون وجاءهم من فراق الدّنيا ما كانوا يأمنون وقدموا من)** عقبات **(الآخرة على ما كانوا يوعدون)** فإنه لو تفكر في ذلك وتذكر ذلك يوشك أن يؤثر فيه ويقلّ فرحه بالدّنيا وشغفه بها.

لأنه بعدما لاحظ أحوال هؤلاء الماضين وتصوّر تبدّد أجزائهم في قبورهم، ومحو التراب حسن صورهم، وأنهم كيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيّعوا أموالهم، وخلت عنهم مجالسهم ومدارسهم، وانقطعت عنهم آثارهم ومعالمهم، وعرف أنّه عن قريب كائن مثلهم انقلع لا محالة عن هواه وارتدع عن حب دنياه.

تفانوا جميعاً فما مخبر وماتوا جميعاً ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصّور

فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما ترى معتبر

لا سيّما لو عمق نظره في ما حل بالأموات بعد موتهم، وما نزل بساحتهم حين موتهم، لكان ندمه أشدّ وحسرته آكد.

فـ **(سانه)** **(غير موصوف ما نزل بهم)** من الشّدائد والآلام، ويحتمل أن يكون ضمير بهم راجعاً إلى الذين لم يجيبوا الدّاعي المقدّم ذكره بقوله: فلا الدّاعي أجابوا ولا فيما رغبت إليه رغبوا **(اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيرت لها ألوانهم)** وذلك لأن ألم النزع يسري في جميع أعضاء البدن ويستوعب الأطراف ويوجب ضعفها وفتورها.

قال الغزالي: واعلم أن شدّة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فانما يعرفها بالقياس إلى الآلام التي أدركها، بيان ذلك القياس أن كلّ عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم، فإذا كان فيه فالمدرك للألم هو الرّوح فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألّم، والمؤلم يتفرق على اللّحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الرّوح إلاّ بعض الألم، فان كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره، فما أعظم ذلك الألم وما أشدّ، والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الرّوح، فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من اجزاء المنتشر في أعماق البدن إلاّ وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنّما يجري في جزء من الرّوح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأنّ أجزاء النّار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النّار، فتحسر الأجزاء الرّوحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم، وأمّا الجراحة فإنّما تصيب الموضع الذي مسّه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم النزع يهجم على نفس الرّوح ويستغرق جميع أجزائه، فإنّه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كلّ شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم حتّى قالوا إنّ الموت لأشدّ من ضرب بالسّيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض، لأن قطع البدن بالسيف إنما يولمه لتعلّقه بالرّوح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح، وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوّته في قلبه وفي لسانه، وإنّما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدّة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه، فهدّ كل قوة وضعف في كل جارحة، فلم يترك له قوة الاستغاثة.

وإلى ذلك أشار بقوله: **(ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم وبين منطقه)** واستعار لفظ الولوج لما يتصوّر من فراق الحياة عضو بعضو، فأشبه ذلك دخول جسم في جسم آخر، والمقصود بذلك شدة تأثير الموت في أبدانهم وايجابه لضعف اللّسان عن قوة النطق والتكلّم.

نعم في رواية «**الكافي**» بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الحياة والموت خلقان من خلق الله فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان لم يدخل في شيء إلاّ وخرج منه الحياة»[١].

فإن ظاهر هذه الرواية مفيدة لكون الولوج في كلامه مستعملاً في معناه الحقيقي اللهم إلا أن يرتكب المجاز في ظاهر هذه أيضاً فافهم.

(١) الكافي: ٣/٢٥٩ ح ٣٤، والتفسير الصافي: ٥/٢٠٠.

(وانه لبين أهله ينظر) إليهم **(ببصره ويسمع)** كلامهم **(بإذنه)** ولا يتمكن من إظهار ما فيه من الشدّة والحسرة عليهم لمكان ضعفه وعجزه مع أنه **(على صحّة من عقله وبقاء من لبّه)** فهو راغب عن الدّنيا مقبل إلى الآخرة، مشغول بحاله محاسب على نفسه، متحسّر على ما قدّمت يداه، نادم على ما فرّط في جنب مولاه.

(يفكّر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره) ويتأثر على غفلته في أيّام مهلته **(ويتذكر أموالاً جمعها)** واستغرق أوقاته فيها **(أغمض في مطالبها)** وتساهل في اكتسابه أيامه وذلك لعدم مبالاته بانها من حلال أو حرام **(وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها)** أي من وجوه مباحة وذوات شبهة.

كما أشير إليه في النبوي المعروف قال ﷺ لإنما الأمور ثلاثة: أمر بيّن رشده فيتبع، وأمر بيّن غيه فيجتنب، وشبهات بين ذلك فمن ترك الشبهات نجى من المحرمات ومن أخذ بالشّبهات وقع في المحرّمات وهلك من حيث لا يعلم»[١].

(قد لزمته تبعات جمعها) وآثام جباياتها **(وأشرف على فراقها تبقى لمن وراءه ينعّمون فيها ويتمتعون بها)** وهم إما أهل طاعة الله فسعدوا بما شقى، وإمّا أهل معصيته فكان عوناً لهم على معصيتهم **(فيكون المهنأ لغيره والعبء على ظهره)** أي يكون هناءة تلك الأموال أي كونها هنيئة لغيره، ووزرها وثقلها على ظهره.

وفي الحديث النبي ﷺ المروي عن «**إرشاد القلوب**» قال ﷺ: «إذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش وهو ينادي: يا أهلي وولدي لا تلعبنّ بكم الدّنيا كما لعبت بي، جمعته من حل وغير حلّ وخلفته لكم فالمهنا لكم والتعب عليّ فاحذروا مثل ما قد نزل بي»[٢]، ونعم ما قيل:

يـمـرّ أقـاربـي جـنـبـات قـبـري	كـأن أقـاربـي لـم يـعـرفـونـي
وذو الـمـيـراث يـقـتـسـمـون مـالـي	ومـا يـالـون أن جـحـدوا ديـونـي
وقـد أخـذوا سـهـامـهـم وعـاشـوا	فـيـالله أسـرع مـا نـسـونـي

وقوله ﷺ: **(والمرء قد غلقت رهونه بها)** قال الشارح المعتزلي: معناه أنه لما كان قد شارف الرّحيل وأشفى على الفراق صارت تلك الأموال التي جمعها مستحقة لغيره ولم يبق له فيها تصرف، وأشبهت الرّهن الذي غلق على صاحبه، فخرج عن كونه مستحقاً له وصار مستحقاً لغيره وهو المرتهن.

---

(١) الكافي: ١/٦٨، ووسائل الشيعة: ٢٧/١٥٧ ح ٣٣٤٧٢.

(٢) بحار الأنوار: ٦/١٦١ ح ٢٨، ودرر الأخبار: ٨٢.

وأورد عليه بأنه وإن كان محتملاً إلا أنه يضيع فائدة قوله: بها، لأن الضمير يعود إلى الأموال المجموعة، وهو إشارة إلى المال الذي انغلق الرّهن به فلا تكون هي نفس الرّهن.

وقال الشارح البحراني: ضربه عليه السلام مثلاً لحصول المرء في تبعات ما جمع وارتباطه بها عن الوصول إلى كماله وانبعاثه إلى سعادته بعد الموت، وقد كان يمكنه فكاكها بالتوبة والأعمال الصالحة، فأشبه ما جمع من الهيئآت الرّديّة في نفسه عن اكتساب الأموال، فارتهنت بها بما على الراهن من المال.

أقول: ويتوجّه عليه أن الراهن على ذلك التوجيه هو نفس المراد ولو كان مراده عليه السلام ذلك لقال والمرء قد صار رهيناً بها كما قال تعالى: كلّ نفس بما كسبت رهينة.

والذي يلوح على النّظر القاصر هو أن يقال: إنّه من باب الاستعارة التمثيلية والغرض تشبيه حال هذا المرء المحجوب عن الترقي إلى مدارج الكمال الغير المتمكن من الوصول إليها بجمع تلك الأموال بحال من غلقت عليه أمواله المرهونة في مقابل دين المرتهن في عدم إمكان وصوله إليها ومحجوريته عنها، أو أن رهونه استعارة لبعض ما فعله من الأعمال الصالحة وذكر الغلق ترشيح، وتشبيه تلك الأعمال بالرّهن باعتبار عدم تمكّنه من الانتفاع بها ومحجوبيّته عنها بما جمعه من الأموال فصارت تلك الأموال حاجبة مانعة عن انتفاعه بها بمنزلة دين المرتهن المانع عن تصرف الراهن في العين المرهونة الموجب لحجره عنها وعن استفادته بها، وإنّما صارت تلك الأموال سبباً للحجب والمنع عن الانتفاع، لكون حقّ الناس مقدّماً على حقّ الله، ولذلك كان أوّل عقبات القيامة موضوعة للحكم بين النّاس وأخذ المظالم، هذا ما يخطر بالخاطر القاصر، والله العالم بحقائق كلام وليّه عليه السلام.

(فهو يعض يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره) وانكشف له حينئذٍ من تفريطه كما يعضّ يوم القيامة إذا عاين العقاب وشاهد طول العذاب قال سبحانه:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

قال في التفسير: أي يعضّ على يديه ندماً وأسفاً، قال عطاء: يأكل يديه حتى تذهب إلى المرفقين ثمّ تنبتان لا يزال هكذا كلّما نبتت يداه اكلهما ندامة على ما فعل، هذا فعض اليد في الآية مستعمل على التّفسير المذكور في معناه الحقيقي، وفي كلامه عليه السلام كناية عن النّدم والتّحسر على ما فرط في جنب الله وقصر في امتثال أمر مولاه.

(ويزهد فيما كان يرغب فيه أيّام عمره) من الأموال التي جمعها وخلّفها لغيره **(ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه)** لما ظهر له من تبعاتها وسوء عاقبتها.

(فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه فصار بين أهله لا) يقدر أن

(ينطق بلسانه ولا) أن **(يسمع بسمعه)** لانقطاع مادّة الحياة عن السّمع واللّسان **(يردد طرفه بالنظر في وجوههم)** أي مخاطباتهم و**(يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم)** أي ما يتراجعونه من الكلام لبطلان قوته السّامعة وبقاء قوته الباصرة بعد.

(ثمّ ازداد الموت التياطاً به) أي: التصاقاً **(فقبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الرّوح من جسده)** وظاهر هذا الكلام بملاحظة ما سبق من قوله: ثمّ ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وما سبق أيضاً من قوله: **(فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه)**، يفيد لبطلان آلة النطق في الإنسان قبل آلتي السمع والبصر، ثم بطلان آلة البصر وإنّما تبطل مع خروج الرّوح ومفارقتها عن البدن.

قال الشارح البحراني: وليس ذلك مطلقاً بل في بعض الناس وأغلب ما يكون ذلك فيمن تعرض الموت الطبيعي لالاته وإلا فقد تعرض الآفة لقوة البصر وآلته قبل آلة السّمع وآلة النطق، والذي يلوح من أسباب ذلك أنه لما كان السبب العام القريب للموت هو انطفاء الحرارة الغريزية عن فناء الرّطوبة الأصلية التي منها خلقتا، وكان فناء تلك الرطوبة عن عمل الحرارة الغريزية فيها التجفيف والتحليل، وقد تعينها على ذلك الأسباب الخارجية من الأهوية واستعمال الأدوية المجففة وسائر المجففات، كان كلّ عضو أيبس من طبيعته وأبرد أسرع إلى البطلان وأسبق إلى الفساد.

إذا عرفت ذلك فنقول: أما أن آلة النطق أسرع فساداً من آلة السمع، فلأن آلة النطق مبنيّة على الأعصاب المحركة ومركبة منها، وآلة السمع من الأعصاب المفيدة للحس واتّفق الأطباء على أن الأعصاب المحركة أيبس وأبرد، لكونها منبعثة من مؤخر الدماغ دون الأعصاب المفيدة للحس، فان جلها منبعث من مقدم الدّماغ فكان لذلك أقرب إلى البطلان، ولأن النطق أكثر شروطاً من السّماع لتوقفه مع الآلة وسلامتها على الصّوت وسلامة مخارجه ومجاري النفس، والأكثر شرطاً أسرع إلى الفساد.

وأما بطلان آلة السمع قبل البصر فلأن منبت الأعصاب التي هي محل القوة السامعة أقرب إلى مؤخّر الدّماغ من منابت محلّ القوة الباصرة، فكانت أيبس وأبرد وأقبل لانطفاء الحرارة الغريزية، ولأنّ العصب المفروش على الصّماخ الذي رتبت فيه قوة السّمع احتاج أن يكون مكشوفاً غير مسدود عنه سبيل الهواء بخلاف العصب الذي هو آلة البصر، فكانت لذلك أصلب والأصلب أيبس وأسرع فساداً، هذا.

مع أنّه قد يكون ذلك لتحلل الروح الحامل للسّمع قبل الرّوح الحامل للبصر أو لغير ذلك، والله أعلم.

وقوله عليه السلام **(فصار جيفة بين أهله)** لا يخفى ما في هذا التعبير من النكتة اللّطيفة، وهو

التنفير عن التعلّق بهذا البدن العنصري والنهي عن التعزز بهذا الهيكل الجسماني، فان من كان أوّله جيفة وآخره جيفة وهو في الدّنيا حامل الجيف كيف يجوز له الاغترار بوجوده، والتعزّز والتّكبر بذاته لا سيّما بعد ملاحظة كون آخره جيفة أقذر من سائر الجيف حتى جيفة الكلب والخنزير، حيث إن سائر الجيف لا توجب على من لامسها الغسل بخلاف ميتة الإنسان فان ملامستها توجب غسل المس خصوصاً لو لاحظ أن أقرب النّاس إليه وآنسهم به من الآباء والإخوان والبنات والولدان:

(قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه) مع كمال أنسهم به ومحبّتهم له، وجهة استيحاشهم منه حكم أوهامهم السخيفة على قواهم المتخيلة بمحاكاة حاله في نفس المتوهم وعزل العقل في ذلك الموضع، ولذلك إن المجاور لميت في موضع ظلماني منفرد يتخيل أن الميت يجذبه إليه ويصيره بحاله المنفورة عنها طبعاً.

وبالجملة فالمرء إذا خرجت روحه من جسده تنافر الناس عنه ويبقى فريداً وحيداً **(لا يسعد باكياً)** على بكائه **(ولا يجيب داعياً)** على دعائه.

(ثمّ حملوه) أي حفدة الولدان وحشدة الإخوان **(إلى محط من الأرض)** أي قبره الذي يحط وينزل فيه وعلى ما في بعض النسخ من رواية مخط بالخاء المعجمة تكون كناية عن القبر لكونه يخط أولاً ثم يحفر أو عن اللحد لكونه كالخط في الدقة **(فاسلموه فيه إلى عمله وانقطعوا عن زورته)** ووجد ما عمله محضراً فإن كان العمل صالحاً فنعم المؤنس والمعين، وإن كان سيئاً فبئس المصاحب والقرين والعدو المبين.

أقول: لو كان كلام يؤخذ بالأعناق في التزهيد عن الدّنيا والترغيب إلى الآخرة لكان هذا الكلام الذي في هذا الفصل، وما أبعد غوره وأجزل قدره، فإن عمدة ما أوجب رغبة الراغبين إلى الدّنيا والرّاكنين إليها والمغترين بها إنما هي أمور ثلاثة: **أحدها**: حبّ المال. **والثاني**: حبّ الوجود. **والثالث**: حبّ الأولاد والبنين والأزواج والأقربين، فزهّد عليه السلام عن كل ذلك بأحكم بيان وأوضح برهان.

أما عن المال فبأنه عن قريب يفارقه وينتقل عنه وتكون لذته ومهنؤه لغيره ويبقى وزره وتبعته عليه.

وأمّا عن وجوده ونفسه فبأنه ستنمحي أعضاؤه وجوارحه يبطل قواه وآلاته ويكون بالأخرة جيفة منبوذة بين أهله.

وأما عن الأولاد والأبناء والإخوان والأقرباء فبأنهم سيفارقونه ويتنفرون عنه ويستوحشون منه، فمن كان مآل ما أحبّه ذلك فكيف يغتر بذلك مع علمه بأن كلّ ذلك واقع لا محالة واعتقاده بأن الموت لا يمكن الفرار منه البتة.

قال عليّ بن الحسين عليهما السلام: عجب كلّ العجب لمن أنكر الموت وهو يرى من يموت كلّ يوم وليلة، والعجب كلّ العجب لمن أنكر النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى وقال الله سبحانه:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

روى الأعمش عن خثيمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود على نبيّنا وآله وعليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليّ كأنه يريدني، قال عليه السلام فماذا تريد؟ قال: أريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتّى تحملني إلى أقصى الهند، ففعلت الرّيح ذلك ثمّ قال سليمان عليه السلام لملك الموت بعد أن أتاه ثانياً: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي، قال: نعم كنت أتعجب منه، لأني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فتعجبت من ذلك.

وفي «**الكافي**» عن عليّ بن إبراهيم عن عمرو بن عثمان عن مفضل بن صالح عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أخبرني جبرئيل أن ملكاً من ملائكة الله كانت له عند الله منزلة عظيمة فتعتّب عليه فأهبطه من السماء إلى الأرض، فأتى إدريس عليه السلام فقال: إن لك من الله منزلة فاشفع لي عند ربك، فصلى ثلاث ليال لا يفتر وصام أيّامها لا يفطر، ثم طلب إلى الله في السحر في الملك، فقال الملك: إنك قد أعطيت سؤلك وقد أطلق لي جناحي وأنا أحب أن أكافيك فاطلب إليّ حاجة قال: تريني ملك الموت لعلّي آنس به فانه ليس يهنئني مع ذكره شيء، فبسط جناحه ثمّ قال: اركب، فصعد به يطلب ملك الموت في السماء الدّنيا، فقيل له: اصعد، فاستقبله بين السماء الرابعة والخامسة فقال الملك: يا ملك الموت ما لي أراك قاطباً؟ قال: العجب أني تحت ظل العرش حيث أمرت أن أقبض روح آدمي بين السماء الرابعة والخامسة، فسمع إدريس عليه السلام بها فامتعض فخر من جناح الملك فقبض روحه مكانه[1]، وقال الله عزّ وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] ونعم ما قيل:

إن الحبيب من الاحباب مختلس ... لا يمنع الموت بوّاب ولا حرس

فكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يا من يعدّ عليه اللّفظ والنّفس

أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً ... وأنت دهرك في اللّذات منغمس

لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ... ولا الذي كان منه العلم يقتبس

كم أخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لساناً ما به خرس

---

(١) الكافي: ٣/٢٥٧ ح٢٦، والتفسير الصافي: ٣/٢٨٦.

قد كان قصرك معموراً به شرف فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ايقاظ

في ذكر بعض ما ورد في وصف الموت وحالات الميت.

فأقول: قال الغزالي: روى عن مكحول عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السّماوات والأرض لماتوا بإذن الله، لأن في كلّ شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا لمات، قال: ويروى لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدّنيا كلّها لذابت، قال: وقال النبي صلى الله عليه وآله: إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله يسلّم بعضها على بعض تقول: عليك السلام تفارقني وافارقك إلى يوم القيامة»[١].

وفي «**الكافي**» بإسناده عن جابر «قال قال عليّ بن الحسين عليهما السلام ما ندري كيف نصنع بالناس، إن حدثناهم بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ضحكوا، وإن سكتنا لم يسعنا، قال: فقال ضمرة بن معبد: حدثنا فقال: هل تدرون ما يقول عدوّ الله إذا حمل على سريره؟ قال: فقلنا: لا، قال عليه السلام: فإنه يقول لحملته ألا تستمعون إني أشكو إليكم عدوّ الله خدعني وأوردني ثمّ لم يصدرني، وأشكو إليكم اخواناً وآخيتهم فخذلوني، وأشكو إليكم أولاداً حاميت عليهم فخذلوني[٢] وأشكو إليكم داراً أنفقت فيها حريبتي[٣] فصار سكّانها غيري، فارفقوا بي ولا تستعجلوني قال: فقال ضمرة يا أبا الحسن إن كان هذا يتكلّم بهذا الكلام يوشك أن يثب بجهد على أعناق الذين يحملونه؟ قال: فقال عليّ بن الحسين عليهما السلام: اللهم إن كان ضمرة هزأ من حديث رسولك فخذه أخذ اسف، قال: فمكث أربعين يوماً ثم مات، فحضره مولى له قال: فلما دفن أتى عليّ بن الحسين عليهما السلام فجلس إليه فقال له: من أين جئت يا فلان؟ قال: من جنازة ضمرة فوضعت وجهي عليه حين سوى عليه فسمعت صوته والله أعرفه كما كنت أعرفه وهو حيّ يقول: ويلك يا ضمرة بن معبد اليوم خذلك كلّ خليل، وصار مصيرك إلى الجحيم، فيها مسكنك ومبيتك والمقيل قال: فقال علي بن الحسين عليهما السلام: أسأل الله العافية هذا جزاء من يهزأ من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله»[٤].

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ:

---

(١) بحار الأنوار ٦/ ١٥٠، وميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٥٥.

(٢) «فأسلموني» في نسخة.

(٣) الحريبة: مال الرجل الذي يعيش به ويقوم به أمره ـ الصحاح، النهاية.

(٤) الكافي: ٣/ ٢٣٤ ح ٤.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٧ ـ ٢٨].

قال: فإن ذلك ابن آدم إذا حلّ به الموت قال: هل من طبيب إنه الفراق أيقن بمفارقة الأحبّة قال، ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ التفت الدّنيا بالآخرة، ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ قال: المصير إلى ربّ العالمين.

وعن عبد الله بن سليم العامري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ عيسى ابن مريم جاء إلى قبر يحيى بن زكريّا عليه السلام وكان سأل ربّه أن يحييه له، فدعا فأجابه وخرج إليه من القبر، فقال له ما تريد منّي؟ فقال له: أريد أن تؤنسني كما كنت في الدّنيا، فقال له يا عيسى ما سكنت عني حرارة الموت وأنت تريد أن تعيدني إلى الدّنيا وتعود عليّ حرارة الموت، فتركه فعاد إلى قبره»[1].

وعن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب عن أبي أيّوب عن يزيد الكناسي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن فتية من أولاد ملوك بني إسرائيل كانوا متعبّدين، وكانت العبادة في أولاد ملوك بني إسرائيل وأنهم خرجوا يسيرون في البلاد ليعتبروا، فمروا بقبر على ظهر الطّريق قد سفى عليه السّافي ليس منه إلا اسمه، فقالوا: لو دعونا الله السّاعة فينشر لنا صاحب هذا القبر فسألناه كيف وجد طعم الموت، فدعوا الله وكان دعاؤهم الذي دعوا به: الله انت إلهنا يا ربّنا ليس لنا إله غيرك والبديء الدّائم غير الغافل الحي الذي لا يموت لك في كلّ يوم شأن تعلم كلّ شيء بغير تعليم، أنشر لنا هذا الميت بقدرتك، قال: فخرج من ذلك القبر رجل أبيض الرأس واللّحية ينفض رأسه من التراب فزعاً شاخصاً بصره إلى السماء، فقال لهم: ما يوقفكم على قبري؟ فقالوا: دعوناك لنسألك كيف وجدت طعم الموت فقال لهم: قد سكنت في قبري تسعة وتسعون[2] سنة ما ذهب عني ألم الموت وكربه، ولا خرج مرارة طعم الموت من حلقي فقالوا له: متّ يوم متّ وأنت على ما نرى أبيض الرّأس واللّحية؟ قال: لا ولكن لما سمعت الصيحة أخرج اجتمعت تربة عظامي إلى روحي وبقيت فيه فخرجت فزعاً شاخصاً بصري مهطعاً إلى صوت الدّاعي فابيضّ لذلك رأسي ولحيتي»[3].

وفي «عقائد الصّدوق» (ره) قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت، فقال عليه السلام: «على الخبير سقطتم هو أحد أمور ثلاثة يرد عليه: إما بشارة بنعيم الأبد، وإما بشارة بعذاب الأبد، وإما تخويف وتهويل وأمر مبهم لا يدري من أيّ الفرق هو، أمّا ولّينا والمطيع لأمرنا فهو المبشر بنعيم الأبد، وأما عدونا والمخالف لأمرنا فهو المبشر بعذاب الأبد

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ١٧١ ح ٤٧، وتفسير كنز الدقائق: ٢/ ٩٣.

(٢) «تسعين» في نسخة.

(٣) الكافي: ٣/ ٢٦١ ح ٣٨، وبحار الأنوار: ٦/ج١٧١ ح ٤٨.

وأما المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدري ما يؤل إليه حاله، يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً ثمّ لن يشوبه الله عزّ وجلّ بأعدائنا ولكن يخرجه من النّار بشفاعتنا، فاعملوا وأطيعوا ولا تتكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله، فان من المسرفين من لا يلحقه شفاعتنا إلا بعد عذاب الله بثلاثمائة ألف سنة»[١].

قال: وسئل الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ما الموت الذي جهلوه؟ فقال: «أعظم سرور يرد على المؤمنين إذا نقلوا عن دار النكد إلى نعيم الأبد، وأعظم ثبور يرد على الكافرين إذا نقلوا من جنّتهم إلى نار لا تبيد ولا تنفد»[٢].

قال: وقيل لعليّ بن الحسين عليه السلام: ما الموت؟ قال: «للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة أوفك قيود وأغلال ثقيلة والاستبدال بأفخر الثّياب وأطيبها روائح وأوطى المراكب وآنس المنازل، وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن منازل أنيسة والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب»[٣].

قال: وقيل للصادق عليه السلام: صف لنا الموت، فقال: «هو للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينفس لطيبه فيقطع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولذع العقارب وأشد»، قيل له: فإن قوماً يقولون هو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض ورضخ بالحجارة وتدوير قطب أرحية في الأحداق، فقال: هو كذلك على بعض الكافرين والفاجرين، ألا ترون من يعاين تلك الشدائد، فذلكم الذي هو أشد من هذا وهو أشدّ من عذاب الدّنيا، قيل: فما لنا نرى كافراً يسهل عليه النزع فينطفي وهو يتحدّث ويضحك ويتكلّم، وفي المؤمنين من يكون أيضاً كذلك، وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد؟ فقال عليه السلام: «ما كان راحة للمؤمن فهو من عاجل ثوابه، وما كان من شدة فهو تمحيصه من ذنوبه ليرد إلى الآخرة تقياً طاهراً نظيفاً مستحقاً لثواب الله ليس له مانع دونه، وما كان هناك من سهولة على الكافرين فليستوفي أجر حسناته في الدّنيا ليرد إلى الآخرة وليس له إلاّ ما يوجب عليه العذاب، وما كان من شدة على الكافرين هناك فهو ابتداء عقاب الله تعالى عند نفاد حسناته، ذلك بأنّ الله عزّ وجل عدل لا يجور»[٤].

وروى عن الصّادق عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله ما بالي لا أحبّ الموت؟ فقال صلى الله عليه وآله: ألك مال؟ قال: نعم، قال صلى الله عليه وآله: قدمته أمامك قال: لا، قال صلى الله عليه وآله: فمن ثمّ لا تحب الموت.

---

(١) الاعتقادات: ٥١، ومعاني الأخبار: ٢٨٨٠ ح ٢.
(٢) الاعتقادات: ٥٢، وبحار الأنوار: ٦/ ١٥٤.
(٣) معاني الأخبار: ٢٨٩ ح ٤، والاعتقادات: ٥٣.
(٤) معاني الأخبار: ٢٨٨، والاعتقادات: ٥٤.

قال: وجاء رجل إلى أبي ذر رحمه الله وقال: ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنّكم عمّرتم الدّنيا وخربتم الآخرة فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب. ذ

وقيل له: كيف ترى قدومنا على الله تعالى؟ فقال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه وهو منه خائف، قيل: وكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: اعرضوا أعمالكم على كتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الإنفطار: ١٣ - ١٤].

قال رجل(١): فأين رحمة الله؟ قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

تنبيه

أحببت أن أورد هنا الرّواية المتضمنة لتكلّم الميّت مع سلمان الفارسي رضي الله عنه وما أخبره به من حالات سكرات الموت وما بعدها من الشدائد والدّواهي لأنّ فيها تنبيهاً للغافلين وتذكرة للجاهلين.

فأقول: روى غير واحد من أصحابنا أنار الله برهانهم عن أبي الفضل سديد الملّة والدّين شاذان بن جبرئيل بن إسماعيل بن أبي طالب القمي في الجزء الثاني من كتابه كتاب الفضائل عن أبي الحسن بن عليّ بن محمّد المهدي بالإسناد الصّحيح عن الأصبغ بن نباتة أنه قال: كنت مع سلمان الفارسي وهو أمير المدائن في زمان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وذلك أنه قد ولاّه المدائن عمر بن الخطاب فقام إلى أن ولي الأمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال الأصبغ: فأتيته يوماً وقد مرض مرضه الذي مات فيه، قال: فلم أزل أعوده في مرضه حتّى اشتد به الأمر وأيقن بالموت، قال: فالتفت إليّ وقال لي: يا أصبغ عهدي برسول الله صلى الله عليه وآله يقول يا سلمان سيكلّمك ميّت إذا دنت وفاتك وقد اشتهيت أن أدري وفاتي دنت أم لا، فقال الأصبغ: بماذا تأمرني يا سلمان يا أخي؟ قال له أن تخرج وتأتيني بسرير وتفرش لي عليه ما يفرش للموتى ثمّ تحملني بين أربعة فتأتون بي إلى المقبرة.

فقال الأصبغ: حباً وكرامة، فخرجت مسرعاً وغبت ساعة وأتيته بسرير وفرشت عليه ما يفرش للموتى، ثم أتيته بقوم حملوه إلى المقبرة، فلما وضعوه فيها قال لهم: يا قوم استقبلوا بوجهي القبلة، فلما استقبل بوجهه القبلة نادى بأعلى صوته:

السّلام عليكم يا أهل عرصة البلاء، السّلام عليكم يا محتجبين عن الدّنيا قال: فلم يجبه

---

(١) «الرجل» في نسخة.

أحد فنادى ثانية، السّلام عليكم يا من جعلت المنايا لهم غذاء، السلام عليكم يا من جعلت الأرض عليهم غطاء، السّلام عليكم يا من القوا أعمالهم في دار الدّنيا، السّلام عليكم يا منتظرين النفخة الأولى سألتكم بالله العظيم والنبي الكريم إلاّ أجابني منكم مجيب فأنا سلمان الفارسي مولى رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه قال لي: يا سلمان إذا دنت وفاتك سيكلّمك ميّت، قد اشتهيت أن أدري دنت وفاتي أم لا.

فلما سكت سلمان من كلامه فإذا هو بميّت قد نطق من قبره وهو يقول: السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يا أهل البناء والفناء المشتغلون بعرصة الدّنيا وما فيها، نحن لكلامك مستمعون، ولجوابك مسرعون فسل عمّا بدا لك يرحمك الله تعالى.

قال سلمان: أيّها الناطق بعد الموت والمتكلّم بعد حسرة الفوت أمن أهل الجنة بعفوه أم من أهل النار بعدله؟ فقال: يا سلمان أنا ممن أنعم الله تعالى عليه بعفوه وكرمه، وأدخله الجنة برحمته.

فقال له سلمان: الآن يا عبد الله صف لي الموت كيف وجدته وماذا لقيت منه وما رأيت وما عاينت؟ قال: مهلاً يا سلمان فوالله إن قرضاً بالمقاريض ونشراً بالمناشير لأهون عليّ من غصّة من غصص الموت، وتسعين ضربة بالسّيف أهون من نزعة من نزعات الموت.

فقال سلمان: ما كان حالك في دار الدّنيا؟

قال: اعلم أني كنت في دار الدّنيا ممن ألهمني الله تعالى الخير والعمل به وكنت أؤدي فرائضه وأتلو كتابه، وكنت أحرص في برّ الوالدين وأجتنب الحرام والمحارم وأنزع من المظالم وأكدّ اللّيل والنّهار في طلب الحلال خوفاً من وقعة السؤال، فبينا أنا في ألذّ العيش وغبطة وفرح وسرور إذ مرضت وبقيت في مرضي أيّاماً حتى انقضت من الدّنيا مدتي وقرب موتي، فأتاني عند ذلك شخص عظيم الخلقة فظيع المنظر فوقف[1] مقابل وجهي لا إلى السماء صاعداً ولا إلى الأرض نازلاً، فأشار إلى بصري فأعماه، وإلى سمعي فأصمه، وإلى لساني فأخرسه فصرت لا أبصر ولا أسمع ولا أنطق، فعند ذلك بكى أهلي وإخواني وظهر خبري إلى إخواني وجيراني.

فقلت له عند ذلك: من أنت يا هذا الذي أشغلتني عن مالي وأهلي وولدي فقد ارتعدت فرائصي من مخافتك.

---

(١) لعل هذا الرجل قد كان عليه من الذنوب ما أراد الله تمحيصها عنه عند الموت ولذا رأى ملك الموت على تلك الصورة كما ترى أنه ما ذكر حضور الوصي (ع) عند موته وقد قامت به الضرورة، وفي الأمالي: من صام أربعة وعشرين يوماً من رجب فإذا نزل به ملك الموت تراءى له في صورة شاب عليه حلة من ديباج أخضر على فرس من أفراس الجنان وبيده حرير أخضر ممثلاً بالمسك الأذفر وبيده قدح من ذهب مملوء من شراب الجنان فسقاه إياه عند خروج نفسه يهوّن عليه سكرات الموت، الخبر. نفس الرحمن.

فقال: أنا ملك الموت أتيتك لقبض روحك ولأنقلك من دار الدّنيا إلى دار الآخرة، فقد انقضت مدّتك من الدّنيا، وجاءت منيّتك.

وبينا هو كذلك يخاطبني إذا أتاني شخصان ولهما منظر أحسن ما يكون وما رأيت من الخلق أحسن منهما، فجلس أحدهما عن يميني والآخر عن شمالي فقالا: السّلام عليك أيها العبد ورحمة الله وبركاته، قد جئناك بكتابك فخذه الآن وانظر ما فيه.

فقلت لهما: من أنتما يرحمكما الله وأي كتاب لي أنظره وأقرأه؟

فقال: نحن الملكان اللّذان كنا معك في دار الدّنيا على كتفيك نكتب ما لك وما عليك فهذا كتاب عملك، فلما نظرت في كتاب حسناتي بيد الرّقيب فسرّ لي ما فيه وما رأيت من الخير وفرحت وضحكت عند ذلك وفرحت فرحاً شديداً، ونظرت إلى كتاب السّيئآت وهو بيد العتيد فساءني ما رأيت وأبكاني، فقالا لي: أبشر فلك الخير.

ثمّ دنى مني الشخص الأوّل فجذب الرّوح فليس من جذبة يجذبها إلاّ وهي تقوم مقام كلّ شدّة من السّماء إلى الأرض، فلم يزل كذلك حتّى صارت الروح في صدري، ثمّ أشار إليّ بجذبة لو أنّها وضعت على الجبال لذابت، فقبض روحي من عرنين أنفي فعلا من أهلي عند ذلك الصّراخ وليس من شيء يقال أو يفعل إلاّ وأنا به عالم.

فلما اشتدّ صراخ القوم وبكاؤهم جزعاً عليّ التفت اليهم ملك الموت بغيض وحنق وقال: معاشر القوم ممّ بكاؤكم فوالله ما ظلمناه فتشكون ولا اعتدينا عليه فتصيحون وتبكون ولكن نحن وأنتم عبيد ربّ واحد ولو أمرتم فينا كما أمرنا فيكم لامتثلتم فينا كما امتثلنا فيكم، والله ما أخذناه حتى فني رزقه وانقطعت مدته وصار إلى رب كريم يحكم فيه ما يشاء وهو على كلّ شيء قدير فان صبرتم أوجرتم وإن جزعتم أثمتم كم لي من رجعة إليكم آخذ البنين والبنات والآباء والأمّهات.

ثمّ انصرف عند ذلك عني والروح معه فعند ذلك أتاه ملك آخر فأخذها منه وطرحها في ثوب أخضر من الحرير وصعد بها ووضعها بين يدي الله في أقل من طبقة جفن.

فلمّا حصلت الرّوح بين يدي ربي سبحانه سألها عن الصغيرة والكبيرة، وعن الصّلاة والصّيام في شهر رمضان وحج بيت الله الحرام وقراءة القرآن والزكاة والصّدقات وسائر الأوقات والأيام وطاعة الوالدين وعن قتل النفس بغير الحقّ وأكل مال اليتيم ومال الرّبا والزّنا والفواحش وعن مظالم العباد، وعن التهجّد باللّيل والنّاس نيام وما يشاكل ذلك، وما بعد ذلك ردّت الرّوح إلى الأرض بإذن الله تعالى.

فعند ذلك أتاني الغاسل فجرّدني من أثوابي وأخذ في تغسيلي، فنادته الرّوح بالله عليك يا عبد الله رفقاً بالبدن الضعيف فوالله ما خرجت من عرق إلاّ انقطع ولا من عضو إلاّ انصدع فوالله لو سمع الغاسل ذلك القول لما غسل ميّتاً أبداً.

ثم انه أجرى عليّ الماء وغسّلني ثلاثة أغسال وكفّنني في ثلاثة أثواب وحنّطني بحنوط وهو الزّاد الذي خرجت به إلى الآخرة، ثمّ جذب الخاتم من يدي اليمنى فدفعه إلى أكبر أولادي وقال: آجرك الله في أبيك وأحسن لك الأجر والعزاء.

ثمّ أدرجني في الكفن ولفني ونادى أهلي وجيراني وقال هلمّوا إليه بالوداع فقاموا عند ذلك لوداعي.

فلمّا فرغوا من وداعي حملت على سرير خشب وحملوني على أكتاف أربعة، والرّوح عند ذلك بين وجهي وكفني واقفة على نعشي وهي تقول: يا أهلي وأولادي لا تلعب بكم الدّنيا كما لعبت بي، فهذا ما جمعته من حل ومن غير حلّ وخلّفته بالهناءة والصحة فاحذروني فيه.

ولم أزل كذلك حتى وضعت للصّلاة فصلّوا عليّ، فلما فرغوا من الصّلاة وحملت إلى قبري أدليت فيه ثمّ رفعت روحي بين كتفي ووجهي أدنيت من قبري وطرحت على شفير القبر، فعاينت هولاً عظيماً.

يا سلمان يا عبد الله لما وضعت في قبري خيّل لي أنّي سقطت من السّماء إلى الأرض في لحدي، وشرج على اللّبن وحثى على التراب وزاروني[1] وانصرفوا، فرجعت الرّوح إليّ فأخذت في النّدم فقلت: يا ليتني كنت مع الراجعين.

فعند ذلك سلبت الرّوح من اللّسان وانقلبت من السّمع والبصر فلما نادى المنادي بالانصراف أخذت في الندم وبكيت من القبر وضيقه وضغطته وكنت قلت: يا ليتني كنت مع الراجعين لعملت عملاً صالحاً فجاوبني مجيب من جانب القبر:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

فقلت من أنت يا هذا الذي تكلّمني وتحدّثني؟ قال: أنا منبه، قلت: وما منبّه؟ قال: أنا ملك وكلني الله بجميع خلقه لانبههم بعد مماتهم ليكتبوا أعمالهم على أنفسهم بين يدي الله.

ثمّ إنّه جذبني وأجلسني وقال لي: اكتب عملك وما لك وما عليك في دار الدّنيا، قلت: إني لا أحصيه ولا أعرفه، قال: أو ما سمعت قول ربّك: أحصاه الله ونسوه؟ ثمّ قال لي: اكتب الآن وأنا أملي عليك، فقلت: أين البياض؟ فجذب جانباً من كفني فإذا هو رقّ فقال: هذه صحيفتك، فقلت: من أين القلم؟ قال: سبّابتك، فقلت: من أين المداد؟ فقال: ريقك.

ثمّ أملى عليّ جميع ما فعلته في دار الدّنيا من أوّل عمري إلى آخره، فلم يبق من أعمالي صغيرة ولا كبيرة، ثمّ تلى عليّ:

---

(١) «واروني» في نسخة.

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثمّ إنه أخذ الكتاب وختمه بخاتم وطوّقه في عنقي فخيّل لي أنّ جبال الدّنيا جميعاً قد طوّقها في عنقي، فقلت له: يا منبه ولم تفعل بي هكذا؟ قال: ألم تسمع قول ربك:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

فهذا ما تخاطب به يوم القيامة ويؤتى بك وبكتابك بين عينيك منشوراً لتشهد به على نفسك.

ثمّ انصرف عني فبقيت أبكى على نفسي على حسرة الدّنيا وأقول: يا ليتني عملت خيراً حتى لا يكتب عليّ شرّ.

فبينا أنا كذلك وإذا أنا بملك منكر أعظم منظراً وأهول شخصاً ما رأيته في الدّنيا، ومعه عمود من الحديد لو اجتمعت عليه الثقلان ما حرّكوه، فراعني وأفزعني وهدّدني ودنا مني فجذبني بلحيتي، ثم انه صاح بي صيحة لو سمعها أهل الأرض لماتوا جميعاً ثمّ قال لي: يا عبد الله أخبرني من ربّك ومن نبيّك وما دينك وما كنت عليه في دار الدّنيا؟ فاعتقل لساني من فزعه وتحيّرت في أمري وما أدرى ما أقول وليس في جسمي عضو إلاّ فارقني من الفزع وانقطعت أعضائي وأوصالي من الخوف.

فأتتني رحمة من ربّي فأمسك بها في قلبي وشدّ بها ظهري واطلق بها لساني ورجع إليّ ذهني فقلت له عند ذلك: يا عبد الله لم تفزعني وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ وأنّ الله ربّي ومحمّد نبيّي والإسلام ديني والقرآن كتابي والكعبة قبلتي وعليّ إمامي وبعده أولاده الطاهرون أئمتي، والمؤمنين إخواني وأنّ الموت حقّ والسّؤال حقّ والصّراط حقّ والجنة حق والنّار حق وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من القبور فهذا قولي واعتقادي وعليه القى ربّي في معادي.

فعند ذلك قال لي: يا عبد الله ابشر بالسلامة فقد نجوت منّي فنم نومة العروس ثمّ مضى عني.

ثمّ أتاني شخص أهول منه يعرف بنكير، فصاح صيحة هائلة أعظم من الصيحة الأولى، فاشتبكت أعضائي بعضها في بعض كاشتباك الأصابع، ثمّ قال لي: هات الآن عملك يا عبد الله وما خرجت عليه من دار الدّنيا ومن ربّك ومن نبيّك وما دينك؟ فبقيت حائراً متفكّراً في ردّ الجواب لا أعرف جواباً ولا أنطق بخطاب لما رأيت وسمعت منه.

فعند ذلك صرف الله عنّي شدّة الرّوع والفزع وألهمني حجّتي وحسن التوفيق واليقين فقلت: ارفق بي ولا تزعجني يا عبد الله وامهل عليّ حتّى أقول لك، فقال: قل فقلت: إني خرجت بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب والأئمة الطاهرين من ذرّيته أئمتي وأنّ الموت حقّ والقبر حقّ والصّراط حقّ والميزان حقّ والحساب حقّ ومساءلة منكر ونكير حقّ، وأنّ الجنّة وما وعده الله فيها من النّعيم حقّ وأنّ النّار وما وعد الله من العذاب حقّ، وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور.

ثم قال لي: يا عبد الله أبشر بالنّعيم الدّائم والخير المقيم ثمّ إنّه أضجعني وقال: نم نومة العروس، ثمّ انه فتح لي باباً من عند رأسي إلى الجنّة وباباً من عند رجلي إلى النار ثمّ قال لي: يا عبد الله انظر إلى ما صرت إليه في الجنّة وإلى ما نجوت منه من نار الجحيم، ثمّ سدّ الباب التي من عند رجلي وأبقى الباب الذي هو من عند رأسي فجعل يدخل عليّ من روح الجنّة ونعيمها وأوسع لحدي مدّ البصر[1] واسرج لي سراجاً أضوأ من الشمس والقمر وخرج عني.

فهذه صفتي وحديثي وما لقيته من شدّة الأهوال، وأنا أشهد بالله أن مرارة الموت في حلقي إلى يوم القيامة، فراقب الله أيّها السائل من رفعة المسائل، وخف من هول المطّلع وما قد ذكرته، هذا الذي لقيته وأنا من الصّالحين ثمّ انقطع عند ذلك كلامه عن سلمان.

فقال سلمان للأصبغ ومن كان معه: هلمّوا إليّ واحملوني، فلمّا وصل إلى منزله قال: حطوني رحمكم الله، فلمّا حططناه إلى الأرض وشهدناه فقال: اسندوني، ثمّ رمق بطرفه إلى السّماء وقال: يا من بيده ملكوت كلّ شيء وإليه يرجعون وهو يجير ولا يجار عليه بك آمنت وعليك توكلت وبنبيّك أقررت وبكتابك صدقت، وقد أتاني ما وعدتني يا من لا يخلف الميعاد فلقني جودك، وأقبضني إلى رحمتك، وأنزلني إلى دار كرامتك فإني أشهد الله لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ عليّاً أمير المؤمنين والأئمة من ذرّيته أئمّتي وساداتي فلمّا أكمل شهادته قضى نحبه ولقى ربّه رضي الله تعالى عنه.

فقال: بينما نحن ذلك إذ أتى رجل على بغلة شهباء متلثماً فسلّم علينا فرددنا السّلام عليه فقال: يا أصبغ اجهدوا في أمر سلمان، فأخذنا في أمره فأخذ معه حنوطاً وكفناً فقال: هلمّوا فإن عندي ما ينوب عنه، فأتيناه بماء ومغسل، فلم يزل يغسله بيده حتّى فرغ وكفنه وصلّى عليه فصلّينا خلفه، ثمّ إنّه دفنه بيده.

---

(١) في نسخة: ومضى عني وأنا يا سليمان لم أجد عند الله شيئاً يحبه الله أعظم من ثلاثة: صلاة الليلة شديدة البرد، وصوم يوم شديدة الحر، وصدقة بيمينك لا يعلم بها شمالك.

فلمّا فرغ من دفنه همّ بالانصراف تعلّقنا به وقلنا له: من أنت يرحمك الله؟ فكشف لنا عن وجهه فسطع النور من ثناياه كالبرق الخاطف فإذا هو أمير المؤمنين فقلت له يا أمير المؤمنين كيف كان مجيؤك ومن أعلمك بموت سلمان؟

قال: فالتفت إليّ وقال: آخذ عليك يا أصبغ عهد الله وميثاقه وأنّك لا تحدّث به أحداً ما دمت حيّاً في دار الدّنيا، فقلت يا أمير المؤمنين أموت قبلك فقال: لا يا أصبغ بل يطول عمرك، قلت له: يا أمير المؤمنين خذ عليّ عهداً وميثاقاً فإنّي لك سامع مطيع اني لا أحدّث به حتّى يقضى الله من أمرك ما يقضي وهو على كل شيء قدير.

فقال: يا أصبغ بهذا عهد لي رسول الله ﷺ فإني قد صلّيت هذه السّاعة بالكوفة وقد خرجت أريد منزلي فلمّا وصلت إلى منزلي اضطجعت، فأتاني آت في منامي وقال: يا علي إنّ سلمان قد قضى نحبه فركبت بغلتي وأخذت معي ما يصلح للموتى فجعلت أسير فقرب الله لي البعيد كما تراني، وبهذا أخبرني رسول الله ﷺ ثم انه دفنه وواراه فلم أره أصعد إلى السّماء أم في الأرض نزل، فأتى الكوفة والمنادي ينادي بصلاة المغرب فحضر عندهم[(١)].

وهذا ما كان من حديث وفاة سلمان الفارسي (ره) على التمام والكمال والحمد لله حق حمده وقد رويت الخبر على طوله لاقتضاء المقام ذلك من حيث اشتماله على كثير من أحوال الميّت وأهوال البرزخ المسوق لها هذا الفصل من كلامه عليه السلام، وأوردت ذيله مع خروجه عن مقتضى المقام لأنّي إن ساعدني التوفيق إن شاء الله أورد في شرح باب الكتب والوصايا مبدأ أمر سلمان وكيفيّة اسلامه وبعض مناقبه فأحببت أن أورد هنا مآل أمره ومنتهاه ليطّلع النّاظر في الشرح على بداية حاله ونهايته مع ما فيه من إعجاز عجيب لأمير المؤمنين سلام الله عليه وعلى آله الطّيبين هذا.

ولا يخفى ما في هذه الرّواية من «**الكفاية**» للمهتدي الطالب «**للرشاد**»، بما فيها من التّنبيه والإيقاظ من الغفلة والرقاد، فان هذا الميت مع كونه ممن ألهمه الله الخير والصلاح وكونه من أهل السعادة والفلاح إذا كان حاله ذلك، ومصير أمره كذلك فكيف بنا ونحن المنهمكون في الشّهوات والمستغرقون في بحار السّيئآت.

تروّعنا الجنائز مقبلات ... ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلة لمغار ذئب ... فلمّا غاب عادت راتعات

اشتغلنا ببدوات الخواطر، ونسينا الله واليوم الآخر، وغفلنا عن أخذ الزاد ليوم المعاد،

---

(١) البحار: ٢٢/ ٣٨٠، هذه الرواية كما ترى صريحة في أن وفات سلمان رضي الله عنه كان أيام خلافة أمير المؤمنين (ع) بالكوفة والمستفاد من الروايات الأخر أن وفاته كان عند كونه (ع) بالمدينة ولعلنا نشير إلى تلك في أواخر الشرح إن ساعدنا التوفيق إن شاء الله، منه.

ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذّنوب، فليس لنا خلاص ومناص، ولا معاذ ولا ملاذ، ولا مطمع ولا رجاء إلاّ في بحر الكرم والجود، والتّفضل من واجب الوجود:

ولـمـا قـسـى قـلـبـي وضـاقـت مـذاهـبـي	جـعـلـت رجـائـي نـحـو عـفـوك سـلّـمـا
تـعـاظـمـنـي ذنـبـي فـلـمّـا قـرنـتـه	بـعـفـوك ربّـي كـان عـفـوك أعـظـمـا
فـمـا زلـت ذا عـفـو عـن الـذنـب لـم تـزل	تـجـود وتـعـفـو مـنّـة وتـكـرّمـاً

الترجمة

تنزيه می کنم تورا تنزيه کردنی در آن حال که آفريننده مخلوقاتی و معبود موجودات، به سبب حسن امتحان خود در حين آفريدن، آفريدی خانه ای را که عبارت است از خانه آخرت و مهيّا نمودی در آن مهمانی را: شرابی و طعامی و زنانی و خدمتگذارانی و غرفه های رفيعه و نهرهای لطيفه و زراعت های خوب و ميوه های مرغوب، بعد از آن فرستادی دعوت کننده ای را که می خواند مردمان را به سوی آن، پس اين مردمان نادان، نه دعوت کننده را اجابت نمودند و نه در آنچه ترغيب نمودی راغب شدند و نه به سوی آنچه که مشتاق نمودی به سوی آن شايق گشتند.

روی آوردند بر جيفه دنيای غدّار در حالتی که مفتضح و رسوا شدند به سبب خوردن آن و اتّفاق و آشتی کردند بر دوستی آن و هرکه عاشق گشت به چيزی، پرده کشيد آن چيز چشم او را و ناخوش گردانيد قلب او را، پس او نظر می کند با چشم ناصحيح و می شنود با گوش ناشنوا، در حالتی که دريده و پاره کرده شهوات دنيويه عقل او را و کشته دنيای دنی قلب او را و واله و شيفته شده بر دنيا نفس او.

پس آن محبّ دنيا بنده دنيا است و بنده کسی است که در دست های آن چيزی است از متاع دنيا، هرکجا که گرديد دنيا، گرديد آن شخص به سوی آن و هرکجا که روی آورد دنيا، روی نهاد او بر آن در حالتی که منزجر نمی شود از خدا به زجرکننده و متعظ نمی شود از حق تعالی به موعظه نماينده و حال آنکه می بيند کسانی را که گرفتار شدند در حالت غفلت و مغروری در مکانی که نيست هيچ فسق

و اقاله مرایشان را و نه رجوع و بازگشتنی در حق ایشان، چگونه نازل شد به ایشان چیزی که جاهل بودند به آن و آمد مالشان در مفارقت دنیا چیزی که خاطرجمع بودند از آن و آمدند از آخرت بر آنچه که بودند که وعده داده می شدند به آن.

پس قابل وصف و تعریف نیست چیزی که نازل شد به آنها، جمع شد برایشان سختی و شدّت مرگ و حسرت و پشیمانی وفات، پس سست گشت از جهت سکرات موت اعضاء ایشان و تغییر یافت از جهت آن رنگ های ایشان.

بعد از آن افزون شد مرگ در ایشان از حیثیت دخول، پس حایل شد میان هریك از ایشان و میان سخن گفتن او و به درستی که او در میان اهل خود نگاه می کند به دیده خود و می شنود به گوش خود بر صحّت عقل خود و باقی بودن ادراك خود، تفکّر می کند که در چه چیز فانی کرد عمر خود را و در چه چیز گذرانید روزگار خود را و به یاد می آورد مال هایی را که جمع نمود آنها را و اغماض نمود در مواضع طلب آنها و اخذ نمود آنها را از جاهایی که واضح و روشن بود حلّیت آن و از جاهای شبهه ناك آنها. به تحقیق لازم شد او را گناه های جمع آوری آنها و مشرف شد بر مفارقت آنها باقی ماند آنها از برای پس ماندگان او در حالتی که منعم می شوند بر آنها و متمتع می باشند به آنها، پس باشد گوارایی آن اموال از برای غیر او و بار گران و وزر و وبال آنها بر پشت او و حال آنکه آن مرد بسته شده گروهای او به سبب آن مال ها.

پس او گزد دندان خود را از روی ندامت و پشیمانی بر آنچه که ظاهر شد به او در حین مرگ از امر خود و ترك رغبت می کند در آنچه که راغب بود در آن در مدّت عمر خود و آرزو می کند اینکه کاشکی آن شخصی که غبطه می نمود به او به سبب آن اموال و حسد می برد بر او در آنها، آن شخص حیازت نمودی و جمع می کردی آنها را نه او.

پس همیشه مرگ ثابت بود مبالغه می کرد در بدن او تا آنکه آمیخته شد به قوّه ناطقه او سامعه او، پس گردید در میان اهل خود به حیثیتی که قادر نبود سخن بگوید با زبان خود و نه بشنود با گوش خود در حالتی که گرداند چشم خود را به نگاه کردن در روی های ایشان، بیند حرکت های زبان های ایشان را و نمی شنود تردید سخنان و جواب باز دادن ایشان را.

پس از آن زیاده می شود مرگ در حیثیت چسبیدن به او، پس اخذ کند چشم او را همچنانکه قبض نمود گوش او را و خارج شود روح از تن او، پس گردد جیفه و مرداری در میان اهل خود در حالتی که وحشت کنند از جانب او و دوری جویند از نزدیکی او و موافقت نمی کند گوینده خود را و جواب نمی تواند بدهد بر خواننده خود.

پس از آن بردارند او را به سوی منزل او در زمین، پس سپارند او را در آن منزل به عمل خودش و بریده شوند از زیارت کردن او.

شارح فقیر کثیرالتقصیر می گوید که مخفی نماند کفایت این کلام بلاغت نظام در مقام وعظ و تذکیر و انذار و تحذیر و هدایت سرگشتگان بادیه ضلالت و نجات دادن غرق شدگان دریای غفلت را؛ ولنعم ما قیل:

دلا یك دم از خواب بیدار شو	ز سر مستی کبر هشیار شو
به عبرت نظر کن سوی رفتگان	که فردا شوی عبرت دیگران
بزرگی که سودی بگردون سرش	نگه کن که چون خاك شد پیکرش
ز دور زمان نگذرد اندکی	که خواهی تو هم بود از ایشان یکی

الفصل الثالث

«حَتى إِذا بَلَغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ، والأَمْرُ مَقاديرَهُ، وأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وجاءَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ما يُريدُهُ مِنْ تَجْديدِ خَلْقِهِ، أَمادَ السَّماءَ وفَطَرَها، وأَرَجَّ الأَرْضَ وأَرْجَفَها، وَقَلَعَ جِبالَها ونَسَفَها، ودَكَّ بَعْضُها بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلالَهِ، ومَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وأَخْرَجَ مَنْ فيها، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفْريقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِما يُريدُ مِنْ مَسائَلَتِهِمْ: عَنْ خَفايَا الأَعْمالِ، وخَبايَا الأَفْعالِ، وجَعَلَهُمْ فَريقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلىٰ هؤُلاَءِ، وَانْتَقَمَ مِنْ هؤُلاءِ.

فَأَمّا أَهْلُ الطّاعَةِ، فَأَثابَهُمْ بِجِوارِهِ، وخَلَّدَهُمْ في دارِهِ، حَيْثُ لا يَظْعَنُ النُّزَّالُ، ولا يَتَغَيَّرُ لَهُمُ الْحالُ، ولا تَنُوبُهُمُ الأَفْزاعُ، ولا تَنالُهُمُ الأَسْقامُ، ولا تَعْرِضُ لَهُمُ الأَخْطارُ، ولاَ تُشْخِصُهُمُ الأَسْفارُ، وأَمّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دارٍ، وغَلَّ الأَيْدي إِلَى الأَعْناقِ، وقَرَنَ النَّواصِيَ بِالأَقْدامِ، وأَلْبَسَهُمْ سَرابيلَ الْقَطِرانِ، ومُقَطَّعاتِ النِّيرانِ، في عَذابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وبابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، في نارٍ لَها كَلَبٌ ولَجَبٌ، ولَهَبٌ ساطِعٌ، وقَصيفٌ هائِلٌ، لا يَظْعَنُ مُقيمُها، ولا يُفادىٰ أَسيرُها، ولا تُفْصَمُ كُبُولُها، لا مُدَّةَ لِلدّارِ فَتَفْنَى، ولاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى»[١].

اللغة

(**الكتاب**) بمعنى المكتوب من كتب بمعنى حكم وقضى يقال كتب القاضي بالنّفقة، و(**ماد**) يميد ميداً وميداناً تحرّك وأماده حرّكه، وفي بعض النسخ أمار، والموران الحركة، (**وأرج**) الأرض زلزلها أرجّت الأرض وأرجّها الله يستعمل لازماً ومتعدّياً وفي بعض النسخ ورجّ الأرض بغير همز وهو الأفصح المطابق لقوله تعالى إذا رجّت الأرض رجّاً، و(**الرّجفة**) الزّلزلة الشّديدة و(**نسفها**) قلعها من أصولها.

وقوله: (**بعد إخلاقهم**) في بعض النسخ بفتح الهمزة وفي بعضها بالكسر من خلق الثّوب بالضمّ إذا بلى فهو خلق بفتحتين وأخلق الثوب بالألف لغة وأخلقته يكون الرّباعي لازماً ومتعدّياً هكذا في «**المصباح**»، وقال الطّريحي: وثوب أخلاق إذا كانت الخلوق فيه كلّه، و(**ظعن**) ظعناً وظعناً من باب نفع سار وارتحل، ويتعدّي بالهمزة وبالحرف يقال أظعنته وظعنت به، و(**الأخطار**) جمع الخطر محركة كأسباب وسبب وهو الإشراف على الهلاك وخوف التّلف.

و(**شخص**) يشخص من باب منع خرج من موضع إلى غيره ويتعدّى بالهمزة فيقال

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٤٤، ونهج السعادة: ٢/٦٥٦.

أشخصته، و(**السربال**) القميص، و(**القطران**) بفتح القاف وكسر الطاء وبها قرأ السّبعة في قوله تعالى ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وربما يكسر القاف ويسكن الطّاء وهو شيء أسود لزج منتن يطلى به الإبل.

و(**المقطّعات**) الثياب التي تقطع وقيل: هي قصار الثياب، و(**الكلب**) محرّكة الشدة ويقال كلب الدّهر على أهله إذا الح عليهم واشتدّ، و(**اللّجب**) بالتحريك أيضاً الصّوت، و(**القصيف**) الصّوت الشديدة، و(**تفصم**) بالفاء من انفصم وهو كسر الشيء من غير ابانة، وفي بعض النسخ بالقاف وهو الكسر مع ابانة، و(**الكبول**) جمع الكبل كفلس وفلوس وهو القيد يقال كبلت الأسير وكبلته إذا قيدته فهو مكبول ومكبل قال الشاعر:

لم يبق إلاّ أسير غير منقلب ... وموثق في عقال الأسر مكبول

الإعراب

قوله: فأما أهل الطّاعة فأثابهم بجواره، (**أما**) حرف شرط وتفصيل وتوكيد أما أنها شرط فبدليل لزوم الفاء بعدها، وأما أنها تفصيل فلكونها مكرّرة غالباً قال تعالى: و﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ٩٧]، ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ [الكهف: ٨٠]، ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ [الكهف: ٨٢]، الآيات، وأما أنها مفيدة للتوكيد فقد أفصح عنه الزمخشري حيث قال: فائدة أما في الكلام أن تعطيه فضل توكيد، تقول زيد ذاهب فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب وأنه منه على عزيمة تقول: أما زيد فذاهب، ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، فهذا التفسير مفيد لفائدتين: بيان كونه تأكيداً، وأنه في معنى الشرط.

وقوله: (**حيث لا يظعن النزال**)، (**حيث**) ظرف مكان بدل من قوله في داره، وهي من الظّروف الواجب الإضافة إلى الجمل ومبنيّة على الضمّ أما بناؤها فلأنّها مضافة في المعنى إلى المصدر الذي تضمنته الجملة إذ معنى جلست حيث جلس زيد جلست مكان جلوسه وإن كانت في الظّاهر مضافة إلى الجملة فاضافتها إليها كلا اضافة فشابهت الغايات المحذوف ما أضيفت إليها فلهذا بنيت على الضمّ كالغايات.

قال نجم الأئمة الرّضي: واعلم أن الظرف المضاف إلى الجملة لما كان ظرفاً للمصدر الذي تضمنته الجملة على ما قررنا لم يجز أن يعود من الجملة إليه ضمير فلا يقال آتيك يوم قدم زيد فيه، لأنّ الرّبط الذي يطلب حصوله من مثل هذا الضمير حصل باضافة الضمير إلى الجملة وجعله ظرفاً لمضمونها، فيكون كأنّك قلت يوم قدوم زيد فيه، أي في اليوم وذلك غير مستعمل وإنما وجب الرّبط لما لم يكن الظرف مرتبطاً بأن كان منوناً نحو يوماً قدم فيه زيد، قال تعالى: ﴿**يوم تسود وجوه**﴾ وقد يقول العوام: يوم تسود فيه الوجوه ونحوه، وهو شاذ

وبذلك ظهر عدم الحاجة إلى الضّمير في قوله حيث لا يظعن النزال، فان معناه مكان عدم ظعن النزال فافهم ذلك فانّه ينفعك في كثير من المقامات الآتية.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمّن لبيان حال العباد في المعاد وكيفيّة محشرهم ومنشرهم وبعثهم وجمعهم وإثابة المطيعين منهم وعقاب العاصين وأكثر ما أورده عليه السلام هنا مطابق لآيات الكتاب الكريم والقرآن الحكيم حسبما تطلع عليه فيما يتلى عليك فأقول: قوله: **(حتّى إذا بلغ الكتاب أجله والأمر مقاديره)** أراد بالكتاب ما كتبه الله تعالى سبحانه وقضاه في حق النّاس من لبثهم في القبور إلى يوم الحشر والنشور وبالأمر[1] الأمورات المقدّرة الحادثة في العالم السفلي المشار إليها بقوله تعالى:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

فالمعنى أنّه إذا بلغ المقضى في حق العباد غايته ونهايته في الأمورات المقدرة مقاديرها المعلومة وحدودها المعينة التي اقتضت الحكمة الإلهية والتدبير الأزلي بلوغها إليها **(وألحق آخر الخلق بأوّله)** أي انتزعوا جميعاً عن الدّنيا وأحاط بهم الموت والفنا واجتمعوا في القبور بعد سكنى القصور **(وجاء من أمر الله)** وحكمه **(ما يريده من تجديد خلقه)** أي بعثهم وحشرهم **(أماد السّماء وفطرها)** أي حركها وشقها، وهو إشارة إلى خراب هذا العالم.

وبه نطق قوله سبحانه: يوم تمور السّماء موراً، أي تضطرب وتموج وتتحرك، وفي سورة المزمل: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨]، قال الطّبرسي: المعنى أنّ السّماء تنفطر وتنشق في ذلك اليوم من هوله، وفي سورة الإنفطار: إذا السّماء انفطرت، قال الطّبرسي تشقّقت وتقطعت.

(وأرجّ الأرض وأرجفها) أي حرّكها وزلزلها كما قال تعالى في سورة الواقعة: إذا رجّت الأرض رجّاً، قال الطبرسي أي حركت حركة شديدة، وقيل زلزلت زالزالاً شديداً، وقيل معناه رجّت بما فيها كما يرج الغربال بما فيه فيكون المراد ترج بإخراج من في بطنها من الموتى، وفي سورة النازعات: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦ ـ ٧]، قيل أي تضطرب الأرض اضطراباً شديداً وتحرك تحرّكاً عظيماً يعني يوم القيامة تتبعها الرادفة أي اضطرابة اخرى كائنة بعد الأولى في موضع الرّدف من الراكب فلا تزال تضطرب حتى تفنى كلها.

---

(١) وقد تقدم في شرح الفصل التاسع من الخطبة الأولى في بيان معنى قوله (ع) ومختلفون بقضائه وأمره، ما ينفعك ذكره في المقام فليراجع، منه.

(وقلع جبالها ونسفها) وهو موافق لقوله تعالى في سورة طه:

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

قال الطّبرسي: أي ويسألك منكر والبعث عند ذكر القيامة عن الجبال ما حالها فقل: يا محمّد ينسفها ربّي نسفاً، أي يجعلها ربّي بمنزلة الرّمل، ثمّ يرسل عليها الرّياح فيذريها كتذرية الطعام من القشور والتّراب فلا يبقى على وجه الأرض منها شيء وقيل يصيرها كالهباء، وقيل إنّ رجلاً من ثقيف سأل النبي صلى الله عليه وآله كيف تكون الجبال يوم القيامة مع عظمها؟ فقال صلى الله عليه وآله: إنّ الله يسوقها بأن يجعلها كالرّمال ثمّ يرسل عليها الرّياح فتفرقها، فيذرها، أي فيدع اماكنها من الأرض إذا نسفها، قاعاً، أي أرضاً ملساء، وقيل منكشفة، صفصفاً، أي أرضاً مستوية ليس للجبل فيها أثر، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، أي ليس فيها منخفض ولا مرتفع[1].

وفي سورة الواقعة: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ ـ ٦].

أي فتت فتاً أو كسرت كسراً، فكانت غباراً متفرقاً كالذي يرى من شعاع الشّمس إذا دخل من الكوّة وفي سورة المزمّل:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

قال الطّبرسي: أي رملاً سائلاً مستأثراً عن ابن عباس وقيل: المهيل الذي إذا وطأه القدم زلّ من تحتها وإذا أخذت اسفله انهار أعلاه، عن الضحاك، والمعنى أنّ الجبال تنقلع من أصولها فتصير بعد صلابتها كالرّمل السّائل ودكّ بعضها بعضاً من هيبة جلاله ومخوف سلطنته، ويشهد به قوله سبحانه في سورة الحاقة:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣ ـ ١٥].

أي رفعت الأرض والجبال من أماكنها وضرب بعضها ببعض حتّى تفتت الجبال وسفتها الرّياح وبقيت الأرض شيئاً واحداً لا جبل فيها ولا رابية، بل تكون قطعة مستوية، وقال عليّ بن إبراهيم القمّي في تفسيرها: قد وقعت فدكّ بعضها على بعض، وقال الطبرسي أي كسرتا كسرة واحدة لا تثنى حتى يستوي ما عليها من شيء مثل الأديم الممدود.

(واخرج من فيها فجددهم بعد إخلاقهم) أي بعد كونهم خلقاً بالياً أو بعد جعله لهم كذلك **(وجمعهم بعد تفريقهم)** يحتمل أن يكون المراد به جمع اجزائهم بعد تفتتهم وتأليف أعضائهم بعد تمزيقهم وجمع نفوسهم في المحشر بعد تفرقهم في مشارق الأرض ومغاربها

(١) بحار الأنوار: ٧/ ٧٤، وتفسير مجمع البيان: ٧/ ٥٦.

والثاني أظهر **(ثم ميّزهم لما يريد من مساءلتهم عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال)** أي أعمالهم الّتي فعلوها في خلواتهم **(وجعلهم فريقين أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء)** كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] وفي سورة الرعد: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وإليه أشار بقوله **(فأمّا أهل الطّاعة)** والسّعادة **(فاثابهم بجواره)** وقربه **(وخلّدهم في داره)** الإضافة للتشريف والتكريم وفيها تشويق وترغيب إلى هذه الدّار لا سيّما وانها دار خلود **(حيث لا يظعن النزال)** أي لا يرتحل النازلون فيها عنها ولا يجوز عليهم الانتقال دار سلامة واستقامة، **(ولا يتغير لهم الحال)** دار أمن وكرامة، **(ولا تنوبهم الإفزاع)** دار صحّة وعافية، **(ولا تنالهم الاسقام)** دار سرور ولذّة، **(ولا تعرض لهم الأخطار)** دار استراحة، **(ولا تشخصهم الأسفار)** وفي هذه كلّها إشارة إلى سلامة أهل الجنان من الهموم والأحزان، وآفات الأجساد والأبدان، وطوارق المحن والبلاء العارضة لأهل الدّنيا، وفيها حسبما اشرنا إليه حث وترغيب إليها وإلى المجاهدة في طلبها.

فتنبه أيها المسكين من نوم الغفلة، واستيقظ من رقدة الجهالة، وعليك بالمجاهدة والتّقوى، ونهى النفس عن الهوى لتصل إلى تلك النعمة العظمى وتدرك الجنّة التي عرضها الأرض والسموات العلى، وتفكّر في أهلها وساكنيها.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٤ ـ ٢٦].

جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللّؤلؤ الرّطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزيّنة بالحور العين من الخيرات الحسان، كأنّهنّ الياقوت والمرجان لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جانّ، يمشين في درجات الجنان وإذا اختالت احداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان عليها من طرائف الحرير ما تتحيّر فيه الأبصار مكلّلات بالتّيجان المرصعة باللّؤلؤ والمرجان مشكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس وحوادث الزّمان مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهنّ بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذّة للشاربين، ويطوف عليهم ولدان مخلّدون كأمثال اللّؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون، في مقام أمين في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، لا يرهقهم قتر ولا ذلّة بل عباد مكرمون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن ريب المنون آمنون، خالدون فيها ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً مصفًى، وأيّ أنهار أراضيها من فضة بيضاء

وحصائها مرجان، ويمطرون من سحاب من ماء النسرين على كثبان الكافور ويجلسون على أرض ترابها مسك أذفر، ونباتها زعفران.

فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها، ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بساحتها، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها، كيف يأنس بدار قد اذن الله في خرابها، ونودي بالرحيل قطّانها، والله لو لم يكن فيها إلاّ سلامة الأبدان مع الأمن من البلاء والموت وسائر الحدثان، لكان جديراً بأن يهجر الدّنيا بسببها، ولا تؤثر عليها مع كون التنغص والتصرم من ضروراتها، فان نعم الدّنيا زائلة كلها فانية، ونعم الجنة دائمة باقية، وأهل الدّنيا كلّهم متنغّصون هالكون، وأهل الجنة منعمون آمنون.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ينادي منادياً أهل الجنة ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وان لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً وانّ لكم أن تنعّموا فلا تيأسوا أبداً[1]، فذلك قول الله عزّ وجل:

﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(وأمّا أهل المعصية) والشّقاوة **(فانزلهم شر دار)** وبئس القرار **(وغل الأيدي إلى الأعناق)** باغلال وسلاسل من نار قال سبحانه:

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١ - ٧٢] وفي سورة يس: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

قال الطّبرسي: يعني أيديهم، كنى عنها وإن لم يذكرها لأنّ الأعناق والأغلال تدلاّن عليها، وذلك أن الغلّ انما يجمع اليد الى الذقن والعنق ولا يجمع الغلّ العنق إلى الذقن، وروى عن ابن عباس وابن مسعود إنهما قرءا إنّا جعلنا في أيمانهم أغلالاً، وقرأ بعضهم في أيديهم، والمعنى في الجميع واحد، لأن الغلّ لا يكون في العنق دون اليد ولا في اليد دون العنق، وقوله: فهم مقمحون[2]، أراد أن أيديهم لما غلت إلى أعناقهم ورفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعداً فهم مرفوعو الرّأس برفع الأغلال إيّاها.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

إشارة إلى ضيق المكان في النار بحيث لا يجدون متقدّماً ولا متأخراً إذ سدّ عليهم جوانبهم فأغشيناهم بالعذاب فهم لا يبصرون في النار.

(١) المعجم الصغير: ١/ ٧٩، ومسند أحمد: ٢/ ٣١٩.

(٢) المقمح الغاض بصره بعد رفع رأسه، ويقال: قمح البعير إذا رفع رأسه ولم يشرب الماء، مجمع البيان.

(وقرن النواصي بالأقدام) بالأغلال والأصفاد كما قال تعالى في سورة الرحمن:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

قال الطّبرسي في تفسيره: تأخذهم الزّبانية فتجمع بين نواصيهم وأقدامهم بالغلّ ثمّ يسحبون في النّار ويقذفون فيها **(وألبسهم سرابيل القطران)** كما قال عزّ من قائل في سورة إبراهيم:

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠].

قال المفسّر وهو ما يطلى به الإبل الجربي فيحرق الجرب والجلد، وهو شيء أسود لزج منتن يطلون به فيصير كالقميص عليهم ثم يرسل النار فيهم ليكون أسرع إليهم وأبلغ في الاشتعال وأشدّ في العذاب، وقيل السّربال من قطران تمثيل لما يحيط بجوهر النّفس من المهلكات الرّدية والهيئات الموحشات المؤلمة **(ومقطّعات النيران)** قيل: المقطعات كلّ ثوب يقطع كالقميص والجبّة ونحوهما لا ما لا يقطع كالإزار والرّداء، ولعلّ السرّ في كون ثياب أهل النار مقطعات كونها أشدّ في العذاب لاشتمالها على جميع البدن، وفي «**مجمع البيان**» في تفسير قوله:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩].

قال ابن عباس: حين صاروا إلى جهنّم لبسوا مقطّعات النيران، وهي الثياب القصار وقيل يجعل لهم ثياب نحاس من نار وهي أشدّ ما تكون حمى، وقيل إنّ النّار تحيط بهم كاحاطة الثياب التي يلبسونها **(في عذاب قد اشتدّ حرّه وباب قد أطبق على أهله)** لكونهم في العذاب مخلّدين، وفي النار محبوسين، ومن خروج الباب ممنوعين، فالأبواب عليهم مغلقة، وأسباب الخروج بهم منقطعة قال سبحانه:

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

قال الحسن: ان النار ترميهم بلهبها حتّى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً، فإذا انتهوا إلى أسفلها ضربهم زفير لهبها فلا يستقرّون ساعة فذلك قوله: **﴿كلّما أرادوا﴾** الآية، وأمّا أهل الجنّة فأبوابها عليهم مفتوحة كما قال تعالى:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ * جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٤٩ ـ ٥٠].

(في نار لها كلب ولجب ولهب ساطع) أي لها شدّة وصوت واشتعال مرتفع **(وقصيف هائل)** أي صوت شديد مخوف **(لا يظعن مقيمها)** بل كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها

وقيل لهم ذوقوا عذاب النّار الذي كنتم به تكذّبون **(ولا يفادى أسيرها)** أي لا يؤخذ عنه الفدية فيخلص كاسراء الدّنيا **(ولا تفصم كبولها)** وقيودها بل هي وثيقة محكمة **(لا مدة للدّار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى)** بل عذابها أبديّ سرمديّ.

قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنّة والنّار، ويقال: يا أهل الجنّة خلود بلا موت، ويا أهل النّار خلود بلا موت»(١).

فيا أيّها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدّنيا المؤذنة بالزّوال والانقضاء، دع التّفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك ومصيرك وقد أخبرت بأنّ النار مورد للجميع إذ قيل:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢].

فأنت من الورود على يقين ومن النّجاة في شكّ، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه، وتأمّل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلّت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالهلاك والعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزّبانية قائلاً أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التّهديد ويسوقونه إلى العذاب الشّديد، وينكسونه في قعر الجحيم، ويقولون له: ذق انك أنت العزيز الكريم.

فاسكنوا داراً ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، الزّبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، ومآلهم منها فكاك، قد شدّت أقدامهم إلى النواصي، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصي.

ينادون من اكنافها، ويصيحون في أطرافها، يا مالك قد حقّ علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فانا لا نعود، فتقول الزّبانية لات حين أمان، لا خروج لكم من دار الهوان، فاخسأوا فيها ولا تكلّمون، ولو اخرجتم لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله

(١) شرح أصول الكافي: ١٢/١٥٩، وبحار الأنوار: ٧/١٤٩.

يتأسّفون، ولا يغنيهم الأَسف ولا ينجيهم الندمّ، إذ زلّت بهم القدم، بل يكبون على وجوههم مغلولين؛ النار من فوقهم، والنّار من تحتهم، والنار عن إيمانهم، والنّار عن شمائلهم فهم غرقى في النّار، طعامهم وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار.

فهم بين مقطعات النّيران، وسرابيل القطران، وضرب المقامع، وثقل السّلاسل، وهم يتجلجلون في مضايقها؛ ويتحطّمون في دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلى بهم النّار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل والثبور، ومهما دعوا بذلك صبّ من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصّديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها، ويتمعّط[١] من الأَطراف جلودها، وكلّما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها قد عريت من اللّحم عظامهم، فبقيت الأَرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب، وهي تنش في نفخ تلك النيران وهم مع ذلك يتمنّون الموت فلا يموتون.

فكيف بك لو نظرت اليهم وقد اسودّت وجوهم أشدّ سواداً من الحميم، وأعميت أبصارهم، وأبكمت السنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزّقت جلودهم، وغلّت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم، وحيّات الهاوية وعقاربها متشبّثة بظواهر اعضائهم.

قال أبو الدّرداء: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النّار الجوع حتّى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع، ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصّة فيذكرون انّهم كانوا يحيزون[٢] الغصص في الدّنيا فيستغيثون بشراب فيرفع اليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، قال: فيدعون فيقولون: أدعوا ربّكم يخفف عنّا يوماً من العذاب، ويقولون أولم تكن تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال، قال فيقولون ادعوا مالكاً، فيدعون، فيقولون: يا مالك ليقض علينا ربّك، قال فيجيبهم إنكم ماكثون»[٣].

قال الأَعمش: انبئت أن بين دعائهم وبين اجابة مالك ايّاهم ألف عام قال: فيقولون: ادعوا ربّكم، فلا أحد خير من ربّكم فيقولون.

---

(١) معط الشعر من باب تعب سقط.
(٢) «يجرعون» في نسخة.
(٣) كنز العمال: ١٤/ ٥٣١، وضعيف سنن الترمذي: ٣٠٦.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٧].

قال: فيجيبهم: اخسؤا فيها ولا تكلّمون، قال: فعند ذلك يئسوا من كلّ خير، وعند ذلك اخذوا في الزّفير والحسرة والويل.

وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

قال: صبروا مائة سنة ثمّ جزعوا مائة سنة ثمّ صبروا مائة سنة ثمّ قالوا سواء علينا اجزعنا أم صبرنا.

وقال محمّد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عزّ وجلّ في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبداً يقولون:

﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيقول الله تعالى مجيباً لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبُهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] ثم يقولون: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فلا يتكلّمون بعدها أبداً، وذلك غاية شدّة العذاب، وهذه بعض أحوال أهل النّار اجمالاً، وأمّا تفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها فلا نهاية لها، فالعجب كلّ العجب لي ولأمثالي نضحك ونلهو ونشتغل بمحقرات الدّنيا وقيناتها، ولا ندري أنحن من أهل الجنّة وفيها منعّمون، أم من أهل النّار وفيها معذّبون، وكيف لنا بالجنّة مع شرور أنفسنا وغرورها، ولا رجاء بل لا طمع إلاّ برحمة الغفّار وشفاعة الشّفعاء الأطهار نعوذ بالله من النّار ومن غضب الجبّار.

الترجمة

تا اینکه زمانی که برسد مکتوب در حقّ بندگان به نهایت خود و امورات مقدّره به غایت خود و لاحق گردانیده شود آخر مردمان به اوّل ایشان و بیاید از فرمان خدای متعال آنچه اراده کرده باشد آن را از تازه کردن خلق خود، به حرکت بیاورد آسمان را و بشکافد آن را و حرکت دهد زمین را و بجنباند آن را و برکند کوه های زمین را و پراکنده گرداند اجزای آنها را مثل ریگ و بکوبد بعضی از آنها بعضی را از هیبت جلال پروردگار و ترس سطوت خداوند قهّار و بیرون بیاورد هرکس که باشد در بطن زمین، پس تجدید نماید ایشان را بعد از کهنه بودن ایشان و جمع کند ایشان را بعد از پراکنده نمودن ایشان، بعد از آن تمیز می دهد در مابین ایشان از برای آنچه که اراده نموده است از نوال کردن از عمل های نهان و فعل های پنهان و بگرداند ایشان را دو فرقه، انعام بفرماید بر این فرقه و انتقام بکشد از آن فرقه.

پس امّا اهل طاعت و صلاح، پس جزا می دهد ایشان را به جوار رحمت خود و جاوید گرداند ایشان را در سرای خود، در مکانی که کوچ نکند فرودآیندگان و متغیر نشود به ایشان احوال و نرسد به ایشان خوف ها، درنیاید به ایشان ناخوشی ها و عارض نمی شود به ایشان خطرها و از جایی به جایی نفرستد ایشان را.

و امّا اهل معصیت و شقاوت، پس نازل می کند ایشان را در بدترین سرا و ببندد دست های ایشان را به سوی گردن ها و پیوست گرداند پیشانی ایشان را به قدم ها و بپوشاند بر ایشان پیراهن های قطران جامه های آتش سوزان در عذابی که سخت باشد گرمی آن و در میان دری که به هم آورده باشد به روی اهل آن، در آتشی که باشد او را شدّت و صدا و زبانه بلند شده و او را سخت ترساننده که کوچ نکند اقامت کننده در آن و فدیه گرفته نشود از اسیران و شکسته نشود قیدهای آن، مدّت و نهایت نباشد آن سرا را تا فانی شود و وقت معیّنی نباشد آن قوم را تا به آخر برسد.

الفصل الرابع

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله:

«قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وصَغَّرَها، وأَهْوَنَهَا وهَوَّنَها، وعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوَاها عَنهُ اخْتِيَاراً، وبَسَطَها لِغَيْرِهِ احْتِقاراً، فَأَعْرَضَ عَنْها بِقَلْبِهِ، وأَماتَ ذِكْرَها عَنْ نَفْسِهِ، وأَحَبَّ أَنْ تَغيبَ زِينَتُها عَنْ عَيْنِه، لِكَيْلا يَتَّخِذَ مِنها رِياشاً، أَوْ يَرْجُوَ فيها مَقاماً، بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً، ونَصَحَ لأُمَّتِهِ مُنْذِراً، ودَعا إِلى الجَنَّةِ مُبَشِّراً، نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، ومَحَطُّ الرِّسالَةِ، ومُخْتَلَفُ الْمَلائِكَةِ، ومَعادِنُ الْعِلْمِ، ويَنابيعُ الْحِكَمِ، ناصِرُنا ومُحِبُّنا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ، وعَدُوُّنا ومُبْغِضُنا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ»[1].

اللغة

(هان) الشيء هونا وهواناً ذلّ وحقر فهو هيّن بالتّشديد وهين بالسّكون ويتعدّى بالهمزة فيقال أهنته وبالتّضيف فيقال هوّنته أي أذللته وفي بعض النّسخ أهون بها بدل أهونها أي لم يعتدّ بها ولم تكن عزيزة عليه و**(زواه)** زيّا وزويّا نحاه وزوى المال عن صاحبه طواه و**(الرّيش)** والرّياش واحد وهو ما ظهر من اللّباس الفاخر و**(السّطوة)** القهر والذلّة.

الإعراب

(اختياراً) منصوب بنزع الخافض ويحتمل الحال من فاعل زوى أو من ضمير عنه على تأويله بالمشتق أي مختاراً، **(واحتقاراً)** إما منصوب على المفعول له أو حال من فاعل بسط على التأويل بالمشتق أيضاً **(ومعذراً ومنذراً ومبشراً)** منصوبات على الحال.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمن لأمرين: **أحدهما**: وصف زهد النّبيّ صلى الله عليه وآله وفيه تعريض على ذم الدّنيا وزخارفها، **والثاني**: افتخاره ومباهاته عليه السلام بكمالاته النفسانيّة واختصاصه الخاص الذي كان له برسول الله صلى الله عليه وآله المستلزم سبقه على غيره وتقدّمه على الكلّ.

أما الأمر الأول: فهو ما أفصح عنه بقوله عليه السلام **(قد حقّر الدّنيا وصغّرها)** التشديد للتكثير فيقتضي زيادة تحقيره وتصغيره صلى الله عليه وآله، وهو أبلغ في الثناء عليه **(وأهونها وهوّنها)** أي عدّها هيّنة ذليلة في نظره ولم يعتدّ بها **(وعلم ان الله زواها)** أي صرفها وطواها **(عنه اختياراً)** أي مختاراً بصيغة الفاعل وباختيار منه سبحانه زويها وحقه أو اختيار منه صلى الله عليه وآله ذلك لنفسه ورضاه **(وبسطها**

---

(١) خاتمة المستدرك: ٣/٩٦، وبحار الأنوار: ٢٦/٢٦٦ ح ٥٣.

لغيره احتقاراً) أي محتقراً بالكسر أو لحقارتها عنده سبحانه.

ويشهد بذلك كلّه ما رواه في «**الكافي**» بإسناده عن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدّنيا وفقهه في الدّين وبصر عيوبها ومن أوتيهنّ فقد أوتي خير الدّنيا والآخرة»[١].

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خرج النبيّ صلى الله عليه وآله وهو محزون فأتاه ملك ومعه مفاتيح خزائن الأرض فقال يا محمّد هذه مفاتيح خزائن الأرض يقول لك ربّك افتح وخذ منها ما شئت من غير أن ينقص شيئاً عندي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله الدّنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له، فقال الملك والذي بعثك بالحقّ لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السّماء الرابعة حين أعطيت المفاتيح»[٢].

وعن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بجدي أسك ملقى على مزبلة ميّتاً فقال لأصحابه: كم يساوي هذا؟ فقالوا: لعله لو كان حيّاً لم يساو درهماً، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده الدّنيا أهون على الله من هذا الجدي على أهله»[٣].

وفي «**إحياء العلوم**» للغزالي قال: قال نبيّنا صلى الله عليه وآله: «إنّ ربّي عزّ وجلّ عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا ربّ أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأمّا اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك»[٤].

ويأتي إن شاء الله في فصول الخطبة المائة والسّابعة والخمسين أخبار أخر مناسبة للمقام.

(فأعرض عنها بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه) قال الغزالي: روى أنه صلى الله عليه وآله مرّ في أصحابه بعشار من النوق حصل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم، لأنها تجمع الظهر واللّحم واللّبن والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: وإذا العشار عطّلت، قال: فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وآله واغمض بصره، فقيل له: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها؟ فقال: قد نهاني الله عن ذلك ثمّ تلا قوله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١] الآية.

(كيلا يتخذ منها رياشاً) أي لباساً فاخراً **(أو يرجو فيها مقاماً)** أي إقامة مع الإيمان والإسلام والشرائع والأحكام **(بلّغ عن ربه معذراً)** أي مزيلاً للعذر عن النّاس لئلا يكون للناس

---

(١) الكافي: ٢/ ١٣٠، ومستدرك الوسائل: ١٢/ ٤٣ ح ١٣٤٧٠.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠/ ٥٤ ح ٢٦، والكافي: ٢/ ١٢٩ ح ٨.

(٣) الكافي: ٢/ ١٢٩ ح ٩، وميزان الحكمة: ٢/ ٩١٠.

(٤) عيون الأثر: ٢/ ٤٢٧.

على الله حجّة وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بيّنة ولئلا يقولوا يوم القيامة انّا كنّا عن هذا غافلين **(ونصح لأمّته منذراً)** لهم عن أليم العذاب وشديد العقاب **(ودعا إلى الجنّة مبشراً)** بجزيل الثواب وحسن المآب.

أما الأمر الثاني: فهو قوله **(نحن شجرة النبوّة)** أراد به رسول الله ونفسه الشريف وزوجته الصّديقة وأولاده الطّيبين الطّاهرين سلام الله عليهم أجمعين وبه فسّر قوله سبحانه: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] الآية، وقد مضى توضيحه في شرح الكلام السّادس والسّتين، وشرح الخطبة الثّالثة والتّسعين فتذكّر.

(ومحط الرّسالة) لم يرد بذلك أنهم عليهم السلام جميعاً رسل الله جعلهم محال الرّسالة وموضعها كما توهمه بعض الغلاة وزعموا أنّ الأئمة يوحى إليهم كالنبيّ صلى الله عليه وآله وقد كذبوا لعنهم الله وانما هم محدثون مفهمون، بل المراد به ان قبيلتهم محلّ نزول الرسالة أو نزلت في بيتهم، أو أن رسول الله مرسل من عند الله وجميع ما أرسله به ووصل إليه صلى الله عليه وآله فقد وصل إليه سلام الله عليه وأولاده الطّاهرين فهم موضع الرّسالة ومحطّها بهذا المعنى.

ويشهد بذلك ما في **«الكافي»** بإسناده عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن جبرئيل أتى رسول الله صلى الله عليه وآله برمانتين فأكل رسول الله إحداهما وكسر الأخرى بنصفين فأكل نصفاً وأطعم علياً نصفاً، ثمّ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله يا أخي هل تدري ما هاتان الرّمانتان؟ قال: لا، قال: أما الأولى فالنبوّة ليس لك فيها نصيب، وأمّا الأخرى فالعلم فأنت شريكي فيه، فقلت: أصلحك الله كيف يكون شريكه فيه؟ قال: لم يعلم الله محمّداً صلى الله عليه وآله علماً إلا وأمره أن يعلّمه علياً».

وعن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «نزل جبرئيل عليه السلام على محمّد صلى الله عليه وآله برمّانتين من الجنّة فلقاه عليّ عليه السلام فقال: ما هاتان الرّمانتان اللتان في يديك؟ فقال: أمّا هذه فالنبوة ليس لك فيها نصيب، وأمّا هذه فالعلم، ثم فلقها رسول الله صلى الله عليه وآله بنصفين فأعطاه نصفها وأخذ رسول الله نصفها ثم قال: أنت شريكي فيه وأنا شريكك فيه وقال عليه السلام: فلم يعلم والله رسول الله صلى الله عليه وآله حرفاً مما علّمه الله إلاّ وقد علّمه علياً عليه السلام، ثم انتهى العلم إلينا، ثم وضع يده على صدره»[1].

وبالجملة فالمراد أنّهم مخزن علم الرسالة وأسرارها **(ومختلف الملائكة)** أي محلّ اختلافهم وترددهم ومجيئهم وذهابهم مرة بعد أخرى، أما رسول الله صلى الله عليه وآله فظاهر، وأما الأئمة عليهم السلام فلأنّهم ينزلون إليهم مرة بعد أولى وطائفة بعد أخرى لزيارتهم والتشرف بهم وإنزال الأخبار إليهم.

---

(١) الكافي: ١/٢٦٣ ح ٣، والاختصاص: ٢٧٩.

ويدلّ عليه ما في «**الكافي**» بإسناده عن مسمع كردين البصري قال: «كنت لا أزيد على أكلة باللّيل والنّهار فربّما استأذنت على أبي عبد الله عليه السلام وأجد المائدة قد رفعت لعلي لا أراها بين يديه فإذا دخلت دعا بها فأصيب معه من الطعام ولا أتأذّى بذلك وإذا عقبت بالطعام عند غيره لم أقدر على أن أقرّ ولم أنم من النفخة، فشكوت ذلك إليه عليه السلام وأخبرته بأنّي إذا أكلت عنده لم أتأذّ به، فقال: يا أبا سيّار إنّك تأكل طعام قوم صالحين تصافحهم الملائكة على فرسهم، قال: قلت: ويظهرون لكم قال، فمسح يده على بعض صبيانه فقال: هم ألطف بصبياننا منا بهم»[١].

وعن الحسين بن أبي العلا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال يا حسين وضرب بيده إلى مساور في البيت، مساور طال ما اتكت عليها الملائكة وربما التقطنا من زغبها»[٢].

والمساور جمع المسورة وهو المتكأ، والزغب محرّكة صغار الريش ولينه.

وفيه عن أبي حمزة الثمالي قال: «دخلت على عليّ بن الحسين عليهما السلام فاحتبست في الدار ساعة ثم دخلت البيت وهو يلتقط شيئاً وأدخل يده من وراء الستر فناوله من كان في البيت، فقلت: جعلت فداك هذا الذي أراك تلتقطه أي شيء هو؟ فقال: فضلة من زغب الملائكة نجمعه إذا خلونا نجعله سبحاً لأولادنا، فقلت جعلت فداك وانهم ليأتونكم؟ فقال: يا أبا حمزة انهم ليزاحمونا على تكائتنا».

والسبح بالباء الموحدة النّوم والسّكون، وفي بعض النّسخ سيحاً بالياء المثناة التحتانيّة وهو الكساء المخطط، وفي «**البحار**» عن «**بصائر الدّرجات**» سحاباً بدله وهو ككتاب خيط ينظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجواري، والتكأة كهمزة ما يتكأ عليه.

وفي «**الكافي**» أيضاً عن علي بن أبي حمزة عن أبي الحسن قال: «سمعته يقول: ما من ملك يهبطه الله في أمر ما يهبطه إلا بدأ بالإمام فعرض ذلك عليه، وأن مختلف الملائكة من عند الله تبارك وتعالى إلى صاحب هذا الأمر».

وفي «**البحار**» من «**بصائر الدرجات**» عن أحمد عن الحسين عن الحسن بن برة الأصم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعته يقول: «إن الملائكة لتنزل علينا في رحالنا وتنقلب على فرشنا وتحضر موائدنا وتأتينا من كلّ نبات في زمانه رطب ويابس، وتقلب أجنحتها على صبياننا، وتمنع الدّواب أن تصل إلينا وتأتينا في وقت كلّ صلاة لتصليها معنا، وما من يوم يأتي علينا ولا ليل إلاّ وأخبار أهل الأرض عندنا، وما يحدث فيها، وما من ملك يموت في

(١) الكافي: ١/٣٩٣ ح ١، وبحار الأنوار: ٤٧/١٥٨ ح ٢٢٣.

(٢) الكافي: ١/٣٩٣ ح ٢، وكشف الغمة: ٢/٤٠٣.

الأَرض ويقوم غيره إلاّ وتأتينا بخبره، وكيف كانت سيرته في الدّنيا»(١).

والأَخبار في هذا المعنى كثيرة، وفي ما ذكرناه كفاية، وقد عقد العلامة المجلسي (ره) **في المجلد السابع من «البحار»** باباً في أن الملائكة تأتيهم وتطاء فرشهم وأنهم يرونهم صلوات الله عليهم أجمعين.

(ومعادن العلم) أي مستقره ومحله وقد مضى بيان ذلك في التذييل الثالث من الفصل السابع عشر من فصول الخطبة الأولى، وفي شرح الفصل الرّابع من فصول الخطبة الثانية.

(وينابيع الحكم) أي منهم عليهم السلام يخرج الأَحكام إلى العباد ويجري إلى المواد القابلة على حسب الاستعداد حسبما يجري المياه من مجاريها ومنابعها فتربط الجأش وتسقي العطاش كما يروّى الماء للغليل ويقوى للعيل، والمراد بالحكم إمّا الأَحكام الشرعية أو فصل الخطاب أعني القضاء وقطع الخصومات بالصّواب في كلّ باب على ما مضى تحقيقه وتفصيله في شرح الفصل الرّابع من فصول الخطبة الثانية، وشرح الفصل الثاني من فصول الخطبة الثالثة هذا.

ويحتمل أن يراد بالحكم الحكمة كما فسّر به قوله سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، قال الباقر عليه السلام في رواية الكافي: «مات زكريّا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبيّ صغير، ثمّ تلى هذه الآية ويؤيد هذا الاحتمال ما في بعض النّسخ من ضبط الحكم بكسر الحاء وفتح الكاف وهو جمع الحكمة والحكمة هو الفهم والعقل وبه فسّره الكاظم عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾(٢) [لقمان: ١٢] وفي **«مجمع البيان»** أي أعطيناه العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأمور، وكيف كان فلا غبار على كون الأئمة متّصفين بالحكم بأيّ معنى يراد، وهم الحاكمون بين العباد بالحق والصّواب والسّداد.

ثمّ اعلم أن الشّارح المعتزلي قد أورد في شرح المقام بعض الأَخبار الدالة على غزارة علم أمير المؤمنين عليه السلام وقال بعد ذلك: وبالجملة فحاله عليه السلام في العلم رفيعة جداً لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه وحقّ له أن يصف نفسه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم فلا أحد أحق به منها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

أقول: وبعد الاعتراف بسبقه على غيره في العلم والحكم وأنه لم يدانيه في ذلك أحد ولم يقاربه فيه، كيف يجوز أن يقدم غيره عليه ويؤتم به دونه.

---

(١) بصائر الدرجات: ١١٤، وبحار الأنوار: ٢٦/٣٥٦ ح ١٨.

(٢) الكافي: ١/١٦، وتحف العقول: ٣٨٥.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

ثمّ إنّه لما أشار إلى بعض فضائله ومناقبه الجميلة عقب ذلك بذكر ما لعله هو الغرض الأصلي من ذكر هذه المناقب وهو الحث والترغيب في نصرته ببشرى ناصريه بالثّواب، والتحذير والتنفير عن عداوته بإنذار مبغضيه من العقاب وهو قوله:

(ناصرنا ومحبّنا ينتظر الرّحمة وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السّطوة) لما كان نزول الرّحمة في حق ناصريه والسّخط والعقوبة في حقّ معانديه معلوماً محقق الوقوع لا محالة، جعل كلاً من الفريقين بمنزلة المنتظرين لما يستحقه من الأمرين كمن أيقن بشيء فانتظره وإلا فلا انتظار للمعاندين حقيقة وإمّا المحبّون والأنصار فلهم الانتظار حقيقة برحمة الله الغفّار وشفاعة الشفعاء الأطهار سلام الله عليهم ما تعاقب اللّيل والنّهار.

ويدلّ على ما ذكر ما في «**البحار**» من «**أمالي الشيخ**» بإسناد أخي دعبل عن الرّضا عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله ﷺ في الآية: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. فقال ﷺ أصحاب الجنّة من أطاعني وسلّم لعليّ بن أبي طالب بعدي وأقرّ بولايته، فقيل وأصحاب النّار قال من سخط الولاية ونقض العهد وقاتله بعدي[١].

ومن «**أمالي الصّدوق**» بإسناده عن عباد الكلبيّ عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن عليّ بن الحسين عن فاطمة الصغرى عن الحسين بن عليّ عن أمّه فاطمة بنت محمّد صلوات الله عليهم قالت «خرج علينا رسول الله ﷺ عشية عرفة فقال: «إن الله تبارك تعالى باهى بكم وغفر لكم عامة ولعلي خاصّة، وإنّي رسول الله إليكم غير محاب لقرابتي، هذا جبرئيل يخبرني أن السّعيد كلّ السّعيد حقّ السّعيد من أحبّ علياً في حياته وبعد موته، وأنّ الشقي كلّ الشقيّ حقّ الشّقي من أبغض علياً في حياته وبعد وفاته»[٢].

ومن «**العيون**» بإسناده عن الرّضا عليه السلام قال: قال النبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام «من أحبّك كان مع النّبيّين في درجتهم يوم القيامة، ومن مات وهو يبغضك فلا يبالي مات يهودياً أو نصرانياً»[٣].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً وقد تقدّم في التذنيب الثّالث من تذنيبات الفصل الرّابع من فصول الخطبة الأولى روايات مناسبة للمقام.

---

(١) الأمالي: ٣٦٤، والتفسير الصافي: ٥/١٥٩ ح ٢٠.

(٢) الأمالي: ٢٤٩، وبحار الأنوار: ٢٧/٧٥ ح ١.

(٣) عيون أخبار الرضا: ١/٦٤ ح ٢٢١، وبحار الأنوار: ٢٧/٧٩.

الترجمة

بعض ديگر از اين خطبه در ذكر حضرت رسالت مآب و وصف زهد آن جناب است كه فرموده:

به تحقيق كه حقير شمرد و كوچك گردانيد آن بزرگوار، دنياى غدّار را در نظر خود و اعتنا نفرمود به آن و خوار نمود آن را در نزد خود و دانست به علم يقين كه خداوند سبحانه دور نمود و پيچيده كرد دنيا را از او از جهت برگزيدن او سبحانه دورى آن را در حق او و بسط كرد آن را در حق غير او و از براى خوار داشتن آن، پس اعراض نمود رسول مختار از دنيا به قلب خود و مى رانيد ياد دنيا را از نفس خود و دوست داشت آنكه غايب شود زينت دنيا از چشم او و تا اينكه اخذ ننمايد از زينت آن لباس فاخر يا اينكه اميد بدارد در آن اقامه و آسايش را، تبليغ نمود از جانب پروردگار شريعت و احكام را در حالتى كه زايل كننده بود عذر را از خلقان و نصيحت فرمود به امت خود در حالتى كه ترساننده بود ايشان را و دعوت كرد به سوى بهشت در حالتى كه بشارت دهنده بود به مردمان.

ما درخت نبوّت هستيم و موضع نزول رسالت مى باشيم و محلّ تردّد فرشتگان و معدن هاى علم و عرفان و سرچشمه هاى احكام، نصرت كننده و دوست دارنده ما منتظر مى باشد رحمت پروردگار را و خصم و دشمن دارنده ما منتظر مى باشد قهر و سطوت كردگار را.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والتاسعة من المختار في باب الخطب

وهي ملتقطة من خطبة طويلة معروفة بالديباج رواها حسن بن علي بن شعبة في «**تحف العقول**» حسبما تطلع عليه بعد شرح ما في المتن وهو قوله:

«إنَّ أَفْضَلَ ما تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الإِيمانُ بِهِ وبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ في سَبيلِهِ، فَإِنَّهُ ذُرْوَةُ الإِسْلام، وكَلِمَةُ الإِخْلاَصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ، وإِيتاءُ الزَّكاةِ فَإِنَّها فَرِيضَةٌ واجِبَةٌ، وصَوْمُ شَهْرِ رَمَضان فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ، وحِجُّ الْبَيْتِ واعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُما يَنْفِيانِ الْفَقْرَ ويَرْحَضانِ الذَّنْبَ، وصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّها مَثْراةٌ في الْمالِ ومَنْسَأَةٌ في الأَجَلِ، وصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّها تُكَفِّرُ الخَطِيئَةَ، وصَدَقَةُ الْعَلاَنِيَةِ فَإِنَّها تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، وصَنائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّها تَقِي مَصارِعَ الْهَوانِ.

أَفيضُوا في ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِكْرِ، وَارْغَبُوا فيما وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ، وَاقْتَدُوا بِهُدَى نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهُدَىٰ، وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّها أَهْدَى السُّنَنِ، وتَعَلَّمُوا الْقُرْآن فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيث، وتَفَقَّهُوا فيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفاءُ الصُّدُورِ، وأَحْسِنُوا تِلاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ، فَإِنَّ الْعَالِمَ العامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ، كَالْجاهِلِ الْحائِرِ الَّذي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وهُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْوَمُ»(١).

اللغة

(**وسل**) إلى الله توسيلاً عمل عملاً تقرّب به إلى الله كتوسّل و(**الايمان**) افعال من الأَمن الذّي هو خلاف الخوف ثمّ استعمل بمعنى التصديق، فالهمزة فيه إمّا للصّيرورة كان المصدق صار ذا أمن من أن يكون مكذّباً، أو للتعدية كأنّه جعل المصدّق هنا من التكذيب والمخالفة، ويعدي بالباء لاعتبار معنى الإقرار والاعتراف كما في عبارته، ونحوه قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢]، وباللام لاعتبار معنى الإذعان نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

(**ذروة**) الشيء أعلاه و(**الجنّة**) بالضمّ كلّ ما وقى و(**واعتمر**) الرّجل زار البيت والمعتمر الزائر ومنه سمّيت العمرة عمرة لأنها زيارة البيت يقال اعتمر فهو معتمر أي زار وقصد، وفي

(١) نهج السعادة: ٢/ ٤٢٦، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٠٩٥.

الشرع زيارة البيت الحرام بشروط مخصوصة مذكورة في محالها و(**رحض**) الثوب ونحوه بالحاء المهملة والضاد المعجمة من باب منع غسله كأرحضه فهو رحيض ومرحوض و(**ثرى**) المال ثرا كثر ونما، والثروة كثرة العدد من الناس والمال، وهذا مثراة للمال بهمزة وغيره تكثرة و(**المنسأة**) بالهمز وغيره أيضاً كمثراة وزان مفعلة بالفتح فالسكون محل النّساء يقال نسأت التي نسأ أخرته ومنه الحديث: صلة الرّحم تنسيء الأجل أي تؤخره و(**صرعه**) كمنعه طرحه على الأرض والمصرع وزن مقعد موضع الصّرع و(**الإفاضة**) الاندفاع ومنه افاض الناس من عرفات أي اندفعوا وقيل اسرعوا منها إلى مكان آخر قوله تعالى: إذ تفيضون فيه، أي تدفعون فيه بكثرة و(**الهدى**) بالضمّ الرّشاد مصدر يقال هداه الله هدى وهداية أرشده، وبالفتح وزن تمر الهيئة والسيرة والطريقة ومنه قولهم: هدى فلان أي سلك مسلكه و(**الحائر**) المتحير.

الإعراب

قوله: (**إلى الله سبحانه**) لفظ سبحانه منصوب على المصدر محذوف عامله وجوباً بإضافته إلى الضمير، والمعنى اسبحك سبحاناً لك، ولنجم الأئمة الرّضي في حذف عوامل المصادر تحقيق نفيس أحببت ايراده.

قال في شرح قول ابن الحاجب: وقد يحذف الفعل لقيام قرينة جوازاً كقولك لمن قدم خير مقدم ووجوباً سماعاً نحو سقياً ورعياً وخيبة وجدعاً وحمداً وشكراً وعجيباً: أقول: الذي أرى أن هذه المصادر وأمثالها إن لم يأت بعدها ما يبيّنها ويعيّن ما تعلقت به من فاعل أو مفعول اما بحرف جر أو بإضافة المصدر إليه فليست مما يجب حذف فعله بل يجوز نحو سقاك الله سقياً ورعاك الله رعياً فأمّا ما يبيّن فاعله بالإضافة نحو كتاب الله وسنة الله ووعد الله، أو يبيّن مفعوله بالإضافة نحو ضرب الرقاب وسبحان الله ولبّيك وسعديك ومعاذ الله، أو يبين فاعله بحرف الجرّ نحو بؤساً لك وسحقاً لك أي بعداً، أو يبيّن مفعوله بحرف جر نحو عقراً لك أي حرجاً وشراً لك وحمداً لك وعجباً منك، فيجب حذف الفعل في جميع هذا قياساً.

والمراد بالقياس أن يكون هناك ضابط كلّي يحذف الفعل حيث حصل ذلك الضّابط، والضّابط ههنا ما ذكرنا من ذكر الفاعل أو المفعول بعد المصدر مضافاً إليه أو بحرف الجر.

وإنّما وجب حذف الفعل مع هذا الضّابط لأن حقّ الفاعل والمفعول به أن يعمل فيهما الفعل فيتصلا به، واستحسن حذف الفعل في بعض المواضع إما إبانة لقصد الدّوام واللزوم بحذف ما هو موضوع للحدوث والتجدد أي الفعل في نحو حمداً لك وشكراً لك وعجباً منك ومعاذ الله وسبحان الله، وإمّا لتقدّم ما يدلّ عليه كما في قوله تعالى: كتاب الله عليكم، وصبغة الله، ووعد الله، أو لكون الكلام ممّا يستحسن الفراغ منه بالسرعة نحو لبيك وسعديك. فبقي المصدر مبهماً لا يدري ما تعلق به من فاعل أو مفعول فذكر ما هو مقصود المتكلّم من

أحدهما بعد المصدر ليختص به، فلمّا بيّنها بعد المصدر بالإضافة أو بحرف الجر قبح اظهار الفعل بل لم يجز فلا يقال كتاب كتاب الله ووعد وعد الله واضربوا بضرب الرّقاب واسبح سبحان الله واحمد حمداً لك وعقر الله عقراً لك.

وذلك لما ذكرناه من أن حقّ الفاعل والمفعول أن يتّصلا بالفعل معمولين له، فلما حذف الفعل لأحد الدّواعي المذكورة وبين المصدر إمّا بالإضافة أو بحرف الجر فلو ظهر الفعل رجع الفاعل أو المفعول إلى مكانه ومركزه متصلاً بالفعل ومعمولاً له.

فاحفظ ذلك فانه ينفعك في كثير من الموارد وإعراب سائر الفقرات واضح.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة مسوقة للإرشاد إلى بعض أسباب القرب والوسائل التي يتوسل بها إلى الله سبحانه، وللأمر بالإضافة إلى ذكر الله، وببعض ما يدرك به رضوان الله حسبما تطلع على تفصيله ان شاء الله، ولما كان أسباب الزلفى والتقرب كثيرة خص أفضلها بالبيان وهو على ما ذكره عشرة:

أولها: الإيمان كما أشار إليه بقوله:

(**ان أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه الإيمان به وبرسوله**) وتقديمه على غيره لكونه أصلاً بالنسبة إليه، والمراد به هنا التصديق المجرد عن الإقرار والعمل بقرينة ذكر كلمة الإخلاص التي هو الإقرار وسائر العبادات التي هو من باب الأعمال بعده، وتحقيق المقام يحتاج إلى بسط في المقال وبيان الفرق بين الإسلام والإيمان.

فأقول: إنّك قد عرفت المعنى اللّغوي للايمان وأنه التّصديق، وأما الإسلام فمعناه لغة هو التّسليم والانقياد، وأمّا في لسان الشرع فقد يستعملان على التساوق والترادف كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦].

ولم يكن بالاتفاق إلاّ بيت واحد وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وربما استعملا على التقابل كما في قوله تعالى:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

فقد نفى عنهم الإيمان مع إثبات وصف الإسلام والمستفاد من كلام أكثر الأَصحاب ومعظم أخبار الأئمة الأَطهار الأَطياب أن الإسلام أعمّ من الإيمان.

فإن الصّادق عليه السلام في رواية الفضيل بن يسار عنه عليه السلام: «الإيمان يشارك الإسلام والإسلام لا يشارك الإيمان»[١].

وفي رواية سماعة بن مهران قال: «سألته عن الإيمان والإسلام قلت: أفرق بين الإسلام والإيمان؟ قال: فاضرب لك مثله قال: قلت: أراد[٢] ذلك قال: «مثل الإيمان والإسلام مثل الكعبة الحرام من الحرم، قد تكون في الحرم ولا تكون في الكعبة ولا تكون في الكعبة حتى تكون في الحرم، وقد يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً ولا يكون مؤمناً حتى يكون مسلماً».

وفي رواية أبي الصباح الكناني قال: قلت لأَبي عبد الله عليه السلام: أيهما أفضل الإيمان أو الإسلام؟ فإن من قبلنا يقولون إن الإسلام أفضل من الإيمان، فقال: «الإيمان أرفع من الإسلام، قلت: فأوجدني ذلك، وقال: ما تقول فيمن أحدث في المسجد الحرام متعمداً؟ قال: قلت: يضرب ضرباً شديداً، قال: أصبت فما تقول فيمن أحدث في الكعبة متعمّداً؟ قلت: يقتل، قال: أصبت ألا ترى أن الكعبة أفضل من المسجد وأن الكعبة تشرك المسجد والمسجد لا يشرك الكعبة، وكذلك الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان»[٣].

فإن المستفاد من هذه الرّوايات وأمثالها أنه كلّما وجد الإيمان وجد الإسلام لا بالعكس وذلك.

أما من جهة: أنّ الإسلام عبارة عن التصديق بالظاهر أعني الاعتراف باللّسان والإيمان عبارة عن التّصديق بالباطن، والأَوّل غير مستلزم للثّاني ولذلك كذب الله سبحانه الأَعراب بقوله: قل لم تؤمنوا، في دعواهم وصف الإيمان لأَنفسهم، حيث قالوا آمنا، وذلك لأَجل أنهم لم يكونوا مصدّقين بالباطن ولم يكونوا على ثقة وطمأنينة فيما أقروا به ظاهراً، وأثبت لهم وصف الإسلام بقوله: ولكن قولوا أسلمنا باعتبار شهادتهم بالتوحيد والرّسالة واعترافهم ظاهراً.

ويدلّ على ما ذكرنا ما رواه في **«الكافي»** بإسناد عن سماعة قال: قلت لأَبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن الإسلام والإيمان أهما مختلفان؟ فقال عليه السلام: «إنّ الإيمان يشارك الإسلام والإسلام لا يشارك الإيمان فقلت: فصفهما لي، فقال عليه السلام: «الإسلام شهادة أن لا

---

(١) شرح أصول الكافي: ٨/ ٧٧.

(٢) «أورد» في نسخة.

(٣) شرح أصول الكافي: ٨/ ٧٧، وميزان الحكمة: ١/ ١٩٠ ح ٢٥٤.

إله إلا الله والتصديق برسول الله ﷺ به حقنت الدّماء وعليه جرت المناكح والمواريث وعلى ظاهره جماعة النّاس، والإيمان الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام وما ظهر من العمل به، والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة، إن الإيمان يشارك الإسلام في الظّاهر، والإسلام لا يشارك الإيمان في الباطن، وان اجتمعا في القول والصفة».

ونحوه رواية فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الإيمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إن الإيمان ما وقر في القلوب، والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدّماء، والإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان»[(١)].

فإن قلت: إذا جعلت الإيمان عبارة عن التصديق بالباطن فلا بد أن تكون النسبة بينهما عموماً من وجه إذ كما أن التّصديق ظاهراً لا يستلزم التصديق بالباطن كليّاً، فكذلك العكس، إذ ربّما يذعن المرء بالله وبرسوله من دون أن ينطق بكلمتي الشهادة بأن يصدق بالقلب ولا يساعده من العمر مهلة النطق، نعم لا يحكم بايمانه إلاّ بعد النطق والكلام، لكون اللّسان ترجمان القلب، لكنه لا يقدح فيما ذكرنا لأن الكلام في منع الملازمة بين نفس الإيمان والإسلام لا في الحكم بكون الرجل مسلماً ومؤمناً، فافهم.

قلت: التصديق بالباطن ملازم عادة للتصديق بالظاهر وإن لم يكن ملازماً له عقلاً كما فيما ذكرته من المثال، فان العرف والعادة قاضية بأن من كان مصدقاً بالباطن يكون لا محالة مصدّقاً بالظاهر، والمثال المذكور فرد نادر.

نعم لو قيل بأن الإيمان عبارة عن التصديق بالجنان والإقرار باللّسان والعمل بالأركان أعني مجموع الثلاثة ارتفع الإشكال رأساً، وكذا على مذهب من يعتبر فيه الإقرار باللّسان فقط شطراً كما عزى إلى المحقق الطّوسي حيث قال: بأنه مركب من الإقرار والتّصديق، أو شرطاً كما نسب إلى المتكلّمين من الخاصّة وبعض العامّة.

وأما من جهة: أن الإسلام عبارة عن الشّهادة بالتوحيد والرسالة مع التصديق الباطني وبدونه، سواء كان معه الإقرار بالولاية والإذعان بها أم لا، والإيمان يعتبر فيه ذلك.

ويرشد إليه ما رواه ثقة الإسلام الكليني بإسناده عن سفيان بن السمط قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن الإسلام والإيمان ما الفرق بينهما فلم يجبه ثمّ سأله فلم يجبه، ثمّ التقيا في الطريق وقد أزف من الرجل الرحيل فقال له أبو عبد الله ﷺ: «كأنه قد أزف منك رحيل، فقال: نعم، فقال: فألقني في البيت فلقاه فسأله عن الإسلام والإيمان ما

(١) شرح أصول الكافي: ٨/ ٧٩ح٣، وبحار الأنوار: ٦٥/ ٢٤٩.

الفرق بينهما؟ فقال عليه السلام: «الإسلام ما هو الظاهر الذي عليه الناس شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان فهذا الإسلام، وقال: الإيمان معرفة هذا الأمر مع هذا، فإن أقرّ بها ولم يعرف هذا الأمر كان مسلماً وكان ضالاً».

وعن عجلان بن أبي صالح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أوقفني على حدود الإيمان، فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله والإقرار بجميع ما جاء من عند الله وصلاة الخمس وأداء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت وولاية وليّنا وعداوة عدوّنا والدخول مع الصّادقين»[1].

فإن المراد بالدّخول مع الصادقين الدّخول في زمرة آل محمّد سلام الله عليهم والكون معهم كما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، على ما تقدم تفصيله في شرح الفصل الثالث من فصول الخطبة السّادسة والثمانين.

وأما من جهة: أن الإيمان يعتبر فيه العمل دون الإسلام أعني العمل بما يقتضيه ذلك التّصديق.

ويدل عليه ما في «**الكافي**» عن محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: «الإيمان إقرار وعمل والإسلام إقرار بلا عمل».

فإنّ الظاهر أن قوله: والإسلام إقرار بلا عمل هو أنّ العمل غير معتبر فيه لا أن عدمه فيه معتبر، ويدل عليه أخبار أخر.

وفيه أيضاً بإسناده عن عبد الرّحيم القصير قال: كتبت مع عبد الملك بن أعين إلى أبي عبد الله عليه السلام أسأله عن الإيمان ما هو، فكتب إلي مع عبد الملك بن أعين: «سألت رحمك الله عن الإيمان، والإيمان هو الإقرار باللّسان وعقد في القلب وعمل بالأركان، والإيمان بعضه من بعض، وهو دار وكذلك الإسلام دار والكفر دار، فقد يكون العبد مسلماً قبل أن يكون مؤمناً ولا يكون مؤمناً حتى يكون مسلماً، فالإسلام قبل الإيمان وهو لا يشارك الإيمان فإذا أتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهى الله عزّ وجل عنها كان خارجاً من الإيمان ساقطاً عنه اسم الإيمان وثابتاً عليه اسم الإسلام، فان تاب واستغفر عاد إلى دار الإيمان ولا يخرجه إلى الكفر إلاّ الجحود والاستحلال، أن يقول للحلال هذا حرام، وللحرام هذا حلال، ودان بذلك فعندها يكون خارجاً من الإسلام والإيمان، داخلاً في الكفر، وكان بمنزلة من دخل الحرم ثمّ دخل الكعبة وأحدث في الكعبة حدثاً فأخرج عن الكعبة وعن

(١) الكافي: ٢/١٨ ح ٢، ونهج السعادة: ٨/٦٦.

الحرم فضربت عنقه وصار إلى النار»[١].

فقد ظهر لك مما ذكرنا كلّه أنّ الإسلام يصدق على مجرّد الإقرار باللّسان من غير تصديق، وعلى الإقرار والتّصديق مجرداً عن الولاية، وعلى جميع ذلك مجرداً من العمل، والإيمان يعتبر فيه ذلك، فيكون الإيمان أخص لكن الإنصاف أن العمل ليس داخلاً في مفهوم الإيمان حقيقة وإن كان شرطاً في كماله.

أما أنّه غير داخل في حقيقته فللتبادر وعدم صحة السلب ولقوله تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

دلّ اقتران الإيمان بالمعاصي فيها على أن العمل غير داخل في حقيقته وقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

دلّ على التّغاير وأن العمل ليس بداخل فيه لأَن الشيء لا يعطف على نفسه ولا الجزء على كلّه ومثله كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقام.

وأمّا أنه شرط في كماله فللخبرين السابقين.

لا يقال: إن ظاهرهما كون العمل داخلاً في مفهومه لا شرطاً في كماله.

لأنا نقول: بعد تسليم الظهور لا بد من حملهما على ما ذكرنا بمقتضى الجمع بينهما وبين الأدلة التي قدّمناها آنفاً.

فإن قلت: ما الدّليل على هذا الجمع؟

قلت: الدليل على ذلك ما رواه في «**الكافي**» عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن بكر بن صالح عن القاسم بن بريد قال: حدثنا أبو عمر الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أيها العالم أخبرني أي الأَعمال أفضل عند الله؟ قال: «ما لا يقبل الله شيئاً إلاّ به، قلت: وما هو؟ قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأَعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظاً قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل؟ فقال: الإيمان عمل كلّه والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّن في كتابه واضح نوره ثابتة حجّته يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه قال: قلت له: صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه، قال: الإيمان حالات

(١) الكافي: ٢/٢٨ ح ١، والتوحيد: ٢٢٩.

ودرجات وطبقات ومنازل: فمنه التام المنتهى تمامه، ومنه الناقص البين نقصانه، ومنه الراجح الزّائد رجحانه قلت: إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال: نعم، قلت: كيف ذاك؟ قال: لأنّ الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها، فليس من جوارحه جارحة إلاّ وقد وكّلت من الإيمان بغير ما وكّلت به اختها، فمنها قلبه الذي به يعقل ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللتان يبصر بهما، وأذناه اللتان يسمع بهما ويداه اللتان يبطش بهما ورجلاه اللّتان يمشي بهما، وفرجه الذي الباه من قبله[1] ولسانه الذي ينطق به، ورأسه الذي فيه وجهه فليس من هذه جارحة إلاّ وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكّلت به اختها بفرض من الله تبارك وتعالى اسمه، ينطق به الكتاب لها ويشهد به عليها، ففرض على القلب غير ما فرض على العينين وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان، وفرض على اللّسان غير ما فرض على اليدين وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين، وفرض على الرجلين غير ما فرض على الفرج وفرض على الفرج غير ما فرض على الوجه»[2].

فأما ما فرض على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقد والرّضا والتسليم بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً وأنّ محمّداً عبده ورسوله صلوات الله عليه وآله، والإقرار بما جاء من عند الله من نبي أو كتاب، فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦] وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وقال: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] وقال: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فذلك ما فرض الله عزّ وجلّ على القلب من الإقرار والمعرفة وهو عمله وهو رأس إيمان.

وفرض الله على اللّسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه وأقرّ به قال الله تبارك وتعالى اسمه:

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وقال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

---

(١) «قلبه» في نسخة.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٤، ودعائم الاسلام: ١/ ٥.

فهذا ما فرض الله على اللّسان وهو عمله.

وفرض على السّمع أن يتنزّه عن الاستماع إلى ما حرّم الله وأن يعرض عمّا لا يحلّ له مما نهى الله عزّ وجلّ عنه والإصغاء إلى ما أسخط الله عزّ وجلّ فقال في ذلك:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

ثم استثنى الله عزّ وجلّ موضع النسيان فقال:

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨] وقال عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٤] وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥] وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

فهذا ما فرض الله على السّمع من الإيمان أن لا يصغي إلى ما لا يحلّ له وهو عمله وهو من الإيمان.

وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرّم الله عليه وأن يعرض عمّا نهى الله عنه مما لا يحلّ له وهو عمله وهو من الإيمان فقال تبارك وتعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

فنهاهم عن أن ينظروا إلى عوراتهم وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ويحفظ فرجه أن ينظر إليه وقال:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

من أن تنظر احداهن إلى فرج أختها وتحفظ فرجها من أن تنظر إليها وقال عليه السلام كلّ شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزّنا إلاّ هذه الآية فانّها من النظر ثم نظّم ما فرض الله عز وجل على القلب واللسان والسّمع والبصر في آية أخرى فقال:

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢].

يعني بالجلود الفروج والأفخاذ وقال:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فهذا ما فرض الله على العينين من غضّ البصر عمّا حرّم الله وهو عملهما وهو من الإيمان.

وفرض على اليدين أن لا يبطش بهما إلى ما حرّم الله وأن يبطش بهما إلى ما أمر الله عزّ وجلّ وفرض عليهما من الصّدقة وصلة الرّحم والجهاد في سبيل الله والطّهور للصّلوات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

وقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

فهذا ما فرض الله على اليدين لأنّ الضّرب من علاجهما.

وفرض على الرجلين أن لا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله وفرض عليهما المشي إلى ما يرضى الله عزّ وجلّ فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] وقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

وقال فيما شهدت الأيدي والأرجل في أنفسهما وعلى أربابهما من تضييعهما لما أمر الله عزّ وجلّ به وفرضه عليهما.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

فهذا أيضاً ممّا فرض الله عزّ وجلّ على اليدين وعلى الرّجلين وهو عملهما وهو من الإيمان.

وفرض على الوجه السّجود له بالليل والنهار في مواقيت الصّلاة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وهذه فريضة جامعة على الوجه واليدين والرّجلين وقال في موضع آخر.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقال فيما فرض على الجوارح من الطهور والصلاة بها ذلك أنّ اللّه عزّ وجلّ لما صرف نبيه الى الكعبة عن بيت المقدس أنزل اللّه عز وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فسمّى الصّلاة إيماناً فمن لقى الله عزّ وجلّ حافظاً لجوارحه موفياً كل جارحة من جوارحه ما فرض الله عزّ وجلّ عليها لقى الله عزّ وجلّ مستكملاً لإيمانه وهو من أهل الجنّة، ومن خان في شيء منها أو تعدى ما أمر الله عزّ وجلّ فيها لقى الله عزّ وجلّ ناقص الإيمان قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه: فمن أين جائت زيادته؟ فقال عليه السلام: قول الله عزّ

وجل: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥] وقال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ الكهف: ١٣].

ولو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه، ولاستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة، وبالزّيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدّرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرطون النّار»[١].

فإن صدر هذه الرّواية الشريفة أعني قوله عليه السلام: الإيمان عمل كلّه، وإن كان موهماً في بادىء الرأي كون العمل داخلاً في مفهوم الإيمان، إلاّ أن ذيلها أعني قوله: لقى الله عزّ وجلّ مستكملاً لإيمانه، إلى قوله: لقى الله عزّ وجلّ ناقص الإيمان، إلى آخر الرّواية نصّ صريح في كونه شرطاً في كماله لا جزء من مفهومه وقد استفيد منها أيضاً كونه قابلاً للزيادة والنقصان كما هو مذهب المحقّقين من الفريقين.

وأمّا ما توهمه كثير من المتكلّمين من أنه إن كان الإيمان هو التّصديق فلا يقبلهما، لأنَ الواجب هو اليقين، وهو غير قابل للتفاوت لا بحسب ذاته ولا بحسب متعلّقه أمّا بحسب الذّات فلأنّ التفاوت باعتبار احتمال النقيض ولو بأبعد وجه وهو ينافي اليقين ولا يجامعه، وأمّا بحسب المتعلّق فلأن متعلّقه جميع ما علم مجيء الرّسول به والجميع من حيث هو جميع لا يتصور فيه تعدّد، وإلا لم يكن جميعاً، وإن كان هو العمل وحده أو مع التّصديق فيقبلهما وهو ظاهر، وما وردت في الكتاب والسنّة ممّا يدلّ على قبوله إياهما فباعتبار الأعمال فيزيد بزيدها وينقص بنقصانها.

ففيه منع ذلك أمّا باعتبار الذّات فلأنّ التّصديق من الكيفيات النّفسانيّة المتفاوتة قوّة وضعفاً فيجوز أن يكون التفاوت فيه بالقوة والضّعف، فإنّ عين اليقين أعلى مرتبة وأقوى من علم اليقين، وللفرق الظاهر بين ايمان النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة وآحاد الرعيّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»[٢].

وأمّا باعتبار المتعلّق فلأنّ التّصديق التّفصيلي في أفراد ما علم مجيء الرّسول صلى الله عليه وآله به جزء من الإيمان يثاب عليه، مضافاً إلى ثوابه على تصديقه بالإجمال فكان قابلاً للزّيادة، والله

(١) الكافي: ٢/ ٣٧ ح ١، ونهج السعادة: ٧/ ٢٢٠.

(٢) منتهى المطلب: ٣/ ٤٤ ح ٥٠، ونتائج الأفكار: ٢٠٩.

الهادي إلى المنهج القويم، والصراط المستقيم.

(و) الثاني

من الوسائل إلى الله سبحانه **(الجهاد في سبيله فانه ذروة الإسلام)** لما كان ذروة كلّ شيء عبارة عن أعلاه جعل الجهاد ذروة الإسلام باعتبار رفعته وعلوّ رتبته فيه وتقدّمه على سائر العبادات البدنية باعتبار اقتضائه قوّة التصديق واليقين بما جاء به خاتم النبيين ما لا يقتضيه سائر الطّاعات والقربات وإلا لما القى المجاهد نفسه إلى المهالك مع غلبة ظنه بانه عاطب هالك ولولا سيف المجاهدين لما اخضر للإسلام عود ولا قام له عمود وقد تقدّم في الخطبة السّابعة والعشرين انه باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه إلى آخر ما ذكره من فضائله وبيّنا في شرحها ما فيه كفاية لمن له علم ودراية.

(و) الثالث

(كلمة الإخلاص) أي الكلمة المتضمّنة لإخلاص الله تعالى وتنزيهه عن الشركاء والأنداد وهي كلمة التّوحيد اعني لا إله إلا الله وقد تقدم في شرح الفصل الثّاني من فصول الخطبة الثانية فضائل تلك الكلمة الطّيبة المباركة وفوائدها وعلل عليه السلام كونها من أفضل القرب بقوله **(فانها الفطرة)** أي الفطرة المعهودة الواردة في الكتاب العزيز المأمور باتباعها بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وأصلها الخلقة من الفطر بمعنى الخلق ثمّ جعلت للخلقة القابلة لدين الحقّ على الخصوص، وربما تطلق على التّوحيد والمعرفة وبه فسّرت الآية الشريفة وفسّر قوله صلى الله عليه وآله: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللّذان يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه»[١]، قال في **«مجمع البيان»** أي اتبع فطرة الله وهي التّوحيد التي فطر النّاس أي خلق النّاس عليها ولها بها، أي لأجلها والتمسّك بها فيكون كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهو كما يقول القائل لرسوله: بعثتك على هذا ولهذا وبهذا، والمعنى واحد.

وعن الصّدوق في **«التوحيد»** في أخبار كثيرة عن الصّادق عليه السلام قال: «فطرهم على التوحيد»[٢].

وبإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١].

---

(١) الكافي: ٢/ ١٣، والتوحيد: ٣٣٠ ح ٩.

(٢) الكافي: ٢/ ١٣، والتوحيد: ٣٢٩

وعن الحنفية فقال: «هي الفطرة التي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله، قال: فطرهم الله على المعرفة» قال زرارة وسألته عن قول الله عزّ وجلّ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

قال عليه السلام «أخرج من ظهر آدم ذريّته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذّر فعرفهم واراهم ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة بأنّ اللّه عزّ وجلّ خالقه فذلك قوله تعالى[١]:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]».

وقد تقدّم في شرح الفصل الرّابع عشر من فصول الخطبة الأولى أخبار أخر في هذا المعنى هذا.

ولما كانت كلمة الإخلاص متضمنة للفطرة التي هي التوحيد والمعرفة دالاً عليها جعلها نفس الفطرة تسمية للدّال باسم مدلوله.

(و) الرابع

(إقام الصّلاة فانها الملّة) وقال الطّريحي الملّة في الأَصل ما شرع الله لعباده على ألسنة الأَنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله ويستعمل في جملة الشرائع دون آحادها ولا يكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد أمّة النبيّ ﷺ بل يقال ملة محمّد ﷺ قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، أي دينه.

أقول: لما كان الصّلاة هو الركن الأَعظم من الدّين أطلق اسمه عليها وأتى بالملّة معرفة بلام الجنس قصداً للحصر مبالغة من باب زيد الأَمير ونحوه الحديث النّبوي ﷺ قال ﷺ: «الصّلاة عماد الدّين»، فإنه لما كان قوام الدّين وثباته بها جعلها عماداً له كما صرح بذلك في رواية أخرى قال ﷺ: «مثل الصّلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأَطناب والأَوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب ولا وتد ولا غشاء»[٢].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ، «الصّلاة عماد الدّين فمن ترك صلاته متعمّداً فقد هدم دينه»[٣].

---

(١) الكافي: ٦/١٣ ح ٤، ووسائل الشيعة: ١٥/١٢٥ ح ٢٠١٣٠.

(٢) مدارج الأحكام: ٣/٦، والحدائق الناضرة: ٦/٨.

(٣) مستدرك الوسائل: ٣/٩٨ ح ١٣، وبحار الأنوار: ٧٩/٢٠٢ ح ١.

وكيف كان فالآيات والروايات في فضلها وعقوبة تاركها فوق حدّ الإحصاء[١] قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩] وفي سورة النساء: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٤] وفي سورة مريم: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] وفي سورة العنكبوت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وفي سورة أرأيت: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥].

أي غافلون غير مبالين بها قال عليّ بن إبراهيم القمّي: عنى به تاركون لأن كل انسان يسهو في الصّلاة، وفي «**المجمع**» عن الصّادق عليه السلام «هو التّرك لها والتواني عنها».

وعن الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس عمل أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من الصّلاة فلا يشغلكم عن أوقاتها شيء من أمور الدّنيا، فإنّ الله عزّ وجلّ ذمّ أقواماً فقال: الذين هم عن صلاتهم ساهون، يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاته»[٢].

وفي «**الكافي**» بإسناده عن معاوية بن وهب قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم وأحب ذلك إلى الله عزّ وجلّ ما هو؟ فقال عليه السلام: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصّلاة، ألا ترى أن العبد الصّالح عيسى ابن مريم قال: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

وعن زيد الشّحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ الصّلاة، وهي آخر وصايا الأنبياء عليهم السّلام فما أحسن الرّجل يغتسل أو يتوضأ فيسبغ الوضوء ثمّ يتنحى حيث لا يراه أنيس فيشرف عليه وهو راكع أو ساجد، إن العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس: يا ويله أطاعوا وعصيت وسجدوا وأبيت»[٣]، ونحوه في «**الفقيه**» إلاّ أن فيه «فيشرف الله عليه».

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا قام العبد المؤمن في صلاة نظر الله إليه أو قال أقبل الله عليه حتى ينصرف، وأظلته الرّحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء والملائكة تحفه من حوله إلى أفق السّماء، ووكل الله به ملكاً قائماً على رأسه

(١) مستدرك الوسائل: ٣/٩٨ ح ٣١١١٥، وميزان الحكمة: ٢/١٦٤٤.

(٢) الخصال: ٦٢١، ووسائل الشيعة: ٤/١١٣ ح ٤٦٥٣.

(٣) المحاسن: ١/١٨ ح ٥٠، ووسائل الشيعة: ٤/٣٩.

يقول: أيها المصّلي لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التفتّ ولا زلت من موضعك أبداً»[١].

وعن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «الصّلاة قربان كلّ تقي»[٢].

وعن حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قبل الله منه صلاة واحدة لم يعذبه ومن قبل منه حسنة لم يعذبه».

وعن الحسين بن سيف عن أبيه قال: حدّثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: «من صلّى ركعتين يعلم ما يقول فيهما انصرف وليس بينه وبين الله ذنب».

وفي **«الفقيه»** قال الصّدوق: قال النبي صلى الله عليه وآله: «ما من صلاة يحضر وقتها إلاّ نادى ملك بين يدي النّاس: أيها النّاس قوموا إلى نيراكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفؤها بصلاتكم»[٣].

قال: وقال الصّادق عليه السلام: «أوّل ما يحاسب به العبد الصّلاة فإذا قبلت منه قبل سائر عمله، وإذا ردت عليه رد عليه سائر عمله»[٤].

قال: وقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّما مثل الصّلاة فيكم كمثل البرى وهو النهر على باب أحدكم يخرج إليه في اليوم واللّيلة يغتسل منه خمس مرّات فلم يبق الدرن على الغسل خمس مرّات، ولم يبق الذنوب على الصّلاة خمس مرات».

وفي **«جامع الأخبار»** قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا تضيّعوا صلاتكم، فإن من ضيّع صلاته حشره الله تعالى مع قارون وفرعون وهامان لعنهم الله وأخزاهم وكان حقاً على الله أن يدخله النار مع المنافقين، فالويل لمن لم يحافظ على صلاته».

قال: وقال النبي صلى الله عليه وآله: «من ترك الصّلاة حتّى تفوته من غير عذر فقد حبط عمله، ثمّ قال: بين العبد وبين الكفر ترك الصّلاة».

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله «من ترك الصّلاة لا يرجو ثوابها ولا يخاف عقابها فلا أبالي يموت يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً»[٥].

(١) الكافي: ٣/٢٦٥ ح ٥، ووسائل الشيعة: ٤/٣٢ ح ٤٤٣٧.
(٢) الكافي: ٣/٢٦٥ ح ٦، ووسائل الشيعة: ٤/٤٣ ح ٤٤٦٩.
(٣) من لا يحضره الفقيه: ١/٢٠٨ ح ٦٢٤.
(٤) منتهى الطلب: ٤/١٠.
(٥) ميزان الحكمة: ٢/١٦٤٤، وتحرير الأحكام: ١/١٧٣.

وقال ﷺ: «من أعان تارك الصّلاة بلقمة أو كسوة فكأنّما قتل سبعين نبيّاً أوّلهم آدم وآخرهم محمّد ﷺ» هذا.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً وفيما أوردناه كفاية للمهتدي المسترشد وإنما المهم الإشارة إلى علّة وجوب الصلوات الخمس وبعض أسرارها.

أما علة وجوبها فقد روى في «الفقيه» عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام أنّه قال: «جاء نفر من اليهود إلى رسول الله فسأله أعلمهم عن مسائل فكان فيما ساله انه قال له: أخبرني عن الله لأيّ شيء فرض الله عزّ وجلّ هذه الخمس الصّلوات في خمسة مواقيت على أمّتك في ساعات اللّيل والنّهار؟ فقال النبيّ ﷺ «إنّ الشمس عند الزّوال لها حلقة تدخل فيها فإذا دخلت فيها زالت الشمس فيسبح كلّ شيء دون العرش بحمد ربّي جل جلاله وهي السّاعة التي يصلي فيها عليّ ربّي ففرض الله عليّ وعلى أمّتي فيها الصّلاة[1] وقال:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وهي السّاعة التي يؤتى فيها بجهنّم يوم القيامة فما من مؤمن يوافق تلك السّاعة أن يكون ساجداً أو راكعاً أو قائماً إلاّ حرّم الله جسده على النار.

وأما صلاة العصر فهي الساعة التي أكل آدم فيها من الشجرة فأخرجه الله من الجنّة فأمر الله ذريّته بهذه الصّلاة إلى يوم القيامة واختارها لأمّتي فهي من احبّ الصّلوات إلى الله عزّ وجلّ وأوصاني أن أحفظها من بين الصّلوات.

وأما صلاة المغرب فهي السّاعة التي تاب الله على آدم عليه السلام وكان بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله عليه ثلاثمائة سنة من أيّام الدّنيا وفي أيّام الآخرة يوم كألف سنة ما بين العصر إلى العشاء فصلّى آدم ثلاث ركعات: ركعة لخطيئته وركعة لخطيئة حوّا، وركعة لتوبته فافترض الله هذه الثلاث ركعات على أمّتي وهي السّاعة التي يستجاب فيها الدّعاء فوعدني الله أن يستجيب لمن دعاه فيها وهي الصّلاة التي أمرني ربّي بها في قوله:

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

وأما صلاة العشاء الآخرة فإنّ للقبر ظلمة، وليوم القيامة ظلمة أمرني الله بهذه الصّلاة وأمّتي لتنوّر الصّور وليعطني وأمّتي النور على الصّراط، وما من قدم مشت إلى صلاة العتمة إلاّ حرّم الله جسدها على النّار وهي الصّلاة التي اختارها الله للمرسلين قبلي.

وأمّا صلاة الفجر فإنّ الشّمس إذا طلعت تطلع على قرن شيطان، فأمرني الله أن أصلي قبل طلوع الشّمس صلاة الغداة وقبل أن يسجد لها الكافر لتسجد امتي لله عزّ وجلّ وسرعتها

(١) المحاسن: ٢/ ٣٢٢ ح ٦٣، والأمالي: ٢٥٦.

أحبّ إلى الله وهي الصّلاة التي يشهدها ملائكة الليل وملائكة النّهار»[١].

وعلة أخرى: لذلك وهو ما رواه في «**الفقيه**» أيضاً عن الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «لما هبط آدم عليه السلام من الجنّة ظهرت به شامة سوداء في وجهه من قرنه إلى قدمه، فطال حزنه وبكاؤه على ما ظهر به، فأتاه جبرئيل فقال له: ما يبكيك يا آدم؟ فقال: لهذه الشامة التي ظهرت بي، قال: قم يا آدم فصل فهذا وقت الصّلاة الأولى، فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى عنقه، فجاءه في الصّلاة الثانية فقال: يا آدم قم فصل فهذا وقت الصّلاة الثانية، فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى سرّته، فجاءه في الصّلاة الثالثة فقال: يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الثالثة فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى ركبتيه، فجاءه في الصّلاة الرّابعة فقال: يا آدم قم فصل فهذا وقت الصّلاة الرابعة، فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى قدميه، فجاءه في الصّلاة الخامسة فقال: يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الخامسة، فقام فصلّى فخرج منها، فحمد الله وأثنا عليه فقال جبرئيل: يا آدم مثل ولدك في هذه الصّلاة كمثلك في هذه الشّامة، من صلّى من ولدك في كلّ يوم وليلة خمس صلوات خرج من ذنوبه كما خرجت من هذه الشّامة، ويأتي لها علة ثالثة ان شاء الله في شرح الخطبة المائة والحادية والتسعين»[٢].

وأما أسرار الصلاة: فهي كثيرة لا يمكن استقصاؤها وإنّما نشير إلى نبذ منها مما أشير إليها في الروايات ووصل إلينا من أولي الألباب والدّرايات وأرباب المعرفة والإشارات فنقول وبالله التوفيق:

أنّ الصّلاة الكاملة قد خصّت بين سائر العبادات بأنّها بمنزلة انسان كامل مشتمل على روح وجسد، منقسم إلى ظهر وبطن وسرّ وعلن، ولروحه وسرّه أخلاق وصفات، ولجسده وعلنه أعضاء وأشكال، فروح الصّلاة أهل معرفة الحقّ والعبوديّة له بالإخلاص والتوحيد.

أمّا أخلاقها وصفاتها الباطنة فيجمعها أمور وهي: حضور القلب، والتفهّم والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء، وهذه ستّ خصال شريفة وحالات كريمة وملكات عظيمة لا يوجد جميعها إلاّ في مؤمن امتحن الله قلبه بنور الإيمان والعرفان.

أما حضور القلب: فهو تفريغ القلب من غير ما هو ملابس له ومتكلّم به وصرفه إلى ما يتلبس به من الأفعال ويتكلّم به من الأقوال، ولا يحصل ذلك إلاّ بعد معرفة المصلّى بأنّ الغرض المطلوب منه هو الإيمان والتصديق بأنّ الآخرة خير وأبقى، وأن الصّلاة وسيلة إليها، فإذا أضيف إلى تلك المعرفة العلم بحقارة الدّنيا وخستها وزوالها انصرف القلب عن مهمّات الدّنيا لا محالة وتوجّه إلى صلاته الموصلة وإلى سعادات الآخرة وهو معنى حضور القلب.

---

(١) كتاب الصلاة: ١٩٢، والأمالي للصدوق: ٢٥٧.

(٢) علل الشرائع: ٢/ ٣٣٣٩، ووسائل الشيعة: ٤/ ١٦.

روى إبراهيم الكرخي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إنّي لأحبّ الرّجل المؤمن منكم إذا قام في صلاة فريضة أن يقبل بقلبه إلى الله تعالى ولا يشغل قلبه بأمر الدّنيا، فليس من عبد يقبل بقلبه في صلاته إلى الله تعالى إلاّ أقبل الله إليه بوجهه، وأقبل بقلوب المؤمنين إليه بالمحبة بعد حب الله إيّاه»(١).

وعن الخصال بإسناده عن عليّ عليه السلام في حديث الأربعمائة قال: «لا يقومنّ أحدكم في الصّلاة متكاسلاً، ولا ناعساً، ولا يفكّرن في نفسه، فانه بين يدي ربّه عزّ وجلّ، وإنّما للعبد من صلاته ما أقبل عليه منها بقلبه»(٢).

أقول: ومرّ ذلك أنّ الصّلاة في الحقيقة معراج المؤمن ومناجاة الرّب المعبود، فلا بدّ فيه من الإقبال، لأنّ من لا يقبل عليك لا يستحق اقبالك عليه، كما لو حاربك من تعلم غفلته من محاربتك وإعراضه عن محاورتك، فإنّه يستحق إعراضك عن خطابه واشتغالك بجوابه.

قال الصّادق عليه السلام «من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد مثل ما ينزل العبد إليه من نفسه»(٣).

وأما التفهم: فهو التّدبر في معنى اللفظ، وهو أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللّفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللّفظ هو المراد بالتفهم، وقد ذمّ الله أقواماً على ترك التدبر حيث قال:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وروى سيف بن عمير عمن سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: «من صلّى ركعتين يعلم ما يقول فيهما انصرف وليس بينه وبين الله ذنب إلاّ غفر له»(٤).

ثمّ الناس في هذا المقام أي مقام التفهم متفاوتون، إذ ليس يشترك الجميع في تفهم معاني القرآن والتّسليمات، وكم من معاني لطيفة يفهمها المصلّي في أثناء الصّلاة ولم يكن خطر بقلبه قبل ذلك، ومن هذا الوجه كانت الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإنّما يفهم أموراً هي مانعة من الفحشاء لا محالة.

روى يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «اعلم أنّ الصّلاة حجزة الله في الأرض فمن أحبّ أن يعلم ما أدرك من نفع صلاته فلينظر، فان كانت صلاته حجزته عن

---

(١) ثواب الأعمال: ١٣٥، والأمالي: ١٥٠.

(٢) دعائم الإسلام: ١/١٥٨، والأمالي: ٧٤٢.

(٣) عدة الداعي: ١٦٧.

(٤) الكافي: ٣/٢٦٦ ح ١٢، ووسائل الشيعة: ٥/٤٧٥ ح ٧١٠٢.

الفواحش والمنكر فإنّما أدرك من نفعها بقدر ما احتجز، ومن أحبّ أن يعلم ما له عند الله فليعلم ما لله عنده»[١].

وأما التعظيم: فهو أمر وراء حضور القلب والفهم، فربما يخاطب الرّجل عبده بكلام وهو حاضر القلب فيه ومتفهّم لمعناه، ولا يكون معظماً له، فالتعظيم أمر زائد عليهما، وهو حالة للقلب منشأها معرفة جلال الرّب سبحانه وكبريائه وعظمته مع معرفة حقارة النّفس وخسّتها وكونها عبداً مسخّراً مربوباً، فيتولد من هاتين المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه، فيعبر عنه بالتعظيم.

روى الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كنت في صلاتك فعليك بالخشوع والإقبال على صلاتك، فان الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، ثمّ الخشوع كما يكون في القلب كذلك يكون في الجوارح، ويدلّ عليه ما رواه الطّبرسي في «**مجمع البيان**» أن النبيّ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال صلى الله عليه وآله: «أما أنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[٢].

وأما الهيبة: فأمر زائد على التعظيم، وهي عبارة عن خوف منشأه التعظيم، لأن من لا يخاف لا يسمّى هايباً، والمخافة من العقرب والحية وسائر الموذيات ومن العقوبة وسوء خلق العبد وما يجري مجرى ذلك من الأسباب الخسيسة لا تسمّى مهابة، فالهيبة خوف مصدره الإجلال، وهي متولّدة من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ أمره ومشيّته فيه مع قلة مبالاته به، وأنه بحيث لو أهلك الأوّلين والآخرين لم ينقص من ملكه مثقال ذرّة، لا سيّما إذا انضم إلى ذلك ملاحظة ما جرى على الأنبياء والأولياء من أنواع المحن والمصائب والبلاء، وكلّما زاد العلم بالله وكبريائه زادت الهيبة والخشية، ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

روى فضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا قام إلى الصّلاة تغيّر لونه، فإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً.

وعن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إني رأيت عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا قام إلى الصلاة غشي لونه لون آخر، فقال لي: «والله إنّ عليّ بن الحسين عليهما السلام كان يعرف الذي يقوم بين يديه».

وعن جهم بن حميد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال أبي: كان عليّ بن الحسين إذا قام إلى الصّلاة كأنّه ساق شجرة لا يتحرّك منه شيء إلاّ ما حركت الرّيح منه»[٣].

---

(١) المحاسن: ١/ ٢٥٢ ح ٢٧٣، ووسائل الشيعة: ٤/ ٦٨٦ ح ٧١٠٥.
(٢) دعائم الإسلام: ١/ ١٧٤، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٢٣٧.
(٣) الكافي: ٣/ ٣٠٠ ح ٤، ووسائل الشيعة: ٤/ ٦٨٥ ح ٧١٠٠.

وقد أخرجت هذه الرّوايات وسابقتها من الوسائل رواها فيه بإسنادها من «**الكافي**» وغيره.

وأما الرجاء: فلا شك أنّه زائد على ما سبق؛ فكم من معظم ملكاً من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولا يرجو انعامه ومبرّته، والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله، ومنشأ الرّجاء معرفة لطف الحق وكرمه وعميم جوده وإحسانه وشمول رحمته وانعامه ومعرفة صدقه في وعده على الصلاة بالثواب وبشراه بالجنّة وحسن المآب، فبمجموع المعرفة بلطفه سبحانه والمعرفة بصدقه يحصل الرجاء.

قال رسول الله ﷺ: «الصّلاة مرضاة الله، وحبّ الملائكة، وسنّة الأنبياء ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وإجابة الدّعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرّزق وراحة في البدن، وسلاح على الأعداء، وكراهة الشّيطان، وشفيع بين صاحبها وملك الموت، والسراج في القبر، وفراش تحت جنبه، وجواب منكر ونكير، ومونس في السّراء والضّراء، وصائر معه في قبره إلى يوم القيامة»[1].

وأما الحياء: فزيادته على ما سبق واضحة، لأن مستنده استشعار تقصير وتوهّم ذنب، ويتصور التعظيم والخوف والرّجاء من غير حياء، حيث لا يتوهم تقصير وخطأ ومنشأ استشعار التقصير وتوهّم الذّنب علم المكلف بالعجز عن القيام بوظائف العبودية والتعظيم على ما يليق بحضرة الرّبوبيّة سبحانه، ويزيد ذلك بالإطلاع على كثرة عيوب النّفس وآفاتها، وفرط رغبتها في أفعالها وحركاتها وسكناتها إلى الدّنيا وشهواتها، وقلة اخلاصها في طاعاتها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله وعظمته وكبرياؤه، ومع المعرفة بأنه خبير بصير مطلع على السرائر عالم بالضمائر؛ وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها الحياء.

وأما أعضاء الصلاة: وأشكالها فهي: القيام، والقعود، والقراءة، والتشهد، والركوع، والسجود، وظاهرها يرتبط بظاهر الإنسان، وبه يكلف العوام الذين درجتهم درجة الأنعام، ليمتازوا بذلك التعبّد الظاهري عن سائر أنواع الحيوان في العاجل، ويستحقوا به نوعاً من الثواب في الآجل، وباطنها يلتزم بباطن الإنسان ممن له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد.

أمّا صلاة الظّاهر المأمور بها شرعاً والمفروضة على كافة المكلّفين سمعاً فأعدادها معلومة، وأوقاتها مرسومة، وأركانها مضبوطة، وأحكامها في الكتب مسطورة، لا حاجة بنا إلى تفصيلها لشهرتها، وكفاية الكتب الفقهيّة في تعيين شرائطها وأحكامها.

وأمّا صلاة الباطن وصلاة أهل الخصص فنشير إلى بعض أسرارها ويسير ممّا ينبغي لها

---

(١) شجرة طوبى: ٢/ ٤٤٠، ومستدرك سفينة البحار: ٦/ ٣٥١.

لتكون على ذكر منها عند القيام بها، وتأتي بها على وجه البصيرة والمعرفة إن كنت من أهل القرب والطّاعة فنقول وبالله التوفيق:

أما الطهارة: فإذا أتيت بها في مكانك وهو طرفك الأبعد، ثمّ في ثيابك وهو غلافك الأقرب، ثمّ في بشرتك وهو قشرك الأدنى فلا تغفل عن تطهير ذاتك وإزالة رجس الشيطان عن لبّك بالتوبة والنّدم على التفريط في جنب الله كما قال سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٤ ـ ٥]، فطهّر قلبك فانّه منظر معبودك.

وأما ستر العورة: فمعناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق أعني سكان عالم الأرض، فإذا وجب عليك ستر ظاهر البدن عن الخلق وهم مخلوق مثلك فما ظنك في عورات باطنك وفضائح سترك الذي هو موضع نظر معبودك وخالقك، فانها أولى بالسّتر وأحرى، فاحضر تلك الفضائح ببالك، وطالب نفسك بسترها بالنّدم والخوف والحياء، ونزل نفسك منزلة العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

وأما الاستقبال: فهو صرف ظاهر وجهك من سائر الجهات إلى جهة البيت الحرام، أفترى أنك مأمور بذلك ولست مأموراً بتوجيه قلبك إلى معبودك، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك، وكما لا يمكن التوجه بالبيت إلاّ بالالتفات عن سائر الجهات، فكذلك لا يمكن التوجّه إلى الحقّ، إلا بالإعراض عن كل ما عداه، والانقطاع بكلّيته إلى الله.

وأما القيام: فليكن على ذكرك في الحال خطر القيام بين يدي الربّ المتعال في القيامة وهول المطّلع في مقام العرض والسّؤال حين ما أيقن أهل الجرائم بالعقاب وعاينوا أليم العذاب، فقم بين يديه سبحانه قيام عبد ذليل بين يدي ملك جليل، وعليك بخفوت أطرافك وهدر أطراقك وسكون جوارحك وخشوع أجزائك وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وزن نفسك قبل أن توزن.

وأما النية: فاعلم أن الأعمال بالنيات وأنّ النية رأس العبادات، فاجتهد في تحصيل الإخلاص رجاء للثّواب وخوفاً من العقاب وطلباً للقرب إلى رب الأرباب.

قال الصادق عليه السلام: «إذا كان أوّل صلاته بنية يريد بها ربه فلا يضره ما دخله بعد ذلك فليمض في صلاته وليخسأ الشيطان»[١].

وأما التكبير: فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذّبه قلبك، فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله وأنت أطوع له منك لله فقد اتخذته إلهاً لك ومعبوداً من دون الله كما قال عزّ من قائل: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، فقولك: الله أكبر يكون حينئذٍ كلاماً

(١) الكافي: ٣/ ٢٦٨ ح ٣، ووسائل الشيعة: ١/ ٨٠ ح ٣.

بمجرّد اللّسان من دون أن يساعده القلب والجنان، فيشهد الله سبحانه عليك بأنك لكاذب في تكبيره وتعظيمه كما شهد على المنافقين بأنهم لكاذبون في قولهم: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التّدارك بالتوبة والاستغفار.

وأما القراءة: فالناس فيها على ثلاثة أقسام: السّابقون وهم المقرّبون، وأصحاب اليمين وهم أهل الجنّة، وأصحاب الشّمال وهم أهل النّار، فرجل يتحرك لسانه وقلبه غافل عما هو فيه ويتكلّم به، بل مشغول الفكر بأعراض نفسه ومعاملاته وتجاراته وخصوماته وغيرها، ورجل يتحرّك لسانه وقلبه يتبع اللّسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهو مقام أصحاب اليمين، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أوّلاً ثمّ يخدم اللّسان القلب فيترجمه كما ربّما يخطر ببالك شيء فينبعث منك داعية الشّوق إلى التكلم به وفرق بين أن يكون اللّسان ترجمان القلب وبين أن يكون القلب ترجماناً تابعاً للسان، والمقرّبون لسانهم ترجمان قلوبهم.

وتوضيح ترجمة المعاني: أنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم، فادفع وساوس قلبك وعجب نفسك، وطهر ساحة قلبك من خطرات إبليس وأحاديث النفس ليتيسّر لك الدّخول في باب الرّحمة فينفتح لك باب الملكوت بالمغفرة وباب الجبروت بالفضل والكرامة، وإذا قلت: بسم الله الرّحمن الرّحيم، فانو به التبرك باسمه، واعلم أن الأمور كلّها بالله وهي من فيض رحمته في الدّنيا والآخرة فإذا كانت النعم الدّنيويّة والأخرويّة مبدؤها وجوده وكانت كلها من بحر كرمه وجهوده كما قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فاعلم أنه لا يليق الحمد والثناء إلاّ لله سبحانه، فقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فلو كنت ترى نعمة من عند غيره وتتوقع منه الوصول إليها وتقرع بيد السّؤال بابه بزعم استقلاله فيها لا باعتقاد أنه واسطة في ايصالها إليك وآلة لوصولها إلى يديك فتشكره بذلك، ففي تسميتك وتحميدك نقصان وأنت بقدر التفاتك إلى غيره كاذب فيهما.

ثم اعلم أنّك تأسّيت في تحميدك لله بالملائكة المقربين حيث قالوا قبل أن يخلق الله سبحانه هذه النشأة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وبعباد الله الصّالحين، حيث إنهم بعد ما يحكم بينهم وبين المجرمين يوم الحاقة بالحق فيحمدون ربهم كما اخبر عنهم بقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وبعد ما يعبرون الصراط ويجدون رائحة الجنان يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وبعد ما يتمكنون في قصور الجنات ويجلسون وسط الرّوضات يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا﴾ [الزمر: ٧٤]، وبعدما ينالون غاية الأمال ويجزون الحسنى بالأعمال يكون آخر كلامهم حمد الرّب المتعال، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فإذا كان بداية العالم ونهايته مبنيّة على الحمد فاجتهد أن يكون بداية عملك ونهايته كذلك، وكما أن حمد هؤلاء المقرّبين ناش عن وجه الإخلاص واليقين، فليكن ثناؤك كذلك.

وإذا قلت: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فاعلم أنه سبحانه مربيك ومربي سائر الخلائق أجمعين، حيث إنه خلقهم وساق إليهم أرزاقهم ودبّر أمورهم وقام بمصالحهم وبدأ بالآمال قبل السؤال، وأنه رباهم بعظيم ما لديه من دون جلب ربح ومنفعة منهم إليه كما هو شأن سائر المربين والمحسنين فانهم انما يربون ويحسنون ليربحوا على ذلك وينتفعوا بذلك إما ثواباً أو ثناء، فإذا كان تربيته كذلك فلينبعث منك مزيد شوق ورجاء إلى فضله ونواله.

وليشتد ذلك الرّجاء إذا قلت: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فإن رحمته سبحانه لا نهاية لها، فبرحمته الرّحمانية خلق الدّنيا وما فيها، وبرحمته الرّحيميّة يجزى المؤمنين الجزاء الأوفى، وهو الذي ينادي عبده ويشرفه بألطف الخطاب حين ما واراه في التراب، وودعه الأحباب ويقول: عبدي بقيت فريداً وحيداً فأنا أرحمك اليوم رحمة يتعجب الخلائق منها.

ثمّ لا تغتر بذلك ولا تأمن من غضبه واستشعر من قلبك الخوف، وإذا قلت: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، فاحضر في نظرك أنواع غضبه وقهره على أهل الجرائم والجوائز واعلم أنه مانع ذلك اليوم من سخطه ولا رادّ من عقابه، لانحصار الملك يومئذٍ فيه، فلبس لأحد لجأ يؤويه.

ثمّ إذا حصلت بين الخوف والرّجاء فجرد الإخلاص والتوحيد وقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أي لا يستحق العبادة إلاّ أنت ولا معبود سواك ولا نعبد إلاّ إيّاك، وتفطّن لسرّ التكلم بصيغة الجمع نكتة تشريك الغير معك في الإذعان بالعبودية، وهو أن من باع أمتعة كثيرة صفقة بعضها صحيح وبعضها معيب فاللازم على المشتري إمّا قبول الجميع أو ردّ الجميع، ولا يجوز له ردّ المعيب وأخذ الصحيح، فههنا قد مزجت عبادتك بعبادة غيرك من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وعباد الله الصّالحين، وعرضت الجميع صفقة واحدة على حضرة ربّ العالمين، فهو سبحانه أجل من أن يرد المعيب ويقبل الصحيح، فإنّه قد نهى عباده عن ذلك فلا يليق بكرمه ذلك، كما لا يليق به ردّ الجميع لكون بعضها مقبولاً البتة فلم يبق إلاّ قبول الجميع وهو المطلوب.

ثمّ القيام منك بوظائف العبودية والإتيان بلوازم الطّاعة لما لم يكن ممكناً إلاّ باعانة منه سبحانه وإفاضة منه الحول والقوة إليك فتضرع إليه تعالى واطلب منه التوفيق والإعانة وقل: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتحقق أنه ما تيسّرت طاعتك إلاّ باعانته وأنه لولا توفيقه لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين وإذا أظهرت حاجتك إليه سبحانه في إفاضته الإعانة والتّوفيق فعين مسؤولك واطلب منه تعالى أهم حاجاتك وليس ذلك إلاّ طلب القرب من جواره؛ ولا يكون ذلك إلا بالحركة والسكون نحوه وسلوك السبيل المؤدّي إليه ولا يمكن ذلك إلاّ بهدايته سبحانه فقل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، قال الصادق عليه السلام: «يعني أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّي إلى محبّتك والمبلغ إلى جنّتك والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك»[1].

---

(١) التفسير الأصفى: ١/٧.

وزد ذلك شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً بقولك: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم الذين أنعم عليهم بالتوفيق والطّاعة لا بالمال والصحة وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وأمّا الذين انعم عليهم بالمال والصّحة فربما يكونون كفّاراً أو فسّاقاً من الذين لعنهم الله وغضب عليهم، أو من الضّالين المكذّبين، ولذلك حسن التأكيد بأن تقول: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم اليهود قال الله فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهم النّصارى قال الله فيهم ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ [المائدة: ٧٧].

فإذا فرغت من قراءة فاتحة الكتاب فاقرأ ما شئت من السّور، وعليك بالترتيل وتعمد الإعراب في ألفاظ ما تقرؤها والتفكّر في معناها، وسؤال الرحمة والتعوذ من النقمة عند قراءة آيتيهما، ثم إذا فرغت من القراءة فجدّد ذكر كبرياء الله سبحانه وعظمته وارفع يديك حيال وجهك وقل: الله أكبر استجارة بعفوه عن عقابه وإتباعاً لسنّة رسوله، ثمّ تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك وتجتهد في ترقيق قلبك وفي استشعار الخشوع له، وعليك بالطمأنينة والوقار وتسوية ظهرك ومدّ عنقك.

فقد قال أبو جعفر عليه السلام: «من أتمّ ركوعه لم يدخله وحشة في القبر».

وفي مرفوعة أبي القاسم بن سلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ركع لو صبّ على ظهره ماء لاستقر، وأمّا مدّ العنق فمعناه إنّي آمنت بك ولو ضربت عنقي.

ثمّ تشهد على ربّك بالعظمة وأنه أعظم من كلّ عظيم فتقول: سبحان ربّي العظيم وبحمده، وتكرر ذلك على القلب وتؤكده بالتكرير، ثمّ تنتصب قائماً وتقول: سمع الله لمن حمده والحمد لله ربّ العالمين، ثمّ تهوى إلى السّجود وهو أعلى درجات التذلّل والاستكانة حيث الصقت أعز جوارحك وأشرفها وهو الجبهة بأذل الأشياء وأخسّها وهو التراب، وقد نهيت عن السجود على الذهب والفضّة والمطاعم والملابس، لأنها متاع الحياة الدّنيا والسجدة زاد الآخرة.

روى الصّدوق بإسناده عن هشام بن الحكم أنه قال لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عمّا يجوز السجود عليه وعما لا يجوز، قال: «السجود لا يجوز إلاّ على الأرض أو على ما أنبتت الأرض إلا ما أكل أو لبس، فقال له: جعلت فداك ما العلة في ذلك؟ قال: لأنّ السّجود خضوع لله عزّ وجلّ فلا ينبغي أن يكون على ما يؤكل ويلبس، لأنّ ابناء الدّنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون، والساجد في سجوده في عبادة الله عز وجلّ فلا ينبغي أن يضع جبهته في سجوده على معبود أبناء الدّنيا الذين اغتروا بغرورها»(١).

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٢٧٢ ح ٨٤٣، وعلل الشرائع: ٢/ ٣٤١ ح ١.

وأما تعدد السجود فسرّه ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام حيث سأله رجل ما معنى السجدة الأولى؟ فقال عليه السلام: «تأويلها اللّهم منها خلقتنا يعني من الأرض، وتأويل رفع رأسك: ومنها أخرجتنا والسجدة الثانية: وإليها تعيدنا، ورفع رأسك منها: ومنها تخرجنا تارة أخرى»[١].

أقول: وهو مأخوذ من قوله سبحانه في سورة طه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

ثمّ تجلس لتشهد على يسارك وترفع يمينك وتأويل ذلك: اللّهم أمت الباطل وأقحم الحق، فتجدد العهد لله سبحانه بالشهادة بالتوحيد وللنبي بالشهادة بالرّسالة، وتصلّي عليه وآله الذين هم وسائط الفيوضات النازلة، وبهم قبول الصّلاة وسائر العبادات، وبالتقرّب إليهم يرجى نزول الرّحمة من الحق، لكونهم واسطة بينك وبين الرسول كما أنّه واسطة بين الله وبين الخلق.

ثمّ احضر شخصه صلى الله عليه وآله في قلبك وقل: السّلام عليك أيّها النّبي ورحمة الله وبركاته، لتدخل في زمرة المؤمنين المحبين لنداء يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً، ثمّ سلم على نفسك وعلى عباد الله الصّالحين، وتأمل أن الله يردّ عليك سلاماً بعدد عباده الصالحين، وأما قولك: السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فتقصد بخطابك فيه الأنبياء والملائكة والأئمة عليهم السلام والمؤمنين من الجن والإنس وتحضرهم ببالك وتخاطبهم به، وإلا كان التسليم بصيغة الخطاب لغو وإن كان مخرجاً عن العهدة، وحقيقة هذا التسليم هو الرّجوع عن الحقّ إلى الخلق، فإنّ الصّلاة معراج للمؤمن ومناجاة للعبد مع معبوده وحضور له مع الله وغيبته له عما سواه، فإذا انصرف منه لزم عليه تجديد العهد بالخلق والتّسليم عليهم كما يسلم الغائب إذا قدم من سفره.

هذا قليل من كثير ونبذ يسير من أسرار الصّلاة، والمقام لا يسع الزيادة، والله وليُ التوفيق والهداية.

(و) الخامس

من «**الوسائل**» (**ايتاء الزّكاة فإنها فريضة واجبة**) والإتيان بالوجوب بعد الفرض لمحض التأكيد والإشارة إلى تأكّد وجوبها نظير قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٣١٤ ح ٩٣٠، ووسائل الشيعة: ٦/ ٣٣١ ح ٣.

فإنّه سبحانه بعد الأمر بها بالجملة الخبرية التي هي في معنى الإنشاء، عقبه بقوله: فريضة، تأكيداً للوجوب، قال الزّجاج: فريضة منصوب على التوكيد، لأن قوله: إنّما الصّدقات لهؤلاء، جارٍ مجرى قوله: فرض الله الصّدقات لهؤلاء فريضة وذلك كالزجر عن مخالفة هذا الظاهر.

قال رفاعة بن موسى: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ما فرض الله على هذه الأمة أشدّ عليهم من الزّكاة وفيها تهلك عامّتهم»[(١)].

أو الفريضة من الفرض بمعنى القطع والتقدير ومنه قوله سبحانه: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨] أي منقطعاً محدوداً ويطلقون الفقهاء في باب المواريث على ذوي السهام المقدرة ذوي الفرائض باعتبار أن سهامهم مقدرة معيّنة في كتاب الله سبحانه وعلى هذا فيكون معنى قوله عليه السلام: **(انّها فريضة واجبة)** أنها شيء مقدر منقطع متصف بالوجوب، وكيف كان فهي من أعظم دعائم الدّين وأقوى أركان الإسلام، والكلام فيها في مقامين.

المقام الأول

في علّة وجوبها وفضلها وعقوبة مانعها.

أمّا فضلها ووجوبها فكفى بذلك أن أكثر الآيات المتضمنة للأمر بإقامة الصّلاة متضمنة للأمر بايتاء الزّكاة، فجعل الزّكاة تالي الصّلاة، والأخبار في هذا المعنى فوق حدّ الإحصاء.

ففي «**الكافي**» بإسناده عن محمّد بن مسلم وأبي بصير وبريد عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: «فرض الله الزّكاة مع الصّلاة».

وعن مبارك العقرقوفي قال: قال أبو الحسن عليه السلام «إنّ الله عزّ وجلّ وضع الزّكاة قوتاً للفقراء وتوقيراً لأموالكم».

وعن أحمد بن محمّد بن عبد الله وغيره عن رجل من أهل ساباط قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لعمّار الساباطي: «يا عمّار أنت ربّ مال كثير؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: فتؤدي ما افترض الله عليك من الزّكاة؟ فقال: نعم، قال: فتخرج الحق المعلوم من مالك؟ قال: نعم، قال: فتصل قرابتك؟ قال: نعم، قال: فتصل إخوانك؟ قال: نعم، قال عليه السلام: يا عمّار إن المال يفنى والبدن يبلى والعمل يبقى والدّيان حيّ لا يموت، يا عمّار إنه ما قدّمت فلن يسبقك، وما أخّرت فلن يلحقك»[(٢)]. ورواه الصدوق في «**الفقيه**» عنه عليه السلام مثله.

وفيه أيضاً عن معتب مولى الصّادق عليه السلام قال: قال الصّادق عليه السلام: «إنما وضعت الزّكاة

(١) الكافي: ٣/ ٤٩٧ ح ٣، ودعائم الإسلام: ١/ ٢٤٧.

(٢) الكافي: ٣/ ٥٠١ ح ١٥، ونهج السعادة: ٦٥١٨.

اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء، ولو أنّ النّاس ردّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولاستغنى بما فرض الله له، إنّ النّاس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلاّ بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حقّ الله في ماله، واقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرّزق إنه ما ضاع مال في برّ ولا بحر إلاّ بترك الزّكاة، وما صيد في برّ ولا بحر إلا بتركه التسبيح في ذلك اليوم وإنّ أحبّ النّاس إلى الله أسخاهم كفاً، وأسخى النّاس من أدّى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله»(١).

وفيه أيضاً أنّه كتب الرّضا عليّ بن موسى عليهما السلام إلى محمّد بن سنان فيما كتب إليه من جواب مسائله: «أنّ علّة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء، لأنَ الله كلّف أهل الصّحة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوى كما قال تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

في أموالكم إخراج الزكاة وفي أنفسكم توطين النفس على الصّبر مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله والطمع في الزّيادة مع ما فيه من الرفادة والرأفة والرّحمة لأهل الضعف، والعطف على أهل المسكنة والحث لهم على المواساة، وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدّين، وموعظة لأهل الغنى، وعبرة لهم ليستدلوا على فقراء الآخرة بهم ومالهم عن الحث في ذلك على الشكر لله لما خوّلهم وأعطاهم والدّعا والتضرع والخوف من أن يصيروا مثلهم في أمور كثيرة في أداء الزكاة والصّدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف»(٢).

قال الصّدوق: وقال أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام: «من أخرج زكاة ماله تامّاً فوضعها في موضعها لم يسأل من أين اكتسب ماله».

قال: وقال الصّادق عليه السلام: «إنما جعل الله الزكاة في كلّ ألف خمسة وعشرين درهماً، لأنّ الله تعالى خلق الخلق فعلم غنيهم وفقيرهم وقويّهم وضعيفهم، فجعل من كلّ ألف خمسة وعشرين مسكيناً لولا ذلك لزادهم الله لأنه خالقهم وهو أعلم بهم»(٣).

أما عقوبة تارك الزكاة ومانعها فقد قال تعالى في سورة آل عمران:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وفي سورة البراءة: ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٨، ووسائل الشيعة: ٩/ ١٢ ح ١١٣٩٢.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٩، ووسائل الشيعة: ٩/ ١٣.
(٣) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٩ ح ١٥٨٢، ومسند الإمام الرضا: ٢/ ٢٠٤ ح ٢.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

ولا يخفى ما في الآيتين من وجوه الحث على الانفاق والوعيد على الإمساك.

أما الآية الأولى: فجهات الإنذار فيها غير خفيّة، **الأولى**: أنه سبحانه نهى عن حسبان الممسكين امساكهم خيراً لهم ونفعاً في حقهم وأكّد ذلك بالنون المفيدة للتوكيد. **الثانية**: أنّه وصف الممسكين بصفة البخل وهي صفة ذم. **الثالثة**: أن ما بخلوا به هو ممّا آتاهم الله فألزم عليهم أن يتصرّفوا فيه بما أمر الله ويصرفوه إلى ما أراده الله. **الرابعة**: أنّ ذلك شرّ لهم وضرّ في حقّهم. **الخامسة**: انّهم يطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة.

روى الصّدوق عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «ما من ذي ذهب أو فضة تمنع زكاة ماله إلاّ حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر[1] وسلّط عليه شجاعاً اقرع[2] يريده وهو يحيد عنه فإذا رأى أنه لا يتخلّص منه انكسه فقضمها كما يقضم الفجل ثمّ يصير طوقاً في عنقه وذلك قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وما من ذي إبل أو بقر أو غنم يمنع زكاة ماله إلاّ حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر تطأه كلّ ذات ظلف بظلفها، وينهشه كل ذات ناب بنابها، وما من ذي نخل أو كرم أو زرع يمنع زكاته إلاّ طوقه الله ريعة أرضه إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة».

وفي «**الكافي**» بإسناده عن محمّد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فقال: «يا محمّد ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلاّ جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحساب، ثمّ قال هو قول الله عزّ وجلّ: سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، يعنى ما بخلوا به من الزكاة»[3].

السادسة: أنّ ميراث السماوات والأرض كلّه لله سبحانه بمعنى أنه وحده يبقى وغيره يفنى ويبطل ملك كل مالك إلاّ ملكه، فإذا كان المال في معرض الفناء والزّوال فأجد بالعاقل أن لا يبخل بالإنفاق، ولا يحرص على الإمساك، فيكون وزره عليه ونفعه لغيره. **السابعة**: أنه سبحانه خبير بما يعمله المكلّفون بصير بمخالفتهم لأمره لا يعزب عن علمه بخلهم بالانفاق ومنعهم عن أهل الاستحقاق، فسيذيقهم وبال أمرهم عند المساق، إذا التفت السّاق بالساق.

وأما الآية الثانية: فقد روى الطبرسي عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنه لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وآله: تبا للذهب والفضة، يكرّرها ثلاثاً، فشق ذلك على أصحابه فسأله عمر: أيّ المال نتخذ؟

---

(١) المحاسن: ١/ ٨٧ ح ٢٦، والكافي: ٣/ ٥٠٢ ح ١.

فقال: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام «ما زاد على أربعة آلاف فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدّ».

وعن «التهذيب» عن الصادق عليه السلام «ما أعطى الله عبداً ثلاثين ألفاً وهو يريد به خيراً وقال ما جمع رجل قط عشرة ألف درهم من حلّ وقد يجمعها لأقوام إذا أعطى القوت ورزق العمل فقد جمع الله له الدّنيا والآخرة»[٢].

ومحصّل المعنى أن الذين يجمعون المال ولا يؤدّون زكاتهم فأخبرهم بعذاب موجع، وللتعبير عن ذلك بلفظ البشارة مبنيّ على التّهكّم، لأن من يكنز الذهب والفضة فانما يكنزهما لتحصيل الوجاهة بهما يوم الحاجة، والتوسل إلى الفرج يوم الشدة فقيل له: هذا هو الوجاهة والفرج ما يقال تحيتهم ليس إلا الضرب وإكرامهم ليس إلا الشتم ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٣٥] أي يوقد على الكنوز «في نار جهنم» حتى تصير ناراً ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ [التوبة: ٣٥] أي بتلك الأموال والكنوز التي منعوا حقوقها الواجبة ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] وتخصيص هذه الأعضاء بالكي بوجوه.

أحدها: أن منظورهم بكسب الأموال وترك الانفاق ليس إلا الأغراض الدّنيوية وهو حصول الوجاهة لهم عند النّاس وحصول الشّبع لهم بأكل الطّيبات فينفتح منه الجنبان ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم فوقع الكي على هذه الأعضاء جزاء لأغراضهم الفاسدة.

الثاني: أن الجباه كناية عن مقاديم البدن والجنوب عن طرفيه والظهور عن المآخير، والمراد به أن الكي يستوعب تمام البدن.

الثالث: أن الجبهة محلّ السّجود فلم يقم فيه بحقه والجنب مقابل القلب الّذي لم يخلص في معتقده، والظّهر محلّ الأوزار قال: يحملون أوزارهم على ظهورهم.

الرابع: أن هذه الأعضاء مجوفة وليست بمصمتة وفي داخلها آلات ضعيفة يعظم التالم بسبب وصول أدنى أثر إليها، بخلاف سائر الأعضاء.

الخامس: وهو أحسن الوجوه وألطفها أن صاحب المال إذا رأى الفقير او لا قبض جبهته وعبس وجهه وإذا دار الفقير يوليه جنبه وإذا دار يولّيه ظهره وقوله ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] أي يقال لهم في حالة الكي هذا هو الذي ادخرتموه لأنفسكم، وهو تبكيت لهم بأن المال الذي بخلتم بانفاقه وادخرتموه لتنتفعوا به صار عذابكم به، فكأنّكم أكنزتموه ليجعل عقاباً لكم ﴿فَذُوقُوا﴾ [التوبة: ٣٥] عقاب ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥] به لا بغيره.

---

(١) الغدير: ٨/ ٣٧٧، وتفسير مجمع البيان: ٥/ ٤٧.

(٢) تهذيب الأحكام: ٦/ ٣٢٨ ح ٩٠٧، ووسائل الشيعة: ١٧/ ٣٦.

قال الطّبرسي صاحب التفسير قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من عبد له مال لا يؤدي زكاته إلاّ جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنباه وظهره حتّى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممّا تعدون، ثمّ يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النّار».

قال: وروى ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وآله «من ترك كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول: ويلك ما أنت، فيقول أنا كنزك الذي تركت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعه سائر جسده»(١).

المقام الثاني

في أسرار الزّكاة ودقائق بذل المال وهي أمور:

الأول: أنّ المؤمن الموحد إذا أقرّ بالتّوحيد باللّسان لزم إذعانه به بالجنان ومعنى التوحيد إفراد المعبود بالمحبوبيّة وإخلاص القلب عمّا سواه والفراغ عن كلّ ما عداه، فإنّ المحبّة أمر لا يقبل الشركة والأموال محبوبة عند الخلائق، لأنها آلة تمتعهم بالدّنيا، وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أنّ فيه لقاء المحبوب، فجعل الله بذل المال امتحاناً لهم وتصديقاً لدعوتهم المحبة له سبحانه والناس في ذلك ثلاثة أصناف:

صنف صدقوا التوحيد وحذفوا عن ساحة قلوبهم ما سوى المعبود وبذلوا أموالهم من غير تعرض بوجوب الزّكاة ولم يدّخروا لأنفسهم ديناراً ولا درهماً، ولم يتركوا بعدهم صفراء ولا بيضاء، وهم الذين قال الله سبحانه في حقهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

روى في **«الكافي»** بإسناده عن محمّد بن سنان عن الفضل قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل في كم تجب الزّكاة من المال؟ فقال عليه السلام له: الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟ فقال: أريدهما جميعاً، فقال عليه السلام: أمّا الظّاهرة ففي كلّ ألف خمسة وعشرون، وأمّا الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك»(٢).

وصنف درجتهم دون درجة الصنف السابق وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات، فيكون قصدهم في الادّخار الانفاق على نفسه وعياله الواجب النفقة بقدر الحاجة، وصرف الفاضل إلى وجوه البر مهما ظهر، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزّكاة وهم الذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم.

(١) الغدير: ٨/ ٣٧٦، ومجمع الزوائد: ٣/ ٦٤.
(٢) جواهر الكلام: ١٥/ ٩، والكافي: ٣/ ٥٠٠ ح ١٣.

روى في «**الكافي**» بإسناده عن أبي بصير قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام ومعنا بعض أصحاب الأموال، فذكروا الزكاة فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ الزكاة ليس يحمد بها صاحبها، وانما هو شيء ظاهر إنما حقن بها دمه وسمّى بها مسلماً، ولو لم يؤدّها لم يقبل له صلاة، وإنّ عليكم في أموالكم غير الزكاة، فقلت أصلحك الله ومالنا في أموالنا غير الزكاة؟ فقال عليه السلام: سبحان الله أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ - ٢٥].

قال: ماذا الحق المعلوم الذي علينا؟ قال عليه السلام: هو الشيء يعلمه الرجل في ماله يعطه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر قلّ أو كثر غير أنه يدوم عليه[1].

وعن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

أهو سوى الزكاة؟ فقال عليه السلام: «هو الرّجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر فيصل به رحمه ويحمل به الكلّ عن قومه»[2].

وعن القاسم عبد الرّحمن الأنصاري قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إنّ رجلاً جاء إلى أبي عليّ بن الحسين عليهما السلام فقال له: اخبرني عن قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، ما هذا الحق المعلوم؟ فقال له عليّ بن الحسين عليهما السلام: الحقّ المعلوم الشيء يخرجه الرّجل من ماله ليس من الزّكاة ولا من الصّدقة المفروضين، قال: فإذا لم يكن من الزكاة ولا من الصدقة فما هو؟ فقال عليه السلام: هو الشيء يخرجه الرّجل من ماله إن شاء أكثر وإن شاء أقل على قدر ما يملك، فقال له الرّجل: فما يصنع به؟ قال: يصل به رحماً ويقوى به ضعيفاًويحمل به كلا أو يصل به أخاً له في الله ولنائبة تنوبه فقال الرّجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته»[3] هذا.

والمحروم الرّجل الذي ليس بعقله بأس ولم يبسط له في الرزق، رواه الكليني عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

والصنف الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدن عليه ولا ينقصون منه وهي أدنى الرتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وفرط ميلهم إليه وضعف حبّهم للآخرة.

---

(١) الكافي: ٣/ ٥٠٠ ح ١٣، ومعاني الأخبار: ١٥٣ ح ١.

(٢) الكافي: ٣/ ٤٤٩ ح ١٠، ووسائل الشيعة: ٩/ ٤٨ ح ١١٤٩٠.

(٣) بحار الأنوار: ٦٦/ ٢٦٨، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ٤١٧ ح ٢٦.

السر الثاني: من أسرار الزّكاة أنها مطهّرة من صفة البخل وهي صفة مذمومة من جنود النفس قال سبحانه:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الثالث: أنّ شكر النّعمة واجب عقلاً وشرعاً وهو على ما قاله العلماء عبارة عن صرفها إلى طلب مرضاة المنعم، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والعبادات المالية شكر لنعمة المال، فيحكم العقل بوجوبها لكونها شكراً للمنعم، وما أخسّ من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وانتقع لونه من مسّ الجوع ثمّ لا يسمح نفسه أن يؤدّي شكر الله تعالى على اغنائه عن السّؤال واحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله.

قال الصّادق عليه السلام في رواية سماعة بن مهران المروية في «**الكافي**»: ومن أدى ما فرض الله عليه فقد قضى ما عليه وأدّى شكر ما أنعم الله عليه في ماله إذا هو حمده على ما أنعم الله عليه فيه بما فضله به من السّعة على غيره، ولما وفّقه لأداء ما فرض الله عزّ وجلّ عليه وأعانه عليه[1].

الرّابع: أنّ النفس الناطقة لها قوتان: نظرية وعملية، فالقوة النظرية كمالها في التعظيم لأمر الله، والقوّة العملية كمالها في الشفقة على خلق الله فأوجب الله الزّكاة ليحصل لجوهر الرّوح هذا الكمال، وهو اتّصافه بكونه محسناً إلى الخلق، ساعياً في إيصال الخيرات إليهم، دافعاً للأفات عنهم.

الخامس: أن المال سمّى مالاً لميل كلّ أحد إليه وهو في عرض التلف والزّوال مهادم في يده فهو غاد ورائح، وإذا أنفق في مصارف الخير ووجوه الله بقى بقاء لا يزول، لأنّه يوجب الثناء الجميل في الدّنيا والثواب الجزيل في الآخرة، وقد مرّ في الخطبة الثانية والعشرين أنّ لسان الصدق يجعله الله للمرء في النّاس خير له من المال يورثه غيره، فان المراد بلسان الصدق هو الذكر الجميل، قال حاتم لامرأته مارية:

أماريّ إنّ المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

لقد علم الأقوام لو أنّ حاتماً ... أراد ثراء المال كان له وقر

السادس: أن كثرة المال موجبة لحصول الطغيان والانحراف عن سبيل الرحمان كما قال عزّ من قائل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

---

(١) الكافي: ٣/٤٩٩ ح ٨، ووسائل الشيعة: ٩/٤٧.

فأوجب الله الزكاة لتقليل سبب الطغيان وجبراً لمفسدته، إلى غير ذلك من الأسرار التي يستنبطها العقل بأدنى توجّه، والله الهادي إلى الخيرات.

(و) السادس

(صوم شهر رمضان فإنّه جنّة من العقاب) ووقاية من النّار يوم الحساب، وإنما خصّه بهذه العلة مع كون سائر العبادات كذلك لكونه أشد وقاية من غيره، بيان ذلك أن استحقاق الإنسان للعقوبة إنما هو بقربه من الشيطان واطاعته له وللنفس الأمّارة، وبشدّة القرب وضعفه يتفاوت العقاب شدة وضعفاً، وبكثرة الطاعة وقلّتها يختلف العذاب زيادة ونقصاناً، وسبيل الشّيطان على الإنسان ووسيلته إليه إنّما هي الشّهوات، وقوة الشهوة بالأكل والشرب، فبالجوع والصوم يضعف الشهوة وينكسر صولة النفس وينسدّ سبيل الشيطان وينجي من العقوبة والخذلان، كما قال ﷺ إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع[١].

وقال صلوات الله عليه وآله لعائشة: «دوامي قرع باب الجنّة، قالت: بماذا؟ قال ﷺ: بالجوع».

قال الغزالي في **«إحياء العلوم»** في تعداد فوائد الجوع ويأتي إن شاء الله جميعها في التّذييل الثاني من شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والتاسعة والخمسين:

«الفائدة الخامسة» وهي من أكبر الفوائد كسر شهوات المعاصي كلّها والاستيلاء على النّفس الأمارة بالسّوء، فإن منشأ المعاصي كلّها الشهوات والقوى ومادة الشّهوات والقوى لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كلّ شهوة وقوة، وإنّما السّعادة كلّها في أن يملك الرّجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنّك لا تملك الدّابة الجموح إلاّ بضعف الجوع، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت فكذلك النفس، وهذه ليست فائدة واحدة، بل هي خزائن الفوائد، ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله.

فقد اتضح ذلك كون الصّوم جنّة من النّار، ووقاية من غضب الجبّار، وأن فيه من إذلال النّفس وقهر إبليس وكسر الشهوات ما ليس في سائر العبادات وهو واجب بالضرورة من الدّين واجماع المسلمين ونصّ الكتاب المبين قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ

(١) مستدرك الوسائل: ١٦/ ٢٢٠ ح ١٩٦٥٠، وعوالي الثالي: ١/ ٢٧٣ ح ٩٧.

وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥]

قال الصادق عليه السلام في هذه الآية: لذّة ما في النداء أزال تعب العبادة والعناء[١].

وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، إشارة إلى ما ذكرنا سابقاً من أن الصوم جنّة ووقاية به يتقي من العقاب وينجى من العذاب.

والمستفاد من الآية الشريفة أنّ الصوم كان مكتوباً مفروضاً على الأمم السالفة كما أنه مكتوب على الأمة المرحومة، ولا خلاف في ذلك، وإنما الخلاف في أن الصوم المفروض علينا بهذه الكيفية المخصوصة في وقته وعدده هل كان في سائر الأمم كذلك.

ذهب بعض العامة إلى ذلك على ما حكاه في **«مجمع البيان»**، حيث روى فيه عن الشعبي والحسن أنهما قالا: إنه فرض علينا صوم شهر رمضان كما كان فرض صوم شهر رمضان على النّصارى، وكان يتفق ذلك في الحرّ الشديد والبرد الشديد فحوّلوه إلى الرّبيع وزادوا في عدده.

وذهب آخرون إلى أن التّشبيه في الآية بين فرض صومنا وفرض صوم من تقدّمنا من الأمم، أي كتب عليكم صيام أيّام كما كتب عليهم صيام أيّام، وليس في ذلك تشبيه عدد الصوم المفروض علينا ولا وقته بعدد الصوم المفروض عليهم ولا وقته، قال الطبرسي: وهو اختيار أبي مسلم والجبائي[٢].

أقول: وهذا هو الأقوى ويدلّ عليه صريحاً ما رواه في **«الفقيه»** عن سليمان بن داود المنقري عن حفص بن غياث النخعي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا، فقلت له: فقول الله عزّ وجلّ»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال عليه السلام: «إنما فرض الله صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم، ففضل الله به هذه الأمّة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أمّته»[٣]، هذا.

---

(١) التفسير الصافي: ١/ ٢١٩ ح ١٨٣، والتفسير الأصفي: ١/ ٨٥.
(٢) مجمع البيان: ٢/ ٦.
(٣) فضائل الشهر الثلاثة: ١٢٤ ح ١٣١.

والكلام بعد في علّة وجوب الصوم وفضله وفضل صوم شهر رمضان خصوصاً والآداب التي يكون عليها الصائم.

أما علة وجوب الصوم: ففي «**الفقيه**» سأل هشام بن الحكم أبا عبد الله عليه السلام عن علّة الصّيام فقال عليه السلام: «إنما فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير، وذلك إن الغني لم يكن ليجد مس الجوع فيرحم الفقير، لأنّ الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله أن يسوّي بين خلقه وأن يذيق الغني مسّ الجوع والألم ليرق على الضعيف ويرحم الجائع»[١].

وكتب أبو الحسن علي بن موسى الرّضا عليه السلام إلى محمّد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله: «علّة الصّوم عرفان مسّ الجوع والعطش ليكون ذليلاً مستكيناً مأجوراً محتسباً صابراً ويكون ذلك دليلاً له على شدائد الآخرة مع ما فيه من الانكسار له عن الشّهوات واعظاً له في العاجل دليلاً على الأجل ليعلم شدّة مبلغ ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدّنيا والآخرة»[٢].

وروى عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام أنّه قال: «جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم من مسائل فكان فيما سأله أنّه قال: لأي شيء فرض الله الصّوم على أمّتك بالنّهار ثلاثين يوماً وفرض على الأمم أكثر من ذلك؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: إنّ آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً ففرض الله على ذريّته ثلاثين يوماً الجوع والعطش، والذي يأكلونه باللّيل تفضل من الله عليهم وكذلك كان على آدم ففرض الله عزّ وجلّ ذلك على أمّتي ثمّ تلى هذه الآية»[٣].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال اليهودي: صدقت يا محمّد فما جزاء من صامها؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما من مؤمن يصوم شهر رمضان احتساباً إلاّ أوجب الله له سبع خصال: **أولها**: يذوب الحرام من جسده، **والثانية**: يقرب من رحمة الله. **والثالثة**: يكون قد كفر خطيئة أبيه آدم عليه السلام. **والرابعة**: يهوّن الله عليه سكرات الموت. **والخامسة**: أمان من الجوع والعطش يوم القيامة. **والسادسة** يعطيه الله براءة من النّار. **والسّابعة**: يطعمه الله من طيّبات الجنّة، قال: صدقت يا محمّد»[٤].

وأما فضل الصوم: مطلقاً ففي «**الكافي**» و«**الفقيه**» عن أبي جعفر عليه السلام: قال: «بنى الإسلام على خمسة أشياء: على الصّلاة، والزّكاة، والصوّم، والحج، والولاية، وقال

(١) علل الشرائع: ٢/٣٧٨ ح ٢، ووسائل الشيعة: ١٠/٧ ح ١٢٦٩٧.

(٢) من لا يحضر الفقيه: ٢/٧٣ ح ١٧٦٧، وعلل الشرائع: ٢/٣٧٨ ح.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ٢/٤٤، والأمالي: ٢٦٠.

(٤) الخصال: ٣٤٦ ح ١٤، والأمالي: ٢٦٠.

رسول الله صلى الله عليه وآله: الصّوم جنّة من النار»(١).

وفيهما عن النّبي صلى الله عليه وآله قال لأَصحابه: «ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الصوم يسوّد وجهه، والصّدقة تكسر ظهره، والحبّ في الله والموازرة على العمل الصّالح يقطع دابره، والاستغفار يقطع وثينه، ولكلّ شيء زكاة وزكاة الأَبدان الصّيام»(٢).

وفيهما عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أوحى الله إلى موسى ما يمنعك من مناجاتي؟ فقال: يا ربّ أجلّك عن المناجاة لخلوف فم الصّائم، فأوحى الله إليه يا موسى لخلوف فم الصّائم أطيب عندي من ريح المسك».

وعنه عليه السلام للصّائم فرحتان: «فرحة حين افطاره، وفرحة حين لقاء ربّه»(٣).

وقال عليه السلام «من صام لله يوماً في شدة الحرّ فأصابه ظمأ وكّل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشّرونه حتّى إذا أفطر قال الله عزّ وجلّ: ما أطيب ريحك وروحك يا ملائكتي اشهدوا أني قد غفرت له».

وفي **«الكافي»** عن أبي الصباح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى يقول: الصوم لي وأنا أجزي عليه(٤)، ورواه في **«الفقيه»** عن رسول الله صلى الله عليه وآله مثله إلاّ أن فيه به بدل عليه.

وتخصيصه من بين سائر العبادات مع كون جميعها لله سبحانه من جهة مزيد اختصاصه به تعالى، إمّا لأَجل أنّ الصّوم عبادة لم يعبد بها غير الحقّ سبحانه بخلاف سائر العبادات والرّكوع والقيام والقربان ونحوها، فانها ربما تؤتى بها للمبعودات الباطلة كما يعبد بها للمبعود بالحق، وأما الصّوم فلم يتعبّد به إلاّ الله سبحانه وتعالى، أو لأن الصوم عبادة خفيّة بعيدة عن الرّيا وليست مثل سائر العبادات التي تعلّقها بالجوارح والأَعضاء الظاهرة غالباً، ولذلك لم تسلم من الشرك الخفي والرياء كثيراً.

وأما فضل شهر رمضان: وفضل صومه ففي **«الوسائل»** عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أعطيت أمّتي في شهر رمضان خمساً لم يعطها الله امة نبي قبلي إذا كان أولّ يوم منه نظر الله لهم فإذا نظر الله عزّ وجلّ إلى شيء لم يعذّبه بعدها، وخلوف أفواههم حين

---

(١) الكافي: ٤/ ٦٢ ح ١، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ٧٤.

(٢) الكافي: ٤/ ٦٥ ح ١٣، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ٧٦ ح ١٧٧٩.

(٣) فضائل الأشهر الثلاثة: ١٢٠ ح ١٢٠، وروضة الواعظين: ٣٤٩.

(٤) الكافي: ٤/ ٦٣ح٦، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ٧٥ ح ١٧٧٣.

تمسون أطيب عند الله من ريح المسك، ويستغفر لهم الملائكة كلّ يوم وليلة منه، ويأمر الله عزّ وجلّ جنته فيقول تزيّني لعبادي المؤمنين يوشك أن يستريحوا من نصب الدّنيا وأذاها إلى جنّتي وكرامتي، فإذا كان آخر ليلة منه غفر الله عزّ وجلّ لهم جميعاً.

وعن عليّ بن موسى الرّضا عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: رجب شهر الله الأصب وشهر شعبان تتشعب فيه الخيرات وفي أوّل يوم من شهر رمضان تغل المردة من الشياطين ويغفر في كلّ ليلة لسبعين ألفاً فإذا كان ليلة القدر غفر الله لمثل ما غفر في رجب وشعبان وشهر رمضان إلى ذلك اليوم إلاّ رجل بينه وبين أخيه شحناء، فيقول الله عزّ وجلّ انظروا هؤلاء حتي يصطلحوا»[١].

وعن عليّ بن الحسين عليه السلام كان يقول: «إنّ لله عزّ وجلّ في كلّ ليلة من شهر رمضان عند الإفطار سبعين ألف ألف عتيق من النار كلّ قد استوجب النار، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان اعتق مثل ما أعتق في جميعه»[٢].

وعن الصّادق عليه السلام قال: «حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه عن رسول الله ﷺ في حديث قال: «من صام شهر رمضان وحفظ فرجه ولسانه وكفّ أذاه عن النّاس غفر الله له ذنوبه ما تقدّم منها وما تأخّر، وأعتقه من النار، وأدخله دار القرار، وقبل شفاعته بعدد رمل عالج من مذنبي أهل التّوحيد»[٣].

وفي **«العيون»** بإسناده عن حسن بن فضال عن أبيه عن الرّضا عن آبائه عن عليّ عليهم السلام إن رسول الله ﷺ خطب ذات يقوم فقال:

«أيها النّاس إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرّحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشّهور، وأيّامه أفضل الأيّام، ولياليه أفضل اللّيالي، وساعاته أفضل السّاعات، وهو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب فاسألوا الله ربّكم بنيّات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه فان الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه، وتصدّقوا على فقرائكم ومساكينكم، ووقروا كباركم، وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم، واحفظوا ألسنتكم، وغضّوا عما لا يحلّ النظر إليه أبصاركم، وعما لا يحل الاستماع إليه أسماعكم وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدّعاء في أوقات

---

(١) وسائل الشيعة: ١٠/٣١٥ ح ١٣٤٩٥.

(٢) الكافي: ٤/٦٨ ح ٧، والأمالي: ١١٣ ح ٩١.

(٣) الأمالي: ٧١ ح ٣٨، وبحار الأنوار: ٩٣/٣٥٦ ح ٢٤.

صلاتكم، فانّها أفضل السّاعات ينظر الله عزّ وجلّ فيها إلى عباده يجيبهم إذا ناجوه، ويلبّيهم إذا نادوه، ويعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعوه.

أيّها النّاس إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخفّفوا عنها بطول سجودكم، واعلموا أنّ الله اقسم بعزّته أن لا يعذّب المصلّين والسّاجدين، وأن لا يروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أيّها النّاس من فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق نسمة، ومغفر لما مضى من ذنوبه»، فقيل يا رسول الله فليس كلنا نقدر على ذلك، فقال صلى الله عليه وآله: «اتقوا النّار ولو بشق تمرة، اتقوا النّار ولو بشربة من ماء».

«أيها الناس من حسن في هذا الشهر منكم خلقه كان له جوازاً على الصّراط يوم تزلّ فيه الأَقدام، ومن خفف في هذا الشّهر عما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه، ومن كفّ فيه شرّه كفّ الله عنه غضبه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه، ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار، ومن أدّى فيه فرضاً كان له ثواب من أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومن أكثر فيه من الصلوات عليّ ثقل الله له ميزانه يوم تخفّ الموازين، ومن تلى فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور[1].

أيّها النّاس إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربّكم أن لا يغلقها عليكم، وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربّكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة فاسألوا ربّكم ان لا يسلّطها عليكم».

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فقمت وقلت: يا رسول الله ما أفضل الأَعمال في هذا الشهر؟ فقال صلى الله عليه وآله: «يا أبا الحسن أفضل الأَعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عزّ وجلّ، ثمّ بكى صلى الله عليه وآله، فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر، كأني بك وأنت تصلّي لربّك وقد انبعث أشقى الأوّلين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك، فقلت: يا رسول الله وذلك في سلامة من ديني؟ فقال صلى الله عليه وآله: في سلامة من دينك ثمّ قال صلى الله عليه وآله: يا علي من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني، لأنّك مني كنفسي وطينتك من طينتي وأنت وصيّي وخليفتي على أمتي»[2].

وأما آداب الصوم: والحالات التي يجب أن يكون الصّائم عليها فنقول: إن الصّوم على

---

(١) الأمالي: ١٥٥، ووسائل الشيعة: ١٠/ ٣١٤.

(٢) الأمالي: ١٥٥، وروضة الواعظين: ٣٤٦.

ثلاث مراتب ودرجات بعضها فوق بعض. **الأولى**: صوم العموم. **الثانية**: صوم الخصوص. **الثالثة**: صوم الأخص.

أما صوم العموم فهو المفروض على عامة المكلّفين، وهو الكفّ عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى الغروب الشرعي مع النيّة، والمشهور في المفطرات أنها عشرة: الأكل، والشرب، والجماع، والبقاء على الجنابة عمداً، وفي حكمه النوم بعد انتباهتين، والغبار الغليظ، وفي حكمه الدخان كذلك، والكذب على الله سبحانه ورسوله والأئمة عليهم السلام، والارتماس، والاستمناء مع خروج المني، والحقنة، والقيء والتفصيل مذكور في الكتب الفقهيّة.

وأمّا صوم الخصوص فهو أن يكون جامعاً لشرائط الكمال مضافة إلى شرائط الصحّة كما أشار إليه الإمام سيّد الساجدين وزين العابدين عليه السلام في دعائه عند دخول شهر رمضان حيث قال: «اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد وألهمنا معرفة فضله واجلال حرمته والتحفظ ممّا حظرت فيه، وأعنّا على صيامه بكفّ الجوارح عن معاصيك واستعمالها بما يرضيك حتى لا نصغي باسماعنا إلى لغو ولا نسرع بأبصارنا إلى لهو، وحتى لا نبسط أيدينا إلى محظور ولا نخطو أقدامنا إلى محجور، وحتّى لا تعي بطوننا إلاّ ما أحللت ولا تنطق ألسنتنا إلاّ بما مثلت، ولا نتكلّف إلا ما يدنى من ثوابك ولا نتعاطي إلاّ ما يقي من عقابك، ثمّ خلص ذلك كلّه من رياء المرائين وسمعة المسمعين لا نشرك فيه أحداً دونك، ولا نبغي به معبوداً سواك».

ومحصّل شروط الكمال أن لا يكون يوم صومه كيوم فطره، ومداره على أمور:

منها: غضّ السّمع والبصر عن محارم الله، وعن كلّ ما يلهي النّفس عن ذكر الله، وكذلك حفظ سائر الأعضاء عن المعاصي والآثام.

قال أبو عبد الله عليه السلام في رواية «**الكافي**»: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك وعدد أشياء غير هذا وقال: لا يكون يوم صومك كيوم فطرك[1]، وتقدم ما يدلّ على ذلك، وسيأتي أيضاً.

ومنها: حفظ اللّسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنّميمة والفحش والخصومة بل عن مطلق التّكلّم إلا بذكر الله.

روى في «**الكافي**» عن جراح المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الصيام ليس من الطّعام والشراب وحده ثمّ قال عليه السلام: قالت مريم: إنّي نذرت للرحمن صوماً أي صمتاً، فاحفظوا ألسنتكم وغضّوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا».

---

(١) الكافي: ٨٧/٤ ح ١، ومن لا يحضره الفقيه: ١٠٨/٢ ح ١٨٥٥.

قال: وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة تسبّ جارية لها وهي صائمة، فدعى رسول الله صلى الله عليه وآله بطعام فقال لها: كلي، فقالت: إني صائمة، فقال: «كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريتك، إنّ الصوم ليس من الطعام والشّراب»[١].

قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك من الحرام والقبح ودع المراء وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصّيام، ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك»[٢].

ويأتي إن شاء الله في شرح الكلام المائة والأربعين في ضمن الأخبار الواردة في حرمة الغيبة حديث الفتاتين الصّائمتين الذي رواه المحدث الجزائري في **«الأنوار النعمانية»** وفيه تنبيه على عظم خطر الغيبة في حال الصّيام فانتظر لما يتلى عليك وتبصّر.

وعن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السّلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من عبد صالح يشتم فيقول: إني صائم سلام عليك لا أشتمك كما تشتمني إلاّ قال الرّب تبارك وتعالى: استجار عبدي بالصّوم من شرّ عبدي وقد أجرته من النّار».

وعن حمّاد بن عثمان وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا ينشد الشعر بليل ولا ينشد في شهر رمضان بليل ولا نهار، فقال له إسماعيل: يا أبتاه وإن كان فيناً، فقال عليه السلام: وإن كان فينا»[٣].

وبالجملة فاللازم على الصّائم التحفظ من سقطات اللّسان وفضول البيان والمواظبة على الاستغفار والدّعاء وتلاوة القرآن وسائر الأذكار.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «عليكم في شهر رمضان بكثرة الاستغفار والدّعاء، فأما الدّعاء فيدفع به عنكم البلاء، وأمّا الاستغفار فتمحى به ذنوبكم»[٤].

وقال أبو عبد الله عليه السلام «وكان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا كان شهر رمضان لم يتكلّم إلاّ بالدّعاء والتسبيح والاستغفار والتكبير فإذا أفطر قال: اللّهم إن شئت أن تفعل فعلت».

ومنها: ترك شمّ الرّياحين ولا سيّما النرجس.

ومنها: الكفّ عن الإفطار على الشّبهات، روى في **«الوسائل»** عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: جاء قنبر مولى عليّ عليه السلام بفطره إليه فجاء بجراب فيه سويق وعليه خاتم

---

(١) الكافي: ٤/ ٨٧ ح ٣، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ١٠٩ ح ١٨٦١.
(٢) النوادر: ٢١ ح ٩، والكافي: ٤/ ٨٧ ح ١.
(٣) الكافي: ٤/ ٨٨ ح ٦، ووسائل الشيعة: ١٠/ ١٦٩ ح ١٣١٣٨.
(٤) الأمالي: ١١٨، وبحار الأنوار: ٩٣/ ٣٧٩ ح ٢.

قال عليه السلام: فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن هذا لهو البخل تختم على طعامك قال: فضحك عليه السلام ثمّ قال: «أو غير ذلك لا أحبّ أن يدخل بطني شيء لا أعرف سبيله»[١].

ومنها: أن لا يكثر من الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلي ويثقل فما من وعاء أبغض إلى الله من بطن مملوّ.

روى في «**البحار**» عن مجالس ابن الشيخ (ره) بإسناده عن جعفر بن محمّد عن آبائه عليهم السلام في حديث طويل لإبليس مع يحيى عليه السلام قال: «قال يحيى عليه السلام: فهل ظفرت بي ساعة قط؟ قال: لا، ولكن فيك خصلة تعجبني، قال يحيى عليه السلام فما هي؟ قال: أنت رجل أكول فإذا أفطرت أكلت وشبعت، فيمنعك ذلك من بعض صلاتك وقيامك باللّيل، قال يحيى: فاني أعطي الله عهداً إني لا أشبع من الطعام حتى ألقاه، قال له إبليس: وأنا أعطي الله عهداً إني لا أنصح مسلماً حتى ألقاه ثمّ خرج فما عاد إليه»[٢]

ومنها: أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً بين الخوف والرّجاء إذ لا يدري أن صومه مقبول فهو من المقرّبين أو مردود فهو من المحرومين.

مرّ بعض أصحاب العقول بقوم يوم عيدهم وهم ضاحكون مستبشرون فقال: ان الله سبحانه جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته فسبق أقوام ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كلّ العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون وخاب فيه المبطلون.

وأمّا صوم أخص الخواصّ فصوم القلوب عن الهمم الدّنيوية والأغراض الدّنية وكفّه عن التوجه إلى ما سوى الله بالكليّة لدوام استغراقه بالحق عن الالتفات بغيره، فالفطر في هذا الصّوم الذي هو فيه هو الفكر فيما سوى الله واليوم الآخر وصرف الهمة في غير طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله من أغراض النفس ومقاصد الطبع.

(و) السابع

(حجّ البيت واعتماده فانّهما ينفيان الفقر ويرحضان الذّنب) أي يغسلانه ويطهّرانه وقد مضى الكلام في فضل الحج والمشاعر العظام وفضل البيت الحرام بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الثامن عشر من فصول الخطبة الأولى، ونورد هنا ما لم يسبق ذكره هناك.

فأقول: تعليل الحج والاعتمار بنفي الفقر ورحض الذنب إشارة إلى أن فيهما جمعاً بين منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة وإلى ذلك أشار سبحانه في سورة الحج بقوله:

---

(١) وسائل الشيعة: ١٠/١٥٩ ح ١٣١٠٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٦/٢١٦ ح ١٩٦٣٩، والأمالي: ٣٤٠.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

قال ابن عباس: يعني بالمنافع التجارات، وقال سعيد بن المسيّب وعطيّة: هي منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة، وقال مجاهد: هي التّجارة في الدّنيا والأجر والثّواب في الآخرة.

ويشعر به المرويّ عن الصّادق عليه السلام حيث قال في رواية: «إنّي سمعت الله عزّ وجل يقول: ليشهدوا منافع لهم فقيل: منافع الدّنيا أو منافع الآخرة؟ فقال عليه السلام: الكلّ»[١].

وفي «الفقيه» قال رسول الله صلى الله عليه وآله «ما من حاجّ يضحّي ملبياً حتّى تزول الشمس إلاّ غابت ذنوبه معها، والحجّ والعمرة ينفيان الفقر كما ينفي الكير خبث الحديد»[٢].

وفي «الكافي» بإسناده عن خالد القلانسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال عليّ بن الحسين عليهما السلام: حجوا واعتمروا تصح أبدانكم وتتسع أرزاقكم وتكفون مؤنات عيالاتكم»، وقال عليه السلام «الحاج مغفور له وموجوب له الجنّة ومستأنف له العمل ومحفوظ في أهله وماله».

وعن السّكوني عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحجة ثوابها الجنّة، والعمرة كفّارة لكلّ ذنب».

وعن إسحاق بن عمّار قال: قلت لأَبي عبد الله عليه السلام: إنّي قد وطنت نفسي على لزوم الحج كلّ عام بنفسي أو برجل من أهل بيتي بما لي، فقال عليه السلام «وقد عزمت على ذلك؟ قال: قلت، نعم، قال: إن فعلت فأيقن بكثرة المال»[٣].

وعن الفضيل بن يسار قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يخالف الفقر والحمى مدمن الحج والعمر».

وعن أبي محمّد الفرا قال: سمعت جعفر بن محمّد عليه السلام يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله «تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»[٤].

وعن ابن الطيّار قال: قال أبو عبد الله صلى الله عليه وآله: «حجج تترى وعمر تسعى يدفعن عيلة الفقر

(١) الكافي: ٤/ ٢٦٤ ح ١، وميزان الحكمة: ٢/ ٩١٤ ح ٥.

(٢) النوادر: ١٣٩ ح ٣٥٩، والكافي: ٤/ ٢٥٥ ح ١٢.

(٣) بحار الأنوار: ٩٦/ ٢٥ ح ١٠٧، وميزان الحكمة: ١/ ٥٣٥.

(٤) النوادر: ١٣٩ ح ٣٥٩، والكافي: ٤/ ٢٥٥ ح ١٢.

وميتة السّوء»[١].

أقول المستفاد من هذه الروايات أن للحج والعمرة بذاتهما مدخلية في زيادة المال ونفي الفقر لا من حيث التجارة الحاصلة في موسم الحجّ وقيام الأَسواق حينئذٍ كما زعمه الشارح البحراني.

(و) الثامن

(صلة الرّحم فانها مثراة في المال ومنساة في الأَجل) يعني أنها موجبة للزيادة في المال والتأخير في الأجل ومحلّ لهما، وقد مرّ الكلام فيها مستوفى في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثالثة والعشرين.

قال الشارح البحراني: كونها مثراة في المال من وجهين:

أحدهما: أن العناية الإلهية قسمت لكلّ حيّ قسطاً من الرزق يناله مدّة الحياة الدّنيا وتقوم به صورة بدنه، فإذا اعدّت شخصاً من النّاس للقيام بأمر جماعة وكلّفته بامدادهم ومعونتهم وجب في العناية افاضة أرزاقهم على يده وما يقوم بامدادهم بحسب استعداده لذلك، سواء كانوا ذوي أرحام أو مرحومين في نظره حتّى لو نوى قطع أحدهم فربما نقص ماله بحسب رزق ذلك المقطوع، وذلك معنى كونه مثراةً للمال.

الثاني: أنّ صلة الرّحم من الأخلاق الحميدة التي يستمال بها طباع الخلق فواصل رحمه مرحوم في نظر الكل، فيكون ذلك سبباً لإمداده ومعونته من ذوي الإمداد والمعانات كالملوك ونحوهم فكان صلة الرحم مظنّة لزيادة المال.

وكونها منساة في الأَجل من وجهين:

أحدهما: أن صلة الرّحم توجب تعاطف ذوي الأرحام وتوازرهم ومعاضدتهم لواصلهم، فيكون عن أذى الأعداء أبعد وفي ذلك مظنّة تأخيره وطول عمره.

الثاني: أن مواصلة ذوي الأرحام توجب تعلّق هممهم ببقاء واصلهم وإمداده بالدّعاء، ويكون دعاؤهم وتعلّق هممهم ببقائه من شرائط بقائه ونساء أجله فكانت مواصلتهم منسأة في أجله.

(و) التاسع

الصدقة وهي على قسمين:

---

(١) الكافي: ٤/ ٢٦١ ح ٣٦، ووسائل الشيعة: ١١/ ١٢٤ ح ١٤٤١٥.

أحدهما: (صدقة السر فانّها تكفر الخطيئة) وتطفي غضب الرب سبحانه، وانما خصّها بذلك مع كون سائر العبادات كذلك لكونها أبعد من الرّياء وتضمنها من الخلوص والتقرب ما ليس في غيرها.

روى في «الكافي» عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهم السلام قالا: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صدقة السرّ تطفي غضب الرّب تبارك وتعالى».

وعن عمار السّاباطي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا عمار الصّدقة والله في السرّ أفضل من الصّدقة في العلانية، وكذلك والله العبادة في السّر أفضل منها في العلانية.

وعن معلّى بن خنيس قال: خرج أبو عبد الله عليه السلام في ليلة قد رشت وهو يريد ظلّة بني ساعدة فاتبعته فإذا قد سقط منه شيء فقال: «بسم الله اللّهمّ ردّ علينا»، قال: فأتيته فسلمت عليه فقال عليه السلام: «معلّى» قلت: نعم، جعلت فداك، فقال لي: «التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه إليّ»، فإذا أنا بخبز منتشر كثير فجعلت أدفع عليه ما وجدت فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله من خبز، فقلت: جعلت فداك أحمله على رأسي[1] فقال: «لا، أنا أولى به منك ولكن امض معي»، قال: فأتينا ظلّة بني ساعدة فإذا نحن بقوم نيام، فجعل يدس الرغيف والرّغيفين حتى أتى على آخرهم ثمّ انصرفنا، فقلت: جعلت فداك يعرف هؤلاء الحقّ؟ فقال: «لو عرفوه لواسيناهم بالدقة والدقة هي الملح إن الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئاً إلاّ وله خازن يخزنه إلاّ الصدقة فإنّ الرّب يليها بنفسه وكان أبي عليه السلام إذا تصدّق بشيء وضعه في يد السائل ثمّ ارتدّ منه فقبّله وشمّه ثمّ ردّه في يد السّائل، إنّ صدقة اللّيل تطفي غضب الرّب وتمحو الذّنب العظيم وتهوّن الحساب، وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر، إن عيسى ابن مريم عليهما السلام لما أن مر على شاطىء البحر رمى بقرص من قوته في الماء، فقال له بعض الحواريّين: يا روح الله وكلمته لم فعلت هذا وانما هو من قوتك؟ قال عليه السلام: فعلت هذا لدابة تأكله من دوابّ الماء وثوابه عند الله عظيم».

(و) الثاني: (صدقة العلانية فانّها تدفع ميتة السّوء) كالغرق والحرق والهدم ونحوها.

ويدلّ عليه روايات أخر مثل ما رواه ثقة الإسلام الكليني عطر الله مضجعه بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الصّدقة باليد تقي ميتة السّوء وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء وتفك عن لحى سبعين شيطاناً كلّهم يأمره أن لا يفعل».

وعن أبي ولاّد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «بكروا بالصّدقة وارغبوا فيها، فما من مؤمن يتصدّق بصدقة يريد بها ما عند الله ليدفع الله بها عنه شرّ ما ينزل من السّماء إلى

---

(١) «عاتقي» في نسخة.

الأَرض في ذلك اليوم إلا وقاه الله شر ما ينزل في ذلك اليوم»[١].

وعن السّكوني عن جعفر عن آبائه عليهم السّلام قال: «قال رسول الله ﷺ إن الله لا إله إلاّ هو ليدفع بالصّدقة الداء والدّبيلة[٢] والحرق والغرق والهدم والجنون وعدّ ﷺ سبعين باباً من السّوء[٣].

وعن سالم بن مكرم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مرّ يهوديّ بالنبيّ ﷺ فقال: السّام عليك، فقال ﷺ: عليك، فقال أصحابه انما سلّم عليك بالموت، فقال الموت عليك قال النبيّ ﷺ: وكذلك رددت، ثمّ قال النبي ﷺ، إن هذا اليهودي يعضّه أسود في قفاه فيقتله، قال: فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله ثمّ لم يلبث أن انصرف فقال له رسول الله ﷺ: ضعه، فوضع الحطب، فإذا أسود في جوف الحطب عاض على عود، فقال: يا يهودي أيّ شيء عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملاً إلاّ حطبي هذا احتملته وجئت به فكان معي كعكتان فأكلت واحدة وتصدقت بواحدة على مسكين، فقال رسول الله ﷺ: بها دفع الله عنك، فقال: إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان»[٤].

وعن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الصّدقة لتدفع سبعين بلية من بلايا الدّنيا مع ميتة السوء إن صاحبها لا يموت ميتة السوء أبداً مع ما يدخر لصاحبها من الأجر في الآخرة[٥].

(و) العاشر

(صنائع المعروف فانها تقي مصارع الهوان) المعروف اسم لكلّ فعل يعرف حسنه بالعقل والشرع كالإحسان والبرّ والصلة والصدّقة على الناس والرفق معهم وسائر أعمال الخير، واصطناع المعروف لما كان مستلزماً لتأليف قلوب الخلق وجامعاً لهم على محبة المصطنع لا جرم كان وقاية له، والنّاس يتقون قتله ويجتنبون عن فعل ما يوجب الهوان به وذلته وهو ظاهر.

ونظير هذا الكلام ما رواه عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عن آبائهم عليهم السّلام قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».

(١) الكافي: ٩/٤٠، وتهذيب الأحكام: ١٠٥/٤.

(٢) الطاعون وداء في الجوف.

(٣) الكافي: ٥/٤ ح ١، ووسائل الشيعة: ٣٨٤/٩ ح ١٢٢٩٥.

(٤) دعائم الإسلام: ٢٤٢/١، ووسائل الشيعة: ٣٨٦/٩ ح ١٢٣٠٠.

(٥) شرح أصول الكافي: ٢٤٢/٤، ووسائل الشيعة: ٢٦٩/٦ ح ٣.

وروى عبد الله بن سليمان قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن صنائع المعروف تدفع مصارع السّوء».

وهذا من جملة خواصّه في الدّنيا ومنها أيضاً زيادة البركة.

روى السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن البركة أسرع إلى البيت الذي يمتار منه «فيه خ» المعروف من الشفرة إلى سنام البعير أو من السّيل إلى منتهاه»[١].

وأمّا ثمراته الأخروية فكثيرة أشيرت إليها في أخبار متفرقة ففي **«الفقيه»** قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوّل من يدخل الجنة المعروف وأهله وأوّل من يرد عليّ الحوض»، وقال صلى الله عليه وآله: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وتفسيره انه إذا كان يوم القيامة قيل لهم هبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنة»، وقال صلى الله عليه وآله: «كلّ معروف صدقة والدّال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان»[٢].

وقال الصّادق عليه السلام: «أيما مؤمن أوصل إلى أخيه المؤمن معروفاً فقد أوصل ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله»، وقال عليه السلام: «المعروف شيء سوى الزكاة فتقربوا إلى الله عزّ وجلّ بالبر وصلة الرّحم»، وقال عليه السلام: «رأيت المعروف كاسمه وليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه، وذلك يراد منه، وليس كلّ من يحبّ ان يصنع المعروف إلى الناس يصنعه وليس كلّ من يرغب فيه يقدر عليه ولا كل من يقدر عليه يوزن له فيه فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والاذن فهنالك تمت السّعادة للطالب والمطلوب إليه».

وقال الصّادق عليه السلام أيضاً: «رأيت المعروف لا يصلح إلاّ بثلاث خصال: تصغيره، وستره، وتعجيله فإنّك إذا صغرته عظمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تمّمته، وإذا عجلته هنأته، وان كان غير ذلك محقته ونكدته»، ورواه في **«الكافي»** بإسناده عنه عليه السلام نحوه، وهو إشارة إلى بعض آداب صنع المعروف[٣].

ومن جملتها أيضاً ما أشير إليه في رواية مفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا مفضل إذا أردت أن تعلم إلى خير يصير الرجل أم إلى شرّ انظر إلى أين يضع معروفه، فإن كان يضع معروفه عند أهله فاعلم أنّه يصير إلى خير، وان كان يضع معروفه عنه غير أهله فاعلم أنه ليس له في الآخرة من خلاق»[٤].

---

(١) الكافي: ٤/ ٦ ح ٦، ووسائل الشيعة: ٩/ ٣٨٧ ح ١٢٣٠٣.

(٢) الكافي: ٤/ ٢٧ ح ٤، والخصال: ١٣٤ ح ١٤٥.

(٣) الخصال: ١٣٣ ح ١٤٣، ومكارم الأخلاق: ١٣٦.

(٤) الكافي: ٢/ ٢٨٦، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٣٠٠ ح ٢١٦٠٠.

هنا انتهى الجزء السابع من هذه الطبعة النفيسة القيمة، وتم تصحيحه وترتيبه وتهذيبه بيد العبد «السيد إبراهيم الميانجي» عفى عنه وعن والديه وذلك في اليوم الثالث من شهر رجب الأصب سنة ١٣٨٠ ويليه إن شاء الله الجزء الثامن، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

محتوى الجزء السابع من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

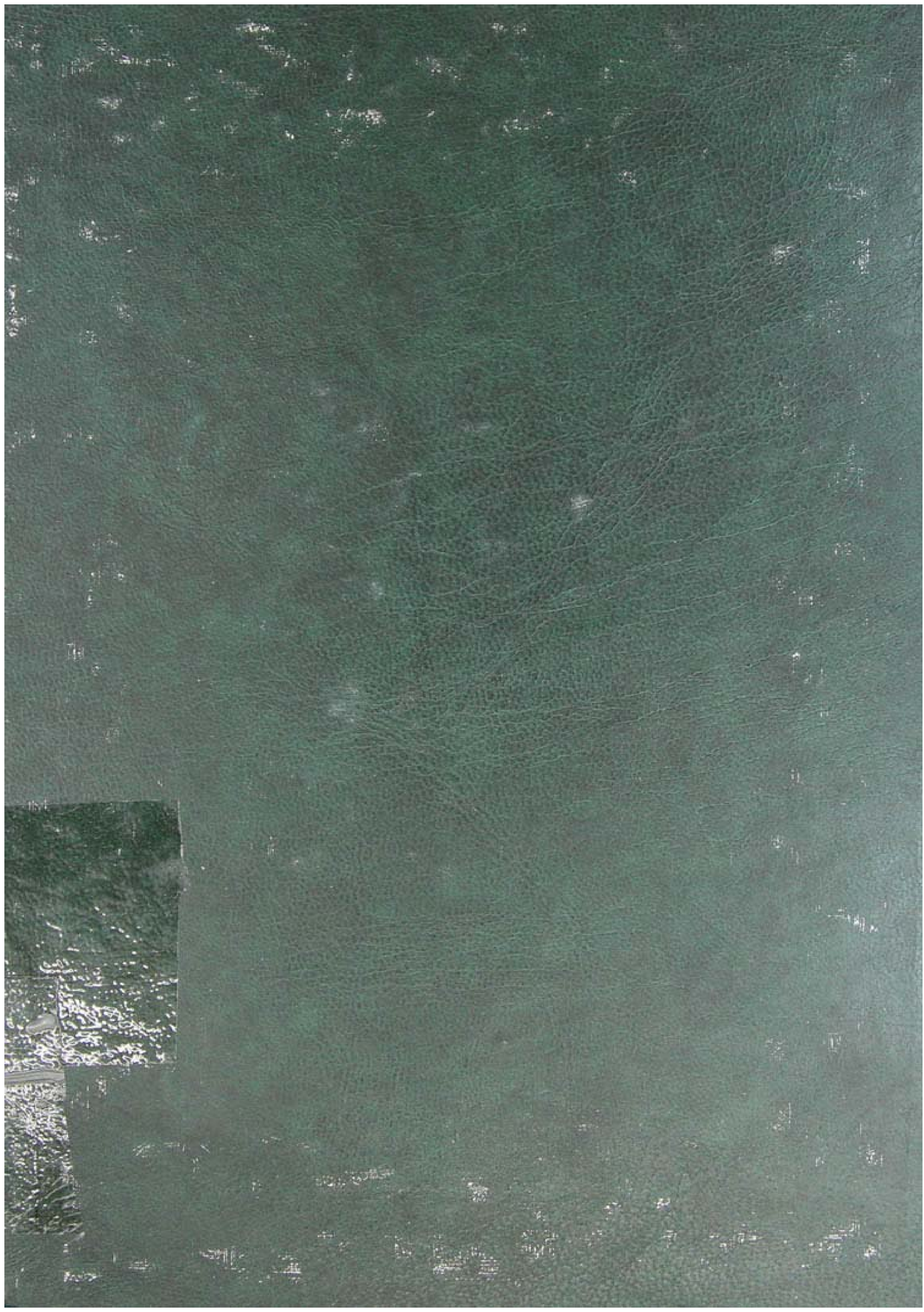

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الثامن

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ثمّ أنّه عليه السلام لما فرغ من تعداد أفضل الوسائل إلى الله سبحانه، وأشرف ما يتقرّب به إليه تعالى أردفه بالأمر بما هو موجب لكماله وتمامه فقال عليه السلام:

(أفيضوا) أي اندفعوا **(في ذكر الله فإنه أحسن الذكر)** لما يترتب عليه من الثمرات الدّنيويّة والأخروية حسبما عرفته في «**التنبيه الثاني**» من تنبيهات الفصل السّادس من فصول الخطبة الثانية والثمانين **(وارغبوا فيما وعد المتّقين)**

بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

والرّغبة فيه إنّما هو بتحصيل التقوى والاتّصاف بأوصاف المتّقين الذين:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦ ـ ١٧][١].

(فإنّ وعده) سبحانه **(أصدق الوعد)** أي لا يخلف الميعاد لأن الخلف منشأهُ إما البخل أو العجز، وكلاهما محالان على الله سبحانه **(واقتدوا بهدى نبيّكم)** أي بسيرته صلى الله عليه وآله **(فإنّه أفضل الهدى)** لأنّه إذا كان أفضل الأنبياء كانت سيرته أفضل السّير **(واستنّوا بسنّته)** أي بطريقته سلام الله عليه وآله **(فإنّها أهدى السّنن)** وأقرب الطرق الموصلة إلى الحق سبحانه **(وتعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث)**، أي أحسن الكلام، وسمّى الكلام به لتجدده وحدوثه شيئاً فشيئاً، وقد مضى في شرح الفصل السّابع عشر من فصول الخطبة الأولى بعض الأمور المهمّة المتعلّقة بالقرآن، ولعلوّ مقامه وسموّ مكانه وحسن نظمه وجلالة قدره وبعد غوره وعذوبة معناه ودقة مغزاه واشتماله على ما لم يشتمل عليه غيره من كلام المخلوقين، كان أحسن الكلام وأمر عليه السلام بتعلّمه بذلك الاعتبار مضافاً إلى ما يترتّب على تعلّمه من عظيم الفوائد ومزيد القسم والعوائد.

كما يشهد به ما رواه ثقة الإسلام الكلينيّ عطر الله مضجعه عن عليّ بن محمّد عن عليّ بن العبّاس عن الحسين بن عبد الرّحمٰن عن سفيان الحريري عن أبيه عن سعد الخفاف

(١) تفسير جوامع الجامع: ١/ ٢٧٠، وتفسير الأصفى: ١/ ١٤٢.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا سعد تعلّموا القرآن فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليه الخلق، والنّاس صفوف عشرون ومائة ألف صفّ ثمانون ألف صفّ أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وأربعون ألف صفّ من سائر الأمم، فيأتي على صفّ المسلمين في صورة رجل فيسلم فينظرون إليه، ثمّ يقولون: لا إله إلا الله الحليم الكريم إن هذا الرجل من المسلمين نعرفه بنعته وصفته غير أنه كان أشدّ اجتهاداً منافي القرآن، فمن هناك أعطى من البهاء والجمال والنور ما لم نعطه، ثمّ يتجاوز حتّى يأتي على صفّ الشهداء فينظر إليه الشهداء ثمّ يقولون: لا إله إلا الله الرّبّ الرحيم إن هذا الرجل من الشهداء نعرفه بسمته وصفته غير أنه من شهداء البحر، فمن هناك أعطى من البهاء والفضل ما لم نعطه، قال فيجاوز حتّى يأتي صف شهداء البحر في صورة شهيد، فينظر إليه شهداء البحر فيكثر تعجبهم ويقولون إن هذا من شهداءِ البحر نعرفه بسمته وصفته، غير أن الجزيرة التي أصيب فيها كانت أعظم هولاً من الجزيرة التي أصبنا فيها فمن هناك أعطى من البهاء والجمال والنّور ما لم نعطه، ثمّ يجاوز حتّى يأتي صف النّبيين والمرسلين في صورة نبيّ مرسل، فينظر النّبيون والمرسلون إليه، فيشتدّ لذلك تعجبهم ويقولون: لا إله إلاّ الله الحليم الكريم إنّ هذا النبيّ مرسل نعرفه بصفته وسمته غير أنه أعطى فضلاً كثيراً، قال: فيجتمعون فيأتون رسول الله صلى الله عليه وآله فيسألونه ويقولون: يا محمّد من هذا؟ فيقول لهم: أو ما تعرفونه؟ فيقولون: ما نعرفه هذا ممّن لم يغضب الله عليه فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا حجة الله على خلقه فيسلم، ثم يجاوز حتّى يأتي على صف الملائكة في صورة ملك مقرّب، فينظر إليه الملائكة فيشتد تعجبهم ويكبر ذلك عليهم، لما رأوا من فضله ويقولون: تعالى ربّنا وتقدّس إن هذا العبد من الملائكة نعرفه بسمته وصفه غير أنّه كان أقرب الملائكة إلى الله عزّ وجلّ مقاماً، فمن هناك ألبس من النور والجمال ما لم نلبس، ثم يجاوز حتّى ينتهي إلى ربّ العزة تبارك وتعالى فيخرّ تحت العرش فيناديه تبارك وتعالى: يا حجتي في الأرض وكلامي الصادق الناطق ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع، فيرفع رأسه فيقول الله تبارك: كيف رأيت عبادي؟ فيقول: يا رب منهم من صانني وحافظ عليّ ولم يضيع شيئاً، ومنهم من ضيّعني واستخفّ بحقي وكذب بي وأنا حجّتك على جميع خلقك فيقول الله تبارك وتعالى وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبنّ عليك اليوم أحسن الثواب، ولأعاقبنّ عليك اليوم أليم العقاب، قال فيرفع القرآن رأسه في صورة أخرى قال: فقلت له: يا با جعفر في أيّ صورة يرجع؟ قال: في صورة رجل شاحب متغير ينكره أهل الجمع، فيأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه ويجادل به أهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول: ما تعرفني فينظر إليه الرّجل فيقول: ما أعرفك يا عبد الله، قال: فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الأوّل، فيقول: ما تعرفني؟ فيقول: نعم، فيقول القرآن: أنا الذي أسهرت ليلك وأنصبت عيشك، وسمعت فيّ الأذى ورجمت بالقول، إلا وأن كل تاجر قد استوفى تجارته وأنا وراءك اليوم، قال: فينطلق به إلى ربّ العزّة تبارك وتعالى فيقول: يا ربّ عبدك وأنت أعلم به قد كان نصباً بي مواظباً عليّ

يعادي بسببي ويحبّ فيّ ويبغض، فيقول الله عزّ وجل ادخلوا عبدي جنّتي واكسوه حلة من حلل الجنّة وتوجوه بتاج، فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن فيقول له: هل رضيت بما صنع بوليك؟ فيقول: يا رب إنيّ أستقل هذاله فزده مزيد الخير كله، فيقول عز وجل: وعزّتي وجلالي وعلوي وارتفاع مكاني لأنحلنّ له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له، ولمن كان بمنزلته إلا أنّهم شباب لا يهرمون، وأصحاء لا يسقمون، وأغنياء لا يفتقرون، وفرحون لا يحزنون، وأحياء لا يموتون، ثم تلا هذه الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

قال: قلت: يا أبا جعفر وهل يتكلّم القرآن؟ فتبسّم عليه السلام ثم قال: رحم الله الضّعفاء من شيعتنا إنهم أهل تسليم، ثمّ قال عليه السلام: نعم يا سعد والصّلاة تتكلّم، وله صورة وخلق تأمر وتنهى، قال سعد: فتغيّر لذلك لوني وقلت: هذا شيء لا أستطيع التكلّم به في النّاس، فقال أبو جعفر عليه السلام: وهل النّاس إلاّ شيعتنا، فمن لم يعرف الصّلاة فقد أنكر حقّنا، ثم قال: يا سعد أسمعك كلام القرآن؟ قال سعد: فقلت: بلى صلى الله عليك، فقال: إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر، فالنهي كلام والفحشاء والمنكر رجال ونحن ذكر الله ونحن أكبر[1].

(**وتفقّهوا فيه**) أي تفهّموا في القرآن (**فإنه ربيع القلوب**)، واستعار له لفظ الرّبيع باعتبار كونه جامعاً لأنواع الأسرار العجيبة والنكات البديعة والمعاني اللّطيفة والعلوم الشريفة التي هي متنزّه القلوب، كما أن الرّبيع جامع لأنواع الأزهار والرياحين التي هي مطرح الأنظار ومستمع الأبصار ومحصل المعنى، أنّه يجب عليكم أخذ الفهم في القرآن كي لا تحرموا من فوائده ولا تغفلوا عن منافعه فإنه بمنزلة الرّبيع المتضمن للفوائد الكثيرة والمنافع، العظيمة هذا.

ويحتمل أن يكون المراد بالتفقّه التبصر على حذو ما ذهب إليه بعض الشارحين في شرح قوله صلى الله عليه وآله: (**من حفظ على أمّتي أربعين حديثاً بعثه الله فقيهاً عالماً**)[2]، حيث قال: ليس المراد به الفقه بمعنى الفهم فإنه لا يناسب المقام، ولا العلم بالأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية فإنه مستحدث، بل المراد البصيرة في أمر الدّين، والفقه أكثر ما يأتي في الحديث بهذا المعنى، وإليها أشار صلى الله عليه وآله بقوله: (**لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة، ثمّ يقبل على نفسه فيكون لها أشدّ مقتاً**).

ثمّ قال: هذا البصيرة إمّا موهبية وهي التي دعا بها النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام حين

(١) بحار الأنوار: ٧/ ٣٢١، والتفسير الصافي: ٤/ ١١٨ ح ٤٥.

(٢) كشف الخفاء: ٢/ ٢٤٦ ح ٢٤٦٥، وتدوين القرآن: ٤٠١.

أرسله إلى اليمن حيث قال: اللّهم فقهه في الدين[١]، أو كسبية وهي التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال لولده الحسن عليه السلام: وتفقه يا بني في الدّين[٢]، انتهى.

وعلى هذا الاحتمال، فتعليل الأمر بالتفقه بكونه ربيعاً إشارة إلى أن الرّبيع كما أنّه مورد الاعتبار بما أودع الله فيه من عجائب العبر والأسرار، وأخرج فيه من بدائع النبات والأزهار وغيرها من شواهد الحكمة وآثار القدرة، فكذلك القرآن محلّ الاستبصار بما تضمنه من حكاية حال الأمم الماضية والقرون الخالية وتفصيل ما أعطاه الله سبحانه للمطيعين من عظيم الثواب وجزاه للمسيئين من أليم العقاب والعذاب، وغير ذلك مما فيه تذكرة لأولي الأبصار وتبصرة لأولي الألباب.

(واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور) من الأسقام الظاهرة والباطنة والأمراض الحسية والعقلية.

كما يدلّ عليه ما رواه في **«الكافي»** بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدّجى، فليجل جال بصره ويفتح للضياء نظره، فإنّ التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنّور.

وفيه عن أبي جميلة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: كان في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه: اعلموا أن القرآن هدى النهار ونور الليل المظلم على ما كان من جهل وفاقة.

وفيه عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النّوفلي عن السّكوني عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال: شكى رجل النّبي صلى الله عليه وآله وجعاً في صدره فقال: استشف بالقرآن فإنّ الله عز وجل يقول ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، إلى غير ذلك مما لا نطيل بروايتها وتأتي طائفة كثيرة منها في شرح الفصل الرابع من فصول الخطبة المائة والسابعة والتسعين إن شاء الله تعالى.

(وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص) يعني أنه لما كان أحسن القصص وأنفعها كما يرشد إليه قوله تعالى: نحن نقص عليك أحسن القصص، لا جرم ينبغي أن يحسن قدرته وأن يتلى حق التلاوة بحسن التّدبير والنظر لتدرك منافع قصصه، وتنال بها فيها من الفوائد العظيمة.

روى في **«الكافي»** بإسناده عن عبد الله بن سليمان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: ورتّل القرآن ترتيلاً، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: بيّنه تبياناً ولا تهذّه هذّ الشعر

(١) شرح أصول الكافي: ٢/ ٢٩ ح ٣، والأمالي: ١٥٨.

(٢) شرح أصول الكافي: ٢/ ٢٩ ح ٣، والأمالي: ١٥٨.

(٣) الكافي: ٢/ ٦٠٠ ح ٧، وعدة الداعي: ٢٧٤.

ولا تنثره نثر الرّمل، ولكن أفزعوا قلوبكم القاسية ولا يكن همّ أحدكم آخر السّورة(١).

ثمّ إنّه عليه السلام لما أمر بتعلّم القرآن وعقبّه بأمور ملازمة للعمل به من التفقه فيه والاستشفاء بنوره وحسن تلاوته، علّل ذلك بقوله: **(فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر)** أي المتحير **(الذي لا يستفيق من جهله)** في اشتراكهما في التورّط في الضلال والعدول عن قصد السبيل **(بل الحجة عليه أعظم)** لانقطاع معذرته بمعرفته وعدم تمكنه من أن يعتذر ويقول: إنّا كنا عن هذا غافلين.

وقد مرّ في شرح الفصل الثاني من فصول الخطبة الثانية والثمانين تحقيق الكلام في ذلك بما لا مزيد عليه، وروينا هنالك عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: يا حفص يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد(٢) **(والحسرة له ألزم)** كما يوضحه رواية سليم بن قيس الهلالي المتقدمة ثمة.

وقال الشارح البحراني «قد»: إن النفوس الجاهلة غير عالمة بمقدار ما يفوتها من الكمال بالتفصيل، فإذا فارقت أبدانها فهي، وإن كانت محجوبة عن ثمار الجنة وما أعدّها الله فيها لأَولياته العلماء، إلا أنها لما لم تجد لذّتها ولم تطعم حلاوة المعارف الإلهية لم تكن لها كثير حسرة عليها ولا أسف على التقصير في تحصيلها، بخلاف العارف بها العالم بنسبتها إلى اللذات الدّنيوية، فإنّه بعد المفارقة إذا علم وانكشف له أن الصارف له والمانع عن الوصول إلى حضرة جلال الله هو تقصيره في العمل بما علم مع علمه بمقدار ما فاته من الكمالات والدّرجات، كان أسفه وحسرته على ذلك أشدّ الحسرات، وجرى ذلك مجرى من علم قيمة جوهرة ثمينة تساوي جملة من المال، ثم اشتغل عن تحصيلها ببعض لعبه فإنّه يعظم حسرته عليها وندمه على التفريط فيها بخلاف الجاهل بقيمتها.

(وهو عند الله ألوم) وشدّة اللائمة مساوق لشدّة العقوبة، وهو باعتبار أن عدم قيامه بوظائف علمه وأتباعه هواه كاشف عن منتهى جرأته على مولاه، فبذلك يستحقّ من اللوم والعتاب والخزي والعذاب ما لا يستحقه غيره ممن ليس له هذه الجرأة، فهو عند الله أشد لوماً وعتاباً، وأعظم نكالاً وعقاباً.

تكملة

إعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة حسبما أشرنا إليه ملتقطة من خطبة طويلة روى تمامها

(١) الكافي: ٢/٦١٤ ح ١، ووسائل الشيعة: ٦/٢٠٧ ح ٧٧٤٣.

(٢) الكافي: ١/٤٧ ح ١، وبحار الأنوار: ٧٥/١٩٣ ح ٧.

الشيخ المحدث الثقة أبي محمّد الحسن بن عليّ بن شعبة قدس الله سرّه في كتاب «**تحف العقول**».

قال: خطبته عليه السلام المعروفة بالديباج: الحمد لله فاطر الخلق وخالق الإصباح ومنشر الموتى وباعث من في القبور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله.

عباد الله إن أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله جل ذكره الإيمان بالله وبرسله وما جاءت به من عند الله، والجهاد في سبيله فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة، وإقامة الصلاة فإنّها الملة، وإيتاء الزكاة فإنها فريضة وصوم شهر رمضان فإنّه جنة حصينة، وحجّ البيت والعمرة فإنهما ينفيان الفقر ويكفّران الذنب ويوجبان الجنة، وصلة الرّحم فإنها ثروة في المال ومنساة في الأجل وتكثير للعدد، والصّدقة في السّر فإنها تكفّر الخطأ وتطفيء غضب الربّ تبارك وتعالى، والصّدقة في العلانية فإنها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف فإنها تقي مصارع السوء، وأفيضوا في ذكر الله جلّ ذكره فإنه أحسن الذكر، وهو أما من النقاق وبراءة من النار، وتذكير لصاحبه عند كلّ خير يقسمه الله جلّ وعزّ له دويّ تحت العرش، وارغبوا فيما وعد المتقون فإن وعد الله أصدق الوعد، وكلّما وعد فهو آتٍ كما وعد، فاقتدوا بهدي رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه أفضل الهدي، واستنوا بسنته فإنها أشرف السنن، وتعلّموا كتاب الله تبارك وتعالى فإنه أحسن الحديث وأبلغ الموعظة، وتفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنّه شفاء لما في الصّدور، وأحسنوا تلاوته فإنّه أحسن القصص، وإذا قرأ عليكم القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون، وإذا هديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم من علمه لعلّكم تفلحون.

فاعلموا عباد الله أن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم وهو عند الله ألوم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه مثل ما على هذا الجاهل المتحير في جهله، وكلاهما حائر بائر مضلّ مفتون مبتور ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون.

عباد الله لا ترتابوا فتشكوا، ولا تشكوا فتكفروا، ولا تفكروا فتندموا، ولا ترخصوا لأنفسكم فتدهنوا وتذهب بكم الرّخص مذاهب الظلمة فتهلكوا، ولا تداهنوا في الحقّ إذا ورد عليكم وعرفتموه فتخسروا خسراناً مبيناً.

عباد الله إن من الحزم أن تتّقوا الله، وإن من العصمة أن لا تغترّوا بالله.

عباد الله إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربّه، وأغشهم لنفسه أعصاهم له.

عباد الله إنه من يطع الله يأمن ويستبشر، ومن يعصيه يخب ويندم ولا يسلم.

عباد الله سلوا الله اليقين، فإن اليقين رأس الدّين، وارغبوا إليه في العافية فإن أعظم النعمة العافية فاغتنموها للدنيا والآخرة وارغبوا إليه في التوفيق فإنه أس وثيق، واعلموا أنّ خير ما لزم القلب اليقين، وأحسن اليقين التقى، وأفضل أمور الحق عزائمها، وشرها محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وبالبدع هدم السّنن، المغبون من غبن دينه، والمغبوط من سلم له دينه وحسن يقينه، والسّعيد من وعظ بغيره، والشقي من انخدع لهواه.

عباد الله اعلموا أنّ يسير الرّياء شرك، وإن إخلاص العمل اليقين، والهوى يقود إلى النار، ومجالسة أهل الهوى ينسي القرآن ويحضر الشّيطان، والنسيء زيادة في الكفر وأعمال العصاة تدعو إلى سخط الرحمٰن وسخط الرحمٰن يدعو إلى النّار، ومحادثة النساء تدعو إلى البلاء وتزيغ القلوب، والرّمق لهنّ يخطف نور أبصار القلوب، ولمح العيون مصائد الشيطان، ومجالسة السّلطان يهيج النيران.

عباد الله أصدقوا فإنّ الله مع الصّادقين، وجانبوا الكذب فإنّه مجانب للإيمان وإن الصّادق على شرف منجاة وكرامة، والكاذب على شفا مهواة وهلكة، وقولوا الحق تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها، وصلوا أرحام من قطعكم، وعودوا بالفضل على من حرمكم، وإذا عاقدتم فأوفوا، وإذا حكمتم فاعدلوا، وإذا ظلمتم فاصبروا، وإذا أُسيء إليكم فاعفوا واصفحوا كما تحبّون أن يعفى عنكم، ولا تفاخروا بالآباء، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان، ولا تمازحوا، ولا تغاضبوا، ولا تباذخوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، ولا تحاسدوا فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب، ولا تباغضوا فإنها الحالقة، وافشوا السّلام في العالم، وردّوا التحية على أهلها بأحسن منها، وارحموا الأرملة واليتيم، وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين وفي سبيل الله وابن السّبيل والسّائلين، وفي الرّقاب والمكاتب والمسكين، وانصروا المظلوم، واعطوا الفروض، وجاهدوا أنفسكم في الله حق جهاده فإنّه شديد العقاب، وجاهدوا في سبيل الله، وأقروا الضيف وأحسنوا الوضوء، وحافظوا على الصّلوات الخمس في أوقاتها، فإنها من الله عزّ وجلّ بمكان.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] ﴿عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟﴾ [المائدة: ٢] ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

واعلموا عباد الله أن الأمل يذهب العقل ويكذب الوعد ويحثّ على الغفلة ويورث الحسرة، فأكذبوا الأمل فإنّه غرور وأن صاحبه مأزور، فاعملوا في الرغبة والرهبة فإن نزلت بكم رغبة فاشكروا واجمعوا معها رغبة، فإنّ الله قد تأذّن للمسلمين بالحسنى ولمن شكر بالزيادة، فإنّي لم أر مثل الجنة نام طالبها، ولا كالنّار نام هاربها، ولا أكثر مكتسباً ممن كسبه

ليوم تذخر فيه الذخائر وتبلى فيه السّرائر، وإن من لا ينفعه الحق يضرّه الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تضرّه الضّلالة، ومن لا ينفعه اليقين يضرّه الشّك، وإنكم قد أمرتم بالظّعن ودللتم على الزّاد، ألا أن أخوف ما أتخوّف عليكم إثنان: طول الأمل واتباع الهوى ألا وإنّ الدّنيا أدبرت وآذنت بانقلاع، ألا وأن الآخرة قد أقبلت وآذنت باطلاع، ألا وإن المضمار اليوم والسباق غداً، ألا وإن السبقة الجنّة والغاية النار، ألا وإنكم في أيّام مهل من ورائه أجل يحثه عجل، فمن أخلص لله عمله في أيّامه قبل حضور أجله نفعه عمله ولم يضرّه أجله، ومن لم يعمل في أيّام مهله ضرّه أجله ولم ينفعه عمله.

عباد الله أفزعوا إلى قوام دينكم بإقام الصّلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة في حينها، والتضرّع والخشوع وصلة الرّحم، وخوف المعاد وإعطاءِ السّائل وإكرام الضعيفة والضعيف وتعلم القرآن والعمل به، وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأَمانة إذا ائتمنتم، وارغبوا في ثواب الله وارهبوا عذابه وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، وتزوّدوا من الدّنيا ما تحرزون به أنفسكم واعملوا بالخير تجزوا بالخير يوم يفوز بالخير من قدّم الخير، أقول قولي وأستغفر الله لي ولكم[١].

بيان

لا يخفى على الضّابط المحيط بما تقدّمت من الخطب أن الأشبه أن تكون الخطبة الثّامنة والعشرون، وأواخر الخطبة الخامسة والثمانين، وهذه الخطبة التي نحن في شرحها جميعاً ملتقطة من تلك الخطبة المعروفة بالدّيباج، فإنّك إذا لاحظتها ترى توافق هذه الخطبة لأَوائل تلك الخطبة، وأواخر الخامسة والثمانين لأَواسطها، والثامنة والعشرين لأَواخرها، وإن كان بينها اختلاف يسير في بعض العبارات، وتقديم وتأخير في بعض الفقرات، ولا ضير فيه فإنّه من تفاوت مراتب حفظ الرّواة في القوّة والضعف، وهو عمدة جهات الاختلاف في الأَخبار كما هو غير خفي على أولى الأبصار.

(١) تحف العقول: ١٥٣، ونهج السعادة: ٣/ ٢٢١.

الترجمة

از جمله خطبه های شریفه آن حجت زمان و قدوت عالمیان است در وصف شعائر اسلام و حثّ و ترغیب بر آن، می فرماید:

به تحقیق بهترین چیزی که تقرّب می کنند به آن تقرّب جویندگان به سوی پروردگار عالمیان که منزّه و مقدّس است از هرگونه عیب و نقصان، ایمان و تصدیق است به ذات او و به پیغمبر برگزیده او و جهاد است در راه او، پس به تحقیق که جهاد بلندی اسلام است، دیگر از اسباب تقرّب کلمه اخلاص یعنی کلمه طیبه لا اله الاّ الله است، پس به درستی که آن کلمه مبارکه توحید است و معرفت؛ دیگر برپا داشتن نماز پنج گانه، پس به تحقیق که او است ملّت و دادن زکات است که او است فرض و واجب و روزه ماه مبارك رمضان است که سپر است از عقوبت و حجّ خانه خدا و عمره به جا آوردن است در آن که آن حجّ و عمره برمی دارند فقر و پریشانی را و می شویند گناه را و صله ارحام است که مایه افزونی مال است و درازی عمر و صدقه دادن است پنهان که کفّاره گناهان است و صدقه دادن است آشکارا که دفع کننده مردن زشت است چون سوختن و غرق شدن و مثل آن و کارهای نیکو کردن است که نگه می دارد کردن آنها از کشته شدن در مواضع ذلّت.

کوچ نمایید و سیر کنید در ذکر خدا، پس به درستی که ذکر خدا بهترین ذکرها است و رغبت نمایید به چیزی که وعده فرموده پرهیزکاران را، پس به تحقیق که وعده او راست ترین وعده ها است و متابعت کنید به صیرت پیغمبر خودتان که بهترین سیرتها است و راه بروید به طریقه او که هدایت کننده ترین طریقها است و یاد بگیرید و بیاموزید قرآن کریم را که بهترین کلامها است و بفهمید نکات آن را که آن بهار قلب ها است و طلب شفا کنید با نور قرآن که آن شفای سینه ها است و خوب تلاوت نمایید آن را، پس به درستی که آن نافع ترین قصّه ها است. به تحقیق که عالمی که به علم خود عمل نکند مثل جاهل و نادان سرگردانی است که از مستی و جهالت خود به هوش نیاید، بلکه حجّت خدا بر آن عالم بزرگتر است و حسرت و افسوس مر آن علم را لازم تر است و او در نزد خدا بیشتر مستحقّ مذمّت و ندامت است.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والعاشرة من المختار في باب الخطب

ورواها المحدث العلامة المجلسي (قد) في «البحار» من كتاب مطالب السؤول باختلاف كثير تطلع عليه إن شاء الله بعد شرح ما رواه الرضي (قد) وهو قوله:

أَمّا بَعْدُ فَإِنّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنيا فَإِنّها حُلْوٌ خَضِرَةٌ حُفَّتِ بِالشَّهَواتِ، وتَحَبَّبَتْ بِالعاجِلَةِ، ورَاقَتْ بِالْقَليلِ، وتَحَلَّتْ بِالآمالِ، وتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ، لاَ تَدُومُ حَبْرَتُها، ولا تُؤْمَنُ فَجْعَتُها، غَرّارَةٌ، ضَرّارَةٌ، حائِلَةٌ زائِلَةٌ، نافِذَةٌ، بائِدَةٌ، أَكّالَةٌ، غَوّالَةٌ، لا تَعْدُو إِذا تَناهَتْ إِلى أُمْنِيَة أَهْلِ الرَّغْبَةِ فيها وَالرِّضا بِها أَنْ تَكُونَ كَما قالَ اللهُ تعالى سُبْحانَهُ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ لَمْ يَكُنْ امْرُءٌ مِنها في حَبْرَةٍ إِلاّ أَعْقَبَتْهُ بَعْدَها عِبْرَةً، ولَمْ يَلْقَ مِنْ سَرّائِها بَطْناً إِلاّ مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرّائِها ظَهراً، ولَمْ تَطُلَّهُ فيها دِيمَةُ رَخاءٍ إِلاّ هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاءٍ، وحَرِيٌّ إِذا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وإِنْ جانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلي أَمَرَّ مِنْها جانِبٌ فَأَوْبى، لا يَنالُ امْرُءٌ مِنْ غَضارَتِها رَغَباً إِلاّ أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوائِبِها تَعَباً، ولا يُمْسي مِنْها في جَناحِ أَمْنٍ إِلاّ أَصْبَحَ عَلى قَوادِمِ خَوْفٍ، غَرّارَةٌ غُرُورٌ ما فيها، فَانِيَةٌ فانٍ مَنْ عَلَيْها، لا خَيرَ في شَيْءٍ مِنْ أَزْوادِها إِلاّ التَّقْوى، مَنْ أَقَلَّ مِنهَا اسْتَكْثَرَ مِمّا يُؤْمِنُهُ، ومَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْها اسْتَكْثَرَ مِمّا يُوبِقُهُ، وزالَ عَمّا قَليلٍ عَنْهُ، كَمْ مَنْ واثِقٍ بِها قَدْ فَجَعَتْهُ، وذي طُمَأْنينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ، وذي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقيراً، وذي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَليلاً، سُلْطانُها دُوَلٌ، وعَيْشُها رَنِقٌ، وعَذْبُها أُجاجٌ، وحُلْوُها صَبِرٌ، وغِذاؤُها سِمامٌ، وأَسْبابُها رِمامٌ، حَيُّها بِعَرَضِ مَوْتٍ، وصَحيحُها بِعَرَضِ سَقَمٍ، مُلْكُها مَسْلُوبٌ، وعَزيزُها مَغْلُوبٌ، ومَوْفُورُها مَنْكُوبٌ، وجارُها مَحْرُوبٌ، أَلَسْتُمْ في مَساكِنِ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْماراً، وأَبْقى آثاراً، وأَبْعَدَ آمالاً، وأَعَدَّ عَديداً، وأَكْثَفَ جُنُوداً، تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وآثَرُوها أَيَّ إِيثارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنها بِغَيرِ زادٍ مُبَلِّغٍ، ولا ظَهْرٍ قاطِعٍ، فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً، بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالفَوادِحِ، وأَوْهَنَتْهُمْ بِالْقَوارِعِ، وضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوائِبِ، وعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَناخِرِ، ووَطِئَتْهُمْ بِالْمَناسِمِ، وأَعانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَها لِمَنْ دانَ لَها وآثَرَها وأَخْلَدَ إِلَيْها حَتّى ظَعَنُوا عَنها لِفِراقِ الأَبَدِ، هَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاّ السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلاّ الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلاّ الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلاّ النَّدامَةَ، أَفَهذِهِ تُؤْثِرُونَ؟ أَمْ إِلَيْها تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْها تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْها ولَمْ يَكُنْ فيها عَلى وَجَلٍ مِنْها، فَاعْلَمُوا وأَنْتُمْ تَعْلَمونَ بِأَنَّكُمْ تارِكُوها وظاعِنُونَ عَنْها، وَاتَّعِظُوا فيها بِالَّذينَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً، حُمِلُوا إِلى قُبُورِهِمْ، فَلا يُدْعَوْنَ رُكْباناً، وأُنْزِلُوا الأَجداثَ فَلا يُدْعَوْنَ ضِيفاناً، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفيحِ

أَجْنانٌ، ومِنَ التُّرابِ أَكْفانٌ، ومِنَ الرُّفاتِ جيرانٌ، فَهُمْ جيرَةٌ لا يُجيبُونَ داعياً، ولا يَمْنَعُونَ ضَيْماً، ولا يُبالُونَ مَنْدُبَةً، إنْ جيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وإنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا، جَميعٌ وهُمْ آحادٌ، وجيرَةٌ وهُمْ أَبْعادٌ، مُتَدانُونَ لا يَتَزاوَرُونَ، وقَريبُونَ لا يَتَقارَبُونَ، حُلَماءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغانُهُمْ، وجُهَلاءُ قَدْ ماتَتْ أَحْقادُهُمْ، لا يُخْشى فَجْعُهُمْ، ولا يُرْجى دَفْعُهُمْ، إسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأَرْضِ بَطْناً، وبِالسَّعةِ ضيقاً، وبِالأَهْلِ غُرْبَةً، وبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجاؤُها كَما فارَقُوها حفاةً عُراةً، قَدْ ظَعَنُوا بِأَعْمالِهِمْ إلى الحَياةِ الدّائِمَةِ، وَالدّارِ الباقِيَةِ، كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤][1].

اللغة

(**الحبرة**) بفتح الحاء المهملة وضمها أيضاً، وسكون الباء الموحدة النعمة والحسن والوشى و (**حائلة**) من حال الشيء الحول إذا تغيّر و (**غاله**) غولاً من باب قال: قتله و (**الهشيم**) من النبات اليابس المتكسّر ولا يقال له الهشيم وهو رطب و (**ذرت**) الرّيح الشيء ذرواً وأذرّت وذرّته أطارته ونسفته و (**الطّل**) المطر الخفيف ويقال أضعف المطر و (**الدّيمة**) بالكسر المطر يدوم أيّاما في سكون بلا رعد وبرق.

و (**هتنت**) السماء تهتن هتناً وهتوناً وتهاتنت أنصبت، و (**المزنة**) القطعة من السّحاب ذي الماء أو الأبيض منه و (**رغباً**) بفتح الغين مصدر رغب مثل تعب تعباً، و (**أرهقته**) تعباً ألحقت ذلك به وأغشته إيّاه، و (**القوادم**) مقاديم الريش و (**منتصرة**) في أكثر النسخ بالنون ثم التاء من الإنتصار بمعنى الانتقام، وفي بعضها بالعكس من تنصر أي تكلّف النّصرة و (**الأُبهة**) وزان سكّرة العظمة والبهجة والكبر والنخوة و (**الصبر**) بكسر الباء نبات معروف، ثمّ يطلق على كلّ مرّو (**السمام**) بالكسر جمع السّم مثلثة و (**المناسم**) جمع منسم بكسر السّين كمسجد وهو باطن الخف، وقيل هو للبعير كالسنبك للفرس و (**السغب**) محركة الجوع في تعب و (**الصفيح**) وجه كلّ شيء عريض.

الإعراب

قوله: (**أن تكون كما قال الله تعالى**) بحذف حرف الجر متعلقة بتعدو أي لا تتجاوز عن أن تكون، وحذفها عن (**أن**) المصدرية وأختها أن مطرد ومنه قوله سبحانه:

﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

وفاعل (**حرى**) ضمير مستكن عائد إلى الدّنيا، والتذكير باعتبار أن المراد وأن شأنها جدير بأن يفعل كذا، (**واللام**) في قوله: (**له منتصرة**)، للتعليل، وفي قوله: (**له متنكرة**)

---

(١) تفسير نور الثقلين: ٣/٤٦٣ ح ١٨٧، وتفسير الميزان: ١٤/٣٣٦.

للتقوية، وعلى رواية منتصرة من التنصر، فاللام ثمة أيضاً للتقوية كما لا يخفى **(وجانب)** في قوله: **(إن جانب أعذوذب)** (ا هـ)، مرفوع بفعل محذوف يفسّره ما بعده على حد قوله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦].

(وزال)، عطف على استكثر أي من استكثر منها زال المستكثر منها عما قليل عنه، وقوله: **(السّم في مساكن)**، استفهام تقريري، وقوله عليه السلام: **(تعبّدوا للدنيا)** الجملة استئنافية بيانية وأيّ تعبد، بنصب **(أيّ)** صفة محذوف الموصوف أي تعبدوا للدنيا تعبداً أيّ تعبد، والظاهر أن **(أيّ)** هذه في الأصل هي أيّ الاستفهاميّة، لأن معنى مررت برجل أيّ رجل برجل عظيم أو كامل يسأل عن حاله لأنه لا يعرفه كل أحد حتّى يسأل عنه، ثمّ نقلت عن الاستفهامية إلى الصفة فاعتور عليها إعراب الموصوف.

والاستفهام في قوله **(فهل بلغكم)**، على سبيل الإنكار والإبطال، وفي قوله: **(هل ذوّدتهم إلا السّغب)** للتقرير وفي قوله: **(أفهذه تؤثرون)**، على سبيل التوبيخ والتقريع، وقوله: **(فاعلموا وأنتم تعلمون بأنكم تاركوها)**، تعدية اعلموا **(بالباء)** لتضمينه معنى اليقين، أو أن **(الباء)** زائدة وجملة **(وأنتم تعلمون)** معترضة على حدّ قوله:

ألا هل أتاها والحوادث جمة بأنّ امرء القيس بن تملك يبقرا

فإن جملة والحوادث جمة معترضة بين الفعل أعني أتاها، ومعموله الذي هو **(بأن)** (ا هـ) **(والباء)** زائدة فيه أيضاً، ويحتمل جعل الجملة حالاً من مفعول اعلموا فتكون في محل النصب، وعلى هذا فهي في المعنى قيد لعامل الحال، ووصف له بخلاف ما لو كانت معترضة فإن لها تعلقاً بما قبلها، لكن ليست بهذه المرتبة أشار إلى ذلك صاحب **«الكشاف»** في تفسير قوله:

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

حيث قال: إنّه حال أي عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة في غير موضعها، أو اعتراض، أي وأنتم عادتكم الظلم، هذا.

وفي بعض نسخ المتن: فاعملوا، بدل فاعلموا، وعليه فيكون قوله عليه السلام **(بأنكم معمولاً لتعلمون)**، كما هو واضح.

المعنى

إعلم أن الغرض من هذه الخطبة الشريفة هو التحذير عن الدّنيا والتنفير عنها بالإشارة إلى عيوباتها ومساوئها، والتنبيه على زوالها وفنائها وانقضائها على ما فصّله بقوله:

(**أما بعد فإني أحذّركم الدّنيا فإنّها حلوة خضرة**) أي متصفة بالحلاوة والخضرة، واستعارتهما للدّنيا باعتبار التذاذ النفس بهما وتخصيصهما من بين سائر الأوصاف لكونهما من أقوى المستلذات وأكملها (**حفّت بالشهوات**) يعني أنّها محاطة بالشهوات لا ينال بها إلا بالإنهماك فيها، ولا يمكن إدراكها إلاّ بالاقتحام في مشتهياتها (**وتحبّبت**) إلى النّاس (**بالعاجلة**) أي صارت محبوبة عندهم أو أظهرت المحبة لهم بلذاتها العاجلة الحاضرة الّتي مالت إليها القلوب بسببها، وذلك لأن القلوب إنما تميل إلى العاجل دون الآجل، والنفوس ترغب إلى النقد دون النسية قال الشاعر:

فأطعمنا من فومها وسنامها   شواء وخير الخير ما كان عاجله

(**وراقت بالقليل**) أي أعجبت أهلها بشيء قليل حقير عند متاع الآخرة كماً وكيفاً (**وتحلّت بالآمال**) أي تزيّنت لأهلها بما يؤمّلون فيها من الآمال الّتي أكثرها باطلة (**وتزيّنت**) عند النّاس (**بالغرور**) أي بما هو في نفس الأمر غرور وباطل لا حقيقة له ولا أصل.

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

(**لا تدوم حبرتها**) ونعمتها (**ولا تؤمن فجعتها**) ورزيّتها (**غرارة ضرارة**) أي كثيرة الغرور والضرر (**حائلة زائلة**) أي متغيّرة لا بقاء لها (**نافدة بائدة**) أي فانية هالكة لا دوام لها (**أكالة غوّالة**) أي: كثيرة الأكل والاغتيال للنّاس مثل السّبع العقور الذي يأكل النّاس، وبغتاً لهم أي يأخذهم ويهلكهم من حيث لا يدرون ولا يشعرون (**لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرّضا بها أن تكون كما قال الله تعالى**) يعني أنها إذا بلغت وانتهت إلى غاية ما يريده الراغبون فيها والرّاضون بها لا تعدو ولا تتجاوز عن كون حالها مثل المثل الذي ضرب الله سبحانه لها حيث قال في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فإنّ المراد بالآية تشبيه حالها في نضرتها وبهجتها وزهرتها وكونها على وفق منية أهلها وطبق بغية طالبيها مع ما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النّبات الحاصل من الماء يكون أخضر ناضراً شديد الخضرة والطراوة يعجب الزّارع، ثمّ ييبس فيكون هشيماً تذروه الرياح، وهو من باب التّشبيه المركب على ما حققناه في الدّيباجة.

(**لم يكن امرء منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة**) يعني أن سرورها ولذتها معاقب للحزن والحسرة، ونعمتها منابع للنقمة (**ولم يلق من سرّائها بطناً إلا منحته من ضرّائها**) أي لم يلق امرء من خيرها وفضلها بطناً لها إلاّ بذلته من مشقّتها وشدّتها (**ظهرا**) لها وهو كناية عن كون إقبالها ملازماً لإدبارها، وكون خيرها معقباً لشرّها.

والمقصود أنّه إن أقبلت إلى أحد بالخير والمنفعة واستقبلته بالوجه والبطن عقبت ذلك لا محالة ببذل الضرر والمشقة، وأردفته بالضرورة بالأدبار، وبما ذكرنا علم وجه تخصيص البطن بالسّراء والظّهر بالضراءِ، فإن من يلقى صاحبه بالشر والسّرور يلقاه بوجهه وبطنه، ومن يلقاه بالمساءة والتنكير يلقاه بظهره مولياً عنه دبره.

وقوله: (**منحته**)، من باب الاستعارة التهكمية إذ المنح هو البذل والإعطاء أعني إيصال النّفع، فاستعير لإيصال الضّرر على سبيل التهكم نظير قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، حيث استعير التبشير الذي هو الإخبار بما يظهر سرور المخبر له للإنذار الّذي هو ضدّها بإدخاله في جنسها على سبيل التهكّم، أي أنذرهم بعذاب أليم.

(**ولم تطلّه فيها ديمة رخاء إلاّ هتنت عليه مزنة بلاء**) إسناد هتنت إلى مزنة من باب التوسّع والمعنى أنّه لم تمطر على أحد في الدّنيا ديمة أي مطر خفيف موجب على رخاء حاله وسعة عيشه إلاّ أنصبّت عليه أمطار كثيرة من مزنة البلاء وسحابة، فتوجب شدة حاله وضيق عيشه، والغرض أنها إذا أعطت أحداً قليلاً من الخير أعقبت ذلك بكثير من الضّر.

(**وحريّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكّرة**) يعني أنها جديرة حين أصبحت محبّة لامرء منتقمة لأجله من عدوه أو متكلفة لنصره بأن تمسي مبغضة ومتغيّرة له، (**وإن جانب منها اعذوذب واحلولى**) أي: صار عذباً وحلواً (**أمرّ منها جانب فأوبى**) أي صار مرّاً فادفع في المرض وفي هذا المعنى قال الشاعر:

إلا أنّما الدّنيا غضارة أيكة إذا اخضر منها جانب جف جانب
فلا تكتحل عيناك منها بغيره على ذاهب منها فإنك ذاهب

(**لا ينال امرء من غضارتها رغباً إلا أرهقته من نوائبها تعباً**) أراد أنه لا يبلغ أحد من طيب عيشها وسعتها ونعمتها رغبته وإرادته إلاّ حملته وأغشته من نوائبها ومصائبها التعب والمشقة، كما هو يدرك بالعيان ويشاهد بالوجدان، ولا يخفى ما في إتيان ينال بصيغة المضارع، وأرهقته بصيغة الماضي من النكتة اللطيفة، وهي الإشارة إلى أنّ نيل الرّغبة من غضارتها أمر متوقّع مشكوك وإرهاق التعب من نوائبها أمر محقق ثابت.

(**ولا يمسى منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف**) أراد به عدم ثبات أمنها وسرعة انتقاله منه إلى الخوف، ولا يخفى ما في تخصيص الأمن بالجناح والخوف بالقوادم لأن الجناح محلّ الأمن والسّاكن تحته مصون من الأذى، ونيل المكروه متحصّن بحصن السّلامة ألا ترى أنّ الطائر يحصّن فرخه بجناحه حفظاً له من المكاره والآلام، وأما القوادم وهي مقاديم الرّيش فلا ريب أن الرّاكب عليها في معرض خطر عظيم وسقوط قريب، هذا.

وقال الشارح البحراني (ره): وإنما خص الأمن بالجناح، لأن الجناح محلّ التغير بسرعة

فتنبه به على سرعة تغييراتها، وإنّما خصّ الخوف بالقوادم من الجناح لأنّ القوادم هي رأس الجناح وهي الأصل في سرعة حركته وتغيره، وهو في مساق ذمها والتخويف منها، فحسن ذلك التخصيص ومراده أنه وإن حصل فيها أمن وهو في محل التغير السّريع والخوف إليه أسرع لتخصيصه بالقوادم انتهى، والأظهر ما ذكرناه.

(غرّارة غرور ما فيها فانية فان من عليها) لا يخفى ما في هاتين القرينتين من حسن الاشتقاق وجزالة المعنى، فإن القرينة الأولى تنبيه على خسة الدّنيا وحقارتها، وعلى أن ما فيها تدليس وتلبيس وغرور وباطل بمنزلة امرأة شوهاء هتماء زخرفت من ظاهرها وألبست أنواع الحلى والحلل تدليساً وتقتيناً، فاغترّ بها وافتتن من رأى حسن ظاهرها غافلاً عن قبح باطنها، والقرينة الثانية تذكرة لكونها مع هذه الخسه والحقارة في معرض الفناء والزوال والأزوف والانتقال، وكذلك الرّاغبون فيها والخاطبون لها كما قال عزّ من قائل:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٦ ـ ٢٧].

(لا خير في شيء من أزوادها إلاّ التقوى) لأنه هو الذي يتقوى به لسلوك سفر الآخرة وطيّ منازلها، والوصول إلى حظيرة القدس الّتي هي غنية كلّ طالب ومنية كل راغب، ولذلك أمر بذلك ربّ العزة بقوله:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد تقدّم توضيح ذلك بما لا مزيد عليه في شرح الخطبة الخامسة والسّبعين، وإنما جعله من أزواد الدّنيا لأن تحصيله إنما يكون فيها والآخرة دار جزاء لا تكليف كما سبق بيانه في شرح الخطبة الثانية والسّتين، وتقدّم ثمة أيضاً ما يوضح أن غير التقوى من أزواد الدّنيا لا خير فيها، ويشهد بذلك قوله سبحانه:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

(من أقلّ منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه) يعني أنّ من ذهب في الدنيا واكتفى بالقليل من متاعها طلب الكثير ممّا يوجب أمنه ونجاته في الآخرة، ومن رغب فيها طلب الكثير من متاعها استكثر مما يوجبه هلاكه فيها، لأنه إن كان من الحلال ففيه طول الحساب، وإن كان من الحرام ففيه أليم العذاب.

(وزال عمّا قليل عنه) إشارة إلى مفسدة أخرى فيما استكثره مضافة إلى إيجابه هلاكه وهي أنّه لم يبق له بل زال بعد حين قليل عنه.

ثمّ أشار عليه السلام إلى مفاسد الرّكون إليها والاعتماد عليها بقوله: **(كم من واثق بها قد**

فجعته) بأنواع الأحزان **(وذوي طمأنينة إليها قد صرعته)** في مصارع الهوان **(وذي أبّهة)** وعظمة **(قد جعلته حقيراً)** مهيناً **(وذي نخوة)** وكبر **(قد ردّته ذليلاً)** مستكيناً **(سلطانها دول)** يتداوله السّلاطين بينهم يكون تارة لهؤلاءِ ولهؤلاء أخرى، **(وعيشها رنق)** متكدّر **(وعذبها أجاج)** مالح **(وحلوها صبر)** مرّ استعار لفظي العذب والحلو للذاتها ولفظي الأجاج والمرّ لما يشوبها من الكدر والأسقام والجامع الإشتراك في الإلتذاذ والإيلام **(وغذائها سمام)** قاتلة **(وأسبابها)** أي حبالها **(رمام)** بالية.

(حيها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم) أراد به أشراف الأحياء بالممات والأصحاءِ بالأسقام وقربهم منها **(ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب وموفورها منكوب وجارها محروب)** أي وافر المال وصاحب الثروة فيها مثاب وجارها حريب أي مأخوذ منه جميع ماله، هذا.

ولما حذر من الدّنيا بذكر معايبها أكّد ذلك بالتنبيه على السّابقين فيها وقال: **(ألستم في مساكن من كان قبلكم)** لكونهم **(أطول أعماراً)** فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ومثله كثير **(وأبقى آثاراً)** كما يشهد به الهرمان والإيوان وسدّ يأجوج ومنارة الإسكندريّة ونحوها **(وأبعد آمالاً)** لأنّ الأعمار إذا كانت أطول كانت الأمال أبعد لترتب طول الأمل على طول العمر غالباً، **(وأعدّ عديداً)** أي عدّد كثيراً من الجيوش **(وأكثف جنوداً)** كفرعون وبخت نصر وغيرهما.

(تعبّدوا للدّنيا أي تعبّد) أي قصّروا هممهم في الدّنيا وأظهروا العبودية والتذلل لها وأخذوها معبوداً لهم، وتعبّدوا لها كمال تعبّد **(وآثروها أيّ إيثار)** أي اختاروها على الآخرة تمام اختيار **(ثمّ ظعنوا)** وارتحلوا **(عنها بغير زاد مبلغ)** له إلى منزله **(ولا ظهر)** أي مركوب **(قاطع)** لطريقه وهما استعارتان للطاعات والقربات المؤدية له إلى حظيرة القدس الموصلة إلى مجلس الأنس.

(فهل بلغكم أن الدّنيا سخت لهم نفساً بفدية) استفهام على سبيل الإنكار كما أشرنا إليه سابقاً، والمراد أنها جادت لهم حين ارتحالهم منها بطيب نفسها فداء ليكون عوضاً عنهم حتّى لا يموتوا ولا يرتحلوا، أو أنها ما بذلت لهم نفساً بأن تكون في هذا النفس فداءً لهم **(أو أعانتهم بمعونة أو أحسنت لهم صحبة)** مع فرط محبتهم لها وغاية رغبتهم إليها وشدّة أنسهم بها.

(بل أرهقتهم بالفوادح) أي أغشتهم بالمثقلات **(وأوهنتهم بالقوارع)** أي أضعفتهم بالمحن والدواهي القارعات **(وضعضعتهم بالنوائب)** والمصائب، **(وعفرتهم للمناخر)** أي ألصقتهم على العفر والتراب لانوفهم **(ووطئتهم بالمناسم)** والأخفاف وداستهم بالسنابك والأظلاف **(وأعانت عليهم ريب المنون)** أي كانت معيناً لحوادث الدّهر عليهم.

(فقد رأيتم تنكّرها) وتغيّرها **(لمن دان لها)** وتقرب بها **(وآثرها)** واختارها على غيرها **(وأخلد إليها)** واعتمد عليها **(حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد)** أي: مفارقة دائمة لا عود بعدها **(هل زوّدتهم إلا السّغب)** والجوع **(أو أحلتهم إلا الضنك)** والضيق **(أو نوّرت لهم إلا الظّلمة)** أي جعلت الظلمة نوراً لهم كما جعلت الجوع لهم زاداً **(أو أعقبتهم إلا لندامة)** والحسرة **(أفهذه)** الغدارة الغرارة **(تؤثرون أم إليها تطمئنون أم عليها تحرصون)** مع ما رأيتم من مكائدها وجرّبتم من خياناتها.

(فبئست الدار لمن لم يتهمها) في نفسه **(ولم يكن فيها على وجل منها)** على عرضة فكانت موجبة لهلاكه وعطبه، وأما المتهم لها بالخديعة والغرور والخائف منها والحذر فنعمت الدّار في حقّه لكونه منها على وجل دائم وخوف لازم، فيأخذ حذره بعد عدّته ويقدم الزاد ليوم المعاد ويتزوّد لحال رحيله ووجه سبيله.

(فاعلموا وأنتم تعلمون) واستيقنوا **(بأنكم تاركوها وظاعنون)** أي مرتحلون **(عنها واتعظوا فيها بالذين)** كانوا قبلكم، و **(قالوا من أشدّ منا قوّة)** وعدّة وانتقلوا عن دورهم و **(حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً، وأنزلوا الأجداث)** بعد الأدعاث[1] **(فلا يدعون ضيفاناً)** يعني أنهم انقطعت عنهم بعد ارتحالهم أسماء، الأحياء فلا يسمّون بالركبان ولا بالضيفان.

وكانت عادة العرب أنهم إذا ركبوا يسمّون ركباناً، وإذا نزلوا يسمّون ضيفاناً، وهؤلاء الأموات مع كون الجنائز حمولة لهم وكونهم محمولين عليها كالراكبين لا يطلق عليهم إسم الركب، وكذلك هم مع نزولهم بالأجداث والقبور لا يطلق عليهم إسم الضيف، وإن كان تسمية الضيف إنما هي بذلك الاسم باعتبار نزوله، وهذا الاعتبار موجود فيهم مأخوذ من ضافه ضيفاً إذا نزل عنده، فافهم.

(وجعل لهم من الصّفيح أجنان) أي من وجه الأرض من العريض قبور **(ومن التراب أكفان)** وفي بعض النسخ بدله أكنان، وهي السّتائر جمع الكن وهي السترة أي ما يستتر به، وعلى ذلك فالكلام على حقيقته، وعلى الرواية الأولى فلا بد من ارتكاب المجاز بأن يقال إن جعل التراب أكفاناً لهم باعتبار إحاطته عليهم كالأكفان أو باعتبار المجاورة بينه وبينها، أو من أجل اندراس الكفن وانقلابه تراباً كما قيل، والأظهر الأولان.

(ومن الرفات) والعظام البالية **(جيران فهم جيرة)** أي: جيران كما في بعض النسخ **(لا يجيبون داعياً ولا يمنعون ضيماً)** أي ظلماً عن أنفسهم أو عمن استجار بهم لانقطاع الاقتدار عنهم، **(ولا يبالون مندبة)** أي لا يكترثون بالندب والبكاء على ميت.

---

(١) الدعث: المرض والجمع أدعاث.

(إن جيدوا لم يفرحوا وإن قحطوا لم يقنطوا) يعني إن جادت السماء عليهم بالمطر لا يفرحون، وإن احتبست عنهم المطر لا ييأسون كما هو شأن الأحياء فإنهم يفرحون عند الخصب ويحزنون عند الجدب **(جميع)** أي مجتمعون **(وهم آحاد)** متفردون **(وجيرة وهم أبعاد)** متباعدون **(متدانون لا يتزاورون وقريبون لا يتقاربون)** إلى هذا المعنى نظر السّجاد عليه السلام في ندبته حيث قال:

وأضحوا رميماً في التراب واقفرت ... مجالس منهم عطلت ومقاصر
وحلّوا بدار لا تزاور بينهم ... وأنّى لسكّان القبور التزاور
فما أن ترى إلاّ جثي قد ثووا بها ... مسنمة تسفى عليه الأعاصر

وقال آخر:

لكل أناس معمر في ديارهم ... فهم ينقصون والقبور تزيد
فكائن ترى من دار حيّ قد أخربت ... وقبر بأكنان التّراب جديد
هم جيرة الأحياء أما مزارهم ... فدان وأمّا الملتقى فبعيد

(حلماء قد ذهبت أضغانهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم) يعني أنهم بموتهم وانقطاع مادة الحياة عنهم صاروا حلماء جهلاء لا يشعرون شيئاً، فارتفع عنهم الضغن والحقد والحسد وسائر الصّفات النفسانية المتفرعة عن الحياة، وتوصيفهم بالحلم والجهل في تلك الحال من باب التوسع والمجاز باعتبار أنهم لا يستفزهم الغضب ولا يشعرون وإلا فالحلم هو الصّفح والأناة والعقل والجهل عدم العلم عمّن من شأنه أن يكون عالماً وهما من صفات الأحياء كما لا يخفى.

(لا يخشى فجعهم ولا يرجى دفعهم) يعني أنهم بارتفاع الاقتدار عنهم لا يخشون ولا يرجون فلا يخشى أحد من أن ينزل عليه بهم فجيعة ورزيّة، ولا يرجو أحد أن يدفع بهم من نفسه نازلة وبلية **(استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسّعة ضيقاً وبالأهل غربة وبالنّور ظلمة)**.

ضربوا بمدرجة الفناء قبائهم ... من غير أطناب ولا أوتاد
ركب أناخوا لا يرجّى منهم ... قصد لاتهام ولا أنجاد
كرهوا النزول فأنزلتهم وقعة ... للدّهر نازلة لكلّ مفاد
فتهافتوا عن رحل كلّ مذلّل ... وتطاوحوا عن سرج كلّ جواد
بادون في صور الجميع وأنهم ... متفردون تفرد الاحياءِ

(فجاؤوها كما فارقوها حفاةً عراةً) قيل: إن المراد بمجيئهم إليها فيها وبمفارقتهم لها خروجهم عنها، ووجه الشبه كونهم حفاةً عراةً وقيل: إن المراد بمجيئهم إليها دفنهم فيها

وبمفارقتهم لها خلقتهم منها كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧] وهو أقرب من الأوّل بل أقوى، لأن جملة فجاؤوها معطوفة على جملة استبدلوا، والفاء العاطفة موضوعة للتعقيب والترتيب ولا ترتيب كما لا تعقيب بين مضمون الجملتين على الأوّل، وأمّا على الثاني فهو من قبيل عطف تفصيل المجمل على المجمل على حد قوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥] الآية.

وهٰهنا لما ذكر عليه السلام استبدالهم بظهر الأرض بطنها عقب ذلك ببيان تفصيل حالهم بأنهم جاؤوا إليها حال كونهم حافين عارين ليس لهم نعال ولا لبائس، ولكن ينبغي أن يعلم أن اللازم على هذا القول حمل المفارقة على الولادة حتى يستقيم كونهم حفاةً عراةً.

أقول: والأظهر عندي يرجع الضمير في قوله، **(فجاؤوها كما فارقوها إلى ظهر الأرض)**، والتأنيث باعتبار المضاف إليه، فإنه قد يكتسب المضاف المؤنث من المضاف إليه المذكر التأنيث إذا صحت إقامته مقامه كما في قوله: **(كما شرقت صدر القناة من الدم)** ويراد بمجيئهم إليها بعثهم فيها وإعادتهم إليها بعد مفارقتهم لها كما قال تعالى:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

وعلى هذا فالأنسب جعل حفاةً عراةً حالين من ضمير الجمع في جاؤوها لا فارقوها، إلاّ أنّه يبعده قوله: **(قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية)** إذ الظاهر كونه حالاً من فاعل فارقوها مؤكدة لعاملها، كما أن حفاةً عراةً مؤسسة، وإن أمكن توجيهه بأنه على جعله حالاً من ضمير جاؤوها يكون فيه نحو من التوكيد أيضاً، ويؤيّد ذلك أنّ الحياة الدائمة إنما هي بعد البرزخ والبعث.

فإن قلت: هذا التوجيه ينافيه الضمير في عنها، لأن ظعنهم على ما ذكرت إنما هو عن بطن الأرض، والضمير في جاؤوها كان راجعاً ظهر الأرض.

قلت: غاية الأمر يكون أنه من باب الاستخدام، ولا يقدح ذلك في كونه حالاً منه، فافهم جيداً، ويقرّب ما ذكرناه من الوجه استشهاده عليه السلام بالآية الشريفة أعني قوله: (كما قال سبحانه) أي في سورة الأنبياء:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فإنّها مسوقة لبيان حال البعث والنشور، ومعناها نبعث الخلق كما ابتدأناه، أي قدرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء.

روى في **«الصافي»** عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **تحشرون يوم القيامة عراةً حفاةً كما بدأنا أوّل**

خلق نعيده[1].

وقيل معناها كما بدأناهم في بطون أمّهاتهم حفاةً عراةً عزلاً كذلك نعيدهم.

قال الطبرسي: روى ذلك مرفوعاً وهو يؤيد القول الثاني أعني قول من قال أن المراد بفارقوها خلقهم منها، وإن كان لا يخلو عن دلالة على ما استظهرناه أيضاً، فليتأمل وقوله تعالى: **(وعداً)**، منصوب على المصدر أي وعدناكم ذلك وعداً علينا إنجازه إنّا كنّا فاعلين ذلك لا محالة.

تكملة

إعلم أن هذه الخطبة رواها المحدث العلاّمة المجلسي «قد» في **«البحار»** من كتاب **«مطالب السؤول»** لمحمّد بن طلحة باختلاف كثير أحببت إيرادها بتلك الطريق على عادتنا المستمرّة.

قال: قال عليه السلام: أُحذركم الدنيا فإنّها خضرة حلوة حفّت بالشهوات وتخيبت بالعاجلة وعمّرت بالآمال وتزيّنت بالغرور، ولا يؤمن فجعتها ولا يدوم خيرها، ضرّارة غدّارة غرّارة زائلة بائدة أكّالة غوّالة، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرّضا بها والرّغبة فيها أن يكون كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [يونس: ٢٤].

على أن امرءً لم يكن فيها في حيرة[2] إلاّ أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرّائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً، ولم تنله فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء، وحرىّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكّرة، فإن جانب منها اعذوذب لامرء واحلولى، أمرّ عليه جانب وأوباه، وإن لقي امرء من غضارتها زوّدته من نوائبها تعباً، ولا يمسي امرء منها في جناح أمن إلاّ أصبح في خوافي خوف وغرور.

فانية فان من عليها من أقلّ منها استكثر مما تؤمنه، ومن استكثر منها لم تدم له وزال عما قليل عنه، كم من واثق بها قد فجعته وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي خدع قد خدعته، وذي أبّهة قد صيّرته حقيراً، وذي نخوة قد صيّرته خائفاً فقيراً، وذي تاج قد أكبّته لليدين والفم، سلطانها دول، وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام، حيّها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اهتضام، عزيزها مغلوب، وملكها مسلوب، وضيفها مثلوب، وجارها محروب.

ثمّ من وراء ذلك هول المطلع وسكرات الموت والوقوف بين يدي الحكم العدل ليجزى

---

(١) بحار الأنوار: ٧/ ١٢ والمعجم الأوسط: ٥/ ١٤٣.
(٢) في نسخة: البصرة.

الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ألستم في منازل من كان أطول منكم أعماراً وآثاراً، وأعدّ منكم عديداً، وأكثف جنوداً وأشد منكم عنوداً تعبّدوا الدّنيا أيّ تعبد، وآثروها أيّ إيثار، ثم ظعنوا عنها بالصغار فهل يمنعكم أنّ الدّنيا سخت لهم بفدية أو أغنت عنهم فيما قد أهلكهم من خطب، بل قد أوهنتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفّرتهم للمناخر، وأعانت عليهم ريب المنون.

فقد رأيتم تنكّرها لمن دان بها وأجدّ إليها حتى ظعنوا عنها بفارق أبدا لي آخر المستند، هل أحلّتهم إلا الضنك، أو زوّدتهم إلاّ التعب، أو نورّت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلاّ النّار، أفهذه تؤثرون، أم على هذه تحرصون، أم إلى هذه تطمئنون، يقول الله جلّ من قائل:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦].

فبئست الدار لمن لا يتّهمها، وإن لم يكن فيها على وجل منها، اعلموا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بدّ، فإنما هي كما نعتها الله لهو ولعب، واتعظوا بالذين كانوا يبنون بكلّ ريع آية تعبثون ويتخذون مصانع لعلّهم يخلدون، واتعظوا بالّذين قالوا من أشدّ منّا قوّة، واتعظوا بإخوانكم الذين نقلوا إلى قبورهم لا يدعون ركباناً قد جعل لهم من الضّريح أكناناً ومن التراب أكفاناً ومن الرّفات جيراناً، فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، قد بادت أضغانهم، فهم كمن لم يكن وكما قال الله عز وجل:

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسّعة ضيقاً، وبالأهل غربة، جاؤوها كما فارقوها بأعمالهم إلى خلود الأبد كما قال عزّ من قائل:

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤][1].

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٥٣، والمعيار والموازنة: ٢٦٧.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن بزرگوار امام انام است در مذّمت دنيا و تحذير خلايق از آن غدّار و بيوفا كه فرموده:

اما بعد از حمد و ثناء خداوند ربّ الارباب و صلوات بر سيّد ختمى مآب، پس به درستى كه من مى ترسانم شما را از دنيا، پس به تحقيق كه آن شيرين است و سبز، يعنى نفس لذّت مى برد از آن به جهت حلاوت و خضرويت و طراوت آن در حالتى كه احاطه كرده شده است به خواهشات نفسانيت و اظهار محبّت نموده است به طالبان خود به لذت هاى عاجله خود و به شگفت آورده و مردمان را به زيورهاى قليل و اندك و آراسته گشته به اميدهاى بى بنياد و آرايش يافته به باطل و فساد، دوام نمى يابد سرور آن و ايمن نمى توان شد از درد و مصيبت آن، فريبنده اى است مضرّت رساننده، تغييريابنده اى است زايل شونده، موصوف است به فنا و هلاك و متّصف است به كثرت خوردن مردمان و اخذ نمودن و هلاك كردن ايشان، تجاوز نمى كند وقتى كه متناهى شد به نهايت آرزوى كسانى كه راغب هستند در آن و خوشنودند به آن از اينكه باشد حال آن به قرارى كه خداوند متعال بيان فرموده و وصف نموده در سوره كهف كه فرموده:

"مثل زندگانى دنيا همچو آبى است كه نازل كردم آن را از آسمان، پس آميخته شد به آن آب گياه زمين، پس برگشت آن گياه خشك و درهم شكسته، پس پراكنده مى گرداند آن را بادها و از بيخ برمى كند و هست خدا به هر چيز صاحب اقتدار"؛

محصّل مرام اين است كه خدا تشبيه نموده صفت زندگانى دنيا را در بهجت و لذّت و سرور و شكفتگى آن كه آخرش منتهى مى شود به مرگ و هلاك به صفت گياهى كه مى رويد از زمين به سبب آبى كه از آسمان نازل مى شود كه پنج روز سبز و خرّم و تروتازه مى باشد و بعد از آن در زمان قليلى خشك و شكسته مى گردد و بادها آن را از بيخ كنده و مى پرانند.

بهار عمر بسى دلفريب و رنگين است ولى چه سود كه دارد خزان مرگ از پى

پس فرمود: نیست هیچ مردی از دنیا در سرور و شادی مگر اینکه در پی درآورد او را بعد از آن شادی به گریه و زاری و ملاقات نکرد هیچ احدی از خیر و منفعت دنیا به شکمی مگر اینکه بخشش نمود به آن از دشواری و مشقت خود آتشی را و نبارید به احدی در دنیا باران نرم آسانی و رفاهیّت مگر اینکه ریخته شد بر او باران بزرگ قطره از ابر بلا و مصیبت و سزاوار است زمانی که بامداد کند مراورا دادستاننده آنکه شبانگاه کند او را تغییر نماینده و ناخوش شمرنده و اگر بسیار خوش و شیرین باشد جانبی از آن دنیا، تلخ می گردد جانبی دیگر از آن و ناخوشی می آورد، نرسد هیچ مردی از طیب عیش و نعمت دنیا به رغبت و اردانی مگر اینکه پوشانید و بار کرد او را از حوادث و مصائب خود تعب و مشقتی و شبانگاه نکرد احدی از دنیا در بال امنیت و آسایش مگر اینکه صباح نمود بر پرهای دراز خوف و ترسی.

دنیا بسیار فریبنده است، فریب است آنچه در او است، فنایابنده است، فانی است آن کسی که بر او است، هیچ خیر و منفعتی نیست در چیزی از توشه های دنیا مگر پرهیزکاری و تقوی، هرکس که اندك نمود از لذایذ دنیا و شهوات آن، بسیار خواست از چیزی که ایمن گرداند او را از عذاب قیامت و هرکس که بسیار خواست از شهوات دنیا، بسیار خواست از چیزی که هلاك نماید او را در آخرت و زایل شد بعد از اندك زمانی از آن.

بسا اعتماد کننده به دنیا که دردمند ساخت او را و بسا صاحب اطمینانی به سوی آن که در خاك هلاك انداخت او را و بسا صاحب عظمتی که گردانید او را حقیر و بی مقدار و بسا صاحب نخوتی که گردانید او را ذلیل و خوار، سلطنت و پادشاهی آن دوران کننده است از دستی به دستی و عیش آن کدرآمیز است و آب شیرین آن شور است و بی مزه و حلاوت های آن تلخ و طعام های آن زهرهای قاتل است و ریسمان های آن پوسیده است، زنده آن در معرض مرگ است و صحیح آن در معرض ناخوشی است، ملك و مال آن ربوده شده است و عزیز آن مغلوب است و صاحب ثروت آن صاحب نکبت شده است و همسایه آن ربوده شده از آن تمام مال او.

آیا نیستید شما در مسکن های کسانی که بودند پیش از شما در حالی که درازتر بودند از حیثیّت عمرها و باقی تر بودند از حیثیّت اثرها و دورتر بودند از حیثیّت

آرزوها و آماده تر بودند از حيثيّت شمار و انبوه تر بودند از حيثيّت لشگر؟ پرستيدند از براى دنيا پرستيدنى و برگزيدند آن را چه برگزيدنى، پس از آن كوچ كردند از آن بدون توشه اى كه به منزل برساند و بدون مركبى كه قطع مراحل نمايد.

پس آيا رسيد به شما كه دنيا سخاوت ورزيد از براى آنها از روى طيب نفس به فديه دادن و رهانمودن ايشان؟ يا آنكه يارى كرد ايشان را به معاونتى؟ يا اينكه خوب نمود از براى ايشان صحبتى؟ و معلوم است كه هيچكدام از اينها ننمود، بلكه پوشانيد به ايشان و بار نمود ايشان را كارهاى سنگين و ضعيف نمود به محنتهاى كوبيده و مضطرب كرد ايشان را به حوادث و به خاك ماليد ايشان را به سوراخ هاى دماغها و لگدكوب كرد ايشان را به دستها و پايها و اعانت نمود به ضرر ايشان حادثات دوران را.

پس به تحقيق ديديد شما تغيير دنيا را مرآن كسى را كه تقرّب جست به آن و برگزيد او را و چسبيد به آن تا اينكه كوچ كردند از آن به فراق دائمى؛ آيا توشه داد ايشان را به غير از گرسنگى؟ يا فرود آورد ايشان را غير از تنگى؟ يا روشن كرد از براى ايشان غير از تاريكى؟ يا آنكه از پى درآورد ايشان را غير از پريشانى؟ آيا پس اين دنياى بى اعتبار اختيار مى كنيد؟ يا به سوى آن مطمئن مى باشيد؟ يا بر او حريص مى شويد؟ پس بد سرايى است آن از براى كسى كه متّهم ندارد او را و نباشد در او بر ترس و هراس از آن.

پس بدانيد و اعتقاد نماييد و شما عالم هستيد به آن كه شما ترك كننده آن هستيد و كوچ كننده ايد از آن و پند گيريد در آن به آن كسانى كه گفتند كه كيست سخت تر از ما از حيثيّت قوت، برداشته شدند به سوى قبرهاى خود، پس خوانده نشدند سواران و فرود آورده شدند در قبور، پس خوانده نشدند مهمانان و گردانيده شد از براى ايشان از روى زمين قبرها و از خاك كفن ها يا پوشاك ها و از استخوان هاى پوسيده همسايه ها، هستند كه اجابت نمى كنند خواننده را و ممانعت نمى كنند ظلم را و باك نمى دارند از نوحه و زارى، اگر داده شدند باران، شاد نگشتند و اگر رسيدند به قحط و تنگى، نوميد نشدند.

اجتماع دارند و حال آن كه ايشان تنهايند و همسايگانند و حال آن كه ايشان دورند، نزديك اند به يكديگر و حال آن كه ايشان زيارت يكديگر نمى توانند كنند و

خویشند به همدیگر و حال آن که اظهار خویشی نمی نمایند، حلیم هستند در حالی که رفته است کینه های ایشان، نادانند در حالی که مرده است جسدهای ایشان، ترسیده نمی شود از اندوه و مصیبت ایشان و امید گرفته نمی شود دفع نمودن ایشان، عوض کردند به ظاهر زمین، باطن را و به فراخی، تنگی را و به انسیت، غریبی را و به نور و روشنی، تاریکی را.

پس آمدند به روی زمین چنان چه مفارقت کردند از آن در حالی که پابرهنگان و تن برهنگانند در حالی که کوچ نمودند از آن با عمل های خودشان به سوی زندگانی دائمی و سرای باقی، چنان ه فرموده است حق سبحانه و تعالی: "همچنان که در ابتدا آفریدیم خلق را اعاده می کنیم ایشان را وعده کردنی در حالتی که بر ما است وفاکردن به آن، به درستی که ما کنندگانیم آن را لامحاله وعده بعث و اعاده را داده و قادر هستیم بر انجاز آن وعده".

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والحادية عشر من المختار في باب الخطب

يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس.

هَلْ يُحَسُّ إذا دَخَلَ مَنْزِلاً، أَمْ هَلْ تَراهُ إذا تَوَفّى أَحداً، بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنينَ في بَطْنِ أُمِّه، أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعضِ جَوارِحِها، أَمِ أَجابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّها، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ في أَحْشائِها، كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِه[١].

اللغة

(توفية الأَنفس) في بعض النسخ على وزن التفعل مصدر توفاه الله أي قبض روحه وأماته، وفي بعض النسخ الأخرى توفية الأنفس وزان التّفعلة مصدر باب التفعيل، و **(يحسّ)** بالبناء على المفعول وفي بعض النسخ بدله تحسّ به بصيغة الخطاب و **(الجنين)** الولد في البطن والجمع أجنّة **(الأحشاء)** جمع الحشاء وهو ما في البطن من المعاء وغيره.

الإعراب

(توفية الأَنفس) من إضافة المصدر إلى فاعله، وعلى ما في بعض النسخ من **(توفيه الأَنفس)** من إضافته إلى مفعوله، وقوله **(هل يحسّ)** استفهام على سبيل الإنكار.

المعنى

إعلم أن هذا الفصل على ما في شرح البحراني من خطبة طويلة ذكره عليه السلام في معرض التّوحيد والتنزيه لله تعالى عن اطلاع العقول البشريّة على كنه وصفه، وما ظفرت بعد على هيئنها[٢] وقد ذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس أي قبضه للأرواح على سبيل الاستطراد، وهو نوع من فنون البيان وهو أن تخرج بعد أن تمهّد ما تريد أن تمهده إلى الأمر الذي تروم ذكره فتذكره، وكأنّك غير قاصد لذكره بالذّات بل قد حصل ووقع ذكره عن غير قصد فتمر به مروراً كالبرق الخاطف، ثمّ تتركه وتنساه وتعود إلى ما مهدته أولاً كالمقبل عليه وكالملغى عمّا استطردت بذكره إذا عرفت ذلك فأقول:

---

(١) بحار الأنوار: ٦/١٤٣ ح ٩، وميزان الحكمة: ٣/١٨٩٣ ح ٢٦١٩.

(٢) في نسخة: عليها.

قوله: **(هل يحسّ إذا دخل منزلاً أم هل تراه إذا توفّى أحداً)** تنبيه على عدم إمكان الإحساس به في دخول منازل المتوفّين، وعلى عدم إمكان رؤيته عند إماتة الناس، وذلك لكونه جسماً لطيفاً هوائياً غير قابل للإدراك بالحواس، وقال الشّارح البحراني: ونبّه باستنكار الإحساس به على أنّه ليس بجسم، إذ كان كل جسم من شأنه أن يحس بإحدى الحواس الخمس «انتهى»، وهو مبنيّ على كون الملائكة جواهر مجرّدة غير متحيزة كما هو مذهب الفلاسفة، وتحقيق ذلك موكول إلى محلّه.

ثمّ قال: **(بل كيف يتوفّى الجنين في بطن أمّه)** وهو استعظام لأمره في قبض روح الجنين، والأقسام المتصوّرة في كيفيّة ذلك القبض ثلاثة أشار إليها بقوله: **(أيلج عليه من بعض جوارحها أم الرّوح أجابته بإذن ربّها أم هو ساكن معه في أحشائها)** وهذا التّقسيم حاصر لا يمكن الزيادة عليه. لأنّه إذا فرضناه جسماً يقبض الأرواح الّتي في الأجسام إمّا أن يكون مع الجنين في جوف أُمه فيقبض روحه عند حضور أجله، أو خارجاً عنها، والثاني ينقسم قسمين: أحدهما أن يلج جوف أمه لقبض روحه، وثانيهما أن يقبضها من غير حاجة إلى الولوج إلى جوفها، وذلك بأن تطيعه الرّوح وتكون مسخّرة له ومنقادة لأمره إذا أراد قبضها امتدّت إليه.

والأظهر الأقوى أن يكون توفية الجنين من قبيل القسم الأخير، ويدل عليه الرّواية الآتية للصّدوق في «**الفقيه**» عن الصّادق عليه السلام وغيرها أيضاً، وعلى مذاق المعتزلة فهو من قبيل الوسط، لأنّهم قالوا: إنّ كيفيّة القبض ولوج الملك من الفم إلى القلب، لأنّه جسم لطيف هوائي لا يتعذّر عليه النفوذ في المخارج الضيقة، فيخالط الرّوح التي هي كالشبيهة بها، لأنّها بخاري، ثم يخرج من حيث دخل وهي معه، ويلزم عليهم أن يغوص الملك في الماء لقبض روح الغريق تحت الماء، والتزموا ذلك، وأجابوا بأنّه لا يستحيل أن يتخلّل الملك مسام الماء، فإنّ في الماء مسام ومنافذ كما في غيره من الأجسام، ولو فرضنا أنه لا مسام فيه لم يبعد أن يلجه الملك فيوسع لنفسه مكاناً كالحجر والسمك ونحوهما، وكالرّيح الشّديدة التي تقرع ظاهر البحر فتقعره وتحفره، وقوة الملك أشدّ من قوة الريح.

وكيف كان فلما بيّن أنّ ملك الموت لا يمكن للإنسان وصف حاله وعرفان صفته أردفه بالتنبيه على عظمة الله سبحانه بالنسبة إليه فقال: **(كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله)** يعني أنه إذا عجز الإنسان عن وصف مخلوق هو مثله، فبالأولى أن يعجز عن وصف خالقه وإدراك ذات مبدعه الذي هو أبعد الأشياء عنه مناسبة.

تنبيه

في بيان معنى الموت وإيراد بعض الأخبار الواردة في وصف حال ملك الموت.

فأقول: قال الشارح البحراني أخذاً من أبي حامد الغزالي في كتاب «**إحياء العلوم**»: إن الموت ليس إلاّ عبارة عن تغيّر حال، وهو مفارقة الرّوح لهذا البدن الجاري مجرى الآلة لذي الصّنعة، وإن الرّوح باقية بعده كما شهدت به البراهين العقلية بين مظانها، والآثار النبويّة المتواترة، ومعنى مفارقتها له هو انقطاع تصرّفها فيه لخروجه عن حدّ الانتفاع به. فما كان من الأمور المدركة لها تحتاج في إدراكه إلى الله فهي منقطعة عنه بعد مفارقة البدن إلى أن تعاد إليه في القبر أو يوم القيامة، وما كان مدركاً لها لنفسها من غير الله فهو باقٍ معها يتنعّم به ويفرح أو يحزن من غير حاجة إلى هذه الآلة في بقاء تلك العلوم والإدراكات الكلية لها هناك.

قال الغزالي: تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الرّوح فيها، فتكون الرّوح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء، وقد استعصى عليها بعضها، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلّها وكلّ الأعضاء آلات، والروح هي المستعملة لها، فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلّها، وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية، نعم تغيّر حاله من جهتين:

إحداهما: أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه، ولا فرق بين أن يسلب هذه الأشياء من الإنسان أو يسلب الإنسان من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرّجل وتارة بأن يسلب الرجل عن الملك والمال، والألم واحد في الحالتين وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه، ويعتدّ بوجوده فيعظم تحسّره عليه بعد الموت، ويصعب شقاؤه في مفارقته، ويلتفت إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلاً، ويفرح به، وإن لم يكن يفرح إلاّ بذكر الله ولا يأنس إلاّ به عظم نعيمه وتمّت سعادته، إذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل المانعة له عن ذكر الله.

والجهة الثانية: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن له مكشوفاً في الحياة، كما ينكشف للمتيقّظ ما لم يكن مكشوفاً في النوم، والنّاس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، هذا.

وقد مضى الكلام في شرح حال الاحتضار وكيفيّة زهوق الروح وشرح حال الميت حينئذٍ في التذييل الثالث من تذييلات الفصل السّابع من فصول الخطبة الثانية والثمانين، وفي شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والثمانية ومضى ثمة أيضاً وصف حال ملك الموت ونورد هنا ما لم يسبق ذكره هناك فأقول:

روى في «**الكافي**» بإسناده عن أسباط بن سالم مولى أبان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك يعلم ملك الموت بقبض من يقبض؟ قال عليه السلام: لا إنما هي صكاك[١] تنزل من السّماء اقبض نفس فلان ابن فلان.

وعن زيد الشّحام قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن ملك الموت فقال: يقال: الأرض بين يديه كالقصعة يمدّ يده منها حيث يشاء، فقال عليه السلام: نعم.

وعن هشام بن سالم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلاّ وملك الموت يتصفحهم في كلّ يوم خمس مرّات[٢].

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن لحظة ملك الموت قال عليه السلام أما رأيت الناس يكونون جلوساً فتعتريهم السّكينة فما يتكلّم أحد منهم فتلك لحظة ملك الموت حيث يلحظهم[٣].

وفي «**الفقيه**» قال الصّادق عليه السلام: قيل لملك الموت عليه السلام: كيف تقبض الأرواح وبعضها في المغرب وبعضها في المشرق في ساعة واحدة؟ فقال: أدعوها فتجيبني، قال: وقال ملك الموت عليه السلام: إن الدّنيا بين يديّ كالقصعة بين يدي أحدكم فيتناول منها ما شاء، والدّنيا عندي كالدّرهم في كفّ أحدكم يقلّبه كيف يشاء[٤].

بقي الكلام في أن قابض الأرواح هل هو الله سبحانه، أم ملك الموت فقط، أم هو مع سائر الملائكة.

فأقول: الآيات في ذلك كالرّوايات مختلفة، ووجه الجمع بينها أمور أشير إليها في أخبار أهل البيت عليهم السلام.

ففي «**الفقيه**»: وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وعن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] وعن قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] وعن قوله عزّ وجلّ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وعن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠].

---

(١) الصك: هو كتاب.

(٢) الكافي: ٣/١٣٦ ح ٢، وبحار الأنوار: ٦/١٤٣ ح ١٠.

(٣) الكافي: ٣/٢٥٩ ح ٣١، وبحار الأنوار: ٦/١٤٤ ح ١١.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ١/١٣٤ ح ٣٥٤، وميزان الحكمة: ٤/٢٩٦٣.

وقد يموت في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلاّ الله عزّ وجل، فكيف هذا؟ فقال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشّرطة له أعوان من الأنس، فيبعثهم في حوائجه فتتوفّاهم الملائكة ويتوفّاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو، ويتوفّاهم الله من ملك الموت[١].

وفي «**الاحتجاج**»: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن قول الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وقوله عزَّ وجلّ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله تعالى: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨]، فمرّة يجعل الفعل لنفسه، ومرّة لملك الموت، ومرّة للرّسل، ومرّة للملائكة فقال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أجلّ وأعظم من أن يتولّى ذلك بنفسه، وفعل رسله وملائكته فعله، لأنّهم بأمره يعملون، فاصطفى من الملائكة رسلاً وسفرة بينه وبين خلقه، وهم الذين قال الله فيهم:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

فمن كان من أهل الطاعة تولّت قبض روحه ملائكة الرّحمة، ومن كان من أهل المعصية تولّت قبض روحه ملائكة النقمة، ولملك الموت أعوان من الملائكة الرّحمة والنقمة يصدرون عن أمره وفعلهم فعله، وكلّ ما يأتونه منسوب إليه، وإذا كان فعلهم فعل ملك الموت ففعل ملك الموت فعل الله لأنّه يتوفى الأنفس على يد من يشاء، ويعطي ويمنع ويثيب ويعاقب على يد من يشاء، وإن فعل أمنائه فعله كما قال[٢]:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وفي «**التوحيد**» بسند ذكره عن أبي معمر السّعداني، أنّ رجلاً أتى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إني قد شككت في كتاب الله المنزل قال له عليّ عليه السلام: ثكلتك أمّك وكيف شككت في كتاب الله المنزل؟ قال: لأنّي وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضاً فكيف لا أشك فيه، فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام إن كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً ولا يكذب بعضه بعضاً، وأظنّك لم ترزق عقلاً تنتفع به فهات ما شككت فيه من كتاب الله ـ فذكر الرجل آيات مختلفة الظواهر، ومن جملتها الآيات التي قدّمناها ـ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى يدبّر الأمور كيف يشاء، ويوكّل من خلقه من يشاء بما يشاء، أمّا ملك الموت فإن الله يوكّله بخاصّة من يشاء، ويوكّل رسله من الملائكة خاصّة بمن يشاء من خلقه،

---

(١) تفسير الميزان: ١٦/ ٢٥٤ والتفسير الصافي: ١/ ٤٨٨.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٣٣، والتفسير الصافي: ١/ ٤٨٨.

والملائكة الذين سماهم الله عزّ ذكره، وكلهم بخاصة من يشاء من خلقه تعالى يدبّر الأمور كيف يشاء، وليس كلّ العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسّره لكلّ النّاس، لأَن منهم القويّ والضعيف، ولأَنّ منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطيق حمله إلاّ من يسهل الله حمله، وأعانه عليه من خاصّة أوليائه، وإنّما يكفيك أن تعلم أن الله المحيي والمميت، وأنّه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم، قال: فرّجت عني يا أمير المؤمنين أمتع الله المسلمين بك[١].

(١) ميزان الحكمة: ٤/٢٩٦٣، والتوحيد: ٢٦٨.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن بزرگوار و سيد ابرار است كه ذكر فرمود در آن ملك الموت و قبض نمودن او روح ها را :

آيا ادراك كرده مى شود به حواس زمانى كه داخل بشود منزلى؟ يا آيا مى بينى او را زمانى كه بميراند احدى را؟ بلكه چه نحو قبض مى كند روح بچه را در شكم مادر خودش؟ آيا داخل مى شود بر او از بعض اعضاء مادر او؟ يا آن كه روح بچه اجابت مى كند او را به اذن پروردگار خود؟ يا آن كه ملك الموت ساكن است با آن بچه در آلات اندرون مادر؟ چگونه وصف مى كند معبود خود را كسى كه عاجز است از وصف مخلوقى كه مثل او است در امكان افتقار.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثانية عشر من المختار في باب الخطب

وأُحَذِّرُكُمُ الدُّنيا فَإِنَّها مَنْزِلُ قُلْعَةٍ ولَيْسَتْ بِدار نُجْعَةٍ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِها، وغَرَّتْ بِزِينَتِها، دارٌ هانَتْ عَلى رَبِّها، فَخَلَطَ حَلالَها بحَرامِها، وخَيرَها بِشَرِّها، وحَيوتَها بِمَوْتها، وحُلْوَها بمرِّها، لَمْ يُصَفِّهَا اللهُ تَعالى لأوْلِيائِه، وَلَمْ يَضِنَّ بِها عَلى[1] أعْدائِه، خَيرُها زَهيدٌ، وشَرُّها عَتِيدٌ، وجَمْعُها يَنفَدُ، ومُلْكُها يُسْلَبُ، وعامِرُها يُخْرَبُ، فَما خَيرُ دارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ البِناَءِ، وعُمْرٍ يَفْنى فِناءَ الزّادِ، ومُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطاعَ السَّيرِ، إِجْعَلُوا[2] ما افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلِبَتِكُمْ، وَاسْألوه مِنْ أَداءِ حَقِّه ما سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذانَكُمْ قَبْلَ أنْ يُدْعى بِكُمْ، إنَّ الزّاهِدينَ في الدُّنْيا تَبْكي قُلوبُهُمْ وإنْ ضَحِكُوا، ويَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وإنْ فَرِحُوا، ويَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وإِن اغْتُبِطُوا بِما رُزِقُوا، قَدْ غابَ عَنْ قُلوبِكُمْ ذِكْرُ الآجال، وحَضَرَتْكُمْ كَواذِبُ الآمالِ، فَصارَت الدُّنْيا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالْعاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ، وإِنَّما أنْتُمْ إِخْوانٌ على دينِ اللهِ ما فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إلاّ خُبْثُ السَّرائِرِ، وسُوءُ الضَّمائِرِ، فَلا تَوازَرُونَ، ولا تَناصَحُونَ، ولا تَباذَلُونَ، ولا تَوادُّونَ، ما بالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسيرِ مِنَ الدُّنْيا تُدْرِكُونَهُ، ولا يَحْزُنُكُمُ الْكَثيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ، ويُقَلْقِلُكُم الْيَسيرُ مِنَ الدُّنْيا (حينَ خ) يَفُوتُكُمْ حَتى يَتَبَيَّنَ ذلِكَ في وُجُوهِكُمْ وقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمّا زُوِيَ مِنْها عَنْكُم، كَأَنَّها دارُ مُقامِكُمْ وكَأَنَّ مَتاعَها باقٍ عَلَيْكُمْ، وما يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أنْ يَسْتَقْبِلَ أخاهُ بِما يَخافُ مِنْ عَيْبِه إلاّ مَخافَةَ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِه، قَدْ تَصافَيْتُمْ عَلى رَفْضِ الآجِلِ، وحُبِّ العاجِلِ، وصارَ دينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلى لِسانِهِ، صُنْعَ «صَنيع» مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ[3] عَمَلِه، وأَحْرَزَ رِضى سَيِّدِه[4].

اللغة

(**القلعة**) بالضمّ العزل والمال العارية أو مالاً يروم ومنزلنا منزل قُلعة وقُلعة وقلعةٍ، وزان همزة أي ليس بمستوطن أو لا تدري متى تتحول عنه أو لا تملكه، و (**النجعة**) بالضمّ طلب الكلاء في موضعه، و (**يخرب**) بالبناء على الفاعل مضارع باب فعل كفرح، وفي بعض النسخ بالبناء على المجهول مضارع أخرب، وفي بعضها يتخرب مضارع باب التفعل مبنياً على الفاعل

---

(١) في نسخة: عن.
(٢) في نسخة: فاجعلوا.
(٣) في نسخة: عن.
(٤) ميزان الحكمة: ٣/٢٢٠٨، وشرح نهج البلاغة: ٧/٢٤٧.

أيضاً، و **(الطلبة)** بفتح الطاء وكسر اللام ما طلبته، و **(مقته)** مقتاً أبغضه فهو مقيت وممقوت.

وقوله: **(فلا توازرون)** بفتح التاء من باب التفاعل بحذف إحدى التائين، وفي بعض النسخ بضمّها وكسر الزّاء مضارع باب المفاعلة، ومثله الأفعال الثلاثة بعده وقوله: **(ما بالكم)** في بعض النسخ بدله ما لكم و **(اللّعقة)** بالضم اسم لما يلعق أي تؤكل بالاصبع أو بالملعقة وهي آلة معروفة.

الإعراب

جملة **(قد تزيّنت)** في محل النّصب على الحال من الدنيا، وفي بعض النسخ وقد تزيّنت بالواو، **(والفاء)** في قوله **(فخلط حلالها بحرامها)**، فصيحة أي إذا كانت مهانة على الله فخلط، وفي بعض النسخ عن أعدائه بدل على أعدائه، فلا بدّ من تضمين معنى القبض أي لم يضربها قابضاً لها عن أعدائه، وقوله **(فما خير دار تنقض)** (ا هـ) ما استفهامية وإضافة خير إلى دار بمعنى في، أي منفعة في دار وصفها كذا، **(ومن)** في قوله: **(من طلبتكم)** للتبعيض، ويحتمل الزيادة على مذهب الأخفش والكوفيّين من تجويز زيادتها في الإيجاب استدلالاً بقوله تعالى: و ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وذهب سيبويه إلى أنها فيه للتبعيض أيضاً.

وقوله: **(واسألوه من أداءِ حقه ما سألكم)**، أي اسألوا منه على الحذف والإيصال، **(وما)** موصولة منصوبة المحل مفعول اسألوه، **(وسألكم)** صلتها والعائد محذوف أي الّذي سأله منكم، **(ومن أداء حقّه)**، بيان لما، كما في قولك: عندي من المال ما يكفي، وإنّما جاز تقديم **(من)** المبينة على المبهم في هذا وأمثاله، لأنّ المبهم الذي فسّر **(بمن)** مقدّم تقديراً كأنّك قلت عندي شيء من المال ما يكفي، فالمبيّن بفتح الباء في الحقيقة محذوف، والّذي بعد **(من)** عطف بيان له، والمقصود بذلك تحصيل البيان بعد الإبهام، لأنّ معنى أعجبني زيد، أي شيء من أشيائه بلا ريب، فإذا قلت: كرمه أو وجهه، فقد تبيّنت ذلك الشّيء المبهم.

(والفاء) في قوله: **(فصارت الدّنيا فصيحة)**، وفي قوله: **(فلا توازرون)**، عاطفة مفيدة للسّببية نحو يقوم زيد فيغضب عمرو أي صار قيامه سبباً لغضب عمرو، وجملة **(تفرحون وتدركونه وتحرمونه ويفوتكم)** في محال النصب على الحال، وفي بعض النسخ **(حين يفوتكم)**، بإضافة **(حين)**، **(وقلّة صبركم)**، بالجرّ عطف على **(وجوهكم)**.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة مسوقة للتنفير عن الدّنيا والترغيب في الآخرة، ونبّه على جهات النفرة بقوله: **(وأحذركم)** من **(الدّنيا)** والرّكون إليها والاعتماد عليها والاغترار بها وبزخارفها **(فإنها منزل قلعة)** أي: لا تصح للسّكنى والاستيطان أو لا تدري متى يكون لك منها التحوّل

والارتحال والمضيّ والانتقال، **(وليست بدار نجعة)** يطلب فيها الكلاء ويروى من الظماء، وهو كناية عن أنّها لا ينال فيها المراد ولا يوفق فيها السداد **(قد تزينت)** للناس **(بغرورها)** وأباطيلها **(وغرّت)** المفتونين بها أي خدعتهم **(بزينتها)** وزخارفها.

وهي **(دار هانت على ربّها)** واتصفت بالذّل والهوان لعدم تعلّق العناية الإلهية عليها بالذات، وإنما خلقت لكونها وسيلة إلى غيرها.

قال أبو عبد الله عليه السلام: مر رسول الله صلى الله عليه وآله بِجَدي أسك ملقى على مزبلة، فقال لأصحابه: كم يساوي هذا؟ فقالوا: لعله لو كان حيّاً يساوي درهماً، فقال النّبي صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده الدنيا أهون على الله من هذا الجدي على أهله[1].

وقوله: **(فخلط حلالها بحرامها وخيرها بشرّها وحياتها بموتها وحلوها بمرّها)**، يعني أنها من أجل حقارتها لم تكن خيراً محضاً، بل كان كل ما يعد فيها خيراً مشوباً بشر يقابله، بخلاف الدّار الآخرة، فإنها خير كلّها وصفو كلّها، ولذلك **(لم يصفها الله لأوليائه)** بل جعلهم فيها مبتلى بأنواع الغصص والمحن، وأصناف المصائب والحزن فمشربهم فيها رنق ومترعهم فيها روغ، **(ولم يضنّ بها على أعدائه)** بل أعطاهم فيها غاية المأمول، ومنتهى المسئول، فحازوا نفائس الأموال وفازوا نهاية الآمال، وليس عدم التصفية للأولياء وعدم الضنّة بها في حق الأعداء إلاّ إكراماً للأوّلين وإضلالاً للآخرين.

قال أبو عبد الله عليه السلام: إن المؤمن ليكرم على الله حتى لو سأله الجنّة بما فيها أعطاه ذلك من غير أن ينتقص من ملكه شيئاً، وإنّ الكافر ليهون على الله حتى لو سأله الدّنيا بما فيها أعطاه ذلك من غير أن ينتقص من ملكه شيئاً، وإن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الغائب أهله بالطرف، وإنّه ليحميه الدّنيا كما يحمي الطّبيب المريض.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام قال: ما كان من ولد آدم مؤمن إلاّ فقيراً ولا كافراً إلاّ غنياً، حتّى جاء إبراهيم فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: ٥].

فصيّر الله في هؤلاء أموالاً وحاجة، وفي هؤلاءِ أموالاً وحاجة[2].

وبالجملة فعدم تصفيتها للأولياء وجعلهم فيها مبتلى بأوصاف البلاء ليس إلاّ ليصبروا أيّاماً قليلة، ويصيروا إلى راحة طويلة، وعدم قبضها من الأعداء لهوانها عليه سبحانه كهوانهم عنده ولو تساوي عنده تعالى جناح بعوضة لما أعطى أعدائه منها حبّة ولا سقاهم منها شربة.

(خيرها زهيد) قليل **(وشرّها عتيد)** حاضر **(وجمعها ينفد)** ويفنى **(وملكها يسلب)** ويؤخذ

---

(١) المعجم الكبير: ١٢/٢٦٧، والكافي: ٢/١٢٩ ح ٩.
(٢) الكافي: ٢/٢٦٢ ح ١٠، والتفسير الصافي ٤/٣٩١.

(وعامرها يخرب) ويهدم **(فما خير دار)** أي أيّ خير ومنفعة في دار **(تنقض نقض البناء وعمر يفني فناء الزاد، ومدّة تنقطع انقطاع السير)** لا يخفي حسن التشبيه في القرائن الثلاث وتمام المناسبة والإئتلاف بين طرفي التشبيه في كلّ منها، هذا.

ولمّا نبّه عليه السلام على معائب الدّنيا ومساوئها عقبه بالأمر بأخذ ما هو لازم فيها فقال: **(اجعلوا ما افترض الله عليكم)** من العقائد الحقّة والمعارف الإلهيّة والعبادات الفرعيّة **(من طلبتكم)** أي: من جملة ما تطلبونه أو نفس ما تطلبونه على زيادة من وعلى الثاني ففيه من المبالغة ما لا يخفى، يعني أن اللازم عليكم أن يكون مطلوبكم في الدّنيا الفرائض وأدائها، وتكون همّتكم مقصورة فيها، **(واسألوه من أداء حقّه ما سألكم)** أي اسألوا منه سبحانه التّوفيق والتّسديد والإعانة لما أمركم به وفرضه عليكم من أداء حقوقه الواجبة وتكاليفه اللازمة، فإن الإتيان بالواجبات والانتهاء عن السّيئات لا يحصل إلاّ بحول الله وقوّته وتوفيقه وتأييده وعصمته، فيلزم على العبد أن يقرع باب الرّب ذي الجلال بيد الذلّ والمسكنة والسؤال لأن يسهّل له مشاق الأعمال، ويصرفه عما يورطه في ورطة الضّلال، ويوقعه في شدائد الأهوال، كما قال سيّد العابدين وزين السّاجدين سلام الله عليه وعلى آبائه وأولاده الطّاهرين في دعاء يوم عرفة:

وخذ بقلبي إلى ما استعملت به القانتين، واستعبدت به المتعبّدين، واستنقذت به المتهاونين، وأعذني مما يباعدني عنك ويحول بيني وبين حظي منك ويصدّني عمّا أحاول لديك، وسهّل لي مسلك الخيرات إليك، والمسابقة إليها من حيث أمرت والمشاحة فيها على ما أوردت.

وفي دعاءِ الاشتياق إلى طلب المغفرة:

اللّهم وإنّك من الضعف خلقتنا، وعلى الوهن بنيتنا، ومن ماء مهين ابتدأتها ولا حول لنا إلاّ بقوّتك، ولا قوّة لنا إلاّ بعونك، فأيّدنا بتوفيقك، وسدّدنا بتسديدك وأعم أبصار قلوبنا عمّا خالف محبّتك، ولا تجعل لشيء من جوارحنا نفوذاً إلى معصيتك.

وفي دعائه عليه السلام في ذكر التّوبة:

اللّهم أنّه لا رفاء لي بالتوبة إلاّ بعصمتك، ولا استمساك بي عن الخطايا إلاّ عن فوتك، فقوّني بقوّة كافية، وتولني بعصمة مانعة[1]، هذا.

وإطلاق السؤال على الفرائض والأوامر في قوله ما سألكم من باب المجاز بجامع الطّلب، أوان الإتيان بلفظ السؤال لمجرّد المشاكلة بينه وبين قوله، واسألوه وهي من محسنات

(١) الصحيفة السجادية: ١٦١.

البديع كما مرّ في ديباجة الشرح وقوله: **(وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم)** أراد به التهيّؤ للموت قبل حلول الفوت والاستعداد له قبل نزوله، بأن يجعله نصب عينيه ويذكر شدّة ما يكون في تلك الحال عليه من سكرة ملهثة وغمرة كارثة، وأنةٍ موجعة وجذبة مكربة وسوقة متعبة.

ثمّ نبّه عليه السلام على أوصاف خيرة العباد من العبّاد والزّهاد لترمق أعمالهم، ويقتدي لهم في أفعالهم فقال: **(إن الزاهدين في الدّنيا)** الرّاغبين في الآخرة **(تبكي قلوبهم)** من خشية الحق **(وإن ضحكوا)** مداراة مع الخلق **(ويشتدّ حزنهم)** من خوف النار وغضب الجبار **(وإن فرحوا)** حيناً ما من الأعصار **(ويكثر مقتهم)** وبغضهم **(أنفسهم)** لكونها أمارة بالسّوء والفساد صارفة عن سمت السّداد والرشاد فلا يطيعونها ولا يلتفتون إليها ولا يخلعون لجامها لتقتحم لهم في العذاب الأليم، وتوردهم في الخزي العظيم **(وإن اغتبطوا)** أي اغتبطهم الناس **(بما رزقوا)** من فوائد النّعم وعوائد المزيد والقسم.

ثمّ وبّخهم على ما هم عليه من حالة الغرّة والغفلة فقال: **(قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال)** فلم تمهدوا في سلامة الأبدان **(وحضرتكم كواذب الآمال)** فلم تعتبروا في أنف الأوان، **(فصارت الدّنيا أملك بكم من الآخرة)** لاستيلائها عليكم ونفوذ تصرّفها فيكم وأتباعكم عليها أتباع العبد على سيّده، والمملوك على مولاه **(والعاجلة أذهب بكم من الآجلة)** لفرط محبّتكم لها ودخول حبّها شغاف قلوبكم، فذهبت بقلوبكم كما يذهب المحبوب بقلب محبّه، **(وإنّما أنتم إخوان مجتمعون على دين الله)** وفطرته التي فطر النّاس عليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] **(ما فرّق بينكم إلاّ خبث السّرائر وسوء الضمائر)** أي لم يفرق بينكم إلا خبث البواطن وسوء العقائد والنّيات، ومن ذلك ارتفعت عليكم آثار التواخي والمودّة ولوازم المحبّة والإخوة، **(فلا توازرون ولا تناصحون ولا تباذلون ولا توادّون)**، أي لا يعين أحدكم صاحبه ولا يقويه ولا يناصحه ولا يبذل ماله له ولا يقوم بلوازم المودة.

روى في «**الكافي**» عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: حقّ المسلم على المسلم أن لا يشبع ويجوع أخوه ولا يروي ويعطش أخوه ولا يكتسي ويعرى أخوه[1]، فما أعظم حقّ المسلم على أخيه المسلم.

وقال: أحبّ لأخيك المسلم ما تحب لنفسك، وإذا احتجت فاسأله، وإن سألك فأعطه، لا تمله خيراً ولا يملّه لك، كن له ظهراً فإنه لك ظهر، إذا غاب فاحفظه في غيبته، وإذا شهد فزره وأجله وأكرمه فإنه منك وأنت منه، فإن كان عليك عاتباً فلا تفارقه حتّى تسئل سميحته، وإن أصابه خير فاحمد الله، وإن ابتلي فأعضده، وإن يمحل له فأعنه، وإذا قال الرّجل لأخيه:

(١) كتاب المؤمن: ٤٢ ح ٩٥، والكافي: ٢/ ١٧٠ ح ٤.

أفّ انقطع ما بينهما من الولاية، وإذا قال: أنت عدوّي كفر أحدهما، فإذا اتّهمه إنماث الإيمان في قلبه كما يماث الملح في الماء[١].

وبإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: من حقّ المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جوعته ويواري عورته، ويفرج عنه كربته، ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده[٢].

أقول: قد أستفيد من هذين الخبرين، وغيرهما لم نورده شرائط الأخوة بين المسلمين، وعلم بذلك أن من لم يقم بوظائفها فليس هو في الحقيقة بأخ لصاحبه، ولذلك قال الباقر والصّادق عليه السلام فيما رواه عنهما في «**الكافي**»: لم تتواخوا على هذا الأمر وإنما تعارفتم عليه[٣].

ثم استفهم على المخاطبين على سبيل التقريع فقال: (**ما بالكم تفرحون باليسير من الدّنيا تدركونه ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه**) مع أن هذا اليسير فانٍ زائل، وذلك الكثير باق دائم (**ويقلقلكم**) أي يزعجكم (**اليسير من الدّنيا يفوتكم حتّى يتبين ذلك**) القلق والاضطراب ويظهر أثره (**في وجوهكم و**) في (**قلّة صبركم عمّا زوى**) أي قبض (**منها**) أي من الدّنيا وخيرها وفضلها (**عنكم**) فتحزنون وتتأسّفون بذلك (**كأنها دار مقامكم وكأن متاعها باق عليكم**).

ثمّ ذمّهم على عدم كون محافظتهم على إخوانهم بظهر الغيب عن وجه الخلوص والصّفاءِ، وعلى عدم كون كتمانهم لعيوب أخوتهم لمجرّد ملاحظة الصّدقة والأخاء فقال: (**وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف**) الأخ منه (**من عيبه إلاّ مخافة أن يستقبله**) أخوه (**بمثله**) يعني أنه لا مانع لأحد منكم من مواجهة أخيه بإظهار عيوبه التي يخاف الأخ من إظهارها إلاّ مخافة أن يواجهه أخوه بمثل ما واجهه به، فيذكر مثالبه ويظهر معايبه، وهو إشارة إلى عدم مبالاتهم في الدين وعدم خوفهم من الله سبحانه في إذاعة سرّ المؤمنين مع أنّ حقّ المؤمن من المؤمن إذا رأى منه عيباً أو عرف منه ذنباً هو الإخفاء والكتمان، لا الإذاعة والإعلان، قضاء لحق الأخوة ورعاية لوظيفة التقوى والمروة قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروّته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشّيطان فلا يقبله الشّيطان رواه في «**الكافي**».

---

(١) بحار الأنوار: ١٠/١٠٢، والكافي: ٢/١٧٠ ح ٥.

(٢) الكافي: ٢/١٦٩ ح ١، وميزان الحكمة: ١/٦٦٤.

(٣) شرح أصول الكافي: ٩/٣٩ ح٢، ومستدرك سفينة البحار: ١/٦٧.

وفيه أيضاً عن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: فيما جاء في الحديث عورة المؤمن على المؤمن حرام، قال: ما هو أن ينكشف فترى منه شيئاً إنما هو أن تروي عليه أو تعيبه[١].

ثمّ قال: (**قد تصافيتم على رفض الآجل وحب العاجل**) أي تواخيتم على ترك الأخرى ومحبة الدّنيا، (**وصار دين أحدكم لعقة على لسانه**) قال الشارح البحراني استعار لفظ اللعقة لما ينطق به من شعار الإسلام والدين كالشّهادتين ونحوهما من دون ثبات ذلك في القلب ورسوخه والعمل على وفقه.

وقال الشارح المعتزلي: وأصل اللعقة شيء قليل يؤخذ بالملعقة من الإناء يصف دينهم بالنزارة، ولم يقنع بأن جعله لعقة حتى جعله على ألسنتهم فقط أي ليس في قلوبهم (**صنع من**) أي صنعهم مثل صنيع من (**قد فرغ من عمله وأحرز رضى سيّده**) بإتيان أوامره وأحكامه، ووجه التشبيه الاشتراك في الأعراض من العمل.

---

(١) الكافي: ٢/٣٥٩ ح ٣، وبحار الأنوار: ٧٢/ ١٧٠ ح ٤٢.

الترجمة

از جمله خطبه های آن حضرت است در مذمّت دنیا و تنفیر مردمان از آن غدار بیوفا، چنان چه فرموده:

و می ترسانم شما را از دنیا، پس به درستی که آن منزلی است که قابل اخذ وطن نیست و نیست سرایی که طلب آب و گیاه کرده شود در آن، به تحقیق که آراسته شده به باطل خود، فریب داده به آرایش خود، خانه ای است که ذلیل و خوار شده بر پرودگار خود، پس آمیخته حلال آن را به حرام آن و خیر آن را به شرّ آن و زندگانی آن را به مرگ آن و شیرینی آن را به تلخ آن، صافی نفرموده است آن را از برای دوستان خود و بخیلی ننموده آن را بر دشمنان خود، خیر آن کم است و شرّ آن حاضر است و جمع شده آن تمام می شود و پادشاهی آن ربوده می شود و آباد آن خراب می شود.

پس چه منفعت است در خانه ای که شکسته می شود چون شکسته شدن بنای بی اعتبار و در عمری که فانی می شود چون فانی شدن توشه و در مدتی که منقطع می شود چون انقطاع رفتار، بگردانید آن چه که واجب نمود خداوند تعالی بر شما از جمله مطالب خود و سؤال کنید از حق تعالی توفیق و اعانت آن چه را که خواهش فرموده از شما از اداء حق او و بشنوانید دعوت مرگ را به گوشهای خودتان پیش از این که دعوت نمایند و بخوانند شما را به دارالقرار.

به درستی صاحبان زهد در دنیا گریه می کند قلب های ایشان و اگرچه خنده کنند به حسب ظاهر و شدّت می یابد پریشانی ایشان و اگرچه شاد باشند بر روی ناظر و بسیار می شود دشمنی ایشان با نفسهای خودشان و اگرچه غبطه کرده شوند و مردمان آرزوی نیکویی حال ایشان را نمایند به آن چه که روزی داده شدند در این جهان.

به تحقیق که غائب شده از قلب های شما یادکردن اجل ها و حاضر شده شما را دروغهای آرزوها، پس گردید دنیا مالك تر و متصرّف تر شد به شما از آخرت و دنیا برنده تر شد شما را به سوی خود از عقبا و جز این نیست که شما برادرانید بر

دین خدای تعالی تفرقه نینداخته در میان شما مگر ناپاکی شرها و بدی اندیشه ها، پس اعانت یکدیگر نمی کنید و بار گردن یکدیگر را بر نمی دارید و نصیحت نمی کنید یکدیگر را و بخشش نمی کنید به یکدیگر و دوستی نمیورزید با یکدیگر.

چیست شأن شما در حالتی که شاد می باشد به اندکی از دنیا در حالتی که درمی یابید آن را و محزون نمی کند شما را بسیاری از آخرت در حالتی که محروم می شوید از آن و مضطرب می نماید شما را اندکی از متاع دنیا هنگامی که فوت می شود از شما تا آن که ظاهر می شود اثر آن اضطراب در بشره روی های شما در کمی صبر و شکیبایی شما از آن چه پیچیده شده است از متاع دنیا از شما، گوییا دنیا سرای اقامت شما است و گوییا متاع آن باقی است بر شما و مانع نمی شود یکی از شما را از این که مواجهه کند برادر دینی خود را به چیزی که می ترسد برادر از عیب آن مگر ترس آن که مواجهه نماید برادر او با او با مثل گفتار او، به تحقیق که دوستی ورزیده اید با یکدیگر بر ترك آخرت و بر محبّت دنیا و گردیده است دین یکی از شما آن چه که به یك بار لیسیده می شود بر زبان و عمل نمودید ترك در امورات اخروی مثل کار کسی که فارغ شود از عمل خود و فراهم آورده باشد خوشنودی و رضای مولای خود را.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثالثة عشر من المختار في باب الخطب

أَلْحَمْدُ للهِ الواصِلِ الحَمْدَ بِالنِّعَمِ، وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ، نَحْمَدُهُ عَلى آلائِه كَما نَحْمَدُهُ عَلى بَلآئِه، ونَسْتَعينُهُ عَلى هٰذِهِ النُّفُوسِ البِطَاءِ عَمّا أُمِرَتْ بِهِ، السِّراعِ إلى ما نُهِيَتْ عَنْهُ، ونَسْتَغْفِرُه مِمّا أَحاطَ بِه عِلْمُهُ، وأَحْصاهُ كِتابُهُ عِلْمٌ غَيرُ قاصِرٍ، وكِتابٌ غَيرُ مُغادِرٍ، ونُؤمِنُ بِه إيمانَ مَنْ عايَنَ الْغُيُوبَ، ووَقَفَ عَلى المَوْعُودِ، إيماناً نَفي إخْلاصُهُ الشِّرْكَ، ويَقينُهُ الشَّكَّ، ونَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَنَّ مُحمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ صلى الله عليه وآله، شَهادَتَينِ تُصْعِدانِ الْقَوْلَ، وتَرْفَعانِ الْعَمَلَ، لا يَخِفُّ ميزانٌ تُوضَعانِ فيهِ، ولا يَثْقُلُ ميزانٌ تُرْفعانِ عَنْهُ، أُوصيكُمْ عِبادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّتي هِيَ الزّادُ، وبِهَا الْمَعادُ، زادٌ مُبَلِّغٌ، ومَعادٌ مُنْجِحٌ، دَعا إِلَيْها أَسْمَعُ داعٍ، ووَعيها خَيرُ واعٍ فَأَسْمَعَ داعيها، وفازَ واعيها، عِبادَ اللهِ، إنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ أَوْلِياءَ اللهِ مَحارِمَهُ، وأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخافَتَهُ، حَتّى أَسْهَرَتْ لَيالِيَهُمْ، وأَظْمَأَتْ هَواجِرَهُمْ، فَأَخَذُوا الرّاحَةَ بِالنَّصَبِ، والرِّيَّ بِالظَّمأِ، وَاسْتَقْرَبُوا الأَجَلَ فَبادَرُوا الْعَمَلَ، وكَذَّبُوا الأَمَلَ، فَلاحَظُوا الأَجَلَ.

ثُمَّ إنَّ الدُّنْيا دارُ فَناءٍ وعَناءٍ، وغِيرٍ وعِبَرٍ، فَمِنَ الْفَناءِ إنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسِه، ولا تُخْطي سِهامُهُ، ولا تُوسى جِراحُهُ، يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ، وَالصَّحيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنّاجِيَ بِالْعَطَبِ، آكِلٌ لا يَشْبَعُ، وَشارِبٌ لا يَنْقَعُ، ومِنَ العَناءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ ما لا يأكُلُ، ويَبْني ما لا يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخْرُجُ إلى اللهِ لا مالاً حَمَلَ، ولا بِناءً نَقَلَ، ومِنْ غِيرِها أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً، لَيْسَ ذٰلِكَ إلاّ نَعيماً زَلَّ، وبُؤْساً نَزَلَ، ومِنْ عِبَرِها أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلى أَمَلِه، فَيَقْتَطِعُهُ حُضُوراً أَجَلِه، فَلا أَمَلٌ يُدْرَكُ، ولا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ، فَسُبْحانَ اللهِ ما أَغَرَّ سُرُورَها، وأَظْمَأَ رِيَّها، وأَضْحى فَيْئَها، لا جاءٍ يُرَدُّ، ولا ماضٍ يَرْتَدُّ، فَسُبْحانَ الله ما أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلِحاقِه بِه، وأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لانْقِطاعِه عَنْه، إنَّهُ لَيْس شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إلا عِقابُهُ، ولَيْسَ شَيْءٌ بِخَيرٍ مِنَ الْخَيرِ إلاّ ثَوابُهُ، وكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا سَماعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيانِه، وكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَماعِه، فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيانِ السَّماعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ ما نَقَصَ مِنَ الدُّنْيا وزادَ في الآخِرَةِ خَيرٌ مِمّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَةِ وزادَ في الدُّنْيا، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رابِحٍ، ومَزيدٍ خاسِرٍ، إنَّ الَّذي أُمِرْتُمْ بِه أَوْسَعُ مِنَ الَّذي نُهيتُمْ عَنْهُ، وما أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمّا حُرِّمَ عَلَيْكُم، فَذَرُوا ما قَلَّ لِما كَثُرَ، وَما ضاقَ لِمَا اتَّسَعَ، قَدْ تُكُفِّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ، وأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ، فَلا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخِلَ الْيَقينُ حَتّى كَأَنَّ الَّذي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ، فَبادِرُوا الْعَمَلَ، وخافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ، فَإِنَّهُ لا

يُرْجى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمْرِ ما يُرْجى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ، ما فاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيادَتُه، وما فاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمْرِ لَمْ يُرْجَ رَجْعَتُهُ، الرَّجاءُ مَعَ الجائي، وَالْيَأْسُ مَعَ الماضي، «فَاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»[1]

اللغة

(البطاء) على وزن الفعال من بطوء بطئاً كقرب ضد السّراع، و **(غادره)** مغادرة وغداراً تركه وبقاه، و **(المعاد)** بالدال المهملة مصدر بمعنى العود أي الرجوع إلى الله سبحانه، وفي بعض النسخ بالذال المعجمة بمعنى الملاذ و **(النجح)** بالضم الظفر بالمطلوب وأنجح زيد صار ذا نجح فهو منجح، و **(أسمع واع)** بناء أفعل هٰهنا من الرباعي أي أشد إسماعاً، مثل قولهم ما أعطاه للمال وما أولاه للمعروف، وهذا المكان أقفر من غيره، أي أشدّ اقفاراً، وفي بعض الرّوايات: وأحسن واع، بدله و **(الظماء)** محرّكة العطش أو شدّته، و **(الهواجر)** جمع الهاجرة وهو كالهجر والهجيرة نصف النهار أو من عند زوال الشمس إلى العصر، لأنّ الناس يستكنون في بيوتهم كأنهم قد تهاجروا، وشدة الحر.

(والرّي) بالكسر إسم من روى من الماء واللبن ريا و **(الغير)** اسم من غيره جعله غير ما كان، وحوّله وبدله وغير الدهر وزان عنب أحداثه المغيرة، و **(موتر)** من باب الأفعال أو التفعيل وكلاهما مرويّان يقال: أوتر القوس أي جعل لها وتراً ووترها توتيراً شدّ وترها، والوتر محركة شرعة القوس ومعلقها، والجمع أوتار و **(أسى)** الجرح أسواً وأسى داواه، أسوت بين القوم أصلحت و **(أضحى)** فيئها من ضحى الرجل إذا برز للشمس، و **(العيان)** بالكسر المعاينة يقال لقيه عياناً أي معاينة لم يشك في رؤيته إيّاه، و **(دخل اليقين)** أي تزلزل كما في قوله: كنت أرى إسلامه مدخولاً، أي متزلزلاً، و **(الرجعة)** الرّجوع و **(التقاة)** الخوف وأصله تقية وزان تهمة.

الإعراب

(إيماناً) بالنصب بدل من إيمان الأوّل، **(وجملة تصعدان)** صفة للشهادتين، وجملة **(لا يخف)** **(آه)** تحتمل الوصفية أيضاً، والحالية لوقوعها بعد نكرة مخصصة بالوصف، **(وداعيها)** فاعل اسمع، **(وواعيها)** فاعل فاز، والباء في قوله **(بالنصب وبالظما)** للمقابلة، وأكل بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، وقوله **(لا ما لا حمل)**، **(لا)** للنّفي **(وما لا)** منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده، وجملة المنفي حال من فاعل يخرج، **(وطلبه)** بالرفع بدل **(اشتمال)** من المضمون وليس فاعلاً له على حدّ قولهم: جاءني المضروب أخوه، وذلك لأنّ الرزق حصوله

(١) الكافي: ١/٣٠٧ ح ٨، والخصال: ٣٠٩.

مَضمون لا طلبه كما هو ظاهر، ويحتمل أن يكون رفعه بالابتداء **(وأولى بكم)** خبره، وجملة المبتدأ والخبر في محل النصب خبراً **(ليكون)**، والأول أحسن وأنسب.

المعنى

إعلم أن الغرض بهذه الخطبة الشريفة الأَمر بملازمة التقوى والتنفير عن الدّنيا والترغيب في العقبا افتتحها بالحمد والثناء فقال:

(الحمد لله الواصل الحمد بالنعم والنّعم بالشكر) المراد بوصل أحدهما بالآخر شدّة الارتباط بينهما، فيكون التكرير للتأكيد أو أنه أراد بوصل الحمد بالنّعم إيجابه الحمد عليها وأمره به عند حصولها، وبوصل النّعم بالشّكر جعل الشكر سبباً لمزيدها كما قال: لئن شكرتم لأزيدنّكم، وهذا هو الأَظهر، ولذا اختار الشّكر على الحمد لمحاً للآية الشريفة.

(نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه) وهذا من باب التشبيه المقلوب والغرض منه عائد إلى المشبه به وهو إيهام أنّه أتم من المشبه، وإن كان الحمد على الآلاءِ أكثر وأشهر، ومثله قوله:

وبدا الصّباح كأن غرّته وجه الخليفة حين يمتدح

فإنه قصد إيهام أن وجه الخليفة أتم في الوضوح والضّياءِ من الصّباح، وإن كان الأَمر بحسب الواقع بالعكس هذا، وفيه إرشاد للعباد على القيام بوظائف الحمد عند السّراء والضرّاء، والملازمة بمراسم التّحية والثناء في حالتي الشدّة والرّخاء لأنّ الرضاء بالقضاء والصّبر على البلاء يوجبان الثواب الجميل والأجر الجزيل في العقبى، فبذلك الاعتبار البلاء منه سبحانه أيضاً نعمة توجب الحمد لله تعالى قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآيات.

وفي **«رواية الكافي»** عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن فيما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران يا موسى بن عمران ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن، وإني إنما أبتليه لما هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي أكتبه في الصّديقين عندي إذا عمل برضائي وأطاع أمري(١).

(ونستعينه على هذه النفوس) المائلة بمقتضى جبلّتها إلى المفاسد والمقابح والراغبة عن المنافع والمصالح **(البطاء عمّا أمرت به)** من العبادات والطّاعات **(السّراع إلى ما نهيت عنه)** من

(١) الكافي: ٢/٦٢ ح ٧، والأمالي: ٢٣٨ ح ٤٢١.

المعاصي والسّيئات **(ونستغفره ممّا أحاط به علمه وأحصاه كتابه)** من صغائر الذّنوب وكبائرها وبواطن السّيئات وظواهرها وسوالف الزّلاّت وحوادثها **(علم غير قاصر)** عن شيء ولا يعزب عنه ممّا في الأرض والسّماءِ من شيء **(وكتاب غير مغادر)** شيء أي لا يغادر ولا يبقي صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصٰيها.

(ونؤمن به) أي نصدقه بقول مقول وعمل معمول وعرفان بالعقول وأتباع الرّسول **(إيمان من عاين الغيوب)** وشاهد بعين اليقين الغيب المحجوب عن غمرة الموت وسكرته وضيق القبر وظلمته، وطول البرزخ ووحشته، وعقبات السّاعة ودواهيها، وأهوال القيامة وشدائدها **(ووقف)** أي اطّلع **(على الموعود)** من الرّفد المرفود والطلح المنضود والسّدر المخضود والظل الممدود وغيرها ممّا وعد به المتّقون، أو النّار ذات الوقود والقيح والسّديد والعذاب الشّديد، ونزل الحميم وتصلية الجحيم ونحوها ممّا وعد به المجرمون.

وإنّما خصّ إيمان المعاين الواقف بالبيان لكونه أقوى درجات الإيمان، فإن من الإيمان ما يكون بحسب التقليد، ومنه ما يكون بحسب البرهان وهو علم اليقين، وأقوى منه الإيمان بحسب الكشف والمشاهدة، وهو عين اليقين، وذلك هو الإيمان الخالص.

وفي «**الكافي**» بإسناده عن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالنّاس الصّبح فنظر إلى شابّ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفراً لونه، وقد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدّنيا وما فيها حتّى كأني أنظر إلى عرش ربّي، وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون على الأرائك متكؤون، وكأني أنظر إلى أهل النّار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النّار يدور في مسامعي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان، ثمّ قال له: الزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشّهادة معك، فدعى له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر[1].

وحيث كان إيمانه عليه السلام من أقوى درجات الإيمان وأعلى مراتبه، موصوفاً بالخلوص واليقين كما قال عليه السلام: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً[2] أتبعه بقوله: **(إيماناً نفى إخلاصه**

---

(١) الكافي: ٢/ ٥٣ ح ٢، والمحاسن: ١/ ٢٥١.

(٢) الكافي: ٢/ ٥٣ ح ٢، وشرح أصول الكافي: ٨/ ١٧٠ ح ٢.

الشرك ويقينه الشّك) أما نفي إخلاصه للشرك فواضح، وأما نفي يقينه للشّك فلأن اليقين عبارة عن الاعتقاد بأن الأمر كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن أن لا يكون إلاّ كذا، فهو مناف للشك لا محالة.

(ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً ﷺ عبده ورسوله) وقد مضى تفصيل ما يتعلّق بالشّهادتين في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثانية ولا حاجة إلى الإعادة.

(شهادتين تصعدان القول) أي الكلم الطّيب **(وترفعان العمل)** أي: العمل الصّالح، وإنما تكونان كذلك إذا كانتا صادرتين عن صميم القلب ووجه اليقين وخلوص الجنان فتكونان حينئذٍ فاتحة الإحسان وعزيمة الإيمان تصعدان الكلمات الطيّبات، وترفعان الأعمال الصّالحات، وتزيدان في الدّرجات، وتكفران الخطيئات، وأمّا الصّادرة عن مجرد اللّسان فلا فائدة فيها إلا تطهير ظاهر الإنسان، وخيرها زهيد ونفعها فقيد، هذا.

وفي قوله: **(لا يخفّ ميزان توضعان فيه ولا يثقل ميزان ترفعان عنه)** دلالة على أن لهما مدخلية في ثقل الميزان وخفته بوضعهما فيه ورفعهما عنه.

ويشهد به صريحاً في الجملة ما قدّمنا روايتها في شرح الفصل الثّاني من الخطبة الثانية، من ثواب الأعمال عن أبي سعيد الخدري عن النّبيّ ﷺ قال: قال الله جلّ جلاله لموسى بن عمران: يا موسى لو أنّ السّماوات وعامريهنّ عندي والأرضين السبع في كفّة ولا إله إلاّ الله في كفة مالت بهنّ لا إله إلاّ الله[١].

ثمّ وصى عليه السلام العباد بما لا يزال يوصي به فقال: **(أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي)** الذّخيرة و **(الزاد وبها)** المرجع و **(المعاد زاد)** يتقوى به إلى طيّ منازل الآخرة وسلوك سبيل الجنان **(مبلّغ)** إلى غاية الرّضوان **(ومعاد منجح)** يصادف عنده الفوز والنجاح، وينال به منتهى الأرباح **(دعا إليها)** أي إلى التقوى **(أسمع داع ووعاها)** أي حفظها **(خير واع)** يحتمل أن يكون المراد بأسمع داع هو الله سبحانه، لأنّه أشدّ المسمعين اسماعاً، وقد دعى إليها كثيراً وندب إليها في غير واحد من الكتب السّماويّة وغير آية من الآيات القرآنية، ومن جملتها قوله سبحانه:

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وبخير واع هو الأنبياء والمرسلون أو الأعمّ منهم، ومن سائر المسارعين إلى داعي الله الّذين هم أفضل القوابل الإنسانيّة، وأن يكون المراد بأسمع داع رسول الله وبخير واع نفسه عليه السلام.

---

(١) ثواب الأعمال: ٢، والجواهر الندية: ٦١.

ويؤيّده قوله تعالى: ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، بما روى في **«الكافي»** عن الصادق عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: هي أذنك يا علي[١].

(فاسمع داعيها) أي لم يبق أحد من المكلّفين إلا أسمعه تلك الدّعوة **(وفاز واعيها)** المتدبر فيها الآخذ بها.

ثمّ نبّه على آثار التقوى وخواصّها في الأولياء فقال: **(عباد الله إنّ تقوى الله حمت)** أي منعت **(أولياء الله)** من حماه سبحانه وهو **(محارمه)** كما قال صلى الله عليه وآله ألا وإن لكلّ ملك حمى وإن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه، أي قرب أن يدخله **(وألزمت قلوبهم مخافته)** وخشيته **(حتى أسهرت لياليهم وأظمأت هواجرهم)** نسبة السّهر إلى الليالي والظمأ إلى الهواجر من باب التوسّع والمجاز على حدّ قولهم: نهاره صائم وليله قائم، والمراد أن التقوى وشدّة الخوف أوجبت سهرهم في اللّيالي للقيام إلى الصّلاة، والدوام على المناجاة وعطشهم في الهواجر لملازمتهم بالصّيام والكفّ عن الشراب والطعام، فهم عمش العيون من البكاء ذبل الشفاه من الدعاء حدب الظهور من القيام خمص البطون من الصيّام، صفر الوجوه من السهر، عليهم غبرة الخاشعين.

(فأخذوا الراحة) في الأخرى **(بالنصب)** والتعب في الدّنيا **(والرّي)** من عين سلسبيل **(بالظّمأ)** والعطش في زمان قليل، **(واستقربوا الأجل فبادروا العمل وكذبوا الأمل فلاحظوا الأجل)** يعني أنهم عدوا الآجال أي مدة الأعمار قريباً، فسارعوا إلى الأعمال الصّالحة وتهيّؤوا زاد الآخرة، وأنهم كذّبوا الآمال الباطلة ولم يغترّوا بالأمنيّات العاطلة فلاحظوا الموت.

وبما ذكرنا ظهر أن الأجل في الفقرة الأولى بمعنى مدّة العمر، وفي الثانية بمعنى الموت، فلا تكرار كما ظهر أن **(الفاء)** في قوله: **(فبادروا)**، للسّببية مفيدة لسببيّة ما قبلها لما بعدها، وأما في قوله **(فلاحظوا)** فيحتمل أن تكون كذلك أي لإفادة سببيّة ما قبلها لما بعدها، ويحتمل العكس فيكون مفادها **(لام)** التعليل كما في قولك أكرم زيداً فإنّه فاضل، يعني أكرمه لكونه فاضلاً، فيدل على أنّ فضله علّة لإكرامه.

والاحتمالان مبنيان على أن الدّنيا والآخرة ضرتان متضادتان فبقدر التوجّه إلى إحداهما يغفل عن الأخرى وطول الأمل إنّما ينشأ من حبّ الدّنيا والميل إليها، فملاحظة الآخرة أعني الأجل وما بعده والالتفات إليها والتوجه لها يستلزم الإعراض عن الدنيا وعن الآمال الباطلة المتعلّقة بها لا محالة، وهو معنى تكذيبها كما أن انتزاع محبّة الدّنيا عن القلب وعدم الاغترار بآمالها يستلزم ملاحظة الآخرة، فبين الأمرين ملازمة في الحقيقة يكون تكذيب الآمال سبباً

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٨٨، والتفسير الأصفى: ٢/ ١٣٤٣.

لملاحظة الآخرة، وباعتبار آخر تكون ملاحظة الآخرة علّة لتكذيب الآمال وأعني بالعلية والسّببيّة الارتباط والملازمة، وإن لم تكن تامة، فافهم جيداً.

ويمكن أن يراد بالأجل في الفقرة الأولى الموت، وفي الثانية مدة العمر عكس ما قدّمنا، ويحتاج حينئذٍ إلى نوع تكلّف، بأن يراد بملاحظة الأجل بملاحظة قصر مدّة العمر وقلتها حتّى يستفهم العلية المستفادة من **(الفاء)** فتدبّر.

ثمّ أنه عليه السلام وصف الدنيا بأوصاف منفرة وعن الركون إليها فقال: **(ثمّ أن الدّنيا دار فناء وعناء وغير وعبر)** أي دار موصوفة بالفناء والمشقة والتغير والاعتبار **(فمن الفناء أن الدّهر موتر قوسه)** شبه الدّهر بالرامي بالقوس على سبيل الاستعارة بالكناية، والجامع بينهما أن الدّهر يرمي بمصائبه وحوادثه المستندة إلى القضاء الإلهي الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل، كما أن الرامي يرمي بسهامه الغير الخاطئة، وذكر القوس تخييل، وذكر الإيتار ترشيح **(و)** رشح ثانية بقوله: **(لا تخطىء سهامه و)** ثالثة بأنه **(لا توسى جراحه)** أي لا تداوى ولا تصلح.

ولما جعل الدّهر بمنزلة الرامي بيّن كيفيّة رميه بقوله: **(يرمي الحي بالموت والصحيح بالسّقم والناجي بالعطب)** والهلاك، وقوله: **(آكل لا يشبع وشارب لا ينقع)** يعني أن الدهر آكل لا يشبع من أكل لحوم الناس وإفنائهم، وشارب لا يرتوي من شرب دمائهم، وهو من باب التّشبيه البليغ على حدّ قولنا زيد أسد، لا الاستعارة كما توهمه البحراني، لأن مبنى الاستعارة على تناسي التشبيه مبالغة كما في قولك رأيت أسداً يرمي، فيلزمه أن لا يؤتي بطرفي التّشبيه معاً في الكلام، لأنّ الإتيان بهما يبطل ذلك الغرض، وقد تقدّم تحقيقه في ديباجة الشرح.

(ومن العناء) أي من عناء الدّنيا ومشقّتها **(أن المرء يجمع)** فيها **(مالاً يأكل ويبني ما لا يسكن)** لا يزال مشغولاً بالجمع والبناء حتى تتم المدّة وتنقضي، **(ثمّ يخرج إلى الله سبحانه)** فيدع ما جمع ويذر ما بنى تأكله الأعقاب والأبناء ويسكنه الأباعد والأعداء **(لا مالاً حمله)** إلى محطّة **(ولا بناء نقلَهُ)** إلى مخطّه[1] وفي هذا المعنى قال الشّاعر:

هبك بلّغت كلّما تشتهيه ... وملكت الزّمان تحكم فيه
هل قصارى الحياة إلا الممات ... يسلب المرء كلّ ما يقتنيه

(ومن غيرها) أي تغيّر الدنيا وانقلابها **(إنّك ترى المرحوم مغبوطاً والمغبوط مرحوماً)** يعني ترى من ترحمه الخلائق بسبب الضّر والفقر والمسكنة يصير في زمان قليل موصوفاً باليسار، والرخاء والسعة فيغبطونه بذلك، وترى من تغبطه الخلائق بالعزّ والمنعة والغنى يصير عمّا قليل مبتلاً بالذلّ والفقر والعناء، فيرحمونه لأجل ذلك.

---

(١) المحط والمخط بالحاء المهملة والخاء المعجمة معاً: القبر.

و **(ليس ذلك إلا نعيماً زل بؤساً نزل)** أي ليس كون المغبوط مرحوماً إلاّ بنعيم انتقل من المغبوط إلى غيره، أو شدّة نزلت عليه وفقر وسوء حال حلّ به.

(ومن عبرها أن المرء يشرف على أمله فيقتطعه حضور أجله) أي: يطلع على أمله ويعلو عليه بحيث يكاد يدركه، فيحضر إذا أجله ويقتطعه عنه ويحول بينه وبينه **(فلا أمل يدرك ولا مؤمّل يترك)**، ثم تعجب من بعض حالات الدّنيا وأطوارها وقال: **(فسبحان الله ما أعزّ سرورها وأظمأ ريّها وأضحى فيئها)** أراد بالرّي استتمام لذتها وبفيئها الرّكون إلى قنياتها والاعتماد عليها، أي أيّ شيء أوجب لكون سرورها سبباً للغرور، وكون ريّها سبباً للعطش وظلّها سبباً للحرارة، فإن الضحى هي وقت ارتفاع الشّمس وعنده تكون الحرارة.

ونسبة الغرور إلى السرور والظمأ إلى الرّي والضحى إلى الفيء باعتبار أن سرورها ولذاتها وزخارفها هي الصّوارف عن العمل للآخرة، والشواغل عن الإقبال إلى الله سبحانه، فكان سرورها أقوى سبب للاغترار بها، وريّها من آكد الأسباب للعطش في الآخرة والحرمان من شراب الأبرار، وفيئها من أقوى الدواعي إلى إيراده في حرّ الجحيم وتصلية الحميم.

ويحتمل أن يكون المراد بإظماء ريّها أن الارتواء منها لا ينقع ولا ينفع من الغلة، بل يزيد في العطش كمن شرب من الماء المالح والأجاج، فيكون كناية عن كون الاكثار منها سبباً لمزيد الحرص عليها، وكذا يكون المراد بإضحاء فيئها أن من طلب الراحة فيها اعتماداً على ما جمعها منها لا يجد فيها الراحة ولا ينجو به من حرارة الكبد وفرط المحبة إلى جمعها وتحصيلها وإكثارها، بل هو دائماً في التّعب والعطب للتحصيل والطلب إلى أن يموت فيكفن ويخرج فيدفن **(لا جاءٍ يردّ)** به أراد به الموت، **(ولا ماض يرتد)** أراد به الميّت.

ثمّ تعجب ثانية وقال: **(فسبحان الله ما أقرب الحيّ من الميت للحاقه به وأبعد الميت من الحي لانقطاعه عنه)** وهو من أفصح الكلام وأحسنه في تأدية المرام يعرف ذلك من له دراية في صناعة البيان وإحاطة بلطائف فن المعان.

ثمّ نبّه على شدّة عقاب الآخرة وعظم ثوابها بقوله: **(إنّه ليس شيء بشرٌ من الشرّ إلا عقابه، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه)** قال الشارح البحراني: يحتمل أن يريد الشرّ والخير المطلقين ويكون ذلك للمبالغة إذ يقال للأمر الشريف: هذا أشد من الشديد وأجود من الجيد، ويحتمل أن يريد شر الدّنيا وخيرها، فإن أعظم شر في الدّنيا مستحقر في عقاب الله، وأعظم خير فيها مستحقر بالنسبة إلى ثواب الله، انتهى.

والاحتمال الأوّل أظهر، وعليه فالمراد أنه ليس شيء يكون أشر الأشياء، إلا عقاب ذلك الشيء، ولا شيء يكون أعظم الأشياء خيراً إلاّ ثواب ذلك الشيء.

إلاّ أن الاحتمال الثاني يؤيّده قوله: **(وكلّ شيء من الدّنيا)** خيراً كان أو شرّاً **(سماعه**

أعظم من عيانه)، أما خيرها فلأنّ الإنسان لا يزال يحرص على تحصيل الدّرهم والدّينار وسائر القنيات الدّنيويّة، ويكون قلبه مشغولاً بتحصيلها مسروراً بانتظار وصولها، فإذا وصل إليها هانت عليه وارتفع وقعها لديه كما تشهد به التجربة والوجدان، وأمّا شرها فلأن أعظم شرّ يتصورها الإنسان بالسّماع ويستهوله ويستنكره ممّن يفعله هو صورة القتل والجرح، فإذا وقع في مثل تلك الأحوال واضطرّ إلى المخاصمة والقتال سهل عليه ما كان يستصعبه منها، وهو معنى قوله في بعض كلماته الآتية: إذا هِبْتَ أمراً فقع فيه.

(وكلّ شيء من الآخرة) ثواباً كان أو عقاباً **(عيانه أعظم من سماعه)**، فإن جل الخلق بل كلّهم إلاّ الصّدّيقين إذا سمعوا أحوال الآخرة خيرها وشرّها، إنما يتصورونها كأحوال الدّنيا ويزعمونها مثلها ويقيسونها إليها، بل بعضهم يتوهّمونها أهون منها مع أنّه لا نسبة لها إليها، ولذلك قال عزّ من قائل في طرف الثواب: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفي طرف العقاب.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٣ ـ ٦].

حيث جعل الرّؤية بالعين أعلى المراتب لأنّه يحصل بها ما لا يحصل بغيرها، وأمّا الصّدّيقون فلا تفاوت لهم بين السّماع والعيان، فقد قال سيّدهم ورئيسهم: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

وحيث كانت أهوال الآخرة وشدائدها أعظم من أن تعبّر باللّسان وتدرك بالآذان، ويطّلع عليها على ما هي عليها قبل خروج الأرواح من الأبدان **(فليكفكم من العيان السّماع ومن الغيب الخبر)** أي: ليكفكم من معاينة تلك الأهوال سماعها وممّا غاب عنكم منها أنبائها، ومما حجب منها أخبار المخبرين الصّادقين بأخبارها لتأخذوا لها عدّتها وتهيّئوا لها جنّتها.

(واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير ممّا نقص من الآخرة وزاد في الدّنيا) لأنّ ما يزاد للآخرة فهو باقٍ دائم وما يزاد للدّنيا فهو، فانٍ زائل وأيضاً في زيادة الدّنيا طول الحساب والعقاب، وفي زيادة العقبى مزيد الفوز والثواب.

(فكم من منقوص رابح) كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

(و) كم من (**مزيد خاسر**) لقوله سبحانه: ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥]وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية.

ثمّ قال: (**إنّ الذي أمرتم به أوسع ممّا نهيتم عنه وما أحلّ لكم أكثر مما حرّم عليكم**) الأظهر أن الجملة الثانية توكيد للأولى فيكون المراد بالمأمور به في الأولى مطلق ما رخص في ارتكابه، فيعمّ الواجب والمندوب والمكروه والمباح بالمتساوي الطّرفين، وبالنّهي عنه فيها ما نهى عنه نهي تحريم، وأوسعية الثاني بالنسبة إلى الأول على ذلك واضحة لأن المنهي عنه قسم واحد والمأمور به أقسام أربعة.

لا يقال: الأمر حقيقة في الوجوب على ما حقق في الأصول فكيف يعم الأقسام؟

لأنا نقول: سلمنا إلاّ أنّه إذا قامت قرينة على المجاز لا يكون بأس بحمل اللفظ عليه، والقرينة في المقام موجودة وهي الأوسعية والعلاقة هي اشتراك سائر الأقسام مع الواجب في أن كلاً منها مأذون فيها مرخص في فعلها وتناولها، ويدل على كثرة الحلال بالنسبة إلى الحرام صريحاً قوله سبحانه:

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

فإن كلمة (**ما**) مفيدة للعموم، ولفظ (**الجميع**) تأكيد لها، (**واللام**) للانتفاع فيدل على جواز الانتفاع بجميع ما في الأرض.

فإن قلت: إن الآية لا تفيد العموم لأن شرط حمل المطلقات على العموم أن لا يكون المقام مقام الإجمال، بل يكون مقام البيان، وههنا ليس كذلك إذ المقصود بيان أن في خلق الأشياء منفعة لكم للإيمان[1] أن جميع الأشياء مما ينتفع بها.

قلت: فيه بعد ما عرفت أن الموصول مفيد للعموم لاسيّما مع التوكيد بلفظ الجميع إن الآية واردة في مقام الامتنان المقتضي للتعميم كما لا يخفى، فيدل على إباحة الانتفاع وحلّه بجميع ما في الأرض فيكون الأصل الأوّلى في الجميع هو الحل والإباحة إلى أن يقوم دليل على الخطر والحرمة، فيحتاج إلى تخصيص ما ثبتت حرمته من عموم الآية، ويدل عليه أيضاً قوله سبحانه:

---

(١) في نسخة: للإيماء.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فإنّ تخصيص المحرّمات بما بعد إلاّ دليل على أنّ غير المستثنى ليس حراماً، وعدم وجدان النّبي ﷺ دليل على عدم وجود الحرمة واقعاً، ويدل عليه أيضاً قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، فإن الطيب هو ضد الخبيث الذي يتنفّر عنه الطّبع فيكون، المراد بالّطيبات ما تستلذّها الطباع فيدل على حلية جميع المستلذات ويخصّص بما دلّ على حرمة بعضها بالخصوص، وهذه الآيات تدل على إباحة جميع ما لم يقم دليل على حرمته، ولذا استدلّ بها الأصوليّون في مسألة الحظر والإباحة على أنّ الأصل الأوّلى في الأشياء هو الإباحة.

ومثلها في الدّلالة عليها قوله ﷺ: كلّ شيء مطلق حتى يرد فيه نهي(١)، إلا أن ذلك يدل على الإباحة الظاهريّة فيما شكّ في إباحته وحرمته، وهذه على الإباحة الواقعية، فمعناه أن كلّ شيء مرخّص فيه من قبل الشارع حتى يرد فيه نهى، فالناس في سعة مما لم يعلموا بورود نهي فيه.

ثمّ أنّ أصالة الإباحة كما تجري في الأعيان مثل التفاح ونحوه بقوله: خلق لكم ما في الأَرض جميعاً، فتباح الأفعال المتعلّقة بها، كذلك تجري في الأَفعال كالغنا مثلاً إن فرض عدم قيام دليل على حرمته لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، فالأَصل المذكور يجري في القسمين المذكورين من دون تأمّل.

وربّما يقال: باختصاص أصالة الإباحة بالأعيان، وأن الأصل الدّال على حلية الأفعال يسمى بأصالة الحلّ فهما أصلان ناظران إلى موردين، ونحن نقول إن ذلك لا بأس به إذ لا مشاحة في الاصطلاح، لكن لا يختص أحدهما بالحجية دون الآخر ضرورة أن الأدلة وافية بحجيّتهما معاً، وإن كانا مختلفي المورد.

وعلى ذلك فيمكن أن لا يجعل العطف في كلامه عليه السلام تفسيريّاً بأن يكون المراد بما أمرتم به وما نهيتم عنه الأَعيان المباحة والمنهيّة، وبما حلّ وما حرّم الأفعال المحلّلة والمحرمة.

وكيف كان، فلمّا أفصح عن كون المباح أوسع من المنهى والحلال أكثر من الحرام أمر بترك المحرّمات والمنهيّات فقال: **(فذروا)** أي اتركوا **(ما قلّ لما كثر وما ضاق لما اتّسع)** يعني

(١) الاستبصار: ٤/ ٧٥ ح ٨، ووسائل الشيعة: ٢٤/ ١٢٣.

أنه بعد ما كان الحرام قليلاً والحلال كثيراً فلا حرج عليكم في ترك الأوّل وأخذ الثاني، ولا عسر في ذلك وكذلك المباح والمحظور نعم لو كان الأمر بالعكس لكان التكليف أصعب، ولكنّه سبحانه منّ على عباده بما بين السّماء والأرض، وجعل الملة سمحة سهلة، وما جعل في الدّين من حرج علماً منه بضعف النفوس عن القيام بمراسم عبوديته بمقتضى الجبلّة البشرية، فسبحان الله ما أعظم مننه وأسبغ نعمه وأوسع كرمه.

ثمّ نهى عن تقديم طلب الرّزق على الاشتغال بالعبادة وترجيحه عليه فقال: **(قد تكفّل لكم بالرّزق وأمرتم بالعمل)** أما الأمر بالعمل فواضح، وأمّا التكفّل بالرّزق فقد تقدّم الكلام فيه، وفي معنى الرّزق بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الأوّل من فصول الخطبة التسعين **(فلا يكون المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله)** وهذا يدلّ صريحاً على المنع من ترجيح الطّلب على العمل حسب ما أشرنا إليه، ولا دلالة فيه على ترك الطّلب بالكليّة، بل المستفاد من الرّوايات الكثيرة كراهة ذلك مثل الأول.

منها ما رواه في «**الكافي**» بإسناده عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام رجل قال: لأقعدن في بيتي ولأصلّينّ ولأصومنّ ولأعبدنّ ربّي، فأما رزقي فسيأتيني، فقال أبو عبد الله عليه السلام: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم.

وفيه عن معلّى بن خنيس قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن رجل وأنا عنده فقيل: أصابته الحاجة، فقال: ما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربّه، قال: فمن أين قوته؟ قال: من عند بعض إخوانه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الّذي يقوته أشدّ عبادة[١].

ثمّ وبخهم بقوله: **(مع أنه والله لقد اعترض الشّك ودخل اليقين)** أي: اعترض الشّك في المضمون والمفروض وتزلزل اليقين بضمان المضمون وبفرض المفروض **(حتّى كان الّذي ضمن لكم قد فرض عليكم)** فبالغتم في تحصيله وطلبه والجدّ له، **(وكان الّذي فرض عليكم قد وضع عنكم)** فتوانيتم فيه ولم تبالوا به **(فبادروا العمل)** المأمور به قبل حلول الموت **(وخافوا بغتة الأجل)**، وفجأة الفوت **(فإنه لا يرجى من رجعة العمر)** وعوده **(ما يرجى من رجعة الرّزق)** هذا في مقام التعليل للمبادرة إلى العمل وترجيحه على طلب الرزق بيانه:

أنّ العمر ظرف للعمل وما فات ومضى منه فلا يعود ولا يرجى عوده، ويفوت العمل كسائر الزّمانيّات المتعلقة به بفواته لا محالة، ولا يمكن استدراكه بعينه فإذا وجبت المبادرة إليه والإتيان به وإليه أشير في قوله عليه السلام:

ما فات مضى وما سيأتيك فأين قم فاغتنم الفرصة بين العدمين

(١) الكافي: ٥/ ٧٨ ح ٤، ووسائل الشيعة: ١٧/ ٢٥ ح ٢١٨٩٠.

وقال آخر:

إنما هذه الحياة متاع والسّفيه الغوى من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمّل غيب ذلك السّاعة الّتي أنت فيها

وأما الرزق فهو مقسوم وما نقص منه في الماضي أمكن جبرانه في الغابر، وإليه أشار بقوله: (**ما فات اليوم من الرزق رجي غداً زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته**) لأن العمر عبارة عن زمان الحياة ومدّته والزّمان كمّ متّصل غير قار الذات، والجزء الثّاني منه عادم للجزء الأوّل، والجزء الثّالث عادم للجزء الثاني، وهكذا فلا يمكن رجوع الجزء الأوّل بعد مضيه أبداً، وهذا بخلاف الرزق كالمآكل والمشارب والأموال، فإن الإنسان إذا فاته شيء منها قدر على ارتجاعه بعينه إن كانت عينه باقية، وما لا يبقى عينه يقدر على اكتساب مثله، نعم يشكل ذلك لو عممنا الرزق بالنّسبة إلى التّنفس في الهواء، فإنه كالعمل أيضاً من الزّمانيات لا يمكن استدراكه، اللّهم إلاّ أن يقال إنّه فرد نادر، ونظر الإمام عليه السلام في كلامه إلى الأفراد الشائعة والأعم الأغلب، فإن سائر أفراد الرزق عموماً قابل للاستدراك.

وقوله عليه السلام: (**الرّجاء مع الجائي واليأس مع الماضي**) مؤكّد لما سبق وأراد بالجائي الرزق وبالماضي العمر.

ولما أمرهم بالمبادرة إلى العمل مخافة بغتة الأجل، أكّد ذلك بالأمر بملازمة التقوى فقال: (**فاتّقوا الله حقّ تقاته**) أي حقّ تقواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجبات والاجتناب عن المحرمات (**ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**) وهو اقتباس من الآية في سورة آل عمران قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ [آل عمران: ١٠٢] الآية.

قال في «**مجمع البيان**» معناه واتّقوا عذاب الله أي احترسوا وامتنعوا بالطاعة من عذاب الله كما يحقّ، فكما يجب أن يتقي ينبغي أن يحترس منه، وذكر في قوله (حق تقاته) وجوه **أحدها**: أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام[1]، **وثانيها**: أنه اتقاء جميع معاصيه، **وثالثها**: أنه المجاهدة في الله وأن لا تأخذه فيه لومة لائم وأن يقام له بالقسط في الخوف والأمن وقوله:

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(١) تحف العقول: ٣٦٢، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٣٥ ح ٢٠٣٦٦.

معناه لا تتركوا الإسلام وكونوا عليه حتى إذا ورد عليكم الموت صادفكم عليه، وإنما قال بلفظة النّهي عن الموت من حيث إن الموت لا بدّ منه، وإنما النهي في الحقيقة عن ترك الإسلام لأن لا يهلكوا بالانقطاع عن التّمكن منه بالموت إلا أنه وضع كلام موضع كلام على جهة التّصرّف والأبدال بحسن الاستعارة وزوال اللّبس، وروى عن أبي عبد الله عليه السلام: وأنتم مسلّمون، بالتشديد ومعناه مستسلمون لما أتى به النبيّ صلى الله عليه وآله منقادون له، والله الموفّق[1].

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٦٩، ومستدرك سفينة البحار: ٥/ ١٠٧.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است در تنبيه بر تقوى و پرهيزكارى و تزهيد از اين جهان فانى به اين قرار كه مى فرمايد:

حمد بى قياس معبود به حقى را سزا است كه وصل كننده است حمد را به نعمتها و پيوندكننده است نعمتها را به شكر، حمد مى كنيم بر نعماء او و هم چنان كه سپاس مى كنيم بر بلاء او و طلب اعانت مى كنيم از او بر اين نفسهايى كه دير حركت كننده اند از آن چه مأمور شده اند به او، شتابنده اند به سوى آن چه نهى گشته اند از آن و استغفار مى كنيم از او از آن چه كه احاطه كرده به او علم آن و شمرده است او را كتاب آن، علمى كه كوتاه نيست از چيزى و كتابى كه ترك كننده نيست چيزى را و ايمان مى آوريم او را مثال ايمان كسى كه ديده باشد غيب ها را به عين اليقين و واقف بشود به چيزى كه وعده داده شده است از احوال يوم الدّين، ايمانى كه نفى كند اخلاص آن شرك را از دل ها و زايل نمايد يقين او شك را از قلب ها و شهادت مى دهيم به اينكه نيست هيچ معبود به حقّى به جز خدا در حالتى كه يكتا است شريك نيست او را و به اينكه محمدبن عبدالله بنده پسنديده و پيغمبر برگزيده او است، شهادتينى كه بلند مى گردانند گفتار پاكيزه را و رفع مى كنند عمل صالح را در حالتى كه سبك نمى شود ميزانى كه نهاده شوند آن دو شهادت در او و سنگين نمى شود ميزانى كه برداشته شوند آن دو شهادت از آن.

وصيّت مى كنم شما را اى بندگان خدا به تقوى و پرهيزكارى از خدا، چنان پرهيزكارى كه آن است توشه راه آخرت و با او است رجوع به حضرت ربّ العزّت، چنان توشه اى كه رساننده است به مقصود و رجوعى كه ادراك كننده است مطلوب را، دعوت نمود به سوى آن تقوى شنواننده ترين دعوت كنندگان و حفظ نمود و نگاه داشت آن را بهترين نگاه دارندگان، پس شنوانيد دعوت كننده آن و فايز شد نگاه دارنده آن.

اى بندگان خدا، به درستى كه تقوى و پرهيزكارى از خداى تعالى حفظ نمود دوستان خدا را از محرّمات آن و لازم گردانيد قلب هاى ايشان را ترس او را تا

اینکه بیدار گردانید آن ترس شبهای ایشان را به جهت عبادت و تشنه ساخت روزهای گرم ایشان را به جهت روزها و کثرت طاعت، پس فرا گرفتند استراحت آخرت را به عوض چند روزها زحمت و سیرابی را به عوض تشنگی و نزدیك شمردند مدّت عمر را، پس مبادرت نمودند به سوی اعمال صالحه و تکذیب نمودند آرزوهای باطله را، پس ملاحظه کردند مرگ را.

پس به درستی که دنیا دار فنا و مشقّت و تغیّر و عبرت است، پس از جمله فناء دنیا این است که روزگار به زه کرده کمان خود را، خطا نمی کند تیرهای او و دوا کرده نمی شود زخمهای او، می اندازد زنده را به مرگ و تندرست را به بیماری و رستگار را به هلاکت و گرفتاری، خورنده ای است که سیر نمی شود و آشامنده ای است که سیراب نمی باشد و از جمله مشقّتهای دنیا این است که به درستی که مرد جمع می کند چیزی را که ساکن نمی شود، پس بیرون می رود به سوی خدا در حالتی که نه مالی باشد که برداشته باشد و نه بنایی باشد که نقل نماید.

و از جمله تغیّرات دنیا این است که تو می بینی فقیر عاجزی که خلایق به حال او رحم می نمایند، غبطه برده شده به جهت ثروت و مال و کسی که به حال او غبطه می نمایند رحم شده به جهت فقر وفاقه؛ یعنی در اندك زمانی پریشانی فقیر به رفاه حال مبدّل می شود و رفاه حال غنی به فقر تبدیل می یابد، نیست این حال، یعنی تبدّل حال غنی به پریشانی مگر نعمتی که منتقل شده باشد و شدّتی که فرود آمده باشد.

و از جمله عبرتهای دنیا این است که مرد مشرف و نزدیك می شود به ادراك آرزوی خود، پس جدا می کند او را حاضرشدن مرگ او، پس سبحان الله، چه چیز سبب غرور گردانیده شادی دنیا را و تشنه ساخته سیرابی دنیا را و گرم گردانیده سایه دنیا را، نه آینده باز گردانیده می شود نه برگذشته رجوع می نماید.

پس سبحان الله، چه چیز غریب و عجیب باعث شده بر نزدیکی زنده از مرده به جهت سرعت لحوق او به آن؟ و چه چیز باعث شده به دوری مرده از زنده به جهت بریده شدن او از آن؟ به درستی که نیست بدتر از بد مگر عقاب آن و نیست بهتر از خوب مگر ثواب آن و هر چیز از دنیا شنیدن آن بزرگ تر است از دیدن آن و هر چیزی از آخرت دیدن او بزرگ تر است از شنیدن آن، پس باید که کفایت نماید

شما را از دیدن امور اخروی شنیدن آن و از غیبها خبر او و بدانید آن چیزی که ناقص شود از دنیا و زیاده شود بر آخرت بهتر است از چیزی که ناقص شود از آخرت و زاید شود بر دنیا، پس بسا کم شده ای است که باعث ربح و منفعت است و بسا زیاده ای است که باعث ضرر و خسارت.

به درستی که آن چیزی که خداوند شما را امر فرموده به آن فراختر است از چیزی که نهی فرموده خدا شما را از آن و چیزی که حلال شده از برای شما اکثر است از چیزی که حرام شده بر شما، پس ترك نمایید چیزی که اندك است از برای چیزی که بسیار است و چیزی که تنگ است از برای چیزی که وسعت دارد، به تحقیق که کفالت شده است از برای شما به روزی و مأمور شده اید به عمل، پس باید نباشد چیزی که ضمانت شده است از برای شما طلب کردن آن اولی به شما از چیزی که فرض و واجب شده است بر شما عمل آن.

با وجود این به حق خدا پیش آمده است شما را شك در ضمان روزی و مدخول و متزلزل شده است یقین در فرض ربّ العالمین، حتی این که گویا آن چه که ضمانت شده برای شما واجب کرده شده است بر شما و چیزی که فرض کرده بر شما انداخته شده است از گردن شما، پس بشتابید به سوی عمل و بترسید از ناگهان رسیدن اجل، پس به درستی که امید گرفته نمی شود از بازگشتن عمر آن چه که امید گرفته می شود از بازگشتن روزی، آن چه که فوت شده است امروز از روزی، امید گرفته می شود فردا افزونی آن و آن چه که فوت شده است دیروز از عمر، امید گرفته نمی شود امروز بازگشتن آن، امید با آینده است که روزی فردا است و نومیدی با گذشته است که عمر دیروزی است بس و بترسید از خدا حق تقوی و ترس کاری و ممیرید مگر در حالتی که شما هستید مسلمان و تسلیم دارید حکم ملك منّان.

ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء وهي المائة والرابعة عشر من المختار في باب الخطب

وهي ملتقطة من خطبة طويلة أوردها الصدوق في «الفقيه» باختلاف كثير نأتي بها بعد الفراغ من شرح ما رواه السيد (ره) في الكتاب لكثرة فوائدها ومزيد عوائدها.

أَللَّهُمَّ قَدْ انْصاحَتْ جِبالُنا، وأَغْبَرَتْ أَرْضُنا، وهامَتْ دَوابُنا[1]، وعَجَّتْ عَجيجَ الثَّكالى عَلى أَوْلادِها، ومَلَّتِ التَّرَدُّدَ في مَراتِعِها، وَالْحَنينَ إِلى مَوارِدِها، اللَّهُمَّ فَأَرْحَمْ أَنينَ الآنَّةِ، وحَنينَ الْحانَّةِ، أَللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيرَتَها في مَذاهِبِها، وأَنينَها في مَوالِجِها، أَللَّهُمَّ خَرَجْنا إِلَيْكَ حينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنا حَدابيرُ السِّنينَ، وأَخْلَفَتْنا مَخائِلُ الْجُودِ، فَكُنْتَ الرَّجاءَ لِلْمُبْتَئِسِ وَالْبَلاغَ لِلْمُلْتَمِسِ، نَدْعُوكَ حينَ قَنِطَ الأَنامُ، ومُنِعَ الْغَمامُ، وهَلَكَ السَّوامُ، أَلاّ تُؤاخِذَنا بِأَعْمالِنا، ولا تَأْخُذَنا بِذُنُوبِنا، وَانْشُرْ عَلَيْنا رَحْمَتَكَ بِالسَّحابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّباتِ الْمُونِقِ، سَحّاً وابِلاً تُحْيي بِهِ ما قَدْ ماتَ، وتَرُدُّ بِهِ ما قَدْ فاتَ، أَللَّهُمَّ سُقْياً مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً تامَّةً عامَّةً طَيِّبَةً مُبارَكَةً هَنيئَةً مَريئَةً مَريعَةً زاكِياً نَبْتُها، ثامِراً فَرْعُها، ناضِراً وَرَقُها، تَنْعَشُ بِهَا الضَّعيفَ مِنْ عِبادِكَ، وتُحْيي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلادِكَ.

أَللَّهُمَّ سُقْياً مِنْكَ تَعْشَبُ بِها نِجادُنا، وتَجْري بِها وِهادُنا، وتَخْصِبُ بِها جَنابُنا، وتُقْبِلُ بِها ثِمارُنا، وتَعيشُ بِها مَواشينا، وتَنْدى بِها أَقاصينا وتَسْتَعينُ بِها ضَواحينا، مِنْ بَرَكاتِكَ الْواسِعَةِ، وعَطاياكَ الْجَزيلَةِ عَلى بَرِيَّتِكَ الْمُرْمِلَةِ، ووَحْشِكَ الْمُهْمِلَةِ، وأَنْزِلْ عَلَيْنا سَماءً مُخْضَلَّةً مِدْراراً هاطِلَةً، يُدافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، ويَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُها، ولا جَهامٍ عارِضُها، ولا قَزَعٍ رَبابُها، ولا شَفّانٍ ذِهابُها حَتّى يُخْصِبَ لأَمْراعِهَا الْمُجْدِبُونَ، ويَحْيا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا، وتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ، وأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَميدُ[2].

قال السيد رضي (ره) قوله: (انصاحت) جبالنا أي تشققت من المحول يقال: إنصاح الثوب إذا انشق ويقال أيضاً انصاح النبت وصاح وصوح إذا جفّ ويبس كلّه بمعنى، وقوله: **(هامت دوابنا)** أي عطشت والهيام العطش وقوله: **(حدابير السنين)** جمع حدبار وهي الناقة التي أنضاها السّير، فشبه بها السّنة التي فشا فيها الجدب قال ذو الرّمة:

حدابير ما تنفك إلاّ مناخة على الخسف وترمي بها بلداً قفراً

(١) في نسخة: وتحيرت في مرابضها.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٥٣٥، وتهذيب الأحكام: ٣/ ١٥٤.

وقوله: **(ولا قزع ربابها)** القزع الصغار المتفرقة من السّحاب، وقوله: **(ولا شفان ذهابها)** فإن تقديره ولا ذات شفّان ذهابها والشفان الريح الباردة، والذهاب الأمطار اللّيّنة فحذف ذات لعلم السامع به.

اللغة

(الاستسقاء) استفعال بمعنى طلب السّقي مثل الاستمطار لطلب المطر، واستسقيت فلاناً إذا طلبت منه أن يسقيك، وقد صار حقيقة شرعية أو متشرعة في طلب الغيث بالدّعاء **(وهامت دوابنا)** يجوز أن يكون من الهائم بمعنى المتحير، و **(ثكلت)** المرأة ولدها ثكلاً من باب تعب فقدته والإسم الثكل وزان قفل فهي ثاكل، وقد يقال ثاكلة وثكلى والجمع ثواكل وثكالى، وفي بعض النسخ الثكلى بدل الثكالي و **(أن)** الرجل أنّا وأنيناً تأوّه، و **(الحنين)** الشّوق وشدّة البكاء و **(الآنة الحانة)** الشّاة والنّاقة يقال ماله آنة ولا حانّة.

و **(عكر)** على الشيء يعكر عكراً وعكوراً، واعتكر كرّ وانصرف، والعكار الكرار العطاف، واعتكر الظلام اختلط، و **(الجود)** بفتح الجيم المطر الغزير، وفي بعض النسخ الجود بضم الجيم و **(قنط)** يقنط من بابي ضرب وتعب، وفي لغة من باب قعد فهو قانط وقنوط **(وانبعق)** السّحاب انبعج وانفرج بالمطر و **(المغدق)** من أغدق الشجر إذا ظهرت ثمرته و **(السّح)** بالضمّ الصّب والسّيلان من فوق و **(السّقيا)** وزان فعلى بالضم مؤنثة إسم من سقاه الله الغيث أنزله له، و **(مروية)** من باب الأفعال أو التفعيل ومنه يوم التروية لثامن ذي الحجة لأَن الماء كان قليلاً بِمُنَى فكانوا يرتوون من الماء لما بعد.

و **(تعشب)** بفتح المضارعة مضارع عشب وزان تعب أو بضمّها من باب الأفعال يقال: عشب الأرض وأعشبت أي نبتت فهي عشيبة وعاشبة ومعشبة أي كثيرة العشب، ويقال: أعشبت الأرض أيضاً أي أنبتت العشب فتكون الهمزة للتعدية والعشب بالضم الكلاء الرطب في أوّل الربيع، وفي بعض النسخ تعشب بالبناء على المفعول.

و **(النجاد)** بكسر الأوّل جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض، ويجمع أيضاً على نجود كفلس وفلوس و **(الوهاد)** بكسر الأول أيضاً جمع الوهد وهي المنخفضة من الأرض و **(خصب)** الأرض من باب ضرب وعلم واخصبت أي اتصفت بالخصيب وهو بكسر الخاء كثرة العشب ورفاغة العيش، و **(الجناب)** بفتح الجيم الفناء بالكسر وهو سعة أمام البيت، أو ما امتد من جوانبه، ويطلق الجناب على الجانب من كلّ شيء أيضاً و **(أرمل)** فلان أي افتقر وفقد زاده.

و **(اخضله)** المطر أي بلّه والسّماء المخضلة أي تخضل النبت وتبلّه، وفي أكثر النسخ مخضلة وزان مبيضة من اخضل النبت اخضلالاً أي ابتلّ و **(حفزه)** كضربه دفعه بشدّة **(البرق**

الخلّب) المطمع المخلف والسحاب **(الجهام)** الذي لا ماء فيه، و **(العارض)** السحاب الذي يعترض في أفق السّماء و **(القزع)** محركة قطع من السّحاب متعرقة جمع قزعة، و **(الرباب)** بفتح الأوّل السّحاب الأبيض و **(الذّهاب)** بكسر الذال جمع الذّهبة بالكسر أيضاً المطرة الضّعيفة، و **(مرع)** الوادي بالضم مراعة أخصب بكثرة الكلاء فهو مريع والجمع إمرع وأمرع مثل يمين وإيمن وأيمن.

(وأرض محل) ومحول ومحلة وممحل وممحلة أي اتصفت بالجدب وانقطاع المطر وأنضاها السير أي هزلها و**(الحدابير)** في بيت ذي الرّمة مما لم يذكره إلاّ السيد (ره)، والموجود في كتب الأدبيّة حراجيج، وهكذا روى الشارح المعتزلي عن ابن الخشاب، وهي جمع حرجوج الناقة الضّامرة و**(الخسف)** الذل **(والبلد القفر)** لا ماء فيه ولا نبات.

الإعراب

(منع الغمام) فعل لم يسم فاعله رعاية للأدب، واستكراهاً لإضافة المنع إلى الله سبحانه وهو منبع النعم ومبدأ الجود والكرم، وفي بعض النسخ منع الغمام بصيغة المعلوم فلا بد من حذف المتعلق أي منع الغمام من المطر، **(وسحّاً)** منصوب على المصدر أي تسح سَحّاً، وجملة **(تحيى به)** منصوبة المحل على الحال من فاعل نشر **(وسقياً منك)**، منصوب على المصدر أيضاً **(ونجادنا)** بالرفع فاعل **(تعشب)**، ويروي بالنّصب فيكون مفعولاً له بناء على كونه من باب الأفعال متعدّياً حسبما مر في بيان اللغة.

وقوله **(على بريتك)** ظرف لغو متعلق بالجزيلة أو الواسعة على التنازع، **(وسماء مخضلة)** تأنيث الوصف رعاية للفظ الموصوف، وإن كان المعنى مذكّراً، وجملة **(يدافع الودق)** منصوبة المحل صفة لسماء أو حال منها لكونها نكرة موصوفة أو من ضمير هاطلة، والوجهان جاريان في نصب **(غير خُلِبٍ)**.

وأمّا بيت ذي الرّمة فقد اعترض عليه غير واحد من علماء الأَدبية بكونه مخالفاً للقواعد النحوية حيث إن شرط الاستثناء المفرغ أن يكون في الكلام الغير الموجب، وهذا الشرط مفقود هنا، لأَن **(تنفك)** الناقصة مثل زال نفيها إثبات وإثباتها نفي فكما لا يجوز أن يقال ما زال زيد إلا قائماً، فكذلك لا يجوز ما تنفك إلا مناخة، ولذلك قال الأصمعي: إن ذا الرّمة غلط في ذلك إذ لا يقال جاء زيد إلا راكباً.

وأجيب بوجوه: **الأَول**: أن الرواة غلطوا فيه وأن الرواية الصحيحة **(إلا مناخةٍ)** بالتنوين أي شخصاً **الثاني**: أن تنفك تامة بمعنى تنفصل، فنفيها نفي أي ما تنفصل عن التّعب أو ما تخلص منه، **(ومناخةٍ)** حال من الضمير في **(تنفك)** أي لا تنفصل منه في حالة من حالات إلا في حالة الإناخة، **الثالث**: أنها ناقصة والخبر على الخسف **(ومناخة)** حال.

قال ابن هشام: وهذا فاسد لبقاء الإشكال إذ لا يقال جاء زيد إلاّ راكباً يعني أن الإشكال الذي هو وقوع الاستثناء المفرغ في الإيجاب لا يرتفع بهذا الجواب بل هو باق بحاله.

وقد يعترض عليه بأن الاستثناء المفرغ يقع في الإيجاب بشرطين، كما صرّح به ابن الحاجب أحدهما أن يكون المستثنى فضلة لا عمدة، الثاني أن تحصل به فائدة فلا يجوز ضربت إلاّ زيداً إذ من المحال أن يضرب جميع الناس إلاّ زيداً، ويجوز قرأت إلاّ يوم كذا، لجواز أن يقرأ في جميع الأيام إلا في ذلك اليوم، وعلى هذا فيرتفع الإشكال ولا يبقى بحاله، لأن (**مناخة**) إذا كان خبراً كان عمدة، وأمّا إذا كان حالاً كان فضلة، وكان الكلام مفيداً، **الرابع**: أنّ (**إلاّ**) زائدة ذهب إليه ابن جني وحكى عن الأصمعي كما ذهب إليه ابن مالك قوله:

أرى الدّهر إلا منجنوناً بأهله   وما صاحب الحاجات إلاّ معذّباً

هذا، وقوله: (**من بركاتك**)، بدل من قوله: منك، أي سقيا من بركاتك، (**ومخضلة**) صفة لسماء والتأنيث باعتبار لفظ الموصوف، وإن كان باعتبار معناه أعني المطر مذكراً، وجملة (**يحفز القطر**) (ا هـ) عطف تفسير.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة كما ذكره السّيده (ره) خطب عليه السلام بها في الاستسقاء أي في مقام طلب السّقيا وتوفير المياه، قال شيخنا الشهيد طاب ثراه: والاستسقاء أنواع أدناه الدّعاء بلا صلاة ولا خلف صلاة، وأوسطه الدّعاء خلف الصّلاة، وأفضله الاستسقاء بركعتين.

وكيفيّته على ما وردت في الأَخبار ونبّه عليه علماؤنا الأَخيار أن يخرج النّاس بعد التوبة وردّ المظالم وتهذيب الأخلاق وصوم ثلاثة أيّام يكون ثالثها يوم الإثنين، ويبرزوا في الثالث إلى الصّحراء، وإن كانوا بمكّة فإلى المسجد الحرام حفاة مشاة ونعالهم في أيديهم بسكينة ووقار متخشّعين مخبتين مستغفرين، ويخرجون الشّيوخ والصّبيان والبهائم وأهل الزّهد والصّلاح، فإذا حضروا في المصلّى ينادي المؤذّنون بدل الأذان، الصّلاة ثلاثاً، فيصلي الإمام بالنّاس ركعتين: يقرأ في الأولى بعد الحمد سورة بالجهر، ثمّ يكبّر ويقنت عقيب كلّ تكبيرة ويدعو في القنوت بالاستغفار وطلب الغيث وإنزال الرحمة، ومن المأثور فيه: اللهم اسق عبادك وإمائك وبهائمك وانشر رحتمك وأحي بلادك الميتة، ثمّ يكبّر السادسة ويرجع ويسجد السجدتين ثمّ يقوم إلى الركعة الثانية فيفعل مثل ما فعل في الأولى إلا أن التكبيرات فيها أربع، ويَقنتُ أربعاً أيضاً عقيب التكبيرات، ثمّ يكبر الخامسة ويركع ويسجد ويشهد ويسلم.

فعندما يفرغ من الصلاة يصعد المنبر ويحول رداءه فيجعل الذي على يمينه على يساره والذي على يساره على يمينه تأسّياً برسول الله صلى الله عليه وآله، وسئل الصّادق عليه السلام عن تحويل النّبي صلى الله عليه وآله رداه إذ استسقى قال عليه السلام: علامة بينه صلى الله عليه وآله وبين أصحابه يحول الجدب خصباً،

ويخطب بخطبتين، ثم يستقبل القبلة فيكبر الله مائة تكبيرة رافعاً بها صوته، ثمّ يلتفت إلى يمينه فيسبّح الله مائة مرّة رافعاً بها صوته، ثم يلتفت إلى يساره فيهلل الله مائة تهليلة رافعاً بها صوته، ثم يستقبل الناس بوجهه فيحمد الله مائة رافعا بها صوته والناس يتابعونه في الأذكار دون الالتفات إلى الجهات، فإن سقوا، وإلاّ عادوا ثانياً وثالثاً من غير قنوط بانين على الصوم الأوّل إن لم يفطروا وإلاّ فبصوم مستأنف[١].

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ من أفضل الخطب المأثورة في هذا المقام وأفصحها ما خطب إمام الانام عليه السلام وهو قوله: (**اللهمّ قد انصاحت جبالنا**) أي تشققت من المحل والجدب (**وأغبرت أرضنا**) أي صارت كثيرة الغبار بانقطاع الأمطار (**وهامت دوابنا**) أي عطشت وتحيّرت في مرابضها ومباركها من الظّمأ، وفقدان النّبات والكلاء.

(**وعجّت**) أي صرخت مثل (**عجيج الثكالى على أولادها**) يحتمل رجوع الضمير إلى الثكالى ورجوعه إلى الدّواب والأوّل أظهر (**وملت التردد في مراتعها والحنين إلى مواردها**)، وذلك لأنّها أكثرت من التردد في مراتعها المعتادة فلم تجد فيها نبتاً ترعاه فملت من التردّد، وكذلك لم تجد ماء في الغدران والموارد المعدّة لشربها، فحنت إليها وملت من الحنين، ويئست من الأنين.

(**اللهم فارحم أنين الآنّة**) من الشياة (**وحنين الحانّة**) من النّوق، (**اللّهم فارحم حيرتها في مذاهبها**) ومسالكها (**وأنينها في موالجها**) ومداخلها وإنما ابتدأ عليه السلام بذكر الدوّاب والأنعام لأنّها أقرب إلى الرّحمة ومظنة الافضال بها على المذنبين من الأمّة.

ويرشد إلى ذلك ما في منتخب التوراة، يا ابن آدم كيف لا تجتنبون الحرام، ولا اكتساب الآثام، ولا تخافون النيران، ولا تتقون غضب الرّحمٰن، فلولا مشايخ ركّع، وأطفال رضّع، وبهائم رتّع، وشباب خشّع، لجعلت السّماء فوقكم حديداً والأرض صفصفاً، والتراب رماداً، ولا أنزلت عليكم من السماء قطرة، ولا أنبتّ لكم من الأرض حبّة، ويصبّ عليكم العذاب صبّاً.

وفي النبوي: لولا أطفال رضّع، وشيوخ ركّع، وبهائم رتّع لصّب عليكم العذاب صبّاً[٢].

وفي «الفقيه» عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إنّ سليمان بن داود عليه السلام خرج ذات يوم مع أصحابه ليستسقي فوجد نملة قد رفعت قائمة من قوائمها إلى السّماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك لا غناء بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب بني

(١) الكافي: ٣/ ٤٦٣ ح ٣، وعلل الشرائع: ٢/ ٣٤٦ ح ١.
(٢) تذكرة الفقهاء: ١/ ١٦٨، ونهاية الأحكام: ٢/ ١٠٣.

آدم، فقال سليمان لأصحابه، ارجعوا فقد سقيتم بغيركم[١].

وروى الرازي عن رجل أنّه قال: أصاب النّاس في بعض الأزمنة قحط شديد فأصحروا يستسقون، فلم يستجب لهم، قال الراوي: فأتيت وقتئذٍ إلى بعض الجبال فإذا بظبية قلقة من كثرة العطش وشدّة الهيام مبادرة نحو غدير هناك، فلما وصلت إلى الغدير ولم تجد فيها ماء تحيرت واضطربت ورفعت رأسها إلى السّماء تحركه وتنظر إليها، فبينما هي كذلك رأيت سحابة ارتفعت وأمطرت حتّى امتلاء الغدير فشربت منه وارتوت ثم رجعت.

ثمّ قال عليه السلام: **(اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت)** أي تكرّرت **(علينا حدابير السّنين)** تشبيه السّنين بالحدابير من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ووجه الشّبه عقلي، وهو أن الحدابير كما تتعب راكبها فكذلك السّنون تتعب أهلها كما لا يخفى.

(وأخلفتنا مخائل الجود) أي الإمارات التي توقع الجود في الخيال وأراد بها البرق والسّحاب التّي يظن أنها تمطر وليست بماطرة، فكأنها وعدت بالمطر فأخلفت ولم تف بوعده **(فكنت الرجاء للمبتئس)** أي ذي البؤس الحزين **(والبلاغ للملتمس)** أي كفاية للطالب المسكين **(ندعوك حين قنط الأنام)** ويأس **(ومنع الغمام)** وحبس **(وهلك السوام)** أي الإبل السائمة الرّاعية.

(ألاّ تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا) قال الشارح المعتزلي: الفرق بين المؤاخذة والأخذ أن الأول عقوبة دون الثاني لأن الأخذ هو الاستئصال والمؤاخذة عقوبة.

أقول: إن كان نصّ بذلك من أهل اللغة فلا بأس، وإلاّ فقولهم زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني يفيد عكس ما قاله، وكيف كان ففي كلامه عليه السلام دلالة على أن للذّنوب والمعاصي مدخليّة في منع اللطف والرّحمة واستحقاق المؤاخذة والسخطة، وسرّ ذلك أن الجود الإلهي لا بخل فيه ولا مانع له من قبله سبحانه، وإنما يصل إلى المواد بحسب القابلية والاستعداد، والمنهمكون في المعاصي راغبون عن الله تعالى وعن تلقي آثار رحمته، فهم لانهماكهم في الفساد أسقطوا أنفسهم عن الاستعداد، وحري بمن كان كذلك أن يمنع من الفيوضات ويحرم من البركات.

وقد روى في «**الأخبار**» أن كلا من أصناف الذنوب تورث نوعاً خاصاً من المؤاخذات الدّنيوية، مثل ما رواه في «**الفقيه**» عن عبد الرحمٰن بن كثير عن الصادق عليه السلام أنه قال: إذا فشت أربعة ظهرت أربعة إذا فشا الزنا ظهرت الزلازل، وإذا أمسكت الزكاة هلكت الماشية،

(١) الكافي: ٨/٢٤٦ ح ٣٤٤، ومن لا يحضره الفقيه: ١/٥٢٤ ح ١٤٩٠.

وإذا جار الحاكم في القضاء أمسك المطر من السماء، وإذا خفرت[١] الذّمة نصر المشركون على المسلمين[٢].

وفي «**الكافي**» عن أبان عن رجل عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خمس إن أدركتموهن فتعوذوا بالله منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها إلاّ ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدّة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاّ سلط الله عليهم عدوّهم وأخذوا بعض ما في أيديهم، ولم يحكموا بغير ما أنزل الله إلاّ جعل الله بأسهم بينهم**»[٣].

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا ظهر الزّنا من بعدي كثر موت الفجأة، وإذا طفف المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأَرض بركتها من الزّرع والثمار والمعادن كلها، وإذا جاروا في الأَحكام تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوّهم، وإذا قطعوا الأَرحام جعلت الأَموال في أيدي الأَشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي سلّط الله عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم**»[٤].

ثمّ قال عليه السلام: (**وانشر علينا رحمتك بالسّحاب المنبعق**) أي المنفرج بالمطر والسّائل الكثير السّيلان (**والربيع المغدق**) المظهر للثمر (**والنبات المونق**) المعجب (**سحّاً**) أي صبّاً (**وابلاً**) أي مطراً شديداً، (**تحيى به ما قد مات وتردّ به ما قد فات**) من الزرع والنّبات (**اللّهم سقيا منك محيية**) للموات (**مروية**) للنّبات (**تامّة**) ثمراتها (**عامة**) بركاتها (**طيبة مباركة هنيئة مريئة مريعة**) أي سائغة لذيذة خصيبة واسعة، (**زاكياً**) نامياً (**نبتها ثامراً فرعها**) أي يكون فرعها ذا ثمر (**ناضراً ورقها**) أي: يكون ورقها ذا نضرة وحسن وبهجة (**تنعش**) وترفع (**بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك، اللّهمّ سقياً منك تعشب بها نجادنا**) أي تنبت بها أراضينا المرتفعة (**وتجري بها وهادنا**) أي تسيل بها أراضينا المنخفضة المطمئنّة (**وتخصب بها جنابنا**) أي: تكثر بها عشب فنائنا وجوانبنا (**وتقبل بها ثمارنا وتعيش بها مواشينا وتندى**) أي تنتفع بها (**أقاصينا**) وأباعدنا (**وتستعين بها ضواحينا**) ونواحينا (**من بركاتك الواسعة وعطاياك الجزيلة**) العظيمة الكثيرة (**على بريتك المرملة**) المفتقرة (**ووحشك المهملة**) المرسلة التي لا

---

(١) خفر خفوراً وخفراً نقض عهده وغدره.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٥٢٤ ح ١٤٨٨، والخصال: ٢٤٢ ح ٩٥.
(٣) الكافي: ٢/ ٣٧٤، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٢٧٣.
(٤) الكافي: ٢/ ٣٧٤ ح ٢، وعلل الشرائع: ٢/ ٥٨٤ ح ٢٦.

راعي لها ولا صاحب يشفق بها، **(وأنزل علينا سماء مخضلةٍ)** مبتلّة **(مدراراً هاطلة)** أي كثيرة الدرور متتابعة **(يدافع الودق منها الودق ويحفز القطر منها القطر)** أراد بذلك كثرتها وشدّتها وكونها أعظم وأغزر.

وأكّد ذلك بقوله: **(غير خلب برقها ولا جهام عارضها ولا قزع ربابها ولا شفان ذهابها)** أي: لا يكون برقها مطمعاً مخلفاً، ولا سحابها المعترض في أفق السّماء خالياً من الماء، ولا سحابها الأبيض قطعاً متفرقة، ولا أمطارها اللّينة الضعيفة ذات ريح باردة بالزرع والنبت مضرة وأراد بذلك كلّه عموم نفعها وكثرة منفعتها **(حتى يخصب لأمراعها المجدبون)** أي يتّصف أهل الجدب بالخصب ورفاغة العيش لكثرة كلائها **(ويحيى ببركتها المسنتون)** الذين أصابتهم السنة وجهد القحط **(فإنّك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك)** وهذا إشارة إلى حسن الظنّ بالله وعدم القنوط واليأس من روح الله **(وأنت الوليّ)** للنعم والإحسان و **(الحميد)** بالكرم والامتنان وأنت على كلّ شيء قدير وبالإجابة حقيق جدير.

تكملة

ينبغي أن نورد تمام تلك الخطبة على ما في «**الفقيه**» ونتبعها بتفسير بعض ألفاظها الغريبة، فأقول: قال الصّدوق (ره): وخطب أمير المؤمنين عليه السلام في الاستسقاء فقال:

الحمد لله سابغ النّعم، ومفرّج الهمّ، وبارىء النّسم، الذي جعل السماوات لكرسيّه عماداً، والجبال للأرض أوتاداً، والأرض للعباد مهاداً، وملائكته على أرجائها، وعرشه على أمطائها، وأقام بعزّته أركان العرش، وأشرق بضوئه شعاع الشّمس، وأحيا بشعاعه ظلمة الغطش الدياجير، وفجر الأرض عيوناً، والقمر نوراً، والنّجوم بهوراً، ثمّ علا فتمكن، وخلق فأتقن، وأقام فتهيمن، فخضعت له نخوة المستكبر، وطلبت إليه خلة المتمسكن[1]، اللهمّ فبدرجتك الرفيعة ومحلّتك المنيعة وفضلك السابغ، وسبيلك الواسع، أسألك أن تصلي على محمّد وآل محمّد كما دان لك، ودعا إلى عبادتك، ووفا بعهدك، وأنفذ أحكامك، وأتبع أعلامك، عبدك ونبيّك وأمينك على عهدك إلى عبادك القائم بأحكامك، ومؤيّد من أطاعك وقاطع عذر من عصاك، اللهم فاجعل محمّداً أجزل من جعلت له نصيباً من رحمتك، وأنضر من أشرق وجهه بسجال عطاياك، وأقرب الأنبياء زلفة يوم القيامة عندك، وأوفرهم حظّاً من رضوانك، وأكثرهم صفوف أمّة في جنابك، كما لم يسجد للأحجار، ولم يعتكف للأشجار، ولم يستحلّ السباء، ولم يشرب الدّماء.

اللهم خرجنا إليك حين فاجأتنا المضائق الوعرة، وألجأتنا المحابس العسرة وعضّتنا

(١) في نسخة: المتمكن.

علائق الشين، وتأثلت علينا لواحق المين، واعتكرت علينا حدابير السنين وأخلفتنا مخائل الجود، واستظمأنا لصوارخ القود، وكنت رجاء المبتئس، والثقة للملتمس، ندعوك حين قنط الأنام، ومنع الغمام، وهلك السّوام، يا حيّ يا قيّوم، عدد الشجر والنجوم، والملائكة الصّفوف، والعنان المكفوف، ألاّ تردّنا خائبين ولا تؤاخذنا بأعمالنا، ولا تخاصمنا بذنوبنا، وانشر علينا رحمتك بالسّحاب المنساق والنبات المونق، وامنن على عبادك بتنويع الثمرة، وأحي بلادك ببلوغ الزهرة، واشهد ملائكتك الكرام السفرة، سقياً منك نافعة دائمة غزرها واسعاً درّها، سحاباً وابلاً، سريعاً عاجلاً تحيي به ما قد مات وتردّ به ما قد فات، وتخرج به ما هو آت.

اللهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً ممرعا طبقاً مجلجلاً متتابعاً خفوقه، منبجسة بروقه، مرتجسة هموعه، وسيبه مستدّر، وصوبه مستطر، لا تجعل ظلله علينا سموماً، وبرده علينا حسوماً، وضوئه علينا رجوماً، ومائه أجاجاً، ونباته رماداً رمدداً.

اللّهم انّا نعوذ بك من الشّرك وهواديه، والظلم ودواهيه، والفقر ودواعيه، يا معطي الخيرات من أماكنها، ومرسل البركات من معادنها، منك الغيث المغيث وأنت الغياث المستغاث، ونحن الخاطئون وأهل الذنوب، وأنت المستغفر الغفار، نستغفرك للجهالات من ذنوبنا، ونتوب إليك من عوامّ خطايانا.

اللهم فأرسل علينا ديمة مدراراً، واسقنا الغيث واكفا مغزاراً، غيثاً واسعاً وبركة من الوابل نافعة، تدافع الودق بالودق، ويتلو القطر منه القطر، غير خلّب برقه ولا مكذب رعده، ولا عاصفة جنائبه، بل ريّا يقصّ بالرّيّ ربابه، وفاض فانضاع به سحابه، جرى آثار هيدبه جنابه، سقيا منك مجلبة[1] مروية مفضلة محفلة زاكياً نبتها، نامياً زرعها، ناضراً عودها، ممرعة آثارها، جارية بالخصب والخير على أهلها، تنعش بها الضّعيف من عبادك، وتحيى بها الميّت عن بلادك، وتنعم بها المبسوط من رزقك، وتخرج بها المخزون من رحمتك، وتعمّ بها من نأى من خلقك حتى يخصب لأمراعها المجدبون، ويحيى ببركتها المسنتون، وتترع بالقيعان غدرانها، وتورق ذرى الآكام زمراتها، ويدهام بذرى الآجام شجرها، ويستحقّ علينا بعد اليأس شكراً منة من مننك مجللة، ونعمة من نعمك مفضلة على بريّتك المرملة، وبلادك المعرنة، وبهائمك المعملة، ووحشك المهملة.

اللهم منك ارتجاؤنا، وإليك مآبنا، فلا تحبسه علينا لتبطنك سرائرنا، ولا تؤاخذ بما فعل السّفهاء منا، فإنّك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الوليّ الحميد.

---

(١) في نسخة: محيية.

ثم بكى عليه السلام فقال: سيّدي صاحت جبالنا، وأغبرت أرضنا، وهامت دوابنا وقنط الناس منّا أو من قنط منهم، وتاهت البهائم، وتحيرت في مراتعها، وعجت عجيج الثكالى على أولادها، وملّت الدّوران في مراتعها حين حبست عنها قطر السّماء، فدقّ لذلك عظمها، وذهب لحمها وذاب شحمها، وانقطع درّها.

اللهم ارحم أنين الآنّة، وحنين الحانّة، [اللهم] ارحم تحيرها في مراتعها، وأنينها في مرابضها(١)، هذا.

ويعجبني أن أردف هذه الخطبة الشريفة بخطبتي السيّدين الجليلين الإمامين الهمامين النّورين النيرين أبي محمّد الحسن وأبي عبد الله الحسين عليهما وعلى جدّهما وأبيهما والطيبين من آلهما صلوات الله وسلامه ملء الخافقين، ليعلم أن كلامهما تالي كلام أبيهما في الفصاحة، وأن الكلّ قد بلغ الغاية في البراعة والبلاغة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

قال في **«الفقيه»**: وجاء قوم من أهل الكوفة إلى عليّ عليه السلام فقالوا: يا أمير المؤمنين ادع لنا بدعوات في الاستسقاء، فدعا عليّ عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام فقال: يا حسن ادع، فقال الحسن عليه السلام:

اللهمّ هيّج لنا السحاب بفتح الأبواب، بماء عباب، ورباب بانصباب وانسكاب يا وهاب، واسقنا مطبقة مغدقة مونقة، فتح أغلاقها، وسهل اطلاقها، وعجل سياقها بالأندية في الأودية يا وهاب، بصوب الماء يا فعال، اسقنا مطراً قطراً ظلاً مظلاً طبقاً مطبقاً عاماً معماً رهماً بهماً رحيماً رشاً مرشاً واسعاً كافياً عاجلاً طيباً مباركاً سلاطح بلاطح يناطح الأباطح مغدودقا مطبوبقا مغرورقا، واسق سهلنا وجبلنا، وبدونا وحضرنا، حتى ترخص به أسعارنا، وتبارك به في ضياعنا ومدننا أرنا الرزق موجوداً والغلا مفقوداً، آمين ربّ العالمين(٢).

ثمّ قال للحسين عليه السلام: ادع، فقال الحسين عليه السلام: اللهم معطي الخيرات من مظانها، ومنزل الرحمات من معادنها، ومجرى البركات على أهلها، منك الغيث المغيث، وأنت الغياث والمستغاث، ونحن الخاطئون وأهل الذنوب، وأنت المستغفر الغفار، لا إله إلاّ أنت، اللهم أرسل السماء علينا ديمة مدراراً، واسقنا الغيث واكفا مغزاراً، غيثاً مغيثاً واسعاً مسبغاً

---

(١) من لا يحضره الفقيه ١/ ٥٣٥، وتهذيب الأحكام: ٣/ ١٥٤.

(٢) قرب الاسناد: ١٥٧، ومن لا يحضره الفقيه: ١/ ٥٣٧.

مهطلاً مريئاً مريعاً غدقاً مغدقاً عباباً مجلجلاً صحاً صحصحا حابساً بساساً مسبلاً عاماً ودقاً مطفاحاً، تدفع الودق بالودق دفاعاً ويطلع القطر منه القطر غير خلّب البرق، ولا مكذب الرعد، تنعش بها الضعيف من عبادك، وتحيي به الميت من بلادك، وتستحق علينا منك آمين ربّ العالمين(١).

فما تمّ كلامه عليه السلام حتّى صبّ الله الماء صباً، فسئل سلمان الفارسي فقيل: يا أبا عبد الله هذا شيء علمناه؟ فقال: (رض) ويحكم ألم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله حيث يقول: أجريت الحكمة على لسان أهل بيتي(٢).

بيان

«التّسم» جمع النّسمة محركة وهي الإنسان و «الأرجاء» جمع الرّجاء وهي الناحية و «الامطاء» جمع المطاء وهو الظهر والضمير في ضوئه راجع إلى العرش كما روى أن نور الشّمس من نور العرش، و «غطش» اللّيل أظلم، قال الطريحي وفي الحديث أطفأ بشعاعه ظلمة الغطش أي ظلمة الظلام و «الدياجير» جمع الدّيجور وهو الظلام وليلة ديجورة أي مظلمة و «البهور» المضيء و «المهيمن» من أسمائه تعالى القائم على خلقه بأعمالهم وآجالهم وأرزاقهم وقيل: الرّقيب على كلّ شيء.

و «النخوة» بالفتح فالسّكون الافتخار والتعظم و «الخلّة» الفقر والخصاصة و «المستمسكين» الطّالبون للمسكة وهو بالضم ما يمسك الأبدان، من الغذاء والشراب، وفي بعض النسخ المتمسكين أي المعتصمين به و «السّجال» دلو عظيم مملؤة، والكاف في قوله «كما لم يسجد» للتعليل على حدّ قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي لأجل هدايتكم.

و «السّباء» بالكسر والمدّ الخمر و «الوعر» ضدّ السهل و «العسرة» الصّعبة الشّديدة و «الشّين» خلاف الزّين، وقيل ما يحدث في ظاهر الجلد من الخشونة يحصل به تسوية الخلقة و «تأثّلت» علينا أي اجتمعت و «المين» الكذب و «القود» بالفتح الجمل المسن وهو الذي جاوز في السن الباذل، قال الطريحي: وفي حديث الاستسقاء واستظمأنا لصوارخ القود، أي ظمأنا من ظمأظماء مثل عطش عطشاً وزناً ومعنى والقود الخيل.

وقوله: «عدد الشجر» من متعلّقات ندعوك قال الجوهري «عنان» السّماء هو ما عنّ لك منها أي بدأ إذا رفعت رأسك و «زهر» النّبات نوره الواحدة زهرة كتمر وتمرة وقد تفتح الهاء

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٥٣٨، ومستدرك الوسائل: ٦/ ١٩٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٥٣٨.

و«الغزر» شدة النفع وعمومه، و «غيثاً مغيثاً» أي مطراً نافعاً و «ممرعاً» أي خصيباً واسعاً و«طبقاً» أي مغطياً للأرض مالئاً لها كلها، من قولهم غيم طبق أي عام واسع أي من طبق الغيم تطبيقاً إذا أصاب بمطره جميع الأرض ومطر طبق أي عام.

و «مجلجلاً» أي مشتملاً على الجلجلة وهو صوت الرعد و «خفق» المطر خفوقاً إذا سمع دويّ جريه و «منبجسة بروقه» أي منفجرة بروقه بالماء من الإنبجاس وهو الانفجار قال سبحانه:

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

و «مرتجسة هموعه» الهموع بالضّم السّيلان أي يكون هموعه مشتملة على الرّجس وهو بالفتح الصّوت الشديد من الرّعد يقال رجست السّماء رعدت شديداً وتمخضت «والسّيب» بالفتح مصدر ساب أي جرى ومشى مسرعاً، وبالكسر مجرى الماء و «الصّوب» الانصباب و«المستطر» المنتشر و «الظلل» جمع الظلة وهي ما وارى الشّمس منه من السّحاب و «الحسوم» بالضّم الشؤم و «رماد رمدد» كزبرج ودرهم كثير دقيق جدّاً أو هالك و «الهوادي» الأوائل جمع الهادي و «الدّواهي» جمع الدّاهية وهي النائبة والمصيبة و «عوامّ خطايانا» وزان دواب والظّاهر أنّه جمع عام قال في «**القاموس**»: والتعويم وضع الحصيد قبضة فإذا اجتمع فهي عامة والجمع عام.

و «درّ» السماء بالمطر درّاً دروراً فهي مدرار، و «وكف» البيت يكف قطر، وكف البيت بالمطر سال و «عاصفة جنائبه» قال الطريحي كأنّه يريد الرّياح الجنوبية فإنها تكثر السّحاب وتلحق روادفه بخلاف الشمالية فإنها تمزقه، و «الرّي» بالكسر إسم من روى من الماء ريّاً وريّاً بالفتح والكسر، و«يقص بالرّي» أي يرجع و «الفيضان» السّيلان «الانضياع» التحرّك أو من انضاع الفرخ بسط جناحيه إلى أمه لتزقه، و «الهيدب» السحاب المتدلى و «الجناب» الفناء والناحية و «محفلة» من حفل الماء واللبن اجتمع والوادي بالسيل جاء بمليء جنبيه والسماء اشتدّ مطرها، و «من نأى من خلقك» أي من تباعد منهم عن ذكر الله من النّاي وهو البعد.

«وتترع بالقيعان غدرانها» أي تملاء، والقيعان جمع القيعة وهي كالقاع ما استوى من الأرض، والغدران جمع الغدير وهو النهر و «الأكام» كأعناق جمع أكمه وهو التّل الصّغير و«الزمرة» الجماعة والباء في قوله: «بذرى الآجام» للظرف و «بلادك المعرنة» من عرنت الدّار عراناً بعدت وديار عران وعارنة بعيدة، «وبهائمك المعملة» أي المعدة المعمل يقال ناقة عملة كفرحة بيّنة العمالة فارهة والعوامل لبقر الحرث، و «لتبطنك سرائرنا» مصدر باب التفعل أي لوقوفك على بواطن سرائرنا و «عباب» الماء معظمته.

و «اسقنا» مطبقة مغدقة مونقة» المطبقة السّحابة بعضها على بعض والمغدقة بالغين

المعجمة والدّال المهملة الكثيرة الغزيرة، والمونقة المفرحة من الأنق وهو الفرح والسّرور أو المعجبة.

و «الأندية» جمع الندى وهو المطر و «الظلّ» من السّحاب ما وارى الشّمس منه أو سواده، و «المظلّ» صاحب الظل و «طبقاً مطبقاً» أي مطراً عاماً مغطياً للأرض و «عاماً معمّاً» أي مطراً شاملاً يعمّ بخيره قال في «**القاموس**»: يقال عمّهم بالعطية وهو معمّ خير بكسر أوّله يعمّ بخيره وعقله، و «رهما» وزان عنب جمع رهمة بالكسر وهي المطرة الدّائمة ويقال الرهمة أشدّ دفعاً من الدّيمة.

و «البهيم» الخالص الذي لم يشبه غيره، و «الرّحيم» مبالغة في الرّاحم من رحمت زيداً رحمة رقّقت له وحننت و «رشّت» السّماء أمطرت وأرشّت بالهمزة لغة ومنه مرشّاً ورش الماء صبه قليلاً قليلاً.

و «سلاطح بلاطح يناطح الأباطح» السلاطح بالضمّ وزان علابط العريض، قال الفيروز آبادي وسلاطح بلاطح أتباع، وقال الطريحي السّلطح الصلطح الضخم والبلطح كبلاح الذي يضرب بنفسه الأرض، والسلاطح والصّلاطح كعلابط العريض وقوله عليه السلام في «**الاستسقاء**»: سلاطح بلاطح يناطح الأباطح يريد كثرة الماء وقوّته وفيضانه، وحينئذٍ فلا حاجة إلى جعل بلاطح من الأتباع كشيطان ليطان، انتهى.

و «نطحه» نطحاً ضربه وأصابه بقرنه، و «الأباطح» جمع الأبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى و «الديمة» بالكسر المطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق أو تدوم خمسة أو ستّة أو سبعة أو يوماً وليلة، و «مهطلاً» أي متتابعاً من الهطل وهو تتابع المطر المتفرق العظيم القطر و «صحّا صحصاحاً» الصحّ بالضم البراءة من كلّ عيب وصحصاحا قال الطريحي: كأنّه أراد مستوياً متساوياً و «بسّا بساساً» البس بالفتح إرسال الماء وتفريقها في البلاد والبساس مبالغة فيه، و «مطفاحا» من طفح الإناء امتلاء وارتفع وطفاح الأرض ملاءها، هذا.

والله العالم بحقائق كلام أوليائه عليهم السلام.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن مقتداى كونين و پيشواى ثقلين است در مقام خواستن باران:

بارخدايا، شكافته شدند كوه هاى ما از خشكى و گرد آلود شدند زمين ما و بسيار تشنه شدند چهارپايان ما و متحير شدند در محلهاى خوابيدن خود و ناله كردند مثل ناله زنان بچه مرده بر فرزندان خود و ملال آوردند از تردّد نمودن در چراگاه هاى خود.

بارخدايا، رحم كن بر ناله ناله كنندگان و اشتياق و فغان مشتاقان.

بار خدايا، پس رحم كن بر حيرت و سرگردانى ايشان در مواضع رفتن ايشان و رحمت فرما بر ناله ايشان در مكان هاى در آمدن ايشان.

بار خدايا، بيرون آمديم به سوى تو در حينى كه مختلط شد بر ما شتران لاغر قحط سالها و وعده خلافى كرد ما را علامتهاى باران، پس هستى تو اميد مر اندوهگين را و رساننده به مطلوب التماس كننده حزين را، مى خوانيم تو را در زمانى كه نااميد شدند مردمان و ممنوع شد از باريدن ابرهاى آسمان و هلاك شد چرندگان اينكه مؤاخذه نكنى بر عمل هاى ما و اخذ نكنى ما را به گناهان ما و نشر كن بر ما رحمت بى نهايت خود را به ابرهاى منفجر به باران سخت و با شدّت و با بهار ظاهر كننده ميوه ها و با نبات و گياه تعجب آورنده خلق ها، در حالتى كه بريزد بر ما ريختنى به باران فراوان كه زنده سازى به آن، آن چه كه مرده و باز گردانى به آن، آن چه كه فوت گشته.

بارخدايا، آب ده ما را آب دادنى از جانب خود كه زنده سازد زمين مرده را و سيراب گرداننده باشد و متصف شود به تمامى و عموم منفعت و پاكيزگى و به بركت و گوارايى و وسعت، در حالتى كه نموكننده باشد گياه آن، ميوه دهنده باشد شاخ آن، تروتازه باشد برگ آن كه بلند نمايى به آن و قوّت دهى عاجز و ذليل را از بندگان خود و زنده سازى به آن مرده را از شهرهاى خود.

بارخدایا، آب ده ما را آب دادنی از نزد خود که پرگیاه شود به آن زمینهای بلند ما و جاری شود به آن زمینهای نشیب ما و به فراخ سالی در آید به سبب آن اطراف و جوانب ما و روی آورد و اقبال کند به جهت آن میوه های ما و زندگانی نماید به آن چهارپایان ما و نمناك بشود به آن جماعتی که از ما دورند و استعانت جویند به آن مردمانی که در نواحی ما هستند از برکتهای با وسعت خودت و عطاهای بزرگ خودت بر مردمان صاحب احتیاج خود و حیوانات وحشی بی صاحب خود و نازل کن بر ما باران ترکننده بارنده بسیار ریزان که دفع کند باران بزرگ قطره دیگر را از غایت شدّت و بر انگیزاند قطره ها از آن قطره های دیگر را، در حالتی که نباشد برق آن طمع آورنده و خلف کننده و نه ابر پهن شده در کنار آسمان آن خالی از آب و نه ابرهای سفید آن پاره های کوچك کوچك و نه بارانهای نرم آن صاحب بادهای خنك تا آن که فراخ سالی یابند به جهت بسیاری گیاههای آن قحط یابندگان و زنده شوند به برکت آن سختی کشیدگان، پس به درستی که تو فرو فرستی باران را از پس آن که نومید می شوند مردمان و پراکنده می سازی رحمت خود را بر عالمیان و تویی ولیّ نعمتها و ستوده در صفتها.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والخامسة عشر من المختار في باب الخطب

أَرْسَلَهُ داعِياً إِلَى الْحَقِّ، وشاهِداً عَلَى الْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسالاتِ رَبِّه غَيرَ وانٍ، ولا مُقَصّرٍ، وجاهَدَ في اللهِ أَعْداءَهُ غَيرَ واهِنٍ ولا مُعَذِّرٍ، إِمامُ مَنِ اتَّقى، وبَصَرُ مَنِ اهْتَدى.

منها وَلَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ مِمّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُداتِ تَبْكُونَ عَلى أَعْمالِكُمْ، وتَلْتَدِمُونَ عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوالَكُمْ لا حارِسَ لَها ولا خالِفَ عَلَيْها، ولَهَمَّتْ كُلَّ امْرِءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لا يَلْتَفِتُ إِلى غَيرِها، ولكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ ما ذُكِّرْتُمْ، وأَمِنْتُمْ ما حُذِّرْتُمْ، فَتاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ، ولَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْني وبَينَكُمْ، وأَلْحَقَني بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بي مِنْكُمْ، قَوْمٌ وَاللهِ مَيامينُ الرَّأْيِ، مَراجيحُ الْحِلْمِ، مَقاويلُ بِالْحَقِّ، مَتاريكُ لِلْبَغْيِ، مَضَوا قُدُماً عَلىَ الطَّريقَةِ، وأَوْجَفُوا عَلى الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبى الدّائِمَةِ، وَالْكَرامَةِ الْبارِدَةِ، أَمّا وَاللهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلامُ ثَقيفٍ الذَّيّالُ الْمَيّالُ، يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ، ويُذيبُ شَحْمَتَكُمْ، إِيهٍ أَبا وَذَحةٍ[1].

قال السيد (ره) أقول: الوذحة الخنفساء وهذا القول يؤمى به إلى الحجاج وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضع ذكره.

اللغة

(**الواني**) الفاتر الكال و (**المعذّر**) بالتثقيل الذي يعتذر من تقصيره بغير عذر كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [التوبة: ٩٠] و (**الصّعدات**) جمع الصّعد وهو جمع صعيد قال الشارح المعتزلي: الصّعيد التراب ويقال وجه الأرض والجمع صعد وصعدات كطريق وطرق وطرقات، وعن النهاية فيه إيّاكم والقعود بالصّعدات هي الطّرق وهي جمع صعد، وصعد جمع صعيد كطريق وطرق وطرقات، وقيل: هي جمع صعدة كظلمة وهي فناء باب الدّار وممرّ النّاس بين يديه، ومنه الحديث لخرجتم إلى الصّعدات تجارون.

و (**الإلتدام**) ضرب النساء وجوههنّ في النياحة (**ولهمّت كلّ امرء**) قال الشارح المعتزلي: أي أذابته وأمحلته، هممت الشحم أي أذبته، ويروي: ولا همّت كلّ امرء وهو أصح من الرّواية الأولى، أهمّني الأمر إذا أحزنني، انتهى. وفيه نظر الأن همّ أيضاً يكون بمعنى أهمّ قال الفيروزآبادي: همّه الأمر همّا حزنه كأهمّه فاهتمّ والسقم جسمه إذا به وأذهب لحمه والشحم أذابه، فإنهمّ ذاب.

---

(١) بحار الأنوار: ٤١ج٣٣٢ ح ٥٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٢٢٢.

(ومراجيح) الحلم قال الجوهري: راجحته فرجحته أي كنت أرزن منه ومنه قوم مراجيح الحلم، و **(المقاويل)** جمع مقوال، و **(المتاريك)** جمع متراك، و **(قدما)** بالضّم وبضمتين و **(الذّيال)** هو الذي يجرّ ذيله على الأرض تبختراً يقال: ذأل فلان من باب منع ذألا وذألاناً تبختر، و **(الخضرة)** بفتح الخاء وكسر الضّاد الزّرع، والبقلة الخضراء والغض، وقال في «**القاموس**»: **(الوذح)** محركة ما تعلّق بأصواف الغنم من البعر والبول الواحدة بها، والجمع وذح كبدن، وقال الشارح المعتزلي في قول السّيد (ره): الوذحة الخنفساء ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب، ولا وجدته في كتاب من كتب اللّغة ولا أدري من أين نقل الرّضى ذلك.

الإعراب

(داعياً وشاهداً) **(وغير وانٍ وغير واهنٍ)**، منصوبات على الحال، **(وإمام)** خبر محذوف المبتدأ، **(وكل)** منصوب على المفعول والفاعل نفسه، **(وإيه)** اسم فعل يراد به الاستزادة أي زدوهات، قال في «**القاموس**»: **(إيهِ)** بكسر الهمزة والهاء وفتحها وتنوّن المكسورة كلمة استزادة واستنطاق، وقال الطريحي **(إيه)** إسم سُمي به الفعل لأن معناه الأمر يقال لرجل زد إذا استزدته من حديث أو عمل **(إيهِ)** بكسر الهاء، قال ابن السّكيت فإن وصلت نونت فقلت ايه حديثاً، وإذا أردت التبعيد بايه قلت **(أيها)** بفتح الهمزة بمعنى هيهات، ومن العرب من يقول **(أيهات)** وهو في معنى هيهات.

وفي كتاب «**شرح الإثبات**»: إذا قلت **(إيه)** بغير تنوين فكأن مخاطبك كان في حديث ثم أمسك فأمرته بالشروع في الحديث الذي كان فيه أي هيهات الحديث، فإذا قلت إيهِ بالتنوين فكأنّك أمرته ابتداء بأن يحدّث حديثاً أي هات حديثاً.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة على ما يستفاد من شرح البحراني ملتقطة من خطبة طويلة خطب عليه السلام بها في الكوفة لاستنهاض أصحابه إلى حرب الشام وما ظفرت بعد على تمامها، وما أورده السّيد (ره) منها في الكتاب يدور على فصلين:

الأول: في ذكر مدائح النبيّ صلى الله عليه وآله، وذكر بعض أوصافه الجميلة ونعوته الجليلة، وهو قوله: (أرسله داعياً إلى الحقّ) بالحكمة والموعظة الحسنة، **(وشاهداً على الخلق)** يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣] فقد فسر الشّاهد بمحمّد صلى الله عليه وآله، والمشهود بيوم القيامة أمّا الأوّل فلقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وأمّا الثّاني فلقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقد تقدّم تحقيق هذه الشّهادة بما لا مزيد عليه في شرح الخطبة الحادية والسّبعين فتذكّر.

(**فبلّغ رسالات ربّه**) سبحانه (**غير وانٍ**) في الابلاغ (**ولا مقصّر**) في الانذار، (وجاهد في الله) تعالى (**أعدائه غير واهن**) في الجهاد (**ولا معذّر**) من قتال الأنجاد وهو (**إمام من اتقى**) لأنّه قدوة المتقين في كيفية سلوك سبيل التّقوى والصّلاح (**وبصر من اهتدى**) لأنّه نور المهتدين في المسير إلى طريق الخير والفلاح كما يهتدي بالبصيرة إلى سبيل الرشاد، ويسلك بها نحو القصد والسّداد يهتدي بالبصر إلى الجادّة الوسطى والطريق المستقيم.

والفصل الثاني: إخبار عن الغيب وإظهار لما يبتلى به أهل الكوفة بسوء أعمالهم وقبح فعالهم وهو قوله عليه السلام: (**ولو تعلمون ما أعلم ممّا طوى**) وأخفى (**عنكم غيبه**) وبطانه (**إذا لخرجتم إلى الصّعدات**) أي: خرجتم عن البيوت وتركتم الاستراحة والجلوس على الفرش للقلق والانزعاج وجلستم في الطريق أو على التراب، (**تبكون على أعمالكم**) التي كان الواجب تركها (**وتلتدمون على أنفسكم**) للتقصير فيما يجب عليكم فعله، (**ولتركتم أموالكم لا حارس لها**) يحرسها (**ولا خالف عليها**) يستخلفها (**ولهمّت كلّ امرىءٍ منكم نفسه**) أي أذابته أو حزنته لا يلتفت إلى غيرها، (**ولكنكم نسيتم ما ذكّرتم وأمنتم ما حذرتهم**) أراد بذلك ما ذكّرهم عليه السلام به ممّا فيه نظام أمورهم وتحذيرهم مما أوجب إدالة الأعداء منهم وتسلّط الولاة السّوء عليهم، وهو النّفاق وتشتّت الأهواء، واختلاف الآراء.

(**فتاه**) أي ضلّ وتحير أو هلك واضطرب (**عنكم رأيكم**) أي عقلكم وتدبيركم (**وتشتت عليكم أمركم**) بغلبة العدو على بلادكم.

ثمّ تمنّى مفارقتهم بقوله: (**ولوددت أن الله فرّق بيني وبينكم وألحقنى بمن هو أحق**) رسول الله صلى الله عليه وآله وحمزة وجعفر ومن لم يفارق الحق من الصّحابة (**قوم والله ميامين الرأي**) ومبارك الآراء (**مراجيح الحلم**) وثقال الحلوم لا يستخفنهم جاهلية الجهلاء (**مقاويل بالحق متاريك للبغي**) أي: أكثرون قولاً بالحق والصّدق وتركاً للبغي والظلم (**مضوا قدماً**) أي: متقدمين (**على الطريقة**) الوسطى (**وأوجفوا**) أي أسرعوا (**على المحجّة**) البيضاء غير ملتفتين عنها (**فظفروا**) وفازوا (**بالعقبى الدائمة والكرامة الباردة**) التي ليس فيها تعب ولا مشقة حرب.

ولمّا حذرهم عمّا طوى عنهم غيبه أراد التنبيه ببعض ذلك المطوي والتّصريح ببعض ما يلحقهم من الفتن العظيمة فقال عليه السلام: (**أما والله ليسلّطن عليكم**) وفي الإيماء بحرف التنبيه والقسم والنون ما لا يخفى من التأكيد لوقوع المخبر به أي لا محالة يسلط عليكم (**غلام ثقيف**) أراد به الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود من بني ثقيف (**الذيال**) الذي يجر ذيله على الأرض تبختراً وهو كناية عن كثرة نخوته (**الميال**) كثير الظلم والميل عن

الحقّ **(يأكل خضرتكم ويذيب شحمتكم)** أراد بذلك أخذ الأموال وتعذيب الأبدان واستئصال النفوس ووقع ذلك الخبر على ما أخبر عليه السلام به مشهور وفي الكتب مسطور، وقد تقدّم شطر من فعله بأهل العراق في شرح الخطبة الخامسة والعشرين.

وروى في «**البحار**» من الخرائج أن الأشعث بن قيس استأذن على عليّ عليه السلام فرده قنبر فأدمى أنفه، فخرج عليّ عليه السلام وقال: ما ذاك يا أشعث أما والله لو بعبد ثقيف مررت لاقشعرت شعيرات استك، قال: ومن غلام ثقيف؟ قال طط: ، غلام يليهم لا يبقى بيت من العرب إلاّ أدخلهم الذلّ، قال: كم يلي؟ قال عشرين إن بلغها[1]، قال الراوي: ولي الحجّاج سنة خمس وسبعين ومات خمس وتسعين.

ثمّ قال عليه السلام **(إيهِ أبا وذحة)** أي زِدْ وهات ما عندك أبا الخنفساء على ما ذكره الرّضي من تفسير الوذحة بالخنفساء، قال الشارح المعتزلي: إن المفسرين بعد الرّضي (ره) قالوا في قصّة هذه الخنفساء وجوهاً:

منها: أنّ الحجّاج رأى خنفساء تدبّ إلى مصلاّه فطردها فعادت، ثمّ طردها فعادت، فأخذ بها بيده وحذف بها فقرصته قرصاً ورمت يده منه ورماً كان فيه حتفه قالوا: وذلك لأنّ الله تعالى قد قتله بأهون مخلوقاته كما قتل نمرود بن كنعان بالبقة التي دخلت في أنفه فكان فيها هلاكه.

ومنها: أن الحجّاج كان إذا رأى خنفساء تدبّ قريبة منه يأمر غلمانه بإبعادها ويقول: هذه وذحة من وذح الشيطان، تشبيهاً بالبعرة المعلقة بأذناب الشّاة.

ومنها: أن الحجاج قد رأى ذات مجتمعات فقال: واعجبا لمن يقول إنّ الله خلق هذه، قيل: فمن خلقها أيّها الأمير؟ قال: الشيطان، إنّ ربّكم لأعظم شأناً أن يخلق هذه الوذحة، فنقل قوله هذا إلى الفقهاء في عصره فأكفروه.

ومنها: أن الحجاج كان مثفاراً أي ذا ابنة، وكان يمسك الخنفساء حيّة ليشفي بحركتها في الموضع حكاكه، قالوا: ولا يكون صاحب هذا الدّاء إلا شانياً مبغضاً لأهل البيت، قالوا: ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء، وإنّما قلنا كلّ من به هذا الدّاء فهو مبغض، قالوا: وقد روى أبو عمرو الزّاهد ولم يكن من رجال الشيعة في «**أماليه**» وأحاديثه عن السيّارى عن أبي خزيمة الكاتب قال: ما فتشنا أحداً فيه هذا الدّاء إلا وجدناه ناصبياً[2].

---

(١) نهج السعادة: ٢/ ٧٠٥ ح ٣٧٠، والمعجم الكبير ١/ ٢٣٨.

(٢) شرح مئة كلمة: ٢٤٢، وبحار الأنوار: ٤١/ ٣٣٣.

قال أبو عمر وأخبرني العطاني عن رجاله قالوا: سئل جعفر بن محمّد عن هذا الصّنف من النّاس فقال: رحم منكوسة يؤتى ولا يأتي وما كانت هذه الخصلة في وليّ الله قط، ولا تكون أبداً، وإنما تكون في الكفّار والفساق والنّاصب للطّاهرين[١].

أقول: ويدلّ على ذلك ويؤيده:

ما رواه في «**الكافي**» عن أحمد عن عليّ بن أسباط عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما كان في شيعتنا فلم يكن فيهم ثلاثة أشياء: من يسأل في كفّه ولم يكن فيهم أزرق أخضر، ولم يكن فيهم من يؤتى في دبره.

وعن أحمد عن جعفر بن محمّد الأشعري عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء رجل إلى أبي، فقال: يا ابن رسول الله إنّي ابتليت ببلاء فادع الله لي، فقيل له: إنّه يؤتى في دبره، فقال: ما أبلى الله عزّ وجلّ بهذا البلاء أحداً له فيه حاجة، ثمّ قال أبي: قال الله عزّ وجلّ، وعزّتي وجلالي لا يقعد على استبرقها وحريرها من يؤتى في دبره[٢].

وفي «**البحار**» من الخصال للصدوق عن أبيه عن سعد عن البرقي عن عدّة من أصحابنا عن عليّ بن أسباط عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما ابتلى الله به شيعتنا فلن يبتليهم بأربع: بأن يكون لغير رشده، أو أن يسألوا بأكفهم، أو أن يؤتوا أدبارهم، أو أن يكون فيهم أزرق.

وفيه منه عن ابن الوليد عن محمّد العطّار عن أحمد بن محمّد عن أبي عبد الله الرازي عن ابن أبي عثمان عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: أربع خصال لا تكون في مؤمن: لا يكون مجنوناً، ولا يسأل عن أبواب النّاس، ولا يولد من الزّنا، ولا ينكح في دبره[٣].

وفيه من قرب الاسناد عن محمّد بن عيسى عن القداح عن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: جاء رجل إلي عليّ عليه السلام فقال: إني لأحبكم أهل البيت، قال: وكان فيه لين، قال: فأثنى عليه عدة فقال عليه السلام له: كذبت ما يحبّنا مخنث ولا ديّوث ولا ولد زنا ولا من حملت به أمّه في حيضها، قال: فذهب الرّجل، فلمّا كان يوم صفّين قتل مع معاوية[٤].

---

(١) شرح مئة كلمة: ٢٤٢، وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٨٠.

(٢) الكافي: ٥/ ٥٥٠ ح ٥، وثواب الأعمال: ٢٦٧.

(٣) الخصال: ٢٢٩ ح ٦٨، وشرح الأخبار: ٣/ ٥٠٠.

(٤) قرب الإسناد: ٢٦، ومستدرك الوسائل: ٢/ ١٩.

وحكى المحدّث الدربندي قال: كنت[1] ابن ستة عشر من أولاد بعض علماء بلدنا معروفاً بهذا الفعل الشنيع، فبينا أنا مع جمع تكثر السّرور والفرح في يوم عيد الغدير دنا منّي هذا الشخص، وقال: مالك كأني أراك تظنّ أن الله قد أعطاك في هذا اليوم سلطنة الدّنيا؟ قلت: إن كرامة الله على محبّي أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين عليه السلام في هذا اليوم الشريف أعظم من سلطنة الدّنيا، فقال: ناشدتك بالله هل تحب عليّ بن أبي طالب؟ فقلت: ويلك هل يوجد أحد اتصف بالإسلام ولا يحب أمير المؤمنين عليه السلام؟ فقال: والله أنا لا أحبه، فقلت: الحمد لله الذي لم يدخل مثلك النجس الخبيث المخنث في حزب محبّي الأطيب الأطهر أمير المؤمنين ولعنة الله عليك وعلى أمثالك من المخنثين، قال: فلم يمض على ذلك إلاّ مدة قريبة من مدّة سنة أن اختار الشرك وأظهر الكفر ودخل في مذهب النّصرانية.

وفي الأنوار النّعمانية للمحدّث الجزائري (ره) عن جلال الدّين السيوطي في «حواشي القاموس» عند تصحيح لغة الابنة قال: وكان في جماعة في الجاهلية أحدهم سيّدنا عمر، وقال ابن الأثير وهو من أجلاّء علماء العامة: زعمت الرّوافض أنّ سيّدنا عمر كان مخنثاً، كذبوا ولكن به داء دواؤه ماء الرّجال.

ثمّ قال الجزائري: ولم أر في كتب الرّافضة مثل هذا، نعم روى العياشي منهم حديثاً حاصل معناه أن لفظ أمير المؤمنين قد خص الله به عليّ بن أبي طالب، ولهذا لم تسمّ الرافضة أئمتهم بهذا الاسم ومن سمّها نفسه به غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام فهو ممّا يؤتى في دبره، وهو شامل لجميع المتخلّفين من الأمويّة والعبّاسيّة لعنهم الله، انتهى.

وقد أوردنا رواية العياشي مع غيرها في ديباجة الشرح في نور ألقاب أمير المؤمنين عليه السلام، فتذكر، وفي أخبار كثيرة من طريق أهل البيت عليهم السلام أن هؤلاء لا خير فيهم، وفي بعضها أنّه لا يبتلى به أحد لله فيه حاجة.

ثم قال الشّارح المعتزلي بعد ذكر ما أوردنا من كلامه في تفسير أبا وذجة: فهذا مجموع ما ذكره المفسّرون وما سمعته من أفواه النّاس في هذا الموضع، ويغلب على ظنّي أنّه أراد معنى آخر، وذلك أنّ عادة العرب أن تكتّي الإنسان إذا أرادت تعظيمه بما هو مظنّة التعظيم كقولهم: أبو الهول وأبو المقدام وأبو المغوار، فإذا أرادت تحقيره والغض منه كنته بما يستحقر ويستهان به كقولهم في كنية يزيد بن معاوية لعنه الله يعنون القرد، وكقولهم: في كنية سعيد بن حفص البخاري المحدث أبو القارد، وكقولهم للطّفيلي: أبو لقمة «إلى أن قال» فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم من حال الحجاج نجاسته بالمعاصي والذنوب التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصق بشعر الشّاة كناه أبا وذجة.

---

(١) في نسخة: كان.

ويمكن أن يكنّيه بذلك لدمامته في نفسه وحقارة منظره وتشويه خلقته، فإنّه كان قصيراً دميماً نحيفاً أخفش العينين معوج الساقين قصير السّاعدين مجدور الوجه أصلع الرّأس فكناه عليه السلام بأحقر الأشياء وهو البعرة.

وقد روى قوم هذه اللّفظة بصيغة أخرى فقالوا إيهٍ أبا ودجة، قالوا: واحدة الأَوداج كنّاه بذلك لأنه كان قتالاً يقطع الأوداج بالسّيف، ورواه قوم أبا وحرة وهي دويبة تشبه الحرباء قصيرة الظّهر شبهته بها قال: وهذا وما قبله ضعيف وما ذكرناه أقرب إلى الصواب[1].

(١) شرح النهج: ٧/٢٨١، انظر لسان العرب: ١٣/١١.

الترجمة

از جمله خطب بليغه آن بزرگوار و امام ابرار است در نعت حضرت خاتم الانبياء و مذمت اهل كوفه به جهت سنگينی از جهاد اعداء و اعلام ايشان به فتنه حجّاج بی ايمان، چنان چه فرمود كه:

فرو فرستاد خداوند آفريدگار رسول مختار را در حالتی كه خواننده بود مردمان را به سوی حق و گواه بود بر خلق، پس رسانيد پيغام های پروردگار خود را در حالتی كه سستی ننمود در اداء پيغام و تقصيركننده نبود در تبليغ احكام و جهاد كرد در راه خدای متعال با اعداء ربّ ذوالجلال در حالتی كه سست نبود در قتال و عذرخواهی نكرد به عذر ناموجه از مقاتله ابطال پيشوای صاحبان تقوی است و بينايی طالبان هدايت.

و اگر بدانيد آن چه من می دانم از چيزی كه كتمان شده از شما غيب آن در آن هنگام هرآينه خارج می شديد به سوی راه ها، يعنی ترك استراحت می كرديد در خانه ها در حالتی كه گريه می كرديد بر عمل های خودتان و می زديد بر نفس های خود و هرآينه ترك می نموديد مال های خود را در حالتی كه هيچ مستحفظی نباشد آنها را و هيچ جانشينی نباشد بر آنها و هرآينه محزون و غمگين می ساخت يا اينكه می گداخت هر مردمی را از شما نفس او كه اصلا التفات نمی كند به غير خود و ليكن شما فراموش كرديد چيزی را كه پند داده شديد به آن و ايمن گشتيد از چيزی كه ترسانيده شديد از آن، پس حيران گشت از شما انديشه و تدبير شما و پراكنده شد بر شما كار شما، هرآينه دوست می دارم اين كه خدای تعالی جدايی افكند ميان من و ميان شما و لاحق نمايد مرا به كسانی كه ايشان سزاوارترند به من از شما، ايشان قومی بودند قسم به خدا كه صاحبان رأی مبارك بودند و موصوفان به افزونی بردباری، بسيار سخن گوينده بودند به راستی و زياد ترك كننده بودند ظلم و گمراهی را، گذشتند در حالتی كه پيش قدم بودند بر راه راست و شتافتند بر طريقه درست و فايز شدند به آخرت بی نهايت و به كرامت خالی از زحمت.

آگاه باشيد قسم به خدا، هرآينه البته مسلّط می شود بر شما پسری از قبيله

ثقیف، یعنی حجاج بن یوسف ثقفی که کشنده باشد دامن خود را بر زمین از روی غرور و نخوت و عدول کننده باشد از راه عدالت که می خورد زراعت شما را و می گدازد پیه شما را، زیاده کن و بیاور آن چه که در پیش تو است ای پدر جعل.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والسادس عشر من المختار في باب الخطب

فَلا أَمْوالَ بَذَلْتُمُوها لِلَّذي رَزَقَها، ولا أَنْفُسَ خاطَرْتُمْ بها لِلَّذي خَلَقَها، تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلى عِبادِه، ولا تُكْرِمُونَ الله في عِبادِه، فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنازِلَ مَنْ كانَ قَبلَكُمْ، وَانْقِطاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوانِكُمْ[١].

اللغة

(خاطرتم بها) من المخاطرة وهي ارتكاب ما فيه خطر وهلاك، و **(تكرمون)** الأول من باب فعل، والثاني من باب أفعل يقال كرم الرجل كرماً من باب حسن عز ونفس فهو كريم.

الإعراب

(أموال وأنفس) منصوبان على الاشتغال، **(واللام)** في **(الذي)** رزقها تحتمل الصّلة والتعليل، وفي للّذي خلقها للتّعليل لا غير كما هو غير خفي، **(وانقطاعكم)** عطف **(على نزولكم)**.

المعنى

اعلم أن مدار هذا الفصل على التوبيخ بالبخل بالأموال والأنفس، والأمر بالاعتبار بتقلبات الدّهر وتغيرات الزّمان فلا مهم أوّلاً بترك بذل الأموال **(فلا أموال بذلتموها للذي رزقها)**، لا يخفى ما في التّعبير بهذه العبارة من اللطف والنكتة وهو أن التّعبير بقوله: **(للذي رزقها)** فيه من زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام ما ليس في التعبير بقوله لله كما في قوله:

أعبّاد المسيح يخاف صحبي ... ونحن عبيد من خلق المسيحا

فإنه أدل على عدم خوفهم النصارى من أن يقول نحن عبيد الله، وذلك لأن غرضه عليه السلام لومهم وتوبيخهم على البخل والإمساك عن بذل الأموال والتعبير بالموصول آكد في إفادة ذلك المطلوب لدلالته على اتّصافهم بغاية البخل حتى أنهم يمسكون أموالهم عن معطيها ورازقها فضلاً عن غيره، فيستحقون بذلك غاية اللوم والمذمّة.

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ١٨١٠، وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٨٢.

ومثله قوله: **(ولا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها)** فإنّه أدلّ على البخل بالأنفس وأثبت لذلك الغرض، فإنهم إذا لم يخاطروا بأنفسهم ولم يلقوا بها إلى المهالك لرضاء الخالق مع كونه أحقّ وأولى بها منهم، فكيف لغيره.

ثمّ أكّد التّوبيخ بقوله: **(تكرمون بالله على عباده ولا تكرمون الله في عباده)** ولذلك وصل هذا الكلام بما سبق ولم يفصل بالعاطف، لكون ذلك أوفى بتأدية المراد ممّا سبق، يعني أنّكم تتنافسون وتظهرون العز والشّرف على عباد الله تعالى بالله سبحانه، أي بما خوّلكم وأعطاكم ومنحكم من النّعم الدّنيويّة والأخروية، ولا تكرمون الله ولا تطيعونه في الإحسان إلى عباده والإفضال عليهم، بل بنعمته تبخلون، وعن عباده تمسكون **(فاعتبروا بنزولكم منازل من كان قبلكم)** من طحنتهم الآجال وضاق بهم المجال وارتهنوا بالأعمال كما قال عزّ من قائل:

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

(وانقطاعكم عن أوصل إخوانكم) حتى انتقلوا إلى ضيق المضجع ووحشة المرجع، فستصيرون مثلهم وتنزلون منزلتهم، فاسلكوا مسلك العاجلة حميداً، وقدّموا زاد الآجلة سعيداً.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام است در توبيخ و عتاب مذمّت اصحاب بر عدم بذل اموال در راه ذوالجلال، فرموده:

پس هيچ مال هاى دنيا را بذل نكرديد براى كسى كه روزى شما گردانيد آنها را و هيچ جانها در مهالك نيفكنديد براى كسى كه خلق كرد آنها را، كريم و عزيز شويد به سبب خدا بر بندگان خدا و گرامى نمى داريد خدا را در بندگان خدا، پس عبرت بگيريد به نازل شدن خودتان به منزل هاى كسانى كه بودند پيش از شما و به بريدن خود از اقرب برادران خود.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والسابع عشر من المختار في باب الخطب

أَنْتُمُ الأَنْصارُ عَلىَ الْحَقِّ، وَالإِخْوانُ في الدِّينِ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ، وَالْبِطانَةُ دُونَ النّاسِ، بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وأَرْجُو طاعَةَ الْمُقْبِلِ، فَأَعينُوني بِمُناصَحَةٍ جَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ، سَليمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ، فَوَاللهِ إِنّي لأَوْلَى النّاسِ بِالناسِ[1].

اللغة

(الجنن) جمع الجنّة وهي ما استترت به من سلاح و **(بطانة)** الرّجل خاصته وأصحاب سرّه و **(جلية)** في بعض النسخ بالجيم وفي بعضها بالخاء.

الإعراب

(دون) ظرف إما بمعنى عند أو بمعنى سوى، **(والفاء)** في قوله: **(فأعينوني)** فصيحة.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام على ما رواه الشارح المعتزلي من المدائني والواقدي قاله أمير المؤمنين عليه السلام للأنصار بعد فراغه من حرب الجمل، والغرض بذلك مدح أصحابه واستمالة قلوبهم إلى مناصحته فقوله عليه السلام: **(أنتم الأنصار على الحقّ)** أي النّاصرون لي والمعينون على الحقّ الذّابون على الباطل، **(والإخوان في الدّين)** لقوله سبحانه: «إنّما المؤمنون إخوة» **(والجنن)** والتّرس **(يوم البأس)** أي يوم الشّدة والحرب **(والبطانة)** أي خاصّتي وخالصتي الذين لا أطوي عنكم سرّي **(دون النّاس)** أي عندهم يعني أنكم عندهم معروفون باختصاصي، أو أنتم البطانة لي سوى النّاس أي ليس لي بطانة غيركم، **(بكم أضرب المدبر)** عن الحقّ **(وأرجو طاعة المقبل)** يعني من أقبل إليّ إذا رأى أخلاقكم الحميدة أطاعني بصميم قلبه، ويمكن أن يراد بالمقبل من كان من شأنه الإقبال والطاعة، وإذا كنتم بهذه المثابة **(فأعينوني بمناصحة جلية)** أي صافية أو خالية **(من الغش)** والتدليس **(سليمة من الريب)** أي: سالمة من الشك في استحقاقي للخلافة والولاية **(فوالله إني لأولى النّاس بالنّاس)** وأحق بالإمامة.

---

(١) ميزان الحكمة: ٤/٢٢٧٩، وبحار الأنوار: ٣٢/٢٣٦ ح ١٨٩.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در مدح اصحاب خود كه فرموده:

شما يارى كنندگانيد بر راه راست و برادرانيد در دين و سپرهاييد در روز سختى و شدّت و خواص منيد در نزد مردمان، به اعانت شما مى زنم پشت گرداننده از حق را و به وجود شما اميد مى دارم روآورنده را، پس اعانت نماييد به نصيحت كردنى كه خالى است از نقص و عيب و سالم است از شك و ريب، پس قسم به خدا به درستى من بهترين مردمانم به مردمان و اولايم به ايشان از ديگران.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثامن عشر من المختار في باب الخطب

وقد جمع النّاس وحضّهم على الجهاد فسكتوا مليًا.

فقال عليه السلام: ما بالُكُمْ أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ. فَقالَ قَوْمٌ مِنهُمْ: يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ إِنْ سِرْتَ سِرْنا مَعَكَ.

فَقالَ عليه السلام: ما بالُكُمْ لا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ، ولا هُديتُمْ لِقَصْدٍ، أَفي مِثْلِ هذا يَنْبَغي لي أَنْ أَخْرُجَ، إِنَّما يَخْرُجُ في مِثْلِ هذا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضاهُ مِنْ شُجَعائِكُمْ وذَوي بَأْسِكُمْ، ولا يَنْبَغي لي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وبَيْتَ الْمالِ وجِبايَةَ الأَرْضِ وَالْقَضاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ والنَّظَرَ في حُقُوقِ الْمُطالِبينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ في كَتيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ في الجَفيرِ الْفارِغِ، وإِنَّما أَنا قُطْبُ الرَّحى تَدُورُ عَلَيَّ وأَنَا بِمكاني، فَإِذا فارَقْتُهُ اسْتَحارَ مَدارُها، وَاضْطَرَبَ ثِفالُها، هذا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ، وَاللهِ لَوْلا رَجائِي الشَّهادَةَ عِنْدَ لِقائِي الْعَدُوَّ لَوْ قَدْ حُمَّ لي لِقاؤُهُ لَقَرَّبْتُ رِكابي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ، وَلا أَطْلُبُكُمْ ما اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وشِمالٌ، طَعّانينَ، عَيّابينَ، حَيّادينَ، رَوّاغينَ، وإِنَّهُ لا غِناءِ في كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتِماعِ قُلُوبِكُمْ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلىَ الطَّريقِ الواضِحِ الَّتي لا يَهْلِكُ عَلَيْها إِلاّ هالِكٌ، مَنِ اسْتَقامَ فَإِلى الْجَنَّةِ، ومَنْ زَلَّ فَإِلى النّارِ(١).

اللغة

(الملي) الهواء من الدّهر والساعة الطويلة من النهار قال تعالى: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، و **(مخرسون)** اسم مفعول من أخرسه الله و **(سدّدتم)** بالتخفيف والتشديد و **(الشجعاء)** جمع شجيع، وفي بعض النسخ شجعانكم بالنّون وهو بالضّم والكسر جمع شجاع، و **(الكتيبة)** القطعة العظيمة من الجيش و **(القدح)** بالكسر السّهم قبل أن يراش وينصل، و **(الجفير)** الكنانة وقيل وعاء للسّهام أوسع من الكنانة و **(استحار مدارها)** قال الشّارح المعتزلي: اضطرب ولم نجده بهذا المعنى في اللغة، والظّاهر من استحار إذا لم يهتد بسبيله يقال: استحار السّحاب أي لم يتجه جهة، وعن الجوهري المستحير سحاب ثقيل متردد ليس له ريح تسوقه، و **(الثفال)** كالكتاب والغراب الحجر الأسفل من الرّحى، و **(الرّكاب)** كالكتاب أيضاً الإبل التي يسار عليها.

---

(١) نهج السعادة: ٢/٦٠٢، وميزان الحكمة: ٤/٣٤٦٥.

الإعراب

(ملياً) منصوب على الظرف، وقوله: **(والله لولا رجائي الشهادة)** جواب القسم، **قوله: (لقربت ركابي)**، وهو ساد مسدّ جواب لولا، وجملة **(لو قد حمّ لي لقائه)**، **شرطيّة معترضة** بين القسم وجوابه كما في قوله:

لعمري وما عمري عليّ بهين لقد نطقت بطلاً على الأقارع(١)

وجواب **(لو)** محذوف بدلالة سياق الكلام عليه، أي لو قدحمّ لي لقائه لقيته، **ودخول (قد)** في شرط **(لو)** نادر، ومثله ما رواه في **«حواشي المغني»** من صحيح البخاري قال: **قال** رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو قد جاء مال البحرين قد أعطيتك هكذا هكذا»(٢)، واختلف في المرفوع بعد **(لولا)** وأن رفعه لماذا، قال ابن هشام **(لولا)** تدخل على جملة إسميّة ففعليّة لربط امتناع الثانية بوجود الأولى، نحو لولا زيد لأكرمتك، أي لولا زيد موجود إلى أن قال، وليس المرفوع بعد **(لولا)** فاعلاً بفعل محذوف، ولا **(بلولا)** لنيابتها عنه، ولا بها أصالة، خلافاً لزاعمي ذلك، بل رفعه بالابتداء، وطعانين مع المنصوبات الثلاثة بعدها حالات من ضمير الخطاب في قوله أطلبكم، وجملة **(لقد حملتكم)** جواب لقسم محذوف، والطريق يذكر ويؤنث ولذا أتى بصفة أولاً بالتذكير، وثانياً بالتأنيث جرياً على اللّغتين.

المعنى

إنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد انقضاءِ أمر صفّين والنهروان في بعض غارات أهل الشام على أطراف العراق، **(وقد جمع الناس وحضّهم)** أي حثّهم **(على الجهاد فسكتوا ملياً)**، أي ساعة طويلة، فقال عليه السلام: توبيخاً لهم على تثاقلهم **(ما بالكم أمخرسون أنتم)** فلا تنطقون، **(فقال قوم منهم يا أمير المؤمنين** عليه السلام **إن سرت)** إلى العدوّ **(سرنا معك فقال** عليه السلام: **ما بالكم لاسددتم لرشد ولا هديتم لقصد)** دعاء عليهم بعدم الاستقامة والسّداد لما فيه الصّلاح والرّشاد وعدم الاهتداء للقصد أي الأمر المعتدل الذي لا يميل إلى أحد طرفي الافراط والتفريط.

(أفي مثل هذا ينبغي لي أن أخرج) استفهام على سبيل التوبيخ والانكار، والإتيان باسم الإشارة للتحقير كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] **(إنما يخرج في مثل هذا رجل ممّن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم)** وشجاعتكم.

---

(١) الأقارع: جمع أقرع وهو الذي ذهب شعر رأسه.

(٢) مسند الحميدي: ٢/٥١٧، والمصنف: ٦/٢٥٣.

ثمّ أشار عليه السلام إلى وجوه الفساد في خروجه بنفسه بقوله: **(ولا ينبغي لي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض)** أي: جمع فيها وخراجها، **(والقضاء بين المسلمين)** وفصل خصوماتهم **(والنظر في حقوق المطالبين)** ودفع ظلاماتهم وغير ذلك مما فيه نظام الدولة وانتظام المملكة ومهام العباد وقوام البلاد، **(ثم أخرج في كتيبة أتبع)** في كتيبة **(أخرى أتقلقل)** أي اضطراب **(تقلقل القدح في الجفير الفارغ)** من السهام، والغرض التّشبيه في اضطراب الحال والانفصال عن الجنود والأعوان بالقدح الذي لا يكون حوله قداح تمنعه من التّقلقل ولا يستقرّ مكانه.

وقال الشارح البحراني: شبه خروجه معهم بالقدح في الجفير، ووجه الشّبه أنّه كان قد نفد الجيش وأراد أن يجهز من بقي من النّاس في كتيبة أخرى، فشبه نفسه في خروجه في تلك الكتيبة وحده مع تقدم أكابر جماعة وشجعانها بالقدح في الجفير الفارغ في كونه يتقلقل، وفي العرف يقال للشريف إذا مشى في حاجة ينوب فيها من هو دونه، وترك المهام التي لا تقوم إلاّ به ترك المهمّ الفلاني ومشى يتقلقل على كذا، والأشبه ما ذكرنا.

(وإنما أنا قطب الرّحى تدور عليّ وأنا بمكاني) شبه عليه السلام نفسه بالقطب وأمور الإمارة والخلافة المنوطة عليه بالرحى، ووجه الشّبه دوران تلك الأمور عليه دوران الرّحى على القطب، كما أشار إليه بقوله: تدور عليّ، وهو من قبيل التشبيه المجمل المقرون بذكر وصف المشبه به كما في قوله: هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها.

وقوله: **(فإذا فارقته استحار مدارها واضطرب ثفالها)** إشارة إلى الغرض من التشبيه وهو فساد الأمور المذكورة واضطرابها بمفارقته عليه السلام لها وانتقاله عليه السلام عن مكانه، وكذلك يبطل الغرض المقصود من الرّحا بارتفاع قطبها وانتفائه، ومعنى استحار مدارها على تفسير الشّارح المعتزلي اضطراب دورانها وخروجه عن الحركة المستديرة إلى المستقيمة، وعلى ما قدّمنا من عدم مجيء الاستحارة بمعنى الاضطراب فالأنسب أن يكون كناية عن الوقوف عن الحركة، ويكون اضطراب ثفالها كناية عن عدم تأتي الغرض المطلوب منه.

ولما نبّه على فساد رأيهم أكّد ذلك بالقسم البار وقال: **(هذا لعمر الله الرأي السّوء)** ثم أقسم باستكراهه لهم واستنكافه منهم ونفرة طبعه عن البقاء معهم إلاّ أن له مانعاً عن ذلك وهو قوله: **(والله لولا رجائي)** لقاء الله بـ **(الشهادة عند لقائي العدوّ لو قدحمّ)** وقدّر **(لي لقائه لقربت ركابي ثم شخصت عنكم)** وفارقتكم غير متأسف عليكم **(فلا أطلبكم)** سجيس اللّيالي **(ما اختلف جنوب وشمال)** تبرّماً من سوء صنيعتكم وقبح فعالكم ومخالفتكم لأوامري حال كونكم، **(طعّانين)** على النّاس **(عيّابين)** عليهم **(حيّادين)** ميّالين عن الحقّ **(روّاغين)** عن الحرب روغ الثّعلب، **(وأنّه لا غناء)** ولا نفع **(في كثرة عددكم مع قلة اجتماع قلوبكم)** ونفاقكم **(لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها)** أي: كائناً عليها أو بسببها **(إلاّ هالك**

من استقام) واعتدل ولزم سلوكها **(فـ)** مرجعه **(إلى الجنّة)** بنفس مطمئنة **(ومن زل)** وعدل عنها **(فـ)** مصيره **(إلى النّار)** وبئس القرار.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت اسلوب آن امام است در حالتی که جمع کرده بود مردمان را و ترغیب می فرمود ایشان را بر جهاد، پس ساکت شدند زمان درازی، پس فرمود که:

چیست شما را؟ آیا گنگ ساخته اند شما را؟ پس گفتند طایفه از ایشان: ای مولای مؤمنان، اگر سیر بفرمایید سیر می کنیم با تو، پس فرمود که:

چه می شود شما را؟ موفّق نباشید بر راه قویم و هدایت نیابید بر طریق مستقیم، آیا در مثل این کار مختصر سزاوار است مرا که بیرون بروم به کارزار؟ جز این نیست که خارج می شود در مانند این امر مردی از کسانی که پسند من بوده باشد از دلیران شما و صاحبان قوت و شجاعت شما و سزاوار نیست مرا که ترك كنم لشكر را و شهر را و بیت المال و خراج گرفتن زمین را و حکم نمودن در میان مسلمانان و نظر کردن در حقهای طلب کنندگان حقوق را، بعد از آن خارج شوم در طایفه ای از لشگر که متابعت نمایم طایفه دیگر را، جنبش نمایم مثل جنبش نمودن تیر بی پر در تیردان خالی از تیر و جز این نیست که من مثل قطب آسیا هستم که می گردد آن آسیا بر من و من در جای باشم، پس هنگامی که من جدا شوم از آن، متحیّر و سرگردان شود دوران آن و مضطرب گردد سنگ زیرین آن.

این که شما می گویید، قسم به خدا بدرأیی است و اندیشه کج است و به خدا سوگند اگر نبود امیدواری من به شهادت در حین ملاقات دشمن اگر مقدر بشود از برای من ملاقات آن، هر آینه نزدیك می گردانیدم شتر سواری خود را بعد از آن رحلت می کردم از شما، پس طلب نمی کردم شما را ابداً مادامی که اختلاف دارند باد جنوب و شمال در حالتی که هستید طعن نمایندگان مردمان، عیب جویندگان، برگردندگان از راه حق، ترسندگان و به درستی هیچ منفعتی نیست در

كثرت عدد و شماره شما با وجود كمى اجتماع قلب هاى شما، هرآينه به تحقيق كه حمل نمودم شما را بر راه روشن و آشكار كه هلاك نمى شود بر آن مگر هلاك شونده گمراه، كسى كه مستقيم شد بر آن راه پس رجوع آن به سوى بهشت است و كسى كه لغزيد از آن راه پس بازگشت آن به سوى آتش است.

قال الشارح المحتاج إلى غفران الله تعالى ورحمته، المتوسل إلى الله سبحانه برسول الله وعترته سلام الله عليه وعليهم ما اختلف الليل والنهار والجنوب والشمال: هذا هو المجلد الثالث من مجلدات شرح النهج، قد يسّر الله إتمامه وأحسن بالخير ختامه، ويتلوه إن شاء الله سبحانه المجلّد الرّابع، وهذه هي النسخة الأصل التي كتبتها بيميني، والمرجو من الله سبحانه أن يبثها في صحائف الحسنات، ويجعلها ممحاة للسّيئات بفضله الواسع، وكرمه السّابغ، وبمحمّد وآله الطاهرين، وكان الفراغ سلخ شهر ذي القعدة الحرام ١٣٠٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا إلى نهج الحقّ ومنهج الصّواب، والاعتصام بالعروة الوثقى والحبل المتين في المبدأ والمآب، والصّلاة والسّلام على من آتاه الحكم وفصل الخطاب، وبعثه ليتمّ مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، شجرة الاصطفاءِ وثمرة الاجتباءِ شريف الحسب وكريم الأنساب، ختم الأنبياء وأنف البطحاءِ نخبة العرب وشامخ الألقاب، وعلى أوصيائه الذين هم أعلام التوحيد ومنار التفريد وعندهم علم الكتاب، وأهل الذكر المسؤولون المؤيدون في كل فصل وباب، والمعصومون المسدّدون في الشيب والشباب، وإليهم حشر الخلائق ونشرهم وإليهم الإياب وعليهم الحساب، وبولايتهم تقبل الأعمال وتنال الآمال ويفاز عظيم الزلفى وحسن الثواب.

يا بني أحمد ناديكم اليوم وأنتم غداً لردّ جوابي
ألف باب أعطيتم ثمّ أفضى كلّ باب منها إلى ألف باب
لكم الأمر كلّه وإليكم ولديكم يؤول فصل الخطاب

لا سيّما أعظم النعيم والنبأ العظيم والصّراط المستقيم أبو الأئمة الأطهار الأطياب، هادي الأمم وكاشف الظلم وسيّد العرب والعجم والعبيد والأرباب، علم الهدى وكهف الورى وطود النهى وبحر السدى وماطر السحاب، من أحبّه سعد مولده وطاب، ومن أبغضه ضلّ سعيه وخسر وخاب.

وبعد فهذا هو المجلّد الرابع من مجلدات منهاج البراعة في «**شرح نهج البلاغة**» إملاء راجي عفور به الغني **حبيب الله بن محمد بن هاشم الهاشمي العلوي الموسوي** أعطاه الله كتابه بيمناه، وجعل عقباه خيراً من أولاه، وأسأله سبحانه من نواله، أن يمنّ عليّ بإكماله، بجاه محمّد وآله.

فأقول: قال السّيد رضي الله عنه:

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والتاسع عشر من المختار في باب الخطب

تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسالاتِ، وإتْمامَ الْعِداتِ، وتَمامَ الْكَلِماتِ، وعِنْدَنا أَهْلِ الْبَيْتِ أَبْوابُ الْحُكْمِ، وضِياءُ الأَمْرِ، أَلا وإِنَّ شَرائِعَ الدِّينِ واحِدَةٌ، وسُبُلَهُ قاصِدَةٌ، مَنْ أَخَذَ بِها لَحِقَ وغَنِمَ، ومَنْ وَقَفَ عَنْها ضَلَّ ونَدِمَ، إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخائِرُ، وتبْلى فيهِ السَّرائِرُ، ومَنْ لا يَنْفَعُهُ حاضِرُ لُبِّه، فَعازِبُهُ أَعْجَزُ، وغائِبُهُ أَعْوَزُ، وَاتَّقُوا ناراً حَرُّها شَدِيدٌ، وقَعْرُها بَعِيدٌ، وحِلْيَتُها حَدِيدٌ، وشَرابُها صدِيدٌ، أَلا وإِنَّ اللِّسانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ في النَّاس خَيرٌ مِنْ مالٍ يُورِثُهُ مَنْ لا يَحْمِدُهُ[1].

اللغة

(علّمت) في أكثر النّسخ على صيغة المجهول من باب التفعيل، وفي بعضها بالتخفيف على المعلوم، قال الشّارح المعتزلي: والرّواية الأولى أحسن و **(الحكم)** في أكثر النسخ بالضمّ وسكون الكاف، وفي بعضها بالكسر وفتح الكاف جمع الحكمة و **(عزب)** التي من باب قعد بعد عنى وغاب، و **(عوز)** الشّيء كفرح إذا لم يوجد والرجل افتقر وأعوزه الدهر أفقره.

الإعراب

قوله عليه السلام: **(وعندنا أهل البيت)** في أكثر النسخ بالجرّ، وفي بعضها بالنصب، أمّا الثاني فعلى الاختصاص، وأمّا الأوّل فعلى كونه بدلاً من ضمير المتكلّم كما يراه بعض علماء الأدبية أو على أنه عطف بيان كما هو الأظهر.

فإن قلت: صرح الأدبيون بأنّ عطف البيان إنّما يؤتي به لإيضاح متبوعه، وهٰهنا المتبوع أعرف من التابع فكيف يجوز الاتباع؟

قلت: هذا مبنيّ على الأغلب وإلا فقد يؤتى بالبيان لقصد المدح كما قاله المحقّق التفتازاني، حيث قال: فائدة عطف البيان لا تنحصر في الإيضاح لما ذكر صاحب **«الكشاف»** أنّ البيت الحرام في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، عطف بيان جيء به للمدح لا للإيضاح كما تجيء الصّفة لذلك، انتهى.

(١) نهج السعادة: ٣/١٤٦، وميزان الحكمة: ٤/٢٧٨٢.

وجملة (**تذخر له الذّخائر**) مجرورة المحلّ على الوصف، وجملة (**يجعله الله) في محل** النصب على الحال أو الوصف، وجملة (**يورثه من لا يحمده**) وصفية.

المعنى

اعلم أنّ المقصود بهذا الكلام كما يفهم من سياقه الإشارة إلى وجوب أتباعه وملازمته، والتمسك بذيل ولايته وأتباع الطّيبين من عترته وذرّيته، ووجوب أخذ معالم الدّين وأحكام الشّرع المبين عنهم عليهم السلام، وعقبه بالأمر بأخذ الزاد ليوم المعاد، ولذلك ذكر جملة من فضائله المخصوصة به المفيدة لتقدّمه على غيره، والدّالة على وجوب تقديمه نظراً إلى قبح ترجيح المرجوح على الرّاجح، وغير خفيّ على الذّكيّ البصير أنّ كلاً من هذه الخصائص برهان واضح وشاهد صدق على اختصاص الخلافة والولاية بهم عليهم السلام، وعلى أنها حق لهم دون غيرهم.

وافتتح كلامه بالقسم البار تحقيقاً للمقصد فقال: (**تالله لقد علّمت تبليغ الرسالات**) أي: علّمنيه رسول الله صلى الله عليه وآله بتعليم من الله سبحانه، وأعلمنيه بأمر منه تعالى، لا أنّه علمه بوحي كما توهمه بعض الغلات، لأنَ الأئمة عليهم السلام محدّثون، والرسالة هو الإخبار عن مراد الله تعالى بكلامه بدون واسطة بشر، والمراد أنّه عليه السلام علمه رسول الله صلى الله عليه وآله إبلاغ ما جاء به إلى الخلق على اختلاف ألسنتهم وتعدد لغاتهم سواء كان ذلك في حال حياة الرّسول كبعثه صلى الله عليه وآله له عليه السلام بسورة براءة إلى أهل مكة وعزله لأبي بكر معلّلاً بقوله صلى الله عليه وآله: أمرت أن لا يبلغها إلاّ أنا أو رجل منّي، وبعثه له إلى الجنّ ونحو ذلك، أو بعد وفاته صلى الله عليه وآله، فقد كان هو وأولاده الطاهرون سلام الله عليهم أوعية علم النبيّ صلى الله عليه وآله وحملة سرّه وحفظة شرعه مؤدّين له إلى أمته، وكان عمدة نشر الأحكام وانتشار مسائل الحلال والحرام وانفتاح باب العلم في زمنهم عليهم السلام وكانوا مأمورين بالتّبليغ والانذار، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله مأموراً بذلك.

ويشهد بذلك ما رواه الكليني والطبرسي والعياشي عن الصّادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال: ومن بلغ أن يكون إماماً من آل محمّد صلى الله عليه وآله، فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله صلى الله عليه وآله[(١)].

وفي «**غاية المرام**» عن الصّدوق بإسناده عن يزيد[(٢)] **بن معاوية العجلي قال: قلت لأبي جعفر** عليه السلام: **إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد، فقال: المنذر رسول الله** صلى الله عليه وآله **وعلي الهادي، وفي**

---

(١) الكافي: ١/ ٤١٦ ح ٢١، وبحار الأنوار: ٩/ ٨٥.

(٢) في نسخة: بريد.

كلّ وقت وزمان إمام منّا يهديهم إلى ما جاء به رسول الله ﷺ[(١)].

وفيه أيضاً عن الصّدوق مسنداً عن أبي هريرة قال: دخلت على رسول الله ﷺ وقد نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الأعراف: ٧]، فقرأها علينا رسول الله ﷺ قال: أنا المنذر، أتعرفون الهادي؟ قلنا: لا يا رسول الله، قال ﷺ هو خاصف النعل، فطولت الأعناق إذ خرج علينا عليّ عليه السلام من بعض الحجر وبيده نعل رسول الله ﷺ، ثمّ التفت إلينا وقال: ألا إنّه المبلّغ عني والإمام بعدي وزوج ابنتي وأبو سبطي، ففخراً نحن أهل بيت أذهب الله عنّا الرجس وطهرنا تطهيراً من الدّنس،[(٢)] الحديث.

وفي «البحار» عن بصائر الدرجات بإسناده عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي أنت تعلّم النّاس تأويل القرآن بما لا يعلمون»، فقال عليّ عليه السلام: ما أبلغ رسالتك بعدك يا رسول الله، قال: تخبر النّاس بما أشكل عليهم من تأويل القرآن.

وفيه أيضاً من كشف الغمة من كتاب محمّد بن عبد الله بن سليمان مسنداً عن أنس قال: كنت أخدم النّبيّ ﷺ فقال لي أنس بن مالك: يدخل عليّ رجل أمام المؤمنين، وسيّد المسلمين وخير الوصيين، فضرب الباب فإذا عليّ بن أبي طالب عليه السلام فدخل بعرق فجعل النبيّ ﷺ يمسح العرق عن وجهه ويقول: أنت تؤدّي عنّي أو تبلغ عني، فقال: يا رسول الله أولم تبلغ رسالات ربّك؟ فقال ﷺ: بلى ولكن أنت تعلم النّاس[(٣)].

(وإتمام العدات) أي إنجازها يحتمل أن يكون المراد بها ما وعده الله سبحانه في حقّه، فقد علّمه رسول الله ﷺ بأن الله سيفي به بما أنزل عليه في القرآن حيث قال: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [القصص: ٦١].

روى في **«غاية المرام»** عن الحسن بن أبي الحسن الدّيلمي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية قال: الموعود عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعده الله أن ينتقم له من أعدائه في الدنيا، ووعده الجنّة له ولأوليائه في الآخرة[(٤)].

ولكنّ الأظهر أن يراد بها العدات والعهود التي عاهد عليها الله سبحانه، ويشهد به قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ

(١) الكافي: ١/١٩٢ ح ٤، ودعائم الإسلام: ١/٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ٣٦/٣١٦.

(٣) بحار الأنوار: ٣٨/١٧ ح ٢٩.

(٤) بحار الأنوار: ٥٣/٧٦ ح ٧، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/٣٧٧.

تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فقد روت الخاصّة والعامّة أنّها نزلت في عليّ عليه السلام وجعفر وحمزة.

روى في «**غاية المرام**» عن عليّ بن يونس صاحب كتاب صراط المستقيم قال: قال: روى المفسرون أنها نزلت في عليّ وحمزة، ولا ريب أنه لمّا قتل حمزة اختصت بعليّ فأمن منه التبديل بحكم التنزيل، وروى اختصاصها بعلي عليه السلام بن عبّاس والصّادق عليه السلام وأبو نعيم.

وفيه أيضاً عن محمّد بن العباس الثقة في «**تفسيره**» فيما نزل في أهل البيت عليهم السلام بإسناده عن جابر عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام عن محمّد بن الحنفية رضي الله عنه قال: قال عليّ عليه السلام: كنت عاهدت الله ورسوله أنا وعمّي حمزة وأخي جعفر وابن عمّي عبيدة بن الحارث على أمر وفينا به لله ورسوله، فتقدمني أصحابي وخلفت بعدهم لما أراد الله عزّ وجلّ، فأنزل الله سبحانه فينا:

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣] حمزة وجعفر وعبيدة ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. أنا المنتظر وما بدلّت تبديلاً.

أو يراد بها مواعيد رسول الله صلى الله عليه وآله التي وعدها للنّاس فقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أنت وصيي ووارثي وقاضي ديني ومنجز عدتي، وعلّمه صلى الله عليه وآله كيفيّة أدائها ومن أين يؤديها[1].

وقد روى في «**غاية المرام**»، عن محمّد بن عليّ الحكيم الترمذي من أعيان علماء العامة في كتابه المسمّى «**بفتح المبين من كتاب الأوصال**» قال: وروى أنّ أمير المؤمنين كرم الله وجهه قد أدّى سبعين ألفاً من دينه صلى الله عليه وآله، وكان أكثره من الموعود.

وفيه أيضاً من كتاب «**ثاقب المناقب**» قال: حدّثني شيخي أبو جعفر محمّد بن حسين الشهرابي في داره بمشهد الرضا عليه السلام بإسناده إلى عطا عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم أبو الصمصام العيسى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأناخ ناقته على باب المسجد ودخل وسلّم وأحسن التسليم ثم قال: أيكم الفتى الغوي الذي يزعم أنه نبيّ؟

فوثب إليه سلمان الفارسي «رض» فقال: يا أخا العرب أما ترى صاحب الوجه الأقمر، والجبين الأزهر، والحوض والشفاعة، والتواضع والسكينة، والمسألة والإجابة، والسّيف والقضيب، والتكبير والتهليل، والأقسام والقضية، والأحكام الخفيّة، والنّور والشرف، والعلوّ والرّفعة، والسخاء والشجاعة والنجدة، والصّلاة المفروضة والزكاة المكتوبة، والحجّ والإحرام، وزمزم والمقام، والمشعر الحرام، واليوم المشهود، والمقام المحمود، والحوض

(١) الأمالي: ٤٥٠، وبشارة المصطفى: ١٠١.

المورود، والشفاعة الكبرى، وذلك مولانا رسول الله ﷺ.

فقال الأعرابي: إن كنت نبياً فقل متي تقوم الساعة ومتى يجيء المطر وأي شيء في بطن ناقتي وأي شيء اكتسب هذا ومتى أموت؟

فبقي ﷺ ساكتاً لا ينطق بشيء فهبط الأمين جبرائيل فقال: يا محمد اقرأ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

قال الإعرابي: مدّ يدك فأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأقرّ أنك رسول الله، فأي شيء لي عندي إن آتيك بأهلي وبني عمّي مسلمين؟ فقال له النبي ﷺ: لك عندي ثمانون ناقة حمر الظهور، بيض البطون، سود الحدق، عليها من طرائف اليمن ونقط الحجاز.

ثمّ التفت النبيّ ﷺ إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقال ﷺ: اكتب يا أبا الحسن: «بسم الله الرّحمن الرحيم أقرّ محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد المناف، وأشهد على نفسه في صحّة عقله وبدنه وجواز أمره أنّ لأبي الصّمصام عليه وعنده، وفي ذمّته ثمانين ناقة حمر الظهور، بيض البطون، سود الحدق عليها من طرائف اليمن ونقط الحجاز، وأشهد عليه جميع أصحابه».

وخرج أبو الصّمصام إلى أهله، فقبض النبيّ ﷺ، فقدم أبو الصّمصام وقد أسلم بنو عيسى كلّها، فقال أبو الصّمصام: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: قبض، قال: فمن الوصيّ بعده؟ قالوا ما خلف فينا أحداً، قال: فمن الخليفة بعده؟ قالوا: أبو بكر فدخل أبو الصمصام المسجد فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ إن لي على رسول الله ﷺ ديناً ثمانين ناقة حمر الظهور، بيض البطون، سود الحدق عليها من طرائف اليمن ونقط الحجاز، فقال أبو بكر: يا أخا العرب سألت ما فوق العقل، والله ما خلف فينا رسول الله ﷺ لا صفراء ولا بيضاء، خلف فينا بغلته الذلول، ودرعه الفاضلة فأخذها عليّ بن أبي طالب، وخلف فينا فدكا فأخذناها بحق، ونبينا محمّد ﷺ لا يورث.

فصاح سلمان: كردى ونكردى وحق أمير بردى، ردّ العمل إلى أهله، ثمّ مدّيده إلى أبي الصّمصام فأقامه إلى منزل علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يتوضأ وضوء الصّلاة، فقرع سلمان الباب، فنادى عليّ عليه السلام: أدخل أنت وأبو الصّمصام العيسى، فقال أبو الصّمصام: أعجوبة وربّ الكعبة، من هذا الذي سماني ولم يعرفني؟

فقال سلمان الفارسي «رض»: هذا وصيّ رسول الله، هذا الذي قال له رسول الله ﷺ أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب، هذا الذي قال له رسول الله ﷺ: عليّ خير البشر فمن رضى فقد شكر ومن أبى فقد كفر، هذا الذي قال الله تعالى فيه:

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

هـذا الـذي قـال الله تـعـالـى فـيـه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ١٨﴾ [السجدة: ١٨].

وهذا الّذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

هذا الّذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن﴾ [المائدة: ٦٧].

هذا الَّذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١] الآية.

هذا الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

هذا الذي قال الله عزّ وجلّ فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

أدخل يا أبا الصمصام وسلّم عليه، فدخل وسلم عليه، ثمّ قال: إن لي على رسول الله صلى الله عليه وآله ثمانين ناقة حمر الظهور، بيض البطون، سود الحدق، عليها من طرائف اليمن ونقط الحجاز، فقال عليه السلام أمعك حجّة؟ قال: نعم، ودفع الوثيقة فقال عليه السلام: ناد يا سلمان في الناس: ألا من أراد أن ينظر إلى قضاء دين رسول الله صلى الله عليه وآله فليخرج إلى خارج المدينة.

فلمّا كان بالغد خرج النّاس، وقال المنافقون كيف يقضي الدين وليس معه شيء غداً يفتضح من أين له ثمانون ناقة حمر الظهور، بيض البطون، سود الحدق عليها من طرائف اليمن، ونقط الحجاز، فلما كان الغد اجتمع الناس وخرج علي عليه السلام في أهل بيته ومحبّيه، وفي الجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأسرّ الحسن عليه السلام سرّاً لم يدر أحد ما هو.

ثمّ قال: يا أبا الصمصام امض مع ابني الحسن إلى كثيب الرّمل، فمضى ومعه أبو الصّمصام، وصلى ركعتين عند الكثيب، وكلم الأرض بكلمات لا يدري ما هي، وضرب على الكثيب بقضيب رسول الله صلى الله عليه وآله، فانفجر الكثيب عن صخرة ململمة مكتوب عليها سطران، على الأول لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله، وعلى الآخر لا إله إلاّ الله وعليّ وليّ الله، وضرب الحسن عليه السلام تلك الصّخرة بالقضيب فانفجرت عن خطام ناقة، فقال الحسن عليه السلام: قِدْ يا با الصّمصام، فقاد، فخرج منها ثمانون ناقة حمر الظهور، بيض البطون، سود الحدق، عليها من طرائف اليمن، ونقط الحجاز، ورجع إلى عليّ عليه السلام فقال عليه السلام: استوفيت حقك يا أبا

الصّمصام؟ فقال: نعم، فقال عليه السلام: سلم الوثيقة، فسلّمها إليه فخرقها فقال: هكذا أخبرني ابن عمي رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ الله عزّ وجلّ خلق هذه النّوق في هذه الصخرة قبل أن يخلق ناقة صالح بألفي عام[1]، ثمّ قال المنافقون: هذا من سحر عليّ قليل.

قال صاحب ثاقب المناقب: ويروي هذا الخبر على وجه آخر وهو ما روى أبو محمّد الإدريسي عن حمزة بن داود الديلمي عن يعقوب بن يزيد الأنباري عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن حبيب الأحول عن أبي حمزة الثمالي عن شهر بن حوشب عن ابن عبّاس قال:

لمّا قبض النّبي صلى الله عليه وآله وجلس أبو بكر نادى في النّاس: ألا من كان له على رسول الله صلى الله عليه وآله عدة أو دين فليأت أبا بكر وليأت معه شاهدين، ونادى علي عليه السلام بذلك على الإطلاق من غير طلب شاهدين، فجاء أعرابيّ متلثم متقلداً سيفه متنكنا كنانته وفرسه لا يرى منه إلا حافره، وساق الحديث ولم يذكر الاسم والقبيلة، وكان ما وعده مائة ناقة حمراء بأزمتها وأثقالها موقّرة ذهباً وفضة بعبيدها.

فلما ذهب سلمان بالأعرابي إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال له حين بصر به: مرحباً بطالب عدة والده من رسول الله صلى الله عليه وآله: فقال: ما وعد أبي يا أبا الحسن؟

قال: إن أباك قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أنا رجل مطاع في قومي إن دعوتهم أجابوك، وإنّي ضعيف الحال فما تجعل لي إن دعوتهم إلى الإسلام فأسلموا فقال صلى الله عليه وآله: من أمر الدّنيا أم من أمر الآخرة؟ قال: وما عليك أن تجمعهما بي يا رسول الله، وقد جمعهما الله لأناس كثيرين، فتبسّم النبيّ صلى الله عليه وآله وقال: أجمع لك خير الدّنيا والآخرة، أما في الآخرة فأنت رفيقي في الجنة، وأمّا في الدنيا فما تريد؟ قال: مائة ناقة حمر بأزمتها وعبيدها موقرة ذهباً وفضّة، ثم قال: وإن دعوتهم فأجابوني وقضى عليّ الموت ولم ألقك فتدفع ذلك إلى ولدي قال: نعم على أني لا أراك ولا تراني في دار الدنيا بعد يومي هذا، وسيجيبك قومك، فإذا حضرتك الوفاة فليصر ولدك إلى وليي من بعدي ووصيي، وقد مضى أبوك ودعا قومه فأجابوه وأمرك بالمصير إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أو إلى وصيّه، وها أنا وصيه ومنجز وعده.

فقال الأعرابي: صدقت يا أبا الحسن، ثم كتب عليه السلام له على خرقة بيضاء وناول الحسن عليه السلام، وقال: يا أبا محمّد سر بهذا الرجل إلى وادي العقيق وسلم على أهله وأقذف الخرقة وانتظر ساعة حتّى ترى ما يفعل، فإن دفع إليك شيء فادفعه إلى الرجل، ومضيا بالكتاب.

قال ابن عباس: فسرت من حيث لم يرني أحد، فلما أشرف الحسن عليه السلام على الوادي

(١) نهج الإيمان: ٦٤٤، وبحار الأنوار: ٤٢/ ٣٧ ح ١١.

نادى بأعلى صوته السّلام عليكم أيّها السكان البررة الأَتقياء أنا ابن وصيّ رسول الله ﷺ أنا الحسن بن عليّ سبط رسول الله ﷺ وابن رسول الله ﷺ ورسوله إليكم، وقد قذف الخرقة في الوادي فسمعت من الوادي صوتاً لبيّك لبيّك يا سبط رسول الله وابن البتول وابن سيد الأوصياء سمعنا وأطعنا أنتظر ليدفع إليك، فبينا أنا كذلك إذ ظهر غلام لم أدر من أين ظهر وبيده زمام ناقة حمراء تتبعها ستة فلم يزل يخرج غلام بعد غلام في يد كلّ غلام قطار حتّى عددت مائة ناقة حمراء بأزمتها وأحمالها، فقال الحسن عليه السلام خذ بزمام نوقك وعبيدك ومالك وامض يرحمك الله، [1] هذا.

وقد روى: هذا الحديث بطرق آخرى من العامة والخاصّة نحواً ممّا رويناه.

وأما قوله: **(وتمام الكلمات)** فقد فسره الشارح المعتزلي بتأويل القرآن وبيانه الذي يتم به، قال: لأن في كلامه تعالى المجمل الذي لا يستغني عن متمم ومبين يوضحه.

أقول: إذا كان متمّم القرآن ومبينه هو أمير المؤمنين عليه السلام ولم يكن الاستغناء فيه عنه عليه السلام، فكيف يمكن مع ذلك تقديم أجلاف العرب الذين لا يعرفون من القرآن إلا اسمه عليه وترجيحهم عليه، فإنّ القرآن هو إعجاز النبوة وأساس الملّة وعماد الشريعة، فلا بد أن يكون القيم به والعارف له والحافظ لأسراره، هو الحجة لا غير كما هو غير خفيّ على الذكي ذي الفطنة.

ثمّ أقول الذي عندي أنه يجوز أن يراد بالكلمات الكلمات القرآنية خصوصاً أعني الآيات وما تضمنته من التأويل والتنزيل والمفهوم والمنطوق والظهر والبطن والنكات والأسرار، وما فيها من الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والعام والخاص والمطلق والمقيّد والمجمل والمبين والأمر والنهي والوعد والوعيد والجدل والمثل والقصص والترغيب والترهيب إلى غير ذلك، فإن تمام ذلك وكله عند أمير المؤمنين عليه السلام والعلم بجميع ذلك مخصوص به وبالطاهرين من أولاده سلام الله عليهم حسبما عرفته تفصيلاً وتحقيقاً في التذييل الثالث من تذييلات الفصل السابع عشر من فصول الخطبة الأولى.

وإن يراد بها مطلق كلمات الله النازلة على الأنبياء والرّسل في الكتب السماوية والصّحف الإلهيّة، وقد مضى ما يدلّ على معرفتهم بتمام هذه في شرح الفصل الرابع من فصول الخطبة الثانية عند قوله عليه السلام: **(وكهف كتبه)**.

وأن يراد بها الأعم من هذه أيضاً، وهو الأنسب باقتضاء عموم وظيفتهم عليهم السلام، فيكون المراد بها ما ورد في غير واحد من الأخبار من أن رسول الله ﷺ علم علياً كلمة تفتح ألف كلمة وألف كلمة تفتح كلّ كلمة ألف كلمة، وعبّر عنها في أخبار آخرى بلفظ الباب وفي

---

(١) مدينة المعاجز: ١/ ٥٣٥، والأنوار العلوية: ١٦٢.

بعضها بلفظ الحديث وفي طائفة بلفظ الحرف.

مثل ما رواه في «**غاية المرام**» عن المفيد مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: علّم رسول الله صلى الله عليه وآله علياً كلمة تفتح ألف كلمة، وألف كلمة تفتح كلّ كلمة ألف كلمة.

وفيه عن «**المفيد**» أيضاً بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبيد الله عليه السلام قال: علّم رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً حرفاً يفتح ألف حرف كل حرف منها يفتح ألف حرف[1].

وفيه أيضاً عن محمّد بن الحسن الصّفار مسنداً عن أبي حمزة الثّمالي عن أبي إسحاق السّبيعي قال: سمعت بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ممن يثق به يقول: سمعت علياً عليه السلام يقول: إن في صدري هذا لعلماً جماً علمنيه رسول الله صلى الله عليه وآله لو أجد له حفظة يرعونه حق رعايته ويروونه عنّي كما يسمعونه مني إذا لأودعتهم بعضه، يعلم به كثيراً من العلم مفتاح كلّ باب وكلّ باب يفتح ألف باب[2].

وفيه أيضاً عن محمّد بن عليّ الحكيم الترمذي عن صاحب «**الينابيع**» قال: سأل قوم من اليهود عمر في زمن خلافته عن مسائل بشرط إن أجابهم أو غيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله آمنوا به صلى الله عليه وآله وقالوا:

ما قفل السماء وما مفتاح ذلك القفل؟ وما القبر الجاري؟ ومن الرّسول الذي وعظ قومه ولم يكن من الجن ولا من الانس؟ ومن الخمسة الذين يسيرون في الأرض ولم يخلقوا في أرحام الأمهات؟ وما يقول الديك في صوته؟ والدراج في هديده؟ والقمري في هديره؟ والفرس في صهيله؟ والحمار في نهيقه؟ والضفدع في نقيقه؟ فأطرف عمر زماناً ثم رفع رأسه قال لا أدري، فقالوا: علمنا أن دينكم باطل، فغدا سلمان «ض» جداً وأخبر علياً بالقصة فأتى فلما رأه استقبله وعانقه وأخبره بالقصة فقال كرّم الله وجهه: لا تبال فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله علمني ألف باب من العلم كان يتشعب منه ألف باب آخر، قال عمر فاسألوه عنها، فقال في جوابهم:

أما قفل السّماء فهو الشرك، وأما مفتاح ذلك القفل فقول لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: صدق الفتى، ثمّ قال: وأما القبر الجاري فهو الحوت الذي كان يونس في بطنه حيث دار في سبعة أبحر، وأما الرّسول الذي لم يكن من الجنّ والانس فنملة سليمان كما قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

وأما الخمسة الذين لم يخلقوا في أرحام الأمهات فآدم، وحوا، وناقة صالح، وكبش

---

(١) الكافي: ١/٢٩٦ ح ٥، والخصال: ٦٤٨ ح ٤١.

(٢) الخصال: ٦٤٥ ح ٢٩، والاختصاص: ٢٨٣.

إبراهيم، وثعبان موسى، وأما الديك فيقول: اذكروا الله أيها الغافلون، وأما الدراج فيقول: الرحمٰن على العرش استوى، وأما القمري فيقول: اللهم العن مبغضي محمّد وآل محمّد، وأما الفرس فيقول عند الغزو، اللّهم انصر عبادك المؤمنين على عبادك الكافرين، وأما الحمار فيلعن العشار ولا ينهق إلا في وجه الشيطان، وأما الضفدع فيقول: سبحان ربّي المعبود في لجج البحار[١].

وروى أنّهم كانوا ثلاثة فآمن منهم اثنان، وقام ثالثهم فسأل عن أصحاب الكهف وعن أسمائهم وأسماء كهفهم واسم كلبهم، فأخبر بكلها علي رضي الله عنه كما رواه عنه صاحب «**الكشاف**» في تفسير سورة الكهف، وقص قصتهم، فآمن اليهودي.

ثمّ قال عليه السلام: **(وعندنا أهل البيت أبواب الحكم)** يجوز أن يراد بالحكم على رواية ضم الحاء وسكون الكاف القضاء والفصل بين الناس في الخصومات والدعاوى، وأن يراد به الحكم الشرعي الفرعي أعني خطاب الله المتعلّق بأفعال المكلفين.

فعلى الأول: فالظاهر أنّ المراد بأبوابه هو طرقه ووجوهه، فإنهم عليهم السلام كانوا عالمين بها عارفين بتمامها يحكمون في القضايا الشخصية على ما تقتضيه المصلحة الكامنة الظاهرية أو الواقعيّة.

ففي بعضها: كانوا يحكمون بظاهر الشريعة على ما يقتضيه اليمين والبيّنة، وهو المراد بما روى عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال: إنّما أنا بشر مثلكم وإنما تختصمون إليّ ولعل بعضكم يكون أعرف بحجته من بعض فأقضي له على نحوما أسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار[٢].

وفي بعضها: بمر الحق على وجه التّدبير واستخراج وجه الحيلة والاحتيال في أعمال الحق واستخراج الأفراد بالحقوق الباطنة بلطائف الفكر كما كان يفعله أمير المؤمنين عليه السلام في أيام خلافة عمرو غيرها كثيراً، مثل قضائه في المرأة التي استودعها رجلان وديعة، وفي المرأة التي توفي عنها زوجها وادعى بنوها أنّها فجرت وفي الجارية التي افتضتها سيدتها اتهاماً ورميا لها بالفاحشة حسبما تقدم تفصيل ذلك كلّه في شرح الفصل الثاني من فصول الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

ومثل ما رواه عنه في «**الفقيه**» قال: قال أبو جعفر عليه السلام: توفي رجل على عهد أمير المؤمنين وخلف ابناً وعبداً فادعى كلّ واحد منهما أنه الابن وأن الآخر عبد له فأتيا أمير المؤمنين عليه السلام فتحاكما إليه، فأمر أمير المؤمنين أن يثقب في حائط المسجد ثقبتان، ثمّ أمر كلّ

---

(١) قصص الأنبياء: ٤٩٦.

(٢) دعائم الإسلام: ٢/ ٥١٨ ح ١٨٥٧، وبحار الأنوار: ٧٣/ ٣٤٣.

واحد منهما أن يدخل رأسه في ثقب، ففعلا، ثم قال: يا قنبر جرد السيف، وأشار إليه لا تفعل ما آمرك به، ثم قال عليه السلام: اضرب عنق العبد قال: فنحى العبد رأسه فأخذه أمير المؤمنين عليه السلام وقال للآخر أنت الابن وقد أعتقته وجعلته مولى لك[١].

وفي بعضها: بالحكم الواقعي المحض وبه يحكم القائم من آل محمّد سلام الله عليه وعليهم بعد ظهوره، وهو المعبر عنه بحكم داود وآل داود في الأخبار، فإن داود عليه السلام كان يعمل زماناً على مقتضى علمه بالوحي من دون أن يسأل عن البيّنة، ثمّ إن بني إسرائيل اتّهموه لبعده عن طور العقل، فرجع إلى العمل بالبينات، وقد رويناه في شرح الفصل المذكور من الخطبة الشقشقية عن الساباطي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام بما تحكمون إذا حكمتم؟ فقال: بحكم الله وحكم داود،[٢] الحديث، وقد مضى ثمة أخبار أُخرى بهذا المعنى.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يحكم بهذا الحكم أحياناً، مثل ما روى عنه في محاكمة رسول الله صلى الله عليه وآله مع الإعرابي.

قال في «**الفقيه**»: جاء أعرابي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فادعى عليه سبعين درهماً ثمن ناقة باعها منه، فقال صلى الله عليه وآله قد أوفيتك، فقال: اجعل بيننا وبينك رجلاً يحكم بيننا فأقبل رجل من قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: احكم بيننا، فقال للأعرابي: ما تدعى على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: سبعين درهماً ثمن ناقة بعتها منه، فقال: ما تقول يا رسول الله؟ قال: قد أوفيته، فقال للأعرابي: ما تقول؟ قال: لم يوفني، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله: ألك بينة على أنك قد أوفيته؟ قال: لا، قال للأعرابي: أتحلف أنك لم تستوف حقك وتأخذه؟ فقال: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لأتحاكمن مع هذا إلى رجل يحكم بيننا بحكم الله عزّ وجلّ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه الأعرابي فقال عليّ عليه السلام: يا أعرابي ما تدعي على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: سبعين درهماً ثمن ناقة بعتها منه، فقال: ما تقول يا رسول الله؟ فقال: قد أوفيته ثمنها، فقال: يا أعرابي أصدق رسول الله فيما قال؟ قال: لا، ما أوفاني شيئاً، فأخرج عليّ عليه السلام سيفه فضرب عنقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لم فعلت ذلك يا علي؟ فقال: يا رسول الله نحن نصدّقك على أمر الله ونهيه وعلى أمر الجنة والنار والثواب والعقاب ووحي الله عزّ وجلّ، ولانصدّقك في ثمن ناقة هذا الإعرابي! وإني قتلته لأنّه كذبك لمّا قلت له أصدق رسول الله صلى الله عليه وآله فيما قال، فقال لا ما أوفاني شيئاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله أصبت يا عليّ فلا تعد إلى مثلها، ثمّ التفت صلى الله عليه وآله إلى القرشي وكان قد تبعه فقال صلى الله عليه وآله: هذا حكم الله لا ما حكمت به[٣].

(١) الإمام علي: ٦٨٢ ح ١١، ووسائل الشيعة: ٢٧/٢٨٨.

(٢) الكافي: ١/٣٩٨ ح ٣، وبحار الأنوار: ٢٥/٥٦ ح ١٨.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ٣/١٠٦، ووسائل الشيعة: ٢٧/٢٧٥.

وفي رواية محمّد بن بحر الشيباني عن أحمد بن الحارث قال: حدّثنا أبو أيوب الكوفي قال: حدثنا إسحاق بن وهب العلاف قال: حدّثنا أبو عاصم النبال عن ابن جريح عن الضحاك عن ابن عبّاس قال:

خرج رسول الله ﷺ من منزل عائشة فاستقبله أعرابي ومعه ناقة فقال: يا محمّد تشري هذه النّاقة؟ فقال النبيّ ﷺ: نعم بكم تبيعها يا أعرابي، فقال: بمأتي درهم، فقال النبي ﷺ: بل ناقتك خير من هذا، قال: فما زال النبيّ ﷺ يزيد حتى اشترى الناقة بأربعمائة درهم، قال: فلمّا دفع النّبي ﷺ إلى الأعرابي الدّراهم ضرب الأعرابي يده إلى زمام النّاقة فقال: النّاقة ناقتي والدراهم دراهمي فإن كان لمحمّد شيء فليقم البيّنة، قال: فأقبل رجل فقال النبيّ ﷺ: أترضى بالشيخ المقبل؟ قال: نعم يا محمّد، فقال النبيّ ﷺ: تقضي فيما بيني وبين هذا الأعرابي فقال: تكلم يا رسول الله، فقال النّبيّ ﷺ: النّاقة ناقتي والدراهم دراهم الإعرابي فقال الاعرابي: بل النّاقة ناقتي والدّراهم دراهمي إن كان لمحمّد شيء فليقم البيّنة، فقال الرجل: القضية فيها واضحة يا رسول الله، وذلك أن الاعرابي طلب البيّنة، فقال له النّبي ﷺ: اجلس فجلس، ثمّ أقبل رجل آخر فقال النّبي ﷺ: أترضى يا أعرابي بالشيخ المقبل؟ فقال: نعم يا محمّد، فلمّا دنى قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: اقض فيما بيني وبين هذا الأعرابي، فقال تكلّم يا رسول الله فقال النّبيّ ﷺ: النّاقة ناقتي والدراهم دراهم الأعرابي، فقال الأعرابي: بل النّاقة ناقتي والدّراهم دراهمي إن كان لمحمّد شيء فليقم البيّنة، فقال الرّجل: القضية فيها واضحة يا رسول الله لأنّ الأعرابي طلب البيّنة، فقال النّبي ﷺ: اجلس حتّى يأتي الله عزّ وجلّ بمن يقضي بيني وبين الأعرابي بالحق، فأقبل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال النبيّ ﷺ أترضى بالشّاب المقبل؟ فقال: نعم، فلمّا دنى قال النّبيّ ﷺ: يا أبا الحسن اقض فيما بيني وبين الأعرابي فقال: تكلم يا رسول الله فقال النبي ﷺ: النّاقة ناقتي والدراهم دراهم الأعرابي، فقال الأعرابي، بل النّاقة ناقتي والدراهم دراهمي إن كان لمحمّد شيء فليقم البيّنة، فقال عليّ ﷺ: خلّ بين النّاقة وبين رسول الله ﷺ، فقال الأعرابي: ما كنت بالّذي أفعل أو يقيم البيّنة، قال فدخل عليّ عليه السلام منزله فاشتمل على قائم سيفه، ثمّ أتى فقال خل بين النّاقة وبين رسول الله ﷺ، قال: ما كنت بالذي أفعل أو يقيم البينة، قال: فضربه عليّ ضربة فاجتمع أهل الحجاز على أنه رمى برأسه، وقال بعض أهل العراق: بل قطع عضواً منه قال فقال النبيّ ﷺ: ما حملك على هذا يا عليّ؟ فقال: يا رسول الله نصدّقك على الوحي من السماء ولا نصدقك على أربعمائة درهم[1]، قال الصدوق (ره) بعد رواية هذين الحديثين انهما غير مختلفين لأنهما في قضيتين وكانت هذه القضية قبل القضية التي ذكرتها قبلها، هذا.

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/١٠٨، ومستدرك الوسائل: ١٧/ ٣٨٣.

وقد تقدّم في شرح الكلام الثّامن والخمسين ما ينفعك في هذا المقام.

وعلى الثاني: أي على كون المراد بالحكم الأحكام الشرعية، فالمراد بأبوابه هو طرق الافتاء ووجوه بيان المسائل على ما تقتضيه المصلحة فيفتون بعض الناس بالحكم الواقعي وبعضهم بالتقيّة حقنا لدمائهم أو لدماء السائلين حسبما تقدم تفصيل ذلك أيضاً في شرح الكلام الثامن والخمسين في «**بيان وجوه التفويض**»، فتذكر.

وكيف كان فقد وضح وظهر ممّا قررنا أن الأئمة عليهم السلام عندهم أبواب الحكم بأي معنى أخذ الحكم وأنهم عارفون بها محيطون بأقطارها، وهذا الوصف مخصوص بهم لا يوجد في غيرهم، لأن معرفة المصالح الكامنة لا تحصل إلا بتأييد إلهي وقوة ربّانية مخصوصة بأهل العصمة والطهارة.

ولذلك أي لقصد الاختصاص والتخصيص قدم عليه السلام المسند وقال: وعندنا أبواب الحكم **(وضياء الأمر)** والمراد بالأمر إما الولاية كما كنّى به عنها كثيراً في أخباره أهل البيت عليهم السلام، وفي قوله تعالى وأولى الأمر منكم، والضياء حينئذٍ بمعناه الحقيقي أي عندنا نور الإمامة والولاية، وأما الأوامر الشرعية فالضياء استعارة المحق لأن الحق يشبه بالنور كما أن الباطل يشبه بالظلمة قال سبحانه:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالمقصود أن الأئمة عليهم السلام عندهم حق الأوامر الشرعية والتكاليف الإلهية، وإليه أشير في قوله سبحانه:

﴿اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن﴾ [النساء: ٥٩].

وأما مطلق الأمور المقدرة في الكون كما قال تعالى:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٤].

أي تنزل إلى وليّ الأمر بتفسير الأمور على ما تقدم تحقيقه بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الرابع من فصول الخطبة الثانية.

ثم أنه عليه السلام بعد ما ذكر جملة من فضائله وفضائل آله الطّاهرين سلام الله عليهم أجمعين أردف ذلك بالإشارة إلى وجوب أتباعهم وأخذ معالم الدين عنهم عليهم السلام فقال: **(الأوان شرائع الدين)** وطرقه أي قواعده وقوانينه **(واحدة وسبله قاصدة)** أي معتدلة مستقيمة وهي ما دل عليها

أهل بيت العصمة والطهارة، لأنهم أولياء الدّين وأبواب الإيمان وأمناء الرحمن والأدلاء على الشريعة والهداة إلى السنة **(من أخذ بها)** واتبع أئمة الهدى سلك الجادة الوسطى و **(الحق)** بالحقّ **(وغنم)** النعمة العظمى **(ومن وقف عنها)** وانحرف عن الصراط الأعظم والسّبيل الأقوم وأخذ في أمر الدين بطرق الأقيسة ووجوه الاستحسانات العقلية، أو رجع فيه إلى الهمج الرعاع وأئمة الضّلال العاملين فيه لعقولهم الفاسدة وأرائهم الكاسدة **(ضل وندم)**، وقد تقدم في شرح الكلام السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ما ينفعك في هذا المقام.

ثمّ أمر بتحصيل الزاد ليوم المعاد فقال عليه السلام: **(اعملوا ليوم تذخر له الذخائر)** وهي الأعمال الصّالحة **(وتبلى فيه السرائر)** الغرض بالوصف إما تخصيص الموصوف أو التهويل حثاً بالعمل كما في قوله سبحانه:

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥].

والجملة الثانية مأخوذة من الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، أي تختبر والسرائر: ما أسرّ القلوب من العقائد والنيات وغيرها وما خفي من الأعمال، قال الطبرسي: والسّرائر أعمال بني آدم والفرائض ما أوجبت عليه وهي سرائر في العبد تختبر تلك السرائر يوم القيامة حتّى يظهر خيرها وشرها.

وعن معاذ بن جبل قال: سألت النبيّ ما هذه السرائر التي تبلى بها العباد يوم القيامة؟ قال عليه السلام: سرائركم هي أعمالكم من الصّلاة والزكاة، والصيام والوضوء والغسل من الجنابة وكلّ مفروض لأن الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء قال صليت ولم يصل، وإن شاء قال توضأت ولم يتوض، فذلك قوله: يوم تبلى السرائر،[1] هذا.

ولما كان كمال القوة العملية لا يحصل إلا بكمال القوة النظرية أردفه بقوله: **(ومن لا ينفعه حاضر لبه فعازبه)** أي بعيده **(أعجز وغايبه أعوز)** أي أعدم للمنفعة يعني أن من لا ينفعه لبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر ولا موجود عنده من العقل أولى وأحرى.

وقيل في «**تفسيره**» وجوه أخرى: **الأول**: من لا يعتبر بلبه في حياته فأولى بأن لا ينتفع به بعد الموت، **الثاني**: أن من لم يعمل بمافهم وحكم به عقله وقت إمكان العمل فأحرى أن لا ينتفع به بعد انقضاء وقته بل لا يورثه إلا ندامة وحسرة، **الثالث**: أن من لم يكن له من نفسه رادع وزاجر فمن البعيد أن ينزجر ويرتدع بعقل غيره وموعظة غيره كما قيل: وزاجر من النفس خير من عتاب العواذل.

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣٢٤، والتفسير الصافي: ٥/ ٣١٤.

ولما حث بالعمل أكّده بالتحذير من النار فقال: **(واتقوا نار أحرها شديد وقعرها بعيد وحليتها حديد وشرابها صديد)**، لا يخفى ما في هذه الفقرة من حسن الخطابة حيث ناط بكل لفظة ما يناسبها ويلائمها لو نيطت بغيرها لم تلائم، والإضافة في القرينة الأولى على أصلها، وفي الأخيرة لأدنى المناسبة، وفي الوسطين تحتمل الأول والثاني، واستعارة الحلية للقيود والاغلال من باب التحكم، والقرينة الأخرى مأخوذة عن قوله سبحانه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وهو القيح والدّم، وقيل: هو القيح كأنه الماء في رقته والدّم في شكله، وقيل: هو ما يسيل من جلود أهل النار وكيف كان فتوصف النار بهذه الأوصاف الأربعة للتحذير والترهيب منها كما أن في ذكر حلية أهل الجنّة وشرابهم في قوله تعالى:

﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

ترغيباً وتشويقاً إليها.

ثمّ قال: **(ألا وإن اللّسان الصالح)** أي الذكر الجميل تسمية للشيء باسم مسببه **(يجعله الله للمرء في الناس خير له من مال يورثه من لا يحمده)** وقد مرّ نظير هذه العبارة في الفصل الثاني من فصلي الخطبة الثالثة والعشرين، والمراد أن تحصيل مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال من البذل والإنفاق ونحوهما مما يوجب الثناء الجميل في الدّنيا والثواب الجزيل في العقبى خير من تحصيل المال وجمعه وتوريثه من لا يشكره عليه أي وارثه الذي لا يعد ذلك الإيراث فضلاً ونعمة لا يجابه العذاب الأليم والندم الطويل وهو شاهد بالعيان معلوم بالوجدان.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت فرجام آن امام انام است که فرموده:

قسم به خداوند، به تحقیق که تعلیم کرده شده ام من به رسانیدن رسالت ها را و تمام کردن وعده ها را و تمامی کلمه ها را و نزد ما اهل بیت است باب های احکام و روشنی امورات. آگاه باشید و بدانید که طرق دین یکی است و راه های آن معتدل و مستقیم است، هرکه فرا گرفت آن را رسید به مقصد و غنیمت یافت و هرکه واایستاد از آن گمراه شد و به ضلالت و ندامت شتافت، عمل نمایید از برای روزی که ذخیره کرده می شود از برای آن روز ذخیره ها و امتحان کرده می شود در آن روز عقاید صحیحه و فاسده و نیات حقّه و باطله و کسی که فایده نبخشد او را عقل او که حاضر است، پس عقلی که بعید است از او عاجزتر است از نفع بخشیدن و عقلی که غایب است از آن عادم تر است منفعت را و بترسید از آتشی که گرمی آن سخت است و ته آن دور است و زینت آن آهن است و شراب آن زردآب است. بدانید که به درستی که زبان خوشی که بگرداند او را خداوند تعالی برای مرد در میان خلق بهتر است مراورا از مالی که ارث بگذارد آن را به کسی که ستایش نکند او را به کثیر و قلیل آن؛ و لنعم ما قيل:

کسی کو شد به نام نیك مشهور پس از مرگش بزرگان زنده دانند
ولی آن را که بدفعل است و بدنام اگر چه زنده باشد مرده خوانند

و قال آخر:

سعدیا مرد نکونام نمیرد هرگز مرده آن است که نامش به نکویی نبرند

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والعشرون من المختار في باب الخطب

وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أرشد، فصفق (ع) إحدى يديه على الأخرى ثم قال:

هذا جَزاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةِ، أما وَاللهِ لَوْ أَنّي حينَ أَمَرْتُكُمْ بِما أَمَرْتُكُمْ بِه حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذي يَجْعَلُ اللهُ فِيه خَيراً فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدارَكْتُكُمْ، لَكانَتِ الْوُثْقى وَلكِنْ بِمَنْ وَإِلى مَنْ؟ أُريدُ أَنْ أُداوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دائي كَناقِشِ الشَّوكَةِ بِالشَّوْكَةِ وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلَعَها مَعَها، أَللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبّاءُ هذَا الدّاءِ الدَّوِيِّ، وَكَلَّتِ النَّزَعَةُ بِأَشْطانِ الرَّكِيِّ، أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذينَ دُعُوا إِلَى الإِسلامِ فَقَبِلُوهُ، وقَرَؤوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وهيجُوا إِلى الْجِهادِ فَوَلِهُوا وَلَهُ اللِّقاحِ إِلى أَوْلادِها، وسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمادَها، وأَخَذُوا بِأَطْرافِ الأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وصَفًّا صَفًّا، بَعْضٌ هَلَكَ، وبَعْضٌ نَجى، لا يُبَشَّرُونَ بِالأَحْياءِ، ولا يُعَزُّونَ عَنِ الْمَوْتى، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيامِ، ذُبْلُ الشِّفاهِ مِنَ الدُّعاءِ، صُفْرُ الأَلوانِ مِنَ السَّهَرِ، عَلى وُجُوهِهِمْ[١] غَبَرَةُ الْخاشِعينَ، أُولئِكَ إِخْواني الذّاهِبُونَ، فَحَقٌّ لَنا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، ونَعضَّ الأَيْدِيَ عَلى فِراقِهِمْ، إِنَّ الشَّيْطانَ يُسَنّي لَكُمْ طُرُقَهُ، ويُريدُ أَنْ يَحلَّ دينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، ويُعْطيكُمْ بِالْجَماعَةِ الْفِرْقَةَ[٢] فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَعاتِه ونَفَثاتِه، وَاقْبَلُوا النَّصيحَةَ مِمَّنْ أَهْداها إِلَيْكُمْ، واعْقِلُوها عَلى أَنْفُسِكُمْ[٣].

اللغة

(العقدة) بالضمّ الرأي والحزم والنظر في المصالح وما تمسكه وتوثقه و **(نقش الشوكة)** إذا استخرجها من جسمه وبه سميّ المنقاش الذي ينقش به، و **(الضلع)** محركة الميل والهوى وضلعك مع فلان أي ميلك وهواك قال الفيروزآبادي، قيل والقياس تحريكه، لأنهم يقولون ضلع مع فلان كفرح ولكنهم خفّفوا، انتهى. ويستفاد منه جواز القراءة بفتح **(اللام)** وسكونها معاً، الأوّل على القياس لكونه مصدر ضلع من باب فرح، والثاني على التخفيف.

---

(١) في نسخة: عليهم.

(٢) في نسخة: وبالفرقة الفتنة.

(٣) بحار الأنوار: ٣٣/٣٦٣، وميزان الحكمة: ٤/٣٢٨١ ح ٣٨٧٣.

و **(الدّاء الدوي)** الشديد كقولهم يسيل السّيل وشعر شاعر و **(النزعة)** جمع نازع كمردة ومارد وهو الذي يستقي الماء و **(الأشطان)** جمع الشّطن كالأسباب والسّبب وهو الجهل، و **(الركي)** جمع الركية وهي البئر وفي بعض النسخ: فولهوا اللقاح، بإسقاط لفظة الوله و **(اللقاح)** بكسر **(اللام)** الإبل الواحدة لقوح كصبور وهي الحلوب أو التي نتجت هي لقوح إلى شهرين أو ثلاثة، ثم هي لبون. و **(زحف)** إليه كمنع زحفاً وزحوفاً وزحفاناً مشى، والزحف أيضاً الجيش لأنّهم يزحفون إلى العدو ويمشون و **(الصّف)** مصدر كالتصفيف، ويقال أيضاً للقوم المصطفين.

و **(المُرْهُ)** بضمّ الميم وسكون الراء مرض في العين بترك الكحل من مرهت عينه كفرحت فسدت بترك الكحل، و **(خمص البطن)** مثلثة خلاه **(ذبل)** الشيء ذبولاً من باب قعد قلّت نضارته وذهب ماؤه، و **(الظمأ)** محركة شدّة العطش و **(سناه)** تسنية فتحه وسهله و **(الفرقة)**، وفي بعض النسخ بكسر الفاء وهو الطائفة من الناس والجمع فرق كسدرة وسدر، وفي بعضها بالضّم وهو إسم من فارقته مفارقته وفراقاً.

الإعراب

(أما) حرف استفتاح يبتدأ بها الكلام وتدخل كثيراً على القسم كما هنا، وقوله **(والله لو أني)**، **(لو)** حرف شرط، **(وإني حملتكم)**، واقع موقع الشرط لكون **(أنّ)** بالفتح فاعلاً لفعل محذوف يفسره قوله: حملتكم، وهذا أعني تقدير الفعل بعد لو التي يليها أنّ هو مذهب المبرد، وقال السيرافي: الذي عندي أنّه لا يحتاج إلى تقدير الفعل، ولكن **(أن)** تقع نائبة عن الفعل الذي يجب وقوعه بعد **(لو)** لانّ خبران إذا فعل ينوب لفظه عن الفعل بعد لو، فإذا قلت لو أنّ زيداً جائني، فكأنك قلت لو جائني زيد.

وقوله: **(حين أمرتكم)**، متعلق بحملتكم والتّقدم للتوسع، وجواب **(لو)** محذوف استغناء عنه بجواب القسم وهو قوله: **(لكانت الوثقى)**، وإنما جعلناه جواباً للقسم دون **(لو)** بحكم علماء الأدبية، قال نجم الأئمة: إذا تقدّم القسم أوّل الكلام وبعده كلمة الشرط سواء كانت إن، أو لو، أو لولا، أو اسم الشرط، فالأكثر والأولى اعتبار القسم دون الشرط فيجعل الجواب للقسم، ويستغني عن جواب الشرط لقيام جواب القسم مقامه، نحو:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ١٠٣].

وتقول: والله إن لو جئتني لجئتك، **(واللام)** جواب القسم لا جواب **(لو)**، ولو كانت جواب **(لو)** لجاز حذفها ولا يجوز في مثله، وكذا تقول: **والله لو جئتني ما جئتك**، ولا تقول **لما جئتك**، ولو كان الجواب **(للو)** لجاز ذلك، انتهى.

وقوله عليه السلام: **(ممن وإلى من)**، حذف متعلقهما بقرينة المقام وستعرفه في بيان المعنى، وقوله **(أين القوم)** **(أين)** كلمة استفهام استعملت هنا مجازاً في التحسر والتأسف على السّلف الماضين، وهو من باب تجاهل العارف، **(وأغمادها)** منصوب بنزع الخافض أو بدل من السيوف، **(وأخذوا بأطراف الأرض)**، إما من باب القلب أي أخذوا الأرض بأطرافها كما تقول: أخذوا بزمام النّاقة، أو **(الباء)** زائدة، أي أخذوا على النّاس أطراف الأرض أي حصروهم.

(وزحفاً زحفاً وصفاً صفاً)، منصوبان على الحال من فاعل أخذوا، أي زحفاً بعد زحف وصفاً بعد صف، أي ذوي صفوف كثيرة ولا يمنع جمودهما إمّا لعدم اشتراط الاشتقاق في الحال، أو لإمكان التأويل المشتق بناء على الاشتراط، ويجوز انتصابهما على المصدر، أي يزحفون زحفاً ويصطفون صفاً.

والتنوين في قوله: **(بعضٌ هلك وبعضٌ نجى)**، للتعويض، أي بعضهم هلك وبعضهم نجى، وكذلك **(اللام)** في قوله: **(لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون بالموتى)**، وجملة **(أولئك إخواني الذّاهبون)**، استئنافية بيانية، و**(الباء)** في قوله: **(ويعطيكم بالجماعة الفرقة)** للمقابلة والعوض.

المعنى

اعلم أن صدر هذا الكلام الشّريف مسوق لدفع شبهة الخوارج، وعقبه بالتضجر والاشتكاء منهم وبالتأسف على السّلف الصالحين من رؤساء الدّين، وختمه بالموعظة والنّصح لهم، وينبغي أن نذكر أولاً شبهة الخوارج، ثمّ نتبعها بما يدفعها.

فأقول: قد تقدم في شرح الخطبة الخامسة والثلاثين عند ذكر كيفية التحكيم بدء أمر الخوارج، وعرفت هناك أن أول خروجهم كان بصفين بعد عقد الصّلح، وذلك أنّ أهل الشّام لما رأوا عقيب ليلة الهرير أنّ إمارات الفتح والظفر وعلامات القهر والغلبة قد ظهرت ولاحت لأهل العراق، فعدلوا عند ذلك عن القراع إلى الخداع، وبدلوا القتال بالاحتيال، ورفعوا المصاحف على الرّماح بخديعة ابن النابغة، ونادوا الله الله يا معشر العرب في البنات والأبناء، والذراري والنساء، هذا كتاب الله بينكم وبيننا، فلما رأى ذلك أهل العراق وسمعوه، رفعوا أيديهم عن السيوف، وتركوا الجهاد، وأصروا على التحكيم، وكلما منعهم أمير المؤمنين عليه السلام ونهاهم عن ذلك وحثهم على الجهاد، لم يزددهم منعه إلا تقاعداً وتخاذلاً، ولما رأى تخاذلهم وقعودهم عن الحرب وإصرارهم على الصلح والمحاكمة وقولهم له: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، أجابهم إليه كرهاً لا رغبة، وجبراً لا اختياراً.

ثمّ لما كتب صحيفة الصلح على ما تقدم تفصيلها، وقرأها أشعث بن قيس على صفوف

أهل العراق، فنادى القوم لا حكم إلا لله لا لك يا علي ولا لمعاوية، وقد كنا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين، قد بان لنا خطأنا فرجعنا إلى الله وتبنا فارجع أنت وتب إلى الله كما تبنا، فقال عليّ عليه السلام ويحكم أبعد الرّضا والميثاق والعهد نرجع؟ أليس الله قد قال: أوفوا بالعقود، فأبى عليّ عليه السلام أن يرجع، وأبت الخوارج إلا تضليل الحكم والطعن فيه[1].

فمن ذلك نشأت الشبهة لهم، واعترضوا عليه عليه السلام وقال له عليه السلام بعضهم: **(نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أرشد)** محصّله أنه إن كانت في الحكومة مصلحة فما معنى النهي عنها أولاً، وإن لم تكن فيها مصلحة فما معنى الأمر بها ثانياً، فلا بدّ من أن يكون أحد الأمرين خطأ.

ولما كان هذا الاعتراض غير وارد عليه عليه السلام، وكان الخطأ منهم لا منه، تغير عليه السلام **(فصفق إحدى يديه على الأخرى)** فعل المتغير المغضب، **(ثمّ قال هذا جزاء من ترك العقدة)** يجوز أن يكون المشار إليه بهذا الجهل والحيرة التي يدل عليها قولهم، فما ندري أي الأمرين أرشد، فيكون ترك العقدة منهم لا منه عليه السلام، والمعنى أن هذا التحيّر جزاءكم حيث تركتم العقدة والرأي، والأصوب المقتضي للثبات على الحرب والبقاء على القتال، وأصررتم على إجابة أصحاب معاوية إلى المحاكمة، فوقعتم في التّيه والضلال، ويجوز إبقائه على ظاهره وهو الألصق بقوله بعد ذلك: لو حملتكم على المكروه لكانت الوثقى، فالمراد أن هذا جزائي حين تركت العقدة، أي هذا الاعتراض مما يترتب على ترك العقدة.

فإن قلت: فعلى هذا يتجه اعتراضهم عليه حيث ترك العقدة.

قلت: لا، لأن تركه لها كان اضطراراً لا اختياراً، ولا عن فساد رأي كما يدلّ عليه صريح قوله في الخطبة الخامسة والثلاثين: وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة (اهـ)، وقوله عليه السلام هنا: **(ولكن بمن وإلى من)**، ومن المعلوم أن ترك الأصلح إذا لم يمكن العمل بالأصلح مما لا فساد فيه، ولا ريب في عدم إمكان حربه عليه السلام بعد رفعهم المصاحف وافتراق أصحابه ونفاق جيشه على ما سمعت.

والحاصل أن الاعتراض إنما كان يرد عليه لو كان تركه العقدة طوعاً واختياراً لا جبراً واضطراراً، فظهر من ذلك كله أن المصلحة الكامنة كانت في النهي عن الحكومة ولما نهاهم عنها فلم ينتهوا وأصروا على المخالفة أجابهم إليها، خوفاً من شق عصا الجماعة، وحقناً لدمه، فكانت المصلحة بعد المخالفة والإصرار وظهور النفاق والافتراق في الإجابة إليها.

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٥٤٥، ووقعة صفين: ٥١٤.

وإلى هذا يشير بقوله: (**أما والله لو أني حين**) ما (**أمرتكم بما أمرتكم به**) من المصالحة والتحكيم إجابة لكم وقبولاً لمسألتكم مع إصراركم فيها اغتراراً منكم بمكيدة ابن النّابغة، وافتتاناً بخديعته، تركت الالتفات إليكم ولم أجب إلى مأمولكم (**حملتكم**) أي ألزمتكم (**على المكروه الذي**) هو الثبات على الحرب والجد في الجهاد حيث كرهته طباعهم وتنفروا عنها بطول المدة بهم وأكل الحرب أهلها وهو الذي (**يجعل الله فيه خيراً كثيراً**) وهو الظفر وسلامة العاقبة كما نطق به الكتاب العزيز حيث قال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ثمّ لما كانت الوجوه المتصورة من أحوالهم حين حملهم على المكروه وفرض أمرهم بالجهاد ثلاثة أشار إليها وأردف كل وجه بما يترتب عليه وهو قوله:

(**فإن استقمتم**) وأطعتم أمري (**هديتكم**) إلى وجوه مصالح الحرب وطرق الظفر والغلبة، (**وإن أعوججتم**) أي رفع منكم بعض الاستواء، ويسير من العصيان بقلّة الجدّ وفتور العزم والهمة (**قومتكم**) بالتأديب والإرشاد والتحريص والتشجيع والنّصح والموعظة (**وإن أبيتم**) وعصيتم (**تداركتكم**) إما بالاستنجاد بغيركم من أهل خراسان والحجاز وغيرهم من القبائل ممن كان من شيعته، أو ببعضكم على بعض، وأمّا بما يراه في ذلك الوقت من المصلحة التي تحكم بها الحال الحاضرة (**لكانت**) العقدة (**الوثقى**) والخصلة المحكمة (**ولكن بمن**) كنت أستعين وأنتصر (**وإلى من**) كنت أركن وأعتمد.

وبذلك يعلم أنه لو حملهم على المكروه كان منهم الإباء والامتناع، والتمرد والعصيان، وهو ثالث الوجوه المتصورة من حالهم وإنه حينئذٍ لا يمكن له تداركهم لأنَ الاستنجاد من أهل البلاد النائية من الشّيعة لم يكن فيه ثمرة، لأنهم إلى أن يصلوا إليه كانت الحرب قد وضعت أوزارها، وكان العدو قد بلغ غرضه.

والاستنجاد ببعضهم على بعض كان من قبيل ناقش الشوكة بالشوكة كما يشير إليه قوله: (**أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي**) استعار لفظ الداء والدواء لفساد الأمور وصلاحها، أي أريد أن أصلح بكم الأمور وأعالجها، وأنتم المفسدون لها (**كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها**) وهواها (**معها**) وهو مثل يضرب لمن يستعان به على خصم وكان ميله وهواه مع الخصم.

وأصله أن الشوكة إذا نشبت في عضو من أعضائك من يدك أو رجلك أو غيرهما، فإنها لا يمكن استخراجها بشوكة أخرى مثلها، فإن الأولى كما انكسرت في عضوك وبقيت في

لحمك فكذلك الثانية تنكسر، لأن ميلها معها، والمقصود أن طباع بعضكم يشبه طباع بعض ويميل إليها كما تميل الشوكة إلى مثلها.

ثمّ اشتكى إلى الله سبحانه وقال: **(اللهم قد ملت أطباء هذا الدّاء الدّوى)** الشديد أراد به داء الجهالة التي كانت في أصحابه وما هم عليه من مخالفته وعصيانه، ومرض الحيرة والغفلة عن إدراك وجوه المصلحة، واستعار لفظ الأطباء لنفسه وأعوانه، أوله ولسائر من دعا إلى الله سبحانه من الأنبياء والأوصياء والخلفاء، فإنهم الأطباء الإلهيون معالجون لأسقام القلوب وأمراض الجهالات والذنوب، وقد مضى توضيح ذلك في شرح الفصل الأول من الخطبة المائة والثامنة.

(وكلت النزعة بأشطان الرّكي) أي أعيت المستقين من الآبار بالأشطان والحبال، وهو من قبيل الاستعارة المرشحة حيث شبه نفسه بالنازع من البئر فاستعار له لفظه، ثم قرن الاستعارة بما يلائم المستعار منه أعني الأشطان والرّكي، والجامع أن من يستقي من البئر العميقة لإحياء الموات الوسيعة كما يكل ويعجز عن الاستقاء ويقلّ تأثير استقائه فيها، فكذلك هو عليه السلام استخرج من علومه الغزيرة لإحياء القلوب الميتة وقلّ تأثير موعظته فيها، وعجز عن إحيائها، وقد مرّ في شرح الفصل الأول من فصول الخطبة الثالثة تشبيه علومهم عليهم السلام بالماء وتأويل البئر المعطلة والقصر المشيد بهم، فالقصر مجدهم الذي لا يرتقى والبئر علمهم الذي لا ينزف.

ثمّ تأسف على السّلف الماضين من رؤساء الدين كحمزة وجعفر وسلمان وأبي ذر والمقداد وعمّار ونظرائهم وتحسّر على فقدهم فقال: **(أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه)** بأحسن القبول **(وقرؤوا القرآن فأحكموه)** أي جعلوه محكماً وأذعنوا بكونه من الله، وإن المورد له رسول الله، وتدبّروا في معانيه وعملوا بمضامينه وأخذوا تأويله وتنزيله ممّن نزل في بيته.

(وهيجوا إلى الجهاد فولهوا وله اللقاح إلى أولادها) أي اشتاقوا إلى الجهاد اشتياق النّاقة المرضعة إلى أولادها، وعلى النسخة الثّانية المتضمنة لسقط لفظ الولد فالمعنى أنهم جعلوا اللقاح والهة إلى أولادها لركوبهم إياها عند خروجهم إلى الجهاد، **(وسلبوا السّيوف)** من **(أغمادها)** وجفونها أو سلبوا أغماد السّيوف منها، **(وأخذوا بأطراف الأرض)** أي أخذوا الأرض بأطرافها وتسلطوا عليها، أو أخذوا على النّاس أطرافها وحصروهم وضيقوا عليهم، **(زحفاً زحفاً وصفاً صفا)** يعني حال كونهم جيشاً بعد جيش وصفا بعد صف **(وبعض هلك وبعض نجى)** كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثمّ أشار إلى انقطاع علائقهم من الدنيا بقوله: **(لا يبشرون بالإحياء ولا يعزون عن**

الموتى) يعني إذا ولد لهم ولد فهم لا يبشّرون به، وإذا مات منهم أحد فهم لا يعزّون عنه، أو أنهم لشدة ولههم إلى الجهاد لا يفرحون ببقاء حيهم حتّى يبشروا به، ولا يحزنون لقتل قتيلهم حتّى يعزوا عنه، وهذا هو الأظهر سيما على ما في بعض النسخ من لفظ القتلى بدل الموتى.

ثمّ أشار إلى مراتب زهدهم وخوفهم وخشيتهم من الله تعالى فقال: **(مُرْهُ العيون من البكاء خمص البطون من الصيام ذبل الشفاة من الدعاء صفر الألوان من السّهر)** أراد أنهم من شدة بكائهم من خوف الله سبحانه صارت عيونهم فاسدة، ومن كثرة صيامهم ابتغاءً لمرضاة الله صارت بطونهم ضامرة، ومن المواظبة على الدعاء ظلت شفاههم قليلة النداوة والنظارة، ومن المراقبة على التهجد والقيام باتت ألوانهم متغيرة مصفرة.

(عليهم غبرة الخاشعين) وسيماء الخائفين، **(أولئك إخواني الذاهبون فحق لنا)** وخليق بنا **(أن نظمأ)** ونشتاق **(إليهم)** أسفاً عليهم **(ونعض الأيدي على فراقهم)** حسرة على فقدانهم.

قال الشّارح المعتزلي بعد أن ذكر أنّ المشار إليه بأولئك من كان في بدء الإسلام وخموله وضعفه أرباب زهد وعبادة وشجاعة كمصعب بن عمير وسعد بن معاذ وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وكعمّار وأبي ذر والمقداد وسلمان وخباب وجماعة من أصحاب الصفة ما هذا لفظه:

وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال: إن الجنة لتشتاق إلى أربعة: عليّ، وعمّار، وأبي ذر، والمقداد[١]، وجاء في الأخبار الصّحيحة أيضاً أن جماعة من أصحاب الصفة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد الإسلام فعضّوا أيديهم عليه وقالوا وأسفاه كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عنق عدو الله، وكان معه أبو بكر فقال لهم: أتقولون هذا لسيّد البطحاء؟ فرفع قوله إلى رسول الله ﷺ فأنكره وقال ﷺ لأبي بكر: «انظر لا تكون أغضبتهم فتكون قد أغضبت ربك»[٢]، فجاء أبو بكر إليهم وترضاهم سألهم أن يستغفروا له، فقالوا: غفر الله لك.

أقول: إذا كان رسول الله ﷺ قد أنكر ما صدر من أبي بكر في حقّ أهل الصّفة مع أنه لم يكن بشيء يعبأ به فكيف لا ينكر ما صدر عنه في حق أمير المؤمنين من غصبه عليه الخلافة، مع أن نسبة أهل الصفة إليه ليست إلاّ نسبة الرّعية إلى السّيد والعبد إلى المولى، وإذا كان غضبهم موجباً لغضب الرّب فكيف لا يوجب غضبه عليه السلام غضبه سبحانه؟ وقد قال تعالى: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة.

---

(١) مناقب أمير المؤمنين: ١/ ٢٤١، وكتاب الأربعين: ٢٣٦.

(٢) شرح الأخبار: ٢/ ١٦٠ ح ٤٩٢، والسنن الكبرى: ٥/ ٧٥.

ثمّ أقول: أُنظر إلى تزوير هذا اللعين كيف ترضا أهل الصفة فيما قال مع أنه لو كان ذنباً فلم يكن إلا من صغائر الذنوب وهيّنات السيئات ولم يطلب الرضا من علي المرتضى فيما فعل في حقه من الظلم والخطأ مع كونه من عظائم الجرائر وموبقات الكبائر، ولم يسأل الاستغفار من فاطمة الزّهراء عليها السّلام بنت خاتم الأنبياء ما فعل في حقّها من الظلم والأذى، حيث غصب منها فدك وألجأها إلى الخروج من قعر بيتها إلى الملاء، وألبسها ثوب الصّغار والصماء مع أن هذا كان أولى بسؤال الاستغفار فأولى.

ثمّ العجب من الشارح مع روايته لهذه الأَحاديث الفاضحة وحكمه بصحتها كيف يركن إلى أبي بكر ويتخذه وليّاً؟ بلى من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ثمّ نبههم عليه السلام على مكائد الشيطان وتدليساته وعلى أن غرض هذا اللعين أن يصدفهم عن منهج الرشاد والسداد إلى وادي التيه والفساد فقال: **(إن الشيطان يسني لكم طرقه)** أي يفتحها ويسهلها **(ويريد أن يحل دينكم)** الذي عقدتم واحكمتموه في صدوركم **(عقدة)** بعد **(عقدة ويعطيكم بالجماعة الفرقة)** أي يبدل اجتماعكم بالافتراق وإتفاقكم بالنفاق.

وغرضه من ذلك كما علمت أن يحيدهم عن جادة الهداية إلى طريق الضلالة فيوقع بينهم الفتنة والعداوة كما قال في بعض النسخ **(وبالفرقة الفتنة ـ فاصدفوا)** أي أعرضوا **(عن نزعاته)** وفساداته التي يفسد بها القلوب **(ونفثاته)** أي وساوسه التي ينفث بها في الصدور، **(وأقبلوا النصيحة ممّن أهداها إليكم)** أراد به نفسه عليه السلام **(واعقلوها على أنفسكم)** أي اربطوها عليها وشدوها بها كما يعقل البعير الشموس بالعقال، ويشدّ الفرس الجموح بالوثاق.

تكملة

هذا الكلام مروي في «**الاحتجاج**» إلى قوله: بأشطان الركي، قال: احتجاجه عليه السلام على الخوارج لما حملوه على التحكيم، ثمّ أنكروا عليه ذلك ونقموا عليه أشياء غير ذلك، فأجابهم عليه السلام عن ذلك بالحجة وبين لهم أن الخطأ من قبلهم بدأ وإليهم يعود، روى أن رجلاً من أصحابه قام إليه فقال: نهيتنا عن الحكومة إلى آخر ما رواه كما في الكتاب إلا أن فيه بدل: يجعل الله خيراً، جعل الله خيراً.

الترجمة

از جمله كلام آن پيشواى عالميان است در آن حال كه برخاست به سوى او مردى از اصحاب او، پس گفت: نهى كردى ما را از حكومت حكمين، پس از آن امر كردى ما را به آن، پس نمى دانيم ما كه كدام يك از اين دو كار بهتر است، پس برهم زد آن حضرت يكى از دو دست خود را بر دست ديگر، پس از آن فرمود:

اين است جزاى كسى كه ترك كرده است رأى محكم و تدبير متقن را، آگاه باشيد به خدا سوگند، اگر من در وقتى كه امر كردم شما را به آنچه امر كردم شما را به آن، حمل مى نمودم بر چيزى كه مكروه طبع شما بود كه عبارت باشد از ثبات بر جهاد آن چنان مكروهى كه مى گردانيد خداوند متعال در آن خير و منفعتى را، پس اگر مستقيم مى شديد هدايت مى كردم شما را و اگر كجى مى نموديد راست مى ساختم شما را و اگر امتناع مى كرديد تدارك امتناع شما را مى نمودم، هرآينه شده بود كار محكم و خصلت استوار وليكن با كه معاونت مى جستم و انتقام مى كشيدم و به كه اعتماد مى كردم و خاطرجمع مى شدم، مى خواهم مداوا كنم و معالجه نمايم با شما و حال آن كه شما درد من هستيد، هم چو كسى كه بخواهد بيرون آورد خار را با خار ديگر و حال آن كه مى داند كه ميل خار به خار است.

بار پروردگارا، به تحقيق ملال آورد طبيب هاى اين درد سخت و عاجز شد كشندگان آب به ريسمان هاى چاه، كجايند گروهى كه دعوت شدند به اسلام پس قبول كردند او را و خواندند قرآن را، پس محكم نمودند آن را و برانگيخته شدند به سوى جهاد، پس شوقمند شدند به آن مثل اشتياق شتران شيرده به سوى اولاد خود و كشيدند شمشيرها را از غلاف هاى آنها و گرفتند اطراف زمين را بر مردمان دسته به دسته و صف به صف، بعضى از ايشان هلاك شدند و بعضى نجات يافتند در حالتى كه بشارت داده نمى شدند بر زندگان و تعزيه كرده نمى شدند بر مردگان.

ايشان تباه چشمان بودند از شدّت گريه و لاغرشكمان بودند از كثرت روزه،

خشك لبان بودند از بسیاری دعا و زاری، زردرنگان بودند از زیادتی تهجّد و بیداری، بر روی ایشان است غبارهای خشوع کنندگان، ایشان برادران روندگان من اند، پس سزاوار است که مشتاق شویم به سوی وصال ایشان و بگزیم انگشتان خود را بر حسرت و فراق ایشان. به درستی که شیطان ملعون سهل و آسان می گرداند برای شما راه های خود را و می خواهد که بگشاید دین شما را گره گره و بدهد شما را به عوض جمعیت جدایی را و بهواسطه جدایی فتنه و فساد را، پس اعراض نمایید از فسادهای او و از وسوسه های او و قبول نمایید نصیحت را از کسی که هدیه کرد آن نصیحت را به سوی شما و ببندید آن نصیحت را به نفس های خود.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والأحد والعشرون من المختار في باب الخطب

قاله للخوارج وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة فقال (ع):

أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنا صِفِّينَ؟ فقالوا: منّا من شهد ومنّا من لم يشهد، قال عليه السلام: فَامْتازُوا فِرْقَتَينِ فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً ومَنْ لَمْ يَشْهَدْها فِرْقَةً حَتّى أُكَلِّمَ كُلاًّ مِنْكُمْ بِكَلامِه ونادى النّاسَ فَقالَ عليه السلام: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلامِ وأَنصِتُوا لِقَوْلي واقْبلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْناهُ شَهادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِه فِيها.

ثم كلمهم عليه السلام بكلام طويل منه:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِ الْمَصاحِفِ حِيلَةً وغِيلَةً ومَكْراً وخَديعَةً إِخْوانُنا وأَهْلُ دَعْوَتِنا اسْتَقالُونا وَاسْتَراحُوا إِلى كِتابِ اللهِ سُبْحانَهُ فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هذا أَمْرٌ ظاهِرُهُ إِيمانٌ، وباطِنُهُ عُدْوانٌ، وأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وآخِرُهُ نَدامَةٌ، فَأَقِيمُوا عَلى شَأْنِكُمْ، وأَلْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وعَضُّوا عَلى الْجِهادِ بِنَواجِذِكُمْ، ولا تَلْتَفِتُوا إِلى ناعِقٍ نَعَقَ، إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وإِنْ تُرِكَ ذَلَّ، وقَدْ كانَتْ هذِهِ الْفَعْلَةُ وقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوها، وَاللهِ لَئِنْ أَبَيْتُها ما وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُها، ولا حَمَّلَنِي اللهُ ذَنْبَها، ووَاللهِ إِنْ جِئْتُها إِنّي لَلْمُحِقُّ الَّذي يُتَّبَعُ، وإِنَّ الْكِتابَ لَمَعي ما فارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ، فَلَقَدْ كُنّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ بَيْنَ الآباءِ وَالأَبْناءِ وَالإِخْوانِ وَالْقَراباتِ، فَما نَزْدادُ عَلى كُلِّ مُصِيبَةٍ وشِدَّةٍ إِلاّ إِيماناً ومُضِيًّا عَلى الْحَقِّ، وتَسْلِيماً لِلأَمْرِ وصَبْراً عَلى مَضَضِ الْجِراحِ، وَلكِنّا إِنَّما أَصْبَحْنا نُقاتِلُ إِخْوانَنا فِي الأَسْلام عَلى ما دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالإِعْوِجاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ فَإِذا طَمِعْنا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِها شَعْثَنا، ونَتَدانا بِها إِلى الْبَقِيَّةِ فِيما بَيْنَنا، رَغِبْنا فِيها، وأَمْسَكْنا عَمّا سِواها[١].

اللغة

(**المعسكر**) بفتح الكاف محلّ العسكر، وعن النهاية (**نشدتك**) الله (**والرحم**) أي سألتك بالله وبالرحم، وقال الفيومي: نشدت الضالة نشداً من باب قتل طلبتها ونشدتك الله وبالله نشدتك ذكرتك به واستعطفتك أو سألتك به مقسماً عليك، و (**الغيلة**) بالكسر الخديعة و (**نفس**) تنفيساً فرّج تفريجاً و (**نعق**) الرّاعي بغنمه ينعق من باب ضرب نعيقاً صاح بها وزجرها،

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٧٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٦٩.

و (**الفعلة**) بالفتح المرة من الفعل و (**المضض**) كالألم لفظ ومعنى و (**جرحه**) جرحاً من باب نفع والاسم الجرح بالضمّ والجراحة بالكسر وجمعها جراح وجراحات بالكسر أيضاً و (**الخصلة**) بفتح الخاء.

و (**البقية**) قال الشارح المعتزلي: هي الإبقاء والكف، وقال البحراني (ره) بقاء ما بقي فيما بيننا من الإسلام، وفي «**البحار**» والأظهر عندي أنه من الإبقاء بمعنى الرحم والإشفاق والإصلاح كما في الصّحيفة: لا تبقى على من تضرّع إليها، وقال في «**القاموس**»: أبقيت ما بيننا أي لم أبالغ في إفساده والإسم البقية وأولو بقية ينهون عن الفساد أي إبقاء.

الإعراب

الهمزة في قوله (**ألم تقولوا**) استفهاميّة للتقرير بما بعد النّفي كما قاله الزمخشري في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، والأظهر أنّها للإنكار الإبطالي المفيدة لإثبات ما بعدها إذا دخلت على النفي، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، أي كاف عبده.

(**وحيلة وغيلة ومكراً وخديعة**)، منصوبات على نزع الخافض، (**وإخواننا**) بالرفع خبر محذوف المبتدأ، والجملة في محلّ النصب مقول تقولوا، (**واللام**) في قوله: (**لئن أبيتها**)، لام ابتداء جيء بها تأكيداً للقسم، وجملة (**ما وجبت**) جواب القسم استغنى به عن جواب الشرط كما صرّح به علماء الأدبية.

قال ابن الحاجب: وإذا تقدّم القسم أوّل الكلام على الشرط لزمه المضي لفظاً أو معنى، وكان الجواب للقسم لفظاً مثل والله إن أتيتني وإن لم تأتني لأكرمنك، وقال نجم الأئمة إذا تقدم القسم أوّل الكلام ظاهراً أو مقدراً وبعده كلمة الشرط، فالأكثر والأولى اعتبار القسم دون الشرط، فيجعل الجواب للقسم ويستغني عن جواب الشرط لقيام القسم مقامه كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ [الحشر: ١٢] الآية، وقد تقدّم حكاية ذلك الكلام عنه في شرح الكلام السابق باختلاف يسير.

ومنه يظهر الكلام في قوله: (**والله إن جئتها أني للمحق الذي**) (آه)، قال نجم الأئمة: جواب القسم إذا كان جملة إسمية مثبتة يصدر (**بأن**) مشدّدة أو مخففة أو (**باللام**) وهذه (**اللام**) لام الابتداء المفيدة للتأكيد لا فرق بينها وبين (**أن**) إلا من حيث العمل، وإنما أجيب القسم بهما لأنهما مفيدان لتأكيد الذي لأجله جاء القسم، وقال في موضع آخر من «**شرح الكافية**» في تحقيق إن إن المسكورة مع جزئيها في تقدير الجملة، ولذلك دخلت (**اللام**) في خبرها دون المفتوحة: إعلم أن هذه اللام (**لام**) الابتداء المذكورة في جواب القسم وكان حقها أن تدخل أول الكلام، ولكن لما كان معناها ومعنى (**إن**) سواء أعني التوكيد والتحقيق، وكلاهما حرف

ابتداء كرهوا اجتماعهما فأخروا اللام وصدّروا (**إن**) لكونها عاملة والعامل حرّى بالتقديم على معموله وخاصّة إذا كان حرفاً إذ هو ضعيف العمل (آه).

وجملة (**يلمّ الله بها شعثنا**) في محل الجر صفة (**لخصلة**)، وجملة (**رغبنا**) جواب (**إذا طمعنا**).

المعنى

اعلم أنه قد تقدم في التذييل الثاني من شرح الخطبة السادسة والثلاثين كيفية قتال الخوارج وجملة من احتجاجاته عليه السلام معهم، وهذا الكلام أيضاً قاله للخوارج احتجاجاً عليهم (**وقد خرج إلى معسكرهم**). أي محل عسكرهم ومحطه (وهم مقيمون على إنكار الحكومة) عليه (فقال عليه السلام) لهم (**أكلكم شهد معنا صفّين وحضرها**) (**فقالوا منا من شهد ومنا من لم يشهد قال** عليه السلام فامتازوا) أي تفردوا (**فرقتين فليكن من شهد صفين فرقة ومن لم يشهدها فرقة حتى أكلم كلا منكم بكلامه**) الذي يليق به وفيه إسكانه ورفع شبهته، (**ونادى الناس فقال امسكوا عن الكلام وأنصتوا لقولي وأقبلوا بأفئدتكم إليّ**) وتدبّروا فيما أقول (**فمن نشدناه**) أي سألنا منه (**شهادة فليقل بعلمه فيها**) ولا يكتمها.

(**ثمّ كلمهم** عليه السلام **بكلام طويل، منه ألم تقولوا**) أي قد قلتم (**عند رفع المصاحف**) بتدليس ابن العاص اللعين (**حيلة وغيلة ومكراً وخديعة**) هؤلاء (**إخواننا**) في الدّين والإسلام (**وأهل دعوتنا**) أي دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإسلام فأجابوه (**استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه**) أي طلبوا منا الإقالة ورفع اليد عمّا كنا عليه من المحاربة والقتال، وسألوا الراحة بالرّجوع إلى كتاب الله والعمل بما يقتضيه، (**فالرأي القبول عنهم**) لملتمسهم (**والتنفيس عنهم**) لكربتهم.

(**فقلت لكم**) تنبيهاً على حيلتهم وإرشاداً إلى خديعتهم وإيقاظاً لكم من نوم الغفلة والجهالة (هذا) أي رفعهم المصاحف (**أمر ظاهره إيمان**) لتسليمهم ظاهراً الرجوع إلى الكتاب وإيهامهم العمل بما فيه من الأحكام (**وباطنه عدوان**) إذ كان مقصودهم به الحيلة والظلم والغلبة والخديعة (**وأوله رحمة**) منكم لهم (**وآخره ندامة**) عليكم منهم.

(**فأقيموا على شأنكم**) وما أنتم فيه من القتال وبراز الأبطال (**والزموا طريقتكم وعضّوا على الجهاد بنواجذكم**) وهو كناية عن المبالغة في الثبات عليه (**ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق**) أراد به معاوية أو عمرو بن العاص حيث كان رفع المصاحف بتدبيره (**إن أجيب أضلّ**) من أجاب (**وإن ترك ذلّ**) وخاب (**وقد كانت هذه الفعلة**) وهي الرضا بالحكومة (**وقد رأيتكم أعطيتموها**) وأقدمتم عليها.

ثمّ أراد رفع شبهتهم بقوله: (**والله لئن أبيتها ما وجبت عليّ فريضتها ولا حملني الله ذنبها، ووالله إن جئتها إني للمحقّ الذي يتبع، وإن الكتاب لمعي ما فارقته مذ صحبته**) يعني أن الحكومة على تقدير امتناعي عنها لم تكن واجبة حتى تجب عليّ فريضتها أي الأحكام الواجبة بسببها والمترتبة عليها، وما كنت مذنباً بترك الواجب، وعلى تقدير إقدامي عليها لم تكن محرّمة حتى تكونوا بإتباعكم إياي في الأقدام عليها مرتكبين للحرام، فإني أن المحق الذي أحقّ أن يتبع ويقتدى، وإن كتاب الله سبحانه لمعي لفظاً ومعنى لا أفارقه ولا يفارقني، فلا أقدم على أمر مخالف للقرآن موجب للعصيان.

فإن قلت: المعلوم من حاله عليه السلام حسبما ظهر من الروايات المتقدمة في شرح الخطبة الخامسة والثلاثين أنه امتنع من الحكومة أولاً وحث أصحابه على الجهاد والثبات عليه، ويدل عليه أيضاً الكلام الذي نحن بصدد شرحه، ثم لما رأى إصرارهم في الإجابة إلى أهل الشام والبناء على التحكيم رضي عليه السلام به وبنا عليه، فقد كان الأباء أولاً والأبناء ثانياً من فعله عليه السلام، وكان عالماً بذلك، فما معنى الإتيان بالشرط المنبىء عن الشك؟

قلت: إنما أتى بالشرط مع جزمه وعلمه به تجاهلاً لاقتضاء المقام التجاهل والإبهام، وذلك لأَن أصحابه عليه السلام كانوا فرقتين فرقة ترى التحكيم واجباً، وهم جل أصحابه وهم الذين أشار إليهم في هذا الكلام بقوله: (**الم تقولوا عند رفع المصاحف إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم**)، وفرقة تراه حراماً والإقدام عليه معصية، وهم الخوارج الذين قالوا لا حكم إلاّ الله ولا حكم إلاّ لله، فأجمل الكلام وأبهم المرام لاقتضاء المقام، وساق المعلوم مساق المجهول إسكاتاً للفريقين، فإنه لو صرّح بما يوافق رأى إحدى الفرقتين تبرأت عنه الفرقة الأخرى وانجرّ الأَمر إلى الفساد كما مر نظيره في كلامه الذي قاله في قتل عثمان: لو أمرت به لكنت قاتلاً أو نهيت عنه لكنت عاصياً، وهو الثلاثون من المختار في باب الخطب.

ومحصل جوابه عليه السلام عن إنكارهم للتحكيم يعود إلى أنه إمام مفترض الطاعة وأن الأَمر إليه وهو ولي الأَمر لو رأى المصلحة في الآباء منه كان الإباء واجباً، ولو رآها في الإجابة إليه كانت الإجابة واجبة، وعلى التقديرين فاللازم عليهم التسليم والانقياد لا الانكار والاعتراض، والاقتداء والمتابعة لا الرّد والامتناع.

فإن قلت: فلم أكد الكلام في جانب الآباء بتأكيدين أعني القسم واللام وفي الجانب الآخر أتى بأربع تأكيدات وهو القسم، وإن واللام وإسميّة الجملة، حيث قال: ووالله إن جئتها إنّي للمحق، بل وأكد خامساً بالوصف وقال: الذي يتّبع.

قلت: النكتة في ذلك أن مخاطبته بهذا الكلام لما كانت مع الخوارج الزاعمين لكون

الإقدام على الحكومة معصية وحراماً دون الآباء، وكانوا مصرّين على إنكارها استدعى المقام زيادة التأكيد ردّاً لزعم المخاطبين، وإبطالاً لإنكارهم ولهذه النكتة أيضاً أتى بالموصول تفخيماً لشأنه، وجعله وصفاً تأكيداً لحقيقته، وأكّد سادساً بقوله: وإن الكتاب لمعي، إشارة إلى أنه لا يرد ولا يصدر في شيء من الأبواب بحكم الكتاب، وهذه التحقيقات في هذا المقام من لطائف البلاغة قصرت عنها أيدي الشارحين ولله الحمد.

ثمّ رغّب عليه السلام في التأسي بالسّلف الماضين من خيار الصحابة بقوله: **(فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وإن القتل ليدور بين الآباء والأبناء والإخوان والقرابات فما نزداد على كلّ مصيبة وشدّة)** أصابتنا وابتلينا بها **(إلا إيماناً ومضياً إلى الحقّ وتسليماً للأمر)** ورضاً بالقضاء **(وصبراً على مضض الجراح)** أي وجع الجراحات وألمها، وقد تقدّم نظير هذه الفقرات منه عليه السلام في الكلام الخامس والخمسين.

ومحصّله أنا إذا قاتلنا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله كنا له مسلمين ولأمره مطيعين ومنقادين، ولا يزداد ما نزل بنا من المصائب إلاّ نوراً وإيماناً، وتسليماً وإذعاناً، فلا بدّ لكم أن تكونوا كذلك، وأن تردّوا الأمر إلى وليّ الأمر، ولا تكونوا له مخالفين، وعن حكمه متمردين.

ثمّ أكّد إبطال إنكارهم للحكومة بقوله: **(ولكنا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام)** أراد به أهل الشام، وإطلاق المسلم عليهم لإقرارهم ظاهراً بشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كانوا محكومين بكفرهم لبغيهم على الإمام المفترض الطاعة يعني أنا إنما قاتلناهم **(على ما دخل فيه)** أي الإسلام منهم **(من الزّيغ)** أي العدول عن الحقّ **(والاعوجاج)** عن الصّراط المستقيم **(والشبهة)** في الدّين **(والتأويل)** للكتاب المبين.

(فإذا طمعنا في خصلة) أراد بها الحكومة **(يلمّ الله به شعثنا)** أي يجمع الله بها تفرّقنا وانتشار أمورنا **(ونتدانا بها إلى البقية فيما بيننا)** أي نتقرب بتلك الخصلة إلى الإصلاح والإشفاق والترحم وترك الفساد فيما بيننا **(رغبنا فيها وأمسكنا عمّا سواها)**.

وحاصله أنّ مقصودنا بالذات من قتال هؤلاء لم يكن محض استئصال النفوس وإراقة الدماء بهوى الأنفس والعناد، وإنما المقصود إرجاعهم عن الضلال إلى الهدى، ومن الفساد إلى الرّشاد، فإذا رجونا حصول ذلك الغرض وإمكان التوسل إليه بالحكومة لا بدّ لنا من المصير إليها والكف عن إراقة الدماء كما نبّه عليه السلام على ذلك في كلامه الرابع والخمسين بقوله: فوالله ما وقعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة لتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي وذلك أحبّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها.

تنبيه

قد أسقط في أكثر نسخ الكتاب قوله: **(وقد كانت هذه الفعلة)**، إلى قوله: **(مذ صحبته)** ومن جملة تلك النسخ نسخة الشارح المعتزلي قال في الشرح: هذا الكلام ليس يتلو بعضه بعضاً ولكنه ثلاثة فصول لا تلتصق أحدها بالأخرى، وهذه عادة الرضى ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلمات فصيحة يوردها على سبيل التتالي وليست متتالية حين تكلّم بها صاحبها، آخر الفصل الأول قوله: وإن ترك ذل، وآخر الفصل الثاني قوله: **(على مضض الجراح)**، والفصل الثالث ينتهي إلى آخر الكلام، هذا.

وروى ذلك الكلام له عليه السلام في **«الاحتجاج»** عن قوله: **(ألم تقولوا)**، إلى آخر الكلام مثل ما في أكثر النسخ بإسقاط ما سقط إلا أن فيه بدل قوله **(على شأنكم)** **(على نياتكم)** **(ولا تلتفتوا إلى ناعق في الفتنة نعق إن أجيب أضل وإن ترك أذّل)**، والله العالم.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است كه گفته است آن را به خوارج نهروان در حالتى كه بيرون رفته بود به سوى لشگرگاه ايشان و ايشان ايستاده بودند بر انكار حكومت حكمين، پس فرمود:

آيا همه شما حاضر بوديد با ما در صفين؟ پس گفتند: بعضى از ما حاضر شده بود و بعضى از ما حاضر نشده بود، فرمود: پس جدا شويد از يكديگر به دو فرقه، پس بايد باشد كسانى كه حاضر صفّين شده بودند يك فرقه و جماعتى كه حاضر نبودند در آن معركه يك فرقه ديگر تا آن كه تكلّم بكنم با هر فرقه از شما به كلامى كه لايق حال او باشد و صدا كرد مردمان را، پس فرمود كه:

باز ايستيد از حرف زدن و ساكت شويد از براى شنيدن قول من و متوجه باشيد با قلب هاى خودتان به سوى من، پس هر كسى كه طلب كنم از آن شهادتى را، پس بايد كه بگويد به مقتضاى علم خود در آن شهادت.

بعد از آن تكلّم فرمود با ايشان به كلام دراز؛ از جمله آن كلام اين است كه گفت:

آيا نگفتيد شما در هنگام برداشتن ايشان مصحفها را از روى حيله گرى و تباه كارى و مكارى و فريفتن كه: ايشان برادران مايند و كسانى هستند كه دعوت شده اند به اسلام و قبول كرده اند، طلب كرده اند از ما اقاله و فسخ گذشته ها را و راحت جستند به سوى كتاب خدا، پس رأى صواب اين است كه قبول خواهش ايشان را بكنيم و غم و اندوه ايشان را برطرف سازيم، پس گفتم شما را كه اين كارشان كارى است كه ظاهر آن ايمان است و باطن آن نفاق و عدوان و اول آن ترحّم است از شما به ايشان و آخر آن ندامت است و خسران، پس اقامت نماييد بر كار خودتان كه عبارت است از محاربه دشمنان و ثابت قدم بشويد بر راه خود و بگزيد بر بالاى جهاد به دندانها و التفات نكنيد به سوى صداكننده كه صدا كرد، يعنى معاويه، اگر جواب داده شود آن صداكننده به ضلالت افكند جواب دهنده خود را و اگر ترك كرده شود، يعنى جوابش را ندهند خوار و ذليل گردد.

و به تحقیق که شد این یك کار یعنی رضای شما به حکومت حکمین و به تحقیق دیدم شما را که عطا کردید آن را و اقدام نمودید به آن، به خدا سوگند هر آینه اگر من امتناع می کردم از آن، واجب نمی شد بر من واجبات آن و بار نمی کرد بر من خداوند گناه آن را و به خدا سوگند اگر می آمدم به سوی آن، به درستی و به تحقیق که منم محقّ و درستکار که تبعیت کرده می شوم و به درستی کتاب عزیز خدا با من است که جدا نشده ام من از آن از زمانی که مصاحب او شده ام.

پس به تحقیق که بودیم با حضرت رسول مختار صلوات الله علیه و آله در حالتی که کشتن دوران می کرد در میان پدران و پسران و برادران و خویشان، پس زیاده نمی کردیم ما بر بالای هر محنت و شدتی مگر ایمان را به خدا و گذشتن بر حق و منقادشدن بر امر و صبر کردن بر سوزش جراحت ها ولکن ما غیر از این نیست که گشتیم مقاتله می کنیم با برادران اسلامی خود بر آن چه داخل شده است در اسلام از جانب ایشان از لغزش و گمراهی و اشتباه و تأویل باطل، پس زمانی که طمع کردیم در خصلتی که جمع کند خداوند متعال به سبب آن خصلت پراکندگی ما را و تقرب کنیم با یکدیگر به جهت آن خصلت به سوی مهربانی و شفقت در میان ما، رغبت می کنیم در آن خصلت و دست برداریم از غیر آن.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثاني والعشرون من المختار في باب الخطب

قاله للأصحاب في ساعة الحرب.

وَأيُّ امْرِءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِه رِباطَةَ جأشٍ عِنْدَ اللِّقاءِ، ورَأى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إخْوانِه فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتي فُضِّلَ بِها عَلَيْهِ كَما يَذُبُّ عَنْ نَفْسِه، فَلَوْ شاءَ الله لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ، إنَّ الْمَوْتَ طالِبٌ حَثيثٌ، لا يَفُوتُهُ الْمُقيمُ، ولا يُعْجِزُهُ الْهارِبُ، إنَّ أكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ، وَالَّذي نَفْسُ ابْنُ أَبي طالِبٍ بِيَدِه لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مَيْتَةٍ عَلى الفِراشِ[1].

اللغة

(**ربطه**) يربطه من بابي نصر وضرب شدّه، قال الفيروز آبادي ورابط الجأش وربيطه شجاع وربط جأشه رباطه بالكسر أشدّ قلبه والله على قلبه الهمه الصبر وقواه و (**النجدة**) الشجاعة قال الشارح المعتزلي (**الميتة**) بالكسر هيئة الموت كالجلسة والركبة هيئة الجالس والراكب يقال مات فلان ميتة حسنة قال: والمروي في «**نهج البلاغة**» بالكسر في أكثر الروايات، وقد روى من موتة، وهو الأليق يعني المرة الواحدة ليقع في مقابل الألف.

الإعراب

(**أيّ**) شرطية مرفوعة على الابتداء، وجملة (**أحسن**) خبر، وجملة (**فليذب**) جواب والباقي واضح.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام (**قاله عليه السلام للأصحاب في ساعة الحرب**) ولم أظفر بعد على أنه أيّ حرب، والمقصود به أمرهم بقضاء حق الأخوة ورعاية شرائط المواساة والمحبة والذّب عن إخوانهم المسلمين وحماية بيضة الإسلام وحوزة الدّين.

قال عليه السلام: (**وأي امرءٍ منكم أحسّ**) أي علم ووجد (**من نفسه رباطة جأش**) وقوة قلب (**عند اللقاء**) أي عند القتال ولقاء الأبطال (**ورأى من أحد من إخوانه**) **المؤمنين** (**فشلاً**) وجنباً

---

(١) عيون الحكم والموعظ: ١٥٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ١٨٩.

(فليذب) أي ليدفع المكروه **(عن أخيه بفضل نجدته)** وشجاعته **(التي فضل)** أي فضله الله **(بها عليه كما يذب)** ويدفع **(عن نفسه)** بنهاية الاهتمام والجدّ، **(فلو شاء الله لجعله مثله)** أي لجعل أخاه الجبان شجاعاً مثله، وحيث آثره بتلك النعمة وتفرد بهذه الفضيلة واختص بها ولم يجعل أخوه مثله فلا بدّ له من القيام بوظائف النعم والتشكر بالدفع عن الآخر.

وذلك **(أن الموت طالب)** للإنسان **(حثيث)** أي سريع في طلبه **(لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب)** يعني لا يخلص منه الراضي به المقيم له، ولا ينجو منه السّاخط له الهارب عنه، ومع ذلك فلا ينبغي للعاقل أن يختار الفرار على القرار، ويؤثر البقاء على اللقاء، مع إيجابه العارفي الأعقاب، والنار يوم الحساب وأيضاً قال: **(إن أكرم الموت القتل)** حيث إنه موجب للذكر الجميل في الدنيا والأجر الجزيل في العقبى، ومع ذلك فلا يجوز للبصير تفويت هذا النفع الكثير على نفسه والإقدام على الموت بحتف أنفه قال الشاعر:

وإن تكن الأبدان للموت أنشئت   فقتل امرء والله بالسيف أفضل

ثمّ حاول عليه السلام تحريص أصحابه وتحريضهم على الجهاد والثبات عليه، وجعل طباعهم مناسبة لطبيعته فقال: **(والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسّيف أهون عليّ)** وأسهل **(من ميتة على الفراش)**.

فإن قلت: حلفه ذلك هل هو على الحقيقة أو من باب المجاز والمبالغة ترغيباً لأصحابه في الجهاد؟

قلت: بل هو على حقيقته، لأنّه لفرط محبته في الله ومنتهى شوقه إلى الله وغاية رغبته في ابتغاء مرضات الله سبحانه كان في أعلى مراتب الفناء في الله والبقاء بالله، فارغاً عن نفسه في جنب مولاه، ومع ذلك الحال لا تأثير فيه لضربات السيوف وطعنات الرّماح البته.

ويشهد بذلك ما رواه غير واحد من أنه عليه السلام قد أصابت رجله الشريف نشابة في غزوة صفّين ولم يطق الجراحون إخراجها من رجله لاستحكامها فيه، فلما قام إلى الصّلاة أخرجوها حين كونه في السجدة، فلما فرغ من الصّلاة علم بإخراجها وحلف أنه لم يحس ذلك أصلاً.

ويؤيد ذلك ما عن الخرائج مسنداً عن أبي جعفر عليه السلام قال الحسين عليه السلام قبل أن يقتل إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا بني إنّك ستساق إلى العراق وهي أرض قد التقى بها النّبيون وأوصياء النبيّين، وهي أرض تدعى غموراً وأنك تستشهد بها ويستشهد معك جماعة من أصحابك لا يجدون ألم مسّ الحديد، وتلى صلى الله عليه وآله: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، تكون الحرب عليك وعليهم سلما[1]، الحديث.

---

(١) الخرائج والجرائح: ٢/٨٤٨ ح ٦٣، ومعجم احاديث الإمام المهدي (عج): ٥/١١٤ ح ١٥٣٧.

وجه التأييد أن أصحاب الحسين عليه السلام مع كونهم من أدنى عبيد أمير المؤمنين إذا لم يجدوا ألم الحديد بما فيهم من المحبّة والشوق إلى لقاء الحق، فكيف به عليه السلام مع خوضه في بحار المعرفة وكماله في مقام المحبّة.

هذا كله علي ما في أكثر النسخ من رواية كلامه عليه السلام كما أوردنا، وفي نسخة الشارح المعتزلي هكذا: لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على فراش في غير طاعة الله، وعليه فلا إشكال أصلاً لأَن ألم السيوف دنيوي، والميتة على الفراش بغير الطاعة معقبة للألم الأخروي، والأوّل أهون وأسهل من الثاني لا محالة ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.

والعجب من الشارح أنه حمل ذلك على المجاز والمبالغة حيث قال، بعد إيراد كلامه عليه السلام على ما حكينا من نسخته: الواجب أن يحمل كلامه إما على جهة التحريض فيكون قد بالغ كعادة العرب والخطباء في المبالغات المجازية، وإما أن يكون أقسم على أنه يعتقد ذلك وهو صادق فيما أقسم لأنّه هكذا كان يعتقد بناء على ما هو مركوز في طبعه من محبّة القتال وكراهية الموت على الفراش[١]، انتهى. وفيه ما فيه.

(١) شرح النهج: ٣٠٢/٧.

الترجمة

از جمله کلام آن حضرت است که فرموده آن را به اصحاب خود در ساعت جنگ:

و هر مردی از شما که احساس کند و بفهمد از نفس خود قوت قلب را هنگام ملاقات اعداء و ببیند از یکی از برادران خود ترس و جبن را، پس باید که دفع نماید از برادر خود به زیادتی شجاعت خود که تفضیل داده شده به آن شجاعت به برادر خود هم چنان که دفع می کند از نفس خود، پس اگر می خواست خداوند تعالی هر آینه می گردانید او را در شجاعت مثل آن، به درستی که مرگ طلب کننده است شتابان که فوت نمی شود از او اقامت کننده و عاجز نمی کند او را گریزنده، به درستی که گرامی ترین مرگ کشته شدن است، به حق آن کسی که جان پسر أبی طالب به ید قدرت او است هر آینه هزار ضربت با شمشیر سهل و آسان تر است بر من از مردن بر روی بستر.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثالث والعشرون من المختار في باب الخطب

وكَأَنّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشيشَ الضِّبابِ، لا تَأْخُذُونَ حَقًّا، ولا تَمْنَعُونَ ضَيْماً، قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّريقَ، فَالنَّجاةُ لِلمُقْتَحِم، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ[١].

اللغة

(كششت) الأفعى كشيشاً من باب ضرب إذا صاتت من جلدها لا من فمها قال الشارح المعتزلي: الكشيش الصوت يشوبه خور مثل الخشخشة قال الراجز:

كشيش أفعى أجمعت بعض ... فهي تحك بعضها ببعض

وعن **«النهاية»** كشيش الأفعى صوت جلدها إذا تحركت، وقد كشت تكش وليس سوت فمها لأنّ ذلك فحيحها، و **(الضب)** دابة بريّة وجمعه ضباب بالكسر كسهم وسهام.

الإعراب

جملة **(لا تأخذون)** (آه) في محل النصب على الحال من فاعل **(تكشون)**، **(والطريق)** منصوب على المفعول معه.

المعنى

اعلم أن المستفاد من بعض نسخ النّهج أن هذا الكلام، وكذلك الكلام الآتي كليهما من فصول الكلام السّابق، حيث إن العنوان فيه في كلّ منهما بلفظ منه، وفي بعضها عنوان ذلك بلفظ منه، وعنوان ما يتلوه بلفظ ومن كلامه له عليه السلام، وفي نسخة ثالثة العنوان في كل منهما بلفظ منها، والظاهر أنّه سهو من النساخ لأن العنوان فيما سبق حسبما عرفت بلفظ ومن كلام له عليه السلام فلا يناسبه إرجاع الضمير المؤنث إليه.

ولعل الأظهر أن كلا منها كلام مستقل لعدم ارتباط أحدها بالآخر، حيث إن الكلام السابق حسبما عرفت قاله للأصحاب في ساعة الحرب للتحريض والتشجيع وهذا الكلام كما ترى وارد في مقام التوبيخ والتقريع لهم، والكلام الآتي وارد في مقام تعليم رسوم الحرب،

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٥٥، وبحار الأنوار: ٩٧/ ٤٠.

فلا مناسبة لأحدها مع الآخر لو لم يكن الوسط مضاداً لهما، اللهمّ إلا أن يكون السيد (ره) قد أسقط ما يوجب الائتلاف والارتباط على ما جرت عليه عادته في الكتاب من الاسقاط والالتقاط، وبعض فقرات هذا الكلام تأتي في **«رواية الإرشاد»**، وهو أيضاً يخيّل كونه كلاماً مستقلاً، وستطلع في شرح الكلام الآتي ما يفيد استقلاله أيضاً.

وكيف كان فقد قال عليه السلام لأصحابه **(وكأنّي أنظر إليكم)** بما فيكم من الجبن والفشل **(تكشون كشيش الضباب)** المجتمعة يعني أن أصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذي قد اعتراكم، فهي أشبه شيء بأصوات الضباب، أو المراد بيان حالهم في الازدحام والهزيمة **(لا تأخذون)** لله **(حقاً ولا تمنعون ضيما)** وذلاً **(قد خلّيتم والطريق)** أي طريق الآخرة **(فالنجاة للمقتحم والهلكة للمتلوم)** أي النجاة في الدنيا من العار وفي الآخرة من النار للداخل في الجهاد والمقدم عليه، والهلاك الدائم للمتوقف عن القتال المتثبّط فيه، أو أن النجاة من سيف الأعداء للمطرق المقدم، لأنه مع إقدامه وتجلّده يرتاع له خصمه وتنخذل عنه نفسه والهلاك بسيف الأعداء للمتثبط المتلوّم لأنّ نفس خصمه تقوى عليه وطمعه يزداد فيه كما هو مشاهد بالعيان وتشهد به التجربة والوجدان وفي هذا المعنى قال:

ذق الموت إن شئت العلى وأطعم الردى قتيل الأماني بالمنية مكتوب
خض الحتف تأمن خطة الخسف إنما يبوح ضرام الخطب والخطب مشبوب

تنبيه

يشبه أن يكون هذا الكلام ملتقطاً من كلام له عليه السلام رواه في **«البحار»** من الإرشاد قال: من كلامه صلوات الله عليه في هذا المعنى بعد حمد الله والثناء عليه:

«ما أظن هؤلاء القوم، يعني أهل الشام إلا ظاهرين عليكم، فقالوا له: بماذا يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أرى أمورهم قد علت، ونيرانكم قد خبت، وأراهم جادين، وأراكم وانين، وأراهم مجتمعين، وأراكم متفرقين، وأراهم لصاحبهم مطيعين، وأراكم لي عاصين، أم والله لئن ظهروا عليكم لتجدنهم أرباب سوء من بعدي لكم، لكأني أنظر إليهم، وقد شاركوكم في بلادكم، وحملوا إلى بلادهم فيئكم، وكأني أنظر إليكم تكشون كشيش الضباب، ولا تأخذون حقاً، ولا تمنعون لله من حرمة، وكأني أنظر إليهم يقتلون صالحيكم، ويحيفون[1] قراءكم، ويحرمونكم، ويحجبونكم، ويدنون الناس دونكم. فلو قد رأيتم الحرمان والأثرة ووقع السّيوف ونزول الخوف، لقد ندمتم وحسرتم على تفريقكم في جهادكم وتذاكرتم ما أنتم فيه اليوم من الخفض والعافية حين لا ينفعكم التذكار[2].

(١) الحيف: البحور والظلم.

(٢) الإرشاد: ١/ ٢٧٥.

الترجمة

از جمله کلام آن امام انام است که فرمود:

گویا نظر می کنم به سوی شما که آواز می کنید در ازدحام نمودن به هزیمت و فرار هم چو آواز نمودن پوست های سوسمار که بر هم خورند در رفتار، در حالتی که اخذ نمی کنید به جهت خدا حقّی را و منع نمی کنید ذلّتی را، به تحقیق که رها شده اید با طریق آخرت، پس نجات مر کسی را است که داخل شود بدون تأمّل در قتال و جهاد و هلاکت مرکسی را است که توقّف کند از محاربه اعداء.

ومن كلام له عليه السلام في حث أصحابه على القتال وهو المائة والرابع والعشرون من المختار في باب الخطب

قاله للأصحاب في صفين، وقد رواه غير واحد باختلاف تعرفه إن شاء الله.

فَقَدِّمُوا الدّارِعَ، وأَخِّرُوا الحاسِرَ، وعَضُّوا عَلىَ الأَضْراسِ فَأنَّهُ أَنْبأُ لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهامِ، وَالْتَوُوا في أَطْرافِ الرِّماحِ فَإنَّهُ أَمْوَرُ لِلأَسِنَّةِ، وغُضُّوا الأَبْصارَ فَإنَّهُ أَرْبَطُ لِلجاشِ وأَسْكَنُ لِلقُلُوبِ، وأَميتُوا الأَصْواتَ فَإنَّهُ أَطْرَدُ لِلفَشَلِ، ورايَتَكُمْ فَلا تَميلوُها ولا تُخلوُّها ولا تَجْعَلُوها إلاّ بِأَيْدي شَجْعانِكُمْ وَالْمانِعينَ الذِّمارَ مِنْكُمْ، فَإنَّ الصّابِرينَ عَلى نُزُولِ الْحَقائِقِ هُمُ الَّذينَ يَحِفُّونَ بِراياتِهِمْ ويَكْتَنِفُونَها حِفافَيْها ووَراءَها وأَمامَها، لا يَتَأَخَّرُونَ عَنْها فَيُسْلِمُوها، ولا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْها فَيُفْرِدُوها، أَجْزَأَ امْرَؤٌ قِرْنَهُ، وآسى أَخاهُ بِنَفْسِه، ولَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إلى أَخيهِ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وقِرْنُ أَخيهِ، وأَيْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعاجِلَةِ لا تَسْلَمُوا مِنْ سَيفِ الآخِرَةِ، وأَنْتُمْ لَهاميمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنامُ الأَعْظَمِ، إنَّ في الْفِرارِ مُوجِدَةَ الله وَالذُّلَّ اللاّزِمَ، وَالْعارَ الْباقي، وإنَّ الْفارَّ لَغيْرُ مَزيدٍ في عُمْرِه، ولا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وبَينَ يَوْمِه، مَنْ رائِحٌ إلىَ اللهِ كَالظَّمآنِ يَرِدُ الْماءَ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرافِ الْعوالي، الْيَوْمَ تُبْلى الأَخْبارُ، وَاللهِ لأَنَا أَشْوَقُ إلى لِقائِهِمْ مِنْهُمْ إلى دِيارِهِمْ، أَللَّهُمَّ فَإنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَماعَتَهُمْ، وشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وأَبْسِلْهُمْ بِخَطاياهُمْ، إنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَواقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِراكٍ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسيمُ، وضَرْبٍ يُفْلِقُ الْهامَ، ويُطيحُ الْعِظامَ، ويُنْدِرُ السَّواعِدَ وَالأَقْدامَ، وحَتّى يُرْمُوا بِالْمَناسِرِ تَتْبَعُها الْمَناسِرُ، ويُرْجَمُوا بِالْكَتائِبِ، تَقْفُوها الْحَلائِبُ، وحَتّى يَجُرَّ بِبِلادِهِمُ الْخَميسُ يَتْلُوهُ الْخَميسُ وحَتّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ في نَواحِرِ أَرْضِهِمْ، وبِأَعْنانِ مَسارِبِهِمْ ومَسارِحِهِمْ[1]

قال السيد (ره): (الدعق)، (الدق)، أي تدق الخيول بحوافرها أرضهم، ونواحر أرضهم، متقابلاتها يقال: منازل بني فلان تتناحر أي تتقابل.

اللغة

(الدارع) لابس الدّرع و (الحاسر) الذي لا درع عليه ولا مغفر و (نبا) السّيف، عن الضريبة كلّ عنها وارتد ولم يمض، و (التوى) انعطف و (المور) التحريك والاضطراب قال

(١) وسائل الشيعة: ١٥/٦١، والإرشاد: ١/٢٦٨.

تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]، و **(الذمار)** بالكسر ما يلزمك حفظه وحمايته، وعن الجوهري فلان حامي الذّمار أي إذا ذمر وغضب حمى، وفي شرح المعتزلي الذّمار ما وراء الرّجل مما يحقّ عليه أن يحميه وسمّي ذماراً لأنّه يجب على أهله التذمّر له أي الغضب.

و **(الحقائق)** جمع الحقيقة بمعنى ما يحق للرّجل أن يحميه، أو بمعنى الراية كما ذكره في **«القاموس»** وحكى عن الصحاح، وقال الشارح المعتزلي وتبعه غيره أن الحقائق جمع حاقة وهي الأمر الصعب الشديد، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢] يعني السّاعة، وفي كونه جمعاً لها نظر.

و **(الحفاف)** وزان كتاب الجانب، وفي **(امرؤ)** ثلاث لغات: فتح الراء دائماً وضمّها دائماً، واختلافها باختلاف حركة الآخر، تقول: هذا امرؤ ورأيت امرءاً ومررت بامرء و **(القرن)** بالكسر كفوك في الشجاعة أو عامّ لكل كفو، و **(آس)** اخاه بالهمزة أي جعله اسوة لنفسه ويجوز وأسيت زيداً بالواو وهي لغة ضعيفة، و **(اللهاميم)** جمع اللهموم بالضم كعنقود وعناقيد الجواد من النّاس والخيل، و **(سنام)** الإبل معروف و **(الموجدة)** الغضب والسخط، وفي بعض النسخ **(والذّل اللاذم)** بالذّال المعجمة أيضاً بمعنى اللازم بالزاء يقال: لذمت المكان أي لزمته، و **(العوالي)** جمع العالية وهي أعلى القناة أو رأسها أو نصفها الذي يلي السنان.

و **(تبلى الأخبار)** هنا بالباء الموحدة، وفي بعض النسخ بالياء المثناة التحتانية و **(أبسلته)** أسلمته إلى الهلكة و **(النسيم)** الريح اللينة، وفي بعض النسخ النسم أي طعن بخرق الجوف بحيث يتنفّس المطعون من الطعنة، وروى **(القشم)** بالقاف والشين المعجمة وهو اللحم والشحم و **(فلقت)** الشيء أفلقه بكسر اللام فلقاً شققته، و **(المناسر)** جمع المنسر بفتح الميم وكسر السّين وبالعكس أيضاً قطعة من الجيش تكون أمام الجيش الأعظم.

و **(الحلائب)** بالحاء المهملة جمع حليبة وهي الطائفة المجتمعة من حلب القوم حلبا من باب نصر أي اجتمعوا من كل وجه، ويقال احلبوا إذا جاؤوا من كل أوب للنصرة، و **(الخميس)** الجيش لأنه خمس فرق: المقدّمة، والقلب، والميمنة والميسرة، والسارقة و **(المسارب)** و **(المسارح)** جمع المسربة والمسرح وهو المرعى.

قال الشارح المعتزلي: **(ونواحر أرضهم)** قد فسره الرضى ويمكن أن يفسّر بأمر آخر، وهو أن يريد أقصى أرضهم وآخرها من قولهم لآخر ليلة في الشهر ناحرة والمسارب ما يسرب فيه المال الراعي، والمسارح ما يسرح فيه والفرق بين سرح وسرب أن السروح إنما يكون في أول النهار، وليس ذلك بشرط في السروب.

الإعراب

جملة (**لا يتأخرون عنها**) (آه)، بدل من جملة (**يكتنفونها**) كما في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الفرقان: ٦٩]

وقوله: (**أجزأ امرؤٌ قرنه**) (آه)، قال الشارح المعتزلي: من الناس من يجعل هذه الصيغة وهي صيغة الأخبار بالفعل الماضي في معنى الأمر كأنه قال ليجزى كل امرؤٌ قرنه لأنه إذا جاز الأمر بصيغة الأخبار في المستقبل جاز الأمر بصيغة الماضي، وقد جاز الأول نحو قوله:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾.

فوجب أن يجوز الثاني، ومن النّاس من قال معنى ذلك هلا أجزأ امرؤٌ قرنه فيكون تحضيضاً محذوف الصّيغة، انتهى.

أقول: معنى التحضيض في الماضي التوبيخ واللوم على ترك الفعل، وفي المضارع الحضّ على الفعل والطلب له، وهذا الكلام له عليه السلام كما ترى وارد في معرض الحث والترغيب لا اللوم والتوبيخ، فلا بدّ أن يجعل هٰهنا على تقدير حذفها حرف عرض، وقوله: من رائح إلى الله رائح خبر لمبتدأ محذوف والجملة صلة (**من**)، وفي بعض النسخ الرائح إلى الله كالظمآن، وهو الأوفق، ويجوز على الأول كون خبر (**من**) لفظ كالظمآن وجملة (**يرد**) صفة للظمآن، ويجوز كون كالظمآن صفة لرائح وخبر (**من**) جملة يرد، وعلى ذلك فلا بدّ أن يراد بالماء الحياة الأبد على سبيل المجاز، وفي بعض النسخ كالظمآن يرد إلى الجنة، وهو يؤيّد كون جملة (**يرد**) خبراً كما هو ظاهر.

المعنى

اعلم أن الشارح المعتزلي بعد تقطيعه في الشرح هذا الكلام له عليه السلام على فصول ثلاثة قال في شرح الفصل الثّاني منه وهو قوله: أجزء امرؤٌ قرنه إلى قوله وأبسلهم بخطاياهم: وهذه الألفاظ لا يتلو بعضها بعضاً وإنما هي منتزعة من كلام طويل انتزعها الرضي (ره) وأطرح ما عداها.

أقول: وما ظفرت بعد على تمامه، والمستفاد من الروايات الآتية في التكملة الآتية أنه ليس منتزعاً من كلام واحد، بل منتزع من كلام متعدد حسبما تطلع عليه.

وكيف كان فالغرض منه حث أصحابه على الجهاد، وتحريضهم وتعليمهم آداب الحرب ورسومها قال عليه السلام (**فقدموا الدارع**) اللابس للدرع (**وأخروا الحاسر**) العاري عنه لأن سورة الحرب وشدّتها تلتقي وتصادف الأول فالأول، فوجب أن يكون أوّل القوم مستلئماً، ويقدم

المستلئم[1] على غير المستلئم **(وعضوا على الأضراس فإنه أنبأ للسيوف عن الهام)** كما مضى توضيحه في شرح الكلام الحادي عشر مع ما فيه من إظهار الغيظ والخنق على الخصم **(والتووا في أطراف الرّماح فإنّه أمور للأسنة)** أي إذا وصلت إليكم أطراف الرماح فانعطفوا ليزلق ويتحرك فلا ينفذ، وحمله الشارح البحراني (ره) على الالتواء عند إرسال الرّمح ورميه إلى العدو بأن يميل صدره ويده، فإنّ ذلك أنفذ وليس بشيء.

(وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش) ورواع القلب إذا اضطرب **(وأسكن للقلوب)** من الفزع وإنما أمرهم بغضّها لئلا يروا من العدو ما يهولهم ويدهشهم، وكي لا يرى العدو منهم جبناً وفشلاً قد مضى ذلك أيضاً في شرح الكلام الحادي عشر **(وأميتوا الأصوات)** أراد به قلّة الكلام وترك رفع الأصوات **(فإنه أطرد للفشل)** والجبن والجبان يصيح ويرعد ويبرق كما مر في الكلام التاسع **(ورايتكم فلا تميلوها)** لأن ميلها من أسباب انكسار العسكر، لأنهم ينظرون إليها **(ولا تخلوها)** من محام لها، **(ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم)** لضعف الجبناء عن إمساكها.

كما ضعف الأوّل والثّاني عن إمساكها يوم خيبر وانهزما بأقبح وجه، فقال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرّار غير فرار يفتح الله عليه[2]، فلما كان الغد طاولت الأعناق لها، وكلّ رَجا أن يدفعها إليه فلم يدفعها إلا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وفي هذا المعنى قال الشارح المعتزلي في قصيدته التي قالها في فتح خيبر:

وما أنس لا أنس اللذين تقدما	وفرّهما والفرّ قد علما حوب
وللراية العظمى وقد ذهبا بها	ملابس ذلٍ فوقها وجلابيب
يشلها من آل موسى شمردل	طويل نجاد السيف أجيد يعبوب

إلى أن قال:

دعا قصب العلياء يملكها امرؤ	بغير أفاعيل الدّناءة مقضوب
يرى أن طول الحرب والبؤس راحة	وأن دوام السلم والخفض تعذيب
فلله عينا من رآه مبارزاً	وللحرب كأس بالمنية مقطوب

إلى آخر ما قال، وقوله: **(والمانعين الذمار منكم)** أي الذابيّن عمّن يجب عليهم حفظه وحمايته، فإن من كان كذلك لا يترك الراية حتى يظفر أو يقتل وعلله بقوله: **(فإنّ الصّابرين على نزول الحقائق)** أي: نزول الرايات منازلها أو نزول ما يعرض لهم في الحرب من الحالات

(١) المستلئم: من لبس اللامة.

(٢) العمدة: ١٥٤ ح ٢٣٧، الصراط المستقيم: ٢/١.

التي يجب ويحق الحماية عنها، أو نزول الأمور الصعبة الشديدة كما ذكره الشارح المعتزلي **(هم الذين يحفون براياتهم)** ويحيطون بها، **(ويكتنفونها حفافيها)** وجانبيها أي اليمين واليسار، **(وورائها وأمامها لا يتأخرون عنها فيسلموها ولا يتقدّمون عليها فيفردوها)** بل يلازمونها أشدّ الملازمة ويراقبونها كمال المراقبة ويحاربون حولها ويضربون خلفها وأمامها.

ثمّ قال: **(أجزأ امرؤ قرنه وآسا أخاه بنفسه ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه)** وهو أمر لهم بالمواساة يقول: ليجزء وليكفي كل أمر منكم قرنه وكفوه وليواس أخاه بنفسه، ولم يدع قرنه ينضمّ إلى قرن أخيه فيصيرا معاً في مقاومة الأخ المذكور، فإن ذلك قبيح كاسب للأئمة، ناشيء عن دناءة الهمّة، إذا أولو العزم وذوو الهمم العالية لا يرضى أحد منهم بأن يقاتل أخوه اثنين وهو ممسك يده قد خلّي قرنه إلى أخيه هارباً منه أو قائماً ينظر إليه.

ثم أقسم بالقسم البار فقال: **(وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة)** لحب البقاء والحياة، **(لا تسلموا من سيف الآخرة)** أي من عذاب الله وعقابه سبحانه على فراركم وتخاذلكم، وتسميته العذاب بالسيف إما مبني على الاستعارة أو على المشاكلة، **(وأنتم لهاميم العرب) أي ساداتها وأجوادها (والسنام الأعظم)** أراد شرفهم وعلو نسبهم على سبيل الاستعارة أو التشبيه البليغ لأن السنام أعلى أعضاء البعير وأرفعها **(إن في الفرار)** من الجهاد **(موجدة الله)** سبحانه وغضبه يوم الحساب **(والذل اللازم والعار الباقي)** في الأعقاب، **(وإن الفار لغير مزيد في عمره ولا محجوز بينه وبين يومه)** يعني أن الفرار لا يزيد في عمر الفار ولا يحجز بينه وبين اليوم الذي قدر فيه موته كما قال تعالى في حقّ المنافقين المعتلّين في الرّجوع يوم الأحزاب بأن بيوتهم عورة.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٦ - ١٧].

يعني قل للّذين استأذنوك في الرجوع واعتلّوا بأن بيوتهم يخاف عليها: لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل، إن كان حضر آجالكم فإنه لا بدّ من واحد منهما ولا ينفعكم الهرب والفرار، وإن لم يحضر آجالكم وسلمتم من الموت أو القتل في هذه الوقعة لن تتمتّعوا في الدنيا إلا أياماً قلائل.

ثمّ أكد الحث عليهم بالترغيب والتشويق فقال: **(من)** هو **(رائح إلى الله)** وذاهب إلى رضوان الله سبحانه **(كالظمآن)** العطشان **(يرد الماء)** ويروي غلته **(الجنّة تحت أطراف العوالي)** وأسنة الرماح وتحت ظلال السيوف **(اليوم تبلى الأخبار)** أي أخبار الحرب من الثبات والفرار وتمتحن السرائر والضمائر من الإيمان والنفاق والشجاعة والجبن وغيرها، ويمتحن الأخيار من

الأشرار **(والله لأنا أشوق)** وأرغب **(إلى لقائهم)** أي الأعداء **(منهم إلى ديارهم)** ثم دعا عليهم بقوله:

(اللّهم فإن ردّوا الحق) وأرادوا إبطاله **(فافضض جماعتهم وشتت كلمتهم)** أي بدل اجتماعهم بالافتراق واتفاق قولهم بالاختلاف والنفاق الموجب للهزيمة، **(وأبسلهم بخطاياهم)** أي أهلكهم وأسلمهم إلى الهلاك ولا تنصرهم بما اكتسبوا من الإثم والخطأ كما قال سبحانه:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

ثمّ أشار إلى جدّ الخصم في الجهاد تهييجاً لأصحابه على المقاومة والثبات فقال عليه السلام: **(إنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك)** متدارك متتابع يتلو بعضه بعضاً **(يخرج منه النسيم)** والريح اللينة لسعته كما قال الشاعر:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفد لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفى فانهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

يعني أن هذه الطعنة لاتساعها يرى الإنسان المقابل لها ببصره ما وراءها، وأنه لولا شعاع الدّم لبان منها الضوء، **(وضرب يفلق الهام)** ويشقق الرؤوس **(ويطيح العظام ويندر السواعد والأقدام)** أي يسقطها من مواضعها ومحالها **(وحتى يرموا بالمناسر)** والجيوش **(تتبعها المناسر)** الأُخرى **(ويرجموا)** أي يغزوا **(بالكتائب)** وطوائف الجيوش **(تقفوها)** وتتبعها **(الجلائب)** والطوائف الأخرى المجتمعة من كل صقع وناحية لنصرها والمحاماة عنها **(وحتى يجر ببلادهم الخميس يتلوه)** ويعقّبه **(الخميس)** الآخر **(وحتى تدعق الخيول)** وتدق بحوافرها **(في نواحر أرضهم)** أي متقابلاتها أو أواخرها **(وبأعنان مساربهم ومسارحهم)** أي أطراف مراعيهم ونواحيها.

تكملة

هذا الكلام رواه المحدث العلامة المجلسي (ره) بطرق متعدّدة واختلاف كثير أحببت أن أورد ما رواه طلباً لمزيد الفائدة فأقول:

روى (قده) في «**البحار**» من «**الكافي**» في حديث مالك بن أعين قال: حرّض أمير المؤمنين عليه السلام الناس بصفين فقال: إن الله عزّ وجل قد دلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، وتشفى بكم على الخير، الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله وجعل ثوابه مغفرة للذنب ومساكن طيبة في جنّات عدن وقال جل وعزّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص، فقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر، وعضوا على النواجذ، فإنه أنبأ للسيوف عن الهام، والتووا على أطراف الرماح فإنّه أمور للأسنة، وغضوا الأبصار فإنّه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار، ولا تميلوا براياتكم ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلا مع شجعانكم، فإن المانع للذمار والصابر عند نزول الحقائق هم أهل الحفاظ، ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سرّاً[١] ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أُمرائكم وصلحائكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول، وقد كنا نؤمر بالكف عنهنّ وهن مشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة فيعيّر بها وعقبه من بعده.

واعلموا أن أهل الحفاظ هم الذين يحفون براياتكم ويكتنفونها، ويصيرون حفافيها ووراءها وأمامها، ولا يضيعونها ولا يتأخرون عنها فيسلموها ولا يتقدّمون عليها فيفردوها رحم الله امرءاً واسا أخاه بنفسه، ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه فيكتسب بذلك اللائمة، ويأتي بدناءة، وكيف لا يكون كذلك وهو يقاتل الاثنين، وهذا ممسك يده قد خلى قرنه على أخيه هارباً ينظر إليه، وهذا فمن يفعله يمقته الله فلا تعرضوا لمقت الله عزّ وجل فإنما ممركم إلى الله، وقد قال الله عز وجل:

﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

وأيم الله لئن فررتم من سيوف العاجلة لا تسلمون من سيوف الآجلة، فاستعينوا بالصبر والصّدق فإنما ينزل النصر بعد الصّبر فجاهدوا في الله حقّ جهاده ولا قوّة إلاّ بالله[٢].

وفي كلام له آخر

وإذا لقيتم هؤلاء القوم غداً فلا تقاتلوهم حتّى يقاتلونكم، فإذا بدؤوا بكم فانهدوا إليهم وعليكم السكينة والوقار، وعضوا على الأضراس فإنه أنبأ للسيوف عن الهام، وغضّوا الأبصار، ومدّوا جباه الخيول ووجوه الرّجال، وأقلوا الكلام فإنه أطرد للفشل، وأذهب بالوهل، ووطنوا أنفسكم على المبارزة والمنازلة والمجادلة، وأثبتوا، واذكروا الله عز وجلّ

(١) في نسخة: ستراً.
(٢) الكافي: ٥/ ٤٠، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٩٦.

كثيراً فإن المانع للذمار عند نزول الحقائق هم أهل الحفاظ الذين يحفّون براياتهم ويضربون حافتيها وأمامها، وإذا حملتم فافعلوا فعل رجل واحد، وعليكم بالتحامي فإن الحرب سجال لا يشدون عليكم كرة بعد فرّة، ولا حملة بعد جولة، ومن ألقى إليكم السّلام فأقبلوا منه واستعينوا بالصبر فإن بعد الصّبر النّصر من الله عزّ وجلّ(١).

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وفي «البحار» من الإرشاد قال من كلامه عليه السلام أيضاً في هذا المعنى أي في تحضيضه على القتال يوم صفين:

معشر النّاس إن الله قد دلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، وتشفي بكم على الخير العظيم: الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله والجهاد في سبيله، وجعل ثوابه مغفرة الذّنوب ومساكن طيبة في جنات عدن، ثمّ أخبركم أنه:

﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

فقدموا الدارع وأخّروا الحاسر وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبأ للسيوف عن الهام والتووا في أطراف الرماح فإنه أمور للأسنّة، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنّه أطرد للفشل وأولى بالوقار، ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوّها ولا تجعلوها إلا في أيدي شجعانكم، فإنّ المانعين للذّمار الصّابرين على نزول الحقائق أهل الحفاظ الذين يحفّون براياتهم ويكتنفونها، رحم الله امرءاً منكم آسى أخاه بنفسه ولم يكل قرنه إلى أخيه فيجمع عليه قرنه وقرن أخيه فيكتسب بذلك اللائمة، ويأتي به دناءة ولا تعرضوا لمقت الله، ولا تفروا من الموت فإن الله تعالى يقول:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآجلة، فاستعينوا بالصبر والصّلاة والصّدق في النية فإن الله تعالى بعد الصبر ينزل النصر(٢)، هذا.

وقد مر أكثر الفقرات الأخيرة من هذا الكلام الذي نحن بصدد شرحه في رواية نصر بن مزاحم عن الشّعبي في شرح الخطبة الخامسة والثلاثين عند ذكر كيفية التحكيم فليراجع، ثمة.

بيان: ما لعله يحتاج إلى التفسير من ألفاظ الروايتين فأقول قال الجوهري **(رصصت)**

(١) الكافي: ٥/٤١، ووسائل الشيعة: ١٥/٩٦ ح ٢٠٠٥٨.

(٢) الإرشاد: ١/٢٦٦، وبحار الأنوار: ٣٢/٥٦٧.

الشيء رصّاً ألصقت بعضه ببعض ومنه بنيان مرصوص، و **(الحفاظ)** بالكسر الذّب عن المحارم **(وحفافيها)** متعلّق بقوله: يكتنفونها أو بقوله: يصيرون أيضاً على سبيل التنازع، قال في **«البحار»** وفي بعض النسخ وراءها بدون العطف فهما الأمام والوراء و **(نهد)** الرجل نهض ولعدوه صمد لهم.

وقوله عليه السلام: **(اومدوا جباه الخيول ووجوه الرّجال)** قال في **«البحار»** لعل المراد بهما تسوية الصّفوف وإقامتها راكبين وراجلين، أو كناية عن تحريكها وتوجيهها إلى جانب العدو و **(الوهل)** الضعف والفزع، وقوله **(فإن الحرب سجال)** أي مرّة لنا ومرّة علينا، وأصله أن المستقين بالسجل يكون لكل واحد منهم سجلّ، والسجل الدلو الكبير و **(السّلام)**الاستسلام، وقد مرّ تفسير سائر ما يحتاج إلى التفسير في شرح المتن.

تذكرة

قد قدّمنا في شرح الكلام الخامس والسّتين شطراً من وقائع صفيّن، وأوردنا تمام وقائعها في شرحه وشرح سائر الخطب المتقدّمة عليه حسبما مرت الإشارة إليها هنالك، من أراد الاطلاع عليها، فليراجع ثمة.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت نظام آن جناب است در تحریض و ترغیب اصحاب خود بر مقاتله و محاربه معاویه و اصحاب او که فرموده:

پس مقدمم دارید زره پوش را و مؤخر نمایید عاری از زره را و بگزید بر دندان ها یعنی دندان ها را بالای همدیگر محکم بگذارید، پس به درستی که استحکامی دندان ها باز گرداننده تر است شمشیرها را از فرق و پیچده شوید در اطراف نیزه ها، پس به تحقیق که آن پیچیدگی حرکت دهنده تر است نیزه ها را از نفوذ آنها و فروخوابانید دیده ها را، پس به درستی که آن موجب زیادتی ثبات دل بی آرام است و شدّت سکون قلب ها است و ترك کنید بلندی آوازها را، پس به درستی که آن راننده تر است جبن را.

و علم خودتان را، پس میل ندهید آن را و خالی نگذارید آن را و مگردانید آن را مگر بر دست شجاعان خودتان و مگر بر دست کسانی که بازدارندگانند بی غیرتی را از شما در روز هیجا، پس به درستی کسانی که صبر نماینده اند بر نزول حقیقت کارهایی که حقیق است، به حمایت ایشان اشخاصی هستند که احاطه می کنند به علم های خود و دور آنها را می گیرند از دو جانب چپ و راست آنها و از پس آنها و پیش آنها، یعنی محافظت می کنند علم ها را از چهار طرف و پس نمی افتند از آن علم ها تا تسلیم کنند آنها را بر اعدا و پیش نمی روند از آنها تا اینکه تنها گذارند آنها را.

باید که کفایت کند مرد کفو خودش را در کارزار و مواسات کند با برادر خودش به نفس خود و واگذار ننماید قرین و و کفو خود را به برادر خود تا مجتمع شود بر او قرین او و قرین برادر او و به خدا سوگند اگر بگریزید از شمشیر دنیا سلامت نمانید از شمشیر آخرت و حال آن که اشراف عرب هستید و کوهان هایی بزرگ تر ارباب ادب می باشید، به درستی که در گریختن از جنگ غضب پروردگار است و ذلّت و خواری همیشگی است و عار و سرکوبی باقی است و به درستی که فرارکننده از جنگ زیاده کننده نیست در عمر خود و بازداشته شده نیست میان خود

و میان روز موعود خود.

کسی که رونده است به سوی آفریدگار مثل تشنه ای است که وارد شود بر آب بهشت عنبر سرشت، در زیر اطراف نیزه های بلندمقدار است، امروز آشکار می شود خبرها.

بار پروردگارا، اگر رد کنند این قوم بدبنیاد حق را، پس پراکنده نما جماعت ایشان را و متفرق گردان سخنان باطل ایشان را و هلاك بگردان ایشان را به گناهان خودشان، ایشان هرگز زایل نمی شوند از موقف های خودشان بی زدن نیزه پی در پی که خارج بشود از او به جهت گشادی او نسیم و بی ضربتی که بشکافد کاسه سر را و بیاندازد استخوان ها را و بیافکند بازوها و قدم ها را و تا آن که انداخته شوند به لشگرهایی که مقدمه لشگر دیگر باشند که تابع شوند به ایشان مقدمة الجیش دیگر و سنگسار شوند به لشگرهای گران که تبعیت نماید به ایشان لشگران جمع شده از هر طرف تا آن که کشیده شود به شهرهای ایشان سپاهی که در عقب آن باشد سپاهی دیگر و تا آن که بکوبند به سم های خود و در اواخر بلاد ایشان و به نواحی مراعی و چراگاه های ایشان، یعنی اگر جد و کوشش نشود در جهاد ایشان دست از طغیان خود برنخواهند داشت.

ومن كلام له عليه السلام في التحكيم وهو المائة والخامس والعشرون من المختار في باب الخطب

ورواه الطبرسي في «**الاحتجاج**» إلى قوله لأول البغي نحوه، قال عليه السلام:

إنّا لَمْ نُحَكِّم الرِّجالَ وإنّما حَكَّمْنا الْقُرْآنَ وهذا الْقُرْآنُ إنَّما هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بينَ الدَّفَّتَينِ، لا يَنْطِقُ بِلسانٍ ولاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجمانٍ، وإنَّما يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجالُ، ولَمّا دَعانَا الْقَوْمُ إلى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَريقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتابِ اللهِ تَعالى، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ: فَإنْ تَنازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهِ وَالرَّسُولِ، فَرَدُّهُ إلَى اللهِ أَنْ نَحكُمَ بِكِتابِهِ، ورَدُّهُ إلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأخُذَ بِسُنَّتِه، فَإذا حُكِمَ بِالصِّدْقِ في كِتابِ اللهِ فَنَحْنُ أَحَقُّ النّاسِ بِه، وإنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَنَحْنُ أَوْلاهُمْ بِهِ، وأَمّا قَوْلُكُمْ لم جَعَلْتُ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ أَجَلاً في التَّحْكيم فَإنَّما فَعَلْتُ ذلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجاهِلُ، ويَتَثَبَّتِ العالِمُ وَلَعلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ في هذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هذِهِ الأُمَّةِ، ولا تُؤْخَذَ بِأَكْظامِها فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وتَنْقادَ لأَوَّلِ الْغَيِّ، إنَّ أَفْضَلَ النّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْ كانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إلَيْهِ وإنْ نَقَصَهُ وكرثَهُ مِنَ الْباطِلِ وإنْ جَرَّ إلَيْهِ فائِدَة وزادَهُ فَأَيْنَ يُتاهُ بِكُمْ ومِنْ أَيْنَ أُتيتُمْ، إسْتَعِدُّوا لِلمَسيرِ إلى قَوْمٍ حَيارى عَنِ الْحَقِّ لا يُبْصِرُونَهُ، ومُوزَعينَ بِالْجَوْرِ ولا يَعْدِلُونَ بِهِ، جُفاةٍ عَنِ الْكِتابِ نُكَّبٍ عَنِ الطَّريقِ، ما أَنْتُمْ بوَثيقَةٍ يُعْلَقُ بِها، ولا زَوافِرَ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إلَيْها، لَبِئْسَ حُشّاشُ نارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ، أُفٍ لَكُمْ لَقدْ لَقيتُ مِنْكُمْ تَرَحاً يَوْماً أُناديكُمْ ويَوْماً أُناجيكُمْ، فَلا أَحْرارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّداءِ، ولا إخوانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجاءِ[1].

اللغة

(دفتا) المصحف جانباه المكتنفان به و **(الترجمان)** وزان زعفران وعنفوان وريهقان مفسّر اللسان باللّسان الآخر، والتاء أصلية والألف والنّون زائدتان والفعل ترجم والتبين يستعمل لازماً ومتعدّياً و **(التثبت)** التأني في الأمور و **(الهدنة)** بالضمّ المصالحة والدّعة والسكون و **(الاكظام)** جمع كظم كأسباب وسبب ومخرج النفس من الحلق و **(كرثه)** الغم من باب نصر وضرب وأكرثه اشتدّ عليه وبلغ منه المشقة.

و **(تاه)** يتيه تيهاً تحيّر وضلّ أو تكبّر و **(اتيتم)** بالبناء على المفعول و **(أوزعته)** بكذا

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٧١، والغارات: ٢/ ٤٥٣ ح ٣.

ألهمته، وقال الجوهري أوزعته بالشيء أغريته به، و **(جفات)** جمع جاف من جفا السرج عن ظهر الفرس نبا وارتفع، و **(نكب)** عن الطريق ينكب نكوباً من باب قعد عدل، و **(زافرة)** الرّجل خواصه وأنصاره، و **(الحشاش)** بضمّ الحاء وتشديد الشين جمع حاش وهو الموقد للنار، ويروي حشاش بالكسر والتخفيف وهو ما يحش به النار أي يوقد، و **(البرج)** الشدة، وفي بعض النسخ بالتاء وهو الحزن و **(النجاء)** المناجاة مصدر ناجيته نجاء مثل صارعته صراعاً وضاربته ضراباً.

الإعراب

قوله: **(بين الدّفتين)**، ظرف لغو متعلق بقوله مسطور أو مستقرّ صفة لخط أو حال ضمير مسطور، ومثله في احتمال الوصفية والحالية جملة لا ينطق آه، ولعل الله أن **(يصلح)** **(آه)** لعلّ حرف موضوع للتوقع وهو الترجي المحبوب والاشفاق من المكروه وتنصب الاسم وترفع الخبر مثل سائر الحروف المشبهة بالفعل، ويقترن خبرها كثيراً **(بأن)** كما في هذا المقام وفي قوله:

لعلك يوماً أن تلم ملمّة عليك من اللاء يد عنك أجدعاً[1]

حملا لها على **(عسى)** لاشتراكهما في الدلالة على التّرجي على سبيل الإنشاء.

فإن قلت: أن تجعل مدخولها في تأويل المصدر وعليه فكيف يصح الحمل في قوله: لعلّ الله أن يصلح، وقولك لعل زيداً أن يقوم إذ الحدث لا يكون خبراً عن الجثة.

قلت: هذا إشكال تعرض له علماء الأدبيّة في باب **(عسى)** وتقصّوا عنه بوجوه:

أحدها: أن يقدر هنا مضاف إما في الاسم أو في الخبر، فمعنى عسى زيد أن يقوم **(عسى)** حال زيد أن يقوم أو عسى زيد صاحب أن يقوم، ونوقش فيه بأنه تكلف إذ لم يظهر هذا المضاف إلى اللفظ أبداً لا في الإسم ولا في الخبر، **وثانيها**: أن **(أن)** زائدة، وردّ بأن الزائدة لا تلزم إلا مع بعض الكلم ولزومه مطرداً في موضع معين مع أي كلمة كانت بعيدة، **وثالثها**: ما قاله الكوفيون وهو أن **(أن)** مع الفعل في محلّ الرّفع بدلاً مما قبله بدل اشتمال كقوله تعالى:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨] إلى قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾.

أي لا ينهيكم الله عن أن تبرّوهم قال نجم الأئمة: والذي أرى أن هذا وجه قريب فيكون في نحو يا زيدون عسى أن يقوموا قد جاء بما كان بدلاً من الفاعل مكان الفاعل، والمعنى

---

(١) أجدعاً: أي مقطوع الأنف.

أيضاً يساعد على ما ذهبوا إليه، لأن **(عسى)** بمعنى يتوقع، فمعنى عسى زيد أن يقوم أي يتوقع ويرجا قيامه، وإنما غلب فيه بدل الاشتمال لأن فيه إجمالاً، ثم تفصيلاً، وفي إبهام الشيء ثم تفسيره وقع عظيم لذلك الشيء في النفس.

وقوله **(ولا يؤخذ بأكظامها)** عطف على قوله **(يتبين)**، وقوله: **(حيارى وجفاة ونكب)** بالجر صفة **(لقوم)**، وقوله **(ماأنتم بوثيقة)** بالجر على حذف المضاف أو الموصوف، أي بذوي وثيقة أو بعروة وثيقة، **(والباء)** في قوله **(ولا يعدلون به)** إما بمعنى **(عن)** كما ذهب إليه الكوفيون في قوله تعالى: فاسأل به خبيراً، أي عنه ويؤيده ما في بعض النسخ بدل **(به)** **(عنه)** أوصلة بمعناها الأصلي.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام قاله عليه السلام في مقام الاحتجاج على الخوارج حيث أنكروا عليه التحكيم، وقد مضى في شرح الخطبة الخامسة والثلاثين كيفية التحكيم وبدء خروج الخوارج، وفي شرح الخطبة السادسة والثلاثين احتجاجاته عليه السلام معهم من كتابي المناقب لابن شهر آشوب وكشف الغمة لعليّ بن عيسى الأربلي، ونقول هنا قد روى الطبرسي في **«الاحتجاج»** احتجاجه معهم نحو ما قدّمناه من المناقب ولا بأس بإيراده هنا لاختلاف الروايتين وتوضيحاً للمقام وتأكيداً لما تقدّم.

فأقول: قال (ره): وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام أرسل عبد الله بن العباس إلى الخوارج وكان بمرئي منهم ومسمع قالوا له في الجواب: إنا نقمنا يا ابن عباس على صاحبكم خصالاً كلها مكفرة موبقة تدعو إلى النار.

أمّا أولها: فإنّه محا اسمه من إمرة المؤمنين، ثم كتب ذلك بينه وبين معاوية فإذا لم يكن أمير المؤمنين ونحن المؤمنون فلسنا نرضى بأن يكون أميرنا.

وأما الثانية: فإنه شك في نفسه حيث قال للحكمين انظرا فإن كان معاوية أحق بها فأثبتاه، وإن كنت أولى بها فأثبتاني، فإذا هو شك في نفسه ولم يدر أهو حق أم معاوية فنحن فيه أشدّ شكاً.

والثالثة: أنه جعل الحكم إلى غيره وقد كان عندنا أحكم الناس.

والرابعة: أنه حكّم الرّجال في دين الله ولم يكن ذلك إليه.

والخامسة: أنه قسم بيننا الكراع والسّلاح يوم البصرة ومنعنا النساء والذرية.

والسادسة: أنه كان وصيّاً فضيّع الوصيّة.

قال ابن عبّاس: قد سمعت يا أمير المؤمنين مقاله القوم وأنت أحق بجوابهم، فقال عليه السلام: نعم، ثمّ قال: يا ابن عبّاس قل لهم ألستم ترضون بحكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: نعم، قال: أبدأ بما بدأتم به في بدء الأمر ثمّ قال عليه السلام:

كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله الوحي والقضايا والشروط والأمان يوم صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو فكتبت: بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا ما اصطلح عليه محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله أبا سفيان بن صخر بن حرب وسهيل بن عمرو فقال سهيل إنا لا نعرف الرحمٰن الرحيم، ولا نقرّ أنّك رسول الله، ولكن نحسب ذلك شرفاً لك أن تقدّم اسمك قبل أسمائنا وإن كنا أسنّ منك وأبي أسن من أبيك، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: اكتب مكان بسم الله الرحمٰن الرحيم: باسمك اللهم، فمحوت ذلك وكتبت باسمك اللهم ومحوت رسول الله وكتبت محمّد بن عبد الله، فقال لي: إنك تدعى إلى مثلها فتجيب وأنت مكره.

وهكذا كتبت بيني وبين معاوية وعمرو بن العاص: هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين ومعاوية وعمرو بن العاص فقالا: لقد ظلمناك إن أقررنا أنك أمير المؤمنين وقاتلناك، ولكن اكتب علي بن أبي طالب، فمحوت كما محى رسول الله، فإن أبيتم ذلك فقد جحدتم، فقالوا: هذه لك خرجت منها قال:

وأما قولكم إني شككت في نفسي حيث قلت للحكمين انظرا فإن كان معاوية أحق بها منّي فأثبتاه، فإن ذلك لم يكن شكا مني، ولكني أنصفت في القول قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أن نبيّه على الحق قالوا: وهذه لك قال عليه السلام:

وأما قولكم إني جعلت الحكم إلى غيري وقد كنت عندكم أحكم النّاس، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله قد جعل الحكم إلى سعد يوم بني قريظة، وقد كان من أحكم الناس فقد قال الله تعالى:

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الممتحنة: ٦].

فتأسيت رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا: وهذه لك بحجتنا قال:

وأمّا قولكم إنّي حكمت في دين الله الرجال، فما حكمت الرّجال وإنما حكمت كلام الربّ الذي جعله الله حكماً بين أهله، وقد حكم الله الرجال في طائر فقال:

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥].

فدماء المسلمين أعظم من دم طائر قالوا، وهذه لك بحجتنا قال:

وأما قولكم إني قسمت يوم البصرة لما أظفر الله بأصحاب الجمل الكراع والسلاح ومنعتكم النساء والذرّية فإني مننت على أهل البصرة كما منّ رسول الله ﷺ على أهل مكّة، وإن كان عدوّاً علينا أخذناهم بذنوبهم ولم نأخذ صغيراً بكبير، وبعد، فأيّكم كان يأخذ عائشة في سهمه؟ قالوا: وهذه لك بحجتنا قال:

وأمّا قولكم إني كنت وصيّاً وضيعت الوصيّة فأنتم كفرتم وقدمتم عليّ وأزلتم الأمر عني، وليس على الأوصياء الدعاء إلى أنفسهم إنما يبعث الأنبياء عليهم السلام فيدعون إلى أنفسهم، وأمّا الوصي فمدلول عليه مستغن عن الدعاء إلى نفسه، وذلك لمن آمن بالله ورسوله ولقد قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

فلو ترك الناس الحج لم يكن البيت ليكفر بتركهم إياه، ولكن كانوا يكفرون بتركهم لأن الله قد نصبه لهم علماً، وكذلك نصبني علماً حيث قال رسول الله ﷺ: يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى، أنت مني بمنزلة الكعبة تؤتى ولا تأتي.

فقالوا: هذه لك بحجتنا فادعونا، فرجع بعضهم وبقي منهم أربعة آلاف لم يرجعوا ممّن كانوا قعدوا عنه، فقاتلهم وقتلهم[1].

إذا عرفت ذلك فأقول: إنّه قد ظهر لك من هذه الرّواية ومن رواية المناقب المتقدمة أن من جملة ما نقم الخوارج عليه عليه السلام تحكيمه للرّجال، ومن جملته أنه عليه السلام ضرب للتحكيم أجلاً معيّناً، فساق هذا الكلام دفعاً لشبهتهم.

وقال في رد الأول ودفعه: إن دعواكم عليّ بتحكيم الرجال غير صحيحة (إنا لم نحكم الرجال، وإنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين لا ينطق بلسان، ولا بدّ له من مفسّر وترجمان وإنما ينطق عنه) ويترجمه (الرجال ولما دعانا القوم) أي أهل الشام (**إلى أن نحكم بيننا القرآن**) حسبما مر تفصيله في شرح الخطبة الخامسة والثلاثين (**لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله سبحانه وقد**) ذمّ الله أقواماً على ذلك حيث قال: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] بل لا بدّ لنا من التسليم والإجابة امتثالاً لأمره تعالى حيث (**قال عزّ من قائل فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول**)، ولما كان الردّ إلى الله والرّسول مجملاً محتاجاً إلى التفسير والبيان فسره بقوله: (**فردّه إلى الله**) سبحانه (**أن نحكم بكتابه**) العزيز (**وردّه إلى الرّسول أن نأخذ بسنّته**) القويمة (**فإذا حكم بالصدق في كتاب الله**) أي بقول مطابق للواقع لا بتفسيره عن رأي واعتقاد فاسد، (**فنحن**

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٧٩، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٨٠.

أحق الناس به) أي بالله أو بكتاب الله أو بالحكم الصّدق المستنبط من الكتاب، ووجوب بمقتضاه الحكم بخلافتنا ووجوب المتابعة لنا لأن الله سبحانه قد قال فيه: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

(وأن حكم بسنة رسول الله) بالحق لا بتأوله عن هوى النفس **(فنحن أولاهم بها)** أي بالسّنة، وفي بعض النسخ به أي بالحكم الحق المستفاد من السنة أو أولاهم بالرسول لقوله فيه أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي، وغيره مما قال فيه من الأخبار الدالة على أولويته عليه السلام حسبما قدمناها في شرح الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية وغيرها أيضاً.

ومحصل جوابه عليه السلام أنه لما نقموا عليه بتحكيم الرجال أجاب لهم بأن القوم لما رفعوا المصاحف على الرماح ودعونا إلى كتاب الله سبحانه والعمل بحكمه لم يسعنا التّولي والاعتراض، وإن كانت دعوتهم في الظاهر إيماناً وفي الباطن كفراً وعدواناً، فأجبنا إليهم دعوتهم ورضينا بالتحكيم بالقرآن، وحيث إن القرآن خطّ مسطور محتاج إلى المفسر والمترجم قررنا الرجلين لمسيس الحاجة إلى التفسير والترجمة، فالحكم في الواقع والحقيقة هو القرآن لا الرجلان، وإنما وجودهما توصّلاً إلى التفسير والبيان وحاجة إلى المفسر والتّرجمان، مع أنه قد مرّ غير مرّة أن رضاه عليه السلام بالتحكيم كان إجباراً واضطراراً، لا رغبة واختياراً، هذا.

ولما كان هناك مظنّة أن يقال إنك بعد ما رضيت بالحكمين ولو من باب الحاجة إلى الترجمة فهلا أنفذت قولهما ولِمَ لَمْ ترض بحكمهما؟ فأجاب عليه السلام عنه بأن الواجب علينا اتباعهما لو كانا يحكمان في السنّة والكتاب بالصدق والصّواب، ولو حكما بالحقّ لكنّا به أحقّ، لكنهما حكما بالهوى والخطأ فلا يجب علينا الرضاء والاتباع ولا التنفيذ والامضاء، هذا.

والعجب من الشّارح المعتزلي حيث ذكر في هذا المقام سؤالاً وجواباً ملخصه أنه إذا كان البناء على تفسير الرجلين وترجمتهما وحكمهما في واقعة أهل العراق وأهل الشام بما في القرآن دلالة عليه، فمن الجائز اختلافهما في تفسيره وتأويله واستدلال كل منهما بدليل يوافق غرضه أو تفسير كل منهما لآية واحدة على ما يطابق رأيه، إذ ليس فيه نصّ صريح يحسم مادّة النزاع ويرفع الخلاف من البين.

وأجاب بأن الحكمين لو تأمّلا الكتاب حقّ التّأمل لوجدا فيه النّص الصريح على خلافة أمير المؤمنين، لأن فيه النص الصّريح على أن الإجماع حجة، ومعاوية لم يكن مخالفاً في هذه المقدمة وأهل الشام، وإذا كان الإجماع حجة فقد وقع الإجماع لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله على أن اختيار خمسة من صلحاء المسلمين لواحد منهم وبيعته توجب لزوم طاعته وصحة خلافته،

وقد بايع أمير المؤمنين خمسة من صلحاء الصحابة بل خمسون، فوجب أن تصحّ خلافته، وإذا صحّت خلافته نفذت أحكامه، فقد ثبت أن الكتاب لو تؤمل حق التأمل لكان الحق مع أهل العراق ولم يكن لأَهل الشام ما يقدح في استنباطهم المذكور، انتهى كلامه هبط مقامه[١].

أقول: أما قوله إن الحكمين لو تأمّلا الكتاب لوجدا فيه النّص الصريح على خلافة أمير المؤمنين، فهو حق لا ريب فيه، لأن الآيات الدالة على خلافته عليه السلام كثيرة لا تحصى، وقد مضى جملة منها في مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية وأشرنا إلى بعضها هنا أيضاً.

وأما قوله لأَن فيه النّص الصّريح على حجيّة الاجماع، فلا يخفى ما فيه من الخبط والخطأ، لأنّه مع وجود النّص من القرآن على أصل الخلافة لا داعي إلى إقامته النّص على حجية الإجماع، ثم الاستدلال به على خلافته، وإنما هو أشبه شيء بالأكل من القفاء.

ولعل الشارح إنما التزم به لأَجل حماية الحمى، وذابّاً عن الخلفاء، لأنّه لو التزم بوجود النّص على أصل الخلافة لم يجد بدّاً من الالتزام ببطلان خلافة المتخلفين كالإلتزام ببطلان خلافة معاوية، وفي ذلك إبطال ما اختاره من المذهب والدين.

وبعد الغضّ عن ذلك أقول: أيّ نصّ صريح في القرآن على حجية الإجماع فإن الآيات التي استدل بها الجمهور عليها من قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وغير ذلك مما استدلوا بها عليها جلّها بل كلها غير خال عن المناقشة والفساد، كما نبّه عليه الفحول في كتب الأصول، فانظر إلى كتابي **«التهذيب»** و**«النهاية»** للعلامة الحلي طاب ثراه تجد صدق ما قلناه.

وبعد التنزل والتسليم أقول: غاية الأَمر أن هذه الأَدلة من قبيل الظّواهر لا من قبيل النصوص، ثمّ لا أدري ماذا يريد بقوله: فقد وقع الإجماع لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قوله: وصحة خلافته، وأي شيء كان غرضه من إقحامه في البين مع عدم ربطه بالدعوى وعدم الحاجة إليه في إثبات المدّعي، لأنّه إذا دلّ الدليل من القرآن على حجية الإجماع، وقام الإجماع على خلافة أمير المؤمنين فتثبت خلافته من غير حاجة إلى مقدّمة أخرى.

اللّهم إلا أن يقال بأن غاية ما دلّ عليه القرآن هو حجية الإجماع، وأما أن المعتبر في حصول الإجماع على البيعة هل هو اتفاق الكل أو يكفي اتفاق البعض؟، وعلى الثاني فأقل ما

---

(١) شرح النهج: ٨/١٠٦.

يحصل به هل هو اتفاق سبعة أو خمسة أو ثلاثة أم يكفي الاثنان كما ذهب إلى كل منها قوم؟ فهذا شيء لا دلالة في القرآن عليه فاحتيج في تعيين القدر المعتبر في حصوله إلى دليل آخر، فذكر هذه المقدّمة لإثبات أن المعتبر فيه هو اتفاق الخمسة لا الزائد، فعلى هذا فلا تكون تلك المقدّمة مستغناً عنها، إذ على فرض اعتبار اتفاق الكلّ في حصوله لا ينهض هذا الدليل على إثبات المدعي كما لا يخفى.

إلا أنّه يتوجه عليه أنه بعد اشتراط اعتبار الخمسة في مقام الاختيار والبيعة لا بد له من الالتزام ببطلان خلافة أبي بكر، لما قد مرّ في المقصد الثاني من المقدّمة الثانية من مقدّمات الخطبة الشقشقية من أنّ خلافته لم تنعقد إلا ببيعة عمر وأبي عبيدة وسالم، ولم يكن هنالك خمسة نفر، وقد مضى ثمة حكاية كلام من صاحب المواقف وشارحه ينفعك ذكره في هذا المقام.

ولو سلّمنا وجود خمسة أيضاً حينئذٍ لما يجديه لاشتراطه في الخمسة هنا أن يكونوا من صلحاء المسلمين، ومن الواضح أن الصلحاء يومئذٍ قد كانوا من المنكرين لخلافته لا المبايعين، وإنما بايعه طغاة طغام وعبيد كالأَنعام وتخلف عنه وجوه الصحابة في بيت أمير المؤمنين، ثم أخرجوا ملبّبين وبايعوا مكرهين كما عرفت ذلك كلّه في مقدمات الخطبة الشقشقيّة وغيرها.

هذا كلّه على التنزل والمماشاة، وإلا فقد قدمنا في مقدمات الخطبة المذكورة من أن الإمامة لا تكون إلا بالنص من الله ورسوله لاشتراط العصمة فيه التي لا يعرفها إلاّ الله ورسوله، ولا تنعقد ببيعة أجلاف العرب ولا أشرافها كما لا تبطل بعدم بيعتهم، فافهم ذلك واغتنم وبالهدى فاستقم، هذا.

وقال عليه السلام في ردّ الثاني، (**وأما قولكم لم جعلت بينكم وبينهم أجلافي التحكيم فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل**) ويظهر له وجه الحق (**ويثبت العالم**) ويطمئن قلبه، (ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة) والمصالحة (**أمر هذه الأمة**) المفتونة (**و**) إنما فعلته أيضاً لئلا (**تؤخذ**) الأمة (**بأكظامها**) أي مجاري أنفاسها (**فتعجل عن تبين الحق وتنقاد لأول الغي**) وهو أول شبهة عرضت لهم من رفع المصاحف.

يعني أني لو أعجلت في الأمر وتركت ضرب الأَجل بيني وبينهم والتنفيس عنهم لالجأهم الإرهاق وضيق الخناق إلى البقاء على الجهل والعمى والانقياد إلى الغي والغوى وعدم ظهور وجه الحقّ والهدى وهو مناف للغرض المطلوب للشارع ومخالف للمقصود.

(**إن أفضل الناس عند الله**) سبحانه (**من**) آثر الحق و (**كان العمل بالحقّ أحب إليه وإن نقصه وكرثه**) أي يوجب لنقصانه ويوقعه في الشدّة والمشقة (**من الباطل وإن جر إليه فائدة وزاده**).

ثمّ قال: **(فأين يتاه بكم)** وتذهبون في التيه والحيرة **(ومن أين أتيتم)** أي من أي وجه أتاكم الشيطان واستحوذ عليكم، أو من أي المداخل دخلت عليكم الشبهة والحيلة والاستفهام على التعجّب.

ثمّ حثهم على الجهاد وقال: **(استعدّوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحقّ)** متحيّرين عنه **(لا يبصرونه وموزعين)** ملهمين **(بالجور لا يعدلون به)** أي عنه إلى غيره أو لا يجعلون له مثلاً وعديلاً **(جفاة عن الكتاب)** بعيدون عنه **(نكب عن الطريق)** أي عادلون عن طريق الهدى إلى سمت الرّدى.

ثمّ وبّخهم على التثاقل والتساهل فقال: **(ما أنتم (بـ)** عروة **(وثيقة يعلق)** ويتمسك **(بها)** عند القتال **(ولا زوافر عز يعتصم)** ويلتجأ **(إليها)** عند براز الأبطال **(لبئس حشاش نار الحرب أنتم أفّ لكم لقد لقيت منكم ترحاً)** أي شدّة وأذى **(يوماً أناديكم)** جهاراً للحث على الجهاد **(ويوماً أناجيكم)** سرّاً بتدبير أمور الحرب والإرشاد إلى الرشاد **(فلا أحرار صدق عند النداء)** حتى تنصرون وتحمون **(ولا إخوان ثقة عند النجاء)** حتى تكتمون السرّ وتحفظون.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت نظام آن امام عالی مقام است در خصوص تحکیم عمروعاص و ابی موسی اشعری و رد کردن شبهه خوارج، فرمود که:

به درستی ما حکم نگردانیدیم مردمان را، بلکه حکم قرار دادیم ما قرآن را و این قرآن جز این نیست که خطی است نوشته شده میان دو جلد که نطق نمی کند به زبان و ناچار است مر او را از ترجمان و جز این نیست که گویا می شود از آن مردمان و هنگامی که دعوت کرد ما را قوم معاویه ملعون به آن که حاکم گردانیدیم در میان خود قرآن را نشدیم گروهی که اعتراض نماید از کتاب خدا و حال آن که خدا فرموده در کتاب مجید: "فان تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله و الرّسول"، یعنی: "پس اگر نزاع کردید در چیزی از امور دنیا و آخرت، پس رد کنید آن را به سوی خدا و رسول"، پس رد کردن شیء متنازع فیه به سوی خدا آن است که حکم کنیم با کتاب خدا و رد کردن آن به سوی رسول الله (صلی الله علیه و آله) آن است که اخذ کنیم سنّت و طریقه او را، پس اگر حکم کرده شود به صدق و راستی در کتاب خدا، پس ما سزاوارترین مردمانیم به آن و اگر حکم کرده شود به طریقه رسول الله (صلی الله علیه و آله)، پس ما اولویت داریم به آن.

و اما قول شما که چرا گردانیدی در میان خود و ایشان مدتی معین در تحکیم، پس جز این نیست که کردم آن را که دانا شود جاهل و تأمل نماید عالم و شاید که خداوند اصلاح نماید در این مدت مصالحه امر این امت را و به تنگی نیفتد و گرفته نشود مجاری نفس ایشان، پس شتابانیده شوند از دانستن حق و گردن نهاده شوند مراول گمراهی را، به درستی افضل مردمان در نزد خداوند تعالی کسی است که عمل کردن به حق محبوب تر باشد به سوی او، اگرچه نقصان برساند به او و اندوهگین نماید او را از عمل کردن به باطل، اگر چه جلب منفعت کند به سوی او.

پس از کجا به حیرت افتاده شدید؟ و از کجا آمده شدید؟ (یعنی از کجا آمد شیطان ملعون به سوی شما و مسلط شد بر شما؟) و مهیا شوید برای رفتن به سوی

جهاد قومی که حیران و سرگردان اند از راه حق که نمی بینند آن را و الهام شدند به ظلم و ستم که عدول نمی کنند از آن و دورانند از فهم مضامین کتاب و اعراض کنندگانند از راه صواب.

نیستید شما صاحبان وثوق که تمسك بشود به او و نه اعوان و انصار عزت که جنگ زده شود به آنها، هرآینه بدفروزندگان آتش حربید شما، دلتنگی باد شما را هرآینه ملاقات کردم از شما به شدّت و اذیت، یك روزی صدا می کنم شما را از برای جنگ در راه خدا و یك روز نجوی می کنم با شما از تدبیر امور اعداء، پس نیستید شما از مردانی که صفت آزادی و حمیّت در آنها هست در وقت ندا و نه برادرانی که اعتماد می شود بر ایشان هنگام رازگویی و نجوی.

ومن كلام له عليه السلام لما عوتب على التسوية في العطاء وتصييره الناس أسوة في العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف وهو المائة والسادس والعشرون من المختار في باب الخطب

وقد روى بطريق آخر على اختلاف تطلع عليه.

أَتأْمُرُونيّ أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَورِ فيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ، وَاللهِ ما أَطُورُ بِه ما سَمَرَ سَميرٌ وما أَمَّ نَجْمٌ في السَّماءِ نَجْماً، لَوْ كانَ الْمالُ لي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وإِنَّما الْمالُ مالُ اللهِ، أَلا وإِنَّ إِعْطاءَ الْمالِ في غَيرِ حَقِّه تَبْذيرٌ وإِسْرافٌ، وهُوَ يَرْفَعُ صاحِبَهُ في الدُّنيا، ويَضَعُهُ في الآخِرَةِ، ويُكْرِمُهُ في النّاسِ، ويُهينُهُ عِنْدَ اللهِ، ولَمْ يَضَعِ امْرؤٌ مالَهُ في غَيْرِ حَقِّه ولا عِنْدَ غَيرِ أَهْلِه إِلاّ حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ، وكانَ لِغَيرِه وُدُّهُمْ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتاجَ إِلى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَدينٍ، وَأَلْأَمُ خَليلٍ[١].

اللغة

(**الأسوة**) بالضم القدوة وتصيير النّاس أسوة التّسوية بينهم كأن كلاّ منهم قدوة صاحبه و (**تأمرونّي**) بالتّشديد أصله تأمرونني بنونين فأسكنت الأولى وأدغمت في الثّانية قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] و (**وليت**) الشيء وعليه وزان رضيت إذا ملكت أمره، وفي بعض النسخ وليّت بالبناء على المفعول من باب التّفعيل أي ولاني الله عليه و (**طار**) حول الشيء يطور طوراً إذا حام.

و (**ما سمر سمير**) قال في «**القاموس**»: السّمر محرّكة اللّيل وحديثه، وما أفعله ما سمر سمير، أي ما اختلف اللّيل والنّهار، قال الطّريحي سمر فلان إذا تحدّث ليلاً، والأسامرة هم الّذين يتحدثون ليلاً، قال: وفي حديث عليّ عليه السلام (**لا يكون ذلك ما سمر سمير**) أي ما اختلف اللّيل والنّهار، والمعنى لا يكون ذلك أبداً، وهو من كلام العرب يقولون: ما أفعله ما سمر السّمير قال الجوهري: وابنا سمير اللّيل والنّهار يسمر فيهما، تقول: ما أفعله ما سمر بنا سمير أي أبداً، ولا أفعله السّمر والقمر أي ما دام الناس يسمرون في ليلة القمر، وفي شرح المعتزلي السّمير الدّهر وابناه اللّيل والنهار، و (**الخدين**) الصّديق من خادنت الرجال أي صادقته.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٤٩، مستدرك سفينة البحار: ٩/٤٧٦.

الإعراب

(الباء) في قوله **(بالجور)** للمقابلة، وفي قوله **(زلّت به النّعل)** للتعدية، والباقي واضح.

المعنى

اعلم أنّ سنّة رسول الله قد كانت جارية في تقسيم بيت المال والفيء والصّدقات على العدل والتسوية من غير ترجيح وتفضيل لأولي الشّرف والسّابقات على غيرهم، ولما ولى أبو بكر حذا حذوه، ولمّا وليّ عمر ترك السنّة وبنى في العطية على الترجيح والتفضيل حسب ما تطلع عليه بتفصيل، ولمّا وليّ عثمان بلغ في ذلك الغاية وأعطى الناس على ما يراه، وسلك في الإعطاء إليهم بمقتضى هواه حسب ما عرفته في شرح الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

فلمّا قام أمير المؤمنين عليه السلام بالأمر، وقد كان النّاس اعتادوا التّفضيل والترجيح أزمنة متطاولة ومدّة متمادية، وأرادوا التسوية في العطيّة والعمل بسنّة الرّسول صلى الله عليه وآله شقّ ذلك على النّاس وصعب عليهم تغيير العادة، وكان ذلك سبباً لنقض البيعة من زبير وطلحة وآكد أسباب تقاعد الناس عنه عليه السلام ولحوقهم بمعاوية حيث رأوا منه الصّنيعة حسب ما عرفته في شرح الخطبة الرابعة والثلاثين.

فعند ذلك مشى إليه طائفة من أصحابه وسألوه تفضيل أولي السّابقات والشرف في العطاء أي تفضيل ذوي الخصال الحميدة من السّبق في الإسلام والهجرة وشهود الحروب من البدر والأحزاب وسائر الخطوب وذوي المجد والشرف والمتّصفين بعلوّ الحسب والنّسب.

فلمّا سألوه ذلك أجابهم عليه السلام بقوله: **(أتأمروني أن أطلب النصر بالجور)** استفهام على سبيل التقريع والتوبيخ: أي كيف تأمرونني أن أطلب النّصر منكم بالجور والظلم **(في)** حق **(من ولّيت عليه)** وملكت أمره من المسلمين الذين لا سوابق لهم ولا شرف في حسبهم ونسبهم بنقصهم في العطاء عن غيرهم وبخسهم حقهم كما فعله عمر وعثمان **(والله ما أطور به)** ولا أحوم حومه **(ما سمر سمير)** واختلف اللّيل والنّهار (وما أمّ) وقصد **(نجم في السّماء نجماً)** أي دائماً لأنّ النجوم لا يزال يقصد بعضها بعضاً بحركتها.

(لو كان المال لي لسوّيت بينهم) تبعاً لسيرة الرّسول وسنّته وقضاء لحقّ المواساة **(فكيف وإنما المال مال الله)** والفقراء عيال الله فلا ينبغي إزواء ماله عن عياله وصرفه إلى غيره.

ثمّ نبّه عليه السلام على مفاسد صرف المال في غير أهله بقوله: **(ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف)** وقد نهى الله عنه وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]: وقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

(وهو يرفع صاحبه في الدّنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في النّاس ويهينه عند الله).

ثمّ نبّه على ما يترتب على وضع المال في غير محلّه في الدّنيا بقوله: **(ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله)** رجاء للمكافات والجزاء أو توقعاً للشكر والثناء **(إلا حرّمه الله شكرهم وكان لغيره ودّهم فإن زلت به النّعل يوماً)** أي إذا عثر وافتقر يوماً **(فاحتاج إلى معونتهم فـ)** ـهم إذاً **(شرّ خدين)** وصديق **(وألأمُ خليل)** ورفيق كما هو معلوم بالتجربة المشاهدة بالعيان.

تنبيه

قد أشرنا إلى أنّ أوّل من فتح باب التفضيل في الصّدقات لأُولي الشرف والسّابقات هو عمر بن الخطاب، فحذا حذوه عثمان بن عفّان، وتبعهم معاوية بن أبي سفيان، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وغيّروا سنّة رسول الله، وكان ذلك من أعظم المطاعن على فاتح الباب، حيث خالف السّنّة والكتاب، وترتب على ذلك من المفاسد ما لا يحصى، ومن البدعات ما لا تستقصى، ولا بأس بإشباع الكلام في هذا المرام تنبيهاً على ما ترتب عليه من الهفوات والآثام.

فأقول: قال الشارح المعتزلي في شرح هذا الكلام: واعلم أنّ هذه مسألة فقهيّة ورأي عليّ وأبي بكر فيه واحد، وهو التسوية بين المسلمين في قسمة الفيءِ والصّدقات، وإلى هذا ذهب الشّافعي، وأمّا عمر فإنّه لما ولى الخلافة فضّل بعض النّاس على بعض: فضّل السّابقين على غيرهم، وفضّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم، وفضّل الصّريح على المولى، وقد كان أشار على أبي بكر أيّام خلافته فلم يقبل: وقال: إنّ الله لم يفضّل أحداً على أحد ولكنه قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، ولم يخصّ قوماً دون قوم، فلمّا أفضت إليه الخلافة عمل بما كان أشار أوّلاً.

قال: وقد ذهب كثير من فقهاء المسلمين إلى قوله، والمسألة محلّ اجتهاد وللإمام أن يعمل بما يؤدّيه إليه اجتهاده، وإن كان اتباع عليّ عليه السلام عندنا أولى لاسيّما إذا عضده موافقة أبي بكر، وإن صح الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوّى فقد صارت المسألة منصوصاً عليها، لأنّ فعله عليه السلام كقوله، انتهى[١].

أقول: كون المسألة منصوصة لا غبار عليها حسبما تعرفه، والاجتهاد في مقابل النّص باطل.

وقال الشّارح في شرح الكلام المائتين والأربعة والعشرين عند ذكر مطاعن عمر: إنّه كان

(١) شرح النهج: ٨/ ١١.

يعطي من بيت المال ما لا يجوز حتّى أنه كان يعطي عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم في كل سنة، ومنع أهل البيت خمسهم الذي يجري مجرى الواصل إليهم من قبل رسول الله ﷺ، وإنه كان عليه ثمانون ألف درهم من بيت المال على سبيل القرض إلى أن قال: ونحن نذكر ما فعله عمر في هذا الباب مختصراً نقلناه من كتاب أبي الفرج عبد الرحمٰن بن عليّ بن الجوزي المحدّث في أخبار عمر وسيرته.

روى أبو الفرج عن سلمة بن عبد الرحمٰن قال استشار عمر الصّحابة بمن يبدأ في القسم والفريضة، فقالوا: إبدأ بنفسك، فقال: بل أبدأ بآل رسول الله وذوي قرابته فبدأ بالعبّاس.

قال ابن الجوزي: وقد وقع الاتّفاق على أنّه لم يفرض لأحد أكثر ممّا فرض له، وروى أنه فرض له اثنا عشر ألفاً وهو الأصح.

ثمّ فرض لزوجات رسول الله ﷺ لكلّ واحدة عشرة آلاف، وفضّل عائشة عليهنّ بألفين فأبت فقال: ذلك بفضل منزلتك عند رسول الله فإذا أخذت فشأنك، واستثنى من الزوجات جويريه وصفيّة وميمونة، ففرض لكلّ واحدة منهنّ ستة آلاف، فقالت عائشة: إنّ رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا، فعدل عمر بينهنّ وألحق هؤلاء الثلاث بسائرهنّ.

ثمّ فرض للمهاجرين الذين شهدوا بدراً لكلّ واحد خمسة آلاف ولمن شهدها من الأنصار لكل واحد أربعة آلاف، وقد روى أنّه فرض لكلّ واحد ممن شهد بدراً من المهاجرين أو من الأنصار أو من غيرهم من القبائل خمسة آلاف.

ثمّ فرض لمن شهد أُحداً وما بعدها إلى الحديبيّة أربعة آلاف، ثمّ فرض لكلّ من شهد المشاهد بعد الحديبيّة ثلاثة آلاف، ثمّ فرض لكلّ من شهد المشاهد بعد وفاة رسول الله ألفين وخمسمائة وألفين وألفاً وخمسمائة وألفاً واحداً إلى مائتين وهم أهل هجر ومات عمر على ذلك.

قال ابن الجوزي: وأدخل عمر في أهل بدر ممن لم يحضر بدراً أربعة: وهم الحسن والحسين وأبو ذر وسلمان ففرض لكلّ واحد منهم خمسة آلاف.

قال ابن الجوزي: وروى السّدي أن عمر كسا أصحاب النبيّ ﷺ فلم يرتض في الكسوة ما يستصلحه للحسن والحسين ﷺ فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة فاخرة، فلما كساها قال: الآن طابت نفسي.

قال ابن الجوزي: فأمّا ما اعتمده في النساء فإنّه جعل نساء أهل بدر على خمسمائة، ونساء من بعد بدر إلى الحديبيّة على أربعمائة، ونساء من بعد ذلك على ثلاثمائة، وجعل نساء أهل القادسيّة على مائتين ثمّ سوّى بين النساء بعد ذلك.

قال الشارح بعد رواية ما أوردنا: ولو لم يدلّ على تصويب عمر فيما فعله إلاّ إجماع الصحابة واتّفاقهم عليه وترك الإنكار لذلك، كان كافياً.

وقال ثمّة أيضاً بعد ما ذكر جواب قاضي القضاة عن ذلك الطّعن واعتراض المرتضى (ره) عليه بأنّ تفضيل الأزواج لا سبب فيهنّ يقتضي ذلك وإنّما يفضّل الإمام في العطاء ذوي الأسباب المقتضية لذلك مثل الجهاد وغيره من الأمور العامّ نفعها للمسلمين ما لفظه: وكيف يقول المرتضى ما جاز أن يفضّل أحداً إلاّ بالجهاد، وقد فضل الحسن والحسين على كثير من أكابر المهاجرين والأنصار وهما صبيّان ما جاهدا ولا بلغا الحلم بعد، وأبوهما أمير المؤمنين موافق على ذلك راض به غير منكر له، وهل فعل عمر ذلك إلا لقربهما من رسول الله؟ انتهى[١].

أقول لا يخفى ما في ذلك من وجوه الكلام وضروب الملام.

أما أولاً: فلأن كون القسم بالسّوية موافقاً للسنّة ومنصوصاً عليه ممّا لا غبار عليه، ومخالفة عمر لها في إبداع التفضيل وكونه بدعة لاخفاء فيه.

ويدلّ على ذلك ما رواه في «**البحار**» من البخاري ومسلم وغيرهما بأسانيد عديدة أنّ النّبي صلى الله عليه وآله قال للأنصاري في مقام التّسلية قريباً من وفاته: ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتّى تلقوني على الحوض[٢]، وهل يرتاب عاقل في أنّ هذا القول بعد أن كان يسوي بين المهاجرين والأنصار مدّة حياته إخبار بما يكون بعده من التّفضيل، ويتضمّن عدم إباحته وعدم رضاه به وما تقدّم آنفاً في رواية ابن الجوزي من قول عائشة لعمر أنّ رسول الله كان يعدل بيننا وما تقدّم أيضاً في كلام الشارح من قول أبي بكر لعمر إنّ الله لم يفضّل أحداً على أحد ولكنه قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

ولم يخصّ قوماً دون قوم، ويفيده أيضاً تسوية أمير المؤمنين في التقسيم، وهو يدور مع الحقّ والحقّ يدور معه حيثما دار، بنصّ الرسول صلى الله عليه وآله كما تظافرت به الروايات من طرق المخالف والمؤالف، واحتجاجه على المهاجرين والأنصار لمّا كرهوا عدله في القسمة بمخالفة التّفضيل للشريعة بما مرّ في هذا الكلام الذي شرحناه بقوله: (**أتأمروني أن أطلب النصر بالجور**)، وقوله: (**ألاوإن إعطاء المال غير حقّه تبذير وإسراف**)، واحتجاجه على طلحة والزبير بما يأتي إن شاء الله في الكلام المائتين والأربعة من قوله: وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإنّ ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأي ولا وليته هوى مني بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله

---

(١) شرح النهج: ١٢/ ٢١٣.

(٢) شرح أصول الكافي: ٥/ ٢٨٤، وبحار الأنوار: ٤٤/ ١٢٤.

قد فرغ منه فلم أحتج اليكما فيما قد فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركُما في هذا عتبي[١].

فلو كان رسول الله يقسم على التفضيل لاحتجّ به عمر على أبي بكر ولأقام المهاجرون والأنصار وطلحة والزبير بذلك على أمير المؤمنين حجّة.

والعجب من الشارح أنه مع ذلك كلّه يشك في كون المسألة منصوصاً عليها ومع ما قاله في بعض كلامه من قوله.

فإن قلت: إن أبا بكر قد قسم بالسوية كما قسّمه أمير المؤمنين عليه السلام ولم ينكروا عليه كما أنكروا على أمير المؤمنين عليه السلام.

قلت: قسم أبو بكر محتذياً بقسم رسول الله، فلما ولى عمر الخلافة وفضّل قوماً على قوم ألفوا ذلك ونسوا تلك القسمة الأولى وطالت أيام عمر وأشربت قلوبهم حبّ المال وكثرة العطاء، وأمّا الذين اهتضموا فقنعوا ومرنوا على القناعة ولم يخطر لأحد من الفريقين أن هذا الحال ينقض ويتغيّر بوجه ما، فلمّا ولى عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه فازداد وثوق العوام بذلك، ومن ألف أمراً شقّ عليه فراقه وتغيير العادة فيه، فلمّا وليّ أمير المؤمنين أراد أن يرد الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر وقد نسي ذلك ورفض وتخلّل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشقّ ذلك عليهم وأكبروه حتى حدث ما حدث من نقض البيعة ومفارقة الطاعة ولله أمر هو بالغه، انتهى.

وأقول: مضافاً إلى هذا كلّه إنه لو كان إلى جواز التّفضيل ومصانعة الرّؤساء والأشراف للمصالح سبيل، لما عدل أمير المؤمنين إلى العدل والتّسوية مع ما رآه عياناً من تفرق أصحابه لذلك، وتقاعد النّاس عنه ولحوقهم بمعاوية حيثما عرفته في شرح الخطبة الرّابعة والثّلاثين، ومن نقض طلحة والزّبير بيعته حسبما عرفته فيما تقدّم وتعرفه مفصّلاً أيضاً إن شاء الله تعالى في شرح الكلام المائتين والأربعة، ولما اختار فيه إراقة الدّماء وحدوث الفتن، ولما كان يمنع عقيلاً صاعاً من برّ فيذهب إلى معاوية، إلى غير ذلك ممّا ترتّب عليه.

وأما ثانياً: فلأنّ استدلال الشّارح على تصويب عمر فيما فعله بإجماع الصحابة فيه:

أولاً: منع الإجماع إذ لم يجمع على ذلك إلاّ أجلاف العرب والخاضمون لمال الله خضم الإبل نبتة الرّبيع، والنّاس أبناء الدّنيا يحبّون المال حبّاً جمّاً ويأكلونه أكلاً لمّا، فإذا وصل إليهم منه منافع جزيلة وفوائد جليلة وانتفعوا بها في دنياهم وكانوا أهل يسار وثروة بعد ما كانوا ذوي فقر وفاقة وخصاصة كيف ينكرون فعله.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٥٠ ح ٣٤، والمعيار والموازنة: ١١٤.

وثانياً: منع حجية ذلك الإجماع خصوصاً مع مخالفته لسنّة الرّسول صلى الله عليه وآله.

وأما ثالثاً: فلأنّ ما ذكره الشّارح في الاعتراض على المرتضى من عدم انحصار أسباب التفضيل في الجهاد وجواز كون سببه رعاية القرابة من رسول الله مستدلاً بتفضيل الحسنين عليهما السلام مع رضاء أبيهما وعدم إنكاره له فيه:

إنّ عدم انحصار السبب في الجهاد على فرض جواز أصل التّفضيل مسلّم، واعتراضه على المرتضى بذلك حقّ إلا أنّ أصل التّفضيل ممنوع كما عرفته، ورعاية عمر لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله باطل إذ لو كان ملاحظاً للقرابة لما منع بضعة الرّسول وابنته البتول من حقّها كما هو ظاهر لا يخفى.

وأمّا رضاء أمير المؤمنين بتفضيل الحسنين عليه السلام فإمّا أنه للتقيّة، أو لأنّه لمّا حرمهم حقّهم من الخمس والفيءِ والأنفال أخذا ما أخذا عوضاً من حقوقهم.

قال في «**البحار**»: ويمكن أن يقال لمّا كان أمير المؤمنين عليه السلام وليّ الأمر فلعل ما أخذ صرفه في مصارفه وكان الأخذ من قبل الاستنفاذ من الغاصب والاستخلاص من السّارق، إذا عرفت ذلك فلنشر إلى ما ترتّب على هذه البدعة وما أثمرته هذه الشجرة الملعونة فأقول:

قال العلامة المحدث المجلسي:

واعلم أنّ أكثر الفتن الحادثة في الإسلام من فروع هذه البدعة، فإنّه لو استمرّ النّاس على ما عوّدهم الرّسول صلى الله عليه وآله من العدل وجرى عليه الأمر في أيّام أبي بكر لما نكث طلحة والزبير بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ولم تقم فتنة الجمل، ولم يستقرّ الأمر لمعاوية، ولا تطرق الفتور إلى أتباع أمير المؤمنين وأنصاره ولو كان المنازع له في أوّل خلافة معاوية لدفعه بسهولة، ولم ينتقل الأمر إلى بني أميّة، ولم يحدث ما أثمرته تلك الشّجرة الملعونة من إراقة الدّماءِ المعصومة وقتل الحسين وشيوع سبّ أمير المؤمنين على المنابر، ثمّ انتقال الخلافة إلى بني العبّاس وما جرى من الظلم والجور على أهل البيت وعلى سائر أهل الإسلام.

وقد كان من الدّواعي على الفتن والشرور بدعته الأخرى وهي الشّورى إذ جعل طلحة والزبير مرشحين للخلافة نظيرين لأمير المؤمنين عليه السلام فشقّ عليهما طاعته والصّبر على الأسوة والعدل، وهذا في غاية الوضوح.

وقد روى ابن عبد ربّه في كتاب «**العقد**» على ما حكاه العلامة عنه في كشف الحقّ قال: إنّ معاوية قال لابن الحصين: أخبرني ما الّذي شتّت أمر المسلمين وجماعتهم وفرق ملائهم وخالف بينهم؟ فقال: قتل عثمان، قال: ما صنعت شيئاً، قال: ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين قال: فأنا أخبرك أنّه لم يشتّت بين المسلمين ولا فرّق أهوائهم إلاّ الشّورى جعلها عمر في ستّة ثمّ فسّر معاوية ذلك فقال: لم يكن من الستّة رجل إلا هواها لنفسه

ولقومه، وتطلّعت إلى ذلك نفوسهم، ولو أنّ عمر استخلف كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف، وقد تمّ إثارة الفتنة بإغواءِ معاوية وعمرو بن العاص واطماعهما في الخلافة، وكان معاوية عامله على الشّام وعمرو بن العاص عامله وأميره على مصر، فخاف أن يصير الأمر إلى عليّ فقال لما طعن وعلم أنّه يموت: يا أصحاب محمّد ﷺ تناصحوا فإن لم تفعلوا عليكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان روى ذلك ابن أبي الحديد.

ثمّ حكى عن شيخنا المفيد (ره) أنّه قال: كان غرض عمر بالقاء هذه الكلمة إلى النّاس أن تصل إلى عمرو بن العاص ومعاوية فيتغلّبا على مصر والشّام لو أفضى الأمر إلى عليّ عليه السلام[1].

وبالجملة جميع ما كان وما يكون في الإسلام من الشّرور إلى يوم النشّور إنما أثمرته شجرة فتنته فغرس أصل الفتن يوم السقيفة، وربي بما أبدعه من التفضيل في العطاءِ ووضع الشورى وغير ذلك، فهو السّهيم في جميع المعاصي والجرائم، والحامل لجملة الأوزار والآثام.

تكملة

قد مرّ رواية هذا الكلام له عليه السلام في شرح الخطبة الرّابعة والثّلاثين عن عليّ بن سيف المدائني باختلاف عرفته.

ورواه أيضاً في مجلدّ الفتن من «**البحار**» من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمّد الثّقفي عن محمّد بن عبد الله بن عثمان عن عليّ بن سيف عن أبي حباب عن ربيعة وعمارة.

قال: إنّ طائفة من أصحاب عليّ مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، ومن تخاف خلافه من النّاس وفراره، وإنّما قالوا له ذلك للّذي كان من معاوية يصنع بمن أتاه، فقال لهم عليّ: أتأمروني أن أطلب النّصر بالجور، والله لا أضل[2] ما طلعت شمس وما لاح في السّماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيتُ بينهم فكيف وما هي إلاّ أموالهم.

قال ثمّ أزم طويلاً ساكتاً ثمّ قال: من كان له مال فإيّاه والفساد فإن إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف، وهو ذكر لصاحبه في الدّنيا ويضعه عند الله ولم يضع رجل ماله في غير حقّه وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم، فإن بقي معه من يودّه ويظهر له البشر فإنّما هو ملق وكذب، وإنّما ينوي أن ينال من صاحبه مثل الذي كان يأتي إليه من قبل،

(١) البحار: ٣١/٥٤.

(٢) في نسخة: أفعل.

فإن زلت بصاحبه النعل فاحتاج إلى معونته ومكافأته فشرّ خليل وألِمّ خدين، ومن صنع المعروف فيما آتاه الله فليصل به القرابة، وليحسن فيه الضّيافة، وليفك به العاني، وليعن به الغارم وابن السّبيل والفقراء والمهاجرين، وليصبر نفسه على الثّواب والحقوق، فإنّ الفوز بهذه الخصال شرف مكارم الدّنيا ودرك فضائل الآخرة[١].

ورواه أيضاً في «**الكافي**» عن العدّة عن أحمد بن أبي عبد الله عن محمّد بن عليّ عن أحمد بن عمرو بن سليمان البجليّ عن إسماعيل بن الحسن بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم التّمار عن إبراهيم بن إسحاق المدائني عن رجل عن أبي مخنف الأزدي.

قال: أتى أمير المؤمنين عليه السلام رهط من الشيعة فقالوا: يا أمير المؤمنين لو أخرجت هذه الأموال ففرقتها في هؤلاء الرّؤساء والأشراف وفضّلتهم علينا حتى إذا استوسقت الأمور عدت إلى أفضل ما عوّدك الله من القسم بالسوية والعدل، فقال أمير المؤمنين: أتأمروني ويحكم أن أطلب النّصر بالجور فيمن وليت عليه من أهل الإسلام، لا والله لا يكون ذلك ما سمر سمير وما رأيت في السّماء نجماً والله لو كانت أموالهم مالي لساويت بينهم فكيف وإنّما هي أموالهم.

قال: ثمّ أزم ساكتاً طويلاً ثم رفع رأسه فقال: من كان فيكم له مال فإيّاكم والفساد، فإنّ إعطائه في غير حقّه تبذير وإسراف، وهو يرفع ذكر صاحبه في النّاس ويضعه عند الله ولم يصنع امرؤٌ ماله في غير حقّه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم، فإن بقي معه منهم بقية ممّن يشكر له ويريه النّصح فإنّما ذلك ملق منه وكذب، فإن زلّت بصاحبهم النّعل ثمّ احتاج إلى معونتهم ومكافئتهم فألئم خليل وشرّ خدين، ولم يضع امرؤٌ ماله في غير حقّه وعند غير أهله إلاّ لم يكن له من الحظ فيما أتى إلاّ محمدة اللّئام، وثناء الأشرار ما دام عليه منعماً مفضّلاً، ومقالة الجاهل ما أجوده، وهو عند الله بخيل فأيّ حظّ أبور وأخسر من هذا الحظّ، وأي فائدة معروف أقلّ من هذا المعروف، فمن كان منكم له مال فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفكّ به العاني والأسير وابن السبيل فإنّ الفوز بهذه الخصال مكارم الدنيا وشرف الآخرة[٢].

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٣٥١ ح ١٤٢٦٥، والأمالي: ١٧٧.

(٢) الكافي: ٤/ ٣٢، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٣٠١.

الترجمة

از جمله كلام فصاحت انتظام آن جناب است در وقتى كه سرزنش كردند او را بر مساوى نمودن در عطا و برگردانيدن او مردمان را پيروى شده يكديگر در مقام اعطاء بى تفضيل دادن صاحبان سبقت در اسلام و جهاد و هجرت و موصوفان به شرف حسب و نسب و نجابت، به اين نحو كه فرمود:

آيا امر مى كنيد شما مرا به اين كه طلب يارى كنم از شما به ظلم و ستم نمودن در حق كسى كه والى امر و صاحب اختيار او هستم؟ به خدا سوگند كه نزديك نشوم به اين خواهش شما مادامى كه افسانه گويد زمانه و مادامى كه قصد كند ستاره در آسمان ستاره ديگر را، (يعنى ابداً اقدام در اين كار نمى كنم) اگر بودى اين مال كه قسمت مى كنم از من، هرآينه رعايت برابرى و مواسات مى نمودم در ميان ايشان، پس چگونه ترك مواسات نمايم و حال آن كه جز اين نيست كه اين مال، مال خداست؟

آگاه باشيد و بدانيد كه اعطا نمودن مال در غير حق خود بى اندازه خرج كردن و اسراف است و آن بى اندازگى بلند مى كند صاحب خود را در دنيا و پست مى نمايد او را در آخرت و عزيز مى نمايد او را در نزد خلايق و خوار مى كند او را در نزد خالق و نگذارد و مصرف نكرد هيچ كس مال خود را در غير مصرف آن و در غير اهل آن مگر آن كه محروم نمود او را خداى تعالى از تشكر و پاداش دادن ايشان و باشد به جهت غير او دوستى ايشان، پس اگر بلغزد به او پاى او روزى از روزها، پس محتاج بشود به يارى ايشان، پس بدترين صديق باشند و لئيم ترين رفيق.

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج وهو المائة والسابع والعشرون من المختار في باب الخطب

فإنْ أَبَيْتُمْ إلاّ أنْ تَزعَمُوا أنّي أخطأتُ وضلِلْتُ فَلِمَ تُضلِّلُونَ عامّةَ أُمّةِ مُحمّدٍ صلى الله عليه وآله بِضلالي؟ وتأخُذونَهُمْ بِخطايَ؟ وتُكَفِّرونَهُمْ بِذُنُوبي؟ سُيُوفُكُمْ على عَواتِقِكُمْ تَضَعُونَها مَواضِعَ الْبُرْءِ[1] وَالسّقَمِ، وتَخْلِطُونَ مَنْ أذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ، وقَدْ عَلِمْتُمْ أنّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله رَجَمَ الزّانِي الْمُحْصِنَ ثُمّ صَلّى عَلَيْهِ ثُمّ وَرّثَهُ أهْلَهُ، وقَتَلَ الْقاتِلَ ووَرّثَ ميراثَهُ أهْلَهُ، وقَطَعَ السّارِقَ، وجَلّدَ الزّاني غَيرَ الْمُحْصِنِ، ثُمّ قَسَمَ عَلَيْهِما مِنَ الْفَيْءِ، ونَكَحا الْمُسْلِماتِ، فَأخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِذُنوبِهِمْ، وأقامَ حَقّ اللهِ فِيهِمْ، ولَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهمَهُمْ مِنَ الإسْلامِ، وَلَمْ يُخرِج أَسْمائَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهلِه، ثُمّ أنْتُمْ شِرارُ النّاسِ ومَنْ رَمى بِهِ الشّيْطانُ مَرامِيهِ، وضَرَبَ بِهِ تَيْهَهُ، وسَيَهْلِكُ فِيّ صِنفانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إلى غَيرِ الْحَقِّ، ومُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إلى غَيْرِ الْحَقِّ، وخَيرُ النّاسِ فِيّ حالاً النّمَطُ الأوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، والْزَمُوا السّوادَ الأعْظَمَ، فَإنّ يَدَ اللهِ عَلى الْجَماعَةِ، وإيّاكُمْ وَالْفِرْقَةَ، فَإنّ الشّاذّ مِنَ النّاسِ لِلشّيْطانِ، كَما إنّ الشّاذّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ، ألا مَنْ دَعا إلى هَذا الشِّعارِ فَاقْتُلُوهُ وَلَوْ كانَ تَحْتَ عِمامَتي هذِه، وإنّما[2] حُكِّمَ الْحَكَمانِ لِيُحْيِيا ما أحْيا الْقُرْآنُ، ويُمِيتا ما أماتَ الْقُرْآنُ، وإحْياؤهُ الإجْتِماعُ عَلَيْهِ، وإماتَتُهُ الإفْتِراقُ عَنْهُ، فَإنْ جَرّنا الْقُرْآنُ إلَيْهِمْ إتّبَعناهُمْ، وَإنْ جَرّهُمْ إلَيْنا اتّبَعُونا، فَلَمْ آتِ لا أباً لَكُمْ بُجْراً، ولا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أمْرِكُمْ ولا لَبّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إنّما اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلائِكُمْ عَلى اخْتِيارِ رَجُلَيْنِ أخَذْنا عَلَيْهِما أنْ لا يَتَعَدّيا الْقُرْآنَ فَتاها عَنْهُ، وتَرَكَا الْحَقَّ، وهُما يُبْصِرانِه، وكانَ الْجَوْرُ هَواهُما، فَمَضَيا عَلَيْه، وقَدْ سَبَقَ اسْتِثْناؤنا عَلَيْهِما في الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصّمْدِ للحقّ سُوءِ رَئيِهِما، وجَوْر حُكْمِهِما[3].

اللغة

(**ضللت**) بكسر اللاّم وفتحها وفي بعض النسخ (**البراءة**) بدل البرء ومعناهما واحد و (**أحصن**) الرّجل إذا تزوّج فهو محصن بالكسر على القياس وبالفتح على غير القياس وكلاهما مروي (**وضرب به تيهه**) أي وجّهه إليه من ضربت في الأرض إذا سافرت، والتّيه بالفتح الحيرة

---

(١) في نسخة: البراءة.

(٢) في نسخة: فإنما.

(٣) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٧٣، وتاريخ الطبري: ٤/ ٦٣.

وبالكسر المفازة التي يتاه فيها.

وعن النّهاية في حديث عليّ عليه السلام خير هذه الأمّة النّمط الأوسط (**النمط**) الطريقة من الطرائق والضّرب من الضروب يقال ليس هذا من ذلك النمط أي من ذلك الضّرب، والنّمط الجماعة من النّاس أمرهم واحد و (**شعار**) القوم علامتهم الّتي بها يتميّزون في الحرب و (**العمامة**) بالكسر المغفر والبيضة وما يلفّ على الرّأس و (البجر) بالضمّ الشرّ والأمر العظيم و (**الملاء**) من النّاس الأشراف والرؤساء الذين يرجع إليهم، وإنّما قيل لهم ذلك لأنهم ملأوا بالرّأي والغناء، و (الصّمد) بالفتح فالسّكون القصد.

الإعراب

جملة (**وقد علمتم**) حال من فاعل (**تضللون**) أو (**تكفرون**) على سبيل التّنازع، (**والباء**) في قوله: (**رمي به وضرب**) به للتّعدية، وحالاً منصوب على التميز، (**وبجراً**) مفعول (**آت**)، وجملة (**لا أبالكم**) معترضة بينهما، (**وسوء رأيهما**) بالنصب مفعول سبق.

المعنى

اعلم أنّ مذهب الخوارج أنّ مرتكب الكبائر كافر، وزعموا أنّ التحكيم كبيرة، فحكموا بكفر أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه لذلك كما مرّ تفصيل ذلك في شرح الخطبة الخامسة والثّلاثين والخطبة السّادسة والثّلاثين، وقد مرّ في شرح الكلام المائة والخامس والعشرين في «**رواية الاحتجاج**» قولهم لابن عبّاس: إنّا نقمنا على صاحبك خصالاً كلّها مكفّرة، فاحتج عليه السلام بهذا الكلام عليهم إبطالاً لما زعموا بوجوه أربعة بعضها ناظر إلى منع الصّغرى، وبعضها إلى منع الكبرى، وبعضها مبنيّ على التنزل والمماشاة وحسبما تعرفه حيثما بلغ الكلام محلّه.

وقدّم ما بِناءهُ على المماشاة رعاية لقانون المناظرة، وذلك أنّ الخوارج لمّا قالوا إنّ الدّار دار كفر لا يجوز الكف عن أحدٍ من أهلها وقتلوا من لقوه حتّى الأطفال والبهائم حسبما مرّ في شرح الخطبة السادسة والثّلاثين فقال لهم: مماشاة معهم (**فإن أبيتم إلاّ أن تزعموا**) وتظنّوا (**إنّي أخطأت وضللت**) بنصب الحكمين والرّضاء بالتحكيم (**فلم تضلّلون عامّة أمّة محمّد** صلّى الله عليه وآله **بضلالي وتأخذونهم بخطاي وتكفّرونهم بذنوبي**) وتقتلونهم حيثما لقيتم ولا تكفّون عن أحد برٍ أو فاجرٍ ما ذنبهم وما جريرتهم (**سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرءِ والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب**) يعني تقصير التحكيم على زعمكم إنّما هو مقصور عليّ ومؤاخذته راجع إليّ فما بال من لم يكن دخيلاً في هذا الأمر ولم يكن منه في مراح ولا مغدي.

ثمّ بين فساد ما زعموه من كون صاحب الكبيرة كافراً، وهو راجع إلى منع الكبرى معلّلاً

بأن رسول الله حكم في مرتكبي الكبائر بأحكام الإسلام، وسلك معهم مسلك سائر المسلمين فقال: (**وقد علمتم أنّ رسول الله ﷺ رجم الزّاني المحصن**).

قال الشّهيد (ره) الرّجم يجب على المحصن إذا زنى ببالغة عاقلة، والإحصان إصابة البالغ العاقل الحرّ فرجا مملوكاً له بالعقد الدّائم أو الرّق يغدو عليه ويروح إصابة معلومة.

وقال الشّهيد الثاني في شرحه: فهذه قيود ثمانية:

أحدها: الإصابة أي الوطىء قبلا على وجه يوجب الغسل فلا يكفي مجرّد العقد ولا الخلوة التامّة ولا إصابة الدّبر ولا ما بين الفخذين ولا في القبل على وجه لا يوجب الغسل.

وثانيها: أن يكون الواطىء بالغاً فلو أولج الصّبي حتّى غيب مقدار الحشفة لم يكن محصناً وإن كان مراهقاً.

وثالثها: أن يكون عاقلاً فلو وطىء مجنوناً وإن عقد عاقلاً فلا يتحقق الإحصان ويتحقّق بوطيه عاقلاً وإن تجدّد جنونه.

ورابعها: الحرّية فلو وطىء العبد زوجة حرّة وأمة لم يكن محصناً، وإن عتق ما لم يطأ بعده.

وخامسها: أن يكون الوطء بفرج فلا يكفي الدّبر ولا التّفخيذ ونحوه كما سلف.

وسادسها: كونه مملوكاً له بالعقد الدّائم أو ملك اليمين فلا يتحقّق بوطىء الزّنا ولا الشبهة وإن كان بعقد فاسد ولا المتعة.

وسابعها: كونه متمكّناً منه غدواً ورواحاً، فلو كان بعيداً عنه لا يتمكّن منه فيهما، وإن تمكّن في أحدهما دون الآخر أو فيما بينهما أو محبوساً لا يتمكّن من الوصول إليه لم يكن محصناً، وإن كان قد دخل قبل ذلك.

وثامنها: كون الإصابة معلومة ويتحقّق العلم بإقراره بها أو بالبيّنة لا بالخلوة ولا الولد لأنّهما أعمّ.

(**ثمّ صلّى عليه وورّثه أهله**) فلو كان الزّنا مع كونه كبيرة موجباً للكفر لما صلّى عليه ولا ورّثه لعدم جواز الصّلاة على الكافر وكون الكفر من موانع الإرث (و) كذلك (**قتل**) ﷺ (**القاتل وورّث ميراثه أهله**) فلو كان القتل مع أنه كبيرة موجباً للكفر لما ورّث أهله منه.

وهذا بظاهره يدلّ على أن المسلم لا يرث الكافر وهو خلاف المذهب لأنّ الكفر مانع من الارث في طرف الوارث لا الموروث، قال المحدّث العلامة المجلسي: ولعلّه إلزام عليهم.

أقول: وهو يتمّ لو كان مذهب الخوارج كونه مانعاً من التّوارث من الطرفين وإلاّ فلا.

(و) كذلك (**قطع**) يد (**السّارق وجلد الزّاني غير المحصن، ثمّ قسّم عليهما من الفيء**) ولم يجعل السّرقة والزّنا مكفّراً مانعاً من تقسيم مال الإسلام إليهما (و) كذلك (**نكحا**) أي السّارق والزّاني (**المسلمات**) ولم يمنعهما رسول الله من ذلك بل قرّرهما عليه، (فأخذهم) أي هؤلاء المذكورين من أهل الكبائر (**رسول الله بذنوبهم وأقام حق الله فيهم**) وحدّه بجرمهم (**ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام**) من التوريث والتّقسيم وتقرير النّكاح وغيرها، (**ولم يخرج أسمائهم من بين أهله**) أي أهل الإسلام، وهذه كلّها تدلّ على أنّ مرتكب الكبيرة لا يخرج بذنبه من حدّ الإسلام إلى الكفر.

ثمّ نبّه على اتّصافهم بالغفلة والجهالة، وهلكهم في أودية الضّلالة فقال: (**ثمّ أنتم شرار النّاس**) بخروجكم على الإمام الحقّ وبغيكم على من هو بالأتباع أحقّ، (**ومن رمى به الشيطان مراميه**) من طرق الضّلال التي يقودكم بوساوسه إليها، (**وضرب به تيهه**) ووجه إليه (**وسيهلك في صنفان محبّ مفرط**) مجاوز للحد (**يذهب به الحبّ إلى غير الحق**) كالغلاة وهم فرق كثيرة اتّفق كلّهم لعنهم الله على إبطال الشرائع كما نبّه عليه البرسي في «**مشارق الأنوار**».

منهم السّبائية وهم أصحاب عبد الله بن سبأ وهو أوّل من غلا كما مرّ في شرح الكلام الثامن والخمسين، وكان يهودياً يتستر بالإسلام وينتحله ومذهبه أن الله لا يظهر إلا في أمير المؤمنين وحده، وأنّ الرسل كانوا يدعون إلى علّي عليه السلام وأنّ الأئمة أبوابه فمن عرف أن علياً خالقه ورازقه سقط عنه التكليف، وفي «**شرح المعتزلي**» قال السبائية إنّ علياً لم يمت والرّعد في السّماء صوته والبرق ضوءه، وإذا سمعوا صوت الرّعد قالوا: السّلام عليك يا أمير المؤمنين.

ومنهم الخصيبية أصحاب يزيد بن الخصيب وعنده أنّ الله لا يظهر إلاّ في أمير المؤمنين والأئمة من بعده، وأنّ الرّسل هو أرسلهم يحثّون عباده على طاعته وإنّ عمر هو إبليس الأبالسة وأنّ ظلمة زريق قديمة مع نور عليّ لأن الظّلمة عكس النّور.

ومنهم المفوّضة وهم قالوا إنّ الله فوض الخلق والأمر والموت والحياة والرّزق إلى عليّ والأئمة عليهم السلام، وإنّ الذي يمرّ بهم من الموت فهو على الحقيقة وإنّ الملائكة تأتيهم بالأخبار.

ومنهم من يقول: إنّ الله يحلّ في هذه الصّورة ويدعو بنفسه إلى نفسه إلى غير ذلك من مزخرفاتهم التي لا يجوز تضييع الأوقات في نقلها وحكايتها، وفرقهم تزيد على عشرين حسبما ذكره البرسي في «**مشارق الأنوار**» وغيره، وبالجملة فهؤلاءِ كلّهم هالكون لإفراطهم في المحبّة وادّعائهم للإمام ما لا يرضي به وتجاوزهم فيه عن مرتبة العبوديّة إلى مرتبة الألوهية والرّبوبية.

(و) مثل هؤلاءِ في الاتصاف بالهلاك (**مبغض مفرّط يذهب به لبغض إلى غير الحق**)

كالنّواصب والخوارج، قال في «**البحار**»: وتقييد البغض بالإفراط لعله لتخصيص أكمل الأفراد بالذّكر، أو لأنّ المبغض مطلقاً مجاوز عن الحد، أو لأنّ الكلام إخبار عمّا سيوجد منهم مع أنّ فيه رعاية الازدواج والتّناسب بين الفقرتين.

أقول: هذا كلّه بناء على كون لفظة مفرط من باب الأفعال، وأمّا على كونها من باب التفعيل كما في بعض النّسخ فلا حاجة إلى التكلف، (**وخير النّاس فيّ حالاً النمط الأوسط**) وهم التاركون لطرفي الإفراط والتّفريط، والمهتدون إلى الجادة الوسطى والصّراط المستقيم السّالك بهم إلى الجنان، والموصل لهم إلى أعظم الرّضوان.

ولذلك أمر بلزومه بقوله: (**فألزموه وألزموا السّواد الأعظم**) أي جملة النّاس ومعظمهم المتجمعين إلى طاعة السلطان العادل وسلوك المنهج المستقيم والنّهج القويم (**فإنّ يد الله على الجماعة**) وهو كناية عن الحفظ والدّفاع عنهم يعني أن الجماعة من أهل الإسلام في كنف الله سبحانه (**وإيّاكم والفرقة، فإنّ الشاذ من النّاس**) طعمة (**للشيطان كما أنّ الشّاذ من الغنم**) فريسة (**للذئب**).

ثمّ قال: (**ألا من دعا إلى هذا الشّعار**) قال البحراني: أي مفارقة الجماعة والاستبداد بالرّأي. وقال الشّارح المعتزلي: يعني شعار الخوارج وكان شعارهم أنّهم يحلقون وسط رؤوسهم ويبقون الشّعر وسطه مستديراً حوله كالإكليل، وقيل شعارهم ما ينادون به في الحرب من قولهم: لا حكم إلا الله أو لا حكم إلا لله، (فاقتلوه ولو كان) الدّاعي (**تحت عمامتي هذه**) قيل: وهو كناية عن نفسه أي ولو كان الدّاعي أنا، وقال الشارح المعتزلي: أي ولو كان اعتصم واحتمى بأعظم الأشياء حرمة، فلا تكفوا عن قتله.

ثمّ أشار إلى بطلان الصّغرى ومنع كون التّحكيم كبيرة بقوله: (**وإنّما حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن**) يعني أنّ تحكيم الحكمين إنّما كان المقصود به التّوصل إلى حكم القرآن من حيث إنه خطّ مستور بين الدّفتين محتاج إلى الترجمان لا لمطلوبيتهما بالذّات حسبما مرّ في كلامه المائة والخامس والعشرين وشرحه، فالحكم في الحقيقة هو القرآن لا الرّجلان فوجدهما إنّما هو إحياء ما أحياه القرآن وإماتة ما أماته.

(**وإحيائه الاجتماع عليه**) والاتباع له والالتزام على ما شهد باستصوابه واستصلاحه (**وإماتته الافتراق عنه**) والتّولي والإعراض عمّن شهد بضلاله (**فإن كان جرّنا القرآن إليهم اتبعناهم وإن جرّهم إلينا اتبعونا**) ومن المعلوم أنّ القرآن إنّما كان يجرّهم إليه عليه السلام إلاّ أنّ الحكمين خالفا حكم الكتاب ولم يحييا ما أحياه ولم يميتا ما أماته.

(**فلم آت لا أبا لكم بجراً**) أي داهية وشرّاً (**ولا ختلتكم**) وخدعتكم (**عن أمركم ولا لبّسته عليكم**) أي ما جعلت الأمر مشتبهاً ومتلبّساً عليكم، ومحصّله أنّي ما أتيت بشيء موجب للكفر

والضلال حتّى تكفروني وتضلّلوني.

ثمّ أبطل زعمهم الفاسد واعتقادهم الكاسد بوجه آخر أشار إليه بقوله و(**إنّما اجتمع رأي ملائكم**) ورؤسائكم (**على اختيار رجلين**) يعني أنّي ما أقدمت على التحكيم برضاء واختيار منّي وإنّما اجتمع رأي اشرافكم عليه وكنت مجبوراً فيه ومستكرهاً له ومع ذلك فقد (**أخذنا عليهما أن لا يتعدّيا القرآن**) ولا يخالفا حكمه (**فتاها عنه وتركا الحقّ وهما يبصرانه**) فنبذا الكتاب ونكبا عن سمت الهدى والصّواب (**وكان الجور هواهما فمضيا عليه**) وأقاما فيه (و) أيضاً فـ (**لقد سبق استثناؤنا عليهما في الحكومة بالعدل والصّمد**) أي القصد (**للحق سوء رأيهما وجور حكمهما**) يعني أنا اشترطنا عليهما في كتاب الصّلح أن لا يتجاوزا حكم القرآن، ولا يحكما بهوى النفس وسوء الرّأي، فخالفوا[1] الكتاب المبين، وخانوا[2] في حق المسلمين، فكانت اللاّئمة في ذلك إليهما، والعبؤ عليهما، فلا يجب علينا إذاً اتّباع حكمهما فنضلّ ونخزى.

---

(١) في نسخة: فخالفا.

(٢) في نسخة: خانا.

الترجمة

از جمله کلام آن حضرت است که فرمود به خارجیان بی ایمان:

پس اگر امتناع می نمایید از اطاعت مگر به جهت این که گمان فاسد می کنید که من خطا کردم و به ضلالت افتاده ام، پس چرا گمراه می دانید عموم امت پیغمبر را به گمراهی من و اخذ می کنید ایشان را به خطای من و تکفیر می کنید آنها را به گناهان من، شمشیرهای شما بر دوش های شما، می نهید آنها را بر محل های سلامتی و بیماری و می آمیزید گناهکار را به غیر گنه کار و حال آن که به تحقیق عالم هستید به این که حضرت رسول (صلی الله علیه و آله) سنگسار نمود زناکار صاحب زن را، پس از آن نماز کرد بر او و داد میراث او را به وارثان او و به قتل آورد قاتل را از روی قصاص و ارث داد میراث او را به وراثان او و برید دست دزد را و تازیانه زد بر زناکننده غیر صاحب زن، پس قسمت کرد بر ایشان از مال غنیمت و نکاح کردند آن دو نفر زنان مسلمه را، پس مؤاخذه نمود به ایشان رسول الله (صلی الله علیه و آله) به جهت گناهان ایشان و اقامه نمود حق خدا را در ایشان و با وجود آن منع نفرمود ایشان را از سهمی که داشتند از اسلام و خارج نکرد نام ایشان را از میان اهل اسلام.

پس شما شریرترین مردمانید و کسی هستید که انداخته است او را شیطان لعین به مواضع انداختن خود و برده است او را به بیابان گمراهی خود و زود باشد که هلاك شود در حق من دو صنف: یکی دوست افراط کننده که ببرد او را آن دوستی به سوی غیر حق و یکی دشمن تقصیر کننده است که ببرد او را آن دشمنی به سوی غیر حق و بهترین مردمان در حق من از حیث حال جماعتی هستند که وسط باشند میان افراط و تفریط، پس لازم شوید به آن جماعت و ملازم باشید به سواد اعظم، پس به درستی که دست عنایت پروردگار بر سر جماعت است و بپرهیزید از تفرقه، پس به درستی که شخصی که تنها شده است از خلق، طعمه شیطان لعین است چنان چه تنها مانده از گوسفندان طعمه گرگ است.

آگاه باشید و بدانید هرکسی که بخواند مردمان را به سوی این شعار خارجیان،

پس بکشید او را و اگرچه شود آن شخص در زیر عمامه من و جز این نیست که تحکیم ساخته شدند آن دو نفر حاکم تا اینکه زنده سازند چیزی را که زنده ساخته آن را قرآن و بمیرانند چیزی را که میرانیده آن را قرآن و زنده گردانیدن آن عبارت است از اجتماع و اتفاق به آن و میرانیدن آن عبارت است از افتراق از آن، پس اگر کشیده بود ما را قرآن به سوی ایشان، تبعیّت ایشان می کردیم و اگر کشیده بود ایشان را به سوی ما، متابعت می کردند ما را.

پس نیاوردم پدر مباد شما را به جهت شما شرّی را و فریب ندادم شما را از کار شما و مشتبه نکردم آن کار را بر شما و جز این نیست که جمع شد رأی های رؤسای شما بر اختیار کردن دو مرد، اخذ پیمان کردیم از ایشان که تجاوز نکنند از حکم قرآن، پس متحیر و سرگردان شدند از آن و ترك کردند حق را و حال آن که می دیدند حق را و بصیر بودند به آن و بود ظلم و جور آرزوی ایشان، پس بگذشتند به آن و حال آن که سابق شد استثنا کردن ما بر ایشان در حکم کردن به عدالت و قصد کردن مر حق سوء رای ایشان را و حکم به جور ایشان را، یعنی در اول امر استثنا کرده بودیم که این دو نفر اگر اندیشه بد و حکم جور نمایند معتبر نخواهد شد.

ومن خطبة له عليه السلام فيما يخبر به الملاحم بالبصرة وهي المائة والثامنة والعشرون من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين:

الفصل الأول

يا أَحْنَفُ كَأَنّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ ولا لَجَبٌ ولا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ ولا حَمْحَمَةُ خَيْلٍ، يُثيرُونَ الأَرْضَ بِأَقْدامِهِمْ كَأَنّها أَقْدامُ النَّعامِ.

قال السّيد (ره): يومىء بذلك إلى صاحب الزّنج ثم قال عليه السلام: وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتي لَها أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وخَراطِيمُ كَخَراطِيم الْفِيَلَةِ مِنْ أُولئِكَ الَّذينَ لا يُنْتَدَبُ قَتيلُهُمْ، ولا يُفْتَقَدُ غائِبُهُمْ، أنا كابُّ الدُّنْيا لِوَجْهِها، وقادِرُها بِقَدْرِها، وناظِرُها بِعَيْنِها[١].

اللغة

(الملحمة) هي الحرب أو الوقعة العظيمة فيها وموضع القتال، مأخوذ من اشتباك النّاس فيها كاشتباك لحمة الثوى بالسّدى و(اللجب) محرّكة الجلبة والصّياح و(القعقعة) تحريك الشيء اليابس الصّلب مع صوت وتفسيره بحكاية صوت السّلاح ونحوه غير مناسب للمضاف إليه و(اللجم) جمع اللجام ككتب وكتاب و(الحمحمة) صوت الفرس حين يقصر في الصّهيل ويستعين بنفسه و(**النعام**) اسم لجنس النعامة ويقع على الواحد و(**النسر**) طائر معروف ويجمع على أنسر على وزن أفعل ونسور و(**الفيلة**) وزان عنبة جمع الفيل و(**كبيت**) فلان على وجهه تركته ولم ألتفت إليه، وكبّه قلبه وصرعه.

الإعراب

قول السّيد: (**بالبصرة**) إمّا ظرف لغو متعلق بقوله يخبر أو مستقر صفة (**للملاحم**) وكلاهما جائزان، لأنّ هذه الخطبة قد خطب بها في البصرة كما أنّ تلك الملاحم كانت فيها، وجملة (**وقد سار**) منصوبة المحل على الحال من وقوله (**به**)، والعامل محذوف والتّقدير كأنّي

(١) شرح مائة كلمة: ٢٤٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٢٥٠ ح ١٩٧.

أبصر به وقد سار، وجملة **(يثيرون)** حال من **(الجيش)**، والباقي واضح.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة قد خطب بها في البصرة كما صرّح به الشّارح المعتزلي والشّارح البحراني، والمستفاد من التّأني أنّها من فصول الخطبة التي قدّمنا روايتها منه في شرح الكلام الثالث عشر، وأنّه عليه السلام خطبها بعد الفراغ من حرب أهل البصرة ووقعة الجمل على ما تقدّم ثمّة وهو من جملة الأخبار الغيبية له عليه السلام.

وهذا الفصل كما نبّه عليه السيّد (ره) إشارة إلى خروج صاحب الزنج وهو رجل اسمه عليّ زعم أنّه عليّ بن محمّد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، قال الشّارح المعتزلي: وأكثر النّاس يقدحون في نسبه خصوصاً الطّالبيون وجمهور النسابين اتّفقوا على أنّه من عبد القيس وأنّه علي بن محمّد بن عبد الرّحيم، وأمه أسديّة من أسد بن خزيمة جدّه محمّد بن حكيم الأسدي من أهل الكوفة أحد الخارجين مع زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك، وذكر المسعودي في **«مروج الذهب»** أنّ أفعال عليّ بن محمد صاحب الزنج تدل على أنّه لم يكن طالبيّاً وتصدق ما رمى به من دعوته في النسب، لأنّ ظاهر حاله كان ذهابه إلى مذهب الأزارقة في قتل النّساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض.

وكيف كان فقد كان ظهوره في البصرة في سنة خمس وخمسين ومائتين، فتبعه الزّنج الّذين كانوا يسبخون السّباخ في البصرة وكان أكثر اتباعه في أوّل أمره عبيد الدّهاقين بالبصرة، واستمالهم إلى الفتنة بالمواعد واستنقاذهم من أيدي ساداتهم واستخلاصهم من سوء الحال وما يلقونه من شدّة العبوديّة والخدمة ومناهم أن يجعلهم قوّاد جيشه، ويملّكهم الضّياع والأموال، وحلف لهم بالأيمان المغلّظة أن لا يخدع بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم، واجتمع إليه السّودان من كل جهة، وتبعه جمع كثير من غيرهم، وفعل بأهل البصرة وغيرهم ما هو مشهور وفي كتب السّير مسطور مأثور، وقد ذكره الشّارح المعتزلي على تفصيله من أراد الإطلاع، فليراجع إليه.

إذا تمهّد ذلك فلنعد إلى شرح كلامه فأقول: قوله: **(يا أحنف)** قيل كان اسمه صخر وقيل الضّحاك بن قيس بن معاوية من بني تميم وكنيته أبو بحر شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام الجمل ولم يشهد صفّين مع أحد الفريقين قال البحراني: والخطاب مع الأحنف، لأنّه كان رئيساً ذا عقل وسابقة في قومه وبسببه كان إسلام بني تميم حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يجيبوا، فقال لهم الأحنف: إنه يدعوكم إلى مكارم الأخلاق فأسلموا وأسلم الأحنف.

(كأنّي به) أي علي بن محمّد صاحب الزّنج **(وقد سار بالجيش الّذي لا يكون له غبار)** أصلاً أو الغبار الشّديد الذي جرت العادة بسطوعها عند مسير الجيوش والفرسان وثورانها من

حوافر الخيل (**ولا لجب**) وصياح (**ولا قعقعة لجم ولا حمحمة خيل**) إذ لم يكونوا ركباً بل كانوا مشاة حفاة (**يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام**) تشبيه أقدامهم بأقدام النعام لكونها في الأغلب قصاراً عراضاً منتشرة الصدر مفرّجات الأصابع كما في النّعام، وأراد بإثارتهم الأرض بأقدامهم شدّة وطئهم لها، وكنّى بها عنها وما قيل: من أنّ المعنى أنهم يثيرون التراب بأقدامهم لأنّ أقدامهم في الخشونة كحوافر الخيل ففيه أنه لا يلائم ظاهر قوله لا يكون له غبار إلاّ أن يحمل المنفيّ على الغبار الشّديد حسبما قدّمناه.

ثمّ قال: (**ويل لسكككم العامرة**) أي لطرقكم المستوية وأزقّتكم المعمورة (**والدّور المزخرفة**) المموّهة بالزّخرف والذّهب (**الّتي لها أجنحة كأجنحة النّسور**) أراد بأجنحة الدّور رواشنها وما يعمل من الأخشاب والبواري بارزة عن السّقوف حفظاً للحيطان وغيرها عن الأمطار وشعاع الشمس (**وخراطيم كخراطيم الفيلة**) أراد بخراطيمها ميازيبها التي تعمل من الخوص على شكل خرطوم الفيل وتطلى بالقار يكون نحواً من خمسة أذرع أو أزيد تدلى من السّطوح ليسيل منها ماء المطر ويحفظ السّطوح والحيطان (**من أولئك الذين لا يندب قتيلهم**) قيل إنه وصف لهم لشدّة البأس والحرص على القتال ولا يبالون بالموت، وقيل: لأنهم كانوا عبيداً غرباء لم يكن لهم أهل وولد ممّن عادتهم النّدبة (**ولا يفتقد غائبهم**) لكثرتهم وكونهم إذا قتل منهم قتيل سدّ مسدّه غيره، أو لكونهم غرباء ليس لهم أقرباء من شأنهم افتقاد الغائب.

ثمّ قال: (**أنا كابّ الدّنيا لوجهها**) كناية عن عدم التفاته إليها كما حكى مثله عن عيسى أنه قال: أن الذّي كببت الدّنيا على وجهها ليس لي زوجة تموت ولا بيت يخرب وسادي الحجر وفراشي المدر وسراجي القمر، أو أراد به علمه بأسرارها وبواطنها كما يقال قلّب الأمر ظهراً لبطن.

(**وقادرها بقدرها**) أي معامل لها بمقدارها (**وناظرها بعينها**) أي ناظر إليها بعين البصيرة والعبرة، أو أنظر إليها نظراً يليق بها وهو نظر الحقارة والذلّة.

كما يشهد به ما رواه في «**غاية المرام**» من رسالة الأهواز للصّادق عليه السلام قال: قال علي بن الحسين سمعت أبا عبد الله الحسين عليهما السلام يقول: حدّثني أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّي كنت بفدك في بعض حيطانها وقد صارت لفاطمة، قال: فإذا أنا بامرأة قد قحمت عليّ وفي يدي مسحاة أعمل بها، فلمّا نظرت إليها طار قلبي ممّا تداخلني من جمالها، فشبهتها بثنية بنت عمر الجمحي وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: يا ابن أبي طالب هل لك أن تزوّج بي فأغنيك عن هذه وأدلّك على خزائن الأرض فيكون لك المال ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقلت لها: من أنت حتّى أخطبك من أهلك؟ قالت: أنا الدّنيا، قلت لها: ارجعي واطلبي زوجاً غيري، وأقبلت على مسحاتي وأنشأت أقول:

لقد خاب من غرّته دنيا دنيّة	وما هي إن غرّت قروناً بطائل
أتتنا على زيّ العزيز ثنيّة	وزينتها في مثل تلك الشمائل
فقلت لها غرّي سواي فإنّني	عزوف عن الدّنيا ولست بجاهل
وما أنا والدّنيا فإنّ محمّداً	أحلّ صريعاً بين تلك الجنادل
وهبها أتتنا بالكنوز ودرها	وأموال قارون وملك القبائل
أليس جميعاً بالفناء مصيرها	وتطلب من خزّانها بالطّوائل
فغرّي سواي إنّني غير راغب	بما فيك من ملك وعزّ ونائل
فقد قنعت نفسي بما قد رزقته	فشأنك يا دنيا وأهل الغوائل
فإنّي أخاف الله يوم لقائه	وأخشى عذاباً دائماً غير زائل[١]

فخرج من الدّنيا وليس في عنقه تبعة لأحد حتّى لقى الله سبحانه محموداً غير ملوم ولا مذموم، ثمّ اقتدت به الأئمّة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطّخوا بشيء من بوائقها صلّى الله عليهم أجمعين وأحسن مثواهم.

(١) وسائل الشيعة: ١٢/١٥٢، وعدة الداعي: ١١٠.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن سرور دین و قدوه ارباب یقین است در آن چه خبر می دهد به آن از وقایع عظیمه در شهر بصره به این نحو که می فرماید:

ای أحنف گویا من نظر می کنم به آن شخص در حالتی که سیر کند بالشگری که نباشد مر آن را گرد و غباری و نه آواز هائلی و نه صدای حرکت لجام ها و نه آواز اسب ها، بشورانند خاك را به قدم های خود گویا که قدم های ایشان قدم های شترمرغان است در پهنایی و کوتاهی و در گشادگی انگشتان. اشاره می فرماید آن حضرت به این کلام به علی بن محمّد رئیس لشگر زنگیان.

بعد از آن فرمود:

وای در آن زمان به راه های آبادان شما و به خان های زراندودی که مر آنها را است بال ها مثل بال های کرکسان و خرطوم ها مانند خرطوم های فیلان از این لشگری که گریسته نشود بر مقتولان ایشان و جسته نشود غایبان ایشان، من افکننده دنیا هستم به روی او، یعنی بی اعتنا هستم به آن و اندازه کننده اویم به اندازه آن و نظرکننده اویم به چشمی که مناسب و لایق او هست.

الفصل الثاني منها

ويومىء بذلك إلى وصف الأتراك

كَأَنّي أَراهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجانُ الْمُطْرَقَةُ، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيباجَ، ويَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتاقَ، ويَكُون هُنالِكَ اسْتِحْرارُ قَتْلٍ حَتّى يَمْشِي الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، ويَكُونُ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ.

فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟ فضحك عليه السلام وقال للرّجل وكان كلبياً: يا أخا كَلْبٍ لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ وإنَّما هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذي عِلْمٍ، وَإِنَّما عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السّاعَةِ وما عَدَّدَهُ اللَّهُ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية، فَيَعْلَمُ سُبْحانَهُ ما في الأَرْحامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ، وقَبيحٍ أَوْ جَميلٍ، وسَخِيٍّ أَوْ بَخيلٍ، وشَقِيٍّ أَوْ سَعيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ في النّارِ حَطَباً، أَوْ في الْجِنانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرافِقاً، فَهَذا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُ أَحَدٌ إلاَّ اللَّهُ، وَمَا سِوى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله فَعَلَّمَنيهِ، وَدَعا لي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْري، وتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوانِحي[1].

اللغة

(المجان) بفتح الميم وتشديد النّون جمع المجن بكسر الميم وهو الترس أو المجنّة بالكسر أيضاً كالمحاشّ والمحشّة وهو الدّبر إلاّ أنّه بالفتح وهو مأخوذ من الجنّ وهو السّتر كأنّ التّرس يستتر به ومنه الجنّ لاستتاره عن النظر والجنين لاستتاره في الرّحم، والمجنون لإستار عقله، والجنان للقلب والجنّة لإلتفافها بالأشجار واستتارها بها وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي ستره.

و**(المطرقة)** وزان مكرمة من باب الأفعال قال في «**القاموس**» والمجانّ المطرقة كمكرمة الذي يطرق بعضها على بعض كالنّعل المطرقة المخصوفة، ويروي المطرقة بالتّشديد كمعظّمة أي الّتي طرّق وركب بعضها على بعض وأطراق البطن ما ركب بعضها على بعض، والطّراق كلّ خصيفة يخصف بها النّعل ويكون حذوها سواء، وكلّ صنعة على حذو، وجلد النّعل وأن يقوّر جلد على مقدار التّرس فيلزق بالتّرس.

و**(السرق)** محرّكة شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامّة والواحدة سرقة و**(يعتقبون الخيل)**

---

(١) الإيضاح: ٤٦٧، وشرح مائة كلمة: ٢٤٧.

أي يحتبسونها ويرتبطونها من اعتقب السلعة إذ أحبسها من المشتري ليقبض الثمن أو يجبنونها لينتقلوا من غيرها إليها، و(**اضطمّ**) الشيء جمعه إلى نفسه، و(**الجوانح**) الضلوع تحت الترائب مما يلي الصّدر ويروي جوارحي بدل جوانحي.

الإعراب

(**قوماً**) منصوب على البدل من ضمير الجمع في (**أراهم**) وإبدال الظاهر من الضّمير الغائب لا غبار عليه بتصريح علماء الأدبيّة، وجملة (**يلبسون**) منصوبة المحل على الحال من ضمير الجمع أيضاً، والإضافة في (**أخا كلب**) لانتسابه إلى تلك القبيلة وهي من الإضافات الشائعة في لهجة العرب والرّابط إلى الموصول في قوله (**لا يعلم**) أحد محذوف.

المعنى

اعلم أنّ الموجود في نسخ «**النّهج**» غير نسخة الشّارح البحراني عنوان هذا الفصل بلفظ: منها، وأمّا نسخة الشّارح فالعنوان فيها بقوله: ومن كلام له عليه السلام وهو يفيد كون ذلك كلاماً مستقلاً لا من فصول الكلام السّابق والأمر سهل.

قال السّيد (ره): ويومىء به إلى وصف الأتراك، وهم أمّة تسمّون بالتّتار، وكانت مساكنهم في أقاصي بلاد المشرق في جبال طخاج من حدود الصّين، وبينهم وبين بلاد الإسلام الّتي ما وراء النّهر ما يزيد على مسير ستّة أشهر، وكان عددهم في الكثرة متجاوزاً عن حدّ الإحصاء، وكانوا من أصبر النّاس على القتال لا يعرفون الفرار، ويعملون ما يحتاجون إليه من السّلاح بأيديهم ومن أصبر خلق الله على الجوع والعطش والشّقاء، يأكلون الميتة والكلاب والخنازير، وكانت ثيابهم من أخشن الثياب، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والدّواب الميتة، وهم أشبه شيء بالوحش والسّباع، وكان جنكيزخان رئيسهم وابن رئيسهم، وما زال سلفه رؤساء تلك الجهة، وكان شجاعاً مدبّراً عاقلاً موفقاً منصوراً في الحرب فأحب الملك وطمع في البلاد فنهض بمن معه من أقاصي الصّين، إلى حدود تركستان في سنة ستة عشر وستمائة، وحارب الملوك ملوك الخطأ وقفجاق وما وراء النّهر وخراسان والعراقين وآذربيجان وأرمنيّة والشام وغيرها، وملك هذه البلاد، وقتل من الذكور والإناث في كلّ ما مرّ عليه جيشه من البلدان ما لا يحصى عددهم إلاّ الله سبحانه، وقد نهبوا أكثر ما مرّوا عليه من المدن والقرى، وأحرقوه وخربوه واستأصلوا أهله، وسبوا الحرم، واسترقوا الغلمان، وفعلوا كلّ قبيح منكر فيها، ولم يتركوا من الظّلم والجور على المسلمين والمعاهدين شيئاً على ما هو في كتب التّواريخ والسّير مسطور، وفي الألسنة إلى زماننا هذا وقد مضى من زمانه نحواً من سبعمائة سنة مشهور مأثور، وكان ظهورهم في عصر الشّارح المعتزلي، فأورد طرفاً من حالهم ووقائعهم في الشّرح من أراد الإطلاع، فليراجع إليه.

إذا تمهّد لك ذلك فأقول: إنّه عليه السلام يخبر عن حالهم ويقول: **(كأنّي أراهم قوماً كأن وجوههم المجانّ المطرقة)** تشبيهها بالمجان في الاستدارة والعظم والانبساط وتوصيفها بالمطرقة للخشونة والغلظة **(يلبسون السّرق والدّيباج)** ولا منافاة بين ذلك وبين ما قدّمنا من كون لباسهم أخشن اللّباس، لأنّ ما قدّمناه كان في بدو حالهم وذلك بعد ما ظهرت دولتهم وعلا أمرهم، أو أنّ ذلك وصف حال الرؤساء، وما قدّمنا وصف ثياب الأتباع مع أنّه لا داعي إلى الجمع لأنّ ما تقدم من نقل أرباب التواريخ وكلام الإمام هو الصّحيح الأحق بالأتباع.

(ويعتقبون الخيل العتاق) أي يحتبسونها لينتقلوا من غيرها إليها عند مسيس الحاجة ومقام الضّرورة **(ويكون هناك استحرار قتل)** وشدته **(حتّى)** ينتهي الأمر إلى أن **(يمشي المجروح)** منهم **(على المقتول)** منهم لعدم مبالاة الجرحى بقتل القتلى أو من مقاتليهم فيكون إشارة إلى كونهم مجروحين وكون مقابليهم مقتولين **(ويكون المفلت)** النّاجي من أيديهم **(أقلّ من المأسور فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب فضحك** عليه السلام**)**.

قال الشّارح المعتزلي: وسرّ هذا الضّحك أنّ النبيّ والوليّ إن تجددت عنده نعمة لله سبحانه أو عرف النّاس وجاهته عند الله فلا بدّ أن يسرّ بذلك، وقد يحدث الضحك من السّرور وليس ذلك بمذموم إذا خلا من التّيه والعجب وكان محض السّرور وقد قال سبحانه:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

أقول: وفي هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، فإنّ التحدث بالنّعمة أعني إظهارها وإشاعتها قد يكون الدّاعي إليه هو العجب والشّهرة وإظهار الكبر والنخوة به على الخلق فهو قبيح محرّم مذموم، وقد يكون السّبب له محض إظهار أنها ممّا منّ الله سبحانه بها عليه فيشكر عليه ويحمد له، وهذا حسن ممدوح مأمور به في الآية وإليه الإشارة في الحديث بقوله: والتحديث بنعمة الله شكر وتركه كفر.

وقال الصّادق عليه السلام في رواية «**الكافي**»: إذا أنعم الله بعبده بنعمة فظهرت عليه سمي حبيب الله محدّثاً بنعمة الله، وإذا أنعم الله على عبده بنعمة فلم تظهر عليه سمي بغيض الله مكذّباً بنعمة الله[١].

(وقال عليه السلام **للرّجل وكان كلبياً: يا أخا كلب ليس هو)** أي ما أخبرت به من خبر الأتراك **(بعلم غيب وإنّما هو تعلّم من ذي علم)** أراد به رسول الله صلى الله عليه وآله كما سيصرّح به **(وإنّما علم الغيب)** هو العلم بأمور خمسة أشار إليها سبحانه في سورة لقمان وهو (علم السّاعة وما عدّده الله سبحانه بقوله:

(١) الكافي: ٤٣٨/٦ ح ٢، ووسائل الشيعة: ٨/٥ ح ٥٧٤٩.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

يعني عنده سبحانه علم وقت قيامها واستأثر به ولم يطّلع عليه أحد من خلقه، ويعلم نزول الغيث في مكانه وزمانه، ويعلم ما تحمله الحوامل (**فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى وقبيح أو جميل وسخيّ أو بخيل وشقيّ أو سعيد ومن يكون في النّار حطباً أو في الجنان للنّبيّين مرافقاً**) وما تدري نفس ماذا تكسب غداً من خير أو شرور بما تعزم على شيء فتفعل خلافه وقيل ما يعلم بقائه غداً فكيف يعلم تصرفه، وما تدري نفس في أيّ أرض تموت وقيل إنّه إذا أرفع خطوة لم يدر أنّه يموت قبل أن يضع الخطوة أم لا.

(**فهذا**) أي ما ذكر من العلم بالأمور الخمسة المعدودة (**علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله سبحانه وما سوى ذلك فعلم علمه سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله فعلمنيه**) رسول الله بإذن من الله (**ودعا لي بأن يعيه**) أي يحفظه (**صدري وتضطم عليه جوانحي**) أي يضبطه قلبي ويشتمل عليه، وكنى بالجوانح عن القلب لاشتمالها عليه.

أقول: ومحصّل ما استفيد من كلامه أنّ ما أخبر به من خبر الأتراك ونحوه ممّا يكون ويحدّث به في غابر الزّمان فليس هو من علم الغيب وإنّما علم الغيب هو العلم بالأمور الخمسة المعدودة في الآية الشّريفة إلاّ أنه يشكل بوجهين.

أحدهما: أنّه كيف يمكن نفي علم الغيب عمّا أخبر به مع أنك قد عرفت في شرح الفصل الثّاني من الخطبة التّسعين أن الغيب عبارة عمّا غاب عن الخلق علمه وخفي مأخذه، ومن المعلوم أنّ الحوادث التي تحدث والملاحم التي تقع في غابر الزّمان ممّا هو غائب عن نظر الخلق وحواسهم.

وثانيهما: أنّه كيف يصلح حصر علم الغيب في الأمور الخمسة فإنّه بعدما كان المدار على التعلم من ذي علم فلا تفاوت حينئذٍ بين تلك الأمور وغيرها، لا مكان العلم بها بتعليم ذي العلم، بل هو واقع، وتحقيق المقام يحتاج إلى بسط في الكلام لكونه من مزال الأقدام.

فأقول بعد الاعتصام بالملك العلاّم والتمسّك بذيل أئمّة الأنام عليهم الصّلاة والسّلام: إنّ مقتضى بعض الأدلّة هو اختصاص علم الغيب بالله سبحانه ونفيه عمّن سواه تعالى، ومقتضى البعض الآخر إثباته لغيره تعالى من الأنبياء والأئمة والملائكة والرّسل عليهم السّلام، ومفاد طآئفة ثالثة من الأدلة هو التّفصيل.

أمّا الأدلة الأولى فمنها قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وفي سورة الأعراف: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وفي سورة يونس ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا

ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠] وفي سورة هود والنحل، و﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٧]، وفي سورة النمل﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وبمعناها آيات وأخبار أخر.

وأمّا الأدلّة الثانية فمثل ما دلّ بعلم المدبّرات من الملائكة بأوقات وقوع الحوادث، وما دلّ بعلم ملك الموت بأوقات الآجال، وما دلّ على أخبار الأنبياء بالمغيبات، وما دلّ على علم النبيّ والأئمة بما كان وما يكون وما هو كائن.

كما في «**البحار**» من «**بصائر الدرجات**» عن ابن معروف عن حمّاد عن حريز عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سئل علي عليه السلام عن علم النبيّ فقال: علم النبي علم جميع النبيّين وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام السّاعة، ثم قال: والّذي نفسي بيده إنّي لأعلم علم النبيّ وعلم ما كان وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة[١].

وفيه أيضاً من «**البصائر**» عن أحمد بن محمّد عن محمّد بن سنان عن يونس عن الحرث بن مغيرة وعدّة من أصحابنا فيهم عبد الأعلى وعبيدة بن عبد الله بن بشر الخثعمي وعبد الله بن بشير سمعوا أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّي لأعلم ما في السماوات وأعلم ما في الأرضين وأعلم ما في الجنة وأعلم ما في النّار وأعلم ما كان وما يكون، ثمّ مكث هنيهة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه فقال: علمت من كتاب الله إنّ الله يقول: فيه تبيان كلّ شيء[٢].

وفيه من «**مصباح الأنوار**» بإسناده إلى المفضّل قال: دخلت على الصّادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: يا مفضّل هل عرفت محمّداً وعليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام كنه معرفتهم؟ قال: يا مفضّل من عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السّنام الأعلى، قال: قلت: عرّفني ذلك يا سيّدي، قال: يا مفضّل تعلم أنّهم علموا ما خلق الله عزّ وجلّ، وذراهُ وبَراهُ وأنّهم كلمة التّقوى وخزان السماوات والأرضين والجبال والرّمال والبحار، وعلموا كم في السّماء من نجم وملك ووزن الجبال وكيل ماء البحار وأنهارها وعيونها، وما تسقط من ورقة إلاّ علموها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، وهو في علمهم، وقد علموا ذلك، فقلت: يا سيّدي قد علمت ذلك وأقررت به وآمنت، قال: نعم يا مفضّل، نعم يا مكرم، نعم يا محبور[٣]، نعم يا طيّب طبت وطابت لك الجنّة ولكلّ مؤمن بها[٤].

---

(١) بصائر الدرجات: ١٤٧، وينابيع المعاجز: ٣٧.

(٢) بصائر الدرجات: ١٤٨، وبحار الأنوار: ٢٦/ ١١١ ح ٨.

(٣) محبور: تقصد فيها المبالغة بوصفه بالجميل ومحبور: أي نعمة حسنة.

(٤) مدينة المعاجز: ٢/ ١٣٠.

وفي «**الكافي**» عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن عمر بن عبد العزيز، عن محمّد بن الفضيل، عن أبي حمزة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لا والله لا يكون عالم جاهلاً أبداً، عالماً بشيء جاهلاً بشيء، ثمّ قال: الله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يفرض طاعة عبد يحجب عنه علم سمائه وأرضه، ثمّ قال: لا يحجب ذلك عنه[1].

إلى غير ذلك من الأَخبار المتظافرة بل المتواترة الدّالة على عموم علمهم عليهم السلام بما في الآفاق والأَنفس، وعلى كونهم أعرف بطرق السّماء من طرق الأَرض، وكونهم شهداء على النّاس والشهادة فرع العلم ومعرفتهم على النّاس لحقيقة الإيمان وحقيقة الكفر وعلمهم بعدد أهل الجنّة وأهل النّار، وغير ذلك ممّا كان أو يكون وقد مضى كثير من تلك الأَخبار في شرح الخطب السّابقة، ولا حاجة إلى الإعادة المفضية إلى التكرار والإطالة.

وأمّا الطائفة الثّالثة من الأَدلة فيستفاد منها التفصيل وبه يجمع بين الأَدلّتين المتقدّمتين ويقيد إطلاقهما أو يخصّص عمومهما ووجه الجمع أمور ثلاثةٌ:

الأول

أن يكون المراد بالأَدلة الأولى الحاصرة للغيب في الله سبحانه النافية له عن غيره أنّه سبحانه عالم به بذاته لا يعلمه غيره كذلك فيكون المراد بالأَدلّة الأخرى أنّ غيره يعلم الغيب بعلم مستفاد منه سبحانه بوحيٍ أو إلهامٍ أو نكت في القلوب ونقر في الأسماع أو غير ذلك من جهات العلم.

ويدلّ على ذلك قوله سبحانه في سورة آل عمران: و﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وفي سورة الجنّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧].

روى في «**الصّافي**» عن «**الخرائج**» عن الرّضا عليه السلام في هذه الآية قال: فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرّسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة[2].

ويأتي في رواية «**الكافي**» و«**البحار**» من «**البصائر**» عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال في هذه الآية، وكان محمّد ممّن ارتضاه، ومضى في شرح الفصل الثالث من فصول الخطبة السّادسة والثّمانين في رواية «**البحار**» قول أمير المؤمنين لسلمان: يا سلمان أمّا قرأت قول الله عزّ وجلّ

(١) الكافي: ١/٢٦٢ ح ٦ وبحار الأنوار: ٢٦/١٠٩ ح ٢.
(٢) بحار الأنوار: ٦٤/٢٨١، والتفسير الصافي: ٥/٢٣٨.

حيث يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، فقلت: بلى يا أمير المؤمنين، فقال أنا ذلك المرتضى من الرسول الذي أظهره الله عزّ وجلّ على غيبه[١].

أقول: والمستفاد من هذه الرّواية كون لفظة (من) في قوله من رسول الله ابتدائية، كما أنّ المستفاد من الروايتين السّابقتين كونها بيانيّة ولا منافاة لأنّ هذا تأويل للباطل وما تقدّم تفسير للظّاهر كما هو ظاهر، هذا.

وقال الطبرسي في تفسير هذه الآية: ثمّ استثنى فقال إلاّ من ارتضى من رسولٍ، يعني الرّسل، فإنّه يستدلّ على نبوتهم بأن يخبروا بالغيب فيكون آية ومعجزة لهم، ومعناه أنّ من ارتضاه واختاره للنبوّة والرسالة فإنّه يطلعه على من شاء من غيبه على حسب ما يراه من المصلحة وهو قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧].

والرّصد الطريق أي يجعل له إلى علم ما كان من قبله من الأنبياء والسّلف وعلم ما يكون بعده طريقاً[٢].

وقال (ره) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣]: معناه ولله علم ما غاب في السّماوات والأرض لا يخفى عليه شيء منه، ثمّ قال (ره): وجدت بعض المشايخ ممّن يتّسم بالعدل والتّشيّع قد ظلم الشّيعة الإماميّة في هذا الموضع من تفسيره فقال: هذا يدلّ على أنّ الله تعالى يختصّ بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرّافضة: إنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون الغيب، ولا شك أنّه عنى بذلك من يقول بإمامة الاثنى عشر ويدين بأنّهم أفضل الأنام بعد النبيّ عليهم السلام، فإنّ هذا دأبُه وديدنه، فهو يشنّع في مواضع كثيرة من كتابه عليهم وينسب القبائح والفضائح إليهم ولا نعلم أحداً منهم استجار الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق، وإنّما يستحقّ الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد، وهذه صفة القديم سبحانه، العالم لذاته لا يشركه فيه أحد من المخلوقين، ومن اعتقد أنّ غير الله سبحانه يشركه في هذه الصّفة فهو خارج عن ملّة الإسلام[٣].

وأمّا ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ورواه عنه الخاص والعام من الأخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرهما كإخباره عن صاحب الزّنج وعن ولاية مروان بن الحكم وأولاده وما نقل من هذا الفنّ عن أئمة الهدى عليهم السلام، فإنّ جميع ذلك ملقّى من النبي ممّا اطلعه الله عليه، فلا معنى لنسبة ما روى عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنّه يعتقد كونهم عالمين

(١) مستدرك سفينة البحار: ٨/٤٦، وبحار الأنوار: ٤٢/٥٣.
(٢) مجمع البيان: ١٠/١٥٥.
(٣) بحار الأنوار: ٢٦/١٠٠.

بالغيب، وهل هذا إلاّ سبّ قبيح وتضليل لهم بل تكفير ولا يرتضيه من هو بالمذهب خبير، والله يحكم بينه وبينهم وإليه المصير[١].

وفي «**البحار**» من «**بصائر الدرجات**» بإسناده عن عبد الأعلى وعبيدة بن بشير قال: قال أبو عبد الله ابتداء منه: والله إنّي لأعلم غيب السّماوات والأرض وما في الجنّة وما في النّار وما كان وما يكون إلى أن تقوم السّاعة، ثمّ قال: أعلمه من كتاب الله أنظر إليه هكذا ثمّ بسط كفّيه ثمّ قال: إنّ الله يقول[٢]:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفيه من «**مجالس المفيد**» بإسناده عن أبي المغيرة قال: كنت أنا ويحيى بن عبد الله بن الحسين عند أبي الحسن عليه السلام فقال له يحيى جعلت فداك إنّهم يزعمون أنّك تعلم الغيب؟ قال: سبحان الله ضع يدك على رأسي فوالله ما بقيت شعرة فيه ولا جسدي إلا قامت، ثمّ قال: لا والله ما هي إلاّ وراثة عن رسول الله[٣].

---

(١) البحار: ٢٦/ ١٠٠.
(٢) بحار الأنوار: ٢٦/ ١١١ ح ٧، وكشف الغمة: ٢/ ٤١٤.
(٣) الأمالي: ٢٣ ح ٥، وبحار الأنوار: ٢٥/ ٢٩٣ ح ٥٠.

حقيقة علمهم وسبب اخفائه

قال ورسول البشرية صلى الله عليه وآله في الحديث الصحيح:
« يا علي ما عرف الله إلاّ أنا وأنت، وما عرفني إلاّ الله وأنت، وما عرفك إلاّ الله وأنا »إرشاد القلوب: ٢/ ٢٠٩، ومشارق انوار اليقين: ١١٢ ورمز له بالصحة . .
وقال صلى الله عليه وآله مخاطباً علياً عليه السلام: «هذا رجل لا يعرفه إلاّ الله ورسوله». مشارق انوار اليقين: ١١٢ .
وكيف يُعرف علي عليه السلام وهو القائل:
«بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية
في الطوي البعيدة »نهج البلاغة: ٥٢ الخطبة ٥ والارشية الحبال والطوي البئر، والتذكرة الحمدونية: ١/ ٩١ ح ١٦٦ بلفظ: لقد اندمجت .
ويصف الإمام الصادق عليه السلام هذا العلم ليقول: «ان عندنا والله سرّاً من سرّ الله وعلماً من علم الله، والله ما يحتمله ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن إمتحن قلبه للايمان، والله ما كلّف الله ذلك أحداً غيرنا، ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا .
وانّ عندنا سرّاً من سرّ الله وعلماً من علم الله، أمرنا بتبليغه فبلغناه عن الله عز وجل ما أمرنا بتبليغه ». أصول الكافي: ١ / ٤٠٢ باب حديثهم صعب مستصعب ح٥، وبحار الانوار: ٢٥ / ٣٨٥ باب غرائب أفعالهم ح٤٤.

سبب اخفاء النبي للعلم الربّاني

آل محمّد صلى الله عليه وآله كانوا يخفون كثيراً من علومهم، حتى أخبروا أنفسهم بالعلّة وهي عدم الكتمان، فعن أبي عبد الله عليه السلام: «والله لو أن على أفواههم أوكية لأخبرت كل رجل منهم ما لا يستوحش إلى شيء»، ولكن فيكم

وفي «**الكافي**» عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد بن عيسى عن معمّر بن خلاد

الإذاعة، والله بالغ أمره »بحار الانوار: ٢٦ / ١٤١ ح١٣ باب انه لا يحجب عنهم شيء .
وعن الإمام الباقر عليه السلام :« لو كان لألسنتكم أوعية لحدثت كل امرىء بما له وعليه ». بحار الانوار: ٢٦ / ١٤٩ ح٣٤ باب انه لا يحجب عنهم شيء .
وقال الإمام زين العابدين عليه السلام :

اني لأكتم من علمي جواهره	كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن	إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
يارب جوهر علم لو أبوح به	لقيل لي: أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنا

ـ الأصول الأصيلة: ١٦٧ ، وغرر البهاء الضوي: ٣١٨، ومشارق انوار اليقين: ١٧ ، وجامع الأسرار: ٣٥ ح٦٦ .
وقال الإمام الصادق عليه السلام لمن سأله عن سبب رفع النبي عليّاً عليه السلام على كتفه ؟
فقال :« ليعرف الناس مقامه ورفعته .
فقال: زدني ؟
فقال عليه السلام :« ليعلم الناس انّه أحق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله .
فقال: زدني ؟
فقال :« ليعلم الناس انه إمام بعده والعَلم المرفوع .
فقال: زدني ؟
فقال :« هيهات، والله لو أخبرتك بكنه ذلك لقمت عنّي وأنت تقول ان جعفر ابن محمد كاذب في قوله أو مجنون ». مشارق انوار اليقين: ١٧ .
وقال الإمام الصادق عليه السلام : «خالطوا الناس بما يعرفون، ودعوهم مما ينكرون، ولا تحملوا على أنفسكم وعلينا؛ إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ ملكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو عبدٌ مؤمن امتحن الله قلبه للايمان . الأصول الأصيلة: ١٦٩ .
وقال عليه السلام :« لا تذيعوا سرّنا ولا تحدّثوا به عند غير أهله فان المذيع سرّنا أشدّ علينا من عدوّنا ». الخرايج والجرايح: ٢٦٧ باب ٧ .
وقد بيّن الإمام العسكري عليه السلام علّة عدم اخبارهم بالأمور الغيبية بقوله لموسى الجوهري :« ألسنا قد قلنا لكم لا تسألونا عن علم الغيب، فنخرج ما علمنا منه إليكم، فيسمعه من لا يطيقه إستماعه فيكفر ». الهداية الكبرى: ٣٣٤ باب ١٣ .
على أن الظروف التي كان يعيشها النبي صلى الله عليه وآله وكذلك بعض الأئمة كانت مختلفة فرسول الله صلى الله عليه وآله كان في بداية الدعوة الإسلامية وقريب عهد بالجاهلية .
بينما أمير المؤمنين عليه السلام جاء بعده بسنوات، وهكذا الأئمة واحداً بعد واحد .
وإذا أردنا أن نبرم هذا الكلام فلا بأس بنقل كلام لسماحة الشيخ محمد الحسين المظفر الذي يصلح أن يكون جواباً عن هذا المطلب: قال بعد أن ذكر توقف الرسالة على علم النبي صلى الله عليه وآله بكل الأشياء: فعلم الرسول بالعالم وإحاطته بما يحدث فيه وقدرته على تعميم الاصلاح للداني والقاصي والحاضر والباد؛ من أُسس تلك الرسالة العامة وقاعدة لزومية لتطبيق تلك الشريعة الشاملة .
غير ان الظروف لم تسمح لصاحب هذه الرسالة صلى الله عليه وآله أن يظهر للاٌمّة تلك القوى القدسية والعلم الربّاني

قال: سأل أبا الحسن عليه السلام رجل من أهل فارس فقال له: أتعلمون علم الغيب فقال قال أبو جعفر: يبسط لنا العلم فنعلم ويقبض عنّا فلا نعلم، وقال: سرّ الله عزّ وجلّ أسرّه إلى جبرئيل وأسرّه جبرئيل إلى محمّد صلى الله عليه وآله، وأسرّه محمّد إلى من شاء الله[1].

قال المفيد (ره) في محكيّ كلامه من كتاب «**المسائل**»: أقول: إنّ الأئمة من آل محمد عليهم السلام قد كانوا يعرفون ضمائر بعض عباده، ويعرفون ما يكون قبل كونه وليس ذلك بواجب في صفاتهم، ولا شرط في إمامتهم، وإنّما أكرمهم الله تعالى به وعلمهم إياه للطف في طاعتهم والتبجيل بإمامتهم، وليس ذلك بواجب عقلاً، ولكنه وجب لهم من جهة السّماع، فأما إطلاق القول عليهم بأنهم يعلمون الغيب فهو منكر بيّن الفساد، لأنّ الوصف بذلك إنّما يستحقه من علم الأشياء بنفسه، لا بعلم مستفاد وهذا لا يكون إلاّ لله عز وجلّ، وعلى قولي هذا جماعة أهل الدهامة إلاّ من شذ عنهم من المفوّضة ومن انتمى إليهم من الغلاة[2]، هذا.

الفيّاض . وكيف يعلن بتلك المواهب والاسلام غضّ جديد، والناس لم تتعرّف تعاليم الإسلام الفرعية بعد؟!

فكيف تقبل أن يتظاهر بتلك الموهبة العظمى وتطمئن إلى الايمان بذلك العلم. بل ولم يكن كل قومه الذين انضووا تحت لوائه من ذوي الايمان الراسخ، وما خضع البعض منهم للسلطة النبوية إلاّ بعد اللتيا والتي وبعد الترهيب والترغيب ». علم الإمام: ٩ ـ ١٠ .

أقول: عدم افصاح النبي الأعظم صلى الله عليه وآله عن كنه علمه كان بالنسبة لعامّة الناس.

وإلاّ فقد أفصح لخاصة أصحابه عن كنه حقيقته وحقيقة علمه، بل وفي بعض الأحيان كان يفصح للكثير من الصحابة عن بعض الأمور الغيبية أو الغامضة الجديدة، كما تقدّم في كثير من الأحاديث حول عالم الأنوار، وانّه كان حول العرش هو وآله، وانه كان نبياً وآدم بين الطين والماء .

إضافة إلى أحاديث أمير المؤمنين عليه السلام في وصف النبيّ الأعظم وعلمه وانّه علّمه ألف باب من العلم يفتح منه ما أراد، والذي يشعر بأنّه ليس تعليماً كسبياً، بل إشارة إلى المنحة الربّانية التي أفاضها النبي على آل محمد (عليهم السلام).

(١) الكافي: ١/٢٥٦ ح ١، وميزان الحكمة: ٣/٢٣٢٦.

(٢) **علم آل محمّد للغيب**

قال رجب البرسي: وها إننا نورد في هذا الفصل شمة من أسرار الأئمة الهداة والبررة السادات، والميامين الولاة، ونطقهم بالمغيبات، وإظهارهم الكرامات وإبرازهم الخفيات، توبيخاً لأهل الجهالات، الذين أنكروا هذه الحالات، ومنعوا هذه الصفات، وزعموا أنهم من العداة.

وكيف لا يطلعون على الغيب ؟

وعلمه واجب لهم من وجوه: الأوّل أن الله سبحانه سطر في اللوح المحفوظ علم ما كان وما يكون، ثم أبرز إلى كل نبي منهم ما يكون له ولأوصيائه، إلى ظهور الشريعة التي تأتي بعده حتى ختمت الرسل بفاتحهم، وختمت الشرايع بخاتمها، فوجب أن يكون عنده علم ما سبق وما يلحق إلى يوم القيامة، لكونه خاتماً لأن كتابه الجامع المانع، ثم إنه ليلة المعراج لما وصل المقام الأسنى، وكان قاب قوسين أو أدنى، وعلا على اللوح المحفوظ رفعة وعلماً، وخوطب من الأسرار الإلهية بما ليس في اللوح، فكان علم الغيب الأول والآخر عنده وله، بل هو اللوح المحفوظ لأنه السابق على الكل وجوداً، والممد للكل جوداً، فعلم

وأنت بعدما أحطت خبراً بما ذكرنا تقدر على دفع ما استشكلناه في كلامه عليه السلام من نفيه

ما كان وما يكون عنده وعند أوصيائه (مشارق: ١٠٧).
أقول: الذي يدّعي علم الغيب للإمام والنبي: لا يدّعيه على نحو الاستقلالية، بل يدعي أن الله أطلع نبيّه وأهل بيته على الأمور الغيبية التي لم يطلع عليها أحداً.
وإن شئت قلت: علم الغيب لذات الشخص وبلا توسط من الغير هو العلم الثابت لواجب الوجود والذي هو عين الذات، وهذا مختص بالله ولغيره كفر.
أمّا العلم بالغيب الذي هو بتوسط الله تعالى وليس هو عين الذات، فهذا الذي علمته الأئمة ورسول الله صلى الله عليه وآله وعليه دلت الآيات والروايات:
فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «والله لقد أعطينا علم الأوّلين والآخرين».
فقال له رجل من أصحابه: «جعلت فداك أعندكم علم الغيب؟
فقال له عليه السلام: «ويحك إنّي أعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء، ويحكم وسّعوا صدوركم ولتبصر أعينكم ولتع قلوبكم، فنحن حجّة الله تعالى في خلقه ولن يسع ذلك إلاّ صدر كلّ مؤمن قوي قوّته كقوّة جبل تهامة إلاّ بإذن الله، والله لو أردت أن أحصي لكم كل حصاة عليها لأخبرتكم» (بحار الانوار: ٢٦ / ٢٨ ح٢٨ باب جهات علومهم عن مناقب آل أبي طالب: ٣ / ٣٧٤).
وقال رسول الله لعلي عليه السلام: «إنّ الله أطلعني على ما شاء من غيبه وحياً وتنزيلاً واطلعك عليه إلهاماً» (مشارق أنوار اليقين: ١٣٥ ـ ١٣٦ و٢٥ وفي بحار الأنوار: ٢٦ / ٤ ح١: «أنا صاحب اللوح المحفوظ ألهمني الله علم ما فيه»).
وقيل لأبي جعفر عليه السلام: إن شيعتك تدعي أنك تعلم كيل ما في دجلة. وكانا جالسين على دجلة.
فقال له أبو جعفر عليه السلام: «يقدر الله عز وجل أن يفوض علم ذلك إلى بعوضة من خلقه؟»
قال: نعم.
فقال عليه السلام: «أنا أكرم على الله من بعوضته» ثم خرج. (إثبات الوصية: ١٩١ ـ ١٩٢).
وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة يصف فيها الإمام: «فهو الصدق والعدل. يطلع على الغيب ويعطى التصرف على الإطلاق» (بحار الأنوار: ٢٥ / ١٧٠ ح٣٨ ومشارق أنوار اليقين: ١١٥).
وقال الإمام الصادق عليه السلام: «يا مفضل من زعم أن الإمام من آل محمد يعزب عنه شيء من الأمر المحتوم فقد كفر بما نزل على محمّد، وإنّا لنشهد أعمالكم ولا يخفى علينا شيء من أمركم، وإن أعمالكم لتعرض علينا، وإذا كانت الروح وارتاض البدن أشرقت أنوارها، وظهرت أسرارها وأدركت عالم الغيب» (مشارق أنوار اليقين: ١٣٨).
وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا في رسول الله صلى الله عليه وآله، ألا وإني مفضيه إلى الخاصّة» (نهج البلاغة: ٢٥٠ الخطبة ١٧٥).
وقالت عائشة للإمام الحسن عليه السلام بعد أن أخبرها بما فعلته يوم وفاة الأمير ولم يطلع عليه أحد سواها: يا ابن خبوت جدّك وأبوك في علم الغيب، فمن ذا الذي أخبرك بهذا عنّي!! (الهداية الكبرى: ١٩٧ ـ ١٩٨، ذيل الباب الرابع).
وعندما أخبرها بخفايا ضميرها وما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وآله من حربها الأمير عليه السلام قالت: جدّك أخبرك بذلك أم هذا من غيبك؟!
قال عليه السلام: «هذا من علم الله وعلم رسوله وعلم أمير المؤمنين» (الهداية الكبرى: ١٩٧ ـ ١٩٨، ذيل الباب الرابع).

علم الغيب عمّا أخبر به عن خبر الأتراك، ومحصّل دفعه أن قوله: (يا أخا كلب) إنّه ليس هو

وقال الإمام الحسن العسكري ﷺ لمن سأله عن القائم المنتظرعجل الله فرجه : «ألسنا قد قلنا لكم لا تسألونا عن علم الغيب فنخرج ما علمنا منه إليكم فيسمعه من لا يطيق استماعه فيكفر» (الهداية الكبرى: ٣٣٤ باب ١٣).

وعن الإمام زين العابدين ﷺ :« ألا إن للعبد أربع أعين: عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته [وأمر آخرته]» (الخصال: ١ / ٢٤٠ ح٩٠ باب الأربعة).

ورواه المتقي الهندي في كنز العمال بلفظ: «ما من عبد إلاّ وفي وجهه عينان يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه ؛ فأبصر بهما ما وعده بالغيب، فآمن بالغيب على الغيب » (كنز العمّال: ٢ / ٤٢ ح٣٠٤٣).

وفي قصة أبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة ما يؤكّد علم الإمام الكاظم ﷺ للغيب حيث قال أحدهما لصاحبه: جئنا لنسأله عن الفرض والسنّة وهو الآن جاء بشيء من علم الغيب.

فسألاه: من أين أدركت أمر هذا الرجل الموكل بك أنّه يموت في هذه الليلة ؟

قال الإمام ﷺ: «من الباب الذي أخبر بعلمه رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ» (الخرايج والجرايح: ٢٨٧ ـ ٢٨٨ الباب الثامن).

وأيضاً في قصة إخبار الإمام الرضا ﷺ ابن هذاب بما يجري عليه ما يزيل الشكّ في الباب حيث قال ﷺله :« إن أخبرتك أنّك ستبلى في هذه الأيام بذي رحم لك كنت مصدّقاً لي ؟ »

قال: لا، فإن الغيب لا يعلمه إلاّ الله تعالى .

قال ﷺ: «أوليس الله يقول: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول**﴾ فرسول الله ﷺ عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه، فعلّمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وإن الذي أخبرتك يا ابن هذاب لكائن إلى خمسة أيّام، فإن لم يصح ما قلت فبهذه المدّة، وإلاّ فإنّي كذّاب مفتر، وإن صحّ فتعلم أنّك الراد على الله وعلى رسوله.

ولك دلالة أخرى فتصاب ببصرك وتصير مكفوفاً فلا تبصر سهلاً ولا جبالاً وهذا كائن بعد أيام.

ولك عندي دلالة أخرى أنّك ستحلف يميناً كاذبة فتضرب بالبرص ».

قال محمد بن الفضل: بالله لقد نزل ذلك كلّه بابن هذاب (الخرايج والجرايح: ٣٠٦ الباب التاسع).

* أقول: هذه رواية صريحة في علمهم للغيب لا ينكرها إلاّ ناصبي .

وعن أمير المؤمنين ﷺ في خطبة له: «والإمام يا طارق بشر ملكي وجسد سماوي، وأمر إلهي وروح قدسي، ومقام عليّ ونور جليّ وسرّ خفيّ، فهو ملك الذات إلهي الصفات، زائد الحسنات عالم بالمغيبات؛ خصّاً من ربّ العالمين ونصّاً من الصادق الأمين» (بحار الأنوار: ٢٥ / ١٧٢ ح٣٨ باب جامع في صفات الإمام).

وعن أبي جعفر الجواد ﷺ لما أخبر أمّ الفضل بنت المأمون بما فاجأها ممّا يعتري النساء عند العادة.

قالت له: لا يعلم الغيب إلاّ الله .

قال ﷺ: «وأنا أعلمه من علم الله تعالى »الإرشاد إلى ولاية الفقيه: ٢٥٤ .

* أقول: وهذه رواية أخرى تنص على علمهم للغيب فلا تغفل وأزل الشك من قلبك .

وفي خطبة لأمير المؤمنين يذكر فيها صفات الإمام جاء فيها: «ويلبس الهيبة وعلم الضمير، ويطلع على الغيب ويعطى التصرّف على الإطلاق »مشارق أنوار اليقين: ١١٥ . .

هذا إضافة إلى روايات إخبارهم بأمور غيبية جزئية ليس هنا محل ذكرها .

بعلم غيب، لم يرد به نفي علم الغيب عنه رأساً أراد به سلب علم الغيب على زعم الكلبي السّائل فإنه عليه السلام لما أخبر بما أخبر من الغيب توهم السّائل أنه عليه السلام علمه من تلقاء نفسه بدون توسّط معلم كما هو زعم الغلاة فرده عليه السلام بقوله: **(ليس هو بعلم غيب وإنّما هو تعلّم من ذي علم)**.

فإن قلت: قول السّائل لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب ينافي ذلك، لظهوره في أنّ اعتقاده أنّ الله أعطاه العلم بذلك، لا أنه علمه بنفسه.

قلنا: لفظ الإعطاء لا ينافيه، لإمكان أن يكون مراده منه أنه عليه السلام آتاه الله قوّة يقتدر بها على علم الغيب من غير حاجة إلى وساطة النبيّ صلى الله عليه وآله أو إلهام إلهي أو توسّط الملائكة النّازلين في ليلة القدر ونحو ذلك وبالجملة من دون حاجة إلى تعليم معلّم، فافهم وتأمّل.

والحاصل أنّهم عليهم السلام لا يعلمون إلاّ ما علّمهم الله سبحانه، وتعليمه في كُلّ آن فلو لم يعلمهم في آن ما كان عندهم شيء ولا يعلمهم الله إلاّ بواسطة محمّد وهو قولهم الحق كما في «**الكافي**» عن زرارة قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لولا أنّا نزاد لأنفذنا، قال: قلت: تزدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أما إنه إذا كان ذلك عرض على رسول

وقال تعالى: **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول﴾** الجن: ٢٦.

قال الإمام الرضا عليه السلام لعمرو بن هذاب عندما نفى عن الأئمة (عليهم السلام) علم الغيب محتجاً بهذه الآية: « إن رسول الله هو المرتضى عند الله، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على غيبه فعلّمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة» (بحار الأنوار: ١٢ / ٢٢ و١٥ / ٧٤).

وقال أبو جعفر عليه السلام: « **﴿إلاّ من ارتضى من رسول﴾** وكان والله محمد ممن ارتضاه »**﴿الإرشاد الى ولاية الفقيه: ٢٥٧، وقريب منه في الخرايج والجرايح: ٣٠٦﴾**.

وقال: **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك. تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾** آل عمران: ٤٤، هود: ٤٩، يوسف: ١٠٢.

وقال: **﴿وعلّمك ما لم تكن تعلم﴾**. النساء: ١١٣، وهي عامة.

﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ يس: ١٢. والإمام المبين هو أمير المؤمنين علي عليه السلام (ينابيع المودة: ١ / ٧٧ ط. اسلامبول و٨٧ ط. النجف، وتفسير نور الثقلين: ٤ / ٣٧٩ مورد الآية والهداية الكبرى: ٩٨ الباب الثاني والأنوار النعمانية: ١ / ٤٧ و: ٢ / ١٨).

وقال تعالى: **﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين﴾** يونس: ٦١، وسبأ: ٣.

وقال عز من قائل: **﴿وكل شيء أحصيناه كتاباً﴾** النبأ: ٢٩. وهم الكتاب المبين (ينابيع المودة: ١ / ٨١ ط. النجف و١ / ٧١ ط. تركيا ومشارق أنوار اليقين: ١٣٦).

وقال تعالى: **﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾** الأعراف: ١٥٦.

فروي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسيرها: « علم الإمام، ووسع علمه الذي هو من علمه كل شيء» (نور الثقلين: ٢ / ٧٨ ح ٢٨٨ عن الكافي).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « أنا رحمة الله التي وسعت كل شيء» (الهداية الكبرى: ٤٠٠).

الله ثمّ على الأئمة ثمّ انتهى الأمر إلينا[(١)].

وعن يونس بن عبد الرّحمٰن عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ليس شيء يخرج من عند الله عزّ وجلّ حتّى يبدأ برسول الله، ثمّ بأمير المؤمنين، ثمّ بواحد بعد واحد لكي لا يكون آخرنا أعلم من أوّلنا[(٢)].

فملخّص الكلام وفذلكة المرام ما ورد في الأخبار وذكره علماؤنا الأخيار من أنّهم لا يعلمون الغيب لا ينافي بإخبارهم بأشياء كثيرة من الغيب، لأنّ ذلك كله من الوحي الذي نزل على رسول الله فعلّمهم رسول الله ذلك بأمر من الله، ولأنّ عندهم علم القرآن كله وفيه تبيان كلّ شيء، وتفصيل كل شيء وهو مستور محجوب عن الأغيار وقد كشفه الله سبحانه لمحمّد وآله الأطهار الأبرار، وما أخبروا به من ذلك المستور عن غيرهم، وأيضاً عندهم الإسم الأكبر وبه يعلمون ما شاؤوا كما ورد في أحاديثهم فعلى ما ذكر لو قيل أنّهم لا يعلمون الغيب بمعنى من ذاتهم فهو حقّ، وأمّا لو قيل إنهم لا يعلمونه أصلاً فلا، بل قد علموا كثيراً منه بتعليم الرّسول وعلموا بعضه بما عندهم من الاسم الأكبر وبعضه بما كتب في القرآن ومصحف فاطمة والجامعة والجفر، وبعضه بالملائكة الذين ينزلون إليهم ليلة القدر وبغيرهم من الملائكة المسخّرين لهم، والجانّ الذين يخدمونهم وينقلون إليهم علوم ما غاب عنهم وما لم يكن مشاهداً وعلى هذه كلّها دلّت أخبارهم وهذه العلوم الغائبة هي المشار إليها في قوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، هي المراد بقوله في الزّيارة الجامعة: واصطفاكم بعلمه وارتضاكم لغيبه واختاركم لسرّه[(٣)].

الوجه الثاني

أن يقال: إنّ الغيب على قسمين: قسم هو غيب عند الكلّ، وقسم هو غيب عند بعض شهادة عند آخر، والأول قد يعبّر عنه بالعلم المكفوف وهو مختص بالله سبحانه وعليه يحمل الأدلة الدّالّة على أنّ الغيب لله، والثاني هو المعبّر عنه بالعلم المبذول وعليه يحمل الأدلّة المثبتة لعلمهم بالغيب وهذه القسمة مستفادة من أخبار كثيرة.

مثل ما في «**البحار**» من «**بصائر الدّرجات**» بإسناده عن بشير الدهان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ لله علماً لا يعلمه أحد غيره، وعلماً قد علمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه.

---

(١) الأمالي: ٤٠٩ ح ٩١٩، وبحار الأنوار: ٢٦/٨٦ ح ٢.

(٢) الكافي: ١/ ٢٥٥ ح ٤، والاختصاص: ٣١٣.

(٣) بحار الأنوار: ٩٩/ ١٢٨، وشرح الزيارة الجامعة: ٢٣.

وعن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال إنّ لله علماً علّمه ملائكته وأنبياءه ورسله فنحن نعلمه، وعلماً لم يطّلع عليه أحد من خلق الله(١).

وعن سدير قال: حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، قال أبو جعفر عليه السلام إنّ الله ابتدع الأشياء كلّها على غير مثال كان، وابتدع السّماوات والأرض ولم يكن قبلهنّ سماوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، فقال حمران: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، فقال له أبو جعفر عليه السلام: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]، وكان الله ومحمّد ممّن ارتضاه، وأمّا قوله عالم الغيب بأنّ الله تبارك وتعالى عالم بما غاب عن خلقه ممّا يقدّر من شيء ويقضيه في علمه، فذلك يا حمران علم موقوف عنده إليه فيه المشيئة فيقضيه إذا أراد ويبدو له فلا يمضيه، فأمّا العلم الذي يقدره الله ويقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله ثمّ إلينا(٢).

ورواه في «**الكافي**» عن سدير نحوه إلاّ أن فيه بعد قوله: ويقضيه في علمه، قبل أن يخلقه وقبل أن يفضيه إلى الملائكة.

وفي «**البحار**» من «**البصائر**» أيضاً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ لله علمين: علم مكنون مخزون لا يعلمه إلاّ هو من ذلك يكون البداء، وعلم علّمه ملائكته ورسله وأنبياءه ونحن نعلمه.

قال العلامة المجلسي: قوله: من ذلك يكون البداء أي إنّما يكون البداء فيما لم يطّلع الله عليه الأنبياء والرّسل حتماً لئلا يخبروا فيكذبوا، هذا.

وربما يظهر من بعض الأخبار أنّه قد يخرج من العلم المخزون إليهم عليهم السلام ما لا يخرج إلى غيرهم، وهو ما رواه في «**البحار**» من «**البصائر**» عن ابن هاشم عن البرقي رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ لله علمين، علم تعلمه ملائكته ورسله، وعلم لا يعلمه غيره، فما كان ممّا يعلمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه، وما خرج من العلم الذي لا يعلم غيره فإلينا يخرج(٣).

ويدلّ على ذلك ما قدّمناه في تحقيق معنى السّر في شرح الفصل الرّابع من فصول

---

(١) بصائر الدرجات: ١٣٠ ج ٧، والأمالي: ٢١٥ ح ٣٧٥.

(٢) بصائر الدرجات: ١٣٣ ح ١، والكافي: ١/٢٥٦ ح ٢.

(٣) بصائر الدرجات: ١٣٢ ح ١٧، وبحار الأنوار: ٤/٨٩ ح ٣٢.

الخطبة الثانية، فليراجع إليه.

وقال بعض الأعلام في «**توضيح المرام**»: اعلم أنّ المراد بالغيب ما غاب عن الحسّ، فإذا قيل غيب الله يراد به ما غاب عن بعض خلقه أو عن كلّهم، لأنّ الله سبحانه لم تغب عنه غائبة فلا يكون عنده غيب، وأمّا خلقه فلهم غيب وشهادة، وقد يكون غيب في امكان عند بعض شهادة عند بعض آخر، وقد يكون غيب عند الكلّ.

أمّا الأوّل هو الغيب الذي ارتضاهم عليهم السلام له، وهو غيب عند غيرهم وشهادة عندهم.

وأمّا الثّاني وهو ما كان غيباً عند كلّ الخلق فهو ما دخل في الإمكان وأحاطت به المشيئة إلاّ أنّه لم تتعلّق به تعلّق التكوين، وهذا لا يتناهى ولا ينفد أبد الآبدين وذلك هو خزائنه التي لا تفنى ولا يتصوّر فيها نقص بكثرة الإنفاق، فهو عزّ وجلّ ينفق منها كيف يشاء، والذي ينفق منه في أوقات الإنفاق وأمكنته ينزل من الغيب إلى البيوت التي ارتضاهم لغيبة ينزّل من أبوابها ما يشاء.

وذلك المخزون منه محتوم، ومنه موقوف فالمحتوم منه ما لا يمكن تغييره وهو كون ما كان فإنّه لا يمكن بعد أن كان ألا يكون، ومنه ما يمكن تغييره ولكنّه وعد ألا يغيّره وهو لا يخلف الميعاد. وقال تعالى في محتوم الخير: فلا كفران لسعيه وإنّا له لكاتبون، وفي محتوم الشر: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وهذا المحتوم لو شاء غيّره ومحاه.

والموقوف مشروط فيكون كذا إن حصل كذا وإن لم يحصل كذا لكان كذا وكذا، والشّرط هو السّبب وأما المانع فقد يكون في الغيب والشّهادة، وقد يكون في الغيب ولا يكون في الشهادة؛ لأنّه إذا وجد في الشهادة وجد في الغيب ولا يلزم العكس.

فإذا وجد المقتضى فإن وجد المانع منه فإن اعتدلا فهو الموقوف كما ذكر وان رجّح أحدهما فالحكم له.

فإذا وجد المقتضى وفقد المانع فإن فقد في الغيب والشّهادة حتم وجوده، فإن تمت قوابله وجد ووصل إليهم علمه لأنّه ممّا شاء، وإن انتظرت جاز في الحكمة الاخبار به فيخبر به على جهة الحتم ولا بدّ أن يكون إلاّ أنّه قبل كونه في الصّفحة الثّانية من اللّوح، وهذا عندهم عليهم السلام ومنه ما كان ومنه ما يكون، وإلى هذا القسم أشاروا في إخبارهم أنّ عندنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

وإن فقد المانع في الغيب خاصّة جاز في الحكمة الإخبار به فيخبر به من غير حتم، وهذا قد يكون وقد لا يكون، والفائدة في الإخبار به مع أنّه سبحانه لا يكذّب نفسه ولا يكذّب

أنبياءه ورسله وحججه هي إظهار التّوحيد بالخلق والأمر والاستقلال بالملك وإرشاد الخلق إلى اعتقاد البداء، لأنّه ما عبد الله شيء أفضل من البداء أي إثبات البداء لله تعالى، وهذا يجوز للحجج الإخبار به لا على سبيل الحتم بل عليهم أن يعرفوا من لا يعرفوا إنّ الله يفعل ما يشاء وإنّه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب.

ولهذا قالوا عليهم السّلام ما معناه إذا أخبرناكم بأمر فكان كما قلنا فقولوا: صدق الله ورسوله، وإن كان بخلاف ذلك فقولوا: صدق الله ورسوله تؤجروا مرّتين[(١)].

وليس عليهم أن يعرفوا من لا يعرف هذا في خصوص الواقعة، لأنّ ذلك يوجب الشّك في تصديقهم عند أكثر النّاس، وقد يلزمهم من ذلك التقول على الله لأنّه سبحانه لم يأمر بذلك في كلّ واقعة، وإن كان قد يأمر بذلك كما في وعد موسى بين ثلاثين وأربعين في معرض التقرير والهداية والبيان وقد يلزم من البيان خلاف المقصود من الإخبار، وهذا القسم قد يكون يوجد مانعة في الشهادة كالصدقة في دفع البلاء المبرم يعني الذي أبرم في الغيب لعدم المانع هناك والدّعاء في ردّ البلاء وقد أبرم إبراماً كذلك، وكبعض الأفعال بل وكلّ الطّاعات وتفصيل ذلك يطول.

الوجه الثالث

أن يحمل الأدلّة الحاصرة لعلم الغيب في الله سبحانه على الخمسة المذكورة في الآية، والأدلّة المثبتة له على غيره تعالى على ما سوى الخمسة ويدلّ على هذا الجمع هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام الذي نحن في شرحه.

ويدلّ عليه أيضاً ما في «**البحار**» من تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي (ره) بعد ذكر الآية قال الصّادق عليه السلام: هذه الخمسة أشياء لم يطّلع عليه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل وهي من صفات الله عزّ وجلّ[(٢)].

ومن الخصال عن ابن الوليد عن الصّفار عن ابن هاشم عن عبد الرحمٰن بن حمّاد عن إبراهيم بن عبد الحميد عن أبي أسامة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي أبي: ألا أخبرك بخمسة لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه؟ قلت: بلى قال عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، الآية[(٣)].

---

(١) الكافي: ١/٣٦٩، وغيبة النعماني: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(٢) بصائر الدرجات: ١٢٩ ح ١، وبحار الأنوار: ٤/٨٢ ح ٩.
(٣) الخصال: ٢٩٠ ح ٤٩، وبحار الأنوتر: ٢٦/١٠٢ ح ٢.

ومن «**البصائر**» عن أحمد بن محمّد عن محمّد بن سنان عن أبي الجارود عن الأصبغ بن نباتة قال سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إنّ لله علمين: علم استأثر به في غيبه فلم يطلع عليه نبيّاً من أنبيائه ولا ملكاً من ملائكته وذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وله علم قد أطلع عليه ملائكته فما أطلع عليه ملائكته فقد أطلع عليه محمّداً وآله، وما أطلع عليه محمّداً وآله فقد أطلعني عليه بعلمه الكبير منّا والصّغير[(١)].

وبمعناها أخبار أخرى مفيدة لتفرّد الله سبحانه بهذه الأمور الخمسة إلاّ أن هذا الجمع يشكل من وجهين:

أحدهما: أنّ أشياء كثيرة أخبروا عليهم السلام بأنهم لا يعلمونها، وليست من هذه الخمسة.

وثانيهما: أنهم عليهم السلام كثيراً ما أخبروا بكثير من هذه الأمور الخمسة كما هو غير خفي على من تتبّع الأخبار والآثار.

منها إخبار أمير المؤمنين بحمل الجارية التي اختصم فيها قومه وإعلامه بأن الجنين في بطنها علقة وزنها سبعمائة وخمسون درهماً ودانقان، فوجدوها كما قال عليه السلام حتى قال أبوها: أشهد أنك تعلم ما في الأرحام والضمائر، وأنت باب الدّين وعموده في قصّة بيت الطست المعروفة.

ومنها إخباره بوقت قتله ومقتله وقاتله وكذلك الحسين عليه السلام.

ومنها إخبارهم بآجال النّاس مثل ما في «**الكافي**» عن أحمد بن مهران عن محمّد بن عليّ عن سيف بن عميرة عن إسحاق بن عمّار قال: سمعت العبد الصّالح ينعى إلى الرّجل نفسه، فقلت في نفسي: وإنّه ليعلم متى يموت الرّجل من شيعته فالتفت إليّ شبه المغضب وقال: يا إسحاق قد كان رشيد الهجري يعلم علم المنايا والبلايا والإمام أولى بعلم ذلك، ثمّ قال: يا إسحاق اصنع ما أنت صانع فإنّ عمرك قد فنا وإنّك تموت إلى سنتين وإخواتك وأهل بيتك لا يلبثون إلاّ يسيراً حتّى تتفرق كلمتهم ويخون بعضهم بعضاً حتّى يشمت بهم عدوّهم، فكان هذا في نفسك، فإنّي أستغفر الله بما عرض في صدري، فلم يلبث اسحاق بعد هذا المجلس إلا يسيراً حتى مات، فما أتى عليهم إلاّ قليل حتّى قام بنو عمّار بأموال النّاس فأفلسوا[(٢)].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٦/١٠٢ ح ٣.

(٢) الكافي: ١/٤٨٤ ح ٧، وتهذيب المقال: ٣/٢٨.

وفيه عن إسحاق قال حدّثني محمّد بن الحسن بن شمّون قال حدّثني أحمد بن محمّد قال كتبت إلى أبي محمّد عليه السلام حين أخذ المهتدي في قتل الموالي: يا سيّدي الحمد لله الذي شغله عنّا، فقد بلغني أنّه يهددك ويقول والله لأجلينّهم عن جديد الأرض فوقّع أبو محمّد بخطه عليه السلام[١]: ذاك أقصر لعمره، عد من يومك هذا خمسة أيّام ويقتل في اليوم السّادس بعد هوان واستخفاف يمرّ به، فكان كما قال عليه السلام.

وفي **«العيون»** عن سعد بن سعد عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام أنّه نظر إلى رجل فقال له يا عبد الله أوص بما تريد واستعدّ لما لا بد منه فكان، فمات بعد ذلك بثلاثة أيّام[٢].

وفي **«الاحتجاج»** فيما خرج من التّوقيع إلى أبي الحسن السّمري رابع الوكلاء الأربعة: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم يا عليّ بن محمّد السّمري أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنّك ميّت ما بينك وبين ستة أيام، فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد يقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التّامة، فلا ظهور إلاّ بعد إذن الله تعالى ذكره وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي شيعتي من يدعي المشاهدة، ألا فمن ادّعى المشاهدة قبل خروج السّفياني والصّيحة فهو كاذب مفتري ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم. فنسخوا هذا التّوقيع وخرجوا من عنده فلمّا كان اليوم السّادس عادوا إليه وهو يجود بنفسه، فقال له بعض النّاس: من وصيّك بعدك، فقال: لله أمر هو بالغه وقضى، فهذا آخر كلام سمع منه رضي الله عنه وأرضاه[٣]، هذا.

والأخبار الدّالّة على علمهم عليهم السلام بالمنايا والبلايا والأنساب، وبعلمهم بأنهم متى يموتون، وبعلمهم بما في الأرحام، وبما يصيبون ويكتسبون، وبنزول المطر فوق حدّ الإحصاء متجاوزة عن حدّ الاستقصاء.

روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: ان الإمام لو لم يعلم ما يصيبه وإلى ما يصير فليس ذلك بحجّة الله على خلقه[٤].

وإذا عرفت ذلك فأقول: ويمكن التقصي عن هذين الإشكالين.

أما عن الأول: فيحمل ما أخبروا بأنّهم لا يعلمونه على أنهم عليهم السلام لا يعلمونه من تلقاءِ أنفسهم على ما تقدّم تفصيلاً في أوّل وجوه الجمع.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٠/٣٠٨ ح ٥، والكافي: ١/ ٤٨٤ ح ٧.

(٢) مستدرك سفينة البحار: ٨/ ٧٣.

(٣) الكافي: ١/ ٤٨٤ ح ٧، وشرح أصول الكافي: ٧/ ٢٧٠ ح ٧.

(٤) الكافي: ١/ ٢٥٨ ح ١، وبحار الأنوار: ٢٧/ ٢٨٦ ح ٤.

وأما عن الثاني: فبما في المجلد السّابع من «**البحار**» قال (ره) بعد ما عقد باباً على أنّ الأئمة عليهم السلام لا يعلمون الغيب وأورد الآيات والأخبار الدالّة لذلك:

تذكرة

قد عرفت مراراً أن نفي علم الغيب عنهم معناه أنّهم لا يعلمون ذلك من أنفسهم بغير تعليمه تعالى بوحي أو إلهام وإلاّ فظاهر أنّ عمدة معجزات الأنبياء والأوصياء عليهم السّلام من هذا القبيل وأحد وجوه إعجاز القرآن أيضاً اشتماله على الأخبار بالمغيبات ونحن نعلم أيضاً كثيراً من المغيبات بأخبار الله تعالى ورسوله والأئمة صلوات الله عليهم كالقيامة وأحوالها والجنّة والنّار والرجعة وقيام القائم ونزول عيسى عليه السلام وغير ذلك من أشراط السّاعة والكرسي والملائكة.

وأمّا الخمسة التي وردت في الآية فتحتمل وجوهاً:

الأوّل: أن يكون المراد أنّ تلك الأمور لا يعلمها على التعيين والخصوص إلا الله تعالى، فإنّهم إذا أخبروا بموت شخص في اليوم الفلاني فيمكن أن لا يعلموا خصوص الدقيقة التي تفارق الرّوح الجسد فيها مثلاً، ويحتمل أن يكون ملك الموت لا يعلم ذلك.

الثاني: أن يكون العلم الحتمي بها مختصاً به تعالى وكل ما أخبر الله به من ذلك محتمل للبداء.

الثالث: أن يكون المراد عدم علم غيره تعالى إلاّ من قبله فيكون كسائر الغيوب، ويكون التخصيص بها لظهور الأمر فيها أو لغيره.

أقول: ويؤيّد ذلك ما رواه سدير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ أبي مرض مرضاً شديداً حتّى خفنا عليه، فبكى بعض أهله عند رأسه، فنظر إليه فقال عليه السلام إنّي لست بميّت من وجعي هذا إنّه أتاني اثنان فأخبراني أنّي لست بميّت من وجعي هذا قال: فبرأ ومكث ما شاء أن يمكث فبينما هو صحيح ليس به بأس قال عليه السلام: يا بنيّ إنّ الذين أتياني من وجعي ذاك أتياني فأخبراني أنّي ميّت يوم كذا وكذا، قال: فمات في ذلك اليوم[1].

الرّابع: ما أومأنا إليه سابقاً، وهو أنّ الله تعالى لم يطّلع على تلك الأمور كلّية أحداً من الخلق على وجه لابداء فيه، بل يرسل علمها على وجه الحتم في زمان قريب من حصولها، كليلة القدر أو أقرب من هذا، وهذا وجه قريب تدلّ عليه أخبار كثيرة، إذ لا بدّ من علم ملك الموت بخصوص الوقت كما ورد في الأخبار وكذا ملائكة السّحاب والمطر وقت نزول

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/ ٢٧ ح ٦، وبصائر الدرجات: ٥٠١.

المطر، وكذا المدبّرات من الملائكة بأوقات وقوع الحوادث، هذا.

وقد أطنبنا الكلام في هذا المقام لكونه من مزالّ الأقدام، وقد أتينا فيه ما يقتضيه التأمّل ويسوق إليه النّظر والتدبّر في أخبار الأئمة عليهم السّلام، والأمر بعد ذلك موكول إليهم، فإنّ أهل البيت أدرى بما فيه وسرّ الحبيب مع الحبيب ليس قلم يحكيه، وما التوفيق إلاّ بالله، والحمد لله على ذلك.

الترجمة

بعضی دیگر از این خطبه است و اشاره می فرماید به آن به سوی وصف ترکان و بیان حال ایشان:

گویا من می بینم ایشان را گروهی، گویا روهای ایشان سپرهایی است که پوست در پوست دوخته شده باشند در استداره و غلظت در حالتی که می پوشند جامهای حریر و دیبا و جنیه می کشند اسبهای خوب نجیب و باشد در آن مکان شدّت قتل و قتال تا این که راه می رود مرد زخم دار بر مرد کشته شده و باشد نجات یابنده کمتر از اسیر و دستگیر.

پس گفت مر آن حضرت را بعض اصحاب او: هر آینه به تحقیق عطا شده یا امیرالمؤمنین علم غیب را، پس تبسم فرمود آن حضرت و فرمود به آن مرد و بود او از قبیله کلب:

ای برادر کلب، نیست آن چه که خبر دادم من از آن علم غیب و جز از این نیست که آن آموختنی است از صاحب علم یعنی حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه وآله) و غیر از این است که علم غیب علم به وقت قیامت است و به آن چه که خداوند تبارك و تعالی تعداد فرمود آن را با کلام معجز نظام خود که فرموده: "إنّ الله عنده علم السّاعة و ينّزل الغيث و يعَلَم ما في الأرحام" تا آخر آیه، یعنی: "به درستی خداوند عالم در نزد اوست علم قیامت و فرو می فرستد باران را و می داند آن چه در رحم مادران است"، پس می داند حق تعالی آن چه در رحم ها است از مذکر یا مؤنث و زشت یا خوب و صاحب سخاوت و بخیل و صاحب شقاوت یا سعادت را و آن کسی را که باشد در آتش دوزخ سوزان و در بهشت عنبر سرشت رفیق پیغمبران، پس این است علم غیب که نمی داند او را هیچ کس جز خدا و آن چه که غیر از این است، پس علمی است که تعلیم فرموده آن را خداوند متعال به پیغمبر خود، پس تعلیم فرمود پیغمبر سلام الله علیه به من آن را و دعا کرده در حق من به این که نگه دارد آن علم را سینه من و ضبط کند آن را قلب من؛ والله اعلم بالصّواب.

ومن خطبة له عليه السلام في ذكر المكائيل والموازين وهي المائة والتاسعة والعشرون من المختار في باب الخطب

عِبَادَ اللَّه إِنَّكُمْ وما تَأْمَلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا أَثْوِياءُ مُؤَجَّلُونَ، ومَدِينُونَ مُقْتَضُونَ، أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وعَمَلٌ مَحْفُوظٌ، فَرُبَّ دائِبٍ مُضَيَّعٍ، ورُبَّ كادِحٍ خاسِرٍ، وقَدْ أَصْبَحْتُمْ في زَمَنٍ لاَ يَزْدادُ الْخَيْرُ فيه إِلاَّ إِدْباراً، وَالشَّرُّ فيهِ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَالشَّيْطَانُ في هَلاكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً، فَهذا أَوانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ، اضرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقيراً يُكابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَواعِظِ وَقْراً، أَيْنَ خِيارُكُمْ وصُلَحَاؤُكُمْ وأَحْرارُكُمْ وسُمَحَاؤُكُمْ، وأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ في مَكاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ في مَذاهِبِهِمْ؟ أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جميعاً عَنْ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ، وهَلْ خُلِّفْتُمْ إِلاَّ في حُثالَةٍ لاَ تَلْتَقي بِذَمِّهِمُ الشَّفَتانِ استِصْغاراً لِقَدْرِهِمْ، وذَهاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ظَهَرَ الْفَسَادُ فَلاَ مُنْكِرٌ مُتَغَيِّرٌ، وَلاَ زاجِرٌ مُزْدَجِرٌ، أَفَبِهَذا تُرِيدُونَ أَنْ تُجاوِرُوا اللَّهَ في دارِ قُدْسِهِ، وتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ، هَيْهَاتَ لا يُخْدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، ولا تُنالُ مَرْضاتُهُ إِلاَّ بطاعَتِهِ، لَعَنَ اللَّهُ الآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ العامِلِينَ بِهِ[١].

اللغة

(**المكائيل**) جمع المكيال وهو ما يكال به الطعام كالكيل والمكيل والمكيلة و(**أثوياء**) جمع ثويّ كأغنياء وغنيّ وهو الضّيف والأسير والمجاور بأحد الحرمين من ثوى المكان وبه يثوي ثواء أطال الإقامة به و(**دنت**) الرّجل أقرضته وهو مدين ومديون ودنت أيضاً استقرضت وصار عليّ دين فأنا دائن يعدّي ولا يعدّى و(**مقتضون**) جمع مقتضى كمرتضون جمع مرتضى و(**مضيّع**) يروى بالتّشديد والتخفيف و(**زاد الله خيراً**) وزيدة، فزاد وازداد و(**الفرس**) القتل والفريس القتيل وفرس الأسد فريسته دقّ عنقها، والأسد فرّاس وفارس ومفترس وفروس و(**المنغّصة**) بتشديد الغين وتخفيفها وكسرها وفتحها و(**الحثالة**) السّاقط الرّديء من كلّ شيء (**فلا منكر متغيّر**) كلاهما بصيغة المفعول والأوّل من باب الأفعال والثاني من باب التفعيل وفي

(١) وسائل الشيعة: ١٦/١٥١ ح ٢١٢١٦، وميزان الحكمة: ٤/٣٣٩٧.

بعض النّسخ كلاهما بصيغة الفاعل إلاّ أنّ الأوّل من باب الأفعال والثّاني من باب التفعيل مغيّر بدل متغيّر.

الإعراب

(أجل وعمل) خبران محذوف المبتدأ، وقوله: **(أين خياركم)**، استفهام على سبيل التّحسر والتحزن، وقوله: **(أليس قد ظعنوا)**، استفهام على سبيل الإبطال والإنكار أو التّقرير لما بعد النّفي، وقوله: **(أفبهذا)**، استفهام على سبيل التوبيخ والتّقريع.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة كما ذكره السّيد خطبها في ذكر المكائيل والموازين قال الشّارح المعتزلي: ولست أرى في هذه الخطبة ذكراً للمكائيل والموازين الّتي أشار إليه الرّضي (ره) اللّهم إلاّ أن يكون قوله: وأين المتورّعون في مكاسبهم، أو قوله: ظهر الفساد، ودلالتهما على المكائيل والموازين بعيدة، انتهى[1].

وقد يقال إنّ ذلك ابتناء على ما هو دأب السّيد (ره) وعادته في الكتاب من التقطيع والالتقاط، فلعلّه أسقط ما اشتمل على ذكر الموازين والمكائيل، ولا يبعد أن يكون ذكر عنده تطفيف النّاس في المكائيل والموازين واشتهار ذلك بينهم فخطب بهذه الخطبة نهياً لهم عن ذلك المنكر على سبيل الإجمال ووبّخهم على فعلهم بقوله **(أين المتورعون)** ونحو ذلك، فالمراد بقوله: في ذكر المكائيل: عند ذكرها وفي وقته لا أنّها مذكورة في الخطبة صريحاً.

وكيف كان فقد نبّه عليه السلام أولاً على فناءِ الدّنيا وزوالها وزهادة قدرها إزعاجاً للمخاطبين عن الركون إليها والاعتماد عليها والشّغف بها فقال: **(عباد الله إنكم وما تأملون من هذه الدّنيا أثوياء مؤجّلون)** أي أنتم ما ترجونه من هذه الدّنيا الدّنيّة من البقاء والتّعيش فيها بمنزلة أضياف منزلين في منزل مقترين إلى أجل معلوم ووقت معدود **(ومدينون مقتضون)** أي ما أوتيتم فيها من زبرجها وزخارفها مطالبون بها ومحاسبون عليها كالمديون المطالب بدينه، وقيل استعار لفظ المدين لهم باعتبار وجوب التكاليف المطلوبة منهم وليس بشيء.

(أجل منقوص وعمل محفوظ) أي آجالكم منقوصة بمضيّ اللّيالي والأيّام وانقضاء الشّهور والسّنين، وأعمالكم محفوظة بأيدي الكرام الكاتبين.

ثمّ أشار عليه السلام إلى عدم جواز الاغترار بالأعمال والابتهاج بها بقوله: **(فربّ دائب مضيّع وربّ كادح خاسر)** يعني كم من مجدّ في العبادة متعب نفسه في الإتيان بها مضيّع لها بما يلحقها من العجب والرّياء ونحو ذلك ممّا يبطلها ويضيّعها، كإبطاله صدقاته بالمنّ والأذى،

(١) شرح النهج: ٨/ ٢٤٤.

وكم من ساع خاسر وهم الأخسرون أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، الذين يأتون بالطاعات فاقدة لشرائطها المعتبرة في القبول كطاعة الخوارج والنّواصب والغلاة ومن يحذو حذوهم.

(وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلاّ إدباراً والشرّ إلاّ إقبالا) لغلبة اتّباع الهوى والنكوب عن سمت الرشاد والهدى **(والشيطان في هلاك النّاس إلاّ طمعاً)** لأنّه بعد ما ضعف جانب الحقّ وقوى جانب الباطل فهنالك يطمع إبليس في إغواء النّاس وإهلاكهم ويستولي على أوليائه **(فهذا أوان قويت عدّته)** استعارة للشّرور والمفاسد الّتي هي زاد الشيطان وذخيرته **(وعمّت مكيدته)** للناس إلاّ الّذين سبقت لهم من الله الحسنى **(وأمكنت فريسته)** أي أمكنته فريسته من نفسها حتّى سهل عليه افتراسها، وهي استعارة لأهل الضّلال باعتبار هلاكهم في يده واستيلائه عليهم وتمكّنه من إغوائهم وإضلالهم.

ثمّ شرح عليه السلام أنواع الشّرور الّتي لا تزيد إلاّ اقبالاً بقوله: **(اضرب بطرفك)** أي أمعن النّظر **(حيث شئت من النّاس فهل تبصر إلاّ فقيراً يكابد فقراً)** أي يتحمّل مشاقته ويقاسي مرارته ومتاعبه، وهو إشارة إلى استكراه الفقير لفقره واستنكافه منه، ولا شكّ أنّ ذلك محبط لأجره واضع لقدره.

ولذلك قال عليه السلام يا معشر الفقراء أعطوا الله الرّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام إنّ لله عقوبات ومثوبات بالفقر، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن إليه خلقه ويطيع ربّه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ومن علامته أن يكون عقوبة أن يسوء إليه خلقه ويعصي ربّه ويكثر الشّكاية ويتسخّط القضاء.

(أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً) لأنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى فيلهيه غناءه عن ذكر الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] وقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٨].

بيان ذلك أنّ ذكر الله سبحانه وشكره والثناء عليه والتفكّر في جلاله يستدعي قلباً فارغاً، والغنيّ لا فراغ له، وإنّما يصبح ويمسي وهو متفكّر في إصلاح ماله، مصروف الحواس إلى حفظه.

قال عيسى عليه السلام: في المال ثلاث آفات: أن يأخذه من غير حلّه، فقيل: إن أخذه من حلّه، فقال: يضعه في غير حقّه، فقيل: إن وضعه في حقه، فقال: يشغله إصلاحه عن الله تعالى.

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٤٥٠، وكنز العمال: ٦/ ٤٨٥ ح ١٦٦٥٥.

وفي «**إحياء العلوم**» عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطائب الدّنيا وألوانها، ويركبون فره الخيل وألوانها، وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدّنيا، يغدون ويروحون إليها، اتخذوها آلهة من دون إلٰههم، وربّا دون ربّهم، إلى أمرها ينتهون، ولهواهم يتّبعون، فعزيمة من محمّد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزّمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلّم عليهم ولا يعود مرضاهم، ولا يتّبع جنائزهم، ولا يوقّر كبيرهم، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام(١).

(**أو بخيلاً اتّخذ البخل بحقّ الله وفرا**) أي ثروة وكثرة في المال، ولمّا كان البخيل هو الذي لا يطيب قلبه بالعطاء وهذا على إطلاقه ليس حراماً ولا من أفراد الشّر الذي أشار عليه السلام إلى إقباله وازدياده ولا جرم خصّه بالبخيل في عرف الشّرع وهو الّذي يمنع من أداء الواجب عليه، والبخل في غير الواجب مكروه مذموم وفاعله ملوم، وفي الواجب موجب للعقاب والعتاب مبعّد لفاعله من حظيرة القدس وحضرة ربّ الأرباب كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

(**أو متمرّداً كأنّ بأذنه عن سمع المواعظ**) والنّصائح (**وقرا**) وثقلاً فلهم أعين لا يبصرون بها، ولهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.

ثمّ تحسّر وتأسّف على فوت الخيار وموت الصلحاء الأخيار فقال (**أين خياركم وصلحائكم وأحراركم وسمحائكم**) أي أخياركم وأسخيائكم (**وأين المتورّعون في مكاسبهم**) المراقبون لشرائط التجارات والمواظبون لرسوم المعاملات الآخذون بوظائف العدل والانصاف، والمجانبون عن التطفيف والبخس والاعتساف (**والمتنزّهون في مذاهبهم**) أي المتباعدون عن الأخذ بالمقاييس والإرادة الفاسدة وبالاستحسانات العقليّة والعقائد الكاسدة (**أليس قد ظعنوا**) وارتحلوا (**جميعاً عن هذه الدّنيا الدّنيّة والعاجلة المنغّصة**) المكدّرة فلم يبق منهم من تأخذون منه مكارم الآداب والأخلاق، وترجعون إليه في صالح الأعمال والأفعال لعلّكم تقتبسون آثارهم وتتبعون أفعالهم.

ثمّ نبّه على حقارة الباقين ورذالتهم فقال (**وهل خلفتم إلا في حثالة لا تلتقي بذمّهم الشفتان**) أي ما بقيتم إلاّ في أوغاد النّاس وأراذلهم وطغاتهم وحمقائهم يأنف الإنسان أن يذمهم ولا يطبق إحدى الشّفتين منه على الأخرى ليتكلّم فيهم (**استصغاراً لقدرهم وذهاباً**) أي ترفعاً

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٣٢٤، وتذكرة الموضوعات: ١٧٤.

(عن ذكرهم) واحتقاراً لهم **(فإنّا لله وإنّا إليه راجعون)** من إصابة هذه المصائب وابتلاء تلك البليّة، فإنّ المبتلي والمصاب إنّما يسترجع إذا وقع في بليّة أو ابتلى بمصيبة **(ظهر الفساد)** في النّاس بارتفاع المعروف واشتهار المنكر **(فلا منكر متغيّر)** أي لا يتغيّر فعل منكر لعدم وجود المغيّر والمنكر أو لعدم تأثير إنكاره لعدم تأثره في نفسه عن قبيح فعله، ويؤيده ما في بعض النّسخ من قوله فلا منكر مغيّر بدله أي ليس منكر بغيّر سوء فعله **(ولا زاجر مزدجر)** عن قبيح عمله فيكون القرينة الثانية تفسيراً للأولى، والمقصود أنّه لا ينتهي النّاهي عن المنكر عمّا ينهي عنه، ولا زاجر يزدجر ويتعظ.

(أفبهذا) الحال **(تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه)** وتسكنوا جنّته **(وتكونوا عزّ أوليائه عنده)** وتلقوا النّضرة والسّرور، وتنزلوا الغرف والقصور وتشربوا الشّراب الطهور وتلبسوا الدّيباج والحرير، وتزوّجوا بالحور العين، وتخدموا الولدان المخلّدين **(هيهات لا يخدع الله عن جنّته ولا تنال مرضاته إلاّ بطاعته)** لأنّ الخديعة إنّما تجوز على من لا يعلم السرّ دون من هو عالم بالسّر وأخفى يعلم ما في السّماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثّرى، فالطّمع في نزول الجنان والدّرجات ونيل الرّضوان والمرضاة ليس إلاّ من اغترار الأنفس وأماني إبليس، فلا تغرّنكم الحياة الدّنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور.

(لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والنّاهين عن المنكر العاملين به) لأنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إنّما هو بعد الإتيان بالأوّل والانتهاء عن الثاني، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، وقد مضى أخبار كثيرة في هذا المعنى في شرح الفصل الثاني من فصول الخطبة المائة والرّابعة.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام مبين و سيّد وصيّين است در ذكر پيمان ها و ترازوها:

بندگان خدا، به درستى كه شما و آنچه اميد مى داريد به آن در اين دنيا مهمانانيد مهلت داده شده تا مدّت معيّن و قرض دارانيد طلب كارى شده، اجل شما اجلى است نقصان يافته و عمل شما عملى است نگه داشته شده، پس بسا جهدكننده در عبادت كه ضايع كننده او است و بسا سعى كننده كه زيان كار است و

به تحقیق صباح گردید در زمانی که زیاد نمی شود نیکویی در آن مگر ادبار او و نه بدی مگر اقبال آن و نه شیطان لعین در هلاك مردمان مگر طمع او، پس این زمان زمانی است که قوّت یافته ذخیره مهیا شده آن لعین و فرا گرفته است کید و مکر او غالب خلق را و دست داده از شکار او.

بگردان نظر خود را هرجا که می خواهی از مردمان، پس نمی بینی مگر فقیر که می کشد رنج و تعب فقر را یا غنی که بدل نموده نعمت خدا را به کفران یا بخیلی که اخذ نموده بخل به حق خدا را از کثرت مال یا گردن کشی که گویا در گوش او از شنیدن موعظه ها سنگینی و گره است، کجایند اخیار شما و صالحین شما و آزاد مردان شما و سخیان شما؟ و کجایند کسانی که پرهیزکار بودند در کسب های خودشان و دوری می جستند از شبهه باطله در مذهب های خودشان؟ آیا رحلت نکردند همگی ایشان از این دنیای پست و بی مقدار و از این شتاب کننده کدورت آمیز؟ واپس گذاشته نشده اید مگر در پست و بد مردمان که به هم نمی آید به مذمّت ایشان لب ها به جهت حقیر شمردن قدر ایشان و به جهت اظهار رفعت از ذکر ایشان.

پس به درستی که ما بندگانیم خداوند تعالی را و به تحقیق که ما به سوی او رجوع خواهیم کرد، ظاهر گردید فساد در میان عباد، پس نیست انکار کننده معاصی تغییردهنده عمل قبیح خود را و نه منع کننده از قبایح بازدارنده خود از معصیت، آیا پس به این حال می خواهید مجاور باشید خدا را در سرای پاکیزه او و بشوید عزیزترین دوستان او در نزد او، چه دور است این آرزو، فریب داده نمی شود خدای متعال از بهشت خود و درك نمی شود خشنودی او مگر به طاعت او، لعنت کند خدا امر به معروف کنندگانی که ترك کننده آن معروف باشند و نهی کنندگان از منکر که عمل کننده باشند به آن منکر.

ومن كلام له عليه السلام لأبي ذر (ره) لما أخرج إلى الربذة وهو المائة والثلاثون من المختار في باب الخطب

وهو مروي في «روضة الكافي» بتفصيل تطلع عليه إن شاء الله

يا أَبا ذَرٌ إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ، إِنَّ الْقَوْمَ خافُوكَ عَلى دُنْيَاهُمْ وخِفْتَهُمْ عَلَىٰ دِينكَ، فَاتْرُكْ في أَيْديهِمْ ما خافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِما خِفْتُمْ عَلَيْهِ، فَما أَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ، وأَغْناكَ عَمّا مَنَعُوك، وسَتَعْلَمُ من الرّابِحُ غَداً، والأَكْثَرُ حُسَداً، وَلَوْ أَنَّ السَّمٰواتِ والأَرَضِيْنَ كانَتَا عَلَىٰ عَبْدٍ رَتْقاً ثُمَّ اتَّقى اللّه لَجَعَلَ اللّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً، لاَ يُؤنِسَنَّكَ إِلاَّ الْحَقُّ، وَلاَ يُوحِشَنَّكَ إِلاَّ الْباطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لأَحَبُّوك، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لأَمِنُوكَ[١].

اللغة

قال الطريحي (**الرّبذة**) بالتّحريك قرية معروفة قرب المدينة نحواً من ثلاثة أميال كانت عامرة في صدر الإسلام فيها قبر أبي ذر الغفاري وجماعة من الصّحابة وهي في هذا الوقت دارسة لا يعرف لها أثر ولا رسم و(**الرّتق**) ضدّ الفتق قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ورتقت المرأة رتقاً من باب تعب إذا انسدّ مدخل الذّكر من فرجها فلا يستطاع جماعها فهي رتقاء واسع (**القرض**) القطع ومنه الحديث كان بني إسرائيل إذا أصاب أحداً قطرة من بول قرضوا لحومهم بالمقاريض أي قطعوها، وسمّى القرض المصطلح وهو ما تعطيه لتقضاه به لأنّه قطيعة من مالك (**الأمن**) ضدّ الخوف وأمن كفرح أمناً وأماناً بفتحهما.

الإعراب

قد مضى تحقيق الكلام في (**ما**) في مثل قوله (**فما أحوجهم**) في شرح الخطبة المائة والثامنة، (**وما**) في مامنعتهم تحتمل المصدر والموصول فالعائد محذوف ومثله على الاحتمال الثاني (**ما**) في (**عمّا منعوك**)، فافهم.

المعنى

اعلم أنّ هذا الكلام حسبما أشار إليه السّيد (ره) قاله لأبي ذر لما أخرج إلى الرّبذة بأمر

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٠٧، والغدير: ٨/ ٣٠٠.

عثمان اللعين، وستعلم نبأه بعد حين (**يا أبا ذر إنّك غضبت**) القوم (**لله سبحانه فارج من غضبت له**) وإنّما أتى بالموصول ولم يقل فارج الله لما فيه من تقرير الغرض المسوق له الكلام، فإن المقصود بهذا الكلام تسلية همّ أبي ذر رحمه الله وسلب وحشته وكآبته، فإنّه إذا كان غضبه لله سبحانه وفي الله سبحانه خالصاً مخلصاً فلا بدّ أن يكون رجاه بالله وحري حينئذٍ عليه سبحانه الذي كان غضبه له أن لا يخيّب رجاه ولا يقطع أمله بل يكون مؤنسه في الوحشة وأنيسه في الوحدة، وناصره ومعينه وحافظه على كلّ حالة، ففي التّعبير بالموصول زيادة تقرير لعدم تخيّب رجاه، وفيه من التّسلية له ما لا يخفى.

(**أن القوم**) أراد به عثمان ومعاوية وأمثالهما (**خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك**) يعني أنّهم خافوا منك أن تفسد دنياهم كما أنّك خفت أن يفسدوا دينك (**فاترك في أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه فما أحوجهم إلى ما منعتهم**) أي ما أعظم احتياجهم إلى منعك إيّاهم لأنّك إنّما تمنعهم من المنكرات وفي هذا المنع لهم من الفوائد ما لا تحصى وفي تركه من المضارّ ما لا تستقصى، أو ما أكثر حاجتهم إلى الذي منعته منهم بخروجك من بين أظهرهم وهو دينك الذي خفتهم عليه (**و**) ما (**أغناك عما منعوك**) أي ما كثر غنائك عن الّذي منعوك منه وهو دنياهم الّتي خافوك عليها (**وستعلم من الرّابح غداً**) أي في الآخرة (**والأكثر حسداً**).

ثمّ أراد زيادة ترغيبه في الثّقة والاعتماد على الله سبحانه فقال (**ولو أنّ السّماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا**) أي مرتقين منسدين وهو كناية عن شدّة الضّيق أي لو كان العبد في غاية الشّدة ونهاية الضّنك والضيق بحيث ضاقت عليه السّماوات والأرض بما رحبت (**ثمّ اتقى الله**) سبحانه (**لجعل الله له منهما مخرجاً**) حسبما وعده في الكتاب العزيز بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

(**لا يؤنسنّك إلاّ الحقّ ولا يوحشنّك إلاّ الباطل فلو قبلت دنياهم**) ولم تمنعهم من زبرجها وزخارفها وقيناتها (**لأحبّوك ولو قرضت منها**) وقطعت قطيعة لنفسك من مالها وقبلت ما يعطونك منها إليك (**لأمنوك**) أي كنت في أمن من شرورهم، ولم يصل إليك أذاهم.

تنبيه

في ذكر نبذ من أحوال أبي ذر وفضائله وكيفية إسلامه وإخراجه إلى الربذة:

فأقول: أبو ذر اسمه جندب بن السّكن كما قال الطريحي، أو جندب بن جنادة كما قاله المجلسي وهو الأشهر فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله، وهو من بني غفار وزان كتاب.

أمّا كيفيّة إسلامه ففي «**الرّوضة**» من «**الكافي**» عن أبي عليّ الأشعري عن محمّد بن عبد

الجبّار عن عبد الله بن محمّد عن سلمة اللّؤلؤي عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ألا أخبركم كيف كان إسلام سلمان وأبي ذر؟ فقال الرّجل وأخطأ: أمّا إسلام سلمان فقد عرفته فأخبرني بإسلام أبي ذر، فقال: إنّ أبا ذر كان في بطن مرّ يرعى غنماً فأتى ذئب عن يمين غنمه فهش بعصاه على الذئب فجاز الذّئب عن شماله فهش عليه أبو ذر فقال له أبو ذر ما رأيت ذئباً أخبث منك ولا شراً، فقال الذّئب: والله شر مني أهل مكّة بعث الله عزّ وجلّ نبيّاً فكذّبوه وشتموه، فوقع في أذن أبي ذر فقال لامرأته هلمي مزودي وأداوتي وعصاي، ثمّ خرج على رجليه يريد مكة ليعلم خبر الذئب وما أتاه به حتى بلغ مكة، فدخلها في ساعة حارة وقد تعب ونصب وأتى زمزم وقد عطش فاغترف دلواً فخرج لبناً، فقال في نفسه: هذه دالّة تدلني على أنّ خبر الذئب وما جئت له حقّ فشرب وجاء إلى جانب من جوانب المسجد فإذا حلقة من قريش فجلس إليهم فرآهم يشتمون النبي صلى الله عليه وآله كما قال الذئب، فما زالوا في ذلك من ذكر النبيّ والشتم له حتى جاء أبو طالب من آخر النهار، فلما رأوه قال بعضهم لبعض: كفوا فقد جاء عمه، قال: فكفوا، فما زال يحدّثهم ويكلّمهم حتى كان آخر النهار، ثمّ قام وقمت على أثره فالتفت إليّ فقال: اذكر حاجتك، فقلت هذا النبيّ المبعوث فيكم؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: أؤمن به وأصدقه وأعرض عليه نفسي ولا يأمرني بشيء إلاّ أطعته، فقال: وتفعل؟ فقلت: نعم، قال: فقال: غداً في هذا الوقت إليّ حتى أدفعك إليه، قال: فبتّ تلك اللّيلة في المسجد حتى إذا كان الغد جلست معهم، فما زالوا في ذكر النبيّ وشتمه حتى طلع أبو طالب فلما رأوه قال بعضهم لبعض امسكوا فقد جاء عمه فأمسكوا فما زال يحدّثهم حتى قام فتبعته فسلّمت عليه فقال: اذكر حاجتك، فقلت: النبي المبعوث فيكم؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: أؤمن به وأصدّقه وأعرض عليه نفسي ولا يأمرني بشيء إلا أطعته قال: وتفعل؟ قلت: نعم، قال: قم معي، فتبعته فدفعني إلى بيت فيه حمزة عليه السلام فسلّمت عليه وجلست فقال لي: ما حاجتك؟ فقلت: هذا النّبي المبعوث فيكم؟ قال: وما حاجتك إليه؟ قلت: أؤمن به وأصدقه وأعرض عليه نفسي ولا يأمرني بشيء إلاّ أطعته، فقال: تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، قال: فشهدت قال: فدفعني حمزة إلى بيت فيه جعفر فسلّمت عليه وجلست، فقال لي جعفر: ما حاجتك؟ فقلت: هذا النبي المبعوث فيكم؟ قال: وما حاجتك إليه؟ قلت: أؤمن به وأصدّقه واعرض عليه نفسي ولا يأمرني بشي إلا أطعته، فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله، قال: فشهدت، فدفعني إلى بيت فيه عليّ عليه السلام فسلّمت وجلست فقال: ما حاجتك؟ قلت: هذا النبيّ المبعوث فيكم؟ قال: وما حاجتك إليه؟ قلت: أؤمن به وأصدقه وأعرض عليه نفسي، ولا يأمرني بشيء إلا أطعته، قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، قال: فشهدت فدفعني إلى بيت فيه رسول الله صلى الله عليه وآله فسلّمت وجلست فقال لي رسول الله: ما حاجتك؟ قلت: النبيّ المبعوث فيكم؟ قال: وما حاجتك إليه؟ قلت: أؤمن به وأصدقه ولا يأمرني بشيء إلا أطعته، فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ

محمّداً رسول الله فقلت: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ، فقال لي: يا أبا ذر إنطلق إلى أهلك فإنّك تجد ابن عمّ لك قد مات وليس له وارث غيرك، فخذ ماله وأقم عند أهلك حتّى يظهر أمرنا، قال: فرجع أبو ذر وأخذ وأقام عند أهله حتّى ظهر أمر رسول الله ﷺ فقال أبو عبد الله عليه السلام: هذا حديث أبي ذر وإسلامه «رض»(١).

وأما مناقبه الجميلة وخصاله الحميدة وكراماته البديعة

فأكثر من أن تحصى، وكفى في فضله اختصاصه برسول الله وكونه من خيار صحابته وتالي مرتبة سلمان، وأنه ارتدّ النّاس بعد رسول الله إلى أعقابهم القهقرى ولم يبق غيرهما وغير عمّار والمقداد وقد قال فيه رسول الله ما أقلت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر، قيل بماذا فضله الله بهذا وشرفه؟ قال رسول الله ﷺ: لأنّه كان بفضل عليّ أخي رسول الله قوّالا، وله في كلّ الأحوال مدّاحاً، ولشانئه وأعدائه شانئاً، ولأوليائه وأحبّائه موالياً، سوف يجعله الله في الجنان من أفضل سكانها، يخدمه ما لا يعرف عدده إلاّ الله من وصائفها وغلمانها وولدانها(٢).

وعن عليّ بن إبراهيم عن الصّادق عليه السلام قال: نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، في أبي ذر والمقداد وسلمان وعمّار(٣).

وفي «**الكافي**» عن سهل عن محمّد بن عبد الحميد عن يونس عن شعيب العقرقوفي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام شيء يروى عن أبي ذر رضي الله عنه أنّه كان يقول ثلاث يبغضها النّاس وأنا أحبّها: أحبّ الموت، وأحبّ الفقر، وأحبّ البلاء، فقال: إنّ هذا ليس على ما تروون إنّما عنى الموت في طاعة الله أحبّ إليّ من الحياة في معصية الله والبلاء في طاعة الله أحبّ إليّ من الصحّة في معصية الله، والفقر في طاعة الله أحبّ إليّ من الغنى في معصية الله(٤).

وفي تفسير الإمام عند تفسير قوله: (**الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة**)، قال: وحدثني أبي عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ كان من خيار أصحابه أبو ذر الغفاري فجاء ذات يوم فقال: يا رسول الله إنّ لي غنيمات قدر ستّين شاة أكره أن أبدأه فيها وأفارق حضرتك

---

(١) الكافي: ٨/٢٩٨، وشرح أصول الكافي: ١٢/٤١٧.

(٢) بحار الأنوار: ٣٠/٢٢٥، وتفسير الإمام العسكري: ١٢٢.

(٣) شرح أصول الكافي: ١٢/٢٣، وبحار الأنوار: ٤/١٥١ ح ٢.

(٤) الأمالي: ١٩٠ ح ١٧، والكافي: ٨/٢٢٢ ح ٢٧٩.

وخدمتك، وأكره أن أكِلَها إلى راعٍ فيظلمها ويسيء رعيها، فكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ إبدأ فيها، فبدأ فيها، فلمّا كان في اليوم السّابع جاء إلى رسول الله فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر، فقال: لبّيك يا رسول الله، قال: ما فعلت غنيماتك؟ فقال: يا رسول الله إنّ لها قصّة عجيبة، قال: وما هي؟ قال: يا رسول الله بينا أنا في صلاتي إذ عدا الذّئب على غنمي فقلت: يا ربّ صلاتي يا ربّ غنمي فآثرت صلاتي فأحضر الشيطان ببالي يا أبا ذر أين أنت إن عدت الذئاب على غنمك فآثرت صلاتي فأحضر الشيطان ببالي يا أبا ذر أين أنت إن عدت الذّئاب على غنمك وأنت تصلّي فأكلها وما بقي لك في الدّنيا ما تتعيّش به؟ فقلت للشيطان: يبقى لي توحيد الله والإيمان بمحمّد رسول الله ﷺ وموالاة أخيه سيّد الخلق بعده عليّ بن أبي طالب عليه السلام وموالاة الأئمة الهادين الطّاهرين من ولده عليهم السلام ومعاداة أعدائهم وكلّما فات من الدّنيا بعد ذلك سهل وأقبلت على صلاتي، فجاء ذئب فأخذ حملاً وذهب به وأنا أحسّ به إذا أقبل على الذّئب أسد قطعه نصفين واستنقذ الحمل وردّه إلى القطيع ثمّ نادى يا أبا ذر أقبل على صلاتك فإنّ الله قد وكلني بغنمك إلى أن تصلّي، فأقبلت على صلاتي وقد غشيني التّعجب ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى حتّى فرغت منها، فجاءني الأسد وقال لي امض إلى محمّد فأخبره إنّ الله تعالى قد أكرم صاحبك الحافظ شريعتك ووكل أسداً بغنمه يحفظها، فتعجب من كان حول رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: صدقت يا أبا ذر ولقد آمنت به أنا وعلي وفاطمة والحسن والحسين، فقال بعض المنافقين: هذا بمواطأة بين محمّد وأبي ذر يريد أن يخدعنا بغروره واتفق منهم عشرون رجلاً وقالوا: نذهب إلى غنمه فننظر إليها وننظر إلى أبي ذر إذا صلّى هل يأتي الأَسد ويحفظ غنمه فنبيّن بذلك كذبه، فذهبوا ونظروا وأبو ذر قائم يصلّي والأَسد يطوف حول غنمه ويرعاها ويرد إلى القطيع ما يشذّ عنه منها حتى إذا فرغ من صلاته ناداه الأَسد هاك قطيعك مسلّماً وافر العدو سالماً، ثم ناداهم الأسد معاشر المنافقين أنكرتم تولّي محمّد وعليّ والطّيبين من آلهما والمتوسّل إلى الله تعالى بهما أن يسخّرني ربّي لحفظ غنمه، والّذي أكرم محمّداً وآله الطيبين، لقد جعلني الله طوع يدي أبي ذر حتّى لو أمرني بافتراسكم وإهلاككم لأهلكتكم، والذي لا يحلف بأعظم منه لو سئل الله بمحمّد وآله الطّيبين أن يحول البحار دهن زنبق وبان والجبل مسكاً وعنبراً وكافوراً وقضبان الأشجار قضب الزّمرد والزبرجد لما منعه الله ذلك، فلمّا جاء أبو ذر إلى رسول الله ﷺ قال: يا أبا ذر إنّك أحسنت طاعة الله فسخّر الله لك من يطيعك في كفّ العواري عنك، فأنت من أفضل من مدحه الله عزّ وجلّ بأنّهم يقيمون الصّلاة[1].

(١) مستدرك الوسائل: ٣/ ٨٥، وبحار الأنوار: ٨١/ ٢٣٢.

وأما كيفية إخراجه إلى الربذة وما جرى بينه وبين عثمان

فقد رواه العامّة والخاصّة قال الشّارح المعتزلي وعالم الهدى في «**محكي الشافي**» واللّفظ للثّاني: إنّ عثمان لمّا أعطى مروان بن الحكم ما أعطاه وأعطى الحرث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم جعل أبو ذر يقول: بشّر الكافرين بعذاب أليم، ويتلو قول الله عزّ وجلّ ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، فرفع ذلك مروان إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذر رحمه الله نائلاً مولاه أن انته عمّا يبلغني عنك، فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله عزّ وجلّ وعيب من ترك أمر الله، فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ وخير لي من أن أرضي عثمان بسخط الله، فأغضب عثمان ذلك فأحفظه وتصابر، وقال عثمان يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال فإذا أيسر قضاه؟ فقال كعب الأخبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذر رحمه الله: يا ابن اليهوديّين أتعلّمنا ديننا؟ فقال عثمان: قد كثر أذاك لي وتولعك بأصحابي إلحق بالشّام، فأخرجه إليها، فكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه معاوية ثلاثمائة دينار فقال أبو ذر: إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها وردّها عليه، وبنى معاوية الخضراء بدمشق فقال أبو ذر: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهو الإسراف، فكان أبو ذر يقول: والله لقد حدثت أعمالاً ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا في سنة نبيّة، والله إنّي لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيى وصادقاً مكذّباً وأثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه.

وقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: إنّ أبا ذر لمعضد عليكم الشام فتدارك أهله إن كان لكم فيه حاجة، فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية أما بعد، فاحمل جنيدباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره، فوجّه به مع من سار به الليل والنّهار، وحمله على شارف ليس عليها إلا قتب حتّى قدم بالمدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد.

أقول: وعن المسعودي في «**مروج الذّهب**» أنّه ردّ إلى المدينة على بعير عليه قتب يابس معه خمسمائة من الصّقالبة يطردون به حتّى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد يتلف، فقيل له: إنّك تموت، قال: هيهات لن أموت حتّى أنفى.

قال السّيد (ره) في رواية الواقدي أنّ أبا ذر لما دخل على عثمان قال: لا أنعم الله بك عيناً يا جنيدب، فقال أبو ذر رحمه الله: أنا جندب وسمّاني رسول الله عبد الله فاخترت اسم رسول الله الذي سمّاني به على إسمي، فقال عثمان: أنت الذي تزعم أنا نقول إنّ يد الله مغلولة وإنّ الله فقير ونحن أغنياء، فقال أبو ذر: لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مال الله على

عباده، ولكن أشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا بلغ ابن أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً[١]، ودين الله دخلاً ثم يريح عباد الله منهم، فقال عثمان لمن حضر: اسمعتموها من رسول الله؟ فقالوا: ما سمعناه، فقال عثمان: ويلك يا أبا ذر أتكذب على رسول الله؟ فقال أبو ذر لمن حضر: أما تظنون أنّي صدقت؟ قالوا: لا والله ما ندري، فقال عثمان: ادعوا لي عليّاً فدعى فلمّا جاء قال عثمان لأبي ذر: أقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فحدّثه، فقال عثمان لعليّ: هل سمعت هذا من رسول الله؟ فقال: لا وصدق أبو ذر، فقال: كيف عرفت صدقه؟ فقال: لأنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أظلّت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر[٢]، فقال من حضر من أصحاب النبيّ جميعاً: لقد صدق أبو ذر، فقال أبو ذر: أحدثكم أنّي سمعت هذا من رسول الله ثم تتّهموني ما كنت أظنّ أن أعيش حتّى أسمع من أصحاب محمّد ﷺ.

قال السّيّد (ره): وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده عن صهبان مولى الأسلميّين قال: رأيت أبا ذر يوماً دخل به على عثمان فقال له: أنت الذي فعلت وفعلت؟ فقال له أبو ذر: قد نصحتك فاستغششتني ونصحت صاحبك فاستغشّني، فقال عثمان: كذبت ولكنّك تريد الفتنة وتحبها قد قلبت الشّام علينا، فقال له أبو ذر: اتّبع سنّة صاحبيك لا يكون لأحد عليك كلام، فقال له عثمان: ما لك وذلك لا أمّ لك، فقال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلاّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فغضب عثمان فقال: أشيروا عليّ في هذا الشيخ الكذاب إمّا أن أضربه أو أحبسه أو أقتله فإنّه قد فرّق جماعة المسلمين أو أنفيه من الأرض، فتكلم عليّ عليه السلام وكان حاضراً فقال: أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون قال: إن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب فأجابه عثمان بجواب غليظ لم أحب أن أذكره وأجابه عليّ عليه السلام مثله[٣].

أقول: هذا الجواب الذي لم يحب ذكره هو قوله لعنه الله: بفيك التّراب، فأجابه عليه السلام بقوله: بل بفيك التّراب كما يأتي في رواية «**تقريب المعارف**».

قال الواقدي: ثمّ إنّ عثمان حظر على النّاس أن يقاعدوا أبا ذر ويكلّموه، فمكث كذلك أيّاماً ثم أمر أن يؤتى به، فلمّا أتى به ووقف بين يديه قال: ويحك يا عثمان ما رأيت رسول الله ورأيت أبا بكر وعمر هل رأيت هديك هديهم إنّك لتبطش في بطش جبّار، فقال: أخرج عنّا من بلادنا، فقال أبو ذر: فما ابغض إليّ جوارك فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئت، قال:

---

(١) خولاً: أي عبيداً.

(٢) علل الشرائع: ١/١٧٦، ووسائل الشيعة: ١/٧٥.

(٣) بحار الأنوار: ٣١/١٧٨، والغدير: ٨/٣٠٦.

فأخرج إلى الشام أرض الجهاد، فقال: إنما أجلبتك من الشام لما قد أفسدتها أفأردّك إليها؟ قال: إذاً أخرج إلى العراق قال: لا، قال: ولم؟ قال: تقدم على قوم أهل شبهة وطعن على الأئمة، قال: فاخرج إلى مصر، قال: لا، قال: فإلى أين أخرج قال حيث شئت فقال هو إذا التعرّب بعد الهجرة أخرج إلى نجد، قال عثمان: الشرق الشرق الأبعد أقصى فأقصى، فقال أبو ذر: قد أبيت ذلك عليّ، قال: امض على وجهك هذا ولا تعودنّ الرّبذة.

وفي «**البحار**» من «**تقريب المعارف**» لأبي الصّلاح عن الثقفي في «**تاريخه**» عن عبد الملك ابن أخي أبي ذر قال: كتب معاوية إلى عثمان: إنّ أبا ذر قد حرّف قلوب أهل الشّام وبغضك إليهم فما يستفتون غيره ولا يقضي بينهم إلاّ هو، فكتب عثمان إلى معاوية أن أحمل أبا ذر على ناب صعب وقتب ثمّ ابعث معه من يبخش به بخشاً عنيفاً حتّى يقدم به عليّ، قال: فحمله معاوية على ناقة صعبة عليها قتب ما على القتب إلاّ مسح ثمّ بعث معه من يسيره سيراً عنيفاً وخرجت معه فما لبث الشيخ إلاّ قليلاً حتّى سقط ما يلي القتب من لحم فخذيه وقرح، فكنت إذا كان اللّيل أخذت ملائي فألقيتهما تحته فإذا كان السّحر نزعتهما مخافة أن يروني فيمنعوني من ذلك حتى قدمنا المدينة، وبلغ عثمان ما ألقى أبو ذر من الوجع والجهد فحجبه جمعة وجمعة حتّى مضت عشرون ليلة أو نحوها وأفاق أبو ذر ثمّ أرسل إليه وهو معتمد على يدي فدخلنا عليه وهو متكي، فاستوى قاعداً فلمّا دنى أبو ذر منه قال عثمان:

لا أنعم الله بعمرو عينا ... تحيّة السّخط إذا التقينا

فقال له أبو ذر: فوالله ما سماني الله عمراً ولا سماني أبواي عمراً وإنّي على العهد الذي فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ما غيرت ولا بدلت، فقال له عثمان: كذبت لقد كذبت على نبيّنا وطعنت في ديننا وفارقت رأينا وضغنت قلوب المسلمين علينا، ثمّ قال لبعض غلمانه: ادع لي قريشاً، فانطلق رسوله فما لبثنا أن امتلأ البيت من رجال قريش، فقال لهم عثمان إنّا أرسلنا إليكم في هذا الشّيخ الكذّاب الذي كذب على نبيّنا وطعن في ديننا وضغن قلوب المسلمين علينا، وإنّي قد رأيت أن أقتله أو أصلبه أو أنفيه من الأرض، فقال بعضهم: رأينا لرأيك تبع، وقال بعضهم: لا تفعل فإنّه صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وله حقّ فما منهم أحد أدّى الذي عليه فبينا هم كذلك إذا جاء عليّ بن أبي طالب يتوكّأ على عصا سرّاً، فسلّم عليه ونظر ولم يجد مقعداً فاعتمد على عصاه فما أدري أتخلّف عهد أم يظنّ به غير ذلك، ثمُ قال عليّ فيما أرسلتم إلينا؟ قال عثمان: أرسلنا إليكم في أمر قد فرّق لنا فيه الرّاي فأجمع رأينا ورأى المسلمين فيه على أمر، قال عليّ عليه السلام: ولله الحمد أما انّكم لو اشرتمونا لم نألكم نصيحة، فقال عثمان: إنّا أرسلنا إليكم في هذا الشيخ الذي قد كذب على نبيّنا وطعن في ديننا وخالف رأينا وضغن قلوب المسلمين علينا، وقد رأينا أن نقتله أو نصلبه أو ننفيه من الأرض، قال عليّ عليه السلام: أفلا أدلّكم على غير من ذلكم وأقرب رشداً تتركونه بمنزلة آل فرعون، إن يك كاذباً فعليه كذبه وإن

يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، فقال عثمان لعنه الله: بفيك التّراب، فقال له عليّ ﷺ بل بفيك التراب، وسيكون به، فأمر بالنّاس فأخرجوا[١].

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] الآية، أنّها نزلت في أبي ذر رحمه الله وعثمان بن عفّان، وكان سبب ذلك لمّا أمر عثمان بن عفّان بنفي أبا ذر إلى الرّبذة، دخل عليه أبو ذر وكان عليلاً متوكئاً على عصاه وبين يدي عثمان مائة ألف درهم قد حملت إليه من بعض النّواحي وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسّمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟ فقال له عثمان: مائة ألف درهم حملت إليّ من بعض النواحي أريد أن أضمّ إليها مثلها وأرى فيه رأيي، فقال أبو ذر: يا عثمان أيّما أكثر مائة ألف درهم أو أربعة دنانير؟ فقال: بل مائة ألف درهم، فقال: أما تذكر أنا وأنت وقد دخلنا على رسول الله عشيّاً فرأيناه كئيباً حزيناً فسلّمنا عليه فلم يرد علينا السّلام، فلمّا أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكاً مستبشراً فقلنا له: بآبائنا وأمهاتنا دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيباً حزيناً، ثمّ عدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكاً مستبشراً، فقال ﷺ: نعم كان قد بقي عندي من فيء المسلمين أربعة دنانير لم أكن قسّمتها وخفت أن يدركني الموت وهي عندي وقد قسّمتها اليوم واسترحت منها، فنظر عثمان إلى كعب الأحبار فقال له: يا أبا إسحاق ما تقول في رجل أدّى زكاة ماله المفروضة هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء؟ فقال: لا ولو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضّة ما وجب عليه شيء، فرفع أبو ذر عصاه وضرب به رأس ابن كعب ثمّ قال له: يا ابن اليهوديّة الكافرة ما أنت والنّظر في أحكام المسلمين قول الله أصدق من قولك حيث قال:

﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥]

فقال عثمان: يا أبا ذر إنّك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ولولا صحبتك لرسول الله لقتلتك، فقال: كذبت يا عثمان أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ فقال: إنّهم لا يفتنونك ولا يقتلونك وأمّا عقلي فقد بقي منه ما أحفظ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فيك وفي قومك، فقال: ما سمعت فيّ وفي قومي؟ قال: سمعته يقول: إذا بلغ آل أبي العاص ثلاثين رجلاً صيّروا مال الله دولاً، وكتاب الله دخلا، وعباده خولاً والفاسقين حزباً والصّالحين حرباً، فقال عثمان: يا معشر أصحاب محمّد هل سمع أحد منكم هذا من رسول الله؟ قالوا: لا ما سمعنا

(١) الصراط المستقيم: ٣/ ٣٣، وبحار الأنوار: ٣١/ ١٧٩.

هذا من رسول الله، فقال عثمان: ادع لي علياً فجاء أمير المؤمنين عليه السلام فقال له عثمان: يا أبا الحسن انظر ما يقول هذا الشيخ الكذّاب، فقال عليه السلام: مه يا عثمان لا تقل كذاب فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أظلّت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر، فقال أصحاب رسول الله: صدق أبو ذر فقد سمعنا هذا من رسول الله، فبكى أبو ذر عند ذلك فقال: ويلكم كلكم قد مدّ عنقه إلى هذا المال ظننتم أنّي أكذب على رسول الله، ثمّ نظر إليهم فقال: من خيركم؟ فقالوا: أن تقول إنّك خيرنا قال: نعم خلفت حبيبي رسول الله على هذه الجبّة وهي عليّ بعد وأنتم قد أحدثتم أحداثاً كثيرة والله سائلكم عن ذلك ولا يسألني، فقال عثمان: يا أبا ذر أسألك بحق رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ ما أخبرتني عن شيء أسألك عنه، فقال أبو ذر: والله لو لم تسألني بحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً لأخبرتك فقال: أيّ البلاد أحبّ إليك أن تكون فيها؟ قال: مكّة حرم الله وحرم رسوله أعبد الله فيها حتّى يأتيني الموت، فقال: لا ولا كرامة، قال المدينة حرم رسول الله قال: لا ولا كرامة لك، قال: فسكت أبو ذر، فقال عثمان: أيّ البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ قال: الرّبذة التي كنت فيها على غير دين الإسلام، فقال عثمان: سر إليها، قال أبو ذر: قد سألتني فصدقتك وأنا أسألك فاصدقني، قال: نعم، فقال: أخبرني لو بعثتني فيمن بعثت من أصحابك إلى المشركين فأسروني فقالوا لا نفديه إلاّ بثلث ما تملك، قال: كنت أفديك، قال: فإن قالوا لا نفديه إلاّ بنصف ما تملك، قال: كنت أفديك، قال: فإن قالوا لا نفديه إلاّ بكلّ ما تملك قال: كنت أفديك، قال أبو ذر رحمه الله: الله أكبر قال لي حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً: يا أبا ذر كيف أنت إذا قيل لك: أي البلاد أحبّ إليك فتقول: مكة حرم الله وحرم رسوله أعبد الله فيها حتى يأتيني الموت، فيقال لك لا ولا كرامة لك، فتقول: فالمدينة حرم رسول الله، فيقال لك: لا ولا كرامة لك ثمّ يقال لك: أيّ البلاد أبغض إليك أن تكون فيها، فتقول: الرّبذة الّتي كنت فيها على غير دين الإسلام، فيقال لك سر إليها، فقلت: إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ فقال: أي والذي نفسي بيده إنّه لكائن فقلت: يا رسول الله أفلا أضع سيفي هذا على عاتقي فاضرب به قدماً قدماً؟ قال صلى الله عليه وآله: لا إسمع واسكت ولو لعبد حبشيّ وقد أنزل الله تعالى فيك وفي عثمان آية، فقلت: وما هي يا رسول الله فقال: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥][1].

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٩٠، وقرب الإسناد: ٧.

ـ وفي **«الرّوضة»** من **«الكافي»** عن سهل عن محمّد بن الحسن عن محمّد بن حفص التميمي قال حدثني أبو جعفر الخثعمي قال:

لمّا سيّر عثمان أبا ذر إلى الرّبذة شيّعه أمير المؤمنين وعقيل والحسن والحسين عليهما السلام وعمّار بن ياسر رضي الله عنه، فلمّا كان عند الوداع قال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا ذر إنّما غضبت لله عزّ وجلّ فارج من غضبت له إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فأرحلوك عن الفناء وامتحنوك بالبلاء، لو كانت السّماوات والأرض على عبد رتقا ثم اتّقى الله جعل له مخرجاً، لا يؤنسنّك إلاّ الحقّ ولا يوحشنّك إلاّ الباطل.

ثمّ تكلّم عقيل وقال: يا أبا ذر أنت تعلم أنّا نحبّك ونحن نعلم أنّك تحبّنا وأنت قد حفظت فينا ما ضيّع النّاس إلاّ القليل، فثوابك على الله عزّ وجلّ، ولذلك أخرجك المخرجون وسيّرك المسيرون، فثوابك على الله عزّ وجلّ فاتق الله واعلم أنّ استعفاؤك البلاء من الجزع واستبطاؤك العافية من الإياس فدع اليأس والجزع فقال: حسبي الله ونعم الوكيل.

ثمّ تكلم الحسن عليه السلام وقال: يا عمّاه إنّ القوم قد أتوا إليك ما قد ترى وأنّ الله بالمنظر الأعلى، فدع عنك ذكر الدّنيا بذكر فراقها، وشدّة ما يرد عليك لرخاء ما بعدها، واصبر حتّى تلقى نبيّك صلى الله عليه وآله وهو عنك راض إن شاء الله.

ثمّ تكلم الحسين عليه السلام فقال: يا عمّاه إنّ الله تبارك وتعالى قادر أن يغيّر ما ترى وهو كلّ يوم في شأن، القوم منعوك دنياهم ومنعتهم دينك فما أغناك عمّا منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم فعليك بالصّبر، وإنّ الخير في الصّبر والصّبر من الكرم ودع الجزع فإنّ الجزع لا يغنيك.

ثمّ تكلم عمّار رضي الله عنه فقال: يا أبا ذر أوحش الله من أوحشك وأخاف من أخافك، إنّه والله ما منع النّاس أن يقولوا الحقّ إلاّ الرّكون إلى الدّنيا والحبّ لها، ألا إنّما الطاعة على الجماعة والملك لمن غلب عليه، وإنّ هؤلاء القوم دعوا النّاس إلى دنياهم فأجابوهم إليها ووهبوا لهم دينهم فخسروا الدّنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

ثمّ تكلّم أبو ذر رحمه الله فقال: عليكم السّلام ورحمة الله وبركاته بأبي وأمّي هذه الوجوه، فإنّي إذا رأيتكم ذكرت رسول الله صلى الله عليه وآله بكم وما لي بالمدينة شجن ولا سكن غيركم وإنّه ثقل على عثمان جواري بالمدينة كما ثقل على معاوية فإلى أن يسيرني إلى بلدة وطلبت إليه أن يكون ذلك إلى الكوفة، فزعم أنّه يخاف أن أفسد على أخيه النّاس بالكوفة وآلى بالله ليسيرني إلى بلدة لا أرى بها أنيساً ولا أسمع بها حسيساً وإنّي والله ما أريد إلاّ الله عزّ وجلّ صاحبا ومالي مع الله وحشة حسبي الله لا إله إلا هو توكلت عليه وهو ربّ العرش العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين[١].

وفي «**البحار**» عن المسعودي في «**مروج الذهب**» بعد أن أورد كيفيّة ردّ عثمان له رحمه الله إلى المدينة وساق الحديث إلى نفيه له منها قال:

فقال له عثمان: وار وجهك عنّي قال: أسير إلى مكّة، قال: لا والله، قال: فإلى الشّام، قال: لا والله، قال: فإلى البصرة قال: لا والله فاختر غير هذه البلدان، قال لا والله لا أختار غير ما ذكرت لك ولو تركتني في دار هجرتي ما أردت شيئاً من البلدان فسيّرني حيث شئت من البلاد، قال: إنّي أسيرك إلى الرّبذة، قال: الله أكبر صدق رسول الله قد أخبرني بكلّ ما أنا لاق قال: وما قال لك؟ قال: أخبرني أنّي أمنع من مكّة والمدينة وأموت بالرّبذة ويتولى دفني نفر يريدون العراق إلى نحو الحجاز وبعث أبو ذر إلى جمل فحمل عليه امرأته وقيل ابنته، وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتّى يسير إلى الرّبذة.

ولمّا طلع عن المدينة ومروان يسيره عنها طلع عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه الحسن والحسين عليهما السلام وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمّار بن ياسر فاعترض مروان وقال: يا عليّ إن أمير المؤمنين نهى الناس أن يمنحوا أبا ذر أو يشيّعوه، فإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه السلام عليه بالسّوط وضرب بين أذني ناقة مروان وقال: تنحّ نحاك الله إلى النّار، ومضى مع أبي ذر فشيّعه ثم ودّعه وانصرف فلمّا أراد عليه السلام الانصراف بكى أبو ذر وقال: رحمكم الله أهل البيت إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله.

فشكى مروان إلى عثمان ما فعل به عليّ عليه السلام، فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرني من عليّ ردّ رسولي عمّا وجهته له وفعل وفعل والله لنعطينّه حقّه، فلمّا رجع عليّ عليه السلام استقبله النّاس وقالوا: إنّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر، فقال عليّ عليه السلام: غضب الخيل على اللّجم، فلمّا كان بالعشي وجاء عثمان قال: ما حملك على ما صنعت بمروان ولم اجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري؟ فقال: أمّا مروان فاستقبلني بردّي فرددته عن ردي، وأما أمرك لم أردّه، فقال: ألم يبلغك أنّي قد نهيت النّاس عن أبي ذر وتشييعه؟ فقال عليّ عليه السلام: أو كلّما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحقّ في خلافه اتبعنا فيه أمرك لعمر الله ما نفعل، فقال عثمان: أقد مروان، قال: وممّ أقيد قال: ضربت بين أذني راحلته وشتمته فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك، قال عليّ: أمّا راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فعل، وأمّا أنا فوالله لئن شتمني لاشتمنّك بمثله لا كذب فيه ولا أقول إلاّ حقاً، قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته فوالله ما أنت بأفضل عندي منه، فغضب

(١) الكافي: ٨/ ٢٠٨، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٤٣٦.

عليّ عليه السلام وقال: لي تقول هذا القول أمزوان يُعدَّل بي فلا والله أنا أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك وأمّي أفضل من امّك وهذه نبلي قد نثلتها فانثلّ نبلك، فغضب عثمان واحمرّ وجهه وقام ودخل، وانصرف عليّ فاجتمع إليه أهل بيته ورجال المهاجرين والأنصار.

فلمّا كان من الغد واجتمع النّاس شكى إليهم عليّاً، وقال: إنّه يغشّني ويظاهر من يغشّني يريد بذلك أبا ذر وعمّاراً وغيرهما، فدخل النّاس بينهما حتّى اصطلحا وقال عليّ: والله ما أردت بتشييعي أبا ذر إلاّ الله تعالى، هذا[١].

وقد روى الشّارح المعتزلي أكثر ما أوردناه من الأخبار في تلك القصّة بطرق أخرى نحو ما رويناه وهي كافية في الطعن على عثمان والقدح فيه؛ لأن إيذائه لأبي ذر رحمه الله وإهانته به في حكم المعاداة لله ولرسوله، وقد قال الله تعالى: من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وشهادته على أبي ذر بالكذب بعد ما سمع من أمير المؤمنين شهادة النّبي عليه بالصّدق وكونه أصدق النّاس لهجة تكون في الحقيقة راجعة إلى تكذيب رسول الله ورداً لقوله، وأعظم ذلك منازعته في تلك القضيّة مع أمير المؤمنين وإساءته الأدب في حقّه وهي كافية في وجوب طعنه ولعنه.

والعجب أنّ الشّارح المعتزلي بعد ما أورد الأخبار الدّالة على إخراجه من المدينة بالإجبار اتبعه بقوله: واعلم أنّ أصحابنا قد رووا أخباراً كثيرة معناها أنّه أخرج إلى الرّبذة باختياره «إلى أن قال» ونحن نقول: هذه الأخبار وإن كانت قد رويت لكنّها ليست في الاشتهار والكثرة كتلك الأخبار والوجه أن يقال في الاعتذار عن عثمان وحسن الظنّ بفعله أنّه خاف الفتنة والاختلاف في كلمة المسلمين فيغلب على ظنّه أنّ إخراج أبي ذر (ره) إلى الرّبذة أحسم للشّغب وأقطع للأطماع من أن يشرئِب إلى شقّ العصا، فأخرجه مراعاة للمصلحة، ومثل ذلك يجوز للإمام هكذا يقول أصحابنا المعتزلة وهو الأليق بمكارم الأخلاق فقد قال الشّاعر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلّة فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

وإنّما يتأول أصحابنا حال من يحتمل حاله التّأويل كعثمان، فأمّا من لا يحتمل حاله التّأويل وإن كانت له صحبة سالفة كمعاية وأضرابه فإنّهم لايتأولون لهم إذ كانت أفعالهم وأقعابهم لا وجه لتأويلها ولا تقبل العلاج، والإصلاح، انتهى كلامه هبط مقامه[٢].

أقول: أمّا ما حكاه عن أصحابه من روايتهم الأخبار الدّالة على اخراجه بالاختيار، ففيه أنّ هذه الأخبار ممّا تفرّد بروايته أولياء عثمان المتعصّبون له دفعاً للعار والشّنار عنه، وهي لا

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ١٨٤.

(٢) شرح النهج: ٨/ ٢٦٢، والغدير: ٨/ ٣٠٧.

تكافؤ أخبار الإجبار عدداً وسنداً وشهرة بين المؤالف والمخالف، مضافاً إلى ما فيها من مخايل الصّدق ودلائل الصّواب والصّحة، وهل تظنّ في حقّ مثل أبي ذر أو يحكم عقلك بأنّه ترك إقامة حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وآله ومجاورة قبره ومصاحبة أمير المؤمنين وآله المعصومين واختار المهاجرة إلى الفلاة والأرض القفر بالطّوع والاختيار والرّغبة والرّضاء كلا ثمّ كلاّ وكيف يرضى من له أدنى عقل وكياسة من المسلمين أن يموت في أرض اليهود ويكون فيها ويرجّحها على الدفن في حرم الرّسول فضلاً عن أبي ذر وأمثاله، إن هذا إلا مفترى.

وأمّا ما اعتذر به الشارح عنه ففيه أن حمل فعل المسلم على الصحّة إنّما هو إذا لم يكن الغالب على حاله الفساد، وامّا إذا كان الغالب على حاله ذلك فلا، وحال عثمان وسابقه في السّوء والفساد معلوم، وكفى بذلك اغتصابهم الخلافة لأمير المؤمنين عليه السلام وتغييرهم شريعة سيّد المرسلين وإحراقهم باب بضعة خاتم النبيين وجعلهم القرآن عضين، واعتياضهم الدّنيا بالدّين، مضافة إلى مطاعنهم الدثرة وفضائحهم الجمة الّتي تقدمت في مقامه وتأتي أيضاً.

ومع ذلك فأي شيء أوجب حسن الظنّ بفعل عثمان حتى تأوّل الأخبار الناصة بسوء فعله.

ثمّ أقول: هب أنّ الدّاعي على إخراجه كان خوف الفتنة وشق العصا على زعمك، ولكن أي شيء كان الدّاعي على حمله من الشّام إلى المدينة على جمل صعب ليس عليها إلاّ قتب يابس حتّى سقط لحم فخذيه من الجهد، وما كان السّبب لهذه الأذيّة؟

فإن قلت: ان معاوية فعل ذلك في حقّه.

قلت: عثمان كتب إلى معاوية بأن يحمله على أغلظ مركب وأوعره مع من سار به اللّيل والنّهار.

وأما تفرقة الشّارح بين عثمان ومعاوية فهو أعجب ثمّ أعجب، لأنّ كليهما من فروع الشّجرة الملعونة، وكلّ منهما في مقام المحادّة والمعاداة والظّلم لأمير المؤمنين ولعترة سيّد النّبيّين ولرؤساء الدّين، فلا يمكن إصلاح حالهما وعلاج قبائح أعمالهما وفضائح أفعالهما بعد العين بالأثر ولا بعد الدّراية بالخبر، وسيعلم الذّين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

الترجمة

از جمله كلام آن بزرگوار است مر ابى ذر غفارى در حينى كه اخراج شد از مدينه طيّبه به سوى ربذه، فرمود:

اى ابوذر، به درستى كه تو غضب كردى از براى رضاى خداى تبارك و تعالى، پس اميدوار باش به كسى كه از براى او غضب نمودى، به درستى كه اين قوم ترسيدند از تو بر دنياى خودشان و ترسيدى تو از ايشان بر دين خود، پس ترك كن در دست ايشان آن چه را كه ترسيدند از تو بر آن و بگريز از ايشان به آن چه كه ترسيدى از ايشان بر او، پس چه بسيار احتياج دارند به آن چه كه منع كردى تو ايشان را، يعنى از دين خود و چقدر بى نيازى تو از آنچه كه منع كردند تو را، يعنى دنيايشان و زود باشد كه بدانى كه كيست صاحب ربح و منفعت فرداى قيامت و بيشتر مردمان در حالتى كه حسد برند او را.

و اگر آسمان ها و زمين ها باشند بر بنده بسته شده، پس بپرهيزد آن بنده از خداى تعالى، هرآينه بگرداند پروردگار متعال از براى آن بنده محل خروجى از آنها، يعنى ابواب فرج به روى او مفتوح مى شود و نبايد مونس بشود تو را مگر خدا، نبايد وحشت آورد تو را غير از باطل، پس اگر قبول كرده بودى دنياى ايشان را، هرآينه دوست مى داشتند تو را و اگر قطع كرده بودى و اخذ نمودى از دنيا، يعنى قبول هداياى ايشان را مى كردى، هرآينه در امان بودى از شرّ ايشان.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والأحد والثلاثون من المختار في باب الخطب

أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ وأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الأَسَدِ، هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سِرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ إِعْوِجَاجَ الْحَقِّ، أَللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ تَعْلَمُ إِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كانَ مِنَّا مُنافَسَةً في سُلْطانٍ، وَلاَ الْتِماسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَام، وَلَكِنْ لِنَرُدَّ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاَحَ في بِلادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبادِكَ وتُقامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنابَ، وسَمِعَ وأَجابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِالصَّلاَةِ، وقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّماءِ وَالْمَغانِمِ وَالأَحْكَام وإِمامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ في أَمْوالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلاَ الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلاَ الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفائِهِ، وَلاَ الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ، فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْم، وَلاَ الْمُرْتَشِي في الْحُكمِ، فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقاطِعِ، وَلاَ الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ، فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ[1].

اللغة

(ظارت) النّاقة إذا عطفت على ولد غيرها وظأرتها أيضاً أي عطفتها يتعدى ولا يتعدّى و(المعز) من الغنم بخلاف الضأن وهو اسم جنس وكذلك المعزى و(سرار) العدل قال الفيروز آبادي: السّرار كسحاب من الشهر أخر ليلة كسراره وسرره وقال أيضاً: سرارة الوادي أفضل مواضعه كسرّته وسرّه وسراره، وقال الكندري في محكي كلامه: سرار الشهر وسرره آخر ليلة منه، والسّرار المسارة من السر وجمع سرر الكف والجبهة.

و(المنافسة) المغالبة في الشيء النّفيس و(الحطام) ما تكسّر من اليبس و(النّهمة) بلوغ الهمّة والشّهوة في الشيء وهو منهوم بكذا مولع به، وروى نهمته محرّكة وهي إفراط الشّهوة في الطّعام و(الجفاء) خلاف البرّ والصّلة ورجل جافي الخلق والخلقة أي غليظ منقبض و(الحائف) بالحاء المهملة من الحيف وهو الظلم والجور و(الدول) بضمّ الدّال المهملة جمع الدّولة إسم للمال المتداول به قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، وروى الخائف للدّول بالخاء المعجمة وكسر الدّال جمع دولة بالفتح وهي الغلبة.

---

(١) كتاب الأربعين: ١٩٥، وبحار الأنوار: ٢٥/١٦٧ ح ٣٦.

الإعراب

(الباء) في قوله **(أُطلع بكم)** إمّا تعدية أو سببيته، **(وسرار العدل)** إمّا منصوب على الظّرف أو مفعول به حسبما تعرف في بيان المعنى.

المعنى

اعلم أنّ المقصود بهذا الكلام توبيخ أصحابه وذمّهم على التّقصير في إتباع الحق والإعراض عن متابعة الإمام العدل، وأشار إلى بعض مناقبه المستلزمة لوجوب إتباعه وعقّبه بالتّعريض على المنتحلين للخلافة الغاصبين لها فقال **(أيّتها النّفوس المختلفة)** الأهواء **(والقلوب المتشتّة)** الآراء و**(أظأركم)** وأعطفكم **(على الحقّ وأنتم تنفرون عنه نفور المعزىٰ من وعوعة الأَسد)** وصوته **(هيهات أن أطلع بكم سرار العدل)** أي بعد أن اظهركم وأبيّن لكم ما خفى من العدل واستسرّ لتخاذلكم وتفرق أهوائكم.

وقال الشّارح المعتزلي: يفسّره النّاس بمعنى هيهات أن أطلعكم مضيئين ومنوّرين سرار العدل، والسّرار آخر ليلة من الشهر وتكون مظلمة ويمكن أن يفسر عندي على وجه آخر، وهو أن يكون السرار ههنا بمعنى السرر وهي خطوط مضيئة في الجبهة فيكون معنى كلامه عليه السلام هيهات أن تلمع بكم لوامع العدل وإشراق وجهه، ويمكن فيه أيضاً وجه آخر وهو أن ينصب سرار على الظّرفية ويكون التقدير هيهات أن أطلع بكم الحق زمان استسرار العدل واستخفائه، فيكون حذف المفعول وحذفه كثير، انتهى.

وعن الكندري قال في محكيّ كلامه **(وسرار العدل)** أي **(في سرار)** فحذف حرف الجرّ ووصل الفعل، وقيل أي هيهات أن أظهر بمعونتكم ما خفى واستسرّ من أقمار العدل وأنواره، انتهى.

وهو أولى ممّا ذكره الشارح المعتزلي والأظهر ما ذكرناه **(أو أقيم اعوجاج الحقّ)** أي ما اعوج منه بسبب غلبة الضّلال والجهال عليه.

ثمّ نبّه على براءة ساحته وتزكية نفسه في أمر الخلافة فقال **(اللهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان)** وقع **(منّا)** وهو الرّغبة في الخلافة أو الحروب أو الجميع **(منافسة في سلطان)** وحرصاً عليه **(والتماس شيء من فضول الحطام)** أي طلباً لشيء من زخارف الدّنيا وزينتها السّاقطة عن درجة الاعتبار الغير المحتاج إليها **(ولكن لنردّ المعالم من دينك)** أي الآثار الّتي يهتدي بها فيه **(ونظهر الإصلاح في بلادك)** ونرفع الفساد عنها **(فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدودك)**.

ولا يخفى ما في هذه الجمل من التّعريض على المتقدّمين المنتحلين للخلافة والإشارة

إلى أنّ طلبهم لها إنّما كان تنافساً في الملك والسّلطنة، ورغبة في القنيات الدّنيويّة، وإلى أنّ أنوار الدّين في زمانهم قد انطمست، وآثار الشرع المبين قد اندرست، وأنّه شاع الفساد في البلاد وغلب الجور والظّلم على العباد وتعطلت الحدود والأحكام وتغيّر الحلال والحرام.

ثمّ إنّه لمّا بيّن أنّ طلبه للخلافة لم يكن للدّنيا أكّد هذا المعنى بقوله (**اللّهمّ إنّي أوّل من أناب**) ورجع إليك (**وسمع**) دعوة الرّسول صلى الله عليه وآله (**وأجاب**) إليه (**لم يسبقني إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالصّلاة**) أمّا كون هذه الجملة تأكيداً لما سبق فلأنه إذا كان أوّل النّاس إسلاماً مع عدم كون الإسلام معروفاً حينئذٍ متوقّعاً به الانتفاع في الدّنيا لا بدّ وأن يكون إسلامه لله سبحانه وابتغاء لرضاه، ومن كان هذا حاله في بداية أمره كيف يخطر ببال عاقل أنّه يطلب الدّنيا وحطامها، ويجرّد عليها السّيف في آخر عمره.

وأما كونه عليه السلام أوّل من أناب وأجاب إلى الإيمان والإسلام فهو المتّفق عليه بين الشيعة والمشهور بين الجمهور لم يخالف في ذلك إلاّ شرذمة منهم لا يعتد بخلافهم وستعرف تفصيل ذلك في التنبيه الآتي.

وأمّا إنّه سبق النّاس بالصّلاة ولم يسبقه غيره فيدلّ على ذلك ما رواه في المجلد التّاسع من «**البحار**» من كتاب «**المناقب**» للشّيخ الفقيه رشيد الدّين أبي جعفر محمّد بن عليّ بن شهر آشوب المازندراني تغمده الله برحمته، قال ما هذا لفظه:

أبو عبد الله المرزباني وأبو نعيم الأصبهاني في كتابيهما فيما نزل من القرآن في عليّ عليه السلام والنطنزي في «**الخصائص**» عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وروى أصحابنا عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، نزلت في رسول الله وعليّ بن أبي طالب وهما أوّل من صلّى وركع[1].

المرزباني عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: إن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]، نزلت في عليّ خاصّة وهو أول مؤمن وأوّل من صلى بعد النبيّ.

تفسير السّدي عن قتادة عن عطاء عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ [المزمل: ٥٣٤]، فأوّل من صلّى مع رسول الله عليّ بن أبي طالب.

تفسير القطان عن وكيع عن سفيان عن السّدي عن أبي صالح عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، يعني محمّداً ادّثر بثيابه، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، أي

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٩٦، وبحار الأنوار: ٣٦/ ١٢٠.

فصلّ ادع عليّ بن أبي طالب إلى الصّلاة معك، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]ممّا تقول عبدة الأوثان.

تفسير يعقوب بن سفيان قال: حدّثنا أبو بكر الحميدي عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي النجيح عن مجاهد عن ابن عباس في خبر يذكر فيه كيفية بعثة النبيّ ثمّ قال: بينا رسول الله ﷺ قائم يصلّي مع خديجة إذ طلع عليه عليّ بن أبي طالب فقال له: ما هذا يا محمد؟ قال: هذا دين الله فآمن به وصدقه، ثمّ كانا يصليّان ويركعان ويسجدان فأبصرهما أهل مكّة ففشا الخبر فيهم أنّ محمّداً قد جنّ، فنزلت: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٢][١].

شرف النبيّ عن الخركوشي قال: وجاء جبرئيل بأعلى مكّة وعلّمه الصّلاة فانفجرت من الوادي عين حتى توضّأ جبرئيل بين يدي رسول الله، وتعلّم رسول الله ﷺ منه الطّهارة ثمّ أمر به عليّاً عليه السلام.

تاريخي «**الطبري**» و«**البلاذري**»، و«**جامع الترمذي**»، و«**أبانة العكبري**»، و«**فردوس الدّيلمي**»، وأحاديث أبي بكر بن مالك، و«**فضائل الصّحابة**» عن الزّعفراني عن يزيد بن هارون عن شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي حمزة عن زيد بن أرقم، و«**مسند أحمد**» عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قالا، قال النبي ﷺ: أوّل من صّلى معي عليّ[٢].

تاريخ النّسوي قال زيد بن أرقم: أوّل من صلّى مع رسول الله ﷺ علي.

«**جامع الترمذي**» و«**مسند أبي يعلى الموصلي**» عن أنس، و«**تاريخ الطّبري**» عن جابر قالا: بُعِث النبيّ يوم الإثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء.

أبو يوسف النّسوي في «**المعرفة**» وأبو القسم عبد العزيز بن إسحاق في «**أخبار أبي رافع**» عن عشرين طريقاً عن أبي رافع قال: صلى النّبيّ أوّل يوم الاثنين، وصلت خديجة آخر يوم الاثنين، وصلى عليّ يوم الثلاثاء من الغد.

أحمد بن حنبل في «**مسند العشرة**» وفي «**الفضائل**» أيضاً، والنّسوي في «**المعرفة**»، والتّرمذي في «**الجامع**»، وابن بطّة في «**الإبانة**» روى عليّ بن الجعد عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن حبّة العرني قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: أنا أوّل من صلّى مع رسول الله ﷺ[٣].

---

(١) بصائر الدرجات: ٥٣٢، وبحار الأنوار: ٩/ ٦٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٩٧، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٠٣.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٩٧، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٠٣.

ابن حنبل في «**مسند العشرة**» وفي «**فضائل الصّحابة**» أيضاً عن سلمة بن كهيل عن حبّة العرني في خبر طويل أنّه قال عليّ عليه السلام: اللهمّ لا أعرف أنّ عبداً من هذه الأمّة عبدك قبلي غير نبيّك ثلاث مرّات، الخبر.

وفي «**مسند أبي يعلى**» ما أعلم أحداً من هذه الأمّة بعد نبيّها عبد الله غيري، الخبر.

الحسين بن عليّ عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، نزلت في عليّ بن أبي طالب.

وروى جماعة أنّه نزلت فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ٥٥].

في تفسير القطّان قال ابن مسعود: قال عليّ عليه السلام: يا رسول الله ما أقول في السجود في الصّلاة؟ فنزّل ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، قال: فما أقول في الرّجوع؟ فنزّل ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، فكان أوّل من قال ذلك وأنّه صلى قبل الناس كلّهم سبع سنين وأشهراً مع النّبي صلى الله عليه وآله، وصلى مع المسلمين أربع عشرة سنة وبعد النّبي ثلاثين سنة(١).

عن ابن فيّاض في «**شرح الأخبار**» عن أبي أيّوب الأنصاري قال: سمعت النّبي صلى الله عليه وآله يقول: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب سبع سنين، وذلك أنّه لم يؤمن بي ذكر قبله، وذلك قول الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧] ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

وفي رواية زياد بن المنذر عن محمّد بن عليّ عن أمير المؤمنين عليه السلام لقد مكثت الملائكة سنين لا تستغفر إلاّ لرسول الله صلى الله عليه وآله ولي وفينا نزلت الملائكة يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون للذين آمنوا ربنا إلى قوله: الحكيم.

وروى جماعة عن أنس وأبي أيّوب، وروى شيرويه في الفرّدوس عن جابر قال: قال النّبي صلى الله عليه وآله: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب سبع سنين قبل النّاس(٢)، وذلك أنّه كان يصلي ولا يصلي معنا غيرنا، وفي رواية: لم يصل فيها غيري وغيره، وفي رواية: لم يصلّ معي رجل غيره.

في «**سنن ابن ماجه**» و«**تفسير الثعلبي**» عن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه أنّ علياً عليه السلام صلى مستخفياً مع النّبي صلى الله عليه وآله سبع سنين وأشهراً.

---

(١) الغدير: ٣/ ٢٢٢ ح ١٢، ونهج الإيمان: ١٦٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٩٨، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٠٣.

في تاريخ الطّبري وابن ماجه قال عباد بن عبد الله: سمعت علياً عليه السلام يقول: أنا عبد الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا الصّدّيق الأكبر لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر، صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله سبع سنين[١].

في مسندي أحمد وأبي يعلى قال حبة العرني: قال عليّ عليه السلام: صليت قبل أن يصلّي الناس سبعاً[٢].

الحميري:

ألم يصلّ عليّ قبله حججاً	ووحّد الله ربّ الشّمس والقمر
وهؤلاء ومن في حزب دينهم	قوم صلاتهم للعود والحجر

وله:

وكفاه بأنّه سبق النّاس	بفضل الصّلاة والتوحيد
حججاً قبلهم كوامل سبعاً	بركوع لديه أو بسجود

وله:

أليس عليّ كان أوّل مؤمن	وأوّل من صلّى غلاماً ووحّدا
فما زال في سرّ يروح ويغتدي	فيرقى بثيراء أو بحراء مصعداً
يصلّي ويدعو ربّه فيهما مع	المصطفى مثنى وإن كان أوحدا
سنين ثلاثاً بعد خمس وأشهر	كوامل سبعاً قبل أن يتمردا

وهو أوّل من صلى القبلتين صلى إلى بيت المقدس أربع عشرة سنة، والمحراب الذي كان النبي صلى الله عليه وآله يصلي ومعه عليّ وخديجة معروف، وهو على باب مولد النبيّ في شعب بني تميم، وقد روينا عن الشيرازي ما رواه عن ابن عباس في قوله: والسّابقون الأوّلون، نزلت في أمير المؤمنين سبق النّاس كلّهم بالإيمان وصلّى القبلتين وبايع البيعتين.

الحميري:

وصلّى القبلتين وآل تيم	واخوتها عديّ جاحدونا

وصلى إلى الكعبة تسعاً وثلاثين سنة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٩٩، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٠٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٩٩، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٠٥.

في «**تاريخ الطبري**» بثلاثة طرق، و«**ابانة العكبري**» من أربعة طرق، وكتاب «**المبعث**» عن محمّد بن إسحاق، و«**التّاريخ النّسوي**»، وكتاب «**الثعلبي**»، وكتاب «**الماوردي**» و«**مسند أبي يعلى الموصلي**»، ويحيى بن معين، وكتاب أبي عبد الله محمّد بن زياد النيسابوري عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بأسانيدهم عن ابن مسعود، وعلقمة البجلي وإسماعيل بن أياس بن عفيف عن أبيه عن جدّه أنّ كلّ واحد منهم قال: رأى عفيف أخو الأشعث بن قيس الكندي شاباً يصلي، ثمّ جاء غلام فقام عن يمينه، ثمّ جاءت امرأة فقامت خلفها، فقال للعبّاس، هذا أمر عظيم، قال: ويحك هذا محمّد، وهذا عليّ، وهذه خديجة إنّ ابن أخي هذا حدثني أنّ ربّه ربّ السماوات والأرض أمر بهذا الدّين، والله ما على ظهر الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

وفي كتاب «**النّسوي**» أنّه كان يقول بعد إسلامه: لو كنت أسلمت يومئذٍ كنت ثانياً مع علي بن أبي طالب.

وفي رواية محمّد بن إسحاق عن عفيف قال: فلمّا خرجت من مكّة إذا أنا بشاب جميل على فرسٍ فقال: يا عفيف ما رأيت في سفرك هذا؟ فقصصت عليه، فقال لقد صدقك العبّاس والله إنّ دينه لخير الأديان وإنّ أُمّته أفضل الأمم، قلت: فلمن الأمر من بعده؟ قال: لابن عمّه وختنه على بنته، يا عفيف الويل كلّ الويل لمن يمنعه حقّه.

عن ابن فيّاض في «**شرح الأخبار**» عن ابن أبي الحجّاف عن رجل أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هجم على رسول الله صلى الله عليه وآله يعني أبا طالب ونحن ساجدان قال: أفعلتماها ثمّ أخذ بيدي فقال: انظر كيف تنصره وجعل يرغّبني في ذلك ويحضني عليه الخبر.

وفي كتاب «**الشيرازي**» أنّ النبي صلى الله عليه وآله لمّا نزل الوحي عليه أتى المسجد الحرام وقام يصلّي فيه، فاجتاز به عليّ عليه السلام وكان ابن تسع سنين فناداه يا عليّ إليّ أقبل، فأقبل إليه ملبّياً، قال: أتى رسول الله إليك خاصّة وإلى الخلق عامّة، فقال: يا عليّ فقف عن يميني وصلّ معي، فقال: يا رسول الله حتّى أمضي واستأذن أبا طالب والدي قال: اذهب فإنّه سيأذن لك، فانطلق يستأذن في اتباعه فقال: يا ولدي تعلم أنّ محمّداً والله أمير منذ كان، امض واتبعه ترشد وتفلح وتشهد فأتى عليّ عليه السلام ورسول الله قائم يصلي في المسجد، فقام عن يمينه يصلّي معه، فاجتاز بهما أبو طالب وهما يصليان فقال: يا محمّد ما تصنع؟ قال: أعبد إله السّماوات والأرض ومعي عليّ يعبد ما أعبد، وأنا أدعوك إلى عبادة الله الواحد القهار[١]، فضحك أبو طالب حتّى بدت نواجذه وأنشأ يقول:

---

(١) أبو طالب حامي الرسول: ٤٩، وبحار الأنوار: ٣٨/٢٠٧.

والله لـن يـصـلـوا إلـيـك بـجـمـعـهـم حـتّـى أغـيّـب فـي الـتـراب دفـيـنـاً

في«تاريخ الطّبري» وكتاب محمّد بن إسحاق أنّ النّبي كان إذا حضرت الصّلاة خرج إلى شعاب مكّة وخرج معه عليّ بن أبي طالب مستخفياً من قومه فيصليان الصّلاة فيها فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك زماناً.

ثمّ روى الثعلبي معهما أن أبا طالب رأى النّبيّ وعليّاً يصليّان فسأل عن ذلك فأخبره النّبي أنّ هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم في كلام له، فقال عليّ: يا أبه آمنت بالله ورسوله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله فقال له: أما إنّه لا يدعو إلاّ إلى خير فالزمه[1].

---

(١) كتاب الأربعين: ١٩٧، وبحار الأنوار: ٣٨/٢٠٧.

«أولية إسلامه رواه كل من:

زيد بن ارقم (مسند أحمد: ٤ / ٣٦٧. ٣٧١ ط.م و ٥ / ٤٩٩ ط.ب، وصحيح الترمذي: ٥ / ٣٤٢ ط. دار الحديث و٢ / ٣٠١ ط. مصر، والطبقات الكبرى: ٣ / ١٥ ترجمة علي، واسد الغابة: ٤ / ١٧، وكنز العمال: ١٣ / ١٤٤ ح ٣٦٤٥١، وتاريخ الطبري: ٢ / ٥٥، وخصائص النسائي: ٢٦ ح ٣، والكامل في التاريخ: ١ / ٤٨٤ ذكر الاختلاف في أول من أسلم، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٧٥ ح ١٠١٤، وذخائر العقبى: ٥٨، جواهر المطالب: ١ / ٣٧ باب ٤ وأعلام النبوة: ٢٠٥ باب ١٢ والاوائل ٣٠ ح ٧٠)،، وحبة العرني (مناقب الخوارزمي: ٥٧ ح٢٣، ومسند أبي حنيفة: ٢٤٧ ط. مصر)، وجابر (الاصابة: ٨ / ١٨٣ القسم ١ ط. مصر)،، والحارث (اسد الغابة: ٥ / ٥٢٠)،، وابن عباس (مستدرك الصحيحين: ٣ / ١٣٣ مناقبه، وذخائر العقبى: ٥٨، والمسند: ١ / ٣٧٣ ط.م و١ / ٦١٦ ط.ب، والطبقات الكبرى: ٣ / ١٥، والمعجم الكبير: ١٢ / ٧٧ ترجمة ابن عباس ما روى عنه عمرو بن ميمون ح ١٢٥٩٣، وشواهد التنزيل: ١ / ١٢٥ ح ١٣٤، وخصائص النسائي: ٤٥ ح ٢٣، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٧٤ ح ١٠٠، وكنز العمال: ١٣ / ١٢٣ ح ٣٦٣٩٢، وتاريخ الاسلام: ٣ / ٦٢٤، جواهر المطالب: ١ / ٣٧ باب ٤ وقال: قال أبو عمر هذا حديث صحيح، والاوائل ٣٠ ح ٧٠)، وأبي هريرة (كنز العمال: ١١ / ٦٠٥ ح ٣٢٩٢٥)،، وعلي عليه السلام (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٥٧ ح ٨٣، وشواهد التنزيل: ١ / ٣٣٤ ح ٣٤٣، مناقب ابن المغازلي: ١٥ ح٢٠. ٢١)،، ومالك بن الحويرث (المعجم الكبير: ١٩ / ٢٩١ ترجمته، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٧٦ ح ١٠٢)،، وأبي موسى الاشعري (المستدرك: ٣ / ٤٦٥ مناقب أبي موسى الاشعري من كتاب المعرفة وصححه)،، وعفيف الكندي (المستدرك: ٣ / ١٨٣ فضائل خديجة من كتاب المعرفة. وصححه الذهبي)،، وسعد بن أبي وقاص (المستدرك: ٣ / ٥٠٠ مناقب سعد)،، وعمر (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٣٦١ ح ٤٠١، وذخائر العقبى: ٥٨، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٣٠ خطبة ٢٣٨، ومناقب الخوارزمي: ٥٥ ح ١٩ فصل ٤)،، وسلمان والمقداد وأبي سعيد وخباب وأبي ذر(شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٣٠ خطبة ٢٣٨، والمعجم الكبير: ٥ / ٨٤ ح ٤٦٥٢ ترجمة زيد بن الحارث، و٦ / ٢٦٥ ترجمة سلمان ما روي عنه الكندي، والاستيعاب: ٢ / ٤٥٨، والمستدرك: ٣/ ١٣٦ مناقب الامير، والائمة الاثنا عشر: ٤٨)،، وأبي رافع وبريدة(المعجم الكبير: ٢٢ / ٤٥٢ ترجمة خديجة، ومجمع الزوائد: ٩ / ٢٢٠، والاوائل: ٣٠ ح ٧٠، والائمة الاثنا عشر: ٤٨)،،

ثمّ إنّه عليه السلام لمّا نبّه على أن طلبه للخلافة إنما كان لله سبحانه وتعالى لا تنافساً في

وانس (المعجم الكبير: ٢٢ / ٤١١ ترجمة فاطمة ـ تزويجها، وينابيع المودة: ١ / ٢٣٩، وصحيح الترمذي: ٥ / ٦٤٠ كتاب المناقب ط. دار الحديث، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٢٩).، وعمرو ابن ميمونة(مائة منقبة: ٧٦ المنقبة ٢٥).، ومحمد بن أبي بكر(مروج الذهب: ٣ / ١١ ذكر معاوية).، والحسن عليه السلام (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٤٥ ح ٦٥ ـ ٦٨، والاستيعاب: ٢ / ٤٥٨، والحلية: ٤ / ٢٩٤ ط. مصر ١٣٥١).، وابن اسحاق(تاريخ الطبري: ٢ / ٥٧ ذكر الخبر عما كان من امر النبي صلى الله عليه وآله).، والكلبي (تاريخ الطبري: ٢ / ٥٧ ذكر أول من أسلم).، وأبي اسحاق (كنز العمال: ٥ / ١٥٣ ط. مصر، وتاريخ الاسلام: ١ / ١٣٧ اسلام السابقين، والمعجم الكبير: ١/ ٩٤ ح ١٥٦ ترجمة علي ـ صفته، وكنز العمال: ١١ / ٦٠٥ ح٣٢٩٢٧).، وابن عوف (الفتوح لابن اعثم: ١ / ٢١٧ كتاب علي لمعاوية (قبل صفين)، وشواهد التنزيل: ١ / ٣٧٤ ح ٣٤٣).، وعروة وسلمان بن يسار (أعلام النبوة: ٢٠٥ باب ١٢).

ـ ومنها بلسان: «علي أقدم امتي سلماً ـ اولهم او اقدمهم سلماً»

رواه كل من:

أنس ومعقل بن يسار (تاريخ الاسلام: ٣ / ٦٢٨ عهد الخلفاء ـ علي، وشواهد التنزيل :١ / ١٠٨ ح١٢٢، والمعجم الكبير: ٢٠ / ٢٣٠ ترجمة معقل ما روي عنه نافع، والمسند: ٥ / ٢٦ ط.م و ٦ / ط.ب، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٢٥٤ ح ٢٩٧، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٢٧ خ ٢٣٨).، والصادق عن أبائه (شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٢٧ خ ٢٣٨).، وجابر (مائة منقبة: ٧٦ المنقبة ٢٥).، وأبي سعيد (البيان للكنجي: ١١٧ باب ٩ تصريح النبي بان المهدي من ولد الحسين). وسلمان (كنز العمال: ١١ / ٦١٦ ح ٣٢٩٩١، وكتاب سليم: ٧٠ و٩٣).، وبريدة (مناقب الخوارزمي: ١٠٦ فصل ٩ ح١١١، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٢٦٣ ح ٣٠٥، وكنز الفوائد: ١٢١).، وأبي أيوب(مناقب الخوارزمي: ١١٢ فصل ٩ ح١٢٢).، والمنصور عن أبائه (مناقب الخوارزمي: ٢٩٠ ح ٢٧٩ فصل ١٩، وارشاد القلوب: ٢ / ٤٣٠).، وام سلمة(مناقب الخوارزمي: ٣٥٣ ح ٣٦٤ فصل ٢٠).، وعائشة واسماء (فتح الملك العلي: ٦٧).، والاعمش (مناقب ابن المغازلي: ١٥١ ح ١٨٨).، والحارث عن علي (الذرية الطاهرة: ٩١ ح ٨٣)..

ـ ومنها بلسان: «أنا الصديق الأكبر آمنت قبل ان يؤمن أبو بكر واسلمت قبل أن يسلم».

رواه معاذ العدوية عنه، خرّجه البلاذري وابن قتيبة في المعارف (الكنى والاسماء للدولابي: ٢ / ٨١ من كنيته أبو الفضل، الجوهرة: ٨، وأنساب الاشراف: ٢ / ٣٧٩، وكنز العمال: ١٣ / ١٦٤ ح ٣٦٤٩٧، وانساب الاشراف: ٢ / ١٤٦ ح ١٤٦ قبسات من ترجمة علي،، وكنز الفوائد: ٣٣٩ الفصل العاشر من رسالة التعجب، وذخائر العقبى: ٥٨، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٢٨ خ ٢٣٨، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٦٢ ح ٨٨، وينابيع المودة: ١ / ٢٣٩ باب، وجواهر المطالب: ١ / ٣٨ باب ٤)..

ـ ومنها بلسان: «اولكم وروداً على الحوض اولكم اسلاماً هو علي بن أبي طالب».

أخرجه صاحب الفردوس والحارث والطبراني والخطيب وابن عدي والحاكم وابن مردويه وابن أبي عاصم والقلعي عن سلمان وسفيان الثوري (الاوائل: ٢٩ ح ٦٧ ـ ٦٩، بغية الطلب في تاريخ حلب: ٣ / ١١٨٧، والمستدرك: ٣ / ١٣٦، واسد الغابة: ٤ / ١٧، ومناقب الكلابي: ٤٣١ ح ١٠، والمطالب العالية: ٤ / ٥٧ ح ٣٩٥٢، ومناقب الخوارزمي: ٥٢ ح ١٥ فصل ٤، وجواهر المطالب: ١ / ٣٨ باب ٤، وكنز العمال: ١١ / ٦١٦ ح ٣٢٩٩١ و١٣ / ١٤٤ ح ٣٦٤٥٢، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ /

زخارف الدّنيا والتماساً لحطامها وعقبه بالإشارة إلى سبقه في الإسلام والصّلاة مع النّبيّ المقتضي لتقدّمه على غيره أردفه بالإشارة إلى موانع الإمامة تنبيهاً على أنّه هو الإمام دون غيره لوجود المقتضي وإنتفاء الموانع فيه مع عدمه ووجودها في غيره فقال **(وقد علمتم)** وحصول ذلك العلم لهم إمّا من الكتاب كقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٥٣]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر: ٩]، وما يضاهي ذلك ممّا يستنبط منه شروط الولاية وأحكامها، وإمّا بنص من رسول الله ﷺ أو بإعلام سابق منه عليه السلام.

وعلى أيّ تقدير فالمقصود به الإشارة إلى استحقاقهم للتوبيخ والتقريع لكون تقصيرهم في حق الإمام عن علم منهم لا عن جهل فيعذرون ويعتذرون.

وقوله: **(إنّه لا ينبغي)** أي لا يجوز **(أن يكون الوالي على الفروج والدّماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل)** الشحيح وهو في لسان الشّرع من يمنع الواجب **(فتكون في أموالهم نهمته)** أي حرصه وجشعه أو فرط شهوته **(ولا الجاهل فيضلهم بجهله)** وإضلاله معلوم **(ولا الجافي)** سيء الخلق **(فيقطعهم بجفائه)** وانقباضه عن الوصول إليه أو عن حاجاتهم أو بعضهم عن بعض لتفرّقهم **(ولا الحائف للدّول)** أي الجائر للأموال والظالم في تقسيمها بأن لا

---

٨٢ ـ ٨٥ ح ١١٥، وينابيع المودة: ٢٧٨ ـ المناقب السبعون ـ، ومناقب ابن المغازلي: ١٦ ح ٢٢، وكنوز الحقائق ٤١٠، والفوائد المجموعة: ٣٤٦ ذكر مناقب علي ح ٤٧ وتاريخ بغداد: ٢ / ٧٩). .

وزاد ابن أبي الحديد والكراجكي عن انس: فقال له سلمان قبل أبي بكر وعمر؟

فقال :« قبل أبي بكر وعمر» (شرح النهج: ٤ / ١١٧ الخطبة ٥٦، وكنز الفوائد: ١٢١ فصل في ان امير المؤمنين أول بشر سبق الى الاسلام). .

ـ ومنها عن عائشة عن رسول الله ﷺ: «دعي لي اخي فانه أول الناس بي اسلاماً» (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٩٦ ح ١٣١)..

ـ ومنها عن انس: «نبيء رسول الله ﷺ يوم الاثنين وأسلم علي من الغد يوم الثلاثاء وصلى »خرجه ابن عساكر وأبو عمر(ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٥٠ ح ٧٣، وكنز الفوائد: ١٢١، وجواهر المطالب: ١ / ٥٠ باب ٨). ونحوه عن حبة عن علي (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٥٢ ح ٧٩، وكنز الفوائد: ٣٣٩ فصل ١٠ من رسالة التعجب).. وخرّجه الخلعي عن رافع بن خديج (جواهر المطالب: ١ / ٥٠ باب ٨)..

ـ ومنها:« أما ترضين ان زوجك أول المسلمين اسلاماً ـ الرسول لفاطمة عليها السلام (المعجم الكبير: ٢٢ / ٤١٦ ترجمة فاطمة ما روي عنها انس، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٩٣ ح ١٢٧)..

وعن محمد بن أبي بكر: ..« فكان أول من اجاب واناب ووافق وأسلم وسلّم اخوه وابن عمه علي بن أبي طالب نصدقه بالغيب والمكتوم »(انساب الاشراف: ٢ / ٣٩٢٤ امر مصر في خلافة علي ومقتل محمد بن أبي بكر)..

وقال محمد القرظي :« علي أولهم اسلاماً »(الجوهرة: ٨). .

يقسّمها بالسّوية بل يرجح بعضهم على بعض **(فيتخذ قوماً)** ويخصّهم بالعطاءِ **(دون قوم)** وعلى رواية الخائِفِ للّدول بالخاء المعجمة وكسر الدّال فالمراد به من يخاف دول الأيّام وتقلّبات الدّهور وغلبة الأعداء فيتخذ قوماً يرجو نفعهم ونصرهم في دنياه، ويقويهم على غيرهم ويفضّلهم في العطاء وسائر جهات الإكرام على الآخرين.

(ولا المرتشي في الحكم) أي آخذ الرّشوة وهو بالكسر ما يعطيه الشّخص الحاكم وغيره ليحكم أو يحمله على ما يريد، وفي الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وآله الرّاشي والمرتشي والرايش يعني المعطي للرّشوة والآخذ لها والسّاعي بينهما يزيد لهذا وينقص لهذا، والحاصل أنّه لا يجوز أن يكون آخذ الرّشوة حاكماً **(فيذهب بالحقوق)** أي حقوق النّاس ويبطلها ويخرجها من يد صاحبها **(ويقف بها دون المقاطع)** أي يقف عند مقطع الحكم فلا يقطعه بأن يحكم بالحق بل يحكم بالجور أو يسوف الحكم حتّى يضطر المحقّ ويرضى بالصّلح ويذهب بعض حقّه.

قال العلامة المجلسيّ (قد): ويحتمل أن تكون **(دون)** بمعنى **(غير)** أي يقف في غير مقطعه **(ولا المعطل للسنّة)** والطريقة الشّرعيّة النبويّة **(فيهلك الأمّة)** في الدّنيا أو الآخرة أو كليهما.

تبصرة

قال الشّارح المعتزلي في شرح هذا الكلام له عليه السلام في إبداء المناسبة والارتباط بين ما ذكره من سبقه عليه السلام إلى التّوحيد والمعرفة والصّلاة وما عقّبه به من تقرير قاعدة الإمامة والتعرّض لموانعها ما محصّله:

أنّه عليه السلام إذا كان أوّل السّابقين وجب أن يكون أقرب المقرّبين، لأنّه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١١]، وإذا كان أقرب المقربين وجب أن تنتفي عنه الموانع السّتة التي جعل كلّ واحد منها صاداً عن الإمامة وقاطعاً عن استحقاقها وهي البخل، والجهل، والجفاء، والعصبيّة في دولته، أي تقديم قوم على قوم، والارتشاء في الحكم، والتعطيل للسنّة، وإذا انتفت عنه هذه الموانع السّتة تعيّن أن يكون هو الإمام، لأنّ شروط الإمامة موجودة فيه بالاتّفاق، فإذا كانت موانعها عنه منتفية ولم يحصل لغيره اجتماع الشّروط وارتفاع الموانع وجب أن يكون هو الإمام، لأنّه لا يجوز خلو العصر من إمام سواء كانت هذه القضيّة عقليّة أو سمعيّة.

أقول: بعد هذا التحقيق هل بقي للشارح عذر في اعتقاده بإمامة الثّلاثة وخلافتهم وجعله عليه السلام رابعهم؟ والعجب كلّ العجب أنّه ينطق بالحقّ ولا يذعن به كمثل المنافقين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور، ثمّ قال الشّارح.

فإن قلت: أفتراه عَنِيَ بهذا قوما بأعيانهم؟

قلت: الإمامية تزعم أنه رمز بالجفاء والعصبية لقوم دون قوم إلى عمر ورمز بالجهل إلى من كان قبله، ورمز بتعطيل السّنة إلى عثمان ومعاوية، وأمّا نحن فنقول: إنه عليه السلام لم يعن ذلك وإنّما قال قولاً كلياً غير مخصوص، وهذا هو اللائق بشرفه، وقول الإمامية دعوى لا دليل عليها ولا يعدم كلّ أحد أن يستنبط من كلّ كلام ما يوافق غوضه وإن غمض، ولا يجوز أن تبنى العقائد على مثل هذه الاستنباطات الدقيقة.

أقول: أمّا أنّ في كلامه رمزاً وإشارة إلى من ذكر فهو ممّا لا غبار عليه، وأمّا أنّ فيه دلالة عليه فلم تدّعه الإماميّة حتّى يناقش فيه أو يعترض عليهم، والإشارة غير الدّلالة، وأمّا استبعاد ذلك بعدم لياقته بشرفه عليه السلام ومنافاته لسؤدده، ففيه أن شرافته مقتضية للإرشاد على الهدى والتّنبيه على ضلال قادة الردى وهفوة من اتّبعهم وأذعن بخلافتهم من أهل العصبيّة والهوى، لأنّه من باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر المناسب لشأن الإمام ووظيفته.

وقد مر في فقرات الخطبة الشّقشقيّة ما هو نص في هذا المعنى، وأبلغ في الدّلالة على هذا الغرض، مثل تنبيهه على جفاوة عمر وغلظته بقوله: (**فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسّها**)، وعلى جهله بقوله: (**ويكثر العثار فيها والاعتذار منها**)، وعلى بخل عثمان بقوله: (**وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع**) (آه) ونحو هذه الألفاظ في تضاعيف كلماته كثير كما هو غير خفي على الخبير البصير.

وبعد الغضّ عن ذلك كلّه فأقول: إن عمدة غرض الإماميّة التّنبيه على اتّصاف الخلفاء بتلك الأوصاف الرذيلة، وبعد تسليم الشارح وإذعانه باتّصافهم بها لا ضرورة في النّقض والإبرام في دلالة كلامه عليه السلام على هذا المرام.

ثم أقول: الأظهر على تقدير كون كلامه عليه السلام رمزاً إليهم أن يشار بالبخيل إلى عثمان لما هو المعلوم من حاله من أكله أموال المسلمين، ولما مر منه في الخطبة الشّقشقية، وبالجاهل إلى جميعهم، وبالجافي إلى عمر، وبالحائف للدّول إلى عمر وعثمان كما هو المعلوم من سيرتهما، وبالمعطل للسنة إلى الجميع.

تنبيه

لا خلاف بين المسلمين إلا من شرذمة من العامة العثمانيّة في أنّ أمير المؤمنين عليه السلام سبق النّاس كلاً إلى الإسلام والتّوحيد، كما صرّح به عليه السلام في هذا الكلام بقوله: (**اللّهم إنّي أوّل من أناب وسمع وأجاب**)، وفي الكلام السّادس والخمسين بقوله: (**فإنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة**)، ونحو ذلك في كلماته واحتجاجاته كثير، والأخبار في هذا المعنى من طرق العامّة والخاصّة بالغة حدّ التّواتر، واستقصائها غير ممكن ولا حاجة إلى

إيرادها مع وضوح المطلب وظهوره ظهور الشّمس الضّحى.

وإنّما نورد على وجه التّأييد وعلى رغم أنوف المخالفين ما أورده شيخ المحدّثين العلامة المجلسي قدّس الله روحه، وشيخ الأمّة الشيخ المفيد نوّر الله ضريحه، ومن المخالفين الشارح المعتزلي أهبط الله قدره.

فأما العلامة المجلسي

فقد قال في المجلد التاسع من «**بحار الأنوار**» بعد ما أورد في هذا الباب كثيراً من الأخبار ما لفظه:

لا يخفى على من شمّ رائحة الإنسانية وترقّى عن دركات البهميّة والعصبية أنّ سبق إسلامه صلوات الله عليه مع ورود تلك الأخبار المتواترة من طرق الخاصّة والعامّة من أوضح الواضحات، والشاك فيه كالمنكر لأجل البديهيات، وأنّ من تمسّك بأنّ إيمانه كان في طفوليّته، ولم يكن معتبراً فقد نسب الجهل إلى سيّد المرسلين، حيث كلّفه ذلك ومدحه به في كلّ موطن، وبه أظهر فضله على العالمين، وإلى أشرف الوصيّين حيث تمدّح وافتخر واحتجّ به في مجامع المسلمين وإلى الصّحابة والتّابعين حيث لم ينكروا عليه ذلك مع كون أكثرهم من المنافقين والمعاندين.

ثمّ اعلم أنّا قد تركنا كثيراً من الروايات وما يمكن ذكره من التأييدات في هذا المطلب حذراً من التكرار والإسهاب والإطالة والإطناب.

فقد روى ابن بطريق رحمه الله في كتاب «**العمدة**» في سبق إسلامه وصلاته من «**مسند أحمد بن حنبل**» ثلاثة عشر حديثاً، ومن «**تفسير الثعلبي**» أربعة، ومن «**مناقب ابن المغازي**» سبعة، وروى في «**المستدرك**» أيضاً أخباراً كثيرة في ذلك، ورواه صاحب «**الصّراط المستقيم**» بأسانيد من طرقهم، والعلامة في «**كشف الحقّ**» و«**كشف اليقين**» وغيرهما بأسانيد من كتبهم، وقد تركنا إيرادها مع كثير ممّا أورده المفيد في «**الإرشاد**»، والنيسابوري في «**روضة الواعظين**»، والطّبرسي في «**اعلام الورى**»، وابن الصّباغ في «**الفصول المهمّة**»، وغيرها من الأصول والكتب الّتي عندنا، انتهى كلامه رفع مقامه.

وأما الشيخ المفيد قدس الله روحه

فقد قال في محكيّ كلامه من كتاب الفصول:

أجمعت الأمّة على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أول ذكر أجاب رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يختلف في ذلك أحد، من أهل العلم إلاّ أنّ العثمانية طعنت في إيمان أمير المؤمنين عليه السلام بصغر سنّه في حال الإجابة، قالوا: إنّه عليه السلام لم يك في تلك الحال بالغاً فيقع إيمانه على وجه المعرفة،

وإن إيمان أبي بكر حصل منه مع الكمال، فكان على اليقين، والمعرفة والإقرار من جهة التقليد والتلقين غير مساو للإقرار بالمعلوم المعروف بالدّلالة، فلم يحصل خلاف من القوم في تقدّم الإقرار من أمير المؤمنين للجماعة والإجابة منه للرّسول عليه وآله السّلام، وإنّما خالفوا فيما ذكرناه.

وأنا أبين غلطهم فيما ذهبوا إليه من توهين إقرار أمير المؤمنين وحملهم إيّاه على وجه التلقين دون المعرفة واليقين بعد أن أذكر خلافاً حدث بعد الإجماع من بعض المتكلّمين والناصبة من أصحاب الحديث، وذلك أنّ هٰهنا طائفة تنسب إلى العثمانية تزعم أنّ أبا بكر سبق أمير المؤمنين إلى الإقرار وتعتلّ في ذلك بأحاديث مولّدة بأضعاف.

منها: أنّهم رووا عن أبي نضرة[١] قال: أبطأ عليّ والزّبير عن بيعة أبي بكر قال: فلقى أبو بكر علياً فقال له: أبطأت عن بيعتي وأنا أسلمت قبلك ولقي الزبير فقال له: أبطأت عن بيعتي وأنا أسلمت قبلك.

ومنها: حديث أبي أمامة عن عمرو بن عنبسة قال: أتيت رسول الله ﷺ أوّل ما بعث وهو بمكة وهو حينئذٍ مستخف فقلت: من أنت؟ فقال: أنا نبيّ، قلت: وما النبيّ؟ قال: رسول الله، قلت: الله أرسلك؟ قال: نعم، قلت: بما أرسلك؟ قال: بأن نعبد الله عزّ وجلّ ونكسر الأصنام ونوصل الأرحام، قلت: نعم ما أرسلك به من تبعك على هذا الأمر؟ قال: حرّ وعبد يعني أبا بكر وبلالاً، وكان عمر يقول: لقد رأيتني وأنا رابع الإسلام، قال: فأسلمت وقلت: أبايعك يا رسول الله.

ومنها: حديث الشّعبي قال: سألت ابن عبّاس عن أول من أسلم فقال: أبو بكر ثمّ قال: أما سمعت قول حسّان:

إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البريّة أعطاها وأعدلها ... بعد النبيّ وأرقاها بما حملا
الثّاني التّالي المحمود مشهده ... وأوّل النّاس منهم صدّق الرّسلا

ومنها: حديث رووه عن منصور عن مجاهد أنّ أوّل من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله وأبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وسمية.

ومنها: حديث رووه عن عمر بن مرّة قال: ذكرت لإبراهيم النخعي حديثاً فأنكره وقال أبو بكر أوّل من أسلم.

---

(١) في نسخة: نضيرة.

قال الشيخ قدس الله روحه فيقال لهم:

أما الحديث الأول: فإنّه رواه أبو نضرة، وهذا أبو نضرة مشهور بعداوة أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ضمنه ما ينقض إضلالهم في الإمامة، ولو ثبت لكان أرجح من تقدّم إسلام أبي بكر وهو أنّ أمير المؤمنين والزّبير أبطئا عن بيعة أبي بكر، وإذا ثبت أنّهما أبطئا عن بيعته وتأخّرا نقض ذلك قولهم أنّ الأمّة اجتمعت عليه ولم يكن من أمير المؤمنين عليه السلام كراهيّة لأمره، وإذا ثبت أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد كان متأخّراً عن بيعته على وجه الكراهة لها بدلالة ما رووه من قول أبي بكر له أبطأت عن بيعتي وأنا أسلمت قبلك على وجه الحجّة عليه في كونه أولى بالإمامة منه، ثبت بطلان إمامة أبي بكر، لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوز أن يكره الحق ولا أن يتأخر عن الهدى، وقد أجمعت الأمّة على أنه عليه السلام لم يوقع خطأ بعد الرّسول صلى الله عليه وآله يعثر عليه طول مدّة أبي بكر وعمر وعثمان، وإنّما ادّعت الخوارج الخطأ منه في آخر أيّامه بالتحكيم وذهبت عن وجه الحقّ في ذلك وإذا لم يجز من أمير المؤمنين التّأخر عن الهدى والكراهة للحق والجهل بموضع الأفضل، بطل هذا الحديث، وما زلنا نجتهد في إثبات الخلاف لأمره والنّاصبة تحيد عن قبول ذلك وتدفعه أشدّ دفع حتى صاروا يسلمونه طوعاً واختياراً، وينظمونه في احتجاجهم بفضل صاحبهم، وهكذا يفعل الله تعالى بأهل الباطل لحينهم، ويسلبهم التوفيق حتّى يدخلوا فيما يكرهون من حيث لا يشعرون.

على أنّ بإزاءِ هذا الحديث عن أبي بكر حديثاً ينقضه من طريق أوضح من طريق أبي نضرة، وهو ما رواه عليّ بن مسلم الطوسي عن زافر بن سليمان عن الصلت بن بهرام عن الشّعبي قال: مرّ عليّ بن أبي طالب ومعه أصحابه على أبي بكر فسلّم ومضى، فقال أبو بكر: من سرّه أن ينظر إلى أوّل النّاس في الإسلام سبقاً، وأقرب النّاس من نبيّنا رحماً، وأعظمهم دلالة عليه وأفضلهم فداء عنه بنفسه فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب.

وهذا يبطل ما ادّعوه على أبي بكر وأضافه أبو نضرة إليه.

وأما حديث عمرو بن عنبسة: فإنّه من طريق أبي أمامة ولا خلاف أن أبا أمامة كان من المنحرفين عن أمير المؤمنين عليه السلام والمتحرين عنه، وأنّه كان في جيش معاوية ثمّ فيه عن عمر بأنه شهد لنفسه أنّه كان رابع الإسلام، وشهادة المرء لنفسه غير مقبولة إلاّ أن يكون معصوماً أو يدلّ دليل على صدقه، وإذا لم يثبت شهادته لنفسه بطل الحديث بأسره.

مع أنّ الرّواية قد اختلفت عن عمر من طريق أبي أمامة، فروى عنه في حديث آخر أنه قال: أتيت النّبي صلى الله عليه وآله بماء يقال له عكاظ، فقلت له: يا رسول الله من تابعك على هذا الأمر؟ فقال: من بين حرّ وعبد، فأقيمت الصّلاة فصلّيت خلفه أنا وأبو بكر وبلال، وأنا يومئذٍ رابع الإسلام.

فاختلف اللفظ والمعنى في هذين الحديثين والواسطة واحدة فتارة يذكر مكة وتارة يذكر عكاظاً، وتارة يذكر أنّه وجده مستخفياً بمكّة، وتارة يذكر أنّه كان ظاهراً يقيم الصّلاة ويصلي بالنّاس معه، والحديث واحد من طريق واحد، وهذا أدل دليل على فساده.

وأما حديث الشعبي: فقد قابله الحديث عنه من طريق الصّلت بن بهرام المتضمّن لضدّه وفي ذلك إسقاطه، مع أنّه قد عزاه إلى ابن عبّاس والمشهور عن ابن عبّاس ضد ذلك وخلافه، ألا ترى إلى ما رواه أبو صالح عن عكرمة عن ابن عبّاس وهذان أصدق على ابن عبّاس من الشّعبي، لأنّ أبا صالح معروف بعكرمة وعكرمة معروف بابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: صلت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب سبع سنين، قالوا: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: لم يكن من الرّجال غيره، ومن طريق عمرو بن ميمون عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: أوّل من أسلم بعد خديجة بنت خويلد عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه[1].

وأما قول حسان: فإنه ليس بحجّة من قبل أنّ حسّان كان شاعراً وقصد الدّولة والسّلطان، وقد كان منه بعد رسول الله ﷺ انحراف شديد عن أمير المؤمنين عليه السلام، وكان عثمانيّاً وحرض النّاس على عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان يدعو إلى نصرة معاوية وذلك مشهور عنه في نظمه، ألا ترى إلى قوله:

يا ليت شعري وليت الطّير يخبرني	ما كان بين عليّ وابن عفّانا
ضحوا بأشمط عنوان السّجود به	يقطع اللّيل تسبيحاً وقرآنا
لتسمعن وشيكاً في ديارهم	الله أكبر يا ثارات عثمانا

فإن جعلت النّاصبة شعر حسّان حجّة في تقديم ايمان أبي بكر فلتجعله حجّة في قتل أمير المؤمنين عليه السلام والقطع على أنّه أخصّ النّاس بقلته، وان ثاراته يجب أن يطلب منه، فإن قالوا: أنّ حسّان غلط في ذلك، قلنا لهم وكذلك غلط في قوله في أبي بكر، وإن قالوا لا يجوز غلطه في باب أبي بكر لأنّه شهد به بحضرة الصّحابة فلم يردوا عليه، قيل لهم ليس عدم إظهارهم الرّد عليه دليلاً على رضاهم به لأنّ الجمهور كانوا شيعة أبي بكر وكان المخالفون له في تقيّة من الجهر بالتنكير عليه في ذلك مخافة الفرقة والفتنة.

مع أنّ قول حسان يحتمل أن يكون أبو بكر من المتقدّمين في الإسلام والأولين دون أن يكون أوّل الأولين، ولسنا ندفع أن أبا بكر ممّن يعدّ في المظهرين للإسلام أوّلاً، وإنّما ننكر أن يكون أوّل الأولين فلمّا احتمل قول حسّان ما وصفناه لم ينكر المسلمون عليه ذلك.

---

(١) الفصول المختارة: ٢٥٨، وبحار الأنوار: ٣٨/٢٦٦.

مع أنّ حسّان قد حرض على أمير المؤمنين ظاهراً ودعا إلى مطالبته بثارات عثمان جهراً فلم ينكر عليه في الحال، فيجب أن يكون مصيباً في ذلك، فإن قالوا: هذا شيء قاله في مكان دون مكان فلما ظهر عنه أنكره جماعة من الصّحابة، قيل لهم: فإن قنعتم بذلك، واقترحتم في الدّعوى فاقنعوا منّا بمثله فيما اعتقدتموه في شعره في أبي بكر، وهذا ما لا فضل فيه على أنّ حسان بن ثابت قد شهد في شعره بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام نصّاً وذكر ذلك بحضرة النبي صلى الله عليه وآله فجزاه خيراً في قوله:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم ... بخمّ وأسمع بالرّسول مناديا

في أبيات تقدّم ذكره منّا في مقدّمات الخطبة الثّالثة المعروفة بالشّقشقيّة وشهد أيضاً لأمير المؤمنين عليه السلام بسبق قريش إلى الإيمان حيث يقول:

جزى الله خيراً والجزاء بكفّه ... أبا حسن عنّا ومن كأبي حسن

سبقت قريشاً بالذي أنت أهله ... فصدرك مشروح وقلبك ممتحن

فشهد بتقديم إيمان أمير المؤمنين عليه السلام الجماعة، وهذا مقابل لما تقدّم ومسقط له فإن زعموا أن هذا محتمل، فكذلك ما ذكرتموه عنه أيضاً محتمل.

وأما روايتهم عن مجاهد: فإنّها مقصورة على مذهبه ورأيه ومقاله، وبإزاء مجاهد عالم من التّابعين ينكرون عليه ويذهبون إلى خلافة في ذلك وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام أول النّاس إيماناً، وهذا القدر كاف في إبطال قول مجاهد، على أن الثابت عن مجاهد خلاف ما ادعاه هؤلاء القوم وأضافوه إليه، وضده ونقيضه روى ذلك منهم من ولايتهم عليه سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وأثره عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله السبّاق أربعة: يوشع بن نون إلى موسى بن عمران. وصاحب يس إلى عيسى ابن مريم، وسبق علي بن أبي طالب عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله[1] ونسي النّاقل عن سفيان الآخر، وقد ذكرت في حديث غير هذا أنّه مؤمن آل فرعون وهذا يسقط تعلّقهم بما ادعوه من مجاهد.

وأما حديث عمرو بن مرة: عن إبراهيم فهو أيضاً نظير قول مجاهد، وإنما أخبر عمرو عن مذهب إبراهيم، والغلط جائز على إبراهيم ومن فوقه، وبإزاء إبراهيم من هو فوقه وأجلّ قدراً منه يدفع قوله ويكذّبه في دعواه كأبي جعفر وأبي عبد الله الصّادق عليهما السلام ومن غير أهل البيت قتادة والحسن وغيرهما مما لا يحصى كثرة، وفي هذا غنى عن غيره.

قال الشيخ قدس الله روحه: فهذه جملة ما اعتمد القوم فيما ادعوه من خلافنا في تقديم إيمان أمير المؤمنين عليه السلام وتعلّقوا به، وقد بينت عوارها وأوضحت حالها، وأنا أذكر طرفاً من

---

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٦٣٣.

أسماء من روى أنّ أمير المؤمنين كان أسبق الخلق إلى رسول الله وأوّل من الذّكور إجابة له وإيماناً به.

فمن ذلك الرّواية عن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه من طريق سلمة بن كهيل عن حبّة العرني قال: سمعت علياً يقول: اللهم لا أعرف عبداً لك عبدك من هذه الأمّة قبلي غير نبيّها عليه وآله السّلام، قال ذلك ثلاث مرّات، ثمّ قال: لقد صلّيت قبل أن يصلّي أحد سبعاً.

ومن طريق المنهال عن عباية الأسدي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لقد أسلمت قبل الناس بسبع سنين.

ومن طريق جابر عن عبد الله بن يحيى الحضرمي عن عليّ عليه السلام قال: صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث سنين ولم يصلّ أحد غيري.

ومن طريق نوح بن قيس الطّاخي عن سليمان أبي فاطمة عن معاذة العدوية قال: سمعت عليّاً يخطب على منبر البصرة فسمعته يقول: أنا الصّديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم.

ومن طريق عمرو بن مرّة عن أبي البختري عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: صلّيت قبل النّاس سبع سنين.

ومن طريق نوح بن دراج عن خالد الخفاف قال: أدركت النّاس وهم يقولون: وقع بين عليّ وعثمان كلام فقال عثمان والله أبو بكر وعمر خير منك، فقال عليّ عليه السلام: كذبت والله لأنّا خير منك ومنهما، وعبدت الله قبلهما وعبدت الله بعدهما. ومن طريق الحارث الأعور قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: اللّهم إنّي لا أعرف عبداً من عبادك عبدك قبلي.

وقال عليه السلام قبل ليلة الهرير بيوم ويحرض النّاس على أهل الشّام: أنا أوّل ذكر صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولقد رأيتني أضرب بسيفي قدامه وهو يقول لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ عليّ حياتك حياتي وموتك موتي.

وقال عليه السلام وقد بلغه أنّ قوماً يطعنون عليه في الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله بعد كلام خطبه: بلغني أنكم تقولون إنّ عليّاً يكذب، فعلى من أكذب أعلى الله فأنا أوّل من آمن به وعبده ووحّده، أم على رسول الله صلى الله عليه وآله فأنا أوّل من آمن به وصدقه ونصره[1].

وقال عليه السلام لمّا بلغه افتخار معاوية عند أهل الشّام شعره المشهور الذي يقول فيه:

سبقتكم إلى الإسلام طرّاً صغيراً ما بلغت أوان حلمي

---

(١) الإرشاد: ١/٢٧٩، ونهج السعادة: ٢/٥٦٩.

وأنا أذكر الشعر بأسره في موضع غير هذا عند الحاجة إليه إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما رواه أبو أيّوب خالد بن زيد الأنصاري صاحب رسول الله من طريق عبد الرحمٰن معمّر عن أبيه عن أبي أيّوب رحمه الله، قال: قال رسول الله ﷺ: صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام سبع سنين، وذلك أنّه لم يصلّ معي رجل غيره.

ومن ذلك ما رواه سلمان الفارسي رحمة الله عليه من طريق عليم الكندي عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: أوّلكم وروداً على الحوض أوّلكم إسلاماً عليّ بن أبي طالب.

ومن ذلك ما رواه أبو ذر الغفاري رحمة الله عليه من طريق محمّد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: أنت أول من آمن بي، في حديث طويل.

وروى أبو سخيلة عن أبي ذر أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد علي عليه السلام يقول: أنت أول من آمن بي وأول من يصافحني يوم القيامة[1].

وقد رواه ابن أبي رافع عن أبيه أيضاً عن أبي ذر قال: أتيته أودّعه فقال: ستكون فتنة فعليك بالشيخ عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه وتسليمه فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول أنت أوّل من آمن بي.

ومن ذلك ما رواه حذيفة بن اليمان رحمة الله عليه عن طريق قيس بن مسلم عن ربعي بن خراش قال: سألت حذيفة بن اليمان عن عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه فقال: ذاك أقدم النّاس سلماً وأرجح النّاس حلماً.

ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري رحمة الله عليه من طريق شريك عن عبد الله بن محمّد بن عقيل عن جابر قال: بُعِثَ رسول الله ﷺ يوم الإثنين وأسلم علي عليه السلام يوم الثّلاثاء.

ومن ذلك ما رواه زيد بن أرقم من طريق عمرو بن مرّة عن أبي حمزة مولى الأنصار قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أوّل من صلّى مع النّبي ﷺ عليّ بن أبي طالب.

ومن ذلك ما رواه زيد بن صوحان العبدي من طريق عبد الله بن هشام عن أبيه عن طريف بن عيسى الغنوي أن زيد بن صوحان خطب في مسجد الكوفة فقال: سيروا إلى أمير المؤمنين وسيّد المسلمين وأوّل المؤمنين إيماناً.

ومن ذلك ما روته أم سلمة زوج النّبي من طريق مساور الحميري عن أمّه قالت: قالت

---

(١) الأمالي: ٢٧٤ ح ٣٠٤، وشرح أصول الكافي: ٦/ ٣٧٦.

أم سلمة: والله لقد أسلم عليّ بن أبي طالب أوّل النّاس وما كان كافراً، في حديث طويل.

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عبّاس بن عبد المطلب رحمة الله عليه من طريق أبي صالح عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب سبع سنين، قالوا ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: لم يكن معي من الرّجال غيره[1]، ومن طريق عمرو بن ميمون عنه ما تقدّم ذكره، وروى مجاهد عنه أيضاً مثل ذلك وقد سلف لنا فيما مضى.

ومن ذلك ما رواه قثم بن العبّاس بن عبد المطّلب عن طريق قيس بن أبي حازم عن أبي إسحاق قال: دخلت على قثم بن العبّاس فسألته عن علي فقال: كان أوّلنا برسول الله ﷺ لحوقاً وأشدنا به لصوقاً.

ومن ذلك ما رواه مالك الأَشتر رحمة الله عليه من طريق الفضل بن أدهم المدني قال: سمعت مالك بن الحارث الأشتر يقول في خطبة خطبها بصفّين: معنا ابن عمّ نبيّنا ﷺ وسيف من سيوف الله عليّ بن أبي طالب صلّى مع رسول الله صغيراً ولم يسبقه بالصّلاة ذكر، وجاهد حتّى صار شيخاً كبيراً.

ومن ذلك ما رواه سعيد بن قيس من طريق مالك بن قدّامة الأرحبي أنّ سعيد بن قيس خطب النّاس بصفّين فقال: معنا ابن عم نبيّنا صدق وصلّى صغيراً وجاهد مع نبيّكم كبيراً.

ومن ذلك ما رواه عمرو بن الحمق الخزاعي من طريق عبد الله بن شريك العامري قال: قام عمرو بن الحمق يوم صفين فقال: يا أمير المؤمنين أنت ابن عمّ نبيّنا وأوّل المسلمين إيماناً بالله عزّ وجلّ.

ومن ذلك ما رواه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص من طريق جندب قال: قال هاشم يوم صفّين: نجاهد في طاعة الله مع ابن عمّ رسول الله وأوّل من آمن بالله وأفقه النّاس في دين الله.

ومن ذلك ما رواه محمّد بن كعب من طريق عمر مولى غفرة عن محمّد بن كعب قال: أوّل من أسلم عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ومن ذلك ما رواه مالك بن الحويرث من طريق مالك بن الحسن بن مالك قال: أخبرني أبي عن جدي مالك بن الحويرث قال: أوّل من أسلم من الرّجال عليّ بن أبي طالب.

ومن ذلك ما رواه أبو بكر عتيق بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وأنس بن مالك وعمرو

(١) الفصول المختارة: ٢٥٧.

بن العاص وأبو موسى الأشعري.

والذي رواه أبو بكر من طريق زافر بن سليمان عن الصّلت بن بهرام عن الشعبي قال: مرّ عليّ بن أبي طالب على أبي بكر ومعه أصحابه فسلّم عليهم ومضى فقال أبو بكر: من سرّه أن ينظر إلى أوّل النّاس في الإسلام سبقاً وأقرب النّاس برسول الله قرابة، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب، الحديث وقدّمناه فيما مضى.

وأما عمر فإن أبا حازم مولى ابن عباس قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: قال عمر بن الخطّاب: كفّوا عن عليّ بن أبي طالب فإنّي سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله فيه خصالاً قال: إنّك أوّل المؤمنين بعدي إيماناً، وساق الحديث[1].

وأما عمرو بن العاص فإن تميم بن جذيم النّاجي قال: إنّا لمع أمير المؤمنين عليه السلام بصفّين إذ خرج إليه عمرو بن العاص فأراد أن يكلّمه فقال عمرو: تكلّم فإنّك أوّل من أسلم فاهتدى ووحّد فصلّى.

ومن ذلك ما رواه أبو موسى الأَشعري عن طريق يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه سلمة عن أبي جعفر عن ابن عباس قال أبو موسى الأشعري: عليّ أوّل من أسلم.

ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك من طريق عباد بن عبد الصّمد قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب سبع سنين، وذلك أنّه لم يرفع إلى السّماء شهادة أن لا إله إلا الله وأنّي محمّداً رسول الله إلاّ منّي ومن عليّ صلوات الله عليه[2].

ومن ذلك ما روى عن الحسن بن أبي الحسن البصري من طريق قتادة بن دعامة السّدوسي قال: سمعت الحسن يقول: إنّ عليّاً عليه السلام صلّى مع النّبي أوّل النّاس فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين[3].

ومن ذلك ما روى عن قتادة من طريق سعيد بن أبي عروبة قال: سمعت قتادة يقول: أوّل من صلّى من الرّجال عليّ بن أبي طالب[4].

ومن ذلك ما روى عن أبي إسحاق من طريق يونس بن بكير عن محمّد بن إسحاق قال: كان أوّل ذكر آمن وصدق عليّ بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين، ثم أسلم بعده زيد بن حارثة.

---

(١) الفصول المختارة: ٢٦٥، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٧٢.

(٢) الإرشاد: ١/ ٣١، والعمدة: ٦٦.

(٣) شرح أصول الكافي: ٦/ ٣٧٦، والإرشاد: ١/ ٣٠.

(٤) مستدرك الوسائل: ٣٨/ ٢٧٣، والفصول المختارة: ٢٦٦.

ومن ذلك ما روى عن الحسن بن زيد من طريق إسماعيل بن عبد الله بن أبي يونس قال: أخبرني أبي عن الحسن بن زيد أنّ علياً كان أوّل من أسلم[١].

فأما الرواية: عن آل أبي طالب في ذلك فإنّها أكثر من أن تحصى، وقد أجمع بنو هاشم وخاصّة آل عليّ لا تنازع بينهم على أنّ أوّل من أجاب رسول الله ﷺ من الذّكور عليّ بن أبي طالب ونحن أغنياء بشهرة ذلك عن ذكر طرقه ووجوهه.

فأما الأشعار: التي تؤثر عن الصحابة في الشهادة له عليه السلام بتقديم الإيمان وأنّه أسبق الخلق إليه فقد وردت عن جماعة منهم وظهرت عنهم على وجه يوجب العلم ويزيل الارتياب ولم يختلف فيها من أهل العلم بالنقل والارتياب إثنان.

فمن ذلك قول خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين رحمة الله عليه

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا ... أبو حسن ممّا يخاف من الفتن
وجدناه أولى النّاس بالنّاس أنّه ... أطبّ قريش بالكتاب وبالسنين
وإنّ قريشاً لا يشقّ غباره ... إذا ما جرى يوماً على الضمر البدن
ففيه الذي فيه من الخير كلّه ... وما فيهم مثل الذي فيه من حسن
وصيّ رسول الله من دون أهله ... وفارسه قد كان في سالف الزمن
وأوّل من صلّى من النّاس كلهم ... سوى خيرة النسوان والله ذو منن
وصاحب كبش القوم في كل وقعة ... يكون لها نفس الشّجاع لدى الذقن
فذاك الذي تثني الخناصر باسمه ... إمامهم حتّى أغيّب في الكفن

ومنه قول كعب بن زهير:

صهر النّبيّ وخير النّاس كلّهم ... فكلّ من رامه بالفخر مفخور
صلّى الصّلاة مع الأمي أولهم ... قبل العباد وربّ النّاس مكفور

ومنه قول حسان بن ثابت:

جزى الله خيراً والجزاء بكفه
«وقدّمنا البيتين فيما سلف».

ومنه قول ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب حيث يقول عند بيعة أبي بكر:

ما كنت أحسب أنّ الأمر منتقل ... عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن

(١) بحار الأنوار: ٣٨/ ٢٧٣، والفصول المختارة: ٢٦٦.

أليس أول من صلّى لقبلتكم وأعلم النّاس بالآثار والسّنن
وآخر النّاس عهداً بالنّبي ومن جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما فيهم لا يمترون به وليس في القوم ما فيه من الحسن
ما ذا الذي ردكم عنه فنعلمه ها إنّ بيعتكم من أول الفتن

وفي هذا الشّعر قطع من قائله على إبطال إمامة أبي بكر وإثبات الإمامة لأمير المؤمنين عليه السلام.

ومنه قول فضل بن عتبة بن أبي لهب فيما رد به على الوليد بن عقبة في مديحه لعثمان ومرثيته له وتحريضه على أمير المؤمنين (ع) في قصيدته التي يقول في أولها:

ألا إنّ خير النّاس بعد ثلاثة قتيل التجوبي الذي جاء من مضر

فقال الفضل رحمة الله عليه:

ألا إنّ خير النّاس بعد محمّد مهيمنة التالية في العرف والنكر
وخيرته في خيبر ورسوله بنبذ عهود الشرك فوق أبي بكر
وأوّل من صلّى وصنو نبيّه وأوّل من أردى الغواة لدى بدر
فذاك عليّ الخير من ذا يفوقه أبو حسن حلف القرابة والصهر

وفي هذا الشعر دليل على تقدّم إيمان أمير المؤمنين عليه السلام وعلى أنه كان الأمير في سنة تسع على الجماعة وكان في جملة رعيّته أبو بكر على خلاف ما ادّعته النّاصبة من قولهم إنّ أبا بكر كان الأمير على الجماعة وأنّ أمير المؤمنين كان تابعاً له.

ومنه قول مالك بن عبادة الغافقي حليف حمزة بن عبد المطلب رحمة الله عليه:

رأيت عليّاً لا يلبث قرنه إذا ما دعاه حاسر أو مسربلاً
فهذا وفي الإسلام أول مسلم وأوّل من صلّى وصام وهللا

ومنه قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

وكان وليّ الأمر بعد محمّد عليّ وفي كلّ المواطن صاحبه
وصي رسول الله حقاً وجاره وأوّل من صلّى ومن لان جانبه

وفي هذا الشعر أيضاً دليل على اعتقاد هذا الرجل في أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان الخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله بلا فصل.

ومنه قول النجاشي بن الحارث بن كعب:

فقل للمضلّ من وائل ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلت ابن هند وأشياعه نظير عليّ أما تستحونا
إلى أوّل النّاس بعد الرّسول أجاب الرّسول من العالمينا

ومنه قول جرير بن عبد الله البجلي:

فصلّى الإله على أحمد رسول المليك تمام النعم
وصلّى على الطّهر من بعده خليفتنا القائم المدّعم
عليّاً عنيت وصي النّبيّ يجالد عنه غواة الأمم
له الفضل والسبق والمكرمات وبيت النّبوّة لا المهتضم

وفي هذا الشّعر أيضاً تصريح من قائله بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّه كان الخليفة على من تقدّم.

ومنه قول عبد الله بن حكيم التميمي:

دعانا الزبير إلى بيعة وطلحة بعد ما أثقلا
فقلنا صفقنا بأيماننا وإن شئتما فخذا الاشملا
نكثتم عليّاً على بيعته واسلامه فيكم أوّلا

ومنه قول عبد الله بن جبل حليف بني جمح:

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة على الدّين معروف العفاف موفقا
عفيفاً عن الفحشاء أبيض ماجد صدوقاً وللجبّار قدماً مصدقا
أبا حسن فارضوا به وتبايعوا فليس كمن فيه الذي العيب منطقاً
علي وصيّ المصطفى ووزيره وأوّل من صلّى لذي العرض وانتقى

ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

وأنّ عليّاً لكم مفخر يشبه بالأسد الأَسود
أما إنّه سيّد العابدين بمكّة والله لم يعبد

ومنه قول زفر بن زيد بن حذيفة الأسدي:

فحوطوا عليّاً واحفظوه فإنّه وصيّ وفي الإسلام أوّل أوّل

ومنه قول قيس بن سعد بن عبادة بصفين:

هـذا عـلـي وابـن عـمّ الـمـصـطـفـى أوّل مـن أجـابـه مـمـن دعـا
هـذا إمـام لا نـبـالـي مـن غـوى

ومنه قول هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بصفين:

أشـلّـهـم بـذي الـكـعـوب شـلا مـع ابـن عـمّ أحـد تـجـلا
أوّل مـن صـدّقـه وصـلّـى

قال الشيخ قدّس الله روحه: وأمّا قول النّاصبة إنّ إيمان أمير المؤمنين صلوات الله عليه لم يقع على وجه المعرفة وإنّما كان على وجه التقليد والتلقين ومن كان بهذه المنزلة لم يستحق صاحبه المدحة ولم يجب به الثّواب، وادّعائهم أنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه كان في تلك الحال ابن سبع سنين ومن كان هذه سنّه لم يكن كامل العقل ولا مكلفاً، فإنّه يقال لهم: إنّكم قد جهلتم في ادّعائكم انّه كان وقت مبعث النّبي صلى الله عليه وآله ابن سبع سنين وقلتم قولاً لا برهان عليه يخالف المشهور ويضادّ المعروف، وذلك أنّ جمهور الرّوايات جاءت بأنّه عليه السلام قبض وله خمس وستّون سنة وجاء في بعضها أنّ سنه كانت عند وفاته ثلاثاً وستّين فأمّا ما سوى هاتين الرّوايتين فشاذ مطروح وقد يعرف في صحيح النّقل ولا يقبله أحد من أهل الرّواية والعقل.

وقد علمنا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام صحب رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثاً وعشرين سنة منها ثلاث عشرة قبل الهجرة، وعشر بعدها، وعاش بعده ثلاثين سنة، وكانت وفاته في أربعين من الهجرة، فإذا حكمنا في سنه على خمس وستّين كما تواترت به الأخبار كانت سنّه عند مبعث النّبي صلى الله عليه وآله اثنتي عشرة سنة، وإن حكمنا على ثلاث وستّين كانت سنه عند المبعث عشر سنين، وكيف يخرج من هذا الحساب أن يكون سنّه عند المبعث سبع سنين.

اللّهمّ إلاّ أن يقول قائل إنّ سنّه كانت عند وفاته ستّين سنة فيصح ذلك له إلاّ أنه يكون دافعاً للمتواتر من الأخبار، منكراً للمشهور من الآثار، معتمداً على الشّاذ من الرّوايات، ومن صار إلى ذلك كان الأولى في مناظرته البيان له على وجه الكلام في الأخبار، والتّوقيف على طرق الفاسد من الصّحيح فيها دون المجازفة في المقالة، وكيف يمكن لعاقلاً سمع الأخبار أو نظر في شيء من الآثار أن يدعي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام توفّي وله ستّون سنة مع قوله عليه السلام الشائع عنه الذائع في الخاص والعام عند ما بلغه من أرجاف أعدائه في التدبير والرّأي:

وعن الإمام: بلغني أنّ قوماً يقولون إنّ عليّ بن أبي طالب شجاع لكن لا بصيرة له بالحرب لله أبوهم وهل فيهم أحد أبصر بها منّي لقد قمت فيها وما بلغت العشرين وها أنا قد ذرفت على السّتّين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع[1].

---

(١) الغارات: ٢/ ٤٧٧، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٧٩.

فخبر عليه السلام بأنّه نيف على السّتين في وقت عاش بعده دهراً طويلاً، وذلك في أيّام صفين وهكذا يكذب قول من زعم أنه صلوات الله عليه توفي وله ستّون سنة مع أنّ الرّوايات قد جاءت مستفيضة ظاهرة بأنّ سنه كانت عند وفاته بضعاً وستين سنة وفي مجيبها بذلك على الإنتشار دليل على بطلان مقال من أنكر ذلك.

فمن ذلك ما ذكره عليّ بن عمرو بن أبي سيرة عن عبد الله بن محمّد بن عقيل قال: سمعت محمّد بن الحنفية يقول في سنة الجحاف حين دخلت سنة إحدى وثمانين هذه لي خمس وستّون سنة وقد جاوزت من أبي قلت: وكم كان سنه يوم قتل؟ قال: ثلاثاً وستين سنة.

ومنهم أبو القاسم نعيم قال: حدثنا شريك عن أبي إسحاق قال توفّي عليّ صلوات الله عليه وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ومنهم يحيى بن أبي كثير عن سلمة قال: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: وقد سئل عن سنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه يوم قبض قال: قد كان نيف على السّتين.

ومنهم ابن عائشة من طرق أحمد بن زكريّا قال: سمعته يقول: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ ابن عشر سنين وقتل عليّ وله ثلاث وستون سنة.

ومنهم الوليد بن هاشم الفخذي[1] من طريق أبي عبد الله الكواسجي[2] قال: أخبرنا الولد بأسانيد مختلفة أنّ عليّاً صلوات الله عليه قتل بالكوفة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة أربعين وهو ابن خمس وستّين سنة.

فأما من روى أنّ سنه كانت عند البعثة أكثر من عشر سنين فغير واحد.

منهم: عبد الله بن مسعود من طريق عثمان بن المغيرة عن وهب عنه قال: إنّ أوّل شيء علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أنّي قدمت مكّة فأرشدونا إلى العباس بن عبد المطّلب فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم فبينا نحن جلوس إذ أقبل رجل من باب الصّفا عليه ثوبان أبيضان على يمينه غلام مراهق أو محتلم تتبعه امرأة قد سترت محاسنها حتى قصدوا الحجر، فاستلمه والغلام والمرأة ثمّ طاف بالبيت سبعاً والغلام والمرأة يطوفان معه، ثمّ استقبل الكعبة فقام فرفع يديه وكبّر فقام الغلام عن يمينه وكبّر وقامت المرأة خلفهما فرفعت يديها فكبّرت؛ فأطال القنوت ثم ركع فركع الغلام والمرأة معه، ثم رفع رأسه فأطال القنوت، ثمّ سجد ويصنعان ما صنع فلمّا رأينا شيئاً ننكره ولا نعرفه بمكّة أقبلنا على العباس فقلنا: يا أبا الفضل إنّ هذا الدّين

(١) في نسخة: الفحدمي.

(٢) في نسخة: الكواشحمي.

ما كنّا نعرفه، قال: أجد والله ما تعرفون هذا، قلنا: ما تعرفه قال: هذا ابن أخي محمّد بن عبد الله، وهذا عليّ بن أبي طالب، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد، والله ما على وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدّين إلا هؤلاء الثلاثة.

وروى قتادة عن الحسن وغيره قال: كان أوّل من آمن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو ابن خمس عشرة سنة أو ستّ عشرة سنة.

وروى شدّاد بن أوس قال: سألت خباب بن الأرتّ عن اسلام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، ولقد رأيته يصلّي مع النّبي صلى الله عليه وآله وهو مستحكم البلوغ.

وروى علي بن زيد عن أبي نضرة قال: أسلم عليّ وهو ابن أربع عشرة سنة، وكان له يومئذٍ ذؤابة يختلف إلى الكتاف.

وروى عبد الله بن زياد عن محمّد بن عليّ قال: أوّل من آمن بالله عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو ابن احدى عشرة سنة.

وروى الحسن بن زيد قال: أوّل من أسلم عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو ابن خمسة عشرة، وقد قال عبد الله بن الحارث بن أبي سفيان بن عبد المطلب.

وصلى عليّ مخلصاً بصلاته ... لخمس وعشر من سنيه كوامل
وخلّى أناساً يتبعونه ... له عمل أفضل به صنع حامل

وروى سلمة بن كهيل عن أبيه عن حبة بن جوين العرني قال: أسلم عليّ صلوات الله عليه وآله وكان له ذؤابة يختلف إلى الأكتاف.

على أنّا لو سلّمنا لخصومنا ما ادّعوه من أنه كان له عند المبعث سبع سنين لم يدل ذلك على صحّة ما ذهبوا إليه من أنّ إيمانه كان على وجه التّلقين دون المعرفة واليقين، وذلك أن صغر السنّ لا ينافي كمال العقل وليس دليل وجوب التكليف بلوغ الحلم فيراعي ذلك هذا باتّفاق أهل النّظر والعقول، وإنّما يراعي بلوغ الحلم في الأحكام الشّرعية دون العقلية، فقد قال سبحانه في قصة يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وقال في قصة عيسى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩ - ٣١]، فلم ينف صغر سنّ هذين النّبيين عليهما السلام كمال عقلهما أو الحكمة الّتي آتاهما الله سبحانه، ولو كانت العقول تحيل ذلك لأحالته في كل أحد وعلى كلّ حال.

وقد أجمع أهل التفسير إلاّ من شذ عنهم في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ

﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٧]، أنّه كان طفلاً صغيراً في المهد أنطقه الله عزّ وجلّ حتّى برأ يوسف من الفحشاء وأزال عنه التهمة.

والنّاصبة إذا سمعت هذا الاحتجاج قالت: إنّ هذا الذي ذكرتموه فيمن عددتموه كان معجزاً لخرق العادة ودلالة لنبيّ من أنبياء الله، فلو كان أمير المؤمنين مشاركاً لمن وصفتموه في خرق العادة لكان معجزاً له أو للنبيّ وليس يجوز أن يكون معجزاً له ولو كان معجزاً للنّبيّ لجعله في معجزاته واحتج به في جملة بيناته ولجعله المسلمون في آياته، فلمّا لم يجعله رسول الله لنفسه علماً ولا عدّه المسلمون في معجزاته علمنا أنّه لم يجر فيه الأمر على ما ذكرتموه.

فيقال لهم: ليس كل ما خرق الله به العادة وجب أن يكون علماً ولا لزم أن يكون معجزاً ولا شاع علمه في العام ولا عرف من جهة الاضطرار، وإنّما المعجز العلم هو خرق العادة عند دعوة داع أو براءة معروف يجري براءته مجرى التّصديق له في مقاله، بل هي تصديق في المعنى وإن لم يك تصديقاً بنفس اللّفظ والقول، وكلام عيسى إنّما كان معجزاً لتصديق له في قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، مع كونه خرقاً للعادة وشاهداً لبراءة أمّه من الفاحشة، ولصدقها فيما ادّعته من الطهارة، وكانت حكمة يحيى في حال صغره تصديقاً له في دعوته في الحال ولدعوة أبيه زكريّا فصارت مع كونها خرق العادة دليلاً ومعجزاً، وكلام الطّفل في براءة يوسف إنّما كان معجزاً لخرق العادة بشهادته ليوسف عليه السلام للصّدق في براءة ساحته ويوسف نبيّ مرسل فثبت أنّ الأمر ما ذكرنا ولم يكن كما عقل أمير المؤمنين شاهداً في شيء ممّن ادّعاه ولا استشهد هو عليه السلام به فيكون مع كونه خرقاً للعادة معجزاً ولو استشهد به أو شهد على حدّ ما شهد الطفل ليوسف وكلام عيسى له ولأمّه وكلام يحيى لأبيه بما يكون في المستقبل والحال لكان لخصومنا وجه للمطالبة بأن يذكر ذلك في المعجزات لكن لا وجه له على ما بيّناه.

على أنّ كمال عقل أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن ظاهراً للحواس، ولا معلوماً بالاضطرار فيجري مجرى كلام المسيح، وحكمة يحيى، وكلام شاهد يوسف، فيمكن الاعتماد عليه في المعجزات، وإنّما كان طريق العلم مقال الرّسول والاستدلال الشّاق بالنظر الثاقب والسرّ حاله عليه السلام وعلى مرور الأوقات بسماع كلامه والتأمل لاستدلالاته والنظر فيما تؤدّي إلى معرفته وفطنته ثمّ لا يحصل ذلك إلاّ لخاص من النّاس ومن عرف وجوه الاستنباطات وما جرى هذا المجرى فارق حكمه حكم ما سلف للأنبياء من المعجزات وما كان لنبينا صلى الله عليه وآله من الإعلام إذا تلك بظواهرها فتقدح في القلوب أسباب اليقين وتشرك الجميع في الحال الظاهرة منها المنبئة عن خرق العادات دون أن تكون مقصورة على ما ذكرناه من البحث الطويل والاستقرار للأحوال على مرور الأوقات أو الرّجوع فيه إلى نفس قول

الرّسول ﷺ الذي يحتاج في العلم به إلى النّظر في معجز غيره والاعتماد على ما سواه من البيّنات فلا ينكر أن يكون الرسول ﷺ إنما عدل عن ذكر ذلك واحتجاجه به في جملة آياته لما وصفناه.

وشيء آخر وهو أنّه لا ينكر أن يكون الله سبحانه علم من مصلحة خلقه الكف من رسول الله عن الاحتجاج بذلك والدّعاء إلى النظر فيه وأنّ اعتماده على ما ظاهره خرق العادة أولى في مصلحة الدّين.

وشيء آخر وهو أنّ رسول الله ﷺ وإن لم يحتج به على التفصيل والتعيين فقد فعل ما يقوم مقام الاحتجاج به على البصيرة واليقين، فابتدأ عليّاً عليه السلام بالدعوة قبل الذّكور كلّهم ممّن ظاهره البلوغ وافتتح بدعوته قبل ادعاءِ رسالته، وأعقد عليه في إيداعه سرّه وأودعه ما كان خائفاً من ظهوره عنه، فدلّ باختصاصه بذلك على ما يقوم مقام قوله إنّه معجز له وإنّ بلوغ عقله علم على صدقه، ثمّ جعل ذلك من مفاخره وجليل مناقبه وعظيم فضائله، ونوه بذكره وشهره بين أصحابه فاحتجّ له به في اختصاصه، وكذلك فعل أمير المؤمنين صلوات الله عليه في ادعائه له، فاحتج به على خصومه وتمدّح به بين أوليائه وفخر به على جميع أهل زمانه، وذلك هو معنى النطق بالشّهادة بالمعجز له بل هو الحجّة في كونه نائباً في القوم بما خصّه الله تعالى منه ونفس الاحتجاج لعلمه ودليل الله وبرهانه وهذا يسقط ما اعتمدوه.

وممّا يدلّ على أنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه كان عند بعثة النّبي ﷺ بالغاً مكلّفاً وأنّ إيمانه به كان بالمعرفة والإستدلال وأنّه وقع على أفضل الوجوه وآكدها في استحقاق عظيم الثّواب أنّ رسول الله ﷺ مدحه به وجعله من فضائله وذكره في مناقبه، ولم يكن بالذي يفضل بما ليس يفضل ويجعل في المناقب ما لا يدخل في جملتها، ويمدح على ما لا يستحق عليه الثواب.

فلما مدح رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام بتقدّمه الإيمان فيما ذكرناه آنفاً: من قوله ﷺ لفاطمة عليها السّلام: أما ترضين أنّي زوّجتك أقدمهم إسلاماً: وقوله ﷺ في رواية سلمان: أوّل هذه الأمّة وروداً على نبيّها الحوض أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب وقوله ﷺ: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب سبع سنين، وذلك إنّه لم يكن من الرّجال أحد يصلّي غيري وغيره[1].

وإذا كان الأمر على ما وصفناه فقد ثبت أنّ إيمانه وقع بالمعرفة واليقين دون التقليد والتلقين لا سيّما وقد سمّاه رسول الله إيماناً وإسلاماً وما يقع من الصبيان على وجه التلقين لا يسمّى على الإطلاق الدّيني إيماناً وإسلاماً.

---

(١) روضة الواعظين: ٨٥، وشرح أصول الكافي: ٦/ ٣٧٦.

ويدلّ على ذلك أيضاً أنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه قد تمدّح به وجعله من مفاخره واحتجّ به على أعدائه وكرّره في غير مقام من مقاماته حيث يقول: اللّهم إنّي لا أعرف عبداً لك عبدك من هذه الأمة قبلي، وقوله أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم وقوله صلوات الله عليه لعثمان أنا خير منك ومنهما عبدت الله قبلهما وعبدت الله بعدهما وقوله عليه السلام أنا أوّل ذكر صلّى، وقوله عليه السلام على من أكذب: أعلى الله فأنا أوّل من آمن به وعبده.

فلو كان إيمانه على ما ذهبت إليه النّاصبة من جهة التّلقين ولم يكن له معرفة ولا علم بالتّوحيد لما جاز منه أن يتمدّح بذلك، ولا أن يسمّيه عبادة ولا أن يفخر به على القوم، ولا أن يجعله تفضيلاً له على أبي بكر وعمر، ولو أنه فعل من ذلك ما لا يجوز لردّه عليه مخالفوه واعترضه فيه مضادّوه وحاجه في بطلانه مخاصموه، وفي عدول القوم عن الاعتراض عليه في ذلك وتسليم الجماعة له ذلك دليل على ما ذكرناه وبرهان على فساد قول النّاصبة الذي حكيناه.

وليس يمكن أن يدفع ما رويناه في هذا الباب من الأَخبار لشهرتها واجماع الفريقين من الناصبة والشّيعة على روايتها، ومن تعرض للطعن فيها مع ما شرحناه لم يمكنه الاعتماد على تصحيح خبر وقع في تأويله الاختلاف، وفي ذلك ابطال جمهور الأخبار، وإفساد عامّة الآثار وهب أنّ من لا يعرف الحديث ولا خالط أهل العلم يقدم على إنكار بعض ما رويناه أو يعاند فيه بعض العارفين به ويغتنم الفرصة بكونه خاصّاً في أهل العلم كيف يمكن دفع شعر أمير المؤمنين في ذلك وقد شاع من شهرته على حدّ ارتفع فيه الخلاف وانتشر حتّى صار مسموعاً من العامّة فضلاً عن الخواص في قوله عليه السلام:

محمّد النّبيّ أخي وصنوي	وحمزة سيّد الشّهداء عمّي
وجعفر الذي يضحي ويمسي	يطير مع الملائكة ابن أمّي
وبنت محمّد سكني وعرسي	مساط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها	فمن فيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طرا	على ما كان من فهمي وعلمي
وأوجب لي الولاء معا عليكم	خليلي يوم دوح غدير خم

وفي هذا الشعر كفاية في «**البيان**» عن تقدم إيمانه وأنّه وقع مع المعرفة بالحجة والبيان، وفيه أيضاً أنّه كان الإمام بعد الرسول بدليل المقال الظاهر في يوم الغدير الموجب للاستخلاف.

وممّا يؤيد ما ذكرناه ما رواه عبد الله بن الأسود البكري عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه أنّ رسول الله ﷺ صلّى يوم الإثنين وصلّت خديجة معه ودعا عليّاً إلى الصّلاة معه يوم الثّلاثاء فقال له: أنظرني حتّى ألقى أبا طالب فقال له النّبي ﷺ: إنها أمانة، فقال عليّ: فإن كانت أمانة فقد أسلمت لك فصلّى معه وهو ثاني يوم المبعث[1].

وروى الكليني عن أبي صالح عن ابن عبّاس مثله، وقال في حديث إنّ هذا دين يخالف دين أبي حتّى أنظر فيه وأشاور أبا طالب فقال له النّبي ﷺ: أنظر واكتم، قال: فمكث هنيئة ثمّ قال: بل أجبتك وأصدّق بك، فصدّقه وصلّى معه.

وروى هذا المعنى بعينه وهذا المقال من أمير المؤمنين على اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى كثير من حملة الآثار، وهو يدلّ على أنّ أمير المؤمنين كان مكلّفاً عارفاً في تلك الحال بتوقفه واستدلاله وتمييزه بين مشورة أبيه وبين الإقدام على القبول والطاعة للرّسول من غير فكرة ولا تأمل، ثم خوفه أن ألقى ذلك إلى أبيه أن يمنعه منه مع أنه حقّ فيكون قد صد عن الحقّ فعدل عن ذلك إلى القبول وعدل من النّبيّ مع أمانته وما كان يعرفه من صدقه من مقاله وما سمعه من القرآن الذي نزل عليه وأراد الله من برهانه أنه رسول محقّ فآمن به وصدقه، وهذا بعد أن ميز بين الأمانة وغيرها وعرف حقها وكره أن يفشى سر الرسول وقد ائتمنه عليه وهذا لا يقع باتفاق من صبيّ لا عقل له ولا يحصل ممّن لا تميز معه.

ويؤيده أيضاً ما ذكرناه أنّ النبيّ بدأ به في الدّعوة قبل الذكور كلهم وإنّما أرسله الله تعالى إلى المكلّفين فلو لم يعلم أنه عاقل مكلّف لما افتتح به أداء رسالته وقدمه في الدعوة على جميع من بعث الله إليه، لأنه لو كان الأمر على ما ادّعته الناصبة لكان عليه السلام قد عدل عن الأَولى وتشاغل بما لم يكلفه عن أداء ما كلّفه ووضع فعله في غير موضعه، ورسول الله ﷺ يجل عن ذلك.

وشيء آخر وهو أنه ﷺ دعا عليّاً في حال كان مستتراً فيها بدينه كاتماً لأمره خائفاً إن شاع من عدوه فلا يخلو أن يكون قد كان واثقاً من أمير المؤمنين بكتم سرّه وحفظ وصيته وامتثال أمره وحمله من الدّين ما حمله، أولم يكن واثقاً بذلك فإن كان واثقاً ولم يثق به عليه السلام إلا وهو في نهاية كمال العقل وعلى غاية الأمانة وصلاح السريرة والعصمة والحكمة وحسن التّدبير، لأن الثقة بما وصفناه دليل جميع ما شرحناه على الحال التي قدّمنا وصفها، وإن كان غير واثق من أمير المؤمنين بحفظ سرّه وغير آمن من تضييعه وإذاعة أمره فوضعه عنده من التفريط وضدّ الحزم والحكمة والتدبير، حاشا الرّسول ﷺ من ذلك ومن كلّ صفة نقص وقد أعلى الله عزّ وجلّ رتبته وأكذب مقال من ادّعى ذلك فيه.

---

(١) الفصول المختارة: ٢٨٠، وبحار الأنوار: ٢٨٦/٣٨.

وإذا كان الأمر على ما بيناه فما ترى النّاصبة قصدت بالطّعن في إيمان أمير المؤمنين إلاّ عيب الرّسول ﷺ والذم لأفعاله ووصفها بالعبث والتفريط ووضع الأشياء غير موضعها والإزراء عليه في تدبيراته وما أراد مشايخ القوم ومن ألقى هذا المذهب إليهم إلا ما ذكرناه والله متمّ نوره ولو كره الكافرون.

وانما أوردت هذا الكلام بطوله مع كثرة فوائده ومزيد عوائده ووثاقة مبانيه ولطافة معانيه وإنبائه عن علوّ شأن قائله ورفعة مقامه وطول باعه في باب المناظرة والجدال وقوّة ذراعه في إبطال مقال أهل العصبية والضّلال، فحريّ له أن يلقب بالمفيد وهنيئاً له أن يخرج باسمه التوقيع الشّريف من الإمام الرّشيد، جزاه الله عن مذهب الحق وأهله خير الجزاء.

وأما الشارح المعتزلي: فقد قال في شرح الكلام السّادس والخمسين: إنّ أكثر أهل الحديث وأكثر المحققين من أهل السّيرة رووا أنّه أوّل من أسلم، ثمّ روى من كتاب «**الاستيعاب**» لأبي عمرو يوسف بن عبد البرّ روايات كثيرة دالّة على سبق إسلامه عليه السلام.

وقال بعدها: واعلم أنّ شيوخنا المتكلّمين لا يكادون يختلفون في أنّ أوّل النّاس إسلاماً عليّ بن أبي طالب إلاّ من عساه خالف في ذلك من أوائل البصريين، فأمّا الذي تقرّرت المقالة عليه الآن فهو القول بأنّه سبق الناس إلى الإيمان لا تكاد تجد اليوم في تصانيفهم وعند متكلّميهم والمحققين منهم خلافاً في ذلك.

قال: واعلم أنّ أمير المؤمنين ما زال يدعي ذلك لنفسه ويفتخر به ويجعله في أفضليته على غيره ويصرّح بذلك، وقد قال غير مرّة: أنا الصدّيق الأكبر، وأنا الفاروق الأوّل أسلمت قبل إسلام أبي بكر وصليت قبل صلاته[1].

وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمّد بن قتيبة في كتاب «**المعارف**» وهو غير متهم في أمره ومن الشّعر المروي عنه في هذا المعنى الأبيات التي أوّلها:

محمّد النبي أخي وصنوي وحمزة سيّد الشهداء عمي

ومن جملتها:

سبقتكم إلى الإسلام طرّاً غلاماً ما بلغت أوان حلمي

والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة جدّاً لا يتسع هذا الكتاب لذكرها فليطلب من مظانّها، ومن تأمّل كتب السّير والتّواريخ عرف من ذلك ما قلناه.

ثمّ قال: فأمّا الذّاهبون إلى أن أبا بكر أقدمها إسلاماً فنفر قليلون، ونحن نذكر ما أورده

(١) شرح النهج: ١/ ٣٠.

ابن عبد البرّ أيضاً في كتاب «**الاستيعاب**» في ترجمة أبي بكر وذكر الأخبار الواردة في سبق إسلامه، ثمّ قال ومعلوم أنه لا نسبة لهذه الرّوايات التي ذكرناها في ترجمة عليّ الدّالة على سبقه، ولا ريب أنّ الصّحيح ما ذكره أبو عمرو أنّ عليّاً كان هو السابق وأنّ أبا بكر هو أوّل من أظهر الإسلام فظن أنّ السّبق له.

فدلّ مجموع ما ذكرناه أنّ عليّاً هو أوّل النّاس إسلاماً وأنّ المخالف في ذلك شاذّ، والشّاذ لا يعتد به.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام انام است در توبيخ و مذمت اصحاب خود كه فرمود:

اى نفس هاى مختلف و اى قلب هاى پراكنده و متفرق كه حاضر است بدن هاى ايشان و غايب است از ايشان عقل هاى ايشان برمى گردانم شما را برحق و شما رم مى كنيد از آن مثل رم كردن بز از آواز مهيب شير، چه دور است كه اظهار بكنم به شما نهان عدل را يا اينكه راست بكنم كجى حق را.

بارپروردگارا، البته تو مى دانى كه نبود آن چه كه واقع شد از ما يعنى طلب خلافت و محاربه از براى رغبت كردن در سلطنت دنيا و نه از جهت خواهش چيزى از متاع بى قدر و بها و ليكن اين طلب و حرب به جهت اين بود كه برگردانيم آثار دين تو را و اظهار اصلاح نماييم در شهرهاى تو تا اين كه ايمن شوند ستم رسيده از بندگان تو و برپا شود آن چه كه تعطيل افتاد از حدود تو.

بارپروردگارا، به تحقيق من اول كسى هستم كه بازگشت نمود به سوى تو و شنيد دعوت پيغمبر را و قبول نمود آن را، سبقت نكرد به من مگر حضرت رسول (ﷺ) به نماز و به تحقيق كه شما دانسته ايد آن كه جايز و سزاوار نيست كه باشد حاكم والى بر فرج ها و بر خون ها و غنيمت ها و حكم ها و امانت مسلمانان شخص بخيل تا شود در مال هاى ايشان حرص و رغبت او و نه شخص نادان تا به ضلالت اندازد ايشان را به جهالت خود و نه شخص كج خلق تا ببرد ايشان را از يكديگر به جهت كج خلقى خود و نه شخص ظلم كننده در دولت ها تا فراگيرد قوم دون قوم را و ترجيح بدهد بعض ايشان را به بعضى و نه شخص رشوت گيرنده در حكم تا ببرد حقوق مسلمانان را و نگه بدارد آن حقوق را در مقام قطع كردن و قطع و فصل ننمايد و نه شخصى كه تعطيل كننده است سنّت و شريعت مطهره را تا اين كه به هلاكت اندازد امت را.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثاني والثلاثون من المختار في باب الخطب

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وأَعْطَىٰ، وعَلَى مَا أَبْلَىٰ وَابْتَلَى، الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وما تَخُونُ العُيونُ، ونَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ غَيْرُهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَجيبُهُ وبَعيثُهُ، شَهادَةً يُوافِقُ فيهَا السِّرُّ الإِعْلاَنَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ.

منها: فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لاَ اللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لاَ الْكَذِبُ، وما هُوَ إِلاَّ الْمَوْتُ أَسْمَعَ داعِيَهُ، وأَعْجَلَ حادِيَه، فَلاَ يَغرَّنَّكَ سَوادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِمَّن جَمَعَ الْمَالَ، وحَذِرَ الإِقْلاَلَ، وَأَمِنَ الْعَواقِبَ طُولَ أَمَلٍ، وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ، كَيْفَ نَزلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ مَحْمُولاً عَلَى أَعْوادِ الْمَنايا، يَتَعاطى بِهِ الرِّجالُ الرِّجالَ، حَمْلاً عَلَى الْمَناكِبِ، وَإِمْسَاكاً بِالأَنَامِلِ، أَما رَأَيْتُمْ الَّذينَ يَأْمُلونَ بَعيداً، ويَبْنُونَ مَشيداً، ويَجْمَعُونَ كَثيراً، كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وما جَمَعُوا بُوراً، وصارَتْ أَمْوالُهُمْ لِلوارِثينَ، وأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخرينَ، لاَ في حَسَنَةٍ يَزيدُونَ، ولا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ، فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوىٰ قَلْبَهُ بَرَزَ مَهَلُهُ، وفازَ عَمَلُهُ، فاهْتَبِلُوا هَبَلَها، وَاعْمَلُوا لِلجَنَّةِ عَمَلَها، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دارَ مُقامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَىٰ دارِ الْقَرارِ، فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفازٍ، وقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ[1].

اللغة

قال الشارح المعتزلي **(أبلى)** أي أعطى يقال: قد أبلاه الله بلاء حسناً أي أعطاه قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم　　　وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وأمّا قوله **(وابتلى)** فالابتلاء إنزال مضرّة بالإنسان على سبيل الاختبار كالمرض والفقر والمصيبة، وقد يكون بمعنى الاختبار في الخير إلا أنّه كثيراً ما يستعمل في الشر.

أقول: والظاهر أنّ استعمال البلاء في الإعطاء أيضاً على الغالب لا دائماً، وإلاّ فقد قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٣٦٢٦، وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٦٩.

والتحقيق أن الإبلاء والابتلاء كلاهما من البلاء بمعنى الاختبار والامتحان قال الفيروزآبادي: ابتليت الرّجل اختبرته وامتحنته كبلوته بلواً، ثمّ قال: والبلاء يكون منحة ويكون محنة، وفي «**المصباح**» بلاه الله بخير أو شرّ يبلوه بلواً وأبلاه بالألف وابتلاه ابتلاء بمعنى امتحنه، والاسم بلاء مثل سلام، والبلوى والبليّة مثله و(**كننته**) أكنه من باب قتل سترته، وأكننته بالألف أخفيته، وقال أبو زيد الثلاثي والرّباعي لغتان في السر وفي الإخفاء جميعاً (**وتكن الصّدور**) في النّسخ من باب الأفعال.

و(**اللعب**) في بعض النسخ بفتح اللام وكسرها وفي بعضها بتخفيف العين قال ابن قتيبة ولم يسمع في التخفيف فتح اللام مع السكون وهو الظاهر من الفيروز آبادي قال: لعب كسمع لعباً ولعباً ولعباً وتلعاباً ضدّ جدّ وهو لعب ولعب و(الكذب) أيضاً بعض النسخ بفتح الأوّل وكسر الثاني وفي بعضها بالسّكون (**دعا**) المؤذن الناس إلى الصّلاة فهو داعي الله و(**حدوت**) بالإبل حثثتها على السّير بالحداء وحدوته على كذا بعثته عليه و(**المشيد**) من شدت البيت أشيده من باب باع بنيته بالشّيد وهو بالكسر الجص و(**البور**) الفاسد الهالك وقوم بور أي هلكى قال سبحانه: وكنتم قوماً بوراً، وهو جمع باير كحول وحائل.

و(**يستعتبون**) في بعض النسخ على البناء للفاعل وفي بعضها على البناء للمفعول، و(**برز مهله**) أي فاق بمعنى أبرز أي أظهر، والمهل شوط الفرس هكذا قال الشّارح المعتزلي، وشوط الفرس جريه مرّة إلى غاية، والأظهر أنّ المهل بمعنى التقدّم في الخير كما قاله في «**الفردوس**» و(**اهتبل**) فلان الصّيد بغاه وطلبه واهتبل كلمة حكمة اغتنمها، والهبال وزان شداد الصّياد، وذئب هبال أي محتال، واهتبل هبلك محركة عليك بشأنك و(**الأوفاز**) جمع وفز بسكون الفاء ويحرّك أيضاً وهو العجلة و(**الظهور**) كأظهر جمع ظهر الرّكاب وهم مظهرون أي لهم ظهور ينقلون عليها و(**زائله**) مزايلة وزيالاً أي فارقه.

الإعراب

قوله: (**فإنه والله**) (آه) الضّمير إمّا راجع إلى متقدّم ذكره لفظاً في تضاعيف كلامه عليه السلام وأسقطه السّيد (ره) والتقطه غيره على ما هو عادته من التقطيع والالتقاط أو أنّه ضمير الشّأن كما في قولك هو الأمير مقبل أي الشأن هذا.

قال نجم الأئمة: وهذا الضمير في الحقيقة كأنه راجع إلى المسؤول عنه بسؤال مقدر كأنه سمع ضوضاة وجلبة فاستبهم الأمر فسأل بالشأن والقصة، فقلت هو الأمير مقبل، أي الشأن هذا، فلما كان المعود إليه الذي تضمنه السؤال غير ظاهر قبل اكتفى في التفسير بخبر هذا الضمير بتعقبه بلا فصل لأنه معين للمسؤول عنه ومبيّن له، فبان لك بهذا أنّ الجملة بعد الضمير لم يؤت بها لمجرّد التّفسير، بل هي كسائر أخبار المبتدآت لكن سمّيت تفسيراً لما

قرّرته، والقصد بهذا الإبهام ثم التفسير تعظيم الأمر وتفخيم الشأن، فعلى هذا لا بدّ أن يكون مضمون الجملة المفسرة شيئاً عظيماً يعتني به فلا يقال: هو الذباب يطير، وقد يخبر عن ضمير الأمر المستفهم منه تقديراً بالمفرد تقول: هو الأمر حتّى لا تبقى على صرفه باقية.

وقال أيضاً في موضع آخر في شرح قول ابن الحاجب: المضمر ما وضع لمتكلّم أو مخاطب أو غائب تقدم ذكره لفظاً أو معنى أو حكماً: والتقدم الحكمي أن يكون المفسّر مؤخراً لفظاً وليس هناك ما يقتضي تقدّمه على محلّ الضّمير إلا ذلك الضّمير، فنقول إنّه وإن لم يكن متقدّماً على الضمير لا لفظاً ولا معنى إلاّ أنّه في حكم المتقدّم نظراً إلى وضع ضمير الغائب وإنّما يقتضي ضمير الغائب تقدّم المفسر لأنّه وضعه الواضع معرفة لا بنفسه بل بسبب ما يعود إليه، فان ذكرته ولم يتقدم مفسره بقي مبهماً منكراً لا يعرف المراد به حتى يأتي تفسيره بعده وتنكيره خلاف وضعه، فالشيء الحامل لهم على مخالفة مقتضى وضعه بتأخير مفسّره عنه قصد التفخيم والتعظيم في ذكر ذلك المفسر بأن يذكروا أولاً شيئاً مبهماً حتّى تتشوق نفس السامع إلى العثور على المراد به ثمّ يفسروه، فيكون أوقع في النفس وأيضاً يكون ذلك المفسّر مذكوراً مرّتين بالإجمال والتّفصيل ثانياً فيكون آكد، انتهى.

وقوله: (**أسمع داعيه وأعجل حاديه**)، منصوبان على الحال أمّا لفظاً لو كان أفعل بصيغة التفضيل فيكون داعيه وحاديه مجرورين بالإضافة أفعل إليهما من باب إضافة الصّفة إلى مفعوله، ولو كان أسمع فعلاً ماضياً من باب الأفعال فداعيه منصوب بالمفعولية كذا في أكثر النّسخ والجملة منصوبة المحلّ على الحال من الموت والعامل معنى الضمير أعني هو لأنّه للشّأن والشأن بمعنى المصدر كما في قولك ما شأنك واقفاً والمصدر في معنى الفعل مضافاً إلى تقويته معنى بشبه الفعل أخرى، كأنه قيل: ما الشأنّ المسؤول عنه إلاّ الموت، فافهم جيّداً، وإضافة (**داعيه**) إلى الضّمير من باب إضافة الصّفة إلى المفعول، وكذلك الكلام في أعجب حاديه.

وقوله: (**فلا يغرّنّك سواد النّاس من نفسك**)، قال الشارح المعتزلي: (**من**) هٰهنا إمّا بمعنى (**الباء**) أي لا يغرنّك النّاس بنفسك وصحتك وشبابك فتستبعد الموت اغتراراً بذلك فتكون متعلّقة بالظاهر، وإمّا أن تكون متعلّقة بمحذوف تقديره متمكناً من نفسك وراكناً إليها.

أقول: فعلى ما ذكره تكون بمعنى (**الباء**) السببية، ولكن الأظهر أن تكون بمعنى (**عند**) كما قاله أبو عبيدة في قوله تعالى: **لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً**، فالمعنى لا يغرّنّك سواد النّاس مجتمعين عندك، ويحتمل أن تكون بمعناها الأصلي، أي لا يغرنّك النّاس من إصلاح نفسك ولا يشغلونك عن التّوجه إلى ذاتك.

(**وطول أمل**) منصوب على المفعول له لأمن أوله وللأفعال السابقة أيضاً على سبيل

التّنازع، **قال الشّارح المعتزلي**: ويجوز أن ينصب على البدل من المفعول المنصوب برأيت وهو **(من)** ويكون التّقدير فقد رأيت طول أمل من كان، وهذا بدل الاشتمال، وقد حذف منه الضمير العائد كما حذف من قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ﴾ [البروج: ٤ ـ ٥] **«انتهى»** ولا بأس به والعائد المحذوف في الآية لفظة منه أي النّار منه وقيل النّار مرفوع خبر لمبتدأ محذوف أي هو النّار وقيل: التقدير ذي النّار، هذا وروى في بعض النّسخ بطول أمل.

(وحملاً واساكاً) إمّا منصوبان على المصدر والعامل محذوف حال من فاعل يتعاطى، أو مفعوله أي حال كونهم يحملونه حملاً فيكون حالاً مقدّرة على حد: **(فادخلوها خالدين)**، أو مفعولان لأجله أي يتعاطونه للحمل والإمساك، **(ومشيداً)** صفة حذف موصوفه أي بناء مشيداً وقصراً مشيداً، **(ومهله)** في بعض النسخ بالرّفع وبعضها بالنّصب.

المعنى

اعلم أنّ مدار هذه الخطبة على فصلين: أحدهما حمد الله المتعال والإشارة إلى جملة من نعوت الكبرياء والجمال، والثاني التنفير من الدّنيا والوصيّة بالزهد والتقوى.

أما الفصل الأول

فهو قوله **(نحمده على ما أخذ وأعطى)** أي على أخذه وإعطائه، والمراد بالإعطاء واضح، وأمّا الأخذ فيجوز أن يراد به أخذ الميثاق في عالم الذر بالتوحيد والنّبوة والولاية كما يشهد به قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، أو أخذ عموم التكاليف أو خصوص الحقوق الماليّة كالخمس والزّكاة والصّدقات، أو أخذ ما أعطاه على بعض العباد وابتلائهم بالفقر والمسكنة بعد الغني والثّروة، فإن أخذ ذلك كلّه من العباد لما كان فعلا جميلاً منه سبحانه وتعالى عائداً منفعته إليهم ونعمة منه عزّ وجلّ عليهم استحقّ بذلك حمداً وشكراً، وإن كان في بعضها ضرر دنيوي إلا أنّ ثمرتها الأخروية أعظم وجزائها أدوم.

ويحتمل أن يكون المراد به أخذ المجرمين، ومؤاخذة العاصين، وإعطاء المحسنين، وإنعام الصّالحين **(و)** نحمده **(على ما أبلى وابتلى)** أي على اختباره وامتحانه بالخير والشّر والنفع والضّرر، لأنّ البلاء للأولياء كرامة، والصّبر على المكاره والتحمل على المشاق من أفضل العبادات وأعظم القربات، وإنّما يوفي الصّابرون أجرهم بغير حساب، وقد تقدم تحقيقه في شرح الخطبة المائة والثالثة عشر، فتذكر.

(الباطن لكلّ خفية) أي الخبير البصير بكلّ ما يبطن ويخفى **(الحاضر لكلّ سريرة)** أي

العالم بكلّ ما يسرّ ويكتم، وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السّر وأخفى **(العالم بما تكنّ الصّدور)** وتستره **(وما تخون العيون)** وتسترقه من الرّمزات واللّحظات على وجه الخيانة والخلاف كما قال عزّ من قائل: والله ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقد مضى تحقيق الكلام في عموم علمه سبحانه بالجزئيات والكليّات وما يتضح به معنى هذه الفقرات في شرح الفصل السّادس والسّابع من الخطبة الأولى وشرح الخطبة الرّابعة والسّتين والخامسة والثّمانين.

(ونشهد أن لا إله) إلاّ الله **(غيره)** متوحّداً في عزّ جلاله متفرّداً في قدس جماله، متعالياً عن نقص كماله **(وأنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله نجيبه وبعيثه)** أي عبده المنتجب المصطفى من بين كافة الخلق والمرسل المبعوث إلى عامتهم **(شهادة يوافق فيها السّر الإعلان والقلب اللّسان)** أي صادرة عن صميم القلب ووجه الخلوص وتوافق الباطن للظّاهر.

وأما الفصل الثاني (منها)

فهو قوله عليه السلام **(فإنّه والله الجدّ لا اللّعب والحقّ لا الكذب وما هو إلاّ الموت)** لا يخفى ما في هذا الكلام من التّهويل والتخويف والإنذار بالموت لما فيه على وجازته من وجوه التّأكيد وضروب التّفخيم البالغة إلى عشرة بعضها لفظيّة وبعضها معنويّة كما هو غير خفيّ على العارف «**بأسرار البلاغة**» وبدائعها.

أولها: التّأكيد بأنّ.

والثاني: الإتيان بضمير الشأن إبهاماً للمرام وقصداً للتّفخيم والإعظام وتشويقاً للسّامعين إلى ما يتلوه من النّبأ العظيم.

الثالث: إسميّة الجملة.

الرّابع: الاعتراض بين شطري الكلام بقسم، وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم.

الخامس: الإخبار بأنّه جد ليس بهزل.

السّادس: تعريف الجد **(باللّام)** قصداً للمبالغة من باب زيد الشّجاع أي الكامل في هذا الوصف.

السابع: تعقيبه بأنّه ليس بلعب.

الثّامن: إردافه بأنّه حقّ لا كذب وفيه من وجوه التّأكيد ما في قرنيه.

التّاسع: الإتيان بضمير الشّأن ثانياً قصداً لزيادة التمكن ما يعقبه في ذهن السّامعين لأنّ المحصول بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب.

العاشر: الإتيان بكلمة الحصر أعني **(ما)** **(وإلاّ)**.

واتبع ذلك كله بالوجه.

الحادي عشر: فقال **(أسمع داعيه)** وبالوجه **الثاني عشر**: فقال **(وأعجل حاديه)** أي أسمع من دعاه إلى الله سبحانه أي المدعو له وأسرع من ساقه إلى مكانه وحثّه إلى السّير إليه ونسبة الإسماع والإعجال إلى الموت من التوسع.

والتوكيد بهذا كلّه لشدة ما رآه من المخاطبين من الغفلة ونومة الجهالة واشتغالهم عن ذكر الموت وما يحلّ عليهم من الفناء والفوت وعن أخذ الذّخيرة والزّاد ليوم المعاد، فأنزلهم منزلة المنكرين إيقاظاً لهم عن رقدة الغافلين، وأعلمهم أنّ الموت حقّ يقين ليس منه خلاص ولا مناص لا فرار ولا محار، وأنّه يدركهم ولو كانوا في بروج مشيّدة وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

(فلا يغرّنك سواد النّاس) وكثرتهم واجتماعهم حولك **(من نفسك)** ومن الاشتغال بإصلاحها، وقال الشّارح البحراني: أي فلا يغرّنك من نفسك الأمارة بالسّوء وسوستها واستغفالها لك عن ملاحظة الموت برؤية سواد النّاس أي كثرتهم إذ كثيراً مّا يرى الإنسان الميت محمولاً فيتداركه من ذلك رقّة وروعة، ثمّ يعاوده الوسواس الخنّاس ويأمره باعتبار كثرة المشيّعين له من النّاس. وأن يجعل نفسه من الأحياء الكثيرين بملاحظة شبابه وصحته ويأمره باعتبار أسباب موت ذلك الميّت من القتل وسائر الأمراض، وباعتبار زوال تلك الأسباب في حقّ نفسه وبالجملة فيبعّد في اعتباره عند الموت بكلّ حيلة.

فنهى عليه السلام السّامعين عن الانخداع للنّفس بهذه الخديعة، وأسند الغرور إلى سواد النّاس لأنّه مادّته، ونبه على فساد تلك الخديعة والاغترار بقوله **(فقد رأيت من كان قبلك ممّن جمع المال وحذر الإقلال)** أي خاف من الافتقار ومساءة الحال **(وأمن العواقب)** واطمأنّ بالأقارب **(طول أمل واستبعاد أجل كيف نزل به الموت)** وحلّ بساحته الفناء والفوت **(فأزعجه)** وأقلعه **(عن وطنه)** وسكنه **(وأخذه عن مأمنه)** ومسكنه، وأرهقته منيته دون الأمل، وشذّ به عنه تخرّم الأجل **(محمولاً على أعواد المنايا)** والنّعوش **(يتعاطى به الرّجال الرّجال)** ويتداولونه **(حملاً له على المناكب وإمساكاً بالأنامل)** أي بالأيدي تسمية للكلّ بإسم جزئه.

ثمّ أكدّ فساد الاغترار بتقرير آخر فقال **(أما رأيتم الذين يأملون)** أملاً **(بعيداً ويبنون)** قصراً **(مشيداً ويجمعون)** مالاً **(كثيراً كيف أصبحت)** أي صارت **(بيوتهم قبوراً وما جمعوا بوراً)** أي فاسداً هالكاً **(وصارت أموالهم للوارثين وأزواجهم لقوم آخرين)** بلى وهو مدرك بالعيان يشهد به التجربة والعيان **(لا في حسنة يزيدون ولا من سيئة يستعتبون)** أي لا يمكن لهم الزّيادة في الحسنات ولا طلب أن يعتب أي يرضى الله منهم في السّيئات، وعلى البناء للمجهول فالمعنى

أنّه لا يطلب منهم الاعتاب والاعتذار بعد الانتقال إلى دار القرار، وذلك لأنّ استزادة الحسنات واستعتاب السّيئات إنّما هو في دار التّكليف وحالة الحياة وأمّا الآخرة فهو دار الجزاء، **فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون، فإن يصبروا فالنّار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين**، وقد تقدم توضيح ذلك في شرح الفصل الخامس من فصول الخطبة الثّانية والثّمانين.

ولما نبّه على زوال الدّنيا وفنائها أردفه بما هو زاد الأخرى وذخيرتها فقال **(فمن أشعر التقوى قلبه)** أي لازمه لزوم الشعار بالجسد **(برز مهله)** أي فاق على أقرانه في جريه إلى مكانه أي تقدّمهم في السّير واكتساب الخير أو أنّه أبرز جريه وبان سبقه **(وفاز عمله)** أي نال إلى جزاء عمله وأدرك منتهى أمله **(فاهتبلوا هبلها)** واغتنموا فرصتها وعليكم بشأنها **(واعملوا للجنّة عملها)** الّذي به تدركونها وتستقحونها.

(فإن الدّنيا لم تخلق لكم دار مقام) لتنافسوا فيها **(وإنّما خلقت لكم مجازاً لتزوّدوا منها)** صالح **(الأعمال)** وتتقوّوا للوصول بها **(إلى دار القرار)** ومصاحبة الأبرار **(فكونوا منها على أوفاز)** وعجلة **(وقربوا الظهور)** والرّكاب **(للزّيال)** والمفارقة.

قال الشّارح المعتزلي: أمرهم أن يكونوا فيها على سرعة في قطع عقباتها وعجل في الارتحال عنها، لأنّ الثّاني فيها يستلزم الالتفات إلى لذاتها والغفلة عن المقصد الحقّ، واستعار له لفظ الظهور وهي الرّكاب مطايا الآخرة وهي الأعمال الصّالحة وتقريبها للزّيال هو العناية بالأعمال المقرّبة إلى الآخرة المستلزمة للبعد عن الدّنيا والإعراض عنها ومفارقتها[١].

(١) شرح النهج: ٢٦٩/٨.

الترجمة

از جمله خطب آن بزرگوار و مقتدای آن اخیار است:

حمد می کنم معبود به حق را بر این که اخذ فرمود و عطا نمود و بر این که امتحان کرد با خیر و شر خبیر است به هر امر پنهان و حاضر است مر هر سرّ نهان را، عالم است به آن چه پوشیده است آن را سینه ها و بر آن چه خیانت می کند در آن چشم ها و شهادت می دهیم که نیست معبودی غیر از او و این که محمدبن عبدالله (ﷺ)برگزیده او است و فرستاده او است، چنان شهادتی که موافقت نماید در آن ظاهر و باطن و قلب با زبان.

بعضی دیگر از فقرات خطبه این است که فرموده:

پس به درستی که آن حقیقت است نه بازیچه و راست است نه دروغ و نیست آن مگر مرگ در حالتی که شنوانید خواننده خود را و شتابانید راننده خود را، پس مغرور و فریفته ننماید تو را سیاهی مردمان و کثرت ایشان از اصلاح حال تو و حال آن که به تحقیق دیدی تو کسی را که بود پیش از تو از آن کسی که جمع کرد مال را و ترسید از افتقار و پریشانی و ایمن شد از عواقب امور به جهت درازی آرزو و بعید شمردن اجل چگونه فرودآمد به او مرگ، پس برکند او را از وطن مألوف خود و بگرفت او را از محل امن خود در حالتی که برداشته شده بود بر چوب های مرکب ها فرا می گرفتند او را مردان از مردان به نوبت به جهت برداشتن بر دوش هاو نگهداشتن با دست ها، آیا ندیدید کسانی را که آرزوی دور و دراز می کردند و قصرهای محکم می ساختند و جمع می نمودند مال های بسیار گردید خانه های ایشان قبرها و آن چه که جمع می نمودند نیست و نابود و گشت مال های ایشان مال وارثان و زنان ایشان از برای دیگران نه در ثواب قدرت زیاده دارند و نه از گناه قدرت استرضا و معذرت.

پس کسی که شعار قلب خود نمود تقوی و پرهیزکاری را ظاهر شد پیش قدمی او و فائز شد به عمل خود، پس اهتمام کنید اهتمامی که لایق آن تقوی باشد و عمل نمایید به جهت بهشت عملی که به آن جا برساند، پس به درستی که دنیای

غدّار خلق نشده است از برای شما سرای اقامت و قرار و جز این نیست که خلق شده است برای شما راه گذرگاه تا توشه بردارید از آن عمل های شایسته را که برساند شما را به سوی سرای قرار، پس باشید از آن برشتاب و نزدیك گردانید پشت های مرکب را از برای رحلت و مفارقت نمودن از این دنیای فانی و بیوفا.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثالثة والثلاثون من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين

الفصل الأول

وَانقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ بِأَزِمَّتِها، وقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرَضُونَ مَقالِيدَها، وسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ الأَشجارُ النَّاضِرَةُ، وقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النيرانَ الْمُضِيئَةَ، وآتَتْ أُكُلَها بِكَلِمَاتِهِ الثِّمَارُ الْيانِعَةُ.

منها: وكِتَابُ اللّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، ناطِقٌ لاَ يَعْيَا لِسَانُهُ، وبَيْتٌ لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لاَ تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ.

منها: أَرْسَلَهُ عَلَى حِينَ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وتَنازُعٍ مِنَ الأَلْسُنِ، فَقَفَى بِهِ الرُّسُل، وخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ، فَجاهَدَ في اللّهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ بِهِ[1].

اللغة

(**المقاليد**) جمع المقلاد وهو كالمقلد بكسر الميم المفتاح، وفي «**المصباح**» المقاليد الخزائن و(**قدح**) بالزّندرام الإيراء[2] به والمقدح والمقداح والقداح حديدته و(**القضبان**) بالضمّ جمع القضيب وهو الغصن المقطوع و(**النّيران**) جمع النّار و(**الأكل**) بالضمّ وبضمّتين المأكول، وهو (**بين أظهرهم**) وظهريهم وظهرانيهم أي وسطهم وفي معظمهم.

قال الشّارح المعتزلي: وإنّما قالت العرب: من بين أظهرهم ولم تقل بين صدورهم، لإرادتهم بذلك الإشعار لشدة المحامات عنه والمرامات من دونه، لأنّ الذيل إذا حامى القوم عنه استقبلوا الأسنة والسيوف عنه بصدورهم وكان هو محروساً مصوناً عن مباشرة ذلك وراء ظهورهم و(**تهدم**) بالبناء على الفاعل وفي بعض النسخ بالبناء على المفعول و(**تهزم**) بالعكس من هزمت الجيش هزماً من باب ضربته كسرته.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/١٣٦، وبحار الأنوار: ١٨/٢٢١ ح ٥٤.

(٢) الإيراء: الاستخراج بالنار. قال تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾.

الإعراب

الباء في قوله: (**بالغدو**)، بمعنى (**في**)، وفي قوله: (**بكلماته**)، للسّببيّة، (**والثمار اليانعة**)، بدل من أكلها، أو عطف بيان، (**والواو**) في قوله: (**وكتاب الله**)، إمّا عاطفة لو كان لها معطوف عليه أسقطه السّيد (ره) على عادته، أو للحال، أي تفعلون كذا وكتاب الله بينكم، وقوله: (**بين أظهركهم**)، خبر لكتاب الله، فيكون ناطق خبراً لمبتدأ محذوف، أي وهو ناطق، أو بدلاً من بين أظهركم، ويجوز كونه خبراً لكتاب الله، فيكون (**بين أظهركم**) صفة لكتاب الله أو حالاً، والأوّل أظهر بل أقوى.

المعنى

إعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة يدور على فصول ثلاثة على سبيل التّقطيع والالتقاط.

الفصل الأول

في تمجيد الله سبحانه باعتبار عموم قدرته ونفاذ أمره وعظمة سلطانه وهو قوله (**وانقادت له**) أي لله تعالى السّابق ذكره في أوّل الخطبة أسقطه السّيد (ره) على عادته (**الدّنيا والآخرة بأزمّتها**) أراد به نفوذ أمره سبحانه فيهما وكونه مالكاً لأمرهما ودخولهما في ذل الإمكان والافتقار إليه تعالى على سبيل الاستعارة بالكناية، تشبيهاً لهما بالحيوان السّلس المنقاد لصاحبه الذي بيده زمامه المتمكّن من التّصرف فيه كيف شاء، وذكر الأزمة تخييل والانقياد ترشيح.

(**وقذفت**) أي ألقت (**إليه السّماوات والأرضون مقاليدها**) وهو كناية عن قدرته وحفظه لها وأنّه لا يملك أمرها ولا يتمكّن من التّصرف فيها غيره، وهو اقتباس من قوله سبحانه في سورة الزّمر: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، قال الزّمخشري: أي هو مالك أمرها وحافظها، وهي من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبّر أمرها هو الّذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان القيت إليه مقاليد الملك، وهي المفاتيح، وفي «**مجمع البيان**» يريد مفاتيح السّماوات والأرض بالرّزق والرّحمة عن ابن عباس وقتادة، وقيل خزائن السّماوات والأرض يفتح الرّزق على من يشاء ويغلقه عمّن يشاء، عن الضحّاك، وقال في تفسير قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢] في سورة الشورى: أي مفاتيح أرزاق السّماوات والأرض وأسبابها فتمطر السّماء بأمره وتنبت الأرض بإذنه، عن مجاهد، وقيل معناه خزائن السّماوات والأرض، عن السّدي يوسّع الرّزق لمن يشاء ويضيق على من يشاء على ما يعلمه من المصالح.

قال الشّارح البحراني (ره) بعد ما حكى عن ابن عبّاس كون المقاليد بمعنى المفاتيح: وعن اللّيث كونه بمعنى الخزائن:

أقول: لفظ القذف مجاز في تسليمها وانقيادها بزمام الحاجة والإمكان إلى قدرته مع جميع ما هي سبب في وجوده في هذا العالم ممّا هو رزق ورحمة للخلق وكذلك لفظ المفاتيح على رأي ابن عبّاس استعارة للأسباب المعدّة للأرزاق والرّحمة، وتلك الأسباب كحركات السّماوات واتّصالات بعض الكواكب ببعض وكاستعدادات الأرض للنّبات وغيره، ووجه الاستعارة أنّ هذه الأسباب باعدادها المواد الأرضية يفتح بها خزائن الجود الإلهي كما يفتح الأبواب المحسوسة بمفاتيحها وكلّها مسلّمةٌ إلى حكمه وجريانها بمشيئه، وعلى قول اللّيث فلفظ الخزائن استعارة في موادّها واستعداداتها، ووجه الاستعارة أنّ تلك الموادّ والاستعدادات يكون فيها بالقوّة والفعل جميع المحدثات من الأرزاق وغيرها كما تكون في الخزائن ما يحتاج إليه، انتهى.

وهو تحقيق نفيس إلاّ أنّ الأظهر أن المقاليد إن جعلت بمعنى المفاتيح يكون كلامه من باب الاستعارة بالكناية، حيث شبّه السّماوات والأرضون بخزائن الملك بجامع أن فيها ما يحتاج إليه الخلق كما يكون في الخزائن ما يحتاج إليه، ويكون ذكر مقاليدها تخييلاً، وذكر القذف ترشيحاً، وفي نسبة القذف إليها نكتة خفيّة وهي الإشارة إلى أنها لتمكينها التام لبارئها فكأنّها باختيارها ألقت وسلّمتا مفاتيحها إليه سبحانه، وعلى هذا فالمقاليد بمعناها الأصلي وليس استعارة كما زعمه الشارح.

وأمّا إن جعلت بمعنى الخزائن فهو كما قال الشّارح استعارة لما فيه من المواد والاستعدادات، فافهم جيّداً.

(وسجدت له بالغدو والآصال الأشجار النّاضرة) أراد به خضوع التكوين وذلّ الإمكان كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

(وقدحت له من قضبانها النّيران المضيئة) نسبة القدح إلى الأشجار من باب التوسّع والمجاز العقلي، لكون الأشجار سبباً مادياً، والمراد أن تلك الأشجار أورت النّار واستخرجتها من أمر الله سبحانه واقتضاء مشيّئته، وفيه إشارة إلى كمال القدرة لأنّ إخراج النّار من الشّجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب كما قال تعالى في سورة يس: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وفي سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧١ ـ ٧٤].

قال الفخر الرّازي: في شجرة النار وجوه:

أحدها: أنها الشّجرة التي تورى النّار منها بالرند والزّندة كالمرخ.

وثانيها: الشجرة الّتي تصلح لإيقاد النّار فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار لأنّ النّار لا تتعلّق بكل شيء كما تتعلق بالحطب.

وثالثها: أصول شعلها ووقود شجرتها، ولولا كونها ذات شعل ما صلحت لإنضاج الأشياء، وفي ذلك تذكرة ومتاع للمقوين، أي للّذين يوقدونه فيقوونه ويزيدونه.

(وآتت أكلها بكلماته الثّمار اليانعة): النّاضجة، والمراد بكلماته قدرته ومشيئته المعبّر عنهما بلفظ كن، قال الشّارح البحراني: واطلاق الكلمات عليها استعارة وجهها نفوذ تلك الأحكام في المحكومات كنفوذ الأوامر القوليّة في المأمورات وأراد بإيتاء الثّمار دخولها طوعاً في الوجود المعبّر عنه بقوله تعالى فيكون.

الفصل الثاني منها

في ذكر كتاب الله وتعظيمه تنبيهاً على وجوب متابعته وهو قوله:

(وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيا لسانه) المراد بكتاب الله إما معناه الحقيقي أعني القرآن فيكون ناطق استعارة تبعيّة لأنّ من شأن الكتاب الدلالة لا النّطق إلاّ أنه شبّه به في إيضاح المعنى وإيصاله إلى الذّهن فاستعير له لفظ النّطق، ويجوز أن يكون مجازاً مرسلاً باعتبار أنّ الدلالة لازم للنطق فذكر الملزوم وأريد اللازم، وعلى هذا فيكون قوله: **(لا يعيا لسانه)**، ترشيحاً للاستعارة.

والمقصود أن كتاب الله الكريم بينكم لم يرتفع عنكم، وهو كلام ربّكم ناطق بالسّداد، كاشف عن المراد، هاد إلى الرّشاد، لا يعجز لسانه، ولا يقصر بيانه يؤدي مطوّي الكلمات إلى مقتبسيه على مرور الأوقات، كيف لا وهو معجز النّبوّة، ومستند الأمّة، وقد أخرس الفصحاء عن مجازاته، وقيّد البلغاء بالعيّ عن مباراته، وعاد سحبان بيانهم باقلاً، وتناصروا فلم يجدوا إلاّ خاذلاً، وتعاهدوا وتقاعدوا فعدموا معيناً ونصيراً، وعادوا بالخيبة والخذلان فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ومع ذلك كلّه كيف تجهلون برتبته ومقامه، وترغبون عن حدوده وأحكامها وتخالفونه في حلاله وحرامه.

ويجوز أن يكون استعارة لنفسه الشريف، فيكون من باب الاستعارة المجردة حيث قرن بما يلائم المستعار له وهو ناطق لا يعيا لسانه، وعلى هذا فالنطق واللسان مستعملان في معناهما الحقيقي.

ويحتمل أن يكون لا يعيا لسانه كناية عن عدم قصوره في البيان وتبليغ الأحكام.

قوله **(وبيت لا تهدم أركانه)** تشبيه كتاب الله بالبيت الوثيق غير الهادم أركانه سواء أريد به معناه الحقيقي أو المجازي باعتبار أن البيت كما أنه يحفظ أهله فكذلك الكتاب الكريم يحفظ

العامل بما فيه، وهكذا أمير المؤمنين عليه السلام يحفظ من يأوي إليه ويذعن بولايته في الدّنيا والآخرة من العذاب الأليم والسخط العظيم وقوله: لا تهدم أركانه، ترشيح للتشبيه إن جعلنا كلامه من باب التشبيه البليغ كما عليه المحقّقون، وإن جعلناه استعارة فيكون ذلك ترشيحاً للاستعارة وفي وصف البيت بذلك إشارة إلى استحكام قواعد كتاب الله وبراهينه النّاطقة.

وأمّا قوله **(وعز لا تهزم أعوانه)** فهو ليس على حذو ما سبق وإنّما أطلق عليه العزّ لكونه سبباً للعز الأبدي الدّائم، والمراد بأعوانه هو الله سبحانه الحافظ له كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وكذلك الملائكة والرّسول صلى الله عليه وآله، فهم أيضاً حافظون له ذابّين عنه.

والفصل الثالث منها

في وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قوله **(أرسل على حين فترة من الرّسل)** أي في زمان فتور منهم وانقطاع الوحي عنهم واندراس معالم دينهم على ما تقدّم تفصيلاً في شرح الفصل السّادس عشر من فصول الخطبة الأولى، وفي شرح الخطبة الثامنة والثمانين أيضاً. **(تنازع من الألسن)** أي تشتت الآراء والأهواء الموجب لاختلاف الكلمات، فإنّ النّاس في الجاهلية كان قوم منهم يعبدون الأصنام، وقوم يعبدون الشيطان، وطائفة تعبد الشّمس، وطائفة تعبد المسيح عليه السلام على ما عرفت تفصيلاً في شرح الفصل السّادس عشر من فصول الخطبة الأولى، فكانت كلّ طائفة تحتج على مخالفيها وتجادلهم وتنازعهم بألسنتهم لتصرفهم إلى مذهبهم.

(فقفى به الرّسل) واتبعهم به **(وختم به الوحي)** والرسالة **(فجاهد في الله)** سبحانه بالقول والعمل **(المدبرين عنه والعادلين به)** أي الجاعلين له سبحانه عديلاً ونظيراً.

الترجمة

از جمله خطبه های آن امام زمان و سرور عالمیان است که فرموده:

و گردن نهاد او را دنیا و آخرت به افسارهای خود و انداخت به سوی او آسمان ها و زمین ها کلیدها یا خزینه های خود را و سجده نمود مراورا در هنگام صبح و عصر درختهای با طراوت و نضارت و بیرون آورد به جهت حکم او از شاخ های خود آتش های روشن و ببخشید خوردنی خود را به حکم کلمات تامّه او میوه های رسیده.

از جمله آن خطبه این است که فرموده:

و کتاب خداوند تبارك و تعالی در میان شما است، گوینده ای است که عاجز نمی شود زبان او و خانه ای است که خراب نمی شود ارکان او و عزّتی است که مغلوب نمی شود یاری کنندگان او.

و بعضی از آن خطبه این است که فرمود:

فرستاد پیغمبر را در زمان سستی از پیغمبران و هنگام اختلاف زبان ها، پس آورد او را از عقب پیغمبران و ختم کرد با او وحی را، پس جهاد نمود خاتم انبیاء در راه خدا با کسانی که روگردان بودند از پروردگار و مثل و شبیه قرار داده بودند خدای را.

الفصل الثاني منها

وَإِنَّمَا الدُّنْيا مُنْتَهىٰ بَصَرِ الأَعْمَىٰ لاَ يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَها شَيْئاً، وَالبَصيرُ يَنْفُذُها بَصرُه، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدّارَ وَراءَها، فَالْبَصيرُ مِنْهَا شاخِصٌ، وَالأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شاخِصٌ، وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالأَعْمَىٰ لَها مُتَزَوِّدٌ.

منها: وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يَكادُ صاحِبُهُ أَنْ يَشْبَعَ مِنْهُ أَو يَمَلَّهُ إِلاَّ الْحَياةَ فَإِنَّهُ لاَ يَجِدُ لَهُ فِي الْموتِ راحَةً، وَإِنَّما ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَياةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وسَمْعٌ للأُذُنِ الصَّماءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمآنِ، وفيهَا الْغِنىٰ كُلُّهُ، وَالسَّلاَمَةُ، كِتابُ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وتَنْطِقُونَ بِهِ، وتَسْمَعُونَ بِهِ، ويَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، ويَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ، وَلاَ يُخالِفُ لِصاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ، قَدْ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فيما بَيْنَكُمْ، ونَبَتَ الْمَرْعَىٰ على دِمَنِكُمْ، وتَصافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الآمَالِ، وتعادَيْتُمْ في كَسْبِ الأَمْوالِ، لَقَدْ اسْتَهامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وتاهَ بِكُمُ الْغَرُورُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وأَنْفُسِكُمْ[١].

اللغة

(شخص) يشخص من باب منع شخوصاً خرج من موضع إلى غيره، ويتعدى بالهمزة فيقول أشخصته وشخص شخوصاً أيضاً ارتفع، وشخص البصر إذا ارتفع ويتعدّى بنفسه فيقال: شخص الرّجل بصره إذا فتح عينيه لا يطرف، وربّما يعدى بالباء فيقال: شخص الرّجل ببصره فهو شاخص وأبصار شاخصة وشواخص و**(مللت)** من الشيء ملاً من باب تعب وملالة سئمت وضجرت وهو ملول و**(الدّمن)** بالكسر ما يتلبد من السّرجين، والدّمنة موضعه والدّمنة آثار الدّار والنّاس وما سوّدوه، والحقد القديم وجمع الكلّ دمن كسدر ودمن كعدد **(الغرور)** بالفتح الشّيطان.

الإعراب

(اللام) في قوله: **(الدّار)**، وستعرف وجهه، وقوله: **(ويكاد صاحبه أن يشبع)**، الغالب في خبر **(كاد)** أن لا يقترن **(بأن)** كما في قوله تعالى: **(وما كادوا يفعلون)**، وهكذا في غير واحد من نسخ المتن، واقترانه بها قليل ومنه قول الشاعر يرثى ميتاً:

كادت النفس أن تفيض عليه ... إذ غدا بين ريطة وبرود

(١) بحار الأنوار: ٨٩/ ٢٣، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٣٣٤.

ومثل **(كاد)** في هذا الحكم كرب فيقلّ اقتران خبره **(بأن)** وعدّله علماء الأدبيّة بأنّهما يدلاّن على شدة مقارنة الفعل ومداومته وذلك يقرب من الشروع في الفعل والأخذ فيه فلم يناسب خبرهما أن يقترن غالباً بأن المشعرة بالاستقبال، ولذلك لا تقول كاد زيد يحجّ إلاّ وقد أشرف عليه ولا تقول ذلك وهو في بلده، وقوله: **(استهام بكم الخبيث)**، **(الباء)** للتّعدية أي جعلكم هائمين كما تقول في استنفرت القوم إلى الحرب استنفرت لهم أي جعلتهم نافرين، ويحتمل أن تكون بمعنى (من)، أي طلب منكم أن تهيموا.

المعنى

اعلم أنّ الغرض بهذا الفصل التنفير عن الدّنيا وتوبيخ من قصر نظره إليها، وذيله بالموعظة الحسنة والنصيحة.

فقوله: **(وإنّما الدّنيا منتهى بصر الأعمى)** استعار لفظ الأعمى للجاهل والجامع قصور الجاهل عن إدراك الحق كقصور عادم البصر عن إدراك المبصرات ومثله قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ الإسراء: ٧٢]، ورشح الاستعارة بقوله **(لا يبصر ممّا وراءها شيئاً)** لأنّ ذلك وصف المستعار له أعني الجاهل، وأمّا المستعار منه أعني عادم البصر فهو لا يبصر أصلاً وهو تذييل وتوضيح وتفسير لكون الدّنيا منتهى بصره، والمقصود أنّ الجاهل لكون همّته مصروفة معطوفة إلى الدّنيا مقصور نظره إليها غافل عما عداها غير ملتفت إلى أنّ وراءها الآخرة وهي أولى بأن تصرف إليه الهمم بما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين من مزيد العوائد والفوائد والنّعم.

(والبصير ينفذها بصره) أي العارف العالم ينفذ بصره من الدّنيا **(ويعلم أنّ الدّار وراءها)** يعني يعرف أنّ الدّار الحقيقي أي دار القرار وراءها فيبلغ جهده في الوصول إليها **(فالبصير)** النافذ البصر **(منها شاخص)** راحل لأنّه بعدما عرف أن الدّار وراءها لا يقف دونها بل يجعلها بمنزله طريق سالك به إلى وطنه ومكانه **(والأعمى إليها شاخص)** ناظر لأنّه بعدما لم يعرف ورائها شيئاً يزعم أنّ هذه هي الدّار، وأنّ له فيها القرار، فيقصر نظره إليها.

ولا يخفى ما في هذه القرينة مع سابقتها من الجناس التّام والمطابقة بين الأعمى والبصير، ومثلهما في المطابقة قوله: **(والبصير منها متزوّد والأعمى لها متزوّد)** يعني أنّ البصير يتزوّد منها من الأعمال الصّالحة والتّقوى ما يوصله إلى مقرّه ومقامه، والأعمى لتوهمه أن وطنه ومسكنه هي الدّنيا وأنّ مقرّه تلك الدّار وليس له وراءها دار فيتزوّد لها ويتخذ من زبرجها وزخارفها وقيناتها ما يلتذ ويتعيّش به فيها.

ولهذا المعنى أي لأجل اختلاف النّاس بالمعرفة والجهالة وافتراقهم بالعمى والبصيرة اختلفت الآراء والأهواء، فبعضهم وهم أهل الدّنيا والرّاكنون إليها يحبّ الحياة ويغتنمها

وينهمك في الشّهوات، وينتهز الفرصة في طلب العيش واللّذات، فيرجّح الحياة على الممات ويمدحها كما قال الشّاعر:

أوفى يصفّق بالجناح مغلساً ويصيح من طرب إلى ندمان
يا طيب لذة هذه دنياكم لو أنّها بقيت على الإنسان

والبعض الآخر وهم أهل الآخرة العارفون بأنّ الدّنيا دار الفناء وأنّ الدّار وراءها يرجّح الموت على الحياة ويتشوق إليه كما قال:

جزى الله عنّا الموت خيراً فإنّه أبرّ بنا من كلّ برّ وأرأف
يعجّل تخليص النّفوس من الأذى ويدني من الدّار الّتي هي أشرف

وقال آخر:

من كان يرجو أن يعيش فإنّني أصبحت أرجو أن أموت لأعتقا
في الموت ألف فضيلة لو أنّها عرفت لكان سبيله أن يعشقا

فإن قلت: إذا كان هوى أهل الآخرة ورغبتهم على ما ذكرت في الموت، فكيف التّوفيق بينه وبين قوله عليه السلام: **(واعلموا أنّه ليس من شيء إلاّ ويكاد صاحبه أن يشبع منه ويملّه إلاّ الحياة فإنّه لا يجد له في الموت راحة)** فإنّ ظاهر هذا الكلام يفيد أن اللّذات كلّها لعموم النّاس مملول منها إلاّ الحياة معلّلاً بأنّه لا استراحة في الممات؟

قلت: ظاهر هذا الكلام وإن كان يعطي العموم وكراهية الموت للكلّ إلاّ أنّه يحمل على الخصوص أعني كراهيّته لأهل الشقاوة جمعاً بينه وبين الأخبار الدّالة على محبوبيّته لأولياء الله سبحانه كقوله صلى الله عليه وآله: ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله[1].

وربّما يوجّه بعد إبقائه على العموم تارة بأنّ الموت يفوت متجر الآخرة وينقطع به الاستعداد لكمال أشرف مما حصل عليه الميت وإن كان وليّاً، فلا جرم لا يجد الرّاحة التي تلحقه بما يفوته من ذلك الكمال، وأخرى بأنّ النفوس البشريّة لما لم تكن معارفها ضروريّة ولم يتمكن ما دامت في هذه الأبدان من الإطلاع على ما بعد الموت من سعادة أو شقاوة، فبالحري أن لا تجد لها راحة يتصورها في الموت.

أقول: وأنت خبير بما فيه، فإنّ عدم التمكن من الاطلاع على ما بعد الموت إنّما هو للمحجوبين دون العارفين من الأنبياء والمرسلين، وأولياء الله المتّقين، فإنهم من سعادتهم على ثقة ويقين، ألا ترى إلى قول عليّ المرتضى سلام الله عليه تترى: لو كشف الغطاء ما ازددت

(١) عوالي اللئالي: ١/٢٧٦ ح ١٠٢، وكشف الخفاء: ٢/١٧٢ ح ٢١٥٤.

يقيناً[١].

والأوجه ما قاله الشّارح البحراني (ره) حيث قال: إن كان مراده عليه السلام: بقوله: **(لا يجد في الموت راحة)**، أي في نفس الموت مع قطع النّظر عن غيره من أحوال الآخرة، فالحقّ مع قول من عمّم فقدان الرّاحة في حق الجميع، إذ الموت من حيث هو موت لا راحة فيه لأحد من النّاس كافّة، وإن كان مراده فقدان الرّاحة في الموت وما بعده، فالحق التخصيص بأهل الشّقاوة الدّائمة، فإنّ شدّة محبّة الحياة ونقصانها متفاوتة بحسب تصوّر زيادة الرّاحة في الآخرة ونقصانها، وذلك ظاهر عند اعتبار أهل الدّنيا المقبلين عليها بالكليّة.

ثمّ قال عليه السلام **(وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة)** اختلف الشّارحان المعتزلي والبحراني في المشار إليه بذلك.

فقال الأوّل: إنّ هذا الكلام له عليه السلام إلى قوله **(والسّلامة فصل آخر غير ملتئم بما قبله)**، وإنّ الإشارة بذلك إلى كلام من كلام الرسول صلى الله عليه وآله رواه لهم وحضّهم على التمسّك به والانتفاع بمواعظه، ثمّ قال: والحكمة المشبه كلام الرسول بها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال الثّاني: قوله عليه السلام: وإنّما ذلك، أي الأمر الذي هو أحقّ بأن لا يمل ولا يشبع منه، بمنزلة الحكمة أي ما كان بمنزلة الحكمة.

أقول: أمّا قول الأول فهو رجم بالغيب وتأويل من غير دليل، لعدم ثبوت التّقطيع والالتقاط بعد في هذه الفقرة وفي الفقرات الآتية كما زعمه، وعلى تقدير ثبوته فلا يتعين أن تكون الإشارة به إلى كلام رواه من الرّسول بل يحتمل أن يكون إشارة إلى ما وعظهم به ونصحهم من كلام نفسه.

وأمّا قول الثّاني ففيه من التّعسف والخبط ما لا يخفى، لعدم ارتباط هذا الكلام على ما ذكره بما تقدّمه من الكلام من حيث المعنى، مضافاً إلى منافرته بل منافاته للقواعد الأدبيّة والأصول العربيّة كما هو غير خفيّ على ذوي الأذهان المستقيمة، وكيف كان فما قيل أو يمكن أن يقال في هذا المقام فإنّما هو تخمين وحسبان لا يمكن أن يوجّه به كلام الإمام حتّى يقوم عليه دليل بيّن.

ثم الحكمة عبارة عن معرفة الصّانع سبحانه والعلم النافع في الآخرة ويأتي مزيد بيانها في شرح الفصل الثّالث من المختار المائة والأحد والثّمانين إن شاء الله تعالى.

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٢٠٢، ونهج الإيمان: ٢٦٩.

وللإشارة إلى التفخيم والتعظيم أتبعه بقوله **(التي هي حياة للقلب الميت)** القلب الميت هو القلب الجاهل القاصر عن إدراك وجوه المصالح وحياته عبارة عن اهتدائه إلى ما فيه صلاحه ورشده، وجعل الحكمة حياة له لكونها سبباً للاهتداء، فأطلق عليها لفظ الحياة مبالغة.

(و) قوله **(بصر للعين العمياء)** من باب التشبيه البليغ يعني أنها بمنزلة حسّ البصر لها، وذلك لأنّ العين المتّصفة بالعمى كما أنّها عاجزة عن إدراك الألوان والأضواء، فإذا كانت لها الأبصار وارتفع عنها العمى تمكّنت من إدراكها، فكذلك الحكمة للجاهل تحصل له بها البصيرة، فتمكّن بها وتقدر على إدراك المآرب الحقّة.

وكذلك قوله **(وسمع للأذن الصماء)** فإنّ الصّم مانع عن إدراك الأذن وبارتفاعه عنها وحصول حسّ السّمع لها تقدر على إدراك الأصوات والأقوال، وكذلك بارتفاع الجهالة عن الجاهل وحصول الحكمة والبصيرة له يقدر على الإطلاع على ما هو خير في المآل.

وأمّا قوله **(وريّ للظّمآن)** فيحتمل أن يكون من باب التّشبيه البليغ كسابقيه، بأن يراد بالظّمآن معناه الحقيقي ووجه الشبه أنّ العطشان كما يؤلمه داء العطش وبإرتوائه بالماء يرتفع عنه تلك الدّاء، فكذلك الجاهل يؤذيه داء الجهالة وبحصول الحكمة له يرتفع عنه هذا الدّاء.

ويحتمل أن يكون من باب الاستعارة بأن يستعار لفظ الظّمآن للجاهل والجامع ما سبق من أنّ كلاً منهما له داء يتأذّى به ويحتاج إلى علاجه إلاّ أن ما للأوّل وجداني، وما للثّاني عقلانيّ، وعلى هذا الوجه فيكون ذكر الرّي ترشيحاً.

وقوله: **(وفيها الغنى كلّه والسّلامة)** أما أنّ فيها الغنى فلأنّ من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وبها يوصل إلى الحق المتعال، ويسبح في بحار معرفة ذي الجلال، وفي ذلك غنى العارفين عمّا سواه سبحانه من العالمين، وهو تعالى غاية مراد المريدين، ومنتهى رغبة الرّاغبين، وكنز المساكين.

وأمّا أنّ فيها السّلامة فلأنّ بها يسلم من داء الجهل في الدّنيا، وينجي من سخط الجبار وعذاب النّار في الأخرى.

وأمّا قوله **(كتاب الله)** فيحتمل أن يكون كلاماً منفصلاً عمّا قبله أسقط السّيد (ره) ما بينهما فارتفع الارتباط بالتّقطيع والالتقاط، أو أنّه خبر لمبتدأ محذوف أي هذا كتاب الله ويظهر من الشّارح البحراني الاتّصال حيث قال: كتاب الله خبر مبتدأ إمّا خبر ثان لذلك وما كان بمنزلة الحكمة خبر أوّل، أو لمبتدأ محذوف تقديره: وهو كتاب الله ويحتمل أن يكون عطف بيان لما كان بمنزلة الحكمة.

أقول: لم يتقدّم في كلامه عليه السلام لفظ ما كان بمنزلة الحكمة حتّى يجعل خبراً أوّلاً أو معطوفاً عليه للكتاب، وإنّما قال عليه السلام: وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة.

فإن قلت: لعلّه مقدّر في ضمن الكلام.

قلت: لا دليل على تقديره، مع أنا لم نر بياناً حذف مبيّنه.

وكيف كان فقد وصف الكتاب بأوصاف.

الأول: أنكم (**تبصرون به**) لكونه سبباً لإبصار طريق الحقّ بما فيه من الآيات البيّنات وأدلة الصّدق.

(و) **الثاني**: أنكم (**تنطقون به**) في مقام الاحتجاج وترفعون من المعاندين الشبّه واللّجاج كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

(و) **الثالث**: أنّكم (**تسمعون به**) الخطابات الإلهية والتّكاليف الشّرعيّة تطيعونها وتؤمنون بها وتصلون إلى المراتب العالية العلية ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٢ ـ ٤].

(و) **الرّابع**: أنّه (**ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض**) أي يفسّر بعضه بعضاً ويكشف بعضه عن بعض ويستشهد ببعضه على بعض فإنّ فيه مطلقاً ومقيّداً ومجملاً ومبيّناً وعامّاً وخاصّاً ومحكماً ومتشابهاً، بعضها يكشف القناع عن بعض ويستشهد ببعضها على المراد ببعض آخر.

(و) **الخامس**: أنّه (**لا يختلف في الله**) قال الشّارح البحراني: لما كان مدار الكتاب على بيان القواعد الكليّة الّتي بها يكون صلاح نوع الإنسان في معاشه ومعاده، وكانت غاية ذلك الجذب إلى الله سبحانه والوصول إلى جواره، لم يكن فيه لفظ يختلف في الدّلالة على هذه المقاصد، بل كلّه متطابقُ الألفاظ على مقصود واحد، وهو الوصول إلى الحقّ سبحانه بصفة الطهارة عن نجاسة هذه الدّار وإن تعدّدت الأسباب الموصلة إلى ذلك المقصود، انتهى.

ومحصّله أنّه لا يختلف في الدّلالة على المقاصد الموصلة إلى الله سبحانه والأظهر أنّ المراد به أنّه لا يختلف في الجذب إلى الله، لأنّه معجز النّبوة المقصود بها الإيصال إلى الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، أي لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه كما في «**الكشّاف**»، فكان بعضه بالغاً حدّ الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته، وبعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على

معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم، فلمّا تجارب كلّه بلاغة معجزة فائتة[١] لقوى البلغاء وتناصر صحّة معان وصدق أخبار علم أنّها ليس إلاّ من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره، وعالم بما لا يعلمه أحد سواه.

السّادس: أنّه **(ولا يخالف بصاحبه عن الله)** أي لا يسده عنه سبحانه ولا يضله عن سبيله فإنّه يهدي للتي هي أقوم، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم.

قال الشارح المعتزلي إنّ هذا الكلام فصل آخر مقطوع عما قبله ومتصل بما لم يذكره **«جامع نهج البلاغة»**، وكذلك قال في قوله: **(قد اصطلحتم على الغلّ فيما بينكم)** أنّه إلى آخر الفصل كلام مقطوع أيضاً.

أقول: إن ثبت التقطيع فهو وإلا فجهة ارتباط هذا الكلام بما قبله هو أنّه لما وصف كتاب الله سبحانه بأوصاف الكمال تنبيهاً على وجوب اتباعه والاعتصام به للإشارة إلى الحقّ وهدايته إلى مكارم الأخلاق، أردفه بتوبيخ السّامعين وتقريعهم على ارتكاب رذائل الأخلاق واتّباع الشيطان، والمراد أنّكم اتفقتم على الحقد والحسد بحيث لم ينكره منكم أحد.

(ونبت المرعى على دمنكم) يحتمل أن يكون المراد بالدّمن الحسد فيكون قوله: نبت المرعى جارياً مجرى المثل إشارة إلى طول الزّمان أي طال حقدكم وحسدكم ودام حتّى صار بمنزلة الأرض الجامدة التي ينبت عليها النّبات، ويجوز أن يكون المراد بها المزابل ومواضع البعرة فاستعير للقلوب باكتنافها بالخباثة الباطنيّة وتضمّنها الضغائن والأحقاد كما يكتنف المزابل بالكثافات والخباثات الظاهرة فيكون قوله: نبت المرعى، أيضاً مثلاً لأنّ المقصود به الإشارة إلى عدم الانتفاع بذلك المرعى لأنّه لا وقع له ولا يرغب إليه كما قال رسول الله ﷺ: إيّاكم وخضراء الدّمن[٢].

وقال الشّارح البحراني: قوله: **(نبت المرعى) (آه)**، يضرب مثلاً للمتصالحين في الظاهر مع غلّ القلوب فيما بينهم، ووجه مطابقة الممثّل أنّ ذلك الصّلح سريع الزّوال لا أصل له كما يسرع جفاف النّبات في الدّمن، والأظهر ما قلناه.

(وتصافيتم على حبّ الآمال) أي كنتم في مقام الصّفا ظاهراً على محبّة ما يأمل ويرجو كلّ منكم من صاحبه من جلب نفع أو دفع ضر **(وتعاديتم في كسب الأموال)** لأنّ عمدة الخصومات والعداوات إنّما تكون في مال الدّنيا ومتاعها فكل من أهلها يجذبه إلى نفسه ويضنّ به على غيره.

---

(١) في نسخة: فائقة.

(٢) الكافي: ٥/ ٣٣٢ ح ٤، ووسائل الشيعة: ٢٠/ ٣٥.

(لقد استهام بكم الخبيث) أي طلب منكم أن تهيموا وتتحيّروا أو جعلكم هائمين متحيرين أو اشتد عشقه ومحبّته لكم **(وتاه بكم الغرور)** أي أضلّكم الشّيطان اللّعين وجعلكم تائهين ضالّين **(والله المستعان)** في كل حال **(على نفسي وأنفسكم)** من سوء الأعمال.

الترجمة

بعضى ديگر از آن خطبه است كه فرمود:

و به درستى دنيا منتهاى نظر جاهل است، نمى بيند چيزى را كه از پس دنيا است و شخص بابصيرت مى گذرد از دنيا نظر او و مى داند سراى حقيقى در پس اين دار فنا است، پس صاحب بصيرت رحلت كننده است از دنيا و بى بصيرت نظرش مصروف به دنيا است و عاقل توشه گيرنده است از دنيا و جاهل توشه گيرنده است از براى دنيا.

و بدانيد كه نيست هيچ چيزى مگر اين كه صاحب آن نزديك است كه سير شود از آن و ملال آورد از او مگر زندگانى دنيا به جهت آن كه نمى يابد از براى خود در مرگ آسايشى و جز اين نيست كه آن به منزله حكمت است، چنان حكمتى كه آن زندگى قلب مرده است و بينايى چشم كور و شنوايى گوش كر و سيرابى تشنگان است و در او است بى نيازى تمام و سلامتى از اسقام.

او كتاب پروردگار است كه مى بينيد با او و گويا مى شويد و مى شنويد به او و ناطق و مصدق است بعضى از او به بعضى و اختلاف ندارد در جذب نمودن خلق به سوى خدا و خلاف نمى كند با صاحب خود از خدا و به ضلالت نمى اندازد او را. به تحقيق كه متفق شده ايد بر حقد و حسد كه در مابين شما است و رسته است گياه بر روى حسد شما و باصفا مى باشد در محبت اميدهايى كه از يكديگر داريد و با عداوت مى باشد در كسب نمودن مال ها. به تحقيق كه شما را متحيّر كرده است ابليس خبيث و به ضلالت افكنده است شما را شيطان لعين و خداوند تعالى يارى خواسته شده است از او بر نفس من و بر نفس هاى شما در جميع كارها.

ومن كلام له عليه السلام وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه وهو المائة والرابع والثلاثون من المختار في باب الخطب

وَقَدْ تَوَكَّلَ اللّهُ لأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإعْزَازِ الحَوْزَةِ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ والَّذي نَصَرَهُمْ وَهُمْ قَليلٌ لاَ يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَليلٌ لا يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لاَ يَمُوتُ إِنَّكَ مَتَىٰ تَسِرْ إِلَىٰ هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ بِشَخْصِكَ فَتَنكَبْ لاَ تَكُنْ لِلمُسْلِمينَ كانِفَةٌ دُونَ أَقْصى بِلاَدِهِمْ وَلَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجَعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرباً، وَأَحْفِزْ مَعَهُ أَهل الْبَلاَءِ وَالنَّصيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللّهُ فَذَاكَ ما تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَىٰ كُنْتَ رِدْءاً لِلنّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسلِمينَ[١].

اللغة

قوله (**وقد توكّل الله**) وعن بعض النسخ بدله كفل الله أي صار كفيلاً و(**الحوزة**) النّاحية وحوزة الإسلام حدوده ونواحيه و(**كانفة**) أي عاصمة حافظة من كنفه أي حفظه وآواه، ويروى كهفة بدل كانفة وهي ما يلجأ إليه و(**المحرب**) بكسر الأوّل وسكون الثاني وفتح الثّالث صاحب الحرب وفي بعض النسخ مجرّباً بضم الأوّل والجيم المعجمة وفتح الراءِ المشدّدة و(**الرّدء**) العون قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤].

الإعراب

(**الذي نصرهم**) مبتدأ وخبره (**حيّ**)، وجملة (**وهم قليل**) (آه) حاليّة معترضة بين المبتدأ الخبر، (**وتنكب**) بالجزم معطوف على (**تسر**)، (**والفاء**) في قوله: (**فابعث**)، فصيحة، والباقي واضح.

المعنى

اعلم أنّ هذا الكلام قاله عليه السلام لعمر بن الخطّاب كما أشار إليه السّيد (ره) إرشاداً له إلى وجه المصلحة وتعليماً له ما فيه صلاح الأمّة، وكان ذلك في غزاة فلسطين التي فتح فيها بيت المقدس فأراد عمر أن يشخص بنفسه لما طالت الحرب على المسلمين وضاق الأمر عليهم وكتبوا إليه: إن لم تحضر بنفسك لم يفتح علينا فاستشار أمير المؤمنين عليه السلام في الشخوص إلى

(١) بحار الأنوار: ١٣٦/٢١، وشرح مئة كلمة: ٢٣١.

العدو فلم يره صلاحاً لما فيه من الخوف على بيضة الإسلام بالنّكتة التي أشار إليها في ضمن هذا الكلام بعد تقديم مقدّمة مهّدها بقوله عليه السلام.

(وقد توكّل الله لأهل هذا الدّين) أي صار وكيلاً لهم قائماً عليهم **(باعزاز الحوزة)** والبيضة والجمعيّة **(وستر العورة)** وممّا لا ينبغي اطّلاع العدو عليه من الفضائح والقبائح **(والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون حيّ لا يموت)** لا يخفى ما هذه الجملة من حسن الخطابة حيث أورد المسند إليه موصولاً لزيادة التّقرير أعني تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو الحثّ على التوكيل على الله والاعتماد عليه ومزيد الثقة به ثم أكد ذلك المعنى بالجملة الحاليّة وبإتيان المسند بما يجري مجرى المثل السّائر والمراد أنّ من نصرهم في حال قلّتهم وعدم تمكّنهم من انتقام الأعداء ومنعهم في حال ضعفهم وعدم قدرتهم على الامتناع من سيف المعاندين حيّ لا يموت فهو أولى في حال كثرتهم بالحفظ والحماية والاعزاز والنصرة.

ثمّ أشار إلى وجه المصلحة والنّكتة في المنع عن الخروج فقال **(إنّك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم)** يعني أنّ الجهاد على وجهين فيمكن إدالة الكفّار من المسلمين ويمكن إدالة المسلمين من الكفار فلو خرجت بنفسك ولاقيت العدوّ وأصابتك النكبة لم تبق للمسلمين جهة عاصمة يعتصمون بها ولا ملجأ يستندون إليه **(وليس بعدك مرجع يرجعون إليه)** وفي ذلك خوف على بيضة الإسلام.

ثمّ أشار إلى ما هو الأصلح وأقرب إلى الحزم بقوله: **(فابعث إليهم)** أي إلى الأعداء **(رجلاً محرباً)** أي ذا خبرة وبصيرة بالحروب أو رجلاً جرّب بكثرة الوقائع والحروب وحصل الوثوق والاعتماد عليه **(واحفز)** أي ادفع معه **(أهل)** النّجدة و**(البلاء والنّصيحة)** أي المختبرين المجربين بالنّصح **(فإن أظهرك)** **(الله)** ونصرك **(فذاك ما تحبّ وإن تكن الأخرى)** أي النّكبة والانكسار **(كنت ردءاً للناس)** وعوناً لهم **(ومثابة)** أي مرجعاً **(للمسلمين)** ومأمناً يأوون إليه.

الترجمة

از جمله آن امام انام است در آن حال که مشورت نمود به او عمربن خطّاب در باب بیرون رفتن به سوی غزوه روم به نفس خود، پس فرمود آن بزرگوار:

به تحقیق که وکیل شده است خدای تبارك و تعالی از برای اهل این دین با عزیز نمودن و غالب گردانیدن ناحیه مسلمین و پوشانیدن عورت مؤمنین و آن پروردگاری که یاری کرد مسلمانان را در آن حال که اندك بودند و قدرت نداشتند بر انتقام و حفظ نمود ایشان را در حالتی که اندك بودند و تمکّن نداشتند از دفع دشمنان از خودشان، زنده ای است که هرگز نمی میرد. به درستی که هرگاه روانه شوی تو به سوی این دشمن به نفس خود، پس برسی به ایشان و مصیبتی به تو وارد بیاید و مغلوب شوی. نمی باشد از برای مسلمانان پناهی نزد منتهای ولایت های ایشان و نباشد بعد از تو مرجعی که بازگشت نمایند به سوی او، پس برانگیزان به سوی دشمنان مردی جنگ دیده کاردان و دفع کن به او اهل آزمایش و نصیحت را، پس اگر غالب گرداند تو را خداوند تعالی، پس این است آن چیزی که می خواهید و اگر باشد امر به طور دیگر باشی تو یاور و مدد مردمان و مرجع و پناه برای مسلمانان و پناهگاه ایشان.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والخامس والثلاثون من المختار في باب الخطب

ورواه الشّارح المعتزلي باختلاف يسير تطلع عليه.

قال السيد (ره) وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان، فقال المغيرة بن الأخنس أنا أكفيكه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة:

يَا ابْنَ اللَّعِينِ الأَبْتَرِ وَالشَّجَرَةِ الَّتي لا أَصْلَ لَها وَلاَ فَرْعَ أَنْتَ تَكْفيني فَوَاللَّهِ ما أَعزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ ناصِرُهُ، وَلاَ قَامَ مَنْ أَنتَ مُنهِضُهُ، اخْرُجْ عَنا أَبْعَدَ اللَّهُ نَواكَ، ثُمّ ابْلُغْ جَهْدَكَ فَلاَ أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ[1].

اللغة

(**الأبتر**) المنقطع عن الخير وقيل الأبتر الذي لا عقب له ومنه الحمار الأبتر الذي لا ذنب له، قوله: (**ولا قام**) في بعض النسخ ولا أقام بالهمزة و(**النوى**) القصد الّذي ينويه المسافر من قرب أو بعد هكذا في شرح البحراني، وقال الطريحي: النّوى بالفتح البعد ومنه حديث علي للمغيرة بن الأخنس أبعد الله نواك من قولهم بعدت نواهم إذا بعدوا بعداً شديداً، وفي بعض النسخ أبعد الله نوأك بفتح النّون وسكون الواو وبعدها همزة وهو النّجم وجمعه أنواء وهي النّجوم الّتي كانت العرب تنسب إليها وكانوا إذا دعوا على إنسان قالوا أبعد الله نوأك، أي خيرك.

قال أبو عبيدة في محكي كلامه: هي أي الأنواء ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السّنة يسقط منها في كلّ ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع الآخر مقابله من ساعته، وانقضاءِ هذه الثمانية والعشرين مع انقضاء السّنة وكانت العرب في الجاهليّة إذا سقط منها نجمٌ وطلع الآخر قالوا لا بدّ أن يكون عند ذلك مطر فينسبون كلّ غيث يكون عند ذلك إلى النّجم ويقولون مطرنا بنوء كذا قال: ويسمى نوءاً لأنّه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق، وذلك النهوض هو النّوء فسمّى النّجم به.

وقوله: (**ثم أبلغ جهدك**) أمر من إفعل أو فعل وكلاهما مرويّ، والجهد بالضمّ الطّاقة وبالفتح المشقّة وهما مرويّان أيضاً و(**أبقيت**) على فلان أي راعيته ورحمته.

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٤٧٢ ح ٨، والغدير: ٨/ ٣٣٠.

الإعراب

قوله **(أنت تكفيني)**، جملة استفهامية محذوفة الأداة، وجملة **(ما أعز الله) (آه)** تحتمل الخبر والدّعاء، وقوله **(إن أبقيت)** متعلّقة محذوف بقرنية سابقة أي إن أبقيت عليّ.

المعنى

قال الشّارح المعتزلي: اعلم أنّ هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان ولكن أعوانه روى عن إسماعيل بن خالد عن الشّعبي أنّ عثمان لما كثرت شكايته من عليّ عليه السلام أقبل لا يدخل إليه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ شكا إليه عليّاً، فقال زيد بن ثابت الأنصاري وكان من شيعته وخاصّته، أفلا أمشي إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتي إليك؟ قال: بلى، فأتاه زيد ومعه المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي وعداده في بني زهرة وأمه عمّة عثمان بن عفّان في جماعة، فدخلوا فحمد زيد الله وأثنا عليه ثمّ قال:

أمّا بعد، فإن الله قدّم لك سلفاً صالحاً في الإسلام وجعلك من الرّسول بالمكان الذّي أنت به فأنت للخير كلّ الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمّك ووليّ هذه الأمّة فله عليك حقّان: حقّ الولاية، وحق القرابة، وقد شكاك إلينا أنّ عليّاً يعرض ويردّ أمري عليّ، وقد مشينا إليك نصيحة لك وكراهية أن يقع بينك وبين ابن عمّك أمر نكرهه لكما، قال: فحمد عليّ عليه السلام واثنا عليه وصلّى على رسوله صلى الله عليه وآله ثمّ قال:

أمّا بعد، فوالله ما أحب الاعتراض ولا الرد عليه إلا أن يأبى حقّاً لله لا يسعني أن أقول فيه إلاّ بالحقّ، ووالله لأكفنّ فيه ما وسعني الكفّ.

فقال المغيرة بن الأخنس وكان رجلاً وقاصاً وكان من شيعة عثمان وخلصائه: إنّك والله لتكفنّ عنه أو لتكفّن عنه فإنّه أقدر عليك منك عليه وإنّما أرسل هؤلاء القوم من المسلمين إعذاراً ليكون الحجّة عندهم عليك.

فقال له عليّ عليه السلام: يا ابن اللّعين الأبتر والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع أنت تكفّني فوالله ما أعزّ الله امرءاً من أنت ناصره، أخرج أبعد الله نواك ثم اجهد جهدك فلا أبقى الله عليك ولا على أصحابك إن أبقيتم[١].

فقال له زيد: إنا والله ما جئناك لنكون عليك شهوداً ولا ليكون مشينا إليك حجّة، ولكن مشينا فيما بينكما التماس الأجر وأن يصلح الله ذات بينكما ويجمع كلمتكما، ثمّ دعا له ولعثمان وقام فقاموا معه، إذا عرفت هذا، فلنرجع إلى شرح ما أورده السّيد (ره).

---

(١) نهج السعادة: ١/ ١٦٣، وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٣٠٣.

فأقول: قوله عليه السلام للمغيرة: **(يا ابن اللّعين الأبتر)** لأجل أنّ أباه وهو الأخنس بن شريق كان من أكابر المنافقين ذكره أصحاب الحديث كلّهم في المؤلفة قلوبهم الّذين أسلموا يوم الفتح بألسنتهم دون قلوبهم وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله مائة من الإبل من غنائم حنين يتألف بها قلبه، وابنه أبو الحكم بن الأخنس قتله أمير المؤمنين عليه السلام يوم أحد كافراً في الحرب، وهو أخو المغيرة والحقد الذي كان في قلب المغيرة إنّما كان من هذه الجهة.

وأمّا وصفه بالأبتر كوصف العاص بن وائل به في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، فلإنقطاعه عن الخير كلّه فيكون إطلاقه عليه حقيقة، أو لأنّ من كان عقبه ضالاً خبيثاً فهو كمن لا عقب له بل من لا عقب له خير منه فيكون إطلاقه عليه على سبيل الاستعارة.

وكذلك قوله **(والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع)** استعار له لفظ الشجرة الموصوفة بما ذكر إشارة إلى حقارته ودناءته، لأنّ الشّجرة الّتي ليس لها فرع ولا قرار ساقطة عن درجة الاعتبار حقيرة في الأنظار، ولذلك ضربت مثلاً للكلمة الخبيثة في الآية الشّريفة: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

ويحتمل أن يكون المراد بالوصفين نفي صفة الكمال، بمعنى أنّها ليس لها أصل ثابت ولا فرع مثمر فيلاحظ ذلك في المستعار له ويكون عدم ثبوت أصله إشارة إلى الطعن في نسبه، فقد قال جمع من النسابين إنّ في نسب ثقيف طعناً، وقد فصّله الشّارح المعتزلي في الشّرح ويكون عدم ثبوت فرعه إشارة إلى أنّ عقبه ضالّ خبيث عادم الخير والنّفع.

ثمّ استفهم على سبيل الإنكار والاستحقار فقال **(أنت تكفيني)** قال الشارح المعتزلي بعد ما أورد الرواية المتقدّمة: وهذا الخبر يدلّ على أنّ اللّفظة أنت تكفّني وليست كما ذكره الرّضي أنت تكفيني، لكن الرّضي طبق هذه اللّفظة على ما قبلها وهو قوله: أنا أكفيكه، ولا شبهة أنّها رواية أخرى **(فوالله ما أعزّ الله من أنت ناصره ولا قام من أنت منهضه)** أي مقيمه وذلك لأنّ العزّة والقوّة لله سبحانه والنّصرة والخذلان بيد الله، فمن أعزّه الله فهو المنصور ومن أذلّه فهو المقهور، وإن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده.

ثمّ طرده وأبعده ودعا عليه بقوله: **(أخرج عنا أبعد الله نواك)** أي مقصدك أو خيرك أو طالعك **(ثم ابلغ جهدك)** أي غايتك وطاقتك في الأذى **(فلا أبقى الله عليك إن أبقيت)** عليّ أي لا رعاك ولا رحمك إن اشفقت عليّ.

تنبيه

ينبغي أن نذكر هٰهنا طرفاً من مشاجرة أمير المؤمنين عليه السلام مع عثمان اللّعين ممّا أورده المخالف والمؤالف:

فأقول: روى المحدّث العلامة المجلسي (ره) في «البحار» من «الأمالي» بإسناده عن عبد الله بن أسعد بن زرارة عن عبد الله بن أبي عمرة الأنصاري قال: لمّا قدم أبو ذر على عثمان قال: أخبرني أيّ البلاد أحبّ إليك؟ قال: مهاجري، قال: لست بمجاوري، قال: فالحق بحرم الله فأكون فيه، قال: لا، قال: فالكوفة أرض بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: لا، قال: فلست بمختار غيرهنّ، فأمره بالمسير إلى الرّبذة فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي: اسمع وأطع وأنفذ حيث قادوك ولو لعبد حبشي مجدع، فخرج إلى الرّبذة فأقام هناك مدّة، ثمّ دخل المدينة فدخل على عثمان والنّاس عنده سماطين فقال: إنّك أخرجتني من أرض إلى أرض ليس بها ذرع ولا ضرع إلاّ شويهات وليس لي خادم إلا همررة ولا ظلّ شجرة، فأعطني خادماً وغنيمات أعيش فيها، فتحوّل وجهه عنه إلى السّماط الآخر فقال مثل ذلك فقال له حبيب بن سلمة: لك عندي يا أبا ذر ألف درهم وخادم وخمسمائة شاة، قال أبو ذر: أعط خادمك وألفك وشويهاتك من هو أحوج إلى ذلك منّي، فإنّي إنما أسأل حقّي في كتاب الله، فجاء عليّ عليه السلام فقال له عثمان: ألا تغني عنها سفيهك هذا قال: أيّ سفيه؟ قال: أبو ذر، قال عليّ عليه السلام: ليس بسفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء، على أصدق لهجة من أبي ذر، أنزله بمنزلة مؤمن آل فرعون إن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم.

قال عثمان: التراب في فيك، قال عليّ عليه السلام: بل التّراب في فيك، أنشد بالله من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك لأبي ذر، فقام أبو هريرة وعشرة فشهدوا بذلك قول عليّ عليه السلام[1].

قال ابن عبّاس: كنت عند أبي على العشاء بعد المغرب إذ جاء الخادم فقال: هذا أمير المؤمنين بالباب، فدخل عثمان فجلس فقال له العبّاس تعشّ، قال: تعشّيت فوضع يده فلما فرغنا من العشاء قام من كان عنده وجلست وتكلّم عثمان فقال: يا خال أشكو إليك ابن أخيك يعني عليّاً فإنّه أكثر في شتمي ونطق في عرضي وأنا أعوذ بالله في ظلمكم بني عبد المطلب إن يكن هذا الأمر لكم فقد سلّمتموه إلى من هو أبعد منّي وإن لا يكن لكم فحقي أخذت، فتكلّم العبّاس فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله وذكر ما خصّ الله به قريشاً منه وما خصّ به بني عبد المطلب خاصّة ثمّ قال: أما بعد، فما حمدتك لابن أخي ولا حمدت ابن أخي فيك، وما هو وحده فقد نطق غيره فلو أنّك هبطت ممّا صعدت وصعدوا ممّا هبطوا لكان ذلك أقرب، فقال: أنت ذلك يا خال، فقال: أتكلّم بذلك عنك؟ قال: نعم أعطهم عني ما شئت، وقام عثمان فخرج، فلم يلبث أن رجع فسلّم وهو قائم ثمّ قال: يا خال لا تعجل بشيء حتّى أعود إليك، فرفع العبّاس يديه واستقبل القبلة فقال: اللّهم اسبق لي ما لا خير لي في إدراكه،

(١) الأمالي: ٧١٠ ح ١٥١٤، وبحار الأنوار: ٣١/ ٤٥٠.

فما مضت الجمعة حتّى مات.

وروى الشّارح المعتزلي نحوه عن الزّبير بن بكار في الموقفيات وزاد فيه بعد قوله: لا تعجل يا خال حتّى أوذنك، فنظرنا فإذا مروان بن الحكم جالساً بالباب ينتظره حتّى خرج فهو الذي فشاه عن رأيه الأوّل فأقبل على أبي فقال: يا بنيّ ما إلى هذه من أمره شيء ثمّ قال: يا بني أمسك عليك لسانك حتّى نرى ما لا بد منه.

وروى الشّارح أيضاً عن الموقفيات عن رجال أسند بعضهم عن بعض عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: أرسل إليّ عثمان في الهاجرة فتقنعت بثوبي وأتيته فدخلته وهو على سريره وفي يده قضيب وبين يديه مال دثر صبرتان من ورق وذهب، فقال: دونك خذ من هذا حتّى تملأ بطنك فقد أحرقتني، فقلت: وصلتك رحم إن كان هذا المال ورثته، أو أعطاكه معط، أو اكتسبته من تجارة كنت أحد رجلين: إمّا أخذ وشكر، أو أوفر وأجهد، وإن كان من مال الله وفيه حقّ المسلمين واليتيم وابن السّبيل فوالله مالك أن تعطيه ولا لي أن آخذه، فقال: أبيت والله، إلا ما أبيت ثمّ قال: إليّ بالقضيب، فضربني فوالله ما اردّ يده حتّى قضى حاجته، فتقنّعت بثوبي ورجعت إلى منزلي وقلت: الله بيني وبينك إن كنت أمرتك بمعروف ونهيتك عن منكر[1].

أقول: والأخبار في هذا المعنى كثيرة ودلالتها على معاداة عثمان لأمير المؤمنين عليه السلام وإنزاله له منزلة العدوّ صريحة جليّة، وكفى بذلك له أليم العقاب وسوء المآب.

---

(١) بحار الأنوار: ٣/ ٥٤٢.

الترجمة

از جمله کلام آن امام انام است و به تحقیق که واقع شده بود به منازعه میان او و میان عثمان، پس گفت مغیرة بن اخنس عثمان را من کفایت می کنم از تو او را، یعنی نمی گذارم از امیرالمؤمنین صدمه و آسیبی به تو برسد، پس فرمود امیرالمؤمنین به مغیره:

ای پسر ملعون بی منفعت و درختی که نه ریشه دارد مراورا و نه شاخ، تو کفایت می کنی مرا، پس قسم به خدا که عزیز و غالب نگردانید خدا کسی را که تو یاری دهنده اویی و برنخاست کسی که تو برخیزاننده اویی، بیرون برو از خانه ما، دورگرداند خداوند تعالی مقصد تو را، پس از آن برس به نهایت سعی خود، پس رحمت نکند و رعایت نکند خدا تو را اگر مهربانی کنی تو با من.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والسادس والثلاثون من المختار في باب الخطب

قاله (ع) لما تخلف عن بيعته عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص وجماعة أخرى ورواه في **«الإرشاد»** باختلاف تطلع عليه.

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيّايَ فَلْتَةً، ولَيْسَ أَمْري وأَمْرُكُمْ واحِداً، إِنّي أُريدُكم لِلَّهِ وأَنْتُمْ تُريدُونَني لأَنْفُسِكُمْ، أَيُّها النّاسُ أَعينُوني عَلى أَنْفُسِكُمْ وَأَيْمُ اللَّهِ لأَنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظالِمِهِ، ولأَقُودَنَّ الظّالِمَ بِخَزامَتِهِ حَتّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وإِنْ كانَ كارِهاً[١].

اللغة

(الفلتة) الأمر يقع من غير تدبّر ولا رويّة و**(خزمت)** البعير بالخزامة وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير ليشدّ فيها الزّمام ويسهل قياده و**(الورد)** حضور الماء للشّرب والإيراد الإحضار و**(المنهل)** المشرب من نهل الماء كفرح شربه.

الإعراب

قوله: **(وأيم الله)** لفظة **(أيم)** من كلمات القسم، وقد مضى بعض الكلام فيها في شرح الخطبة الخامسة وشرح الفصل الثاني من الخطبة الثانية والتسعين:

وأقول هنا: إنّ فيها اثنتين وعشرين لغة قال في **«القاموس»**: واليمين القسم مؤنّث لأنّهم كانوا يتماسحون بأيمانهم فيتحالفون، الجمع ايمن وإيمان وأيمن الله **(وأيم الله)** ويكسر أوّلهما أو **(يمن الله)** بفتح الميم والهمزة ويكسر **(أيم الله)** بكسر الهمزة والميم، وقيل ألفه ألف وصل وهيم الله بفتح الهاء وضمّ الميم **(وأم الله)** مثلّثة الميم **(وإم الله)** بكسر الهمزة وضمّ الميم وفتحها **(ومن الله)** بضمّ الميم وكسر النّون **(ومن الله)** مثلّثة الميم والنّون **(وم الله)** مثلّثة **(وليم الله)** **(وليمن الله)** اسم وضع للقسم والتّقدير أيمن الله قسمي.

وقال ابن هشام في **«المغني»**: **(أيمن)** المختصّ بالقسم اسم لا حرف خلافاً للزجاج والرّماني مفرد مشتقّ من اليمن وهمزته وصل لا جمع يمين وهمزته قطع خلافاً للكوفيين ويرده

(١) بحار الأنوار: ٤٩/٣٢ ح ٣٣، وميزان الحكمة: ١٤٧/١ ح ١٩٤.

جواز كسر همزته وفتح ميمه، ولا يجوز مثل ذلك في الجمع من نحو أفلس وأكلب وقول نصيب:

فقال فريق القوم لما نشدتهم نعم وفريق ليمن الله ما ندري

فحذف ألفها في الدّرج ويلزمه الرّفع بالابتداء وحذف الخبر وإضافته إلى اسم الله سبحانه خلافاً لابن درستويه في إجازة جرّه بحرف القسم ولابن مالك في إجازته إضافته إلى الكعبة وكاف الضّمير، وجوّز ابن عصفور كونه خبراً والمحذوف مبتدأ أي قسمي أيمن الله.

المعنى

إعلم أنّ هذا الكلام له عليه السلام لجمهور أصحابه الذين كان غرضهم في بيعته واتباعه عليه السلام حطام الدّنيا لا إحياء شرائع الدّين وإقامة معالم الشرع المبين كما يرشد إليه ما سيأتي من قوله: (**أنتم تريدونني لأنفسكم**)، إذا عرفت ذلك فأقول

قوله: (**لم تكن بيعتكم إياي فلتة**) فيه تعريض ببيعة أبي بكر وإشارة إلى قول عمر فيها، فقد روت العامة والخاصة عن عمر أنّه قال: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرّها ومن عاد إلى مثلها فاقتلوه، وفي بعض الرّوايات فمن دعاكم إلى مثلها فاقتلوه، وقد رواه الشّارح المعتزلي في شرح الخطبة السّادسة والعشرين بعدّة طرق وأطنب الكلام في بيان معنى الفلتة ولا حاجة بنا إلى إيراد ما أورده.

ومقصود أمير المؤمنين عليه السلام أنّ بيعتكم إيّاي لم تكن بغتة ومن غير تدبّر ورويّة وإنّما كانت عن تدبّر واجتماع رأي منكم فليس لأحدكم بعدها أن ينكث ويندم (**وليس أمري وأمركم واحداً**) إشارة إلى اختلاف مقاصده ومقاصدهم وتفريق بينهما، وجهة التّفريق ما أشار إليها بقوله: (**إنّي أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم**) يعني إنّما أريدكم لإقامة أمر الله وإعلاء كلمة الله وتأسيس أساس الدّين وانتظام قوانين الشّرع المبين وأنتم تريدونني لحظوظ أنفسكم من العطاء والتّقريب وسائر المنافع الدّنيوية.

(**أيّها النّاس أعينوني على أنفسكم**) لمّا كانت وظيفته الدّعوة إلى الله والدلالة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر جعل طاعتهم له وامتثالهم لأوامره وانتهائهم عن المنكرات إعانة منهم له لحصول غرضه وفراغه عن تعب الطلب.

ثمّ أشار إلى قيامه بوظائف العدل فقال: (**وأيم الله لأنصفنّ المظلوم**) أي أحكم في ظلامته بالعدل والإنصاف وآخذ حقه (**من ظالمه ولأقودنّ الظّالم بخزامته حتّى أورده منهل الحقّ وإن كان كارهاً**) جعل الظالم بمنزلة الإبل الصّعب التي لا تنقاد إلاّ بالخزامة على سبيل الاستعارة بالكناية وذكر الخزامة تخييل والقود ترشيح. أي لأذللنّ الظالم وأقودنّه بالمقود حتّى

يخرج من حقّ المظلوم ويردّ عليه مظلمته وإن كان كارهاً له.

تكملة

هذا الكلام رواه «المفيد» في «الإرشاد» قال: ومن كلامه عليه السلام حين تخلّف عن بيعته عبد الله بن عمر بن الخطّاب وسعد بن أبي وقاص ومحمّد بن مسلمة وحسّان بن ثابت وأسامة بن زيد وما رواه الشعبي قال: لما اعتزل سعد ومن سمّيناه أمير المؤمنين عليه السلام وتوقفوا عن بيعته حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

أيّها النّاس إنكم بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي وإنّما الخيار للنّاس قبل أن يبايعوا فإذا بايعوا فلا خيار لهم، وإنّ على الإمام الاستقامة وعلى الرّعية التسليم، وهذه بيعة عامّة من رغب عنها رغب عن دين الإسلام واتّبع غير سبيل أهله، ولم تكن بيعتكم إيّاي فلتة وليس أمري وأمركم واحداً، وأنّي أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم وأيم الله لأنصحن للخصم ولأنصفنّ للمظلوم، وقد بلغني عن سعد وابن مسلمة وأسامة وعبد الله وحسّان بن ثابت أمور كرهتها والحقّ بيني وبينهم[1].

(١) الإرشاد: ١/ ٢٤٤، ونهج السعادة: ١/ ١٩٧.

الترجمة

از جمله کلام آن امام انام است که فرموده:

نبود بیعت شما با من چیزی که بدون تروی و تدبّر واقع شده باشد و نیست کار من و کار شما یکی؛ به درستی من می خواهم شما را از برای خدا و شما می خواهید مرا از برای حظ های نفوس خودتان. ای مردمان، اعانت نمایید مرا بر قهر و غلبه نفس های خود و قسم به ذات پاك خداوند، هرآینه البته حکم انصاف می کنم در حقّ مظلوم از ظالم او و هرآینه البته می کشم ظالم را به حلقه بینی او تا این که وارد نمایم او را به آبش خور و اگرچه باشد آن ظالم کراهت دارنده.

ومن كلام له عليه السلام في معنى طلحة والزبير
وهو المائة والسابع والثلاثون من المختار في باب الخطب

والأشبه انّه ملتقط من خطبة طويلة قدمنا روايتها في شرح الخطبة الثانية والعشرين بطرق عديدة، فليتذكر.

وَاللَّهِ ما أنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، ولا جَعَلُوا بَيْنِي وبَيْنَهُمْ نَصفاً، وإنَّهُمْ لَيَطْلُبُون حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، ودَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فيهِ فَإنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإنْ كانُوا وَلُوهُ دُوني فَما الطَّلَبَةُ إلاّ قِبَلُهُمْ وَإنَّ أوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ، وَإنَّ مَعِي لَبَصِيرَتي ما لَبَّسْتُ وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ وَإنَّها لَلْفِئَةُ الْباغِيَةُ فيهَا الْحَما وَالْحُمَةُ وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدَفَةُ، وَإنَّ الأمْرَ لَواضِحٌ، وقدْ راحَ الْباطِلُ عَنْ نِصابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسانُهُ عَنْ شَغْبِهِ، وأَيْمُ اللَّهِ لأفرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أنَا ماتِحُهُ، لاَ يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيّ، وَلاَ يَعُبُّونَ بَعْدَهُ في حِسيٰ.

منها: فَأَقْبَلْتُمْ إلَيَّ إقْبالَ الْعُوذِ الْمَطافِيلِ عَلَى أوْلادِهَا تَقُولُونَ الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ، قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوها، ونازَعَتْكُمْ يَدي فَجاذَبْتُمُوها، اللَّهُمَّ إنَّهُما قَطَعاني، وظَلَماني، ونَكَثا بَيْعَتي، وألَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ فاحلُلْ ما عَقَدا، وَلاَ تُحْكِمْ لَهُمَا ما أبْرَمَا، وأرِهِمَا الْمَساءَةَ فيما أمَّلا وَعَمِلاَ، ولَقَدِ اسْتَثَبْتُهما قَبْلَ الْقِتالِ، وَاسْتَأنَيتُ بِهِما قَبْلَ الْوِقاعِ، فَغَمِطَا النِّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ[1].

اللغة

(**النصف**) محرّكة اسم من الإنصاف وهو العدل و(**الطّلبة**) بكسر اللّام المطلوب و(**لبّست**) بالبناء للفاعل و(**لبّس**) بالبناء للمفعول، قال الشّارح المعتزلي، ولبّست على فلان الأمر ولبس عليه الأمر كلاهما بالتخفيف ولكنّ الموجود في ما رأيته من النسخ بالتشديد قال الفيروزآبادي: لبس عليه الأمر يلبسه خلطه وألبسه غطّاه، وأمر ملبس وملتبس بالأمر مشتبه التلبيس والتّخليط والتدليس، وقال بعض الشّارحين: التّشديد للتكثير.

و(**الحماء**) بالتّحريك كالحماة بالتاء الأسود المنتن، قال سبحانه: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، ويروى حمى مقصورة، و(**الحمة**) بضمّ الحاء وفتح الميم وتخفيفها العقرب وكلّ شيء يلسع أو يلدغ و(**المغدفة**) بفتح الدّال الخفيفة من أغدفت المرأة قناعها أرسلته على وجهها، وعن بعض النّسخ بكسر الدال من أغدف اللّيل إذا أظلم و(**النصاب**) الأصل والمرجع.

---

(١) بحار الأنوار: ٧٨/٣٢ ح ٥١، وشرح نهج البلاغة: ٣٨/٩.

(والشّغب) بسكون الغين المعجمة تهييج الشرّ من شغب الحقد شغباً من باب منع وفي لغة ضعيفه بالتحريك وماضيها شغب بالكسر كفرح و**(افرطنّ)** بضم الهمزة من باب الأفعال من أفرطت المزادة أي ملانها، ويروى بفتح الهمزة وضمّ الرّاء من فرط زيد القوم أي سبقهم فهو فرط بالتحريك و**(الماتح)** المستقي من فوق و(العبّ) شرب الماء من غير مص أو تتابع الجرع.

(الحسي) في النسخ بكسر الحاء وسكون السّين قال الشارح المعتزلي: ماء كامن في رمل يحفر عنه فيستخرج وجمعه أحساء وفي «**القاموس**» الحسي كالي سهل من الأرض يستنقع فيه الماء أو غلظ فوقه رمل يجمع ماء المطر وكلّما نزحت دلواً جمعت أخرى جمعه إحساء وحساء و**(العوذ)** بالضمّ الحديثات النتاج من النوق والظباء وكل أنثى كالعوذان جمعاً عائذ كحائل وحول وراع ورعيان و**(المطافيل)** كالمطافل جمع المطفل وزان محسن ذات الطّفل من الإنس والوحش و**(التأليب)** التحريض والإفساد و**(أحكم)** الشيء أتقنه و**(أبرم)** الحبل جعله طاقين ثمّ فتله وأبرم الأمر أحكمه.

و**(استثبتهما)**. في بعض النّسخ بالثاء المثلّثة من باب يثوب أي رجع ومنه المثابة للمنزل، لأنّ النّاس يرجعون إليه في أسفارهم وفي بعضها استتبتهما بالتاء المثناة من تاب يتوب أي طلبت منهما أن يتوبا و**(استأنيت)** من الإناة واستأنى بفلان انتظر به و**(غمط)** فلان بالنّعمة إذا لم يشكرها وحقرها من باب ضرب وسمع.

الإعراب

قال الشّارح المعتزلي: **(نصفاً)** على حذف المضاف أي ذا نصف أي حكماً منصفاً عادلاً يحكم بيني وبينهم.

أقول: والأولى أن يقدّر المضاف المحذوف لفظ الحكم أي حكم نصف وعدل إذ على ما ذكره الشّارح يحتاج إلى حذف موصوف **(ذا)** وهو تكلف مستغني عنه، فتأمل.

(وعن) في قوله: **(عن نصابه)**، إمّا بمعناها الأصليّ أو بمعنى **(بعد)** كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، وقوله: ولأفرطن لهم حوضاً، قد مضى اعرابه في شرح الخطبة العاشرة، وجملة **(أنا ماتحه)**، في محلّ النّصب صفة **(لحوضاً)**، وجملة **(لا يصدرون عنه)** حال من الضمير في **(ماتحه)**، **(والبيعة البيعة)**، منصوبان على الإغراء.

المعنى

اعلم أنّ هذا الكلام له عليه السلام كما نبّه عليه السّيد (ره) وارد في معنى طلحة والزّبير أي القصد فيه متوجه إليهما والغرض منه تقريعهما وتوبيخهما وتوبيخ سائر أصحاب الجمل وإبطال ما نقموه عليه وردّ ما تشبثوا به في خروجهم عن ربقة طاعته.

وأشار عليه السلام إلى وجه البطلان بقوله **(والله ما أنكروا عليّ منكراً)** قبيحاً يعني أنّ ما زعموه منكراً من قتل عثمان والتّسوية في العطاء فليس هو بمنكر في الواقع حتّى يرد عليّ إنكارهم، وإنّما حملهم على الإنكار الحسد وحبّ الاستيثار بالدّنيا والتفضيل في العطاء **(ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً)** أي حكماً عدلاً **(وأنهم ليطلبون حقاً هم تركوه)** قال الشّارح المعتزلي: أي يظهرون أنهم يطلبون حقاً بخروجهم إلى البصرة وقد تركوا الحقّ بالمدينة، وقيل: المراد بالحق نصرة عثمان وإعانته.

أقول: والظاهر أنه أراد بالحقّ حقّ القصاص، يعني أنهم يطلبون حقّ القود من قاتلي عثمان ولكنّهم هم الذين تركوه حيث أمسكوا النكير على قاتليه، فتقديم المسند إليه للتّخصيص ردّاً عليهم إلى زعمهم انفراد أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه بترك الحق.

ومثله قوله **(ودماً هم سفكوه)** أي لا غيرهم وأراد به دم عثمان، ويدلّ على سفكهم دمه وكونهم أشدّ النّاس تحريضاً عليه ما قدّمناه في شرح الخطبة الثانية والعشرين والكلام الثلاثين.

ويدلّ عليه أيضاً ما رواه في شرح المعتزلي وغيره أنّ عثمان قال: ويلي على ابن الخضرميّة، يعني طلحة أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي يحرض على نفسي اللّهم لا تمتّعه به.

قال الشّارح: وروى النّاس الذين صنفوا في واقعه الدّار أنّ طلحة كان يوم قتل عثمان مقنّعاً بثوب قد استتر به عن أعين النّاس يرمي الدّار السّهام، وأنّه لمّا امتنع على الّذين حصروه الدّخول من باب الدّار حملهم طلحة إلى دار لبعض الأنصار فأصعدهم إلى سطحها وتسوّروا منها على عثمان داره فقتلوه.

ورووا أيضاً أنّ الزّبير كان يقول: اقتلوه فقد بدل دينكم، فقالوا: إنّ ابنك يحامي عنه بالباب، فقال: ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدأ بابني أنّ عثمان لجيفة على الصّراط غداً، وقال مروان بن الحكم يوم الجمل: والله لا أترك ثأري وأنا أراه ولأقتلنّ طلحة بعثمان فإنّه قتله ثمّ رماه بسهم فأصاب مأبضه[1] فنزف الدّم حتّى مات.

فقد ظهر من ذلك أنّه لا ريب في إغرائهم وتحريضهم ودخولهم في دم عثمان فلا يجوز لهم المطالبة بدمه منه، لأنّ دخولهم فيه إمّا أن يكون بالإشتراك؛ أو يكون بالاستقلال، وعلى التّقديرين فتبطل المطالبة.

أمّا على التّقدير الأوّل فلما أشار إليه بقوله **(فإن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم نصيبهم منه)** وليس لأحد الشّريكين أن يطالب الشّريك الآخر بل اللاّزم له أن يبدأ بنفسه ويسلّمها إلى أولياء المقتول ثم بالشريك الآخر.

---

(١) المأبض: باطن الركبة ومن البعير باطن المرفق.

وأمّا على التقدير الثاني فلما أشار إليه بقوله **(وإن كانوا ولوّه)** وباشروه **(دوني فما الطّلبة)** أي المطلوب **(إلاّ قبلهم)** فاللازم عليهم أن يخصّوا أنفسهم بالمطالبة وحدهم **(وإنّ أوّل عدلهم)** الّذي جعلوه عذراً في نقض البيعة والخروج إلى البصرة حيث قالوا إنّما خرجنا للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإقامة العدل وإماتة الباطل وإحياء الحقّ **(للحكم على أنفسهم)** والإنكار للمنكر الذي أتوا به واقتصاص الدم الذي هجموا عليه قبل الإنكار، والحكم على غيرهم لأنّ النّهي عن المنكر إنّما هو بعد التّناهي **(وإنّ معي لبصيرتي)** وعقلي **(ما لبست ولا لبّس عليّ)** وقد مضى معنى هذه الفقرة في شرح الخطبة العاشرة.

ويحتمل احتمالاً قويّاً أن يكون المراد أنه ما لبّست على نفسي ولا على النّاس أمري وأمورهم ولم يلبس أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله الأمر عليّ بل ما أقدم عليه في أمري وأمر النّاس وما أخبرني به النّبيّ صلى الله عليه وآله هو الحقّ وبالإتباع أحقّ، وفي هذا الكلام تعريض عليهم بأنّهم غابت عنهم عقولهم وتاهت حلومهم، وأنّ ما أقدموا عليه أمر ملتبس، وأنّ خروجهم إنّما هو بهوى النّفس والنّاس مدلّسون ملبّسون.

ثمّ قال: **(وإنّها للفئة الباغية)** يعني أنّ هذه الفئة للفئة الّتي أخبرني رسول الله ببغيها وخروجها عليّ حيث قال صلى الله عليه وآله لا تذهب الليالي والأيام حتّى تتنابح كلاب ماء بالعراق يقال له الحوأب امرأة من نسائي في فئة باغية[1]، على ما تقدّم في رواية الاحتجاج في التّنبيه الثاني من شرح الكلام الثّالث عشر، وقد قال صلى الله عليه وآله: له عليه السلام غير مرة أنك ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، أوما هذا معناه.

وتقدّم في شرح الفصل الخامس من الخطبة الثّالثة في رواية «**غاية المرام**» أنّ أمّ سلمة قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله من الناكثون؟ قال: الذين يبايعونه بالمدينة وينكثون بالبصرة، ولسبق عهد هذه الفئة أتى بها معرّفة بلام العهد.

وقوله: **(فيها الحماء والحمة)** قال الشارح البحراني: استعارة للغل والفساد الذي كان في صدور هذه الفئة، ووجه الاستعارة استلزامه لتكدير الإسلام وإثارة الفتنة بين المسلمين كما تكدّر الحماة الماء وتخبثه واستلزامه للأذى والقتل كما يستلزم ذلك سمّ العقرب.

وقال الشارح المعتزلي: أي في هذه الفئة الفساد والضّلال والضّرر، وإذا أرادت العرب أن تعبّر عن الضّلال والفساد قالت الحماء مثل الحماة بالتاء ويروى فيها الحمى بألف مقصورة وهو كناية عن الزّبير لأنّ كلّ ما كان بسبب الرّجل فهم الأحماء واحدهم حمى مثل قفا وأقفاء، وما كان بسبب المرأة فهم الأحمات، وقد كان الزّبير من عمّة رسول الله وقد كان النّبي صلى الله عليه وآله

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٤٣، وبحار الأنوار: ٣٢/ ١٥٠.

أعلم علياً بأنّ فئة من المسلمين تبغي عليه أيّام خلافته فيها بعض زوجاته وبعض أحمائه فكنّى عليّ عليه السلام عن الزّوجة بالحمة، وهي سم العقرب وظهر أن الحماء الذي أخبر النّبي صلى الله عليه وآله بخروجه مع هؤلاء البغاة هو الزّبير ابن عمّته.

أقول: وهذا ألطف ممّا ذكره البحراني، ويؤيد ما قاله من أنّه كنى عن الزّوجة بالحمة ما يرويه السيّد (ره) عنه في أواخر الكتاب من قوله: المرأة عقرب حلوة اللّبسة، أي حلوة اللّسعة.

وقوله: **(والشبهة المغدفة)** أي الشّبهة الخفية المستورة التي لبّسوا بها على أكثر النّاس من طلب دم عثمان ومن روى بكسر الدّال فالمراد الشّبهة المظلمة أي الموقعة في ظلمة الجهالة التي لم يهتد فيها أكثر الخلق حتّى قتلوا بسببها كما لا يهتدي في ظلمة اللّيل.

ثمّ قال **(وإنّ الأمر لواضح)** أي عند ذوي العقول لعلمهم بأني على الحق وأنّ الباغين عليّ على الباطل وأنّ خروجهم بعد بيعتهم إنّما هو لمحض الغلّ والحسد والاستيثار بالدّنيا عن اتباع الهوى **(وقد راح)** أي تنحى وبعد **(الباطل)** أي باطلهم **(عن نصابه)** وأصله يعني ما أتوا به من الباطل لا أصل له **(وانقطع لسانه عن شغبه)** استعارة بالكناية حيث شبّه الباطل بحيوان ذي لسان فأثبت له اللّسان تخييلاً وذكر الشّغب ترشيح.

ومحصّل المراد أنّه بعد وضوح الأمر فيّ، وفي أنّي على الحقّ لم يبق للباطل أصل وقد خرس واعتقل لسانه عن تهيّج شرّه، ويحتمل أن يكون المراد بالباطل الباطل الّذي كان له رواج في زمن المتخلّفين الثلاثة، أي قد زال الباطل بعد موتهم وبيعة النّاس إليّ عن أصله وتزعزعت أركانه وانهدم بنيانه وانقطع لسانه بعدما هيّج شرّه فلا اعتداد بنكث هؤلاء القوم وبغي هذه الباغية.

ثمّ تهددهم بقوله **(وأيم الله لأفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه)** وقد سبق شرح هذه الفقرة في شرح الخطبة العاشرة وقوله: **(لا يصدرون عنه بريّء)** يعني أنّ هذا الحوض ليس كسائر الحياض الحقيقية التي يردها الظّمآن فيصدر عنها بريء ويروى غلّته، بل الواردون إليه أن لا يعود **(ولا يعبّون بعده في حسي)** أي لا يشربون بعده بارد الماء أبداً لهلاكهم وغرقهم في ذلك الحوض.

وقال السيد (ره) **(منها)** هكذا في أكثر ما عندنا في النسخ، والأولى منه بدله كما في بعضها ولعلّ الأوّل من تحريف النّساخ لأنّ العنوان بقوله: ومن كلام، فلا وجه لتأنيث الضّمير الرّاجع إليه والغرض بهذا الفصل تأكيد الاحتجاج على الفئة الباغية بنحو آخر وهو قوله: **(فأقبلتم إليّ)** للبيعة مزدحمين منثالين **(إقبال العوذ المطافيل)** أي الوالدات الحديثات النتاج وذات الطّفل على أولادها وتشبيهه إقبالهم بإقبالها لأنّها أكثر إقبالاً وأشدّ عطفاً وحنّة على أولادها.

(تقولون البيعة البيعة) أي هلمّ البيعة أقبل إليها وفائدة التكرار شدة حرصهم إليها وفرط رغبتهم فيها **(قبضت كفي)** وامتنعت **(فبسطتموها ونازعتكم يدي)** من التوسّع في الإسناد أي نازعتكم بيدي وتمنّعت **(فجاذبتموها)** فبايعتم عن جدّ وطوع منكم وكره وزهد منّي.

ثمّ شكا إلى الله سبحانه من طلحة والزّبير بقوله **(اللّهمّ إنّهما قطعاني)** أي قطعا رحمي لأنّهما كانت لهما رحم ماسة به عليه السلام لكونهم جميعاً من قريش مضافاً إلى ما للزّبير من القرابة القريبة فإنّه كان ابن عمّة أمير المؤمنين وأمّه صفية بنت عبد المطّلب عليه السلام **(وظلماني)** في خروجهما إليّ ومطالبة ما ليس لهما بحقّ **(ونكثا بيعتي)** ونقضاها **(وألّبا النّاس)** وأفسداهم **(عليّ)**.

ثمّ دعا عليهما بقوله **(فاحلل ما عقدا)** من العزوم الفاسدة الّتي أضمراها في نفوسهم **(ولا تحكم لهما ما أبرما)** أي لا تجعل ما أبرماه واحكماه في أمر الحرب محكماً مبرماً **(وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا)** أي أرهما المساءة في الدّنيا والآخرة ولا تنلهما آمالهما واجزهما السّوءى بأعمالهما وأفعالهما.

ثمّ اعتذر من قتاله معهما بأنّه إنّما قام بالقتال بعد إكمال النّصح والموعظة وإتمام الحجّة قاصراً على البغي فتكون اللائمة في ذلك راجعة إليهما لا إليه والذّنب عليهما لا عليه وهو معنى قوله **(ولقد استثبتهما قبل القتال)** أي طلبت منهما أن يرجعا عن البغي أو يتوبا عن ذنبهما استعطافاً لهما **(واستأنيت بهما قبل الوقاع)** أي تأنّيت وتثبّت بهما قبل وقاع الحرب لعلّهما يرجعا إلى الحقّ (فـ) ـلم يقبلا نصحي ولم يسمعا قولي بل أصرّا على البغي والمخالفة و(غمطا النّعمة) أي استحقرا ما أنعم الله عليهما وهو قسمتهما من بيت المال وطلبا الزّيادة والتّوفير (وردّا العافية) أي السّلامة في الدّنيا والدّين فكان عاقبتهما أنّهما في النّار خالدين.

تنبيه

قال الشّارح المعتزلي في شرح قوله عليه السلام: **(اللّهم إنّهما قطعاني)** إلى قوله **(وعملا)**، أمّا وصفهما بما وصف به من القطع والظلم والنّكث والتأليف فقد صدق عليه السلام فيه، وأمّا دعاؤه فاستجيبت له والمساءة التي دعا بهما مساءة الدّنيا لا مساءة الآخرة، فإنّ الله قد وعدهما على لسان رسوله صلى الله عليه وآله بالجنّة وإنّما استوجبا بالتوبة التي ينقلها أصحابنا عنهما في كتبهم ولولاها لكانا من الهالكين.

أقول: ظاهر قول الإمام عليه السلام وأرهما المساءة هو الإطلاق وتقييدها بمساءة الدنيا لا دليل عليه، وأمّا وعد الله لهما بالجنّة فغير ثابت ومدعيه كاذب لأنّ المدعي إنّما استند فيه إلى حديث العشرة الذي قدمنا في التذييل الثاني من شرح الكلام الثالث والأربعين ضعفه وبطلانه وأنّه ممّا تفرّد المخالفون بروايته.

ونزيد على ما قدّمنا ما قاله الشيخ (ره) في محكيّ كلامه من «**تلخيص الشافي**» عند الكلام على بطلان هذا الخبر إنّه لا يجوز أن يعلم الله مكلّفاً ليس بمعصوم من الذّنوب بأنّ عاقبته الجنّة، لأنّ ذلك يغريه بالقبيح وليس يمكن لأحد ادّعاء عصمة التّسعة ولو لم يكن إلاّ ما وقع من طلحة والزّبير من الكبيرة لكفى، وقد ذكرنا أنّ هذا الخبر لو كان صحيحاً لاحتجّ به أبو بكر لنفسه واحتجّ به له في السقيفة وغيرها، وكذلك عمر وعثمان.

وممّا يبيّن أيضاً بطلانه إمساك طلحة والزبير عن الاحتجاج به لما دعوا النّاس إلى نصرتهما واستنفارهم إلى الحرب معهما، وأيّ فضيلة أعظم وأفخم من الشّهادة لهما بالجنّة، وكيف يعدلان مع العلم والحاجة عن ذكره إلاّ لأنّه باطل، ويمكن أن يسلّم مسلّم هذا الخبر ويحمله على الاستحقاق في الحال لا العاقبة فكأنّه ﷺ أراد أنّهم يدخلون الجنّة إن وافوا بما هم عليه، وتكون الفائدة في الخبر إعلامنا بأنّهم يستحقّون الثواب في هذا الحال، هذا.

وأمّا قول الشّارح إنهما استوجبا الجنّة بالتّوبة الّتي ينقلها أصحابنا عنهما ففيه إنّا قدمنا في شرح الكلام الثامن بطلان توبة الزّبير، وفي شرح الكلام الثاني عشر بطلان توبة طلحة، وأقول هنا: قال الشّيخ (ره) في محكيّ كلامه من «**تلخيص الشافي**» بعد كلام طويل له على بطلان توبتهما تركناه حذراً من الإطالة والإطناب ما لفظه:

وروى الشّعبي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ألا إنّ أئمة الكفر في الإسلام خمسة: طلحة، والزّبير، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري، وقد روى مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود[١].

وروى نوح بن درّاج عن محمّد بن مسلم عن حبة العرني قال: سمعت عليّاً عليه السلام حين برز أهل الجمل يقول: والله لقد علمت صاحبة الهودج أنّ أهل الجمل ملعونون على لسان النّبي الأمّي وقد خاب من افترى[٢]، وقد روى هذا المعنى بهذه اللّفظة أو بقريب منه من طرق مختلفة.

وروى البلاذري في «**تاريخه**» بإسناده عن جويرية بن أسماء أنّه قال: بلغني أنّ الزبير حين ولي ولم يكن بسط يده بسيفه اعترضه عمّار بن ياسر بالرّمح وقال أين يا أبا عبد الله وأنت ما كنت بجبان ولكني أحسبك شككت؟ قال: وهو ذاك ومضى حتّى نزل بوادي السّباع فقتله ابن جرموز[٣]، واعترافه بالشك يدلّ على خلاف التوبة لأنّه لو كان تائباً لقال له في الجواب ما

(١) مستدرك سفينة البحار: ٩/ ١٣٠.
(٢) بحار الأنوار ٣٢/ ٣٣٥.
(٣) بحار الأنوار ٣٢/ ٣٣٥.

شككت بل تحققت أنك وصاحبك إلى الحقّ وأنا على الباطل وقد ندمت على ما كان منّي وأي توبة لشاكّ غير متحقّق.

فهذه الأخبار وما شاكلها تعارض أخبارهم لو كان لها ظاهر يشهد بالتوبة، وإذا تعارضت الأخبار في التوبة والإصرار سقط الجميع وتمسكنا بما كنّا عليه من أحكام فسقهم وعظيم ذنبهم، وليس لهم أن يقولوا إنّ كلّ ما رويتموه من طريق الآحاد وذلك إنّ جميع إخبارهم بهذه المثابة، وكثير ممّا رويناه أظهر ممّا رووه وأفشى وإن كان من طريق الآحاد فالأمران سيّان.

وأمّا توبة طلحة فالأمر فيها أضيق على المخالف من توبة الزّبير، لأنّ طلحة قتل بين الصّفين مباشراً للحرب مجتهداً فيها ولم يرجع عنها حتّى أصابه السّهم فأتى على نفسه، وادّعاء توبة مثل هذا مكابرة، وليس لأحد أن يقول إنّه قال بعد ما أصابه السهم:

ندمت ندامة الكسعي لمّا رأت عيناه ما صنعت يداه

لأنّ هذا بعيد عن الصّواب والبيت المروي بأن يدلّ على خلاف التّوبة أولى لأنّه جعل ندامته ندامة الكسعي وخبر الكسعي معروف لأنّه ندم بحيث لا ينفعه النّدم وحيث فاته الأمر وخرج عن يده، ولو كان ندم طلحة واقعاً على وجه التوبة الصحيحة لم يكن مثل ندامة الكسعي، بل كان شبيهاً لندامة من تلافي ما فرط فيه على وجه ينتفع به.

وروى حسين الأشقر عن يوسف البزاز عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام لطلحة وهو صريع فقال: اقعدوه، فأقعد، فقال عليه السلام: قد كان لك سابقة لكن دخل الشّيطان في منخريك فأدخلك النّار[1]، انتهى كلامه رفع مقامه.

وقد ظهر بذلك بطلان توبتهما كما توهّمه الشّارح المعتزلي وفاقاً لأصحابه المعتزلية وتبيّن أنّهما في النار خالدين ببغيهم على الإمام المبين، هذا.

وندامة الكسعي يضرب بها المثل فيقال: أندم من الكسعي، وهو محارب بن قيس من بني كسع حيّ من اليمن كان يرعى إبلاً بواد معشب فرأى نبقة على صخرة فأعجبته فقطعها واتّخذ منها قوساً، فمرّت به قطعان من حمر الوحش ليلاً فرمى عشراً فأنفذها وأخرج السّهم فأصاب الجبل فأرى ناراً فظنّ أنه أخطأ، ثمّ مر قطيع آخر فرماه كالأوّل وفعل ذلك مراراً فعمد إلى قوسه فكسره من حنقه، فلما أصبح ورأى الحمر قتلن مضرّجة بالدم فندم وعضّ إبهامه فقطعها.

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٣٣٨.

الترجمة

از جمله کلام آن امام انام است (عليه السلام) در معنی و مقصودی که متعلق است به طلحه و زبیر و وارد است در مذمّت و توبیخ ایشان و ابطال دعویشان در مطالبه خون عثمان، می فرماید:

قسم به خدا انکار نکردند بر من فعل منکر قبیح را و قرار ندادند در میان من و میان خودشان حکم عدلی را و به درستی که ایشان حقّی را که خود آنها ترك کردند و خونی که خود آنها ریخته اند آن را، پس اگر باشم من شریك ایشان در آن خون، پس به درستی که مرایشان است نصیبشان از آن خون و اگر مباشر شدند آن را بدون من، پس نیست مطلوب ایشان مگر پیش خودشان و به درستی که اول عدالت ایشان حکم کردن است برخودشان و به درستی که با من است بصیرت من، تلبیس نکرده ام و تلبیس کرده نشده بر من و به درستی که این جماعت همان جماعت طاغیه باغیه است که پیغمبر خدا (صلى الله عليه وآله) خبر داده بود، در این جماعت است گل سیاه متغیر و زهر عقرب و شبه صاحب ظلمت و به درستی امر در این شبه واضح است و به تحقیق که کنار شده است از اصل خود و بریده شده زبان آن از برانگیختن شر و فساد خود و سوگند به خدا هرآینه پرمی سازم به جهت ایشان حوض جنگی را که منم کشنده آب آن در حالتی که برنگردند از آن حوض سیراب و نیاشامند بعد از آن آب خوش گوار.

بعضی از این کلام در رد ایشان است به طرز آخر که می فرماید:

پس اقبال کردید به طرف من مثل اقبال شتران نوزایندگان صاحبان طفل بر اولاد خود، در حالتی که می گفتید: بیا به بیعت اقبال کن به بیعت، به هم گرفتم و قبض نمودم کف خود را، پس بسط کردید شما آن را و منازعه کرد با شما دست من، پس کشیدید دست مرا، پروردگارا به درستی که طلحه و زبیر قطع رحم کردند از من و ظلم کردند بر من و شکستند بیعت مرا و تحریص کردند و تحریك کردند خلق را بر محاربه من، پس بگشای آن چه که بسته اند آن را از عزم های فاسده و محکم نساز از برای ایشان آن چه که استوار کردند آن را از رأی های باطله و بنمای به ایشان پریشانی را در آن چه که امید دارند و در آن چه که عمل می آورند و به تحقیق که طلب کردم از ایشان بازگشتن ایشان را از بغی و ظلم پیش از مقاتله و منتظر شدم و توقف نمودم به ایشان پیش از محاربه، پس حقیر شمردند نعمت را و کفران نمودند و رد کردند سلامتی را و خود را به ورطه هلاکت افکندند.

ومن خطبة له عليه السلام في ذكر الملاحم وهي المائة والثامنة والثلاثون من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين: الفصل الأول

يَعْطِفُ الْهَوىٰ عَلَى الْهُدَىٰ إذا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوى، ويَعْطِفُ الرَّأيَ عَلَى الْقُرآنِ إذا عَطَفُوا الْقُرآنَ عَلَى الرَّأيِ.

منها: حَتّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ بادِياً نَواجِذُها، مَمْلُوؤةً أَخْلافُها، حُلْواً رَضاعُها، عَلقَماً عاقِبَتُها، ألا وفي غَدٍ وَسَيَأتي غَدٌ بِما لاَ تَعْرِفُونَ، يَأخُذُ الْوالي مِنْ غَيرِها عُمّالَها عَلَى مَساوىء أعمالِها، وتُخْرِجُ لَهُ الأَرْضُ أفاليذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إلَيْهِ سِلْماً مَقاليدَها، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السّيرَةِ، ويُحْيِي مَيِّتَ الْكِتابِ وَالسُّنَّةِ[١]

اللغة

(**السّاق**) ما بين الركبة والقدم والجمع سوق قال سبحانه: فطفق مسحاً بالسوق والأعناق، والسّاق أيضاً الشدّة ومنه قوله تعالى: ويوم يكشف عن ساق، أي عن شدّة، قال الفيروز آبادي: والتفت السّاق بالسّاق آخر شدة الدّنيا بأوّل شدّة الآخرة و(**النّواجذ**) أقصى الأضراس و(**الأخلاف**) جمع الخلف بالكسر كحمل وأحمال وهو من ذوات الخف والظّلف كالثدي للإنسان و(**العلقم**) الحنظل وقيل قثاء الحمار ويقال لكلّ شيء مرّ.

و(**الأفاليذ**) جمع أفلاذ وأفلاذ جمع فلذ وهي القطعة من الكبد، هكذا في شرح المعتزلي، وفي «**المصباح**» للفيومي: الفلذ القطعة من الشيء والجمع فلذ كسدرة وسدر، وقال الفيروز آبادي: الفلذ بالكسر كبد البعير وبهاء القطعة من الكبد ومن الذّهب والفضّة واللّحم والأفلاذ جمعها كالفذ كعنب ومن الأرض كنوزها (**الكبد**) بفتح الكاف وكسرها وككتف معروف و(**المقاليد**) المفاتيح.

الإعراب

(**إذا**) ظرف للزّمان المستقبل والنّاصب فيها شرطها على مذهب المحقّقين فتكون بمنزلة (**متى**) (**وحيثما**) (**وأيّان**) وجزائها على قول الأكثرين كما عزاه إليهم ابن هشام والأظهر هنا أن

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/٥٤٩ ح ٥١، وميزان الحكمة: ١/ ١٨٧ ح ٢٥٢.

يكون ناصبها يعطف لحقّ التّقدم ولما حقّقه نجم الأئمة حيث قال: العامل في (**متى**) وكلّ ظرف فيه معنى الشّرط شرطه على ما قال الأكثرون ولا يجوز أن يكون جزاؤه على ما قال بعضهم كما لا يجوز في غير الظّروف ألا ترى أنك لا تقول أيّهم جاءك فاضرب، بنصب (**أيّهم**)، وأمّا العامل في (**إذا**) فالأكثرون على أنّه جزاءه، وقال بعضهم: هو الشّرط كما في (**متى**) وأخواتها، والأولى أن نفصّل ونقول: إن تضمّن إذا معنى الشّرط فحكمه حكم أخواته في (**متى**) ونحوها وإن لم يتضمّن نحو: (**إذا**) غربت الشّمس جئتك بمعنى أجيئك وقت غروب الشّمس فالعامل هو الفعل الذي في محلّ الجزاء وإن لم يكن جزاء في الحقيقة دون الذي في محلّ الشّرط وهو مخصّص للظّروف، انتهى.

ومن المعلوم أنّ (**إذا**) في هذا المقام من قبيل (**إذا**) في قوله: إذا غربت الشّمس جئتك، وليس فيها معنى الشّرط، (**والباء**) في قوله: (**حتّى تقوم الحرب بكم**) بمعنى (**في**) بدليل قوله تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فتكون للظرفيّة المجازيّة.

(**وبادياً ومملوّة وحلواً وعلقماً**) منصوبات على الحال والعامل (**تقوم**)، والمرفوعات بعدها فواعل ورفع (**علقماً**) لما بعده مع كونه اسماً جامداً لأنّه بمعنى المشتق، أي مريرة عاقبتها.

وقوله: (**في غد**) متعلّق بقوله (**يأخذ**)، وتقدّمه للتوسّع، وجملة (**وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون**) معترضه بين الظرف والمظروف، (**وسلماً**) منصوب على الحال من فاعل (**تلقى**) ولا بأس بمجهوده لعدم شرطيّة الاشتقاق في الحال أو لتأويله بالمشتق أي تلقى مستسلماً منقاداً كما في قوله اجتهد وحدك أي متوحّداً، وقوله (**فيريكم كيف عدل السّيرة**)، (**الفاء**) فصيحة (**وكيف**) خبر مقدّم وهو ظرف عند سيبويه وموضعها نصب وما بعدها متبدأً والجملة في محلّ النّصب مفعول ثان (**ليريكم**)، وعلق عنها العامل لأجل الاستفهام، والمعنى يريكم عدل السّيرة على أي نحو.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة حسبما ذكره السّيد (ره) واردة في ذكر الملاحم أي الوقائع العظيمة المتضمّنة للقتل والاستئصال، واتّفق الشراح على أنّ هذا الفصل منها إشارة إلى ظهور القائم المنتظر عجّل الله فرجه وسهل الله مخرجه وجعلنا الله فداه ومنحنا إتباع آثاره وهداه.

فقوله: (**يعطف الهوى على الهدى**) يريد به أنه عليه السلام إذا ظهر يردّ النفوس الهائرة عن سبيل الله التابعة لظلمات أهوائها عن طرقها الفاسدة ومذاهبها المختلفة إلى سلوك النّهج القويم والصّراط المستقيم، فتهدي الأمم بظهوره وتسفر الظّلم بنوره وذلك (**إذا عطفوا الهدى على**

الهوى) أي إذا ارتدّت تلك النفوس عن اتباع أنوار هدى الله تعالى في سبيله الواضح إلى اتباع أهوائها فيجدّد الشريعة المحمّدية بعد اندحاضها، ويبرم عقدها بعد انتفاضها، ويعيدها بعد ذهابها وانقراضها.

(ويعطف الرّأي على القرآن) أي يردّ الآراء الفاسدة المخالفة للقرآن عليه ويأمر بالرّجوع إليه، ويأخذها وفق الكتاب وطرح ما خالفه في كلّ باب وذلك **(إذا عطفوا القرآن على الرّأي)** وتأوّلوه على ما يطابق مذاهبهم المختلفة وآرائهم المتشتّتة فإن فرق الإسلام من المرجية والمشبّهة والكراميّة والقدرية والمعتزلة وغيرها قد تمسّك كلّ على مذهب الفاسد واستشهد على رأيه الكاسد بآيات الكتاب وزعم أنّ ما رآه ودان به إنّما هو الحقّ والصّواب مع أن كلاًّ منهم قد حاد عن سوى الصّراط، واعتسف في طرفي التّفريط والإفراط، لعدولهم عن قيّم القرآن، واستغنائهم عن خليفة الرّحمٰن، وتركهم السّؤال عن أهل الذّكر والرجوع إلى وليّ الأمر، وإنّما يعرف القرآن من خوطب به ومن نزل ببيته، وهم أهل بيت النّبوة ومعدن الوحي والرّسالة، فمن رجع في تفسيره إليهم كالشّيعة الإماميّة فقد اهتدى، ومن استغنى برأيه عنهم فقد ضلّ وغوى، ومن فسره برأيه فليتبوّأ مقعده النار، وليتهيأ غضب الجبار.

والفصل الثّاني منها إشارة إلى الفتن التي تظهر عند ظهور القائم عليه السلام وهو قوله عليه السلام **(حتّى تقوم الحرب بكم على ساق)** أراد به اشتدادها والتحامها، قال الشّارح البحراني والعلامة المجلسي: وقيامها على ساق كناية عن بلوغها غايتها في الشدّة.

وأقول: والتّحقيق أنّه أريد بالسّاق الشدّة فتكون تقوم بمعنى تثبت فتكون مجازاً في المفرد ويكون المجموع كناية عن اشتدادها، وإن أُريد بالسّاق ما بين القدم والرّكبة فيكون الكلام من باب الاستعارة التّمثيليّة حيث شبه حال الحرب بحال من يقوم ولا يقعد، على حدّ قولهم للمتردّد: أراك تقدّم رِجلاً وتؤخّر أخرى، ولا تجوّز على ذلك في شيء من مفرداته.

وكذا لو قلنا إنّ المجموع مركّب من تلك المفردات موضوع للإفادة المركّب من معانيها، ولم يستعمل فيه واستعمل في مشابهه على طريق التّمثيل بأن شبّه ثبات الحرب واستقرارها بصورة موهومة وهي قيامها على ساق، فعبّر عن المعنى الأوّل بالمركّب الموضوع للمعنى الثاني، كما ذهب عليه جماعة من الأصوليين من أنّ المركبّات موضوعة بإزاء معانيها التركيبيّة كما أنّ المفردات موضوعة بإزاء معانيها الإفراديّة.

ويمكن أن يقال: إنّ الحرب نزلت منزلة إنسان ذي ساق على سبيل الاستعارة بالكناية، ويكون ذكر السّاق تخييلاً والقيام ترشيحاً وكيف كان فالمراد الإشارة إلى شدّتها.

وهو المراد أيضاً بقوله **(بادياً نواجذها)** لأنّ بدو النّواجذ وظهورها من أوصاف الأسد عند غضبه وافتراسه، فأثبته للحرب على سبيل التخييل بعد تنزيلها منزلة الأسد المغضب

باعتبار الشدّة والأذى على الاستعارة بالكناية.

وقال الشّارح المعتزلي: والكلام كناية عن بلوغ الحرب غايتها كما أنّ غاية الضّحك أن تبدو النّواجذ، واعترض عليه البحراني بأنّ هذا وإن كان محتملاً إلاّ أنّ الحرب مظنّة إقبال الغضب لا إقبال الضّحك فكان الأوّل أنسب، أقول: ويستظهر الثاني بجعله من باب التّهكم.

وقوله: **(مملؤة أخلافها)** تأكيد ثالث لشدّتها نزلها منزلة الناقة ذات اللّبن في استعدادها واستكمالها عدّتها ورحالها كما تستكمل النّاقة باللّبن وتهيّؤه لولدها، وذكر الأخلاف تخييل والمملؤة ترشيح.

وأراد بقوله: **(حلواً رضاعها وعلقماً عاقبتها)** أنّها عند إقبالها تستلذ وتستحلي بطمع الظّفر على الأقران والغلبة على الشجعان، ويكون آخرها مرّاً لأنّه القتل والهلاك، ومصير الأكثر إلى النّار، وبئس القرار وفي هذا المعنى قال الشّاعر:

الحرب أوّل ما تكون فتية تسعى بزينتها لكلّ جهول
حتّى إذا اشتعلت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشمّ والتقبيل

ثمّ أشار إلى بعض سيرة القائم فقال **(ألا وفي غد وسيأتي غد بما لا تعرفون)** تنبيه على عظم شأن الغد الموعود بمجيئه وعلى معرفته بما لا يعرفون **(يأخذ)** أي يؤاخذ **(الوالي من غيرها عمالها على مساوىء أعمالها)** قال الشّارح المعتزلي هذا الكلام منقطع عمّا قبله، وقد كان تقدّم ذكر طائفة من النّاس ذات ملك وأمرة فذكر عليه السلام أنّ الوالي من غير تلك الطائفة يعني الإمام الذي يخلفه في آخر الزمان يأخذ عمّال هذه الطائفة بسوء أعمالهم أي يؤاخذهم بذنوبهم.

أقول: ومن هذه المؤاخذة ما ورد في رواية أبي بصير ومن غيره من أنه عليه السلام إذا ظهر أخذ مفتاح الكعبة من بني شيبة وقطع أيديهم وعلّقها بالكعبة وكتب عليها هؤلاء سرّاق الكعبة.

ووردت الأخبار أيضاً بملك الجبابرة والولاة السّوء عند ظهوره عليه السلام في النبوي الذي رواه «**كاشف الغمّة**» من كتاب «**كفاية الطّالب**» عن الحافظ أبي نعيم في فوائده والطّبراني في معجمه الأكبر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سيكون بعدي خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك جبابرة، ثمّ يخرج المهدي من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً[١].

(١) كتاب الأربعين: ٢٠٧، وميزان الحكمة: ١/١٧٩ ح ٢٣٢.

(وتخرج له الأرض أفاليذ كبدها) استعار لفظ الكبد لكنوز الأرض وخزائنها والجامع مشابهة الكنوز للكبد في الخفاء وبذلك الإخراج فسّر قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، في بعض التّفاسير **(وتلقى إليه سلماً)** أي منقاداً **(مقاليدها)** ومفاتيحها قال الشّارح البحراني: أسند لفظ الإلقاء إلى الأرض مجازاً لأن الملقى للمقاليد مسالماً هو أهل الأرض وكنّى بذلك عن طاعتهم وانقيادهم أجمعيهن لأوامره وتحت حكمه.

أقول: والأقرب أن يراد بإلقاء المقاليد فتح المدائن والأمصار.

وقد أشير إليهما أعني إخراج الكنوز وإلقاء المقاليد في رواية نبوية عاميّة وهي ما رواه في «**كشف الغمة**» عن الحافظ أبي نعيم أحمد بن أبي عبد الله بإسناده عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بينكم وبين الروم أربع هدن يوم الرّابعة على يد رجل من آل هرقل يدوم سبع سنين، فقال له رجل من عبد القيس يقال له المستورد بن غيلان: يا رسول الله من إمام النّاس يومئذٍ؟ قال: المهدي من ولدي ابن أربعين سنة كأن وجهه كوكب درّي في خدّه الأيمن خال أسود عليه عباءتان قطوانيّتان كأنّه رجال من بني إسرائيل يستخرج الكنوز ويفتح مدائن الشّرك[1].

(فيريكم كيف عدل السيرة) أي العدل في السيرة أو السيرة العادلة (ويحيي ميّت الكتاب والسنّة) أي يعمل بهما ويحمل النّاس على أحكامهما بعد اندراس أثرهما وهو إشارة إلى بعض سيرته عليه السلام عند قيامه وطريقة أحكامه.

وقد أشير إلى نبذ منها ومن علامات ظهورها فيما رواه «**كاشف الغمّة**» عن الشّيخ المفيد (ره) في كتاب «**الإرشاد**» قال: قال: فأمّا سيرته عليه السلام عند قيامه وطريقة أحكامه وما يبينه الله تعالى من آياته فقد جاءت الآثار به حسب ما قدّمناه.

فروى المفضّل بن عمرو الجعفي قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام يقول: إذا أذن الله تعالى للقائم في الخروج صعد المنبر فدعى النّاس إلى نفس وناشدهم الله ودعاهم إلى حقّه وأن يسير فيهم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله ويعمل فيهم بعمله، فيبعث الله تعالى جبرئيل حتّى يأتيه فنزل على الحطيم ويقول له: إلى أي شيء تدعو؟ فيخبره القائم عليه السلام، فيقول جبرئيل: أنا أوّل من يبايعك وابسط يدك فيمسح على يده وقد وافاه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً فيبايعونه ويقيم بمكّة حتّى يتم أصحابه عشرة آلاف[2].

وروى محمّد بن عجلان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا قام القائم عليه السلام دعى النّاس إلى

---

(١) بحار الأنوار: ٥١/ ٨٠، والمعجم الكبير: ٨/ ١٠٢.

(٢) بحار الأنوار: ٥٢/ ٣٣٧ ح ٧٨، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/ ٥١٥.

الإسلام جديداً، وهديٰهم إلى أمر قد دثر فضل عنه الجمهور، وإنّما سمّي القائم مهديّاً لأنّه هدى إلى أمر مضلول عنه، وسمّى بالقائم لقيامه بالحقّ.

وروى أبو بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا قام القائم هدم المسجد الحرام حتّى يردّه إلى أساسه، وحول المقام إلى الموضع الذي كان فيه، وقطع أيدي بني شيبة وعلّقها بالكعبة، وكتب عليها هؤلاء سراق الكعبة[١].

وروى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل أنّه إذا قام القائم فيخرج منها بضعة عشر ألف أنفس يدعون التبرية، عليهم السّلاح، فيقولون له: ارجع من حيث جئت فلا حاجة بنا إلى بني فاطمة، فيضع عليهم السّيف حتّى يأتي إلى آخرهم ثمّ يدخل الكوفة فيقتل فيها كل منافق مرتاب، ويهدم قصورها ويقتل مقاتلتها حتّى يرضي الله عزّ وجل.

وروى أبو خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: إذا قام القائم جاء بأمر جديد كما دعى رسول الله في بدو الإسلام إلى أمر جديد.

وروى عليّ بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع في أيّامه الجور وأمنت به السبل وأخرجت الأَرض بركاتها وردّ كلّ حق إلى أهله ولم يبق أهل دين حتّى يظهروا الإسلام ويعترفوا بالإيمان أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وحكم في النّاس بحكم داود وحكم محمّد صلّى الله عليهما فحينئذٍ تظهر الأَرض كنوزها وتبدي بركاتها فلا يجد الرّجل منكم يومئذٍ موضعاً لصدقته ولا لبره، لشمول الغنى جميع المؤمنين ثمّ قال عليه السلام إنّ دولتنا آخر الدّول ولم يبق أهل بيت لهم دولة إلاّ ملكوا قبلنا لئلا يقولوا إذا رأو سيرتنا إذا ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] [الأعراف: ١٢٨].

وروى «كاشف الغمة» أيضاً عن الشّيخ الطبرسي عن أبي جعفر عليه السلام قال: المنصور القائم منّا منصور بالرّعب، مؤيّد بالنصر، تطوى له الأَرض، وتظهر له الكنوز ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب ويظهر الله دينه على الدّين كلّه ولو كره المشركون فلا يبقى على وجه الأَرض خراب إلاّ عمّر، وينزل روح الله عيسى ابن مريم فيصلّي خلفه[٣].

قال الرّاوي: فقلت يا ابن رسول الله ومتى يخرج قائمكم؟ قال: إذا تشبه الرّجال بالنّساء

(١) روضة الواعظين: ٢٦٥، والإرشاد: ٢/ ٣٨٤.

(٢) روضة الواعظين: ٢٦٥، والإرشاد: ٢/ ٣٨٥.

(٣) التفسير الصافي: ٢/ ٣٣٣، وكشف الغمة: ٣/ ٣١٢.

والنّساء بالرجال واكتفى الرّجال بالرجال والنّساء بالنساء، وركب ذوات الفروج السّروج، وقبلت شهادة الزّور وردّت شهادات العدل، واستخف الناس بالرّياء وارتكاب الزّناء وأكل الرّباء، واتقى الأشرار مخافة ألسنتهم، وخرج السّفياني من الشّام، واليماني من اليمن، وخسف بالبيداء، وقتل غلام من آل محمد بين الرّكن والمقام واسمه محمّد بن الحسن النفس الزكيّة، وجاءت صيحة من السّماء بأن الحقّ معه ومع شيعته، فعند ذلك خروج قائمنا، فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة واجتمع عليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأوّل ما ينطق به هذه الآية: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ [هود: ٨٦]، ثمّ يقول: أنا بقية الله وخليفته وحجّته عليكم فلا يسلم عليه مسلم إلاّ قال: السّلام عليك يا بقية الله في الأرض، فإذا اجتمع له العدّة عشرة آلاف رجل فلا يبقى في الأرض معبود من دون الله من صنم إلاّ وقعت فيه نار فاحترق، وذلك بعد غيبة طويلة ليعلم الله من يطيعه بالغيب ويؤمن به[١].

تنبيه

قال الشّارح المعتزلي في شرح هذا الفصل من الخطبة: هذا إشارة إلى إمام يخلقه الله تعالى في آخر الزّمان وهو الموعود به في الأخبار والآثار، انتهى.

أقول: لا خلاف بين العامّة والخاصّة في أنّ الله يبعث في آخر الزّمان حجّة يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وأنّه المهدي من أولاد فاطمة سلام الله عليها، وإنّما وقع الخلاف في وقت ولادته وتعيين أمّه وأبيه.

فذهب العامة إلى أنّه يخلقه الله في مستقبل الزمان وأنه غير موجود الآن استناداً إلى حجج ضعيفة ووجوه سخيفة مذكورة في محالها، وعمدة أدلّتهم استبعاد طول عمره الشّريف، فإنّ بنية الإنسان على ما هو المشاهد بالعيان يأخذها السّن ويهدمها طول العمر والعناصر لا يبقى تركيبها أزيد من العمر المتعارف.

وذهبت الخاصّة إلى أنّه الإمام الثاني عشر صاحب الزّمان محمّد بن الإمام حسن العسكري ابن الإمام علي الهادي ابن الإمام محمّد الجواد بن عليّ الرّضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصّادق ابن الإمام محمّد الباقر ابن الإمام عليّ زين العابدين ابن الإمام الحسين الشّهيد ابن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأمّه نرجس أم ولد وأنّه حيّ موجود الآن غائب عن أعين النّاس لمصالح اقتضت غيبته.

فإمامته وغيبته من ضروريّات مذهب الإماميّة وعليه دلّت الأخبار المتواترة من طرقهم ومن طرق العامّة، وقد دونوا فيها أي في الغيبة الكتب، وصنّفوا فيها التصانيف مثل كتاب

(١) بحار الأنوار: ٥٢/١٩٢ ح ٢٤، والأنوار البهية: ٣٧٥.

محمّد بن إبراهيم النعماني الشهير بالغيبة، وكتاب «**الغيبة**» للشيخ أبي جعفر الطوسي وكتاب «**إكمال الدّين وإتمام النعمة**» للشّيخ الصّدوق، والمجلّد الثالث عشر من «**بحار الأنوار**» للمحدّث العلامة المجلسي وغيرها.

بل من العامة من صرّح بتواتر الأَخبار عندهم بذلك واستدلّ على إمامته بروايات كثيرة وبراهين محكمة: مثل الشّيخ أبي عبد الله محمّد بن يوسف بن محمّد الكنجي الشّافعي في كتاب «**البيان في أخبار صاحب الزمان**» في الجواب عن الاعتراض في الغيبة، وكمال الدّين أبو عبد الله محمّد بن طلحة بن محمّد بن الحسن النصيبي الشافعي في كتاب «**مطالب السؤول في مناقب الرّسول**»، وإبراهيم بن محمّد الحمويني في كتاب «**فرائد السّمطين**» في فضل المرتضى والبتول والسّبطين.

وقد أورد المحدّث العلامة السّيد هاشم البحراني أكثر ما أورده في كتاب «**غاية المرام**» وكذلك عليّ بن عيسى الأربلي في «**كشف الغمة**»، وقد كفانا سلفنا الصّالحون ومشايخنا الماضون مؤنة الاستدلال في هذا المقال، وقد أوردوا في كتبهم شبه العامّة وأجابوا عنها بوجوه شافية وافية، ولا حاجة بنا إلى إيرادها إلاّ الجواب عن قولهم: إنه لا يمكن أن يكون في العالم بشر له من السّنّ ما تصفونه لإمامكم وهو مع ذلك كامل العقل صحيح الحسّ.

ومحصّل الجواب أنّ من لزم طريق النّظر وفرّق بين المقدور والمحال لم ينكر ذلك إلاّ أن يعدل عن الإنصاف إلى العناد والخلاف، لأنّ تطاول الزّمان للدنيا في وجود الحياة ومرور الأَوقات لا تأثير له في القدرة، ومن قرأ الأخبار ونظر في كتاب المعمّرين علم أنّ ذلك ممّا جرت العادة به، وقد نطق الكتاب الكريم بذكر نوح وأنّه لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وقد تظافرت الأَخبار بأنّ أطول بني آدم عمراً الخضر عليه السلام، وأجمعت الشّيعة وأصحاب الحديث بل الأمّة بأسرها ما خلا المعتزلة والخوارج على أنه موجود في هذا الزّمان كامل العقل صحيح الحسّ معتدل المزاج، ووافقهم على ذلك أكثر أهل الكتاب.

وفي حديث الصّدوق بإسناده عن الصّادق عليه السلام: وأما العبد الصّالح أعني الخضر عليه السلام فإنّ الله ما طول عمره لنبوّة قدّرها له، ولا كتاب نزّله عليه، ولا لشريعة ينسخ بها شريعة من كان قبله من الأنبياء، ولا لإمامة يلزم عباده الاقتداء بها، ولا لطاعة يفرضها له، بل إن الله تبارك وتعالى لما كان في سابق علمه أن يقدر من عمر القائم ما يقدر من عمر الخضر، وما قدر في أيّام غيبته ما قدّر وعلم ما يكون من إنكار عباده بمقدار ذلك العمر في الطّول، قدر عمر العبد الصّالح في غير سبب يوجب ذلك إلاّ لعلّة الاستدلال به على عمر القائم، وليقطع بذلك حجّة المعاندين، لئلا يكون للناس على الله حجّة[1].

---

(١) مجمع النورين: ٢٤٣.

ولا خلاف أيضاً أن سلمان الفارسي أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قارب أربعمائة سنة، فهب أن المعتزلة والخوارج يحملون أنفسهم على دفع الأخبار فكيف يمكنهم دفع القرآن في عمر نوح وفي دوام أهل الجنّة والنّار، ولو كان ذلك منكراً من جهة العقول لما جاء به القرآن، فمن اعترف بالخضر عليه السلام لم يصح منه هذا الاستبعاد، ومن أنكره فحجته الأخبار والآثار المنبئة عن طول عمر المعمّرين زائداً على قدر المعتاد المتعارف.

وقال محمّد بن يوسف بن محمّد الكنجي الشافعي: وأمّا بقاء المهدي عليه السلام فقد جاء في الكتاب والسنّة، أمّا الكتاب فقد قال سعيد بن جبير في تفسير قوله عزّ وجل: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، قال: هو المهدي عليه السلام من عترة فاطمة، وقد قال مقاتل بن سليمان في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، قال هو المهدي يكون في آخر الزّمان ويكون بعد خروجه قيام السّاعة وإماراتها وأمّا السنّة فقد تقدم في كتابنا هذا من الأحاديث الصحيحة الصّريحة، انتهى.

ولا حاجة بنا إلى إطالة الكلام في هذا المقام وذكر وجوه النقض والإبرام، لأنّ في كتب علمائنا الصّالحين هداية للمسترشد، وغنية للطالب، وإبطالاً لقول المنكر المجاحد، ولنعم ما قيل فيه عليه السلام:

بهم عرف النّاس الهدى فهداهم ... يضلّ الّذي يقلى ويهدي الذي يهوى
موالاتهم فرض وحبّهم هدى ... وطاعتهم قربى وودّهم تقوى

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام عالی مقام است در ذكر واقعات عظيمه و فتن كثيره كه واقع می شود در زمان آينده در وقت ظهور امام زمان و ولیّ حضرت سبحان، عجّل الله فرجه، می فرمايد كه:

برمی گرداند صاحب الزّمان (عليه السلام) هوای نفس مردمان را بر هدايت در زمانی كه برگردانند هدايت را بر هوی و برمی گرداند رأی خلق را بر طبق قرآن در وقتی كه برگردانند قرآن را بر طبق رأی.

بعضی از اين خطبه اشارت است به شدت ايام ظهور آن بزرگوار، می فرمايد:

تا اين كه قائم شود محاربه به شما بر ساق خود در حالتی كه ظاهر شده باشد دندان های آن حرب چون شير غضبناك و در حالتی كه پر شده باشد پستان های آن و شيرين باشد شيردادن آن و تلخ باشد عاقبت آن. آگاه باشيد در فردا و زود باشد بيايد فردا به حيثيتی كه نمی شناسيد شما، مؤاخذه می كند والی كه از غير آن طائفه است كه در روی زمين سلطنت می نمايند عمّال و امراء ايشان را بر بدی های عمل های ايشان و خارج می كند از برای آن بزرگوار زمين جگرپاره ها (يعنی خزائن و دفائن خود را) و بيندازد به سوی او در حالتی كه اطاعت كننده است كليدهای خود را، پس بنمايد به شما كه چگونه است عدالت در روش مملكت داری و رعيت پروری و زنده كند مرده كتاب خدا و سنت خاتم الانبياء (صلى الله عليه و آله) را، (يعنی احكام متروكه قرآن و سنت نبوی را احيا می نمايد و رواج می دهد و برپامی دارد).

الفصل الثاني منها

كَأَنّي قَدْ نَعَقَ بِالشّام، وفَحَصَ بِرَاياتِهِ في ضَواحي كُوفانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وفَرَشَ الأَرْضَ بِالرُّؤوسِ قَدْ فَغَرَتْ فاغِرَتُهُ، وثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعيدُ الْجَوْلَةِ، عَظيمُ الصَّوْلَةِ، وَاللّهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ في أَطْرافِ الأَرْضِ حَتّى لاَ يَبْقَىٰ مِنْكُمْ إِلاّ قَليلٌ كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ، فَلاَ تَزالُونَ كَذَلِكَ حَتّى تَؤُبَ إِلى الْعَرَبِ عَوازِبُ أَحْلاَمِها، فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقائِمَةَ، وَالآثارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذي عَلَيْهِ باقِي النُّبُوَّةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطانَ إِنَّما يُسَنّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ[١].

اللغة

(**نعق**) الرّاعي ينعق من باب ضرب نعيقاً صاح بغنمه وزجرها و(**فحصت**) عن الشيء وتفحّصت استقصيت في البحث، وفحص المطر التراب قلبه وفحص فلان أسرع و(**ضواحي**) البلد نواحيه البارزة لأنّها تضحي وقيل ما قرب منه من القرى و(**الضروس**) النّاقة السّيئة الخلق و(**فغر**) الفم فغراً من باب نفع انفتح وفغرته فتحته يتعدى ولا يتعدى و(**شرد**) البعير شروداً من باب قعد ندّ ونفر وشرّدته تشريداً و(**عزب**) الشيء عزوباً من باب قعد أيضاً بعد وعزب من بابي قتل وضرب غاب وخفي فهو عازب والجمع عوازب و(**سنّاه**) تسنية سهّله وفتحه و(**العقب**) مؤخر القدم.

الإعراب

(**الباء**) في قوله: (**بالشام**)، بمعنى (**في**)، وفي قوله: (**وفحص براياته**)، للمصاحبة أو زائدة وقال الشّارح المعتزلي: هٰهنا مفعول محذوف تقديره (**وفحص النّاس براياته**) أي نحاهم وقلبهم يميناً وشمالاً.

أقول: إن كان فحص بمعنى أسرع فلا حاجة إلى حذف المفعول وعلى جعله بمعنى قبل فيمكن جعل براياته مفعولاً (**والباء**) فيها زائدة، وقوله: (**بعيد الجولة**) منصوب على الحال وكذلك عظيم الصّولة ويرويان بالرفع فيكونان خبرين لمبتدأ محذوف، وإضافتها لفظيّة لأنّها من إضافة الصّفة إلى فاعلها.

قال نجم الأئمة الرّضي: وأمّا الصفة المشبهة فهي أبداً جائزة العمل، فإضافتها أبداً

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٥٥.

لفظيّة، **(والفاء)** في قوله: **(فالزموا)** فصيحة.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام الظاهر أنه إشارة إلى السّفياني كما استظهره المحدث العلامة المجلسي طاب ثراه، وقال أكثر الشّراح إنّه إخبار عن عبد الملك بن مروان، وذلك لأنّه ظهر بالشّام حين جعله أبوه الخليفة من بعده وسار لقتال مصعب بن الزبير إلى الكوفة بعد قتل مصعب مختار بن أبي عبيدة الثقفي فالتقوا بأرض مسكن بكسر **(الكاف)** من نواحي الكوفة، ثمّ قتل مصعباً ودخل الكوفة فبايعه أهلها، وبعث الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزّبير بمكّة فقتله وهدم الكعبة وذلك سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، وقتل خلقاً عظيماً من العرب في وقائع عبد الرّحمٰن بن الأشعث.

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى شرح كلامه عليه السلام فنقول قوله **(كأنّي به)** أي كأنّي أبصر بالشخص الذي يظهر وأراه رأي العين **(قد نعق)** وصاح بجيشه للشخوص **(بالشام وفحص)** أي أسرع **(براياته في ضواحي كوفان)** أي أطراف الكوفة ونواحيها البارزة **(فعطف عليها عطف الضّروس)** شبّه عطفه أي حمله بعطف النّاقة السّيئة الخلق التي تعض حالبها لشدة الغضب والأذى الحاصل منه كما فيه.

(وفرش الأرض بالرّؤوس) استعارة تبعيّة أي غطّاها بها كما يغطي المكان بالفراش، أو استعارة بالكناية حيث شبّه الرّؤوس بالفراش في كون كلّ منهما ساتراً لوجه الأرض ومغطياً لها فيكون ذكر فرش تخييلاً والأظهر جعله كناية عن كثرة القتلى فيها **(قد فغرت فاغرته)** استعارة بالكناية حيث شبّه بالسّبع الضاري يصول وينفتح فمه عند الصّيال والغضب فأثبت الفغر تخييلاً.

(وثقلت في الأرض وطأته) كناية عن استيلائه وتمكنه في الأرض لا عن ظلمه وجوره كما توهّمه الشّارح المعتزلي إذ لا ملازمة بين ثقل الوطي والجور عرفاً كما هو ظاهر **(بعيد الجولة)** أي جولان خيوله وجيوشه في البلاد واتساع ملكه أو جولان رجاله في الحروب بحيث لا يتعقبه السكون **(عظيم الصّولة)** أي صياله في القتال.

ولما فرغ من صفاته العامّة أشار إلى ما يفعله بهم مفتتحاً بالقسم البارّ تحقيقاً لوقوع المخبر به وتحقّقه لا محالة فقال **(والله ليشردنّكم)** أي يطردنكم ويذهبنّ بكم **(في أطراف الأرض حتى لا يبقى منكم إلاّ قليل كالكحل في العين)** شبّه النّاجي من شرهم بالكحل بالاشتراك في القلّة **(فلا تزالون كذلك)** مشرّدين مطرودين منقضين محتقرين **(حتّى تؤب)** وترجع **(إلى العرب عوازب أحلامها)** أي ما كان ذهب من عقولهم العملية في نظام أحوالهم وانتظام أمورهم.

قال الشارح المعتزلي: والعرب هٰهنا بنو العبّاس ومن اتّبعهم من العرب أيّام ظهور الدّولة كقحطبة بن شبيب الطّائي وابنيه حميد والحسن وكبني رزيق بتقديم الرّاء المهملة منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبي وعدادهم في خزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بني العبّاس وقد قيل إن أبا مسلم أيضاً عربي أصله، وكلّ هؤلاء وآباؤهم كانوا مستضعفين مقهورين مغمورين في دولة بني أميّة لم ينهض منهم ناهض ولا وثب إلى الملك واثب إلى أن أفاء الله تعالى هؤلاء ما كان ذهب وعزب عنهم من انائهم وحميتهم فغاروا للدّين والمسلمين من جور بني مروان وظلمهم وقاموا بالأمر وأزالوا تلك الدّولة التي كرهها الله تعالى وأذن في انتقالها.

ثمّ أمرهم باتباع السنّة النبويّة وسلوك جادّة الشّريعة بقوله (**فالزموا السّنن القائمة والآثار البيّنة**) أي الواضحة الرّشد (**والعهد القريب الذي عليه باقي النبوّة**) يعني عهده وأيّامه عليه السلام.

قال الشّارح المعتزلي: وكأنه عليه السلام خاف من أن يكونوا بإخباره لهم بأنّ دولة هذا الجبّار تنقضي إذا آبت إلى العرب عوازب أحلامها يتوهمون وجوب اتباع ولاة الدّولة الجديدة في كل ما تفعله، فوصاهم بهذه الوصيّة، أنّه إذا تبدّلت تلك الدّولة فالزموا الكتاب والسنّة والعهد الّذي فارقتكم عليه.

ثمّ نبه على خدع الشيطان وتسهيله طرق المعاصي لينتبهوا عليها ويحذروا منها فقال (**واعلموا أن الشّيطان يسنى**) ويسهل (**لكم طرقه لتتبعوا عقبه**) حتى يوقعكم في العذاب الأليم والخزي العظيم.

الترجمة

این فصل از خطبه اشارت است به فتنه سفیانی كه قبل از ظهور امام زمان (عليه السلام) خروج خواهد كرد یا به فتنه عبدالملك بن مروان عليه اللّعنة و النیران، می فرماید كه:

گویا می نگرم به او در حالتی كه فریاد كند در شام و برگرداند علم های خود را یا سرعت می كند با علم های خود در اطراف شهر كوفه، پس حمله می كند بر آن اطراف مثل حمله كردن ناقه بدخلق گزنده به دندان بردوشندگان خود و فرش می كند زمین را با سرهای مردمان در حالتی كه گشاده شود دهان او و به جهت استیصال قبائل مثل سبع صائل و سنگین باشد در زمین قدم نهادن او و در حالتی كه دور و دراز باشد جولان او در شهرها و بزرگ باشد حمله او. قسم به ذات پاك خدا كه البته پراكنده گرداند شما را در اطراف زمین به ظلم و جفا تا این كه باقی نماند از شما مگر اندكی مانند سرمه در چشم، پس ثابت می باشید تا این كه بازگردد به سوی جماعت عرب عقل های غایب شده ایشان و چون كه حال بر این منوال باشد، پس لازم شوید بر سنّت های ثابته و نشان های واضحه و بر عهده و پیمان نزدیك كه بر او است باقی پیغمبری و بدانید كه به درستی شیطان ملعون جز این نیست كه آسان می گرداند از برای شما راه های خود را تا تبعیّت نمایید در عقب او.

ومن كلام له عليه السلام في وقت الشورى وهو المائة والتاسع والثلاثون من المختار في باب الخطب

لَنْ يَسْرَعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلى دَعْوَةِ حَقٍّ، وصِلَةِ رَحِم، وعائِدَةِ كَرَم، فَاسْمَعُوا قَوْلي، وَعُوا مَنْطِقي، عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هَذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْم تُنْتَضَىٰ فيهِ السُّيُوفُ، وتُخانُ فيهِ الْعُهُودُ، حَتّى يَكُون بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لأَهْلِ الضَّلالَةِ، وشيعَةً لأَهْلِ الْجَهالَةِ[١].

اللغة

(**العائدة**) المعروف والصّلة والعطف والمنفعة ومنه يقال: فلان كثير العائدة وهذا أعود أي أنفع و(**عوا**) جمع ع أمر من وعيت الحديث وعياً من باب وعد حفظته وتدبّرت فيه و(**نضوت**) السّيف من غمده وانتضيته أخرجته.

الإعراب

قوله: (**إلى دعوة حقّ**) في بعض النسخ دعوة بالتنوين فيكون (**حقّ**) صفة له وفي بعضها بالإضافة والإضافة محضة وكذلك الإضافة (**في صلة رحم وعائدة كرم**)، (**وعسى**) في قوله: (**عسى أن تروا**) للإشفاق في المكروه.

المعنى

اعلم أنّ هذا الكلام كما أشار إليه السّيد (ره) ونبّه عليه الشّارح المعتزلي من جملة كلام قاله لأهل الشّورى بعد وفاة عمر، وقد مضى أخبار الشّورى ومناشداته عليه السلام مع أهل الشورى في التّذييل الثّاني والثالث من شرح الفصل الثالث من الخطبة الثالثة المعروفة بالشّقشقيّة وفيها كفاية لمن أراد الإطلاع.

وأقول هٰهنا: إنّ غرضه عليه السلام بهذا الفصل من كلامه تنبيه المخاطبين وتحذيرهم من الإقدام على أمر بغير تدبّر وتثبّت ورويّة، ونهيهم عن التّسرع والعجلة كي لا تكون بيعتهم فلتة فيتورّطوا في الهلكات ويلقوا بأيديهم إلى التّهلكة.

وقدم جملة من فضائله تحريضاً لهم على استماع قوله وترغيباً على حفظ منطقه فقال (**لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق**) أي لن يبادر أحد قبلي إلى إجابة الدّعاء الحق فما لم أجب

---

(١) كتاب الأربعين: ٢١١، وميزان الحكمة: ٢/١٥٢٨.

إليه لا يكون حقاً أولن يسبقني أحد إلى أن يدعو إلى حقّ فما لم أدع إليه لا يكون حقاً، وفي بعض النّسخ **(لم يسرع)** بدل **(لن يسرع)** فيكون الغرض أن نظري كان فيما مضى إلى الحق فكذلك يكون فيما يستقبل، وكيف كان فالمقصود به الإشارة إلى كونه مع الحق وكون الحقّ معه كما هو منطوق الحديث النّبوي المعروف بين الفريقين.

(وصلة رحم وعائدة كرم) أي معروف وإحسان وانعام **(فاسمعوا قولي)** فإنّ الرّشد في سماعه **(وعوا منطقي)** فإنّ النفع والصّلاح في حفظه، وإنّما أمرهم بالحفظ والسّماع ليتنبّهوا على عاقبة أمورهم وما يترتب عليها من الهرج والمرج فكأنّه يقول إذا كان بناء الأمر أي بناء أمر الخلافة على الخبط والاختلاط والتّقلب فيه على أهله ومجاذبة من لا يستحقّه:

فـ **(ـعسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم)** بحال **(تنتضي)** وتشتهر **(فيه السّيوف وتخان فيه العهود)** قال الشّارح البحراني: وهو إشارة إلى ما علمه من حال البغاة عليه والخوارج والنّاكثين لبيعته، فقوله: **(حتّى يكون بعضكم أئمة لأهل الضّلالة وشيعة لأهل الجهالة)** غاية للتغلب على هذا الأمر وأشار بالأئمة إلى طلحة والزّبير وبأهل الضلالة إلى اتباعهم وبأهل الجهالة إلى معاوية ورؤساء الخوارج وسائر بني أميّة، وبشيعة أهل الجهالة إلى اتباعهم، انتهى.

أقول: وفيه ما لا يخفى، لأنّ هذا الكلام إنّما قاله في وقت الشّورى حيث ما أرادوا عقد البيعة لعثمان، وكان مقصوده به الإيقاف عن بيعته والتحذير عنه بما كان يترتّب عليها من المفاسد ويتعقبها من المضارّ، فلا ارتباط لخروج الخوارج ونكث الناكثة وبغي القاسطة بهذا المقام حتّى يكون كلامه عليه السلام إشارة إليها، لعدم ترتب تلك الأمور على بيعة عثمان، وإنّما ترتبت على بيعته عليه السلام كما هو واضح.

نعم لو كان يقوله لما أريد على البيعة بعد قتل عثمان مثل ما تقدّم في الخطبة الإحدى والتّسعين لم يتأمل في كونه إشارة إلى ما قاله الشّارح، وبعد ذلك كلّه فالأولى أن يجري كلامه مجرى العموم من دون أن يكون إشارة إلى خصوص حال طائفة مخصوصة.

وإن كان ولا بد فالأنسب أن يشار به إلى ما ترتّب من بيعة عثمان من المفاسد فيكون المراد بالسّيوف المنتضاة ما سلّت يوم الدّار لقتل عثمان، وبالعهود التي خينت فيها ما عهده عثمان لأهل مصر أو خيانته في عهود الله عزّ وجلّ وأحكامه، وخيانة طلحة والزّبير وأمثالهما في ما عقدوا وعهدوا من بيعة عثمان، ويكون قوله: أئمة لأهل الضّلالة، إشارة إلى طلحة والزبير حيث كانا أشد النّاس إغراء على قتل عثمان وتبعهما أكثر النّاس، ووصفهم بالضّلالة باعتبار عدم كون قتلهم له على وجه مشروع ظاهراً وقوله: شيعة لأهل الجهالة، إشارة إلى مروان وأضرابه من شيعة عثمان وتبعه الحامين له والذّابين عنه.

ويمكن ما قاله الشّارح بأنّ فساد النّاكثين والقاسطين والمارقين ممّا تولّد من بيعة عثمان ونشأ من خلافته، وذلك لأنّه فضل في العطاء وراعى جانب بني أميّة وبني أبي معيط على سائر النّاس، فلما قام أمير المؤمنين عليه السلام بالأمر تمنى طلحة والزبير منه أن يعامل معهما معاملة عثمان لأقربائه من التفضيل في العطاء والتّقريب، فلمّا لم يحصل ما أملا نكثا، وتبعهما من كان غرضه حطام الدّنيا، وكذلك أقرّ معاوية على عمل الشّام حتّى قويت شوكته، فلمّا نهض أمير المؤمنين بالخلافة أبى واستكبر من البيعة له وبغي وأجابه القاسطون فكانت وقعة صفين ومنها كان خروج الخوارج، فهذه المفاسد كلّها من ثمرات الشجرة الملعونة ومعائب الشورى، والله العالم.

الترجمة

از جمله كلام هدايت نظام آن امام انام است در وقت شورى، مى فرمايد كه:

هرگز مبادرت نمى كند احدى پيش از من به سوى دعوت حق و به رعايت صله رحم و بر احسان و كرم، پس گوش كنيد گفتار مرا و حفظ نماييد سخنان مرا، مبادا كه ببينيد اين امر خلافت را كه كشيده مى شود در او شمشيرها و خيانت كرده شود در او عهدها تا آن كه باشد بعضى از شما پيشوايان اهل ضلالت و گمراهى و شيعيان اهل جهالت و نادانى.

ومن كلام له عليه السلام في النهي عن غيبة الناس
وهو المائة والأربعون من المختار في باب الخطب

وإِنَّما يَنْبَغِي لأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ في السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، ويَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزُ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذي عابَ أَخاهُ وعَيَّرَهُ بِبَلْواهُ، أَما ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عابَهُ بِهِ، وكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيما سِواهُ مِمّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وأَيْمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصاهُ في الْكَبِيرِ وعَصاهُ في الصَّغيرِ لِجُرْءَته عَلى عَيْبِ النّاسِ أَكْبَرُ، يا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَعْجَلْ في عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِه، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، ولا تَأْمَنْ عَلى نَفْسِكَ صَغيرَ مَعْصِيَةٍ فَلَعَلَّكَ مُعذَّبٌ عَلَيْهِ، فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غيرِهِ لِما يَعْلَم مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شاغِلاً لَهُ عَلَى مُعافاتِهِ مِمّا ابْتَلَىٰ بِهِ غَيْرُهُ[1].

اللغة

(صنع) إليه معروفاً من باب منع صنعاً بالضمّ فعله والإسم الصنيع والصنيعة و**(عافاه)** الله من المكروه معافاة وعافية وهب له العافية من العلل والبلاءِ كأعفاء.

الإعراب

قوله: **(ويكون الشكر هو الغالب)**، بنصب الغالب خبر يكون وعلى ذلك فلفظ **(هو)** قبله فصل أتى به للدّلالة على أنّ ما بعده خبر لا تابع له، وله فائدة معنويّة نشير إليه في بيان المعنى، وعلى مذهب البصريّين لا محلّ له من الإعراب، لأنّه عندهم حرف، وقال الكوفيّون: له محلّ فقال الكسائي: محلّه باعتبار ما بعده، وقال الفراء: باعتبار ما قبله، فمحلّه بين المبتدأ والخبر رفع، وبين معمولي ظنّ نصب، وبين معمولي **(كان)** كما في هذا المقام رفع عند الفرّاء، ونصب عند الكسائي، وبين معمولي **(انّ)** بالعكس هذا وفي بعض النسخ الغالب بالرّفع فيكون هو مبتدأ والغالب خبره والجملة خبر **(يكون)**.

وقوله: **(فكيف بالغائب)**، **(الباء)** زائدة في المبتدأ **(وكيف)** خبر له قدّم عليه، وهو ظرف على مذهب الأخفش واسم على مذهب سيبويه، فمحلّه نصب على الأوّل، وعلى الثاني رفع ويتفرّع على ذلك أنّك إذا قلت كيف زيد فمعناه على الأوّل على أيّ حال زيد، وعلى

(١) شرح أصول الكافي: ١١/٢٤٥، ووسائل الشيعة: ١٥/٢٩١ ح ٢٠٥٤٣.

الثاني أصحيح زيد مثلاً أم مريض.

وأمّا في قوله **(وكيف يذمّه)** فهو حال كما نبّه عليه ابن هشام حيث قال: ويقع أي كيف خبراً قبل ما لا يستغني عنه نحو كيف أنت وكيف كنت، ومنه كيف ظننت زيداً وكيف أعلمته فرسك لأنّ ثاني مفعولي **(ظنّ)** وثالث مفعولات أعلم خبران في الأصل، وحالاً قبل ما يستغني عنه نحو كيف جاء زيد أي على أي حالة جاء زيد، انتهى.

والاستفهام هنا خارج مخرج التّعجب كأنه عليه السلام يتعجّب من غيبة الغائب لأخيه ومن مذمة المذنب لمثله، ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، فإنّه أخرج أيضاً مخرج التعجب.

وأما في قوله: **(أما ذكر موضع ستر الله عليه)**، حرف عرض بمنزلة **(لولا)** فيختصّ بالفعل قال ابن هشام وقد يدعي في ذلك أنّ الهمزة للاستفهام التقريري مثلها في **(ألم)** **(والأوان)** **(ما)** نافية، انتهى، وأراد بالتّقرير التّقرير بما بعد النّفي.

وقد يقال إنّها همزة الإنكار، أي لإنكار النّفي وقال التفتازاني: وأما العرض فمولد من الاستفهام، أي ليس باباً على حدّه، فالهمزة فيه همزة الاستفهام دخلت على النّفي وامتنع حملها على حقيقة الاستفهام لأنّه يعرف عدم النزول مثلاً فالاستفهام عنه يكون طلباً للحاصل فتولّد منه بقرينة الحال عرض النزول على المخاطب وطلبه، وهي في التحقيق همزة الإنكار، أي لا ينبغي لك أن لا تنزل، وإنكار النّفي إثبات، انتهى.

وقال بعض المحققين: إنّ حروف التّحضيض تختص بالجمل الفعليّة الخبريّة فإذا كان فعلها مضارعاً فكونها لطلب الفعل والحضّ عليه ظاهراً، وأما إذا كان ماضياً فمعناها اللّوم على ترك الفعل إلاّ أنّها تستعمل كثيراً في لوم المخاطب على أنه ترك شيئاً يمكن تداركه في المستقبل، فكأنّها من حيث المعنى للتحضيض على فعل مثل **(ما فات)**، وليكن هذا على ذكره منك ينفعك في معرفة المعنى.

(ومن) في قوله: **(من ذنوبه)**، إمّا للابتداء كما في قوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَنَ﴾ [النمل: ٣٠]، أو لبيان الجنس أعني موضع أو للتّبعيض أو زائدة في المنصوب كما في قوله: **(ما اتّخذ الله من ولد)**، إلاّ أنّه على قول من يجوز زيادتها في الإثبات أي ستر الله عليه ذنوبه، وقوله: **(ممّا هو أعظم)**، إمّا بدل من ذنوبه أو **(من)** زائدة، ويؤيّده ما في بعض النّسخ من حذف **(من)** فيكون ما هو أعظم مفعول ستر، فافهم وتدبّر.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام له عليه السلام كما نبّه عليه السّيد (ره) وارد في مقام النّهي عن غيبة

النّاس، وهي من أعظم الموبقات الموقع في الهلكات والموجب لانحطاط الدّرجات لأنّ المفاسد الّتي تترتّب على ارتكابها أكثر من المفاسد التي تترتّب على سائر المنهيات، وضرره ضرر نوعي، وضرر سائر المعاصي شخصي غالباً.

بيان ذلك كما قاله الشّارح البحراني أنّه لمّا كان من المقاصد المهمّة للشّارع اجتماع النفوس على همّ واحد وطريقة واحدة، وهي سلوك سبيل الله بسائر وجوه الأوامر والنّواهي ولن يتمّ ذلك إلاّ بتعاون هممهم وتصافي بواطنهم واجتماعهم على الإلفة والمحبّة حتّى يكونوا بمنزلة عبد واحد في طاعة مولاه، ولن يتم ذلك إلاّ بنفي الضّغائن والأحقاد والحسد ونحوه، وكانت الغيبة من كلّ منهم لأخيه مثيرة لضغنه، ومستدعية منه مثلها في حقّه، لا جرم كانت ضدّ المقصود الكلّي للشّارع فكانت مفسدة كليّة، انتهى.

أقول: هذا هو محصّل قوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] وستعرف إن شاء الله معنى الغيبة والأدلّة الواردة في ذمّها ومفاسدها بعد الفراغ من شرح ما رواه السيّد (ره).

وهو قوله: (**وإنّما ينبغي لأهل العصمة**) وهم الّذين عصمهم الله من المعاصي ووقاهم من الجرائر بجعل نفوسهم الأمّارة مقهورة لقوتهم العقلانيّة بما عرّفهم من معائب المعاصي ومنافع الطّاعات فحصل لهم بذلك ملكة الارتداع عن الذّنوب والامتناع عن اقتحام المحارم وهم (**المصنوع إليهم في السّلامة**) أي الّذين اصطنع الله سبحانه إليهم وأنعم عليهم بالسّلامة من الانحراف عن صراطه المستقيم والاعتساف عن نهجه القويم، ومن الخروج من النّور إلى الظّلمات والوقوع في مهاوي الهلكات.

(**أن يرحموا أهل الذّنوب والمعصية**) لمّا رأوا منهم الخطيئة والعصيان والغرق في بحر الذّل والهوان والتّيه في وادي الضّلال والخذلان، والرّحمة منهم إنّما يحمل بإنقاذهم الغريق من البحر العميق وإرشاد التائه إلى الرّشاد بالتنبّه على السّداد في العمل والاعتقاد.

(**ويكون الشّكر**) منهم على ما اصطنع الله إليهم (**هو الغالب عليهم**) والإتيان بضمير الفصل لقصد تخصيص المسند إليه بالمسند أي قصر المسند على المسند إليه على حدّ قوله سبحانه: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، قال صاحب «**الكشاف**» في هذه الآية: فائدة الفصل الدّلالة على أنّ الوارد بعده خبر لا صفة، والتّوكيد أي توكيد الحكم بما فيه من زيادة الرّبط لا التوكيد الإصطلاحي إذ الضمير لا يؤكد الظّاهر، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة في المسند إليه دون غيره يعني أنّ اللازم على أهل العصمة أن يكون شكرهم على نعم الله سبحانه ومن أعظمها عصمته له من الاقتحام في المعاصي هو الغالب عليهم دون غيره، والشّاغل لهم عن حصائد الألسنة وعن التّعريض بعيوب النّاس (**والحاجز لهم عنهم**) وعن كشف سؤاتهم وعوراتهم.

وإذا كان اللازم على أهل العصمة مع ما هم عليه من العصمة وترك المعاصي ذلك **(فكيف بـ)** من هو دونهم من اسراء عالم الحواس والآخذين بهوى الأنفس والمتورطين في الجرائم وموبقات العظائم أعني **(العائب الذي عاب)** واغتاب **(أخاه)** بما يكرهه **(وعيّره)** وقرّعه **(ببلواه)** يعني أنّ اللائق بحال أهل العصمة إذا كان ترك التّعرض بعيوب النّاس فغيرهم مع ما عليهم من العيب أولى بترك التّعرض وأحرى.

وقوله **(أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه)** توبيخ ولوم لهم على ترك الذّكر وتحضيض على تداركه في المستقبل يعني أنه ينبغي له أن يذكر مكان ستر الله عليه ذنوبه مع علمه وإحاطته سبحانه بها صغائرها وكبائرها وبواطنها وظواهرها وسوالفها وحوادثها، وقد ستر عليه من ذنوبه **(مما هو أعظم من الذّنب الذي عابه به)** فإذا ذكر معاملة الله سبحانه مع عبده هذه المعاملة وستره عليه جرائمه وجرائره وعدم تفضيحه له مع علمه بجميع ما صدر عنه من الخطايا والذّنوب فكيف به **(وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله)** ولا يذمّ نفسه **(فإن لم يكن ركب)** مثل **(ذلك الذّنب بعينه فقد عصى الله سبحانه فيما سواه ما هو أعظم منه وأيم الله)** قسما حقاً **(لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرءته على عيب النّاس)** وغيبتهم **(أكبر)**.

ومحصّل المراد أنّه لا يجوز لأحد أن يغيب أخاه لأنّه إمّا أن يكون بذنب وقد ارتكب الغائب مثله أو أكبر منه أو أصغر، فإن كان بذنب قد ارتكب مثله أو أكبر كان له في عيب نفسه شغل عن عيب غيره.

وفيه قال الشّاعر:

إذا جريت مع السّفيه كما جرى	فكلاكما في جريه مذموم
وإذا عتبت على السّفيه ولمته	في مثله ما تأتي فأنت ظلوم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

إلى آخر الأبيات التي مرّت في شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والرابعة وإن كان بذنب ارتكب أصغر منه فهو ممنوع أيضاً، لأنّ جرأته على الغيبة وإقدامه عليها أكبر المعاصي باعتبار ما يترتب عليها من المفاسد والمضارّ الدّنيويّة والأخرويّة.

ثمّ نادى عليه السلام نداء استعطاف فقال **(يا عبد الله لا تعجل في عيب أحد بذنبه فلعلّه مغفور له)** ولعلّه تائب عنه **(ولا تأمن على نفسك صغير معصية فعلّك معذّب عليه)** ومعاتب به.

ثمّ أكد لهم الوصيّة بقوله **(فليكفف من علم منكم عيب غيره)** عن غيبته وتوبيخه وتفضيحه **(لـ)** ـمكان **(ما يعلم عيب نفسه وليكن الشّكر شاغلاً له على)** ما أنعم الله سبحانه به عليه من **(معافاته)** وعصمته له **(ممّا ابتلى به غيره)**.

تنبيه

في تحقيق معنى الغيبة والأدلّة الواردة في حرمتها وما يترتّب عليها من العقوبات ودواعيها ومستثنياتها وعلاجها وكفارتها.

وقد حقّق الكلام فيها علماؤنا البارعون قدّس الله أرواحهم في كتب الأخلاق والفقه في مقدّمات أبواب المعايش بما لا مزيد عليه، بل قد أفرد بعضهم لتحقيقها رسالة مستقلّة فأحببنا أن نورد بعض ما فيها حسب ما اقتضته الحال والمجال لكونها من أعظم عثرات الإنسان وأوبق آفات اللّسان، فأقول وبالله التّوفيق: الكلام في المقام في أمور:

الأمر الأول

في تحقيق معناها، فأقول: قال الفيومي إغتابه اغتياباً إذا ذكره بما يكره من العيوب وهو حقّ والاسم الغيبة فإن كان باطلاً فهو الغيبة في بهت، وفي «**القاموس**» غابه عابه وذكره بما فيه من السوء، كاغتابه والغيبة بالكسر فعلة منه، وعن «**الصحاح**» الغيبة أن يتكلّم خلف إنسان مستور بما يغمّه لو سمعه، فإن كان صدقاً سمّي غيبة فإن كان كذباً سمّي بهتاناً.

وعن النبي ﷺ وقد سأله أبو ذر عن الغيبة: أنها ذكرك أخاك بما يكرهه.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ أتدرون ما الغيبة؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال ﷺ: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته[١].

والظاهر أن يكون المراد بالذكر في كلامه وكلام غيره كما فهمه الأصحاب الأعمّ من الذكر القولي وإن كان عبارة «**الصّحاح**» تفيد الاختصاص، فكلّ ما يوجب التذكر للشّخص من القول والفعل والإشارة وغيرها فهو ذكر له، وممّن صرّح بالعموم ثاني الشهيدين وصاحب «**الجواهر**» وشيخنا العلامة الأنصاري في «**المكاسب**».

قال الغزالي: إنّ الذكر باللّسان إنّما حرم لأنّ فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتّعريض به كالتّصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكلّ ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة، فمن ذلك قول عائشة دخلت علينا امرأة فلمّا ولّت أومأت بيدي أنّها قصيرة فقال ﷺ اغتبتها، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشي متعارجاً أو كما يمشي لأنّه أعظم في التّصوير والتّفهيم ولما رأى ﷺ عائشة حاكت امرأة قال ﷺ: ما يسرّني أنّي حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا، وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم

(١) شرح كلمات أمير المؤمنين: ٣٨ ح ٤٧، وعوالي اللئالي: ١/ ٢٧٥.

أحد اللّسانين[١].

قال شيخنا العلامة الأنصاري: ومن ذلك تهجين المطلب الذي ذكره بعض المصنفين بحيث يفهم منه الإزراء بحال ذلك المصنّف فإن قولك: إنّ هذا المطلب بديهي البُطلان تعريض لصاحبه بأنّه لا يعرف البديهيات، بخلاف ما إذا قيل إنّه مستلزم لما هو بديهي البطلان، لأنّ فيه تعريضاً بأن صاحبه لم ينتقل إلى الملازمة بين المطلب وبين ما هو بديهيّ البطلان، ولعل الملازمة نظريّة، هذا.

والمراد من الأخ في النبويين كما صرّح به غير واحد من الأعلام هو المسلم فإن غيبة الكافر وإن تسمّى غيبة في اللّغة إلاّ أنّها لا يترتّب عليها حكم الحرمة إذ لا أخوة بينه وبين المسلم، بل لا خلاف في جواز غيبتهم وهجوهم وسبّهم ولعنهم وشتمهم ما لم يكن قذفاً وقد أمر رسول الله ﷺ حسّاناً بهجوهم، وقال: إنّه أشدّ عليهم من رشق النّبال.

وبذلك يظهر اشتراك المخالفين للمشركين في جواز غيبتهم كما يجوز لعنهم لانتفاء الأخوّة بينهم وبين المؤمنين، ولذلك قال ثاني الشّهيدين في حدّها: وهو القول وما في حكمه في المؤمن بما يسوءه لو سمعه مع اتّصافه به، وفي «**جامع المقاصد**» وحدّها على ما في الأخبار أن يقول المرء في أخيه ما يكرهه لو سمعه ممّا فيه، ومن المعلوم أنّ الله تعالى عقد الأخوّة بين المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، دون غيرهم وكيف يتصوّر الأخوّة بين المؤمن والمخالف بعد تواتر الرّوايات وتظافر الآيات في وجوب معاداتهم والبراءة منهم.

فانقدح بذلك فساد ما على الأَردبيلي والخراساني (ره) من المنع عن غيبة المخالف نظراً إلى عموم أدلّة تحريمها من الكتاب والسنّة لأنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب﴾ [الحجرات: ١٢]، خطاب للمكلّفين أو لخصوص المسلمين، وعلى التّقديرين فيعمّ المخالف والسنّة أكثرها بلفظ النّاس والمسلم وهما معاً شاملان للجميع ولا استبعاد في ذلك إذ كما لا يجوز أخذ مال المخالف وقتله لا يجوز تناول عرضه.

ووجه ظهور الفساد أنّ ذيل الآية مفيد لاختصاص الخطاب بالمؤمنين، لأن تعليل النّهي عنها بأنّها بمنزلة أكل لحم الأخ يدلّ على اختصاص الحرمة بمن كان بينه وبين المغتاب أخوة كما أشرنا.

قال شيخنا العلامة: وتوهم عموم الآية كبعض الرّوايات لمطلق المسلم مدفوع بما علم بضرورة المذهب من عدم احترامهم وعدم جريان أحكام الإسلام عليهم إلاّ قليلاً مما يتوقف استقامة نظام معاش المؤمنين عليه، مثل عدم انفعال ما يلاقيهم بالرّطوبة، وحلّ ذبائحهم

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٢٢٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٣٣٧.

ومناكحهم وحرمة دمائهم، لحكمة دفع الفتنة وفسادهم لأنّ لكلّ قوم نكاح أو نحو ذلك.

وقال صاحب «**الجواهر**» بعد نقل كلام الأردبيلي: ولعلّ صدور ذلك منه لشدة تقدّسه وورعه، لكن لا يخفى على الخبير الماهر الواقف على ما تظافرت به النصوص بل تواترت من لعنهم وسبّهم وشتمهم وكفرهم وأنّهم مجوس هذه الأمّة وأشرّ من النّصارى وأنجس من الكلاب أنّ مقتضى التّقدس والورع خلاف ذلك، وصدر الآية: الّذين آمنوا، وآخرها التّشبيه بأكل لحم الأخ «إلى أن قال» وعلى كل حال فقد ظهر اختصاص الحرمة بالمؤمنين القائلين بإمامة الأئمة الإثنى عشر دون غيرهم من الكافرين والمخالفين ولو بإنكار واحد منهم.

ثمّ الظاهر من المؤمن المغتاب بالفتح أعم من أن يكون حيّاً أو ميّتاً ذكراً أو أنثى بالغاً أو غير بالغ مميّزاً أو غير مميّز، وقد صرّح بالعموم شيخنا السيدّ العلامة طاب رمسه في «**مجلس الدّرس**»، ومثله «**كاشف الرّيبة**» حيث صرّح بعدم الفرق بين الصّغير والكبير وظاهره الشّمول لغير المميز أيضاً.

وقال شيخنا العلامة الأنصاري (قد): الظاهر دخول الصّبي المميّز المتأثّر بالغيبة لو سمعها، لعموم بعض الرّوايات المتقدّمة وغيرها الدّالة على حرمة اغتياب النّاس وأكل لحومهم مع صدق الأخ عليه كما يشهد به قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، مضافاً إلى إمكان الاستدلال بالآية وإن كان الخطاب للمكلّفين بناءً على عدّ أطفالهم منهم تغليباً وإن كان دعوى صدق المؤمن عليه مطلقاً أو في الجملة.

وعلى ما ذكرناه من التّعميم فلا بدّ أن يراد من السّماع في تعريفهم لها بأنّها ذكر المؤمن بما يسوءه لو سمعه الأعم من السّماع الفعلي، والمراد بالموصول فيما يسوءه ما يكره ظهوره سواء كره وجوده كالجذام والبرص ونحوهما أم لا كالميل إلى القبائح.

والمستفاد من بعض الرّوايات كغير واحد من الأصحاب عدم الفرق في ما يكره بين أن يكون نقصاً في الدّين أو الدّنيا أو البدن أو النّسب أو الخلق أو الفعل أو القول أو ما يتعلّق به من ثوبه أو داره أو دابّته أو غير ذلك.

أمّا في الدّين فكقولك هو سارق أو كذّاب أو شارب الخمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصّلاة أو الزّكاة أو لا يحسن الرّكوع أو السّجود أو لا يحترز من النّجاسات أو ليس بارّاً بوالديه.

وأمّا في الدّنيا فكقوله إنّه قليل الأدب متهاون بالنّاس أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على النّاس أو أنّه كثير الكلام أو كثير الأكل أو كثير النّوم ينام في غير وقته.

وأما البدن فكما تقول إنّه طويل أو قصير أو أعمش أو أحول أو أقرع أو لونه أصفر أو أسود ونحو ذلك ممّا يسوءه.

وأمّا النسب فكقولك: أبوه فاسق أو خسيس أو حجام أو زبّال أو ليس بنجيب.

وأما الخلق فبأن تقول إنّه سيء الخلق بخيل متكبّر مختال مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهوّر وما يجري مجرى ذلك.

وأما الفعل فإمّا أن يكون متعلّقاً بالدّين أو الدّنيا وقد مر مثالهما.

وأمّا القول فكقولك إنّه كذاب أو سبّاب أو أنّه تمتام أو أعجم أو ألكن أو ألثغ أو أليغ ونحو ذلك.

وأمّا في ثوبه فكقولك إنّه واسع الكم طويل الذّيل وسخ الثّياب ونحوها.

وأمّا في داره فكما تقول أنّه مفحص قطاة أي في الصّغر أو كدير النّصارى أو نحوهما.

وأمّا في دابته فكقولك لحصانه إنّه برذون أو لبغلته إنّها بغلة أبي دلامة أي كثيرة العيوب ولأَبي دلامة ذلك قصيدة في ذكر معائبها منها قوله:

أرى الشّهباء تعجن إذ غدونا ... برجليها وتخبزنا بيدين

الثاني في الأدلة الدالة على حرمة الغيبة

وما ترتّب عليها من الذّم والعقوبة فأقول: إنّها محرّمة بالأدلّة الأربعة أعني الكتاب والسنّة والإجماع والعقل، فأمّا الإجماع فواضح، وأمّا العقل فلأنّها موجبة لفساد النظام وانفصام عروة الانتظام، وعليها تبنى القبائح ومنها يظهر العدوّ المكاشح على ما مرّ توضيحه في شرح كلام الإمام عليه السلام.

وأما الكتاب فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فجعل سبحانه المؤمن أخا وعرضه كلحمه والتفكه به أكلاً وعدم شعوره بذلك بمنزلة حالة موته.

قال الفخر الرّازي: الحكمة في هذا التشبيه الإشارة إلى أنّ عرض الإنسان كدمه ولحمه وهذا من باب القياس الظّاهر، وذلك لأنّ عرض المرء أشرف من لحمه، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم النّاس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى، لأنّ ذلك ألم. وقوله: لحم أخيه آكداً في المنع لأنّ العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدوّ فقال تعالى أصدق الأصدقاء من ولدته أمّك فأكل لحمه أقبح ما يكون، وقوله تعالى: ﴿مَيْتًا﴾، إشارة إلى دفع وهم وهو أن يقال: القول في الوجه يؤلم فيحرم وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم، فقال: أكل لحم الأخ وهو ميّت أيضاً لا يؤلم، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنّه لو اطلع عليه لتألم كما أن الميت لو أحسّ بأكل لحمه لآلمه ذلك، هذا.

والضّمير في قوله: فكرهتموه، إمّا راجع إلى الأكل المستفاد من أن يأكل، أو إلى

اللّحم، أي فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكرهوا غيبته حيّاً، أو الميت في قوله ميّتاً، والتّقدير أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميّتاً متغيّراً فكرهتموه فكأنّه صفة لقوله ميتاً ويكون فيه زيادة مبالغة في التّحذير يعني الميتة إن أكلت لسبب كان نادراً ولكن إذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلاً فكذلك ينبغي أن تكون الغيبة.

(والفاء) فيه تفيد التعلّق وترتب ما بعدها على ما قبلها، وهو من تعلّق المسبّب بالسّبب وترتّبه عليه كما تقول جاء فلان ماشياً فتعب، لأنّ المشي يورث التّعب فكذا الموت يورث النفرة والكراهة إلى حدّ لا يشتهي الإنسان أن يبيت في بيت فيه ميّت فكيف يقربه بحيث يأكل منه، ففيه إذاً كراهة شديدة فكذلك ينبغي أن تكون حال الغيبة.

ومن الكتاب أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، قال اللّيث: الهمزة هو الّذي يعيبك بوجهك، واللّمزة الّذي يعيبك بالغيب، وقيل: الهمز ما يكون باللّسان والعين والإشارة، واللّمز لا يكون إلاّ باللّسان، وقيل: هما بمعنى واحد.

ومنه أيضاً قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩] روى في **«الكافي»** عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الّذين قال الله عزّ وجلّ **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾**[1].

وأما السنّة فيدلّ عليها منها أخبار لا تحصى.

مثل ما رواه في **«الكافي»** عن عليّ بن إبراهيم عن النّوفلي عن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله الغيبة أسرع في دين الرّجل المسلم من الأكلة في جوفه.

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الجلوس في المسجد انتظار الصّلاة عبادة ما لم يحدث، قيل: يا رسول الله وما يحدث؟ قال الاغتياب[2].

وفيه مسنداً عن مفضّل بن عمر قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروّته ليسقط من أعين النّاس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشّيطان فلا يقبله الشيطان[3].

---

(١) الكافي: ٢/٣٥٧ ح ٢، والأمالي: ٤١٧ ج ٥٤٩.

(٢) الكافي: ٢/٣٥٧، والأمالي: ٥٠٦.

(٣) الكافي: ٢/٣٥٨ ح ١.

وفي «**الوسائل**» من المجالس بإسناده عن أبي بصيرة عن النبي صلى الله عليه وآله في وصيّة له قال: يا أبا ذر إيّاك والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزّنا، قلت: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: لأنّ الرّجل يزني فيتوب إلى الله فيتوب الله عليه، والغيبة لا تغفر حتّى يغفرها صاحبها يا أبا ذر سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وأكل لحمه من معاصي الله وحرمة ماله كحرمة دمه، قلت: يا رسول الله وما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكرهه، قلت: يا رسول الله فإن كان فيه الذي يذكر به؟ قال: اعلم أنّك إذا ذكرته بما هو فيه فقد اغتبته، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتّه[١].

وفي «**الوسائل**» عن الحسين بن سعيد في كتاب الزهد مسنداً عن زيد بن عليّ عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: تحرم الجنّة على ثلاثة: على المنّان، وعلى المغتاب، وعلى مدمن الخمر.

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله الشّامي عن نوف البكالي أنه قال: أتيت أمير المؤمنين وهو في رحبة مسجد الكوفة فقلت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال: وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته، فقلت: يا أمير المؤمنين عظني، فقال: يا نوف أحسن يحسن إليك «إلى أن قال» قلت زدني قال: اجتنب الغيبة فإنّها أدام كلاب النار، ثمّ قال: يا نوف كذب من زعم أنّه ولد من حلال وهو يأكل لحوم النّاس بالغيبة[٢].

وفي «**المكاسب**» لشيخنا العلامة الأنصاري طاب رمسه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنه خطب يوماً فذكر الرّبا وعظم شأنه فقال: إنّ الدّرهم يصيبه الرّجل أعظم من ستّة وثلاثين زنية، وإنّ الربا عرض الرّجل المسلم[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: من اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين صباحاً إلاّ أن يغفر له صاحبه[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله: من اغتاب مؤمناً بما فيه لم يجمع الله بينهما في الجنّة، ومن اغتاب مؤمناً بما ليس فيه انقطعت العصمة بينهما، وكان المغتاب خالداً في النّار وبئس المصير[٥].

وعنه صلى الله عليه وآله: كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة، فاجتنب الغيبة فإنها أدام كلاب النار[٦].

---

(١) وسائل الشيعة: ٨/ ٥٩٩، والأمالي: ٥٣٧.
(٢) الأمالي: ٢٧٨.
(٣) بحار الأنوار: ٧٢/ ٢٢٢، والغدير: ١٠/ ١٨٧ ح ٨.
(٤) كتاب المكاسب: ١/ ٣١٦، ومصباح الفقاهة: ١/ ٥١٨.
(٥) كتاب المكاسب: ١/ ٣١٦، والمكاسب المحرمة: ١/ ٢٥٦.
(٦) كتاب المكاسب: ١/ ٣١٦، ومصباح الفقاهة: ١/ ٣٣٠.

وعنه ﷺ: من مشى في غيبة أخيه وكشف عورته كانت أوّل خطوة خطاها وضعها في جهنّم[١].

وروى أنّ المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنّة وإن لم يتب فهو أول من يدخل النار.

وعنه ﷺ: إنّ الغيبة حرام على كلّ مسلم وإنّ الغيبة لتأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب[٢].

قال شيخنا (قد): وأكل الحسنات إمّا أن يكون على وجه الإحباط لاضمحلال ثوابها في جنب عقابه، أو لأنها تنقل الحسنات إلى المغتاب كما في غير واحد من الأخبار ومن جملتها النبوي يؤتى بأحد يوم القيامة فيوقف بين يدي الرّب عزّ وجلّ ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته فيه، فيقول إلهي ليس هذا كتابي لا أرى فيه حسناتي، فيقال له: إنّ ربّك لا يضلّ ولا ينسى ذهب عملك باغتياب النّاس، ثمّ يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه فيرى فيه طاعات كثيرة فيقول إلهي ما هذا كتابي فإنّي ما عملت هذه الطاعات، فيقال له: إنّ فلاناً اغتابك فدفع حسناته إليك.

وفي عقاب الأعمال بإسناده عن أبي بردة قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ ثم انصرف مسرعاً حتّى وضع يده على باب المسجد ثمّ نادى بأعلى صوته: يا معشر النّاس لا يدخل الجنّة من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتّبعوا عورات المؤمنين فإنّه من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فيفضحه ولو في جوف بيته.

وفيه أيضاً بإسناده عن حفص بن غياث عن جعفر بن محمّد عليهما السلام قال: قال رسول الله ﷺ: أربعة تؤذون أهل النّار على ما بهم من الأذى يسقون من الحميم والجحيم وينادون بالويل والثبور فيقول أهل النّار بعضهم لبعض ما لهؤلاء الأربعة قد آذونا على ما بنا من الأذى: فرجل معلّق عليه تابوت من جمر، ورجل تجري أمعاؤه صديداً ودماً أسود نتناً، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً، ورجل يأكل لحمه، فيقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد مات وفي عنقه أموال النّاس لم يجد لها في نفسه أداء ولا وفاء، ثم يقال للذي تجري أمعاؤه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول من جسده، ثمّ يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد كان يحاكي فينظر إلى كلّ كلمة خبيثة ويحاكي بها ثمّ يغتاب النّاس، ثمّ يقال للذي يأكل لحمه: ما بال الأبعد قد آذانا

---

(١) كتاب المكاسب: ١/٣١٦، ومنهاج الفقاهة: ٢/٩.

(٢) الكافي: ٨/٤٥، وتحف العقول: ٤٩٣.

على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد كان يأكل لحوم النّاس بالغيبة ويمشي بالنّميمة(١).

وفي **«الأنوار النّعمانية»** للمحدّث الجزائري عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: مررت ليلة أسري بي إلى السّماء على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين يغتابون النّاس ويقعون في أعراضهم(٢).

وفيه أيضاً وروى أنّه أمر بصوم يوم وقال: لا يفطرن أحد حتّى آذن له، فصام النّاس حتى إذا أمسوا جعل الرّجل يجيء فيقول: يا رسول الله ظللت صائماً فأذن لي لأفطر فيأذن له، والرّجل والرّجل حتّى جاء رجل فقال: يا رسول الله فتاتان من أهلي ظلّتا صائمتين فإنّهما تستحيان أن يأتيانك فأذن لهما أن تفطرا فأعرض عنه، ثمّ عاوده فأعرض عنه، ثمّ عاوده فقال صلى الله عليه وآله إنهما لم تصوما وكيف صام من ظل هذا اليوم يأكل لحوم النّاس اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيا فرجع إليهما فأخبرهما فاستقائتا فقاءت كلّ واحدة منهما علقة من دم، فرجع إلى النّبي فأخبره، فقال صلى الله عليه وآله: والذي نفس محمّد بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النّار.

وفي رواية أنّه لما أعرض عنه جاءه بعد ذلك وقال: يا رسول الله إنّهما والله لقد قائتا وكادتا أن تموتا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ائتوني بهما فجاءتا فدعى بقدح فقال لإحداهما قيئي فقاءت من قيح ودم صديد حتّى ملأت القدح، وقال للأخرى قيئي، فقاءت كذلك، فقال صلى الله عليه وآله إنّ هاتين صامتا عما أحل الله وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما على الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم النّاس(٣)، ورواهما الغزالي في **«إحياء العلوم»** عن أنس مثلهما.

قال شيخنا العلامة طاب رمسه: ثمّ إنّه قد يتضاعف عقاب المغتاب إذا كان ممّن يمدح المغتاب في حضوره، وهذا وإن كان في نفسه مباحاً إلاّ أنه إذا انضمّ مع ذمه في غيبته سمّي صاحبه ذا اللّسانين يوم القيامة وتأكد رحمته وذا ورد في المستفيضة أنّه يجيء ذو اللّسانين يوم القيامة وله لسانان من نار، فإنّ لسان المدح في الحضور وإن لم يكن لساناً من نار إلاّ أنّه إذا انضم إلى لسان الذّم في الغياب صار كذلك.

وعن المجالس بسنده عن حفص بن غياث عن الصادق عن أبيه عن آبائهم عليهم السلام عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من مدح أخاه المؤمن في وجهه واغتابه من ورائه فقد انقطعت العصمة بينهما(٤).

---

(١) الأمالي: ٦٧٧، وثواب الأعمال: ٢٤٨.

(٢) بحار الأنوار: ٧٢/ ٢٢٢، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٣٢٨.

(٣) كنز العمال: ٣/ ٥٩٠ ح ٨٠٤٧، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٢٣٠.

(٤) الأمالي: ١٦٤، ووسائل الشيعة: ١٢/ ٢٨٥ ح ١٦٣١٩.

وعن الباقر عليه السلام: بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين يطرى أخاه شاهداً ويأكله غائباً إن أعطى حسده وإن ابتلى غضبه[١].

الثالث في دواعي الغيبة

وهي كثيرة وقد أشار إليها الصّادق عليه السلام إجمالاً بقوله: الغيبة تتنوع عشرة أنواع شفاء غيظ، ومساعدة قوم، وتصديق خبر بلا كشف، وتهمة، وسوء ظنّ، وحسد وسخرية، وتعجّب، وتبرّم، وتزين[٢]، رواه في **«المكاسب»** و**«الأنوار النعمانيّة»** وأمّا تفصيلها فقد نبّه عليه أبو حامد الغزالي في **«إحياء العلوم»** وقال:

فالأول: تشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فإنّه إذا هاج غضبه يشتفي بذلك مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين رادع، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب بالباطن فيصير حقداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء فالحقد والحسد من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنّهم إذا كانوا يتفكّهون بذكر الأعراض فيرى أنّه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنّه مجاملة في الصّحبة، وقد يغضب رفقائه فيحتاج إلى أن يغضب بغضبهم إظهاراً للمساهمة في السّراء والضراء، فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله، ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتديء بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده، فيروج كذبه بالصّدق الأول ويستشهد به ويقول ما من عادتي الكذب فإنّي أخبرتكم بكذا وكذا عن أحواله فكان كما قلت.

الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يبرّء نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله.

الخامس: إرادة التصنع والمباهات وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك، وغرضه في ضمن ذلك فضل نفسه ويوهم أنّه أفضل منه أو يحذّر أن يعظّم مثل

---

(١) الأمالي: ٤١٧ ح ٥٥١، وروضة الواعظين: ٤٧٠.

(٢) مستدرك الوسائل: ١١٨/٩، وميزان الحكمة: ٢٣٣٦/٣ ح ٣١٣٧.

تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

السادس: الحسد وهو أنّه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه، فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند النّاس حتى يكفوا عن إكرامه والثناء عليه.

السابع: اللّعب والهزل والمطايبة وترجيه الوقت بالذكر وتزيين الوقت بالذّكر فيذكر غيره بما يضحك النّاس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التّعجب والتعجيب.

الثامن: السّخرية والاستهزاء استحقاراً له فإنّ ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في الغيبة ومنشؤه التكبّر واستصغار المستهزء به.

التاسع: الرّحمة وهو مأخذ دقيق ربما يقع فيه الخواص، وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمّني أمره وما ابتلي به فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام ويلهيه الغمّ عن الحذر ذكر اسمه، فيصير بذكره مغتاباً فيكون غمّه ورحمته خيراً لكنّه ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري والترحّم والاغتمام ممكن من دون ذكر اسمه فهيّجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحّمه.

العاشر: الغضب لله تعالى وهو كسابقه في غموض ادراكه وخفائه على الخواص فضلاً عن العوام فإنّه قد يغضب على منكر قارفه انسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يذكر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولا يظهر على غيره أو يستره ولا يذكر اسمه بالسّوء.

الرابع في عدم جواز استماع الغيبة

قال شيخنا في «**المكاسب**»: يحرم استماع الغيبة بلا خلاف، فقد ورد أن السّامع للغيبة أحد المغتابين، والأخبار في رحمته كثيرة إلاّ أنّ ما يدل على كونه من الكبائر كالرّواية المذكورة ونحوها ضعيفة السّند.

أقول: ومن جملة الأخبار الدالّة على حرمته ما رواه الصّدوق في «**عقاب الأعمال**» بإسناده عن أبي الورد عن أبي جعفر عليه السلام: قال من اغتيب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعانه نصره الله وأعانه في الدّنيا والآخرة، ومن لم ينصره ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته حقّره الله عزّ وجلّ في الدّنيا والآخرة[1].

وفيه أيضاً في حديث طويل عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ومن رذ عن أخيه غيبة سمعها في

(١) كتاب المؤمن: ٧٢ ح ١٩٧، وثواب الأعمال: ١٤٨.

مجلس ردّ الله عزّ وجلّ عنه ألف باب من الشرّ في الدّنيا والآخرة وإن لم يرد عنه كان عليه كوزر من اغتاب[١].

وفي «**الوسائل**» عن الصّدوق بإسناده عن شعيب بن واقد عن الحسين بن زيد عن الصّادق عن آبائه عليهم السلام في حديث المناهي إن رسول الله ﷺ نهى عن الغيبة والاستماع إليها، ونهى عن النّميمة والاستماع إليها، وقال: لا يدخل الجنّة قتات، يعني نمّاماً، ونهى عن المحادثة التي يدعو إلى غير الله، ونهى عن الغيبة وقال: من اغتاب أمرء مسلماً بطل صومه ونقض وضوءه وجاء يوم القيامة يفوح من فيه رائحة أنتن من الجيفة يتأذى به أهل الموقف، وإن مات قبل أن يتوب مات مستحلاً لما حرم الله عزّ وجلّ، ألا ومن تطوّل على أخيه في غيبة سمعها فيه في مجلس فردّها عنه ردّ الله عنه ألف باب من الشرّ في الدّنيا والآخرة، فإن لم يردّها وهو قادر على ردّها كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرّة[٢].

قال شيخنا: ولعل وجه زيادة عقابه أنّه إذا لم يردّه تجرّي المغتاب على الغيبة فيصرّ على هذه الغيبة وغيرها، ثمّ قال: والظاهر أنّ الرّد غير النّهي عن الغيبة والمراد به الانتصار للغائب بما يناسب تلك الغيبة، فإن كان عيباً دنيويّاً له بأنّ العيب ليس إلاّ ما عاب الله به من المعاصي التي من أكبرها ذكرك أخاك بما لم يعبه الله به، وإن كان عيباً دينياً وجّهه بمحامل تخرجه عن المعصية فإن لم يقبل التوجيه انتصر له بأنّ المؤمن قد يبتلي بالمعصية فينبغي أن يستغفر له ويهتم له، لا أن يعيّر عليه، لأنَ تعييرك إياه لعله أعظم عند الله من معصيته ونحوه.

ثمّ اعلم أن المحرم إنّما هو سماع الغيبة المحرّمة دون ما علم حليتها ولو كان متجاهراً عند المغتاب مستوراً عند المستمع وقلنا بجواز الغيبة حينئذٍ للمتكلّم فالأقوى جواز الاستماع لأنّه قول غير منكر، فلا يحرم الإصغاء إليه للأصل والرّواية الدّالة على كون السّامع أحد المغتابين تدلّ على أنّ السّامع لغيبة كقائل تلك الغيبة، فإن كان القائل عاصياً كان المستمع كذلك، فيكون دليلاً على الجواز فيما نحن فيه.

الخامس في مستثنيات الغيبة

أي الموارد التي يجوز فيها الغيبة جوازاً بالمعنى الأعمّ، فإنّ المستفاد من الأخبار أنّ حرمتها إنّما هو لأجل ما فيها من هتك عرض المؤمن وانتقاصه وتأذيه فلو لم توجب هتكاً لكونه مهتوكاً بدونها ككونه متجاهراً بالفسق أو لم يقصد بها الإنتقاص بالذات فلا.

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ١٥، والأمالي: ٥١٦.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ١٥، والأمالي: ٥١٦.

قال في «**جامع المقاصد**»: وضابط الغيبة كلّ فعل يقصد به هتك عرض المؤمن والتفكه به أو إضحاك النّاس منه، وأمّا ما كان لغرض صحيح فلا يحرم كنصيحة المستشير والتظلّم (آ ه).

قال شيخنا العلامة: حرمة الغيبة لأجل انتقاص المؤمن وتأذّيه منه، فإذا فرض هناك مصلحة راجعة إلى المغتاب بالكسر أو الفتح أو ثالث دلّ العقل أو الشّرع على كونها أعظم من مصلحة احترام المؤمن بترك ذلك القول فيه وجب كون الحكم على طبق أقوى المصلحتين كما هو الحال في كلّ معصية من حقوق الله وحقوق النّاس.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ مسوّغاتها أمور.

الأول: التظلّم، أي تظلّم المظلوم بذكر ظلم الظّالم عند من يرجو رفعه الظلم منه قال سبحانه: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨]، فعن تفسير القمي أي لا يحب أن يجهر الرّجل بالظلم والسّوءة ويظلم إلا من ظلم، فأطلق أن يعارض بالظلم.

قال شيخنا العلامة: ويؤيد الحكم فيه إنّ في منع المظلوم من هذا الذي هو نوع من التّشفي حرجاً عظيماً، ولأنّ في تشريع الجواز مظنّة ردع للظّالم وهي مصلحة خالية عن مفسدة فيثبت الجواز، لأنّ الأحكام تابعة للمصالح، ويدلّ عليه ما روي عن النّبي ﷺ مطل الواجد يحلّ عقوبته وعرضه.

الثّاني: نصح المستشير، فإنّ النّصيحة واجبة للمستشير فإنّ خيانته قد تكون أقوى مفسدة من مفسدة الغيبة فقد قال النّبي ﷺ لفاطمة بنت قيس المشاورة في خطابها: معاوية صعلوك لا مال له وأبو الجهم لا يضع العصا على عاتقه، قال شيخنا: وكذلك النّصح من غير استشارة، فإنّ من أراد تزويج امرأة وأنت تعلم بقبائحها التي يوجب وقوع الرّجل في الغيبة والفساد لأجلها فلا ريب أنّ التنبيه على بعضها وإن أوجب الوقيعة فيها أولى من ترك نصح المؤمن، مع ظهور عدة من الأخبار في وجوبه.

الثالث: الاستفتاء بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان حقّي فكيف طريقي في الخلاص، قال أبو حامد الغزالي والمحدّث الجزائري: والأسلم التّعريض، بأن يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته، ولكن التّعيين مباح بهذا القدر، وقيّده شيخنا العلامة بما إذا كان الاستفتاء موقوفاً على ذكر الظالم بالخصوص، وإلاّ فلا يجوز، وظاهر الأخبار كظاهر كثير الأصحاب هو الإطلاق.

واستدلوا عليه بما روى عن هند زوجة أبي سفيان أنها قالت للنّبي ﷺ: إنّ أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه؟ فقال ﷺ: خذي ما

يكفيك وولدك بالمعروف[١]، فذكرت الظلم والشحّ لها ولولدها ولم يزجرها إذ كان قصدها الاستفتاء.

وبصحيحة عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: إنّ أمي لا تدفع يد لامس، فقال صلى الله عليه وآله: احبسها، قال: قد فعلت، فقال: فامنع من يدخل عليها، قال: قد فعلت، قال: فقيّدها فإنّك لا تبرّها بشيء أفضل من أن تمنعها عن محارم الله[٢]، واحتمال كونها متجاهرة مدفوع بالأصل.

الرّابع: تحذير المسلم من الشرّ وعن الوقوع في الضّرر لدنيا أو دين، لأنّ مصلحة دفع فتنة الشر والضّرر أولى من هتك شرّ المغتاب مثل ما يريد أن يشتري مملوكاً وأنت تعلم بكونه موصوفاً بالسّرقة أو بعيب آخر، فسكوتك عن ذكر عيبه إضرار بالمشتري، وكذلك المبتدع الذي يخاف من إضلاله النّاس، فإذا رأيت من يتردّد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته أو فسقه فلك أن تكشف مساويه.

ويدلّ عليه ما عن «**الكافي**» بسنده الصّحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم أهل الرّيب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبّهم والقول فيهم والوقيعة وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، وتحذرهم النّاس ولا تتعلّموا من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ورفع لكم به الدّرجات»[٣]، هذا.

وربّما يجعل هذا المورد من باب نصح المستشير بعد تعميمه بالنّسبة إلى النصح المسبوق بالاستشارة وغيره.

الخامس: قصد ردع المغتاب عن المنكر الذي يفعله إذا لم يمكن الرّدع إلاّ به فإنّه أولى من ستر المنكر عليه فهو في الحقيقة إحسان في حقه، مضافاً إلى عموم أدلّة النّهي عن المنكر.

السّادس: باب التّرجيح والتّعديد في الرّواية لأجل معرفة قبول الخبر وعدمه ومعرفة صلاحيته للمعارضة وعدمها، وإلا لانسدّ باب التّعادل والتّراجيح الذي هو أعظم أبواب الاجتهاد وجرت السّيرة عليه من قديم الزّمان كجريانها على الجرح في باب الشهادة وعلى ترجيح ما دلّ على وجوب إقامتها على ما دلّ على حرمة الغيبة على وجه الإشكال فيه، وإلا لضاعت الحقوق في الدماء والأموال وغيرها ولغلب الباطل، ويلحق بذلك الشّهادة بالزّنا وغيره لإقامة الحدود.

---

(١) الخلاف: ٤/ ١٦٠، والمبسوط: ٦/ ٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٧٣.

(٣) الكافي: ٢/ ٣٧٥ ح ٤، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٢٦٧ ح ٢١٥٣١.

السّابع: دفع الضّرر عن المغتاب في دم أو عرض أو مال وعليه يحمل ما ورد في ذم زرارة من عدّة أحاديث وقد ورد التّعليل بذلك في بعض الأحاديث ويلحق بذلك الغيبة للتّقية على نفس المتكلّم أو ماله أو عرضه، فإنّ الضّرورات تبيح المحظورات.

الثامن: ذكر الشخص بعينه الّذي صار بمنزلة الصّفة المميّزة الّتي لا يعرف إلاّ به كالأعمش والأعرج والأشتر والأحول ونحوها، فلا بأس به إذا صارت الصّفة في اشتهار يوصف بها الشّخص إلى حيث لا يكره ذلك صاحبها، وعليه يحمل ما صدر عن العلماءِ الأعلام.

التاسع: إظهار العيوب الخفيّة للمريض عند الطبيب للمعالجة.

العاشر: ردّ من ادّعى نسباً ليس له فإنّ مصلحة حفظ الأنساب أولى من مراعات حرمة المغتاب.

الحادي عشر: إذا علم اثنان عن رجل معصية وشاهداها فأجرى أحدهما ذكره في غيبة ذلك العاصي جاز، لأنّه لا يؤثر عند السّامع شيئاً وإن كان الأولى تنزيه اللّسان عن ذلك لغير غرض من الأغراض الصّحيحة خصوصاً مع احتمال نسيان المخاطب لذلك أو خوف اشتهاره.

الثاني عشر: غيبة المتجاهر بالفسق في ما تجاهر به، فإنّ من لا يبالي بظهور فسقه بين النّاس لا يكره ذكره بالفسق وقد قال الإمام عليه السلام: إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة، وفي رواية أخرى من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له[1]، وأما جواز غيبته في غير ما تجاهر به فقد منع منه الشّهيد الثّاني وحكى عن الشهيد الأوّل أيضاً واستظهر الفاضل النراقي الجواز.

قال شيخنا العلامة الأنصاري (قد): ظاهر الرّوايات النّافية لاحترام المتجاهر وغير السّاتر هو الجواز، واستظهره في الحدائق من كلام جملة من الأعلام، وصرّح به بعض الأساطين، قال شيخنا العلامة: وينبغي إلحاق ما يتستر به بما يتجاهر فيه إذا كان دونه في القبح، فمن تجاهر والعياذ بالله باللّواط جاز اغتيابه بالتّعريض للنّساء الأجانب، ومن تجاهر بقطع الطرق جاز اغتيابه بالسّرقة، ومن تجاهر بكونه جلاد السّلطان يقتل النّاس وينكلهم جاز اغتيابه بشرب الخمر، ومن تجاهر بالقبائح المعروفة جاز اغتيابه بكلّ قبيح، ولعلّ هذا هو المراد بمن ألقى جلباب الحياء لا من تجاهر بمعصية خاصّة وعدّ مستوراً بالنّسبة إلى غيرها كبعض عمال الظّلمة، هذا.

وهذه الموارد المذكورة هو المعروف استثناؤها بين جمع من الأصحاب، وبعضهم قد زادوا عليها، وبعضهم قد نقصوا ولا حاجة إلى الإطناب بعد ما عرفت أنّ مدار الحرمة على

(١) تحف العقول: ٤٥، وشرح أصول الكافي: ١٠/ ١١ ح ٦.

قصد الانتقاص والأذى بالذات، والله العالم.

السادس في معالجة الغيبة

وعلاجها انّما هو بالعلم بما يترتّب عليها من المفاسد الدنيوية والأخرويّة وبالتدبّر في المضار المترتّبة عليها عاجلاً وآجلاً.

أما المضار الدنيوية: فهو أنّها تورث العداوة والشّحناء وتوجب غضب المغتاب فيكون في مقام المكافأة والمجازاة لشنيع قولك فيغضبك ويؤذيك ويهينك ومن ذلك ينبعث الفساد وربّما يؤل الأمر إلى ما لا يمكن علاجه، بل قد يؤل إلى القتل والجرح والاستئصال وإتلاف الأموال وغيرها.

وأما المضار الأخروية: فيحصل التنبّه عليها بالتفكر والتدبّر في الآيات والأخبار الواردة في ذمّها وعقوبتها، وبالعلم بأنها توجب دخول النّار وغضب الجبار ومقته تعالى وتحبط الحسنات وتنقلها إلى ميزان حسنات المغتاب، فإن لم تكن له حسنة نقل الله من سيئات خصمه بقدر ما استباحه من عرضه قال ﷺ: ما النّار في اليبس أسرع من الغيبة في حسنات العبد وإن كانت الغيبة في العيب بالخلق فليعلم أنّه عيب على الخالق فإنّ من ذم الصنعة فقد ذمّ الصّانع، قيل لحكيم: يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهي إليّ فأحسنه.

وروي أنّ نوحاً عليه السلام مرّ على كلب أجرب فقال: ما هذا الكلب؟ فنطق الكلب وقال: يا نبي الله هكذا خلقني ربّي فإن قدرت أن تغير صورتي بأحسن من هذه الصورة فافعل، فندم نوح على ما قال وبكى أربعين سنة فسمّاه الله نوحاً وكان اسمه عبد الملك أو عبد الجبّار.

وروي أيضاً أنّه مرّ عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون ما أنتن ريح هذا الكلب، فقال عليه السلام: ما أشد بياض أسنانه كأنّه نهاهم عن غيبة الكلب وتعييبه، فانظر إلى عظم الخطر في تعييب النّاس فإذا لم يرض أولياء الدّين بعيب ميتة حيوان فكيف بعيب النفوس المحترمة قال رسول الله ﷺ: طوبى لمن شغله عيب نفسه عن عيوب النّاس، فإذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك[1] قال الشاعر:

واجرأ من رأيت بظهر غيب ... على عيب الرّجال وذو العيوب

فلربّما تبصر في عين أخيك القذى ولا تبصر الجذع في عينك.

ومطروفة عيناه عن عيب نفسه ... فإن لاح عيب من أخيه تبصّرا

(١) كنز العمال: ١٥/٨٦٥ ح ٤٣٤٤٤.

وقد قيل للرّبيع بن خثيم: ما نراك تعيب أحداً قال: لست راضياً عن نفسي فأتفرّغ لذكر عيوب النّاس ثمّ قال:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها لنفسي في نفسي عن النّاس شاغل

نعوذ بالله من زلاّت البيان وهفوات اللّسان وسقطات الألفاظ ورمزات الإلحاظ.

السابع في كفارة الغيبة

قال المحدث الجزائري (ره) اعلم أنّ الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويأسّف على ما فعل ليخرج من حقّ الله تعالى ثم يستحل المغتاب فيحلّه ليخرج عن مظلمته وينبغي أن يستحلّه وهو نادم حزين وإلاّ فالمرائي قد يطلب المحالة فيكون عليه ذنب آخر، وقد ورد في كفارته حديثان:

أحدهما: قوله عليه السلام: كفّارة من اغتبته أن تستغفر له[١]، وفي حديث آخر: كلّما ذكرته، ومعنى قوله: كلما ذكرته على طريقة الغيبة أو كلما عنّ في خاطرك أو جرى ذكره على لسانك بعد المحالة الأولى.

الثاني: قوله صلى الله عليه وآله: من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فيتحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فيزيد على سيئاته[٢].

وجمع بين الحديثين شيخنا الشهيد الثّاني قدس الله روحه بحمل الاستغفار له على من يبلغ غيبة المغتاب فينبغي الاقتصار على الدّعاء له والاستغفار لأنَ في محالته إثارة للفتنة وجلباً للضّغائن، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه لموت أو غيبة، وحمل المحالة على من يمكن الوصول إليه مع بلوغه الغيبة.

قال الجزائري ويمكن الجمع بينهما بوجهين:

أحدهما: أنّ الاستغفار له كفّارة معجلة تكون مقارنة للغيبة والمحالة متأخّرة عنه غالباً فيجب عليه المبادرة بذلك لعدم توقّفه على التمكن وعدمه، والمحالة إذا تمكن بعد هذا فيكون الواجب اثنين لا واحد كما هو مذكور في القول الأوّل.

الثّاني: حمل الاستغفار له على الاستحباب والواجب إنّما هو المحالة لا غير، وإذا جاء

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٢٤٢، وكشف الخفاء: ٢/ ١١١ ح ١٩٣٢.

(٢) شرح أصول الكافي: ١٠/ ١٠ ح ٤، وبحار الأنوار: ٧٢/ ٢٤٣.

إلى المغتاب فينبغي أن لا يظهر له الكلام الذي اغتاب خوفاً من إثارة الشحناء وتجديد العداوة، بل يقول له: يا أخي لك حقوق عرضيّة وأريد أن تحالني منها، ونحو ذلك من العبارات المجملة، ويستحبّ للمعتذر إليه قبول العذر والمحالة استحباباً هو مؤكّداً، انتهى.

أقول: والأظهر في وجه الجمع ما حكاه عن الشهيد بل وهو الأقرب.

والتحقيق ما حقّقه شيخنا العلامة الانصاري (قد) في «**المكاسب**» حيث قال: مقتضى كون الغيبة من حقوق النّاس توقّف رفعها على إسقاط صاحبها أمّا كونها من حقوق النّاس فلأنّه ظلم على المغتاب، وللأخبار في أن من حقّ المؤمن على المؤمن أن لا يغتابه وأنّ حرمة عرض المسلم كحرمة دمه وماله وأمّا توقّف رفعها على إبراء ذي الحقّ فللمستفيضة المعتضدة بالأصل، ثمّ ذكر جملة من المستفيضة.

ثمّ قال: ولا فرق في مقتضى الأصل والأخبار بين التمكّن من الوصول إلى صاحبه وتعذّره، لأنّ تعذر البراءة لا يوجب سقوط الحقّ كما في غير هذا المقام، لكن روى السّكوني عن أبي عبد الله عن النبيّ ﷺ: إنّ كفارة الاغتياب أن تستغفر لمن اغتبته كلما ذكرته[١]، ولو صحّ سنده أمكن تخصيص الإطلاقات المتقدمة به، فيكون الاستغفار طريقاً أيضاً إلى البراءة مع احتمال العدم أيضاً لأنّ كون الاستغفار كفارة لا يدل على البراءة، فلعلّه كفارة للذّنب من حيث كونه حقا لله تعالى نظير كفّارة قتل الخطأ الّتي لا توجب براءة القاتل إلاّ أن يدعي ظهور السّياق في البراءة.

ثمّ ذكر كلام الشّهيد الثّاني (ره) وجمعه بين الخبرين المتقدّمين المتعارضين على ما تقدّم ذكره في كلام المحدّث الجزائري (ره) ثمّ أورد عليه بأنّه إن صح النّبوي أي ما رواه السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن النّبي ﷺ مسنداً، فلا مانع عن العمل به بجعله طريقاً إلى البراءة مطلقاً في مقابل الاستبراء، إلا تعين طرحه والرّجوع إلى الأصل وإطلاق الأخبار المتقدّمة وتعذر الاستبراء أو وجود المفسدة فيه لا يوجب وجود مبرء آخر.

نعم أرسل بعض من قارب عصرنا عن الصّادق عليه السلام أنّك إن اغتبت فبلغ المغتاب فاستحلّ منه وإن لم يبلغه فاستغفر الله له[٢].

وفي رواية السّكوني المرويّة في «**الكافي**» في باب الظلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ومن ظلم أحداً ففاته فليستغفر الله له فإنّه كفّارة له[٣].

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٥٧ ح ٤، ووسائل الشيعة: ١٢/ ٢٩٠ ح ١٦٣٣١.

(٢) كتاب المكاسب: ١/ ٣٤٠، ومصباح الفقاهة: ١/ ٣٣٤.

(٣) الكافي: ٢/ ٣٣٤ ح ٢٠، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٣٨٥ ح ٢٠.

والإنصاف أنّ الأخبار في هذا الباب كلّها غير نقيّة السّند وأصالة البراءة تقتضي عدم وجوب الاستحلال ولا الاستغفار، وأصالة بقاء الحقّ الثّابت للمغتاب بالفتح على المغتاب بالكسر تقتضي عدم الخروج منه إلاّ بالاستحلال خاصّة، لكن المثبت لكون الغيبة حقّاً بمعنى وجوب البراءة منه ليس إلاّ الأخبار الغير النّقية السّند، مع أن السند لو كان نقيّاً كانت الدّلالة ضعيفة لذكر حقوق أخرى في الرّوايات لا قائل بوجوب البراءة منها، فالقول بعدم كونه حقّاً للنّاس بمعنى وجوب البراءة نظير الحقوق الماليّة لا يخلو عن قوّة، وإمكان الاحتياط في خلافه بل لا يخلو عن قرب من جهة كثرة الأخبار الدالة على وجوب الاستبراء منها بل اعتبار سند بعضها والأحوط الاستحلال إن تيسّر وإلا فالاستغفار، غفر الله لنا ولمن اغتبناه ولمن اغتابنا بحقّ محمّد وآله الطّاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

الترجمة

از جمله كلام آن امام انام (عليه السلام) است در نهى از غيبت مردمان، مى فرمايد:

و جز اين نيست كه سزاوار است اهل عصمت و طهارت و كسانى كه انعام شده است ايشان را در سلامتى دين اين كه رحم نمايند گناهكاران و اهل معصيت را و اين كه شود شكر خدا غالب بر ايشان از مذمت گنه كاران، پس چگونه است غيبت كننده كه غيبت برادر خود را كند؟ و سرزنش نمايد او را به بلايى كه گرفتار شده است؟ آيا به يادش نمى آرد مقام پوشانيدن خداوند تعالى بر او از گناهان او گناهى را كه بزرگتر است از گناهى كه عيب سرزنش نمود برادرش را به او؟ و چگونه مذمّت مى كند او را بر گناهى كه مرتكب شده است مثل او را؟ پس اگر نبوده باشد مرتكب آن گناه، پس به تحقيق معصيت نموده خداى را در غير آن از گناهى كه بزرگتر است از آن.

و قسم به خدا، هر آينه اگر نبوده باشد معصيت نموده خدا را در گناه كبير و عصيان نموده او را در گناه صغير، هرآينه جرأت و جسارت او بر عيب و غيبت مردمان بزرگتر است، اى بنده خدا سرعت مكن در عيب بنده به جهت گناه او، پس شايد كه آن گناه آمرزيده شده او را و ايمن مباش بر نفس خود گناه كوچك را، پس شايد تو معذب باشى بر آن، پس بايد كه خوددارى نمايد آن كسى كه داند از شما عيب ديگرى را از جهت آن كه مى داند از عيب خود و بايد كه باشد شكر كردن او و مشغول كننده او بر سلامتى خود از گناهى كه مبتلا شده است به او غير او.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والحادي والاربعون من المختار في باب الخطب

أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وثِيقَةَ دِينٍ وسَدَادَ طَرِيقٍ فَلاَ يَسْمَعَنَّ فيهِ أَقاوِيلَ الرِّجالِ، أما أَنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرّامي، وتُخْطِىءُ السِّهَامُ ويُحيلُ الْكَلاَمَ وباطِلُ ذٰلِكَ يَبُورُ، وَاللّٰهُ سَمِيعٌ وشَهيدٌ، أما أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْبَاطِلِ وَالْحَقِّ إِلا أَرْبَعُ أَصابِعَ، فسئل عن معنى قوله عليه السلام هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ثم قال: الْباطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ[1].

اللغة

(**وثق**) الشيء بالضمّ وثاقه قوي وثبت فهو وثيق ثابت محكم و(**السّداد**) بالفتح الصّواب من القول والفعل و(**الأقاويل**) جمع أقوال وهو جمع قول و(**أخطأ السّهم**) الغرض تجاوزه ولم يصبه و(**يحيل الكلام**) في أكثر النّسخ باللام مضارع حال بمعنى يستحيل أي يكون محالاً قال في «**القاموس**»: وكلّ ما تغير أو تحرك من الاستواء إلى العوج فقد حال واستحال، وقال أيضاً: والمحال بالضم من الكلام ما عدل عن وجهه كالمستحيل، أحال أتى به، وفي «**المصباح**» المحال الباطل الغير الممكن الوقوع، وفي بعض النسخ بالكاف مضارع حالك أو أحاك قال في «**القاموس**»: حاك القول في القلب يحيك حيكاً أخذ، والسّيف أثر والشفرة قطعت كأحاك فيهما و(**بار**) الشيء يبور بوراً بالضّم هلك.

الإعراب

إضافة (**وثيقة دين وسداد طريق**) من إضافة الصّفة إلى موصوفه (**والتاء**) في (**الوثيقة**) للنّقل من الوصفيّة إلى الإسميّة كما قيل أو للمبالغة، وجملة (**فلا يسمعنّ**)، في محلّ الرّبع خبر (**من**) ولتضمّن المبتدأ معنى الشّرط أتى (**بالفاء**) في خبره، والضمير في قوله: (**إنّه**)، للشأن، (**والواو**) في قوله: (**وباطل ذلك**)، للحال.

المعنى

اعلم أن المقصود بهذا الكلام النّهي عن التسرع إلى التصديق بما يقال في حقّ الإنسان الموصوف بحسن الظاهر المشهور بالوثوق والصّلاح والتدين ممّا يعيبه ويقدحه، وتدل عليه

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ٣٧٩ ح ٢١٨١١، والغارات: ١/ ١٨٨ ح ٢.

الأدلة الدّالة على حرمة الإصغاء إلى الغيبة على ما تقدّم في شرح الكلام السّابق، وإليه أشير في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

إذا عرفت ذلك فأقول قوله: (**أيها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق**) أي ديناً محكماً وطريقاً صواباً، قيل المراد بوثيقة الدّين اللّزوم للأحكام الشّرعيّة والتقييد لا كمن يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه.

ولعل المراد بوثيقة الدّين العقيدة وبسداد الطريق حسن العمل كما يشعر به ما رواه الحافظ أبو نعيم بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لابنه الحسن عليه السلام: يا بني ما السّداد؟ فقال: يا أبتي السداد دفع المنكر بالمعروف، أي من عرف من أخيه المؤمن حسن الاعتقاد والعمل (**فلا يسمعنّ فيه أقاويل الرّجال**) أي أقاويلهم الّتي توجب شينه وتهدم مروّته وتسقطه عن أعين النّاس.

روى الصّدوق في «**عقاب الأعمال**» بإسناده عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام قال: قلت له: جعلت فداك الرّجل من إخواني بلغني عنه الشيء الذي أكرهه فأسأله عنه فينكر ذلك وقد أخبرني عنه قوم ثقات، فقال عليه السلام لي: يا محمّد كذّب سمعك وبصرك عن أخيك وإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك فصدقه وكذّبهم، ولا تذيعنّ عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروته فتكون من الذين قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[١] [النور: ١٩].

وفي «**الوسائل**» عن العياشي في تفسيره عن الفيض بن المختار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لمّا نزلت المائدة على عيسى قال للحواريين: لا تأكلوا منها حتّى آذن لكم، فأكل منها رجلٌ فقال بعض الحواريّين: يا روح الله أكل منها فلان، فقال له عيسى عليه السلام: أكلت منها؟ فقال: لا، فقال الحواريون: بلى والله يا روح الله لقد أكل منها، فقال عيسى عليه السلام: صدق أخاك وكذب بصرك[٢].

ثمّ علّل عليه السلام عدم جواز استماع أقاويل الرّجال وتصديقها بالمثل الذي ضربه بقوله: (**أما أنه قد يرمي الرّامي وتخطىء السهام**) يعني أنه ربما يرمي الرّامي سهمه فلا يصيب الغرض بل يخطيه (**و**) كذلك قد يتكلّم إنسان بكلام يعيب به على غيره أو يغتابه فـ (**سيحيل الكلام**) ويستحيل ويعدل عن وجه الصّواب ويخالف الواقع ولا يعيبه إما لغرض شخصي فاسد للقائل

---

(١) الأمالي: ٤١٧ ح ٥٤٩، وشرح أصول الكافي: ١/ ٢٦٢.

(٢) وسائل الشيعة: ١٢/ ٢٩٦ ح و ١٦٣٤٦، وبحار الأنوار: ١٤/ ٤٣٥ ح ٧.

في المقول عليه من العداوة والشحناء والحسد ونحوها فيرميه بالعيب ويطعنه بالغيب لذلك، وإمّا لشبهة منه فيه بأن يشتبه الأمر عليه فيظن المعروف منكراً مثل ما لو رأى في يد أحد قارورة مملؤة يشرب منها فظنّها خمراً وهو خلّ فيتهمه بشرب الخمر.

ولذلك ورد في الأخبار المستفيضة حمل فعل المسلم على الصّحة مثل ما رواه في **«الكافي»** عن الحسين بن المختار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وعن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا اتهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء[1].

هذا كله على رواية يحيل باللام وأمّا على الرّواية الأخرى فالمراد به التنبه على أنّ ضرر الكلام أقوى من ضرر السهام، وتأثيره أشدّ من تأثيرها، وذلك لأنّ الرّامي قد يرمي فتخطىء سهامه ولا تصيب الغرض، وأمّا الكلام فيؤثر لا محالة وإن كان باطلاً لأنّه يلوث العرض في نظر من لا يعرفه ويسقط محلّ المقول فيه ومنزلته من القلوب.

ثمّ قال تهديداً أو تحذيراً أو تنبيهاً على ضرر ذلك الكلام الفاسد والقول الباطل على سبيل إرسال المثل **(وباطل ذلك يبور والله سميع وشهيد)** يعني أن الغرض والغاية من ذلك القول الذي يعاب به باطل نشأ من الحقد والحسد أو التّصادم في مال أو جاه أو نحو ذلك من الأغراض الباطلة، والباطل إنّما يبور أي يهلك ويفنى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ووزره يدوم ويبقى لأنّه بعين الله السميع البصير الشّاهد الخبير بمحاسن الأفعال والأقوال ومقابحها المجازي بالحسنات عظيم الثواب وبالسّيئات أليم العقاب.

ثمّ نبه على الفرق بين الحق والباطل بقوله **(أما أنّه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع فسئل** عليه السلام **عن معنى قوله هذا)** لإجماله وإبهامه **(فجمع أصابع)** الأربع **(ووضعها بين أذنه وعينه ثمّ قال: الباطل أن تقول سمعت، والحقّ أن تقول رأيت)** يعني أن الباطل هو المسموع والحقّ هو المرئي، فتسامح عليه السلام في التفرقة بما ذكر تعويلاً على الظهور، ضرورة أنّ الباطل ليس قولك سمعت، ولا الحقّ قولك رأيت، لأنّ قولك إخبار عن نفسك بالسّماع أو الرّؤية، والحقّ والباطل وصفان للمخبر عنه لا الخبر كما هو ظاهر.

فان قلت: كيف يقول الباطل ما يسمع والحقّ ما يرى مع أنّ كثيراً من المسموعات حقّ لا ريب فيه، فإنّ جلّ الأحكام الشرعية قد ثبت علينا بطريق النّقل والسماع، وكذلك كثير من

---

(١) الكافي: ٢/ ١٧٠ ح ٥، والخصال: ٦٢٣.

العقائد الأصولية كنبوّة نبينا ومعجزاته وكذا نبوة سائر الأنبياء وإمامة الأئمة ومعجزاتهم عليهم السلام وأخبار المعاد من الحشر والنّشر والبعث والحساب والجنّة والنّار وغيرها.

قلت: قد أجاب عنه الشّارح المعتزلي بأنه ليس كلامه في المتواتر من الأخبار وإنّما كلامه في الأقوال الشّاذة الواردة من طريق الآحاد التي تتضمّن القدح فيمن قد علمت[1] نزاهته، فلا يجوز العدول عن المعلوم بالمشكوك.

وأجاب الشّارح البحراني بأن قوله: الباطل أن تقول سمعت، لا يستلزم الكليّة حتّى يكون كلّ ما سمعه باطلاً، فإنّ الباطل والمسموع مهملان يعني أنه ليس بقضية كليّة بل كلام خطابي مهمل يصدق بجزئي.

أقول: ولعلّ مرادهما أنّ (اللام) في قوله: **(الباطل والحقّ)**، للعهد ومراده عليه السلام ليس تعريف مطلق الباطل والحقّ بل التفرقة في إفراد ما يعاب به الغير ويتضمن قدحه بأنّه على قسمين: أحدهما ما سمعته من غيرك، فهو باطل لأن من جاءك به فاسق لا يمكن الرّكون إليه فلا بدّ من الحكم ببطلان خبره وإن كان ما خاله صدقاً في نفس الأمر والواقع، وثانيهما ما أبصرته بعينك فهو الحقّ.

فإن قلت: كيف التوفيق بين قوله عليه السلام ذلك المفيد لحقيّة المرئي وبين روايتي عقاب الأعمال والوسائل المتقدّمتين في شرح قوله عليه السلام: **(فلا يسمعنّ فيه أقاويل الرّجال)**، حيث أمر فيهما بتكذيب البصر فيما شاهدته.

قلت: لا منافاة بينهما، لأنّ المراد بتكذيب البصر فيهما عدم ترتيب الآثار على العيب الذي رآه والنّهي عن إذاعته وإفشائه للغير، لأنّ ما رآه ليس بحق ومحصلهما وجوب ستر ما رآه من أخيه وعدم هتك عرضه عند الغير، مثلاً إذا رأى أنّه يشرب الخمر فإن وجد لفعله محملاً صحيحاً كأن يحتمل أنّه خلّ أو أن شربه للدواء والعلاج، فلا بد من حمل فعله على الصّحة، وإن لم يجد له محملاً فيحكم في نفسه بفسق الشّارب، ولا يأتمنه في أمور تشترط فيها العدالة، ومع ذلك فلا يجوز إظهار ما فعله لغيره تنقيصاً له على ما تقدّم في شرح الكلام السّابق والله العالم.

(١) في نسخة: غلبت.

الترجمة

از جمله کلام آن قدوه انام است که فرموده:

ای مردمان، هرکس که شناخت از برادر مؤمن خودش دین محکم و راه راستی را، پس باید البته نشنود در حق او گفتارهای مردمان را، آگاه شوید که گاه است می اندازد اندازنده و خطا می کند تیرها و محال می باشد سخن و حال این که باطل کلام فاسد و تباه می شود و خدای تعالی شنونده است کلام بدگو را و شاهد است بر آن و جزا دهنده است به آن، آگاه باشید به درستی که نیست میان حق و باطل مگر چهار انگشت.

پس سؤال کرده شد از آن حضرت از معنی این فرمایش او، پس جمع فرمود انگشتان مبارك خود را و نهاد آنها را میان گوش و چشم خود بعد از آن فرمود:

باطل آن است که گویی شنیدم و حق آن است که گویی دیدم، یعنی مادامی که عیب احدی را با چشم خود ندیده ای و یقین نکرده ای، به مجرد شنیدن از دیگران باور مکن.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثاني والأربعون من المختار في باب الخطب

والظّاهر أنّه ملتقط من كلام طويل له عليه السلام قدّمنا روايته في شرح الكلام المائة والسّادس والعشرين من «**البحار**» من كتاب «**الغارات**» لإبراهيم بن محمّد الثقفي من كتاب «**الكافي**» لمحمّد بن يعقوب الكليني على اختلاف عرفته.

وَلَيْسَ لِواضِعِ الْمَعْرُوفِ في غَيرِ حَقِّه وعِنْدَ غَيرِ أَهْلِهِ مِنَ الْحَظِّ فيما أَتى إلاّ مَحْمَدَةُ اللِّئام، وثَناءُ الأَشْرارِ، ومَقالَةُ الْجُهّالِ ما دامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ ما أَجْوَدَ يَدَهُ وَهُوَ عَنْ ذاتِ اللَّهِ بَخيلٌ، فَمَنْ آتاهُ اللّهُ مالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأَسيرَ وَالْعاني، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقيرَ وَالْغارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوائِبِ ابْتِغاءَ الثَّوابِ فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصالِ شَرَفُ مَكارِمِ الدُّنْيا، ودَرَكُ فَضائِلِ الآخِرَةِ إِنْ شاءَ اللَّهُ[1].

اللغة

قال الفيومي (**المحمدة**) بفتح الميم نقيض المذمّة، ونقل ابن السرّاج وجماعة بالكسر و(الغارم) من عليه الدّين و(**صبرت**) صبراً من باب ضرب حبست النفس عن الجزع قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، ويستعمل تارة (**بعن**) كما في المعاصي، وتارة (**بعلى**) كما في الطاعات، و(**النّوائب**) جمع النائبة وهي النازلة التي تنوب على الإنسان وتنزل عليه.

الإعراب

قوله (**ومقالة الجهّال ما دام منعماً عليهم**)، (**ما**) ظرفيّة مصدريّة، (**ودام**) فعل ناقص واسمه ضمير مستتر عائد إلى واضع المعروف، (**ومنعماً**) خبره، وإنّما جعلت (**ما**) مصدريّة لأنّها تؤل بمصدر مضاف إليه الزّمان أي مدّة دوامه منعماً، وسميت ظرفيّة لنيابتها عن الظرف، وهو المدّة، فأصل ما دام منعماً مدة ما دام منعماً، فحذف المضاف أعني المدّة وناب المضاف إليه وهو ما وصلتها عنها في الانتصاب على الظرفية كما ناب المصدر الصّريح عن ظرف الزّمان في نحو جئتك صلاة العصر أي وقت صلاة العصر، فعلى هذا يكون قوله: (**ما دام منعماً**)، ظرفاً للمقالة ومنصوباً بها وقيداً لها.

---

(١) تحف العقول: ١٨٦، والأمالي: ١٧٧ ح ٦.

وجملة (**ما أجود يده**)، في محلّ النّصب مقول القول أي مقالتهم ذلك، (**والواو**) في قوله، (**وهو**) حالية، (**والفاء**) في قوله: (**فمن أتاه**)، فصيحة، وعطف (**العاني**) على الأسير للتفسير، (**والفاء**) في قوله: (**فإنّ فوزاً**)، للسببيّة.

المعنى

اعلم أنّ هذا الكلام له عليه السلام وارد في معرض الذّم على صرف المال في غير أهله والحث على صرفه في وجوه البرّ ومصارف الخير.

أمّا الأوّل أعني صرف المال لغير مستحقّه فقد نبّه على خساسة ثمرته وزهادة منفعته بقوله (**وليس لواضع المعروف**) أي البرّ والإحسان (**في غير حقّه**) أي غير المحلّ الذي هو حقيق به وحقّ له (**وعند غير أهله**) ومستحقه من الحظ والنصيب فيما أتى وجاء به (**إلا محمدة اللّئام**) الموصوفين بدناءة النّفس ورزالة الطبع (**وثناء الأشرار**) والفجّار (**ومقالة الجهال ما دام منعماً عليهم ما أجود يده**) يعني أنّ الجهالة والسفاهة يصفونه بالكرم والجود ويقولون إنّه جواد ما دام إنعامه عليهم حتّى إذا انقطع إنعامه عنهم يبدلون الشّكر بالكفران، والثناء بالمذمّة، بل ربّما يجعلون الشّر عوض الشكر استجلاباً لذلك الإنعام المنقطع، واستعادة له.

فهذا الرّجل وإن كان السفلة والسّفهاء يصفونه بالجود لجهلهم بوضع الأشياء في مواضعها التي هي مقتضى العقل والشّرع، ولكنّه ليس بجواد في نفس الأمر وعند أولي الألباب العارفين بمواضع الأشياء ومواضعها التي يحسن وضعها فيها، بل يصفونه العقلاء بالبخل كما قال عليه السلام (**وهو عن ذات الله بخيل**) يعني أنّه بخيل عما يرجع إلى ذات الله سبحانه ويحصل رضاه كوجوه البرّ الواجبة والمندوبة من الصدّقات وصلة الرّحم والضيافة والحقّ المعلوم للسّائل والمحروم ونحوها.

وتوضيح المرام موقوف على تحقيق الكلام في معنى الجود والبخل.

فنقول: المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصّرف إلى ما خلق للصّرف إليه ويمكن بذله بالصّرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرّف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يحب الحفظ، ويبذل حيث يحبّ البذل فالإمساك حيث يحبّ البذل بخل، والبذل حيث يحبّ الإمساك تبذير وإسراف، والوسط بينهما وهو الجود والسّخاء محمودٌ قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فالوسط بين الإسراف والإقتار هو الجود، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب.

والواجب قسمان: واجب بالشّرع وواجب بالمروّة والعادة، فمن منع واحداً منهما فهو

بخيل، ولكن المانع من واجب الشرع البخل كالمانع من أداء الزّكاة ونفقة عياله الواجبي النفقة، وأما واجب المرؤة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإنّ ذلك مستقبح ويختلف استقباحه باختلاف الأحوال والأشخاص فيستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، وكذلك من الرّجل مع أهله وأقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب، وكذلك يستقبح المضايقة من الجار في حق الجار دون البعيد، وفي الضيافة دون المعاملة، وبالنسبة إلى العالم دون الجاهل وهكذا.

فمن أدى واجب الشّرع وواجب المرؤة اللائقة فقد تبرّأ من البخل، نعم لا يتصف بصفة الجود والسّخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدّرجات، فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجّه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتّسع له نفسه من قليل أو كثير، ودرجات ذلك متفاوتة غير محصورة، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمرؤة هو الجود، ولكن يشترط فيه أمران:

أحدهما: أن يكون عن طيب نفسه.

والثاني: أن لا يكون عن طمع عوض ولو ثناء ومحمدة وشكراً، فإنّ من طمع في الشّكر والثّناء ممن يحسن إليه أو من غيره فإنّه بيّاع ليس بجواد، فإنّه يشتري المدح بماله، والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه وكذلك لو كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً أو من ملامة الخلق أو دفع شرّ، فكلّ ذلك ليس من الجود لأنّه مضطر إليه بهذه البواعث نعم لو لم يكن غرضه إلاّ الثواب في الآخرة وتحصيل رضاء الله سبحانه واكتساب فضيلة الجود وتطهير النّفس من رذالة الشّح فهو الجواد والموصوف بالسخاء.

إذا عرفت ذلك فقد ظهر لك أنّ وضع المعروف في غير حقّه وعند غير أهله أو الرّجاء العوض والمنفعة فليس جواداً في الحقيقة وعند أهل المعرفة والبصيرة، كما نبّه به الإمام عليه السلام ونهى عنه.

ثمّ أرشد عليه السلام إلى ما ينبغي القيام به لمن آتاه الله المال والثّروة بقوله (فمن آتاه الله مالاً فليصل به) الرّحم و(القرابة) فقد روى في «**الوسائل**» من «**الكافي**» بإسناده عن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله أيّ الصّدقة أفضل، فقال: على ذي الرّحم الكاشح[1].

وبهذا الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الصّدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر وصلة الإخوان بعشرين وصلة الرحم بأربعة وعشرين[2].

---

(١) العروة الوثقى: ٤/ ١٣٤، ومستمسك العروة: ٩/ ٢٩٧.

(٢) الكافي: ٤/ ١٠ ح ٣، ودعائم الإسلام: ٢/ ٣٣١ ح ١٢٥١.

وفي «**الوسائل**» أيضاً عن الصّدوق قال: قال عليه السلام: لا صدقة وذو رحم محتاج عن النّبيّ صلى الله عليه وآله في حديث المناهي قال: ومن مشى إلى ذي قرابة بنفسه وماله ليصل رحمه أعطاه الله عزّ وجلّ أجر مائة شهيد وله بكلّ خطوة أربعون ألف حسنة ومحى عنه أربعون ألف سيّئة، ورفع له من الدّرجات مثل ذلك، وكان كأنّما عبد الله عزّ وجلّ مائة سنة صابراً محتسباً[(١)]، هذا.

وقد مضى جملة من منافع صلة الرّحم ومضار القطيعة والأخبار المتضمّنة لهذا المعنى في شرح الفصل الثّاني من الخطبة الثّالثة والعشرين، فليراجع.

(**وليحسن منه الضّيافة**) قال الصّادق عليه السلام لحسين بن نعيم الصحّاف في حديث رواه في «**الكافي**»: أتحبّ إخوانك يا حسين؟ قلت: نعم، إلى أن قال أتدعوهم إلى منزلك؟ قلت: نعم ما آكل إلاّ ومعي منهم الرّجلان والثلاثة والأقلّ والأكثر، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أما إنّ فضلهم عليك أعظم من فضلك عليهم، فقلت: جعلت فداك أطعمهم طعامي وأوطئهم رحلي ويكون فضلهم عليّ أعظم قال: نعم إنّهم إذا دخلوا منزلك دخلوا بمغفرتك ومغفرة عيالك، وإذا خرجوا من منزلك خرجوا بذنوبك وذنوب عيالك[(٢)].

(**وليفك به الأسير والعاني وليعط منه الفقير والغارم**) أي المديون (**وليصبر نفسه على الحقوق**) الواجبة والمندوبة كالزّكاة والصّدقات، أي ليحبس نفسه على أدائها، وإنّما سمّي حبساً لأنّه خلاف ما يميل إليه الطّبع والنفس الأمارة (**والنوائب**) التي تنزل به من الحوادث والمهمّات الموجبة لغرمه.

كما في حديث الجهاد عن أبي الحسن عليه السلام في قسمة الغنائم ثم قال: ويأخذ يعني الإمام الباقي فيكون بعد ذلك أرزاق أعوانه على دين الله وفي مصلحة ما ينويه من تقوية الإسلام وتقوية الدّين في وجوه الجهاد وغير ذلك ممّا فيه مصلحة العامة[(٣)].

قال الشارح البحراني: وأشار بالنّوائب إلى ما يلحق الإنسان من المصادرات التي يفكّ بها الإنسان من أيدي الظالمين وألسنتهم، والإنفاق في ذلك من الحقوق الواجبة على الإنسان، انتهى.

والأظهر التعميم حسب ما ذكرنا ولمّا أشار إلى المواضع التي يحسن وضع المال فيها وصرفه إليها أردفه بقوله (**ابتغاء الثواب**) تنبيهاً على أن حسنه إنّما يكون إذا قصد به وجه الله

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ١٦، والأمالي: ٥١٦.

(٢) المحاسن: ٢/ ٣٩١ ح ٢٨، والكافي: ٢/ ٢٠٢ ح ٨.

(٣) الكافي: ١/ ٥٤١، ووسائل الشيعة: ١٥/ ١١١.

سبحانه وطلب جزائه لا عن قصد رياء وسمعة.

ثمّ نبّه على ما يترتب على هذه الخصال الحسنة من الأجر الجميل والجزاء الجزيل بقوله: **(فإنّ فوزاً بهذه الخصال)** الخمس **(شرف مكارم الدّنيا ودرك فضائل الآخرة إن شاء الله)** لأنها توجب الذكر الجميل والجاه العريض في الأولى والثواب الجزيل الموعود لأولي الفضل والتّقى في العقبى، هذا.

وإنّما أتى فوزاً بالتنكير ولم يقل فإنّ الفوز بهذه الخصال قصداً إلى التّقليل يعني أنّ قليل فوز بهذه يوجب شرف الدّنيا والآخرة كما في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي رضوان قليل منه سبحانه أكبر من ذلك كلّه على ما ذهب إليه صاحب «**التّلخيص**».

وهذا أقرب وأولى بل أظهر ممّا قاله الشّارح المعتزلي في وجه تعليل التنكير حيث قال: قوله: **(فإنّ فوزاً)** أفصح من أن يقول **(فإنّ الفوز)** أو **(فإن في الفوز)** كما قال الشّاعر:

إنّ شواء ونشوة وخبب البازل الأمون من لذة العيش للفتى في الدّهر والدّهر ذو فنون

ولم يقل إن الشواء والنشوة، والسرّ في هذا أنه كأنّه يجعل هذا المصدر وهذا الشواء شخصاً من جملة أشخاص داخلة تحت نوع واحد ويقول: إنّ واحداً منها أيّها كان فهو من لذة العيش وإن لم يحصل له كلّ أشخاص وذلك النوع ومراده عليه السلام تقرير فضيلة هذه الخصال في النفوس أي متى حصل للإنسان فوز بابها فقد حصل له الشّرف، وهذا المعنى وإن أعطاه لفظة الفوز بالألف واللام إذا قصد بها الجنسيّة إلاّ أنّه قد يسبق إلى الذّهن منها الاستغراق لا الجنسية فأتى بلفظة لا توهم الاستغراق وهي اللفظة المنكرة، وهذا دقيق وهو من لباب علم البيان، انتهى.

وفيه أوّلاً أن الذّوق السّليم يحكم بأنّ القصد في التنكير هنا إلى التقليل لا إلى الإفراد كما في: جاء رجل من أقصى المدينة وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾، أي كلّ فرد من أفراد الدّواب من فرد من أفراد الماء أي النطفة المختصة به، فتأمّل تعرف.

وثانياً: أنّ قوله: وهذا المعنى وإن أعطاه لفظة الفوز ممنوع، لظهور أنّ النكرة هو الفرد المنتشر، والبعض الغير المعيّن المعرف بلام الجنس موضوع لماهيّة من حيث هي وبينهما بون بعيد.

وثالثاً: أنّ قوله: قد يسبق إلى الذّهن منها الاستغراق لا الجنسية، يدفعه أنّ المتبادر من المعرّف باللام المفرد هي الماهية لا بشرط، وبعبارة أخرى المتبادر السّابق الى الذهن من المفرد المحلى باللاّم هي نفس الحقيقة، من دون نظر إلى الإفراد كلاً أو جزأً، فمن أين يسبق

إلى الذهن الاستغراق إن هو إلاّ توهّم فاسد.

وبه يظهر فساد ما زعمه الشّارح البحراني أيضاً حيث قال: وإنّما نكر الفوز لأن تنكيره يفيد نوع الفوز فقط الذي يحصل بأيّ شخص كان من أشخاصه وهذا وإن كان حاصلاً مع الألف واللاّم لتعريف تلك الطبيعة إلاّ أنّ ذلك التعريف مشترك بين تعريف الطبيعة والمعهود الشخصي فكان موهماً لفوز شخصي، ولذلك كان الاتيان به منكراً أفصح وأبلغ، انتهى.

وجه ظهور الفساد منع اشتراك المعرّف بلام الحقيقة بين تعريف الطّبيعة والمعهود الشخصي ذهنياً كان أو خارجيّاً، بل هو حقيقة في الأوّل فقط، ومجاز في غيره، وانفهامه منه محتاج إلى القرينة، وليست فليس، مضافاً إلى ما استظهرناه من إفادة التنكير للتقليل لا النوع في ضمن أي شخص، فافهم وتبصر.

تذنيب في الأخبار الواردة في ذم وضع المعروف في غير موضعه ومع غير أهله

ففي «**الوسائل**» من «**الكافي**» بإسناده عن سيف بن عميرة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لمفضل بن عمر: يا مفضّل إذا أردت أن تعلم أشقي الرّجل أم سعيد فانظر سيبه ومعروفه إلى من يصنعه فإن كان يصنعه إلى من هو أهله فاعلم أنّه إلى خير وإن كان يصنعه إلى غير أهله فاعلم أنّه ليس عند الله خير[١].

ومن «**الكافي**» عن «**العدّة**» عن أحمد بن محمّد بن عيسى عن محمّد بن سنان عن مفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أردت أن تعرف إلى خير يصير الرّجل أم إلى شرّ فانظر أين يضع معروفه فإن كان يضع معروفه عند أهله فاعلم أنّه يصير إلى خير، وإن كان يضع معروفه مع غير أهله فاعلم أنّه ليس له في الآخرة من خلاق[٢].

وفي «**الوسائل**» عن الصّدوق بإسناده عن قتادة بن عمرو وأنس بن مالك عن أبيه جميعاً في وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام قال: يا عليّ أربعة تذهب ضياعاً: الأكل على الشّبع، والسّراج في القمر، والزّرع في السبخة، والصّنيعة عند غير أهلها.

وفيه من مجالس ابن الشّيخ عن أبيه عن أبي محمّد الفحام عن المنصوري عن عم أبيه عن الإمام علي بن محمّد عن أبيه عن آبائه واحداً واحداً عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: خمس تذهب ضياعاً: سراج تفسده في شمس الذهن يذهب والضّوء لا ينتفع به، ومطر جود على أرض سبخة المطر يضيع والأرض لا ينتفع بها، وطعام يحكمه طاهية يقدم إلى شبعان فلا ينتفع به، وامرأة تزف إلى عنين فلا ينتفع بها، ومعروف يصطنع إلى من لا يشكره[٣].

---

(١) الكافي: ٤/ ٣٠ ح ١، والأمالي: ٦٤٤.

(٢) الكافي: ٤/ ٣١ ح ٢، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٣٠٠ ح ٢١٦٠٠.

(٣) وسائل الشيعة: ١٦/ ٣٠٣، والأمالي: ٢٨٥ ح ٥٥٤.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام (عليه السلام) در ارشاد مردمان بر مواقع و مصارف احسان، می فرماید:

و نیست مرنهنده احسان را در غیر محلی كه لایق است به او و در نزد غیر اهل و مستحق آن از حظّ و نصیب در آن چه آورده مگر ستایش لئیمان و ثناء شریران و گفتار جاهلان مادامی كه احسان كننده است بر ایشان: چه سخی نموده دست او را و حال آن كه آن شخص بخیل است از ذات باری تعالی، پس هركه عطا كند او را خداوند سبحانه مالی را، پس باید وصل نماید آن را به اقربا و اقوام خود و باید كه نیك سازد از آن مهمانی را و باید كه برهاند به آن اسیر و دست گیر را و باید كه بدهد از آن فقیر قرض دار را و باید كه حبس نماید نفس خود را بر اداء حقوق واجبه و مندوبه و حوادثات روزگار، به جهت طلب ثواب از حضرت پروردگار، پس به درستی كه فائزشدن به این خصلت ها بزرگواری مكرمت های دنیا است ورسیدن به فضیلت های عقبی انشاء الله تعالی.

هنا انتهى الجزء الثامن من هذه الطبعة الجديدة القيمة وتم تصحيحه وتهذيبه بيد العبد «السيد ابراهيم الميانجي» عفى عنه وعن والديه وذلك في اليوم الرابع والعشرين من المحرم سنة «١٣٨١» ويليه إن شاء الله الجزء التاسع وأوله أول المختار المائة والثالث والأربعين، والحمد لله كما هو أهله

محتوى الجزء الثامن من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

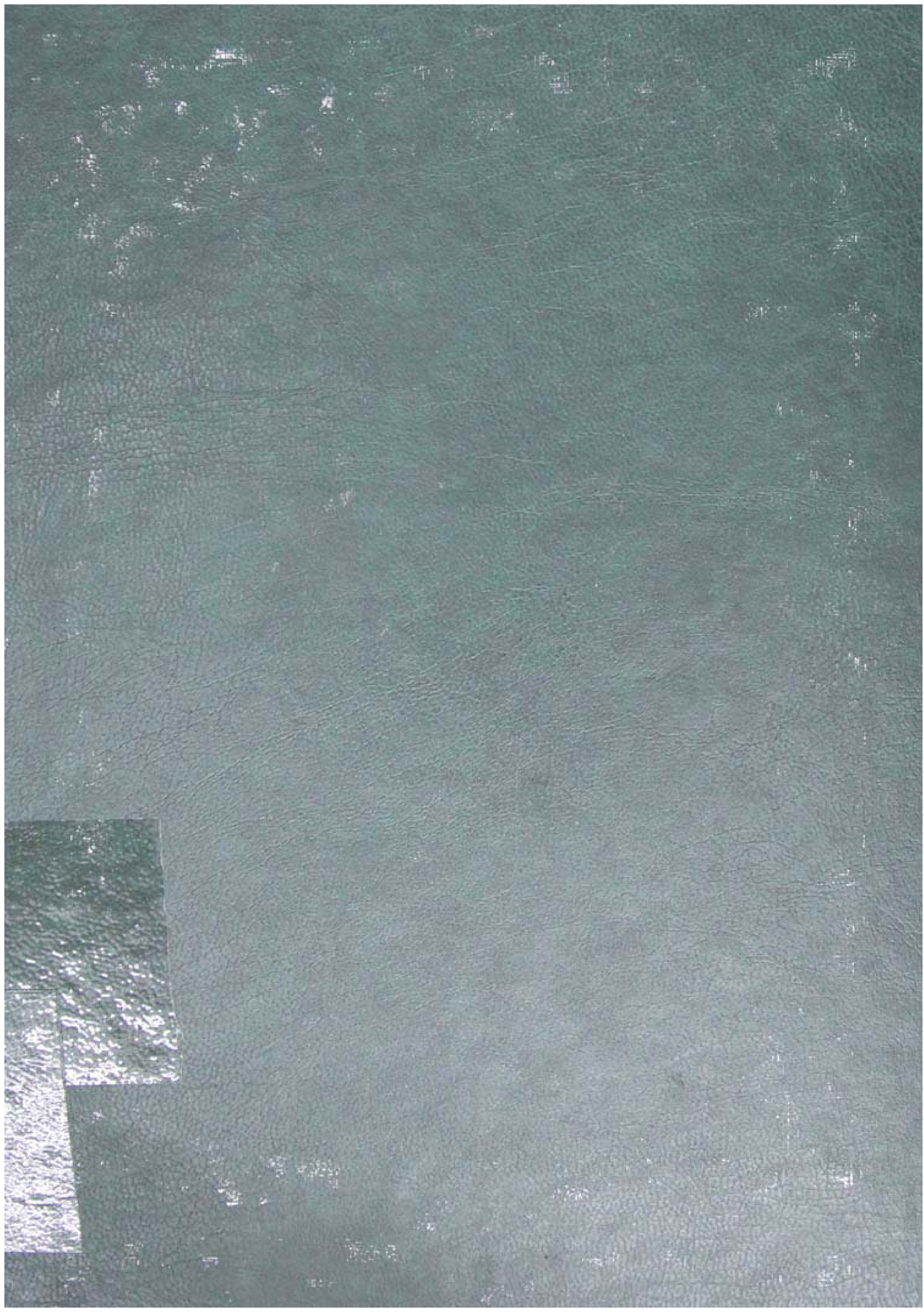

منهاج البراعة

شرح

نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد التاسع

دار احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان. شارع دكاش - هاتف ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس. ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ومن خطبة له عليه السلام في الإستسقاء
وهي المائة والثالثة والأربعون من المختار في باب الخطب

أَلا وَإِنَّ الأَرْضَ الَّتي تَحْمِلُكُمْ، والسَّماءَ الَّتي تُظِلُّكُمْ، مُطيعَتانِ لِرَبِّكُمْ، ومَا أَصْبَحَتا تَجُودانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِما تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلاَ لِخَيْرٍ تَرْجُوانِهِ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ أُمِرَتا بِمَنافِعِكُمْ فَأَطاعَتا، وَأُقيمَتا عَلىٰ حُدُودِ مَصالِحِكُمْ فَقامَتا، إِنَّ الله يَبْتَلِي عِبادَهُ عِنْدَ الأَعْمالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَراتِ، وحَبْسِ البَرَكاتِ، وإِغْلاقِ خَزائِنِ الخَيْراتِ، لِيَتُوبَ تائِبٌ، ويُقْلِعَ مُقْلِعٌ، ويَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، ويَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ، وقَدْ جَعَلَ الله سُبْحانَهُ الإِسْتِغْفارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ، وَرَحْمَةِ الخَلْقِ، فَقَال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝﴾ [نوح: ١٠-١٢]. فَرَحِمَ الله امْرَءاً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقالَ خَطيئَتَهُ، وبادَرَ مَنِيَّتَهُ.

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتارِ والأَكْنانِ، وبَعْدَ عَجيجِ البَهائِمِ، والوِلْدانِ، راغِبِينَ في رَحْمَتِكَ، وراجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وخائِفِينَ مِنْ عَذابِكَ ونَقِمَتِكَ، اللَّهُمَّ فَاسْقِنا غَيْثَكَ، وَلا تَجْعَلْنا مِنَ القانِطِينَ، وَلا تُهْلِكنا بِالسِّنينَ، وَلا تُؤاخِذْنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ ما لا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ حِينَ أَلْجَأَتْنا المَضايِقُ الوَعِرَةُ، وَأَجاءَتْنا المَقاحِطُ المُجْدِبَةُ، وَأَعْيَتْنا المَطالِبُ المُتَعَسِّرَةُ، وتَلاحَمَتْ عَلَيْنا الفِتَنُ المُسْتَصْعَبَةُ، اللَّهُمَّ لا تَرُدَّنا خائِبِينَ، وَلا تَقْلِبْنا واجِمِينَ، وَلا تُخاطِبْنا بِذُنُوبِنا، وَلا تُقايِسْنا بِأَعْمالِنا، اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنا غَيْثَكَ ورِزْقَكَ ورَحْمَتَكَ، وَاسْقِنا سُقْياً نافِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً تُنْبِتُ بِها ما قَدْ فاتَ، وتُحْيِي بِها ما قَدْ ماتَ، نافِعَةَ الحَيا، كَثِيرَةَ المُجْتَنىٰ، تَرْوِي بِهَا القِيعانَ، وَتُسِيلُ البُطْنانَ، وتَسْتَوْرِقُ الأَشْجارَ، وَتُرْخِصُ الأَسْعارَ، إِنَّكَ عَلىٰ ما تَشاءُ قَدِيرٌ[1].

اللغة

(الأرض) مؤنثة، والجمع: أرضون بفتح الراء **(والسماء)** المظلّة للأرض. قال ابن

---

(١) مستدرك الوسائل: ٦/ ٢٠٢، وبحار الأنوار: ٨٨/ ٣١٣.

الأنباري: تذكّر وتؤنث، وقال الفراء: التذكير قليل وهو على معنى السقف والسماء أيضاً المطر. قال الفيومي: مؤنته لأنها في معنى السحابة وكل عال مظل سماء حتى يقال لظهر الفرس: سماء، و (**جاد**) بالمال بذله، وجادت السماء أمطرت، والأرض أنبتت و (**توجّع**) لفلان رثاه و (**أقلع**) عن الأمر إقلاعاً تركه و (**الأكنان**) جمع الكن وهو ما ستر من الحرّ والبرد من كننته أي سترته وأخفيته في كنّه بالكسر.

و (**السنين**) جمع السّنة وهي الجدب وأرض سنواء وسنهاء أصابتها السّنة و (**المضائق**) جمع المضيق وهو ما ضاق من الأمور و (**الوعر**) بسكون العين وكسرها ضدّ السهل. قال الشارح المعتزلي: الوعرة بالتسكين ولا يجوز التحريك و (**المقاحط**) أماكن القحط أو أزمانه جمع المقحط يأتي للمكان والزمان و (**الوجم**) والواجم العبوس المطرق لشدّة الحزن و (**السّقيا**) بالضم من إسم من سقاه الله الغيث أنزله له و (**القيعان**) جمع القاع وهو المستوي من الأرض.

و (**تسيل**) في بعض النسخ بفتح التاء مضارع سال كباع وفي بعضها بالضم من باب الأفعال و (**البطنان**) بالضم جمع البطن كعبد وعبدان وظهر وظهران وهو المنخفض من الأرض كما قاله الطريحي، أو الغامض منها كما في (**شرح المعتزلي**). وقال الفيروزآبادي: جمع الباطن وهو مسيل الماء في غلظ.

و (**الرخص**) بالضم ضد الغلاء، ورخص الشيء من باب قرب فهو رخيص ويتعدّى بالهمزة فيقال: أرخص الله السعر وتعديته بالتضعيف غير معروف و (**الأسعار**) جمع سعر بالكسر وهو تقدير أثمان الأشياء وارتفاعه غلاء وانحطاطه رخص، وقيل: تقدير ما يباع به الشيء طعاماً كان أو غيره، ويكون غلاءً ورخصاً باعتبار الزيادة على المقدار الغالب في ذلك المكان والأوان والنقصان عنه.

الإعراب

جملة (**تجودان**) منصوبة المحلّ على أنه خبر أصبحت أو أصبح بمعنى صار. قال نجم الأئمة ما محصله: إن من خصائص (**كان**) ما ذهب إليه إبن درستويه، وهو أنه لا يجوز أن يقع الماضي خبر كان فلا يقال: كان زيد قام، وفعل ذلك لدلالة كان على المضي فيقع المضي في خبره لغواً فينبغي أن يقال: كان زيد قائماً أو يقوم، وكذا ينبغي أن يمنع يكون زيد يقوم لتلك العلة إلى أن قال: ومنع ابن مالك وهو الحق من مضي خبر (**صار وليس وما دام**) وكل ما كان ماضياً من (**ما زال ولا زال**) ومرادفاتها، لدلالة صار على الانتقال في الزمن الماضي إلى حالة مستمرة وهي مضمون خبرها، وكذا (**ما زال**) وأخواتها موضوعة لاستمرار

مضمون أخبارها في الماضي وما يصلح الاستمرار هو الإسم الجامد نحو: هذا أسد، والصفة نحو: زيد قائم، أو غنيّ أو مضروب أو الفعل المضارع نحو: زيد يقدم في الحرب ويسخو بموجوده، فناسبت الثلاثة لصلاحيتها للاستمرار أن يقع خبراً **(لصار)** وأخواتها من **(أصبح وأمسى وظلّ وبات)** وكذا **(ما زال)** وأخواتها بخلاف الماضي فإنه لا يستعمل في استمرار هذه الثلاثة فلم يقع خبراً لهذه الأفعال.

و **(توجّعاً)** مفعول لأجله والعامل فيه تجودان، وقوله: **(ليتوب)**، تعليل ليبتلى ومتعلّق به، حال من السماء **(والفاء)** في قوله: **(فرحم الله)** فصيحة والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة الشريفة خطبها في الإستسقاء وطلب السّقياء كالخطبة المائة والرابعة عشر، وقد قدمنا في شرح تلك الخطبة كيفية الإستسقاء وما يناسب شرحها من الأخبار.

وأقول هنا: أنه عليه السلام لما كان بصدد الدعاء وطلب الرحمة من الله سبحانه وتعالى وكانت استجابة الدعاء موقوفة على وجود المقتضى وانتفاء الموانع، قدّم أموراً مهمة أمام الدعاء تنبيهاً للسامعين، ومن كان معه عليه السلام من المستسقين على ما له مدخلية في استجابة دعائهم وإنجاح مقصدهم كي لا يردوا خائبين ولا ينقلبوا واجمين.

فنبّه أولاً على أن الأرض والسماء مخلوقان مقهوران تحت قدرة الله سبحانه والنفع والضرر الحاصلان منهما بالجود والإمساك لا ينشئان منهما بنفسهما وبالاستقلال، وإنما ينشئان منهما بتعلق مشيئة الفاعل المختار وتدبير الحكيم المدبّر سبحانه، وعلى ذلك فاللازم على العباد في الداهية والناد أن يقرعوا بأيدي السؤال والذل والإبتهال بابه، ويتوجهوا في إنجاح الآمال إلى جنابه عزّ وجل.

وهو قوله: **(ألا وأن الأرض التي تحملكم والسماء التي تظلكم)** أي تعلوكم وتشرف عليكم أو تلقي إليكم ظلّها، والمراد بالسماء: إما معناها المجازي، أعني السحاب، أو الحقيقي باعتبار أن زوال المطر من السماء لا لكون السماوات بحركاتها أسباباً معدّة لكل ما في هذا العالم من الحوادث كما زعمه الشارح البحراني.

ويؤيد الثاني ظواهر الآيات التي تدل على نزول المطر من السماء مثل قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النحل: ١٠]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النحل: ٦٥] ونحوهما مما يقرب عشرين آية.

ويؤيد الأول ظاهر قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [فاطر: ٩]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧] الآية.

ويدل على الإحتمالين ما في (**البحار**) من علل الشرائع للصدوق عن أبيه عن الحميري عن هارون عن إبن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: كان علي عليه السلام يقوم في المطر أول مطر يمطر حتى يبتلّ رأسه ولحيته وثيابه فيقال له: يا أمير المؤمنين الكن الكن، فيقول: إن هذا ماء قريب العهد بالعرش. ثم أنشأ عليه السلام يحدّث فقال: إنّ تحت العرش بحراً فيه ماء ينبت به أرزاق الحيوانات وإذا أراد الله أن ينبت به ما يشاء لهم رحمة منه أوحى الله عزَّ وجل فمطَّر منه ما شاء من سماء إلى سماء حتى يصير إلى السماء الدنيا، فتلقيه إلى السحاب والسحاب بمنزلة الغربال ثم يوحي الله عزَّ وجل إلى السحاب أن: إطحنيه وأذيبيه ذوبان الملح في الماء ثم انطلقي به إلى موضع كذا وكذا وعباباً أو غير عباب، فتقطر عليهم على النحو الذي يأمرها به، فليس من قطرة تقطر إلاّ ومعها ملك حتى تضعها بموضعها[1]، الحديث.

ورواه في (**الكافي**) عن هارون عن مسعدة بن صدقة نحوه.

قال الرازي في تفسير قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ اختلف الناس فيه؛ فقال الجبائي: إنه تعالى ينزّل الماء من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض يقال: لأن ظاهر النص يقتضي نزول المطر من السماء والعدول عن الظاهر إلى التأويل إنما يحتاج إليه عند قيام الدليل على أن إجراء اللفظ على ظاهره غير ممكن، وفي هذا الموضع لم يقع دليل على امتناع نزول المطر من السماء فوجب إجراء اللفظ على ظاهره، إلى أن قال:

والقول الثاني المراد: أنزل من جانب السماء ماء.

والقول الثالث: أنزل من السحاب ماءً، وسمى الله السحاب سماء لأن العرب تسمي كل ما فوقك سماء كسماء البيت، انتهى.

ورجّح في موضع آخر نزول المطر من السحاب قال: لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قلّة جبل عالٍ ويرى الغيم أسفل فإذا نزل من ذلك الجبل يرى الغيم ماطراً عليهم، وإذا كان هذا الأمر مشاهداً بالبصر كان النزاع باطلاً، هذا.

وقوله: (**مطيعتان لربكم**) وصفهما بالإطاعة تنبيهاً على عظمة قدرته سبحانه ونفوذ أمره

(١) قرب الإسناد: ٧٣ ح ٢٣٥، وعلل الشرائع: ٢/ ٤٦٣ ح ٨.

فيهما، كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. **(وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما)** أي ما صارت السماء تجود لكم بالأمطار ولا الأرض تجود لكم بالإنبات **(توجعاً لكم)** أي تألماً لما أصاب بكم **(ولا زلفة)** وتقرّباً **(إليكم ولا لخير ترجوانه منكم)** كما هو المعهود المتعارف في جود الناس بعضهم لبعض حيث إنهم يبذلون المال للترحم أو التقرّب أو لجلب الخير أو لدفع الضرّ أو نحو ذلك، وأما السماء والأرض فلا يتصور في حقوقهما ذلك لأنهما أجسام جامدة غير شاعرة لا يوجد ما يوجد منهما بالإرادة والاختيار.

(ولكن)هما مسخرتان تحت قدرة الله ومشيئته تعالى **(أُمرتا بمنافعكم فأطاعتا وأُقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا)** والمراد بالأمر والإقامة: الأمر والإثبات التكويني، كما أن المراد بالقيام والإطاعة الثبات والجري على وفق ما أراد الله سبحانه منهما.

وفي هاتين القرينتين تلميح إلى قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٤ـ ٢٥] أي يريكم البرق خوفاً من الصاعقة وللمسافر وطمعاً في الغيث وللمقيم، وينزل من السماء مطر فيحيي به الأرض بالنبات بعد موتها ويبسها وجدوبها، وقيام السماء والأرض بأمره بإقامته لهما وإرادته لقيامهما.

قال الطبرسي: بلا دعامة تدعمها ولا علاقة تتعلق بهما بأمره لهما بالقيام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. وقيل: بأمره أي بفعله وإمساكه إلا أن أفعال الله عزّ إسمه تضاف إليه بلفظ الأمر لأنه أبلغ في الاقتدار، فإن قول القائل: أراد فكان، أو أمر فكان أبلغ في الدلالة على الإقتدار من أن يقول: فعل فكان، ومعنى القيام الثبات والدوام، انتهى[١].

وقد مضى تفصيل الكلام في منافع السماء والأرض وتحقيق ما يتعلق بمصالحها في شرح الخطبة التسعين، فليراجع هناك، هذا.

ولما نبّه على أن السماء والأرض مخلوقان مسخران تحت قدرة الفاعل المختار، وأن جودهما بالإمطار والإنبات إنما هو بتعلق أمر الله سبحانه ومشيئته وإرادته أردف ذلك بالتنبيه على أن المانع من نزول الخير وإفاضة الجود إنما هو أمر راجع إلى الخلق وحادث من جهة العبد وهو سوء فعله وذنبه المانع من استعداده لقبول الرحمة وفيضان الجود، فقال: **(إن الله**

---

(١) مجمع البيان: ٨/ ٥٥.

يبتلي عباده عند الأعمال السيئة) لأن البلاء للظالم أدب (**بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات**) كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وإنما يبتليهم بذلك لطفاً منه تعالى (**ليتوب تائب**) عن سوء عمله (**ويقلع مقلع**) أي يكف عن ضلاله وزلله (**ويتذكّر متذكّر**) بما أعدّ الله سبحانه من النعيم في دار القرار للمتقين الأبرار (**ويزدجر مزدجر**) بما أعدّ الله تعالى من العذاب الأليم في دار البوار للفجّار والأشرار.

ثم نبّه على ما به يرتفع المانع من الخير والجود ويتأهّل لإفاضة الرحمة من واجب الوجود، فقال: (**وقد جعل الله سبحانه الإستغفار**) ممحاة للذنب و (**سبباً لدرور الرزق**) وكثرته (**فقال**) في سورة نوح: (﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾) ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً.

قال الطبرسي في (**تفسيره**): أي اطلبوا منه المغفرة على كفركم ومعاصيكم إنه كان غفاراً لكل من طلب منه المغفرة، فمتى رجعتم عن كفركم ومعاصيكم وأطعتموه يرسل السماء عليكم مدراراً، أي كثيرة الدرور بالغيث، وقيل: إنهم كانوا قد قحطوا وأسنتوا وهلكت أموالهم وأولادهم فلذلك رغّبهم في ردّ ذلك بالاستغفار مع الإيمان والرجوع إلى الله تعالى، ويمددكم بأموال وبنين، أي يكثر أموالكم وأولادكم الذكور، ويجعل لكم جنّات، أي بساتين في الدنيا ويجعل لكم أنهاراً تسقون بها جناتكم. قال قتادة: علم نبي الله نوح عليه السلام أنهم كانوا أهل حرص على الدنيا فقال: هلمّوا إلى طاعة الله فإن فيها درك الدنيا والآخرة.

وروى الربيع بن صبيح: أن رجلاً أتى إلى الحسن عليه السلام فشكى إليه الجدوبة، فقال له الحسن عليه السلام: إستغفر الله. وأتاه آخر فشكى إليه الفقر، فقال له: إستغفر الله. وأتاه آخر فقال: إدع الله أن يرزقني إبناً، فقال له: إستغفر الله، فقلنا: أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالإستغفار، فقال عليه السلام: ما قلت ذلك من ذات نفسي إنما اعتبرت فيه قول الله تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ إلى آخره، هذا[1].

والآيات والأخبار في فضيلة الإستغفار وكونه سبباً لدرور الرزق وسائر ما يترتب عليه من الثمرات كثيرة.

فمن الآيات مضافة إلى ما مر، قوله تعالى في سورة هود عليه السلام حكاية عنه: أنه قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

---

(١) وسائل الشيعة: ٧/١٧٨، وتفسير مجمع البيان: ١٠/١٣٣.

ومن الأخبار في **(الكافي)** بإسناده عن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن العبد إذا أذنب ذنباً أُجِلَ من غدوة إلى الليل فإن استغفر الله لم يكتب عليه.

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من عمل سيئة أُجِلَّ فيها سبع ساعات من النهار، فإن قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيّوم، ثلاث مرات لم تُكتب عليه.

وعن عبد الصمد بن بشير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجلّه الله سبع ساعات، وإن استغفر الله لم يُكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتب الله عليه سيئة، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر الله له وإن الكافر لينساه من ساعته.

وفيه مرسلاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيّوم بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد، وأن يتوب عليَّ، إلا غفرها الله له عزَّ وجل ولا خير في من يقارف في يوم أكثر من أربعين كبيرة[(١)].

وفي **(ثواب الأعمال)** بسنده عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكلّ داء دواء ودواء الذنوب الاستغفار»[(٢)].

وفيه عن سلام الخيّاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قال: أستغفر الله مائة مرة حين ينام بات وقد تحاطت الذنوب كلها عنه كما تتحاط الورق من الشجر ويصبح وليس عليه ذنب.

وعن مسعدة بن صدقة عن جعفر الصادق عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «طوبى لمن وجد في صحيفته يوم القيامة تحت كل ذنب: أستغفر الله».

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: من استغفر الله بعد صلاة الفجر سبعين مرة غفر الله له ولو عمل ذلك اليوم سبعين ألف ذنب، ومن عمل أكثر من سبعين ألف ذنب فلا خير له[(٣)].

وفي **(الوسائل)** من **(الكافي)** عن ياسر الخادم عن الرضا عليه السلام قال: مثل الاستغفار مثل ورق على شجرة تحرك فتناثر، والمستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزىء بربه[(٤)].

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٣٩، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٣٣٣.
(٢) الكافي: ٢/ ٤٣٩ ح ٨، والخصال: ٥٤٣ ح ١٩.
(٣) الخصال: ٥٨١ ح ٤، وثواب الأعمال: ١٦٥.
(٤) الكافي: ٢/ ٥٠٤ ح ٣، ووسائل الشيعة: ٧/ ١٧٦، ح ٩٠٤٦.

وعن عبيدة بن زرارة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا كثر العبد من الاستغفار رفعت صحيفته وهي تتلألأ.

وعن السكوني عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام في حديث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كثرت همومه فعليه بالإستغفار»[١].

وفيه من **(عدّة الداعي)** لأحمد بن فهد قال: قال عليه السلام: إن للقلوب صداء كصداء النحاس فأجلوها بالاستغفار.

قال: وقال: من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كلّ همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب.

وفيه من **(أمالي)** إبن الشيخ مسنداً عن أبي الحسن المنقري قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: عجباً لمن يقنط ومعه الممحاة، قيل: وما الممحاة؟ قال: الإستغفار.

وفيه من كتاب **(ورّام بن أبي فراس)** قال: قال عليه السلام: أكثروا الاستغفار إن الله لم يعلّمكم الاستغفار إلا وهو يريد أن يغفر لكم، هذا[٢].

ولما نبّه على كون الاستغفار سبباً لدرور الرزق واستشهد عليه بالآية الشريفة أردفه بالدعاء على المستغفرين التائبين بقوله **(فرحم الله امرءً استقبل توبته)** أي استأنفها **(واستقال خطيئته)** أي طلب الإقالة منها ومن المؤاخذة بها. قال الشارح البحراني: ولفظ الإقالة استعارة، ووجهها أن المخطىء كالمعاهد والملتزم لعقاب أخروية بلذة عاجلة لما علم من استلزام تلك اللذة المنهيّ عنها للعقاب، فهو يطلب للإقالة من هذه المعاهدة كما يطلب المشتري الإقالة من البيع **(وبادر منيته)** أي سارع إليها بالتوبة، والاستقالة قبل إدراكها له، هذا.

ولما فرغ عليه السلام من تمهيد مقدمات الدعاء شرع فيه فقال: **(اللهم إنّا خرجنا إليك من تحت الأستار والأكنان)** التي ليس من شأنها أن تفارق إلا لضرورة شديدة **(وبعد عجيج البهائم والولدان)** وأصواتها المرتفعة بالبكاء والنحيب **(راغبين)** في برّك و **(رحمتك وراجين فضل)** منك و **(نعمتك وخائفين من عذابك ونقمتك اللهم فأسقنا غيثك)** المغدق من السحاب المنساق لنبات أرضك المونق **(ولا تجعلنا من القانطين)** الآيسين **(ولا تهلكنا بالسنين ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا يا أرحم الراحمين)** والمراد بالسفهاء: الجهّال من أهل المعاصي

(١) المحاسن: ١/ ٤٢ ح ٥٦، والكافي: ٨/ ٩٣.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ١٧٨ ح ٩٠٥٧، وبحار الأنوار: ٩/ ٢٨٣، ح ٣٠.

ويفعلهم معاصيهم المبعدة عن رحمته سبحانه، كما في قوله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ثم عاد عليه السلام إلى تكرير شكوى الجدب بذكر أسبابها الحاملة عليها، فقال: (**اللّهم إنا خرجنا إليك نشكو إليك ما لا يُخفى عليك**) من الضّر والسوء (**حين ألجأتنا المضائق الوعرة**) المستصعبة (**وأجاءتنا المقاحط المجدبة**) أي السنون المحلّة (**وأعيتنا المطالب المتعسرة، وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة**) أي تزاحمت علينا أمور من الجوع والعري وسائر مسببات القحط ما كانت لنا فتنة أي بلاء ومحبة أي صارفة للقلوب عمّا يراد بها.

(**اللّهم**) إنّا نسألك أن (**لا تردّنا خائبين**) من رحمتك (**ولا تقلبنا واجمين**) محزونين باليأس عن عطيتك (**ولا تخاطبنا بذنوبنا**). قال الشارح المعتزلي: أي لا تجعل جواب دعائنا لك ما تقتضيه ذنوبنا كأنه يجعله كالمخاطب لهم والمجيب عما سألوه إياه كما يفاوض الواحد منا صاحبه ويستعطفه فقد يجيبه ويخاطبه بما يقتضيه ذنبه إذا اشتدت موجدته، ونحوه قوله: (**ولا تقايسنا بأعمالنا**) أي لا تجعل ما تجيبنا به مقايساً ومماثلاً لأعمالنا السيئة، وبعبارة أخرى: لا تجعل فعلك بنا مقايساً لأعمالنا السيئة ومشابهاً ولها وسيئة مثلها.

(**اللهم إنشر علينا غيثك وبركتك ورزقك ورحمتك، واسقنا سقياً نافعة**) سالمة من الإفساد بالإفراط (**مروية**) مسكتة للعطش (**معشبة**) أي ذات العشب والكلاء (**تنبت بها ما قد فات**) أي مضى وذهب (**وتحيي بها ما قد مات**).

قال بعض الأفاضل: أي تخرج وتعيد بها ما قد ذهب ويبس من أصناف النبات وضروب الأعشاب وألوان الأزهار وأنواع الأشجار والثمار، وما انقطع من جواري الجداول والأنهار، فاستعار الإحياء الذي حقيقته هو إفاضة الروح على الجسد للإخراج والإعادة المذكورين كما استعار الموت الذي هو حقيقة انقطاع تعلّق الروح بالجسد لليبس والذهاب، والجامع في الأولى إحداث القوى النامية في المواد والمنافع المترتّبة على ذلك، وفي الثانية استيلاء اليبوسة وعدم النفع، وهما استعارتان تبعيتان لأن المستعار في كل منهما فعل والقرينة في الأولى المجرور، أعني الضمير في (**بها**) العائد إلى السقيا لظهور عدم حصول الإحياء الحقيقي بالسقيا، وفي الثانية الإسناد إلى الفاعل لأن الموت الذي يحيي المتصف به بالسقي لا يكون حقيقياً البتة.

(**نافعة الحياء**) والمطر (**كثيرة المجتنى**) والثمر (**تروى بها القيعان**) والأراضي المستوية (**وتسيل بها البطنان**) والأراضي المنخفضة، ونسبة السيلان أو الإسالة إلى البطنان من المجاز العقلي إذ حقه أن يسند أو يوقع على الماء، لأنه الماء حقيقة ولكنه أوقع على مكانه لملابسته له كما أسند الفعل إليه في سال النهر، والغرض طلب كثرة المطر، (**وتستورق الأشجار،**

وترخص الأسعار، إنك على ما تشاء قدير) وبالإجابة حقيق جدير.

تنبيه

قال بعض شرّاح **(الصحيفة الكاملة)**: اختلف في التّسعير، فقيل: هو من فعل الله سبحانه وهو ما ذهبت إليه الأشاعرة بناء على أصلهم من أنه لا فاعل إلا الله تعالى، ولما ورد في الحديث حين وقع غلاء بالمدينة فاجتمع أهلها إليه وقالوا: سعُر لنا يا رسول الله، فقال: «المسعِّر هو الله»(١).

واختلفت المعتزلة في هذه المسألة، فقال بعضهم: هو فعل المباشر من العبد إذ ليس ذلك إلا مواضعة منهم على البيع والشّرى بثمن مخصوص. وقال آخرون: هو متولّد من فعل الله تعالى وهو تقليل الأجناس وتكثير الرغبات بأساس هي من الله تعالى.

والذي تذهب إليه معشر الإمامية: أن خروج السعر عن مجرى عادته ترقيّاً أو نزولاً إن استند إلى أسباب غير مستندة إلى العبد واختياره نسب إلى الله تعالى، وإلا نسب إلى العبد كجبر السلطان الرعية على سعر مخصوص، وما ورد في الحديث النبوي المذكور محمول على أنه لا ينبغي التسعير، بل يفوّض إلى الله ليقرره بمقتضى حكمته البالغة ورحمته الشاملة.

وما ورد من الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المعنى كما روي عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: إن الله وكّل ملكاً بالسعر يدبره بأمره، وعن أبي عبد الله عليه السلام: إن الله وكّل بالأسعار ملكاً يدبّرها بأمره(٢)، فالمراد بالسعر ما لم يكن للعبد وأسبابه مدخل، والله أعلم.

---

(١) أسد الغابة: ٣/٦٣ بتفاوت.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣/٢٦٨ ح ٣٩٧٠، ووسائل الشيعة: ١٧/٤٣١ ح ٢٢٩١٩.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن ولیّ دین و سیّد وصیّین است در مقام استسقا و باران خواستن از خدا که فرموده:

آگاه باشید به درستی که زمینی که برمی دارد شما را و آسمانی که سایه می افکند بر شما، مطیع و منقاد هستند پروردگار شما را و نگردیده اند آن آسمان و زمین که ببخشند به شما برکت خودشان را به جهت غمخواری از برای شما و نه به جهت تقرّب و منزلت به سوی شما و نه از جهت خیری که امیدوار باشند به آن از شما ولکن مأمور شدند از جانب خداوند قادر قاهر به منفعت های شما، پس اطاعت کرده اند و برپا داشته شده اند بر نهایات مصلحت های شما، پس قیام نموده اند.

پس به درستی که خداوند تعالی مبتلا می نماید و امتحان می فرماید بندگان خود را هنگام اقدام بر اعمال ناشایست به نقص میوه جات و حبس کردن برکات و بستن خزینه های خیرها تا اینکه توبه نماید توبه کنندای و ترك کند گناه را ترك کننده ای و متذکّر شود صاحب تذکّر و منزجر شود قابل زجر.

و به تحقیق که گردانیده حق تعالی طلب مغفرت و استغفار را سبب فرود آمدن روزی و رحمت از برای خلق، پس فرمود در کلام مجید خود: "استغفروا ربّکم إنّه کان غفّاراً"، یعنی "طلب مغفرت و آمرزش نمایید از پروردگار خود به درستی که اوست صاحب مغفرت و آمرزنده"، تا بفرستد ابر را بر شما در حالتی که ریزان شود به باران و مدد فرماید شما را به أموال و أولاد، پس رحمت نماید خدا بر کسی که روی آورد به درگاه خدا به توبه و انابه و طلب اقاله و فسخ خطای خود را نمود و مبادرت و پیش دستی کرد به سوی مرگ خود با توبه نمودن از معصیت.

بارالها، به درستی که ما بیرون آمده ایم به سوی رحمت تو از زیر پرده ها و پوشش ها؛ (یعنی از خانه های خود بیرون آمده و پابرهنه رو به صحرا نهاده و متوجّه تو شده ایم) بعد از ناله چهارپایان و فرزندان در حالتی که راغبیم در رحمت

تو و امیدواریم به زیادتی نعمت تو و ترسانیم از عذاب تو و عقاب تو. بارپروردگارا، پس آب ده ما را به باران خودت و مگردان ما را از نومیدان و هلاك مکن ما را به سال های قحطی و مؤاخذه مکن به ما به جهت فعل قبیح سفیهان و بی خردان ما، ای پروردگاری که ارحم الرّاحمین هستی.

بارخدایا، به درستی که ما بیرون آمده ایم به سوی تو، شکایت می کنیم به سوی تو چیزی را که پنهان و پوشیده نیست به تو وقتی که مضطر گردانید ما را تنگی ها به غایت سخت و ملجأ نمود ما را سال های قحطی و عاجز ساخت ما را مطلب هایی دشوار و هجوم آور شد به ما فتنه های صعب و با شدّت.

بارالها، به درستی که ما سؤال می کنیم از فضل و کرم تو این که برنگردانی ما را درحالتی که مأیوس باشیم و بازنبری ما را در حالتی که محزون و پریشان شویم و خطاب عتاب نکنی به ما به جهت گناهان ما و قیاس نکنی ما را به أعمال قبیحه ما . . . .

پروردگارا، پراکنده کن بر ما باران خود را و سیراب کن ما را سیرابی بامنفعت که سیراب سازنده هر موجود است و رویاننده گیاه که برویانی به سبب آن سیرابی آنچه که فوت شده باشد از غلاّت و زنده گردانی بهواسطه آن آنچه که مرده از نبات، آن چنان سیرابی که صاحب باران را منفعت باشد و بسیار شود میوه آن که سیراب گردانی به آن زمین های هموار را و روان گردانی به آن زمین های پست را و برگ دار گردانی درختان را به آن و ارزان گردانی نرخ ها را، به درستی که تو بر آنچه که می خواهی از رخص و جدب صاحب قدرت و توانایی.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والرابعة والأربعون من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين

الفصل الأول

بَعَثَ رُسُلَهُ بِما خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلىٰ خَلْقِهِ، لِئَلاَّ تَجِبَ الحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الإعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعاهُمْ بِلِسانِ الصِّدْقِ إلىٰ سَبِيلِ الحَقِّ، ألا إِنَّ الله قَدْ كَشَفَ الخَلْقَ كَشْفَةً، لا أَنَّهُ جَهِلَ ما أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرارِهِمْ، ومَكْنُونِ ضَمائِرِهِمْ، وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، فَيَكُونَ الثَّوابُ جَزاءً، والعِقابُ بَواءً، أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ في العِلْمِ دُونَنا كَذِباً وبَغْياً عَلَيْنا، أَنْ رَفَعَنَا الله وَوَضَعَهُمْ، وأَعْطانا وحَرَمَهُمْ، وأَدْخَلَنا وأَخْرَجَهُمْ، بِنا يُسْتَعْطَى الهُدىٰ، ويُسْتَجْلى العَمىٰ، إنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ، غُرِسُوا في هٰذَا البَطْنِ مِنْ هاشِمٍ، لا تَصْلُحُ عَلىٰ سِواهُمْ، وَلا تَصْلُحُ الوُلاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ[1].

اللغة

(**الإعذار**) التخويف والوعيد و (**الكشف**) الإظهار ورفع كل شيء عما يواريه ويستره و (**البواء**) الكفوء، وباء الرجل بفلان: قتل به، وأبأت القاتل بالقتل واستبأته أي قتلته به و (**كذب**) يكذب من باب حسب كَذِباً وكِذْباً وكِذْبة وكَذْبة وكذّاباً و (**البطن**) دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة، كذا في (**القاموس**). وقيل: أول العشيرة الشعب. قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم القبيلة، ثم البطن، ثم العمارة، ثم الفخذ.

الإعراب

قوله: (**من وحيه**) بيان لما الموصولة، وقوله: (**ليبلوهم أيهم أحسن عملاً**)، كلمة (**أي**) إستفهامية مضافة إلى ما بعدها وهي مبتدأ و (**أحسن**) خبره، و (**عملاً**) تمييز، وجملة الاستفهام بدل من مفعول: يبلو، على حد قوله سبحانه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] فإن جملة: (**هل هذا إلاّ بشر**)، بدل من النجوى.

ويجوز أن تكون الجملة الاستفهامية استئنافاً بيانياً، كأنه سئل عن المبتلين، وقيل: من

(١) دلائل الإمامة: ٢١، وبحار الأنوار: ٢٨/ ٢٦١ ح ٤٥.

هم؟ فقيل: أيهم أحسن عملاً، نظير ما قاله بعض النحويين في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾ [مريم: ٦٩] من أن (أي) استفهامية، وجملة الاستفهام مستأنفة، ومن كل شيعة، مفعول ننزعن، والمعنى: لننزعن بعض كل شيعة، وكأن قائلاً يقول: ومن المنزعين؟ فقيل: أيهم أشدّ.

وقوله: **(أين الذين)** استفهام على سبيل التقريع والتوبيخ، وقوله: **(دوننا)** في محل النصب حال من فاعل **(الراسخون)** وهو بمعنى سوى وغير مبني على الفتح لملازمته الإضافة، و **(كذباً وبغياً)** منصوبان على الحال من فاعل زعموا وهما بمعنى الفاعل، أي كاذبين في زعمهم، و **(علينا)** متعلق ببغياً، و **(أن رفعنا)** في محل النصب مفعول له لبغياً، أي بغيهم علينا لأن رفعنا الله، وقوله: **(لا تصلح)** فاعله راجع إلى الإمامة المفهومة من قوله: **(إن الأئمة من قريش)**.

المعنى

إعلم أن هذا الفصل من الخطبة حسب ما أشار إليه الشارحان البحراني والمعتزلي منافرة بينه وبين قوم من الصحابة الذين كانوا ينازعونه الفضل، وصدر الفصل بالإشارة إلى بعث الرسل والحكمة في بعثهم، فقال: **(بعث رسله بما خصّهم به من وحيه)** الضمائر راجعة إلى الله سبحانه وإن لم يجر له ذكر لعدم الالتباس كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠].

والوحي كلام مأخوذ من الله سبحانه بواسطة الملك، والإلهام يحصل منه سبحانه بغير واسطة، وقيل: الوحي قد يحصل بشهود الملك وسماع كلامه فهو من الكشف الصوري المتضمن للكشف المعنوي، والإلهام من المعنوي، وأيضاً الوحي من خواص الرسالة ومتعلق بالظاهر، والإلهام من خواص الولاية، وأيضاً هو مشروط بالتبليغ كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] دون الإلهام، ومنهم من جعل الإلهام نوعاً من الوحي فيكون إطلاق الوحي على الإلهام في قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧] على سبيل الحقيقة، وأما على الأقوال السابقة فهو من باب التوسع والتجوّز.

(وجعلهم حجة له على خلقه لئلا) يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و **(تجب الحجة لهم عليه بترك الأعذار)** والتخويف وإبداء العذر في العقاب وتقديمه **(إليهم)** يعني أنه سبحانه إنما أرسل رسله مبشرين ومنذرين إتماماً للحجة وإزالة للعذر عنه في العقاب على العصيان لأن العقاب بلا بيان قبيح على الحكيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فإن قلت: هذا ينافي القول بالواجبات العقلية وكفاية حكم العقل بالوجوب أو التحريم فيما استقل بحسنه أو قبحه ولو لم يبعث الرسل كما هو مذهب العدلية من الإمامية والمعتزلة.

قلت: قد أجاب عنه الشارح المعتزلي بأن صحة مذهبهم يقتضي أن يحمل عموم الألفاظ على أن المراد بها الخصوص، فيكون التأويل: لئلا يكون للناس على الله حجة فيما لم يدل العقل على وجوبه ولا قبحه كالشرعيات، وكذلك: وما كنا معذّبين على ما لم يكن العقل دليلاً عليه حتى نبعث رسولاً، ومحصّله: أن العمومات مخصوصة بغير المستقلات، وأن المقصود بالآية: وما كنا معذّبين قبل بعث الرسل إلا فيما استقل لحكمه العقل، هذا.

ويمكن الجواب بإبقاء الآية على عمومها والتصرّف في البعث بأن يجعل بعث الرسل كناية أو مجازاً عن مطلق بيان التكليف ولو بلسان العقل كما في المستقلات العقلية، إلا أنه لما كان الغالب على الأغلب كون البيان بالرسول، فعبّر به عنه كما في قولك: لا أبرح هذا المكان حتى يؤذّن المؤذن، مريداً به دخول الوقت إذ كثيراً ما يعلم دخوله به.

(فدعاهم بلسان الصّدق) وهو لسان الأنبياء والحجج، لأنهم تراجمة وحي الله سبحانه، ويقرب منه ما في **(شرح البحراني)** قال: هو لسان الشريعة الناطقة عن مصباح النبّوة المشتعل عن نور الحق سبحانه **(إلى سبيل الحق)** وهو سبيل الدّين ونهج الشرع المبين.

ولما أشار عليه السلام إلى الحكمة في بعث الرسل أردفه بالتنبيه على الغرض من التكليف، وهو قوله: **(ألا إن الله تعالى قد كشف الخلق كشفة)** أي أبداهم وأظهر حالهم بما تعبّدهم به من الأحكام، إذ بالتعبّد بها يظهر ما هم عليه من السعادة والشقاوة والجحود والتسليم، وهذا معنى ما قيل: إنه أراد بالكشف الاختبار والابتلاء **(لا)** لـ **(أنه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم و)** أضمروه من **(مكنون ضمائرهم)** بل هو العالم بالسرائر والخبير بمكنونات الضمائر.

وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم، على ما مرّ تحقيقاً وتفصيلاً في تنبيهات الفصل السابع من الخطبة الأولى، وفي شرح الخطبة التاسعة والأربعين والخطبة الخامسة والثمانين فليراجع، **(ولكن)** كشفهم **(ليبلوهم أيهم أحسن عملاً)**.

إقتباس من الآية الشريفة في سورة (هود) قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

قال الطبرسي: معناه أنه خلق الخلق ودبّر الأمور ليظهر إحسان المحسن فإنه الغرض

في ذلك، أي ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر لئلا يتوهم أنه سبحانه يجازي العباد على حسب ما في معلومه أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه.

وفي سورة (الملك): ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [٢].

قال الطبرسي: أي ليعاملكم معاملة المختبر بالأمر والنهي فيجازي كل عامل بقدر عمله، وقيل: ليبلوكم أيكم أكثر للموت ذكراً وأحسن له استعداداً وأحسن صبراً على موته وموت غيره، وأيكم أكثر امتثالاً للأوامر واجتناباً عن النواهي في حال حياته.

قال أبو قتادة: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ما عنى به؟ فقال ﷺ: «يقول: أيكم أحسن عقلاً، ثم قال: أتمّكم عقلاً، وأشدّكم لله خوفاً، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً، وإن كان أقلّكم تطوّعاً»(١).

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه تلى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ثم قال: أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله. وعن الحسن: أيكم أزهد في الدنيا وأترك لها(٢)، انتهى.

أقول: وقد مضى تفصيل الكلام في معنى ابتلاء الله سبحانه لعباده في شرح الخطبة الثانية والستين، ومحصّله أنه سبحانه يختبر عباده مع علمه بما يؤل إليه أمرهم من سعادة أو شقاوة بأوامره ونواهيه، ويعاملهم معاملة المختبر ليجازي كل عامل بمقتضى فعله وعمله، كما لا يجازي المختبر للغير إلا بعد وقوع الفعل والعمل منه **(فيكون الثواب)** منه تعالى **(جزاء)** للحسنات بمقتضى فضله **(والعقاب بواء)** للسيئات بمقتضى عدله.

ثم إنه لما أشار إلى الحكمة في بعث الرسل ونبّه على الغرض من التكليف أردفه بقوله: **(أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا)** وغرضه بذلك توبيخ الزاعمين لذلك والإنكار عليهم والتنبيه على أن الرسوخ في العلم مخصوص بأهل بيت الولاية عليهم السلام وأن غيرهم كاذب في دعوى الرسوخ.

وهذه الدعوى منهم ـ أعني اختصاصهم بالرسوخ ـ قد شهدت عليها البراهين العقلية والنقلية، ونصت عليه العامة والخاصة.

أما العامة: فلما أورده الشارح المعتزلي في شرح هذا المقام حيث قال: إنه كناية وإشارة إلى قوم من الصحابة كانوا ينازعونه الفضل، فمنهم من كان يدّعي له أنه أفرض،

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٣٣، وتفسير مجمع البيان: ١٠/ ٦٩.
(٢) بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٣٣، وتفسير مجمع البيان: ١٠/ ٦٩.

ومنهم من كان يدعي له أنه أقرأ، ومنهم من كان يدعي له أنه أعلم بالحلال والحرام، هذا.

مع تسليم هؤلاء له أنه عليه السلام أفضل[١] الأمة وأن القضاء يحتاج إلى كل هذه الفضائل وكل واحدة منها لا تحتاج إلى غيرها، فهو إذاً أجمع للفقه وأكثرهم احتواء عليه إلا أنه لم يرض بذلك، ولم يصدق الخبر الذي قيل: أفرضكم فلان إلى آخره، فقال: إنه كذب وافتراء حمل قوماً على وضعه الحسد والبغي والمنافسة لهذا الحي من بني هاشم.

وأما الخاصة فقد تظافرت رواياتهم على ذلك.

ففي (**البحار**) من (**بصائر الدرجات**) بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله[٢].

ومن (**البصائر**) أيضاً عن إبراهيم بن إسحاق عن عبد الله بن حماد عن بريد البجلي «العجلي» عن أحدهما عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] آل محمد صلى الله عليه وآله، فرسول الله أفضل الراسخين في العلم قد علّمه الله جميع ما أنزله عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله.

ومن (**مناقب**) شهرآشوب عن أبي القاسم الكوفي قال: روي في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ إن الراسخون في العلم من قرنهم الرسول بالكتاب وأخبر «أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

قال صاحب (**المناقب**): وفي اللغة: الراسخ هو اللازم لا يزول عن حاله وليس يكون كذلك إلا من طبعه الله على العلم في ابتداء نشوئه كعيسى عليه السلام في وقت ولادته قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] الآية، فأما من يبقى السنين الكثيرة لا يعلم ثم يطلب العلم فيناله من جهة غيره على قدر ما يجوز أن يناله منه فليس ذلك من الراسخين. يقال: رسخت عروق الشجر في الأرض ولا يرسخ إلا صغيراً، انتهى[٣].

وهذا هو الدليل العقلي على اختصاص الرسوخ لهم مضافاً إلى الأدلة الأخرى لا نطول بذكرها.

ولمكان الاختصاص كذب المدّعين للإتصاف بالرسوخ والزاعمين لاختصاصه بهم

---

(١) في نسخة: أقضى.

(٢) بصائر الدرجات: ٢٢٤، والكافي: ١/ ٢١٣ ح ١.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٤٥، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٢٠٤.

دونهم بقوله: **(كذباً وبغياً علينا)** وحسداً لنا وعلّة كذبهم وبغيهم **(أن رفعنا الله ووضعهم)** أي رفع الله درجاتنا في الدنيا والآخرة على الكافة ووضعهم.

كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦] فقد روي في **(غاية المرام)** من **(تفسير الثعلبي)** في تفسير هذه الآية برفع الإسناد إلى أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقام رجل فقال: يا رسول الله أي بيوت هذه؟ قال: «بيوت الأنبياء»، فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها؟ يعني بيت عليّ وفاطمة، قال ﷺ: «نعم، من أفاضلها»[1]. وبمعناها روايات أُخر عامية وخاصية.

(وأعطانا وحرمهم) أي آتانا النبوة والخلافة والإمامة وحرمهم هذه كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، قال أبو جعفر عليه السلام في المرويّ من **(بصائر الدرجات)**: فنحن الناس المحسودون على ما آتانا الله من الإمامة دون خلق الله جميعاً[2].

ومن **(مناقب ابن شهرآشوب)** و **(تفسير العياشي)** عن أبي سعيد المؤدب عن ابن عباس في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، قال: نحن الناس، وفضله النبوّة.

(وأدخلنا) في عناية الخاصة **(وأخرجهم)** منها، ومن جملة تلك العناية الخاصة أنه سبحانه أمر بسدّ الأبواب الشارعة في المسجد غير باب أمير المؤمنين عليه السلام، روى الحمويني بسنده عن بريد الأسلمي قال: أمر رسول الله ﷺ بسدّ الأبواب فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا الصلاة جامعة حتى إذا اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول الله تحميداً وتعظيماً في خطبة مثل يومئذ فقال: «يا أيها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها، بل الله عزَّ وجل سدّها»[3]، ثم قرأ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤]، وقال رجل: دع لي كوّة تكون في المسجد، فأبى وترك باب عليّ صلوات الله عليه مفتوحاً وكان يدخل ويخرج منه وهو جنب[4].

---

(١) الصراط المستقيم: ١/ ٢٩٣، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٣٣٣.

(٢) شرح أصول الكافي: ٥/ ٢٥٢ ح ١، وبشارة المصطفى: ٢٩٧ ح ٣٧.

(٣) نهج الإيمان: ٤٤١، والأنوار العلوية: ٥٧.

(٤) **بعض نصوص حديث سد الابواب الآ باب علي**

اخرج الطبراني واحمد والحاكم وابن عساكر والنسائي والذهبي وغيرهم عن ابن عباس من ضمن احتجاجه على قوم: . وسد رسول الله ابواب المسجد غير باب علي فيدخل المسجد جنبا وهو طريقه ليس له طريق غيره (المعجم الكبير: ١٢ / ٧٨ ح ١٢٥٩٣ . ١٢٥٩٤ ترجمة ابن عباس ما روي عمرو بن ميمون عنه،

(بنا يستعطى الهدى) لأنهم عليهم السلام الأعلام والمنار ونور الأنوار وشموس الضياء وكواكب

ومستدرك الصحيحين: ٣ / ١٣٢ . ١٢٥ وصححه ووافقه الذهبي، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٢٠٦ ح ٢٥٠ . ٢٥١، ومسند احمد: ١ / ٣٣١ ط.م و٥٤٥ ط.ب ورجاله رجال الصحيح الا ابي بلج وهو ثقة فيه لين على ما قال الهيتمي مجمع الزوائد: ٩ / ١٢٠ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩ / ١٥٩ ح ١٤٦٩٦، ومناقب الخوارزمي: ١٢٧ ح١٤٠ الفصل ١٢، وخصائص النسائي: ٥٨ ح ٤٢).

واخرج الطبراني عن جابر بن سمرة قال:« امر رسول الله بسد ابواب المسجد كلها غير باب علي رضي الله عنه فقال العباس: يا رسول الله قدر ما ادخل انا وحدي واخرج ؟ .

قال صلى الله عليه وآله: ما امرت بشيء من ذلك، فسدها كلها غير باب علي وربما مرّ وهو جنب » (المعجم الكبير: ٢ / ٢٤٦ ح ٢٠٣١ ترجمة ابن سمرة ما روي ناصح ابو عبد الله عن سماك بن حرب عنه).

واخرج احمد وأبو يعلى وغيرهما عن ابن عمر قال: كنا نقول في زمن النبي صلى الله عليه وآله: «رسول الله خير الناس ثم ابو بكر ثم عمر، ولقد اوتي ابن ابي طالب ثلاث خصال لأن تكون لي واحدة منهن احب الي من حمر النعم: زوّجه رسول الله ابنته وولدت له، وسد الابواب الا بابه في المسجد واعطاه الراية يوم خيبر» اسناده حسن (مسند احمد: ٢ / ٢٦ ط.م و١٠٤ ط. ب ح ٤٧٨٢، ومسند أبي يعلى: ٩ / ٤٥٣ ح ٥٦٠١ مسند ابن عمر مع تفاوت بسيط وبالهامش: اسناده حسن، وذخائر العقبى: ٧٧ مع حذف المطلع، واسد الغابة: ٣ / ٢١٤ ترجمة ابي بكر. فضائله، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٢٤٣ ح ٢٨٣، وفرائد السمطين: ١ / ٢٠٨ الباب ٤١).

وأخرج البزار عن امير المؤمنين عليه السلام قال: اخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيدي فقال: «ان موسى سأل ربه ان يطهر مسجده بهارون واني سألت ربي ان يطهر مسجدي بك وبذريتك، ثم ارسل الى ابي بكر سدّ بابك فاسترجع ثم قال: سمع وطاعة فسد بابه، ثم ارسل الى عمر ثم ارسل الى ابن عباس مثل ذلك .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما انا سددت ابوابكم وفتحت باب علي ولكن الله فتح باب علي وسد ابوابكم» (وفاء الوفاء: ٢ / ٤٧٨، ومجمع الزوائد: ٩ / ١١٤ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩ / ١٤٩ ح ١٤٦٧٣ كتاب المناقب، وكنز العمال: ٦ / ٤٠٨ ط. دكن ١٣١٢، ومنتخب الكنز: ٥ / ٥٥، والحاوي للفتاوى: ٢ / ٥٧ رسالة شد الاثواب في سد الابواب، واللآلىء المصنوعة: ١ / ٣٥١ مناقب الخلفاء الاربعة).

وعن جابر بن سمرة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سدوا ابواب المسجد الا باب علي».

فقال رجل: اترك لي قدر ما اخرج وادخل ؟.

فقال رسول الله :« لم أومر بذلك» .

قال: اترك بقدر ما اخرج صدري يا رسول الله صلى الله عليه وآله؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لم اومر بذلك »، وانصرف .

قال رجل: فبقدر راسي يا رسول الله ؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لم أومر بذلك ».

وانصرف واجداً باكياً حزيناً .

فقال رسول الله: «لم اومر بذلك سدوا ابواب المسجد الا باب علي» (وفاء الوفاء: ٢ / ٤٨٠، وتاريخ المدينة للسمهودي: ١ / ٣٤٠ ط. مصر مع تفاوت يسير، والحاوي للفتاوى: ٢ / ٥٧ رسالة شد الاثواب في سد الابواب بتفاوت عن الطبراني).

الدّجى ونجوم الظلماء، والهداة لمن اهتدى في الآخرة والأولى على ما مرّ تحقيقاً وتفصيلاً

واخرج أبو نعيم وابن مردويه عن ابي الحمراء وحبة العرني قالا: امر رسول الله ﷺ ان تسد الابواب التي في المسجد فشق عليهم، قال حبة: اني لأنظر الى حمزة بن عبد المطلب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه تذرفان وهو يقول: اخرجت عمك وابا بكر وعمر والعباس واسكنت ابن عمك فقال رجل يومئذ: ما يألو برفع ابن عمه.

قال: فعلم رسول الله ﷺ انه قد شق عليهم فدعا الصلاة فلما اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول الله ﷺ خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً، فلما فرغ قال: «يا أيها الناس ما انا سددتها ولا انا فتحتها ولا انا أخرجتكم واسكنته ثم قرأ: ﴿والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى﴾» (تفسير الدر المنثور: ٦ / ١٢٢ ذيل مورد الآية. النجم. ١، واللآليء المصنوعة: ١ / ٣٥١ مناقب الخلفاء الاربعة).

وأخرج البزار عن مصعب بن سعد عن ابيه ان النبي قال: «سدوا كل خوخة في المسجد الا خوخة علي» (لسان العرب: ٢ / ١٤ باب الخاء مادة خوخ، ونظم درر السمطين ١٠٨ ط. مطبعة القضاء بمصر عن البزار برقم ٢٥٥٦).

صحة وتواتر حديث سد الابواب

اجمع الحفاظ على صحة حديث سد الابواب في امير المؤمنين علي.

وكما علمت مفصلاً فقد روي عن أكثر من بضع وعشرين طريقاً عن اجلاء الصحابة اكثرها حسان وبعضها صحاح، وجلّ رواتها ثقاة كما ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني القول المسدد: ١٧ - ٢٠، وفتح الباري: ٧ / ١٢ - ١١ ط. مصر و٧ / ١٨ ح ٣٦٥٤.

* وقد صرح السيوطي وغيره بتواتره في علي اتحاف ذوي الفضائل: ١٦٧ ح ٢١٣، ونظم المتناثر: ٢٠٣ ح ٢٢٩.

* وقال في القول المسدد: هو حديث مشهور له طرق متعددة كل طريق منها على انفراده لا تقصر عن رتبه الحسن ومجموعها مما يقطع بصحته.

وقال: فهذه الطرق المتظاهرة من روايات الثقات تدل على أن الحديث صحيح دلالة قوية القول المسدد: ١٧ . ١٨ . ٢١ ط. حيدر آباد سنة ١٣١٩ هـ الطبعة الاولى، و١٤٠٠ هـ الطبعة الثالثة، وفتح الملك العلي عنه: ٦١.

وقال: هذه الاحاديث تقوي بعضها بعضاً وكل طريق منها صالحة للاحتجاج فضلا عن مجموعها. وقد اخطأ]ابن الجوزي[في ذلك خطأً شنيعاً فانه سلك ردّ الاحاديث الصحيحة بتوهمه المعارضة مع ان الجمع بين القصتين ممكن وفاء الوفاء: ٢ / ٤٧٦ الباب الرابع الفصل ١٢، وفتح الباري: ٧ / ١٢ ط. مصر و٧ / ١٨ ح ٣٦٥٤ ط. دار الكتب العلمية.

وقال في أجوبته على المصابيح: وقد ورد من طرق كثيرة صحيحة أن النبي لما أمر بسد الابواب الشارعة في المسجد الا باب علي، فشق على بعض الصحابة، فأجابهم بعذره في ذلك أجوبة الحافظ ابن حجر العسقلاني عن أحاديث المصابيح المطبوع بذيل مشكاة المصابيح: ٣ / ١٧٩٠.

ويشهد لصحته احتجاج سعد: أخرجه الشاشي قال سعد لمروان لما سب علياً: أخبرك بأربع سبق لعلي من رسول الله ﷺ لا ينبغي أحد منا ينتحلهن، دخل علينا رسول الله المسجد ونحن رقود فينا أبو بكر وعمر فجعل يوقضنا رجلاً رجلاً ويقول: «لا ترقدوا في المسجد ارقدوا في بيوتكم» حتى انتهى الى علي فقال: «يا علي أما أنت فنم فانه يحل لك فيه ما يحل لي» مسند الشاشي: ١ / ١٤٦ ح ٨٢ مسند سعد. بقية حديث

في شرح الخطبة الرابعة.

ابراهيم بن سعد.

دلالة الحديث وجمع ابن حجر

وعلى حد كلامه كلام الخطابي وابن رجب الحنبلي والحافظ ابن حجر والطحاوي والقاضي المالكي والكلاباذي ومن قال بقولهم (راجع الحاوي للفتاوى للسيوطي: ٢ / ٥٩ رسالة شد الاثواب بسد الابواب ولطائف المعارف: ١٠٧ المجلس الثالث في ذكر وفاة رسول الله).

ولذا حاولوا الجمع بين هذه الاحاديث لصحتها جميعاً عندهم.

. قال الحافظ ابن حجر: ومحصل الجمع ان الامر بسد الابواب وقع مرتين، ففي الاولى استثنى علياً لما ذكره من كون بابه كان الى المسجد ولم يكن له غيره، وفي الاخرى استثنى ابا بكر. ولكن لا يتم ذلك الا بأن يحمل ما في قصة علي على الباب الحقيقي وما في قصة ابي بكر على الباب المجازي، والمراد به الخوخة كما صرح به في بعض طرقه، وكانهم لما امروا بسد الابواب سدوها واحدثوا خوخاً يستقربون الدخول الى المسجد منها فامروا بعد ذلك بسدها.

. وبها جمع بينهما الطحاوي في مشكل الآثار والكلاباذي في معاني الاخبار (فتح الباري: ٧ / ١٢ - ٢٠ ط. مصر و٧ / ١٨ ح ٣٦٥٤ ط. دار الكتب العلمية، والقول المسدد: ١٧ . ١٨ ط. حيدر آباد سنة ١٣١٩ هـ الطبعة الاولى، و١٤٠٠ هـ الطبعة الثالثة).

قولنا في دلالة الحديث

واما على رأي ابن حجر والعسقلاني والطحاوي والكلاباذي ومن وافق قولهم كالسمهودي وغيره القائلين بصحة حديث الابواب في علي على الحقيقة وفي ابي بكر على المجاز، فهم عندهم الحديث يدل على خلافة علي عليه السلام بالحقيقة وعلى خلافة ابي بكر بالمجاز !.

ذلك أن الخطابي وابن بطال وابن حبان والمقريزي وغيرهم افادوا دلالة الحديث على الخلافة ودعواها.

وهذا جمع بين القولين.

واما جمعهم فيرده امور :

* الامر الاول: ان النبي في بادىء الامر لم يامر فقط بسد الابواب بل امر بسد كل ثقب في المسجد من باب وخوخة او ما ينظر منه او كوة، بل ومثل ثقب الايرة كما تقدم في رواية عمر وبن سهل وجابر بن سمرة وبريدة وعلي .

فالروايات مصرحة بهذا المنع فلا معنى للاستثناء، الا على القول بمعصية أجلاء الصحابة في أمره، مع قوله في بعض طرقه :« سدوا قبل أن ينزل العذاب ».

خاصة ان القول بتكرار القصة دعوى لا دليل عليها في الروايات سوى تايد قول البكرية في وضعهم لحديث سد الابواب الا باب ابي بكر .

* الامر الثاني: ان هذا الجمع ان اريد منه أن الرسول سد الابواب الا باب علي، ثم سد الخوخات الا خوة ابي بكر فانه ينافي الكثير من الروايات المصرحة. والتي منها رواية البخاري في الصحيح . بان الرسول استثنى باب ابي بكر لا خوخته، التي رويت عن أبي سعيد وأيوب بن بشير ومعاوية وأنس وعائشة ويحى بن سعد وحكيم بن عمير وأبي الحويرث .

وفي المقابل الروايات المعبرة بالخوخة ليست الآ رواية ابن عمر وابن عباس (يراجع الحاوي للفتاوى للسيوطي: ٢ / ٥٤ . ٥٥ . ٥٦ . ٧٢ رسالة شد الاثواب بسد الابواب، واللآلىء المصنوعة: ١ / ٣٥٢ مناقب الخلفاء الاربعة).

(ويستجلي العمى) وهو استعارة وفاقية مرشحة حيث استعير العمى للضلالة بجامع عدم

هذا بناء على ان المراد من الخوخة الكوة لا الباب كما فهمه القاضي المالكي في أحكامه والكلاباذي في معانيه والطحاوي في المشكل .

* وقال السيوطي: قد ثبت بالاحاديث السابقة وقرر العلماء أن أبا بكر لم يؤذن له في فتح الباب، بل أمر بسد بابه، وانما اذن له في خوخة صغيرة وهي المراد من حديث البخاري (الحاوي للفتاوى للسيوطي: ٢ / ٨٠ ذيل رسالة شد الاثواب بسد الابواب).

على أنه في ذلك الازمان لم يكن متعارف سوى الابواب والنوافذ ولا ثالث .

ويشهد له ما تقدم في الاحاديث من طمع الصحابة ببقاء كوة أو مقدار الابرة وما شابهه، ولا قائل منهم ببقاء الخوخة اما لعدم الفرق بينها وبين الباب، واما لعدم وجودها أصلاً، فسد النبي ﷺ الابواب والنوافذ والكوة وما شابه ذلك جميعاً، فكيف يصح بعدها أمرهم بسد الخوخات أو النوافذ، وهل هو الأ تحصيل للحاصل !!

هذا مع أنه منافي لما روي أن الرسول سد كل الخوخات الآ خوخة علي (لسان العرب: ٣ / ١٤ باب الخاء مادة خوخ، ونظم درر السمطين: ١٠٨ ط. مطبعة القضاء بمصر).

وان اريد منه ان الخوخة شبيه الباب أو نفسه . كما هو نص أكثر الروايات كما تقدم، فهذا ما منع منه رسول الله اولا، وهو المرور والدخول من الدور الى المسجد والروايات مصرحة بذلك .

فلا معنى للاستثناء مرة أخرى لابي بكر مع عدم وجود المستثنى منه ؛ اذ المفروض أن الصحابة جميعاً التزموا بالأمر وسدوا الابواب والذي منهم أبو بكر كما تقدم التصريح به، فلا معنى للحديث مع الاستثناء، نعم لو وضع البكرية الحديث بنحو: « يا أبا بكر افتح بابك المغلق دون الصحابة »لكان له وجه، لعدم تنافيه مع أحاديث سد الابواب من الاول، اذ يقال أنه النبي في اخر عمره فتح باب أبي بكر الذي كان مسدوداً، ولكن يد التزوير كانت ناقصة !!.

نعم يُتلى بأنه يعارض بقاء باب علي مفتوحاً مع ان المتفق عليه بقاء بابه مفتوحاً بعد وفاة النبي، اذ النبي لم يستثني من الصحابة . في أحاديث فتح باب أبي بكر . باب علي .

بل أصل أحاديث الباب في أبي بكر لا تصح لانها لم تستثني باب علي المفتوح.

على أن الهدف من السد هو إلغاء المرور لمن ليس أهلاً له لا مجرد اغلاق الابواب.

نقل المقريزي في كتابه امتاع الاسماع :« سدوا هذه الابواب الشوارع الى المسجد، فقال عمر دعني يا رسول الله أفتح كوةً أنظر اليك تخرج الى الصلاة ! .

فقال: لا (اسماع الامتاع: ١ / ٥٤٥ . وفاة الرسول . ذيل الكتاب).

فلاحظ أولاً : أن المأمور به سدّ نفس الابواب لا الكوّة .

وثانياً : من هذا الحديث يعلم أن الرسول لم يأمرهم بسد شيء قبل ذلك لان عمر كان بابه مفتوح، وكذلك بقية الصحابة، فمتى سد باب أبو بكر ؟!.

وهذا دليل على عدم امكان الجمع، ثم على بطلان أحاديث السد في حق الخليفة الاول، وأنه من وضع البكرية كما قال ابن أبي الحديد، أو بخصوصيته لعلي كما قال الجصّاص.

* الامر الثالث: ان علة سد الابواب . والتي صرح الرسول في كثير من طرقها بان الله هو الذي سد ابوابكم وفتح باب علي او اخرجكم وادخله . هي طهارة علي واهل بيته ونجاسة غيره، كما صرحت بذلك رواية امير المؤمنين المتقدمة واحتجاجه يوم الشورى، ورواية ابن زبالة عن رجل من اصحاب الرسول ﷺ، وكذلك رواية أنس وابن عباس والهلالي التي نصّ بها النبي ﷺ أنه دعا الله أن يطهر مسجده بعلي وبذريته من بعده

الاهتداء وقرن بما يلائم المستعار منه وهو الاستجلاء.

كما فعل موسى عليه السلام، ويأتي أن البزار أخرجه عن علي عليه السلام (وفاء الوفاء: ٢ / ٤٧٨ - ٤٧٩ - الفصل ١٢ من الباب الرابع).

. ويؤيده بل هو نصّ فيه، ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس والبزار عن محمد ابن علي الباقر بسند جيد من التعبير بالخروج من المسجد لا بعنوان سد الابواب (مجمع الزوائد: ٩ / ١١٥ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩ / ١٥١ ح ١٤٦٧٧ . ١٤٦٧٨ كتاب المناقب).

وعليه فلا معنى لاستثناء باب او خوخة ابي بكر، لان ابي بكر كعمر وعثمان والعباس وحمزة من هذه الناحية، أعني ناحية عدم الطهارة، الاّ أن يقال أن أبا بكر طهر في اخر حياته ! ولو كان لابد من الاستثناء لاستثنى خوخة لعميه .

ويؤيده ما روي عن ابن عباس وغيره كما تقدم ان علي كان يمر بالمسجد وهو جنب.

وقوله صلى الله عليه وآله: « سألت ربي أن يطهر مسجدي بك وبذريتك ». أخرجه البزار .

(مسند البزار: ٢ / ١٤٤ ح ٥٠٦)

بل هناك كثير من الروايات صرحت بانه لا يحل لغير النبي وعلي الجماع وعرك النساء في المسجد، كما اخرجها ابن مردويه، والترمذي وحسنه، والنووي وقال: حسنه الترمذي لشواهد، والبيهقي في السنن، وابن منيع في مسنده عن جابر، وابن أبي شيبة في مسنده عن أم سلمة، وأبي يعلى في مسنده والقاضي اسماعيل في أحكام القرآن عن ابن حنطب، وأبي يعلى في المسند عن أبي سعيد، وابن عساكر في التاريخ من طرق .

(ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٢٩٢ ح ٣٣١ رواه من طرق، واللآليء المصنوعة: ١ / ٣٥٠ . ٣٥٣ مناقب الخلفاء الاربعة، والفوائد المجموعة: ٣٦٦ . ٣٦٧ مناقب علي ح ٥٦، ومناقب آل أبي طالب: ٢ / ١٩٤ فصل في الجوار، والسنن الكبرى: ٢ / ٤٤٢ باب الجنب يمر في المسجد، وج ٧ / ٦٥ باب دخول المسجد جنباً، ومسند أبي يعلى: ٢ / ٣١١ ح ١٠٤٢ مسند أبي سعد وبالهامش (أخرجه الترمذي وقال حسن غريب).

منها: ما أخرجه ابن عساكر وابن أبي شيبة في مسنده عن ام سلمة قالت: خرج النبي صلى الله عليه وآله من بيته حتى انتهى الى صرح المسجد فنادى بأعلى صوته: « انه لا يحل المسجد لجنب ولا لحائض الا لمحمد وازواجه وعلي وفاطمة بنت محمد ألاّ هل بيّنت لكم الأسماء ان تضلوا» (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١ / ٢٩٤ ح ٣٣٣، واللآليء المصنوعة: ١ / ٣٥٣ مناقب الخلفاء الاربعة عن ابن أبي شيبة).

وأخرجه البيهقي بلفظ: « ألا لا يحل المسجد لجنب وحائض إلاّ لرسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين» (السنن الكبرى: ٧ / ٦٥ باب دخول المسجد جنباً، واللآليء المصنوعة: ١ / ٣٥٤ مناقب الخلفاء الاربعة).

وأخرج ابن راهويه في مسنده والبيهقي في السنن عن عائشة: « وجهوا هذه البيوت عن المسجد فاني لا أحل المسجد لحائض وجنب الاّ لمحمد وآل محمد» (السنن الكبرى: ٢ / ٤٤٢ باب الجنب يمر في المسجد، ومسند اسحاق ابن راهويه: ٣ / ١٠٣٢ ح ١٧٨٣ من مسند عائشة).

وأخرج البزار عن علي قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيدي فقال: « ان موسى سأل ربه أن يطهّر مسجدي بهارون واني سألت ربي أن يطهر مسجدي بك وبذريتك ».

ثم أرسل الى أبي بكر أن سدّ بابك، فاسترجع !.

ثم قال سمع وطاعة، ثم أرسل الى عمر». (وفاء الوفاء: ٢ / ٤٧٧، ومجمع الزوائد: ٩ / ١١٥ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩ / ١٤٩ ح ١٤٦٧٣ كتاب المناقب عن البزار برقم ٢٥٥٢،

وقوله عليه السلام: **(إن الأئمة من قريش)** مأخوذ من الحديث النبوي المعروف بين الفريقين

وكنز العمال: ٦ / ٤٠٨ ط. دكن ١٣١٢، ومنتخب الكنز: ٥ / ٥٥ . وما بين المعقودين من المجمع).
واستشهد ابن عباس وعلي كما تقدم بحديث سد الابواب لحلية دخول المسجد لعلي ولطهارته كما طهر هارون .
وكذا الرواية عن ابن عمر وعلي وأبي رافع المصرحة بذلك (مجمع الزوائد: ٩ / ١١٥ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩ / ١٤٩ ح ١٤٦٧٢ كتاب المناقب، وبحار الانوار: ٣٩ / ٣٣ باب ٧٢، ومناقب آل أبي طالب: ٢ / ١٩٤ فصل في الجوار).
وتقدم كلام سبط ابن الجوزي في تاييد حديث سد الابواب برواية حرمة الدخول المسجد لغير علي، وكذا فعل الحافظ ابن حجر في القول المسدد (القول المسدد: ٢١ ط. حيدر آباد سنة ١٣١٩ هـ الطبعة الاولى، و١٤٠٠ هـ الطبعة الثالثة).
* وأما ما تقدم أن علة فتح باب أبي بكر هي احتياجه كخليفة الى الدخول والخروج للمسجد ؛ فمردودة بما تقدم من أن العلة الطهارة .
على أنه كان لابد من فتح باب لعمر وعثمان لخلافتهما ولو عند توسعة المسجد، والتي مدتها أطول من خلافة الاول فالحاجة أكثر .
بل حتى في خلافته كان دخول عمر للمسجد أكثر، وقد قال البعض لابي بكر :« أنت الخليفة أم هو ؟! .
فقال أبو بكر: بل هو ولو شاء كان ».
قال البوصيري بعد الحديث: رجاله ثقات (شرح النهج: ٣ / ١٠٨ ط. مصر الاولى، والدر المنثور: ٣ / ٢٥٢ ذيل قوله «انما الصدقات للفقراء» من سورة التوبة، وكنز العمال: ٢ / ١٨٩ ط.دكن ١٣١٢، والمطالب العالية: ٢ / ٢١٩ ح ٢٠٧٣ باب الوزراء ورد الوزير امر الامير، ويراجع هامش المطالب العالية أيضاً).
هذا مضافاً الى أن العلماء صرحوا أن المعيار في فتح باب أبي بكر هو اجازة النبي قال السيوطي: لو بقيت دار أبي بكر واتفق هدمها واعادتها أعيدت بتلك الخوخة كما كانت بلا مرية، فلا تجوز الزيادة فيها بالتوسعة ولا جعلها في موضع أخر من المسجد ؛ اقتصاراً على ما ورد الاذن من الشارع الواقف فيه (الحاوي للفتاوى للسيوطي: ٢ / ٨٠ ذيل رسالة شد الاثواب بسد الابواب).
* الامر الرابع: ما ورد من بعض الطرق المتقدمة ان النبي سد كل خوخة الآ خوخة علي عليه السلام وهو لا يدع للجمع مجال .
وفي بعضها مصرح بان النبي امر بسد باب ابي بكر بالاسم لا خوخته، كما تقدم في رواية أمير المؤمنين وكذا رواية ابن زبالة (وفاء الوفاء: ٢ / ٤٧٧).
* الامر الخامس: ما تقدم في احتجاج الصحابة بالحديث وانه لم يفتح غير بابه مع سد كل الابواب، ولم يعترض أحد عليه وأن أبا بكر كان له باباً كما كان لك .
فلو صحة أحاديث أبي بكر لقال له: فتح النبي بابي كما فتح بابك ؟!
* الامر السادس: أنه على رأي ابن حبان والخطابي وابن بطال القائلين بدلالة الحديث على الخلافة يستحيل الجمع إلاّ على القول بتعدد الخليفة !.
* الامر السابع: ان بعض الروايات التي تقول ان العباس او حمزة اعترضا على رسول الله في ذلك نحو ما روى عن الهلالي:« يا رسول الله اخرجت عمك واسكنت ابن عمك »وفاء الوفاء: ٢ / ٤٧٧.، فكان الاولى من العباس الاعتراض على ترك باب ابي بكر لا الاعتراض على باب علي المطهر بآية التطهير

حسب ما تطلع عليه في التنبيه الآتي، وهو مفيد للحصر كما نبّه عليه العلامة التفتازاني في باب تعريف المسند من (**شرح التلخيص**) حيث قال: إن المعرف بلام الجنس إن جعل مبتدأ فهو المقصور على الخبر سواء كان الخبر معرّفاً بلام الجنس أو غيره نحو: الكرم هو التقوى أي لا غيرها، والأمير الشجاع أي لا الجبان، والأمير هذا أو زيد أو غلام زيد أو كان غير معرّف أصلاً نحو التوكل على الله والتفويض إلى أمر الله والكرم في العرب والإمام من قريش لأن الجنس حينئذ يتّحد مع واحد مما يصدق عليه الخبر فلا يتحقق بدون ذلك الواحد، لكن يمكن تحقق واحد منه في الجملة بدون ذلك الجنس فيلزم أن يكون الكرم مقصوراً على الاتصاف بكونه في العرب، ولا يلزم أن يكون ما في العرب مقصوراً على الاتصاف بالكرم، وعلى هذا القياس.

قال المحقق الشريف: في وجه إفادته القصر لأن المعنى أن كل توكل على الله وكل تفويض إلى أمر الله وكل كرم في العرب فيلزم أن يكون الكرم مقصوراً على الاتصاف بكونه في العرب، لأن كل فرد منه موصوف بكونه فيهم فلا يوجد فرد منه في غيرهم، ولا يلزم من ذلك أن يكون كل ما هو كائن في العرب موصوفاً بكونه كرماً، لئلا يلزم قصر الخبر على المبتدأ، انتهى.

فقد ظهر بذلك أنه لا غبار على إفادته القصر وإن اختلفت أنظارهم في وجه إفادته له،

والذي بيته في المسجد
وان كان بعد استشهاد حمزة لاعترض العباس.

ومن ذلك يعلم بطلان اصل حديث سد الابواب إلاّ باب ابو بكر كما صرح بذلك ابن ابي الحديد قال: ان سد الابواب كان لعلي فقلّبته البكرية الى ابي بكر (شرح النهج: ١١ / ٤٩ شرح الخطبة ٢٠٣).

* الامر الثامن: قال الجصّاص: فاخبر في هذا الحديث بحظرِ النبي« الاجتياز كما حظر عليهم القعود، وما ذكر من خصوصية علي رضي الله عنه صحيح. وانما كانت الخصوصية فيه لعلي دون غيره. فثبت بذلك ان سائر الناس ممنوعون من دخول المسجد مجتازين وغير مجتازين (احكام القرآن: ٢ / ٢٤٨).

* الامر التاسع: أنه من المسلم به وجود عمر وأبي بكر في جيش اسامة وذلك قبيل وفاة النبي الاعظم (راجع تاريخ ابن الاثير: ٢ / ٥ ذكر أحداث سنة ١١، وتاريخ اليعقوبي: ٢ / ١١٣ ذكر الوفاة، وشرح النهج: ١ / ١٥٩ شرح الخطبة الثالثة) وهذا بنفسه خير دليل على:

١ - بطلان أصل حديث سد الابواب في أبي بكر لانه لم يكن حاضراً عند وفاة النبي: أما قبل الوفاة بايام فالمفروض أنه في جيش اسامة والنبي لعن من تخلف عنه.

وأما قبيل الوفاة فقد كان في منزله بالسنخ (فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٣ / ١٤٧ ح ١٢٤٢ كتاب الجنائز باب ٣ و٧ / ٢٣ ح ٣٦٧٠ كتاب الفضائل باب). والسنخ موضع قرب المدينة.

٢ - ولو سلم فلا يدل على الخلافة لان النبي الاعظم صلى الله عليه وآله كان يعلم بوفاته -كما تقدم في الكتاب الثاني مفصلاً - فكيف يعقل ابعاده عن الخلافة، ثم سد بابه الدال على الخلافة ؟!

وليكن هذا على ذكر منك تتنبه به على فساد أكثر ما ذهب إليه المعتزلة في باب الإمامة حسب ما حكاه الشارح المعتزلي عنهم على ما تطلع عليه في التنبيه الآتي إن شاء الله.

وقوله: **(غرسوا في هذا البطن)** المعيّن **(من هاشم)** أراد به نفسه الشريف مع الأحد عشر من ولده على ما هو مذهب أصحابنا الإمامية المحقة رضوان الله عليهم.

وقوله: **(لا تصلح)** أي الإمامة المستفادة من سوق الكلام **(على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم)** وهو تأكيد لما قد دل عليه القصر السابق واختصاص الإمامة بالعترة الطاهرة، أعني الأئمة الإثنى عشر عليهم السلام كما هو مدلول الفقرة الأخيرة.

ووجهه أن للولاية والإمامة خصائص بها يتأهل لها، وتلك الخصائص موجودة فيهم غير موجودة في غيرهم، فلا تصلح إلا لهم عليهم السلام كما تقدم تحقيق ذلك وتوضيحه في شرح الفصل الخامس من الخطبة الثانية في معنى قوله: ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة.

تنبيه

قال الشارح المعتزلي في شرح قوله: **(إن الأئمة من قريش)** إلى آخر الفصل، ما لفظه: قد اختلف الناس في اشتراط النسب في الإمامة.

فقال قوم من قدماء أصحابنا: النسب ليس فيها شرطاً أصلاً وأنها تصلح في القرشي وغير القرشي إذا كان فاضلاً مستجمعاً للشرائط المعتبرة واجتمعت الكلمة وهو قول الخوارج.

وقال أكثر أصحابنا وأكثر الناس: إن النسب شرط فيه وإنها لا تصلح إلا في العرب خاصة ومن العرب فقريش خاصة.

وقال أكثر أصحابنا: معنى قول النبي صلى الله عليه وآله: «الأئمة من قريش» أن القرشية شرط إذا وجد في قريش من يصلح للإمامة فإن لم يكن فيها من يصلح فليست القرشية شرطاً فيها.

وقال بعض أصحابنا: معنى الخبر أنه لا يخلو قريش أبداً ممن يصلح للإمامة، فأوجبوا بهذا الخبر وجود من يصلح من قريش لها في كل عصر وزمان.

وقال معظم الزيدية: إنها في الفاطميين خاصة من الطالبيين لا تصلح في غير البطنين ولا تصح إلا بشرط أن يقوم بها ويدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس.

وبعض الزيدية يجيز الإمامة في غير الفاطميين من ولد علي عليه السلام وهو من أقوالهم الشاذة.

وأما الراوندية فإنهم خصصوها بالعباس وولده من بطون قريش كلها وهو القول الذي ظهر في أيام المنصور والمهدي.

وأما الإمامية فإنهم جعلوها سارية في ولد الحسين عليه السلام في الأشخاص المخصوصين ولا تصح عندهم لغيرهم.

وجعلها الكيسانية في محمد بن الحنفية وولده.

ومنهم من نقلها منه إلى ولد غيره.

ثم قال الشارح: فإن قلت: إنك شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة وأصولهم فما قولك في هذا الكلام وهو تصريح بأن الإمامة لا تصلح من قريش إلا في بني هاشم خاصة وليس ذلك بمذهب المعتزلة لا متقدّميهم ولا متأخريهم.

قلت: هذا الموضع مشكل ولي فيه نظر وإن صح أن علياً قاله كما قال لأنه ثبت عندي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنه مع الحق وإن الحق يدور معه حيثما دار»، ويمكن أن يتأول على مذهب المعتزلة فيحمل أن المراد به كمال الإمامة كما حمل قوله صلى الله عليه وآله: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[1] على نفي الكمال لا على نفي الصحة، انتهى كلامه هبط مقامه.

أقول: محصل ما حكاه الشارح من الأقوال وأورده في هذا المقام عن أصحابه المعتزلة وغيرهم عشرة.

أما القول الأول: فيبطله قوله صلى الله عليه وآله: «الأئمة من قريش» لإفادته القصر واشتراطه النسب حسب ما عرفت سابقاً.

وأما القول الثاني: فهو مسلّم لكن لا على إطلاقه بل بتقييد القرشي بالبطن المخصوص من هاشم، أعني علياً وولده للأدلة الآتية الدالة عليه مضافة إلى ما تقدم من تصريح علي عليه السلام به.

أما القول الثالث: ففيه إنّا قدمنا أن معنى النبوي أنه لا بد أن يكون الإمام من قريش، وعليه فلا معنى لقولهم: فإن لم يكن فيها من يصلح فليست القرشية شرطاً فيها، ضرورة أنه إذا لم تكن شرطاً فيها على تقدير عدم وجود من يصلح لجاز أن يكون من غيرها لكنه باطل

(١) دعائم الإسلام: ١/١٤٨، والمجازات النبوية: ١١٢.

بمقتضى القصر ولازمه أنه إذا فرض عدم وجود من يصلح من قريش لها أن لا يكون هناك إمام أصلاً على ما هو قضية الشرطية العقلية المستفادة من القصر لا وجوده من غير قريش على ما زعموا.

وأما القول الرابع: ففيه أن مفاد الخبر أن الإمام لا بد أن يكون من قريش وأما أن قريشاً لا بد أن يكون منهم في كل عصر وزمان من يصلح للإمامة فلا دلالة للخبر عليه بإحدى من الدلالات، نعم قد قامت الأدلة العقلية والنقلية على ما تقدمت في شرح الفصل الخامس عشر من الخطبة الأولى في غيره أيضاً على أن الزمان لا يخلو من حجة، فيضمّ قوله: إن الأئمة من قريش إلى تلك الأدلة تثبت أن قريشاً لا تخلو من أن يكون منهم في كل عصر إمام، نظير دلالة قوله سبحانه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بضميمة قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر إلا أنه دلالة تبعية غير مقصودة.

وأما القول الخامس: فهو مسلم لكن لا في مطلق الطالبي والفاطمي، بل في الأشخاص المخصوصة ـ أعني الأئمة الإثني عشر ـ وما ذكروه من الشروط ـ أعني القيام والدعوة والسياسة ـ لم يدل عليها دليل من الكتاب والسنة، وعمدة شروطها العصمة والنص والأفضلية، ولها شرائط أُخرى مذكورة في الكتب الكلامية لأصحابنا.

وأما القول السادس والسابع: فشاذان ضعيفان لا يعبأ بهما مع قيام الأدلة القاطعة على خلافهما.

وأما القول الثامن: فهو المذهب الحق الذي أحق أن يدان ويتبع، وعليه دلت النصوص المعتبرة المتواترة.

وأما القول التاسع والعاشر: كالسادس والسابع ضعيفان أيضاً، هذا.

وبقي الكلام مع الشارح فيما ذكره جواباً عن الاعتراض الذي أورده على نفسه، أعني قوله قلت: هذا الموضع مشكل ولي فيه نظر، إلى قوله: حيثما دار.

فأقول: هذا الجواب يستشم منه ميل الشارح إلى مذهب الشيعة الإمامية كما هو زعم بعض العامة، بل أكثرهم، حيث ينسبونه إلى التشيع ويتبرؤن منه إلا أن أكثر كلماته صريحة في اختياره مذهب الاعتزال حسب ما عرفتها وستعرفها إن شاء الله في تضاعيف الشرح على ما جرى عليه ديدننا والتزمنا به من حكاية كلما وقع فيه منه خطأ وزلّة من كلامه وتعقيبه بالتنبيه على هفواته وآثامه.

ثم أقول: إن هذا الموضع ليس محل إشكال ولا نظر لأن صحة الرواية لا غبار عليها،

فإنها وإن رواها السيد «ره» على نحو الإرسال إلا أن مضمونها معتضد وموافق للأخبار النبوية وغير النبوية المعتبرة العامية والخاصية القطعية السند حسب ما تعرف جملة منها عن قريب إن شاء الله تعالى، وبالجملة فليس الدليل منحصراً في المقام في هذه الرواية حتى يستشكل في صحتها، بل لنا على هذه الدعوى أدلة قاطعة متظافرة بل متواترة حسب ما تطلع عليه.

وأما قول الشارح: ويمكن أن يتأوّل ويطبق على مذهب المعتزلة ففيه، **أولاً**: إن الإمامة منصب إلٰهي وملك عظيم غير قابل للكمال والنقصان والشدة والضعف، بل لها شروط وخصال بها يتأهّل لها، فحيث ما وجدت تلك الشرائط وجدت، وحيث ما انتفت انتفت، فلا معنى لحمل قوله عليه السلام: الأئمة من قريش، على الإمامة الكاملة إذ ليس لنا إمامة ناقصة.

اللهم إلا أن يجعل المراد بالإمام معناه اللغوي ـ أعني مطلق المقتدي ـ فحينئذ يصح توصيفه بالكمال والنقصان، فيراد بالكامل الأئمة الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، وبالناقص الأئمة الذين يدعون إلى النار وهم للحق جاهدون، وعلى ذلك فيكون معنى قوله: **(الأئمة من قريش) (اهـ)**، المقتدين الكاملين يعني أئمة الهدى من قريش غرسوا في البطن المخصوص من هاشم، فلا ينافي وجود المقتدين الناقصين ـ أعني أئمة الضلال ـ من غير ذلك البطن.

لكن هذا المعنى مضافاً إلى أنه مجاز مما لا يلتزم به الشارح، لأن غرضه من حمل الحديث على كمال الإمامة، ومن تمحّل ذلك التأويل إنما هو تصحيح مذهب المعتزلة ورفع تضاد الحديث لذلك المذهب، فكيف يقرّ ويذعن بضلال أئمته وله أن يجيب عن ذلك ويقول: إن المراد بالإمام الكامل الأفضل والأجمع للخلال الحميدة، وبالناقص من دون ذلك كما يوميء إليه اعترافه وفاقاً لأصحابه المعتزلي بأن علياً أفضل من سائر الخلفاء على ما تقدم تفصيلاً حكاية عنه في المقدمة الثانية من مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بـ **(الشقشقية)**.

إلا أنه يتوجه عليه ما قدمناه في المقدمة المذكورة في المقصد الثاني منها من أنه بعد القول والالتزام بأفضلية أمير المؤمنين عليه السلام لا يبقى لغيره إمامة وخلافة أصلاً، لقبح ترجيح المرجوح على الراجح وغير الأفضل على الأفضل عقلاً وشرعاً فيبقى إيراد الذي أوردناه ـ أعني عدم كون الإمامة قابلة للنقصان ـ على حالها.

وثانياً: إن بعد الغضّ عما قلنا والمماشاة نقول: إن قوله: **الأئمة من قريش**، جمع محلّى باللام وكذلك قوله: لا تصلح الولاة من غيرهم، والجمع المحلى مفيد للعموم وحقيقة في الاستغراق الحقيقي على ما قرر في الأصول وحملها على الأئمة والولاة الكاملين يوجب صرف الاستغراق إلى المجاز ـ أعني الاستغراق العرفي ـ والأصل في الاستعمال الحقيقة.

لا يقال: لا نسلّم كون اللام في لفظ الأئمة والولاة للاستغراق، وإنما هي للجنس كما

صرح به العلامة التفتازاني على ما حكيته عنه فيما تقدم، وعليه فلا ينافي كون بعض أفراد الأئمة ـ أعني غير الكاملين ـ من غير قريش.

لأني أقول: مراده من الجنس هو الاستغراق، لأنه صرّح في باب تعريف المسند إليه بكون الاستغراق قسماً من الجنس تبعاً لصاحب التلخيص، ويوميء إلى ذلك أيضاً ما قال المحقق الشريف: من أن معنى قولنا: التوكل على الله والكرم في العرب، أن كل توكل على الله، وكل كرم في العرب، سلّمنا، ولكن نقول: إن كون بعض أفراد الأئمة من غير قريش ينافي القصر المستفاد من الحديث على ما حققه المحققان المذكوران وقدمنا حكايته عنهما فيما تقدم.

هذا كله مضافاً إلى وقوع التصريف[1] في الأخبار النبوية الآتية بالاستغراق الحقيقي وعدم احتمالها للتأويل لكونها نصاً في العموم وهو مؤكد لكون الاستغراق هنا أيضاً حقيقياً.

وثالثاً: إن قياس الحديث على نحو: لا صلاة لجار المسجد، والتمثيل به فاسد ضرورة أن **(لا)** النافية للجنس موضوعة لنفي الماهية وحقيقة فيه كما في: لا رجل في الدار، واستعماله في نفي صفة من صفات الجنس كالصحة والكمال ونحوهما مجاز لا يصار إليه إلا بدليل، وقد قام الدليل على إرادة المعنى المجازي نحو: لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد، ولا طلاق إلا بشهود، ولا نكاح إلاّ بوليّ، ولا عتق إلا في ملك، وما ضاهاها، لعلمنا بأن الماهية موجودة فيها جزماً، وإنما المنفي صحتها أو كمالها، وأما فيما نحن فيه فأصالة الحقيقة محكمة لم يقم دليل على خلافها، فلا وجه للتأويل بكمال الإمامة على ما زعمه.

إذا عرفت ذلك فلنتصدّ لذكر الأخبار الدالة على أن الأئمة كلهم من قريش وأن الإمامة مخصوصة بعلي أمير المؤمنين عليه السلام وولده الأحد عشر، وهي كثيرة جداً، عامية وخاصية، ونحن نورد طائفة منها من طريق العامة لكونها أقلع لعذر الخصم وأبلغ حجة، نرويها من كتاب **(غاية المرام)** للسيد المحدِّث العلامة السيد هاشم البحراني وهو أحد وعشرون حديثاً:

الأول: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه عن عبد الملك قال: سمعت جابر بن سمرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «يكون بعدي إثنا عشر أميراً»، فقال صلى الله عليه وآله كلمة لم أسمعها فسألت أبي ماذا قال؟ قال: إنه قال: «كلهم من قريش».

الثاني: **(البخاري)** رفعه إلى ابن عيينة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يزال أمر الناس

---

(١) في نسخة: التصريح.

ماضياً ما ولّيهم إثنا عشر رجلاً»، ثم تكلم بكلمة خفيت عليّ فسألت أبي ماذا قال رسول الله؟ فقال: فقال: «كلهم من قريش»(١).

الثالث: مسلم في (**صحيحه**) مسنداً عن حصين عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيه إثنا عشر خليفة»، قال: ثم تكلم بكلام خفي عليّ قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش»(٢).

الرابع: مسلم في (**صحيحه**) قال: حدثنا ابن أبي عمر وقال: حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما ولّيهم إثني عشر رجلاً» ثم تكلم النبي بكلمة خفيت عليّ، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله؟ فقال: قال: «كلهم من قريش».

الخامس: مسلم في (**صحيحه**) قال: حدثنا هذاب بن خالد الأزدي قال: حدثنا حماد بن سلمة عن سماك بن حرب قال: سمعت جابر بن سمرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة»، ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: قال: «كلهم من قريش»(٣).

السادس: مسلم في (**صحيحه**) قال: حدثنا أحمد بن عثمان النوفلي، حدثنا أحمد بن عون بن عثمان عن الشعبي عن جابر بن سمرة قال: انطلقت إلى رسول الله ﷺ ومعي أبي فسمعته يقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى إثني عشر خليفة»، فقال ﷺ كلمة أضمنها الناس فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش».

السابع: الحميدي في (**الجمع بين الصحيحين**) قال: وفي رواية مسلم عن حديث عامر بن أبي وقاص قال: كتب إليّ جابر بن سمرة مع غلامي نافع أن: أخبرني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ فكتب إليّ: سمعت رسول الله ﷺ يوم جمعة عشية رجم الأسلمي، قال: «لا يزال الدّين قائماً حتى تقوم ويكون عليهم إثني عشر خليفة كلهم من قريش»(٤)، الحديث.

قال السيد البحراني: بعد إيراد هذه الأخبار السبعة وعشر روايات كلها من طريق المخالفين عن جابر بن سمرة ما لفظه: أقول: قد ذكر يحيى بن الحسن البطريق في كتاب

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٤٨، والعمدة: ٤١٦ ح ٨٥٧.
(٢) مسند أحمد: ٥/ ٩٣ ـ ١٠١، وصحيح ابن حبان: ١٥/ ٤٥.
(٣) صحيح مسلم: ٦/ ٣، ومستدرك الصحيحين: ٤/ ٢٨٠.
(٤) الإمامة والبصرة: ١٥١، والخصال: ٤٧٢ ح ٢٦.

(المستدرك) أنه ذكر في كتاب **(العمدة)** من طريق عشرين طريقاً في أن الخلفاء بعده إثنا عشر خليفة كلها من الصحاح من **(صحيح البخاري)** ثلاثة طرق، ومن **(مسلم)** تسعة، ومن **(صحيح أبي داود)** ثلاثة، وفي **(الجمع بين الصحاح الستة)** طريقين، ومنها من **(الجمع بين الصحيحين)** للحميدي ثلاثة كلها ينطق بأنه لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة وما وليهم إثني عشر خليفة كلهم من قريش.

الثامن: أبو علي الطبرسي الفضل بن الحسن في كتاب **(أعلام الورى)** من طريق المخالفين وهو عدة روايات منها ما رواه عن أبي سلمة القاضي قال: أخبرنا أبو القاسم القسوي[١] حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن المهاجر بن مسمار عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كتبت إلى جابر بن سمرة مع غلامي نافع أن: أخبرني بشيء سمعته عن رسول الله ﷺ؟ فكتب إليّ: أني سمعت رسول الله يوم جمعة عشية رجم الأسلمي يقول: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويكون عليكم إثني عشر خليفة كلهم من قريش»، وسمعته يقول: «أنا الفرط على الحوض»[٢].

التاسع: ما رواه من طريق المخالفين الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد عن محمد بن عثمان الذهبي، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقي قال: حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فقال له رجل: أحدَّثكم نبيكم كم يكون بعده من الخلفاء؟ فقال له: نعم من الخلفاء عدة نقباء موسى إثني عشر خليفة كلهم من قريش.

العاشر: ما رواه حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق عن عبد الله بن مسعود وزاد فيه قال: كنا جلوساً إلى عبد الله يقرأنا القرآن، فقال له رجل: يا عبد الرحمٰن هل سألتم رسول الله ﷺ كم يملك أمر هذه الأمة خليفة بعده؟ فقال له عبد الله: ما سألني بها أحد منذ قدمت العراق، نعم سألنا رسول الله ﷺ فقال: إثني عشر عدة نقباء بني إسرائيل.

الحادي عشر: ما رواه عبد الله بن أبي أميّة مولى مجامع عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يزل هذا الدين قائماً إلى إثني عشر من قريش فإذا مضوا هاجت الأرض بأهلها».

الثاني عشر: ما رواه سليمان بن أحمر قال: حدثنا أبو عون عن الشعبي عن جابر بن

(١) في نسخة: أبو العباس النسوي.

(٢) العمدة: ٤١٨ ح ٨٦٦، وبحار الأنوار: ٣٦/٢٩٧ ح ١٢٦.

سمرة أن النبي ﷺ قال: «لا يزال أهل هذا الدين ينصرون على من ناداهم إلى إثني عشر خليفة»، فجعل الناس يقومون ويقعدون، وتكلم بكلمة لم أفهمها فقلت لأبي أو لأخي: أي شيء قال: قال: «كلهم من قريش»[١].

الثالث عشر: ما رواه قطر بن خليفة عن أبي خالد الوالبي عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ مثله.

الرابع عشر: ما رواه سهل بن حماد عن يونس بن أبي يعفور قال: حدثني عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: كنت عند رسول الله ﷺ وعمي جالس بين يدي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر أمتي صالحاً حتى يمضي إثنا عشر خليفة كلهم من قريش» إسم أبي جحيفة وهب بن عبد الله[٢].

الخامس عشر: ما رواه الليث بن سعد عن خالد بن زيد عن سعد بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف قال: كنا عند شقيق الأصبحي فقال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلفي إثني عشر خليفة».

السادس عشر: ما رواه الشيخ أبو عبد الله جعفر بن محمد بن أحمد الدورستي في كتابه في الرد على الزيدية قال: أخبر أبي قال: أخبرنا الشيخ أبو جعفر بن بابويه قال: حدثنا محمد بن علي ماجيلويه عن عمه عن أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه عن خلف بن حماد الأسدي عن الأعمش عن عباية بن ربعي عن ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ حين حضرته وفاته فقلت: إذا كان ما نعوذ بالله منه فإلى من؟ فأشار إلى علي ﷺ فقال: «هذا، فإنه مع الحق والحق معه ثم يكون بعده أحد عشر إماماً مفترضة طاعتهم كطاعته»[٣].

السابع عشر: الدورستي أيضاً قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن وهبان قال: حدثنا أبو بشر أحمد بن إبراهيم بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن زكريا بن دينار العلائي حدثنا سليمان بن إسحاق عن سليمان بن عبد الله بن العباس قال: كنت يوماً عند الرشيد فذكر المهدي وما ذكر من عدله فأطنب من ذلك فقال للرشيد: إني أحسبكم أنكم تحسبونه أبا المهدي حدثني أبي عن أبيه عن جدّه عن ابن عباس عن أبيه العباس بن المطلب: أن النبي ﷺ قال: «يا عم تملك من ولدي إثني عشر خليفة ثم تكون أمور كريهة وشدة عظيمة ثم يخرج المهدي من ولدي يصلح الله أمره في ليلة، فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً،

(١) كتاب الغيبة: ١٠٤ ح ٣٣، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٥٠.

(٢) فتح الباري: ٣/ ١٨٢، وتحفة الأحوذي: ٦/ ٣٩١.

(٣) الصراط المستقيم: ٢/ ١٢١، وبحار الأنوار: ٣٦/ ٣٠٠ ح ١٣٦.

يمكث في الأرض ما شاء الله، ثم يخرج الدجال»[١].

قال أبو علي الطبرسي عقيب هذه الأخبار وما بمعناها مما لم نوردها: هذا بعض ما جاء من الأخبار من طريق المخالفين ورواياتهم في النص على عدد الأئمة الإثني عشر عليهم السلام وإذا كانت الفرقة المخالفة قد نقلت ذلك كما نقلته الشيعة الإمامية ولم تنكر ما تضمنه الخبر، فهو أدل دليل على أن الله تعالى هو الذي سخّرهم لروايته إقامة لحجته وإعلاء لكلمته وما هذا الأمر إلا كالخارق للعادة والخارج عن الأمور المعتادة، ولا يقدر عليها إلا الله تعالى الذي يذلل الصعب ويقلّب القلب ويسهّل له العسير وهو على كل شيء قدير، انتهى[٢].

الثامن عشر: صدر الأئمة أخطب خوارزم أبو المؤيد موفق بن أحمد في كتاب **(فضائل أمير المؤمنين)** قال: حدثنا فخر القضاة نجم الدين أبو منصور محمد بن الحسين بن محمد البغدادي فيما كتب إليّ من همدان، قال: أنبأنا الإمام الشريف نور الهدى أبو طالب الحسن بن محمد الزيني قال: أخبرنا إمام الأئمة أحمد بن محمد بن شاذان قال: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله الحافظ قال: حدثنا علي بن سنان الموصلي عن أحمد بن صالح عن سلمان بن محمد عن زيد بن مسلم عن زياد بن محمد عند عبد الرحمٰن بن يزيد عن جابر عن سلامة عن أبي سليمان الراعي راعي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ليلة أسري بي إلى السماء قال لي الجليل جلّ جلاله: آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه؟ فقلت: والمؤمنون، فقال: صدقت يا محمد من خلفت في أمّتك؟ فقلت: خيرها، قال: عليّ بن أبي طالب؟ قلت: نعم يا رب، قال: يا أحمد إني اطلعت على الأرض إطلاعة فاخترتك منها فاشتققت لك إسماً من أسمائي فلا أذكر في موضع إلا ذكرت معي فأنا المحمود وأنت محمد، ثم اطلعت الثانية فاخترت منها علياً فشققت له إسماً من أسمائي، فأنا الأعلى وهو عليّ، يا محمد إني خلقتك وخلقت علياً وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولده من نور من نوري، وعرضت ولايتكم على أهل السماوات والأرضين، فمن قبلها كان عندي من المؤمنين، ومن جحدها كان عندي من الكافرين، يا محمد لو أن عبداً من عبادي عبدني حتى ينقطع أو يصير كالشنّ البالي، ثم أتاني جاحداً لولايتكم ما غفرت له حتى يلقاني بولايتكم، يا محمد تحب أن تراهم؟ فقلت: نعم يا رب، قال: فالتفت عن يمين العرش، فالتفتّ فإذا بعلي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والمهدي في ضحضاح من نور قيام يصلّون، وهو في وسطهم ـ يعني المهدي ـ كأنه كوكب

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/٢٥٢، وبحار الأنوار: ٢٨/٤٣.

(٢) الصوارم المهرقة: ٩٥.

دريّ، وقال: يا محمد هؤلاء الحجج وهذا السائر من عترتك، وعزّتي وجلالي إنه الحجة الواجبة والمنتقم [من أعدائي][(١)].

قال السيد المحدّث البحراني: روى هذا الحديث جماعة من الخاصة والعامة، رواه الشيخ الطوسي في (**الغيبة**) وأبو الحسن محمدبن أحمد بن الحسن بن شاذان في (**المناقب المائة من طريق العامة**)، ورواه صاحب (**المقتضب**) وصاحب (**الكنز الخفي**) والحمويني من العامة.

التاسع عشر: إبراهيم بن محمد الحمويني من أعيان علماء العامة في كتاب (**فرائد السّمطين**) في فضائل المرتضى وفاطمة والحسن والحسين بسنده عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن العباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي الإثني عشر أوّلهم أخي وآخرهم ولدي»، قيل: يا رسول الله ومن أخوك؟ قال: «علي بن أبي طالب»، قيل: فمن ولدك؟ قال: «المهدي الذي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، والذي بعثني بالحق بشيراً لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه ولدي المهدي فينزل فيه روح الله عيسى ابن مريم فيصلّي خلفه وتشرق الأرض بنور ربّها ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب»[(٢)].

العشرون: الحمويني هذا بالإسناد إلى ابن بابويه قال: حدثنا أحمد بن الحسن القطان قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن زكريا القطان قال: حدثنا بكر بن عبد الله بن حبيب قال: حدثنا الفضل بن الصقر العبدي قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عباية بن ربعي عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا سيد النبيين وعلي بن أبي طالب سيد الوصيين، وإن أوصيائي بعدي إثني عشر أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم القائم».

الحادي والعشرون: محمد بن أحمد بن شاذان أبو الحسن الفقيه في (**المناقب المائة**) و (**الفضائل لأمير المؤمنين والأئمة من طريق العامة**) عن سلمان المحمدي قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله إذا الحسين بن علي على فخذه وهو يقبّل عينيه ويلثم فاه وهو يقول: «أنت سيد وابن سيد وأبو السادات، أنت إمام ابن إمام أبو الأئمة، أنت حجة إبن حجة أبو الحجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم»[(٣)].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة لا تستقصى، وفيما ذكرناه كفاية في هذا الباب ومن أراد

(١) مائة منقبة: ٣٩، والأربعين حديثاً: ٤.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٨٠، ومقتضب الأثر: ١١.

(٣) الأئمة والتبصرة: ١١٠ ح ٩٦، وعيون أخبار الرضا: ٢/٥٦ ح ١٧.

الزيادة فعليه بكتاب **(غاية المرام)**، وقد عقد السيد المحدّث البحراني فيه بابين على هذا المعنى قال: الباب الرابع والعشرون في أن الأئمة بعد رسول الله ﷺ إثني عشر بنص رسول الله ﷺ إجمالاً وتفصيلاً: علي وبنوه الأحد عشر من طريق العامة وفيه ثمانية وخمسون حديثاً، ثم أورد الروايات العامية فقال: الباب الخامس والعشرون في أن الأئمة بعد رسول الله إثني عشر إجمالاً وتفصيلاً هم: علي بن أبي طالب وبنوه الأحد عشر من طريق الخاصة وفيه خمسون حديثاً، ثم روى الأحاديث الخاصية والله الهادي إلى سواء السبيل[1].

---

(١) **النصوص على أهل البيت**

وهي على طوائف بألفاظ مختلفة:

١ ـ الطائفة الاولى: الأئمة إثنا عشر أولهم علي وآخرهم المهدي

ففي فرائد السمطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي الاثنى عشر أولهم علي وآخرهم ولدي المهدي» قد ينابيع المودة: ٢ / ٥٣٦ باب ٧٨، وفرائد السمطين: ٢ / ٣١٣ باب ٣١ ح ٥٦٢ .

وعنه في اعلام الورى وكمال الدين بلفظ: «ان خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي إثنا عشر: أولهم أخي وآخرهم ولدي .

قيل يا رسول الله ﷺ ومن أخوك ؟

قال: علي بن أبي طالب .

قيل: فمن ولدك ؟

قال: المهدي الذي يملأها قسطاً وعدلاً . . » كمال الدين: ١ / ٢٨٠، واعلام الورى: ٣٧١، وكشف الغمة ٣ / ٢٩٧، والزام الناصب: ١/ ٢٠٥ .

ونحوه في ينابيع المودة ـ ينابيع المودة: ٥٣٤ باب ٧٧ .

ورواه اصحابنا عن ابن عباس من عدة طرق ـ عيون اخبار الرضا: ١ / ٥٢ باب ٦ ح ٣١، وكشف الغمة: ٣ / ٢٩٩: وكمال الدين: ١ / ٢٨٠، واعلام الورى ٣٧٥، وارشاد القلوب: ١ / ٢٩٤ .

وفي مودة القربى عن عباية بن ربعي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ان أوصيائي بعدي اثنى عشر أولهم علي وآخرهم القائم المهدي» ـ ينابيع المودة: ٥٣٤ و٥٨٥ .

وفي حديث المعراج عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «فرأيت إثنا عشر نوراً من كل نور سطر اخضر عليه اسم وصي من أوصيائي ؛ أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم [القائم] مهدي امتي» ـ ينابيع المودة: ٤٨٥ ط . اسلامبول و٢ / ٥٨٢ ط . ايران الباب ٩٣ ذكر خليفة النبي ﷺ، وعيون اخبار الرضا: ١ / ٢٠٦ باب ٢٥ ح ٢٢، وكمال ادين: ١ / ٢٥٦ .

وعن عبد الرحمن بن سليط [سابط] عن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «منا إثنا عشر مهدياً أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآخرهم التاسع من ولدي وهو الإمام القائم بالحق» ـ كمال الدين: ١ / ٣١٦، والعيون: ١ / ٥٦، وكفاية الاثر: ٢٣٢، واعلام الورى ٣٨٤، والزام الناصب: ١ / ٢١٦ ورواه في مقتضب الاثر بسنده عن الهمداني ـ البحار: ٣٦ / ٣٨٥ عن المقتضب ٢٧ .

وعن ابان عن أبي حمزة الثمالي وثابت بن دينار جميعاً عن زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام عن ابيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «الأئمة بعدي اثنى عشر أولهم أنت يا علي وآخرهم القائم

....

الذي يفتح الله على يديه مشارق الأرض ومغاربها». ينابيع المودة: ٢ / ٥٩٠ باب ٩٤، واعلام الورى ٣٧٠، والبحار: ٣٦ / ٢٢٦، وامالي الصدوق ٩٧ المجلس ٢٣ ح ٩ .
وفي غيبة النعماني عن بدر بن اسحاق قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي الأئمة الراشدون المهتدون المعصومون من ولدك أحد عشر إماماً وأنت أولهم، آخرهم اسمه اسمي يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً». غيبة النعماني: ٥٨ ـ ٥٩ .
وفي خبر طويل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «والأئمة ـ يا جابر ـ إثنا عشر إماماً أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم القائم المهدي» ـ مائة منقبة: ٩٩ المنقبة: ٤١ .
والروايات في ذلك كثيرة خاصة في اخبار الحجة المهدي (عج) ـ راجع الاختصاص: ٢٢٣ حديث في الائمة، والبحار: ٩ / ١٦١ و٢٣٢، وكمال الدين: ٢ / ٣٤٢ و٢٥٩، والزام الناصب: ١ / ٢١٩ و٢٠٥، واعلام الورى: ٣٨٦، وينابيع المودة ١ / ٢٤٤ و٣٣٣ باب ٥٦ و٥٧ و٢ / ٥١٥ باب ٧٧، وامالي الصدوق: ٣٧٤، والعيون: ١ / ٤٧ باب ٦، وكفاية الاثر: ١٤٥ و١٥٣ .
٢ ـ الطائفة الثانية: أنت إمام ابن إمام أخو إمام أبو ائمة تاسعهم قائمهم
كالمروي عن سليم بن قيس عن سلمان قال: دخلت على النبي ﷺ فاذا الحسين على فخذيه وهو يقبل عينيه ويلثم فاه وهو يقول: «أنت سيد ابن سيد أنت إمام [أخو إمام] ابن إمام أنت حجة أبو حجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم». عيون اخبار الرضا: ١ / ٤٢، وكمال الدين: ١ / ٢٦٢، والخصال: ٢ / ٤٧٥، وينابيع المودة: ٢ / ٣٠٨، وكفاية الاثر: ٤٦، ومائة منقبة: ١١٨ منقبة ٥٨ .
ورواه الخوارزمي في مناقبه مع اختلاف يسير ـ مقتل الحسين للخوارزمي: ١ / ١٤٦ الفصل السابع .
وعن شهر بن حوشب عن سلمان قال: «ياابا عبد الله أنت سيد من سادة وأنت إمام ابن إمام اخو إمام ابو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم اعلمهم احكمهم افضلهم». البحار: ٣٦ / ٣٧٢ عن المقتضب: ١١، وقريب منه في ارشاد القلوب: ٢ / ٢٣٣ فضائل فاطمة عليها السلام، وقريب منه في تقريب المعارف: ١٧٦ .
وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول للحسين عليه السلام: «أنت الامام ابن الإمام وأخو الإمام تسعة من صلبك أئمة ابرار والتاسع قائمهم». كفاية الاثر: ٢٨ .
وفيه في رواية أخرى عنه زاد فيها: فقيل يا رسول الله كم الأئمة بعدك ؟
قال: «إثنا عشر تسعة من صلب الحسين». كفاية الاثر: ٣٠ .
وروي عن الامام الحسين عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يقول فيما بشرني به: «يا حسين أنت السيد ابن السيد أبو السادة، تسعة من ولدك ائمة ابرار والتاسع قائمهم، أنت الإمام ابن الإمام ابو الأئمة تسعة من صلبك ائمة أبرار والتاسع مهديهم يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً يقوم في آخر الزمان كما قمت في أوله». كفاية الاثر: ١٧٦ ونقله في البحار: ٣٦ / ٣٤٤، وقريب منه في كشف الغمة: ٣ / ٢٩٩، والطرائف: ١ / ١٧٤، وينابيع المودة: ١ / ١٩٨ باب ٥٤ و: ٢ / ٥٣٤ باب ٧٧ .
ورواه في الاختصاص بسند آخر عن حماد بن عيسى عن أبيه عن الامام الصادق عليه السلام ـ الاختصاص: ١٢ / ٢٠٧، وذكره المجلسي في البحار: ٣٦ / ٣٦٠ .
وروي قريب منه عن زيد بن علي عليه السلام وعن فاطمة الزهراء عليها السلام ـ راجع كفاية الاثر: ١٩٤ و٣٠٠ .
٣ ـ الطائفة الثالثة: الأئمة إثنا عشر ثلاثة محمد واربعة علي
فعن ابن أبي الخطاب وعن ابن محبوب وعن ابن عباس وجابر بن يزيد عن جابر ابن عبد الله الانصاري قال: «دخلت على فاطمة بنت رسول الله ﷺ وبين يديها لوح فيه اسماء الاوصياء والأئمة من ولدها

فعددت اثني عشر آخرهم القائم من ولد فاطمة؛ ثلاثة منهم محمد واربعة منهم علي» ـ فرائد السمطين: ٢ / ١٣٣ باب ٣١ ح ٤٣١، والارشاد: ٢ / ٣٤٦، والكافي: ١ / ٥٣٢، وغيبة الشيخ: ٩٢، والعيون: ١ / ٣٨، وكمال الدين: ١ / ٣١١، والخصال: ٢ / ٣٧٨، وروضة الواعظين: ٢٦١ مجلس في ذكر امامة صاحب الزمان، مع تفاوت يسير عن الارشاد.

وفي نص آخر عن جابر: «دخلت على فاطمة بنت رسول الله وقدامها لوح يكاد ضوؤه يغشي الابصار فيه إثنا عشر اسماً: ثلاثة في ظاهره، وثلاثة في باطنه، وثلاثة في آخره، وثلاثة اسماء في طرفه، فعددتها فاذا هي إثنا عشر، فقلت اسماء من هؤلاء؟

قالت: اسماء الاوصياء أولهم ابن عمي وأحد عشر من ولدي آخرهم القائم.

قال جابر: فرأيت محمداً محمداً محمداً في ثلاثة مواضع وعلياً علياً علياً علياً في اربعة مواضع». فرائد السمطين: ٢ / ١٣٩ باب ٣١ ح ٤٣٥، وعيون اخبار الرضا: ١ / ٣٧، واعلام الورى: ٣٧٤، والزام الناصب: ١ / ٢١٥، والبحار: ٣٦ / ٣٠١، وكمال الدين: ١ / ٣١١.

وقريب من ذلك ما روي في غيبة النعماني عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «.. نحن إثنا عشر ـ هكذا ـ حول عرش ربنا عزّوجلّ في مبتدء خلقنا أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد». البحار: ٣٦ / ٣٩٩، وغيبة النعماني: ٥٤.

وعن سلمان عن أمير المؤمنين في حديث طويل فيه: «انا كلنا واحد أولنا محمد وآخرنا محمد وأوسطنا محمد وكلنا محمد». الزام الناصب: ١ / ٣٥.

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ان الأئمة بعدي إثنا عشر رجلاً من أهل بيتي، علي أولهم وأوسطهم محمد وآخرهم محمد، وهو مهدي هذه الأمة». كفاية الاثر: ٨٠، ونقله في البحار: ٣٦ / ٣١٢.

٤ ـ الطائفة الرابعة: إثنا عشر إماماً تسعة من الحسين ج

كالمروي عن رزين بن حبش [حبيب] عن الحسن بن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ان هذا الامر يملكه بعدي إثنا عشر إماماً تسعة من صلب الحسين عليه السلام اعطاهم الله علمي وفهمي». كفاية الاثر: ١٦٥ و١٦٦، ونقله في البحار: ٣٦ / ٣٤٠.

وعن زراره قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «نحن اثنا عشر اماماً منهم حسن وحسين ثم الائمة من ولد الحسين». الكافي: ١ / ٥٣٣ ح ١٦، والخصال: ٢ / ٤٧٨ و٤٨٠، وتقريب المعارف ١٨٣.

وعن سليم بن قيس عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «اني أولى بالمؤمنين من انفسهم، ثم أخي علي بن أبي طالب أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فاذا استشهد فابني الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم ابني الحسين أولى بالمؤمنين من انفسهم فاذا استشهد فابنه علي أولى بالمؤمنين من انفسهم وستدركه يا علي، ثم ابنه محمد بن علي أولى بالمؤمنين من انفسهم وستدركه ياحسين، ثم تكمله إثني عشر إماماً من ولد الحسين عليه السلام» ـ كمال الدين: ١ / ٢٧٠، وكشف الغمة: ٣ / ٢٩٨، والخصال: ٢ / ٤٧٧، والعيون: ١ / ٣٨، والزام الناصب: ١ / ١٩٩، ونقله في البحار: ٣٦ / ٢٣١.

ورواه النعماني عن سليم مع تفاوت ـ غيبة النعماني: ٦٠ ـ ٦١، والبحار: ٣٦ / ٢٧٦، والزام الناصب: ٥٢/١.

وروي أيضاً قريب منه عن المفضل عن الصادق عليه السلام قال: «اثنى عشر إماماً تسعة من ولد الحسين» ـ ارشاد القلوب: ٢ / ٤٢١.

وفي رواية ام سلمة عن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة بعدي عدد نقباء بني اسرائيل تسعة من صلب الحسين اعطاهم الله علمي وفهمي فالويل لمبغضهم». كفاية الاثر: ١٨٤ .

٥ ـ الطائفة الخامسة: علي والحسن والحسين وتسعة من صلبه

ففي كفاية الاثر عن موسى بن عبد ربه عن الحسين بن علي قال رسول الله ﷺ: « . . . ألآ ان أهل بيتي امان لكم فأحبوهم لحبي وتمسكوا بهم لن تضلوا ».

قيل: فمن أهل بيتك يا نبي الله ؟

قال: «علي وسبطاي وتسعة من ولد الحسين ائمة امناء معصومون» ـ كفاية الاثر: ١٧١ .

وفي غيبة النعماني عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺفي غدير خم بعد ذكر استشهاد الامير على الغدير ونزول آية: **﴿انما وليكم الله﴾** وآية: **﴿يا أيها النبي بلغ﴾** قال ﷺ: «اشهدكم ايها الناس انها خاصة لهذا ولأوصيائي من ولدي وولده أولهم ابني حسن، ثم حسين ثم تسعة من ولد حسين لا يفارقهم الكتاب حتى يردوا عليّ الحوض ». ارشاد القلوب: ٢ / ٤١٩ في فضائل علي والأئمة **﴿عليهم السلام﴾** .

وفي نص آخر عنه: «هم مع القرآن والقرآن معهم لا يفارقهم ولا يفارقونه حتى يردوا علي حوضي، أول الأئمة علي خيرهم، ثم ابني حسن، ثم ابني حسين، ثم تسعة من ولد الحسين ». غيبة النعماني: ٤٤ ـ ٤٦ والحديث طويل جداً أخذت موضع الحاجة .

وعن سلمان المحمدي عن رسول الله ﷺ: «فالأوصياء بعدي اخي علي، ثم الحسن ثم الحسين ثم الأئمة من ولد الحسين **﴿عليهم السلام﴾**». غيبة النعماني: ٥٢ ـ ٥٣ .

وفي اثبات الوصية عن أبي بصير عن الصادق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ان الله اختار من الايام الجمعة، ومن الشهور شهر رمضان، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الناس الأنبياء، ومن الأنبياء الرسل، واختارني من الرسل واختار مني علياً، واختار من علي الحسن والحسين، واختار من الحسين الاوصياء ينفون عن التنزيل تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين تاسعهم قائمهم وهو ظاهرهم وهو باطنهم ». اثبات الوصية: ٢٢٧ .

وفي رواية ام سلمة قالت: . . . أهل بيته الذين امرنا بالتمسك بهم، هم الأئمة بعده كما قال ﷺ: «عدد نقباء بني اسرائيل علي وسبطاه وتسعة من صلب الحسين »، هم أهل بيته هم المطهرون والأئمة المعصومون ـ كفاية الاثر: ١٨٢ .

وفي رواية فاطمة الزهراء ﷺ قالت: سألت أبي عن قول الله تبارك وتعالى **﴿وعلى الاعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ﴾** ..

قال: «هم الأئمة بعدي علي وسبطاي وتسعة من صلب الحسين ». كفاية الاثر: ١٩٤، ونقله في البحار: ٣٦ / ٣٥١ .

وفي رواية أخرى عنها ﷺ قالت: اشهد الله تعالى لقد سمعته يقول: «علي خير من أخلفه فيكم وهو الإمام والخليفة بعدي، وسبطي وتسعة من صلب الحسين ائمة ابرار لئن اتبعتموهم وجدتموهم هادين مهديين، ولئن خالفتموهم ليكون الاختلاف فيكم إلى يوم القيامة ». كفاية الاثر: ١٩٩ .

وعن داود الرقي عن الامام الصادق ﷺ قال: « . . . وكان أول من دخلها محمد وأمير المؤمنين والحسن والحسين وتسعة من الأئمة ». غيبة النعماني: ٥٦ ـ ٥٧ .

وعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين

مطهرون معصومون ». كفاية الاثر: ١٩ و٦٩، واعلام الورى: ٣٧٥، والعيون: ١ / ٥٢، وكشف الغمة: ٣/٢٩٩، وكمال الدين: ١ / ٢٨٠ وينابيع المودة: ٢ / ٥٨٥، ومناقب آل أبي طالب: ١ / ٢٠٩، والبحار: ٣٦ / ٢٨٦ .

والاخبار في ذلك كثيرة تقدم بعضها ـ راجع كمال الدين: ١ / ٢٧٤، ومناقب آل أبي طالب: ٢١٠، والبحار: ٣٦ / ٢٧٧ و٣١٠ و٣١٧ و٣٤١ و٣٥١ و٣٢٠، ومائة منقبة: ٨٦ المنقبة ٣٢ .

٦ ـ الطائفة السادسة: تسعة من الحسين تاسعهم قائمهم

فعن الامام الباقر عليه السلام قال: يكون تسعة ائمة بعد الحسين بن علي تاسعهم قائمهم الكافي: ١ / ٥٣٣، والخصال: ٢ / ٤٨٠، والارشاد: ٢ / ٣٤٧، وغيبة النعماني: ٦٠، والبحار: ٣٦ / ٣٩٥ .

ورواه ابو بصير عن الصادق عليه السلام ـ كمال الدين: ٢ / ٣٥٠ .

وفي رواية أبي حمزة الثمالي عن الباقر عليه السلام قال: «واختار من صلبك يا حسين تسعة تاسعهم قائمهم، وكلهم في المنزلة والفضل عند الله واحد ـ سوف يأتي تحقيق التفاضل بين الائمة ﴿عليهم السلام﴾ ». دلائل الامامة: ٢٣٦ معرفة وجوب القائم، وينابيع المودة: ٢ / ٥٩٠ باب ٩٤، وكشف الغمة: ٣ / ٣٠١، وكمال الدين: ١ / ٢٦٩ باب ٢٤ ح ١٣، والهداية الكبرى: ٣٧٤ .

وعن الامام الصادق عليه السلام :« واختار من علي الحسن والحسين واختار من الحسين تسعة أئمة وتاسعهم قائمهم ». الهداية الكبرى: ٣٦٣ .

وعن أبي هريرة قال: سالت رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله عزوجل: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ ـ زخرف: ٢٨ قال: جعل الامامة في عقب الحسين عليه السلام يخرج من صلبه تسعة من الأئمة، ومنهم مهدي هذه الامة ». كفاية الاثر: ٨٦ .

وعن أبي امامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الأئمة بعدي إثنا عشر كلهم من قريش تسعة من صلب الحسين والمهدي منهم ». كفاية الاثر: ١٠٦ .

وقريب منه ما روي عن حذيفة وعن سعد بن مالك ـ وقريب منه عن حذيفة وسعد بن مالك ـ كفاية الاثر: ١٣٠ ـ ١٣٤ .

ونحوه عن أبي سعيد، وعمر بن عثمان عن أبيه، وعبدالله بن مسعود، وابن السائب، وابي ذر، وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت جميعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:« الأئمة بعدي إثنا عشر تسعة من صلب الحسين والتاسع مهديهم ». البحار: ٣٦ / ٢٨٢ و٢٩١ و٢٩٢ و٢٩٣ و٣١٧ و٣١٨، ومناقب آل أبي طالب: ١ / ٢٠٩، وكفاية الاثر: ٩٩ و٩٧ .

وقريب منه ما روي عن سلمان وفاطمة عليها السلام معاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ويونس ابن ضبيان وابان عن الصادق عليه السلام وابي مريم عن الباقر عليه السلام ـ البحار: ٣٦ / ٣٠٤، وكفاية الاثر: ٤٥ و١٢٤ و١٩٤ و١٩٧، ومناقب آل أبي طالب: ١ / ٢٠٩، البحار: ٣٦ / ٣٥٨ و٣٥٢ و٣٥٠ .

٧ ـ الطائفة السابعة: علي والحسن والحسين وتسعة منه تاسعهم قائمهم

كالمروي عن زيد بن ارقم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي عليه السلام: «أنت الإمام والخليفة بعدي، وابناك سبطاي وهما سيدا شباب أهل الجنة، وتسعة من صلب الحسين أئمة معصومون ومنهم قائمنا أهل البيت ». كفاية الاثر: ١٠٠ .

وعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «علي مع الحق والحق مع علي، وهو الامام والخليفة بعدي فمن تمسك به فاز ونجى ومن تخلف عنه ضل وغوى، بلى يكفنني ويغسلني ويقضي ديني، وابو

سبطي الحسن والحسين ومن صلب الحسين تخرج الأئمة التسعة ومنا مهدي هذه الأئمة ». كفاية الاثر: ٢٠ و١٠ مع تفاوت .
وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «علي بن أبي طالب قائد البررة وقاتل الفجرة، منصور من نصره مخذول من خذله، الشاك في علي هو الشاك في الاسلام، وخير من اخلف بعدي وخير اصحابي علي، لحمه لحمي ودمه دمي وابو سبطي، ومن صلب الحسين تخرج الأئمة التسعة ومنهم مهدي هذه الأئمة ». كفاية الاثر: ٩٧ .
وعن السائح عن العسكري عليه السلام عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «علي بن ابي طالب امامكم بعدي وخليفتي عليكم، فاذا مضى فابني الحسن امامكم بعده وخليفتي عليكم، فاذا مضى فابني الحسين امامكم بعده وخليفتي عليكم، ثم تسعة من ولد الحسين واحد بعد واحد ائمتكم وخلفائي عليكم تاسعهم قائم امتي». كمال الدين: ١ / ٢١٦ .
وفي العيون عن غياث بن ابراهيم عن الصادق عليه السلام عن ابائه عن الحسين عليه السلام قال: سئل أمير المؤمنين عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «اني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، من العترة ؟
فقال عليه السلام: انا والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد الحسين تاسعهم مهديهم وقائمهم» - العيون: ١ / ٤٦، وكشف الغمة: ٣ / ٢٩٩، واعلام الورى: ٣٧٥، والبحار: ٣٦ / ٣٧٣ .
وعن أبي عبد الله الحسين عليه السلام قلت: يا رسول لله صلى الله عليه وآله فمن يملك هذا الأمر بعدك ؟
قال: «ابوك علي بن ابي طالب اخي وخليفتي ويملك بعد علي الحسن، ثم تملك أنت وتسعة من صلبك تكملة إثنا عشر إماماً، ثم يقوم قائمنا يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ويشفي صدور قوم مؤمنين هم شيعته ». كفاية الاثر: ١٧٩ .
وروي نحو ذلك - مع تفاوت - عن عمار، وابي ذر، وام سلمة، وابي ايوب، وحذيفة، وابن عباس من طريق سعيد وعطاء، واصبغ بن نباته عن أمير المؤمنين، وجابر الانصاري جميعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله - راجع كفاية الاثر: ١٢١ و٣٥ و٣٨ و١٨٥، واعلام الورى: ٣٧٦: وكمال الدين: ١ / ٢٥٧ و٢٥٩، والبحار: ٣٦ / ٢٨٧ و٣٧٢ و٢٥٣ و٢٨٢ و٣٢٩ .
كما وروي عن سليم بن قيس وعبد القيس معاً عن أمير المؤمنين عليه السلام - البحار: ٣٦ / ٢١٠ و٣٢٤، وغيبة النعماني: ٤٨ - ٤٩ .
وروي نحوه أيضاً عن أبي بصير والمفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام، وابي حمزة عن الباقر عليه السلام، والحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام - غيبة الشيخ: ٩٢، وتقريب المعارف: ١٧٦، والبحار: ٣٦ / ٢٦٠ و٢٥٥، وكمال الدين: ٢ / ٣٣٥ و٢٦٩ و٢٦٠، وغيبة النعماني: ٤٤ .
٨ - الطائفة الثامنة: الأئمة إثنا عشر تسعة من الحسين تاسعهم قائمهم
كالمروي عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الأئمة بعدي إثنا عشر تسعة من صلب الحسين وتاسعهم مهديهم ». كفاية الاثر: ٢٣ .
وفي رواية أبي سعيد الخدري: قيل يارسول الله فالائمة بعدك من أهل بيتك ؟
قال: «نعم الأئمة بعدي إثنا عشر تسعة من صلب الحسين امناء ومعصومون ومنا مهدي هذه الأئمة، ألا انهم أهل بيتي وعترتي من لحمي ودمي ما بال اقوام يؤذونني فيهم لا أنالهم الله شفاعتي ». كفاية الاثر: ٢٩.
وعن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الأئمة بعدي إثنا عشر تسعة من صلب الحسين عليه السلام تاسعهم قائمهم، ألا ان مثلهم فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها هلك، ومثل باب حطة في بني اسرائيل »

....

كفاية الاثر: ٣٨ .

وفي رواية عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة ﷺ بعدي إثنا عشر تسعة من صلب الحسين ومنا مهدي هذه الأمة، مَن تمسك من بعدي بهم فقد استمسك بحبل الله، ومن تخلا منهم فقد تخلا من الله». كفاية الاثر: ٩٤ .

وعن انس قال: فقام اليه ابو ذر الغفاري وقال: يارسول الله كم الأئمة بعدك ؟
قال: «عدد نقباء بني اسرائيل».
فقال: كلهم من أهل بيتك .
قال ﷺ: «كلهم من أهل بيتي تسعة من صلب الحسين والمهدي منهم» ـ كفاية الاثر: ٧٤ .

وروي نحو ذلك ـ مع تفاوت ـ عن سعيد بن جبير، وسلمان، وزيد بن ارقم، وابي ايوب الانصاري، وعمران بن حصين جميعاً عن رسول الله ـ كفاية الاثر: ٣٠ و٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٤٧ ـ ١٠٤ ـ ١١٣ ـ ١٣٢ .

وروي أيضاً عن الحسن والحسين ﷺ، ومحمد بن علي الباقر ﷺ ـ كفاية الاثر: ٢٢٣ و٢٣١ و٢٤٦ و٢٥٢ .

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام مبين و وليّ ربّ العالمين است كه متضمّن فايده بعثت پيغمبران عالى مقدار و اظهار مناقب عترت رسول مختار و أهل بيت اطهار است، چنانچه فرموده:

مبعوث فرمود حق سبحانه و تعالى پيغمبران خود را به آن چه كه مخصوص ساخت ايشان را از وحى خود و گردانيد ايشان را حجّت واضحه از براى خود بر مخلوقات خود تا اينكه واجب نشود حجّت مرايشان را به سبب ترك تخويف و ترساندن ايشان، پس خواند ايشان را به زبان راست كه دعوت انبياء است به سوى راه درست كه طريق شريعت غرّا است، آگاه باشيد به درستى كه خداوند آشكارا ساخت خلق را آشكار ساختنى نه از جهت اينكه جاهل بود به آنچه مخفى داشته اند از اسرار محفوظه و مكنونات قلوب ايشان وليكن از جهت اينكه امتحان نمايد ايشان را تا كدام يك از ايشان بهترند از حيث عمل تا باشد ثواب جزاى حساب و عقاب پاداش سيئآت.

كجايند كسانيكه دعوى باطل كردند كه ايشان راسخان در علم اند نه ما از روى دروغ و ظلم بر ما به جهت اينكه خداوند رتبه ما را بلند فرموده و پست كرد ايشان را و عطا نمود به ما منصب امامت و خلافت را و محروم كرد ايشان را و داخل نمود ما را در عنايت خاصّه خود و خارج كرد ايشان را، بهوجود ما خواسته مى شود هدايت و طلب روشنى مى شود از كورى و ضلالت. به درستى كه امامان از طايفه قريش اند، كاشته شدند در اين بطن معيّن از هاشم بن عبدمناف؛ يعنى در ذرّيه علويّه صلاحيت ندارد امامت بر غير ايشان و صلاحيت ندارند واليان از غير ايشان.

الفصل الثاني

مِنها: آثِرُوا عاجِلاً، وَأَخَّرُوا آجِلاً، وَتَرَكُوا صافِياً وَشَرِبُوا آجِناً، كَأَنّي أَنْظُرُ إلىٰ فاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ المُنكَرَ فَأَلِفَهُ، وبَسَأَ بِهِ ووافَقَهُ، حَتَّى شابَتْ عَلَيْهِ مَفارِقُهُ وَصُبِغَتْ بِهِ خَلائِقُه، ثُمَّ أَقْبَلَ مَزْبِداً كالتَّيارِ لا يُبالي ما غَرَقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ في الهَشِيمِ لا يَحْفِلُ ما حَرَقَ، أَيْنَ العُقُولُ المُسْتَصْبِحَةُ بِمَصابِيحِ الهُدىٰ، والأَبْصارُ اللاّمِحَةُ إلىٰ مَنارِ التَّقْوىٰ، أَيْنَ القُلُوبُ الَّتي وُهِبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلىٰ طاعَةِ اللَّهِ؟ إزْدَحَمُوا عَلىٰ الحُطام، وَتَشاحُّوا عَلىٰ الحَرام، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الجَنَّةِ والنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا عَلىٰ النَّارِ بِأَعْمالِهِمْ، وَدَعاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، ودَعاهُمُ الشَّيْطانُ فَاستجابوا وأَقْبَلُوا[1].

اللغة

(الآجن) الماء المتغيّر الطعم واللون و **(بسأ)** به كجعل وفرح بَسئاً وبَسئاً وبسوءاً أنس و **(المفارق)** جمع المفرق وزان مجلس ومقعد وسط الرأس، وهو الذي يفرّق فيه الشعر و **(الخلائق)** جمع الخليقة أي الطبيعة و **(أزبد)** البحر أي صار ذا زبد ورجل مزبد أي ذو زبد وهو ما يخرج من الفم كالرغوة و **(التيار)** مشددة موج البحر و **(الهشيم)** النبت اليابس المتكسر أو يابس كل كلاء و **(حفل)** الماء يحفل من باب ضرب حفلاً وحفولاً اجتمع. وقال الشارح المعتزلي: لا يحفل أي لا يبالي و **(المستصبحة)** في بعض النسخ بتقديم الحاء على الباء من الاستصحاب وفي بعضها بالعكس كما ضبطناه من **(الاستصباح)** وهو الأوفق.

الإعراب

(ما) في قوله: **(ما غرق)** موصولة في محل النصب أي لا يبالي مما غرق، وكذلك في قوله: **(ما حرق)** إن كان يحفل بمعنى يبالي كما فسره الشارح، وإن كان بمعنى يجتمع كما في **(القاموس)** فـ **(ما)** في محل الرفع فاعل له وهو ظاهر.

المعنى

إعلم أن هذا الفصل وارد في معرض التوبيخ والتقريع لطائفة غير مرضية الطريقة.

فقال بعض الشارحين: إنه عنى بذلك الصحابة الذين مضى ذكرهم في الفصل السابق،

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩/٦١٣، وميزان الحكمة: ٢/١٧٥٢ ح ٢٤٢٨.

يعني الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم.

وقال بعضهم: إن المراد به بنو أمية.

وقال الشارح البحراني: أراد بذلك من تخلّف من الناس إلى زمانه ممن هو غير مرضيّ الطريقة وإن كان معدوداً من الصحابة بالظاهر كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم ومعاوية ونحوهم من أمراء بني أميّة، ويقرب منه كلام الشارح المعتزلي وستطلع عليه.

وكيف كان فقوله: **(آثروا عاجلاً وأخّروا آجلاً)** أراد به: أنهم اختاروا الدنيا على الآخرة وقدّموها عليها وأخّروها عنها وذلك لكون شهواتها حاضرة معجلة ولذاتها غائبة مؤجلة **(وتركوا صافياً وشربوا آجناً)** أي تركوا اللذات الأخروية الصافية من الكدورات والعلائق البدنية، واستلذوا باللذات الدنيوية المشوبة بالآلام والأسقام فاستعار لفظ **(الآجن)** للذاتها والجامع عدم السوغ أو عدم الصفاء فيها كما أن الماء المتغير الطعم واللون لا يسوغ ولا يصفى وذكر الشرب ترشيح.

(كأني أنظر إلى فاسقهم) قال الشارح البحراني: يحتمل أن يريد فاسقاً معيناً كعبد الملك بن مروان، ويكون الضمير عائد إلى بني أمية ومن تابعهم، ويحتمل أن يكون مطلق الفاسق أي من يفسق من هؤلاء فيما بعده ويكون بالصفات التي أشار إليها بقوله: **(وقد صحب المنكر فألفه)** أي أخذه إلفاً له **(وبسأ به ووافقه)** أي استأنس به ووجده موافقاً لطبعه **(حتى شابت عليه مفارقه)** وهو كناية عن طول عهده بالمنكر إلى أن بلغ عمره غايته، لأن شيب المفارق عبارة عن بياضها وهو إنما يكون إذا بلغ الشيخوخة، ولتأخر شيب المفرق عن شيب الصدغ وتأكد دلالته على طول العهد خصصه بالذكر **(وصبغت به خلائقه)** أي صارت طبائعه مصبوغة ملونة بالمنكر أي صار المنكر خلقاً له وسجيّة، فاستعار لفظ الصبغ لرسوخ المنكر في جبلته لشدّة ملازمته له.

(ثم أقبل مزبداً كالتيار) شبّهه بالبحر الموّاج ورشح التشبيه بذكر لفظ الإزباد ووجه الشبه أنه عند الغضب لا يبالي بما يفعله في الناس من المنكرات كما **(لا يبالي)** البحر بـ **(ما غرق)** وشبّهه أخرى بالنار المضرمة الملتهبة فقال: **(أو كوقع النار في الهشيم)** يعني أن حركاته في الظلامات مثل وقع النار في النبت اليابس والدقاق من الحطب، ووجه الشبه أنه **(لا يحفل)** ولا يبالي بظلمه كما لا يحفل وقع النار ولا يبالي بـ **(ما حرق)** أو أن ما أفسده لا يرجى إصلاحه كما أن ما حرقته النار لا يمكن اجتماعه.

ثم استفهم على سبيل الأسف والتحسّر فقال: **(أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى)** استعار لفظ المصابيح لأولياء الدين وأئمة اليقين المقتبس عنهم نور الهداية ورشح بذكر لفظ

الاستصباح، ويجوز أن يكون استعارة لأحكام الشرع المبين الموصلة لآخذها والسالكة بعاملها إلى حظيرة القدس.

ومثله لفظ المنار في قوله **(والأبصار اللامحة إلى منار التقوى)** إذ أئمة الهدى أعلام التّقى بهم يهتدى في ظلمات الضلال وغياهب الدجى وكذلك بأحكام سيد الأنام والانقياد بها يهتدي إلى نهج الحق وسواء الطريق الذي يؤمن لسلوكها ويتقي من النار وينجي من غضب الجبّار جلّ وتعالى.

ثم استفهم أخرى بقوله **(أين القلوب التي وهبت لله)** أي وهبها أهلها لله سبحانه، والمراد بهبتها له جعلها مستغرقة في مطالعة أنوار كبريائه والتوجه إلى كعبة وجوب وجوده وهي القلوب التي صارت عرش الرحمٰن وأشير إليها في الحديث القدسي: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[1].

(وعوقدت على طاعة الله) أي أخذ الله عليهم العهد بطاعته إما في عالم الميثاق أو بألسنة الأنبياء والرسل، وإليه أشير في قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم رجع إلى ذم الفرقة المتقدمة المصدرة بهذا الفصل فقال: **(ازدحموا على الحطام)** أي تزاحموا على متاع الدنيا واستعار له لفظ الحطام الموضوع لليابس من النبت المتكسّر لسرعة فنائه وفساده **(وتشاحوا على الحرام)** أي تنازعوا عليه لأن غرض كل منهم جذبه إليه **(ورفع لهم علم الجنة والنار)** قال الشارح البحراني: أشار بعلم الجنة إلى قانون الشريعة القائد إلى الجنة، وبعلم النار إلى الوساوس المزينة لقنيات الدنيا، والعلم الأول بيد الدعاء إلى الله وهم الرسول ومن بعده من أولياء الله من أهل بيته والتابعين لهم بإحسان، والعلم الثاني بيد إبليس وجنوده من شياطين الجنّ والإنس الداعين إلى النار.

(فصرفوا عن الجنة وجوههم) وأعرضوا عنها **(وأقبلوا إلى النار بأعمالهم)** القبيحة الموصلة إليها **(ودعاهم ربهم فنفروا)** واستكبروا **(وولّوا ودعاهم الشيطان فأطاعوا وأقبلوا)** واستجابوا.

تنبيه

قال الشارح المعتزلي في شرح هذا الفصل: فإن قلت: هذا الكلام يرجع إلى الصحابة الذين مضى ذكرهم في أول الخطبة.

---

(١) عوالي اللئالي: ٤/٧.

قلت: لا وإن زعم قوم أنه عناهم، بل هو إشارة إلى قوم ممن يأتي من الخلف بعد السلف، ألا تراه قال: كأني أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه، وهذا اللفظ إنما يقال في حق من لم يوجد بعد كما قال في حق الأتراك: كأني أنظر إليهم قوماً كأن وجوههم المجان، وكما قال في حق صاحب الزنج: كأني به يا أحنف وقد سار بالجيش، وكما قال في الخطبة التي ذكرناها آنفاً: كأني به قد نعق بالشام، يعني به عبد الملك.

وحوشي عليه السلام أن يعني بهذا الكلام الصحابة لأنهم ما آثروا العاجل، ولا أخّروا الآجل، ولا صحبوا المنكر، ولا أقبلوا كالتيار لا يبالي ما غرق، ولا كالنار لا يبالي ما احترقت، ولا ازدحموا على الحطام، ولا تشاحوا على الحرام، ولا صرفوا وجوههم عن الجنة، ولا أقبلوا إلى النار بأعمالهم، ولا دعاهم الرحمٰن فولّوا، ولا دعاهم الشيطان فاستجابوا، وقد علم كل أحد حسن سيرتهم وسداد طريقتهم وإعراضهم عن الدنيا وقد ملكوها، وزهدهم فيها وقد تمكّنوا منها، ولولا قوله: **(كأني أنظر إلى فاسقهم)** لم أبعد أن يعني بذلك قوماً ممن عليهم إسم الصحابة وهو رديء الطريقة كالمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، ومعاوية، وجماعة معدودة أحبوا الدنيا واستغواهم الشيطان وهم معدودون في كتب أصحابنا من اشتغل بعلوم السيرة والتواريخ عرفهم بأعيانهم، انتهى كلامه[1].

أقول: ولا يبعد عندي أن يعنى عليه السلام به المتقدمين ذكرهم في أول الخطبة واستبعاد الشارح له بظهور لفظ: كأني أنظر في حق من لم يوجد بعد لا وجه له، لا مكان أن يقال: إن نظره في الإتيان بهذا اللفظ إلى الغاية ـ أعني قوله: حتى شابت عليه مفارقه ـ وبعبارة أخرى سلّمنا ظهور هذا اللفظ في حق ما لم يوجد إلا أن مراده عليه السلام به ليس نفس الفاسق حتى يقال: إنه كان موجوداً في زمانه عليه السلام، وإنما مراده بذلك الإخبار عن استمرار الفاسق في فسقه وتماديه في المنكرات إلى آخر عمره، وهذا الوصف للفاسق لم يكن موجوداً، فحسن التعبير بهذه اللفظة، فافهم جيداً.

وأما استيحاشه من أن يعني به الصحابة بأنهم ما آثروا العاجل إلى آخر ما ذكره فهو أوضح فساداً لأنه لولا اختيارهم الدنيا على الأخرى لم يعدلوا عن إمام الورى، فعدولهم عنه دليل على أنهم اشتروا الضلالة بالهدى وآثروا العاجل وأخّروا الآجل، وقد تركوا الشرب من الماء المعين ومنهل علوم ربّ العالمين، واستبدوا بعقولهم الكاسدة، وارتووا من آرائهم اللاجنة الفاسدة، ومصاحبتهم جميعاً للمنكر بالبدعات التي أحدثوها واضحة، وإقبال فاسقهم

(١) شرح النهج: ٩/ ٨٩.

كالتيار والنار لا يبالي مما غرق وحرق لا غبار عليه.

وما فعل عثمان من ضرب ابن مسعود وكسر بعض أضلاعه، وضرب عمار وإحداث الفتق فيه، وضربه لأبي ذر وإخراجه إلى الربذة ونحوها مما تقدم ذكرها في شرح الكلام الثالث والأربعين وغيره شاهد صدق على ما قلناه.

وكذلك اجتماعه مع «بني» أبيه إلى الحطام ومشاحتهم على الحرام وخضمهم لمال الله خضم الإبل نبتة الربيع على ما تقدم في شرح الخطبة الثالثة أوضح دليل على ما ذكرنا، فبعدولهم جميعاً عن الله وعن وليه صرفوا وجوههم عن الجنة، وأقبلوا بأعمالهم إلى النار، فاستحقوا الخزي العظيم والعذاب الأليم في أسفل درك من الجحيم.

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه در ذمّ و توبیخ طایفه ای غیر مرضیّه از غاصبین خلافت و بنی امیه و أمثال ایشان می فرماید که:

اختیار کردند ایشان متاع دنیای ناپایدار را، تأخیر انداختند امورات دارالقرار را و ترك کردند زلال صافی را و آشامیدند از آب متغیر گندیده، گویا من نظر می کنم به سوی فاسق ایشان در حالتی که مصاحب شده است باقبایح و منکرات و الفت گرفته به آنها و استیناس یافته به آنها و موافق طبع خود یافته آنها را تا آنکه عمر او به پایان رسید و سفید شده میان های سر او ورنگ گرفته به آنها طبیعت های او.

پس از آن رو آورد در حالتی که کف بر آورده مثل دریای موج دار، اصلا باك ندارد از آنچه غرق گرداند یا مثل افتادن آتش در گیاه خشك که هیچ باك نمی کند از آنچه که سوزاند، کجایند عقل های چراغ بر افروزنده به چراغ های هدایت؟ و چشم های نظرکننده به نشان های تقوی؟ کجایند قلب هایی که بخشیده شده اند به خدا و بسته شدند بر طاعت خدا؟ ازدحام کردند آن طایفه بدکردار بر متاع دنیای بی اعتبار و نزاع کردند با یکدیگر در بالای حرام و بلند شد از برای ایشان علم بهشت و جهنم، پس گردانیدند از بهشت روهای خود را و اقبال کردند به سوی دوزخ با عمل های خود و دعوت کرد ایشان را پروردگار ایشان به عبادت و اطاعت، پس رمیدند و اعراض نمودند و دعوت کرد ایشان را شیطان لعین به سوی قبایح، پس قبول کردند و اقبال نمودند.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والخامسة والأربعون من المختار في باب الخطب

أَيُّها النَّاسُ، إِنَّما أَنْتُمْ في هٰذِهِ الدُّنْيا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ المَنايا، مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ، لا تَنالُونَ مِنها نِعْمَةً إِلاَّ بِفراقِ أُخرىٰ، ولا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمْرِهِ إِلاَّ بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلا تُجَدَّدُ لَهُ زِيادَةٌ في أُكْلِهِ إِلاَّ بِنَفادِ ما قَبْلِها مِنْ رِزْقِهِ، وَلا يَحْيىٰ لَهُ أَثَرٌ إِلاَّ ماتَ لَهُ أَثَرٌ، وَلا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَخْلُقَ جَديدٌ، وَلا تَقُومُ لَهُ نابِتَةٌ إِلاَّ وتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ، وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُها، فَما بَقاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهابِ أَصْلِهِ.

منها

وَما أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلاَّ تُرِكَ بِها سُنَّةٌ، فَاتَّقُوا البِدَعَ، وأَلْزَمُوا المَهْيَعَ، إِنَّ عَوازِمَ الأُمُورِ أَفْضَلُها، وَإِنَّ مُحْدَثاتِها شِرارُها[١].

اللغة

(الغرض) ما ينصب للرمي وهو الهدف و **(ناضلته)** مناضلة ونضالاً راميته فنضلته نضلاً من باب قتل غلبته في الرمي، وتناضل القوم وانتضلوا تراموا للسبق و **(الشرق)** محركة مصدر من شرق فلان بريقه من باب تعب غصّ و **(الغصص)** محرّكة أيضاً مصدر من غصصت بالطعام كتعب أيضاً، قال الشارح المعتزلي: وروى غصص جمع غصّة وهي الشجى و **(المهيع)** من الطريق وزان مقعد الواضح البين.

و **(العوازم)** جمع العوزم وهي الناقة المسنّة والعجوز، قال الشارح المعتزلي: عوازم الأمور ما تقادم منها، من قولهم: عجوز عوازم، أي مسنة، ويجمع فوعل على فواعل كدورق وهو جلّ ويجوز أن يكون جمع عازمة ويكون فاعل بمعنى مفعول أي معزوم عليها أي مقطوع معلوم بيقين صحتها، ويجيىء فاعلة بمعنى مفعولة كثيراً كقولهم: عيشة راضية بمعنى مرضية، ثم قال: والأول أظهر عندي، لأن في مقابلته قوله: **(وإن محدثاتها شرارها)**، والمحدث في مقابلة القدم.

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ١٧٥ ح ٢١٢٨٠، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٦٤ ح ١٥.

الإعراب

قوله: **(فما بقاء فرع) (الفاء)** فصيحة والاستفهام إما للتعجب كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ﴾ [النمل: ٢٠] أو للتحقير.

المعنى

إعلم أن مقصوده بهذه الخطبة التنفير عن الدنيا والترغيب عنها بالتنبيه على معائبها ومثالها المنفرة منها، فقوله **(أيها الناس إنما أنتم في هذه الدنيا غرض)** من باب التشبيه البليغ ورشح التشبيه بقوله **(تنتضل فيه المنايا)** وهي استعارة بالكناية حيث شبّه المنايا بالمتناضلين بالسهام باعتبار قصدها للإنسان كقصد المتناضلين للهدف، وذكر الانتضال تخييل، والمعنى أنكم في هذه الدنيا بمنزلة هدف تترامى فيه المنايا بسهامها، وسهامها هي الأعراض والأمراض، وجمع المنايا إما باعتبار تعدد الأسباب من الغرق والحرق والتردي في بئر والسقوط من حائط ونحوها، وإما باعتبار تعدد من تعرض عليه وكثرة أفراد الأموات، ولكل نفس موت مخصص بها.

(مع كل جرعة شرق وفي كل أكلة غصص) قال الشارح البحراني: كنى بالجرعة والأكلة عن لذات الدنيا، وبالشرق والغصص عما في كل منها في ثبوت الكدورات اللازمة لها طبعاً من الأمراض والمخاوف وسائر المنقصات لها.

أقول: ومحصل مراده عليه السلام أن صحتها مقرونة بالمحنة، ونعمتها مشفوعة بالنقمة وإحسانها معقبة بالإساءة، ولذتها مشوبة بالكدورة.

ولكمال الاتصال بين هذه الجملة وبين الجملة التالية لها ـ أعني قوله: **(لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى)** ـ وصل بينهما ولم يفصل بالعاطف، فإنه لما أشار إلى أن الدنيا رنق المشرب ردغ المشرع لذاتها مشوبة بالكدورات عقّبه بهذه الجملة، لأنها توكيد وتحقيق وبيان لما سبق، وفيه زيادة تثبيت له.

والمراد بها أن الإنسان لا يكون مشغولاً بنوع من اللذات الجسمانية إلا وهو تارك لغيره، وما استلزم مفارقة نعمة أخرى لا يعدّ في الحقيقة نعمة ملتذاً بها.

توضيح ذلك ما أشار إليه الشارح البحراني: من أن كل نوع من نعمة فإنما يتجدد شخص منها ويلتذ بها بعد مفارقة مثلها، كلذة اللقمة مثلاً، فإنها تستدعي فوت اللذة بأختها السابقة، وكذلك لذة ملبوس شخصي أو مركوب شخصي وسائر ما يعد نعماً دنيوية ملتذاً بها، فإنها إنما تحصل بعد مفارقة ما سبق من أمثالها، بل وأعم من ذلك فان الإنسان لا يتهيأ له

الجمع بين الملاذ الجسمانية في وقت واحد، بل ولا اثنين منها، فإنه حال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً وحال ما هو في لذة الأكل لا يكون يلتذ بمشروب، ولا حال ما يكون خالياً على فراشه الوثير يكون راكباً للنزهة ونحو ذلك.

(ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله) لظهور أن بقائك إلى الغد مثلاً لا يحصل إلا بانقضاء اليوم الذي أنت فيه وهو من جملة أيام عمرك وبانقضائه ينقص يوم من عمرك، وتقرب إلى الموت بمقدار يوم، واللذة بالبقاء المستلزم للقرب من الموت ليست لذة في الحقيقة.

(ولا تجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه) أي من رزقه المعلوم أنه رزقه وهو ما وصل إلى جوفه مثلاً، فإن ما لم يصل جاز أن يكون رزقاً لغيره، ومن المعلوم أن الإنسان لا يأكل لقمة إلا بعد الفراغ من أكل اللقمة التي قبلها فهو إذاً لا يتجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد رزقه السابق وما استلزم نفاد الرزق لا يكون لذيذاً في الحقيقة.

(ولا يحيى له أثر إلا مات له أثر) قال الشارح البحراني: أراد بالأثر الذكر أو الفعل، فإن ما كان يعرف به الإنسان في وقت ما من فعل محمود أو مذموم أو ذكر حسن أو قبيح ويحيى له بين الناس يموت منه ما كان معروفاً به قبله من الآثار وينسى.

(و) كذلك **(لا يتجدد له جديد)** من زيادات بدنه ونقصانه وأوقاته **(إلاّ بعد أن يخلق له جديد)** إلا بتحلل بدنه ومعاقبة شيخوخته بشبابه ومستقبل أوقاته لسالفها.

(و) كذلك **(لا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصودة)** أراد بالنابتة ما ينشأ من الأولاد والأحفاد، وبالمحصودة من يموت من الآباء والأجداد، ولذلك قال: **(وقد مضت أصول)** يعني الأباء **(نحن فروعها)**.

ولما استعار الأصول والفروع اللذين هما من وصف الأشجار ونحوها للسلف والخلف وكان بناء الاستعارة على تناسي التشبيه حسن التعجب بقوله: **(فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله)** لأن الشجر إذا انقطع أصله أو انقلع لا يبقى لفرعه قوام، ولا يكون له ثبات ومثل هذا التعجب له المبنى على تناسي التشبيه قول الشاعر:

فبتّ ألثم عينها ومن عجب إني أقبّل أسيافاً سفكن دمي

وقد مر مثال آخر في التقسيم السادس من تقسيمات الاستعارة في أوائل هذا الشرح.

قال السيد ره **(منها)** أي بعض هذه الخطبة في النهي عن متابعة البدعات والتنبيه على ضلالها والأمر بالتجنب عنها، وقد مضى معنى البدعة وتحقيق الكلام فيها في شرح الكلام السابع عشر، وقال الشارح المعتزلي هنا: البدعة كل ما أحدث لم يكن على عهد رسول

الله ﷺ، فمنها الحسن كصلات التراويح، ومنها القبيح كالمنكرات التي ظهرت في أوائل الخلافة العثمانية وإن كانت قد تكلّفت الأعذار عنها.

إذا عرفت ذلك فنقول قوله: **(وما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنّة)** معناه أن السنة مقتضية لترك البدعة وحرمتها بقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»، فإحداث البدعة يوجب ترك السنة أعني مخالفة قول رسول الله ﷺ لا محالة، وفي هذا تعريض على الخلفاء في بدعاتهم التي أحدثوها بعد رسول الله ﷺ على ما تقدمت تفصيلها في الخطبة التي رويناها عن أمير المؤمنين عليه السلام في شرح الخطبة الخمسين، فتذكر.

(فاتقوا البدع والزموا المهيع) أي الطريق الواضح والنهج المستقيم وهي الجادة الوسطى التي من سلكها فاز ونجى، ومن عدل عنها ضلّ وغوى، وهي التي تقدمت ذكرها في شرح الفصل الثاني من الكلام السادس عشر عند شرح قوله هناك: اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، فليراجع ثمة.

وعلل وجوب التجنّب من البدع ولزوم سلوك المهيع بقوله: **(إن عوازم الأمور أفضلها)** أراد بها الأمور القديمة التي كانت على عهد رسول الله ﷺ وعلى التفسير الآخر الأمور المقطوع بصحتها والخالية عن الشكوك والشبهات والمصداق واحدٌ.

(وإن محدثاتها شرارها) لكونها خارجة عن قانون الشريعة مستلزمة للهرج والمرج والمفاسد العظيمة، ألا ترى إلى البدعة التي أحدثها عمر من التفضيل في العطاء فضلاً عن سائر بدعاته أي مفاسد ترتبت عليها حسب ما عرفتها في شرح الكلام المائة والسادس والعشرين، والله الموفق والمعين.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام مبين و وصىّ رسول ربّ العالمين است در مذمّت دنيا و تنبيه بر معايب آن غدّار بى وفا، مى فرمايد:

اى گروه مردمان، جز اين نيست كه شما در اين دنيا به منزله هدف و نشانگاهيد كه تير اندازند در او مرگ ها، با هر آشاميدنى از شراب دنيا اندوهى است گلوگير و در هر خوردنى محنت ها است گلوگرفته، نمى رسيد از دنيا به نعمتى مگر به جدا شدن از نعمت ديگر و معمّر نمى شود هيچ طويل العمرى از شما يك روزى از عمر خود مگر به ويرانى يك روز ديگر از عمر او و تجديد كرده نمى شود از براى او زيادتى در خوردن او مگر به نابود شدن آنچه پيش از اين زيادتى است از روزى او و زنده نمى شود از براى او اثرى مگر آنكه مى ميرد از براى او اثر ديگر و تازه نمى شود از براى او هيچ تازه اى مگر بعد از آنكه كهنه شود از براى او تازه ديگر و قائم نمى شود از براى او رونده اى مگر آنكه ميافتد از او رونده خشك شده و به تحقيق كه گذشت اصل هايى كه ما فرع هاى ايشانيم؛ يعنى پدرانى كه ما فرزندان ايشانيم، پس چه عجب است باقى ماندن فرع بعد از رفتن اصل او.

از جمله فقرات اين خطبه در نهى از متابعت بدعت مى فرمايد:

و پديدآورده نشد هيچ بدعتى مگر آنكه ترك كرده شد به جهت آن بدعت سنّتى، پس پرهيز نماييد از بدعت ها و لازم شويد به راه روشن آشكارا، به درستى كه امرهاى قديمه بهترين امرها است و به درستى كه امور متجدّده تازه پيداشده بدترين امور است، زيرا كه مخالف دين خاتم النّبيّين است.

ومن كلام له عليه السلام وقد استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه وهو المائة والسادس والأربعون من المختار في باب الخطب

وقد رواه غير واحد من الخاصة والعامة على اختلاف تطلع عليه.

إنَّ هٰذَا الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلا خِذْلانهُ بِكَثْرَةٍ وَلا بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دينُ الله الَّذي أَظْهَرَهُ، وجُنْدُهُ الَّذي أَعَدَّهُ وأَمَدَّهُ، حَتَّىٰ بَلَغَ ما بَلَغَ، وطَلَعَ حَيْثُ ما طَلَعَ، ونَحْنُ عَلىٰ مَوعُودٍ مِنَ اللّٰهِ، وَاللّٰهُ مُنْجِزُ وَعْدِهِ، وناصِرُ جُنْدِهِ، ومَكانُ القَيِّم بالأَمْرِ مَكانُ النِّظام مِنَ الخَرَزِ، يَجْمَعُهُ ويَضُمُّهُ، فَإِذَا انْقَطَعَ النِّظامُ تَفَرَّقَ الخَرَزُ ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذافِيرِهِ أَبَداً، والعَرَبُ اليَوْمَ وإِنْ كانُوا قَليلاً فَهُمْ كَثيرُونَ بِالإِسْلامِ، عَزيزُونَ بِالإِجْتماعِ، فَكُنْ قُطْباً وَاسْتَدِرِ الرَّحىٰ بالعَرَبِ، وأَصْلِهِمْ دُونَكَ نارَ الحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ العَرَبُ مِنْ أَطْرافِها وأَقْطارِها، حَتّىٰ يَكُونَ ما تَدَعُ وَراءَكَ مِنَ العَوْراتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ، إِنَّ الأَعاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا هٰذا أَصْلُ العَرَبِ فَإِذا قَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وطَمَعِهِمْ فِيكَ، فَأَما ما ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ القَوْمِ إِلىٰ قِتالِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ الله سُبْحانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وهُوَ أَقْدَرُ عَلىٰ تَغْيِيرِ ما يَكْرَهُ، وأَما ما ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقاتِلُ فِيما مَضىٰ بِالكَثْرَةِ، وَإِنَّما كُنَّا نُقاتِلُ بِالنَّصْرِ والمَعُونَةِ[1].

اللغة

في بعض النسخ بدل قوله **(أعدّه)** أعزّه و **(طلع)** الكوكب طلوعاً ظهر وطلع الجبل علاه و **(نظمت)** الخرز نظماً من باب ضرب جعلته في خيط جامع له وهو النظام بالكسر و **(الخرز)** محركة معروف، والواحد خرزة كقصب وقصبة و **(الحذفور)** وزان عصفور الجانب كالحذفار والجمع حذافير، وأخذه بحذافيره أي بأسره أو بجوانبه و **(صلّى)** اللحم يصليه صلياً من باب رمى شواه أو ألقاه في النار للإحراق كأصلاه وصلاه ويده بالنار سخنها وصلى النار وبها كرضى صليا وصليّاً قاسى حرّها، وأصلاه النار وصلا إياه وفيها وعليها أدخله إياها وأثواه فيها.

و **(العورة)** في الثغر والحرب خلل يخاف منه والجمع عورات بالسكون للتخفيف

(١) تفسير الميزان: ١٥/ ١٦٠، الإمام علي (ع) للمهداني: ١٢٦.

والقياس الفتح لأنه إسم وهو لغة هذيل و (**الكلب**) محركة الحرص والشدة.

الإعراب

قوله: (**وطلع حيث ما طلع**) (**حيث**) ظرف مكان في محل النصب على الظرفية أوجر بـ (**من**) إن كان طلع بمعنى ظهر، وإن كان بمعنى علا فهو مفعول لطلع كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وعلى أي تقدير فلفظ (**ما**) بعده مصدرية وفي بعض النسخ حيث طلع بدون (ما)، جملة (**يجمعه ويضمه**) حال من النظام، والعامل فيها معنى التشبيه، ويجوز الوصف، واليوم ظرف لقليلاً وتقدمه للتوسع و (**اللام**) فيه للعهد الحضوري، و (**الباء**) في قوله: (**بالعرب**)، للاستعانة، (**ودونك**)، حال من فاعل أصل أي متجاوزاً الإصلاء أو الصلى المستفاد منه عنك أو من نار الحرب فتقديمه على ذيها على التوسع، ويمكن كونه حالاً من مفعول أصل أي متجاوزين عنك، فافهم.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام قاله عليه السلام لعمر في وقعة القادسية أو نهاوند على اختلاف من الرواة تطلع عليه، وذلك حين أراد عمر أن يغزو العجم وجيوش كسرى، وقد استشاره عمر واستشار غيره في الشخوص والخروج لقتال الفرس بنفسه فأشاروا عليه بالشخوص ونهاه عليه السلام عن ذلك وأشار إلى وجه الصواب والرأي الصواب بكلام مشتمل على أنواع البلاغة.

فقال: (**إن هذا الأمر**) مؤكداً (**بأن**) وإسمية الجملة لأن المخاطب إذا كان متردداً في الحكم حسن التقوية بمؤكد، قال الشيخ عبد القاهر: أكثر مواقع (**إن**) بحكم الاستقراء هو الجواب، لكن يشترط فيها أن تكون للسائل ظن على خلاف ما أنت تجيبه به، هذا وتعريف المسند إليه بالإشارة وإيراده اسم الإشارة لقصد التعظيم والتفخيم على حد قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢]، تنزيلاً لبعد درجته ورفعة محله منزلة بعد المسافة، والمراد به الإسلام.

(**لم يكن نصره وخذلانه بكثرة ولا بقلّة**) نشر على ترتيب اللّف (**وهو دين الله الذي أظهره**) أي جعله غالباً على سائر الأديان بمقتضى قوله: ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وفي الإتيان بالموصول زيادة تقرير للغرض المسوق له الكلام وهو ربط جأش عمر وسائر من حضر، وإزالة الخور والفشل عنهم.

ولهذا الغرض أيضاً عقبه بقوله (**وجنده الذي أعدّه وأمدّه**) أي هيّأه أو جعله عزيزاً وأعطاه مدداً وكثرة (**حتى بلغ ما بلغ**) من العزة والكثرة (**وطلع حيث ما طلع**) أي ظهر في

مكان ظهوره وانتشر في الآفاق، أو طلع من مطلعه أي أقطار الأرض وأطرافها، أو أنه علا مكان علوه والمحل الذي ينبغي أن يعلى عليه، وعلى أي تقدير فالإتيان بالموصول في القرينة الأولى أعني بقوله: بلغ ما بلغ، وإبهام مكان الطلوع في هذه القرينة على حد قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

قال أبو نواس:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم	وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرء بشبابه	فإذاً عصارة كل ذاك آثام

ثم أكد تقوية قلوبهم وتشديدها بقوله: **(ونحن على موعود من الله)** أي وعدنا النصر والغلبة والاستخلاف بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وعقّبه بقوله: **(والله منجز وعده وناصر جنده)** من باب الإيغال الذي قدمنا ذكره في ضمن المحسنات البديعية من ديباجة الشرح، وقد كان المعنى يتم دونه لظهور أن الله منجز لوعده لا محالة، لكن في الإتيان به زيادة تثبيت لقلوبهم وتسكين لها.

ثم قال: **(ومكان القيم بالأمر)** أي الأمراء والألوة **(مكان النظام من الخرز)** وهو من التشبيه المؤكد بحذف الأداة، والغرض به تقرير حال المشبّه ووجه الشبه قول **(يجمعه ويضمّه)** يعني أن انتظام أمر الرعية إنما هو برئيسهم كما أن انتظام الخرز إنما هو بالنظام والخيط الذي ينتظم به ومحلّه من الرعية محله من الخرز.

(فإذا انقطع النظام) وانفصم **(تفرق الخرز وذهب)** وانتشر **(ثم لم يجتمع بحذافيره)** أي بجوانبه **(أبداً)** وكذلك إذا ارتفع الأمير من بين الرعية ولم يكن فيهم فسد حال الرعية وضاع نظم أمورهم.

ثم رفع الفزع عن عمر بقلّة جنده وكثرة العدو فقال: **(والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً)** بالعدد **(فهم كثيرون بالإسلام)** قال الشارح البحراني: أراد بالكثرة القوة والغلبة مجازاً إطلاقاً للإسم مظنة الشيء على الشيء **(عزيزون)** أي غالبون **(بالاجتماع)** أي باجتماع الرأي واتفاق القلوب، وهو خير من كثرة الأشخاص مع النفاق.

ولما مهّد ما مهّده من المقدمة أمره بالقيام في مقامه والثبات في مركزه فقال: **(فكن قطباً)** قائماً بمكانك **(واستدر الرّحى)** أي رحى الحرب **(بالعرب)** واستعانتهم **(وأصلهم)** أي أدخلهم **(دونك نار الحرب)** لأنهم إن سلموا وغنموا فهو الغرض، وإن انقهروا وغلبوا كنت مرجعاً لهم وظهراً يقوي ظهورهم بك وتتمكن من إصلاح ما فسد من أمورهم.

ولما أمره بالثبات في مقامه نبّهه على مفاسد الشخوص وما فيه من الضرر وهو أمران:

أحدهما: ما أشار إليه بقوله: (**فإنك إن شخصت من هذه الأرض**) ونهضت معهم إلى العدو (**انتقضت عليك العرب من أطرافها**) أي من أطراف الأرض (**وأقطارها**) وذلك لقرب عهدهم يومئذ بالإسلام وعدم استقراره في قلوبهم وميل طبائعهم إلى الفتنة والفساد، ومع علمهم بخروجك وتركك للبلاد هاج طمعهم وصارت فتنتهم على الحرمين وما يضاف إليهما (**حتى يكون ما يدع وراءك من العورات**) وخلل الثغور (**أهم إليك مما بين يديك**).

والأمر الثاني: ما أشار إليه بقوله: (**إنّ الأعاجم أن**) تخرج إليهم بنفسك و (**ينظروا إليك غداً**) طمعوا فيك و (**يقولوا هذا أصل العرب**) أي به قوامهم وثباتهم (**فإذا قطعتموه استرحتم**) إذ لا أصل لهم سواه ولا لهم ظهر يلجأون به (**فيكون ذلك أشد لكلبهم**) وحرصهم (**عليك و**)أقوى لـ (**ـطمعهم فيك**).

ثم إن عمر حسب ما نذكره بعد تفصيلاً قد كان قال له عليه السلام في جملة ما قال: إن هؤلاء الفرس قد قصدوا المسير إلى المسلمين وقصدهم إياهم دليل قوّتهم وأنا أكره أن يغزونا فأجابه عليه السلام بقوله: (**فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك**) وأشد كراهية لذلك (**وهو أقدر على تغيير ما يكره**).

قال الشارح البحراني: وهذا الجواب يدور على حرف، وهو أن مسيرهم إلى المسلمين وإن كان مفسدة إلا أن لقائه لهم بنفسه فيه مفسدة أكبر، وإذا كان كذلك فينبغي أن يدفع العظمى ويكل دفع المفسدة الأخرى إلى الله تعالى فإنه كاره لها ومع كراهيته لها فهو أقدر على إزالتها.

(**وأما ما ذكرت من**) كثرة القوم و (**عددهم فأنا لم نكن نقاتل**) الأعداء (**فيما مضى**) أي في زمن رسول الله وصدر الإسلام (**بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة**) أي بنصر الله سبحانه ومعونته.

ويصدقه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٥ ـ ٦٦].

تبصرة

قد أشرنا فيما مضى إلى أن هذا الكلام مما رواه الخاصة والعامة، وقد اختلف في

الحال التي قاله فيها لعمر، فقيل: قاله عليه السلام له في غزاة القادسية، وقيل: في غزوة نهاوند، ولا بأس بإيراد ما رووه.

فأقول: روى المحدث العلامة المجلسي في المجلد التاسع من **(البحار)** عن **(المفيد في الإرشاد)** في فضل ما جاء عن أمير المؤمنين في معنى صواب الرأي وإرشاد القوم إلى مصالحهم وتداركه على ما كان يفسدهم لولا تنبيهه على وجه الرأي عن سبابة بن سوار عن أبي بكر الهذلي قال:

سمعت رجالاً من علمائنا يقولون: تكاتبت الأعاجم من أهل همدان وأهل الري وأصفهان وقومس[1] ونهاوند وأرسل بعضهم إلى بعض أن ملك العرب الذي جاءهم بدينهم وأخرج كتابهم قد هلك، يعنون النبي صلى الله عليه وآله، وأنه ملكهم من بعده رجل ملكاً يسيراً ثم هلك، يعنون أبا بكر، ثم قام بعده آخر قد طال عمره حتى تناولكم في بلادكم وأغزاكم جنوده، يعنون عمر بن الخطاب، وأنه غير منته عنكم حتى يخرجوا من في بلادكم من جنوده وتخرجون إليه وتغزون في بلاده، فتعاقدوا على هذا وتعاهدوا عليه.

فلما انتهى الخبر إلى من في الكوفة من المسلمين أنهوه إلى عمر بن الخطاب فلما انتهى إليه الخبر فزع لذلك فزعاً شديداً، ثم أتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

معاشر المهاجرين والأنصار، إن الشيطان قد جمع لكم جموعاً وأقبل بها ليطفىء نور الله، إلا أن أهل همدان وأهل أصبهان وأهل الري وقومس ونهاوند مختلفة ألسنتها وألوانها وأديانها، قد تعاقدوا وتعاهدوا أن يخرجوا من بلادهم إخوانكم من المسلمين ويخرجوا إليكم فيغزوكم في بلادكم، فأشيروا إليّ فأوجزوا ولا تطنبوا في القول فإن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا.

فقام طلحة بن عبيد الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين قد حنكتك الأمور وجرستك الدهور وعجمتك البلايا وأحكمتك التجارب، وأنت مبارك الأمر وميمون النقيبة وقد وليت فخيّرت واختبرت ولم تكشف من عواقب قضاء الله إلا عن خيار، فاحضر هذا الأمر برأيك ولا تغب عنه، ثم جلس.

فقال عمر: تكلموا.

فقام عثمان بن عفان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا أمير المؤمنين، إني أرى

---

(١) قوس: صقع كثير من بلاد خراسان وإقليم بالأندلس.

أن تشخص أهل الشام من شامهم وأهل اليمن من يمنهم وتسير أنت في أهل هذين الحرمين وأهل المصرين الكوفة والبصرة فتلتقي جميع المشركين بجميع المؤمنين، فإنك يا أمير المؤمنين لا تستبقي من نفسك باقية بعد العرب، ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز فأحضره برأيك ولا تغب عنه. ثم جلس.

فقال عمر: تكلموا.

فقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: الحمد لله حتى تمّ التحميد، والثناء على الله والصلاة على رسوله، ثم قال: أما بعد، فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت أهل الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإن شخصت من هذين الحرمين انتقضت عليك العرب من أطرافها وأكنافها حتى تكون ما تدع وراء ظهرك من عيالات العرب والعجم أهم إليك مما بين يديك، فأما ذكرك كثرة العجم ورهبتك من جموعهم فإنا لم نكن نقاتل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصرة. وأما ما بلغك من اجتماعهم على المسير إلى المسلمين فإن الله لمسيرهم أكره منك لذلك وهو أولى بتغيير ما يكره، وإن الأعاجم إذا نظروا إليك قالوا: هذا رجل العرب فإن قطعتموه قطعتم العرب وكنت أشد لكلبهم وكنت قد ألبتهم على نفسك وأمدّهم من لم يكن يمدّهم، ولكني أرى أن تقر هؤلاء في أمصارهم وتكتب إلى أهل البصرة فليفترقوا على ثلاث فرق فلتقم فرقة على ذراريهم حرساً لهم، ولتقم فرقة على أهل عهدهم لئلا ينتقضوا، ولتسر فرقة إلى إخوانهم مدداً لهم.

فقال عمر: أجل هذا الرأي، وقد كنت أحب أن أتابع عليه. وجعل يكرر قول أمير المؤمنين عليه السلام إعجاباً واختياراً له[١].

قال الشيخ المفيد (ره): فانظروا أيّدكم الله إلى هذا الموقف الذي ينبىء بفضل الرأي، إذ تنازعه أولو الألباب والعلم، وتأملوا في التوفيق الذي قرن الله به أمير المؤنين عليه السلام في الأحوال كلها وفزع القوم إليه في المعضل من الأمور، وأضيفوا إلى ذلك إلى ما أثبتاه من الفضل في الدين الذي أعجز متقدمي القوم حتى اضطروا في علمه إليه، تجدوه من باب المعجز الذي قدمناه والله ولي التوفيق.

قال الشارح المعتزلي في شرح هذا المقام: واعلم أن هذا الكلام قد اختلف في الحال التي قاله فيها لعمر، فقيل: قاله له في غزوة القادسية، وقيل: في غزوة نهاوند، وإلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبري في (**التاريخ الكبير**) وإلى هذا القول الأول ذهب

(١) الإرشاد: ١/ ٢١٠.

المدائيني في كتاب (**الفتوح**).

أما وقعة القادسية فكانت في سنة أربع عشر للهجرة استشار عمر المسلمين في أمر القادسية فأشار إليه علي بن أبي طالب ﷺ في رواية أبي الحسن علي بن محمد بن سيف المدائني أن لا يخرج بنفسه وقال: إنك إن تخرج تكن للعجم همّة لاستئصالك لعلمهم أنك قطب الرحى للعرب فلا يكون للإسلام بعدها دولة، وأشار عليه غيره من الناس أن يخرج بنفسه فأخذ برأي علي، ثم أورد الشارح وقعة القادسية، ولا حاجة بنا إلى إيرادها، ثم قال:

فأما وقعة نهاوند فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري ذكر في كتاب (**التاريخ**) أن عمر لما أراد أن يغزو العجم وجيوش كسرى وهي مجتمعة بنهاوند استشار الصحابة.

فقام عثمان فشهد فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين البصرة والكوفة فتلقى جميع المشركين بجميع المسلمين فإنك إذا سرت بمن معك ومن عندك تكن في نفسك بالكاثر من عدد القوم، وكنت أعزّ عزّاً وأكثر أنك لا تستبقي بعد اليوم باقية ولا تمنع من الدنيا بعزيز وتكون منها في حرز حريز، إن هذا يوم له ما بعده فاشهده برأيك ونفسك ولا تغب عنه.

قال أبو جعفر: وقام طلحة فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتك الأمور وعجمتك البلايا وحنكتك التجارب، وأنت وشأنك وأنت ورأيك لا تبنوا في يديك ولا نكل أمرنا إلا إليك، فأمرنا نجب، وادعنا نطع، واحملنا نركب، وقدمنا ننقد، فإنك وليّ هذا الأمر وقد بلوت وربت واختبرت فلم ينكشف شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار.

فقال علي بن أبي طالب: أما بعد، فإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلّة، إنما هو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعزه وأمدّه بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده، وإن مكانك منهم مكان النّظام من الخرز يجمعه ويمسكه، فإن انحلّ تفرق ما فيه وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فإنهم كثير وعزيز بالإسلام، أقم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة فإنهم أعلام العرب ورؤسائهم، وليشخص منهم الثلثان وليقم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم، ولا تشخص الشام ولا اليمن إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، ومتى شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأكنافها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير العرب وأصلهم فكان ذلك أشدّ لكلبهم عليك وأما ما ذكرت من مسيرة القوم

فإن الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالصبر والنصر[١].

فقال عمر: أجل هذا الرأي وقد كنت أن أتابع عليه، فأشيروا عليّ برجل أوليّه ذلك الثغر، قالوا: أنت أفضل رأياً، فقال: أشيروا عليّ به واجعلوه عراقياً، قالوا: أنت أعلم بأهل العراق وقد وفدوا عليك فرأيتهم وكلمتهم، قال: أما والله الأوّلين أمرهم رجلاً يكون غمداً لأول الأسنة، فقيل: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن، قالوا: هو لها. وكان النعمان يومئذ بالبصرة فكتب إليه عمر فولاّه أمر الجيش.

قال أبو جعفر: كتب إليه عمر: سر إلى نهاوند فقد ولّيتك حرب الفيروزان وكان المقدم على جيوش كسرى فإن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن حدث به حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن، فإن فتح الله عليكم فاقسم على الناس ما أفاءَ الله عليهم ولا ترفع إليّ منه شيئاً، وإن نكث القوم فلا تراني ولا أراك، وقد جعلت معك طليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب لعلمهما بالحرب فاستشرهما ولا تولّهما شيئاً.

قال أبو جعفر: فسار النعمان بالعرب حتى وافى نهاوند وذلك في السنة السابعة من خلافة عمر، وترائى الجمعان ونشب القتال، وحجرهم المسلمون «المشركون» في خنادقهم واعتصموا بالحصون والمدن، وشق على المسلمين ذلك، فأشار طليحة عليه فقال: أرى أن تبعث خيلاً ببعض القوم وتحمشهم فإذا استحمشوا خرج بعضهم واختلطوا بكم فاستطردوا لهم فإنهم يطمعون بذلك ثم نعطف عليهم حتى يقضي الله بيننا وبينهم بما يجب، ففعل النعمان ذلك فكان كما ظن طليحة وانقطع العجم عن حصونهم بعض الانقطاع فلما أمعنوا في الإنكشاف للمسلمين حمل النعمان بالناس فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون مثله، وزلق النعمان فرسه فصرع وأصيب فتناول الراية أخوه فأتى حذيفة فدفعها إليه وكتم المسلمون مصاب أميرهم واقتتلوا حتى أظلم الليل، ورجعوا والمسلمون وراءهم، فعمى عليهم قصدهم فتركوه وغشيهم المسلمون بالسيوف، فقتلوا منهم ما لا يحصى، وأدرك المسلمون الفيروزان وهو هارب وقد هرب وانتهى إلى ثنيّة مشحونة ببغال موقّرة عسلاً فحبسته على أصله فقتل، فقال المسلمون: إن لله جنوداً من عسل، ودخل المسلمون نهاوند فاحتووا على ما فيها وكانت أنفال هذا اليوم عظيمة[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ١٣٨/٣١، وتفسير الميزان: ١٦٠١٥.

(٢) شرح النهج: ١٠٢/٩.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در حالتى كه مشاوره كرد بااو عمربن الخطاب در رفتن به محاربه اهل فارس به نفس خود، فرمود كه:

به درستى اين امر (يعنى اسلام) نيست يارى نمودن او و نه خوارى او به زيادتى لشكر و نه به كمى آن و آن امر دين خدايى است، غالب گردانيد او را بر همه اديان و لشكر او است كه مهيا فرمود و قوّت داد آن را بر دشمنان تا اينكه رسيد آن مقامى را كه رسيد و بلند شد هرچه بلند شد و ما مستقرّيم بر وعده خداوند تعالى و خدا وفاكننده وعده خود است و نصرت دهنده لشكر خود و مكان قائم به امر مردمان و رئيس ايشان مكان خياطه است از مهره اى كه جمع مى كند آن را و انضمام مى دهد او را به هم، پس اگر بريده شود مهره، متفرّق و پراكنده مى شوند مهره ها و ازهم بپاشند، پس از آن جمع نمى شوند به تمامى خود هيچ وقت و مردمان عرب اگرچه امروز اندكند نسبت به كافران، پس ايشان بسيارند به جهت اسلام، عزيزند به حسب اجتماع و اتّفاق.

پس باش مثل قطب آسيا، از جاى خود حركت مكن و بگردان آسياى حربرا با عرب و درآر ايشان را نه خود را در آتش مقاتله و محاربه، پس به درستى كه تو اگر بيرون روى از اين زمين (يعنى مدينه منوّره) فرود آيند به تو عرب ها از اطراف و جوانب تا اينكه باشد آنچه كه ترك كرده اى آن را در پشت خود از مواضع مخافت بر اسلام و اهل آن، مهم تر به سوى تو از آنچه كه در پيش تو است از محاربه دشمن. به درستى كه عجم ها اگر نظر كنند به سوى تو فردا، گويند اين مرد اصل عرب و أميرايشان است، پس اگر شما پاره پاره كرديد او را، راحت مى شويد، پس باشد رفتن تو به محاربه ايشان باعث شدت حرص ايشان بر تو و طمع ايشان در تو، پس امّا آنچه ذكر كردى از آمدن اهل فارس به محاربه مسلمانان، پس به درستى كه خداى تعالى ناخوش گيرنده تر است از تو رفتار ايشان را و او قادرتر است بر تغيير آن چه كه ناخوش مى گيرد و امّا آنچه كه ذكر كردى از بسيارى عدد ايشان، پس به درستى كه ما نبوديم كه دعوا كنيم در زمان گذشته با بسيارى لشكر و جز اين نيست كه بوديم كه محاربه مى كرديم به معاونت و نصرت پروردگار (يعنى در حرب اعدا تو كل به خدا بايد نمود و از كثرت أعدا نبايد ترسيد).

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسابعة والأربعون من المختار في باب الخطب

فَبَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله بِالحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبادَهُ مِنْ عِبادَةِ الأَوْثانِ إِلىٰ عِبادَتِه، ومِنْ طاعَةِ الشَّيْطانِ إِلىٰ طاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وأَحْكَمَهُ لِيَعْلَمَ العِبادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، ولِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، ولِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ، فَتَجَلّىٰ سُبْحانَهُ لَهُمْ في كِتابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِما أَراهُمْ مِنْ قُدْرَتِه، وخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالمَثُلات، واحْتَصَدَ مَنْ احْتَصَدَ بِالنَّقِماتِ.

وإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفىٰ مِنَ الحَقِّ، ولا أَظْهَرُ مِنَ الباطِلِ، ولا أَكْثَرُ مِنَ الكِذْبِ عَلىٰ الله ورَسُولِهِ، ولَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذٰلِكَ الزَّمانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الكِتابِ إِذا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلا أَنْفَقُ مِنْهُ إِذا حُرِّفَ عَنْ مَواضِعِه، ولا فِي البِلادِ شَيْءٌ أَنْكَرُ مِنَ المَعْرُوفِ، ولا أَعْرَفُ مِنَ المُنْكَرِ، فَقَدْ نَبَذَ الكِتابَ حَمَلَتُهُ، وتَناساهُ حَفَظَتُهُ، فَالكِتابُ يَوْمَئِذٍ وأَهْلُهُ طَرِيدانِ مَنْفِيّانِ، وصاحِبانِ مُصْطَحِبانِ في طَرِيقٍ واحِدٍ لا يُؤْوِيهِما مُؤْوٍ، فَالكِتابُ وأَهْلُهُ في ذٰلِكَ الزَّمانُ فِي النّاسِ ولَيْسا فِيهِمْ، ومَعَهُمْ ولَيْسا مَعَهُمْ، لأَنَّ الضَّلالَةَ لا تُوافِقُ الهُدىٰ وإِنْ اجْتَمَعا، فَاجْتَمَعَ القَوْمُ عَلىٰ الفُرْقَةِ، وافْتَرَقُوا عَنِ الجَماعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الكِتابِ ولَيْسَ الكِتابُ إِمامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ اسْمُهُ، وَلا يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وزَبْرَهُ، ومِنْ قَبْلُ ما مَثَّلُوا بِالصّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وسَمَّوا صِدْقَهُمْ عَلىٰ اللَّهِ فِرْيَةً، وجَعَلُوا فِي الحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ.

وَإِنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمالِهِمْ، وتَغَيُّبِ آجالِهِمْ، حَتّىٰ نَزَلَ بِهِمُ المَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ المَعْذِرَةُ، وتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وتُحِلُّ مَعَهُ القارِعَةُ والنِّقْمَةُ، أَيُّها النّاسُ مَنْ اسْتَنْصَحَ للَّهِ وُفِّقَ، ومَنْ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، فَإِنَّ جارَ اللَّهِ آمِنٌ، وعَدُوَّ اللَّهِ خائِفٌ.

وَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رُفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ما عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَواضَعُوا لَهُ، وسَلامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ما قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ، فَلا تَنْفِرُوا مِنَ الحَقِّ نِفارَ الصَّحِيحِ مِنَ الأَجْرَبِ، وَالبارِىءِ مِنْ ذِي السَّقَم، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتّىٰ تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثاقِ الكِتابِ حَتّىٰ تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتّىٰ تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ، فَالْتَمِسُوا ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ العِلْم، وَمَوْتُ الجَهْلِ، هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وصُمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وظاهِرُهُمْ عَنْ باطِنِهِمْ، لا يُخالِفُونَ

الدِّينَ، وَلا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شاهِدٌ صادِقٌ، وصامِتٌ ناطِقٌ(١).

اللغة

(تجلى) الشيء انكشف وظهر و **(محق)** الشيء محقاً من باب منع أبطله ومحاه ومحق الله الشيء أذهب منه البركة، وقيل: هو ذهاب الشيء كله حتى لا يرى له أثر و **(المثلات)** جمع المثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة فيهما وهي العقوبة كذا في **(الأقيانوس)** وفي **(القاموس)**، مثل بفلان نكل كمثل تمثيلاً وهي المثلة بضم الثاء وسكونها والجمع مثولات ومثلات. وقال الفيومي: ومثلت بالقتيل مثلاً من باب قتل وضرب إذا جدعته وظهرت آثار فعلك عليه تنكيلاً والتشديد مبالغة والإسم المثلة وزان غرفة والمثلة بفتح الميم وضم الثاء العقوبة.

و **(حصد)** الزرع والنبات واحتصده قطعه بالمنجل وحصدهم بالسيف واحتصدهم استأصلهم و **(النقمة)** بالكسر وبالفتح وكفرحة المكافأة بالعقوبة جمعه نقم ككلم وعنب ونقمات ككلمات و **(بار)** الشيء يبور من باب قال إذا فسد و **(زبرت)** الكتاب زبراً كتبته فهو زبور فعول بمعنى مفعول كرسول والجمع زبر. قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾ [القمر: ٥٢]، والزبر بالكسر الكتاب، وجمعه زبور مثل قِدرِ وقُدُورٍ.

و **(مثلوا)** يروى بالتخفيف والتشديد معاً أي نكلوا و **(القارعة)** الداهية تفاجىء الإنسان. وقال الشارح المعتزلي: المصيبة تقرع أي تلقى بشدة وقوة، وقوله: **(فإن رفعة الذين)** لفظة رفعة في بعض النسخ بضم الراء وفي أكثرها بالفتح وضبط **(القاموس)** بالكسر قال: رفع ككرم رفاعة صار رفيع الصوت ورفعة بالكسر شرف وعلا قدره فهو رفيع، كذا في **(الأوقيانوس)**.

الإعراب

قوله: **(ليعلم العباد)** متعلق بقوله: **(بينه)** أو أحكمه أو كليهما على سبيل التنازع، وقوله: **(وكيف)** عطف على قوله: **(من سطوته)**، **(ومن)** الموصولة في قوله: **(من محق ومن احتصد)** في محل النصب مفعول به، وفاعل الأفعال الأربعة راجع إلى الله سبحانه، وقوله: **(ليس فيه شيء أخفى)** لفظة أخفى إما بتقدير الرفع صفة لشيء ويؤيده رفع لفظ أظهر وأكثر المعطوفين عليه كما في بعض النسخ، وإما بتقدير النصب على أنه خبر **(ليس)** ويكون فيه متعلقاً به، وعلى الأول فهو خبر مقدم وليس مع إسمه وخبره في محل الرفع صفة لزمان، وعلى تقدير نصب أخفى فيكون ما عطف عليه منصوباً كما في نسخة **(الشارح المعتزلي)**

---

(١) الكافي: ٨/ ٣٩١، كتاب الأربعين: ١٩٤.

وغيره، ومثله لفظ أبور وأنفق وأنكر وأعرف، وتروى جميعاً بالرفع والنصب معاً.

وقوله: **(ومن قبل ما مثلوا بالصالحين)** لفظة **(ما)** مع الفعل بعدها في حكم المصدر ومحله الرفع بالابتداء، ومن قبل خبرها أي مثلهم أو تمثيلهم بالصالحين من قبل ذلك. ولا يجوز جعل **(ما)** موصولة والجملة بعدها صلتها لخلوّها من الربط، و **(على)** في قوله: **(وسمّوا صدقهم على الله فرية)** متعلقة بفرية لا بصدقهم، قال الشارح المعتزلي: فإن امتنع أن يتعلق حرف الجر به لتقدمه عليه وهو مصدر فليكن متعلقاً بفعل مقدّر دل عليه هذا المصدر الظاهر.

وقوله: **(وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة)** بإضافة العقوبة، وفي بعض النسخ: العقوبة السيئة. قال الشارح المعتزلي: والرواية الأولى بالإضافة أكثر وأحسن.

وقوله: **(إنه من استنصح)** الضمير للشأن. قال الشيخ عبد القاهر: إن لضمير الشأن مع **(إن)** حسناً ليس بدونها بل لا يصح بدونها نحو: إنه من يتق ويصبر، وإنه من يعمل سوء، وإنه لا يفلح الكافرون. قال الشارح المعتزلي: **(ما)** في قوله: **(ما عظمته)** بمعنى أي شيء ومن روى بالنصب جعلها زائدة.

المعنى

إعلم أن مدار هذه الخطبة على فصول أربعة:

الفصل الأول

في الإشارة إلى بعثة الرسول ﷺ والغرض من بعثته وهو قوله: **(فبعث الله محمداً بالحق)** وإنما بعثه **(ليخرج عباده من عبادة الأوثان)** والأصنام **(إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته)** ولتخليص الخلق من عشق الدنيا ورقّ الطبيعة وعبودية الهوى، وتشويقهم إلى حظائر القدس ومجالس الأنس، وإيقاظهم عن مراقد الأبدان ونوم الغافلين، وإيصالهم إلى منازل الأبرار والمقرّبين.

ولم يقتصر سبحانه على مجرد بعثه وإرساله، بل بعثه ﷺ **(بـ)** ما يدل على صدق دعواه ومقاله من البراهين والدلائل الباهرات والمعجزات الخارقة للعادات وأعظمها **(قرآن قد بينه وأحكمه)** أي كشفه وأوضحه وجعله متقناً مضبوطاً مستقيماً نظمه خالياً عن الخلل والاختلاف، كما قال عزّ من قائل: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ﴾ [هود: ١] وفي موضع آخر: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وتخصيص القرآن بالذكر من بين سائر المعجزات لما أشرنا إليه من أنه أعظم معجزاته وأقواها وآكدها في باب التحدي، وذلك لأن الغالب على العرب حين بعثه صلوات الله عليه وآله إنشاء الخطب والرسائل والمبالغة في فصاحة الكلام وبلاغته وحسن البيان وسلاسته، ومراعات المطابقة لمقتضى الحال والمحافظة على محاسن اللفظ وبدائع النكت الغريبة، ولطائف المناسبات العجيبة ووجوه الاستعارات والتخيلات، وأنحاء المجاز والكنايات، وسائر ما يزيد في الكلام رونقاً وتأثيراً في القلوب.

فبعث الله النبي متحدّياً بالقرآن كتاباً ساطعاً تبيانه قاطعاً برهانه بحجج وبينات ورسوم وآيات عجز عن الإتيان بما يماثلها أو يدانيها مصاقع الخطباء مشتملاً على رموز وأسرار وعلوم وأنوار تحيّرت في إدراكها عقول الأدباء، ومواعظ وحكم تبلّدت عن فهمها أذهان الحكماء، ولم يتصد لمعارضة أقصر سورة من سورة واحد من الفصحاء، ولم ينهض للقدح في كلمة من كلماته ناهض من أزكياء البلغاء، مع طول المدة وكثرة العدّة، وشدّة الحرص وقوة الكدّ وغاية العصبية ونهاية الأنانية والإفراط في المضادة والمضارة، والرسوخ في المنافرة والمفاخرة، فاختاروا المقاتلة بالسيف والسنان على المعارضة بالكلام والبيان والحجة والبرهان، بعدما خيّروا بين الأمرين.

فعلم أن المأتي به خارج عن مقدرة البشر، وإنما هو أمر من عند خالق القوى والقدر، وبه يهتدى إلى الرشاد، وتحصل المعرفة بالمبدأ والمعاد كما قال عليه السلام: **(ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه)** يعني ببيان القرآن وأحكامه يحصل العلم بالرب تعالى وذلك لما اشتمل عليه من الآيات الدالة على نعوت الجلال وصفات الجمال، وأدلة التوحيد وبراهين التفريد مضافاً إلى أنه بنفسه مع قطع النظر عن تلك الآيات كاف في الهداية إلى الحق الأول سبحانه بما فيه من وصف الإعجاز حسب ما أشرنا إليه، هذا.

والعجب من الشارح البحراني أنه قال في شرح هذا المقام: ومدار هذا الفصل على بيان بعثة الرسول، وبيان غاية البعثة، والسبب المعدّ للوصول إلى تلك الغاية ثم بيان غاية تلك الغاية، والإشارة إلى البعث بقوله: **(فبعث)** إلى قوله: **(بالحق)**، وأشار إلى غايتها بقوله: **(ليخرج إلى طاعته)** وأشار إلى سبب تلك الغاية بقوله: **(بقرآن قد بينه)** وأشار إلى غاية تلك الغاية ـ أعني غاية طاعة الله ـ بقوله: **(ليعلم العباد)** إلى قوله: **(أنكروه)** انتهى.

وأنت خبير بأن طاعة الله سبحانه وعبادته إنما تحصل بعد حصول العلم بالرب، لأنها فرع الدين وهذا أصله والأصل مقدّم على الفرع فكيف يمكن جعله غاية لها وما هو إلا من مفاسد قلّة التدبّر.

(وليقروا به بعد إذ جحدوه وليثبتوه بعد إذ أنكروه) إن كان المراد بالإقرار الإقرار باللسان

وحده وبالإثبات الإثبات بالجنان يكون عطف الجملة الثانية على الأولى من باب التأسيس، وإن أُريد بكل منهما الأعم فالمعنى بالجملتين واحد والاختلاف في العبارة، والإتيان بهما للتفنّن وعلى أي تقدير فالإثبات والإقرار من جنود العقل، والجحود والإنكار من جنود الجهل كما يفيده الحديث المروي في **(الكافي)** في باب العقل والجهل عن أبي عبد الله عليه السلام، هذا.

ولما ذكر أن بالقرآن يحصل العلم بالربّ سبحانه والإقرار به وإثباته أشار إلى كيفية حصول هذا العلم بقوله: **(فتجلى لهم سبحانه)** أي ظهر ظهوراً بيّناً **(في كتابه)** ربما يفسّر الكتاب هنا بعالم الإيجاد ولما كان لفظ التجلّي موهماً للظهور برؤية البصر أتبعه بقوله: **(من غير أن يكونوا رأوه)** من باب الاحتراس الذي عرفته في **(المحاسن البديعية)** من ديباجة الشرح، يعني أنه سبحانه تجلّى لعباده وظهر لهم لا برؤية البصر بل برؤية البصيرة **(بما أراهم من قدرته)** وذكّرهم من بدائع مصنوعاته وحكمته وعجائب مبدعاته وصنعته كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤] إلى غير ذلك مما لا نطيل بذكرها، وقد مضى في شرح الخطبة التسعين لا سيما شرح الفصل السادس منها ما فيه غنية للطالب وكفاية للمهتدي، فليراجع ثمة.

(وخوفهم من سطوته) وحذّرهم من نقمته كما قال عزّ وجل: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٦ـ ١٣٨]، وقال: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤ـ ٣٥] وغير ذلك من الآيات المشتملة على التحذير بقصص الأوّلين، والتخويف بما جرى على السلف الماضين.

(و) أنه **(كيف محق من محق بالمثلات)** أي أهلك من أهلكه منهم وأذهب آثارهم عن وجه الأرض بالعقوبات النازلة علهم **(واحتصد من احتصد بالنقمات)** أي استأصل من استأصله بما عذّبهم به مكافأة لسوء أعمالهم.

الفصل الثاني

في الإخبار عن زمان يأتي بعده بالأوصاف المذكورة وهو قوله: **(وأنه سيأتي عليكم من بعدي زمان)** الأظهر أن المراد به زمان بني أميّة وأيام خلافتهم لاتّصافه بما وصفه من أنه **(ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله)** وهو ظاهر للخبير بالسير والأخبار.

فقد روي عن شعبة وهو إمام المحدثين عند العامة أنه قال: تسعة أعشار الحديث كذب، وعن الدارقطني: ما الحديث الصحيح إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، وقد كان جعل الأخبار الكاذبة واشتهارها في زمن بني أميّة.

قال ابن عرفة المعروف بنفطويه وهو من أكابر محدّثي العامة وأعلامهم في **(تاريخه)**: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرّباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنف بني هاشم.

ويشهد بذلك ما تقدم روايته في شرح الكلام السابع والتسعين من الخبر الذي رويناه من **(البحار)** عن كتاب سليم بن قيس الهلالي.

(وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب) أي متاع أكسد وأفسد من كتاب الله سبحانه **(إذا تلى حق تلاته)** وفسر على الوجه الذي أُنزل عليه وعلى المعنى الذي أُريد منه، وذلك لمنافاة المعنى المراد والوجه الحق لأغراض أهل ذلك الزمان الغالب على أهله الباطل واتباع الهوى.

(ولا أنفق منه) بيعاً وأكثر رواجاً **(إذا حرّف عن مواضعه)** ومقاصده الأصلية وذلك لموافقة أغراضهم الفاسدة **(ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر)** لما ذكرناه في شرح الكلام السابع عشر من أن المعروف لما خالف أغراضهم ومقاصدهم طرحوه حتى صار منكراً بينهم يستقبحون فعله، والمنكر لما وافق دواعيهم لزموه حتى صار معروفاً بينه يستحسنون أخذه.

(فقد نبذ الكتاب) وراء ظهره **(حملته)** أي أعرض عنه وترك التدبّر فيه والعمل به قرّاؤه الحاملون له كمثل الحمار يحمل أسفاراً **(وتناساه حفظته)** أي تغافلوا عن اتباعه وعن امتثال أوامره ونواهيه **(فالكتاب يومئذ وأهله)** الذين يتلونه حق تلاوته وهم أئمة الدين وأتباعهم الذين يعملون به ويتّبعونه **(طريدان منفيان)** لأن أهل ذلك الزمان برغبتهم إلى الباطل وعدولهم عن الحق معرضون عن الكتاب الهادي إلى الحق وعن أهله الأدلاء إليه، بل مؤذون لهم فيما يخالفونهم فيه مما يقتضيه أحكام الكتاب، فكان إعراضهم عنه وعنهم إبعاداً لهما ونفياً وطرداً

(وصاحبان مصطحبان في طريق واحد) أي متلازمان متفقان على الدلالة في طريق الحق **(لا يؤويهما مؤوٍ)** أي لا يضمهما أحد من ذلك الزمان إليه ولا ينزلهما عنده لنفرته عنهما ومضادتهما لهواه.

(فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس) وبينهم ظاهراً **(وليسا فيهم)** حقيقة لعدم اتباعهما وإلغاء فائدتهما فأشبها ما ليس بموجود ومعهم بالمصاحبة الاتفاقية في الوجود، وليسا معهم لانتفاء ثمرتهما ومنافعهما عنهم **(لأن الضلالة لا توافق الهدى)** يعني ضلالتهم لا توافق هدى الكتاب وأهله فكانا مضادّين لهم **(وإن اجتمعا)** في الوجود.

(فاجتمع القوم على الفرقة) أي اتفق أهل ذلك الزمان على الافتراق من الكتاب وتركه وطرده **(وافترقوا عن الجماعة)** أي الجماعة المعهودة وهم أهل الكتاب العاملون به.

قال الشارح البحراني (ره) في شرح هذه القرينة وسابقته: أي اتفقوا على مفارقة الاجتماع وما عليه الجماعة، أما في وقته عليه السلام فكالخوارج والبغاة، وأما فيما يستقبل بعده من الزمان فكالآخذين بالآراء والمذاهب المتفرقة المحدثة في الدين والاجتماع على الفرقة يلازم الافتراق عن الجماعة، انتهى.

وما ذكرنا أقرب وأنسب بالسياق وأولى، فافهم **(كأنهم أئمة الكتاب)** يحرّفونه ويغيرونه ويبدلونه ويأوّلونه عن وجهه على ما يطابق أغراضهم الفاسدة ويجبرون على مخالفته كما هو شأن الإمام مع المأموم **(وليس الكتاب إمامهم)** الواجب عليهم اتباعه واللازم لهم اقتفاء أثره.

وحيث إنهم خالفوه ونبذوه وراء ظهورهم **(فلم يبق عندهم منه)** في مقام التمسك والاستناد **(إلا إسمه ولا يعرفون)** من آثاره وشؤونه **(إلا خطه وزبره)** أي رسمه وكتابته فقط دون اتباع مقاصده **(ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة)** أي من قبل الحالات المتقدمة التي أُشير إليها تنكيلهم بالصالحين غاية تنكيل وعقوبتهم أشد عقوبة.

ولعله إشارة إلى ما صدر من بني أمية في أوائل سلطنتهم، فقد روى العلامة الحلّي قدّس الله روحه في **(كشف الحق)** عن صاحب الكتاب الهاوية أن معاوية قتل من المهاجرين والأنصار وأولادهم أربعين ألفاً، وفعل إبنه يزيد اللعين بالحسين عليه السلام وأصحابه في الطّف غني عن البيان، وكذلك ما فعله عبد الملك بن مروان وعامله الحجّاج عليهما لعائن الله سبحانه بالعراق والحجاز وغيرهما مشهور ومأثور، هذا.

ويحتمل أن تكون الإشارة بالكلام السابق، أعني قوله: **(وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان)** إلى قوله: **(ومن قبل إلى ملك فراعنة الأمة)** أعني بني العباس خذلهم الله، ويكون المراد بقوله: ومن قبل الإشارة إلى زمن بني أمية الكائن قبل زمن بني العباس، فإن اتصاف كلا الزمانين بالأوصاف المذكورة لا غبار عليه.

وقوله: **(وسمّوا صدقهم على الله فرية)** أي سموا صدق الصالحين افتراء على الله سبحانه ونسبوهم في ما يقولون إلى الكذب **(وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة)** يعني أنهم بغلبة الشرور والفساد على طباعهم رأوا حسنات الصالحين سيئات، فعاقبوهم عليها وعذبوهم بها كما يعاقب المسيء بإساءته.

الفصل الثالث

في النصح والموعظة وتنبيه المخاطبين على وجوب قصر الآمال على مفاسد طول الأمل الذي هو من أعظم الموبقات وأخزى السيئات حسب ما عرفته في الخطبة الثانية والأربعين وشرحها، قال عليه السلام هنا: **(وإنما هلك)** أراد به الهلاك الأخروي **(من كان قبلكم)** من القرون الماضية **(بطول آمالهم)** في الدنيا الموجب للاستغراق في لذّاتها والانهماك في شهواتها المبعدة عن الله سبحانه **(وتغيب آجالهم)** عنهم الموجب للغفلة عنها وعن أخذ الزاد ليوم المعاد **(حتى نزل بهم الموعود)** أي الموت **(الذي تردّ عنه المعذرة)** أي لا يقبل فيه اعتذار معتذر **(وترفع عنه التوبة)** لأن بابها ينسد حين نزوله.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٨]. **(وتحلّ معه القارعة)** والمصيبة التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال **(و)** تتبعها **(النقمة)** والنكال.

ولما خوّفهم من طول الأمل عقّبه بالإرشاد والدلالة على ما فيه صلاحهم فقال: **(أيها الناس إنه من استنصح الله وفّق)** أي من اتخذ الله ناصحاً له واعياً لكلامه حافظاً لأوامره ونواهيه وفّق لكل خير **(ومن اتخذ قوله دليلاً)** في مطالبه ومقاصده **(هدى لـ)**ـلطريقة **(التي هي أقوم)** الطرق وأنهجها.

وفي هذه القرينة تلميح إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] قال الطبرسي: يهدي إلى الديانة والملّة والطريقة التي هي أشدّ استقامة، يقال: هذه الطريق وللطريق وإلى الطريق، وقيل: معناه يرشد إلى الكلمة التي هي أعدل الكلمات وأصوبها وهي كلمة التوحيد، وقيل: يهدي إلى الحال التي هي أعدل الحالات وهي توحيد الله والإيمان به وبرسله والعمل بطاعته، انتهى[1].

والأخير أظهر بمقتضى عموم وظيفته، وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام أنه يهدي إلى

(١) مجمع البيان: ٦/ ٢٢٥.

الإمام، وفي رواية أخرى يهدي إلى الولاية.

ولما ذكر أن استنصاح الله يستلزم التوفيق واتخاذ قوله دليلاً يستلزم الهدى رتب عليه قوله: **(فإن جار الله آمن)** تنبيهاً على ثمرة التوفيق والهداية وهو حصول الجوار من الله والقرب المحصّل لأمنه **(و)** به يعرف أن **(عدوّ الله خائف)** لأن ترك استنصاحه تعالى مستلزم للخذلان وعدم اتخاذ قوله دليلاً موجب للضلال المبعدين عنه سبحانه والجالبين لعداوته الذي هو محل الخوف والخطر.

الفصل الرابع

في الأمر بالتواضع والتسليم والانقياد لله سبحانه وبالمتابعة لأولياء الدين والرجوع إليهم والأخذ منهم، وهو قوله: **(وإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله)** سبحانه وجلاله وجبروته وسلطانه **(أن يتعظم)** أي يظهر العظمة ويتكبّر، وتخصيص النهي عن التعظم بمن عرف عظمته تعالى لاحتقاره نفسه عنده ملاحظته لنفسه ونسبته لها إلى جلاله تعالى، فهو أسرع انفعالاً وأحقر في نفسه أن يتكبّر على الله.

فهو نظير قوله سبحانه: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨] فإن شرطها في التعوّذ منه كونه تقيّاً، لأن التقيّ إذا تعوّذ بالرحمٰن منه ارتدع عما يسخط الله كما تقول: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، قال أمير المؤمنين عليه السلام: علمت أن التقي ينهاه التقي عن المعصية، هذا.

وعلل حسن التواضع بقوله: **(فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمته أن يتواضعوا له)** يعني أن تواضعهم سبب لرفعة درجاتهم وعلوّ مقامهم عند الخالق والخلائق في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فمعلوم بالبديهة والعيان غنيّ عن البيان، وأما في العقبى فلدلالة الأخبار الكثيرة عليه.

روى في **(البحار)** عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن موسى بن عمران حبس عنه الوحي ثلاثين صباحاً، فصعد على جبل بالشام يقال له: أريحا، فقال: يا رب لم حبست عني وحيك وكلامك ألذنب أذنبته فها أنا بين يديك فاقتص لنفسك رضاها، وإن كنت إنما حبست عني وحيك وكلامك لذنوب بني إسرائيل فعفوك القديم، فأوحى الله إليه: يا موسى تدري لم خصصتك بوحيي وكلامي من بين خلقي؟ فقال: لا أعلمه يا رب، قال: يا موسى إني اطلعت على خلقي اطلاعة فلم أر في خلقي أشد تواضعاً منك، فمن ثم خصصتك بوحيي وكلامي من بين خلقي، قال عليه السلام: فكان موسى إذا صلى لم ينفتل حتى يلصق خده الأيمن بالأرض وخده الأيسر بالأرض[1].

---

(١) وسائل الشيعة: ٧/ ١١ ح ٨٥٧٦، ومشكاة الأنوار: ٤٠١.

وفي (**عدّة الداعي**) عن الباقر عليه السلام قال: أوحى الله تعالى إلى موسى: أتدري لِمَ اصطفيتك بكلامي من دون خلقي؟ قال: لا يا رب، قال: يا موسى إني قلّبت عبادي ظهراً لبطن فلم أر أذلّ نفساً منك، إنك إذا صلّيت وضعت خديك على التراب.

وفي رواية أخرى: قلّبت عبادي ظهراً لبطن فلم أر أذلّ لي نفساً منك فأحببت أن أرفعك من بين خلقي[١].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «ثلاثة لا يزيد الله بهن إلا خيراً: التواضع لا يزيد الله به إلا ارتفاعاً، وذلّ النفس لا يزيد الله به إلاّ عزّاً، والتعفّف لا يزيد الله به إلاّ غنىً».

وفي (**إحياء العلوم**) لأبي حامد الغزالي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزّاً إنك إذا صلّيت وضعت خديك على التراب وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

قال المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة.

وقال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة».

وقال صلى الله عليه وآله: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله»[٢].

وعن الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته، هذا.

والتواضع من جنود العقل ويقابله التكبّر الذي نشرح حاله في التنبيه الآتي وهو من جنود الجهل، والأول من منجيات الأخلاق وفضائل الأحوال، والثاني من موبقات الصفات ورذائل الخصال، ولا يحصل التواضع إلا بمعرفة النفس ومعرفة الرب تعالى، فمهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقلّ من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربّه علم أنه لا يليق العظمة والكبرياء إلا به.

وعلله أيضاً بقوله: (**وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له**) يعني سلامة من علم عموم قدرته سبحانه وغلبة عزّته تعالى من النار ومن غضب الجبّار إنما تحصل بالاستسلام وترك الاستكبار والأول من جنود العقل، والثاني من جنود الجهل.

(١) عدة الداعي: ١٦٥، والجواهر السنية: ٧٥.

(٢) تذكرة الموضوعات: ١٩١، ومستدرك الوسائل: ٧/ ١٦٠، ح ٧٩١٤.

قال بعض شراح (**الكافي**): الاستسلام هو الطاعة، والانقياد لكل ما هو حق، وهو من صفات المؤمن، وعن رسول الله ﷺ: «المؤمنون هينون لينون إن قيدوا انقادوا وإن أُنيخوا استناخوا»[(١)].

وضد الانقياد الاستكبار والأنفة، والفرق بينه وبين الكبر أن الكبر حالة نفسانية كائنة في النفس ربما لم يظهر أثره في الخارج بخلاف الاستكبار فإنه عبارة عن إظهار التكبر.

ولما أمرهم بالتواضع والاستسلام لله سبحانه المستلزمين لأخذ الحق وقبوله من أهله أتبعه بقوله: (**فلا تنفروا من الحق**) وأهله وهم أولياء الدين (**نفار الصحيح من الأجرب والبارىء من ذي السقم**) أي أشد النفار كما في الشبْه بهما، هذا.

ولما نهاهم عن النفار من الحق وأمرهم بلزومه عقّبه بقوله: (**واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه**) الرشد يساوق الحق كما أن الغي يساوق الباطل، والغرض بهذه الجملة التنبيه على أن معرفة الرشد، أي الحق، تتوقف على معرفة تاركه، أي أئمة الضلال وأهل الباطل، إذ مع عدم معرفتهم ربما يشتبه فيزعم أن أقوالهم حق فيأخذ بها ويقع في الخبط والضلال.

كما أُشير إليه في الخطبة الثامنة والثلاثين بقوله: (**وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق**)، فأما أولياء الله فضيائهم فيها اليقين ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعائهم فيها الضلال ودليلهم العمى، وقد مضى في شرح هذه الخطبة ما ينفعك ذكره في هذا المقام، فاللازم على طالب الرشد أن يعرف أئمة الغي والضلال ويجتنب عنهم.

وبما ذكر يظهر أيضاً معنى قوله: (**ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه**) توضيح ذلك أن كتاب الله سبحانه لما كان من أسباب الرشد كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١ ـ ٢] وكان التمسك به منقذاً من الضلال كما قال رسول الله ﷺ في حديث الثقلين: «إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي الثقلين وأحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي»[(٢)]، لا جرم كان الأخذ والتمسك به واجباً.

ولما كان معنى الأخذ والتمسك هو اتباعه ومعرفة معناه حق العلم والعمل بمواثيقه وأحكامه التي هي عهد الله تعالى لزم على ذلك معرفة الناقضين لمواثيقه والنابذين لأحكامه

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٣٤ ح ١٣، وشرح أصول الكافي: ١/ ٢٧٧.

(٢) شرح أصول الكافي: ٦/ ١٣٨، سعد السعود: ٢٢٨.

وراء ظهورهم، وهم المحرفون المبدّلون له والمغيّرون لأحكامه والمفسرون له بآرائهم المتبوّءون مقعدهم من النار، وإنما توقف الأخذ والتمسك على معرفة هؤلاء ليتحرز عن الرجوع إليهم وإلى تفاسيرهم كيلا يتبوأ مقعده مثلهم من النار.

ومحصل المراد من هذه الجملات الثلاث التنبيه على وجوب التبرّيء من أئمة الضلال والمعاداة لأعداء الله سبحانه وقد دلّت عليه النصوص الكثيرة.

مثل ما في (**البحار**) من السرائر من كتاب (**أنس العالم**) للصفواني قال: إن رجلاً قدم على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إني أحبك وأحب فلاناً وسمّى بعض أعدائه، فقال: أما الآن فأنت أعور فأما إن تعمى وإما أن تبصر[1].

وقيل للصادق عليه السلام: إن فلاناً يواليكم إلا أنه يضعف من البراءة من عدوكم، فقال: هيهات كذب من ادعى محبتنا ولم يتبرّأ من عدونا[2].

وروي عن الرضا عليه السلام أنه قال: كمال الدين ولايتنا والبراءة من عدونا.

ثم قال الصفواني: واعلم أنه لا تتم الولاية ولا تخلص المحبة ولا تثبت المودة لآل محمد صلى الله عليه وآله إلا بالبراءة من أعدائهم قريباً كان أو بعيداً، فلا تأخذك بهم رأفة فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفيه من (**تفسير العياشي**) عن أبي حمزة الثمالي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا أبا حمزة إنما يعبد الله من عرف الله، وأما من لا يعرف الله كأنما يعبد غيره هكذا ضالاً، قلت: أصلحك الله وما معرفة الله؟ قال: يصدّق الله ويصدّق محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله في موالاة علي والائتمام به وبأئمة الهدى من بعده، والبراءة إلى الله من عدوّهم، وكذلك عرفان الله، قال: قلت: أصلحك الله أي شيء إذا علمته أنا استكملت حقيقة الإيمان؟ قال: توالي أولياء الله وتعادي أعداء الله وتكون مع الصادقين كما أمرك الله، قال: قلت: ومن أولياء الله ومن أعداء الله؟ فقال: أولياء محمد رسول الله وعلي والحسن والحسين وعلي بن الحسين، ثم انتهى الأمر إلينا ثم ابني جعفر وأومأه إلى جعفر عليه السلام وهو جالس، فمن والى هؤلاء فقد والى أولياء الله وكان مع الصادقين كما أمره الله، قلت: ومن أعداء الله أصلحك الله؟ قال: الأوثان الأربعة، قال: قلت: من هم؟ قال: أبو الفصيل[3]، ورمع، ونعثل، ومعاوية ومن

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/٢٧ ح ١٧.

(٢) مستطرفات السرائر: ٦٤٠، وبحار الأنوار: ٥٨/٢٧ ح ١٨.

(٣) أبو الفصيل: أبو بكر، لأن الفصيل والبكر متقاربان في المعنى، ورمع: مقلوب عمر، ونعثل هو عثمان.

دان دينهم، فمن عادى هؤلاء فقد عادى أعداء الله[١].

ومن (**عقائد الصدوق**) قال: اعتقادنا في الظالمين أنهم ملعونون والبراءة منهم واجبة، قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: ١٨-١٩].

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إن سبيل الله عزّ وجل في هذا الموضع هو علي بن أبي طالب.

والأئمة في كتاب الله عزّ وجل إمامان: إمام هدى وإمام ضلالة، قال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال عزّ وجل في أئمة الضلالة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١-٤٢].

ولما نزلت هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] قال النبي ﷺ: «من ظلم علياً مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوّتي ونبوّة الأنبياء من قبلي، ومن تولى ظالماً فهو ظالم»[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال الله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وقال عزّ وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال عزّ وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣] والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، فمن ادعى الإمامة وليس بإمام فهو ظالم ملعون.

وقال النبي ﷺ: «من جحد علياً إمامته من بعدي فإنما جحد نبوتي، ومن جحد نبوتي فقد جحد الله ربوبيته»[٣].

وقال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «يا علي أنت المظلوم بعدي، من ظلمك فقد ظلمني، ومن أنصفك فقد أنصفني، ومن جحدك فقد جحدني، ومن والاك فقد والاني، ومن عاداك فقد

(١) بحار الأنوار: ٢٧/ ٥٨، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/ ٢٥١.

(٢) شرح أصول الكافي: ٦/ ١٠، ومناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٧.

(٣) الاعتقادات: ١٠٤، وبحار الأنوار: ٨/ ٣٥٦.

عاداني، ومن أطاعك فقد أطاعني، ومن عصاك فقد عصاني»[١]، إلى غير ذلك مما لا نطيل بذكرها.

فقد علم بذلك كله وجوب التبرىء عن أئمة الضلال والتولي لأئمة الهدى.

وذلك لما نبه أمير المؤمنين عليه السلام على التنفير عن الفرقة الأولى بمعرفتهم ومعرفة ما هم عليه من الخطأ والجهل والشبه أمر باتباع الفرقة الأخرى والرجوع إليهم بقوله: **(فالتمسوا)** واطلبوا **(ذلك)** أي ما سبق ذكره، يعني الحق والرشد وميثاق الكتاب وكيفية التمسك به **(من عند أهله)** أراد به نفسه الشريف والطيبين من أولاده، أعني الأئمة المعصومين وينابيع العلم واليقين **(فإنهم عيش العلم وموت الجهل)** أي بهم حياة العلم وممات الجهل، واستعار لهم هذين الوصفين باعتبار أن بهم ينتفع بالعلم ويحصل ثمراته وآثاره كما أن بحياة الشيء يوجد آثاره وينتفع به، وكذلك بهم يبطل الجهل ويضمحل كما أن بالموت يبطل حياة الحي ويفنى.

(هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم) يجوز أن يراد بالحكم ما صدر عنهم من الأحكام الشرعية والتكاليف الإلهية، وأن يراد به القضاء وفصل الخصومات في الوقائع الشخصية، وعلى أي تقدير يدل ما صدر عنهم من القضاء والأحكام على غزارة علمهم وجم معرفتهم عليهم السلام، وينبئك بذلك ما قدمناه في شرح قوله عليه السلام: وعندنا أهل البيت أبواب الحكم، في شرح الكلام المائة والتاسع عشر، فتذكر.

(وصمتهم من منطقهم) فإن لصمت اللّسن ذي الحكمة العزيزة هيئة وحالة ووقاراً يدل على حسن منطقه وعلمه بما يقول **(وظاهرهم عن باطنهم)** أي حسن أفعالهم وحركاتهم الظاهرية يكشف عن كمالاتهم وملكاتهم النفسانية **(لا يخالفون الدين)** لأنهم قوامه وأولياؤه وملازمون له، معصومون من الذنوب، مبرؤون من العيوب.

(ولا يختلفون فيه) أي لا يختلف أحدهم للآخر فيما يؤدونه من أحكام الله ويبلّغونه من أوامره، لأن علومهم كلها من نبع واحد ملقاة عن مهبط الوحي ومعدن الرسالة، وبعد اتحاد المنبع لا يتصور الاختلاف لمكان العصمة المانعة عن تعمد الكذب والغلط والسهو والخطأ الناشىء منها الاختلاف.

روى في **(الكافي)** عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال الله عزّ وجل في ليلة القدر: **فيها يفرق كل أمر حكيم،** يقول: ينزل فيها كل أمر حكيم، والمحكم ليس بشيئين، فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله عزّ وجل، ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنه مصيب فقد

(١) الكافي: ١/ ٤٤٠ ح ٤، وشرح أصول الكافي: ٧/ ١٤٧.

حكم بحكم الطاغوت[١]، الحديث وقد مر بتمامه في شرح الفصل التاسع من الخطبة الأولى.

وفي (**البحار من معاني الأخبار**) عن الحسين الأشقر قال: قلت لهشام بن الحكم: ما معنى قولكم: إن الإمام لا يكون إلا معصوماً؟ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] [آل عمران: ١٠١].

قال المحدث العلامة المجلسي: قال الصدوق في (**معاني الأخبار**) بعد خبر هشام: الدليل على عصمة الإمام أنه لما كان كل كلام ينقل عن قائله يحتمل وجوهاً من التأويل كان أكثر القرآن والسنّة مما اجتمعت الفرقة على أنه صحيح لم يغيّر ولم يبدل ولم يزد فيه ولم ينقص منه محتملاً لوجوه كثيرة من التأويل، وجب أن يكون مع ذلك مخبر صادق معصوم من تعمّد الكذب والغلط، منبىء عما عنى الله عزّ وجل في الكتاب والسنّة على حق ذلك وصدقه، لأن الخلق مختلفون في التأويل، كل فرقة تميل مع القرآن والسنّة إلى مذهبها، فلو كان الله تبارك وتعالى تركهم بهذه الصفة من غير مخبر عن كتابه صادق فيه لكان قد سوّغهم الاختلاف في الدين ودعاهم إليه إذ أنزل كتاباً يحتمل التأويل وسنّ نبيه صلى الله عليه وآله سنة تحتمل التأويل وأمرهم بالعمل بها، فكأنه قال: تأوّلوا واعملوا، وفي ذلك إباحة العمل بالمتناقضات والاعتماد للحق وخلافه، فلما استحال ذلك على الله عزّ وجل وجب أن يكون مع القرآن والسنّة في كل عصر من يبين عن المعاني التي عناها الله عزّ وجلّ في القرآن بكلامه دون ما يحتمل ألفاظ القرآن من التأويل، ويبين عن المعاني التي عناها رسول الله صلى الله عليه وآله في سنّته وأخباره دون التأويل الذي تحتمله الأخبار المروية عنه المجمع على صحة نقلها، وإذا وجب أنه لا بد من مخبر صادق وجب أن لا يجوز عليه الكذب تعمداً، ولا الغلط فيما يخبر به عن مراد الله عزّ وجل وعن مراد رسول الله صلى الله عليه وآله في أخباره وسنّته، وإذا وجب ذلك وجب أنه معصوم، انتهى كلامه رفع مقامه[٣].

فقد ظهر بذلك أنه لا يتصور منهم الاختلاف في شرائع الدين لا من أحدهم للآخر ولا من كل منهم فيما يصدر عنه من الأحكام المتعددة كما ظهر به وجوب الرجوع في فهم مرادات الكتاب والسنّة إليهم حسب ما نبّه عليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله آنفاً: فالتمسوا ذلك

---

(١) الكافي: ١/٢٤٨ ح ٣، وشرح أصول الكافي: ٦/٧ ح ٣.
(٢) معاني الأخبار: ١٣٢ ح ٢، وبحار الأنوار: ٢٥/١٩٤ ح ٦.
(٣) معاني الأخبار: ١٣٣، وبحار الأنوار: ٢٥/١٩٥.

من عند أهله، فافهم واغتنم.

(فهو) أي الدين بينهم **(شاهد صادق)** أي شاهد صدق يشهد على اتفاقهم فيه وعدم اختلافهم وخلافهم له **(وصامت ناطق)** أي ساكت باعتبار كونه أمراً عرضياً اعتبارياً لا وجود له في الأعيان، وناطق باعتبار إفادته لكونهم ملازمين له ومتفقين عليه وإنبائه عن أنهم على الحق والحق معهم، هذا.

وما ذكرناه في تفسير هاتين الفقرتين أظهر وأولى مما قاله الشارح البحراني حيث قال: وقوله: شاهد صادق أي شاهد يستدلون به على الأحكام والوقائع النازلة بهم وبغيرهم لا يكذّب من حيث هو شاهد، وصامت ناطق لكونه حروفاً وأصواتاً، وإنما ينطق بألسنتهم فهو بمنزلة الناطق، انتهى.

قال الشارح المعتزلي: فالدين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه كما يأخذ بحكم الشاهد الصادق، وصامت ناطق لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بد له من مترجم فهو صامت في الصورة وفي المعنى أنطق الناطقين، لأن الأوامر والنواهي والآداب كلها مبنية عليه ومتفرعة عنه، انتهى.

وأنت خبير بما فيما قالاه من الضعف والفساد وكونه أجنبياً على تقدير صحته من مساق كلام الإمام عليه السلام فافهم وتأمل.

تنبيه

لما كانت هذه الخطبة الشريفة متضمنة للأمر بالتواضع والنهي عن التكبّر وأشرنا إلى فضل التواضع وحسنه أحببنا أن نشرح صفة الكبر ونبين ما ورد فيه من الأدلة الدالة على قبحه وخسّته وكونه من الموبقات، والكلام فيه في مقامات.

المقام الأول

في الآيات والأخبار الواردة في النهي عن تلك الصفة، والمتضمنة لقبحها وذمّها وما يترتب عليه من الخزي والعقاب.

فأقول: قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [٦٠].

وفي سورة المؤمن: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [٣٥].

وفي سورة المؤمن أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [٦٠] أي صاغرين ذليلين.

وفي سورة بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، قال الطبرسي: معناه لا تمش على وجه الأشر والبطر والخيلاء والتكبر وقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى، قال: «إنك أيها الإنسان لن تشقّ الأرض من تحت قدمك بكبرك، ولن تبلغ الجبال بتطاولك»، والمعنى أنك لن تبلغ مما تريد كثير مبلغ كما لا يمكنك أن تبلغ هذا فما وجه المنابذة على ما هذا سبيله مع أن الحكمة زاجرة عنه، وإنما قال ذلك، لأن من الناس من يمشي في الأرض بطراً يدقّ قدميه عليها ليرى بذلك قدرته وقوّته ويرفع رأسه وعنقه، فبيّن سبحانه أنه ضعيف مهين لا يقدر أن يخرق الأرض بدق قدميه عليها حتى ينتهي إلى آخرها، وأن طوله لا يتبلغ طول الجبال وإن كان طويلاً، هذا.

والآيات الناهية في الكتاب العزيز كثيرة لا حاجة إلى إيرادها.

وأما الأخبار، ففي **(الكافي)** بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: قال علي بن الحسين صلوات الله عليهما: عجباً للمتكبّر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ثم هو غداً جيفة[(١)].

وعن عيسى بن ضحاك قال: قال أبو جعفر عليه السلام: عجباً للمختال الفخور وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به[(٢)].

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجل فقال: يا رسول الله أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما أنك عاشرهم في النار».

وعن حكيم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أدنى الإلحاد، قال عليه السلام: إن الكبر أدناه.

وعن العلاء بن الفضيل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أبو جعفر عليه السلام: العزّ رداء الله، والكبر إزاره، فمن تناول منه شيئاً أكبّه الله في جهنم.

وعن عبد الأعلى بن أعين قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أعظم الكبر غمس الخلق وسفه الحق»، قلت: وما غمس الخلق وسفه الحق؟ قال: «يجهل الحق

---

(١) المحاسن: ١/٢٤٢ ح ٢٣٠، والكافي: ٢/٣٢٨ ح ١.

(٢) الكافي: ٢/٣٢٩ ح ٤، وشرح أصول الكافي: ٩/٣٦٩ ح ١.

ويطعن على أهله، فمن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه».

وعن أعظم بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له: سقر شكى إلى الله شدة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فتنفس فأحرق جهنم.

وعن علي بن إبراهيم، عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة وملك يمسكها فإذا تكبّر قال له: اتّضع وضعك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس، وإذا تواضع رفعها الله عزّ وجل ثم قال له: انتعش نعشك الله فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأعظم الناس في أعين الناس[1].

وفي (إحياء العلوم) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[2].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»[3].

وقال صلى الله عليه وآله: «بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل وسهى ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى»[4].

وقال أبو هريرة: قال النبي صلى الله عليه وآله: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذرّ تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى»[5].

وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له: يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: إن في جهنم وادياً يقال له: هبهب، حقّ على الله أن يسكنه كل جبار فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه.

الثاني في حقيقة الكبر وماهيته

وهو الانتفاخ والتعزز الحاصل من استعظام النفس واستحقار الغير، وبعبارة أخرى هو

---

(١) الكافي: ٢/ ٣١٢ ح ١٦، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٣٧٦، ح ٢٠٧٨٨.

(٢) وسائل الشيعة: ١٦/ ٧ ح ٦.

(٣) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٩٢، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٦٥٢.

(٤) مستدرك الوسائل: ١٢/ ١٧٣، وسنن الترمذي: ٤/ ٥٠ ح ٢٥٦٥.

(٥) ميزان الحكمة: ١/ ٣٦٨ ح ٤٨٧، والتواضع والخمول لابن أبي الدنيا: ٢٧٠ ح ٢٢٤.

أن يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال فيحصل من ذلك فيه نفخة واهتزاز وتلك النفخة هي الكبر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بك من نفخة الكبرياء»[1]، وهذه الحالة إذا حصلت في النفس اقتضت أعمالاً في الظاهر تصدر عن الجوارح هي ثمرات تلك الخصلة الرذيلة، فالكبر هي الحالة النفسانية والخلق الباطني، وثمرات تلك الخصلة وآثارها في الظاهر تسمى تكبّراً كالترفع في المجالس والتقدم على الغير وتوقع السلام والنظر بعين التحقير، فإن حاجّ أو ناظر أنف أن يرد عليه، وإن وعظ استنكف من قبول الحق، وإن وعظ أعنف في النصح، وإن ردّ عليه شيء من قوله غضب، وإن علّم لم يرفق بالمتعلمين واستذّلهم وامتنّ عليهم، وإن نظر إلى العامة نظر إليهم بعين الاحتقار كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً.

الثالث في المتكبّر عليه

والفرق بين الكبر والعجب بذلك، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده يمكن أن يكون معجباً، بخلاف الكبر فإنه يتوقف على أن يكون هنا غير، فيرى نفسه فوق هذا الغير في صفات الكمال، وذلك الغير هو المتكبر عليه، وينقسم الكبر باعتبار المتكبر عليه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول

التكبّر على الله سبحانه وهو من أفحش أنواع الكبر وأقبحها وأوبقها، ولا منشأ له إلا محض الجهل والحمق والطغيان، وذلك مثل ما كان في نمرود حيث كان يحدّث نفسه بأنه يقاتل ربّ السماء، وفي فرعون حيث قال: أنا ربّكم الأعلى، وفي شدّاد حيث بنى إرم ذات العماد، ونحو ذلك مما صدر عن المدعين للربوبية والمترفعين عن درجة العبودية، وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمٰن، قالوا: وما الرحمٰن أنسجد لما تأمرنا؟ وزادهم نفوراً.

القسم الثاني

التكبّر على الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمنع مع المعرفة ولكن نفسه لا تطاوع الانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله عن قولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا

(١) التحفة السنية: ٥٣، زميزان الحكمة: ٣/ ٢٦٥٤.

تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤].

وقال سبحانه فيما أخبر عن كفار قريش في رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨]، استبعدوا أن يكون من يأكل الطعام ويطلب المعاش في الأسواق رسولاً مطاعاً واستحقروه لفقره حتى تمنوا له الكنز لينفق منه ويستغني به عن الناس وتمنوا له البستان ليأكل من ثمارها.

وأخبر عنهم أيضاً بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١] يعنون بالقريتين مكة والطائف وبالرجل العظيم الوليد بن المغيرة من مكة وأبا مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، وإنما قالوا ذلك لأن الرجلين كانا عظيمي قومهما ذوي الأموال الجسيمة فزعموا أن من كان كذلك أولى بالنبوّة من غلام يتيم لا مال له فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي النبوة بين الخلق، يعني: أبأيديهم مفاتيح الرسالة يضعونها حيث شاؤوا، بل هي بيد الله سبحانه يعطيها من يشاء.

ومن هذا القسم تكبّر المتخلفين على أمير المؤمنين عليه السلام وتكبّر أمراء بني أمية وبني مروان وبني العباس لعنهم الله أجمعين على أئمة الدين.

القسم الثالث

التكبّر على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فيدعوه ذلك إلى الترفع عليه ويأباه عن الانقياد إليه وهذا أيضاً قبيح من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعزّ والعظمة والجلال لا يليق إلا بالملك القادر المتعال فمن أين يليق هذا الوصف بالعبد الضعيف الذليل المهين، فمتى تكبر فقد نازع الله في جلاله وانتحل وصف كماله، وما أشد جرءته على مولاه، وما أقبح ما ادعاه وتعاطاه، ولذلك قال عزّ من قائل: «العظمة إزاري والكبريائي ردائي فمن نازعني فيهما قصمته»، أراد أنهما مختصان بي اختصاص الإزار والرداء والمنازع فيهما منازع في الصفة المخصوصة بي.

وثانيهما: أنه ربما يدعو إلى مخالفة أمر الله ونهيه، لأن المتكبر إذا سمع الحق من أحد استنكف من قبوله، ولذلك ترى أكثر المناظرين في المسائل العلمية يزعمون أنهم يتباحثون للإفادة والاستفادة فمهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله وركب مركب العصبية والعناد، ويتجاحد تجاحد المنكر، ويحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس،

لئلا يظهر للناس مغلوبيته، ومن ذلك كان علماء الآخرة يتجنّبون عن المناظرة في المجالس.

وقد روى السيد المحدّث الجزائري: أن المولى الصالح العالم عبد الله التستري كان إذا سأل مولانا المقدّس الأردبيلي عطّر الله مرقده عن مسألة وتكلما فيها سكت الأردبيلي في أثناء الكلام، وقال: حتى أراجعها في الكتب، ثم يأخذ بيد التستري ويخرجان من النجف الأشرف إلى خارج البلد، فإذا انفردوا قال المولى الأردبيلي: هات يا أخي تلك المسألة، فيتكلم فيها ويحققها الأردبيلي على ما يريد المولى التستري، فسأله وقال: يا أخي هذا التحقيق هلا تكلمت به هناك حيث ما سألتك؟ فقال: إن كلامنا كان بين الناس وعسى أن يكون فيه تنافس وطلب الظفر منك أو مني، والآن لا أحد معنا سوى الله سبحانه.

وكيف كان فهذا الخلق من أخلاق الكافرين والمنافقين الذين حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦] فكل من يناظر للإفحام والغلبة لا يغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق وتبعهم عليه.

وأول من صدر عنه التكبر على أمر الله تعالى هو إبليس اللعين حيث إنه لما دعي إلى السجود لآدم عليه السلام قال: أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين. فحمله الكبر على الإباء من السجود الذي أمره الله به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجرّه ذلك إلى التكبر على أمر الله فكان ذلك سبب الطرد والإبعاد، وإهلاكه أبد الآباد.

الرابع في ما به التكبر

فاعلم أن أسباب الكبر سبعة:

الأول: العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «آفة العلم الخيلاء»، فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزّ العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس ويستجهل ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، فإن بدأ واحداً منهم بالسلام أو ردّ عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة يمتنّ به عليه ورأى ذلك صنيعة عنده واعتقد أنه أكرمه وفعل به ما لا يستحقه.

والسبب لكبره هو خوضه في تحصيل العلوم، وهو رديء النفس خبيث الدخلة سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بالمجاهدات والرياضات، فبقي خبث الجوهر فإذا خاض في العلم أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره.

ولذلك قال عيسى ابن مريم عليه السلام: بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر، وكذلك في

السهل ينبت الزرع لا في الجبل[١].

وقال وهب: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم يحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً، لأن من كان همته الكبر وهو جاهل إذا حفظ العلم وجد ما يتكبّر به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله وازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت في حقه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً.

الثاني: العمل والعبادة، وكثيراً ما ترى العبّاد والزّهاد يترشح الكبر منهم على غيرهم بسبب زعمهم أنهم ناجون والناس هالكون فيرى نفسه ناجياً وهو الهالك حقيقة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم»[٢].

الثالث: النسب، فترى من له نسب شريف يتكبّر على من ليس له ذلك النسب.

الرابع: التفاخر بالحسن والجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النسوان.

الخامس: الثروة والمال، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه.

السادس: القوة وشدة البطش، فيتكبر بها على أهل الضعف.

السابع: الملك والسلطنة وكثرة الاتباع والخدم والجنود والجيوش، وذلك يجري بين الملوك في الافتخار بكثرة العساكر والرعية والخدم، وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن كمالاً في نفسه أمكن أن يتكبّر به حتى أن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين، لأنه يرى ذلك كمالاً يفتخر به، وإن لم يكن فعله إلا نكالاً، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب والفجور ويتكبر به لزعمه أن ذلك كمال وإن كان خزيّاً ووبالاً ونكالاً.

الخامس في معالجة الكبر

فاعلم وفّقك الله تعالى وألهمك الخير أن الكبر من أعظم المهلكات، وقلّما ينفك عن شيء منه أحد وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية

(١) الكافي: ١/ ٣٧ ح ٦، وشرح أصول الكافي: ٢/ ٧٦ ح ٦.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٩٨، ومستدرك سفينة البحار: ٩/ ١١.

القامعة له، وعلاجه إنما يحصل بأمور أربعة:

الأول: معرفة الربّ تعالى. **الثاني**: معرفة النفس. **الثالث**: معرفة الغرض الداعي إلى خلقته. **الرابع**: معرفة المفاسد المترتبة على الكبر.

أما الأول

فإن من عرف ربه وأنه القادر الذي لا يعجزه شيء، والقويّ الذي لا يضعفه شيء، والأزلي الذي ليس له بداء، والدائم القيوم بأمر الأشياء، والفعّال لما يريد أو يشاء، والممسك للسماوات والأرض من الزوال، والمستولي على الخلائق في كل حال، إلى غير ذلك من صفاته الحسنى وأمثاله العليا عرف أن العزّ والعظمة والجلال والجمال والجبروت والكبرياء لا تليق إلا بجنابه، وأنها إزاره ورداءه، وأن غيره مقهور تحت قدرته، ضعيف تحت قوته، مسخر تحت إرادته، منقاد لمشيئته، ذليل مهين مستكين لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً.

وأما الثاني

فقد أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: ابن آدم أنى لك والفخر فإن أولك جيفة وآخرك جيفة وفي الدنيا حامل الجيف، ونشرح حال هذه الجيف فإنها ليست كجيف الحيوانات.

أما الجيفة الأولى: وهي المني، فقد أوجب الشارع الغسل بخروجها من الإنسان وأغلظ نجاسته حتى فهم بعض الأصحاب من تغليظه وجوب تطهير الثياب والبدن منه مرتين كما في البول.

وأما الجيفة الأخيرة: فإنه بعد زهوق روحه يكون ميتة أخبث وأنجس وأوحش من ميتة الكلب والخنزير، وذلك لأن مسّ ميتة الكلب بالرطوبة لا يوجب إلا غسل اليد وتطهيرها بخلاف مس ميتة الإنسان فقد أوجب الشارع فيه مضافاً إلى تطهير الملاقي غسل المسّ مبالغة في خبث جيفته وقذارته، وترى الأحياء أوحشوا جانب الميت وتجنبوا عنه وخافوا منه ولا يخافون من ميتة سائر الحيوانات ولا يستوحشون منها.

وأما كونه حامل الجيف: فهو أظهر من أن يذكر لأنه أخسّ من حمار يحمل العذرة، لأن الحمار يحملها اضطراراً وبالإجبار، والإنسان يحملها بالرضاء والاختيار، وهو يحملها على الظهر وهذا على البطن، وإلى هذه الحالات الثلاث وما بعدها أُشير في قوله سبحانه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧ـ ٢٢]، فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى

آخر أمره وإلى وسطه، فليفهم معناها وليتفكّر في مغزاها.

فقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وقد كان في حيز العدم وأي شيء أخسّ وأقل من المحو والعدم، فبدأ الله بخلقه من أرذل الأشياء ثم من أقذرها إذ خلقه من سلالة من طين ثم من ماء مهين ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظاماً فكسى العظام لحماً، فهذا بداية وجوده.

وما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخسّ الأوصاف وأرذلها، إذ لم يخلق كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ولا يحسّ ولا يشعر ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يفهم ولا يميز ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوّته، وبعجزه قبل قدرته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلاله قبل هداه، وفقره قبل غناه.

فهذا معنى قوله: ﴿من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره﴾ ثم امتن عليه فقال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ أي يسّر له سبيل الخير والشر وأرشده إلى طريق الضلال والهدى يسلك الأول ويترك الثاني كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠].

فانظر إلى عظم ما أنعم الله سبحانه به عليه حيث نقله من حالة الذّلة والقلّة والخسّة والقذارة إلى رتبة العزّ والشرف والرحمة والكرامة، فصار موجوداً بعد العدم، وحيّاً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمى، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد الجهل، ومهدياً بعد الضلال، فكان في ذاته لا شيء وأي شيء أخسّ وأحقر من لا شيء؟، وأي قلّة أقل من العدم المحض، ثم صار بالله شيئاً وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة ليعرفه خسّة نفسه ومهانة ذاته، وأكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه، ويعلم عظمة بارئه وجلالة مبدأه وأنه لا يليق الكبرياء والجلال إلا بحضرة ربوبيته.

فمن كان هذا بدؤه وهذا حاله كيف يسوغ له البطر والكبر والخيلاء والفخر، نعم هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسّته شمخ بأنفه وتعظّم.

ولو أكمله وفوّض إليه أموره وأدام له الوجود باختياره لكان أكثر من ذلك يطغى ونسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلّط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة، والآلام المختلفة، والطبائع المتضادة من الصفراء والسوداء والبلغم والدم يهدم بعضها بعضاً شاء أم أبى، رضى أم سخط، فيجوع كرهاً، ويعطش كرهاً، ويمرض كرهاً، ويموت كرهاً، لا يملك لنفسه خيراً ولا شراً ولا نفعاً ولا ضرّاً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر

الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمّه فيحول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه، ويشتهي الشيء فربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ الأطعمة وهي تهلكه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه، ولا يأمن في لحظة من ليله ولا نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاءه ويختلس عقله ويختطف ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل إن ترك بقي وإن اختطف فنى، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا على شيء من غيره، فأي شيء أذلّ منه لو عرف نفسه وأنّى يليق الكبر لولا جهله، فهذا أوسط أحواله.

وأما آخره فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ [عبس: ٢١]، ومعناه: أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسّه وإدراكه وحركته فيعود جماداً كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، ولا حسّ فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأول نطفة مذرة.

ثم تبلى أعضاؤه، وتتفتت أجزاؤه، وتنخرّ عظامه، وتصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أجزاءه، فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما، وبخديه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، ويتنفّر منه كل إنسان، ويكرهه لشدة الأنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير تراباً يعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، فيصير مفقوداً بعدما كان موجوداً وصار كأن لم يغن بالأمس حصيداً، كما كان في أول أمره أمداً مديداً.

وليته بقي كذلك، ويأمن مما يتلوه من المعاطب والمهالك، فما أحسنه لو ترك تراباً لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شدّة البلاء، وإليه أشار بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ٢٢] فيخرج من قبره بعد جمع أجزاءه المتفرقة، وأعضاءه المتفتتة، ويسرع إلى أهوال القيامة، فينظر إلى قيامة قائمة، وسماء مشقّقة، وأرض مبدّلة، وجبال مسيّرة، ونجوم منكدرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وكثرة عرق ملجمة، وملائكة غلاظ شداد، وأهوال تتفتت منها الأكباد.

ويرى الصحائف منشورة فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤] فيقرأ فيه مساوئه التي كان افتخاره بها، واستكباره بأسبابها، فعند ذلك يقول: ﴿يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فيقال له: هلمّ إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تصير إلى أليم العذاب، فينقطع قلبه من هول ذاك الخطاب.

فما لمن هذا حاله والتكبر والتعزّز والكبرياء والخيلاء، بل ما له وللفرح في لحظة

واحدة فضلاً عن البطر والأشر مدة متمادية، ولو ظهر آخره والعياذ بالله أحب أن يكون تراباً، ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً، ولا يشاهد الجحيم له مآباً.

ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه في بحار الدنيا لصارت أشد عفونة من الجيفة.

فمن هذا حاله في العاقبة كيف يفرح ويبطر؟ وكيف يتجبّر ويتكبر؟ وكيف يرى نفسه شيئاً ويعتقد له فضلاً؟، وأي عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو له الكريم بفضله، ويغفره بإحسانه ومنّه.

أرأيت من جنى على ملك قاهر قادر، واستحق بجنايته القتل أو السياسة فجلس في السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملاء من الخلق، وليس يدري أيعفى عنه أم يعاقب، كيف يكون ذلّه، أفترى أنه يتكبر على من في السجن، وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه، وقد استحق العقوبة من الله ولا يدري كيف يكون آخر أمره فيكفيه لو تفكّر ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً.

وأما الثالث

فاعلم أن الغرض من خلقة الإنسان هو العبودية والإطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] فإذاً لا فضل لأحد أفراد هذا النوع على الآخر إلا بحصول ذلك الغرض منه، أعني القيام بوظائف العبودية، وبه يترقى إلى درجات الكمال، ويتقرّب إلى الربّ المتعال، ويكرم عنده كما قال عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣] يعني إن أكثركم عند الله ثواباً وأرفعكم عند الله منزلة أتقاكم لمعاصيه وأعملكم بطاعته.

روى الطبرسي في **(مجمع البيان)** في وجه نزول الآية أن ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر، وكان إذا دخل تفسّحوا له حتى يقعد عند النبي ﷺ فيسمع ما يقول، فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا، حتى انتهى إلى رجل، فقال له: أصبت مجلساً فاجلس، فجلس خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة؟ ذكر أماً له كان يعيّر بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه حياء فقال صلوات الله وسلامه عليه وآله: «من الذاكر فلانة؟»، فقام ثابت فقال: أنا يا رسول الله، فقال: «انظر في وجوه القوم»، فنظر إليهم فقال: «ما رأيت يا ثابت؟»، فقال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال:

«فإنك لا تفضّلهم إلا بالتقوى والدين»(١) فنزلت هذه الآية.

وقيل: لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا ظهر الكعبة وأذّن، فقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ وقال سهيل بن عمر: أن يرد الله شيئاً لغيره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبره به رب السماوات، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فأخبره بما قالوا، فدعاهم رسول الله ﷺ وسألهم عما قالوا فأقرّوا به، ونزلت الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والإزراء بالفقر والتكاثر بالأموال.

فقد ظهر بذلك أن جهة الفضل في أفراد النوع الإنساني منحصرة في الورع والتقوى فقط.

ويدل عليه أيضاً ما روي: أن رجلاً سأل عيسى ابن مريم عليه السلام: أي الناس أفضل؟ فأخذ قبضتين من التراب فقال: «أي هاتين أفضل؟! الناس خلقوا من تراب، فأكرمهم أتقاهم».

وكان أمير المؤمنين عليه السلام لما عوتب على التسوية في العطاء وعدم التفضيل لأُولي السابقات والشرف من المهاجرين والأنصار على غيرهم، واعترض عليه بعدم ترجيح المولى على العبد وعدم التفرقة بين الأبيض والأسود، أجاب عليه السلام بقوله: إني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً(٢).

وكان رسول الله ﷺ صعد المنبر يوماً وذكر ما كانوا يتفاخرون ويتكبرون به في الجاهلية، فقال: «إنه موضوع تحت قدمي إلى يوم القيامة»، ولم ينزل من المنبر حتى زوّج بنت عمته صفية ابنة عبد المطلب من المقداد مع كونه من أفقر الناس حالاً وأقلّهم مالاً.

وقد سوّى بينهم أيضاً في أعظم الأمور وأهمها وهو أمر الدماء فقال ﷺ: «المسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم».

فإذا كان دم السلطان مساوياً لدم الكنّاس فأي مزية له عليه؟.

فقد علم بذلك أن لا تفضيل في غير الورع والتقوى والدين وأنه لا يجوز الافتخار والتفاخر به بل لا يجوز التفاخر بالتقوى أيضاً ولا ينبغي المباهاة به.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٤، وتفسير مجمع البيان: ٩/ ٢٢٥.

(٢) الكافي: ٨/ ٦٩ ح ٢٦، وشرح أصول الكافي: ١١/ ٤٢٤ ح ٢٦.

ويومىء إليه ما رواه الطبرسي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجل جعل الخلق قسمين: فجعلني في خيرهم وذلك قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٧٢] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]، **فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً وذلك قوله:** ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٩] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة: ١٠]، فأنا من السابقين وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، فأنا أتقى ولد آدم ولا فخر وأكرمهم على الله ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً وذلك قوله عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب»(١).

فإن غرضه بذلك بيان شأنه للناس لا التفاخر، ولهذا قال ﷺ في المقامين: «ولا فخر»، فبالغ في نفيه (**بلا**) النافية للجنس.

وإلى هذا المعنى ينظر ما جاء في الحديث من: «أن الله سبحانه أوحى إلى موسى إذا جئت للمناجاة فاصحب معك من تكون خيراً منه»، فجعل موسى عليه السلام لا يعترض أحداً وهو لا يجسر أن يقول: إني خير منه، فنزل عن الناس وشرع في أصناف الحيوانات حتى مر بكلب أجرب فقال: أصحب هذا، فجعل في عنقه حبلاً ثم مر به، فلما كان في بعض الطريق شمّر الحبل وأرسله، فلما جاء إلى مناجاة الرب سبحانه قال تعالى: «يا موسى أين ما أمرتك به؟» قال: يا رب لم أجده، فقال تعالى: «وعزّتي وجلالي لو أتيتني بأحد لمحوتك من ديوان النبوّة»(٢).

فإذا كان مثل موسى مع كونه نبياً أولي العزم وأفضل أهل زمانه كما هو اعتقادنا في الأنبياء والرسل لم يجسر أن يقول لأحد من آحاد الناس ولفرد من أفراد الحيوان حتى الكلب الأجرب: أنا خير منه، فكيف لغيره.

وأي معنى للتعزّز والتكبر والتفاخر على عباد الله وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١] مع أن الأمور التي يتكبر المتكبر بها على غيره، ويزعمها كمالاً لنفسه ليست كمالاً ذاتياً في الحقيقة، ولا تليق أن يتعزز بها.

---

(١) مناقب أمير المؤمنين (ع): ١/١٢٨ ح ٣٣، وبحار الأنوار: ١٦/١٢٠.

(٢) عدة الداعي: ٢٠٤.

لأن المتكبر به إن كان النسب ففيه أن التكبر إن كان بالنسب البعيد «ففيه أن النسب البعيد» لكل إنسان هو الماء والطين لا تفاوت بين أفراده من هذه الجهة كما لا تفاوت بينهم في الجد والجدة. قال أمير المؤمنين عليه السلام في الديوان المنسوب إليه:

الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
وإن يكن لهم في أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

وإن كان بالنسب القريب ففيه: أنه إذا كان خسيساً في ذاته ذميماً في صفاته فلا يجبر نقصانه كمال آبائه وأسلافه. قال الشاعر:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقال آخر:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك مضمونه من النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

على أن التعزز بالنسب تعزز بكمال غيره ولا ينفعه ذلك في الدنيا ولا في العقبى، ولذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول بعد تلاوة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١ـ ٢]: أفبمصارع آبائهم يفخرون، أم بعديد الهلكى يتكاثرون؟، إلى آخر ما يأتي في الكلام المائتين والتاسع عشر. وقال سلمان (رض):

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وقال صاحب بن عبّاد:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالاً على نسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب

ألا ترى إلى ابن نوح فإنه مع كونه ابن نبي مرسل من أولي العزم ما نجاه ذلك النسب الشريف ولا نفعه، بل كان من المغرقين، وفي جهنم من الخالدين، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [نوح: ٤٥ـ ٤٦] فلم يستجب فيه دعوته ونفى عنه بنوّته لمخالفته لأبيه وعصيانه له.

وروي عن سيد الساجدين عليه السلام أنه قال: إنما خلقت النار لمن عصى الله ولو كان سيداً قرشياً، والجنة لمن أطاع الله ولو كان عبداً حبشياً.

وناهيك في المنع من التكبر بالنسب قوله عزّ من قائل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ

الأرض، والدجال وفتنته وما يظهر على يده من المخاريق والأمور الموهمة، وواقعة السفياني وأن يقتل فيها من الخلائق الذي لا يحصى عددهم، انتهى[١].

ثم أشار إلى سيرة أهل بيته عليهم السلام عند ظهور هذه الفتن فقال: **(ألا ومن أدركها منا) أهل** البيت **(يسري فيها)** أي في ظلمات هذه الفتن **(بسراج منير)** أي بنور الإمامة والولاية، فلا توجب ظلماتها انحرافه عن طريق الهدى، ولا توقع له شبهة في عقيدته الصادقة الصافية بل يسلك فيها مسلك الحق المبين **(ويحذو فيها على مثال)** أسلافه **(الصالحين)** ويقتفي آثار أولياء الدين **(ليحلّ فيها ربقاً ويعتق رقّاً)** أي يستفك الهدى وينقذ مظلومين من أيدي الظالمين، ويحتمل أن يكون كناية عن حله فيها ربق الشك من أعناق النفوس وعتقها من ذل الجهل **(ويصدع شعباً ويشعب صدعاً)** أي يفرق ما اجتمع واتفق من الضلال ويصلح ما تشتت وتفرّق من الهدى.

وقوله: **(في سترة عن الناس)** قال الشارح المعتزلي هنا بعد بنائه على أن المراد بالموصول في قوله عليه السلام سابقاً: ومن أدركها، هو مهدي آل محمد سلام الله عليه وعلى آبائه الطاهرين: إن هذا الكلام يدل على استتار هذا الإنسان المشار إليه وليس ذلك بنافع للإمامية في مذهبهم وإن ظنوا أنه تصريح بقولهم، وذلك لأنه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله في آخر الزمان ويكون مستتراً مدة وله دعاة يدعون إليه ويقررون أمره ثم يظهر بعد ذلك الاستتار ويملك الممالك ويقهر الدول ويمهد الأرض كما ورد في الخبر، انتهى.

أقول: قد أشرنا في الخطبة المائة والثامنة والثلاثين أن المهدي صاحب الزمان عليه صلوات الرحمٰن مخلوق موجود الآن، وأن خلاف المعتزلة ومن حذا حذوهم فيه وإنكارهم لوجوده بعد مما لا يعبأ به بعد قيام البراهين العقلية والنقلية ودلالة الأصول المحكمة على وجوده كما هو ضروري مذهب الإمامية رضوان الله عليهم، وكتب أصحابنا في الغيبة كفتنا مؤنة الاستدلال في هذا المقام.

وكيف كان فلو أُريد بالموصول خصوص إمام الزمان عليه السلام لا بد أن يكون المراد بقوله: في سترة عن الناس، غيبته واستتاره عن أعين الناس، ويكون قوله: **(لا يبصر القائف أثره ولو تابع نظره)** إشارة إلى شدة استتارة وعدم إمكان الوصول إليه ولو استقصى في الطلب وبولغ في النظر والتأمل إلا للأوحدي من الناس إذا اقتضت الحكمة الإلٰهية، ولو أريد به العموم كان المقصود به ما قاله الشارح البحراني حيث قال: وما زالت أئمة أهل البيت عليهم السلام مغمورين في الناس لا يعرفهم إلا من عرفوه أنفسهم حتى لو تعرفهم من لا يريدون معرفته لم

(١) شرح النهج: ١٢٨/٩.

يعرفهم، لست أقول لم يعرف أشخاصهم بل لا يعرف أنهم أهل الحق والأحقون بالأمر.

(ثم ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل) قال الشارح المعتزلي: يريد ليحرضنّ في هذه الملاحم قوم على الحرب وقتل أهل الضلال، وليوطننّ عزائمهم كما يشحذ الصيقل السيف ويطلق حدّه.

وقال الشارح البحراني: أي في أثناء ما يأتي من الفتن تشحذ أذهان قوم وتعدّ لقبول العلوم والحكمة كما يشحذ الحداد النصل، ولفظ الشحذ مستعار لإعداد الأذهان، ووجه الاستعارة الاشتراك في الإعداد التام النافع، فهو يمضي في مسائل الحكمة والعلوم كمضي النصل فما يقطع به وهو وجه التشبيه المذكور، انتهى.

أقول: فعلى قول الأول يكون المراد بقوله عليه السلام: **(قوم)**، أنصار إمام الزمان عليه السلام وأصحابه، وعلى قول الثاني يكون المراد به علماء الأمة المستجمعين لكمالات النفوس، السالكين لسبيل الله من جاء منهم قبلنا ومن يأتي في آخر الزمان.

ووصف هؤلاء بقوله: **(يجلي بالتنزيل أبصارهم ويرمي بالتفسير في مسامعهم)** أي يكشف الرين، وتدفع ظلمات الشكوك والشبهات عن أبصار بصائرهم بالقرآن والتدبر في بديع أسلوبه ومعانيه، ويرمي بتفسيره حق التفسير في مسامعهم، والجملة الثانية بمنزلة التعليل للأولى، يعني أنهم لتلقيهم تفسيره على ما يحق وينبغي من أهل الذكر الذين هم معادن التنزيل والتأويل وتحصيلهم المعرفة عنهم عليهم السلام بمعانيه ومبانيه وأسراره الباطنة والظاهرة وحكمه الجلية والخفية ارتفعت أغطية الشبهات وغشاوة الشكوكات عن ضمائرهم وبصائرهم، فاستعدت أذهانهم لإدراك المعارف الحقة والحكم الإلٰهية، ولم تزل الأسرار الربانية والعنايات الإلٰهية تفاض إليهم صباحاً ومساء.

وهو معنى قوله: **(ويغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح)** وهو من باب الاستعارة بالكناية حيث شبه الحكمة التي هي عبارة عن المعارف المتضمنة لصلاح النشأتين بالشراب، والجامع عظم المنفعة واللذة فيهما وإن كانت منفعة الأولى للأرواح وبها التذاذها وكمالها، ونفع الثاني للأبدان ومنه حظها، وإثبات الكأس تخييل، وذكر الغبوق والصبوح ترشيح.

الفصل الثاني

(منها) قوله عليه السلام: **(وطال الأمد بهم ليستكملوا الخزي ويستوجبوا الغير)** قال الشارحان البحراني والمعتزلي: هذا الفصل من كلامه يتصل بكلام قبله لم يذكره الرضي قد وصف فيه فئة ضالة قد استولت وملكت وأملى لها الله سبحانه، انتهى.

إن قيل: كيف ساغ جعل طول الأمد علّة لاستكمال الخزي؟

قلت: (**اللام**) هنا ليست على التعليل حقيقة بل هي على العلية المجازية كما في قوله سبحانه: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا﴾ [القصص: ٨] حيث شبّه ترتب كونه عدواً وحزناً على الالتقاط بترتب العلة الغائية على معلولها، فاستعمل فيه (**اللام**) الموضوعة للعلية، وفيما نحن فيه أيضاً لما كان طول المدة سبباً لتماديهم في الغي والغفلة، وفعلهم للآثام والمعاصي بسوء اختيارهم، وكان فعل المعاصي جالباً لكمال الخزي، وموجباً لتغير النعم، فجعلوا بفعلهم للمعاصي بمنزلة الطالبين لكمال الخزي، ثم رتّب استكمال الخزي على طول الأمد واستعمل (**اللام**) الموضوعة للعلية فيه، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ومحصل المرام أنهم بطول بقائهم في الدنيا ركبوا الذنوب والمعاصي، فاستحقوا بذلك الخزي والنكال، واستوجبوا تغير النعمة بسوء الأعمال.

لأن ﴿ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، قال: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: ١٦ـ ١٧].

(**حتى إذا اخلولق الأجل**) قال الشارح البحراني: أي صار خليقاً، وليس بشيء، لأن اخلولق لم يذكر له إلا الفاعل فهو فعل تام بمعنى قرب، وما ذكره معنى اخلولق إذا ذكر له اسم وخبر وكان فعلاً ناقصاً مثل: اخلولقت السماء أن تمطر أي صارت خليقةً للإمطار، وكيف كان فالمراد أنه قرب انقضاء مدة هؤلاء الضالين المستكملين للخزي والمستوجبين للغير.

(**واستراح قوم إلى الفتن**) أي مال وصبا قوم من الشيعة وأهل البصرة إلى فتن تلك الفئة الضالة، ووجدوا الراحة لأنفسهم في توجههم إليها (**واشتالوا عن لقاح حربهم**) أي رفع هؤلاء المستريحون أنفسهم عن تهيّج الحرب بينهم وبين هذه الفئة، وشبّه الحرب بالناقة اللاقح وأثبت لها اللقاح تخييلاً، والمراد أنهم تركوا محاربتهم ورفعوا أيديهم عن سيوفهم إما لعجزهم عن القتال أو لعدم قيام القائم بالأمر فهادنوهم وألقوا إليهم السلم.

حال كونهم (**لم يمنّوا على الله بالصبر**) على مشاق القتال، وفي رواية: بالنصر، أي بنصرهم لله (**ولم يستعظموا بذل أنفسهم في**) طلب (**الحق**) ونصرته (**حتى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدة البلاء**) أي ورد القضاء الإلهي بانقطاع بلاء هذه الفئة الضالة وانقضاء ملكهم وأمارتهم وأذن الله في استئصالهم بظهور من يقوم بنصر الحق ودعوته إليه (**حملوا**) أي هؤلاء المستريحون إلى الفتن (**بصائرهم على أسيافهم**) لحرب أهل الضلال، قال الشارح المعتزلي:

وهذا معنى لطيف، يعني أنهم أظهروا بصائرهم وعقائد قلوبهم للناس وكشفوها وجردوها من أجفانها مع تجريد السيوف من أجفانها فكأنها شيء محمول على السيوف يبصره من يبصر السيوف، فترى في غاية الجلاء والظهور كما ترى السيوف المجردة **(ودانوا لربهم بأمر واعظهم)** أشار به إلى الإمام القائم عجل الله ظهوره، هذا.

وللشراح في شرح هذا الفصل من كلامه عليه السلام اضطراب عظيم، وتحيروا في مراجع الضمائر الموجودة فيه، واضطروا في إصلاح نظم الكلام إلى التأويلات الباردة التي تشمئز عنها الأفهام، ونحن شرحناه بحمد الله على ما لا يخرجه من السلاسة والنظم بمقتضى سليقتنا، والعلم بعد موكول إلى صاحب الكلام عليه السلام.

الفصل الثالث

في اقتصاص حال المرتدّين بعد قبض الرسول صلى الله عليه وآله، وظاهر هذا الفصل يعطى أن يكون قبله كلام أسقطه الرضى حتى يكون هذا الكلام غاية له، وإلا فلا ارتباط له بالفصل المتقدم.

يقول عليه السلام: **(حتى إذا قبض الله رسوله صلى الله عليه وآله رجع قوم على الأعقاب)** وتركوا ما كانوا عليه من الانقياد للشريعة وامتثال أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وآله، والمراد بهؤلاء القوم الغاصبون للخلافة ومتبعوهم والمقتفون أثرهم **(وغالتهم السبل)** أي أهلكتهم سبل الضلال وعدولهم عن سبيل الحق، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقد فسّر السبيل في هذه الآية وفي غير واحد من الآيات بالأئمة وولايتهم، وفسر السبل بأئمة الضلال وولايتهم وقد مضى طرف من الأخبار في هذا المعنى في شرح الفصل الثاني من الكلام السابع عشر.

وأقول هنا: روي في **(البحار)** من تفسير فرات بن إبراهيم عن جعفر بن محمد الفزاري معنعناً عن حمران، قال: سمعت أبا جعفر يقول في قول الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال: علي بن أبي طالب والأئمة من ولد فاطمة عليهم السلام هم صراط الله، فمن أتاهم سلك السبيل.

ومن **(كنز جامع الفوائد وتأويل الآيات)** عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النضر عن يحيى الحلبي عن أبي بصير عن أبي جعفر في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ قال: طريق الإمامة فاتبعوه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي طرقاً غيرها[١].

وعن محمد بن القاسم عن السياري عن محمد بن خالد عن حماد عن حريز عن أبي

(١) بحار الأنوار: ٢٤/١٧ ح ٢٥، وتأويل الآيات: ١/١٦٧ ح ١.

عبد الله عليه السلام أنه قال: قوله عزَّ وجل: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٧] يعني علي بن أبي طالب عليه السلام[١].

ومن (**تفسير الإمام**) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من عبد ولا أمة أعطى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام في الظاهر ونكثها في الباطن وأقام على نفاقه إلا وإذا جاءه ملك الموت لقبض روحه تمثل له إبليس وأعوانه، وتمثلت النيران وأصناف عفاريتها[٢] لعينيه وقلبه ومقاعده مقاعد الناكث من مضايقها، وتمثل له أيضاً الجنان ومنازله فيها لو كان بقي على إيمانه ووفى بيعته فيقول له ملك الموت: انظر إلى تلك الجنان التي لا يقدر قدر سرائها وبهجتها وسرورها إلا الله رب العالمين كانت معدّة لك، فلو كنت بقيت على ولايتك لأخي محمد رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكون إليها مصيرك يوم فصل القضاء، ولكن نكثت وخالفت فتلك النيران وأصناف عذابها وزبانيتها وأفاعيها الفاغرة أفواهها وعقاربها الناصبة أذنابها وسباعها الشائلة مخالبها وسائر أصناف عذابها هو لك وإليها مصيرك فعند ذلك يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ وقبلت ما أمرني به والتزمت من موالاة علي عليه السلام ما ألزمني[٣].

(**واتكلوا على الولائج**) أي اعتمدوا في آرائهم الفاسدة وبدعهم المبتدعة على أهلهم وخواصهم في نصرة ذلك الرأي وترويج تلك البدعة (**ووصلوا غير الرحم**) أي رحم آل محمد (**واللام**) عوض عن المضاف إليه، يعني أنهم قطعوا رحم الرسول صلى الله عليه وآله بحسبانهم أنها لا تنفع، ووصلوا غيرها لانتفاعهم في دنياهم بها.

وهؤلاء هم الذين أشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله في الحديث المروي في (**البحار**) من (**أمالي**) الشيخ وابنه عن المفيد معنعناً عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول على المنبر: «ما بال أقوام يقولون إن رحم رسول الله صلى الله عليه وآله لا ينفع يوم القيامة، بلى والله إن رحمي لموصولة في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فرطكم يوم القيامة على الحوض، فإذا جئتم قال الرجل: يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول: أما النسب فقد عرفته ولكنكم أخذتم بعدي ذات الشمال وارتددتم على أعقابكم القهقرى».

وفيه منه بإسناده عن حمزة بن أبي سعيد الخدري أيضاً عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أتزعمون أن رحم نبي الله لا ينفع قومه يوم القيامة؟ بلى والله وإن رحمي لموصولة في الدنيا والآخرة»، ثم قال: «يا أيها الناس أنا فرطكم على الحوض فإذا جئت وقام رجال يقولون: يا

(١) تفسير أبي حمزة الثمالي: ١٩٦، وتأويل الآيات: ١/ ٣٧٣ ح ٦.

(٢) بحار الأنوار: ٢٤/ ١٨ ح ٣٠، وتفسير الإمام علي (ع): ١٣٢.

(٣) الأمالي: ٢٦٩ ح ٥٠٠، وبحار الأنوار: ٢٣/ ١٦٥.

نبي الله أنا فلان ابن فلان، وقال آخر: يا نبي الله أنا فلان ابن فلان، وقال آخر: يا نبي الله أنا فلان ابن فلان، فأقول: أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى»[١].

قال العلامة المجلسي بعد رواية هذا الحديث: الظاهر أن المراد بالثلاثة الثلاثة.

(وهجروا السبب الذي أمروا بمودته) أراد بهم آل محمد عليهم السلام أيضاً لكونهم سبباً لمن اهتدى بهم في الوصول إلى الله سبحانه.

ويدل عليه ما رواه في **(البحار)** من أمالي الشيخ وابنه بسنده عن محمد بن المثنى الأزدي أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: نحن السبب بينكم وبين الله عزَّ وجل وقد أمرنا الله بمودّتهم في قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣][٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في مروي **(البحار)** من كتاب **(العمدة)** من مناقب الفقيه ابن المغازلي الشافعي بإسناده إلى ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما خلق الله الخلق اختار العرب فاختار قريشاً واختار بني هاشم فأنا خيرة من خيرة، ألا فأحبوا قريشاً ولا تبغضوها فتهلكوا، ألا كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، ألا وإن علي بن أبي طالب عليه السلام من نسبي وحسبي فمن أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني»[٣].

قال الشارح المعتزلي في شرح قوله: **(وهجروا السبب)** يعني أهل البيت، وهذا إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله: «خلفت فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض»، فعبر أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ السبب لما كان النبي صلى الله عليه وآله قال: «حبلان»، والسبب في اللغة الحبل، انتهى.

أقول: وقد استعير لهم عليهم السلام لفظ الحبل في غير واحد من الآيات، قال شيخنا أبو علي الطبرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ٣] قيل في معنى حبل الله أقوال: **أحدها**: أنه القرآن. **ثانيها**: أنه دين الإسلام. **وثالثها**: ما رواه أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: نحن حبل الله الذي قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، والأولى حمله على الجميع.

والذي يؤيده ما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «يا أيها الناس إني قد

---

(١) الأمالي: ١٥٧ ح ٢٦٠، وبحار الأنوار: ٢٣/ ١٠١ ح ٥.

(٢) الأمالي: ٦٥٦، وكمال الدين وتمام النعمة: ٢٦٠.

(٣) العمدة لابن بطريق: ٢٨٨ ح ٤٦٧، وتفسير فرات: ٩١ ح ٧٢.

تركت فيكم حبلين إن أخذتم بهما لن تضلوا بعدي أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[١].

وفي **(البحار)** من تفسير علي بن إبراهيم في هذه الآية قال: التوحيد والولاية، وفي رواية أبي الجارود في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ قال: إن الله تبارك وتعالى علم أنهم سيفترقون بعد نبيهم ويختلفون، فنهاهم الله عن التفرق كما نهى من كان قبلهم، فأمرهم أن يجتمعوا على ولاية آل محمد صلى الله عليه وآله ولا يتفرّقوا.

وفي **(البحار)** أيضاً من **(كنز جامع الفوائد وتأويل الآيات)** رواية عن صاحب **(نهج الإيمان)** عن الحسين بن جبير بإسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] قال: حبل من الله كتاب الله، وحبل من الناس علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

وفيه من الكتاب المذكور أيضاً مسنداً عن حصين بن مخارق عن أبي الحسن موسى عن آبائه عليهم السلام في قوله عز وجل: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قال: مودتنا أهل البيت[٣].

وفي **(الصافي)** من معاني الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله: «من أحب أن يستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها فليستمسك بولاية أخي ووصيّ علي بن أبي طالب فإنه لا يهلك من أحبه وتولاه ولا ينجو من أبغضه وعاداه»[٤].

(ونقلوا البناء عن رص أساسه فبنوه في غير موضعه) أي نقلوا بناء الدين والإيمان عن أساسه المرصوص المستحكم اللاصق بعضه ببعض، فبنوه في غير موضعه وهو إشارة إلى عدولهم بالخلافة عن أصلها ومكانها اللائق به إلى غيره، وهو توبيخ وتقريع آخر لأولئك المنافقين بعدولهم عن أولياء المؤمنين وأئمة الدين، كما وبّخ الله إخوانهم في هذا المعنى بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ﴾ [التوبة: ١٠٩] يعني أن المحق أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة وأساس وثيق وهو الحق الذي هو التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة، والمبطل أسس

---

(١) قرب الإسناد: ٧، والإمامة والتبصرة: ٤٤.
(٢) بحار الأنوار: ٢٤/ ٨٤ ح ٢، وتفسير كنز الدقائق: ٢/ ٢٠٢.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٧٠، وبحار الأنوار: ٢٤/ ٨٤ ح ٤.
(٤) معاني الأخبار: ٣٦٩، وبحار الأنوار: ٣٨/ ١٢١ ح ٦٨.

بنيانه على قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلّة الثبات، فهوى به الباطل في نار جهنم.

ثم وصفهم بأوصاف أخرى فقال: **(معادن كل خطيئة)** قال الشارح البحراني: أي إنهم مستعدون لفعل كل خطيئة ومهيؤون لها، فهم مظانها، ولفظ المعادن استعارة، انتهى.

أقول: والظاهر أن المراد أنهم معدن كل خطيئة صدرت من هذه الأمة وأصل كل ذنب واقع منهم ومنشأه ومبدأ الشرور والمساوىء، وذلك باغتصابهم للخلافة إذ لو استقرت في أهلها أعني أهل بيت العصمة والطهارة لحملوا الناس على الحنيفية البيضاء، وجرت الأمور على وفق الحق فضلّوا وأضلّوا. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٤ـ ٢٥].

روى في **(الصافي)** عن العياشي عن الباقر عليه السلام: ماذا أنزل ربكم في علي؟ قالوا: أساطير الأولين سجع أهل الجاهلية في جاهليتهم ليحملوا أوزارهم ليستكملوا الكفر ليوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم يعني كفر الذين يتولونهم[1].

وعن علي بن إبراهيم القمي قال: يحملون آثامهم يعني الذين غصبوا أمير المؤمنين وآثام كل من اقتدى بهم، وهو قول الصادق عليه السلام: والله ما أُهريقت محجمة من دم ولا قرع عصا بعصا ولا غصب فرج حرام ولا أخذ مال من غير حلّه إلا وزر ذلك في أعناقهما من غير أن ينقص من أوزار العاملين شيء.

وفي حديث مفضل بن عمر الوارد في الرجعة عن الصادق عليه السلام بعد اقتصاصه مسير المهدي عليه السلام إلى قبر جده رسول الله صلى الله عليه وآله وإخراجه بضجيعيه وأمره بصلبهما قال: فيأمر المهدي ريحاً فتجعلهم كأعجاز نخل خاوية، ثم يأمر بإنزالهما فينزلان فيحييهما بإذن الله تعالى ويأمر الخلائق بالاجتماع، ثم يقصّ عليهم قصص أفعالهم في كل كور ودور حتى يقص عليهم قتل هابيل بن آدم عليه السلام، وجمع النار لإبراهيم، وطرح يوسف في الجب، وحبس يونس في بطن الحوت، وقتل يحيى، وصلب عيسى، وعذاب جرجيس، ودانيال، وضرب سلمان الفارسي، وإشعال النار على باب أمير المؤمنين وفاطمة والحسنين عليهم السلام وإرادة إحراقهم بابها، وضرب الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء بسوط، ورفس بطنها وإسقاطها محسناً، وسمّ الحسن عليه السلام، وقتل الحسين وذبح أطفاله وبني عمه وأنصاره وسبي ذراري رسول الله صلى الله عليه وآله وإراقة دماء آل محمد، وكل دم مؤمن، وكل فرج نكح حراماً، وكل ربا أكل، وكل خبث

(١) تفسير أبي حمزة الثمالي: ٢٢٩ ح ١٧٤، وتفسير العياشي: ٢/ ٢٥٧.

وفاحشة وظلم منذ عهد آدم إلى قيام قائمنا، كل ذلك يعدده عليهما ويلزمهما إياه ويعترفان به ثم يأمر بهما فيقتص منهما في ذلك الوقت مظالم من حضر[١]، الحديث.

(و) بما ذكرنا ظهر أيضاً أنهم **(أبواب كل ضارب في غمرة)** يعني أن كل من أراد الباطل والضلال فليقصد هؤلاء وليرمق أعمالهم وليتبع آثارهم، وإذ كل ضلال قد خرج منهم وانتشر في مشارق الأرض ومغاربها، فهم أبواب الضلال كما أن الأئمة عليهم السلام أبواب الهدى.

روى في **(البحار)** من **(كنز جامع الفوائد)** وتأويل الآيات عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابه رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج: ٨ـ ٩].

قال: هو الأول ثاني عطفه إلى الثاني، وذلك لما أقام رسول الله أمير المؤمنين علماً للناس وقال: والله لا نفي بهذه له أبداً **(قد ماروا في الحيرة)** أي ترددوا في أمرهم، فهم حائرون تائهون لا يعرفون جهة الحق فيقصدونه، وذلك بعدولهم عن أئمة الدين وأدلاء الشرع المبين.

روى العلامة المجلسي من كتاب **(المحاسن)** عن محمد بن علي بن محبوب عن العلا عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه بلا إمام عادل من الله فإن سعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحيّر، ومثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها وقطيعها فتاهت ذاهبة وجائية يومها، فلما أن جنّها الليل بصرت بقطيع غنم مع راعيها فجاءت إليها فباتت معها في ربضها[٢]. فلما أن ساق الراعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها فهجمت متحيّرة تطلب راعيها وقطيعها، فبصرت بسرح[٣] قطيع غنم آخر فعمدت نحوها وحنّت إليها، فصاح بها الراعي: إلحقي بقطيعك فإنك تائهة متحيّرة قد ضللت عن راعيك وقطيعك فهجمت زعرة متحيّرة لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها أو يردّها، فبينا هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها، وهكذا يا محمد بن مسلم من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عادل أصبح تائهاً متحيّراً إن مات على حاله تلك مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمد أن أئمة الحق وأتباعهم على دين الله[٤].

وقد تقدمت هذه الرواية في التذنيب الثالث من شرح الفصل الرابع من الخطبة الأولى

---

(١) الهداية الكبرى: ٤٠٢، وبحار الأنوار: ٥٣/ ١٤.

(٢) ربض الغنم: مرعاها. (٣) السرح: المال السائم.

(٤) المحاسن: ١/ ٩٣، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٨٧.

برواية (**الكافي**) وأوردتها هنا لاقتضاء المقام، وتوضيح كلام الإمام عليه السلام.

(وذهلوا في السكرة) أي غابت أذهانهم في سكرة الجهل **(على سنّة من آل فرعون)** أي على طريقة أتباع فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ [غافر: ٤٦] كما أن الأئمة عليهم السلام على سنّة آل موسى وشيعته، والمراد أنهم على طريقة أهل الظلم والضلال كما أن الأئمة عليهم السلام على طريقة أهل العدل والهدى.

وقد صرحوا بذلك في غير واحد من الروايات مثل ما في (**البحار**) عن العياشي عن أبي الصباح الكناني قال: نظر أبو جعفر إلى أبي عبد الله عليه السلام فقال: هذا والله من الذين قال الله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥] الآية.

وقال سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام: والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق بشيراً ونذيراً إن الأبرار منا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته، وإن عدوّنا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه[١].

وفيه من تفسير فرات بن إبراهيم عن الحسين بن سعيد بإسناده عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: من أراد أن يسأل عن أمرنا وأمر القوم فإنا وأشياعنا يوم خلق الله السماوات والأرض على سنّة موسى وأشياعه، وإن عدوّنا يوم خلق الله السماوات والأرض على سنّة فرعون وأشياعه، فنزلت فينا هذه الآيات: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٣-٦]، وإني أقسم بالذي خلق[٢] الحبّة وبرّىء النسمة ليعطفن عليكم هؤلاء عطف الضّروس[٣] على ولدها[٤].

وفيه عن علي بن إبراهيم قال: حدّثني أبي عن النضر عن ابن حميد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لقى المنهال بن عمرو علي بن الحسين صلوات الله عليهما فقال له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ قال: ويحك أما آن لك أن تعلم كيف أصبحت؟ أصبحنا في قومنا

---

(١) بحار الأنوار: ٢٤/ ١٦٨، وتفسير مجمع البيان: ٧/ ٤١٤.

(٢) في نسخة: فلق.

(٣) ضرسهم الزمان: شد عليهم، وناقة ضروس: سيئة الخلق تعض حالبها.

(٤) بحار الأنوار: ٢٤/ ١٧١ ح ٩، وتفسير فرات الكوفي: ٤٢ ح ١.

مثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا[١].

(من منقطع إلى الدنيا راكن أو مفارق للدين مباين) أو لمنع الخلوّ يعني أن صنفاً منهم منقطع إلى الدنيا منهمك في لذاتها مكبّ على شهواتها، والصنف الآخر مفارق للدين مزايل له وإن لم يكن له ذنباً كما ترى كثيراً من أحبار النصارى ورهبانهم، يتركون الدنيا ويزهدون فيها وهم من أهل الضلال.

تنبيه

قال الشارح المعتزلي في شرح هذا الفصل الأخير من الخطبة:

فإن قلت: أليس الفصل صريحاً في تحقيق مذهب الإمامية؟

قلت: لا، بل نحمله على أنه عنى عليه السلام أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم من أفناء العرب في أيام صفين، وهم الذين نقلوا البناء، وهجروا السبب ووصلوا غير الرحم، واتكلوا على الولائج، وغالتهم السبل، ورجعوا على الأعقاب كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة وحبيب بن مسلمة وبسر بن أرطأة وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وجوشب، وذي الكلاع وشرجيل بن الصمت وأبي الأعور السلمي وغيرهم ممن تقدم ذكرنا لهم في الفصول المتعلقة بصفين وأخبارها، فإن هؤلاء نقلوا الإمامة عنه عليه السلام إلى معاوية، فنقلوا البناء عن رصّ أصله إلى غير موضعه.

فإن قلت: لفظ الفصل يشهد بخلاف ما تأولته لأنه عليه السلام قال: حتى إذا قبض الله رسوله صلى الله عليه وآله رجع قوم على الأعقاب، فجعل رجوعهم على الأعقاب عقيب قبض الرسول صلى الله عليه وآله، وما ذكرته أنت كان بعد قبض الرسول بنيّف وعشرين سنة.

قلت: ليس يمتنع أن يكون هؤلاء المذكورين رجعوا على الأعقاب لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وأضمروا في أنفسهم مشاقة أمير المؤمنين عليه السلام وأذاه، وقد كان فيهم من يتحكك به في أيام أبي بكر وعمر وعثمان ويتعرّض له ولم يكن أحد منهم ولا من غيرهم تقدم على ذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا يمتنع أيضاً أن يريد برجوعهم على الأعقاب ارتدادهم عن الإسلام بالكلية، فإن كثيراً من أصحابنا يطعنون في إيمان بعض من ذكرناه، ويعدّونهم من المنافقين، وقد كان سيف رسول الله صلى الله عليه وآله يقمعهم ويردعهم عن إظهار ما في أنفسهم من النفاق، فأظهر قوم منهم بعده ما كانوا يضمرونه من ذلك خصوصاً فيما يتعلق بأمير المؤمنين الذي ورد في حقه: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغض علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو خبر محقق مذكور في **(الصحاح)**.

(١) الأمالي: ١٥٤ ح ٢٥٥، وبحار الأنوار: ٢٤/ ١٧٠ ح ٤.

فإن قلت: يمنعك من هذا التأويل قوله: **(ونقلوا البناء عن رصّ أساسه فجعلوه في غير موضعه)**، وذلك لأن إذا ظرف والعامل فيها قوله: رجع قوم على الأعقاب، وقد عطف عليه قوله: **(ونقلوا البناء)**، فإذا كان الرجوع على الأعقاب واقعاً في الظرف المذكور وهو وقت قبض الرسول ﷺ وجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في ذلك الوقت أيضاً، لأن أحد الفعلين معطوف على الآخر، ولم ينقل أحد وقت قبض الرسول ﷺ البناء إلى معاوية عن أمير المؤمنين عليه السلام، وإنما نقل عنه إلى شخص آخر وفي إعطاء العطف حقه إثبات مذهب الإمامية صريحاً.

قلت: إذا كان الرجوع على الأعقاب واقعاً وقت قبض النبي ﷺ فقد قلنا بما يجب من وجود عامل في الظرف، ولا يجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في تلك الحال أيضاً، بل يجوز أن يكون واقعاً في زمان آخر إما بأن تكون **(الواو)** للاستئناف لا للعطف، أو بأن يكون العطف في مطلق الحدث لا في وقوع الحدث في عين ذلك الزمان المخصص كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] فالعامل في الظرف **(استطعما)**، ويجب أن تكون استطعامهما وقت إتيانهما أهلها لا محالة، ولا يجب أن يكون جميع الأفعال المذكورة المعطوفة واقعة حال الإتيان أيضاً، ألا ترى أن من جملتها، **(فأقامه)**، ولم يكن إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراخياً عنه بزمان ما.

اللهم إلا أن يقول قائل أشار بيده إلى الجدار فقام، أو قال له: قم فقام، لأنه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارناً للإتيان إلا على هذا الوجه، وهذا لم يكن ولا قاله مفسر، ولو كان قد وقع على هذا الوجه لما قال له: لو شئت لاتخذت عليه أجراً لأن الأجر إنما يكون على اعتمال عمل فيه مشقّة وإنما يكون فيه مشقة إذا بناه بيده وباشره بجوارحه وأعضائه.

قال الشارح: واعلم أنّا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يقتضيه سؤدده الجليل ومنصبه، ودينه القويم من الإغضاء عما سلف ممن سلف، فقد صاحبهم بالمعروف برهة من الدهر، فأما أن يكون ما كانوا فيه حقّهم أو حقّه فتركه لهم رفعاً لنفسه عن المنازعة أو لما رآه من المصلحة، وعلى تحملي التقديرين فالواجب علينا أن نطبق بين آخر أفعاله وأقواله بالنسبة إليهم وبين أولها، فإن بعد تأويل من يتأول كلامه فليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد والعدل الآيات المتشابهة في القرآن، ولم يمنع بعدها من الخوض في تأويلها محافظة على الأصول المقررة فكذلك هٰهنا، انتهى كلامه هبط مقامه[1].

---

(١) شرح النهج: ٩/ ١٣٦.

أقول: وأنت خبير بما فيه من وجوه الكلام وضروب الملام.

أما **أولاً**: فلأن قوله: **(لا بل نحمله)** على أنه عنى أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم في أيام صفين، فيه أنه لا وجه لهذا الحمل بل ظاهر كلامه عليه السلام بمقتضى الإطلاق يشمل كل من اتصف بالأوصاف التي ذكره عليه السلام، ومن المعلوم أن اتصاف المتخلّفين الثلاثة ومتبعيهم بالأوصاف المذكورة أظهر وأشهر من اتصاف أهل صفين بها، لأنهم أول من فتح باب غصب الخلافة ونقلوها عن أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنفسهم وتبعهم أشياعهم فنقلوها عنه عليه السلام إليهم.

بل أقول: إنه لولا جسارة الثاني على إحراق باب بيت النبي صلى الله عليه وآله وإخراج أمير المؤمنين عليه السلام من البيت للبيعة ملبياً وضربه لفاطمة عليها السلام وكسره ضلعها، وغصب فدك وقطعه لرحم الرسول صلى الله عليه وآله وهتكه لناموس أهل بيته، لم يجسر أحد على معارضة أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يخطر على قلب أحد نزع الخلافة عنه عليه السلام إلى نفسه، ولولا تولية معاوية للشام ورضاه بظلمه وجوره وأفعاله المخالفة للشريعة، وتشييده بصنعه لم يطمع معاوية في الإمارة والخلافة والنهوض لقتال علي عليه السلام، فكل فتنة وفساد وأمر مخالف للدين ولسنّة سيد المرسلين من فروع تلك الشجرة الملعونة على ما عرفته في شرح الكلام المائة والسادس والعشرين.

وبالجملة فكلامه عليه السلام بحكم الأصول والقواعد اللفظية العموم والإطلاق، وحمله على طائفة مخصوصة خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل وليس فليس.

وأما **ثانياً**: فلأن قوله: قلت ليس يمتنع أن يكون هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وأضمروا في أنفسهم آه فيه أن هؤلاء إن كانوا رجعوا على الأعقاب حين موته وأضمروا في أنفسهم مشاقة أمير المؤمنين عليه السلام وأذاه فالذين ذكرناهم أعني الثلاثة وأشياعهم قد رجعوا على الأعقاب أيضاً وأبدوا مشاقته وأذاه عقيب موته صلوات الله عليه وآله، يشهدك على ذلك إحراقهم بابه وإخراجهم له من بيته ملبباً وتدبيرهم لقتله على يد خالد بن الوليد كما روته العامة والخاصة.

ويشهد به أيضاً ما رواه الشارح في الشرح في غير هذا المقام.

قال: روى كثير من المحدثين أن علياً عقيب يوم السقيفة تظلّم وتألّم واستنجد واستصرخ حيث ساموه إلى الحضور والبيعة وأنه قال وهو يشير إلى القبر: يا نبي إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، وأنه قال: واجعفراه ولا جعفر لي اليوم، واحمزتاه ولا حمزة لي اليوم.

وبهذا كله يظهر لك أن رجوع من ذكرناه على الأعقاب مع نصبهم العداوة لأمير المؤمنين عليه السلام وإعلانهم بالمشاقة والأذى له أظهر من رجوع غيرهم ممن ذكره الشارح مع إخفائهم له، ومع هذا فصرف كلام الإمام عليه السلام إلى الآخرين دون الأوّلين لا وجه له.

وأما **ثالثاً**: فإن قوله: ولا يمتنع أيضاً أن يريد برجوعهم على الأعقاب ارتدادهم عن الإسلام بالكلية حق لا ريب فيه، ولكن قوله: فإن كثيراً من أصحابنا يطعنون في إيمان بعض ما ذكرناه ويعدونهم من المنافقين، فيه أن تخصيص الارتداد والنفاق ببعض من ذكره لا وجه له، بل كل من ذكره وذكرناه مطعون منافق ملعون.

وقد ورد في غير واحد من أحاديثنا وإن لم يكن حجة على العامة، ارتد الناس إلا ثلاثة نفر: سلمان، وأبو ذر، والمقداد.

وروى في (**غاية المرام**) عن ابن شهرآشوب من طريق العامة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] يعني بالشاكرين علي بن أبي طالب، والمرتدين على أعقابهم الذين ارتدوا عنه.

فقد ظهر بذلك أن الارتداد عن الإسلام في الحقيقة هو الارتداد عن أمير المؤمنين فكل من ارتدّ عنه فقد ارتدّ عنه، والتخصيص بقوم دون قوم تعسّف وتعصّب.

وأما **رابعاً**: فإن قوله: بل يجوز أن يكون واقعاً في زمان آخر، بعيد وجعل (**الواو**) للاستئناف سخيف، والعطف في مطلق الحدث خلاف الظاهر، والقياس على الآية فاسد، لأن العاطف هنا هي (**الواو**)، وهي للجمع والتشريك، والكلام من باب التنازع، فيدل على وقوع الجملات المتعاطفة في زمان القبض إن قلنا: إن العامل في (**إذا**) الشرطية هو الجواب دون الشرط، وأما الآية فالعاطف فيها هي (**الفاء**) وهي تفيد الترتيب والتعقيب، فلا يلزم من عدم وقوع إقامة الجدار حين الإتيان هناك عدم وقوع نقل البناء حين القبض فيما نحن فيه.

والتحقيق أن قوله: فأقامه، عطف على قوله: فوجدا، وليس عطفاً على استطعما، فلا يلزم عمله في الظرف لأن المعطوف على المعطوف على الجواب لا يجب أن يكون مشتركاً للجواب في جميع الأحكام وعاملاً فيما يعمله، بخلاف المعطوف على نفس الجواب.

وهذا كله مبني على التنزل والمماشاة، وإلا فنقول: إن إقامة الجدار قد كانت حال إتيان القرية والتراخي بزمان ما لا ينافيه، لأنهم قد صرّحوا في إفادة (**الفاء**) للتعقيب أنه في كل شيء بحسبه، فيقال: تزوج فلان فولد له ولد، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل، ودخلت البغداد فالبصرة إذا لم يقم في بغداد ولم يتوقف بين البلدين.

هذا على قول بعض المفسرين من أنه نقض الجدار وبناه، وأما على قول من قال: إنه أقامه بيده، وكذا على قول من قال: إنه مسحه بيده فقام، كما رواه في **(الكشاف)** وغيره عن البعض الآخرين فلا يكون هناك تراخ أصلاً، إذ لا فرق بين الإشارة باليد كما فرضه الشارح وبين المسح بها كما رواه الزمخشري.

ثم استبعاد الشارح لذلك بأنه لو كان على هذا الوجه لم يستحق أجرة لأن الأجرة إنما تكون على اعتمال عمل فيه مشقّة، مدفوع بأن الأجرة إنما هي على عمل فيه منفعة للغير سواء كان فيه مشقة أم لا، لا سيما عمل له منفعة عظيمة مثل إقامة الجدار، فقد قيل كما في **(الكشاف)**: إن طوله في السماء مائة ذراع.

وأما **خامساً**: فإن قوله: واعلم أنّا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام **(آهـ)**، تمويه باطل بصورة الحق، فإن سؤدد أمير المؤمنين عليه السلام ومنصبه وحلمه إنما كان مقتضياً للعفو والصفح والإغضاء والإغماض فيما يتعلق بأمر الدنيا، وقد كان عليه السلام كذلك حسبما عرفت من مكارم أخلاقه في تضاعيف الشرح وتعرفه بعد ذلك في مواقعه إن شاء الله أيضاً، وأما أمر الدين وما فيه صلاح الشرع المبين فلا يجوز له فيه الإغضاء والإغماض أصلاً، بل لا بد له من باب اللطف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التنبيه على هفوات المتخلّفين الضالين المضلّين الغاصبين للخلافة من دون أن يأخذه في الله لومة لائم، ليتنبه الناس من مراقد الغفلة ويلتفتوا إلى سوء ما فعلوه من البدعات المبتدعة، ويرتدعوا عن حسن الاعتقاد والظن لهم، ولا يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة.

وأما **سادساً**: فإن قوله: فإن بعد ذلك فليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد والعدل الآيات المتشابهة، فيه أن تأويلنا للآيات المتشابهة بها مثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ و ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ و ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ ونحوها إنما هو لقيام الأدلة القاطعة والبراهين العقلية والنقلية والأصول المحكمة الملجئة لنا على التأويل، وأما فيما نحن فيه فأي دليل وبرهان وداع دعى إلى التأويل؟ وأي أصل محكم اقتضى ذلك لو لم يقتض خلافه؟.

وغير خفيّ على الخبير المنصف المجانب للتعصب والتعسف أن أهل السنة حيث ضاق بهم الخناق لم يبق لهم إلا التمسك بحسن الظن على السلف، والحال أن الظن لا يغني من الحق شيئاً، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن بزرگوار است كه اشاره فرموده در آن بهواقعات عظيمه، مى فرمايد:

و فراگرفتند گمراهان امت طريق يمين و شمال و راه افراط و تفريط را، در حالتى كه كوچ كنندگانند در راه جهل و ضلالت و ترك نمايندگانند راه رشد و سعادت را، پس طلب ننماييد به شتاب آنچه كه واقع شونده است و مهيا و دير مشماريد آنچه كه مى آورد آن را فردا، پس بسا بشتاب طلب كننده است چيزى را كه اگر درك نمايد آن را دوست مى گيرد در نيافتن آن را و چه نزديك است امروز به اوايل فردا.

اى قوم اين زمان وقت وارد شدن هر وعده داده شده است و وقت نزديكى است از طلوع و ظهور آنچه كه نمى شناسيد آن را در فتنه هاى حادثه و علامات هائله. آگاه باشيد، قسم به خدا به درستى كسى كه درك نمايد آن فتنه ها را از ما سير مى كند در ظلمت هاى آن فتنه ها به چراغى كه نوربخشنده است و رفتار مى كند در آن به قرار صالحان تا اينكه بگشايد در آن فتنه ها ريسمان ها را از گردن اسيران و آزاد نمايد بندگان را از بندگى و پراكنده سازد آنچه كه به هم پيوسته از منكرات و به هم بست كند آنچه كه پاشيده شده از محسنات، آن شخص در پرده است از انظار مردمان، نمى بيند صاحب قيافه اثر و نشانه آن را اگرچه امعان نظر نمايد.

پس از آن البته تيز ساخته شود در آن فتنه ها طائفه اى به جهت قتال اهل ضلال يا به جهت كسب معارف و كمالات همچو تيز ساختن شمشيرساز شمشير را، درحالتى كه جلا داده بشود با نور قرآن ديده هاى بصيرت آن طائفه و انداخته شود تفسير قرآن در گوش هاى ايشان و مى آشامند كاسه حكمت را در شبانگاه بعد از آشاميدن آن در چاشتگاه.

از جمله اين خطبه است كه مى فرمايد:

و طول یافت مدّت به آن اهل ضلال تا اینکه کامل نمایند ذلت و خواری را و مستحق باشند به تغییر نعمت پروردگار تا زمانی که نزدیك شد گذشتن آن عهد، میل کردند طایفه ای از اهل بصیرت به آن فتنه ها و بلند کردند دم را از آبستنی جنگشان در حالتی که منت نگذاشتند به پروردگار با صبر نمودن در کارزار و بزرگ نشمردند بخش کردن جان های خودشان را در راه حق تا زمانی که موافقت نمود قضاء فرودآمده الهی با بریده شدن مدّت بلا، برداشتند اهل معرفت و بصیرت بصیرت های خودشان را بر شمشیرهای خود و تقرّب جستند به سوی پروردگار به فرمان واعظ خودشان.

تا زمانی که قبض فرمود خداوند تبارك و تعالی روح رسول خود را بازگشتند گروهی بر پاشنه های خود به ارتداد و هلاك ساخت ایشان را طرق ضلالت و اعتماد کردند بر خواص و انصار خود و پیوستند به غیر خویشان پیغمبر و دوری گزیدند از سببی که مأمور شده بودند از جانب خدا به محبّت آن و نقل کردند بنای خلافت را از استواری بنیاد خود، پس بنا کردند آن را در غیر محل و مکان خود.

ایشان معدن های هر خطا و ضلالتند و درهای هر درآمده در باطل و جهالت، به تحقیق که متردّد شدند در حیرت و غفلت ورزیدند در مستی جهالت بر طریقه آل فرعون و روش اتباع آن ملعون. هستند بعضی از ایشان منقطعند از عقبا به سوی دنیا مایلند به آن و برخی مفارقند از دین خدا مباینند از آن.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والواحد والخمسون من المختار في باب الخطب

وَأَسْتَعِينُهُ عَلىٰ مَداحِرِ الشَّيْطانِ ومَزاجِرِهِ، وَالإِعْتِصام مِنْ حَبائِلِهِ ومَخاتِلِهِ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰه إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، ونَجِيبُهُ وصِفْوَتُهُ، لا يُوازى فَضْلُهُ، ولا يُجْبَرُ فَقْدُهُ، أَضاءَتْ بِهِ البِلادُ بَعْدَ الضَّلالَةِ المُظْلِمَةِ، والجَهالَةِ الغالِبَةِ، والجَفْوَةِ الجافِيَةِ، والنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الحَرِيمَ، ويَسْتَذِلُّونَ الحَكِيمَ، يَحْيُونَ عَلىٰ فَتْرَةٍ، ويَمُوتُونَ عَلىٰ كَفْرَةٍ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ أَغْراضُ بَلايا قَدْ اقْتَرَبَتْ، فَاتقوا سَكَراتِ النِّعْمَةِ، واحْذَرُوا بَوائِقَ النِّقْمَةِ، وتَثَبَّتُوا في قَتامِ العِشْوَةِ، وَاعْوِجاجِ الفِتْنَةِ، عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِها، وظُهُورِ كَمِينِها، وَانْتِصابِ قُطْبِها، ومَدارِ رَحاها، تَبْدُو في مَدارِجَ خَفِيَّةٍ، وتَئُولُ إِلىٰ فَظاعَةٍ جَلِيَّةٍ، شِبابُها كَشِبابِ الغُلامِ، وآثارُها كَآثارِ السّلامِ، تَتَوارَثُها الظَّلَمَةُ بِالعُهُودِ، أَوَّلُهُمْ قائِدٌ لآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ، يَتَنافَسُونَ في دُنْيَا دَنِيئةٍ، ويَتَكالَبُونَ عَلىٰ جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ، وعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ المَتْبُوعِ، والقائِدُ مِنَ المَقُودِ، فَيَتَزايَلُونَ بِالبَغْضاءِ، ويَتَلاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقاءِ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذٰلِكَ طالِعُ الفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، والقاصِمَةِ الزَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْد اسْتِقامَةٍ، وتَضِلُّ رِجالٌ بَعْدَ سَلامَةٍ، وتَخْتَلِفُ الأَهْواءُ عِنْدَ هُجُومِها، وتَلْتَبِسُ الآراءُ عِنْدَ نُجُومِها، مَنْ أَشْرَفَ لَها قَصَمَتْهُ، ومَنْ سَعىٰ فِيهَا حَطَمَتْهُ، يَتَكادَمُونَ فِيها تَكادُمَ الحُمُرِ في العانَةِ، قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الأَمْرِ، تَغِيضُ فِيهَا الحِكْمَةُ، وتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلْمَةُ، وتَدُقُّ أَهْلَ البَدْوِ بِمِسْحَلِها، وتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِها، يَضِيعُ في غُبارِهَا الوُحْدانُ، ويَهْلِكُ في طَرِيقِهَا الرُّكْبانُ، تَرِدُ بِمُرِّ القَضاءِ، وتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّماءِ، وتَثْلِمُ مَنارَ الدِّينِ، وتَنْقُضُ عُقَدَ اليَقِينِ، تَهْرُبُ مِنْهَا الأَكْياسُ، وتُدَبِّرُهَا الأَرْجاسُ، مِرْعادٌ مِبْراقٌ، كاشِفَةٌ عَنْ ساقٍ، تُقَطَّعُ فِيهَا الأَرْحامُ، ويُفارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلامُ، بَرِيُّها سَقِيمٌ، وظاعِنُها مُقِيمٌ.

مِنْها بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وخائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الأَيْمانِ، وبِغُرُورِ الإِيْمانِ، فَلا تَكُونُوا أَنْصابَ الفِتَنِ، وأَعْلامَ البِدَعِ، والْزَمُوا ما عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الجَماعَةِ، وبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكانُ الطَّاعَةِ، واقْدَمُوا عَلىٰ اللَّهِ مَظْلُومِينَ، ولا تَقْدَمُوا عَلىٰ اللَّهِ ظالِمِينَ، وَاتَّقُوا مَدارِجَ الشَّيْطانِ، ومَهابِطَ العُدْوانِ، ولا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الحَرامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَعْصِيَةَ، وسَهَّلَ لَكُمْ سَبِيلَ الطَّاعَةِ[1].

---

(١) ميزان الحكمة: ١/٨٣٨ ح ١١٥٦.

اللغة

(الدّحر) الطرد والإبعاد والدفع بعنف على الإهانة كالدحور، وقال سبحانه: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا﴾ [الصافات: ٨ ـ ٩]، وقال أيضاً: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، ومداحر الشيطان جمع مدحر وهي الأمور التي محل طرده وإبعاده.

وقال الشارح البحراني والمعتزلي: هي الأمور التي بها يطرد ويبعد، وعلى قولهما فهي للآلة، وعلى ذلك فلا يجوز جعلها جمعاً لمدحر كما توهمه البحراني لأن مفعل بفتح الميم للمكان وبالكسر للآلة كما صرح به جميع علماء الأدبية، فلا بد من جعلها جمعاً حينئذ لمدحرة بكسر الأول والهاء أخيراً وزن مكسحة ومروحة، اللهم إلا أن يقال: إن مدحر بالكسر للآلة أيضاً وجمع مفعل على مفاعل قد ورد في كلامهم مثل ملحف وملاحف ومقود ومقاود.

فقد تلخص مما ذكرنا أن مداحر يصح جعلها جمع مدحر بالفتح للمكان ومدحر ومدحرة بالكسر فيهما للآلة ونحوه **(المزاجر)** للأمور التي يزجر بها أو هي محل الزجر من زجر الكلب نهنهه جمع مزجر ومزجر و **(ختله)** يختله بالكسر خدعه، والمخاتل الأمور التي بها يختل ويخدع و **(يوازي)** مضارع آزى بالهمز ولا يقال: وازى و **(الجهالة الغالبة)** في بعض النسخ بالموحدة من الغلبة وفي بعضها بالمثناة من الغلاء وهو الارتفاع أو من الغلو وهو مجاوزة الحد و **(يستذلون الحكيم)** في بعض النسخ باللام من الحلم و **(الفترة)** انقطاع ما بين النبيين و **(كفرة)** بالفتح واحدة الكفرات كضربة وضربات.

(ثم إنكم معشر العرب) في بعض النسخ معشر الناس و **(تشبتوا)** من التثبت وهو التوقف، وفي بعض النسخ تبينوا من التبين وبهما أيضاً قرأ قوله سبحانه: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، يقال: تبينه أي أوضحه، وتبين الأمر أي وضح يستعمل متعدياً ولازماً كاستبان، قال تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، أي اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه و **(القتام)** الغبار و **(العشوة)** بتثليث الأول ركوب الأمر على غير بيان ووضوح، وبالفتح فقط الظلمة و **(الجنين)** الولد ما دام في البطن و **(الكمين)** الجماعة المختفية في الحرب.

و **(مدار رحاها)** مصدر والمكان بعيد و **(تبدو في مدارج)** في بعض النسخ بالواو من البدو وهو الظهور وفي أكثرها تبدأ بالهمز مضارع بدأ و **(شب)** الفرس يشبّ شباباً بالكسر وشبيباً نشط ورفع يديه جميعاً، وفي بعض النسخ شبابها كشباب الغلام بالفتح و **(السلام)** بالكسر الحجارة و **(مريحة)** من أراح اللحم والماء أي أنتن أو من أراح الرجل إذا مات و **(رجف)** الشيء رجفاً تحرك واضطرب شديداً ورجف القوم تهيؤوا للحرب.

و (**زحف**) إليه مشى، وفي (**شرح المعتزلي**): الزحف السير على تؤدة كسير الجيوش بعضها إلى بعض و (**نجم**) الشيء ينجم نجوماً من باب قعد ظهر وطلع و (**قصمت**) العود كسرته وقصمه الله أي أذلّه وأهانه وقيل: قرب موته و (**التكادم**) التعاض بأدنى الفم و (**العانة**) القطيع من حمر الوحش و (**المسحل**) وزان منبر المبرد أي السوهان، ويقال أيضاً للمنحت و (**الوحدان**) جمع واحد كركبان وراكب، قال الشارح المعتزلي: ويجوز أن يكون جمع أوحد مثل سودان وأسود، يقال: فلان أوحد الدهر.

و (**ثلمت**) الإناء أي كسرت حرفه فانثلم و (**الطلّ**) بالمهملة هدر الدم وهو مطلول أي مهدور لا يطلب بدمه و (**يختلون**) في بعض النسخ بالبناء على المفعول وفي بعضها بالبناء على الفاعل من ختله خدعه و (**عقد**) الإيمان بصيغة المصدر أو وزن صرد جمع عقدة و (**الأنصاب**) جمع نصب كأسباب وسبب وهو العلم المنصوب في الطريق يهدى به، وفي بعض النسخ بالراء و (**مدارج الشيطان**) جمع مدرجة وهي السبل التي يدرج فيها و (**لعق الحرام**) جمع لعقة اسم لما يلعق بالإصبع أو الملعقة وهي بكسر الميم آلة معروفة، واللعقة بالفتح المرة منه من لعقه ألعقه من باب تعب لحسه بإصبع ومصدره لعق وزن فلس.

الإعراب

جملة (**لا يوازي فضله**) الظاهر أنها استئناف بياني، وجملة (**أضاءت**) حال من فاعل المصدر، أعني فقده، ويحتمل الاستئناف البياني أيضاً، (**والناس**) حال من مفعول (**أضاءت**)، وقوله: (**وتتوارثها الظلمة بالعهود**) الظرف متعلق بالفعل أو بالظلمة، وقوله: (**وعن قليل**) إلى قوله: (**عند اللقاء**) جملة معترضة، (**وعن**) بمعنى بعد.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة مسوقة في معرض الأخبار عن الملاحم والوقائع الحادثة في غابر الزمان، وصدرها بالاستعانة على ما يجب الاستعانة من الله سبحانه عليه، وعقّب ذلك بالشهادة بالتوحيد والرسالة وذكر ممادح الرسول ﷺ فقال:

(**وأستعينه على مداحر الشيطان ومزاجره**) أي العبادات والحسنات التي هي محل طرده وزجره أو بها يطرد ويزجر (**والاعتصام من حبائله ومخاتله**) أي المعاصي والسيئات التي لها يصيد الإنسان ويخدع البشر.

قال الشارح البحراني: واستعار لها لفظ الحبائل وهي أشراك الصائد لمشابهتها في استلزام الحصول فيها للبعد عن السلامة والحصول في العذاب (**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده**

لا شريك له) قد تقدم في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثانية شرح هذه الكلمة الطيبة بما لا مزيد عليه فليراجع ثمة **(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)** ﷺ **(ونجيبه)** أي الكريم الحسيب الذي انتجبه من خلقه، ويروى: ونجيّه أي المناجي له والمشرف بمناجاته ومخاطبته وأصله من النّجوى وهي التخاطب سرّاً **(وصفوته)** أي مختاره ومصطفاه من الناس، وقد مضى تحقيق ذلك في شرح الخطبة الثالثة والتسعين.

ولما كان هٰهنا مظنّة أن يسأل ويقال: هل يدانيه أحد في فضله أو يوازيه في كماله فيقوم مقامه عند افتقاره؟ أجاب بقوله: **(لا يوازي فضله)** أي لا يحاذي ولا يساوي **(ولا يجبر فقده)** قال الشارح البحراني: إذا كان كماله في قوّتيه النظرية والعملية غير مدرك لأحد من الخلق، ومن كان كذلك لم يجبر فقده إلا بقيام مثله من الناس، وإذ لا مثل له فيهم فلا جبران لفقده.

(أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة) نسبة أضاءت إلى البلاد من باب التوسع، والمراد اهتداء أهل البلاد بنور وجوده الشريف إلى ما فيه صلاح المعاش والمعاد بعد تيههم في ظلمة الكفر والضلال كما تقدم في شرح الفصل السادس عشر من الخطبة الأولى، وعرفت هناك أنه ﷺ قد بعث وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبّهة ومجسّمة، وزنادقة وغيرها **(و)** كانوا متّصفين بـ **(الجهالة الغالبة)** عليهم **(و)** موصوفين بـ **(الجفوة الجافية)** يريد بها غلظ الطبيعة وقساوة القلوب وسفك الدماء ووصفه بالجافية للمبالغة من قبيل شعر الشاعر وداهية دهياء، وقد تقدم توضيح جفوة العرب وغلظهم في شرح الفصل الأول من الخطبة السابعة والعشرين.

(والناس يستحلون الحريم) أي حرمات الله التي يجب احترامها ومحرماته **(ويستذلّون الحكيم)** أو الحليم كما في بعض الروايات، والحكمة هي العلم الذي يرفع الإنسان عن فعل القبيح، والحلم هو العقل والتؤادة وضبط النفس عن هيجان الغضب، والمعلوم من حال العرب استذلال من له عقل ومعرفة وتجنّب عن سفك الدماء وعن النهب والغارة وإثارة الفتن لزعمهم أن ذلك من الجبن والضعف **(يحيون على فترة)** من الرسل وانقطاع من الوحي الموجب لانقطاع الخير وتقليل العبادات والمجاهدات وموت النفوس بداء الجهل والضلالات **(ويموتون على كفرة)** لعدم هادٍ يهديهم إلى النهج القويم والشرع المستقيم.

ثم شرع عليه السلام في إنذار الناس بالبلايا النازلة واقتراب الحوادث المستقبلة فقال: **(ثم إنكم معشر العرب أغراض بلايا)** وأهدافها **(قد اقتربت)** أوقاتها **(فاتّقوا سكرات النعمة)** لفظة السكرات استعارة لما يحدثه النعم عند أربابها من الغفلة والخمرة المشابهة للسكرة **(واحذروا بوائق النقمة)** أي دواهي المؤاخذات والعقوبات **(وتثبتوا في قتام العشوة)** وهو أمر لهم بالتثبت والتوقف عند اشتباه الأمور وترك الاقتحام فيها من غير بصيرة ورويّة.

قال الشارح البحراني: استعار لفظ القتام للشبهة المثيرة للفتن كشبهة قتل عثمان التي نشأت منها وقائع الجمل وصفين والخوارج، ووجه المشابهة كون ذلك الأمر المشتبه مما لا يهتدي فيه خائضوه، كما لا يهتدي القائم في القتام عند ظهوره وخوضه.

(واعوجاج الفتنة) أي إتيانها على غير وجهها وانحرافها عن النهج **(عند طلوع جنينها وظهور كمينها)** كنى بالجنين والكمين عن المستور المختفي من تلك الفتنة، ويحتمل إرادة الحقيقة بأن يكون المقصود بروز ما اجتنّ منها واستتر وظهور ما كمن منها وبطن **(وانتصاب قطبها ومدار رحاها)** كنايتان عن استحكام أمرها وانتظامها **(تبدو في مدارج خفية وتؤل إلى فظاعة جلية)** يعني أنها تكون ابتداء يسيرة ثم تصير كثيرة.

فإن النار بالعودين تذكي وإنّ الحرب أولها كلام

أو أن ظهورها في مسالك خفية حتى تنتهي إلى شناعة عظيمة **(وشبابها كشباب الغلام وآثارها كآثار السلام)** أي إن أربابها يمرحون في أول الأمر كما يمرح الغلام ثم تؤول إلى أن تعقب فيهم أو في الإسلام آثاراً كآثار الحجارة في الأبدان، أو أن المراد أنها في الدنيا كنشاط الغلام وما أعقبتها من الآثار في الآخرة كآثار السلام.

(يتوارثها الظلمة بالعهود) أي يتوارثها الظلام بعهد الأول منهم للثاني وعقد الأمر منه له كما هو دأب أمراء الجور يجعلون لهم وليّ العهد، أو أن توارثهم بما عهدوا بينهم من ظلم أهل البيت وغصب حقّهم، وعلى تعلق الظرف بالظلمة فالمراد أنه يتوارثها الظالمين بعهد الله والناقضين لميثاقه والتاركين لتكاليفه.

(أولهم قائد لآخرهم) يقوده إلى الظلم والضلال والنار **(وآخرهم مقتد بأولهم)** في الجور وإثارة الفتن وتشييد تلك الآثار **(يتنافسون في دنيا دنيئة)** أي يتعارضون ويتبارون في دنيا لا مقدار لها عند العقلاء **(ويتكالبون على جيفة مريحة)** أي يتواثبون على جيفة منتنة عند ذوي العقول والأولياء، واستعار لها لفظ الجيفة باعتبار النفرة عنها، ولفظ المريحة ترشيح. قال الشاعر:

وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها

ثم قال عليه السلام: **(وعن قليل)** أي بعد حين قليل **(يتبرأ التابع عن المتبوع والقائد من المقود)** أي الأتباع من الرؤساء والرؤساء من الأتباع، وذلك التبرء يوم القيامة كما قاله الشارح المعتزلي، وقد أخبر الله سبحانه عن تبرّء الأتباع بقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: ٧٣ـ ٧٤]، فقولهم: لم نكن ندعو، هو التبرّء، وأخبر عن تبرّء الرؤساء، بقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ

اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦ـ ١٦٧] **(فيتزايلون)** ويفرقون **(بالبغضاء ويتلاعنون عند اللقاء)** كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. قال الشارح المعتزلي: فإن قلت: ألم يكن، قلت: إن قوله: **(عن قليل يتبرّأ التابع من المتبوع)** يعني يوم القيامة فكيف يقول: **(ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف)** وهذا إنما يكون قبل القيامة؟.

قلت: لما ذكر تنافس الناس على الجيفة المنتنة وهي الدنيا أراد أن يقول بعده بلا فصل: ثم يأتي بعد ذلك **(اهـ)** لكنه لما تعجب من تزاحم الناس وتكالبهم على تلك الجيفة أراد أن يؤكد ذلك التعجب فأتى بجملة معترضة بين الكلامين فقال: **(إنهم على ما قد ذكرنا من تكالبهم عليها عن قليل يتبرّأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً)**، وذلك أدعى لهم لو كانوا يعقلون إلى أن يتركوا التكالب والتهارش على هذه الجيفة الخسيسة، ثم عاد إلى نظام الكلام فقال: **(ثم يأتي بعد ذلك)** اهـ.

وقال الشارح البحراني حكاية عن بعضهم: إن ذلك التبرء عند ظهور الدولة العباسية، فإن العادة جارية بتبرء الناس عن الولاة المعزولين خصوصاً عند الخوف ممن تولّى عزل ذلك أو قتلهم، فيتباينون بالبغضاء إذ لم تكن إلفتهم ومحبتهم إلا لغرض دنياوي زال، ويتلاعنون عند اللقاء، ثم قال الشارح: وقوله: **(ثم يأتي طالع الفتنة)** هي فتنة التتار، إذ الدائرة فيها على العرب.

وقال بعض الشارحين: بل ذلك إشارة إلى الملحمة الكائنة في آخر الزمان كفتنة الدجال.

وكيف كان فوصف الفتنة بالرجوف لكثرة اضطراب الناس أو أمر الإسلام فيها وأراد بطالعها مقدماتها وأوائلها ووصفها ثانياً بقوله: **(والقاصمة الزحوف)** أي الكاسرة الكثيرة الزحف وكنى بقصمها عن هلاك الخلق فيها وشبّهها بالرجل الشجاع كثير الزحف إلى أقرانه أي يمشي إليهم قدماً.

ثم أشار إلى ما يترتب على تلك الفتنة من المفاسد العظام وقال: **(فتزيغ)** أي تميل **(قلوب بعد استقامة)** على سبيل الله **(وتضلّ رجال بعد سلامة)** في دين الله **(وتختلف الأهواء عند هجومها وتلتبس الآراء)** الصحيحة بالفاسدة **(عند نجومها)** وظهورها، فيشتبه الحق بالباطل ويتيه فيها الجاهل والغافل **(من أشرف لها)** أي قابلها وصادمها **(قصمته)** وهلكته **(ومن سعى فيها)** أي أسرع في إطفائها وإسكاتها **(حطمته)** وكسرته **(يتكادمون فيها تكادم الحمر)** الوحش **(في العانة)** أي في قطيعها.

قال العلامة المجلسي (ره): ولعل المراد بتكادمهم مغالبة مثيري تلك الفتنة بعضهم لبعض، أو مغالبتهم لغيرهم.

وقال الشارح البحراني: وشبّه ذلك بتكادم الحمر في العانة، ووجه التشبيه المغالبة مع الإيماء أي خلعهم ربق التكليف من أعناقهم وكثرة غفلتهم عما يراد بهم في الآخرة.

(قد اضطرب معقود الحبل) أي قواعد الدين والأحكام الشرعية التي كلفوا بها **(وعمى وجه الأمر)** في إسناد العمى إلى الوجه تجوز، والمراد عدم اهتدائهم إلى وجوه الصلاح وطرق الفلاح **(تغيض)** وتنقص **(فيها الحكمة)** لسكوت الحكماء عنها وعدم تمكنهم عن التكلم بها **(وتنطق فيها الظلمة)** بما تقتضيه أهواؤهم عن الظلم والفساد لمساعدة الزمان عليهم **(وتدقّ)** تلك الفتنة **(أهل البدو)** أي البادية **(بمسحلها)** أي يفعل بهم ما يفعل المسحل بالحديد[1] أو الخشب **(وترضّهم)** أي تدقّهم دقّاً جريشاً **(بكلكلها)** أي صدرها شبه هذه الفتنة بالناقة التي تبرك على الشيء فتسحقه بصدرها على سبيل الاستعارة بالكناية وإثبات الكلكل تخييل والرضّ ترشيح **(يضيع في غبارها الوحدان ويهلك في طريقها الركبان)** أي لا يخلص منها أحد ولا ينجو منها لشدتها وقوتها، فمن كان يسير وحده فإنه يهلك فيها بالكلية وإذا كانوا جماعة فهم يضلون في طريقها فيهلكون، ولفظ الغبار مستعار للقليل اليسير من حركة أهلها أي إذا أراد القليل من الناس دفعها هلكوا في غبارها من دون أن يدخلوا في غمارها، وأما الركبان وهم الكثير من الناس فإنهم يهلكون في طريقها وعند الخوض فيها.

وعلى كون الوحدان جمع أوحد فالمراد: أنه يضلّ في غبار هذه الفتنة وشبهها فضلاء عصرها، لغموض الشبهة واستيلاء الباطل، ويكون الركبان حينئذ كناية عن الجماعة أهل القوة، فهلاك أهل العلم بالضلال وهلاك أهل القوة بالقتل والاستئصال.

(ترد بمرّ القضاء) أي بالهلاك والبوار والبلايا الصعبة وظاهر أنها واردة عن القضاء الإلٰهي متصفة بالمرارة **(وتجلب عبيط الدماء)** أي الطري الخالص منها وهو كناية عن سفك الدماء فيها **(وتثلم منار الدين)** استعارة للعلماء أو القوانين الشرع المبين وثلمها عبارة عن هدمها وعدم العمل بها **(وتنقض عقد اليقين)** أي العقائد الحقة الموصلة إلى جوار الله تعالى، ونقضها كناية عن تغيّرها وتبدلها وترك العمل على وفقها **(تهرب منها الأكياس)** أي ذوو العقول السليمة **(وتدبّرها الأرجاس)** الأنجاس أي ذوو النفوس الخبيثة **(مرعاد مبراق)** كثيرة الرعد والبرق أي ذات تهدد ووعيد ويجوز أن يراد بالرعد قعقعة السلاح وصوته وبالبرق لمعانه وضوئه.

---

(١) الأول مبني على أن يراد بالمسحل السوهان، والثاني مبني على أن يراد منه المنحت كما تقدم سابقاً منه.

(كاشفة عن ساق) قال ابن الأثير: الساق في اللغة الأمر الشديد، وكشف الساق مثل في شدة الأمر وأصله من كشف الإنسان عن ساقه وتشميره إذا وقع في أمر شديد، وفي **(القاموس)**: يذكرون الساق إذا أرادوا شدّة الأمر والإخبار عن هوله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] أي عن شدة **(تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام)** بجريانها على خلاف قواعد الدين وقواعد الشرع المبين.

(بريئها سقيم) قال العلامة المجلسي (ره): أي من يعد نفسه بريئاً سالماً من المعاصي أو الآفات أو من كان سالماً بالنسبة إلى سائر الناس فهو أيضاً مبتلى بها، أو أن من لم يكن مائلاً إلى المعاصي وأحب الخلاص من شرورها لا يمكنه ذلك **(وظاعنها مقيم)** أي المرتحل عنها خوفاً لا يمكنه الخروج منها أو من اعتقد أنه متخلّف عنها فهو أيضاً داخل فيها لكثرة الشبه وعموم الضلالة.

(منها) ما يشبه أن يكون وصفاً لحال المتمسكين بالدين في زمان الفتنة السابقة وهو قوله: **(بين قتيل مطلول)** أي مهدر الدم لا يطلب به **(وخائف مستجير)** أي مستأمن يطلب الأمان **(يختلون بعقد الأيمان)** إن كان يختلفون بصيغة المجهول فهو إخبار عن حال المخدوعين الذين يخدعهم غيرهم بعقد العهود وشدها بمسح إيمانهم أو بالأيمان المعقودة فيما بينهم، وعلى كونه بصيغة المعلوم فهو بيان لحال الخادعين **(وبغرور الإيمان)** أي بالإيمان الذي يظهره الخادعون فيغرونهم بالمواعيد الكاذبة أو الذي يظهره هؤلاء الموصوفون فيغرون الناس به على اختلاف النسختين.

(فلا تكونوا أنصاب الفتن) أي رؤسائها يشار إليهم فيها **(وأعلام البدع)** التي يقتدى بها وهو نظير قوله عليه السلام في كلماته القصار: كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب[١].

(والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة) وهي القوانين التي ينتظم بها اجتماع الناس على الحق **(وبنيت عليه أركان الطاعة)** استعارة بالكناية وذكر الأركان تخييل والبناء ترشيح **(وأقدموا على الله مظلومين ولا تقدموا على الله ظالمين)** يعني أنه إذا دار الأمر بين الظالمية والمظلومية فكونوا راضين بالمظلومية، لأن الظلم قبيح عقلاً وشرعاً والظالم مؤاخذ ملعون كتاباً وسنّة، أو لا تظلموا الناس وإن استلزم ترك الظلم مظلوميتكم فإن يوم المظلوم من الظالم أشد من يوم الظالم من المظلوم، والمظلوم منصور من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، وقال أبو جعفر عليه السلام

(١) بحار الأنوار: ٦٦/٤٠٨ ح ١٢٠، والغدير: ٩/٢٥٣.

في رواية أبي بصير عنه عليه السلام: ما انتصر الله من ظالم إلا بظالم، وذلك قول الله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩][1].

(واتقوا مدارج الشيطان) ومسالكه **(ومهابط العدوان)** ومحاله أو المواضع التي يهبط صاحبه فيها **(ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام)** أي لا تدخلوا بطونكم القليل منه فكيف بالكثير أو الإتيان باللعق للتنبيه على قلّة ما يكتسب من متاع الدنيا المحرّم بالنسبة إلى متاع الآخرة وحقارته عنده **(فإنكم بعين من حرّم عليكم المعصية وسهّل لكم سبيل الطاعة)** أي بعلمه كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

ولا يخفى ما في هذا التعليل من الحسن واللطف في الردع عن المعاصي والحثّ على الطاعات، فإن العبد العالم بأنه من مرئى من مولاه ومسمع منه يكون أكثر طاعة وأقل مخالفة من عبد مولاه غافل عنه وجاهل بأعماله وأفعاله ولتأكيد هذا المعنى عبّر بالموصول وقال: **(بعين من حرم)** (آهـ) ولم يقل: بعين الله هذا وتسهيل سبيل الطاعة باعتبار أن الله سبحانه ما جعل على المكلّفين في الدين من حرج.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام مبين و سيّد و صيّين است در ذكر ملاحم، مى فرمايد:

و طلب يارى مى كنم از حضرت ربّ العالمين بر عبادات و طاعات كه محلّ طرد و زجر شيطان لعين است و بر محفوظ شدن از معاصى و سيئآت كه ريسمان هاى صيد آن ملعون و اسباب مكر و خدعه آن نابكار است و شهادت مى دهم به اينكه نيست خدايى جز خداى متعال، در حالتى كه تنها است شريك نيست مراورا، شهادت مى دهم با اينكه محمّد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله) بنده پسنديده و پيغمبر او است و برگزيده و مختار او است، برابر كرده نمى شود فضل او و جبران نمى شود فقدان او، روشن شد بهوجود شريف آن بزرگوار شهرها بعد از گمراهى ظلمانى و نادانى

---

(١) الكافي: ٢/٣٣٤ ح ١٩، وثواب الأعمال: ٢٧٤.

غالب و غلظت غليظه طبايع، درحالتی که مردمان حلال می شمردند محرمات را و خوار می شمردند صاحب حکمت و معرفت را، زندگانی می کردند در زمان انقطاع پیغمبران و می مردند بر کفر و طغیان.

پس از آن به درستی که شما ای جماعت عرب نشانه های بلا هستید که نزدیك شده ظهور آن، پس پرهیز کنید از مستی های نعمت ها، حذر نمایید از دواهی عذاب، توقّف کنید در غبار ظلمت شبهه و در کجی فتنه در وقت ظهور و بروز باطن و کمون آن فتنه و هنگام استقامت قطب و دوران آسیای آن، در حالتی که ظاهر می شود آن فتنه در درج های پنهان و بازگردد به شناعت آشکار، نشو و نمای آن مثل نشو و نمای جوان است و اثرهای آن مثل اثرهای سنگ ها است، ارث می برند از یکدیگر آن فتنه را ظالمان با عهود و پیمان (یعنی هر یکی دیگری را ولی عهد خود می سازد).

اوّل ایشان پیشوای آخر ایشان است و آخر ایشان اقتداکننده است به اوّل ایشان، تعارض می کنند در دنیای پست و بی مقدار و خصومت می کنند بر جیفه گندیده مردار و بعد از زمان قلیل تبرّی می کند تابع از متبوع و مقتدا از پیشوا، پس پراکنده شوند از یکدیگر به عداوت و دشمنی و لعنت کنند به یکدیگر هنگام ملاقات.

پس از آن می آید طلوع کننده فتنه کثیرالاضطراب و شکننده تندرونده، پس میل به باطل می کند قلب ها بعد از استقامت آنها و گمراه می شوند مردمان بعد از سلامت ایشان و مختلف می شود خواهشات وقت هجوم آن فتنه و ملتبس می شود رأی ها نزد ظهور آن فتنه، هرکس مقابله گری نماید آن را می شکنند و هلاك می سازد او را و هرکس سعی کند در اسکات آن برمی کند و نابود نماید او را.

بگزند و آزار رسانند مردمان آن زمان یکدیگر را در آن فتنه مثل آزار رساندن حمارهای وحشی یکدیگر را در رمه، به تحقیق که مضطرب شد ریسمان بسته اسلام و پوشیده شد روی صلاح کار، ناقص می شود در آن فتنه حکمت و معرفت و ناطق می شوند در آن ستمکاران و بکوبد آن فتنه اهل بادیه را با منحت و تیشه خود و خورد و مرد کند ایشان را با سینه خود و ضایع می شوند در غبار آن فتنه تنهاروندگان و هلاك گردند در راه آن فتنه سوارگان.

وارد شود به تلخ ترين قضاى الهى و بدوشد خون هاى تازه را و خراب مى كند منارهاى دين را و درهم شكند كوه هاى يقين را، بگريزند از آن فتنه صاحبان عقل و كياست و تدبير كنند آن را صاحبان پليدى و نجاست، بسيار صاحب رعد و برق است و كشف كننده است از شدّت، قطع مى شود در آن فتنه رحم ها و مفارقت مى شود بر آن از دين اسلام، برائت كننده از آن فتنه ناخوش است و كوچ كننده آن مقيم است.

از جمله فقرات آن خطبه است در وصف حال مؤمنان آن زمان، مى فرمايد:

ايشان در ميان كشته شده است كه خونش هدر رفته و ترسنده اى كه طلب امان مى كند، فريب داده مى شوند با سوگندهاى بسته شده دروغى و با ايمانى كه از روى فريب و غرور است، پس نباشيد علامت هاى فتنه ها و نشان هاى بدعت ها و لازم شويد به آنچه كه بسته شده به آن ريسمان اجتماع و ائتلاف كه عبارت است از قواعد شريعت و بر آنچه كه بنا شده بر آن ركن هاى طاعت و عبادت و اقدام كنيد بر خدا در حالتى كه مظلوم هستيد و اقدام نكنيد بر او در حالتى كه ظالم باشيد و بپرهيزيد از راه هاى شيطان و از محل هاى طغيان و عدوان و داخل نكنيد در شكم هاى خودتان لقمه هاى حرام را، پس به درستى كه شما در نظر كسى هستيد كه حرام كرده به شما گناه را و آسان كرده از براى شما راه طاعت را، چنانچه فرموده: "ما جعل الله عليكم فى الدّين من حرج".

ومن خطبة له ﷺ وهي المائة والثاني والخمسون من المختار في باب الخطب وشرحها في فصول

الفصل الأول

الحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلىٰ وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلىٰ أزَلِيَّتِهِ، وبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلىٰ أنْ لا شِبْهَ لَهُ، لا تَسْتَلِمُهُ المَشاعِرُ، ولا تَحْجُبُهُ المَساتِرُ، لافْتِراقِ الصَّانِعِ والمَصْنُوعِ، والحادِّ والمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ والمَرْبُوبِ، الأَحَدُ بِلا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، والخَالِقُ لا بِمَعْنى حَرَكَةٍ ونَصَبٍ، والسَّمِيعُ لا بِأداةٍ، والبَصِيرُ لا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، والمُشاهِدُ لا بِمُماسَّةٍ، وَالبائِنُ لا بِتَراخي مَسافَةٍ، والظَّاهِرُ لا بِرُؤْيَةٍ، والباطِنُ لا بِلَطافَةٍ، بانَ مِنَ الأَشْياءِ بِالقَهْرِ لَها، والقُدْرَةِ عَلَيْها، وَبانَتِ الأَشْياءُ مِنْهُ بِالخُضُوعِ لَهُ، والرُّجُوعِ إلَيْهِ، مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، ومَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، ومَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، ومَنْ قالَ: كَيْفَ، فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، ومَنْ قالَ: أَيْنَ فَقَدْ حَيَّزَهُ، عالِمٌ إِذْ لا مَعْلُومَ، ورَبٌّ إِذْ لا مَرْبُوبَ، وقادِرٌ إِذْ لا مَقْدُورَ[١].

اللغة

قال الشارح المعتزلي: **(الاستلام)** في اللغة لمس الحجر باليد وتقبيله ولا يهمز لأن أصله من السلام وهي الحجارة كما يقال: استنوق الجمل وبعضهم يهمزه انتهى. وقال الفيومي في **(المصباح)**: استلأمت الحجر، قال ابن السكيت: همزته العرب على غير قياس والأصل استلمت لأنه من السلام وهي الحجارة، وقال ابن الأعرابي: الاستلام أصله مهموز من الملائمة وهي الاجتماع، وحكى الجوهري القولين ومثله الفيروزآبادي، وفي بعض النسخ بدل لا تستلمه لا تلمسه و **(النصب)** محركة التعب.

الإعراب

جملة **(لا تستلمه المشاعر)** استئناف بياني، ولفظ **(الأحد، والخالق، والسميع، والبصير)**، وما يتلوها من الصفات يروى بالرفع والجر معاً الأول على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والثاني على أنه صفة لله.

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ١٩١٢ ح ٢٦٤٦، وشرح أصول الكافي: ٣/ ٦٣.

المعنى

إعلم أن هذا الفصل من الخطبة متضمن لمباحث شريفة إلٰهية، ومعارف نفيسة ربانية، ومسائل عويصة حكمية، ومطالب عليّة عقلية لم يوجد مثلها في زبر الأولين والآخرين، ولم يسمح بنظيرها عقول الحكماء السابقين واللاحقين وصدره بتحميد الله سبحانه وتمجيده، فقال:

(الحمد لله) وقد مضى شرح هذه الجملة وتحقيق معنى الحمد وبيان وجه اختصاصه بالله سبحانه في شرح الفصل الأول من الخطبة الأولى، ونقول هنا مضافاً إلى ما سبق: إن الحمد سواء كان عبارة عن التعظيم والثناء المطلق، أو عن الشكر المستلزم لتقدم النعمة والاعتراف بها، فالمستحق له في الحقيقة ليس إلا الله سبحانه، ولذا أتى بتعريف الجنس **(ولام)** الاختصاص الدالتين على أن طبيعة الحمد مختصة به تعالى.

أما على أنه عبارة عن مطلق الثناء والتعظيم فلظهور أنَّ استحقاق قيمتها إنما يتحقق لأجل حصول كمال أو براءة نقص، وكل كمال وجمال يوجد في العالم فإنما هو رشح وتبع لجماله وكماله، وأما البراءة عن النقائص والعيوب فمما يختص به تعالى، لأنه وجود محض لا يخالطه عدم ونور صرف لا يشوبه ظلمة.

وأما على أنه عبارة عن الشكر المسبوق بالنعمة فلأن كل منعم دونه فإنما بنعم شيء مما أنعم الله، ومع ذلك فإنما ينعم لأجل غرض من جلب منفعة أو دفع مضرّة أو طلب محمدة، فهذا الجود والإنعام في الحقيقة معاملة وتجارة وإن عدّ في العرف جوداً وإنعاماً، وأما الحق تعالى فلما لم يكن إنعامه لغرض ولا جوده لعوض إذ ليس لفعله المطلق غاية إلا ذاته كما مر تخفيفه في شرح الخطبة الخامسة والستين، فلا يستحق لأقسام الحمد والشكر بالحقيقة إلا هو، هذا.

وأردف الحمد بجملة من أوصاف الكمال ونعوت العظمة والجلال.

الأول: أنه **(الدال على وجوده بخلقه)** وقد مر كيفية هذه الدلالة في شرح الخطبة الخمسين وبيّنا هناك أن الاستدلال بهذه الطريقة من باب الاستدلال بالفعل على الفاعل، ومرجعه إلى البرهان العلمي.

(و) الثاني: أنه الدال **(بمحدث خلقه على أزليته)** لما قد مر ثمة أيضاً من أن الأجسام كلها حادثة لأنها غير خالية عن الحركة والسكون، وكل حادث مفتقر إلى محدث فإن كان ذلك المحدث محدثاً عاد القول فيه كالأول ويلزم التسلسل أو كونه محدثاً لنفسه وكلاهما باطل، فلا بد من محدث قديم لا بداية لوجوده وهو الله تعالى وسبحانه.

(و) **الثالث**: أنه الدال **(باشتباههم على أن لا شبه له)** يعني أنه سبحانه بإبداء المشابهة بين المخلوقات دل على أنه لا مثل ولا شبيه.

وجهة المشابهة بينها إما الافتقار إلى المؤثر كما ذهب إليه الشارح البحراني حيث قال: أراد اشتباههم في الحاجة إلى المؤثر والمدّبر، وتقرير هذا الطريق أن نقول: إن كان تعالى غنياً عن المؤثّر فلا شبيه له في الحاجة إليه لكن المقدم حق فالتالي مثله.

واعترض عليه بأن فيه قصوراً من وجهين:

أحدهما: أن المطلوب في تنزيه الحق تعالى عن الشبيه هو نفي الشبه عنه على الإطلاق لا نفي وجه من وجوه الشبه فقط كالحاجة.

وثانيهما: أن نفي الحاجة عنه تعالى مما لا يحتاج إلى إثباته له من جهة تشابه الخلق فيها، بل مجرد كونه واجب الوجود يلزمه نفي الحاجة عنه إلى غيره لزوماً بيّناً، فالاستدلال عليه لغو من الكلام مستدرك، هذا.

وقال بعضهم: المراد بمشابهتهم الاشتباه في الجسمية والجنس والنوع والأشكال والمقادير والألوان ونحو ذلك، وإذ ليس داخلاً تحت جنس لبراءته عن التركيب المستلزم للإمكان، ولا تحت النوع لافتقاره في التخصيص بالعوارض إلى غيره، ولا بذي مادة لاستلزامه التركيب أيضاً، فليس بذي شبيه في الأمور المذكورة.

وهو قريب مما قاله البحراني لكن الأول أعم في نفي الشبيه، والأحسن منها ما في الحديث الأول من باب جوامع التوحيد من**(الكافي)** عن أمير المؤمنين عليه السلام عند استنهاضه الناس لحرب معاوية في المرة الثانية وهو قوله عليه السلام: وحد الأشياء كلها عند خلقه إبانة لها من شبهه وإبانة له من شبهها.

قال العلامة المجلسي في **(شرحه)**: أي جعل للأشياء حدوداً ونهايات، أو أجزاء وذاتيات ليعلم بها أنها من صفات المخلوقين والخالق منزّه عن صفاتهم، أو خلق الممكنات التي من شأنها المحدودية ليعلم بذلك أنه ليس كذلك كما قال تعالى: «فخلقت الخلق لأعرف»، إذ خلقها محدودة لأنها لم تكن تمكن أن تكون غير محدودة لامتناع مشابهة الممكن الواجب في تلك الصفات التي هي من لوازم وجوب الوجود، ولعل الأوسط أظهر.

الرابع: أنه **(لا تستلمه المشاعر)** أي لا تلمسه لأن مدركات المشاعر مقصورة على الأجسام والأعراض القائمة بها، وهو سبحانه ليس بجسم ولا جسماني، فامتنع إدراك المشاعر ولمسها له، ويحتمل أن يراد بالمشاعر المدارك مطلقاً سواء كانت قوة مادية مدركة للحسيّات والوهميات أو قوة عقلية مدركة للعقليات والفكريات إذ ليس للمدارك مطلقاً إلى

معرفة كنه ذاته سبيل، ولا على الوصول إلى حقيقة صفاته دليل، كما مر في شرح الفصل الثاني من الخطبة الأولى.

(و) الخامس: (لا تحجبه المساتر) أي الحجابات التي يستتر بها، وفي أكثر النسخ: السواتر بدلها ومعناهما واحد، والمراد أنه لا يحجبه حجاب ولا يستتر بشيء من السواتر لأن الستر والحجاب من لوازم ذي الجهة والجسمية، وهو تعالى منزّه عن ذلك.

فإن قلت: قد ورد في الحديث إن الله احتجب عن القول كما احتجب عن الأبصار وأن الملاء الأعلى يطلبونه كما أنتم تطلبونه، فكيف التوفيق بينه وبين قول الإمام عليه السلام؟.

قلت: ليس المراد من احتجابه عن العقول والأبصار أن يكون بينه وبين خلقه حجاب جسماني مانع عن إدراكه والوصول إليه تعالى، بل المراد بذلك احتجابه عنهم لقصور ذواتهم ونقصان عقولهم وقواهم، وكمال ذاته وشدّة نوره وقوة ظهوره، فغاية ظهوره أوجب بطونه، وشدة نوره أوجب احتجابه كنور الشمس وبصر الخفاش، وقد حققنا ذلك بما لا مزيد عليه في شرح الخطبة الرابعة والستين وشرح الفصل الثاني من الخطبة التسعين، وبما ذكرنا أيضاً ظهر فساد ما ربما يتوهم من أنه إذا لم يكن محجوباً بالسواتر لا بد وأن يعرفه كل أحد ويراه، هذا.

وقوله: **(لافتراق الصانع والمصنوع والحاد والمحدود والرب والمربوب)** التعليل راجع إلى الجملات المتقدمة بأسرها، والمقصود أن لكل من الصانع والمصنوع صفات تخصه وتليق به ويمتاز بها وبها يفارق الآخر، فالمخلوقية والحدوث والاشتباه والملموسية والمحجوبية بالسواتر من لواحق المصنوعات والممكنات وأوصافها اللائقة لها، والخالقية والأزلية والتنزّه عن المشابهة وعن استلام المشاعر واحتجاب السواتر من صفات الصانع الأول ومما ينبغي له ويليق به، ويضاد ما سبق من أوصاف الممكنات، فلو جرت فيه صفات المصنوعات أو في المصنوعات صفاته لارتفع الافتراق ووقعت المساواة والمشابهة بينه وبينها، فيكون مشاركاً لها في الحدوث المستلزم للإمكان المستلزم للحاجة إلى الصانع، فلم يكن بينه وبينها فصل ولا له عليها فضل، وكل ذلك أعني المساواة والمشابهة وعدم الفصل والفضل ظاهر البطلان، هذا.

والمراد بالحادّ خالق الحدود والنهايات، والصانع والرب بينهما تغاير بحسب الاعتبار وهو دخول المالكية في مفهوم الربوبية دون الصنع.

السادس: (الأحد لا بتأويل عدد) يعني أنه أحديّ الذات ليس كمثله شيء وأحديّ الوجود لا جزء له ذهناً ولا عقلاً ولا خارجاً، وليست وحدانيته وحدانية عددية بمعنى أن

يكون مبدأ لكثرة تعدّ به كما يقال في أول العدد: واحد، وقد مر تحقيق ذلك في شرح الخطبة الرابعة والستين.

(و) السابع: (الخالق لا بمعنى حركة ونصب) يعني أنه سبحانه موجد للأشياء بنفس قدرته التامة الكاملة وخلقه الإبداع والإفاضة من دون حاجة إلى حركة ذهنية أو بدنية كما لسائر الصانعين، لأن الحركة من عوارض الأجسام، وهو منزّه عن الجسمية كما لا حاجة في إيجاده إلى المباشرة والتعمّل حتى يلحقه نصب وتعب، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

(و) الثامن: (السميع لا بأداة) وهي الأذنان والصماخان والقوة الكائنة تحتهما، لتعاليه عن الآلات الجسمانية، بل سمعه عبارة عن علمه بالمسموعات، فهو نوع مخصوص من العلم باعتبار تعلّقه بنوع من المعلوم، وقد تقدم في شرح الفصل السادس من الخطبة الأولى: أن السمع والبصر من الصفات الذاتية له تعالى، والاحتياج فيهما إلى الأداة والآلة يوجب النقص في الذل والاستكمال والاستعانة بالآلات المنافية للوجوب الذاتي.

(و) التاسع: (البصير لا بتفريق آلة) أي بفتح العين أو بعث القوة الباصرة وتوزيعها على المبصرات.

قال الشارح البحراني: وهذا المعنى على قول من جعل الإبصار بآلة الشعاع الخارج من العين المتصل بسطح المرئي أظهر، فإن توزيعه أظهر من توزيع الآلة على قول من يقول: إن الإدراك يحصل بانطباع صورة المرئي في العين، ومعنى التفريق على القول الثاني هو تقليب الحدقة وتوجيهها مرة إلى هذا المبصر ومرة إلى ذاك كما يقال: فلان مفرّق الهمة والخاطر، إذا وزّع فكره على حفظ أشياء متباينة ومراعاتها كالعلم وتحصيل المال وظاهر تنزيهه تعالى عن الإبصار بآلة الحسّ لكونها من توابع الجسمية ولواحقها.

(و) العاشر: (المشاهد لا بممارسة) وفي بعض النسخ: الشاهد بدل المشاهد، والمعنى واحد.

قال صدر المتألّهين في شرح **(الكافي)** في تحقيق ذلك: لأن الالتماس من خواص الأجسام، والمشاهدة بالمماسة للمشهود نفسه كما في الذائقة واللامسة، وللمتوسط بين الشاهد والمشهود كما في الشامة والسامعة والباصرة، والحاصل أن إدراكات الحواس الظاهرة الخمسة ومشاهداتها كلها لا تتم إلا بالمماسة لجسم من الأجسام وإن كان المشهود له والحاضر بالذات عند النفس شيئاً آخر غير الممسوس بالذات أو بالواسطة.

(و) الحادي عشر: (البائن لا بتراخي مسافة) يعني أنه مباين للأشياء ومغاير لها بنفس ذاته وصفاته، لأنه في غاية التمام والكمال، وما سواه في نهاية الافتقار والنقصان، وليس

تباينه تباين أين وتباعد مكان بتراخي مسافة بينه وبين غيره، لأن ذلك من خواص الأينيات، وهو الذي أيّن الأين بلا أين، وقد تقدم نظير هذه الفقرة في الفصل السادس من الخطبة الأولى، وشرحناه بما يوجب الانتفاع به في المقام فليراجع ثمة.

(و) الثاني عشر: (الظاهر لا برؤية و) الثالث عشر (الباطن لا بلطافة) يعني أن ظهوره سبحانه ليس كظهور ظاهر الأشياء بأن يكون مرئياً بحاسة البصر، ولا بطونه كبطونها بأن يكون لطيفاً لصغر حجمه أو لطافة قوامه كالهواء، بل نحو آخر من الظهور والبطون على ما مر تحقيقه في شرح الخطبة التاسعة والأربعين وشرح الخطبة الرابعة والستين فليتذكر.

والرابع عشر: أنه **(بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه)** وهذه الفقرة في الحقيقة تفسير وتوضيح للوصف الحادي عشر، فإنه عليه السلام لما ذكر هناك أن بينونيته ليست بتراخي مسافة أوضح هنا جهة البينونة بأنه إنما بان من الأشياء بغلبته واستيلائه عليها وقدرته على إيجادها وإعدامها كما هو اللائق بشأن الواجب المتعال، وأن الأشياء إنما بانت منه لخضوعها وذلّها في قيد الإمكان ورجوعها في وجودها وكمالاتها إلى وجوده كما هو مقتضى حال الممكن المفتقر.

الخامس عشر: أنه تعالى منزّه عن الصفات الزائدة على الذات، وإليه أشار بقوله: **(من وصفه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله)** قال العلامة المجلسي في **(مرآة العقول)** في شرح هذه الفقرة من حديث **(الكافي)**: إن من وصف الله بالصورة والكيف فقد جعله جسماً ذا حدود، ومن جعله ذا حدود فقد جعله ذا أجزاء، وكل ذي أجزاء محتاج حادث، أو أن من وصف الله وحاول تحديد كنهه فقد جعله ذا حد مركب من جنس وفصل، فقد صار حقيقة مركبة محتاجة إلى الأجزاء حادثة أو أن من وصف الله بالصفات الزائدة فقد جعل ذاته محدودة بها، ومن حدّه كذلك فقد جعله ذا عدد إذ اختلاف الصفات إنما يكون بتعدد أجزاء الذات أو قال بتعدد الآلهة إذ تكون كل صفة لقدمها إلٰهاً غير محتاج إلى علة، ومن كان مشاركاً في الإلٰهية لا يكون قديماً فيحتاج إلى علة، أو جعله مع صفاته ذا عدد وعروض الصفات المغايرة الموجودة ينافي الأزلية، لأن الاتصاف نوع علاقة توجب احتياج كل منهما إلى الآخر، وهو ينافي وجوب الوجود والأزلية أو المعنى أنه على تقدير زيادة الصفات يلزم تركّب الصانع إذ ظاهر أن الذات بدون ملاحظة الصفات ليست بصانع للعالم، فالصانع المجموع فيلزم تركبه المستلزم للحاجة والإمكان، وقيل: فقد عدّه من المخلوقين.

السادس عشر: أنه منزّه عن الكيف، وإليه أشار بقوله: **(ومن قال كيف فقد استوصفه)** أي طلب وصفه بصفات المخلوقين وجعل له وصفاً زائداً على ذاته، وقد علمت أن ذلك ممتنع في حقه إذ كل صفة وجودية زائدة على ذاته فهي من مقولة الكيف ومن جنس الكيف

النفساني، فيلزم كون ذاته بذاته معراة عن صفة كمالية، ويلزم له مخالطة الإمكان وينافي كونه واجب الوجود من جميع الجهات، وكل ذلك محال عليه تعالى، هذا وقد تقدم في شرح الخطبة الرابعة والثمانين تحقيق معنى الكيف وتفصيل تنزّهه تعالى عن الاتصاف به.

السابع عشر: أنه سبحانه منزّه عن المكان، وإليه أشار بقوله: **(ومن قال أين فقد حيّزه)** لأن أين سؤال عن الحيّز والجهة، فمن قال: أين فقد جعله في حيّز مخصوص وهو محال في حق الواجب تعالى، لأنه خالق الحيّز والمكان فيلزم افتقاره إلى ما هو مفتقر إليه، على أن كونه في حيّز معين يستلزم خلوّ سائر الأحياز والأمكنة منه كما هو شأن الأجسام والجسمانيات، وهو باطل لأنه في جميع الأحياز بالعلم والإحاطة، وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه.

واعلم أن هذه العبارة نظير قوله عليه السلام في الفصل الخامس من الخطبة الأولى: ومن قال فيم فقد ضمنه، وقد ذكرنا في شرحه ما يوجب البصيرة في المقام.

الثامن عشر: أنه سبحانه **(عالم إذ لا معلوم وربّ إذ لا مربوب وقادر إذ لا مقدور)** **(إذ)** ظرفية على توهم الزمان أي كان موصوفاً في الأزل بالعلم والربوبية والقدرة، ولم يكن شيء من المعلوم والمربوب والمقدور موجوداً فيه.

أما أنه كان عالماً بالأشياء ولا معلوم فلأن علمه عين ذاته وتقدم ذاته على معلوماته الحادثة ظاهر، ولا يتوقف وجوده على وجود المعلوم كما مر تحقيقه في شرح الفصل السابع من الخطبة الأولى عند تحقيق قوله: عالماً بها قبل ابتدائها، فليتذكر.

وأما أنه كان ربّاً إذ لا مربوب لأن معنى الرب هو المالك، وقد كان سبحانه مالكاً لأزمة الإمكان وتصريفه من العدم إلى الوجود ومن الوجود إلى العدم كيف شاء ومتى أراد، وقيل: المراد إنه كان قادراً على التربية إذ هو الكمال وفعليتها منوطة على المصلحة.

وأما أنه كان قادراً إذ لا مقدور فلأن القادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك، وبعبارة أخرى هو الذي يصح منه الفعل والترك، ووجود هذا الوصف له لا يستلزم وجود المقدور.

وقال الصدوق في **(التوحيد)**: والقدرة مصدر قولك: قدر قدرة أي ملك فهو قدير قادر مقتدر، وقدرته على ما لم يوجد واقتداره على إيجاده هو قهره وملكه له، وقد قال عزّ ذكره: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]، ويوم الدّين لم يوجد بعد[1].

---

(١) التوحيد: ١٩٨.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن وليّ ربّ العالمين و وصىّ امين خاتم النّبيّين (عليه السلام) است در تحميد و توحيد و تمجيد حضرت ذوالجلال و خداوند متعال، مى فرمايد:

حمد و ثنا خداوندى را سزا است كه هدايت كننده است به وجود خود با ايجاد مخلوقات خود و با حدوث مخلوقات خود بر ازليّت و سرمديّت خود و با شبيه نمودن آن مخلوقات به يكديگر بر اينكه هيچ مثل و شبيه نيست مراورا، مسّ نمى توانند بكنند او را حواسّ ظاهره و باطنه و نمى پوشانند او را پرده ها و حجاب ها به جهت ممتاز و مغاير بودن آفريننده و آفريده شده و حدقراردهنده و حدقرارداده شده و تربيت كننده و تربيت داده شده، اين صفت دارد كه يكى است نه يكى كه از مقوله اعداد باشد و خلق كننده است نه با حركت و مشقّت و شنوا است نه با آلت گوش و بينا است نه با برگرداندن حدقه چشم و حاضر است با اشياء نه با مجاورت و مماست و جدا است از اشيا نه به دورى راه و آشكار است نه بديدن چشم ها و پنهان است نه به سبب لطافت مقدار.

جدا شد از اشيا با قهر و غلبه كردن بر آنها و جدا شد اشيا از او به سبب خضوع و تواضع نمودن آنها بر او به سبب بازگشت آنها به سوى او، هركس وصف كرد او را، پس به تحقيق كه حد قرار داد او را و هركه حد قرار دهد بر او، پس به تحقيق كه در شمار آورد او را و كسى كه در شمار آورد او را، پس به تحقيق كه باطل گردانيد ازليّت او را و هر كس كه بگويد چگونه است او، پس به تحقيق كه طلب وصف او نمود و هركه گفت او كجاست، پس به تحقيق كه مكان قرار داد به او، دانا بود در وقتى كه هيچ معلومى نبود، ربّ بود هنگامى كه هيچ مربوبى نبود و صاحب قدرت بود زمانى كه هيچ مقدورى نبود.

الفصل الثاني منها

قَدْ طَلَعَ طالِعٌ، ولَمَعَ لامِعٌ، وَلاحَ لائِحٌ، واعْتَدَلَ مائِلٌ، واسْتَبْدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وبِيَوْمٍ يَوْماً، وانْتَظَرْنا الغِيَرَ انْتِظارَ المُجْدِبِ المَطَرَ، وَإِنَّما الأَئِمَةُ قُوّامُ اللَّهِ عَلىٰ خَلْقِهِ، وعُرَفاؤُهُ عَلىٰ عِبادِهِ، لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ وعَرَفُوهُ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وأَنْكَرُوهُ، إِنَّ اللَّهَ تَعالىٰ قَدْ خَصَّكُمْ بالإِسْلامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وذٰلِكَ لأَنَّهُ اسْمُ سَلامَةٍ وجِماعُ كَرامَةٍ، اصْطَفَى اللَّهُ تَعالىٰ مَنْهَجَهُ، وبَيَّنَ حُجَجَهُ مِنْ ظاهِرِ عِلْمٍ، وباطِنِ حُكْمٍ، لا تَفْنىٰ غَرائِبُهُ، وَلا تَنْقَضِي عَجائِبُهُ، فِيهِ مَرابِيعُ النِّعَمِ، ومَصابِيحُ الظُّلَمِ، لا تُفْتَحُ الخَيْراتُ إِلاَّ بِمَفاتِحِهِ، ولا تُكْشَفُ الظُّلُماتُ إِلاَّ بِمَصابِيحِهِ، قَدْ أَحْمىٰ حَماهُ، وأَرْعىٰ مَرْعاهُ فِيهِ شِفاءُ المُشْتَفي، وكِفايَةُ المُكْتَفي[1].

اللغة

(الجدب) هو المحل وزناً ومعنىً وهو انقطاع المطر ويبس الأرض، وأجد القوم إجداباً أصابهم الجدب و **(عرفت)** على القوم من باب قتل عرافة بالكسر فأنا عارف أي مدبر أمرهم وقائم بسياستهم، وعرفت عليهم بالضم لغة فأنا عريف والجمع عرفاء، وقيل: العريف هو القيّم بأمور القبيلة والجماعة يلي أمورهم ويتعرّف الأمير منه أحوالهم فعيل بمعنى فاعل و **(جماع)** الشيء بالكسر والتخفيف جمعه يقال: الخمر جماع الإثم، و **(المرابيع)** الأمطار التي تجيء في أول الربيع و **(حمى)** المكان من الناس حمياً من باب رمى منعه عنهم، والحماية اسم منه وأحميته بالألف جعلته حتى لا يقرب ولا يجترىء عليه وكلاء حمى محمى، قال الشاعر:

ونرعى حمى الأقوام غير محرّم علينا ولا يرعى حمانا الذي نحمي

قال الشارح المعتزلي: قد حمى حماه، أي عرضه لأن يحمي كما تقول: أقتلت الرجل أي عرضته لأن يضرب.

الإعراب

جملة **(لا يدخل الجنة)** بدل من الجملة السابقة عليها، ولشدة الاتصال بينهما ترك العاطف على حد قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣٢ـ ١٣٣]،

(١) بحار الأنوار: ٦٥/ ٣٧٤، وكشف المحجة لثمرة المهجة: ١٩٢.

وإضافة المنهج إلى الضمير إما نظير الإضافة في سعيد كرز، أو بمعنى اللام، والإضافة في قوله: **(من ظاهر علم وباطن حكم)** من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها، **(ومن)** في: **(من ظاهر)** للتبيين والتفسير كما تقول: دفعت إليه سلاحاً من سيف ورمح وسهم أو للتميز والتقسيم.

المعنى

إعلم أن الشارح المعتزلي ذكر في شرح هذا الفصل من كلامه عليه السلام أنه خطب بذلك بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه.

إذا عرفت ذلك فأقول: قوله عليه السلام: **(قد طلع طالع ولمع لامع ولاح لائح)** يحتمل أن يكون المراد بالجمل الثلاث واحداً، أي طلعت شمس الخلافة من مطلعها وسطع أنوار الإمامة من منارها، وظهر كوكب الولاية من أفقه، وأن يكون المراد بالأولى ظهور خلافته وإمارته، وبالثانية ظهورها من حيث هي حق له عليه السلام وسطوع أنوار العدل بصيرورتها إليه، وبالثالثة ظهور الحروب والفتن الواقعة بعد انتقال الأمر إليه عليه السلام.

(واعتدل مائل) أي استقام ما اعوج من أركان الدين وقوائم الشرع المبين **(واستبدل الله بقوم)** من أهل الضلال والفساد وهم الخلفاء الثلاث وأتباعهم **(قوماً)** من أهل الصلاح والرشاد وهم أمير المؤمنين وتابعوه **(وبيوم)** انتشر فيه الجور والاعتساف **(يوماً)** ظهر فيه العدل والإنصاف **(وانتظرنا الغير)** أي تغيرات الدهر وتقلّبات الزمان.

قال العلامة المجلسي (قد): ولعل انتظارها كناية عن العلم بوقوعه، أو الرضا بما قضى الله من ذلك، والمراد بالغير: ما جرى قبل ذلك من قتل عثمان وانتقال الأمر إليه أو ما سيأتي من الحروب والوقائع، والأول أنسب بالتشبيه بـ **(انتظار المجدب المطر)** لدلالته على شدة شوقه بالتغيرات وفرط رغبته لانتقال الأمر إليه ليتمكن من إعلاء كلمة الإسلام وترويج شرع سيد الأنام عليه وآله آلاف التحية والسلام كما أن للمجدب شدّة الاشتياق إلى الأمطار.

ثم أشار إلى أن القيام بأمور الأمة وظيفة الأئمة فقط، وأن موالاتهم ومتابعتهم واجبة فقال: **(وإن الأئمة)** أراد به نفسه الشريف والطيبين من أولاده **(قوّام الله على خلقه)** أي يقومون بمصالحهم ويدبرون أمورهم، أو أنهم القائمون بأمر الله ونهيه وأحكامه على خلقه، لكونهم خلفائه في أرضه وحججه على بريّته، وكمال هذا القيام عند ظهور صاحب الأمر عليه السلام فإنه الزمان الذي تجتمع فيه الخلائق على الإيمان، ويرتفع الشرك بالكلية.

كما يدل عليه ما في **(الكافي)** عن أبي خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن

القائم، فقال: كلنا قائم بأمر الله واحداً بعد واحد حتى يجيء صاحب السيف فإذا جاء صاحب السيف جاء بأمر غير الذي كان[١] **(وعرفائه على عباده)** كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]. روى في **(البحار)** من بصائر الدرجات مسنداً عن الهلقام عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾؟، قال عليه السلام: نحن أولئك الرجال الأئمة منا يعرفون من يدخل النار ومن يدخل الجنة كما تعرفون في قبائلكم الرجل منكم يعرف من فيها من صالح أو طالح.

وفيه عن الهلقام أيضاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجل: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ ما يعني بقوله: وعلى الأعراف رجال؟ قال عليه السلام: ألستم تعرفون عليكم عريفاً على قبائلكم لتعرفوا من فيها من صالح أو طالح؟ قلت: بلى، قال: فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلاً بسيماهم[٢].

وفيه من كتاب **(المقتضب)** لأحمد بن محمد بن عياش بسنده عن أبان بن عمر ختن آل ميثم قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه سفيان بن مصعب العبدي فقال: جعلني الله فداك ما تقول في قوله تعالى ذكره: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ الآية؟ قال: هم الأوصياء من آل محمد الإثنا عشر لا يعرف الله إلا من عرفهم وعرفوه، قال: فما الأعراف جعلت فداك؟ قال: كثائب من مسك عليها رسول الله صلى الله عليه وآله والأوصياء يعرفون كلاً بسيماهم، فقال سفيان: فلا أقول في ذلك شيئاً[٣]؟ فقال من قصيدة شعراً:

أيا ربعهم[٤] هل فيك لي اليوم مربع ... وهل لليالي كنّ لي فيك مرجع

وفيها يقول:

وأنتم ولاة الحشر والنشر والجزا ... وأنتم ليوم المفزع الهول مفزع

وأنتم على الأعراف وهي كثائب ... من المسك رياها بكم يتضوّع

ثمانية بالعرش إذ يحملونه ... ومن بعدهم هادون في الأرض أربع

(لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه) هذه القضية قد نصّت عليها في **(الأخبار المعتبرة)** المتظافرة عن أهل بيت العصمة والطهارة،

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ١٨٩ ح ٤، ومعجم أحاديث الإمام المهدي (عج): ٤/ ٥٣.

(٢) بصائر الدرجات: ٥١٥، والكافي: ١/ ١٨٤ ح ٩.

(٣) بحار الأنوار: ٢٤/ ٢٥٢ ح ١٣.

(٤) الربع: الدار والمحلة والمنزل يرتبعون فيه في الربيع كالمربع، والريا: الريح الطيبة.

وستطلع عليها وعلى تحقيق مغناها في التذييل الآتي.

ثم أشار إلى بعض ما منّ الله تعالى به على المخاطبين، وهو أعظم نعمائه عليهم فقال: **(إن الله قد خصكم بالإسلام واستخلصكم له)** أي استخصكم له يعني أنكم لكرامتكم عند الله تعالى وعلوّ منزلتكم خصّكم بهذه النعمة العظمى والعطية الكبرى **(وذلك لأنه إسم سلامة)** قال الشارح المعتزلي والبحراني: يعني أنه مشتق من السلامة، وتبعهما بعض الشارحين فقال: ظاهر الكلام يعطى أن الإسلام من السلامة مشتق فليس بمعنى الانقياد والدخول في السلم.

أقول: لا دلالة في كلامه عليه السلام على اشتقاقه منه لو لم يكن دالاً على خلافه، بل الظاهر أن معناه أن الإسلام إسم لمسمى فيه سلامة من غضب الجبّار ومن النار، فإن من فاز بالإسلام سلم من سخط الله وعقوبته.

(و) هو أيضاً **(جماع كرامة)** أي مجمعه إذ به تُفاز الجنان، ويتحصل الرضوان والنعيم الأبد واللذة السرمد **(اصطفى الله منهجه)** أي اختار طريق الإسلام وارتضاه من بين سائر الطرق والمناهج، والمراد بطريق الإسلام إما نفس الإسلام وتسميته بالطريق باعتبار إيصاله إلى قرب الحق سبحانه وكونه محصلاً لرضاه تعالى، وقد عبّر عنه بالصراط وهو الطريق في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] على بعض تفاسيره، ويدل على اختيار الله سبحانه واصطفائه له قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وأما الطريق المخصوص به، أعني الطريق الذي لا بد لمن تديّن بدين الإسلام أن يسلكه وهي طريق الشريعة، أعني الفروع العملية، والدليل على اصطفائه عزّ وجل لها جعلها ناسخة لسائر الشرائع، وإبقاءها بقاء الدهر، شرع محمد صلى الله عليه وآله مستمر إلى يوم القيامة.

(وبين حججه) أي أوضح الأدلة الدالة على حقيّته **(من ظاهر علم وباطن حكم)** أي تلك الأدلة على قسمين: أحدهما علم ظاهر وهي الأدلة النقلية من الكتاب والسنة، وثانيهما حكمة باطنة وهي الأدلة العقلية.

أما تفسير الحكم بالحكمة فقد دلّ عليه ما في **(الصافي)** عن **(الكافي)** عن الباقر عليه السلام قال: مات زكريا فورثه إبنه يحيىٰ الكتاب والحكمة وهو صبي صغير، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم: ١٢]. وفي **(مجمع البحرين)** في الحديث: ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وحكماً، أي حكمة[١].

---

(١) شرح أصول الكافي: ٢/٣٠٦، وكتاب سليم بن قيس: ١٨٣.

وأما تفسير الحكمة بالعقل فقد نص عليه الكاظم عليه السلام في رواية **(الصافي)** عن **(الكافي)** عنه عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [القمان: ١٢]. قال: الفهم والعقل[١]، فقد ظهر واتضح مما ذكرنا أن المراد بالحكم الباطن هو دليل العقل **(لا تفنى غرائبه ولا تنقضي عجائبه)** يعني أن غرائب الإسلام وعجائبه دائمة تجدد يوماً فيوماً، ألا ترى كيف أعزّه الله وأهله في بدء الأمر وأذلّ الكفر وأهله ونصر الله المسلمين على الكافرين وأظهرهم عليهم على قلّة الأولين وكثرة الآخرين وأيّد الإسلام بالملائكة المسوّمين يوم بدر وحنين، ونكص الشيطان اللعين على عقبيه لما تراءت الفئتان وقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله ربّ العالمين، مضافة إلى المعجزات والكرامات الصادرة من قادة المسلمين ونوّابهم الصالحين في كل عصر وزمان، وأعظم تلك العجائب وأكمل تلك الغرائب ما يظهر في آخر الزمان عند ظهور الدولة الحقة القائمية «عج» وهذه كلها من عجائب نفس الإسلام ومضافة إليه كما هو غير خفي لأُولي الأفهام.

(فيه مرابيع النعم) استعار لفظ المرابيع للبركات والخيرات التي يفوز بها المسلمون في الآخرة والأولى ببركة أخذهم الإسلام ديناً، أما في الدنيا فكحقن الدماء والظفر بالأعداء وغنيمة الأموال ورفاه الحال، وأما في العقبى فالنجاة من النار والأمن من غضب الجبار والفوز بجنات تجري من تحتها الأنهار، وبرضوان من الله أكبر وهو أعظم النعماء وأشرف الألاء.

(ومصابيح الظلم) لفظ المصابيح أيضاً استعارة للمعارف الحقة والعقائد الإلٰهية، إذ بتصفية القلب بها ترتفع ظلمات الشبهات ويندفع رين الشكوكات عنه في الدنيا بخلاف الذين كفروا فقد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم، وأما في الآخرة فبسبب تلك المعارف وبعض الأعمال الصالحة التي هي من فروع الدين والإسلام يحصل نور للمؤمن في القبر والبرزخ والقيامة، هذا.

ويحتمل أن يكون لفظ المصابيح استعارة لأولياء الدين وأئمة اليقين قادة المسلمين إذ بهم يهتدى من ظلمات الجهل والضلال في الدين والدنيا، وبأنوارهم يسلك سبيل الجنة في الأخرى كما قال عزّ من قائل: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، وقد مر الكلام في هذا المعنى مشبعاً في شرح الفصل الأول من الخطبة الرابعة فليراجع ثمة.

(لا تفتح الخيرات إلا بمفاتحه) أراد بالخيرات النعم الأخروية واللذائذ الدائمة الباقية والدرجات العالية، ومفاتح الإسلام الفاتحة لها عبارة عن فروعات الإسلام والأعمال الحسنة

---

(١) الكافي: ١/١٦، وتحف العقول: ٣٨٥.

والعبادات التي كل منها سبب لجزاء مخصوص وموصلة إلى درجة مخصوصة من درجات الجنان ومفتاح لأبوابها.

كما ورد في بعض الأخبار: أن للجنة ثمانية أبواب: الباب الأول إسمه التوبة، الثاني الزكاة، الثالث الصلاة، الرابع الأمر والنهي، الخامس الحج، السادس الورع، السابع الجهاد، الثامن الصبر، فإن الظاهر منه أن التوبة مفتاح للباب الأول والزكاة للثاني وهكذا.

(ولا تكشف الظلمات إلا بمصابيحه) قد ظهر توضيحه مما قدمناه آنفاً في شرح قوله: فيه مصابيح الظلم **(قد أحمى حماه)** المراد بحمى الإسلام المحرمات الشرعية وقد أحماها الله سبحانه أي جعلها عرضة لأن تحمى، أي منع ونهى عن الاقتحام فيها.

ويدل على ما ذكرناه ما في **(الوسائل)** عن الصدوق، قال: إن أمير المؤمنين عليه السلام خطب الناس فقال في كلام ذكره: حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بين ذلك فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان له أترك، والمعاصي حمى الله فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها.

وفيه عن الفضل بن الحسن الطبرسي في **(تفسيره الصغير)** قال: في الحديث أن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

وفيه عن الكراجكي في كتاب **(كنز الفوائد)** بسنده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال جدي رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيها الناس حلالي حلال إلى يوم القيامة، وحرامي حرام إلى يوم القيامة، ألا وقد بينهما الله عزّ وجل في الكتاب وبينتهما لكم في سنّتي وسيرتي، وبينهما شبهات من الشيطان وبدع بعدي من تركها، صلح له أمر دينه وصلحت له مرّوته وعرضه، ومن تلبس بها وقع فيها وأتبعها كان كمن رعى غنمه قرب الحمى، ومن رعى ماشيته قرب الحمى نازعته نفسه إلى أن يرعاها في الحمى، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله عزّ وجل محارمه، فتوّقوا حمى الله ومحارمه»[١].

(وأرعى مرعاه) المراد بمراعاه المباحات والمحلّلات الشرعية، فإن الله سبحانه قد رخّص المكلفين في الإقدام عليها وتناولها والتمتع بها.

(فيه شفاء المشتفي وكفاية المكتفي) إذ به يحصل التقرب الروحاني من الحق تعالى، وهو شفاء لكل داء وغنى لكل فقر، وإليه يومىء ما في الحديث القدسي: يا ابن آدم كلكم ضالّ إلا من هديته، وكلكم مريض إلا من شفيته، وكلكم فقير إلا من أغنيته.

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦٩/٢٧ ح ٣٣٥١٥، وبحار الأنوار: ٢٦١/٢.

تنبيه

ما ذكرته في شرح هذه الفقرات الأخيرة، أعني قوله: من ظاهر علم، إلى آخر الفصل هو الذي ظهر لي في المقام وهو الأنسب بسياق الكلام.

وقال الشارح المعتزلي والبحراني وتبعهما غيرهما: إن المراد بقوله: من ظاهر علم هو القرآن، وما ذكره إلى آخر الفصل أوصاف له.

قال الشارح المعتزلي: ويعني بظاهر علم وباطن حكم القرآن ألا تراه كيف أتى بعده بصفات ونعوت لا يكون إلا للقرآن من قوله: لا تفنى غرائبه، أي آياته المحكمة وبراهينه القاطعة، ولا تنقضي عجائبه، لأنه مهما تأمله الإنسان استخرج منه بفكره غرائب وعجائب لم يكن عنده من قبل، فيه مرابيع النعم المرابيع سبب لظهور الكلاء، وكذلك تدبر القرآن سبب للنعم الدينية وحصولها، قد أحمى حماه وأرعى مرعاه، أي عرض حمى القرآن ومحارمه لأن يجتنب وعرض مرعاه لأن يرعى، أي يمكن من الانتفاع بما فيه من الزواجر والمواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربي مبين، ولم يقنع ببيان ما لا يعلم إلا بالشرع حتى نبه في أكثره على أدلة العقل.

وقال الشارح البحراني: ثم أخذ عليه السلام في إظهار منّة الله عليهم بالقرآن الكريم وتخصيصهم به من بين سائر الكتب وإعدادهم لقبوله من سائر الأمم.

ثم نبّه على بعض أسباب إكرامه تعالى لهم به.

أما من جهة إسمه فلأنه مشتق من السلامة بالدخول في الطاعة.

وأما من جهة معناه فمن وجوه:

أحدها: أنه مجموع كرامة من الله لخلقه لأن مدار جميع آياته على هداية الخلق إلى سبيل الله القائدة إلى الجنة.

الثاني: أن الله اصطفى منهجه وهو طريقته الواضحة المؤدّية للسالكين بالسير إلى رضوان الله.

الثالث: أنه بيّن حججه وهي الأدلة والأمارات وقسّم الحجج إلى ظاهر علم وأشار به إلى ظواهر الشريعة وأحكامها الفقهية وأدلة تلك الأحكام، وباطن حكم وأشار به إلى ما يشتمل عليه الكتاب العزيز من الحكمة الإلٰهية وأسرار التوحيد وعلم الأخلاق والسياسات وغيرها.

الرابع: أنه لا تفنى عزائمه[١] وأراد بالعزائم هنا الآيات المحكمة وبراهينه العارمة أي القاطعة، وعدم فنائها إشارة إما إلى ثباتها واستقرارها على طول المدة وتغير الأعصار، وإما إلى كثرتها عند البحث والتفتيش عنها.

الخامس: ولا تنقضي عجائبه، لأنه كلما تأمله الإنسان استخرج منه بفكره لطائف معجبة من أنواع العلوم لم يكن عنده من قبل.

السادس: فيه مرابيع النعم، استعار لفظ المرابيع لما يحصل عليه الإنسان من النعم ببركة القرآن ولزوم أوامره ونواهيه وحكمه وآدابه، أما في الدنيا فالنعم التي تحصل ببركته لحامليه من القراء والمفسرين وغيرهم ظاهرة الكثرة، وأما بالنسبة إلى الآخرة فما يحصل عليه مقتبسو أنواره من الكمالات المعدّة في الآخرة من العلوم والأخلاق الفاضلة أعظم نعمة وأتم فضل.

السابع: أن فيه مصابيح الظلم استعار لفظ المصابيح لقوانينه وقواعده الهادية إلى الله في سبيله.

الثامن: أنه لا يفتح الخيرات إلا بمفاتيحه، أراد الخيرات الحقيقية الباقية واستعار لفظ المفاتح لمناهجه وطرقه الموصلة إلى تلك الخيرات.

التاسع: ولا تنكشف الظلمات إلا بمصابيحه، أراد ظلمات الجهل وبالمصابيح قوانينه.

العاشر: كونه قد أحمى حماه، استعار لفظ الحمى لحفظه وتدبّره والعمل بقوانينه، ووجه الاستعارة أن بذلك يكون حفظ الشخص وحراسته أما في الدنيا فمن أيدي كثير من الظالمين لاحترامهم حملة القرآن ومفسّريه ومن يتعلق به، وأما في الآخرة فلحمايته حفظته ومتدبريه والعامل به من عذاب الله كما يحمي الحمى من يلوذ به، ونسبة الإحماء إليه مجاز.

الحادي عشر: وكذلك أرعى مرعاه، أي هيّأه لأن رعاه، واستعار لفظ المرعى للعلوم والحكم والآداب التي يشتمل عليه القرآن، ووجه المشابهة أن هذه مراعي النفوس الإنسانية وغذائها الذي به يكون نشؤها العقلي ونماؤها الفعلي، كما أن المراعي المحسوسة من النبات غذاء للأبدان الحيوانية التي بها يقوم وجودها.

الثاني عشر: فيه شفاء المشتفي، أي طالب الشفاء منه أما في الأبدان فبالتعوّذ به مع صدق النية فيه وسلامة الصدور، وأما في النفوس فلشفائها به من أمراض الجهل.

---

(١) هكذا في (شرح البحراني) ويستفاد منه أن الموجود في نسخته عزائمه بدل غرائبه.

الثالث عشر: وكفاية المكتفي، أراد بالمكتفي طالب الكفاية أما من الدنيا فلأن حملة القرآن الطالبين به المطالب الدنيوية هم أقدر وأكثر الناس على الاحتيال به في تحصيل مطالبهم وكفايتهم بها، وأما في الآخرة فلأن طالب الكفاية منها بكفيه تدبر القرآن ولزوم مقاصده في تحصيل مطلوبه منها.

تذييل

قد وعدناك تحقيق الكلام في قوله عليه السلام: **(لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه)**، وقد تكلم فيه الشارحان البحراني والمعتزلي على ما تقتضيه سليقتهما وبلغا فيه غاية وسعهما وبذلا منتهى الجهد إلا أنهما لقصور يديهما عن أخبار العترة الأطهار الأطياب لم يكشفا عن وجوه خرائده النقاب، وخفي عليهما وجه التحقيق ومقتضى النظر الدقيق، فأحببت أن أشبع الكلام في المقام، لكونه حقيقاً بذلك مع الإشارة إلى بعض ما قاله الشارحان الفاضلان، وينبغي أن نورد أولاً جملة من الروايات الموافقة معنى لكلامه عليه السلام ثم نتبعها بالمقصود.

فأقول: وبالله التوفيق، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] وللمفسرين في تفسير الأعراف قولان:

أحدهما: أنها سور بين الجنة والنار أو شرفها وأعاليها، أو الصراط فيكون مأخوذاً من عرف الديك.

وثانيهما: أن على معرفة أهل الجنة والنار رجال والأخبار تدل على التفسيرين، وربما يظهر من بعضها أنه جمع عريف كشريف وأشراف، فيكون مرادفاً للعرفاء، فلا بد على هذا التفسير من التقدير أي على طريق الأعراف رجال أو على التجريد، هكذا قال العلامة المجلسي.

وهو إنما يستقيم إذا جعلنا الأعراف مأخوذاً من المعرفة، وأما إذا كان جمعاً لعريف فهذا التقدير لا يرفع الإشكال، إذ يكون محصّل المعنى أن على طريق عرفاء أهل الجنة والنار رجال والحال أن هذه الرجال نفس الأعراف والعرفاء، فكيف يكونون على طريق العرفاء، والتجريد أيضاً غير مستقيم كما لا يخفى فاللازم حينئذ جعل الأعراف في الآية بمعنى السور، أو المواضع العالية ونحوها، أو بمعنى المعرفة، وعلى ذلك فلا ينافي وصف الرجال بكونهم أعرافاً أيضاً كما في الأخبار المتقدمة والآتية، لكونهم عرفاء العباد أعني أن كلاً منهم عريف أو لكونهم عارفين بالله، أو لأنهم سبيل معرفة الله ونحو ذلك.

قال في **(الصافي)**: والوجه في إطلاق لفظ الأعراف على الأئمة أن الأعراف إن كان اشتقاقها من المعرفة فالأنبياء والأوصياء العارفون والمعروفون والمعرّفون الله والناس للناس في هذه النشأة، وإن كان من العرف بمعنى المكان العالي المرتفع فهم الذين من فرط معرفتهم وشدّة بصيرتهم كأنهم في مكان عال مرتفع ينظرون إلى سائر الناس في درجاتهم ودركاتهم، ويميزون السعداء عن الأشقياء على معرفة منهم بهم وهم بعد في هذه النشأة.

إذا ظهر لك ذلك فلنورد بعض ما ورد من الأخبار المناسبة للمقام.

فأقول: روى في **(البحار)** من بصائر الدرجات ومنتخب البصائر معنعناً عن مقرن قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جاء ابن الكوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم، فقال عليه السلام: نحن الأعراف نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله عزَّ وجل إلا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يعرفنا «يوقفنا» الله عزَّ وجل يوم القيامة على الصراط، فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا ونحن عرفناه، ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه، إن الله لو شاء لعرف العباد نفسه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضّل علينا غيرنا فإنهم عن الصراط لناكبون، ولا سواء من اعتصم الناس به، ولا سواء من ذهب حيث ذهب الناس، ذهب الناس إلى عيون كدرة[1] يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافية تجري بأمور لا نفاد لها ولا انقطاع[2].

وفيه من **(البصائر)** و **(منتخب البصائر)** أيضاً مرفوعاً إلى الأصبغ بن نباتة عن سلمان الفارسي (ره) قال: أقسم بالله لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول لعلي عليه السلام: «يا علي إنك والأوصياء من بعدي»، أو قال: «من بعدك أعراف لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتكم وأعراف لا يدخل الجنة إلا من عرفكم وعرفتموه، ولا يدخل النار إلا من أنكركم وأنكرتموه»[3].

وفيه من الكتابين المذكورين عن المنبه عن الحسين بن علوان عن سعد بن طريف عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن هذه الآية ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ قال عليه السلام: يا سعد آل محمد صلى الله عليه وآله لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه، وأعراف لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتهم[4].

---

(١) أي مكدرة بالشكوك والشبهات والجهالات.
(٢) الكافي: ١/ ١٨٤ ح ٩، وبحار الأنوار: ٢٤/ ٢٤٩ ح ٤.
(٣) الخصال: ١٥٠ ح ١٨٣، وبحار الأنوار: ٨/ ٣٣٧ ح ٩.
(٤) بصائر الدرجات: ٥١٦، وبحار الأنوار: ٨/ ٣٣٦ ح ٥.

وفيه من (**البصائر**) عن عبد الله بن عامر وابن عيسى عن الجمال عن رجل عن نصر العطار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «**يا علي ثلاث أقسم أنهن حق: إنك والأوصياء عرفاء لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتكم، وعرفاء لا يدخل الجنة إلا من عرفكم وعرفتموه، وعرفاء لا يدخل النار إلا من أنكركم وأنكرتموه**»[١].

وفي (**الصافي**) من (**المجمع والجوامع**) عن أمير المؤمنين عليه السلام: نحن نوقف يوم القيامة بين الجنة والنار، فمن ينصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنة، ومن أبغضنا عرفناه بسيماه فأدخلناه النار[٢].

ومن (**تفسير**) علي بن إبراهيم القمي عن الصادق عليه السلام: كل أمة يحاسبها إمام زمانها ويعرف الأئمة أوليائهم وأعدائهم بسيماهم، وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ فيعطوا أوليائهم كتابهم بيمينهم فيمرّوا إلى الجنة بلا حساب ويعطوا أعدائهم كتابهم بشمالهم فيمروا على النار بلا حساب، هذا والأخبار في هذا المعنى كثيرة وفيما أوردناه كفاية[٣].

إذا عرفت هذا فلنعد إلى تحقيق معنى قوله عليه السلام: (**لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه**).

فأقول: أما القضية الأولى: فالمراد بها معرفة الناس بالولاية والإمامة، ومعرفتهم للناس بالتشيع والمحبة، لا المعرفة بأعيانهم فقط، وإنما لا يدخل الجنة غير هؤلاء، لأن الإذعان بالولاية أعني معرفة الأئمة حق المعرفة والاعتقاد بإمامتهم وبأنهم مفترض الطاعة هو الركن الأعظم من الإيمان، وشرط قبولية سائر الأعمال والعبادات، وبدونه لا ينتفع بشيء منها كما مر تحقيق ذلك وتفصيله ودللنا عليه في التذنيب الثالث من شرح الفصل الرابع من الخطبة الأولى.

ويدل عليه أيضاً الأخبار المتظافرة بل القريبة من التواتر ـ لو لم تكن متواترة ـ الدالة إلى أن من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة الجاهلية.

ومن جملة تلك الأخبار ما في (**البحار**) من (**كنز الكراجكي**) مسنداً عن الحسن بن عبد الله الرازي عن أبيه عن علي بن موسى الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات وليس له إمام من ولدي مات ميتة جاهلية يؤخذ بما عمل في الجاهلية والإسلام».

---

(١) الخصال: ١٥٠ ح ١٨٣، وبحار الأنوار: ٨/٣٣٦ ح ٩.

(٢) بحار الأنوار: ٨/ ٣٣٢، والغدير: ٢/ ٣٢٥.

(٣) بحار الأنوار: ٦٦/٢٦٨، والتفسير الصافي: ٢/١٩٩.

ومن طريق العامة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وليس في عنقه بيعة لإمام أو ليس في عنقه عهد لإمام مات ميتة جاهلية»[١].

ومن **(عيون أخبار الرضا)** فيما كتب الرضا ﷺ للمأمون من شرائع الدين: من مات لا يعرف أئمته مات ميتة جاهلية[٢].

ثم المراد بالمعرفة في قوله ﷺ: **(إلا من عرفهم وعرفوه)**، هو المعرفة في الدنيا وفي الآخرة، أما معرفة الناس بالأئمة في هذه النشأة فبأن يعرفوا أن لكل زمان إماماً ويعرفوا إمام زمانهم بخصوصه وهو حي ناطق يجب طاعته فيما يأمر وينهي وأما معرفتهم بهم في النشأة الآخرة فإن كل أمة تدعى مع إمامها. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١].

روى في **(البحار)** من تفسير علي بن إبراهيم بسنده عن الفضل عن أبي جعفر ﷺ في هذه الآية قال: يجيء رسول الله ﷺ في قرنه، وعلي ﷺ في قرنه، والحسن في قرنه، والحسين في قرنه، وكل من مات بين ظهراني قوم جازا معه[٣]، وقال علي بن إبراهيم في هذه الآية: ذلك يوم القيامة ينادي مناد ليقم أبو بكر وشيعته، وعمر وشيعته، وعثمان وشيعته، وعلي ﷺ وشيعته، وقد مر في شرح الفصل الثالث من الخطبة السادسة والثمانين الحديث الشريف النبوي في ورود الأمة على النبي ﷺ يوم القيامة على خمس رايات، وأن الراية الخامسة مع أمير المؤمنين ﷺ ومعه شيعته، فليتذكر.

وفي **(البحار)** من أمالي الشيخ بسنده عن كثير بن طارق قال سألت زيد بن علي بن الحسين ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٤]، فقال: يا كثير إنك رجل صالح ولست بمتهم وإني أخاف عليك أن تهلك أن كل إمام جائر فإن أتباعهم إذا أمر بهم إلى النار نادوا باسمه فقالوا: يا فلان، يا من أهلكناهم «كذا» الآن فخلصنا مما نحن فيه، ثم يدعون بالويل والثبور فعندها يقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ قال زيد بن علي رحمه الله: حدثني أبي علي بن الحسين عن أبيه حسين بن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ: «يا علي أنت وأصحابك في الجنة أنت وأتباعك يا علي في الجنة»[٤]، هذا.

---

(١) المسترشد: ١٧٨، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٩٤.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٨٤ ح ٢٤.

(٣) بحار الأنوار: ٨/ ١٠، وتفسير القمي: ٢/ ٢٣.

(٤) الأمالي: ٥٨، وبحار الأنوار: ٧/ ١٧٨ ح ١٤.

وبما ذكرناه من أن المراد بمعرفة الأئمة عليهم السلام معرفتهم بالولاية والإمامة لا المعرفة بأعيانهم فقط ظهر لك أن هذه المعرفة مخصوصة بالفرقة المحقة الإمامية لا توجد في غيرهم.

فما حكاه الشارح المعتزلي من أصحابه المعتزلة من أنهم قائلون بصحة هذه القضية، وهي أنه لا يدخل الجنة إلا من عرف الأئمة ألا ترى أنهم يقولون الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله: فلان وفلان ويعدُّوهم واحداً واحداً، فلو أن إنساناً لا يقول بذلك لكان عندهم فاسقاً والفاسق عندهم لا يدخل الجنة أبداً، أعني من مات على فسقه، فقد ثبت أن هذه القضية وهي قوله عليه السلام: لا يدخل الجنة إلا من عرفهم قضية صحيحة على مذهب المعتزلة، انتهى.

فيه ما لا يخفى إذ مجرد معرفتهم وتعدادهم واحداً واحداً لا يكفي في دخول الجنة ولا يترتب عليها ثمرة أصلاً، وإنما اللازم معرفتهم بوصف الإمامة والخلافة من رسول الله صلى الله عليه وآله بلا فصل، وأن العصر لا يخلو من إمام إما ظاهر مشهور أو غائب مستور وإن إمام زماننا الآن حي حاضر موجود وإن كان غائباً عن أعيننا، لاقتضاء الحكمة وهو الثاني عشر من الأئمة ومهدي الأمة سلام الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وهو ينافي القول بخلافة الأول والثاني والثالث كما هو مذهب المعتزلة وسائر العامة، وينافي إنكار وجود إمام الزمان عليه السلام الآن كما عليه بنائهم استبعاداً لغيبته بطول المدة والزمان، هذا تمام الكلام في معرفة الناس بالأئمة.

وأما معرفتهم عليهم السلام بالناس فقد قلنا: إن المراد بها أيضاً معرفتهم لهم بالتشيّع والمحبة، لا المعرفة بذواتهم وأشخاصهم فقط وإلا فهم يعرفون المنافقين والكفار كما يعرفون شيعتهم والمؤمنين الأبرار.

فإن قلت: نحن نرى كثيراً من شيعتهم ومحبّيهم لا تعرفهم الأئمة ولا يرون أشخاصهم.

قلت: هذا اعتراض سخيف أورده الشارح البحراني في هذا المقام، وأجاب عنه بقوله: لا يشترط في معرفتهم لمحبّيهم ومعرفة محبيهم لهم المعرفة الشخصية العينية، بل الشرط المعرفة على وجه كلي وهو أن يعلموا أن كل من اعتقد حق إمامتهم واهتدى بما انتشر من هديهم فهو وليّ لهم ومقيم لهذا الركن من الدين فيكونون عارفين بمن يتولاّهم على هذا الوجه ويكون من يتولاهم عارفاً بهم لمعرفته بحقية ولايتهم واعتقاد ما يقولون وإن لم يشترط المشاهدة والمعرفة الشخصية، انتهى.

ولا يكاد ينقضي عجبي من هذا الفاضل كيف ضعف اعتقاده بأئمة الدين وشهداء الناس أجمعين، وهذه العقيدة لا يرتضيها عوام الشيعة ولا يستحسنها لأنفسهم لو عرضت عليهم،

فكيف بالخواص وكيف يجتمع القول بعدم المعرفة الشخصية مع القول بكونهم عليهم السلام شهداء العباد يوم المعاد على ما دلت عليه الأخبار الكثيرة المتقدمة في شرح الخطبة الحادية والسبعين والشهادة فرع المعرفة التفصيلية.

بلى والله إنهم عليهم السلام ليعرفون شيعتهم ومحبّيهم والمؤمنين بهم تفصيلاً بأشخاصهم وذواتهم وأعيانهم، ويعرفون حالاتهم ودرجاتهم والتفاوت في مقاماتهم ودرجاتهم بحسب تفاوتهم في الإيمان والمحبة شدة وضعفاً ونقصاً وكمالاً كما يعرفونهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائرهم وأنسابهم كل ذلك قد قامت عليه الأدلة المعتبرة ودلت عليه الأخبار القريبة من التواتر بل هي متواترة.

منها ما في **(البحار)** من كتاب **(بصائر الدرجات)** للصفار عن أحمد بن محمد عن ابن محبوب عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو مع أصحابه فسلّم ثم قال: أنا والله أحبك وأتولاك، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ما أنت كما قلت: ويلك إن الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، ثم عرض علينا المحب لنا فوالله ما رأيت روحك فيمن عرض علينا فأين كنت[1]؟ فسكت الرجل عند ذلك ولم يراجعه.

وعن محمد بن حماد الكوفي عن أبيه عن نصر بن مزاحم عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله أخذ ميثاق شيعتنا من صلب آدم فنعرف بذلك حب المحبّ وإن أظهر خلاف ذلك بلسانه، ونعرف بغض المبغض وإن أظهر حبنا أهل البيت.

وعن أحمد بن محمد ومحمد بن الحسين معاً عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن بكير قال: كان أبو جعفر عليه السلام يقول: إن الله أخذ ميثاق شيعتنا بالولاية لنا وهم ذرّ يوم أخذ الميثاق على الذر بالإقرار له بالربوبية ولمحمد صلى الله عليه وآله بالنبوة وعرض الله على محمد صلى الله عليه وآله أمّته في الطين وهم أظلّة، وخلقهم من الطينة التي خلق منها آدم، وخلق الله أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألفي عام، وعرضهم عليه وعرّفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وعرّفهم علياً ونحن نعرفهم في لحن القول[2].

وعن ابن يزيد عن ابن فضال عن ظريف بن ناصح وغيره عمن رواه عن حبابة الوالبية قالت: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن لي ابن أخ وهو يعرف فضلكم وإني أحب أن تعلمني أمن شيعتكم؟ فقال: وما اسمه؟ قالت: قلت: فلان بن فلان، فقال عليه السلام: يا فلانة هات الناموس فجاءت بصحيفة تحملها كبيرة، فنشرها ثم نظر فيها فقال: هو ذا اسمه واسم أبيه هٰهنا.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم بلحن القول﴾. قال البيضاوي: لحن القول أي أسلوبه وإمالته إلى جهة تعريض وتورية.

(٢) بصائر الدرجات: ١٠٧، والكافي: ٤٣٨/١ ح ١.

وبسنده أيضاً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام إن حبابة الوالبية كانت إذا وفد الناس إلى معاوية وفدت هي إلى الحسين عليه السلام وكانت امرأة شديدة الاجتهاد قد يبس جلدها على بطنها من العبادة وأنها خرجت مرّة ومعها ابن عمّ لها وهو غلام فدخلت به على الحسين عليه السلام فقالت له: جعلت فداك فانظر هل تجد ابن عمي هذا فيما عندكم وهل تجده ناجياً؟ قال: فقال: نعم نجده عندنا ونجده ناجياً[١].

وبسنده عن أبي محمد البزاز قال: حدثني حذيفة بن أسيد الغفاري «رض» صاحب النبي صلى الله عليه وآله قال: دخلت على علي بن الحسين بن علي عليه السلام فرأيته يحمل شيئاً قلت: ما هذا؟ قال: هذا ديوان شيعتنا، قلت: أرني أنظر فيها إسمي، فقلت: إني لست أقرأ وإن ابن أخي يقرأ، فدعى بكتاب فنظر فيه فقال ابن أخي: إسمي وربّ الكعبة، قلت: ويلك أين اسمي؟ فنظر فوجد إسمي بعد اسمه بثمانية أسماء.

وعن أحمد بن محمد بن علي بن الحكم عن ابن عميرة عن الحضرمي عن رجل من بني حنيفة قال: كنت مع عمي فدخل على علي بن الحسين عليه السلام فرأى بين يديه صحائف ينظر فيها فقال له: أي شيء هذه الصحف جعلت فداك؟ قال: هذا ديوان شيعتنا، قال: أفتأذن أطلب إسمي فيها؟ قال: نعم، فقال: وإني لست أقرأ، وابن أخي معي على الباب فتأذن له يدخل حتى يقرأ؟ قال: نعم، فأدخلني عمي فنظرت في الكتاب فأول شيء هجمت عليه إسمي فقلت: إسمي ورب الكعبة؟ قال: ويحك فأين أنا؟ فجزت بخمسة أسماء أو ستة ثم وجدت إسم عمي، فقال علي بن الحسين عليه السلام: أخذ الله ميثاقهم معنا على ولايتنا لا يزيدون ولا ينقصون إن الله خلقنا من أعلى علّيين وخلق شيعتنا من طينتنا أسفل من ذلك، وخلق عدوّنا من سجّين، وخلق أوليائهم منهم من أسفل ذلك[٢].

وعن عبد الله بن محمد عمن رواه عن محمد بن الحسن عن عمه علي بن السّري الكرخي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه شيخ ومعه إبنه فقال له الشيخ: جعلت فداك أمن شيعتكم أنا؟ فأخرج أبو عبد الله عليه السلام صحيفة مثل فخذ البعير فناوله طرفها ثم قال له: أدرج، فأدرجه حتى أوقفه على حروف من حروف المعجم فإذا اسم ابنه قبل اسمه، فصاح الابن فرحاً: إسمي والله، فرحم الشيخ ثم قال له: أدرج، فأدرج فأوقفه أيضاً على إسمه كذلك[٣].

وعن محمد بن عيسى عن عبد الصمد بن بشير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنتهى النبي إلى

(١) بصائر الدرجات: ١٠٩، والكافي: ١/ ٤٣٨.
(٢) بصائر الدرجات: ١٩٢، وبحار الأنوار: ٢٦/ ١٢ ح ١٣.
(٣) مدينة المعاجز: ٤/ ٣٤٠، وبحار الأنوار: ٢٦/ ١٢ ح ١١.

السماء السابعة وانتهى إلى سدرة المنتهى، قال: فقالت السدرة: ما جازني مخلوق قبلك، ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى قال: فدفع إليه كتاب أصحاب اليمين وكتاب أصحاب الشمال، فأخذ كتاب أصحاب اليمين بيمينه وفتحه ونظر فيه فإذا فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم نزل ومعه الصحيفتان فدفعهما إلى علي بن أبي طالب عليه السلام[١].

وفي **(البحار)** من كتاب الاختصاص معنعناً عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا عبد الله بن الفضل إن الله تبارك وتعالى خلقنا من نور عظمته، وصنعنا برحمته، وخلق أرواحكم منا، فنحن نحنّ إليكم وأنتم تحنّون إلينا، والله لو جهد أهل المشرق والمغرب أن يزيدوا في شيعتنا رجلاً أو ينقصوا منهم رجلاً ما قدروا على ذلك، وإنهم لمكتوبون عندنا بأسمائهم وعشائرهم وأنسابهم، يا عبد الله بن الفضل ولو شئت لأريتك إسمك في صحيفتنا، قال: ثم دعى الصحيفة فنشرها فوجدتها بيضاء ليس فيها أثر الكتابة فقلت: يا ابن رسول الله ما أرى فيها أثر الكتابة، قال: فمسح يده عليها فوجدتها مكتوبة فوجدت في أسفلها إسمي، فسجدت لله شكراً، هذا[٢].

والأخبار في هذا الغرض كثيرة وقد عقد في **(البحار)** باباً عليها وفيما رويناه كفاية إن شاء الله عزَّ وجل.

وأما القضية الثانية: أعني قوله عليه السلام: **(لا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه)**، فهي لتضمنها أداة الحصر منحلّة إلى قضيتين كالقضية الأولى إحديهما إيجابية والأخرى سلبية.

أما الإيجابية فهي أن المنكر لهم ومن أنكروه في النار، وهذه قضية صحيحة لا غبار عليها لما قدمنا من أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهلية، وميتة الجاهلية مستلزمة لدخول النار، وقد مر في التذييل الثالث من شرح الفصل الرابع من الخطبة الأولى رواية جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه قال: نزل جبرائيل على النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا محمد الله يقرؤك السلام، ويقول: خلقت السماوات السبع وما فيهن وخلقت الأرضين السبع ومن عليهن، وما خلقت موضعاً أعظم من الركن والمقام، ولو أن عبداً دعاني منذ خلقت السماوات والأرض ثم لقيني جاحداً لولاية علي عليه السلام لأكببته في سقر، وقد مر هناك روايات أُخر بهذا المعنى، فتذكر[٣].

---

(١) مدينة المعاجز: ٥/٣٣٣، وبحار الأنوار: ٢٦/١٢٤ ح ١٨.
(٢) بصائر الدرجات: ٢١١، وبحار الأنوار: ١٧/١٤٧ ح ٤١.
(٣) الاختصاص: ٢١٧، وبحار الأنوار: ٢٦/١٣٢ ح ٣٩.

وأما السلبية فهي أن من لا ينكرهم ولا ينكرونه فهو لا يدخل النار، وهي بظاهرها مستلزمة لعدم دخول أحد من غير المنكرين في النار وإن كان من مرتكبي الكبائر.

وقد أخذ الشارح البحراني بظاهرها حيث قال: لا يجوز أن يكون من أنكرهم فأنكروه أخسّ ممن يدخل النار وإلا لصدق على بعض من يتولاهم ويعترف بصدق إمامتهم أنه يدخل النار لكن ذلك باطل لقول الرسول صلى الله عليه وآله يحشر المرء مع من أحبّ، ولقوله: لو أحبّ رجل حجراً لحشر معه، دلّ الخبر على أن محبة الإنسان لغيره مستلزم لحشره معه، وقد ثبت أنهم عليهم السلام إلى الجنة يحشرون فكذلك من أحبهم ويعترف بحقية إمامتهم، ودخول الجنة ودخول النار مما لا يجتمعان، فثبت أنه لا واحد ممن يحبهم ويعترف بحقهم يدخل النار، وقد ظهر إذا صدق هذه الكلية ووجه الحصر فيها، انتهى.

أقول: ويصدق هذه الكلية ويدل عليها روايات كثيرة فوق حد الإحصاء.

ففي (**البحار**) من كتاب فضائل الشيعة للصدوق بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حب علي بن أبي طالب عليه السلام يأكل السيئات كما تأكل النار الحطب**»[1].

ومن (**كنز جامع الفوائد**) وتأويل الآيات قال: روى شيخ الطائفة بإسناده عن زيد بن يونس الشحام قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: الرجل من مواليكم عاص يشرب الخمر ويرتكب الموبق من الذنب نتبرىء منه؟ فقال عليه السلام: تبرّؤا من فعله ولا تتبرؤا من خيره وابغضوا عمله، فقلت: يسع لنا أن نقول: فاسق فاجر؟ فقال: لا الفاسق الفاجر الكافر الجاحد لنا ولأوليائنا أبى الله أن يكون ولّينا فاسقاً فاجراً وإن عمل ما عمل، ولكنكم قولوا: فاسق العمل فاجر العمل مؤمن النفس خبيث الفعل طيّب الروح والبدن، لا والله لا يخرج وليّنا من الدنيا إلا الله ورسوله ونحن عنه راضون، ويحشر الله على ما فيه من الذنوب مبيضاً وجهه، مستورة عورته، آمنة روعته لا خوف عليه ولا حزن، وذلك أنه لا يخرج من الدنيا حتى يصفى من الذنوب إما بمصيبة في مال أو نفس أو ولد أو مرض وأدنى ما يصنع بولينا أن يريه الله رؤياً مهولة فيصبح حزيناً لما رآه فيكون ذلك كفارة له، أو خوفاً يرد عليه من أهل دولة الباطل أو يشدد عليه عند الموت فيلقى الله عزّ وجل ظاهراً من الذنوب آمنة روعته بمحمد وأمير المؤمنين صلى الله عليهما، ثم يكون أمامه أحد الأمرين إما رحمة الله الواسعة التي هي أوسع من أهل الأرض جميعاً، أو شفاعة محمد وأمير المؤمنين عليهما السلام فعندها تصيبه رحمة الله الواسعة التي كان أحق بها وأهلها وله إحسانها وفضلها[2].

---

(١) وسائل الشيعة: ١/ ١٢٣، والأمالي: ٥٧٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣٩/ ٢٠٦ ح ١٢١، والإمام علي: ٢٠١ ح ٥.

ومن كتاب (**المختصر**) للحسن بن سليمان من كتاب سيد حسن بن كبش عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي إن جبرائيل أخبرني عنك بأمر قرّت به عيني وفرح به قلبي»، قال: يا محمد قال الله عزّ وجل: «إقرأ محمداً مني السلام وأعلمه أن علياً إمام الهدى، ومصباح الدجى، والحجّة على أهل الدنيا، وأنه الصّديق الأكبر والفاروق الأعظم، وإني آليت وعزّتي وجلالي أن لا أدخل النار أحداً تولاه وسلّم له وللأوصياء من بعده، حقّ القول مني لأملأنّ جهنم وأطباقها من أعدائه، ولأملئنّ الجنة من أوليائه وشيعته»[١].

ومن كتاب (**أعلام الدين**) للديلمي من كتاب الحسين بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أحبنا ولقى الله وعليه مثل زبد البحر ذنوباً كان حقاً على الله أن يغفر له[٢].

ومن كتاب (**المناقب**) لابن شاذان بإسناده عن أبي الصلت الهروي قال: سمعت الرضا عليه السلام يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سمعت الله عز وجل يقول: علي بن أبي طالب حجتي على خلقي ونوري في بلادي وأميني على علمي ولا أدخل النار من عرفه وإن عصاني، ولا أدخل الجنة من أنكره وإن أطاعني»[٣].

ومن كتاب (**بشارة المصطفى**) بسنده عن الحسين بن مصعب قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: من أحبنا وأحب محبنا لا لغرض دنيا يصيبها منه، وعادى عدوّنا لا لأحنة كانت بينه وبينه، ثم جاء يوم القيامة وعليه من الذنوب مثل رمل عالج وزبد البحر غفر الله تعالى له[٤].

ومن (**تفسير العياشي**) عن بريدة بن معاوية العجلي في حديث عن أبي جعفر عليه السلام قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: والله لو أحبّنا حجر لحشر معنا[٥].

ومن (**عيون الأخبار**) بإسناد التميمي عن الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبّنا أهل البيت حشره الله آمناً يوم القيامة».

وبهذا الإسناد قال: قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «من أحبك كان مع النبيين في درجتهم يوم القيامة ومن مات وهو يبغضك فلا يبالي مات يهودياً أو نصرانياً»[٦].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/ ١٣٨، وتأويل الأيات: ٢/ ٥٩٤.
(٢) بحار الأنوار: ٢٧/ ١١٤. (٣) وسائل الشيعة: ١٦/ ١٨٠، وبحار الأنوار: ٢٧/ ١٢١ ح ١٠٣.
(٤) مائة منقبة: ٧٨، وبحار الأنوار: ٢٧/ ١١٦ ح ٩١.
(٥) الأمالي: ١٥٦ ح ٢٥٩، وبحار الأنوار: ٢٧/ ٥٤ ح ٧.
(٦) تفسير مجمع البيان: ٨/ ٣٢٦.

ومن (**أمالي الشيخ**) عن أبي محمد الفحام عن عمه عن أبيه قال: دخل سماعة بن مهران على الصادق عليه السلام فقال: يا سماعة من شرّ الناس عند الناس؟ قال: نحن يا ابن رسول الله، فغضب حتى احمرّت وجنتاه ثم استوى جالساً وكان متكئاً فقال: يا سماعة من شر الناس عند الناس؟ فقلت: والله ما كذبتك يا ابن رسول الله نحن شرّ الناس عند الناس لأنهم سمّونا كفاراً ورفضة، فنظر إليّ ثم قال: كيف بكم إذا سيق بكم إلى الجنة وسيق بهم إلى النار فينظرون إليكم فيقولون: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار، يا سماعة بن مهران إنه من أساء منكم إساءة مشينا إلى الله تعالى يوم القيامة بأقدامنا فنشفع فيه فنشفّع والله لا يدخل النار منكم عشرة رجال، والله لا يدخل النار منكم ثلاثة رجال، والله لا يدخل النار منكم رجل واحد، فتنافسوا في الدرجات واكمدوا أعدائكم بالورع[١].

ومن كتاب (**كنز جامع الفوائد**) وتأويل الآيات عن محمد بن علي عن عمرو بن عثمان عن عمران عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجل: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ [الزمر: ٥٣] فقال: إن الله يغفر لكم جميعاً الذنوب، قال: فقلت: ليس هكذا نقرأ، فقال: يا أبا محمد فإذا غفر الذنوب جميعاً فلمن يعذّب والله ما عنى من عباده غيرنا وغير شيعتنا وما نزلت إلا هكذا إن الله يغفر لكم جميعاً الذنوب.

ومن (**تفسير**) العياشي بالإسناد عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: أهل النار يقولون: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار، يعنونكم لا يرونكم في النار لا يرون والله أحداً منكم في النار[٢].

وفي (**تفسير**) علي بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ قال: منكم يعني من الشيعة ﴿إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، قال: معناه أن من تولى أمير المؤمنين عليه السلام وتبرّأ من أعدائه عليهم لعائن الله وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ثم دخل في الذنوب ولم يتب في الدنيا عذّب لها في البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه يوم القيامة.

وفي (**الصافي**) من (**المجمع**) عن الرضا عليه السلام قال في هذه الآية: إن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب في الدنيا عذّب عليه في البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/٧٩ ح ١٦، ومقام الإمام علي (ع): ٣٩.

(٢) وسائل الشيعة: ١٥/٢٤٨ ح ٢٠٤١٢، وميزان الحكمة: ١/٤٣٧.

(٣) بحار الأنوار: ٨/ ٢٦٠، ونور البراهين: ٢/٥٨.

إلى غير هذه مما لا نطيل بذكرها، وهذه الأخبار كما ترى تعارض الأخبار الواردة في كون مرتكبي الكبائر في النار تعارض العموم من وجه، لأن هذه تدل على أن العارف بحق الأئمة عليهم السلام والمذعن بولايتهم لا يدخل النار وإن كان مرتكباً للكبائر، وتلك الأخبار مفيدة لكون ارتكابها موجباً لدخول النار ولو كان المرتكب من أهل الولاية والمعرفة، فيتعارضان في مادة الاجتماع، وهو العارف المرتكب للكبائر، فإن رجحنا أخبار الكبائر وألقيناها على عمومها لا بد من حمل هذه الأخبار الدالة على أن العارف بهم لا يدخل النار على الدخول بعنوان الخلود لظهور أن الخلود إنما هو في حق الكفار والمنافقين، وإن رجحنا تلك الأخبار فلا بد من التخصيص في الأخبار الواردة في طرف الكبائر بحملها على غير أهل المحبة والمعرفة.

ولولا خوف الاحتياط وإيجاب الترجيح للجسارة في الدّين ولعدم المبالاة في شرع سيد المرسلين لرجحنا أخبار الولاية وقلنا بما قاله الشارح البحراني، بل أقول: إنه لا تعارض بين أخبار الطرفين حقيقة إذ أخبار الولاية حاكمة على أخبار الكبائر، بل نسبة بعض الأخبار الأولة إلى الثانية مثل نسبة الدليل إلى الأصل، فإن بعض هذه الأخبار كما عرفت مفيد لكون المعرفة حابطة للسيئات وآكلة لها أكل النار للحطب، وبعضها دال على أن أهل المعرفة يبتلى بمحن ومصائب يكون تمحيصاً لذنوبه وكفارة لها، فعلى ذلك لا يبقى للعاصي معصية حتى توجب دخول النار، وبعضها يفيد كون الولاية موجبة لمغفرة الذنوب من الله سبحانه تفضلاً أو كونها محصلة للشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام يوم القيامة.

نعم يبقى الإشكال بين هذه الأخبار وبين الأخبار الدالة على حصول الشفاعة لبعض مرتكبي السيئات بعد دخول النار والمكث فيها بزمان قليل أو كثير بحسب اختلاف مراتب المعصية، وهي أيضاً كثيرة وطريق الاحتياط هو الوقوف بين مرتبتي الخوف والرجاء والورع والتقوى في الدين وسلوك نهج الشرع المبين، وفّقنا الله سبحانه لما يحب ويرضى ونسأله أن يعاملنا بفضله ولا يؤاخذنا بعدله إنه لما يشاء قدير، وبالإجابة حقيق جدير.

الترجمة

از جمله فصل های آن خطبه است که بعد از قتل عثمان و انتقال امر خلافت به آن برج فلك امامت فرموده که:

به تحقیق طلوع کرد طلوع کننده و درخشید درخشنده و ظاهر شد ظاهرشونده که عبارت است از ظهور شمس خلافت از مطلع خود که وجود مسعود آن بزرگوار است و مستقیم و معتدل شد چیزی که منحرف شده بود از ارکان دین و بدل کرد حق سبحانه و تعالی به قومی که از اهل باطل بودند قومی را از اهل حق و به روزی که پر از جور و بدعت بود روزی را که ظاهر شد در آن انصاف و عدالت و منتظر بودیم ما تغیرات روزگار را مثل انتظار کشیدن قحطی رسیده به باران.

و جز این نیست که ائمه طاهرین سلام الله علیهم أجمعین قائمین خدا هستند بر مخلوق او، شناساندگان اویند بر بنده گان او. داخل نمی شود در بهشت عنبرسرشت مگر کسی که بشناسد ائمه را و ائمه(علیهم السلام) او را بشناسند و داخل نمی شود در آتش سوزان مگر کسی که نشناسد ایشان را و ایشان او را نشناسند.

به درستی که خداوند متعال مختصّ نمود شما را به اسلام و خالص گردانید شما را از برای آن اسلام و این از جهت آن است که اسلام نام سلامت است و جامع کرامت، پسندیده است خدا از برای شما طریق اسلام را و بیان فرموده است دلائل آن را از علمی که ظاهر است از کتاب و سنّت و از حکمتی که باطن است از عقل و فطرت، فانی نمی شود غرائب آن و تمام نمی شود عجائب آن، در او است باران های بهاری و چراغ های ظلمت ها، گشاده نمی شود خیرها مگر با کلیدهای آن و کشف نمی شود ظلمت ها مگر به چراغ های آن.

به تحقیق که منع فرمود قوروق اسلام را که عبارت است از محرّمات شرعیّه و مرخّص نمود چراگاه آن را که عبارت است از مباحات بینه، در او است شفای طلب شفاکننده و کفایت طلب کفایت نماینده.

الفصل الثالث منها

وهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللّهِ يَهْوِي مَعَ الغافِلينَ، ويَغْدُو مَعَ المُذْنِبينَ، بِلا سَبيلٍ قاصِدٍ، وَلا إمامٍ قائِدٍ.

الفصل الرابع منها

حَتَّىٰ إِذا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلابِيبِ غَفْلَتِهِمْ، اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، واسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِما أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، ولا بِما قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ، وَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ ونَفْسي هٰذِهِ المَنْزِلَةَ، فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا البَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، ونَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً واضِحاً، يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي المَهاوِي، والضَّلالَ فِي المَغاوِي، ولا يُعِينُ عَلىٰ نَفْسِهِ الغُواةَ بِتَعَسُّفٍ في حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ في نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ، فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، واخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وأَنْعِمِ الفِكْرَ فِيما جاءَكَ عَلىٰ لِسانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ مِمّا لا بُدَّ مِنْهُ، ولا مَحِيصَ عَنْهُ، وخالِفْ مَنْ خالَفَ في ذٰلِكَ إِلىٰ غَيْرِهِ، ودَعْهُ وما رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ، واذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وكَما تَدِينُ تُدانُ، وكما تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وما قَدَّمْتَ اليَوْمَ تَقْدُمُ عَلَيْهِ غَداً، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ، وقَدِّمْ لِيَوْمِكَ، فَالحَذَرَ أَيُّهَا المُسْتَمِعُ، والجِدَّ الجِدَّ أَيُّها الغافِلُ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] إِنَّ مِنْ عَزائِمِ اللّهِ في الذِّكْرِ الحَكِيمِ الَّتي عَلَيْها يُثِيبُ ويُعاقِبُ، ولَهَا يَرْضىٰ ويَسْخَطُ، أَنَّهُ لا يَنْفَعُ عَبْداً وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ وأَخْلَصَ فِعْلَهُ، أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيا لاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هٰذِهِ الخِصالِ لَمْ يَتُبْ مِنْها: أَنْ يُشْرِكَ بِاللّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبادَتِه، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلاكِ نَفْسِهِ، أَوْ يُقِرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حاجَةً إِلىٰ النَّاسِ بِإِظْهارِ بِدْعَةٍ في دِينِه، أَوْ يَلْقىٰ النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِي فِيهِمْ بِلِسانَيْنِ، اعْقَلْ ذٰلِكَ فَإِنَّ المَثَلَ دَليلٌ على شِبْهِهِ، إِنَّ البَهائِمَ هَمُّها بُطُونُها، وَإِنَّ السِّباعَ هَمُّهَا العُدْوانُ عَلىٰ غَيرِها، وَإِنَّ النِّساءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنْيا والفَسادُ فِيها، إِنَّ المُؤْمِنينَ مُسْتَكِينُونَ، إِنَّ المُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ، إِنَّ المُؤْمِنينَ خائِفُونَ[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٤٦/٦ ح ٧٧، وميزان الحكمة: ٩٩٨/٢.

اللغة

(هوى) يهوي من باب ضرب هوياً بالضم والفتح وهواء بالمد سقط من أعلى إلى أسفل و **(الجلباب)** ما يغطى به من ثوب وغيره وقيل: ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء و **(الطلبة)** بالكسر اسم كالطلب محركة و **(الجدد)** محركة ما أشرق من الرمل والأرض الغليظة المستوية وبالضم جمع جدّة كغرف وغرفة وهو الطريق و **(الصرعة)** بالفتح الطّرح على الأرض و **(المهاوي)** جمع المهواة وهو بفتح الميم ما بين الجبلين وقيل: الحفرة، وقيل: الوهدة العميقة و **(المغاوي)** جمع المغوة. قال الشارح المعتزلي: وهي الشبهة التي يغوى بها الإنسان أي يضلّ و **(الغواة)** جمع غاو من غوى غيّاً انهمك في الجهل وضلّ و **(استنجح)** الحاجة وتنجحها تنجزّها واستقضاها.

الإعراب

جملة **(يهوى)** حال من فاعل الظرف، وقوله: **(بتمسف)** متعلق بقوله **(يعين)**، وقوله: **(الحذر الحذر والجد الجد)** منصوبات على الإغراء، وقوله: **(ولا ينبئك مثل خبير)** **(مثل)** صفة لمحذوف وكذلك **(خبير)** أي لا ينبئك منبىء مثل امرء خبير، وقوله: **(إنه لا ينفع عبداً)** اسم **(إن)** على تأويله بالمصدر أي إن من عزائمه تعالى عدم نفع عبد، وقوله: **(أن يخرج)** فاعل ينفع، وقوله: **(أن يشرك)** بدل من خصلة أو من هذه الخصال فتكون أو في الجملات المعطوفة بعدها بمعنى **(الواو)**، وجملة **(إن البهائم)** استئناف بياني، وكذلك جملة **(إن المؤمنين)** آهـ.

المعنى

إعلم أن هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمن لفصلين

أما الفصل الأول

فقد قال الشارح المعتزلي وغيره: إنه يصف فيه إنساناً من أهل الضلال غير معيّن كقوله عليه السلام: **(رحم الله امرء اتّقى ربه وخاف ذنبه)**.

أقول: وهو إنما يتم لو علم بعدم سبق ذكره مرجع للضمير الآتي، أعني قوله: **(هو)**، في كلامه عليه السلام حذفه السيد على ديدنه في الكتاب، وأما على تقدير سبقه وحذفه كما هو الأظهر في النسخ التي فيها عنوان هذا الفصل بقوله **(منها)** بل الظاهر أيضاً في نسخة الشارح المعتزلي التي عنوانه فيها بمن خطبة له عليه السلام فلا.

وكيف كان فقوله: **(وهو في مهلة من الله يهوى مع الغافلين)** أراد أن الله سبحانه أمدّ في عمره وأمهله وأخّر أجله وكان ذلك سبباً لغفلته فهو يسقط ويتردّى من درجة الكمال والسلامة في مهابط الهلاك ومهوات الغفلة وينخرط في سلك سائر الجهّال والغافلين **(ويغدو مع المذنبين)** أي يصبح معهم وهو كناية عن موافقته لهم وملازمته إياهم في ارتكاب المعاصي وانهماك الآثام والذنوب **(بلا سبيل قاصد ولا إمام قائد)** أي من دون أن يسلك سبيلاً مستقيماً يوصله إلى المطلوب ويتّبع إماماً عادلاً لا يقوده إلى الصواب.

وأما الفصل الثاني

متضمن للنصح والموعظة وتذكير المخاطبين بالموت وتنبيههم من نوم الغفلة وهو قوله: **(حتى إذا كشف لهم عن جزاء معصيتهم واستخرجهم من جلابيب غفلتهم)** قال الشارح البحراني: النفس ذو جهتين جهة تدبير أحوالها البدنية بما لها من القوة العملية، وجهة استكمالها بقوتها النظرية التي تتلقى بها من العاليات كمالها، وبقدر خروجها عن حد العدل في استكمال قوتها العملية تنقطع عن الجهة الأخرى وتكتنفها الهيئات البدنية فتكون في أغطية منها وجلابيب من الغفلة عن الجهة الأخرى بالانصباب إلى ما يقتنيه مما يعد خيراً في الدنيا وبسبب انصبابها في هذه الجهة وتمكن تلك الهيئات البدنية منها يكون بعدها عن بارئها ونزولها في دركات الجحيم عن درجات النعيم وبالعكس كما قال ﷺ: «الدنيا والآخرة ضرتان بقدر ما تقرب من إحديهما تبعد من الأخرى»، والظاهر إن بالموت تنقطع تلك الغفلة، وتنكشف تلك الحجب، فيومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى، ويكون ما أثبته له يومئذ من تعلّق الهيئات بنفسه وحطها له عن درجات الكمال من السلاسل والأغلال هو جزاء معصيتهم المنكشف لهم، انتهى، هذا.

وتشبيه الغفلة بالجلباب من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، ووجه الشبه إحاطتها بهم وملازمتها لهم إحاطة الثوب بالبدن ولزومه له.

وقوله: **(استقبلوا مدبراً واستدبروا مقبلاً)** أراد بالمدبر الذي استقبلوه ما كان غائباً عنهم من الشقاء والنكال والنقم، وبالمقبل الذي استدبروه ما كان حاضراً لهم من الآلاء والأموال والنعم **(فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم)** أي اللذات الدنيوية التي كانت أعظم طلباتهم، لأنهم تركوها وراء ظهورهم **(ولا بما قضوا من وطرهم)** أي الشهوات النفسانية التي كانت أهم حاجاتهم، لأنها قد زالت عنهم **(وإني أحذّركم ونفسي هذه المنزلة)** أراد بها الحالة التي كان الموصوفون عليها من الغفلة والجهالة، وتشريك نفسه عليه السلام معهم في التحذير لتطييب قلوب السامعين وتسكين نفوسهم ليكونوا إلى الانقياد والطاعة أقرب، وعن الإباء والنفرة أبعد، وفي بعض النسخ: بدل المنزلة: المزلة، فالمراد بها الدنيا التي هي محل الزّيغ والزلل والخطأ والخطل.

ولما نبههم بعدم الانتفاع بالمطالب والمآرب الدنيوية أردف ذلك بالتنبيه على ما نفعه أعم، وصرف الهمة إليه أهم فقال: **(فلينتفع امرء بنفسه)** بأن يصرفها فيما صرفها فيه أولو الأبصار والفكر ويوجهها إلى ما وجهها إليه أرباب العقول والنظر.

وإليه أشار بقوله: **(فإنما البصير)** العارف بما يصلحه ويفسده والخبير المميز بين ما يضرّه وينفعه **(من سمع)** الآيات البينات **(فتفكر)** فيها **(ونظر)** إلى البراهين الساطعات **(فأبصر)**ها وأمعن فيها **(وانتفع بالعبر)** أي نظر بعين الاعتبار إلى السلف الماضين من الجبابرة والملوك والسلاطين وغيرهم من الناس أجمعين كيف انتقلوا من ذروة القصور إلى وهدة القبور، ومن دار العزّ والمنعة إلى بيت الذل والمحنة، وفارقوا من الأموال والأوطان، وجانبوا الأقوام والجيران، وصاحبوا الحيات والديدان، وكيف كانت الديار منهم بلاقع، والقبور لهم مضاجع، واندرست آثارهم، وانقطعت أخبارهم، وخربت ديارهم، وقسّمت أموالهم، ونُكحت أزواجهم، وحُشر في اليتامى أولادهم، وأنكرهم صديقهم، وتركهم وحيداً شفيقهم، ففي أقلّ هذه عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن اتعظ وتذكر.

(ثم سلك جدداً) أي طريقاً **(واضحاً)** وهو الصراط المستقيم والنهج القويم، أي جادة الشريعة ومنهج الدين الموصل لسالكه إلى حظائر القدس، ومجالس الأنس بشرط أن **(يتجنب)** ويتباعد **(فيه)** عن اليمين والشمال فإن الطريق الوسطى هي الجادة واليمين والشمال مزلة ومضلّة توجبان **(الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي)** كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط أبواب مفتحة، وعليها ستور مرخاة وعلى رأس الصراط داع يقول: جوزوا ولا تعرجوا»[1]، قال: فالصراط هو الدين وهو الجدد الواضح هنا، والداعي هو القرآن والأبواب المفتحة محارم الله، وهي المهاوي والمغاوي هنا، والستور المرخاة هي حدود الله ونواهيه.

ولما نبّه عليه السلام على ما ينفع المرء ويصلحه نبّه على ما يضره ويفسده، فقال عليه السلام: **(ولا يعين على نفسه الغواة)** أي أهل الضلالات والمنهمكين في الجهالات **(بتعسف في حق)** قال الشارح البحراني: أي لا يحملهم على مر الحق وصعبه، فإن الحق له درجات بعضها أسهل من بعض، فالاستقصاء فيه على غير أهله يوجب لهم النفرة عمن يقوله ويأمر به، والعداوة له والقول فيه، وقريب منه ما قاله الشارح المعتزلي أي يتعسف في حق يقوله أو يأمر به فإن الرفق أنجح.

أقول: وظاهر كلامهما يفيد أنهما فهما من التعسف من كلامه عليه السلام تشديد التكليف على

(١) الكافي: ٥/ ٨٢ ح ٩، ونهج السعادة: ٢/ ٣٢٤.

الغواة والتضييق عليهم في الأحكام، فيكون محصّل مقصوده عليه السلام على ما قالاه الرفق بهم عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لئلا يجلب العداوة منهم لنفسه بتركه فيصيبه منهم مكروه وضرر.

وهذا معنى لا بأس به، وقد مرّ نظيره في قوله عليه السلام في الفصل الثاني من الكلام السادس عشر: من أبدى صفحته للحق هلك عند جهلة الناس، إلا أن الظاهر أنه عليه السلام أراد معنى آخر، أي لا يعين الغاوين بما ضرره عائد إليه، وهو تعسفه في حق وعدم كشفه لهم وتبليغه عليهم وإرجاعهم إليه، وذلك لما رأى من تركهم للحق وعدولهم عنه وانهماكهم في الغيّ والضلال ورغبتهم في الباطل، فيتعسف تطيباً لنفوسهم وتحصيلاً لرضاهم، وعود ضرر هذا التعسف إليه معلوم حيث يشتري رضاء المخلوق بسخط الخالق.

فعلى ما قلناه يكون المراد بالضرر الضرر الأخروي، وبالتعسف العدول والانحراف عن قول الحق والعمل به **(أو تحريف في نطق)** أي يحرف الكلم عن مواضعه، ويكذب مداراة معهم ومنازلة أذواقهم **(أو تخوّف من صدق)** أي يتكلّف الخوف من قول الصدق وإن لم يكن خائفاً في الواقع، وعود ضرر التحريف والتخوف على المحرّف والمتخوّف لاستلزامها مداهنة الغواة، وقد ذمّ الله أقواماً بترك الصدق والجهاد في الحق بقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٧] فاللازم على المرء أن لا يأخذه في الله لومة لائم، ولا يكون له من ردع من خالف الحق وخابط الغيّ وزجره من أوهان ولا إيهان.

ثم أمر السامعين بأوامر نافعة ونصحهم بمواعظة بالغة فقال: **(فأفق أيها السامع من سكرتك واستيقظ من)** رقدتك و **(غفلتك)** استعار لفظ السكرة والغفلة باعتبار كون الغفلة موجبة لترك أعمال العقل كما أن السكرة كذلك، وهي استعارة تحقيقية وذكر الإفاقة ترشيح، وشبه الغفلة بالنوم باعتبار أن لا التفات للغافل كالنائم، وهي استعارة بالكناية وذكر الاستيقاظ تخييل **(واختصر من عجلتك)** وسرعتك في أمور الدنيا أي قصّر الاهتمام بها، فإن بقائها يسير وزوالها قريب **(وأنعم الفكر)** أي أمعن النظر **(فيما جاءك)** وكثر دورانه **(على لسان النبي الأميّ صلى الله عليه وآله)** قد مضى تفسير الأميّ من **(النهاية)** في شرح الخطبة الثامنة والثمانين.

وأقول هنا: روي في **(الاحتجاج)** عن أبي محمد العسكري عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٧٨] أن الأميّ منسوب إلى أمّه، أي هو كما خرج من بطن أمه لا يقرأ ولا يكتب[١].

فزعم بعض الناس، ومنهم الشارح المعتزلي، أن وصف النبي صلى الله عليه وآله به كان أيضاً بذلك

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/١٥٨.

الاعتبار، أي لا يحسن أن يقرأ ويكتب، وهو زعم فاسد، بل وصفه باعتبار نسبته **إلى أمّ** القرى، أعني مكة، زادها الله شرفاً وعزاً.

ويدل على ما ذكرنا ما رواه في **(الصافي)** في تفسير قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾** [الأعراف: ١٥٧] من علل الشرائع عن الجواد عليه السلام أنه سئل عن ذلك فقال: ما يقول الناس؟ قيل: يزعمون أنه سمي الأمي لأنه لم يحسن أن يكتب، فقال عليه السلام: كذبوا عليهم لعنة الله، أنى ذلك والله يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] فكيف كان يعلّمهم ما لا يحسن، والله لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو قال: بثلاث وسبعين لساناً، وإنما سمي الأمي لأنه كان من أهل مكة ومكة من أمهات القرى، وذلك قوله تعالى: **﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾** [الشورى: ٧]. هذا[1].

وبيّن ما جاء على لسان النبي صلى الله عليه وآله بقوله: **(مما لا بد منه ولا محيص عنه)** أي الموت الذي ليس منه مناص ولا خلاص ولا مهرب ولا مفرّ **(وخالف من خالف في ذلك إلى غيره)** يعني أن من خالف في إمعان النظر في الموت وأهاويل الفناء والفوت وأعرض عنه والتفت إلى غيره واتّبع هواه وأطال أمله ومناه، كادحاً سعياً لدنياه في لذات طربه وبدوات إربه **فخالفه (ودعه وما رضي لنفسه)** فإن الموافقة له توجب فوات الثواب وأليم العذاب، وتجرّ الشقاء الأبدي والخزي السرمدي **(وضع فخرك)** فإن من صنع شيئاً للمفاخرة حشره الله يوم القيامة أسود، رواه في **(عقاب الأعمال)** عن أمير المؤمنين عليه السلام **(واحطط كبرك)** لأن من مشى على الأرض اختيالاً لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها، رواه في **(عقاب الأعمال)** عن أبي عبد الله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفيه أيضاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ويل لمن في الأرض يعارض جبّار السماوات والأرض»[2]. هذا.

وقد تقدم الكلام في شرح الخطبة المائة والسابعة والأربعين في تحقيق معنى الكبر وكونه من أعظم الموبقات وما في ذمه من الأخبار والآيات، وكذلك الكلام في حسن التواضع مفصلاً ومستوفاً فليراجع ثمة.

(واذكر قبرك) وما فيه من الوحدة والوحشة والغربة والظلمة والحسرة والندامة **(فإن عليه**

---

(١) شرح أصول الكافي: ٥/١٧٨ ح ٢، والاحتجاج: ٢/٢٦٢.

(٢) التفسير الصافي: ٢/٢٤٢ ح ١٥٧، وتفسير نور الثقلين: ٥/٣٢٢.

ممرك) ومجازك ولا بد لمن يمر على منزل موحش مظلم أن يذكره ويتزوّد له ويهتم بأخذ الزاد وتكميل الاستعداد ليتمكن من الوصول إلى المطلوب والنجاح بالمقصود (**وكما تدين تدان**) أي كما تَجزي تُجزى وهو من باب المشاكلة، والمقصود أنك كما تعمل لله سبحانه وتعالى وتعامل معه فالله يتعامل معك إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرّاً، ولنعم ما قيل:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشرّ بالشرّ عند الله مثلان

(**وكما تزرع تحصد**) فإن من زرع النواة حصد النخل باسقات، ومن زرع الفجور حصد الثبور، ومن توانى عن الزرع في أوانه حَرُمَ الحصاد في أبانه.

إذا أنت لم تزرع وأدركت حاصداً ندمت على التقصير في زمن البذر

(**وما قدّمت اليوم**) لنفسك أو عليها (**تقدم عليه غداً**) وتقام فيه (**فا**)جهد نفسك في تحصيل الخير وتجنّب الشر وا (**مهد لقدمك**) أي مهّد وهيىء لموضع قدمك من الحسنات والأعمال الصالحات (**وقدّم**) الزاد (**ليوم**) معاد (**ك**) وإياك والتفريط فتقع في الحسرة وتعقب الندامة وملامة النفس اللوامة لدى الحساب يوم القيامة (**فالحذر الحذر**) من التقصير والغفلة (**أيها المستمع**) المفتون (**والجد الجد**) للتقوى والطاعة (**أيها الغافل**) المغرور (**ولا ينبئك**) أحد (**مثل**) واعظ (**خبير**) وعارف بصير بأحوال الآخرة وأهوالها.

ولما أمرهم بالحذر والجد ونبههم على أن المنبىء لهم خبير وبصير بما يحذر منه ويجد عليه، عقب ذلك بالتنبيه على بعض ما يجب الحذر منه والجد على تركه فقال: (**إن من عزائم الله**) أي الأحكام التي لا يجوز مخالفتها في حال من الأحوال على ما مر تفصيلاً في شرح الفصل السابع عشر من الخطبة الأولى (**في الذكر الحكيم**) أي القرآن الكريم أو اللوح المحفوظ كما قيل، وعلى الأول فلا ينافيه عدم ورود بعض ما يذكره من العزائم فيه بخصوصه لإمكان استفادته من عمومات الكتاب أو فحاويه حسبما تطلع عليه إن شاء الله.

ووصف العزائم بقوله: (**التي عليها يثيب ويعاقب ولها يرضى ويسخط**) أي يرضى ويثيب على الأخذ بها وامتثالها، ويسخط ويعاقب على مخالفتها وتركها (**إنه**) الضمير للشأن (**لا ينفع عبداً وإن أجهد نفسه وأخلص فعله**) أما إجهاد النفس فيتصور في حق كل من ارتكب بإحدى الخصال الخمس الآتية، وأما إخلاص الفعل فإنما يتصور في المرتكب بغير الأولى من الأربع الباقية، وأما الأولى فلا لظهور أن الإخلاص لا يجتمع مع الرياء، فيكون الشرطية الثانية بملاحظة الأغلب أو من باب التغليب، فتدبر.

(**أن يخرج من الدنيا**) أي لا ينفع خروجه منها حال كونه (**لاقياً ربه بخصلة**) واحدة (**من هذه الخصال**) والحال أنه (**لم يتب منها**) ولم يندم عليها، وهذه الخصال خمس:

إحداها: (**أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته**) أي يرائي في عمله ولم يخلصه لله سبحانه، والدليل من الكتاب الحكيم على حرمته قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٤ـ٦].

وقد مضى تحقيق الكلام في الرياء وتفصيل أقسامه في شرح الفصل الأول من الخطبة الرابعة والعشرين.

الثانية: ما أشار إليه بقوله: (**أو يشفي غيظه بهلاك نفسه**) أي يقتل نفسه لإفراط قوته الغضبية بحيث لا يطفىء نار غضبه إلا به، والدليل على حرمته قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] روى في (**عقاب الأعمال**) عن أبي ولاد الحنّاط قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها[١]، هذا.

ويحتمل أن يكون المراد بهلاك نفسه الهلاك الأخروي أي لا يتشفّى من غيظه إلا بأن يكتسب إثماً ويوبق نفسه مثل أن يكون بينه وبين آخر بغضاء وعداوة فيغتابه أو يفتري عليه أو ينمّ عليه أو يسعى به إلى الملوك أو يسبّه ونحو ذلك مما فيه أليم العذاب ونص على حرمته محكم الكتاب، هذا.

وفي بعض النسخ: بهلاك نفس بدل نفسه، فيكون المراد: أنه لا يسكت غضبه إلا بالقتل، ويدل على حرمته وعقابه صريحاً قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾ [النساء: ٩٣].

وروى في (**عقاب الأعمال**) بسنده عن حمران قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عزّ وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وإنما قتل واحداً فقال عليه السلام: يوضع في موضع من جهنم إليه ينتهي شدّة عذاب أهلها لو قتل الناس جميعاً لكان إنما[٢] يدخل ذلك المكان، قلت: فإنه قتل آخر، قال: ويضاعف عليه[٣].

وعن أبي عمير قال: حدثني غير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أعان على قتل

---

(١) تفسير نور الثقلين: ٤/٢٠٧ ح ٧٠.

(٢) في الكافي: إنما كان، وفي ثواب الأعمال: كان إنما، وما أثبتناه من جواهر الكلام: ٤٢/١٠.

(٣) ثواب الأعمال: ٢٧٧، ومعاني الأخبار: ٣٧٩ ح ٢.

مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة بين عينيه مكتوب: آيس من رحمة الله.

وعن جابر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أول ما يحكم الله في القيامة في الدماء، فيوقف إبنا آدم فيفصل بينهما، ثم الذين يلونهم من أصحاب الدماء حتى لا يبقى منهم أحد، ثم الناس بعد ذلك فيأتي المقتول قاتله فيشخب دمه في وجهه فيقول: هذا قتلني، فيقول: أنت قتلته فلا يستطيع أن يكتم الله حديثاً.

وعن سعيد الأزرق عن أبي عبد الله عليه السلام في رجل قتل رجلاً مؤمناً يقال له: مت أي ميتة شئت إن شئت يهودياً وإن شئت نصرانياً وإن شئت مجوسياً[1].

الثالثة: ما أشار إليه بقوله: (**أو يقرّ بأمر فعله غيره**) الظاهر أن المراد به أن يحكي أمراً قبيحاً ارتكبه غيره، ويدل على أنه حرام ومعصية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

روى في (**عقاب الأعمال**) عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام قال: قلت له: جعلت فداك الرجل من إخواني بلغني عنه الشيء الذي أكرهه فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات، فقال لي: يا محمد كذّب سمعك وبصرك عن أخيك وإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولاً فصدّقه وكذّبهم، ولا تذيعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مرؤته، فتكون من الذين قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الآية.

وعن الفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من روى عن مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقطه من أعين الناس أخرجه الله عزَّ وجل من ولايته إلى ولاية الشيطان[2].

قال الشارح البحراني: وروى بعض الشارحين: يعرّ بالعين المهملة قال: ومعناه أن يقذف غيره بأمر قد فعله هو فيكون غيره منصوباً مفعولاً به والعامل يعرّ يقال: عرّه يعرّه أي عابه ولطخه.

أقول: وعلى هذا فيدل على حرمته ما يدل على حرمة البهت والافتراء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

روى في (**عقاب الأعمال**) عن ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من اتّهم مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيهما بعثه الله يوم القيامة في طينة خبال حتى يخرج مما قال، قلت: وما

---

(١) الكافي: ٧/ ٢٧٣ ح ٩، من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٥٧٤ ح ٤٩٦٢.

(٢) المحاسن: ١/ ١٠٣ ح ٧٩، والكافي: ٢/ ٣٥٨ ح ١.

طينة خبال؟ قال: صديد يخرج من فروج الزناة، بل يدل عليه جميع ما ورد في حرمة الغيبة إذ ذلك قسم من الغيبة بل من أعظم أقسامها كما لا يخفى[١].

الرابعة: ما أشار إليها بقوله: **(أو يستنجح حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه)** يعني أنه يبدع في الدين طلباً لنجاح حاجته، ومن المعلوم أن كل بدعة ضلالة والضلالة في النار، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، واستنجاح الحاجة بالبدعة أشدّ خزياً وأعظم مقتاً، كما يدل عليه ما في **(عقاب الأعمال)** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صونوا دينكم بالورع، وقوّوه بالتقوى والاستغناء بالله عزَّ وجل عن طلب الحوائج من السلطان، واعلموا أنه أيما مؤمن خضع لصاحب سلطان أو لمن يخالفه على دينه طلباً لما في يديه أخمله الله ومقته عليه ووكّله الله إليه، وإن هو غلب على شيء من دنياه وصار في يده منه شيء نزع الله البركة منه ولم يأجره على شيء ينفقه في حجة ولا عمرة ولا عتق.

وفيه عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رجل في الزمن الأول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها، فطلبها من حرام فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال له: يا هذا إنك قد طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها وطلبتها من حرام فلم تقدر عليها أفلا أدلك على شيء يكثر به مالك ودنياك وتكثر به تبعك؟ قال: بلى، قال: تبتدع ديناً وتدعو إليه الناس، ففعل، فاستجاب له الناس فأطاعوه وأصاب من الدنيا، ثم إنه فكر فقال: ما صنعت؟ ابتدعت ديناً ودعوت الناس إليه وما أرى لي توبة إلا أن آتي من دعوته إليه فأرده، فجعل يأتي أصحابه الذين أجابوه فيقول: إن الذي دعوتكم إليه باطل وإنما ابتدعته فجعلوا يقولون: كذبت هذا الحق ولكنك شككت في دينك فرجعت عنه، فلما رأى ذلك عمد إلى سلسلة فوتد لها وتداً ثم جعلها في عنقه وقال: لا أحلّها حتى يتوب الله عزَّ وجل عليَّ، فأوحى الله عزَّ وجل إلى نبي من الأنبياء: قل لفلان: «وعزّتي لو دعوتني حتى ينقطع أوصالك ما استجبت لك حتى تردّ من مات على ما دعوته إليه فيرجع عنه»[٢].

الخامسة: ما أشار إليه بقوله: **(أو يلقى الناس بوجهين أو يمشي فيهم بلسانين)** قال الشارح البحراني: أي يلقى كلاً من الصّديقين مثلاً بغير ما يلقى به الآخر ليفرق بينهما، أو بين العدوّين ليضري بينهما، وبالجملة أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه فيدخل في زمرة المنافقين، ووعيد المنافقين في القرآن: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾

(١) المحاسن: ١/ ١٠١ ح ٧٦، وثواب الأعمال: ٢٤٠.
(٢) المحاسن: ١/ ٢٠٨، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ٥٧٣.

[النساء: ١٤٥].

أقول: ويدخل أيضاً في زمرة المغتابين فيشمله الآيات المفيدة لحرمة الغيبة ويدل على حرمته من السنّة ما رواه في **(الكافي)** بسنده عن ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من لقى المسلمين بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسانان من نار[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً إن أعطي حسده، وإن ابتلى خذله[٢].

وعن عبد الرحمان بن حماد رفعه قال: قال الله تبارك وتعالى لعيسى عليه السلام: «يا عيسى ليكن لسانك في السر والعلانية لساناً واحداً وكذلك قلبك، إني أحذرك نفسك وكفى بي خبيراً، لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان في غمد واحد، ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الأذهان»، ورواها جميعاً في **(عقاب الأعمال)** نحوها.

وفي **(عقاب الأعمال)** عن زيد بن علي عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاره وآخر من قدامه يلتهبان ناراً حتى يلهبا جسده ثم يقال له: هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين يعرف بذلك يوم القيامة»[٣].

(اعقل ذلك) أشار به إلى ما يذكره بقوله: **(إن البهائم)** آهـ **(فإن المثل دليل على شبهه)** لما كانت أكثر الأفهام قاصرة عن إدراك الماهية العقلية للشيء إلا في مادة محسوسة كمن لا يعرف حقيقة العلم مثلاً فيقال له: إنه مثل اللبن حيث إنه غذاء للروح الناقص ويصير به كاملاً كما يتغذى باللبن الطفل الناقص وبه يصير كماله وهكذا، لا جرم جرت عادة الله تعالى وعادة رسله وأوليائه في بيان الأحكام للناس وتبليغ التكاليف إليهم على ضرب الأمثال تقريباً للأفهام وأكثر القرآن أمثال ضربت للناس ظواهرها حكاية عن حقائقها المكشوفة عند ذوي البصائر.

قال صدر المتألّهين: كثر في القرآن ضرب الأمثال لأن الدنيا عالم الملك والشهادة، والآخرة عالم الغيب والملكوت، وما من صورة في هذا العالم إلا ولها حقيقة في عالم الآخرة، وما من معنى حقيقي في الآخرة إلا وله مثال وصورة في الدنيا، إذ العوالم والنشئات مطابقة تطابق النفس والجسد، وشرح أحوال الآخرة لمن كان بعد في الدنيا لا يمكن إلا

---

(١) الكافي: ٣٤٣/٢ ح ١، والخصال: ٣٨ ح ١٩.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٦٩، وروضة الواعظين: ٤٧٠.

(٣) الخصال: ٣٨، وثواب الأعمال: ٢٦٩.

بمثال، ولذلك وجدت القرآن مشحوناً بالأمثال كقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١]، مثله ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ [الجمعة: ٥]، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صداق، فالأنبياء هم المعبرون لما عليه أهل الدنيا من الأحوال والصفات وما يؤل عليه عاقبتها في يقظة الآخرة بكسوة الأمثال الدنيوية.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن أمير المؤمنين عليه السلام لما كان مقصوده التمثيل وأداء غرضه بضرب المثل، والمثل ينتفع به العام والخاص، وكان نصيب العامي من كل مثل أن يدرك ظاهره المحسوس ويقف عليه وينتفع به ترغيباً وترهيباً لما فيه من نوع مطابقة لأصله ونصيب الخاصي أن يدرك باطنه ويعبّر من ظاهره إلى سرّه ومن محسوسه الجزئي إلى معقوله الكلي كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣] أراد عليه السلام أن يكون انتفاع المخاطبين بالمثل الذي يضربه على وجه الكمال ونحو الخصوص، فلذلك قال عليه السلام مقدمة وتنبيهاً لهم: إعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه، أي افهم ما أقول وتدبّر فيه ولا تقصر نظرك إلى ظاهره، بل تفكّر في معناه حتى تصل من قشره إلى لبّه، ويمكن لك الاستدلال بالمثل على ممثله والانتقال من ظاهره إلى باطنه والوصول من قشره إلى لبّه.

والمثل الذي ضربه هو قوله: **(إن البهائم همها بطونها)** لكمال قوتها الشهوية فاهتمامها دائماً بالطعام والشراب والأكل والشرب والنزو والفساد **(وإن السباع همّها العدوان)** لإفراط قوتها الغضبية فلذّتها أبداً في الإضراء والافتراس والغلبة والانتقام **(وإن النساء همهن زينة الحياة الدنيا)** لفرط قوتها الشهوية **(والفساد فيها)** لشدة قوتها الغضبية.

وغرضه عليه السلام من هذا المثل التنبيه على أن كمال الإنسان الذي به فارق غيره هو إدراك ما يخرج عن عالم الحواس والإحاطة بالمعلومات والتنزّه عن التعلقات والترقي إلى الملأ الأعلى، فمن ذهل عن ذلك وعطل نفسه عن تحصيله وأهمله ولم يجاوز عالم المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه وأبطل قوة استعداده بالإعراض عن الآيات والتأمل فيها، ونزل عن مرتبة الإنسانية وأخلد إلى الأرض.

فإن كان تابعاً لقوته الشهوية البهيمية فهو نازل عن حقيقة الإنسانية إلى درجة البهائم، ووافق الأنعام، فمثله كمثل الحمار بل البهائم أشرف منه وهو أضلّ منها كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]

وذلك لأنها ما أبطلت استعدادها لما كان لها وما أضلّت عن سبيلها الذي كانت عليه، بل ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، بخلاف هذا، فإنه أبطل كماله وإنسانيته وتبع شهوة بطنه وفرجه وأثر البهيمية.

وإن كان تابعاً لقوته الغضبية فهو منحط إلى درجة السبعية فمثله كمثل الكلب أو الخنزير أو الضبع ونحوها.

وإن كان تابعاً لشهوته وغضبه معاً فقد انحط من كمال الرجولية إلى مرتبة الأنوثية.

فقد تلخص مما ذكرنا أن غرضه عليه السلام من التمثيل التنفير عن اتباع الشهوة والغضب بالتنبيه على أن الخارج فيهما عن حد العدل إلى مرتبة الإفراط إما أن تشبه البهيمة أو السبع أو المرأة، وكل منها مما يرغب العاقل عنه ولا يرضى به لنفسه، ولذلك قال أولاً: (**إعقل ذلك**).

ثم إنه عليه السلام لما نفر عن اتباع هاتين القوتين عقب ذلك بصفات المؤمنين ترغيباً إليها فقال عليه السلام: (**إن المؤمنين مستكينون**) أي خاضعون لله متواضعون له (**إن المؤمنين مشفقون**) كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ـ أي الساعة ـ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المعارج: ٢٧]، وقال: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨ـ ٤٩].

(**إن المؤمنين خائفون**) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠ـ ٦١]. هذا.

وإنما أتى عليه السلام في الجمل الثلاث الأخيرة بالأسماء الظاهرة مع اقتضاء الظاهر الإتيان في الأخيرتين بالضمير لغرض زيادة تمكين المسند إليه عند السامع كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: ١ـ ٢]، وفي قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وهو من محسّنات البلاغة.

تذييل

قال الشارح المعتزلي في شرح هذا الفصل من كلامه عليه السلام: إنما رمز بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل، لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين، وعزوه بأمرهم فعلوه وهو التأليب على عثمان وحصره واستنجحوا حاجتهم إلى أهل البصرة بإظهار البدعة والفتنة ولقوا الناس بوجهين ولسانين، لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به، ثم دبّوا

له فجعل دبوبهم هذه مماثلة للشرك بالله سبحانه في أنها لا تغفر إلا بالتوبة، وهذا هو معنى قوله: **(اعقل ذلك)** فإن المثل دليل على شبهه، وروي: فإن المثل واحد الأمثال أي هذا الحكم بعدم المغفرة لمن أتى شيئاً من هذه الأشياء عام والواحد منها دليل على ما يماثله ويشابهه.

فإن قلت: فهذا مذهب تصريح بمذهب الإمامية في طلحة والزبير وعائشة!.

قلت: كلا، فإن هذه الخطبة خطب بها وهو سائر إلى البصرة ولم تقع الحرب بعد، ورمز فيها إلى المذكورين وقال: إن لم يتوبوا وقد ثبت أنهم تابوا، والأخبار عنهم بالتوبة مستفيضة، ثم أراد أن يومىء إلى ذكر النساء للحال التي كان وقع إليها من استنجاد أعدائه بالامرأة فذكر قبل ذكر النساء أنواعاً من الحيوان تمهيداً لقاعدة ذكر النساء فقال: **(إن البهائم همّها بطونها)** كالحمير والبقر والإبل، **(وإن السباع همّها العدوان على غيرها)** كالأسود الضارية والنمور والفهود والبزاة والصقور، وإن النساء همهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها، انتهى.

أقول: أما ما ذكره الشارح من كون هذا الكلام رمزاً إلى قادة الضلال يوم الجمل فغير بعيد، واتصافهم بالخصال الخمس التي هي من أوصاف أهل النفاق والضلال معلوم ومبرهن.

وأما جوابه عن الاعتراض الذي اعترض به فسخيف جداً.

أما **أولاً**: فلأن صدور هذه الخطبة عنه عليه السلام حين مسيره إلى البصرة وقبل وقوع الحرب لا يرفع الإيراد بعد تحقق اتصاف الرؤساء بالخصال المذكورة.

وأما **ثانياً**: فلأنه عليه السلام لم يقل: إن لم يتوبوا بل قال: ولم يتب، وكونه رمزاً إلى عدم توبتهم وأنهم يموتون بلا توبة أظهر من أن يكون رمزاً إلى حصول التوبة.

وأما **ثالثاً**: فلأن أخبار توبتهم التي ادعى استفاضتها بعد تسليم كونها مستفيضة مما تفردت العامة بروايتها، ولا يتم بها الاحتجاج قبال الإمامية، وقد قدمنا في شرح الكلام الثامن بطلان توبة الزبير، وفي شرح الكلام الثاني عشر بطلان توبة الطلحة، وفي شرح الكلام التاسع والسبعين بطلان توبة الخاطئة، وقد مر تحقيق بطلان توبة الأولين أيضاً في شرح الكلام المائة والسابعة والثلاثين بما لا مزيد عليه، فليتذكر.

الترجمة

بعض دیگر از آن خطبه شریفه در صفت بعض اهل ضلال است، می فرماید:

و آن شخص معصیت کار در مهلت است از پروردگار، فرومی افتد با غافلان و صباح می کند با گنه کاران، بدون راه راست و بدون پیشوایی که کشنده خلایق است به طرف حضرت ربّ العزّت.

و بعض دیگر از این خطبه متضمّن نصیحت و موعظه است مرمخاطبین را، می فرماید:

تا آنکه چون کشف کند خدای تعالی از جزاء معصیت ایشان و خارج می کند ایشان را از لباس های غفلت، ایشان استقبال می کنند به چیزی که ادبار کرده بود و غایب بود از ایشان که عبارت است از عقوبات آخرت و استدبار می کنند به چیزی که حاضر بود ایشان را که عبارت است از لذایذ دنیا، پس نفع نبردند از آنچه دریافتند از مطلوب خودشان و نه به آنچه که رسیدند از حاجت خود و به درستی که من می ترسانم شما را و نفس خود مرا از این حالت غفلت، پس باید که منتفع بشود مرد به نفس خود. پس به درستی که صاحب بصیرت شخصی است که بشنود، پس تفکر نماید و نظر کند، پس بینا گردد و منتفع بشود با عبرت های روزگار، پس از آن راه برود در راه راست آشکار که دوری ورزد در آن راه از افتادن مواضع پستی و تباهی و از گمراه شدن در مواضع گمراهی و اعانت نکند بر ضرر خود گمراهان را به جهت کج روی در امر حق یا به جهت تغییر دادن در گفتار یا به جهت اظهار خوف در راستی و صداقت.

پس افاقه حاصل کن ای شنونده از بی هوشی خود را، بیدار باش از خواب غفلت خود و مختصر کن از تعجیل و شتاب خودت و نیك تأمّل نما در آنچه آمده به تو بر زبان پیغمبری که از اهل مکه معظمه است از آنچه ناچار است از آن و هیچ گریزی نیست از آن و مخالفت کن با کسی که مخالفت کند در آن و متوجّه بشود به طرف غیر آن و مگذار او را به آنچه که پسندیده است او را از برای خودش و

بگذار فخر خودت را و پست کن کبر خود را و ذکر کن قبر خود را، پس به درستی که بر آن قبر است عبور تو و همچنان که جزا می دهی جزا داده می شوی و همچنان که زراعت می کنی می دروی و آنچه که پیش فرستاده ای امروز، می آیی بر او فردا.

پس مهیّا کن از برای آمدن خود به دار بقا و مقدّم کن از برای روز حاجت خود، پس البته حذر کن و بترس ای گوش دهنده و البتّه جدّ و جهد کن ای غفلت کنند و آگاه نکند تو را هیچ کس مانند کسی که آگاه است از کارها.

به درستی که از جمله اوامر محتومه پروردگار در ذکر محکم و استوار که بر اخذ آن ثواب می دهد و بر ترك آن عقاب می نماید و از برای اطاعت آن خوشنود می شود و به جهت مخالفت آن غضب می کند اینست که هیچ نفع نمی بخشد بنده را اگرچه به مشقت اندازد نفس خود را و خالص نماید فعل خود را، این که خارج بشود از دنیا در حالتی که ملاقات کند پروردگار خود را با یك خصلت از این خصلت های ذمیمه در حالتی که توبه ننموده باشد از آن:

آنکه شرك آورد بخدا در آنچه که واجب نموده است بر او از عبادت خود یا شفا بدهد غیظ خود را با هلاك کردن نفس خود یا اقرار کند به کاری که دیگری او را نموده یا خواهش روا کردن حاجتی نموده باشد به سوی خلق با اظهار بدعت در دین خود یا ملاقات کند مردمان را به دورویی و نفاق یا مشی کند در میان ایشان با دوزبانی و عدم وفاق.

درك کن و بفهم این مثل را که خواهم زد از برای تو، پس به درستی که مثل دلیل است بر مشابه خود و آن مثل اینست که: چهارپایان قصد آنها شکم های آنها است و به درستی که درندگان قصد ایشان ستم و عدوان است و به درستی که زنان قصد ایشان زینت زندگانی این جهان و فساد کردن است در آن، به درستی که مؤمنان متواضعانند، به درستی که مؤمنان ترسندگانند از غضب پروردگار، به درستی که مؤمنان خائفند از سخط آفریدگار؛ اللّهم و فّقنا بمحمّد و آله الاطهار.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثالث والخمسون من المختار في باب الخطب وفيه فصلان

الفصل الأول

وناظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ، بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، ويَعْرِفُ غَوْرَهُ ونَجْدَهُ، داعٍ دَعا، وَراعٍ رَعا، فَاسْتَجِيبُوا لِلدّاعي، وَاتَّبِعُوا الرّاعِيَ، قَدْ خاضُوا بِحارَ الفِتَنِ، وأَخَذُوا بِالبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ، وأَرَزَ المُؤْمِنُونَ، ونَطَقَ الضّالُّونَ المُكَذِّبُونَ، نَحْنُ الشِّعارُ والأَصْحابُ، والخَزَنَةُ والأَبْوابُ، وَلا تُؤْتَى البُيُوتُ إلاّ مِنْ أَبْوابِها، فَمَنْ أَتاها مِنْ غَيْرِ أَبْوابِها سُمِّيَ سارِقاً.

الفصل الثاني (منها)

فِيهِمْ كَرائِمُ القُرْآنِ، وهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمٰنِ، إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا، فَلْيَصْدُقْ رائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْناءِ الآخِرَةِ فَإِنَّهُ مِنْها قَدِمَ، وإِلَيْها يَنْقَلِبُ، فَالنّاظِرُ بِالقَلْبِ العامِلُ بِالبَصَرِ يَكُونُ مُبْتَدأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ، فَإِنْ كانَ لَهُ مَضىٰ فِيهِ، وَإِنْ كانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ، فَإِنَّ العامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسّائِرِ عَلىٰ غَيْرِ طَرِيقٍ، فَلا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ إلاّ بُعْداً مِنْ حاجَتِهِ، والعامِلَ بِالعِلْمِ كَالسّائِرِ عَلىٰ الطَّرِيقِ الواضِحِ، فَلْيَنْظُرْ ناظِرٌ أَسائِرٌ هُوَ أَمْ راجِعٌ، واعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظاهِرٍ باطِناً عَلى مِثالِهِ، فَما طابَ ظاهِرُهُ طابَ باطِنُهُ، وما خَبُثَ ظاهِرُهُ خَبُثَ باطِنُهُ، وقَدْ قالَ الرَّسُولُ الصّادِقُ صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ العَبْدَ ويُبْغِضُ عَمَلَهُ، ويُحِبُّ العَمَلَ ويُبْغِضُ بَدَنَهُ»[١]. وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ نَباتٌ، وكُلَّ نَباتٍ لا غِنىٰ بِهِ عَنِ الماءِ، والمِياهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَما طابَ سَقْيُهُ طابَ غَرْسُهُ، وحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وما خَبُثَ سَقْيُهُ خَبُثَ غَرْسُهُ، وأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ[٢].

اللغة

(الناظر) من المقلة السواد الأصغر الذي فيه إنسان العين و **(الغور)** بالفتح قعر كل شيء والمنخفض من الأرض و **(النجد)** المرتفع منها والجمع نجود مثل فلس وفلوس و **(رعت)** الماشية رعياً إذا سرحت بنفسها ورعيتها وأرعاها يستعمل لازماً ومتعدّياً فأنا راع، وفي

(١) بحار الأنوار: ٢٩/٦٠١، وميزان الحكمة: ٣/٢١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/٦٠١، وميزان الحكمة: ٣/٢١٢٤ ح ٢٩٣٩.

(القاموس): الراعي كل من ولي أمر قوم والجمع رعاة ورعاء بالكسر ورعيان والقوم رعية و **(ارز)** من باب علم وضرب انقبض وانجمع و **(الشعار)** بالكسر ما ولي الجسد من الثياب و **(الرائد)** المرسل في طلب الماء والكلاء و **(ليحضر عقله)** مضارع حضر من باب نصر أو أحضر من باب الأفعال.

الإعراب

(داع) مرفوع تقديراً خبر **(ناظر)**، وقال الشارح المعتزلي: إنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره في الوجود داع دعا، قوله: **(واعلم أن كل عمل نبات)** هكذا في بعض النسخ فيكون كل اسم **(إن)** ونبات خبرها وفي بعضها أن لكل عمل نباتاً فيكون **(نباتاً)** إسماً لها.

المعنى

إعلم أنه لما كان من دأب الرحمة الرحمانية أن تصدر عنها أقسام الموجودات على أكمل ما يتصور في حقها، وأن يعطي لكل نوع بعد إعطاء الوجود ما يحفظ به كماله الأول ويستدعي كماله الثاني كما قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أشار إلى أنه أعطى أصل وجوده، ثم أفاد له ما يتهيأ ويهتدي به إلى فضيلة زائدة من القوى والآلات، لا جرم كان كل نوع من أنواع المكونات أعطى له من خزائن رحمة الله ما يستعدّ به للوصول إلى ما هو خير له وسعادة بالنسبة إليه ويحترز عما هو شر له وشقاوة، ولا شك أن الإنسان أشرف هذه الأنواع فإعطاء ما يستطيع له لطلب ما هو الخير والسعادة له أولى وأوجب، لكن لما كان كماله الخاص به أمراً متميزاً عن كمالات سائر الأنواع الحيوانية من جلب مأكول أو مشروب أو منكوح ونحوها من كمالات البهائم، فليس خيره وسعادته مما يوجد في هذا العالم، بل كماله وخيره في العلم والتجرد عن الدنيا وما فيها والتقرب إليه تعالى وملكوته الأعلى فيجب في العناية الربانية أن يعطيه ما يهتدي به إلى سبيل سعادته وطريق نجاته، ويتجنب عن طريق شقاوته وشقائه بأن يعرف أولاً ولو بوجه من الوجوه ما الإله وما الملكوت وما الآخرة وما الأولى، وما السعادة والشقاء؟، ثم إن كان ممن لا يهتدي إلى ذلك إلا بواسطة معلم من خارج من نبي أو إمام أو كتاب وجب عليه تعالى أن يعرّفه ذلك ووجب عليه أن يتعلّم منه ويطيع له ويقبل منه.

روى يزيد بن معاوية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **ليس لله على خلقه أن يعرفوا وللخلق على الله أن يعرّفهم، ولله على الخلق إذا عرفهم أن يقبلوا**[1].

(١) الكافي: ١/ ١٦٤ ح ١، وشرح أصول الكافي: ٣/ ٩٥.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن الإنسان قد أعطاه الله سبحانه بمقتضى عنايته العقل يهتدي به إلى مصالحه ومفاسده، وجعل عقول بعض أفراد هذا النوع كاملة فاضلة غير محتاجة في كسب كمالاتها إلى الغير وهي عقول الأنبياء والرسل والأئمة ﷺ، وجعل عقول غيرهم ناقصة، فهؤلاء لا تكمل معرفتهم إلا بمعلم خارجي، لعدم استقلال عقلهم بمعرفة كثير من المصالح والمفاسد والمنافع والمضار، وذلك المعلّم هو النبي ﷺ والإمام.

وإلى هذا المعنى أشار أبو عبد الله ﷺ في رواية **(الكافي)** حيث قال: أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شيء سبباً ولكل سبب شرحاً، وجعل لكل شرح علماً، وجعل لكل علم باباً ناطقاً عرفه من عرفه وجهله من جهله ذاك رسول الله ﷺ ونحن[1].

فظهر لك بتلك المقدمة معنى قوله ﷺ: **(وناظر قلب اللبيب به يبصر أمده ويعرف غوره ونجده داع دعا وراع رعا)** أي عين بصيرة العاقل التي بها يبصر غايته التي يتوجه إليها أي معاده وبها يعرف ما انخفض وانحط من حالاته الموجبة لشقاوته المتردية له إلى دركات الجحيم، وما ارتفع واستعلى من خصاله الموجبة لسعادته الموصلة له إلى نضرة النعيم هي أي هذه العين داع دعا وراع رعا، أراد بالداعي رسول الله ﷺ لدعائه إلى طرف الحق، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وأراد بالراعي نفسه ﷺ لأنه وليّ الخلق والقائم بأمرهم كالراعي الذي يرعى غنمه ويحفظها ويربّيها، وقد مر تشبيه الإمام بالراعي والرعية بالغنم وتشبيه من لم يعرف إمامه بغنم ضلّت عن راعيها في الحديث الذي رويناه من **(الكافي)** في التذنيب الثالث من تذنيبات شرح الفصل الرابع من فصول الخطبة الأولى.

وورد في وصف الأئمة ﷺ في **(الزيارة الجامعة)**: واسترعاكم أمر خلقه، قال شارح الزيارة، يعني به: أنه تعالى استرعاهم أمر خلقه جعلهم قائمين برعاية الخلق فيما يتعلق بأمر الوجود الكوني وشرعه، وفيما يتعلق بأمر الكون الشرعي ووجوده، وفيما يتعلق بأمر الغيب والشهادة، وفيما يتعلق بأمر الدنيا والآخرة، وفيما يتعلق بأمر الجنة والنار، طلب تعالى منهم ﷺ رعاية جميع خلقه في هذه الأمور الخمسة فهم ﷺ المربّون لرعيتهم الراعون الذين استرعاهم الله أمر غنمه فإن شاؤوا فإنما شاء، هذا.

وإنما جعل الداعي والراعي ناظر القلب اللبيب لأن الناظر من الإنسان هو آلة الإبصار، وبها يدرك الأشياء على ما هي عليها، ويفرّق بين الألوان والأضواء والأشكال والمقادير

(١) الكافي: ١/١٨٣، ح ٧، وبصائر الدرجات: ٢٦ ح ٣.

ونحوها، وبناظره القلبي أي عين بصيرته يفرّق بين الحق والباطل، والصلاح والفساد، فاستعار لفظه للرسول والإمام عليهما السلام إذ بهما تحصل له المعرفة بالمبدأ والمعاد، وبدلالتهما وإرشادهما تكمل له الحكمة النظرية والعملية، فالنبي والإمام عقل من خارج كما أن العقل رسول من باطن.

وإليه يشير قول موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم في الحديث الطويل المروي في **(الكافي)**: يا هشام إن لله على الناس حجّتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، **فأما الظاهرة فالرسل** والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقل، إلى أن قال: يا هشام نصب الحق لطاعة الله ولا نجاة إلا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقل، يعتقل ولا علم إلا من عالم رباني ومعرفة العلم بالعقل(1).

وإنما خص عليه السلام ناظر قلب اللبيب بالبيان لأن الجاهل بمعزل عن الالتفات غافل عما له وعليه كما قال عليه السلام في رواية **(الكافي)** عن علي بن محمد عن سهل بن زياد عن النوفلي عن السّكوني عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن قلوب الجهّال تستفزها الأطماع وترتهنها المنى، وتستعلقها الخدائع يعني تستخفها الأطماع لأنهم كثيراً ما ينزعجون من مكانهم بطمع فاسد لا أصل له ولا طائل تحته، وأنها مقيّدة مرتهنة بالأماني والآمال الكاذبة، وهم ينخدعون سريعاً فتستسخر قلوبهم خدائع الخادعين، ويستعبدها مكر الماكرين، ولهذا يعدّهم الشيطان ويمنّيهم بالأماني الباطلة، ويغرّهم ويستفزّهم ويستعبدهم بالخدائع وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. قال أبو جعفر عليه السلام في هذه الآية: ميت لا يعرف شيئاً ونوراً يمشي به في الناس إماماً يأتمّ به كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، قال: الذي لا يعرف الإمام(2)، هذا.

ولما كان همّة العاقل مصروفة لتحصيل كمالاته والترقي من حد النقص والوبال إلى ذروة الفضل والكمال، ومن هبوط الجهل والدناءة إلى شرف العزّ والسعادة، وكان ذلك الاستكمال والترقي موقوفاً على طاعة الرسول والإمام عليهما السلام حسبما عرفت أمر بطاعتهما بقوله: **(فاستجيبوا للداعي واتبعوا الراعي)** لأنهما قواد الناس وهداتهم إلى المحجة البيضاء والصراط المستقيم، وبالاستجابة والمتابعة لهما ينال حسن العاقبة وسعادة الخاتمة، ولذلك قرن الله طاعتهما بطاعته فقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

---

(١) الكافي: ١/ ١٧، وشرح أصول الكافي: ١/ ١٤٥.

(٢) شرح أصول الكافي: ٥/ ١٤٨ ح ١٣، والكافي: ١/ ١٨٥ ح ١٣.

وقوله عليه السلام: **(قد خاضوا بحار الفتن)** قال الشارح البحراني: يحتمل أن يكون التفاتاً إلى قوم معهودين للسامعين كمعاوية وأصحاب الجمل والخوارج، ويحتمل أن يكون منقطعاً عما قبله متصلاً بكلام لم يحكه الرضى (ره) وإليه ذهب الشارح المعتزلي، وقال: هذا كلام متصل بكلام لم يحكه الرضي، وهو ذكر قوم من أهل الضلال قد كان أخذ في ذمهم ونعا عليهم عيوبهم.

أقول: والأظهر عندي أنه متصل بالكلام السابق، ووجه نظمه أنه لما أمر بوجوب متابعته وفرض طاعته وطاعة الرسول صلى الله عليه وآله التفت إلى حكاية حال المخالفين لرسول الله صلى الله عليه وآله والمغيّرين لوصيته، والغاصبين لخلافته من الخلفاء الثلاث ومتابعتهم، وكيف كان فتشبيه الفتن بالبحار لإهلاكها واستئصالها فمن دخل فيها يغرق كما يغرق البحر الخائض فيه، وذكر الخوض ترشيح للتشبيه.

(وأخذوا بالبدع دون السنن) يعني أنهم عدلوا عن سنّة سيد المرسلين، وتركوا منهج الشرع المبين، وأبدعوا في الدين، وأخذوا بالرأي والمقاييس عن هوى الأنفس، فلم يزالوا دهرهم في الالتباس والارتماس في بحر الظلمات والانغماس في مهوى الشهوات، وذلك كله لإعراضهم عن أئمة الحق وأولياء الصدق.

قال يونس بن عبد الرحمٰن: قلت لأبي الحسن الأول عليه السلام: بما أوحّد الله عز وجل؟ قال: لا تكونن مبتدعاً، من نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيّه ضلّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيه كفر[١].

قال الشارح البحراني: البدعة قد يراد بها ترك السنة وقد يراد بها أمر آخر يفعل مع ترك السنة وهو أظهر في العرف.

أقول: والبدعة ملازمة لترك السنة كما يفصح عنه ما رواه في **(الكافي)** عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس عن حريز عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلال والحرام فقال: حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة لا يكون غيره ولا يجيء غيره[٢].

وقال عليه السلام: قال علي عليه السلام: ما أحد ابتدع بدعة إلا ترك بها سنّة[٣].

---

(١) الكافي: ١/٥٦ ح ١٠، وشرح أصول الكافي: ٢/٢٥٨ ح ١٠.
(٢) شرح أصول الكافي: ٢/٢٦٩ ح ١٩، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/٦٤٣.
(٣) الكافي: ١/٥٨ ح ١٩، وشرح أصول الكافي: ٢/٢٧٠.

وجه دلالته على الملازمة أن حلاله وحرامه إذا كانا مستمرين إلى يوم القيامة فمن أتى بشيء إما أن يكون حكمه ثابتاً في الكتاب والسنّة فلا يكون بدعة، وإلا ففيه تركهما، وبعبارة أخرى لو لم يكن مخالفاً للسنة لم يكن بدعة، وحيث كان مخالفاً مناقضاً لها يلزم من إتيانها ترك سنّة هي في مقابلها البتة، وهو معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام الذي استشهد به الإمام عليه السلام: **(وأرز المؤمنون)** أي انقبضوا وسكتوا لشمول التّقية وغلبة الباطل **(ونطق الضالون المكذّبون)** لاختفاء الحق واستيلاء أهل الضلال.

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر مناقبه ومفاخره المقتضية لوجوب طاعته حثاً للمخاطبين على الرجوع إليه وتأكيداً للتعريض والتقريع على المنحرفين العادلين عنه إلى غيره والغاصبين لحقه قال: **(نحن)** أراد به نفسه والطيبين من أولاده **(الشعار والأصحاب)** أي شعار رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، واستعار لفظ الشعار لهم باعتبار ملازمتهم له عليه السلام ومزيد اختصاصهم به ملازمة الشعار للجسد واختصاصه به، وهم أيضاً أدركوا صحبته بالإيمان وصدقوه في جميع ما جاء به الإذعان والإيقان، وعرف المسند بلام التعريف للعهد قصداً للحصر، يعني أن الشعار والأصحاب المعهودين نحن لا غيرنا.

قال العلامة التفتازاني: إذا كان للشيء صفتان من صفات التعريف عرف السامع اتصافه بإحداهما دون الأخرى حتى يجوز أن تكونا وصفين لشيئين متعددين في الخارج فأيهما كان بحيث يعرف السامع اتصاف الذات به وهو كالطالب بحسب زعمك أن يحكم عليه بالأخرى يجب أن تقدم اللفظ الدال عليه وتجعله مبتدأ، وأيهما كان بحيث يجعل اتصاف الذات به وهو كالطالب أن تحكم بثبوته للذات أو بنفيه عنها يجب أن تؤخر اللفظ الدال عليه وتجعله خبراً، فإذا عرف السامع زيداً بعينه واسمه ولا يعرف اتصافه بأنه أخوه وأردت أن تعرفه ذلك قلت: زيد أخوك، وكذلك إذا عرف زيداً وعلم أنه كان من إنسان انطلاق ولم يعرف اتصافه زيد بأنه المنطلق المعهود وأردت أن تعرفه ذلك قلت: زيد المنطلق، ولا يصح المنطلق زيد، انتهى.

(والخزنة والأبواب) أي خزّان خزينة علم الله وعلم رسوله وإنما استعار لهم ذلك اللفظ لأن الخازن إنما يتولى ما في الخزانة ويحفظه ويتصرف فيه ويصرفه في مصارفه وهم عليهم السلام كذلك لأنهم حفاظ علم الله تعالى، والمتصرفين فيه والباذلين له لمن يشاؤون، والمانعين له عمن يشاؤون، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩] فإن ظاهرها في حق سليمان بن داود عليه السلام وباطنها في أهل البيت عليهم السلام حسبما عرفته في شرح الكلام التاسع والخمسين.

ويدل على كونهم خزّان الله تعالى ما في **(البحار)** من بصائر الدرجات للصفار بسنده

عن سورة بن كليب قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: والله إنّا لخزان الله في سمائه وأرضه لا على ذهب ولا على فضة إلا على علمه، قال العلامة المجلسي (ره): أي خزّان علم السماء والأرض.

أقول: والأولى جعل ضمير علمه راجعاً إلى الله كما يفصح عنه إضافة العلم إلى لفظ الجلالة في الأخبار الآتية وستعرف تحقيق ذلك.

وفيه منه عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: والله إنّا لخزان الله في سمائه وخزانه في أرضه، لسنا بخزان على ذهب ولا على فضة وإن منّا لحملة العرش إلى يوم القيامة[١].

وعن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: نحن خزان الله على علم الله نحن تراجمة وحي الله، نحن الحجة البالغة على ما دون السماء وفوق الأرض.

وعن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: نحن خزان الله في الدنيا والآخرة وشيعتنا خزاننا.

وعن عبد الرحمٰن بن كثير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة وحي الله[٢].

وعن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى أخذ الميثاق على أولي العزم: «أني ربكم ومحمد صلى الله عليه وآله رسولي وعلي أمير المؤمنين وأوصياؤه من بعده ولاة أمري وخزان علمي، وأن المهدي أنتصر به لديني»[٣].

فظهر بهذه الروايات كونهم ولاة خزانة علمه تعالى، ويدل عليه أيضاً ما عن احتجاج الطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل وفيه: قال لصاحبكم أمير المؤمنين: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وعلم هذا الكتاب عنده.

وبهذا المضمون أيضاً أخبار أُخرى قدمنا روايتها في التذييل الثالث من شرح الفصل السابع عشر من الخطبة الأولى، فليتذكر.

---

(١) الأصول الستة عشر: ٩١، وبصائر الدرجات: ١٢٤.

(٢) شرح أصول الكافي: ٥/١٦٩ ح ١، بحار الأنوار: ٢٦/١٠٦.

(٣) مختصر بصائر الدرجات: ١٥٥، والمحتضر: ١١٧.

قال بعض الأفاضل: والعلم الذي هم خزائنه هو علم الموجودات بالمعنى المتعارف وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يعني أن ما لم يشأ من علمه أن يعلموه لا يحيطون به، وليس المراد بهذا العلم الذي لا يحيطون بشيء هو القديم الذي هو الذات ليكون المعنى: ولا يحيطون بشيء من ذاته إلا بما شاء أن يحيطوا به منها، بل المراد به أن العلم الحادث الذي هو غير الذات منه ممكن مقدّر غير مكوّن، ومنه تكوين ومنه مكّون، فالممكن المقدور غير المكوّن هو الممكنات قبل أن تكسي حلّة الوجود في جميع مراتب الوجود، فهذه لم تكن مشاءة إلا في أماكنها، فهذا لا يحيطون بشيء منه إحاطة وجود، ويحيطون به إحاطة إمكان إذ ذاك مُشاءة مشيئة إمكان، والتكوين الممكن وهذا يحيطون به لأنه مشاء بنفسه وهم محال ذلك، والمكون قسمان مكون مشروط ومكون منجز، والمكون المشروط يحيطون به لأنه مشاء ولا يحيطون بالشرط إلا بعد أن يكون مشاء، والمكون والمنجز يحيطون به، ثم ما كانوا يحيطون به قسمان: قسم كان وهم يحيطون به أنه كان ولا يحيطون به أنه مستمر أو منقطع إلا إحاطة أخبار لا إحاطة عيان، وقسم لم يكن، فهم يحيطون به إحاطة أخبار أيضاً لا إحاطة عيان، فظهر لمن نظر وأبصر من هذا التفصيل أنهم عليهم السلام لا يحيطون بشيء من علمه الذي هو غير ذاته إلا بما شاء أن يحيطوا به، والذي شاء أن يحيطوا به هو ما سمعته في هذا التفصيل، هذا تمام الكلام في كونهم عليهم السلام خزّان الله.

وأما كونهم الأبواب فالمراد به أنهم عليهم السلام أبواب الإيمان والمعرفة بالله، وأبواب علم الله وعلم رسوله صلى الله عليه وآله كما ورد في الأخبار المستفيضة العامية والخاصية بل لا يبعد تواترها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب»، وقال أيضاً: «أنا مدينة الحكمة»، وفي بعضها: «دار الحكمة وعلي بابها فمن أراد الحكمة فليأتها من بابها»[1].

وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: **(ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها فمن أتاها من غير بابها سمي سارقاً)** وهو كناية عن أن من أخذ العلم من غير أهله وأراد المعرفة عن غير الجهة التي أمر بالتوجه إليها فهو منتحل له كالسارق الذي يتسوّر البيوت من غير أبوابها ويأخذ ما فيها غصباً وعدواناً، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]. روى في **(البحار)** من الاحتجاج للطبرسي عن الأصبغ بن نباتة قال: كنت جالساً عند أمير المؤمنين عليه السلام فجاءه ابن الكوا فقال: يا أمير

(١) الاحتجاج: ١/ ١٠٢، والعمدة: ٢٩٥ ح ٤٨٩.

المؤمنين قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ﴾ الآية، فقال عليه السلام: نحن البيوت التي أمر الله أن يؤتى أبوابها، نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منها، فمن تابعنا وأقرّ بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها، ومن خالفنا وفضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها، «إلى أن قال»: إن الله عزَّ وجل لو شاء عرف الناس نفسه حتى يعرفوه ويأتونه من بابه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي يؤتى منه[1]، قال: **(فمن عدل عن ولايتنا وفضّل علينا غيرنا فإنهم عن الصراط لناكبون)**، وقد تقدمت هذه الرواية في شرح الفصل الرابع من الخطبة الأولى من **(الصافي)** عن أمير المؤمنين عليه السلام مثله.

(منها) ما هو أيضاً في **(فضائل أهل البيت** عليهم السلام**)** وهو قوله عليه السلام: **(فيهم كرائم القرآن)** يحتمل أن يكون المراد بالكرائم الآيات الكريمة، قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٧] أي حسن مرضي في جنسه، وقيل: كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في المعاش والمعاد، والكريم صفة لكل ما يرضي ويحمد، ومنه وجه كريم أي مرضيّ في حسنه وبهائه، وكتاب كريم مرضيّ في معانيه.

وأن يكون المراد بها الآيات الدالة على كرامتهم أي على جمعهم لأنواع الشرف والفضائل، إذ الكريم هو الجامع لأنواع الخير والشرف، وقد مضى بعض تلك الآيات في شرح الفصل الثالث من الخطبة السادسة والثمانين، وتقدم كثير منها في تضاعيف الشرح وتأتي أيضاً إن شاء الله في مواضعها اللائقة، وفي بعض النسخ: فيهم كرائم الإيمان، أي الخصال الكريمة التي هي من لوازم الإيمان وخواصه.

(وهم كنوز الرحمٰن) لأن الكنز ما يدخر فيه نفائس الأموال وهم عليهم السلام قد أودع الله فيهم نفائس جميع ما في الكون وخيار الفضائل والفواضل من العلم والحلم والسخاء والجود والكرم والخلافة والولاية والشجاعة والفصاحة والعصمة والقدس والطهارة إلى غير تلك مما لا يضبطها عدّ ولا يحيط بها حدّ.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧] **(إن نطقوا صدقوا)** لأنهم أزمة الحق وألسنة الصدق المستجاب بهم دعوة إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤] والمفروض متابعتهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] على ما قدمنا في شرح الفصل الثالث من الخطبة السادسة والثمانين.

(وإن سكتوا لم يسبقوا) لأن سكوتهم إنما هو بمقتضى المصلحة واقتضاء الحكمة لا عن

---

(١) مختصر بصائر الدرجات: ٥٣، وشرح أصول الكافي: ٥/١٤٤ ح ٩.

عيّ وعجز حتى يسبقهم الغير ويتكلم ولا يتمكنوا ويتمكن بل يعلمون ما كان وما هو كائن ويتكون لذلك شاع المثل السائر: قضية وليس لها أبو الحسن.

ثم إنه عليه السلام لما نبّه على جملة من مناقبهم الباهرة ومفاخرهم الزاهرة عقب ذلك بالمثل المشهور وفرعه على ما سبق فقال: **(فليصدق رائد أهله)** يعني أن المرسل من الحيّ لطلب الماء والكلاء يرتاد لهم المرعى ينبغي له أن يصدق أهله ولا يكذب لمن أرسله ويبشّر له بها، وأراد بذلك أن من يحضر الأئمة عليهم السلام من الناس طلباً لأخبارهم واقتباس أنوارهم وأخذ معالم الدّين عنهم فليصدق من يكل إليه أمره إننا أهل الحق وينابيع العلم والحكمة والأدلاء **(وليحضر عقله)** لاستماع كلامنا حتى يعرف صحة ما ادعينا، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

روى في **(الكافي)** عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس بن عبد الرحمٰن قال: حدثنا حماد عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول العامة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية، فقال عليه السلام: الحق والله، قلت: فإن إماماً هلك ورجل بخراسان لا يعلم من وصيه لم يسعه ذلك، قال عليه السلام: لا يسعه أن الإمام إذا هلك وقعت حجّة وصيّه على من هو معه في البلد وحقّ النفر على من ليس بحضرته إذا بلغهم إن الله عزَّ وجل يقول: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ قلت: فنفر قوم فهلك بعضهم قبل أن يصل فيعلم قال: إن الله عزَّ وجل يقول: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] قلت: فبلغ البلد بعضهم فوجدك مغلقاً عليك بابك ومرخى عليك سترك لا تدعوهم إلى نفسك ولا يكون من يدلّهم عليك فبما يعرفون ذلك؟ قال: بكتاب الله المنزل، قلت: فيقول الله عزَّ وجل كيف؟ قال: أراك قد تكلمت في هذا قبل اليوم، قلت: أجل، قال عليه السلام: فتذكّر ما أنزل الله في علي عليه السلام وما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله في حسن وحسين عليهما السلام وما خصّ الله به عليّاً عليه السلام وما قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله من وصيته إليه ونصبه إياه وما يصيبهم وإقرار الحسن والحسين بذلك ووصيته إلى الحسن وتسليم الحسين له، يقول الله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦] قلت: فإن الناس تكلموا في أبي جعفر عليه السلام ويقولون: كيف تخطّت من ولد أبيه من له مثل قرابته ومن هو أسن منه وقصرت عمن هو أصغر منه؟ فقال عليه السلام: يعرف صاحب هذا الأمر بثلاث خصال لا تكون في غيره: هو أولى الناس بالذي قبله، وهو وصيّه، وعنده سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيته وذلك عندي لا أنازع فيه، قلت: إن ذلك مستور مخافة السلطان؟ قال: لا يكون في ستر إلا وله حجة ظاهرة إن أبي استودعني ما هناك فلما حضرته

الوفاة قال: إدع لي شهوداً، فدعوت أربعة من قريش فيهم نافع مولى عبد الله بن عمر قال: إكتب: هذا ما أوصى به يعقوب بنيه ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وأوصى محمد بن علي إلى جعفر بن محمد وأمره أن يكفّنه في برده الذي كان يصلي فيه الجمع، وأن يعممه بعمامته، وأن يربع قبره ويرفعه أربع أصابع ثم يخلى عنه، فقال عليه السلام: أطووه، ثم قال للشهود: انصرفوا رحمكم الله، فقلت بعدما انصرفوا: ما كان في هذا يا أبه أن تشهد عليه؟ فقال عليه السلام: إني كرهت أن تغلب وأن يقال: إنه لم يوص فأردت أن تكون لك حجة فهو الذي إذا قدم الرجل البلد قال: إلى من وصّى فلان؟ قيل: فلان، قلت: فإن كان أشرك في الوصية؟ قال: تسألونه فإنه سيبين لكم(١).

وقد رويت هذه الرواية لاشتمالها على فوائد عظيمة جمة، وإيضاحها كيفية تكليف من ينفر لطلب الإمام ووظيفة الإمام وما يعرف به المحق من المبطل، وأن اللازم على النافرين إنذار قومهم بعد تفقههم في الدين ومعرفتهم بالإمام بالبينات التي هي من دلالات الإمامة، فعلم بذلك أن النافر لطلب الإمام بمنزلة الرائد السابق ذكره في كلام أمير المؤمنين عليه السلام فافهم ذلك وتبصر.

ثم أمر عليه السلام الرائد أمر إرشاد فقال: **(وليكن من أبناء الآخرة)** ورغبته إليها **(فإنه منها قدم وإليها ينقلب)** لأن الإنسان مبدؤه الحضرة الإلهية وهو سبحانه المبدأ وإليه المنتهى وهو غاية مراد المريدين ومنتهى سير السائرين.

ثم أشار عليه السلام إلى فضيلة العلم فقال عليه السلام: **(فالناظر بالقلب العامل بالبصر)** أي ينبغي لصاحب العقل البصير في عمله أن **(يكون مبتدأ عمله أن يعلم أعمله عليه أم له)** أي يعرف قبل أن يعمل أن عمله نافع له مقرّب إلى الحضرة الربوبية أم مضرّ مبعّد له **(فإن كان له مضى فيه)** وأتى به **(وإن كان عليه وقف عنه)** وتركه وإنما كان اللازم على العاقل تحصيل العلم قبل العمل **(فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعداً من حاجته)** إذ كان بعده عن مطلوبه بقدر بعده عن طريق ذلك المطلوب.

قال طلحة بن زيد: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً، رواه في **(الكافي)**.

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»(٢).

---

(١) الكافي: ١/ ٣٧٩، وشرح أصول الكافي: ٦/ ٣٦٠.

(٢) المحاسن: ١/ ١٩٨ ح ٢٣، والكافي: ١/ ٤٤ ح ٣.

(و) هذا بخلاف العامل العالم فإن **(العامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح)** فلا تزيده سرعة سيره إلا نجاحاً بحاجته **(فلينظر ناظر)** أي الناظر بالقلب المسبوق ذكره **(أسائر هو أم راجع)**.

أقول: وما ذكرناه في شرح هذه الفقرات، أعني قوله: **(فالناظر بالقلب)** إلى قوله: **(أم راجع)** إنما هو مفاد ظاهر كلامه عليه السلام، والأشبه عندي أن يكون تلويحاً وإشارة إلى وجوب اتباع الأئمة والائتمام بهم، فإنه لما ذكر أوصاف الأئمة ونعوتهم الكمالية، عقب ذلك بما يلزم على الرائد الطالب للإمام، ثم فرع عليه قوله: **(فالناظر بالقلب) (آهـ)** يعني أن صاحب العقل والبصيرة لا بد له قبل أن يشرع في عمل أن يعلم أن عمله له أم عليه، والعلم موقوف على التعلم من الإمام العالم والاقتباس من نوره والاهتداء به، إذ المتلقي من غيره ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]. ويومىء إلى ما ذكرناه تمثيل العامل العالم بالسائر على الطريق وتمثيل الجاهل بالسائر على غير طريق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. قال زيد بن علي: قال النبي صلى الله عليه وآله في هذه الآية: «أنا ومن اتبعني من أهل بيتي لا يزال الرجل بعد الرجل يدعو إلى ما أدعو إليه»، وقال تعالى أيضاً: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾ [الملك: ٢٢]. قال البيضاوي: ومعنى مكباً أنه يعثر كل ساعة ويخرّ على وجهه لوعورة طريقه واختلاف أجزائه، ولذلك قابله بقوله: أمّن يمشي سوياً قائماً سالماً من العثار، على صراط مستقيم مستوي الأجزاء والجهة، والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين والدينين بالمسلكين، وقيل: المراد بالمكبّ الأعمى، فإنه يعتسف فيكبّ وبالسوي البصير، انتهى[1].

وأما تأويله، فالمراد بالمكبّ أعداء آل محمد صلى الله عليه وآله، وبمن يمشي سوياً أولياؤهم عليهم السلام كما ورد في تفسير أهل البيت.

ثم قال عليه السلام: **(واعلم أن لكل ظاهر باطناً على مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه)** المراد بهما إما كل ما يصدق عليه أنه ظاهر وباطن فيشمل الأفعال الظاهرة والأقوال الصادرة عن الإنسان خيراً أو شراً والملكات والأخلاق النفسانية الباطنية له حسنة أو قبيحة، فالجود والكرم والإنعام والإحسان ونحوها مما هو حسن ظاهراً كاشف عن حسن الباطن، أعني ملكة السخاء والجود، والقبض والإمساك والمنع ونحوها مما هو قبيح ظاهراً دال على قبح الباطن وخبثه، أعني ملكة البخل وهكذا، وكذلك في الأقوال ما هو الطيب ظاهراً كاشف عن طيب الباطن وما هو الخبيث كاشف عن خبث الباطن.

(١) تفسير فرات الكوفي: ٢٠٣، وشواهد التنزيل: ١/ ٣٧٤.

قال عليه السلام في الخطبة (**الشقشقية**) في وصف حال الثاني: فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسها، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٦] ويشمل أيضاً لمثل حسن الصورة الموافق لحسن الباطن، أعني اعتدال المزاج، وقبحها الموافق لقبح الباطن، أعني عدم اعتداله أو الأعم من الاعتدال وعدم الاعتدال.

ويشهد بذلك ما رواه في (**البحار**) من (**الأمالي**) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليكم بالوجوه الملاح والحدق السود، فإن الله يستحيي أن يعذّب الوجه المليح بالنار»[١].

وفيه من (**ثواب الأعمال**) عن موسى بن إبراهيم عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: سمعته يقول: «ما حسّن الله خلق عبده ولا خلقه إلا استحيى أن يطعم لحمه يوم القيامة النار»[٢].

وفيه من (**العيون**) عن الرضا عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لا تجد في أربعين أصلع رجل سوء ولا تجد في أربعين كوسجاً رجلاً صالحاً وأصلع سوء أحب إليّ من كوسجٍ صالح[٣].

ومن ذلك ما روي أن أبا محمد الحسن بن علي عليه السلام دخل يوماً على معاوية فسأله عليه السلام تعنّتاً وقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. فأين ذكر لحيتك ولحيتي من الكتاب؟ وكان أبو محمد وفر المحاسن[٤] ومعاوية بخلافه فقرأ عليه السلام: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] ونحوه ما عن (**المناقب**). قال عمرو بن العاص للحسين عليه السلام: ما بال لحاكم أوفر من لحانا؟ فقرأ عليه السلام هذه الآية[٥].

ومن هذا الباب كل ما في الكتاب العزيز من التعبير عن الأئمة عليهم السلام بأعزّ الأسماء وأحسن الأفعال وأفضل الخصال والتعبير عن أعدائهم بأخبثها وأخسّها وأنزلها.

ويدل عليه ما في (**الصافي**) من (**الكافي**) عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

(١) الأمالي: ٣١٢ ح ٦٣٦، وبحار الأنوار: ٥/٢٨١ ح ١٣.
(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ٣/٢٦٣ ح ٢٩١٣، وبحار الأنوار: ٥/٢٨٠ ح ٩.
(٣) وسائل الشيعة: ١٢/١٥٥ ح ١٥٩٣٤، وبحار الأنوار: ٥/٢٨١ ح ١٤.
(٤) وفر المحاسن: أي كث اللحية.
(٥) بحار الأنوار: ٦٣/١٠٩، والتفسير الصافي: ٢/٢٠٨.

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. قال عليه السلام: إن القرآن له ظهر وبطن فجميع ما حرّم الله في القرآن هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحلّ الله في الكتاب هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الحق[١].

وفي (**البحار**) من (**البصائر**) بسنده عن الهيثم التميمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا هيثم إن قوماً آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم شيء، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئاً، ولا إيمان بظاهر إلا بباطن ولا بباطن إلا بظاهر[٢].

ومن (**كنز جامع الفوائد**) قال: روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بإسناده إلى الفضل بن شاذان عن داود بن كثير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أنتم الصلاة في كتاب الله عزَّ وجل وأنتم الزكاة وأنتم الحجّ، فقال: يا داود نحن الصلاة في كتاب الله عزَّ وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله، قال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ـ وجوهكم ـ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ونحن الآيات ونحن البيّنات، وعدوّنا في كتاب الله عزَّ وجل الفحشاء والمنكر والبغي والخمر والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم الخنزير، يا داود إن الله خلقنا فأكرم خلقنا، وفضّلنا وجعلنا أمنائه وحفظته وخزّانه على ما في السماوات وما في الأرض، وجعل لنا أنداداً أضداداً وأعداء فسمّانا في كتابه وكنّى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه، وسمى أضدادنا وأعداءنا في كتابه وكنى عن أسمائهم، وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين[٣].

هذا كله مبني على أن يراد بالظاهر والباطن المعنى الأعمّ، ويجوز أن يراد بهما الخصوص، أعني العلم المأخوذ من معدنه، فيكون قوله: (**فما طاب ظاهره طاب باطنه**) إشارة إلى العلوم الحقّة المتلقاة من الأئمة عليهم السلام الخارجة من مهبط الوحي ومعدن الرسالة، وقوله: (**وما خبث ظاهره خبث باطنه**) إشارة إلى العلوم الباطلة المأخوذة من أهل الضلال عن طريق الرأي والقياس والاستحسانات العقلية الفاسدة، والوجه الأول، أعني إرادة العموم وهو الأوفق بنفس الأمر، والوجه الثاني أنسب بالنسبة إلى ما حققناه سابقاً، فإنه عليه السلام حسبما ذكرنا لما أشار إلى أن السالك لا بد أن يكون سلوكه على علم وبصيرة حتى لا يكون كالسائر

---

(١) الكافي: ١/ ٣٧٤ ح ١٠، وشرح أصول الكافي: ٦/ ٣٤٨ ح ١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٢٤/ ٣٠٢ ح ١١، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٧٠٩.

(٣) بحار الأنوار: ٢٤/ ٣٠٣ ح ١٤، وتهذيب المقال: ٣/ ١٦٠.

على غير الطريق، أردفه بهذه الجملة تنبيهاً على أن كل علم ليس مما ينتفع به في مقام السلوك بل خصوص العلم الموصل إلى الحق المتلقّي من أهل الحق، أعني أئمة الدين وهو الطيب ظاهراً وباطناً، وأما غيره، أعني العلم المأخوذ من أهل الضلال، فهو جهل في صورة العلم لا يوجب إلاّ بعداً من الحق خبيث ظاهره وباطنه.

وقد يفسر به قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨]. قال القمي: إنه مثل للأئمة يخرج علمهم بإذن ربّهم ولأعدائهم لا يخرج علمهم إلا كدراً فاسداً.

وقد قال الرسول الصادق ﷺ: «إن الله يحب العبد ويبغض عمله ويحب العمل ويبغض بدنه»[١] يعني أن الله يحب العبد المؤمن بما فيه من وصف الإيمان لكنه يبغض عمله لكونه سيئة وحراماً، ويبغض الكافر بما له من الكفر لكنه يحب عمله لكونه حسناً وصالحاً، وهذا لا غبار عليه.

وإنما الإشكال في ارتباط هذا الكلام لسابقه وفي استشهاد الإمام عليه السلام به مع أنه لا مناسبة بينهما ظاهراً، وليس للاستشهاد به وجه ظاهر، بل منافاته لما مر أظهر من المناسبة كما هو غير خفيّ إذ لازم محبّة الله للعبد كون العبد طيباً، ولازم بغضه لعمله كون العمل خبيثاً فلم يكن الظاهر موافقاً للباطن فينا في قوله عليه السلام: **(فما خبث ظاهره خبث باطنه)** وكذلك مقتضى بغض الله سبحانه لبدن الكافر كونه خبيثاً، وحبه لعمله كون عمله طيباً ففيه أيضاً مخالفة الظاهر للباطن فينا في قوله: **(فما طاب ظاهره طاب باطنه)**.

والذي سنح لي في وجه الارتباط وحلّ الإشكال بعد التروي وصرف الهمة إلى حلّه أياماً والاستمداد من جدي أمير المؤمنين عليه وآله سلام الله ربّ العالمين هو أنه لما ذكر أن ما هو طيب الظاهر طيب الباطن وما هو خبيث الظاهر خبيث الباطن، عقّبه بهذا الحديث النبوي ﷺ تنبيهاً وإيقاظاً للسامعين بأن العبد قد يكون نفسه محبوباً وعمله مبغوضاً، وقد يكون بالعكس كما أفصح عنه الرسول الصادق المصدّق.

فاللازم له إذا كان محبوب الذات لله سبحانه ومبغوض العمل أن يجد في تحبيب عمله إليه تعالى حتى يوافق نفسه عمله في المحبوبية، وإذا كان محبوب العمل ومبغوض البدن، أي الذات، أن يجد في تحبيب ذاته إليه كي يوافق عمله نفسه.

والغرض بذلك الحث على تطبيق الظاهر للباطن في الأول وتطبيق الباطن للظاهر في الثاني في المحبوبية حتى يكونا طيبين، ويفاز إلى النعيم الدائم والفوز الأبد، ولا يعكس حتى

(١) بحار الأنوار: ٢٩/٦٠١، وميزان الحكمة: ٣/ ٢١٣٠.

يكونا خبيثين مبغوضين له تعالى فيقع في العذاب الأليم والخزي العظيم، وقد زلّت في هذا المقام أقدام الشراح والمحدثين، وكلّت فيه أفهامهم طوينا عن ذكر كلامهم، من أراد الاطلاع فليراجع الشروح، والله وليّ التوفيق.

ثم حثّ على تزكية الأعمال وتصفيتها بمثل ضربه، بقوله: **(واعلم أن كل عمل نبات)** وفي بعض النسخ: أن لكل عمل نباتاً، قال الشارح البحراني: استعار لفظ النبات لزيادة الأعمال ونموها ورشح الاستعارة بذكر الماء (آهـ)، وعلى ما روينا فهو من التشبيه البليغ، أعني التشبيه المحذوف الأداة، أي كل عمل بمنزلة نبات، ووجه الشبه أن النباتات كما أنها مختلفة من حيث طيبها ونضارتها وخضرتها وحسنها وثبات أصلها في الأرض ورسوخ عروقها وارتفاع فروعها وحلاوة ثمراتها ومن حيث كونها على خلاف ذلك، فكذلك الأعمال.

وإلى ذلك أشار بقوله: **(وكل نبات لا غنى به عن الماء)** وهو مادة حياتية كما قال سبحانه: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ [النبأ: ١٤ـ ١٥]. وكذلك كل عمل لا غنى به عن النية وعن توجه القلب إليه وهو مادة حصوله **(والمياه مختلفة)** هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج، والنبات أيضاً مختلفة بعضها صادرة عن وجه الخلوص والتقرّب إلى الحضرة الربوبية، وبعضها عن وجه الشرك والرياء والسمعة **(فما طاب سقيه)** أي نصيبه من الماء لكونه عذباً صافياً **(طاب غرسه)** وثبت أصله وارتفع فرعه وكان له خضرة ونضرة **(وحلت ثمرته)** وكذلك العمل الصادر عن وجه الخلوص والتقرّب إلى الحق يعلو ويزكو ويثمر ثمرات طيبة وهي ثمرات الجنان أكلها دائم وظلّها، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

(وما خبث سقيه) لكون مائه ملحاً أجاجاً أو كدراً فاسداً **(خبث غرسه)** لا يكون له رونق وبهاء ولا لأصله ثبات ولفرعه ارتفاع **(وأمرّت ثمرته)** وهكذا العمل المشوب بالشرك والريا يثمر ثمرات خبيثة، أعني ثمرات الجحيم وهي الضريع والزقوم، قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات: ٦٥ـ ٦٦].

وأقول: قد وقع مثل هذا التشبيه الواقع في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، أعني تشبيد العمل بالنبات في كلام الله ربّ العالمين، قال سبحانه في سورة (إبراهيم): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ـ ٢٦].

قال في **(مجمع البيان)**: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تعلم يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي بيّن الله شبهاً ثم فسر ذلك المثل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله عن ابن عباس، وقيل: هي كل كلام أمر الله به من الطاعات، عن أبي علي قال: وإنما سماها طيبة لأنها زاكية نامية لصاحبها بالخيرات والبركات ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي شجرة زاكية نامية راسخة أصولها في الأرض عالية أغصانها وثمارها في السماء، وأراد به المبالغة في الرّفعة والأصل سافل والفرع عال، إلا أنه يتوصل من الأصل إلى الفرع ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ أي تخرج هذه الشجرة ما يؤكل منها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ أي كل غدوة وعشيّة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وقيل: إنه سبحانه شبّه الإيمان بالنخلة لثبات الإيمان في قلب المؤمن كثبات النخلة في منبتها، وشبّه ارتفاع عمله إلى السماء بارتفاع فروع النخلة، وشبّه ما يكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت وحين بما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها من الرطب والتمر ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتدبروا فيعرفوا الغرض بالمثل ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الفكر والشرك، عن ابن عباس وغيره، وقيل: هو كل كلام في معصية الله عن أبي علي ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ غير زاكية وهي شجرة الحنظل، عن ابن عباس وأنس ومجاهد ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي اقتطعت واستؤصلت واقتلعت جثّته من الأرض ﴿ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي ما لتلك الشجرة من ثبات، فإن الريح تنسفها وتذهب بها، فكما أن هذه الشجرة لا ثبات لها ولا بقاء ولا ينتفع بها أحد، فكذلك الكلمة الخبيثة لا ينتفع بها صاحبها ولا يثبت له منها نفع ولا ثواب[1].

تبصرة

قال الشارح المعتزلي عند شرح قوله عليه السلام من هذه الخطبة: **(نحن الشّعار والأصحاب والخزنة والأبواب)**: واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام لو فخر بنفسه وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته التي أتاه الله إياها واختصه بها وساعده على ذلك فصحاء العرب كافة لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الصادق صلوات الله عليه وآله في أمره، ولست أعني بذلك أخبار العامة الشائعة التي يحتج بها الإمامية على إمامته، كخبر الغدير، والمنزلة، وقصة براءة، وخبر المناجاة، وقصة خيبر، وخبر الدار بمكة في ابتداء الدعوة ونحو ذلك، بل الأخبار الخاصة التي رواها فيه أئمة الحديث التي لم يحصل أقل القليل منها لغيره، وأنا أذكر من ذلك شيئاً يسيراً مما رواه علماء الحديث الذين لا يتّهمون فيه وجلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه، فروايتهم فضائله توجب سكون النفس ما لا يوجبه رواية غيرهم.

---

(١) مجمع البيان: ٦/ ٧٥.

ثم أورد أربعة وعشرين حديثاً نبويّاً في فضائله، والحديث الرابع والعشرون قوله: لما نزل ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [الفتح: ١] بعد انصرافه من غزاة حنين جعل يكثر: سبحان الله، أستغفر الله، ثم قال: «يا علي، إنه قد جاء ما وعدت به، جاء الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً وليس أحد أحق منك بمقامي لقدمك في الإسلام وقربك مني وصهرك وعندك سيدة نساء العالمين، وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب عندي حين نزل القرآن فأنا حريص أن أراعي ذلك لولده»، رواه أبو إسحاق الثعلبي في **(تفسير القرآن)**.

ثم قال الشارح: واعلم أنّا إنما ذكرنا هٰهنا هذه الأخبار لأن كثيراً من المنحرفين عنه عليه السلام إذا مروا على كلامه في **(نهج البلاغة)** وغيره المتضمن للتحدث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول صلى الله عليه وآله وتميزه إياه عن غيره ينسبونه فيه إلى التيه والزّهو والفخر، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة. قيل لعمر: ولّ علياً أمر الجيش والحرب، فقال: هو أتيه من ذلك، وقال زيد بن ثابت: ما رأينا أزهى من علي وأسامة[1].

فأردنا من إيراد هذه الأخبار: أن تنبّه على عظيم منزلته عليه السلام عند الرسول صلى الله عليه وآله وأن من قيل في حقه ما قيل لو رقىٰ إلى السماء وعرج في الهواء وفخر على الملائكة والأنبياء تعظماً وتبجحاً لم يكن ملوماً بل كان بذلك جديراً.

فكيف وهو عليه السلام لم يسلك قط مسلك التعظم والتكبر في شيء من أقواله ولا من أفعاله، وكان ألطف البشر خلقاً، وأكرمهم طبعاً، وأشدّهم تواضعاً، وأكثرهم احتمالاً، وأحسنهم بشراً، وأطلقهم وجهاً حتى نسبه من نسبه إلى الدعابة والمزاح وهما خلقان يتنافيان التكبر والاستطالة، وإنما كان يذكر أحياناً ما يذكره نفثة مصدور وشكوى مكروب وتنفس مهموم ولا يقصد به إذا ذكره إلا شكر النعمة وتنبيه الغافل على ما خصه الله به من الفضيلة، فإن ذلك من باب الأمر بالمعروف والحض على اعتقاد الحق والصواب في أمره والنهي عن المنكر الذي هو تقديم غيره عليه في الفضل، فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]، انتهى[2].

أقول: ولقد أجاد الشارح فيما أفاد ولا يخفى ما في كلامه من وجوه التعريض إلى عمر من حيث نسبته أمير المؤمنين عليه السلام تارة إلى التيه والتكبّر، وأخرى إلى المزاح والدعابة، وقد نبّه الشارح على أن هذه النسبة افتراء منه عليه عليه السلام لأن التكبّر والدعابة على طرفي الإفراط

(١) شرح النهج: ٩/ ١٧٤.

(٢) بحار الأنوار: ٤٠/ ٨٦، والإمام علي: ٩٧.

والتفريط وهما مع تضادّهما وعدم إمكان اجتماعهما في محلّ واحد لا يجوز أن يوصف الإمام عليه السلام الذي هو على حدّ الاعتدال في الأوصاف والأخلاق بشيء منهما فضلاً عن كليهما، وقد مرّ فساد نسبة الدعابة إليه في شرح الكلام الثالث والثمانين بما لا مزيد عليه.

ثم العجب من الشارح أنه مع نقله هذه الروايات كيف ضلّ عن الهدى وأعمى عن الحق وأنكر وجود النص على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام مع ظهور دلالتها على خلافته لو لم تكن نصاً فيها لا سيما الرواية الأخيرة، أعني الحديث الرابع والعشرين.

وأعجب من ذلك أنه قد صرّح هنا بأن تقديم غيره عليه عليه السلام من المنكر، وأن غرض أمير المؤمنين عليه السلام من تعديد مناقبه وفضائله كان النهي عن ذلك المنكر وردع الناس عن الاعتقاد الباطل إلى الحق والصواب وهو مناف لمذهبه الذي اختاره وفاقاً لأصحابه المعتزلة من أن تقديم غيره عليه إنما هو من فعل الله سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون الضالون علوّاً كبيراً كما هو صريح كلامه في خطبة الشرح حيث قال هناك: وقدم المفضول على الأفضل لمصلحة اقتضاها التكليف، وإذا كان تقديم غيره عليه منكراً وقبيحاً كيف نسبه إلى الله تعالى هنالك؟ وقد أجرى الله الحق على لسانه هنا حتى صرّح بنفسه على فساد مذهبه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن بزرگوار و وصىّ محمّد مختار است در موعظه و نصيحت و ذكر فضايل اهل بيت عصمت و طهارت مى فرمايد:

آلت نظر عاقل كه بهوساطت آن مى بيند غايت خود را و مى شناسد پستى و بلندى خود را، دعوت كننده اى است كه دعوت نمود و رعايت كننده اى است كه رعايت فرمود (و مراد از دعوت كننده حضرت خاتم رسالت و از رعايت كننده جناب شاه ولايت(عليهما السلام)است) پس استجابت نماييد دعوت كننده را و متابعت كنيد رعايت نماينده را، پس به تحقيق كه غوطهور شدند مخالفان آن داعى و راعى در درياى فتنه ها و اخذ نمودند بدعت ها نه سنّت ها را و منقبض شدند مؤمنان و ناطق شدند گمراهان و تكذيب كنندگان.

ما اهل بيت لباس مخصوص پيغمبر خداييم و اصحاب پسنديده حضرت مصطفى و خزينه داران علم ربّ العزّت و درهاى مدينه علم و حكمت و داخل نمى توان شد به خانه ها مگر از درهاى آنها، پس هركه بيايد به خانه ها از غير درهاى آن، ناميده شود دزد و سارق.

بعض ديگر از اين خطبه باز در فضايل آل رسول (صلى الله عليه وآله) است، مى فرمايد:

در حق ايشان است آيات كريمه قرآن و ايشان است خزينه هاى رحمان، اگر گويا بشوند راست مى گويند و اگر ساكت شوند كسى نمى تواند سبقت نمايد بر ايشان، پس بايد راست بگويد طالب آب و گياه به اهل خود و بايد كه حاضر سازد عقل خود را و بايد كه بشود از ابناى آخرت، پس به درستى كه او از آخرت كه عالم لاهوت است آمده به سوى عالم ناسوت و به سوى آخرت برگشت او خواهد شد.

پس كسى كه نظر كند به قلب خود و عمل كننده باشد به بصيرت خود، مى باشد ابتداء عمل او اينكه بداند آيا عمل او ضرر دارد بر او يا منفعت دارد مراورا، پس اگر نافع باشد او را اقدام مى كند در او و اگر مضر باشد خوددارى مى نمايد

از او، پس به درستی که عمل کننده به غیرعلم مثل سیر کننده است بر غیر راه راست، پس زیاده نمی کند دوری او از راه مگر دوری از مقصود او را و عمل کننده به علم مثل سیرکننده است بر راه روشن، پس باید که نظر کند نظرکننده آیا سیر کننده است او یا رجوع نماینده است؟

و بدانکه به درستی هر ظاهری را باطنی است بر طبق او، پس آنچه که پاکیزه است ظاهر او پاکیزه است باطن او و آنچه که خبیث است ظاهر او خبیث است باطن او و به تحقیق که فرموده است پیغمبر صادق القول (ﷺ) اینکه به درستی خدای تعالی دوست می دارد بنده را و دشمن می دارد عمل او را و دوست می دارد عمل خوب را و دشمن می دارد بدن او را و بدانکه به درستی که هر عمل به منزله گیاهی است و هر گیاه استغنا نیست او را از آب و آب ها مختلفند، پس آنچه که پاکیزه باشد سیرابی او پاکیزه شود کاشتن او و شیرین شود میوه او و آنچه که زشت باشد آب خوردن آن زشت باشد کاشتن آن و تلخ و بدمزه باشد میوه آن.

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقة الخفاش وهي المائة والرابع والخمسون من المختار في باب الخطب

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الأَوْصافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ العُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَساغاً إِلىٰ بُلُوغِ غايَةِ مَلَكُوتِهِ، وَهُوَ اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبِينُ، وأَحَقُّ وأَبْيَنُ مِمَّا تَرَىٰ العُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ العُقُولُ بِتَحْديدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، ولَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً، خَلَقَ الخَلْقَ عَلىٰ غَيرِ تَمْثِيلٍ، ولا مَشْوَرَةِ مُشِيرٍ، ولا مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطاعَتِهِ، فَأَجابَ وَلَمْ يُدافِعْ، وانْقادَ وَلَمْ يُنازِعْ.

وَمِنْ لَطائِفِ صَنْعَتِهِ وَعَجائِبِ خِلْقَتِهِ ما أَرَانا مِنْ غَوامِضِ الحِكْمَةِ في هٰذِهِ الخَفافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُها الضِّياءُ الباسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، ويَبْسُطُها الظَّلامُ القابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ، وكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُها عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ المُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ في مَذاهِبِها، وتَتَّصِلَ بِعَلانِيَةِ بُرْهانِ الشَّمْسِ إِلىٰ مَعارِفِها، ورَدَعَها بِتَلأْلُؤِ ضِيائِها عَنِ المُضِيِّ في سُبُحاتِ إِشْراقِها، وأَكَنَّها في مَكامِنِها عَنِ الذهابِ في بَلَجِ إِئْتِلافِها، فَهِيَ مُسْدَلَةُ الجُفُونِ بِالنَّهارِ عَلىٰ حِداقِها، وجاعِلَةُ اللَيلِ سِراجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التِماسِ أَرْزاقِها، فَلا يَرُدُّ أَبْصارَها إِسْدافُ ظُلْمَتِهِ، ولا تَمْتَنِعُ مِنَ المُضِيِّ فِيهِ لِغَسِقَ دُجُنَّتِه، فَإِذا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِناعَها، وبَدَتْ أَوْضاحُ نَهارِها، وَدَخَلَ مِنْ إِشْراقِ نُورِها عَلىٰ الضِّبابِ في وِجارِها، أَطْبَقَتِ الأَجْفانَ عَلىٰ مَآقِيها، وتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ المَعاشِ في ظُلَمِ لَيالِيها، فَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَها نَهاراً ومَعاشاً، والنَّهارَ سَكَناً وقَراراً، وجَعلَ لَها أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِها تَعْرُجُ بِها عِنْدَ الحاجَةِ إِلىٰ الطَّيَرانِ كَأَنَّها شَظايَا الآذانِ، غَيْرَ ذَواتِ رِيشٍ ولا قَصَبٍ إِلاَّ أَنَّكَ تَرىٰ مَواضِعَ العُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاماً، وَلَها جَناحانِ لَمّا يَرِقّا فَيَنْشَقّا، ولَمْ يَغْلُظا فَيَثْقُلا، تَطِيرُ وَوَلَدُها لاصِقٌ بِها، لاجِيءٌ إِلَيْها، يَقَعُ إِذا وَقَعَتْ، ويَرْتَفِعُ إِذا ارْتَفَعَتْ، لا يُفارِقُها حَتَّىٰ تَشْتَدَّ أَرْكانُهُ، وتَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَناحُهُ، ويَعْرِفَ مَذاهِبَ عَيْشِهِ، ومَصالِحَ نَفْسِهِ، فَسُبْحانَ البَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ عَلىٰ غَيْرِ مِثالٍ خَلا مِنْ غَيْرِهِ[1].

اللغة

(**الخفاش**) وزن رمّان طائر معروف جمعه خفافيش مأخوذ من الخفش وهو ضعيف في البصر خلقة أو لعلة، والرجل أخفش وهو الذي يبصر بالليل لا بالنهار أو في يوم غيم لا في

(١) الاحتجاج: ١/ ٣٠٣، وبحار الأنوار: ٤/ ٢٥٥.

يوم صحو و (**حسر**) حسوراً من باب قعد كل لطول مدى ونحوه، وحسرته أنا يتعدى ولا يتعدي و (**ساغ**) الشراب سوغاً سهل مدخله والمساغ المسلك و (**الحد**) المنع والحاجز بين الشيئين ونهاية الشيء وطرفه، وفي عرف المنطقيين التعريف بالذاتي.

و (**المشورة**) مفعلة من أشار إليه بكذا أي أمره به، وفي بعض النسخ بضم الشين بمعنى الشورى و(**المعونة**) اسم من أعانه وعوّنه و (**اللطائف**) جمع لطيفة وهي ما صغر ودقّ و (**الغامض**) خلاف الواضح وكل شيء خفي مأخذه و (**العشا**) بالفتح والقصر سوء البصر بالنهار أو بالليل والنهار أو العمى و (**الاتصال**) إلى الشيء الوصول إليه، وفي بعض النسخ متصل بدل تتصل و (**السبحات**) بضمتين جمع سبحة وهي النور، وقيل: سبحات الوجه محاسنه لأنك إذا رأيت الوجه الحسن قلت: سبحان الله.

و (**البلج**) مصدر بلج كتعب تعباً أي ظهر ووضح، وصبح أبلج بيّن البلج أي مشرق ومضيء، وقيل: البلج جمع بلجة بالضم وهي أول ضوء الصبح و (**الائتلاق**) اللمعان يقال: ائتلق وتألّق إذا التمع و (**سدل**) الثوب أسدله أرخاه وأرسله و (**الجفن**) بالفتح غطاء العين من أعلاها وأسفلها، والجمع جفان وجفون وأجفن و (**الحدقة**) محركة سواد العين ويجمع على حداق كما في بعض النسخ وعلى أحداق كما في البعض الآخر و (**أسدف**) الليل إسدافاً أي أظلمت، وفي بعض النسخ أسداف بفتح الهمزة جمع سدف كأسباب وسبب وهو الظلمة.

و (**الدجنة**) بضم الدال وتشديد النون والدجن وزن عتلّ الظلمة و (**الضباب**) بالكسر جمع الضبّ الدابة المعروفة و (**وجارها**) بالكسر جحرها الذي تأوي إليه.

و (**مآقيها**) بفتح الميم وسكون الهمزة وكسر القاف وسكون الياء كما في أكثر النسخ لغة في المؤق بضم الميم وسكون الهمزة أي طرف عينها مما يلي الأنف وهو مجرى الدمع من العين وقيل: مؤخرهما. وعن الأزهري: أجمع أهل اللغة على أن المؤق والمآق بالضم والفتح طرف العين الذي يلي الأنف، وأن الذي يلي الصدغ يقال له: اللحاظ والمآقي لغة فيه، وقال ابن القطاع: ما في العين فعلى وقد غلط فيه جماعة من العلماء فقالوا: هو مفعل وليس كذلك بل الياء في آخره للإلحاق ولما كان فعلى بكسر اللام نادراً لا أخت لها الحق بمفعل، ولهذا جمع على مآقي على التوهم، وفي بعض النسخ مآقيها على صيغة الجمع.

و (**المعاش**) ما يعاش به وما يعاش فيه وبمعنى العيش وهو الحياة، وفي بعض النسخ ليلها بدل لياليها و (**الشظايا**) جمع الشظية وهي القطعة من الشيء و (**الأعلام**) جمع علم بالتحريك وهو طراز الثوب ورسم الشيء.

الإعراب

(أحق وأبين) بالرفع بدلان من الحق المبين أو عطفا بيان، وعلى الأول ففائدتهما التقرير، وعلى الثاني فالإيضاح، وقوله: **(ومن لطائف صنعته)** تقديمه على المسند إليه أعني قوله: **(ما أرانا)**، للتشويق إلى ذكر المسند إليه وهو من فنون البلاغة كما في قوله:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وتتصل في بعض النسخ بالنصب عطفاً على **(تستمد)** وفي بعضها بالرفع عطفاً على **(تهتدي)**، وفي بعضها وتصل بدله، وردعها عطف على جملة **(أرانا)**، ومن في قوله: **(من إشراق نورها)** زائدة في الفاعل كما زيدت في المفعول في قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] وقوله: **(غير ذوات ريش)**، بالنصب صفة لأجنحة، وقوله: **(أعلاماً)** بدل من بيّنة أو عطف بيان، وكلمة **(لها)** غير موجودة في بعض النسخ، فيكون قوله: **(جناحان)**، خبر مبتدأ محذوف أي جناحاه جناحان، **(ولما)** في قوله: **(لمّا يرقا)** بمعنى لم الجازمة.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة الشريفة يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش، والغرض منه التنبيه على عظمة قدرة خالقها، وعلى كمال صنعه سبحانه في إبداعها، والدلالة على عظيم برهانه في ملكه وملكوته.

ولما كان الغرض ذلك افتتح عليه السلام كلامه بالحمد والثناء عليه تعالى بجملة من صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال بمقتضى براعة الاستهلال فقال: **(الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته)** أي عجز الواصفون عن صفته وأعيت الألسن عن وصفه بحقيقته، لأن ذاته سبحانه بريئة عن أنحاء التركيب، منزّهة عن الأجزاء والنهايات، فلا حد له ولا صورة تساويه، فلا يمكن للعقول الوصول إلى حقيقة معرفته، ولا للألسن الحكاية والبيان عن هويته، وقد مرّ تحقيق ذلك في شرح الفصل الثاني من الخطبة الأولى وغيره أيضاً غير مرة.

(وردعت) أي منعت **(عظمته العقول فلم تجد مساغاً)** ومسلكاً **(إلى بلوغ غاية ملكوته)** أي منتهى عزّه وسلطانه **(هو الله الملك الحق)** الثابت المتحقق وجوده وإلهيته أو الموجود حقيقة **(المبين)** أي الظاهر البين وجوده بل هو أظهر وجوداً من كل شيء فإن خفي مع ظهوره فلشدّة ظهوره، وظهوره سبب بطونه ونوره هو حجاب نوره إذ كل ذرّة من ذرّات مبدعاته ومكوناته فلها عدة ألسنة تشهد بوجوده، وبالحاجة إلى تدبيره وقدرته كما مر تفصيلاً وتحقيقاً في شرح الخطبة التاسعة والأربعين.

(أحق وأبين) أي أثبت وأوضح **(مما ترى العيون)** لأن العلم بوجوده تعالى عقلي يقيني

لا يتطرّق إليه ما يتطرق إلى المحسوسات من الغلط والاشتباه ألا ترى أن العين قد ترى الصغير كبيراً كالعنبة في الزجاجة المملوءة ماء، والكبير صغيراً كالبعيد، والساكن متحركاً كحرف الشط إذا رآه راكب السفينة متصاعداً والمتحرك ساكناً كالظلّ بخلاف المعقولات الصرفة.

(لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً) المراد بالتحديد إما إثبات الحد والنهاية، أو التعريف بالذاتي كما هو عرف المنطقيين، وظاهر أن الله سبحانه منزّه عن الحدود والنهايات التي هي من عوارض الأجسام والجسمانيات، مقدّس عن الأجزاء والتركب مطلقاً من الذاتيات أو العرضيات، فذاته سبحانه ليس له حد وتركيب حتى يمكن للعقول البلوغ إليه بتحديد كما لسائر الأجسام.

(ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً) قال الشارح البحراني: إذ الوهم لا يدرك إلا المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات، ولا بد له في إدراك ذلك المدرك من بعث المتخيلة على تشبيهه بمثال من الصور الجسمانية، فلو وقع عليه وهم لمثله في صورة حسية حتى أن الوهم إنما يدرك نفسه في مثال من صورة وحجم ومقدر.

(خلق الخلق على غيرة مثيل) الظاهر أن المراد بالتمثيل إيجاد الخلق على حذو ما خلقه غيره، ولما لم يكن الباري سبحانه مسبوقاً بغيره فليس خلقه إلا على وجه الإبداع والاختراع، أو أن المراد أنه لم يجعل لخلقه مثالاً قبل الإيجاد كما يفعله البناء تصويراً لما يريد بنائه، ومعلوم أن كيفية صنعه للعالم منزهة عن هذا الوجه أيضاً كما سبق في شرح الفصل السابع من الخطبة الأولى.

(ولا مشورة مشير ولا معونة معين) لأن الحاجة إلى المشير والمعين من صفات الناقص المحتاج وهو سبحانه الغني المطلق في ذاته وأفعاله فلا يحتاج في إيجاده إلى مشاورة ولا إعانة **(فتمّ خلقه)** أي بلغ كل مخلوق إلى مرتبة كماله وتمامه الذي أراده الله سبحانه منه أو خرج جميع ما أراده من العدم إلى الوجود **(بأمره)** أي بمجرد أمره التكويني ومحض مشيئته التامة النافذة كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢] **(وأذعن)** أي خضع وأقرّ وأسرع وانقاد كل **(لطاعته فأجاب ولم يدافع، وانقاد ولم ينازع)** وهاتان الجملتان مفسرتان للإذعان، والمراد دخول الخلق تحت القدرة الإلهية وعدم الاستطاعة للامتناع كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١] ولما فرغ من التحميد والتمجيد شرع في المقصود فقال عليه السلام: **(ومن لطائف صنعته وعجائب خلقته)** أي من جملة صنائعه التي هي ألطف وأدق وأحق أن يتعجب منها **(ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش)** حيث خالف بينها وبين جميع الحيوانات.

وأشار إلى جهة المخالفة بقوله **(التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويبسطها الظلام القابض لكل حي)** لا يخفى ما في هاتين القرينتين من بديع النظم وحسن التطبيق، والتقابل بين القبض والبسط في القرينة الأولى والبسط والقبض في الثانية ثم المقابلة بين مجموع القرينتين بالاعتبار الذي ذكرنا مضافاً إلى تقابل الضياء للظلام، ثم ردّ العجز إلى الصدر، فقد تضمن هذه الجملة على وجازتها وجوهاً من محاسن البديع مع عظم خطر معناها.

والضمير في **(يقبضها ويبسطها)** إما عائد إلى الخفافيش بتقدير مضاف، أو على سبيل الاستخدام، والمراد انقباض أعينها في الضوء، وذلك لإفراط التحلل في الروح النوري لحر النهار، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيعود الأبصار، وقيل: الأظهر إنه ليس لمجرد الحر وإلا لزم أن لا يعرضها الانقباض في الشتاء إلا إذا ظهرت الحرارة في الهواء، وفي الصيف أيضاً في أوائل النهار، بل ذلك لضعف في قوتها الباصرة ونوع من التضاد والتنافر بينها وبين النور كالعجز العارض لسائر القوى المبصرة عن النظر إلى جرم الشمس، وأما أن علة التنافر ماذا؟ ففيه خفاء وهو منشىء التعجب الذي يشير إليه الكلام.

وأما عائد إليها نفسها فيكون المراد بانقباضها ما هو منشأ اختفائها نهاراً وإن كان ذلك ناشئاً من جهة الإبصار.

(وكيف عشيت أعينها) أي عجزت وعميت **(عن أن تستمد)** وتستعين **(من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها)** أي طريق معاشها ومسالكها في سيرها وانتفاعها **(و)** عن أن **(تتصل بعلانية برهان الشمس)** أي دليلها الواضح **(إلى معارفها)** يعني ما تعرفه من طرق انتفاعها ووجوه تصرفاتها **(وردعها)** أي ردها ومنعها **(بتلألؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها)** أي جلاله وبهائه **(وأكنها)** أي سترها وأخفاها **(في مكامنها)** ومحال خفائها عن الذهاب **(في بلج ائتلاقها)** ووضوح لمعانها.

(فهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها) لانقباضها وتأثر حاستها، وقال البحراني: لأن تحلل الروح الحامل للقوة الباصرة سبب للنوم أيضاً فيكون ذلك الإسدال ضرباً من النوم **(وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها)** أي في طلب الرزق لها، وإسناد الجاعلة إليها من المجاز العقلي **(فلا يرد أبصارها إسداف ظلمته)** الإضافة للمبالغة والضمير عائد إلى الليل **(ولا تمتنع من المضيّ)** والذهاب **(فيه لغسق دجنّته)** الإضافة فيه أيضاً للمبالغة.

(فإذا ألقت الشمس قناعها) استعارة بالكناية تشبيهاً للشمس بالمرأة ذات القناع، وإثبات القناع تخييل وذكر الإلقاء ترشيح، والمراد طلوع الشمس وبروزها من حجاب الأرض والآفاق **(وبدت أوضاح نهارها)** أي ظهر بياضه **(ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها)** وإنما خصها بالذكر إذ من عادتها الخروج من وجارها عند طلوع الشمس لمواجهة

النور على عكس الخفافيش.

(**أطبقت الأجفان**) جواب إذا (**على مآقيها وتبلّغت**) أي اكتفت وقنعت (**بما اكتسبته من المعاش في ظلم لياليها**) فتعيش به وتقنع عليه (**فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً**) تعيش فيها (**والنهار سكناً وقراراً**) لتسكن وتقرّ فيه.

ثم أشار عليه السلام إلى جهة ثانية لاختلافها لسائر الحيوانات بقوله: (**وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان**) لا يخفى ما في هذا التشبيه من اللطف والغرابة (**غير ذوات ريش ولا قصب**) كما لأجنحة سائر الطيور (**إلا أنك ترى مواضع العروق بينة أعلاماً**) أي واضحة ظاهرة مثل طراز الثوب (**ولها جناحان لما يرقا فينشقا ولم يغلظا فيثقلا**) يعني أن جناحيه لم يجعلا دقيقين بالغين في الرقة ولا غليظين بالغين في الغلظ حذراً من الانشقاق والثقل المانع من الطيران.

ثم أشار عليه السلام إلى جهة ثالثة للاختلاف بقوله: (**تطير وولدها لاصق بها لاجىء إليها**) أي لائذ ومعتصم بها (**ويقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها**) في حالتي الوقوع والطيران (**حتى تشتد أركانه**) وجوانبه التي يستند إليها ويقوم بها (**ويحمله للنهوض جناحه**) ويمكنه الطيران والتصرف بنفسه (**ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه**).

ولما افتتح كلامه بالتحميد ختمه بالتسبيح ليكمل حسن الافتتاح بحسن الاختتام وتتم براعة الفاتحة ببراعة الخاتمة فقال (**فسبحان الباريء**) الخالق (**لكل شيء على غير مثال خلا**) أي مضى وسبق (**من غيره**) يعني أنه لم يخلق الأشياء على حد وخالق سبقه بل ابتدعها على وفق الحكمة ومقتضى المصلحة.

ظريفة في نوادر الخفاش

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾ [المائدة: ١١٠]، قال في (التفسير): إنه وضع من الطين كهيئة الخفاش ونفخ فيه فصار طائراً.

قال الشارح في الأحاديث العامية قيل للخفاش: لماذا لا جناح لك؟ قال: لأني تصوير مخلوق، قيل: فلماذا لا تخرج نهاراً؟ قال: حياء من الطيور، يعنون أن المسيح صوره.

وفي (البحار) في تفسير قوله: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ [آل عمران: ٤٩] قال: المشهور بين الخاصة والعامة من المفسرين أن الطير كان هو الخفاش.

قال أبو الليث في (تفسيره): إن الناس سألوا عيسى عليه السلام على وجه التعنت فقالوا له:

اخلق لنا خفاشاً واجعل فيه روحاً إن كنت من الصادقين، فأخذ طيناً وجعل خفاشاً ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض، وكانت تسوية الطين والنفخ من عيسى ﷺ، والخلق من الله تعالى، ويقال: إنما طلبوا منه خلق خفاش لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه دم ولحم، يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما تبيض سائر الطيور، ويكون له الضرع ويخرج اللبن، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جداً، ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة، فلما رأوا ذلك منه ضحكوا وقالوا: هذا سحر مبين فذهبوا إلى جالينوس فأخبروه بذلك فقال: آمنوا به.

وقال الدميري في **(حياة الحيوان)**: والحق أنه صنفان، وقال قوم: الخفاش الصغير، والوطواط الكبير، وهو لا يبصر في ضوء القمر ولا في ضوء النهار، ولما كان لا يبصر نهاراً التمس الوقت الذي لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء وهو قريب غروب الشمس لأنه وقت هيجان البعوض، فإن البعوض يخرج ذلك الوقت يطلب قوته وهو دماء الحيوان والخفاش يطلب الطعام فيقع طالب رزق على طالب رزق، والخفاش ليس هو من الطير في شيء لأنه ذو أذنين وأسنان وخصيتين، ويحيض، ويطهر، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويبول كما تبول ذوات الأربع، ويرضع ولده ولا ريش له.

قال بعض المفسرين: لما كان الخفاش هو الذي خلقه عيسى ابن مريم بإذن الله كان مبايناً لصنعة الله ولهذا جميع الطير تقهره وتبغضه فإن كان منها يأكل اللحم أكله وما لا يأكل اللحم قتله، فلذلك لا يطير إلا ليلاً.

وقيل: لم يخلق عيسى غيره، لأنه أكمل الطير خلقاً وهو أبلغ في القدرة، لأن له ثدياً وأسناناً وأذناً.

وقيل: إنما طلبوا الخفاش لأنه من أعجب الطير، إذ هو لحم ودم، يطير بغير ريش، وهو شديد الطيران، سريع التقلّب، يقتات بالبعوض والذباب وبعض الفواكه، وهو مع ذلك موصوف بطول العمر فيقال: إنه أطول عمراً من النسر ومن حمار الوحش، وتلد أنثاه ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة، وكثيراً ما يسفد وهو طائر في الهواء، وليس في الحيوان ما يحمل ولد غيره والقرد والإنسان، ويحمله تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه وهو من حنوه وإشفاقه عليه، وربما أرضعت الأنثى ولدها وهي طائرة، وفي طبعه أنه متى أصابه ورق الدّلب حذر ولم يطر، ويوصف بالحمق، ومن ذلك أنه إذا قيل له: أطرق وكرا، لصق بالأرض[1].

---

(١) راجع بحار الأنوار: ٦١/ ٣٢٩.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن امام مبین و ولیّ مؤمنین است که ذکر می فرماید در آن عجیب خلقت شب پره را:

حمد و ستایش معبود به حقی را سزا است که عجز به هم رساند وصف ها از کنه معرفت او و منع نمود عظمت او عقل ها را، پس نیافتند گذرگاهی به سوی رسیدن به نهایت پادشاهی او و او است معبود به حق پادشاه مطلق که محقّق است وجود او ظاهر است و آشکارا، ثابت تر و آشکارتر است از آنچه که می بینند آن را چشم ها، نمی رسد به کنه ذات او عقل ها تا باشد تشبیه کرده شده به مخلوقی از مخلوقات و واقع نمی شود بر او وهم ها به اندازه و تقدیری تا باشد تمثیل کرده شده به غیر خود.

خلق فرمود مخلوقات را بدون اینکه مثال آنها را از دیگری برداشته باشد و بدون مشورت مشیر و بی یاری معین، پس تمام شد مخلوق او به مجرّد امر و اراده او و گردن نهادند به طاعت او، پس اجابت کردند و مدافعه ننمودند و انقیاد کردند و منازعه ننمودند.

و از لطیفه های صنعت او و عجیبه های خلقت او است آنچه نمود به ما از پوشیدگی های حکمت خود در این شب پره ها که قبض می کند چشم های آنها را روشنی که گسترانده هرچیز است و بسط می کند چشمان ایشان را تاریکی که فراگیرنده هر زنده است و چگونه ضعیف شد چشم های آنها از آنکه مدد خواهند از آفتاب روشن نوری را که هدایت بیابد به سبب آن نور در مواضع رفتار خود و برسد بهواسطه دلیل آشکار آفتاب به سوی راه های معرفت خود و منع فرمود حق سبحانه و تعالی آن خفّاش ها را به سبب درخشیدن روشنایی خورشید تابان از رفتن ایشان در رونق روشنی آن و پنهان نمود آنها را در مکان های مخفی آنها از راه رفتن در درخشیدن آشکار آفتاب.

پس آن شب پره ها فرو گذاشته شده پلك های چشم های ایشان در روز بر

حدق های ایشان و گرداننده اند شب را چراغ که راه می جویند به آن در طلب کردن روزی های خود، پس باز نمی دارد دیده های ایشان را تاریکی ظلمت شب و بازنمی ایستند از گذشتن در شب به جهت تاریکی ظلمت آن، پس زمانی که انداخت آفتاب عالمتاب نقاب خود را و ظاهر شد روشنایی های روز آن و داخل شد تافتن نور آن بر سوسمارها در خانه های ایشان و برهم نهند خفّاش ها پلك های چشم خود را بر گوش های چشم خود و اکتفا می نمایند به آن چیزی که کسب کرده اند آن را از معاش در ظلمت های شب های خودشان.

پس پاکا پروردگاری که گردانیده است شب را از برای ایشان روز و سبب معاش و روز را به جهت ایشان هنگام آسایش و قرارگاه و گردانیده است از برای ایشان بال ها از گوشت آنها که عروج می کنند به آن بال ها در وقت حاجت به پریدن، گویا که آن بال ها پارچه های گوش های مردمان است، نه صاحب پرند و نه عروق لیکن تو می بینی جای های رگ های ایشان را ظاهر و نمایان و خط خط و مرایشان را است دو بال که آنقدر رقیق و لطیف نیستند تا شکافته شود و آنقدر غلیظ و کثیف نیستند تا سنگین باشد، طیران می کنند در حالتی که بچه ایشان چسبنده است به ایشان پناه آورنده است به سوی ایشان، می افتد آن وقتی که مادرشان می افتد و بلند می شود زمانی که مادرشان بلند می باشد، جدا نمی شوند بچه ها از آنها تا آنکه اعضای آنها محکم شود و تا آنکه بردارد آنها را به جهت برخواستن بال آنها و تا بشناسند راه های معاش و زندگانی خود را.

پس منزّه است پروردگار آفریننده هر چیز بدون نمونه که گذشته باشد صدور آن از غیر او، از جهت اینکه او است مخترع اشیاء که ایجاد آن بر سبیل ابداع است و اختراع.

ومن كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة على جهة اختصاص الملاحم وهو المائة والخامس والخمسون من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين

الفصل الأول منه

فَمَنْ اسْتَطاعَ عِنْدَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلىٰ اللَّهِ فَلْيَفْعَلْ، فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلىٰ سَبِيلِ الجَنَّةِ وإِنْ كانَ ذا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، ومَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ، وأَمّا فُلانَةُ فَأَدْرَكَها رَأْيُ النِّساءِ وَضِغْنٌ غَلا فِي صَدْرِها كَمِرْجَلِ القِينِ، ولَوْ دُعِيَتْ لِتَنالَ مِنْ غَيْرِي ما أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ وَلَها بَعْدُ حُرْمَتُها الأُوْلىٰ والحِسابُ عَلىٰ اللَّهِ[١].

اللغة

(المرجل) وزن منبر القدر و **(القين)** الحدّاد.

الإعراب

(على) في قوله **(على الله)** في الموضعين للاستعلاء المجازي وجملة **(لم تفعل)** جواب **(لو)**، والباقي واضح.

المعنى

قال الشارح البحراني «قده»: إن قوله عليه السلام: **(فمن استطاع عند ذلك)** يقتضي أنه سبق منه عليه السلام قبل هذا الفصل ذكر فتن وحروب تقع بين المسلمين وجب على من أدركها **(أن يعتقل نفسه على الله)** أي يحبسها على طاعته من دون أن يخالطها ويدخل فيها **(فليفعل)** لوجوب طاعته سبحانه عقلاً ونقلاً **(فإن أطعتموني فإني حاملكم إن شاء الله على سبيل الجنة)** وسبيلها هو الدين القويم والصراط المستقيم وإنما شرط عليه السلام حملهم عليها بإطاعته إذ لا رأي لمن لا يطاع **(وإن كان)** هذه السبيل وسلوكها **(ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة)** لظهور أن

(١) الاحتجاج: ١/٢٤٨، وبحار الأنوار: ٢٢/٢٣٤ ح ٢.

النفوس مائلة إلى اللهو والباطل، والمواظبة على الطاعات والوقوف عند المحرمات أمر شاق شديد المشقة مرّ المذاق بعيد عن المساغ البتة.

(وأما فلانة) كنى بها عن عائشة ولعله من السيد «ره» تقية كما كنّى في الخطبة **(الشقشقية)** عن أبي بكر بفلان **(فأدركها رأي النساء)** أي ضعف الرأي فإن رأيهن إلى الأفن وعزمهن إلى الوهن، وقد تقدم ما يدل على نقصان حظوظهن وعقولهن وميراثهن وسائر خصالهن المذمومة في الكلام التاسع والسبعين وشرحه **(وضغن)** أي حقد **(غلا في صدرها كمرجل القين)** أي كغليان قدر الحدّاد، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، ووجه الشبه الشدة والدوام وأسباب ضغنها كثيرة ستطلع عليها بعيد ذلك.

(ولو دعيت لتنال غيري ما أتت إليّ لم تفعل) قال الشارح المعتزلي: يقول: لو أن عمر ولي الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الذي قتل عليه والوجه الذي أنا ولّيت الخلافة عليه ونسب عمر إلى أنه كان يؤثر قتله أو يحرض عليه، ودعيت إلى أن تخرج عليه في عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الإسلام تثير فتنة وتنقض البيعة لم تفعل، وهذا حق لأنها لم تكن تجد على عمر ما تجده على علي عليه السلام ولا الحال الحال، انتهى[1].

ومحصله أنه عليه السلام أراد بقوله: **(من غيري)** عمر. قال العلامة المجلسي: والأظهر الأعم، أي لو كان عمر أو أحد من أضرابه ولي الخلافة بعد قتل عثمان ودعيت إلى أن تخرج إليه لم تفعل **(ولها بعد حرمتها الأولى)** أي كونها من أمهات المؤمنين **(والحساب على الله)** هذا من باب الاحراس الذي تقدم في ديباجة الشرح أنه من جملة المحسنات البديعية، فإنه عليه السلام لما أثبت لها حرمتها الأولى عقّبه بذلك لئلا يتوهم منه أنها محترمة في الدنيا والعقبى، ونبّه به على أن حرمتها ملحوظة في الدنيا فقط لرعاية احترام الرسول صلى الله عليه وآله وأما في الأخرى فجزاء ضغنها وخروجها عن طاعة الإمام المفترض الطاعة وإثارتها الفتنة المؤدية إلى إراقة دماء المسلمين على الله سبحانه إذ من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره، وقد قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠].

تذييل

أورد الشارح المعتزلي في شرح هذا الكلام له عليه السلام فصلاً طويلاً كم فيه من التصريح والتعريض والتلويح إلى مثالب عائشة ومطاعنها وإن لم يرفع الشارح يده مع ذلك كله عن ذيل

---

(١) شرح النهج: ٩/ ١٩٩.

الاعتساف والتعصب أحببت إيراد ذلك الكلام على طوله لأنه من لسان أبنائها أحلى ونعقّبه إن شاء الله بما عندنا من القول الفصل الذي ليس هو بالهزل، ومن الحق الذي هو أحق أن يتبع، فأقول:

قال الشارح: كانت عائشة فقيهة راوية للشعر ذات حظ من رسول الله ﷺ وكانت لها عليه جرأة وإدلال لم يزل ينمى ويستسرى حتى كان منها في أمره في قصة مارية ما كانت من الحديث الذي أسرّه إلى الزوجة الأخرى وأدى إلى تظاهرهما عليه وأنزل فيهما قرآن يتلى في المحاريب يتضمن وعيداً غليظاً عقيب تسريح بوقوع الذنب وصغو القلب وأعقبتها تلك الجرأة وذلك الانبساط أن حدث منها في أيام الخلافة العلوية ما حدث، ولقد عفى الله تعالى عنها وهي من أهل الجنة عندنا بسابق الوعد وما صح من أمر التوبة، إلى أن قال:

فأما قوله عليه السلام: أدركها رأي النساء، أي ضعف آرائهن وقد جاء في الخبر: لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة، وجاء أنهن قليلات عقل ودين، أو قال: ضعيفات ولذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرجل الواحد، والمرأة في أصل الخلقة سريعة الانخداع سريعة الغضب سيئة الظن فاسدة التدبير، والشجاعة فيهن مفقودة أو قليلة وكذلك السخاء.

قال الشارح: وأما الظعن فاعلم أن هذا الكلام يحتاج إلى شرح، وقد كنت قرأته على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعاني (ره) أيام اشتغالي عليه بعلم الكلام، وسألته عما عنده، فأجابني بجواب طويل أنا أذكر محصوله بعضه بلفظه وبعضه بلفظي فقد شذّ عني الآن لفظه كله بعينه.

قال: أول بداية الضغن كان بينها وبين فاطمة عليها السلام، وذلك لأن رسول الله ﷺ تزوجها عقيب موت خديجة فأقامها مقامها، وفاطمة عليها السلام هي ابنة خديجة، ومن المعلوم أن ابنة الرجل إذا ماتت أمها وتزوج أبوها أخرى كان بين الابنة وبين المرأة كدر وشنان، وهذا لا بد منه لأن الزوجة تنفس عليها ميل الأب، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة كالضرة لأمها، بل هي ضرة على الحقيقة وإن كانت الأم ميتة، ولأنّا لو قدرنا الأم حية لكانت العداوة مضطرمة متسعّرة فإذا كانت قد ماتت ورثتها ابنتها تلك العداوة.

ثم اتفق أن رسول الله ﷺ مال إليها وأحبها فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله، وأكرم رسول الله ﷺ فاطمة إكراماً عظيماً أكثر مما كان الناس يظنونه وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم حتى خرج بها عن حدّ حب الآباء للأولاد، فقال ﷺ بمحضر الخاص والعام مراراً لا مرة واحدة، وفي مقامات مختلفة لا في مقام واحد: «إنها سيدة نساء العالمين، وإنها عديلة مريم بنت عمران، وإنها إذا مرت في الموقف نادى مناد من جهة العرش: يا أهل الموقف غضوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد ﷺ»، وهذا من الأحاديث الصحيحة وليس

من الأخبار المستضعفة وأن إنكاحه علياً إياها ما كان إلا بعد أن أنكحه الله إياها في السماء بشهادة الملائكة.

وكم قال لا مرة: «يؤذيني ما يؤذيها ويغضبني ما يغضبها، وإنها بضعة يريبني ما رابها»[1].

فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضغن عند الزوجة حسب زيادة هذا التعظيم والتبجيل، والنفوس البشرية تغيظ على ما هو دون هذا فكيف هذا؟.

ثم حصل عند بعلها عليه السلام ما هو حاصل عندها، أعني علياً عليه السلام، فإن النساء كثيراً ما يحصلن الأحقاد في قلوب الرجال لا سيما وهن محدثات الليل كما قيل في المثل، وكانت تكثر الشكوى من عائشة ويغشيها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلن إليها كلمات عن عائشة ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة، وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها كانت عائشة تشكو إلى أبيها لعلمها أن بعلها لا يشكيها على ابنته فحصل في نفس أبي بكر من ذلك أثر ما.

ثم تزايد تقريظ رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي وتقريبه واختصاصه، فأحدث ذلك حسداً له وغيظة في نفس أبي بكر عنه وهو أبوها وفي نفس طلحة وهو ابن عمها وهي تجلس إليهما وتسمع كلامهما وهما يجلسان إليها ويحادثانها فأعدى إليها منهما كما أعدى إليهما منها.

قال: ولست أبرىء علياً من مثل ذلك، فإنه كان ينفس على أبي بكر سكون النبي صلى الله عليه وآله إليه وثنائه عليه، ويجب أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده فتأكدت البغضة بين هذين الفريقين.

ثم كان من أمر القذف ما كان ولم يكن علي عليه السلام من القاذفين ولكنه كان من المشيرين على رسول الله صلى الله عليه وآله بطلاقها تنزيهاً لعرضه عن أقوال الشناة والمنافقين قال له لما استشاره: إن هي إلا شسع نعلك، وقال له: سل الخادم وخوّفها وإن أقامت على الجحود فاضربها.

وبلغ عائشة هذا الكلام كله وسمعت أضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه في مثل هذه الواقعة، ونقل النساء إليها كلاماً كثيراً عن علي وفاطمة فاشتدت وغلظت وطوى كل من الفريقين قلبه على الشنآن لصاحبه.

ثم كان بينها وبين علي عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أحوال وأقوال كلها تقتضي تهيج ما في النفوس، نحو قولها له وقد استدناه رسول الله صلى الله عليه وآله فجاء حتى قعد بينه وبينها وهما

---

(١) شرح الأخبار: ٣/ ٦٠ ح ٩٨١، وذخائر العقبى: ٣٧.

متلاصقان: أما وجدت مقعداً لكذا ـ لا تكنى عنه ـ إلا فخذي، ونحو ما روي أنه ﷺ سايره يوماً وأطال مناجاته فجاءت وهي سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما وقالت: فيم أنتما فقد أطلتما، فيقال: إن رسول الله ﷺ غضب ذلك اليوم وما روى في حديث الجفنة من الثريد التي أمرت الخادمة فوقفت لها فأكفأتها ونحوها مما يكون بين الأهل وبين المرأة وأحماتها.

ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولاداً كثيراً بنين وبنات ولم تلد هي ولداً، وأن رسول الله ﷺ كان يقيم بني فاطمة مقام بنيه ويسمى الواحد منهما ويقول: دعوا لي ابني، ولا تزرموا عليّ ابني، وما فعل ابني، فما ظنك بالزوجة إذا حرمت الولد من البعل ثم رأت البعل يتبنى بني ابنته من غيرها ويحنو عليهم حنو الولد المشفق هل تكون محبة لأولئك البنين ولأمهم ولأبيهم أم مغبضة؟ وهل تودّ دوام ذلك واستمراره أم زواله وانقضائه؟.

ثم اتفق أن رسول الله ﷺ سدّ باب أبيها إلى المسجد وفتح باب صهره ثم بعث أباها ببراءة إلى مكة ثم عزله عنها بصهره، فقدح ذلك أيضاً في نفسها.

وولد لرسول الله ﷺ إبراهيم من مارية فأظهر علي عليه السلام بذلك سروراً كثيراً وكان يتعصب لمارية ويقوم بأمرها عند رسول الله ﷺ ميلاً على غيرها، وجرت لمارية نكبة مناسبة لنكبة عائشة فبرّها علي عليه السلام منه وكشف بطلانها وكشفه الله تعالى على يده وكان ذلك كشفاً محسّاً بالبصر لا يتهيأ للمنافقين أن يقولوا فيه ما قالوا في القرآن المنزّل ببراءة عائشة، وكل ذلك مما كان يوعر صدر عائشة عليه ويؤكد ما في نفسها منه.

ثم مات إبراهيم فأبطنت شماتة وإن أظهرت كآبة، ووجم علي عليه السلام من ذلك وكذلك فاطمة وكانا يؤثران ويريدان أن تتميز مارية عليها بالولد فلم يقدّر لهما ولا لمارية ذلك.

وبقيت الأمور على ما هي عليه وفي النفوس ما فيها، حتى مرض رسول الله ﷺ المرض الذي توفى فيه، فكانت فاطمة وعلي يريدان أن يمرضاه في بيتهما وكذلك كانت أزواجه فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبة القلبية التي كانت لها دون نسائه، وكره أن يزاحم فاطمة وبعلها في بيتهما فلا يكون عنده من الانبساط بوجودهما ما يكون إذا خلا بنفسه في بيت من يميل إليه بطبعه وعلم أن المريض يحتاج إلى فضل مداراة ونوم ويقظة وانكشاف وخروج حدث فكانت نفسه إلى بيته أسكن منها إلى بيت صهره وابنته فإنه إذا تصوّر حيائهما منه استحيى هو أيضاً منهما وكل أحد يحب أن يخلو بنفسه ويحتشم الصهر والبنت ولم يكن له ﷺ إلى غيرها من الزوجات مثل ذلك الميل إليها فتمرض في بيتها فغبطت على ذلك، ولم يمرض رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة مثل ذلك المرض وإنما كان مرضه الشقيقة يوماً أو بعض يوم ثم تبرأ فتطاول هذا المرض.

وكان علي عليه السلام لا يشك أن الأمر له وأنه لا ينازعه فيه أحد من الناس ولهذا قال له عمه وقد مات رسول الله ﷺ: أمدد يدك أبايعك، فيقول الناس: عمّ رسول الله ﷺ بايع ابن عم رسول الله ﷺ فلا يختلف عليك اثنان، قال: يا عم وهل يطمع فيها طامع غيري؟ قال: ستعلم، قال: فإني لا أحب هذا الأمر من وراء رتاج وأحبّ أن أصهر «اصحر» به فسكت عنه.

فلما ثقل رسول الله ﷺ في مرضه أنفذ جيش أسامة وجعل فيه أبا بكر وغيره من أعلام المهاجرين والأنصار، فكان علي عليه السلام حينئذ بوصوله إلى الأمر إن حدث برسول الله ﷺ أوثق، وتغلب على ظنه أن المدينة لو مات ﷺ لخلت من منازع ينازعه الأمر بالكلية، فيأخذه صفواً عفواً، وتتم له البيعة فلا يتهيأ فسخها لو رام ضدّ منازعة عليها.

فكان من عود أبي بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه وإعلامه بأن رسول الله ﷺ يموت ما كان، ومن حديث الصلاة ما عرفت، فنسب علي عليه السلام عائشة إلى أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فليصل بالناس، لأن رسول الله ﷺ كما روي قال: «ليصل بهم أحدهم»، ولم يعين وكانت صلاة الصبح.

فخرج رسول الله ﷺ وهو في آخر رمق يتهادى بين علي عليه السلام والفضل ابن العباس حتى قام في المحراب كما ورد في الخبر، ثم دخل فمات ارتفاع الضحى فجعل يوم صلاته حجّة في صرف الأمر إليه، وقال: أيكم أطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله ﷺ في الصلاة ولم يحملوا خروج رسول الله ﷺ إلى الصلاة لصرفه عنها بل لمحافظته على الصلاة مهما أمكن.

فبويع على هذه النكتة التي اتهمها علي عليه السلام أنها ابتدأت منها وكان علي عليه السلام يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ويقول: إنه ﷺ لم يقل إنكن لصويحبات يوسف إلا إنكاراً لهذه الحال وغضباً منها لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب فلم يجد ذلك ولا أثر مع قوة الداعي الذي يدعو إلى أبي بكر ويمهد له قاعدة الأمر وتقرّ رحاله في نفوس الناس ومن اتّبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار لما ساعد على ذلك من الحظ الفلكي الأمر السمائي الذي جمع عليه القلوب والأهواء.

فكانت هذه الحال عند علي عليه السلام أعظم من كل عظيم وهي الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ولم ينسبها إلا إلى عائشة وحدها، ولا علّق الأمر الواقع إلا بها، فدعا عليها في خلواته وبين خواصه وتظلّم إلى الله منها، وجرى له في تخلفه عن البيعة ما هو مشهور حتى بايع.

وكان تبلغه وفاطمة عنها كل ما يكرهانه منذ مات رسول الله ﷺ إلى أن توفيت فاطمة عليها السلام وهما صابران على مضض ورمض، واستظهرت بولاية أبيها واستطالت وعظم شأنها وانخذل علي عليه السلام وفاطمة وقهرا، وأخذت فدك وخرجت فاطمة تجادل في ذلك مراراً فلم تظفر بشيء.

وفي كل ذلك تبلّغها النساء الداخلات والخارجات عن عائشة كل كلام يسؤوها ويبلغن عائشة عنها وعن بعلها مثل ذلك، إلا أنه شتان ما بين الحالين وبعدما بين الفريقين، هذه غالبة وهذه مغلوبة، هذه آمرة وهذه مأمورة، وظهر التشفي والشماتة ولا شيء أعظم مرارة ومشقّة من شماتة العدوّ.

قال الشارح: فقلت له: أفتقول أنت إن عائشة عينت أباها للصلاة ورسول الله ﷺ لم يعينه؟ فقال: أما أنا فلا أقول ذلك، ولكن علياً عليه السلام كان يقوله، وتكليفي غير تكليفه كان حاضراً ولم أكن حاضراً، فأنا محجوج بالأخبار التي اتصلت بي وهي تتضمن تعيين النبي ﷺ لأبي بكر في الصلاة وهو محجوج بما كان فقد علمه أو يغلب على ظنه من الحال التي كان حضرها.

قال: ثم ماتت فاطمة عليها السلام، فجاءت نساء رسول الله ﷺ كلهن إلى بني هاشم في العزاء إلا عائشة، فإنها لم تأت أظهرت مرضاً، ونقل إلى علي عليه السلام عنها كلام يدل على السرور.

ثم بايع علي عليه السلام أباها فسرّت بذلك وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا.

واستمرت الأمور على هذه مدة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان، والقلوب تغلي والأحقاد تذيب الحجارة، وكلما طال الزمان على علي عليه السلام تضاعفت همومه وغمومه، وباح بما في نفسه إلى أن قتل عثمان وقد كانت عائشة أشد الناس عليه تأليباً وتحريضاً، فقالت: أبعده الله لما سمعت قتله وأملت أن تكون الخلافة في طلحة فيعود الأمر تيمية كما كان أولاً، فعدل الناس عنه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فلما سمعت ذلك صرخت: واعثماناه قتل عثمان مظلوماً وثار ما في الأنفس حتى تولد من ذلك يوم الجمل وما بعده.

قال الشارح: هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب ولم يكن يتشيع، وكان شديداً في الاعتزال إلا أنه كان في التفضيل بغدادياً.

ثم قال الشارح في شرح قوله عليه السلام والحساب على الله:

فإن قلت: هذا الكلام يدل على توقفه في أمرها وأنتم تقولون إنها من أهل الجنة فكيف

تجمعون بين مذاهبكم وهذا الكلام؟

قلت: يجوز أن يكون عليه السلام قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبر عنده بتوبتها فإن أصحابنا يقولون: إنها تابت بعد قتل أمير المؤمنين عليه السلام وندمت وقالت: لوددت أن لي من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة بنين كلهم ماتوا ولم يكن يوم الجمل، وأنها كانت بعد قتله تثني عليه وتنشر مناقبه.

مع أنهم رووا أيضاً أنها عقيب الجمل كانت تبكي حتى تبلّ خمارها، وأنها استغفرت الله وندمت ولكن لم تبلغ أمير المؤمنين عليه السلام حديث توبتها عقيب الجمل بلاغاً يقطع العذر ويثبت الحجة والذي شاع عنها من أمر الندم والتوبة شياعاً مستفيضاً إنما كان بعد قتله عليه السلام إلى أن ماتت وهي على ذلك، والتائب مغفور له ويجب قبول التوبة عندنا في العدل وقد أكد وقوع التوبة منها ما روي في الأخبار المشهورة أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله في الآخرة كما كانت زوجته في الدنيا، ومثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أن نتكلف إثبات توبتها لو لم ينقل فكيف والنقل لها يكاد أن يبلغ حد التواتر، انتهى كلام الشارح المعتزلي[1].

وينبغي لنا أن نعقبه بما عندنا في هذا المقام فأقول وبالله التكلان:

أما ما أشار إليه الشارح من أنه كان من عائشة في أمره صلى الله عليه وآله في قضية مارية ما كان من الحديث الذي أسره إلى الزوجة الأخرى وأدى إلى تظاهرهما عليه وأنزل فيهما قرآن يتلى في المحاريب (آهـ) فشرحه ما ذكره المفسرون من العامة والخاصة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١] قال في (**الكشاف**): روى أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها: اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي فأخبرت به وكانتا متصادقتين، وفي (**التفسير الكبير**) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ٣] قال الفخر الرازي: يعني ما أسرّ إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه واستكتمها ذلك، وقيل: لما رأى النبي الغيرة في وجه حفصة أراد أن يرضيها فأسرّ إليها بشيئين: تحريم الأمة على نفسه، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر، قاله ابن عباس وقوله: فلما نبأت به أي أخبرت به عائشة وأظهره الله عليه أطلع نبيه على قول حفصة لعائشة فأخبر النبي حفصة عند ذلك ببعض ما قالت وهو قوله تعالى: عرّف بعضه حفصة وأعرض عن بعض لم يخبرها أنك أخبرت عائشة

---

(١) شرح النهج: ٩/ ٢٠٠.

على وجه التكريم والإغضاء، والذي أعرض عنه ذكر خلافة أبي بكر وعمر.

وقال القمي: سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان في بعض بيوت نسائه، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكان ذات يوم في بيت حفصة، فذهبت حفصة في حاجة لها فتناول رسول الله ﷺ مارية فعلمت حفصة بذلك فغضبت وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله في يومي وفي داري وعلى فراشي! فاستحى رسول الله منها فقال: «كفى فقد حرّمت مارية على نفسي ولا أطأها بعد هذا أبداً، وأنا أفضي إليك سراً إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم، ما هو؟ فقال ﷺ: «إن أبا بكر يلي الخلافة بعدي، ثم بعده أبوك» فقالت: من أنبأك؟ فقال: «نبّأني العليم الخبير». فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك وأخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني عن حفصة بشيء ولا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئاً، فقال عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم، قد قال رسول الله ﷺ فاجتمعوا أربعة على أن يسمّوا رسول الله ﷺ فنزل جبرائيل على رسول الله ﷺ بهذه السورة، قال: وأظهره الله عليه يعني وأظهره الله على ما أخبرت به وما همّوا به من قتله عرف بعضه أي خبرها وقال: لم أخبرت بما أخبرتك به وأعرض عن بعض، قال: لم يخبرهم بما يعلم بما همّوا به من قتله، وقال تعالى في هذه السورة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم: ١٠] قال في (**تفسير الصافي**): مثل الله حال الكفار والمنافقين في أنهم يعاقبون بكفرهم ونفاقهم ولا يحابون بما بينهم وبين النبي ﷺ والمؤمنين من النسبة والوصلة بحال امرأة نوح وامرأة لوط، وفيه تعريض بعائشة وحفصة في خيانتهما رسول الله ﷺ بإفشاء سرّه ونفاقهما إياه وتظاهرهما عليه كما فعلت امرأتا الرسولين فلم يغن الرسولان عنهما بحق الزواج إغناء ما وقيل لهما بعد موتهما أو يوم القيامة: أدخلا النار مع الداخلين الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء.

وأما أسباب الضغن التي بين عائشة وفاطمة عليها السلام على ما فصّلها وحكاها عن الشيخ أبي يعقوب اللمعاني فهي كما ذكره إلا أن اللائمة فيها كلها راجعة إلى عائشة وأبيها، وتشريكه بينهما وبين فاطمة وبعلها سلام الله عليهما في ذلك، أي في الاتصاف بالضغن والحقد والحسد غلط فاحش بعد شهادة آية التطهير وغيرها بعصمتهما وبراءة ساحتهما عن دنس المعاصي والذنوب وطهارة ذيلهما عن وسخ الآثام والعيوب.

ومن ذلك يعلم ما في قوله: (**ولست أبرأ علياً من مثل ذلك**) فإنه كان ينفس على أبي

بكر سكون النبي ﷺ إليه وثنائه عليه ويحب أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين مضافاً إلى ما فيه من أنّا لم نسمع إلى الآن لأبي بكر مزيّة وخاصة ومكرمة اختصّ بها، ولم نظفر بأن النبي ﷺ يوماً أثنى عليه وسكن إليه، والأخبار المفصحة عن شقاقه ونفاقه وإزراء الرسول عليه في غير موطن فوق حد الإحصاء، ولو لم يكن شاهد على عدم سكونه إليه غير بعثه بسورة براءة إلى مكة ثم عزله عنها لكفى.

وأما الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ أعني قوله: (**وكم قال لا مرة يؤذيني ما يؤذيها ويغضبني ما يغضبها**) فهو حديث صحيح رواه العامة والخاصة، وما أدري ما يجيب متعصبيّ أبي بكر وعمر عن ذلك، فإن غصبهما فدك منها وأمرهما بإحراق باب بيتها وإخراج بعلها ملبّباً إلى المسجد للبيعة كان بالضرورة موجباً لغضبها وأذيها، فإذا انضمّ إلى ذلك الحديث الذي رووه وأضيف إليهما قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١] ينتج أنهما في العذاب الأليم والسخط العظيم كما مر تفصيله في التنبيه الثاني في شرح الكلام السادس والستين، وقد تقدم هناك قول الشارح: أن الصحيح عندي أنها ماتت وهي واجدة على أبي بكر وعمر، وأنها أوصت أن لا يصلّيا عليها، فانظر ماذا ترى.

وأما ما تكلّفه الشارح في آخر كلامه في إثبات توبة الخاطئة فدعوى لا تفي بإثباتها بينة وهو يريد إصلاح أمرها ـ ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر ـ وكيف تتوب عن أخطائِها وتندم على تفريطها بعد رسوخ الضغن في هذه السنين المتطاولة في قلبها وتزايد أسباب الحقد والحسد وتراكمها يوماً فيوماً على ما فصلها الشارح عن اللمعاني، وقد تقدم ما يرشدك إلى بطلان هذه الدعوى في شرح الكلام التاسع والسبعين.

وأورد هنا مضافاً إلى ما سبق ما حققه شيخ الطائفة قدس الله روحه في (**تلخيص الشافي**) في إبطال تلك الدعوى.

قال في محكي كلامه في (**البحار**): وأما الكلام في توبة عائشة فما بيناه من الطرق الثلاث في توبة طلحة والزبير وهي معتمدة فيما يدعونه من توبة عائشة.

أولها: أن جميع ما يروونه من الأخبار لا يمكن ادعاء العلم فيها ولا القطع على صحتها، وأحسن الأحوال فيها أن يوجب الظن، وقد بيّنا أن المعلوم لا يرجع عنه بالمظنون.

والثاني: أنها معارضة بأخبار تزيد ما رووه في القوة أو تساويه، فمن ذلك ما رواه الواقدي بإسناده عن مصعبة عن ابن عباس قال: أرسلني علي إلى عائشة بعد الهزيمة وهي في دار الخزاعيين يأمرها أن ترجع إلى بلادها، وساق الحديث إلى قوله: فبكت مرة أخرى أشدّ من بكائها الأول ثم قالت: والله لئن لم يغفر الله لنا لنهلكنّ ثم ساق الحديث إلى آخره ثم

قال:

فإن قيل: ففي هذا الخبر دليل على التوبة وهي قولها عقيب بكائها: لئن لم يغفر الله لنا لنهلكنّ.

قلنا: قد كشف الأمر ما عقبت هذا الكلام به من اعترافها ببغض أمير المؤمنين عليه السلام وبغض أصحابه المؤمنين، وقد أوجب الله عليها محبتهم وتعظيمهم، وهذا دليل على الإصرار وأن بكائها إنما كان للخيبة لا للتوبة، وما كان في قولها: لئن لم يغفر الله لنا لنهلكن من دليل على التوبة وقد يقول المصر مثل ذلك إذا كان عارفاً بخطئِهِ فيما ارتكبه، وليس كل من ارتكب ذنباً يعتقد أنه حسن حتى لا يكون خائفاً من العقاب عليه، وأكثر مرتكبي الذنوب يخافون العقاب مع الإصرار، ويظهر منهم مثل ما حكي عن عائشة ولا يكون توبة.

وروى الواقدي بإسناده: أن عماراً رحمة الله عليه استأذن على عائشة بالبصرة بعد الفتح فأذنت له فدخل فقال: يا أمه كيف رأيت الله صنع حين جمع بين الحق والباطل ألم يظهر الله الحق على الباطل ويزهق الباطل؟ فقالت: إن الحرب دول وسجال وقد أديل على رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن انظر يا عمار كيف تكون في عاقبة أمرك؟.

وروى الطبري في **(تاريخه)** أنه لما انتهى إلى عائشة قتل أمير المؤمنين عليه السلام قالت:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى ... كما قرّ عيناً بالأياب المسافر

من قتله؟ فقيل: رجل من مراد، فقالت:

فإن يك تائباً فلقد نعاه ... بنعي ليس في فِيه التراب

فقالت زينب بنت سلمة بن أبي سلمة: ألعليّ تقولين هذا؟ فقالت: إني أنسى فإذا نسيت فذكروني، وهذه سخرية منها بزينب وتمويه خوفاً من شناعتها، ومعلوم أن الناسي والساهي لا يتمثل بالشعر في الأغراض المطابقة، ولم يكن ذلك منها إلا عن قصد ومعرفة.

وروي عن ابن عباس أنه قال لأمير المؤمنين عليه السلام لما أبت عائشة الرجوع إلى المدينة: أرى أن تدعها يا أمير المؤمنين بالبصرة ولا ترحلها، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنها لا تألوا شرّاً ولكني أردّها إلى بيتها الذي تركها فيه رسول الله صلى الله عليه وآله فإن الله بالغ أمره[1].

وروى محمد بن إسحاق عن جناده أن عائشة لما وصلت إلى المدينة راجعة من البصرة لم تزل تحرض الناس على أمير المؤمنين، وكتبت إلى معاوية وإلى أهل الشام مع الأسود بن

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٤١.

أبي البختري تحرضهم عليه صلوات الله عليه.

وروي عن مسروق أنه قال: دخلت على عائشة فجلست إليها فحدثتني واستدعت غلاماً أسود يقال له عبد الرحمٰن، فجاء حتى وقف فقالت: يا مسروق أتدري لم سمّيته عبد الرحمٰن؟ فقلت: لا، فقالت: حباً مني لعبد الرحمٰن بن ملجم.

فأما قصتها في دفن الحسن فمشهورة حتى قال لها عبد الله بن عباس يوماً على بغل ويوماً على جمل، فقالت: أو ما نسيتم يوم الجمل يا ابن عباس إنكم لذوو أحقاد.

ولو ذهبنا إلى تقصّي ما روي عنها من الكلام الغليظ الشديد الدال على بقاء العداوة واستمرار الحقد والضغينة لأطلنا وأكثرنا، وما روي عنها من التلهف والتحسر على ما صدر عنها فلا يدل على التوبة إذ يجوز أن يكون ذلك من حيث خابت عن طلبتها ولم تظفر ببغيتها مع الذل الذي لحقها وألحقها العار في الدنيا والإثم في الآخرة، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: ويدل على استمرار حقدها وبقاء عداوتها أيضاً ما في **(الإرشاد)** للمفيد (ره) قال: روى عكرمة عن عائشة في حديثها له بمرض رسول الله صلى الله عليه وآله ووفاته فقالت في جملة ذلك: فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله متوكئاً على رجلين أحدهما الفضل بن العباس، فلما حكى عنها ذلك لعبد الله بن العباس قال له: أتعرف الرجل الآخر؟ قال: لا لم تسمّه لي، قال: ذاك علي بن أبي طالب وما كانت أمنا تذكره بخير وهي تستطيع.

الترجمة

از جمله كلام آن بزرگوار است كه خطاب فرمود با آن اهل بصره را بر سبيل قصّه گويى از واقعه هاى عظيمه، مى فرمايد:

پس كسى كه استطاعت داشته باشد نزد آن حادثه ها اينكه حبس نمايد نفس خود را بر طاعت خدا، پس بايد كه بكند آن را، پس اگر اطاعت نماييد مرا، پس به درستى كه من حمل كننده شما هستم انشاءالله بر راه بهشت و اگرچه مى باشد آن راه صاحب مشقّت سخت و چشيدنى تلخ و امّا فلانه (يعنى عايشه خاطئه) پس دريافت او را رأى سست زنان و كينه ديرينه كه جوش زد در سينه او مثل ديگ جوشنده آهنگران و اگر خوانده شدى كه فرا گيرد از غير من آنچه كه آورد به سوى من نمى كرد، (يعنى اگر دعوت مى نمودند او را كه اقدام نمايد در حق غير من به مثل آنچه اقدام كرد در حقّ من از مخالفت و عداوت و خصومت البته اقدام نمى نمود) و با همه اين مراوراست بعد از اين همه قبايح كه از او صادر شد حرمت قديمه او كه در زمان حضرت رسول (صلى الله عليه وآله) داشت و حساب بر پروردگار است.

ما كارهاى او بخداوند كار ساز   بگذاشتيم تا غضب او چه مى كند

الفصل الثاني

منه - سَبِيلٌ أَبْلَجُ المِنْهاجِ، أَنْوَرُ السِّراجِ، فَبِالإِيمانِ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحاتِ، وبِالصَّالِحاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الإِيمانِ، وبِالإِيمانِ يُعْمَرُ العِلْمُ، وبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ المَوْتُ، وبِالمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيا، وبِالدُّنْيا تُحْرَزُ الآخِرَةُ، وبِالقِيامَةِ تُزْلَفُ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَتُبَرَّزُ الجَحِيمُ لِلْغاوِينَ، وَإِنَّ الخَلْقَ لا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ القِيامَةِ، مُرْقِلِينَ في مِضْمارِها إِلَىٰ الغايَةِ القُصْوىٰ.

منه - قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الأَجْداثِ، وَصارُوا إِلَىٰ مَصائِرِ الغاياتِ، لِكُلِّ دارٍ أَهْلُها، لا يَسْتَبْدِلُونَ بِها، وَلا يُنْقَلُونَ عَنْها، وَإِنَّ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ لَخُلُقانِ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحانَهُ، وإِنَّهُما لا يُقَرِّبانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلا يُنْقِصانِ مِنْ رِزْقٍ، وَعَلَيْكُمْ بِكِتابِ اللَّهِ فَإِنَّهُ الحَبْلُ المَتِينُ، والنُّورُ المُبِينُ، والشِّفاءُ النَّافِعُ، والرِّيُّ النَّاقِعُ، والعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، والنَّجاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ، لا يَعْوَجُّ فَيُقامُ، وَلا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، ولا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ، مَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ، ومَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ.

وقامَ إِلَيْهِ رجل فَقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله **فقال** عليه السلام:

لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحانَهُ قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١-٢] عَلِمْتُ أَنَّ الفِتْنَةَ لا تَنْزِلُ بِنا ورَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بَيْنَ أَظْهُرِنا، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ ما هٰذِهِ الفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِها؟ فَقالَ: يا عَلِيُّ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهادَةُ فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لي: «أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهادَةَ مِنْ وَرائِكَ»، فَقال لي: «إِنَّ ذٰلِكَ لَكَذٰلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً؟»، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ هٰذا مِنْ مَواطِنِ الصَّبْرِ وَلٰكِنْ مِنْ مَواطِنِ البُشْرىٰ والشُّكْرِ، وقالَ: «يا عَلِيُّ إِنَّ الأُمَّةَ سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي بِأَمْوالِهِمْ، ويَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلىٰ رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، ويَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرامَهُ بِالشُّبُهاتِ الكاذِبَةِ، والأَهْواءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الخَمْرَ بالنَّبِيذِ، والسُّحْتَ بِالهَدِيَّةِ، والرِّبا بِالبَيْعِ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ فَبِأَيِّ المَنازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذٰلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقالَ: بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ[1].

اللغة

(بلج) الصبح بلوجاً من باب قعد أسفر وأنار و **(أرقل)** أسرع و **(شخص)** من بلد كذا

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ٨٠، ونهج السعادة: ١/ ٣٨٧.

رحل وخرج منه و **(الأجداث)** القبور جمع جدث بالتحريك كأسباب وسبب و **(الشفاء النافع)** بالفاء و **(الريّ الناقع)** بالقاف يقال: ماء ناقع أي ينقع الغلة أي يقطعها ويروى منها.

الإعراب

قال في **(الكشاف)**: الحسبان لا يصح تعلّقه بمعاني المفرد ولكن بمضامين الجمل، ألا ترى أنك لو قلت: حسبت زيداً وظننت الفرس لم يكن شيئاً حتى تقول: حسبت زيداً عالماً وظننت الفرس جواداً، لأن قولك: زيد عالم أو الفرس جواد كلام دال على مضمون فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين، فلم تجد بدّاً في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه من ذكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك.

فإن قلت: فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية؟

قلت: هو قوله: **(أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)**، وذلك لأن تقديره احسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم: آمنا، فالترك أول مفعولي حسب، ولقولهم: آمنا هو الخبر، وإنّا غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير كقوله: **(فتركته جزر السباع ينشنه)** ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم: آمنا على تقدير حاصل ومستقرّ قبل أن يكون خبر مبتدأ؟.

قلت كما تقول: خروجه لمخافة الشر وضربه للتأديب، وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر وضربته تأديباً تعليلين وتقول أيضاً: حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأديب، فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً.

والهمزة في قوله عليه السلام: **(أو ليس قد قلت)** للاستفهام التقريري كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] والمقصود به حمل المخاطب على الإقرار بما دخله النّفي.

المعنى

إعلم أن هذا الفصل من كلامه مشتمل على فصلين:

الفصل الأول (منه)

في وصف الدين والإيمان وهو قوله: **(سبيل أبلج المنهاج)** استعارة مرشحة فإن الإيمان لما كان موصلاً لصاحبه إلى الجنة وإلى حظائر القدس صح استعارة لفظ السبيل له كما صح

التعبير عنه بلفظ الصراط بذلك الاعتبار أيضاً في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

فهو طريق أوضح المسلك إلى الجنة **(وأنور السراج)** لا يضلّ سالكها البتة لوضوحها وإضاءتها **(فبالإيمان يستدل على الصالحات وبالصالحات يستدل على الإيمان)** قال الشارح البحراني: والصالحات هي الأعمال الصالحات من سائر العبادات ومكارم الأخلاق التي وردت بها الشريعة وظاهر كونها معلولات للإيمان وثمرات له يستدل بوجوه في قلب العبد على ملازمته لها استدلالاً بالعلة على المعلول، ويستدل بصدورها من العبد على وجود الإيمان في قلبه استدلالاً بالمعلول على العلة **(وبالإيمان يعمر العلم)** إذ من المعلوم أن فضل العلم وكماله إنما هو العمل بالأركان والعمل بالأركان إما شرط للإيمان أو شطر منه حسبما عرفته في شرح الخطبة المائة والتاسعة فيكون فضله وكماله بالإيمان، وهو معنى كونه معموراً به.

ويومىء إليه قول الصادق عليه السلام: لا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل فمن عرف دلّته المعرفة على العمل ومن لم يعمل فلا معرفة له ألا إن الإيمان بعضه من بعض[1].

وقال علي بن الحسين عليه السلام: مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولما تعملوا بما علمتم، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزده صاحبه إلا كفراً ولم يزدد من الله إلا بعداً[2].

(وبالعلم يرهب الموت) لأن العلم بالمبدأ والمعاد مستلزم لذكر الموت والتوجه إليه وإلى ما يتلوه من الشدائد والأهوال، وذلك موجب للرهبة منه لا محالة وأما الجاهل فهو غافل عن ذلك لكون همّته مقصورة على الدنيا مصروفة إليها **(وبالموت تختم الدنيا)** وهو ظاهر إذ الموت آخر منازل الدنيا كما هو أول منازل الآخرة **(وبالدنيا تحرز الآخرة)** لأنها دار التكليف وفيها تقام العبادات وتقتنى الحسنات فيفاز بالجنات وينال السعادات فهي محل الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد **(والقيامة تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين)** اقتباس من الآية الشريفة في سورة (الشعراء) قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٩١] أي قربت الجنة وقدمت للسعداء بحيث يرونها من الموقف فيبجحون بأنهم المحشورون إليها، وتظهر الجحيم للأشقياء فيرونها مكشوفة بارزة فيتحسرون على أنهم المسوقون إليها **(وإن الخلق لا مقصر لهم عن القيامة)** أي لا محبس ولا غاية لهم دونها ولا مانع من ورودهم عليها

(١) الكافي: ١/ ٤٤ ح ٢، وشرح أصول الكافي: ٢/ ١٣٥ ح ٢.

(مرقلين) أي مسرعين **(في مضمارها)** وهو مدة الحياة الدنيا **(إلى الغاية القصوى)**.

قال الشارح البحراني: قوله: **(وإن الخلق لا مقصر لهم)** إلى آخره، كلام في غاية الحسن مع غزارة الفائدة، وهو إشارة إلى أنه لا بد لهم من ورود القيامة ومضمارها مدة الحياة الدنيا، وهو لفظ مستعار، ووجه المشابهة كون تلك المدة محل استعداد النفوس للسباق إلى حضرة الله كما أن المضمار محل استعداد الخيل للسباق، وأرقالهم كناية عن سيرهم المتوهم في مدة أعمارهم إلى الآخرة، وسرعة حثيث الزمان بهم في إعداد أبدانهم للخراب والغاية القصوى وهي السعادة والشقاوة الأخروية.

الفصل الثاني (منه)

في وصف حال أهل القبور والحثّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى لزوم كتاب الله وبيان معنى الفتنة وهو قوله عليه السلام: **(قد شخصوا من مستقرّ الأجداث)** أي ارتحل الموتى من محل استقرارهم وهي القبور **(وصاروا إلى مصائر الغايات)** أي انتقلوا إلى محال هي غاية منازل السالكين ومنتهى سير السائرين، يعني درجات ودركات الجحيم **(ولكل دار)** من هاتين الدارين **(أهل)** من السعداء والأشقياء **(لا يستبدلون بها)** غيرها **(ولا ينقلون عنها)** إلى غيرها يعني أن أهل الجنة لا يطلبون إبدالها لما هم عليه من عظيم النعماء وألذ الآلاء، وأهل النار لا ينقلون عنها ولو طلبوا النقل والإبدال لكونهم مخلّدين فيها، وهذه قرينة على أن يكون مراده عليه السلام بأهل النار الكفار والمنافقين، إذ غيرهم من أصحاب الجرائر من المسلمين المذعنين بالولاية لا يخلدون في النار لو دخلوها، بل يخرجون بعد تمحيص الذنوب إما بفضل من الله سبحانه، أو بشفاعة أولياء الله تعالى كما دلت عليه الأصول المحكمة.

ثم حثّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتنبيه على فضلهما بقوله: **(وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق الله)** قال الشارح البحراني «ره»: إطلاق لفظ الخلق على الله استعارة، لأن حقيقة الخلق ملكة نفسانية تصدر عن الإنسان بها أفعال خيرية أو شرّية، وإذ قد تنزّه قدسه تعالى عن الكيفيات والهيئات لم يصدق هذا اللفظ عليه حقيقة، لكن لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأفعال الخيرية التي بها نظام العالم وبقاؤه كحكمته وقدرته ووجوده وعنايته وعدم حاجته بما يتعارف من الأخلاق الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الخيرية البشرية، فاستعير بها لفظ الأخلاق وأطلق عليه، انتهى.

أقول: هذا كله مبنيّ على التجوّز في لفظ الخلق حسبما صرّح به، ويجوز إبقائه على حقيقته والبناء على التجوّز في الإضافة، يعني أنهما خلقان نسبتهما إليه سبحانه باعتبار كونهما مرضيين عند الله ومحبوبين له تعالى، فصحّ بذلك الاعتبار كونهما من خلقه تعالى أي من

خلق هو محبوبه ومطلوبه كما نقول: بيت الله تشريفاً، وروح الله تعظيماً وتكريماً ونحو ذلك، هذا.

ولما كان أكثر الناس يكفون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويمسكون عن ردع الظلمة بتوهم أن يبطش به فيقتل أو يقطع رزقه ويحرم فأشار عليه السلام إلى دفع هذا التوهم بقوله: **(وأنهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق)** وقد روي هذا المعنى عنه عليه السلام في حديث آخر.

وهو ما رواه في **(الوسائل)** من **(الكافي)** عن يحيى بن عقيل عن حسن عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنه إنما هلك من كان قبلكم حيثما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وإنهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يقربا أجلاً ولن يقطعا رزقاً[1].

وفيه عن الحسن بن علي بن شعبة في **(تحف العقول)** عن الحسين عليه السلام قال: ويروى عن علي عليه السلام: اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه عن الأحبار إذ يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ﴾ [المائدة: ٦٣] إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون، والله يقول: ﴿شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ﴾ [التوبة: ٧١] فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنها إذا أدّيت وأقيمت واستقامت الفرائض كلها هينها وصعبها، وذلك إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام مع ردّ المظالم ومخالفة الظالم وقسمة الفيء والغنائم وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها[2]، هذا.

وينبغي القيام بوظائف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشروط المقررة في الكتب الفقهية، ومن جملتها الأمن من الضرر على المباشر أو على بعض المؤمنين نفساً أو مالاً أو عرضاً، فلو غلب على ظنه أو قطع بأن يصيبه أو يصيبهم ضرر بهما سقط وجوبهما، بل يحرمان كما صرح به علماؤنا الأخيار ودلّت عليه أخبار أئمتنا الأطهار.

روى في **(الوسائل)** عن الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن

---

(١) المحاسن: ١/٢٠٩ ح ٧٦، والكافي: ١/٤٥.

(٢) الكافي: ٥/٥٧ ح ٦، ووسائل الشيعة: ١٦/١٢٠.

يحيى الطويل صاحب (**المقري**) قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ أو جاهل فيتعلّم فأما صاحب سوط أو سيف فلا.

وعنه عن أبي عن ابن أبي عمير عن مفضّل بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: يا مفضل من تعرّض لسلطان جائر فأصابته بليّة لم يؤجر عليها ولم يرزق الصبر عليها[1].

فظهر لك بما ذكرنا أن قوله عليه السلام في المتن: (**وإنهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق**) لا بد أن يحصل على صورة عدم الظن بالضرر فضلاً عن القطع به.

ثم أمر بلزوم اتباع الكتاب المجيد معلّلاً وجوب متابعته بأوصاف كمال نبّه عليها فقال: (**وعليكم بكتاب الله فإنه الحبل المتين**) استعارة لفظ الحبل له باعتبار حصول النجاة للمتمسك به كما يحصل النجاة للمتمسك بالحبل وذكر المتانة ترشيح.

وقد وقع نظير تلك الاستعارة في النبوي المعروف المروي بطرق عديدة منها ما رواه أبو سعيد الخدري قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[2].

(**والنور المبين**) وهو أيضاً استعارة لأنه نور عقلي ينكشف به أحوال المبدأ والمعاد ويهتدي به في ظلمات برّ الأجسام وبحر النفوس كما يهتدي بالنور المحسوس في الغياهب والظلمات ونظير هذه الاستعارة قوله سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٧] (**والشفاء النافع**) إذ به يحصل البرء من الأسقام الباطنية والأمراض النفسانية كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال في موضع آخر: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. (**والري الناقع**) أي القاطع لغليل العطشان بماء الحياة الأبدية، أعني ما تضمنه من المعارف الحقّة والعلوم الإلهية (**وعصمة للمتمسك ونجاة للمتعلق**) يعني من تمسك وتعلّق به وأخذ بأحكامه وعمل بها فهو يعصمه من غضب الجبار ويُنجيه من دخول النار.

(**لا يعوجّ فيقام**) لأنه كلام الحق يصدّق بعضه بعضاً ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] واحتاج إلى إصلاح اختلافه وإقامة اعوجاجه وخلله (**ولا يزيغ**

---

(١) تحف العقول: ٢٣٧، ووسائل الشيعة: ١٦/ ١٣٠ ح ٢١١٦٠.

(٢) الكافي: ٥/ ٦١ ح ٣، وتحف العقول: ٣٥٩.

فيستعتب) أي لا يميل ولا يعدل عن الحق حتى يطلب عتباه ورجوعه إليه **(ولا يخلقه كثرة الرد وولوج السمع)** يعني أن كل كلام نثراً كان أو نظماً لو تكرر تردده على الألسنة وولوجه في الأسماع مجه الأسماع وملّ عنه الطباع واشمئزت منه القلوب ويكون خلقاً مبتذلاً مرزولاً، وأما القرآن الكريم فلا يزال غضّاً طريّاً يزداد على كثرة التكرار وطول التلاوة في كرور الأعصار ومرور الدهور حسناً وبهاء ورونقاً وضياءً، هو المسك ما كررته يتضوّع.

وذلك من جملة خصائصها التي امتاز بها عن كلام المخلوق.

(من قال به صدق) لأنه كلام مطابق للواقع فالقول بما أفاده البتّة يكون صدقاً والقائل به صادقاً **(ومن عمل به سبق)** إلى درجات الجنان وفاز أعظم الرضوان.

قال السيد «ره»: **(وقام إليه رجل فقال: أخبرنا عن الفتنة)** الظاهر أن **(اللام)** فيها للعهد وتكون الإشارة بها إلى فتنة معهودة سبق ذكرها في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وفي الكتاب العزيز في الآية الآتية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وغيرهما، والفتنة تكون لمعان شتى من الابتلاء والامتحان والإضلال والعذاب والفضيحة والكفر والإثم واختلاف الناس في الآراء ونحوها.

ولما كان خطابه عليه السلام بذلك الكلام لأهل البصرة حسبما نبّه السيد في عنوانه فبقرينة مساق الكلام يحتمل أن يكون استخبار السائل عن موضوع الفتنة ليفهم أن فتنة أهل البصرة هل هي داخلة في الفتنة التي أخبر الله بها ورسوله، وأن يكون عن حكمها.

ويشعر بالأول جوابه للسائل بما ينقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله: «يا علي إن أمتي سيفتنون من بعدي»، وقوله صلى الله عليه وآله أيضاً: **(يا علي إن القوم سيفتنون بعدي)**.

ويشعر بالثاني آخر كلامه عليه السلام أعني قوله: فقلت يا رسول الله فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ فقال: بمنزلة فتنة.

فعلى الاحتمال الأول يكون معنى قوله: **(وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله)** هل سألت عن معنيها ليتبين المراد بها.

وعلى الاحتمال الثاني فالمعنى: هل سألت عن حكمها عنه صلى الله عليه وآله ليعلم أن المفتونين مرتدون أم لا **(فقال** عليه السلام**)** في جواب المستخبر.

(لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ **قال في (الكشاف)** في تفسير الآية: الفتنة الامتحان بشدائد التكاليف من مفارقة

الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ، وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم، والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون لذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم الله بأنواع المحن وضروب البلا حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم وخلوص نياتهم ليتميز المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والمتمكن من العابد على حرف، انتهى.

أقول: وبنحو ذلك فسره غير واحد من علماء التفسير، ومحصّله أن المراد بالفتنة الامتحان والابتلاء في النفس والمال.

ورواه الطبرسي في **(مجمع البيان)** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: معنى يفتنون يبتلون في أنفسهم وأموالهم[1]، والمستفاد من غير واحد من الأخبار الآتية أن المراد بها خصوص الامتحان بالولاية، وإليه يرجع ما أجاب به أمير المؤمنين عليه السلام هنا للسائل المستخبر، ولا تنافي بين المعنيين إذ الأول تنزيله والثاني تأويله ولا غبار عليه.

وإنما الإشكال في قوله: **(علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله** بين أظهرنا) لظهور أن الآية لا دلالة فيها على عدم نزول الفتنة بهم مع كون الرسول صلى الله عليه وآله بينهم، فمن أين علم أمير المؤمنين عليه السلام ذلك، وقد تنبّه لذلك الشارح المعتزلي وأجاب عنه بما لا يعبأ به، حيث قال:

فإن قلت: فلم قال عليه السلام: علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا؟

قلت: لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] **(آهـ)** وأنت خبير بما فيه.

أما **أولاً**: فلأن هذا الجواب كما ترى مبني على جعل الفتنة في الآية بمعنى العذاب، وقد علمت أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقام ناظر إلى كونها بمعنى الامتحان بالولاية والتنافي بين المعنيين ظاهر.

وأما **ثانياً**: فلأنا بعد الغض عما ذكرنا نقول: إن قوله: علمت، جواب لما وهو يفيد أن منشأ علمه بعدم نزول الفتنة هو قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢]، الآية، لا قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، والعلم بعدم نزول العذاب من الآية الثانية لا يلازم حصول العلم من الآية الأولى على ما هو مقتضى ظاهر كلامه عليه السلام.

---

(١) قرب الإسناد: ٧، والخصال: ٦٥ ح ٩٧.

والذي عندي في رفع ذلك الإشكال أنه عليه السلام علم ذلك حين نزول الآية بإعلام النبي صلى الله عليه وآله فقد روي في (**الصافي**) عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وآله: «لا بد من فتنة تبتلى به الأمة بعد نبيها ليتعين الصادق من الكاذب، لأن الوحي قد انقطع وبقي السيف وافتراق الكلمة إلى يوم القيامة»(١).

فإن هذه الرواية ككثير من الروايات الآتية صريحة في أن نزول الفتنة إنما يكون بعد النبي صلى الله عليه وآله، فحصل بذلك العلم له عليه السلام بأنها لا تنزل مع كونه بين أظهرهم.

ولما كان ذلك الإخبار من النبي صلى الله عليه وآله حين نزول الآية صح بذلك الاعتبار قوله عليه السلام: لما أنزل الله قوله: ﴿آلم﴾ آهـ، علمت إلى قوله: (**فقلت يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها؟ فقال: يا علي إن أمتي سيفتنون من بعدي**) وهذا الجواب من النبي صلى الله عليه وآله له عليه السلام وإن كان مجملاً لم يصرح فيه بأن افتتان الأمة بعده صلى الله عليه وآله بماذا إلا أنه عليه السلام قد فهم منه أن مراده صلى الله عليه وآله منه الافتتان به عليه السلام وامتحانهم بولايته.

وفهمه عليه السلام ذلك منه إما من باب سر الحبيب مع الحبيب أو بقرينة تصريحه صلى الله عليه وآله به في غيره، فقد روي في (**غاية المرام**) عن ابن شهراشوب عن أبي طالب الهروي بإسناده عن علقمة وأبي أيوب أنه لما نزل ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الآيات، قال النبي صلى الله عليه وآله لعمار: «إنه سيكون من بعدي هناة حتى يختلف السيف فيما بينهم وحتى يقتل بعضهم بعضاً وحتى يتبرىء بعضهم من بعض، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلح عن يميني علي بن أبي طالب، فإن سلك الناس كلهم وادياً فاسلك وادي علي وخلّ عن الناس، يا عمار إن علياً لا يردّك عن هدى ولا يردّك إلى ردى، يا عمار طاعة علي طاعتي وطاعتي طاعة الله».

وفيه عنه من طريق العامة أيضاً في قوله: الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنونَ؟ قال علي عليه السلام: يا رسول الله ما هذه الفتنة؟ قال صلى الله عليه وآله: «يا علي بك وأنك المخاصم فأعد للخصومة».

وفيه عن محمد بن العباس مسنداً عن الحسين بن علي عن أبيه صلوات الله عليهم أجمعين قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية، قال: قلت يا رسول الله ما هذه؟ قال: «يا علي إنك مبتلى بك وأنت مخاصم فأعد للخصومة».

وعن محمد بن العباس قال: حدثنا أحمد بن هودة عن إبراهيم بن إسحاق عن عبد الله بن حماد عن سماعة بن مهران قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله ذات ليلة في المسجد، فلما كان

---

(١) بحار الأنوار: ٥/ ٢١٤، والتفسير الصافي: ٤/ ١١٠.

قرب الصبح دخل أمير المؤمنين عليه السلام فناداه يا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «يا علي»، فقال: لبيك، قال: «هلمّ إليّ»، فلما دنى منه قال: «يا علي بت الليلة حيث تراني وقد سألت ربي ألف حاجة فقضيها لي وسألت لك ربي أن يجمع لك أمتي من بعدي فأبى عليّ ربي فقال: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾[1]».

وهذه الروايات وما بمعناها[2] مما لم نوردها خوف الإطالة كما ترى صريحة في الدلالة على أن الافتتان بعده صلى الله عليه وآله إنما هو بولاية أمير المؤمنين عليه السلام فهي رافعة للإجمال في الجواب المروي في المتن مبيّنة لكون مراد النبي صلى الله عليه وآله بقوله: إن أمتي سيفتنون من بعدي افتتانهم بها وامتحانهم به عليه السلام.

ولما كان ذلك مبعداً لما كان ينتظره عليه السلام ويرجوه من شهادته التي بشّر بها النبي وموهماً لعدم إنجاز ما بشر به ومفيداً لعدم حصوله في زمان النبي صلى الله عليه وآله وحال حياته وكان فيه خوف فوت المطلوب لا جرم أعاد عليه السلام السؤال تحصيلاً لاطمئنان القلب كما سأل إبراهيم ربه بقوله: كيف تحيي الموتى؟ فقال عليه السلام: (**فقلت أو ليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت**) أي منعت (**عني الشهادة فشق ذلك عليّ فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك؟ فقال لي: إن ذلك كذلك**) يعني أن الشهادة واقعة لا محالة وإن لم تكن في زماني وفي مجاهداتك التي بين يدي، هذا.

ويجوز أن تكون الهمزة في قوله: (**أو ليس قد قلت**) لم يرد بها الاستفهام والتقرير، بل المراد بها الاستبطاء نظير ما قاله علماء البيان في مثل: كم دعوتك من أن الغرض به ليس السؤال والاستفهام، بل المراد الاستبطاء وهو الوصف بالبطوء أي عدا المتكلم المخاطب بطيئاً في إجابة الدعوة، والغرض من الكلام الشكاية عن بطوء الإجابة والحثّ عليها.

ومعنى الاستبطاء فيما نحن فيه وصف ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وما بشّر به من الشهادة بالبطوء والشكاية من تأخيره فإنه صلى الله عليه وآله لما أخبر بأن الأمة سيفتنون بعده أحب عليه السلام أن لا يبقى إلى زمان تلك الفتنة فقال ذلك الكلام استبطاء للشهادة فافهم جيداً.

ثم أراد النبي صلى الله عليه وآله الإبانة عن علو همته عليه السلام والإفصاح عن ثبات قدمه في جنب الله فقال: (**فكيف صبرك إذا**) يعني إذا ظفرت بالشهادة (**فقلت يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والشكر**) يعني أن الصبر عبارة عن تحمل المشاق والمكروه

---

(١) التفسير الصافي: ٤/ ١١٠، وبحار الأنوار: ٩/ ٨٨.

(٢) يعني: أن ما زعموه فاسد.

وهو إنما يتصور في حق المحجوبين عن الله المنهمكين في لذّات الدنيا والغافلين عن لذّات الآخرة، فإنهم يكرهون الموت ويفرّون منه ويحذرون من الشهادة، وأما أولياء الدين وأهل الحق واليقين فغاية غرضهم الخروج من هذه القرية الظالم أهلها والفوز بلقاء الحق والنيل إلى رضوانه.

فالموت لما كان وسيلة للوصول إليه فهو أحب إليهم من كل شيء ولذلك كان عليه السلام يقول غير مرة: والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، ولما كان حصول الموت بالقتل والشهادة من أعظم القربات وأفضل الطاعات كانوا مستبشرين به وشاكرين على وصول تلك النعمة العظيمة، وإليه ينظر قوله عليه السلام في الكلام المائة والثانية والعشرين: إن أكرم الموت القتل والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش[(١)].

ثم عاد النبي صلى الله عليه وآله بعد الإشارة إجمالاً إلى افتتان الأمة من بعده إلى شرح حال المفتونين وبيان أوصافهم تفصيلاً **(وقال: يا علي إن الأمة سيفتنون بعدي بأموالهم)** أي بقلّتها وكثرتها وباكتسابها من حلال أو حرام، وبصرفها في مصارف الخير أو الشر وبإخراج الحقوق الواجبة منها والبخل بها وغير ذلك من طرق الامتحان **(ويمنون بدينهم على ربهم)** كما منّ من قبلهم بذلك على ما حكى الله عنهم بقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٦] **(ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته)** الأمن من سخط الله سبحانه كالأياس من رحمته من الكبائر الموبقة، وأما تمني الرحمة مع عدم المبالاة في الدين فهو من صفة الجاهلين وقد روى عنه صلى الله عليه وآله قال: «أحمق الحمقاء من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[(٢)].

(ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية) أي الغافلة ووصف الأهواء بها للمبالغة كما في قولهم: شعر شاعر، فإن اتباع الهوى لما كان موجباً للغفلة عن الحق صحّ اتصافه به، والمراد أن استحلالهم للحرام بسبب متابعتهم لهوى أنفسهم الصّاد لهم عن الحق والشاغل بهم إلى الدنيا.

روى أبو حمزة عن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقول الله عزّ وجل: وعزتي وجلالي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه على هواي أي إلا شتت عليه أمره ولبّست عليه دنياه وشغلت قلبه بها ولم أوته منها إلا ما قدرت له وعزتي وجلالي

---

(١) الكافي: ١/ ٣٧٠ ح ٤، والتوحيد: ٣٨٦.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٥٥.

وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا استحفظته ملائكتي، وكفّلت السماوات والأرضين رزقه وكنت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا وهي راغمة[١].

وأشار إلى تفصيل ما يستحلونه من المحرمات بقوله: **(فيستحلّون الخمر بالنبيذ)** الغالب في الخمر إطلاقه على الشراب المتخذ من العنب، وفي النبيذ استعماله في الشراب المتخذ من التمر، ومن ذلك نشأت شبهتهم حيث زعموا أن النبيذ ليس بخمر فحكموا بحلّيته أي حلّية النبيذ بتوهم اختصاص الحرمة بالخمر فأوجب ذلك استحلالهم للخمر من حيث لا يشعرون.

وقد ذمهم عليه السلام على ذلك تنبيهاً على فساد ما زعموه وهو كذلك[٢].

أما أولاً: فلمنع خروج النبيذ من موضوع الخمر، لأن الخمر عبارة عن كل ما يخمر العقل أي يستره ويغطيه، فيشمل النبيذ وغيره وإن كان استعماله في العصير العنبي أكثر.

ويدل عليه ما رواه في **(الوسائل)** عن الكليني بسنده عن عبد الرحمٰن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الخمر من خمسة: العصير من الكرم، والنقيع من الزبيب، والبتع من العسل، والمرز من الشعير، والنبيذ من التمر»[٣].

وعن الكليني عن عامر بن السمط عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: الخمر من خمسة أشياء: من التمر، والزبيب، والحنطة، والشعير، والعسل[٤].

وفيه أيضاً عن ابن الشيخ في **(أماليه)** بإسناده عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «أيها الناس، إن من العنب خمراً، وإن من الزبيب خمراً، وإن من التمر خمراً، وإن من الشعير خمراً، ألا أيها الناس أنهاكم عن كل مسكر».

وأما **ثانياً**: فلمنع اختصاص حكم الحرمة بخصوص الخمر بعد تسليم عدم شموله للنبيذ حقيقة، وذلك لتعلق الحكم بكل مسكر كما مر في الرواية آنفاً.

ومثله ما رواه في **(الوسائل)** عن الكليني عن عطاء بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كل مسكر حرام وكل مسكر خمر»[٥].

---

(١) التفسير الصافي: ١/ ٨٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٧٥٢.
(٢) الكافي: ٢/ ٣٥٥ ح ٢، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٣٧٩ ح ٢٠٥١١.
(٣) الكافي: ٦/ ٣٩٢ ح ١، وتهذيب الأحكام: ٩/ ١٠١.
(٤) الكافي: ٦/ ٣٩٢ ح ٢، ودعائم الإسلام: ٢/ ١٣٣.
(٥) الكافي: ٦/ ٤٠٨ ح ٣، ووسائل الشيعة: ٢٥/ ٣٢٦ ح ٣٢٠٢٩.

وفيه عن علي بن إبراهيم القمي في **(تفسيره)** عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية، أما الخمر فكل مسكر من الشراب إذا أخمر فهو خمر وما أُسكر كثيره فقليله حرام وذلك إن أبا بكر شرب قبل أن يحرم الخمر فسكر إلى أن قال: فأنزل الله تحريمها بعد ذلك وإنما كانت الخمر يوم حرمت بالمدينة فضيخ البسر والتمر، فلما نزل تحريمها خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقعد في المسجد ثم دعا بآنيتهم التي كانوا ينبذون فيها فأكفاها كلها، وقال صلى الله عليه وآله: «هذه كلها خمر حرّمها الله»، فكان أكثر شيء أكفى في ذلك اليوم الفضيخ ولم أعلم أكفى يومئذ من خمر العنب شيء إلا إناء واحد كان فيه زبيب وتمر جميعاً، فأما عصير العنب فلم يكن منه يومئذ بالمدينة شيء، وحرّم الله الخمر قليلها وكثيرها وبيعها وشرائها والانتفاع بها، هذا[1].

ويدل على حرمة النبيذ بخصوصه ما رواه في **(الوسائل)** عن الكليني بإسناده عن خضر الصيرفي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من شرب النبيذ على أنه حلال خلد في النار، ومن شربه على أنه حرام عذّب في النار.

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن علي عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام لو أن رجلاً كحل عينيه بميل من نبيذ كان حقاً على الله عزَّ وجل أن يكحله بميل من نار.

وفيه عن الشيخ بإسناده عن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يكون مسلماً عارفاً إلا أنه يشرب المسكر هذا النبيذ، فقال لي: يا عمار إن مات فلا تصلِّ عليه[2].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة وفيما أوردناها كفاية.

(و) يستحلون **(السحت بالهدية)** السحت الحرام وكل ما لا يحل كسبه، وفي **(مجمع البحرين)** عن علي عليه السلام هو الرشوة في الحكم ومهر البغي وكسب الحجام وعسب الفحل وثمن الكلب وثمن الخمر وثمن الميتة.

والظاهر أن المراد به هنا خصوص الرشوة كما فسّره بها الصادق عليه السلام فيما رواه في **(الوسائل)** عن الشيخ بإسناده عن أحمد بن محمد عن محمد بن سنان عن ابن مسكان عن يزيد بن فرقد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام السّحت فقال: هو الرشاء في الحكم[3].

---

(١) وسائل الشيعة: ٢٥/ ٢٨١، وبحار الأنوار: ٦٣/ ٤٨٨.

(٢) تهذيب الأحكام: ٩/ ١١٧، ووسائل الشيعة: ٢٥/ ٣١٢.

(٣) التفسير الأصفى: ١/ ٢٧٦، والكافي: ٥/ ١٢٧ ح ٤.

والمقصود أنهم يأخذون الرشوة إذا أهديت إليهم ويستحلونها بزعم أنها هدية.

قال الفاضل النّراقي: الفرق بين الرشوة والهدية أن الأولى هي المال المبذول للقاضي للتوسل به إلى الحكم ابتداء أو إرشاداً، والثانية هي العطية المطلقة أو لغرض آخر نحو التودد والتقرب إليه أو إلى الله، والحاصل أن كل مال مبذول للشخص للتوسل به إلى فعل صادر منه ولو مجرد الكفّ عن شره لساناً أو يداً أو نحوهما فهو الرشوة، ولا فرق في الفعل الذي هو غاية البذل أن يكون فعلاً حاضراً أو متوقعاً كأن يبذل للقاضي لأجل أنه لو حصل له خصم يحكم للباذل وإن لم يكن له بالفعل خصم حاضر ولا خصومة حاضرة، وكل مبذول لا لغرض يفعله المبذول له بل لمجرد التقرب أو التودد إليه أو لصفة محمودة أو كمال فيه فهو هدية وإن كان الغرض من التودد والتقرب الاحتفاظ من شر شخص آخر أو التوسل إلى فعل شخص آخر يوجبه التقرب والتودد إليه.

وقد يستعمل لفظ أحدهما في معنى الآخر تجوزاً فما كان من الأول.

فإن كان الفعل المقصود الحكم فهو حرام مطلقاً سواء كان الحكم لخصومة حاضرة أو فرضية، ولذا حكموا بحرمة الهدية الغير المعهودة قبل القضاء، لأنه قرينة على أنه المقصود منه الحكم ولو فرضاً وهو كذلك لصدق اسم الرشوة عرفاً فيشمله إطلاقاتها وعليه يحمل إطلاق ما ورد من طريق العامة والخاصة كما في **(أمالي)** الشيخ: أن هدايا العمال كما في بعضها أو هدية الأمراء كما في بعض آخر غلول أو سحت[1].

ويدل عليه أيضاً رواية أبي حميد الساعدي، قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً يقال له: اللتة على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أُهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: «ما بال العامل نبعثه على أعمالنا يقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، فهلا جلس في قعب بيته أو في بيت الله ينظر ليهدى أم لا، والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منها شيئاً إلا جاء يوم القيامة يحمل على رقبته»، الحديث[2].

وإن كان غير الحكم فإن كان أمراً محرماً فهو أيضاً كرشوة الحكم محرّم لكونه إعانة على الإثم واتباعاً للهوى، وإن لم يكن محرماً فلا يحرم للأصل واختصاص الأخبار المتقدمة برشوة الحكم، وما كان من الثاني لا يحرم.

(و) يستحلّون **(الربا بالبيع)** الربا لغة هو الزيادة وشرعاً هو الزيادة على رأس المال من

---

(١) مستند الشيعة: ١٧/٧٣.

(٢) مسند الحميدي: ٢/٣٧١، وتفسير ابن كثير: ١/٤٣١.

أحد المتساويين جنساً مما يكال أو يوزن، والمراد أنهم يأخذون الزيادة بواسطة البيع أي يجعلون المبايعة وسيلة إلى أخذ تلك الزيادة ويزعمون حليتها لأجل أنها معاملة بتراضي الطرفين أو أنهم يستحلون الربا بقياسه على البيع كما كان عليه بناء أهل الجاهلية على ما أخبر الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال الشيخ الطبرسي: أي ذلك العقاب لهم بسبب قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ﴾ فيه مثل البيع الذي فيه الربا.

قال ابن عباس: كان الرجل منهم إذا حلّ دينه على غريمه فطالبه به قال المطلوب منه له: زدني في الأجل وأزيدك في المال، فيتراضيان عليه ويعملان به، فإذا قيل لهم: هذا رباً، قالوا: هما سواء، يعنون بذلك أن الزيادة في الثمن حال البيع والزيادة فيه بسبب الأجل عند حل الدين سواء، فذمهم الله به والحق الوعيد بهم وخطأهم في ذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

وقال الفخر الرازي: إعلم أن الربا قسمان: ربا النسيئة وربا الفضل، أما ربا النسيئة فهو الأمر الذي كان متعارفاً مشهوراً في الجاهلية، وذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدراً معيناً ويكون رأس المال باقياً، ثم إذا حلّ الدين طالبوا المديون برأس المال، فإذا تعذر عليه الأداء زادوا في الحق والأجل، فهذا هو الربا الذي كانوا في الجاهلية يتعاملون به، وأما ربا النقد فهو أن يباع منٌّ من الحنطة بمنوين منها وما أشبه ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ ففيه مسائل.

المسألة الأولى: القوم كانوا في تحليل الربا على هذه الشبهة، وهي أن من اشترى ثوباً بعشرة ثم باعه بأحد عشر فهذا حلال فكذا إذا باع العشرة بأحد عشر يجب أن يكون حلالاً، لأنه لا فرق في العقل بين الأمرين فهذا في ربا النقد.

وأما في ربا النسيئة فكذلك أيضاً لأنه لو باع الثوب الذي يساوي عشرة في الحال بأحد عشر إلى شهر جاز، فكذا إذا أعطى العشرة بأحد عشر إلى شهر وجب أن يجوز، لأنه لا فرق في العقل بين الصورتين، وذلك لأنه إنما جاز هنا لأنه حصل التراضي فيه من الجانبين فكذا هٰهنا لما حصل التراضي من الجانبين وجب أن يجوز أيضاً، فالبياعات أنما شرعت لدفع الحاجات ولعل الإنسان أن يكون صفر اليد في الحال شديد الحاجة ويكون له في المستقبل من الزمان أموال كثيرة فإذا لم يجز الربا لم يعطه ربّ المال شيئاً فيبقى الإنسان في الشدّة والحاجة، أما بتقدير جواز الربا فيعطيه ربّ المال طمعاً في الزيادة والمديون يردّه عند وجدان

المال مع الزيادة وإعطاء تلك الزيادة عند وجدان المال أسهل عليه من البقاء في الحاجة فيل وجدان المال، فهذا يقتضي حلّ الربا كما حكمنا بحل سائر البياعات لأجل دفع الحاجة.

فهذا هو شبهة القوم والله تعالى أجاب عنه بحرف واحد وهو قوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

ووجه الجواب أن ما ذكرتم معارضة للنص بالقياس وهو من عمل إبليس، فإنه تعالى لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام عارض النص بالقياس فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، وذكر الفرق بين البابين فقال: من باع ثوباً يساوي العشرة بالعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلاً بالعشرين، فلما حصل التراضي على هذا التقابل صار كل واحد منهما مقابلاً للآخر في المالية عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيئاً بغير عوض، أما إذا باع العشرة بالعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة من غير عوض.

ولا يمكن أن يقال: إن عوضه هو الإمهال في المدة، لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً من العشرة الزائدة، فظهر الفرق بين الصورتين إلى أن قال:

المسألة الثانية: في الآية سؤال، وهو: أنه لِمَ لَمْ يقل: إنما الرّبا مثل البيع وذلك لأن حلّ البيع متفق عليه فهم أرادوا أن يقيسوا عليه الربا، ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق، فكان نظم الآية أن يقال: إنما الربا مثل البيع في الحكمة في قلب هذه القضية، فقال: إنما البيع مثل الربا.

والجواب أنه لم يكن مقصود القوم أن يتمسكوا بنظم القياس، بل كان غرضهم أن الربا والبيع متماثلان من جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل والثاني بالحرمة؟ وعلى هذا التقدير فأيهما قدّم أو أخّر جاز، هذا.

وقال الرازي: وذكروا في سبب تحريم الربا وجوهاً:

أحدها: الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض لأن من يبيع الدرهم بالدرهمين نقداً أو نسية فيحصل له زيادة درهم من غير عوض، ومال الإنسان متعلق حاجته وله حرمة عظيمة.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون إبقاء رأس المال في يده مدة مديدة عوضاً عن الدرهم الزائد، وذلك لأن رأس المال لو بقي في يده هذه المدة لكان يمكن المالك أن يتّجر فيه ويستفيد بسبب تلك التجارة ربحاً، فلما تركه في يد المديون وانتفع به المديون لم يبعد أن يدفع إلى ربّ المال ذلك الدرهم الزائد عوضاً عن انتفاعه بماله.

قلنا: إن هذا الانتفاع الذي ذكرتم أمر موهوم لا ينفك عن نوع ضرر موهوم قد يحصل

وقد لا يحصل، وأخذ الدراهم الزائدة متيقن فتفويت المتيقن لأجل الأمر الموهوم لا ينفك عن نوع ضرر.

وثانيها: قال بعضهم: الله تعالى إنما حرم الربا من حيث إنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً كان أو نسية خفّ عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات.

وثالثها: قيل: السبب في تحريم عقد الربا إنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم واسترجاع مثله، ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

أقول: وهذا الوجه الأخير هو المروي عن الصادق عليه السلام قال: إنما شدّد الله في تحريم الربا لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف قرضاً ورفداً.

قال بعض العارفين: آكل الربا أسوء حالاً من جميع مرتكبي الكبائر، فإن كل مكتسب له تؤكل ما في كسبه قليلاً كان أو كثيراً كالتاجر والزارع والمحترف لم يعينوا أرزاقهم بعقولهم ولم يتعين لهم قبل الاكتساب، فهم على غير معلوم في الحقيقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يعلم، وأما آكل الربا فقد عيّن مكسبه ورزقه وهو محجوب عن ربّه بنفسه وعن رزقه بتعيينه لا توكل له أصلاً، فوكله الله إلى نفسه وعقله وأخرجه من حفظه وكلاءته فاحتفظته الجن وخبلته فيقوم يوم القيامة ولا رابطة بينه وبين الله عزَّ وجل كسائر الناس المرتبطين به بالتوكل، فيكون كالمصروع الذي مسّه الشيطان فتخبّطه لا يهتدي إلى مقصد»[1]، هذا.

والأخبار في عقاب الربا كثيرة جداً.

منها ما في (**الصافي**) عن (**الكافي**) عن الصادق عليه السلام: درهم ربا أشدّ من سبعين زنية كلها بذات محرم[2]. وزاد في (**الفقيه والتهذيب**): مثل خالة وعمة، وزاد القمي: في بيت الله الحرام، وقال: الربا سبعون جزء أيسره مثل أن ينكح الرجل أمه في بيت الله الحرام.

---

(١) التفسير الصافي: ١/ ٣٠٣.

(٢) تهذيب الأحكام: ٧/ ١٤ ح ٦١، ووسائل الشيعة: ١٨/ ١١٧.

وعن **(الفقيه والتهذيب)** عن أمير المؤمنين عليه السلام: لعن رسول الله صلى الله عليه وآله الربا وآكله وبائعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه[١].

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما بيّن لأمير المؤمنين عليه السلام أوصاف المفتونين فأعاد عليه السلام السؤال وقال: (**فقلت: يا رسول الله فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ فقال: «بمنزلة فتنة»**) وذلك لبقائهم على الإقرار بالشهادتين وإن ارتكبوا من المحارم ما ارتكبوا لشبه غطت على أعين أبصارهم، فلا يجري عليهم في الظاهر أحكام الكفر وإن كانوا باطناً من أخبث الكفار.

تنبيهات

الأول: قال الشارحان المعتزلي والبحراني: إن هذا الخبر الذي رواه أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قد رواه كثير من المحدثين عنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال صلى الله عليه وآله: «إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين كما كتب عليّ جهاد المشركين»، قال عليه السلام: فقلت: يا رسول الله ما هذه الفتنة التي كتب عليّ فيها الجهاد؟ قال صلى الله عليه وآله: «فتنة قوم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وهم مخالفون للسنة»، فقلت: يا رسول الله فعلى ما أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال صلى الله عليه وآله: «على الإحداث في الدين ومخالفة الأمر»، فقلت: يا رسول الله إنك كنت وعدتني بالشهادة فاسأل الله أن يعجلها لي بين يديك، قال: «فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، أما أني وعدتك بالشهادة وستشهد تضرب على هذا فتخضب هذه، فكيف صبرك إذاً؟»، فقلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبر هذا موطن شكر، قال: «أجل، أصبت فأعد للخصومة فإنك مخاصم»، فقلت: يا رسول الله لو بيَّنت لي قليلاً، فقال صلى الله عليه وآله: «إن أمتي ستفتن من بعدي فتتأوّل القرآن، وتعمل بالرأي، وتستحل الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية، والربا بالبيع، وتحرّف الكلم عن مواضعه، وتغلب كلمة الضلال فكن جليس بيتك حتى تقلّدها، فإذا قلدتها، جاشت عليك الصدور، وقلبت لك الأمور، فقاتل حينئذ على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فليست حالهم الثانية دون حالهم الأولى»، فقلت: يا رسول الله فبأي المنازل أنزل هؤلاء المفتونين؟ أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة؟ فقال صلى الله عليه وآله: «بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل»، فقلت: يا رسول الله أيدركهم العدل منا أم من غيرنا؟ قال صلى الله عليه وآله: «بل منّا، بنا فتح الله وبنا يختم، وبنا ألّف الله بين القلوب بعد الشرك»، فقلت: الحمد لله على ما وهب لنا من فضله[٢].

---

(١) دعائم الإسلام: ٢/ ٣٧ ح ٨٣، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ٢٧٤.
(٢) وسائل الشيعة: ١١/ ٦١ ح ٨، والأمالي: ٢٩٠.

بيان

قوله ﷺ: «كن جليس بيتك» هكذا في نسخة الشارح المعتزلي فعيل بمعنى فاعل، أي كن من يجالس بيتك، وفي نسخة البحراني: حلس بيتك بالحاء المهملة وزن حبر. قال في (**مجمع البحرين**): في الخبر كونوا أحلاس بيوتكم، الحلس بالكسر كساء يوضع على ظهر البعير تحت البرذعة، وهذا هو الأصل، والمعنى: إلزموا بيوتكم لزوم الأحلاس ولا تخرجوا منها فتقعوا في الفتنة، والضمير في تقلّدها وقلّدتها على البناء للمفعول فيهما راجع إلى الخلافة، والتقليد مأخوذ من عقد القلادة على الاستعارة وتقليدهم إطاعتهم وترك الفساد، وجأش القدر بالهمز وغيره غلا، (**وقلبت لك الأمور**): أي دبّروا أنواع المكائد والحيل.

الثاني: قال الشارح المعتزلي: في قوله عليه السلام: (**بل بمنزلة فتنة**) تصديق لمذهبنا في أهل البغي وأنهم لم يدخلوا في الكفر بالكلية، بل هم فسّاق، والفاسق عندنا في منزلة بين المنزلتين خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، انتهى[1].

أقول: قد علمت تحقيق الكلام في حكم البغاة والخوارج في شرح الخطبة الثالثة والثلاثين وظهر لك هناك أنهم محكومون بكفرهم باطناً وإن يجري عليهم في الظاهر أحكام الإسلام، ولقد ظفرت حيثما بلغ بنا الشرح إلى هذا المقام على تحقيق أنيق للعلامة المجلسي قدّس سره العزيز في هذا المرام، فأحببت أن أورده هنا لكونه معاضداً لما قدمنا، فأقول: قال قدّس الله روحه في المجلد الثامن من (**البحار**) في باب حكم من حارب أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام:

تذييل

إعلم أنه قد اختلف في أحكام البغاة في مقامين:

الأول: في كفرهم، فذهب أصحابنا إلى كفرهم. قال المحقق الطوسي رحمة الله عليه في (**التجريد**): محاربوا علي عليه السلام كفرة، ومخالفوه فسقة.

أقول: ولعل مراده إن مخالفيه في الحرب والذين لم ينصروه فسقة كما يومىء إليه بعض كلماته فيما بعد.

وذهب الشافعي: إلى أن الباغي ليس باسم ذمّ، بل هو اسم من اجتهد فأخطأ بمنزلة من خالف الفقهاء في بعض المسائل.

---

(١) شرح النهج: ٩/٢٠٨.

وقال شارح (**المقاصد**): والمخالفون لعلي عليه السلام بغاة، لخروجهم على إمام الحق بشبهة من ترك القصاص من قتلة عثمان، ولقوله صلى الله عليه وآله لعمار رضي الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»، وقد قتل يوم صفين على يد أهل الشام، ولقول علي عليه الصلاة والسلام: إخواننا بغوا علينا وليسوا كفاراً ولا فسقة وظلمة، لما لهم من التأويل وإن كان باطلاً، فغاية الأمر أنهم أخطأوا في الاجتهاد، وذلك لا يوجب التفسيق فضلاً عن التكفير.

وذهبت المعتزلة إلى أنه اسم ذمّ ويسمّونهم فسّاقاً.

والدلائل على ما ذهب إليه أصحابنا أكثر من أن تحصى، وقد مضت الأخبار الدالة عليه وسيأتي في أبواب حبّ أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه صلوات الله الملك الغالب وبغضه عليه الصلاة والسلام وأبواب مناقبه وإيرادها هنا يوجب التكرار، فبعضها صريح في كفر مبغض أهل بيت العصمة والطهارة عليهم الصلاة والسلام، ولا ريب في أن الباغي مبغض، وبعضها يدل على كفر من أنكر إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، وبعضها على أن الجاحد له من أهل النار. وبعضها يدل على كفر من لم يعرف إمام زمانه، وذلك مما اتفقت عليه كلمة الفريقين، والبغي لا يجامع في الغالب معرفة الإمام، ولو فرض باغ على الإمام لأمر دنيوي من غير بغض ولا إنكار لإمامته فهو كافر أيضاً، لعدم القائل بالفرق.

ثم إن الظاهر[1] أن قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩] لا يتعلّق بقتال البغاة بالمعنى المعروف، لما عرفت من كفرهم، وإطلاق المؤمن عليهم باعتبار ما كانوا عليه بعيد، وظاهر الآية التالية وهي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات: ١٠] بقاء المذكورين في الآية السابقة على الإيمان، ولعله السر في خلو أكثر الأخبار عن الاحتجاج بهذه الآية في هذا المقام، فتكون الآية مسوقة لبيان حكم طائفتين من المؤمنين تعدّت وبغت إحديهما على الأخرى لأمر دنيوي أو غيرها مما لا يؤدي إلى الكفر.

الثاني: فيما اغتنمه المسلمون من أموال البغاة فذهب بعض الأصحاب إلى أنه لا يقسم أموالهم مطلقاً، وذهب بعضهم إلى قسمة ما حواه العسكر دون غيره من أموالهم وتمسك الفريقان بسيرته عليه السلام في أهل البصرة.

قال الأولون: لو جاز الاغتنام لم يردّ عليه السلام عليهم أموالهم وقد روى أنه عليه السلام نادى: من

---

(١) أي في تلك الأمثلة.

وجد ماله فله أخذه، فكان الرجل منهم يمرّ بمسلم يطبخ في قدر فيسأله: أن يصبر حتى ينضج؟ فلا يصبر فيكفاها ويأخذها، وأنه عليه السلام كان يعطي من القوم من له بيّنة ومن لم يكن له بيّنة فيحلفه ويعطيه.

وقال الآخرون: لولا جوازه لما قسّم عليه السلام أموالهم أولاً بين المقاتلة وقد كان ردّها عليهم بعد ذلك على سبيل المنّ لا الاستحقاق كما منّ النبي صلى الله عليه وآله على كثير من المشركين، وقد رووا عنه عليه السلام أنه قال: مننت على أهل البصرة كما منّ النبي صلى الله عليه وآله على أهل مكة، ولذا ذهب بعض أصحابنا على جواز استرقاقهم كما جاز للرسول صلى الله عليه وآله في أهل مكة، والمشهور عدمه.

والذي نفهم من الأخبار أنهم واقعاً في حكم المشركين وغنائمهم وسبيهم في حكم غنائم المشركين وسبيهم، والقائم عليه السلام يجري عليهم تلك الأحكام، ولما علم أمير المؤمنين عليه السلام استيلاء المخالفين على شيعته لم يجر هذه الأحكام عليهم لئلا يجروها على شيعته، وكذا الحكم بطهارتهم وجواز مناكحهم وحلّ ذبيحتهم لاضطرار معاشرة الشيعة معهم في دولة المخالفين.

ويدل عليه ما رواه الكليني بإسناده عن أبي بكر الحضرمي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لسيرة عليّ يوم البصرة كانت خيراً للشيعة مما طلعت عليه الشمس لأنه علم أن للقوم دولة فلو سباهم لسبيت شيعته، قلت: فأخبرني عن القائم أيسير بسيرته عليه السلام؟ قال: لا، إن علياً سار فيهم بالمنّ، للعلم من دولتهم، وإن القائم عليه السلام يسير فيهم بخلاف تلك السيرة، لأنه لا دولة لهم[1].

وأما ما لم يحوها العسكر من أموالهم فنقلوا الإجماع على عدم جواز تملّكها، وكذلك ما حواه العسكر إذا رجعوا إلى طاعة الإمام عليه السلام وإنما الخلاف فيما حواه العسكر مع إصرارهم، وأما مدبرهم وجريحهم وأسيرهم فذو الفئة منهم يتبع ويجهز عليه ويقتل، بخلاف غيره، وقد مضت الأخبار في ذلك وستأتي في باب سيرته عليه السلام في حروبه.

تكملة

قال الشيخ قدس الله روحه في **(تلخيص الشافي)**: عندنا أن من حارب أمير المؤمنين وضرب وجهه ووجه أصحابه بالسيف كافر، والدليل المعتمد في ذلك إجماع الفرقة المحقة الإمامية على ذلك، فإنهم لا يختلفون في هذه المسألة على حال من الأحوال وتدلّنا على أن

(١) المحاسن: ٢٠/٣٢٠ ح ٥٥، والكافي: ٥/٣٣ ح ٤.

إجماعهم حجة فيما تقدم، وأيضاً فنحن نعلم أن من حاربه عليه السلام كان منكراً لإمامته ودافعاً لها، ودفع الإمامة كفر كما أن دفع النبوة كفر، لأن الجهل بهما على حد واحد.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من مات وهو لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وميتة جاهلية لا تكون إلا على كفر».

وأيضاً روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «حربك يا علي حربي، وسلمك يا علي سلمي»، ومعلوم أنه صلى الله عليه وآله إنما أراد أحكام حربك تماثل أحكام حربي، ولم يرد أن إحدى الحربين هي الأخرى، لأن المعلوم ضرورة خلاف ذلك وإن كان حرب النبي كفراً أوجب مثل ذلك في حرب أمير المؤمنين عليه السلام لأنه جعله مثل حربه.

ويدل على ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وآله: «اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه»[1]، ونحن نعلم أنه لا يحب عداوة أحد بالإطلاق إلا عداوة الكفّار.

وأيضاً فنحن نعلم أن من كان يقاتله يستحلّ دمه ويتقرّب إلى الله بذلك، واستحلال دم مؤمن مسلم كفر بالإجماع، وهو أعظم من استحلال جرعة من الخمر الذي هو كفر بالاتفاق.

فإن قيل: لو كانوا كفاراً لوجب أن يسير فيهم بسيرة الكفار، فيتبع موليهم ويجهز على جريحهم، ويسبي ذراريهم، فلما لم يفعل ذلك دلّ على أنهم لم يكونوا كفاراً.

قلنا: لا يجب بالتساوي في الكفر التساوي في جميع أحكامه، لأن أحكام الكفر مختلفة، فحكم الحربي خلاف حكم الذمي، وحكم أهل الكتاب خلاف حكم من لا كتاب له من عباد الأصنام، فإن أهل الكتاب تؤخذ منهم الجزية ويقرّون على أديانهم، ولا يفعل بعباد الأصنام، وعند من خالفنا من الفقهاء يجوز التزوج بأهل الذمة وإن لم يجز ذلك في غيرهم، وحكم المرتدّ بخلاف حكم الجميع، وإذا كانت أحكام الكفر مختلفة مع الاتفاق في كونه كفراً لا يمتنع أن يكون من حاربه كافراً وإن سار فيهم بخلاف أحكام الكفار.

وأما المعتزلة وكثير من المنصفين من غيرهم فيقولون بفسق من حاربه ونكث بيعته ومرق عن طاعته، وإنما يدعون أنهم تابوا بعد ذلك، ويرجعون في إثبات توبتهم إلى أمور غير مقطوع بها ولا معلومة من أخبار الآحاد، والمعصية معلومة مقطوع عليها، وليس يجوز الرجوع عن المعلوم إلا بمعلوم مثله.

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٢٢٩.

الترجمة

فصل ثانی از کلام آن امام انام است، می فرماید:

راه ایمان راهی است روشن تر از همه راه ها و نورانی تر از جمیع چراغ ها، پس با ایمان استدلال کرده می شود به اعمال صالحه و با اعمال صالحه استدلال کرده می شود با ایمان و با ایمان آباد شده می شود علم و با علم ترس حاصل می شود از مرگ و با مرگ ختم می شود دنیا و با دنیا محکم می شود کار آخرت و با قیامت نزدیك شده می شود بهشت عنبرسرشت از برای متّقین و اظهار می شود دوزخ از برای معصیت کاران و به درستی که مخلوقان هیچ مکان نگهدارنده نیست ایشان را از ورود قیامت در حالتی که سرعت کننده اند در میدان آن به سوی غایت نهایت که عبارت است از سعادت و شقاوت.

بعض دیگر از این کلام در بیان حال اهل قبور است، می فرماید:

به تحقیق که کوچ کردند ایشان از قرار گاه قبرها و منتقل شدند به محل انتقال غایت ها که عبارت است از بهشت و جهنّم و از برای هر خانه از این دو خانه اهلی است که طلب نمی کنند عوض نمودن آن را به خانه دیگر و نقل کرده نمی شوند از آن خانه به سوی غیر آن. و به درستی که امر به معروف و نهی از منکر دو خلق پسندیده هستند از اخلاق خدا و به درستی که این دو خلق نزدیك نمی گردانند از مرگ و کم نمی کنند از روزی و لازم نمایید به خودتان عمل کردن کتاب خدا را، پس به درستی که او است ریسمان محکم و نور آشکار و شفادهنده بامنفعت و سیراب کننده ای که رفع عطش می نماید و نگاه دارنده از برای کسی که تمسّك به آن نماید و نجات دهنده مرکسی که تعلّق به آن داشته باشد، کج نمی شود تا راست کرده شود و عدول نمی کند از حق تا طلب کرده شود بازگشت آن به سوی حق و کهنه نمی کند آن را کثرت ورد آن به زبان ها و دخول آن به گوش ها، هرکس قایل شد به آن کتاب صادق شد و هرکس عمل نمود به آن سبقت کرد به درجات جنان و روضه رضوان.

و برخاست به سوی آن حضرت در اثنای این کلام مردی، پس عرض نمود: ای امیرمؤمنان، خبر ده ما را از فتنه و بليّه و آيا پرسيدی آن را از حضرت رسول (ﷺ)؟ پس فرمود:

زمانی که نازل نمود حق سبحانه و تعالی آیه:

﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولوُا آمَنَّا وَ هُمْ لايُفْتَنُونَ﴾، یعنی "منم خدای لطیف مجید آیا گمان کردند مردمان که ایشان ترك کرده می شوند به حال خودشان به محض اینکه می گویند ایمان آوردیم ما؟ و حال آنکه ایشان امتحان کرده نشوند"؛

دانستم من که فتنه نازل نمی شود به ما و حال آنکه حضرت رسالت مآب (ﷺ) در میان ما است، پس گفتم یا رسول الله چیست این فتنه و امتحان که خبر داده تو را خداوند متعال به آن؟ پس فرمود آن حضرت که: ای علی، به درستی که امّت من زود باشد که به فتنه افتند بعد از من. پس گفتم: ای رسول خدا، آیا نبود که گفتی مرا در روز جنگ احد، هنگامی که به درجه شهادت رسیدند کسانی که شهید شدند از مسلمانان و منع شد از من شهادت، پس دشوار آمد این شهید نشدن به من، پس فرمودی تو به من که: شاد باش که شهادت از پس تو است، پس فرمود حضرت رسول به من که: یا علی کار به همین قرار است؛ (یعنی البتّه شهید خواهی شد) پس چگونه است صبر تو آن هنگام؟ عرض کردم: یا رسول الله، نیست این مقام از مقام های صبر و شکیبایی ولکن از مواضع بشارت و شکر است، پس فرمود آن حضرت: ای علی، به درستی این قوم زود باشد که مفتون باشند بعد از من به مال های خودشان و منّت گذاری کنند به دین خود به پروردگار خودشان و آرزو نمایند رحمت او را و ایمن شوند از سخط او و حلال شمارند حرام او را با شبهه های دروغ و با خواهشات غفلت کننده، پس حلال شمارند شراب را به نبیذ و رشوت را به اسم هدیه و ربا را به سبب مبایعه، پس گفتم: یا رسول الله، به کدام منزل ها نازل کنم ایشان را در آن حال؟ آیا به منزله فتنه یا به منزله مرتد شدن؟ پس فرمود که: به منزله فتنه، از جهت اینکه ظاهراً اقرار به شهادتین دارند اگرچه باطناً کافرند.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسادسة والخمسون
من المختار في باب الخطب

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الحَمْدَ مِفْتاحاً لِذِكْرِه، وسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، ودَلِيلاً عَلىٰ آلاءِهِ وعَظَمَتِهِ، عِبادَ اللَّهِ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالباقِينَ كَجَرْيِهِ بِالماضِينَ، لا يَعُودُ ما قَدْ وَلّىٰ مِنْهُ، وَلا يَبْقىٰ سَرْمَداً ما فيهِ، آخِرُ فِعالِهِ كَأَوَّلِهِ، مُتَشابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظاهِرَةٌ أَعْلامُهُ، فَكَأَنَّكُمْ بِالسّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزّاجِرِ بِشَوْلِهِ، فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُماتِ، وَارْتَبَكَ فِي الهَلَكاتِ، ومَدَّتْ بِهِ شَياطِينُهُ في طُغْيانِه، وزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّءَ أَعْمالِهِ، فَالجَنَّةُ غايَةُ السّابِقِينَ، والنّارُ غايَةُ المُفْرِطِينَ، اعْلَمُوا عِبادَ اللَّهِ أَنَّ التَّقْوىٰ دارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، والفُجُورَ دارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلا يُحْرِزُ مَنْ لَجأَ إِلَيْهِ، أَلا وَبِالتَّقْوىٰ تُقْطَعُ حُمَةُ الخَطايا، وبِاليَقِينِ تُدْرَكُ الغايَةُ القُصْوىٰ، عِبادَ اللَّهِ اللَّهَ اللَّهَ في أَعزِّ الأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وأَحَبِّها إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الحَقِّ، وأَنارَ طُرُقَهُ، فَشَقْوَةٌ لازِمَةٌ، أَوْ سَعادَةٌ دائِمَةٌ، فَتَزَوَّدُوا في أَيّامِ الفَناءِ لأَيّامِ البَقاءِ، قَدْ دُلِلْتُمْ عَلىٰ الزّادِ، وأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وحُثِثْتُمْ عَلىٰ المَسِيرِ، فَإِنَّما أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لا تَدْرُونَ مَتىٰ تُؤْمَرُونَ بِالسَّيرِ، أَلا فَما يَصْنَعُ بِالدُّنْيا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ، وما يَصْنَعُ بِمالٍ مَنْ عَمّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، ويَبْقىٰ عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وحِسابُهُ، عِبادَ اللَّهِ إِنَّهُ لَيْسَ لِما وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الخَيْرِ مَتْرَكٌ ولا فِيما نَهىٰ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ، عِبادَ اللَّهِ احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الأَعْمالُ، ويَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزالُ، وتَشِيبُ فِيهِ الأَطْفالُ، إِعْلَمُوا عِبادَ اللَّهِ أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وعُيُوناً مِنْ جَوارِحِكُمْ، وحُفّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمالَكُمْ، وعَدَدَ أَنْفاسِكُمْ، لا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ داجٍ، ولا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بابٌ ذُو رِتاجٍ، وإِنَّ غَداً مِنَ اليَوْمِ قَرِيبٌ، يَذْهَبُ اليَوْمُ بِما فِيهِ، ويَجِيءُ الغَدُ لاحِقاً بِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، ومَخَطَّ حُفْرَتِه، فَيا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، ومَنْزِلِ وَحْشَةٍ، ومُفْرَدِ غُرْبَةٍ، وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، والسّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ القَضاءِ، قَدْ زاحَتْ عَنْكُمُ الأَباطِيلُ، واضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ العِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الحَقائِقُ، وصَدَرَتْ بِكُمُ الأُمُورُ مَصادِرَها، فَاتَّعِظُوا بِالعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالغِيَرِ، وانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ(١).

اللغة

(زجر) البعير من باب نصر ساقه و (شول) جمع شائلة على غير قياس وهي من الإبل ما

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٣٢، وجواهر المطالب في مناقب الإمام علي (ع): ١/ ٣٠٩.

أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجفّ لبنها، وجمع الجمع أشوال، وأما الشائل بغير هاء فهي الناقة تشول وترفع ذنبها للقاح، والجمع شوّل مثل راكع وركّع و **(الحمة)** بضم الحاء وفتح الميم إبرة العقرب وهي محلّ سمّها، وربما يطلق على نفس السم، ويروى: حمّة بالتشديد من حمة الحر وهو معظمه و **(رتج)** الباب أغلقه كارتجه و **(مخط حفرته)** في بعض النسخ بالخاء المعجمة لأن القبر يخطّ أولاً ثم يحفر، وفي بعضها بالحاء المهملة من حطّ القوم إذا نزلوا.

الإعراب

قوله: **(الله الله في أعز الأنفس)** منصوبان على التحذير، وحذف العامل وجوباً، أي احذروا الله أو اتقوا الله. قال نجم الأئمة: وحكمة اختصاص وجوب الحذف بالمحذر منه المكرر كون تكريره دالاً على مقارنة المحذر منه للمحذر بحيث يضيق الوقت إلا عن ذكر المحذر منه على أبلغ ما يمكن، وذلك بتكريره ولا يتسع لذكر العامل مع هذا المكرر، وإذا لم يكرر الاسم جاز إظهار العامل اتفاقاً.

وقوله: **(فشقوة لازمة أو سعادة دائمة)** مرفوعان على الخبرية أي فعاقبتكم شقوة أو سعادة، أو مبتدآن محذوفا الخبر، ولا يضر نكارتهما لكونهما نكرة موصوفة والتقدير فشقوة لازمة لمن نكب عنها أو سعادة دائمة لمن سلكها، أي سلك هذه الطرق، ويجوز أن يكونا فاعلين لفعل محذوف.

وقوله: **(فما يصنع)** استفهام إنكاري على سبيل التقريع والتوبيخ، **(وعن)** في قوله: **(عما قليل)** بمعنى بعد، والضمير في قوله: **(أنه ليس)** آه للشأن، وإضافة المخط إلى حفرته من باب الإضافة في سعيد كرز إذ المراد بهما القبر، وقوله: **(فيا له من بيت وحدة)** النداء للتفخيم والتهويل، **(واللام)** للاستغاثة، والضمير في له راجع إلى مخط حفرته، **(ومن بيت وحدة)** تمييز.

قال الرضي: وقد يكون الإسم في نفسه تاماً لا لشيء آخر أعني لا يجوز إضافته فينصب عنه التمييز وذلك في شيئين، أحدهما: الضمير وهو الأكثر وذلك فيما فيه معنى المبالغة والتفخيم كمواضع التعجب نحو: يا له رجلاً ويا لها قصة، ويا لك ليلاً ويا لها خطة «إلى أن قال»: **(فإن كان الضمير فيها[1])** لا يعرف المقصود منه فالتمييز عن المفرد كقول امرىء القيس:

(١) أي في مثل تلك الأمثلة.

فيا لك من ليل كأنّ نجومه بكلّ مغار القتل شدّت بيذبل

وإن عرف المقصود من الضمير برجوعه إلى سابق معين كقولك: جاءني زيد فيا له رجلاً، ويله فارساً، ويا ويحه رجلاً ولقيت زيداً فلله درّه رجلاً، أو بالخطاب لشخص معين نحو: قلت لزيد: يا لك من شجاع ولله درّك من رجل ونحو ذلك، فليس التمييز عن المفرد، لأنه لا إبهام إذاً في الضمير بل عن النسبة الحاصلة بالإضافة، كما يكون كذلك إذا كان المضاف إليه فيها ظاهراً، نحو: يا لزيد رجلاً، ولله درّ زيد رجلاً، إلى آخر ما ذكره.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة الشريفة قد خطب بها للنصح والموعظة وتنبيه المخاطبين من نوم الغفلة والجهالة، وافتتحها بما هو حقيق أن يفتتح به كل كلام ذي بال، أعني حمد الله سبحانه والثناء عليه تعالى بجملة من نعوت كماله فقال: **(الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره)** قال الشارح المعتزلي: لأن أول الكتاب العزيز: الحمد لله ربّ العالمين، والقرآن هو الذكر، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] أقول: هذا إنما يتم لو كانت سورة الفاتحة أول ما نزل من القرآن أو يكون هذا الجمع والترتيب ووقوع الفاتحة في البداء بجعل من الله سبحانه.

أما **الثاني**: فباطل قطعاً إذ نظم السور وتأليفها وترتيبها على ما هي عليه الآن إنما كان في زمن عثمان ومن فعله حسبما عرفته في تذييلات شرح الفصل السابع عشر من الخطبة الأولى.

وأما **الأول**: فهو أيضاً غير معلوم بعد، بل المشهور بين المفسّرين أن أول سورة نزلت بمكة هي سورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾، وقد رواه في **(مجمع البيان)** في تفسير سورة ﴿هل أتى﴾ عن ابن عباس وغيره، نعم قد روي هناك عن سعيد بن المسيب عن علي عليه السلام: أن أول ما نزل بمكة فاتحة الكتاب ثم اقرأ باسم ربك.

فالأولى أن يقال: إن المراد أنه سبحانه جعل الحمد مفتاحاً لذكره في عدّة سور، وإطلاق الذكر على السورة لا غبار عليه كما أن القرآن يطلق على المجموع وعلى البعض من سورة وآية ونحوها **(وسبباً للمزيد من فضله)** بمقتضى وعده الصادق في كتابه العزيز، أعني قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

(ودليلاً على آلائه وعظمته) أما كونه دليلاً على آلائه فيحتمل معنيين:

أحدهما: أنه دليل للحامد على آلائه سبحانه أي على الفوز بها إذ الحمد والشكر سببان للوصول إلى النعم موجبان لزيادتها حسبما عرفت آنفاً، وأنها منه دون غيره، فمن حمد له

تعالى فقد اهتدى بحمده إلى نيل نعمه.

وثانيهما: أن الحمد لله تعالى دليل على أنه صاحب الآلاء والنعم إذ الحمد لا يليق إلا بوليّ النعمة، ولعل الثاني أظهر.

وأما كونه دليلاً على عظمته فلدلالته على عدم تناهي قدرته وعدم نفاد ملكه وخزائنه إذ كلما ازداد الحمد ازدادت النعمة لا يزيده كثرة العطاء إلا كرماً وجوداً فسبحان من لا تفني خزائنه المسائل، ولا تبدل حكمته الوسائل.

ولما فرغ من حمد الله سبحانه شرع في التذكير والموعظة فقال: (**عباد الله إن الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين**) يعني أن جريانه بالأخلاف كجريانه بالأسلاف، قال الشاعر:

فما الدهر إلا كالزمان الذي مضى ... ولا نحن إلا كالقرون الأوائل

وهو من تشبيه المعقول بالمعقول، إذ الجري أمر عقلاني غير مدرك بإحدى الحواس الخمس، ومن باب التشبيه المفصل للتصريح بوجه الشبه وكونه مذكوراً في الكلام وهو قوله: (**لا يعود ما قد ولّي منه ولا يبقى سرمداً ما فيه**) يعني أن ما وليّ منه وأدبر فقد فات ومضى لا عود له أبداً، وما هو موجود فيه فهو في معرض الزوال والفناء ليس له ثبات ولا بقاء، إذ وجود الزماني إنما هو بوجود زمانه، فيكون منقضياً بانقضائه، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ما أحسن الأيام إلا أنها ... يا صاحبي إذا مضت لم ترجع

(**آخر فعاله كأوّله**) وعن بعض النسخ: كأولها، فالضمير راجع إلى فعاله، وعلى ما في المتن فالضمير راجع إلى الدهر فيحتاج إلى تقدير مضاف كأول فعاله، والمراد واحد وإن هو أجزاء الزمان أولاً وآخراً سابقاً ولاحقاً على وتيرة واحدة ونسق واحد أي (**متشابهة أموره**) فإنه كما كان أولاً يعدّ قوماً للفقر وآخرين للغنى وطائفة للصحة وأخرى للمرض، وفرقة للضّعة وأخرى للرّفعة، وجمعاً للوجود وآخر للعدم، وهكذا كذلك هو آخراً، وبالجملة فإن حديثه يخبر عن قديمه، وجديده ينبىء عن عتيقه. قال الشارح المعتزلي: وروى متسابقة أموره، أي شيء منها قبل كل شيء كأنها خيل تتسابق في مضمار (**متظاهرة أعلامه**) أي دلالته على سجيّته وشيمته وأفعاله التي يعامل بها الناس قديماً وحديثاً تظاهر بعضها بعضاً وتعاضده، هذا.

ونسبة هذه الأمور إلى الدهر وإن كان الفاعل في الحقيقة هو الربّ تعالى باعتبار كونه من الأسباب المعدّة لحصول ما يحصل في عالم الكون والفساد من الخير والشر والسعة والضيق حسبما عرفت في شرح الخطبة الثانية والثلاثين.

وقوله: (**فكأنكم بالساعة تحدوكم حدو الزاجر بشوله**) قد مر تحقيق الكلام في شرح نظير هذا الكلام له عليه السلام في شرح الخطبة الحادية والعشرين واستظهرنا هناك أن المراد

بالساعة ساعات الليل والنهار، لأنها تسوق النار إلى الدار الآخرة ويسعى الناس بها إليها، ويجوز أن يراد بها هنا القيامة وإن لم نجوّزه فيما تقدم لإباء لفظة هناك عنه، ولعل إرادة هذه هنا أظهر بملاحظة لفظة فكأنكم، فتأمل.

وتسميتها بالساعة باعتبار أن الناس يسعى إليها، فيكون المقصود به الإشارة إلى قرب القيامة وكونها حادية للمخاطبين باعتبار أنها لا بد للناس من الحشر إليها والاجتماع فيها للسؤال والجواب والحساب والكتاب والثواب والعقاب لا مناص لهم عن وقوفها فكأنها تسوقهم إليها ليجتمعوا فيها وينظروا إلى أعمالهم وإنما شبّه حدوهم بحدو الزاجر بشوله لأن سائق الشول إنما يسوقها بعنف وسرعة لخلوها من الضرع واللبن بخلاف سائق العشار فإنه يرفق بها ولا يزجرها كما هو ظاهر.

ولما نبّه على قرب الساعة وأنها تحدو المخاطبين أردفه بالتنبيه على وجوب الاشتغال بالنفس أي بصرف الهمّة إلى محاسبتها وإصلاحها وتزكيتها وترغيبها إلى ما أريد منها **(فـ)**إن **(من شغل نفسه بغير نفسه)** لا يتحصّل له نور يهتدي به في ظلمات طريق الآخرة بل إنما يحصل على أغطية من الهيئات البدنية وأغشية متحصلة من الاشتغال بزخارف الدنيا حاجبة له عن نور البصيرة فلأجل ذلك يكون قد **(تحير في الظلمات)** وتاه فيها **(وارتبك)** أي اختلط **(في الهلكات)** لا يكاد يتخلص منها **(ومدّت به شياطينه في طغيانه وزينت له سيء أعماله)** كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١ـ ٢٠٢]، يعني أن الذين اتّقوا الله باجتناب معاصيه إذا طاف عليهم الشيطان بوساوسه تذكروا ما عليهم من العقاب بذلك فيجتنبوه ويتركونه فإذا هم مبصرون للرشد، وإخوان المشركين من شياطين الجنّ والأنس يمدّونهم في الضلال والمعاصي ويزيدونهم فيه ويزينون ما هم فيه ثم لا يقصرون ولا يكفّون الشياطين عن استغوائهم ولا يرحمونهم. وقيل: معناه: وإخوان الشياطين من الكفار يمدّهم الشياطين في الغيّ ثم لا يقصرون هؤلاء مع ذلك كما يقصر الذين اتّقوا، هكذا في **(مجمع البيان)**.

ثم ذكر غاية وجود الإنسان وقال: **(فالجنة غاية السابقين والنار غاية المفرطين)** وكفى بالجنة نعمة لمن طلب، وكفى بالنار نقمة لمن هرب، وتخصيص الجنة بالسابقين والنار بالمفرطين تنبيهاً على فضيلة السبق ورذيلة التفريط بتقوى الباعث على طلب أشرف الغايتين والهرب من أخسّهما.

ولما كان السبق إلى الجنة والنجاة من النار لا يحصل إلا بالتقوى وبالكفّ عن الفجور أردفه بذكر ثمرات هذين الوصفين وشرح ما يترتب عليهما من الفضائل والرذائل فقال:

(اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل) قال الشارح المعتزلي: أي دار حصانة، فأقيم الإسم مقام المصدر، هذا.

ونسبة العزّة والذّلة إلى الدار من التوسع باعتبار عزَّة من تحصّن بالأول وذلّة من تحصن بالآخر.

أما **الأول**: فلأن التقوى تحرز من اتقى في الدنيا من الرذائل المنقصة والقبائح الموقعة له في الهلكات والمخازي، وفي الآخرة من النار وغضب الجبار كالحصن الحصين الذي يحرز متحصنه من المضارّ والمكاره.

وأما **الثاني**: فلأن الفجور يوقع الفاجر في الدنيا في المعاطب والمهالك ولا ينجيه في الآخرة من العذاب الأليم والسخط العظيم، فهو بمنزلة دار غير وثيق البنيان منهدم الحيطان والجدران **(لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه)** ومن تحصن بدار كذلك ليكونن ذليلاً مهاناً لا محالة.

(ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا) التشبيه المضمر في النفس للخطايا بالعقارب أو بذوات السموم من الحيوان استعارة بالكناية وذكر الحمة تخييل والقطع ترشيح والمراد أن بالتقوى يتدارك وينجبر سريان سمّ الخطايا والآثام في النفوس الموجب لهلاكها الأبد كما يقطع سريان سموم العقارب والأفاعي في الأبدان بالباد زهر والترياق ويمنع من نفوذها في أعماق البدن بقطع العضو الملدوغ من موضع اللدغ، وعلى رواية: حمة بالتشديد، فالمقصود أن بها تدفع شدتها وترفع.

ولما نبّه على كون التقوى حاسمة لمادة الخطايا، وكان بذلك إصلاح القوة العملية نبّه على ما به يحصل إصلاح القوة النظرية أعني اليقين فقال: **(وباليقين تدرك الغاية القصوى)** وإدراكها به لأن الإنسان إذا كملت قوّته النظرية باليقين وقوته العملية بالتقوى، بلغ الغاية القصوى من الكمال الإنساني البتة.

ثم عاد عليه السلام إلى تحذير العباد تأكيداً للمراد فقال: **(عباد الله الله)** أي راقبوه سبحانه واتّقوه تعالى **(في أعزّ الأنفس عليكم وأحبّها إليكم)** الظاهر أن المراد بأعزّ الأنفس عليهم نفسهم، إذ كل أحد يحب نفسه بالذات ولغيره بالعرض والتّبع، ولذلك قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] قدم الأمر بوقاية النفس على الأهل لكونها أولى بها من الغير، هذا.

وقال الشارح البحراني: وفي الكلام إشارة إلى أن للإنسان نفوساً متعددة وهي باعتبار مطمئنة وأمّارة بالسوء ولوّامة وباعتبار عاقلة وشهوية وغضبية، والإشارة إلى الثلاث الأخيرة

وأعزّها النفس العاقلة إذ هي الباقية بعد الموت وعليها العقاب وفيها العصبية.

أقول: كون كلامه عليه السلام إشارة إلى ما ذكره بعيد غايته.

(فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأنار طرقه) ويروى: فأبان طرقه، فالعطف للتفسير يعني أنه سبحانه أتمّ الحجة عليكم، وأزال العذر عنه بما بعثه من الأنبياء والرسل وأنزله من الزّبر والكتب، وأبلج لكم نهج الحق على لسانهم **(فـ)**ـلم يبق بعد ذلك إلا **(شقوة لازمة)** لمن نكب عنه **(أو سعادة دائمة)** لمن سلكه كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣] ثم عاد على الحث على أخذ الزاد ليوم المعاد وقال: **(فتزوّدوا في أيام الفناء لأيام البقاء قد دللتم على الزاد)** أي دلكم الله سبحانه عليه بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] **(وأمرتم بالظعن)** والرحيل **(وحثثتم على المسير)** يحتمل أن يكون الظعن والمسير كنايتين عن ترك الدنيا والرغبة في الآخرة والسير إليها بالقلوب والنفوس، فيكون المراد بالأمر والحثّ ما ورد في الكتاب والسنّة من الآيات والأخبار المنفّرة من الأولى والمرغبة في الأخرى، ويجوز أن يراد بهما معناهما الحقيقي أعني السّير والرحلة إلى الآخرة بالأبدان فيكون الأمر والحث كناية عما أوجد الله من الأسباب المعدة لفساد المزاج المقربة إلى الموت، وعن الليل والنار الحاديين للإنسان بتعاقبها إلى وطنه الأصلي على ما مر تحقيقاً وتفصيلاً في شرح الخطبة الثالثة والستين.

(فإنما أنتم كركب وقوف لا تدرون متى تؤمرون بالسير) لما أمرهم بالتزوّد في الدنيا علله بذلك تنبيهاً على وجوب المبادرة إلى أخذ الزاد لأن المسافر إذا كان زمام أمره بيد غيره ولا يعلم متى يسار به لزم عليه أن يبادر إلى زاده كي لا يفاجأه السفر ويسير بغير زاد فيعطب.

قال الشارح البحراني: قوله: **(فإنما أنتم كركب)** إلى آخره، فوجه التشبيه ظاهر، فالإنسان هو النفس، والمطايا هي الأبدان والقوى النفسانية والطريق هي العالم الحسيّ والعقلي، والسير الذي ذكر ما قب الموت هو تصرّف النفس في العالمين لتحصيل الكمالات المعدة وهي الزاد لغاية السعادة الباقية، وأما السير الثاني الذي هم وقوف ينتظرون ولا يدرون متى يؤمرون به فهو الرحيل إلى الآخرة من دار الدنيا وطرح البدن وقطع عقبات الموت والقبر إذ الإنسان لا يعرف وقت ذلك.

(ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة) الاستفهام في معرض التنفير عن الدنيا والتوبيخ لطالبيها إذ الإنسان لما كان مخلوقاً للآخرة فمقتضى العقل أن يصرف همّته إليها لا إلى الدنيا الزائلة عنه عن قليل **(وما يصنع بالمال عما قليل يسلبه)** وهو في معرض التنفير عن المال بالتنبيه على أنه مسلوب عنه بعد زمان قليل فيزول سريعاً لذّته **(ويبقى عليه تبعته)** أي إثمه **(وحسابه)** وما كان هذا وصفه فحريّ بأن يرفض ويترك لا أن يقتني ويجمع.

ثم رغّب في الخير بقوله: **(عباد الله أنه ليس لما وعد الله من الخير مترك)** أي ليس للخيرات والمثوبات التي وعدها الله سبحانه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ محل لأن تترك رغبة عنها إلى غيرها إذ كل خير دونها زهيد، وكل نفع عندها قليل، كما قال عزَّ من قائل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦]، وفي سورة (آل عمران): ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤ـ ١٥]. هذا. ومقصوده عليه السلام بذلك الكلام الترغيب في الطاعات المحصّلة للخيرات الأخروية والتحضيض عليها وعلى القيام بوظائفها.

ثم نفّر عن الشر بقوله: **(ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب)** أي ليس في المحرمات والمعاصي التي نهى الله سبحانه عنها محلّ لأن يرغب فيها مع وجود نهيه وكونها مبغوضة عنده محصّلة للآثام والعقوبات الدائمة **(عباد الله احذروا يوماً تفحص فيه الأعمال)** أي تكشف وتجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً **(ويكثر فيه الزلزال)** ونظير التحذير عنه بكثرة الزلزال التحذير في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١ـ ٢].

قال في **(مجمع البيان)** معناه: يا أيها العقلاء المكلفون اتّقوا عذاب ربكم واخشوا معصية ربكم إن زلزلة الأرض يوم القيامة أمرٌ عظيم هائل لا يطاق، يوم ترون الزلزلة أو الساعة تشغل كل مرضعة عن ولدها وتنساه، وتضع الحبالى ما في بطونها وهو تهويل لأمر القيامة وتعظيم لما يكون فيه من الشدائد أي لو كان ثم مرضعة لذهلت أو حامل لوضعت وإن لم يكن هناك حامل ولا مرضعة، وترى الناس سكارى من شدة الخوف والفزع، وما هم بسكارى من الشراب وقيل: معناه كأنهم سكارى من ذهول عقولهم لشدّة ما يمر بهم لأنهم يضطربون اضطراب السكران، هذا.

(و) لشدة ذلك اليوم أيضاً **(يشيب فيه الأطفال)** كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]. قال الطبرسي: وهذا وصف لذلك اليوم وشدته كما يقال: هذا أمر يشيب منه الوليد وتشيب منه النواصي إذا كان عظيماً شديداً.

وقال الشارح المعتزلي: قوله عليه السلام: **(ويشيب فيه الأطفال)** كلام جار مجرى المثل

وليس ذلك على حقيقته لأن الأمة مجتمعة على أن الأطفال لا يتغير حالهم في الآخرة إلى الشيب، والأصل في هذا أن الهموم والأحزان إذا توالت على الإنسان شاب سريعاً، قال أبو الطيب:

والهمّ يخترم الجسيم مخافة ... ويشيب ناصية الصبي ويهرم

ثم عقّب بالتحذير من المعاصي بقوله: (**اعلموا عباد الله أن عليكم رصداً من أنفسكم**) أي حرساً وحفظة ملازمين لكم غير منفكين عنكم، وأراد به الجوارح والأعضاء، ولذا فسّره بقوله: (**وعيوناً من جوارحكم**) مراقبين لكم شهداء عليكم يوم القيامة كما قال تعالى في سورة السجدة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾ [فصلت: ١٩ـ ٢١] روى في (**الصافي**) عن القمي: نزلت في قوم تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها فيقولون: ما عملنا شيئاً منهم، فيشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم.

قال الصادق عليه السلام: فيقولون لله: يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك، ثم يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئاً وهو قول الله عزَّ وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] وهم الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام فعند ذلك يختم الله عزَّ وجل على ألسنتهم وينطق جوارحهم فيشهد السمع بما سمع مما حرّم الله، ويشهد البصر بما نظر به إلى ما حرّم الله عزَّ وجل، ويشهد اليدان بما أخذتا، وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرَّم الله، ويشهد الفرج بما ارتكب مما حرَّم الله. ثم أنطق الله عزَّ وجل ألسنتهم، فيقولون هم لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ الآية، قال: والجلود الفروج[1].

وفي (**الصافي**) عن القمي أيضاً في تفسير قوله تعالى في سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥] قال: إذا جمع الله عزَّ وجل الخلق يوم القيامة دفع إلى كل إنسان كتابه فينظرون فيه فينكرون أنهم عملوا من ذلك شيئاً، فتشهد عليهم الملائكة، فيقولون: يا رب ملائكتك يشهدون لك، ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من ذلك شيئاً وهو قول الله عزَّ وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فإذا فعلوا ذلك ختم الله على ألسنتهم وتنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون، هذا.

وبما ذكرنا ظهر لك ضعف ما ذكره الشارح البحراني بل فساده من أن شهادة الجلود وغيرها بلسان الحال والنطق به، فإن كل عضو لما كان مباشراً لفعل من الأفعال كان حضور

---

(١) بحار الأنوار: ٧/ ٣١٣، والتفسير الصافي: ٤/ ٣٥٦.

ذلك العضو وما صدر عنه في علم الله تعالى بمنزلة الشهادة القولية بين يديه، فإن ذلك مخالف لظاهر الآية ونص الرواية لدلالتهما على كون الشهادة بلسان القال لا بلسان الحال كما زعمه الشارح وتوهّم.

وقوله: (**وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم**) أراد بهم الكرام الكاتبين، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧ـ ١٨]. قال في (**مجمع البيان**): ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكّل به ملكين يحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة، فقال: إذ يتلقى المتلقيان، وهما الملكان يأخذان منه عمله فيكتبانه كما يكتب المملى عليه، عن اليمين وعن الشمال قعيد، المراد بالقعيد هو الملازم الذي لا يبرح لا القاعد الذي هو ضد القائم، وقيل: عن اليمين كاتب الحسنات وعن الشمال كاتب السيئات عن الحسن ومجاهد، وقيل: الحفظة أربعة: ملكان بالليل، وملكان بالنهار عن الحسن، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد أي ما يتكلم بكلام فيلفظه أي يرميه من فِيه إلا لديه حافظ حاضر معه يعني الملك الموكّل به إما صاحب اليمين وإما صاحب الشمال، يحفظ عمله لا يغيب عنه، وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء أو المسيء، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتب واحدة»[١]، وفي رواية أخرى قال: صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين: إمسك، فيمسك عنه سبع ساعات، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر الله كتب له سيئة واحدة، هذا.

وقد علم بذلك أنه سبحانه مع علمه بحال العبد وكونه أقرب إليه من حبل الوريد وكّل عليه لحكمة اقتضته من تشديد في تثبط العبد من المعصية وتأكيد في اعتبار الأعمال وضبطها للجزاء وإلزام الحجة يوم يقوم الأشهاد حفظة صدق يحفظون عمله ويضبطونه وهم ملازمون له غير غائبين عنه أبداً.

كما أشار إليه بقوله: (**لا تستركم منهم ظلمة ليل داج**) أي شديدة الظلمة (**ولا يكنّكم**) أي لا يستركم (**منهم باب ذو رتاج**) أي باب عظيم مغلق.

ثم حذّر بقرب الموت فقال: (**وإن غداً من اليوم قريب**) كنّى بالغد عن وقت الموت (**يذهب اليوم بما فيه**) من الخير والشر والطاعة والمعصية (**ويجيء الغد لاحقاً به**) ثم حذر ببلوغ القبر وكنّى عنه بقوله: (**فكأن كل امرء منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته ومخطّ**

---

(١) بحار الأنوار: ٥/ ٣٢١، والمعجم الكبير: ٨/ ١٨٥.

حفرته) وأشار إلى هول ذلك المنزل ووصفه بالأوصاف الموحشة المنفرة فقال: **(فيا له من بيت وحدة ومنزل وحشة ومفرد غربة)** ثم حذّر بالصيحة ونفخ الصور وقيام الساعة فقال: **(وكأن الصيحة قد أتتكم والساعة قد غشيتكم)** والظاهر أن المراد بالصيحة الصيحة والنفخة الثانية وقد أشير إليهما، أعني الصيحتين في سورة يس قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [٤٩ـ ٥٣]. قال في **(مجمع البيان)**: أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة يريد النفخة الأولى عن ابن عباس، يعني أن القيامة تأتيهم بغتة تأخذهم الصيحة وهم يخصمون أي يختصمون في أمورهم ويتبايعون في الأسواق، ثم أخبر عن النفخة الثانية وما يلقونه فيها إذا بعثوا بعد الموت فقال: ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث، وهي القبور، إلى ربهم أي إلى الموضع الذي يحكم الله فيه لا حكم لغيره هناك، ينسلون أي يخرجون سراعاً ثم أخبر عن سرعة بعثهم فقال: إن كانت إلا صيحة واحدة، أي لم تكن المدة إلا مدة صيحة واحدة، فإذا هم جميع لدينا محضرون، أي فإذا الأولون والآخرون مجموعون في عرصات القيامة محضرون في موقف الحساب.

وفي سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [٦٨] قال في **(مجمع البيان)**: فصعق من في السموات (آهـ)، أي يموت من شدة تلك الصيحة التي تخرج من الصور جميع من في السماوات والأرض، وقوله: ثم نفخ فيه أخرى، يعني نفخة البعث وهي النفخة الثانية.

(وبرزتم لفصل القضاء) أي لحكم العدل الفاصل بين الحق والباطل ليتميز المصيب من المخطىء، والمسلم من الكافر، والمؤمن من المنافق ليجزي كل ما عمل كما قال عزّ من قائل: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: ٦٩ـ ٧٠].

(قد زاحت عنكم الأباطيل) أي بعدت وتنحت عنكم الهيئات الباطلة الممكنة الزوال **(واضمحلت عنكم العلل)** أي ذهبت وانحلّت عنكم العلل والأمراض النفسانية **(واستحقت بكم الحقائق)** قال الشارح المعتزلي: أي حقّت ووقعت فاستفعل بمعنى فعل: **(وصدرت بكم الأمور مصادرها)** أراد به رجوع كل امرء إلى ثمرة ما قدم، قاله البحراني **(فاتعظوا بالعبر)** أي بكل ما يفيد اعتباراً وتنبهاً على أحوال الآخرة وبما فيه تذكرة للموت وما بعده من الشدائد والأهوال، ألا ترى إلى الأباء والإخوان والأبناء والولدان والأقرباء والجيران كيف طحنتهم

المنون، وتوالت عليهم السنون، وفقدتهم العيون، اندرست عن وجه الأرض آثارهم وانقطعت عن الأفواه أخبارهم.

إذا كان هذا حال من كان قبلنا   فإنّا على آثارهم نتلاحق

(واعتبروا بالغير) أي بتغيرات الدهر وانقلاباته على أهله، لا يدوم سروره، ولا تتم أموره، لا يقيم على حال، ولا يمتنع بوصال، وعوده كاذبة، وآماله خائبة.

تحدّثك الأطماع أنك للبقاء   خلقت وأن الدهر خلّ موافق

كأنك لم تبصر أُناساً ترادفت   عليهم بأسباب المنون اللواحق

(وانتفعوا بالنذر) أي بكل ما أفاد تخويفاً بالآخرة وما فيها من المفزعات والدواهي فهي من عدم رشده، وضلّ قصده إن أوقاتك محدودة، وأنفاسك معدودة، وأفعالك مشهورة، وأنت مقيم على الإصرار، غافل من يوم تشخص فيه الأبصار.

إذا نصب الميزان للفصل والقضا   وأبلس محجاج وأخرس ناطق

وأجّجت النيران واشتد غيظها   إذا فتحت أبوابها والمغالق

فإنك مأخوذ بما قد جنيته   وإنك مطلوب بما أنت سارق

فقارب وسدّد واتّق الله وحده   ولا تستقلّ الزاد فالموت طارق

الترجمة

از جمله خطب بليغه آن امام مبين و ولىّ ربّ العالمين است در نصيحت و موعظه و تنفير از دنيا و ترغيب به عقبى، مى فرمايد:

حمد و ثنا مر خداى را است كه گردانيد حمد را كليد از براى ذكر خود و سبب زيادتى فضل و انعام خود و دليل بر نعمت هاى خود و عظمت بى نهايت خود. اى بندگان خدا، به درستى روزگار جارى مى شود به باقى ماندگان مثل جارى شدن او بر گذشتگان در حالتى كه بازنمى گردد آنچه كه پشت گردانيده از آن و باقى نمى ماند هميشه آنچه كه در او است، آخر كارهاى او مثل اوّل كارهاى او است، شبيه است به هم ديگر كارهاى او، هم پشت يكديگرند علامت هاى او، پس گويا كه شما مى بينيد قيامت را مى راند شما را به سوى خود مثل راندن كسى كه به عنف و زجر شترماده بى شير و بچه خود را براند، پس كسى كه مشغول نمايد نفس خود را به غير اصلاح نفس خود متحيّر مى ماند در ظلمت هاى جهالت و آميخته شود در تباهى هلاكات و بكشند او را شيطان ها در طغيان او و زينت مى دهند از براى او عمل هاى بد او را، پس بهشت پايان كار سبقت كنندگان است و جهنم نهايت كار تفريط نمايندگان. بدانيد اى بندگان خدا كه تقوى حصن حصينى است باعزّت و فسق و فجور خانه حصنى است با ذلّت كه منع نمى كند اهل خود را از بلا و مكاره و حفظ نمى كند كسى را كه پناه برد به سوى او، آگاه باشيد كه باتقوى بريده مى شود نيش پر زهر گناه ها و با يقين درك مى شود غايت قصوى.

اى بندگان بپرهيزيد از خدا در عزيزترين نفس ها بر شما و دوست ترين آنها به سوى شما، پس به درستى كه حق تعالى واضح گردانيده از براى شما راه حق را و ظاهر نموده راه هاى آن را، پس نهايت كار يا شقاوتى است لازم يا سعادتى است دائم، پس توشه برداريد در روزهاى فنا از براى روزهاى بقا، پس به تحقيق كه راه نموده شديد بر توشه آخرت و مأمور شديد به رحلت و حثّ و ترغيب شديد به سير كردن به سوى وطن اصلى، پس به درستى كه شما مانند سوارانيد منتظر ايستاده كه نمى دانيد چه وقت مأمور خواهيد شد به حركت.

آگاه باشید چه می کند دنیا را کسی که خلق شده است از برای آخرت و چه کار دارد با مال کسی که بعد از زمان قلیل سلب می شود از آن و باقی می ماند بر او وبال و حساب آن. ای بندگان خدا، به درستی که نیست مرچیزی را که وعده فرموده است خدا از نیکویی جای ترکی و نیست در آنچه نهی فرموده از آن از بدی جای رغبتی. ای بندگان خدا، حذر نمایید از روزی که جستجو می شود در آن عمل ها و بسیار می شود در آن زلزله و پیر می شوند در آن بچه گان.

بدانید ای بندگان خدا که بر شما است نگهبانان از نفس های خودتان و جاسوسان از اعضاء و جوارح شما و نگهدارندگان راست و درست یعنی کرام الکاتبین که نگه می دارند عمل های شما را و شماره نفس های شما را در حالتی که نمی پوشاند شما را از ایشان تاریکی شب تار و پنهان نمی سازد شما را از آنها در محکم بسته شده و به درستی که فردا نزدیك است از امروز، می رود امروز با آنچه که در او است از خیر و شر و می آید فردا در حالتی که لاحق است به آن.

پس گویا هر مردی از شما به تحقیق رسیده است از زمین به منزل تنهایی خود و به محلّ خطّ گودال خود که عبارت است از قبر او، پس ای بسا تعجّب ای قوم مرا به منزل و مکان از خانه تنهایی و منزل بیمناك و محلّ تفرّد غریبی و گویا صدای نفخه صور اسرافیل آمده است به شما و قیامت احاطه نموده بر شما و بیرون آمده اید از قبر به جهت حکم عدل پروردگار که تمیزدهنده است میان حق و باطل در حالتی که بعید شده است از شما باطل ها و زایل شده از شما علّت ها و مستحق شده است به شما حقیقت ها و بازگشته به شما امورات به مواضع بازگشتن خودشان.

پس پند گیرید با عبرت ها و عبرت نمایید با تغیّرات روزگار و منتفع باشید با چیزهایی که می ترساند شما را از عذاب نار و از سخط خداوند قهار.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسابعة والخمسون من المختار في باب الخطب

والظاهر أنها مع الخطبة الثامنة والثمانين متحدتان ملتقطتان من خطبة طويلة قدمنا روايتها من **(الكافي)** في شرح الخطبة التي أشرنا إليها.

أَرْسَلَهُ عَلىٰ حِينَ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ، وانْتِقاضٍ مِنَ المُبْرَمِ، فَجاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَينَ يَدَيْه، والنُّورِ المُقْتَدىٰ بِهِ، ذٰلِكَ القُرآنُ فاسْتَنْطِقُوهُ ولَنْ يَنْطِقَ، ولٰكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ، أَلا إنَّ فِيهِ عِلْمَ ما يَأْتِي والحَدِيثَ عَنِ الماضِي، ودَواءَ دائِكُمْ، ونَظْمَ ما بَيْنَكُمْ.

مِنْها ـ فَعِنْدَ ذٰلِكَ لا يَبْقىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إلاَّ وأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وأَوْلَجُوا فيهِ نِقْمَةً، فَيَوْمَئِذٍ لا يَبْقىٰ لَهُمْ فِي السَّماءِ عاذِرٌ، ولا فِي الأَرْضِ ناصِرٌ، أَصْفَيْتُمْ بِالأَمْرِ غَيرَ أَهْلِهِ، وأَوْرَدْتُمُوهُ غَيرَ وِرْدِهِ، وسَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِمَّنْ ظَلَمَ مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ، ومَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطاعِمِ العَلْقَمِ، ومَشارِبِ الصَّبِرِ والمَقِرِ، وَلِباسِ شِعارِ الخَوْفِ، ودِثارِ السَّيْفِ، وإِنَّما هُمْ مَطايَا الخَطِيئاتِ، وزَوامِلُ الآثامِ، فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ لَتَنْخَمَنَّها أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كما تُلْفَظُ النُّخامَةُ، ثُمَّ لا تَذُوقُها ولا تَتَطَعَّمُ بِطَعْمِها أَبَداً ما كَرَّ الجَدِيدانِ[١].

اللغة

(الفترة) بين الرّسل وانقطاع الوحي والرسالة و **(الهجعة)** النومة من الليل أو من أوله و **(أبرم)** الحبل جعله طاقين ثم فتله وأبرم الأمر أحكمه و **(الترحة)** المرّة من الترح بالتحريك الهمّ والحزن و **(أصفيت)** فلاناً بكذا خصصته به و **(المأكل)** و **(المشرب)** مصدران بمعنى الأكل والشرب ويجوز هنا أن يجعلا بمعنى المفعول و **(المقر)** ككتف الصبر أو شبيه به أو السم كالمقر وزن فلس و **(الشعار)** ما يلي الجسد من الثياب و **(الدثار)** ما فوقه و **(المطايا)** جمع مطيّة وهي الدابة تمطو أي تجدّ في سيرها و **(الزوامل)** جمع الزاملة وهي التي يحمل عليها من الإبل وغيرها و **(تنخم)** دفع بشيء من أنفه أو صدره و **(النخامة)** بالضم النخاعة.

الإعراب

(على) في قوله عليه السلام: **(على فترة)** بمعنى **(في)** كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥]، ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. و **(من)** في قوله: **(من الرسل)**

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/٥٤٧، نهج السعادة: ١/٢٢٢.

نشوية، وكذا في قوله: **(من الأمم ومن المبرم)** **(والباء)** في قوله: **(فجائهم بتصديق)** (آهـ) تحتمل المصاحبة والتعدية.

قال الشارح المعتزلي: **(مأكلاً)** منصوب بفعل مقدّر أي يأكلون مأكلاً، **(والباء)** هنا للمجازاة الدالة على الصلة، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: ١٧].

وقال البحراني: **(ومأكلاً ومشرباً)** منصوبان بفعل مضمر والتقدير: ويبدلهم مأكلاً بمأكل.

أقول: الظاهر أن **(الباء)** على ما قرره الشارح المعتزلي من الفعل سببية لا للمجازاة، وإن كان مراده بالمجازاة هي السببية فلا مشاحة، وعلى تقرير البحراني فهي للمقابلة، وعلى قول الأول فمن في قوله: **(من مطاعم العلقم ومشارب الصبر)** بيان لمأكلاً ومشرباً، وعلى قول الثاني فهي بيان لقوله: **(بمأكل ومشرب)** فافهم جيداً.

والإنصاف أنه لا حاجة إلى تقدير الفعل، بل يجوز مأكلاً ومشرباً مفعولين لظلم بواسطة الحرف المقدّر، ويجعل قوله: **(بمأكل)** متعلقاً بينتقم، وعلى ذلك فيكون من مطاعم بياناً لقوله: **(لمأكل)** كما قدمنا في قول البحراني، وتقدير الكلام وسينتقم الله ممن ظلم أحداً في أكل أو شرب بأكل من مطاعم العلقم وبشرب من مشارب الصبر، وعلى ذلك فيستقيم الكلام على أحسن نظام كما هو غير خفيّ على أولي الأفهام.

المعنى

إعلم أن مدار هذه الخطبة على فصلين

الفصل الأول

في الإشارة إلى بعثة الرسول ﷺ وفضيلته عليه السلام وفضيلة ما جاء به من كتاب الله سبحانه وهو قوله: **(أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم)** قد تقدم شرح هاتين القرينتين في شرح الخطبة الثامنة والثمانين، فليراجع ثمة **(وانتقاض من المبرم)** أي انتقاض ما أبرمه الأنبياء والرسل من أحكام الدين وأحكموه من قوانين الشرع المبين **(فجاءهم بتصديق الذي بين يديه)** أي جاءهم الرسول مصاحباً بالتصديق أي مصدّقاً لما قبله فيكون التصديق وصفاً لنفس الرسول كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ [البقرة: ١٠١]. وعلى كون **(الباء)** للتعدية فالمعنى أنه أتاهم بكتاب فيه تصديق الذي بين يديه، فيكون المصدّق هو الكتاب كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

[آل عمران: ٣] قال في (**مجمع البيان**): أي لما قبله من كتاب ورسول، عن مجاهد وقتادة والربيع وجميع المفسرين، وإنما قيل: لما بين يديه لما قبله لأنه ظاهر له كظهور الذي بين يديه.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: الوصف الثاني لهذا الكتاب قوله: **مصدّقاً لما بين يديه**، والمعنى أنه مصدّق لكتب الأنبياء عليهم السلام ولما أخبروا به عن الله عزَّ وجل.

ثم في الآية وجهان:

الأول: أنه تعالى دلّ بذلك على صحة القرآن لأنه لو كان من عند غير الله لم يكن موافقاً لسائر الكتب، لأنه كان أمياً لم يختلط بأحد من العلماء ولا تلمّذ لأحد ولا قرأ على أحد شيئاً، والمفتري إذا كان هكذا امتنع أن يسلم عن الكذب والتحريف، فلما لم يكن كذلك ثبت أنه عرف هذه القصص بوحي الله.

الثاني: قال أبو مسلم: المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبياً قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان والشرائع التي هي صلاح كل زمان، فالقرآن مصدّق لتلك الكتب في كل ذلك.

بقي في الآية سؤالان:

الأول: كيف سمّى ما مضى بأنه بين يديه؟ والجواب: أن تلك الأخبار لغاية ظهورها سماها بهذا الإسم.

الثاني: كيف يكون مصدّقاً لما تقدمه من الكتب مع أن القرآن ناسخ لأكثر تلك الأحكام؟ والجواب: إذا كانت الكتب مبشّرة بالقرآن وبالرسول ودالة على أن أحكامها تثبت إلى حين بعثته وأنها تصير منسوخة عند نزول القرآن كانت موافقة للقرآن، فكان القرآن مصدّقاً لها، وأما فيما عدا الأحكام فلا شبهة في أن القرآن مصدّق لها، لأن دلائل المباحث الإلٰهية لا تختلف في ذلك، فهو مصدّق لها في الأخبار الواردة في التوراة والإنجيل، هذا.

والأظهر كون التصديق في قوله عليه السلام: (**وصفاً للقرآن**) والباء فيه للتعدية بقرينة قوله (**والنور المقتدى به**) فإنه وصف له أيضاً وكونه نوراً يهتدى به في ظلمات الجهل، ويقتدى بأحكامه ظاهراً، قال سبحانه: ﴿كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

(**ذلك**) الموصوف بما تقدم هو (**القرآن**) المنزّل من عند الله إعجازاً لرسول الله صلى الله عليه وآله (**فاستنطقوه**) يحتمل أن يكون المراد به الأمر باستفهام مضامينه وتفهم ما تضمنه من الحقائق والدقائق والحلال والحرام والحدود والأحكام.

ولما كان التفهم عنه بنفسه غير ممكن لاشتماله على المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والتنزيل والتأويل وغيرها عقّبه بقوله: **(ولن ينطق)** أي لا يمكن تفهيمه بنفسه أبداً بل لا بد له من مترجم فأردفه بقوله: **(ولكن أخبركم عنه)** تنبيهاً على أنه عليه السلام مترجمه وقيّمه ومفهم معانيه وظواهره وبواطنه.

ويجوز أن يكون استفعل بمعنى أفعل فيكون المراد باستنطاقهم له إنطاقهم إياه ولما كان ذلك موهماً لكونه ذا نطق بنفسه أتى بقوله: **(ولن ينطق)** من باب الاحتراس الذي عرفت في ديباجة الشرح من **(المحسنات البديعية)** ثم عقبه بقوله: **(ولكن أخبركم عنه)** تنبيهاً على أنه خط مسطور بين الدّفتين ليس له لسان بل لا بد له من ترجمان وهو عليه السلام لسانه وترجمانه وإلى ذلك يشير عليه السلام في الخطبة المائة والثانية والثمانين بقوله: **(فالقرآن آمر زاجر وصامت ناطق)** أي صامت بنفسه وناطق بترجمانه، ولعلنا نذكر لهذا الكلام معنى آخر في مقامه إن شاء الله حيثما بلغ الشرح إليه، هذا.

وقد تقدم في التذييل الثالث من تذييلات الفصل السابع عشر من الخطبة الأولى الأدلة العقلية والنقلية على أن دليل القرآن وقيّمه وترجمانه والعالم بمعانيه ومبانيه وبأسراره وبواطنه وظواهره هو أمير المؤمنين عليه السلام والطيّبون من أولاده سلام الله عليهم جميعاً.

وقد علمت هناك أيضاً أن القرآن مشتمل على علم ما كان وما يكون وما هو كائن. وإليه أشار هنا بقوله: **(ألا إن فيه علم ما يأتي)** أي أخبار اللاحقين كلياتها وجزئياتها وأحوال الموت والبرزخ والبعث والنشور والقيامة والجنة والنار ودرجات الجنان ودركات الجحيم وأحوال السابقون إلى الأولى والسائرون إلى الأخرى، وتفاوت مراتب المثابين والمعاقبين في الثواب والعقاب شدّة وضعفاً وقلّة وكثرة وغير ذلك مما يحدث في المستقبل.

(والحديث عن الماضي) أي أخبار السابقين وكيفية بدء الخلق من السماء والأرض والشجر والحجر والنبات والإنسان والحيوان وقصص الأنبياء السلف وأممهم ومعاصريهم من ملوك الأرض والسلاطين وغير ذلك مما مضى.

(ودواء دائكم) لاشتماله على الفضائل العلمية والعملية بها يحصل إصلاح النفوس والشفاء من الأمراض النفسانية والبرء من داء الغفلة والجهالة **(ونظم ما بينكم)** لتضمنه القوانين الشرعية والحكمة السياسية التي بها نظام العالم واستقامة الأمور.

الفصل الثاني (منها)

في وصف حال بني أميّة والأخبار عن ملكهم وظلمهم وزوال دولتهم بعد فسادهم في الأرض وهو قوله: **(فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر)** أي أهل الحضر والبدو **(إلاّ وأدخله**

الظلمة) من بني أميّة ومن أعوانهم **(ترحة)** أي همّاً وحزناً **(وأولجوا)** أي أدخلوا **(فيه نقمة)** وعقوبة **(فيومئذ)** يحيق بهم العذاب و **(لا يبقى لهم في السماء عاذر)** أي ناصر **(ولا في الأرض ناصر)** فتزول دولتهم وتكسر صولتهم.

وأردف ذلك بتوبيخ المخاطبين الراضين بفعل الظلمة والمتقاعدين عن ردعهم عن ظلمهم فقال: **(أصفيتم بالأمر)** أي آثرتم بأمر الخلافة **(غير أهله)** الذي هو حق له **(وأوردتموه غير ورده)** أي أنزلتموه عند من لا يستحقه من الأول والثاني والثالث ومن يحذو حذوهم من معاوية وسائر بني أميّة، إذ الخطاب في أصفيتم وإن كان متوجهاً إلى المخاطبين الحاضرين إلا أن المراد به العموم كسائر الخطابات الشفاهية.

(وسينتقم الله ممن ظلم مأكلاً بمأكل ومشرباً بمشرب من مطاعم العلقم ومشارب الصبر والمقر) أي يبدل نعمتهم بالنقمة ومطاعمهم اللذيذة الشهية بالمريرة.

قال الشارح البحراني: واستعار لفظ العلقم والصبر والمقر لما يتجرّعونه من شدائد القتل وأحوال العدو ومرارات زوال الدولة **(و)** ينتقم أيضاً بـ **(لباس شعار الخوف ودثار السيف)** أي بالخوف اللازم لهم لزوم الشعار وبالسيف اللازم عليهم لزوم الدثار، وتخصيص الشعار بالخوف والدثار بالسيف لأن الخوف باطن في القلوب والسيف ظاهر في البدن كما أن الشعار ما كان يلي الجسد من الثياب والدثار وما فوقه فناسب الأول بالأول والثاني بالثاني.

(وإنما هم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام) يعني أنهم حمال المعاصي والسيئات لكون حركاتهم وسكناتهم كلها على خلاف القانون الشرعي.

ثم أخبر عن زوال ملكهم وأتى بالقسم البار المؤكد تنبيهاً على أن المخبر به واقع لا محالة فقال: **(فأقسم)** بالله العليم **(ثم أقسم)** به وإنه لقسم لو تعلمون عظيم **(لتنخمنها أمية)** أي لتلفظن الخلافة بنو أميّة **(من بعدي كما تلفظ النخامة)** أي تدفع من الصدر والأنف **(ثم لا تذوق)** لذتـ**(ـها ولا تتطعم بطعمها أبداً ما كرّ الجديدان)** أي الليل والنهار يعني أنهم لا يجدون حلاوتها ولا يستلذون بها ولا ينالون إليها أبد الدهر، لأنه تعالى قد أخبر نبيه صلى الله عليه وآله: إن مدة ملكهم ألف شهر بقوله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ٣]. وأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام وأولاده الطاهرين.

روى في **(الصافي)** عن علي بن إبراهيم القمي (ره) قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله كأن قروداً تصعد منبره فغمه ذلك، فأنزل الله سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ١ـ ٣] تملك بنو أمية ليس فيها ليلة القدر.

وفيه عن (الكافي) عن الصادق عليه السلام: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه أن بني أميّة يصعدون على منبره من بعده ويضلّون الناس عن الصراط القهقري، فأصبح كئيباً حزيناً، قال عليه السلام: فهبط عليه جبرائيل عليه السلام فقال: يا رسول الله ما لي أراك كئيباً حزيناً، قال: «يا جبرائيل إني رأيت بني أميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط القهقري»، فقال: والذي بعثك بالحق نبياً إني ما اطلعت عليه، فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ـ ٢٠٧]، وأنزل عليه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ١ـ ٤] جعل الله ليلة القدر لنبيه خيراً من ألف شهر ملك بني أميّة[١]، وفي معناه أخبار أُخرى هذا.

وقد تقدم تفصيل زوال الدولة الأموية وانقراضهم بيد السفاح في شرح الخطبة المائة والرابعة، فليراجع هناك.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٢٠٩، ومناقب أهل البيت (ع): ٤٦٥.

الترجمة

از جمله خطب آن بزرگوار و ولی پروردگار است در بعثت پیغمبر آخرالزمان و فضیلت قرآن و وصف حال بنی امیّه و ظلم ایشان و زوال دولت آنها بعد از فساد و طغیان، می فرماید:

فرستاد خدای تبارك و تعالی پیغمبر مختار را در زمان منقطع شدن وحی و خالی بودن آن از پیغمبران و بر درازی خواب غفلت از اُمّتان و هنگام شکسته شدن ریسمان پُرتاب شریعت پیشینان، پس آورد به ایشان تصدیق آن چیزی را که پیش از او بود از تورات و انجیل و زبور و آورد نوری را که اقتدا و تبعیّت می شود به آن و آن نور عبارت است از قرآن، پس طلب کنید نطق و گفتار او را و حال آنکه ابداً گویا نخواهد شد ولکن من خبر دهم شما را به مضمون آن از جهت اینکه منم ترجمان قرآن. آگاه باشید، به درستی در قرآن است علم آنچه که خواهد آمد و خبر از گذشته؛ (یعنی متضمّن علم اوّلین و آخرین است) و در او است دواء درد شما و نظام ما بین شما.

از جمله آن خطبه است می فرماید:

پس نزد دولت بنی امیّه باقی نمی ماند هیچ خانه ای که ساخته شده باشد از گل و خشت و نه خانه ای که بنا شده باشد از پشم؛ (یعنی نمی ماند عمارتی در شهر و نه خرگاهی در بیابان) مگر اینکه داخل می کنند ظلام در آن خانه هم و حزن را و درآورند در آن عقوبت و نقمت را، پس در آن روز باقی نماند از برای ظلام در آسمان عذرآورنده و نه در زمین یاری کننده، اختیار کردید شما به امر خلافت غیر اهل آن را و وارد کردید أمر خلافت را در غیر محلّ او و زود باشد که انتقام بکشد خداوند قهّار از کسی که ظلم کرده باشد کسی را در مأکول و مشروبی با مأکول و مشروبی که از مأکولات تلخ است و از مشروبات تلخ و بدمزه و با لباس باطنی خوف و ترس و با لباس ظاهری شمشیر و به درستی که ایشان شتران بارکش گناهانند و شتران توشه معاصی، پس قسم می خورم به خدا باز قسم می خورم، البته می اندازد خلافت را بنی امیه بعد از من چنانچه انداخته شود آب دهن از

دهن، پس از آن نچشند هرگز چاشنی خلافت را و نمی خورند طعام آن را هیچ مادامی که بازگردد شب و روز.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثامنة والخمسون
من المختار في باب الخطب

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جُوارَكُمْ، وأَحَطْتُ بِجَهْدِي مِنْ وَرائِكُمْ، وأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ، وحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْراً مِنّي لِلْبِرِّ القَلِيلِ، وَإِطْراقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ البَصَرُ، وشَهِدَهُ البَدَنُ مِنَ المُنْكَرِ الكَثِيرِ(١).

اللغة

(الجوار) بالضم، وقد يكسر المجاورة و **(الرّبق)** بالكسر وزن حمل حبل فيه عدة عرى يشد به البهم وكل عروة ربقة بالكسر والفتح ويجمع على ربق كعنب وأرباق كأصحاب ورباق كجبال و **(الحلق)** بالتحريك جمع الحلقة بسكون **(اللام)** على غير القياس وربما يجمع على حلق بالسكون كبدرة وبدر وعلى حِلَق كقصعة وقصع، وحكى يونس عن أبي عمرو بن العلاء: أن الحلقة بالفتح، وعلى هذا فالجمع بحذف **(الهاء)** قياس كقصبة وقصب، قاله الفيومي في **(مصباح اللغة)**.

الإعراب

(الواو) في قوله: **(ولقد)** للقسم والمقسم به محذوف لكونه معلوماً، **(وشكراً)** مفعول للأفعال المتقدمة على سبيل التنازع، و **(من)** في قوله: **(من المنكر)** بيان لما أدركه.

المعنى

الظاهر أنه خاطب بها أهل الكوفة، والغرض منه المنّ على المخاطبين والتنبيه على حسن مداراته عليه السلام معهم وصفحه عنهم والغض عن خطيئاتهم على كثرتها كما قال: **(ولقد أحسنت جواركم)** أي مجاورتكم أي كنت لكم جار حسن، وقد وقع نظير التعبير بهذه اللفظة في كلامه عليه السلام المائة والتاسع والعشرين حيث قال هناك: وإنما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً، وأراد بمجاورته لهم مطلق المصاحبة والمعاشرة على سبيل الكناية.

ويجوز أن يراد به معناه الحقيقي، لأنه عليه السلام ارتحل من المدينة إلى البصرة لجهاد الناكثين، واحتاج إلى الاستنصار بأهل الكوفة إذ لم يكن جيش الحجاز وافياً بمقابلتهم، ثم

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٢١.

اتصلت تلك الفتنة بفتنة أهل الشام فاضطر إلى المقام بينهم وصار جاراً لهم كما تقدم الإشارة إلى ذلك في الكلام السبعين وشرحه.

(وأحطت بجهدي من ورائكم) قيل: أراد بالإحاطة من الوراء دفع من يريدهم بشرّ لأن العدو غالباً يكون من وراء الهارب.

أقول: بل الظاهر أنه أراد أنه كان به عليه السلام قوّة ظهرهم وشدّ إزرهم **(وأعتقتكم من ربق الذل وحلق الضيم)** والظلم أراد به أنه دفع عنهم ذلّ الأسر وظلم الأعداء، والمقصود حمايته عليه السلام لهم واعتزازهم به **(شكراً مني للبرّ القليل)** أي ثناء مني ومحمدة لأفعالكم الحسنة على قلّتها **(وإطراقاً)** أي سكوتاً وغضاً **(عما أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير)** وإطراقه عنهم مع مشاهدتهم على المنكرات على كثرتها إما لعدم تمكّنه من الإنكار والردع بالعنف والقهر، أو لانجراره إلى ما هو أعظم فساداً ومفسدة مما هم عليه.

قال الشارح البحراني: والظاهر أنهم كانوا غير معصومين، ومحال أن تستقيم دولة أو يتم ملك بدون الإحسان إلى المحسنين من الرعية والتجاوز عن بعض المسيئين.

الترجمة

از جمله خطب فصاحت نظام و بلاغت فرجام آن امام انام است در اظهار حسن رفتار و كردار خود نسبت به اصحاب و اتباع، مى فرمايد:

قسم به خدا، هرآينه به تحقيق نيكو كردم همسايگى شما را و حقّ جوار را خوب به جا آوردم و احاطه نمودم به قدر طاقت خود از پس شما و آزاد كردم شما را از ريسمان هاى ذلّت و از حلقه هاى ظلم و ستم به جهت تشكّر از من مرنيكويى اندك شما را كه آن طاعت قليل شما است نسبت به من و به جهت سكوت و چشم در پيش افكندن از آنچه كه درك نمود آن را چشم من و مشاهده كرد آن را بدن من از منكرات و اعمال قبيحه كثيره، به جهت اينكه دفع آن مؤدّى بر فساد عظيم مى شود.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والتاسعة والخمسون من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصلين

الفصل الأول

أَمْرُهُ قَضاءٌ وَحِكْمَةٌ، ورِضاهُ أمانٌ ورَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْم، ويَعْفُو بِحِلْم، اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلىٰ ما تَأْخُذُ وتُعْطِي، وعَلىٰ ما تُعافي وتَبْتَلي، حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الحَمْدِ لَكَ، وأَحَبَّ الحَمْدِ إِلَيْكَ، وأَفْضَلَ الحَمْدِ عِنْدَكَ، حَمْداً يَمْلأُ ما خَلَقْتَ، ويَبْلُغُ ما أَرَدْتَ، حَمْداً لا يُحْجَبُ عَنْكَ، ولا يَقْصُرُ دُونَكَ، حَمْداً لا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، ولا يَفْنىٰ مَدَدُهُ، فَلَسْنا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ، لا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ، لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، ولَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكْتَ الأَبْصارَ، وأَحْصَيْتَ الأَعْمالَ، وأَخَذْتَ بالنَّواصي والأَقْدام، وما الَّذي نَرىٰ مِنْ خَلْقِكَ، ونَعْجُبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطانِكَ، وما تَغَيَّبَ عَنّا مِنْهُ، وقَصُرَتْ أَبْصارُنا عَنْهُ، وانْتَهَتْ عُقُولُنا دُونَهُ، وحالَتْ سَواتِرُ الغُيُوبِ بَيْنَنا وبَيْنَهُ أَعْظَمُ، فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الهَواءِ سَماواتِكَ، وكَيْفَ مَدَدْتَ عَلىٰ مَوْرِ الماءِ أَرْضَكَ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسيراً، وعَقْلُهُ مَبْهوراً، وسَمْعُهُ والِهاً، وفِكْرُهُ حائِراً[1].

اللغة

قال الفيومي: **(عافاه)** الله محى عنه الأسقام والعافية اسم منه وهي مصدر جاءت على فاعلة، ومثله ناشئة الليل بمعنى نشوء الليل والخاتمة بمعنى الختم، والعافية بمعنى العقب، وليس لوقعتها كاذبة و **(حسر)** البصر حسوراً من باب قعد كل لطول مدى ونحوه فهو حسير و **(بهره)** بهراً من باب نفع غلبه ومنه قيل للقمر الباهر لظهوره على سائر الكواكب و **(آلَهَ)** تحيّر.

الإعراب

جملة **(لا تأخذه)** في محل النصب على الحال، و(ما) في قوله عليه السلام: **(وما الذي نرى)**

---

(١) الميعار والموازنة: ٢٥٧، وجواهر المطالب في مناقب الإمام علي (ع): ١/ ٣٥١.

للاستفهام على وجه الاستحقار، و(**الواو**) في قوله عليه السلام: (**وما تغيّب**) حالية وما موصول إسمي بمعنى (**الذي**) مرفوع المحل على الابتداء وخبره أعظم.

المعنى

إعلم أن هذا الفصل من الخطبة متضمن لتعظيم الله سبحانه وتبجيله بجملة من نعوت كماله وأوصاف جماله قال عليه السلام: (**أمره قضاء وحكمة**) يجوز أن يراد بأمره الأمر التكويني أعني الاختراع أو الإحداث، فيكون القضاء بمعنى الإنفاذ والإمضاء، وحمله عليه حينئذ من باب المبالغة أو المصدر بمعنى الفاعل أو المفعول، يعني أن أمره سبحانه نافذ وممضي لا رادّ له ولا دافع كما قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يسٓ: ٨٢] أي إذا أراد أن يكوّنه فيكون.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما حقيقة قوله: أن يقول له كن فيكون؟

قلت: هو مجاز من الكلام وتمثيل لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات وأنه بمنزلة من المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، والمراد بالحكمة حينئذ العدل والنظام الأكمل، فمحصل المعنى: أن أمره تعالى نافذ في جميع الموجودات والمكونات، متضمن للعدل، ومشتمل على النظام الأكمل.

ويجوز أن يراد به الأمر التكليفي فيكون القضاء بمعنى الحتم والإلزام يعني أن أمره سبحانه حتم وإلزام مشتمل على الحكمة والمصلحة في المأمور به كما هو مذهب العدلية من كون الأوامر والنواهي تابعة للمصالح والمفاسد الكامنة الواقعية، وقد تكون المصلحة في نفس الأمر دون المأمور به كما في الأوامر الابتلائية.

ويجوز أن يكون المراد به الشأن فيكون القضاء بمعنى الحكم، يعني أن شأنه تعالى حكم وحكمه لأنه القادر القاهر العالم العادل، فبمقتضى قدرته وسلطانه حاكم، وبمقتضى علمه وعدله حكيم.

وكون الأمر بمعنى الشأن قد صرح به غير واحد منهم الزمخشري في تفسير الآية السابقة قال: إنما أمره: إنما شأنه، إذا أراد شيئاً: إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف أن يقول له: كن، أن يكوّنه من غير توقف، فيكون: فيحدث، أي فهو كائن موجود لا محالة.

(**ورضاه أمان ورحمة**) أي أمان من النار ورحمة للأبرار إذ رضوانه سبحانه مبدأ كل منحة ونعمة، ومنشيء كل لذّة وبهجة، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

[التوبة: ٧٢]. **(يقضي بعلم)** أي يحكم بما يحكم به لعلمه بحسن ذلك القضاء واقتضاء الحكمة والعدل له، وهو كالتفسير لقوله: أمره قضاء وحكمة، كما أن قوله: **(ويعفو بحلم)** بمنزلة التفسير لقوله: ورضاه أمان ورحمة، لأن العفو يعود إلى الرضا بالطاعة بعد تقدم الذنب، وإنما يتحقق العفو مع القدرة على العقاب إذ العجز عن الانتقام لا يسمى عفواً فلذلك قال: يعفو بحلم، يعني أن عفوه لكونه حليماً لا يستنفره الغضب.

ثم أثنى عليه تعالى بالاعتراف بنعمه فقال: **(اللهم لك الحمد على ما تأخذ وتعطي وعلى ما تعافي وتبتلي)** أي على السراء والضراء والشدة والرخاء، وقد تقدم تحقيق معنى الأخذ والإعطاء، ووجه استحقاق الله سبحانه للحمد بهذين الوصفين في شرح الخطبة المائة والثانية والثلاثين، ووجه استحقاقه للحمد على البلاء والابتلاء هناك أيضاً مضافاً إلى شرح الخطبة المائة والثالثة عشر.

وأقول هنا زيادة على ما تقدم: إنه قد ثبت في علم الأصول أن الله عزَّ وعلا الغنيّ المطلق عما سواه والمتعالي عن الحاجة إلى ما عداه، بل غنى كل مخلوق بجوده، وقوام كل موجود بوجوده، فإذاً جميع ما يصدر عنه سبحانه في حق العباد من الأخذ والإعطاء والمعافاة والابتلاء والافتقار والإغناء ليس الغرض منها جلب منفعة لذاته أو دفع مضرّة عن نفسه، بل الغرض منها كلها مصالح كامنة للمكلفين ومنافع عائدة إليهم يعلمها سبحانه ولا نعلمها إلاّ بعضاً منها مما علّمنا الله سبحانه بالقوة العاقلة أو بتعليم حججه، فكم من فقير لا يصلحه إلا الفقر ولو استغنى لطغى، وكم من غنيّ لا يصلحه إلا الغنى ولو افتقر لكفر، وربّ مريض لو كان معتدل المزاج لانهمك في الشهوات واقتحم في الهلكات، وكأين من صحيح البنية لو مرض لم يصبر عليه وأحب المنية، وهكذا جميع ما يفعله سبحانه في حق المكلّفين فهو في الحقيقة نعمة منه تعالى عليهم ظاهرة أو باطنة كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فإذا ثبت أن هذه كلها إنعام منه سبحانه عليهم، وإحسان إليهم ظهر وجه استحقاقه للحمد والثناء عليها كلها إذ الشكر على النعم فرض عقلاً ونقلاً، هذا.

ويدل على ما ذكرنا من كون الابتلاء منه تعالى في الحقيقة نعمة منه على العباد ما رواه في **(الكافي)** عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلا بإحدى خصلتين: إما بذهاب في ماله أو ببليّة في جسده[١].

وفيه عن يونس بن رباط قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن أهل الحق لم يزالوا

(١) الكافي: ٢/٢٥٧ ح ٢٣، وشرح أصول الكافي: ٩/٢١٥ ح ٢٣.

منذ كانوا في شدّة أما إن ذلك إلى مدة قليلة وعافية طويلة[١].

وفيه عن عبيد بن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن المؤمن من الله عزّ وجل لبأفضل مكان ثلاثاً إنه ليبتليه بالبلاء ثم ينزع نفسه عضواً عضواً وهو يحمد الله على ذلك[٢].

ثم أخذ في تفخيم شأن حمده عليه وتعظيمه باعتبار كيفيته فقال: (**حمداً يكون أرضى الحمد لك**) أي أكمل رضاء منك به من غيره (**وأحبّ الحمد إليك وأفضل الحمد عندك**) أي أشد محبة منك إليه وأرفع منزلة عندك من سائر المحامد لاتصافه بالفضل والكمال ورجحانه على ما سواه.

ثم أتبعه بتفخيمه باعتبار كميّته فقال: (**حمداً يملأ ما خلقت**) من السماء والعرش والأرض (**ويبلغ ما أردت**) من حيث الكثرة والزيادة.

ثم بتفخيمه باعتبار الخلوص فقال: (**حمداً لا يحجب عنك ولا يقصر**) أي لا يحبس (**دونك**) لخلوصه من شوب العجب والرياء وسائر ما يمنعه عن الوصول إلى درجة القبول والرضا.

ثم باعتبار مادته فقال: (**حمداً لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده**) هذا وتكرار لفظ الحمد إما لقصد التعظيم كما في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الواقعة: ٢٧]، وفي قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ [القدر: ١ـ ٢] أو للتلذّذ بذكر المكرّر كما في قول الشاعر:

سقى اللّه نجداً والسلام على نجد ... ويا حبّذا نجدٍ على الناي والبعد

نظرت إلى نجدٍ وبغداد دونه ... لعلي أرى نجداً وهيهات من نجد

وفي قوله:

تاللّه يا ظبيات القاع قلن لنا ... ليلاي منكن أم ليلي من البشر

أو للاهتمام بشأنه، ثم إنه عليه السلام لما بالغ في حمده سبحانه والثناء عليه من حيث الكيف والكمّ والخلوص والعدد والمدد، وكان الحمد عبارة عن الوصف بالجميل على وجه التعظيم والتبجيل، وكان ذلك موهماً لمعرفة عظمة المحمود له حق معرفتها، عقّب ذلك بالاعتراف بالعجز عن عرفان كنه عظمته، تنبيهاً على عدم إمكان القيام بوظائف الثناء عليه وإن بولغ فيه

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٥٥ ح ١٦، ووسائل الشيعة: ٢٦١ ح ٣.
(٢) شرح أصول الكافي: ٩/ ٢١١ ح ١٣، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٤٨ ح ٣٥٣٧.

منتهى المبالغة، تأسياً بما صدر عن صدر النبوة من الاعتراف بالعجز حيث قال ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1]، ولهذا أتى بالفاء المفيدة للتعقيب والاتصال فقال: **(فلسنا نعلم كنه عظمتك)** لقصور المشاعر الظاهرة والباطنة من المتفكّرة والمتخيلة وغيرهما والقوة العقلانية وإن كانت على غاية الكمال وبلغت إلى منتهى معارجها عن إدراك ذاته واكتناه عظمته **(إلا أنا نعلم)** أي لكن نعرفك بصفات جمالك وجلالك فنعلم **(أنك حيّ قيّوم)**.

قال في **(الكشاف)**: الحيّ الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء وعلى اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر، والقيّوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه **(لا تأخذك سنة)** هي ما يتقدم النوم من الفتور يسمى النعاس **(ولا نوم)** بالطريق الأولى وهو تأكيد للنوم المنفي ضمناً.

قال الزمخشري: وهو تأكيد للقيوم لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيّوماً، ومنه حديث موسى عليه السلام: أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه ينام، ثم قال: خذ بيدك قارورتين مملؤتين فأخذهما وألقى الله عليه النعاس فضرب إحديهما على الأخرى فانكسرتا، ثم أوحى إليه: قل لهؤلاء إني أمسك السماوات والأرض بقدرتي فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا.

وكيف كان فالمقصود بقوله: **(لا تأخذك سنة ولا نوم)** تنزيهه تعالى عن صفات البشر وتقديسه عن لوازم المزاج الحيواني.

فإن قلت: مقتضى المقام أن ينفي النوم أولاً والسنة ثانياً إذ مقام التقديس يناسبه نفي الأقوى ثم الأضعف كما تقول: زيد لا يقدم على الحرام بل لا يأتي بالمكروه، وفلان لا يفوت عنه الفرائض ولا النوافل، كما أن التمجيد بالإثبات على عكس ذلك، فيقدم فيه غير الأبلغ على الأبلغ تقول: فلان عالم نحرير وجوّاد فياض.

قلت: سلّمنا ولكنه قدم سلب السنة تبعاً لكلام الله سبحانه وملاحظة للترتيب الطبيعي، فإن السنة لما كانت عبارة عن الفتور المتقدم عن النوم فساق الكلام على طبق ما في نفس الأمر.

(لم ينته إليك نظر) عقليّ أو بصري **(ولم يدركك بصر)** قد تقدم تحقيق عدم إمكان إدراكه تعالى بالنظر والبصر أي بالمشاعر الباطنة والظاهرة في شرح الفصل الثاني من الخطبة

---

(١) شرح أصول الكافي: ١/ ٢٣، والاحتجاج: ١/ ٢٩٤.

الأولى وشرح الخطبة التاسعة والأربعين والخطبة الرابعة والستين والفصل الثاني من الخطبة التسعين مستوفي.

وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق: إن قوله عليه السلام: **(لم يدركك بصر)**، إبطال لزعم الإمامية والمعتزلة إلى امتناعها مطلقاً، وذهبت المشبهة والكرامية إلى جوازها منزّهاً عن المقابلة والجهة والمكان.

قال الأعرابي في كتاب **(إكمال الإكمال)** ناقلاً عن بعض علمائهم: إن رؤيته تعالى جائزة في الدنيا عقلاً، واختلف في وقوعها وفي أنه هل رآه النبي صلى الله عليه وآله ليلة الإسراء أم لا؟ فأنكرته عائشة وجماعة من الصحابة والتابعين والمتكلمين، وأثبت ذلك ابن عباس، وقال: إن الله اختصه بالرؤية وموسى بالكلام وإبراهيم بالخلّة، وأخذ به جماعة من السلف، والأشعري، وجماعة من أصحابه وابن حنبل وكان الحسن يقسم: لقد رآه، وقد توقف فيه جماعة، هذا حال رؤيته في الدنيا.

وأما رؤيته في الآخرة فجائزة عقلاً، وأجمع على وقوعها أهل السنّة وأحالها المعتزلة والمرجئة والخوارج، والفرق بين الدنيا والآخرة أن القوى والإدراكات ضعيفة في الدنيا حتى إذا كانوا في الآخرة وخلقهم للبقاء قوى إدراكهم فأطاقوا رؤيته، انتهى كلامه على ما حكي عنه.

وقد عرفت فيما تقدم أن استحالة ذلك مطلقاً هو المعلوم من مذهب أهل البيت عليهم السلام، وعليه إجماع الشيعة باتفاق المخالف والمؤالف، وقد دلّت عليه الأدلة العقلية والنقلية من الآيات والأخبار المستفيضة، ومن جملة تلك الآيات قوله سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣] استدل بها النّافون للرؤية وقرروها بوجهين:

أحدهما: أن إدراك البصر عبارة شائعة عن الإدراك بالبصر إسناد للفعل إلى الآلة، والإدراك بالبصر هو الرؤية بمعنى اتحاد المفهومين أو تلازمهما، والجمع المعرّف **(باللام)** عند عدم قرينة العهدية والبعضية تفيد العموم والاستغراق بإجماع أهل العربية والأصول وأئمة التفسير، وبشهادة استعمال الفصحاء، وصحة الاستثناء فالله سبحانه قد أخبر بأنه لا يراه أحد في المستقبل، فلو رآه المؤمنون في الجنة لزم كذبه.

واعترض عليه بأن **(اللام)** في الجمع لو كانت للعموم والاستغراق كان قوله: **(تدركه الأبصار)** موجبة كلية، وقد دخل عليها النفي فرفعها هو رفع الإيجاب الكلي ورفع الإيجاب الكلي سلب جزئي، ولو لم يكن للعموم كان قوله: **(لا تدركه الأبصار)** **سالبة مهملة في قوة**

الجزئية فكان المعنى لا تدركه بعض الأبصار، ونحن نقول بموجبه حيث لا يراه الكافرون، ولو سلّم فلا نسلّم عمومه في الأحوال والأوقات، فيحمل على نفي الرؤية في الدنيا جمعاً بين الأدلة.

والجواب: أنه قد تقرر في موضعه أن الجمع المحلى **(باللام)** عام نفياً وإثباتاً في المنفي والمثبت كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١]، حتى أنه لم يرد في سياق النفي في شيء من الكتاب الكريم إلا بمعنى عموم النفي ولم يرد لنفي العموم أصلاً، نعم قد اختلف في النفي الداخل على لفظة **(كل)** لكنه في القرآن المجيد أيضاً بالمعنى الذي ذكرنا كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [المجادلة: ٢٣] إلى غير ذلك، وقد اعترف بما ذكرنا في **(شرح المقاصد)** وبالغ فيه.

وأما منع عموم الأحوال والأوقات فلا يخفى فساده، فإن النفي المطلق غير المقيد لا وجه لتخصيصه ببعض الأوقات إذ لا ترجيح لبعضها على بعض، وهو من الأدلة على العموم عند علماء الأصول.

وأيضاً صحة الاستثناء دليل عليه وهل يمنع أحد صحة قولنا: ما كلمت زيداً إلا يوم الجمعة، ولا أكلمه إلا يوم العيد، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾ [النساء: ١٩]، وقال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾ [الطلاق: ١].

وأيضاً كل نفي ورد في القرآن بالنسبة إلى ذاته تعالى فهو للتأبيد وعموم الأوقات لا سيما ما قبل هذه الآية.

وأيضاً عدم إدراك الأبصار جميعاً لا يختص بشيء من الموجودات خصوصاً مع اعتبار شمول الأحوال والأوقات، فلا يختص به تعالى فتعين أن يكون التمدح بمعنى عدم إدراك شيء من الأبصار له في شيء من الأوقات.

وثانيهما: أنه تعالى تمدّح بكونه لا يرى به فإنه ذكره في أثناء المدائح وما كان من الصفات عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً، فيجب تنزيه الله تعالى بنفيه مطلقاً.

ثم لما نفى عنه درك الأبصار له أثبت له دركه للأبصار فقال عليه السلام: **(أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال)** كما نطق به الكتاب العزيز، قال عزَّ من قائل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الانعام: ١٠٣]، وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة: ٦] أي أحاط به عدداً لم يغب عنه شيء ونسوه لكثرته أو تهاونهم به، والله على كل شيء شهيد، أي يعلم

الأشياء كلها من جميع وجوهها لا يخفى عليه شيء منها، وقال أيضاً تلو هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]، ثم وصفه سبحانه بكمال الاقتدار فقال: **(وأخذت بالنواصي والأقدام)** أي أحاطت قدرتك بنواصي العباد وأقدامهم، وأخذت بها على وجه القهر والإذلال، ويجوز أن يكون المراد به خصوص أخذ المجرمين بنواصيهم وأقدامهم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمٰن: ٤١] ونسبته عليه السلام الأخذ إلى الله سبحانه مع كونه فعل الملائكة من باب الإسناد إلى السبب الأمر كما أسند الله التوفي إلى نفسه في قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] مع كونه فعل ملك الموت بدليل قوله سبحانه في سورة السجدة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [١١]. قال الفخر الرازي في تفسير الآية الأولى: وفي كيفية الأخذ ظهور نكالهم لأن في نفس الأخذ بالناصية إذلالاً وإهانة، وكذلك الأخذ بالقدم.

وفي الأخذ بها وجهان، بل قولان لأهل التفسير.

أحدهما: أن يجمع بين ناصيتهم وقدمهم من جانب ظهورهم فيربط بنواصيهم أقدامهم أو من جانب وجوههم فتكون رؤوسهم على ركبهم ونواصيهم في أصابع أرجلهم مربوطة.

والثاني: أنهم يسحبون سحباً، فبعضهم يؤخذ بناصيته، وبعضهم يجرّ برجله.

ثم استفهم على سبيل الاستحقار لما استفهم عنه فقال: **(وما الذي نرى من خلقك)** أي من مخلوقاتك على كثرتها واختلاف أجناسها وأنواعها وهيئاتها ومقاديرها وخواصها وأشكالها وألوانها إلى غير هذه من أوصافها وحالاتها التي لا يضبطها عدّ ولا يحيط بها حد **(ونعجب له من قدرتك)** أي من مقدوراتك الغير المتناهية عدداً ومدداً وكيفاً وكمّاً **(ونصفه من عظيم سلطانك)** النافذ في الأنفس والآفاق، والماضي في أطباق الأرض وأقطار السماء **(و)** الحال أن **(ما تغيب عنا منه)** أي من مخلوقك ومقدورك وملكك **(وقصرت أبصارنا عنه)** من محسوسات الموجودات **(وانتهت عقولنا دونه)** من معقولات المخلوقات **(وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه)** أي كانت سرادقات العزّة وأستار القدرة عائلة بيننا وبينه، وحاجبة لنا من الوصول إليه من غيابات الغيوب والغيب المحجوب.

(أعظم) وأفخم، يعني أنه لو قيس كل ما شاهدناه بأبصارنا وأدركناه بعقولنا ووصفناه بألسنتنا مما ذرأه الله سبحانه في عالم الإمكان إلى ما غاب عنا من أسرار القدرة والجلال، وشئونات الكبرياء والجمال لم يكن إلا أقلّ قليل كنسبة الجدول إلى النهر، بل القطرة إلى البحر.

(فمن فرغ قلبه) للنظر في عجائب الملك والملكوت **(وأعمل فكره ليعلم)** مشاهد العزّ والسلطان والقدرة والجبروت وأنه **(كيف أقمت عرشك)** في الجو على عظمه **(وكيف ذرأت)** أي خلقت **(خلقك)** على كثرته **(وكيف علقت في الهواء سماواتك)** بغير عمد **(وكيف مددت على مور الماء)** أي موجه واضطرابه **(أرضك)** على ثقلها مع عدم رسوبها فيه **(رجع طرفه حسيراً)** كليلاً **(وعقله مبهوراً)** مغلوباً **(وسمعه والهاً)** متحيّراً **(وفكره حائراً)** قاصراً عن الاهتداء إليه وعن الوصول إلى معرفته.

ومحصّله أنه لو بالغ أحد في إعمال فكره وبذل وسعه للوصول إلى معرفة بعض ما أبدعه الله سبحانه في عالم الغيب والشهادة من بدائع القدرة، ولطائف الحكمة، وعجائب الصنعة لعجز وحار، وانقطع واستحار، فكيف لو رام معرفة كله ويشهد على ما ذكره عليه السلام ما قدمنا في شرح الخطبة الأولى وفي شرح الخطبة التسعين، فليراجع ثمة.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است كه فصل اوّل آن متضمّن اوصاف كمال حضرت ذوالجلال است، مى فرمايد كه:

امر خداى تعالى حكمى است لازم و موافق است با حكمت و خوشنودى آن امان است از عقوبت و سبب مغفرت است و رحمت، حكم مى فرمايد به علم شامل خود و عفو مى فرمايد با حلم كامل، پروردگارا مرتورا است حمد بر آنچه مى گيرى و مى دهى و بر آنچه كه سلامت مى دارى از بليّات و مبتلا مى نمايى به آفات، حمد مى كنم تو را حمدكردنى كه باشد خوشنودترين حمدها از براى تو و دوست ترين حمدها به سوى تو و فاضل ترين حمدها نزد تو، چنان حمدى كه پرسازد آنچه را خلق كرده اى و برسد به مقامى كه مراد تو است، حمدى كه محجوب نباشد از درگاه تو و ممنوع و محبوس نباشد نزد بارگاه تو، حمدى كه منقطع نشود شماره و عدد آن و فانى نشود ماده و مدد آن.

پس نیستیم ما که بدانیم نهایت بزرگی جلال تو را غیر از این که می دانیم که تو زنده ای قائم به امور مخلوقان، اخذ نمی کند تو را مقدّمه خواب که خواب خفیف است و نه خواب گران، منتهی نشد به سوی کمال تو نظر و فکری و درك ننمود جمال تو را هیچ بصری، درك کردی تو بصرها را و در شماره آوردی عمل ها را و اخذ کردی به پیشانی ها و قدم های مردمان.

و چه چیز است آنچه که می بینیم از خلق تو و تعجّب می کنیم از برای او از قدرت تو و وصف می کنیم آن را از بزرگی پادشاهی تو و حال آنکه آنچه که غایب شده از ما از آن و قاصر شده بصرهای ما از درك آن و به نهایت رسیده عقل های ما نزد آن و حایل شده پرده های غیب ها میان ما و میان آن بزرگتر است.

پس هرکه فارغ نماید قلب خودش را و اِعمال کند فکر خود را تا بداند که چگونه برپا داشته ای عرض خود را و چه سان آفریده ای مخلوقات خود را و چه قرار در آویخته ای در هوا آسمان های خود را و چه نوع گسترانیده ای بر موج آب زمین خود را، برمی گردد بینایی او درمانده و آواره و عقل او مغلوب و قوّه سامعه او حیران و قوّه متفکّره او متحیّر و سرگردان.

الفصل الثاني (منها)

يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ، كَذِبَ والْعَظِيم ما بالُهُ لا يَتَبَيَّنْ رَجاؤُهُ فِي عَمَلِه، وكُلُّ مَنْ رَجا عُرِفَ رَجاؤُهُ في عَمَلِهِ إلاَّ رجاءَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ إلاَّ خَوْفَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ، يَرْجُو اللَّهَ فِي الكَبيرِ ويَرْجُو العِبادَ في الصَّغِيرِ، فَيُعْطى العَبْدَ ما لاَ يُعْطِي الرَّبَّ، فَما بالُ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ بِعِبادِه، أَتَخافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجاءِكَ لَهُ كاذِباً، أَوْ تَكُونَ لا تَراهُ لِلرَّجاءِ مَوْضِعاً، وكَذٰلِكَ إِنْ هُوَ خافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ أَعْطاهُ مِنْ خَوْفِه ما لا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ العِبادِ نَقْداً، وخَوْفَهُ مِنْ خالِقِهِ ضِماراً وَوَعْداً، وكَذٰلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيا في عَيْنِهِ، وكَبُرَ مَوْقِعُها في قَلْبِهِ، آثَرها عَلىٰ اللَّهِ فَانْقَطَعَ إِلَيْها، وصارَ عَبْداً لَها.

ولَقَدْ كانَ في رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كافٍ لَكَ في الأُسْوَةِ، ودَلِيلٌ لَكَ عَلىٰ ذَمِّ الدُّنْيا وعَيْبِها، وكَثْرَةِ مَخازِيها ومَساوِيها، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرافُها، ووُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنافُها، وفُطِمَ مِنْ رَضاعِها وزُوِيَ عَنْ زَخارِفِها.

وإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتَ بِمُوسىٰ كَلِيمِ اللَّهِ ﷺ إِذ يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وَاللَّهِ ما سَأَلَهُ إِلاَّ خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لأَنَّهُ كانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الأَرْضِ، ولَقَدْ كانَتْ خُضْرَةُ البَقْلِ تُرىٰ مِنْ شَفِيفِ صِفاقِ بَطْنِهِ لِهُزالِهِ، وتَشَذُّبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتَ بِداوُدَ ﷺ صاحِبِ المَزامِيرِ وقارىء أَهْلِ الجَنَّةِ فَلَقَدْ كانَ يَعْمَلُ سَفائِفَ الخَوْصِ بِيَدِهِ، ويَقُولُ لِجُلَسائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَها، ويَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِها.

وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ في عِيسَى ابن مَرْيَمَ عليه السلام: قَدْ كانَ يَتَوَسَّدُ الحَجَرَ، ويَلْبَسُ الخَشِنَ، وكانَ إِدامُهُ الجُوعُ، وسِراجُهُ بِاللَّيْلِ القَمَرُ، وظِلالُهُ فِي الشِّتاءِ مَشارِقُ الأَرْضِ ومَغارِبُها، وفاكِهَتُهُ ورَيْحانُهُ ما تُنْبِتُ الأَرْضُ لِلْبَهائِمِ، ولَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، ولا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، ولا مالٌ يَلْفِتُهُ، ولا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دابَّتُهُ رِجْلاهُ، وخادِمُهُ يَداهُ.

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ ﷺ، فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسّىٰ، وعَزاءً لِمَنْ تَعَزّىٰ، وأَحَبُّ العِبادِ إِلىٰ اللَّهِ المُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، والمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ، قَضَمَ الدُّنْيا قَضْماً، ولَمْ يُعْرِها طَرْفاً، أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيا فَأَبىٰ أَنْ يَقْبَلَها، وعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ فِينا إلاَّ حُبُّنا ما أَبْغَضَ اللَّهُ ورَسُولُهُ، وتَعْظِيمُنا ما صَغَّرَ اللَّهُ ورَسُولُهُ، لَكَفىٰ بِهِ شِقاقاً لِلَّهِ، ومُحادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

ولَقَدْ كانَ ﷺ يَأْكُلُ عَلىٰ الأَرْضِ، ويَجْلِسُ جِلْسَةَ العَبْدِ، ويَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، ويَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، ويَرْكَبُ الحِمارَ العارِيَ، ويُرْدِفُ خَلْفَهُ، ويَكُونُ السِّتْرُ عَلىٰ بابِ بَيْتِهِ، فَتَكُونُ فِيهِ التَّصاوِيرُ، فَيَقُولُ: يا فُلانَةُ ـ لإِحْدىٰ أَزْواجِهِ ـ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيا وزَخارِفَها، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيا بِقَلْبِهِ، وأَماتَ ذِكْرَها عَنْ نَفْسِهِ، وأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْ لا يَتَّخِذَ مِنْها رِياشاً، وَلا يَعْتَقِدَها قَراراً، ولا يَرْجُو فِيها مَقاماً، فَأَخرَجَها مِنَ النَّفْسِ، وأَشْخَصَها عَنِ القَلْبِ، وغَيَّبَها عَنِ البَصَرِ، وكَذٰلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ.

ولَقَدْ كانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ما يَدُلُّكَ عَلىٰ مَساوِىءِ الدُّنْيا وعُيُوبِها، إِذْ جاعَ فِيها مَعَ خاصَّتِهِ، وزُوِيَتْ عَنْهُ زَخارِفُها مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ، فَلْيَنْظُرْ ناظِرٌ بِعَقْلِهِ، أَكْرَمَ اللَّهُ تَعالىٰ مُحَمَّداً ﷺ بِذٰلِكَ أَمْ أَهانَهُ؟! فَإِنْ قالَ: أَهانَهُ، فَقَدْ كَذِبَ والعَظِيمِ، وإِنْ قالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَهانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيا وزَواها عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ، فَتَأَسَّىٰ مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، واقْتَصَّ أَثَرَهُ، ووَلَجَ مَوْلِجَهُ، وإِلاَّ فَلا يَأْمَنِ الهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّداً ﷺ عَلَماً لِلسَّاعَةِ، ومُبَشِّراً بِالجَنَّةِ، ومُنْذِراً بِالعُقُوبَةِ، خَرَجَ مِنَ الدُّنْيا خَمِيصاً، ووَرَدَ الآخِرَةَ سَلِيماً، لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلىٰ حَجَرٍ حَتَّىٰ مَضىٰ لِسَبِيلِهِ، وأَجابَ داعِيَ رَبِّه، فَما أَعْظَمَ مِنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وقائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ، واللَّهِ لَقَدْ رَقَعْتُ مِدْرَعَتِي هٰذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ راقِعِها، ولَقَدْ قالَ لِي قائِلٌ: أَلا تَنْبِذُها عَنْكَ، فَقُلْتُ: اغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرىٰ[1].

اللغة

(الزعم) مثلثة الزاء قد يطلق على الظن والاعتقاد الفاسد، ومنه قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ [التغابن: ٧]. وقد يطلق على القول الباطل والكذب، وربما يطلق على القول الحق والمراد هنا الأول و **(مدخول)** مفعول من الدخل بالتسكين وهو المكر والخديعة والعيب ومثله الدّخل محركة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٤] أي مكراً وخديعة و **(الضمار)** ما لا يرجى من الوعود، هكذا قال الشارح المعتزلي، وقال الفيروزآبادي: الضمّار ككتاب من المال الذي لا يرجى رجوعه، ومن العذاب ما كان ذا تسويف وخلاف العيان، ومن الدّين ما كان بلا أجل و **(الأسوة)** بالكسر والضم القدوة و **(المخازي)** جمع مخزاة وهي الأمر يستحى من ذكره لقبحه و **(المساوىء)** العيوب و **(الأكناف)** الأطراف و **(شفّ)** الثوب شفّاً وشفيفاً رقّ فحكى ما تحته.

و **(الصّفاف)** ككتاب الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر و **(الهزال)** بضم الهاء

(١) الأمالي: ٧١٩، وشرح أصول الكافي: ١/ ٢٣٣.

نقيض السّمن و (**المزامير**) جمع المزمار وهي الآلة التي يزمر فيها من زَمَرَ يَزْمُر ويزمِر من باب نصر وضرب زمراً وزميراً غنّى في القصب ونحوه، ومزامير داود ما كان يتغنّى به من الزّبور وضروب الدعاء و (**السّفائف**) جمع السّفيفة وهي النسيجة من سففت الخوص وأسففته نسجته، وفي نسخة الشارح المعتزلي بعد قوله: (**ويلبس الخشن**): ويأكل الجشب، وهو كالجشيب الخشن الغليظ البشع من كل شيء والسيىء المأكل أو بلا أدم.

(**ولا ولد يحزنه**) مضارع حزن كنصر قال تعالى: ﴿تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ﴾ [يوسف: ١٣] ويقرأ: يُحزِن مضارع أحزنه الشيء و (**لفته**) عن كذا يلفته صرفه ولواه و (**القضم**) الأكل بأدنى الفم أي بأطراف الأسنان، ويروى قصم بالصّاد المهملة من القصم وهو القصر و (**الهضم**) محركة انضمام الجنبين وخمص البطن و (**الكشح**) الخاصرة (**وحقر شيئاً**) يروى بالتخفيف والتضعيف.

الإعراب

(**الباء**) في قوله: (**بزعمه**) للسببية إن كان الزعم بمعنى الظن والاعتقاد، وإلا فهي صلة، و (**الواو**) في قوله: (**كذب والعظيم**) للقسم وإنما قال: والعظيم ولم يقل: والله العظيم، تأكيداً لعظمة الباري سبحانه، لأن الموصوف إذا لغى وترك واعتمد على الصفة حتى صارت كالإسم كانت أدلّ على تحقق مفهوم الصفة كالحارث والعباس هكذا قال الشارح المعتزلي.

وقال البحراني: وإنما قال: والعظيم، دون الله لأن ذكر العظمة هنا أنسب للرجاء، والإضافة في قوله: (**من خوفه**) من إضافة المصدر إلى الفاعل أو المفعول، و (**اللام**) في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، بمعنى إلى أو للتعليل أو ضمن فقير معنى سائل فعدّى باللام، و (**الواو**) في قوله: (**ولقد كانت**) للقسم والمقسم به محذوف لمعلوميته، وسلفاً، وقائداً، منصوبان على الحال من ضمير به.

المعنى

إعلم أنه عليه السلام قد نبّه في هذاالفصل من كلامه عليه السلام على بطلان دعوى من يدّعي رجاء ثواب الله سبحانه وخوف عقابه ويزعم اتصافه بهذين الوصفين اللذين هما من أوصاف السالكين وحالات الطالبين ومقامات العارفين الراغبين، وعقبّه بالتزهيد عن الدنيا بالأمر بالتأسي على رسول الله صلى الله عليه وآله وجملة من السلف الصالحين من الأنبياء والمرسلين حيث زهدوا في الدنيا، وآثروا الآخرة على الأولى لما رأوا من معايبها ومساوئها، وقد تقدم في التنبيه الثالث من تنبيهات الفصل السادس من فصول الخطبة الثانية والثمانين تحقيق معنى الرجاء وتفصيل الكلام فيه ولا حاجة إلى الإعادة، وإنما نشير هنا إلى محصل ما أوردناه

هناك تمهيداً وتوضيحاً للمتن.

فأقول: خلاصة ما قلناه فيما تقدم: إن الرجاء عبارة عن ارتياح النفس لانتظار ما هو محبوب عندها، فهو حالة لها تصدر عن علم وتقتضي عملاً، فمن كان يرجو لقاء ربه ويأمل ثوابه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، كما نطق به الكتاب الكريم والقرآن الحكيم، فاللازم على الراجي للثواب من الملك الوهاب عزَّ وعلا أن يبذر المعارف الإلٰهية في قلبه، ويدوم على سقيه بماء الطاعات ويجتهد في تطهير نفسه عن شوك الأخلاق الرديئة المانعة من نماء العلم وزيادة الإيمان، وينتظر من فضل الله سبحانه أن يثبته على ذلك إلى زمان وصوله وحصاد عمله، فذلك الانتظار هو الرجاء الحقيقي المحمود.

إذا عرفت ذلك فنقول: إن من الناس من يتبع هواه ويفرّط في أمر مولاه ويغمر في المعاصي ويدوم على المناهي ومع ذلك كله **(يدعي بزعمه)** الفاسد ونظره الكاسد **(أنه يرجو الله)** ويأمل لقائه فقد **(كذب)** في دعواه وخاب فيما يتوقعه ويتمناه **(و)** الربّ **(العظيم)** لما قد عرفت أن الرجاء بدون إصلاح العمل حمق وجهالة، ومن دون تزكية النفس سفه وضلالة **(ما باله)** استفهام على سبيل التوبيخ والتقريع، أي ما بال هذا الداعي للرجاء **(لا يتبين رجاؤه في عمله)** يعني أنه لو كان رجاؤه صدقاً لظهر رجاؤه في عمله، وذلك لأنّا نرى أن كل من رجا شيئاً من سلطان أو غيره فإنه يتابعه ويخدمه ويتقرّب إليه ويتحبّب إليه ويبالغ في طلب رضاه ويسارع إلى خدمته ويأتي بقدر طوعه كل ما هو مطلوب له ومحبوب عنده ليظفر بمراده وينال إلى ما يرجوه منه، وهذا المدّعي للرجاء حيث لا يظهر رجاؤه في عمله يتبين أنه كاذب في دعواه، غير خالص في رجاه.

وهذا معنى قوله: **(وكل من رجا عرف رجاؤه في عمله إلا رجاء)** من يرجو **(الله فإنه مدخول)** أي معيب **(وكل خوف محقق)** أي كل خائف فخوفه محقق ثابت له أصل وحقيقة تظهر آثاره على الخائف **(إلاّ خوف الله)** تعالى **(فإنه معلول)** أي مشتمل على المرض والعلّة حيث لا يظهر آثاره وعلاماته على من يخافه سبحانه كما ستعرفه تفصيلاً.

هذا على تقدير عود الضمير في قوله: **(فإنه)** إلى خوف الله، ويجوز عوده إلى كل خوف بأن يجعل محقق صفة لخوف وإلا بمعنى غير، وهذه الجملة أعني جملة فإنه معلول خيراً لكل خوف، فيكون محصل المعنى أن كل خوف ثابت غير خوف الله سبحانه، فإن هذا الخوف معلول، بخلاف خوفه سبحانه فإنه الخوف الصريح الحقيقي، وذلك لأن ما يخاف به من غيره تعالى فهو أمر دنيوي سريع الزوال والانقضاء، مع أن ذلك الغير لا يقدر على إيقاع مكروه على الخائف إلا بمشيئة الله سبحانه وإقدار منه له عليه، بخلاف الخوف منه تعالى فإنه خوف من القادر القاهر لا رادّ لقضائه ولا دافع لحكمه، وعذابه أليم لا يفنى، وسخطه عظيم لا

ينقطع ولا يتناهى.

ويؤيد هذا الاحتمال الثاني في هذه الفقرة ما في بعض النسخ بدل قوله: وكل من رجا **(آهـ)** وكل رجاء إلا رجاء الله فإنه مدخول، وجه التأييد أن الضمير حينئذ يعود إلى كل رجاء فيكون سوق كلتا الفقرتين على مساق واحد، ويتطابق الكليتان كما هو غير خفي على البصير، هذا.

وأكّد كون رجائه لله سبحانه معلولاً بقوله: **(يرجو الله في الكبير)** أي يرجو رحمته ومغفرته ونعمته ومنّته وجنّته التي عرضها السماء والأرض **(ويرجو العباد في الصغير)** أي في أمور دنيوية زهيدة المنفعة قليلة الجدوى سريعة الزوال والانقضاء ومع ذلك **(فيعطي العبد ما لا يعطي الرب)** الإتيان بلفظ الإعطاء في يعطي الرب للمشاكلة، والمراد أنه يكثر عمله لمن يرجوه من العباد ويتقرّب إليه بكل وسيلة ليفوز بما يتوقعه منه، ويتهاون في طاعة ربّه ويتكاسل في عبادته ويقصّر فيما يقرّبه إليه مع أن اللازم عليه أن يكون عمله بعكس ذلك، فيكون قيامه بوظائف التقرب إلى الله سبحانه أكثر وآكد من القيام بوظائف التقرّب إلى غيره، حيث إن المرجو الكبير يستدعي ما يناسبه مما هو وسيلة إليه كمية وكيفية.

وحيث إنه عكس في القيام بوظائف رجاه ولم يعط ربه ما أعطاه سواء فحقيق بالتوبيخ والملام والتقريع والتبكيت، ولذلك قال ذمّاً وتشنيعاً: **(فما بال الله عزَّ وجل يقصر به عما يصنع به بعباده)** أي عما يعمل به، ويصانع لهم من المصانعة التي هي أن تصنع شيئاً لغيرك لتصنع لك مثله.

وأكد التوبيخ والتشنيع بقوله: **(أتخاف أن تكون في رجاءك له كاذباً أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً)** يعني أن قصورك في القيام بوظائف الرجاء كاشف من خوفك من أحد أمرين كلاهما باطل.

أحدهما: أن تكون كاذباً في رجاءك له سبحانه لزعمك أنك لا تستعدّ مع العمل بلوازم رجائه تعالى لإفاضة الجود منه عليك ولا تنال إلى مرجوّك، وهو خطأ عظيم ناشىء عن ضعف الاعتقاد بالوعود التي وعدها الله سبحانه على ألسنة رسله وأنبيائه لمن عمل صالحاً ويرجو رحمة ربه.

وثانيهما: أن تكون لا تراه للرجاء موضعاً، وهو كفر صريح ناشىء من توهّم عجزه أو بخله، هذا.

ولما نبّه على بطلان دعوى المدّعين للرجاء وشنعهم على تلك الدعوى، عقّبه بالتشنيع على الخائفين بسبب قصورهم في لوازم الخوف، وتوضيح قصورهم فيها محتاج إلى تحقيق

معنى الخوف وبيان حقيقته.

فأقول: إن الخوف كما في (**إحياء العلوم**) عبارة عن تألمّ القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء وهو صفة تقتضي علماً وعملاً.

أما العلم، فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه، وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويجوز العفو والإفلات، ولكن يكون تألّم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وهو تفاحش جنايته وكون الملك حقوداً غضوباً منتقماً، وكونه محفوفاً بمن يحثه على الانتقام، خالياً عمن يتشفّع إليه في حقه، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألّم القلب، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف.

وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية فارقها الخائف، بل عن صفة المخوف منه كالذي وقع في مخالب سبع، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي سطوته وحرصه على الافتراس غالباً وإن كان افتراسه بالاختيار.

وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق من الغرق والاحتراق، لأن طبع الماء مجبول على السيلان والإغراق، وكذا النار على الإحراق، فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألّمه، وذلك الإحراق هو الخوف.

فكذلك الخوف من الله تارة يكون لمعرفة الله ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً، وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال ﷺ: «أنا أخوفكم لله»، وكذلك قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأما العمل، فهو أنه إذا حصل له الخوف أوجب ذلك الكف والتّوقي عن كل ما يؤدي إلى المكروه المتوقع الذي يخاف منه.

وخوف الله سبحانه إذا ثبت في القلب واشتد يظهر أثره على البدن وعلى الجوارح والصفات.

أما البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنشق به المرارة فيفضي إلى الموت، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس.

وأما الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرّط واستعداداً للمستقبل.

وأما الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمّاً فتحرق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكمال ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه.

وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكفّ الحاصل عن المحظورات ورعاً، فإن زادت قوته كفّ عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكفّ أيضاً عن المشتبهات ويسمى ذلك التقوى، إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه، ولا يجمع ما لا يأكله، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه، فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً.

ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة، فإذاً الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام، ويتجدد له بسبب الكفّ إسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع، فإنه أعم لأنه كفّ عن كل محظور وأعلى منه التقوى، فإنه إسم للكفّ عن المحظور والشبهة جميعاً ووراءه اسم الصديق والمقرّب.

إذا عرفت ذلك ظهر لك معنى قوله **(وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده)** سبحانه **(أعطاه من خوفه)** الضمير راجع إلى الخائف أو العبد، أي أعطاه من أجل خوفه إياه **(ما لا يعطي ربه)** يعني أنه يقوم بمقتضيات خوفه إن خاف غير الله تعالى فيفعل ما يأمر ويترك ما ينهى ويأتي بما يريد بخلاف خوفه منه سبحانه، فيدعي الخوف ولا يظهر أثره عليه **(فجعل خوفه من**

العباد نقداً) أي كالنقد المعجّل لوجود آثاره فيه بالفعل **(وخوفه من خالقه ضماراً ووعداً)** ذا تسويف غير موجود آثاره فيه بعد، هذا.

ولما نبّه على بطلان دعوى المدّعين للخوف والرجاء وكذّبهم في تلك الدعوى معللاً بكون رجاءهم لغير الله تعالى أكثر وآكد، وخوفهم من غيره سبحانه أقوى وأشد، وفهم من ذلك ضمناً بدلالة الالتزام أن توجههم ومراقبتهم إلى غيره عزَّ وعلا أكثر من مراقبتهم وتوجههم إليه، حيث إنهم يؤثرون غيره عليه إذا رجوا، ويقدمون خوف الغير على خوفه إذا خافوا أردف ذلك بالتنبيه على أن حال أبناء الدنيا كذلك لإيثارهم الدنيا عليه تعالى وانقطاعهم إليها وافتتانهم بها ورغبتهم إليها دونه.

وبهذا ظهر لك حسن الارتباط والمناسبة بين ما مر وبين قوله **(وكذلك من عظمت الدنيا في عينه)** وراقه زبرجها **(وكبر موقعها من قلبه)** وعظم محلها عنده للذاتها العاجلة وشهواتها الموجودة الحاضرة **(آثرها على الله)** واختارها على ما لديه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لكونه آجلاً غائباً **(فانقطع إليها وصار عبداً لها)** ولمن في يديه شيء منها حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها، غافلاً عن أنه ظلٌ زائل، وضوء آفل، وسناد مائل، وغرور حائل.

ولما وصف حال أبناء الدنيا المفتونين بها عقّبه بأمرهم بالتأسّي برسول الله ﷺ المعرض عنها لما رأى من فنائها وزوالها ومخازيها ومعايبها تزهيداً لهم عنها، وتنبيهاً على خطأهم في الافتتان بها فقال: **(ولقد كان في رسول الله ﷺ كاف لك في الأسوة)** أي في القدوة والاتباع **(ودليل لك على ذمّ الدنيا وكثرة مخازينها)** أي مهالكها ومقابحها وفضائحها ومساوئها أي معايبها.

وأشار إلى دليل الذمّ بقوله: **(إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت)** أي هيّأت **(لغيره أكنافها)** وجوانبها و **(فطم من رضاعها)** والتقم غيره ضرعها **(وزوى)** أي نحّى **(عن زخارفها)** وقرّب إلى غيره زبرجها.

ودلالة هذه الجملة على ذمّها وعيبها أنه لو كان لها وقع عنده سبحانه ولها كرامة لديه لم يضن بها على أحب خلقه إليه وأشرفهم وأكرمهم عنده، فحيث زويها عنه وبسطها لغيره دلّ على خسّتها وحقارتها وهوانها.

وإلى ذلك يشير ما في الحديث: ما زوى الله عن المؤمن في هذه الدنيا خير مما عجّل له فيها[1].

---

(١) مجمع البحرين: ٢/ ٣٠٦.

قال بعض شراح الحديث: أي ما نحّى من الخير والفضل، وتصديق ذلك أن الرجل منهم يوم القيامة يقول: يا رب إن أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم فنكحوا النساء ولبسوا الثياب اللينة وأكلوا الطعام وسكنوا الدور وركبوا المشهور من الدواب فأعطني مثل ما أعطيتهم، فيقول الله تبارك وتعالى: ولكل عبد منكم ما أعطيت أهل الدنيا منذ كانت الدنيا إلى أن انقضت سبعون ضعفاً[(١)].

(وإن شئت ثنّيت) إعراض رسول الله ﷺ عن الدنيا (بـ)إعراض **(موسى كليم الله)** عنها أو إن شئت ثنّيت الأسوة بالرسول ﷺ بالأسوة بالكليم **(إذ يقول)** ما حكى الله سبحانه عنه في سورة القصص بقوله: **(رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير)** أي إني محتاج[(٢)] إلى ما أنزلت إليّ أو سائل طالب لما أنزلته، أو إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدّين وهو النجاة من الظالمين، أي صرفت فقيراً لأجل ذلك لأنه كان عند فرعون في ثروة وسعة وملك، وقال عليه السلام ذلك رضا بالبدل النبي وفرحاً به وشكراً له، وعلى ذلك فالمراد بما في قوله لما أنزلت، هو خير الدين والنجاة من الظالمين، وقال في **(الكشاف)**: إني لأيّ شيء أنزلت إليّ قليل أو كثير غثّ أو سمين لفقير.

وحمله الأكثرون على الطعام، ويؤيده ما في **(الصافي)** عن **(الكافي)** والعياشي عن الصادق عليه السلام سأل الطعام، قال: وفي **(الإكمال)** روى أنه قال ذلك وهو محتاج إلى شقّ تمرة[(٣)].

وفي **(مجمع البيان)** عن ابن عباس قال: سأل نبي الله فلق خبز يقيم به صلبه.

ويؤيده أيضاً كما يؤيد تضمين فقير معنى سائل وكون **(اللام)** للصلة قول أمير المؤمنين عليه السلام: **(والله ما سأله إلا خبزاً يأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض)** إذ خرج من مدينة فرعون خائفاً يترقب بغير ظهر ولا دابة ولا خادم ولا زاد تخفضه الأرض مرة وترفعه أخرى حتى انتهى إلى أرض مدين، وكان بينه وبين مدين مسيرة ثلاثة أيام، وقيل: ثمانية، فخرج منها حافياً ولم يصل إلى مدين حتى وقع خفّ قدميه، وكان لا يأكل في مدة مسيرها إلا حشيش الصحراء وبقل الأرض.

(ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه) يعني أن جلد بطنه بسبب رقّته لم يكن حاجباً عن إدراك البصر لما ورائه وذلك **(لهزاله وتشذّب لحمه)** أي تفرّقه قال في **(عدّة**

---

(١) الكافي: ٢/٢٦٣ ح ٩، وشرح أصول الكافي: ٩/٢٣٤ ح ٩.

(٢) أي كان ذلك السؤال من طلب قومه ولأجل استدعائهم، منه.

(٣) قصص الأنبياء: ١٥٤.

الداعي): ويروى أنه، أي موسى عليه السلام، قال يوماً: يا رب إني جائع، فقال الله: أنا أعلم بجوعك، قال: يا رب أطعمني، قال: إلى أن أريد.

وفيما أوحى إليه عليه السلام: يا موسى، الفقير من ليس له مثلي كفيل، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب من ليس له مثلي مؤنس، قال: ويروى حبيب، يا موسى إرضى بكسرة من شعير تسدّ بها جوعتك، وبخرقة تواري بها عورتك، واصبر على المصائب، وإذا رأيت الدنيا مقبلة عليك فقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، عقوبة قد عجلت في الدنيا، وإذا رأيت الدنيا مدبرة عنك فقل: مرحباً بشعار الصالحين، يا موسى لا تعجبنّ بما أوتي فرعون وما تمتع به فإنما هي زهرة الحياة الدنيا.

(وإن شئت ثلّثت بداود) بن أيش من أولاد يهودا سمّي به لأنه داوى جرحه بودّ، وقد قيل: داوى ودّه بالطاعة حتى قيل عبد، رواه في **(البحار)** من معاني الأخبار وغيره **(صاحب المزامير)** قال الفيروزآبادي: مزاميره ما كان يتغنى به من الزبور وقال الشارح المعتزلي: يقال: إن داود أعطى من طيب النغم ولذّة ترجيع القراءة ما كان الطيور لأجله تقع عليه وهو في محرابه، والوحش تسمعه فيدخل بين الناس ولا تنفر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته.

وفي **(البحار)** من الأمالي عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في الحديث الآتي وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر ولا سبع إلا جاذبه[1] **(و)** لعله لطيب صوته كان **(قارىء أهل الجنة فلقد كان يعمل سفائف الخوص)** أي نسائج ورق النخل **(بيده ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص الشعير من ثمنها)** قال في **(البحار)**: لعل هذا كان قبل أن ألان الله له الحديد.

وروي فيه من تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي سبّحي له ﴿وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] قال: كان داود إذا مرّ في البراري يقرأ الزبور يسبّح الجبال والطير معه والوحوش وألان الله له الحديد مثل الشمع حتى كان يتخذ منه ما أحب.

وفيه من **(الفقيه)** بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أوحى الله إلى داود نعم العبد لولا أنك تأكل من بيت المال ولا تأكل بيدك شيئاً، قال: فبكى داود عليه السلام فأوحى الله تعالى إلى الحديد أن لِنْ لعبدي داود، فألان الله له الحديد، فكان يعمل كل يوم درعاً فيبعيها بألف

(١) الأمالي: ١٥٩ ح ١٥٧، وروضة الواعظين: ٤٤٢.

درهم فعمل ثلاثمائة وستين درعاً فباعها بثلاثمائة وستين ألفاً، واستغنى عن بيت المال[(١)].

وعن صاحب (**الكامل**): كان داود بن إيشاح[(٢)] من أولاد يهودا وكان قصيراً أزرق قليل الشعر، فلما قتل طالوت أتى بنو إسرائيل داود وأعطوه خزائن طالوت وملكوه عليهم.

وقيل: إن داود ملك قبل أن يقتل جالوت، فلما ملك جعله الله نبياً ملكاً وأنزل عليه الزبور وعلّمه صنعة الدرع وألان له الحديد وأمر الجبال والطير أن يسبّحن معه إذا سبّح، ولم يعط الله أحداً مثل صوته، كان إذا قرأ الزّبور تدنو الوحش حتى يؤخذ بأعناقها، وكان شديد الاجتهاد، كثير العبادة والبكاء، وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر، وكان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف، وكان يأكل من كسب يده أربعة آلاف، وكانت مدة ملكه أربعين وتمام عمره مائة، هذا.

وقد اتضح بذلك أنه عليه السلام مع ما آتاه الله من الملك والنبوة والبسطة زهد في الدنيا ورغب عنها وجعل رزقه في كد يمينه، والعجب أنه مع زهده ذلك عيّره حزقيل النبي ويعجبني أن أذكر قصته معه لمناسبتها بالمقام، ودلالتها على ذمّ الدنيا المسوق له هذا الفصل من كلام الإمام عليه السلام.

فأقول: روى في (**البحار**) من أمالي الصدوق عن أبيه عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن الصادق عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: إن داود خرج ذات يوم يقرأ الزبور وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر ولا سبع إلا جاذبه، فما زال يمر حتى انتهى إلى جبل فإذا على ذلك الجبل نبي عابد يقال له: حزقيل، فلما سمع دوي الجبال وأصوات السباع والطير علم أنه داود، فقال داود: يا حزقيل أتأذن لي فأصعد إليك؟ قال: لا، فبكى داود عليه السلام فأوحى الله جل جلاله إليه: يا حزقيل لا تعيّر داود وسلني العافية، فقام حزقيل فأخذ بيد داود عليه السلام فرفعه إليه فقال داود عليه السلام: يا حزقيل هل هممت بخطيئة قط؟ قال: لا، قال: فهل دخلك العجب مما أنت فيه من عبادة الله تعالى؟ قال: لا، قال: فهل ركنت إلى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها ولذّتها؟ قال: بلى ربما عرض بقلبي، قال: فماذا تصنع إذا كان ذلك؟ قال: أدخل هذا الشعب فاعتبر بما فيه.

قال: فدخل داود النبي الشعب فإذا سرير من حديد عليه جمجمة بالية وعظام فانية، وإذا لوح حديد فيه كتابة، فقرأها داود فإذا هي: أنا أردى شلم ملكت ألف سنة وبنيت ألف

---

(١) الكافي: ٥/ ٧٤ ح ٥، وعوالي اللئالي: ٣/ ١٩٩.

(٢) في نسخة: ايش.

مدينة وافتضضت ألف بكر فكان آخر أمري أن صار التراب فراشي، والحجارة وسادتي، والديدان والحيّات جيراني، فمن رآني فلا يغترّ بالدنيا[١].

وفي (البحار) أيضاً: دخل داود غاراً من غيران بيت المقدس، فوجد حزقيل يعبد ربه وقد يبس جلده على عظمه فسلّم عليه، فقال: سمع صوت شبعان ناعم فمن أنت؟ قال: أنا، قال: الذي له كذا وكذا أمة؟ قال: نعم، وأنت في هذه الشدة؟ قال: ما أنا في شدة ولا أنت في نعمة حتى تدخل الجنة[٢].

(وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السلام) أي إن شئت أن تذكر حال المسيح فاذكر أنه **(لقد كان يتوسّد الحجر)** أي يأخذه وسادة له **(ويلبس)** اللباس **(الخشن وكان إدامه الجوع)** قال العلامة المجلسي: لعل المعنى أن الإنسان إنما يحتاج إلى الإدام لأنه يعسر على النفس أكل الخبز يابساً، فأما مع الجوع الشديد فيلتذّ بالخبز ولا يطلب غيره فهو بمنزلة الإدام، أو أنه كان يأكل الخبز دون الشبع فكان الجوع مخلوطاً به كالإدام.

أقول: ويحتمل أن يكون المراد أنه كان يلتذ بالجوع كما يلتذ بالإدام والطعام، أو أن الجوع كان بدلاً عن إدامه، فاستعير لفظ الجوع له من باب استعارة إسم الضد للضد مثل قوله في الخطبة الثانية: نومهم سهود وكحلهم دموع.

(وسراجه بالليل القمر) يستضيء به كما يستضاء بالسراج **(وظلاله في الشتاء)** أي مكمنه من الرد **(مشارق الأرض)** في الضحى **(ومغاربها)** في المساء **(وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم)** واستعارة الفاكهة والريحان لما تنبت باعتبار التذاذ ذوقه وشمه به كالتذاذ غيره بالفواكه والرياحين **(ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته)** أي يلويه ويصرفه عن ذكر الله **(ولا طمع يذلّه)** أي يوقعه في الذلة والهوان **(دابته رجلاه وخادمه يداه)** أي انتفاعه بهما كما ينتفع غيره بالدابة والخادم.

واعلم أن ما وصف عليه السلام به عيسى عليه السلام فقد روى عنه عليه السلام نحوه في **(عدة الداعي)** قال: وأما عيسى روح الله وكلمته فإنه كان يقول: خادمي يداي ودابتي رجلاي وفراشي الأرض ووسادي الحجر ودفئي في الشتاء مشارق الأرض وسراجي بالليل القمر وإدامي الجوع وشعاري الخوف ولباسي الصوف وفاكهتي وريحاني ما أنبتت الأرض للوحوش والأنعام، أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على وجه الأرض أحد أغنى مني، ورواه مثله في

---

(١) الأمالي: ١٦٠، وكمال الدين وتمام النعمة: ٥٢٥.

(٢) البحار: ٢٦/١٤ ح ٤، ومستدرك سفينة البحار: ٢٧٩/٢.

(البحار) من إرشاد القلوب إلا أن فيه بدل مشارق الأرض: مشارق الشمس، وبدل ريحاني ريحانتي.

وفي **(عدّة الداعي)** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في الإنجيل إن عيسى قال: اللهم ارزقني غدوة رغيفاً من شعير وعشيّة رغيفاً من شعير ولا ترزقني فوق ذلك فأطغى[1].

أقول: وإن شئت فاتّبع ذكر حال هؤلاء الأنبياء الأكرمين بذلك حال غيرهم من الأنبياء والمرسلين.

واذكر نوحاً نجيّ الله فإنه مع كونه شيخ المرسلين وقد روي أنه عاش ألفي عام وخمسمائة عام، وعمّر في الدنيا مديداً، مضى منها ولم يبن فيها بيتاً، وكان إذا أصبح يقول: لا أمسي، وإذا أمسى يقول: لا أصبح.

وانظر إلى أبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمٰن فقد كان لباسه الصوف وطعامه الشعير.

ثم انظر إلى يحيى بن زكريا كان لباسه الليف وأكله ورق الشجر.

ثم إلى سليمان بن داود فقد كان مع ما هو فيه من الملك العظيم يلبس الشعر وإذا جنّه الليل شدّ يديه إلى عنقه فلا يزال قائماً باكياً حتى يصبح، وكان قوته من سفائف الخوص يعملها بيده، وهكذا كان حال سائر الأنبياء في إعراضهم عن الدنيا.

وأما سيد البشر فوصف حاله إجمالاً قد مر وقد تقدم أن فيه كافياً لك في الاتباع به والاهتداء بهداه، ولذلك عقّبه بالأمر بالتأسي به وأردفه بوصف حاله تفصيلاً فقال: **(فتأسّ بنبيك الأطيب الأطهر ﷺ)** واتّبع له **(فإن فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزّى)** أي نسبة لمن انتسب **(وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه والمقتصّ)** المتتبع **(لأثره)** وإنما كان أحب العباد إليه سبحانه لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] قال الفخر الرازي: قال المتكلمون: محبة الله للعبد عبارة عن إرادته تعالى إيصال الخيرات والمنافع في الدين والدنيا إليه، وقال بعض المحققين: ومن المتكلمين من أنكر محبة الله لعباده كالزمخشري وأترابه، زعماً منهم أن ذلك يوجب نقصاً في ذاته ولم يعلموا أن محبة الله تعالى لخلقه راجعة إلى محبة ذاته، هذا.

وقوله: **(قضم الدنيا قضماً)** استئناف بياني، فإنه لما ذكر أن أحب العباد إلى الله من اقتص أثر النبي ﷺ، وكان ذلك مظنّة لأن يسأل عن الأثر الذي يقتصّ أردف بهذا الكلام وما يتلوه جواباً لهذا السؤال المتوهم. وتفصيلاً لما فيه الأسوة، وبه يكون الاقتصاص، وأراد

(١) بحار الأنوار: ١٤/٣٢٦ ح ٤٠، وميزان الحكمة: ٢/١٠٧٨.

بقضمه اقتصاره صلى الله عليه وآله في الدنيا على قدر الضرورة إذا لقضم يقابل الخضم والأول أكل الشيء اليابس بأطراف الأسنان، والثاني الأكل بالفم كله للأشياء الرطبة كما قال عليه السلام في وصف حال بني أميّة في الخطبة (**الشقشقية**): يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، وفي حديث أبي ذر «رض» يخضمون ونقضم والموعد لله.

(**ولم يعرها طرفاً**) أي لم يعطها نظرة على وجه العارية فكيف بأن يجعلها مطمح نظره، وهو كناية عن عدم التفاته إليها (**أهضم أهل الدنيا كشحاً وأخمصهم بطناً**) أي أخمصهم خاصرة وبطناً، وهو كناية عن كونه أشدهم جوعاً وأقلّهم شبعاً كما روي أنه صلى الله عليه وآله إذا اشتد جوعه كان يربط على بطنه حجراً ويسميه المشبع مع كونه مالكاً لقطعة واسعة من الدنيا.

قال الغزالي في (**إحياء العلوم**): وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وآله كان يجوع من غير غور أي مختاراً لذلك.

قال: وكانت عائشة تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمتل قط شبعاً وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلّغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع، فيقول: يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربّهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحي إن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم، فالصبر أياماً يسيرة أحب إليّ من أن ينقص حظي غداً في الآخرة، وما من شيء أحب إليّ من اللحوق بأصحابي وإخواني، قالت عائشة: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه.

وعن أنس قال: جاءت فاطمة صلوات الله وسلامه عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «ما هذهِ الكسرة؟»، قالت: قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما أنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام»[١]، هذا، وسنورد فصلاً مشبعاً في فضيلة الجوع وفوائده بعد الفراغ من شرح الخطبة إن شاء الله.

(**عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها**) إشارة إلى ما ورد في غير واحد من الأحاديث العامية والخاصية من أنه صلى الله عليه وآله عرض عليه مفاتيح كنوز الأرض فامتنع من قبولها.

منها ما في (**الكافي**) عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن القاسم بن يحيى عن جده الحسن بن راشد عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله وهو محزون، فأتاه ملك ومعه مفاتيح خزائن الأرض فقال: يا محمد هذه مفاتيح

---

(١) حلية الأبرار: ١/ ٢٤٢، وكنز العمال: ٦/ ٤٩١ ح ١٦٦٧٩.

خزائن الدنيا يقول لك ربك: افتح وخذ منها ما شئت من غير أن تنقص شيئاً عندي، فقال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له»[١]، فقال له الملك: والذي بعثك بالحق لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السماء الرابعة حين أعطيت المفاتيح.

ومنها ما في (**الوسائل**) عن الكليني عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل وفيه: ثم قال عليه السلام: يا محمد لعلك ترى أنه ﷺ شبع من خبز البر ثلاثة أيام منذ بعثه الله إلى أن قبض، ثم ردّ على نفسه ثم قال: لا والله ما شبع من خبز البرّ ثلاثة أيام متوالية منذ بعثه الله إلى أن قبضه، أما أني لا أقول إنه كان لا يجد، لقد كان يجير الرجل الواحد بالمائة من الإبل فلو أراد أن يأكل لأكل، وقد أتاه جبرائيل بمفاتيح خزائن الأرض ثلاث مرات يخيّره من غير أن ينقص مما أعدّ الله له يوم القيامة شيئاً، فيختار التواضع لله[٢]، الحديث.

وقد مر في شرح الكلام التاسع والستين في التذنيب الأول من شرحه المسوق لكيفية شهادة أمير المؤمنين عند اقتصاص حاله في ليلة تسع عشرة من شهر رمضان حديث عرض المفاتيح برواية لوط بن يحيى بنحو آخر، فتذكر.

(**وعلم ﷺ** أن الله سبحانه أبغض شيئاً) ولم يرده لأوليائه (**فأبغضه**) النبي ﷺ لنفسه لأنه لا يشاء إلا أن يشاء الله. روى في (**إحياء العلوم**) عن موسى بن يسار قال: قال النبي ﷺ: «إن الله عزَّ وجل لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها».

وفيه أيضاً قال رسول الله ﷺ: «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لم ينظر إليها وتقول يوم القيامة: يا رب اجعلني لأدنى أوليائك اليوم نصيباً، فيقول: اسكتي يا لا شيء إني لم أرضك لهم في الدنيا أرضاك لهم اليوم»[٣].

(**وحقر شيئاً فحقره**) أي حقره النبي ﷺ لحقارته عند الله سبحانه كما روى في (**الكافي**) عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن جميل بن درّاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مرّ رسول الله ﷺ بجدي أسك ملقى على مزبلة ميتاً فقال لأصحابه: كم يساوي هذا؟ فقالوا: لعله لو كان حياً لم يساو درهماً، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده الدنيا أهون عند الله من

---

(١) الكافي: ٢/١٢٩ ح ٨، وروضة الواعظين: ٤٤٨.

(٢) الكافي: ٨/١٣٠، ووسائل الشيعة: ٢٤/٢٥١.

(٣) شرح أصول الكافي: ٨/٣٦٨.

هذا الجدي على أهله»[١].

(وصغر شيئاً) أراد تصغيره بالنسبة إلى ما أعده لأوليائه في الآخرة **(فصغره)** قال في **(إحياء العلوم)**: قال داود بن هلال: مكتوب في صحف إبراهيم ﷺ: يا دنيا ما هونك على الأبرار الذين تصنّعت وتزينت لهم إني قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك، وما خلقت خلقاً أهون علي منك كل شأنك صغير، وإلى الفناء تصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد، ولا يدوم لك أحد وإن بخل به صاحبك وشح عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة، فطوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إليّ من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم، والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي، هذا.

ولما ذكر أن الدنيا مبغوضة لله، حقيرة عنده وكذلك عند النبي ﷺ تبعاً لرضائه تعالى، عقّب ذلك بالتنبيه على أن اللازم على المتأسي له ﷺ والمقتص لأثره أن يبغض ما أبغضه الله ورسوله ويحقّر ما حقراه وإلا لكان مواداً لما حاد الله ورسوله فقال: **(ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله وتعظيمنا ما صغّر الله ورسوله لكفى به شقاقاً لله)** ومخالفة له **(ومحادة عن أمر الله)** أي معاداة ومجانبة عنه.

وإلى ذلك ينظر ما روي أن سلمان رضي الله عنه كان متحسراً عند موته، فقيل له: يا أبا عبد الله على ما تأسفك؟ قال: ليس تأسفي على الدنيا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا وقال: لتكن بلغة أحدكم كزاد الراكب، وأخاف أن يكون قد جاوزنا أمره وحولي هذه الأساور، وأشار إلى ما في بيته وإذا هو دست وسيف وجفنة[٢].

ثم أشار إلى تواضعه وتذلله ﷺ في مأكله ومجلسه ومركبه وغيرها فقال: **(ولقد كان ﷺ يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد)** وقد ورد التصريح بذلك في روايات كثيرة مروية في **(الوسائل)** في كتاب الأطعمة.

ففيه عن محمد بن يعقوب الكليني بإسناده عن هارون بن خارجة عن أبي عبد الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأكل أكل العبد، ويجلس جلسة العبد ويعلم أنه عبد[٣].

وعن الكليني عن الحسن الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: مرت امرأة بذيئة برسول الله ﷺ وهو يأكل وهو جالس على الحضيض فقالت: يا محمد إنك تأكل أكل العبد

---

(١) الكافي: ٢/ ١٢٩ ح ٩، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٣٦٧ ح ٩.

(٢) عدة الداعي: ١٠٥، وبحار الأنوار: ٦٩/ ٥٤ ح ٨٥.

(٣) محاسن البرقي: ٢/ ٤٥٦ ح ٣٨٦، والكافي: ٦/ ٢٧١ ح ٣.

وتجلس جلوسه، فقال رسول الله ﷺ: «[ويحك] وأيّ عبد أعبد مني»(١).

وفيه عن البرقي عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يأكل بالأرض، هذا.

وظهور التواضع في الأكل على الأرض واضح.

والمراد بأكله أكل العبد إما ذلك أعني الأكل على الأرض، أو الأكل بثلاثة أصابع لا بالأصبعين كما يشعر به ما في **(الوسائل)** عن البرقي عن أبي خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يجلس جلسة العبد ويضع يده على الأرض ويأكل بثلاثة أصابع، وقال: إن رسول الله ﷺ كان يأكل هكذا ليس كما يفعله الجبارون يأكل أحدهم بأصبعيه، أو الأكل من غير اتكاء(٢).

ويدل عليه ما في **(الوسائل)** عن الكليني عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما أكل رسول الله ﷺ متكئاً منذ بعثه الله إلى أن قبضه تواضعاً لله عزَّ وجل(٣).

وعن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما أكل رسول الله ﷺ متكئاً منذ بعثه الله حتى قبض، كان يأكل أكلة العبد، ويجلس جلسة العبد، قلت: ولم ذلك؟ قال: تواضعاً لله عزَّ وجل.

وأما المراد من كون جلوسه جلسة العبد إما جلوسه على الأرض، ويدل عليه ما مر.

أو الجلوس من غير تربّع كما هو جلوس الملوك، ويدل عليه ما في **(الوسائل)** عن الكليني عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا جلس أحدكم على الطعام فليجلس جلسة العبد ولا يضعنّ إحدى رجليه على الأخرى ويتربّع، فإنها جلسة يبغضها الله ويمقتها.

أو الجلوس دون شرفه، ويفيده ما في **(الوسائل)** أيضاً عن الكليني مرسلاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس إليه حين يدخل(٤).

(ويخصف بيده نعله) وتضمن لبس النعل المخصوفة للتواضع ظاهر لا سيما إذا كان لابسها هو الخاصف، وقد تأسى به ﷺ أمير المؤمنين ﷺ في هذا الوصف مضافاً إلى سائر

---

(١) محاسن البرقي: ٢/ ٤٥٧ ح ٣٨٨، والكافي: ٦/ ٢٧١ ح ٢.
(٢) وسائل الشيعة: ٢٤/ ٢٥٦ ح ٣٠٤٨١، والكافي: ٦/ ٢٩٧ ح ٦.
(٣) المحاسن: ٢/ ٤٥٧ ح ٣٨٧، والكافي: ٦/ ٢٧٠ ح ١.
(٤) الكافي: ٢/ ٦٦٢ ح ٦، وشرح أصول الكافي: ١١/ ١٤٠ ح ٦.

الصفات كما يفصح عنه ما مر في عنوان الخطبة الثالثة والثلاثين عن ابن عباس أنه قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت: لا قيمة لها، فقال عليه السلام: والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلا أن اقيم حقاً أو أدفع باطلاً[١].

(ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ويردف خلفه) ومعلوم أن ركوب الحمار العاري آية التواضع وهضم النفس، وإرداف غيره خلفه آكد في الدلالة عليه.

روى في **(الوسائل)** من العيون عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «خمس لا أدعهنّ حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبد، وركوبي الحمار موكفاً[٢] وحلب العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان لتكون سنّة من بعدي»[٣].

وكذلك لبس الثوب المرقع لا سيما إذا كان اللابس هو الراقع.

ثم أشار إلى مبغوضية الدنيا وقيناتها عنده بقوله: **(ويكون الستر على باب بيته ويكون فيه التصاوير)** الظاهر أن المراد به تصاوير الشجر والنبات ونحوها لا تصاوير الحيوان وغيره من ذوي الأرواح، إذ بيته صلى الله عليه وآله كان مهبط الوحي ومختلف الملائكة ولا يدخل الملك بيتاً فيه صورة مجسّمة كما وردت به الأخبار.

(فيقول صلى الله عليه وآله: يا فلانة، لإحدى أزواجه، غيبي عني) الظاهر أنه أراد بها عائشة كما يومىء إليه في باب الزهد من**(إحياء العلوم)** قال: ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله على باب عائشة ستراً فهتكه وقال: «كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به إلى آل فلان».

قال الشارح البحراني: أمره بتغييب التصاوير محافظة من حركة الوسواس الخناس، وكما أن الأنبياء عليهم السلام كانوا كاسرين للنفس الأمارة بالسوء، وقاهرين لشياطينهم كانوا أيضاً محتاجين إلى مراعاتهم ومراقبتهم وتفقد أحوال نفوسهم في كل لحظة وطرفة، فإنها كاللصوص المخادعين للنفوس المطمئنة مهما تركت وغفل عن قهرها والتحفظ عنها عادت إلى طباعها.

أقول: لا يخفى ما في هذا التعليل بعد الغض عن كونه خلاف ما يستفاد من كلامه

---

(١) الإرشاد: ١/ ٢٤٧، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٧٠.

(٢) الوكف: محركة العيب والضعف. والثقل ق.

(٣) الخصال: ٢٧١ ح ١٢، والأمالي: ٦٣٠.

عليه السلام من الركاكة والسخافة والسماجة وإساءة الأدب بالنسبة إلى خاتم النبيين صلى الله عليه وآله بل وسائر أولياء الدين وكيف يتصور في حقه صلى الله عليه وآله حركة الوسواس الخناس مع وجود ملكة العصمة ولو لم تغب عنه عليه السلام التصاوير، بل الظاهر أن أمره صلى الله عليه وآله بتغييبها إنما هو لأجل أن الدنيا وزخارفها كانت مبغوضة عنده بالذات ومكروهة لديه بالطبع، فأمر بتغييبها لكونها موجبة لذكر ما يبغضه ويتنفر عنه ويعاديه.

كما يومىء إليه قوله صلى الله عليه وآله: **(فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها)** ويدل عليه صريحاً قوله عليه السلام الآتي وكذلك من أبغض شيئاً آه **(فأعرض صلى الله عليه وآله** عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه) وهو الزهد الحقيقي **(وأحب أن تغيب زينتها عن عينه لكي لا يتخذ منها رياشاً)** أي لباساً فاخراً، وذلك لما رأي عنه صلى الله عليه وآله إن الله يحب المبتذل الذي لا يبالي ما لبس.

قال في **(إحياء العلوم)**: قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشة كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً، فقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله في هذين.

قال: واشترى رسول الله صلى الله عليه وآله ثوباً بأربعة دراهم وكانت قيمة ثوبيه عشرة وكان إزاره أربعة أذرع ونصفاً، واشترى سراويل بثلاثة دراهم وكان يلبس شملتين بيضاوين وكانت تسمى حلّة لأنهما ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانين أو سحوليين من هذه الغلاظ، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلّى فيه فلما سلّم قال: أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت إليه في الصلاة، وكان صلى الله عليه وآله قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخرّ ساجداً وقال: أعجبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يمقتني فدفعهما إلى أول مسكين رآه[1].

(ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً) لأنها دار مجاز لا دار قرار.

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

ولذلك قال صلى الله عليه وآله: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له[2]، ولها يسعى من لا يقين له، ولنعم ما قيل:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سروراً وأنعما

كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما»

(فأخرج) محبّت**(ـها من النفس وأشخص)** رغبت**(ـها عن القلب وغيب)** زينت**(ـها عن**

(١) فيض القدير: ٢/٣٦٨.

(٢) كشف الخفاء: ١/٤١٠ ح ١٣١٥، وميزان الحكمة: ٢/٩١٩.

البصر) وذلك لفرط بغضه لها ونفرته عنها وكراهته إياها **(وكذلك)** حال **(من أبغض شيئاً)** فإنه إذا أبغضه **(أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده)**.

ثم أكد ما قدم وقال: **(ولقد كان في رسول الله ﷺ** ما يدلك على مساوىء الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصته).

أما جوعه ﷺ فقد عرفته فيما تقدم، وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق: روى أحمد بن فهد في **(عدة الداعي)** أنه ﷺ أصابه يوماً الجوع فوضع صخرة على بطنه ثم قال: «ألا رب مكرم لنفسه وهولها مهين، ألا رب مهين لنفسه وهولها مكرم، ألا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طامعة في الآخرة ناعمة يوم القيامة، ألا رب نفس كاسية ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب نفس متخوض متنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له في الآخرة من خلاق، ألا إن عمل أهل الجنة خزنة بربوة، ألا إن عمل أهل النار سهلة لشهوة، ألا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً يوم القيامة»[1].

وأما جوع خاصته، فقد ورد في روايات مستفيضة.

منها ما في **(إحياء العلوم)** قال أبو هريرة: ما أشبع النبي ﷺ أهله أعني أهل بيته وأزواجه وأهل بطانته من أصحابه ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا، وقال: إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة.

وفيه قال الفضيل: ما شبع رسول الله منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البرّ.

قالت عائشة: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار، قيل لها: فيم كنتم تعيشون؟ قال: بالأسودين التمر والماء.

وأما جوع أخص خاصته أعني أهل بيت العصمة والطهارة فهو غني عن البيان، وكتب الخاصة بل العامة قد تضمنت أخباراً كثيرة في ذلك المعنى، ولنقتصر على ثلاثة أحاديث.

أحدها: ما رواه المحدث الجزائري في **(الأنوار النعمانية)** عن الصدوق طاب ثراه بإسناد إلى خالد بن ربعي قال: إن أمير المؤمنين عليه السلام دخل مكة في بعض حوائجه فوجد أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول: يا صاحب البيت البيت بيتك والضيف ضيفك ولكل ضيف من مضيفة قرى فاجعل قراي منك الليلة المغفرة.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه: أما تسمعون كلام الأعرابي؟! قالوا: نعم، قال

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٣٢١ ح ٣٨، وكنز العمال: ١٥/ ٩٣٥.

عليه‌السلام: الله أكرم من أن يرد ضيفه.

قال: فلما كانت من الليلة الثانية وجده متعلقاً بذلك الركن وهو يقول: يا عزيزاً في عزك فلا أعز منك في عزك أعزني بعز عزك في عز لا يعلم أحد كيف هو أتوجه إليك وأتوسل إليك بحق محمد وآل محمد عليك أعطني ما لا يعطيني أحد غيرك، واصرف عني ما لا يصرفه أحد غيرك.

قال: فقال أمير المؤمنين عليه‌السلام لأصحابه: هذا والله الإسم الأكبر بالسريانية أخبرني به حبيبي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله سأله الجنة فأعطاه وسأله صرف النار فصرفها عنه.

قال: فلما كان الليلة الثالثة وجده وهو متعلق بذلك الركن، وهو يقول: يا من لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان بلا كيفية كان أرزق الأعرابي أربعة آلاف درهم.

قال: فتقدم إليه أمير المؤمنين عليه‌السلام وقال: يا أعرابي سألت ربك فأقراك، وسألت الجنة فأعطاك، وسألته أن يصرف عنك النار فصرفها عنك وفي هذه الليلة تسأله أربعة آلاف درهم؟ قال الأعرابي: من أنت؟ قال عليه‌السلام: أنا علي بن أبي طالب، قال الأعرابي: أنت والله بغيتي وبك أنزلت حاجتي، قال عليه‌السلام: سل يا أعرابي، قال: أريد ألف درهم للصداق، وألف درهم أقضي بها[1] ديني، وألف درهم اشترى بها داراً، وألف درهم أتعيش بها، قال: أنصفت يا أعرابي فإذا خرجت من مكة فسل عن داري بمدينة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

فأقام الأعرابي بمكة أسبوعاً فخرج في طلب أمير المؤمنين عليه‌السلام إلى المدينة ونادى من يدلني على دار أمير المؤمنين عليه‌السلام فقال الحسين بن علي من بين الصبيان: أنا أدلك على دار أمير المؤمنين، وأنا ابنه الحسين بن علي، فقال الأعرابي: من أبوك؟ قال: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام، قال: من أمك؟ قال: فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، قال: من جدك؟ قال: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: من جدتك؟ قال: خديجة بنت خويلد، قال: من أخوك؟ قال: أبو محمد الحسن بن علي عليه‌السلام، قال: قد أخذت الدنيا بطرفيها إمش إلى أمير المؤمنين عليه‌السلام وقل له: إن الأعرابي صاحب الضمان بمكة على الباب.

قال: فدخل الحسين بن علي عليه‌السلام فقال: يا أبه أعرابي بالباب ويزعم أنه صاحب الضمان بمكة، قال: فقال: يا فاطمة عندك شيء يأكله الأعرابي؟ قالت: اللهم لا، فتلبس أمير المؤمنين عليه‌السلام وخرج وقال: ادعوا لي أبا عبد الله سلمان الفارسي، قال: فدخل سلمان الفارسي (رض) فقال عليه‌السلام: يا أبا عبد الله أعرض الحديقة التي غرسها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله على

(١) في نسخة: به.

التجار.

قال: فدخل سلمان إلى السوق وعرض الحديقة فباعها بإثني عشر ألف درهم وأحضر المال وأحضروا الأعرابي، فأعطاه أربعة آلاف درهم وأربعين درهماً نفقة، ووقع الخبر إلى سؤال المدينة فاجتمعوا، ومضى رجل إلى فاطمة فأخبرها بذلك فقالت: آجرك الله في ممشاك، فجلس علي عليه السلام والدراهم مصبوبة بين يديه حتى اجتمع عليه أصحابه فقبض قبضة قبضة وجعل يعطي رجلاً رجلاً حتى لم يبق معه درهم واحد.

فلما أتى المنزل قالت له فاطمة رضي الله عنها: يا ابن عم، بعت الحائط الذي غرسه لك والدي؟ قال: نعم بخير منه عاجلاً وآجلاً، قالت: فأين الثمن؟ قال: دفعته إلى أعين استحييت أن أذلّها بذلّ المسألة أعطيتها قبل أن تسألني، قالت فاطمة: أنا جائعة وأولادي جائعان، ولا شك إلا وأنك مثلنا في الجوع لم يكن لنا منه درهم، وأخذت بطرف ثوب عليّ، فقال علي: خلّيني، فقالت عليها السلام: لا والله أو يحكم بيني وبينك أبي.

فهبط جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد ربك يقرؤك السلام ويقول: إقرأ علياً مني السلام وقل لفاطمة: ليس لك أن تضربي على يديه ولا تلزمي بثوبه. فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وآله منزل علي عليه السلام وجد فاطمة ملازمة لعلي عليه السلام، فقال لها: يا بنيّة ما لك ملازمة لعلي؟ قالت: يا أبت باع الحائط الذي غرسته له بإثني عشر ألف درهم لم يحبس لنا منه درهماً واحداً نشتري به طعاماً، فقال: «يا بنية، إن جبرائيل يقرئني من ربي السلام ويقول: إقرأ علياً مني السلام وأمرني أن أقول لك ليس لك أن تضربي على يديه ولا تلزمي بثوبه»، قالت فاطمة: أستغفر الله ولا أعود أبداً.

قالت فاطمة عليها السلام: فخرج أبي في ناحية وزوجي في ناحية فما لبث أن أتى أبي صلى الله عليه وآله ومعه سبعة دراهم سود هجرية، فقال صلى الله عليه وآله: «يا فاطمة أين ابن عمي؟» فقلت له: خرج، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «هاك هذه الدراهم فإذا جاء ابن عمي فقولي له يبتاع لكم بها طعاماً»، فما لبث إلا يسيراً حتى جاء علي عليه السلام فقال: رجع ابن عمي فإني أجد رائحة طيبة، قالت: نعم وقد دفع إليّ شيئاً تبتاع به طعاماً، قال: فقال علي عليه السلام: هاتيه، فدفعت إليه سبعة دراهم سود هجرية، فقال: بسم الله والحمد لله كثيراً طيباً وهذا من رزق الله تعالى، ثم قال عليه السلام: يا حسن قم معي، فأتيا السوق فإذا هما برجل واقف وهو يقول: من يقرض الملي الوفي؟ قال: يا بني نعطيه، قال: أي والله يا أبه، فأعطاه عليّ الدراهم كلها، فقال: يا أبتاه أعطيته الدراهم كلها؟ قال: نعم يا بني إن الذي يعطي القليل قادر على أن يعطي الكثير.

قال: فمضى علي عليه السلام إلى باب رجل يستقرض منه شيئاً، فلقيه أعرابي ومعه ناقة،

فقال: يا علي اشتر مني هذه الناقة، قال: ليس معي ثمنها، قال: فإني أنظرك به إلى القبض، قال: بكم يا أعرابي؟ قال: بمائة درهم، فقال علي عليه السلام: خذها يا حسن فأخذها.

فمضى علي عليه السلام فلقيه أعرابي آخر المثال واحد والثياب مختلفة فقال: يا عليّ تبيع الناقة، قال علي عليه السلام: وما تصنع بها؟ قال: أغزو بها أول غزوة يغزوها ابن عمك؟ قال عليه السلام: إنْ قبلتها فهي لك بلا ثمن، قال: معي ثمنها وبالثمن أشتريها، قال: فبكم اشتريتها؟ قال عليه السلام: بمائة درهم، قال الأعرابي: فلك سبعون ومائة درهم، قال علي عليه السلام للحسن عليه السلام: خذ السبعين والمائة وسلّم المائة للأعرابي الذي باعنا الناقة والسبعين لنا نبتاع بها شيئاً، فأخذ الحسن عليه السلام الدراهم وسلّم الناقة.

قال علي عليه السلام: فمضيت أطلب الأعرابي الذي ابتعت منه الناقة لأعطيه ثمنه فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً لم أر فيه جالساً قبل ذلك اليوم ولا بعده على قارعة الطريق، فلما نظر النبي صلى الله عليه وآله إليّ تبسم ضاحكاً حتى بدت نواجذه، قال علي عليه السلام: أضحك الله سنك وبشرك بيومك، فقال: «يا أبا الحسن إنك تطلب الأعرابي الذي باعك الناقة لتوفيه الثمن؟» فقلت: أي والله فداك أبي وأمي، فقال صلى الله عليه وآله: «يا أبا الحسن الذي باعك الناقة جبرائيل والذي اشتراها منك ميكائيل والناقة من نوق الجنة والدراهم من عند ربّ العالمين فأنفقها في خير ولا تخف إقتاراً»[1].

الثاني: ما روته العامة والخاصة بروايات كثيرة تنيف على عشرين في سبب نزول سورة (هل أتى) فلنقتصر على رواية واحدة.

وهي ما في (**غاية المرام**) عن الصدوق بسندين مذكورين فيه، أحدهما عن ابن عباس، وثانيهما عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام في قول الله عز وجل: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، قال عليه السلام: مرض الحسن والحسين وهما صبيان صغيران فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه رجلان[2] فقال أحدهما: لو نذرت في إبنيك نذراً إن عافاهما الله؟، قال عليه السلام: أصوم ثلاثة أيام لله شكراً لله عزّ وجل، وكذلك قالت فاطمة، وقال الصبيان: ونحن أيضاً نصوم ثلاثة أيام، وكذلك قالت جاريتهم فضّة فألبسهما الله العافية فأصبحوا صائمين، وليس عندهم طعام.

فانطلق علي عليه السلام إلى جار له من اليهود يقال له: شمعون يعالج الصّوف، فقال له: هل لك أن تعطيني جزّة من صوف تغزلها ابنة محمد بثلاثة أصوع من شعير؟ قال: نعم، فأعطاه،

(١) كلمات الإمام الحسين: ٧٩.

(٢) وهما أبو بكر وعمر كما في رواية الخوارزمي، منه.

فجاء بالصوف والشعير وأخبر فاطمة فقبلت وأطاعت، ثم عمدت فغزلت ثلث الصوف ثم أخذت صاعاً من الشعير فطحنته وعجنته وخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص، وصلّى علي عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله المغرب ثم أتى منزله فوضع الخوان وجلسوا خمستهم.

فأول لقمة كسرها علي عليه السلام إذا مسكين واقف، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد أنا مسكين من مساكين المسلمين أطعموني مما تأكلون أطعمكم الله من موائد الجنة، فوضع اللقمة من يده ثم قال عليه السلام:

فاطم ذات المجد واليقين ... يا بنت خير الناس أجمعين

أما ترين البائس المسكين ... جاء إلى الباب له حنين

يشكو إلى الله ويستكين ... يشكو إلينا جائع حزين

كلّ امرءٍ بكسبه رهين ... من يفعل الخير يكن حسين

موعده في جنة ومين ... حرّمها الله على الضّنين

وصاحب البخل يقف حزين ... تهوى به النار إلى سجّين

شرابه الحميم والغسلين

فأقبلت فاطمة عليها السلام تقول:

أمرك سَمْعٌ يا ابن عم وطاعة ... ما بي من لؤم ولا ضراعة

غذيت باللّب وبالبراعة ... أرجو إذا أشبعت في مجاعة

إن الحق خيار والجماعة ... وأدخل الجنة في شفاعة

وعمدت إلى ما كان من الخوان فدفعته إلى المسكين وباتوا جياعاً وأصبحوا صياماً لم يذوقوا إلا الماء القراح.

ثم عمدت إلى الثلث الثاني من الصوف فغزلته ثم أخذت صاعاً من الشعير فطحنته وعجنته وخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد قرص، وصلّى علي عليه السلام المغرب مع النبي صلى الله عليه وآله ثم أتى إلى منزله فلما وضع الخوان بين يديه وجلسوا خمستهم.

فأوّل لقمة كسرها علي عليه السلام إذا يتيم من يتامى المسلمين قد وقف فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله أنا يتيم المسلمين، أطعموني مما تأكلون أطعمكم الله على موائد الجنة، فوضع علي عليه السلام اللقمة من يده ثم قال عليه السلام:

فاطم بنت السيد الكريم ... بنت نبي ليس بالزّنيم

قد جاءنا الله بذا اليتيم ... من يرحم اليوم فهو رحيم

موعده في جنة النعيم حرّمها الله على اللئيم
وصاحب البخل يقف ذميم تهوى به النار إلى الجحيم
شرابه الصّديد والحميم

فأقبلت فاطمة عليها السلام تقول:

فسوف أعطيه ولا أبالي وأؤثر الله على عيالي
أمسوا جياعاً وهم أشبالي أصغرهما يقتل في القتال
في كربلا يقتل باغتيال لقاتليه الويل والوبال
تهوى به النار إلى سفال كبولة زادت على الأكبال

ثم عمدت فأعطته جميع ما على الخوان، وباتوا جياعاً لم يذوقوا إلا الماء القراح فأصبحوا صياماً.

وعمدت فاطمة عليها السلام فغزلت الثلث الباقي من الصوف وطحنت الثلث الباقي وعجنته وخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص وصلّى علي عليه السلام مع النبي ثم أتى منزله فقرب إليه الخوان فجلسوا خمستهم.

فأول لقمة كسرها علي عليه السلام إذا أسير من أسير المشركين قد وقف بالباب فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله تأسرونا وتشدّونا ولا تطعمونا، فوضع علي عليه السلام اللقمة من يده ثم قال:

فاطم يا بنت النبي أحمد بنت نبيّ سيد مسدّد
قد جاءك الأسير ليس يهتدي ما يزرع الزارع سوف يحصل
فأعطيه ولا تخطيه بنكد[1]

فأقبلت فاطمة عليها السلام وهي تقول:

لم يبق مما كان غير صاع قد دبرت كفّي مع الذراع

(١) هكذا في رواية الصدوق ولا يستقيم وزن الشعر وأثبتناه كما وجدناه، وفي رواية الخوارزمي عن ابن عباس (رض):

فأطعمي من غير من نكد

وبعده:

حتى تجاوزي بالذي لم ينفد

منه.

شبلاي والله هما جياع يا رب لا تتركهما ضياع
أبوهما للخير ذو اصطناع عبل الذراعين طويل الباع
وما على رأسي من قناع إلا عباء نسجها بصاع

وعمدوا إلى ما كان على الخوان فأعطوه وباتوا جياعاً وأصبحوا مفطرين ليس عندهم شيء.

قال شعيب في حديثه: وأقبل علي عليه السلام بالحسن والحسين عليهما السلام نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وهما يرتعشان كالفراخ من شدة الجوع، فلما بصر رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يا أبا الحسن أشد ما يسوءني ما أرى بكم انطلق إلى ابنتي فاطمة عليها السلام»، فانطلقوا وهي في محرابها قد لصق بطنها بظهرها من شدة الجوع وغارت عيناها، فلما رآها رسول الله ضمها إليه، وقال: «واغوثاه أنتم منذ ثلاث فيما أرى»، فهبط جبرائيل فقال: يا محمد صلى الله عليه وآله خذ ما هنالك في أهل بيتك، قال: «وما آخذ يا جبرائيل؟» قال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ١ ـ ٢٢]. وقال الحسن بن مهران في حديثه: فوثب النبي صلى الله عليه وآله حتى دخل منزل فاطمة فرأى ما بهم فجمعهم ثم انكبّ عليهم يبكي، وقال: «أنتم منذ ثلاث فيما أرى وأنا غافل عنكم»[1]، فهبط جبرائيل بهذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٦] قال: هي عين دار النبي يتفجّر إلى دور الأنبياء والمؤمنين ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] يعني علياً وفاطمة والحسن والحسين وجاريتهما فضة ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] يقول عابساً كلوحاً ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يقول: على حب شهوتهم الطعام وإيثارهم له ﴿مِسْكِينًا﴾ من مساكين المسلمين ﴿وَيَتِيمًا﴾ من يتامى المسلمين ﴿وَأَسِيرًا﴾ من أسارى المشركين، ويقولون إذا أطعموهم ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩]، قال: والله ما قالوا هذا ولكنهم أضمروا في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم يقول: لا نريد منكم جزاء تكافوننا به، ولا شكوراً تثنون علينا به، ولكنا إنما نطعمكم لوجه الله وطلب ثوابه، قال الله تعالى ذكره: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١] نضرة في الوجوه وسروراً في القلب ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢] جنّة يسكنونها وحريراً يفرشونه ويلبسونه ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ والأرائك السرير عليه الحجلة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]. قال ابن عباس: فبينا أن أهل الجنة في الجنة إذا رأوا مثل الشمس أشرقت له الجنان فيقول أهل الجنة: يا ربّ إنك قلت في كتابك:

---

(١) الأمالي: ٣٣٣، وبحار الأنوار: ٣٥/ ٢٤٠.

لا يرون فيها شمساً، فيرسل الله جلّ إسمه إليهم جبرائيل فيقول: ليس هذه بشمس لكن علياً وفاطمة ضحكا فأشرقت الجنان من نور ضحكهما، ونزلت: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ فيهم إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ١ـ ٢٢].

أقول: وقد أثبت الرواية برمتها وإن كان خاتمتها خارجة من الغرض الذي نحن فيه شغفاً مني بذكر مآثر أمير المؤمنين وزوجته والطيبين من أولادهما سلام الله عليهم، وفيما رويناه من الفضل الذي تخصصوا به ما لم يشركهم فيه أحد ولا ساواهم في نظير له مساو.

الثالث: ما في (**الصافي**) من الأمالي عن رسول الله ﷺ أنه جاء إليه رجل فشكى إليه الجوع، فبعث رسول الله ﷺ إلى بيوت أزواجه فقال: ما عندنا إلا ماء، فقال رسول الله ﷺ: «من لهذا الرجل الليلة؟» فقال علي بن أبي طالب: أنا له يا رسول الله. وأتى فاطمة عليها السلام فقال لها: ما عندك يا ابنة رسول الله ﷺ؟ فقالت: ما عندنا إلا قوت العشية لكنا نؤثر ضيفنا، فقال: يا ابنة محمد ﷺ نومي الصبية وأطفئي المصباح، فلما أصبح علي عليه السلام غدا على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فلم يبرح حتى أنزل الله عزَّ وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] هذا[1].

وقد ظهر لك مما تضمنته هذه الروايات الثلاث الذي هو أنموذج مما تضمنته سائر الروايات كيفية عيش رسول الله ﷺ مع خواصه في دار الدنيا وزهدهم فيها وإيثارهم الآخرة على الأولى، وأنها قبضت عنه وعن أهل بيته (**وزويت**) أي صرفت ونحيت (**عنه زخارفها**) وزينتها (**مع عظيم**) تقرّبه و (**زلفته فلينظر ناظر بعقله**) أنه لو يكون في الدنيا والإكثار منها خير لم يفت هؤلاء الأكياس الذين هم أقرب الخلق إلى الله وخاصته وحججه على سائر الناس، بل تقرّبوا إليه سبحانه بالبعد عنها، وتحببوا إليه تعالى بالبغض لها.

وليتفكر بفكرة سليمة أنه (**أكرم الله تعالى محمداً ﷺ**) وسائر أنبيائه وأوليائه (**بذلك**) الضيق في الدنيا والإعسار فيها (**أم أهانه**) وأهانهم.

(**فإن قال أهانه**) وإياهم (**فقد كذّب والعظيم**) ضرورة أن أحقر ملك من ملوك الدنيا لا يقصد بأحد من خاصته إذا كان مطيعاً له منقاداً لأمره مخلصاً في طاعته الإهانة فكيف يصدر ذلك عن ملك الملوك وسلطان السلاطين حكيم الحكماء ورحيم الرحماء في حق أخص خواصه وأقربهم إليه وأشدهم زلفة عنده وأكثرهم طاعة له.

---

(١) وسائل الشيعة: ٩/ ٤٦٢ ح ١٢٥٠٣، والأمالي: ١٨٥ ح ٣٠٩.

(وإن قال أكرمه) وأكرمهم كما هو الحق والصدق **(فليعلم أن الله)** قد **(أهان غيره)** وغيرهم إذا الشيء إن كان عدمه إكراماً وكمالاً كان وجوده نقصاً وإهانة فـ **(حيث بسط الدنيا)** له أي لذلك الغير **(وزويها عن أقرب الناس منه)** كان في بسطها له إهانة لا محالة.

(فتأسى متأسّ بنبيه واقتصّ أثره وولج مولجه) الفاء فصيحة والجمل الثلاث إخبار في معنى الإنشاء أي إذا عرف زهد النبي في الدنيا، وعلم أنها دار هوان فليتأسّ المتأسّي به ﷺ وليتّبع أثره وليدخل مدخله ويحذو حذوه وليرغب عنها.

(وإلا فلا يأمن الهلكة) لأن حب الدنيا والتنافس فيها رأس كل خطيئة جاذبة من درجات النعيم إلى دركات الجحيم.

وأوضح هذه العلة بقوله: **(فإن الله سبحانه جعل محمداً ﷺ علماً للساعة ومبشراً بالجنة ومنذراً بالعقوبة)** أي مطلعاً بأحوال الآخرة جميعها، فحيث آثر الآخرة على الأولى وترك الركون إليها مع اطلاعه عليهما علم أن ليس ذلك إلا لكون الدنيا مظنّة الهلاك، والعقبى محلّة النجاة والحياة، فالراكن إليها متعرّض للهلاك الدائم والخزي الأبد لا محالة.

ويظهر لك عدم ركونه ﷺ إليها بأنه **(خرج من الدنيا خميصاً)** أي جائعاً إما حقيقة أو كناية عن عدم الاستمتاع بها **(وورد الآخرة سليماً)** من التبعات والمكاره **(لم يضع حجراً على حجر)** كناية عن عدم بنائه فيها **(حتى مضى لسبيله وأجاب داعي ربّه)**.

قال الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، رواه في **(إحياء العلوم)**.

وفيه أيضاً: قال النبي ﷺ: «إذا أراد الله بعبد شرّاً أهلك ماله في الماء والطين».

وقال عبد الله بن عمر: مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصّاً، فقال ﷺ: «ما هذا؟» قلنا: خصّ لنا قد وهى، فقال: «أرى الأمر أعجل من ذلك».

وقال الغزالي: وقال النبي ﷺ: «من بنى فوق ما يكفيه كلّف أن يحمله يوم القيامة»، هذا[١].

ولما فرغ من التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة بالتنبيه على هوانها وحقارتها بما لا مزيد عليه، وبشرح حال أولياء الدين من خاتم النبيين وسائر الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين في رفضهم لها وتركهم إياها، أردف ذلك بالإشارة إلى زهده وإظهار غاية

---

(١) المعجم الكبير: ١٠/ ١٥٢، وكنز العمال: ١٥/ ٤٠٦ ح ٤١٤٨٦.

الامتنان من الله سبحانه في إنعامه عزَّ وجل عليه عليه السلام بالتّأسي بنبيه فقال: **(فما أعظم نعمة الله عندنا حين أنعم علينا به)** أي برسول الله صلى الله عليه وآله **(سلفاً نتبعه وقائداً نطأ عقبه)** ونقفو أثره ونسلك سبيله في زهده.

وأوضح اتباعه وتأسّيه به صلى الله عليه وآله بالإشارة إلى بعض مراتب زهده فإنه أنموذج من سائر المراتب، وفيه عبرة لمن اعتبر، وكفاية لمن تذكر، فقال: **(والله لقد رقعت مدرعتي هذه)** وهو ثوب من صوف يتدرّع به **(حتى استحييت من راقعها)** لكثرة رقاعها **(ولقد قال لي قائل)** لما رأى أنها خلق وسمل **(ألا تنبذها)** وتطرحها **(عنك فقلت)** له **(أعزب)** أي غب وتباعد **(عني فعند الصباح يحمد القوم السّرى)** وهو مثل يضرب لمن احتمل المشقة عاجلاً لينال الراحة آجلاً.

وأصله: أن المسافر إذا احتمل المشقة وحرّم على نفسه لذّة الرقاد وبادر إلى السرى من أول الليل وجدّ في سيره فإنه يبلغ عند الصباح منزله ويصل إليه سالماً غانماً وينزل أحسن المنازل وأشرفها مقدماً على غيره، ويستريح من تعب الليل ويكون محموداً، بخلاف من أخذه نوم الغفلة وآثر اللذة العاجلة على الآجلة، فإنه إذا سرى في آخر الليل وفي أخريات الناس فإنه ربما يغيله اللصوص فلا يسلم أو يضلّ عن الطريق فيعطب، ومع سلامته يكون مسيره في حرّ النهار على وصب وتعب، فيصل إلى المنزل بعدما سبق غيره إلى أحسنه وأشرفه، فلا يجد له منزلاً ومقيلاً إلا أردأ المنازل وأدونها، فعند ذلك يلوم نفسه بتفريطه، ويذمه غيره ويندم على ما فرّط ولا ينفعه الندم.

وبهذا التقرير انقدح لك وجه المطابقة بين المثال والممثل.

بيانه أن تلك النشأة المشوبة بالكدورات والعلائق الظلمانية البدنية بمنزلة الليل، والنشأة الأخروية المطابقة لتلك النشأة التي هي دار التجرد الصافية عن الكدورات والعلاقات بمنزلة الصباح الواقع عقيب الليل، والوطن الأصلي للإنسان هي الدار الآخرة، وهو في الدنيا بمنزلة المسافر، فمن ترك الدنيا وجدّ في السير إلى الآخرة بالمواظبة على الطاعات والرياضات الشاقة الموصلة له إليها وصل إلى مقصده، ونزل في غرفات الجنان، وفيهنّ خيرات حسان فعند ذلك يكون محموداً مسروراً عند نفسه وعند الخالق والخلائق لما صبر على مشاق الدنيا ومقاساة الشدائد.

ومن أخذه نوم الغفلة فيها واغترّ باللّذات الحاضرة والشهوات العاجلة، ورد الآخرة وليس له مقام إلا سجّين، ولا شراب وطعام إلا من حميم وغسلين، فعند ذلك تلومه نفسه وغيره ويندم على تقصيره، ويقعد ملوماً محسوراً ويدعو ثبوراً.

تذييلان

الأول

قد مضى في مقدمات شرح الخطبة (**الشقشقية**) وفي غيرها بعض الكلام في زهد أمير المؤمنين عليه السلام، وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق:

روي في (**عدّة الداعي**) عن خبير بن حبيب قال: نزل بعمر بن خطاب نازلة قام لها وقعد، وتربخ لها وتقطر(١) ثم قال: يا معشر المهاجرين ما عندكم فيها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين أنت المفزع والمنزل، فغضب وقال: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، أما والله إنّا وإياكم لنعرف ابن بجدتها(٢) والخبير بها، قالوا: كأنك أردت ابن أبي طالب؟ قال: وأنى يعدل بي عنه وهل طفحت حرّة بمثله؟ قالوا: فلو بعثت إليه، قال: هيهات هيهات هناك شمخ من هاشم ولحمة من الرسول وأثرة من علم يؤتى لها ولا يأتي، امضوا إليه فاقصفو(٣) نحوه وافضوا إليه، وهو في حائط له عليه تبّان يتركل على مسحاته(٤) وهو يقول: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٣٨] ودموعه تهمي على خدّيه، فأجهش(٥) القوم لبكائه ثم سكن وسكنوا، وسأله عمر عن مسألة فأصدر إليه جوابها فلوى عمر يديه ثم قال: أما والله لقد أرادك الحق ولكن أبى قومك، فقال عليه السلام: يا أبا حفص خفّض عليك من هناك ومن هنا، إن يوم الفصل كان ميقاتاً، فانصرف وقد أظلم وجهه وكأنما ينظر إليه من ليل.

وفي (**شرح المعتزلي**) عن أحمد بن حنبل قال: لما أرسل عثمان إلى علي عليه السلام وجدوه مؤتزراً بعباءة محتجزاً بعقال(٦) وهو يهنأ(٧) بعيراً له(٨).

وفي (**كشف الغمة**) من (**مناقب**) الخوارزمي عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: رأيت

---

(١) تربخ بالباء الموحدة والخاء المعجمة: استرخى، وتقطر تهيأ للقتال ورمى بنفسه من علو.

(٢) ابن بجدتها بالباء والجيم، يقال: بالعالم بالشيء، وللدليل الهادي، ولمن لا يبرح عن قوله.

(٣) أي تزاحموا إليه.

(٤) التبان: سراويل صغير يستر العورة المغلظة يكون مع الملاحين، وتركل بمسحاته: ضربها برجله لتدخل الأرض، منه.

(٥) أي تهيأوا للبكاء.

(٦) أي شد وسطه بالحبل لتشمير ثوبه، ويقال لذلك الحبل: الحجاز.

(٧) أي يطليه بالقطران.

(٨) الطرائف: ٤٢٤، وحلية الأبرار: ٢/ ١٨٤ ح ٤.

على علي عليه السلام قميصاً زرياً إذا مده بلغ الظفر، وإذا أرسله كان مع نصف الذراع[١].

ومنه عن عدي بن ثابت قال: أتى علي بن أبي طالب عليه السلام بفالوذج فأبى أن يأكل منه، وقال: شيء لم يأكل منه رسول الله صلى الله عليه وآله لا أحب أن آكل منه.

ومنه عن أبي مسطر قال: خرجت من المسجد فإذا رجل ينادي من خلفي: إرفع إزارك فإنه أتقى لثوبك وأبقى لك وخذ من رأسك إن كنت مسلماً، فمشيت خلفه وهو مؤتزر بإزار ومرتدٍ برداء ومعه الدرّة كأنه أعرابي بدوي، فقلت: من هذا؟ فقال لي رجل: أراك غريباً بهذا البلد؟ قلت: أجل رجل من أهل البصرة، قال: هذا علي أمير المؤمنين عليه السلام حتى انتهى إلى دار بني أبي معيط وهو سوق الإبل فقال: بيعوا ولا تحلفوا، فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة.

ثم أتى أصحاب التمر فإذا خادمة تبكي فقال: ما يبكيك؟ قالت: باعني هذا الرجل تمراً بدرهم فردوه موالي فأبى أن يقبله، فقال: خذ تمرك واعطها درهمها فإنها خادم ليس لها أمر، فدفعه، فقلت: أتدري من هذا؟! قال: لا، قلت: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، فصبّ تمره وأعطاها درهمها، وقال: أحب أن ترضى عني، فقال: ما أرضاني عنك إذا وفيتهم حقوقهم.

ثم مرّ مجتازاً بأصحاب التمر فقال: يا أصحاب التمر أطعموا المساكين يربو كسبكم.

ثم مرّ مجتازاً ومعه المسلمون حتى أتى أصحاب السمك فقال: لا يباع في سوقنا طاف.

ثم أتى دار فرات وهو سوق الكرابيس فقال: يا شيخ أحسن بيعي في قميصي بثلاثة دراهم، فلما عرفه لم يشتر منه شيئاً، فأتى غلاماً حدثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرّسغين إلى الكعبين، وقال حين لبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمّل به في الناس وأواري به عورتي.

فقيل له: يا أمير المؤمنين هذا شيء ترويه عن نفسك أو شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله يقوله عند الكسوة. فجاء أبو الغلام صاحب الثوب فقيل: يا فلان قد باع ابنك اليوم من أمير المؤمنين عليه السلام قميصاً بثلاثة دراهم، قال: أفلا أخذت منه درهمين.

---

(١) بحار الأنوار: ٤٠/ ٣٣٠ ح ١٣، وكشف الغمة: ١/ ١٦٢.

فأخذ أبوه درهماً وجاء به إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو جالس على باب الرحبة ومعه المسلمون، فقال: إمسك هذه الدرهم يا أمير المؤمنين، قال عليه السلام: ما شأن هذا الدرهم؟ قال: كان ثمن قميصك درهمين، فقال: باعني رضاي وأخذ رضاه[١].

ومنه قال ابن الأعرابي: إن علياً عليه السلام دخل السوق وهو أمير المؤمنين فاشترى قميصاً بثلاثة دراهم ونصف فلبسه في السوق فطال أصابعه، فقال عليه السلام للخياط: قصّه، قال: فقصه، وقال الخياط: أحوصه[٢] يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ومشى والدّرة على كتفه وهو عليه السلام يقول: شرعك ما بلغك المحل شرعك[٣] ما بلغك المحل[٤].

وفي (**كشف الغمة**) أيضاً قال هارون بن عنترة: قال: حدثني أبي قال: دخلت على علي بن أبي طالب عليه السلام بالخَوَرنق وهو يرعد تحت سمل[٥] قطيفة، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا العالم ما يعمّ وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟ فقال: والله ما أرزأكم من أموالكم شيئاً وإن هذه لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي من المدينة ما عندي غيرها.

وفيه: وخرج عليه السلام يوماً وعليه إزار مرقوع فعوتب عليه فقال: يخشع القلب بلبسه ويقتدي بي المؤمنين إذا رآه عليّ.

واشترى عليه السلام يوماً ثوبين غليظين فخيّر قنبراً فيهما، فأخذ واحداً ولبس هو الآخر، ورأى في كمّه طولاً عن أصابعه فقطعه.

وكان عليه السلام قد ولّى على عكبرا رجلاً من ثقيف قال: قال لي علي عليه السلام: إذا صلّيت الظهر غداً فعد إليّ، فعدت إليه في الوقت المعين فلم أجد عنده حاجباً يحبسني دونه فوجدته جالساً وعنده قدح وكوز ماء، فدعا بوعاء مشدود مختوم، فقلت: قد أمنني حتى يخرج إليّ جوهراً، فكسر الختم فإذا فيه سويق فأخرج منه فصبه في القدح وصبّ عليه ماء فشرب وسقاني، فلم أصبر فقلت له: يا أمير المؤمنين أتصنع هذا في العراق وطعامه كما ترى في كثرته؟ فقال عليه السلام: أما والله ما أختم عليه بخلابه ولكني أبتاع قدر ما يكفيني فأخاف أن ينقص فيوضع فيه من غيره وأنا أكره أن أدخل بطني إلا طيباً، فلذلك أحترز عليه كما ترى، فإياك

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٣/ ٢٨٥ ح ٣٥، ومناقب أمير المؤمنين: ٢/ ٦٤.

(٢) الحوص: الخياطة.

(٣) أي كفاك وحسبك.

(٤) مستدرك الوسائل: ٣/ ٢٦٥، والغادات: ٢/ ٩٤٢.

(٥) السمل: الخلق من الثياب.

وتناول ما لا تعلم حلّه[١].

قال **(كاشف الغمة)** بعد روايته لهذه الأخبار وغيرها مما تركنا روايتها خوف الإطالة: وكم له صلّى الله عليه من الآثار والأخبار والمناقب التي لا تستتر أو يستر وجه النهار، والسيرة التي هي عنوان السير، والمفاخر التي يتعلم منها من فخر، والمآثر التي تعجز من بقي كما أعجزت من غبر، فأعجب بهذه المكارم والأفعال التي هي غرور في جبهات الأيام، والزّهاد التي فاق بها جميع الأنام، والورع الذي حمله على ترك الحلال فضلاً عن الحرام، والعبادة التي أوصلته إلى مقام وقف دونه كل الأقوام.

ولما ألزم نفسه الشريف تحمل هذه المتاعب، وقادها إلى اتباعه فانقادت انقياد الجنائب، وملكها حتى صاحب منها أكرم عشير وخير مصاحب، واستشارها ليختبرها فلم تنه إلا عن منكر ولا أمرت إلا بواجب صار له ذلك طبعاً وسجيّة، وانضم عليه ظاهر أو نية، وأعمل فيه عزيمة بهمة قوية، واستوى في السعي لبلوغ غاياته علانية وطويّة، فما تحرك حركة إلا بفكر وفي تحصيل أجر، وفي تخليد ذكر لا لطلب فخر وإعلاء قدر، بل لامتثال أمر وطاعة في سرّ وجهر، فلذلك شكر الله سعيه حين سعى، وعمّه بألطافه العميمة ورعى، وأجاب دعاءهُ لما دعى، وجعل أذنه السمعية الواعية فسمع ووعى، فأسأل الله بكرمه أن يحشرني ومحبّيه وإياه معاً.

قال **(كاشف الغمة)**: أنشدني بعض الأصحاب لبعض العلويين:

عتبت على الدنيا وقلت إلى متى أكابد عسراً ضرّه ليس ينجلي
أكلّ شريف من علي جدوده حرام عليه الرزق غير محلّل
فقالت نعم يا ابن الحسين رميتكم بسهمي عناداً حين طلقني علي[٢]

التذييل الثاني

لما كان هذا الفصل من خطبته عليه السلام متضمناً للتحريض على الجوع والترغيب فيه تأسياً بالنبي صلى الله عليه وآله وسائر السلف الصالحين أحببت أن أعرّفك فوائد الجوع وآفات الشبع على ما يستفاد من الأخبار ويدل عليه الوجدان والتجربة فأقول:

(١) بحار الأنوار: ٤٠/٣٣٥ ح ١٥، وكشف الغمة: ١/١٧٤.

(٢) كشف الغمة: ١/١٧٦، وببالي إني رأيت في بعض الكتب نسبة هذه الأبيات إلى الشريف الرضي مؤلف المتن، وعليه فالمراد بالحسين في البيت الأخير هو أبو الرضي «ره» كما عرفته في **(ديباجة الشرح)** في **(ترجمته)**، منه.

قال الغزالي في (**إحياء العلوم**) ما ملخصه ببعض تصرف وتغيير منّا: إن في الجوع عشر فوائد.

الفائدة الأولى: صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر، فيقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك وقلّة الشبع، وطهروها بالجوع تصفو وترق»(١).

وقال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

الثانية: رقّة القلب وصفائه الذي به يتهيّأ لإدراك لذّة المناجاة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان ولكن القلب لا يلتذّ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب، وإنما يحصل التلذذ والتأثر بخلوّ المعدة كما هو معلوم بالتجربة.

الثالثة: الإنكسار والذل وزوال البطر والأشر والفرح الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن ذكر الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع وتذعن بعجزها وذلّها لما ذاقت حيلتها بلقمة طعام وأظلمت الدنيا عليها بشربة ماء، وما لم يشاهد الإنسان ذلّ نفسه وعجزه لا يرى عزّة مولاه ولا قهره.

ولذلك إن النبي صلى الله عليه وآله لما جاءه جبرائيل وعرض عليه خزائن الدنيا وأبى من قبولها قال لجبرائيل: «دعني أجوع يوماً وأشبع يوماً، فاليوم الذي أجوع فيه أتضرّع إلى ربي وأسأله، واليوم الذي أشبع فيه أشكر ربي وأحمده»(٢)، فقال له جبرائيل: وفّقت لكل خير.

الرابعة: التذكّر بجوعه جوع الفقراء والمساكين والمحتاجين، لأن الإنسان إنما يقيس غيره على نفسه فيلاحظ حال الغير بملاحظة حاله، فإذا شاهد في نفسه ألم الجوع يعرف بذلك ما في المحتاجين من الألم، فيوجب ذلك مؤاساتهم، ويدعو إلى الإطعام والشفقة والرحمة على خلق الله، والشبعان بمعزل عن ذلك وغفلة منه.

ولذلك قيل ليوسف عليه السلام: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع

---

(١) تذكرة الموضوعات: ١٥١.

(٢) بحار الأنوار: ٤٢/ ٢٧٦.

فأنسى الجائع.

الخامسة: التذكر به جوع يوم القيامة وعطشه، فإن العبد لا ينبغي أن يغفل عن أهوال يوم القيامة وآلامها.

قال في (**عدّة الداعي**): قال النبي ﷺ: «أكثر الناس شبعاً أكثرهم جوعاً يوم القيامة»[١]، لأن تذكرها يهيج الخوف والخشية من الله وهو زمام النفس الأمارة العاطف لها عن الفحشاء والمنكر.

السادسة: وهي أعظم الفوائد كسرة شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس، فإن منشأ المعاصي الشهوات والقوى، ومادة القوى والشهوات هي الأطعمة البتة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوّة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه ولا يملكه نفسه وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع والهزال فإذا شبعت قوية وشردت وجمحت، فكذلك النفس.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، فضيّقوا مجاريه بالجوع»[٢].

السابعة: دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه، وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوات التهجد، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال الإنسان به يتجر ويتزوّد لآخرته، وفضيلة التهجد غير خفيّة.

الثامنة: تيسير المواظبة على العبادات، فإن كثرة الأكل مانعة منها، لأنها محتاجة إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ومضغ الطعام وازدراده في الفم، وربما يحتاج إلى شراء الطعام وطبخه وغسل اليد ونحوها، وفي ذلك تفويت العمر وتضييع الوقت فلو صرف زمانه المصروف إلى ذلك في الطاعات والمناجاة لعظم أجره وكثر ربحه.

التاسعة: صحة البدن والسلامة من الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضله الأخلاط في المعدة والعروق.

روي إن سقراط الحكيم كان قليل الأكل فقيل له في ذلك، فأجاب: إن الأكل للحياة وليس الحياة للأكل.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٦/ ٢٢٢، والأمالي: ٣٤٦ ح ٧١٥.

(٢) الكافي: ٨/ ١١٣، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٥٢.

قال المحدث الجزائري في **(زهر الربيع)**: ورد في الحديث: أن حكيماً نصرانياً دخل على الصادق عليه السلام فقال: أفي كتاب ربكم أم في سنّة نبيكم شيء من الطب؟ فقال: أما في كتاب ربنا فقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وأما في سنّة نبينا: الإسراف في الأكل رأس كل داء والحمية منه رأس كل دواء، فقام النصراني وقال: والله ما ترك كتاب ربكم ولا سنّة نبيكم شيئاً من الطب لجالينوس[١].

قال: روي عنه عليه السلام: أنه لو سئل أهل القبور عن السبب والعلة في موتهم لقال أكثرهم التخمة[٢]، فعلم من ذلك أن عمدة السبب للمرض هو كثرة الأكل وممانعة المرض من العبادات وتشويشه للقلب ومنعه من الذّكر والفكر وتنغيصه للعيش معلوم.

العاشرة: خفة المؤنة، فإن من اعتاد قلّة الأكل كفاه القليل من الطعام واليسير من المال، بخلاف من تعوّد البطنة، فإن بطنه صار غريماً له آخذاً بخناقه في كل يوم وليلة، فيلجأه إلى أن يمد عين الطمع إلى الناس، ويدخل المداخل فيكتسب إما من الحرام فيعصى، أو من الحلال فيحاسب.

هذا كله مضافاً إلى ما في قلّة الأكل من التمكن من الإيثار والتصدق بفاضل قوته على الفقراء والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته، وقد تقدم في شرح الخطبة المائة والتاسعة في فضائل الصوم والصدقة ما يوجب زيادة البصيرة في هذا المقام فليتذكر.

ثم إنه بقي الكلام في مقدار قلّة الأكل، وقد عيّنه النبي صلى الله عليه وآله فيما رواه عنه في **(عدة الداعي)** قال: ويروى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «حسب ابن آدم لقيمات يقمن به صلبه، فإن كان ولا بد فليكن الثلث للطعام والثلث للشراب والثلث للنفس»[٣].

قال القرطبي: لو سمع بقراط بهذه القسمة لتعجب من هذه الحكمة[٤].

قيل: لا شك إن أثر الحكمة في هذا الحديث واضح وإنما خص الثلاثة[٥] بالذكر لأنها أسباب حياة الحيوان، لأنه لا يدخل البطن سواها.

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٩١ ح ٤٤٥، وبحار الأنوار: ٥٩/ ٢٦٠ ح ١.
(٢) الفائق في غريب الحديث: ١/ ٩١، وفيض القدير: ١/ ٦٧٩، وغريب الحديث: ٢/ ٢٩، ولم ينسباه لأحد.
(٣) أي الطعام والشراب والنفس، منه.
(٤) تفسير القرطبي: ٧: ١٩٢.
(٥) عدة الداعي: ٧٤، وبحار الأنوار: ٦٣/ ٣٢٩ ح ٣.

ومراتب الأكل على ما قاله بعضهم سبع: **الأولى**: ما به تقوم الحياة. **الثانية**: أن يزيد حتى أن يصوم ويصلي عن قيام، وهذان واجبان. **الثالثة**: أن يزيد حتى يقوى على أداء النوافل. **الرابعة**: أن يزيد حتى يدر على التكسب للتوسعة، وهذان مستحبان. **الخامسة**: أن يملأ الثلث وهذا جائز. **السادسة**: أن يزيد حتى يتضرّر وهي البطنة المنهي عنها وهذا حرام، ويمكن إدخال الأولى إلى الثانية والثالثة إلى الرابعة.

الترجمة

فصل دویم از این خطبه متضمّن است ابطال دعوی بعض اهل زمان رجا به ثواب خداوند را و خوف از عقاب آن، می فرماید:

ادّعا می کند به زعم فاسد خود که امیدوار است به خدای تعالی، دروغ می گوید به حقّ خدای بزرگ، چیست حال او که ظاهر نمی شود رجا و امیدواری در عمل او و هرکه امید داشته باشد شناخته می شود امیدواری در عمل و کردار او مگر امید به خداوند متعال که به درستی آن مغشوش است و معیوب و هر ترس محقّق است مگر ترس از حقتعالی، پس به درستی که آن معلول است و مریض، امید می دارد آن شخص به خدا در چیز بزرگ و امید می دارد به بندگان در چیز حقیر، پس می دهد به بنده چیزی را که نمی دهد به پروردگار، پس چیست شأن خدای عزّوجل که تقصیر کرده می شود به او و از آن چیزی که رفتار می شود با آن بر بندگان او، آیا می ترسی که باشی در امیدواری تو به او دروغ گوی، یا باشی که نبینی او را از برای امیدواری محل قابل.

و همچنین است اگر او بترسد از بنده ای از بندگان خدا عطا می کند به او از جهت خوف خود چیزی را که عطا نمی کند به پروردگار خود، پس می گرداند ترس خود را از بندگان نقد و ترس خود را از خالق خود وعده غیر امیدوار و همین قرار است کسی که عظم و شأن داشته باشد دنیا در چشم او و بزرگ باشد وقع دنیا از قلب او، ترجیح می دهد آن دنیا را بر خدا، پس بالکلیه رجوع نماید به آن دنیا و برگردد بنده از برای آن.

و به تحقیق که هست در رفتار و کردار حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه و آله) کفایت کننده مر تو را در تأسّی و پیروی نمودن به آن بزرگوار و راه نماینده از برای تو بر مذمت دنیای فانی و کثرت مهالك و معایب آن، از جهت اینکه بسته شد از او اطراف آن و مهیا شد از برای غیر او جوانب او و باز گرفته شد از شیرخواری دنیا و دور کرده شد از زینت های آن.

و اگر بخواهی دو تا گردانی اعراض حضرت رسالت مآب را از دنیا با اعراض و زهد حضرت موسی کلیم الله وقتی که گفت به خداوند تعالی: بار پروردگارا به درستی من محتاجم به آنچه که فرو می فرستی به من از طعام، قسم بخدا که سؤال نمی کرد از خداوند مگر نانی که بخورد آن را، به جهت اینکه بود آن حضرت می خورد سبزی زمین را و به تحقیق که بود سبزی تره دیده می شد از پوست درون شکم او به جهت لاغری او و کمی گوشت او.

و اگر می خواهی سه تا گردانی آن را با زهد حضرت داود (عليه السلام) صاحب مزمارهای زبور و قرائت کننده اهل بهشت، پس به تحقیق که بود عمل می کرد به بافته شده های برگ درخت خرما یعنی زنبیل می بافت به دست خود، می گفت به همنشینان خود: کدام یك از شما کفایت می کند مرا به فروختن این و می خورد نان جوی از قیمت آن.

و اگر بخواهی بگویی در عیسی بن مریم (عليه السلام)، پس به تحقیق که بود بالش اخذ می نمود سنگ را و می پوشید جامه درشت را و بود نان خورش او گرسنگی و چراغ او در شب روشنایی ماه و سایه بان های او در فصل زمستان مشرق های آفتاب و مغرب های آن و میوه او و ریحان او آنچه که می رویانید آن را زمین از برای حیوانات و نبود او را زنی که مفتون نماید او را و نه فرزندی که محزون کند او را و نه مالی که برگرداند او را از حق و نه طمعی که ذلیل بگرداند او را، مرکب او پای های او بود و خدمتکار او دستهایش بود.

پس تأسّی کن به پیغمبر پاك پاکیزه خودت (صلى الله عليه وآله)، پس به تحقیق که در او است قابلیّت متبوعیّت از برای کسی که اقتدا و تبعیّت نماید و لیاقت انتساب از برای کسی که نسبت خود را به او بدهد و دوست ترین بندگان به سوی خدا کسی است که تأسّی نماید به پیغمبر خود و متابعت کند اثر او را، خورد دنیا را خوردنی اندك به اطراف دندان و پرنکرد از آن دهان خود را و نظر التفات به سوی او نگماشت، لاغرترین اهل دنیا بود از حیثیّت تهی گاه و گرسنه ترین ایشان بوده از حیثیّت شکم، عرض کرده شد بر او خزاین دنیا، پس امتناع فرمود از قبول آن و دانست که خدای تعالی دشمن داشته چیزی را، پس دشمن گرفت آن حضرت نیز آن را و حقیر گرفته چیزی را، پس حقیر گرفت آن حضرت نیز آن را و کوچك و بی مقدار شمرده

چیزی را، پس کوچك شمرد آن هم او را.

و اگر نشود در ما هیچ چیز مگر محبّت ما به چیزی که دشمن داشته خدا و رسول او، و تعظیم ما چیزی را که خوار و خرد شمرده خدا و رسول او، هرآینه کفایت می کند آن از حیثیّت مخالفت مر خدا را و از حیثیّت معادات و مجانبت از فرمان آن.

و به تحقیق که بود حضرت رسول (صلى الله عليه وآله) می خورد طعام را بر روی زمین و می نشست مانند نشستن غلام و می دوخت با دست خود کفش خودش را، پینه می زد با دست خود رخت خود را و سوار می شد بر درازگوش برهنه و ردیف می کرد در پس خود دیگری را و می بود پرده ای بر در خانه آن حضرت، پس می شد در آن پرده نقش نگارها، پس می فرمود بر یکی از زوجات خود: ای فلانه پنهان کن این را از نظر من، پس به درستی که من زمانی که نظر می کنم به سوی آن یاد می کنم دنیا و زینت های آن را.

پس اعراض فرمود از دنیا به قلب مبارك خود و معدوم ساخت ذکر دنیا را از نفس نفیس خود و دوست گرفت که غایب شود زینت آن از چشم جهان بین خود تا اینکه اخذ ننماید از دنیا لباس فاخری و اعتقاد نکند آن را آرامگاهی و امید نگیرد در آن اقامت را، پس بیرون نمود دنیا را از نفس نفیس و کوچانید حبّ دنیا را از خواطر انور و غایب گردانید آن را از نظر آفتاب منظر و همچنین است هرکس که دشمن می گیرد چیزی را دشمن می گیرد آنکه نگاه کند به سوی آن و آنکه ذکر بشود نام و نشان آن در نزد او.

و به تحقیق که هست در رسول خدا (صلى الله عليه وآله) چیزی که دلالت کد تورا بر بدی های دنیا و عیب های آن از جهت اینکه گرسنه ماند در دنیا با خواصّ خودش و دور کرده شد از او زینت های آن با وجود بزرگی قرب و منزلت او.

پس باید که نظر کند نظرکننده به عقل خود که آیا گرامی داشته خدای تعالی محمّد مصطفی (صلى الله عليه وآله) را به سبب این یا خوار نموده آن را، پس اگر گوید خوار فرموده او را، پس به تحقیق که دروغ گفته قسم به خدای بزرگوار و اگر گوید گرامی داشته او را، پس باید که بداند آنکه خدای متعال به تحقیق که خوار کرده غیر او را از جهت اینکه بسط فرموده دنیا را از برای آن غیر و صرف نموده دنیا را

از اقرب خلق به سوى او.

پس بايد كه تأسّى نمايد تأسّى كننده به پيغمبر برگزيده خود و پيروى نمايد اثر او را و داخل شود به محلّ دخول آن والاّ پس ايمن نشود از هلاكت.

پس به درستى كه خداى تعالى گردانيد محمّد مصطفى (ﷺ) را نشانه از براى قيامت و بشارت دهنده به بهشت و ترساننده با عقوبت، بيرون رفت آن حضرت از دنيا در حالتى كه شكم تهى بود و وارد شد به آخرت در حالتى كه سالم بود از مكاره و معايب، ننهاد سنگ بالاى سنگى تا اينكه درگذشت به راه خود و اجابت فرمود دعوت كننده پروردگار خود را.

پس چه قدر بزرگ است منّت و نعمت خدا در نزد ما وقتى كه انعام فرمود با آن حضرت بر ما پيش رويى كه متابعت كنيم او را و پيشوايى كه گام مى نهيم در پى او، قسم به خدا به تحقيق كه پينه دوزاندم اين دراعه خود را تا به مرتبه اى كه خجالت كشيدم از پينه دوزنده آن و به تحقيق كه گفت مرا گوينده اى: آيا نمى اندازى آن را از خودت؟ پس گفتم كه دور شو از من كه در نزد صبح ستايش كرده مى شوند مردمان شب رونده.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والستون
من المختار في باب الخطب

بَعَثَهُ بِالنُّورِ المُضِيءِ، والبُرْهانِ الجَلِيِّ، والمِنْهاجِ البادي، والكِتابِ الهادِي، أُسْرَتُهُ خَيرُ أُسْرَةٍ، وشَجَرَتُهُ خَيرُ شَجَرَةٍ، أَغْصانُها مُعْتَدِلَةٌ وثِمارُها مُتَهَدِّلَةٌ، مُوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ، عَلا بِها ذِكْرُهُ، وَامْتَدَّ بِها صَوْتُهُ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كافِيَةٍ، ومَوْعِظَةٍ شافِيَةٍ، ودَعْوَةٍ مُتَلافِيَةٍ، أَظْهَرَ بِهِ الشَّرائِعَ المَجْهُولَةَ، وقَمَعَ بِهِ البِدَعَ المَدْخُولَةَ، وبَيَّنَ بِهِ الأَحْكامَ المَفْصولَةَ، فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، ويَكُنْ مَآبُهُ إِلَىٰ الحُزْنِ الطَّوِيلِ، والعَذابِ الوَبِيلِ، وأَتَوَكَّلُ عَلىٰ اللَّهِ تَوَكُّلَ الإِنابَةِ إِلَيْهِ، وأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ المُؤَدِّيَةِ إِلىٰ جَنَّتِهِ، القاصِدَةِ إِلىٰ مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

أُوْصِيكُمْ عِبادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وطاعَتِهِ فَإِنَّها النَّجاةُ غَداً، والمَنْجاةُ أَبَداً، رَهَّبَ فَأَبْلَغَ، ورَغَّبَ فَأَسْبَغَ، وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيا وانْقِطاعَها، وزَوالَها وانْتِقالَها، فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيها لِقِلَّةِ ما يَصْحَبُكُمْ مِنْها، أَقْرَبُ دارٍ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، وأَبْعَدُها مِنْ رِضْوانِ اللَّهِ، فَغُضُّوا عَنْكُمْ عِبادَ اللَّهِ غُمُومَها وأَشْغالَها لِما قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ من فِراقِها وتَصَرُّفِ حالاتِها، فَاحْذَرُوها حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ، والمُجِدِّ الكادِحِ، واعْتَبِرُوا بِما قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصارِعِ القُرُونِ قَبْلَكُمْ قَدْ تَزايَلَتْ أَوْصالُهُمْ، وزالَتْ أَبْصارُهُمْ وأَسماعُهُمْ، وذَهَبَ شَرَفُهُمْ وعِزُّهُمْ، وانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ ونَعِيمُهُمْ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الأَوْلادِ فَقْدَها، وبِصُحْبَةِ الأَزْواجِ مُفارِقَتَها، لا يَتَفاخَرُونَ، ولا يَتَناسَلُونَ، ولا يَتَزاوَرُونَ، ولا يَتَجاوَرُونَ، فَاحْذَرُوا عِبادَ اللَّهِ حَذَرَ الغالِبِ لِنَفْسِهِ المانِعِ لِشَهْوَتِهِ النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ، فَإِنَّ الأَمْرَ واضِحٌ، والعَلَمَ قائِمٌ، والطَّرِيقَ جَدَدٌ، والسَّبِيلَ قَصْدٌ[1].

اللغة

(بعثه) وابتعث رسله أرسله فانبعث و **(أسرة)** الرجل بالضم رهطه الأدنون و **(التهدل)** الاسترخاء والتدلي و **(طيبة)** بالفتح والتخفيف إسم مدينة الرسول صلى الله عليه وآله كطابة والطيبة وكان اسمها يثرب فسماها رسول الله صلى الله عليه وآله بطيبة و **(التلافي)** الإستدراك و **(قمعه)** يقمعه قهره وذلله وضربه بالمقمعة وزن مكنسة وهي العمود من الحديد أو كالمحجن يضرب به على رأس الفيل وخشبة يضرب به الإنسان على رأسه و**(كبا)** الجواد كبواً عثر فوقع إلى الأرض وانكبّ على وجهه والإسم الكبوة و **(نجا)** نجواً ونجاة خلص، وقال الشارح المعتزلي: والمناجاة مصدر

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٣٩.

نجا ينجو والنجاة الناقة ينجى عليها و (**لا يتجاورون**) بالجيم من المجاورة ويروى بالحاء المهملة.

الإعراب

(**الباء**) في قوله: (**بالنور**) للمصاحبة والملابسة، وتعدية القاصدة بـ (**إلى**) لتضمينها معنى الإفضاء، وفاعل رهّب ورغّب راجع إلى الله تعالى، و(**الفاء**) في قوله: (**فأعرضوا**) فصيحة (**وأقرب دار**) خبر لمبتدأ محذوف، وجملة (**قد تزايلت**) استئناف بياني، و(**الفاء**) في قوله: (**فبذلوا**) عاطفة من عطف المفصّل على المجمل.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة متضمنة لذكر مدائح النبي ﷺ ومناقبه الجميلة ثم الموعظة الحسنة والتنفير عن الدنيا بالتنبيه على معايبها ومساوئها.

قال عليه السلام: (**ابتعثه**) وفي بعض النسخ: بعثه بدله، وهما بمعنى كما مر (**بالنور المضيء**) أراد به نور النبوة، وتفسير (**الشارح المعتزلي**) له بالدّين والقرآن وهم لأن المراد بالمنهاج الآتي ذلك، والكتاب أيضاً يجيء ذكره والتأسيس أولى من التأكيد (**والبرهان الجلي**) أي بالمعجزات الباهرات والأدلة الواضحة على حقيّته (**والمنهاج المبادي**) أي الطريق الظاهر، يعني الشريعة والدين (**والكتاب الهادي**) إلى سبيل الجنة وطريق النجاة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

(**أسرته خير أسرة وشجرته خير شجرة**) أي رهطه خير رهط وأصله خير أصل، وقد مضى شرح هاتين القرينتين في شرح الخطبة الثالثة والتسعين مستوفاً ولا حاجة هنا إلى الإعادة.

(**أغصانها معتدلة**) المراد بها الأغصان المعهودة، أعني أهل بيت العصمة والطهارة، فإن الجمع المضاف إنما يفيد العموم حيث لا عهد، والقرينة على إرادة الخصوص هنا قائمة وهي قوله: (**معتدلة**)، فإن الظاهر أن المراد به اعتدالها في الكمالات النفسانية وكونها مصونة من التفريط والإفراط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

روى بريد العجلي في هذه الآية عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: نحن الأمة الوسط[1].

وفي رواية حمران عنه عليه السلام: إنما أنزل الله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣١٤، والبحار: ٢٣/ ٣٥١ ح ٦٣.

يعني عدلاً ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ قال: ولا يكون شهداء على الناس إلا الأئمة والرّسل[١].

فقد علم بما ذكرناه أن ما قاله الشارح البحراني من أن لفظ الأغصان مستعار لأشخاص بيته صلى الله عليه وآله كعلي عليه السلام وأولاده وزوجته وأعمامه وإخوته، واعتدال هذه الأغصان في الفضل والشرف سخيف، إذ اعتدال الأوّلين مسلّم، وأما الأعمام والأخوة فقياسهم عليهم فاسد، والتقارب بينهم ممنوع.

(وثمارها متهدّلة) أي ثمار هذه الشجرة الظاهرة من أغصانها متدلية، وهو كناية عن سهولة الانتفاع بها، وأراد بالثمار العلوم الحقة المأخوذة عنهم عليهم السلام.

(مولده بمكة) شرّفها الله يوم الجمعة عند طلوع الشمس السابع عشر من ربيع الأول عام القيل، قاله أبو علي الطبرسي وقد تقدم تفصيل تاريخ ميلاده صلى الله عليه وآله وطالع ولادته صلى الله عليه وآله في شرح الفصل السادس عشر من الخطبة الأولى.

(وهجرته بطيبة) هاجر إليها وهو ابن ثلاث وخمسين كما يدل عليه ما رواه في **(كشف الغمة)** عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن ثلاث وستين سنة في سنة عشر من الهجرة، فكان مقامه بمكة أربعين سنة، ثم نزل عليه الوحي في تمام الأربعين، وكان بمكة ثلاث عشر سنة، ثم هاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فأقام بالمدينة عشر سنين وقبض صلى الله عليه وآله[٢].

(علا بها) أي في طيبة **(ذكره)** لأنه قهر الأعداء وانتصر من الكفار بعد الهجرة إليها بنصرة أهلها، ولذلك سمي أهلها بالأنصار **(وامتدّ بها صوته)** أي انتشرت دعوته فيها وبلغ صيت الإسلام إلى الأصقاع والأكناف بعدما هاجر إليها.

(أرسله بحجة كافية) يعني الآيات القرآنية الكافية في إثبات نبوّته مضافة إلى سائر معجزاته صلى الله عليه وآله **(وموعظة شافية)** لأسقام القلوب وأمراض النفوس، والمراد بها ما اشتمل عليه الكتاب الكريم والسنّة الكريمة من الوعد والوعيد وضرب الأمثال والتذكير بالقرون الخالية والأمم الماضية الموقظة للخلق من نوم الغفلة والمنقذة لهم من ضلال الجهالة **(ودعوة متلافية)** متداركة بها ما فسد من نظام أمر الدين في أيام الجاهلية.

(أظهر به الشرائع المجهولة) الظاهر أن المراد بها قوانين الشريعة النبوية التي كانت

---

(١) الاختصاص: ١٣٠، وبحار الأنوار: ٢٢/٥٠٣ ح ١.

(٢) الهداية للشيخ الصدوق: ٣٢ ح ١، والبصائر: ٨٣، والكافي: ١/١٩١ ح ٤ في حديث طويل.

مجهولة بين الناس ثم ظهرت وعرفت بعد وجوده ﷺ وتشريعه إياها، ويجوز أن يراد بها شرائع الماضين من السنن التي لم تكن منسوخة وإنما كانت مجهولة بين الناس لبعد العهد وطول الزمان واتباع الهوى فأظهرها النبي ﷺ وأمر بأخذها ولزومها.

(**وقمع به البدع المدخولة**) أراد بها ما كان أهل الفترة وأيام الجاهلية أبدعوها في الدين وأدخلوها على الشرع المبين من عبادة الأصنام ونحرهم لها وحجهم لأجلها وزعمهم أنها تقرّبهم إلى الله زلفى، ومن النسيء والطواف بالبيت عرياناً وغيرها من البدع التي لا تحصى فأذلّ الله سبحانه ببعث النبي ﷺ تلك البدع وأذلّ المبدعين وقطع دابر الكافرين.

(**وبيّن به الأحكام المفصولة**) أي أحكامه ﷺ المفصولة الآن ببيانه، لا أنها كانت مفصولة قبل (**فمن يبتغ**) ويطلب (**غير الإسلام ديناً**) بعدما بلّغه النبي ﷺ وأعلمه وشرّعه وأفصح عن معالمه وأقام الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على صحته وحقيّته (**تتحقق شقوته**) في الآخرة (**وتنفصم عروته**) أي ينقطع ما يتمسك به من حبل النجاة (**وتعظم كبوته**) وعثرته فيطيح في نار الجحيم والسخط العظيم (**ويكن**) مرجعه و (**مآبه إلى الحزن الطويل والعذاب الوبيل**) المتضمن للهلاك والوبال في دار البوار، وهذا مراد من فسّره بالشديد.

(**وأتوكل على الله توكل الإنابة إليه**) أي توكّل الملتفت عن غيره والراجع بكليته إليه للعلم بأن غيره لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع.

قال أبو عبد الله عليه السلام في رواية (**الكافي**): أوحى الله عزّ وجل إلى داود: ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته إلا قطعت أسباب السماوات من يده وأسخت الأرض من تحته ولم أبال بأي واد يهلك[1].

(**واسترشده السبيل المؤدية إلى جنّته القاصدة إلى محلّ رغبته**) أي الطريق التي من سلكها أدّته إلى جنته، ومن قصدها أفضته إلى محل رغبته.

ثم عقّب ذلك بالموعظة والوصية بما لا يزال يوصى به دائماً فقال: (**أوصيكم عباد الله بتقوى الله وطاعته فإنها النجاة غداً**) إفراد الضمير مع تعدّد المرجع باعتبار أنهما في المعنى شيء واحد، ولكونهما سبب النجاة أطلق عليهما النجاة من باب إطلاق المسبب على السبب، فيكون مجازاً مرسلاً، وعلى ما ذكره الشارح المعتزلي من أن النجاة إسم للناقة التي

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٢١١ ح ٢٠٣٠٤، ومستدرك الوسائل: ١١/ ٢١٤ ح ١٢٧٧٤.

ينجي عليها فيكون استعارة تشبيهاً لهما بالمطيّة التي يركب عليها فيخلص من العطب، فإن المطيع ينجو بهما من الهلاك الأخروي والعذاب الأليم.

(والمنجاة أبداً) جعلهما محل النجاة باعتبار حصولهما في الاتصاف بهذين الوصفين، فشبها بالمحل الذي يحل فيه الشيء وأطلق عليهما لفظ المنجاة من باب تسمية الشيء بإسم محلّه.

ولما أمر بالتقوى والطاعة وكانت الطاعة عبارة عن امتثال الأوامر والنواهي أشار إلى أن الله سبحانه قد أعذر وأنذر وأتمّ الحجة ولم يبق لأحد معذرة في التقصير حيث **(رهب)** المجرمين بعذاب الجحيم والسخط العظيم **(فأبلغ)** في ترهيبه **(ورغب)** المطيعين في درجات الجنان والحور والغلمان وأكبر نعمائه الرضوان **(فأسبغ)** وأكمل في ترغيبه **(ووصف لكم)** في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠] كما وصف في غيره من آيات الكتاب الكريم والقرآن الحكيم **(الدنيا وانقطاعها وزوالها وانتقالها)** وحيث إنها موصوفة بالانقطاع متصفة بسرعة الزوال والانقضاء **(فأعرضوا)** بقلوبكم **(عما يعجبكم منها)** من زينتها وزخارفها وازهدوا فيها وفي رياشها **(لقلّة ما يصحبكم منها)** قال الشارح البحراني: وإنما قال: لقلّة ذلك ولم يقل: لعدمه، لأن السالكين لا بد أن يستصحبوا منها شيئاً وهو ما يكتسبه أحدهم من الكمالات إلى الآخرة، ولكن القدر الذي يكتسبه المترفون من الكمالات إذا قصدوا بأموالهم وسائر زينة الحياة الدنيا الوصول إلى الله نزر قليل، ومع ذلك فهم في غاية الخطر ومزلّة القدم في كل حركة وتصرّف، بخلاف أهل التقشف الذين اقتصروا منها على مقدار الضرورة البدنية، ويحتمل أن يريد بالقليل الذي يصحبهم منها كالكفن ونحوه.

(أقرب دار من سخط الله) لأنها محفوفة بالشهوات الموجبة لسخطه وأكثر أهلها محبون لها راغبون إليها متابعون للهوى، ورأس كل خطيئة حب الدنيا **(وأبعدها من رضوان الله)** لأن الطالب فيها لتحصيل رضوانه وللانتفاع بقيناتها في سلوك سبيله قليل **(فغضوا عنكم عباد الله)** وكفوا عن أنفسكم واخرجوا عن قلوبكم **(غمومها وأشغالها لما قد أيقنتم به من فراقها وتصرّف حالاتها)** يعني أن الغم والاشتغال إنما يحسن أن يوجها نحو ما يبقى دون ما يفنى مع أن الاشتغال بما يفنى شاغل عن الاشتغال بما يبقى، وهو ليس فعل العاقل.

وروى في **(الكافي)** عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أبو جعفر عليه السلام مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القز كلما

زادت من القزّ على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً[١].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: أغنى الغنى من لم يكن للحرص أسيراً[٢].

وقال: لا تشعروا قلوبكم الاشتغال بما قد فات فتشغلوا أذهانكم عن الاستعداد لما لم يأت **(فاحذروها)** على أنفسكم **(حذر الشفيق الناصح)** على شفيقه **(و)** حذر **(المجلد الكادح)** من خيبة سعيه.

روي في **(الكافي)** عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الله بن المغيرة عن غياث بن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن في كتاب علي عليه السلام: إنما مثل الدنيا كمثل الحية ما ألين مسها وفي جوفها السم الناقع يحذرها الرجل العاقل، ويهوى إليها الصبي الجاهل[٣].

(واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون) الماضية **(قبلكم)** فإنكم عما قليل لاحقون بهم وصائرون مثلهم **(قد تزايلت أوصالهم)** وأعضائهم **(وزالت أسماعهم وأبصارهم)** وجرت أحداقهم على الخدود، وسالت أفواههم ومناخرهم بالقيح والصديد **(وذهب شرفهم وعزّهم وانقطع سرورهم ونعيمهم)** فلا تنظر إلى طيب عيشهم ولين رياشهم ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم.

يا راقد الليل مسروراً بأوّله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحاراً
أفنى القرون التي كانت منعمة ... كرّ الجديدان إقبالاً وإدباراً
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ... قد كان في الدهر نفاعاً وضرارا
يا من يعانق دنياً لا بقاء لها ... يمسي ويصبح في دنياه سفاراً
هلا تركت من الدنيا معانقةً ... حتى تعانق في الفردوس أبكاراً
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن النارا

ثم انظر إلى أهل القبور كيف صاروا إليها بعد سكنى القصور، وانتقلوا إلى دار الوحدة وارتحلوا إلى بيت الوحشة ليس لهم أنيس به يستأنسون ولا سكن إليه يسكنون **(فبدلوا بقرب الأولاد فقدها وبصحبة الأزواج مفارقتها)** بل استوحش من قربهم الأولاد والأصحاب، واستنفر من قبرهم الآلاف والأحباب **(لا يتفاخرون ولا يتناسلون ولا يتزاورون ولا يتجاورون)** إذ لم يبق لهم زائر ولا مجاور.

---

(١) الكافي: ٢/ ١٣٤ ح ٢٠، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٣٨٢ ح ٢٠.
(٢) الكافي: ٢/ ٣١٦ ح ٧، ومن لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٩٥.
(٣) الكافي: ٢/ ١٣٦ ح ٢٢، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٣٨٥ ح ٢٢.

وحلّوا بدار لا تزاور بينهم وأنّى لسكان القبور التزاور

وإنما صار هوام الأرض لهم الزوار والضيفان، والحشرات والديدان لهم الجيران وانحصر لباسهم ورياشهم في الأكفان.

(فاحذروا عباد الله) ثم احذروا **(حذر الغالب لنفسه)** الأمارة بالسوء **(المانع لشهوته)** المؤدية إلى هلكته **(الناظر بعقله)** المميز بين منفعته ومضرته **(فإن الأمر واضح)** أي أمر الدنيا والآخرة ظاهر لا خفاء فيه **(والعلم قائم)** أي علم الشريعة الهادي إلى الحق قائم لا غبار عليه **(والطريق)** إلى الله **(جدد)** سهل **(والسبيل)** إلى رضوان الله تعالى **(قصد)** مستقيم.

فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن حبل الله المتین و سیّد وصیین است مشتمل است بر مناقب حضرت رسالت و متضمن است موعظه و نصیحت را، می فرماید:

مبعوث فرمود خداوند تعالی پیغمبر آخرالزّمان (ﷺ) را با نور روشن کننده که عبارت است از نور نبوّت و با دلیل آشکارا که عبارت است از معجزات رسالت و با راه واضح که جادّه شریعت است و با کتاب مشتمل به هدایت که قرآن کریم است، رهط و قبیله آن حضرت بهترین قبایل است و درخت آن بزرگوار بهترین درخت ها است، شاخه های آن درخت معتدلند و متقارب و میوه های آن فرو ریخته شده است و آویزان، مکان ولادت آن حضرت مکّه معظّمه است و هجرت او به مدینه طیبه، در مدینه بلند شد ذکر آن و کشیده شد در آن صدای آن، در رسید به آفاق و اکناف، فرستاد خداوند عزّوجلّ او را با حجّت کفایت کننده و با موعظه شفادهنده و با دعوت تدارك کننده، ظاهر فرمود خدا به اظهار و بیان آن حضرت شریعت های مجهوله را و منکوب و مخذول نمود به وجود او بدعت های مدخوله را و روشن گردانید به زبان گوهرفشان او حکم های فصل شده را، پس هرکه طلب نماید غیر از اسلام دینی را متحقّق می شود شقاوت او و گسیخته می شود متمسك او و بزرگ گردد لغزش او و باشد بازگشت او به سوی اندوه دراز و عذاب شدید و توکّل می کنم به خداوند توکّل رجوع کردن به سوی او و طلب ارشاد می کنم از او به راهی که رساننده باشد به بهشت عنبرسرشت او و قصدکننده باشد به محلّ رغبت او.

وصیّت می کنم شما را ای بندگان خدا به پرهیزکاری از خدا و فرمان برداری او، پس به درستی که پرهیزکاری و فرمان برداری رستگاری است فردا روز قیامت و محلّ رستگاری است همیشه، ترسانیده خدای عزّوجلّ مخلوقات را به عقاب و ترغیب فرموده ایشان را به ثواب و وصف نموده از برای شما دنیای بیوفا و بریده شدن آن را و زوال آن را و انتقال آن را، پس اعراض نمایید از آنچه که شگفت می آورد شما را در دنیا از جهت کمی آنچه که همراه خواهد شد با شما از دنیا،

نزديك ترين خانه ای است از غضب خدا و دورترين خانه ای است از رضای خدا .

پس بازداريد از خودتان ای بندگان خدا غم های دنيا و شغل های آن را از جهت آنكه محققاً يقين كرده ايد به آن از مفارقت آن و انقلاب حالات آن، پس بترسيد در آن همچو ترسيدن برادر مهربان نصيحت كننده و مثل ترسيدن صاحب جدّ و جهد سعی كننده و عبرت برداريد به آنچه كه ديديد از مهالك قرن هايی كه پيش از شما بودند، به تحقيق كه جدا شد از يكديگر عضوهای بدن ايشان و زايل شد گوش ها و چشم های ايشان و رفت بزرگواری و عزّت ايشان و بريده گشت شادی و نعمت ايشان، پس بدل كرده شدند به نزديكی اولاد نايابی ايشان را و به مصاحبت زنان جدايی ايشان را، تفاخر نمی توانند بكنند به يكديگر و نسل اخذ نمی كنند و زيارت يكديگر نمی نمايند و با هم همسايگی نمی كنند.

پس حذر كنيد ای بندگان خدا مثل حذر نمودن كسی كه غلبه نمايد بر نفس خود و منع كننده باشد شهوت خود را و نظركننده باشد به چشم عقل خود، پس به درستی كه امر دنيا و آخرت واضح است و روشن و علم شريعت قائم است و بر پا و راه حق سهل است و آسان و راه درست مستقيم است و راست.

هنا انتهى الجزء التاسع من هذه الطبعة الجديدة النفيسة، وتم تصحيحه وترتيبه وتهذيبه بيد العبد «السيد إبراهيم الميانجي» عفى الله عنه وعن والديه في اليوم الثاني عشر وشهر الله الأعظم سنة (١٣٨١) ويليه إنشاء الله الجزء العاشر وأوله: المختار المائة والواحد والستون، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

محتوى الجزء التاسع من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

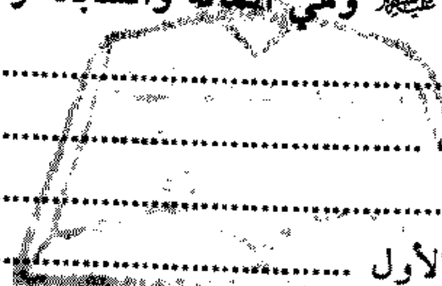

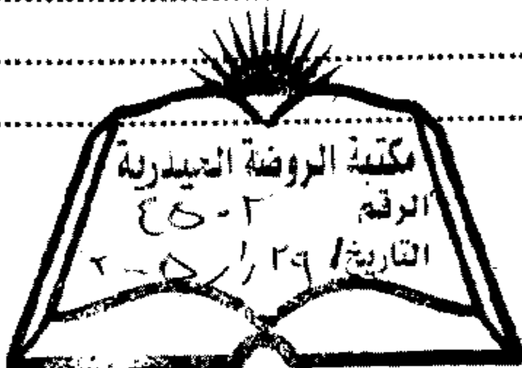

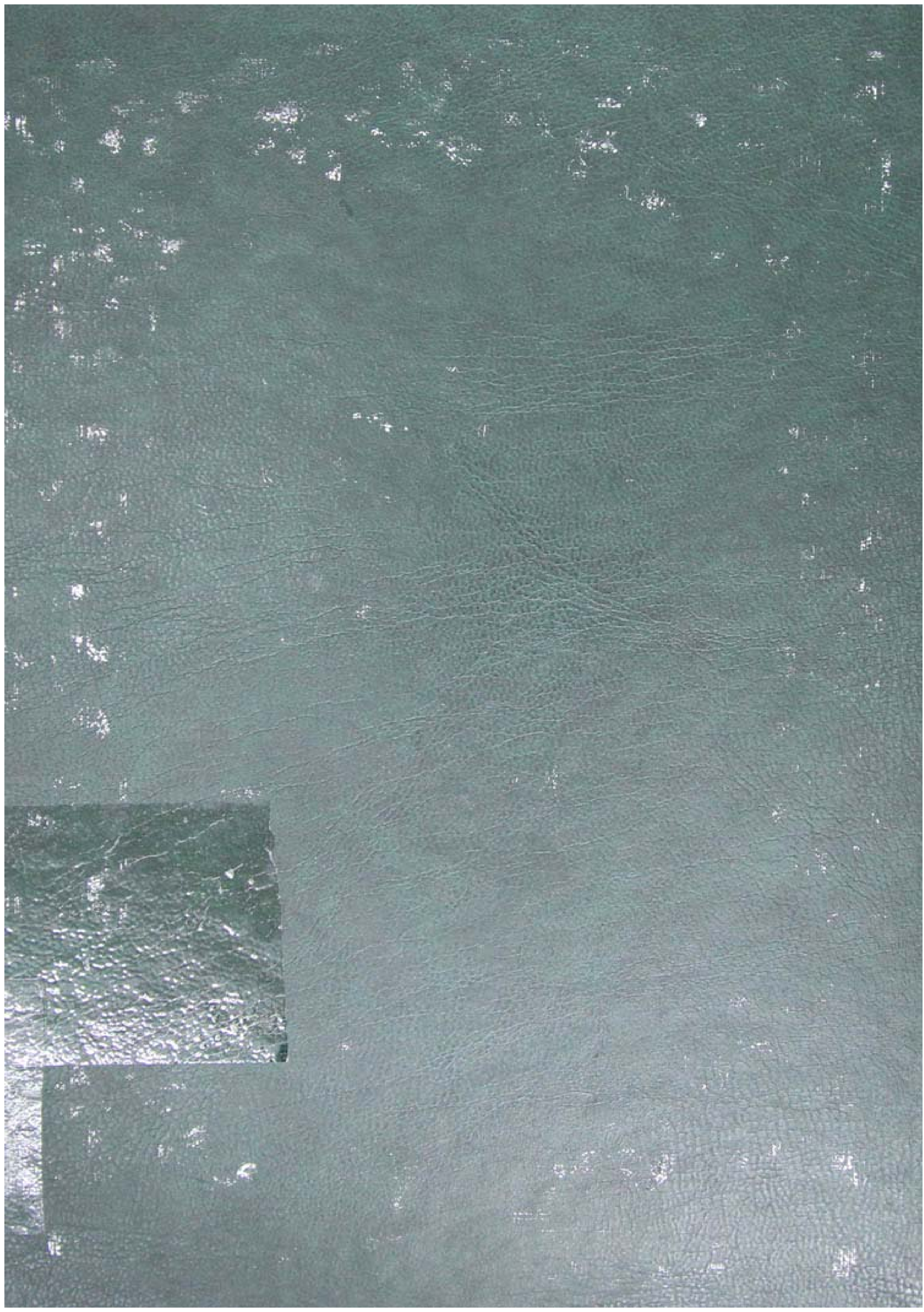

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد العاشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI

Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والواحد والستون من المختار في باب الخطب

وهو مرويّ في إرشاد المفيد وفي البحار من علل الشّرائع وأمالي الصّدوق على اختلاف تعرفه، قاله عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله عليه السلام كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به؟ فقال:

يا أَخا بَني أَسدٍ إِنَّكَ لَقَلِقُ تُرْسِلُ في غَيْرِ سَدَدٍ وَلَكَ بَعْدُ ذِمامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ المَسْأَلَة، وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ أَمَّا الاسْتِبْدادُ عَلَيْنا بِهٰذَا الْمَقامِ وَنَحْنُ الأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَالأَشَدُّونَ بِالرَّسُولِ صلى الله عليه وآله نَوْطاً فَإِنَّها كانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْها نُفُوس قَوْمٍ وَسَخَتْ عَنْها نُفُوس آخَرِينَ، وَالْحَكَمُ اللَّهُ وَالْمَعُود إِلَيْهِ القِيامَة ـ وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صيحَ في حَجَراتِهِ ـ.

وَهَلُمَّ الخَطْبَ في أَبي سُفْيانَ فَلَقَدْ أَضْحَكَنِيَ الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكائِهِ وَلا غَرْوَ وَاللَّهِ فَيالَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ العَجَبَ، وَيُكْثِرُ الأَوَدَ، حاوَلَ القَوْمُ إِطْفاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْباحِه، وَسَدَّ فَوّارِهُ مِنْ يَنْبُوعِه، وَجَدَحُوا بَيْني وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبيئاً، فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوى أَحْمِلُهُمْ مِنَ الحَقِّ عَلىٰ مَحْضِه، وإِنْ تَكُنِ الأُخْرىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[1].

اللغة

(**قلق**) قلقاً من باب تعب اضطرب فهو قلق ككتف و(**الوضين**) كما في النّهية بطان منسوج بعضها على بعض يشدّ به الرّحل على البعير كالحزام للسّرج و(**الارسال**) الاطلاق وإهمال التّوجيه و(**السّدد**) محرّكة كالسّداد الصّواب والاستقامة و(**الذّمامة**) بكسر الذّال المعجمة: الحرمة و(**الصهر**) القرابة قال ابن السكّيت: كلّ من كان من قبل الزّوج من أبيه أو أخيه أو أعمامه فهم الأحماء ومن كان من قبل المرأة فهم الأختان، وتجمع الصّنفين الأصهار.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٤٨٥، وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٤١.

و(**استبدّ**) في الأمر انفرد به من غير مشارك له فيه ورجل (**يستأثر**) على أصحابه به أي يختار لنفسه أشياءً حسنة، والاسم الأثرة محرّكة والأثرة بالضمّ والكسر والأثرى كالحسنى و(**المعود**) إمّا اسم لمكان العود أو مصدر بمعناه. وفي بعض النسخ يوم القيامة بإضافة يوم و(**الحجرات**) النّواحي جمع حجرة كجمرة وجمرات و(**هلمّ**) اسم فعل يستعمل بمعنى هات وتعال، فعلى الأوّل متعدّ وعلى الثّاني لازم يستوى فيه الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث في لغة أهل الحجاز، وأهل نجد يقولون: هلمّا وهلمّوا.

و(**الأود**) محرّكة الأعوجاج و(**فوّار**) الينبوع بفتح الفاء وتشديد الواو ثقب البئر والفوار بالضمّ والتّخفيف ما يفور من حرّ القدر وبهما قرأ والأوّل أظهر و(**جدحه**) يجدحه من باب منع خلطه ومزجه و(**الشرب**) بالكسر الحظّ من الماء قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ و(**الوبيء**) ذو الوباء والمرض.

الإعراب

قوله (لقلق) الوضين صفة حذف موصوفها للعلم به، وجملة (ترسل)، في محلّ الرّفع عطف بيان، (ولك) خبر مقدّم (وذمامة الصهر وحقّ المسألة) مرفوعان على الابتداء، (وبعد)، ظرف لغو متعلّق بذمامة تقديمه عليه للتّوسّع، وجملة (ونحن الأعلون) في محلّ النّصب على الحال، (ونسباً ونوطاً) منصوبان على التميز، وتعدية سخت بعن لتضمين معنى الأعراض، والقيامة في بعض النّسخ بالرّفع وفي بعضها بالنصب، فالأوّل مبنيّ على أنّه خبر لمعود وجعله اسم مكان، والثّاني على كونه ظرفاً له وجعله مصدراً.

والبيت أعني قوله: (ودع عنك نهباً صيح في حجراته)، مطلع قصيدة لامرؤ القيس بن حجر الكندي وتمامه: ولكن حديثاً ما حديث الرّواحل، وقد أثبت المصراع الثّاني أيضاً في بعض النّسخ، والظّاهر أنّه سهو من النّساخ، وأنّه لم يتمثّل إلا صدر البيت وأقام قوله: (وهلمّ الخطب)، مقام المصراع الثّاني كما نبّه عليه الشّارح المعتزلي وغيره.

وكيف كان فقوله: حديثاً ما (ا هـ) انتصب حديثاً بإضمار فعل أي: حدّثني أو أسمع أو هات، ويروى بالرّفع على أنّه خبر محذوف المبتدأ أي غرضي حديث وما ها هنا تحتمل أن تكون إبهاميّة وهي التّي إذا اقترنت بنكرة زادته إبهاماً وشياعاً كقولك: أعطني كتاباً ما تريد، أي: أيّ كتاب كان، وتحتمل أن تكون صلة مؤكدّة كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾.

وأمّا حديث الثّاني فقد ينصب على البدل من الأوّل، وقد يرفع على أن يكون ما موصولة وصلتها الجملة أي: الذي هو حديث الرّواحل، ثمّ حذف صدر الصّلة كما في

«إتماماً على الذي أحسن» أو على أن تكون استفهامية بمعنى أيّ قوله: ولا غرو (لا) لنفي الجنس محذوف خبرها، وقوله: (فيا له خطباً) النّداء للتعجّب والتفخيم و(خطباً) منصوب على التميز من الضمير.

المعنى

إعلم أنّ المستفاد من روايتي العلل والأمالي الآتيتين أنّ هذا الكلام (قاله: لبعض أصحابه) بصفّين (و)ذلك أنّه (**قد سأله**) وقال له (**كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام**) أي: مقام الخلافة والوصاية (**وأنتم أحقّ به**) منهم ومن غيرهم لعلوّ النسب وشرافة الحسب وماسّة الرّحم ومزيد التقرّب وغزارة العلم ووفور الحلم وملكة العصمة وفضيلة الطّهارة وثبوت الوصيّة وحقوق الوراثة وسائر خصائص الولاية.

(**فقال** عليه السلام) مجيباً للسّائل: (**يا أخا بني أسد إنك لرجل قلق الوضين**) أي: مضطرب البطان أراد به خفّته وقلّة ثباته كالحزام إذا كان رخواً، لأنّه قد سأله في غير مقامه كما أبان عنه بقوله: (**ترسل في غير سدد**) أي: تطلق عنان دابّتك وتهملها وتوجّهها في غير مواضعها، أي تتكلم في غير موضع الكلام، وتسأل مثل هذا الأمر الذي لا يمكن التصريح فيه بمخّ الحقّ بمجمع النّاس، أو تسأل مثل هذا الأمر الذي يحتاج إلى تفصيل الجواب في مقام لا يسع ذلك، والأخير أظهر بملاحظة ما يأتي في روايتي العلل والأمالي من أنّه سأله بينا هو في أصعب موقف بصفّين.

وكيف كان فلمّا اعترض عليه السلام على السائل يكون سؤاله في غير موقعه المناسب، ولما كان ذلك مظنّة لأن ينكسر منه قلب السائل استدرك عليه السلام ذلك بمقتضى سؤدده ومكارم خلقه فقال استعطافاً وتلطّفاً: (**ولك بعد ذمامة الصّهر وحقّ المسألة**) أي حرمة القرابة وحقّ السؤال.

قال الشّارح المعتزلي: وإنّما قال: لك بعد ذمامة الصّهر، لأنّ زينب بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وآله كانت أسديّة، وشنّع الشّارح على القطب الرّاوندي حيث علّل ذلك بأنّ أمير المؤمنين قد تزوّج في بني أسد بأنّ عليّاً لم يتزوّج في بني أسد ألبتّة. ثمّ فصل أولاده وأزواجه، ثمّ قال: فهؤلاء أولاده وليس فيهم أحد من أسديّة ولا بلغنا أنّه تزوّج في بني أسد ولم يولد.

وردّه الشّاح البحراني بأنّ الإنكار لا معنى له إذا ليس كلّ ما لم يبلغنا من حالهم لا يكون حقّاً ويلزم أن لا يصل إلى غيره.

أقول: الحقّ مع البحراني! إذ عدم نقل التزوّج إلينا لا يكون دليلاً على العدم! لكنّه يبعّده كما لا يخفي هذا.

وأمّا حقّ المسألة فلأنّ للرّعية من الإمام حقّ السؤال وإن لم يفرض عليه الجواب لو لم يكن فيه المصلحة.

يدل على ذلك ما رواه في الكافي عن الحسين بن محمد عن معلّى بن محمد عن الوشا قال: سألت الرّضا عليه السلام فقلت له: جعلت فداك ـ:

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فقال عليه السلام: نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون، قلت: أفأنتم المسؤولون ونحن السائلون؟ قال: نعم فقلت: حقّاً علينا أن نسألكم؟ قال: نعم، قلت: حقّاً عليكم أن تجيبونا؟قال: لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل أما تسمع قول الله تبارك وتعالى:

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩].

وما بمعناه أخبار كثيرة مرويّة في الكافي وغيره.

ثمّ تصدّى لجواب السّائل لما علم المصلحة في الجواب فقال: **(وقد استعلمت فاعلم إمّا الاستبداد علينا بهذا المقام)** أي استقلال الغاصبين للخلافة وتفرّدهم بهذا المقام الذي هو مقام الأولياء والأوصياء **(ونحن الأعلون نسباً والأشدّون بالرّسول صلى الله عليه وآله)** أي مع كوننا أولى منهم بهذا المقام وأحقّ به بشرافة النّسب وشدّة التعلّق واللّصوق برسول صلى الله عليه وآله أما شرافة النسب فقد مرّ في ديباجة الشرح، وأما شدّة العلاقة فيكفي في الدّلالة عليها جعل النبيّ صلى الله عليه وآله له منه بمنزلة هارون من موسى وتنزيله منزلة نفسه في آية (أنفسنا)[1] مضافاً إلى سائر ما تضمّنت ذلك المعنى ممّا عرفتها في تضاعيف الشرح وتعرفها بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

(فإنها) أي الخلافة المعلومة من السياق **(كانت آثرة)** أي شيئاً مرغوباً يتنافس فيه النفوس ويريده كلّ لنفسه وأن يخصّ به من دون مشاركة الغير **(شحّت)** أي: بخلت **(عليها نفوس قوم)** أراد بهم أهل السقيفة **(وسخت عنها)** أي: جادت بها وتركتها معرضة عنها **(نفوس آخرين)** أراد بهم أهل البيت عليهم السلام وإعراضهم عنها لعدم رغبتهم في الخلافة من حيث إنّها سلطنة ظاهرية وإمارة على الخلق.

كما يدلّ عليه قوله عليه السلام لابن عباس في عنوان الخطبة الثالثة والثلاثين: والله لهي أحبّ إليّ من أمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً.

---

(١) الكافي: ١/٢١١ ح٣، ووسائل الشيعة: ٢٧/٦٤ ح٣٣٢١٠.

(٢) في آية المباهلة.

نعم لو كان متمكّناً من الخلافة وإقامة مراسمها على ما هو حقّها لرغب فيه البتّة لكنّه لم يتمكّن منها لعدم وجود النّاصر كما يومي إليه قوله عليه السلام في الخطبة الثّالثة المعروفة بالشقشقيّة: وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذّاء أو أصبر على طخية عمياء، وقوله في الخطبة السادسة والعشرين: فنظرت فإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي فظننت بهم عن الموت (ا هـ)، وغير ذلك ممّا تضمّن هذا المعنى.

(والحكم) الحقّ والحاكم العدل هو **(الله)** سبحانه **(والمعود إليه القيامة)** كما قال: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ويقضي بين الخلق بالحقّ ويجعل لعنته على الظالمين، وتمثّل عليه السلام بقول امرؤ القيس فقال:

(ودع عنك نهباً صيح في حجراته) ولكن حديثاً ما حديث الرّواحل

وكان من قصّة هذا الشّعر أنّ امرؤ القيس لمّا انتقل في أحياء العرب بعد قتل أبيه نزل على رجل من جذيلة طيىء يقال له: طريف فأحسن جواره فمدحه فأقام عنده، ثمّ أنّه لم يولّه نصيباً في الجبلين: أجاء وسلمى، فخاف أن لا يكون له منعة فتحول فنزل على خالد بن سدوس بن أصمع النبهاني فأغارت بنو جذيلة على امرؤ القيس وهو في جوار خالد بن سدوس فذهبوا بإبله وكان الذي أغار عليه منهم باعث بن حويص، فلمّا أتى امرؤ القيس الخبر ذكر ذلك لجاره، فقال له: أعطني رواحلك ألحق عليهم القوم فأردّ عليك إبلك، ففعل فركب خالد في أثر القوم حتّى أدركهم فقال: يا بني جذيلة أغرتم على إبل جاري؟ قالوا: ما هو لك بجار، قال: بلى والله وهذه رواحله، قالوا: كذلك، قال: نعم، فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ وذهبوا بهنّ وبالإبل، وقيل: بل انطوى خالد على الإبل فذهب بها، فقال امرؤ القيس: دع عنك نهباً، القصيدة، أي أترك عنك منهوباً يعني غنيمة صيح في جوانبه ونواحيه صياح الغارة، ولكن هات حديثاً الذي هو حديث الرّواحل أي النّوق الّتي تصلح لأن يشد الرّحل على ظهرها[١].

وغرضه عليه السلام بالتمثيل بالبيت الإشارة إلى أنّ المتخلّفين الثلاثة الماضين قد نهبوا تراثي وأغاروا على حقّي مع صياح عند النّهب والغارة يريد به الاحتجاجات والمناشدات الّتي كانت منه عليه السلام ومن أتباعه بعد السقيفة وفي مجلس الشّورى حسبما عرفتها في شرح الخطبة الشقشقيّة وغيرها.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٤٨٩، وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٤٥.

يقول عليه السلام: دع عنك ذكر تلك الغارة وحديثها ولا تسأل عنها فإنّه نهب صيح في حجراته ومضى وانقضى **(ولكن هلمّ الخطب في ابن أبي سفيان)** أي لكن هات ذكر الحدث الجليل والأمر العظيم الّذي نحن مبتلى به الآن في منازعة معاوية بن أبي سفيان وطمعه في الخلافة، فإنّه حديث عجيب ينبغي أن يتحدّث ويذاكر ويستمع **(فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه)** أي: صرت ضاحكاً ضحك تعجب من تصرّفات الدّهر وتقلّباته وتربيته لأراذل النّاس وجعله مثل ابن النّابغة الآكلة للأكباد والطّليق ابن الطّليق منازعاً لي في الخلافة، ومعارضاً عليّ في الرّياسة مع غاية بعده عنها وانحطاط رتبته عن الطمع في مثلها بعد ما كان بي من الكآبة والحزن لتقدم من سلف.

ومحصّل المراد أنّ الدّهر أضحكني من فرط التعجّب بعد ما أحزنني لأنّه أنزلني ثمّ أنزلني حتّى قيل: ومعاوية وعلي **(ولا غرو والله)** أي لا عجب والله من تقلّبات الدّهر وأحواله وقوّة الباطل وغلبة أهله فيه ممّا بي نزل وإضحاكه بي بعد إبكائه، لأنّ عادته قد جرت دائماً على وضع الأشراف ورفع الأراذل حتّى صار سجيّة له ومجبولاً عليها، وإليه ينظر قول مولانا الحسين عليه السلام ليلة العاشور:

يا دهرُ أفّ لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل

(فياله خطباً يستفرغ العجب) كلام مستأنف لاستعظام هذا الأمر، وعلى هذا فالوقف على الله، ويجوز أن لا يكون استئنافاً بل وصلا على سابقه وتفسيراً له فإنّه عليه السلام لمّا أشار إلى أنّ الدّهر أعجبه أتبعه بقوله: ولا غرو، أي ليس ذلك بعجب وفسّر هذا بقوله: فياله خطباً يستفرغ العجب، أي يستنفده ويفنيه أي قد صار العجب لا عجب لأنّ هذا الخطب قد استغرق المتعجّب فلم يبق منه ما يطلق عليه لفظ التعجّب، وهذا من باب الإغراق والمبالغة في المبالغة أي هذا أمر يجلّ عن التعجّب كقول ابن هاني:

قد صرت في الميدان يوم طرادهم فعجبت حتّى كدت لا اتعجب

هذا (و)وصف الخطب أيضاً بأنّه **(يكثر الأود)** لأنّ كلّ امرء بعد عن الشريعة ازداد الأمر به اعوجاجاً **(حاول القوم)** أراد به معاوية وأتباعه **(إطفاء نور الله من مصباحه)** أراد بنور الله الولاية والخلافة وبمصباحه نفسه الشّريف الحامل لذلك النّور، يعني أنّ معاوية ومن تبعه أرادوا إطفاء نور الولاية وإزالة الأمر عن الأحقّ به كما أنّ من تقدّم عليهم من المتخلّفين الثلاث وأشياعهم وطلحة والزّبير وأتباعهما كان غرضهم النّور هذا.

(وسدّ فوّاره من ينبوعه) أي سدّ مجراه ومنبعه **(وجدحوا)** أي مزجوا وخلطوا **(بيني وبينهم شرباً وبيئاً)** أراد بالشرب الوبيء الفتنة الحاصلة من عدم انقيادهم له كالشّرب المخلوط بالسمّ.

وقال الشارح البحراني: استعار لفظ الشرب لذلك الأمر ولفظ الجدح للكدر الواقع بينهم والمجاذبة لهذا الأمر، واستعار وصف الوبيء له باعتبار كونه سبباً للهلاك والقتل بينهم **(فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى)** ويجتمعوا على رأي ويتّبعوا أمري **(أحملهم من الحقّ على محضه)** أي خالصه الذي لا يشوبه شبهة وريب **(وأن تكن الأخرى)** أي وإن لم يكشف الله هذه الغمّة وكانت الدّولة والغلبة لأهل الضلال **(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون)** اقتباس من الآية الشريفة في سورة الفاطر قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ الآية.

أي لا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وضلالهم وإصرارهم على التكذيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

وفي الصافي عن القمي مرفوعاً قال: «نزلت في زريق وحبتر»[١]، وعليه فالاقتباس بها غير خال من اللّطف والمناسبة.

لطيفة

قال الشارح المعتزلي بعد الفراغ من شرح هذا الكلام: وسألت أبا جعفر يحيى بن محمّد العلوي نقيب البصرة وقت قراءتي عليه عن هذا الكلام وكان على ما يذهب عليه من مذهب العلوية منصفاً وافر العقل فقلت له: من يعني عليه السلام بقوله: كانت أثرة شحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين؟ ومن القوم الذين عناهم الأسدي بقوله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به؟ هل المراد يوم السقيفة أو يوم الشورى؟ فقال: يوم السقيفة فقلت: أنّ نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان الرسول ودفع النصّ، فقال: وأنا فلا تسامحني نفسي أن أنسب الرّسول إلى إهمال أمر الإمامة وأن يترك الناس سدى مهملين، وقد كان لا يغيب عن المدينة إلاّ ويؤمّر عليها أميراً وهو حيّ ليس بالبعيد عنها، فكيف لا يؤمّر وهو ميت لا يقدر على استدراك ما يحدث؟

ثمّ قال: ليس يشك أحد من الناس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان عاقلاً كامل العقل أما المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم، وأما اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة سديد الرّأي أقام ملّة وشرع شريعة فاستجد ملكاً عظيماً بعقله وتدبيره، وهذا الرجل العاقل الكامل يعرف طباع العرب وغرائزهم وطلبهم بالثارات والذّحول ولو بعد الأزمان المتطاولة، وكان يقتل الرّجل من القبيلة رجلاً من بيت آخر. فلا يزال أهل ذلك المقتول وأقرابه يطلّبون القاتل ليقتلوه حتى يدركوا ثأرهم منه، فإن لم يظفروا به قتلوا بعض أقاربه

(١) تفسير القمي: ٢/ ٢٠٧، والتفسير الصافي: ٤/ ٢٣٢.

وأهله فإن لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحداً أو جماعة من تلك القبيلة وإن لم يكونوا رهطه الأدنين، والإسلام لم يحل طبائعهم ولا غيّر هذه السجية المركوزة في أخلاقهم والغرائز بحالها.

فكيف يتوهم لبيب أن هذا العاقل وتر العرب وعلى الخصوص قريشاً وساعده على سفك الدّماء وإزهاق الأنفس، وتقلد الضغائن ابن عمه الأدنى وصهره وهو يعلم أنه سيموت كما يموت الناس ويتركه بعده وعنده ابنته وله منها ابنان يجريان عنده مجرى ابنين من ظهره حنواً عليهما ومحبّة لهما، ويعدل عنه في الأمر بعده ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه، فيحقن دمه ودم بنيه وأهله باستخلافه.

ألا يعلم هذا العاقل الكامل أنّه إذا تركه وترك بنيه وأهله سوقة رعيّة فقد عرض دماءهم للإراقة بعده، بل يكون هو الّذي قتله وأشاط بدمائهم، لأنهم لا يعتصمون بعده بأمر يحميهم، وإنّما يكونون مضغة للأكل وفريسة للمفترس يتخطّفهم النّاس ويبلغ فيهم الأغراض.

فأمّا إذا جعل السّلطان فيهم والأمر إليهم فإنّه يكون قد عصمهم وحقن دماءهم بالرّياسة الّتي يصولون بها، ويرتدع النّاس عنهم لأجلها، ومثل هذا معلوم بالتّجربة.

ألا ترى أنّ ملك بغداد أو غيرها من البلاد لو قتل النّاس ووترهم وأبقي في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه ثمّ أهمل أمر ولده وذرّيته من بعده، وفسح للنّاس أن يقيموا مَلكاً من عرضهم وواحداً منهم، وجعل بنيه سوقة كبعض العامّة، لكان بنوه بعده قليلاً بقاؤهم سريعاً هلاكهم، ولوثب عليهم النّاس ذوو الأحقاد والثارات من كلّ جهة يقتلونهم ويشردونهم كلّ شرد.

ولو أنّه عين ولداً من أولاده للملك، وقام خواصّه وخدمه، وخوّله بإمرة بعده، لحقنت دماء أهل بيته ولم تطل يد أحد من النّاس إليهم لناموس الملك وأبهة السلطنة وقوّة الرّياسة وحرمة الإمارة.

أفترى ذهب عن رسول الله ﷺ هذا المعنى أم أحبّ أن يستأصل أهله وذريته من بعده؟ وأين موضع الشّفقة على فاطمة العزيزة عنده الحبيبة إلى قلبه؟! أتقول: إنّه أحبّ أن يجعلها كواحدة من فقراء المدينة تتكفّف النّاس؟! وأن يجعل عليّاً المكرّم المعظّم عنده الّذي كانت حاله معه معلومة كأبي هريرة الدّوسي وأنس بن مالك الأنصاري يحكم الأمراء في دمه وعرضه ونفسه وولده فلا يستطيع الإمتناع وعلى رأسه مائة ألف سيف مسلول يتلظّى أكباد أصحابها عليه ويودّون أن يشربوا دمه بأفواههم ويأكلوا لحمه بأسيافهم قد قتل أبناءهم وإخوانهم وآباءهم وأعمامهم، والعهد لم يطل، والقروح لم تنفرق، والجروح لم تندمل؟!.

فقلت: لقد أحسنت فيما قلت إلاّ أنّ لفظه عليه السلام يدلّ على أنّه لم يكن نصّ عليه، ألا

تراه يقول: ونحن الأعلون نسباً والأشدّون بالرّسول نوطاً، فجعل الاحتجاج بالنّسب وشدّة القرب، فلو كان عليه نصّ لقال عوض ذلك: وأنا المنصوص عليّ المخطوب باسمي.

فقال: إنّما أتاه من حيث يعلم لا من حيث يجهل، ألا ترى أنّه سأله فقال: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به، فهو إنّما سأل عن دفعهم عنه وهم أحقّ به من جهة اللحمة والعترة، ولم يكن الأسدي يتصوّر النصّ ولا يعتقد ولا يخطر بباله، لأنه لو كان هذا في نفسه لقال له: لم دفعك الناس عن هذا المقام وقد نصّ عليك رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يقل له هذا، وإنما قال كلاماً عاماً لبني هاشم كافة: كيف دفعكم قومكم عن هذا وأنتم أحقّ به أي باعتبار الهاشمية والقربى، فأجابه بجواب أعاد قبله المعنى الذي تعلّق به الأسدي بعينه تمهيداً للجواب، فقال: إنما فعلوا ذلك مع أنّا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من غيرنا لأنهم استأثروا علينا ولو قال له: أنا المنصوص عليّ المخطوب باسمي في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لما كان قد أجابه، لأنه ما سأله: هل أنت منصوص عليك أم لا؟ ولا: هل نصّ رسول الله بالخلافة على أحد أم لا، وإنما قال: لِمَ دفعكم قومكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه ومعدنه منهم، فأجابه جواباً ينطبق على السؤال ويلائمه.

وأيضاً فلو أخذ يصرّح له بالنصّ ويعرّفه تفاصيل باطن الأمر لنفر عنه واتّهمه ولم يقبل قوله ولم يتجذّب إلى تصديقه فكان أولى الأمور في حكم السياسة وتدبير الناس أن يجيب بما لا نفرة منه ولا مطعن عليه فيه، انتهى[1].

أقول: ولله درّ النقيب العلوي فلقد أجاد فيما أفاد، ونهج منهج الرّشاد، وراقب العدل والإنصاف، وجانب العصبية والاعتساف، وكشف الظلام عن وجه المرام وأوضح المقام بكلام ليس فوقه كلام، أودعه من البيان والبرهان ما يجلي الغشاوة عن أبصار متأمّليه، والعمى عن عيون متناوليه، وبعد ذلك فإن كان إذعانه على طبق بيانه فأجزل الله له الجزاء في دار خلده وجنانه، وإلا فليضاعف عليه العذاب في يوم الحساب، ولكن يبعد جدّاً مع هذا التحقيق أن يكون معتقده خلاف المذهب الحق، بل الظاهر من الشارح المعتزلي أيضاً حيث نقل هذا التفصيل عن النقيب وسكت مضافاً إلى نظائره الكثيرة في تضاعيف الشرح أنّ معتقده أيضاً ذلك، ولولا تصريحه في غير موضع من شرحه بعدم النصّ في الخلافة لحكمنا بكونه من الفرقة الناجية، وهو الذي ظنه بعض أصحابنا في حقه وقال: إنّ الشارح شيعيّ المذهب إلاّ أنه سلك في الشرح مسلك أهل السنة من باب الإلجاء والتقية، والله العالم بسرائر العباد والمجازي كلاماً ما يستحقّه يوم التناد، نسأل الله العصمة والسداد، ونعوذ به من الزلل

(١) كتاب الأربعين: ١٨٠، وبحار الأنوار: ١٦٦/٣٨.

والفساد في المذهب والاعتقاد.

تكملة

قد أشرنا إلى أنّ هذا الكلام مرويّ عنه عليه السلام بطرق عديدة مختلفة أحببت أن أوردها جرياً على عادتنا المستمرّة فأقول:

قال المفيد (رض) في الإرشاد: روى نقلة الآثار أن رجلاً من بني أسد وقف على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين العجب فيكم يا بني هاشم كيف عدل بهذا الأمر عنكم وأنتم الأعلون نسباً وسبباً ونوطاً بالرّسول صلى الله عليه وآله وفهماً للكتاب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا ابن دودان إنّك لقلق الوضين، ضيّق المخرم ترسل غير ذي مسد لك ذمامة الصهر وحقّ المسألة، وقد استعلمت فاعلم: كانت أثرة سخت بها نفوس قوم وشحّت عليها نفوس آخرين فدع عنك نهباً صيح في حجراته وهلمّ الخطب في أمر ابن أبي سفيان، فلقد أضحكني الدّهر بعد إبكائه ولا غرو، بئس القوم والله من خفضني وهيّنني وحاولوا الأدّهان في ذات الله، وهيهات ذلك منّي وقد جدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً، فإن تتحسّر عنّا محن البلوى أحملهم من الحقّ على محضه، وإن تكن الأخرى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فلا تأس على القوم الفاسقين»[1].

وفي البحار: من علل الشّرائع والأمالي عن الحسين بن عبد الله العسكري عن إبراهيم بن رعد العبشمي، عن ثبيت بن محمّد، عن أبي الأحوص المصري عمّن حدّثه عن آبائه عن أبي محمّد الحسن بن علي عليه السلام عن جماعة من أهل العلم، عن الصّادق جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال:

«بينا أمير المؤمنين عليه السلام في أصعب موقف بصفين إذ قام إليه رجل من بني دودان فقال: ما بال قومكم دفعوكم عن هذا الأمر وأنتم الأعلون نسباً وأشدّ نوطاً بالرّسول صلى الله عليه وآله وفهما بالكتاب والسنّة؟ فقال عليه السلام سألت يا أخا بني دودان ولك حقّ المسألة وذمام الصّهر وإنّك لقلق الوضين ترسل عن ذي مسد إنّها إمرة شحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين، ونعم الحكم الله فدع عنك نهباً صيح في حجراته ـ.

وهلمّ الخطب في ابن أبي سفيان فلقد أضحكني الدّهر بعد إبكائه ولا أغزو إلاّ جارتي وسؤالها إلا هل لنا أهل سألت كذلك بئس القوم من خفضني وحاولوا الأدهان في دين الله، فإن ترفع عنّا محن البلوى أحملهم من الحقّ على محضه، وإن تكن الأخرى، فلا تأس

(١) المسترشد: ٣٧٢ ح١٢٢، ونهج السعادة: ٢/ ٢١٠.

على[1] القوم الفاسقين، إليك عنّي يا أخا بني سيدان»[2].

بيان

لما في هاتين الرّوايتين من الألفاظ الغريبة التّي لم تكن في رواية السّيد (رض) فأقول:

«دودان» بن أسد بن خزيمة بالضمّ أبو قبيلة فلا ينافي ما في رواية السيّد أنّه كان من بني أسد و«المحزم» بالحاء المهملة وزان منبر والمحزمة كمكنسة والحزام ككتاب ما حزم به قيل: ويقال للرّجل المضطرب في أمره إنّه قلق الوضين أي مضطرب شاكّ فيه ولعلّ ضيق المحزم كناية عن عدم طرفيْته.

و«المسد» حبل مفتول من ليف محكم الفتل ويقال على نفس اللّيف قال سبحانه: في جيدها حبل من مسد، فقوله في رواية الإرشاد: «ترسل غير ذي مسد» أراد به أنك تطلق عنان كلامك من غير تأمّل، وقوله في رواية البحار «ترسل عن ذي مسد» أراد به أنّك تطلق حيواناً له مسد ربط به، فيكون كناية عن التكلّم بما له مانع عن التكلّم به.

و«هينني» أي أهانني واستهان و«حسر» الشيء فانحسر كشفه فانكشف و«امرأة» في رواية الأمالي لعلّه تصحيف إمرة بالكسر أي أمارة وقوم «جارة» وجورة أي جائرون و«الإدهان» كالمداهنة إظهار خلاف ما تضمر والغش.

---

(١) «عن» في نسخة.

(٢) علل الشرائع: ١/١٤٦، وأمالي الصدوق: ٧١٧ ح٩٨٦.

الترجمة

از جمله كلام آن امام انام است به بعض اصحاب خود در حالتى كه سؤال كرد از آن بزرگوار: چگونه دفع كردند شما را قوم شما از مقام خلافت و حال آنكه شما سزاوارتريد به آن؟

پس فرمود: اى برادر بنى اسد، به درستى كه تو مردى هستى كه پاردم تو مضطرب و متحرك است، رها مى كنى افسار گفتار خود را در غير صواب، يعنى در غير موقع مناسب سؤال مى نمايى و با وجود اين كه مر تو را است حرمت قرابت و حقّ مسألت و به تحقيق كه تو طلب آگاهى نمودى، پس بدان و آگاه باش: اما استقلال ايشان بر ضرر ما به مقام خلافت و حال آن كه ما بلندتريم از ايشان از حيثيت نسب و محكم تريم به حضرت رسالت از حيثيت علاقه و قرب منزلت، پس جهتش اين است كه بود خلافت چيز مرغوبى، بخيلى كرد به آن نفوس خسيسه طائفه اى وسخاوت كرد و اعراض نمود از آن نفوس نفيسه طائفه ديگر و حاكم به حق خداى متعال است و بازگشت به سوى او در قيامت است وترك بكن از خودت غارتى را كه در اطراف آن صدا بلند شد؛ (يعنى غارت خلافت را كه پيش از اين ابوبكر و عمر و عثمان غارت كردند).

و بيار امر عظيم را يا اين كه بيا به امر عظيم در خصوص پسر ابوسفيان ملعون، پس به درستى كه خندانيد مرا روزگار بدرفتار بعد از گرياندن او و هيچ تعجّب نيست قسم به خدا خندانيدن بعد از گريانيدن، پس بياييد تعجّب كنيد به اين امر عظيم و عجيب كه فانى كند تعجّب را و بسيار مى كند كجروى را، طلب كردند مخالفان قريش خاموش كردن نور خداوند را از چراغ او و بستن فواره آن از چشمه آن و آميختند ميان من و ميان ايشان شربت وبا آورده، پس اگر برداشته شود از ما و از ايشان محنت هاى بلاها، حمل مى كنم ايشان را از دين حق بر خالص آن و اگر باشد آن حالت ديگر، يعنى غلبه اهل ضلالت و سلطنت ايشان، پس بايد كه هلاك نشود نفس تو بر كار ايشان از جهت حسرت ها بر ضلال ايشان؛ به درستى كه خداوند عالم است به آن چه كه مى كنند و البته جزا خواهد داد بر قبايح اعمال ايشان.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثانية والستون من المختار في باب الخطب

الْحَمْدُ للَّهِ خالِقِ العِبادِ، وَساطِحِ المِهادِ، وَمسِيلِ الوِهادِ، وَمُخَصِّبِ النِّجادِ، لَيْسَ لأَزَلِيَّتِه ابْتداءٌ، وَلاَ لأَزَلِيَّته انقضاءٌ، هُوَ الأَوَّل لَمْ يَزَلْ، وَالْباقي بِلاَ أَجَلٍ، خَرَّتْ لَهُ الجِباهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفاهُ، حَدَّ الأَشْياءَ عِنْدَ خَلْقِه لَها إبانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِها، لاَ تُقَدِّرُهُ الأَوْهامُ بِالْحُدُودِ وَالحَرَكاتِ، وَلاَ بِالْجَوارِحِ وَالأَدَواتِ، لا يُقالُ لَهُ مَتى، وَلاَ يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ بِحَتّىٰ، الظّاهِرُ لاَ يُقالُ مِمَّا، وَالْباطِنُ لاَ يُقالُ فِيما، لاَ شَبَحٌ فَيَتَقَضّىٰ، وَلاَ مَحْجُوبٌ فَيُحْوى، لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الأَشْياءِ بِالْتِصاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْها بافْتِراقٍ، لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبادِهِ شُخُوص لَحْظَةٍ، وَلا كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلاَ ازْدِلاَفُ رَبْوَةٍ، وَلاَ انْبِساطُ خَطْوَةٍ، في لَيْلٍ داجٍ، وَلاَ غَسَقٍ ساجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ المُنيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذاتِ النُّورَ، فِي الأُفُولِ وَالْكُرُورِ، وَتَقْلِيبِ الأَزْمِنَةِ والدُّهُورِ، مِنْ إِقْبالِ لَيْلٍ مُقْبلٍ، وَإِدْبارِ نَهارٍ مُدْبِرٍ، قَبْلَ كُلِّ غايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصاءٍ وَعِدَّةٍ، تَعالىٰ عَمّا يُنْحِلُهُ المُحَدِّدُونَ مِنْ صِفاتِ الأَقْدارِ، وَنَهاياتِ الأَقْطارِ، وَتَأَثُّلِ المَساكِنِ، وَتَمَكُّنِ الأَماكِنِ، فَالْحَدُّ لِخَلْقِه مَضْرُوبٌ، وَإِلىٰ غَيرِه مَنْسُوبٌ، لَمْ يَخْلُقِ الأَشْياءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلاَ مِنْ أَوائِلَ أَبَدِيةٍ، خَلَقَ ما خَلَقَ فَأَقامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ ما صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ، لَيْسَ لِشَيءٍ مِنْهُ امْتِناعٌ، وَلا لَهُ بِطاعَةِ شَيْءٍ انْتِفاعٌ، عِلْمُهُ بالأَمْواتِ الماضِينَ، كَعِلْمِه بالأَحْياءِ الباقينَ، وَعِلْمُهُ بما فِي السَّمٰواتِ العُلىٰ، كَعِلْمِهِ بِما فِي الأَرَضينَ السُّفلىٰ.

منها

أَيُّها المَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالمُنْشَأُ المَرعِيُّ في ظُلُماتِ الأَرْحامِ، وَمُضاعَفاتِ الأَسْتارِ، بُدِئْتَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طينٍ، وَوُضِعْتَ في قَرارٍ مَكينٍ، إِلىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَأَجلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ في بَطْنِ أُمِّكَ جَنيناً، لا تُحيرُ دُعاءً، وَلاَ تَسْمَعُ نِداءً ثُمّ أُخرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلىٰ دارٍ لَمْ تَشْهَدْها وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنافِعِها، فَمَنْ هَداكَ لاجتِرارِ الغِذاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وعَرَّفَكَ عِنْدَ الحاجَةِ مَواضِعَ طَلَبِكَ وإِرادَتِكَ، هَيْهاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِز عَنْ صِفاتِ ذِي الهَيْئَة والأَدواتِ، فَهُوَ مِنْ صِفاتِ خالِقِه أَعْجَزُ، وَمِنْ تَناوُلِه بِحُدُودِ المَخْلُوقينَ أَبْعَدُ[1].

(١) بحار الأنوار: ٣٤٨/٥٧ ح٣٤، وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٥٧.

اللغة

(المهاد) بالكسر الفراش والجمع مهد ككتاب وكتب و**(سال)** الماء سيلاً وسيلاناً إذا طغا وجرى وأسلته إسالة أجريته و**(الوهاد)** جمع وهدة وهي الأرض المنخفضة و**(النجد)** الأرض المرتفعة والجمع أنجاد ونجاد ونجود و**(شخص)** الرّجل بصره إذا فتح عينيه لا يطرف و**(ازدلف)** وتزلف أي تقدمّ واقترب والمزدلفة موضع بين عرفات ومنى سمّى بها لأنّه يتقرّب فيها إلى الله أو لاقتراب الناس إلى منى بعد الإفاضة أو لمجيء النّاس إليها في زلف من اللّيل.

و**(الرّبوة)** بضمّ الرّاء وكسرها والفتح لغة بني تميم المكان المرتفع و**(الغسق)** محركة الظّلام أو ظلمة أوّل اللّيل و**(تفيأ)** الظلّ تقلّب ورجع من جانب إلى جانب قال سبحانه: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ و**(عقبت)** زيداً عقباً من باب قتل وعقوباً وعقّبته بالتشديد جئت بعده، ومنه سمّى رسول الله ﷺ العاقب لأنّه عقب من كان قبله من الأنبياء أي جاء بعدهم، وتعقبه الشّمس مضارع عقب بالتخفيف ويروى يعقّبه مضارع عقّب بالتضعيف وفي نسخة الشارح المعتزلي: تعقّبه قال الشارح: أي تتعقّبه فحذف إحدى التاءين كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ و**(تاثّل)** المال اكتسبه و**(احار)** جواباً يحيره ردّه.

الإعراب

(من) في قوله: من عباده، ابتدائية، وقوله: (في ليل)، متعلّق بقوله: يخفي، أو بالشخوص، والكرور والإزدلاف والإنبساط على سبيل التنازع والثاني أظهر وأولى ما لا يخفى، وقوله: (في الأفول والكرور)، ظرف لغو متعلّق بتعقب، وقال الشارح المعتزلي: ظرف مستقرّ في موضع نصب على الحال، أي: وتعقبه كارّاً وآفلاً و(من) في قوله: من إقبال، بيان التقليب.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة مسوقة للثناء على الله سبحانه وتعظيمه وتمجيده بجملة من نعوت جماله وصفات جلاله.

قال الشارح المعتزلي: إعلم أنّ هذا الفنّ هو الذي بان به أمير المؤمنين عليه السلام عن العرب في زمانه قاطبة، واستحقّ به الفضل والتقدّم عليهم أجمعين، وذلك لأنّ الخاصة التي يتميّز بها الإنسان عن البهائم هي العقل والعلم، ألا ترى أنه يشاركه غيره من الحيوانات في اللّحمية والدموية والقوّة والقدرة والحركة الكائنة على سبيل الإرادة والاختيار، فليس الإمتياز

إلا بالقوّة الناطقة أي العاقلة العالمة، فكلّما كان الإنسان أكثر حظّاً منها كانت إنسانيته أتمّ.

ومعلوم أن هذا الرّجل انفرد بهذا الفن وهو أشرف العلوم، لأنّ معلومه أشرف المعلومات، ولم ينقل عن أحد من العرب غيره في هذا الفنّ حرف واحد ولا كانت أذهانهم يصل إلى هذا ولا يفهمونه، فهو بهذا الفن منفرد وبغيره من الفنون وهي العلوم الشرعية مشارك لهم وأرجح عليهم، فكان أكمل منهم، لأنّا قد بيّنا أنّ الأعلم أدخل في صورة الإنسانية، وهذا هو معنى الأفضلية انتهى[1].

أقول: قد مرّ غير مرّة أنه بعد الاعتراف والإذعان بكونه عليه السلام أفضل وأكمل من غيره كيف يجوّز تقديم غيره عليه؟ وبعد الإقرار باختصاص العلم الإلهي به عليه السلام وباشتراكه مع غيره ورجحانه عليهم في سائر العلوم كيف يسوّغ القول بحقية إمامة غيره؟ والحال أنّ ترجيح المرجوح على الرّاجح قبيح عقلاً على أصول العدلية فضلاً عن النقل قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال أيضاً: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥].

فيا عجباً عجباً يقوم بالخلافة من لا يعرف معنى عنباً وأبّاً، ويعتزل في جنح بيته من عنده علم الكتاب وله الفضل على غيره من كلّ باب وإلى الله الشكوى من دهر يربي الجهل والضلال، ويمحق الفضل والكمال فلنرجع إلى شرح كلامه فأقول:

إنه حمد الله سبحانه وأثنى عليه بأوصاف كمالية فقال (**الحمد لله خالق العباد**) أي الملائكة والإنس والجنّ وتخصيصهم من سائر المخلوقات بالذكر مع أنه خالق كل شيء تشرّفهم بشرف التكليف (**وساطع المهاد**) أي جعل الأرض فراشاً وبساطاً للناس وسطحها على الماء بقدرته الكاملة ورحمته السابغة، وفي ذلك من دلائل القدرة وآثار الكبرياء والعظمة ما لا يحصى، ومن الفوائد التامة والعوائد العامة التي للناس ما لا يستقصى حسبما مرّت الإشارة في شرح الفصل السادس من الخطبة التسعين المعروفة بالأشباح.

(**ومسيل الوهاد مخصب النجاد**) أي مجرى السّيل في الأراضي المنخفضة وجاعل المرتفعة ذوات خصب ورفاه ليكمل معاش الإنسان والدوابّ بما أنبت فيها من الحبّ والنّبات والفواكه والجنات.

(**ليس لأوّليته ابتداء ولا لأزليته انقضاء**) لأنّه تعالى واجب الوجود لذاته فلو كان لكونه أوّلاً للأشياء جِدّ تقف عنده أوّليته وتنتهي به لكان محدثاً ولا شيء من المحدث بواجب

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٥٧.

الوجود، لأنّ المحدث ما كان مسبوقاً بالعدم وواجب الوجود يستحيل عليه العدم أي ذاته لا يقبل العدم، ومن ذلك علم أيضاً أنّه ليس لأزليته انقضاء إذ كلّ ما ثبت قدمه امتنع عدمه، والأزليّة عبارة عن القدم، وربّما يفسّر بأنّها المصاحبة لجميع الثّابتات المستمرّة الوجود في الزّمان.

(هو الأوّل لم يزل والباقي بلا أجل) وغاية هاتان الجملتان مؤكدتان لسابقتيهما يعني أنّه سبحانه لم يزل ولا يزال إذ وجوده أصل الحقيقة وذاته عين البقاء، وهو الأوّل والآخر لأنّه كلّ شيء وغايته لا أوّل لأوليّته ولا غاية لبقائه.

(خرّت له الجباه ووحّدته الشّفاه) أي سقطت الجباه ساجدة له، ونطقت الشّفاه بتوحيده لكمال الوهيّته وعظمته واستحقاقه للعبوديّة واختصاصه بالفردانية **(حد الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها)** وإبانة لها من شبهه وقد تقدّم توضيح ذلك وتحقيقه في شرح الخطبة المائة والثانية والخمسين فليراجع ثمّة.

(لا تقدّره الأوهام بالحدود والحركات ولا بالجوارح والأدوات) لمّا كان شأن الوهم بالنّسبة إلى مدركاته أن يدركها بحدّ أو حركة أو جارحة أو أداة، وكان الله سبحانه منزّهاً عنها كلّها، لكونها من عوارض الأجسام، صحّ بذلك سلب إدراك الأوهام وتقديرها أي تعيينها وتشخيصها له تعالى، وقد قال الباقر عليه السلام: «كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مصنوع مثلكم مردود إليكم»، وقد مرّ في شرح الفصل الثّاني من الخطبة الأولى توضيح هذا المعنى.

(ولا يقال له متى ولا يضرب له أمد بحتّى) وقد تقدّم تحقيق ذلك أيضاً هنالك، فليراجع إليه.

(الظّاهر لا يقال ممّا والباطن لا يقال فيما) يعني أنّ اتّصافه بالظهور والبطون ليس بالمعنى المتبادر منهما في غيره، فإنّ المتبادر من ظهور الأجسام كونها ظاهرة بارزة من مادّة وأصل، ومن بطونها اختفاؤها في حيّز ومكان، والله سبحانه منزه عن ذلك، بل اطلاق الظّاهر والباطن عليه واتّصافه تعالى بهما باعتبار آخر عرفته تفصيلاً في شرح الخطبة الرّابعة والستّين.

(لا شبح فيتقضّى ولا محجوب فيحوى) أي ليس بجسم وشخص فيتطرّق إليه الفناء والانقضاء، ولا مستور بحجاب جسمانيّ حتّى يكون الحجاب حاوياً له وساتراً.

(لم يقرب من الأشياء بالتصاق ولم يبعد عنها بافتراق) إشارة إلى أنّ قربه وبعده بالنسبة إلى الأشياء ليس على نحو الالتصاق والإفتراق كما هو المتصوّر في الأجسام، بل على وجه آخر تقدم تحقيقه في شرح الفصل الخامس والسادس من الخطبة الأولى، وفي شرح الخطبة

التاسعة والأربعين.

(لا يخفى عليه) سبحانه شيء من مخلوقاته، بل هو عالم بها كليّاتها وجزئيّاتها، ذواتها وماهيّاتها، عوارضها وكيفيّاتها، وصفاتها وحالاتها، فلا يعزب عنه **(من عباده شخوص لحظة)** أي مدّ البصر من دون حركة جفن **(ولا كرور لفظة)** أي رجوعها وإعادتها **(ولا ازدلاف ربوة)** الظّاهر أنّ المراد مجيء إنسان إليها في زلف من اللّيل أو تقدّمهم أي صعودهم إليها.

قال الشّارح البحراني: ازدلاف الرّبوة تقدّمها وأراد الرّبوة المتقدّمة أي في النّظر والبادية عند مدّ العين، فإن الرّبى أوّل ما يقع في العين من الأرض انتهى.

وهو تفسير بارد سخيف، والمتبادر ما قلناه مضافاً إلى أنّ سوق كلام، المفيد لكون الشّخوص والكرور والانبساط في قوله **(ولا انبساط خطوة)** صفة للعباد كون الازدلاف أيضاً من صفاتهم لا من صفات نفس الرّبوة كما هو مقتضى تفسير الشّارح على أنّ غرض أمير المؤمنين عليه السلام من تعداد هذه الصّفات الإشارة إلى خفايا أوصاف العباد وحالاتهم، وتقدّم الربوة في النظر ليس شيئاً مخفيّاً فافهم.

وبالجملة فالمقصود بذلك كلّه تمجيد الله باعتبار إحاطة علمه وعدم خفاء شيء من هذه الأمور عليه سبحانه **(في ليل داج)** ظلماني **(ولا غسق ساج)** ساكن كما يخفى فيهما على غيره تعالى، وذلك لأنّ معرفة غيره تعالى بهذه الأشياء من العباد وإدراكه لها إنّما هو بواسطة آلات جسمانيّة كالباصرة والسامعة ونحوها، وأقواها الباصرة، والظلمة مانعة عن إدراكها البتّة، وأما الله الحيّ القيوم فلا يتفاوت علمه بالنسبة إلى نهار وليل، وشهادة وغيب بل يعلم السرّ وأخفى.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

(يتفيأ عليه القمر المنير) أي يتقلّب على الغسق القمر المنير ذاهباً وجائياً في حالتي أخذه في الضوء إلى التبدّر وأخذه في النّقص إلى المحاق **(وتعقبه)** أي القمر **(الشمس ذات النور)** أي تعاقبه **(في الأفول والكرور)** يعني إنّها تطلع عند أفوله ويطلع عند أفولها **(وتقليب الأزمنة والدهور من إقبال ليل مقبل وإدبار نهار مدبر)** أي أنّهما يتعاقبان ويجيء أحدهما بعد الآخر ويقلّبان الأزمان ويجعلان اللّيل نهاراً والنّهار ليلاً.

ثمّ عاد إلى وصفه سبحانه أيضاً بقوله: **(قبل كلّ غاية ومدّة وكلّ إحصاء وعدّة)** لأنه سبحانه خالق الكل وموجده ومبدؤه فوجب تقدّمه وقبليّته عليه جميعاً **(تعالى)** وتقدّس **(عمّا ينحله)** ويعطيه **(المحدّدون)** الجاعلون له حدوداً من المشبّهة والمجسّمة **(من صفات الأقدار)**

أي المقادير **(ونهايات الأقطار)** طولاً وعرضاً وصغراً للحجم وكبراً **(وتأثل المساكن وتمكّن الأماكن)** أي اكتساب المساكن واستقرار الأحياز ونحوها مما هو من صفات المخلوقات المنزّه المتعالى عنها خالق الأرض والسماوات تنزّهاً ذاتياً وعلوّاً كبيراً.

(فالحدّ لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب) يعني أنه سبحانه جاعل الحدود والنهايات ومبدئها وموجدها فأبدأها وضربها لمخلوقاته وأضافها إلى مبدعاته وجعل لكلّ منها حداً معيّناً وقدراً معلوماً، فهي أوصاف للممكنات وحضرة القدس مبرّأة عنها.

روى في الكافي عن سهل بن زياد عن بشر بن بشّار النّيسابوري قال: كتبت إلى الرّجل أنّ من قبلنا قد اختلفوا في التّوحيد فمنهم من يقول إنّه جسم ومنهم من يقول إنّه صورة، فكتب عليه السلام: «سبحان من لا يحدّ ولا يوصف ولا يشبهه شيء وليس كمثله شيء وهو السّميع البصير».

(لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة ولا من أوائل أبديّة) قال العلامة المجلسيّ: ردّ على الفلاسفة القائلين بالعقول والهيولى القديمة.

وقال الشّارح المعتزلي: الردّ في هذا على أصحاب الهيولى والطّينة الّتي يزعمون قدمها وقيل: إنّ معناه ليس لما خلق أصل أزليّ أبديّ خلق منه من مادّة وصورة كما زعمت الفلاسفة.

وقال الشّارح البحراني: إنّه لم يخلق ما خلق على مثال سبق يكون أصلاً.

ومحصّل ما ذكروه أنّ خلقه للأشياء على محض الإبداع والاختراع وأن لا مبدأ لصنعه إلاّ ذاته، إذ لو كان خلقه لها مسبوقاً بمادّة أو مثال فإن كانا قديمين لزم تعدّد القدماء، وإلاّ لزم التسلسل في الأمثلة والمواد.

وأوضح هذا المعنى بقوله **(بل خلق ما خلق فأقام حدّه وصوّر ما صوّر فأحسن صورته)** يعني أنّه المخترع لإقامة حدود الأشياء على ما هي عليها من المقادير والأشكال والنهايات والآجال والغايات على أبلغ نظام. ومصوّرها على أحسن إتقان وإحكام **(ليس لشيء منه امتناع)** لعموم قدرته وغاية قهره وقوّته **(ولا له بطاعة شيء انتفاع)** إذ هو الغنيّ المطلق عمّا عداه والمتعالي عن الإفتقار إلى ما سواه، فلو كان منتفعاً بطاعة مخلوقاته لزم أن يكون مستكملاً بغيره فاقداً للكمال بذاته.

وهو أيضاً **(علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين)** لأنّه لا يتفاوت علمه بالنّسبة إلى الحاضرين الموجودين والغائبين المعدومين كما يتفاوت في حقّنا وذلك لأنّ علمنا بالأشياء كما أنّا نعلم قبل وجود زيد أنّ زيداً معدوم، فإذا وجد نعلم أنّه موجود، ثمّ إذا عدم

بعد وجوده نعلم أنّا كان موجوداً فقد تغيّر علمنا بتغيّر المعلوم وحصل التّفاوت بين الحالين ومن شأن ذلك أنّ علمنا زماني وأنه مستفاد من الموجودات وأحوالها وأمّا الله الحيّ القيّوم فهو إنّما يعلم كلّ شيء جزئي أو كليّ من ذاته ولا يجوز أن يكون يعلم الأشياء من الأشياء، وإلا يلزم أن يستفيد علمه من غيره ويكون لولا أمور من خارج لم يكن عالماً فيكون لغيره تأثير في ذاته، والأصول الإلهيّة تبطل ذلك مضافاً إلى استلزامه التّغيّر في ذاته بتغيّر معلوماته.

(و) من ذلك علم أيضاً أنّ **(علمه بما في السّماوات العلى كعلمه بما في الأرضين السّفلى)** من دون تفاوت بينهما وأمّا غيره تعالى من أهل الأرض فعلمهم بما في الأرضين أقوى من علمهم بما في السّماوات، كما أنّ أهل السّماوات أعلم بها من أهل الأرض، ومنشأ ذلك التّفاوت تفاوت الأمكنة كما أنّ منشأ التفاوت فيما سبق تفاوت الأزمنة قرباً وبعداً.

وبالجملة لما كان نسبة ذات الباري إلى جميع أجزاء الزّمان والزّمانيّات وجميع أصقاع المكان والمكانيّات على حدّ سواء، كان علمه بالنسبة إلى الجميع كذلك.

ثمّ خاطب الإنسان بما فيه من بدائع الصّنع وعجائب الإبداع ليتخلّص منه إلى عظمة المبدع سبحانه وكمال قدرته وجلاله فقال: **(أيها المخلوق السّوي)** أي: مستقيم القامة معتدل الخلقة **(والمنشأ المراعى)** المحفوظ **(في ظلمات الأرحام ومضاعفات الاستار)** العطف كالتفسير والمراد بها ما أشير إليه في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦] أي ظلمة البطن والرّحم والمشيمة أو الصّلب والرّحم والبطن والأوّل مرويّ عن أبي جعفر عليه السلام.

(بدئت من سلالة من طين وضعت في قرار مكين) قال الشّارح المعتزلي: الكلام الأوّل لآدم الّذي هو أصل البشر، والثاني لذرّيته.

أقول: بل كلاهما لذرّيته كما عرفته في شرح الفصل السّابع من فصول الخطبة الثّانية والثّمانين، والمراد بالقرار المكين الرّحم متمكّنة في موضعها برباطاتها، لأنها لو كانت متحرّكة لتعذّر العلوق أي وضعت في الرّحم منتهياً **(إلى قدر معلوم وأجل مقسوم)** قال الشّارح المعتزلي: أي مقدار معلوم طوله وشكله إلى أجل مقسوم مدّة حياته.

أقول: بل الظّاهر أنّ المراد بالأجل المقسوم هو المدّة المضروبة لبقائه في الرّحم من سبعة أشهر أو تسعة ونحوهما، وبالقدر المعلوم هو صغر حجمه وكبره ومقدار قطره طولاً وعرضاً إذ كان جنيناً في بطن أمّه، لا الحياة المقسوم له في الدّنيا ومقداره المعلوم فيها كما زعمه الشّارح لأنّه عليه السلام لم ينتقل بعد إلى بيان نشأته الدّنياويّة كما يومي إليه قوله **(تمور في**

بطن أمّك جنيناً) أي: تضطرب وتتحرّك فيه **(لا تحير دعاء ولا تسمع نداء)** أي لا تقدر على أن تردّ جواباً لدعوة من دعاك، وعلى محاورته كما لا تقدر على سماع ندائه.

(ثمّ أُخرجت من مقرّك) أي: القرار المكين **(إلى دار لم تشهدها)** أي: الدّار الّتي لم تكن شاهدتها قبل خروجك إليها **(ولم تعرف سبل منافعها)** ثمّ اهتديت إليها.

(فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك) ولالتقام حلمة الثدي وامتصاصها **(وعرّفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك)** ومعلوم أن الهادي للإجترار والمعرّف لمحالّ الطلب ليس إلاّ الله سبحانه، فالغرض من الاستفهام التّنبيه على وجود الخالق الهادي إلى المطالب، والمرشد إلى المآرب، وهذا القدر من العلم بالصّانع ضروري في النّفوس وإن احتاج إلى أدنى تنبيه وما وراء ذلك بمعنى صفات الكمال ونعوت الجلال أمور لا تطّلع عليها العقول البشريّة بالكنه.

وإليه أشار بقوله **(هيهات)** أي بعد الوصول إلى كنه معرفة الخالق والغور في تيّار بحار جلاله وكبريائه فـ**(إنّ من يعجز عن)** معرفة **(صفات)** نفسه في حال تخليقه والاطّلاع على منافع أجزائه وأعضائه ومعرفة من هو مثله من سائر **(ذي الهيئة والأدوات)** والجوارح والآلات مع كونها محسوسة مشاهدة له **(فهو عن)** معرفة **(صفات خالقه)** الّتي هي أبعد الأشياء مناسبة له **(أعجز ومن تناوله بحدود المخلوقين)** وإدراكه له سبحانه بالمقايسة إليهم والتشبيه بهم **(أبعد)** كما هو ظاهر بالعيان، غنيّ عن البيّنة والبرهان.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن حضرت است در حمد و ثنای خداوند ذوالجلال و وصف او با صفات عزّ و کمال می فرماید:

حمد و ستایش معبود به حقّی را سزا است که خالق بندگان است و گستراننده زمین و روان کننده زمین های نشیب است به باران و فراخ سالی دهنده زمینهای بلند است به رویانیدن گیاهان، نیست اوّلیت او را ابتدایی و نه ازلیّت او را نهایت و انتهایی؛ او است اوّل بی زوال و باقی بی غایت؛ افتادند از برای سجده او پیشانی های مکلّفان و به توحید او مشغول شد لبهای پیران و جوانان؛ حدّ معیّنی قرار داد همه اشیاء را هنگام آفریدن آنها به جهت ابداء مباینت و جدایی خود از مشابهت آنها؛ تقدیر و تشخیص نمی تواند بکند او را وهم ها به نهایت ها و حرکت ها و نه به عضوها و آلت ها؛ گفته نمی شود که او از کیست به جهت تنزّه او از احاطه زمان و زده نمی شود از برای او مدّتی به کلمه حتّی که افاده انقضاء و انتها می نماید؛ ظاهر است، گفته نمی شود از چه ظاهر شد، به جهت این که منزّه است از مادّه و امکان و پنهان است، گفته نمی شود که در چه پنهان است، به جهت این که مبرّا است از مکان، نه جثّه و جسمی است که فانی و منقضی بشود و نه مستور است و محجوب که چیزی بر او احاطه نماید نزدیك نیست به اشیاء به چسبیدن و دور نیست از آنها به جدا شدن، پنهان نمی ماند بر او از بندگان مدّ بصری و نه مکرّر کردن لفظی و خبری و نه بلند شدن ایشان به پشته کوهی و نه گستردن گامی در شب تاریك و نه در ظلمت برقرار که برمی گردد به آن ظلمت و تاریکی ماه نوربخش و در عقب ماه می آید آفتاب صاحب نور در غروب و رجوع و در برگردانیدن آن زمانها و روزگارها که عبارت است از اقبال کردن شب اقبال کننده و از ادبار نمودن روز ادبارنماینده، موجود است پروردگار عالم پیش از هر نهایتی و مدّتی و قبل از هر شمردنی و تعدادی، منزّه است از آن چه که بخش می کنند به او تحدیدکنندگان او از صفت های مقدارها و از جوانب قطرها و از کسب نمودن مسکن ها و تمکّن یافتن وطن ها، پس حدّ و نهایت مر خلق او را زده شده

و به سوی غیر او نسبت داده شده؛ نیافرید چیزها را از اصل هایی که ازلی باشد و نه از اوّلهایی که ابدی باشد، بلکه آفرید آن چه که آفرید، پس برپا داشت حدّ آن را و تصویر نمود آن چه که تصویر فرمود، پس نیکو گردانید صورت آن را؛ نیست هیچ چیز را از امر او امتناعی و نیست مراورا به طاعت چیزی انتفاعی؛ علم او بر مردگان گذشتگان مثل علم او است بر زندگان باقی ماندگان واحاطه او به آن چیزی که در آسمان های بلندها است مثل احاطه او است به چیزهایی که در زمین های پستها است.

از جمله فقرات این خطبه است، می فرماید:

ای مخلوقی که مستوی الاعضاء است و ایجاد شده ای که محفوظ بوده است در ظلمت های رحم ها و در پرده های متضاعفه، ابتدا کرده شدی از خلاصه گل و نهاده شدی در قرار محکم تا اندازه معلوم و مدّت قسمت کرده شدهِ در حالتی که مضطرب بودی در شکم مادر خود در حالت بچگی که نمی توانستی جواب بدهی دعوت کننده را و نمی توانستی بشنوی طلب نماینده را، پس از آن بیرون آورده شدی از قرارگاه خودت به سوی خانه ای که ندیده بودی آن را و نه شناخته بودی راه های منافع آن را، پس که هدایت نمود تو را به کشیدن غذا از پستان مادرت؟ و شناساند تو را هنگام احتیاج تو مواضع طلب تو و اراده تو را؟ خیلی دور است معرفت ذات او و از جهت این که کسی که عاجز بشود از معرفت صفات صاحب صورت و اعضا، پس از معرفت صفات آفریننده خود عاجزتر است و از ادراك ذات او به حدود و نهایاتی که مخلوقات را است دورتر و مهجورتر.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثالث والستون من المختار في باب الخطب

وقد رواه في شرح المعتزلي عن أبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري مثل ما أورده السّيد هنا مع إضافات تطّلع عليه، وقد تكلّم بذلك الكلام لمّا اجتمع النّاس عليه وشكوا ممّا نقموه على عثمان، وسألوه مخاطبته عنهم واستعتابه لهم، فدخل عليه السلام عليه فقال:

إنَّ النّاسَ وَرائي وَقَد اسْتَسْفَرُوني بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللّهِ ما أدْري ما أقُولُ لَكَ، ما أعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُه، وَلاَ أدُلُّكَ عَلىٰ أمْرٍ لاَ تَعْرِفُهُ، إنَّكَ لتَعْلَمُ ما نَعْلَمُ، مَا سَبَقْناكَ إلىٰ شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلاَ خَلَوْنا فَنُبَلِّغَكَهُ، وَقدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَينا، وسَمِعْتَ كما سَمِعْنا وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله كَمَا صَحِبْنا، وَمَا ابْنُ أبي قُحافَةَ وَلاَ ابْنُ الخَطّابِ أوْلىٰ بِعَمَلِ الحَقِّ مِنْكَ، وَأنْتَ أقْرَبُ إلىٰ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله وَشيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُما، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْره ما لَمْ يَنالاَ، فَاللّهَ اللّهَ في نَفْسِكَ فَإنَّكَ واللّهِ ما تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَلا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإنَّ الطُّرُقَ لَواضِحَةٌ، وَإنَّ أعلامَ الدِّينِ لَقائِمَةٌ، فَاعْلَمْ أنَّ أفْضَلَ عِبادِ اللّهِ عِنْدَ اللّهِ إمامُ عادِلٍ هُدِيَ وَهَدىٰ، فَأقامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وأماتَ بِدْعَةً مَجْهولَةً، وَإنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَها أعْلامٌ، وإنَّ البِدَعَ لَظاهِرَةٌ لَها أعلامٌ، وَإنّ شَرَّ النّاسِ عِنْدَ اللّهِ إمامٌ جائِرٌ ضَلَّ وضُلَّ بِهِ، فَأماتَ سُنَّةً مَأخُوذَةً وأحْيىٰ بِدْعَةً مَتْرُوكَةً.

وَإنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: يُؤْتىٰ يَوْمَ القِيامَةِ بالإمامِ الجائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصيرٌ وَلا عاذِرٌ فَيُلْقىٰ في نارِ جَهَنَّمَ فَيَدُورُ فيها كَما تَدُورُ الرَّحىٰ ثُمَّ يُرْتَبَطُ في قَعْرِها.

وإنّي أُنْشِدُكَ أنْ تَكُونَ إمامَ هٰذِهِ الأُمَّةِ المَقْتُولَ فإنهُ كانَ يُقالُ: يُقْتَلُ في هٰذِهِ الأمَّةِ إمامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا القَتْلُ وَالقِتالُ إلىٰ يَوْمِ القِيامَةِ وَيُلَبَّسُ أُمُورُها عَلَيْها وَيَبُثُّ الفِتَنُ فيها فَلاَ يُبْصِرُونَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، يَمُوجُونَ فيها مَوجاً، ويَمْرُجُون فيها مَرْجاً، فَلا تَكُونَنَّ لِمَرْوانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شاءَ بَعْدَ جَلالِ السِّنِّ وتَقَضّي العُمْرِ[1].

فقال له عثمان: كلّم النّاس في أن يؤجّلوني حتّىٰ أخرج إليهم من مظالمهم، فقال عليه السلام:

ما كانَ بِالْمَدينَةِ فَلاَ أجَلَ فيهِ، وَما غابَ فَأجَلُهُ وُصُولُ أمْرِكَ إلَيْهِ.

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٦٢، وبحار الأنوار: ٣١/ ٤٨٩ ح٩.

اللغة

(**نقمت**) عليه أمره ونقمت منه نقماً من باب ضرب ونقوماً ومن باب تعب لغة إذا عتبته وكرهته أشدّ الكراهة لسوء فعله و(**الاستعتاب**) طلب العتبي وهو الرّضا والرّجوع و(**الوشيجة**) عرق الشّجرة والواشجة الرّحم المشتبكة وقد وشجت بك قرابة فلان، والاسم الوشيج كما عن الصّحاح و(**يرتبط**) أي يشدّ وعن بعض النسخ يرتبك بدلها أي ينشب و(**يلبّس**) أمورها من التلبيس وفي بعض النّسخ تلبس أمورها من اللّبس بالضمّ وهو الإشكال و(**مرج**) أمره اختلط واضطرب ومنه الهرج والمرج و(**السيّقة**) بتشديد الياء المكسورة ما استاقه العدوّ من الدّواب و(**جلّ**) يجلّ جلالة وجلالاً أسنّ.

الإعراب

(الواو) في قوله: وأنت أقرب، للحال وتحتمل العطف، والجملة في معنى التّعليل لسابقه كما هو ظاهر، و(وشيجة رحم) منسوب على التّميز، و(الله الله) منصوبان على التحذير، وجملة (يموجون فيها) (ا هـ) تأكيد معنويّ لسابقتها ولذلك ترك العاطف و(الفاء) في قوله: فلا تكوننّ، فصيحة.

المعنى

إعلم أنّه قد تقدّم في شرح الفصل الرّابع من الخطبة الثالثة والتّذييل الثّاني من شرح الكلام الثّالث والأربعين أنّ عثمان أحدث في الدّين أحداثاً، وأبدع بدعاً، واستعمل الفسّاق وأرباب الظلم على الأمصار، وتقدّم في شرح الكلام الثّلاثين أنّه لمّا شاع الظّلم والفساد منه ومن عمّاله في المدينة وسائر البلاد أوجب ذلك إجلاب النّاس عليه وتحريض بعضهم بعضاً على خلعه من الخلافة وقتله.

وأقول هنا: إنّه لمّا تكاثرت أحداثه وتكاثر طمع الناس فيه كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من بالآفاق إنكم كنتم تريدون الجهاد فهلمّوا إلينا فإنّ دين محمّد قد أفسده خليفتكم فاخلعوه، فاختلف إليه القلوب وجاء المصريون وغيرهم إلى المدينة فاجتمعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وكلّموه وسألوه أن يكلّم عثمان.

و(**لما اجتمع الناس إليه وشكوا مما نقموه**) وكرهوه (**على عثمان وسألوا**) منه عليه السلام (**مخاطبته عنهم واستعتابه لهم**) أي أن يطلب لهم منه الرّجوع إلى الحق والارتداع عن أحداثه والإقلاع عن بدعه، استجاب عليه السلام مسألتهم (**فدخل عليه**) وكلّمه بما أورده السيد رحمه الله في الكتاب.

وقد رواه عنه عليه السلام أيضاً محمّد بن جرير الطبري في تاريخه الكبير كما في شرح المعتزلي قال: إن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تكاتبوا فكتب بعضهم إلى بعض أن أقدموا فإنّ الجهاد بالمدينة لا بالرّوم، فاستطال الناس على عثمان ونالوا منه في سنة أربع وثلاثين ولم يكن أحد من الصحابة يذبّ عنه ولا ينهي إلاّ نفر منهم زيد بن ثابت وأبو أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس فكلّموا عليّ بن أبي طالب وسألوه أن يكلّم عثمان فدخل عليه (**فقال** عليه السلام) له:

(**انّ الناس ورائي وقد استسفروني**) أي: اتّخذوني سفيراً (**بينك وبينهم ووالله ما أدري ما أقول لك**) وبأيّ لسان أتكلّم معك يؤثّر فيك (**ما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه**) يعني أنّ قبائح هذه الأعمال وفضائح تلك البدعات ليست بحيث تحتفي على أحد، بل هي واضحة للصبيان غنيّة عن التنبيه والبيان.

وهذا هو مراده أيضاً بقوله (**إنك لتعلم ما نعلم**) أي: تعلم من شناعة تلك الأحداث خاصّة ما نعلمه، وليس المراد بيان وفور علمه وأنه يعلم كلّما يعلمه عليه السلام كما توهمه البحراني حيث قال: وحاصل الكلام استعتابه باللّين من القول فأثبت له منزلته من العلم أي بأحكام الشريعة والسنن المتداولة بينهم في زمان الرّسول صلى الله عليه وآله والظهور على كلّ ما ظهر عليه من مرئيّ ومسموع.

(**وما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلّغكه**) يعني أنك قد أدركت من صحبة الرّسول ما أدركناه، وعرفت من سيره وسلوكه وسياساته المدنيّة ما عرفناه، لم نكن منفردين بذلك، ولم تكن غائباً عن شيء منه حتى نبلّغكه وندلك عليه.

وأكد ذلك بقوله: (**وقد رأيت كما رأينا وسمعت كما سمعنا وصحبت رسول الله صلى الله عليه وآله كما صحبنا**) ثمّ خرج إلى ذكر الشيخين تهييجاً له وإلهاماً فقال (**وما**) أبو بكر (**ابن أبي قحافة ولا**) عمر (**ابن أبي الخطاب بأولى بعمل الخير**) وفي بعض النسخ بعمل الحقّ (**منك و**) ذلك لأنك (**أنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وشيجة رحم منهما**) أي من حيث النسب فأنت أولى بالتأسّي به من غيره والأخذ بسنّته صلى الله عليه وآله وسيرته.

وإنّما جعله أقرب نسباً لاشتراكه مع رسول الله صلى الله عليه وآله في الجدّ الأدنى أعني عبد مناف، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعثمان هو ابن عفّان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف.

وأمّا هما فيشتركان معه صلى الله عليه وآله في الجدّ الأعلى أعني كعب بن لؤي، فإنّ عبد مناف هو ابنُ قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب، وأبا بكر بن أبي قحافة: عثمان بن عمرو بن كعب بن

سعد بن تيم بن مرّة بن كعب، وعمر بن الخطّاب: ابن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن زراح بن عديّ بن كعب، هذا.

ولا يخفى عليك أن تشريك الثلاثة مع النبي ﷺ في النسب إنّما هو بحسب الظاهر ومن باب المماشاة وجرياً بما هو المعروف عند الناس، وإلا فقد علمت في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثّالثة الطعن في نسب عمر، وفي شرح الكلام السادس والسبعين الطّعن في نسب عثمان وسائر بني أميّة فتذكّر.

ثمّ أثبت له القرب بالمصاهرة فقال: (**وقد نلت من صهره ﷺ** ما لم ينالا) لأنّه قد تزوّج رقية بنت النبي ﷺ وبعد موتها عقد على بنته الأخرى أمّ كلثوم، ولذلك لقب عند العامة بذي النورين، وأما عند أصحابنا فظلمه في حقهما مشهور والأخبار بذلك عن طريق أهل البيت مأثور.

قال المحدّث الجزائري: إنّ طوائف العامة والخاصة رووا أنّ عثمان قد ضرب رقية زوجته ضرباً مبرحاً أي مؤلماً حتى أثرت السياط في بدنها على غير جناية تستحقها ولما أتت النبيّ ﷺ شاكية تكلّم عليها، وقال ﷺ: لا يليق بالمرأة أن تشكو من زوجها وأمرها بالرّجوع إلى منزله، ثمّ كرّر عليها الضرب فأتت النبي ﷺ ثمّ ردّها، ثمّ ضربها الضرب الذي كان السبب في موتها فأمر النبي ﷺ علياً أن يخرجها من منزل عثمان فأتى بها إلى بيت النبيّ ﷺ وماتت فيه.

ثمّ حذّره عليه السلام من الله سبحانه وخوّفه من عقابه فقال: (**فالله الله في**) شأن (**نفسك فإنك والله ما تبصّر من عمى ولا تعلّم من جهل**) أي: لا تحتاج إلى التبصرة والتعليم (**و**) الحال (**أنّ الطرق**) أي طرق الشرع المبين (**لواضحة وأنّ أعلام الدّين لقائمة**) والإتيان بالجملات مؤكدة بأنّ واللام وغيرهما لعدم جرى المخاطب بمقتضى علمه.

ولذلك شدّد التأكيد بالتنبيه على فضل الإمام العادل على الإمام الجائر تنفيراً له عن الجور وترغيباً إلى العدل فقال: (**فاعلم أنّ أفضل عباد الله إمام عادل هدي**) بنور الحقّ (**وهدى**) غيره كما قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ قال أبو عبد الله عليه السلام في رواية عبد الله بن سنان: هم الأئمة صلوات الله عليهم (**فأقام سنة معلومة**) بالتصديق على حقّيتها والقيام بوظائفها (**وأمات بدعة مجهولة**) بالتنبيه على بطلانها والارتداع عنها (**وأنّ السنن**) النبوية والشرائع المصطفوية (**لنيّرة لها أعلام**) ومنار (**وأنّ البدع**) المستحدثة (**لظاهرة لها أعلام**) وآثار لا يخفى ما في حسن التعبير والخطابة بالنيرة في السنن وبالظاهرة في البدع.

(**وأنّ شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ**) في نفسه (**وضلّ**) غيره (**به**) كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال الصادق عليه السلام في رواية معلّى بن خنيس: «هو من يتخذ دينه برأيه بغير هدى إمام من أئمة الهدى» **(فأمات سنة مأخوذة)** وسعى في إطفاء نور الحقّ **(وأحيا بدعة متروكة)** وجدّ في ترويج الباطل، هذا.

وتقسيم الإمام على القسمين أعني الإمام العادل والإمام الجائر قد ورد في الكتاب العزيز وغير واحد من الأخبار.

مثل ما رواه في البحار من تفسير عليّ بن إبراهيم بإسناده عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: الأئمة في كتاب الله إمامان: إمام عدل وإمام جور، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، لا بأمر الناس يقدّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، وقال ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلافاً لما في كتاب الله.

وفيه من بصائر الدّرجات مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يصلح الناس إلا إمام عادل وإمام فاجر إنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

ثمّ إنّه شدّد التنفير عن الجور بالتّنبيه على عقوبة الإمام الجائر بما رواه عن النبي صلى الله عليه وآله فقال: **(وإنّي سمعت رسول الله** صلى الله عليه وآله **يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير)** ينجيه من نار الجحيم **(ولا عاذر)** يدفع عنه العذاب الأليم **(فيلقى في نار جهنّم فيدور فيها كما تدور الرّحى ثمّ يرتبط)** ويشدّ **(في قعرها)** فلا يكون له مخلص ولا منجاة عنها.

ثمّ حذّره عن القتل بما لاح له عليه السلام من الأسباب المؤدّية إليه فقال: **(وإنّي أنشدك الله)** أي أسألك وأقسم عليك **(أن تكون إمام هذه الأمّة المقتول)** أراد الإمام الدّاعي إلى النّار **(فإنه كان يقال)** الظّاهر أنّ القائل هو النبيّ صلى الله عليه وآله وأبهم لاقتضاء المصلحة **(يقتل في هذه الأمّة إمام يفتح عليها)** أي على هذه الأمّة **(باب القتل والقتال إلى يوم القيامة)** بقتله **(ويلبّس أمورها عليها)** أي يدلّس ذلك الإمام ويلبّس أمور الأمة عليهم ويوقعهم في اللّبس والإشكال **(ويبثّ الفتن)** وينشرها **(فيها فلا يبصرون الحقّ من الباطل يموجون فيها)** أي في تلك الفتن **(موجاً ويمرجون)** أي يختلطون ويطربون **(فيها مرجا)**.

أقول: وقد وقع مصداق هذا الخبر الذي رواه أمير المؤمنين عن النبيّ صلى الله عليه وآله على طبق ما رواه، فإنّ عثمان لما ولّي وأوطأ رقاب الناس بني أبي معيط وبني أمية وولاّهم على البلاد انتشر الهرج والمرج والفساد، وتظاهر الفتن، وانجزم حبل الدّين، وتزعزع سوارى اليقين، وخمل الهدى، وشمل العمى، وضاق المصدر وعمي المخرج، حتى أشتدّ الظلم والمحن

والبلوى، وبلغ الغاية القصوى كما قال عزّ من قائل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٢].

إلى أن انتكث على عثمان قتلته، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته، وقتل شرّ قتلة، فكان قتله عنواناً للناكثين والقاسطين والمارقين، وانفتح على الأمة باب القتل والقتال والتخاصم والجدال إلى أن قام ابن أبي سفيان وآل حرب حزب الشيطان بالخلافة، واستقلّ بالإمارة، فمنحنه الدّنيا درّها، وأوردته صفوها، فتمادى في الظلم والطغيان، ولم يدع لله محرّماً إلاّ استحله، ولا عقداً إلا حلّه، حتى لم يبق بيت مدر ولا وبر إلاّ دخله ظلمه، ونبا به سوء رعيه، فقتل من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين مائة ألف أو يزيدون، وحذا حذوه ابنه اللعين، فقتل بالطفّ سبط سيد المرسلين وأنصاره المظلومين، وتبعهم سائر بني أمية وبني مروان: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩].

ثمّ إنه لما محض النصح لعثمان وأراه وجه الصواب والسداد ودله على نهج الحقّ والرّشاد وحذّره من القتل، وكان مروان بن الحكم اللعين طريد رسول ربّ العالمين أقوى الأسباب الباعثة لنكبه عن طريق الحقّ إلى الباطل والضلال، ولإيقاعه في المعاطب والمهالك. لا جرم نهاه عن اتّباعه والرّجوع إليه والأخذ برأيه وقال: **(فلا تكونن سيّقة لمروان يسوقك حيث شاء بعد جلال السن)** وكبره **(وتقضّي العمر)** وفنائه.

(فقال له عثمان: كلم الناس في أن يؤجلوني) أي يمهلوني **(حتى أخرج إليهم من مظالمهم)** وأردّ ظلامتهم **(فقال** عليه السلام: ما كان بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك إليه**)** قال الشارح المعتزلي: هذا كلام فصيح لأنّ الحاضر أيّ معنى لتأجيله والغائب فلا عذر بعد وصول الأمر في تأخيره، لأنّ السلطان لا يؤخر أمره[1].

تكملة

في الشرح بعد روايته عن محمّد بن جرير الطبري في تاريخه تمام هذه المخاطبة بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين عثمان حسبما أشرت إليه وأنهاها إلى آخرها قال:

فقال عثمان: وقد علمت أنك لتقولنّ ما قلت أما والله لو كنت مكاني ما عنّفتك ولاعبت عليك ولم آتِ منكراً إنّما وصلت رحماً وسددت خلّة وأويت ضائعاً وولّيت شبيهاً بمن كان عمر يوليّه، أنشدك الله يا عليّ ألا تعلم أنّ مغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: بلى،

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/٢٦٤، وبحار الأنوار: ٣١/٤٨٩ ح٩.

قال: أفلا تعلم أنّ عمر ولاّه؟ قال: بلى، قال: فلم تلومني إن ولّيت ابن عامر في رحمه وقرابته؟.

فقال عليّ عليه السلام إنّ عمر كان يطأ على صماخ من يولّيه ثمّ يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة وأنت فلا تفعل ضعفت ورققت على أقربائك.

قال عثمان: أفلا تعلم أنّ عمر ولّى معاوية فقد وليّته.

قال عليّ عليه السلام: أنشدك الله ألا تعلم أنّ معاوية كان أخوف لعمر من يرفاء غلامه له؟ قال: بلى، قال: فإنّ معاوية يقطع الأمور دونك ويقول للنّاس هذا بأمر عثمان وأنت تعلم ذلك فلاتغيّر عليه.

ثمّ قام عليّ عليه السلام فخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر فخطب النّاس وقال: أمّا بعد فإنّ لكل شيء آفة ولكلّ أمر عاهة، وإنّ آفة هذه الأمّة وعاهة هذه النّعمة عيّابون طعّانون يرونكم ما تحبّون ويسرّون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون أمثال النّعام يتبع أوّل ناعق، أحبّ مواردها إليها البعيد لا يشربون إلاّ نغصاً ولا يردون إلاّ عكراً أما والله لقد عبتم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ولنت لكم وأوطأتكم كتفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليّ، أم والله لأنا أقرب ناصراً وأعزّ نفراً وأكثر عدداً وأحرى إن قلت هلمّ أن يجاب صوتي، ولقد أعددت لكم أقراناً، وكشرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خُلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أكن أنطق، فكفوا عني ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فما الذي تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت عن بلوغ شأو من كان قبلي، وما وجدتكم تختلفون عليه، فما بالكم.

فقال مروان بن الحكم فقال: وإن شئتم حكّمنا بيننا وبينكم السيف.

فقال عثمان: اسكت دعني وأصحابي ما منطقك في هذا، ألم أتقدّم إليك أن لا تنطق؟ فسكت ونزل عثمان[1]، هذا.

وفي الشرح: أيضاً عن الطبري في شرح الكلام الثلاثين قال:

وكان عثمان قد استشار نصحاءه في أمره فأشاروا أن يرسل إلى عليّ عليه السلام يطلب إليه أن يردّ الناس ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه الإمداد فقال إنهم لا يقبلون التعليل وقد كان مني في المرّة الأولى ما كان، فقال مروان: أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فإنهم قوم قد بغوا عليك ولا عهد لهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٨، والبداية والنهاية: ٧/ ١٨٩.

فدعا علياً وقال له: قد ترى ما كان من الناس ولست آمنهم على دمي فارددهم فإني أعطيتهم ما يريدون من الحقّ من نفسي ومن غيري.

فقال عليّ عليه السلام: إنّ الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك وإنهم لا يرضون إلاّ بالرّضا وقد كنت أعطيتهم من قبل عهداً فلم تف به فلا تغرر في هذه المرّة فإنّي معطيهم عنك الحقّ.

قال: أعطهم فوالله لأفينّ لهم.

فخرج عليّ عليه السلام إلى الناس فقال: إنكم إنّما تطلبون الحقّ وقد أُعطيتموه وإنّه منصفكم من نفسه.

فسأله الناس أن يستوثق لهم وقالوا: إنا لا نرضى بقول دون فعل.

فدخل عليه السلام إليه فأعلمه.

فقال: أضرب بيني وبين الناس أجلاً فإني لا أقدر على تبديل ما كرهوا في يوم واحد.

فقال عليّ عليه السلام: أمّا ما كان بالمدينة فلا أجل فيه وأما ما غاب فأجله وصول أمرك إليه.

قال: نعم فأجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام.

فأجابه إلى ذلك وكتب بينه وبين الناس كتاباً على ردّ كلّ مظلمة وعزل كلّ عامل كرهوه فكفّ الناس عنه.

وجعل يتأهب سرّاً للقتال ويستند بالسلاح والجند جدّاً، فلما مضت الأيام الثلاثة ولم يغيّر شيئاً ثار به الناس وخرج قوم إلى من بذي خشب من المصريين فاعلموهم الحال فقدموا المدينة وتكاثر الناس عليه وطلبوا منه عزل عماله وردّ مظالمهم، فكان جوابه لهم: إني إن كنت استعمل من تريدون لا من أُريد فلست إذاً في شيء من الخلافة والأمر أمركم فقالوا لتفعلنّ أو لتخلعنّ أو لنقتلنك، فأبى عليهم وقال: لا أنزع سربالاً سربلنيه الله، فحصروه وضيقوا الحصار وأدّى الأمر إلى قتله، على ما مرّ منا في شرح الكلام الثلاثين.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام و نصيحت انجام آن حضرت است در حينى كه جمع شدند مردمان به سوى او و شكايت كردند از چيزى كه ناخوش مى گرفتند بر عثمان بن عفّان و خواهش كردند از آن حضرت كه از جانب ايشان سؤال و جواب نمايد و طلب كند از عثمان كه رجوع به حق نمايد و ايشان را خوشنود سازد، پس داخل شد آن بزرگوار بر عثمان، پس فرمود:

به درستى كه مردمان در عقب منند و به درستى كه ايلچى اخذ نموده اند مرا در ميان تو و ميان خودشان و به خدا سوگند نمى دانم چه گويم تو را و نمى دانم چيزى را كه تو ندانى آن را و نمى توانم دلالت كنم تو را بر چيزى كه نشناسى آن را، به درستى كه تو مى دانى آن چه كه ما مى دانيم، سبقت نيافته ايم از تو به چيزى تا خبر بدهيم به تو از آن و تنها نشده ايم به چيزى تا ابلاغ بكنيم به تو آن را و به تحقيق كه تو ديده اى چنان چه ما ديده ايم و شنيده اى چنان چه ما شنيده ايم و صحبت كرده اى با رسول خدا (صلى الله عليه وآله) چنان چه ما صحبت داشته ايم و نه بود پسر ابوقحافه و نه پسر خطاب سزاوارتر به عمل خير از تو و حال آن كه تو اقرب هستى به رسول خدا (صلى الله عليه وآله) از حيثيّت رگهاى خويشى از ايشان، پس بترس از خداى قهّار در نفس خود، پس به درستى كه تو قسم به خدا بصيرت داده نمى شوى از كورى و تعليم يافته نمى شوى از جهالت و به درستى كه راه هاى شريعت هرآينه واضح و هويدا است و به درستى كه علامت هاى دين هرآينه ثابت و برپا است، به درستى افضل بندگان خدا در نزد خدا امام عادلى است كه هدايت شده باشد و هدايت نمايد، پس برپا دارد سنّت و طريقه معلومه را و بميراند و برطرف سازد بدعت مجهوله را و به درستى كه سنّتها هرآينه تابانند و درخشان، مرآنها را است علامت ها و به درستى كه بدعت ها ظاهر است و هويدا، مرآن ها را است علامت ها و به درستى كه شريرترين مردمان در نزد خدا امام جائرى است كه گمراه باشد و گمراه شوند به سبب او، پس بميراند سنّت مأخوذه را و زنده گرداند بدعت متروكه را.

و به درستی که من شنیدم از حضرت ختمی مآب (صلّی الله علیه و آله) که می فرمود: آورده می شود در روز قیامت امام جورکننده را در حالتی که نباشد با او یاری دهنده ای و نه عذرآورنده ای، پس انداخته شود در آتش دوزخ، پس دور می کند در آن آتش چنان چه دور می کند آسیا، پس از آن بسته شود در قعر جهنم.

و به درستی که من قسم می دهم تو را به خدا که باشی امام این امّت که کشته شوی به واسطه ظلم و ستم، پس به درستی که بود گفته می شد که کشته خواهد شد در این امّت امامی که فتح می شود بر این امت قتل و قتال تا روز قیامت و تلبیس نماید کارهای ایشان را بر ایشان و منتشر و پراکنده می کند فتنه ها را در میان ایشان، پس نمی بینند حق را از باطل و مضطرب می شوند در آن فتنه ها مضطرب شدنی و آمیخته به هم می شوند در آن فتن آمیختنی، پس البته مباش ای عثمان از برای مروان بن حکم مثل چارپایی که می رانند آن را دشمنان هنگام غارت که براند تو را مروان هرجا که بخواهد بعد از بزرگی سن و سال و به سر آمدن عمر.

پس گفت مر آن حضرت را عثمان که: تکلّم کن با مردمان در این خصوص که مرا مهلت بدهند تا خارج بشوم به سوی ایشان از عهده مظلمه های ایشان، پس آن حضرت فرمود:

آن چه که در مدینه است پس مهلت نیست در او و آن چه که غایب است، پس مهلت او رسیدن حکم تو است به سوی او.

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها خلقة الطاووس وهي المائة والرابعة والستون من المختار في باب الخطب

وشرحها في ضمن فصلين:

الفصل الأول

إِبْتَدَعَهُمْ خَلقاً عَجيباً مِنْ حَيَوانٍ ومَواتٍ، وساكِنٍ وذي حَرَكاتٍ، وأَقامَ مِنْ شَواهِدِ البَيِّناتِ عَلىٰ لَطِيفِ صَنْعَتِه وعَظِيمِ قُدْرَتِهِ مَا انْقادَتْ لَهُ العُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِه، ومُسَلِّمَةً لَهُ، ونَعَقَتْ فِي أَسْماعِنا دَلائِلُهُ عَلىٰ وَحْدانِيَّتِهِ، وَما ذَرأَ مِنْ مُخْتَلِفِ[1] صُوَرِ الأَطْيارِ الَّتي أَسْكَنَها أَخاديدَ الأَرْض وخُرُوقَ فِجاجِها، ورَواسِي أَعْلامِها، مِنْ ذَواتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وهَيْئاتٍ مُتَبايِنَةٍ، مُصَرَّفَةً في زِمامِ التَّسْخِيرِ، ومُرَفْرِفَةً بِأَجْنِحَتِها في مَخارِقِ الجَوِّ المُنْفَسِحِ، والفَضاءِ المُنْفَرِجِ، كَوَّنَها بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ في عَجائِبِ صُوَرٍ ظاهِرَةٍ، ورَكَّبَها في حِقاقِ مَفاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ ومَنَعَ بَعْضَها بِعَبالَةِ خَلْقِه أَنْ يَسْمُو في السَّماءِ[2] خُفُوفاً، وجَعَلَهُ يَدُفُّ دَفِيفاً، ونَسَقَها عَلَى اخْتِلافِها في الأَصابِيغِ، بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، ودَقيقِ صَنْعَتِه، فَمِنْها مَغْمُوسٌ في قالِبِ لَوْنٍ لاَ يَشُوبُهُ غَيرُ لَوْنِ ما غُمِسَ فيهِ، ومِنْها مَغْمُوسٌ في لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلافِ ما صُبِغَ بِهِ.

ومِنْ أَعْجَبِها خَلْقاً أَلطّاوُوسُ الَّذِي أَقامَهُ في أَحْكَم تَعْدِيلٍ، ونَضَّدَ أَلْوانَهُ في أَحْسَنِ تَنْضِيدِ، بِجَناحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وذَنَبٍ أَطالَ مَسْحَبَهُ، وإِذا دَرَجَ إِلىَ الأُنْثىٰ نَشَرَهُ مِنْ طَيِّه، وسَما بِهِ مُطِلّاً عَلىٰ رَأْسِهِ، كَأَنَّهُ قِلْعٌ دارِيٌّ عَنَجَهُ نَوْتِيُّهُ، يَخْتالُ بِأَلْوانِه، ويَمِيسُ بِزَيَفَانِه، يُفْضي كَإِفْضاءِ الدِّيَكَةِ، ويَؤُرُّ بِمُلاقَحَةٍ أَرَّ الفُحُولِ المُغْتَلِمَهِ لِلْضِرّابِ، أُحِيلُكَ مِنْ ذلِكَ عَلى مُعايَنَةٍ لا كَمَنْ يُحِيلُ عَلى ضَعيفِ إِسْنادِه، وَلَوْ كانَ كَزُعْمِ مَنْ يَزْعَمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُها[3] مَدامِعُهُ فَتَقِفُ في ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ وأَنَّ أُنثاهُ تَطعَّمُ ذَلِكَ ثُمَّ تَبِيَّضَ لاَ مِنْ لِقاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ المُتَبَجِّسِ[4] لَما كانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطاعَمَةِ الغُرابِ، تَخالُ قَصَبَهُ مَدارِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وما أُنْبِتَتْ عَلَيْها مِنْ عَجيبِ داراتِه وشُمُوسِه خالِصَ العِقْيانِ وفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ.

فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الأَرْضُ قُلْتَ جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبيعٍ وَإِنْ ضاهَيْتَهُ بِالْمَلابِسِ فَهُوَ

(١) «اختلاف» في نسخة.

(٢) «الهواء» في نسخة.

(٣) «تنشجها» في نسخة.

(٤) «المنبجس» في نسخة.

كَمَوْشِي الحُلَلِ أَوْ مَوْنِقِ عُصْبِ اليَمَنِ، وإِنْ شاكَلْتَهُ بالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذاتِ أَلوانٍ قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنَ المُكَلَّلِ، يَمْشي المَرِحِ المُخْتالِ، ويَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وجَناحَهُ فَيُقَهْقِهُ ضاحِكاً لِجَمالِ سِرْبالِه، وأَصابيغَ وِشاحِه، فَإِذا رَمىٰ بِبَصَرِه إِلىٰ قَوائِمِه زَقا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغاثَتِه، وَيَشْهَدُ بِصادِقِ تَوَجُّعِ، لأَنَّ قَوائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوائِمِ الدِّيَكَةِ الخِلاسِيَّةِ، وقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ ساقِه صَيْصِيَةٌ خَفِيَّةٌ.

وَلَهُ في مَوْضِعِ العُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْراءُ مُوشاةٌ[١]، وَمَخْرَجُ عُنُقِه كَالإِبْرِيقِ، ومَغْرِزُها إِلى حَيْثُ بَطْنِهِ كَصِبْغِ الوَسْمَةِ اليَمانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلَبَّسَةٍ مِرْآتاً ذاتَ صِقالٍ، وكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ إِلاّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مائِهِ وشِدَّة بَرِيقِه أَنَّ الخُضْرَةَ النّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِه، وَمَعَ فَتْقِ سَمْعه خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ القَلَمِ في لَوْنِ الأُقْحوانِ أَبْيَضُ يَقِقٌ فَهُوَ بِبَياضِه في سَوادِ ما هُنالِكَ يَأْتَلِقُ.

وَقَلَّ صِبْغٌ إِلاَّ وقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وعَلاهُ بِكَثْرَةِ صِقالِه وبَرِيقِه، وبَصيصِ دِيباجِه ورَوْنَقِه، فَهُوَ كَالأَزاهِيرِ المَبْثُوثَةِ لَمْ تُرَبِّها أَمْطارُ رَبِيعٍ وَلا شُمُوسُ قَيْظٍ، وَقَدْ يَتَحَسَّرُ مِنْ رِيشِه وَيَعْرى مِنْ لِباسِه فَيَسْقُطُ تَتْرىٰ وَيَنْبُتُ تِباعاً فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِه إِنْحِتاتَ أَوْراقِ الإِغْصانِ، ثُمَّ يَتَلاحَقُ نامِياً حَتَّى يَعودَ كَهَيْئَتِه قَبْلَ سُقُوطِه، لا يُخالِفُ سالِفَ أَلْوانِه، وَلا يَقَعُ لَوْنٌ في غِيرِ مَكانِه، وإِذا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعْراتِ قَصَبِه أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وتارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وأَحْياناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً.

فَكَيْفَ تَصِلُ إِلىٰ صِفَةِ هَذا عَمائِقُ الفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرائِحُ العُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوالُ الواصِفِينَ، وأَقَلُّ أَجْزائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، والأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ.

فَسُبْحانَ الَّذي بَهَرَ العُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاهُ لِلْعُيُونِ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، ومُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِه، وقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ، وسُبْحانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوائِمَ الذَّرَّةِ والهَمَجَةِ إِلىٰ ما فَوْقَهُما مِنْ خلْقِ الحِيتانِ والْفِيَلَةِ، ووَاى عَلىٰ نَفْسِهِ أَلاَّ يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمّا أَوْلَجَ فيهِ الرُّوحَ إِلاّ وَجَعَلَ الحَمامَ مَوْعِدَهُ، والفَناءَ غايَتَهُ[٢].

قال السيد (رض): بعد إيراد الخطبة بتمامها: تفسير ما جاء فيها من الغريب «ويؤرّ بملاقحة» ألارّ كناية عن النّكاح يقال ارّ المرأة يؤرّها إذا نكحها، وقوله: «كأنّه قلع داري عنجه نوتيّه» القلع شراع السفينة، وداريّ منسوب إلى دارين وهي بلدة على البحر يجلب منها الطيّب، وعنجه أي عطفه يقال: عنجت النّاقة أعنجها عنجاً إذا عطفتها، والنوتيّ الملاّح

(١) «موشاة» في نسخة.

(٢) بحار الأنوار: ٦٢/ ٣٢، وميزان الحكمة، ٤/ ٢٩٥٨ ح٣٧٢٠.

وقوله: ضفّتي جفونه» أراد جانبي جفونه، والضّفتان الجانبان وقوله: «وفلذ الزّبرجد» الفلذ جمع فلذة وهي القطعة وقوله: كبائس اللّؤلؤ الرطب» الكباسة العذق «والعساليج» الغصون واحدها عسلوج.

اللغة

(**الحيوان**) محركة جنس الحيّ أصله حييان وقد تكون بمعنى الحياة والمراد هنا الأوّل و(**نعق**) بغنمه من بابي ضرب ومنع نعقاً ونعيقاً ونعاقاً صاح بها وزجرها هكذا في القاموس، وفي مصباح اللّغة للفيومي من باب ضرب إلاّ أنّ الموجود فيما رأيته من نسخ النهج نعقت بكسر العين.

و(**رفرف**) الطائر بسط جناحيه عند السقوط على الشيء يحوم عليه لتقع فوقه و(**حقاق المفاصل**) بكسر الحاء جمع حقّ بالضمّ رأس الورك الّذي فيه عظم الفخذ ورأس العضد الذي فيه الوابلة قال الشّارح المعتزلي: هو مجمع المفصلين من الأعضاء فيكون أعم و(**سحبه**) على الأرض سحباً من باب منع جرّه عليها فانسحب و(**طوى**) الصّحيفة يطويها طيّاً قال سبحانه: ﴿نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ وأنّه لحسن الطيّة بالكسر وفي بعض النسخ من طيه بالكسر.

و(**قلع داريّ**) قال الفيومي: القلاع شراع السفينة، والجمع قلع، مثل كتاب وكتب، والقلع مثله، والجمع قلوع مثل حِمل وحمول، وفي القاموس القلع بالكسر الشراع كالقلاعة ككتابة، والداري المنسوب إلى دارين قال البحراني: وهي جزيرة من سواحل القطيف من بلاد البحرين يقال إنّ الطيب كان يجلب إليها من الهند وهي الآن خراب لا عمارة بها ولا سكنى، وفيها آثار قديمة وفي القاموس الدّارين موضع بالشام.

و(**ماس**) في مشيه تبختر و(**الزيفان**) التبختر في المشي و(**الملاقحة**) مفاعلة من ألقح الفحل الناقة أي أحبلها، وفي بعض النسخ (**بملاحقة**) بصيغة الجمع مضافاً إلى الضمير أي بآلات التناسل والأعضاء و(**غلم**) كفرح غَلماً وغُلمة بالضمّ واغتلم غلب شهوة، وغلم البعير واغتلم أي هاج من شهوة الضرّاب، فهو غَلّم وغلّيم والأنثى غلّمة وغلّيمة ومغتلمة.

و(**سفحت**) الدّم أي أرقته والدّمع أسلته وفي بعض النّسخ تنشجها بدل تسفحها مضارع نشج من باب ضرب يقال: نشج القدر أي غلا ما فيه حتّى سمع له صوت قال العلامة المجلسي: ولعلّ الأوّل أوضح، فإن الفعل ليس متعدّياً بنفسه على ما في كتب اللّغة و(**تطعّم**) على صيغة الأوّل أوضح، فإن الفعل ليس متعدّياً بنفسه الماء تبجيساً فجره فتبجّس وانبجس، وفي بعض النّسخ المنبجس من باب الانفعال.

و(**المداري**) بالدال المهملة جمع المدرى قال ابن الأثير: المدرى والمدارة شيء من حديد أو خشب على شكل سنّ من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر الملبّد ويستعمله من لا مشط له، وفي نسخ الشّارح البحراني بالذّال المعجمة قال: وهي خشبة ذات أطراف كأصابع الكفّ ينقي بها الطّعام.

و(**دارات**) جمع الدّارة دارة القمر وغيره سميّت بذلك لاستدارتها و(**العقيان**) بالكسر كما في القاموس وقال العلامة المجلسي بالضمّ: الذّهب الخالص أو الذّهب النّابت من الأرض و(**جنيت**) الثّمرة والزّهرة واجتنيتها والجنىّ فعيل منه، وفي بعض النّسخ جنى كحصى وهو ما يجنى من الشّجر ما دام غصناً بمعنى فعيل ولفظة الفعل المجهول ليست في بعض النّسخ.

و(**زهر**) النّبات بالفتح نوره، والواحدة زهرة كتمر وتمرة قالوا ولا يسمّي زهراً حتى تفتح و(**شيت**) الثوب وشيئاً من باب رمى نقشته فهو موشىّ وزان مرمىّ أي منقّش، والأصل على مفعول و(**الحلل**) كصرد جمع حلة بالضمّ وهي إزار ورداء من برد أو غيره فلا تكون حلة إلاّ من ثوبين أو ثوب له بطانة.

و(**العصب**) وزان فلس قال الفيومي: برد يصنع غزله ثمّ ينسج، ولا يثنى ولا يجمع وإنما يثنى ويجمع ما يضاف إليه فيقال: برد عصب وبرود عصب، والإضافة للتخصيص، ويجوز أن يجعل وصفاً فيقال: شريت ثوباً عصباً، وقال السهلي: العصب صبغ لا ينبت إلاّ باليمن.

و(**الفصوص**) جمع فصّ كفلس وفلوس قال ابن السكيت: كسر الفاء رديّ، وكذا قال الفارابي، وفي القاموس الفص الخاتم مثلثة والكسر غير لحن و(**كلل**) فلاناً أي: ألبس الإكليل وهو بالكسر التاج وشبه عصابة زين بالجوهر و(**الوشاح**) ككتاب شيء ينسج من أديم ويرصّع شبه القلادة تلبسه النساء.

ورجل (**أحمش**) الساقين أي أدقهما و(**الخلاسي**) بكسر الخاء المعجمة الديك بين دجاجتين هندية وفارسية، والولد بين أبوين أبيض وأسود و(**الظنبوب**) حرف العظم اليابس من قدم الساق و(**الوسمة**) بكسر السين كما في بعض النسخ وهي لغة الحجاز وأفصح من السكون، وأنكر الأزهري السكون، وبالسكون كما في بعضها و(**اللفاع**) ككتاب الملحفة أو الكساء أو كُلما تتلفع به المرأة، وتلفع الرّجل بالثوب إذا اشتمل به وتغطى، وفي بعض النسخ متقنع من القناع و(**أبيض يقق**) بالتحريك وبالكسر أيضاً وزان كتف شديد البياض.

و(**يتحسّر**) في بعض النسخ مضارع تفعل يقال: تحسّر البعير أي سقط من الأعياء، وفي بعض النّسخ تنحسر على صيغة الإنفعال تقول: حسره كضربه فانحسر أي كشفه فانكشف

و(**سالف ألوانه**) في بعض النسخ بدلها سائر ألوانه والأوّل أظهر و(**العسجد**) كجعفر الذّهب و(**العمق**) بالضمّ والفتح قعر البئر ونحوها و(**الفطن**) كعنب جمع فطنة بالكسر وهي الحذق والعلم بوجوه الأمور و(**جلاه**) بالتّشديد والتخفيف على اختلاف النّسخ أي كشفه و(**الهمجة**) محرّكة واحدة الهمج بالتّحريك أيضاً وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير والنعاج الهرمة.

الإعراب

قوله: و(نعقت) مستأنفة، وتحتمل أن تكون معطوفة على جملة انقادت وعلى الأوّل فالضمير في دلائله راجع إلى الله، وعلى الثّاني فهو راجع إلى ما، وقوله: و(ما ذرأ)، عطف على قوله: ما انقادت، أو على الضّمير في دلائله كما قاله الشّارح البحراني وقوله: (من ذوات)، بيان للأطيار، ومصرّفة، ومرفرفة منصوبان على الحال، وفي بعض النّسخ بالجرّ على أنّهما صفتان لذوات أجنحة.

وجملة (كوّنها) في المعنى تأكيد لجملة ذرأ، ولكمال الاتصال ترك العاطف بينهما، وتحتمل الاستئناف البياني، وقوله: (في لون صبغ)، بجر لّون مضافاً إلى صبغ على الإضافة البيانية، وفي بعض النّسخ بالجرّ والتّنوين وصبغ على صيغة الماضي المجهول، أي صبغ ذلك المغموس، و(الواو) في قوله: ومن أعجبها، استئنافيّة وقوله: بجناح، إمّا بدل من أحكم تعديل أو عطف بيان، ويحتمل تعلّقه بقوله أحسن تنضيد.

وجملة (عنجه)، مرفوعة المحل صفة لقلع، و(مغرزها)، مبتدأ خبره كصبغ الوسمة، و(بطنه) بالرّفع مبتدأ محذوف الخبر أي مغرزها إلى حيث بطنه موجوداً وممتدّاً ومنتهى إليه كصبغ.

وحيث تضاف إلى الجملة غالباً وإضافتها إلى المفرد تشذّ في الشّعر، وهو في المعنى مضافة إلى المصدر الّذي تضمّنته الجملة قالوا: حيث وإن كانت مضافة إلى الجملة في الظّاهر، لكن لمّا كانت في المعنى مضافة إلى المصدر فإضافتها إليها كلا إضافة، ولذا بنيت على الضمّ كالغايات على الأعرف قال نجم الأئمة: قد حذف خبر المبتدأ الذي بعد حيث غير قليل، والتّنوين في قوله: بقسط، للتّفخيم، وجملة: (علاه) عطف على جملة أخذ.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشّريفة على غاية بلاغتها وبديع أسلوبها وعجيب نظمها مسوقة لشرح أوصاف الطّير لا سيّما الطّاووس، والغرض منه التّنبيه على عظيم قدرته سبحانه ولطيف

صنعته والإشارة إلى عجائب ما أبدعه سبحانه في الملك والملكوت، لتنبّه من رقدة الغفلة، ويتحصّل لك كمال المعرفة.

وافتتح عليه السلام بمطلق دلائل القدرة ثمّ تخلّص إلى ذكر الطّاووس فقال: **(ابتدعهم)** أي أبدع الموجودات لا عن مادّة أو على غير مثال سابق **(خلقاً عجيباً)** على أصناف مختلفة وأنواع متكثّرة وهيئات عجيبة وأوصاف بديعة **(من حيوان وموات وساكن وذي حركات)** أي بعضها ذو حياة كأصناف الملائكة والحيوان والجنّ والإنس، وبعضها ذو ممات كالشّجر والجماد والنّبات وغيرها ممّا ليس لها حياة، وبعضها متّصفة بالسكون كالأرض والجبال، وبعضها متّصفة بالحركة الإراديّة كالإنسان والحيوان ونحوهما، أو طبيعيّة كالماء والنّار والكواكب والأفلاك.

(وأقام من شواهد البيّنات على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما) أي شاهد صدق وبرهان حتّى **(انقادت له)** أي: لذلك الشّاهد **(العقول معترفة به)** أي: بهذا الشّاهد أو بالله سبحانه **(ومسلّمة له)** غير جاحدة لحقّيّته **(ونعقت)** أي صاحت **(في أسماعنا دلائله)** سبحانه **(على وحدانيته)** قال الشّارح البحراني: استعار لفظ النّعيق في الأسماع لظهور تلك الدّلائل في صماخ العقل **(وما ذرأ)** أي: أقام من شواهد البيّنات أو نعقت دلائل ما ذرأه وخلقه **(من اختلاف صور الأطيار الّتي أسكنها أخاديد الأرض)** كالقطاء ونحوه ممّا يسكن الشّقوق في الأرض **(وخروق فجاجها)** كالقبج وشبهه ممّا يسكن الفجاج أي الطرق الواسعة بين الجبلين **(ورواسي أعلامها)** كالعقبان والصّقور تأوي في الجبال الرّاسيات أي: الثّابتات المستقرّات **(من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة)** فهذا غراب، وهذا عقاب، وهذا حمام، وهذا نعام خلقها الله سبحانه على أشكال مختلفة وطبائع متضادّة.

ولكنّها كلّها على تباين طبائعها وتضادّ أجناسها مقهورة تحت ذلّ القدرة مشدودة بربق الطّاعة **(مصرّفة)** ومتقلّبة **(في زمام التسخير)** كما قال عزّ من قائل:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩].

قال الرّازي: هذا دليل على كمال قدرة الله وحكمته: فإنّه لولا أنّه تعالى خلق الطّير خلقة معها يمكنه الطّيران فيها لما أمكن ذلك، فإنّه أعطى الطّير جناحاً يبسطه مرّة ويكسره أخرى، مثل ما يعمل السّابح في الماء، وخلق الهواء خلقة لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنّفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطّيران ممكناً، وجسد الطّير جسم ثقيل والجسم الثّقيل يمتنع بقاؤه في الجوّ معلّقاً من غير دعامة ولا علاقة فوقه، فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجوّ هو الله سبحانه.

(ومرفرفة بأجنحتها في مخارق الجوّ المنفسح والفضاء المنفرج) أي باسطة جناحيها في أمكنتها الّتي تخرق الهواء الواسع فتدخلها قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ١٩].

قيل في تفسيره: أي باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانها، فإنّهنّ إذا بسطنها صفقن قوادمها - ويقبضن - أي ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتاً بعد وقت للاستظهار به على التّحرك، ولذلك عدل به إلى صيغة الفعل للتّفرقة بين الأصيل في الطيران والطّارى عليه - ما يمسكهنّ - في الجوّ على خلاف طبعهنّ - ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ - الشامل رحمته كلّ شيء بأن خلقهن على أشكال وخصائص هيئاتهنّ للحركة في الهواء - ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ - يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبّر العجائب.

(كونّها) كسائر المكوّنات والمخلوقات **(بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهرة)** وهيئات بديعة غير مستورة **(وركبّها في حقاق مفاصل محتجبة)** مستترة باللّحم والجلد ونحوهما **(ومنع بعضها بعبالة خلقه)** وضخامة جثّته كالنّعامة واللّقلق ونحوهما **(أن يسمو في السّماء خفوقاً)** أي يعلو في جهة العلوّ بسرعة **(وجعله يدفّ دفيفاً)** أي يحرّك جناحيه للطّيران قال الفيومي: معناه ضرب بهما دفّيه وهما جنباه، يقال ذلك إذا أسرع مشياً ورجلاه على وجه الأرض ثمّ يستقلّ طيراناً **(ونسقها)** أي نظمها **(على اختلافها في الأصابيغ)** والألوان **(بلطيف قدرته ودقيق صنعته)** أي جعل كلاّ منها على لون خاصّ على وفق حكمته البالغة.

(فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس فيه) أي بعضها ذو لون واحد كالأسود والأبيض والأحمر، فعبر عنه بالغمس في قالب اللّون إشارة إلى إحاطة اللون الواحد به بجميع أجزائه كما يحيط القالب بالأشياء المصنوعة بالصبّ فيه من نحاس ونحوه.

(ومنها مغموس في لون صبغ قد طوّق بخلاف ما صبّغ به) أي بعضها ذو لونين فما زاد كالقبج والفاختة والبلبل ونحوها ممّا يخالف لون عنقه لون سائر جسده، والغرض بذلك كلّه حسبما عرفت التّنبيه على عظمة الله سبحانه وكمال قدرته ولطيف صنعته وبديع حكمته.

وقد شرحه: الصّادق عليه السلام وأفصح عنه في حديث المفضّل.

قال عليه السلام: تأمّل يا مفضّل جسم الطّائر وخلقته فإنّه حين قدر أن يكون طائراً في الجوّ خفّف جسمه وأدمج خلقه فاقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين، ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين للزّبل والبول على واحد يجمعهما، ثمّ خلق ذا جوء جوء محدّد يسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السّفينة بهذه الهيئة لتشقّ الماء وتنفذ فيه، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطّيران، وكسى كله الرّيش

ليداخله[1] الهواء فيقلّه.

ولما قدّر أن يكون طعمه الحبّ واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقة الأسنان وخلق له منقار صلب جاس يتناول به طعامه فلا ينسحج من لقط الحبّ ولا يتقصف من نهش اللحم، ولما عدم الأسنان وصار يزدرد الحبّ صحيحاً واللحم غريضاً أُعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ.

واعتبر بأنّ عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الإنس صحيحاً ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر.

ثمّ جعل مما يبيض بيضاً ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران، فإنه لو كانت الفرخ في جوفه تمكث حتى تستحكم لأثقلته وعاقته عن النهوض والطيران فجعل كلّ شيء من خلقه شاكلاً للأمر الذي قدّر أن يكون عليه.

ثمّ صار الطائر السابح في هذا الجوّ يقعد على بيضه فيخرّ له أسبوعاً وبعضها أسبوعين وبعضها ثلاثة أسابيع حتى يخرج الفرخ من البيضة، ثمّ يقبل عليه فيزقه لتتسع حوصلته للغذاء، ثمّ يربّيه ويغذيه بما يعيش به، فمن كلفه أن يلفظ الطعام ويستخرجه بعد أن يستقرّ في حوصلته ويغذو به فراخه؟ ولأيّ معنى يحتمل هذه المشقة وليس بذي روية ولا تفكر؟ ولا يأمل في فراخه ما يأمل الإنسان في ولده من العزّ والرّفد وبقاء الذكر وهذا من فعل هو يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعرفها ولا يفكر فيها وهي دوام النسل وبقاؤه لطفاً من الله تعالى ذكره.

انظر إلى الدّجاجة كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ وليس لها بيض مجتمع ولا وكر موطيء بل تنبعث وتنتفخ وتقوقى وتمتنع من الطعام حتى يجمع لها البيض فتحضنه وتفرخ، فلم كان ذلك منها إلاّ لإقامة النّسل، ومن أخذها بإقامة النسل؟ ولا روية ولا فكر لولا أنها مجبولة على ذلك.

واعتبر بخلق البيضة وما فيها من المحّ الأصفر الخاثر، والماء الأبيض الرّقيق فبعضه لينتشر منه الفرخ، وبعضه ليغذي به إلى أن تنقاب عنه البيضة، وما في ذلك من التدبير، فإنه لو كان نشوء[2] الفرخ في تلك القشرة المستحضنة التي لا مساغ لشيء إليها لجعل معه في جوفها من الغذاء ما يكتفي إلى وقت خروجه منها كمن يحبس في حبس حصين لا يوصل

(١) «ليتداخله» كما في نسخة.

(٢) «انشق» في نسخة.

النفقة إلى من فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفي به إلى وقت خروجه منه.

فكر في حوصلة الطائر وما قدر له، فإنّ مسلك الطعم إلى القانصة ضيّق لا ينفذ فيه الطعام إلاّ قليلاً قليلاً، فلو كان الطائر لا يلقط حبة ثانية حتى تصل الأولى القانصة لطال عليه ومتى كان يستوفي طعمه، فإنما يختلسه اختلاساً لشدّة الحذر، فجعلت الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعى فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ثمّ تنفذه إلى القانصة على مهل، وفي الحوصلة أيضاً خلة أخرى فإنّ من الطائر ما يحتاج إلى أن يزقّ فراخه فيكون رده للطعام من قرب أسهل عليه.

قال المفضل: فقلت إنّ قوماً من المعطلة يزعمون أنّ اختلاف الألوان والأشكال في الطير إنما يكون من قبيل امتزاج الأخلاط واختلاف مقاديرها بالمزج والإهمال.

فقال عليه السلام: يا مفضّل هذا الوشي الّذي تراه في الطواويس والدّراج والتدارج على استواء ومقابلة كنحو ما يخطّ بالأقلام كيف يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف، لو كان بالإهمال لعدم الاستواء ولكان مختلفاً.

تأمل ريش الطير كيف هو؟ فإنّك تراه منسوجاً كنسج الثّوب من سلوك دقاق قد ألّف بعضه إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط والشّعرة إلى الشّعرة، ثمّ ترى ذلك النّسج إذا مددته ينفتح قليلاً ولا ينشق لتدخله الرّيح فيقل الطّائر إذا طار، وترى في وسط الرّيشة عموداً غليظاً معيّناً قد نسج عليه الذي هو مثل الشّعر ليمسكه بصلابته، وهو القصبة التي في وسط الرّيشة، وهو مع ذلك أجوف ليخف على الطّائر ولا يعوقه عن الطيران.

هل رأيت يا مفضّل هذا الطّائر الطّويل السّاقين وعرفت ماله من المنفعة في طول ساقيه؟ فإنّه أكثر ذلك في ضحضاح من الماء، فتراه لساقين طويلين كأنه ربيئة فوق يرقب وهو يتأمّل ما يدبّ في الماء، فإذا رأى ممّا يتقوّت به خطا خطوات رقيقاً حتّى يتناوله، ولو كان قصير السّاقين وكان يخطو نحو الصّيد ليأخذه تصيب بطنه الماء فيثور ويذعر منه فيتفرّق عنه، فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه.

تأمّل ضروب التّدبير في خلق الطّائر فإنّك تجد كلّ طائر طويل السّاقين طويل العنق، وذلك ليتمكّن من تناول طعامه من الأرض، ولو كان طويل السّاقين قصير العنق لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض، وربما أعين مع تطول العنق بطول المناقير ليزداد الأمر عليه سهولة له وإمكاناً، أفلا ترى أنّك لا تفتّش شيئاً من الخلقة إلاّ وجدته في[1] غاية الصّواب

(١) «على» في نسخة.

والحكمة[(١)]؟.

وإذا عرفت وجه التدبير والحكمة في مطلق الطير فلنعد إلى شرح عجائب خلقة الطاووس على ما فصّله الإمام عليه السلام بقوله: (**ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه**) الله سبحانه (**في أحكم تعديل**) أي أعطي كلّ شيء منه في الحلق ما يستحقّه وخلقه على وجه الكمال خالياً من نقص (**ونضّد**) أي رتّب (**ألوانه في أحسن تنضيد**) وترتيب كما قال الشّاعر:

سبحان مَنِ من خلقه الطاووس طير على أشكاله رئيس
كأنّه في نقشه عروس في الرّيش منه ركّبت فلوس
تشرق في داراته شموس في الرّأس منه شجر مغروس
كأنّه بنفسج يميس أو هو زهر حرمٌ يبيس

فقد رتّب تعالى ألوانه (**بجناح أشرج قصبه**) أي ركب عروق جناحه وأصولها بعضها في بعض كما يشرج العيبة أي يداخل بين أشراجها (**وذنب أطال مسحبه**) على وجه الأرض (**وإذا**) أراد السفاد و(**درج إلى الأنثى نشره**) أي نشر ذنبه (**من طيه وسما به مطلاً**) أي رفعه مشرفاً (**على رأسه كأنه قلع داري**) شبّه عليه السلام ذنبه بشراع السفينة من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس، لأنه عند إرادة السفاد يبسط ذنبه وينشره ثمّ يرفعه وينصبه فيسير كهيئة الشراع المرفوع.

وأوضح وجه الشبه بقوله (**عنجه نوتيه**) وذلك لأنّ الملاّح الذي يدّبر أمر السفينة يعطف الشراع ويصرفه تارة بالجذب وتارة بالإرخاء وتارة بتحويله يميناً وشمالاً بحسب انصرافه من بعض الجهات إلى بعض (**يختال**) أي يتكبر ويعجب (**بألوانه ويميس**) أي يتبختر (**بزيفانه**) والتبختر بمشيته.

ثمّ وصف عليه السلام هيئة جماعه بقوله (**يفضي**) ويسفد (**كإفضاء الدّيكة ويارّ**) أي يجامع (**بملاقحة**) مثل (**ارّ الفحول المغتلمة**) وذات الغلم والشبق.

ثمّ أكّد كون سفاده مثلى سفاد الدّيك والفحل بآلات التناسل كسائر أصناف الحيوان تنبيهاً به على ردّ من زعم أن سفاده بتطعم الدّمع فقال: (**أحيلك من ذلك على معاينة**) أي مشاهدة برأي العين (**لا كمن يحيل على ضعيف إسناده**) ويزعم أن لقاحه بالتطعم اعتماداً على سند ضعيف وإحالة عليه.

ثمّ دفع الاستبعاد عن ذلك الزعم الفاسد بقوله (**ولو كان**) الأمر (**كزعم من يزعم أنه**

(١) التوحيد: ٧١، وبحار الأنوار: ١٠٦/٣.

يلقح) أي يحبل **(بدمعة تسفحها)** وتسكبها **(مدامعة فتقف في ضفتي جفونه)** وجانبيها **(وأنّ أنثاه تطعم ذلك ثمّ تبيض لا من لقاح فحل سوى الدّمع المتبجس)** المنفجر **(لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب)**.

قال الشّارح المعتزلي: واعلم أنّ قوماً زعموا أنّ الطاووس الذّكر يدمع عينه فتقف الدّمعة بين أجفانه فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدّمعة، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يحل ذلك ولكنّه قال: ليس بأعجب من مطاعمة الغراب، والعرب تزعم أنّ الغراب لا يسفد، ومن أمثالهم: أخفى من سفاد الغراب، يزعمون أنّ اللّقاح من مطاعمة الذّكر والأنثى وانتقال جزء من الماء الذي في قانصته إليها من منقاره، وأمّا الحكماء فقلّ أن يصدقوا بذلك، على أنّهم قد قالوا في كتبهم ما يقرب من هذا؟ قال ابن سينا: والقبجة تحبلها ريح تهبّ من ناحية الحجل الذّكر ومن سماع صوته، انتهى[1].

أقول: أمّا كلام أمير المؤمنين عليه السلام فلا يخفى أنّ ظهوره في كون سفاد الطاووس باللّقاح، حيث شبهه بإفضاء الدّيكة ويأرّ الفحول، وعبّر عن القول الآخر بالزّعم كظهوره في كون سفاد الغراب بالمطاعمة، وأما المثل فلا يدلّ على أنّ الغراب لا يسفد بل الظّاهر منه خلافه، على أنّي قد شاهدت عياناً غير مرّة سفاد العراب الأبقع، فلا بدّ من حمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على سائر أصناف العراب وإن كان ظاهره الاطلاق والله العالم بحقائق الخبيئات وأولياؤه عليهم السلام.

ثمّ أخذ عليه السلام في وصف أجنحة الطاووس فقال: **(تخال قصبه)** أي عظام أجنحته **(مداري من فضّة)** في الصّفاء والبياض **(وما أنبتت عليها من عجيب داراته وشموسه)** التي في الرّيش **(خالص العقيان)** أي الذّهب في الصّفرة الفاقعة والرّونق والبريق والجلا **(وفلذ الزبرجد)** في الخضرة والنّضارة.

(فإن شبّهته بما أنبتت الأرض) من الأزهار والأنوار **(قلت جنيّ جنى من زهرة كلّ ربيع)** ونوره في اختلاف ألوانه وأصباغه **(وأن ضاهيته)** أي شاكلته وشبّهه بالملابس **(فهو كموشيّ الحلل)** المنقّشة بكلّ نقش في البهجة والنضارة **(أو)** كـ**(مونق عصب اليمن)** أي كبرد يمانيّ مصبوغ معجب **(وأن شاكلته بالحليّ فهو كفصوص ذات ألوان)** مختلفة **(قد نطّقت باللّجين المكلّل)** أي جعلت الفضّة كالنّطاق لها.

قال الشارح البحراني: شبّهه بالفصوص المختلفة الألوان المنقطّة في الفضة أي المرصعة في صفائح الفضة والمكلّل الذي جعل كالإكليل بذلك الترصيع، فيكون حاصل

(١) بحار الأنوار: ٦٢/ ٣٦، وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٧٠.

كلامه عليه السلام تشبيهه قصب ريشه بصفائح من فضة رصّعت بالفصوص المختلفة الألوان فهي كالإكليل بذلك الترصيع، ولكنّ الأظهر أن المكلّل وصف للّجين فافهم.

ثمّ أخذ في وصف مشيه وضحكه فقال عليه السلام: **(يمشي مشي المرح المختال)** أي كمشي الفرحان المعجب بنفسه **(ويتصفّح)** أي يقلب جناحه وذنبه **(فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله)** أي حسن قميصه **(وأصابيغ وشاحه)** أي ألوان لباسه **(فإذا رمى ببصره نحو قوائمه)** ورأى سماجتها **(زقا)** وصاح **(معولاً بصوت)** أي رافعاً صوته بالبكاء والنّياح **(يكاد يبين)** أي يظعن ويرتحل وهو كناية عن الموت **(عن استغاثته ويشهد)** عويله **(بصادق توجعه)** ويفصح عن شدّة تفجّعه وذلك **(لأن قوائمه حمش)** دقاق **(كقوائم الدّيكة الخلاسية)** التي عرفت معناها **(وقد نجمت)** أي طلعت **(من طنبوب ساقه صيصية)** وهي في الأصل شوكة الحائك التي يسويّ بها السّداة واللحمة، فاستعيرت لصيصية الطائر التي في رجله **(خفية)** ليست بجلية كما للدّيك.

ثمّ أخذ في وصف قنزعته بقوله: **(وله في موضع العرف)** مستعار عن عرف الدّابة وهو شعر عنقه **(قنزعة)** وهي رويشات يسيرة طوال في مؤخّر رأسه بارزة عن ريش رأسه استعارة عن قنزعة الصّبي وهي الخصلة من الشّعر يترك على رأسه **(خضراء موشاة)**.

ثم أخذ في وصف عنقه بقوله: **(ومخرج عنقه كالإبريق)** أي محلّ خروج عنقه كمحلّ خروج عنق الإبريق فيشعر بأنّ عنقه كالإبريق أو أنّ خروجه كخروج عنق الإبريق على أنه مصدر فيكون الأشعار أقوى **(ومغرزها)** أي مثبت عنقه، وتأنيث الضمير على لغة أهل الحجاز **(إلى حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية)** في الخضرة الشديدة الضاربة إلى السواد **(أو كحريرة سوداء ملبسة مرآتاً ذات صقال)** في لونها المخصوص ومخالفة بصيص المرآة لها **(وكأنه متلفع)** أي مكتس **(بمعجز أسحم)** أي بثوب كالعصابة ذي سحم وسواد **(إلا أنّه يخيل لكثرة مائهِ وشدّة بريقه أنّ الخضرة الناضرة ممتزجة به)**.

ثم وصف الخط الأبيض عند محلّ سمعه فقال: **(ومع فتق سمعه خطّ)** دقيق **(كمستدق القلم في)** لون مثل **(لون الأقحوان)** أي البابونج **(أبيض يقق فهو)** أي ذلك الخطّ **(ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق)** ويلمع.

ثمّ أجمل في تعداد ألوانه فقال: **(وقلّ صبغ إلا وقد أخذ منه بقسط)** وافر **(وعلاه)** أي زاد على الصبغ وغلب عليه **(بكثرة صقاله وبريقه)** أي جلائه ولمعانه **(وبصيص ديباجه ورونقه)** أي حسنه وبهائه **(فهو كالأزاهير المبثوثة)** المتفرّقة **(لم تربها أمطار ربيع ولا شموس قيظ)** لما كان من شأن الأزاهير أن تربيتها وكمالها بالشّمس والمطر، وشبّه عليه السلام ألوان هذا الطائر بالأزاهير المبثوثة أتى بهذه الجملة تنبيهاً على أن تربيتها ليست بالشّموس والأمطار وإنّما هي بتدبير الفاعل المختار ففيه من الدّلالة على عظمة الصانع تعالى وقدرته ما لا يخفى.

والظاهر أنّ الجمع في الأمطار باعتبار الدّفعات، وفي الشّموس بتعدّد الإشراق في الأيام، أو باعتبار أنّ الشّمس الطالع في كلّ يوم فرد على حدة لاختلاف التّأثير في تربية الأزهار والنباتات باختلاف الحرّ والبرد وغير ذلك.

ثمّ بيّن له حالة أخرى هي محل الاعتبار في حكمة الصّانع وقدرته فقال: **(وقد يتحسّر)** ويتعرّى **(من ريشه ويعرى من لباسه)** وذلك في الخريف عند سقط أوراق الأشجار **(فيسقط تترى)** أي شيئاً بعد شيء **(وينبت تباعاً)** بدون فترة بينهما **(فينحت)** أي يسقط **(من قصبه انحتات أوراق الأغصان ثمّ يتلاحق نامياً)** وذلك في الرّبيع إذا بدأ طلوع الأوراق **(حتّى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف)** لون ريشه الثّاني **(سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه)**.

ثمّ أشار إلى ما هو ألطف وأدقّ مما مضى وأعظم في الدّلالة على قدرة الصّانع المتعال فقال: **(وإذا تصفحت شعرة واحدة من شعرات قصبه أرتك)** تلك الشعرة من شدّة بصيصها ألواناً مختلفة فتارة **(حمرة وردية وتارة)** أخرى **(خضرة زبرجدية وأحياناً صفرة عسجدية)**.

ثمّ عقّب ذلك باستبعاد وصول الأذهان الثاقبة إلى وصفه وقال: **(فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن)** أي الفطن العميقة التي من شأنها إدراك دقائق الأشياء أو العلم بوجوه الأمور على ما ينبغي **(أو تبلغه قرائح العقول)** أي تناله العقول بجودة الطّبيعة من قولهم لفلان قريحة جيّدة يراد استنباط العلم بجودة الطبع **(أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين و)** الحال أن **(أقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه)** ولا ريب أنّ الشّعرة أقلّ الأجزاء الّتي بها قوام الحيوان.

والمراد بيان عجزها عن إدراك علل هذه الألوان على اختلافها واختصاص كلّ من مواضعها بلون غير الآخر وعلل هيئاتها وسائر ما أشار إليه، أو إظهار عجزها عن إدراك جزئيات الأوصاف المذكورة وتشريح الهيئات الظاهرة والخصوصيات الخفيّة في خلق ذلك الحيوان، فإنّ ما ذكره عليه السلام في هذه الخطبة تشريحه وإن كان على غاية البلاغة وفوق كلّ بيان في وصف حاله إلاّ أنّ فيه وراء ذلك جزئيات لم يستثبتها الوصف.

وهذا هو الأقرب والأنسب بما عقّبه من تنزيهه تعالى أعني قوله: **(فسبحان الذّي بهر العقول)** وغلبها **(وعن وصف خلق جلاه للعيون فأدركته محدوداً مكوّناً)** أي موصوفاً بالحدود والتكوين و**(مؤلّفاً)** من الأجزاء **(ملوّناً)** بالألوان المختلفة **(وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعته)** والغرض الدّلالة على عجز العقول عن إدراك ذاته سبحانه، فإنّها إذا عجزت عن إدراك مخلوق ظاهر للعيون على الأوصاف المذكورة فهي بالعجز عن إدراكه سبحانه ووصفه أخرى، وكذلك الألسن عن تلخيص صفته وتأدية نعته أعجز.

(وسبحان من أدمج) أي أحكم **(قوائم الذّرة)** وهي صغار النّمل **(والهمجة)** وهو صغير الذّباب **(إلى ما فوقهما من خلق)** البرّ والبحر من **(الحيتان والفيلة)** ونحوها **(ووأى)** أي وعد وألزم **(على نفسه ألا يضطرب شبح)** ولا يتحرك شخص **(مما أولج)** أي أدخل **(فيه الروح إلاّ وجعل الحمام)** والموت **(موعده والفناء غايته)**.

تتميم في نوادر وصف الطاووس

روى في الكافي عن سليمان الجعفري عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال: «الطاووس مسخ، كان رجلاً جميلاً فكابر امرأته رجل مؤمن تحبه فوقع بها، ثمّ راسلته بعد، فمسخهما الله عزّ وجلّ طاووسين أنثى وذكراً فلا تأكل لحمه ولا بيضه»(١).

وفي البحار من الخرائج عن محمّد بن إبراهيم الحارث التّميمي، عن الحسين عليه السلام أنّه قال: «إذا صاح الطاووس يقول: مولاي ظلمت نفسي واغتررت بزينتي فاغفر لي»(٢).

قال الدّميري في حياة الحيوان: الطاووس طائر معروف وتصغيره طويس بعد حذف الزّوائد، وكنيته أبو الحسن وأبو الوشى، وهو في الطير كالفرس في الدّواب عزّاً وحسناً وفي طبعه العفّة وحبّ الزّهو بنفسه والخيلاء والإعجاب بريشه، وعقده لذنبه كالطّاق لا سيّما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه، والأنثى تبيض بعد أن يمضي لها من العمر ثلاث سنين، وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذّكر ويتمّ لونه، وتبيض الأنثى مرّة واحدة في السنة اثنتي عشرة بيضة وأقل وأكثر، لا تبيض متتابعاً، ويسفد في أيّام الرّبيع، ويلقي ريشه في الخريف كما يلقى الشّجر ورقه، فإذا بدأ طلوع الأوراق في الشّجر طلع ريشه، وهو كثير العبث بالأنثى إذا حضنت، وربّما كسر البيض ولهذه العلّة يحضن بيضه تحت الدّجاج ولا تقوى الدّجاجة على حضن أكثر من بيضتين منه، وينبغي أن تتعاهد الدّجاجة بجميع ما تحتاج إليه من الأكل والشّرب مخافة أن تقوم عنه فيفسده الهواء، والفرخ الذي يخرج من حضن الدّجاجة يكون قليل الحسن وناقص الجثّة ومدّة حضنه ثلاثون يوماً، وفرخه يخرج من البيضة كالفروج كاسياً، وأعجب الأمور أنّه مع حسنه يتشأمّ به، وكان هذا والله أعلم إنّه لما كان سبباً لدخول إبليس الجنّة وخروج آدم عليه السلام منها وسبباً لخلوّ تلك الدّار من آدم مدّة دوام الدّنيا كرهت إقامته في الدّور لذلك.

---

(١) الكافي: ٦/٢٤٧ ح١٦، ووسائل الشيعة: ٢٤/١٠٦ ح٣٠٠٩٤.

(٢) الخرائج والجرائح: ١/٢٤٩، وبحار الأنوار: ٦١/٢٧ ح٨.

الترجمة

از جمله خطب بلاغت نظام آن امام است که ذکر می فرماید در آن عجایب و غرایب خلقت طاووس را به این مضامین:

اختراع کرد و آفرید خدای تعالی مخلوقات را آفریدنی عجیب از ذی روح و از غیر ذی روح و از ساکن و از صاحب حرکت و برپا داشت از علامات باهرات بر لطیف صنعت و عظیم قدرت خود شاهد صادقی را که انقیاد نمود مراورا عقل ها، درحالتی که اعتراف کننده بودند به او و گردن نهنده بودند بر او و صدا کرد در گوش های ما دلیل های او بر وحدانیت و یگانگی او سبحانه و دلیل های آن چه که آفریده از صورتهای مختلفه مرغهایی که ساکن گردانید آن ها را در شکافهای زمین و در فرجه های واقعه در میان کوه های آن و در سرهای کوه های بلند از صاحبان بال های گوناگون و هیئت های متباین در حالتی که متقلبند در افسار تسخیر و گستراننده اند بال های خود را در شکاف های هوای فسیح و فضای وسیع.

ایجاد فرمود آن ها را بعد از این که موجود نبودند در عجایب صورت های آشکار و ترکیب داد آن ها را در مجامع مفصلهایی که پوشیده اند در تحت پرده ها و منع فرمود بعض از مرغان را به جهت سنگینی و ضخامت جثّه آن از آن که بلند شود به هوا به سرعت و خفّت و گردانید آن را که می پرد بر روی زمین پریدنی که نزدیك باشد به زمین تا بلند شود ومنظّم نمود مرغان را با اختلاف ایشان در رنگها با قدرت لطیفه خود و صنعت دقیقه خود.

پس بعضی از آنها غوطهور شده در قالب یکرنگی که اصلا مخلوط نیست به آن غیر رنگی که غوطهور شده در آن و بعضی از آن ها فرو برده شده در رنگی که طوق گردن آن به خلاف رنگی است که رنگ داده شده به آن.

و از عجیب ترین مرغان از حیثیّت خلقت طاووس است که برپا داشته او را حق تعالی در محکم ترین تعدیل اجزا وترتیب داده رنگ های آن را در احسن ترتیب، با بالی که درهم کرده قصب ها و اصل های آن را و با دمی که دراز کرده

جای کشیدن آن را، وقتی که بگذرد طاووس نر بر طاووس ماده پراکنده سازد آن دم را از پیچیدگی آن و بلند می کند آن را در حالتی که مشرف باشد بر سر آن، گویا که آن دم بادبان کشتی است که منسوب است به شهر دارین که میل داده است آن را کشتیبان آن؛ می نازد به رنگ های مختلفه خود و می خرامد به نازش های خود، مباشرت می کند همچو مباشرت خروسان و مجامعت می کند با آلات تناسل مثل مجامعت نرهای شدیدالجماع. حواله می کنم تو را از این امر مذکور بر دیدن رأی العین، نه مانند کسی که حواله می کند بر سندهای ضعیف خود و اگر باشد این امر مثل گمان کسی که گمان می کند که طاووس آبستن می سازد ماده خود را با اشکی که می ریزد آن را کنج های چشم آن، پس می ایستد آن اشك در پلك های چشم او و آن که ماده او می لیسد آن را، پس از آن تخم می نهد، نه از جماع طاووس نر غیر از اشك بیرون آمده از چشم، هرآینه نمی باشد این گمان عجب تر از مطاعمه زاغها که نر و ماده منقار به منقار می گذارند و جزئی از آب که در سنگدان نر است به دهن ماده می رسد و از آن آبستن می شود، چنان چه اعتقاد عرب ها این است، خیال می کنی اصل پرده های طاووس را شانه ها از نقره بیضا و آن چه رسته بر آن از دایره های عجیبه و شمسه های غریبه آن طلای خالص و پارهای زبرجد.

پس اگر تشبیه کنی طاووس را به چیزی که رویانیده است آن را زمین، گویی که گلهایی است چیده شده از شکوفه هر بهاری و اگر تشبیه کنی آن را به لباسها، پس آن همچو حلّه های زینت داده شده است با طلا یا همچو جام های برد خوش آینده یمن است و اگر تمثیل کنی آن را به زیورها، پس او مانند نگین هایی است صاحب رنگ ها که کشیده در اطراف آن، یعنی مدور شده مانند نطاق به نقره مزیّن به جواهر.

راه می رود طاووس مثل راه رفتن شادی کننده متکبّر خرامان و می نگرد به نظر دقّت به دم و بال خود، پس قهقهه می زند در حالتی که خندان است از جهت حسن پیراهن رنگین خودو زنگ های لباس خود، پس چون اندازد نظر خو را به سوی پای های سیاه باریك خود، بانگ کند در حالتی که گریه کننده باشد به آواز بلند که نزدیك باشد روح از بدنش مفارقت نماید از شدت فریاد خود، زیرا که پاهای او زشت است و باریك همچو خروسان خلاسی که متولّد می شوند میان

مرغ هندی و فارسی در حالتی که برآمده است از طرف ساق او خاری که پنهان است، چنانچه در پای خروسان می روید.

و مراورا است در موضع پس گردن کاکلی سبز مزیّن با نقش و نگار و موضع بیرون آمدن گردن او مانند ابریق است و جای فرو رفتن گردن آن تا که منتهی شود به شکم او مثل رنگ وسمه یمانی است یا همچو حریر پوشیده شده بر آینه صاحب صیقل و جلا و گویا که طاووس پیچیده است به مقنعه سیاه، لکن خیال کرده می شود از جهت کثرت تر و تازگی او و شدت برّاقی او این که سبزی با طراوت آمیخته است به آن.

و با شکاف گوش او است خطّی مثل باریکی سر قلم در رنگ گل بابونج که سفید است در غایت روشنی، پس آن خط به سفیدی خود در میان سیاهی آن چه که آن جا است می درخشد و کم رنگی است از رنگ ها مگر این که اخذ نموده است از آن به نصیب کامل و بلند برآمده و تفوّق پیدا کرده آن رنگ بر او و به بسیاری روشنی و درخشیدن آن و برّاقی زیبای آن و خوبی آن.

پس طاووس مانند شکوفه هایی است گسترانیده که تربیت نداده آن را باران های بهاری و نه آفتاب های تابستانی وگاهی هست که عاری می شود از پر خود و برهنه می شود از لباس خود، پس می افتد آن پرها پیاپی ومی روید روییدنی، پس می ریزد آن پرها از قلم پر او همچو ریختن برگهای شاخه های درخت، بعد از آن متلاحق می شود در عقب یکدیگر در حالتی که نمودکننده است تا آن که برمی گردد به هیئت و صورتی که پیش از ریختن داشت. مخالف نمی باشد رنگ های لاحق به رنگ های سابق و واقع نمی شود هیچ رنگی در غیر جای خود.

و چون نظر کنی به تأملّ در هر مویی از موهای قلم او، می نمایاند آن موی تو را سرخی که به لون گل سرخ است و بار دیگر سبزی که به رنگ زبرجد است و گاهی زردی به رنگ طلای خالص.

پس چگونه می رسد به صفت این مرغ خوش رنگ فکرهای عمیقه؟ یا چگونه می رسد به کنه معرفت او عقلهای باذکاوت؟ یا چگونه به نظم می آورد وصف آن را اقوال وصف کنندگان و حال آن که کمترین جزءهای او عجز آورده است وهم ها را از ادراك آن و زبان ها را از وصف آن.

پس پاكا پروردگارى كه غالب شد به عقل ها از وصف كردن مخلوقى كه روشن و آشكار گردانيد آن را به چشم ها، پس ادراك كردند آن چشم ها آن مخلوق را، در حالتى كه صاحب حدّ معينى بود آفريده شده و صاحب تركيبى بود به رنگ هاى گوناگون.

پس منزّه پروردگارى كه محكم ساخت پاهاى مورچه و پشه كوچك را با آن چه فوق آن ها است از خلق ماهى ها و فيل ها و وعده كرده و لازم نموده بر نفس خود كه نجنبد هيچ جنبنده اى از موجوداتى كه داخل فرموده روح را در آن، مگر اين كه گردانيده مرگ را وعده گاه او و فنا را پايان كار او.

الفصل الثاني منها في صفة الجنة

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ ما يُوصَفُ لَكَ مِنْها، لَعزَفَتْ نَفْسُكَ مِنْ بَدائعِ ما أُخرِجَ إلىٰ الدُّنيا مِنْ شَهَواتِها ولَذّاتِها، وَزَخارِفِ مَناظِرِها ولَذَهَلَتْ بِالْفِكْرِ في إصْطِفاقِ أَشْجارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُها في كُثْبانِ المِسْكِ عَلىٰ سَواحِلِ أَنْهارِها، في تَعْلِيقِ كَبائِسِ اللُّؤْلُوِ الرَّطْبِ في عَساليجِها وأَفْنانِها، وطُلوُعِ تِلْكَ الثِّمارِ مُخْتَلِفَةً في غُلُفِ أَكْمامِها، تُجْنىٰ مِنْ غيرِ تَكَلُّفٍ فَتأتي عَلىٰ مُنْيَةِ مُجْتَنِيها، وَيُطافُ عَلىٰ نُزّالِها في أَفْنِيَةِ قُصُورِها بِالأَعْسالِ المُصَفَّقَةِ، وَالخُمُورِ المُرَوَّقَةِ، قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الكَرامَةُ تَتَمادىٰ بِهِمْ حَتّىٰ حَلوُّا دارَ القَرارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الأَسْفارِ، فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّها المُسْتَمِعُ بِالوُصُولِ إلىٰ ما يَهْجِمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ المَناظِرِ المُونِقَةِ، لَزَهَقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْها، ولَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسي هَذا إلىٰ مُجاوَرَةِ أَهْلِ القُبُورِ اسْتِعْجالاً بِها، جَعَلَنا اللّٰهُ وإِيّاكُمْ مِمَّنْ سَعىٰ بِقَلْبِه إلىٰ مَنازِلِ الأَبْرارِ بِرَحْمَتِهِ[1].

اللغة

قال السيد رحمه الله: قوله: «كبائس اللّؤلؤ الرّطب» **(الكباسة)** العذق و**(العساليج)** الغصون واحدها عسلوج.

(عزفت) بالعين المهملة والزّاء المعجمة أي زهدت وانصرفت و**(اصطفاق)** الأشجار اضطرابها من الصّفق وهو الضّرب يسمع له صوت يقال: صفق يده على يده صفقة أي ضربها عليها، وذلك عند وجوب البيع، وفي بعض النسخ اصطفاق أشجار أي انتظامها صفّاً، وفي بعضها اصطفاف أغصان بدل أشجار.

و**(الكباسة)** العذق التام بشماريخه ورطبه و**(الأكمام)** كالأكمة والكمام جمعَ كم وكمامة بالكسر فيهما وهو وعاء الطّلع وغطاء النّور و**(فناء)** البيت ما اتّسع من أمامه والجمع أفنية و**(التصفيق)** تحويل الشّراب من إناء إلى إناء ممزوجاً ليصفو و**(الرّواق)** الصّافي من الماء وغيره والمعجب و**(النّقلة)** بالضمّ الانتقال.

الإعراب

قوله: رميت ببصر قلبك، (الباء) زائدة، وفي تعليق، عطف على قوله في اصطفاق أشجار، وجملة (تجني) منصوبة المحل حال من الثّمار، و(قوم)، خبر محذوف المبتدأ

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٦٠١، وبحار الأنوار: ٨/ ١٦٣.

وجملة (جعلنا الله)، دعائية لا محلّ لها من الإعراب، وقوله: (برحمته)، متعلّق بقوله: جعلنا أو بقوله: سعى.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة حسبما ذكره الرضيّ وارد في صفة الجنّة دار النّعيم والرّحمة قال عليه السلام: **(فلو رميت ببصر قلبك)** أي نظرت بعين بصيرتك **(نحو ما يوصف لك منها)** أي إلى جهة ما وصف الله لك ورسوله في الكتاب والسنّة من نعيم الجنّة وما أعدّ الله فيها لأوليائه المؤمنين **(لعزفت نفسك)** وأعرضت **(عن بدائع ما أخرج إلى الدّنيا من شهواتها ولذّاتها وزخارف مناظرها)** ولم تجد لشيء منها وقعاً عندها **(ولذهلت)** مغمورة **(بالفكر في)** عظيم ما أعدّ في دار الخلد من **(اصطفاق أشجار)** واهتزازها بريح **(غيبت عروقها في كثبان المسك)** أي في تلال من المسك بدل الرّمل **(على سواحل أنهارها)** ولذهلت بالفكر **(في تعليق كبائس اللّؤلؤ الرّطب في عساليجها وأفنانها)** أي فروعها وأغصانها.

(و) في **(طلوع تلك الثمار)** وظهورها **(مختلفة في غلف أكمامها)** يجوز أن يراد باختلاف الثمار اختلافها باعتبار اختلاف الأشجار بأن يحمل كلّ نوع من الشّجر نوعاً من الثمر كما في أشجار الدّنيا فيكون ذكر الاختلاف إشارة إلى عدم انحصار ثمر الجنّة بنوع أو نوعين، وأن يراد به اختلافها مع وحدة الشّجرة، فذكر الاختلاف للدّلالة على عظيم قدرة المبدأ سبحانه.

ويدلّ على الاحتمال الأوّل ما في البحار من تفسير الإمام عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] قال عليه السلام: هي شجرة تميّزت بين سائر أشجار الجنّة إنّ سائر أشجار الجنّة كان كلّ نوع منها يحمل نوعاً من الثمار والمأكول وكانت هذه الشّجرة وجنسها تحمل البرّ والعنب والتين والعنّاب وسائر أنواع الفواكه والثمار والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون بذكر الشجرة فقال بعضهم: هي برّة، وقال آخرون: هي عنبة، وقال آخرون: هي عنّابة.

وعلى الثاني ما في الصّافي من العيون بإسناده إلى عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت للرّضا عليه السلام: يا ابن رسول الله أخبرني عن الشّجرة الّتي نهي منها آدم وحوّاء ما كانت؟ فقد اختلف النّاس فيها، فمنهم من يروي أنّها الحنطة، ومنهم من يروي أنّها العنب، ومنهم من يروي أنّها شجرة الحسد، فقال عليه السلام: كلّ ذلك حقّ، قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟ فقال عليه السلام: يا أبا الصلت إنّ شجرة الجنّة تحمل أنواعاً، وكانت شجرة الحنطة، وفيها عنب ليست كشجرة الدّنيا فافهم[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٦/ ٢٧٣ ح١٥، وتفسير الميزان: ١/ ١٤٣.

(تجنى من غير تكلّف فتأتي على مُنية مجتنيها) حسبما تشتهيه نفسه لا يترك له منية أصلاً كما قال سبحانه: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ قال عليّ بن إبراهيم القمّي: قال: دليت عليهم ثمارها ينالها القائم والقاعد.

وفي الصافي من الكافي عن النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار وهو متكىء[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قال في مجمع البيان: الجنى الثمر المجنيّ أي تدنو الثمرة حتّى يجنيها وليّ الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً عن ابن عباس، وقيل: أثمار الجنّتين دانية إلى أفواه أربابها، فيتناولونها متكئين، فإذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين، لا يرد أيديهم عنها بُعد ولا شوك عن مجاهد[2].

(ويطاف على نزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة) المصفاة **(والخمور المروّقة)** المتصفة بالصفاء.

كما أخبر به سبحانه في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ [الإنسان: ١٥ ـ ١٨].

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصافات: ٤٥ ـ ٤٧] أي يطوف عليهم ولدان مخلّدون بكأس من خمر معين ظاهر للعيون جارية في أنهار ظاهرة، وقيل: شديدة الجري، ووصفها بكونها بيضاء لأنها في نهاية الرقّة والصفاء واللّطافة النورية التي بها لذيذة للشاربين ليس فيها ما يعترى خمر الدّنيا من المرارة والكراهة، لا فيها غول أي لا يغتال عقولهم فيذهب بها، ولا يصيبهم منها وجع في البطن ولا في الرّأس ويقال: للوجع غول لأنه يؤدّي إلى الهلاك، ولا هم عنها ينزفون من نزف الرّجل فهو منزوف ونزيف إذا ذهب عقله بالسكر.

ولما وصف نعيم الجنة وما منّ الله بها على نازليها أشار إلى نزّالها فقال عليه السلام: **(قوم)** أي هم قوم **(لم تزل الكرامة تتمادى بهم)** أي متمادية بهم ممتدّة لهم متوسعة في حقهم **(حتى حلّوا)** ونزلوا **(دار القرار وآمنوا نقلة الأسفار)** أي من انتقالها وهو كناية عن خلاصهم عن مكاره عوالم الموت والبرزخ والقيامة وشدائدها وأهوالها.

---

(١) الكافي: ٨/ ٩٩، وبحار الأنوار: ٨/ ١٦٠.

(٢) بحار الأنوار: ٨/ ١٠٤، وتفسير مجمع البيان: ٩/ ٣٤٧.

روى في البحار من معاني الأخبار عن ابن عباس أنه قال: دار السلام الجنة وأهلها. لهم السلامة من جميع الآفات والعاهات والأمراض والأسقام، ولهم السلامة من الهرم والموت وتغير الأحوال عليهم، وهم المكرّمون الذين لا يهانون أبداً، وهم الأعزّاء الذين لا يذلون أبداً، وهم الأغنياء الذين لا يفقرون أبداً، وهم السعداء الذين لا يشقون أبداً، وهم الفرحون المسرورون الذين لا يغتمون ولا يهتمون أبداً، وهم الأحياء الذين لا يموتون أبداً فمنهم من في قصور الدرّ والمرجان أبوابها مشرعة إلى عرش الرّحمٰن، والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار[١].

ثمّ أخذ في تحضيض المخاطبين وتشويقهم إلى طلب الجنة والقصد إليها بقوله: **(فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك)** أي يدخل عليك على غفلة منك **(من تلك المناظر المونقة)** المعجبة **(لزهقت نفسك)** أي بطلت وهو كناية عن الموت **(شوقاً إليها)** وحرصاً عليها **(ولتحملت)** وارتحلت **(من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها)** أي بتلك المناظر المونقة.

ومحصل المراد أنك لو تفكرت في درجات الجنان وما أعدّ الله سبحانه فيها لأوليائه المقرّبين، وعباده الصالحين من جميع ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين لمتّ من فرط الشوق والشغف ولأزعجت بكلّيتك عن الدّنيا، وساكنت المقابر وجاورت أهل القبور انتظاراً للموت الممدّ إليها.

ثمّ دعا عليه السلام له ولهم بقوله: **(جعلنا الله وإياكم ممن سعى إلى منازل الأبرار)** ومساكن الأخيار **(برحمته)** ومنّته إنه وليّ الإحسان والكرم والإمتنان.

تبصرة

آيات الكتاب العزيز والأخبار المتضمنتان لوصف الجنة والتشويق إليها فوق حدّ الإحصاء ولنورد بعض الأخبار المتضمنة له والمشتملة على مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وبعض فضائل شيعته لعدم خلوّه عن مناسبة المقام فأقول:

روى الشارح المعتزلي عن الزمخشري في ربيع الأبرار قال: ـ ومذهبه في الاعتزال ـ ونصرة أصحابنا معلوم وكذا في انحرافه عن الشيعة وتسخيفه لمقالاتهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لما أُسري بي أخذني جبرائيل فأقعدني على درنوك من درانيك الجنة ثمّ ناولني سفرجلة فبينما أنا أقلبها انفلقت فخرجت منها جارية لم أر أحسن منها فسلّمت فقلت من أنت؟ قال أنا الرّاضية المرضية خلقني الجبار من ثلاثة أصناف أعلاي من عنبر وأوسطي من كافور

---

(١) معاني الأخبار: ١٧٦، وشرح أصول الكافي: ٢١/١٢.

وأسفلي من مسك ثمّ عجنني بماء الحيوان وقال لي كوني فكنت خلقني لأخيك وابن عمك عليّ بن أبي طالب[١].

أقول: ورواه في غاية المرام من كتاب مناقب أمير المؤمنين عليه السلام لموفق بن أحمد أخطب خوارزم مثله، وعن عيون الأخبار للصدوق نحوه ومن أمالي الصدوق بتفاوت يسير وزيادة قليلة.

وروى في البحار من كشف الغمة عن موفق بن أحمد الخوارزمي أيضاً بسنده عن بكر بن أحمد عن محمّد بن عليّ عن فاطمة بنت الحسين عليه السلام عن أبيها وعمها الحسن بن عليّ عليه السلام قالا: أخبرنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما أدخلت الجنة رأيت الشجرة تحمل الحليّ والحلل أسفلها خيل بلق، وأوسطها حور العين، وفي أعلاها الرّضوان قلت: يا جبرائيل لمن هذه الشجرة قال: هذه لابن عمك أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إذا أمر الله الخليقة بالدّخول إلى الجنة يؤتى بشيعة عليّ عليه السلام حتى ينتهي بهم إلى هذه الشجرة، فيلبسون الحليّ والحلل، ويركبون الخيل البلق وينادي مناد: هؤلاء شيعة عليّ صبروا في الدّنيا على الأذى فحبوا هذا اليوم[٢].

وفي البحار من تفسير فرات بن إبراهيم عن الحسين بن سعيد معنعناً عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ في الجنة لشجرة يقال لها طوبى ما في الجنة دار إلاّ فيها غصن من أغصانها أحلى من الشّهد وألين من الزّبد أصلها في داري وفرعها في دار عليّ بن أبي طالب**»[٣].

وفيه منه أيضاً عن إسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم الفارسي معنعناً عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لما أسرى بي إلى السّماء فصرت في سماء الدّنيا حتّى صرت في السماء السّادسة فإذا أنا بشجرة لم أر شجرة أحسن منها فقلت: لجبرائيل يا حبيبي ما هذه الشجرة؟ قال: هذه طوبى يا حبيبي، قال: قلت: ما هذا الصوت العالي الجهوري؟ قال هذا صوت طوبى قلت: أي شيء يقول؟ قال: يقول: واشوقاه إليك يا عليّ بن أبي طالب**»[٤].

وفيه منه أيضاً عن الحسين بن القاسم والحسين بن محمّد بن مصعب وعليّ بن حمدون وزاد بعضهم الحرف والحرفين ونقص بعضهم الحرف والحرفين والمعنى واحد إن شاء الله.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٩/ ٢٢٩ ح٤، والغدير: ٣/ ١٢٣ ح٤١.

(٢) اليقين: ١٥٦، وبحار الأنوار: ٨/ ١٣٩ ح٥١.

(٣) بحار الأنوار: ٨/ ١٥١ ح٩٠، ومجمع البحرين: ٣/ ٨٠.

(٤) بحار الأنوار: ٨/ ١٥١، وتفسير فرات الكوفي: ٢١٠ ح٢٨٤.

قالوا: حدّثنا عيسى بن مهران معنعناً عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: لمّا نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله: «طوبى لهم وحسن مآب» قام المقداد بن الأسود الكندي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله وما طوبى؟ قال: يا مقداد شجرة في الجنّة لو يسير الرّاكب الجواد لسار في ظلّها مائة عام قبل أن يقطعها، ورقها وقشورها برد خضر وزهرها رياش صفر، وأفنانها سندس واستبرق وثمرها حلل خضر، وطعمها زنجبيل وعسل وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرّد أخضر وترابها مسك وعنبر وحشيشها منيع والنجوج[1] يتأجّج من غير وقود، ويتفجّر من أصلها السلسبيل والرّحيق والمعين وظلّها مجلس من مجالس شيعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يألفونه ويتحدثون بجمعهم وبينا هم في ظلّها يتحدثون إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجباء جبلت من الياقوت ثمّ نفخ الروح فيها مزمومة بسلاسل من ذهب كأنّ وجوهها المصابيح نضارة وحسناً ويزّها خزّ أحمر ومزعزى أبيض مختلطتان لم ينظر الناظرون إلى مثله حسناً وبهاء وذلّل من غير مهلة نجباء من غير رياضة عليها رحال ألواحها من الدّر والياقوت المفضّضة باللّؤلؤ والمرجان صفائحها من الذهب الأحمر ملبّسة بالعبقري والأرجوان فأناخوا تلك النجائب إليهم. ثمّ قالوا لهم: ربّكم يقرءكم السلام ويراكم وينظر إليكم ويحبّكم وتحبّونه ويزيدكم من فضله ورحمته فإنّه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم فيتحوّل كلّ رجل منهم على راحلته فينطلقون صفاً واحداً معتدلاً ولا يمرّون بشجرة من أشجار الجنّة إلاّ أتحفتهم بثمارها ورحلت لهم عن طريقهم كراهية يثلم بطريقتهم وأن يفرق بين الرّجل ورفيقه.

فلما وقعوا إلى الجبّار جلّ جلاله قالوا: ربّنا أنت السلام ولك يحقّ الجلال والإكرام فيقول الله تعالى مرحباً بعبادي الذين حفظوا وصيتي في أهل بيت نبيّي ورعوا حقي وخافوني بالغيب وكانوا مني على كلّ حال مشفقين قالوا: وعزّتك وجلالك ما قدرناك حق قدرك، وما أدّينا لك كلّ حقك فأذن لنا بالسجود قال: لهم ربهم إني وضعت عنكم مؤنة العبادة وأرحت عليكم أبدانكم وطال ما نصبتم لي الأبدان وعنتّم الوجوه فالآن أفضيتم إلى روحي ورحمتي فاسألوني ما شئتم، وتمنوا عليّ أعطكم أمانيكم فإني لن أجزيكم اليوم بأعمالكم ولكن برحمتي وكرامتي وطولي وارتفاع مكاني وعظيم شأني ولحبكم بأهل بيت نبيّي.

فلا يزال يرفع أقدار محبي عليّ بن أبي طالب في العطايا والمواهب حتى أنّ المقصر من شيعته ليتمنى في أُمنيته مثل جميع الدّنيا منذ خلقها الله إلى يوم فنائها فيقول لهم ربّهم: لقد قصرتم في أمانيكم ورضيتم بدون ما يحق لكم فانظروا إلى مواهب ربّكم.

---

(١) وهو عود البخور.

فإذا بقباب وقصور في أعلا علّيين من الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض يزهر نورها فلولا أنها مسخّرة إذ اللمعت الأبصار منها فما من تلك القصور من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر وما كان منها من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض وما كان فيها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالرياش الأصفر مبثوثة مطرّزة بالزمرّد الأخضر، والفضة البيضاء والذّهب الأحمر، قواعدها وأركانها من الجوهر يثور من أبوابها وأعراصها نور، شعاع الشمس عندها مثل الكوكب الدّري في النهار المضيء.

وإذا على باب كلّ قصر من تلك القصور جنتان مدهامّتان، فيهما عينان نضّاختنان، وفيهما من كلّ فاكهة زوجان.

فلمّا أرادوا أن ينصرفوا إلى منازلهم ركبوا على براذين من نور بأيدي ولدان مخلّدين، بيد كلّ واحد منهم حكمة برزون من تلك البراذين، لجمها وأعنّتها من الفضّة البيضاء، وأثفارها من الجوهر.

فلمّا دخلوا منازلهم وجدوا الملائكة يهنّؤنهم بكرامة ربّهم، حتّى إذا استقرّ واقرارهم، قيل لهم: هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً قالوا: نعم ربّنا رضينا فارض عنّا قال: برضاي عنكم وبحبّكم أهل بيت نبيّي أحللتكم داري، وصافحتم الملائكة فهنيئاً هنيئاً غير محذور وليس فيه تنغيص فعندها قالوا: الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفور شكور».

قال أبو موسى: فحدّثت به أصحاب الحديث عن هؤلاء الثمانية فقلت لهم: أنا أبرأ إليكم من عهدة هذا الحديث لأنّ فيه قوماً مجهولين ولعلّهم لم يكونوا صادقين فرأيت ليلتي أو بعده كأنّه أتاني آت ومعه كتاب فيه من مخول بن إبراهيم والحسن بن الحسين، ويحيى بن الحسن بن فرات وعليّ بن القاسم الكندي، ولم ألق عليّ بن القاسم، وعدّة بعد لم أحفظ أسماءهم كتبنا إليك من تحت شجرة طوبى وقد أنجز لنا ربنا ما وعدنا فاستمسك بما عندك من الكتب، فإنك لن تقرأ منها كتاباً إلا أشرقت له الجنة[1].

(١) بحار الأنوار: ٨/ ١٥٤، وتأويل الآيات: ١/ ٢٣٥ ح١٢.

الترجمة

فصل ثانی از این خطبه در فضل بهشت عنبر سرشت است، می فرماید:

پس اگر بیندازی تو دیده قلب خود را به جانب چیزی که وصف کرده می شود از برای تو از بهشت، هرآینه اعراض کند نفس تو از عجایب آن چه که بیرون آورده به سوی دنیا از پرده غیب از شهوات و لذّات آن و زینت های منظره های آن و هرآینه غفلت کنی به سبب فکر کردن در آواز کردن و به هم خوردن درختانی که غایب شده اند ریشه های آن ها در تلّ های مشك بر اطراف نهرهای آن و درآویختن خوشه های مروارید تروتازه در شاخ های بزرگ آن ها و شاخ های کوچك آن و در ظاهر شدن آن میوه ها، در حالتی که مختلفند در لون و طعم در غلاف ها و غنچه های آن میوه ها، درحالتی که چیده می شوند بی زحمت و مشقت، پس می آیند آن میوه ها بر خواهش چیننده های خود و طواف کرده می شوند بر نازلان آن پیرامون قصرهای آن با عسل های صاف کرده شده از کدورات و خمرهای صافیه.

ایشان جماعتی هستند که همیشه کرامت کشیده می شود به ایشان تا فرود آیند به سرای برقراری و ایمن شوند از انتقال جایی به جایی، پس اگر مشغول گردانی قلب خود را ای گوش دهنده، به رسیدن به سوی آن چه هجوم آور می شود از آن منظره های تعجب آورنده خوش آینده، هرآینه برآید جان تو به جهت اشتیاق به سوی آن و هرآینه متوجه می شوی از این مجلس من به همسایگی اهل قبرستان از جهت شتافتن به آن نعیم بی پایان؛ بگرداند خدای تعالی ما را و شما را از کسانی که سعی می کند به منزلهای نیکوکاران به رحمت بی نهایت و بخشش بی غایت خود.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والخامسة والستون من المختار في باب الخطب

والظاهر أنها ملتقطة من خطبة طويلة قدّمنا روايتها في شرح الخطبة السابعة والثمانين من الكافي فليراجع هناك وهذه متضمن لفصلين:

الفصل الأول

لِيتَأَسَّ صَغِيرُكُم بِكَبِيرِكُم، وَلاَ تَكُونُوا كَجُفاةِ الجاهِلِيَّةِ، لاَ فِي الدِّينِ تَتَفَقَّهُونَ، وَلاَ عَنِ اللَّهِ تَعْقِلُونَ، كَقَيْضِ بِيْضٍ في أداحٍ يَكُونُ كَسرُها وِزْراً، ويَخرُجُ حِضانُها شَرّاً.

الفصل الثاني منها

إِفْتَرقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ، فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَما مَالَ مالَ مَعَهُ، عَلىٰ أَنَّ اللَّهَ تَعالىٰ سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَني أُمَيَّةَ كَما تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ، يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكاماً كَرُكامِ السَّحابِ، ثُمَّ يَفْتَح اللَّهُ لَهُمْ أَبْواباً يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثارِهِمْ كَسَيْلِ الجَنَّتَيْنِ حَيْثُ لَمْ تَسْلُمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ لَهُ أَكَمَةٌ، وَلِمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ وَلاَ حِدابُ أَرْضٍ، يُذَعْذِعُهُمُ اللَّهُ في بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيارِ قَوْمٍ.

وَأَيْمُ الله لَيَذُوبَنَّ ما في أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَما تَذُوبُ الأَلْيَةُ عَلَى النّارِ.

يا أَيُّهَا النّاسُ لَوْ لَمْ تَتَخاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الباطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلُكُم، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ، تُهْتُمْ مَتاهَ بَني إِسْرائيلَ، وَلَعَمْري لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمْ التِّيهُ، مِنْ بَعْدي أَضْعافاً خَلَّفْتُمُ الحَقَّ وَراءَ ظُهُورِكُم، وقَطَعْتُمُ الأَدْنىٰ ووَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُم إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهاجَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله، وَكُفِيتُمْ مَؤُنَةَ الإِعْتِسافِ، ونَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الفادِحَ عَنِ الأَعْناقِ[1].

اللغة

(تتفقّهون) و**(تعقلون)** في بعض النسخ بصيغة الخطاب وفي بعضها بصيغة الغيبة و**(قيض**

(١) شرح أصول الكافي: ١١/ ٤٠٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٣٢٣.

البيض) بالفتح قشرة البيض العليا اليابسة وقيل: الّتي خرج ما فيها من فرخ.

وقال الشارح البحراني: تبعاً للشارح المعتزلي **(قيض البيض)** كسره تقول قضت البيضة كسرتها و**(انقاضت)** تصدّعت من غير كسر، و**(تقيّضت)** تكسّرت فلقاً فعلى قولهما يكون القيض مصدراً وعلى ما ذكرناه اسماً وهذا أظهر وأولى بقرينة قوله عليه السلام: يكون كسرها وزراً فافهم.

و**(الأَداح)** مخفّف أداحي جمع أُداحي بالضمّ مثل خرطوم وخراطيم، وعرقوب وعراقيب، وقد يكسر وهو الموضع الّذي تبيض فيه النّعامة وتفرخ، وهو أُفعول من دحوت لأنّها تدحوه برجلها أي تبسطه ثمّ تبيض فيه وليس للنعام عشّ و**(حضن)** الطائر بيضه حضناً وحضاناً بكسرهما ضمّه تحت جناحه فهي حاضن لأنّه وصف مختصّ وحكى **(حاضنة)** على الأصل و**(القزع)** القطع من السحاب المتفرّقة والواحدة قزعة مثل قصب وقصبة و**(الركام)** بالضمّ ما تراكم من السحاب وكثف منها وبالفتح جمع شيء فوق آخر والموجود في النسخ بالضمّ و**(المستثار)** موضع الثوران والهيجان و**(القارة)** بالقاف الجبل الصّغير و**(الحداب)** بالكسر جمع حدبة وهي كالحدب محرّكة ما ارتفع من الأرض قال سبحانه: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ و**(الألية)** بفتح الهمزة وجمعها أليات بالتحريك والتثنية أليان بغير تاء و**(المتاه)** مصدر ميميّ بمعنى التيه و**(فدحه)** الدّين اثقله.

الإعراب

الضمير في (كسرها) راجع إلى القيض والتأنيث أمّا لكونها بمعنى القشرة أو باعتبار كسبها التأنيث عن المضاف إليه وهي قاعدة مطّردة قال الشاعر: كما شرفت صدر القناة من الدّم و(حضانها) بالضمّ فاعل يخرج وعلى في قوله: «على أن الله» بمعنى مع كما في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] وقوله: كقيض بيض، بدل من قوله: كجفاة الجاهلية، والباقي واضح.

المعنى

اعلم أنّ مدار هذه الخطبة على ما التقطها السيد رحمه الله على فصلين:

الفصل الأول

مسوق لنصح المخاطبين وهدايتهم على ما فيه انتظام أمورهم وصلاح عملهم من حيث الدّين والدّنيا وهو قوله: **(ليتأسّ صغيركم بكبيركم)** أمر الصغار بتأسيّ الكبار لأنّ الكبير أكثر تجربة وأكيس فهو أليق بأن يتأسى به **(وليرؤف كبيركم بصغيركم)** أمر الكبار بالرّأفة على

الصغار لأنّ الصغير مظنة الضعف فهو أحقّ بأن يرحم عليه ويرأف.

قال الكندري في محكى كلامه ليتأس من صغر منزلته في العلم والعمل بمن له متانة فيهما، وليرحم كلّ من له جاه ومنزلة في الدّنيا بالمال والقوة كل من دونه **(ولا تكونوا كجفاة الجاهليّة)** أي كأهل الجاهلية الموصوفين بالجفاء والقسوة والفظاظة والغلظة **(لا في الدّين تتفقّهون، ولا عن الله تعقلون)** أشار إلى وجه الشّبه الجامع بين الفرقتين وهو جهلهم بمعالم الدّين، وغفلتهم عن أحكام ربّ العالمين قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

قال الشارح المعتزلي: وجه الشبه أنها إن كسرها كاسر أثم لأنه يظنه بيض النعام وإن لم يكسرها يخرج حضانها شراً إذ يخرج أفعياً قاتلاً، واستعار لفظ الأداحي للأعشاش مجازاً لأنّ الأداحي لا تكون إلاّ للنعام[1].

وقال الشارح البحراني: نهاهم عليه السلام أن يشبهوا جفاة الجاهليّة في عدم تفقّههم في الدين، فيشبهون إذاً بيض الأفاعي في أعشاشها ووجه الشّبه أنه إن كسر كاسر أثم لتأذّى الحيوان به فكذلك هؤلاء إذا شبّهوا جفاة الجاهليّة لا يحلّ أذيهم لحرمة ظاهر الإسلام، وإن أُهملوا وتركوا على الجهل خرجوا شياطين.

أقول: وببيان أوضح إنّ الأفاعي كما أنّ في كسرها سلامة من شرّ ما يخرج منها لو أبقيت على حالها إلا أنّ فيه وزراً على كاسرها وفي عدم كسرها لا يكون على أحد وزر إلاّ أنّ ما يخرج منها تكون منشأ الشّرور والأذى فكذلك هؤلاء إن أُقيمت فيهم مراسم السّياسة المدنيّة بالتّأديب والتعزيز والتّعذيب لاستقامت الأمور وانتظمت وظائف الخلافة لكن في إقامتها وزراً على المقيم لأنّ فيه مخالفة لأمر الله سبحانه أو نهيه كما قال عليه السلام في الكلام الثامن والستّين: وإنّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكنّي لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي، وإن تركوا على حالهم كانوا منشأ الشرور والمفاسد فيضلّون كثيراً ويضلوا عن سواء السبيل.

والفصل الثاني منها

إشارة إلى اختلاف شيعته وأصحابه من بعده وهو قوله: **(افترقوا بعد ألفتهم)** أي بعد إئتلافهم واجتماعهم عليّ **(وتشتّتوا عن أصلهم)** أي تفرّقوا عن إمام الحقّ الذي يحقّ الائتمام به، فصار بعضهم كيسانيّاً وبعضهم زيدياً وبعضهم فطحياً وغيرها **(فمنهم آخذ بغصن أينما مال مال معه)**.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٨٢ بتفاوت.

قال الشّارح المعتزلي: أي يكون منهم من يتمسك بمن أخلفه من بعدي من ذرّية الرّسول ﷺ أينما سلكوا سلكوا معهم، وتقدير الكلام: ومنهم من لا يكون هذه حاله لكنّه لم يذكره اكتفاء بذكر القسم الأوّل دالّ على القسم الثّاني.

ثمّ أخبر عليه السلام أنّ الفريقين يجتمعان فقال: **(على أنّ الله)** سبحانه **(سيجمعهم لشرّ يوم لبني أُمية)**.

قال الشارح المعتزلي: وكذا كان حال الشيعة الهاشمية اجتمعت على إزالة ملك بني مروان من كان منهم ثابتاً على ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومن حاد منهم عن ذلك، وذلك في أواخر أيام مروان الحمار عند ظهور الدّعوة الهاشمية.

أقول: قد تقدّم في شرح الخطبة السابعة والثمانين، أنّ ما أخبر عليه السلام به قد وقع في سنة اثنين وثلاثين ومائة عند ظهور أبي مسلم المروزي الخراساني صاحب الدّعوة، وفي هذه السنة ظهر السفّاح بالكوفة، وبويع له بالخلافة وكان استئصال بني أمية بيده كما عرفت تفصيلاً في شرح الخطبة المائة والرابعة.

ويعجبني أن أورد هنا نادرة لم يسبق ذكرها أوردها الدّميري في حياة الحيوان.

قال: لما قتل إبراهيم بن الوليد بويع لمروان بن محمّد المنبوز بالحمار بالخلافة وفي أيامه ظهر أبو مسلم الخراساني، وظهر السفّاح بالكوفة، وبويع له بالخلافة وجهّز عمه عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عباس لقتال مروان بن محمّد، فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل، واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم مروان وقتل من عسكره وغرق ما لا يحصى وتبعه عبد الله إلى أن وصل إلى نهر الأردن فلقي جماعة من بني أمية وكانوا نيّفاً وثمانين رجلاً فقتلهم عن آخرهم.

ثمّ جهّز السفاح عمه صالح بن علي على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله وقد نازل دمشق ففتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض عبد الله ثغورها حجراً حجراً وهرب مروان إلى مصر فتبعه صالح حتى وصل أبي صير وهي قرية عند الفيوم، قال ما اسم هذه القرية قالوا أبو صير قال فإلى الله المصير.

ثمّ دخل الكنيسة التي بها فبلغه أنّ خادماً نمّ عليه فأمر به فقطع رأسه وسلّ لسانه وأُلقى على الأرض فجاءت هرّة فأكلته ثمّ بعد أيام هجم على الكنيسة التي كان نازلاً بها عامر بن إسماعيل فخرج مروان من باب الكنيسة وفي يده سيف وقد أحاطت به الجنود وخفقت حوله الطبول فتمثل ببيت الحجاج بن حكيم السلمي وهو.

متقلدين صفائحاً هندية يتركن من ضربوا كان لم يولد

ثمّ قاتل حتى قتل فأمر عامر برأسه فقطع في ذلك المكان وسلّ لسانه وألقى على الأرض فجاءت تلك الهرّة بعينها فخطفته فأكلته فقال عامر لو لم يكن في الدنيا عجب إلا هذا لكان كافياً لسان مروان في فم هرّة؟ وقال في ذلك شاعرهم.

قد يسّر الله مصراً عنوة لكم | وأهلك الكافر الجبارإذا ظلما
فلاك مقوله هز يجرجره | وكان ربك من ذي الظلم منتقما

قال الدّميري: وكان قتل مروان في سنة ثلاث وثلاثين ومائة وهو آخر خلفاء بني أمية وأوّلهم معاوية بن أبي سفيان وكانت مدّة خلافتهم نيّفاً وثمانين سنة وهي ألف شهر وبقتل مروان انقرضت دولة بني أمية لعنهم الله قاطبة.

(كما تجتمع قزع الخريف) من ها هنا وهناك **(يؤلف الله بينهم)** وهو كناية عن اتفاق آرائهم وكلمتهم على إزالة ملك بني أمية **(ثمّ يجعلهم ركاماً كركام السحاب)** أي يجعلهم متراكمين مشتركين مجتمعين منضماً بعضهم إلى بعض كالمتراكم من السحاب **(ثمّ يفتح الله لهم أبواباً)**.

قال الشارح البحراني: الأبواب إشارة إما إلى وجوه الآراء التي تكون أسباب الغلبة والانبعاث على الاجتماع أو أعمّ منها كسائر الأسباب للغلبة من إعانة بعضهم لبعض بالأنفس والأموال وغير ذلك **(يسيلون من مستثارهم)** استعارة تبعيّة أي يخرجون من موضع ثورانهم وهيجانهم **(كسيل الجنتين)** اللّتين أخبر الله بهما في كتابه العزيز وستعرف قصّتها تفصيلاً ووجه الشّبه الشدّة في الخروج وإفساد ما يأتون إليه كقوّة ذلك السيل **(حيث لم تسلم عليه قارة ولم تثبت عليه أكمة)** أي لم يقاوم له جبل ولا تلّ **(ولم يردّ سننه)** أي طريقه **(رصّ طود)** أي جبل مرصوص شديد الالتصاق **(ولا حداب أرض)** أي الرّوابي والنجا **(ويذعذعهم الله في بطون أوديته ثمّ يسلكهم ينابيع في الأرض)**.

قال سبحانه: ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض، والمراد أنّ الله سبحانه كما ينزل من السّماء ماء فيكنّه في أعماق الأرض ثمّ يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها كذلك هؤلاء القوم يفرّقهم الله في بطون الأودية وغوامض الأرض ثمّ يظهرهم بعد الاحتفاء أو كناية عن إخفائهم بين النّاس في البلاد ثمّ إظهارهم بالإعانة والتأييد فـ**(سيأخذ بهم من قوم)** ظالمين **(حقوق قوم)** مظلومين والمراد بهم آل الرّسول صلى الله عليه وآله **(ويمكن لقوم)** من بني هاشم **(في ديار قوم)** من بني أميّة.

ثمّ أقسم بالقسم البارّ فقال: **(وأيم الله ليذوبن ما في أيديهم)** أي أيدي بني أميّة أو بني العباس من الملك والسلطنة **(كما يذوب الألية على النّار)** وجه الشبه الاضمحلال والفناء.

ثمّ عاد إلى توبيخ المخاطبين فقال: (**أيها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق**) أراد به نفسه لأنّ الحقّ معه وهو مع الحق كما ورد في صحيح الخبر (**ولم تهنوا عن توهين الباطل**) أراد به معاوية وأصحابه (**لم يطمع فيكم**) وفي بلادكم (**من ليس مثلكم**) في البأس والقوّة (**ولم يقو من قوي عليكم**) ولم يشنّ الغارات على بلادكم وأصقاعكم ولكنّكم (**تهتم متاه بني إسرائيل**) أي تحيرتم مثل تحيرهم وستعرف تيههم إن شاء الله بعد الفراغ من شرح الخطبة (**ولعمري ليضعفنّ لكم التيه**) والضلال (**من بعدي أضعافاً**) وكذا كان لأنّ تيه بني إسرائيل كان أربعين سنة وتيه هؤلاء جاوز الثمانين مدّة ملك بني أُمية بل زاد على ستمائة مدّة ملك بني العباس بل ممدّ إلى ظهور الدّولة القائمية بما (**خلّفتم الحق وراء ظهوركم**) ونكبتم عن الصراط المستقيم (**وقطعتم الأدنى**) أي الأقرب من رسول الله ﷺ نسباً وصهراً وأراد به نفسه (**ووصلتم الأدنى**) أراد به معاوية أو من تقدّم عليه من المتخلّفين.

ثمّ أرشدهم إلى وجه الرّشاد والسداد فقال: (**واعلموا أنّكم أن اتبعتم الدّاعي لكم**) أراد به نفسه أو القائم عليه السلام وفي بعض النسخ الرّاعي بالراء وقد تقدّم فيما ذكرناه سابقاً أنّ الإمام راع لرعيّته، وظهر لك وجه المناسبة في إطلاق الرّاعي عليه (**سلك بكم منهاج الرسول**) أي جادة الشريعة (**وكفيتم مؤنة الاعتساف**) في طرق الضلال (**ونبذتم الثقل الفادح**) أي الأثم والعذاب في الآخرة (**عن الأعناق**).

تنبيهان

الأول في قصة قوم سبأ وسيل الجنتين

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧].

قال عليّ بن إبراهيم القميّ قال: إنّ بحراً كان في اليمن وكان سليمان عليه السلام أمر جنوده أن يجروا لهم خليجاً من البحر العذب إلى بلاد هند، ففعلوا ذلك وعقدوا له عقدة عظيمة من الصخر والكلس حتّى تفيض على بلادهم، وكانوا إذا أرادوا أن يرسلوا منه الماء أرسلوه بقدر ما يحتاجون إليه وكانت لهم جنّتان عن يمين وشمال عن مسيرة عشرة أيّام فيها يمرّ المارّ لا تقع عليه الشمس من التفافها.

فلمّا عملوا بالمعاصي وعتوا عن أمر ربّهم ونهاهم الصالحون فلم ينتهوا بعث الله على ذلك السدّ الجزر وهي الفارة الكبيرة فكانت تقلع الصخرة التي لا يستقلّها الرّجل وترمي به

فلمّا رأى ذلك قوم منهم هربوا وتركوا البلاد فما زال الجزر تقلع الحجر حتّى خربوا ذلك السدّ فلم يشعروا حتّى غشيهم السّيل وخرب بلادهم وقلع أشجارهم.

وقال الطبرسي في مجمع البيان في تفسير الآية: ثمّ أخبر سبحانه عن قصّة سبأ بما دلّ على حسن عاقبة الشّكور وسوء عاقبة الكفور فقال: ـ لقد كان لسبأ ـ المراد بسبأ هنا القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ـ في مسكنهم ـ أي في بلدهم ـ آية ـ أي حجّة على وحدانيّة الله عزّ وجلّ وكمال قدرته وعلامة على سبوغ نعمته ثمّ فسّر سبحانه الآية فقال: ـ جنّتان عن يمين وشمال ـ أي بستانان عن يمين من أتاهما وشماله وقيل: عن يمين البلد وشماله[1].

وقيل: أنّه لم يرد جنّتين اثنتين والمراد إنه كانت ديارهم على وتيرة واحدة إذ كانت البساتين عن يمينهم وشمالهم متّصلة بعضها ببعض وكانت من كثرة النّعم أنّ المرأة تمشي والمكتل على رأسها فيمتلىء بالفواكه من غير أن تمسّ بيدها شيئاً.

وقيل: الآية المذكورة هي أنّه لم يكن في قريتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حيّة، وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمّل ودوابّ ماتت عن ابن زيد.

وقيل: أنّ المراد بالآية خروج الأزهار والثّمار من الأشجار على اختلاف ألوانها وطعومها.

وقيل: أنها كانت ثلاث عشرة قرية في كلّ قرية نبيّ يدعوهم إلى الله سبحانه يقولون لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥] أي كلوا ممّا رزقكم الله في هذه الجنان واشكروا له يزدكم من نعمه واستغفروه يغفر لكم (بلدة طيبة) أي هذه بلدة مخصّبة نزهة أرضها عذبة تخرج النّبات وليست بسبخة وليس فيها شيء من الهوامّ المؤذِية.

وقيل: أراد به صحة هوائها وعذوبة مائها وسلامة تربتها وأنّه ليس فيها حرّ يؤذي في القيظ، ولا برد يؤذي في الشتاء (وربّ غفور) أي كثير المغفرة للذّنوب (فأعرضوا) عن الحقّ ولم يشكروا الله سبحانه ولم يقبلوا ممّن دعاهم إلى الله من أنبيائه (فأرسلنا عليهم سيل العرم) وذلك أنّ الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن، وكان هناك جبلان يجتمع ماء المطر والسيول بينهما فسدّوا ما بين الجبلين فإذا احتاجوا إلى الماء نقبوا السدّ بقدر الحاجة فكانوا يسقون زروعهم وبساتيهم فلمّا كذّبوا رسلهم وتركوا أمر الله بعث الله جرزاً نقب ذلك الرّدم وفاض الماء عليهم فأغرقهم عن وهب.

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ١٤٥.

وقال البيضاوي: سيل العرم أي سيل الأمر العرم أي الصّعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم إذا شرس خلقه وصعب أو المطر الشديد أو الجزر أضاف إليه لأنه نقب عليهم سكراً ضربته لهم بلقيس، فحقنت به ماء الشجر وتركت فيه نقباً على مقدار ما يحتاجون إليه أو المسناة التي عقدت سكراً على أنّه جمع عرمة وهي الحجارة المركومة.

وقيل: اسم وادٍ جاء السيل من قبله وكان ذلك بين عيسى ومحمّد (وبدّلناهم بجنتيهم) اللّتين فيهما أنواع الفواكه والخيرات (جنّتين) أخراوين (ذواتي أُكل خمط) مرّ بشع فإنّ الخمط كلّ نبت أخذ طعماً من مرارة.

وقيل: الأراك أو كلّ شجر له شوك (وأثل وشيء من سدر قليل) والأثل الطرفا، لا ثمر له، ووصف السدر بالقلّة فإن جناه وهو النبق ممّا يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بكفرانهم النّعمة أو بكفرهم بالرّسل (وهل نجازي إلاّ الكفور) أي البليغ في الكفران أو الكفر.

الثاني في قصة تيه بني إسرائيل

قال تعالى حكاية عن موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

روى في الصّافي عن العياشي، عن الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده لتركبنّ سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذّة، بالقذّة حتّى لا تخطأون طريقهم، ولا تخطّاكم سنّة بني إسرائيل.

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: قال موسى لقومه: يا قوم أدخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم فردّوا عليه وكانوا ستمائة ألف فقالوا: يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين الآيات قال: فعصى أربعون ألفاً وسلم هارون وابناه ويوشع بن نون وكالب بن يوحنّا فسمّاهم الله فاسقين فقال: لا تأس على القوم الفاسقين فتاهوا أربعين سنة لأنّهم عصوا فكانوا حذو النعل بالنعل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبض لم يكن على أمر الله إلا عليّ والحسن والحسين وسلمان

والمقداد وأبو ذر فمكثوا أربعين حتّى قام عليّ فقاتل من خافه[١].

وقال الطبرسي وغيره في تفسير الآية ما ملخّصه: قوله حكاية عن خطاب موسى لقومه: ـ يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة ـ هي بيت المقدس والعياشي عن الباقر عليه السلام: أي لا ترجعوا عن الأرض التي أُمرتم بدخولها ـ مدبرين فتنقلبوا خاسرين ـ عن ثواب الدّارين ـ قالوا: يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين ـ شديدو البطش والبأس لا يتأتّى لنا مقاومتهم.

قال ابن عباس: بلغ من جبرية هؤلاء القوم أنّه لمّا بعث موسى من قومه إثني عشر نقيباً ليخبروه خبرهم همّ رجل من الجبارين يقال له عوج فأخذهم في كمّه مع فاكهة كلّها كان يحملها من بستانه وأتى بهم الملك فنثرهم بين يديه وقال للملك تعجّباً منهم: هؤلاء يريدون قتالنا؟ فقال الملك: ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه خبرنا.

قال: وكان فاكهتهم لا يقدر على حمل عنقود منها خمسة رجال بالخشب، ويدخل في قشر نصف رمانة خمسة رجال ـ وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون قال رجلان ـ هما يوشع بن نون وكالب بن يوحنا بن عمه كذا عن الباقر عليه السلام ـ من الذين يخافون ـ الله ويتقونه ـ أنعم الله عليهما ـ بالإيمان والتثبت: أدخلوا عليهم الباب ـ باب قريتهم ـ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ـ لتعسر الكم عليهم في المضايق من عظم أجسامهم ولأنهم أجسام لا قلوب فيها ـ وعلى الله فتوكلوا ـ في نصرته على الجبارين ـ أن كنتم مؤمنين ـ به ومصدّقين لوعده[٢].

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قالوها استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ لأنه يجيبني إذا دعوته ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ـ يسيرون فيها متحيرين ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ لأنهم أحقاء بذلك لفسقهم.

قال الطبرسي: قال المفسرون: لما عبر موسى عليه السلام وبنو إسرائيل البحر وهلك فرعون أمرهم الله سبحانه بدخول الأرض المقدسة فلما نزلوا على نهر الأردن خافوا من الدخول فبعث من كلّ سبط رجلاً وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ فعاينوا من عظم شأنهم وقوّتهم شيئاً عجيباً فرجعوا إلى بني إسرائيل فأخبروا موسى بذلك فأمرهم أن يكتموا فوفى اثنان منهم يوشع بن نون من سبط بن يامين وقيل: إنه كان من

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ١٨٠، والتفسير الصافي: ٢/ ٢٦.

(٢) بحار الأنوار: ٦٨/ ١٠٨، وتفسير الصافي: ٢/ ٢٥.

سبط يوسف عليه السلام وكالب بن يوحنا من سبط يهودا وعصى العشرة وأخبروا بذلك[١].

وقيل: كتم الخمسة منهم وأظهر الباقون وفشا الخبر في الناس فقالوا: إن دخلنا عليهم تكون نساؤنا وأهالينا غنائم لهم، وهموا بالانصراف إلى مصر وهموا بيوشع وكالب وأرادوا أن يرجموهما بالحجارة فاغتاظ لذلك موسى وقال ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فأوحى الله إليه إنهم يتيهون في الأرض أربعين سنة وإنما يخرج منهم من لم يعص الله في ذلك فبقوا في التيه أربعين سنة في ستة عشر فرسخاً وقيل: تسع فراسخ وهم ستمائة مقاتل لا تتخرّق ثيابهم وتثبت معهم وينزل عليهم المنّ والسلوى.

وقال الطبرسي في تفسير قوله (وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى): وكان السبب في إنزال المنّ والسلوى عليهم أنه لما ابتلاهم الله بالتيه إذ قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ حين أمرهم بالمسير إلى بيت المقدس وحرب العمالقة فوقعوا في التيه صاروا كلّما ساروا تاهوا في قدر خمسة فراسخ أو ستة فكلّما أصبحوا صاروا غادين فأمسوا فإذا هم في مكانهم الذي ارتحلوا منه كذلك حتى تمت المدّة وبقوا في التيه أربعين سنة[٢].

وفي الصافي عن العياشي عن الصادق عليه السلام قال: فحرّم الله عليهم ـ أي دخول الأرض المقدسة ـ أربعين سنة وتيههم فكان إذا كان العشاء وأخذوا في الرّحيل نادوا الرّحيل الرحيل الوحا الوحا، فلم يزالوا كذلك حتى تغيب الشمس حتى إذا ارتحلوا واستوت بهم الأرض قال الله تعالى للأرض دوري بهم، فلم يزالوا كذلك حتى إذا سحروا، وقارب الصبح قالوا أنّ هذا الماء قد أتيتموه فانزلوا فإذا تيههم ومنازلهم التي كانوا فيها بالأمس، فيقول بعضهم لبعض يا قوم لقد ضللتم وأخطأتم الطريق فلم يزالوا كذلك حتى أذن لهم فدخلوها[٣].

وفي الكافي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ موسى كليم الله مات في التيه فصاح صائح في السماء مات موسى وأي نفس لا تموت؟.

قال الطبرسي: فلمّا حصلوا في التّيه ندموا على ما فعلوا فألطف الله لهم بالغمام لمّا شكوا حرّ الشمس وأنزل عليهم المنّ والسلوى فكان يسقط عليهم المنّ من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس كانوا يأخذون منها ما يكفيهم ليومهم وكان الله تعالى يبعث لهم السّحاب بالنّهار فيدفع عنهم حرّ الشمس وكان ينزل عليهم باللّيل من السّماء عموداً من نور يضيء لهم مكان السّراج وإذا ولد فيهم مولود كان عليه ثوب بطوله كالجلد[٤]، ويأتي إن شاء الله تفصيل

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ١٦٩، وتفسير مجمع البيان: ٣/ ٣٠٨.
(٢) تفسير كنز الدقائق: ١/ ٢٥٢.
(٣) التفسير الصافي: ٢/ ٢٦، وتفسير نور الثقلين: ١/ ٦٠٨ ح١١٦.
(٤) جامع البيان: ٩/ ٦٥، بتفاوت.

المنّ والسلوى في شرح الخطبة المائة والحادية والتسعين.

وماتت النقباء غير يوشع بن نون وكالب ومات أكثرهم ونشأ ذراريهم وخرجوا إلى حرب أريحا وفتحوها.

الترجمة

. از جمله خطب شريفه آن امام مبين و وليّ مؤمنين است در نصيحت مخاطبين و اخبار از وقايع آتيه روزگار، مى فرمايد:

بايد كه متابعت نمايند كوچكان شما به بزرگان شما و بايد كه مهربانى نمايند بزرگان شما بر كوچكان شما و نباشيد مثل جفاكاران ايام جاهليت كه نه در دين دانا شويد و نه از خداى تعالى كسب معرفت نماييد، مانند پوست بيرون تخم ها در مواضع بچه بيرون آوردن كه مى باشد شكستن آن تخمها وزر و وبال و بيرون مى آيد بچه هاى آن ها شرارت و فساد.

و از جمله فقرات اين خطبه است، مى فرمايد:

متفرّق مى شوند بعد از ائتلاف ايشان و پراكنده مى شوند از اصل خودشان، يعنى از امام مفترض الطاعة، پس بعضى از ايشان اخذكننده باشد شاخه را از آن اصل كه هرجا ميل كند آن شاخه آن هم ميل مى كند با او، با وجود اين كه به درستى خداى تبارك و تعالى زود باشد كه جمع كند ايشان را از براى بدترين روزى از براى بنى اميه ملعونين، چنان چه مجتمع مى شوند ابرهاى متفرقه در فصل پاييز.

الفت مى دهد خداى تعالى در ميان ايشان، پس مى گرداند متراكم و برهم نشسته مثل ابرهاى متراكم، پس از آن بگشايد خداوند عزّوجلّ از براى ايشان درهايى كه روان شوند از جاى هيجان ايشان مانند سيل دو بستان شهر سبا، به حيثيّتى كه سلامت نماند بر آن سيل كوه كوچكى و ثابت نشود مرآن را تلّى و بازنگرداند راه آن را كوه محكمى و نه پشته هاى زمينى، متفرّق مى سازد ايشان را خداى تعالى در درون هاى وادى هاى خود، پس دربرد ايشان را در چشم هاى

زمین و بگیرد به ایشان از قومی حق های قوم دیگر را و جای دهد قومی را در ممالك قومی و سوگند به خدا، هرآینه البته گداخته می شود آن چه که در دست بنی امیه است از ملك و سلطنت چنان چه گداخته شود دنبه بر آتش.

ای مردمان اگر خذلان نمیورزیدید از نصرت حق و سستی نمی کردید از اهانت باطل، هرآینه طمع نمی کردند در شما کسانی که مثل شما نبودند و قوّت نمی یافت کسی که قوّت یافت بر شما و لكن شما حیران و سرگردان شدید مثل حیرانی بنی اسرائیل و قسم به زندگانی خودم، هرآینه افزون کرده شود از برای شما حیرانی و سرگردانی بعد از من افزونی فراوان، به سبب این که واپس گذاشتید حق را در پس پشتهای خود و بریدید نزدیك تر به سوی پیغمبر را و پیوند کردید دورتر از آن را.

و بدانید این که اگر شما تبعیت نمایید دعوت کننده خودتان را که منم، ببرد شما را به راه راست پیغمبر خدا و کفایت کرده شوید از مشقت کجروی و می اندازید بار گران ثقیل را که عبارت است از وزر و عذاب آخرت از گردن های خودتان.

قال الشّارح عفى الله عنه: ليكن هذا آخر هذا المجلّد وهو المجلّد الرّابع من مجلّدات منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة وقد طال بنا شرح ما تضمّنه هذا المجلّد حتّى بلغت مدّة الاشتغال به ضعفي مدّة الاشتغال بسائر المجلّدات لابتلائي بأمور تشيب الوليد، وتذيب الحديد، وتعجز الجليد، وبرزايا لم يكد يشاهد مثلها على صفائح الأيام أو يثبت على الصّحائف بالمحابر والأقلام بل قلّما أن يؤثر نظيرها عن الأمم الماضية أو ينقل قرينها عن القرون الحالية وأعظم تلك المصائب الحسد والأذى من أقارب كالعقارب، وإجلابهم عليّ كتيبة وكتائب.

رماني الدهر بالإرزاء حتّى فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النّصال على النّصال

إلى الله أشكو من دهر إذا أساء أصرّ على إساءته، وإذا أحسن ندم من ساعته، ومن معشر جلّ بضاعتهم الأود والعناد، وكلّ صناعتهم اللّدد والفساد، ومن الله أسأل دفع كيد الخائنين وإصلاح نفوس الحاسدين، وانقطاع ألسن المعاندين وأسأله التوفيق لشرح المجلّدات الآتية بجاه محمّد صلى الله عليه وآله وعترته الطّاهرة.

وقد منّ الله عليّ بالفراغ من هذا المجلّد بعد الأياس لتفرّق الحواس صبيحة يوم الاثنين وهو الرّابع والعشرون من شهر جمادىٰ الآخرة من شهور ثلاث عشرة وثلاث مائة وألف سنة من الهجرة النبويّة على مهاجرها ألف صلاة وسلام وتحيّة والحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على محمّد وآله الأطيبين.

هذا هو المجلد الخامس من مجلدات منهاج البراعة
في شرح نهج البلاغة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَكَ بِنا نَهجَ البَلاَغَةِ لِلإِهْتِداءِ إِلىٰ مَناهِجِ ٱلبَيانِ، وَأَلْهَمَنا مِنْهاجَ البَراعَةِ للإرْتِقاءِ إِلىٰ مَعارِجِ ٱلمَعانِ، وَالصَّلوٰةُ وَالسَّلامُ عَلىٰ دَوْحَةِ النُّبُوَّةِ الَّتِي طابَتْ فَرْعاً وأَصْلاً، ووَشيجَةِ الرِّسالَةِ الَّتِي سَمَتْ رِفْعَةً وَنبْلاً، عَيْنِ السَّيادَةِ وَالْفَخارِ، وخَدَيْنِ الشَّرَفِ الَّذِي أَظْهَرَ الخيلاءُ في مُضَرٍ ونَزارٍ، مُحَمَّدٍ المُخْتارِ مِنْ سُلالَةِ عَدْنان، وأَحْمَدِ المُسْتَاثَر بِمُكْرَماتِ الفُرْقانِ، وآلِهِ المَوْصُوفينَ بِالعِصْمَةِ والطَّهارَةِ، وَالمَهْتُوفينَ بِالْحِكْمَةِ وَالْفَخارَةِ، والمَوْسُومِينَ بِالْخِلافَةِ وَالإِمَامَةِ، وَالمَرْسُومينَ بِالشَّرافَةِ وَالكَرامَةِ، لا سِيَّما ابْنِ عَمِّه وأَخيهِ المُنْتَجَبِ ووَزيرِهِ، الحائِزِ قَصَبَ السَّبْقِ في مِضْمارِ العِزِّ وَالشَّرَفِ، وَالْبارِعِ عَلَىٰ الأَقْرانِ في السُّؤْدَدِ فَما لَهُ عَنْهُ مُنْصَرَفٌ، المَخْصُوصِ بِإِمارَةِ المُؤْمِنينَ، وَالمَنْصُوصِ بِالإِمامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّ العالَمينَ، عَلىٰ رَغمِ كُلِّ ناصِبٍ جاحِدٍ، وَعَمْى عَيْنِ كُلِّ مُنافِقٍ مُعانِدٍ.

يا آل طه الأكرمين ألية	بكم وما دهري يمين فجار
إنّي منحتكم المودّة راجياً	نيلي المنى في الخمسة الأشبار
فعليكم منّي السّلام فأنتم	أقصى رجاي ومنتهى إيثاري

أما بعد: هذا هو المجلّد الخامس من مجلّدات منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة إملاء المفتاق إلى غفران ربّه الغنيّ حبيب الله بن محمّد بن هاشم الهاشمي العلوي الموسوي وفقّه الله سبحانه وأعانه على إتمامه وختامه، ببداعة أسلوبه ونظامه وجعله ممحاة لذنوبه وآثامه، يوم حشره، وقيامه، إنّه لما يشاء قدير، وبالإجابة حقيق جدير.

فأقول: قال السيّد الرّضي رضي الله عنه:

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسادسة والستون من المختار في باب الخطب

وهي مروية في البحار من كامل ابن الأثير بيسير اختلاف وتغيير حسبما تطّلع عليه إنشاء الله.

إنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ أَنْزَلَ كِتاباً هادِياً بَيَّنَ فيهِ الخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا نَهجَ الخَيرِ تَهْتَدُوا، واصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا والفَرائِض الْفَرائِض أَدُّوها إلىٰ اللّهِ تَؤَدُّكُم إلِيَ الجَنَّةِ، إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَراماً غَيرَ مَجْهُولٍ، وأحَلَّ حَلالاً غَيرَ مَدْخُولٍ، وفَضَّلَ حُرْمَةَ المُسْلِمِ عَلىَ الحُرَمِ كُلِّها وَشَدَّ بالإخْلاصِ وَالتَّوْحيدِ حُقُوقَ المُسْلِمينَ في مَعاقِدِها، فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِه إلاّ بِالْحَقِّ، وَلاَ يَحِلُّ أَذَى المُسْلِمِ إلاّ بِما يَجِبُ، بادِرُوا أَمْرَ العامَّةِ وخاصَّةَ أَحَدِكُم وَهُوَ المَوْتُ، فَإِنَّ النّاسَ أمامَكُم وَإنَّ السّاعَةَ تَحْدُوكُم، تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإنَّما يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُم آخِرُكُمْ، إتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبادِهِ وبِلادِهِ، فَإِنَّكُمْ مِسْؤُولُونَ حَتّىٰ عَنِ البَقاعِ وَالبَهائِمِ أطيعُوا اللَّهَ وَلاَ تَعْصُوهُ وإذا رَأَيْتُمُ الخَيرَ فَخُذُوا بِهِ وإذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَاصْدِفُوا عَنْهُ[1].

اللغة

(صدفت) عنه أصدف من باب ضرب أعرضت و(قصد) في الأمر قصداً من باب ضرب أيضاً توسّط وطلب الأسدّ ولم يجاوز الحدّ وهو على قصد أي رصد وطريق قصد أي سهل و(دخل) عليه بالبناء على المفعول إذا سبق وهمه إلى شيء فغلط فيه من حيث لا يشعر و(البقعة) من الأرض القطعة وتضمّ الباء في الأكثر فتجمع على بقع مثل غرفة وغرف وتفتح فتجمع على بقاع بالكسر مثل كلبة وكلاب.

الإعراب

قوله: (والفرائض) الفرائض بالنصب على الإغراء، والفاء في قوله عليه السلام (فالمسلم) فصيحة، وقوله (خاصة أحدكم) عطف على أمر والفاء في قوله: (فإنّ النّاس) تعليل وكذا في قوله: (فإنكم مسؤولون).

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤١، وميزان الحكمة: ٢/ ١٢١٢.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة كما قاله السّيد رحمه الله وغيره خطب بها في أوّل خلافته، وصدّر كلامه بالتنبيه على فضل الكتاب المجيد فقال: **(إن الله سبحانه أنزل)** على نبيّه أشرف المرسلين **(كتاباً هادياً)** إلى نهج الحق اليقين، كما قال عزّ من قائل: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ **(بين فيه الخير)** المقرّب إلى رضوانه **(والشرّ)** المبعّد عن جنانه **(فخذوا نهج الخير)** لـ**(تهتدوا)** إلى الصراط المستقيم المؤدّي إلى نضرة النعيم **(وأصدفوا عن سمت الشرّ)** أي أعرضوا عن طريقه لـ**(تقصدوا)** أي تطلبوا السداد، وتسلكوا سبيل الرّشاد.

ثمّ حثّ على مواظبة الفرائض والواجبات والمراقبة عليها في جميع الحالات فقال عليه السلام: **(والفرائض الفرائض أدّوها إلى الله تؤدّكم إلى الجنة)** أي أوصلوها إليه سبحانه لتوصلكم إلى الجنة، وهو من باب المشاكلة إذ المراد بإيصالها إلى الله التقرّب بها إليه وطلب الزّلفى بها لديه، ونسبة التأدية إلى الجنّة إليها من باب المجاز العقلي والإسناد إلى السبب **(إنّ الله حرّم)** في كتابه وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله **(حراماً غير مجهول)** ولا خفيّ بل هو واضح جليّ فلا عذر لمن جهله **(وأحلّ حلالاً غير مدخول)** أي ليس فيه عيب ولا ريب، فلا بأس على من تناوله **(وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلّها)** كما أفصح عنه لسان النبوّة قال صلى الله عليه وآله: حرمة المسلم فوق كلّ حرمة دمه وماله وعرضه[1] **(وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها)** أي ربطها بهما في مرابطها، فأوجب على المخلصين الموحدين المحافظة على حقوق المسلمين ومراعاة مواضعها هكذا قال الشارح البحراني والعلامة المجلسي رحمه الله وهو ظاهر الشارح المعتزلي، ويجوز أن يصوبه أنه سبحانه شدّ حقّ المسلم في معقده بسبب إخلاصه الوحدانية وتوحيده لله سبحانه.

يعني أنّ إسلامه وتوحيده أوجب ترتيب أحكام الإسلام عليه كما قال الصادق عليه السلام في رواية المفضل لمروية في الكافي: «الإسلام يحقن به الدّم وتؤدّي به الأمانة وتستحلّ به الفروج»[2].

وفي رواية أخرى عن سماعة عن الصادق عليه السلام قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث[3]، هذا.

ولكن الأظهر ما ذكروه بقرينة التفريغ بقوله: **(فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحقّ)** وإن كان يمكن توجيهه على ما ذكرناه أيضاً بنوع تكلّف فافهم هذا.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٩/ ٤٣، وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٨٩.
(٢) الكافي: ٢/ ٢٤، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٧٣.
(٣) شرح أصول الكافي: ٨/ ٧٨، ووسائل الشيعة: ١/ ٤٤.

وقوله: (إلاّ بالحقّ) تنبيه على أنه لا يجب كفّ اليد واللّسان عن المسلم إذا استحقّ عدمه وقد ورد نظير هذا الاستثناء في الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] قال المفسرون: أي بإحدى ثلاث إما زناً بعد إحصان أو كفر بعد إيمان أو قتل المؤمن عمداً ظلماً.

وقوله: **(ولا يحلّ أذى المسلم إلاّ بما يجب)** تأكيد لما سبق على أنّ الما مصدرية أي لا يجوز أذاه إلاّ مع وجوبه، فيكون مساقه مساق قوله: إلاّ بالحقّ، ويجوز أن يكون تأسيساً فإنه دلّ الكلام السابق على جواز عدم الكفّ عنه عند الاستحقاق نبّه بهذا الكلام على أنه لا يجوز أذاه عند الاستحقاق أيضاً إلاّ بما يجب من الأذى كماً وكيفاً فتكون ما موصولة ومحصلة التنبيه على جواز أذيته من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقدار مخصوص يستحقه أو كيفية خاصة تستحقها على ما تقرّر في باب الحسبة هذا.

وقد تلخص مما ذكره عليه السلام وجوب مراعاة حرمة المسلم والمحافظة على حقوقه وقد أُشير إليها في أخبار أهل البيت عليهم السلام.

ففي الوسائل عن الكلينيّ عن أبي المعزا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف، والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عزّ وجلّ: ﴿رحماء بينكم﴾ متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم، على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعن معلّى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما حقّ المسلم على المسلم؟ قال: «له سبع حقوق واجبات ما منهنّ حقّ إلا وهو عليه واجب، إن ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته، ولم يكن لله فيه من نصيب». قلت له: جعلت فداك وما هي؟ قال: يا معلّى إني عليك شفيق أخاف أن تضيّع ولا تحفظ أو تعلم ولا تعمل قلت: لا قوّة إلاّ بالله.

قال: «أيسر حقّ منها أن تحبّ له ما تحبّ لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك.

والحقّ الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره.

والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك.

والحقّ الرّابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته.

والحقّ الخامس: أن لا تشبع ويجوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى.

والحقّ السّادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم فوجب أن تبعث خادمك فيغسّل ثيابه، ويصنع طعامه، ويمهّد فراشه.

والحقّ السابع: أن تبرّ قسمه، وتجيب دعوته، وتعود مريضه، وتشهد جنازته وإذا علمت أنّ له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه إلى أن يسلكها ولكن تبادره مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك»[١].

وفي الوسائل عن محمّد بن عليّ الكراجكي في كنز الفوائد عن الحسين بن محمّد بن عليّ الصّيرفي عن محمّد بن عليّ الجعابي عن القاسم بن محمّد بن جعفر العلوي عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقّاً لا براءة له منها إلاّ بالأداء أو العفو:

يغفر زلّته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويردّ غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلّته، ويرعى ذمّته، ويعود مرضته، ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافي صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمّت عطسته، ويرشد ضالته ويردّ سلامه، ويطيب كلامه، ويبرّ إنعامه، ويصدّق أقسامه، ويوالي وليّه، ويعادي عدوّه.

وينصره ظالماً ومظلوماً فأمّا نصرته ظالماً فيردّه عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقّه، ولا يسلمه ولا يخذله ويحبّ له من الخير ما يحبّ لنفسه، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه»[٢].

ثمّ قال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئاً فيطالب به يوم القيامة فيقضى له وعليه».

ثمّ أمر عليه السلام بالمبادرة إلى الموت مؤيّداً به البدار إلى تهيّئة أسبابه فقال: **(وبادروا أمر العامّة وخاصة أحدكم وهو)** أي ذلك الأمر **(الموت)**.

قال الشّارح المعتزلي: سمّاه المواقعة العامّة لأنّه يعمّ الحيوان كلّه ثمّ سمّاه خاصّة أحدكم لأنه وأن كان عامّاً إلاّ أنّ له مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم **(فإنّ الناس أمامكم)** أي سبقوكم إلى الموت، وفي بعض النسخ فإنّ البأس أمامكم بالباء الموحدة أي الفتنة **(وإن الساعة تحدوكم)** أي يسوقكم من خلفكم **(تخففوا)** بالقناعة من الدّنيا باليسير وترك الحرص عليها وارتكاب المآثم **(تلحقوا)** فإنّ المسافر الخفيف أحرى بلحوق أصحابه وبالنجاة **(فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم)** أي للبعث والنشور.

---

(١) الكافي: ٢/١٦٩ ح٢، والخصال: ٣٥١.

(٢) وسائل الشيعة: ١٢/٢١٣، وبحار الأنوار: ٧١/٢٣٦ ح٣٦.

وقد مضى هذا الكلام بعينه في الخطبة الحادية والعشرين وتقدّم شرحه هناك بما لا مزيد عليه.

ثمّ أمرهم بالتقوى لأنّه الزّاد إلى المعاد فقال: **(اتقوا الله في عباده)** ورعاية ما يجب مراعاته من حقوقهم **(وبلاده)** بترك العلوّ والفساد فيها قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٧٣] **(فإنكم مسؤولون)** لقوله: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٧٣] وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤] **(حتّى عن البقاع)** فيقال لم استوطنتم هذه وتركتم هذه.

وقد ورد النّهي عن الإقامة في بلاد الشرك مع إمكان الخروج منها وإذا لم يتمكن من القيام بوظائف الإسلام وكذا عن مجالسة أهل البدع والمعاصي كما مرّ في شرح الخطبة الخامسة والثمانين **(والبهائم)** فيقال: لم ضربتم هذه وأوجعتم هذه فإنّه تعالى قد جعل للبهائم حقاً على صاحبها.

روى في الوسائل من عقاب الأعمال للصّدوق عن حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أنّ امرأة عذبت في هرّة ربطتها حتّى ماتت عطشاً[1].

ومن مكارم الأخلاق للحسن بن الفضل الطبرسي نقلاً من كتاب المجالس عن الصّادق عليه السلام قال: «أقذر الذّنوب قتل البهيمة وحبس مهر المرأة، ومنع الأجير أجره»[2].

وفي الوسائل عن الصدوق بإسناده عن السكوني بإسناده أن النبيّ صلى الله عليه وآله أبصر ناقة معقولة عليها جهازها فقال صلى الله عليه وآله: أين صاحبها مروه فليستعدّ غداً للخصومة[3].

وفيه عن محمّد بن محمّد المفيد في الإرشاد مسنداً عن إبراهيم بن عليّ عن أبيه قال حججت مع عليّ بن الحسين عليه السلام فالتاثت عليه النّاقة في سيرها فأشار إليها بالقضيب، ثمّ قال: آه لولا القصاص، وردّ يده عنها[4].

وفيه عن الصّدوق قال: روى أنه ـ يعني أبا عبد الله عليه السلام ـ قال: «اضربوها على العثار ولا تضربوها على النفار، فإنّها ترى ما لا ترون»[5].

(١) وسائل الشيعة: ١١/ ٥٤٤، وبحار الأنوار: ٦١/ ٢٦٧ ح٢٥.
(٢) وسائل الشيعة: ١٩/ ١٠٨ ح٢٤٢٥٧، وميزان الحكمة: ٢/ ٩٨٩.
(٣) مكارم الأخلاق: ٢٦٣، وبحار الأنوار: ٧/ ٢٧٦.
(٤) الإرشاد للمفيد: ٢/ ١٤٤، وبحار الأنوار: ٦١/ ٢١٦.
(٥) مكارم الأخلاق: ٢٦٣، ومجمع البحرين: ٤/ ٣٤٥.

وفيه عن الصّدوق بإسناده عن إسماعيل بن أبي زياد بإسناده عن جعفر بن محمّد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «للدابّة على صاحبها خصال يبدأ بعلفها إذا نزل، ويعرض عليها الماء إذا مرّ به، ولا يضرب وجهها فإنّها تسبّح بحمد ربّها، ولا يقف على ظهرها إلاّ في سبيل الله ولا يحمّلها فوق طاقتها ولا يكلّفها من المشي إلا ما تطيق»[١].

وعن الصّدوق مرسلاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تتوركوا على الدوابّ ولا تتخذوا ظهورها مجالس[٢].

ثمّ أمرهم بالإطاعة ونهاهم عن المعصية على سبيل الإجمال فقال: **(أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به)** لأنّه ينفعكم في العاجل والآجل **(وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه)** لأنه يسوقكم إلى الجحيم ويؤدي إلى العذاب الأليم.

تكملة

روي في مجلّد الفتن من البحار من كامل ابن الأثير هذه الخطبة باختلاف يسير قال: وبويع عليه السلام يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين من الهجرة وأوّل خطبة خطبها عليه السلام حين استخلف حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال عليه السلام:

«إنّ الله أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشرّ فخذوا الخير، ودعوا الشرّ الفرائض أدّوها إلى الله تؤدّكم إلى الجنّة، إنّ الله حرّم حرمات غير مجهولة، وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلّها، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحقّ ولا يحلّ دم امرء مسلم إلاّ بما يجب.

بادروا أمر العامة وخاصّة أحدكم الموت، فإنّ النّاس أمامكم وإنّما خلفكم السّاعة تحدوكم، تخفّفوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس بآخركم.

اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده، إنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوه وإذا رأيتم الشرّ فدعوه»[٣].

---

(١) الخصال: ٣٣٠ ح٢٨، ووسائل الشيعة: ١١/ ٤٧٨ ح١٥٣٠٥.

(٢) الكافي: ٦/ ٥٣٩ ح٨، وبحار الأنوار: ٦١/ ٢١٤ ح٢٣.

(٣) بحار الأنوار: ٣٢/ ٩ ح٢، والبداية والنهاية: ٧/ ٢٥٤.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن بزرگوار و ولیّ کردگار است در اوّل خلافت خود فرموده:

به درستی که خدای عزّ و علا نازل فرموده کتابی که هدایت کننده است بیان فرموده در آن نیك و بد را، پس اخذ نمایید راه خیر را تا هدایت یابید و اعراض کنید از راه شر تا میانه رو باشید، مواظبت نمایید به فرائض، برسانید آن ها را به سوی پروردگار تا این که برساند آن ها شما را به سوی بهشت عنبرسرشت.

به درستی که خداوند تبارك و تعالی حرام فرموده حرامی که مجهول نیست و حلال کرده حلالی را که بی عیب است وتفضیل داده احترام مسلمان را بر جمیع حرمت ها و بسته به اخلاص و توحید حق های مسلمانان را در مواضع بستن آن ها، پس مرد مسلمان آن کسی است که سلامت باشند مسلمانان از زبان آن و از دست آن مگر به وجه حقانیت و حلال، نیست اذیت و آزار مسلمان مگر به آن چه که واجب باشد.

مبادرت نمایید بر کاری که عام است و شامل به همه عالمیان و بر آن چه که مختص است به هریکی از شما و آن مرگ است، پس به درستی که مردم در پیش شمایند و به درستی که ساعت می راند شما را از پس شما به آخرت، سبکبار بشوید تا لاحق باشید به گذشتگان، پس به درستی که انتظار می کشد به سبب اوّل شما آخر شما.

بپرهیزید و بترسید از خدا در خصوص بنده های او و شهرهای او، پس به تحقیق که شما مسؤول خواهید شد از هر خوب و بد حتّی از بقعه های زمین و از چهارپایان. اطاعت کنید خدا را و معصیت ننمایید و زمانی که ببینید خیر و خوبی را، پس بگیرید آن را و اخذ نمایید و چون مشاهده کنید بد را، پس اعراض کنید از آن و اجتناب نمایید.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والسابع والستون من المختار في باب الخطب

بعدما بويع بالخلافة وقد قال له قوم من الصّحابة لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان فقال عليه السلام:

يا إِخْوَتاه إِنّي لَسْتُ أَجْهَلُ ما تَعْلَمُونَ وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلىٰ حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنا وَلاَ نَمْلِكُهُمْ وَها هُمْ هٰؤُلاءِ قَدْ ثارَتْ مَعَهُمْ عِبْدانُكُم وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرابُكُم وهُمْ خِلاَلَكُمْ يَسُومُونَكُمْ ما شاؤُوا وهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلىٰ شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ وَإِنَّ هَذَا الأَمْر أَمْرُ جاهِلِيَّةٍ وإِنَّ لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ مادَّةً إِنَّ النّاسَ مِنْ هَذَا الأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلىٰ أُمورٍ: فِرْقَةٌ تَرىٰ ما تَرَوْنَ، وفِرْقَةٌ تَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، وفِرْقَةٌ لاَ تَرىٰ هَذا، وَلاَ هٰذا، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النّاسُ، وتَقَعَ الْقُلُوبُ مَواقِعَها وَتُؤْخَذُ الحُقُوقُ مُسْمِحَةً فَاهْدَؤُا عَنّي وَانْظُرُوا ماذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْري، وَلاَ تَفْعَلُوا فِعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً وتُسْقِطُ مُنَّةً وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً، وسَأُمْسِكُ الأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ وَإِذا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَآخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ[1].

اللغة

(**أجلبوا**) عليه أي تألبوا واجتمعوا و(**الحدّ**) منتهى الشيء، ومن كلّ شيء حدّته، وفي بعض النسخ (**على جدّ**) بالجيم المكسورة اسم من جدّ في الأمر من باب ضرب وقتل إذا اجتهد وسعى فيه، ومنه يقال فلان محسن جدّاً أي نهاية ومبالغة (**وعبدان**) بالكسر جمع عبد مثل جحش وجحشان وبالضمّ أيضاً مثل تمر وتمران والأشهر في جمعه أعبد وعبيد وعباد و(**سام**) فلاناً الأمر إذا كلّفه إياه، أكثر ما يستعمل في العذاب والشرّ قال سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] و(**هدأ**) القوم والصوت يهدأ من باب منع سكن و(**سمح**) سماحة جاد وأعطى أو وافق ما أريد منه وأسمح بالألف لغة وقال الأصمعي: سمح ثلاثياً بماله واسمح بقياده و(**المنة**) بالضمّ كالقوّة لفظاً ومعنى.

الإعراب

جواب (لو) في قوله لو عاقبت محذوف، بقرينة المقام و(الهاء) في قوله: يا إخوتاه للسّكت، قال نجم الأئمة الرّضي أمّا هاء السّكت فهي هاء تزاد في آخر الكلمة الموقوف

(١) بحار الأنوار: ٣١/٥٠٣، وشرح نهج البلاغة: ٩/٢٩١ ح١٦٩.

عليها إذا كان آخرها ألفاً والكلمة حرف أو اسم عريق في البناء نحو: لاوذاً وهنا، وذلك لأنّ الألف خفيّة فأُريد بيانها فإذا جئت بعدها بهاء ساكنة ـ فلا بدّ من مدّ الألف إذا جئت بعدها وذلك في الوصل بحرف آخر ـ تبيّن النطق بها وإذا لم تأت بعدها بشيء وذلك في الوقف خفيت حتّى ظنّ أن آخر الكلمة مفتوحة فلذا وقلت ليبيّن جوهرها.

واختاروا أن يكون ذلك الحرف هاء لمناسبتها بالخفاء لحرف اللّين فإذا جاءت ساكنة بعد الألف فلا بدّ من تمكين مدّ الألف ليقوم ذلك مقام الحركة فيمكن الجمع بين ساكنين، فيبقين الألف بذلك التمكين والمدّ.

وقال في باب المنادى المندوب: وإذا ندبت يا غلامي بسكون الياء فكذا تقول عند سيبويه يا غلامياه لأنّ أصلها الفتح عنده وأجاز المبرّد يا غلاماه بحذف الياء للساكنين قال ابن الحاجب والحذف ليس بوجه مؤيّد لقول المبرّد وشاهد له.

قال نجم الأئمة: إلحاق هاء السّكت بعد زيادة الندبة واواً كانت أو ياء أو ألفاً جائز في الوقف لا واجب وبعضهم يوجبها لئلاّ يلتبس المندوب بالمضاف إلى ياء المتكلّم المقلوبة ألفاً نحو يا غلاماه، وينبغي أن لا يجب عند هذا القائل مع الواو لأنها يكفي في الفرق بين الندبة والنداء، وليس ما قال بوجه لأنّ الألف المنقلبة عن ياء المتلّم قد يلحقها الهاء في الوقف كما مرّ فاللبس إذاً حاصل مع الهاء أيضاً والفارق هو القرينة.

أقول: ويكفي في ردّ هذا القائل قوله عليه السلام: يا إخوتاه، فإنّ الألف فيه مقلوبة عن ياء المتلكّم وقد لحقها هاء السّكت كما قاله الرّضي.

وقوله عليه السلام (على حدّ شوكتهم) ظرف مستقرّ حال من ضمير المجلبون وإضافة حدّ إلى شوكتهم لاميّة على رواية حدّ بالحاء وبمعنى (في) على روايته بالجيم كما هو غير خفي.

و(الهاء) في قوله عليه السلام (وها هم هؤلاء) للتّنبيه وهي تدخل الجمل وتدخل في جميع المفردات أسماء الإشارة نحو: هذا وهاتا وهؤلاء، وكثيراً ما يفصل بينها وبين اسم الإشارة بالقسم نحو: ها الله ذا وبالضمير المرفوع المنفصل نحو: ها أنتم أُولاء وبغيرهما قليلاً نحو قولهم: هذا لها ها وذالياً أي وهذا ليا.

وذهب الخليل إلى أنّ (هاء) المقدمة في جميع ذلك كانت متّصلة باسم الإشارة أي كان القياس الله هذا، وأنتم هؤلاء والدّليل على أنّه فصل حرف التنبيه عن اسم الإشارة ما حكى أبو الخطاب عمّن يوثق به: هذا أنا أفعل في موضع ها أنا ذا أفعل، وحدّث يونس هذا أنت تقول ذا.

وجوّز بعضهم أن يكون (هاء) المقدّمة في نحو: ها أنت ذا تفعل غير منويّ دخولها

على ذا استدلالاً بقوله تعالى ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [آل عمران: ٦٦] ولو كانت هي التي كانت مع اسم الإشارة لم تعد بعد أنتم.

قال نجم الأئمة: ويجوز أن يعتذر للخليل بأنّ تلك الإعادة للبعد بينهما كما أُعيد في ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٨] وأيضاً قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] دليل على أنّ المقدّم في ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ هو الذي كان مع اسم الإشارة، ولو كان في صدر الجملة من الأصل لجاز من غير اسم إشارة ها أنت زيد.

وما حكى الزمخشري من قولهم: ها أن زيداً منطلق، وها أنا أفعل كذا مما لم أعثر له على شاهد فالأولى أن نقول ها التنبيه مختصّ باسم الإشارة، وقد يفصل منه كما مرّ ولم يثبت دخوله في غيره.

وقال نجم الأئمة أيضاً: واعلم أنّه ليس المراد من قولك: ها أنا ذا أفعل، أن تعرّف المخاطب نفسك وأن تعلمه أنت لست غيرك لأنَّ هذا محال بل المعنى فيه وفي: ها أنت ذا تقول: وها هوذا يفعل، استغراب وقوع مضمون ذلك الفعل المذكور بعد اسم الإشارة من المتكلّم أو المخاطب أو الغائب كأنّ معنى: ها أنت ذا تقول أو يضربك زيد، أنت هذا الذي أرى من كنّا نتوقّع منه أن لا يقع منه أو عليه مثل هذا الغريب ثمّ بيّنت بقولك تقول وقولك: يضربك زيد الذي استغربته ولم تتوقّعه.

قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ فالجملة بعد اسم الإشارة لازمة لبيان الحال المستغربة ولا محل لها إذ هي مستأنفة.

وقوله: وهم خلالكم يسومونكم جملة (هم يسومون) مبتدأ وخبر في محلّ النّصب على الحال و(خلالكم) ظرف مستقرّ حال من مفعول يسومون قدّمت على ذيها للتوسّع.

المعنى

اعلم أنّ المستفاد من شرح المعتزلي أنّ هذا الكلام قاله عليه السلام أوّل مسير طلحة والزبير إلى البصرة (**بعدما بويع بالخلافة وقد قال له قوم من الصحابة لو عاقبت قوماً ممن أجلب وأعان على**) قتل (**عثمان**) لكان حسناً لما فيه من قطع عذر الناكثين إذ عمدة متمسّكهم في النكث كان المطالبة بدم عثمان (**فقال** عليه السلام): معتذراً عما أشير عليه (**يا إخوتاه**) إنّي على غزارة علمي (**لست أجهل ما تعلمون**) بل أعلم ما كان وما هو كائن وما يكون (**ولكن كيف لي بقوة** على القصاص والإنتقام (**والقوم المجلبون**) المجتمعون المتألبون (**على حدّ شوكتهم**) أي على غاية شوكتهم أو مع كونهم مجدّين في الشوكة مبالغين في شدّة البأس (**يملكوننا ولا نملكهم**) أي هم مسلّطون علينا ولسنا مسلطين عليهم وصدقه عليه السلام في هذا الجواب ظاهر لأنّ أكثر أهل

المدينة كانوا من المجلبين عليه، وكان من أهل مصر ومن الكوفة وغيرهم خلق عظيم، حضروا من بلادهم وقطعوا المسافة البعيدة لذلك، وانضمّ إليه أعراب البادية وعبيد المدينة، وثاروا ثورة واحدة فكانوا على غاية الشوكة ولذلك اعتذر عليه السلام بعدم التمكّن والقوة.

وقد روى أنّه عليه السلام جمع النّاس ووعظهم ثمّ قال: لتقم قتلة عثمان فقام النّاس بأسرهم إلاّ القليل وكان ذلك الفعل استشهاداً منه على صدق قوله، ونبّه أيضاً على صدقه عليه السلام بإحالة المشيرين عليه إحالة معاينة وبإشارة حضوريّة إلى كثرة المجلبين وشدّتهم فقال عليه السلام: **(وها هم هؤلاء ثارت)** وهاجت **(معهم عبدانكم والتفت)** وانضمت **(إليهم أعرابكم وهم خلالكم)** أي بينكم غير متباعدين عنكم **(يسومونكم ما شاؤوا)** كيف شاؤوا ليس لهم رادع ولا دافع **(وهل ترون)** والحال هذه **(موضعاً لقدرة على شيء تريدونه)**.

ثمّ قال: **(أنّ هذا الأمر)** أي أمر المجلبين **(أمر جاهلية)** لأنّ قتلهم لعثمان كان عن عصبيّة وحميّة لا لطاعة أمر الله وإن كان في الواقع مطابقاً له.

ويمكن أن يكون المراد به أنّ ما تريدون من معاقبة القوم أمر جاهليّة نشأ عن تعصّبكم وحميّتكم وأغراضكم الباطلة وفيه إثارة للفتنة، وتهييج للشرّ، لكنّ الأوّل أنسب بسياق الكلام إذ غرضه من إيراد تلك الوجوه إسكات الخصم وعدم تقوية شبه المخالفين الطالبين لدم عثمان.

وأكّد تأكيد تضعيف رأيهم بقوله **(وأنّ لهؤلاء القوم مادّة)** أي مدداً ومعينين و**(إنّ النّاس من هذا الأمر إذا حرّك)** عن موضعه وأريد معاقبة المجلبين **(على أمور)** ثلاثة أشار إليها بقوله **(فرقة منهم ترى ما ترون)** ويحكمون بحسن العقاب **(وفرقة ترى ما لا ترون)** وتزعم أنّ في العقاب عدولاً عن الصّواب **(وفرقة)** ثالثة **(لا ترى هذا ولا هذا)** ولا يحكمون فيه بصواب ولا خطأ.

ولما بيّن اختلاف الآراء وتشتت الأهواء في التخطئة والتصويب وكان الاقتصاص والإنتقام مع وجود هذا الاختلاف مظنّة فتنة أخرى كالأولى بل وأعظم منها وكان الأصوب في التدبير والذي يوجبه العقل والشرع الصبر وإمساك النكير إلى حين سكون الفتنة، وتفرّق تلك الشعوب من المدينة، لا جرم أمرهم بالصّبر فقال: **(فاصبروا حتّى يهدأ النّاس)** ويسكنوا **(وتقع القلوب مواقعها)** وتؤوب إلى الناس أحلامهم **(وتؤخذ الحقوق مسمحة)** منقادة بسهولة **(فاهدؤا)** متفرقين **(عنّي وانظروا ماذا يأتيكم به أمري)** ولا تستعجلوه ولا تسرعوا **(ولا تفعلوا فعلة)** أي نوع فعل **(تضعضع)** وتهدم **(قوّة وتسقط منّة وتورث وهنا وذلة)** فإنّ الأمور مرهونة بأوقاتها ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها لا تذوق إلاّ مرارة منها.

قال الشارح المعتزلي: وكان عليه السلام يؤمّل أن يطيعه معاوية وغيره وأن يحضر بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم ويعيّنون قوماً بأعيانهم بعضهم للقتل وبعضهم للتسوّر كما جرت عادة المتظلّمين إلى الإمام والقاضي فحينئذٍ يتمكّن من العمل بحكم الله فلم يقع الأمر بموجب ذلك وعصى معاوية وأهل الشّام والتجأ ورثة عثمان إليه وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام ولم يطالبوا بالقصاص طلباً شرعيّاً وإنّما طلبوه مغالبة وجعلها معاوية عصبيّة الجاهلية ولم يأت أحد منهم الأمر من بابه[١].

وقبل ذلك ما كان من أمر طلحة والزّبير ونقضهما البيعة ونهبهما أموال المسلمين بالبصرة وقتلهما الصّالحين من أهلها وجرت أُمور كلّها يمنع الإمام عن التصدّي للقصاص واعتماد ما يجب اعتماده لو كان الأمر وقع على القاعدة الصحيحة من المطالبة بذلك على وجه السكوت والحكومة.

وقد قال هو عليه السلام لمعاوية: وأما طلبك قتلة عثمان فادخل في الطاعة وحاكم القوم إليّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله وسنّة رسول صلى الله عليه وآله هذا.

وأمّا قوله عليه السلام: **(وسأمسك الأمر ما استمسك وإذا لم أجد بدّاً فآخر الدّواء الكيّ)** هكذا في نسخة الشارحين البحراني والمعتزلي، قال ثانيهما وهو مثل مشهور ويقال آخر الطبّ ويغلط فيه العامة فيقول: آخر الدّاء، والكيّ ليس من الدّاء ليكون آخره.

وفي نسخة البحار: آخر الدّاء، قال العلامة المجلسي رحمه الله هكذا في أكثر النسخ المصحّحة ولعلّ المعنى بعد الدّاء الكيّ إذا اشتدّ الداء ولم يزل بأنواع المعالجات فيزول بالكيّ وينتهى أمره إليه[٢].

ثمّ قال الشارح المعتزلي: وليس معناه وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكن الصبر فإذا لم أجد بدّاً عاقبتهم ولكنّه كلام قاله أولّ مسير طلحة والزّبير إلى البصرة فإنّه حينئذٍ أشار عليه قوم بمعاقبة المجلبين فاعتذر بما قد ذكر.

ثمّ قال: وسأمسك الأمر ما استمسك أي أمسك نفسي عن محاربة هؤلاء النّاكثين للبيعة ما أمكن وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم وأجتهد في ردّهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب، فإذا لم أجد بدّاً من الحرب فآخر الدواء الكيّ أي الحرب لأنها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها[٣].

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٩٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/ ٥٠٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٩٤.

قال العلامة المجلسي رحمه الله بعد حكاية ما حكيناه عن الشارح أقول: ويحتمل أن يكون ذلك تورية منه عليه السلام ليفهم بعض المخاطبين المعنى الأوّل ومراده المعنى الثاني.

أقول: قد تقدّم في شرح الكلام الثّلاثين تفصيلاً أنّه عليه السلام كان بناؤه على إبهام المرام، واستعمال التورية في الكلام، في أمر عثمان لمصالح قاضية بذلك مانعة عن الإبانة والتصريح فليراجع ثمة.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت نظام آن امام است (عليه السلام)، بعد از این که بیعت کرده شد به خلافت، درحالتی که گفتند او را گروهی از صحابه که اگر عقاب بفرمایی قومی را از آن کسانی که جمعیت نمودند بر قتل عثمان خوب می شود. پس فرمود آن حضرت در جواب ایشان:

ای برادران من، به درستی که من نیستم که ندانم چیزی را که شما می دانید و لیکن چگونه مرا قوّت باشد در انتقام و حال آن که قومی که جمعیت کردند بر غایت شوکت ایشان مسلّط و مالك هستند و ما بر ایشان تسلّط نداریم و بدانید که ایشان این جماعت اند که هیجان آمده اند با ایشان بندگان شما و پیوسته اند به ایشان اعراب بادیه نشینان شما و حال آن که ایشان در میان شما تکلیف می کنند به شما آن چه دلشان بخواهد و آیا می بینید با وجود این حالت محلی از برای قدرت بر چیزی که می خواهید؟ به درستی که این کار کار جاهلیت است و به درستی که از برای آن قوم است ماده بسیار از اعوان و انصار.

به درستی که مردمان در این کار هرگاه حرکت داده شود بر چند امر می باشند؛ طایفه ای رأی ایشان مطابق رأی شما خواهد شد و طایفه دیگر رأیشان مخالف رأی شما می باشد و طایفه سوّم رأیشان نه این است و نه آن، پس صبر و تحمّل نمایید تا آرام گیرند مردمان و واقع شود قلب ها در مواضع وقوع خود و گرفته شود حق ها به سهولت و آسانی، پس آرام گیرید و کنار شوید از من و نظر کنید به آن چیزی که بیاید به شما فرمان من به آن و نکنید کاری را که ویران کند قوّت و قدرت را و بیندازد طاقت و توانایی را و باعث بشود به سستی و ذلّت و البته نگاهداری می کنم این امر را مادامی که نگاه داشته شود و چون چاره نیابم، پس آخر دوا داغ است (یعنی غیر از محاربه علاجی نیابم لابدّ باید محاربه کنم).

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثامنة والستون من المختار في باب الخطب

عن مسير أصحاب الجمل إلى البصرة:

إِنَّ اللّهَ بَعَثَ رَسُولاً هادِياً بِكِتابٍ ناطِقٍ وَأَمْرٍ قائِمٍ، لاَ يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاَّ هالِكٌ وإِنَّ المُبْتَدَعاتِ المُشَبَّهاتِ هُنَّ المُهْلِكاتُ إِلاّ ما حَفِظَ اللّهُ مِنْها وَإِنَّ في سُلْطانِ اللّهِ عِصْمَةً لأَمْرِكُم فَأَعْطُوهُ طاعَتَكُمْ غَيرَ مَلوُمَةٍ، وَلا مُسْتكْرَهٍ بِها وَاللّهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللّهُ عَنْكُمْ سُلْطانَ الإِسْلامِ ثُمَّ لاَ يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتّى يَأْرِزَ الأَمْرُ إِلىٰ غَيرِكُم إِنَّ هَؤُلاَءِ قَدْ تَمالَؤُا عَلىٰ سَخْطَةِ إِمارَتي وسَأَصْبِرُ ما لَمْ أَخَفْ عَلىٰ جَماعَتِكُمْ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَمُّوا عَلىٰ فِيالَةِ هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظامُ المُسْلِمينَ وَإِنَّما طَلَبُوا هٰذِهِ الدُّنْيا حَسَداً لِمَنْ أَفاءَهَا اللّهُ عَلَيْهِ فَأَرادُوا رَدَّ الأُمُورِ عَلىٰ أَدْبارِها وَلَكُمْ عَلَيْنا العَمَلُ بِكِتابِ اللّهِ وسُنَّةِ رَسُولِه صلى الله عليه وآله وَالقِيامِ بِحَقِّهِ وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ[١].

اللغة

(المشبّهات) في بعض النسخ بصيغة المفعول وفي بعضها بصيغة الفاعل وفي بعضها **(المشتبهات)** بدلها يقال شبّهت الشيء بالشيء أي جعلته شبيهاً به فهو مشبّه بالفتح وشبّهته عليه تشبيهاً مثل لبّسته تلبيساً وزناً ومعنى فأنا مشبّه بالكسر واشتبهت الأمور وتشابهت التبست فلم تتميز ولم تظهر قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ وقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

و**(غير ملومة)** في بعض النسخ بالتخفيف من لام يلوم وفي بعضها بالتّضعيف للمبالغة، وفي بعضها **(ملوية)** بدلها أي غير معوّجة من لوّيت العود إذا عطفته و**(أرز)** يأرز من باب ضرب انقبض واجتمع وأرزت الحيّة أي لاذت بجحرها ورجعت إليه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الإسلام ليأرز إلى المدينة كما يأرز الحية على جحرها **(وتمالؤا)** على الأمر تعاونوا.

وقال ابن السكيت: اجتمعوا و**(فال)** رأيه يفيل فيلولة وفيلة أخطأ وضعف كتفيّل ورجل فيل الرّأي بالكسر والفتح ككيس وفاله وفاءله وفاءل من غير إضافة ضعيفة جمعه أفيال وفي رواية بدل فيالة **(فيولة)**.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٨١، وشرح نهج البلاغة: ٩/٢٩٥ ح١٧٠.

الإعراب

(الباء) في قوله (بكتاب للمصاحبة) كما في: دخلت عليه بثياب السفر، و(غير ملومة) بالنصب حال من الطاعة والسين في قوله وسأصبر ليست لتخليص المضارع للاستقبال كما هو غالب موارد استعمالها وإنما هي لتأكيد وقوع الصبر كما نبّه به الزمخشري حيث قال: إنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة.

وقال في تفسير قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] معنى السين أنّ ذلك كأين لا محالة وأن تأخر إلى حين، وفي تفسير ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١] السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة وهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد إذا قلت: سأنتقم منك، و(حسداً) منصوب على المفعول لأجله.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة حسبما ذكره الرضيّ خطبها عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة والغرض منها التنبيه على ضلال الناكثين والكشف عن فساد نيّتهم وسوء عقيدتهم وأنّ مقصودهم في الخروج والبغي عليه عليه السلام هو الدّنيا لا الدّين وصدّرها بأمور نفعها عامّ تذكيراً للمخاطبين وإنقاذاً لهم من الضّلالة وإيقاظاً من رقدة الجهالة.

فقال عليه السلام: **(إنّ الله بعث رسولاً هادياً)** إلى شرائع الدّين ومعالم الشرع المبين **(بكتاب ناطق)** بالحقّ لهج بالصّدق **(وأمر قائم)** مستقيم ليس بذي عوج أو باق حكمه بين الأمّة مستمرّاً إلى يوم القيامة **(لا يهلك)** معرضاً **(عنه إلا هالك)** أي من بلغ الغاية في الهلاك فالتنكير لقصد النوع كما في قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾.

قال العلامة التفتازاني: أي ظنّاً حقيراً ضعيفاً إذ الظنّ ممّا يقبل الشدّة والضّعف فالمفعول المطلق هنا للنوعية لا للتأكيد وبهذا الاعتبار صحّ وقوعه بعد الاستثناء مفرّغاً مع امتناع ما ضربته إلاّ ضرباً على أن يكون المصدر للتأكيد لأنّ مصدر ضربته لا يحتمل غير الضرب والمستثنى منه يجب أن يكون متعدّداً يحتمل المستثنى وغيره **(وإنّ المبتدعات المشبّهات)** أي البدعات المحدثات في الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله المشبّهات بالسّنن وليس منها والملبّسات الأمر على الناس أو الملتبسات عليهم على اختلاف روايات المتن حسبما تقدّم **(هنّ المهلكات)** في الآخرة لخروجها عن الكتاب والسنّة وقوله: **(إلا ما حفظ الله منها)** استثناء من بعض متعلّقات المهلكات أي أنها مهلكة في جميع الأحوال إلا حال حفظ الله منها بالعصمة عن ارتكابها أو أنّ ما بمعنى من أي مهلكة لكلّ أحد إلاّ من حفظه الله سبحانه.

ثمّ قال: **(وإن في سلطان الله)** أي سلطان دين الله وهو سلطان الإسلام الذي سيصرح به

أو أراد به السلطنة الإلهية التي قوامها به لكونه خليفة الله في عباده وبلاده وولي أمره في أرضه فالإضافة من باب التشريف والاعتزاز (**عصمة لأمركم**) وحفظاً له عن التزلزل والاختلال (**فأعطوه طاعتكم غير ملومة**) صاحبه (**ولا مستكره بها**) أي أطيعوه طوعاً وبالأخلاص عن صميم القلب لا كرهاً ينسب صاحبها إلى الرياء والنفاق فيستحق اللؤم والملام (**والله لتفعلن**) ولتطيعن (**أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام**) أي الخلافة (**ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر**) أي ينقبض ويرجع (**إلى غيركم**).

فإن قيل: كيف قال عليه السلام: (**لا ينقله إليكم أبداً**) وقد عاد إليهم بالدولة العباسية قلنا: قد أجيب عنه بوجوه:

أولها: ما قاله الشّارح المعتزلي: وهو أنّ الشرط لم يقع وهو عدم الطاعة، فإنّ أكثرهم أطاعوه غير ملومة ولا مستكره بها وإذا لم يتحقق الشرط لم يتحقّق المشروط.

الثاني: إنه خاطب به الشيعة الطالبية فقال: إن لم تعطوني الطاعة المحضة نقل الخلافة عن هذا البيت حتى يأرز وينضم إلى بيت آخر وهكذا وقع فإنها انضمت إلى بيت آخر من بني هاشم.

الثالث: إنه أراد بقوله (**أبداً**) المبالغة كما تقول: أحبس هذا الغريم أبداً والمراد بالقوم الذين يأرز إليهم بنو أُمية كأنّه قال: إن لم تفعلوا نقل الله الخلافة عنكم حتّى يجعلها في قوم آخرين وهم أعداؤكم من أهل الشّام وبني أميّة ولا يعيدها إليكم إلى مدّة طويلة وهكذا وقع.

الرابع: إنه قيد بالغاية فقال: لا يصير إليهم حتى يصير في قوم آخرين وظاهر إنه كذلك بانتقاله إلى بني أمية.

والخامس أن القوم الذين خاطبهم من أصحابه بهذا الخطاب لم ترجع الدولة إليهم أبداً فإن أولئك بعد انقضاء دولة بني أمية لم يبق منهم ثم لم يرجع إلى أحد من أولادهم أصلاً.

أقول: وأحسنها الوجه الثالث والرابع وأحسنهما ثانيهما كما هو غير خفي على الناقد الزكي.

ثم نبه على ضلال طلحة والزبير وعائشة وإياهم أراد بقوله: (**إن هؤلاء القوم قد تمالؤا**) أي تعاونوا وتساعدوا واجتمعوا (**على سخطة إمارتي**) وكراهية سخيمة ومقتاً (**وسأصبر**) على بغيهم وخروجهم (**ما لم أخف على**) حوزة (**جماعتكم**) وعلى انفصام حبل الإسلام (**فإنهم إن تمموا**) ما أرادوه وبلّغوه أجله مستقرّين (**على فيالة هذا الرأي**) يعني أنهم إن أتموا ما قصدوه في مسيرهم ومخالفتهم وبقوا على هذا الرأي الضعيف (**انقطع نظام المسلمين**) وانفصم حبل الدين، وتضعضع سواري المتقين.

ثم بين علة سخطهم لإمارته بقوله: **(وإنما طلبوا هذه الدنيا)** يعني أن علة تمالئهم علي ليست ما أظهروه من الطلب بدم عثمان وإنما هي تنافسهم في الدنيا وطلبهم لها **(حسداً لمن أفاءها الله عليه)** وردّها إليه.

قال الشارح المعتزلي بعد تفسير الفيء بمعنى الرجوع: وهذا الكلام لا يشعر بأنه عليه السلام كان يقصد أن الأمر له وأنه غلب عليه ثم رجع إليه ولكنه محمول على أنه من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة الجزء من الكل وأنهما من جوهر واحد فلما كان الوالي قديماً هو ورسول الله صلى الله عليه وآله ثم تخلل بين ولايتهما ولايات غريبة سمى ولايته فيئاً ورجوعاً لأنها رجعت إلى الدوحة الهاشمية انتهى[1].

وأنت خبير بأن كلامه عليه السلام صريح في ما ذكره الشارح أولاً وإنكار الشارح للإشعار عجيب والحمل الذي تحمله غريب، وكم له عليه السلام في هذا الكتاب من كلام صريح في اغتصاب الخلافة، وانتهاب الوراثة، وكفى بذلك شهيداً الخطبة الثالثة، والكلام السادس، والخطبة السادسة والعشرين، فضلاً عن غيرها.

بل قد ادعى الشارح نفسه في شرح الخطبة المائة والإحدى والسبعين تواتر الأخبار الواردة عنه عليه السلام في هذا المعنى وهو كذلك وسنحكي كلامه إذا بلغ الشرح محله وما أدرى ماذا أعده الشارح للجواب يوم الحساب، مع علمه بالأخبار المتواترة في هذا الباب، لو لم يكن ما يمحّله من التكلفات والتأويلات، تقيّة من ذوي الأذناب، والله عالم بالسرائر خبير بالضمائر هذا.

وقوله: **(فأرادوا رد الأمور على أدبارها)** أي أرادوا انتزاع أمر الخلافة منه عليه السلام بعد إقباله إليه كما انتزعت أولاً أسوة بما وقع من قبل ثم أخبر بما لهم عليه إن قاموا بوظائف الطاعة فقال **(ولكم علينا العمل بكتاب الله تعالى وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله والقيام بحقه)** أي بحق الرسول صلى الله عليه وآله الواجب علينا القيام به **(والنعش لسنته)** أي الرفع لشريعته والإعلاء لكلمته صلوات الله وسلامه عليه وآله.

(١) شرح النهج: ٩/٢٩٨.

الترجمة

از جمله خطب فصیحه آن ولیّ مؤمنین و وصیّ خاتم النبیّین است نزد رفتن اصحاب جمل به سوی بصره، می فرماید:

به درستی که خدای تعالی مبعوث فرمود پیغمبر را که هدایت کننده بود به طریق نجات، با کتابی که ناطق بود به حقّ و با شریعتی که باقی بود تا قیامت، هلاك نمی شود از آن مگر کسی که بالغ شود به منتهای هلاکت، آگاه باشید و به درستی که بدعت هایی که تشبیه شده اند به سنت آنهایند هلاك كننده ها، مگر آن چه که خدا حفظ فرماید از آن.

و به درستی که حجت خدا نگه داشتن است مرکار شما را، پس ببخشید به او اطاعت خودتان را، در حالتی که ملامت کرده نشده است و به کراهت داشته نشده به آن و به خدا سوگند البته باید اطاعت آن را نمایید والاّ هرآینه محققاً نقل می کند خدای تعالی از شما سلطنت اسلام را، پس از آن نقل نمی کند آن را به سوی شما هرگز تا این که پناه ببرد آن امر خلافت به سوی غیر شما.

و به درستی که این قوم جمل اجتماع کرده اند و معین همدیگر شده اند بر غضب و بغض امارت و خلافت من و البته صبر می کنم بر این حرکت ایشان مادامی که نترسم بر جماعت شما، پس به درستی که ایشان اگر به انجام برسانند مقصود خودشان را بالای آن رأی ضعیف که دارند، بریده شود نظام مسلمانان و غیر از این نیست که ایشان طلب کرده اند این دنیا را از روی حسد بردن بر کسی که برگردانده حق تعالی آن را به او، پس اراده کردند بازگردانیدن کارها را بر پشتهای آن و مرشمارا است بر ذمّه ما عمل نمودن به کتاب الهی و طریقه حضرت رسالت پناهی و قائم شدن به حقّ آن بزرگوار و بلندکردن سنّت آن برگزیده پروردگار.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والتاسع والستون من المختار في باب الخطب

كلّم به بعض العرب وقد أرسله قوم من أهل البصرة لما قرب منها ليعلم لهم منه عليه السلام حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم، فبين له من أمره معهم ما علم به أنه على الحق ثم قال عليه السلام له: بايع فقال: أني رسول قوم ولا أُحدث حدثاً حتى أرجع إليهم فقال:

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذينَ ورَاءَكَ بَعَثُوكَ رائِداً تُبْتَغي لَهُمْ مَساقِطَ الْغَيْثِ فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ فَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلأِ وَالْمَاءِ فَخالَفُوا إِلىٰ الْمَعاطِشِ وَالْمَجادِبِ ما كُنْتَ صانِعاً؟ فَقالَ كُنْتُ تارِكَهُمْ ومُخالِفَهُمْ إِلَى الْكَلأِ وَالْمَاءِ، فقال عليه السلام: فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ، فَقالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ فَبَايَعْتُهُ[1].

والرجل يعرف بكليب الجرمي.

اللغة

(الرائد) المرسل في طلب الكلأ **(والكلأ)** بالهمز العشب رطباً كان أو يابساً الفيّومي عن ابن فارس وغيره والجمع أكلاء مثل سبب وأسباب.

وقال الشارح المعتزلي: الكلأ النبت إذا طال وأمكن أن يرعى وأوّل ما يظهر يسمّى الرطب فإذا طال قليلاً فهو الخلاء فإذا طال شيئاً آخر فهو الكلأ فإذا يبس فهو الحشيش **(والجرمي)** منسوب إلى الجرم بالفتح وهو ابن زبان بطن في قضاعة.

قال الشارح المعتزلي: منسوب إلى بني جرم بن زبان وهو علاف بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة من حمير.

الإعراب

الهمزة في قوله: أرأيت للتقرير، وجملة **(تبتغي)** في محل النصب صفة لرائداً جيئت بها للإيضاح وجملة **(ما كنت صانعاً)** جواب لو، وقوله **(فامدد إذاً يدك)** قال ابن هشام: والصحيح أن نونها أي نون إذن تبدل عند الوقف عليها ألفاً، وقيل يوقف عليها بالنون لأنها كنون أن

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٢٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٨٣ ح٥٥.

ولن روى عن المازني والمبرّد، والجمهور يكتبونها بالألف وكذا رسّمت في المصاحف والمازني والمبرد.

المعنى

أعلم أن هذا الكلام كما ذكره الرضي (**كلم** عليه السلام **به بعض العرب**) وهو الكليب الجرمي الذي صرّح الرّضي به آخرها (**وقد أرسله قوم من أهل البصرة**) إلى حضرة أمير المؤمنين (**لما قرب** عليه السلام **منها** ليعلم لهم منه عليه السلام حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم) أي نفوس أهل البصرة (**فبين** عليه السلام) للرجل المرسل (**من أمره معهم**) أي مع أهل الجمل (**ما**) أي برهاناً وافياً ودليلاً شافياً (**علم به**) أي علم الرجل بذلك البيان والبرهان (**أنه** عليه السلام **على الحق**) وأنّ أصحاب الجمل على الباطل (**ثم قال** عليه السلام **له بايع** فـ) ـاعتذر الرجل و(**قال إني رسول قوم ولا**) ينبغي أن (**أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم**) وأخبرهم بما جرى بيني وبينك.

فلما سمع عذره أراد دفعه بحجة لا محيص عنها وضرب مثلاً هو ألطف المثال وأوضحها وأحسنها في مقام الاحتجاج (**فقال أرأيت**) أي أخبرني ماذا رأيك (**لو أن الذين وراءك**) أي خلفك (**بعثوك رائداً تبتغي لهم مساقط الغيث**) والمرعى (**فرجعت إليهم فأخبرتهم عن الكلاء والماء فخالفوك**) وظعنوا (**إلى المعاطش والمجادب**) أي مواضع العطش والجدب (**ما كنت صانعاً**) أتتركهم وتخالفهم وتطلب ما شاهدت ورأيت من الماء والكلأ أم تذهب معهم إلى المجادب والمعاطش؟ (**فقال**) الرجل: (**كنت تاركهم ومخالفهم**) متوجهاً (**إلى الكلأ والماء، فقال** عليه السلام: (**فامدد إذاً يدك**) لأنّك إذا كنت تاركاً أصحابك ومفارقهم عند وجدان الكلاء والماء اللذين بهما غذاء الأبدان ومادة حياة الأجسام فتركك إيّاهم ومفارقتك منهم عند وجدان نور العلم والمعرفة والهداية الذي هو مادة حياة الأرواح والنفوس أحرى وأولى (**فقال الرجل: والله ما استطعت أن أمتنع**) من البيعة (**عند قيام الحجة عليّ فبايعته**).

أقول: هكذا يؤثر الموعظة لأهلها ويهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال ومثل اهتداء هذا الرجل رسول أهل البصرة بنور الولاية اهتداء رسول عائشة واهتداء رجل آخر من بني قيس رسول الزّبير وطلحة واستبصارهما بعد ما قامت عليهما الحجة.

أما رسول عائشة فقد روى في مجلد الفتن من البحار وفي كتاب مدينة المعاجز تأليف السيّد المحدّث السيّد الهاشم البحراني جميعاً عن محمد بن الحسن الصفار في البصائر عن أحمد بن محمد والحسن بن علي بن النعمان عن أبيه عن محمد بن سنان رفعه قال: إنّ عائشة قالت: التمسوا لي رجلاً شديد العداوة لهذا الرجل حتى أبعثه إليه، قال: فأتيت به فمثل بين يديها فرفعت إليها رأسه فقالت له: ما بلغت من عداوتك لهذا الرجل؟ فقال: كثيراً

ما أتمنى على ربي أنه وأصحابه في وسطي فضربت ضربة بالسيف يسبق[1] السيف الدم قالت: فأنت له، إذهب بكتابي هذا فادفعه إليه ظاعناً رأيته أو مقيماً. أما أنك إن رأيته ظاعناً رأيته راكباً على بغلة رسول الله ﷺ متنكباً قوسه معلقاً كنانته على قربوس سرجه، وأصحابه خلفه كأنهم طير صواف فتعطيه كتابي هذا وإن عرض عليك طعامه وشرابه فلا تناولنّ منه شيئاً فإنّ فيه السحر.

قال: فاستقبلته راكباً فناولته الكتاب ففض خاتمه ثم قراه فقال: تبلغ إلى منازلنا فتصيب من طعامنا وشرابنا، فنكتب جواب كتابك، فقال: هذا والله ما لا يكون قال: فسار خلفه وأحدق به أصحابه ثم قال له: أسألك؟ قال: نعم، وتجيبني؟ قال: نعم.

قال: فنشدتك الله هل قالت: التمسوا لي رجلاً شديد العداوة لهذا الرجل فأتيت بك؟ فقالت لك: ما بلغ من عداوتك لهذا الرجل فقلت: كثيراً ما أتمنّى على ربّي أنه وأصحابه في وسطي وأنّي ضربت ضربة سبق[2] السّيف الدّم؟ قال: اللهمّ نعم.

قال: فنشدتك الله أقالت لك: اذهب بكتابي هذا فأدفعه إليه ظاعناً كان أو مقيماً أما إنك إن رأيته راكباً رأيته على بغلة رسول الله ﷺ متنكّباً قوسه معلّقاً كنانته بقربوس سرجه وأصحابه خلفه كأنهم طير صواف قال: اللهم نعم.

قال عليه السلام: فنشدتك الله هل قالت لك: إن عرض عليك طعامه وشرابه فلا تناولنّ منه شيئاً فإن فيه السحر؟ قال: اللهم نعم.

قال: فتبلغ أنت عني؟ فقال: اللهمّ نعم فإني قد أتيتك وما في الأرض خلق أبغض إليّ منك وأنا الساعة ما في الأرض خلق أحب إلي منك فمر بي بما شئت.

قال عليه السلام: أرجع إليها بكتابي هذا، وقل لها: ما أطعت الله ولا رسوله حيث أمرك الله بلزوم بيتك فخرجت تردّدين في العسكر، وقل لهما[3]: ما أنصفتما الله ورسوله، حيث خلفتم حلائلكم في بيوتكم وأخرجتم حليلة رسول الله ﷺ.

قال: فجاء بكتابه فطرحه إليها وأبلغها مقالته ثم رجع إليه فأصيب بصفين، فقالت: ما نبعث إليه بأحد إلا أفسده علينا[4].

(١) «يصبغ» في نسخة.
(٢) «اصبغ» في نسخة.
(٣) أي طلحة والزبير.
(٤) بحار الأنوار: ٣٢/ ١٠٩ ح٨١، وتفسير نور الثقلين: ٤/ ٢٧٠ ح٨٢.

وأما رسول طلحة والزبير ففي الكافي عن محمد بن يعقوب الكلينيّ عن علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن سلام بن عبد الله، ومحمد بن الحسن، وعلي بن سهل بن يزاد، وأبو علي الأشعري، عن محمد بن حسان جميعاً، عن محمد بن عليّ عن عليّ بن أسباط عن سلام بن عبد الله الهاشمي قال محمد بن علي: وقد سمعته منه عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«بعث طلحة والزبير رجلاً من عبد القيس يقال له خداش إلى أمير المؤمنين عليه السلاموقالا له: إنّا نبعثك إلى رجل طال ما نعرفه وأهل بيته بالسّحر والكهانة وأنت أوثق من بحضرتنا من أنفسنا من أن تمتنع من ذلك وأن تحاجّه لنا حتى تقفه على أمر معلوم.

واعلم أنه أعظم النّاس دعوى فلا يكسرنّك ذلك عنه، ومن الأبواب التي يخدع بها الناس الطعام والشراب والعسل والدهن وأن يخالي الرجل فلا تأكل له طعاماً، ولاتشرب له شراباً، ولا تمسّ له عسلاً ولا دهناً، ولا تخل معه، واحذر هذا كله منه وانطلق على بركة الله.

فإذا رأيته فاقرأ آية السخرة وتعوّذ بالله من كيده وكيد الشيطان، فإذا جلست إليه فلا تمكنه من بصرك كله ولا تستأنس به ثم قل له: إن أخويك في الدين وابني عمك في القرابة يناشدانك القطيعة، ويقولان لك أما تعلم أنا تركنا الناس لك، وخالفنا عشائرنا فيك منذ قبض الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وآله فلما نلت أدنى مناك ضيّعت حرمتنا، وقطعت رجاءنا.

ثم قد رأيت أفعالنا فيك، وقدرتنا على الناس عنك، وسعة البلاد دونك، وأن من كان يصرفك عنا وعن صلتنا كان أقل لك نفعاً وأضعف عنك دفعاً منا، وقد وضح الصبح لذي عينين.

وقد بلغنا انتهاك لنا ودعاء علينا فماالذي يحملك على ذلك؟ فقد كنا نرى أنك أشجع فرسان العرب أتتخذ اللّعن ديناً وترى أن ذلك يكسرنا عنك؟.

فلما أتى خداش إلى أمير المؤمنين عليه السلام صنع ما أمراه فلما نظر إليه علي عليه السلام وهو يناجي نفسه ضحك وقال عليه السلام: ههنا يا أخا عبد قيس وأشار له إلى مجلس قريب منه، فقال: ما أوسع المكان أريد أن أُؤدي إليك رسالة، قال عليه السلام: بل تطعم وتشرب وتحل[1] ثيابك وتدّهن، ثمّ تؤدي رسالتك، قم يا قنبر فأنزله.

قال: ما بي إلى شيء مما ذكرت حاجة، قال: فأخلو بك، قال: كلا سرّ لي علانية،

(١) «تخلى» في نسخة.

قال: فأُنشدك بالله الذي هو أقرب إليك من نفسك، الحائل بينك وبين قلبك، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أتقدّم الزبير بما عرضت عليك؟ قال: اللهمّ نعم.

قال: لو كتمت بعد ما سألتك ما ارتدّ إليك طرفك فأنشدك الله هل علّمك كلاماً تقوله إذا أتيتني؟ قال: اللهم نعم، قال عليه السلام آية السخرة؟ قال نعم.

قال: فاقرأها فقرأها وجعل علي عليه السلام يكررها ويردّدها ويصحّح عليه إذا أخطأ حتى إذا قرأها سبعين مرة.

قال الرجل: ما يرى أمير المؤمنين عليه السلام بتردّدها سبعين مرة، قال له: أتجد قلبك اطمأن؟ قال: أي والذي نفسي بيده قال: فما قالا لك؟ فأخبره، فقال: قل لهما كفى بمنطقكما حجّة عليكما ولكن الله لا يهدي القوم الظالمين: زعمتما أنكما أخواي في الدّين وابنا عمّي في النسب فأمّا النسب فلا أنكره وإن كان النسب مقطوعاً إلاّ ما وصله الله بالإسلام، وأمّا قولكما أنكما أخواي في الدين، فإن كنتما صادقين فقد فارقتما كتاب الله عزّ وجل، وعصيتما أمره بأفعالكما في أخيكما في الدّين، وإلاّ فقد كذبتما وافتريتما بادّعائكما أنكما أخواي في الدّين.

وأمّا مفارقتكما الناس منذ قبض الله محمد صلى الله عليه وآله فإن كنتما فارقتماهم بحق فقد نقضتما ذلك الحق بفراقكما إيّاي أخيراً وإن فارقتماهم بباطل فقد وقع إثم ذلك الباطل عليكما مع الحدث الذي أحدثتما.

مع أنّ صفتكما بمفارقتكما الناس لم يكن إلاّ لطمع الدّنيا، زعمتما وذلك قولكما فقطعت رجاءنا، لا تعيبان بحمد الله من ديني شيئاً.

وأما الذي صرفني عن صلتكما فالذي صرفكما عن الحق وحملكما على خلعه من رقابكما كما يخلع الحرون لجامه، وهو الله ربّي لا أُشرك به شيئاً فلا تقولا أقلّ نفعاً وأضعف دفعاً فتستحقّا اسم الشرك مع النفاق.

وأمّا قولكما: إنّي أشجع فرسان العرب وهربكما من لعني ودعائي، فإنّ لكل موقف عملاً وإذا اختلفت الأسنّة وماجت لبود الخيل وملأ سحراً كما أجوافكما فثمّ يكفيني الله بكمال القلب.

وأمّا إذا أبيتما بأني أدعو الله فلا تجزعا من أن يدعو عليكما رجل ساحر من قوم سحرة زعمتما.

اللّهم أقعص الزبير بشرّ قتلة، وأسفك دمه على ضلالة، وعرّف طلحة المذلّة وادّخر

لهما في الآخرة شراً من ذلك إن كانا ظلماني وافتريا عليّ وكتما شهادتهما وعصياك وعصياً رسولك فيّ، قل آمين قال خداش: آمين.

ثمّ قال خداش لنفسه ما رأيت لحية قطّ أبين خطأ منك حامل حجّة ينقض بعضها بعضاً لم يجعل الله لها مساكاً أنا أبرأ إلى الله منهما.

قال علي عليه السلام: ارجع إليهما واعلمهما ما قلت، قال: لا والله حتى تسأل الله أن يردّني إليك عاجلاً وأن يوفّقني لرضاه فيك، ففعل، فلم يلبث أن انصرف وقتل معه يوم الجمل رحمه الله»[١].

(١) الكافي: ١/ ٣٤٥ ح١، ونهج السعادة: ٨/ ٣٧٨.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است كه تكلّم فرموده به آن با بعض عرب كه كليب جرمى بود، وقتى كه فرستاده بود او را قومى از اهل بصره، زمانى كه آن حضرت نزديك بصره بود تا بداند ازبراى ايشان از رأى آن حضرت حقيقت حال او را با اصحاب جمل تا زايل شود شبهه از نفوس ايشان.

پس بيان فرمود به او از كار خود با ايشان آن چيزى را كه دانست او به آن چيز، اين كه آن حضرت به حق است و ايشان به باطل، بعد از آن فرمود به او كه بيعت كن، پس گفت به او كه من ايلچى قومى هستم، كارى نمى كنم بى مشورت ايشان تا برگردم به طرف ايشان، پس فرمود آن حضرت:

خبر ده مرا اگر كسانى كه در پس تو أند بفرستند تو را در حالتى كه طلب كننده آب و گياه باشى كه طلب نمايى از براى ايشان مواضع افتادن باران را، پس برگردى به سوى ايشان و خبردهى ايشان را از آب و گياه، پس مخالفت نمايند و متوجه شوند به مكان هاى بى آب و علف، چه كار خواهى كرد در اين صورت؟

عرض كرد كه مى باشم ترك كننده ايشان و مخالف ايشان و مى روم به سوى آب و گياه، پس فرمود: حالا كه اين طور است، دراز كن دست خود را (يعنى بيعت نما)، پس گفت آن مرد: قسم به حق خدا نتوانستم خوددارى كنم نزد تمام شدن حجّت بر من، پس بيعت نمودم با آن حضرت.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسبعون
من المختار في باب الخطب

وذلك في اليوم الرابع من الوقعة سابع شهر صفر من سنة سبع وثلاثين على ما يأتي في رواية نصر بن مزاحم ورويته عنه باختلاف تطلع عليه.

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهارِ، ومَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، ومُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وجَعَلْتُ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ لاَ يَسْأَمُونَ مِنْ عِبادَتِكَ.

ورَبَّ هٰذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَها قَراراً لِلأَنامِ، ومَدْرَجاً لِلْهَوامِّ وَالْأَنْعامِ، وَمَا لا يُحْصَىٰ مِمَّا يُرَىٰ وَما لا يُرَى.

وَرَبَّ الْجِبالِ الرَّواسِيَ الَّتي جَعَلْتَها لِلأَرْضِ أَوْتاداً، ولِلْخَلْقِ اعْتِماداً إِنْ أَظْهَرْتَنا عَلَىٰ عَدُوِّنا فَجَنِّبْنا عَنِ الْبَغْيِ وسَدِّدْنا لِلْحَقِّ، وإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنا فَارْزُقْنَا الشَّهادَةَ، وَاعْصِمْنا مِنَ الْفِتْنَةِ.

أَيْنَ الْمانِعُ لِلذِّمارِ، وَالْغائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفاظِ العار[1] وَراءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمامَكُمْ.

اللغة

(غاض) الماء يغيض غيضاً ومغاضاً قلّ ونقص قال سبحانه: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ وقال: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي ما تنقص من تسعة أشهر والغيضة الأجمة ومجتمع الشجر و**(الذمار)** ما يلزمك حفظه من الأهل والمال والولد و**(غار)** على امرأته وهي عليه تغار غيرة وغيراً وغاراً فهو غائر وغيران وهي غيرى.

الإعراب

جملة **(لا يسأمون)** في محلّ النّصب صفة لقوله: سبطاً أو حال لأنّه نكرة غير محضة، فيجوز في الجملة التالية لها الوجهان كما صرح به علماء الأدبيّة ولو وقعت بعد النكرة المحضة فوصف فقطّ وبعد المعرفة المحضة فحال لا غير.

(١) «النّار» في نسخة.

المعنى

أعلم أنّ اللازم على العبد أن يكون توجهّه في جميع حالاته من الشدّة والرّخاء، والسرّاء والضرّاء، والضيق والسعة، إلى معبوده لاسيّما حالة البؤس والشدّة لأن دفع الضّرر الموجود والمتوقّع واجب عقلاً ونقلاً مع القدرة، والدّعاء محصّل لذلك وهو مقدور فيجب المصير إليه.

أمّا مقدوريّته فلا غبار عليه، وأمّا أنه محصّل لذلك فلما دلت عليه الأدلّة النقليّة من الكتاب والسنّة من أنّه يدفع به البلاء الحاصل، ويكشف به السوء النازل.

قال سبحانه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال الكاظم عليه السلام: «عليكم بالدعاء فإنّ الدعاءِ والطّلب إلى الله يردّ البلاء وقد قدّر وقضى فلم يبق إلاّ إمضاؤه فإذا دعي الله وسئل صرفه»[(١)].

وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ألا أدلّكم على شيء لم يستثن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله قلت: بلى، قال: الدّعاء يرد القضاء وقد أُبرم إبراماً» وضمّ أصابعه[(٢)].

وعن سيّد العابدين عليه السلام: «إنّ الدّعاء والبلاء ليتوافقان إلى يوم القيامة إنّ الدّعاء ليردّ البلاء وقد أُبرم إبراماً»[(٣)].

وعنه عليه السلام: «الدّعاء يدفع البلاء النازل، وما لم ينزل».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أدلّكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم ويدرّ أرزاقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تدعون ربّكم باللّيل والنهار». وقال: «سلاح المؤمن الدّعاء»[(٤)].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الدعاء ترس المؤمن، ومتى تُكثر قرع الباب يفتح لك»[(٥)].

وقال الصادق عليه السلام: «الدّعاء أنفذ من السنان الحديد»[(٦)].

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٧٠ ح٨، وبحار الأنوار: ٩٠/ ٢٩٥.
(٢) دعائم الإسلام: ٢/ ١٣٦، وشرح أصول الكافي: ١/ ٢٥٨.
(٣) جواهر الكلام: ٢٨/ ١٢٢، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/ ١٠١.
(٤) الرسالة السعدية: ١٢٨، والكافي: ٢/ ٤٦٨ ح٣.
(٥) الكافي: ٢/ ٤٦٨ ح٤، وشرح أصول الكافي: ١٠/ ٢٣٤ ح٤.
(٦) الكافي: ٢/ ٤٦٩ ح٧، وبحار الأنوار: ٩٠/ ٢٩٥.

هذا كلّه مضافاً إلى ما تقدمت في شرح الكلام السّادس والأربعين من الأدلّة الواردة في الحثّ والترغيب عليه.

إذا عرفت ذلك فأقول: لما كان مقام الحرب والجدال، ولقاء الشجعان والأبطال أحقّ المواقع التي يتوسل فيها إلى الله بالتخلّص إليه، والتوجّه له، وكان الدّعاء إليه بمقتضى الأدلّة السّابقة أفضل ما يتوقّى به من الدّواهي والمكاره، وترس من الأعداء، وجنّة لا شيء أوقى منه، وأنفذ عليهم من السّنان الحديد، وأشدّ تأثيراً من الضرب بالمشرفي والمهنّد والطعن بالخطى والقنى المسدّد لا جرم توجّه أمير المؤمنين عليه السلام إليه سبحانه بالدّعاء لما عزم لقاء القوم بصفّين فقال:

(**أللّهمَ ربّ السقف المرفوع**) أي السّماء التي رفعها بغير عمد ترونها، وإطلاق السقف عليها إما حقيقة أو من باب الاستعارة تشبيهاً لها بسقف البيت في الإرتفاع والإحاطة (**والجو المكفوف**) أي الفضاء الذي كفها بقدرته وجعله محلاً لسماواته وأرضه.

قال الشارح البحراني بعد تفسير السقف المرفوع بالسماء: وكذلك الجو المكفوف، وقال الشارح المعتزلي: الجو المكفوف السماء أيضاً كفّه أي جمعه وضمّ بعضه إلى بعض، ويمرّ في كلامه عليه السلام نحو هذا وأن السماء هواء جامد وماء جامد، انتهى[1].

وفيه نظر لما قد دلّت عليه الفصل الثامن من الخطبة الأولى صريحاً أن الجو غير السماء وأنه محل لها حيث قال عليه السلام هناك:

ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء ـ إلى أن قال: ـ فرفعه في هواء منفتق، وجوّ منفهق فسوّى منه سبع سماوات فانظر ماذا ترى، هذا.

مضافاً إلى أن كون الجو بمعنى السماء لم يذكره أحد من اللّغويّين وغيرهم فيما رأيتهم بل هم بين مفسّر له بالهواء وبين مفسّر بالفضاء وبعضهم بما بين السماء والأرض، اللّهم إلاّ أن يوجّه ما ذكره الشارحان بأنّه أُريد منه في خصوص هذا المقام السّماء مجازاً بعلاقة الحال والمحل أو المجاورة بقرينة قوله: (**الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار**) مع المعطوفات عليه التالية له فإنّ هذه كلها من أوصاف السّماء فلا بدّ من ارتكاب المجاز حتّى يصحّ الوصف بها إذ على إرادة الحقيقة امتنع جعلها صفاتاً له واحتمال كونها صفاتاً للسقف المرفوع مدفوع باستلزامه الفصل بين التابع والمتبوع بالأجنبي وهو خلاف القواعد الأدبيّة فافهم.

وكيف كان فمعنى كونه مغيضاً للّيل والنهار أنّه محلّ لنقصان كلّ منهما مع زيادة الآخر وذلك لأنّ حصول اللّيل إنّما هو بحركة الشّمس عن فوق الأرض إلى ما تحتها، وحصول

---

(١) بحار الأنوار: ٥٥/٩٤، بتفاوت.

النّهار بحركتها عن تحتها إلى ما فوقها، وبكيفيّة حركتها في الفلك يختلفان زيادة ونقصاناً.

فكلما قربت الشمس إلى المعدّل يطول النهار ويقصر اللّيل وكلّما بعدت يكون بالعكس قال سبحانه في سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩] وفي الزمر ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] ولذلك ترى كلّ بلد يكون عرضه الشمالي أكثر يكون أيامه الصيّفيّة أطول ولياليه الصيّفية أقصر وأيامه ولياليه الشتوية بالضدّ من ذلك.

فلما كان ظلام الليل وضوء النهار واختلافهما في الطول والقصر والزيادة والنقصان باختلاف حركة الشّمس، وكان محلّ الحركة هو السّماء صحّ بذلك الاعتبار جعله مغيضاً لهما. ويقرب مما ذكرته ما قاله الشارح البحراني فإنّه بعد تفسيره المغيض بالمغيب قال: لأنّ الفلك بحركته المستلزمة لحركة الشمس إلى وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة الليل واستلزام حركته لحركتها عن وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة النهار فكان كالمغيض لهما فاستعار له لفظ المغيض.

وأما ما قاله الشارح المعتزلي: من أن معناه أنّه جعله غيضة لهما وهي في الأصل الأجمة يجتمع إليها الماء وينبت فيها الشجر كأنّه جعل الفلك كالغيضة والليل والنهار كالشجر النابت فيها، ووجه المشاركة تولد الشجر من الغيضة وتولد الليل والنهار من جريان الفلك فليس بشيء كما لا يخفي هذا.

وقوله: **(ومجرى للشمس والقمر)** أي محلاً لجريانهما قد ظهر تفصيل الكلام فيه في شرح الفصل الثامن من الخطبة الأولى كما تقدم تفصيلاً والكلام في قوله: **(ومختلفاً للنجوم السيارة)** أي محلاً لاختلافها في السّير بالسرعة والبطء والحركة والخصوصة لكل منها في شرح الفصل المذكور أيضاً وكذا في شرح الفصل الرابع من الخطبة التسعين فليراجع المقامين **(وجعلت سكانه سبطاً)** أي قبيلاً **(من ملائكتك لا يسأمون من**[1] **عبادتك)** وقد عرفت أيضاً شرح حال الملائكة واختلاف فرقها وعدم ملالهم من عبادة الرب سبحانه في شرح الفصل التاسع من الخطبة الأولى والفصل الخامس من الخطبة التسعين.

(وربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام ومدرجاً للهوام) والحشرات **(والأنعام)** والبهايم **(وما لا يحصى)** من المصنوعات العجيبة والمخلوقات الغريبة **(مما يرى ومما لا يرى)** وتقدم الكلام في عجائب خلقة الأرض ودحوها على الماء والمنافع التي للنّاس فيها في شرح الفصل السادس من الخطبة التسعين.

---

(١) «عن» في نسخة.

قال الشارح البحراني: قال بعض العلماء. من أراد أن يعرف حقيقة قوله: **ما يرى وما لا يرى**، فليوقد ناراً صغيرة في فلاة في ليلة صيفيّة وينظر ما يجتمع عليها من غرائب أنواع الحيوان العجيبة الخلق لم يشاهدها هو ولا غيره، قال الشارح وأقول: ويحتمل أن يريد بقوله: وما لا يرى، ما ليس من شأنه أن يرى إمّا لصغره أو لشفّافيّته.

(ورب الجبال الرّواسي) أي الثابتات **(التي جعلها للأرض أوتاداً)** كما عرفت في شرح الفصل الثالث من الخطبة الأولى **(وللخلق اعتماداً)** لأن فيها ينابيع المعادن ومعادن الينابيع وفيها المرابض والمراتع، يرعون فيها الأنعام ويسرحون فيها الأغنام، وقد جعل فيها أكناناً وكهوفاً وغيراناً يأوون فيها في الصّيف والشتاء ويتوقون بها في شدة الحر وصبارة القرّ.

ويزرعون فيها الزراعات الدّيمية، وينالون منها بركات كثيرة فصحّ بذلك كونها اعتماداً للخلائق وكون اتكالهم عليها بما لهم فيه من المعائش والمرافق هذا.

ولما نادى الربّ المتعال بما تدل على اتصافه بالقدرة والعظمة والجلال تخلّص إلى ما دعاه لأجله فقال: **(إن أظهرتنا)** ونصرتنا **(على عدونا فجنبنا عن)** الظلم و**(البغي وسدّدنا لـ)** ـلصواب ولـ**(لحقّ)** ولا تجعلنا كسائر المحاربين من الملوك والسلاطين يحاربون الأعداء للدّنيا فإذا غلبوا أعداءهم يظلمون وعن البغي والطغيان لا يمسكون **(وإن أظهرتهم)** وجعلتهم غالبين **(علينا فارزقنا)** عظيم الزلفى و**(الشهادة واعصمنا من)** الضلال و**(الفتنة)**.

ثمّ أخذ في تحريض أصحابه على القتال بلفظ مهيج لهم على إيقاد نار الحرب وإضرامها فقال: **(أين المانع للذّمار)** اللام للجنس والاستفهام للإلهاب **(والغائر عند نزول الحقائق من أهل الحفاظ)** أي صاحب الغيرة والحمية من أهل المحافظة عند نزول الشدائد والنوازل الثابتة **(العار وراءكم)** وفي بعض النسخ النار بدل العار **(والجنة أمامكم)** يعني في الهرب والإدبار من الحرب عار في الأعقاب ونار يوم الحساب وفي الإقبال والتقدم عليه الجنّة وحسن المآب، فمن تولّى عنه خسر وخاب ومن سعى إليه نال عظيم الثواب.

تذييل

روى العلامة المجلسي رحمه الله في البحار هذا الكلام له عليه السلام من كتاب صفّين لنصر بن مزاحم قال: قال نصر حدّثنا عمر بن سعد عن عبد الرحمان بن جندب عن أبيه قال: لما كان غداة الخميس لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين وصلى علي عليه السلام الغداة فغلّس، ما رأيت علياً عليه السلام غلّس بالغداة أشدّ من تغليسه يومئذ وخرج بالناس إلى أهل الشام فزحف نحوهم وكان هو يبدئهم ويسير إليهم فإذا رأوه قد زحف استقبلوه بزحوفهم[1].

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٦١ ح٤٠١، وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٧٧.

وعن عمر بن سعد عن مالك بن أعين عن زيد بن وهب قال لمّا خرج علي عليه السلام إليهم غداة ذلك اليوم فاستبقلوه رفع يديه إلى السماء فقال:

اللهمّ رب هذا السقف المحفوظ المكفوف، الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر، ومنازل الكواكب والنجوم، وجعلت سكانه من الملائكة لا يسأمون العبادة.

ورب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام، وما لا يحصى مما يرى ومما لا يرى من خلقك العظيم.

ورب الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، ورب السحاب المسخر بين السماء والأرض ورب البحر المسجور المحيط بالعالمين ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق متاعاً إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا للحق وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصم بقيّة أصحابي من الفتنة.

قال: فلما رأوه قد أقبل تقدّموا إليه بزحوفهم وكان على ميمنته يومئذ عبد الله بن بديل والناس على راياتهم ومراكزهم وعلي عليه السلام في القلب في أهل المدينة جمهورهم الأنصار ومعه من خزاعة وكنانة عدد حسن.

قال نصر: ورفع معاوية قبّة عظيمة وألقى عليه الكرابيس وجلس تحتها وكان لهم قبل هذا اليوم ثلاثة أيام وهو اليوم الرابع من صفر، فخرج في هذا اليوم محمد ابن الحنفية في جمع من أهل العراق فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمع من أهل الشام فاقتتلوا فطلب عبيد الله محمداً إلى المبارزة فلما خرج إليه دعاه علي عليه السلام وخرج بنفسه راجلاً بيده سيفه وقال: أنا أبازرك فهلمّ، فقال عبيد الله: لا حاجة بي إلى مبارزتك فرجع عليه السلام إلى صفّه هذا[١].

وقد تقدّم جمل وقائع صفين في شرح الكلام الخامس والستّين وغيره مما نبّهناك عليه هناك.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٦٢.

الترجمة

از جمله کلام بلاغت نظام آن امام انام است در حینی که عزم فرمود به ملاقات نمودن با قوم شام در جنگ صفّین که به این مضامین دعا نمود:

بارالها، ای پروردگار سقف برافراشته و آسمان بازداشته، چنان آسمانی که گردانیدی آن را محلّ نقصان از برای شب و روز و محلّ جریان از برای مهر و ماه و محلّ اختلاف از برای ستاره های سیرکننده و گردانیدی ساکنان آن را قبیله ای از فرشتگان خود، در حالتی که ملال نمی آورند از عبادت تو.

و ای پروردگار این زمین که گردانیدی آن را قرارگاه از برای مردمان و محلّ رفتار حشرات زمین و چهار پایان و آن چه که شمرده نمی شود از مخلوقاتی که دیده می شود و از مخلوقاتی که دیده نمی شود.

و ای پروردگار کوه های ثابت استوار که گردانیدی آن ها را از برای زمین میخ ها و از برای خلق تکیه گاه، اگر غالب گردانی ما را بر دشمنان ما، پس کنار گردان ما را از تعدّی و ستم و راست دار ما را از برای حق واگر غالب گردانی ایشان را بر ما، پس روزی کن به ما شهادت را و حفظ کن ما را از ضلالت و فتنه.

کجا است منع کننده چیزی که لازم است بر جوانمرد حفظ کردن آن؟ و کجا است صاحب غیرت، هنگام نازل شدن شداید امور که کاشف است از حقایق کار از اهل حمیّت و فتوّت؟ عار و سرزنش در پشت شما است اگر روگردان باشید از محاربه و بهشت عنبرسرشت در پیش شما است اگر اقدام نمایید بر مقاتله.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والحادية والسبعون من المختار في باب الخطب

والظاهر أنها ملتقطة من الخطبة الطويلة التي قدمنا روايتها في شرح الفصل الثالث من الخطبة السادسة والعشرين إلاّ أن صدرها المتضمّن للحمد على الله سبحانه ليس فيها.

أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذي لاَ تُواري عَنْهُ سَماءٌ سَماءً، وَلاَ أَرْضٌ أَرْضاً.

منها: وَقَدْ قالَ لي قائِلٌ: إِنَّكَ يَا بْنَ أبي طالِبٍ عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ لَحَرِيصٌ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللّٰهِ أَحْرَصُ وَأَبْعَدُ وَأَنَا أَخَصُّ وأَقْرَبُ وإِنَّما طَلَبْتُ حَقًّا هُوَ لي، وأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْني وبَيْنَهُ، وتَضْرِبُونَ وَجْهي دُونَهُ، فَلَّما قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّةِ في الْمَلأ الْحاضِرينَ هَبَّ[١] كَأَنَّهُ لاَ يَدْري ما يُجيبُني به.

اللَّهُمَّ إِنّي أَسْتَعْديكَ عَلَى قُرَيْش وَمَنْ أعانَهُمْ، فإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمي وصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتي، وأَجْمَعُوا عَلَىٰ مُنازَعَتي أمْراً هُوَ لي، ثُمَّ قالُوا ألاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ نَأْخُذَهُ، وفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

ومنها في ذكر أصحاب الجمل:

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله كَمَا تُجَرُّ الأُمَةُ عِنْدَ شِرائِها مُتَوَجِّهينَ بِها إِلَى الْبَصْرَةِ فَحَبَسا نِساءَهُما في بُيُوتِهِما وأَبْرَزا حَبِيسَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله لَهُمَا ولِغَيْرِهِما في جَيْشٍ ما مِنْهُمْ رَجُلٌ إلاّ وَقَدْ أَعْطانِي الطّاعَةَ وسَمَحَ لي بِالْبَيْعَةِ طائِعاً غَيْرَ مُكْرِهٍ فَقَدِمُوا على عامِلي بها، وخُزانَ بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمِينَ وغَيرِهِمْ مِنْ أَهْلِها وقَتَلُوا طائِفَةً صَبْراً وطائفةً غَدْراً فَوَاللّٰهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ألا رَجُلاً واحِداً مُتَعمِدينَ لِقَتْلِهِ بِلاَ جُرْم جَرَّه، لَحَلَّ لي قَتْلُ ذَلِكَ الْجيشِ كُلِّهِ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا وَلَمْ يَدْفَعُوا بِلِسانٍ وَلا يد، دَعْ ما أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتي دَخَلُوا بِها عَلَيْهِمْ[٢].

اللغة

(الملأ) وزان جبل وجوه الناس وأشرافهم الذين يرجع إليهم لامتلائهم بالرأي والتدبير و**(هبّ)** من النوم انتبه وتنبه و**(سمح)** الرّجل من باب منع سماحاً وسماحة جاد وكرم.

---

(١) «بُهِتَ» في نسخة.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/٩٢، وشرح نهج البلاغة: ٩/٣٠٩.

الإعراب

في نسخة الشّارح المعتزلي: فوالله أن لو لم يصيبوا. قال الشارح **(فأن)** زائدة ويجوز أن يكون مخففة من الثقيلة، وجملة **(لحلّ لي)** جواب للقسم استغنى به عن جواب الشرط لقيامه مقامه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ١٠٣] وقولك **(والله لو جئتني لجئتك)**، **(فاللام)** جواب القسم لا جواب لو، قال نجم الأئمة: إذا تقدّم القسم أول الكلام ظاهراً أو مقدراً وبعده كلمة الشرط سواء كانت أن أو لولا أو اسم الشرط فالأكثر والأولى اعتبار القسم دون الشرط فيجعل الجواب لقسم، وما في قوله **(دع ما أنهم)** زائدة كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] و﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ [نوح: ٢٥] و﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] وقيل: إنّها نكرة والمجرور بدل منها.

المعنى

أعلم أنّ ما أورده السيد رحمه الله من خطبته عليه السلام في المتن يدور على فصول ثلاثة.

الفصل الأول

افتتح كلامه بحمد الله سبحانه باعتبار إحاطة علمه بالسماوات والأرضين فقال: **(الحمد لله الذي لا توارى)** أي لا تحجب ولا تستر عنه **(سماء سماء ولا أرض أرضاً)** لكونه منزهاً عن وصف المخلوقين الذين في إدراكهم لبعض الأجرام السماويّة والأرضية محجوبون عما وراءها وذلك لقصور ذاتهم وقصور قوتهم المدركة وأمّا الرب تعالى فلكمال ذاته فله العلم بكل ما سواه كما قد عرفت في شرح الفصل السادس والفصل السابع من الخطبة الأولى وفي شرح الخطبة التاسعة والأربعين وغيرهما.

وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق روى في الكافي عن ابن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم» فقال عليه السلام: هو واحدي الذات بأين من خلقه، وبذلك وصف نفسه وهو بكلّ شيء محيط بالإشراف والإحاطة والقدرة لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالإحاطة والعلم لا بالذات لأنّ الأماكن محدودة تحويها حدود أربعة فإذا كان بالذات لزمته.

يعني أنّه سبحانه لوحدانية ذاته ومباينته من خلقه كما وصف به نفسه في كتابه العزيز حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] لأن غيره من المخلوقات لكونه مكانياً يلزمه أنّ حصوله في مكان وحضوره عند جماعة يستلزم خلوّ سائر الأمكنة عنه وغيبته عن جماعة أخرى كما هو شأن المكانيات وهو ليس كذلك بل حصوله

ههنا وحضوره لهؤلاء الأنفس حصوله هناك وحضوره لأولئك.

وقوله: لا بالذات، يعني أنه ليست بالذات لأن الأماكن محدودة بحدود أربعة وهي: القدّام، والخلف، واليمين، والشّمال، لعدم تحيّزها إلاّ باعتبار عدُّ الجميع حدّين والفوق والتحت حدين فصارت أربعة فلو كانت إحاطته بالذات بأن كانت بالدخول في الأمكنة لزم كونه محاطاً بالمكان كالمتمكّن وإن كانت بالانطباق لزم كونه محيطاً بالتمكن كالمكان وكلاهما باطل، هذا.

وقوله: **(ولا أرض أرضاً)** قال الشارح المعتزلي: هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضها فوق بعض كما أن السماوات كذلك ولم يأت في الكتاب العزيز ما يدل على هذا إلا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] وهو قول كثير من المسلمين وقد تأول ذلك أرباب المذاهب الأخر القائلون بأنها أرض واحدة فقالوا أنها سبعة أقاليم فالمثليّة من هذا الوجه لا من تعدد الأرضين في ذاته.

ويمكن أن يتأول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقال إنها وإن كانت أرضاً واحدة لكنها أقاليم وأقطار مختلفة، وهي كروية الشكل فمن على حدبة الكرة لا يرى من تحته ومن تحته لا يراه ومن على أحد جانبيها لا يرى من على الجانب الآخر والله يدرك ذلك كله أجمع لا يحجب عنه بشيء منها شيء منها انتهى.

ونحو ذلك قال الطبرسي في تفسير الآية حيث قال: أي وفي الأرض خلق مثلهن في العدد لا في الكيفية لأن كيفية السماء مخالفة لكيفية الأرض وليس في القرآن آية تدلّ على أن الأرضين سبع مثل السماوات إلا هذه الآية ولا خلاف في السماوات أنها سماء فوق سماء وأما الأرضون فقال قوم إنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض كالسماوات لأنها لو كانت مصمتة لكانت أرضاً واحدة وفي كلّ أرض خلق خلقهم الله كيف شاء[1].

وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها سبع أرضين ليس بعضها فوق بعض يفرق بينهنّ البحار وتظلّل جميعهن السماء والله سبحانه أعلم بصحة ما استأثر بعلمه واشتبه على خلقه.

وقال الفخر الرّازي: قال الكلبي: خلق سبع سماوات بعض فوق بعض كالقبة ومن الأرض مثلهنّ في كونها طبقات متلاصقة كما هو المشهور أن الأرض ثلاث طبقات طبقة أرضية محضة، وطبقة طينيّة وهي غير محضة وطبقة منكشفة بعضها في البر وبعضها في البحر، وهي كالمعمورة، ولا يبعد من قوله: ومن الأرض مثلهنّ، كونها سبعة أقاليم على

(١) بحار الأنوار: ٥٧/ ٧٤، وتفسير مجمع البيان: ١٠/ ٥٠.

سبع سماوات وسبعة كواكب فيها، وهي السيارة، فإنّ لكلّ واحد من هذه الكواكب خواصّ تظهر آثار تلك الخواص في كل أقاليم الأرض فتصير سبعة بهذا الاعتبار.

الفصل الثاني منها

في ذكر ما جرى له يوم الشورى بعد مقتل عمر **(وقد قال لي قائل: إنك يابن أبي طالب على هذا الأمر لحريص)** أي على أمر الخلافة قال الشارح المعتزلي: والذي قال له ذلك سعد بن أبي وقاص مع روايته فيه: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، وهذا عجب فأجاب عليه السلام بقوله **(فقلت بل أنتم والله أحرص وأبعد وأنا أخص وأقرب)** فليس للبعيد التعريض على القريب والتعبير بكثرة الحرص وأراد بكونه أخصّ وأقرب مزيد اختصاصه برسول الله صلى الله عليه وآله **(وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه)** كناية عن منعهم منه ودفعهم له عنه **(فلما قرعته)** أي صدمته **(بالحجة في الملأ الحاضرين)** هب أي انتبه واستيقظ عن غفلته **(كأنّه بهت)** هكذا في نسخة الشارح المعتزلي بزيادة بهت بعد لفظة كأنّه أي صار مبهوتاً متحيّراً **(لا يدري ما يجيبني)** به.

ثمّ إنّه شكى بثّه إلى الله سبحانه واستمدّ منه فقال: **(اللّهم إنّي أستعديك على قريش)** أي أستغيثك وأستنصر منك عليهم (و) على **(من أعانهم)** من غيرهم **(فإنّهم قطعوا رحمي)** ولم يراعوا قربي من رسول الله صلى الله عليه وآله **(وصغروا عظيم منزلتي)** حيث جعلوني قريناً للأدغال والطغام والسفلة الأرذال **(وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي)** أي في أمر الخلافة الذي هو حقّ لي ومختصّ بي بالنصوص المستفيضة بل المتواترة الواردة فيه لا بمجرّد الأفضليّة فقطّ كما زعمه الشارح المعتزلي وفاقاً لسائر المعتزلة.

(ثم) إنّهم لم يقتصروا على أخذ حقّي ساكتين عن الدّعوى بل **(قالوا ألا إن في الحق أن نأخذه وفي الحق أن تتركه)** أي ادعوا أنّ الحق لهم وأن الواجب عليّ أن أترك المنازعة فيه معهم فليتهم أخذوه مذعنين بأنه حقي فكانت المصيبة أهون والتحمل بها أسهل.

قال الشارح البحراني: وروي: نأخذه ونتركه، بالنون في الكلمتين، وعليه نسخة الرّضي والمراد أنا نتصرف فيه كما نشاء بالأخذ والترك دونك.

الفصل الثالث منها

في ذكر أصحاب الجمل والتنبيه على ضلالهم **(فخرجوا يجرّون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله)** أي حرمه وهو في الأصل ما لا يحلّ انتهاكه، وكنّى به هنا عن زوجته عائشة **(كما تجرّ الأمة عند شرائها)** أي بيعها ووجه الشبه أن بائع الأمة يجرّها من بلد إلى بلد ويديرها في الأسواق

ويعرضها على المشترين، فكذلك هؤلاء أخرجوها وأداروها في البلدان وشهّروها في الأصقاع لينالوا بذلك إلى ما راموه (**متوجهين بها إلى البصرة فحبسا**) أي طلحة والزبير (**نساءهما في بيوتهما وأبرزا حبيس رسول الله ﷺ**) وهو أيضاً كناية عنها وفي ذلك أيضاً من الدّلالة على فرط ضلالهما وخطأهما ما لا يخفى لأن الرسول ﷺ أمرها بالاحتباس في بيتها بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فهؤلاء مضافاً إلى عدم رعايتهم لحرمة رسول الله ﷺ وحمايتهم عن عرضه ومخالفتهم لأمره خالفوا أمر الله سبحانه ونبذوا كتابه وراء ظهورهم حيث أبرزاها (**لهما ولغيرهما**) من الناس (**في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح**) أي جاد (**لي بالبيعة**) وهذا إشارة إلى وجه ثان لضلالهم، وهو نقضهم للعهد بعد التوكيد ونكثهم للطاعة بعد البيعة.

وقوله: (**طائعاً غير مكره**) من باب الاحتراس الذي مرّ ذكره في ضمن المحسنات البديعية في ديباجة الشرح والغرض إبطال توهّم كون بيعتهم على وجه الإكراه كما ادعاه طلحة والزبير حسبما عرّفه في شرح الكلام الثامن وغيره (**فقدموا على عاملي بها**) وهو عثمان بن حنيف الأنصاري كان عامله يومئذ بالبصرة (**وخزان بيت مال المسلمين**) وهم سبعون رجلاً أو أربعمائة رجل كما في رواية أبي مخنف الآتية (**وغيرهم من أهلها فقتلوا طائفة**) منهم (**صبراً**).

قال شيخنا في الجواهر بعد قول المحقق: ويكره قتله أي الكافر صبراً لا أجد فيه خلافاً لما في صحيح الحلبي عن الصادق عليه السلام لم يقتل رسول الله ﷺ رجلاً صبراً غير عقبة بن أبي معيط وطعن ابن أبي خلف فمات بعد ذلك ضرورة إشعاره بمرجوحيّته التي لا ينافيها وقوعه من رسول الله ﷺ المحتمل رجحانه لمقارنة أمر آخر على أن الحكم مما يتسامح في مثله[1].

قال: والمراد بالقتل صبراً أن يقيّد يداه ورجلاه مثلاً حال قتله وحينئذ فإذا أُريد عدم الكراهة أطلقه وقتله ولعل هذا هو المراد مما فسّره به غير واحد بل نسبه بعض إلى المشهور من أنه الحبس للقتل.

وفي القاموس: وصبر الإنسان وغيره على القتل أن يحبس ويرمى حتى يموت.

وأما ما قيل من أنه التعذيب حتى يموت أو القتل جهراً بين الناس أو التهديد بالقتل ثم القتل أو القتل وينظر إليه آخر أو لا يطعم ولا يسقي حتى يموت بالعطش والجوع فلم أجد ما يشهد لها بل الأخير منها مناف لما سمعته من وجوب الإطعام والسقي.

---

(١) جواهر الكلام: ١٦٢/٢٠.

وكيف كان فقد ظهر بذلك أن في قوله عليه السلام: فقتلوا طائفة صبراً من الدلالة على عظم خطيئتهم ما لا يخفى لأنه إذا كان قتل الكفّار المحاربين بهذه الكيفية المخصوصة مكروهاً أو حراماً على اختلاف تفسير الصبر فكيف بالمؤمنين مضافاً إلى أنّهم لم يقنعوا بذلك بل **(و)** قتلوا **(طائفة)** أُخرى **(غدراً)** وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يجيء كل غادر بإمام يوم القيامة مائلاً شدقه حتى يدخل النار».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث أصبغ بن نباتة وهو يخطب على منبر الكوفة: أيّها النّاس لولا كراهة الغدر لكنت من أدهى الناس ألا إنّ لكلّ غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة ألا وإن الغدر والفجور والخيانة في النار[١]، هذا وسنقص عليك قتلهم طائفة صبراً وطائفة غدراً في ثاني التنبيهين الآتيين إنشاء الله.

ثمّ إنّه عليه السلام لما أبدى العذر في قتالهم ووجوب قتلهم بثلاث كبائر موبقة أحديها إخراجهم لحبيس رسول الله صلى الله عليه وآله وهتكهم لناموسه، وثانيتها نكثهم البيعة بعد سماحهم للطاعة، وثالثها قتلهم للمسلمين صبراً وغدراً أقسم بالقسم البار بحلّية قتلهم إزاحة للشبهة عمن كان في قلبه مرض فقال:

(فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلاّ رجلاً واحداً متعمدين لقتله) أي متعمدين له **(بلا جرم جرّه)** أي بدون استحقاقه للقتل بجرم اجتراء **(لحل لي قتل ذلك الجيش كله)** هذا الكلام بظاهره يدل على جواز قتل جميع الجيش بقتل واحد من المسلمين معلّلاً بقوله **(إذ حضروه فلم ينكروه ولم يدفعوا عنه بلسان ولا يد)** فيستفاد منه جواز قتل من ترك النهي عن المنكر مع التمكن من إنكاره ودفعه.

فإن قلت: أفتحكمون بجواز ذلك حسبما يدل عليه ذلك الكلام؟

قلت: نعم لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان شرعاً فالتارك لهما تارك للواجب وعامل للمنكر، فيجوز للإمام عليه السلام ردعه عنه بأي وجه أمكن كسائر من ترك الواجبات وأتى بالمحرمات فإذا علم من أوّل الأمر أنه لا يجدي في الرّدع إلاّ القتل لجاز ذلك للإمام اتّفاقاً وإن اختلف الأصحاب في جواز ذلك أي القتل الذي هو آخر مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لغيره عليه السلام من دون إذنه.

ويدلّ على ما ذكرته من أنّ في ترك إنكار المنكر إخلال بالواجب وإقدام على المنكر ما رواه الصدوق رحمه الله في عقاب الأعمال مسنداً عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن

(١) الكافي: ٢/٣٣٨ ح٦، ووسائل الشيعة: ١٥/٧٠ ح٢١.

أبيه ﷺ قال قال علي ﷺ: «أيها الناس إنّ الله عز وجل لا يعذب العامة بذنب الخاصة إذا عملت الخاصة بالمنكر سرّاً من غير أن تعلم العامة، فإذا عملت الخاصة بالمنكر جهاراً فلم يغير ذلك العامة استوجب الفريقان العقوبة من الله عزّ وجلّ».

وقال ﷺ: «لا يحضرنّ أحدكم رجلاً يضربه سلطان جائر ظلماً وعدواناً ولا مقتولاً ولا مظلوماً إذا لم ينصره لأن نصرة المؤمن فريضة واجبة، فإذا هو حضره والعافية أوسع ما لم يلزمك الحجة الحاضرة».

قال: ولما وقع التقصير في بني إسرائيل جعل الرجل منهم يرى أخاه على الذنب فينهاه فلا ينتهي فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسه وشريبه حتى ضرب الله عز وجل قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن حيث يقول عز وجل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ الآية.

ويدل على جواز قتل فاعل المنكر ما يأتي في أواخر الكتاب في ضمن كلماته القصار من قوله: أيّها المؤمنون إنّه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرء، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكره بالسّيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقام على الطريق ونوّر في قلبه اليقين ورواه في الوسائل من روضة الواعظين مرسلاً ويدل عليه أخبار أُخر لا حاجة بنا إلى روايتها.

فقد ظهر بذلك كلّه أن تعليله ﷺ حل قتل الجيش بحضورهم قتل المسلم من دون إنكار له ودفع عنه موافق بظاهره لأصول المذهب ولقواعد الشرع ولا حاجة إلى التوجيه وتمحل التأويلات التي تكلّفها شراح النهج كالشارح المعتزلي والقطب الراوندي والشارح البحراني، ولا بأس بالإشارة إلى ملخّص كلامهم والتنبيه على ما يتوجه عليهم فأقول:

قال الشارح المعتزلي: ويسأل عن قوله ﷺ: لو لم يصيبوا إلا رجلاً واحداً لحل لي قتل ذلك الجيش بأسره لأنهم حضروه فلم ينكروا فيقال: أيجوز قتل من لم ينكر المنكر مع تمكّنه من إنكاره.

والجواب أنه يجوز قتلهم لأنهم اعتقدوا ذلك القتل مباحاً فإنهم إذا اعتقدوا إباحته فقد اعتقدوا إباحة ما حرّم الله فيكون حالهم حال من اعتقد أن الزنا مباح وأن شرب الخمر مباح.

واعترض عليه الشارح البحراني: بأن القتل وإن وجب على من اعتقد إباحة ما علم تحريمه من الدين ضرورة كشرب الخمر والزنا فلما قلت: أنه يجب على من اعتقد إباحة ما

علم تحريمه من الدين بالتأويل كقتل هؤلاء القوم لمن قتلوا، وخروجهم لما خرجوا له،؟ فإنّ جميع ما فعلوه كان بتأويل لهم وإن كان معلوم الفساد فظهر الفرق بين اعتقاد حلّ الخمر والزنا وبين اعتقاد هؤلاء لإباحة ما فعلوه، انتهى.

أقول: وأنت خبير بما في هذا الجواب والاعتراض كليهما من الضعف والفساد.

أما الجواب فلأنّ اعتقاد إباحة ما علم حرمته من الدّين ضرورة كقتل المسلم عمداً وإن كان مجوّزاً للقتل البتّة إلاّ أنّه عليه السلام لم يعلّل جوازه بذلك، بل علّله بالحضور على قتل المسلم وعدم الإنكار، وهو أعمّ من اعتقاد الإباحة وعدمه، وقد ظهر لك أن مجرّد ذلك كاف في جواز القتل من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا حاجة إلى التقييد أو التخصيص بصورة الاعتقاد مع عدم الداعي إليهما وكونهما خلاف الأصل.

وأما الإعتراض فلأنّ ملخص كلام المعترض أن خروج الناكثين وقتلهم للمسلمين إنّما نشاء من زعمهم جواز ذلك واعتقادهم حلّه لشبهة سنحت لهم وإن كان زعماً فاسداً واعتقاداً كاسداً.

وفيه: أولاً منع كون خروجهم عن وجه الشبهة والتأويل وإنما كان خروج خوارج النهروان بالتأويل وزعمهم الباطل حقّاً ولذلك قال عليه السلام في الكلام الستين: «لا تقتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه».

وثانياً: هب أن خروجهم كان بالتأويل وشبهة مطالبة دم عثمان ظاهراً وأمّا قتلهم للمسلمين فأيّ تأويل يتصوّر فيه مع أن المقتولين لم يكونوا قاتلي عثمان ولا من الحاضرين لقتله ولا ناصرين لقاتليه، ولم يقع بعدُ حرب الجمل عند قتلهم طائفة صبراً وطائفة غدراً فلم يكن قتلهم لهؤلاء إلاّ من محض البغي والعدوان والتعدّي والطغيان، ومتعمّدين فيه، فجاز قتلهم لذلك كما يجوز قتل معتقد حلّ الخمر والزّنا.

اللهمّ إلاّ أن يقال إن التأويل المتصوّر في قتلهم هو أنّهم لما زعموا أن أمير المؤمنين عليه السلام بحمايته عن قتلة عثمان خلافته خلافة باطلة، وإمامته إمامة جور وبيعة إمام الجور ومتابعته باطلة لا جرم زعموا إباحة قتل خزّان بيت المال ومن حذا حذوهم باعتبار كونهم من مبايعيه ومتابعيه، مستحفظين لبيت المال لأجله عليه السلام وحفظ بيت المال لأجل الإمام الجائر إعانة الإثم على زعمهم الباطل، فافهم جدّاً.

وبعد الغضّ عن جميع ذلك أقول: إنّ التأويل إذا كان معلوم الفساد حسبما اعترف به الشارح نفسه لم يبق موقع للتأمّل في جواز القتل، ولذلك أمر سبحانه بقتلهم وقتالهم مطلقاً في قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى

تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقال القطب الرّاوندي: إن حل قتلهم لدخولهم في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ الآية.

واعترض عليه الشارح المعتزلي: بأنه عليه السلام علّل استحلال قتلهم بأنهم لم ينكروا المنكر ولم يعلّل بعموم الآية.

وأورد عليه الشارح البحراني: بأنّ له أن يقول إنّ قتل المسلم الذي لا ذنب له عمداً إذا صدر من بعض الجيش ولم ينكر الباقون من تمكّنهم وحضورهم كان ذلك قرينة دالّة على الرضا من جميعهم والراضي بالقتل شريك القاتل خصوصاً إذا كان معروفاً بصحبته والاتحاد به كاتحاد بعض الجيش ببعض فكان خروج ذلك الجيش على الإمام العادل محاربة لله ورسوله، وقتلهم لعامله وخزّان بيت مال المسلمين وتفريق كلمة أهل العصر وفساد نظامهم سعى في الأرض بالفساد وذلك عين مقتضى الآية.

أقول: أمّا ما قاله الراوندي فلا غبار عليه، وأما اعتراض الشارح المعتزلي فلا وجه له لأنّه عليه السلام وإن علّل استحلال القتل بالحضور وعدم الإنكار ولم يعلّله لعموم الآية إلاّ أن مآل العلّتين واحد، ومقصود الراوندي التنبيه على أن مرجع العلّة المذكورة في كلامه إلى عموم الآية ففي الحقيقة التعليل بتلك العلّة تعليل بذلك العموم.

وهذا مما لا ريب فيه لظهور أنّ قتل خزّان بين المال وإتلاف ما فيه من الأموال لم يكن إلاّ من أجل نصبهم العداوة لأمير المؤمنين عليه السلام وكونهم في مقام المحاربة معه، فيدخلون في عموم الآية.

لأنّ المراد بمحاربة الله ورسوله فيها هو محاربة المسلمين، جعل محاربتهم محاربة لهما تعظيماً للفعل وتكريماً للسلم، فيجوز حينئذ قتله بحكم الآية.

بل ولو لم يكن المقتول منهم إلاّ واحداً كما فرضه عليه السلام في كلامه لجاز أيضاً قتل جميع الجيش كلّهم لأنّ المفروض أن قتل ذلك الواحد إنما كان محادة لله ورسوله ومحاربة لولي المؤمنين ولمن ائتم به من المسلمين فحيث إن الباقين حضروا ذلك القتل ولم ينكروه ولم يدفعوا عنه مع تمكّنهم منه يكون ذلك كاشفاً عن كونهم في مقام المحاربة أيضاً.

ولعل هذا هو مراد الشارح البحراني بالإيراد الذي أورده على الشارح المعتزلي وإن كانت عبارته قاصرة عن تأدية المراد لظهور أن صدور قتل المسلم عن بعض الجيش مع حضور الآخرين وعدم إنكار منهم وإن كان قرينة على رضا الجميع بالقتل، إلا أن ذلك بمجرّده لا يكفي في جواز قتل الرّاضين حتّى ينضمّ إليه المقدّمة الأخرى أعني كون صدور

القتل عن وجه المحاربة، وكون رضاهم بذلك كاشفاً عن كونهم محاربين جميعاً كما قلناه.

وعلى هذا فإن كان مراده بقوله **(والراضي بالقتل شريك القاتل)** هو ما ذكرناه فنعم الوفاق وإلا فيتوجّه عليه أنه إن أراد المشاركة في الإثم فهو مُسلم لما ورد في غير واحد من الروايات من أن الراضي بفعل قوم كالداخل فيهم، وأن العامل بالظلم والراضي به والمعين به شركاء ثلاثة وأن من رضي أمراً فقد دخل فيه ومن سخطه فقد خرج منه إلا أن هذه المشاركة لا تنفعه في دفع الاعتراض.

وإن أراد المشاركة في جواز قتل الرّاضي كما يجوز قتل القاتل فهو على إطلاقه ممنوع، لأن قتل القاتل بعنوان القصاص جايز دون الراضي.

نعم يجوز قتله من باب الحسبة على ما قلنا ومن أجل كونه في مقام المحاربة حسبما قاله الراوندي، كما يجوز قتل القاتل بهذين الوجهين أيضاً فافهم جيّداً هذا.

ولمّا نبّه عليه السلام على جواز قتل الجيش جميعاً بقتل واحد من المسلمين أردف ذلك بالتنبيه على مزيد استحقاقهم لهم حيث إقدامهم على جمع كثير منهم فقال: **(دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليم)**[١].

تنبيهان

الأول: قال الشارح المعتزلي بعد الفراغ من شرح الفصل الثاني من هذه الخطبة ما هذه عبارته: واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحو من هذا القول نحو قوله عليه السلام: ما زلت مظلوماً منذ قبض الله رسوله صلى الله عليه وآله حتى يوم الناس هذا.

وقوله عليه السلام: اللهم أجز قريشاً فإنّها منعتني حقيّ وغصبني أمري[٢].

وقوله عليه السلام: فجزت قريشاً عني الجوازي فإنّهم ظلموني حقي واغتصبوني سلطان ابن أمّي[٣].

وقوله عليه السلام وقد سمع صارخاً ينادي أنا مظلوم فقال عليه السلام: هلم فلنصرخ معاً فإنّي ما زلت مظلوماً[٤].

---

(١) الجمل: ١٠٠.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/٦٢٩ ح٤٢، ومناقب أهل البيت (ع): ٤٤٦.

(٣) مناقب أهل البيت (ع): ٤٤٦، وميزان الحكمة: ١/١٤٦.

(٤) الغارات: ٢/٧٦٨، وكتاب الأربعين: ١٩١.

وقوله عليه السلام: وإنّه ليعلم أن محلّي منها محل القطب من الرحى، وقوله عليه السلام: أرى تراثي نهباً، وقوله: اصفيا بإنائنا وحملا الناس على رقابنا[١].

وقوله عليه السلام: إن لنا حقّاً إن نعطه نأخذه وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى[٢].

وقوله عليه السلام: ما زلت مستأثراً عليّ مدفوعاً عما أستحقه وأستوجبه[٣].

قال الشارح: وأصحابنا يحملون ذلك كله على ادعائه الأمر بالأفضلية والأحقيّة وهو الحقّ والصّواب فإنّ حمله على الاستحقاق تكفير وتفسيق لوجوه المهاجرين والأنصار لكنّ الإماميّة والزيديّة حملوا هذه الأقوال على ظواهرها وارتكبوا بها مركباً صعباً ولعمري إنّ هذه الألفاظ موهمة مغلبة على الظنّ ما يقوله القوم لكن تصفّح الأقوال يبطل ذلك الظنّ ويدرأ ذلك الوهم فوجب أن يجري مجرى الآيات المتشابهات الموهمة ما لا يجوز على الباري فإنّه لا نعمل بها ولا نعوّل على ظواهرها لأنّا لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظاهر اللفظ وأن نحمل على التأويلات المذكورة في الكتب.

قال الشارح: وحدّثني يحيى بن سعيد بن علي الحنبلي المعروف بابن عاليه سكن قطفتا بالجانب الغربي من بغداد وأحد الشهود المعدلين بها قال: كنت حاضراً عند الفخر إسماعيل بن علي الحنبلي الفقيه المعروف بغلام ابن المنى وكان الفخر إسماعيل هذا مقدّم الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف ويشتغل بشيء في علم المنطق وقد كان حلو العبارة وقد رأيته أنا وحضرت عنده وسمعت كلامه وتوفى سنة عشرة وستمائة[٤].

قال ابن عالية: ونحن عنده نتحدث إذ دخل شخص من الحنابلة قد كان له دين على بعض أهل الكوفة فانحدر إليه يطالبه به واتفق أن حضره زيارة يوم الغدير، والحنبلي المذكور بالكوفة وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جموع عظيمة يتجاوز حدّ الإحصاء.

قال ابن عالية: فجعل الشيخ الفخر يسأل ذلك الشخص: ما فعلت ما رأيت؟ هل وصل مالك إليك؟ هل بقي منه بقيّة عند غريمك؟ وذلك الشخص يجاوبه حتى قال له: يا سيدّي لو

---

(١) الغارات: ٢/٧٦٨، وكتاب الأربعين: ١٩١.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٢٠، وسعد السعود: ٢٧٦.

(٣) الغارات: ٢/٧٦٨، وكتاب الأربعين: ١٩١.

(٤) الغارات: ٢/٧٦٩، وشرح نهج البلاغة: ٩/٣٠٨.

شاهدت يوم الزيارة يوم الغدير وما يجري عند قبر علي بن أبي طالب عليه السلام من الفضائح والأقوال الشنيعة وسب الصحابة جهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة.

فقال إسماعيل: أي ذنب لهم والله ما جرأهم على ذلك ولا فتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر، فقال ذلك الشخص: ومن صاحب القبر قال: علي بن أبي طالب عليه السلام قال: يا سيدي هو الذي سن لهم ذلك وعلّمهم إياه وطرقهم إليه؟ قال: نعم والله.

قال: يا سيدي فإن كان محقاً فمالنا نتولى فلاناً وفلاناً وإن كان مبطلاً فمالنا نتولاه ينبغي أن نبرأ إمّا منه أو منهما، قال ابن عالية: فقام إسماعيل مسرعاً وقال: لعن الله إسماعيل الفاعل بن الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة ودخل دار حرمه وقمنا نحن فانصرفنا، انتهى كلام الشارح[١].

أقول: قد مرّ في تضاعيف الشرح لاسيما مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقيّة النّصوص الدالّة على خلافته عليه السلام وبطلان خلافة غيره مضافاً إلى الأدلة العقلية.

والعجب من الشارح المعتزلي أنه بعد اعترافه بتواتر الأخبار الظاهرة في اغتصاب الخلافة والتظلم والشكوى من أئمة الجور كيف يصرفها عن ظواهرها من غير دليل وأي داع له إلى الانحراف عن قصد السبيل ولو كان هناك أقل دليل لتمسّك به مقدّم الحنابلة إسماعيل، ولم يعي عن الجواب، ولم يقم من مجلسه مسرعاً إلى الذهاب، فحيث عجز عن جواب القائل ضاق به الخناق إلا لعن نفسه بالفاعل ابن الفاعل.

ثم العجب من الشارح أنه يعلل ذلك تارة بأن حملها على ظواهرها يوجب تكفير وجوه الصحابة وتفسيقها وهو كما ترى مصادرة على المدّعى، وأُخرى بأن تصفح الأقوال يبطل الظنّ الحاصل منها وليت شعري أيّ قول أوجب الخروج عن تلك الظواهر.

فإن أراد قول أهل السنة فليس له اعتبار ولا وقع له عند أُولي الأبصار وإن أراد قول من يعوّل على قوله من النبي المختار وآله الأطهار فعليه البيان وعلينا التسليم والإذعان، مع أنا قد تصفحنا كتب التواريخ والسير والأخبار والأثر فما ظفرنا بعدُ إلى الآن على خبر واحد معتبر ولا حديث صحيح يؤثر بل الأحاديث الصحيحة النبوية وغير النبوية العاميّة والخاصية على بطلان دعواهم متظافرة وإبطال خلافة الخلفاء متواترة متظاهرة.

وقياس ظواهر تلك الروايات على الآيات المتشابهات قياس مع الفارق لا يقيسها إلاّ كلّ بائد ناهق، لقيام الأدلة القاطعة من العقل والنقل على وجوب تأويل هذه الآيات وقيامها

(١) الغارات: ٢/ ٧٧٠، وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٠٨.

على لزوم تعويل ظواهر تلك الروايات.

وكفى بذلك شهيداً فضلاً عن غيره مما تقدم ويأتي حديث الثقلين وخبر الحق مع علي وعلي مع الحق المعروف بين الفريقين ورواية ورود الأمة على النبي ﷺ على خمس رايات وافتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار غير واحدة.

ونعم ما قيل:

إذا افترقت في الدين سبعين فرقة	ونيفا كما قد جاء في واضح النقل
ولم يك منهم ناجيا غير واحد	فبين لنا ياذا النباهة والفضل
أفي الفرقة الهلاك آل محمد	أم الفرقة الناجون أيهما قل لي
فإن قلت هلاكاً كفرت وإن نجو	فلماذا قدم الغير بالفضل

التنبيه الثاني

في ذكر خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، وقتلهم طائفة من المسلمين فيها صبراً وطائفة غدراً وتوضيحاً لما أشار عليه السلام إليه في كلامه وتفصيلاً لما أجمله.

فأقول: روى الشارح المعتزلي عن أبي مخنف أنه قال: حدثنا إسماعيل بن خالد عن قيس بن أبي حازم وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وروى جرير بن يزيد عن عامر الشعبي، وروى محمد بن إسحاق عن حبيب بن عمير قالوا جميعاً: لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة طرقت ماء الحوأب وهو ماء لبني عامر بن صعصعة فنبحهم الكلاب فنفرت صعاب إبلهم فقال قائل: لعن الله الحوأب ما أكثر كلابها.

فلمّا سمعت عائشة ذكر الحوأب قالت: أهذا ماء الحوأب؟ قالوا نعم، فقالت: ردوني ردوني، فسألوها ما شأنها؟ ما بدا لها؟ فقالت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كأنّي بكلاب ماء يدعى الحوأب قد نبحت بعض نسائي ثم قال ﷺ لي: يا حميراء إيّاك أن تكونيها.

فقال لها الزبير: مهلاً يرحمك الله فإنا قد جزنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك من يشهد أن هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب، فلفق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابياً جعلا لهم جعلاً فحلفوا لها وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوأب فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام[1].

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/٢٣١٧، وشرح نهج البلاغة: ٩/٣١١.

أقول: بل أوّل شهادة زور في الإسلام ما وقعت يوم السقيفة حيث شهد منافقوا قريش لأبي بكر بأنهم سمعوا من رسول الله ﷺ أنه يقول: إن الله لم يكن ليجمع لنا أهل البيت النبوة والخلافة حسبما تقدّم في المقدمة الثالثة من مقدمات الخطبة الشقشقيّة من غاية المرام من كتاب سليم بن قيس الهلالي.

قال أبو مخنف: وحدّثنا عصام بن قدامة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوماً لنسائه وهن عنده جميعاً: ليت شعري أيّتكن صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثر كلهم في النار وتنجو بعد ما كادت.

قال الشارح المعتزلي: قلت: أصحابنا المعتزلة يحملون قوله وتنجو على نجاتها من النار والإمامية يحملون ذلك على نجاتها من القتل ومحملنا أرجح لأن لفظة في النار أقرب إليه من لفظة القتلى والقرب معتبر في هذا الباب ألا ترى أن نحاة البصريين أعملوا أقرب العاملين نظراً إلى القرب[1].

أقول: لا أدري ماذا يريد الشارح من ذكر الاختلاف في محمل الحديث وترجيح محمل المعتزلة على محمل الإمامية؟

فإن كان مقصوده بذلك الردّ على الإمامية لتمسّكهم به على كون عائشة في النار حيث حملوا النجاة فيه على النجاة من القتل دون النار ففيه أن الإماميّة لم يتمسّكوا به أبداً على كونها فيها لأنّ قوله ﷺ كلهم في النار راجع إلى المقتولين عن اليمين والشمال لا ربط له بها بوجه حتى يتمسّكوا به بل دليلهم على ذلك مضافاً إلى أخبارهم الكثيرة هو خروجها وبغيها على الإمام العادل، والخوارج والبغاة كلهم في النار وعليه أيضاً بناء المعتزلة كما صرح به الشارح في ديباجة شرحه وأن توهمّوا خروجها مع طلحة والزبير من هذه الكلّية لدليل فاسد.

وإن كان مقصوده به إثبات نجاة عائشة من النار ففيه أنه لا ينهض لإثباتها لأن قوله ﷺ «تنجو بعد ما كادت» يحتاج إلى إضمار المتعلق ولفظة في النار وإن كانت أقرب إليه لكن القرب اللفظي لا يكفي في جعل متعلقه النار بل المدار في أمثال المقام على القرب الاعتباري، وغير خفي على المنصف الخبير بأساليب الكلام أن المتبادر من إطلاق العبارة هو أن المتعلق لفظة من القتل، وسوق الكلام أيضاً يفيد ذلك.

وذلك لأنه لما أخبر بأنه عليه السلام يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثر وكان هناك مظنّة إصابة القتل إليها لقربه منها وإشرافها عليه، استدرك بقوله: وتنجو بعد ما كادت، وهذا بخلاف

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١١.

قوله: كلهم في النار، فإنه لم يكن موهماً لشمولها حتى يحتاج إلى الاستدراك.

فانقدح من ذلك أن الظاهر من مساق الكلام مضافاً إلى التبادر عرفاً هو أن المراد منه النجاة من القتل لا النجاة من النار كما يقوله المعتزلة.

وعلى التنزل والمماشاة أقول: غاية الأمر أن اللفظ مجمل محتمل للأمرين فلا يكافؤ الأدلّة القاطعة المسلّمة عند أصحابنا والمعتزلة على كون البغاة جميعهم في النار، ولا يجوز رفع اليد عن عموم تلك الأدلّة وتخصيصها بهذا اللفظ المجمل.

والعجب من الشارح أنه يستدلّ على مسألة أصولية كلاميّة بمسألة نحوية مع أن المسألة النحوية أيضاً غير مسلّمة عند علماء الأدبية والبصريون وإن أعملوا أقرب العاملين نظراً إلى القرب لكن الكوفيين اعملوا الأول منهما نظراً إلى السبق.

قال ابن مالك:

إن عاملان اقتضيا في اسم عمل ... قبل فللواحد منهما العمل

فالثاني أولى عند أهل البصرة ... واختار عكساً غيرهم ذا أسرة

هذا كله على ما يقتضيه النظر الجلي، وأما ما يقتضيه النظر الدقيق فهو حمل الحديث على ما يقوله أصحابنا الإمامية وبطلان محمل المعتزلة، وذلك لأن قوله ﷺ: «وتنجو بعدما كادت» يفيد نجاتها بعد قربها، فإن أُريد بها النجاة من القتل بعد القرب منه كما يقوله الإمامية فلا غبار عليه، وإن أُريد النجاة من النار فلا يصحّ لأنّ نجاتها منها على زعم المعتزلة كانت بسبب التوبة ولازم ذلك أنها قبل التوبة كانت هالكة واقعة في النار أعني الاستحقاق بالفعل لها، ووقوعها فيها غير قربها منها، كما هو مفاد قوله: بعد ما كادت.

والحاصل أن القرب من النار كما هو مضمون الرواية على قول المعتزلة ينافي الكون فيها على ما هو لازم محملهم فافهم جيّداً.

هذا كله على تسليم صحّة متن الحديث وإلاّ فأقول: الظاهر أنه وقع فيه سقط من الرواة عمداً أو سهواً أو من النساخ كما يدل عليه ما في البحار عن المناقب لابن شهر آشوب قال:

ذكر ابن الأعثم في الفتوح، والماوردي في أعلام النبوة، وشيرويه في الفردوس، وأبو يعلي في المسند، وابن مردويه في فضائل أمير المؤمنين، والموفق في الأربعين، وشعبه والشعبي وسالم بن أبي الجعد في أحاديثهم والبلاذري والطبري في تاريخهما أن عائشة لمّا سمعت نباح الكلاب قالت: أي ماء هذا؟ فقالوا: الحوأب قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون إنّي لهيه قد سمعت رسول الله ﷺ وعنده نساؤه يقول: ليت شعري أيّتكن تنبحها كلاب الحوأب.

وفي رواية الماوردي: أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تخرج فتنبحها كلاب الحوأب يقتل من يمينها ويسارها قتلى كثير وتنجو بعد ما كادت تقتل(١).

وهذه الرواية كما ترى صريحة في أن نجاتها من القتل.

وبعد هذا كله فغير خفي عليك أن ما تكلّفه الشارح في إنجائها من النار فإنّما يجري في حقّها فقط، وليت شعري ماذا يقول في حقّ طلحة والزبير فإنّ مذهبه وفاقاً لأصحابه المعتزلة نجاتهما أيضاً مثلها مع أن الرواية كما ترى مصرحة بأن كلهم في النار ولاشك في شمول هذه القضية الكلّية للرجلين فإن زعم استثناءهما أيضاً من هذه الكلية بدليل منفصل مثل حديث العشرة أو مادل على توبتهما فقد علمت في شرح بعض الخطب السابقة المتقدمة فساده بما لا مزيد عليه، هذا فلنرجع إلى ما كنا فيه.

قال أبو مخنف: حدثني الكلبي عن أبي صباح عن ابن عباس أن طلحة والزبير أغذا السير لعائشة حتى انتهوا إلى حفر أبي موسى الأشعري وهو قريب من البصرة وكتبا إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامل علي عليه السلام على البصرة أن أخل لنا دار الإمارة.

فلما وصل كتابهما إليه بعث إلى الأحنف بن قيس فقال له: إن هؤلاء القوم قدموا علينا ومعهم زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله والناس إليها سراع كما ترى، فقال الأحنف: أنهم جاؤوك بها للطلب بدم عثمان وهم الذين ألبّوا على عثمان الناس وسفكوا دمه وأراهم والله لا يزالون حتى يلقوا العداوة بيننا ويسفكوا دماءنا وأظنهم والله سيركبون منك خاصة ما لا قبل لك به وإن لم تتأهب لهم بالنهوض إليهم في من معك من أهل البصرة فإنك اليوم الوالي عليهم وأنت فيهم مطاع فسر إليهم بالناس وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة فيكون الناس أطوع منهم لك.

فقال عثمان بن حنيف: الرأي ما رأيت لكنّني أكره أن أبدأهم به وأرجو العافية والسّلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ورأيه فأعمل به.

ثم أتاه بعد الأحنف حكيم بن جبلة العبدي فأقرأه كتاب طلحة والزبير فقال له مثل قول الأحنف وأجابه عثمان مثل جوابه للأحنف فقال له حكيم: فأذن لي حتى أسير إليهم بالناس فإن دخلوا في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام وإلا فأُنابذهم على سواء.

فقال عثمان: لو كان ذلك رأى لسرت إليهم بنفسي قال حكيم: أما والله إن دخلوا عليك هذا المصر لتنقلنّ قلوب كثير من الناس إليه ويزيلنّك عن مجلسك هذا وأنت أعلم، فأبى عليه عثمان.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/٣٣٦، والبحار: ١٨/١١٣ و٣٢/١١٨.

قال: وكتب علي إلى عثمان لما بلغه مشارفة القوم البصرة: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف فأمّا بعد: فإن البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا وتوجّهوا إلى مصرك وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه فإن أجابوا فأحسن جوارهم ما داموا عندك وإن أبوا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف فناجزهم الخلاف حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين وكتبت كتابي هذا إليك من الربذة وأنا معجل المسير إليك إنشاء الله وكتب عبيد الله بن أبي رافع في سنة ست وثلاثين.

قال: فلما وصل كتاب علي عليه السلام إلى عثمان أرسل إلى أبي الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين الخزاعي فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم وما الذي أقدمهم.

فانطلقا حتى إذا أتيا حفر أبي موسى وبه معسكر القوم فدخلا على عائشة فسألاها ووعظاها وأذكراها وناشداها الله فقالت لهما ألقيا طلحة والزبير.

فقاما من عندها ولقيا الزبير فكلماه فقال لهما: إنّا جئنا للطلب بدم عثمان وندعو الناس إلى أن يردوا أمرالخلافة شورى ليختار الناس لأنفسهم فقالا له: إنّ عثمان لم يقتل بالبصرة ليطلب دمه فيها وأنت تعلم قتلة عثمان من هم وأين هم وإنّك وصاحبك وعائشة كنتم أشدّ الناس عليه وأعظمهم إغراء بدمه فأقيدوا من أنفسكم.

وأمّا إعادة أمر الخلافة شورى فكيف وقد بايعتم علياً عليه السلام طائعين غير مكرهين وأنت يا أبا عبد الله لم تبعد العهد لقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت آخذ قائم سيفك تقول ما أحد أحق بالخلافة منه ولا أولى بها منه، وامتنعت من بيعة أبي بكر فأين ذلك الفعل من هذا القول؟ فقال لهما: اذهبا فألقيا طلحة.

فقاما إلى طلحة فوجداه خشن الملمس شديد العريكة قوي العزم في إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف فأخبراه وقال له أبو الأسود.

يابن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لها مستلهما وشمر

فقال ابن حنيف: أي ورب الحرمين لأفعلن وأمر مناديه فنادى في الناس السلاح السلاح، فاجتمعوا إليه.

قال أبو مخنف: وأقبل القوم فلما انتهوا إلى المربد قام رجل من بني جشم فقال: أيها الناس أنا فلان الجشمي وقد أتاكم هؤلاء القوم فإن كانوا أتوكم خائفين لقد أتوكم من المكان الذي يا من فيه الطير والوحش والسباع وإن كانوا إنما أتوكم للطلب بدم عثمان فغيرنا ولي

قتله فأطيعوني أيها الناس وردّوهم من حيث أقبلوا فإنكم إن لم تفعلوا لم تسلموا من الحرب الضروس والفتنة الصماء التي لا تبقى ولا تذر، قال: فحصبه ناس من أهل البصرة فأمسك.

قال: واجتمع أهل البصرة إلى المربد حتى ملأوه مشاة وركباناً فقام طلحة وأشار إلى الناس بالسكوت ليخطب فسكنوا بعد جهد فخطب خطبة ذكر فيها قتل عثمان وحرّض الناس على الطلب بدمه، وعلى جعل أمر الخلافة شورى.

ثم قام الزبير فتكلّم بمثل كلام طلحة فقام إليهما ناس من أهل البصرة فقالوا لهما: ألم تبايعا علياً عليه السلام فيمن بايعه؟ ففيم بايعتما ثم نكثتما؟ فقالا: ما بايعناه ولا لأحد في أعناقنا بيعة وإنّما استكرهنا على بيعته.

فقال ناس: قد صدقا وأحسنا القول وقطعنا بالصواب، وقال ناس ما صدقا ولا أصابا في القول حتى ارتفعت الأصوات.

قال: ثم أقبلت عائشة على جملها فنادت بصوت مرتفع: أيها الناس أقلّوا الكلام واسكتوا. فأسكت الناس لها فقالت في جملة كلام تحرضهم فيه على القتال والإجلاب على قتلة عثمان: ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم عمر بن الخطاب ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان.

قال: فماج الناس واختلطوا فمن قائل يقول: القول ما قالت ومن قائل يقول: وما هي وهذا الأمر إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها، وارتفعت الأصوات وكثر اللغط حتى تضاربوا بالنعال وتراموا بالحصى.

ثم إن الناس تمايزوا فصاروا فريقين فريق مع عثمان بن حنيف وفريق مع عائشة وأصحابها.

قال أبو مخنف: حدثنا الأشعث عن محمد بن سيرين عن أبي الجليل قال: لما نزل طلحة والزبير المربد أتيتهما فوجدتهما مجتمعين فقلت لهما: ناشدتكما الله وصحبة رسول الله صلى الله عليه وآله ما الذي أقدمكا أرضنا هذه؟ فلم يتكلما فأعدت عليهما فقالا بلغنا أن بأرضكم هذه دنيا فجئنا نطلبها[١].

قال الشارح المعتزلي: وقد روى قاضي القضاة في كتاب المغني عن وهب بن جرير قال: قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير: إن لكما فضلاً وصحبة فأخبراني عن مسيركما هذا وقتالكما أشيء أمركما به رسول الله صلى الله عليه وآله أم رأى رأيتماه؟ فأما طلحة فسكت فجعل ينكت

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/٣١٦.

الأرض، وأما الزبير فقال: ويحك حدثنا أن ههنا دراهم كثيرة فجئنا لنأخذ منها.

قال الشارح: وجعل قاضي القضاة هذا الخبر حجة في أن طلحة تاب وإن الزبير لم يكن مصراً على الحرب.

قال: والاحتجاج بهذا الخبر على هذا المعنى ضعيف وإن صح هو وما قبله إنه لدليل على حمق شديد، وضعف عظيم ونقص ظاهر، وليت شعري ما الذي أخرجهما إلى هذا القول وإذا كان هذا في أنفسهما فهلا كتماه.

أقول: أما اعتبار الخبرين فلا غبار عليه لاعتضادهما بأخبار أُخر في هذا المعنى، وأما دلالتهما على حمق الرجلين كما قاله الشارح فلا خفاء فيه، وأما سكوت طلحة ونكته الأرض فلأنه لما رأى أن السائل لا يبقى ولا يذر ولم يكن له عن الجواب محيص ولا مفرّ فبهت الذي كفر، وأما الزبير فأعمى اللهقلبه وأجرى مكنون خاطره على لسانه إبانة عن انحطاط مقامه، ودناءة شأنه.

قال أبو مخنف: فلمّا أقبل طلحة والزبير المربد يريدان عثمان بن حنيف فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السكك فمضوا حتى انتهوا إلى موضع الدباغين فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف فشجرهم طلحة والزبير وأصحابهما بالرماح فحمل عليهم حكيم بن جبلة فلم يزل وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة.

فأخذوا إلى مقبرة ابن بني مازن فوقفوا بها مليّاً حتى ثابت إليهم خيلهم ثم أخذوا على مسناة البصرة حتى انتهوا إلى الرابوقة ثم أتوا سبخة دار البرزق فنزلوها.

قال: وأتاهما عبد الله بن حكيم لما نزلا السبخة بكتب كانا كتباها إليه فقال لطلحة: يا أبا محمد أما هذه كتبك؟ قال: بلى قال: فكتبت أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله حتى إذا قتلته أتيتنا ثائراً بدمه فلعمري ما هذا رأيك لا تريد إلاّ هذه الدنيا، مهلاً إذا كان هذا رأيك فلم قبلت من علي عليه السلام ما عرض عليك من البيعة فبايعته طائعاً راضياً ثم نكثت بيعتك ثم جئت لتدخلنا في فتنتك.

فقال: إن عليّاً دعاني إلى البيعة بعد ما بويع فعلمت أني لو لم أقبل ما عرضه عليّ لم يتمّ لي ثمّ يغري لي من معه.

قال: ثم أصبحا من غد فصفّا للحرب وخرج عثمان بن حنيف إليهما في أصحابه فناشدهما الله والإسلام وأذكرهما بيعتهما عليّاً عليه السلام فقالا: نحن نطلب بدم عثمان فقال لهما:

وما أنتما وذاك أين بنوه أين بنوعمه الذين هم أحقّ به منكم كلا والله ولكنكما حسدتماه حيث اجتمع الناس عليه وكنتما ترجوان هذا الأمر وتعملان له وهل كان أحد أشد على عثمان قولاً منكما.

فشتماه شتماً قبيحاً وذكرا أُمّه فقال للزّبير: أما والله لولا صفية ومكانها من رسول الله صلى الله عليه وآله فإنها أدنتك إلى الظل وإنّ الأمر بيني وبينك يابن الصبغة - يعني طلحة - أعظم من القول لأعلمتكما من أمركما ما يسوءكما اللّهم إني قد أعذرت إلى هذين الرجلين.

ثمّ حمل عليهم واقتتل الناس قتالاً شديداً ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتب بينهم كتاب صلح فكتب:

هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومن معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وطلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما أن لعثمان بن حنيف دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر وإن لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاؤوا من البصرة لا يضار بعضهم بعضاً في طريق ولا فرصة ولا سوق ولا شريعة حتى يقدم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فإن أحبوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمة، وإن أحبّوا ألحق كلّ قوم بهواهم وما أحبّوا: من قتال أو سلم، وخروج أو إقامة، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه وأشدّ ما أخذه على نبيّ من أنبياء من عهد وذمّة، وختم الكتاب.

ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه: إلحقوا رحمكم الله بأهلكم وضعوا سلاحكم وداووا جرحاكم، فمكثوا كذلك أيّاماً.

ثمّ إنّ طلحة والزّبير قالا: إن قدم عليّ ونحن على هذه الحال من القلّة والضعف ليأخذنّ بأعناقنا، فأجمعا على مراسلة القبائل، واستمالة العرب فأرسلوا إلى وجوه النّاس وأهل الرّياسة والشرف، يدعوهم إلى الطلب بدم عثمان وخلع عليّ عليه السلام وإخراج ابن حنيف من البصرة.

فبايعهم على ذلك الأزد وضبّة وقيس عيلان كلّها إلا الرّجل والرّجلين من القبيلة كرهوا أمرهم فتواروا عنهم.

وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمي فلم يأتهم فجاءه طلحة والزبير إلى داره فتوارى عنهما فقالت أمّه: ما رأيت مثلك أتاك شيخا قريش فتواريت عنهما فلم تزل به حتى ظهر لهما وبايعهما ومعه بنو عمرو بن تميم كلّهم وبنو حنظلة إلاّ بني يربوع فإنّ عامتهم كانوا شيعة لعلي عليه السلام وبايعهم بنو دارم كلّهم إلاّ نفراً من بني مجاشع ذوي دين وفضل.

فلما استوثق بطلحة والزبير أمرهما خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ومعهما أصحابهما قد ألبسوهم الدروع وظاهروا فوقها بالثياب فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه وأقيمت الصلاة فتقدم عثمان ليصلّي بهم فأخّره أصحاب طلحة والزبير وقدموا الزبير فجاءت السّيابجة وهم الشرط حرس بيت المال فأخّروا الزّبير وقدّموا عثمان فغلبهم أصحاب الزّبير فقدّموه وأخّروا عثمان.

فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع وصاح بهم أهل المسجد: ألا تتقون يا أصحاب محمد وقد طلعت الشمس فغلب الزّبير فصلّى بالنّاس فلمّا انصرف من صلاته صاح بأصحابه المستسلحين: أن خذوا عثمان بن حنيف، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفهما.

فلمّا أسر ضرب ضرب الموت ونتف حاجباه وأشفار عينيه وكلّ شعرة في وجهه ورأسه وأخذوا السيابجة وهم سبعون رجلاً فانطلقوا بهم وبعثمان بن حنيف إل عائشة.

فقالت لأبان بن عثمان: اخرج إليه فاضرب عنقه فإنّ الأنصار قتلت أباك وأعان على قتله فنادى عثمان: يا عائشة ويا طلحة ويا زبير إن أخي سهل بن حنيف خليفة علي بن أبي طالب عليه السلام على المدينة وأُقسم بالله إن قتلتموني ليضعن السيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم فلا يبقي منكم أحداً.

فكفوا عنه وخافوا أن يوقع سهل بن حنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة فتركون وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتل السيابجة فإنّه قد بلغني الذي صنعوا بك.

قال: فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم ولي ذلك منهم عبد الله ابنه وهم سبعون رجلاً وبقيت منهم طائفة مستمسكين ببيت المال قالوا: لا ندفعه إليكم حتى يقدم أمير المؤمنين عليه السلام فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً فأوقع بهم وأخذ منهم خمسين أسيراً فقلتهم صبراً.

قال أبو مخنف: وحدّثنا الصقعب بن زهير قال: كانت السيابجة القتلى يومئذ أربعمائة رجل قال: فكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف أول غدر في الإسلام وكان السيابجة أول قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبراً[1].

قال: وخيّروا عثمان بن حنيف بين أن يقيم أو يلحق بعلي عليه السلام فاختار الرحيل فخلوا سبيله فلحق بعلي عليه السلام فلما رآه بكى وقال له: فارقتك شيخاً وجئتك أمرداً فقال علي عليه السلام: إنّ لله وإنّا إليه راجعون، قالها ثلاثاً.

قال أبو مخنف: فلما صفت البصرة لطلحة والزبير اختلفا في الصلاة فأراد كل منهما أن

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/٣٢١، والدرجات الرفيعة: ٣٨٨.

يؤمّ بالناس وخاف أن يكون صلاته خلف صاحبه تسليماً ورضى بتقدّمه فأصلحت بينهما عائشة بأن جعلت عبد الله بن زبير ومحمد بن طلحة يصليان الناس هذا يوماً وهذا يوماً.

قال أبو مخنف: ثمّ دخلا بيت مال البصرة فلمّا رأوا ما فيه من الأموال قال الزّبير: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه فنحن أحقّ بها من أهل البصرة فأخذا ذلك المال كلّه فلمّا غلب عليّ عليه السلام ردّ تلك الأموال إلى بيت المال وقسمها في المسلمين هذا[1].

وقد تقدّم في شرح كلام له عليه السلام وهو ثامن المختار من الخطب كيفية وقعة الجمل ومقتل الزُّبير فارّاً عن الحرب وتقدّم نوادر تلك الوقعة في شرح سائر الخطب والكلمات في مواقعها اللاحقة فلتطلب من مظانّها.

---

(١) جواهر الكلام: ١٢/٢١٨، وشرح نهج البلاغة: ٤/١٢٣.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن امام انام و وصیّ والامقام است مشتمل بر سه فصل:

فصل اول: متضمن حمد و ثنا است مر حق تعالی را، می فرماید: شکر و سپاس خداوندی را سزا است که نمی پوشد از او آسمانی آسمان دیگر را و نه زمینی زمین دیگر را.

فصل دوم: متضمّن شکایت است از اهل شوری و غاصبان خلافت، می فرماید: و گفت به من گوینده ای که سعد وقاص ملعون بود: ای پسر ابوطالب، به درستی که تو به امر خلافت بسیار حریصی، پس گفتم من، بلکه شما به حقّ خدا حریص ترید و دورتر و من اختصاصم بیشتر است و نزدیکیم زیادتر و جز این نیست که طلب می کنم حقی را که مختصّ است به من و شما حایل و حاجب می شوید میان من و میان آن و دست ردّ می زنید به روی من نزد آن، پس زمانی که کوفتم آن گوینده را با حجت و دلیل در میان جماعت حاضران، بیدار شد از خواب غفلت، گویا که او نمی دانست چه جواب بدهد به من.

بارخدایا، به درستی که من طلب اعانت می کنم از تو بر طایفه قریش و بر کسانی که اعانت کردند ایشان را، پس به درستی که ایشان بریدند خویشی مرا و حقیر شمردند بزرگی مرتبه مرا و اتفاق کردند به منازعه من در کاری که آن اختصاص به من داشت، پس از آن گفتند بدان که در حق است اخذ کردن ما آن را و در حقّ است ترك کردن تو آن را.

فصل سوم: در ذکر اصحاب جمل است، می فرماید: پس خروج کردند در حالتی که می کشیدند حرم پیغمبر خدا را (یعنی عایشه خاطئه را)، چنان چه کشیده می شود کنیز هنگام فروختن او، درحالتی که متوجّه شدند با او به سوی بصره، پس حبس کردند و نگه داشتند طلحه و زبیر زنان خودشان را در خانه خود و بیرون آوردند زن محبوس شده حضرت رسات مآب را از برای خودشان و از برای غیر خودشان، در لشکری که نبود از ایشان هیچ مردی مگر این که عطا کرده بود به من

اطاعت خود را و بخشیده بود به من بیعت خود را، درحالتی که بیعتشان از روی طوع و رغبت بود نه با جبر و اکراه.

پس آمدند بر حاکم من که در بصره بود و بر خازنان بیت المال مسلمانان و بر غیر ایشان از اهل بصره، پس کشتند طائفه ای را با صبر و اسیری و طائفه ای را با مکر و حیله، پس قسم به خدا اگر نمی رسیدند از مسلمانان مگر به یك نفر مرد، درحالتی که متعمّد بودند در قتل آن بدون گناه و تقصیری که کسب نموده آن را، هرآینه حلال بود مرا کشتن جمیع این لشکر از جهت این که حاضر شدند به کشتن او و انکار نکردند و دفع نکردند از او کشتن را با زبانی و نه با دستی، بگذار که ایشان به قتل آوردند از مسلمانان مثل عددی را که داخل شده بودند با ایشان بر ایشان.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثانية والسبعون من المختار في باب الخطب

أمينُ وَحْيِهِ، وخاتَمُ رُسُلِهِ، وبَشِيرُ رَحْمَتِهِ، ونَذِيرُ نِقْمَتِهِ، أيُّها النّاسُ إنَّ أحَقَّ النّاسِ بِهٰذا الأمْرِ أقْوَاهُمْ عَلَيْهِ وأعْلَمُهُمْ بِأمْرِ اللّهِ فِيهِ فَإنْ شَغَبَ شاغِبٌ أُسْتُعْتِبَ وَإنْ أبىٰ قُوتِلَ وَلَعَمْرِي لَئِنْ كانَتِ الإمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتّىٰ تَحْضُرَها عامَّةُ النّاسِ ما إلىٰ ذٰلِكَ سَبِيلٌ وَلٰكِنْ أهْلُها يَحْكُمُونَ عَلىٰ مَنْ غَابَ عَنْهَا ثُمَّ لَيْسَ للشّاهِدِ أنْ يَرْجِعَ وَلاَ للغَائِبِ أنْ يَخْتارَ.

ألاَ وَإنّي أُقاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ادَّعىٰ ما لَيْسَ لَهُ وَآخَرَ مَنَعَ الَّذي عَلَيْهِ.

أُوصيكُمْ عِبادَ اللّهِ بِتَقْوَى اللّهِ فَإنَّها خَيْرُ ما تَواصَى العِبادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَواقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللّهِ، وَقَدْ فُتِحَ بابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أهْلِ الْقِبْلَةِ وَلاَ يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إلاَّ أهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ، وَالْعِلْمِ بِمَواقِعِ الْحَقِّ، فامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَما تُنْهَوْنَ عَنْهُ، وَلاَ تَعْجَلوا في أمْرٍ حَتّىٰ تَتَبَيَّنُوا فَإنَّ لَنا مَعَ كُلِّ أمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً.

ألاٰ وَإنَّ هٰذِهِ الدُّنْيا الَّتي أصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَها وتَرْغَبُونَ فِيها وأصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وتُرْضيكُمْ لَيْسَتْ بِدارِكُمْ وَلاَ مَنْزِلُكُمْ الَّذي خُلِقْتُمْ لَهُ، وَلاَ الَّذي دُعيتُمْ إلَيْهِ، ألاَ وَإنَّها لَيْسَتْ بِباقِيَةٍ لَكُمْ، وَلاَ تبْقُونَ عَلَيْها، وَهِيَ وَإنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّها.

فَدَعُوا غُرُورَها لِتَحْذِيرِها، وإطْماعَها لِتَخْوِيفِها، وسابِقُوا فيها إلى الدّارِ الَّتي دُعيتُمْ إلَيْها، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا وَلاَ يُحَنَّنْ أحَدُكُمْ حَنينَ الْأَمَةِ عَلىٰ ما زُرِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلىٰ طاعَةِ اللّهِ، وَالْمُحافَظَةِ عَلىٰ ما اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتابِهِ.

ألاَ وَإنَّهُ لاَ يَضُرُّكُمْ شَيءٌ مِنْ دُنْياكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قائِمَةَ دينِكُمْ.

ألاَ وَإنَّهُ لا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْييعِ دينِكُمْ شَيءٌ حافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أمْرِ دُنْياكُمْ.

أخَذَ اللّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إلىٰ الْحَقِّ، وَألْهَمْنَا وَإيّاكُمُ الصَّبْرَ[١].

اللغة

(خاتم رسله) بفتح التاء وكسرها و**(أطمعه)** إطماعاً أوقعه في الطمع و**(حنّ)** يحنّ حنيناً

(١) ميزان الحكمة: ٢/ ١٥٦٥ ح٢١٨٥، وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٤٢.

استطرب والحنين الشّوق وشدّة البكاء والطرب أو صوت الطرب عن حزن أو فرح، وفي بعض النسخ بالخاء المعجمة قال في القاموس والحنين كالبكاء أو الضحك في الأنف وقد خنّ يخن، وقال علم الهدى في كتاب الغرر والدّرر في قول ابن أراكة الثقفي:

فقلت لعبد الله إذ حنّ باكياً . تعزّو ماء العين منهمر يجرى
تبين فإن كان البكاء ردّ هالكاً على أحد فاجهد بكاك على عمرو

قوله: حنّ باكياً رفع صوته بالبكاء وقال: قال قوم: الخنين بالخاء المعجمة من الأنف والحنين من الصّدر، وهو صوت يخرج من كل واحد منهما و**(زوى)** الشيء زيّاً وزوياً جمعه وقبضه.

الإعراب

الضمير في قوله **(زوى عنه)** راجع إلى أحدكم وفي بعض النسخ بدله عنها فيرجع إلى الأمّة والأوّل أظهر، وإضافة **(قائمة إلى دينكم)** لأميّة وتحتمل أن تكون بيانيّة كما نشير إليه في شرح معناه.

المعنى

أعلم أنّ مدار هذه الخطبة الشريفة على فصول:

الفصل الأول: في نبذ من ممادح الرسول صلى الله عليه وآله وهو **(امين وحيه)** أي مأمون على ما أُوحي إليه من الكتاب الكريم وشرائع الدين القويم من التحريف والتبديل فيما أمر بتبليغه لمكان العصمة الموجودة فيه صلوات الله وسلامه عليه وآله **(وخاتم رسله)** أي آخرهم ليس بعده رسول كما قال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [ص: ٤٠] قال في الصّافي: آخرهم الذي ختمهم أو ختموا به على اختلاف القراءتين.

وفي مجمع البحرين: ومحمد خاتم النبيين، يجوز فيه فتح التاء وكسرها فالفتح بمعنى الزينة مأخوذ من الخاتم الذي هو زينة للأبسه وبالكسر اسم فاعل بمعنى الآخر **(وبشير رحمته ونذير نقمته)** أي مبشر برحمته الواسعة، والثواب الجزيل ومخوّف من عقوبته الدائمة والعذاب الوبيل كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

الفصل الثاني: في الإشارة إلى بعض وظائف الخلافة وهو قوله عليه السلام: **(أيها الناس إنّ أحق الناس بهذا الأمر)** أي أمر الخلافة والإمامة **(أقواهم عليه)** أي أكملهم قدرة وقوة على السياسة المدنيّة وعلى كيفيّة الحرب **(وأعلمهم بأمر الله فيه)** أي أكثرهم علماً بأحكامه سبحانه في هذا الأمر في بعض النسخ «وأعملهم بأمر الله» بدله هذا ويدل على ذلك أعني كون

الأقوى والأعلم أحق بالرياسة غيره صريحاً قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

فقد ردّ استبعادهم لتملّكه بفقره بأن العمدة في ذلك اصطفاء الله وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح وبأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكّن به من معرفة الأُمور السياسية وجسامة البدن، ليكون أعظم وقعاً في القلوب وأقوى على مقاومة العدو ومكايدة الحروب، لا ما ذكرتم.

وكيف كان فقد دلّت هذه الآية الشريفة كقول الأمام عليه السلام على بطلان ملك المفضول وخلافته مضافين إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فانقدح: من ذلك فساد ما توهّمه الشارح المعتزلي من أن قوله عليه السلام لا يدل على بطلان إمامة المفضول لأنه عليه السلام ما قال إن إمامة غير الأقوى فاسدة ولكنه قال: إن الأقوى أحقّ وأصحابنا لا ينكرون إنه عليه السلام أحق ممن تقدمه بالإمامة مع قولهم بصحة إمامة المتقدّمين لأنه لا منافاة بين كونه أحق وبين صحة إمامة غيره.

وجه: انقداح الفساد أن أحقيته وإن كانت لا تنافي بحسب الوضع اللّغوي حقيقة غيره كما هو مقتضى وضع أفعل التفضيل إلاّ أن الظاهر عدم إرادة الأفضلية هنا بل نفس الفضل كما في قوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حيث يستدلون به على حجب الأقرب للأبعد وكذلك في قوله ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ وإلاّ لما استحق متبعو غير الأحق بالتوبيخ والملام المستفاد من ظاهر الاستفهام، مضافاً إلى تشديد التقريع بقوله عقيب الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

فإن قلت: حمل أفعل على غير معناه اللّغوي مجاز لا يصار إليه إلاّ بقرينة تدلّ عليه فما القرينة عليه؟

قلت: القرائن المنفصلة من العقل والنقل فوق حد الإحصاء وأمّا القرينة المتصلة فهي قوله: (**فإن شغب شاغب**) أي أثار الشرّ والفساد (**استعتب**) وطلب عتباه ورجوعه إلى الحق (**فإن أبى قوتل**) فإن جواز قتال الآبي وقتله ليس إلاّ لعدم جواز عدوله عن الأحق إلى غيره فيعلم منه أن غيره غير حقيق للقيام بالأمر كما لا يخفى، فافهم وتدبّر هذا.

ولما كان معاوية وأهل الشام وأكثر من عدل عنه عليه السلام ونكث عن بيعته **قادحين في** خلافته طاعنين في إمامته بأنّه لم يكن عقد بيعته برضا العامّة وحضورها أشار إلى بطلان زعمهم وفساده بقوله: (**ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى تحضرها عامة الناس**) كما يزعمه هؤلاء ويحتجون به عليّ (**ما**) كان (**إلى ذلك سبيل**) لتعذّر اجتماع المسلمين على كثرتهم وانتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها (**ولكن أهلها**) أي أهل الإمامة أو البيعة الحاضرون من أهل الحل والعقد يعقدون البيعة و(**يحكمون على من غاب عنها ثم ليس للشاهد أن يرجع**) عن بيعته كما رجع الزبير وطلحة (**ولا للغائب**) كمعاوية واتباعه (**أن يختار**) أي يكون لهم اختيار بين التسليم والامتناع.

قال الشارح المعتزلي: وهذا الكلام أعني قوله عليه السلام: ولعمري إلى آخره، تصريح بمذهب أصحابنا من أن الاختيار طريق إلى الإمامة ومبطل لما يقوله الإمامية من دعوى النص عليه ومن قولهم: لا طريق إلى الإمامة سوى النص أو المعجز، انتهى.

وفيه نظر: أما أولاً فلأنه عليه السلام إنما احتج عليهم بالإجماع إلزاماً لهم لاتفاقهم على العمل به في خلافة أبي بكر وأخويه وعدم تمسّكه عليه السلام بالنص لعلمه بعدم التفاتهم إليه كيف وقد أعرضوا عنه في أول الأمر مع قرب العهد بالرسول صلى الله عليه وآله وسماعهم منه عليه السلام وأما ثانياً فلأنّه عليه السلام لم يتعرّض للنصّ نفياً ولا إثباتاً فكيف يكون مبطلاً لما ادعاه الإماميّة من النص.

والعجب أنه جعل هذا تصريحاً بكون الاختيار طريقاً إلى الإمامة ونفي الدلالة في قوله عليه السلام: إن أحق الناس بهذا الأمر، (اه)، على نفي إمامة المفضول مع أنه لم يصرّح بأن الإمامة تنعقد بالاختيار بل قال: لا يشترك في انعقاد الإمامة حضور العامة ولا ريب في ذلك نعم يدل بمفهومه على ذلك وهذا تقيّة منه عليه السلام.

ولا يخفي على من تتبّع سيره أنه لم يكن يمكنه إنكار خلافتهم والقدح فيها صريحاً في المحافل فلذا عبّر بكلام موهم لذلك وقوله عليه السلام: وأهلها يحكمون وإن كان موهماً له أيضاً لكن يمكن أن يكون المراد بالأهل الأحقاء بالإمامة ويكون الضمير فيه راجعاً إليهم.

ولا يخفى أن ما مهده عليه السلام أولاً بقوله: إن أحق الناس أقواهم يشعر بأن عدم صحة رجوع الشاهد واختيار الغائب إنّما هو في صورة الاتفاق على الأحق دون غيره فتأمل.

ثمّ ذكر من يسوغ له عليه السلام قتاله فقال: (**ألا وإني أقاتل رجلين رجلاً ادعى ما ليس له وآخر منع الذي عليه**) يحتمل أن يكون الأول إشارة إلى أصحاب الجمل والثاني إلى معاوية وأتباعه ويحتمل العكس.

فعلى الأول فالمراد من ادعائهم ما ليس لهم الخلافة أو المطالبة بدم عثمان فإنه لم

يكن لهم ذلك وإنما كان ذلك حقاً لوارثه ومن معهم بما وجب عليهم هو البيعة وبذل الطاعة.

وعلى الثاني فالمراد من ما ليس له أيضاً الخلافة أو دعوى الولاية لدم عثمان والمطالبة به ومن منع ما وجب عليه هو المضي على البيعة والاستمرار عليه أو سائر الحقوق الواجبة عليهم.

الفصل الثالث: في الوصية بما لا يزال يوصي به والإشارة إلى أحكام البغاة إجمالاً وهو قوله عليه السلام: (**أُوصيكم عباد الله بتقوى الله**) التي هي الزاد وبها المعاد (**فإنها خير ما تواصى العباد به وخير عواقب الأمور عند الله**) يعني أنّها خير أواخر الأُمور لكونها خير ما ختم به العمل في دار الدنيا أو أن عاقبتها خير العواقب (**وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة**) أي الآخذين بظاهر الإسلام (**ولا يحمل هذا العلم**) أي العلم بوجوب قتال أهل القبلة وبشرائطه وفي بعض النسخ هذا العلم محركة فيكون إشارة إلى حرب أهل القبلة والقيام به أي لا يحمل علم الحرب ولا يحارب (**إلا أهل البصر والصبر**) أي أهل البصيرة والعقل وأهل الصبر والتحمل على المكاره (**والعلم بمواقع الحق**) وذلك لأن المسلمين كانوا يستعظمون حرب أهل القبلة ومن أقدم منهم عليه أقدم على خوف وحذر، فقال عليه السلام: «إنَّ هذا العلم ليس يدركه كل أحد وإنما له قوم مخصّصون».

قال الشّافعي: لولا علي عليه السلام لما علم شيء من أحكام أهل البغي وهو كما قال (**فامضوا لما تأمرون به وقفوا عند ما تنهون عنه ولا تعجلوا في أمر**) ولا تسرعوا في إنكاره وردّه إذا استبعدتموه بأوهامكم (**حتى تتبينوا**) وتثبّتوا وتسألوا عن فائدته وعلّته (**فإنّ لنا مع كل أمر تنكرونه**) وتستبعدونه (**غيراً**).

قال الشارح المعتزلي: أي لست كعثمان أُصرّ على ارتكاب ما أنهى عنه بل أُغير كلّ ما ينكره المسلمون ويقتضي الحال والشرع تغييره.

وقال الشارح البحراني: أي إن لنا مع كل أمر تنكرونه قوّة على التغيير إن لم يكن في ذلك الأمر مصلحة في نفس الأمر فلا تسرعوا إلى إنكار أمر لفعله حتى تسألوا عن فائدته فإنه يمكن أن يكون إنكاركم لعدم علمكم بوجهه.

قال: العلاّمة المجلسي رحمه الله: ويمكن أن يكون المعنى أن لنا مع كل أمر تنكرونه تغييراً أي ما يغير إنكاركم، ويمنعكم عنه من البراهين السّاطعة أو الأعم منها ومن السّيوف القاطعة إن لم ينفعكم البراهين.

أقول: وذلك مثل ما وقع منه في أمر الخوارج فإنّهم لمّا نقموا عليه ما نقموا روّعهم عن الإنكار عليه بالبيانات الشافية والحجج الوافية حتى ارتدع منهم ثمانية آلاف وكانوا اثني عشر

ألفاً ولمّا أصّر الباقون وهم أربعة آلاف على اللجاج، ولم ينفعهم الاحتجاج، **قطع دابرهم** بسيف يفلق الهام، ويطيح السواعد والأقدام.

تذر الجماجم ضاحياً هاماتها بله الأكف كأنها لم تخلق

حسب ما عرفته تفصيلاً في شرح الخطبة السادسة والثلاثين وغيرها.

ثمّ أخذ في التنفير عن الدنيا والتزهيد فيها بقوله: **(ألا وإن هذه الدنيا)** الإتيان باسم الإشارة للتحقير كما في قوله تعالى: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وفي الإتيان بالموصول أعني قوله: **(التي أصبحتم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم وترضيكم)** تنبيه على خطأ المخاطبين، وتوبيخ لهم بأنّهم يرغبون في شيء يخلصون المحبّة له وهو لا يراعي حقّهم بل يغضبهم تارة، ويرضيهم أخرى ونظير هذا الموصول المسوق للتنبيه على الخطاء ما في قوله:

إن الذين ترونهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

يعني أن هذه الدنيا مع تمنيكم لها وفرط رغبتكم فيها ومع عدم إخلاصها المحبة لكم **(ليست بداركم)** التي يحق أن تسكنوا فيها **(ولا منزلكم الذي خلقتم له)** وللإقامة فيه **(ولا الذي دعيتم إليه)** وإلى التوطن فيه **(ألا وإنّها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها)** وإلى هذا ينظر قوله عليه السلام:

أرى الدنيا ستؤذن بانطلاق مشمرة على قدم وساق

فلا الدنيا بباقية لحي ولا حيّ على الدنيا بباق

يعني أنّها دار فناء لا تدوم لأحد ولا يدوم أحد فيها **(وهي وإن غرّتكم منها)** بما زينتكم من زخارفه وإغفالكم عن فنائها **(فقد حذّرتكم شرّها)** بما أرتكم من آفاتها وفنائها وما ابتليتم فيها من فراق الأحبّة والأولاد ونحوها **(فدعوا غرورها)** اليسير **(لتحذيرها)** الكثير **(وإطماعها)** الكاذب **(لتخويفها)** الصادق.

(وسابقوا فيها) بالخيرات والأعمال الصالحات **(إلى الدار التي دعيتم إليها)** وهي الجنة التي عرضها الأرض والسماوات **(وانصرفوا بقلوبكم عنها)** إلى ما لم يخطر على قلب بشر مما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وجميع الأمنيّات **(ولا يحنن أحدكم حنين الأمة على ما زوي)** وصرف **(عنه منها)** وهو نهى عن الأسف على الدنيا والحزن والبكاء على ما فاته منها، وقبض عنه من قيناتها وزخارفها.

والتشبيه بحنين الأمة لأن الإماء كثيراً ما يضربن ويبكين ويسمع الحنين منهن والحرائر يأنفن من البكاء والحنين **(واستتمّوا نعمة الله عليكم بالصّبر على طاعة الله)** أي بالصبر والتحمل

على مشاق العبادات أو بالصبر على المصائب والبلايا طاعة له سبحانه، وعلى أي حال فهو من الشكر الموجب للمزيد (و) به يطلب تمام النعمة في الدنيا والآخرة كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] كما يطلب تمامها: بـ(**ـالمحافظة على ما استحفظكم من كتابه**) أي بالمواظبة على ما طلب منكم حفظه والمواظبة عليه من التكاليف الشرعية الواردة في كتابه العزيز لأن المواظبة على التكاليف والطاعات سبب عظيم لإفاضة النعماء والخيرات.

وأكّد الأمر بالمحافظة بقوله (**ألا وإنّه لا يضركم تضييع شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم**) لعلّ المراد بقائمة الدّين أُصوله وما يقرب منها وعلى كون الإضافة بيانيّة فالمراد بقائمته نفس الدين إذ به قوام أمر الدّنيا والآخرة.

ثمّ نبه على عدم المنفعة في الدّنيا مع فوات الدّين فقال: (**ألا وإنه لا ينفعكم بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم**) وذلك واضح لأن الأمور الدنياوية مع تضييع الدين لا تنتفع بشيء منها في الآخرة البتة.

وختم الكلام بالدعاء لنفسه ولهم وقال: (**أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق**) وهدانا إلى سلوك سبيله (**وألهمنا وإياكم الصبر**) على مصيبته وطاعته ومعصيته لأنّ من صبر عند المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدّرجة إلى الدّرجة كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدّرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدّرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش.

رواه في الوسائل من الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وقد تقدّم روايته مع أخبار أُخر في فضل الصبر في شرح الخطبة الخامسة والسبعين ووعدنا هناك إشباع الكلام فيه ـ أي في الصبر ـ وفضله وأقسامه فها نحن الآن نفي بما وعدناك بتوفيق من الله سبحانه ومن منه.

فأقول: إن الصبر على ما عرفت فيما تقدم عبارة عن ملكة راسخة في النفس يقتدر معها على تحمل المكاره وقد أكثر الله سبحانه من مدحه في كتابه العزيز، وبشر الصابرن وذكرهم في آيات تنيف على سبعين قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٥] قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢] إلى غير هذه مما لا نطيل بذكرها.

وأما الأخبار في فضله وفضل الصّابرين فهي فوق حد الإحصاء.

منها: ما في الكافي عن العلاء بن الفضيل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الصّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد كذلك إذا ذهب الصّبر ذهب الإيمان»(١).

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الحر حر على جميع أحواله إن نابته نائبة صبر لها وإن تداكّت عليه المصائب لم يكسره وإن أسر وقهر واستبدل باليسر عسراً كما كان يوسف الصديق الأمين عليه السلام لم يضرره حريّته إن استعبد وقهر وأسر ولم يضرره ظلمة الجبّ ووحشته وما ناله أن منَّ الله جل وعز عليه فجعل الجبّار العالي له عبداً بعد إذ كان مالكاً فأرسله ورحم به الله وكذلك الصَّبر يعقب خيراً فاصبروا ووطّنوا أنفسكم على الصبّر تؤجروا»(٢).

وعن حمزة بن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الجنّة محفوفة بالمكاره والصّبر، فمن صبر على المكاره في الدّنيا دخل الجنّة، وجهنّم محفوفة باللّذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذّتها وشهوتها دخل النار»(٣).

وعن: سماعة بن مهران عن أبي الحسن عليه السلام قال: قال لي: ما حبسك عن الحجّ؟ قال: قلت: جعلت فداك وقع عليّ دين كثير وذهب مالي، وديني الذي قد لزمني هو أعظم من ذهاب مالي فلولا أن رجلاً من أصحابي أخرجني ما قدرت أن أخرج فقال عليه السلام: «إن تصبر تغتبط وإلاّ تصبر ينفذ الله مقاديرها راضياً كنت أم كارهاً»(٤).

وعن أبي حمزة الثمالي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد(٥).

وعن محمد بن عجلان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فشكى إليه رجل الحاجة فقال: اصبر فإنّ الله سيجعل لك فرجاً قال: ثمّ سكت ساعة ثم أقبل على الرجل فقال: أخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟ فقال: أصلحك الله ضيّق منتن وأهله بأسوء حال، قال عليه السلام: فإنّما أنت في السجن فتريد أن تكون فيه في سعة أما علمت أن الدنيا سجن

---

(١) الكافي: ٢/ ٨٧ ح٢، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٢٧٨ ح١.

(٢) الكافي: ٢/ ٨٩ ح٦، وبحار الأنوار: ٦٨/ ٦٩ ح٣.

(٣) الكافي: ٢/ ٨٩ ح٧، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٣٠٩ ح٢٠٦٠٠.

(٤) الكافي: ٢/ ٩٠ ح١٠، ونهج السعادة: ٧/ ٢٩٢.

(٥) الكافي: ٢/ ٩٢ ح١٧، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٥٥ ح٣٥٦٠.

المؤمن، إلى غير هذه مما لا نطيل بذكرها[١].

فإن قلت: ما معنى قوله في الحديث الأوّل: الصّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد؟

قلت: لما كان قوام الجسد وتمامه وكماله إنّما هو بالرأس وبه يتم تصرّفاته ويتمكن من الآثار المترتبة عليه لا جرم شبه عليه السلام الصبر بالرّأس والإيمان بالجسد لأنّ كمال الإيمان وتمامه إنما هو به، أما على القول: بأنّ الإيمان عبارة عن مجموع العقائد الحقة والأعمال فواضح، وأما على القول: بأنّ العمل ليس جزء منه بل هو شرط الكمال فلأنّ الجسد إنما يكمل بالرأس كما أنه يوجد بوجوه، فوجه الشبه هو وصف الكمال فقط ولا يجب في تشبيه شيء بشيء وجود جميع أوصاف المشبه به في المشبه.

ولكنّ الظاهر من قوله: كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، هو كون العمل هو جزء من الإيمان المستلزم ذهابه لذهابه إلاّ أن يراد منه الإيمان بالكمال وقد تقدم تحقيق الكلام فيه فيما سبق.

ومما ذكرنا أيضاً ظهر وجه ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله من أن الصبر نصف الإيمان[٢]، وذلك لأن الإيمان إذا كان عبارة عن مجموع المعارف اليقينية الحقة وعن العمل بمقتضى تلك المعارف، فيكون حينئذ مركباً منهما، ومعلوم أن العمل أعني المواظبة على الطاعات، والكف عن المعاصي لا يحصل إلاّ بالصبر على مشاق الطاعة لليقيين بكونها نافعة، وترك لذائذ المعصية لليقين بكونها ضارة فعلى هذا الاعتبار يصح كونه نصف الإيمان.

وذكر الغزالي له وجهاً آخر محصله أن يجعل المراد من الإيمان الأحوال المشمئزة للأعمال وجميع ما يلاقي العبد ينقسم إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضرّه فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضرّه حال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر، فيكون الصبر أحد شطري الإيمان كما أن الشكر شطره الآخر ولذلك روي عن النبي صلى الله عليه وآله مرفوعاً الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

ثم إن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف موارده وبالإضافة إلى ما يصبر عنه من مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وما يصبر عليه مما ينفر عنه الطبع من المكاره والأذى.

فإن كان صبراً عن شهوة الفرج والبطن سمي عفة، وإن كان في مصيبة اقتصر على اسم

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٥٠ ح٦، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٢٠٣ ح٦.

(٢) شرح أصول الكافي: ٨/ ٢٧٨ ح١، وميزان الحكمة: ٢/ ١٥٥٧.

الصبر وتضادّه حالة تسمى الجزع، وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ويضاده البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضادّه الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ويضادّه التذمر والسفه، وإن كان في نائبة من نوائب الزّمان سمي سعة الصدر ويضاده الضجر وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السرّ وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً، ويضادّه الحرص وإن كان على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره.

وبالجملة فأكثر مكارم الإيمان داخل في الصبر ولأجل ذلك لما سئل النبي ﷺ مرة عن الإيمان فقال: «هو الصبر لأنه أكثر أعماله وأعزها» هذا.

وأما أقسامه فقد فصلها أبو حامد الغزالي في كتاب إحياء العلوم وملخصها: أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين أحدهما هو الذي يوافق هواه والآخر هو الذي يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما فهو إذا لا يستغنى قط عن الصبر.

النوع الأول: ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الاتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، فإنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى وهو على ثلاثة أقسام لأنه إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، وإما أن لا يرتبط باختياره كالآلام والمصائب وإما أن لا يرتبط باختياره، ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه.

أما القسم الأول: وهو ما يرتبط باختيار العبد فعلى ضربين:

الضرب الأول الطاعات والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، والتحمل عن مشاقها لأن النفس بالطبع تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله أنا ربّكم الأعلى ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً من قومه، فأظهره وأطاعوه وما من أحد إلاّ ويدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان ممتنعاً من إظهاره.

ثمّ نفرة النّفس عن العبادة إما بسبب الكسل كالصلاة وإما بسبب البخل كالزكاة أو بسببهما كالحج والجهاد والعبد محتاج إلى الصبر في جميعها.

الضرب الثاني: المعاصي وتركها والكف عنها أصعب على النفس لرغبتها بالطبع إليها فيحتاج إلى الصبر عنها وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر على المعاصي المألوفة

المعتادة كحصائد الألسنة من الكذب والغيبة والبهتان ونحوها فمن لم يتمكن من الصبر عنها فيجب عليه العزلة والانفراد لأن الصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة، وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف دواعي المعصية قوة وضعفاً.

وأما القسم الثاني وهو ما لا يرتبط باختيار العبد أصلاً: فكالمصائب والبلايا والآلام والأسقام من فقد الأحبّة وموت الأعزّة وذهاب المال وتبدّل الصحّة بالمرض والغنى بالفقر، والبصر بالعمى وغيرها، والصبر على هذه هو الذي بشّر الموصوفون به في الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦] وأوحى سبحانه إلى داود عليه السلام يا داود: «تريد وأُريد وإنّما يكون ما أُريد فإن سلّمت لما أُريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لما أُريد أتعبتك فيما تريد ثمّ لا يكون إلا ما أُريد».

وأما القسم الثالث وهو ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه: كما لو أوذي بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله أو نحو ذلك فالصبّر على ذلك بترك المكافاة، والانتقام تارة يكون واجباً وتارة يكون مندوباً قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

وعن الإنجيل قال عيسى بن مريم عليه السلام: «لقد قيل لكم من قبل أن السنّ بالسنّ والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشرّ بالشرّ بل من ضرب خدّك الأيمن فحوّل إليه الخدّ الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين»[١]، وكلّ ذلك أمر بالصبر على الأذى.

وفي الكافي عن حفص بن غياث قال: قال أبو عبد الله عليه السلام يا حفص: إن من صبر صبر قليلاً وإن من جزع جزع قليلاً. ثمّ قال: عليك بالصبر في جميع أُمورك فإن الله عزّ وجلّ بعث محمداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرفق فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١٠] وقال تبارك وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

فصبر رسول الله صلى الله عليه وآله حتى نالوه بالعظائم ورموه بها فضاق صدره فأنزل الله جلّ وعزّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾.

---

(١) فيض شرح القدير: ٤/٢٥٩ ح ٥٠٠٤.

ثمّ كذّبوه ورموه فحزن لذلك ﷺ فأنزل الله عزّ وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٣] فألزم النبي ﷺ نفسه الصبر فتعدّوا، فذكروا الله عزّ وجلّ وكذبوه فقال: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فصبر ﷺ في جميع أحواله.

ثم بشّر في عترته بالأئمة ووصفوا بالصّبر فقال جل ثناؤه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] فعند ذلك قال النبي ﷺ الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فشكر الله عز وجل له فأنزل الله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] فقال النبي ﷺ أنه بشرى وانتقام.

فأباح الله عز وجل قتال المشركين فأنزل: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] فقتلهم الله على يدي رسوله ﷺ وأحبائه وجعل له ثواب صبره وعجل الله الثواب مع ما ادخّر له في الآخرة فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتى يقر الله جل وعز عينه في أعدائه مع ما يدخر له في الآخرة[١].

اللهم اجعلنا صابرين على بلائك، راضين بقضائك، شاكرين على نعمائك متمسكين بالعروة الوثقى والحبل المتين من ولاية أوليائك محمد وعترته الطاهرين صلواتك عليهم أجمعين.

(١) الكافي: ٢٠/٨٩ ح٣، وتحف العقول: ١٤٢.

الترجمة

از جلمه خطب شريفه آن ولى ربّ العالمين و وصىّ خاتم النبيّين است متضمّن مدايح حضرت رسالت (ﷺ) و مبيّن بعض وظايف امامت و مشتمل بر فضيلت تقوى و پرهيزكارى و مذمّت بيوفايى دنياى فانى، مى فرمايد:

پيغمبر خدا (ﷺ) امين وحى پروردگار است و ختم كننده پيغمبران حضرت آفريدگار و مژده دهنده است به رحمت او و ترساننده است از عقوبت آن. اى مردمان، به درستى قابل و لايق مردمان به اين امر خلافت، قوى ترين ايشان است بر او و داناترين ايشان است به اوامر خدا در آن، پس اگر كسى مهيّج شرّ و فساد بشود، طلب مى شود رجوع او به سوى حق و اگر امتناع نمايد بايد مقاتله بشود.

قسم به زندگانى خودم، اگر باشد امامت اين كه منعقد نباشد تا اين كه حاضر بشود عموم خلايق نيست به سوى او هيچ طريق و ليكن اهل امامت حكم مى كنند به هر كس كه غايب بشود در مجلس بيعت، پس از آن نيست حاضر را اين كه رجوع نمايد از بيعتى كه نموده و نه غايب را اين كه صاحب اختيار باشد.

آگاه باشيد كه به درستى كه من مقاتله مى كنم با دو كس: يكى آن كه ادّعا نمايد چيزى را كه حقّ او نيست و ديگرى آن كه منع نمايد حقّى را كه بر ذمّه او است.

وصيّت مى كنم من شما را اى بندگان خدا به تقوى و پرهيزكارى خدا، پس به درستى كه آن تقوى بهترين چيزى است كه وصيت كرده اند بندگان به آن و بهترين عواقب امورات است نزد خدا و به تحقيق مفتوح شد باب جنگ در ميان شما و در ميان اهل قبله و حامل نمى شود اين علم به وجوب قتال اهل قبله را، مگر اهل بصيرت و صبر و مگر صاحب علم به مواضع حق، پس امضاء بكنيد هر چيزى را كه مأمور مى شويد به آن و توقف نماييد نزد چيزى كه نهى كرده مى شويد از آن و تعجيل نكنيد در كارى تا اين كه درست بفهميد حقيقت آن را، پس به درستى كه ما را است با هر چيزى كه شما انكار نماييد آن را تغيير و تبديلى.

آگاه باشید به درستی که این دنیا که صباح کردید شما در حالتی که آرزو می کنید آن را و رغبت می نمایید در آن و صباح کرد آن در حالتی که شما را گاهی به غضب می آورد و گاهی خوشنود می نماید، نیست آن خانه شما و نه منزل شما که خلق شده اید از برای آن منزل و نه جایی که خوانده شده اید به سوی آن.

آگاه باشید که آن دنیا باقی نخواهد ماند از برای شما و نه شما باقی خواهید ماند بر آن و آن اگرچه مغرور ساخته است شما را از طرف خود، پس به تحقیق که ترساننده است شما را از شرّ خود، پس ترك نمایید فریفتن آن را از برای ترساندن آن و طمع آوردن او را از برای تخویف آن و سبقت نمایید در آن به سوی خانه ای که دعوت شده اید به سوی آن و رجوع نمایید با قلبهای خودتان از آن دنیا.

و البته باید ناله نکند هیچ یك از شما مثل ناله کردن کنیز به آن چه که برچیده شده است از او از دنیا و طلب نمایید تمامیّت نعمت خدا را بر خودتان با صبر کردن بر طاعت خدا و با محافظت کردن بر چیزی که خدا طلب کرده است از شما محافظت آن را در کتاب عزیز خود.

آگاه باشید به درستی که ضرر نمی رساند به شما ضایع نمودن چیزی از دنیای خودتان بعد از این که شما حفظ نموده باشید ستون دین خود را. آگاه باشید که به درستی که منفعت نمی بخشد به شما بعد از ضایع کردن دین خود، چیزی که محافظت نمایید به آن از امر دنیای خود.

فراگیرد خدای تبارك و تعالی قلب های ما و قلب های شما را به سوی حق و الهام فرماید به ما و شما صبر و بردباری را.

ومن خطبة له عليه السلام في معنى طلحة بن عبيد الله
وهي المائة والثالثة والسبعون من المختار في باب الخطب

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ، وَأَنَا عَلَىٰ ما وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ، وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمانَ إلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصَ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرادَ أَنْ يُغالِطَ بِما أَجابَ فِيهِ لِيُلَبِّس الْأَمْرَ، وَيَقَعَ الشَّكُّ، ووَاللَّهِ ما صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ واحِدَةً مِنْ ثَلاَثٍ: لَئِنْ كانَ ابنُ عَفّانَ ظالِماً كَما كانَ يَزْعَمُ لَقَدْ كانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوازِرَ قاتِلِيهِ وَأَنْ يُنابِذَ ناصِرِيهِ، وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً كانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، والْمُعْذِرِينَ فِيهِ، وَلَئِنْ كانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخِصْلَتَيْنِ لَقَدْ كانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ جانِباً وَيَدَعَ النّاسَ مَعَهُ فما فَعَلَ واحِدَةً مِنَ الثَّلاثِ، وجاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بابُهُ وَلَمْ تُسْلَمْ مَعاذِيرُهُ»[١].

اللغة

(تجرد) زيد لأمره جدّ فيه و**(مظنّة)** الشيء بكسر الظّاء الموضع الذي يظنّ فيه وجوده **(وأجلب)** فيه قال ابن الأثير في محكى النّهاية في حديث علي عليه السلام: أراد أن يغالط بما أجلب فيه يقال أجلبوا عليه إذا تجمعوا وتألّبوا وأجلبه أي أعانه وأجلب عليه إذا صاحه واستحثّه **(ولبس)** عليه الأمر يلبسه من باب حسب خلطه وألبسه غطاه وأمر ملبس وملتبس بالأمر مشتبه و**(نهنهه)** عن الأمر كفّه وزجره و**(عذرته)** فيما صنع أي رفعت عنه اللوم فهو معذور أي غير ملوم وأعذرته لغة.

وقال الشّارح البحراني: المعذر بين بالتّخفيف المعتذرين عنه وبالتّشديد المظهرين للعذر مع أنه لا عذر.

الإعراب

قوله عليه السلام: قد كنت، قال الشارح المعتزلي: **(كان)** هنا تامّة أي خلقت ووجدت وأنا بهذه الصفة ويجوز أن تكون **(الواو)** زائدة ويكون **(كان)** ناقصة وخبرها **(ما أُهدد)** كما في المثل «لقد كنت وما أخشى الذئب» وجملة **(وأنا على ما وعدني)** يحتمل الحال والاستئناف.

---

(١) البحار: ٣١/٥٩٩، والغدير: ٩/٩١.

المعنى

قال الشارح البحراني: وهذا الفصل من كلام قاله عليه السلام حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة وتهديدهم له عليه السلام بالحرب.

أقول: وقد مضى في شرح الخطبة الثانية والعشرين ما ينفعك ذكره في هذا المقام إذ الخطبتان مسوقتان لغرض واحد، ومتطابقتان في بعض الفقرات، فيراجع ثمّة.

إذا عرفت ذلك ظهر لك أنّ قوله عليه السلام: **(قد كنت وما أهدّد بالحرب ولا أرهب بالضرب)** جواب عن تهديدهم له وترهيبهم إيّاه، فقد بعثوا إليه عليه السلام أن أبرز للطعان واصبر للجلاد فأجاب عليه السلام: بأنّ التهديد والترهيب إنّما هو في حق الجبان الضعيف الجأش لا في حق الشجعان ذوي النجدة والمراس وحاله عليه السلام في الشجاعة كان أمراً قد اشتهر وبان وظهر، وتضمنته الأخبار والسير فاستوى في العلم به البعيد والقريب، واتفق على الإقرار به البغيض والحبيب. ومن كان هذا شأنه فلا يليق له التخويف والترعيب.

وأكّد الجواب بقوله: **(وأنا على ما وعدني ربّي من النصر)** يعني أنّي على يقين بما وعدني ربّي من النصرة والغلبة، ومن كان قاطعاً بذلك فلا يحذر ولا يخاف البتة.

ثمّ أشار إلى نكتة خروج طلحة إلى البصرة بقوله: **(والله ما استعجل متجرّداً للطلب بدم عثمان)** أي مجداً فيه **(إلا خوفاً من أن يطالب بدمه)** يعني أنّ علّة خروجه واستعجاله في قلب الدّم وتجرّده له ليست ما شهره بين الناس من أن عثمان قتل مظلوماً ويجب الانتصار للمظلوم من الظالم حسبه، وإنّما علّته هو الخوف على نفسه من أن يطالب بدمه **(لأنّه)** كان **(مظنّته ولم يكن في القوم أحرص عليه)** أي على دم عثمان **(منه)** لما قد عرفت في شرح الخطبة الثانية والعشرين وشرح الكلام الثلاثين أنّه كان أول من ألب الناس على عثمان وأغرى بدمه وأشدّهم إجلاباً عليه.

وأقول هنا: مضافاً إلى ما سبق أن قاله الشارح المعتزلي: قد كان طلحة أجهد نفسه في أمر عثمان والإجلاب عليه والحصر له والإغراء به، ومنته نفسه الخلافة، بل تلبس بها وتسلّم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها وقابل الناس وأحدقوا به ولم يبق إلاّ أن يصفق بالخلافة على يده.

قال الشارح: وروى المدائني في كتاب مقتل عثمان أن طلحة منع من دفنه ثلاثة أيام وأن علياً عليه السلام لم يبايع الناس إلاّ بعد قتل عثمان بخمسة أيام وأن حكيم ابن حزام وجبير بن مطعم استنجدا بعلي عليه السلام على دفنه فأقعد طلحة لهم في الطريق ناساً بالحجارة فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة تعرف بحشّ كوكب، كانت اليهود يدفن فيه

موتاهم فلما صار هنا رجم سريره وهموا بطرحه فأرسل علي عليه السلام إلى الناس يعزم عليهم لتكفوا عنه فكفّوا، فانطلقوا به حتى دفنوه في حش كوكب[١].

قال: وروى الواقدي قال: لما قتل عثمان تكلموا في دفنه فقال طلحة: يدفن بدير سلع يعني مقابر اليهود[٢].

وبالجملة فهو كما قال عليه السلام: لم يكن في القوم أحرص على قتل عثمان منه لكنه أراد أن يشبه على الناس **(فأراد أن يغالط)** أي يوقع في الغلط **(بما أجلب فيه)** أي بسبب إعانته في دمه وحثه على قتله **(ليلبس الأمر)** ويخلطه وفي نسخة البحراني ليلتبس الأمر أي يشتبه **(ويقع الشكّ)** في دخوله في قتله ثمّ احتجّ عليه السلام وأبطل عذره في الخروج والطلب بدمه بقضية شرطية منفصلة محصلها أن عثمان عنده وعلى زعمه إما أن يكون ظالماً أو مظلوماً وأما أن يكون مجهول الحال، وعلى كل من التقادير الثلاثة كان اللازم عليه القيام بما يقتضيه مع أنه لم يقم به كما يفصح عنه قوله عليه السلام مؤكداً بالقسم البار: **(ووالله ما صنع في أمر عثمان)** خصلة **(واحدة من)** خصال **(ثلاث)** هي مقتضيات التقادير الثلاثة التي أشرنا إليها إجمالاً وأشار إلى تفصيلها بقوله: **(لئن كان ابن عفان ظالماً)** ظلماً يوجب حلّ دمه **(كما كان يزعم)** ذلك حين قتله **(لقد كان ينبغي له)** ويجب عليه **(أن يوازر قاتليه)** أي ساعدهم ويحامي عنهم بعد قتل عثمان **(وأن ينابذ ناصريه)** ويعاندهم ويتركهم بوجوب الإنكار على فاعل المنكر مع أنّه قد عكس الأمر لأنّه نابذ قاتليه ووازر ناصريه وثار معهم في طلب دمه **(ولئن كان مظلوماً)** محرّم القتل كما يقوله الآن ويشهّره بين الناس **(لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه والمعذرين فيه ولئن كان في شكّ من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد)** أي ليكن **(جانباً)** أي يتباعد عنه ولا يأمر بقتله ولا ينهى عنه **(ويدع الناس معه)** يفعلون ما يشاؤون مع أنه لم يفعل ذلك أيضاً بل أضرم نار الفتنة وصلى بها وأصلاها غيره **(فما فعل واحدة من الثلاث وجاء بأمر لم يعرف بابه ولم تسلم معاذيره)** أي أتى بأمر لم يعرف وجهه واعتذر في نكثه وخروجه بمعاذير لم تكن سالمة إن قد عرفت في تضاعيف الشرح أنّ عمدة معذرته في البغي والخروج هو المطالبة بدم عثمان وأنه قتل مظلوماً وقد أبطل عليه السلام اعتذاره بذلك هنا بما عرفت.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/٦، والغدير: ٩/٩٣ ح٦.

(٢) شرح أصول الكافي: ٦/٢٧٧، والغدير: ٩/٩٣ ح٧.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن بزرگوار است که توجیه خطاب در آن به سوی طلحة بن عبیدالله خذله الله است، می فرماید:

به تحقیق که موجود بودم در حالتی که تهدید کرده نشده ام به جنگ و تخویف کرده نشده ام به زدن و من ثابت هستم بر چیزی که وعده داده است مرا پروردگار من از نصرت و یاری و به حقّ خدا تعجیل نکرد طلحه در حالتی که مجدّ و مصرّ بود از برای مطالبه خون عثمان، مگر از برای ترس از این که مطالبه کرده شود به خون او، از جهت این که او مورد تهمت آن خون بود و نبود در میان قوم حریص تر بر قتل عثمان از طلحه، پس خواست او که مردم را به غلط افکند به سبب اعانت و جمع آوری او در قتل آن تا این که بپوشد و خلط نماید امر را بر مردمان و واقع شود شك.

و به حق خدا ننمود طلحه در کار عثمان یکی از سه خصلت را اگر بود پسر عفان ظالم و ستم کار، چنان چه طلحه گمان می برد، هرآینه بود سزاوار او را آن که حمایت بکند قاتلین آن را یا دشمنی آشکارا نماید با ناصرین آن و اگر بود مظلوم و ستم رسیده، هرآینه بود سزاوار از برای او آن که باشد از بازدارندگان مردم از کشتن او و از عذرآورندگان در حق او و اگر بود در شك از این دو خصلت (یعنی در ظالمیّت و مظلومیّت عثمان) هرآینه بود سزاوار مراورا آن که اعتزال ورزد و بایستد در کنار و بگذارد مردمان را با عثمان به حال خودشان، پس نکرد هیچ یك از این سه کار را و آورد کاری را که شناخته نشد در آن و به سلامت نماند عذرخواهی های او.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والرابعة والسبعون من المختار في باب الخطب

أَيّهَا الْغافِلُونَ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، والتّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ، مالي أَريكُمْ مِنَ اللّهِ ذاهِبينَ، وَإلىٰ غَيْرِه راغِبينَ، كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَراحَ بِها سائِمٌ إلىٰ مَرْعيّ وَبِيّ، ومَشْرَبٍ دَوِيّ، إِنَّما هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى لاَ تَعْرِفُ ماذا يُرادُ بِها إذا أُحْسِنَ إِلَيْها، تَحْسِبُ يَوْمَها دَهْرَها، وَشِبَعَها أَمْرَها، وَاللّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِه، ومُوْلِجِه وجَميعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلٰكِنْ أخافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله أَلاَ وَإِنّي مُفْضيهِ إلى الْخاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذٰلِكَ مِنْهُ، وَالَّذي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ واصْطَفاهُ عَلى الْخَلْقِ ما أَنْطِقُ إِلاّ صادِقاً، وَلَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذٰلِكَ كُلِّه وبِمَهْلَكِ مَنْ يَهْلِكُ ومَنْجى مَنْ يَنْجُو وَمَآلِ هٰذَا الأَمْرِ، وَمَا أَبْقَىٰ شَيْئاً يَمُرُّ عَلَىٰ رَأْسي إلا أَفْرَغَهُ في أُذُنَيَّ، وأَفْضى بِهِ إِلَيَّ، أَيُّهَا النّاسُ وَاللّهِ ما أَحُثُّكُمْ عَلَىٰ طاعَةٍ إلاّ وأَسْبِقُكُمْ إِلَيْها، وَلاَ أَنْهيكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إلا وَأَتَناهىٰ قَبْلَكُمْ عَنْها[١].

اللغة

(**النعم**) بالتحريك جمع لا واحد له من لفظه وأكثر إطلاقه على الإبل و(**أراح**) الإبل ردّها إلى المراح وهو بالضمّ مأوى الماشية بالليل وبالفتح الموضع الذي يروح منه القوم أو يروحون إليه و(**سامت**) الماشية سوماً رعت بنفسها فهي سائمة وتتعدّى بالهمزة فيقال أسامها راعيها أي أرعيها و(**الوبيّ**) بالتشديد ذو الوباء والمرض وأصله الهمزة و(**الدّوي**) ذو الداء والأصل في الدويّ دوي بالتخفيف ولكنه شدّد للازدواج قال الجوهري: رجل دوي بكسر الواو أي فاسد الجوف من داء و(**المدى**) بالضمّ جمع مدية وهي السكين و(**الشبع**) وزان عنب ضد الجوع.

الإعراب

(**غير المغفول**) صفة للغافلون وصحة كون غير صفة للمعرفة مع توغله في النكارة وعدم قبوله للتعريف ولو أضيف إلى المعارف من حيث إنه لم يرد بالغافلين طائفة معيّنة فكان فيه شائبة الإبهام وصح بذلك وصفه بالنكرة كما في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ على قول من يجعل (**غير**) وصفاً للذين لا بدلاً منه، والاستفهام في قوله:

(١) ميزان الحكمة: ١/ ١٤٢، وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠/ ح١٧٦.

(ما لي أراكم) للتعجب كما في قوله: ما لي لا أرى الهدهد و**(سائم)** فاعل أراح كما يستفاد من شرح المعتزلي والعلامة المجلسي رحمه الله.

وقوله: **(تحسب يومها دهرها وشبعها أمرها)**، الظاهر أن يومها ثاني مفعول تحسب وكذلك شبعها والتقديم على الأول لقصد الحصر.

المعنى

اعلم أن مدار هذه الخطبة الشريفة على فصلين:

الفصل الأول

في إيقاظ الغافلين وتنبيه الجاهلين من رقدة الغفلة والجهالة وهو قوله:

(أيها الغافلون غير المغفول عنهم) الظاهر أنّ لكل من اتصف بالغفلة من المكلفين أي الذين غفلوا عما أريد منهم من المعارف الحقة والتكاليف الشرعية ولم يغفل عنهم وعما فعلوا، لكون أعمالهم مكتوبة محفوظة في اللّوح المحفوظ وصحائف الأعمال وكلّ ما فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر.

(والتاركون) لما أمروا به من الفرائض والواجبات **(المأخوذ منهم)** ما اغتروا به من الأهل والمال والزخارف والقينات **(مالي أراكم عن الله ذاهبين)** كناية عن إعراضهم عن الله سبحانه والتفاتهم إلى غيره تعالى **(وإلى غيره راغبين)** إشارة إلى رغبتهم في زهرة الحياة الدنيا وإعجابهم بها.

(كأنكم نعم أراح بها سائم إلى مرعى وبيّ ومشرب دوي) شبههم بأنعام ذهب بها سائم إلى مرعى ومشرب وصفهما ما ذكر والمراد بالسائم حيوان يسوم ويرعى وهو المستفاد من الشارح المعتزلي حيث قال: شبههم بالنعم التي تتبع نعماً أخرى سائمة أي راعية، وإنما قال ذلك لأنها إذا تبعت أمثالها كان أبلغ في ضرب المثل بجهلها من الإبل التي يسميها راعيها، انتهى.

وفسّره الشارح البحراني بالراعي أي الذي يراعي النعم ويحفظها ويواظب عليها من الرعاية وهو المراعاة والملاحظة قال: شبههم بالنعم التي أراح بها راعيها إلى مرعى كثير الوفاء والداء، ووجه الشبه أنهم لغفلتهم كالنعم ونفوسهم الأمّارة القائدة لهم إلى المعاصي كالراعي القائد إلى المرعى الوبيّ ولذات الدنيا ومشتهياتها وكون تلك اللّذات والمشتهيات محل الآثام التي هي مظنّة الأخروي والداء الدّويّ تشبه المرعى الوبيّ والمشرب الدويّ انتهى.

أقول: وهذا أقرب لفظاً وما قاله الشارح المعتزلي أقرب معنى، وذلك لأن لفظ السائم

على قول المعتزلي بمعنى الراعي من الرعي وهذا لا غبار عليه من حيث المعنى إلا أنه يحتاج حينئذ إلى حذف الموصوف أي حيوان سائم ونحوه وهو خلاف الأصل، وأما على قول البحراني فلا حاجة إلى الحذف إلا أن كون السائم بمعنى الراعي من الرعاية مما لم يقل به أحد، وكيف كان فالمقصود تشبيههم بأنعام اشتغلت بالماء والكلاء وغفلت عما في باطنهما من السم الناقع ودوى الداء.

(إنما هي كالمعلوفة للمدى) والسكاكين **(لا تعرف ماذا يراد بها إذا أحسن إليها)** أي تزعم وتظن أن العلف إحسان إليها على الحقيقة ولا تعرف أن الغرض من ذلك هو الذبح والهلاك **(تحسب يومها دهرها)** يعني أنها لكثرة إعجابها لعلفها في يومها تظن أن دهرها مقصور على ذلك اليوم ليس لها وراءه يوم آخر، وقيل معناه أنها تظن أن ذلك العلف والإطعام كما هو حاصل لها ذلك اليوم يكون حاصلاً لها أبداً.

(وشبعها أمرها) أي تظن انحصار أمرها وشأنها في الشبع مع أن غرض صاحبها من إطعامها وإشباعها أمر آخر.

الفصل الثاني

في الإشارة إلى بعض مناقبه الجميلة ومقاماته الجليلة وهو قوله:

(والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت) أي لو أشاء لأخبر كل واحد منكم بأنّه من أين خرج وأين دخل وكيفيّة خروجه وولوجه وأخبر بجميع شأنه وشغله من أفعاله وأقواله ومطعمه ومشربه وما أكله وما ادخره في بيته وغير ذلك مما أضمروه في قلوبهم وأسرّوه في ضمائرهم كما قال المسيح ﷺ «انبئكم بما تأكلون وتدّخرون في بيوتكم».

(ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله ﷺ) قال الشارح المعتزلي: أي أخاف عليكم الغلوّ في أمري وأن تفضلوني على رسول الله ﷺ، بل أخاف عليكم أن تدّعوا في الألهيّة كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح لما أخبرهم بالأمور الغيبية ومع أنه قد كتم ما علمه حذراً من أن يكفروا فيه برسول الله ﷺ فقد كفر كثير منهم وادعو فيه النبوة وادّعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة وادّعوا فيه أنه هو كان الرسول ولكن الملك غلط فيه وادّعوا أنه الذي بعث محمداً ﷺ إلى الناس وادعوا فيه الحلول وادعوا فيه الاتحاد ولم يتركوا نوعاً من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه.

أقول: ويحتمل أن يكمن مراده ﷺ بكفرهم فيه كفرهم بإسناد التقصير إلى النبي ﷺ في إظهار جلالته ﷺ وعلوّ شأنه وسمو مقامه، ومن ذلك أن النبي ﷺ لما أفصح عن بعض

فضائله عليه السلام نسبه المنافقون إلى الضلال وإلى أنه ينطق عن الهوى حتى كذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

روى في الصّافي من المجالس عن ابن عباس قال: صلّينا العشاء الآخرة ذات ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وآله فلما سلم أقبل علينا بوجهه ثم قال: إنه سينقض كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصيّي وخليفتي والإمام بعدي، فلما كان قرب الفجر جلس كلّ واحد منا في داره ينتظر سقوط الكوكب في داره وكان أطمع القوم في ذلك أبي العبّاس بن عبد المطلب، فلما طلع الفجر انقض الكوكب من الهوا فسقط في دار عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عليّ والذي بعثني بالنبوة لقد وجبت لك الوصيّة والإمامة والخلافة بعدي، فقال المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه لقد ضلّ محمد في محبّة بن عمّه وغوى وما ينطق في شأنه إلا بالهوى، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ يقول عزّ وجل وخالق النجم إذا هوى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني في محبّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام ﴿وما غوى وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ يعني في شأنه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

ومن هذا الباب أيضاً ما في الكافي عن أبي بصير قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالس إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن فيك شبهاً من عيسى بن مريم عليه السلام لولا أن يقول فيك طوائف من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام لقلت فيك قولاً لا تمرّ بملاء من النّاس إلا أخذوا التراب من تحت قدمك، قال: فغضب الإعرابيان والمغيرة بن شعبة وعدّة من قريش معهم فقالوا: ما رضى أن يضرب لابن عمّه مثلاً إلا عيسى بن مريم، فأنزل الله على نبيّه ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا﴾ يعني من بني هاشم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٥٨] قال: فغضب الحارث بن عمرو الفهري فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] إن بني هاشم يتوارثون هرقلاً بعد هرقل ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٣] فأنزل الله عليه مقالة الحارث ونزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ ثم قال صلى الله عليه وآله له: يابن عمرو إما تبت وإما رحلت، فدعى براحلته فركبها فلما صار بظهر المدينة أتته جندلة فرضت هامته فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن حوله من المنافقين: انطلقوا إلى صاحبكم فقد أتانا استفتح، قال الله عز وجل: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ هذا[1].

(١) الكافي: ٨/٥٧، ومدينة المعاجز: ٢/٢٦٦.

ولما ذكر أن أخباره ببعض المغيبات مؤد إلى الكفر والضلال لقصور الاستعداد والقابليّة لأكثر النفوس البشرية عن تحمل الأسرار الغيبيّة استدرك ذلك بقوله: **(ألا وإني مفضيه)** أي مفض به وموصل له ومؤد إياه **(إلى الخاصة)** أي إلى خواص أصحابي **(ممن يؤمن ذلك)** أي الغلو والكفر **(منه)** بما له من الاستعداد **(والذي بعثه)** أي رسول الله ﷺ **(بالحق واصطفاه على الخلق ما أنطق إلا صادقاً ولقد عهد إلي)** رسول الله ﷺ **(بذلك كله)** أي بجميع ما أخبر به **(وبمهلك من يهلك ومنجى من ينجو)** أي بهلاك الهالكين ونجاة الناجين أو بمكان هلاكهم ومكان نجاتهم أو زمانهما.

والمراد بالهلاك إما الهلاك الدنيوي أي الموت أو القتل أو الهلاك الأخروي أعني الضلال والشقاء وكذلك النجاة **(و)** بـ**(مآل هذا الأمر)** أي أمر الخلافة أو الدين وملك الإسلام ومآله انتهائه بظهور القائم وما يكون في آخر الزمان **(وما أبقى)** أي الرسول ﷺ **(شيئاً يمر على رأسي)** من اغتصاب الخلافة وخروج الناكثين والقاسطين والمارقين وقتالهم ومن الشهادة بضربة ابن ملجم المرادي لعنه الله وغير ذلك مما جرى عليه بعده **(إلا أفرغه)** أي صبه **(في أذني وأفضى به)** أي أوصله وألقاه **(إليّ)** وأعلمني به وأسره إليّ.

ثم قال: **(أيها الناس والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ولا إنهاكم عن معصية إلا وأتناهي قبلكم عنها)** لأن الأمر بالمعروف بعد الإتيان به والنهي عن المنكر بعد التناهي عنه أقوى تأثراً وأكثر ثمراً كما مرّ في شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والرابعة، وقد لعن الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به في الخطبة المائة والتاسعة والعشرين.

تبصرة

ما تضمنه ذيل هذه الخطبة من علمه عليه السلام بالغيب قد مر تحقيق الكلام فيه في شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والثامنة والعشرين وأوردنا ثمة بعض أخباره الغيبية وقدمنا فصلاً مشبعاً من أخباره عن الغيوب في شرح الكلام السادس والخمسين وشرح الخطبة الثانية والتسعين، وأحببت أن أورد طرفاً صالحاً منها هنا مما يناسب المقام نقلاً من كتاب مدينة المعاجز تأليف السّيد السند الشارح المحدّث السيّد هاشم البحراني قدّس سره فأقول:

منها ما رواه عن ابن شهر آشوب بسنده عن إسماعيل بن أبي زياد قال: إن علياً عليه السلام قال للبراء بن عازب: يا براء يقتل ابني الحسين عليه السلام وأنت حي لا تنصره، فلما قتل الحسين عليه السلام كان البراء يقول: صدق والله أمير المؤمنين عليه السلام وجعل يتلهف[1].

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ٥ ح٣، ومناقب آل أبي طالب: ٢/ ١٠٦.

ومنها ما رواه عن ابن شهر آشوب عن سفيان بن عيينة عن طاووس اليماني أنه قال علي عليه السلام لحجر البدري: يا حجر إذا وقعت على منبر صنعاء وأمرتَ بسبّي والبراءة منّي قال: فقلت: أعوذ بالله من ذلك، قال عليه السلام: والله إنه لكائن، فإذا كان كذلك فسبّني ولا تتبرأ مني فإنه من تبرأ منّي في الدّنيا تبرّأت منه في الآخرة[١].

قال طاووس فأخذه الحجّاج على أن يسبّ علياً عليه السلام فصعد المنبر وقال: أيّها الناس إنّ أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله.

ومنها ما رواه عن ابن شهر آشوب عن عبد الله بن أبي رافع قال: حضرت أمير المؤمنين عليه السلام وقد وجه أبا موسى الأشعري فقال له: أحكم بكتاب الله ولا تجاوزه، فلما أدبر قال عليه السلام: وكأنّي به وقد خدع، قلت: يا أمير المؤمنين فلم توجهه وأنت تعلم أنه مخدوع؟ فقال عليه السلام: يا بني لو عمل الله في خلقه بعلمه ما احتج عليهم بالرّسل[٢].

ومنها ما رواه عن ابن شهر آشوب أنه عليه السلام أخبر بقتل جماعة منهم حجر بن عدي ورشيد الهجري وكميل بن زياد وميثم التّمار ومحمد بن أكثم وخالد بن مسعود وحبيب بن المظاهر وحويرثه وعمرو بن الحمق ومزرع وغيرهم، ووصف قتلهم وكيفية قتلهم عبد العزيز بن صهيب عن أبي العالية قال: حدّثني مزرع بن عبد الله قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول أما والله ليقبلنّ جيش حتى إذا كان بالبيداء خسف بهم فقلت: هذا علم غيب، قال: والله ليكونن ما أخبرني به أمير المؤمنين عليه السلام وليأخذن رجل فليقتلن وليصلبن بين شرفتين من شرف هذا المسجد، فقلت: هذا ثان، قال: حدّثني الثقة المأمون علي بن أبي طالب عليه السلام قال أبو العالية: فما أتت علينا جمعة حتى أُخذ مزرع وصلب بين الشرفتين[٣].

ومنها ما رواه عن البرسي عن محمد بن سنان وساق الحديث قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول لعمر[٤]: يا عمر يا مغرور إني أراك في الدنيا قتيلاً بجراحة من عبد أم معمر تحكم عليه جوراً فيقتلك توقيعاً يدخل بذلك الجنّة على رغم منك[٥].

ومنها ما رواه عن ثاقب المناقب عن إبراهيم بن محمد الأشعري عمّن رواه قال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يبعث بمال إلى البصرة فعلم ذلك رجل من أصحابه فقال: لو أتيته

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ١٠٤، ومدينة المعاجز: ٢/ ١٨٢.
(٢) مدينة المعاجز: ٢/ ١٨٥، وبحار الأنوار: ٤١/ ٣١٠.
(٣) الإرشاد للمفيد: ١/ ٣٢٧، وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٥.
(٤) عمر بن الخطاب.
(٥) بحار الأنوار: ٣٠/ ٢٧٦ ح١٤٨، ومجمع النورين: ٢٢٢.

فسألته أن يبعث معي بهذا المال فإذا دفعه إليّ أخذت طريق المكرجة فذهبت به، فأتاه وقال: بلغني أنك تريد أن تبعث بمال إلى البصرة، قال: نعم قال: فادفعه إليّ فأبلغه تجعل لي ما تجعل لمن تبعثه فقد عرفت صحبتي قال: فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: خذ طريق المكرجة[١].

ومنها ما رواه عن الخصيبي في هدايته بإسناده عن فضيل بن الزبير قال: مر ميثم التمار على فرس له فاستقبل حبيب بن مظاهر عند مجلس بني أسد فتحدّثا حتّى التقت أعناق فرسيهما، ثم قال حبيب: لكأني برجل أصلع ضخم البطن يبيع البطيخ عند دار الرّزق وقد صلب في حبّ أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ويبقر بطنه على الخشبة، فقال ميثم: وأني لأعرف رجلاً أحمر له ضفيرتان يخرج لنصرة ابن بنت نبيه فيقتل ويجال براسه بالكوفة وأجيز الذي جاء به ثمّ افترقا، فقال أهل المجلس، ما رأينا أعجب من أصحاب أبي تراب يقولون إن علياً عليه السلام أعلمهم بالغيب، فلم يفترق أهل المجلس حتّى أقبل رشيد الهجري ليطلبهما فسأل أهل المجلس عنهما فقالوا قد افترقا وسمعناهما يقولان كذا وكذا، قال رشيد لهم: رحم الله ميثماً وحبيباً قد نسي أنه يزاد في عطاء الذي يجيء برأسه مائة درهم، ثم ولى، فقال أهل المجلس: هذا والله أكذبهم، فما مرّت الأيام حتى رأى أصحاب المجلس ميثماً مصلوباً على باب عمرو بن حريث، وجيء برأس حبيب بن مظاهر من كربلا وقد قتل مع الحسين بن علي عليه السلام إلى عبيد الله بن زياد لعنه الله، وزيد في عطاء الذي حمل رأس حبيب مائة درهم كما ذكر ورؤي كلما قاله أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أخبرهم به أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

ومنها ما رواه عن الخصيبي مسنداً عن أبي حمزة الثّمالي عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله سرية فقال: تصلون ساعة كذا وكذا من الليل أرضاً لا تهتدون فيهاسيراً فإذا وصلتم إليها فخذوا ذات الشمال فإنكم تمرّون برجل فاضل خيّر فتسترشدونه فيأبى أن يرشدكم حتى تأكلوا من طعامه ويذبح لكم كبشاً فيطعمكم ثم يقوم معكم فيرشدكم على الطريق فاقرؤوه مني السلام واعلموه أني قد ظهرت في المدينة.

فمضوا فلمّا وصلوا إلى الموضع في الوقت ضلّوا، فقال قائل منهم: ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه وآله خذوا ذات الشمال، ففعلوا فمرّوا بالرجل الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله فاسترشدوه الطريق فقال: إنّي لا أرشدكم حتى تأكلوا من طعامي فذبح لهم كبشاً فأكلوا من طعامه وقام معهم فأرشدهم إلى الطريق فقال: أظهر النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة؟ فقالوا: نعم، فأبلغوه

---

(١) مدينة المعاجز: ٢/٢٨٨.

(٢) الهداية الكبرى: ١٦١، ومدينة المعاجز: ٣/١٨٧.

سلامه فخلّف في شأنه من خلّف ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو عمرو بن الحمق الخزاعي ابن الكاهن بن حبيب بن عمرو بن القين بن درّاج بن عمرو بن سعد بن كعب، فلبث معه صلى الله عليه وآله ما شاء الله.

ثمّ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إرجع إلى الموضع الذي هاجرت إليّ منه فإذا نزل أخي أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة وجعلها دار هجرته فآته»[1].

فانصرف عمرو بن الحمق إلى شأنه حتى إذا نزل أمير المؤمنين عليه السلام أتاه فأقام معه في الكوفة.

فبينا أمير المؤمنين عليه السلام جالس وعمرو بين يديه فقال له: يا عمرو ألك دار؟ قال: نعم، قال: بعها واجعلها في الأزد فإني غداً لو قد غبت عنكم لطلبت فتتبعك الأزد حتى تخرج من الكوفة متوجهاً نحو الموصل، فتمر برجل نصراني فتقعد عنده فتستسقيه الماء فيسقيكه ويسألك عن شأنك فتخبره وستصادفه مقعداً فادعه إلى الإسلام فإنّه يسلم فإذا أسلم فأمرر بيدك على ركبتيه فإنّه ينهض صحيحاً سليماً ويتبعك.

وتمر برجل محجوب جالس على الجادّة فتستسقيه الماء فيسقيك ويسألك عن قصّتك وما الذي أخافك وممن تتوقع فحدثه بأن معاوية طلبك ليقتلك ويمثل بك لإيمانك بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وطاعتك لي وإخلاصك في ولايتي ونصحك لله تعالى في دينك فادعه إلى الإسلام فإنّه يسلم، فأمرر يدك على عينيه فإنه يرجع بصيراً بإذن الله فيتبعانك ويكونان معك وهما اللذان يواريان جثتك في الأرض.

ثمّ تصير إلى الدير على نهر يدعى بالدّجلة فإن فيه صديقاً عنده من علم المسيح عليه السلام ما تجده لك أعون الأعوان على سرّك وما ذاك إلاّ ليهديه الله لك فإذا أحسّت بك شرطة ابن أم الحكم وهو خليفة معاوية بالجزيرة ويكون مسكنه بالموصل فاقصد إلى الصديق الذي في الدير في أعلى الموصل فناده فإنه يمتنع عليك فاذكر اسم الله الذي علّمتك إياه فإنّ الدير يتواضع لك حتى تصير في ذروته فإذا رآك ذلك الراهب الصديق قال لتلميذ معه: ليس هذا أوان المسيح هذا شخص كريم ومحمد قد توفاه الله ووصيّه قد استشهد بالكوفة وهذا من حواريه ثم يأتيك ذليلاً خاشعاً فيقول لك أيّها الشخص العظيم قد أهلتني لما لم أستحقه فبم تأمرني؟ فتقول استر تلميذي هذين عندك وتشرف على ديرك هذا فانظر ماذا ترى، فإذا قال لك إنّي أرى خيلاً غامرة نحونا.

---

(١) مدينة المعاجز: ٣/ ١٨٠.

فخلّف تلميذيك عنده وأنزل واركب فرسك وأقصد نحو غار على شاطىء الدجلة تستتر فيه فإنه لا بد من أن يسترك وفيه فسقة من الجن والإنس، فإذا استترت فيه عرفك فاسق من مردة الجن يظهر لك بصورة تنين فينهشك نهشاً يبالغ في إضعافك فينفر فرسك فتبدر بك الخيل فيقولون هذا فرس عمرو ويقفون أثره.

فإذا أحسست بهم دون الغار فابرز إليهم بين دجلة والجادة فقف لهم في تلك البقعة فإن الله جعلها حفرتك وحرمك فألقهم بسيفك فاقتل منهم ما استطعت حتى يأتيك أمر الله فإذا غلبوك حزّوا رأسك وشهروه على قناة إلى معاوية ورأسك أول رأس يشهر في الإسلام من بلد إلى بلد.

ثم بكى أمير المؤمنين عليه السلام وقال: بنفسي ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وثمرة فؤاده وقرّة عينه ابني الحسين فإني رأيته يسير وذراريه بعدك يا عمرو من كربلا بغربي الفرات إلى يزيد بن معاوية عليهما لعنة الله.

ثم ينزل صاحبك المحجوب والمقعد فيواريان جسدك في موضع مصرعك وهو من الدير والموصل على مائة وخمسين خطوة من الدير[١].

إلى غير هذه مما لا نطيل بروايتها، وقد وضح واتضح لك مما أوردناه من الأخبار تصديق ما ذكره عليه السلام في هذه الخطبة من علمه عليه السلام بالغيب وأنه يعلم أعمال الناس وأفعالهم ويطلع على ما أعلنوه وما أسرّوه، ويعرف مهلك من يهلك ومنجى من ينجو، ويخبر من ذلك ما يتحمل على ما يتحمل من خواصه وبطانته سلام الله عليه وآله وشيعته.

---

(١) مدينة المعاجز: ٣/ ١٨٢.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن برگزيده پروردگار و وصىّ رسول مختار است در نصيحت مخاطبين و اظهار بعض مناقب خود، مى فرمايد:

اى غافلانى كه غفلت كرده نشده از رفتار و كردار ايشان و اى ترك كنندگان تكاليف خود كه اخذ خواهد شد از ايشان آن چه به ايشان داده اند از متاع دنيا، چيست مرا كه مى بينم شما از خداوند تبارك و تعالى كناررروندگانيد و به سوى غير او رغبت كنندگان، گويا كه شما چهارپايانيد كه برده باشند شبانگاه آن ها را به سوى چراگاه و با آرنده و شرابگاه بيماركننده جز اين نيست كه آن چهارپايان مثل حيوانى مى باشند كه علف داده شده از براى كاردها، يعنى از براى كشتن كه نمى شناسند چه چيز اراده مى شود به آنها چون احسان مى شود به آنها، گمان مى كنند كه روزگار ايشان همين روز ايشان است و بس و مى پندارند كه كار ايشان منحصر به سير بودن آنها است، قسم به خدا اگر بخواهم كه خبر دهم هر مردى را از شما به مكان خروج و محلّ دخول آن و به همه شغل و شأن آن، هرآينه ممكن است به من اين كار ولكن مى ترسم كه كافر شويد در حق من به رسول مختار (ﷺ). آگاه باشيد، به درستى كه من رساننده ام اين اخبار غيبى را به خواص اصحاب خود از آن اشخاصى كه ايمنى شده باشد اين كفر از ايشان.

و قسم به ذاتى كه مبعوث فرموده پيغمبر را به راستى و برگزيده او را به جميع خلق، سخن نمى گويم مگر در حالت راستى و صدق و به تحقيق كه عهد فرموده حضرت رسالت (ﷺ) به سوى من به همه اين اخبار و به هلاكت كسى كه هلاك مى شود و به نجات يافتن كسى كه نجات خواهد يافت و به عاقبت اين امر خلافت و باقى نگذاشت چيزى را كه خواهد گذشت بر سر من از حوادث روزگار، مگر اين كه ريخت آن را در گوش هاى من و رسانيد آن را به من. اى مردمان، به حق خدا تحريص نمى كنم شما را بر طاعتى، مگر اينكه سبقت مى نمايم به شما به سوى آن طاعت و نهى نمى كنم شما را از معصيتى مگر اين كه خوددارى مى كنم پيش از شما از آن معصيت.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والخامسة والسبعون من المختار في باب الخطب

قال الشارح البحراني: روي أن هذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويع بعد قتل عثمان، وشرحها في فصلين:

الفصل الأول

انْتَفِعُوا بِبَيانِ اللَّهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَواعِظِ اللَّهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ، وَاقْبَلُوا نَصيحَةَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ بِالْحُجَّةِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحابَّهُ مِنَ الأَعْمالِ وَمَكارِهَهُ مِنْها لِتَتَّبِعُوا هٰذِهِ وتَجْتَنِبُوا هٰذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كانَ يَقُول: إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكارِهِ وإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بالشَّهَواتِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ ما مِنْ طاعَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتي في كُرْهٍ، ومَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأتي في شَهْوَةٍ، فَرَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوٰى نَفْسِه، فَإِنَّ هٰذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وإِنَّها لا تَزالُ تَنْزِعُ إِلىٰ مَعْصِيَةٍ في هَوًى.

واعْلَمُوا عِبادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لا يُصْبِحَ ولاَ يُمْسي إِلاّ وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلاَ يَزالُ زارِياً عَلَيْها ومُسْتَزِيداً لَها، فَكُونُوا كَالسّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمامَكُمْ، قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيا تَقْوِيضَ الرّاحِلِ، وَطَوَوْها طَيَّ الْمَنازِلِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ هُوَ النّاصِحُ الَّذي لاَ يَغُشُّ، وَالْهادِي الَّذي لا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذي لاَ يَكْذِبُ، وَمَا جالَسَ هٰذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلاّ قامَ عَنْهُ بِزِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ، زِيادَةٍ في هُدًى، ونُقْصانٍ مِن عَمًى.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فاقَةٍ، وَلاَ لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى، فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِه عَلَى لأوائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفاءً مِنْ أَكْبَرِ الدّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلالُ، فَاسأَلوا اللَّهَ به، وتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّه، وَلاَ تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ ما تَوَجَّهَ الْعِبادُ بِمِثْلِهِ إِلى اللَّهِ.

وَاعْلَمُوا أَنهُ شافِعٌ، مُشَفَّع وقائِلٌ مُصَدَّقٌ، وأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنادي مُنادٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ: أَلاَ وإِنَّ كُلَّ حارِثٍ مُبْتَلًى في حَرْثِهِ

وعاقِبَةِ عَمَلِه، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِه وَأَتْباعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آراءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْواءَكُمْ.

العَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهايَةَ النِّهايَةَ، والإِسْتِقامَةَ الإِسْتِقامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، والْوَرَعَ الْوَرَعَ، وإِنَّ لَكُمْ نِهايَةً فانْتَهُوا إِلىٰ نَهايَتِكُمْ، إِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلإِسْلامِ غَايَةً فَانْتَهوا وَإِلىٰ غايَتِه، وَاخْرُجُوا إِلىٰ اللَّهِ مِمَّا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّه، وبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظائِفِهِ، أَنا شاهِدٌ لَكُمْ، وحَجيجٌ يو الْقِيامَةِ عَنْكُمْ، أَلاَ وإِنَّ الْقَدَرَ السّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضاءَ الْماضي قَدْ تَوَرَّد، وإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللَّهِ وحُجَّتِه، قالَ اللَّهُ تَعالى: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ، وَقَدْ قُلْتُمْ: رَبُّنَا اللَّهُ، فَاسْتَقِيمُوا عَلىٰ كِتابِهِ، وَعَلىٰ مِنْهاجِ أَمْرِهِ، وَعَلىٰ الطَّرِيقَةِ الصّالِحَةِ مِنْ عِبادَتِهِ، ثُمَّ لاَ تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلاَ تَبْتَدِعُوا فيها، وَلاَ تُخالِفُوا عَنْهَا، فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطِعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ[١].

اللغة

(**نزع**) عن المعاصي نزوعاً انتهى عنها ونزع عن الشيء نزوعاً كف وقلع عنه والمنزع يحتمل المصدر والمكان ونزع إلى أهله نزاعة ونزاعاً اشتاق إليه، ونازعتني نفسي إلى كذا اشتاقت إليه، قال في مجمع البحرين: في الحديث: النّفس الأمّارة أبعد شيء منزعاً، أي رجوعاً عن المعصية إذ هي مجبولة على محبّة الباطل، وأمّا تفسير الشارح المعتزلي منزعاً بمذهباً فلا يخفى بعده.

و(**الظنون**) وزان صبور إما مبالغة من الظنّة بالكسر بمعنى التهمة يقال: ظننت فلاناً أي اتهمته فلا يحتاج حينئذ إلى الخبر أو بمعنى الضعيف وقليل الحيلة وجعل الشارح المعتزلي الظنون بمعنى البئر لا يدري فيها ماء أم لا غير مناسب للمقام وإن كان أحد معانيه.

و(**قاض**) البناء وقوضه أي هدمه أو التقويض نقض من غير هدم أو هو نقض الأعواد والأطناب و(**غشه**) يغشه كمدّ يمدّ غشاً خلاف نصحه و(**اللأواء**) وزان صحراء الشدّة وضيق المعيشة وفي مجمع البحرين في الحديث ومن (**محل به**) القرآن يوم القيامة صدق أي سعى به يقال: محل بفلان إذا قال عليه قولاً يوقعه في مكروه و(**تورد**) الخيل البلد دخله قليلاً قليلاً.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ١٩١، وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ٢٥.

الإعراب

جملة **(قوّضوا)** استئناف بياني لا محلّ لها من الإعراب، و**(أو)** في قوله بزيادة أو نقصان بمعنى الواو كما في قوله:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

ويؤيّده قوله: زيادة في هدى، ونقصان بالواو، أو أن الترديد لمنع الخلو و**(الفاء)** في قوله: فاستشفوه فصيحة، وفي قوله: **(فإن فيه شفاء)** للتعليل وقوله: **(العمل العمل)** وما يتلوه من المنصوبات المكررة انتصابها جميعاً على الإغراء أو عامل النصب محذوف أي ألزموا العمل فحذف العامل وناب أول اللفظين المكررين منابه.

المعنى

إعلم أن مدار هذا الفصل من الخطبة الشريفة على الموعظة والنصيحة وترغيب المخاطبين في الطاعات وتحذيرهم عن السيئات والتنبيه على جملة من فضائل كتابه الكريم وخصائص الذكر الحكيم، وصدّر الفعل بالأمر بالانتفاع بأفضل البيانات والاتعاظ بأحسن المواعظ والقبول لأكمل النصائح فقال:

(انتفعوا ببيان الله) أي بما بيّنه في كتابه وعلى لسان نبيّه ﷺ فإنّه لقول فصل وما هو بالهزل، وفيه تذكرة وذكرى لأولي الألباب وهدى وبشرى بحسن المآب فمنفعته أتم المنافع، وفائدته أعظم الفوائد.

(واتعظوا بمواعظ الله) لتفوزوا جنة النعيم والفوز العظيم، وتنجوا من نار الجحيم والعذاب الأليم **(واقبلوا نصيحة الله)** فإنّها مؤدية إلى درجات الجنات منجية من دركات الهلكات، والإتيان بلفظ الجلالة والتصريح باسمه سبحانه في جميع الجملات مع اقتضاء ظاهر المقام للإتيان بالضمير لإيهام الاستلذاذ ولإدخال الروع في ضمير المخاطبين وتربية المهابة وتقوية داعي المأمورين لامتثال المأمور به، وقول الشارح البحراني: بأن ذلك أي تعدية الاسم صريحاً للتعظيم، فليس بشيء.

ولما أمر بالاتّعاظ والانتّصاح علله **(فإن الله قد أعذر إليكم بالجلية)** يعني أنه سبحانه قد أبدى العذر إليكم في عقاب العاصين منكم بالأعذار الجلية والبراهين الواضحة من الآيات الكريمة لأنّه لا يكلّف نفساً إلاّ ما آتاها ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة.

(واتخذ عليكم الحجة) بإرسال الرسول وإنزال الكتاب يعني أنه أتم الحجة على المكلّفين بما أتاهم وعرّفهم حتى لا يكون لهم عذر في ترك التكاليف ولا يكون للناس عليه حجة بعد الرسل قال عز من قائل: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً **(وبيّن لكم محابه من**

الأعمال ومكارهه منها) أي بين في كتابه العزيز الفرائض والواجبات من الحج والجهاد والصوم والصلاة وغيرها من الأعمال الصّالحات المطلوبة له والمحبوبة عنده، والمحظورات من الكذب والغيبة والنميمة والسعاية وغيرها من الأفعال القبيحة المبغوضة له المكروهة لديه.

وإنّما بيّنها **(لتتبعوا هذه)** أي محاب الأعمال **(وتجتنبوا هذه)** أي مكارهها **(فإن رسول الله ﷺ)** تعليل لوجوب اتباع المحاب ووجوب اجتناب المكاره **(كان يقول: إن الجنّة حفت بالمكاره وإن النار حفت بالشهوات)** يعني أن الجنّة محفوفة بالصبر على مشاق الطاعات والكف عن لذائذ السيئات وكلاهما مكروه للنّفس، فمن صبر على ذلك المكروه يكون مصيره إلى الجنّة وكذلك النار محفوفة بإطلاق عنان النفس وارتكاب ما تشتهيها وتتمناها من الشهوات والمحرّمات، فمن أقدم عليها وأتى بها يكون عاقبته إلى النار وكفى بالجنّة ثواباً ونوالاً في تسهيل تحمّل تلك المكاره، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً في التنفير عن هذه الشهوات.

ثمّ بعد تسهيل المكاره التي يشتمل عليها الطاعات يكون غايتها أشرف الغايات وتحقير الشهوات التي يريد التنفير عنها يكون غايتها أخس الغايات نبّه على أنه لا تأتي طاعته إلا في كره ولا معصيته إلا في شهوة، وهو قوله **(واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة)** لأنّ النّفس للقوة الشهوية أطوع من القوة العاقلة خصوصاً فيما هو أقرب إليها من اللّذات المحسوسة التي يلحقها العقاب عليها.

(فرحم الله رجلاً نزع) وكف **(عن شهوته وقمع)** أي قلع **(هوى نفسه فإن هذه النفس)** لأمارة بالسوء **(أبعد شيء منزعاً)** أي كفا وانتهاء عن شهوة ومعصية **(وأنها لا تزال تنزع)** أي تشتاق وتميل **(إلى معصية في هوى)** نبّه على وصف المؤمنين وكيفية معاملتهم مع نفوسهم جذباً للسامعين إلى التأسي بهم وتحريصاً لهم على اقتفاء آثارهم وهو قوله:

(واعلموا عباد الله أن المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا ونفسه ظنون) أي متّهمة **(عنده)** أي أنها ضعيفة قليلة الحيلة لا تقدر على أن تحتال وتعالج في أن تغره وتورده موارد الهلكة بل هو غالب عليها في كل حال **(فلا يزال زاريا)** أي عاياً **(عليها)** في كل حين **(ومستزيداً لها)** أي مراقباً لأحوالها طالباً للزيادة لها من الأعمال الصالحة في جميع الأوقات.

(فكونوا كالسابقين قبلكم) إلى الجنة **(والماضين أمامكم)** من المؤمنين الزاهدين في الدنيا والرّاغبين في الآخرة **(قوضوا من الدنيا تقويض الراحل)** يعني أنهم قطعوا علائق الدنيا وارتحلوا إلى الآخرة كما أن الراحل إذا أراد الارتحال يقوض متاعه وينقض خيمته ويهدم بناءه **(وطووها طي المنازل)** أي طووا أيام الدنيا ومدّة عمرهم كما يطوي المسافر منازل طريقه.

ومحصل الجملتين أن السابقين الأولين من المقرّبين وأصحاب اليمين لما عرفوا بعين بصائرهم أن الدّنيا ليست لهم بدار وأن الآخرة دار قرار لا جرم كانت همّتهم مقصورة في الوصول إليها، فجعلوا أنفسهم في الدّنيا بمنزلة المسافر، وجعلوها عندهم بمنزلة المنازل فأخذوا من ممرّهم ما يبلغهم إلى مقرّهم فلما ارتحلوا عنها لم يبق لهم علاقة فيها كما أن المسافر إذا ارتحل من منزل لا يبقى له شيء فيه فأمر المخاطبين بأن يكونوا مثل هؤلاء في الزّهد في الدّنيا وترك العلائق والأمنيّات والرغبة في العقبى والجنّات العاليات وهي أحسن منزلاً ومقيلاً.

ثمّ شرع في ذكر فضل القرآن وبيان ممادحه ترغيباً في الاهتداء به والاقتباس من ضياء أنواره فقال عليه السلام:

(واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح) المشفق **(الذي لا يغش)** في إرشاده إلى وجوه المصالح كما أن الناصح الصديق شأنه ذلك **(والهادي الذي لا يضلّ)** من اهتدى به.

روى في الكافي عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدّجى، فليجل جال بصره ويفتح للضياء نظره، فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظّلمات بالنور[١].

(والمحدث الذي لا يكذب) في قصصه وأحاديثه وأخباره قال أبو عبد الله عليه السلام: فيما روي في الكافي عن سماعة بن مهران عنه عليه السلام: أن العزيز الجبار أنزل عليكم كتابه وهو الصادق البار فيه خبركم وخبر من قبلكم وخبر من بعدكم وخبر السماء والأرض ولو أتاكم من يخبركم ذلك تعجبتم.

(وما جالس هذا القرآن أحد) استعار لفظ المجالسة لمصاحبته وملازمته وقراءته والتدبّر في ألفاظه ومعانيه **(إلا قام عنه)** استعار لفظ القيام لترك قراءته والفراغ عنها ولا يخفى ما في مقابلة الجلوس بالقيام من اللّطف والحسن فإن المقابلة بين الفعلين في معنييهما الحقيقين والمجازين كليهما على حدّ قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي ضالا فهديناه، فإن الموت والأحياء متقابلان كتقابل الضلالة والهداية.

وما ذكرناه أظهر وأولى مما قاله الشارح البحراني: من أنه كنّى بمجالسة القرآن عن مجالسة حملته وقراءته لاستماعه منهم وتدبره عنهم، لاحتياجه إلى الحذف والتكلف الذي لا حاجة إليه.

---

(١) الكافي: ٢٨/١ ح٣٤، ونهج البلاغة: ٤٠٦/٨.

وكيف كان فالمراد أن من قام عن القرآن بعد قضاء وطره منه فإنما يقوم **(بزيادة أونقصان زيادة في هدى ونقصان من عمى)** إذ فيه من الآيات البيّنات والبراهين الباهرات ما يزيد في بصيرة المستبصر، وينقص من جهالة الجاهل.

(واعلموا أنه ليس لأحد بعد القرآن من) فقر و**(فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى)** وثروة، الظاهر أن المراد به أن من قرأ القرآن وعرف ما فيه وتدبر في معانيه وعمل بأحكمامه يتم له الحكمة النظرية والعملية ولا يبقى له بعده إلى شيء حاجة ولا فقر ولا فاقة ومن لم يكن كذلك فهو أحوج المحتاجين.

روى في الكافي عن معاوية بن عمار قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: من قرأ القرآن فهو غني ولا فقر بعده وإلاّ ما به غني(١).

قال الشارح البحراني في شرح ذلك: نبههم على أنه ليس بعده على أحد فقر أي ليس بعد نزوله للنّاس وبيانه الواضح حاجة بالناس إلى بيان حكم في إصلاح معاشهم ومعادهم، ولا لأحد قبله من غي أي قبل نزوله لا غن عنه للنّفوس الجاهلة انتهى، والأظهر ما قلناه.

(فاستشفوه من أدوائكم) أي من أمراضكم الظاهرة والباطنة والرّوحانية والجسمانيّة، فإن فيه شفاء من كل ذلك قال سبحانه: ونتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة.

وروى في الكافي عن السّكوني عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال: شكى رجال إلى النبي صلى الله عليه وآله وجعاً في صدره فقال: استشف بالقرآن فإنّ الله عزّ وجل يقول: وشفاء لما في الصدور.

(واستعينوا به من لأوائكم) أي من شدائد الدّهر ومحن الزمان وطوارق البلايا والحدثان.

روى في الكافي عن أحمد المنقري قال: سمعت أبا إبراهيم عليه السلام يقول: من استكفى بآية من القرآن من المشرق إلى المغرب كفى إذا كان بيقين(٢).

وفيه عن الأصبغ بن نباته عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق وأكرم أهل بيته ما من شيء تطلبونه من حرز من حرق أو غرق أو سرق أو إفلات دابة من صاحبها أو ضالة أو آبق إلاّ وهو في القرآن فمن أراد ذلك فليسألني عنه، الحديث(٣).

وأنت إذا لاحظت الروايات الواردة في خواص السّور والآيات تجد أنها كنز لا يفنى

(١) الكافي: ٢/ ٦٠٥ ح٨، ونهج السعادة: ٨/ ٤١٤،
(٢) الكافي: ٢/ ٦٢٣ ح١٨، وبحار الأنوار: ٨٩/ ١٧٦.
(٣) الكافي: ٢/ ٦٢٤ ح٢١، وشرح أصول الكافي: ١١/ ٦٧ ح٢١.

وبحر لا ينفد، وأن فيها ما به نجاة من كلّ هم ونجاة من كلّ غمّ وعوذة من كل لمم وسلامة من كل ألم وخلاص من كلّ شدّة ومناص من كلّ داهية ومصيبة وفرج من ضيق المعيشة ومخرج إلى سعة العيشة إلى غير هذه مما هو خارج عن حد الإحصاء ومتجاوز عن طور الاستقصاء، فلا شيء أفضل منه للاستشفاء من الأسقام والأدواء ولا للاستعانة من الشدائد واللاواء.

(وإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنّفاق والغي والضلال) قال أبو عبد الله عليه السلام في الحديث المروي في الكافي مرفوعاً: «لا والله لا يرجع الأمر والخلافة إلى آل أبي بكر وعمر ولا إلى بني أمية أبداً ولا في ولد طلحة والزبير أبداً وذلك إنهم نبذوا القرآن وأبطلوا السّنن وعطلوا الأحكام»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «القرآن هدى من الضلالة وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار»[٢].

(فاسألوا الله به وتوجّهوا إليه بحبه) يحتمل أن يكون المراد به جعله وسيلة إليه سبحانه في نيل المسائل لكونه أقوى الوسائل، وأن يتوجّه إليه بحبّه أي بحب السائل له أو بكونه محبوباً لله تعالى في إنجاح السؤالات وقضاء الحاجات، وأن يكون المراد به إعداد النفوس وإكمالها بما اشتمل عليه الكتاب العزيز من الكمالات النفسانيّة ثمّ يطلب الحاجات ويستنزل الخيرات بعد حصول الكمال لها، وعلى هذا فالمقصود من التوجه إليه بحبّه تأكيد الاستكمال إذ من أحبّه استكمل بما فيه فحسن توجهّه إليه تعالى والأظهر هو الاحتمال الأوّل بقرينة قوله **(ولا تسألوا به خلقه)** لظهوره في أن المراد به هو النهي عن جعله وسيلة للمسألة إلى الخلق.

قال أبو عبد الله عليه السلام في رواية الكافي عن يعقوب الأحمر عنه عليه السلام: إنّ من الناس من يقرأ القرآن ليقال فلان قارىء، ومنهم من يقرأ القرآن ليطلب به الدنيا ولا خير في ذلك، ومنهم من يقرأ القرآن لينتفع به في صلاته وليله ونهاره[٣].

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدر به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده وأقامه إقامة القدح فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن. ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن

---

(١) شرح أصول الكافي: ١١/١٦ ح٨، والكافي: ٢/٦٠٠.

(٢) الكافي: ٢/٦٠٧ ح١، ووسائل الشيعة: ٦/١٨٢.

(٣) الكافي: ٢/٦٠٠ وشرح أصول الكافي: ١١/١٦ ح٨.

على داء قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه فبأُولئك يدفع الله العزيز الجبّار البلاء، وبأُولئك يديل الله عز وجل من الأعداء، وبأُولئك ينزل الله تبارك وتعالى الغيث من السماء فوالله لهؤلاء في قرّاء القرآن أعز من الكبريت الأحمر(١).

وعلل الأمر بسؤال الله به بأنه **(ما توجّه العباد إلى الله بمثله)** لأن له كرامة عند الله سبحانه ومقاماً يغبطه به الأولون والآخرون حسبما تعرفه في الأخبار الآتية فهو أفضل الوسائل للسائل في إنجاح المقاصد والمسائل الدنيويّة والآخروية. فالمتوجه به إليه سبحانه لا يرد دعاؤه ولا يخيب رجاؤه.

(واعلموا أنه شافع مشفع وقائل مصدق) يعني أنه يشفع لقرائه والعاملين به الحاملين له يوم القيامة فيقبل شفاعته في حقهم، ويقول ويشهد في حق هؤلاء بخير وفي حق التاركين له والنابذين به وراء ظهورهم بشرّ فيصدق فيهما كما أشار إليه بقوله:

(وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه) أي قبلت شفاعته **(ومن محل به القرآن)** أي سعى به إلى الله تعالى وقال في حقّه قولاً يضرّه ويوقعه في المكروه **(يوم القيامة صدق عليه)**.

قال الشارح البحراني: استعار عليه السلام لفظي الشافع والمشفع ووجه الاستعارة كون تدبره والعمل بما فيه ماحياً لما يعرض للنفس من الهيئات الردية من المعاصي، وذلك مستلزم لمحو غضب الله كما يمحو الشفيع المشفّع أثر الذنب عن قلب المشفوع إليه وكذلك لفظ القائل المصدّق ووجه الاستعارة كونه ذا ألفاظ إذا نطق بها لا يمكن تكذيبها كالقائل الصادق، ثمّ أعاد معنى كونه شافعاً مشفعاً يوم القيامة ثم استعار لفظ المحل للقرآن ووجه الاستعارة أن لسان حال القرآن شاهد في علم الله وحضرة ربوبيته على من أعرض عنه بعدم اتباعه ومخالفته لما اشتمل عليه فبالواجب أن يصدّق فأشبه السّاعي إلى السّلطان في حق غيره بما يضرّه، انتهى.

أقول: والإنصاف أن حمل الكلام على المجاز مع التمكّن من إرادة الحقيقة لا معنى له كما قلناه في شرح الفصل السادس من الخطبة الثانية والثمانين، والحمل على الحقيقة هنا ممكن بل متعين لدلالة غير واحد من الروايات على أنّه يأتي يوم القيامة بصورة إنسان في أحسن صورة ويشفع في حق قرائه العاملين به، ويسعى في حق المعرضين عنه، وعلى هذا فلا وجه لحمل لفظ الشفاعة والقول والمحل على معناها المجازي ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما يدلّ على ذلك فأقول:

(١) الكافي: ٢/ ٦٢٧ ح١، ووسائل الشيعة: ٦/ ١٨٢ ح٧٦٧٨.

روى ثقة الإسلام الكليني في الكافي عن علي بن محمد عن علي بن العباس عن الحسين بن عبد الرّحمان عن صفوان عن الحريري عن أبيه عن سعد الخفاف عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا سعد تعلموا القرآن فإنّ القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق والنّاس صفوف عشرون ومائة ألف صف ثمانون ألف صف من أمة محمد صلى الله عليه وآله وأربعون ألف صف من سائر الأمم فيأتي على صف المسلمين في صورة رجل فيسلم فينظرون إليه ثم يقولون لا إله إلا الله الحليم الكريم إن هذا الرجل من المسلمين نعرفه بنعته وصفته غير أنه كان أشد اجتهاداً منّا في القرآن فمن هناك أعطي من البهاء والجمال والنور ما لم نعطه.

ثم يجوز حتى يأتي على صف الشهداء فينظر إليه الشهداء ثم يقولون: لا إله إلا الله الرب الرحيم إن هذا الرجل من الشهداء نعرفه بسمته وصفته غير أنه من شهداء البر فمن هناك أعطي من البهاء والفضل ما لم نعطه[1].

قال: فيجاوز حتى يأتي صف شهداء البحر فينظر إليه شهداء البحر فيكثر تعجّبهم ويقولون: إنّ ذا من شهداء البحر نعرفه بسمته وصفته غير أن الجزيرة التي أصيب فيها كانت أعظم هولاً من الجزيرة التي أصبنا فيها فمن هناك أعطى من البهاء والجمال والنور ما لم نعطه.

ثم يجاوز حتى يأتي صف النبيّين والمرسلين في صورة نبي مرسل فينظر النبيون والمرسلون إليه فيشتد لذلك تعجّبهم ويقولون: لا إله إلا الله الحليم الكريم إن هذا النبي[2] مرسل نعرفه بصفته وسمته غير أنه أعطى فضلاً كثيراً.

قال: فيجتمعون فيأتون رسول الله صلى الله عليه وآله فيسألونه ويقولون: يا محمد من هذا؟ فيقول لهم: أو ما تعرفونه؟! فيقولون ما نعرفه هذا من لم يغضب الله عزّ وجل عليه، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا حجّة الله على خلقه فيسلم.

ثمّ يجاوز حتى يأتي على وصف الملائكة في صورة ملك مقرب فينظر إليه الملائكة فيتشد تعجّبهم ويكبر ذلك عليهم لما رأوا من فضله ويقولون: تعالى ربّنا وتقدس إنّ هذا العبد من الملائكة نعرفه بسمته وصفته غير أنه كان أقرب الملائكة إلى الله عز وجل مقاماً فمن هناك ألبس من النّور والجمال ما لم نلبس.

---

(١) الكافي: ٢/ ٥٩٦ ح١، وبحار الأنوار: ٧/ ٣١٩ ح١٦.

(٢) «النبي» في نسخة.

ثم يجاوز حتى ينتهي إلى رب العزة تبارك وتعالى: فيخر تحت العرش فيناديه تبارك وتعالى يا حجّتي في الأرض وكلامي الصّادق والناطق أرفع رأسك سل تعط وأشفع تشفّع، فيرفع رأسه فيقول الله تبارك وتعالى: كيف رأيت عبادي؟ فيقول: يا رب منهم من صانني وحافظ علي ولم يضيع شيئاً، ومنهم من ضيّعني واستخف بحقّي وكذّب بي وأنا حجتك على جميع خلقك، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزّتي وجلالي، وارتفاع مكاني لأثيبن عليك اليوم أحسن الثواب، ولأعاقبن عليك اليوم أليم العقاب.

قال: فيرفع القرآن رأسه في صورة أخرى قال: فقلت له عليه السلام: يا أبا جعفر في أي صورة يرجع؟! قال: في صورة رجل شاحب متغيّر يبصره[1] أهل الجمع فيأتي الرّجل من شيعتنا الذي كان يعرفه ويجادل به أهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول ما تعرفني؟ فينظر إليه الرجل فيقول: ما أعرفك يا عبد الله.

قال: فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الأول فيقول: ما تعرفني؟ فيقول نعم، فيقول القرآن: أنا الذي أسهرت ليلك وأنصبت عينك وسمعت في الأذى ورجمت بالقول في ألا وأن كل تاجر قد استوفى في تجارته وأنا وراءك اليوم، قال فينطلق به إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقول: يا رب عبدك وأنت أعلم به قد كان نصباً بي مواظباً عليّ يعادي بسببي ويحبّ فيّ ويبغض، فيقول الله عز وجل ادخلوا عبدي جنّتي واكسوه حلة من حلل الجنة، وتوجوه بتاج.

فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن فيقال له: هل رضيت بما فعل بوليّك فيقول: يا رب أستقل هذا له فزده مزيد الخير كلّه، فيقول عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي وعلوّي وارتفاع مكاني لا نحلن له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له ولمن كان بمنزلته: ألا إنهم شباب لا يهرمون، وأصحاء لا يسقمون، وأغنياء لا يفتقرون، وفرحون لا يحزنون، وأحياء لا يموتون، ثمّ تلى عليه السلام هذه الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الصافات: ٦٢].

قال: قلت: يا أبا جعفر وهل يتكلّم القرآن؟ فتبسّم عليه السلام ثم قال: رحم الله الضعفاء من شيعتنا إنهم أهل تسليم، ثم قال: نعم يا أبا سعد والصلاة تتكلّم ولها صورة وخلق تأمر وتنهى، قال سعد: فتغيّر لذلك لوني وقلت: هذا شيء لا أستطيع التكلّم به في الناس، فقال أبو جعفر عليه السلام: وهل الناس إلا شيعتنا فمن لم يعرف الصّلاة فقد أنكر حقنا.

ثمّ قال: يا سعد أسمعك كلام القرآن؟ قال سعد: فقلت: بلى، فقال عليه السلام: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر، فالنهي كلام والفحشاء والمنكر رجال ونحن ذكر

---

(١) «ينكره» في نسخة.

الله ونحن أكبر[١].

وفيه بسنده عن يونس بن عمّار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الدواوين يوم القيامة ثلاثة: ديوان فيه النعم، وديوان فيه الحسنات، وديوان فيه السيئات، فيقابل بين ديوان النعم وديوان الحسنات، فيستغرق النعم عامة الحسنات، ويبقى ديوان السيئات فيدعى بابن آدم المؤمن للحسنات[٢] فيتقدّم القرآن أمامه في أحسن صورة فيقول: يا رب أنا القرآن وهذا عبدك المؤمن قد كان يتعب نفسه بتلاوتي ويطيل ليله بترتيلي وتفيض عيناه إذا تهجّد، فأرضه كما أرضاني قال: فيقول العزيز الجبّار: عبدي أبسط يمينك، فيملؤها من رضوان الله العزيز الجبّار، ويملؤ شمله من رحمة الله، ثمّ يقال: هذه الجنّة مباحة لك فاقرأ واصعد فإذا قرأ آية صعد درجة[٣].

وفيه مسنداً عن إسحاق بن غالب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا جمع الله عزّ وجلّ الأوّلين والآخرين إذا هم بشخص قد أقبل لم ير قط أحسن صورة منه، فإذا نظر إليه المؤمنون وهو القرآن قالوا: هذا منّا هذا أحسن شيء رأينا، فإذا انتهى إليهم جازهم، ثمّ ينظر إليه الشهداء حتى إذا انتهى إلى آخرهم جازهم فيقولون: هذا القرآن فيجوزهم كلّهم حتّى إذا انتهى إلى المرسلين فيقولون: هذا القرآن فيجوزهم حتى ينتهي إلى الملائكة فيقولون: هذا القرآن فيجوزهم ثم ينتهى حتى يقف عن يمين العرش، فيقول الجبّار: وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني لأكرمن اليوم من أكرمك ولأهيننّ من أهانك[٤].

وفيه عن الفضيل بن يسار بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تعلّموا القرآن فإنّه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له: أنا القرآن الذي كنت أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك وأجففت ريقك وأسلت دمعتك أؤلُ معك حيثما إلت، وكلّ تاجر من وراء تجارته وأنا اليوم لك من وراء تجارة كلّ تاجر، وسيأتيك كرامة من الله عزّ وجل فابشر.

فيؤتى بتاج فيوضع على رأسه ويعطي الأمان بيمينه والخلد في الجنان بيساره ويكسى حلتين ثم يقال له: إقرأ وارق، كلما قرأ آية صعد درجة ويكسى أبواه حلتين إن كانا مؤمنين ثم يقال لهما: هذا لما علّمتماه القرآن[٥].

---

(١) الكافي: ٢/ ٥٩٨ ح١، وبحار الأنوار: ٧/ ٣٢١.
(٢) «للحساب» في نسخة.
(٣) الكافي: ٢/ ٦٠٢ ح١٢، ووسائل الشيعة: ٦/ ١٦٦ ح٧٦٣٨.
(٤) الكافي: ٢/ ٦٠٢ ح١٤، ووسائل الشيعة: ٤/ ٨٢٧ ح١.
(٥) الكافي: ٢/ ٦٠٣ ح٣، ونهج السعادة: ٧/ ٢٣.

إلى غيره مما لا نطيل بروايته فقد ظهر منهم أنّه يجيء يوم القيامة في صورة إنسان وله لسان يشهد للناس وعليهم ويقبل شهادته نفعاً وضراً وشفاعته في حق المراقبين له وينتفع به الآخذون له والعاملون به.

(فإنه ينادي مناد يوم القيامة) الظاهر أن المنادي من الملائكة من عند رب العزة، وقول الشارحين أنه لسان حال الأعمال تأويل لا داعي إليه **(ألا)** و**(أن كل حارث)** أصل الحرث إثارة الأرض للزراعة والمراد هنا مطلق الكسب والتّجارة **(مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن)**.

قال الشارح البحراني: الحرث كلّ عمل تطلب به غاية وتستخرج منه ثمرة والابتلاء ههنا ما يلحق النفس على الأعمال وعواقبها من العذاب بقدر الخروج فيها عن طاعة الله. وظاهر أن حرث القرآن والبحث عن مقاصده لغاية الاستكمال به بريء من لواحق العقوبات، انتهى.

أقول: وفيه أن كل عمل كان فيه الخروج عن طاعة الله فعامله معذّب ومبتلى سواء كان ذلك العمل مما لا يتعلّق بالقرآن أو كان متعلّقاً به، كقراءته والبحث عن مقاصده والحفظ له ونحو ذلك وإذا كان على وجه الرياء أو تحصيل حطام الدّنيا وكلّ عمل أريد به وجه الله وكان الغاية منه الاستكمال فعامله مأجور ومثاب من دون فرق فيه أيضاً بين القرآن وغيره، وبعبارة أخرى كلّ حارث سواء كان حارث القرآن أو غيره إن لم يقصد بحرثه الخلوص فمبتلى، وإلاّ فلا، فتعليل عدم ابتلاء حرثة القرآن بأن حرثهم للاستكمال به وابتلاء الآخرين بأن في حرثهم خروجاً من الطاعة شطط من الكلام كما لا يخفى.

والذي عندي أن يراد بقوله عليه السلام: كلّ حارث من كان حرثه للدّنيا فهو مبتلى أي ممتحن في حرثه لأنه إن كان من حلال ففيه حساب وإن كان من حرام ففيه عقاب وأما حارث القرآن لأجل أنه قرآن وكلام الله عز وجل فلا ابتلاء له لأن حرثه على ذلك إنّما هو للآخرة قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] فتأمل.

ولما نبّه عليه السلام على عدم ابتلاء حرثة القرآن أمر بحرثه بقوله **(فكونوا من حرثته وأتباعه)** وأردفه بقوله **(واستدلوه على ربكم)** أي اجعلوه دليلاً عليه سبحانه وقائداً إليه تعالى لاشتماله على جميع صفات الجمال والجلال وأوصاف الكبرياء والعظمة والكمال **(واستنصحوه على أنفسكم)** أي اتخذوه ناصحاً لكم رادعاً لأنفسكم الأمارة عن السوء والفحشاء والمنكر لتضمنه الآيات النّاهية المحذرة والوعيدات الزاجرة المنذرة **(واتهموا عليه آراءكم)** أي إذا أدت آراءكم

إلى شيء مخالف للقرآن فاجعلوها متّهمة عندكم **(واستغشوا فيه أهواءكم)**.

قال الشارح البحراني: وإنما قال هنا استغشوا وفي الآراء اتهموا، لأن الهوى هو ميل النفس الأمّارة من غير مراجعة العقل فإذا حكمت النفس عن متابعتها بحكم فهو غشّ صراح، وأما الرأي فقد يكون بمراجعة العقل وحكمه وقد يكون بدونه، فجاز أن يكون حقاً وجاز أن يكون باطلاً فكان بالتهمة أولى.

ثم تخلص من أوصاف القرآن وفضائله إلى الأمر بملازمة الأعمال فقال: **(العمل العمل)** أي لازموا العمل الصّالح وراقبوا عليه **(ثم النهاية النهاية)** أي بعد القيام بالأعمال الصالحة لاحظوا نهايتها وخاتمتها وجدّوا في الوصول إليها **(والاستقامة الاستقامة)** وهو أمر بالاستقامة على الجادة الوسطى من العمل والثبات على الصراط المستقيم المؤدي إلى غاية الغايات وأشرف النهايات أعني روضات الجنات **(ثم الصبر الصبر والورع الورع)** أي بعد مواظبة الأعمال الصالحة وملاحظة نهاياتها والثبات على ما يوصل إليها من الأعمال لا بدّ من الصبر عن المعاصي والكف عن الشّهوات والورع عن محارم الله.

ومما ذكرناه ظهر لك نكتة العطف في ثاني المكررات الخمسة ورابعها بثم وفي ثالثها وخامسها بالواو، توضيح ذلك أن النهاية لما كانت متراخية عن العمل عطفها بثم، والاستقامة لما كانت كيفية العمل عطفها بالواو، وهذه الثلاثة أعني العمل والنهاية والاستقامة كلّها ناظرة إلى طرق العبادة، ولما كان الصّبر متعلّقاً بالمعصية عطفه بثم لغاية الافتراق بين العبادات والمعاصي، ولما كان بين الصبّر والورع تلازماً عطف الورع بالواو أيضاً.

وهذا أولى مما قاله الشّارح البحراني حيث قال: وإنما عطف النهاية والصّبر بثم لتأخّر نهاية العمل عنه وكون الصّبر أمراً عدميّاً وهو في معنى المتراخي والمنفك عن العمل الذي هو أمر وجوديّ، بخلاف الاستقامة على العمل فإنه كيفية له والورع فإنه جزء منه، انتهى هذا.

وفصّل ما أجمل لقوله: و**(إنّ لكل نهاية)** وهي غرفات الجنان ورضوان من الله المنان **(فانتهوا إلى نهايتكم)** وامضوا إليها **(وإن لكم علماً)** هادياً إلى تلك النهاية وهو الرسول الأمين وأولياء الدين أو الأعم منهم ومن سائر دلائل الشرع المبين **(فاهتدوا بعلمكم)** للوصول إليها **(وإن للإسلام غاية فانتهوا إلى غايته)** وهي النهاية المذكورة **(وأخرجوا إلى الله مما افترض عليكم من حقه وبين لكم من وظائفه)** أي أخرجوا متوجهين إليه سبحانه مما فرضه عليكم من حقوقه الواجبة وأوضحه لكم من عباداته وتكاليفه الموظفة المقرة في ساعات اللّيالي والأيام.

وقوله: **(أنا شاهد لكم وحجيج يوم القيامة عنكم)** تأكيد لأداء الفرائض والواجبات يعني أنكم إذا خرجتم إلى الله من حقوقه ووظائفه فأنا أشهد لكم يوم القيامة بخروجكم منها ومقيم للحجّة عن جانبكم بأنكم أقمتم بها، وقد مضى تفصيل تلك الشهادة والاحتجاج في شرح الخطبة الحادية والسّبعين.

(ألا وإن القدر السابق قد وقع والقضاء الماضي قد تورد) قد عرفت معنى القضاء والقدر مفصّلاً في شرح الفصل التاسع من الخطبة الأولى، والظاهر أن المراد بهما المقضى والمقدر كما استظهرنا هذا المعنى منهما فيما تقدّم أيضاً بالتقريب الذي قدمناه ثمة، فيكون المعنى أن المقدر السابق في علم الله سبحانه وقوعه قد وقع، والمقضى الماضي أي المحتوم النافذ قد تورد أي دخل في الوجود شيئاً فشيئاً.

وإلى ما ذكرنا ينظر ما قاله بعض الشارحين من أنه أراد بالقدر السابق خلافته عليه السلام وبالقضاء الماضي الفتن والحروب الواقعة في زمانه أو بعده التي دخلت في الوجود شيئاً فشيئاً وهو المعبّر عنه بالتورد، وقوى إرادته عليه السلام ذلك بقرينة المقام وأنه عليه السلام خطب بهذه الخطبة في أيام بيعته بعد قتل عثمان.

وقوله عليه السلام: **(وإني متكلّم بعدة الله وحجّته)** المراد بعدته سبحانه ما وعد به في الآية الشريفة للمؤمنين المعترفين بالربوبية الموصوفين بالاستقامة من تنزل الملائكة وبشارتهم بالجنّة وبعدم الخوف والحزن، والظاهر أن المراد بحجته أيضاً نفس هذه الآية نظراً إلى أنها كلام الله وهو حجة الله على خلقه أو أنها دالة بمنطوقها على أن دخول الجنّة إنما هو للموحّدين المستقيمين وبمفهومها على أن الكافرين وغير المستقيمين لا يدخلونها فهي حجّة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة، إنّا كنّا عن هذا غافلين.

وقال الشارح البحراني: إن حجته التي تكلم بها هو قوله: وقد قلتم ربّنا الله فاستقيموا، إلى آخر ما يأتي، والأظهر ما قلناه.

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى تفسير الآية قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيّته **(ثم استقاموا)** على مقتضاه.

وفي المجمع عن محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاستقامة فقال: هي والله ما أنتم عليه.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: عن الأئمة واحداً بعد واحد **(تتنزل عليهم الملائكة)** عند الموت رواه في المجمع عن الصادق عليه السلام **(ألا تخافوا)** ما تقدمون عليه **(ولا تحزنوا)** ما خلفتم

(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) في الدنيا[1].

روى في الصافي عن تفسير الإمام قال: قال رسول الله ﷺ: لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة ولا يتيقن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له، وذلك إن ملك الموت يرد على المؤمن وهو في شدة علّته وعظيم ضيق صدره بما يخلفه من أمواله وبما هو عليه من اضطراب أحواله من معامليه وعياله قد بقيت في نفسه حسراتها اقتطع دون أمانيه فلم ينلها، فيقول له ملك الموت: مالك تجرع غصصك قال: لاضطراب أحوالي واقتطاعك لي دون آمالي، فيقول له ملك الموت: وهل يحزن عاقل لفقد درهم زائف واعتياض ألف ألف ضعف الدنيا؟! فيقول: لا، فيقول ملك الموت: فانظر فوقك، فينظر فيرى درجات الجنان وقصورها التي يقصر دونها الأماني فيقول ملك الموت: تلك منازلك ونعمك وأموالك وأهلك وعيالك ومن كان من أهلك ههنا وذرّيتك صالحاً فهم هنالك معك أفترضى بهم بدلاً مما ههنا؟ فيقول: بلى والله، ثم يقول: انظر، فينظر فيرى محمداً وعليّاً والطيبين من آلهما سلام الله عليهم أجمعين في أعلا علّيين فيقول: أو تراهم هؤلاء ساداتك وأئمتك هم هنالك جلّاسك وأنّاسك أفما ترضى بهم بدلاً مما تفارق هنا؟ فيقول: بلى وربي فذلك ما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ فيما أمامكم من الأهوال فقد كفيتموها ولا تحزنوا على ما تخلفونه من الذراري والعيال فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدلاً منهم، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ هذه منازلكم وهؤلاء ساداتكم أناسكم وجلاسكم هذا[2].

ولما تكلّم عليه السلام بالآية الشريفة المتضمنة للعدة والحجّة أمر المخاطبين بالقيام على مفادها والعمل على مقتضاها بقوله: **(وقد قلتم ربنا الله)** ولا بد لكم من إكمال هذا الإقرار بالاستقامة لاستحقاق إنجاز الوعد والبشارة **(فاستقيموا على كتابه)** بإجلاله وإعظامه والعمل بتكاليفه وأحكامه **(وعلى منهاج أمره)** بسلوكه واتباعه **(وعلى الطريقة الصّالحة من عبادته)** بإتيانها على وجه الخلوص جامعة لشرائطها المقررة وحدودها الموظفة **(ثم لا تمرقوا)** أي لا تخرجوا **(منها)** ولا تتعدّوا عنها **(ولا تبتدعوا فيها)** أي لا تحدثوا فيها بدعة **(ولا تخالفوا عنها)** أي لا تعرضوا عنها يميناً وشمالاً مخالفين لها، فإنكم إذا أقمتم على ذلك كله حصل لكم شرط الاستحقاق فينجز الله لكم وعده وتبشركم الملائكة وتدخلون الجنة البتة، وإن لم تقيموا عليه فقد تم الشرط وبفقدانه وانتفائه ينتفي المشروط لا محالة.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٧٤ ح٤٠، والصراط المستقيم: ٢/ ١١١.

(٢) المحتضر: ٢٣، ومدينة المعاجز: ٣/ ١٢٨.

وهو معنى قوله: **(فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة)** يعني أنهم لا يجدون بلاغاً يوصلهم إلى المقصد، روى في مجمع البيان عن أنس قال: قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية أي الآية المتقدمة قال صلى الله عليه وآله: قد قالها ناس ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها[١].

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام مبين و وليّ مؤمنين است در نصيحت مخاطبين، مى فرمايد:

منتفع باشيد با بيان خدا و متّعظ باشيد با موعظه هاى خدا و قبول نماييد نصيحت خدا را، پس به درستى كه خدا اظهار فرموده عذر خود را به شما با آيه هاى واضحه و اخذ فرمود بر شما حجّت را و بيان كرد از براى شما محبوب داشته شده هاى خود را از عملها و مكروه ها داشته شده هاى خود را از آن ها تا اين كه متابعت نماييد به آن عمل هاى محبوبه و اجتناب نماييد از اين عمل هاى مكروهه.

پس به درستى كه حضرت رسول صلوات الله و سلامه عليه و آله مى فرمود كه بهشت محفوف شده است با دشوارى ها، آتش محفوف شده است با شهوت ها؛ و بدانيد كه به درستى كه نيست از اطاعت خدا چيزى مگر اين كه مى آيد با كراهت طبيعت و نيست در معصيت خدا چيزى مگر اين كه مى آيد با شهوت و رغبت، پس رحمت خدا مردى را كه بركند از شهوت خود و قلع كند خواهشات نفس خود را، پس به درستى كه اين نفس دورترين چيزى است از حيثيّت كنده شدن از شهوت، به درستى كه اين نفس هميشه اشتياق دارد و ميل كند به سوى معصيت در آرزو و خواهش نفسانى.

و بدانيد اى بندگان خدا، به درستى كه مؤمن نه روز را به شب مى آورد و نه شب را به روز مگر اين كه نفس او متّهم است نزد او، پس هميشه آن مؤمن

---

(١) مجمع البيان: ٩/ ٢٠، وتفسير نور الثقلين: ٤/ ٥٤٧.

ایرادکننده است بر نفس خود و طلب کننده است از برای او زیادت خیرات و مبرّات را، پس باشید مثل سابقانی که پیش از شما بودند و مثل گذشتگان در پیش از شما، برکندند از دنیای فانی همچو برکندن کوچ کننده و درنوردیدند دنیا را مثل درنوردیدن منزل ها.

و بدانید که این قرآن کریم او نصیحت کننده ای است که خیانت نمی کند وهدایت کننده ای است که گمراه نمی سازد و خبردهنده ای است که دروغ نمی گوید و همنشین نشد این قرآن را احدی از شما مگر این که برخاست از آن با زیادتی یا کمی، زیادتی در هدایت و کمی از کوری و ضلالت.

و بدانید نیست بر احدی بعد از قرآن حاجتی ونه مراحدی را پیش از قرآن از دولتی، پس طلب شفا نمایید از او و از دردهای ظاهری و باطنی خودتان و طلب یاری کنید با او بر شدّت های خودتان، پس به درستی که در او است شفا از بزرگترین دردها و آن کفر است و نفاق و گمراهی است و ضلالت، پس مسألت نمایید از خدا بهوسیله قرآن و متوجّه باشید به سوی پروردگار با محبت قرآن و سؤال ننمایید به وساطت قرآن از مخلوقی، به درستی که متوجّه نشدند بندگان به سوی خدا با مثل قرآن.

و بدانید که به درستی که قرآن شفاعت کننده است و مقبول الشفاعة و گوینده ای است تصدیق شده وبه درستی که کسی که شفاعت نماید مراورا قرآن در روز قیامت، شفاعت او قبول می شود در حق آن و کسی که بدگویی نماید از او قرآن در روز قیامت، تصدیق شده می شود بر ضرر آن.

پس به درستی که ندا کند نداکننده در روز قیامت این که آگاه باشید، به درستی که هر کشت کار امتحان خواهد شد در کشت خود و در عاقبت عمل خود غیر از کشت کنندگان قرآن، پس باشید از کشت کاران قرآن و تبعیّت کنندگان او و دلیلی اخذ نمایید او را بر پروردگار خود و طلب نصیحت کنید از او بر نفس های خود و متّهم دارید رأی های خود را که بر خلاف او است و مغشوش شمارید در مقابل قرآن خواهشات خود را.

مواظبت نمایید بر عمل ها و مسارعت نمایید به نهایت و عاقبت کار و ملازمت نمایید به راستگاری پس از آن و منصف باشید با صبر و تحمل و ترك

نکنید ورع و پرهیزکاری را، به درستی که شما را است نهایت و عاقبتی، پس منتهی شوید به سوی نهایت خود و به درستی که شما را است علم و نشانه ای، پس هدایت یابید با علم خود و به درستی که مراسلام را است غایت و نهایتی، پس منتهی شوید به سوی غایت او و خارج بشوید به سوی خداوند تعالی از چیزی که واجب نموده بر شما از حق خود و بیان نموده است شما را از وظیفه های خود، من شاهد هستم از برای شما و حجّت آورنده ام در روز قیامت از جانب شما.

آگاه باشید، به درستی که آن چه مقدّر شده بود سابقاً، به تحقیق واقع گردید و قضای الهی که نافذ و ممضی است تدریجاً بهوجود درآید و به درستی که من تکلّم کننده ام به وعده خدا و به حجّت او. فرموده است خدا در کتاب عزیز خود: "به درستی که آن کسانی که گفتند که پروردگار ما خدا است، پس در آن مستقیم شدند، نازل می شود بر ایشان ملائکه که نترسید و محزون نباشید و بشارت دهید به بهشت عنبرسرشت که در دنیا وعده داده شده بودید".

و به تحقیق که گفتید شما پروردگار ما خدا است، پس مستقیم باشید بر کتاب کریم او و بر راه روشن امر او و بر طریقه ای شایسته از عبادت و بندگی او، پس از آن خارج نشوید و بیرون مروید از آن طریقه و احداث بدعت نکنید در آن و مخالفت نکنید در آن، پس به درستی که اهل خروج از عبادت به هم بریده شده اند از ثواب دائمی نزد خدای تعالی در روز قیامت.

الفصل الثاني منها

ثُمَّ إِيّاكُم وتَهْزِيعَ الْأَخْلاَقِ وتَصْرِيفَها، وَاجْعَلُوا اللِّسانَ واحِداً، وَلْيَخْتَزِنِ الرَّجُلُ لِسانَهُ فَإِنَّ هٰذَا اللِّسانَ جَمُوحٌ بِصاحِبِهِ، وَاللّٰهِ ما أَرىٰ عَبْداً يَتَّقي تَقْوىٰ تَنْفَعُهُ حَتّىٰ يَخْتَزِنَ لِسانَهُ، وَإِنَّ لِسانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَراءِ قَلْبِهِ، وإِنَّ قَلْبَ الْمُنافِقِ مِنْ وَراءِ لِسانِهِ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذا أَرادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلامٍ تَدَبَّرَهُ في نَفْسِهِ فَإِنْ كانَ خَيْراً أَبْداهُ وإِنْ كانَ شَرّاً واراهُ، وإِنَّ الْمُنافِقَ يَتَكَلَّمُ بِما أَتىٰ عَلىٰ لِسانِهِ لاَ يَدْرِي ماذا لَهُ وماذا عَلَيْهِ، ولَقَدْ قالَ رَسُولُ الله ﷺ: لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمانُ عَبْدٍ حَتّىٰ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتّىٰ يَسْتَقِيمَ لِسانُهُ، فَمَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللّٰهَ سُبْحانَهُ وَهُوَ نَقِيُّ الرّاحَةِ مِنْ دِماءِ الْمُسْلِمِينَ وأَمْوالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسانِ مِنْ أَعْراضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ.

واعْلَمُوا عِبادَ اللّٰهِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ العامَ مَا اسْتَحَلَّ عاماً أَوَّلَ، ويُحَرِّمُ الْعامَ ما حَرَّمَ عاماً أَوَّلَ، وإِنَّ ما أَحْدَثَ النّاسُ لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلٰكِنَّ الْحَلاَلَ ما أَحَلَّ اللّٰهُ، وَالْحَرامَ ما حَرَّمَ اللّٰهُ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وضَرَّسْتُمُوها ووُعِظْتُمْ بِمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ الْأَمْثالُ لَكُمْ، ودُعِيتُمْ إِلى الأَمْرِ الْواضِحِ، فَلاَ يَصَمُّ عَنْ ذٰلِكَ إِلاّ أَصَمّ، وَلاَ يَعْمَىٰ عَنْهُ إِلاّ أَعْمَىٰ، وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللّٰهُ بِالْبَلاءِ وَالتَّجارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وأَتاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمامِهِ حَتّىٰ يَعْرِفَ ما أَنْكَرَ، ويُنْكِرَ ما عَرَفَ، فَإِنَّ النّاسَ رَجُلانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً، ومُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللّٰهِ بُرْهانُ سُنَّةٍ، وَلاَ ضِياءُ حُجَّةٍ.

وَإِنَّ اللّٰهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ حَبْلُ اللّٰهِ الْمَتِينُ، وسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وفيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، ويَنابِيعُ الْعِلْمِ، وَما لِلْقَلْبِ جِلاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ، وبَقِيَ النّاسُونَ أَوِ الْمُتَناسُونَ، فإِذا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذا رَأَيْتُمْ شَرّاً فاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ كانَ يَقُولُ: يا ابْنَ آدَمَ إِعْمَلِ الْخَيرَ وَدَعِ الشَّرَّ فَإِذا أَنْتَ جَوادٌ قاصِدٌ.

أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلاَثَةٌ: فَظُلْمٌ لاَ يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لا يُتْرَكُ، وظُلْمٌ مَغْفُورٌ لاَ يُطْلَبُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذي لاَ يُغْفَرُ الشِّرْكُ بِاللّٰهِ سُبْحانَهُ قالَ اللّٰهُ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وَأَمّا الظُّلْمُ الَّذي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَناتِ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذي لا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبادِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، الْقِصاصُ هُناكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمِدَى، وَلاَ ضَرْباً بِالسِّياطِ، وَلٰكِنَّهُ ما يُسْتَصْغَرُ ذٰلِكَ مَعَهُ، فَإِيّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ في دِينِ اللّٰهِ، فَإِنَّ جَماعَةً فيما تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فيما تُحِبُّونَ مِنَ الْباطِلِ، وَإِنَّ اللّٰهَ سُبْحانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيراً مِمّا مَضىٰ وَلاَ مِمّا بَقِيَ.

يا أَيُّهَا النّاسُ طُوبىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النّاسِ، وَطُوبىٰ لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَأكلَ قُوتَهُ وَاشْتَغَلَ بِطاعَةِ رَبِّه وَبَكى عَلَىٰ خَطيئَتِه، فَكانَ مِنْ نَفْسِهِ في شُغُلٍ وَالنّاسُ مِنْهُ في راحَةٍ[١].

اللغة

(هزعت) الشجر تهزيعاً كسرته وفرقته و**(خزن)** المال واختزنه أحرزه و**(ضرّسته)** الحروب أي جرّبته وأحكمته و**(صمت)** الأذن صمماً من باب تعب بطل سمعها هكذا فسّره الأزهري وغيره، ويسند الفعل إلى الشخص أيضاً فيقال: صم يصم صمماً، فالذكر أصم والأنثى صماء والجمع صم مثل أحمر وحمراء وحمر، ويتعدى بالهمزة فيقال: اصمّه الله وربما استعمل الرباعي لازماً على قلّة ولا يستعمل الثلاثي متعدّياً فلا يقال: صمّ الله الأذن ولا يبنى للمفعول فلا يقال صمّت الأذن.

و**(السّبب)** الحبل وهو ما يتصول به إلى الاستعلاء ثمّ أستعير لكلّ ما يتوصّل به إلى الأمور فقيل هذا: سبب هذا وهذا مسبب عن هذا و**(الجواد)** الفرس السابق الجيد و**(هن)** بالتخفيف كاخ كناية عن كل اسم جنس كما في مصباح اللغة للفيومي أو عما يستقبح ذكره ولامها محذوفة ففي لغة هي ها فيصغر علي هنيهة ومنه يقال مكث هنيهة أي ساعة لطيفة، وفي لغة هي واو فيصغر في المؤنث على هنية والهمز خطأ إذ لا وجه له وجمعها هنوات وربما جمعت على هنات مثل عدات هكذا في المصباح وضبطه الفيروزآبادي بفتح الهاء وهكذا فيما رأيته من نسخ النهج.

و**(طوبى)** وزان فعلى اسم من الطيب والواو منقلبة عن ياء، وقيل: اسم شجرة في الجنة كما سنشير إليه في بيان معناه.

الإعراب

قوله: **(وإياكم وتهزيع الأخلاق)**، انتصاب تهزيع على التحذير قال الشارح المعتزلي: وحقيقته تقدير فعل وصورته جنّبوا أنفسكم تهزيع الأخلاق **(فإيّاكم)** قائم مقام أنفسكم، والواو عوض عن الفعل المقدر وقد جاء بغير واو في قول الشاعر:

إيــاك أن تــرضــى صــحــاب نــاقــص فــتــنــحــط قــدراً مــن عــلاك وتــحــقــرا

قوله: عاماً أوّل بدون تنوين لأنّه غير منصرف للوصفيّة ووزن الفعل فإن الصحيح أنأصله أو آل على وزن مهموزة الوسط فقلبت الهمزة الثّانية واواً وأدغمت.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١/١١٧، وبحار الأنوار: ٦٤/٣٥٠ ح٥٢.

قال الجوهري: ويدل على ذلك قولهم: هذا أول منك، والجمع الأوائل والأوالي أيضاً على القلب، قال الشهيد في تمهيد القواعد: وله استعمالان لأن أحدهما أن يكون اسماً فيكون مصروفاً ومنه قولهم ماله أوّل ولا آخر، قال في الارتشاف: وفي محفوظي أن هذا يؤنث بالتاء ويصرف أيضاً فيقال أولة وآخرة بالتنوين، والثاني أن يكون صفة أي أفعل التفضيل بمعنى الأسبق فيعطي حكم غيره من صيغ أفعل التفضيل كمنع الصرف وعدم تأنيثه بالتاء ودخول (من) عليه.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما ختم الفصل السابق بالأمر بالاستقامة والنهي عن المروق والخروج عن جادة الشريعة أردفه بالتحذير عن تهزيع الأخلاق اللازم للنّفاق فقال:

(ثم إياكم وتهزيع الأخلاق) وتفريقها **(وتصريفها)** وتقليبها ونقلها من حال إلى حال كما هو شأن المنافق، فإنه لا يبقى على خلق ولا يستمر على حالة واحدة بل قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً، وتارة وفيّاً وأخرى غادراً، ومع الظالمين ظالماً ومع العدول عادلاً.

روى في الكافي عن محمد بن الفضيل قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن مسألة، فكتب إليّ إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون النّاس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلم تجد له سبيلاً، ليسوا من الكافرين وليسوا من المؤمنين وليسوا من المسلمين يظهرون الإيمان ويصيرون إلى الكفر والتكذيب لعنهم الله.

ولما حذر عن تصريف الأخلاق والنّفاق أمر بقوله **(واجعلوا اللّسان واحداً)** على اتحاد اللسان إذ تعدّد اللّسان من وصف المنافق يقول في السر غير ما يقوله في العلانية، وفي الغياب خلاف ما يقوله في الحضور، ويتكلّم مع هذا غير ما يتكلّم مع ذلك.

روى في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين يطري أخاه شاهداً ويأكله غايباً، إن أُعطي حسده وإن ابتلى خذله.

وفيه عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن علي بن أسباط عن عبد الرحمان بن حمّاد رفعه قال: قال الله تبارك وتعالى لعيسى عليه السلام: يا عيسى ليكن لسانك في السرّ والعلانية لساناً واحداً وكذلك قلبك، إني أحذرك نفسك وكفى بي خبيراً لا يصلح لسانان في فم واحد ولا سيفان في غمد واحد ولا قلبان في صدر واحد وكذلك الأذهان[1].

(١) شرح أصول الكافي: ٩/٤١٠، ووسائل الشيعة: ١٢/٢٥٨ ح١٦٢٤٤.

قال بعض شراح الكافي: أمره الله تعالى بثلاث خصال هي أمّهات جميع الخصال الفاضلة والأعمال الصالحة.

الأوّل: أن يكون لسانه في جميع الأحوال واحداً يقول الحق ويتكلّم به فلا يقول في السّر خلاف ما يقول في العلانية كما هو شأن الجهال، لأن ذلك خدعة ونفاق وحيلة وتفريق بين العباد وإغراء بينهم.

الثاني: أن يكون قلبه واحداً قابلاً للحق وحده غير متلوث بالحيل ولا متلّوث بالمكر والختل، فإن ذلك يميت القلب ويبعده من الحق ويورثه أمراضاً مهلكة.

الثالث: أن يكون ذهنه واحداً وهو الذكاء والفطنة، ولعل المراد به هنا الفكر في الأمور الحقة النافعة ومباديها، وبوحدته خلوصه عن الفكر في الباطل والشرور وتحصيل مبادئها وكيفية الوصول إليها، وبالجملة أمره أن يكون لسانه واحداً وقلبه واحداً وذهنه واحداً ومطلبه واحداً هذا[١].

ولما أمرهم بجعل لسانهم واحداً أردفعه بالأمر بحفظه وحرزه فقال: **(وليختزن الرجل لسانه)** أي ليلازم الصّمت **(فإن هذا اللّسان جموح بصاحبه)** يقحمه في المعاطب والمهالك، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن كان في شيء الشؤم ففي اللسان، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله: نجاة المؤمن من حفظ لسانه رواهما في الكافي عنه عليه السلام، وقد تقدم في شرح كلماته السابعة والسُّبعين فصل واف في فوائد الصُّمت وآفات اللّسان وأوردنا بعض ما ورد فيه من الأخبار وأقول هنا:

روى في الكافي عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لقمان لابنه: يا بنيّ إن كنت زعمت أن الكلام من فضة فإنّ السكوت من ذهب[٢].

وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: قال أبو الحسن عليه السلام: من علامات الفقه العلم والحلم والصّمت إنّ الصّمت باب من أبواب الحكمة إنّ الصّمت يكسب المحبّة إنّه دليل على كلّ خير[٣].

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كان أبو ذر يقول: يا مبتغي العلم إنّ هذا اللّسان مفتاح خير ومفتاح شرّ فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك[٤].

---

(١) شرح أصول الكافي: ٩/ ٤١٠، وبحار الأنوار: ٧٣/ ٢٠٩.
(٢) الكافي: ٢/ ١١٤ ح٦، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٧٤٠ ح٣٥٢٥.
(٣) الكافي: ٢/ ١١٣، ح١، وعيون أخبار الرضا: ٢/ ٢٣٤ ح١٤.
(٤) الكافي: ٢/ ١١٤ ح١٠، وتحف العقول: ٢٩٨.

وعن عليّ بن حسن بن رباط عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يزال العبد المؤمن يكتب محسناً ما دام ساكتاً فإذا تكلّم كتب محسناً أو مسيئاً»[١].

فقد علم بذلك كلّه أنّ سلامة الإنسان في حفظ اللّسان وأن نجاته من وبال الدّنيا ونكال الآخرة في الإمساك عن فضول الكلام، وإليه أشار بقوله: **(والله ما أرى عبداً يتقى تقوى تنفعه حتى يختزن لسانه)** فإن التقوى النافع هو ما يحفظه من غضب الجبّار وينجيه من عذاب النّار، ولا يحصّل ذلك إلاّ بالاتقاء من جميع المحرمات والموبقات الموقعة في الجحيم والسخط العظيم، والكذب والغيبة والهجاء والسّعاية والنّميمة والقذف والسّب ونحوها من حصائد الألسنة من أعظم تلك الموبقات، فلا بد من الاتقاء منها واختزان اللّسان عنها.

ولما أمر باختزان اللسان ونبّه على توقف التقوى النّافع عليه أردفه بالتنبيه على أن اختزانه من فضول الكلام وسقطات الألفاظ من خواص المؤمن وعدم اختزانه من أوصاف المنافق وذلك قوله: **(وإن لسان المؤمن من وراء قلبه)** يعني أن لسانه تابع لقلبه **(وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه)** يعني قلبه تابع للسانه.

بيان ذلك ما أشار بقوله: **(لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تدبّره في نفسه)** وتفكّر في عاقبته **(فإن كان خيراً)** ورشداً تكلّم به أي أظهره و**(أبداه وإن كان شرّاً)** وغيّاً اختزن لسانه عنه أي **(واراه)** وأخفاه فكان لسانه تابع قلبه حيث إنه نطق به بعد حكم العقل وإجازته **(وإن المنافق)** يسبق حذفات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره و**(يتكلّم)** من دون فكر وروية **(بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه)** فكان قلبه تابع لسانه لأنه بادر إلى التكلّم من غير ملاحظة ثم رجع إلى قلبه فعرف أن ما تكلّم به مضرّة له.

ثمّ استشهد بالحديث النبوي صلى الله عليه وآله على أن استقامة الإيمان إنّما هو باستقامة اللسان على الحق وخزنه عن الباطل وهو قوله: **(ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)** ظاهر هذا الحديث يفيد ترتب استقامة الإيمان على استقامة القلب وترتب استقامة القلب على استقامة اللسان.

أما ترتب الأوّل على الثّاني فلا غبار عليه، لأن الإيمان حسبما عرفت في شرح الخطبة المائة والتاسعة عبارة عن اعتراف باللّسان والإذعان بالجنان فاستقامة القلب جزء من مفهومه وهو جهة الفرق بينه وبين الإسلام ما أنه لا غبار علي ترتبه على الثالث على قول من يجعل العمل بالأركان أيضاً شطراً منه.

---

(١) الكافي: ٢/١٦٦ ح٢١، ومن لا يحضره الفقيه: ٤/٣٩٦ ح٥٨٤٢.

وأما ترتب الثاني على الثالث فلا يخلو من إشكال وإغلاق، لظهور أن اللسان ترجمان القلب فاستقامته موقوفة على استقامته لا بالعكس، وبعد التنزل عن ذلك فغاية الأمر تلازمهما وارتباط كل منهما بالآخر، وأما التوقف فلا.

ووجه التلازم أن القلب لما كان رئيس الأعضاء والجوارح ومن جملتها اللّسان كان استقامته مستلزمة لاستقامتها وكذلك استقامتها مستلزمة لاستقامته لأنها لو لم تكن مستقيمة بأن صدر منه الذنب والباطل يسري عدم استقامتها أي فسادها إلى القلب فيفسد بفسادها.

ويدل على ذلك ما رواه في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذّنوب زاد ذلك السواد حتي يغطى البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [المطففين: ١٤].

فإن هذه الرواية والآية المستشهد بها كما ترى مضافة إلى الروايات الأخر تدل على اسوداد لوح القلب بكثرة الذنوب الصّادرة من الجوارح، فيوجب عدم استقامتها لعدم استقامته واستقامتها لاستقامته.

لكنه يتوجّه عليه أن غاية ما يتحصل من هذا التقرير أن عدم استقامتها سبب لعدم استقامته، وأما أن استقامتها سبب لاستقامته فلا فافهم جيّداً.

مع أن لقائل أن يقول: إن مرجع صدور الذّنب عنها الموجب لعدم استقامتها في الحقيقة إلى عدم استقامته لأن القلب إذا كان سالماً مستقيماً لا يعزم على معصية ولا يريدها، ومع عدم إرادتها لا يصدر ذنب عن الأعضاء حتى يسرى ظلمته ورينه إلى القلب.

فقد علم من ذلك كلّه أن استقامة اللسان كسائر الأعضاء موقوفة على استقامة القلب ومترتّبة عليها لا بالعكس.

وبعد اللتيا والتي فالّذي يخطر بالبال في حل الإشكال السابق أن معنى الحديث: أنه لا يعرف استقامة إيمان عبد إلا بأن يعرف استقامة قلبه، ولا يعرف استقامة قلبه إلا باستقامة لسانه، فيستدل باستقامة اللّسان على الحق أي بتنطّقه على كلمة التوحيد والنبوة والولاية، وبإمساكه عن الغيبة والنميمة والكذب وغيرها من هفوات اللسان على استقامة القلب أي على إذعانه بما ذكر وعلى خلّوه عن الأمراض النفسانية ويستدل باستقامته على استقامة الإيمان أي على أن العبد مؤمن كامل.

---

(١) رسائل الشهيد الثاني: ١٠٥، والكافي: ٢/ ٢٧٣ ح٢٠.

ويقرب هذا التوجيه أنّه عليه السلام لما ذكر: أن لسان المؤمن من وراء قلبه وأن قلب المنافق من وراء لسانه عقبه بهذا الحديث ليميّز بين المؤمن والمنافق، ويحصل لك المعرفة بها حق المعرفة فيسهل عليك التشخيص إذا بينهما إذ تعرف بعد ذلك البيان أن مستقيم اللسان مؤمن وغير مستقيمه منافق.

قال الشارح الفقير الغريق في بحر الذّنب والتقصير: إني قد أطلت فكري وأتعبت نظري في توجيه معنى الحديث وأسهرت ليلتي هذه وهي الليلة الثالثة عشر من شهر الله المبارك في حل إشكاله حتى مضت من أول الليل ثماني ساعات وأثبت ما سنح بالخاطر وأدى إليه النّظر القاصر، ثمّ تجلى بحمد الله سبحانه ومنّته نور العرفان من ألطاف صاحب الولاية المطلقة على القلب القاسي فأسفر عنه الظلام واهتدى إلى وجه المرام فسنح بالبال توجيه وجيه هو أعذب وأحلى، ومعنى لطيف هو أمتن وأصفى وهو أن يقال:

إنه عليه السلام كنّى باستقامة الإيمان والقلب واللسان عن كمالها وأن مراده أن من أراد أن يكون إيمانه كاملاً أي إيماناً نافعاً في العقبى لا بد من أن يكمل قلبه أي يكون بريئاً سالماً من الأمراض النفسانيّة، ومن أراد كمال قلبه فلا بد له من أن يكمل لسانه أي يكون محفوظاً من العثرات مختزناً إلاّ عن خير، ففي الحقيقة الغرض من الحديث التنبيه والإرشاد إلى تكميل القلب واللسان لتحصيل كمال الإيمان.

ونظيره ما رواه عن الحلبي رفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمسك لسانك فإنها صدقة تصدق به على نفسك ثم قال: ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه[١].

وعلى هذا التوجيه التأم أجزاء كلام الإمام على أحسن ائتلاف وانسجام إذ يكون الحديث حينئذ أشد ارتباطاً بسابقه، لأنه عليه السلام لما أمر بأن يختزن الرجل لسانه وأكده بأن خزن اللسان من وظائف المؤمن لكون لسانه من وراء قلبه، عقّبه بهذا الحديث تأييداً وتقوية واستشهاداً على ما أمر به من اختزان اللسان ويكون مناسبته اللاحقة أيضاً أكثر وهو قوله:

(فمن استطاع منكم أن يلقى الله سبحانه وهو نقي الراحة) والكف **(من دماء المسلمين)** أي سالماً من قتلهم **(وأموالهم سليم اللسان من أعراضهم)** أي متجنباً من الغيبة والفحش والنميمة والهجاء ونحوها **(فليفعل)** لأن ذلك من شرائط الإسلام ولوازم الإيمان فإن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

قال الشارح البحراني: وشرط ذلك أي الكف عن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم

---

(١) الكافي: ٢/ ١١٤ ح٧، وتحف العقول: ٢٩٨.

بالاستطاعة لعسره وشدّته وإن كان واجب الترك على كلّ حال وأشدّها الكف عن الغيبة فإنّه يكاد أن لا يستطاع انتهى.

أقول: الظاهر من قوله: وإن كان واجب الترك على كلّ حال، وجوب تركها حتى مع عدم الاستطاعة وهو باطل، أو الاستطاعة مساوق للقدرة وهي شرط في جميع التكاليف الشرعية قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم.

ثمّ إنه عليه السلام نبه على بطلان العمل بالرأي والمقاييس ونهى عن متابعة البدع فقال: **(واعلموا عباد الله أن المؤمن يستحل العام ما استحل عاماً أول ويحرم العام ما حرم عاماً أول)** يعني أن المؤمن إذا ثبت عنده سابقاً حلية شيء بالكتاب أو السنة وحكم بحليته عن نص فيحكم بحليته الآن، ولا ينقض الحكم الثابت بالنّص برأيه واجتهاده وكذلك إذا ثبت عنده سابقاً حرمة شيء بهما وحكم بحرمته عن دليل فيحكم بحرمته الآن، ولا يخالف الحكم الثابت ولا يتعدى عنه بالرأي والقياس وهكذا سائر الأحكام الشرعية.

(وإن ما أحدث الناس) من أبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وآله:

مثل ما صدر عن أبي بكر من طلب البيّنة من فاطمة سلام الله عليها في باب فدك مع كون البيّنة على المدّعي، وغصب فدك عنها مع مخالفته لنصّ الكتاب والرسول صلى الله عليه وآله[1].

وما أحدثه عمر من صلاة التراويح، ومن وضع الخراج على أرض السواد، وازدياده أي أخذه الزيادة الجزية عما قررها رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

وما أبدعه عثمان من التفضيل في العطاء وإحداثه الأذان يوم الجمعة زائداً عما سنه رسول الله عليه السلام، وتقديمه الخطبتين في العيدين مع كون الصلاة مقدمة عليها في زمان الرسول صلى الله عليه وآله، وإتمامه الصلاة بمنى مع كونه مسافراً، وإعطائه من بيت المال الصّدقة المقاتلة وغيرها، وحمايته لحمى المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلهم شرعاً سواء في الماء والكلاء إلى غير هذه من البدعات التي أحدثوها في الدين وفصّلها أصحابنا رضوان الله عليهم في ذيل مطاعنهم[3].

فإن شيئاً من ذلك **(لا يحل لكم شيئاً مما حرّم عليكم)** ولا يحرم شيئاً عليكم مما أحلّ

---

(١) راجع اللمعة البيضاء للتبريزي: ٢٠٤.

(٢) راجع معالم المدرستين: ٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

(٣) راجع للطعن عليه بحار الأنوار: ٣١/ ١٦٢ إلى ٢٤٠.

لكم، يعني قول هؤلاء المبدعين المغيّرين للأحكام لا يوجب تغييرها في الواقع، فلا يجوز الاعتماد على أقوالهم والاعتقاد بآرائهم، وقد ذم الله اليهود والنصارى بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فالآخذون بقول هؤلاء المبدعين يكونون مثل اليهود والنصارى.

روى في الوسائل عن تفسير العياشي عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال عليه السلام: أما أنهم لم يتخذوهم آلهة إلا أنهم أحلّوا لهم حلالاً فأخذوا به، وحرّموا حراماً فأخذوا به، فكانوا أرباباً لهم من دون الله.

وعن حذيفة قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ الآية، فقال: لم يكونوا يعبدونهم، ولكن كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلّوها، وإذا حرّموا عليهم حرّموها[١].

وفي الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: اتخذوا الآية، فقال: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون.

وفي تفسير علي بن إبراهيم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤] قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: نزلت في الذين غيروا دين الله وخالفوا ما أمر الله، هل رأيتم شاعراً قط تبعه أحد إنما عنى بذلك الذين وضعوا ديناً بآرائهم فتبعهم الناس على ذلك[٢].

ويؤكد ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٥] يعني يناظرون بالأباطيل ويجادلون بالحجج المضلين وفي كل مذهب يذهبون ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ قال عليه السلام: يعظون الناس ولا يتعظون وينهون عن المنكر ولا ينتهون، ويأمرون بالمعروف ولا يعملون، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيهم ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي في كل مذهب يذهبون ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٦] وهم الذين غصبوا آل محمد حقهم[٣].

فظهر بذلك كله أن متابعة هؤلاء حرام، واستحلالهم استحلال ما أحلّوه واستحرام ما حرّموه غيّ وضلال، إذ ليس لهم أن يغيّروا الأحكام من تلقاء أنفسهم، ولا أن يبدّلوا الحلال بالحرام والحرام بالحلال.

---

(١) تفسير العياشي: ٢/ ٨٧ ح٤٩، وتفسير الصافي: ١/ ٦٩٥.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٧/ ١٣٣ ح٣٣٤٠٤، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٩٨ ح٢١.

(٣) تفسير نور الثقلين: ٤/ ٧٣ ح١٦٦، وتأويل الآيات: ١/ ٤٠٠ ح٣١.

كما أشار إليه بقوله: **(ولكن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله)** اللام في لفظي الحلال والحرام للجنس فتفيد قصر المسند إليه في المسند كما تقدم تحقيقه في شرح الكلام المائة والرابع والأربعين عند شرح قوله عليه السلام: إن الأئمة من قريش، ويحتمل أن تكون للعهد فتفيد الحصر أيضاً كما عرفته في شرح الخطبة المائة والثالثة والخمسين عند شرح قوله عليه السلام: نحن الشعار والأصحاب، فيكون المعنى أن ماهية الحلال والحرام وحقيقتهما إذا الحلال المعهود الثابت من الشريعة أي الذي يجوز تناوله والحرام المعهود الثابت منها أي الذي لا يجوز ارتكابه هو منحصر فيما أحله الله سبحانه وحرّمه وأفصح عن حليته وحرمته في كتابه الكريم ولسان نبيّه الحكيم، فغير ذلك مما أحلّه الناس وحرّموه ليس حلالاً ولا حراماً إذ حلال محمد صلى الله عليه وآله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

كما يدل عليه ما رواه في الكافي عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلال والحرام فقال عليه السلام: «حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام أبداً إلى يوم القيامة لا يكون غيره ولا يجيء غيره»[(١)].

وقال: قال علي عليه السلام: ما أحد يبدع بدعة إلاّ ترك بها سنّة[(٢)]، هذا.

ولا يخفى عليك أن هذه الخطبة إن كان صدورها بعد قتل عثمان والبيعة له عليه السلام بالخلافة كما حكيناه سابقاً عن بعض الشارحين، فالأشبه على ذلك أن يكون قوله عليه السلام: وأن ما أحدث الناس إلى آخره توطئة وتمهيداً لما كان مكنوناً في خاطره. من تغيير البدعات المحدثات في أيام خلافة الثلاثة وإجراء الأحكام الشرعية على وجهها بعد استقرار أمر خلافته لو كان متمكناً منه حتى لا يعترض عليه الناس ولا يطعنوا عليه، كما بان عنه في بعض كلماته الآتية في الكتاب حيث قال: لو قد استوت قدماي من هذه المداحض لغيّرت أشياء، ولكنّه عليه السلام لم يتمكن من التغيير.

وقد روى في البحار من التهذيب عن عليّ بن الحسن بن فضّال عن أحمد بن الحسن عن عمرو بن سعيد المدايني عن مصدّق بن صدقة عن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن صلاة في رمضان في المساجد قال: لما قدم أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة أمر الحسن بن علي عليه السلام أن ينادي في الناس لا صلاة في شهر رمضان في المساجد جماعة، فنادى في الناس الحسن بن علي عليه السلام بما أمره به أمير المؤمنين عليه السلام، فلما سمع الناس مقالة الحسن بن علي عليه السلام صاحوا: واعمراه واعمراه فلما رجع الحسن إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال له: ما

---

(١) مجمع الفائدة: ٨/١ ح١، ومصباح الفقاهة: ٤٥٩/٤.

(٢) الكافي: ٥٨/١ ح١٩، وبحار الأنوار: ٢٦٤/٢ ح١٥.

هذا الصوت؟ فقال: يا أمير المؤمنين الناس يصيحون واعمراه واعمراه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قل لهم: صلوا[١]، هذا.

ولما بيّن انحصار الحلال والحرام فيما أحله الله سبحانه وحرمه أردفه بقوله: **(فقد جرّبتم الأمور وضرّستموها)** أ أحكمتموها بالتجربة والممارسة، وظهر لكم جيّدها من رديها وحقّها من باطلها **(ووعظتم بمن كان قبلكم)** أي وعظكم الله سبحانه في كتابه بالأمم الماضية وبما جرى منه في حق المؤمنين منهم من الجزاء الجميل وما جرى في حق العاصين منهم من العذاب الوبيل **(وضربت)** في الفرقان الحكيم **(الأمثال لكم)** الكثيرة الموضحة للحق من الباطل والفارقة بينهما **(ودعيتم إلى الأمر الواضح)** أي إلى أمر الدين والإسلام الذي أوضحه كتاب الله وسنة رسوله حق الوضوح ولم يبق عليه سترة ولا حجاب.

والمقصود من هذه الجملات تنبيه المخاطبين على أنهم بعد ما حصل لهم هذه الأمور أعني تجربة الأمور وأحكامها والموعظة وضرب الأمثال الظاهرة والدعوة إلى الأمر الواضح يحقّ لهم أن يعرفوا أحكام الشريعة حق المعرفة، وأن يميّزوا بين البدعات والسّنن إذ تلك الأمور معدّة لحصول المعرفة ولوضوح الفرق بين البدعة والسنّة وبين المجعولة والحقيقة.

(فلا يصم عن ذلك) أي لا يغفل عن ما ذكر من الأمور أو عن الأمر الواضح الذي دعوا إليه **(إلا)** من هو **(أصمّ)** أي الغافل البالغ في غفلته النهاية والتنوين للتفخيم والتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ أي غشاوة عظيمة وهكذا في قوله: **(ولا يعمى عنه إلا أعمى)** أي لا يضل عنه ولا يجهل به إلا من هو شديد الضلال والجهالة.

(ومن لم ينفعه الله بالبلاء) أي بما بلاه به من المكاره والمصائب **(و)** بـ**(ـالتجارب)** المكتسبة من مزاولة الأمور ومقاساة الشدائد **(لم ينتفع بشيء من العظة)** لأن تأثير البلاء والتجارب في النفس أشد وأقوى من تأثير النصح والموعظة، لأنّ الموعظة إحالة على الغائب، والبلية والتجربة مدركة بالحس فمن لا ينفعه الأقوى لا ينفعه الأضعف بالطريق الأولى **(وأتاه النقص من أمامه)** أي من بين يديه.

قال الشارح البحراني: لأن الكمالات التي يتوجّه إليها بوجه عقله تفوته لنقصان تجربته ووقوف عقله عنها فشبه فوتها له مع طلبه لها إتيان النقص له من أمامه.

وقوله: **(حتى يعرف ما أنكر وينكر ما عرف)** إشارة إلى غاية نقصانه، وهي الاختلاط والحكم على غير بصيرة، فتارة يتخيل فيما أنكره وجهله أنه عارف بحقيقته، وتارة ينكر ما كان يعرفه ويحكم بصحّته لخيال يطرأ عليه.

(١) تهذيب الأحكام: ٣/ ٧٠ ح٢٢٦، ووسائل الشيعة: ٨/ ٤٦ ح١٠٠٦٣.

قال الشارح المعتزلي: حتى يتخيّل فيما أنكره أنّه قد عرفه وينكر ما قد كان عارفاً وسمّى اعتقاد العرفان وتخيله عرفاناً على المجاز.

ثمّ فرع على ما ذكر انقسام الناس قسمين فقال عليه السلام: **(فإن الناس رجلان متبع شرعة)** أي متشرع آخذ بشرائع الدين، وسألك لمنهاج الشرع المبين، وهو العامل بكتاب الله سبحانه وسنّته والمقتبس من نورهما والمنتفع بما فيهما من النصائح والمواعظ والأمثال المضروبة، وهو من الذين قال الله فيهم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(ومبتدع بدعة) وهو الذي لم ينتفع بهما بل نبذ أحكامهما وراءه واتبع هواه وعمل بآرائه ومقايسه فأعمى الله قلبه عن معرفة الحق واصمّه عن استماعه كما قال: صمّ بكم عمى فهم لا يرجعون **(ليس معه من)** عند **(الله)** سبحانه **(برهان سنة ولا ضياء حجة)** أي ليس له فيما أحدثه من البدعة دليل عليه من سنة ولا حجة بيّنة واضحة من الكتاب الكريم تنجيه لوضوحها وضيائها من ظلمة الجهل والضلال.

قال أبو شيبة الخراساني: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدهم المقاييس من الحق إلا بعداً وإن دين الله لا يصاب بالعقول»[(١)]، رواه في الكافي.

وفيه أيضاً عن محمد بن أبي عبد الله رفعه عن يونس بن عبد الرحمان قال: قلت لأبي الحسن الأوّل عليه السلام: بما أُوحد الله عزّ وجلّ؟ فقال: «يا يونس لا تكوننّ مبتدعاً من نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيّه صلى الله عليه وآله ضلّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيّه كفر»[(٢)].

ولما ذكر أن أصحاب البدع ليس لهم دليل من سنة يتمسكون به ولا نور حجة يستضيئون به أردفه بذكر ممادح القرن تنبيهاً على كونه البرهان الحق والنّور المضيء أحقّ بالاتباع والاهتداء. وأجدر أن يقتبس من أنواره. ويتعظ بمواعظه ونصائحه، وعلى أن الراغبين عنه التابعين لأهوائهم والآخذين بالآراء والمقاييس تائهون في بوادي الجهالة، هائمون في فيافي الضلالة فقال:

(وإنّ الله سبحانه لم يعط أحداً بمثل هذا القرآن) لأن الغرض من جميع المواعظ المتضمّنة للوعد والوعيد والترغيب والتهديد هو الجذب إلى طرف الحقّ والإرشاد إلى حظيرة القدس، والقرآن أبلغ منها كلها في إفادة ذلك الغرض وأكمل في تحصيل ذلك المقصود **(فإنه**

---

(١) الحدائق الناضرة: ١/ ٦٥، ووسائل الشيعة: ٢٧/ ٤٣ ح٣٣١٦٨.

(٢) الكافي: ١/ ٥٦ ح١٠، ووسائل الشيعة: ٢٧/ ٤٠ ح٣٣١٥٧.

حبل الله المتين) من تمسّك به نجا ومن تركه فقد هوى، ووصفه بالمتانة والإحكام لأنه حبل ممدود من الأرض إلى السماء من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها **(وسببه الأمين)** ووصفه بالأمانة لأنه لا يخون المتوصل به في إيصاله إلى حظائر القدس ومجالس الأُنس وقرب الحق **(وفيه ربيع القلب)** لأن القلوب تلتذ وتنشط وترتاح بتلاوة آياته وتدبر ما فيها من المحاسن والمزايا وتفكر ما تضمنته تلك الآيات من النكات البديعة واللطائف العجيبة، كما أن النفوس تلتذ بأزهار الربيع وأنواره.

(و) فهي (ينابيع العلم) استعارة بالكناية حيث شبه العلم بالماء إذ به حياة الأرواح كما أن بالماء حياة الأبدان، وذكر الينابيع تخييل، وفي نسخة الشارح بدل ينابيع العلم: ينابيع العلوم والمقصود واحد، وإنما كان ينابيع العلوم إذ جميع العلوم خارجة منه لتضمنه علم ما كان وما هو كائن وما يكون كما قال عز من قائل: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

(وما للقلب جلاء غيره) إذ فيه منار الهدى ومصابيح الدّجى والتفكر فيه يجلو القلوب من رين الشكوكات ويرتفع به عنها صدى الشبهات كما يجلو الصيقل المرآة.

فإن قلت: لم جعل الجلاء مقصوراً فيه مع حصوله بغيره من العلوم الحقة؟

قلت: لما كان القرآن ينابيع جميع العلوم حسبما عرفت يؤل حصول الجلاء بها إلى الجلاء به في الحقيقة، أو أن المراد نفي الكمال أي ليس للقلب جلاء كامل غيره.

وهذا الجواب أولى مما أجاب به الشارح البحراني: من أن هذا الكلام صدر عنه عليه السلام ولم يكن في هذا الزمان علم مدون ولا استفادة للمسلمين إلا من القرآن الكريم، فلم يكن إذا جلاء للقلب غيره.

وجه الأولوية أن الأَحاديث النبويّة كانت موجودة بأيديهم يومئذ والاستفادة منها كانت ممكنة لمن أرادها، وأما غير المريد لها من الذين على قلوبهم أقفالها فالقرآن والحديث بالنسبة إليهم أيضاً على حد سواء كما لا يخفى.

(مع أنه قد ذهب المتذكرون) بالقرآن المتدبرون في معانيه المستضيئون بضيائه المقتبسون من أنواره **(وبقي الناسون)** له حقيقة **(أو المتناسون)** المظهرون للنسيان لأغراض دنيوية.

وارتباط هذا الكلام أعني قوله: مع أنه بما سبق، أنه لما ذكر ممادح القرآن وأنه أبلغ المواعظ وأجلى للقلوب، وكان الغرض منه حث المخاطبين وتحريصهم على اتباعه والتذكر به أتبعه بذلك أسفاً على الماضين وتقريعاً على الباقين بأنهم لا يتذكرون به ولا يتبعونه ولا يتعظون بمواعظه.

ومحصله إظهار اليأس من قبولهم للموعظة واستبعاد ذلك لما تفرس منهم من فساد النيات ومتابعة الهوى والشهوات.

ويحتمل أن يكون توطئة وتمهيداً لما كان يريده من أمرهم بإعانة الخير وتجنّب الشرّ، يعني مع أن المتذكرين وأولي البصائر قد مضوا ولم يبق إلا الغافلون الجاهلون وتأثير الموعظة فيهم صعب جداً، مع ذلك أعظكم وأذكركم وإن لم تنفع الذكرى بقولي **(فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه وإذا رأيتم شراً فاذهبوا عنه)** لفظ الخير والشر وإن كان مطلقاً شاملاً بإطلاقه لكل خير وشر، إلا أن الأشبه أن يكون نظره فيهما إلى الخير والشر المخصوصين.

بأن يكون مراده من الخير الخير الذي كان يريده في حقهم وإن كان مكروهاً وكانوا لهم متنفرين عنه بطبعهم من التسوية في العطاء والحمل على جادة الوسطى وأمر الحق، ويكون المراد بإعانتهم عليه تسليمهم له في كل ما يأمر وينهى ورضاهم بكلّ ما يفعل ويريد، وسعيهم في مقاصده ومآربه.

وأن يكون مراده من الشر ما تفرس منهم بل شاهده من قصدهم لنكث البيعة وثوران الفتنة، ويكون المراد بالذهاب عنه الإعراب عنه والترك له.

وإنّما قلنا: إن الأشبه ذلك لما حكيناه عن بعض الشراح من أن هذه الخطبة خطب بها في أوائل البيعة فقرينة الحال والمقام تشعر بما ذكرناه.

وكيف كان فلما أمر عليه السلام بما أمر أكده بالحديث النبوي صلى الله عليه وآله فقال: **(فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول:** يا ابن آدم اعمل الخير ودع الشر) أي أتركه **(فإذا أنت جواد قاصد)** يحتمل أن يكون المراد بالقاصد الرشاد الغير المجاوز عن الحد في سيره بأن لا يكون سريع السّير فيتعب بسرعته، ولا بطيء السّير فيفوت الغرض ببطئه، وأن يكون المراد به السائر فيقصد السّبيل أي غير الخارج عن الجادة الوسطى، وتشبيه عامل الخير وتارك الشرّ به على الأوّل من أجل اتصافه بالعدل في أموره وبراءته من الإفراط والتفريط، وعلى الثاني من أجل كون سلوكه على الجادة الوسط والصراط المستقيم الموصل به إلى نضرة النّعيم والفوز العظيم.

ثمّ نبّه على أقسام الظلم تلميحاً إلى مظلوميته عليه السلام وتنبيهاً على أن ظلامته لا تترك فقال **(إلا وأن الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله)** لما **(قال الله سبحانه إن الله لا يغفر أن يشرك به)** عدم الغفران بالشرك مشروط بعدم التوبة، لأن الأمة أجمعت على أن الله يغفره بالتوبة وإن كان الغفران مع التوبة عند المعتزلة على وجه الوجوب وعندنا على وجه التفضل والأنعام كما يأتي التصريح بذلك عن مجمع البيان.

(وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات) لعلّ المراد بذلك البعض الصغائر لأن الاجتناب عن الكبائر يكون كفارة لها كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

وأمّا حمله على المغفرة بالتوبة أو الشفاعة ففيه أن المغفرة بهما لا اختصاص لها ببعض الهنات السيئات بل جميع المعاصي تكون مغفورة بعد حصول التوبة والشفاعة على أن حمله على صورة التوبة يوجب عدم الفرق بينه وبين القسم الأوّل لما عرفت هناك من الإجماع على غفران الشرك أيضاً بالتوبة كسائر المعاصي صغيرة أو كبيرة فلا يكون على ذلك للتفكيك بين القسمين وجه.

والحال أن الشرك وغيره مشتركان في الغفران بالتوبة وفي عدمه بعدمها إلاّ الصغائر فإنها تغفر مع عدمها أيضاً إذا حصل الاجتناب عن الكبائر هذا.

ولكن ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] هو غفران ما دون الشرك مطلقاً صغيراً كان أو كبيراً، بل صرح به في بعض الأخبار.

وهو ما رواه في الصافي من الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: قال: الكبائر فما سواها[١].

وفيه منه ومن الفقيه أنه عليه السلام سئل: هل تدخل الكبائر في مشية الله؟ قال: نعم ذاك إليه عزّ وجلّ إن شاء عذب وإن شاء عفى عنها[٢].

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم عند تفسير هذه الآية قال: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: دخلت الكبائر في الاستثناء؟ قال: نعم[٣].

قال الطبرسي في مجمع البيان في تفسيرها: معناها أن الله لا يغفر أن يشرك به أحد ولا يغفر ذنب المشرك لأحد ويغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يريد[٤].

قال المحققون: هذه الآية أرجى آية في القرآن، لأن فيه إدخال ما دون الشرك من جميع المعاصي في مشية الغفران وقف الله المؤمنين الموحدين بهذه الآية بين الخوف

---

(١) التفسير الصافي: ١/ ٤٥٧.

(٢) التفسير الصافي: ١/ ٤٥٨، وتفسير نور الثقلين: ١/ ٤٨٨ ح٢٩٠.

(٣) مستدرك الوسائل: ١١/ ٣٦٢ ح١٣٢٦٨، وتفسير نور الثقلين: ١/ ٤٨٨ ح٢٨٥.

(٤) تفسير مجمع البيان: ٦/ ٦٣ بتفاوت.

والرّجاء وبين العدل والفضل، وذلك صفة المؤمن، ولذلك قال الصادق عليه السلام: لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا.

قال الطبرسي: ووجه الاستدلال بهذه على أن الله يغفر الذنوب من غير توبة أنه نفي غفران الشرك ولم ينف غفرانه على كلّ حال بل نفى أن يغفر من غير توبة لأن الأمة اجتمعت على أن الله يغفره بالتوبة وإن كان الغفران عند المعتزلة على وجه الوجوب وعندنا على وجه التفضل، وعلى هذا يجب أن يكون المراد بقوله: ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، أنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب بغير توبة لمن يشاء من المذنبين غير الكافرين[1].

ولا معنى لقول المعتزلة: إن في حمل الآية على ظاهرها وإدخال ما دون الشرك في المشيّة إغراء على المعصية، لأن الإغراء إنّما يحصل بالقطع على الغفران فأمّا إذا كان الغفران معلّقاً بالمشية فلا إغراء فيه. بل يكون العبد به واقفاً بين الخوف والرجاء وبهذا وردت الأخبار الكثيرة من طريق الخاص والعام، وانعقد عليه إجماع سلف أهل الإسلام.

ومن قال في غفران ذنوب البعض دون البعض ميل ومحاباة ولا يجوز الميل والمحاباة على الله.

فجوابه: أن الله متفضل بالغفران وللمتفضل أن يتفضل على قوم دون قوم وإنسان دون إنسان، وهو عادل في تعذيب من يعذبه، وليس يمنع العقل والشرع من الفضل والعدل.

ومن قال منهم: أن لفظة ما دون ذلك وإن كانت عامة في الذنوب التي هي دون الشرك فإنما نخصها ونحملها على الصغائر أو ما يقع منه التوبة لأجل عموم ظاهر آيات الوعيد.

فجوابه إنّا نعكس عليكم ذلك فنقول: بل خصّصوا ظواهر تلك الآيات لعموم هذه الآية وهذا أولى لما روي عن بعض أنه قال: إن هذه الآية استثناء على جميع القرآن يريد به ـ والله أعلم ـ جميع آيات الوعيد.

وأيضاً فإن الصغائر ترتفع عندكم محبطه ولا تجوز المؤاخذة بها، وما هذا حكمه فكيف تعلق بالمشيّة فإن أحداً لا يقول: إني أفعل الواجب إن شئت وأردّ الوديعة إن شئت، انتهى.

وبما ذكرنا ظهر لك فساد ما توهمه الشارح المعتزلي فإنّه بعد ما ذكر أن الكبائر حكمها حكم الشرك عند أصحابه المعتزلة في عدم المغفرة اعترض على نفسه بأن الآية صريحة في التفكيك بينها وبينه، وأجاب بما ملخصه: أن المراد من لفظ الغفران هو الستر في موقف

(١) تفسير مجمع البيان: ٣/١٠٢.

القيامة والمراد أن الله لا يستر في موقف القيامة من مات مشركاً بل يفضحه على رؤوس الأشهاد، وأمّا من مات على كبيرة من أهل الإسلام فإن الله يستره في الموقف ولا يفضحه بين الخلائق وإن كان من أهل النار، وقد يكون من أهل الكبائر ممن يقر بالذنوب من تعظم كبائره جداً فيفضحه الله في الموقف كما يفضح المشرك، فهذا معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ انتهى.

وجه الفساد أن الغفر وإن كان في اللّغة بمعنى الستر والتغطية إلاّ أنّه في الآيات والأخبار حيثما يطلق يراد به التجاوز عن الخطايا والعفو عن الذنوب والستر عليها، فحمله على الستر المخصوص بالموقف خلاف ظاهر الإطلاق، والأصل عدم التقييد فلا داعي إلى المصير إليه.

وأقول: على رغم المعتزلة أنهم لتمسكهم بحجزة خلفائهم الضّالين المضلّين وانحرافهم عن أولياء الدّين أساؤوا ظنّهم بالله رب العالمين وحكموا في مرتكبي الكبائر من المسلمين بكونهم في النار معذّبين كالكفار والمشركين، والله سبحانه مجازيهم على نياتهم وعقيدتهم وحاشرهم يوم القيامة مع من يتولّونه ثمّ يردهم إلى أسفل السافلين من الجحيم مخلّدين فيها ولا هم عنها يخرجون.

وأما نحن فلاعتصامنا بالعروة الوثقى والحبل المتين أعني ولاية أمير المؤمنين وولاية آله المعصومين نحسن ظننا بالله ونرجو غفرانه وعفوه والحشر مع أوليائنا وإن كنا في بحار الذنوب مغرقين، ولا نظن في حق ربنا الغفور الرحيم أنه يسمع في النار صوت عبد مسلم سجن فهيا بمخالفته وذاق طعم عذابها بمعصيته وحبس بين أطباقها بجرمه وجريرته وهو يضج إليه ضجيج مؤمّل لرحمته ويناديه بلسان أهل توحيده ويتوسّل إليه بروبوبيّته، فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمه ورأفته، أم كيف تؤلمه النّار وهو يأمل فضله ورحمته، أم كيف يحرقه لهبها وهو يسمع صوته ويرى مكانه، أم كيف يشتمل عليه زفيرها وهو يعلم ضعفه أم كيف يتغلغل بين أطباقها وهو يعلم صدقه، أم كيف تزجره زبانيتها وهو يناديه يا ربّاه، أم كيف يرجو فضله في عتقه منها فيتركه فيها هيهات ما هكذا الظنّ به ولا المعروف من فضله، ولا مشبه لما عامل به الموحدين من بره وإحسانه، فباليقين نقطع لولا ما حكم به من تعذيب جاحديه وقضى به من إخلاد معانديه لجعل النار كلها برداً وسلاماً وما كان لأحد من شيعة أمير المؤمنين ومحبّيه مقراً ولا مقاماً.

ولقد روي في الفقيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ولقد سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لو أن المؤمن خرج من الدنيا وعليه مثل ذنوب أهل الأرض لكان الموت كفّارة لتلك الذنوب ثم قال صلى الله عليه وآله: ومن قال لا إله إلا الله بإخلاص فهو بريء من الشرك، ومن خرج من

الدنيا لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة ثم تلى صلى الله عليه وآله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] من شيعتك ومحبّيك يا علي قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقلت: يا رسول الله هذا لشيعتي؟ قال صلى الله عليه وآله: أي وربّي هذا لشيعتك[١]، هذا.

(**وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً**) فقد روى في الكافي عن شيخ عن النخعي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام إني لم أزل والياً منذ زمن الحجّاج إلى يومي هذا فهل لي من توبة؟ قال: فسكت ثمّ أعدت عليه فقال: لا حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه.

وعن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من ظلم مظلمة أخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده»[٢].

وعن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: «ما انتصر الله من ظالم إلا بظالم وذلك قول الله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾» [الأنعام: ١٢٩].

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام عن رسول الله وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليهما وعلى آلهما: «من خاف القصاص كف عن ظلم الناس»[٣].

(**فـ**) إن (**القصاص هناك**) أي في الآخرة مضافاً إلى قصاص الدنيا (**شديد**)، ويوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم، لأن يوم الظالم الدّنيا فقط، ويوق المظلوم الدّنيا والآخرة والمنتقم هو الله سبحانه و(**ليس هواي**) قصاصه وانتقامه (**جرحاً بالمدى**) والسّكاكين (**ولا ضرباً بالسّياط**) والعصا ونحو ذلك من مولمات الدّنيا (**ولكنه ما يستصغر ذلك معه**) هو نار الجحيم والعذاب الأليم والخزي العظيم.

قال الشارح: قد أشرت سابقاً إلى أن في ذكره أقسام الظلم وما يترتب عليها من العقوبات تلميحاً إلى مظلوميته عليه السلام وتنبيهاً على أن الظلم الذي وقع في حقه ليس بحيث يترك ويرفع اليد عنه، بل يقتص من ظالميه البتة وينتقم بمقتضى العدل والله عزيز ذو انتقام، وحيث إن ظلامة آل محمد صلى الله عليه وآله أعظم ما وقع في الأرض من المظالم حيث غصبوا خلافتهم وأحرقوا باب بيتهم وأسقطوا محسنهم وقتلوا أمير المؤمنين وابنيه الحسن والحسين بالسم وسيف العدوان وأداروا رأسه ورأس أصحابه على الرماح والسنان، وشهروا نساءه وبناته في الأصقاع والبلدان إلى غير ذلك من الظلم والطغيان الذي يعجز عن تقريره اللسان ويضيق عنه

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٤١٢، وبحار الأنوار: ٦٥/ ١٤٠ ح٨٢.

(٢) شرح أصول الكافي: ٩/ ٣٨٢ ح٩، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٤٧ ح٢٠٩٤٣.

(٣) الكافي: ٢/ ٣٣٤ ح١٩، وثواب الأعمال: ٢٧٤.

(٤) الكافي: ٢/ ٣٣١ ح٦، وثواب الأعمال: ٢٧٣.

البيان، فلا بد أن يكون قصاص ظلاماتهم أشد وعقوبة ظالميهم أعظم وأخزى وأحببت أن أورد بعض ما ورد فيه من الأخبار باقتضاء المقام.

فأقول: روى في البحار من كتاب الاحتجاج عن سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في يوم بيعة أبي بكر: لست بقائل غير شيء واحد أذكركم بالله أيها الأربعة ـ يعنيني والزبير وأبا ذر والمقداد ـ أسمعتم رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن تابوتاً من النار فيه إثنا عشر رجلاً، ستة من الأوّلين وستة من الآخرين في جبّ في قعر جهنّم في تابوت مقفل على ذلك الجبّ صخرة إذا أراد الله أن يسعر جهنّم كشف تلك الصخرة عن ذلك الجب فاستعاذت جهنم من وهيج ذلك الجب[١].

فسألناه عنهم وأنتم شهود، فقال النبي صلى الله عليه وآله:

«أما الأولان فابن آدم عليه السلام الذي قتل أخاه، وفرعون الفراعنة، والذي حاج إبراهيم في ربه، ورجلان من بني إسرائيل بدّلا كتابهما وغيّرا سنّتهما أما أحدهما فهوّد اليهود والآخر نصّر النصارى وإبليس سادسهم والدجال في الآخرين.

وهؤلاء الخمسة أصحاب الصّحيفة الذين تعاهدوا وتعاقدوا على عداوتك يا أخي والتظاهر عليك بعدي هذا وهذا، حتى عدّهم وسمّاهم، فقال سلمان: فقلنا صدقت نشهد أنا سمعنا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ قال عليه السلام: الفلق جب في جهنم يتعوذ أهل النار من شدة حره سأل الله أن يأذن له فيتنفس فأذن له فتنفس فأحرق جهنم، فقال عليه السلام: وفي ذلك الجب صندوق من نار يتعوّذ منه أهل الجبّ من حر ذلك الصندوق وهو التابوت وفي ذلك ستة من الأولين وستة من الآخرين.

فأمّا السّتة التي من الأولين فابن آدم الذي قتل أخاه، ونمرود إبراهيم الذي ألقى إبراهيم في النار، وفرعون موسى، والسامري الذي اتخذ العجل، والذي هود اليهود، والذي نصر النصارى.

وأمّا الستة من الآخرين فهو الأول، والثاني، والثالث، والرابع، وصاحب الجوارح، وابن ملجم «ومن شرّ غاسق إذا وقب» قال عليه السلام: الذي يلقى في الجب يقب فيه[٣].

---

(١) الاحتجاج: ١/١١٢، وبحار الأنوار: ٢٨/٢٧٩.

(٢) الاحتجاج: ١/١١٣، وبحار الأنوار: ٢٨/٢٨٠.

(٣) بحار الأنوار: ٨/٢٩٦ ح٤٦، وتفسير نور الثقلين: ٥/٧٢١ ح٢٥.

وفي البحار من الخصال وعقاب الأعمال عن إسحاق بن عمّار عن موسى بن جعفر عليه السلام قال لي: يا إسحاق إن في النار لوادياً يقال له سقر لم يتنفّس منذ خلقه الله لو أذن الله عزّ ولج له في التنفس بقدر مخيط حرق ما على وجه الأرض، وأن أهل النار ليتعوذون من حر ذلك الوادي ونتنه وقذره وما أعد الله فيه لأهله، وأن في ذلك الوادي جبلاً يتعوّذ جميع أهل ذلك الجبل من حرّ ذلك الشعب ونتنه وقذره وما أعد الله فيه لأهله، وإن في ذلك الشعب لقليباً يتعوّذ جميع أهل ذلك الشعب من حر ذلك القليب ونتنه وقذره وما أعد الله فيه لأهله، وأن في ذلك القليب لحيّة يتعوّذ أهل ذلك القليب من خبث تلك الحيّة ونتنها وقذرها وما أعد الله في أنيابها من السم للذعها، وإن في جوف تلك الحيّة سبعة صناديق فيها خمسة من الأمم السالفة واثنان من هذه الأمة.

قال: قلت: جعلت فداك ومن الخمسة؟ ومن الاثنان؟

قال: فأما الخمسة فقابيل الذي قتل هابيل، ونمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربّه وقال أنا أحيي وأميت، وفرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، ويهودا الذي هوّد اليهود، وبولس الذي نصر النصارى، ومن هذه الأمة: الإعرابيان[1].

أقول: الإعرابيان: الأولى والثاني اللذان لم يؤمنا بالله طرفة عين.

وفيه: من عقاب الأعمال عن حنّان بن سدير قال: حدثني رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول أن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة لسبعة نفر أولهم ابن آدم الذي قتل أخها، ونمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربه، واثنان في بني إسرائيل هوداً قومهما ونصراهما، وفرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، واثنان في هذه الأمة أحدهما شرهما في تابوت من قوارير تحت الفلق في بحار من نار[2].

وفيه من كتاب الاختصاص عن يحيى بن محمد الفارسي عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه وآله قال: خرجت ذات يوم إلى ظهر الكوفة وبين يديّ قنبر فقلت: يا قنبر ترى ما أرى؟ فقال: قد ضوأ الله لك يا أمير المؤمنين عما عمى عنه بصري، فقلت: يا أصحابنا ترون ما أرى؟ فقالوا: لا قد ضوأ الله لك يا أمير المؤمنين عما عمى عنه أبصارنا فقلت: والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لترونه كما أراه ولتسمعنّ كلامه كما أسمع.

(١) الخصال: ٣٩٩ ح١٠٦، وثواب الأعمال: ٢١٦.

(٢) ثواب الأعمال: ٢١٥، وبحار الأنوار: ٣٠/١٠ ح٧.

فما لبثنا أن طلع شيخ عظيم الهامة له عينان بالطول فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقلت: من أين أقبلت يالعين؟ قال: من الآثام، فقلت: وأين تريد؟ فقال: الآثام، فقلت. بئس الشيخ أنت، فقال: تقول: هذا يا أمير المؤمنين فوالله لأحدثنك بحديث عنيّ عن الله عزّ وجلّ ما بيننا ثالث، فقلت عنك عن الله عزّ وجلّ ما بينكما ثالث؟ قال: نعم.

قال: إنّه لما هبطت بخطيئتي إلى السماء الرابعة ناديت إلهي وسيّدي ما أحسبك خلقت من هو أشقى مني، فأوحى الله تبارك وتعالى بلى قد خلقت من هو أشقى منك فانطلق إلى مالك يريكه، فانطلقت إلى مالك فقلت: السّلام يقرئك السّلام ويقول: أرني من هو أشقى مني، فانطلق بي مالك إلى النار فرفع الطبق الأعلى فخرجت نار سوداء ظننت أنها قد أكلتني وأكلت مالكاً، فقال لها: اهدئي، فهدأت، ثم انطلق بي إلى الطبق الثاني فخرجت نار هي أشد من تلك سواداً وأشد حمّى فقال لها: أخمدي، فخمدت، إلى أن انطلق بي إلى السابع وكل نار يخرج من طبق يخرج أشد من الأولى فخرجت نار ظننت أنها قد أكلتني وأكلت مالكاً وجميع ما خلقه الله عزّ وجل فوضعت يدي على عيني وقلت: مرها يا مالك أن تخمد وإلاّ خمدتُ فقال: أنت لن تخمد إلى الوقت المعلوم، فأمرها فخمدت، فرأيت رجلين في أعناقهما سلاسل النيّران معلّقين بها إلى فوق وعلى رؤوسهما قوم معهم مقامع النيران يقمعونهما بها، فقلت: يا مالك من هذان؟ فقال: أو ما قرأت في ساق العرش وكنت قرأته قبل أن يخلق الله الدنيا بألفي عام لا إله إلا الله محمد رسول الله أيدته ونصرته بعليّ، فقال: هذان عدوا ذلك وظالماه.

ثم إنه حذرهم عن التلون في الدّين فقال: **(فإياكم والتلوّن في دين الله)** تحذير لهم عن عدم الثبات على خلق واحد في أمر الدّين وعن التقلب والتذبذب في أحكام الشرع المبين.

والظاهر أنه راجع إلى جماعة بلغه عليه السلام من بعضهم توقفهم في بيعته كعبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص وحسان بن ثابت وأسامة بن زيد وأضرابهم، وعن بعضهم إرادة النكث والنقض للبيعة بعد توكيدها مثل طلحة والزبير وأتباعهما[1].

ومرجع هذا التحذير في الحقيقة إلى التحذير عن النّفاق، لأنّ المنافق لا يستقيم على رأي واحد.

وقد ذمّ الله المنافقين على ذلك بقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ

(١) التعجب: ٢١.

ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ۝ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٣٨].

روى في الصافي عن العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال هما والثالث والرابع وعبد الرحمان وطلحة وكانوا سبعة الحديث.

وعن الصادق عليه السلام نزلت في فلان وفلان وفلان آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله في أول الأمر ثمّ كفروا حين عرضت عليهم الولاية حيث قال: من كنت مولاه فعلي مولاه ثم آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين عليه السلام حيث قالوا له بأمر الله وأمر رسوله فبايعوه ثمّ كفروا حيث مضى رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يقروا بالبيعة، ثمّ ازدادوا كفراً بأخذهم من بايعوه بالبيعة لهم فهؤلاء لم يبق من الإيمان شيء وكيف.

فلما حذرهم عن التلوّن الملازم للنفاق والتفرق علّله بقوله: **(فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل)** يعنى الاجتماع على الحق خير من الافتراق على الباطل وإن كان الأول مكروهاً لكم والثاني محبوباً لديكم، ولعلّ المراد أن اجتماعكم على بيعتي وثباتكم عليه خير لكم عاجلاً وآجلاً من افتراقكم عنها ابتغاء للفتنة وحباً لها[1].

وأكد ذلك بقوله: **(وإن الله سبحانه لم يعط أحداً بفرقة خيراً مما مضى ولا مما بقي)** لفظة با في الموضعين إما بمعنى من ويؤيّده ما في أكثر النسخ من لفظة من بدلها فيكون المراد أنه لم يعط أحداً من السّلف ولا من الخلف خيراً بسبب الافتراق، وإمّا بمعناها الأصلي فيكون المعنى أنه تعالى لم يعط أحداً بسبب الافتراق خيراً من الدّنيا ولا من العقبى.

وذلك لأن الإنسان مدني بالطبع محتاج في إصلاح أمر معاشه ومعاده وانتظام أولاه وأخراه إلى التعاون والاجتماع والائتلاف.

ولذلك قال عليه السلام في كلامه المائة والسابع والشعرين: والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه[2] هذا.

ولكثرة فوائد الاجتماع والائتلاف وعظم ما يترتب عليها من الثمرات الدنيوية استحبّ مؤكّداً فعل الجمعة والجماعة والأخبار الواردة في الحث والترغيب عليهما فوق حد

---

(١) ميزان الحكمة: ١/ ٧٦٤، وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ٣٣.

(٢) شرح أصول الكافي: ١/ ١٦٠، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٦٧ ح٢٨.

الإحصاء.

(أيها النّاس طوبى لمن شغله عيبه) ومحاسبة نفسه **(عن عيب النّاس)** وغيبتهم روى في عقاب الأعمال عن الحسن بن زيد عن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أسرع الخير ثواباً البر وإن أسرع الشر عقاباً البغي، وكفى بالمرء عيباً أن ينظر من الناس إلى ما يعمى عينه من نفسه، ويعير الناس بما لا يستطيع تركه ويؤذي جليسه بما لا يعنيه».

قال الطريحي في قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩] أي طيب العيش، وقيل طوبى الخير وأقصى الأمنية، وقيل اسم للجنة بلغة أهل الهند، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله: أنها شجرة في الجنّة أصلها في داري وفرعها في دار علي عليه السلام فقيل له في ذلك فقال: داري ودار علي في الجنة بمكان واحد، قال: وفي الحديث هي شجرة في الجنة أصلها في دار النبي صلى الله عليه وآله وليس مؤمن إلا وفي داره غصن منها لا يخطر على قلبه شهوة إلاّ أتاه ذلك الغصن، ولو أنّ راكباً مجدّاً سار في ظلّها مائة عام ما خرج ولو طار من أسفلها غراب ما بلغ أعلاها حتى سقط هرماً.

(وطوبى لمن لزم بيته) قد مرّ الكلام مشبعاً في فوائد العزلة وثمرتها في شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والثانية.

فإن قلت: أليس الاعتزال وملازمة البيت ملازماً للفرقة التي نهى عنها سابقاً فكيف يجتمع النهي عن الفرقة مع الحث على العزلة المستفاد من هذه الجملة الخبرية؟

قلت: لا تنافي بينهما، لأن النهي السابق محمول على الافتراق لإثارة الفتنة وطلب الباطل كما يشعر به كلامه السابق أيضاً، وهذا محمول على الاعتزال لطلب الحق ومناجاة الرب وتزكية النفس من رذائل الأخلاق.

كما يدل عليه قوله: **(وأكل قوته واشتغل بطاعة ربه وبكى على)** سالف **(خطيئته)** وموبق معصيته **(فكان من نفسه في شغل والنّاس منه في راحة)** أي يداً ولساناً.

روى في الكافي عن أبي البلاد رفعه قال جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو يريد بعض غزواته فأخذ بغرز راحلته فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله علّمني عملاً أدخل به الجنّة، فقال صلى الله عليه وآله: «ما أحببت أن يأتيه الناس إليك فأته إليهم، وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأته إليهم، خل سبيل الراحلة»[1].

وفيه عن عثمان بن جبلة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث خصال

---

(١) الكافي: ٢/١٤٦ ح١٠، ونهج السعادة: ٧/٣٥٤.

من كنّ فيه أو واحدة منهنّ كان في ظلّ عرش الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: رجل أعطى النّاس من نفسه ما هو سائلهم، ورجل لم يقدم رجلاً ولم يؤخّر رجلاً حتى يعلم أنّ ذلك لله رضى، ورجل لم يعب أخاه المسلم بعيب حتى ينفى ذلك العيب عن نفسه فإنّه لا ينفى منها عيباً إلا بدا له عيب وكفى بالمرء شغلاً بنفسه عن الناس»[1].

(١) الخصال الصدوق: ٨١ ح٣، والكافي: ٢/١٤٧ ح١٦.

الترجمة

پس از آن حذر نمایید از متفرّق ساختن خلقها و از برگرداندن آن ها و بگردانید زبان را یك زبان و باید که حفظ نماید مرد زبان خود را از جهت این که این زبان سرکش است به صاحب خود، قسم به خدا نمی بینم بنده را پرهیز کند، پرهیزکاری ای که منفعت بخشد او را تا این که نگه دارد زبانش را، پس به درستی که زبان مؤمن از پشت قلب او است و به درستی که قلب منافق از پشت زبان او است، به جهت این که اگر مؤمن بخواهد تکلّم بنماید به سخنی، اندیشه می کند آن را در پیش نفس خود، پس اگر خوب باشد آن سخن، اظهار می نماید آن را و اگر بد باشد، پنهان می سازد او را و به درستی که منافق تکلّم می نماید به هرچه بر زبان او می آید و نمی داند چه چیزی منفعت دارد به او و چه چیز ضرر دارد بر او.

و به تحقیق فرموده است حضرت رسالت (ﷺ) که: مستقیم نشود ایمان بنده، مگر این که مستقیم شود قلب او و مستقیم نشود قلب او، مگر این که مستقیم شود زبان او، پس هرکس قدرت داشته باشد از شما به این که ملاقات کند پروردگار خود را درحالتی که پاك باشد دست او از خونهای مسلمانان و مالهای ایشان و سالم باشد زبان او و از عرض های ایشان، پس باید که بکند آن را.

و بدانید ای بندگان خدا که به درستی مرد صاحب ایمان حلال می سازد امسال آن چیزی را که حلال دانسته در سال گذشته و حرام می شمارد امسال چیزی را که حرام شمرده در سال گذشته و به درستی چیزی که تازه احداث کرده است آن را مردمان حلال نمی نماید از برای شما هیچ چیز از آن چه که حرام گردانیده شده است بر شما، ولکن حلال منحصر است به آن چه که خدا حلال فرموده و حرام منحصر است به آن چه که خدا حرام فرموده.

پس به تحقیق که تجربه کرده اید کارها را و محکم گردانیده اید آن ها را و نصیحت داده شده اید با کسانی که بوده اند پیش از شما و زده شده از برای شما مثل ها ودعوت شده اید به سوی امر روشن، پس کر نمی شود در آن مگر کسی که زیاد کر باشد و کور نمی شود از آن مگر کسی که به غایت کور باشد و آن کسی که

نفع نداد خدای تعالی با امتحان و تجربه ها، منتفع نشد به چیزی از موعظه و آمد او را ضرر و تقصیر از پیش او تا این که خیال می کند معرفت چیزی را که انکار داشت او را و انکار می نماید چیزی را که معرفت داشت به او.

پس به درستی که مردمان دو مردند: یکی آن که پیروی کننده است شریعت را و دیگری آن که اختراع کننده است بدعت را، در حالتی که نیست با او و از جانب خداوند دلیلی از سنّت و نه روشنی دلیلی.

و به درستی که خدای تعالی موعظه نفرموده هیچ احدی را به مثل این قرآن، پس به درستی که قرآن ریسمان محکم خدا است و ریسمانی است که ایمن است و در او است بهار قلب ها و چشمه های علم ها و نیست مر قلب را جلا و صیقلی غیر آن، با وجود این که رفتند صاحبان تذکّر و باقی مانده است صاحبان نسیان و فراموشی یا خود را به فراموشی زنندگان؛ پس چون ببینید چیز نیکویی را، پس اعانت نمایید بر او و چون مشاهده کنید چیز بدی را، پس کناره جویی کنید از آن.

پس به درستی که حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه و آله) می فرمود که: ای پسر آدم عمل کن خیر را و ترك کن شرّ را، پس این هنگام تو می باشی پسندیده رفتار و پسندیده کردار.

آگاه باشید، به درستی که ظلم سه قسم است: ظلمی است که آمرزیده نمی شود و ظلمی است که ترك کرده نمی شود و ظلمی است که آمرزیده خواهد شد.

پس اما ظلمی که بخشیده نخواهد شد، پس عبارت است از شرك آوردن به خداوند تعالی، فرموده: "به درستی که خدا نمی بخشد در این که شرك آورده به او"؛ و اما ظلمی که بخشیده خواهد شد، پس آن ظلم کردن بنده است بر نفس خود در بعض اعمال قبیحه و معاصی؛ و اما ظلمی که متروك نمی شود، پس آن ظلم بندگان است بعضی بر بعضی و دیگر قصاص ظالم در آخرت سخت و باشدّت است نه از قبیل زخم زدن است با کاردها و نه زدن با تازیانه ها ولیکن عذابی است که کوچك شمرده می شود این زخم و ضرب در جنب او، پس بترسید از متلوّن شدن و دو رنگ بودن در دین خدای تعالی، پس به درستی که اتفاق کردن در چیزی که ناخوش می دارید از امر حق بهتر است از متفرّق گشتن در چیزی که دوست می دارید از امر باطل و به درستی که خدای تعالی عطا نکرد احدی را به

سبب افتراق و اختلاف خير و منفعتی نه از گذشتگان و نه از آیندگان.

ای مردمان، خوشا مرآن کسی را که مشغول سازد او را عیب او از عیب های مردمان و خوشا مرآن کسی را که ملازم بشود خانه خود، یعنی منزوی شود و بخورد قوت حلال خود را و مشغول شود به طاعت پروردگار خود و گریه کند به گناهان خود، پس باشد از نفس خود در شغلی که مشغول او شود و مردمان از او در راحت.

ومن كلام له عليه السلام في معنى الحكمين وهو المائة والسادس والسبعون من المختار في باب الخطب

فَأَجْمَعَ رَأيُ مَلَإِكُمْ عَلَىٰ أن اخْتارُوا رَجُلَيْنِ فَأَخَذْنا عَلَيْهِما أنْ يُجَعْجِعا عِنْدَ الْقُرْآنِ وَلاَ يُجاوِزاهُ، وتَكُونَ أَلْسِنَتُهُما مَعَهُ، وَقُلُوبُهُما تَبَعَهُ، فَتاها عَنْهُ، وتَرَكَا الْحَقَّ وَهُما يُبْصِرانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَواهُما، وَالإِعْوِجاجُ رَأْيَهُما، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْناؤُنا عَلَيْهِما فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِما، وجَوْرَ حُكْمِهِما، وَالثِّقَةُ في أَيْدينا لِأَنْفُسِنا حينَ خالَفا سَبيلَ الْحَقِّ، وَأَتيا بِما لا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ[1].

اللغة

(الملا) أشرف الناس ورؤسائهم ومقدّموهم الذين يرجع إلى قولهم قال في محكي النهاية في حديث علي عليه السلام أن **(يجعجعا عند القرآن)** أي يقيما عنده يقال: جعجع القوم إذا أناخوا بالجعجاع، وهي الأرض والجعجاع أيضاً الموضع الضيق الخشن و**(التبع)** محركة التابع يكون مفرداً وجمعاً ويجمع على أتباع مثل سبب وأسباب.

الإعراب

(سوء رأيهما) بالنّصب مفعول استثناؤنا أو سبق أيضاً على سبيل التنازع والأوّل أظهر وقوله: **(في الحكم)** متعلّق بقوله: سبق.

المعنى

قال الشارح البحراني: هذا الفصل من خطبة لما بلغه أمر الحكمين.

أقول: والظاهر أنه عليه السلام توهّم من قول السيّد عليه السلام ومن كلام له في معنى الحكمين أنه تكلّم به حين بلغه أمرهما، فإن كان ظفر بتمام الخطبة واطلع على أنه خطبها حين بلوغ أمرهما فهو، وإلا فالظاهر أن هذا الكلام من فصول الاحتجاجات التي كانت له مع الخوارج وقد مر نظير هذا الكلام منه في ذيل الكلام المائة والسابع والعشرين.

وبالمراجعة إلى شرح الكلام المذكور وشرح الكلام المائة والخامس والعشرين

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٥٥ ح١٧٨، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٧٦.

المتضمنين لاحتجاجاته معهم يظهر لك توضيح ما ذكره في هذا المقام وتعرف أنه ناظر إلى ردّ احتجاجهم الذي احتجوا به عليه وهو: أنك قد حكمت الرجال في دين الله ولم يكن ذلك إليك ثم أنكرت حكمهما لما حكموا عليك.

فأجابهم عليه السلام بقوله: **(فأجمع رأي ملإكم)** أي عزم رؤسائكم وكبرائكم واتفاق آرائهم **(على أن اختاروا رجلين)** هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص لعنهما الله تعالى من غير رضى مني بتحكيمهما بل على غاية كره مني بذلك.

كما يدل قوله لابن الكوا في النهروان في الرواية التي رويناها من كشف الغمة في شرح الخطبة السادسة والثلاثين حيث إنه لما اعترض عليه بأمر الحكمين قال عليه السلام: ألم أقل لكم إن أهل الشام يخدعونكم بها فإن الحرب قد عضتهم فذروني أناجزهم فأبيتم ألم أرد نصب ابن عمي أي عبد الله بن العباس وقلت أنه لا ينخدع فأبيتم إلا أبا موسى وقلتم رضينا به حكماً فأجبتكم كارهاً ولو وجدت في ذلك الوقت أعواناً غيركم لما أجبتكم[١].

(فأخذنا عليهما) أي على الرجلين الحكمين **(أن يجعجعا عند القرآن)** أي يقفا دونه ويجب نفسهما عليه **(ولا يجاوزاه)** أي لا يتجاوزا عن أوامره ونواهيه **(ويكون ألسنتهما معه وقلوبهما تبعه)** أي يكونان تابعين له ويعملان بحكمه **(فتاها)** أي ضلا **(عنه وتركا الحق وهما يبصرانه)** أي عدلاً عن القرآن وعن حكمه الحق الذي هو خلافته مع علمهما ومعرفتهما بحقيته كما عرفت تفصيل ذلك كله في شرح الخطبة الخامسة والثلاثين.

والحاصل أنهما تركا الحق عمداً عن علم لا عن جهل ولم يكن ذلك فتنة منهما بل كان بناؤهما من أول الأمر على ذلك **(وكان الجور)** والحيف في الحكم **(هواهما والاعوجاج)** عن الحق والإنحراف عن الدين **(رأيهما)** وفي بعض النسخ دأبهما وهو أولى أي لم يكن ذلك أوّل حيفهما بل كان ديدنا وعادة لهما وشيمة طبعت عليها قلوبهما.

ثم أجاب عما نقموا عليه من إنكاره التحكيم بعد رضاه به بقوله: **(وقد سبق استثناؤنا عليهما في الحكم بالعدل والعمل بالحق سوء رأيهما وجور حكمهما)** أراد به ما كان شرطه على الحكمين حين عزموا على التحكيم أن يحكما بما حكم القرآن وبما أنزل الله فيه من فاتحته إلى خاتمته وإلا فلا ينفذ حكمهما فيه وفي أصحابه، فقد قدم عليه السلام إليهما أن لا يعملا برأيهما وهواهما ولا يحكما بشيء من تلقاء نفسيهما الأمّارة بالسوء.

(والثقة في أيدينا لأنفسنا) أي أنا على برهان وثقة من أمورنا وليس يلازم لنا اتباع

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٩٥، وكشف الغمة: ١/ ٢٦٨.

حكمهما **(حين خالفا سبيل الحق)** وانحرفا عن سواء السبيل **(وأتيا بما لا يعرف)** أي لا يصدق به **(من معكوس الحكم)** يعني أنهما نبذا كتاب الله وراء ظهورهم وخالفاه وحكما بعكس حكم الكتاب وقد استحقا به اللؤم والعقاب يوم الحساب.

الترجمة

از جمله كلام فصاحت نظام آن امام (عليه السلام) است در ذكر امر حكمين كه خطاب فرموده به آن خوارج نهروان را در مقام اجتماع با ايشان، مى فرمايد:

پس متفّق شد رأى رؤسا و اشراف شما بر اين كه اختيار كردند دو مرد را كه يكى ابوموسى اشعرى بود و يكى عمرو بن عاص، پس عهد و ميثاق گرفتيم بر ايشان كه وا ايستند و حبس كنند نفس خود را در نزد قرآن و تجاوز نكنند از آن و باشد زبان ايشان با آن قرآن و قلبهاى شان تابع آن، پس هردو گمراه شدند از قرآن و ترك كردند حق را و حال آن كه هردو مى ديدند حق را و بود جور و ظلم آرزوى ايشان و كجى و اعوجاج راى ايشان.

و به تحقيق كه سابق شده بود استثنا كردن ما بر آن دو مرد در خصوص حكم كردن با عدالت و عمل كردن به حق بدى رأى ايشان را و ستم كردن ايشان را در حكمى كه مى نمايند، (يعنى استثناء كرده بوديم كه ايشان با رأى فاسد خود رفتار نكنند و با حكم جور حكم ننمايند) و وثوق و اعتماد در دست ما است از براى نفسهاى خود ما در وقتى كه مخالفت راه حق كردند و آوردند چيزى را كه غير معروف بود از حكمى كه به عكس حكم قرآن بود و بر خلاف شرط ما.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسابعة والسبعون من المختار في باب الخطب

خطبها بعد قتل عثمان في أول خلافته كما في شرح المعتزلي والبحراني:

لاَ يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلاَ يُغَيِّرُهُ زَمانٌ، وَلاَ يَحْوِيهِ مَكانٌ، وَلاَ يَصِفُهُ لِسانٌ، لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْماءِ، وَلاَ نُجُومِ السَّماءِ، وَلاَ سَوافي الرِّيحِ فِي الْهَواءِ، وَلاَ دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَىٰ الصَّفاءِ، وَلاَ مَقِيلُ الذَّرِّ في اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ، يَعْلَمُ مَساقِطَ الأَوْراقِ، وخَفِيَّ طَرَفِ الأَحْداقِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلاَ مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلاَ مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلاَ مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ دُخْلَتُهُ، وخَلُصَ يَقِينُهُ، وثَقُلَتْ مَوازِينُهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الْمُجْتَبَىٰ مِنْ خَلائِقِه، وَالْمُعْتامُ لِشَرْحِ حَقائِقِه، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقائِلِ كَراماتِه، وَالْمُصْطَفَىٰ لِكَرائِمِ رِسالاتِهِ، وَالْمُوضِحَةُ بِهِ أَشْراطُ الْهُدَىٰ، وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَىٰ.

أَيُّها النّاسُ إِنَّ الدُّنْيا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَها، وَالْمُخْلِدَ إِلَيْها، وَلاَ تَنْفَسُ بِمَنْ نافَسَ فيها، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْها.

وَأَيْمُ اللَّهِ ما كانَ قَوْمٌ قَطُّ في غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزالَ عَنْهُمْ إِلا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوها، لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ، وَلَوْ أَنَّ النّاسَ حينَ تَنْزِلُ بِهِمْ النِّقَمُ، وتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلىٰ رَبِّهِم بِصِدْقٍ مِنْ نِيّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فاسِدٍ، وَإِنّي لَأَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا في فَتْرَةٍ، وَقَدْ كانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فيها مَيْلَةً كُنْتُمْ فيها عِنْدي غَيْرَ مَحْمُودينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَداءُ، وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ الْجَهْدُ، وَلَوْ أَشاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَى اللَّهُ عَمّا سَلَفَ[١].

اللغة

(سفت) الريح التراب أي ذرته و**(الدخلة)** بالكسر والضمّ باطن الشيء و**(المعتام)** بالتاء المثناة فاعل من اعتام أي اختار مأخوذ من العتمة وهو خيار المال و**(الغربيب)** وزن قنديل الأسود شديد السواد قال سبحانه: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

(١) الكافي: ٨/ ٦٨، وشرح أصول الكافي: ١١/ ٤١٤ ح٢٣.

و(**أخلد إلى الأرض**) أي ركن إليها واعتمد عليها (**وما عليّ إلاّ الجهد**) في نسخة الشارح البحراني بفتح الجيم وضبطه الشارح المعتزلي بالضم وبهما قرء قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، قال الفيومي: الجهد بالضم في الحجاز وبالفتح في لغة غيرهم الوسع والطاقة، وقيل: المضموم الطاقة والمفتوح المشقّة، والجهد بالفتح لا غير الغاية والنهاية، وهو مصدر من جهد في الأمر جهداً من باب نفع إذا قلب حتى بلغ غايته في الطلب.

الإعراب

الظاهر تعلق قوله: (**في اللّيلة الظلماء**) بالدبيب والمقبل على سبيل التنازع، و(**غير معدول**) بنصب غير حال من الله، وفي قوله: (**في غض نعمة**)، للظرفية المجازية، (**والباء**) في قوله: بصفق، للمصاحبة، وجملة (**عفى الله عما سلف وغايته**) لا محلّ لها من الإعراب وعلى ذلك فمقول قلت محذوف، ويجوز أن يكون في محلّ النّصب مقولة للقول والثاني أظهر لاحتياج الأوّل إلى الحذف والأصل عدمه.

المعنى

اعلم أن مدار هذه الخطبة على فصول أربعة.

أولها

تنزيه الله سبحانه وتمجيده بجملة من أوصاف الجلال وصفات الجمال وهو قوله: (**لا يشغله شأن**) عن شأن أي أمر عن أمر لأن الشغل عن الشيء بشيء آخر إما لنقصان القدرة أو العلم وهو تعالى على كلّ شيء قدير وبكلّ شيء محيط، فلا يشغله مقدور عن مقدور ولا معلوم عن معلوم (**ولا يغيّره زمان**) لأنّه تعالى واجب الوجود والمتغيّر في ذاته أو صفاته لا يكون واجباً فلا يلحقه التغير ولأنه خالق الزمان ولا زمان يلحقه فلا تغير يلحقه بتغيّره (**ولا يحويه مكان**) إذ لو كان محوياً يلزم أن يكون محدوداً وكلّ محدود جسم، وقد عرفت في شرح الفصل الخامس من الخطبة الأولى وفي شرح الخطبة المائة والثانية والخمسين تحقيق الكلام في تنزهه عن المكان وعن الحدود بما لا مزيد عليه فليراجع المقامين.

وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق: إنّ المشبهة قد تعلقت بقوله سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٢٥]، في أن معبودهم جالس على العرش وقد تقدم في شرح الفصل الخامس من الخطبة الأولى تأويل هذه الآية وظهر لك فساد قولهم وبطلان تمسّكهم بها، وقد أقام المتكلمون المتألهون أدلّة عقلية ونقلية على فساد مذهبهم وعلى استغنائه تعالى عن المكان لا بأس بالإشارة إلى جملة منها.

أحدها: أنه تعالى كان ولا عرش ولا مكان، ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان غنياً عنه فهو بالصفة التي كان لم يزل عليها إلاّ أن يقال لم يزل مع الله شيء كالعرش وهو أيضاً باطل لأنه يلزم أن يخلو عن المكان عند ارتحاله عن بعضها إلى بعض فيختلف نحو وجوده بالحاجة إلى المكان والاستغناء عنه وهو محال.

ثانيها: أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكناً من الانتقال والحركة عنه أم لا، فعلى الأول يلزم ما ذكرنا من الاستغناء والاختلاف في نحو الوجود أعني التجرد والتجسم.

لا يقال: هذا منقوض بانتقال الإنسان مثلاً من مكان إلى مكان.

قلنا: إنه يتنقل على الاتصال من مكان إلى مكان وهو فيما بينهما لم ينفك عن المكان وأما الباري جل ذكره فالمكان الذي ينتقل إليه مخلوق له فلا بد أن يخلقه أولاً حتى يمكن انتقاله إليه فهو فيما بين مجرّد عن المكان وعلى الثاني يكون كالزمن بل أسوء حالاً منه، فإن الزّمن يتمكن من الحركة على رأسه ومعبودهم غير متمكن.

وثالثها: أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الجزء الحاصل منه في شمال العرش فيكون مركّباً مؤلفاً من الأجزاء المقدارية ومركباً من صورة زيادة، وكل من كان كذلك يحتاج إلى مؤلف ومركب والحاجة من أوصاف الممكن، هذا.

وهذه الأدلة الثلاث كما يبطل كونه جالساً على العرش كذلك تبطل كونه محوياً للمكان أيّ مكان كان كما هو غير خفي على الفطن العارف فتدبّر.

(ولا يصفه لسان) أي لا يقدر لسان على وصفه ومدحه لأن اللسان إنما هو ترجمان للقلب معبر عن المعاني المخزونة فيه، والقلب إذا كان عاجزاً عن البلوغ إلى وصفه وعن تعقل صفاته فاللّسان أعجز وألكن.

بيان ذلك: أن وصف الشيء والثّناء عليه إنّما يتصوّر إذا كان مطابقاً لما هو عليه في نفس الأمر، وذلك غير ممكن إلاّ بتعقل ذاته وكنهه، لكن لا يمكن للعقول تعقل ذاته سبحانه وتعقل ماله من صفات الكمال ونعوت الجلال، لأنّ ذلك التعقل إما بحصول صورة مساوية لذاته تعالى وصفاته الحقيقية الذاتية أو بحضور حقيقته وشهود ذاته المقدسة والأول محال إذ لامثل لذاته كما قال عز من قائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لأن كلّ ما له مثل أو صورة مساوية له فهو ذو جهة كلّية وهو تعالى لا ماهية له، والثاني أيضاً كذلك إذ كلّ ما سواه من العقول والنفوس والذّوات والهويات معلول له مقهور تحت جلاله وعظمته وكبريائه كانقهار عين الخفاش تحت نور الشمس، فلا يمكن للعقول لقصورها عن درجة الكمال

الواجبي إدراك ذاته على وجه الاكتناه والإحاطة، بل كلّ عقل له مقام معلوم لا يقدر على التعدي عنه إلى ما فوقه، ولهذا قال جبرئيل الأمين لما تخلف عن خير المرسلين ليلة المعراج: لو دنوت أنملة لاحترقت، فإنّى للعقول البشرية الاطلاع على النعوت الإلهيّة والصّفات الأحديّة على ما هي عليه من كمالها.

فالقول والكلام وإن كان في غاية الجودة والبلاغة واللسان والبيان وإن كان في نهاية الحدة والفصاحة يقف دون أدنى مراتب مدحه، والمادحون وإن صرفوا جهدهم وبذلوا وسعهم وطاقتهم في وصفه والثناء عليه فهم بمراحل البعد عما هو ثناء عليه بما هو أهله ومستحقه.

ولهذا قال سيد النّبيين وأكمل المادحين: لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

ثم وصفه بإحاطة علمه سبحانه بجميع الجزئيات وخفيات ما في الكون، وقد عرفت في شرح الفصل السابع من الخطبة الأولى عموم علمه تعالى بجميع الموجودات وعدد من ذلك هنا أشياء فقال: **(لا يعزب عنه)** أي لا يغيب عن علمه **(عدد قطر الماء)** المنزل من السماء، والراكد في متراكم البحار والغدران والآبار والجاري في الجداول والأنهار **(ولا)** عدد **(نجوم السماء)** من الثوابت والسّيار **(ولا سوافي الريح في الهواء)** أي التي تسفو التراب وتذروه.

وتخصيصها بالذكر من جهة أنها غالب أفرادها، فلا دلالة فيها على اختصاص علمه بها فقط، لأن الوصف الوارد مورد الغلبة ليس مفهومه حجة كما صرح به علماء الأصولية ومثله قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣]، ويمكن أن يكون غرضه الإشارة إلى أنه لا يخفى عليه سبحانه السوافي مع ما تسفوه من التراب، فإن التراب الذي تحمله الرّيح وتبثّه في الجوّ لا يعلم مقداره وأجزاءه وذراته إلا الله سبحانه العالم بكلّ شيء.

(ولا) يعزب عنه **(دبيب النمل على الصفا ولا مقيل الذّر في اللّيلة الظلماء)** أي لا يخفى حركة آحاد النمل على الصخر الأملس في اللّيلة المظلمة، ولا محل قيلولة صغار النمل فيها مع فرط اختفائهما عليه سبحانه بل علمه تعالى محيط بهما وبغيرهما من خفيات الموجودات وخبياتها.

فإن قلت: لم خصص دبيب النمل بكونه على الصفا؟

قيل: لعدم التأثر بالدبيب كالتراب إذ يمكن في التراب ونحوه أن يعلم الدبيب بالأثر.

وفيه إن بقاء أثر الدبيب في التراب مسلم إلا أن حصول العلم به بذلك الأثر إما أن يكون في الليل أو في النهار، والأول ممنوع لأن ظلمة الليل المظلم مانعة عن مشاهدة الأثر

كنفس المؤثر والصفا والتراب سيان في اختفاء الدبيب فيها على كلّ منهما، والثاني مسلم إلا أنّه إذا كان في النّهار فهو مشاهد لكلّ أحد ومعلوم بنفسه من دون حاجة إلى الاستدلال بالأثر من غير فرق أيضاً في ظهوره بين كونه على الصّفا وبين كونه على التراب.

إلا أن يقال: إنه مع كونه في الليل على التراب يبقى أثره إلى النهار فيمكن حصول العلم به منه، بخلاف ما إذا كان على الصفا فلا يكون له أثر أصلاً حتى يبقى إلى النهار ويتحصل منه العلم.

ولكن يتوجّه عليه إن ظاهر القضيّة أنّه لا يخفى عليه دبيبه حين دبّه أعني في اللّيلة المظلمة ولا مقيل الذر حين قيلولتها.

فإن قلت: هذا مسلم لو جعلنا قوله: في اللّيلة الظلماء قيداً لكلا الأمرين، أما لو جعلناه قيداً للأخير فقط لارتفع الإشكال.

قلت: لا بد من إرجاع القيد إليهما جميعاً إذ الدبيب الحاصل في النهار مشاهد لكل أحد ومرئي معلوم ولا اختصاص لعدم اختفائه بالله سبحانه حتى يتمدح به.

والذي يلوح للخاطر في سرّ التخصيص هو أن غالب أفراد الحيوان ومنها النمل إذا سارت بالليل على التراب لا يظهر صوت قوائمها وحوافرها للين التراب، فيختفى سيرها غالباً على الناس، وأما إذا صارت على الصّفا فيطلع عليه الناس لظهور صوت الحوافر والأقدام، وأمّا النمل فلا يظهر دبيبه عليه أيضاً لخفة جرمه وصغر جثته، فمدح الله سبحانه بأن النمل الذي اختفى دبيبه على الصّفا على النّاس فضلاً عن التراب لم يعزب عليه سبحانه دبيبه مع فرط خفائه فافهم جيّداً.

وكيف كان فقد ظهر من ذلك كلّه أي مما ذكره عليه السلام هنا وما ذكرناه ومما قدمه وقدّمناه أنّه لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السّماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين.

فانقدح منه أنه سبحانه **(يعلم مساقط الأوراق)** عدل عن نفي المعزوب إلى إثبات العلم على قاعدة اليقين وتصديق علمه بمساقط الأوراق مضافة إلى غيرها قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

(و) هو يدلّ أيضاً لعمومه على أنه يعلم **(خفي طرف الأحداق)** وأراد بالطرف انطباق أحد الجفنين على الآخر أي يعلم ما خفي من ذلك على الناس كما قال سبحانه: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

الفصل الثاني

في الشهادة بالتوحيد والرسالة وهو قوله: **(وأشهد أن لا إله إلا الله)** مضى تحقيق الكلام فيه بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثانية فليراجع ثمة.

وأكد الشهادة بالوحدانية بقوله: **(غير معدول به)** أي حال كونه سبحانه لم يجعل له مثل وعديل **(ولا مشكوك فيه)** أي في وجوده لمنافاة الشك فيه بالشهادة بوحدانيته **(ولا مكفور دينه)** لملازمة التصديق بالوحدانية بالاعتراف بالدين المنافي للجحود ويدل على التلازم ما مر في الفصل الرابع من الخطبة الأولى من قوله: أوّل الدّين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده **(ولا مجحود تكوينه)** أي اتحاده للموجودات وتكوينه لها لشهادتها جميعاً بوجود مبدعها ووحدانية بارئها.

ووصف شهادته بكونها مثل **(شهادة من صدقت نيته)** أي صادرة عن صميم القلب وعن اعتقاد جازم **(وصفت دخلته)** أي موصوفة بصفاء الباطن وسلامتها من كدر الرياءو النفاق **(وخلق يقينه)** من رين الشكوك والشبهات **(وثقلت موازينه)** إذ الشهادة إذا كان على وجه الكمال توجب ثقل ميزان الأعمال.

ويدل عليه صريحاً ما قدمنا روايته في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثانية من ثواب الأعمال عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: قال الله جل جلاله لموسى بن عمران: يا موسى لو أن السماوات وعامريهن عندي والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهنّ لا إله إلا الله.

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المجتبى) المصطفى **(من خلائقه)** وقد عرفت توضيحه في شرح الخطبة الثالثة والتسعين **(والمعتام لشرح حقائقه)** أي المختار لشرح حقائق توحيده أي لإيضاح العلوم الإلهية **(والمختص بعقائل كراماته)** النفيسة من الكمالات النفسانية والأخلاق الكريمة التي اقتدر معها على هداية الأنام وتأسيس أساس الإسلام **(والمصطفى لكرائم رسالاته)** أي لرسالاته الكريمة الشريفة وجمعها باعتبار تعدد أفراد الأوامر والأحكام النازلة عليه، فإن كلّ أمر أمر بتبليغه وأدائه رسالة مستقلة وإن كان باعتبار المجموع رسالة واحدة **(والموضحة به أشراط الهدى)** أي أعلام الهداية فقد أوضح بقوله وفعله وتقريره ما يوجب هداية الأنام إلى النهج القويم والصراط المستقيم **(والمجلو به غربيب العمى)** أي المنكشف بنور نبوّته ظلمة الجهالة.

الفصل الثالث

في تنبيه الراكنين إلى الدنيا وإيقاظ الغافلين عن العقبى وهو قوله: **(أيها الناس إن الدنيا**

تغر المؤمل لها والمخلد إليها) وذلك مشهود بالعيان معلوم بالتجربة والوجدان، فأنّا نرى كثيراً من المؤملين لها والراكنين إليها تعرض لهم مطالب وهمية خيالية فتوجب ذلك طول أملهم فيختطفهم الموت دون نيلها وينكشف بطلان تلك الخيالات، وقد تقدم تفصيل ذلك في شرح الخطبة الثانية والأربعين **(ولا تنفس بمن نافس فيها)** أي لا تضنن ممن ضنن بها لنفاستها، بل ترميه بالنوائب والآلام وبسهام المصائب والأسقام **(وتغلب من غلب عليها)** أي من ملكها وأخذها بالقهر والغلبة فعن قليل تقهره وتهلكه.

الفصل الرابع

في التنبيه على وجوب شكر النعم واستدراكها بالفزع إلى الله فأقسم بالقسم البار وهو قوله: **(وأيم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها)** على أن زوال النعمة الطرية ورغيد العيش عن العباد ليس سببه إلا كفران النعم والذنوب التي اكتسبوها كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٢]، وذلك لأنهم لو استحقوا مع الكفران واكتساب الآثام لإفاضة النعماء لكان منعهم منها منعاً للمستحق المستعدّ وذلك عين الظلم وهو محال على الله سبحانه **(لأن الله ليس بظلام للعبيد)** فعلم من ذلك أن سبب زوال النعمة وحصول النقمة ليس إلا الذّنوب المكتسبة هذا.

ولا يخفى عليك أن هذا الكلام منه عليه السلام محمول على الغالب وإن كان ظاهره العموم، وذلك لأن كثيراً من العباد يبدل الله نعمتهم بالنقمة ورخاءهم بالشدّة ومنحتهم بالمحنة من باب الابتلاء والامتحان إعلاء للدرجات وإحباطاً للسيئات وإضعافاً للحسنات كما قال عز من قائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآية.

ولمّا نبّه على أن زوال النعمة ونزول النقمة اكتساب المعصية أرشدهم إلى طريق تداركها بقوله: **(ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم)** وتضرعوا إليه سبحانه **(بصدق من نياتهم)** أي بإخلاصها وإخلائها من شوب العجب والرّيا **(ووله من قلوبهم)** أي بتحيّر منها في محبّته سبحانه ولذّة مناجاته وتفريغ ساحتها عن كلّ ما سواه تعالى **(لردّ عليهم كلّ شارد)** من النعم **(واصلح لهم كلّ فاسد)** من الأمور.

ثمّ تخلص إلى تعريض المخاطبين بالإشارة إلى بعض حالاتهم الغير المحمودة التي كانوا عليها حثا لهم على الارتداع عنها فقال: **(وإني لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة)** أي في حالة فترة مثل حالة أهل الجاهلية الذين كانوا على فترة من الرسل أي أخاف عليكم أن تكونوا مثل هؤلاء في التعصبات الباطلة بحسب الأهواء المختلفة وغلبة الجهل والضّلال على الأكثرين **(وقد كانت أمور مضت)** وهو تخليفهم للفساق وتقديم أجلاف العرب الثلاثة عليه

وأتباعهم بهم.

وحملها على اختيارهم لعثمان فقط وعدولهم عنه يوم الشورى كما في شرح المعتزلي خلاف ظاهر اللّفظ المسوق على نحو الإطلاق معتضداً بقوله: **(ملتم فيها ميلة كنتم فيها عندي غير محمودين)** لأنهم بسبب تقديم كلّ من الثلاثة والاتباع عليه مالوا عن نهج الحق وعدلوا عن منهج الصّواب واستحقوا اللّوم والعتاب.

(ولئن ردّ عليكم أمركم) أي شغلكم الذي كنتم عليه في زمن الرسول صلى الله عليه وآله **(إنكم لسعداء)** أي تكونون سعداء بعد اتصافكم بالشقاوة **(وما عليّ إلا الجهد)** أي بذل الوسع والطاقة في الإصلاح والنصيحة **(ولو أشاء أن أقول)** وأشرح ما جرى من الظلم والعدوان وما وقع منكم من التفريط والتقصير فيّ **(لقلت)** ذلك وشرحته ولكنّي لا أستصلحه لتضمنه التعريض على المختلفين والتقريع على المخاطبين والصّلاح في العفو والإغماض لأن الصفح حسن والعفو جميل فقد **(عفى الله عما سلف)** اقتباس من الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

قال الشاحر المعتزلي: وهذا الكلام يدل على مذهب أصحابنا في أن ما جرى من عبد الرحمان وغيره يوم الشورى، وإن كان لم يقع على الوجه الأفضل فإنّه معفوّ عنه مغفور لفاعله لأنّه لو كان فسقاً غير مغفور لم يقل أمير المؤمنين عليه السلام: عفى الله عما سلف[١].

أقول: ويتوجّه عليه أنه بعد الاعتراف بكون ما صدر عن ابن عوف وأضرابه فسقاً كما هو كذلك لكونه ظلماً فاحشاً في حقه عليه السلام فهذا الكلام لا دلالة فيه على العفو عنه والغفران له لأن هذا الكلام كما يحتمل أن يكون جملة إنشائية أو غائبة أو إخبارية مسوقة لبيان حسن العفو ودليلاً عليه كما عليه مبنى كلام الشارح، فكذلك يحتمل أن يكون مقولاً لقوله: قلت ومتصّلاً به لا مقطوعاً عنه.

فيكون محصل الكلام أني لو شئت أن أقول عفى الله عما سلف لقلته أي لو أحببت أن أدعو بالعفو لدعوت، فعلى هذا كما يصدق الشرطية باستثناء عين المقدم ينتج عين التالي فكذلك يصدق برفع المقدم المفيد لرفع التالي، أي لكني لم أشأ ذلك فلا قلته وحينئذ لا يكون لكلامه عليه السلام دلالة على ما رامه الشارح لو لم يكن دلالة على خلافه أظهر، فافهم وتبصّر.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٧٨/٢٨ بتفاوت.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن بزرگوار و وصىّ مختار است در وصف حضرت كردگار و نعت حضرت ختم النبيّن و نصيحت و ملامت مخاطبين، مى فرمايد كه:

مشغول نمى نمايد حق تعالى را امرى از امر ديگر و تغيير نمى دهد او را زمانى و احاطه نمى كند او را هيچ مكانى و وصف نمى تواند بكند او را هيچ زبانى، غايب نمى شود از علم او عدد قطره هاى آب و نه ستاره هاى آسمان و نه بادهاى سخت وزنده و نه حركت مورها بر روى سنگها و نه خوابگاه مورچه ها در شب تاريك و مى داند مواضع افتادن برگهاى درختان و پنهان نگريستن چشمان را.

و شهادت مى دهم به اين كه هيچ معبود به حقى نيست مگر خداوند متعال، درحالتى كه هيچ برابر كرده نشد به او چيزى و شك كرده نشد در وجود او و انكار كرده نشد دين او و جحود نشد ايجاد و تكوين او، مثل شهادت كسى كه صادق بشود نيّت او و صافى باشد باطن او و خالص گردد يقين او و سنگين شود ميزان اعمال او.

و شهادت مى دهم به اين كه محمّد مصطفى صلوات الله و سلامه عليه و آله بنده او است و رسول برگزيده از مخلوقات او و اختيار كرده شده از براى كشف حقايق توحيد او و مخصوص شده به كرامت هاى نفيسه او و برگزيده شده به رسالات كريمه او و روشن كرده شده به او علامت هاى هدايت و جلا داده شد به نور او سوادى و سياهى ضلالت.

اى گروه مردمان، به درستى دنيا فريب مى دهد اميدارنده او را و آرام گيرنده او را و بخل نمى كند به كسى كه بخيل باشد در محبّت او و غلبه مى نمايد بر كسى كه غلبه كند بر او.

و قسم به خدا كه نبودند هيچ قومى هرگز در طراوت نعمت از زندگانى دنيا، پس زوال يافت آن نعمت از ايشان مگر به سبب گناه هايى كه كسب كردند آن را از جهت اين كه خداوند عالم نيست صاحب ظلم بر بندگان و اگر مردمان در وقتى كه

نازل بشود به ایشان عقوبت ها و زایل بشود از ایشان نعمت ها پناه ببرند به سوی پروردگار به راستی از نیّت های خودشان و فرط محبّت از قلب هاشان، هرآینه بازگرداند حق سبحانه به سوی ایشان هر رمیده از نعمت ها را و واصلاح می فرماید از برای ایشان هر فاسد از امورات را و به درستی که من می ترسم بر شما این که باشید در حالت اهل جاهلیّت و به تحقیق که واقع شد کارهایی که گذشت میل کردید در آن امور از جادّه شریعت میل کردنی، در حالتی که بودید در آن امور در نزد ما پسندیده و اگر بازگردانیده شود بر شما کار شما، هرآینه می باشید از اهل سعادت و نیست بر من مگر بذل وسع و طاقت و اگر بخواهم بگویم، هرآینه می گفتم که عفو فرمود خدای تعالی از آن چه که گذشت.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثامن والسبعون من المختار في باب الخطب

وهو مروي في الأصول المعتبرة كالكافي والتوحيد والاحتجاج والإرشاد بطرق مختلفة بإجمال وتفصيل واختلاف تطلع عليه بعد الفراغ من شرح ما أورده السيد رحمه الله.

وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربَّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أَفَأَعْبُدُ ما لاَ أَرَى! قال: وكيف تراه؟ قال عليه السلام: لاَ تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشاهِدَةِ الْعَيانِ، وَلٰكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحقَائِقِ الْإِيْمانِ، قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْياءِ غَيرَ مُلامِسٍ، بَعِيدٌ مِنْها غَيرَ مُبائِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لاَ بِرَوَيَّةٍ، مُرِيدٌ بِلا هِمَّةٍ، صانِعٌ لاَ بِجارَحَةٍ، لَطيفٌ لاَ يُوصَفُ بِالْخِفاءِ، كَبِيرٌ لاَ يُوصَفُ بِالْجَفاءِ، بَصيرٌ لاَ يُوصَفُ بِالْحاسَّةِ، رَحِيمٌ لاَ يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ، تَعْنُوا الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وتَجِبُ الْقُلوبُ مِنْ مَخافَتِهِ[1].

اللغة

(الذعلب) في الأصل الناقة السريعة ثمّ صار علماً للإنسان كما نقلوا بكراً عن فتى الإبل إلى بكر بن وابل و**(اليماني)** منسوب إلى اليمن إقليم معروف سمّي به لكونه على يمين الكعبة وأصله يمنّي بتشديد الياء ثم جعلوا الألف بدلاً عن الياء الثانية فقالوا يماني بالتخفيف في يمنّي و**(جفوت)** الرجل أعرضت عنه أو طردته وقد يكون مع بعض وجفا الثوب يجفو إذا غلظ فهو جاف، ومنه جفاء اليد وهو غلظتهم وفظاظتهم و**(عنا)** يعنو عنواً من باب قعد ذلّ وخضع والاسم العناء بالفتح والمد فهو عان و**(وجب)** الحائط ونحوه وجبة سقط ووجب القلب وجباً ووجيباً رجف.

الإعراب

قوله: **(أفاعبد)** استفهام على سبيل الإنكار والإبطال قوله: **(قريب)** خبر لمبتدأ محذوف وقوله: **(غير ملامس)** بنصب غير كما في أكثر النسخ حال من فاعل قريب المستتر وفي بعضها بالرفع فيكون صفة لقريب، وكذلك قوله غير مباين، ومثلهما جملة **(لا يوصف)** تحتمل أن تكون في محل النصب على الحال، وفي محل الرفع على الوصف.

---

(١) بحار الأنوار: ٤/ ٥٣ ح٢٩، ونهج السعادة: ٣/ ٥٧.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام له عليه السلام من كلماته المعروفة وقد ظهر لك في شرح الخطبة الثمانية والتسعين أنه ملتقط من كلام طويل له عليه السلام قدمنا روايته هناك من توحيد الصّدوق كما ظهر أنه عليه السلام تكلم به مع ذعلب، فإنه لما قال على المنبر غير مرة سلوني قبل أن تفقدوني، قام إليه ذعلب وكان رجلاً ذرب اللسان بليغاً في الخطب شجاع القلب فقال: لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقاة صعبة لأخجلنّه اليوم لكم في مسألتي إياه فقال له: **(هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين)** وكان هذا السؤال منه من باب التعنت والتقرير بقصد التعجيز عن الجواب لا الاستفاهم الحقيقي كما يدل عليه أول كلامه الذي حكيناه.

(فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى) إنكار لعبادة مالا يدرك، لأن العبادة متضمنة للسؤال والمخاطبة والمكالمة وطلب الرحمة والمغفرة وغير ذلك من الخضوع والخشوع والتضرع والتملّق والاستكانة وهذه كلها تستدعي حضور المعبود وإدراكه ورؤيته.

ولما توهم السائل من كلامه عليه السلام أن مراده به رؤية البصر أعاد السؤال **و(قال: وكيف تراه)** على سبيل الاستفهام التوبيخي يعني أن رؤيته غير ممكنة فكيف ادعيتها.

فأجابه **و(قال** عليه السلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان) يعني أن رؤيته ليست بالعين وبمشاهدة القوّة البصرية الجسمانية، فإنّ هذه غير جائزة كما عرفت تحقيقه في شرح الخطبة التاسعة والأربعين، وهو صريح في بطلان مذهب الأشاعرة والمشبهة والكرامية المجوّزين للرؤية **(ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان)** أي تدركه العقول الصافية عن ملابسة الأبدان وغواشي الطبائع والأجرام بحقائق الإيمان أي بأنوار العقلية الناشئة من الإيمان والإذعان الخالص كما مر تحقيقه في شرح الخطبة التاسعة والأربعين أيضاً.

وقال الشارح البحراني: أراد بحقائق الإيمان أركانه وهي التصديق بوجود الله ووحدانيته وسائر صفاته واعتبارات أسمائه الحسنى.

وقال العلامة الملجسي رحمه الله في مرآة العقول: حقائق الإيمان العقائد التي هي حقائق أي عقائد عقلية ثابتة يقينية لا يتطرق إليها الزوال والتغير أي أركان الإيمان أي الأنوار والآثار التي حصلت في القلب من الإيمان أو التصديقات والإذعانات التي تحق أن تسمى إيماناً.

أو المراد بحقائق الإيمان ما ينتمي إليه تلك العقائد من البراهين العقلية، فإن الحقيقة ما يصير إليه حق الأمر ووجوبه ذكره المطرزي في الغربيين انتهى.

أقول: هذه المعاني كلها صحيحه محتملة لكن الأظهر هو المعنى الثاني المطابق لما ذكرناه.

ويؤيده في الاحتجاج عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سأله زنديق: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟ قال عليه السلام: رأته القلوب بنور الإيمان وأثبتته العقول بيقظها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأت من حسن التركيب وأحكام التأليف، ثم الرّسل وآياتها والكتب ومحكماتها واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته دون رؤيته قال: أليس هو قادر أن يظهر لهم حتى يروه فيعرفوه فيُعبد على يقين؟ قال عليه السلام: ليس للمحال جواب[1]، هذا.

ولما نبّه على كونه سبحانه مدركاً بالعقول عقبه بذكر جملة من صفات كماله التي هي جهات إدراكه فقال: **(قريب من الأشياء غير ملامس)** يعني أن قربه منها بالإحاطة والقيوميّة لا بالالتصاق والملامسة التي هي من عوارض الجسمية **(بعيد منها غير مباين)** يعني أن بعده منها بنفس ذاته المقدسة لا بعنوان التعاند والمضادة، وقد مر تحقيق ذلك مع سابقه في شرح الفصل السادس من الخطبة الأولى عند شرح قوله عليه السلام: مع كل شيء لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة.

(متكلّم لا بروية) يعني أن تكلّمه تعالى ليس بالفكر والتروي كسائر آحاد الناس فإن كلامهم تابع للتروي والأفكار يتفكرون أوّلاً في نظم الألفاظ وترتيبها ودلالتها على المعاني المقصودة ثم يتكلّمون والله سبحانه منزه عن ذلك.

قال الشارح البحراني: وكلامه تعالى يعود إلى علمه بصور الأوامر والنواهي وسائر أنواع الكلام عند قوم وإلى المعنى النفساني عند الأشعري وإلى خلقه الكلام في جسم النبي عند المعتزلة.

أقول: وستعرف تحقيق معنى كلامه سبحانه فانتظر.

(مريد بلا همة) أي ليست إرادته كإرادتنا مسبوقة بالعزم والهمة.

قال الشارح المعتزلي قوله: بلا همة، أي بلا عزم، والعزم عبارة عن إرادة متقدمة للفعل تفعل توطيناً للنفس على الفعل وتمهيداً للإرادة المقارنة له، وإنما يصحّ ذلك على الجسم الذي يتردد فيها يدعوه إليه الدواعي، فأما العالم لذاته فلا يصحّ ذلك فيه.

(صانع لا بجارحة) أي ليست صنعته بالأعضاء والجوارح التي هي من لواحق الجسميّة وأنماه أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون **(لطيف لا يوصف بالخفاء)** قال الشارح البحراني: اللطيف يطلق ويراد به رقيق القوام ويراد به صغير الجسم المستلزمين للخفاء وعديم اللون من الأجسام والمحكم من الصنعة، وهو تعالى منزّه عن إطلاقه بأحد هذه

---

(١) شرح أصول الكافي: ٣/ ١٨١ ح٦، والاحتجاج: ٢/ ٧٧.

المعاني لاستلزام الجسميّة والإمكان فيبقى إطلاقها عليه باعتبارين:

أحدهما: تصرفه في الذوات والصفات تصرّفا خفياً يفعل الأسباب المعدّة لها لإفاضة كمالاتها.

الثاني: جلالة ذاته وتنزيهها عن قبول الإدراك البصري، يعني لاستحالة رؤيته شابه الأجسام اللطيفة فأطلق عليه لفظ اللطيف بهذا الاعتبار.

أقول: وهنا اعتبار ثالث ذكره الشارح المعزلي وغيره: وهو أنه لطيف بعباده كما في الكتاب العزيز أي يفعل الألطاف المقربة لهم من الطاعة المبعدة لهم عن المعصية، أو لطيف بهم بمعنى أنه يرحمهم ويرفق بهم.

واعتبار رابع: وهو علمه بالأشياء اللطيف رواه في الكافي مرفوعاً عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: وكذلك سميناه لطيفاً لعلمه بالشيء اللطيف مثل البعوضة وأخفى من ذلك وموضع النشوء منها والعقل والشهوة للسفاد والحدب على نسلها وأقام بعضها على بعض ونقلها الطعام والشراب إلى أولادها في الجبال والمفاوز والأودية والقفار فعلمنا أن خالقها لطيف بلا كيف، وإنما الكيفية للمخلوق المكيف.

ورواه أيضاً فيه مع اعتبار خامس عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام في حديث طويل سأل فيه عنه عليه السلام عن تفسير معنى الواحد ووحدانيته تعالى إلى أن قال: قلت: جعلت فداك فرّجت عني فرّج الله عنك فقولك: اللطيف الخبير فسره لي كما فسرت الواحد فإني أعلم أن لطفه على خلاف لطف خلقه للفصل غير أني أحب أن تشرح لي ذلك فقال عليه السلام: «يا فتح إنما قلنا اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشيء اللطيف أو لا ترى وفقك الله وثبتك إلى أثر صنعه في النبات اللطيف وغير اللطيف ومن الخلق اللطيف ومن الحيوان الصّغار ومن البعوض والجرجس وما هو أصغر منها ما لا يكاد تستبينه العيونُ بل لا يكاد يستبان لصغره الذكر من الأنثى والحدث المولود من القديم، فلما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتدائه للسفاد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه وما في لجج البحار وما في لحاء الأشجاء والمفاوز والقفار وإفهام بعضها عن بعض منطقها وما يفهم به أولادها عنها ونقلها للغذاء إليها ثم تأليف ألوانها حمرة مع صفرة وبياض مع حمرة وأنه ما لا تكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها لا تراه عيوننا ولا تلمسه أيدينا علمنا أن خالق هذا الخلق لطيف بخلق ما سميناه بلا علاج ولا أداة ولا آلة، وأن كل صانع شيء فمن شيء صُنع والله خالق اللطيف الجليل خَلَق وَصَنَع لا من شيء»[1].

---

(١) الكافي: ١/ ١٢٠، والتوحيد الصدوق: ١٨٦.

فقد قرر عليه السلام أن إطلاق اسم اللطيف عليه سبحانه بوجهين.

أحدهما: للخلق اللطيف يعني لخلقه الأشياء اللطيفة **(كبير لا يوصف بالجفاء)** يعني أنه موصوف بالكبرياء والعظمة لجلالة شأنه وعظمة سلطانه، ومنزه عما عليه سائر الكبراء والأعاظم من المخلوقين كالملوك والسلاطين من الفظاظة وغلظ الطبيعة والجفاء لمن تحت ولايتهم من الرعية.

وقال الشارح المعتزلي: لما كان لفظ الكبير إذا استعمل في الجسم أفاد تباعد أفكاره ثم وصف الباري بأنه كبير، أراد أن ينزهه عما تدل لفظة كبير عليه إذا استعمل في الأجسام انتهى. والأظهر ما قلنا.

(بصير لا يوصف بالحاسة) أما أنه بصير فقد مر تحقيقه في شرح الفصل السادس من الخطبة الأولى، وأما تنزهه عن الحواس فلأنها من صفات الجسم **(رحيم لا يوصف بالرقة)** لما كان الرحمة في الخلق عبارة عن رقة القلب والانفعال النفساني وهما من أوصاف الممكن فحيثما يطلق عليه لفظ الرحيم يراد به ما هو لازم الرحمة من الأنعام والأفضال، وكذلك سائر الأوصاف التي لا يصح اتصافه تعالى بها باعتبار مبادئها يوصف بها باعتبار غاياتها كالغضب في قوله: غضب الله عليهم، فيراد به الانتقام والعقوبة لاستلزامه له، والمكر في قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فيراد به جزاؤه سبحانه لمكرهم بالجزاء السوء.

(تعنو الوجوه لعظمته) أي تذلّ وتخضع لأنه الإله المطلق لكلّ موجود وممكن والعظيم الذي كل مقهور تحت مشيئته وإرادته وداخر تحت جلاله وجبروته وعظمته **(وتجب القلوب من مخافته)** أي ترجف وتضرب من هيبته عند ملاحظتها لعظمة سلطانه وعلو شأنه.

تنبيه

قد وعدناك تحقيق الكلام في معنى متكلميته تعالى وأن كلامه سبحانه حادث أو قديم فنقول:

قد تواترت الأنباء عن الأنبياء والرّسل، وأطبقت الشرائع والملل على كونه عز وجل متكلّماً لا خلاف لأحد في ذلك، وإنما الخلاف في معنى كلامه تعالى وفي قِدمه وحدوثه.

فذهب أهل الحق من الإمامية وفاقاً للمعتزلة إلى أن كلامه تعالى مؤلّف من حروف وأصوات قائمة بجوهر الهواء، ومعنى كونه متكلّماً أنه موجد للكلام في جسم من الأجسام كالملك والشجر ونحو ذلك، وعلى مذهبهم فالكلام حادث لأنه مؤلف من أجزاء مترتبة متعاقبة في الوجود، وكل ما هو كذلك فهو حادث.

وقالت الحنابلة: كلامه تعالى حروف وأصوات يقومان بذاته وأنه قديم، وقد بالغ بعضهم حتى قال جهلاً بقدم الجلد والغلاف أيضاً فضلاً عن المصحف.

والكرامية وافقهم في أن كلامه حروف وأصوت وأنها قائمة بذاته تعالى إلاّ أنهم خالفوهم في القول بقدمها وقالوا بأنها حادثة لتجويزهم قيام الحوادث بذاته تعالى.

وذهبت الأشاعرة إلى أن كلامه تعالى ليس من جنس الحروف والأصوات بل هو معنى قديم قائم بذاته تعالى يسمّى الكلام النفسي وهو مدلول الكلام اللفظي المركب من الحروف.

قال الشارح الجديد للتجريد: واختلاف الأحوال مبنى على قياسين متعارضين **أحدهما** أن كلامه تعالى صفة له وكل ما هو صفة له فهو قديم فكلامه قديم **وثانيهما** أن كلامه مؤلف من أجزاء مترتبة متعاقبة في الوجود، وكلّما هو كذلك فهو حادث فكلامه حادث، فاضطروا إلى القدح في أحد القياسين ومنع بعض المقدمات لاستحالة حقية المتناقضين.

فالمعتزلة صححوا القياس الثاني وقدحوا في صغرى القياس الأول والحنابلة صحّحوا القياس الأول ومنعوا كبرى القياس الثاني، والكرامية صححوا القياس الثاني وقدحوا في كبرى القياس الأول، والأشاعرة صححوا القياس الأول ومنعوا من صغرى القياس الثاني.

إذا عرفت ذلك فنقول: الحق الموافق للتحقيق من هذه الأقوال كما قلنا هو القول الأول، لأن المتبادر إلى الفهم عند إطلاق لفظ الكلام هو المؤلف من الحروف والألفاظ دون المعنى، والتبادر علامة الحقيقة، وإطلاق لفظ المتكلّم عليه سبحانه على ذلك ليس باعتبار قيام الكلام به، لاستلزامه إثبات الجوارح، بل باعتبار خلقه الكلام في الأجسام النباتية والجمادية، وألسن الملائكة إما مجازاً من باب إطلاق اسم المسبب على السبّب، أو حقيقة كما هو الأظهر لأن المتكلّم مشتق من التكلّم أو من الكلام بمعناه المصدري كالسّلام ونحوه، والتكلّم والكلام بهذا المعنى بمعنى إيجاد اللفظ، ولا شك أن إيجاده قائم بالموجد كما أن التأثير قائم بالمؤثر.

فالمتكلم بصنعة الفاعل عبارة عن منشىء الكلام وموجده، وإنشاء الكلام وإيجاده لا قيام له إلا بالفاعل، كما أنه بصيغة المفعول عبارة عن نفس الكلام المؤلف ولا قيام له إلاّ بجوهر الهواء.

لا يقال: التكلم بمعنى إيجاد الكلام لم يجيء في اللغة.

لأنّا نقول: ذلك غير مسلم كيف والتكلم اللفظي عند الأشاعرة ليس إلاّ بهذا الاعتبار وهم قد صرّحوا بكون الكلام مشتركاً لفظاً بين اللّفظي والنفسي كما ستعرفه وعلى هذا فيكون إطلاق المتكلم عليه بمعنى موجد الكلام حقيقة لا مجازاً.

قال صدر المتألهين في كتاب المبدأ والمعاد: المتكلم عبارة عن محدث الكلام في جسم من الأجسام كالهواء وغيرها، فأنا إذا تكلمنا أحدثنا الكلام في بعض الأجسام التي لنا قدرة على تحريكها، فالمتكلم ما قام به التكلم لا ما قام به الكلام كما توهم، والتكلم بمعنى ما به يحصل الكلام فينا ملكة قائمة بذواتنا بها نتمكن من إفادة مخزوناتنا العلمية على غيرنا، وفي الواجب تعالى عين ذاته من حيث أنه يخلق الأصوات والحروف في أي موضع كان من الأجسام لإفادة ما في قضائه السابق على من يشاء من عباده.

وما أثبته المتكلّمون من الكلام النفسي فإن كان له معنى محصل فيرجع إلى خطرات الأوهام، أو يحتمل ما يوجد من الكلام، ولا شك في براءته تعالى عنه وعن سائر ما يتخيله العوام.

واستدل الحنابلة على أن كلامه مؤلّف من الحروف والأصوت بأن كلامه مسموع ولا مسموع إلا الحروف والصّوت فكلامه ليس إلا الحروف والصّوت أما الصّغرى فلقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وأما الكبرى فظاهرة، ثم أثبتوا كونه قديماً بأنه لو كان حادثاً لكان إما قائماً بذاته أو بغيره أو لا في محل والأقسام الثلاثة كلها باطلة أما الأول فلاستلزامه كون الذات محلاً للحوادث وهو حينئذ كما ستعرفه، وأمّا الثاني فلامتناع أن يقوم صفة الشيء بغيره، وأمّا الثالث فلاستحالة قيام العرض في الوجود بلا محل فثبت أنه صفة قديمة.

والجواب: أن كونه حرفاً وصوتاً يستلزم حدوثه بالضرورة وتعليل قدمه بأن حدوثه مستلزم لأحد الأقسام الثلاثة الباطلة فيه أن منع بطلان القسم الثاني لما لا يجوز أن يقوم بغيره وإن اشتق له منه خلقه ولا امتناع في ذلك حسبما عرفت.

وأما الكرامية فبطلان مذهبهم بعد بطلان جواز حلول الحوادث على الذات واضح، وجهة بطلانه أن وجوب الوجود ينافي ذلك، لأن حدوث الحوادث فيه يدل على تغيره وانفعاله وذلك ينافي الوجوب الذاتي، ولأن المقتضى لذلك الحادث إن كان ذاته لم يكن حادثاً وإن كان غيره يلزم الافتقار، ولأن الحادث إن كان صفة نقص استحال اتصاف الذات بها وإن كان صفة كمال امتنع خلوه عنها والمفروض أنها حادثة أي موجودة بعد العدم فحيث كانت معدومة كانت الذات خالية عنها.

وأما الأشاعرة فبيّنوا مرادهم من الكلام النفساني أولاً واستدّلوا على إثباته ثانياً وأثبتوا كونه قديماً ثالثاً، ثم قالوا إنه واحد مع أنه أمر ونهي وخبر واستخبار وغيرها.

قال الآمدي: ليس المراد من إطلاق لفظ الكلام إلا المعنى القائم بالنفس، وهو ما

يجده الإنسان من نفسه إذا أمر غيره أو نهاه أو أخبره أو استخبر منه، وهذه المعاني هي التي يدل عليها بالعبارات وينبه عليها بالإشارات.

وقال عمر النسفي ـ وهو من أعاظم الأشاعرة ـ في عقائده: وهو أي الله سبحانه متكلم بكلام هو صفة له أزلية ليس من جنس الحروف والأصوات، والله متكلم بها آمرٌ نَاهٍ مخبر والقرآن كلام الله غير مخلوق، وهو مكتوب في مصاحفنا محفوظ في قلوبنا مقر بألسنتنا مسموع بآذاننا غير حالٍ فيها.

وقال التفتازاني في شرحه ما محصله: إنّ الإجماع والتواتر قد قام على كونه تعالى متكلماً بكلام هو صفة له، ضرورة امتناع إثبات المشتق من غير قيام مأخذ الاشتقاق به، وهذه الصفة معنى قائم بالذات وقديمة، ضرورة امتناع قيام الحوادث بذات الله سبحانه، وليس من جنس الحروف والأصوات، ضرورة حدوثها لأن التكلم ببعضها مشروط بانقضاء الآخر بل عبّر عنها بها ويسمّى المعبر به بالقرآن المركب من الحروف وهي صفة واحدة تتكثر إلى الأمر والنهي والخبر باختلاف التعلقات كالعلم والعقدرة وسائر الصفات، فهذه الصفة الواحدة باعتبار تعلقها بشيء على وجه مخصوص يكون خبراً، وباعتبار تعلقها بشيء آخر على وجه آخر يكون أمراً وهكذا.

والقرآن الذي هو كلام الله سبحانه القائم بذاته غير حادث ومكتوب في مصاحفنا بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه محفوظ في قلوبنا بألفاظ المخيلة مقر بألسنتنا بحروفه الملفوظة المسموعة، مسموع بآذاننا بهذه أيضاً.

ومع ذلك كله ليس حالاً في المصاحف ولا في القلوب والألسنة والأذهان، بل معنى قديم قائم بذات الله سبحانه يلفظ ويسمع بالنظم الدال عليه ويحفظ بالنظم المخيل ويكتب بالنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف الدالة عليه كما يقال النار جوهر مجرّد يذكر باللفظ وتكتب بالقلم ولا يلزم منه كون حقيقة النار صوتاً وحرفاً.

وتحقيقه أن للشيء وجوداً في الأعيان، ووجوداً في الأذهان ووجوداً في العبارة ووجوداً في الكتاب فالكتابة تدل على العبارة وهي على ما في الأذهان وهو على ما في الأعيان فحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم القديم كما في قولنا: القرآن غير مخلوق، فالمراد حقيقته الموجودة في الخارج، وحيث يوصف بما هو من صفات المخلوقات والمحدثات يراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة كما في قولنا: قرأت نصف القرآن، أو المخيّلة كما في قولنا: حفظت القرآن أو الأشكال المنقوشة كما في قولنا: يحرم للمحدث مس القرآن.

ولما كان دليل الأحكام الشرعية هو اللفظ دون المعنى القديم عرفه أئمة الأصول

بالمكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر وجعلوه اسماً للنظم والمعنى جميعاً أي للنظم من حيث الدلالة على المعنى لا لمجرد المعنى.

ثم قال في آخر كلامه: والتحقيق أن كلام الله اسم مشترك بين الكلام النفسي القديم ـ ومعنى الإضافة كونه صفة له ـ وبين اللفظي الحادث ومعنى الإضافة أنه مخلوق الله تعالى ليس من تأليفات المخلوقين فلا يصح نفي كونه كلام الله.

وما في عبارة بعض المشايخ من أنه مجاز فليس معناه أنه غير موضوع للنظم المؤلف، بل معناه أن الكلام في التحقيق وبالذات اسم للمعنى القائم بالنفس وتسمية اللفظ به وضعه لذلك إنما هو باعتبار دلالته على معنى، انتهى ما أهمنا نقله من محصل كلامه بعد ردّ أوله إلى آخره، وهذا القدر كاف في بيان مرادهم من الكلام النفسي.

واستدلوا على إثباته بقول الأخطل

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقول القائل: في نفسي كلام أريد أن أذكره لك.

وبأن الألفاظ الذي تتكلّم بها مدلولات قائمة بالنفس، وهذه المدلولات هي الكلام النفساني وهو أمر غير العلم مدلول الخبر إذا أخبر بشيء إذ ربما يخبر الرجل عمّا لا يعلمه بل يعلم خلافه أو يشك فيه، فالخبر عن الشيء غير العلم به وغير الإرادة أيضاً عندنا أمر لأنه قد يأمر بما لا يريده كالمختبر لعبده هل يطيعه أم لا وكالمعتذر من ضرب عبده بعصيانه فإنه قد يأمره وهو يريد أن لا يفعل المأمور به ليظهر عذره عند من يلومه، فإن مقصود المتكلم في هذين الأمرين ليس الإتيان بالمأمور بل مجرد الاختبار والاعتذار وغير الكراهة أيضاً إذا نهى لأنه قد ينهى الرجل عمّا لا يكرهه بل يريده في صورتي الاختبار والاعتذار.

واعترض على دليلهم الأوّل بمنع كون البيت من الأخطل، وعلى تسليمه فليس حجة لأنه مبني على اعتقاده ثبوت الكلام النفسي تقليداً أو على أنه لما كان ما في الضمير مدلولاً عليه بالكلام فاطلق عليه من باب إطلاق اسم الدال على المدلول وحصره فيه تنبيها على أنه آلة يتوصل بها إليه فكأنه المستحق لاسم تلك الآلة.

وعلى دليلهم الثاني بمنع ما ذكروه من أنَّ مدلول الخبر غير العلم معلّلاً بأنه قد يخبر عما لا يعلمه، إذ لقائل أن يقول: إن المعنى النفسي الذي يدّعون أنه غير العلم هو إدراك مدلول الخبر أعني حصوله في الذهن مطلقاً يقينياً كان أو مشكوكاً فلا يكون مغايراً للعلم.

وبعبارة أخرى: أن هذا إنما يدل على مغايرته للعلم اليقيني لا للعلم المطلق، ضرورة أن كل عاقل تصدى للأخبار يحصل في ذهنه صورة ما أخبر به ومنع أنه مغاير للإرادة

والكراهة عند الأمر أو النهي، إذ ما تشبثوا به من صورتي الاختبار والاعتذار فيه إن الموجود في هاتين الصورتين صيغة الأمر والنهي لا حقيقتها إذ لا طلب فيهما أصلاً ولا إرادة ولا كراهة قطعاً، وبالجملة فما يدّعونه غير معقول لأنه ليس له تعالى صفة زائدة على الذات أصلاً ولو كان عين الذات فمرجعه إلى العلم أو الإرادة أو الكراهة أو سائر الصفات.

وتوضيح ذلك أنه إذا صدر عن المتكلم خبر فهناك ثلاثة أشياء **أحدها**: العبارة الصادرة **والثاني**: علمه بثبوت النسبة أو انتفائها بين طرفي القضية **والثالث**: ثبوت تلك النسبة أو انتفاؤها في الواقع، والأخيران ليسا كلاماً حقيقياً اتفاقاً، فتعين الأول وإذا صدر عنه أمر أو نهي فهناك شيئان: **أحدهما** لفظ صادر عنه، **والثاني** إرادة أو كراهة قائمة بنفسه متعلقة بالمأمور به أو بالمنهى عنه وليستا أيضاً كلاماً حقيقياً اتفاقاً فتعين الأول.

واستدلوا على قدمه بمثل ما استدل به الحنابلة من الدليل الذي قدمناه والجواب الجواب.

واستدلوا على إتحاده بأنه إذا ثبت الكلام النفسي كان كسائر الصفات مثل العلم والقدرة فكما أن العلم صفة واحدة تتعلق بمعلومات متعدّدة وكذا القدرة كذلك الكلام صفة واحدة تنقسم إلى الأمر والنهي والخبر والاستفهام والنداء وهذا بحسب التعلق فذلك الكلام باعتبار تعلقه بشيء على وجه مخصوص يكون خبراً، وباعتبار تعلّقه بشيء آخر أو على وجه آخر يكون أمراً وكذا البواقي.

وفيه أن وحدته متفرعة على ثبوت أصله وحيث عرفت فساد الأصل ففساد الفرع ظاهر.

قال العلامة الحلي قدس الله روحه: المعقول من الكلام على ما تقدم أنه الحروف والأصوات المسموعة وهذه الحروف المسموعة إنما تتم كلاماً مفهوماً إذا كان الانتظام على أحد الوجوه التي يحصل لها الإفهام، وذلك بأن يكون خبراً أو أمراً أو نهياً أو استفهاماً أو تنبيهاً وهو الشامل للتمني والترجي والتعجب والقسم والنداء ولا وجود له إلا في هذه الجزئيات.

والذين أثبتوا قِدَم الكلام اختلفوا فذهب بعضهم إلى أن كلامه تعالى واحد مغاير لهذه المعاني، وذهب آخرون إلى تعدّده، والذين أثبتوا وحدته خالفوا جميع العقلاء في إثبات شيء لا يتصوّرونه هم ولا خصومهم، ومن أثبت لله وصفاً لا يعقله ولا يتصوّره هو ولا غيره كيف يجوز أن يجعل إماماً يقتدى به ويناط بكلامه الأحكام.

تكملة

قد أشرنا إلى أن هذا الكلام مروي عنه عليه السلام في غير واحد من الأصول المعتبرة بطرق مختلفة مع اختلاف في متنه، وينبغي أن نروي ما فيها على ما جرى عليه ديدننا في هذا الشرح فأقول:

روى ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني قدّس الله روحه في باب جوامع التوحيد عن محمد بن أبي عبد الله رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة إذ قام إليه رجل يقال له ذعلب ذو لسان بليغ في الخطب شجاع القلب فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟ فقال عليه السلام: ويلك يا ذعلب ما كنت أعبد رباً لم أره، فقال: يا أمير المؤمنين كيف رأيته؟ فقال: ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذعلب إن ربي لطيف اللطافة لا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعِظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، قبل كل شيء لا يقال شيء قبله، وبعد كل شيء لا يقال له بعد، شاء الأشياء لا بهمّة، درّاك لا بخديعة، في الأشياء كلّها غير متمازج بها ولا باين منها، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجل لا باستهلال رؤية، ناء لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسم، موجود لا بعد عدم، فاعل لا باضطرار، مقدر لا بحركة، مريد لا بهمامة، سميع لا بآلة، بصير لا بأداة، لا تحويه الأماكن، ولا تضمنه الأوقات، ولا تحدّه الصفات، ولا تأخذه السنات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، وبمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، واليبس بالبلل، والخشن باللين، والصرد بالحرور، مؤلف بين متعادياتها، مفرق بين متدانياتها، دالة بتفريقها على مفرّقها وبتأليفها على مؤلّفها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩] ففرّق بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد له، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرزها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه، كان ربّاً إذ لا مربوب، وإلهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم، وسميعاً إذ لا مسموع[١].

وفي الاحتجاج روى أهل السير أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الله أرايته حين عبدته؟ فقال أمير المؤمنين: لم أك بالذي أعبد من لم أره، فقال له: كيف رأيته يا أمير المؤمنين؟ فقال له: ويحك لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن

(١) الكافي: ١/١٣٩ ح٤، وشرح أصول الكافي: ٤/١٦٣.

رأته العقول بحقائق الإيمان، معروف بالدلالات منعوت بالعلامات، لا يقاس بالناس، ولا يدرك بالحواس.

فانصرف الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[١].

وفي الإرشاد للمفيد روى أهل السيرة وعلماء النقلة أن رجلاً جاء ـ وساق الحديث إلى قوله: حيث يجعل رسالته ـ نحو ما رويناه عن الاحتجاج.

وفي الكافي في باب إبطال الرؤية عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الموصلي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء حبر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك حين عبدته؟ قال: فقال: ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره، قال: وكيف رأيته؟ قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان[٢].

(١) الكافي: ١/ ٩٧ ح٥، والأمالي للصدوق: ٣٥٢ ح٤٢٧.

(٢) شرح أصول الكافي: ٣/ ١٧٩ ح٥، وميزان الحكمة: ٣/ ١٩٠٥ ح٣٥ ح٢.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن مقتداى انام (عليه السلام) است كه فرموده است آن را، درحالتى كه سؤال كرد از آن بزرگوار ذعلب يمانى؛ پس گفت: آيا ديده اى پروردگار خود را اى اميرمؤمنان؟ پس فرمود آن حضرت: آيا عبادت مى كنم چيزى را كه نمى بينم؟ گفت ذعلب: چطور مى بينى او را؟ فرمود:

درك نمى تواند بكند او را چشم ها را مشاهده معاينه، ولكن درك مى كند او را قلب ها با نورهاى ايمان، نزديك است پروردگار عالمين از اشياء، درحالتى كه چسبان نيست به آنها، اراده كننده است بدون عزم و همّت، صاحب صنعت است نه با اعضا و جوارح، لطيف است كه متّصف نمى شود با حاسه بصر، رحيم است موصوف نمى شود با رقّت قلب، ذليل مى شود روى هاى مخلوقات از براى عظمت او ومضطرب مى شود قلب هاى خلق از ترس او.

ومن خطبة له عليه السلام في ذم أصحابه وهي المائة والتاسعة والسبعون من المختار في باب الخطب

أَحْمَدُ اللّهَ عَلَىٰ ما قَضىٰ مِنْ أمرٍ، وقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلائِي بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتي إذا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وإذا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ، إنْ أَمهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وإنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ، وإن اجْتَمَعَ النّاسُ عَلَىٰ إمامٍ طَعَنْتُمْ، وإنْ أَجِئْتُمْ إلىٰ مَشاقَّةٍ نَكَصْتُمْ، لاَ أَباً لِغَيْرِكُمْ، مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، وَالْجِهادِ عَلَىٰ حَقِّكُمْ، ألمَوْتَ أَوِ الذُّل لَكُمْ، فَوَاللّهِ لَئِنْ جاءَ يَوْمِي ولياتيني لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنا لِصُحْبَتِكُمْ قالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ، لِلّهِ أَنْتُمْ أما دينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ، أو لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفاةَ الطَّغامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلاَ عَطاءٍ، وَأَنا أدْعُوكُمْ وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الإِسْلاَمِ وَبَقِيَّةُ النّاسِ إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طائِفَةٍ مِنَ الْعَطاءِ فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ، إنَّهُ لاَ يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رضاً فَتعرْضَوْنَهُ، وَلاَ سَخَطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ أَحَبَّ ما أنا لاَقٍ إلَيَّ الْمَوْتُ، قَدْ دارَسْتُكُمُ الْكِتابَ، وَفاتَحْتُكُمْ الْحِجاجَ، وعَرَّفْتُكُمْ ما أَنْكَرْتُمْ، وسَوَّغْتُكُمْ ما مَجَجْتُمْ لَوْ كَانَ الْأَعْمىٰ يَلْحَظُ، أو النائِمُ يَسْتَيْقِظُ، وأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الجَهْلِ بِاللّهِ قائِدُهُمْ مُعاوِيَةُ، وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النّابِغَةِ[1].

اللغة

(**أمهله**) أي رفق به وآخره وفي بعض النسخ أهملتم أي تركتم و(**خرتم**) بالخاء المعجمة والراء المهملة من الخور بمعنى الضعف أو من خوار الثور وهو صياحه قال تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ٤٨]، وعن بعض النسخ جرتم بالجيم من جار أي عدل عن الحق و(**طعنتم**) في بعض النسخ بالظاء المعجمة ارتحلتم وفارقتم و(**أجبتم**) بالجيم والباء المعجمة على البناء على المعلوم من أجاب إجابة، وفي نسخة الشارح المعتزلي أجئتم بالهمزة الساكنة بعد الجيم المكسورة والبناء على المجهول أي الجئتم قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣].

و(**النكوص**) الرجوع إلى ما وراء قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] و(**شحذت**) النصل والسكين حدّتهما و(**الجفاة**) جمع الجافي وهو الغليظ من الناس و(**الطغام**) بالطاء المهملة والغين المعجمة أرازل الناس وأوغادهم الواحد والجمع سواء و(**التريكة**) بيضة النعامة يتركها في مجثمها و(**درس**) الكتاب قرأ و(**ساغ**) الشراب دخل

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/٦٨، والغدير: ١٠/١٥٥.

في الحلق بسهولة قال الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلا أكاد أغصّ بالماء الفرات

ومججته من فمي أي رميت به.

الإعراب

يحتمل أن يكون ما في قوله: **(على ما قضا)** مصدرية وموصولة فيكون العائد محذوفاً.

وقوله: **(لا أب لغيركم)** قال الشارح البحراني: أصله لا أب والألف زائدة إما لاستثقال توالي أربع فتحات، أو لأنهم قصدوا الإضافة وأتوا باللام للتأكيد.

أقول: ويؤيد الثاني ما حكاه نجم الأئمة عن سيبويه من زيادة اللام في لا أبا لك.

وقال الشارح المعتزلي: الأفصح لا أب بحذف الألف، وأما قولهم لا أبا لك بإثباته فدون الأول في الفصاحة، كأنهم قصدوا الإضافة وأقحموا اللام مزيدة مؤكدة كما قالوا: يا تيم تيم عدى وهو غريب لأن حكم لا أن تعمل في النكرة فقط وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة والإضافة تعرف فاجتمع حكمان متنافيان فصار من الشواذ وقال أبو البقاء يجوز فيها وجهان آخران: **أحدهما** إنه أشبع فتحة الباء فنشأت الألف والاسم باق على تنكيره، **والثاني** أن يكون أبا لغة من قال لها أباً في جميع أحوالها، مثل عصا ومنه: أن أباها وأبا أباها[1].

وقوله: **(الموت أو الذل لكم)**، في أكثر النسخ برفعهما وفي بعضها بالنصب أما الرفع فعلى الابتداء و**(لكم)** خبر والجملة دعائية لا محل له من الإعراب، وأما النصب فبتقدير أرجو وأطلب فتكون دعائية أيضاً، وتحتمل الاستفهام أي أتنتظرون.

وقوله: **(فوالله لئن جاء يومي وليأتيني ليفرقن آه)**، جملة **(ليفرقن)** جواب للقسم واستغنى بها عن جواب الشرط، وجملة و**(ليأتني)** معترضة بين القسم والشرط وجوابيهما المذكور والمحذوف وتعرف نكتة الاعتراض في بيان المعنى وجملة: **(وأنا لصحبتكم قال)** منصوبة **(المحل)** على الحال، و**(بكم)** متعلّق بغير كثير قدم عليه للتوسع.

وقوله: **(لله أنتم)** قال الشارح المعتزلي: **(لله)** في موضع رفع لأنه خبر عن المبتدأ الذي هو أنتم، ومثله لله در فلان، ولله بلاد فلان، ولله أبوك، **(واللام)** ههنا فيها معنى التعجب، والمراد بقوله لله أنتم لله سعيكم أو لله عملكم كما قالوا: لله درك، أي عملك فحذف

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/٦٩.

المضاف وأقام الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه قال الشارح: ولا يجيء هذه اللام بمعنى التعجب في غير لفظ الله كما أن تاء القسم لم تأت إلا في اسم الله، انتهى.

وقال نجم الأئمة الرضي: قولهم إن لام القسم يستعمل في مقام التعجب يعنون الأمر العظيم الذي يستحق أن يتعجب منه فلا يقال لله لقد قام زيد، بل يستعمل في الأمور العظام نحو لله لتبعثن، وقيل إن اللام في لإيلاف قريش، وللفقراء الذين أحصروا للتعجب، والأولى أن يقال إنها للاختصاص إذ لم يثبت لام التعجب إلا في القسم انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: المستفاد من نص كلام الشارح أن **(لام التعجب)** مختصة بالدخول على لفظ الجلالة، ومن ظاهر كلام الرضي أنها ملازمة للقسم، ويشكل ذلك في نحو لله دره ولله أبوك ولله أنتم وما ضاهاها، لأنهم اتفقوا على أنها في هذه الأمثلة للتعجب مع أنه لا معنى للقسم بل لا تصوير له فيها إذ لو كانت للقسم لاحتاجت إلى لاجواب وليس فليس.

وقد صرّح الرضي نفسه في مبحث التميز من شرح مختصر ابن الحاجب: بأن معنى لله دره فارساً، عجباً من زيد فارساً وهو يعطى أنها فيه للتعجب فقط لا للتعجب والقسم على أنها لو جعلت للقسم لا يكون لله خبراً مقدماً ودرّه مبتدأ ولا يكون للدر عامل رفع كما هو ظاهر لا يخفى.

وبعد اللّتيا واللّتي فالتحقيق أن يقال: إن اللام قد تكون للتعجب مجرّدة عن القسم ولا يلزم دخولها على لفظ الجلالة كما زعمه الشارح المعتزلي بل قد تدخل عليه كما في لله دره فارساً ولله أنت وقوله:

شباب وشيب وافتقار وثروة فلله هذا الدّهر كيف تردّدا

وقد تدخل على غيره كما في لإيلاف قريش أي أعجبوا لإيلاف قريش كما حكاه في الكشاف عن بعضهم وفي قوله:

فيا لك من ليل كأنّ نجومه بكلّ مغار القتل شدت بيذبل

وقد تكون للتعجّب والقسم معاً، وهذه مختصة بالدّخول علة لفظ الجلالة كما في: لله لا يؤخر الأجل، وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ لَتُبْعَثَنَّ﴾ وقول الشاعر:

لله يبقى على الأيام ذوحيد بمشمخرّ به الظبيان والآس

فقد ظهر من ذلك أن لام القسم ملازم للتعجّب غير ملازم للقسم كما زعمه الرّضي ولا للدّخول على لفظ الجلالة كما زعمه الشارح المعتزلي هذا.

وأما تحقيق معنى التعجب في هذه الموارد فهو ما أشار إليه الرّضي فيما حكى عنه

بقوله: وأمّا معنى قولهم لله درّك، فالدرّ في الأصل ما يدر أي ينزل من الضّرع من اللّبن ومن الغيم من المطر وهو هنا كناية عن فعل الممدوح والصادر عنه، وإنما نسب فعله إليه قصداً للتعجّب منه لأن الله تعالى منشىء العجائب، فكلّ شيء عظيم يريدون التعجب منه ينسبونه إليه تعالى ويضيفونه إليه نحو قولهم: لله أنت، ولله أبوك، فمعنى لله درّه ما أعجب فعله.

وقال عز الدّين الزنجاني في محكى كلامه من شرح الهادي: (لله درّه) كلام معناه التعجّب، والعرب إذا أعظموا الشيء غاية الإعظام أضافوه إلى الله تعالى وبأن هذا جدير بأن يتعجب منه لأنه صادر عن فاعل قادر مصدر للأشياء العجيبة هذا.

وقوله عليه السلام: أما دين يجمعكم، قال الشارح المعتزلي: ارتفاع دين على أنه فاعل فعل مقدر أي ما يجمعكم دين يجمعكم، اللّفظ الثاني مفسر للأوّل كما قدرناه بعد إذا في قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾، ويجوز أن يكون حمية مبتدأ والخبر محذوف تقديره أما لكم حمية، انتهى[1].

أقول: لزوم تقدير الفعل بعد أما إنما هو مسلم إن جعل أما مركبة حرف عرض بمنزلة لولا، لاختصاصها بالدخول على الفعل كما أن إذا مختصة بالدخول عليه، ولذلك احتيج إلى تقديره في الآية الشريفة، وأما إذا جعلنا الهمزة للاستفهام على سبيل الإنكار التوبيخي أو على سبيل التقرير و(ما) حرف نفي فلا حاجة إلى تقدير الفعل لأن (ما) على ذلك ما حجازية بمعنى ليس و(دين) اسمها و(يجمعكم) خبرها.

والظاهر من قول الشارح: أي ما يجمعكم أنه لا يجعلها حرف عرض وحينئذ فتقديره للفعل باطل، ثمّ إن تحويزه كون حمية مبتدأ والخبر محذوفاً فيه أنّ الأصل عدم الحذف مع وجود الجملة الصّالحة للخبرية، وإن أراد بالتجويز مجرّد الصحّة بالقواعد الأدبية فلا بأس به.

وقوله: (أوليس عجباً) استفهام تقريري، و(على) في قوله عليه السلام: على غير معونة، بمعنى مع كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ و(إلى) في قوله: (إلى المعونة)، متعلّق بقوله أدعوكم، وجملة: (وأنتم تريكة الإسلام) آه، معترضة بينهما فليس لها محلّ من الإعراب، ويحتمل كونها في محلّ النّصب على الحالية من مفعول أدعوكم ولكن الأول أظهر.

والضمير في قوله: (أنه للشأن)، وجواب (لو) في قوله لو كان الأعمى يلحظ أو النائم

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٧٠.

يستيقظ محذوف بدلالة الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، أي لكان هذا القرآن.

وقوله عليه السلام: **(وأقرب بقوم من الجهل بالله)**، فعل تعجب و**(الباء)** زائدة كما في أحسن بزيد قال سيبويه: أفعل صورته أمر ومعناه الماضي من فعل أي صار ذا فعل كألحم أي صار ذا لحم، و**(الباء)** بعده زائدة في الفاعل لازمة، وقد يحذف إن كان المتعجّب منه أن وصلتها نحو أحسن أن يقوم أي أن يقوم على ما هو القياس.

وضعف قوله بأن الأمر بمعنى الماضي مما لم يعهد بل الماضي يجيء بمعنى الأمر مثل اتقى امروء ربّه، وبأن أفعل بمعنى صار ذا فعل قليل ولو كان منه لجاز ألحم بزيد وأشحم به، وبأن زيادة الباء في الفاعل قليل والمطرد زيادتها في المفعول.

وقال الفراء وتبعه الزمخشري وغير: إن أحسن أمر لكل أحد بأن يجعل زيداً حسناً، وإنما يجعله كذلك بأن يصفه بالحسن فكأنه قيل: صفه بالحسن كيف شئت فإن فيه منه كل ما يمكن أن يكون في شخص كما قال الشاعر:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

وهذا معنى مناسب للتعجّب بخلاف تقدير سيبويه وأيضاً همزة الجعل أكثر من همزة صار كذا وإن لم يكن شيء منهما قياساً مطرداً، وعلى ذلك فهمزة أحسن به للجعل كهمزة ما أحسن والباء مزيدة في المفعول وهو كثير مطرد هذا.

وإنما لم يجمع لفظ أقرب مع كون المقصود بالخطاب غير مفرد، لأن فعل التعجّب لا يتصرف فيه فلا يقال: أحسنا وأحسنوا وأحسني وإن خوطب به مثنّى أو مجموع أو مؤنث، وسهل ذلك انمحاء معنى الأمر فيه أريد به محض إنشاء التعجّب ولم يبق فيه معنى الخطاب حتّى يثنى أو يجمع أو يؤنث.

ثمّ إنّه يجب أن يكون المتعجّب منه مختصاً فلا يقال ما أحسن رجلاً، لعدم الفائدة فإن خصّصته بوصف نحو رجلٌ رأيناه في موضع كذا جاز، ولذلك أتى بالجملة الوصفية أعني قوله قائدهم معاوية بعد قوله بقوم، لئلا يخلو عن الفائدة، فالجملة على ذلك في محل الجر على الصفة فافهم ذلك كله واغتنم.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام له عليه السلام كما نبّه عليه السيّد رحمه الله واردٌ في ذمّ أصحابه والتوبيخ لهم، والأشبه أنه عليه السلام قاله بعد التّحكيم وانقضاء أمر الحكمين تقريعاً لأصحابه على القعود

عن قتال معاوية، فافتتح كلامه بحمد الله تعالة وثنائه على ما جرى عليه سيرته في أغلب كلماته الواردة في مقام الخطابة فقال:

(الحمد لله على ما قضى من أمر وقدر من فعل) يحتمل أن يريد بقوله قضى وقدر معنى واحداً وكذلك الأمر والفعل فيكونان مترادفين كالفعلين، وأن يريد بالقضاء الحكم الالهي بوجود الأشياء، وبعبارة أخرى هو عالم الأمر ولذا فسّره بقوله: من أمر، وبالقدر ما قدره من الخلق والإيجاد وبعبارة أخرى هو عالم الخلق ولذا بينه بقوله: من فعل، فيكون المعنى الثناء لله على قضائه وقدره على أمره وفعله أو على ما قضاه وقدره على مقتضياته من الأوامر والأحكام، وعلى مقدراته من الصنائع والأفعال وقد مضى تفصيل الكلام ومشبعاً في معنى القضاء والقدر في شرح الفصل التاسع من الخطبة الأولى.

وأقول هنا: إن قوله عليه السلام هذا مؤيد لما ذهب إليه أتباع الإشراقيين من أن القضاء عبارة عن وجود الصور العقلية لجميع الموجودات فائضة عنه تعالى على سبيل الإبداع دفعة بلا زمان، لكونها عندهم من جملة العالم ومن أفعال الله تعالى المباينة وذاتها لذاته، خلافاً لأتباع المشّائين كالشيخ الرئيس ومن يحذو حذوه فإنه عندهم عبارة عن صور علمية لازمة لذاته بلا جعل وتأثير وتأثر، وليست من أجزاء العالم، إذ ليست لها جهة عدمية ولا إمكانات واقعية.

وأما القدر فهو عبارة عن وجود صور الموجودات في العالم السماوي على الوجه الجزئي مطابقة لما في موادها الخارجية الشخصيّة مستندة إلى أسبابها وعللها لازمة لأوقاتها المعيّنة وأمكنتها المشخّصة هذا.

وعلى ما استظهرناه من ورود هذا الكلام عنه عليه السلام بعد التحكيم فيجوز أن يراد بما قضاه وقدره خصوص ما وقع من أمر الحكمين وإفضاء الأمر إلى معاوية، فإن كل ما يقع في العالم فلا يكون إلا بقضاء من الله وقدر، فيكون مساق هذا الكلام مساق قوله عليه السلام في الخطبة الخامسة والثلاثين: الحمد لله وإن أتى الدّهر بالخطب الفادح والحدث الجليل.

فإن قلت: فما معنى حمده على وقوع هذا الأمر مع أنه ليس نعمة موجبة للثناء.

قلت: اللازم على العبد الكامل في مقام العبوديّة والبالغ في مقام العرفان أن يحمد الله على بلاء الله سبحانه كما يحمد على نعمائه حسبما عرفت توضيحه في شرح قوله: نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه في الخطبة المأة والإحدى والثلاثين، ولما كان وقوع ما وقع بليّة له عليه السلام في الحقيقة لاجرم حمد الله سبحانه على ذلك.

ويفيد ذلك أيضاً قوله: **(وعلة ابتلائي بكم)** خصوصاً ما يروى في بعض النسخ: على ما

ابتلاني بكم (**أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع وإذا دعوت لم تجب**) والإتيان بهم إجمالاً عقبه بتفصيل جهات الابتلاء، وهو كونهم مخالفين له في جميع الأحوال متمردين عن طاعته عند الأمر بالقتال، متثاقلين عن إجابته عند الدّعوة إلى الحرب والجدال.

(**إن أمهلتم**) وعن بعض النسخ إن أهملتم أي تركتم على حالكم (**خضتم**) في لهو الحديث وفي الضلالة والأهواء الباطلة (**وإن حوربتم خرتم**) أي ضعفتم وجبنتم أو صحتم صياح الثور، وعن بعض النسخ جرتم بالجيم أي عدلتم عن الحرب فراراً (**وإن اجتمع الناس على إمام**) أراد به نفسه (**طعنتم**) على المجتمعين (**وإن أجبتم إلى مشاقة**) عدوّ أي مقاطعته ومصارمته (**نكصتم**) على أعقابكم ورجعتم محجمين (**لا أبا لغيركم**) دعاء بالذلّ وفيه نوع تلطف لهم حيث قال لغيركم ولم يقل لكم (**ما تنتظرون**) استفهام على سبيل التقريع والتوبيخ أي أيّ شيء تنتظرونه (**بنصركم**) أي بتأخير نصرتكم لدين الله (**و**) بتأخير (**الجهاد على حقكم**) اللازم عليكم وهو إعلاء كلمة الله (**الموت أو الذّل لكم**) قال الشارح المعتزلي: دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين كأنّه شرع داعياً عليهم بالفناء الكلي وهو الموت ثم استدرك فقال أو الذّل، لأنه نظير الموت في المعنى لكنه في الصّورة دونه، ولقد أجيب دعاؤه عليه السلام بالدعوة الثانية فإن شيعته ذلوا بعده في الأيام الأموية.

أقول: وقد مضى له معنى آخر في بيان الإعراب وعلى ذلك المعنى ففيه إشارة إلى تأخير الجهاد إما مؤد إلى الموت على الفراش أو الذّل العظيم على سبيل منع الخلوّ، وأهل الفتوة والمروة لا يرضى بشيء منهما، والقتل بالسيف في الجهاد عندهم ألذ وأشهى كما مرّ بيانه في شرح المختار المائة والثاني والعشرين.

ثم أقسم بالقسم البار بأنه إذا جاء موته ليكون مفارقته لهم عن قلى وبغض فقال: (**فوالله لئن جاء يومي**) الموعود (**وليأتيني**) جملة معترضة أتي بها لدفع إيهام خلاف المقصود.

بيان ذلك: أن لفظة إن وإذا الشرطيتين تشتركان في إفادة الشرط في الاستقبال لكن أصل إن أن يستعمل في مقام عدم الجزم بوقوع الشرط وأصل إذا أن يستعمل في مقام الجزم بوقوعه، ولذلك كان الحكم النادر الوقوع موقعاً لأن لكونه غير مقطوع به في الغالب، والحكم الغالب الوقوع مورداً لإذا وغلب لفظ الماضي معها لدلالته على الوقوع قطعاً نظراً إلى نفس اللفظ وإن نقل ههنا إلى معنى الاستقبال قال سبحانه مبيّناً لحال موسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ جيء في جانب الحسنة بلفظ الماضي مع إذا لأن المراد الحسنة المطلقة التي وقوعها به ولذلك عرفت بلام الجنس لأن وقوع الجنس والماهية كالواجب لكثرته وسعته، وفي جانب السيئة بلفظ المضارع مع إن لندرتها وقلّتها ولذلك نكرت لدلالة التنكير على القليل.

إذا عرفت ذلك فنقول: إن موته عليه السلام لما كان أمراً محققاً معلوم الوقوع كان المقام مقتضياً للإتيان بإذا، لكنه أتى بأن الموهمة لعدم جزمه عليه السلام به.

فاستدرك ذلك أولاً بالعدول في الشرط عن الاستقبال إلى الماضي حيث قال: جاء يومي ولم يقل يجيء إبرازاً لغير الحاصل في معرض الحاصل وكون ما هو للوقوع كالواقع بقوة أسبابه المعدة له مع ما فيه من إظهار الرغبة والاشتياق إلى حصول الشرط، فإن الطالب إذا عظمت رغبته في حصول أمر يكثر تصوره إياه فربما يخيل ذلك الأمر إليه حاصلاً فيعبر عنه بلفظ الماضي.

واستدركه ثانياً بقوله: وليأتيني، فنبه عليه السلام بهذين الاستدراكين على أنّه جازم بمجيء يومه الموعود قاطع به وأن مجيئه قريب الوقوع وهو مشتاق إليه وأشد حبّاً له من الطفل بثدي أمه كما صرح به في غير واحدة من كلماته، وهذا من لطائف البلاغة ومحسناتها البديعة التي لا يلتفت إليها إلا مثله عليه السلام هذا.

وقوله: **(ليفرّقن بيني وبينكم وأنا بصحبتكم قال)** يعني إذا جاء مماتي يكون فارقاً بيننا والحال أني مبغض لكم مستنكف عن مصاحبتكم **(وبكم غير كثير)** أي غير كثير بسببكم قوّة وعدّة لأن نسبتكم إليّ كالحجر في جنب الإنسان لا أعوان صدق عند مبارزة الشجعان، ولا إخوان ثقة يوم الكريهة ومناضلة الأقران.

(لله أنتم) أي لله درّكم وهو دار وفي مقام التعجب والمدح تلطفاً قال العلامة المجلسي رحمه الله: ولعله على سبيل الذم.

أقول: إن أراد انفهام الذم منه بقرينة المقام فلا بأس وإلا فهو خلاف ما أصطلحوا عليه من استعمالها في مقام المدح حسبما عرفته تفصيلاً في شرح الإعراب.

وقوله: **(أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم)** أي تحدد كم في معنى الطلب والترغيب على الاجتماع على الدين وملازمة الحمية سواء جعلنا أما حرف عرض وتحضيض أو الهمزة للاستفهام التوبيخي أو التقريري وما حرف نفي.

أمّا على الأول فواضح لأن معنى التحضيض في المضارع هو الحض على الفعل والطلب له فهو بمعنى الأمر وقلما يستعمل فيه إلاّ في موضع التوبيخ والذم على ما كان يجب أن يفعله المخاطب قبل أن يطلب.

وأمّا على جعل الهمزة للإنكار التوبيخي فكذلك لاقتضائه وقوع ما بعدها وكون فاعله ملوماً ولوم المخاطبين وتوبيخهم على عدم الدّين وترك الحميّة مستلزم لطلب الدين والحميّة منهم.

وأمّا على جعلها للتقرير فلأن معنى التقرير هو حمل المخاطب على الإقرار بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه، والمراد هنا التقرير بما بعد النفي أي تقرير المخاطبين وحملهم على الاعتراف بالدين الجامع والحمية الشاحذة وحملهم على الاعتراف بذلك في معنى طلبه منهم وحملهم عليهم حتى لا يكونوا كاذبين.

وإلى ذلك ينظر ما قاله العلامة التفتازاني: من أن العرض مولد من الاستفهام أي ليس باباً على حدة، فالهمزة فيه همزة الاستفهام دخلت على النفي وامتنع حملها على حقيقة الاستفهام لأنه يعرف عدم النزول مثلاً فالاستفهام عنه يكون طلباً للحاصل فتولد منه بقرينة الحال عرض النزول على المخاطب وطلبه، وهي في التحقيق همزة الإنكار، أي لا ينبغي لك أن لا تنزل وإنكار النفي إثبات.

وفيه أيضاً ومن مجيء الهمزة للإنكار أليس الله بكاف، أي الله كاف عبده، لأن إنكار النفي نفي له ونفي النفي إثبات، وهذا المعنى مراد من قال: إن الهمزة للتقرير بما بعد النفي النفي لا بالنفي، وهكذا ألم نشرح لك صدرك، وألم يجدك يتيماً، وما شبه ذلك، فقد قال: إن الهمزة للإنكار وقد يقال: إنها للتقرير وكلاهما حسن انتهى.

ومن ذلك علم أن الهمزة في قوله: **(أوليس عجباً)** أيضاً تحتمل الإنكار والتقرير كالجملة السابقة إلاّ أن بينهما فرقاً، وهو أن الإنكار في السابق للتوبيخ وهذا للإبطال، ومقتضاه أن يكون ما بعده غير واقع ومدّعيه كاذباً فيكون مفاده إنكار عدم العجب وأن من ادّعى عدمه فهو كاذب ويلزمه ثبوت العجب لأن نفي النفي إثبات كما مرّ في نحو: أليس الله بكاف عبده، وأما على كونها للتقرير فلا فرق بينهما لأنها هنا أيضاً للتقرير بما بعد النفي أي حملهم على الإقرار بثبوت العجب.

وعلى أي تقدير فالمقصود من الكلام بقرينة الحال والمقام حثهم على رفع ما أوجب التعجب من قبلهم وهو تفرقهم عنه واختلافهم عليه.

كما أشار إلى تفصيله بقوله: **(إن معاوية يدعو الجفاة الطغام)** أي الأراذل والأوغاد من الناس **(فيتبعونه)** ويجيبون دعوته **(على غير معونة ولا عطاء)** قال الشارح المعتزلي: الفرق بينهما أن المعونة إلى أن يجد شيء يسير من المال يرسم لهم لترميم أسلحتهم وإصلاح دوابهم ويكون ذلك خارجاً عن العطاء المفروض شهراً فشهراً والعطاء المفروض شهراً فشهراً يكون شيئاً له مقدار يصرف في أثمان الأقوات ومعونة العيال وقضاء الدّيون.

فإن قلت: كيف يجتمع قوله فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء بما هو المعروف من بذل معاوية وإنه يمد جيشه بالأموال والرغائب.

قلت: قد أجاب عنه الشارح المعتزلي: بأن معاوية لم يكن يعطي جنده على وجه المعونة والعطاء، وإنما كان يعطي رؤساء القبائل من اليمن وساكني الشام الأموال الجليلة يستعبدهم بها ويدعو أولئك الرؤساء أتباعهم من العرب فيطيعونه، فمنهم من يطيعهم حمية ومنهم من يطيعهم ديناً للطلب بدم عثمان، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير، وأما أمير المؤمنين فإنه كان يقسم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرزق لا يرى شريف على مشروف فضلاً[1].

وإلى ذلك إشار بقوله: **(وأنا دعوكم وأنتم تريكة الإسلام وبقية)** المسلمين من **(النّاس)** لا يخفي ما في الإتيان بهذه الجملة من النكتة اللّطيفة وهو الإلهاب لهم والتهييج على المتابعة واستعار لفظ التريكة لكونهم خلف الإسلام وبقيّته كالتريكة التي يتركها النعامة. أي أدعوكم مع كونكم خلف الإسلام وبقيّة السّلف وأولى النّاس بالقيام على مراسمه وبسلوك نهج الأسلاف **(إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتفرقون عني)** وتقاعدون **(وتختلفون عليّ)** ولا تجتمعون.

وعمدة أسباب التفرق والتقاعد هو ما أشرنا إليه هنا إجمالاً وقدمناه في شرح الخطبة الرابعة والثلاثين تفصيلاً من تسويته عليه السلام في العطاء بين الشريف والوضيع والرّئيس والمرؤوس والموالي والعبيد، فكان الرؤساء من ذلك واجدين في أنفسهم فيخذلونه باطناً وينصرونه ظاهراً، وإذا أحس الأتباع بتخاذل الرّؤساء تخاذلوا أيضاً فلم يكن يجد عليه السلام لما أعطى الأتباع من الرّزق ثمرة، لأن قتال الأتباع لا يتصوّر وقوعه مع تخاذل الرّؤساء فكان يذهب ما يعطيهم ضياعاً، هذا.

وقد تحصل من قوله عليه السلام: أو ليس عجباً، إلى قوله: تختلفون، على أن منشأ تعجّبه عليه السلام أمور.

أوّلها: أن داعيهم معاوية إمام القاسطين وداعي هؤلاء أمير المؤمنين إمام المتقين والأوّل يدعوهم إلى درك الجحيم والثّاني يدعوهم إلى نضرة النعيم.

وثانيها: أن المدعوّ هناك الأوغاد الطغام مع خلوهم غالباً عن الغيرة والحميّة وههنا تريكة الإسلام وبقية أهل التقوى والمروّة.

وثالثها: متابعة الأوّلين على إمامهم من غير معونة ولا عطاء ومخالفة الآخرين لإمامهم مع المعونة والعطاء.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٧١.

ثمّ أشار إلى مخالفتهم له عليه السلام في جميع الأحوال فقال: **(إنه لا يخرج إليكم من أمري رضا فترضونه ولا سخط فتجتمعون عليه)** أي لا يخرج إليكم من أمري شيء من شأنه أن يرضى به كالمعونة والعطاء فترضونه أو من شأنه أن يسخط منه كالحرب والجهاد لكراهة الموت وحبّ البقاء فتجتمعون عليه، بل لا بدّ لكم من المخالفة والتفرق على الحالين أي لا تقبلون من أمري وما أقول لكم شيئاً سواء كان فيه الرّضا أو السخط.

ثمّ قال: **(وإن أحب ما أنا لاق إليّ الموت)** أي أحب الأشياء إليّ لقاء الموت قال الشارح المعتزلي: وهذه الحال التي ذكرها أبو الطيّب فقال:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً ... وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن أرى ... صديقاً فأعيا أو عدوّاً مراجيا

ثمّ أشار عليه السلام إلى جهة محبّته للقاء الموت وكراهته لصحبتهم، وهو تثقالهم من إجابة الحق وعدم قبولهم لمواعظه ونصائحه، وذلك معمى قوله: **(قد دارستكم الكتاب)** أي قرأته عليكم للتعليم وقرأتم عليّ للتعلّم **(وفاتحتكم الحجاج)** أي حاكمتكم بالمحاجة والمجادلة **(وعرفتكم ما أنكرتم)** أي عرفتكم ما كانت منكرة مجهولة عندكم من طريق الصّلاح والسّداد وما فيه انتظام أمركم في المعاش والمعاد **(وسوّغتكم ما مججتم)** أي أعطيتكم من الأرزاق والأموال ما كنتم محرومين عنها فاستعار لفظ التسويغ للإعطاء، والجامع سهولة التناول كما استعار لفظ المج وهو اللفظ من الفم للحرمان، والجامع امتناع الامتناع.

وقوله: **(لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ)** أي لو كان الأعمى يلحظ لأبصرتم، ولو كان النائم يستيقظ لانتبهتم، وهو تعريض عليهم بأن لهم أعيناً لا يبصرون بها، وآذاناً لا يسمعون بها، وقلوباً لا يفقهون بها، فهم صمّ بكم عمي وهم لا يعقلون.

ثمّ تعجّب من حال أهل الشام ومتابعتهم على معاوية فقال: **(وأقرب بقوم)** قد مر لطف هذه اللّفظة وإفادتها للمبالغة في التعجّب في بيان الإعراب أي ما أشدّ قرب قوم **(من الجهل بالله)** وبشرائعه وبأحكامه **(قائدهم معاوية)** المنافق بن الكافر **(ومؤدبهم)** ومشيرهم **(ابن النابغة)** الغادر الفاجر، وأراد به عمرو بن العاص اللّعين وطوى عن ذكر اسمه تحقيراً وتعريضاً على خسّته ودناءته، وقدحاً في نسبه على ما عرفته تفصيلاً في شرح المختار الثالث والثمانين.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام أنام است (عليه السلام) در مذمّت اصحاب خود، مى فرمايد:

حمد و ثنا مى كنم معبود به حق را بر آن چه قضا فرمود از هر امر و تقدير كرد از هر فعل و بر امتحان شدن من به شما؛ اى گروهى كه چون امر مى كنم مرا اطاعت نمى نماييد و اگر دعوت كنم، اجابت نمى كنيد و اگر مهمل گذاشته شويد يا مهلت داده شده باشيد، غوص مى كنيد در لغو و باطل و اگر محاربه كرده شويد، ضعيف مى باشيد يا صدا مى كنيد مثل صداى گاو و اگر جمعيت نمايند مردم بر امامى، طعنه مى زنيد يا اين كه مفارقت مى نماييد و اگر خوانده شويد يا ملجأ شويد به سوى مشقّت يعنى محاربه، بازمى گرديد.

بى پدر باشد غير شما، چه انتظار مى كشيد با تأخير يارى كردن و مجاهده نمودن بر حق خودتان، مرگ يا ذلّت باد از براى شما، پس سوگند به خدا اگر بيايد روز وفات من و البته خواهد آمد، هرآينه جدايى مى اندازد ميان من و ميان شما، درحالتى كه من دشمن گيرنده باشم صحبت شما را و در حالتى كه من به سبب شما صاحب كثرت قوّت و زيادتى شوكت نمى باشم، از براى خدا است خير شما، آيا نيست دينى كه جمع نمايد شما را؟ آيا نيست حميّت غيرتى كه باعث حدّت شما بشود؟ آيا نيست عجيب اين كه معاويه دعوت مى كند جفاكاران و فرومايگان را، پس متابعت مى كنند بر او بدون اين كه جيره و مواجبى به آن ها بدهد ومن دعوت مى كنم شما را در حالتى كه شما پس مانده اسلام و بقيه مردمان هستيد به سوى معونت يا طايفه از عطاء، پس متفرّق مى شويد و اختلاف ميورزيد بر من.

به درستى كه خارج نمى شود به سوى شما از امر من چيزى كه متضمّن رضا و خوشنودى است، پس خوشنود بشويد از آن يا چيزى كه متضمّن سخط و خشم است، پس اجتماع نماييد بر آن و به درستى كه دوست ترين چيزى كه من ملاقات كننده ام به سوى من مرگ است، به تحقيق كه من درس گفتم شما را كتاب خدا را و محاكمه كردم با شما با اجتماع و شناساندم شما را چيزى را كه نمى دانستيد و

گوارا ساختم از برای شما چیزی را که از دهان انداخته بودید اگر نابینا می دید یا این که خواب کننده بیدار می شد، چقدر نزدیك است قومی از جهالت به خدا که پیشوای ایشان معاویه است و ادب دهنده ایشان پسر زن زناکار (که عبارت است از عمرو بن عاص بی دین).

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثمانون من المختار في باب الخطب

وهو مروى في البحار وفي شرح المعتزلي وفي شرح المختار الرابع والأربعين جميعاً من كتاب الغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي باختلاف تطلع عليه.

قال السيّد عليه السلام وقد أرسل رجلاً من أصحابه يعلم له علم قوم من جند الكوفة قد هموا باللّحاق بالخوارج وكانوا على خوف منه عليه السلام فلما عاد إليه الرجل قال عليه السلام له:

أَآمِنُوا فَقَطَنُوا أَمْ جَبُنُوا فَظَعَنُوا؟ فقال الرجل بل ظعنوا يا أمير المُؤمنين

فقال عليه السلام:

بُعْداً لَهُمْ كَما بَعُدَتْ ثَمُودُ أَما لَوْ أُشْرِعَتِ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ وَصُبَّتِ السُّيوفُ عَلَىٰ هاماتِهِمْ لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى ما كانَ مِنْهُمْ، إِنَّ الشَّيْطانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَفَلَّهُمْ وَهُوَ غداً مُتَبَرِّىءٌ مِنْهُمْ، ومُخَلٍّ عَنْهُمْ فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَىٰ وَارِتْكاسِهِمْ في الضَّلالِ وَالْعَمىٰ وصَدِّهِمْ عَنِ الحَقِّ وَجِماحِهِمْ في التِّيهِ[1].

اللغة

(يعلم له) مضارع علم و**(قطن)** بالمكان من باب قعد أقام به وتوّطنه فهو قاطن و**(ظعن)** ظعناً من باب منع ارتحل والاسم ظعن بفتحتين **(وبعد)** بالضم بعداً ضد قرب فهو بعيد وبالكسر من باب تعب هلك و**(ثمود)** قوم صالح النبي عليه السلام وسموا باسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عامر بن أرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت القبيلة بذلك لقلّة مائها من الثمد وهو الماء القليل وكانت مساكنها بين الحجاز والشام إلى وادي القرى و**(أشرعت)** الرمح إلى زيد سددته وصوّبته نحوه و**(الهامات)** جمع الهامة راس كل شيء قال الشاعر:

تذر الجماجم ضاحياً هاماتها بله الأكف كأنها لم تخلق

(قد استفلّهم) في أكثر النسخ بالفاء أي وجدهم فلاّ لا خير فيهم أو مفلولين منهزمين، وفي بعضها بالقاف أي حملهم قال سبحانه: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾، أو اتخذهم قليلاً وسهل عليهم أمره، وفي بعضها استفزهم أي استخفهم، وفي بعضها استقبلهم أي قبلهم.

---

(١) الغارات: ١/ ٣٤٧، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤١٠.

و(**الركس**) قال الجوهري: هو ردّ الشيء مقلوباً، وارتكس فلان في أمر كان قد نجا منه وقال الفيومي: ركست الشيء ركساً من باب قتل قلبته ورددت أوله على آخره، وأركسته بالألف رددته على رأسه و(**جمح**) الفرس من باب منع اعتز فارسه وغلبه فهو جموح.

الإعراب

(**بعداً لهم**) منصوب على المصدر، (**وثمود**) بدون التنوين غير مصروف إذا أريد به القبيلة، ومع التنوين على الانصراف وإرادة الحي، أو باعتبار الأصل لأنه اسم أبيهم الأكبر قاله الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًاۚ﴾ وبهما قرأ أيضاً في الآية، و(**الباء**) في قوله: بخروجهم، زائدة ما زيدت في كفى بالله.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام كما أشار إليه السيّد قاله عليه السلام (**وقد أرسل رجلاً من أصحابه**) وهو عبد الله بن قعين (**يعلم له علم قوم**) وفي بعض النسخ علم أحوال قوم أي أرسله ليعلم حالهم فيخبره به وهم خريت بن رشاد أحد بني ناجية مع جماعة من أصحابه وكانوا (**من جند الكوفة**) شهدوا معه عليه السلام صفين حسبما عرفته في شرح المختار الرابع والأربعين وتعرفه هنا أيضاً تفصيلاً.

(**هموا**) بعد انقضاء صفين وبعد تحكيم الحكمين (**باللحاق بالخوارج وكانوا على خوف منه** عليه السلام **فلما عاد**) أي رجع إليه عليه السلام (**الرجل قال** عليه السلام له: أأمنوا) وفي بعض النسخ بإسقاط همزة الاستفهام كما في قوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، على قراءة ابن محيص قال: إنّه بهمزة واحدة على لفظ الخبر وهمزة الاستفهام مرادة ولكن حذفها تخفيفاً لدلالة: أو لم تنذرهم، عليه لأن أم يعادل الهمزة، وقر الأكثرون على لفظ الاستفهام.

وقوله (**فقطنوا**) أي أقاموا (**أم جبنوا فظعنوا**) أي ارتحلوا (**فقال الرجل: بل ظعنوا يا أمير المؤمنين فقال** عليه السلام: بعداً لهم) أي هلكاً لهم أو أبعدهم الله من رحمته بعداً والمعنيان متلازمان (**كما بعدت ثمود**) بكسر العين في أكثر النسخ وكذا في المصاحف.

ثم أخبر عن مستقبل حالهم بأنهم يندمون على تفريطهم فقال: (**أما لو أشرعت الأسنة إليهم وصبّت السيوف على هاماتهم**) استعار لفظ الصبّ الذي هو حقيقة في صبّ الماء لكثرة وقع السيوف على الرؤوس، والجامع سرعة الوقوع، يعني أنهم لو عاينوا القتال والهجوم عليهم بالقتل والاستئصال (**لقد ندموا**) حينئذ (**على ما كان منهم**) من التقصير والخطاء.

ثم نبه على أن ما صدر عنهم من الظعن واللحاق بالخوارج إنما هو من عمل الشيطان

يقول للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك وهو قوله عليه السلام: **(إن الشيطان اليوم قد استفلّهم)** أي وجدهم بمعزل من الخير فزين لهم اللحوق بأوليائه **(وهو غداً متبرىء منهم ومخل عنهم)** أي تارك لهم كما شأنه مع سائر أوليائه قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨].

(فحسبهم بخروجهم من الهدى) أي يكفيهم خروجهم منه عذاباً. ووبالاً **(وارتكاسهم في الضلال والعمى)** أي رجوعهم إلى الضلال القديم والجهل الذي كانوا عليه بعد خروجهم منه ونجاتهم عنه بهدايته عليه السلام **(وصدهم)** أي إغراضهم **(عن الحق)** اللازم عليهم وهو طاعة إمامهم المفترض طاعته **(وجماحهم في التيه)** والضلال أو مفازة المعصية، هذا.

وأما قصّة هؤلاء القوم الذين هموا باللحاق بالخوارج فقد مضى طرف منها في شرح الكلام الرابع والأربعين لارتباطه به، وأورد هنا باقتضاء المقام ما لم يتقدّم ذكره فأقول:

روى العلامة المجلسي رحمه الله في كتاب البحار والشارح المعتزلي جميعاً من كتاب الغارات لإبراهيم الثقفي بتلخيص مني عن الحارث بن كعب الأزدي عن عمه عبد الله بن قعين قال: كان الخريت بن رشاد أحد بني ناجية قد شهد مع علي عليه السلام صفين، فجاء إليه بعد انقضاء صفين وبعد تحكيم الحكمين في ثلاثين من أصحابه يمشي بينهم حتى قام بين يديه فقال: لا والله لا أطيع أمرك ولا أُصلّي خلفك وإني غداً لمفارق لك.

فقال عليه السلام: ثكلتك أمّك إذا تنقض عهدك وتعصي ربك ولا تضرّ إلاّ نفسك أخبرني لم تفعل ذلك؟

قال: لأنّك حكّمت في الكتاب وضعفت عن الحق إذ جدّ الجدّ وركبت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم فأنا عليك راد وعليهم ناقم ولكم جميعاً مباين.

فقال له علي عليه السلام: ويحك هلم إليّ أدارسك وأناظرك في السّنن وأفاتحك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك فلعلّك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتبصر ما أنت الآن عنه غافل، وبه جاهل.

فقال الخريت: فأنا غاد عليك غداً.

فقال علي عليه السلام: أغد ولا يستهوينّك الشيطان ولا يقتحمن بك رأي السوء ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون، فوالله إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت منّي لأهدينك سبيل الرشاد.

فخرج الخريت من عنده منصرفاً إلى أهله.

قال عبد الله بن قعين: فعجلت في أثره مسرعاً وكان لي من بني عمه صديق فأردت أن ألقى ابن عمه في ذلك فأعلمه بما كان في قوله لأمير المؤمنين عليه السلام وآمر ابن عمه أن يشتد بلسانه عليه وأن يأمره بطاعة أمير المؤمنين عليه السلام ومناصحته ويخبره أن ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجل الآخرة.

قال: فخرجت حتى أتيت إلى منزله وقد سبقني فقمت عند باب داره فيها رجال من أصحابه لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين فوالله ما رجع ولا ندم على ما قال لأمير المؤمنين عليه السلام ولا ردّ عليه ولكنه قال لهم: يا هؤلاء إنّي قد رأيت أن أفارق هذا الرجل وقد فارقته على أن أرجع إليه من غد ولا أرى إلا المفارقة فقال له أكثر أصحابه: لا تفعل حتى تأتيه فإن أتاك بأمر تعرفه قبلت منه وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه قال لهم: نعم ما رأيتم.

قال فاستأذنت عليهم فأذنوا لي فأقبلت على ابن عمه وهو مدرك بن الريان الناجي وكان من كبراء العرب فقال له: إنّ لك عليّ حقاً لإحسانك وودّك وحق المسلم على المسلم إن ابن عم كان منه ما قد ذكرك فأخل به فاردد عليه رأيه وعظم عليه ما أتى، واعلم أنّي خائف إن فارق أمير المؤمنين عليه السلام أن يقتلك ونفسه وعشيرته، فقال: جزاك الله خيراً من أخ إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام ففي ذلك هلاكه وإن اختار مناصحته والإقامة معه ففي ذلك حظه ورشده.

قال: فأردت الرجوع إلى علي عليه السلام لأعلمه الذي كان ثم اطمأننت إلى قول صاحبي فرجعت إلى منزلي، فبت ثم أصبحت فلما ارتفع النهار أتيت أمير المؤمنين عليه السلام فجلست عنده ساعة وأنا أريد أن أحدثه بالذي كان على خلوة، فأطلت الجلوس ولا يزداد الناس إلا كثرة، فدنوت منه فجلست وراءه فأصغى إليّ برأسه فأخبرته بما سمعته من الخريت وما قلت لابن عمه وما رد عليّ.

فقال عليه السلام: دعه فإن قبل الحق ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه.

فقلت: يا أمير المؤمنين عليه السلام لم لا تأخذه الآن وتستوثق منه؟

فقال عليه السلام: إنّا لو فعلنا هذا بكل من يتهم من الناس ملأنا السجون منهم ولا أراني يسعني الوثوب بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يظهروا إلى الخلاف.

قال: فسكت عنه وتنحيت وجلست مع أصحابي هنيئة فقال عليه السلام لي: ادن مني، فدنوت فقال لي: سر إلى منزل الرّجل فاعلم ما فعل فإنّه قلّ يوم لم يكن يأتيني فيه قبل هذه الساعة،

فأتيت إلى منزله فإذاً ليس في منزله منهم ديّار فدرت على أبواب دور أخرى كان فيها طائفة من أصحابه فإذا ليس فيها داع ولا مجيب فأقبلت إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

فقال لي حين رآني: أقطنوا فأقاموا أم جبنوا فظعنوا؟ قلت: لا بل ظعنوا فقال: أبعدهم الله كما بعدت ثمود أما والله لو أشرعت لهم الأسنة وصبت على هاماتهم السيوف لقد ندموا إن الشيطان قد استهواهم وأضلّهم وهو متبرىء منهم ومخل عنهم.

فقام إليه زياد بن حفصة فقال: يا أمير المؤمنين إنه لو لم يكن من مضرة هؤلاء إلاّ فراقهم إيانا لم يعظم فقدهم علينا فإنّهم قل ما يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا وقلّما ينقصون من عددنا بخروجهم منا، ولكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليهم من أهل طاعتك، فأذن لي في اتبّاعهم حتى أردهم عليك إنشاء الله.

فقال عليه السلام له: فاخرج في آثارهم راشداً فلمّا ذهب ليخرج قال عليه السلام له: وهل تدري أين توجه القوم؟قال: لا والله ولكنّي أخرُج فأسأل وأتبع الأثر، فقال: اخرج رحمك الله حتى تنزل دير أبي موسى ثم لا تبرحه حتى يأتيك أمري فإنهم إن خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة فإنّ عمالي ستكتب إليّ بذلك، وإن كانوا متفرّقين مستخفين فذلك أخفى لهم وسأكتب إلى من حولي من عمالي فيهم.

فكتب نسخة واحدة وأخرجها إلى العمال:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من قرأ عليه كتابي هذا من العمّال أمّا بعد: فإن رجالاً لنا عندهم تبعة خرجوا هراباً نظنّهم خرجوا نحو بلاد البصرة فاسأل عنهم أهل بلادك واجعل عليهم العيون في كلّ ناحية من أرضك ثمّ اكتب إليّ بما ينتهي إليك عنهم.

فخرج زياد بن حفصة حتى أتى داره وجمع أصحابه وأخذ معه منهم مائة وثلاثين رجلاً وخرج حتى أتى دير أبي موسى[١].

وروى بإسناده عن عبد الله بن وال التيمي قال: إنّي لعند أمير المؤمنين إذا فيج[٢] قد جاءه يسعى بكتاب من قرظة بن كعب الأنصاري وكان أحد عماله فيه.

أما بعد فإنّي أخبر أمير المؤمنين أن خيلاً مرّت من قبل الكوفة متوّجهة وإن رجلاً من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلى يقال له زاذان فروخ أقبل من عند أخوال له فلقوه فقالوا أمسلم أنت أم كافر قال بل مسلم قالوا فما تقول في علي عليه السلام قال: أقول فيه خيراً أقول إنه

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٠٨.

(٢) الفيج: رسول السلطان على رجله وهو فارسي.

أمير المؤمنين وسيّد البشر ووصي رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: كفرت يا عدوّ الله ثمّ حملت عليه عصابة منهم فقطّعوه بأسيافهم وأخذوا معه رجلاً من أهل الذمة يهودياً. فقالوا له: ما دينك؟ قال يهودي، فقالوا: خلّوا سبيل هذا لا سبيل لكم عليه، فأقبل إلينا ذلك الذمّي فأخبرنا الخبر وقد سألت عنهم فلم يخبرني أحد عنهم بشيء فليكتب إليّ أمير المؤمنين عليه السلام فيهم برأيه أنته إليه إنشاء الله.

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعد فقد فهمت ما ذكرت من أمر العصابة التي مرت بعلمك فقتلت البرّ المسلم وآمن عندهم المخالف المشرك، وإن أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلّوا كالذين حسبوا ألا يكون فتنة فعموا وصمّوا فاسمع بهم وابصر يوم يحشر أعمالهم فالزم عملك وأقبل على خراجك، فإنك كما ذكرت في طاعتك ونصيحتك، والسلام.

قال: فكتب عليه السلام إلى زياد بن حفصة مع عبد الله بن وال التيمي كتاباً نسخته:

أما بعد فقد كنت أمرتك أن تنزل دير أبي موسى حتى يأتيك أمري دونك إني لم أكن علمت أين توجه القوم وقد بلغني أنهم أخذوا نحو قرية من قرى السواد فاتبع آثارهم وسل عنهم فإنهم قد قتلوا رجلاً من أهل السواد مسلماً مصلّياً فإذا أنت لحقت بهم فارددهم إليّ فإن أبوا فناجزهم واستعن بالله عليهم فإنهم قد فارقوا الحق وسفكوا الدم الحرام وأخافوا السبيل، والسلام.

قال عبد الله بن وال: فأخذت الكتاب منه عليه السلام وأنا يومئذ شاب حدث فمضيت غير بعيد ثم رجعت إليه فقلت يا أمير المؤمنين ألا أمضي مع زياد بن حفصة إلى عدوّك إذا دفعت إليه كتابك؟ فأذن ودعا لي ثمّ مضيت إلى زياد بالكتاب، فقال لي زياد: يا ابن أخي والله ما لي عنك من غنى وإني أحب أن تكون معي في وجهي هذا، فقلت: إني قد استأذنت أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك فأذن لي فسرّ بذلك.

ثمّ خرجنا حتى أتينا الموضع الذي كانوا فيه فلحقناهم وهم نزول بالمدائن وقد أقاموا بها يوماً وليلة وقد استراحوا وعلفوا دوابهم وخيولهم وأتيناهم وقد تقطعنا وتعبنا ونصبنا، فلما رأونا وثبوا على خيولهم فاستووا عليها فجئنا حتى انتهينا إليهم.

فنادى الخرّيت بن رشاد أخبرونا ما تريدون؟

فقال له زياد وكان مجرباً رفيقاً: قد ترى ما بنا من النصب واللّغوب والذي جئنا له لا يصلح فيه الكلام علانية ولكن تنزلون وننزل ثمّ نخلو جميعا فنذاكر أمرنا وننظر فيه فإن رأيت ما جئنا له حظاً لنفسك قبلته وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنا ولك لم أرد

عليك.

فقال الخرّيت: أنزل، فنزلنا ونزل وتفرقنا وتحلقنا عشرة وتسعة وثمانية وسبعة تضع كل حلقة طعامها بين أيديها فتأكل ثم تقوم إلى الماء فتشرب، وقال لنا زياد علقوا خيولكم فعلقنا عليها مخاليها ووقف زياد في خمسة فوارس أحدهم عبد الله بن وال بيننا وبين القوم وانطلق القوم فتنحوا فنزلوا وأقبل إلينا زياد.

فلما رأى تفرقنا قال: سبحان الله أنتم أصحاب حرب والله لو أن هؤلاء جاؤكم على هذه الحالة ما أرادوا من عزتكم أفضل من حالكم التي أنتم عليها فعجلوا قوموا إلى خيولكم.

فأسرعنا فمنّا من يتوضأ ومنا من يشرب ومنا من يسقي فرسه حتى إذا فرغنا من ذلك أتينا زياداً فقال زياد: ليأخذ كلّ رجل منكم بعنان فرسه فإذا دنوت منهم وكلمت صاحبهم فإن تابعني على ما أريد وإلاّ فإذا دعوتكم فاستووا على متون خيولكم ثمّ أقبلوا معاً غير متفرّقين.

ثمّ استقدم أمامنا وأنا معه ودعى صاحبهم الخرّيت فقال له: اعتزل ننظر في أمرنا فأقبل إليه في خمسة نفر فقلت لزياد: ادعو لك ثلاثة نفر من أصحابك حتى تلقاهم في عددهم فقال: ادع من أحببت، فدعوت له ثلاثة فكنا خمسة.

فقال له زياد: ما الذي نقمت على أمير المؤمنين عليه السلام وعلينا حتى فارقتنا؟

فقال: لم أرض صاحبكم إماماً ولم أرض بسيرتكم سيرة فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى بين الناس، فإذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الأمة رضى كنت مع الناس.

فقال زياد: ويحك وهل يجتمع الناس على رجل يداني علياً عالماً بالله وبكتاب الله وسنة رسوله مع قرابته وسابقته في الإسلام؟

فقال الخرّيت: هو ما أقول لك.

قال: ففيم قتلتم الرّجل المسلم؟

فقال الخرّيت: ما أنا قتلته قتلته طائفة من أصحابي، قال: فادفعهم إلينا قال: ما إلى ذلك من سبيل، قال: أو هكذا أنت فاعل؟ قال: هو ما تسمع.

قال: فدعونا أصحابنا ودعى الخرّيت أصحابه ثم اقتتلنا فوالله ما رأيت قتالاً مثله منذ خلقني الله لقد تطاعنا بالرّماح حتى لم يبق في أيدينا رمح، ثم اضطربنا بالسيوف حتى أثخنت وعقرت عامة خيلنا وخيلهم وكثرت الجراح فيما بيننا وبينهم وقتل منا رجلان مولى لزياد كانت معه رايته يدعى سويداً، ورجل آخر يدعى واقد ابن بكر، وصرع منهم خمسة نفر وحال

اللّيل بيننا وبينهم وقد والله كرهونا وكرهناهم وهزمونا وهزمناهم وقد جرح زياد وجرحت.

ثم إنَّا بتنا في جانب وتنحّوا فمكثوا ساعة من اللّيل ثم مضوا فذهبوا، وأصبحنا فوجدناهم قد ذهبوا فوالله ما كرهنا ذلك فمضينا حتى أتينا البصرة وبلغنا أنهم أتوا الأهواز فنزلوا في جانب منها وتلاحق بهم ناس من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة لم يكن لهم من القوة ما ينهضون معهم حين نهضوا. فاتبعوهم من بعد لحوقهم بالأهواز فأقاموا معهم.

وكتب زياد إلى علي عليه السلام: أما بعد فإنا لقينا عدوّ الله الناجي وأصحابه بالمدائن فدعوناهم إلى الهدى والحق والكلمة السّواء فتولّوا عن الحق وأخذتهم العزة بالإثم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فقصدونا، وصمدنا صمدهم فاقتتلنا قتالاً شديداً ما بين قائم الظهر إلى أن دلكت الشمس، واستشهد منا رجلان صالحان وأصيب منهم خمسة نفر وخلوا لنا المعركة وقد فشت فينا وفيهم الجراح، ثم إنّ القوم لما أدركوا الليل خرجوا من تحته متنكرين إلى أرض الأهواز وقد بلغني أنهم نزلوا من الأهواز جانباً ونحن بالبصرة نداوي جراحنا وننتظر أمرك رحمك الله والسلام.

فلما أتاه الكتاب قرأه على اناس، فقام إليه معقل بن قيس الرياحي[1].. إلى آخر ما قدمنا ذكره في شرح المختار الرابع والأربعين فيراجع هناك.

(١) الغارات: ١/ ٣٧٤، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤١٠.

الترجمة

از جمله كلام آن بزرگوار است، در حالتى كه فرستاده بود مردى را از اصحاب خود تا بداند خبر طايفه اى از لشگر كوفه را كه قصد كرده بودند آن طايفه ملحق شدن خوارج را و بودند آن گروه ترسان و هراسان از آن حضرت، چون بازگشت آن مرد به سوى آن حضرت فرمود او را: آيا ايمن شدند پس اقامت كردند؟ يا اين كه ترسيدند پس كوچ كردند؟ پس گفت آن مرد: كوچ كردند اى اميرمؤمنان، پس فرمود:

هلاك كند خداوند ايشان را هلاك كردنى، چنان چه هلاك شدند قوم ثمود، آگاه باش كه اگر راست كرده شود نيزه ها به سوى ايشان و ريخته گردد شمشيرها بر فرق هاى آن مردودان، هرآينه البته پشيمان خواهند شد بر آن چيزى كه از ايشان سرزد، به درستى كه شيطان ملعون امروز ايشان را بى خير و منفعت يافت، جلوه داد كوچ كردن را در نظر ايشان و او فردا بيزارى خواهد جست از ايشان و تارك ايشان خواهد گشت، پس بس است خارج بودن ايشان از طريق هدايت وبازگشتن ايشان در ضلالت و كورى و اعراض ايشان از حق و سركشى ايشان در بيابان حيرانى و سرگردانى.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والواحدة والثمانون من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصول:

الفصل الأول

روى عن نوف البكالي قال: خطبنا بهذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي وعليه مدرعة من صوف وحمائل سيفه من ليف وفي رجليه نعلان من ليف وكان جبينه ثفنة بعير فقال عليه السلام:

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وعَواقِبُ الْأَمْرِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، ونَيِّرِ بُرْهَانِهِ، ونَوامي فَضْلِهِ وامتِنَانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضاءً، ولِشُكْرِهِ أداءً، وإِلىٰ ثَوابِهِ مُقَرِّباً، ولِحُسْنِ مَزِيدِه مُوجِباً، ونَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعانَةَ راجٍ لِفَضْلِه، مُؤَمِّلٍ لِنَفعِه، واثِقٍ بِدَفْعِه، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ، ونُؤْمِنُ بِهِ إِيْمانَ مَنْ رَجاهُ مُوقِناً، وأَنابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً، وأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَلاذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً، لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشارِكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هالِكاً، ولَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلاَ زَمانٌ، وَلَمْ يَتَعاوَرْهُ زِيادَةٌ وَلا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرانا مِنْ عَلاَماتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضاءِ الْمُبْرَمِ.

فَمِنْ شَواهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمٰواتِ مُوَطَّداتٍ بِلاَ عَمَدٍ، قائِماتٍ بِلاَ سَنَدٍ، دَعاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعاتٍ مُذْعِناتٍ، غَيرَ مُتَلَكِّئاتٍ وَلاَ مُبْطِئاتٍ، وَلَوْلاَ إِقْرارُهُنَّ لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ، وَإِذْعانُهُنَّ بالطَّواعِيَةِ، لَما جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، وَلاَ مَسْكَناً لِمَلاَئِكَتِه، وَلاَ مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصالِحِ مِنْ خَلْقِهِ، جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلاماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحيرانُ في مُخْتَلِفِ فِجاجِ الأَقْطارِ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِها ادْلِهمامُ سِجْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلاَ اسْتَطاعَتْ جَلابِيبُ سُوادِ الْحَنادِسِ أَنْ تَرُدَّ ما شاعَ في السَّمٰواتِ مِنْ تَلألُؤِ نُورِ الْقَمَرِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ سَوادُ غَسَقٍ داجٍ، وَلاَ لَيْلٍ ساجٍ في بِقاعِ الْأَرَضينَ الْمُتَطَأْطِئاتِ، وَلاَ في يَفاعِ السُّفْعِ الْمُتَجاوِراتِ، وَما يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ في أُفُقِ السَّماءِ، وَما تَلاَشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمامِ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُها عَنْ مَسْقَطِهَا عَواصِفُ الْأَنْواءِ وَانْهِطالُ السَّماءِ، ويَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ ومَقَرَّها، ومَسْحَبَ الذَّرَّةِ ومَجَرَّها، وَمَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِها، وَمَا تَحْمِلُ الأُنْثَىٰ في بَطْنِها.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ، أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَماءٌ، أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جانٌّ، أَو إِنسٌ، لاَ يُدْرَكُ بِوَهْمٍ، وَلاَ يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ، وَلاَ يَشْغُلُهُ سائِلٌ، وَلاَ يَنْقُصُهُ نائِلٌ، وَلاَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، وَلاَ يُحَدُّ بِأَيْنٍ، وَلاَ يُوصَفُ بَالأَزْواجِ، وَلاَ يَخْلُقُ بِعِلاَجٍ، وَلاَ يُدْرَكُ بِالْحَواسِ، وَلاَ يُقاسُ بِالنّاسِ، الَّذي كَلَّمَ مُوسى تَكْلِيماً، وأَراهُ مِنْ آياته عَظِيماً، بِلاَ جَوارِحَ ولاَ أَدواتٍ، ولاَ نُطْقٍ ولاَ لَهَواتٍ.

بلْ إن كُنْتَ صادِقاً أَيُّها الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرَئِيلَ وميكائِيلَ وجُنُودَ الْمَلائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ في حُجُراتِ الْقُدْسِ مُرْجِحِنين، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخالِقِينَ، وإِنَّما يُدْرَكُ بِالصِّفاتِ ذَوُوا الْهَيئاتِ وَالْأَدواتِ، ومَنْ يَنْقَضي إِذا بَلَغَ حَدَّه بِالْفِناء، فَلاَ إِلَهَ إِلا هُوَ، أَضاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلامٍ، وأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ[١].

اللغة

(**البكالي**) بكسر الباء قال في القاموس: وبنو بكال ككتاب بطن من حمير منهم نوف بن فضالة التابعي وكاميرحى من همدان، وعن الجوهري أنّه بفتح الباء، وعن قطب الراوندي في شرح النهج أن بكال وبكيل شيء واحد وهو اسم حي من همدان وبكيل أكثر، والصواب كما قاله الشارح المعتزلي ما في القاموس.

و(**ثفنة**) البعير بالكسر ركبته وما مس الأرض من كركرته وسعداناته وأصول أفخاذه، وثفنت يده من باب فرح غلظت و(**العمد**) جمع عماد على خلاف القياس قال سبحانه: في عمد ممدّدة و(**تلكأ**) عليهاعتل وعنه أبطأ و(**الطواعية**) وزان ثمانية الطاعة و(**المختلف**) الاختلاف والتردد أو موضعه أو من المخالفة و(**الفج**) الطريق الواسع بين الجبلين و(**القطر**) الجانب والناحية و(**السجف**) بالفتح والسكر الستر والجمع سجوف وأسجاف و(**الحنادس**) جمع الحندس وزان زبرج الليل شديد الظلمة و(**اليفاع**) واليفع محركة التلّ و(**السفع**) بالضم جمع سفعة وهو من الألوان ما أشرب حمرة و(**المسقط**) اسم كان كمعقد ومجلس.

و(**الأنواء**) جمع نوء وهو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب من الفجر وطلوع رقيبه من المشرق مقابلاً له من ساعته وستعرف زيادة تحقيق له في بيان المعنى و(**اللهوات**) واللهيات جمع اللّهات وهي اللحمة المشرفة على الحلق أو بين منقطع أصل اللسان ومنقطع القلب من أعلى الفم و(**ارجحن**) يرجحن كاقشعر مال واهتزّ وعن الجزري أرجحن الشيء إذا مال من ثقله وتحرّك.

---

(١) بحار الأنوار: ٤/ ٣١٥، ومستدرك سفينة البحار: ٧/ ٣٣.

الإعراب

(من) في قوله: والعمل الصّالح من خلقه، ابتدائية نشوية، وقوله: **(في مختلف فجاج)** آه، متعلق بالحيران أو بقوله: يستدل، قوله: **(لم يمنع ضوء نورها ادلهمام)**، في أكثر النسخ برفع ادلهمام على أنه فاعل يمنع ونصب **(ضوء)** على أنه مفعوله، وفي بعض النسخ بالعكس قال الشارح المعتزلي: وهذا أحسن وستعرف وجه الحسن في بيان المعنى.

و**(أو)** في قوله: أو عرش وما بعدها بمعنى الواو، وقوله: **(لا يحد بأين)** قال الشارح المعتزلي: لفظة (أين) في الأصل مبنيّة على الفتح فإذا نكرتها صارت اسماً متمكناً من الإعراب، وإن شئت قلت بأنّه عليه السلام تكلّم بالاصطلاح الحكمي والأين عندهم حصول الجسم في المكان وهو أحد المقولات العشر وقوله: **(في حجرات القدس)** أما متعلق بالمقرّبين أو بمرجحنين، والأول أقرب لفظاً والثاني معنى، والإضافة في قوله: **(أمد حده)** بيانية وقوله: **(بالفناء)** متعلّق بقوله: ينقضي.

المعنى

قال السيّد رحمه الله **(روى عن نوف)** بن فضالة **(البكالي)** الحميري أنّه **(قال: خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين** عليه السلام **بالكوفة)** الظاهر أن المراد بجامع الكوفة **(وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي)** وهو ابن أخت أمير المؤمنين عليه السلام وأمّه أمّ هاني بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وأبوه كما قاله السيّد رحمه الله: هبيرة وهو ابن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وكان فارساً شجاعاً فقيهاً والي خراسان من جانب أمير المؤمنين عليه السلام، ومن شعره الذي يباهي فيه بنسبه قوله:

أبى من بنى مخزوم إن كنت سائلاً ... ومن هاشم أمّي لخير قبيل

فمن ذا الذي باهى عليّ بخاله ... كخالي عليّ ذي الندى وعقيل

(وعليه عليه السلام **مدرعة)** أي جبّة تدرّع بها **(من صوف وحمائل سيفه من ليف)** النخل **(وفي رجليه نعلان من ليف)** أيضاً وكفى بذلك زهداً **(وكان جبينه)** من طول السجود **(ثفنة بعير)** وكفى به عناء وعبادة.

وقد ورثه منه عليه السلام ابن ابنة علي بن الحسين زين العابدين وسيّد الساجدين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه أجمعين حتّى اشتهر ولقب بالسجاد ذي الثفنات قال دعبل الخزاعي في قصيدته المعروفة:

ديار علي والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذي الثفنات

(فقال: الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق وعواقب الأمر) أي إليه مرجع الخلائق في المبدأ والمآب وعواقب أمرهم يوم الحساب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾، وقال: وإلى الله المصير.

إنما أتى عليه السلام بلفظ الجمع مع أن المصدر يصحّ إطلاقه على القليل والكثير باعتبار كونه أي الجمع المضاف نصاً في العموم مفيداً لكون جميع رجوعات المخلوقات إليه سبحانه في جميع حالاتهم لافتقار الممكن إلى الواجب وحاجته إليه في الوجود والبقاء والفناء فهو أول الأولين وآخر الآخرين وإليه المصير والمنقلب.

(نحمده على عظيم إحسانه) الذي أحسن إلينا به وهو معرفته وتوحيده إذ لا إحسان أعظم من ذلك، وقول الشارح المعتزلي: إنه أصول نعمه كالحياة والقدرة والشهوة ونحوها، وكذا قول الشارح البحراني: إنه الخلق والإيجاد على وفق الحكمة والمنفعة فليسا بشيء.

ويؤيّد ما قلناه تعقيبه بقوله: **(ونير برهانه)** فإن المراد به الأدلة الواضحة التي أقامها في الآفاق والأنفس ومن طريق العقل والنقل للدلالة على ذاته وصفات جماله وجلاله **(ونوامي فضله وامتنانه)** أراد بها نعمه النامية الزاكية التي أفضل بها على عباده وامتن بهاعليهم باقتضاء ربوبيّته وحفظاً لبقاء النوع.

وقوله: **(حمداً يكون لحقه قضاء ولشكره أداء)** من باب المبالغة في كمال ثنائه سبحانه كما في قولهم حمداً ملأ السماوات والأض، وإلاّ فالحمد الذي يقضي حقه ويؤدي شكره على ما هو أهل له ومستحقه فهو خارج عن وسع البشر كما عرفت تحقيق ذلك في شرح الفصل الأول من المختار الأول وشرح المختار السابع والسبعين أيضاً.

(وإلى ثوابه مقرّباً) لأنه سبحانه وعد الثواب للشاكر وقال: فاشكروني أشكركم، من باب المشاكلة أي أثيبكم على شركم ومعلوم أنه سبحانه منجز لوعده ومن أوفى بعهده من الله **(ولحسن مزيده موجباً)** لأنه أخبر عن إيجاب الشكر لزيادة النعمة ووعد به وقال: لئن شكرتم لأزيدنكم، ومعلوم أنه صادق في وعده لا يخلف الميعاد.

(ونستعين به استعانة) صادرة عن صميم القلب وكمال الرجاء والوثوق بإعانته ولذلك وصفها بكونها مثل استعانة **(راج لفضله مؤمّل لنفعه واثق بدفعه)** فإن المستعين المتّصف بهذه الأوصاف لا تكون استعانته إلاّ على وجه الكمال إذ رجاه للفضل وأمله لإيصال المنافع ووثوقه بدفع المضار إنما هو فرع المعرفة بفضله وإحسانه وبقدرته وقهره على كل شيء، وبأنه لا رادّ لحكمه ولا دافع لقضائه وأن بيده خزائن الملك والملكوت، ومعلوم أن من عرف الله تعالى بذلك يكون طلبه للإعانة آكد وأشد، وهذه الأوصاف الثلاثة في الحقيقة مظنّة للإعانة

باعتبار صفات العظمة والكمال في المستعان.

ثم وصفها بوصفين آخرين هما مظنّة للإعانة باعتبار وصف الذّل والاستكانة في المستعين وهو قوله: **(معترف له بالطول مذعن له بالعمل والقول)** فإن من اعترف لطوله وأفضاله وأذعن أي خضع وذلّ وانقاد على ربوبيته وأسرع إلى طاعته قولاً وعملاً فحقيق على الإعانة وجدير بالإفضال.

ثم أردف ذلك بالاعتراف بالإيمان الكامل فقال: **(ونؤمن به)** إيماناً كاملاً مستجمعاً لصفات الكمال وإنما يكون كذلك إذا كان مثل **(إيمان من رجاه)** للمطالب العالية **(موقناً)** بأنه أهله لقدرته على إنجاح المأمول وقضاء المسؤول **(وأناب إليه مؤمناً)** علماً منه بأن مرجع العبد إلى سيّده ومعوله إلى مولاه **(وخنع)** أي خضع **(له مذعناً)** بأن نفسه ذليل أسير في ربق الافتقار والإمكان وأن ربه جليل متصف بالعزة والعظمة والسلطان **(وأخلص له موحداً)** أي أخلص له العبودية حال كونه معتقداً بوحدانيته علماً منه بأن من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً **(وعظّمه ممجداً)** أي عظّمه بصفات العز والكبرياء والجلال حال التمجيد له بأوصاف القدرة والعظمة والكمال **(ولاذ به)** أي لجأ إليه **(راغباً مجتهداً)** أي راغباً في الإلجاء مجدّاً في الرغبة والالتجاء علماً منه بأنّه الملاذ والملجأ، هذا.

ولما حمد الله سبحانه واستعان به وآمن به أخذ في تنزيهه وتقديسه باعتبارات سلبيّة وإضافية هي غاية وصف الواصفين ومنتهى درك الموحّدين فقال:

(لم يولد سبحانه فيكون في العزّ مشاركاً) أي ليس له والد حتى يكون له شريك في العز والملك لجريان العادة بكون والد العزيز عزيزاً غالباً **(ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً)** أي ليس له ولد حتى يهلك ويرثه ولده كما هو الغالب عادة من موت الوالد قبل الولد ووراثة الولد عنه وبرهان تنزهه سبحانه عنهما أنهما من لواحق الحيوانية المستلزمة للجسميّة فهو يفيد لنفي تولده سبحانه عن شيء ونفي تولد شيء عنه بالمعنى المعروف في الحيوان.

ويدل على تنزهه سبحانه عن ذلك مطلقاً ما رواه في البحار والصافي من كتاب التوحيد للصّدوق بسنده عن وهب بن وهب القرشي قال: حدثني الصادق جعفر بن محمد عن أبيه الباقر عن أبيه عليه السلام: أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فلا تخوضوا في القرآن ولا تجادلوا فيه ولا تتكلّموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده في النار، وأنه سبحانه قد فسر الصمد فقال: الله أحد الله الصمد، ثم فسره فقال: لم

يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، لم يلد لم يخرج منه شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين ولا شيء لطيف كالنفس ولا ينشعب منه البدوات كالسِنة والنوم والخطرة والهمّ والحزن والبهجة والضحك والبكاء والخوف والرجاء والرغبة والشامة والجوع والشبع تعالى أن يخرج منه شيء وأن يتولد منه شيء كثيف، أو لطيف، ولم يولد لم يتولد من شيء ولم يخرج من شيء كما يخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء والدابة من الدابة، والنبات من الأرض، والماء من الينابيع، والثمار من الأشجار، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها كالبصر من العين، والسمع من الأذن، والشم من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتميز من القلب، وكالنار من الحجر، لا بل هو الله الصمد الذي لا من شيء ولا في شيء ولا علم شيء، مبدع الأشياء وخالقها ومنشىء الأشياء بقدرته يتلاشى ما خلق للفناء بمشيته ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه، فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ولم يكن له كفواً أحد[1].

(ولم يتقدمه وقت ولا زمان) قال الشارح المعتزلي: الوقت هو الزمان وإنما خالف بين اللفظين وأتى بحرف العطف تفنناً، وقال الشارح البحراني: الوقت جزء الزمان، وقال العلامة المجلسي رحمه الله: ويمكن حمل أحدهما على الموجود والآخر على الموهوم، وعلى أي تقدير فهو خالقهما ومبدعهما ومقدم عليهما فكيف يتصور تقدمهما عليه تعالى.

(ولم يتعاوره) أي لم يختلف ولم يتناوب عليه **(زيادة ولا نقصان)** لاستلزامهما التغير المستلزم للإمكان المنزه قدسه عز وجل عنه.

فإن قلت: كان اللازم أن يقال زيادة ونقصان لأن التعاور يقتضي الضدين معاً كما أن الاختلاف كذلك تقول: لم يختلف زيد وعمرو ولا تقول: لم يختلف زيد ولا عمرو.

قلت: أجاب عنه الشارح المعتزلي بأن مراتب الزيادة لما كانت مختلفة جاز أن يقال: لا يعتوره الزيادة، وكذلك القول في جانب النقصان وجرى كل واحد من النوعين مجرى أشياء متنافية يختلف على الموضع الموصوف بها.

(بل ظهر للعقول) وتجلى للبصائر **(بما أرانا من علامات التدبير المتقن)** المحكم **(و)** آيات **(القضاء المبرم)** في الأنفس والآفاق في أصناف الموجودات وأنواع المصنوعات المبدعة على أحسن نظام وأتقن انتظام على ما عرفت تفصيلاً وتحقيقاً في شرح المختار التاسع والأربعين.

---

(١) التوحيد: ٩١ ح٥، وبحار الأنوار: ٣/ ٢٢٤ ح١٤.

ونزيد عليه إيضاحاً وتأكيداً ما قاله الصادق عليه السلام للمفضل بن عمر في حديثه المعروف: يا مفضل أول العبر والأدلة على الباري جل قدسه تهيئته هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنّك إذا تأملت العالم بفكرك وميزته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسّماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخاير، وكلّ شيء فيها لشأنه معد، والإنسان كالمملك ذلك البيت والمخوّل جميع ما فيه، وضروب النبات مهيّأة لمآبه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة وأن الخالق له واحد، وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً إلى بعض جلّ قدسه وتعالى جده. وكرم وجهه ولا إله غيره، تعالى عما يقول الجاحدون وجلّ وعظم عما ينتحله الملحدون[1]، هذا.

ولما ذكر إجمالاً أنه تعالى تجلى للعقول بما أظهر من آيات القدرة وعلامات التدبر أراد أن يشير إلى بعض تلك الآيات تفصيلاً وهو خلق السماوات.

فقال **(فمن شواهد خلقه)** أي آيات الإبداع وعلامات التدبّر المحكم أو ما يشهد من الخلق بوجوده سبحانه وتدبيره وعلمه أو ما حضر من خلقه أي ظهر وجوده بحيث لا يمكن لأحد إنكاره من آيات تدبيره تعالى **(خلق السماوات)** وتخصيصها من بين سائر الشواهد بالبيان لكونها من أعظم شواهد القدرة، وأظهر دلائل الربوبية، وأوضح علائم التدبيرحيث خلقت **(موطدات)** أي محكمات الخلقة مثبتات في محالها على وفق النظام والحكمة **(بلا عمد)** ترونها ولادسار ينتظمها **(قائمات)** في الجو **(بلا سند)** يكون عليه استنادها وبه اعتماد **(دعاهن)** سبحانه فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً **(فأجبن طائعات)** كما قال حكاية عنها وعن الأرض: قالتا أتينا طائعين.

ولفظ الدّعاء والإجابة في كلام الإمام عليه السلام إما محمولان على حقايقهما نظراً إلى أن للسماوات أرواحاً مدبرة عاقلة كما هو قول بعض الحكماء والمتكلمين أو نظراً إلى أنه تعالى خاطبها وأقدرها على الجواب.

وإما محمولان على المجاز والاستعارة تشبيهاً لتأثير قدرته تعالى فيها وتأثرها عنها بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله: كن فيكون، وهذا هو الأظهر.

ويؤيده ما حكي عن ابن عباس في تفسير الآية المتقدّمة أعني قوله: أتينا طائعين، أنه قال: أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وأتت الأرض بما فيها من الأنهار

(١) شرح أصول الكافي: ١/١٠٨، والتوحيد: ١٢.

والأشجار والثمار، وليس هناك أمر ما بقول حقيقة ولا جواب لذلك القول بل أخبر سبحانه عن اختراعه للسماوات والأرض وإنشائه لهما من غير تعذر ولا كلفة ولا مشقة بمنزلة ما يقال إفعل فيفعل من غير تلبّث ولا توقف ولا تأن وهو كقوله: إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ومن ذلك علم أن قوله: (**مذعنات غير متلكئات ولا مبطئات**) أراد به انقيادهن من غير توّقف ولا إبطاء في الإصابة وخضوعهن في رق الإمكان والحاجة واعترافهن بلسان الذّل والافتقار بوجوب وجود مبدعها وعظمة سلطان مبدئها.

(**ولولا**) اعترافهن و(**إقرارهن له بالربوبية**) والقدرة والعظمة ولأنفسهن بالإمكان والذل والحاجة (**وإذعانهن بالطواعية**) والامتثال لبارئهن (**لما جعلهن موضعاً لعرشه**).

قال الشارح البحراني: إقرارهنّ بالرّبوبية راجع إلى شهادة لسان الحال الممكن بالحاجة إلى الرب والانقياد لحكم قدرته، وظاهر أنه لولا إمكانها وانفعالها عن قدرته وتدبيره لم يكن فيها عرض ولم يكن أهلاً لسكنى الملائكة وصعود الكلم الطيّب المشار إليه بقوله: (**ولا مسكناً لملائكته**) ولعل المراد بهم المقرّبون أو الأكثر الطيّب المشار إليه بقوله: (**ولا مسكناً لملائكته**) ولعلّ المراد بهم المقرّبون أو الأكثر لأنّ منهم من يسكن الهواء والأرض والماء (**ولا مصعداً للكلم الطيّب**) وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ (**والعمل الصالح**) الصادر (**من خلقه**) وهو الخيرات والحسنات من الفرائض والمندوبات.

والمراد لصعودهما صعود الكتبة بصحائف الأعمال إليها وإليه الإشارة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، هذا.

وقد تقدّم في تذييلات الفصل الثامن من الخطبة الأولى وفي شرح الفصل الرابع من الخطبة التسعين فصل واف في عجائب خلقة السماء وما أبدعه الله سبحانه فيها من دلائل القدرة وآيات التدبير والحكمة فانظر ماذا ترى، ولشرافتها وكون مادتها أقبل خصّ عليه السلام هنا طاعتها بالذكر وإن كانت الأرض مشاركة لها في الطاعة مذكورة معها في الآية.

ولما ذكر خلق السماوات وكونها من شواهد الرّبوبية وأدلة التوحيد استطرد إلى ذكر النجوم والكواكب لما فيها من بدائع التدبير وعجائب التقدير، وقد مر في الفصل الثامن من فصول المختار الأوّل والفصل الرابع من المختار التسعين وشرحيهما منه عليه السلام وهنا جملة وافية من الكلام عليها وأشار هنا إلى بعض منافعها فقال:

(**جعل نجومها أعلاماً يستدل بها الحيران**) أي جعلها علامات يهتدي بها المتحيّرون كما قال عز من قائل: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] (**في مختلف فجاج الأقطار**)

أي يستدلّ بها الحيارى في اختلاف فجاج الأقطار وتردّدها، أو في محل اختلافها أو في حال مخالفة الفجاج الموجودة في أقطار الأرض ونواحيها وذهب كل منها إلى جهة غير ما يذهب إليه الآخر.

(لم يمنع ضوء نورها ادلهمام سجف الليل المظلم) أي شدة ستر الليل ذي الظلمة لم تكن مانعة من إضاءة النجوم، وعلى رواية (ادلهمام) بالنصب فالمعنى أن ضوء نورها لم يمنع من ظلمة الليل.

(ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس) أي أثواب سواد الليال المظلمة شديدة الظلمة لم تكن مستطيعة من **(أن ترد ما شاع)** وظهر **(في السماوات من تلألؤ نور القمر)** ولمعانه.

قال الشارح المعتزلي بعد روايته عن البعض نصب لفظ الادلهمام: وهذه الرواية أحسن في صناعة الكتابة لمكان الازدواج أي لا القمر والكواكب تمنع الليل من الظلمة، ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة.

أقول: ومحصل مقصود الإمام عليه السلام إن الله سبحانه لما قدر بلطيف حكمته أن يجعل الليل سباتاً وراحة للخلق جعلها مظلمة لأن كثيراً من الناس لولا ظلمتها لم يكن لهم هدء ولا قرار حرصاً على الكسب والجمع والادخار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون أبدانهم وجموم حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعم وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.

ولما كان شدّة ظلمتها وكونها داجية مدلهمة مانعة عن جميع الأعمال وربما كان الناس محتاجين إلى العمل فيها لضيق الوقت عليهم في تقضي الأعمال بالنهار أو شدة الحر وإفراطه المانع من الزرع والحرث وقطع الفيافي والأسفار جعل ببديع صنعه فيها كواكب مضيئة وقمراً منيراً وليهتدي بها في ظلمات البر والبحر والطرق المجهولة، ويقام بالأعمال من الزرع والغرس والحرث وغيرها عند مسيس الحاجة، وجعل نورها ناقصاً من نور الشمس كيلا يمنع من الهدوء والراحة.

(فسبحان من) جعل النور والظلام على تضادهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه وسبحان من هو بكل شيء محيط حتى لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء و**(لا يخفى عليه سواد غسق داج)** أي ظلمة مظلمة والعطف للمبالغة من قبيل شعر شاعر **(ولا ليل ساج)** أي ساكن وفي الإسناد توسع باعتبار سكون الناس وهدوئهم فيها **(في بقاع الأرضين المتطاطئات)** المنخفضات **(ولا في يفاع السفع المتجاورات)** أي في مرتفع الجبال المتجاورة.

وإنما عبر عن الجبال بالسفع لأن لونها غالباً مشرب حمرة، ولا يخفي ما فيما بين لفظ

البقاع واليفاع من جناس الخط وهو من محاسن البديع حسبما عرفته في ديباجة الشرح.

(و) لا يخفي عليه عزّ وجلّ أيضاً (ما يتجلجل) ويصوت **(به الرعد في أفق السماء)** وأراد بتجلجله تسبيحه المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

قال الطبرسي: تسبيح الرعد دلالته على تنزيه الله تعالى ووجوب حمده فكأنه هو المسبّح، وقيل: إن الرّعد هو الملك الذي يسوق السحاب ويزجره بصوته فهو يسبح الله ويحمده[١].

وقال الرازي: في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أقوال.

الأول: إن الرعد اسم ملك من الملائكة والصّوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل عن ابن عباس، أنّ اليهود سألت النبي عليه السلام عن الرّعد ما هو فقال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله قالوا: فما الصوت الذي نسمع؟ قال: زجره السحاب، وعن الحسن: «أنه خلق من خلق الله ليس بملك[٢].

فعلى هذا القول: الرعد هو الملك الموكل بالسحاب وصوته تسبيح الله تعالى وذلك الصّوت أيضاً يسمى بالرعد ويؤكد هذا ما روي عن ابن عباس كان إذا سمع الرّعد قال: سبحان الذي سبحت له، وعن النبي ﷺ قال: إن الله ينشيء السحاب الثقال فينطق أحسن المنطق ويضحك أحسن الضحك، فنطقه الرعد وضحكه البرق[٣].

واعلم أن هذا القول غير مستبعد، وذلك لأن عند أهل السنة البنية ليست شرطاً لحصول الحياة، فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في أجزاء السحاب، فيكون هذا الصوت المسموع فعلاً له.

وكيف يستبعد ذلك؟ ونحن نرى أن السمندر يتولد في النار، والضفادع تتولد في الماء البارد، والدودة العظيمة ربما تتولد في الثلوج العظيمة.

وأيضاً فإذا لم يبعد تسبيح الجبال في زمن داود عليه السلام ولا تسبيح الحصى في زمان محمد ﷺ فكيف يستبعد تسبيح السحاب.

وعلى هذا القول فهذا الشيء المسمّى بالرعد ملك أو ليس بملك فيه قولان:

أحدهما: أنّه ليس بملك لأنّه عطف عليه الملائكة فقال: والملائكة من خيفته.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٣٥٦، وتفسير مجمع البيان: ٦/ ٢٢.

(٢) جامع البيان: ١/ ٢١٨ بتفاوت.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦/ ٣٥٧.

والثاني: أنّه لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة وإنما حسن أفراده بالذكر على سبيل التشريف كما في قوله: وملائكته ورسله وجبرئيل وميكائيل، وفي قوله وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح.

القول الثاني: أن الرّعد اسم لهذا الصوت المخصوص ومع ذلك فإن الرّعد يسبّح الله سبحانه، لأن التسبيح والتقديس وما يجري مجراها ليس إلاّ وجود لفظ يدلّ على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى، فلما كان هذا الصوت دليلاً على وجود موجود متعال عن النقص والإمكان كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً وهو معنى قوله: وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده.

والقول الثالث: إنّ المراد من كون الرّعد مسبّحاً أن من يسمع الرّعد فإنّه يسبّح الله تعالى، فلهذا المعنى أُضيف هذا التسبيح إليه.

(و) لا يعزب عنه **(ما تلاشت)** واضمحلّت عنه **(بروق الغمام)** يعني أنّه سبحانه عالم بالأقطار التي يضمحلّ عنها البرق بعد ما كانت مضيئة به، وتخصيص ما تلاشت عنه بالذكر مع اشتراك غير المتلاشية عنه معه في إحاطة علمه سبحانه به كالأول، لأن علمه بما ليس بمضيء بالبرق أعجب وأغرب، وأما ما هو مضيّء به ولم يضمحل عنه فيمكن إدراك غيره سبحانه له من أولي الأبصار الصحيحة، هذا.

وأعجب من ذلك ما في نفس البرق من عظيم القدرة ودلالته على عظمة بارئه.

قال الفخر الرازي: واعلم أن أمر الصاعقة عجيب جداً، وذلك لأنها نار تتولد من السحاب وإذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر، وأحرقت الحيتان في قعر البحر والحكماء بالغوا في وصف قوتها، ووجه الاستدلال أن النار حارة يابسة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب، فوجب أن تكون طبيعتها في الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا، لكنه ليس الأمر كذلك، فإنها أقوى نيران هذا العالم، فثبت أن اختصاصها بمزيد تلك القوة لا بد وأن يكون بسبب تخصيص الفاعل المختار (و) لا يغيب عنه **(ما تسقط من ورقة تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء)** أي الرياح الشديدة المنسوبة إلى الأنواء وانصباب الأمطار.

والنوء سقوط نجم من منازل القمر الثمانية والعشرين التي عرفتها تفصيلاً في شرح الفصل الرابع من فصول المختار التسعين في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق من ساعته مقابلاً له في كل ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً، وهكذا كل نجم منها إلى انقضاء السنة إلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً.

وفي البحار من معاني الأخبار مسنداً عن الباقر عليه السلام قال: ثلاثة من عمل الجاهلية: الفخر بالأنساب، والطعن في الأحساب، والاستسقاء بالأنواء[١].

قال الصدوق رحمه الله أخبرني محمد بن هارون الزنجاني عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد أنه قال: سمعت عدّة من أهل العلم يقولون: إن الأنواء ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها من الصيف والشتاء والربيع والخريف، يسقط منها في كلّ ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته، وكلاهما معلوم مسمّى وانقضاء هذه الثمانية والعشرين كلّها مع انقضاء السنة، ثم يرجع الأمر إلى النجم الأول مع استئناف السنة المقبلة وكانت في الجاهلية إذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا: لا بد أن يكون عند ذلك رياح ومطر، فينسبون كل غيث يكون عند ذلك إلى ذلك النجم الذي يسقط حينئذ فيقولون مطرنا بنوء الثريا والدّبران والسماك، وما كان من هذه النجوم فعلى هذا فهذه هي الأنواء وأحدها نوء وإنما سمّي نوء لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق بالطلوع وهو ينوء نوء، وذلك النهوض هو النوء فسمّى النجم به وكذلك كل ناهض ينتقل بإبطاء، فإنّه ينوء عند نهوضه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾[٢].

وفيه عن الجزري في النهاية قال: قد تكرر ذكر النوء والأنواء في الحديث ومنه الحديث: «مطرنا بنوء كذا» قال: وإنما غلظ النبي صلى الله عليه وآله في أمر الأنواء، لأن العرب كانت تنسب المطر إليها، فأما من جعل المطر من فعل الله وأراد بقوله: فطرنا بنوءِ كذا أي في وقت كذا وهو هذا النوء الفلاني فإن ذلك جائز، أي إن الله تعالى قد أجرى العادة أن يأتي المطر في هذه الأوقات، انتهى[٣].

وقال ابن العربي: من انتظر المطر منها على أنها فاعلة من دون الله أو يجعل الله شريكاً فيها فهو كافر، ومن انتظر منها على إجراء العادة فلا شيء عليه هذا.

ومن ذلك كله علم أن إضافته عليه السلام العواصف إلى الأنواء من جهة أن العرب تضيف الآثار العلوية من الرّياح والأمطار وكذلك الحر والبرد إليها.

(ويعلم مسقط القطرة ومقرها) أي محلّ سقوطها وموضع قرارها **(ومسحب الذّرة ومجرّها)** أي محل سحب صغار النمل وجرّها **(وما يكفي البعوضة من قوتها)**.

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ١٠/ ١٥٨، والتفسير الأصفى: ٢/ ٨٧١.
(٢) معاني الأخبار: ٣٢٦، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/ ١٥٨.
(٣) عيون المعبود: ١٠/ ٢٨٦، ولسان العرب: ١/ ١٧٧.

قال الدّميري في حياة الحيوان: البعوضة واحدة البعوض والبعوض على خلقة الفيل إلاّ أنّه أكثر أعضاء من الفيل، فإن للفيل أربع أرجل وخرطوماً وذنباً، وله مع هذه الأعضاء رجلان زائدتان وأربعة أجنحة، وخرطوم الفيل مصمت وخرطومه مجوّف نافذ للجوف فإذا طعن به جسد الإنسان استقى الدّم وقذف به جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم ولذلك اشتدّ عضها وقويت على خرق الجلود الغلاظ، ومما ألهمه الله أنه إذا جلس على عضو من أعضاء الإنسان لا يزال يتوخى بخرطومه المسام التي يخرج منها العرق لأنها أرق بشرة من جلد الإنسان فإذا وجدها وضع خرطومه فيها، وفيه من الشره أن يمصّ الدّم إلى أن ينشق ويموت أو إلى أن يعجز عن الطيران وذلك سبب هلاكه.

قال: والبعوضة على صغر جرمها قد أودع الله في مقدم دماغها قوّة الحفظ وفي وسطه قوة الفكر، وفي مؤخّره قوة الذكر، وخلق لها حاسّة البصر، وحاسّة اللّمس، وحاسّة الشم، وخلق لها منفذاً للغذاء، ومخرجاً للفضلة، وخلق لها جوفاً وأمعاء وعظاماً، فسبحان من قدر فهدى، ولم يخلق شيئاً من المخلوقات سدى.

(و) يعلم **(ما تحمل الأنثى)** من البعوضة ومن غيرها **(في بطنها)** كما قال عز من قائل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

ثمّ عاد إلى حمد الله سبحانه باعتبار تقدم وجوده على سائر مخلوقاته فقال: **(والحمد لله الكائن)** أي الموجود **(قبل أن يكون كرسي أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو أنس)** لا يخفى ما في هذه العبارة من حسن التأدية.

والمراد بالجان إما إبليس أو أبو الجن، وبهما فسّر قوله تعالى: والجان خلقناه من قبل من نارالسموم، قال الرازي في تفسير هذه الآية: اختلفوا في أن الجان من هو قال عطا عن ابن عباس: يريد إبليس وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة وقال ابن عباس في رواية أخرى: الجان هو أبو الجن وهوقول الأكثرين وسمّى جاناً لتواريه عن الأعين كما سمّى الجنّ جنّا لهذا السّبب والجنين متوار في بطن أمّه ومعنى الجان في اللّغة الساتر من جنّ الشيء إذا ستر فالجان المذكور هنا يحتمل أن يكون جاناً لأنه يستر نفسه عن بني آدم، أو يكون الفاعل يراد به المفعول كما في ماء دافق وعيشة راضية.

وفي البحار من العلل والعيون عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: سأل الشامي أمير المؤمنين عليه السلام عن اسم أبي الجن فقال شومان: وهو الذي خلق من مارج[1].

(١) علل الشرائع: ٢/ ٥٩٣، وعيون أخبار الرضا: ٢/ ٢١٩ ح١.

قال الطبرسي: من مارج من نار أي نار مختلط أحمر وأسود وأبيض عن مجاهد وقيل المارج الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه[١].

وقال البيضاوي في تفسير قوله: من نار السموم، من نار شديد الحر النافذ في المسام ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيط كما لا يمتنع خلقها في الجواهر المجرّدة فضلاً عن الأجساد المؤلفة التي الغالب فيها الجزء الناري فإنها أقبل لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضي، وقوله: من نار، باعتبار الغالب كقوله: خلقكم من تراب[٢].

ثمّ نزهه تعالى باعتبارات سلبية:

أحدها: أنّه **(لا يدرك بوهم)** كما نقل عن الباقر عليه السلام من قوله: كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مثلكم مردود إليكم. **(و) الثاني**: أنه **(لا يقدر بفهم)** أي لا يحد بفهم العقول، والمراد به وبسابقه تنزيهه سبحانه عن إدراك العقول والأوهام لذاته وقصورها عن الوصول إلى حقيقته، وقد مرّ برهان ذلك في شرح الفصل الثاني من الخطبة الأولى وغيره أيضاً.

وأقول: هنا إن الجملة الثّانية يحتمل أن تكون تأكيداً للجملة الأولى، ويحتمل أن تكون تأسيساً.

أما التأسيس: فعلى أن يراد بالجملة الأولى عدم إمكان إدراك القوة الوهمية له وهي قوة جسمانية للإنسان محلها آخر التجويف الأوسط من الدماغ من شأنها إدراك المعاني الجزئية المتعلّقة بالمحسوسات كشجاعة زيد وسخاوته، وهذه القوة هي التي تحكم في الشاة بأن الذئب مهروب عنه وأن الولد معطوف عليه، وهي حاكمة على القوى الجسمانية كلها مستخدمة إياها استخدام العقل للقوى العقلية، ويراد بالجملة الثانية عدم إمكان تقديره وتحديده بالقوة العقلية.

أما عدم إمكان إدراك الأوهام فلأن مدركاتها منحصرة على عالم المحسوسات والأجسام والجسمانيات، والله سبحانه متعال عن ذلك.

وأما عدم إمكان تحديد العقول فلأنّه لا جزء له وما لا جزء له لا حد له حتى يمكن تحديده.

وأيضاً فهو سبحانه غاية الغايات فليس لذاته حدّ ونهاية حتى يكون له حد معين وقدر

(١) بحار الأنوار: ٦٠/ ٥٩، وتفسير مجمع البيان: ٩/ ٣٣٥.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٥٠.

معلوم يمكن تقديره وتحديده كما لسائر الممكنات، قال عز من قائل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له مروية عن التوحيد: لما شبّهه العادلون بالخلق المبعض المحدود في صفاته ذي الأقطار والنواحي المختلفة في طبقاته وكان عزَّ وجلَّ الموجود بنفسه لا بأداته انتفى أن يكون قدّروه حق قدره فقال: تنزيهاً لنفسه عن مشاركة الانداد وارتفاعها عن قياس المقدرين له بالحدود من كفرة العباد: وما قدروا الله حق قدره[1].

فقد علم بذلك أنّه لا يقدر بالحدود والنهايات الجسمانية كما أنه لا يقدر ولا يحد بالحد العقلي المركب من الجنس والفصل.

وأما التأكيد: فعلى أن يراد بالوهم في الجملة الأولى المعنى الأعم من القوة الوهميّة المتعلّقة بالمحسوسات جميعاً والقوة العقليّة المتعلقة بالمعقولات وإطلاق الوهم على ذلك المعنى شائع في الاستعمال وأرد في كثير من الأخبار.

قال بعض المحققين: إعلم أن جوهر الوهم بعينه هو جوهر العقل ومدركاته بعينه هو مدركات العقل، والفرق بينهما بالقصور والكمال، فما دامت القوة العقلية ناقصة كانت ذات علاقة بالمواد الحسية منتكسة النظر إليها لا تدرك المعاني إلاّ متعلّقة بالمواد مضافة إليها، وربما تذعن لأحكام الحس لضعفها وغلبة الحواس والمحسوسات عليها، فتحكم على غير المحسوس حكمها على المحسوس، فما دامت في هذا المقام أطلق عليها اسم الوهم، فإذا استقام وقوى صار الوهم عقلاً وخلص عن الزيغ والضلال والآفة والوبال، انتهى.

وعلى ذلك فيكون المقصود بالفهم في الجملة الثانية المعنى الأعم أيضاً، ويكون حاصل المراد بالجملتين عجز الأوهام أي القوة الوهمية والعقلية جميعاً عن إدراك ذاته وتعقل حقيقته، لأن تعلقه إما بحصول صورة مساوية لذاته تعالى، أو بحضور ذاته المقدّسة وشهود حقيقته، والأول محال إذ لا مثل لذاته وكل ماله مثل أو صورة مساوية له فهو ذو ماهية كلية وهو تعالى لا ماهية له، والثاني محال أيضاً إذ كل ما سواه من العقول والنفوس والذّوات والهويات فوجوده منقهر تحت جلاله وعظمته وسلطانه القهار عين الخفاش في مشهد نور الشمس، فلا يمكن للعقول لقصورها عن درجة الكمال الواجبي إدراك ذاته على وجه الاكتناه، والإحاطة بنعوت جلاله وصفات جماله.

---

(١) التوحيد: ٥٥، وبحار الأنوار: ٤/ ٢٧٧.

فاتضح من ذلك كلّه أنه سبحانه لا يدرك بالأوهام، ولا يقدر بالأفهام جل شأنه وعظم سلطانه.

(و) الثالث: أنّه **(لا يشغله سائل)** عن سائل آخر كما يشغل السائل من المخلوق عن توجهه إلى سائل آخر، وذلك لقصور ذواتنا وقدرتنا وعلمنا، وأما الله الحي القيوم فلكمال ذاته وعموم قدرته وإحاطته فلا يمنعه سؤال عن سؤال ولا يشغله شأن عن شأن.

ألا ترى أنه يرزق الخلائق جميعاً على قدر استحقاقهم في ساعة واحدة، وكذا يحاسبهم يوم القيامة دفعة كما قال عز من قائل في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي كرجع الطرف على الحدقة إلى أسفلها أو هو أقرب لأنه يقع دفعة وقال في سورة القمر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾، قال القمي: يعني يقول كن فيكون.

(و) الرابع: إنه **(لا ينقصه نائل)** وعطاء كملوك الدنيا إذ مقدوراته تعالى غير متناهية فكرمه لا يضيق عن سؤال أحد، ويده بالعطاء أعلى من كل يد، وهو نظير قوله في الفصل الأوّل من المختار التسعين: لا يعزه المنع والجمود ولا يكديه الإعطاء والجود، وقد مر في شرحه رواية الحديث القدسي وهو قوله سبحانه: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر أي لا تنقصه شيئاً فإن المخيط وإن كان يرجع بشيء محسوس قليل، لكنّه لقلّته لا يعدّ شيئاً فكأنّه لم ينقص منه شيء.

(و) الخامس: إنّه **(لا ينظر بعين)** أي ليس إدراكه بحاسة البصر وإن كان بصيراً لتنزّهه عن المشاعر والحواس.

(و) السادس: إنه **(لا يحدّ بأين)** لأن الأين عبارة عن نسبة الجسم إلى المكان وهو سبحانه منزه عن ذلك لبراءته عن التحيز.

روى في البحار من التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله يهودي يقال له شجت فقال: يا محمد جئت أسألك عن ربك فإن أجبتني عما أسألك عنه وإلاّ رجعت، فقال له: سل عما شئت، فقال: أين ربك؟ فقال: هو في كل مكان وليس هو في شيء من المكان بمحدود، قال: فكيف هو؟ فقال: وكيف أصف ربّي بالكيف والكيف مخلوق والله لا يوصف بخلقه[١].

---

(١) الكافي: ١/ ٩٤ ح٩، والتوحيد: ٣١٠.

وعن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثاً، ومن زعم أنّه في شيء فقد جعله محصوراً، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً[١].

قوله عليه السلام: محصوراً أي عاجزاً ممنوعاً عن الخروج عن المكان، أو محصوراً بذلك الشيء ومحوّياً به فيكون له انقطاع وانتهاء فيكون ذا حدود وأجزاء وقوله: محمولاً أي محتاجاً إلى ما يحمله.

قال الصدوق رحمه الله: الدليل على أن الله عزّ وجلّ لا في مكان إن الأماكن كلّها حادثة وقد قام الدليل على أن الله عزّ وجلّ قديم سابق للأماكن، وليس يجوز أن يحتاج الغني القديم إلى ما كان غنيّاً عنه، ولا أن يتغيّر عما لم يزل موجوداً عليه فصحّ اليوم أنه لا في مكان كما أنه لم يزل كذلك[٢].

وتصديق ذلك ما حدّثنا به القطان عن ابن زكريا القطان عن أبي حبيب عن ابن بهلول عن أبيه عن سليمان المروزي عن سليمان بن مهران قال: قلت لجعفر ابن محمد عليه السلام: هل يجوز أن نقول إن الله عز وجل في مكان؟ فقال: سبحان الله وتعالى عن ذلك إنه لو كان في مكان لكان محدثاً، لأن الكائن في مكان محتاج إلى المكان والاحتياج من صفات الحدث لا القديم.

(و) السابع: أنه **(لا يوصف بالأزواج)** وهي نفي الكمية المنفصلة عنه أي ليس فيه اثنينية وتعدد.

وقال العلامة المجلسي رحمه الله: أي لا يوصف بالأمثال أو الأضداد أو بصفات الأزواج أو ليس فيه تركب وازدواج أمرين أو بان له صاحبة.

(و) الثامن: إنه **(لا يخلق بعلاج)** أي لا يحتاج في خلقه للمخلوقات إلى مزاولة ومعالجة آلة وحيلة كسائر أرباب الصنيع، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

(و) التاسع: أنه **(لا يدرك بالحواس)** لاختصاص إدراكها بالأجسام والجسمانيات والله سبحانه منزه عن الجسميّة ولو حقها.

روى في البحار من التوحيد عن عبد الله بن جوين العبدي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يقول: «الحمد لله الذي لا يجس ولا يحس ولا يمس ولا يدرك بالحواس الخمس ولا يقع عليه الوهم ولا تصفه الألسن وكلّ شيء حسسته الحواس أو لمسته الأيدي فهو مخلوق».

---

(١) الهداية: ١٧، والكافي: ١/١٢٨ ح٩.

(٢) التوحيد: ١٧٨ ح١٠، وبحار الأنوار: ٣/٣٢٧ ح٢٦.

(و) العاشر: أنه **(لا يقاس بالناس)** أي لا يشبه شيئاً من خلقه في جهة من الجهات كما يزعمه المشبهة والمجسّمة.

روى في البحار من التوحيد بسنده عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من شبّه الله بخلقه فهو مشرك إنّ الله تبارك وتعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء وكلّما وقع في الوهم فهو بخلافه»[١].

قال الصّدوق رحمه الله الدليل على أن الله سبحانه لا يشبه شيئاً من خلقه من جهة من الجهات أنه لا جهة لشيء من أفعاله إلا محدثة، ولا جهة محدثة إلا وهي تدل على حدوث من هي له، فلو كان الله جلّ ثناؤه يشبه شيئاً منها لدلت على حدوثه من حيث دلت على حدوث من هي له، إذ المتماثلين في العقول يقتضيان حكماً واحداً من حيث تماثلاً منها وقد قام الدليل على أن الله عزّ وجلّ قديم، ومحال أن يكون قديماً من جهة حادثاً من أخرى[٢].

ومن الدليل على أن الله تبارك وتعالى قديم أنّه لو كان حادثاً لوجب أن يكون له محدث، لأن الفعل لا يكون إلا بفاعل ولكان القول في محدثه كالقول فيه وفي هذا وجود حادث قبل حادث لا إلى أول وهو محال، فيصح أنه لا بد من صانع قديم وإذا كان ذلك كذلك فالذي يوجب قدم ذلك الصانع ويدل عليه يوجب قدم صانعنا ويدل عليه.

والحادي عشر: أنه متكلّم لا كتكلّم المخلوقين وإليه أشار بقوله: **(الذي كلّم موسى)** عليه السلام في شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة **(تكليماً)** أتى به تأكيداً ودفعاً لتوهم السامع التجوز في كلامه سبحانه، وقد عرفت تحقيق معنى كلامه وكونه متكلماً في شرح المختار المائة والثامن والسبعين.

وقوله: **(وأراه من آياته عظيماً)** يحتمل أن يراد بها الآيات التسع المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، قال الصادق عليه السلام: هي الجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والبحر والحجر والعصا ويده[٣]، رواه في الصافي من الخصال عنه عليه السلام ومن العياشي عن الباقر عليه السلام مثله.

وفيه من قرب الإسناد عن الكاظم عليه السلام وقد سأله نفر من اليهود عنها فقال: العصا وإخراجه يده من جيبه بيضاء والجراد والقمل والضفادع والدم ورفع الطور والمن والسلوى آية

(١) التوحيد: ٨٠ ح٣٦، والإرشاد: ٢/ ٢٠٤.

(٢) التوحيد: ٨١ ح٣٦، وبحار الأنوار: ٣/ ٢٩٩ ح٣٠.

(٣) الخصال: ٤٢٣ ح٢٤، وبحار الأنوار: ١٣/ ١٣٦ ح٤٥.

واحدة وفلق البحر قالوا: صدقت.

وأن يراد بها الآيات التي ظهرت عند التكليم من سماع الصوت من الجهات الست ومن رؤيته ناراً بيضاء تتقد من شجرة خضراء لا خضروية الشجر تطفى النار ولا النار توقد الشجرة.

قال الباقر عليه السلام: فأقبل نحو النار يقتبس فإذا شجرة ونار تلتهب عليها فلما ذهب نحو النار يقتبس منها أهوت إليه ففزع وعدا ورجعت النار إلى الشجرة فالتفت إليها وقد رجعت إلى الشجرة، فرجع الثانية ليقتبس فأهوت إليه فعدا وتركها ثم التفت وقد رجعت إلى الشجرة، فرجع إليها الثالثة فأهوت إليه فعدا ولم يعقب أي لم يرجع فناداه الله عز وجل أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين قال موسى: فما الدليل على ذلك؟ قال عز وجل: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال: هي عصاي قال: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ١٩ ـ ٢٠]، ففزع منها وعدا فناداه الله عز وجل ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ هذا[١].

ويؤيد الاحتمال الثاني أي كون المراد من الآيات الآيات الظاهرة عند التكلم قوله عليه السلام: **(بلا جوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات)** إذ الظاهر تعلقه بالتكليم وعلى الاحتمال الأول يلزم الفصل بين المتعلق والمتعلق بالأجنبي.

والمراد به أن كلامه مع موسى ليس ككلام البشر صادراً عن الحنجرة واللسان واللهوات أي اللحمات في سقف أقصى الفم وعن مخارج الحروف وغيرها بل تكلّم معه بأن أوجد الكلام في الشجرة كما هو صريح قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ هذا.

وفي كلامه دلالة على عدم جواز وصفه بالنطق ولعله لصراحة النطق في إخراج الحروف من المخارج، بخلاف الكلام.

ويستفاد من خطبة له عليه السلام آتية في الكتاب ومرويّة في الاحتجاج أيضاً عدم جواز وصفه باللّفظ أيضاً بخلاف القول حيث قال فيها: لا يخبر لا بلسان ولهوات ويسمع لا بخروق وأدوات يقول ولا يلفظ ويحفظ ولا يتحفظ.

ولعلّ السّر فيه أيضاً صراحة التلفظ في اعتماد اللفظ على مقطع الفم واستلزامه للأدوات دون القول.

ثمّ نبّه على عجز القوى البشريّة عن وصف كماله تعالى بقوله: **(بل إن كنت صادقاً أيها**

---

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ٣٠، وتفسير القمي: ٢/ ١٤٠.

المتكلّف) أي المتحمل للكلفة والمشقة **(لوصف ربك)** في وصفه **(فصف)** بعض خلقه وهو **(جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكة المقربين)** والأمر للتعجيز كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

قال الشارح البحراني: هي صورة قياس استثنائي متصل نبّه به على عجز من يدّعي وصف ربه كما هو، وتقديره إن كنت صادقاً في وصفه فصف بعض خلقه وينتج باستثناء نقيض تاليه أي لكنّك لايمكنك وصف هؤلاء بالحقيقة فلا يمكنك وصفه تعالى، بيان الملازمة أن وصفه تعالى إذا كان ممكناً لك فوصف بعض آثاره أسهل عليك، وأما بطلان التالي فإن حقيقة جبرئيل وميكائيل وسائر الملائكة المقربين غير معلومة لأحد من البشر، ومن عجز عن وصف بعض آثاره فهو عن وصفه أعجز.

أقول: ويشهد بما ذكره هنا من عدم إمكان وصف الملائكة على ما هي عليه ما تقدم منه عليه السلام ومنا في الفصل الخامس من فصول المختار التسعين وشرحه، فقد مضى هناك أنموذج من وصف الملائكة يتحيّر فيه العقول ويدهش الأفهام ويقشعر الجلود فكيف إذا أري البلوغ إلى غاية أوصافهم.

وقوله: **(في حجرات القدس)** أي منازل الطهارة عن العلاقات العنصرية ومقار التنزه عن تعلقات النفس الأمّارة.

وقوله: **(مرجحنين)** أي خاضعين تحت سلطانه وعظمته وقال العلامة المجلسي رحمه الله: أي ما يلين إلى جهة التحت خضوعاً لجلال الباري عزّ سلطانه، ويحتمل أن يكون كناية عن عظمة شأنهم وإزانة قدرهم أو عن نزولهم وقتاً بعد وقت بأمره تعالى.

حال كونهم **(متولهة عقولهم)** أي متحيرة متشتتة **(أن يحدوا أحسن الخالقين)** أي يدركوا حقيقته بحد ويعرفوا كنه ذاته سبحانه وهونظير قوله عليه السلام في الفصل التاسع من المختار الأول: لا يتوهمون ربهم بالتصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر.

ولما نبه على عجز العقول عن وصف كماله أردفه بالتنبيه على ما يدرك من جهة الوصف فقال: **(وإنما بالصفات)** ويعرف بالكنه **(ذوو الهيئات والأدوات)** والجوارح والآلات التي يحيط بها الإفهام، فيدركون ويعرفون من جهتها.

(و) كذا يدرك **(من ينقضي إذا بلغ أمد حده بالفنا)** أي من ينقضي ويفني إذا بلغ غايته، فإنه تقف الأفهام عليه وتحلله إلى أجزائه فتطّلع على كنهه، فأمّا الله سبحانه فلتنزهه عن الهيئات والصّفات الزائدة ووجوب وجوده وعدم إمكان تطرق الفناء والعدم عليه، فيستحيل

الاطّلاع على كنه ذاته وحقيقة صفاته.

ثمّ عقب ذلك التنزيه بالتوحيد وقال: **(فلا إله إلا هو أضاء بنوره كل ظلام وأظلم بظلمته كل نور)** لا يخفى حسن المقابلة والتطبيق بين القرينتين.

والنور والظلام في القرينة الأولى يحتملان المحسوس وغيره، فإن أريد به الظلام المحسوس فالمراد إضاءته بأنوار الكواكب والنيرين، وإن أريد به الظلام المعقول أعني ظلمة الجهل فالمراد إضاءته بأنوارالعلم والشرائع.

وأما القرينة الثانية والمقصود بها أن جميع الأنوار المحسوسة أو المعقولة مضمحلة في نور علمه وظلام بالنسبة إلى نور براهينه في جميع مخلوقاته الكاشفة عن وجوده وكمال جوده هكذا قال الشارح البحراني.

وفيه إنه عليه السلام لم يقل أظلم بنوره كل نور بل قال: أظلم بظلمته، وهو ينافي هذا المعنى فالأنسب أن يراد بالنور والظلمة الوجود والعدم، ويصح ذلك التأويل في القرينة الأولى أيضاً فيكون الإضاءة والإظلام فيهما كناية عن الإيجاد والإعدام.

قيل: ويحتمل على بعد أن يكون الضمير في قوله: بظلمته، راجعاً إلى كل نور لتقدمه رتبة فيرجع حاصل الفقرتين حينئذ إلى أن النور هو ما ينسب إليه تعالى فتلك الجهة نور وأما الجهات الراجعة إلى الممكنات فكلّها ظلمة.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن حضرت است، روایت شده از نوف بکالی که گفته: خطبه فرمود ما را به این خطبه امیر مؤمنان (عليه السلام) در کوفه، درحالتی که ایستاده بود آن حضرت بر سنگی که نصب کرده بود آن سنگ را از برای او جعدة بن هبیره مخزومی پسر خواهر آن حضرت، درحالتی که در تن مبارك او درّاعه ای از پشم و دوالهای شمشیر او از لیف خرما بود و بر دو پای آن حضرت بود نعلینی از لیف و گویا پیشانی مبارك او از کثرت سجود مانند زانوی شتر بود، پس فرمود آن بزرگوار:

حمد و ثناء معبود به حقّی را سزا است که به سوی او است بازگشت های مخلوقات و عواقب امورات، حمد می کنیم ما او را بر بزرگی احسان او و برهان نورانی او و بر افزونی های فضل و منت او، چنان حمدی که بشود از برای حقّ او قضا و از برای شکر او اداء و به سوی ثواب او نزدیك کننده و زیادتی نیکویی او را واجب سازنده و طلب اعانت می کنیم از او مثل طلب اعانت کسی که امیددارنده فضل او باشد، آرز کننده منفعت او، اعتمادکننده به دفع او، اعتراف کننده به افضال و کرم او، گردن نهنده بر او با کردار و گفتار.

و ایمان می آوریم او را مثل ایمان آوردن کسی که امیدوار باشد به او، درحالتی که یقین کننده باشد وبازگردد به سوی او، در حالتی که ایمان آورنده باشد وخضوع و خشوع کند او را، درحالتی که گردن نهنده باشد واخلاص ورزد از برای او، در حالتی که موحّد باشد و تعظیم کند او را، در حالتی که تمجیدکننده شود و پناه ببرد به او، درحالتی که رغبت کننده و سعی نماینده باشد.

متولد نشد حق سبحانه و تعالی تا این که در عزّت شریك داشته باشد و پسر ندارد تا این که میراث برده شده و هالك گردد و مقدّم نشده بر او هیچ وقت و زمانی و نوبه نوبه فراهم نیامده او را هیچ زیادتی و نقصانی، بلکه آشکار شد به عقلها با آن چه نمایان کرد ما را از علامات تدبیر محکم و قضاء متقن.

پس از جمله شواهد خلق او است خلقت آسمان ها، درحالتی که ثابت و محکم اند بی ستونی و ایستاده اند بدون تکیه گاهی؛ دعوت فرمود آنها را، پس اجابت کردند، در حالتی که اطاعت کننده بودند و انقیادنماینده، بدون این که توقّف داشته باشند یا تأخیرکننده باشند و اگر نبود اقرار آنها به ربوبیّت او و انقیاد آن ها به طاعت او، نمی گردانید آن ها را محلّ عرش خود و نه مسکن از برای فرشتگان و نه محلّ صعود کلمات طیّبات و اعمال صالحه از خلق.

گردانید ستاره های آسمان ها را علامت ها تا راه بیابد با آن ها شخص متحیّر سرگردان در محل اختلاف راه های اطراف زمین، مانع نشد از روشنی نور آن ستاره ها شدّت تاریکی شب تیره و متمکّن نشد لباس های سیاه ظلمت های با شدّت از این که برگرداند آن چه که شایع و ظاهر شده در آسمان ها از درخشیدن نور ماه.

پس تنزیه می کنم آن کسی را که پوشیده نمی شود بر او سیاهی ظلمت باشدّت و نه سیاهی شب آرمیده در بقعه های زمین ها که منخفض و پست اند ونه در کوه های بلند سیاه رنگ مایل به سرخی که قریب به یکدیگرند و مخفی نمی شود بر او آن چه که آواز کند بر او رعد در افق آسمان و آن چه که متلاشی و نابود می شود از او برق های ابر و بر آن چه می افتد از برگ درختان که زایل می گرداند آن برگ را از محلّ افتادن تندبادها که حاصل می شود به سبب سقوط نجوم ساقط از منازل قمر و به سبب ریخته شدن باران از آسمان و می داند جای افتادن قطره های باران و قرارگاه آن را و محلّ کشیدن مورچه های کوچك و مکان جرّ آن را و چیزی را که کفایت کند پشه را از خوراك آن و چیزی که حمل نموده است آن را ماده در شکم خود.

ستایش مرخدای را است که موجود بود پیش از این که بوده باشد کرسی یا عرش یا آسمان یا زمین یا جان یا انسان، درك نمی شود آن پروردگار با وهم و گمان و اندازه کرده نمی شود با فهم عقل ها و مشغول نمی گرداند او را سائلی از سائل دیگر و کم نمی گرداند بحر کرم او را هیچ عطایی و نگاه نمی کند با چشم و محدود نمی گردد با مکان و موصوف نمی شود با جفت ها و نمی آفریند به معالجه و مباشرت و ادراك نمی شود با حواس ظاهره و باطنه و قیاس کرده نمی شود به

خلق، آن چنان پروردگاری که سخن گفت با جناب موسی (عليه السلام) سخن گفتنی و نمایانید او را از علامت های قدرت خود چیز بزرگی بی اعضا و جوارحی و بدون نطق و گوشت پاره هایی که در آخر دهن است و با آن نطق حاصل می شود.

بلکه اگر راست گوینده باشی تو ای مشقت کشنده در وصف پروردگار خود، پس وصف کن جبرئیل و میکائیل و لشکرهای فرشتگان را که مقرّب درگاه اویند در منزل های قدس و طهارت خاضع و مایلند به زیر از خضوع، درحالتی که متحیّر است عقل های ایشان در این که حدی قرار بدهند بهترین آفرینندگان را و جز این نیست که ادراك می شود با صفت ها صاحبان صورت ها و آلت ها و آن کسی که منقضی می شود به فنا و نیستی زمانی که برسد به غایت حد خود، پس نیست هیچ معبود به حقّی غیر او که روشن فرمود با نور خود هر تاریکی و تاریك گردانید با تاریکی خود هر روشنی را.

الفصل الثاني

أُوصيكُمْ عِبادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذي أَلْبَسَكُمُ الرِّياشَ، وأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ، وَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلى الْبَقاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبيلاً، لَكانَ ذٰلِكَ سُلَيْمانُ بْنُ داوُدَ عليه السلام الَّذي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مع النُّبُوَّةِ وعَظيمِ الزُّلْفَةِ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفِناءِ بِنِبالِ الْمَوْتِ، وأَصْبَحَتِ الدِّيارُ مِنْهُ خالِيَةً، وَالْمَساكِنُ مُعَطَّلَةً، ووَرِثَها قَوْمٌ آخَرُونَ، وإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً، أَيْنَ الْعَمالِقَةُ وَابْناءُ الْعَمالِقَةِ؟ أَيْنَ الْفَراعِنَةُ وَأَبْناءُ الْفَراعِنَةِ؟ أَيْنَ أَصْحابُ مَدائِنِ الرَّسِّ؟ الَّذينَ قَتَلوا النَّبِيِّينَ، وأَطْفَؤُا سُنَنَ الْمُرْسَلينَ، وأَحْيُوا سُنَنَ الْجَبَّارينَ، وأَيْنَ الَّذين سارُوا بِالْجُيُوشِ، وهَزَمُوا الأُلُوفَ، وعَسْكَرُوا الْعَساكِرَ، ومَدَّنُوا الْمَدائِنَ[1].

اللغة

(**الرياش**) والريش ما ظهر من اللباس، وقيل: الرياش جمع الريش هو اللباس الفاخر و(**المعاش**) والمعيشة مكتسب الإنسان الذي يعيش به و(**السلم**) كسكر ما يرتقى عليه و(**القسى**) جمع القوس و(**النبل**) السّهام العربيّة لا واحد لها من لفظها و(**العمالقة**) والعماليق أولاد عمليق وزان قنديل أو عملاق كقرطاس وهو من ولد نوح عليه السلام حسبما تعرف و(**الفراعنة**) جمع فرعون و(**الرّس**) بتشديد السّين نهر عظيم بين أذربيجان وأرمينية وهو المعروف الآن بالأرس مبدؤه من مدينة طراز وينتهي إلى شهر الكرّ فيختلطان ويصبان في البحر، وقال في القاموس: بئر كانت لبقيّة من ثمود كذبوا نبيهم ورسّوه في بئر و(**مدن**) المدائن تمديناً مصّرها.

الإعراب

(**الباء**) في قوله بنبال الموت زائدة في المفعول، و(**المدائن**) مفعول لقوله مدّنوا لا فيه كما هو واضح.

المعنى

أعلم أنه لما افتتح الخطبة بتحميد الله سبحانه وتمجيده وذكر جملة من صفات جلاله ونعوت جماله وأشار إلى عجائب قدرته وبدائع حكمته في ملكه وملكوته في الفصل السابق منها، أتبعه بهذا الفصل تذكرة وموعظة للمخاطبين، فأوصى بما لا يزال يوصي به وقال:

(١) مستدرك سفينة البحار: ٩/٤٥٧، وشرح نهج البلاغة ١٠/٩٢.

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله) التي هي الزاد وبها المعاد زاد مبلغ ومعاد منجح وهي أن لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك.

وإنما عقب بالموصول أعني قوله **(الذي ألبسكم الرياش وأسبغ عليكم المعاش)** تأكيداً للغرض المسوق له الكلام، وتنبيهاً على أنه سبحانه مع عظيم إحسانه ومزيد فضله وإنعامه حيث أنعم عليكم باللباس والرياش وأكمل عليكم المعاش الذين هما سبب حياتكم وبهما بقاء نوعكم، كيف يسوغ كفران نعمته بالعصيان، ومقابلة عطوفته بالخطيئة، بل اللازم مكافأة نعمائه بالتقوى، وعطاياه بالحسنى.

ثمّ لما كان رأس كلّ خطيئة هو حب الدنيا وكان عمدة أسباب الغفلة والضلالة الركون إليها وطول الأمل فيها نبّه على فنائها وزوالها بقوله: **(ولو أن أحداً يجد إلى البقاء سلّما)** ووسيلة **(أو لدفع الموت سبيلاً)** وسبباً **(لكان ذلك سليمان بن داود** عليه السلام**)** لأنّه **(الذي)** اختص من سائر الخلق لكمال السّلطنة والملك العظيم حيث **(سخر ملك الجن والإنس)** والوحش والطير فهم يوزعون حسبما تعرفه تفصيلاً عن قريب **(مع النبوّة وعظيم الزلفة)** والقربى إلى الحق سبحانه.

ومعلوم أن النبوة والتقرب والمنزلة من الوسائل إلى البقاء لاستجابة الدعاء معهما فهما مظنتان للتوصل إليه في الباطن، كما أن الملك والسلطنة مظنة لأن تكون وسيلة إليه في الظاهر، لكنّه مع نبوّته وعظم سلطانه وقدرته على ما لم يقدر عليه غيره لم يجد وسيلة إلى البقاء، فليس لأحد بعده أن يطمع في وجدانه.

أما إنه عليه السلام لم يجد وسيلة إلى ذلك (فـ) ـلانه **(لما استوفى طعمته)** أي رزقه المقدر **(واستكمل مدّته)** المقرّرة **(رمته قسي الفناء بنبال الموت)** إسناد الرمي إلى القسي من المجاز العقلي والنسبة إلى الآلة، قال الشارح البحراني: ولفظ القسي والنبال استعارة لمرامي الأمراض وأسبابها التي هي نبال الموت **(وأصبحت الديّار منه خالية والمساكن معطلة ورثها قوم آخرون)**.

روى في البحار من العلل والعيون عن أحمد بن زياد الهمداني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن عليّ بن معبد عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه موسى بن جعفر[1] بن محمد عليهم السلام قال: إن سليمان بن داود عليه السلام قال: ذات يوم لأصحابه: إن الله تبارك وتعالى قد وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي سخّر لي الريح والإنس والجن والطير والوحوش وعلّمني منطق الطير وآتاني كل شيء ومع جميع ما أوتيت

(١) «عن أبيه جعفر» في نسخة.

من الملك ما تم لي سرور يوم إلى الليل، وقد أحببت أن أدخل قصري في غد فأصعد أعلاه وأنظر إلى ممالكي فلا تأذنوا لأحد عليّ لئلا يرد علي ما ينغص على يومي، قالوا: نعم.

فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع من قصره ووقف متكئاً على عصاه ينظر إلى ممالكه مسروراً بما أوتي فرحاً بما أعطي، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللّباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره، فلما بصر به سليمان عليه السلام قال: من أدخلك إلى هذا القصر؟ وقد أردت أن أخلو فيه اليوم فبإذن من دخلت؟ فقال الشاب: أدخلني هذا القصر ربّه وبإذنه دخلت، فقال عليه السلام: ربه أحق به مني فمن أنت؟ قال: أنا ملك الموت، قال: وفيما جئت؟ قال: جئت لأقبض روحك قال: امض لما أمرت به فهذا يوم سروري وأبى الله عزّ وجلّ أن يكون لي سروري دون لقائه، فقبض ملك الموت روحه وهو متكيء على عصاه.

فبقي سليمان متكئاً على عصاه وهو ميّت ما شاء الله والناس ينظرون إليه وهم يقدرون أنه حي، فافتتنوا فيه واختلفوا فمنهم من قال: أن سليمان قد بقي متكئاً على عصاه هذه الأيام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب إنه لربنا الذي يجب علينا أن نعبده، وقال قوم: إن سليمان ساحر إنه يرينا أنه واقف ومتكيء على عصاه يسحر أعيننا وليس كذلك، فقال المؤمنون: إن سليمان هو عبد الله ونبيّه يدبّر الله بما شاء.

فلما اختلفوا بعث الله عز وجل الأرضة فدبت في عصاه، فلما أكلت جوفها انكسرت العصا وخرّ سليمان من قصره على وجهه فشكر الجن للأرضة صنيعها فلأجل ذلك لا توجد الأرضة في مكان إلا وعنده ماء وطين، وذلك قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ يعني عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[1] [سبأ: ١٤].

ثمّ نبّه عليه السلام على الاعتبار بأحوال القرون الخالية والأمم الماضية فقال: **(وإنّ لكم في القرون السالفة لعبرة)** وأشار إلى وجه العبرة على سبيل الاستفهام التقريري قصداً للتذكير والتذكّر بقوله: **(أين العمالقة وأبناء العمالقة)**.

قال الشارح المعتزلي: العمالقة أولاد لاوز بن أرم بن سالم بن نوح عليه السلام كان الملك باليمن والحجاز ما تاخم ذلك من الأقاليم فمنهم عملاق بن لاوز، ومنهم طسم بن لاوز أخوه، ومنهم جديس بن لاوز أخوهما، وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوز في طسم، فلما ملكهم عملاق بن طسم بغى وأكثر الفساد في الأرض حتى كان يطأ العروس ليلة هدائها إلى بعلها وإن كانت بكراً افتضها قبل وصولها إلى البعل، ففعل ذلك بامرأة من جديس يقال

(١) الكافي: ٨/ ١٤٤ ح١١٤، وعلل الشرائع: ١/ ٧٤ ح٢.

لها غفيرة بنت غفار، فخرجت إلى قومها وهي تقول:

لا أحـــد أذلّ مـــن جـــديـــس أهـــكـــذا يـــفـــعـــل بـــالـــعـــروس

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته فصنع الأسود طعاماً ودعى العملاق إليه ثم وثب به وبطسم فأتى على رؤسائهم ونجا منهم رباح بن مز فصار إلى ذي جيشان بن تبع الحميري ملك اليمن، فاستغاث به على جديس فسار ذو جيشان في حمير فأتى بلاد جوّ وهي قصبة اليمامة واستأصل جديس كلها وأخرب اليمامة فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلا اليسير منهم ثم ملك بعد طسم وجديس وباز بن إيم[١] لاوز بن أرم فسار بولده وأهله ونزل برمل عالج فبغوا في الأرض حيناً حتّى أفناهم الله، ثم ملك الأرض بعد باز عبد صحم بن أثيف بن لاوز فنزلوا بالطائف حيناً ثم بادوا[٢].

قال الشارح: وممن يعدّ من العمالقة عاد وثمود.

فأمّا عاد فهو ابن عويص بن أرم بن سام بن نوح كان يعبد القمر يقال إنه كان رأى من صلبه أولاداً وأولاد أولاد أربعة آلاف، وأنه نكح ألف جارية وكان بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن، وهي من شجر عمّان إلى حضرموت، ومن أولاده شداد بن عاد صاحب المدينة المذكورة في سورة الفجر.

وأما ثمود فهو ابن عابر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت دياره بين الشام والحجاز إلى ساحل بحر الحبشة.

(**أين الفراعنة وأبناء الفراعنة**) وهم ملوك مصر فمنهم الوليد بن الريان فرعون يوسف عليه السلام، ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى، ومنهم فرعون بن الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأخرب بيت المقدس.

(**أين أصحاب مداين الرّس**) وستعرف أبناءهم في التذييل الآتي، وهم (**الذين**) جحدوا رب العالمين و(**قتلوا النبيين**) مظلومين (**وأطفؤا سنن المرسلين**) وشرائع الدّين (**وأحيوا سنن الجبّارين**) وبدع الشياطين (**وأين**) الملوك (**الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف**) وفتحوا الأمصار (**وعسكروا العساكر**) وجمعهوهم (**ومدنوا المدائن**) وبنوها.

---

(١) في نسخة: «بن».

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٩٤.

وينبغي تذييل هذا الفصل من الخطبة بأمرين:

الأول
في نوادر أخبار ملك سليمان بن داود عليه السلام المشار إليه في هذا الفصل

قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٥ ـ ١٦].

وفي سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢].

قوله سبحانه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ قال الصادق عليه السلام في رواية إكمال الدين: إن داود عليه السلام أراد أن يستخلف سليمان لأن الله عزّ وجل أوحى إليه يأمره بذلك فلما أخبر بني إسرائيل ضجّوا من ذلك وقالوا: يستخلف علينا حدثاً وفينا من هو أكبر منه، فدعى أسباط بني إسرائيل فقال لهم: قد بلغني مقالتكم فأروني عصيكم فأي عصا أثمرت فصاحبها وليّ الأمر بعدي، فقالوا: رضينا، وقال: ليكتب كلّ واحد منكم اسمه على عصاه، فكتبوا ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه ثمّ أدخلت بيتاً وأغلق الباب وحرسه رؤوس أسباط بني إسرائيل فلما أصبح صلّى بهم الغداة ثم أقبل ففتح لهم الباب فأخرج عصيهم وقد ورقت عصا سليمان وقد أثمرت، فسلّموا ذلك لداود عليه السلام[1].

وفي البحار من محاسن البرقي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: استخلف داود سليمان وهو ابن ثلاثة عشر سنة، ومكث في ملكه أربعين سنة[2].

وقوله: «علمنا منطق الطير» قيل: إن النّطق عبارة وهو مختص بالإنسان إلاّ أن سليمان لما فهم معنى صوت الطير سماه منطقاً مجازاً، وقال عليّ بن عيسى: إن الطّير كانت تكلم سليمان عليه السلام معجزة له كما أخبر عن الهدهد، ومنطق الطير صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة بخلاف منطق الناس الذي يتفاهمون به المعاني على صيغ مختلفة، ولذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها ولم يفهم هي عنا، لأن أفهامها مقصورة على تلك الأمور

(١) بحار الأنوار: ١٣/٤٤٧، وكمال الدين وتمام النعمة: ١٥٦.

(٢) مشكاة الأنوار: ٤٣٦، وبحار الأنوار: ١١/٥٦ ح٥٤.

المخصوصة، ولما جعل سليمان يفهم عنها كان قد علم منطقها.

قوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل شيء تؤتى الأنبياء والملوك، وقيل: من كل شيء يطلبه طالب لحاجته إليه وانتفاعه به.

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [النمل: ١٦] قال الطبرسي: أي وسخرنا لسليمان الريح مسير غدو تلك الريح المسخّرة مسير شهر ومسير رواحها مسير شهر والمعنى أنها كنانت تسير في اليوم مسيرة شهرين للرّاكب قال قتادة: كانت تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار، وقال الحسن: كانت تغدو من دمشق فيقبل باصطخر من أرض أصفهان وبينهما مسيرة شهر للمستريح، وتروح من اصطخر فتبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر تحمله الريح مع جنوده أعطاه الله الريح بدلاً من الصافنات الجياد.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢] أي أذبنا له عين النحاس وأظهرناها له.

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ المعنى وسخرنا له من الجن من بحضرته وأمام عينه ما يأمرهم به من الأعمال كما يعمل الآدمي بين يدي الآدمي بأمر ربه تعالى، وكان يكلّفهم الأعمال الشاقة، وفيه دلالة على أنه قد كان من الجن من هو غير مسخر له.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي من يعدل من هؤلاء الجن الذين سخرناهم لسليمان عما أمرناهم به من طاعة سليمان نذقه من عذاب النار في الآخرة عن أكثر المفسرين، وقيل: نذقه العذاب في الدنيا وأن الله سبحانه وكلّ بهم ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منهم من طاعة سليمان ضربه ضربة أحرقته.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ [سبأ: ١٣] وهي البيوت الشريفة الشريعة قيل: وهي القصور والمساجد يتعبّد فيها عن قتادة والجبائي، قال: وكان مما عملوا بيت المقدس وقد كان الله عزّ وجلّ سلط على بني إسرائيل الطاعون فهلك خلق كثير في يوم واحد فأمرهم داود أن يغتسلوا ويبرزوا إلى الصعيد بالذراري والأهلين ويتضرّعوا إلى الله تعالى لعله يرحمهم، وذلك صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد، وارتفع داود عليه السلام فوق الصّخرة فخرّ ساجداً يبتهل إلى الله سبحانه وسجدوا معه، فلم يرفعوا رؤوسهم حتى كشف الله عنهم الطاعون.

فلما أن شفع الله جمعهم داود في بني إسرائيل بعد ثلاث وقال لهم: إن الله تعالى قد منّ عليكم ورحمكم فجدّدوا شكراً بأن تتخذوا من هذا الصعيد الذي رحمكم فيه مسجداً ففعلوا، وأخذوا في بناء بيت المقدس فكان داود عليه السلام ينقل الحجارة لهم على عاتقه، وكذلك خيار بني إسرائيل حتى رفعوه قامة ولداود عليه السلام يومئذ سبع وعشرون ومائة سنة، فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام أن تمام بنائه يكون على يد ابنه سليمان.

فلما صار داود ابن أربعين ومائة سنة توفاه الله تعالى واستخلف سليمان فأحبّ إتمام بيت المقدس فجمع الجن والشياطين فقسم عليهم الأعمال يخصّ كلّ طائفة منهم بعمل، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والمها الأبيض الصافي من معادنه وأمر ببناء المدينة من الرخام والصفاح وجعلها اثنا عشر ربضاً وأنزل كل ربض منها سبطاً من الأسباط.

فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجه الشياطين فرقاً فرقة يستخرجون الذهب واليواقيت من معادنها، وفرقة يقلعون الجواهر والأحجار من أماكنها، وفرقة يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب، وفرقة يأتونه بالدّر من البحار فأوتي من ذلك بشيء لا يحصيه إلا الله تعالى ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الأحجار حتى يصيروها ألواحاً ومعالجة تلك الجواهر واللآلي.

وبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين المها الصافي، وسقفه بألواح الجواهر، وفضّض سقوفه وحيطانه باللآلي واليواقيت والجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروز، فلم يكن في الأرض بيت أبهى منه ولا أنور من ذلك المسجد كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر.

فلما فرغ منه جمع إليه خيار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً.

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزا بخت نصر بني إسرائيل فخرب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما في سقوفه وحيطانه من الذهب والدر واليواقيت والجواهر، فحملها إلىٰ دار مملكته من أرض العراق.

قال سعيد بن المسيّب: لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلقت أبوابه فعالجها سليمان فلم تنفتح حتى قال في دعائه بصلوات أبيه داود ﷺ إلا فتحت الأبواب ففرغ له عشرة آلاف من قراء بني إسرائيل خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار ولا يأتي ساعة من ليل ونهار إلا ويعبد الله فيها.

«وتماثيل» يعني صوراً من نحاس وشبه وزجاج كانت الجن تعملها، ثمّ اختلفوا فقال بعضهم: كانت صوراً للحيوانات، وقال آخرون: كانوا يعملون صور السّباع والبهائم على كرسيّه ليكون أهيب له.

فذكروا أنّهم صوّروا أسدين أسفل كرسيّه ونسرين فوق عمودي كرسيه فكان إذا أراد أن يصعد الكرسي بسط الأسدان ذراعيهما، وإذا علا على الكرسي نشر النسران أجنحتهما فظلّلاه من الشّمس، ويقال: إن ذلك كان مما لا يعرفه أحد من الناس.

فلما حاول بخت نصر صعود الكرسي بعد سليمان حين غلب على بني إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان، فرفع الأسد ذراعيه فضرب ساقه فقدها فوقع مغشياً عليه فما جسر أحد بعده أن يصعد ذلك الكرسي[١].

قال الحسن: ولم يكن يومئذ التصاوير محرمة وهي محظورة في شريعة نبيّنا ﷺ، فإنه قال: لعن الله المصوّرين، ويجوز أن يكره ذلك في زمن دون زمن، وقد بيّن الله سبحانه أن المسيح عليه السلام كان يصور بأمر الله من الطين كهيئة الطير وقال ابن عباس: كانوا يعملون صور الأنبياء والعبّاد في المساجد ليقتدى بهم.

وروى عن الصادق عليه السلام أنه قال: والله ما هي تماثيل النساء والرجال ولكنها الشجر وما أشبهه[٢].

«وجفان كالجواب» أي صحاف كالحياض التي يجبى فيها الماء أي يجمع وكان سليمان عليه السلام يصلح طعام جيشه في مثل هذه الجفان، فإنه لم يمكنه أن يطعمهم في مثل قصاع الناس لكثرتهم، وقيل: إنه كان يجمع على كلّ جفنة ألف رجل يأكلون بين يديه.

«وقدور راسيات» أي ثابتات لا يزلن عن أمكنتهنّ لعظمهن، عن قتادة وكانت باليمن وقيل كانت عظيمة كالجبال يحملونها مع أنفسهم وكان سليمان عليه السلام يطعم جنده.

وفي البحار عن صاحب الكامل قال: لما توفي داود ملك بعده ابنه سليمان عليه السلام على بني إسرائيل وكان عمره ثلاث عشر سنة، وأتاه مع الملك النبوة وسخر له الجن والأنس والشياطين والطير والريح، فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام الأنس والجن متى يجلس فيه، قيل: إنه سخر له الريح والجن والشياطين والطير وغير ذلك بعد أن زال ملكه وأعاده الله إليه وكان أبيض جسيماً كثير الشعر يلبس البياض، وكان يأكل من كسبه، وكان كثير الغزو، وكان إذا أراد الغزو أمر فعمل بساط من خشب يسع عسكره، فيركبون عليه هم ودوابهم وما يحتاجون إليه، ثمّ أمر الريح فسار في غدوته مسيرة شهر وفي روحته كذلك، وكان له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة سرية وأعطاه الله أخيراً أنه لا يتكلم أحد بشيء إلا حملته الريح فيعلم ما يقول[٣].

وفيه من كتاب قصص الأنبياء بالإسناد عن أبي حمزة عن الأصبغ بن نباته قال: خرج

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٧٨، والتبيان: ٨/ ٣٨٣.

(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٧٨، وتفسير مجمع البيان: ٨/ ٢٠٣.

(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ٧٩ ح٢١.

سليمان بن داود من بيت المقدّس مع ثلاثمائة ألف كرسي عن يمينه عليها الأنس وثلاثمائة ألف كرسي عن يساره عليها الجن، وأمر الطير فأظلّتهم وأما الريح فحملتهم حتى وردت بهم المدائن، ثم رجع وبات في اصطخر، ثم غدا فانتهى إلى جزيرة بركاوان، ثمّ أمر الريح فخفضتهم حتى كادت أقدامهم يصيبها الماء، فقال بعضهم لبعض: هل رأيتم ملكاً أعظم من هذا؟ فنادى ملك: لثواب تسبيحة واحدة أعظم مما رأيتم[١].

وفيه منه عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان ملك سليمان ما بين الشامات إلى بلاد اصطخر[٢].

وفيه عن الطبرسي قال: قال محمد بن كعب: بلغنا أن سليمان بن داود عليه السلام كان عسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون للأنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من القوارير على الخشب فيه ثلاثمائة مهيرة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ويأمر الرّخاء فتسير به، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض أني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت الريح فأخبرتك[٣].

وقال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخ في فرسخ ذهباً في إبريسم وكان يوضع فيه منبر من ذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظلّها الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليهم الشمس، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح، ومن الرواح إلى الصباح.

وفيه من تفسير الثعلبي قال: وروى أن سليمان عليه السلام لما ملك بعد أبيه أمر باتخاذ كرسي ليجلس عليه للقضاء وأمر بأن يعمل بديعاً مهولاً بحيث أن لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيب[٤].

قال: فعمل له كرسي من أنياب الفيلة وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر وحفظوه بأربع نخلات من ذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر على رأس نخلتين منها طاووسان من ذهب وعلى رأس الآخرين نسران من ذهب بعضها مقابلاً

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٧٢ ح١٠، ومستدرك سفينة البحار: ٥/ ١٢٢.

(٢) الخصال: ٢٤٨ ح١١٠، وميزان الحكمة: ٤/ ٣١٣٥.

(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ٨١ ح٢٣، ومستدرك سفينة البحار: ٤/ ٢٣٨.

(٤) بحار الأنوار: ١٤/ ٨٤، وتفسير القرطبي: ١٥/ ٢٠٢.

لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسي أسدين من الذهب على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر بحيث يظل عريش الكروم النخل والكرسي.

قال: وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسي كلّه بما فيه دوران الرحى المسرعة وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتهما ويبسط الأسدان أيديهما فتضربان الأرض بأذنابهما، فكذلك كل درجة يصعدها سليمان عليه السلام.

فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأس سليمان ثم يستدير الكرسي بما فيه ويدور معه النسران والطاووسان والأسدان ما يلات برؤوسها إلى سليمان ينضحن عليه من أجوافها المسك والعنبر.

ثم تناولت حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسي التوراة فيفتحها سليمان ويقرأها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء، ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي من الذهب المفصصة بالجوهر وهي ألف كرسي عن يمينه، وتجيء عظماء الجن وتجلس على كراسي الفضة على يساره وهي ألف كرسي حافين جميعاً به ثم يحف بهم الطير فتظلهم وتتقدم إليه الناس للقضاء.

فإذا دعي البيّنات والشهود لإقامة الشهادات دار الكرسي بما فيه مع جميع ما حوله دوران الرحا المسرعة ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما فيفزع منه الشهود ويدخلهم من ذلك رعب ولا يشهدون إلا بالحق[١].

وفي البحار من كتاب تنبيه الخاطر روى أن سليمان بن داود عليه السلام مرّ في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وعن شماله بعابد من عباد بني إسرائيل فقال: والله يا ابن داود لقد أتاك الله ملكاً عظيماً، فسمعه سليمان فقال: لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود إن ما أعطي ابن داود تذهب وإن التسبيحة تبقى[٢].

وكان سليمان إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والإشراف حتى يجيء إلى المساكين ويقعد معهم ويقول مسكين مع المساكين.

ومن إرشاد القلوب كان سليمان مع ما هو فيه من الملك يلبس الشعر وإذا جنّه الليل شدّ يديه إلى عنقه فلا يزال قائماً حتى يصبح باكياً وكان قوته من سفائف الخوص يعملها بيده

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٨٥، وقصص الأنبياء: ٤١٣.

(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٨٣ ح٢٧، وتاريخ مدينة دمشق: ٢٢/ ٢٧٥.

وإنما سأل الملك ليقهر ملوك الكفر(١).

الثاني
في بيان مدائن الرس وقصة أصحابها

قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ [الفرقان: ٣٨] وفي سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ [ق: ١٢] قال الطبرسي: أي وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب الرس، وهو بئر رسّوا فيها نبيهم أي ألقوه فيها عن عكرمة.

وقيل: أنهم كانوا أصحاب مواش ولهم بئر يقعدون عليها وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه فانهار البئر وانخسف بهم الأرض فهلكوا عن وهب.

وقيل: الرس قرية باليمامة يقال لها فلج قتلوا نبيهم فأهلكهم الله عن قتادة.

وقيل: كان لهم نبي يسمّى حنظلة فقتلوه فأهلكوا عن سعيد بن جبير والكلبي.

وقيل: هم أصحاب رس والرس بئر بإنطاكية فيها حبيباً النجار فنسبوا إليه عن كعب ومقاتل.

وقيل: أصحاب الرس كان نساؤهم سحّاقات عن أبي عبد الله عليه السلام.

وفي البحار من تفسير علي بن إبراهيم: أصحاب الرس هم الذين هلكوا لأنهم استغنوا الرجال بالرجال والنساء بالنساء(٢).

ومن معاني الأَخبار: معنى أصحاب الرس أنهم نسبوا إلى نهر يقال له: الرّس من بلاد المشرق(٣).

وقد قيل: إنّ الرّس هو البئر وأن أصحابه رسّوا نبيّهم بعد سليمان بن داود عليه السلام وكانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبرة يقال لها شاه درخت كان غرسها يافث ابن نوح فأنبتت لنوح عليه السلام بعد الطوفان وكان نساؤهم يشتغلن بالنساء عن الرجال فعذّبهم الله عزّ وجلّ بريح عاصف شديد الحمرة وجعل الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقد وأظلّتهم سحابة سوداء مظلمة فانكفت عليهم كالقبة جمرة تلتهب فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار.

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٨٣ ح٢٩، ومستدرك سفينة البحار: ٥/ ١٢٥.

(٢) تفسير القمي: ٢/ ٣٢٣، وقصص الأنبياء: ٤٤٠.

(٣) علل الشرائع: ١/ ٤١ ح١، وبحار الأنوار: ١٤/ ١٤٩ ح١.

ومن العرائس للثعلبي قال: قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ وقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ اختلف أهل التفسير وأصحاب الأقاصيص فيهم.

فقال سعيد بن جبير والكلبي والخليل بن أحمد دخل كلام بعضهم في بعض وكلّ أخبر بطائفة من حديث: أصحاب الرّس بقية ثمود وقوم صالح وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] وكانوا بفليج اليمامة نزولاً على تلك البئر وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهو بئر وكان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم جبل يقال له فتح مصعدا في السماء ميلاً، وكانت العنقاء تنتابه وهي كأعظم ما يكون من الطير وفيها من كل لون وسمّوها العنقاء لطول عنقها وكانت تكون في ذلك الجبل تنقض على الطير تأكلها، فجاعت ذات يوم فاعوزها الطير فأنقضت على صبي فذهبت به، ثم إنها انقضت على جارية حين تزعزعت فأخذتها فضمّتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين، فشكوا إلى نبيهم فقال: اللهم خذها واقطع نسلها وسلّط عليها آية يذهب بها، فأصابتها صاعقة فاحترقت فلم ير لها أثر فضربتها العرب مثلاً في أشعارها وحكمها وأمثالها ثمّ إنّ أصحاب الرّس قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله تعالى.

وقال بعض العلماء: بلغني أنه كان رسّان.

وأما أحدهما: فكان أهله بدو وأصحاب غنم ومواش فبعث الله إليهم نبياً فقتلوه ثم بعث إليهم رسولاً آخر وعضده بولي فقتلوا الرّسول وجاهدهم الولي حتى أفحمهم وكانوا يقولون إلهنا في البحر وكانوا على شفيرة وكان يخرج إليهم شيطان في كلّ شهر خرجة فيذبحون ويتخذونه عيداً فقال لهم الولي أرأيتم إن خرج إلهكم الذي تدعونه إليّ وأطاعني أتجيبونني إلى ما دعوتكم إليه؟ فقالوا: بلى، وأعطوه على ذلك العهود والمواثيق.

فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكباً أربعة حيتان وله عنق مستعلية وعلى رأسه مثل التاج، فلما نظروا إليه خروا له سجّداً وخرج الولي إليه فقال: ائتني طوعاً أو كرهاً بسم الله الكريم، فنزل عند ذلك عن أخواته فقال له الولي ائتني عليهن لئلا يكون من القوم في أمري شك فأتى الحوت وأتين به حتى أفضين به إلى البر يجرّونه.

فكذّبوه بعد ما رأوا ذلك ونقضوا العهد فأرسل الله تعالى إليهم ريحاً فقذفهم في البحر ومواشيهم جميعاً وما كانوا يملكون من ذهب وفضة، فأتى الولي الصالح إلى البحر حتّى أخذ التبر والفضة والأواني فقسّم على أصحابه بالسويّة على الصّغير منهم والكبير وانقطع هذا النسل.

وأما الآخر: فهم قوم كان لهم نهر يدعى الرّس ينسبون إليه وكان فيهم أنبياء كثيرة قلّ

يوم يقوم نبي إلاّ قتل وذلك النهر بمنقطع أذربيجان بينها وبين أرمنية فإذا قطعته مدبراً دخلت في حدّ أرمنيّة وإذا قطعته مقبلاً دخلت في حد أذربيجان يعبدون النيران وكانوا يعبدون الجواري «العذارى» فإذا تمت لإحداهن ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ، وكان يرتفع في كل يوم وليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التي حوله، وكان لا ينصب في بر ولا بحر إذا خرج من حدهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم.

فبعث الله تعالى ثلاثين نبياً في شهر واحد فقتلوهم جميعاً، فبعث الله عزّ وجل نبياً وأيده بنصره وبعث معه ولياً فجاهدهم في الله حق جهاده.

فبعث الله تعالى إليه ميكائيل حين نابذوه وكان ذلك في أوان وقوع الحب في الزرع، وكانوا إذ ذاك أحوج ما كانوا إلى الماء، ففجر نهرهم في البحر فانصبت ما في أسفله وأتي عيونه من فوق فسدّها وبعث إليه خمسمائة ألف من الملائكة أعواناً له ففرقوا ما بقي في وسط النهر.

ثمّ أمر الله جبرئيل فنزل فلم يدع في أرضهم عيناً ولا نهراً إلا أيبسه بإذن الله عزّ وجلْ وأمر ملك الموت فانطلق إلى المواشي فأماتهم ربضة واحدة، وأمر الرياح الأربع الجنوب والشمال والدّبور والصبا فضمت ما كان لهم من متاع وألقى الله عز وجل عليهم السّبات، ثم حفت الرياح الأَربع المتاع أجمع فنهبته في رؤوس الجبال وبطون الأودية.

فأمّا ما كان كم جليٍ أو تبرٍ أو آنيةٍ فإن الله تعالى أمر الأرض فابتلعته فأصبحوا ولا شاة عندهم ولا بقرة ولا مال يعودون ولا ماء يشربونه ولا طعام يأكلونه، فآمن بالله عند ذلك قليل منهم وهداهم إلى غار في جبل له طريق إلى خلفه فنجوا وكانوا أحداً وعشرين رجلاً وأربع نسوة وصبيين وان عدّة الباقين من الرجال والنساء والذراري ستمائة ألف فماتوا عطشاً وجوعاً ولم يبق منهم باقية.

ثمّ عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها فدعا القوم عند ذلك مخلصين أن يجيبهم(١)، بزرع وماء وماشية ويجعله قليلاً لئلا يطغوا، فأجابهم الله تعالى إلى ذلك لما علم من صدق نيّاتهم وعلم منهم الصّدق وألوا أن لا يبعث رسولاً ممن قاربهم إلا أعانوه وعضدوه، وعلم الله منهم الصّدق فأطلق الله لهم نهرهم وزادهم على ما سألوا، فقام أولئك في طاعة الله عزّ وجل ظاهراً وباطناً حتى مضوا وانقرضوا.

وحدث بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله في الظاهر ونافقوه في الباطن فأملى الله تعالى

---

(١) «ينجيهم» في نسخة.

لهم وكان عليهم قادراً، ثم كثرت معاصيهم وخالفوا أولياء الله تعالى فبعث الله عز وجل عدوهم ممن فارقهم وخالفهم فأسرع فيهم القتل وبقيت منهم شرذمة فسلّط الله عليهم الطاعون فلم يبق منهم أحداً وبقي نهرهم ومنازلهم مائتي عام لا يسكنها أحد.

ثمّ أتى الله بقرن بعد ذلك فنزلوها وكانوا صالحين سنين ثم أحدثوا فاحشة جعل الرجل بنته وأخته وزوجته فينيلها جاره وأخاه وصديقه يلتمس بذلك البر والصلة.

ثم ارتفعوا من ذلك إلى نوع آخر ترك الرجال النساء حتى شبقن واستغنوا بالرجال فجاءت النساء شيطانهن في صورة وهي الدلهاث بنت إبليس وهي أخت الشيصاء وكانت في بيضة واحدة فشهّت إلى النساء ركوب بعضهن بعضاً وعلمهن كيف يصنعن فأصل ركوب النساء بعضهن بعضاً من الدلهاث، فسلّط الله على ذلك القرن صاعقة في أول اللّيل وخسفا في آخر الليل، وصيحة مع الشمس فلم يبق منهم باقية وبادت مساكنهم ولا أحسب منازلهم اليوم تسكن[١].

وفي البحار من كتابي العيون والعلل عن الهمداني عن علي عن أبيه عن الهروي عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن الحسين بن علي عليهما السلام قال:

أتى علي بن أبي طالب عليه السلام قبل مقتله بثلاثة أيام رجل من أشراف تميم يقال له عمرو فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب الرس في أي عصر كانوا وأين كانت منازلهم ومن كان ملكهم؟ وهل بعث الله عز وجل إليهم رسولاً أم لا؟ وبماذا أهلكوا؟ فإني أجد في كتاب الله تعالى ذكرهم ولا أجد خبرهم.

فقال له علي عليه السلام: لقد سألت عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك ولا يحدثك به أحد بعدي إلاّ عنّي، وما في كتاب الله عزّ وجل آية إلا وأنا أعرف تفسيرها وفي أي مكان نزلت من سهل أو جبل وفي أي وقت من ليل أو نهار وإن ههنا لعلما جما ـ وأشار إلى صدره ـ ولكن طلابه يسير وعن قليل يندمون لو فقدوني.

كان من قصّتهم يا أخا تميم أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شاه درخت كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها روشاب[٢] كانت انبعت لنوح عليه السلام بعد الطوفان، وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم في الأرض وذلك بعد سليمان بن داود عليه السلام.

---

(١) قصص الأنبياء: ٤٤٢، وبحار الأنوار: ١٤/ ١٥٩.

(٢) «دوشاب» في نسخة.

وكانت لهم اثنتا عشرة قرية على شاطىء نهر يقال له الرس من بلاد المشرق وبهم سمى ذلك النهر ولم يكن يومئذ في الأرض نهر أغزر منه ولا أعذب منه ولا قرى أكثر ولا أعمر منها تسمى أحداهنّ أبان، والثانية آذر، والثالثة دي، والرابعة بهمن، والخامسة اسفندار، والسادسة فروردين، والسابعة اردى بهشت، والثامنة خرداد، والتاسعة مرداد، والعاشرة تير، والحادي عشرة مهر، والثاني عشرة شهريور.

وكانت أعظم مدائنهم اسفندار وهي التي ينزلها ملكهم، وكان تركوز بن غابور بن يارش بن شازن بن نمرود بن كنعان فرعون إبراهيم وبها العين والصنوبرة وقد غرسوا في كل قرية منها حبة من طلع تلك الصنوبرة، وأجروا إليها نهراً من العين التي عند الصنوبرة.

فنبتت الحبة وصارت شجرة عظيمة وحرّموا ماء العين والأنهار فلا يشربون منها ولا أنعامهم، ومن فعل ذلك قتلوه ويقولون هو حياة آلهتنا فلا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذي عليه قراهم.

وقد جعلوا في كل شهر من السنة في كل قرية عيداً يجمع إليه أهلها، فيضربون على الشجرة التي بها كلّة من حرير فيها من أنواع الصور ثم يأتون بشاة ويقر فيذبحونهما قرباناً للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتارها في الهواء وحال بينهم وبين النظر إلى السماء خرّوا سجداً يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم.

فكان الشيطان يجيء فيحرك أغصانها ويصيح من ساقها صياح الصّبي أن قد رضيت عنكم فطيبوا نفساً وقرّوا عيناً فيرفعون رؤوسهم عند ذلك ويشربون الخمر ويضربون بالمعازف ويأخذون الدستبند فيكون على ذلك يومهم وليلتهم ثم ينصرفون.

وإنما سمت العجم شهورها بأبان ماه وآذرماه وغيرهما اشتقاقاً من أسماء تلك القرى لقول أهلها بعضهم لبعض هذا عيد شهر كذا وعيد شهر كذا.

حتّى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع إليها صغيرهم وكبيرهم فضربوا عند الصنوبرة والعين سرادقاً من ديباج عليه من أنواع الصور وجعلوا له اثني عشر باباً كل باب لأهل قرية منهم ويسجدون للصنوبرة خارجاً من السرادق ويقرّبون لها الذبائح أضعاف ما قرّبوا للشجرة التي في قراهم.

فيجيء إبليس عند ذلك فيحرّك الصنوبرة تحريكاً شديداً ويتكلّم من جوفها كلاماً جهورياً ويعدهم ويمنيهم بأكثر ما وعدتهم ومنتهم الشياطين كلها فيرفعون رؤوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون ولا يتكلّمون من الشرب والعزف.

فيكونون على ذلك اثنا عشر يوماً ولياليها بعدد أعيادهم سائر السنة ثم ينصرفون.

فلما طال كفرهم بالله عز وجل وعبادتهم غيره بعث الله عز وجل إليهم نبياً من بني إسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب، فلبث فيهم زماناً طويلاً يدعوهم إلى عبادة الله عز وجل ومعرفة ربوبيّته فلا يتبعونه، فلما رأى شدة تماديهم في الغي والضلال وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والنجاح وحضر عيد قريتهم العظمى قال: يا رب إن عبادك أبوا إلا تكذيبي والكفر بك وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضرّ فأيبس شجرهم أجمع وأرهم قدرتك وسلطانك.

فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كلها فهالهم ذلك وفظع بهم وصاروا فرقتين فرقة قالت: سحر آلهتكم هذا الرجل الذي زعم أنه رسول رب السماء والأرض إليكم ليصرف وجوهكم عن آلهتكم إلى الله، وفرقة قالت: لا بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها ويدعوكم إلى عبادة غيرها فحجبت حسنها وبهائها لكي تغضبوا لها فتنصروا منه.

فأجمع رأيهم على قتله فاتخذوا أنابيب طوالاً من رصاص واسعة الأفواه ثم أرسلوها في قرار العين إلى أعلا الماء واحدة فوق الأخرى مثل البرانج[1] ونزحوا ما فيها من الماء ثم حفروا في قرارها بئراً ضيّقة المدخل عميقة وأرسلوا فيها نبيّهم وألقموا فاها صخرة عظيمة ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا نرجو الآن أن ترضى عنا آلهتنا إذا رأت أنّا قد قتلنا من كان يقع فيها ويصد عن عبادتها ودفناه تحت كبيرها يتشفى منه فيعود لنا نورها ونضرتها كما كان.

فبقوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيّهم عليه السلام وهو يقول سيدي قد ترى ضيق مكاني وشدّة كربي فارحم ضعف ركني وقلة حيلتي وعجل بقبض روحي ولا تؤخر إجابة دعوتي حتى مات عليه السلام.

فقال الله جل جلاله لجبرئيل: يا جبرئيل أيظن عبادي هؤلاء الذين غرهم حلمي وأمنوا مكري وعبدوا غيري وقتلوا رسولي ن يقوموا بغضبي ويخرجوا من سلطاني كيف وأنا المنتقم ممن عصاني ولم يخش عقابي وأني حلفت بعزتي لأجعلنهم عبرة ونكالاً للعالمين.

فلم يرعهم في يوم عيدهم ذلك إلا ريح عاصفة شديدة الحمرة فتحيّروا فيها وذعروا منها وتضام بعضهم إلى بعض، ثم صارت الأرض تحتهم حجر كبريت يتوقد وأظلتهم سحابة

---

(١) «البراع» في نسخة.

سوداء فألقت عليهم كالقبة جمراً يتلهّب[1] فذابت أبدانهم كما يذوب الرّصاص في النّار، فنعوذ بالله تعالى ذكره من غضبه ونزول نقمته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[2].

الترجمة

فصل دويم از این خطبه در وصیّت به تقوی و پرهیزکاری است، می فرماید:

وصیّت می کنم شما را ای بندگان خدا به پرهیزکاری خداوندی که پوشانیده به شما لباس فاخر و واسع گردانیده بر شما اسباب معیشت را، پس اگر احدی می یافت به سوی بقا نردبانی یا از برای دفع مرگ وسیله و راهی، هرآینه بودی آن شخص سلیمان بن داوود (عليه السلام) که مسخّر شد از برای او پادشاهی جنّ و انسان با منصب پیغمبری و بزرگی قرب و منزلت، پس زمانی که استیفا نمود طعمه خود را و استکمال کرد مدّت عمر خود را، انداخت او را کمان های فنا به تیرهای مرگ و گردید شهرها از وجود او خالی و مسکن ها از او معطل و وارث گردید آن ها را قوم دیگر و به درستی که مر شما را در روزگارهای سابقه هرآینه عبرتی است.

کجایند طایفه عمالقه و پسران عمالقه؟ کجایند فراعنه و پسران فراعنه؟ کجایند اصحاب مدین های رسّ که کشتند پیغمبران را و خاموش کردند روشنایی طریق های مرسلین را و زنده کردند طریق های گردن کشان را؟ و کجایند آن کسانی که سیر کردند با لشگرها و غلبه کردند با هزاران قشون و جمع آوردند لشگرها و بنا کردند شهرها را؟

(۱) «یلتهب» في نسخة.

(۲) میزان الحکمة: ۲/ ۱۵۱۲، والكنى والألقاب: ۱/ ۱۸٤.

الفصل الثالث منها

قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَها، وأَخَذَها بِجَمِيعِ أَدَبها، مِنَ الإِقْبالِ عَلَيْها، والْمَعْرِفَةِ بها، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا، وَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضالَّتُهُ الَّتي يَطْلُبُها، وحاجَتُهُ الَّتي يَسْأَلُ عَنْها، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذا اغْتَرَبَ الإِسْلامُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ وأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرانِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقايا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلائِفِ أَنْبِيائِهِ.

ثُمَّ قال عليه السلام:

أَيُّهَا النّاسُ إِنّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمواعِظَ الَّتي وَعَظَ بِهَا الْأَنْبِياءُ أُمَمَهُمْ، وأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ ما أَدَّتِ الْأَوْصِياءُ إِلىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطي فَلَمْ تَسْتَقيمُوا، وحَدَوْتُكُمْ بِالزَّواجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا، لِلَّهِ أَنْتُمْ أَتَتَوَقَّعُونَ إِماماً غَيْري يَطَأُ بِكُمُ الطَّريقَ، ويُرْشِدُكُمُ السَّبيلَ، أَلاَ إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيا ما كانَ مُقْبِلاً، وأَقْبَلَ مِنْها ما كانَ مُدْبِراً، وأَزْمَعَ التَّرْحالَ عِبادُ اللَّهِ الأَخْيارُ، وباعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيا لا يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لا يَفْنىٰ.

ما ضَرَّ إِخْوانَنَا الَّذينَ سُفِكَتْ دِماؤهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَلاَ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْياءً، يُسِيغُونَ الْغُصَصَ، ويَشْرَبُونَ الرَّنِقَ، قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وأَحَلَّهُمْ دارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ، أَيْنَ إِخْوانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّريقَ ومَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ ابْنُ التَّيِّهانِ؟ وأَيْنَ ذُو الشَّهادَتَيْنِ؟ وأَيْنَ نُظَراؤُهُمْ مِنْ إِخْوانِهِمُ الَّذينَ تَعاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلى الْفَجَرَةِ.

قال: ثُمَّ ضرب يده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاءَ ثُمَّ قال عليه السلام: أَوْهِ عَلىٰ إِخْوانِي الَّذين تَلواُ الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقامُوهُ، أَحْيُوا السُّنَّةَ، وأَماتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهادِ فَأَجابُوا، ووَثِقُوا بِالْقائِدِ فَاتَّبَعُوهُ، ثم نادى بأعلى صوته: الْجِهادَ الْجِهادَ عِبادَ اللَّهِ أَلاَ وإِنّي مُعَسْكِرٌ في يَوْمي هذا فَمَنْ أَرادَ الرَّواحَ إِلى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ[1].

قال نوف: وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد عليه السلام في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلافِ، ولغيرهم على أعدادٍ آخر وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضَرَبَه الملعون ابن ملجم لعنه الله فتراجعت العساكر فكنّا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكانٍ.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٩٤، وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٠.

اللغة

(**الجنّة**) بالضم نوع من السلاح (**عسيب الذنب**) قال الشارح المعتزلي أصله وقال الفيروزآبادي: العسيب عظم الذنب أو منبت الشعر منه و(**جران**) البعير صدره أو مقدم عنقه و(**الحدا**) سوق الإبل والغنا لها و(**الترحال**) مبالغة في الرحلة و(**الغصص**) جمع الغصة وهي ما يعترض في الحلق و(**الرنق**) بالفتح والتحريك الكدر من الماء، وفي بعض النسخ بالكسر ولا بأس به قال في القاموس: رنق الماء الكدر من الماء، وفي بعض النسخ بالكسر ولا بأس به قال في القاموس: رنق الماء كفرح ونصر رنقاً ورنقاً ورنوقاً كدر فهو رنق كعدل وكتف وجبل.

و(**ابن التيهان**) قال الشارح: بالياء المنقوطة باثنتين تحتها المشددة المكسورة وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها، وقال العلامة المجلسي رحمه الله: والمضبوط في أكثر النسخ بالياء الساكنة وفتح التاء وكسرها معاً، وفي القاموس وتيهان مشددة الياء ويكسر وتيهان بالسكون.

و(**أوه**) على إخواني بسكون الواو وكسر الهاء كلمة توجع وفيها لغات أخر قال في القاموس: إوه كجير وحيث واين واه و إوه بكسر الهاء والواو المشددة واو بحذف الهاء واوه بفتح الواو المشددة واووه بضم الواو واه بكسر الهاء منونة واو بكسر الواو منونة وغير منوّنة وأوتاه بفتح الهمزة والواو المثناة الفوقية وأوياه بتشديد المثناة التحتية كلمة يقال عند الشكاية أو التوجع اه أوهاً واه تاوها وتاوّه قالها.

و(**تختطفها**) من الاختطاف وهو أخذ الشيء بسرعة وفي بعض النسخ تتخطفها.

الإعراب

قوله: (**بقية**) خبر لمبتدأ محذوف، وقوله: (**لله أنتم**) قد مضى تحقيق الكلام فيه في شرح المختار المائة والتاسع والسبعين، و(**ما**) في قوله ما ضر إخواننا، نافية ويحتمل الاستفهام على سبيل الإنكار، و(**إخواننا**) بالنصب مفعول ضر وفاعله ألا يكونوا وجملة (**يسيغون**) في محل النصّب صفة للأحياء، و(**الجهاد الجهاد**) بالنصب على الإغراء.

المعنى

أعلم أن السيدّ عليه السلام قد سلك في هذا الفصل من الخطبة مسلك الالتقاط وأسقط صدر الكلام فالتبس الأمر في قوله: (**قد لبس للحكمة جنّتها**) حيث اشتبه المرجع لفاعل لبس ولم يدر أن الموصوف بتلك الجملة وما يتلوها من هو، فمن ذلك فسره كل على زعمه واعتقاده.

قال العلامة المجلسي رحمه الله: إنه إشارة إلى القائم عليه السلام ونقله الشارح المعتزلي عن

الشيعة الإمامية.

وقال الصّوفيّة: إنه عليه السلام يعني به ولي الله في الأرض وعندهم لا يخلو الدنيا من الأبدال والأولياء.

وقالت الفلاسفة: إن مراده عليه السلام به العارف.

وقالت المعتزلة: إنه يريد به العالم بالعدل والتوحيد وزعموا أن الله لا يخلي الأمة من جماعة من المؤمنين العلماء بالتوحيد والعدل وإن الإجماع إنما يكون حجة باعتبار قول أولئك، لكنه ما تعذرت معرفتهم بأعيانهم اعتبر إجماع الجميع وإنما الأصل قول أولئك.

قال الشارح المعتزلي بعد نقل هذه الأقوال: وليس يبعد أن يريد عليه السلام به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله في آخر الوقت إذا خلقه الله تعالى وإن لم يكن الآن موجوداً، فليس في الكلام ما يدل على وجوده الآن، وقد وقع اتفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أن الدنيا والتكليف لا ينقضي إلا عليه، انتهى[1].

أقول: أما ما ذكره من كون المراد به القائم عليه السلام فهو كما ذكره غير بعيد لظهور اتصافه عليه السلام بهذه الأوصاف وكونه مظهراً لها، وأما ما زعمه كسائر المعتزلة من أنه عليه السلام غير موجود الآن وإنما يخلقه الله في آخر الزمان فهو زعم فاسد ووهم باطل، لقيام البراهين العقلية والنقلية على أن الأرض لو تبقى بغير حجة لانخسفت وساخت، وعلى أنه لا بد من وجوده في كل عصر وزمان، وأنه أما ظاهر مشهور أو غائب مستور، وأنّ لقائم من آل محمد صلى الله عليه وآله مخلوق من غابر الزمان وموجود الآن وهو غائب مستور لمصالح مقتضية لغيبته والانتفاع بوجوده الشريف حال الغيبة كالانتفاع بالشمس المجللة للعالم المحجوبة بالسحاب.

وبعد قيام الأدلة المحكمة على ذلك كله فلا يعبأ بالاستبعادات الوهمية للمنكرين والاستدلالات السخيفة الهينة للمبطلين على ما أشير إليها في كتب أصحابنا الأمامية المؤلفة في الغيبة مع أجوبتها المتقنة، وقد مضى طرف من الكلام على هذا المرام في شرح الفصل الأول من المختار المائة والثامن والثلاثين فليراجع ثمة، هذا.

والحكمة اسم لمجامع الخير كله قال أبو البقاهي: في عرف العلماء استعمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدر طاقتها.

وقال بعضهم: هي معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة وهي العلم النافع المعبّر عنها بمعرفة مالها ومعرفة ما عليها.

---

(١) بحار الأنوار: ٥١/ ١١٤، وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ٩٦.

وقال ابن دريد: كل ما يؤدي إلى ما يلزمه أو يمنع من قبيح، وقيل: ما يتضمن صلاح النشأتين.

وقال في البحار: العلوم الحقة النافعة مع العمل بمقتضاها، قال: وقد يطلق على العلوم القابضة من جنابه تعالى على العبد بعد العمل بما علم.

أقول: والمعاني متقاربة وإليها يرجع تفاسيره المختلفة، فقد يفسر بأنه معرفة الله وطاعته، وقد يفسّر بأنه العلم الذي يرفع الإنسان عن فعل القبيح، وفسّر في قوله تعالى: ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] بالنبوة وفي قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ٤٨] بالفقه والمعرفة، وفي قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ بالقرآن والشريعة، وفي قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] بتحقيق العلم واتقان العمل.

وفي الصافي من الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: قال: طاعة الله ومعرفة الإمام(١).

وعنه عليه السلام: معرفة الإمام واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار(٢).

وعن العياشي عنه عليه السلام: الحكمة المعرفة والفقه في الدين ومن فقه منكم فهو حكيم(٣).

وعن مصباح الشريعة عنه عليه السلام: الحكمة ضياء المعرفة وميراث التقوى وثمرة الصدق ولو قلت: ما أنعم الله على عباده بنعمة أنعم وأعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة لقلت. قال الله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي لا يعلم ما أودعت وهيأت في الحكمة إلا من استخلصته لنفسي وخصصته بها والحكمة هي الكتاب وصفة الحكيم الثبات عند أوائل الأمور والوقوف عند عواقبها وهو هادي خلق الله إلى الله(٤).

وعن الخصال عن النبي صلى الله عليه وآله: رأس الحكمة مخافة الله(٥).

وعنه وعن الكافي عنه صلى الله عليه وآله أنه كان ذات يوم في بعض أسفاره إذ لقاه ركب فقالوا:

---

(١) شرح أصول الكافي: ١/ ١٣٦، وميزان الحكمة: ١/ ١١٩ ح١٤٣.
(٢) شرح أصول الكافي: ٩/ ٢٧٢ ح٢٠، وميزان الحكمة: ١/ ٦٧٢ ح٩١٩.
(٣) بحار الأنوار: ١/ ٢١٥ ح٢٥، وميزان الحكمة: ١/ ٦٧٢ ح٩١٩.
(٤) التفسير الصافي: ١/ ٢٩٩، والتفسير الأصفي: ١/ ١٢٩.
(٥) ميزان الحكمة: ١/ ٦٧٣ ح٩٢٢، والتفسير الصافي: ١/ ٢٩٩.

السلام عليك يا رسول الله، فالتفت إليهم وقال: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرضا بقضاء الله والتسليم لأمر الله والتفويض إل الله، فقال رسول الله ﷺ علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون[(١)].

إذا عرفت ذلك فأقول: قوله: قد لبس للحكمة جنَّتها الظاهر أنه أراد بجنة الحكمة مخافة الله كما أن النبي جعلها رأسها في رواية الخصال المتقدمة، فاستعار لفظ الجنة لها باعتبار أن مخافته سبحانه ووجود وصف التقوى الموجب لقمع النفس عن الشهوات وقلعها عن العلائق والأمنيات مانع عن كون الحكمة غرضاً عن الهام الهوى وعن وقوع الحكيم في الهلاكة والردى، كما أن الجنة وهو ما يستتر به السلاح كالدرع ونحوه مانعة للابسها عن إصابة سهام الأعداء.

فيكون محصل المعنى أن ذلك الحكيم قد اتصف بمخافة الله سبحانه وخشيته التي هي بمنزلة الجنة للحكمة لأجل حفظ حكمته وكونها وقاية لها عما يصادفها كما أن الجنة تحفظ الإنسان عن صدمات الأعداء.

وبما ذكرنا يظهر ما في كلام الشارح البحراني، فإنه قال: لفظ الجنة مستعار في الاستعداد للحكمة بالزهد والعبادة الحقيقين والمواظبة على العمل بأوامر الله، ووجه الاستعارة أن بذلك الاستعداد يأمن إصابة سهام الهوى وثوران دواعي الشهوات القائدة إلى النار كما يأمن لابس الجنة من أذى الضرب والجرح، انتهى.

فإن مفاده كما ترى هو أن لفظ الجنة مستعار للاستعداد الحاصل من الزهد والعبادة والمواظبة على التكاليف الشرعية.

فيتوجه عليه حينئذ أولاً أن الاستعداد المذكور لا يكون جنة للحكمة على ما ذكره، إنما يكون جنة للإنسان من الوقوع في النار، وظاهر كلام الإمام يفيد تلبسه بجنة الحكمة لأجل الحكمة لا لأجل نفسه.

وثانياً أن الاستعداد والتهيّؤ للشيء قبل وجود الشيء، فلو جعل الجنة استعارة للاستعداد للحكمة لكان مفاد كلامه عليه السلام عدم اتصاف الرجل الموصوف بالحكمة فعلاً.

وبعبارة أخرى يدل على تلبسه واتصافه بالاستعداد فقط لا بالحكمة نفسها مع أن الغرض من الكلام الوارد في مقام المدح إفادة اتصافه بها وكونها حاصلاً له بالفعل لا بالقوة، إذ كمال المدح إنما هو في ذلك.

(١) المحاسن: ١/٢٢٦ ح١٥١، والكافي: ٢/٥٣ ح١.

ويدلّ على ذلك أيضاً أي على الاتصاف بالفعل صريح قوله: **(وأخذها بجميع أدبها)** أي أخذ الحكمة على وجه الكمال وقام بآدابها **(من الإقبال عليها والمعرفة بها والتفرغ لها)** يعني أنه لما علم أنه لا خصلة أعظم وأشرف وأرفع وأبهى من الحكمة وعرف أنه من يؤتها فقد أوتي خيراً كثيراً أقبل بالكلية عليها وقصر همته ونهمته فيها وعرف شرفها وقدرها ونفاستها وتفرغ لها وتخلى عن جميع العلائق الدنيوية التي تضادها وتنحى عن كل ما سواها.

(فهي عند نفسه ضالته التي طلبها وحاجته التي يسأل عنها) ذلك مثل قوله عليه السلام في أواخر الكتاب: الحكمة ضالة المؤمن.

فإن قلت: قوله يطلبها ويسأل عنها صريحان في عدم حصولها له فعلاً فينافي ما استظهرت آنفاً من كلامه عليه السلام السابق.

قلت: لا منافاة بينهما لأنه عليه السلام استعار لها لفظ الضالة وجملة: يطلبها، وصف للمستعار منه لا للمستعار له، إذ من شأن الضلالة أن تطلب فهي استعارة مرشحة لا استعارة مجرّدة، والجامع شدة الشوق وفرط الرغبة والمحبّة لا الطلب كما زعمه الشارح البحراني حيث قال استعار لها لفظ الضالة لمكان إنشاده لها وطلبه كما تطلب الضالة من الإبل، نعم قوله عليه السلام: يسأل عنها ظهوره فيما أفاده الشارح، لكن تأويله على وجه يوافق ما ذكرناه سهل فتأمل، هذا.

ولا يخفى عليك أن جعل الكلام من باب الاستعارة إنما هو جرياً على مذاق الشارح البحراني، وإلاّ فقد علمت في ديباجة الشرح أنه من باب التشبيه البليغ حيث ذكر المشبه والمشبه به وحذف الأداة فيكون الوصف بالطلب ترشيحاً للتشبيه لا للاستعارة.

(فهو مغترب) يعني هذا الشخص يخفي نفسه ويختار العزلة، وهو إشارة إلى غيبة القائم عليه السلام **(إذا اغترب الإسلام)** أي إذا ظهر الجور والفساد وصار الإسلام غريباً ضعيفاً بسبب اغتراب الصلاح والسداد كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ[1].

ثمّ شبّه الإسلام بالبعير البارك في قلّة النفع والضعف على سبيل الاستعارة بالكناية فأثبت له لوازم المشبه به وقال: **(وضرب بعسيب ذنبه)** لأن البعير إذا أعيى وتأذى ضرب بذنبه **(وألصق الأرض بجرانه)** أي مقدّم عنقه فلا يكون له تصرف ولا نهوض، وقلّ أن يكون له نفع حال بروكه، هذا.

ولما وصفه عليه السلام بلبسه لجنة الحكمة وإيثاره العزلة والغيبة عرّفه بأنه **(بقية من بقايا**

---

(١) ميزان الحكمة: ٢/١٣٤٤، وصحيح مسلم: ١/٩٠.

حجته) على عباده و **(خليفة من خلائف أنبيائه)** في بلاده، وهذان الوصفان يقويان الظن بكون نظره عليه السلام بما أورده في هذا الفصل إلى القائم المنتظر عليه السلام وآبائه الطاهرين عليهم السلام.

قال الشارح المعتزلي: فإن قلت: أليس لفظ الحجة والخليفة مشعراً بما يقوله الإمامية أي كون المراد بها الإمام القائم عليه السلام.

قلت: لا لأن أهل التصوف يسمون صاحبهم حجة وخليفة وكذلك الفلاسفة وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كل عصر لأنهم حجج الله أي إجماعهم حجة وقد استخلفهم الله في أرضه ليحكموا بحكمه.

أقول: فيه أولاً منع صحة إطلاق حجة الله وخليفته على غير الأنبياء والأوصياء إذ العصمة منحصرة فيهم فيختص الحجيّة والخلافة بهم لمكان العصمة التي فيهم، وأما غيرهم فليس بمعصوم بالاتفاق فلا يكون قوله وفعله حجة، وحجية إجماع العلماء أيضاً باعتبار دخول قول المعصوم في جملة أقوالهم لا من حيث إن كلاً من العلماء من حيث إنه عالم قوله حجة.

وثانياً على فرض التنزل والتسليم لصحة إطلاقه على غيرهم أن أمير المؤمنين عليه السلام ليس بمعتزلي المذهب ولا صوفي المذاق ولا فلسفي المسلك، فلا يحمل لفظ الحجة والخليفة في كلامه عليه السلام على اصطلاحاتهم وإنما يحمل على المعنى الغالب إرادته من هذه اللفظة في كلماتهم عليهم السلام، وغير خفي على المتتبع بأحاديثهم وكثير الإنس بأخبارهم أنهم كثيراً ما يطلقون لفظ الحجج ويريدون به الأئمة الاثنى عشر، وقد يطلقونه ويريدون به سائر المعصومين من الأنبياء والأوصياء ويطلقون لفظ الحجة أيضاً أحياناً بالقرائن على العقل والقرآن، ولم نر إلى الآن أن يطلق هذا اللفظ في كلامهم على العارف أو العالم غير المعصوم أو أحد الأبدال المصطلح في لسان الفلاسفة والمعتزلة والمتصوفة.

وعلى ذلك فحيث ما أطلق لفظ حجة الله في كلامهم خالياً عن القرائن فلا بد من حمله على المعنى الكثير الدوران في ألسنتهم وهو الإمام، لأن الظن يلحق الشيء بالأعم الأغلب.

ومن هذا كله ظهر ما في كلام الشارح البحراني أيضاً فإنه بعد ما جعل قوله عليه السلام: قد لبس للحكمة جنتها إشارة إلى العارف مطلقاً ونفي ظهور كونه إشارة إلى الإمام المنتظر عليه السلام قال في شرح هذا المقام: قوله: بقية من بقايا حججه، أي على خلقه إذ العلماء والعارفون حجج الله في الأرض على عباده، وظاهر كونه خليفة من خلفاء أنبيائه لقوله صلى الله عليه وآله: العلماء ورثة الأنبياء، انتهى.

ويرد عليه مضافاً إلى ما مر أن استدلاله على خلافة العلماء والعرفاء بقوله: العلماء

ورثة الأنبياء واستظهاره من ذلك كون المراد بالخليفة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام هؤلاء لا وجه له.

أما أولاً: فلأن الدليل أخص من الدعوى لإفادته وراثة العلماء فقط دون العرفاء مع أن المدّعي أعمّ.

وثانياً إن قوله عليه السلام: العلماء ورثة الأنبياء لم يرد به الوراثة الحقيقية قطعاً وإنما هو من باب التشبيه والمجاز يعني أن علومهم انتقل إليهم كما أن أموال المورث ينتقل إلى الوارث فكانوا بمنزلة الورثة.

وعلى ذلك فأقول: إن وراثة العلماء للأنبياء وخلافتهم عنهم على سبيل المجاز والاستعارة، ووراثة الإمام المنتظر عليه السلام وخلافته على سبيل الحقيقة، فلا بد من حمل لفظ الخليفة في كلامه عليه السلام عليه لا على العامل، لأن اللفظ إذا دار بين أن يراد منه معناه الحقيقي ومعناه المجازي فالأصل الحقيقة كما برهن في علم الأصول.

(ثم) أخذ عليه السلام في نصح المخاطبين وموعظتهم وتذكيرهم وتوبيخهم و**(قال عليه السلام: أيها الناس إني قد بثثت)** أي نشرت وفرقت **(لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أممهم)** وهي المواعظ الجاذبة لهم إلى الله ومعرفته وطاعته والقائدة إلى النهج القويم والصراط المستقيم **(وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم)** أي من الأسرار الإلهية والتكاليف الشرعية.

قال الشارح المعتزلي: والأوصياء الذين يأتمنهم الأنبياء على الأسرار الإلهية وقد يمكن أن لا يكونوا خلفاء بمعنى الإمارة والولاية، فإن مرتبتهم أعلى من مراتب الخلفاء، انتهى[1].

أقول: غرض الشارح من هذا الكلام إصلاح مذهبه الفاسد، فإن كلامه عليه السلام لما كان ظاهراً في وصايته المساوقة للخلافة والولاية كما هو مذهب الشيعة الإماميّة أراد الشارح صرفه عن ظاهره وأوله بما يوافق مذهب الاعتزال.

ومحصل تأويله أن الوصاية عبارة عن الائتمان على الأسرار الإلهية وهو غير ملازم للخلافة والولاية، فلا يكون في الكلام دلالة على خلافته عليه السلام وكونه أولى بالتصرف، وإنما يدل على كونه وصياً مؤتمناً على الأسرار فقط.

وفيه أولاً: أن النبي صلى الله عليه وآله إذا ائتمن الوصي على الأسرار والأحكام وعلمه إياها.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٠.

فإما أن يكون غرضه من ذلك أداء وصيّة تلك الأسرار والأحكام إلى أمته وإبلاغها إليهم.

أو يكون غرضه منه كونه فقط عالماً بها ومكلّفاً في نفسه على العمل بتلك الأحكام والقيام بوظائف هذه الأسرار من دون أن يكون ماذونا في الأداء إليهم.

وظاهر كلامه عليه السلام بل صريحه كون وصايته على الوجه الأول وإلا لما جاز أن يؤدي ما أوصى به إلى المكلفين فحيث أداه إليهم علم منه كونه ماذوناً في الأداء ومكلّفاً به، وحيث كان مكلّفاً به وجب عليهم إطاعته وإلا لكان الأداء عبثاً، ولا ريب أن الوصي بهذا المعنى أي المؤتمن على الأسرار والأحكام والمكلف على أدائها إلى الإمة والواجب على الأمة قبول قوله وطاعته ملازم بل مرادف للخليفة والأمير والولي.

نعم الوصاية على الوجه الثاني غير ملازم للخلافة والولاية إلا أنّه غير مراد في كلامه عليه السلام قطعاً لما ذكرنا.

وثانياً: أن ما ذكره من أن الوصي أعلى مرتبة من الخليفة أي الأمير والولي فغير مفهوم المراد.

لأنه إن أراد بالخلافة والإمارة والولاية المعنى الذي يقول به الشيعة ويصفون أئمتهم به أعني النيابة عن الرسول صلى الله عليه وآله والسلطنة الإلهية والأولوية بالتصرف فلا نسلّم أن الوصاية وهي الائتمان بالأسرار أعلى رتبة منها بل الأمر بالعكس، لأن الوصاية بالمعنى المذكور من شؤونات الولاية المطلقة، والأولياء مضافاً إلى كونهم مؤتمنين على الأسرار أولو الأمر والنهي وأولى بالتصرّف في أموال المؤمنين وأنفسهم.

وإن أراد بها المعنى اللغوي أعني الإمارة على السرايا مثلاً والولاية أي كونه والياً على قوم أو بلد ونحوه فكون رتبة الوصاية أعلى من ذلك مسلم وغني عن البيان لأن الاطلاع والائتمان على الأسرار الإلهية لا نسبة لهما قطعاً إلى إمارة جيش وولاية قوم إلا أن الإمامية حيث يطلقون هذه الألفاظ في مقام وصف الأئمة عليهم السلام لا يريدون بها تلك المعاني قطعاً، فلا داعي إلى ما تكلّفه الشارح ولا حاجة إليه فافهم جيداً، هذا.

وقد مضى في شرح الصل الخامس من المختار الثاني عند شرح قوله عليه السلام: ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والوراثة، ما له مزيد نفع في هذا المقام فليراجع ثمة.

وقوله **(وأدّبتكم بسوطي)** الظاهر أنه كناية عن تأديبه لهم بالأقوال الغير اللينة **(فلم تستقيموا)** على نهج الحق **(وحدوتكم بالزواجر)** أي بالنواهي والإبعادات **(فلم تستوسقوا)** أي لم تجتمعوا على التمكين والطاعة **(لله أنتم)** أي تعجباً منكم **(أتتوقعون إماماً غيري)** استفهام

على سبيل التقرير لغرض التقريع أو على سبيل التقرير لغرض التقريع أو على سبيل الإنكار والتوبيخ.

فإن قلت: إن الاستفهام الذي هو للإنكار التوبيخي يقتضي أن يكون ما بعده واقعاً مع أنهم لم يكونوا متوقعين لإمام غيره إذ قد علموا أنه لا إمام وراءه.

قلت: نعم إنهم كانوا عالمين بذلك إلا أنهم لما لم يقوموا بمقتضى علمهم ولم يمحضوا الطاعة له عليه السلام نزلهم منزلة الجاهل المتوقع لإمام آخر، فأنكر ذلك عليهم ولامهم عليه.

وقوله عليه السلام: **(يطأ بكم الطريق)** أي يذهب بكم في طريق النجاة **(ويرشدكم السبيل)** أي يهديكم إلى مستقيم الصراط **(إلا أنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً)** وهو الصلاح والرشاد الذي كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله أو في أيام خلافته عليه السلام فيكون إشارة إلى قرب ارتحاله من دار الفناء **(وأقبل منها ما كان مدبراً)** وهو الضلال والفساد الذي حصل باستيلاء معاوية على البلاد **(وأزمع الترحال)** أي عزم على الرحلة إلى دار القرار **(عباد الله الأخيار وباعوا)** أي استبدلوا **(قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى)**.

لا يخفى ما في هذه العبارة من اللطافة وحسن التعبير في التنفير عن الدنيا والترغيب إلى الأخرى، حيث وصف الأولى مع قلّتها بالفناء، ووصف الثانية مع كثرتها بالبقاء ومعلوم أن العقلاء لا يرضون الأولى بالثانية بدلاً.

وأكّد هذا المعنى بقوله **(ماضر إخواننا)** المؤمنين **(الذين سفكت دماؤهم بصفين ألا يكونوا اليوم أحياء)** مثل حياتنا **(يسيغون الغصص)** ويتجرّعون الهموم من توارد الآلام **(ويشربون الرنق)** أي الكدر من كثرة مشاهدة المنكرات.

ولما نفى تضرّرهم بعدم الحياة نبّه على ما حصل لهم من عظيم المنفعة بالممات فقال ولـ**(قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم)** بغير حساب **(وأحلهم في دار الأمن)** مفتحة لهم الأبواب **(بعد خوفهم)** من سوء المال وفتن أهل الضلال.

ثمّ استفهم توجّعاً وتحسّراً عن السلّف الصالحين وقال: **(أين إخواني الذين ركبوا الطريق)** أي جادة الشريعة **(ومضوا على الحق)** أي المعرفة والولاية.

ثم استفهم عن بعض من مضى بعينه وسمّاه بخصوصه لكونه من أعيان الصحابة وأكابرهم فقال: **(أين عمار)** وهو ابن ياسر المعروف وأبوه عربي قحطاني وأمه أمة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي ولدت عماراً فأعتقه أبو حذيفة فمن هناك كان عمار مولى لبني مخزوم.

قال الشارح المعتزلي: وللحلف والولاء الذين بين بني مخزوم وبين عمّار وأبيه ياسر كان اجتماع بني مخزوم على عثمان حين نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب حتى انفتق له فتق في بطنه زعموا وكسروا ضلعاً من أضلاعه، فاجتمعت بنو مخزوم فقالوا: والله لئن مات لأقتلن به أحداً غير عثمان[١].

قال أبو عمرو بن عبد البر: كان عمار بن ياسر ممن عذب في الله ثم أعطاهم ما أرادوا بلسانه مع اطمئنان قلبه فنزل فيه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وهذا مما أجمع عليه أهل التفسير وهاجر إلى أرض الحبشة وصلى القبلتين وهو من المهاجرين الأولين وشهد بدراً والمشاهد كلها وأبلى بلاء حسناً ثم شهد اليمامة فأبلى فيها أيضاً ويومئذ قطعت أذنه.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ إنه عمار بن ياسر ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أبو جهل ابن هشام.

وروى أبو عمر وعن عائشة أنها قالت: ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يقول: أشار أن أقول فيه لقلت الأعمار بن ياسر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه ملىء إيماناً إلى أخمص قدميه.

قال أبو عمرو ومن حديث خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ قال: من أبغض عماراً أبغضه الله.

قال: ومن حديث علي بن أبي طالب عليه السلام: أن عماراً جاء يستأذن رسول الله ﷺ يوماً فعرف صوته فقال: مرحباً بالطيب المطيب، يعني عماراً[٢].

قال: ومن حديث أنس عن النبي ﷺ: اشتاقت الجنة إلى أربعة: علي عليه السلام وعمّار، وسلمان، وبلال[٣].

قال أبو عمر: وفضائل عمار كثيرة يطول ذكرها.

أقول: وقد مضى جملة من فضائله ومجاهداته بصفيّن وكيفية شهادته رضي الله عنه هنالك في تذييل المختار الخامس والستين وكان سنّه يوم قتل نيفاً وتسعين.

(وأين ابن التيهان) واسمه مالك واسم أبيه مالك أيضاً، وقال أبو نعيم: أبو الهيثم بن التيهان اسمه مالك واسم التيهان عمرو بن الحارث كان رضي الله عنه أحد النقباء ليلة العقبة وشهد

---

(١) الغدير: ٩/١٦ ح٢، وشرح نهج البلاغة: ١٠/١٠٢.

(٢) المسترشد: ٦٥٦، وشرح الأخبار: ١/٤١١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٠/١٠٤.

بدراً والأكثر على أنه أدرك صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام وقتل بها، وقيل: توفي في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال أبو عمرو: وهذا القول لم يتابع عليه قائله، وقيل: توفي سنة عشرين أو إحدى وعشرين.

(وأين ذو الشهادتين) وهو خزيمة بن ثابت الأنصاري يكنى أبا عمارة شهد بدراً وما بعدها من المشاهد وشهد صفين مع علي عليه السلام فلما قتل عمار بن ياسر قاتل عليه السلام حتى قتل حسبما عرفته في تذييل المختار الخامس والستين.

وإنما لقب بذو الشهادتين لما رواه الصدوق في الفقيه بسنده عن عبد الله بن أحمد الذهلي قال: حدثنا عمارة بن خزيمة بن ثابت أن عمه حدّثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أن النبي صلى الله عليه وآله ابتاع فرساً من أعرابي فأسرع النبي صلى الله عليه وآله المشي ليقضيه ثمن فرسه فأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس وهم لا يشعرون أن النبي صلى الله عليه وآله ابتاعه. حتى زاد بعضهم الأعرابي في السّوم على الثمن فنادى الأعرابي فقال: إن كنت مبتاعاً لهذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقام النبي صلى الله عليه وآله حين سمع الأعرابي فقال: أو ليس قد ابتعته منك، فطفق الناس يلوذون بالنبي صلى الله عليه وآله وبالأعرابي وهما يتشاجران، فقال الأعرابي: هلم شهيداً يشهد أني قد بايعتك، ومن جاء من المسلمين قال للأعرابي إن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن ليقول إلا حقاً حتى جاء خزيمة بن ثابت فاستمع لمراجعة النبي صلى الله عليه وآله والأعرابي فقال خزيمة: إني أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي صلى الله عليه وآله على خزيمة فقال: بم تشهد؟ قال: بتصديقك يا رسول الله فجعل النبي صلى الله عليه وآله شهادة خزيمة بن ثابت شهادتين وسماه ذو الشهادتين[1].

وروى هذه القصة في الكافي بنحو آخر عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن معاوية بن وهب قال: كان البلاط حيث يصلى على الجنائز سوقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يسمى البطحاء يباع فيها الحليب والسمن والأقط وأن أعرابياً أتى بفرس له فأوثقه فاشتراه منه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم دخل ليأتيه بالثمن فقام ناس من المنافقين فقالوا: بكم بعت فرسك؟ قال: بكذا وكذا، قالوا: بئس ما بعت، فرسك خير من ذلك وأن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج إليه بالثمن وافياً طيباً، قال الأعرابي: ما بعتك والله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: سبحان الله بلى والله لقد بعتني، وارتفعت الأصوات فقال الناس: رسول الله صلى الله عليه وآله يقاول الأعرابي، فاجتمع ناس كثير فقال أبو عبد الله: ومع النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبل خزيمة بن ثابت الأنصاري ففرج الناس بيده حتى انتهى إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: أشهد يا رسول الله لقد اشتريته منه، فقال الأعرابي: أتشهد ولم تحضرنا، وقال له النبي صلى الله عليه وآله: أشهدتنا؟ فقال له: لا يا رسول الله ولكني علمت أنك قد

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٠٩، ووسائل الشيعة: ٢٧/ ٢٧٦.

اشتريت أفأُصدقك بما جئت به من عند الله ولا أصدقك على هذا الأعرابي الخبيث؟! قال: فعجب له رسول الله ﷺ فقال له: يا خزيمة شهادتك شهادة رجلين[١].

(وأين نظراؤهم) وأشباههم **(من إخوانهم الذين تعاقدوا)** وتعاهدوا **(على المنية)** وجدّوا في المقاتلة حتى قتلوا بصفين كابن بديل وهاشم بن عتبة وغيرهما ممن تقدم ذكره في تذييل المختار الخامس والستين **(وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة)** أي أرسلت رؤوسهم مع البريد للبشارة بها إلى الفسقة الطغام من أمراء الشام.

(قال) الراوي **(ثم ضرب** عليه السلام **يده إلى لحيته فأطال البكاء)** من تقلب الزمان وفقد الإخوان وتراكم الهموم والأحزان **(ثم قال)** توجعاً وتحسراً:

(أوه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه) أي أحسنوا تلاوته ومبانيه وفهموا مقاصده، ومعانيه وعملوا بمقتضاه ومؤداه **(وتدبروا الفرض فأقاموه)** أي تفكروا في علل الواجبات وأسرار العبادات فواظبوا عليها وقاموا بوظائفها تحصيلاً للغرض الأقصى منها وهو الزلفى إلى الله والقربى إلى رضوان الله الذي هو أشرف اللّذات وأعلى الدرجات و**(أحيوا السنة)**.

يحتمل أن يكون المراد بها المستحبات فيكون ذكرها بعد القرآن والفرض نظير ما روى عن النبي ﷺ إنما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاهن فهو فضل.

أي العلم النافع آية محكمة أي واضحة الدلالة أو غير منسوخة فإن المتشابه والمنسوخ لا ينتفع بهما غالباً، وفريضة عادلة أي الواجبات المصونة من الإفراط والتفريط، وسنة قائمة أي المندوبات الباقية غير المنسوخة، وعلى هذا الاحتمال فالمراد بإحياء السنة الإتيان بها والمراقبة عليها.

إلا أن الأظهر بقرينة المقابلة بينه وبين قوله: **(وأماتوا البدعة)** أن يراد بالسنّة مقابل البدعة، يعني السنّة التي سنّها رسول الله ﷺ والشريعة التي شرعها.

روى في البحار من معاني الأخبار مرفوعاً قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرني عن السنّة والبدعة وعن الجماعة وعن الفرقة، فقال أمير المؤمنين: السنّة ما سنّ رسول الله ﷺ، والبدعة ما أحدث من بعده، والجماعة أهل الحق وإن كانوا قليلاً، والفرقة أهل الباطل وإن كانوا كثيراً.

---

(١) الكافي: ٧/٤٠١ ح١، ومجمع البحرين: ١/٦٤٣.

وعلى هذا فالمراد بإحياء السنّة أخذ أحكام الشرع والعمل عليها.

روى في البحار من المحاسن عن أبي جعفر عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من تمسك بسنّتي في اختلاف أمتي كان له أجر مائة شهيد[1].

والمراد بإماتة البدعة إبطالها وتركها والإعراض عنها وعن أهلها.

روى في البحار من تفسير علي بن إبراهيم قال في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: ٢٧] هؤلاء أهل البدع والشبهات والشهوات يسوّد الله وجوههم ثم يلقونه[2].

وفيه من ثواب الأعمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من مشى إلى صاحب بدعة فوقره فقد مشى في هدم الإسلام[3].

(دعوا للجهاد فأجابوا) ونهضوا إليه **(ووثقوا)** أي اطمأنوا واتكلوا **(بالقائد)** أراد به نفسه الشريف لكونه قائداً لهم إلى سبيل الحق **(فاتبعوه)**.

(ثم) إنه عليه السلام لما رغّب المخاطبين ورهب ووعظ وذكر وبشر وأنذر وتوجع من مفارقة أصحابه وتحسر تخلص إلى أصل غرضه.

و**(نادى بأعلا صوته: الجهاد الجهاد عباد الله)** أي أسرعوا إليه وأنهضوا به **(أو وإنّي معسكر في يومي هذا)** أي جامع للعساكر في المعسكر **(فمن أراد الرواح إلى الله)** أي الذهاب إلى الفوز برضوانه أو إلى لقائه تعالى بالشهادة **(فليخرج)**.

(قال نوف: وعقد للحسين عليه السلام) راية **(في عشرة آلاف ولقيس بن سعد)** ابن عبادة **(في عشرة آلاف)** وكان سعد أبو قيس رئيس الخزرج ولم يبايع أبا بكر ومات على عدم البيعة والمشهور أنهم قتلوه لذلك وأحالوا قتله على الجن وافتروا شعراً من لسان الجن كما مر في المقدمة الثالثة من مقدمات الخطبة الثالثة وفي التنبيه الأول من شرح المختار السابع والستين.

وقال الشارح المعتزلي: سعد هو الذي حاول إقامته في الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يبايع أبا بكر حين بويع وخرج إلى حوران فمات بها، قيل قتلته الجن لأنه بال قائماً في

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ١٧٥ ح٢١٢٧٧، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٦٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢/٢٩٨ ح٢٠، والتفسير الصافي: ٢/ ٤٠٠ ح٢٧.

(٣) المحاسن: ١/ ٢٠٨ ح٧٣، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٢٦٨.

الصحراء ليلاً ورووا بيتي شعر قيل إنهما سمعا ليلة قتله ولم ير قائلهما:

نحن قتلنا سيّد الخزرج سعد بن عبادة ورميناه بسهمين فلم يخط فؤاده

ويقول قوم: إن أمير الشام يومئذ كمن له من رماه ليلاً وهو خارج إلى الصحراء بسهمين فقتله لخروجه عن طاعته، وقد قال بعض المتأخرين:

يقولون سعد شكت الجن قلبه ألا ربما صححت ذنبك بالعذر

وما ذنب سعد أنه بال قائماً ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر

وقد صبرت من لذة العيش أنفس وما صبرت عن لذة النهي والأمر

وكان قيس من صحابة رسول الله ﷺ وكبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وكان طوالاً جواداً شجاعاً شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام حروبه كلها، وكان مخلصاً في اعتقاده ثابت الرأي في التشيع والمحبة(١).

وقد مر في التنبيه الثاني من شرح المختار السابع والستين ما يفصح عن جلالة شأنه ورفعة مقامه وأحببت أن أورد هنا رواية مفيدة لخلوص عقيدته على وجه الكمال مع تضمنها لإعجاز غريب لأمير المؤمنين عليه السلام.

فأقول: روى في البحار من كتاب إرشاد القلوب عن جابر بن عبد الله الأنصاري وعبد الله بن عباس قالا: كنا جلوساً عند أبي بكر في ولايته وقد أضحى النهار وإذاً بخالد بن الوليد المخزومي قد وافى في جيش قام غباره وكثر صهيل أهل خيله، وإذا بقطب رحى ملوى في عنقه قد فتل فتلاً فأقبل حتى نزل عن جواده ودخل المسجد ووقف بين يدي أبي بكر فرمقه الناس بأعينهم فهالهم منظره.

ثم قال: اعدل يا ابن أبي قحافة حيث جعلك الناس في هذا الموضع الذي ليس له أنت بأهل، وما ارتفعت إلى هذا المكان إلا كما يرتفع الطافي من السمك على الماء، وإنما يطفو ويعلو حين لا حراك به، مالك وسياسة الجيوش وتقديم العساكر وأنت بحيث أنت من دناءة الحسب ومنقوص النسب وضعف القوى وقلة التحصيل لا تحمى ذماراً ولا تضرم ناراً فلا جزي الله أخا ثقيف وولد صهاك خيراً.

إني رجعت متكفأ من الطائف إلى جدة في طلب المرتدين فرأيت عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه عتاة من الدين حماليق شزرت أعينهم من حسدك وبدرت حنقاً عليك

---

(١) الكافي: ٢/٧٣، وهذا لا يحضره الفقيه: ٤/٤٩٧.

وقرحت آماقهم لمكانك، منهم ابن ياسر والمقداد وابن جنادة أخو غفار وابن العوام وغلامان أعرف أحدهما بوجهه، وغلام أسمر لعله من ولد عقيل أخيه.

فتبين لي المنكر في وجوههم والحسد في احمرار أعينهم، وقد توشح علي بدرع رسول الله ﷺ ولبس رداءه السحاب ولقد أسرج له دابته العقاب، ولقد نزل عليّ على عين ماء اسمها روية، فلما رآني اشمأزّ وبربر وأطرق موحشاً يقبض على لحيته.

فبادرته بالسلام استكفاء واتقاء ووحشة، فاستغنمت سعة المناخ وسهولة المنزل فنزلت ومن معي بحيث نزلوا اتقاءً عن مراوغته، فبدأني ابن ياسر بقبيح لفظه ومحض عداوته فقرعني هزؤاً بما تقدمت به إلي بسوء رأيك.

فالتفت إليّ أصلع الرأس وقد ازدحم الكلام في حلقه كهمهمة الأسد أو كقعقعة الرعد فقال لي بغضب منه: أو كنت فاعلاً يا أبا سليمان؟

فقلت له: أي والله لو أقام على رأيه لضربت الذي فيه عيناك، فأغضبه قولي إذ صدقته وأخرجه إلى طبعه الذي أعرفه به عند الغضب.

فقال: يا ابن اللخناء مثلك من يقدر على مثلي أو يجسر أو يدير اسمي في لهواته التي لا عهد لها بكلمة حكمة، ويلك إني لست من قتلاك ولا من قتلى صاحبك وإني لأعرف بمنيتي منك بنفسك.

ثم ضرب بيده إلى ترقوتي فنكسني عن فرسي وجعل يسوقني دعا إلى رحى للحارث بن كلدة الثقفي، فعمد إلى القطب الغليظ فمدّ بكلتا يديه وأداره في عنقي ينفتل له كالعلك المسخن.

وأصحابي هؤلاء وقوف، ما أغنوا عني سطوته ولا كفوا عني شرته فلا جزاهم الله عني خيراً، فإنهم لما نظروا إليه كأنما نظروا إلى ملك موتهم، فوالذي رفع السماء بلا عمد لقد اجتمع على فك هذا القطب مائة[1] رجل أو يزيدون من أشد العرب فما قدروا على فكه فدلني عجز الناس عن فكه أنه سحر منه أو قوة ملك قد ركبت فيه، ففكه الآن عني إن كنت فاكه، وخذ لي بحقي إن كنت آخذه، وإلا لحقت بدار عزي ومستقر مكرمتي، قد ألبسني ابن أبي طالب من العار ما صرت به ضحكة لأهل الديار.

فالتفت أبو بكر إلى عمر فقال: ما ترى إلى ما يخرج من هذا الرجل كأن ولايتي ثقل على كاهله أو شجى في صدره.

(١) «ألف» في نسخة.

فالتفت إليه عمر فقال: فيه دعابة لا تدعه حتّى تورده فلا تصدره وحسد قد استحكما في خلده فجريا منه مجرى الدّماء لا يدعانه حتى يهنا منزلته ويورطاه ورطة الهلكة.

ثمّ قال أبو بكر لمن بحضرته: ادعوا لي قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، فليس لفك هذا القطب غيره.

قال: وكان قيس سيّاف النبي ﷺ وكان رجلاً طويلاً طوله ثمانية عشر شبراً في عرض خمسة أشبار وكان أشد الناس في زمانه بعد أمير المؤمنين عليه السلام.

فحضر قيس فقال له: يا قيس إنك من شدة البدن بحيث أنت ففك هذا القطب من عنق أخيك خالد.

فقال قيس: ولم لا يفكه خالد عن عنقه؟

قال: لا يقدر عليه.

قال: فما لا يقدر عليه أبو سليمان وهو نجم عسكركم وسيفكم على أعدائكما كيف أقدر عليه أنا.

قال عمر: دعنا من هزئك وهزلك وخذ فيما حضرت له.

فقال: لمسألة تسألونها طوعاً أو كرهاً تجبروني عليه.

فقال له: إن كان طوعاً وإلا فكرهاً.

قال قيس: يا ابن صهّاك خذل الله من يكرهه مثلك إن بطنك لعظيمة وإن كرشك لكبيرة، فلو فعلت أنت ذلك ما كان منك.

فخجل عمر من قيس بن سعد فجعل ينكت أسنانه بأنامله.

فقال أبو بكر: وما بذلك منه، اقصد لما سئلت.

فقال قيس: والله لو أقدر على ذلك لما فعلت، فدونكم وحدادي المدينة فإنهم أقدر على ذلك منّي، فأتوا بجماعة من الحدّادين فقالوا: لا ينفتح حتى نحميه بالنّار.

فالتفت أبو بكر إلى قيس مغضباً، فقال: والله ما بك من ضعف من فكه ولكنّك لا تفعل فعلاً يعيبك فيه إمامك وحبيبك أبو الحسن، وليس هذا بأعجب من أن أباك رام الخلافة ليبتغي الاسم عوجاً فحد الله شوكته وأذهب نخوته وأعز الإسلام لوليّه وأقام دينه بأهل طاعته، وأنت الآن في حال كيد وشقاق.

قال: فاستشاط قيس بن سعد غضباً وامتلأ غيظاً، فقال: يا ابن أبي قحافة إن لك جواباً حمياً بلسان طلق وقلب جري، لولا البيعة التي لك في عنقي وسمعته مني والله لإن بايعتك يدي لم يبايعك قلبي ولا لساني ولا حجة لي في عليّ بعد يوم الغدير ولا كانت بيعتي لك إلاّ كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، أقول قولي هذا غير هائب منك، ولا خائف من معرتك، ولو سمعت هذا القول منك بداية لما فتح لك مني صالحاً.

إن كان أبي رام الخلافة فحقيق أن يرومها بعد من ذكرته، لأنه رجل لا يقعقع بالشنآن ولا يغمز جانبه كغمز التينة ضخم صنديد وسمك منيف وعز بازخ أشوس، بخلافك أيّها النعجة العرجاء والديك النافش لا عن صميم ولا حسب كريم وايم الله لأن عاودتني في أبي لألجمنّك بلجام من القول يمج فوك منه دماً، دعنا نخوض في عمايتك ونتردى في غوايتك على معرفة منا بترك الحق واتباع الباطل.

وأما قولك أن علياً إمامي ما أنكر إمامته ولا أعدل عن ولايته وكيف أنقض وقد أعطيت الله عهداً بإمامته وولايته يسألني عنه فأنا إن ألقى الله بنقض بيعتك أحب إليّ من أن أنقض عهده وعهد رسوله وعهد وصيّه وخليله.

وما أنت إلا أمير قومك إن شاؤوا تركوك وأن شاؤوا عزلوك، فتب إلى الله مما اجترمته وتنصل إليه مما ارتكبته، سلم الأمر إلى من هو أولى منك بنفسك، فقد ركبت عظيماً بولايتك دونه وجلوسك في موضعه وتسميتك باسمه، وكأنك بالقليل من دنياك وقد انقشع عنك كما ينقشع السحاب وتعلم أي الفريقين شرّ مكاناً وأضعف جنداً.

وأمّا تعييرك إيّاي بأنه مولاي هو والله مولاي ومولاك ومولى المؤمنين أجمعين آه آه أنى لي بثبات قدم أو تمكن وطأ حتى ألفظك لفظ المنجنيق الحجرة ولعل ذلك يكون قريباً وتكتفي بالعيان عن الخبر.

ثمّ قام ونفض ثوبه ومضى، وندم أبو بكر عما أسرع إليه من القول إلى قيس، الحديث[١].

قال نوف: (و) عقد (لأبي أيّوب الأنصاري) أيضاً (في عشرة آلاف) وأبو أيوب هو خالد بن زيد بن كعب الخزرجي من بنيى النجار شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد، وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وآله حين قدم المدينة وشهد مع أمير المؤمنين مشاهده كلها وكان على مقدمته يوم النهروان.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩/١٦٨، والأنوار العلوية: ١٥٠.

(و) عقد (**لغيرهم على أعداد آخر وهو** عليه السلام يريد الرّجعة إلى صفين فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون) أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة صالح (**ابن ملجم**) المرادي (**لعنه الله**) حسبما عرفت تفصيل ضربته في شرح المختار التاسع والستين.

(**فتراجعت العساكر**) من المعسكر إلى الكوفة قال الرّاوي (**فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان**) كما قال الفرزدق:

فلا غرو للأشراف إن ظفرت لها ذئاب الأعادي من فصيح وأعجم

فحربة وحشي سقت حمزة الردى وقتل علي من حسام مصمم

والمراد من اختطاف الذئاب إما النهب والقتل والإذلال أو الإغواء والإضلال قال الشارح المعتزلي: يقال: إن هذه الخطبة آخر خطبة خطبها أمير المؤمنين عليه السلام قائماً.

الترجمة

فصل سيّم از این خطبه اشارت است به صفات امام زمان (عليه السلام)، می فرماید که:

به تحقیق که پوشیده است آن بزرگوار از برای حفظ حکمت سپر و زره آن را و اخذ کرده حکمت را با جمیع آداب های آن که عبارتند از اقبال کردن بر آن و شناختن قدر و منزلت آن و فارغ شدن از برای آن، پس آن حکمت در پیش آن حضرت به منزله گم شده او است که طلب می نماید آن را و حاجت او است که سؤال می کند از آن، پس آن حضرت اختیار غربت و غیبت کننده است زمانی که غریب شود اسلام و بزند اطراف دم خود را و بچسباند به زمین سینه خود را، آن حضرت بقیّه ای است از باقی ماندگان حجّت خدا و خلیفه ای است از خلیفه های پیغمبران حق تعالی.

پس فرمود آن حضرت: ای مردمان، به درستی که من منتشر کردم از برای شما موعظه هایی که موعظه فرمودند با آن ها پیغمبران امت های خودشان را و رساندم به سوی شما چیزی را که رساندند وصی های پیغمبران به کسانی که بودند بعد از ایشان وادب دادم به شما با تازیانه خودم، پس مستقیم نشدید و راندم شما را به دلایل مانعه از راه ناصواب، پس منتظم نگشتید، تعجّب می کنم از شما، آیا توقع می کنید امامی را غیر از من که ببرد شما را به جادّه حق و ارشاد نماید شما را به راه راست.

آگاه باشید، به درستی که ادبار کرده است از دنیا چیزی که اقبال نموده بود و اقبال کرده است از آن چیزی که ادبار کرده بود و عزم به رحلت کردند بندگان پسندیده خدا و عوض کردند قلیل از دنیا را که باقی نخواهد ماند به کثیر از آخرت که فانی نخواهد شد، ضرر نرساند برادران ما را که ریخته شد خون های ایشان در جنگ صفین این که نشدند امروز زنده که گوارا کنند غصه ها را و بیاشامند آب کدورت آمیز اندوه را. به تحقیق قسم به ذات حق که ملاقات کردند پروردگار را، پس به تمام و کمال رسانید به ایشان اجرهای ایشان را و فرود آورد ایشان را در سرای امن و امان بعد از خوف و هراس ایشان.

کجایند برادران من که سوار شدند بر راه صدق و گذشتند بر طریق حق؟ کجا است عمار یاسر؟ کجا است ابی الهیثم بن التیهان؟ کجا است خزیمة بن ثابت ذوالشهادتین؟ و کجایند امثال ایشان از برادران مؤمنین ایشان که عهد بسته بودند با همدیگر بر مردن در راه دین و فرستاده شد سرهای ایشان با قاصد به سوی فاجران؟ پس از آن، زد آن حضرت دست خود را به محاسن شریف خود، پس بسیار گریست، بعد از آن فرمود:

آه بر برادران من که تلاوت کردند قرآن را، پس محکم ساختند آن را و تفکر کردند در واجبات، پس برپا داشتند آن را و زنده کردند سنّت پیغمبر را و کشتند بدعت را، خوانده شدند از برای جهاد، پس اجابت کردند و اعتماد نمودند به پیشوا، پس متابعت کردند او را.

بعد از آن ندا فرمود آن حضرت به آواز بلند و فرمود: بشتابید به سوی جهاد و قتال ای بندگان خدا، آگاه باشید که اردو درست کننده ام در همین روز، پس هرکه اراده کند توجّه نمودن به سوی پروردگار خود، پس باید که خارج بشود به اردوگاه.

گفت نوف بکالی: و عقد فرمود حضرت امیرمؤمنان از برای پسر خود امام حسین (علیه السلام) در ده هزار نفر و معین فرمود از برای قیس بن سعد بن عبادة در ده هزار و از برای ابوایوب انصاری در ده هزار و از برای سایرین بر شمارهای دیگر و اراده داشت که برگردد به سوی صفین، پس برنگردید روز جمعه همان هفته تا آن که ضربت زد آن بزرگوار را ملعون ابن ملجم مرادی، خدا لعنت کند او را، پس برگشتند لشگریان، پس شدیم ما به منزله گوسفندانی که گم کرده باشند شبان خود را، درحالتی که بربایند آن ها را گرگان از هر مکان.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثانية والثمانون من المختار في باب الخطب

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غيرِ رُؤْيَةٍ، الْخالِقِ مِنْ غَيرِ مَنْصَبةٍ، خَلَقَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّته، وَسادَ الْعُظَماءَ بِجُودِهِ، وَهُوَ الَّذي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالإِنْسِ رُسُلَهُ لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطائِها، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرّائِها، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثالَها، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَها، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصاحِّها وأَسْقامِها، وحَلالِها وحَرامِها، وَمَا أَعَدَّ سُبْحَانَهُ لِلْمُطيعينَ مِنْهُمْ وَالْعُصاةِ مِنْ جَنَّةٍ ونارٍ، وكَرامَةٍ وهَوانٍ، أَحْمَدُهُ إِلىٰ نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلىٰ خَلْقِهِ، جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتاباً.

منها: في ذكْر الْقرآن: فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زاجِرٌ، وَصامِتٌ ناطِقٌ، حُجَّةُ اللَّهِ عَلَىٰ خَلْقِه، أَخذَ عَلَيْهِمْ ميثاقَهُ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ، أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْرَمَ بِهِ دينَهُ، وقَبَض نَبِيَّهُ ﷺ وَقَدْ فَرَغَ إِلى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكامِ الْهُدَىٰ بِهِ، فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ ما عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دينه، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلاَّ وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بادِياً، وَآيَةً مُحْكَمَةً تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضاهُ فِيما بَقِيَ واحِدٌ، وسَخَطُهُ فِيما بَقِيَ واحِدٌ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَ عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَىٰ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّما تَسيرُونَ في أَثَرٍ بَيِّنٍ، وتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قالَهُ الرِّجالُ مِنْ قَبْلِكُمْ، قَدْ كَفاكُمْ مَؤُنَةَ دُنْياكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَىٰ الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ، وأَوصاكُمْ بِالتَّقْوَىٰ وجَعَلَها مُنْتَهَىٰ رِضاهُ، وحاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي أَنْتُمْ بِعَيْنِه، ونَواصِيكُمْ بِيَدِه، وتَقَلُّبُكُمْ في قَبْضَتِه، إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بِكُمْ حَفَظَةً كِراماً، لا يُسْقِطُونَ حَقًّا، وَلاَ يُثْبِتُونَ باطِلاً.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ، ونُوراً مِنَ الظُّلَم، ويُخَلِّدْهُ فِيما اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَةَ الْكَرامَةِ عِنْدَهُ في دارٍ اصْطَنَعَها لِنَفْسِه، ظِلُّها عَرْشُهُ، وَنُورُها بَهْجَتُهُ، وَزُوّارُها مَلائِكَتُهُ، وَرُفَقاءُها رُسُلُهُ، فَبادِرُوا الْمَعادَ، وسابِقُوا الآجالَ، فَإِنَّ النّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ، ويَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بابُ التَّوْبَةِ، فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ في مِثْلِ ما سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، وأَنْتُمْ بَنُو سَبيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دارٍ لَيْسَتْ بِدارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بالارْتِحالِ، وأُمِرْتُمْ فِيها بِالزّادِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَىٰ النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوها في مَصائِبِ الدُّنْيَا أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصيبُهُ، وَالْعَثْرَةَ تُدْميه، والرَّمْضاءِ تُحْرِقُهُ، فَكَيْفَ إِذا كانَ بَيْنَ طابَقَيْنِ مِنْ نارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وقَرينَ شَيْطانٍ، أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مالِكاً إِذا غَضِبَ عَلَىٰ النّارِ حَطَمَ بَعْضُها بَعْضاً لِغَضَبِه، وَإِذا زَجَرَها تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوابِها جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِه، أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ الَّذي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطواقُ النّارِ بِعِظامِ الأَعْناقِ، وَنَشَبَتِ الْجَوامِعُ حَتّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّواعِدِ.

فَاللَّهَ اللَّهَ مَعْشَرَ الْعِبادِ وَأَنْتُمْ سالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْم، وَفِي الْفُسْحَة قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا في فِكاكِ رِقابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهائِنُها، أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدامَكُمْ وَأَنْفِقُوا أَمْوالَكُمْ، وخُذُوا مِنْ أَجْسادِكُمْ ما تَجُودُوا بِهَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَلاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ـ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ ـ وقال: ـ مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ـ فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضكم مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزائِنُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَإِنَّما أَرادَ أَنْ يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، فَبادِرُوا بِأَعْمالِكُمْ، تَكُونُوا مَعَ جيرانِ اللَّهِ في دارِهِ، رافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وأَزارَهُمْ مَلاَئِكَتَهُ، وأَكْرَمَ أَسْماعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نارٍ أَبَداً، وصانَ أَجْسادَهُمْ أَنْ تَلْقَىٰ لُغُوباً ونَصَباً ـ ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ـ أَقُولُ ما تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلَىٰ نَفْسي وأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنا ونِعْمَ الْوَكِيلُ[1].

اللغة

(**نصب**) نصباً من باب تعب أعيا وعيش ناصب وذو منصبة فيه كدّ وجهد ونصبه الهمّ أتعبه و(**هجمت**) عليه هجوماً من باب قعد دخلت على غفلة منه، وهجمت على القوم جعلت يهجم عليهم يتعدّى ولا يتعدى و(**المصاح**) جمع مصحة مفعلة من الصحّة كمضار جمع مضرّة، والصّوم مصحة بفتح الصاد وكسرها أي فيه صحة أو يصحّ به و(**سخط**) سخطاً من باب تعب غضب.

و(**رجع قول**) قال الشارح البحراني: أي المردد منه، ولعلّه وهم لأن الترديد معنى الترجيع مصدر باب التفعيل ومنه ترجيع الموت وهو تحريكه، وترجيع الأذان وهو تكرير فصوله، وفي القاموس الرجيع من الكلام المردد وإلى صاحبه والروث وكل مردود ولم يذكر

---

(١) ميزان الحكمة: ٤/٣٣٣٤، وشرح نهج البلاغة: ١٠/١٢٣.

في معاني رجع الترديد، فالظاهر أنه بمعنى النفع من قولهم ليس له منه رجع أي نفع وفائدة قال في القاموس: الرجع النفع ورجع كلامي فيه أفاد.

و(**يوشك**) أن يكون كذا بكسر الشين من أفعال المقاربة مضارع أو شك يفيد الدنو من الشيء، وقال الفارابي: الإيشاك الإسراع، وقال النحاة: استعمال المضارع أكثر من الماضي واستعمال اسم الفاعل قليل وقد استعملوا ماضياً ثلاثياً فقالوا: وشك مثل قرب وشكا، وفي القاموس وشك الأمر ككرم سرع كوشك وأوشك أسرع السير كواشك ويوشك الأمر أن يكون وأن يكون الأمر ولا تفتح شينه أو لغة رديئة.

و(**رهقت**) الشيء رهقاً من باب تعب قربت منه، قال أبو زيد: طلبت الشيء حتى رهقته وكدت آخذه أو أخذته، وقال: رهقته أدركته ورهقه الدّين غشيه و(**الطابق**) وزان هاجر وصاحب ورويا معاً الآجر الكبير، وظرف يطبخ فيه معرب تابه والجمع طوابيق و(**اليفن**) محركة الشيخ الكبير و(**لغب**) لغباً من باب قتل وتعب لغوباً أعيا وتعب.

الإعراب

(**الباء**) في قوله عليه السلام: بمعتبر، للمصاحبة أو التعدية، و(**من**) في قوله: من تصرف بيانية، و(**حلالها**) بالجر عطف على تصرف أو على إسقامها، وقوله: (**وما أعد الله**)، إما عطف على معتبر أو على عيوبها، و(**إلى**) في قوله: أحمده إلى نفسه، لانتهاء الغاية كما في نحو الأمر إليك أي منته إليك قال ابن هشام: ويقولون أحمد إليك الله، أي أنهى حمده إليك آه، وفي قوله: (**كما استحمده إلى خلقه**)، لانتهاء الغاية أيضاً أو بمعنى من كما في قول الشاعر:

تقول وقد عاليت بالكور فوقها أيسقى فلا يروي إلى ابن احمرا

أي مني، و(**من**) في قوله: فعظموا منه زائدة أي عظموه، و(**ما**) في قوله: ما عظم مصدرية، وحاجته بالنصب عطف على منتهى.

وقوله: (**من ألسنتكم الذكر**)، قال الشارح المعتزلي: (**من**) متعلّقة بمحذوف دل عليه المصدر المتأخر، تقديره: وافترض عليكم الذكر من ألسنتكم.

أقول: وكأنّه نظر إلى أن المصدر في تقدير أن والفعل، وأن موصول حرفي لا يتقدم معموله عليه فلا يجوز تعلّقه بنفس المصدر المذكور إلاّ أنه يتوجه عليه أن الظرف والجار والمجرور يتسع فيه ما لا يتسع في غيره كما صرح به المحققون من علماء الأدبية، ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ فيصحّ فيهما تعلقهما بالمصدر المذكور ولا حاجة إلى التقدير.

وقوله: **(ضجيج حجر)** حال من اسم كان، وعلى القول بأن كان الناقصة وأخواتها لا تعمل في الحال كما نسب إلى المحققين من علماء الأدبية فلا بد من جعل كان تامة بمعنى وجد، وعلى ذلك فيكون قوله: بين طابقين ظرفاً لغواً متعلّقاً بكان.

وقوله: **(فالله الله)**، نصب على الإغراء أي اتقوا الله، وهذا الفعل المحذوف هو متعلّق قوله في الصحة أي اتقوه سبحانه في حال الصحّة، وقوله: **(قبل السقم)** إما بدل من قوله في الصحة أو حال مؤكدة من الصحة، وقوله: **(خذوا من أجسادكم)**، حرف من نشوية، وجملة: **(وافق بهم رسله)** استئناف بياني فكأنه سئل عن ثمرة الكون مع جيران الله فأجاب بأن ثمرته مرافقة الرسل وزيارة الملائكة وغيرهما.

وقوله: و**(نعم الوكيل)**، عطف إما على جملة هو حسبنا، فيكون المخصوص محذوفاً، وإما على حسبنا أي هو نعم الوكيل، فيكون المخصوص هو الضمير المتقدم وعلى التقديرين وهو من عطف الإنشاء على الأخبار ولا بأس به كما صرّح به ابن هشام وغيره.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة الشريفة مسوقة للثناء على الله سبحانه ووصف الكتاب العزيز وموعظة المخاطبين ووعدهم بالجنّة ووعيدهم من النار وافتتحها بما هو أحق بالافتتاح.

فقال: **(الحمد لله)** أي الثناء والذكر الجميل حق له سبحانه ومختص به لاختصاص أوصاف الجمال ونعوت الكمال بذاته وأشار إلى جملة من تلك الصّفات فقال: **(المعروف من غير رؤية)** أي معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، مشهود بما أبدعه من عجائب القدرة وشواهد العظمة في الأرضين والسماوات، وليست معروفيته كمعروفية الأجسام والجسمانيات، وذوي الكيفيات والهيئات بأن يعرف برؤية العيون بمشاهدة العيان لكونه تعالى شأنه منزهاً عن المقابلة والجهة والمكان، وغيرها من لواحق الإمكان، وإنما تعرفه القلوب بحقائق الإيمان على ما عرفت ذلك كله تفصيلاً وتحقيقاً في شرح المختار التاسع والأربعين والمختار المائة والثامن والسبعين.

و**(الخالق من غير منصبة)** يعني أنه خالق للمخلوقات بلا آلات وأدوات فلا يلحقه ضعف وتعب وإعياء ونصب.

وإنما **(خلق الخلائق بـ)** ـنفس **(قدرته)** الباهرة ومشيته القاهرة المضمرة بين الكاف والنون، فأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون **(واستبعد الأرباب بعزته)** أي طلب العبودية من السادات والملوك بقهره وغلبته **(وساد العظماء بجوده)** إذ كل عظيم فهو بمقتضى إمكانه داخر عند وجوده مفتقر إلى إفاضته وجوده.

(وهو الذي أسكن الدنيا خلقه) وبث فيها من كل دابه **(وبعث إلى الجن والإنس رسله)** بمقتضى اللّطف والحكمة وواتر إليهم أنبياءه **(ليكشفوا لهم عن غطائها)** ويرفعوا عنها سترها وحجابها ويسفروا عن وجهها نقابها **(وليحذروهم)** منها و**(من ضرائها)** وليرغبوهم في الآخرة وفي سرائها **(وليضربوا لهم أمثالها)**.

لأن أكثر الأفهام لما كانت قاصرة عن إدراك ماهيات الأشياء إلا في مواد محسوسة جرت عادة الله سبحانه وعادة رسله وأنبيائه في تبليغ الأحكام وبيان التكاليف والكشف عن ماهيات الأشياء على ضرب الأمثال تقريباً للأفهام حسبما عرفت توضيح ذلك في شرح الفصل الثالث من المختار المائة والاثنين والسبعين.

ولما كان عمدة الغرض من بعث الرسل والأنبياء هو جذب الناس إلى طرف الحق، وكان حصول ذلك الغرض موقوفاً على التنفير عن الدنيا والترغيب إلى الأخرى لا جرم أكثروا لها من الأمثال المنفرة، فشبهوها في وقاحتها وقباحتها بالعجوز الهتماء[1] الشمطاء، وفي سرعة الفناء والانقضاء بالظل الزائل والضوء الآفل، وفي حسن صورتها وقبيح باطنها بالحية اللّين مسّها والقاتل سمّها إلى غير هذه من الأمثال المضروبة لها في الكتاب العزيز والأخبار وكلمات الأنبياء والأولياء الأخيار، وقد مضت جملة من تلك الأمثال في شرح الفصل الثاني من المختار الثاني والثمانين.

(وليبصّروهم عيوبها) حتّى يشاهدوا معايبها ويروا معاطبها ويعلموا أنّها وإن كانت يونق منظرها إلاّ أنها يوبق مخبرها مع تضمنها لقرب الزوال وأزف الانتقال وعلز القلق وألم المضض وغصص الجرض.

(وليهجموا عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها وإسقامها) أي ليدخلوا عليهم على حين غفلة منهم بما يوجب عبرتهم من تقلباتها وتصرفاتها على أهلها بالصحّة والسقم واللّذة والألم، فعن قليل ترى المرحوم مغبوطاً، والمغبوط مرحوماً وترى أهلها يمسون ويصبحون على أحوال شتى، فصحيح مشغوف بها مشغول بزخارفها، ومريض مبتلىً، وميّت يبكي، وآخر يعزّى، وعائد يعود وآخر بنفسه يجود، فإن في ذلك تذكرة وذكرى وعبرة لأولي النهي إذ على أثر الماضي يمضي الباقي، وسبيل السلف يسلك الخلف.

وقوله: **(وحلالها وحرامها)** قال الشارح المعتزلي: يقول عليه السلام ليدخلوا عليهم بما في تصاريف الدنيا من الصحة والسقم وما أحل وما حرم على طريق الابتلاء به.

(١) وهي التي لا أسنان لها.

وقال الشارح البحراني بعد ما وافق الشارح المعتزلي في هذا المعنى: ويحتمل أن يكون عطفاً على أسقامها باعتبار أن الحلال والحرام من تصاريف الدنيا، وبيانه أن كثيراً من المحرمات لنبي كانت حلالاً من نبي قبله وبالعكس، وذلك تابع لمصالح الخلق بمقتضى تصاريف أوقاتهم وأحوالهم التي هي تصاريف الدنيا، انتهى.

أقول: وأنت خبير بأن هذين المعنيين وإن كانا يصححان كون الحلال والحرام مما هجم به الأنبياء وكونهما من تصارف الدنيا إلاّ أنهما على هذين لا يكونان مما يوجب العبرة كما لا يخفى وقد جعلهما بياناً لقوله معتبر فلا بد أن يكون المعنى دخولهم على الأمم وتذكيرهم بتصاريف الحلال والحرام على وجه يوجب الاعتبار مثل أن يذكروهم.

بأن الاكتساب من الحلال يوجب في الدنيا زيادة المال وبركة له، وفي الآخرة يصون من غضب الرب، والاقتحام في الحرام يورث في الدنيا تلف المال وذهابه، وفي الآخرة يعقّب الحسرة والندامة والعطب.

وبأن الحلال ربما يتبدل بالحرام بالظلم والآثام كما قال عز من قائل: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وبأن الحرام قد يتبدّل بالحلال إذا اقتضت الضرورة كحالة الاضطرار والمخمصة ونحو ذلك مما يوجب الاعتبار بهما ويبعث على القناعة بالحلال والكف عن الحرام.

وأبلغ التذكر والعبرة بتصاريف الحلال والحرام ما نطق به القرآن قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ **(وما أعدّ)** الله **(سبحانه للمطيعين منهم)** أي من الجن والإنس **(والعصاة من جنة ونار)** نشر على ترتيب اللّف أي جنّة للمطيعين ونار للعاصين **(وكرامة)** ورضوان للأولين وذلة **(وهوان)** للآخرين.

(أحمده إلى نفسه) أي أحمده سبحانه متقرباً أو متوجهاً به إليه تعالى أو منهياً حمدي إلى نفسه أي يكون حمدي منتهياً إليه ومخصوصاً به عزّ وجلّ **(كما استحمد إلى خلقه)** أي يكون حمدي إياه في الكيفيّة والكميّة على الوجه الذي طلب الحمد موجّهاً طلبه إلى خلقه أو على الوجه الذي طلبه منهم والمآل واحد، والمراد بيان فضل الحمد وكونه على وجه الكمال وخلوصه عن شوب الشرك والرياء.

وقوله: **(جعل لكل شيء قدراً)** كقوله تعالى: قد جعل الله لكل شيء قدراً أي مقداراً معيّناً من الكيفيّة والكميّة ينتهي إليه، وحداً محدوداً يقف عنده ذلك **(ولكل قدر أجلاً)** أي لكلّ شيء مقدر وقتاً مخصوصاً يكون فيه انقضاؤه وفناؤه إذا بلغه **(ولكلّ أجل كتاباً)** أي رقوماً

تعرفها الملائكة وتعلم بها انقضاء أجل من ينقضي أجله.

وقال الشارح البحراني: المراد بالكتاب العلم الإلهي المعبّر عنه بالكتاب المبين واللّوح المحفوظ المحيط بكلّ شيء، وفيه رقم كلّ شيء، انتهى والأظهر ما قلناه.

قال السيد عليه السلام **(منها)** أي بعض فصول هذه الخطبة الشريفة **(في ذكر القرآن)** وبعض أوصافه.

(فالقرآن آمر زاجر) وصفه بهما من باب التوسع والمجاز لأن الآمر والناهي هو الله سبحانه إلا أن القرآن لما كان متضمناً لأمره ونهيه أطلق عليه لفظ الآمر والناهي من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب كما قاله الشارح البحراني، أو من باب سيف قاتل، وإنما القاتل الضارب كما قاله الشارح المعتزلي يعني تسمية الآلة باسم ذي الآلة.

أقول: لما كان القرآن مظهراً لآمريته وزاجريته سبحانه يكفي هذا المقدار من العلاقة والارتباط في صحة التجوز، ولا حاجة إلى تمحل إدخالها في إحدى العلائق المعروفة، وقد عرفت تحقيق ذلك في ديباجة الشرح.

(وصامت ناطق) وصفه بالصّمت لأنه كلام مؤلف من حروف وأصوات صامتة لأن الغرض يستحيل أن يكون ناطقاً، لأن النطق إنما يحصل بالأداة واللهوات والكلام والحروف يستحيل أن يكون ذا أداة تنطق بالكلام.

ويحتمل أن يكون وصفه به من باب المجاز إن قلنا إن الصمت عبارة عن عدم النطق عمن من شأنه أن يكون ناطقاً بأن يكون النسبة بينهما مقابلة العدم والملكة، وعلى هذا فيكون وصفه به من باب الاستعارة تشبيهاً له بالحيوان الغير الناطق.

وأما وصفه بالنطق فهو من باب الاستعارة التبعيّة أو المكنية مثل قولهم نطقت المال بكذا والحال ناطقة بكذا، وقد عرفت شرحه في ديباجة الشرح في المسألة السابعة من مسائل المجاز، وفي التقسيم الثاني من تقسيمات الاستعارة فليراجع ثمة.

(حجة الله على خلقه) لأن الله سبحانه يحتجّ على العباد بما أتاهم وعرّفهم به وبالقرآن عرف الأحكام وأبان مسائل الحلال والحرام وأزال العذر به عن نفسه في عقاب العاصين أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

وأيضاً فهو معجزة للنبوة وحجة في صدقه «كذا» ـ أي النبي صلى الله عليه وآله ـ، وقد بعث رسوله صلى الله عليه وآله ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حي عن بينة، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

(أخذ عليهم ميثاقه) أي أخذ الميثاق والعهد من المكلّفين على العلم به وبأحكامه، والمراد به ما ورد في بعض الآيات وصدر عن لسان النبوة من الحث والترغيب عليه والأمر بإجلاله وإعظامه والقيام بمعالمه وأحكامه.

قال الشارح المعتزلي: ومن الناس من يقول: المراد بذلك قصّة الذرّية قبل خلق آدم عليه السلام كما ورد في الأخبار وفسر قوم عليه الآية، انتهى، والأولى ما قلناه(١).

(وارتهن عليه أنفسهم) لما كان ذمم المكلّفين مشغولة بما تضمّنه القرآن من التكاليف والأحكام وكان اللازم عليهم الخروج عن عهدة التكليف وتحصيل براءة الذمة شبههم بالعين المرهونة لدين المرتهن، فإن فك رهانتها موقوف على أداء حق صاحب الدين فكذا فك رهانة هؤلاء موقوف على عملهم بالتكاليف الشرعية والأوامر المطلوبة.

وهو نظير قول النبي صلى الله عليه وآله في الخطبة التي خطب بها في فضيلة شهر رمضان: أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من ذنوبكم فخففوا عنها بطول سجودكم(٢).

(اتمّ نوره) أي جعل نوره تامّاً كاملاً.

أما كونه نوراً فلأنه نور عقلي ينكشف به أحوال المبدأ والمعاد يهتدى به في ظلمات برّ الأجسام وبحر النفوس قال الله عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة: ١٦].

وأما تماميّته فلكونه أكمل أسباب الهداية أما في بدو الإسلام فلكونه أقوى المعجزات الموجبة لخروج الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام، وأما بعده فلبقائه بين الأمة إلى يوم القيامة واهتدائهم به إلى معالم الدّين ومناهج الشرع المبين يوماً فيوماً.

(و) بذلك الاعتبار أيضاً **(أكرم به دينه)** أي جعله مكرماً معززاً به **(وقبض نبيه صلى الله عليه وآله وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به)** يجوز أن يكون الأحكام بكسر الهمزة أي فرغ من جعل الهداية بالقرآن محكمة أي متقنة مثبتة في قلوب المؤمنين لكن المضبوط فيما رأيته من النسخ بفتحها، فيكون المراد فراغته صلى الله عليه وآله من أحكام الهداية أي من التكاليف التي يتوقّف الهداية به عليها، مثل قراءته وتعليمه وتفسير معانيه وتوضيح مبانيه، والإلزام على العمل بأحكامه ونحو ذلك مما يحصل به الاهتداء.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١١٧.

(٢) الأمالي: ١٥٤، ووسائل الشيعة: ٧/ ٢٢٧.

وكيف كان فالمراد أن النبي صلى الله عليه وآله لم يمض من الدنيا إلا بعد هداية الناس بالقرآن إلى معالم الإسلام.

روى في الكافي عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا عليه السلام أنه قال: إن الله لم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً فقال عز وجل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمره صلى الله عليه وآله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وأمر الإمامة من تمام الدين ولم يمض حتى بيّن لأمته معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد سبيل الحق وأقام لهم علياً عليه السلام إماماً وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأمة إلاّ بيّنه، فمن زعم أن الله لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر.

وقد مر تمام تلك الرواية في شرح الفصل الخامس من المختار الثالث.

(فعظّموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه) أي عظموه عز وجل مثل تعظيمه لنفسه، والمراد به وصفه بصفات الجلال والإعظام وأوصاف الكمال والإكرام التي نطق بها الكتاب، وأفصحت عنها السّنة النبوية.

وعلل عليه السلام وجوب تعظيمه بقوله: **(فإنه لم يخف عنكم شيئاً من دينه)** وعلة ذلك باعتبار أن الشرعيات مصالح المكلّفين وإذا فعل الحكيم سبحانه بهم ما فيه صلاحهم فقد أحسن إليهم، ومن جملة الشرّعيات ما هو مقرب إلى الثواب مبعد من العقاب، وهذا أبلغ ما يكون من الإحسان والمحسن يجب تعظيمه وشكره بقدر الإمكان لاسيما إذا كان إحسانه بالنعم العظام والعطايا الجسام.

(و) أكد عدم إخفائه شيئاً من دينه بأنه **(لم يترك شيئاً رضيه)** وأدّى إلى ثوابه **(أو كرهه)** وقرب من عقابه **(إلا)** وعرّفه وبيّنه **(وجعل له علماً بادياً)** أي علامة ظاهرة **(وآية محكمة)** واضحة **(تزجر)** وتنهى **(عنه)** لكونه مكروهاً **(أو)** تأمر و**(تدعو إليه)** لكونه مرضيّاً.

ولما ذكر أن الله سبحانه قبض نبيه صلى الله عليه وآله بعد ما فرغ من بيان الأحكام وأنه لم يخف شيئاً من مراسم الدين ومعالم الإسلام فرّع عليه قوله: **(فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد)** يعني أن مرضيّه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي من الأحكام بين الأمة بعد مضي النبي صلى الله عليه وآله واحد، وكذلك مسخوطه فيها واحد.

وهذا هو مذهب أهل الصواب من المخطئة القائلين بأن لله سبحانه في كل واقعة حكماً معيّناً واحداً وأن المصيب إليه من المجتهدين واحد وغيره خاطىء.

خلافاً لأهل الخطأ من المصوبة القائلين بتعدد الأحكام وكثرتها واختلافها على اختلاف آراء المجتهدين، وقد عرفت تفصيل الكلام في تحقيق التخطئة والتصويب في شرح المختار الثامن عشر المسوق في ذم اختلاف العلماء في الفتوى، وهناك فوائد نفيسة نافعة لتوضيح المقام.

ولما ذكر أن حكم الله سبحانه واحد بالنسبة إلى الأشخاص نبه على اتحاده بالنسبة إلى الأزمان فقال: (**واعلموا أنه لن يرض عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم، ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم**) يعني أن ما كان محرّماً على السالفين الحاضرين في زمان رسول الله ﷺ فهو محرم على الغابرين العامين[١]، وما كان واجباً على الأوّلين فواجب على الآخرين، لأن شرع محمد ﷺ مستمر إلى يوم القيامة وحكمه على الواحد حكم على الجماعة، فلا يجوز تغيير الأحكام الثابتة بالكتاب والسنّة بالآراء والمقائيس والاستحسانات العقلية.

وهذا الكلام نظير ما تقدم منه عليه السلام في الفصل الثاني من المختار المائة والخامس والسبعين من قوله: واعلموا عباد الله أن المؤمن يستحل العام ما استحل عاماً أول ويحرم العام ما حرم عاماً أول وإن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئاً مما حرم عليكم ولكن الحلال ما أحلّ الله والحرام ما حرم الله، وقد مضى منافي شرح هذا الكلام ما يوجب زيادة البصيرة في المقام، هذا.

وقد اضطرب أنظار الشارح البحراني والمعتزلي في شرح هذه الفقرة والفقرة السابقة عليه وقصرت يدهما عن تناول المراد كما يظهر ذلك لمن رجع إلى شرحيهما.

ثم إنه بين اشتراك المخاطبين مع السابقين الأولين في التكاليف والأحكام وأنه تعالى لا يرضى منهم إلا بما كان رضيه عنهم ولا يسخط عليهم إلا بما سخط به عن الأولين أكد ذلك بقوله (**وإنما تسيرون في أثر بين وتتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم**) وهو جملة خبرية في معنى الإنشاء.

يعني إذا كان تكليفكم متحداً مع السابقين فلا بدّ لكم أن تسلكوا منهجهم وتحذوا حذوهم وتسيروا في آثارهم البينة الرّشد وتعلموا بما علموه من الأحكام الواضحة من الكتاب والسنّة، وأن تتكلموا بقول نافع قد قالوه قبلكم وتنطقوا بكلام يعود منفعته وفائدته إليكم وإلى غيركم.

---

(١) «الغائبين» في نسخة.

وهو كل كلام يفضي إلى الحق ويهدي إلى الصراط المستقيم والنهج القويم، وتخصيصه بكلمة التوحيد أي لا إله إلا الله كما ذهب إليه الشارح المعتزلي لا دليل عليه مع اقتضاء الأصل عدمه فمحصّل المراد بالجملتين أمر المخاطبين بموافقة السلف الصالحين فعلاً وقولاً.

(قد كفاكم مؤنة دنياكم) قال الشارح البحراني: وتلك الكفاية إما بخلقها وإيجادها، وإما برزقه بكل ما كتب في اللّوح المحفوظ.

أقول: الأظهر هو الثاني وهو نظير قوله عليه السلام المتقدم في الفصل الأول من المختار التسعين: عياله الخلق ضمن أرزاقهم وقدّر أقواتهم، وقد تقدّم في شرحه فوائد نافعة ههنا.

وأقول مضافاً إلى ما سبق قال الإمام سيّد العابدين وزين الساجدين عليه السلام في دعائه التاسع والعشرين من الصحيفة الكاملة:

واجعل ما صرحت به من عدتك في وحيك واتبعته من قسمك في كتابك قاطعاً لاهتمامنا بالرزق الذي تكفّلت به، وحسماً للاشتغال بما ضمنت الكفاية له، فقلت وقولك الحق الأصدق وأقسمت وقسمك الأبر الأوفى «وفي السماء رزقكم وما توعدون» ثمّ قلت: «فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون».

قوله: «وفي السماء رزقكم» أي أسباب رزقكم بأن يرسل سبحانه الرياح فتثير السحاب فيبسطه في السماء فينزل الغيث والمطر فيخرج به من الأرض أنواع الأقوات والملابس والمعائش.

وقيل: وفي السماء تقدير رزقكم أي ما قسمته لكم مكتوب في أم الكتاب الذي هو في السماء.

وفي حديث أهل البيت عليهم السلام: أرزاق الخلائق في السماء الرابعة تنزل بقدر وتبسط بقدر[1].

وقال الصادق عليه السلام: الرزق المطر ينزل من السماء فيخرج به أقوات العالم[2].

وقوله: «وما توعدون» قال الصادق عليه السلام هو أخبار القيامة والرجعة والأخبار التي في السماء[3]، وقيل: هو الجنّة فوق السماء السابعة وتحت العرش، ثم أقسم سبحانه بأن ما

---

(١) بحار الأنوار: ١٠/ ١٣٥، وتفسير نور الثقلين: ٤/ ٥٧٩ ح٨٩.
(٢) تفسير القمي: ٢/ ٣٣٠، والتفسير الصافي: ٥/ ٧١.
(٣) التفسير الأصفى: ٢/ ١٢٠٨.

ذكره من أمر الرزق الموعود لحق مثل ما أنكم تنطقون، قال الزمخشري: وهذا كقول الناس أن هذا الحق كما أنكم تنطقون، قال الزمخشري: وهذا كقول الناس أن هذا الحق كما أنك ترى وتسمع ومثل ما أنك ههنا، قيل إنه لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك بنو آدم أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم.

ونقل في الكشاف عن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة وطلع أعرابي على قعود فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمان، قال: اتل عليّ، فتلوت: والذاريات، فلما بلغت قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووضعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولّى.

فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرّ فسلّم عليّ واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعد ربّنا حقاً، ثم قال: وهل غير ذلك؟ فقرأت ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣] فصاح وقال: يا سبحانه من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدّقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه[1].

(وحثكم على الشكر) لطفاً بكم ورأفة لكم ورحمة عليكم، لأن شكره سبحانه موجب لزيادة نعمته كما أن كفرانها موجب لنقصانها قال عز من قائل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

(وافترض من ألسنتكم الذكر) أي أوجب عليكم أن تذكروه سبحانه بألسنتكم كما قال: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقد مضى تفصيل الكلام في ذكره تعالى والأدلة الواردة في فضله والحث والترغيب عليه في التنبيه الثاني من شرح الفصل السادس من فصول المختار الثاني والثمانين.

(وأوصاكم بالتقوى) في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وغيرها من الآيات التي تقدمت في شرح المختار الرابع والعشرين.

(وجعلها منتهى رضاه) فإنّها لما كانت موصلة إلى الله سبحانه مؤدّية إلى رضوانه موجبة لمحبته ورضاه صح بهذا الاعتبار جعلها منتهى رضاه من خلقه كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) كتاب التوابين: ٢٧٥ ح١١٢، وتفسير القرطبي: ٤٢/١٧.

يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] وقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

(و) جعلها **(حاجته من خلقه)** استعار لفظ الحاجة لتأكد الطلب أي طلبه المؤكد فإنه سبحانه لما بالغ في الحث والحضّ عليها وتكرر منه تعالى طلبها والأمر به في غير واحدة من الآيات شبهها بالحاجة التي يفتقر إليها المحتاج ويبالغ في تحصيلها والوصول إليه والجامع المطلوبية المتأكدة.

ولمّا نبّه على كونها سبباً للوصول إلى رضوانه وغاية المطلوب من خلقه عقبه بالأمر بها فقال: **(فاتقوا الله الذي أنتم بعينه)** أي بعلمه فأطلق العين وأريد العلم مجازاً من باب تسمية المسبب باسم السبب، أو اللازم باسم الملزوم إذ رؤية الشيء سبب للعلم به ومستلزم له.

وفي الإتيان بالموصول تأكيد الغرض المسوق له الكلام، فإنه لما أمر بالتقوى وكانت التقوى حسبما قاله الصادق عليه السلام: عبارة عن أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك، أتى بالجملة الموصولة الوصفية تنبيهاً على أن الله عالم بكم خبير بأحوالكم بصير بأعمالكم سميع لأقوالكم، ومن كان هذا شأنه فلا بد أن يتقى منه حق تقاته إذ لا يعزب عنه شيء من المعاصي ولا يخفى عليه شيء من الخطايا كما يخفى على سائر الموالي بالنسبة من عبيدهم.

وأكده أخرى بقوله: **(ونواصيكم بيده)** يعني أنه قاهر لكم قادر عليكم متمكن من التصرف فيكم كيف شاء وأي نحو أراد لا راد لحكمه ولا دافع لسخطه ونواصيكم بيد قدرته، لا يفوته من طلب ولا ينجو منه من هرب.

وأكده ثالثة بقوله: **(وتقلبكم في قبضته)** أي تصرفكم في حركاتهم وسكناتكم تحت ملكه وقدرته واختياره.

وقوله: **(إن أسررتم علمه وإن أعلنتم كتبه)** هو أيضاً في معنى التأكيد وأن غير الأسلوب على اقتضاء التفنن، يعني أنه عالم بالسرائر خبير بالضمائر سواء عليه ما ظهر منكم وما بطن لا يحجب عنه شيء مما يسر وما يعلن كما قال عز من قائل: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ١٠] هذا.

ويدل قوله: إن أعلنتم كتبه بمفهومه على أنه لا يكتب ما لا يعلن وإن كان يعلمه، فيفيد عدم المؤاخذة على نيّة المعصية بمجرّدها، وقد مضى تحقيق الكلام فيه في شرح الفصل الخامس من المختار الثالث فليتذكر.

وبذلك ظهر ما في قول الشارح المعتزلي حيث قال: إن قوله عليه السلام: إن أسررتم آه،

ليس يدل على أن الكتابة غير العلم، بل هما شيء واحد ولكن اللفظ مختلف انتهى فتدبر.

وعقب قوله: كتبه بقوله: **(قد وكل بكم حفظة كراماً)** من باب الاحتراس فإنه لما كان بظاهره متوهماً لكونه تعالى شأنه بنفسه كاتباً أتى بهذه الجملة دفعاً لذلك التوهّم، وتنبيهاً على أن الموكل بذلك الملائكة الحافظون لأعمال العباد.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠ - ١١] وهم طائفتان ملائكة اليمين للحسنات وملائكة الشمال للسيئات قال عز وجل: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾ [ق: ١٧] هذا.

وفي وصف الحفظة بالكرام وتعظيمهم بالثناء تفخيم لما وكلوا به وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور حيث يستعمل فيه هؤلاء الكرام، وفيه من التهويل من المعاصي ما لا يخفى.

ولهذه النكتة أيضاً وصفهم ثانياً بقوله: **(لا يسقطون حقاً ولا يثبتون باطلا)** أي لا يسقط من قلمهم ما هو ثبت له أو عليه، ولا يكتبون ما لا أصل له، ومن المعلوم أن المكلّف إذا التفت إلى ذلك وتنبّه على شدة محافظة الحفظة عليه وعلى أنهم لا يتركون شيئاً مما هو له أو عليه كان ذلك أقوى داعياً له على الإزعاج عن المعاصي والإقلاع عن السيئات.

قال الصادق عليه السلام: استعبدهم الله أي الكرام الكاتبين بذلك، وجعلهم شهوداً على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة وعن معصيته أشد انقباضاً، وكم من عبد همّ بمعصيته فذكر مكانهم فارعوى، وكيف فيقول ربي يراني وحفظتي عليَّ بذلك تشهد[١]، هذا.

ولما أمر بالتقوى وأردفه بذكر ما يحذر من تركها عقبه بذكر ما يرغب في الملازمة عليها فقال: **(واعلموا أن من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن)** الموجبة للضلالة **(ونوراً من الظلم)** أي من ظلمات الجهالة، وهو اقتباس من الآية الشريفة في سورة الطلاق قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢].

روى في الصافي عن القمي عن الصادق عليه السلام: في دنياه، ومن المجمع عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قرأها فقال: مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة وعنه عليه السلام إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس كفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية، فما زال يقولها ويعيدها[٢].

(ويخلده فيما اشتهت نفسه) وهو أيضاً اقتباس من الآية في سورة الأنبياء قال تعالى:

---

(١) الاحتجاج: ٢/ ٩٥، وبحار الأنوار: ١٠/ ١٨٣.

(٢) بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٨١، وتفسير مجمع البيان: ١٠/ ٤٣.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٢ ـ ١٠٣].

(وينزله منزل الكرامة عنده) أي في منزل أهله معززون مكرمون عنده سبحانه **(في دار اصطنعها لنفسه)** أي اتخذها صنعه وخالصته واختصها بكرامته كما قال سبحانه لموسى بن عمران: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝﴾ قيل: هو تمثيل لما أعطاه الله من التقريب والتكريم.

قال الشارح البحراني: والدار التي اصطنعها لنفسه كناية عن الجنة المحسوسة أشرف دار رتبت لأشرف المخلوقات، وأما المعقولة فيعود إلى درجات الوصول والاستغراق في المعارف الإلهية التي بها السعادة والبهجة واللذة التامة، وهي جامع الاعتبار العقلي لمنازل أولياء الله وخاصته ومقامات ملائكته ورسله، ومن المتعارف أن الملك العظيم إذا صرف عنايته إلى بناء دار يسكنها هو وخاصته أن يقال أنه تختص بالملك وأنه بناها.

وقوله: **(ظلها عرشه)** يدل على أن الجنّة فوق السماوات وتحت العرش وإليه ذهب الأكثر.

قال الرازي في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]: وههنا أسئلة: «إلى أن قال»:

السؤال الثالث: أنتم تقولون أن الجنّة في السماء فكيف يكون عرضها كعرض السماء.

والجواب أن المراد من قولنا أنها في السماء أنّها فوق السماوات وتحت العرش قال في صفة الفردوس: سقفها عرش الرحمن، وقال: وسئل أنس بن مالك عن الجنة في الأرض أم في السماء؟ قال: فأي أرض وسماء تسع الجنة، قيل: فأين هي؟ قال: فوق السماوات السبع وتحت العرش.

وقال العلامة المجلسي رحمه الله في البحار بعد ذكر الآيات والأخبار في وصف الجنة ونعيمها:

إعلم أن الإيمان بالجنّة والنار على ما وردتا في الآيات والأخبار من غير تأويل من ضروريات الدين ومنكرهما أو مؤلهما بما أوّلت به الفلاسفة خارج من الدين.

وأما كونهما مخلوقتان الآن فقد ذهب إليه جمهور المسلمين إلا شرذمة من المعتزلة، فإنهم يقولون: سيخلقان يوم القيامة، والآيات والأخبار المتواترة دافعة لقولهم مزيفة لمذهبهم والظاهر أنه لم يذهب إلى هذا القول السخيف أحد من الإمامية إلا ما ينسب إلى السيد الرضي رضي الله عنه[1].

---

(١) قال الفيض الكاشاني في كتاب عين اليقين: كلّ من الجنّة والنار المحسوسين عالم مقداري صوري إحداهما

وأما مكانهما فقد عرفت أن الأخبار تدل على أن الجنة فوق السماوات السبع والنار في

صورة رحمة الله والأخرى صورة غضبه.
قال استادنا مدّ ظلّه: إنّ جهنّم ليست بدار حقيقيّة متأصّلة لأنّها صورة غضب الله، كما أنّ الجنّة صورة رحمة الله وقد ثبت أنّ رحمة الله ذاتية واسعة كلّ شيء والغضب عارضي وكذا الخيرات صادرة بالذات والشرور واقعة بالعرض فعلى هذاالأبدان تكون الجنّة موجودة بالذات والنار مقدّرة التبع.
وقال أيضاً: إنّ جهنّم من سنخ الدُّنيا وأصلها فمادّتها هي تعلّق النفس بأمور الدُّنيا من حيث هي دنيا وصورتها هي صورة الهيئات المؤلمة والأعدام والنقائص فإنّ الاعدام والنقائص وإن كانت من حيث هي أمور سلبية غير مؤثّرة ولا مُعذّبة إلاّ أنّ صورها الحضورية وحصولها الخارجيّة ضرب من الوجود للشيء الموصوف بها وهي من هذه الجهة شرور حقيقيّة حاصلة للشيء ألا ترى أنّ تفرّق الاتّصال مع أنه أمر عدمي لأنّه عبارة عن زوال الاتّصال عمّا من شأنه الاتصال ففيه غاية الألم للحسّ اللاّمس به لأنّه عدم محسوس مشهود للنفس وإذا كان العدم موجوداً كان شرّاً حقيقيّاً ويكون إدراكه اللمسي إدراك أمر مناف حاصل بنفسه للمدرك لأنّ العلم الشهودي هو بعينه نحو وجود المعلوم الخارجي والمعلوم بهذا العلم إذا كان عدماً خارجيّاً كان ذلك العدم مع كونه عدماً أمراً موجوداً فيكون شرّاً حقيقيّاً ففيه غاية الألم ونهاية الشرّية.
قال: فصورة جهنّم في الآخرة هي صورة الآلام التي هي اعدام ونقائص حاصلة للنفس فالنفوس الشقية ما دامت على فطرة تدرك بها النقائص والاعدام الموصوفة بها التي من شأن تلك النفوس أن تتّصف بمقابلاتها تكون لها آلام شديدة بحسبها فتلك الآلام باقية فيها إلى أن يزول عنها إدراكها امّا بتبدّل فطرتها إلى فطرة أدنى وأخسّ من تلك الفطرة أو بزوال تلك النقائص والاعدام بحصول مقابلاتها من جهة ارتفاع حال تلك النفوس وقوّة كمالاتها واشتغالها بإدراك أمور عالية كانت تعتقدها من قبل وصارت ذاهلة عنها ممنوعة عن إدراكها لانصراف توجّهها عنها إلى تلك الشواغل الحسّية فعلى التقديرين يزول العذاب ويحصل الراحة.
والحاصل أنّ جهنّم هي صورة الدنيا من حيث هي دنيا حالّة في موضوع النفس يوم القيامة فتلك الصورة الجحيميّة مشتملة على جميع ما في السماء والأرض من حيث نقائصها وشرورها لا من حيث كمالاتها وخيراتها فإنّها من حيث كمالاتها وخيراتها هي من الجنّة، فالنفس ما دامت في هذا العالم تدرك الموجودات العالمية بهذه الحواس البدنية وكلّ ما يدرك بهذه الحواس يكون مخلوطاً غير متميّز حقّه من باطله وصحيحه من فاسده مخلوطة غير متميّزة حقّها من باطلها وصحيحها من فاسدها فيرى الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض على صورة مخلوطة مشتبهة فيزعم أنّ لها بقاءً وثباتاً وأنّ ضوء الشمس والقمر والكواكب بحسب الحقيقة على هذه الهيئة وأنّها ذاتية لتلك الأجرام قائمة بها لا بغيرها، فإنّ السماء والأرض كلّ منهما على هذه الهيئة التي يدركها الحسّ من البقاء والثبات والارتفاع والانخفاض والوضع والترتيب، فإذا جاء يوم القيامة تبدّلت هذه الأشياء غيرها وانفصل ما لها عمّا ليس لها وامتاز حقّها من باطلها ونورها العرضي من ظلمتها الأصلية وخبيثها من الطيّب كما قال تعالى: (وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطيّب).
فصورة جهنّم عبارة عن الحقيقة الأصلية لهذا العالم متميّزة عمّا هو خارج عنها من الخيرات والكمالات فإذا قامت القيامة واستقرّت كلّ طائفة في دارها ورجعت كلّ صورة إلى حقيقتها فيكون الحكم في أهل الجنّة بحسب ما يعطيه الأمر الإلهي في النشأة الآخرة ويكون الحكم في أهل النار بحسب ما يعطيه الأمر الإلهي في مادّة هذا العالم الذي أودع الله في حركات الأفلاك وفي الكواكب الثابتة والسبعة المطموسة أنوارها، فهي كواكب لكنّها مطموسة الأنوار في القيامة، وكذا الشمس شمس لكنّها منكسفة النور؛ لأنّ أنوارها مستفادة من مبادئها الأصلية فهي بالحقيقة قائمة بتلك المبادئ لا بهذه الأجرام.

الأرض السابعة، ونقل عن شارح المقاصد أنه قال: لم يرد نقل صريح في تعيين مكان الجنة والنار، والأكثرون على أن الجنة فوق السماوات السبع وتحت العرش تشبثاً بقوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٤ ـ ١٥] وقوله صلى الله عليه وآله سقف الجنة عرش الرحمن، والنار تحت الأرضين السبع، والحق تفويض ذلك إلى علم العليم الخبير انتهى[١].

وذهب بعضهم إلى أنها في السماء الرابعة نسبه الطبرسي في مجمع البيان إلى صحيح

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنّه قال: إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله تجريان بأمره مطيعان له ضوءهما من نور عرشه وحرّهما من جهنّم وإذا كانت القيامة عاد إلى العرش نورهما وعاد إلى النار حرّهما فلا يكون شمس ولا قمر.

وقال في الباب الستّين من الفتوحات: يقرب حكم النار من حكم الدُّنيا فليس بعذاب خالص ولا بنعيم خالص ولهذا قال تعالى: (لا يموت فيها ولا يحيى)وسبب ذلك أنّه بقى ما أودع الله عليهم في الأفلاك وحركات الكواكب من الأمر الإلهي وتغيّر منه على قدر ما تغيّر من صور الأفلاك بالتبديل ومن صور الكواكب بالطمس والانتشار فاختلف حكمها بزيادة ونقص وغير ذلك.

وقال في معرفة جهنّم: اعلم عصمنا الله وإيّاك أنّ جهنّم من أعظم المخلوقات وهي سجن الله في الآخرة وسمّيت جهنّم لبُعد قعرها يقال: بئر جهنا مر إذا كانت بعيدة القعر وهي تحوي على حرور وزمهرير، ففيها البرد على أقصى درجاته والحرور أقصى درجاته وبين أعلاها وقعرها خمس وسبعون إلى مائة من السنين واختلف الناس فيها هل خلقت بعد أو لم تخلق والخلاف مشهور فيها، وكذلك اختلفوا في الجنّة، وامّا عندنا وعند أصحابنا أهل الكشف والتعريف فهما مخلوقتان غير مخلوقتين:

أمّا قولنا مخلوقتان فكرجل يبني داراً فأقام حيطانها كلّها الحاوية عليها خاصّة فيقال هي دار فإذا دخلتها لم تر إلاّ سوراً دائراً على فضاء وساحة ثمّ بعد ذلك ينشئ بيوتها على أغراض الساكنين فيها من بيوت وغرف وسرادق ومسالك ومخازن، وما ينبغي أن يكون فيها وفي دار حرورها هواء محرق لا جمر لها سوى بني آدم والأحجار المتّخذة آلهة والجنّ لهبها.

قال تعالى: (وقودها الناس والحجارة) وقال: (إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم)وقال: (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون)وتحدث فيها الآلات بحدوث أعمال الجنّ والإنس الذين يدخلونها وقد خلقها الله تعالى من صفة الغضب وجميع ما يخلق فيها من الآلام والمحن التي يجدها الداخلون فيها فمن صفة الغضب الإلهي ولا يكون ذلك إلاّ عند دخول الخلق فيها متى دخولها.

وأمّا إذا لم يكن فيها أحد من أهلها فلا ألم في نفسها ولا في نفس ملائكتها بل هي ومن فيها من زبانيتها في رحمة الله منغمسون ملتذّون يسبّحون لا يفترون يقول الله تعالى: ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى، فإنّ الغضب هاهنا هو عين الألم فمن لا معرفة له ممّن يدّعي طريقتنا ويريد أن يأخذ الأمر من التمثيل والمناسبة فيقول: إنّ جهنّم مخلوقة من القهر الإلهي وانّ الاسم القاهر هو المتجلّي ولو كان الأمر كما قاله لشغلها ذلك بنفسها عمّا وجدت له من التسلّط على الجبابرة ولم يمكن لها أن يقول هل من مزيد ولا أن يقول آكل بعضي بعضاً، فنزول الحقّ إليها برحمته التي وسعت كلّ شيء وسع لها المجال في الدعوى والتسلّط على الجبابرة والمتكبّرين فالناس غالطون في شأن خلقها.

(١) بحار الأنوار: ٨/٢٠٦، ونور البراهين: ١/٣٠٢ ح٢٢.

الخبر، والله أعلم.

(ونورها بهجته) قال الطريحي والبهجة الحسن ومنه رجل ذو بهجة، والبهجة السرور ومنه الدعاء: وبهجة لا تشبه بهجات الدنيا، أي مسرة لا تشبه مسرات الدنيا، وفيه: سبحان ذي البهجة والجمال، يعني الجليل تعالى انتهى.

أقول: فعلى المعنى الأول فالمراد أن نور الجنة أي منورها جماله سبحانه عظمته التي تضمحل الأنوار دونها، فأهل الجنة مستغرقة في شهود جماله، ونفوسهم مشرقة بإشراق أنوار كماله كما قال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] أي منورها، فإنّ كلّ شيء استنار منهما واستضاء فبقدرته وجوده وأفضاله.

روى في البحار من تفسير علي بن إبراهيم القمي عن أبيه عن ابن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن لله كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة فإذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكاً معه حلة فينتهي إلى باب الجنة فيقول: استأذنوا لي على فلان فيقال هذا رسول ربك على الباب فيقول لأزواجه أي شيء ترين علي أحسن، فيقلن يا سيدنا والذي أباحك الجنة ما رأينا عليك شيئاً أحسن من هذا بعث إليك ربّك فيتزر بواحدة ويتعطف بالأخرى فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد فإذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فإذا نظروا إليه خروا سجداً، فيقول: عبادي ارفعوا رؤوسكم ليس هذا يوم سجود ولا يوم عبادة قد رفعت عنكم المؤونة، فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل مما أعطيتنا، أعطيتنا الجنة، فيقول: لكم مثل ما في أيديكم سبعين ضعفاً، فيرجع المؤمن في كل جمعة سبعين ضعفاً مثل ما في يديه وهو قوله: **﴿ولدينا مزيد﴾** وهو يوم الجمعة إن ليلها ليلة غراء ويومها يوم أزهر فأكثروا فيها من التسبيح والتكبير والتهليل والثناء على الله والصلاة على محمد وآله.

قال: فيمرّ المؤمن فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى أزواجه، فيقلن: والذي أباحنا الجنة يا سيدنا ما رأيناك قط أحسن منك الساعة فيقول: إني قد نظرت بنور ربي، الحديث.

قال العلامة المجلسي رحمه الله قوله: (تجلى لهم الرب) أي بأنوار جلاله وآثار رحمته وأفضاله (فإذا نظروا إليه) أي إلى ما ظهر لهم من ذلك[1].

وعلى المعنى الثاني فالمراد أن نور الجنة وأهلها ابتهاج الله سبحانه بها وبهم أما وصفه

---

(١) بحار الأنوار: ٨/ ١٢٧.

سبحانه بالابتهاج والبهجة فلما قال الحكماء والمتكلمون المثبتون له تعالى اللّذة العقلية من أن أجل مبتهج هو المبدأ الأول بذاته لأن الابتهاج واللذة عبارة عن إدراك الكمال فمن أدرك كمالاً في ذاته ابتهج به والتذ وكماله تعالى أجل الكمالات وإدراكه أقوى الإدراكات فوجب أن يكون لذاته أقوى اللذات.

قال صدر المتألهين: أجل مبتهج بذاته هو الحق الأول، لأنه أشد إدراكاً لأعظم مدرك له الشرف الأكمل والنور الأنور والجلال الأرفع، وهو الخير المحض وبعده في الخيرية والوجود والإدراك هو الجواهر العقلية والأرواح النورية والملائكة القدسية المبتهجون به تعالى، وبعد مرتبتهم مرتبة النفوس البشرية والسعداء من أصحاب اليمين على مراتب إيمانهم بالله.

وأما المقربون من النفوس البشرية وهو أصحاب المعارج الروحانية فحالهم في الآخرة كحال الملائكة المقربين في العشق والابتهاج به تعالى.

إذا عرفت ذلك ظهر لك أن ابتهاج الله بمخلوقاته راجع إلى ابتهاجه بذاته، لأنه لما ثبت أنه أشد مبتهج بذاته لماله من الشرف والكمال كان ذاته أحب الأشياء إليه، وكل من أحب شيئاً أحب جميع أفعاله وآثاره لأجل ذلك المحبوب، وكل ما هو أقرب إليه فهو أحب إليه وابتهاجه به أكمل.

فثبت بذلك أن الله سبحانه ومبتهج بالجنة وأهلها لأنها دار كرامته ورحمته وأقرب المجعولات إليه، وكذلك أهلها لأنهم مقربو حضرته ومحبوبون إليه ومكرمون لديه كما أنهم مبتهجون به سبحانه ومحبون إياه.

وأما أن بهجته تعالى نور لها أي لأهلها فلكون محبته وابتهاجه سبباً لاستنارة نفوسهم بما يفاض عليهم من الأنوار الملكوتية التي تغشى أبصار البصائر ويستغرق في الابتهاج بها الأولياء المقربون، وعلى ذلك فتسمية البهجة بالنور من باب تسمية السبب باسم المسبب، هذا.

وإنما خصّ بهجته بالذكر لأنها حسبما عرفت ملازمة للمحبة، ومحبته تعالى لهم ورضوانه عنهم أعظم الخيرات وأفضل الكمالات.

روى في البحار عن العياشي عن ثوير عن علي بن الحسين عليه السلام قال: إذا صار أهل الجنّة في الجنّة ودخل ولي الله إلى جناته ومساكنه، واتكى كل مؤمن منهم أريكته حفته خدامه وتهدلت عليه الثمار وتفجرت حوله العيون وجرت من تحته الأنهار وبسطت له الزرابي، وصففت له النمارق وأتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك قال: ويخرج عليهم الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله، ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول

لهم: أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري ألا هل أنبئكم بخير مما أنتم فيه؟ فيقولون: ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه؟ نحن فيما اشتهت أنفسنا ولذت أعيننا من النعم في جوار الكريم، قال فيعود عليهم بالقول، فيقولون: ربنا نعم، فأتنا بخير مما نحن فيه، فيقول لهم تبارك وتعالى: رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، فيقولون: نعم يا ربنا رضاك عنا ومحبتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا، ثم قرأ علي بن الحسين عليه السلام هذه الآيـــة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[1] [التوبة: ٧٢].

قوله: **(وزوارها ملائكته)** يعني أن الملائكة يزورون ساكنيها تعظيماً لهم وتشريفاً وتكريماً حسبما عرفت الإشارة إليه في الرواية التي رويناها من روضة الكافي في شرح الفصل التاسع من المختار الأول.

(ورفقاؤها رسله) كما قال عز ومن قائل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ١٣] رغب الله تعالى وكذا أمير المؤمنين أهل الطاعة والتقوى بهذا الوعد وما أحسنه من وعد وهو كونهم رفيق النبيين الذين هم في أعلا عليين والصديقين الذين صدقوا في أقوالهم وأفعالهم، والشهداء المقتول أنفسهم وأبدانهم بالجهاد الأكبر والأصغر والصالحين الذين صلحت حالهم واستقامت طريقتهم.

روى في الصافي من الكافي عن الصادق عليه السلام: المؤمن مؤمنان: مؤمن وفى لله بشروطه التي اشترطها عليه فذلك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وذلك ممن يشفع ولا يشفع له، وذلك ممن لا يصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة، ومؤمن زلت به قدم فذلك كخامة الزرع كيفما كفته الريح انكفى، وذلك ممن يصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة ويشفع له وهو على خير[2].

وفيه من الكافي والعياشي عن الصادق عليه السلام: لقد ذكركم الله في كتابه فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٦٩] الآية، فرسول الله صلى الله عليه وآله في الآية النبيون ونحن في هذا الموضع الصديقون والشهداء وأنتم الصالحون فتسمّوا بالصلاح كما سماكم الله[3]، هذا.

ولجزالة هذا الوعد أعني مرافقة النبيين عقب الله تعالى قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾

---

(١) درر الأخبار: ١٠٠، وبحار الأنوار: ٨/١٤١ ح٥٧.

(٢) بحار الأنوار: ٦٤/١٩٢ ح٢، وشرح الأخبار: ٣/٥٠٩ ح١٤٥٩.

(٣) الكافي: ٨/٣٦، وفضائل الشيعة: ٢٤.

بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ وقد مضى بعض الكلام في وصف الجنة ونعيمها في شرح الصل الثالث من المختار الثامن والمائة، رزقنا الله نيلها بمنه وجوده.

ثم إنه عليه السلام لما أمر بالتقوى ونبه على فضلها وعظم ما يترتب عليها من الثمرات الدنيوية والأخروية رتب عليه قوله: **(فبادروا المعاد وسابقوا الآجال)** أي سارعوا إلى المعاد بالمغفرة والتقوى لأنها خير الزاد واستبقوا إلى الآجال بالخيرات وصالح الأعمال.

والمراد بالمعاد هو العود إلى الفطرة الأولى بعد الانتقال منها والنزول إلى الدنيا فالإشارة إلى الابتداء بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠] ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ١٠] والإشارة إلى الانتهاء ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ [القصص: ٨٩] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦ ـ ٢٧] فالبدو والرجوع متقابلان قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فالعمد الخاص الأول للإنسان هو الجنة التي كان فيها أبونا آدم عليه السلام وأمّنا حوّا، والوجود بعد العدم هو الهبوط منها إلى الدنيا ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾ والعدم الثاني من هذا الوجود هو الفناء في التوحيد، والأول هو النزول والهبوط، والثاني هو العروج والصعود، والبداية النزول عن الكمال إلى النقص، والنهاية المعاد من النقصان إلى الكمال وإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٨] هذا.

ولما أمر عليه السلام بالمبادرة إلى المعاد والمسابقة إلى الآجال علله بقوله: **(فإن الناس يوشك أن ينقطع بهم الأمل ويرهقهم الأجل)** يعني أنه تقريب انقطاع آمالهم الخادعة ومفاجأة آجالهم المستورة **(و)** أن **(يسد عنهم باب)** الإنابة و**(التوبة)** ومن كان هذا شأنه فلا بد أن يتقي ربه وينصح نفسه ويقدم توبته ويغلب شهوته ويستغفر من خطيئته ويستقيل من معصيته، فإنّ أجله مستور عنه وأمله خادع له، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ويمّنيه التوبة ليسوفها حتى يهجم منيته عليه أغفل ما يكون عليها.

(فقد أصبحتم في مثل ما سأل إليه الرجعة من كان قبلكم) أي أصبحتم في حال الحياة والصحة وسلامة المشاعر والقوى والبنية وسائر الأسباب التي يتمنى من كان قبلكم الرجعة إليها لتدارك ما فات وإصلاح الزلات والهفوات، وقال: رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت، ولكنهم قد حيل بينهم وبين ما يشتهون وقيل كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون.

فالآن والخناق مهمل، والرواح مرسل، في راحة الأجساد، وباحة الاحتشاد وانتظار التوبة، وانفساح الحوبة، لا بد من اغتنام الفرصة والإنابة من الخطيئة قبل الضنك والضيق،

والروع والزهوق، وقبل أن يروع من الرجعة ويعظم الحسرة ويتفاقم المحنة.

(وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم) شبههم بأبناء السبيل تنبيهاً على أن كونهم في هذه الدّار بالعرض وأن وطنهم الأصلي هو الدار الآخرة وأنهم مسافرون إليها.

(و) قوله: **(قد أوذنتم منها بالارتحال وأمرتم فيها بالزاد)** قد تقدم في شرح المختار الثالث والستين وغيره توضيح معنى الفقرة الأولى، ومر غير مرة أن المراد بالزاد الذي أمروا بأخذها هو التقوى قال عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والغرض من هاتين الفقرتين وسابقتهما التنفير عن الدنيا والترغيب إلى الأخرى وتنبيه المخاطبين من نوم الغفلة والجهالة وإرشادهم إلى الاستعداد وتهيئة الزاد لسلوك مسالك الآخرة.

وبيان ذلك بلسان الرمز والإشارة أن لله تعالى عالمين: عالم الدنيا وعالم الآخرة ونشأتين: الغيب والشهادة والملك والملكوت، وأن الناس في مبدأ تكونهم مخلوقون من مواد العالم الأسفل ولهم الارتقاء بحسب الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها إلى جوار الله سبحانه فإنّه سبحانه برحمته وعنايته، خلق الأنبياء وبعثهم ليكونوا هداة الخلق إلى معادهم وقوادهم في السفر إليه وسابقوهم إلى منازلهم، كرؤساء القوافل وأنزل الكتب ليعلمهم ويبين لهم كيفية السفر والارتحال وأخذ الزاد والراحلة وتعريف الأحوال عند الوصول إلى منازلهم في الآخرة.

والخلق ما داموا في الدنيا ولم يصلوا إلى أوطانهم الأصلية، فهم في الظلمات على حالات متفاوتة مختلفة، فمنهم نائمون، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، الدنيا منام والعيش فيها كالأحلام، ومنهم موتى لقوله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١].

فمن مات عن هذه الحياة المجازية الموسومة باللعب واللهو كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦] فقد انتبه عن نوم الغفلة وحيّ بالحياة الأبدية.

فإن الموت على ضربين أحدهما الإرادي المشار إليه بقوله ﷺ: موتوا قبل أن تموتوا، والآخر الطبيعي وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨].

فكل من مات بالموت الإرادي أي قلع قلبه عن العلائق والأمنيات ونهى نفسه عن الهوى والشهوات فقد حيّ بالحياة السرمدية الطبيعية.

قال أفلاطون: مت بالإرادة تحيى بالطبيعة، وكل من مات بالموت الطبيعي فقد هلك هلاكاً أبدياً عقلاً وضل ضلالاً بعيداً ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، هذا.

ولما أمر عليه السلام بالتقوى وبشر بما رتب عليها من الثواب وحسن المآب أردف ذلك بالإنذار والوعيد من أليم السخط والعذاب فقال: **(واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار)** التي قعرها بعيد وحرّها شديد، وشرابها صديد، وعذابها جديد، ومقامعها حديد، لا يفتر عذابها، ولا يموت ساكنها، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً.

روى في البحار من تفسير علي بن إبراهيم عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله خوفني فإن قلبي قد قسى، فقال: يا أبا محمد استعد للحياة الطويلة، فإن جبرئيل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قاطب وقد كان قبل ذلك يجيىء وهو متبسّم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل جئتني اليوم قاطباً فقال: يا محمد قد وضعت منافخ النار، فقال صلى الله عليه وآله: وما منافخ النار يا جبرئيل؟ فقال: يا محمد إن الله عزّ وجلّ أمر بالنار فنفخ عليها ألف عام حتى ابيضّت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى احمرت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة لو أن قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، ولو أن حلقة واحدة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرها ولو أن سربالاً من سرابيل أهل النار علق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه.

قال عليه السلام فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرئيل، فبعث الله إليهما ملكاً فقال لهما: ربكما يقرئكما السلام ويقول: قد أمنتكما أن تذنبا ذنباً أعذبكما عليه فقال أبو عبد الله عليه السلام: فما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرائيل متبسماً بعد ذلك.

ثم قال: إنّ أهل النار يعظمون النّار، وإن أهل الجنة يعظمون الجنّة والنعيم وإن جهنّم إذا دخلوها هووا فيها مسيرة سبعين عاماً فإذا بلغوا علاها قمعوا بمقامع الحديد، فهذه حالهم وهو قول الله عز وجل: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ٢٢] ثم تبدل جلودهم غير الجلود التي كانت عليهم، قال أبو عبد الله عليه السلام حسبك؟ قلت: حسبي حسبي(١).

(فارحموا نفوسكم) إلى مصير هذه النّار التي علمت وصفها وعرفت حال أهلها **(فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا)** ولم تصبروا على أهون مصائبها وأحقر آلامها **(أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء)** أي الأرض الشديدة الحرارة **(تحرقه فكيف)** حاله وتحمّله **(إذا كان بين طابقين من نار)** يغشيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم

(١) بحار الأنوار: ٨/ ٢٨٠ ح١، ودرر الأخبار: ١٠٢.

ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون.

(ضجيج حجر) أشير إليه في قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] قال ابن عباس وابن مسعود: إنها حجارة الكبريت لأنها أحر شيء إذا أحميت وقيل: إنهم يعذبون بالحجارة المحمية بالنار.

(وقرين شيطان) وهو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ... قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٧] قال ابن عباس وغيره: أي شيطانه الذي أغواه وإنما سمي قرينه لأنه يقرن به في العذاب.

وفي البحار من تفسير علي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ قال عليه السلام أما أهل الجنة فزوجوا الخيرات الحسان وأما أهل النار فمع كل إنسان منهم شيطان يعني قرنت نفوس الكافرين والمنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم[١].

(أعلمتم أن مالكاً) وهو اسم مقدم خزنة النار والملائكة الموكلين لأمرها قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦] روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: والذي نفسي بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم[٢].

وفي البحار من تفسير علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في خبر المعراج قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: فصعد جبرئيل وصعدت حتى دخلت سماء الدنيا فما لقيني ملك إلا وهو ضاحك مستبشر حتى لقيني ملك من الملائكة لم أر أعظم خلقاً منه كريه المنظر ظاهر الغضب فقال لي مثل ما قالوا من الدعاء إلا أنه لم يضحك ولم أر فيه الاستبشار ما رأيت ممن ضحك من الملائكة.

فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فإنّي قد فزعت منه، فقال: يجوز أن تفزع منه فكلّنا نفزع منه إن هذا مالك خازن النار لم يضحك قط ولم يزل منذ ولاه الله جهنّم يزداد كل يوم غضباً وغيظاً على أعداء الله وأهل معيصته فينقتم الله به منهم ولو ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك فسلّمت عليه فردّ السلام عليّ وبشرني بالجنة.

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٧/٧ ح٢٩، وتفسير القمي: ٤٠٧/٢.

(٢) الدر المنثور: ١٤٥/٦.

فقلت لجبرئيل وجبرئيل بالمكان الذي وصفه الله ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]: ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال له جبرئيل: يا مالك أر محمدا ﷺ النار، فكشف منها غطاءها وفتح باباً منها فخرج منها لهب ساطع في السماء وفارت وارتفعت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت، فقلت: يا جبرئيل قل له: فليرد عليها غطاءها، فأمرها فقال لها: ارجعي فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه، الحديث، فقد علم به زيادة قوته وشدة غيظه وغضبه[1].

(إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه) أي أكله أو كسره ومنه الحطمة اسم من أسماء جهنم قال تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤] أي ليطرحنّ فيها قال مقاتل: وهي تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ولتفخيم أمرها قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ المؤججة أضافها سبحانه إلى نفسه ليعلم أنها ليست كنيران الدنيا.

(وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته) ولما حذر من أهوال الجحيم وأفزعهم بذكر وصف مالك خازنها حذرهم بأسلوب آخر وأيهم بقوله:

(أيها اليفن) أي الشيخ (الكبير الذي قد لهزه) أي خالطه (القتير) والمشيب، وتخصيصه بالخطاب من بين سائر المخاطبين لكونه أولى بالحذر والإقلاع عن المعصية والخطأ لإشراف عمره على الزوال والانقضاء وقرب تورّطه في ورطات الأخرى.

(كيف أنت) استفهام على سبيل التقرير تقريعاً على المعصية (إذا التحمت) أي التصقت وانضمت (أطواق النار بعظام الأعناق) كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر: ٧٠ ـ ٧٢].

(ونشبت الجوامع) أي عقلت الأغلال الجامعة بين الأيدي والأعناق (حتى أكلت لحوم السواعد) قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾ قال الطبرسي: أي تأخذهم الزبانية فيجتمع بين نواصيهم وأقدامهم بالغل، وفي سورة الفرقان: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ قال الطبرسي مقرنين أي مصفدين قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال.

(فالله الله) أي اتقوه سبحانه يا (معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم) أي في زمان صحتكم قبل أن ينزل بكم السقم (وفي الفسحة قبل الضيق) أي في سعة الأعمار قبل أن تبدل بالضيق (فاسعوا في فكاك رقابكم) من النار بالتوبة والتقوى (من قبل أن تغلق رهائنها)

---

(١) تفسير الميزان: ١٣/ ١٠، وبحار الأنوار: ٨/ ٢٩١، ح٣٠.

أصل غلق الرهن عبارة عن بقائه في يد المرتهن لا يقدر راهنه على انتزاعه.

قال ابن الأثير: وكان من فعل الجاهلية أن الراهن إذا لم يؤد ما عليه في الوقت المعيّن ملك المرتهن الرهن فأبطله الإسلام.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن ذمم المكلّفين لكونها مشغولة بالتكاليف الشرعية المطلوبة منهم فكأنها رهن عليها، وكما أن انتزاع الرهن من يد المرتهن والتمكن من التصرف فيه موقوف على أداء الدين، فكذلك تخليص الرقاب موقوف على الخروج من عهدة التكاليف، فمن أجل ذلك أمر عليه السلام بالسعي في فكاكها واستخلاصها وعلى ذلك فالإضافة في رهائنها من قبيل إضافة المشبه به إلى المشبه وذكر الغلق ترشيح للتشبيه.

ولما أمر بالسعي في الفكاك إجمالاً أشار إلى ما به يحصل الفك تفصيلاً ولكمال الاتصال بين الجملتين ترك العاطف فقال:

(أسهروا عيونكم) أي بالتهجد وصلاة الليل وسائر النوافل وقد تقدم بعض الأخبار في فضلها في شرح الفصل السادس من المختار الثاني والثمانين.

وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق: روى الصدوق في ثواب الأعمال عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «شرف المؤمن صلاة الليل وعز المؤمن كفه عن الناس»[١].

وفيه عن معاوية بن عمار عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «عليكم بصلاة الليل فإنها سنة نبيكم ودأب الصالحين قبلكم ومطردة الداء عن أجسادكم»[٢].

وبهذا الإسناد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: صلاة الليل تبيض الوجه وصلاة الليل تطيب الريح، وصلاة الليل تجلب الرزق[٣].

وفيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: حدثني أبي عن جدي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: «قيام الليل مصحة للبدن، ورضاء الرب، وتمسك بأخلاق النبيين، وتعرض لرحمة الله تعالى»[٤].

وعن إبراهيم بن عمر ورفعه إلى أبي عبد الله في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

---

(١) الرسالة السعدية: ١٣٢، وثواب الأعمال: ٤١.

(٢) منتهى المطلب: ١/ ١٩٥، ومن لا يحضره الفقيه: ١/ ٤٧٢ ح١٣٦٣.

(٣) علل الشرائع: ٢/ ٣٦٣ ح١، وثواب الأعمال: ٤١.

(٤) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٧٢ ح١٣، وتحف العقول: ١٠١.

ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال: صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب بالنهار[١].

وفيه عن أبيه قال: حدثني سعد عبد الله عن سلمة بن الخطاب عن محمد بن الليث عن جعفر بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن قيام الليل بالقرآن، فقال له عليه السلام أبشر:

من صلى من الليل عشر ليله لله مخلصاً ابتغاء ثواب الله[٢] عزّ وجلّ لملائكته اكتبوا لعبدي هذا من الحسنات عدد ما أنبت من النباتات في النيل[٣] من حبة وورقة وشجرة وعدد كل قصبة وخوطة ومرعى.

ومن صلى تسع ليله أعطاه اللهعشر دعوات مستجابات وأعطاه كتابه بيمينه يوم القيامة.

ومن صلى ثمن ليله أعطاه الله عز وجل أجر شهيد صابر صادق النية وشفع في أهل بيته.

ومن صلى سبع ليله خرج من قبره يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر حتى يمرّ على الصراط مع الآمنين.

ومن صلى سدس ليله كتب مع الأوابين وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ومن صلى خمس ليله زاحم إبراهيم خليل الله في قبته.

ومن صلى ربع ليله كان أول الفائزين حتى يمر على الصراط كالريح العاصف ويدخل الجنة بغير حساب.

ومن صلى ثلث ليله لم يلق ملكاً[٤] إلا غبطه بمنزلته من الله عز وجل وقيل له: ادخل من أي أبواب الجنة الثمانية شئت.

ومن صلى نصف ليله فلو أعطي ملأ الأرض ذهباً سبعين ألف مرة لم يعدل أجره، وكان له بذلك أفضل من سبعين رقبة يعتقها من ولد إسماعيل.

ومن صلى ثلثي ليله كان له من الحسنات قدر رمل عالج أدناها حسنة أثقل من جبل أحد عشر مرات.

---

(١) الهداية: ١٥١، وكشف اللثام: ٢/ ٥٣٢.

(٢) «يقول الله» في نسخة.

(٣) «الليل» في نسخة.

(٤) «لم يبق ملك» في نسخة.

ومن صلى ليلة تامه تالياً لكتاب الله عز وجل ذكره راكعاً وساجداً وذاكراً أعطى من الثواب أدناها أن يخرج من الذنوب كما ولدته أمه ويكتب له عدد ما خلق الله من الحسنات ومثلها درجات، ويبثّ النور في قبره وينزع الإثم والحسد من قلبه، ويجار من عذاب القبر ويعطي براءة من النار ويبعث من الآمنين ويقول الرب تبارك وتعالى لملائكته: ملائكتي انظروا إلى عبدي أحيى ليله ابتغاء مرضاتي أسكنوه الفردوس وله فيها مائة ألف مدينة في كل مدينة جميع ما يشتهي الأنفس وتلذ الأعين وما لا يخطر على بال سوى ما أعددت له من الكرامة والمزيد والقربة(١).

(وأضمروا بطونكم) أي بالصيام والجوع وقد مضى الأخبار في فضل الصوم في شرح المختار المائة والتاسع **(واستعملوا أقدامكم)** أي في القيام إلى الصلوات أو مطلق القربات كاستعمالها في تشييع الجنائز والسعي إلى المساجد والمشي إلى المشاهد المشرفة ونحوها.

روى في ثواب الأعمال بإسناده عن الأصبغ بن نباته قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله عزّ وجلّ ليهم أن يعذب أهل الأرض جميعاً حتى لا يتحاشى منهم أحداً إذا عملوا بالمعاصي واجترحوا السيئات، فإذا نظر إلى الشيب ناقلي أقدامهم إلى الصلاة والولدان يتعلّمون القرآن رحمهم فأخّر ذلك عنهم(٢).

(وأنفقوا أموالكم) أي في الزكاة والصدقات وصنائع المعروف، وقد عرفت فضل هذه كلها في شرح المختار المائة والتاسع أيضاً **(وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم)** وهو كناية عن إتعاب الأبدان وإذابتها بالعبادات والرياضات وسلوك مسالك الخيرات، ومعلوم أن الأخذ من الأجساد بهذه القربات جود بها على النفوس ولذلك قال: جودوا بها عليها **(ولا تبخلوا بها عنها)** ثم استشهد على ما رامه بكلام الحق سبحانه وقال:

(فقد قال الله سبحانه) في سورة محمد صلى الله عليه وآله: **(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)** قال في مجمع البيان: أي إن تنصروا دين الله ونبي الله بالقتال والجهاد ينصركم على عدوكم ويثبت أقدامكم أي يشجعكم ويقوي قلوبكم لتثبتوا، وقيل: ينصركم في الآخرة ويثبت أقدامكم عند الحساب وعلى الصراط، وقيل: ينصركم في الدنيا والآخرة ويثبت أقدامكم في الدارين وهو الوجه.

قال قتادة: حق على الله أن ينصر من نصره لقوله: إن تنصروا الله ينصركم وأن يزيد من شكره لقوله: لئن شكرتم لأزيدنكم، وأن يذكر من ذكره لقوله: فاذكروني أذكركم.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٤٧٦، وأمالي الصدوق: ٣٦٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٢٣٩ ح٢٣، ووسائل الشيعة: ٦/ ١٨٠ ح٧٦٧٥.

(وقال) في سورة الحديد: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾﴾ ونحوه في سورة البقرة إلا أن فيها بدل قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾: أضعافاً كثيرة.

قال في مجمع البيان: ثم حث الله سبحانه على الإنفاق فقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ أي ينفق في سبيل الله وطاعته، والمراد به الأمر **(قرضاً حسناً)** والقرض الحسن أن ينفق من حلال ولا يفسده بمنٍ ولا أذى، وقيل: هو أن يكون محتسباً طيباً به نفسه، وقيل: هو أن يكون حسن الموقع عند الإنفاق فلا يكون خسيساً، والأولى أن يكون جامعاً لهذه الأمور كلّها فلا تنافي بينها ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي يضاعف له الجزاء من بين سبع إلى سبعين إلى سبعمائة ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي جزاء خالص لا يشوبه صفة نقص، فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير فلما كان ذلك الأجر يعطي النفع العظيم وصف بالكريم والأجر الكريم هو الجنّة[١].

ولما كان ظاهر النصرة موهماً لكونها من الذلّة، وظاهر القرض موهماً لكونه من القلة أردف ذلك من باب الاحتراس بقوله: **(فلم يستنصركم من ذل ولم يستقرضكم من قل)** أي ليس استنصاره واستقراضه من أجل الذلّة والقلّة حسبما زعمته اليهود وقالوا: إنا يستقرض منا ربنا عن عوز فإنما هو فقير ونحن أغنياء فأنزل الله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ بل سمى نصرة دينه ونبيّه نصره له والإنفاق في سبيله قرضاً تلطّفاً للدّعاء إلى فعلهما وتأكيداً للجزاء عليهما، فإن النصر يوجب المكافأة والقرض يوجب العوض.

وإليه أشار بقوله استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم يعني أنه عزيز في سلطانه أي قادر قاهر لا يتمكن أحد أن يمنعه من عذاب من يريد عذابه، ذو قدرة على الانتقام من أعدائه، وأنه حكيم في أفعاله واضع كلا منها في مقام صالح له ولائق به.

واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد يعني غني بنفسه عن غيره مفتقر إلى شيء من مخلوقاته ومحمود في أفعاله وصنايعه وأحكامه وأوامره.

(وإنما أراد) باستقراضه واستنصاره **(أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً)** وقد مر في شرح المختار الثاني والستين معنى بلاء الله سبحانه أي ابتلاءه واختباره.

(فبادوا بأعمالكم) إلى آجالكم **(تكونوا مع جيران الله في داره)** والمراد بهم أولياؤه المتّقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، واستعار لفظ الجيران لهم باعتبار شمول الألطاف والعنايات الخاصة الإلهيّة لهم كما أن الجار ينال الكرامة من جاره والإضافة فيه

(١) تفسير مجمع البيان: ٩/ ٣٩٠.

وفي تاليه للتشريف والتكريم.

(رافق بهم رسله وأزارهم ملائكته) حسبما عرفت ذلك في شرح هذه الخطبة وغيرها **(وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبداً)** كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١].

قال الطبرسي: أي يكونون بحيث لا يسمعون صوتها الذي يحس[1].

روى في الصافي من المحاسن عن النبي ﷺ إنه قال لعلي عليه السلام: يا علي أنت وشيعتك على الحوض تسقون من أحببتم وتمنعون من كرهتم وأنتم الآمنون يوم الفزع الأكبر في ظل العرش يوم يفزع الناس ولا تفزعون ويحزن الناس ولا تحزنون، وفيكم نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية، وفيكم نزلت: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ الآية[2].

وفيه من المحاسن عن الصادق عليه السلام قال: إن الله يبعث شيعتنا يوم القيامة على ما فيهم من الذنوب أو غيره مبيضة وجوههم مستورة عوراتهم آمنة روعتهم قد سهلت لهم الموارد وذهبت عنهم الشدائد، يركبون نوقاً من ياقوت فلا يزالون يدورون خلال الجنة عليهم شرك من نور يتلألأ توضع لهم الموائد فلا يزالون يطعمون والناس في الحساب، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم﴾ الآية[3].

(وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً) كما قال سبحانه حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥ ـ ٣٦].

قال في مجمع البيان: أي أنزلناهم دار الخلود يقيمون فيها أبداً لا يموتون ولا يتحولون عنها «من فضله» أي ذلك بتفضله وكرمه «لا يمسّنا فيه نصب» لا يصيبنا في الجنة عناء ومشقة «ولا يمسنا فيها لغوب» أي ولا يصيبنا فيها إعياء ومتعبة في طلب المعاش وغيره[4].

وفي الصافي عن القمي قال: النصب العناء واللغوب الكسل والضجر ودار المقامة دار البقاء، وقال صاحب الصافي: النصب التعب واللغوب الكلال إذ لا تكليف فيها ولا كد اتبع

(١) بحار الأنوار: ٨/ ٢٥٢، وتفسير مجمع البيان: ٧/ ١١٦.
(٢) أمالي الصدوق: ٦٥٧، وشرح الأخبار: ٣/ ٤٤٤ ح١٣٠٧.
(٣) المحاسن: ١/ ١٧٩ ح١٦٦، وبحار الأنوار: ٧/ ١٨٤ ح٣٥.
(٤) تفسير مجمع البيان: ٨/ ٢٤٧، وتفسير الميزان: ١٧/ ٤٨.

نفي النصب بنفي ما يتبعه مبالغة[١].

(ذلك) المذكور من النعم العظيمة **(فضل الله)** أي تفضل منه سبحانه **(يؤتيه من يشاء)** من عباده **(والله ذو الفضل العظيم)** يتفضل بما لا يقدر عليه غيره ويعطي الكثير بالقليل **(أقول ما تسمعون والله المستعان على نفسي وأنفسكم)** في حفظها عن متابعة الهوى والشهوات ووقايتها من المعاصي والهفوات **(وهو حسبنا ونعم الوكيل)** ونعم المعين ونعم النصير.

(١) تفسير الصافي: ٤/ ٢٤٠، وتفسير القمي: ٢/ ٢٠٩.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن وصىّ مختار و ولىّ پروردگار است، مى فرمايد:

حمد و ثنا مر خداوندى را سزا است كه شناخته شده بدون رؤيت و خلق فرموده بدون رنج و مشقت، آفريد مخلوقات را به قدرت كامله خود و طلب بندگى نمود از سلاطين و ملوك، با عزّت قاهره خود و مالك واجب الاطاعة شد بر بزرگان، با بخشش فراوان خود و او است آن كسى كه ساكن فرمود در دنيا آفريدگان خود را و مبعوث كرد به سوى جنّ و انس پيغمبران خود را، تا اين كه كشف كنند مرايشان را از پرده هاى دنيا و بترسانند ايشان را از پريشانى هاى دنيا و بيان كنند از براى ايشان مثل هاى آن را و بنمايند بر ايشان عيب هاى آن را و تا هجوم آور بشوند بر ايشان با چيزى كه باعث عبرت ايشان بشود از صحّت هاى آن و بيمارى هاى آن وحلال آن و حرام آن و با آن چه كه مهيّا فرموده خداوند تعالى از براى اطاعت كنندگان از ايشان ومعصيت كنندگان ايشان از بهشت و جهنّم و عزّت و خوارى.

حمد مى كنم او را، درحالتى كه قصد تقرّب مى كنم به سوى او، چنان حمدى كه طلب كرده از مخلوقات خود، گردانيد از براى هر چيزى اندازه معيّنى و از براى هراندازه مدّت مخصوصى و از براى هر مدّت نوشته مشخّصى.

بعضى ديگر از اين خطبه در ذكر قرآن كريم است، مى فرمايد:

پس قرآن امركننده است و نهى كننده و ساكت است به حسب ظاهر و ناطق است به حسب باطن، حجّت پروردگار است بر خلقان او، اخذ فرموده است بر او عهد و پيمان ايشان را و رهن كرده است در مقابل او نفس هاى ايشان را، تمام فرمود نور آن را و گرامى داشت با آن دين خود را و قبض فرمود نبىّ خود را در حالتى كه فارغ شده بود به سوى خلق از احكام هدايت با آن.

پس تعظيم نماييد از حقّ سبحانه و تعالى مثل تعظيم كردن او ذات خود را، پس به درستى كه پنهان نداشته است حق تعالى از شما چيزى را از دين و

فرونگذاشته چیزی را که پسندیده یا ناخوش گرفته مگر این که گردانیده از برای آن علامتی ظاهر و آیه ای محکم که منع نماید از آن یا دعوت کند به سوی او، پس رضای خدا در چیزی که باقی مانده یکی است و سخط و غضب او در چیزی که باقی مانده یکی است.

و بدانید که حق تعالی هرگز راضی نمی باشد از شما به چیزی که دشمن گرفته است آن را بر کسانی که بودند پیش از شما و هرگز غضب نمی کند بر شما به چیزی که رضا داشته به او از کسانی که بودند پیش از شما و جز این نیست که باید سیر نمایید در اثر واضح گذشتگان و تکلّم نمایید به کلام بامنفعت که گویا شدند به آن مردانی که پیش از شما بودند.

به تحقیق که کفایت کرد خداوند عالم معیشت دنیای شما را و تحریص فرمود شما را بر شکر و واجب کرد از زبانهای شما ذکر را و وصیّت فرمود شما را به تقوی و پرهیزکاری و گردانید آن را منتهی خوشنودی و حاجت خود از خلق، پس بپرهیزید از خدایی که شما در پیش نظر اویید و پیشانی های شما در ید قدرت او است و گردیدن شما در قبضه اقتدار او است، هرگاه پنهان دارید چیزی را در قلب خودتان، می داند آن را و اگر اظهار نمایید اعمال خود را، نویسد آن را. به تحقیق موکّل فرموده به آن نوشتن ملائکه که حافظانند با کرامت، درحالتی که اسقاط حق نمی کنند و اثبات باطل نمی نمایند، (یعنی چیز بی اصل را نمی نویسند).

و بدانید، به درستی که هرکس بترسد از خدا و صاحب تقوی باشد، قرار می دهد خدا از برای او بیرون آمدنی از فتنه ها و روشنی از ظلمت ها و مخلّد می نماید او را در چیزی که خواهش دارد نفس او و نازل می فرماید او را در منزل کرامت در نزد خود در خانه ای که اختیار فرموده آن را از برای خود، چنان خانه ای که سقف آن عرش او است و نور آن جمال او است و زیارت کنندگان آن ملك های او هستند و رفیق های آن پیغمبران او هستند.

پس بشتابید به سوی معاد و سبقت کنید به سوی اجل ها، از جهت این که مردمان نزدیك است که بریده شود از ایشان آرزوها و دریابد ایشان را اجل ها و بسته شود به روی ایشان دَرِ توبه.

پس به تحقیق که صباح کردید در مثل چیزی که سؤال کردند برگشتن به سوی

آن را اشخاصی که بودند پیش از شما و شما ابناءالسّبیل هستید بر سفر کردن از خانه که نیست خانه شما، به تحقیق که اعلام کرده شدید به کوچ کردن از آن ومأمور شدید در آن به أخذ کردن توشه.

و بدانید، به درستی که نیست مرا این پوست لطیف را صبر کردن بر آتش سوزان، پس رحم نمایید نفس های خود را، پس به درستی که شما تجربه نمودید نفوس خود را در مصائب و صدمات دنیا، پس دیده اید جزع و فزع یکی از شما را از خاری که برسد به او یا لغزیدنی که خون آلود سازد او را یا زمین بسیار گرمی که بسوزاند او را، پس چگونه باشد حال او زمانی که بشود در میان دو تابه یا دو طبقه از آتش که همخوابه سنگ سوزان باشد و همنشین شیطان؟ آیا دانسته اید این که مالك خازن جهنّم هر وقت غضب نماید بر آتش بشکند بعضی از آتش بعضی دیگر را و هرگاه زجر کند آتش را، برجهد شراره آن از میان درهای دوزخ از جهت جزع کردن آن از زجر او.

ای پیر بزرگ سال که آمیخته است به او پیری و سستی، چگونه است حالت تو زمانی که متّصل شود و پیوند گردد طوق های آتش به استخوان های گردن ها؟ و فرو روند غل های جامعه آتش در اعضاء تا این که بخورد گوشت های بازوها را؟ پس بترسید از خدا ای بندگان خدا، درحالتی که شما سلامت هستید در زمان صحّت پیش از بیماری و در فراخی و وسعت پیش از تنگی، پس سعی نمایید در گشادن و فكّ نمودن گردنهای خودتان پیش از این که بسته شود کردهای گردنها، بیدار کنید چشمهای خود را با تهجّد و قیام و تهی سازید شکم های خود را با گرسنگی و صیام و استعمال نمایید قدم های خود را در خیرات و انفاق کنید مال های خود را در زکات و صدقات و اخذ نمایید از بدن های خودتان تا بخشش نمایید با آن ها بر نفس های خود و بخل نورزید به آنها.

پس به تحقیق که فرموده است حق تعالی در کلام مجید خود: "إِن تَنصروا الله يَنصُركم وَ يُثبِّت أقدامَكم"؛ یعنی "اگر یاری کنید خدا را، یاری می کند خدا شما را و ثابت می فرماید قدم های شما را در مواضع لغزیدن".

و باز فرموده: "مَن ذَا الذّي يُقرضُ اللهَ قَرضاً حَسناً فَيُضاعِفَه لَه وَ لَه أجرٌ كَريم"؛ یعنی "کیست آن کسی که قرض دهد خدا را قرض دادن نیکو، پس زیاده

گرداند آن را از برای او و مر او را است اجر با کرامت».

پس یاری نخواست خدای تعالی از شما از بابت ذلّت و قرض طلب نکرد از شما از جهت کمی و قلّت، یاری خواست از شما، در حالتی که از برای او است لشگرهای آسمان ها و زمین و حال آن که او است صاحب عزّت و حکمت و طلب قرض نمود از شما، در حالتی که از برای او است خزانه های آسمان ها و زمین و حال آن که او است بی نیاز و ستوده و جز این نیست که اراده فرموده که امتحان نماید شما را که کدام از شما نیکوتر است از حیثیّت عمل.

پس مبادرت نمایید به سوی عمل های خودتان تا باشید با همسایه های خدا در خانه خدا که رفیق ساخته ایشان را با پیغمبران خود و به زیارت ایشان امر نموده فرشتگان را و گرامی داشته گوش های ایشان را از اینکه بشنوند آواز آتش را و نگه داشته جسدهای ایشان را از آن که برسد به مشقّت و کسالت، این فضل و احسان خدا است که عطا می فرماید آن را به هرکس که می خواهد از بندگان خود و خداوند است صاحب فضل عظیم. من می گویم چیزی را که می شنوید و خدا است یاری خواسته شده؛ یعنی از او استعانت می کنم بر نفس خودم و بر نفس های أمّاره شما و او است کفایت کننده ما و چه خوب وکیل است.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثالث والثمانون من المختار في باب الخطب

قاله للبرج بن مسهر الطائي وقد قال له بحيث يسمعه: لا حكم إلا لله، وكان من الخوارج:

أُسْكُتْ قَبَّحَكَ اللّهُ يا أَثْرَمُ فَوَاللّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ، خَفِيّاً صَوْتُكَ، حَتّىٰ إذا نَعَرَ الْباطِلُ نجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْماعِزِ[1].

اللغة

(**البرج**) بضم الباء الموحدة والراء المهملة ثم الجيم و(**مسهر**) بضم الميم وكسر الهاء و(**قبحك الله**) بالتخفيف والتشديد أي نحاك وقيل: من قبحت الجوزة كسرتها و(**الثرم**) بالفتح سقوط الأسنان و(**ضؤل**) الرجل بالضم ضؤلة نحف وحقر، وضؤل رأيه صغر و(**الماعز**) واحد المعز من الغنم اسم جنس وهو خلاف الضان.

الإعراب

جملة (**قبحك الله**) دعائية لا محل لها من الإعراب وقوله: (**كنت فيه ضئيلاً شخصك**):

يجوز أن يكون كان ناقصة اسمها تاء الخطاب وضئيلاً خبرها وفيه متعلقاً به مقدماً عليه للتوسع (**وشخصك**) بالرفع فاعل ضئيلاً قام مقام الضمير الرابع للجر إلى الاسم من أجل إضافته إلى كاف الخطاب الذي هو عين الاسم أو أنه بدل من اسم كان.

ويجوز أن تكون تامة و(**ضئيلاً**) حالاً من فاعلها و(**شخصك**) فاعل الحال وبإضافته إلى كاف الخطاب استغنى أيضاً عن الرابط للحال أو أنه حال من شخصك مقدم على صاحبه (**وشخصك**) بدل من فاعل كان، وهذا مبني على ما هو الأصح من مذهب علماء الأدبية من أن العوامل اللفظية كلها تعمل في الحال إلا كان وأخواتها وإلاّ فيجوز على تقدير كون كان ناقصة جعل ضئيلاً حالاً أيضاً فيكون فيه خبرها ويكون ظرفاً مستقراً، فافهم جيّداً.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٣٦٥ ح٥٩٨، وشرح نهج البلاغة: ١٠/١٣٠.

المعنى

اعلم أن الكلام حسبما أشار إليه السيد **(قاله للبرج بن مسهر الطائي)** على وجه التعريض والتحقير **(وقد قال له)**: البرج بشعار الخوارج **(بحيث يسمعه لا حكم إلا الله)** أي لا لك، وفي نسخة الشارح البحراني: لا حكم إلا الله أي لا أنت **(وكان)** البرج ذلك **(من الخوارج)** من شعرائهم المشهورة.

فقال عليه السلام: **(اسكت قبحك الله)** أي نحاك عن الخير أو كسرك **(يا أثرم)** أي الساقط الثنية دعاه بآفته إهانة وتحقيراً كما هو العادة في تنقيص صاحب العاهات وإهانتهم، فيقال: يا أعور ويا أعرج ونحو ذلك **(فوالله لقد ظهر الحق فكنت فيه)** أي في ظهور الحق وقوة الإسلام وزمان العدل **(ضئيلاً شخصك)** أي حقيراً خامل الذكر **(خفياً صوتك)** كناية عن عدم التفات أحد إلى أقواله وعدم الاستماع والتوجه إليها **(حتى إذا نعر الباطل)** أي صاح.

قال الشارح البحراني: استعار لفظ النعير لظهور الباطل ملاحظة لشبهه في قوته وظهوره بالرجل الضائل الصائح بكلامه عن جرأة وشجاعة.

(نجمت نجوم قرن الماعز) أي طلعت بلا شرف ولا سابقة ولا شجاعة ولا قدم، بل بغتة وعلى غفلة كما يطلع قرن الماعز، والغرض من التشبيه توهين المشبه وتحقيره حيث شبهه بأمر حقير.

الترجمة

از جمله كلام آن والامقام است مر برج بن مسهر الطائى را و به تحقيق گفت آن ملعون مرآن حضرت را به حيثى كه مى شنوانيد او را كه: هيچ حكم نيست مگر خداى را و بود آن ملعون از جلمه خوارج نهروان، آن حضرت فرمود:

ساكت باش، دور گرداند خدا تو را از خير اى دندان افتاده، پس قسم به خدا كه به تحقيق ظاهر شد حق، پس بودى تو در آن حقير و نحيف، شخص تو خفى و پنهان بود آواز تو تا اين كه نعره زد باطل، طلوع كردى و ظاهر شدى مثل ظاهر شدن شاخ بز.

هذا آخر المجلد العاشر من هذه الطبعة الجديدة القيمة، وقد وفق لتصحيحه وترتيبه وتهذيبه العبد ـ الحاج السيد إبراهيم الميانجي ـ عفى عنه وعن والديه، في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ـ ١٣٨٢ ـ وسيليه إنشاء الله الجزء الحادي عشر وأوله: «المختار المائة والرابع والثمانون» والحمد لله رب العالمين.

محتوى الجزء العاشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملي

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَرَاعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

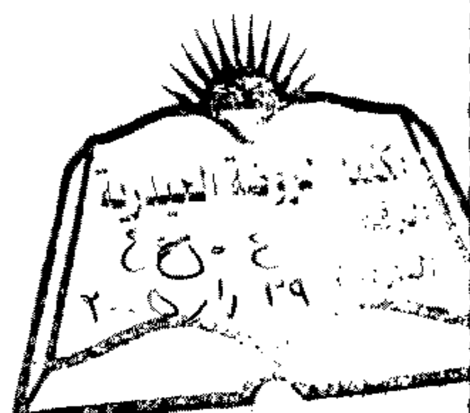

المجلد الحادي عشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

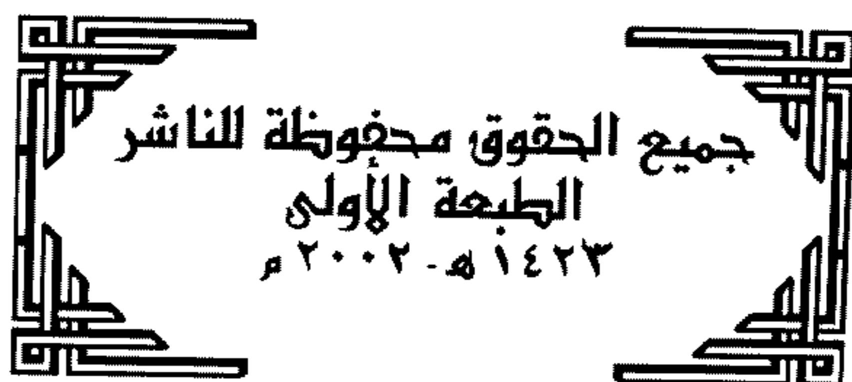

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ شارع دكاش ـ هاتف: ٢٧٢٦٥٢ ـ ٢٧٢٦٥٥ ـ ٢٧٢٧٨٢ ـ ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ ـ ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box: 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والرابعة والثمانون من المختار في باب الخطب

ورواها الطبرسي في الاحتجاج مثله.

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لا تُدْرِكُهُ الشَّواهِدُ، وَلاَ تَحْوِيهِ الْمَشاهِدُ، وَلاَ تَراهُ النَّواظِرُ، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّواتِر، الدّالِّ عَلَىٰ قِدَمِه بِحُدُوثِ خَلْقِه، وبِحُدُوثِ خَلْقِه عَلَىٰ وُجُودِهِ، وبِاشْتِباهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لاَ شِبْهَ لَهُ، الَّذي صَدَقَ في ميعادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبادِهِ، وَقامَ بِالْقِسْطِ في خَلْقِهِ، وعَدَلَ عَلَيْهِمْ في حُكْمِهِ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ، وَبِما وَسَمَها بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ، وبِمَا اضْطَرَّها إِلَيْه مِنَ الْفَناءِ عَلَىٰ دَوامِهِ، واحِدٌ لاَ بِعَدَدٍ، ودائِمٌ لاَ بِأَمَدٍ، وقائِمٌ لاَ بِعَمَدٍ، تَتَلَقّاهُ الأَذْهانُ لاَ بِمُشاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرائي لاَ بِمُحاضَرَةٍ، لَمْ تُحِطْ بِهِ الأَوْهامُ بَلْ تَجَلّىٰ لها بِها، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْها حاكَمَها، لَيْسَ بِذي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهاياتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسيماً، وَلاَ بِذي عِظَمٍ تَناهَتْ بِهِ الْغاياتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً، بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَعَظُمَ سُلْطاناً.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وأَمينُهُ الرَّضِيُّ صلى الله عليه وآله أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ، وَإِيْضاحِ الْمَنْهَجِ، فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ صادِعاً بِها، وحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دالاً عَلَيْها، وَأَقامَ أَعْلاَمَ الإِهْتِداءِ، ومَنارَ الضِّياءِ، وجَعَلَ أَمْراسَ الإِسْلاَمِ مَتِينَةً، وَعُرَى الإِيْمانِ وَثِيقَةً[1].

منها ـ في صفة خلق أصناف من الحيوان

وَلَوْ فَكَّرُوا في عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وخافُوا عَذابَ الْحَريقِ، وَلٰكِنَّ الْقُلُوبَ عَليلَةٌ، وَالأَبْصارَ «وَالْبَصائِرَ خ» مَدْخُولَةٌ، أَلاَ يَنْظُرُونَ إِلىٰ صَغير ما خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وسَوَّىٰ لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ.

أُنْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ في صِغَرِ جُثَّتِها، ولَطافَةِ هَيْئَتِها، لاَ تَكادُ تُنالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَىٰ أَرْضِهَا، وصُبَّتْ عَلَىٰ رِزْقِها، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلى جُحْرِها، وتُعِدُّها

(١) بحار الأنوار: ١٨/٢٢٣ ح٥٩، وميزان الحكمة: ٤/٣٢٠٦.

في مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ في حَرِّها لِبَرْدِها، وَفِي وُرُودِها لِصَدَرِها، مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِها، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِها، لاَ يغْفِلُهَا المَنّانُ، وَلاَ يحْرُمُهَا الدَّيّانُ، وَلَوْ في الصَّفَا الْيابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجامِسِ.

وَلَوْ فَكَّرْتَ في مَجاري أُكْلِها، وفي عَلْوِها وسُفْلِها، وَما فِي الْجَوْفِ مِنْ شَراسيفِ بَطْنِها، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِها وَأُذُنِها، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِها عَجَباً، وَلَقِيْتَ مِنْ وَصْفِها تَعَباً، فَتَعالَى الَّذي أَقامَها عَلَىٰ قَوائِمِها، وَبَناها عَلَى دَعائِمِها، لَمْ يَشْرَكْهُ في فِطْرَتِها فاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ في خَلْقِها قادِرٌ، وَلَوْ ضَرَبْتَ في مَذاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غاياته ما دَلَّتْكَ الدَّلالَةُ إلاَّ عَلَى أَنَّ فاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فاطِرُ النَّخْلَة، لدَقِيقَ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ وَغامِضِ اخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ واللَّطِيفُ، والثَّقِيلُ والْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ والضَّعِيفُ، في خَلْقِهِ إلاَّ سَواءٌ، وَكَذٰلِكَ السَّماءُ وَالْهَواءُ وَالرِّياحُ والْماءُ.

فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، والنَّباتِ وَالشَّجَرِ، وَالْماءِ وَالْحَجَر، وَاخْتِلاَفِ هٰذَا اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وتَفَجُّرِ هٰذِهِ الْبِحارِ، وكَثْرَةِ هٰذِهِ الْجِبالِ، وطُولِ هٰذِهِ الْقِلاَلِ، وتَفَرُّقِ هٰذِهِ اللُّغاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقَدِّرَ، وأَنْكَرَ الْمُدَبِّرَ، يَزْعَمُونَ «زَعَمُواخ» أَنَّهُمْ كَالنَّباتِ ما لَهُمْ زارِعٌ، وَلاَ لاِخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَأوا إِلىٰ حُجَّةٍ فيما ادَّعَوْا، وَلاَ تَحْقِيقٍ لِما أَوْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِناءٌ مِنْ غَيْرِ بانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جانٍ.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْراوَيْنِ، وأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْراوَيْنِ، وجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، ونَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، ومِنْجَلَيْنِ بِهِما تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا الزُّرّاعُ في زَرْعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّها وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّىٰ تَرِدَ الْحَرْثَ في نَزَوَاتِها، وتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِها، وخَلْقُها كُلُّهُ لاَ يَكُونُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً.

فَتَبارَكَ الله الَّذي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمٰواتِ والْأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً ويُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً ووَجْهاً، ويُلْقِي إِلَيْهِ بِالطّاعَةِ سِلْماً وضَعْفاً، ويُعْطي لَهُ الْقِيادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً، فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ، أَحْصَىٰ عَدَدَ الرِّيشِ مِنْها وَالنَّفَسِ، وأَرْسَىٰ قَوائِمَها عَلَى النَّدَىٰ والْيَبَسِ، وقَدَّرَ أَقْواتَها، وأَحْصَىٰ أَجْناسَها، فَهٰذا غُرابٌ، وهٰذا عُقابٌ، وهٰذا حَمامٌ، وهٰذا نَعامٌ، دَعا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ، وأَنْشَأَ السَّحابَ الثِّقالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَها، وعَدَّدَ قِسَمَها، فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِها، وأَخْرَجَ نَبْتَها بَعْدَ جُدُوبِها[1].

(١) بحار الأنوار: ٣/ ٢٧، ودرر الأخبار: ٥٤.

اللغة

(**العمد**) بالتحريك جمع العمود و(**المرائي**) جمع المرئي كمرمي وهو ما يدرك بالبصر أو جمع مرآة بفتح الميم يقال فلان حسن في مرآة عيني قاله الشارح المعتزلي، وسيأتي ما فيه و(**تجسيماً وتجسيداً**) مصدران من باب التفعيل وفي بعض النسخ من باب التفعل، ويفرق بين الجسم والجسد بأن الجسم يكون حيواناً وجماداً ونباتاً، والجسد مختص بجسم الإنس والجن والملائكة ويطلق على غير ذوي العقول وقوله تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٨] أي ذا جثّة على التشبيه بالعاقل أو بجسمه.

و(**فلجت**) فلجاً وفلوجاً ظفرت بما طلبت وفلج بحجّته أثبتها وأفلج الله حجّته بالألف أظهرها قال الشارح المعتزلي: الفلج النصرة وأصله سكون العين وإنما حرّكه ليوازن بين الألفاظ لأن الماضي منه فلج الرّجل على خصمه بالفتح ومصدره الفلج بالسّكون.

و(**الأمراس**) الحبال جمع المرس وهو جمع المرسة بالتحريك الحبل و(**البشر**) جمع البشرة مثل قصب وقصبة ظاهر الجلد و(**النملة**) واحدة النمل و(**جثة**) الإنسان شخصه.

و(**استدرك**) الشي وإدراكه بمعنى واستدركت ما فات وتداركته بمعنى واستدركت الشيء أي حاولت إدراكه به، ومستدرك الفكر يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الإدراك وأن يكون اسم مفعول و(**الفكر**) وزن عنب جمع فكرة بالكسر وهو إعمال النظر وقيل اسم من الافتكار وفي بعض النسخ الفكر بسكون العين.

و(**صبّت**) على البناء للمفعول من صبّ الماء أراقه، وفي بعض النّسخ بالضاد المعجمة والنون على بناء المعلوم أي بخلت و(**الجحر**) بالضم الحفرة التي تحتفرها الهوام والسّباع لأنفسها (**وفي ورودها لصدرها**) الورود في الأصل الإشراف على الماء للشرب ثمّ أطلق على مطلق الإشراف على الشيء دخله أو لم يدخله كالورود والصدر بالتحريك اسم من صدر صدراً ومصدراً أي رجع، وفي نسخة الشارح البحراني في وردها لصدرها.

و(**كفل**) كفالة من باب نصر وعلم وشرف ضمن وكفلته وبه وعنه إذا تحملت به و(**المنان**) من المن بمعنى العطاء لا من المنّة و(**الذيان**) الحاكم والقاضي وقيل القهار، وقيل السائس أي القائم على الشيء بما يصلحه و(**الصفا**) بالقصر الحجر وقيل الحجر الصّلبة الضخم لا ينبت شيئاً والواحدة صفاة و(**الجامس**) الجامد وقيل أكثر ما يستعمل في الماء جمد وفي السمن وغيره جمس.

و(**أكلها**) بالضمّ في بعض النسخ وفي بعضها بضمتين المأكول و(**علوها**) و(**سفلها**) بالضم فيهما في بعض النسخ وبالكسر في بعضها و(**الشراسيف**) مقاط الأضلاع وهي أطرافها

التي تشرف على البطن، وقيل الشرسوف كعصفور غضروف معلّق بكلّ ضلع مثل غضروف الكتف و(**الأذن**) بالضمّ وبضمّتين على اختلاف النسخ و(**العجب**) التّعجب أو التّعجب الكامل و(**الضرب في الأرض**) السّير فيها أو الإسراع به و(**الدلالة**) بالكسر والفتح اسم من دلّه إلى الشيء وعليه أي أرشده وسدّده و(**الغامض**) خلاف الواضح و(**القلال**) وزن جبال جمع قلّة بالضمّ وهي أعلى الجبل، وقيل الجبل.

و(**وعا**) الشيء وأوعاه حفظه وجمعه وفي بعض النسخ وعوه على المجرّد بدل أوعوه و(**جنا**) فلان جناية بالكسر أي جرّ جريرة على نفسه وقومه، وجنيت الثمرة واجتنيتها اقتطفتها واسم الفاعل منهما جان إلاّ أنّ المصدر من الثاني جنى لا جناية و(**الناب**) من الأسنان خلف الرباعية و(**المنجل**) وزن منبر حديدة يقضب بها الزرع و(**نزا**) كدعا نزواً وثب و(**العفر**) بالتحريك وقد يسكن وجه الأرض ويطلق على التراب وعفّره تعفيراً مرغه فيه.

و(**السلم**) بالكسر كما في بعض النسخ الصّلح والمسالم، وبالتحريك كمافي بعضها الاستسلام والانقياد و(**القياد**) بالكسر ما يقاد به وإعطاء القياد الانقياد و(**اليبس**) بالتحريك ضدّ الرطوبة وطريق يبس لا نداوة فيه ولا بلل و(**الحمام**) بالفتح كلّ ذي طوق من الفواخت والقمارى وغيرهما والحمامة تقع على الذكر والأنثى كالحيّةَ.

و(**النعام**) بالفتح اسم جنس النعامة و(**الهطل**) بالفتح تتابع المطر أو الدمع وسيلانه وقيل تتابع المطر المتفرق العظيم القطر و(**الديمة**) بالكسر مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق والجمع ديم كعنب و(**البلة**) بالكسر ضد الجفاف بالفتح و(**الجدوب**) بالضم انقطاع المطر ويبس الأرض.

الإعراب

بل في قوله بل تجلى للإضراب، والباء في بها للسببيّة، وتجسيمها وتجسيداً منصوبان على الحال، والباء في قوله: بوجوب الحجج تحتمل المصاحبة والسببيّة، وجملة لا تكاد تنال حال من النملة والعامل انظروا، وقوله: كيف دبّت، في محل الجر بدل من النملة أو كلام متسأنف والاستفهام للتّعجب.

ومكفولة برزقها ومرزوقة بوفقها بالرفع في أكثر النسخ خبران لمبتدأ محذوف قال الشارح البحراني نصب على الحال وفي بعض النسخ رزقها ووفقها بدون الباء، وعجباً مفعول به لقضيت قال الشارح البحراني: ويحتمل المفعول له على كون القضاء بمعنى الموت وهو بعيد.

وقوله: فالويل لمن جحد المقدر، جملة إخبارية أو إنشائية دعائية قال سيبويه: الويل

مشترك بين الدّعاء والخبر، والواو في قوله: وخلقها، للحال، والفاء في قوله: فتبارك، فصيحة، وطوعاً وكرهاً منصوبان على الحال، وخداً ووجهاً منصوبان على المفعول به، وسلماً وضعفاً منصوبان على الحال أو التميز، ورهبة وخوفاً منصوبان على المفعول لأجله.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة مشتملة على مطالب نفيسة من العلم الإلهي ومقاصد لطيفة من آثار قدرته، وبدايع تدبيره وحكمته في مصنوعاته، وافتتحها بما هو حقيق بالافتتاح فقال:

(الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد) أراد بالشواهد الحواس وتسميتها بها إمّا لحضورها من شهد فلان بكذا إذا حضره، أو لشهادتها عند العقل على ما تدركه وتثبته، وعدم إمكان إدراكها له سبحانه لانحصار مدركاتها في المحسوسات واختصاص معلوماتها بالأجسام والجسمانيات، وهو سبحانه منزّه عن ذلك حسبما عرفته في شرح الفصل الثاني من المختار الأوّل وغيره.

(ولا تحويه المشاهد) أي المجالس والأمكنة، لأن حواية المجلس والمكان من صفات الإمكان كما مرّ في شرح الفصل الخامس من المختار الأول وغيره.

(ولا تراه النواظر) أي نواظر الأبصار وتخصيصها بالذكر مع شمول الشواهد لقوّتها ووقوع الشبهة في أذهان أكثر الجاهلين في جوار إدراكه تعالى بها كما هو مذهب المجسمة المشبهة والكرامية والأشاعرة المجوزين للرؤية، وقد عرفت فساد قولهم في شرح المختار التاسع والأربعين، والمختار المائة والثامن والسبعين وغيرهما.

(ولا تحجبه السواتر) لأن المحجوبيّة بالسواتر الجسمانية من أوصاف الأجسام وعوارضها حسبما عرفت تحقيقه في شرح المختار المائة والثاني والخمسين، **(الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده)** يعني أن حدوث خلقه دليل على وجوده وقدمه معاً، وقد مرّ تحقيقه أيضاً في شرح المختار المائة والثاني والخمسين والمختار التاسع والأربعين.

(وباشتباههم على أن لا شبه له) أي بإبدائه المشابهة بين الموجودات دل على أن لا شبه له ولا نظير، وقد مرّ تحقيقه أيضاً في شرح المختار الذي أشرنا إليه.

(الذي صدق في ميعاده) أي في وعده لأن الخلف في الوعد كذب قبيح، محال عليه سبحانه كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩] واستدلّ على عدم جواز الكذب عليه بأنّه إذا جاز وقوع الكذب في كلامه ارتفع الوثوق عن أخباره

بالثواب والعقاب والوعد والوعيد وساير ما أخبر به من أخبار الآخرة والأولى، وفي ذلك تفويت مصالح لا تحصى وهو سبحانه حكيم لا يفوت عنه الأصلح بنظام العالم، فعلم من ذلك عدم جواز الخلف في وعده ووعيده.

(و) بذلك أيضاً علم أنه تعالى: **﴿ارتفع عن ظلم عباده﴾** لكون الظلم قبيحاً عقلاً ونقلاً. يعني أنّه سبحانه منزه عن حال ملوك الأرض الذين من شأنهم ظلم رعيتهم إذا شاهدوا أن في ظلمهم منفعة لهم، وفي ترك الظلم مضرّة، فيظلمون من تحت ملكهم نيلاً إلى تلك المنفعة، ودفعاً لتلك المضرّة، وتحميلاً لذلك الكمال الحقيقي أو الوهمي، والله سبحانه كامل في ذاته غير مستكمل بغيره.

(وقام بالقسط) والعدل **(في خلقه وعدل عليهم في حكمه)** يعني أنّه سبحانه خلقهم وأوجدهم على وفق الحكمة ومقتضى النظام والمصلحة وأجرى فيهم الأحكام التكوينيّة والتكليفيّة على مقتضى عدله وقسطه قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨].

قال الطبرسي: أي أخبر بما يقوم مقام الشهادة على وحدانيته من عجيب حكمته وبديع صنعته، وشهدت الملائكة بما عاينت من عظيم قدرته وشهد أولوا العلم بما ثبت عندهم وتبيّن من صنع الّذي لا يقدر عليه غيره.

قال: وروى عن الحسن أنّ في الآية تقديماً وتأخيراً أو التقدير شهد الله أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط، وشهدت الملائكة أنه لا إلّه إلا هو قائماً بالقسط، وشهد أولوا العلم أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط، والقسط العدل الذي قامت به السماوات والأرض ورواه أصحابنا أيضاً في التفسير، وقيل: معنى قوله قائماً بالقسط أنّه يقوم بإجراء الأمور وتدابير الخلق وجزاء الأعمال بالعدل كما يقال: فلان قائم بالتدبير أي يجري في أفعاله على الاستقامة.

(مستشهد بحدوث الأشياء على أزليته) أي مستدلّ بحدوثها على قدمه سبحانه وقد عرفت وجه الدلالة في شرح المختار المائة والثاني والخمسين.

وقال العلامة المجلسي رحمه الله الاستشهاد طلب الشهادة أي طلب من العقول بما بين لها من حدوث الأشياء الشهادة على أزليّته أو من الأشياء أنفسها بأن جعلها حادثة، فهي بلسان حدوثها تشهد على أزليّته، والمعنى على التقديرين أن العقل يحكم بأن كلّ حادث يحتاج إلى موجد وأنه لا بدّ أن تنتهي سلسلة الاحتياج إلى من لا يحتاج إلى موجد، فيحكم بأنّ علّة العلل لا بدّ أن يكون أزلياً وإلاّ لكان محتاجاً إلى موجد آخر بحكم المقدّمة الأولى.

(وبما وسمها به من العجز على قدرته) يعني أنه استشهد على قدرته بالعجز الذي وسم

ووصف به خلقه، ووجه شهادته عليها أنا نرى أن غيره تعالى لا يقدر على ما يقدر عليه هو جلّ وعلا من الموجودات بل لا يقدر على شيء أصلاً ولا يملك لنفسه موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن غيره، ولا يتمكّن من أن يخلق ذباباً فضلاً عمّا هو أعظم منه، فعلم بذلك أن الموجودات على كثرتها وعظمتها لا بدّ من انتهاء وجوداتها على من هو قادر عليها كلّها بالإيجاد والإعدام والتصريف والتقليب قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فَاطِر: الآية ٤٤] **﴿ولا في الأرض أنه كان عليما قديرا﴾**.

وقال العلامة المجلسي رحمه الله في تفسير هذه الفقرة: الوسم الكي شبه ما أظهر عليها من آثار العجز والإمكان والاحتياج بالسمة الّتي تكون على العبيد والنعم وتدل على كونها مقهورة مملوكة(١).

وقال الصّدوق رحمه الله الدليل على أن الله قادر أن العالم لما ثبت أنه صنع لصانع ولم نجد أن يصنع الشيء من ليس بقادر عليه بدلالة أن المقعد لا يقع منه المشي والعجز لا يتأتى منه الفعل صحّ أن الذي صنعه قادر، ولو جاز غير ذلك لجاز منّا الطيران مع فقد ما يكون به من الآلة ويصحّ لنا الإدراك وإن عدمنا الحاسّة فلما كان إجازة هذا خروجاً عن المعقول كان الأوّل مثله.

(وبما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه) المراد من اضطرارها إلى الفناء حكم قدرته القاهرة على ما استعدّ منها للعدم بإفنائه حين استعداده بحكم قضائه المبرم، ودلالة ذلك على دوامه سبحانه أن الفناء لما كان دليلاً على الحدوث والإمكان دلّ فناؤها على أن صانعها ليس كذلك وأنه أزليّ أبديّ سرمديّ.

(واحد لا بعدد) يعني أن وحدته ليست وحدة عددية بأن يكون معه ثان من جنسه، وقد مر تحقيق ذلك مستوفي في شرح المختار الرابع والستين.

قال الصّدوق رحمه الله في **«التوحيد»** في تفسير أسماء الله الحسنى: الأحد الواحد الأحد معناه أنّه واحد في ذاته أي ليس بذي أبعاض ولا أجزاء ولا أعضاء، ولا يجوز عليه الإعداد والاختلاف لأَن اختلاف الأَشياء من آيات وحدانيّته ممّا دلّ به على نفسه ويقال لم يزل الله واحداً، ومعنى ثان أنه واحد لا نظير له ولا يشاركه في معنى الوحدانية غيره، لأن كلّ من كان له نظراء أو أشباه لم يكن واحداً في الحقيقة ويقال فلان واحد الناس أي لا نظير له فيما يوصف به، والله واحد لا من عدد لأنّه عزّ وجلّ لا يعدّ في الأجناس ولكنه واحد ليس له نظير(٢).

---

(١) بحار الأنوار: ٤/ ٢٢٤.

(٢) التوحيد: ١٩٦، وبحار الأنوار: ٤/ ١٨٨.

(دائم لا بأمد) قال الشارح البحراني قد سبق بيان أن كونه دائماً بمعنى أن وجوده مساوق لوجود الزمان، إذ كان تعالى هو موجد الزمان بعد مراتب من خلقه ومساوقة الزمان لا يقتضي الكون في الزمان، ولما كان الأمد هو الغاية من الزمان ومنتهى المدّة المضروبة لذي الزمان من زمانه، وثبت أنه تعالى ليس بذي زمان يفرض له الأمد ثبت أنّه دائم لا أمد له.

وقال الصّدوق رحمه الله الدائم الباقي الذي لا يبيد ولا يفنى.

(قائم لا بعمد) أي ليس قيامه قياماً جسمانياً يكون بالعمد البدنية أو بالاعتماد على الساقين، أو أنّه قائم باق من غير استناد إلى سبب يعتمد عليه ويقيمه كساير الوجودات الممكنة.

وفي حديث الرّضا عليه السلام المروي في الكافي عنه عليه السلام مرسلاً قال: «وهو قائم ليس على معنى انتصاب وقيام على ساق في كبد كما قامت الأشياء»، ولكن قائم يخبر أنّه حافظ كقول الرَّجل القائم بأمرنا فلان والله هو القائم على كل نفس بما كسبت والقائم أيضاً في كلام النَّاس الباقي، والقائم أيضاً يخبر عن الكفاية كقولك للرجل قم بأمر بني فلان، أي أكفهم والقائم منّا قائم على ساق فقد جمعنا الاسم ولم يجمع المعنى، الحديث(١).

قال صدر المتألهين في «**شرح الكافي**»: قوله عليه السلام: وهو قائم ليس على معنى انتصاب، يعني أن من الأسماء المشتركة بين الخالق والخلق اسم القائم لكن في كلٍّ منهما بمعنى آخر، فإن القائم من الأجسام ما ينتصب على ساق كما نحن ننتصب عند القيام بأمر على سوقنا في كبد ومشقّة، وأمّا الباري جل مجده فاسم القيام به يخبر بأنه حافظ للأشياء مقوم لوجودها ولا يؤده حفظهما وأنه القائم على كل نفس بما كسبت فاختلف المعنى واتحد الاسم.

وقد يطلق القائم في كلام الناس بمعنى الباقي وهو أيضاً معناه مختلف فمعنى الباقي في الخلق ما يوجد في زمان بعد زمان حدوثه، وأما في حقّه تعالى فليس بهذا المعنى لارتفاعه عن مطابقة الزمان، بل بقاؤه عبارة عن وجوب وجوده وامتناع العدم عليه بالذات وبقاؤه نفس ذاته.

والقائم قد يجيء بما يخبر عن الكفاية كما يقال: قم بأمر بني فلان أي اكفه ولا شك أن هذا المعنى فيه تعالى على وجه أعلى وأشرف، بل لا نسبة بين كفايته للخلق كافة لا بآلة وقوة وتعمل وتكلّف، وبين كفاية الخلق بعضهم لبعض بتعب ومشقة، فقد اتفق الاسم

(١) التوحيد: ١٨٩، وشرح أصول الكافي: ٤/٣٨.

واختلف المعنى.

(تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة) أي لا من طريق المشاعر والحواس، والمراد بتلقي الأذهان له تقبّلها، أي إدراكها لما يمكن لها إدراكه من صفاته السّلبية والإضافية لا تلقي ذاته، لما عرفت مراراً من عجز العقول والأوهام والأذهان والأفهام عن تعقل ذاته.

(وتشهد له المرائي لا بمحاضرة) يعني تشهد له المرئيات والمبصرات وتدل على وجوده وصفات كماله حسبما عرفته في شرح المختار التاسع والأربعين

ولما كان بناء الشهادة غالباً على حضور الشاهد عند المشهود به كما يشعر به تصاريف تلك المادة مثل قوله سبحانه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] الآية أي من كان حاضراً غير مسافر فليصمه، وقولهم: الشاهد يرى ما لا يراه الغايب، وشهدت مجلس فلان أي حضرته، وسمي الشهيد شهيداً لحضور ملائكة الرحمة عنده فعيل بمعنى المفعول إلى غير ذلك من تصاريفها، وكان قوله تشهد له المرائي موهماً لكون شهادتها بعنوان الحضور.

استدرك بقوله: لا بمحاضرة، من باب الاحتراس دفعاً للتوهم المذكور، يعني أن شهادتها ليست بعنوان الحضور كما في ساير الشهود، بل المراد من شهادتها دلالتها عليه من باب دلالة الأثر على المؤثر والفعل على الفاعل.

هذا كلّه على كون المرائي جمع المرئى وهو الشيء المدرك بالبصر قال الشارح المعتزلي: والأولى أن يكون المرائي ههنا جمع مرآة بفتح الميم من قولهم هو حسن في مرآة عيني يقول إن جنس الرّؤية يشهد بوجود الباري من غير محاضرة منه للحواس انتهى.

وتبعه العلامة المجلسي رحمه الله في «**البحار**» وكذا الشارح البحراني قال: والمرائي جمع مرآة بفتح الميم وهي المنظر يقال فلان حسن في مرآة العين وفي رأي العين أن المنظر انتهى إلاّ أنّه جعل المرائي بمعنى النواظر.

أقول: ويتوجّه عليهم أولاً أن كون المرائي جمعاً للمرآة لم يثبت من أهل اللّغة.

وثانياً سلمنا لكن لا بد من جعل المرآة الّتي هي مفردها اسم مكان بمعنى محلّ الرؤية حتّى يصحّ بناء الجمع منها إذ لو جعلناها مصدراً بمعنى نفس الرّؤية كما هو ظاهر كلام الأولين لا يصح أن يبنى منها جمعاً، كما أن المناظر التي هي جمع المنظر يراد بها محال النظر، وفسرها في القاموس بإشراف الأرض.

والحاصل أن المرآة التي هي واحدة المرائي على زعمهم بمعنى المنظر فإن جعلناها

مصدراً لا يصحّ أن يبنى منها جمع. وإن جعلناها اسماً للمكان فيصحّ بناؤه منها إلاّ أنّه لا وجه حينئذ للحكم بكون المرائي جمعاً لها أولى كونها جمعاً للمرئي إذ لا تفاوت بينهما في المعنى كما لا يخفى.

وأمّا الشارح البحراني فلا يفهم وجه تفسير المرائي بالنواظر بعد تفسير المرآة بمعنى المنظر إلا أن يقال أن مراده بالمرائي محال النظر أي الأبصار فيصحّ التعبير عنها بالنواظر والمناظر كليهما فتأمل جيّداً.

(لم تحد به الأوهام بل تجلى لها بها وبها امتنع منها وإليها حاكمها) قال الشارح المعتزلي: الأوهام ههنا هي العقول يقول: إنّه سبحانه لم تحط به العقول أي لم تتصوّر كنه ذاته، ولكنه تجلّي للعقول بالعقول، وتجلّيه ههنا هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته السّلبيّة والإضافية وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته، فأما غير ذلك فلا.

وقوله: وبالعقول امتنع من العقول، أي وبالعقول وبالنظر علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول.

وقوله: وإلى العقول حاكم العقول أي جعل العقول المدّعية أنها أحاطت به وأدركته كالخصم له سبحانه ثم حاكمها إلى العقول السّليمة الصحيحة النظر فحكمت له سبحانه على العقول المدّعية لما ليست أهلاً له انتهى.

وقيل: يحتمل أن يكون أحد الضميرين في كلّ من الفقرات الثلاث راجعاً إلى الأوهام، والآخر إلى الأذهان فيكون أن بالأوهام وخلقه تعالى لها وأحكامها أو بإدراك الأوهام آثار صنعته وحكمته تجلّي للعقول، وبالعقول وحكمها بأنه تعالى لا يدرك بالأوهام امتنع من الأوهام، وإلى العقول حاكم الأوهام لو ادعت معرفته حتّى تحكم العقول بعجزها عن إدراك جلال هذا.

ويجوز أن يراد بالأوهام الأعم منها ومن العقول وإطلاقه على هذا المعنى شايع، فالمراد تجلّى الله لبعض الأوهام أي العقول ببعض الحواس وهكذا على سياق ما مرّ.

(ليس بذي كبر امتدّت به النهايات فكبرته تجسيماً) الكبير يطلق على معان: **أحدها** العظيم الحجم والمقدار والكبير في الطول والعرض والسمك **الثاني** العالي السنّ من الحيوان **الثالث** رفيع القدر وعظيم الشأن.

إذا عرفت ذلك نقول: إن إطلاق الكبير على الله سبحانه ووصفه به كما ورد في الكتاب العزيز ليس باعتبار المعنى الأوّل والثاني، لأن الكبير بهذين المعنيين من عوارض الأجسام

والأحجام، فلا بد أن يراد به حيثما يطلق عليه المعنى الثالث وهو معنى قوله عليه السلام ليس بذي كبرآه يعني أنه موصوف بالكبر ولكن لا بالمعنى الموجود في الأجسام بأن يكون ممتداً طولاً وعرضاً وعمقاً، وإنّما أسند الامتداد به إلى النهايات لأنّها غاية الطبيعة بالامتداد يقف عندها وينتهي بها، فكانت من الأسباب الغائية، فلذلك أسند إليها، وكذلك إسناد التكبر إليها إذ كان التكبير من لوازم الامتداد إليها، فمعنى قوله: فكبّرته تجسيماً أنه كبّرته النهايات مجسّمة له أو حال كونه سبحانه ومجسماً.

روى في «الكافي» عن ابن محبوب عمّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رجل عنده: الله أكبر، فقال عليه السلام: الله أكبر من أيّ شيء؟ فقال: من كلّ شيء فقال أبو عبد الله عليه السلام: حددته، فقال الرجل: كيف أقول؟ قال عليه السلام: قل: الله أكبر من أن يوصف[1].

قال بعض شراح الكافي: لما كان الأكبر من أسماء التفضيل كالأعظم والأطول والأعلم ونحوها، والموصوف بها من جنس ما يفضل عليه فيهما، فإنك إذا قلت هذا أطول من ذلك أنه وجد لهذا مثل الذي في ذلك من الطول مع زيادة، وكان الحق بحيث لا مجانس له في ذاته وصفاته، فلم يجز إطلاق الأكبر عليه بالمعنى الذي يفهمه الناس من ظاهر اللفظ، إذ الكبر والصغر من صفات الجسمانيات ولا ينبغي أيضاً أن يكون المفضل عليه شيئاً خاصاً أو عاماً كما يقال: الله أكبر من العرش أو من العقل أو من كلّ شيء، لأنّه يوجب التحديد والتجنيس كما علمت، فلذلك أفاد عليه السلام أن معنى الله أكبر أنّه أكبر من أن يوصف لئلا يلزم التحديد.

(ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً) ومعناها كسابقتها، يعني أن اتصافه بالعظمة وإطلاق العظيم عليه في القرآن الكريم وغيره ليس بالمعنى المتبادر إلى الأفهام المتصوّر في الأجسام أعني العظم في القطر والجسد، بل المراد أنه عظيم السلطان رفيع الشأن.

وهو معنى قوله عليه السلام في حديث ذعلب المتقدم روايته عن الكافي في شرح المختار المائة والثامن والسّبعين: ويلك يا ذعلب أن ربّي لطيف اللطافة لا يوصف باللّطف عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ.

وإلى ما ذكرناه أشار هنا بقوله **(بل كبر شأناً وعظم سلطاناً)** أي كبره من حين الشأن، وعظمته من حيث السّلطنة.

---

(١) الكافي: ٢/١١٧ ح٨، والتوحيد: ٣١٣.

ولما فرغ من حمد الله سبحانه وثنائه وأوصاف جلاله وكبريائه أردفه بالشهادة بالرسالة التي هي مبدأ لكمال القوّة العملية من النفوس البشرية بعد كمال قوتها النظريّة بما تقدّم فقال:

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصّفيّ) أي الصافي الخالص في مقام العبوديّة عن الكدر النّفسانيّة، أوالمصطفى أي المختار من مخلوقاته **(وأمينه)** على وحيه **(الرضيّ)** المرتضى على تبليغ وحيه ورسالاته ﷺ أرسله بوجوب الحجج أي أرسله مصاحباً بالحجج الواجبة قبولها على الخلق لكفايتها في مقام الحجيّة من المعجزات الظاهرات والآيات البيّنات، أو المراد أنّه أرسله بسبب وجوب الحجج عليه تعالى، يعني أنّه لما كان الإعذار والإنذار واجباً عليه تعالى بمقتضى اللطف أرسله لذلك ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

(وظهور الفلج) أي مع ظهور الظفر، أو لأن يظهر ظفره على ساير الأديان كما قال سبحانه: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٣].

(وإيضاح المنهج) أي ما يضاح بنهج الشرع القويم، والإرشاد إلى الصراط المستقيم المؤدّي إلى نضرة النعيم والفوز العظيم.

(فبلّغ الرسالة صادعاً بها) امتثالاً لأمره تعالى وهو قوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: الآية ٦٧] وقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: الآية ٩٤] وأصل الصّدع هو الشق في شيء صلب والفرقة من الشيء فاستعير هنا لإبلاغ المأمور، قال في القاموس: فاصدع بما تؤمر أي شق جماعاتهم بالتوحيد أو أجهر بالقرآن وأظهر أو احكم بالحق وافصل بالأمر واقصد بما تؤمروا فرق به بين الحق والباطل.

(وحمل) النّاس **(على المحجة)** والجادة الواضحة وهي طريق الشريعة **(دالاً عليها)** وهادياً إليها، **(وأقام)** بين الأمة **(أعلام الاهتداء ومنار الضياء)** أي أعلاماً توجب اهتداءهم بها ومناراً تستضيئون بنورها.

والماد بها المعجزات الظاهرة والقوانين الشرعيّة الباهرة، فإنها تهدي من غياهب الجهالة، وتنقذ من ظلمات الضلالة، وتدل على حظاير القدس ومحافل الأنس **(وجعل أمراس الإسلام)** وحبال الدّين **(متينة)** متقنة **(وعرى الإيمان)** وحبال اليقين **(وثيقة)** محكمة.

(منها)

أي من جملة فصول تلك الخطبة **(في صفة)** عجيب **(خلق أصناف من الحيوان)** أي في وصف عجايب خلقتها الدالة على قدرة بارئها وعظمة مبدئها وتدبيره وحكمته في صنعتها، وقد تقدم فصل واف من الكلام على هذا المعنى في الخطبة المائة والرابعة والستين وشرحها.

وقال عليه السلام هنا: **(ولو فكّروا)** أي تفكروا واعملوا نظرهم **(في عظيم القدرة)** أي في آثار قدرته العظيمة الظاهرة في مخلوقاته **(وجسيم النعمة)** أي عظيم نعمته التي أنعم بها على عباده **(لرجعوا إلى الطريق)** والصراط المستقيم **(وخافوا عذاب الحريق)** وعقاب الجحيم لكفايتها في الهداية إليه والإخافة منه.

قال تعالى في الإشارة إلى عظيم قدرته **﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى يدبر الأمر يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربّكم توقنون﴾**.

وقال ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

قال الطبرسي رحمه الله في هذه الآية استفهام يراد به التقريع والمعنى أو لم يعلموا أن الله سبحانه الذي يفعل هذه الأشياء ولا يقدر عليها غيره فهو الإله المستحق للعبادة دون غيره.

وقال في الدلالة على جسيم نعمته ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبإ: الآيات ٦-١٧].

فإن في تعداد تلك النعم إشارة إلى عظيم ما منّ به على عباده فمن تفكّر فيها أناب إلى طريق الحق ونهج الصواب، وخاف من سوء المآل وأليم العذاب.

(ولكن) الناس بمعزل عن هذا بعيدون عن الاهتداء إليه لأن **(القلوب عليلة)** سقيمة **(والأبصار)** أي البصاير كما في بعض النسخ **(مدخولة)** معيبة، فكان مرضها وعلّتها مانعة عن التدبّر والتفكر.

والمراد بعلّتها خروجها عن حدّ الاعتدال والاستقامة بسبب توجّهها إلى الشهوات بالنفسانيّة والعلايق البدنية، لأن مرض القلوب عبارة عن فتورها عن درك الحق بسبب شوبها

بالشكوك والشبهات وفسادها بالعلايق والأمنيات، كما أن مرض الأعضاء عبارة عن فتورها عن القيام بالآثار المطلوبة منها بسبب طرو الفساد عليها وخروجها عن حدّ الاعتدال.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] وقال: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ [البقرة: الآية ٧] أي غطاء، فإنهم لما أعرضوا عن النظر فيما كلفوه أو قصروا فيما أريد منهم جهلوا ما لزمهم الإيمان به، فصاروا كمن على عينيه غطاء وهو معنى العيب في الأبصار.

فإن قيل: لم خص القلوب والأبصار بالذكر.

قلت: لأن القلب محل الفكر والنظر والأبصار طريق إليه وإن كانت الأسماع طريقاً أيضاً إلا أنّ الأبصار لكونها أعظم الطرق خصّت بالذّكر وقد جمعتها جميعاً الآية الشريفة ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: الآية ٧].

ولما أشار إلى عظيم قدرته إجمالاً ووبخ على غفلة القلوب وعيب الأبصار وكان المقصود بذلك جذب نفوس المخاطبين وتوجيه قلوبهم إلى إقبال ما يذكرهم به أو تشويقهم إلى إصغاء ما يتلى عليهم أردفه بالتنبيه على لطيف صنعه تعالى في صغير ما خلق فقال:

(**ألا ينظرون إلى صغير ما خلق**) من أنواع الحيوان (**كيف أحكم خلقه**) وأتقنه (**وأتقن تركيبه**) وأحكمه (**وفلق**) أي شقي (**له السمع والبصر وسوّى**) أي عدل (**له العظم والبشر**) مع ما هو عليه من الصغر.

ثم تخلص إلى تفصيل المرام بعد ما كساه ثوب الإجمال والإبهام، لأن ذكر الشيء مبهماً ثم مفسّراً ومفصّلاً أوقع في النفوس وأثبت في القلوب فقال عليه السلام:

(**انظروا إلى النملة**) نظراً يوجب البصيرة ويعرف به عظيم القدرة (**في صغر جثتها**) وشخصها (**ولطافة هيئتها**) وكيفيتها (**لا تكاد تنال بلحظ البصر**) أي النظر وهكذا في بعض النسخ (**ولا بمستدرك الفكر**).

قال العلامة المجلسي رحمه الله مستدرك الفكر على بناء المفعول يحتمل أن يكون مصدراً أي إدراك الفكر أو بطلبها الإدراك ولعله أنسب بقوله: بلحظ البصر، وأن يكون اسم مفعول أي بالفكر الذي يدركه الإنسان ويصل إليه أو يطلب إدراكه أي منتهى طلبه لا يصل إلى إدراك ذلك، وأن يكون اسم مكان والباء بمعنى في.

(**كيف دبّت على أرضها**) الإضافة لأدنى ملابسة (**وصبّت على رزقها**) قيل هو على العكس أي صب رزقها عليها.

قال الشارح المعتزلي والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا، والمراد وكيف ألهمت حتّى انصبُّت على رزقها انصباباً أي انحطت عليه قال: ويروى وضنّت على رزقها أي بخلت، انتهى.

وعلى الأوّل فلفظ الصّب استعارة لسرعة الحركة إليه كما في الماء المصبوب نحو ما ينصب فيه. وعلى الثاني فضنتها لعلمها بحاجتها إلى الرزق وسعيها في الإعداد والحفظ **(تنقل الحبّة إلى جحرها)** وبيتها **(وتعدّها في مستقرها)** أي تهيّؤ الحبّة في محلّ استقرارها **(تجمع في حرّها لبردها)** أي في أيّام الصّيف للشتاء **(وفي ورودها لصدرها)** أي تجمع في أيام التمكن من الحركة لأيام العجز لأنها تظهر في أيّام الصّيف وتختفي في أيّام الشّتاء لبرودة الهواء **(مكفولة)** أي مضمون **(برزقها مرزوقة بوفقها)** أي بما يوافقها من الرزق كماً وكيفاً.

(لا يغفلها المنّان) أي لا يتركها غفلة عنها وإهمالاً من غير نسيان الله الذي هو كثير المنّ والعطاء **(ولا يحرمها الدّيان)** أي لا يجعلها محرومة من رزقها الدّيان المجازي لعباده ما يستحقون من الجزاء.

وقد يفسّر الدّيان بالحاكم، والقاضي، والقهار، وبالسايس القائم على الشيء بما يصلحه كما تفعل الولاة والأمراء بالرعيّة.

ووجه المناسبة على الأول أنها حيث دخلت في الوجود طايعة لأمره وقامت فيه منقادة لتسخيره، وجبت في الحكمة الإلهيّة جزاؤها ومقابلتها بما يقوم بوجودها فلا تكون محرومة من مادة بقائها على وفق تدبيره، قاله الشارح البحراني.

وعلى الثاني أن إعطائه كلّ شيء ما يستحقه ولو على وجه التفضل من فروع الحكم بالحق.

وعلى الثالث الإشعار بأن قهره سبحانه لا يمنعه من العطاء كما يكون في غيره أحياناً.

وعلى الرّابع أن مقتضى قيمومته بالأصلح عدم الحرمان كما هو شأن الموالي بالنسبة إلى العبيد.

وكيف كان فهو سبحانه لا يمنعها من الرزق **(ولو)** كانت **(في الصّفا)** الصلد **(اليابس)** الذي لا ينبت شيئاً **(والحجر)** الجامد **(الجامس)** الذي لا يتحول من موضع موضعاً بل يفتح عليها أبواب معاشها في كلّ مكان ويهديها إلى أقواتها في كلّ زمان.

ثمّ نبّه على مجال آخر للفكرة في النملة موجبة للتنبيه والعبرة فقال **(ولو فكرت في مجاري أكلها)** أي مجاري ما تأكله من الطعام وهي الحلق والأمعاء **(وفي علوها وسفلها)**.

قال الشارح البحراني علوها بسكون اللام نقيض سفلها وهو رأسها وما يليه إلى الجزء المتوسّط وسفلها ما جاوز الحر من طرفها الآخر.

أقول: فعلى ذلك الضميران مرجعهما نفس النملة على حذو ما سبق، ويحتمل رجوعهما إلى المجاري والمراد واحد.

(وما في الجوف من شراسيف بطنها) أي أطراف أضلاعها المشرفة على بطنها **(وما في الرّأس من عينها وأذنها)**.

قال الشارح المعتزلي ولا يثبت الحكماء للنمل آذاناً بارزة عن سطوح رؤوسها ويجب إن صحّ ذلك أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على قوّة الإحساس بالأصوات فإنّه لا يمكن الحكماء إنكار وجود هذه القوة لها، ولهذا إذا صيح عليهنّ هدبن[1].

وقوله عليه السلام **(لقضيت من خلقها عجباً)** جواب لو أي لو فكرت في هذه الأمور التي أبدعها الله سبحانه فيها بحسن تدبيره وحكمته وقدرته مع مالها من الصّغر واللطافة لأدّيت من ذلك عجباً أي تعجبت غاية التّعجب **(ولقيت من وصفها تعباً)** ومشقّة إن وصفتها حق الوصف.

(فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها) مع ما بها من الدّقة واللطافة لا يكاد أن يدركه الطرف لغاية دقتها كالخيوط الدقيقة **(وبناها على دعائمها)** استعار الدّعامة التي هو عمود البيت لما يقوم به بدنها من الأجزاء القائمة مقام العظام والأوتار وفيه تشبيهها بالبيت المبني على الدّعائم **(لم يشركه في فطرتها)** أي خلقتها وإيجادها **(فاطر)** مبدع **(ولم يعنه على خلقها قادر)** مدبّر بل توحّد بالفطر والتدبير وتفرّد بالخلق والتقدير فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر سلطانه.

(ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته) أي لو سرت أو أسرعت في طريق فكرك وهي الأدلة وأجزاء الأدلة لتصل إلى غايات الفكر في الموجودات والمكونات **(ما دلتك الدلالة)** أي لم يدلك الدليل **(إلا على أن فاطر النملة)** على صغرها **(هو فاطر النخلة)** على طولها وعظمتها، يعني أن خالقهما واحد والغرض منه دفع توهم يسر الخلق وسهولته في الأشياء الصّغيرة **(لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كلّ حيّ)**.

يعني أن كلا من الأجسام والأشياء صغيراً كان أو كبيراً فتفصيل جسمه وخلقته وهيئته تفصيل دقيق واختلاف أشكالها وصورها وألوانها ومقاديرها اختلاف غامض السّبب، فلا بد للكلّ من مدبّر حكيم خصّصه بذلك التفصيل والاختلاف على اقتضاء التدبير والحكمة فثبت بذلك أنها لا تفاوت فيها بين الصّغر والكبر في الافتقار إلى الصّانع المدبّر.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٦٣.

وأكّد ذلك الغرض بقوله **(وما الجليل واللّطيف)** كالنخلة والنملة **(والثقيل والخفيف)** كالتراب والسحاب **(والقوي والضعيف)** كالفيلة والسخلة **(في خلقه إلاّ سواء)** لاستواء نسبة قدرته التي هي عين ذاته إليها.

والغرض بذلك دفع استبعاد نسبة الخلقة العظيمة والخلقة الصّغيرة إلى صانع واحد، ووجه الدفع أن المخلوقات وإن اختلفت من حيث الطبايع والهيئات والأشكال والمقادير صغراً وكبراً وثقلاً وخفة وضعفاً وقوّة إلا أنها لا اختلاف فيها من حيث النسبة إلى القدرة الكاملة للفاعل المختار.

(وكذلك السماء والهواء والرياح والماء) على اختلاف هيئاتها وهيئاتها وتباينها وتضادها مشابهة للأمور السابقة مستوية لها من حيث الانتساب إلى القدرة.

(فانظر إلى الشّمس والقمر والنّبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا اللّيل والنّهار وتفجّر هذه البحار وكثرة هذه الجبال وطول هذه القلال وتفرّق هذه اللّغات والألسن المختلفات).

لا يخفي ما في هذه الفقرة وسابقتيها من الرقة والسّلاسة واللّطافة من حيث اللّفظ والعبارة، حيث تضمنت سياقة الإعداد مع مراعاة التطبيق والازدواج وملاحظة الأسجاع، وأمّا من حيث المعنى فالمراد بها الأمر بالتدبر فيما أودع في هذه الأشياء من غرايب الصنعة ولطايف الحكمة وبراهين القدرة والعظمة حسبما عرفت نبذاً منها في شرح الفصل الرابع والسادس من المختار التسعين فانظر ماذا ترى.

وقال الشارح المعتزلي: المراد بها الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصّانع، بأن يقال كلّ جسم يقبل لجسميته المشتركة بينه وبين ساير الأجسام ما يقبله غيره من الأجسام، فإذا اختلف الأجسام في الأعراض فلا بد من مخصص وهو الصّانع الحكيم[1].

وقرّره الشارح البحراني بتقرير أوضح وهو أن هذه الأجسام كلّها مشتركة في الجسميّة واختصاص كلّ منها بما يميّز به من الصفات المتعدّدة ليست للجسميّة ولوازمها، والأوجب لكلّ منها أوجب للآخر، ضرورة اشتراكها في علة الاختصاص فلا مميّز له هذا خلف، ولا لشيء من عوارض الجسمية لأن الكلام في اختصاص كلّ منها بذلك العارض كالكلام في الأوّل ويلزم التسلسل، فيبقى أن يكون لأمر خارج عنها هو الفاعل الحكيم المخصص لكل منها بحد من الحكمة والمصلحة.

---

(١) بحار الأنوار: ٦١/٤٣.

أقول: وقد أشير إلى هذا الاستدلال في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٢ ـ ٢٤] .

قال الطبرسي: أي من دلالاته على وحدانيته وكمال قدرته ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٤] وما فيهما من عجايب خلقه وبدايع صنعه مثل ما في السماوات من النجوم والشمس والقمر وجريها في مجاريها على غاية الاتساق والنظام، وما في الأرض من الجماد والنبات والحيوان المخلوقة على وجه الإحكام[1].

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٢] الألسنة جمع لسان واختلافها هو أن ينشأها الله مختلفة في الشّكل والهيئة والتركيب فيختلف نغماتها وأصواتها حتى أنه لا يشتبه صوتان من نفسين هما أخوان، وقيل: إن اختلاف الألسنة هو اختلاف اللغات من العربية والعجميّة وغيرهما، ولا شيء من الحيوانات يتفاوت لغاتها كتفاوت لغات الإنسان فإن كانت اللّغات توقيفيّاً من قبل الله فهو الذي فعلها، وإن كانت مواضعة من قبل العباد فهو الذي يسرها.

﴿**والوانكم**﴾ أي واختلاف ألوانكم من البياض والحمرة والصفرة والسّمرة وغيرها فلا يشبه أحد أحداً من التشاكل في الخلقة، وما ذلك إلا للتراكيب البديعة واللّطائف العجيبة الدالة على كامل قدرته وحكمته حتى لا يشتبه إثنان من النّاس ولا يلتبسان مع كثرتهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ [يُونس: الآية ٦٧] أي أدلة واضحات ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفُرقان: الآية ١] أي للمكلّفين.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٠] الدالة على توحيده وإخلاص العبادة له ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٣] أي النّوم الذي جعله الله راحة لأبدانكم بالليل وقد تنامون بالنهار فإذا انتبهتم انتشرتم لابتغاء فضل الله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يُونس: الآية ٦٧] ذلك فيقبلونه ويتفكرون فيه، لأنّ من لا يتفكر فيه لا ينتفع به فكأنه لم يسمعه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرُّوم: الآية ٢٤] معناه ومن دلالاته أن يريكم النار تنقدح من السحاب يخافه المسافر ويطمع فيه المقيم، وقيل: خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرُّوم: الآية ٢٤] أي غيثاً ومطراً ﴿فَيُحْىِۦ بِهِ﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٨/ ٥٤.

[الرُّوم: الآية ٢٤] أي بذلك الماء ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٤] أي بعد انقطاع الماء عنها وجدوبها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: الآية ٤] أي للعقلاء المكلفين.

(فالويل) أي الحزن والهلاك والمشقة من العذاب وقيل إنه علم واد في جهنم **(لمن جحد المقدّر وأنكر المدبّر)** وهم الدّهريون الذين قالوا ما هي إلا حياتنا الدّنيا نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدّهر **(ويزعمون أنهم كالنبات)** النابت في الصحاري والجبال من غير زرع فكما أنّه ليس له زارع ومدبّر من البشر فكذلك هؤلاء.

(ما لهم زارع) أصلاً **(ولا لاختلاف صورهم صانع)** قطعاً وذكر اختلاف الصّور لكونه أوضح دلالة على الصانع وقيل: المراد أنهم قاسوا أنفسهم على النبات الذي جعلوا من الأصول المسلمة أنه لا مقدّر له بل ينبت بنفسه من غير مدبر **(ولم يلجأوا)** أي لم يستندوا **(إلى حجة فيما ادعوا)** من جحود المقدر **(ولا تحقيق لما)** حفظوا و**(أوعوا)** من إنكار المدبر بل دعواهم مستندة إلى مجرد الظن والحسبان ومحض الهوى والاستحسان كما نطق به الفرقان.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤].

وروى «في الصّافي من الكافي» عن الصادق عليه السلام في حديث وجوه الكفر قال عليه السلام: فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالربوبيّة وهو قول من يقول: لا ربّ ولا جنّة ولا نار، وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدّهرية وهم الّذين يقولون وما يهلكنا إلاّ الدّهر وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان عنهم على غير تثبت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٤] إنّ ذلك كما يقولون.

قال الفخر الرازي: وأما شبهتهم في إنكار الإله الفاعل المختار فهو قولهم ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٤] يعني تولد الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاج الطبايع وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبايع وحركات الأفلاك، ولا حاجة في هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٤].

والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمة، فالذي قالوه يحتمل

وضده أيضاً يحتمل، وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقاً والقول بوجود الإله الحكيم حقاً فإنّهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية في أن هذا الاحتمال الثاني باطل، ولكنه خطر ببالهم هذا الاحتمال الأوّل فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة، فثبت أنّهم ليس لهم علم ولا جزم ولا يقين في صحة القول الذي اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب وحجة ودليل، هذا.

ولما دعا عليه السلام على الجاحدين بالويل والثبور زيف قولهم بعدم استناده إلى حجة وبيّنة ولو كانت ضعيفة هينة، عاد إلى تقريعهم وتوبيخهم بإقامة البرهان المحكم والدلالة الواضحة على بطلان قولهم وفساد به منهم، فقال على سبيل الاستفهام بقصد الإنكار والإبطال.

(وهل يكون بناء من غير بان وجناية من غير جان) يعني افتقار الفعل إلى الفاعل ضروري وإنكاره باطل ومنكره ضال جاهل.

روى في «البحار» من جامع الأخبار قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن إثبات الصانع فقال عليه السلام: البعرة تدلّ على البعير، والروثة تدلّ على الحمير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علويّ بهذه اللطافة ومركز سفليّ بهذه الكثافة كيف لا يدلاّن على اللطيف الخبير.

وفيه من «كتاب التوحيد» للصّدوق رحمه الله بسنده عن هشام بن الحكم قال: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبد الله عليه السلام فخرج إلى المدينة ليناظره فلم يصادفه بها فقيل له هو بمكّة، فخرج الزنديق إلى مكة، ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام فقاربنا الزنديق ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام في الطواف فضرب كتفه «كفه» كتف أبي عبد الله عليه السلام.

فقال له جعفر عليه السلام: ما اسمك؟ قال: اسمي عبد الملك، قال: فما كنيتك؟ قال: أبو عبد الله قال عليه السلام: فمن الملك الذي أنت له عبد أمن ملوك السماء أم من ملوك الأرض؟ وأخبرني عن ابنك أعبد إله السّماء أم عبد إله الأرض؟ فسكت، فقال أبو عبد الله عليه السلام «قل ما شئت تخصم»، قال هشام بن الحكم: قلت للزنديق: أما تردّ عليه، فقبح قولي.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إذا فرغت من الطواف فأتنا».

فلما فرغ أبو عبد الله عليه السلام أتاه الزنديق فقعد بين يديه، ونحن مجتمعون عنده، فقال للزنديق: أتعلم أن للأرض تحت وفوق؟ قال: نعم، قال عليه السلام: فدخلت تحتها؟ قال: لا، قال: فما يدريك بما تحتها؟ قال: لا أدري إلا أنّي لأظنّ أن ليس تحتها شيء، قال أبو عبد الله عليه السلام: فالظن عجز ما لم تستيقن.

قال أبو عبد الله عليه السلام: فصعدت إلى السّماء؟ قال: لا، قال: فتدري ما فيها؟ قال لا، قال: فعجبا لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب ولم تنزل تحت الأرض ولم تصعد إلى

السماء ولم تجز هنالك فتعرف ما خلقهن وأنت جاحد ما فيهنّ وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟! فقال الزنديق: ما كلمني بهذا أحد غيرك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت في شك من ذلك فلعلّ هو ولعلّ ليس هو؟» قال الزّنديق: ولعلّ ذاك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «أيّها الرّجل ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم فلا حجة للجاهل يا أخا أهل مصر تفهم عنّي فإنا لا نشك في الله أبداً، أما ترى الشّمس والقمر واللّيل والنهار يلجان ليس لهما مكان إلا مكانهما فإن كانا يقدران على أن يذهبا ولا يرجعان فلم يرجعان؟ فإن لم يكونا مضطرين فلم لا يصير الليل نهار أو النهار ليلاً؟ اضطرا والله يا أخا أهل مصر إلى دوامهما والذي اضطرهما أحكم منهما وأكبر منهما»، قال الزنديق: صدقت.

ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أخا أهل مصر الذي تذهبون وتظنونه بالوهم فإن كان الدّهر يذهب بهم، لم لا يردّهم؟ وإن كان يردّهم لم لا يذهب بهم القوم مضطرون يا أخا أهل مصر السّماء مرفوعة والأرض موضوعة لم لا تسقط السماء على الأرض ولم لا تنحدر الأرض فوق طباقها فلا يتماسكان ولا يتماسك من عليهما؟ فقال الزنديق، أمسكهما والله ربّهما وسيّدهما، فآمن الزنديق على يدي أبي عبد الله عليه السلام[1].

وقد أوردت هذه الرواية على طولها لتماميتها في إبطال مذهب الدّهرية ونزيد إيضاحها بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، ولو تأملتها حقّ التأمل ظهر لك أنّها في الحقيقة بمنزلة الشرح لقوله: ولم يلجأوا إلى حجة، إلى قوله: جان، فتدبّر لتبصر.

ولما نبّه على لطايف الحكمة ودقايق القدرة الشاهدة بوجود الصّانع المدبّر الحكيم في خلقة النملة أردف ذلك تأكيداً وتثبيتاً بذكر دقايق الصنع وبراهين التدبير في خلق الجرادة فقال عليه السلام:

(**وإن شئت قلت في الجرادة**) نظير ما قلته في النملة من القول البين كالكاشف عن تدبّر الصّانع الحكيم المدبّر (**إذ خلق لها عينين حمراوين وأسرج لها حدقتين قمراوين**) أي جعلهما مضيئتين كالسراج منيرتين كالليلة المنيرة بالقمر (**وجعل لها السمع الخفيّ**) أي عن أعين الناظرين وقيل: أراد بالخفيّ اللطيف السامع لخفيّ الأصوات.

قال الشارح البحراني: فوصفه بالخفاء مجازاً إطلاقاً لاسم المقبول على قابله.

(**وفتح لها الفم السّوي**) أي المستوى قال الشارح البحراني: والتسوية التعديل بحسب المنفعة الخاصة بها.

---

(١) الكافي: ١/ ٧٤، والتوحيد: ٢٩٥.

أقول: ويحتمل أن يكون المراد به أن فمها مشقوق عرضاً مثل فم السرطان وليس كأفواه الزنابير وساير ذوات الأجنحة من الحيوان.

(وجعل لها الحسّ القويّ) قال البحراني: أراد بحسّها قوّتها الوهمية وبقوته حذقها فيما ألهمت إياه من وجوه المعاش والتصرف يقال: لفلان حسّ حاذق إذا كان زكياً فطناً درّاكاً.

أقول: والظاهر أن المراد به قوة سامعتها وباصرتها، فإنا قد شاهدنا غير مرّة أنها تقع على الزرع في أوانه بزحفها فيصحن ويأكلن الزرع ويفسدنه فإذا ظهر في الجوّ واحد من الطير المعروف بطير الجراد يمرّ عليهنّ ولو على غاية بعد منهنّ يشاهدنه أو يسمعن صوته فيسكتن ويمسكن عن أصواتهن مخافة أن يقع عليهن فيقتلهنّ، وهو دليل على قوة سمعها وبصرها.

(و) جعل لها **(نابين)** أي سنين **(بهما تقرض)** وتقطع الزرع والحب **(ومنجلين)** أي يدين أو رجلين شبيهتين بالمنجل الذي يقضب أي يقطع به الزرع ووجه الشبه الاعوجاج والخشونة **(بهما تقبض)**.

ومن لطيف الحكمة في رجليها أن جعل نصفهما الذي يقع عليه اعتمادها وجلوسها كالمنشار ليكون لها معيناً على الفحص ووقاية لذاتها عند جلوسها وعمدة لها عند الطيران.

(يرهبها الزرّاع في زرعهم ولا يستطيعون ذبّها ولو أجلبوا بجمعهم) أي يخافها الزارعون ولا يقدرون على دفعها ولو تجمعوا وتألّبوا بجمعهم، ألا ترى أنها إذا توجهت بزحفها إلى بقعة وهجمت على زروعها وأشجارها أمحلته، ولا يستطيع أحد دفعها حتّى لو أنّ ملكاً من ملوك الدنيا أجلب عليها بخيله ورجله وأراد ذبّها عن بلاده لم يتمكّن من ذلك.

وفي ذلك تنبيه على عظمة الخالق حيث يسلّط أضعف خلقه على أقوى خلقه.

قيل لأعرابي: ألك زرع؟ فقال: نعم ولكن أتانا زجل من جراد بمثل مناجلي الحصاد فسبحان من يهلك القويُّ الأكول بالضعيف المأكول.

وفي **«حياة الحيوان»** للدميري عن ابن عمرانّ جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية: نحن جند الله الأكبر ولنا تسع وتسعون بيضة ولو تمّت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها.

وكيف كان فلا يستطيع أحد لدفعها **(حتّى ترد الحرث في نزواتها)** ووثباتها **(وتقضى منه شهواتها)** فترد الحرث باختيارها وترحل عنها باختيارها.

قال الأصمعي: أتيت البادية فإذا أعرابي زرع برّاً له، فلما قام على سوقه وجاد سنبله أتاه زجل جراد فجعل الرّجل ينظر إليه ولا يدري كيف الحيلة فيه فأنشأ يقول:

مرّ الجراد على زرعي فقلت لها ... لا تأكلن ولا تشغل بإفساد
فقام منهم خطيب فوق سنبلة ... إنا على سفر لا بدّ من زاد

وقوله **(وخلقها كلّه لا يكون إصبعاً مستدقة)** تنبيه على تمام التعجب بما أودع فيها من بديع الصنعة، يعني أنّها يرهبها الزراع ويخافها الحراث ويهابها الملاك، والحال أنها مخلوق ضعيف صغير حقير حتّى أنها لو شرح أوصافها المذكورة لمن لم يرها أصلاً اعتقد أن الموصوف بها لا بد أن يكون خلقاً عظيم الجثة قوي الهيكل حتّى يصلح استناد هذه الأوصاف إليه ولم يكن له مزيد تعجّب، فإذا تبيّن له صغر حجمه زاد تعجباً.

(فتبارك) أي تعالى: **﴿الله الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعا وكرها﴾** أراد بالسجدة معناها الحقيقي، لأنه يسجد له الملائكة والمؤمنين من الثقلين طوعاً حالتي الشدّة والرخا، والكفرة له كرهاً حال الشدّة والضرورة فقط أو معناها المجازي أعني مطلق الخضوع أعمّ من التكليفي والتكويني أي الدخول تحت ذل الافتقار والحاجة، والأوّل مبني على كون لفظة من مخصّصة بذوي العقول والثاني على عدم الاختصاص.

ويؤيّد الأوّل قوله **(ويعفر له خدّا ووجها)** لظهوره في التمريغ أي تقليب الوجه والخد بالأرض، اللهم إلا أن يكون كناية عن غاية الخضوع **(ويلقي إليه بالطاعة)** أي يطيع له **(سلماً وضعفاً)** أي من حيث التسليم والضعف أوحا لكونه مستسلماً ضعيفاً **(ويعطي له القياد رهبة وخوفاً)** أي ينقاد له لأجل الخوف والرهبة.

(فالطير مسخرة لأمره) كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النّحل: الآية ٧٩].

قال الطبرسي: أي ألم تتفكّروا وتنظروا إلى الطير كيف خلقها الله خلقة يمكنها معها التصرّف في جوّ السّماء صاعدة ومنحدرة وذاهبة وجائية، مذللات للطيران في الهواء بأجنحتها تطير من غير أن تعتمد على شيء - ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النّحل: الآية ٧٩] - أي ما يمسكهن عن السقوط على الأرض من الهواء إلاّ الله فيمسك الهواء تحت الطير حتّى لا ينزل فيه كإمساك الهواء تحت السابح في الماء حتّى لا ينزل فيه، فجعل إمساك الهواء تحتها إمساكاً لها على التوسّع، فإنّ سكونها في الجوّ إنما هو فعلها، فالمعنى ألم ينظروا في ذلك فتعلموا أن لها مسخّراً أو مدبّراً لا يعجزه شيء ولا يتعذر عليه شيء وأنه إنّما خلق ذلك ليعتبروا.

ولما نبّه على كونها مسخرة مقهورة تحت قدرته، أردفه بإحاطة علمه تعالى عليها بجميع أجزائها فقال **(أحصى عدد الريش منها والنفس)** وإحصائه كناية عن علمه به **(وأرسى قوايمها على الندى واليبس)** أي أثبت قوايمها بعضها على الندى كطير البحر وبعضها على اليبس كطير

البرّ **(قدّر أقواتها)** أي جعل لكلّ منها قوتاً مقدّراً معيّناً على قدر الكفاية **(وأحصى أجناسها)** وهو كناية عن إحاطته بأنواعها.

وفصّلها بقوله **(فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام دعا كلّ طاير باسمه)**.

قال الشارح البحراني: الدّعاء استعارة في أمر كل نوع بالدخول في الوجود وذلك الأمر يعود إلى حكم القدرة الإلهية العظيمة عليه بالدخول في الوجود، ووجه الاستعارة ما يشترك فيه معنى الدّعاء والأمر من طلب دخول مهيّة المطلوب بالدّعاء والأمر في الوجود وهو كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصّلت: الآية ١١] ﴿**فقضيهن**﴾ الآية، ولما استعار لفظ الدّعاء رشح بذكر الاسم لأن الشيء إنما يدعى باسمه، ويحتمل أن يريد الاسم اللغوي وهو العلامة فإن لكل نوع من الطير خاصّة وسمة ليست للآخر ويكون المعنى أنه تعالى أجرى عليها حكم القدرة بمالها من السّمات والخواص في العلم الإلهي واللّوح المحفوظ.

قال: وقال بعض الشارحين: أراد أسماء أجناس وذلك أنّ الله تعالى كتب في اللّوح المحفوظ كلّ لغة تواضع عليها العباد في المستقبل، وذكر الأسماء الّتي يتواضعون عليها، وذكر لكلّ اسم مسمّاه فعند إرادة خلقها نادى كلّ نوع باسمه فأجاب دعواه وأسرع في إجابته.

(وكفل له برزقه) أي ضمنه ثمّ أشار إلى كمال قدرته تعالى في خلق المطر والسحاب فقال **(وأنشأ السحاب الثقال)** أي الثقيلة بما فيها من الماء، وهو اقتباس من قوله سبحانه في سورة الرعد: ﴿**هو الذي يريكم..... السحاب الثقال**﴾ وقد تقدّم في الهداية الرابعة في شرح الفصل السادس من المختار التسعين تفسير هذه الآية ونبّهنا هناك على ما تضمنها الرّعد والبرق والسحاب والمطر من عجائب القدرة والعظمة والحكمة فليراجع ثمة.

وقوله: **(فأهل ديمها)** أي جعل ديمها هاطلة سائلة متتابعة **(وعدّد قسمها)** أي أحصى ماقدر منها لكلّ بلد وأرض على وفق الحكمة والمصلحة **(فبلّ الأرض بعد جفوفها وأخرج نبتها بعد جدوبها)** كما قال عزّ من قائل في سورة الحجّ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحجّ: الآية ٥] أي ترى الأرض ميتة يابسة فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وأنبتت من كلّ نوع من أنواع النبات موصوف بالبهجة والحسن والنضارة وفي سورة الروم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٤].

تبصرة

لما كان هذه الخطبة الشريفة متضمّنة بوصف خلقة أصناف من الحيوان وتشريح ما

أبدعه الله سبحانه فيها من دلائل القدرة والحكمة وبراهين التّوحيد والتفريد والعظمة، بعضها بالتفصيل كالنملة والجرادة، وبعضها بالإجمال والإشارة كالغراب والعقاب والحمامة والنعامة أحببت أن أذكر فصلاً وافياً في وصف هذه الأنواع السّتّة من الحيوان التي تضمّنها كلام أمير المؤنين عليه السلام على الترتيب الوارد في كلامه، والمقصود بذكر هذا الفصل تأكيد الغرض المسوق له هذه الخطبة الشريفة وهي الدّلالة على قدرة الصانع وحكمة المبدع عزّ وجلّ فأقول:

تذنيبات

الأول ـ في خلقة النملة

قال الدميري في كتاب «**حياة الحيوان**»: النمل معروف الواحدة نملة والجمع أنمال، وأرض نملة ذات نمل، والنملة بالضمّ النميمة يقال رجل نمل أي نمام، وما أحسن قول الأوّل:

اقنع بما تلقي بلا بلغة — فليس ينسى ربنا النملة
إن أقبل الدّهر فقم قائماً — وإن تولى مدبراً نم له

قال: وسميت النملة نملة لتنمّلها وهو كثرة حركتها وقلّة قوائمها، والنمل لا يتزاوج ولا يتلاقح إنّما يسقط منه شيء حقير في الأرض فينمو حتى يصير بيظتا ثم يتكوّن منه، والبيض كلّه بالضاد المعجمة إلا بيض النمل فإنّه بالظاء المشالة والنمل عظيم الحيلة في طلب الرّزق فإذا وجد شيئاً أنذر الباقين يأتون إليه، وقيل إنما يفعل ذلك منه رؤساؤها، ومن طبعه أنه يحتكر في أيّام الصيف للشتاء، وله في الاحتكار من الحيل ما أنه إذا احتكر ما يخاف إنباته قسّمه نصفين ما خلا الكسفرة فإنه يقسمها أرباعا لما ألهم من أن كلّ نصف منها ينبت، وإذا خاف العفن على الحب أخرجه إلى ظاهر الأرض ونشره، وأكثر ما يفعل ذلك ليلاً في ضوء القمر ويقال: إن حياته ليست من قبل ما يأكل ولا قوامه، وذلك إنه ليس له جوف ينفذ فيه الطعام ولكنه مقطوع نصفين، وإنما قوته إذا قطع الحبّ في استنشاق ريحه فقط وذلك يكفيه.

أقول: وظاهر كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة أعني قوله عليه السلام في مجاري أكلها ومن شراسيف بطنها يدلّ على فساد زعم هذا القائل، والتجربة أيضاً تشهد بخلافه، فإنا قد شاهدنا كثيراً أن الذّر وهي صغار النمل تجتمع على حبوبات الطعام ونحوها ويأكلها حتى يفنيه بتمامها.

قال الدميري: وقد روى عن سفيان بن عيينة أنه قال: ليس شيء يخبا قوته إلا الإنسان

والعقعق والنمل والفار، وبه جزم في «**الأحياء**» في كتاب التوكل، وعن بعضهم أن البلبل يحتكر الطعام ويقال: إن للعقعق مخابي إلاّ أنه ينساها، والنمل شديد الشم، ومن أسباب هلاكه نبات أجنحته فإذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير لأنها تصيدها في حال طيرانها، وقد أشار إلى ذلك أبو العتاهية بقوله:

فــإذا اســتــوت لــلــنــمــل أجــنــحــة حــتــى تــطــيــر فــقــد دنــا عــطــبــه

وكان الرشيد يتمثل بذلك كثيراً عند نكبة البرامكة.

وهو يحفر قرية بقوائمه وهي ستّ فإذا حفرها جعل فيها تعاويج «تعاريخ خ» لئلا يجري إليها ماء المطر، وربما اتخذ قرية فوق قرية لذلك وإنما يفعل ذلك خوفاً على ما يدّخره من البلل.

قال البيهقي في «**الشعب**»: وكان عدي بن حاتم الطائي يفتّ الخبز للنمل ويقول: إنهنّ جارات ولهنّ علينا حقّ الجوار.

وسيأتي في الوحش عن الفتح بن خرشف الزاهد أنّه كان يفتّ الخبز لهنّ في كلّ يوم فإذا كان يوم عاشوراء لم تأكله.

وليس في «**الحيوان**» ما يحمل ضعف بدنه مراراً غيره على أنه لا يرضى بأضعاف الأضعاف حتّى أنّه يتكلّف حمل نوى التمر وهو لا ينتفع به وإنما يحمله على حمله الحرص والشره وهو يجمع غذاء سنين لو عاش ولا يكون عمره أكثر من سنة.

ومن عجايبه اتخاذ القرية تحت الأرض، وفيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات معلقات تملأها حبوباً وذخاير للشتاء، ومنه ما يسمّى الذر الفارسي وهو من النمل بمنزلة الزنابير من النحل، ومنه أيضاً ما يسمّى بنمل الأسد سمّي بذلك لأن مقدمه يشبه وجه الأسد ومؤخره يشبه النمل.

وروى البخاري ومسلم وأبو داود النسائي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: نزل نبيّ من الأنبياء عليه السلام تحت شجرة فلذعته، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها وأمر بها فأحرقت بالنار فأوحى الله تعالى إليه هلاّ نملة واحدة[١].

قال أبو عبد الله الترمذي في «**نوادر الأصول**»: لم يعاتبه على تحريقها وإنما عاتبه بكونه أخذ البريء بغير البريء، وهذا النّبي هو موسى بن عمران عليه السلام وأنّه قال يا ربّ تعذّب أهل

(١) صحيح ابن حبان: ٤٦٣/١٢ ح٥٦٤٥، وبحار الأنوار: ٢٤٣/٦١.

قرية بمعاصيهم وفيهم الطايع، وكأنّه أحبّ أن يريه ذلك من عنده فسلّط عليه الحرّ حتّى التجأ إلى شجرة مستروحاً إلى ظلّها وعندها قرية نمل فغلبه النوم فلما وجد لذة النوم لذعته نملة فدلكهنّ بقدمه فأهلكهنّ وأحرق مسكنهنّ فأراه تعالى الآية في ذلك عبرة لما لذعته نملة كيف أصيب الباقون بعقوبتها، يريد أن ينبّهه على أن العقوبة من الله تعالى تعم الطايع والعاصي، فتصير رحمة وطهارة وبركة على المطيع، وشرّاً ونقمة وعدواناً على العاصي، وعلى هذا ليس في الحديث ما يدلّ على كراهة ولا خطر في قتل النّمل، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ولا أحد من خلق الله أعظم حرمة من المؤمن وقد أبيح لك دفعه بضرب أو قتل على ماله من المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخّرت المؤمن وسلّط عليها.

قال الدميري: وروى الطبراني والدارقطني أنّه قال: لما كلّم الله موسى عليه السلام كان يبصر دبيب النملة على الصفاء في اللّيلة الظلماء من مسيرة عشرة فراسخ[1].

قال: وروى أن النملة التي خاطبت سليمان أهدت إليه نبقة فوضعها عليه السلام في كفّه فقالت:

ألـم تـرنـا نـهـدي إلـى الله مـالـه	وإن كـان عـنـه ذاغـنـي فـهـو قـابـلـه
ولـو كـان يـهـدي لـلـجـلـيـل بـقـدره	لـقـصـر عـنـه الـبـحـر حـيـن يـسـاجـلـه
ولـكـنـنـا نـهـدي إلـى مـن نـحـبّـه	فـيـرضـى بـهـا عـنّـا ويـشـكـر فـاعـلـه
ومـا ذاك إلا مـن كـريـم فـعـالـه	وإلا فـمـا فـي مـلـكـنـا مـن يـشـاكـلـه

فقال سليمان عليه السلام: بارك الله فيكم فهو بتلك الدعوة أكثر خلق الله، انتهى ما أهمنا نقله من كتاب «**حياة الحيوان**».

أقول: ومن عجيب قصّة النمل ما جرى له مع سليمان عليه السلام وقد أخبر به سبحانه في كتابه العزيز قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: الآية ١٧ ـ ١٩].

قال الطبرسي «أتوا على واد النمل» هو واد بالطائف وقيل بالشام «قالت نملة» أي صاحت بصوت خلق الله لها، ولما كان الصوت مفهوماً لسليمان عبر عنه بالقول، وقيل:

(١) بحار الأنوار: ٦١/٢٤٤، وميزان الحكمة: ٤/٣٠٩٦ ح١٧.

كانت رئيسة النّمل ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النّمل: الآية ١٨] أي لا يكسرنكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النّمل: الآية ١٨] بحطمكم أو وطئكم فإنهم لو علموا بمكانكم لم يطأوكم.

وهذا يدلّ على أن سليمان وجنوده كان ركباناً ومشاة على الأرض ولم تحملهم الريح، لأن الريح لو حملتهم بين السّماء والأرض لما خافت النملة أن يطأوها بأرجلهم ولعلّ هذه القصّة كانت قبل تسخير الله الريح لسليمان عليه السلام.

فإن قيل: كيف عرفت النّملة سليمان وجنوده حتّى قالت هذه المقالة؟

قلنا: إذا كانت مأمورة بطاعته فلا بد وأن يخلق الله لها من الفهم ما تعرف به أمور طاعته، ولا يمتنع أن يكون لها من الفهم ما تستدرك به ذلك وقيل: إن ذلك كان منها على سبيل المعجز.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النّمل: الآية ١٩] وسبب ضحكه التعجب لأنه رأى ما لا عهد له به وقيل إنه تبسّم بظهور عدله حتّى عرفه النمل، وقيل: إنّ الريح أطارت كلامها إليه من ثلاثة أميال حتّى سمع ذلك فانتهى إليها وهي تأمر النمل بالمبادرة، فتبسّم عليه السلام من حذرها، هذا.

قال بعض أهل العلم: إن النملة تكلّمت بعشرة أنواع من البديع قولها: يا نادت، أيّها، نبّهت، النمل، سمّت، ادخلوا، أمرت، مساكنكم، نعتت، لا يحطمنكم، حذرت، سليمان، خصّت، وجنوده، عمّت، وهم، أشارت، لا يشعرون، اعتذرت.

وفي «البحار» من تفسير عليّ بن إبراهيم ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ [النّمل: الآية ١٧] قعد على كرسيه وحملته الرياح على واد النمل وهو واد ينبت الذّهب والفضة، قد وكّل الله به النمل وقول الصّادق عليه السلام: إن لله وادياً ينبت الذهب والفضة قد حماه الله بأضعف خلقه وهو النمل لورامه البخاتي ما قدرت عليه، فلما انتهى سليمان إلى وادي النمل **(قالت نملة)** الآية[١].

وفي «البحار» من العيون العلل بسنده عن داود بن سليمان الغازي قال: سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عليهما السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النّمل: الآية ١٩].

قال: لما قالت النملة ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النّمل: الآية ١٨] حملت الريح صوت النملة إلى سليمان وهو مارّ في الهواء والريح قد

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٩١ ح١، وتفسير القمي: ٢/ ١٢٧.

حملته فوقف وقال: عليّ بالنملة.

فلما أتى بها قال سليمان: يا أيّتها النملة أما علمت أني نبيّ الله وأني لا أظلم أحداً؟ قالت النّملة: بلى، قال سليمان: فلم حذّر تنيهم ظلمي؟ وقلت: يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم؟ قالت النملة: خشيت أن ينظروا إلى زينتك فيفتتنوا بها فيبعدوا عن ذكر الله.

ثمّ قالت النملة: أنت أكبر أم أبوك داود؟ قال سليمان: بل أبي داود، قالت النملة: فلم زيد في حروف اسمك حرف على حروف اسم أبيك داود؟ قال سليمان عليه السلام: ما لي بهذا علم، قالت النملة: لأن أباك داوى جرحه بودّ فسمّي داود وأنت يا سليمان أرجو أن تلحق بأبيك.

ثمّ قالت النّملة: هل تدري لم سخّرت لك الرّيح من بين سائر المملكة؟ قال سليمان: ما لي بهذا علم، قالت النّملة: يعني عزّ وجلّ بذلك لو سخرت لك جميع المملكة كما سخرت لك هذه الرّيح لكان زوالها من يدك كزوال الريح ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النّمل: الآية ١٩].

قال العلامة المجلسي رحمه الله: معنى التعليل الذي ذكره النملة أن أباك لما ارتكب ترك الأولى وصار قلبه مجروحاً بذلك فداواه بودّ الله ومحبّته فلذا سمّي بداود واشتقاقاً من الدواء بالودّ، وأنت لما ترتكب بعد وأنت سليم منه سميت سليمان فخصوص العلتين للتسميتين صارتا علة لزيادة اسمك على اسم أبيك(١).

ثمّ لما كان كلامها موهماً لكونه من جهة السّلامة أفضل من أبيه استدركت ذلك بأن ما صدر منه لم يصر سبباً لنقصه بل صار سبباً لكمال محبّته وتمام مودّته وأرجو أن تلحق أنت أيضاً بأبيك في ذلك ليكمل محبّتك.

وفي «حياة الحيوان» عن الثعلبي وغيره أنها كانت مثل الذئب في العظم وكانت عرجاء ذات جناحين.

وفي «تفسير» المولى فتح الله من كشف الغمّة: كانت مثل الدّيك(٢)، ومن **«زاد المسير»**: كانت بعظم نعجة، ومن **«كشف الأسرار»** سألها سليمان عليه السلام عن مقدار جيشها فقالت: أربعة آلاف قائد، ولكلّ قائد أربعون ألف نقيب، ولكلّ نقيب أربعون ألفاً.

وفي «روضة الصفا» قال لها سليمان عليه السلام: **أما علمت أني نبيّ الله لا أرضى بظلم أحد؟**

---

(١) البحار: بحار الأنوار: ١٤/ ٩٣، وقصص الأنبياء: ٤١٦.

(٢) بحار الأنوار: ٦١/ ٢٤٦.

قالت: نعم، قال: فلم حذرتهم؟ قال: يلزم على السائس أن ينصح قومه، وأيضاً فقد خفت من جنودك أن يحطمنّهم من حيث لا يشعرون، فاستحسن عليه السلام قولها.

ثمّ قال لها تلطفاً: سلطانك أعظم أم سلطاني؟ قالت: بل سلطاني، قال: فكيف ذلك؟ قالت: لأن سريرك على الريح وسريري كفك.

ثمّ قال: جندك أكثر أم جندي؟ قالت: بل جندي، قال من أين هذا؟ قالت فارجه حتّى أعرض عليك بعض جيشي، فصاحت عليهم أن اخرجوا من حجراتكم حتى ينظر إليكم نبيّ الله، فخرج سبعون ألف فوج لا يعلم عددهم إلا الله قال عليه السلام: هل بعد ذلك؟ قالت: لو خرج كلّ يوم مثلها إلى سبعين عاماً لم تنفدوا، ثمّ لما أراد المسير أهدت إليه نصف رجل جراد واعتذرت كما قال الشاعر:

أهدت سليمان يوم العرض نملته	تأتي برجل جراد كان في فيها
ترنمت بفصيح القول واعتذرت	إن الهدايا على مقدار مهديها

الثاني - في الجرادة

قال في «حياة الحيوان»: الجراد معروف الواحدة جرادة الذكر والأنثى فيه سواء يقال هذه جرادة أنثى كنملة وحمامة، قال أهل اللّغة: وهو مشتق من الجرد قالوا: والاشتقاق في أسماء الأجناس قليل جدّاً يقال: ثوب جردت أي أملس، وثوب جرد إذا ذهب زبره.

وهو أصناف مختلفة فبعضه كبير، وبعضه صغير، وبعضه أصفر وبعضه أبيض وإذا خرج من بيضه يقال له الدبا، فإذا طلعت أجنحته وكبرت فهو الغوغا، الواحدة غوغاة وذلك حين يموج بعضه في بعض، فإذا بدت فيه الألوان واصفرت الذكور واسودت الإناث سمّي جراداً حينئذ وإذا أراد أن يبيض التمس لبيضه المواضع الصّلدة والصخور الصّلبة التي لا تعمل فيها المعاول فيضر بها بذنبه فتفرج له فيلقي بيضه في ذلك الصّدع فيكون له كالأفحوص ويكون حاضناً له ومربياً.

وللجرادة ستّة أرجل يدان في صدرها وقائمتان في وسطها ورجلان في مؤخّرها وطرفا رجليها منشاران، وهو من الحيوان الّذي ينقاد لرئيسه فيجتمع كالعسكر إذا ظعن أوله تتابع جميعه ظاعناً وإذا نزل أوله نزل جميعه، ولعابه سمّ ناقع للنبات لا يقع على شيء منه إلاّ أهلكه.

قال: وفي الجراد خلقة عشرة من جبابرة الحيوان مع ضعفه: وجه فرس وعينا فيل، وعنق ثور، وقرنا أيل، وصدر أسد، وبطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذا جمل، ورجلا نعامة، وذنب حيّة.

وقد أحسن القاضي محيي الدّين في وصف الجراد بذلك في قوله:

فخذا بكر وساقا نعامة وقادمتا نسر وجؤجؤ ضيغم
حبتها أفاعي الأرض بطناً وأنعمت عليها جياد الخيل بالرأس والفم

قال الشارح المعتزلي: قال أبو عثمان في كتاب «**الحيوان**»: من عجائب الجرادة التماسها لبيضها الموضع الصّلد والصّخور الملس ثقة بأنها إذا ضربت بأذنابها فيها انفرجت لها، ومعلوم أن ذنب الجراد في خلقة المنشار ولا طرف ذنبه كحدّ السّنان ولا لها من قوة الأسر ولا لذنبها من الصّلابة ما إذا اعتمدت به على الكدية جرح فيها، كيف وهي تتعدى إلى ما هو أصلب من ذلك[1].

وليس في طرفها كإبرة العقرب وعلى أن العقرب ليس تخرق القمقم بذنبها من جهد الأيد وقوة البدن، بل إنما ينفرج ألمها بطبع مجعول هناك، وكذلك انفراج الصخور لأذناب الجراد.

ولو أن عقاباً أرادت أن تخرق الجاموس لما انخرق لها إلاّ بالتكلّف الشديد والعقاب هي التي تكدر على الذئب فتقد بدابرتها ما بين صلوه إلى موضع الكاهل فإذا غرزت الجرادة وألقيت بيضها وانضمت عليها تلك الأخاديد التي هي أحدثتها وصارت كالأفاحيص لها، صارت خاضنة لها ومربية وحافظة وصائنة واقية.

حتّى إذا جاء وقت دبيب الرّوح فيها حدث عجب آخر لأنّه تخرج من بيضه أصهب إلى البياض، ثمّ يصفر ويتكوّن فيه خطوط سود وبيض، وحجم جناحه ثمّ يستقل فيموج بعضه في بعض.

قال في «حياة الحيوان»: تكتب هذه الكلمات وتجعل في أنبوبة قصب وتدفن في الزرع أو في الكرم فإنّه لا يؤذيه الجراد بإذن الله تعالى وهي:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمّد وعلى آل سيّدنا محمّد وسلّم، اللّهمّ أهلك صغارهم واقتل كبارهم، وافسد بيضهم وخذ بأفواههم عن معايشنا وأرزاقنا إنّك سميع الدّعاء، إنّي توكّلت على الله ربّي وربّكم ما من دابّة إلاّ هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم، اللهمّ صلّ على سيّدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلّم واستجب منّا يا أرحم الرّاحمين» وهو عجيب مجرّب.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٦٧.

الثالث ـ في الغراب

قال في «حياة الحيوان»: الغراب معروف سمّي بذلك لسواده ومنه قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٧] وكنيته أبو المرقال قال: قال الشاعر:

إن الغراب وكان يمشي مشية فيما مضى من سالف الأجيال

حسد القطاة ورام يمشي مشيها فأصابه ضرب من العقال

فأضلّ مشيته وأخطأ مشيها فلذاك سمّوه أبا المرقال

وهو أصناف: العذاف، والزاغ، والأكحل، وغراب الزرع، والأورق، وهذا الصنف يحكي جميع ما يسمعه، والغراب الأعصم عزيز الوجود قالت العرب: أعز من الغراب الأعصم.

وقال ﷺ: مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم في مئة غراب، رواه الطبراني من حديث أبي أمامة[١].

وفي رواية ابن أبي شيبة قيل: يا رسول الله وما الغراب الأعصم؟ قال: الذي إحدى رجليه بيضاء.

وقال في «الأخبار»: الأعصم أبيض البطن، وقيل: أبيض الجناحين، وقيل: أبيض الرجلين، وغراب الليل قال الجاحظ: هو غراب ترك أخلاق الغربان وتشبه بأخلاق البوم فهو من طير الليل.

وقال أرسطاطاليس: الغراب أربعة أجناس: أسود حالك، وأبلق، ومطرف ببياض لطيف الجرم يأكل الحب، وأسود طاووسي براق الرّيش ورجلاه كلون المرجان يعرف بالزاغ.

قال صاحب «المنطق»: الغراب من لئام الطير وليس من كرامها ولا من أحرارها ومن شأنه أكل الجيف والقمامات.

وهو إما حالك السّواد شديد الاحتراق، ويكون مثله في النّاس الزنج فإنّهم شرار الخلق تركيباً ومزاجاً كمن بردت بلاده ولم تنضجه الأرحام، أو سخنت بلاده فأحرقته الأرحام، وإنما صارت عقول أهل بابل فوق العقول وكمالهم فوق الكمال لأجل ما فيها من الاعتدال، فالغراب الشديد السّواد ليس له معرفة ولا كمال.

---

(١) الكافي: ٥/٥٥١ ح٢، وسائل الشيعة: ٢٠/٤٠ ح٢٤٩٧٨.

والغراب البين الأبقع قال الجوهري: هو الذي فيه سواد وبياض، وقال صاحب المجالسة: سمّي الغراب البين لأنه بان عن نوح عليه السلام لما وجّهه لينظر إلى الماء، فذهب ولم يرجع، ولذلك تشاءموا به.

وقال صاحب «**منطق الطير**»: الغربان جنس من الأجناس التي أمر بقتلها في الحلّ والحرم من الفواسق، اشتق لها ذلك الاسم من اسم إبليس لما يتعاطاه من الفساد الذي هو شأن إبليس، واشتق ذلك أيضاً لكلّ شيء اشتد أذاه، وأصل الفسق الخروج عن الشيء، وفي الشرع الخروج عن الطاعة.

وقال الجاحظ: غراب البين نوعان: أحدهما غراب صغير معروف باللّوم والضعف وأمّا الآخر فإنه ينزل في دور الناس ويقع على مواضع إقامتهم إذا ارتحلوا عنها وبانوا منها، فلما كان هذا الغراب لا يوجد إلاّ عند بينونتهم عن منازلتهم اشتقوا له هذا الاسم من البينونة.

وقال المقدسي: هو غراب أسود ينوح نوح الحزين المصاب وينعق بين الحلال «الخلاّن» والأحباب، وإذا رأى شملاً مجتمعاً أنذر بشتاته، وإن شاهد ربعاً عامراً بشّر بخرابه ودروس عرصاته، يعرّف النازل والساكن بخراب الدّور والمساكن، ويحذّر الآكل غصة المآكل، ويبشّر الراحل بقرب المراحل، ينعق بصوت فيه تحزين، كما يصيح المعلن بالتأذين، وأنشد على لسان حاله:

أنوح على ذهاب العمر منّي	وحقّ أن أنوح وأن أنادي
وأنذر كلّما عاينت ركباً	حدا بهم لو شك البين حادي
يعنّفني الجهول إذا رآني	وقد ألبست أثواب الحداد
فقلت له اتعظ بلسان حالي	فإني قد نصحتك باجتهاد
وها أنا كالخطيب وليس بدعاً	على الخطباء أثواب السّواد
ألا ترني إذا عاينت ركباً	أنادي بالنوى في كلّ ناد
أنوح على الطلول فلم يجبني	بساحتها سوى خرس الجماد
فأكثر في نواحيها نواحي	من البين المفتت للفؤاد
تيقظ يا ثقيل السّمع وافهم	إشارة من تسير به الغوادي
فما من شاهد في الكون إلا	عليه من شهود الغيب بادي
وكمن من رائح فيها وغاد	ينادي من دنوّ أو بعاد
لقد أسمعت لو ناديت حيّاً	ولكن لا حياة لمن ينادي

قال الدميري: والعرب تتشاءم بالغراب ولذا اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب.

وقال الجاحظ: وإنما كان الغراب عندهم هو المقدم في باب الشؤم لأنه لما كان أسود ولونه مختلفاً إن كان أبقع ولم يكن على إبلهم شيء أشدّ من الغراب وكان حديد البصر يخاف من عينيه كما يخاف من عين المعيان قدموه في باب الشؤم، انتهى.

ويقال: إن الغراب يبصر من تحت الأرض بقدر منقاره، وفي طبع الغراب كله: الاستتار عند السّفاد، وهو يسفد مواجهة ولا يعود إلى الأنثى بعد ذلك أبداً لقلة وفائه. والأنثى تبيض أربع بيضات أو خمساً.

وإذا خرجت الفراخ من البيض طردتها لأنّها تخرج قبيحة المنظر جدّاً إذ تكون صغار الأجرام عظام الرؤوس والمناقير، جرو اللون متفاوتات الأعضاء، فالأبوان ينكران الفراخ ويطيران لذلك ويتركانه، فيجعل الله قوته في الذباب والبعوض الكائن في عشه إلى أن يقوى وينبت ريشه، فيعود إليه أبواه وعلى الأنثى الحضن وعلى الذكر أن يأتيها بالمطعم.

وفي طبعه أنه لا يتعاطى الصّيد بل إن وجد جيفة أكل منها وإلاّ مات جوعاً أو يتقمقم كما يتقمقم صغار الطير، وفيه حذر شديد وتنافر، والعذاف يقاتل البوم ويخطف بيضها ويأكله.

ومن عجيب إن الإنسان إذا أراد أن يأخذ فراخه تحتمل الأنثى والذكر في أرجلهما حجارة ويتحلقان في الجو ويطرحان الحجارة عليه يريدان بذلك دفعه.

قال أبو الهيثم: يقال إن الغراب يبصر من تحت الأرض بقدر منقاره، والحكمة في ذلك أن الله تعالى بعث إلى قابيل لما قتل أخاه هابيل غراباً ولم يبعث له غيره من الطير ولا من الوحش إن القتل كان مستغرباً جداً إذ لم يكن معهوداً قبل ذلك، فناسب بعث الغراب.

عجيبة

نقل القزويني عن أبي حامد الأندلسي أن على البحر الأسود من ناحية الأندلس كنيسة من الصّخر منقورة في الجبل عليها قبّة عظيمة، وعلى القبّة غراب لا يبرح وفي مقابل القبّة مسجد يزوره النّاس يقولون: إن الدّعاء فيه مستجاب، وقد قرر على القسيسين ضيافة من يزور ذلك المسجد من المسلمين، فإذا قدم زائر دخل الغراب رأسه في روزنة على تلك القبّة وصاح صيحة، وإذا قدم اثنان صاح صيحتين وهكذا كلما وصل زوار صاح على عددهم، فتخرج الرّهبان بطعام يكفي الزائرين وتعرف تلك الكنيسة بكنيسة الغراب، وزعم القسيسون

أنهم ما زالوا يرون غراباً على تلك القبة ولا يدرون من أين يأكل أو يشرب.

الرابع ـ في العقاب

قال الدّميري: العقاب طاير معروف والجمع أعقب قال في «**الكامل**»: العقاب سيّد الطيور والنسر عريفها، قال ابن ظفر: حاد البصر ولذلك قالت العرب: أبصر من عقاب، والأنثى منه تسمّى لقوة وقال ابن خلكان: يقال: إن العقاب جميعه أنثى وإن الّذي يسافده طير آخر من غير جنسه، وقيل: إن الثعلب يسافده، قال: وهذا من العجايب، ولابن عنين الشاعر في هجو شخص يقال له: ابن سيدة.

ما أنت إلا كالعقاب فأمّه معروفة وله أب مجهول

والعقاب تبيض ثلاث بيضات في الغالب، وتحضنها ثلاثين يوماً وما عداها من الجوارح يبيض بيضتين ويحضن عشرين يوماً، فإذا خرجت فراخ العقاب ألقت واحداً منها لأنها يثقل عليها طعم الثلاث وذلك لقلة صبرها، والفرخ الذي تلقيه يعطف عليه طائر آخر يسمى كاسر العظام، فيربيّه، ومن عادة هذا الطائر أن يزق كلّ فرخ ضائع.

والعقاب إذا صادت شيئاً لا تحمله على الفور إلى مكانها، بل تنقله من موضع إلى موضع، ولا تقعد إلا على الأماكن المرتفعة، وإذا صادت الأرانب تبدأ بصيد الصّغار ثمّ الكبار.

ومن عجيب ما ألهمته أنّها إذا اشتكت أكبادها أكلت أكباد الأرانب والثعالب فتبرأ، وهي تأكل الحيّات إلاّ رؤوسها، والطيور إلاّ قلوبها، ويدلّ لهذا قول امرىء القيس.

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدي وكرها العناب والحشف البالي

ومن شأنها أن جناحها لا يزال يخفق قال عمرو بن خرام:

لقد تركت عفراء قلبي كأنّه جنح عقاب دائم الخفقان

وهي أشد الجوارح حرارة وأقواها حركة، وأيبسها مزاجاً، وهي خفيفة الجناح سريعة الطيران، تتغدى بالعراق وتتعشى باليمن، وريشها الذي عليها فروتها بالشتاء وحليتها في الصّيف، ومتى ثقلت عن النهوض وعميت حملتها الفراخ على ظهورها ونقلتها من مكان إلى مكان، فعند ذلك تلتمس لها عيناً صافية بأرض الهند على رأس جبل فتغمسها فيها ثمّ تضعها في شعاع الشمس فيسقط ريشها وينبت لها ريش جديد وتذهب ظلمة بصرها، ثمّ تغوص في تلك العين فإذا هي قد عادت شابة كما كانت فسبحان القادر على كلّ شيء الملهم كلّ نفس هداها.

الخامس - في الحمام

قال الجوهري: هو عند العرب ذوات الأطواق نحو الفواخت والقماري وساق حرّ والقضاء والوراشين وأشباه ذلك، يقع على الذكر والأنثى لأن الهاء إنما دخلت على أنّه واحد من جنس لا للتأنيث، ونقل الأزهري عن الشافعي أن الحمام كل ما عبّ وهدر.

قال الدّميري: الحمام الذي يألف البيوت قسمان:

أحدهما البرّي وهو الذي يلازم البروج وما أشبه ذلك وهو كثير النفور وسمّي بريّاً لذلك.

والثاني الأهلي وهو أنواع مختلفة وأشكال متباينة منها الرواعب، والمراعيس والعذاد، والسداد، والمضرب، والقلاب، والمنسوب، وهو بالنسبة إلى ما تقدّم كالعتاق من الخيل وتلك كالبراذين.

قال الجاحظ: الفقيع من الحمام كالصصلاب «الصقلاب ظ» من الناس وهو الأبيض.

قال الدّميري: ومن طبعه أنّه يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ ويحمل الأخبار ويأتي بها من البلاد البعيدة في المدّة القريبة، وفيه ما يقطع ثلاثة آلاف فراسخ في يوم وحد، وربما اصطيد وغاب عن وطنه حتّى يجد فرصة فيطير إليه.

وسباع الطير تطلبه أشدّ الطلب وخوفه من الشاهين أشدّ من خوفه من غيره، وهو أطير منه ومن ساير الطيور كلّها لكنّه يذعر منه ويعتريه ما يعتريه الحمار من الأسد والشاة إذا رأت الذئب والفار إذا رأى الهرّ.

ومن عجيب الطبيعة فيه ما حكاه ابن قتيبة في «**عيون الأخبار**» عن المثنى بن زهير، أنّه قال: لم أر شيئاً قط من رجل وامرأة إلا وقد رأيته في الحمام، رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها وذكراً لا يريد إلا أنثاه إلا أن يهلك أحدهما أو يفقد، ورأيت حمامة تتزيّن للذكر ساعة يريدها، ورأيت حمامة لها زوج وهي تمكن آخر ما تعدده، ورأين حمامة تقمط حمامة ويقال إنها تبيض من ذلك ولكن لا يكون لذلك البيض فراخ؛ ورأيت ذكراً يقمط ذكراً، ورأيت ذكراً يقمط كل ما رأى ولا يزاوج وأنثى يتمطها كلّ ما رآها من الذكور ولا تزاوج، وليس من الحيوان ما يستعمل التقبيل عند السفاد إلاّ الإنسان والحمام، وهو عفيف في السّفاد يجرّ ذنبه ليعفي أثر الأنثى كأنه قد علم ما فعلت فيجتهد في إخفائه، وقد يسفد لتمام ستة أشهر والأنثى تحمل أربعة عشر يوماً وتبيض بيضتين إحداهما ذكر والثانية أنثى، وبين الأولى والثّانية يوم وليلة، والذكر يجلس على البيض ويسخنه جزء من النّهار والأنثى بقية النهار، وكذلك في اللّيل، وإذا باضت الأنثى وابت الدخول على بيضها لأمر ما ضربها الذكر واضطرّها

للدخول، وإذا أراد الذكر أن يسفد الأنثى أخرج فراخه من الذكر «الوكر» وقد ألهم هذا النوع إذا خرجت فراخه من البيض بأن يمضغ الذكر تراباً مالحاً ويطمّها إياه ليسهل به سبيل المطعم، وزعم أرسطو أن الحمام يعيش ثماني سنين.

وذكر الثعلبي وغيره عن وهب بن منبه في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص: الآية ٦٨] قال: اختار من النعم الضأن، ومن الطير الحمام.

وذكر أهل التاريخ أن المسترشد بالله لما حبس رأى في منامه كأن على يده حمامة مطوقة، فأتاه آت فقال له: خلاصك في هذا، فلما أصبح حكى ذلك لابن السكينة فقال له: ما أوّلته؟ قال: أولته ببيت أبي تمام.

هن الحمام فإن كسرت عيافة ... من حائهن فإنهن حمام

وخلاصي من حمامي، فقتل بعد أيام يسيرة سنة تسع وعشرين وخمس مئة.

وفي «البحار من الكافي» عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النّوفلي عن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «اتخذوا الحمام الراعبية في بيوتكم فإنّها تلعن قتلة الحسين عليه السلام»[1].

وفيه من العيون والعلل سأل الشامي أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى هدير الحمام الراعبية فقال عليه السلام: «تدعو على أهل المعازف والقيان والمزامير والعيدان»[2].

ومن «الكافي» عن أبي حديجة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «هذه الحمام حمام الحرم من نسل حمام إسماعيل بن إبراهيم التي كانت له»[3].

وعن أبي سلمة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «الحمام طير من طيور الأنبياء عليهم السلام الّتي كانوا يمسكون في بيوتهم وليس من بيت فيه حمام إلاّ لم يصب ذلك البيت آفة من الجنّ، إن سفهاء الجن يعبثون بالحمام ويدعون الناس، قال فرأيت في بيت أبي عبد الله عليه السلام حماماً لابنه إسماعيل»[4].

السادس ـ في النعام

قال في «حياة الحيوان»: معروف يذكر ويؤنث، وهو اسم جنس مثل حمام وحمامة

---

(١) الكافي: ٦/ ٥٤٧، وكامل الزيارات: ١٩٨.

(٢) علل الشرائع: ٢/ ٥٩٦، ووسائل الشيعة: ١٧/ ٣١٤ ح٢٢٦٣٥.

(٣) وسائل الشيعة: ١١/ ٥١٦ ح١٥٤١٦، وبحار الأنوار: ٦٢/ ١٧ ح١٧.

(٤) الكافي: ٦/ ٥٤٧ ح٨، وبحار الأنوار: ٤٧/ ٢٣٣.

وجراد وجرادة وتجمع النعامة على نعامات قال الجاحظ: والفرس يسمّونها شترمرغ، وتأويله بعير وطائر قال الشاعر:

ومثل نعامة تدعى بعيراً تعاميا إذا ما قيل طيري

فإن قيل احملي قالت فإني من الطير المرفه في الوكور

قال: وتزعم الأعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها، فلذلك سميت بالظليم، انتهى.

وكأنهم إنما سموها ظليماً لأنّهم إنّما ظلموها حين قطعوا أذنيها ولم يعطوها ما طلبت، وهذا بناء على اعتقادهم الفاسد.

قال الدّميري: والنّعام عن المتكلّمين على طبايع الحيوان ليست بطاير، وإن كانت تبيض ولها جناح وريش، ويجعلون الخفاش طيراً، وإن كان يحبل ويلد وله أذنان بارزتان وليس له ريش لوجود الطيران فيه ومراعاة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [المَائدة: الآية ١١٠] وهم يسمّون الدجاجة طيراً وإن كانت لا تطير.

وظن بعض النّاس أن النعامة متولدة من جمل وطاير، وهذا لا يصحّ، ومن أعاجيبها أنّها تضع بيضها طولاً بحيث لو مدّ عليها خيط لاشتمل على قدر بيضها ولم تجد شيء منه خروجاً عن الآخر، ثمّ إنّها تعطي كلّ بيضة منه نصيبها من الحضن إذ كان كلّ بدنها لا يشتمل على عدد بيضها، وهي تخرج لعدم الطعم. فإن وجدت بيض نعامة أخرى تحضنه وتنسى بيضها. ولعلّها أن تصاد فلا ترجع إليه وهذا توصف بالحمق ويضرب بها المثل قال الشاعر:

فإني وتركي ندى الأكرمين وقدحي بكفي زناداً شحاحاً

كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحاً

قال الدّميري: والنعام من الحيوان الذي يعاقب الذكر الأنثى في الحضن وكل ذي رجلين، إذا انكسرت له إحداهما استعان بالأخرى في نهوضه وحركته ما خلا النعامة فإنها تبقي في مكانها جاثمة حتّى تهلك جوعاً قال الشاعر:

إذا انكسرت رجل النعامة لم تجد على أختها نهضاً ولا باستها حبوا

وليس للنعام حاسة السمع ولكن له شمّ بليغ، فهو يدرك بأنفه ما يحتاج فيه إلى السمع، فربما شم رائحة القناص من بعد، ولذلك تقول العرب: هو أشم من النعامة.

قال ابن خالويه: ليس في الدّنيا حيوان لا يسمع ولا يشرب الماء أبداً إلا النعام ولا مخ له ومتى رميت رجل واحدة له لم ينتفع بالباقية، والضبّ أيضاً لا يشرب ولكنه يسمع،

ومن حمقها أنها إذا أدركها القناص أدخل رأسها في كثيب رمل تقدّر أنها قد استخفت منه، وهو قوية الصّبر على ترك الماء وأشدّ ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح، وكلّما اشتدّ عصوفها كانت أشدّ عدواً، وتبتلع العظم الصلب والحجر والمدر والحديد فتذيبه وتميعه كالماء.

قال الجاحظ: من زعم أن جوف النعام يذيب الحجارة لفرط الحرارة فقد أخطأ، ولكن لا بدمع الحرارة من غرائز آخر بدليل أن القدر يوقد عليها الأيام ولا تذيب الحجارة، وكما أن جوفي الكلب والذئب يذيبان العظم ولا يذيبان نوى التمر، وكما أن الإبل تأكل الشوك وتقتصر عليه وإن كان شديداً كالسّمر وهو شجر أم غيلان وتلقيه ردماً، وإذا أكلت الشعير ألقته صحيحاً انتهى.

وإذا رأت النعامة في أذن صغير لؤلؤة أو حلقة اختطفتها وتبتلع الجمر فيكون جوفها هو الحامل في إطفائه ولا يكون الجمر عاملاً في إحراقه، وفي ذلك أعجوبتان إحداهما التغذي بما لا يتغذى به، والثانية الاستمراء والهضم، وهذا غير منكر لأن السّمندل يبيض ويفرخ في النار.

فسبحان من أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى، وأبدع في الملك والملكوت من لطايف القدرة من الحكمة ما فيه كفاية لمن اهتدى، وأودع فيهما من بدايع الصنع والخلقة ما لا يعدّ ولا يحصى، وفي أدنى مصنوعاته ومكوّناته تذكرة وذكرى لأولي النهي، شرح الله صدورنا للاهتداء إلى مناهج المعرفة بالتحقيق، والارتقاء إلى معارج اليقين والتصديق إنه ولي التوفيق.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام أنام ووصي والا مقام است در صفات كمال ونعوت جمال حضرت ذوالجلال وشهادت برسالت حضرت خاتم الأنبياء ونبيّ مصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وذكر عجايب مخلوقات وغرايب مصنوعات ميفرمايد :

حمد وثنا مر خداونديرا سزاست كه درك نميتواند بكند اورا حواس، واحاطه نميتواند بكند براو مجلسها، ونمى‌بيند اورا چشمها، ومحجوب نميسازد اورا پردها دلالات كننده است بر قدم خود بحدوث خلق خود ،وبحدوث مخلوقات خود بر وجود خود، وبا مشابه بودن مخلوقات بر اينكه شبيه نيست اورا ، آن خداونديكه صادق است در وعدهاى خود ومرتفع است از ظلم بندگان خود ، وقائمست بعدالت در خلق خود ، وعادل است برايشان درحكم خود، شاهد آورنده است باحادث بودن أشياء بر أزليت خود، وبا چيزيكه علامت زده بر آنها كه عجز وانكسار است برقدرت خود ، وبا چيزيكه مضطر نموده است آنها را بسوى آن كه فنا ونابوديست بر دوام وجود خود .

يكى است نه به شماره عدد ، دائم الوجود است نه با مدّت ، وقائمست نه باعتماد بچيزى . استقبال ميكنند اورا ذهنها نه باطريق مشاعر وحواس ، وشهادت ميدهند بروجود او مرئيات ومبصرات نه باعنوان حضور ، واحاطه نكرد اورا وهمها بلكه هويدا شد ازبراى اوهام بأوهام وبسبب عقلها ممتنع شد از ادراك عقول وبسوى عقلها محاكمه كرد عقلهارا خداوند متعال صاحب بزرگي نيست چنان بزرگي كه ممتد بشود بوجود او نهايات واطراف پس بزرگ گرداند نهايات اورا درحالتيكه صاحب جسم باشد ، وصاحب عظمت نيست چنان عظمتيكه منتهى بشود بأوغايتها پس عظيم نمايند اورا درحالتيكه صاحب جسد باشد بلكه بزرگست ازحيثيت شأن وعظيمست ازحيثيت سلطنت .

وشهادت ميدهم كه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم بندهٔ برگزيده او است و أمين پسنديده او ، فرستاد اورا باحجت‌هاى واجب ، وباظفر وغلبهٔ ظاهر، وباواضح نمودن

راه پس رسانید رسالت را در حالتیکه شکافنده بود میان حق‌وباطل‌را ، وحمل کرد خلق را براه راست درحالتیکه دلالت کننده بود بر آن ، و برپا نمود علمهای راه یافتن ومنارهای روشني را ، و گرداند کوههای اسلام را محکم وریسمانهای ایمان‌را بغایت استوار .

و بعضی ازفقرات این دروصف خلقت عجیبه وغریبهٔ اصنافي ازحیواناتست میفرماید :

اگرفکرمیکردنددرقدرت عظیمه‌ونعمت‌جسیمهٔ‌پروردگارهرآینه‌برمیگشتند براه راست ، ومیترسیدند از عذاب‌آتش، ولکن قلبها ناخوش است ودیدهامعیوب آیا نظرنمیکنند بسوی کوچك آنچه خلق‌فرموده ازحیوان چگونه محکم ساخته خلقت آنرا واستوارگردانیده‌ترکیب آن را، وشکافته ازبرای آن گوش وچشم‌را ، ومعتدل نمود ازبرای او استخوان وپوست‌را .

نظر بکنید بسوی مورچه در غایت خوردی جثهٔ او ولطافت هیئت او نزدیك نیست که ادراك شود بنگریستن بگوشهٔ چشم ونه‌باطلب درك فکرهاچگونه‌حرکت مینماید برزمین‌خود ، وهجوم‌آورد برروزي خود ، نقل میکند دانه را بسوی‌سوراخ خود ، ومهیا مینماید آن دانه را درمقر خود ، وجمع میکند آن را در گرمای‌خود ازبرای سرمای خود ، و در أیام تمکن خود برای أیام عجز خود ، کفیل کرده شده بروزی آن ، وروزی‌داده‌شده بچیزیکه‌موافق‌مزاج‌اواست‌درحالتي‌غفلت‌نمینماید ازآن‌خداوندیکه کثیرالعطاءاست ، ومحروم نمیفرماید آنرا خدائیکه جزا دهنده بندگانست اگرچه بوده باشد آن مورچه درسنگ سخت وخشك ودرسنگ محکم و استوار .

واگرفکرنمودی درمجراهای‌غذای او ودربلندی‌وپستی أعضای او ودرآنچه در درون او است از أطراف دندهها که مشرفست بشکم او ، ودرآنچه که درسراو است ازچشم‌اوو گوش‌اوهرآینه تعجب میکردی‌ازخلقت‌آن‌بغایت تعجب ، وملاقات میکردی از وصف آن بتعب ومشقت ، پس بلند است خداوندیکه برپا داشت آنرا بقائمهای آن که دست وپای اواست ، وبنا نمود عمارت بدن آنرا برستونهای آن که اعضاوجوارح اواست ، درحالتیکه شریك نشداورا درآفریدن‌آن هیچ‌آفریننده

واعانت نكرد اورا درخلقت آن هيچ صاحب قدرت .

واگر سير كني در راههاى فكر خودت تابرسى بنهايتهاى آن راه ننمايد تورا راه نماينده مگر براينكه خالق مورچه كوچك همان خالق درخت خرماى بزرگ است ازجهت‌دقت ولطافت تفصيل هرشيء واز جهت‌صعوبت‌وغموض اختلاف هرذى حياة ، ونيست‌بزرگ جثه ولطيف بدن وسنگين‌وسبك وصاحب قوّت وصاحب ضعف درايجاد فرمودن او مگر يكسان ، وهمچنين آسمان وهوا وآب وباد .

پس نظر كن بسوى مهر وماه ودرخت وگياه وآب وسنگ وبسوى اختلاف نمودن اين شب وروز ومنفجر شدن اين درياها وبسيارى اين كوهها ودرازى اين سرهاى كوهها ومتفرق شدن اين لغتها وزبانهاى مختلف گوناگون .

پس واي‌بر كسيكه انكارنمايد خداوند صاحب تقديررا ، وكافرشود بخداوند صاحب تدبير ، وگمان كرده‌اند كه ايشان مثل گياه خودرويند كه نيست‌ايشانرا زراعت كننده ، ونه از براى صورتهاي مختلفهٔ ايشان آفريننده ، واستناد نكردند بدليلي در آن چيزيكه ادعا نمودند ، وبتحقيقي درآن چيزيكه حفظ كردند وذهني ايشان شد ، آيا ممكن بشود بنائي بدون بنا كننده ياجنايتي بدون جنايت زننده

و اگر خواستى گفتي در ملخ آنچه كه در مورچه گفتي هنگاميكه خلق فرمود خداوند عالم از براى آن دوچشم سرخ ، وبرافروخت ازبراى آن دو حدقه روشن ، وگردانيد از براى آن قوّه سامعه كه پنهان است وواز نمود از براى آن دهن مساوى ، وقرار داد از براى آن قوّه حسّاسه باقوّت ودو دندان كه با آنها قطع ميكنند گياه را ودوپاى مثل دو داس كه بآنها قبض ميكنند علف را ، ميترسند از آن صاحبان زراعت در زراعت خودشان و استطاعت ندارند دفع كردن آن را اگرچه جمع آورى نمايند چه جمعيّت خودشان را وحال آنكه خلقت آن تماما بأندازه انگشت باريك نميشود .

پس بلند است آن خدائى كه سجده ميكنند اورا أهل آسمانها وزمين با رضا وكراهت ، وميمالدبخاك ازبراى اورخساوروى‌را، وميأندازند جلوفرمان‌بردارى‌را بسوى او از حيثيت ضعف وتسليم ، وميدهند اورا افسار انقياد ازجهة خوف وترس

پس مرغهامسخّرند ازبرای أمراو ، شمرده شمارهٔ پرها ونفسهای آنهارا ، ومحکم ساخته وثابت نموده پاهای آنهارا برتری وبرخشکی،مقدرفرموده روزیهای آنهارا ، و شمرده وضبط کرده جنسهای آنهارا ، پس این کلاغ است ، واین هما است واین کبوتراست ، واین‌شترمرغاست ، دعوت فرمود هرمرغی‌رابنام خود ، و کفالت کرد بروزی‌آن ، وایجاد نمود ابرسنگین را ، پس بارانید باران نرم بی‌رعد وبرق آن را ، و شمرد قسمتهای آن را که بهر ولایت باندازه معین تقسیم شده پس تر ساخت آن باران زمین را پس از خشك شدن آن ، وبیرون آورد گیاه آن را بعداز قحط سالی آن .

ومن خطبة له عليه السلام وهي المئة والخامسة والثمانون من المختار في باب الخطب

وهي مروية في الاحتجاج من قوله عليه السلام: لا يشمل بحدّ إلى آخرها مثل ما في المتن من دون اختلاف إلاّ في ألفاظ يسيرة.

قال السيد رحمه الله: وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة.

«ما وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلاَ حَقِيقَتَهُ أصابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلاَ إيّاهُ عَنَىٰ مَنْ شَبَّهَهُ، وَلاَ صَمَدَهُ مَنْ أشارَ إِلَيْهِ وتَوَهَّمَهُ، كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وكُلُّ قائِمٍ في سِواهُ مَعْلُولٌ، فاعِلٌ لاَ باضْطِرابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لاَ بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لاَ بِاسْتِفادَةٍ، لاَ تَصْحَبُهُ الأَوْقاتُ، وَلاَ تَرْفُدُهُ الأَدَواتُ، سَبَقَ الأَوْقاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالابْتِداءَ أَزَلُهُ.

بِتَعْشِيرِهِ الْمَشاعِرَ عُرِفَ أَنْ لاَ مَشْعَرَ لَهُ، وبِمُضادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاَ ضِدَّ لَهُ، وبِمُقارَنَتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاَ قَرِينَ لَهُ، ضادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، والْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، والْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ، مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعادِياتِها، مُقارِنٌ بَيْنَ مُتَبايِناتِها، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَباعِداتِها، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدانِياتِها، لاَ يَشْمِلُ بِحَدٍّ، ولاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ وَإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَواتُ أَنْفُسَها، وتُشِيرُ الآلاتُ إِلىٰ نَظائِرِها، مَنَعَتْها مُنْذُ الْقِدْمَةَ، وَحَمَتْها قَدُ الأَزَلِيَّةَ، وجَنَّبَتْها لَوْلاَ التَّكْمِلَةَ، بِها تَجَلّىٰ صانِعُها لِلْعُقُولِ، وبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ، لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ ما هُوَ أَجْراهُ، ويَعُودُ فِيهِ ما هُوَ أَبْداهُ ويَحْدُثُ فيه ما هُوَ أَحْدَثَهُ، إذاً لَتَفاوَتَتْ ذاتُهُ، وَلَتَجَزَّءَ كُنْهُهُ، وَلاَ امْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْناهُ، وَلَكانَ لَهُ وَراءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصانُ، وإِذاً لَقامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فيه، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كان مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وخَرَجَ بِسُلْطانِ الامْتِناعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ما يُؤَثِّرُ في غَيْرِهِ.

الَّذي لا يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ، وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ الأُفُولُ، لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً، جَلَّ عَنْ اتِّخاذِ الأَبْناءِ، وطَهُرَ عَنْ مُلامَسَةِ النِّساءِ، لاَ تَنالُهُ الأَوْهامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلاَ تَتَوَهَّمُهُ الفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلاَ تُدْرِكُهُ الْحَواسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلاَ تَلْمِسُهُ الأَيْدِي فَتَمَسَّهُ، لاَ يَتَغَيَّرُ بِحالٍ، وَلاَ يَتَبَدَّلُ بِالأَحْوالِ، وَلاَ تُبْلِيهِ اللَّيالي والأَيّامُ، وَلاَ تُغَيِّرُهُ الضِّياءُ والظَّلاَمُ، وَلاَ يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِن الأَجْزاءِ، وَلاَ بِالْجَوارِحِ والأَعْضاءِ، ولاَ بِعَرَضٍ مِنَ الأَعْراضِ، وَلاَ بِالْغَيْرِيَّةِ والأَبْعاضِ، وَلاَ يُقالُ لَهُ حَدٌّ وَلاَ نِهايَةٌ، وَلاَ انْقِطاعٌ وَلاَ غايَةٌ، وَلاَ أَنَّ الأَشْياءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تَهْوِيهِ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ.

لَيْسَ فِي الأَشْياءِ بوالِجٍ، وَلاَ عَنْهَا بِخارِجٍ، يُخْبِرُ لا بِلِسانٍ وَلَهَواتٍ، ويَسْمَعُ لاَ بِخُرُوقٍ وأَدَواتٍ، يَقُولُ وَلاَ يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلاَ يَتَحَفَّظُ، ويُرِيدُ وَلاَ يُضْمِرُ، يُحِبُّ ويَرْضَىٰ مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، ويُبْغِضُ ويَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، يَقُولُ لِما أَرادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِداءٍ[1] يُسْمَعُ، وإِنَّما كَلامُهُ سُبْحانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ ومَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كائِناً، وَلَوْ كانَ قَدِيماً لَكانَ إِلٰهاً ثانِياً، لاَ يُقالُ كانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفاتُ الْمُحْدَثاتُ[2]، ولا يَكُونَ بَيْنَها وبَيْنَهُ فَصْلٌ وَلاَ لَهُ عَلَيْها فَضْلٌ فَيَسْتَوِي الصّانِعُ والْمَصْنُوعُ، وَيَتَكافَأَ الْمُبْتَدِعُ والْبَدِيعُ، خَلَقَ الْخَلائِقَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَىٰ خَلْقِها بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ.

وَأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَها مِنْ غَيْرِ اشْتِغالٍ، وأَرْساها عَلَىٰ غَيْرِ قَرارٍ وأَقامَها بِغَيْرِ قَوائِمَ، ورَفَعَها بِغَيْرِ دَعائِمَ، وحَصَّنَها مِنَ الأَوَدِ وَالاعْوِجاجِ ومَنَعَها مِنَ التَّهافُتِ والانْفِراجِ، أَرْسَى أَوْتادَها، وضَرَبَ أَسْدادَها، واسْتَفاضَ عُيُونَها، وخَدَّ أَوْدِيَتَها، فَلَمْ يَهِنْ ما بَناهُ، وَلاَ ضَعُفَ ما قَوّاهُ.

هُوَ الظّاهِرُ عَلَيْها بِسُلْطانِهِ وعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الباطِنُ لَها بِعِلْمِهِ ومَعْرِفَتِهِ والعالِيَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مِنْها بِجَلالِهِ وعِزَّتِهِ، لاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْها طَلَبَهُ وَلاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلاَ يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْها فَيَسْبِقَهُ، وَلاَ يَحْتاجُ إِلىٰ ذِي مالٍ فَيَرْزُقَهُ، خَضَعَتِ الأَشْياءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لاَ تَسْتَطِيعُ الهَرَبَ مِنْ سُلْطانِهِ إِلىٰ غَيْرِهِ، فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلاَ كُفُوءَ لَهُ فَيُكافِئَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ فَيُساوِيَهُ.

هُوَ الْمُفْني لَهَا بَعْدَ وُجُودِها حَتّىٰ يَصِيرَ مَوْجُودُها كَمَفْقُودِها، وَلَيْسَ فَناءُ الدُّنْيا بَعْدَ ابْتِداعِها بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشائِها واخْتِراعِها، وكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوانِها مِنْ طَيْرِها وَبَهائِمِها، وما كانَ مِنْ مُراحِها وَسائِمِها، وأَصْنافِ أَسْناخِها وأَجْناسِها، ومُتَبَلِّدَةِ أُمَمِها وأَكْياسِها، عَلَىٰ إِحْداثِ بَعُوضَةٍ ما قَدَرَتْ عَلَىٰ إِحْداثِها، ولاَ عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلىٰ إِيجادِها، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُها في عِلْمِ ذٰلِكَ وتاهَتْ، وعَجَزَتْ قُواها وتَناهَتْ، ورَجَعَتْ خاسِئَةً حَسِيرَةً، عارِفَةً بِأَنَّها مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشائِها، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنائِها.

وَإِنَّهُ سُبْحانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَناءِ الدُّنْيا، وَحْدَهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ، كَما كانَ قَبْلَ ابْتِدائِها كَذٰلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنائِها، بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكانٍ، وَلاَ حِينٍ وَلاَ زَمانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذٰلِكَ الآجالُ وَالأَوْقاتُ،

(١) في نسخة: نداء.

(٢) في نسخة: صفات المحدثات.

وَزالَتِ السُّنُونَ وَالسّاعاتِ، فَلاَ شَيْءَ إلاَّ اللهُ الواحِدُ الْقَهّارُ الَّذي إِلَيْهِ مَصيرُ جَميعِ الأُمُورِ بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْها كانَ ابْتِداءُ خَلْقِها، وبِغَيْرِ امْتِناعٍ مِنْها كانَ فَناءُها، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى الامْتِناعِ لَدامَ بَقاؤها.

لَمْ يَتَكَادُهُ[1] صُنْعُ شَيْءٍ مِنْها إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْها خَلْقُ ما بَرَاْهُ وخَلَقَهُ، وَلَمْ يُكَوِّنْها لِتَشْدِيدِ سُلْطانٍ، ولاَ لِخَوْفٍ مِنْ زَوالٍ ونُقْصانٍ، وَلاَ لِلاسْتِعانَةِ بِهَا عَلَىٰ نِدٍّ مُكاثِرٍ، وَلاَ للاحْتِرازِ بها مِنْ ضِدٍّ مُثاوِرٍ، ولاَ لِلازْدِيادِ بِها في مُلْكِهِ، وَلاَ لِمُكاثَرَةِ شريكٍ في شِرْكِهِ، وَلاَ لِوَحْشَةٍ كانَتْ مِنْهُ فَأَرادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْها.

ثُمَّ هُوَ يُفْنيها بَعْدَ تَكْوينِها، لاَ لِسَأمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ في تَصْريفِها وتَدْبيرِها، ولاَ لِراحَةٍ واصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلاَ لِثِقْلِ شَيءٍ مِنْها عَلَيْهِ، لا يُمِلُّهُ[2] طُولُ بَقائِها، فَيَدْعُوهُ إِلىٰ سُرْعَةِ إِفْنائِها، لَكِنَّهُ سُبْحانَهُ دَبَّرَها بِلُطْفِه، وأَمْسَكَها بِأَمْرِهِ، وأَتْقَنَها بِقُدْرَتِهِ.

ثُمَّ يُعيدُها بَعْدَ الْفَناءِ مِنْ غَيرِ حاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْها، وَلاَ اسْتِعانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْها عَلَيْها، وَلاَ لانْصِرافٍ مِنْ حالِ وَحْشَةٍ إِلىٰ حالِ اسْتيناسٍ، ولاَ مِنْ حالِ جَهْلٍ وَعَمَى إِلىٰ حالِ عِلْمٍ وَالْتِماسٍ، وَلاَ مِنْ فَقْرٍ وحاجَةٍ إِلى غِنًى وكَثْرَةٍ، وَلاَ مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلىٰ عِزٍّ وقُدْرَةٍ[3].

اللغة

(**وضح**) يضح من باب وعد إذا انكشف وانجلى و(**البهمة**) لعلّها مأخوذة من أبهم الأمر واستبهم إذا اشتبه و(**الحرور**) بفتح الحاء في أكثر النسخ وهكذا ضبطه الشارح المعتزلي قال الفيومي: الحرور وزان رسول الريح الحارة، قال الفراء تكون ليلاً ونهاراً، وقال أبو عبيدة: أخبرنا روبة أن الحرور بالنهار والسّموم بالليل وقال أبو عمرو بن العلا: الحرور والسّموم باللّيل والنهار، وفي القاموس: الحرور الريح الحارة بالليل وقد تكون بالنّهار وحرّ الشمس والحرّ الدائم والنار، وفي نسخة الشارح البحراني الحرور بالضمّ قال في القاموس: الحرّ ضدّ البرد كالحرور بالضمّ والحرارة و(**اللهوات**) جمع لهات بفتح اللاّم فيهما وهي اللحمة في سقف أقصى الفم.

و(**المراح**) بالضمّ قال الشارح المعتزلي هي النعم ترد إلى المراح بالضمّ أيضاً وهو

---

(١) في نسخة: يتكاءده.

(٢) في نسخة: لم يملّه.

(٣) الاحتجاج: ١/ ٣٠٤، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٣٠٠.

الموضع الذي تأوي إليه النعم، وقال البحراني: مراحها ما يراح منها في مرابطها، ومعاطنها وسائمها ما أرسل منها للرعي.

أقول: يستفاد منهما أن المراح هنا اسم مفعول وظاهر غير واحد من اللّغويين أنه اسم للموضع فقط، قال في «**القاموس**»: أراح الإبل ردّها إلى المراح بالضمّ المأوى.

وقال الفيومي في «**مصباح اللّغة**»: قال الأزهري وأما راحت الإبل فهي رائحة فلا يكون إلا بالعشيّ إذا أراحها راعيها على أهلها يقال: مرحت بالغداة إلى الرعي وراحت بالعشي على أهلها أي رجعت من المرعى إليهم، وقال ابن فارس: الرواح رواح العشي وهو من الزوال إلى اللّيل، والمراح بالضمّ حيث تأوي الماشية باللّيل والمناخ والمأوى مثله وفتح الميم بهذا المعنى خطأ لأنه اسم مكان واسم المكان والزمان والمصدر من أفعل بالألف مفعل بضم الميم على صيغة اسم المفعول، وأما المراح بالفتح فاسم الموضع من راحت بغير ألف، واسم المكان من الثلاثي بالفتح، انتهى.

وقال في مادة السوم: سامت الماشية سوماً رعت بنفسها ويتعدى بالهمزة فيقال أسامها راعيها، قال ابن خالويه: ولم يستعمل اسم مفعول من الرّباعي بل جعل نسياً منسيّاً ويقال أسامها فهي سائمة.

فقد ظهر من ذلك أن جعل المراح اسم مفعول من أراح كما زعمه الشارحان غير جايز فهو اسم مكان ولا من تقدير مضاف في الكلام وتمام الكلام في بيان المعنى.

و(**التبلّد**) ضد التجلّد من بلد بلادة كشرب وفرح فهو بليد أي غير فطن ولا كيس و(**لم يتكاده**) بالتشديد والهمزة من باب التفعل، وبالمد أيضاً من باب التفاعل مضارع تكاد يقال تكأّدني الأمر وتكاءدني أي شق عليّ، وعقبة كؤدة صعبة.

الإعراب

قوله: منعتها منذ القدمة وحمتها قد الأزليّة وجنبتها لولا التكملة، المرويّ من نسخة الرضي نصب القدمة والتكملة والأزليّة، ومن بعض النسخ رفعها، فعلى الرواية الأولى الضماير المتصلة مفعولات أول للأفعال الثلاثة، ولفظة منذ وقد ولولا في موضع الرّفع على الفاعل، والمنصوبات الثلاث مفعولات ثانية بالواسطة، وعلى الرواية الثانية فارتفاع الأسماء الثلاثة على الفاعليّة، والضماير المتّصلة مفاعيل ومنذ وقد ولولا مفاعيل ثوان.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة كما قاله السيد رحمه الله مشتملة على مطالب نفيسة ومباحث

شريفة من العلم الإلهي مع تضمنها للفصاحة والبلاغة وانسجام العبارات وحسن الأسلوب وبديع النظم، ولعمري أنها فصل من كلامه عليه السلام في أرجائه مجال المقال واسع، ولسان البيان صادع، وثاقب المطالب لامع، وفجر المدايح طالع، ومراح الامتداح جامع، فهو لمن تمسّك بهداه نافع، ولمن تعلّق بعراه رافع، فيا له من فصل فضل كؤوس ينبوعه لذّة للشاربين، ودروس مضمونه مفرحة للكرام الكاتبين يعظم للمحققين قدر وقعه، ويعم للمدققين شمول نفعه.

كيف لا والموصوف به الحق الأول رب العالمين، وديّان الدّين، وخالق السّماوات والأرضين، إله الخلق أجمعين.

والواصف جامع علوم الأوّلين والآخرين، خليفة الله في الأرضين، معلم الملائكة والنبيّين، أمير المؤمنين الذي بحار علومه ومآثره لا ينال قعرها بغوص الأفهام وجبال فضايله ومفاخره لا يرتقى قلالها بطير العقول والأوهام.

وتالي هذه الخطبة الشريفة خطبة أخرى لأبي الحسن الرّضا عليه السلام يأتي إنشاء الله ذكرها، في شرح المختار المئة والثامن وهي أيضاً تجمع من أصول علم التوحيد ما لا يحصى كما يعرفه الناقد البصري ذو الفهم الثاقب.

إذا عرفت ذلك فأقول: إنه عليه السلام قد وصف الله الملك العلام في هذه الخطبة بأوصاف سلبية وإضافية.

إذا أولها قوله عليه السلام **(ما وحّده من كيّفه)** أي من جعله مكيفاً ووصفه سبحانه بالكيف فلم يجعله واحداً ولم يقل بوحدانيّته، لكنّه تعالى واحد وتوحيده واجب لقيام الأدلة العقلية والنقليّة عليه حسبما مر في تضاعيف المتن والشرح غير مرة فتكييفه مطلقاً باطل.

وإنّما كان التكييف منافياً للتوحيد لأن الكيف بأقسامها الأربعة أعني الكيفيات المحسوسة راسخة كانت كصفرة الذهب وحلاوة العسل وتسمى انفعاليات أو غير راسخة كحمرة الخجل وصفرة الوجل وتسمّى انفعالات، والكيفيات الاستعدادية سواء كانت استعداداً نحو الانفعال أي التهيؤ لقبول أثرها بسهولة أو سرعة كالممراضية واللين، أو استعداداً نحو اللانفعال أي التهيؤ للمقاومة وبطوء الانفعال كالمصحاحية والصلابة، والكيفيات النفسانيّة المختصّة بذوات الأنفس الحيوانيّة راسخة كانت وتسمّى ملكة كالعلم والشجاعة والعدالة، أو غير راسخة وتسمى حالاً كغضب الحليم ومرض الصّحاح، والكيفيات المختصّة بالكميّات متصلة كانت كالاستقالة والانحناء والشكل والخلقة، أو منفصلة كالزوجية والفردية.

فهو بهذه الأقسام الثابتة له بالحصر العقلي أو الاستقرائي من أقسام العرض، والعرض

هو الموجود الحال في المحل على وجه الاختصاص الناعت أي يكون أحد الشيئين بالنسبة إلى الآخر بحيث يكون مختصّاً به على وجه يوجب ذلك الاختصاص كون الأوّل نعتاً والثاني منعوتاً كما في السواد بالنسبة إلى الجسم، فإن اختصاصه به أوجب اتصافه به فيقال جسم أسود فلو كان الحق الأوّل سبحانه موصوفاً بالكيف بأيّ قسم من أقسامه لزم اقترانه به، والمقارنة بين الموصوف والوصف مستلزم للتثنية لما قد مرّ في الفصل الرابع من المختار الأوّل من قوله عليه السلام: «فمن وصف الله فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه»، والتثنية مناف للتوحيد، هذا.

وقد مرّ دليل آخر على استحالة اتصافه بالكيف في شرح الفصل الثاني من المختار التسعين فليراجع هناك.

وتوضيح ما قاله من جهة النقل ما رواه في «**البحار**» من كتاب كفاية النصوص لعليّ بن محمد بن عليّ الخزار الرازي عن أبي المفضّل الشّيباني عن أحمد بن مطوق بن سوار عن المغيرة بن محمد بن المهلب عن عبد الغفار بن كثير عن إبراهيم بن حميد عن أبي هاشم عن مجاهد عن ابن عباس قال:

قدم يهودي على رسول الله صلى الله عليه وآله يقال له: نعثل.

فقال: يا محمد إني سائلك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين فإن أنت أجبتني عنها أسلمت على يدك، قال صلى الله عليه وآله: سل يا با عمارة.

فقال: يا محمد صف لي ربّك فقال صلى الله عليه وآله: «إن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه وكيف يوصف الخالق الذي يعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحده والأبصار عن الإحاطة به، جلّ عمّا يصفه الواصفون، نأى في قربه، وقرب في نائه كيّف الكيفية فلا يقال له كيف، وأين الأين فلا يقال له أين، منقطع الكيفوفيّة والأينونيّة، فهو الأحد الصّمد كما وصف نفسه، والواصفون لا يبلغون نعته لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

قال: صدقت يا محمد أخبرني عن قولك إنه واحد لاشبيه له أليس الله واحد والإنسان واحد فوحدانيته أشبهت وحدانية الإنسان؟

فقال صلى الله عليه وآله: «الله واحد واحدي المعني والإنسان واحد ثنويّ المعني، جسم وعرض وبدون وروح، فإنما التشبيه في المعاني لا غير»[1].

والثاني قوله عليه السلام **(ولا حقيقته أصاب من مثله)** أي من أثبت له المثل فلم يعرفه حق

(١) كفاية الأثر: ١٣، وبحار الأنوار: ٣/ ٣٠٤.

معرفته، لأنه سبحانه واجب الوجود ليس كمثله شيء، فالجاعل له مثلاً لم يعرفه بوجوب الوجود لأن وجوب الوجود ينفي المثل.

والمقصود بالكلام تنزيهه سبحانه عن المماثل وتحقيق أنه سبحانه لا مثل له هو أن المثل هو المشارك في تمام الماهية وهو تعالى ليس له شريك فليس له مثل، وأيضاً قد تقرر أنه تعالى لا مهية له فلا يكون له مثل إذ الاشتراك في المهيّة فرع وجود المهيّة.

وقال الشارح البحراني: كلّ ماله مثل فليس بواجب الوجود لذاته، لأن المثليّة إما أن يتحقق من كل وجه فلا تعدّد إذا لأن التعدد يقتضي المغايرة بأمر ما وذلك ينافي الاتحاد والمثليّة من كل وجه هذا خلف، وإما أن يتحقق من بعض الوجود.

وحينئذ ما به التماثل إما الحقيقة أو جزؤها أو أمر خارج عنها.

فإن كان الأوّل كان به الامتياز عرضياً للحقيقة لازماً أو زائلاً لكن ذلك باطل لأن المقتضى لذلك العرضية إمّا المهية فيلزم أن يكون مشتركاً بين المثلين لأن مقتضى الماهية الواحدة لا يختلف فما به الامتياز لأحد المثلين عن الآخر حاصل للآخر هذا خلف، أو غيرها فتكون ذات واجب الوجود مفتقرة في تحصيل ما تميزها من غيرها إلى غير خارجي هذا محال.

وإن كان ما به التماثل والاتحاد جزءاً من المثلين لزم كون كل منهما مركباً فكل منهما ممكن هذا خلف.

وبقي أن يكون التماثل بأمر خارج عن حقيقتهما مع اختلاف الحقيقتين لكن ذلك باطل.

أمّا أولاً فلامتناع وصف واجب الوجود بأمر خارج عن حقيقته لاستلزام إثبات الصفة له تثنيته وتركيبه على ما مرّ.

وأمّا ثانياً فلأن ذلك الأمر الخارجي المشترك إن كان كمالاً لذات واجب الوجود فواجب الوجود لذاته مستفيد للكمال من غيره هذا خلف، وإن لم يكن كمالاً كان إثباته له نقصاً، لأن الزيادة على الكمال نقص فثبت أن كل ماله مثل فليس بواجب الوجود لذاته.

والثالث قوله عليه السلام **(ولا إيّاه عني من شبّهه)** ومعناه مثل سابقه والغرض به تنزيهه عن الشبيه.

وقال صدر المتألهين في «**شرح الكافي**»: الضابطة الكليّة في تنزيهه تعالى عن الاشتراك مع غيره في شيء من الصّفات أو أمر من الأمور الوجوديّة أنه يلزم عند ذلك إما المماثلة في

الذات أو المشابهة في الصفة، لأن ذلك الأمر المشترك إن كان معتبراً في ذاته تعالى فيلزم المثل، وإن كان زايداً عليه فأشبه وكلاهما محال.

أمّا الأوّل فللزوم التركيب المستلزم للإمكان والحاجة، ولم تقدّم من البرهان على نفي الماهية عن واجب الوجود، وأن كل ذي مهيّة معلول، وأيضاً قد برهن على أن أفراد طبيعة واحدة لا يمكن أن يكون بعضها سبباً للبعض مقدماً عليه بالذات، والله موجد كلّ ما سواه فلا مثل له في الوجود.

وأمّا الثاني فذلك الأمر الزايد إن كان حادثاً لزم الانفعال والتغير الموجبين للتركيب تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، وإن كان أزليّاً لزم تعدد الواجب تعالى وهو محال.

والرابع قوله عليه السلام **(ولا صمده من أشار إليه وتوهمّه)** أي لم يقصده سبحانه من أشار إليه بالإشارة الحسيّة أو العقليّة، لأن من أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله حسبما عرفته في شرح الفصل الخامس من المختار الأوّل، وفي شرح المختار المئة والثّاني والخسمين، فالموجّه قصده إلى من يشير إليه موجّه له إلى شيء ممكن ليس بواجب، وكذلك من وجّه قصده إلى شيء موهوم موجه له إلى مخلوق مصنوع مثله لا إلى المعبود بالحق الواجب لذاته، لتنزّهه سبحانه عن إدراك العقول والأوهام، وتقدّسه عن درك الإفهام حسبما عرفته في شرح الفصل الثاني من المختار الأوّل وغيره.

وقد قال الباقر عليه السلام: كل ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مثلكم ولعل النمل الصّغار تتوهم أن لله زبانين «زبانيين» فإن ذلك كمالها وتتوهم أن عدمهما نقصان لمن لا يتّصف بهما[١].

والخامس قوله عليه السلام: **(كل معروف بنفسه مصنوع)** والغرض منه نفي العلم به بحقيقته بيان ذلك أنه تعالى لو كان معروفاً بنفسه أي معلوماً بحقيقته لكان مصنوعاً، إذ كل معروف مصنوع لكن التالي باطل فالمقدّم مثله، أما بطلان التالي فلأن المصنوع مفتقر إلى الصانع، والمفتقر ممكن لا يكون واجباً، وأما وجه الملازمة فلأن كلّ معلوم بحقيقته فإنّما يعلم من جهة أجزائه وكلّ ذي جزء فهو مركب محتاج إلى مركّب يركّبه وصانع يصنعه، فثبت بذلك أن كل معلوم الحقيقة مصنوع فانقدح منه أنّه تعالى شأنه غير معروف بنفسه بل معروف بآثاره وآياته.

والسادس قوله عليه السلام **(وكل قائم في سواه معلول)** والغرض منه نفي كونه قائماً بغيره، إذ

(١) بحار الأنوار: ٦٦/ ٢٩٢، نور البراهين: ١/ ٩٣.

لو كان قائماً بغيره لكان معلولاً، لأن كلّ قائم في سواه معلول لكن التالي باطل لأن المعلولية ينافي وجوب الوجود فالمقدم مثله، ووجه الملازمة أن القائم بغيره محتاج إلى محل وكل محتاج ممكن وكل ممكن معلول فظهر منه أنه تعالى لا يكون قائماً بغيره، بل كل شيء قائم به موجود بوجوده.

ويمكن تقرير الدليل بنحو آخر وهو أن يقال: كل قائم في سواه معلول والواجب تعالى ليس بمعلول فينتج أنه ليس قائماً بغيره، ويأتي مثل هذا التقرير في الفقرة السابقة أعني قوله كلّ معروف (اهـ).

السابع أنه تعالى **(فاعل لا باضطراب آلة)** يعني أنه خالق الخلائق أجمعين جاعل السماوات والأرضين موجد الأولين والآخرين من دون حاجة في فعله وإيجاده إلى اكتساب الآلات وتحصيل الأدوات، لأن الافتقار إليها من صفات الإمكان ولوازم النقصان وإنما أمره تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

الثامن أنه **(مقدر لا بجول فكرة)** يعني أنه سبحانه قدر لكل شيء ما يستحقه من الوجود وأعطى كل موجود المقدار الذي يستعده من الكمال كماً وكيفاً في الأرزاق والآجال ونحوها من دون افتقار في ذلك إلى جولان الفكر كما يفتقر إليه غيره من البشر، لأن الفكرة لا تليق إلا بذوي الضمائر وهو تعالى منزه عن الضمير وسائر الآلات البدنية.

التاسع أنه سبحانه **(غني لا باستفادة)** يعني أن غناه تعالى بنفس ذاته الواجب لا كالأغنياء منّا مستفيداً للغنى من الخارج، وإلا لزم كونه تعالى ناقصاً في ذاته مستكملاً بغيره وهو محال، وأيضاً كل غنيّ غيره فقد صار موجوداً بوجوده وحصل له الغنى من بحر كرمه وجوده، ومعطي الشيء لا يكون فاقداً له البتة.

العاشر أنه **(لا تصحبه الأوقات)** لأنه تعالى قديم والوقت والزمان حادث والحادث لا يكون مصاحباً للقديم لاستلزام المصاحبة للمقارنة والمعية.

روى في **«البحار من التوحيد والأمالي»** عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بزمان ولا مكان ولا حركة ولا انتقال ولا سكون بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والانتقال، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(و) الحادي عشر أنه **(لا ترفده الأدوات)** أي لا تعينه الآلات فيما يوجده وأيده لغنائه عن الحاجة إلى الإعانة وتنزّهه عن الاستعانة حسبما عرفته آنفاً.

والثاني عشر أنه **(سبق الأوقات كونه)** أي وجوده أي كان وجوده سابقاً على الأزمنة والأوقات بحسب الزمان الوهمي أو التقديري وكان علة لها وموجداً إياها.

(و) **الثالث عشر** أنه سبق **(العدم وجوده)** أي وجوده لوجوبه سبق وغلب العدم فلا يعتريه عدم أصلاً.

وقال الشارح البحراني: المراد عدم الممكنات لأن عدم العالم قبل وجوده كان مستنداً إلى عدم الداعي إلى إيجاده المستند إلى وجوده، فوجده سبق على عدم الممكنات.

وقيل: أريد به إعدام الممكنات المقارنة لابتداء وجوداتها فيكون كناية عن أزليته وعدم ابتداء لوجوده.

(و) **الرابع عشر** أنه سبق **(الابتداء أزله)** أي سبق وجوده الأزلي كل ابتداء فليس لوجوده ولا شيء من صفات ذاته ابتداء، أو أن أزليته سبق بالعلية كل ابتداء ومبتدأ.

الخامس عشر أنه تعالى **(بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له)** أي بخلقه وإيجاده المشاعر الإدراكية والحواس وإفاضتها على الخلق عرف أن لا مشعر له، إما لما مر من أنه تعالى لا يتصف بخلقه، أو لأنا بعد إفاضة المشاعر علينا علمنا حاجتنا في الإدراك إليها فحكمنا بتنزّهه تعالى عنها لاستحالة الاحتياج عليه سبحانه

وقال الشارح المعتزلي: لأن الجسم لا يصح منه فعل الأجسام وهذا هو الدليل الذي يعول عليه المتكلمون في أنه تعالى ليس بجسم.

وقال الشارح البحراني: وذلك أنه تعالى لما خلق المشاعر وأوجدها وهو المراد بتشعيره لها امتنع أن يكون له مشعر وحاسة وإلا لكان وجودها له إما من غيره وهو محال، أما أوّلاً فلأنه مشعر المشاعر وأما ثانياً فلأنه يكون محتاجاً في كماله إلى غيره، فهو ناقص بذاته هذا محال، وإما منه وهو أيضاً محال لأنه إن كان من كمالات الوهيّته كان موجوداً لها من حيث فاقد كمالاً فكان ناقصاً بذاته هذا محال، وإن لم يكن كما لا كان إثباتها له نقصاً لأن الزيادة على الكمال نقصان فكان إيجاده لها مستلزماً لنقصانه وهو محال انتهى.

واعترض عليه صدر المتألهين في «**شرح الكافي**» وقال فيه بحث من وجوه:

أحدها بطريق النقض فإن ما ذكره لو تم يلزم أن لا يثبت له تعالى على الإطلاق صفة كمالية كالعلم والقدرة ونحوهما بأن يقال امتنع أن يكون له علم مثلاً وإلا لكان وجوده له إما من غيره، إلى آخر ما ذكره.

وثانيها بالحلّ وهو أن ههنا احتمالاً آخر نختاره، وهو أن يكون ذلك المشعر عين ذاته كالعلم والقدرة فإن بطلانه لو كان بديهياً لم يحتج إلى الاستدلال إذ كل ما يحتمل قبل الدليل أن يكون عارضاً له يحتمل أن يكون عيناً له.

وثالثها أنّ ما ذكره من الكلام على تقدير تمامه استدلال برأسه لم يظهر فيه مدخلية قوله بتشعيره المشاعر في نفي المشعر عنه تعالى، وإنما استعمله في إثبات مقدمة لم تثبت به وقد ثبت بغيره كما لا يخفى على الناظر فيه.

فالأولى أن يقال: قد تقرر أن الطبيعة الواحدة لا يمكن أن يكون بعضها علة لبعض آخر لذاته بأن يقال: لو فرض كون نار مثلاً علّة لنار أخرى فعليّة هذه ومعلولية هذه إمّا لنفس كونهما ناراً فلا رجحان لإحداهما في العلية وللأخرى في المعلوليّة لتساويهما في النارية، بل يلزم أن يكون كلّ نار علّة للأخرى بل علّة لذاتها ومعلولاً لذاتها وهو محال وإن كان العلية لانضمام شيء آخر فلم يكن ما فرضناه علّة بل العلّة حينئذ ذلك الشيء فقط لعدم الرجحان في إحداهما للشرطيّة والجزئية أيضاً لاتحادهما من جهة المعنى المشترك وكذلك الحال لو فرض المعلولية لأجل ضميمة، فقد تبيّن أن جاعل الشيء يستحيل أن يكون مشاركاً لمجعوله.

وبه يعرف أن كل كمال وكل أمر وجودي يتحقق في الموجودات الإمكانية، فنوعه وجنسه مسلوب عنه تعالى ولكن يوجد له ما هو أعلى وأشرف منه.

أمّا الأوّل: فلتعاليه عن النقص وكل مجعول ناقص، وإلا لم يكن مفتقراً إلى جاعل وكذا ما يساويه في المرتبة وآحاد نوعه كآحاد جنسه.

وأمّا الثاني: فلأن معطي كل كمال ليس بفاقد له، بل هو منبعه ومعدنه وما في المجعول رشحه وظلّه انتهى.

(و) السادس عشر أنه سبحانه **(بمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له)** لأن الضد يطلق على معنيين.

أحدهما المعنى الاصطلاحي فيقال الضّدان في الاصطلاح على الأمرين الوجوديّين اللذين يتعاقبان على موضوع واحد ومحل واحد.

والثاني المعنى العرفي الذي هو المكافىء للشيء والمساوي له في القوة وعلى أيّ معنى كان فليس يجوز أن يكون له سبحانه ضدّ.

أما على الأوّل فلأنه لما خلق الأضداد في محالها وجدناها محتاجة إليها علمنا عدم كونه ضدّ الشيء للزوم الحاجة إلى المحل المنافية لوجوب الوجود أو لأنّا لما رأينا كلاً من الضدّين يمنع وجود الآخر ويدفعه ويفنيه علمنا أنه تعالى منزه عن ذلك، أو أن التضاد إنما يكون للتحدد بحدود معيّنة لا تجامع غيرها كمراتب الألوان والكيفيات، وهو سبحانه منزه عن الحدود وأيضاً كيف يضاد الخالق مخلوقه والفايض مفيضه؟

وأما على الثاني فلأن المساوي للقوّة في الواجب يجب أن يكون واجباً فيلزم تعدد الواجب وهو باطل.

وقال الشارح البحراني: إنه لما كان خالق الأضداد فلو كان له ضد لكان خالقاً لنفسه ولضده وهو محال، ولأنك لما علمت أن المضادة من باب المضاف وعلمت أن المضاف ينقسم إلى حقيقي وغير حقيقي، فالحقيقي هو الذي لا نعقل مهيّته إلا بالقياس إلى غيره، وغير الحقيقي هو الذي له في ذاته مهيّة غير الإضافة تعرض لها الإضافة، وكيف ما كان لا بد من وجود الغير حتى يوجد المضاف من حيث هو مضاف، فيكون وجود أحد المضافين متعلقاً بوجود الآخر، فلو كان لواجب الوجود ضد لكان متعلق الوجود بالغير فلم يكن واجب الوجود لذاته هذا خلف انتهى.

أقول: وأنت خبير بأن ما ذكره أخيراً في علّة إبطال الضّد أعني قوله: لو كان لواجب الوجود ضدّ لكان متعلق الوجود بالغير (اهـ). إنما يتمشّى في القسم الأوّل أعني المضاف الحقيقي، وأمّا في القسم الثاني فلا، إذ تعلق وجوده بالغير ممنوع لأن له في ذاته مهية موجودة كما صرح به وإنما إضافته موقوفة على الغير كما لا يخفى.

فالأولى أن يساق الدليل إلى قوله حتى يوجد المضاف من حيث هو مضاف على النحو الذي ساقه ثم يقال: وهو محال عليه تعالى.

أما على التقدير الأول فظاهر إذ لا مكافيء ولا مضادّ له في الوجود لما أشرنا إلينا.

وأمّا على الثاني فلأن صفاته عين ذاته وليس له صفة عارضة فلا يتصف بالإضافة العرضية، هذا كله بعد الغض عما برهن عليه من أن الواجب سبحانه لا مهية له فافهم جيداً.

وبه يظهر الجواب عما ربما يعترض في المقام بأنه تعالى بذاته مبدأ الأشياء وخالقها وموجدها، وكل هذه الأمور إضافات فيكون مضافاً حقيقياً.

وجه ظهور الجواب أن المضاف من أقسام المهية التي لها أجناس عالية، والوجود ليس بمهية كلية ولا جنس له ولا فصل سيما وجود الواجب الذي لا يشوبه عموم ولا مهيّة، ألا ترى أن كونه موجوداً لا في موضوع لا يوجب كونه جوهراً، إذ الجواهر مهيّة حقّها في الوجود الخارجي أن لا يكون في موضوع، والأوّل تعالى لا مهيّة له فلا يكون جوهر أو كذا لا يكون مضافاً.

(و) السابع عشر أنه **(بمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له)** والكلام فيه كما مر في سابقه حرفاً بحرف.

بأن يقال: إنه تعالى خلق المقترنات ومبدأ المقارنة بها فلو كان مقارناً لغيره لكان خالقاً

لنفسه ولقرينه وهو محال، وأيضاً المقارنة من باب المضاف ويمتنع أن يلحق الواجب لما تقدم.

وقال صدر المتألهين في «**شرح الكافي**»: برهانه أنه خالق المقترنات ونحو وجودها الذي بحسبه يكون مقترناً بالذات، أو يصح عليه المقارنة.

فالأوّل ككون الشيء عارضاً لشيء أو معروضاً ملزوماً له أو صورة شيء أو مادة شيء أو جزء شيء.

والثاني ككون الشيء معروضاً بشيء بعد ما لم يكن أو مادة ككون جسم ملاقياً لجسم آخر وهذه كلّها مما لا يجوز لحوقه لكلّ موجود اتفق، بل من الموجود ما يستحيل عليه لذاته الاقتران بشيء كالمفارقات مثلاً وكالأضداد بعضها لبعض.

والغرض أن كون الشيء بحيث يجوز عليه المقارنة شيء آخر أمر يرجع إلى خصوصيّة ذاته ونحو وجوده، وقد علمت أن خالق كلّ موجود ليس من نوع ذلك الوجود، فلو كان ذاته مقارناً بشيء آخر وإنحاء المقارنات محصورة وكل منها قد وجد في المخلوقات فيلزم كونه من نوع المخلوقات بل يلزم كونه خالقاً لنفسه كما مرّ.

الثامن عشر أنّه مضادّ بين الأمور المتضادة وهو في الحقيقة تأكيد للوصف السّادس عشر، لأنه قد ذكر جملة من أقسام المتضادات والمتفرقات ليتبيّن أن مضادّها ومفرّقها ليس من جنسها، ويتضح أنه ليس متصفاً بها ولا بالتضاد فقال:

(ضاد النّور بالظلمة) وهو دليل بظاهره بصيغة الفاعل على كون الظلمة أمراً وجودياً مطابق لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١] إذ لو كان أمراً عدمياً لم يكن مجعولاً مخلوقاً، وهو مذهب المحققين من المتكلّمين حسبما عرفته في شرح الفصل الأوّل من المختار الرابع، خلافاً للإشراقيين وأتباعهم حيث ذهبوا إلى أنّها ليست إلا عدم النّور فقط، من غير اشتراط الموضوع القابل.

قال الصّدر الشيرازي: والحق إنها ليست عدماً صرفاً بل هي عبارة عن عدم الضوء، عما من شأنه أن يضيء وإذا ليست بعدم صرف، ومع ذلك يتعاقب مع الضوء على موضوع واحد كالهواء ونحوه، فصح عليه إطلاق الضدّ على اصطلاح المنطقيين حيث لا يشترط في اصطلاحهم المنطقي كون كلا الضدين وجوديين، بل الشرط عندهم التعاقب على موضوع واحد انتهى.

وعلى ذلك أي كونها عبارة عن عدم الضوء عما من شأنه أن يكون مضيئاً تقابل الضوء تقابل العدم والملكة، ويكون إطلاق الضد عليها بحسب الاصطلاح الحكمي مجازاً كما لا يخفى.

(و) ضاد (**الوضوح بالبهمة**) أي الظهور بالإبهام والجلاية بالخفاء، وفسّرهما الشارحان المعتزلي والبحراني بالبياض والسّواد ولا يخفى بعده (**والجمود بالبلل**) أي اليبوسة بالرطوبة (**والحرور بالصرد**) أي الحرارة أو الحرارة الريح الحارة بالبرودة.

التاسع عشر أنه تعالى (**مؤلّف بين متعادياتها مقارن بين متبايناتها مقرّب بين متباعداتها**) لا يخفى حسن الأسلوب ولطافة التطبيق في هذه الفقرات الثلاث والفقرة الرابعة الآتية، حيث طابق بين التأليف والتعادي والتقارن والتباين والتقريب والتباعد والتفريق والتداني.

والمقصود أنه جمع سبحانه بقدرته الكاملة وحكمته البالغة بين الأمور التي في غاية التباين والتباعد، مثل جمعه بين العناصر المختلفة الكيفيّات وبين الروح والبدن، والقلوب المتشتّتة والأهواء المتفرقة، فبدّل ذلك الجمع والتأليف الواقع على خلاف مقتضى الطبائع على قاهر يقهرها عليه، وقاسر يقسر العناصر على الامتزاج والالتيام والاستحالة، حتّى يحصل بينها كيفية متوسّطة هي المزاج إذ لو كان كلّ منها في مكانه لم يحصل بينها امتزاج فلم يتحصل منها مزاج.

العشرون أنّه (**مفرّق بين متدانياتها**) لا يخفى حسن المقابلة بين هذه القرينة والقرائن الثلاث السابقة، حيث جعل التفريق في قبال التأليف والقران والتقريب وجعل التداني في مقابلة التباعد والتباين والتعادي.

والمراد أنه فرق بين الأشياء على منتهى قربها مثل تفريقه بين أجزاء العناصر لبطلان تركيبها وبين الرّوح والبدن بالموت، وبين أجزاء المركبات عند انحلالها والأبدان بعد موتها، فدلّ ذلك التفريق على وجود المفرق وقدرته، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذّاريات: الآية ٤٩].

قيل في تفسيره: إن في خلق الزوجين دلالة على المفرق والمؤلّف لهما، لأنه خلق الزوجين من واحد بالنوع فيحتاج إلى مفرق يجعلهما متفرّقين وجعلهما مزاوجين مؤتلفين ألفه بخصوصهما فيحتاج إلى مؤلّف يجعلهما مؤتلفين.

الحادي والعشرون أنّه (**لا يشمل بحدّ**) أي لا يشمله حدّ ولا يكون محدوداً به، لا بالحدّ الاصطلاحي ولا بالحدّ اللغوي، لما مرّ غير مرّة في تضاعيف الشرح من أنّ الحدّ الاصطلاحي وهو القول الشارح لمهيّة الشيء المؤلف من المعاني الذاتية المختصّة به، فلا بدّ أن يكون المحدود به مركّباً ذا أجزاء، والواجب تعالى ليس بمركب فلا يكون محدوداً، والحدّ اللّغوي عبارة عن نهاية الشيء الذي يقف عندها ولا يتجاوز عنها، وهو من لواحق الكم المتّصل والمنفصل والكّم من الأعراض ولا شيء من الواجب بعرض أو محلّ له فامتنع

أن يوصف به.

(و) الثاني والعشرون أنه (لا يحسب بعدّ) قال الشارح البحراني: أي لا يلحقه الحساب والعدّ فيدخل في جملة المحسوبات بالمعدودة وذلك أن العدّ من لواحق الكمّ المنفصل الذي هو العدد كما هو معلوم في مظانه والكّم عرض، وقد ثبت أنه تعالى ليس بعرض ولا محل له.

وقال الشّارح المعتزلي: يحتمل أن يريد به أنّه لا تحسب أزليته بعدّ أي لا يقال له منذ وجد كذا وكذا كما يقال للأشياء المتقاربة العهد ويحتمل أن يريد به أنّه ليس مماثلاً للأشياء فيدخل تحت العدّ كما يعدّ الجواهر وكما تعدّ الأمور المحسوسة[1].

وقال العلامة المجلسي رحمه الله: لا يحسب بالأجزاء والصّفات الزائدة المعدودة[2].

أقول: والكلّ صحيح محتمل لا غبار عليه وإن كان الأوّل أشبه، فالمقصود به أنّه ليس من جملة المعدودات كما ربما يسبق ذلك إلى الوهم إذا وصفناه سبحانه بأنه واحد فيتوهّم منه أنّه واحد ليس له ثان وأن وحدته وحدة عدديّة، واندفاع ذلك الوهم بأن معنى كونه واحداً أنّه إحدى الذات، وأنّه ليس له مثل ونظير لا أنّه واحد بالعدد، لأنه لا يحسب بعد فيكون مساقه مساق قوله عليه السلام في الخطبة السابقة واحد لا بعدد، هذا.

ولما نزّهه تعالى عن كونه محدوداً بحدّ ومعدوداً بعدّ أكد ذلك بقوله **(وإنما تحدّ الأدوات نفسها وتشير الآلات إلى نظايرها)** يعني أنّه سبحانه لو رام أحد أن يحدّه أو يعدّه فلا بد أن يكون تحديده وعدّه بالآلات الدنيّة والقوى الجسمانيّة ظاهريّة كانت كالأصابع واليد واللّسان وغيرها، أو باطنية كالمتوهمّة والمتفكرة والمتخيّلة، لكن شيئاً منها لا يقدر على ذلك.

أمّا الجوارح الظاهرة فلانحصار مدركاتها في عالم المحسوسات والأجسام والجسمانيات، فهي إنما تدرك وتحدّ أنفسها أي أجناسها وأنواعها وتعدّ نظائرها أي ذوات المقادير وتشير إلى ما هي مثل في الجسمية والجسمانية، وصانع العالم ليس بجسم ولا جسماني ولا ذي مقدار فاستحال أن تحدّه الآلات وتعدّه الأدوات.

وأمّا المشاعر الباطنة فإن مدركاتها وإن لم تكن مقصورة في المحسوسات والموجودات، إلاّ أنها إذا حملت على ما ليس بموجود في الخارج ترجع وتخترع صورة

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٧٥.

(٢) البحار: ٤/ ٢٥٦.

مماثلة للموجود، حسبما عرفته في شرح الفصل الثاني من المختار الأوّل فهي أيضاً لا تتعلّق إلاّ بما يماثلها في الإمكان ولا تحيط إلاّ بما هو في صورة جسم أو جسماني.

فاتضح بذلك أن أفعال الأدوات والآلات وآثارها إنما توجد في الأشياء الممكنة الّتي هي مثلها لا فيه تعالى، هذا.

ولما ذكر أنّه سبحانه أجلّ وأعظم شأناً وقدساً من دخوله في عداد المحدودات وأكّده باستحالة التحديد والإشارة إليه سبحانه من الآلات والأدوات لكون مدركاتها مقصورة محصورة في أسناخها وأشباهها من الممكنات والمحسوسات وأكّده ثانياً بالتنبيه على أنّ الآلات موصوفة بالحدوث والإمكان والنقص، والحق الأوّل جل شأنه وعظم سلطانه موصوف بالقدم والوجوب والكمال، فكيف لها أن تحوم حوم حضرة القدس وأنى للحادث أن يحدّ القديم والممكن الإشارة إلى الواجب وللناقص الإحاطة بمن هو في غاية العظمة والكمال والجبروت والجلال.

وذلك قوله: **(منعتها منذ القدمة وحمتها قد الأزلية وجنبتها لولا التكملة)** فالمقصود بهذا الكلام التنبيه على حدوث الآلات والأدوات ونقصها صراحة والإشارة إلى قدم الباري تعالى وكماله ضمناً أو بالعكس، والأوّل مبني على كون منذ وقد ولولا مرفوعات المحل على الفاعلية، والثاني على انتصابها بالمفعوليّة وكون الفاعل القدمة والأزليّة والتكملة والأوّل أولى وأنسب لمطابقته لنسخة الرضي كما روي ولكون قرب هذه الجمل بقوله وإنما تحدّ الأدوات آه مشعراً بكون عمدة النظر فيهما إلى بيان وصف الآلات بالحدوث وإظهار نقصها وقصورها وإن كان المقصود بالذات منهما جميعاً الدلالة على تنزيه الباري سبحانه من القصور والنقصان.

وكيف كان فتوضيح دلالة هذا الكلام على المرام يحتاج إلى تمهيد مقدمة أو بيّنة وهي:

أن لفظ منذ مثل أختها مذ لها معنيان.

أحدهما أوّل المدة أي ابتداء زمان الفعل الذي قبلها مثبتاً أو منفياً تقول رأيته منذ يوم الجمعة أو ما رأيته منذ يوم الجمعة أي أوّل مدّة الرؤية أو انتفاؤها يوم الجمعة.

وثانيها جميع مدّة الفعل الذي قبلها مثبتاً أو منفياً، نحو صحبني منذ يومان أي مدّة صحبته يومان فيليها الزمان الذي فيه معنى العدد، ويجب أن يليها مجموع زمان الفعل من أوّله إلى آخره المتصل بزمان التكلم.

وقد يقع بعدها مصدر أو فعل أوان فيقدر زمان مضاف إلى هذه نحو ما رأيته منذ سفره أو منذ سافر أو منذ أنه سافر أي منذ زمان سفره ومنذ زمان سافر ومنذ زمان أنه سافر.

ولفظة قد إذا دخلت علىٰ الماضي تفيد التحقيق وتقريب الماضي من الحال تقول: قد ركب زيد أي حصل ركوبه عن قريب، فإن قلت ركب زيد احتمل الماضي القريب والبعيد ولذلك لا تدخل على الفعل الغير المنصرف مثل نعم وبئس وعسى وليس لأنّها ليست بمعنى الماضي حتى يقرب معناها من الحال.

ولفظة لولا موضوعة للدخول على جملة اسمية ففعلية لربط امتناع الثانية بالأولى تقول لولا زيد لأكرمتك أي لولا زيد موجود، فهي تدل على امتناع الإكرام بسبب وجود زيد، وتقول في الأشياء البديعة المعجبة ما أحسنها وألطفها لولا ما فيها من عيب كذا، فتفيد انتفاء شدّة الحسن والإعجاب بوجود العيب الموجود فيها.

وإذا مهّدت هذه المقدّمة الشريفة نقول:

معنى كلامه عليه السلام على رواية رفع منذ وقد ولولا بالفاعلية أن صحة إطلاق هذه الألفاظ الثلاثة بمعانيها المذكورة واطراد استعمالها في الآلات والأدوات في نفسها وما يتعلّق بها من أوصافها أوفى أهلها أعني من له تلك الآلات تدلّ على حدوثها ونقصانها وذلك لأن دخول لفظة منذ عليها في قولنا: هذه الآلات وجدت منذ زمن طويل أو قصير أو أعوام كذا تمنعها من كون تلك الآلات قديمة، إذ القديم متعال عن الزمان ولا ابتداء لوجوده.

وكذا دخول لفظة قد عليها في قولنا: قد وجدت تلك الآلات في وقت كذا يمنعها من كونها أزليّة لإفادتها تقريب زمان وجودها من الحال المنافي للأزليّة إذ الأزلي ما لا بداية لوجوده فكيف يكون الزمان الماضي ظرفاً لوجوده فضلاً عن القرب إلى الحال.

وكذا صحّة استعمال لولا فيها في قولنا: ما أحسن تلك الآلات وأكملها أو أحسن وأكمل أربابها لولا فنائها يجنّبها أي تجعلها أجنبيّة من التكملة والوصف بالكمال.

فملخص المعنى أنها منعتها صحة دخول منذ من قدمتها، وصحّة دخول قد من أزليتها وجعلها صحّة استعمال لولا أجنبية من تكملتها أي من توصيفها بالكمال.

وأما على رواية النّصب وكون القدمة والأزليّة والتكملة مرفوعات بالفاعلية فالمراد بيان قدم الباري وكماله سبحانه.

ومعنى الكلام أن هذه الآلات منعها كون الباري قديماً من جواز استعمال لفظة منذ المربوط معناها بالزمان فيه تعالى وإطلاقها عليه سبحانه، لأن القديم سابق على الوقت والزمان، وكذا منعها كونه سبحانه أزلياً من جواز استعمال قد فيه عزّ شأنه، وجنّبها كونه على غاية العزّ والكمال ومنتهى العظمة والجلال من دخول لفظة لولا المفصحة عن القصور والنقصان على ذاته وصفاته تعالى هذا.

ولما ذكر عليه السلام قدسه تعالى عن الاتصاف بحدّ والاحتساب بعدّ وارتفاع ذاته عن تحديد الآلات والمشاعر، وتعاليه عن إدراك الممكنات عن الأعراض والجواهر وأشار إلى حدوث الآلات وقصورها ونقصانها وقدمة الباري وأزليته وكماله أردفه بقوله:

(بها تجلى صانعها للعقول وبها امتنع عن نظر العيون) تنبيهاً على أنها على ما فيها من القصور والنقص غير عادم المدخلية في معرفته سبحانه، إذ بها عرفنا صفات جماله، وبها علمنا صفات جلاله.

فمعنى قوله عليه السلام: بها تجلّي صانعها للعقول، أنه بخلقه تلك المشاعر والآلات على وجه الإتقان والأحكام، وتقديره إيّاها على النظام الأكمل إفاضتها علينا وإهداء كلّ منها إلى ما خلق لأجلها من المصالح والمنافع التي لا تعد ولا تحصى، تجلّي سبحانه لعقولنا وعلمنا علماً لا يعتريه شك وريب أن لها صانعاً قادراً عالماً مدبّراً حكيماً.

وأيضاً فإنه سبحانه لما خلق تلك الآلات والحواس المدركة لبدايع ما في عالم الإمكان عرفنا بإدراكها أن لذلك العالم مبدعاً قادراً وصانعاً قاهراً فكانت تلك الآلات طرقاً لعرفان العقل كما قال عزّ من قائل ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلَت: الآية ٥٣] .

ومعنى قوله: وبها امتنع عن نظر العيون، أنه بها استنبطنا استحالة كونه مرئياً بحاسة البصر، وذلك لأنا بالمشاعر والحواس كملت عقولنا استخرجنا الدلالة على أنه لا تصحّ رؤيته، وعرفنا أنه يستحيل أن يعرف بغير العقل وأن قول من قال إنا سنعرفه رؤية ومشافهة بالحاسة باطل، هكذا قال الشارح المعتزلي.

وقال الشارح البحراني: إنّه بإيجادها وخلقها بحيث تدرك بحاسّة البصر علم أنه تعالى يمتنع أن يكون مرئياً مثلها، وذلك لأن تلك الآلات إنما كانت متعلقة حس البصر باعتبار أنّها ذات وضع وجهة ولون وغيره من شرايط الرؤية، ولما كانت هذه الأمور ممتنعة في حقّه تعالى لا جرم امتنع أن يكون محلاً لنظر العيون.

وقال العلامة المجلسي رحمه الله: لما رأينا المشاعر إنما تدرك ما كان ذا وضع بالنسبة إليها علمنا أنه لا يدرك بها، لاستحالة الوضع فيه.

والثالث والعشرون أنه سبحانه **(لا يجري عليه السكون والحركة)** لأنهما من أقسام الأعراض وأوصاف الأجسام فيستحيل جريانهما عليه سبحانه، وأوضح ذلك الدّليل بوجوه:

أحدها ما أشار إليه بقوله **(وكيف يجري عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبداه ويحدث فيه ما هو أحدثه)** استفهام على سبيل الإنكار والإبطال لجريهما عليه تعالى.

تقريره أنه عزّ وجلّ هو جاعل الحركة والسّكون ومبدؤهما وموجدهما فهما من مجعولاته وآثاره سبحانه في الأجسام، وكلّ ما كان من آثاره فيستحيل اتصافه به.

أمّا أنهما من آثاره سبحانه فواضح.

وأمّا استحالة اتصافه بهما فلأن المؤثر واجب التقدّم بالوجود على الأثر فذلك الأثر:

إمّا أن يكون معتبراً في صفات الكمال فيلزم أن يكون الواجب ناقصاً بذاته مستكملاً بغيره من آثاره، والنقص عليه محال.

وإمّا أن لا يكون معتبراً في صفات الكمال فله الكمال المطلق بدون ذلك الأثر فيكون إثباته له وتوصيفه به نقصاً في حقه لأن الزيادة على الكمال المطلق نقصان وهو عليه محال.

ثانيها: ما أشار إليه بقوله **(إذاً لتفاوتت ذاته)** يعني أنه لو جريا عليه لكان ذاته متفاوتة متغيّرة بأن يكون تارة متحركة وأخرى ساكنة والواجب لا يكون محلاً للحوادث والمتغيّرات لرجوع التغيير فيها إلى الذات.

ثالثها: ما أشار إليه بقوله **(ولتجزء كنهه)** أي لو كان متصفاً بهما يلزم أن يكون ذاته وكنهه متجزءاً كما قد أفصح عنه في الفصل الرابع من الخطبة الأُولى بقوله؛ فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزاه.

وتوضحيه أنّهما من الأعراض الخاصّة بالأجسام فلو اتّصف الواجب تعالى بهما لكان جسما وكلّ جسم مركب قابل للتجزئة وكل مركب مفتقر إلى أجزائه وممكن، فيكون الواجب مفتقراً ممكناً وهو باطل.

وقيل في وجه الملازمة: إن اتصافه بهما يستلزم شركته مع الممكنات فيلزم تركبه ممّا به الاشتراك وممّا به الامتياز، وما قلناه أولى.

رابعها: ما أشار إليه بقوله **(ولامتنع من الأزل معناه)** وهو في الحقيقة تعليل لما سبق أي إذا استلزم اتصافه بهما للتركيب والتجزئة التي هي من خواص الأجسام فيمتنع استحقاقه للأزليّة لأنه حينئذ يكون جسماً وكل جسم حادث.

خامسها: ما أشار إليه بقوله **(ولكان له وراء إذ وجد له أمام)** وهذا الدليل مخصوص بنفي الحركة.

قال الشارح المعتزلي: يقول لو حلته الحركة لكان جرماً وحجماً ولكان أحد وجهيه غير وجهه الآخر لا محالة فكان منقسماً.

وقال الشارح البحراني: لو جرت عليه الحركة لكان له إمام يتحرّك إليه وحينئذ يلزم أن

يكون له وراء إذ له أمام لأنهما إضافتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى لكن ذلك محال لأن كل ذي وجهين فهو منقسم، وكل منقسم ممكن.

وسادسها ما أشار إليه بقوله **(ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان)** وهذا الدليل أيضاً مخصوص بنفي الحركة ويستفاد منه نفي السكون بالأولوية يقول عليه السلام: إنّه سبحانه لو كان متحركاً لكان ملتمساً بحركته كمالاً لم يكن له حال سكونه لأن السكون كما قاله الحكماء عدم ونقص، والحركة وجود وكمال، فلو كان الواجب تعالى متحرّكاً لكان طالباً بالحركة الطارية على سكونه الكمال والتمام لكنه يستحيل أن يكون له حالة نقصان وإن يكون له حال بالقوة وأخرى بالفعل.

قال الشارح البحراني في تقريره: إن جريان الحركة عليه مستلزم لتوجّهه بها إلى غاية إما جلب منفعة أو دفع مضرّة، إذ من لوازم حركات العقلاء ذلك، وعلى التقديرين فهما كمال مطلوب له لنقصان لازم لذاته، لكن النقصان بالذات والاستكمال بالغير مستلزم للإمكان فالواجب ممكن، هذا خلف.

أقول: وإن شئت مزيد توضيح لهذا الدليل فهو موقوف على تحقيق معنى الحركة وبسط الكلام في المقام فأقول:

عرّفها أرسطو ومن تابعه بأنها كمال أول لما هو بالقوة من حيث هو بالقوة.

وعرّفها المتكلمون بأنها حصول الجسم في مكان بعد آخر، وتقييدهم الحصول بالمكان بناء على أنّهم لا يثبتون الحركة في ساير المقولات بل يخصونها بمقولة الأين فقط، وأمّا الأوّلون فيحكمون بوقوعها في الأين والوضع والكمّ والكيف، وتفصيل ذلك موكول إلى الكتب الكلاميّة، والمراد بالكمال في تعريفهم هو الحاصل بالفعل.

قال الشارح القوشجي: وإنما سميّ الحاصل بالفعل كمالاً لأن في القوة نقصاناً والفعل تمام بالنسبة إليها، وهذه التسمية لا يقتضي سبق القوة بل يكفيها تصوّرها وفرضها.

واحترز بقيد الأوليّة عن الوصول، فإن الجسم إذا كان في مكان مثلاً وهو ممكن الحصول في مكان آخر كان له إمكانان إمكان الحصول في ذلك المكان وإمكان التوجّه إليه، وهما كمالان والتوجّه مقدّم على الوصول فهو كمال أوّل والوصول كمال ثان.

ثم إنّ الحركة تفارق ساير الكمالات من حيث إنّها لا حقيقة لها إلاّ التّوجه إلى الغير فالسّلوك إليه، فلا بدّ من مطلوب ممكن الحصول ليكون التوجّه توجّهاً إليه، ومن أن لا يكون ذلك المطلوب حاصلاً بالفعل، إذ لا توجّه بعد حصول المطلوب.

فالحركة إنما تكون حاصلة بالفعل إذا كان المطلوب حاصلاً بالقوة. لكن من حيث هو بالقوة لا من حيث هو بالفعل من حيثية أخرى كساير الكمالات فإن الحركة لا تكون كمالاً للجسم في جسميّته أو في شكله أو نحو ذلك، بل من الجهة التي هو باعتبارها كان بالقوة أعني الحصول في المكان الآخر.

واحترز بهذا القيد عن كمالاته التي ليست كذلك كالصّورة النوعيّة، فإنّها كمال أوّل للمتحرك الذي لم يصل إلى المقصود، لكن لا من حيث هو بالقوّة بل من حيث هو بالفعل.

وأنت إذا عرفت ذلك تعرف أن الحق الأوّل تعالى شأنه يمتنع جريان الحركة عليه سواء كانت بالمعنى الذي يقوله الفلاسفة أو بالمعنى الذي يقوله المتكلمون.

أما على الثاني فواضح لأنها عندهم هو حصول الجسم في مكان بعد آخر وهو تعالى ليس بجسم ولا حاجة له إلى المكان.

وأما على الأوّل فأوضح.

أما أولاً فلأن محلها عندهم هو المقولات الأربع أعني الكم والكيف والوضع والأين وكلها من أنواع العرض والله سبحانه ليس بعرض ولا جوهر بل خالق الجوهر والعرض وجاعل الوضع والكم وهو الذي أيّن الأين بلا أين وكيّف الكيف بلا كيف.

وأمّا ثانياً فلأنه تعالى ليس له كمال بالفعل وكمال بالقوّة بل جميع كمالاته فعلية.

وأمّا ثالثاً فلأنه ليس عادماً بشيء من الكمالات حتى يحتاج بحركته إلى تحصيل كامل بل هو كامل في ذاته وتمام في صفاته جامع لجميع الكمالات الذاتية والصّفاتية، هذا.

وقد نبه على عدم جريان الحركة عليه سبحانه بمعنييه أبو إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام في الحديث المروي في **«الكافي»** عن يعقوب بن جعفر الجعفري قال:

ذكر عند أبي إبراهيم عليه السلام قوم يزعمون أن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السّماء الدّنيا فقال عليه السلام: «إن الله لا ينزل ولا يحتاج إلى أن ينزل إنما منظره في القرب والبعد سواء، لم يبعد منه قريب ولم يقرب منه بعيد، ولم يحتج إلى شيء بل يحتاج إليه وهو ذو الطول لا إله إلا هو العزيز الحكيم أما قول الواصفين أنّه ينزل تبارك وتعالى فإنما يقول ذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة وكلّ متحرك محتاج إلى من يحرّكه ويتحرك به فمن ظن بالله الظنون هلك، فاحذروا في صفاته من أن تقفوا له على حدّ يحدّونه بنقص أو زيادة أو تحريك أو تحرّك أو زوال أو استنزال أو نهوض أو قعود، فإن الله جل وعز عن صفة الواصفين ونعت الناعتين

وتوهّم المتوهّمين وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلّبك في الساجدين»[١].

قال بعض الأفاضل في شرح الحديث:

قوله عليه السلام: «إن الله لا ينزل ولا يحتاج إلى أن ينزل» لأن المتحرك من مكان إلى مكان إنما يتحرك لحاجة إلى الحركة إذ ليست نسبته إلى جميع الأمكنة نسبة واحدة بل إذا حضر له مكان أو مكاني غاب عنه مكان أو مكاني آخر، وإذا قرب من شيء بعد عن شيء آخر فإذا حصل في مكان وكان مطلوبه في مكان آخر فيحتاج في حصول مطلوبه إلى الحركة إلى مطلوبه أو حركة مطلوبه إليه، والله سبحانه لما لم يكن مكانياً كان نسبته إلى جميع الأمكنة والمكانيات نسبة واحدة وليس شيء أقرب إليه من شيء آخر ولا أبعد ولا هو أقرب إلى شيء من شيء آخر ولا أبعد إلا بمعنى آخر غير المكاني وهو القرب بالذات والصّفات ونحو ذلك والبعد الذي بإزائه وإلى ذلك أشار عليه السلام بقوله: «إنما منظره في القرب والبعد» يعني المكانيين «سواء».

وقوله عليه السلام: «ولم يحتج إلى شيء» تعميم لقوله: ولا يحتاج إلى أن ينزل، فالأول إشارة إلى البرهان على نفي الحركة في المكان بما ذكره في تساوي منظره في القرب والبعد من الأحياز والأمكنة، وهذا إشارة إلى البرهان على نفي الحركة والتغير مطلقاً بأن معنى الحركة الخروج من القوّة إلى الفعل، وبعبارة أخرى كمال ما بالقوّة من جهة ما هو بالقوة وكل ما هو بالقوّة في شيء فهو فاقد له محتاج إليه لأنّه كمال وجودي له، وإلاّ لم يتحرك إليه، والحق تعالى غير محتاج إلى شيء أصلاً فهو غير متحرك بوجه من الوجوه لا في المكان ولا في غيره.

وإنما قلنا أنه لم يحتج إلى شيء لأن ما سواه من الأشياء كلها إنما حصلت منه وهو أصلها ومنبعها ومنشاؤها، وهو المتطول عليها المتفضل المنعم بالإحسان إليها، فهي المحتاجة إليه تعالى، فلو احتاج هو إلى شيء يلزم افتقار الشيء إلى ما يفتقر إليه من حيثية واحدة، وذلك محال، لاستلزامه توقف الشيء على نفسه وذلك قوله عليه السلام «بل يحتاج إليه وهو ذو الطول لا إله إلا هو العزيز الحكيم».

ولما ذكر عليه السلام القاعدة الكلّية بالبيان البرهاني على نفي الحركة المكانية أولاً ثم على نفي الحركة والتغير على الإطلاق أراد أن يشير إلى المفاسد التي يلزم من القول بوصفه تعالى بنزوله من مكان إلى مكان فقال: «أما قول الواصفين أنه ينزل تبارك وتعالى فإنما يقول ذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة» يعني أن النزول ضرب من الحركة وأن كل ما يتحرك سواء

---

(١) الكافي: ١/١٥٢ ح١، التوحيد: ١٨٣ ح١٨.

كانت الحركة في الأين أو في غيره فهو خارج من نقص إلى كمال، فيلزم على هؤلاء الواصفين ربهم بالنزول أن ينسبوه إلى نقص، وذلك قبل الحركة أو إلى زيادة وهي بعد الحركة، والخروج من القوة إلى الفعل، وكل ما يوصف بنقص أو زيادة ففي ذاته إمكان أن ينفعل من غيره، فيتركب ذاته من قوّة وفعل، بل هي من مادة بها يكون بالقوة، ومن صورة بها يكون بالفعل وكلّ مركب فهو ممكن الوجود محتاج إلى غيره، فيلزم أن لا يكون إله العالم واجب الوجود، وهذا محال.

وقوله: «وكل متحرك محتاج إلى من يحرّكه أو يتحرك به» إشارة إلى حجة أخرى على بطلان توهّم الحركة، وهي أن كل متحرك لا بد له من محرّك غيره، سواء كان مبايناً له كالحركات النفسانية وهو المعبّر عنه بقوله من يحرّكه، أو مقارناً له كالحركات الطبيعيّة وهو المعبّر عنه بقوله أو يتحرّك وذلك لأن الحركة صفة حادثة لكون أجزائها غير مجتمعة في الوجود، وكل جزء منها مسبوق بجزء آخر فيكون جميعها حادثة وما يتركب فهو أولى فهي لكونها صفة تحتاج إلى قابل ولكونها حادثة تحتاج إلى فاعل، ولا بدّ أن يكون فاعلها غير قابلها لأن المحرّك لا يحرّك نفسه بل بشيء يكون متحركاً بالقوة كما أن المسخّن لا يسخّن نفسه بل لأمر يكون سخونته بالقوّة فقابل الحركة أمر بالقوّة وفاعلها أمر بالفعل فكل متحرك يحتاج إلى محرّك يغايره والمحتاج إلى الغير لا يكون واجباً فيلزم أن لا يكون إله العالم واجباً وهو محال.

وسابعها ما أشار إليه بقوله **(وإذا لقامت آية المصنوع فيه)** أي لو كان فيه الحركة والسّكون لقامت فيه علامة المصنوع لكونهما من صفات المصنوعات الحادثة، فيلزم أن لا يكون إله العالم صانعاً بل مصنوعاً مفتقراً إلى صانع، كساير الممكنات والمصنوعات الموصوفة بالحدوث.

وثامنها ما أشار إليه بقوله **(ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه)** يعني أنا استدللنا على وجوده سبحانه بحدوث الأجسام وتغيراتها وحركاتها وانتقالاتها من حال إلى حال، فلو كان إله العالم متغيراً متحركاً منتقلاً من حال إلى حال لاشترك مع غيره في صفات الإمكان وما يوجب الافتقار إلى العلّة فكان دليلاً على صانع صنعه وأحدثه لا مدلولاً عليه بأنه صانع وهو باطل، هذا.

ولما ذكر المفاسد التي تترتب على جريان الحركة والسكون عليه سبحانه، وأبطل جوازهما عليه بالوجوه الثمانية عقبه بقوله **(وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره)** واختلف شراح النهج فيما عطفت هذه الجملة عليه:

فقال الشارح المعتزلي: إنها عطف على قوله عليه السلام كان مدلولاً عليه، وتقدير الكلام

كان يلزم أن يتحول الباري دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه وبعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره.

وقال الشارح البحراني: قد يسبق إلى الوهم إنها عطف على الأدلة المذكورة وظاهر أنه ليس كذلك بل هو عطف على قوله: امتنع أي بها امتنع عن نظر العيون وخرج بسلطان ذلك الامتناع أي امتناع أن يكون مثلها في كونها مرئية للعيون ومحلاً للنظر إليها عن أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره من المرئيات وهي الأجسام والجسمانيات، وظاهر أنه لما امتنع عن نظر العيون لم يكن جسماً ولا قائماً به، فخرج لسلطان استحقاق ذلك الامتناع عن أن يكون يؤثر فيه ما يؤثر في غيره من الأجسام والجسمانيات وعن قبول ذلك.

وقال بعض الشارحين: إنها عطف على قوله: تجلّى، أي بها تجلّي صانعها للعقول وخرج بسلطان الامتناع عن كونه مثلاً لها أي بكونه واجب الوجود ممتنع العدم عن أن يكون ممكناً فيقبل إثر غيره كما يقبله ساير الممكنات.

أقول: وأنت خبير بسخافة هذا القول كسابقه وإباءِ سوق كلامه عليه السلام عنهما جميعاً، لأنه عليه السلام قد ذكر هذه الجملة في ذيل المفاسد المترتبة على جريان الحركة والسكون، لا في ذيل تجلي الصانع للعقول وامتناعه عن نظر العيون، فلا ارتباط له بشيء منهما مع طول الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملات أجنبيّة تنيف على عشر.

نعم ما قاله الشارح المعتزلي لا بأس به إلا أن الأظهر الأولى أن تجعل الواو في هذه الجملة حالية لا عاطفة وتكون الجملة في محل النصب على الحال بتقدير قد على حدّ قوله تعالى: ﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النّساء: الآية ٩٠] وذو الحال هو الضمير المستتر في تحول الراجع إلى الله سبحانه، فيكون تحول عاملاً فيها ولا غبار عليه عند المشهور من علماء الأدبية.

وأما على قول بعضهم من أن جميع العوامل اللفظية تعمل في الحال إلا الأفعال الناقصة فاجعلها حالاً من ضمير فيه في قوله: ولقامت آية المصنوع فيه.

فالعامل حينئذ قامت وحسن ارتباطه بالجملتين مضافاً إلى قربهما غير خفيّ على صاحب الذّوق السّليم فإنّه عليه السلام لما ذكر استلزام جريان الحركة عليه سبحانه لقيام علامة الصنع وآثار الإمكان فيه المفيد لتأثره من صانعه، وذكر أيضاً استلزامه لكونه تعالى دليلاً على مدلوله المفيد لكونه معلولاً منفعلاً من علته وفاعله، عقبه بهذه الجملة تنبيهاً على بطلان اللازمين كليهما المستلزم لبطلان ملزومهما، وهو جريان الحركة عليه.

فمحصّل نظم الكلام أنه تعالى لو جرى عليه الحركة واتصف بها لقام فيه أثر صانعه

المحرك، وظهر عليه فعل علته الفاعل له، والحال أنه قد خرج بسلطنة الكلية على جميع من سواه وامتناع التأثر واستحالة الانفعال بماله من وجوب الوجود عن أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره من الممكنات وأن يتأثر من غيره كساير الموجودات، لأن غيره ومن سواه جميعاً بكونه دليلاً في قيد الإمكان مفتقر إلى المؤثر محتاج إلى العلّة فوجوده وأفعاله مكتسب من الغير فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً، وأما إله الحي القيوم العزيز الشأن فوجوده وصفاته الذاتية عين ذاته وأفعاله الصّادرة بنفس ذاته المقدّسة فلا افتقار له إلى المؤثر ولا حاجة له إلى المدبّر، بل هو المؤثر في جميع العالم، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

والرابع والعشرون أنه **(الذي لا يحول ولا يزول)** أي لا يمضي ولا يكون زائلاً من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال لاستحالة التغير والانتقال عليه عز وجل.

(و) الخامس والعشرون أنه **(لا يجوز عليه)** الغيبة و**(الأفول)** لاستلزامه الانتقال والحركة الدالة على الحدوث.

ولذلك استدل به إبراهيم عليه السلام على عدم ربوبية الكوكب والشمس والقمر كما حكاه سبحانه عنه في كتابه العزيز بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: الآيات ٧٦ ـ ٧٨].

قال الطبرسي رضي الله عنه: وإنما استدل إبراهيم بالأفول على حدوثها لأن حركتها بالأفول أظهر ومن الشبهة أبعد، وإذا جازت عليها الحركة والسكون كانت مخلوقة محدثة محتاجة إلى المحدث.

السادس والعشرون (لم يلد فيكون مولوداً ولم يولد فيصير محدوداً) أما أنه سبحانه لم يلد شيئاً ولم يولد من شيء فقد مر بيانه في شرح الخطبة التي رواها عنه نوف البكالي وهي الخطبة المئة والإحدى والثمانين.

وأما الملازمة بين مقدم القضية الأولى وتاليها.

فأما بناء على ما هو المتعارف المتعاد بحسب الاستقراء من أن كل ماله ولد فإنه يكون مولوداً وإن لم يجب ذلك عقلاً كآدم أبي البشر أنه عليه السلام والد وليس بمولود وكأُصول أنواع الحيوان الحادثة.

أو بناء على ما قاله الشارح المعتزلي من أنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع

أحدهما فرض وقوع الآخر، وإنما المراد أنه يلزم من فرض صحة كونه والداً صحة كونه مولوداً والتالي محال وجهة التلازم أنه لو صح أن يكون والداً على التفسير المفهوم من الوالدية وهو أن يتصوّر من بعض أجزائه حي آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نعقل في النطفة المنفصلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى حتى يكون منها بشر آخر من نوع الأول لصح عليه أن يكون هو مولوداً من والد آخر قبله.

وذلك لأن الأجسام متماثلة في الجسميّة وقد ثبت ذلك بدليل عقلي واضح وكلّ مثلين فإن أحدهما يصح عليه ما يصحّ على الآخر، فلوصحّ كونه والداً صحّ كونه ولداً.

وأمّا بطلان التالي فلأنّ كلّ مولود متأخر بالزمان عن والده ومحدث والحق الأوّل عز وجلّ قديم فلا يجوز عليه أن يكون مولوداً، وأيضاً لو كان مولوداً لكان محدوداً كما صرّح به في القضية الثانية والثاني باطل فالمقدّم مثله.

ووجه الملازمة أنه لو كان مولوداً لكان محاطاً ومحدوداً بالمحلّ المتولّد منه وأيضاً الشيء المتولّد من شيء لا بدّ له من مادة وصورة وغيرهما من شرايط وجوده وتركيبه، ومن جزئين بأحدهما يشارك أفراد نوعه وبالآخر يتميز عنهم وهي أجزاؤه التي يقف عندها وينتهي عند التحليل إليها، فثبت أنه لو كان مولوداً لكان محدوداً.

وأمّا بطلان التالي فلما قد مرّ في تضاعيف الشرح غير مرّة وفي شرح هذه الخطبة بخصوصها عند تفسير قوله: لا يشمل بحدّ، من أنه سبحانه منزّه عن الحدّ مطلقاً اصطلاحياً كان أعني القول الشارح لمهيّة الشيء لاستلزامه التركيب المستحيل عليه أو لغوياً أعني غاية الشيء ونهايته، لأنه سبحانه غاية الغايات ومنتهى النهايات لا غاية له ولا نهاية.

وبعبارة أخرى كونه مولوداً يلزمه الحواية وإحاطة المحلّ المتولّد منه به وهو يستلزم كونه ذا نهاية وحدّ وهو محال، لأن النهاية والحدّ من عوارض الأجسام وذات الأوضاع والمقادير تعرض لها بالذات وللواحقها كالأزمنة والحركات وللأمور المتعلّقة بها كالقوى والكيفيّات بالعرض، والأوّل تعالى ليس بجسم ولا جسماني ولا متعلّق به ضرباً من التعلّق فهو منزّه عن الحدّ والنهاية.

فظهر بذلك كله أنه سبحانه ليس بمحدود، فليس بمولود فليس بذي ولد بل هو الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

السابع والعشرون إنه (جل عن اتخاذ الأبناء) وهو تأكيد لما سبق لأنه لما ذكر آنفاً أنه ليس بذي ولد أكّده بذلك تنبيهاً على جلالة شأنه من اتخاذ الولد لأن من اتخذ ولداً فإنما يتخذه لدواعي تدعوه إليه من العطوفة والشفقة والمعاونة في حياته والوراثة عنه والخلافة في

مقامه بعد مماته إلى غير ذلك من الدواعي التي هي من عوارض الممكن، والواجب تعالى منزّه عن ذلك كلّه.

(و) الثامن والعشرون إنه **(طهر عن ملامسة النساء)** لأن ملامستهن من مقتضيات القوة البهيميّة الحيوانية المنزّه قدسه عنها مع أن الملامسة من صفات القوة اللامسة التي هي من خواص الأجسام.

والتاسع والعشرون إنه **(لا تناله الأوهام فتقدّره)** قال الشارح البحراني أي لو نالته الأوهام لقدرته لكن التالي باطل فالمقدّم كذلك.

بيان الملازمة أن الوهم إنّما يدرك المعاني المتعلقة بالمادة ولا ترفع إدراكه عن المحسوسات وشأنه فيما يدركه أن يستعمل المتخيلة في تقديره بمقدار مخصوص وكميّة معيّنة وهيئة معيّنة ويحكم بأنّها مبلغه ونهايته فلو أدركته الأوهام لقدّرته بمقدار معين وفي محلّ معين.

فإما بطلان التالي فلأن المقدر محدود مركب ومحتاج إلى المادة والتعلّق بالغير قد سبق بيان امتناعه.

(و) الثلاثون أنّه **(لا تتوهمّه الفطن فتصوّره)** فظن العقول هو حذقها وجودة استعدادها لتصور ما يرد عليه، وبعبارة أخرى هو سرعة حركتها في تحصيل الوسط لاستخراج المطالب.

قال: وإنّما لا تتوهّمه الفطن، لأن القوة العاقلة عند توجّهها لتحصيل المطالب العقلية المجردة لا بدّ لها من استتباع الوهم والمتخيلة والاستعانة بها في استثباتها بالنسج والتصوير بصورة تحطها إلى الخيال كما علمته في شرح الفصل الثاني من المختار الأوّل، فظهر بذلك إنها لو أدركته لكان ذلك بمشاركة الوهم فكان يلزمه أن يصوّره بصورة خيالية، لكنه تعالى منزّه عن الصّورة فاستحال لها إدراكه وتصويره.

(و) الأحد والثلاثون أنّه **(لا تدركه الحواس فتحسّه)** أي لا يمكن لها إدراكه سبحانه فيوجب ذلك كونه تعالى محسوساً، لأن إدراكاتها مقصورة على ذوات الأوضاع والأجسام والجسمانيات، والله سبحانه ليس بجسم ولا جسماني ولا ذي وضع وأيضاً لا يمكن حضور الأنوار الحسيّة في مشهد نور عقلي بل يضمحل ويفنى فكيف في مشهد نور الأنوار العقلية.

(و) الثاني والثلاثون إنه **(لا تلمسه الأيدي فتمسّه)** ربما يستعمل اللّمس والمسّ بمعنى واحد، وقد يفرق بينهما بأن المس إيصال الشيء بالبشرة على وجه تأثر الحاسّة به واللّمس كالطلب له قاله البيضاوي يعني اللّمس ينبيء عن اعتبار الطلب سواء كان داخلاً في مفهومه أو لازماً له، وعلى الأوّل فالمراد به أن الأيدي لا يمكن لها لمسه فيوجب ذلك كونه ملموساً

ممسوساً، وعلى الثاني فالمراد أنها لا يمكن لها الطلب به فتصل إليه لاستلزامه الجسميّة على التقديرين.

كما يدل عليه صريحاً ما رواه في البحار من عقايد الصّدوق بإسناده عن عبد الله بن جوين العبدي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يقول: الحمد لله الذي لا يحسّ ولا يجسّ ولا يمسّ ولا يدرك بالحواس الخمس ولا يقع عليه الوهم ولا تصفه الألسن وكل شيء حسّته الحواس أو لمسته الأيدي فهو مخلوق، الحمد لله الذي كان ولم يكن شيء غيره وكوّن الأشياء فكانت كما كوّنها وعلم ما كان وما هو كائن.

والثالث والثلاثون أنّه **(لا يتغير بحال)** من الأحوال وبوجه من الوجوه أي أبداً، لأن التغيّر من عوارض الإمكان.

(و) الرابع والثلاثون أنه **(لا يتبدّل بالأحوال)** أي لا ينتقل من حال إلى حال لما عرفت سابقاً من امتناع الحركة والانتقال عليه.

(و) الخامس والثلاثون أنه **(لا تبليه الليالي والأيام)** لاستلزام الإبلاء للتغير المستحيل عليه، ولأن البلى إنما يعرض للأمور المادية وكل ذي مادة من مركب فاستحال عروضه عليه سبحانه.

(و) السادس والثلاثون أنه **(لا تغيره الضياء والظلام)** لتنزّهه من التغيّر وأمّا غيره سبحانه من ذوي الحواس فالضياء سبب لأبصارهم المبصرات من الألوان والأشكال والمقادير والحركات وغيرها والظلام مانع عنه، فبهما يتغيّر حالهم بالإدراك وعدم الإدراك والحق الأوّل جل شأنه لما كان منزهاً عن الحواس بصيراً لا بالاحساس فلا يوجب الضياء والظلام تفاوتاً وتغيراً في إدراكه.

(و) السابع والثلاثون أنه **(لا يوصف بشيء من الأجزاء)** الذّهنية والعقلية والخارجية بل هو سبحانه أحديّ الذات بسيط الهوية، لأنّ المركب من الأجزاء مفتقر إلى جزئه الذي هو غيره والافتقار من صفات الإمكان.

(و) الثامن والثلاثون أنه **(لا)** يوصف **(بالجوارح والأعضاء)** لأن كل ذي جارحة وعضو فهو جسم مصوّر بصورة مخصوصة وهو تعالى منزله عن الجسمية والتركيب والتجزية والصورة.

روى في «الكافي» عن محمد بن الحسن عن سهل بن زياد عن حمزة بن محمد قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن الجسم والصورة، فكتب: سبحانه من ليس كمثله شيء لا جسم ولا صورة.

قال صدر المتألهين: نفى الجسم والصورة عنه تعالى بوجه الإشارة إلى برهانه وهو أن الله لا مثل له. إذ لا مهية له وكلّ جسم له مثل فلا شيء من الجسم بإله.

وفيه أيضاً بإسناده عن محمد بن الحكيم قال: وصفت لأبي إبراهيم عليه السلام قول هشام بن سالم الجواليقي وحكيت قول هشام بن الحكم أنه جسم، فقال: إن الله لا يشبهه شيء أيّ فحش أو خناء أعظم عن قول من يصف خالق الأشياء بجسم أو بصورة أو بخلقه أو بتحديد أو بأعضاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

حكى في «**شرح الكافي من كتاب الملل والنحل**» عن هشام أنه قال: إنه تعالى على صورة الإنسان أعلاه مجوف وأسفله مصمت وهو ساطع يتلألأ، له حواس خمس ويد ورجل وأنف وأذن وعين وفم، وله وفرة سوداء هو نور أسود لكنه ليس بلحم ولا دم.

(و) **التاسع والثلاثون** إنه (لا) يتصف (**بعرض من الأعراض**) التسعة وهي الكم والكيف والمضاف والأين ومتى والوضع والملك والفعل والانفعال، وتسمي هذه الأقسام مع القسم العاشر وهو الجوهر بالمقولات العشر والأجناس العالية.

وإنما لا يجوز اتصافه سبحانه بشيء منها، لأنها كلها مخلوقات محدثة واتصاف القديم بالحادث محال لأن ذلك الحادث إن كان صفة كمال يلزم أن يكون الواجب ناقصاً بدونه مستكملاً به بعد وجوده والنقص ممتنع عليه سبحانه، وإن لم يكن صفة كمال فله الكمال المطلق بدونه وحينئذ كان إثباته عليه وتوصيفه به نقصاً، لأن الزيادة على الكمال المطلق نقصان حسبما قلناه سابقاً.

وأيضاً وصفه تعالى بصفات زائدة على ذاته يوجب التجزية والتركيب المستحيل عليه كما عرفته في شرح الفصل الرابع من الخطبة الأولى وغيره أيضاً.

(و) **الأربعون** إنه (لا) يتصف (**بالغيرية والأبعاض**) أي ليس له أبعاض وأجزاء يغاير بعضها بعضاً، لأنه وحداني الذات بسيط الهوية وإلا فيلزم عليه التركيب والتجزية المتنعان عليه.

(و) **الأحد والأربعون** أنه (**لا يقال له حد ولا نهاية**) أي ليس لأوليته حدّ ونهاية لأن الحدود والنهايات من عوارض الأجسام وذوات الأوضاع والمقادير وهو سبحانه ليس بجسم وجسماني، ولا في قوله: ولا نهاية، زائدة أو تأكيد للنفي السابق.

(و) **الثاني والأربعون** أنه (**لا انقطاع له ولا غاية**) أي ليس لآخريته انقطاع وغاية، بل هو سبحانه أزليّ أبديّ لا ابتداء لوجوده ولا انقطاع لبقائه.

قال صدر المتألّهين: ومما يجب أن يعلم أنه تعالى وإن سلب عنه النهاية فليس بحيث يوصف باللانهاية بمعنى العدول، بل كلاهما مسلوبان عنه، لأن اللانهاية أيضاً كالنهاية من عوارض الكميّات، فإذا وصف بأنه غير متناه كان بمعنى السّلب البسيط التحصيلي كما يوصف بسلب الحركة بمعنى السّلب السازج لا الذي يساوق السّكون، فإذا قيل: إنّه أزليّ باق ليس يراد به أن لوجوده زماناً غير منقطع البداية والنهاية، إذ الزمان من مخلوقاته المتأخرة عن الحركة المتأخرة عن الجسم المتأخر عن المادة والصّورة والمتأخرين عن الجوهر المفارق المتأخّر ذاته عن ذاته تعالى بل الزمان بجميع أجزائه كالآن الواحد بالقياس إلى سرمديّته كما أنّ الأمكنة والمكانيّات كلّها بالقياس إلى عظمته ووجوده كالنقطة الواحدة.

والثالث والأربعون ما أشار إليه بقوله **(ولا أن الأشياء تحويه فتقلّه)** أي لا يحويه شيء من الأشياء ولا يحيط به فيحمله كما تحمل الريح السحاب، قال تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٧] أي حملت الريح سحاباً ثقالاً بالماء **(أو تهويه)** أو تجعله هاوياً إلى جهة تحت وهابطاً به.

(أو) لا **(أن شيئاً يحمله فيميله أو يعدّله)** أي يميله من جانب إلى جانب أو يعدله إلى جميع الجوانب كما يميل الريح السّحاب ويسوقه من صقع إلى صقع.

والمراد أنه ليس في شيء أو على شيء يرتفع بارتفاعه وينخفض بانخفاضه ويحرّك به من جهة إلى جهة.

روى في «الكافي» بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من زعم أنّ الله من شيء أو في شيء أو على شيء فقد كفر». قلت: فسّر لي، قال: أعني بالحواية من الشيء له أو بإمساك له أو من شيء سبقه.

وفي رواية أخرى من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثاً، ومن زعم أنه في شيء فقد جعله محصوراً، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً.

أي من زعم أنه سبحانه من مادة أو من أجزاء بأن يزعم أنّه ذو مادة أو ذو أجزاء أو من أصل له مدخل في وجوده كالأبوين أو من مبدأ مفيض لوجوده كالفاعل أو في شيء كالصفة في الموصوف والصّورة في المادة والعرض في المحل والجزء في الكل والجسم في الهواء المحيط به والمظروف في الظرف أو على شيء بالاستقرار فيه والاعتماد عليه كالملك على السّرير والراكب على المركوب والسقف على الجدران والجسم على المكان، أو بالاستقرار والاعتماد عليه كالهواء على الماء والسّماء على الهواء، فقد كفر، لاستلزامه التجسيم حيث وصفه بصفات المخلوقين وأنكر وجوده لأن ما اعتقده ليس بإله العالمين.

ثمّ فسّر عليه السلام الألفاظ لا على ترتيب اللف فقوله: **«أعني بالحواية من الشيء»** تفسير

لمعنى في شيء لأن كل ما هو في شيء فيحويه ذلك الشيء، وقوله: «أو بإمساك له» تفسير لمعنى على شيء، لأن كلّما هو على شيء فذلك الشيء ممسك له، وقوله عليه السلام: «أو من شيء سبقه» تفسير لمعنى من شيء لأن ما كان من شيء فذلك الشيء مبدؤه وسابق عليه.

ولذلك قال عليه السلام في الرواية الأخيرة: من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثاً، لأن معنى المحدث هو الموجود بسبب شيء سابق عليه في الوجود، وقال: من زعم أنه في شيء فقد جعله محصوراً أي محوياً فيلزمه الحواية من ذلك الشيء وقال: ومن زعم أنّه على شيء فقد جعله محمولاً، فإذا له حامل يمسكه.

والرابع والأربعون أنه **(ليس في الأَشياء بوالج ولا عنها بخارج)** لأن الدخول والخروج من صفات الأجسام وهو سبحانه ليس بجسم ولا جسماني.

ولأنه لو دخل في شيء فإما أن يكون مع افتقاره إلى ذلك الشيء أو بدونه والأوّل مستلزم للإمكان، وعلى الثاني فهو غنيّ عنه مطلقاً، والغنيّ المطلق يستحيل دخوله في شيء ووجوده في ضمنه واتباعه له في الوجود.

ولأن دخوله فيه إن كان من صفات الكمال لزم اتصافه بالنقص قبل وجود ذلك الشيء، وإن لم يكن من صفات كماله كان دخوله فيه مستلزماً لاتصافه بالنقص حسبما قلناه سابقاً.

ولو خرج عن شيء لزم خلو ذلك الشيء عنه واختصاصه سبحانه بغيره وهو باطل لأنه تعالى مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة، وهذه الفقرة نظير قوله عليه السلام في الفصل الخامس من الخطبة الأولى: ومن قال فيم فقد ضمنه ومن قال على من قد أخلى منه.

ومحصل المراد أنه تعالى ليس داخلاً في شيء من الأشياء وحالاً فيه كما يقوله المجسّمة والحلوليّة، ولا خارجاً عنها بأن يعزب شيء منها عن علمه، بل هو سبحانه القيّوم المحيط بكلّ شيء.

الخامس والأربعون أنه **(يخبر لا بلسان ولهوات)** أي لحمات متصلة بأقصى الفم من فوق.

أمّا إخباره فلأنّه قد أطبقت الشرايع واتفقت الملل على كونه متكلّماً والخبر من أقسام الكلام.

وأما أن أخباره ليس باللّسان واللهوات فلأن النطق باللهات واللسان مخصوص بنوع الإنسان، فيعود معنى إخباره سبحانه إلى إيجاده الخبر في جسم من الأجسام كالملك والشجر وقد مرّ نظير هذه العبارة في الخطبة المئة والحادية والثمانين ومرّ تحقيق الكلام في كونه

سبحانه متكلماً في شرح المختار المئة والثامن والسبعين.

(و) **السادس والأربعون** أنه (**يسمع لا بخروق وأدوات**) أمّا أنه عزّ وجلّ يسمع فلشهادة الكتاب العزيز في غير واحدة من الآيات بكونه تعالى سميعاً بصيراً وأما أن إدراكه بالمسموعات ليس بالآذان والصماخات فتنزّهه سبحانه عن الافتقار إلى الآلات الجسمانية فيعود معنى سمعه إلى علمه بالمسموعات إطلاقاً لاسم السبب على المسبب.

والسابع والأربعون أنه (**يقول ولا يلفظ**) هذا الكلام صريح في جواز نسبة القول إليه سبحانه دون اللفظ.

أمّا الأوّل فالكتاب الكريم مليء منه قال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين**﴾ إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى إيراده.

وأمّا الثاني فلعله مبنيّ على أن اللفظ هو خصوص القول الصادر عن اللسان ففهم من ذلك ومما تقدّم قبيل ذلك أن القول يساوق الكلام في جواز استنادهما إلى الله سبحانه، والنطق واللفظ يساوقان في عدم جواز الاستناد إليه.

(و) **الثامن والأربعون** أنه (**يحفظ ولا يتحفظ**) قال الشارح البحراني حفظه يعود إلى علمه بالأشياء، ولما كان المعروف من العادة أن الحفظ يكون بسبب التحفظ وكان ذلك في حقّه محالاً لاستلزامه الآلات الجسمانيّة لا جرم احترز عنه.

قال: وقال بعض الشارحين: إنما يريد بالحفظ أنه يحفظ عباده ويحرسهم ولا يتحفظ منهم أي لا يحتاج إلى حراسة نفسه منهم وهو بعيد الإرادة هنا، انتهى.

أقول: الحفظ قد يطلق على الحفظ عن ظهر القلب يقال حفظ القرآن إذا وعاه على ظهر قلبه. وقد يطلق على الحراسة والوقاية من المكاره يقال حفظه أي حرسه والتحفظ هو قبول الحفظ عن الغير على كون تاء التفعل للمطاوعة أو تكلف الحفظ كما في قولك تحلم زيد، أي استعمل الحلم وكلّف نفسه إيّاه ليحصل، فمعنى التكلّف هو أن يتعانى الفاعل ذلك الفعل ليحصل بمعاناته فيقتضي أن يكون الفعل غير ثابت للفاعل ويكون الفاعل طالباً لتحصله بالممارسة، وقال في القاموس التحفظ هو الاحتراز وفسّر الاحتراز كالتحرز بالتوقي ولعلّه مبنيّ على جعل تاء للاتخاذ فمعنى التحفظ هو اتخاذ الحفظ أي اتخاذ الحرز والوقاية.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن الحفظ قد استند إلى الله سبحانه في غير واحدة من الآيات قال تعالى: ﴿**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظنا من شيطان مارد**﴾ وقال: ﴿**هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾ [يوسف: الآية ٦٤] وقال: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون**﴾ وقال: ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ**

حَفِيظٌ﴾ [هُود: الآية ٥٧] ، وقال: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سَبأ: الآية ٢١] ، إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره.

والحفيظ والحافظ من جملة أسمائه الحسنى فلا غبار في وصفه سبحانه بالحفظ على المعنى الثاني أعني الوقاية والحراسة، وهو المراد به في الآية الأولى والثانية والثالثة أيضاً وفي غيرها احتمالاً ، وأما على المعنى الأوّل أعني الحفظ عن ظهر القلب فلا ، لأنّه سبحانه منزّه عن القلب والجوارح اللّهم إلاّ أن يراد به العلم مجازاً ، لأنه بهذا المعنى مستلزم للعلم، فالحفيظ هو العليم والحافظ هو العالم أطلق اسم الملزوم على اللازم تجوزاً.

قال في «**القاموس**»: والحفيظ في الأسماء الحسنى الذي لا يعزب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض تعالى شأنه.

فظهر بذلك ضعف ما قاله الصّدوق في التوحيد في شرح الأسماء الحسنى حيث قال: الحفيظ هو الحافظ فعيل بمعنى فاعل، ومعناه أنه يحفظ الأشياء ويصرف عنها البلاء ولا يوصف بالحفظ على معنى العلم لأنّا نوصف بحفظ القرآن والعلوم على المجاز، والمراد بذلك أنا إذا علمناه لم يذهب عنا كما إذا حفظنا الشيء لم يذهب عنا، انتهى، فتأمّل جيّداً.

وأمّا التحفظ فلا يوصف به سبحانه على أحد من معانيه الثلاثة.

أمّا على المعنى الأوّل والثاني فواضح، لأن المطاوعة والتكلف مستلزمان للانفعال والتغير اللذين هما من صفات الأجسام.

وأمّا على الثالث فلأنّه تعالى لا مضاد ولا مضار له في ملكه ولا منازع ولا معاند له في سلطانه فلا حاجة له إلى التوقي والاحتراز بل هو العزيز الغالب والقويّ القاهر على كل شيء.

(و) **التاسع والأربعون** إنه تعالى (**يريد ولا يضمر**) يعني أنه يريد الأشياء فيوجدها على وفق مشيته وإرادته ولا يحتاج في إيجادها كواحد منا إلى الإضمار أي إلى عزم القلب يقال: أضمر في ضميره شيئاً عزم عليه وضمير الإنسان قلبه وباطنه وهو سبحانه ليس بذي ضمير حتّى يتصور فيه الإضمار، وقد مرّ تحقيق الكلام بما لا مزيد عليه في إرادته سبحانه في شرح الفصل الثالث من المختار التسعين، وقدمنا هناك عن المفيد رواية صفوان بن يحيى الناصة بالفرق بين إرادة الله سبحانه وإرادة العبد.

وينبغي إعادة تلك الرواية هنا واتباعها بشرح ما تضمنته من المرام لمزيد ارتباطها المقام وإيضاحها لكلام الإمام عليه السلام فأقول:

روى في «الكافي» عن أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبّار عن صفوان بن يحيى، وفي «**البحار**» من توحيد الصّدوق رحمه الله و«**العيون**» عن ابن إدريس عن أبيه عن محمد بن عبد الجبّار عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام أخبرني عن الإرادة من الله عزّ وجلّ ومن الخلق، فقال: الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله عزّ وجلّ فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكّر هذه الصّفات منفية عنه وهي من صفات الخلق، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك يقول له كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة ولا تفكّر ولا كيف لذلك كما أنّه بلا كيف[١].

قال صدر المتألّهين في «**شرح الكافي**»: الإرادة فينا كيفيّة حادثة تحدث عقيب تصوّر الشيء الملائم والتّصديق بثبوته ونفعه تصديقاً علميّاً أو جهلياً أو ظنيّاً أو تخييليّاً راجحاً، وربما يحصل ذلك التصديق الراجح بعد تردد واستعمال روية، فإذا بلغ حد الرجحان وقع العزم الذي هو الإرادة، فإذا حصلت الإرادة سواء كانت مع شوق حيواني كالشهوة أو الغضب أم لا يصدر الفعل لا محالة ويبدو في الوجود.

وأمّا إرادة الله الحادثة فليست صفة له لاستحالة حدوث صفة أو كيفيّة في ذاته وهي ليست إلاّ إضافة إحداثه لأمر كاين لا غير لتعاليه عن الرّوية والهمّة والفكر لما علمت أن هذه منفية عنه تعالى لكونها صفات المخلوقين وكما لا مثل لذاته لا شبه لصفاته، بل صفاته الحقيقية ذاته.

وقال العلامة المجلسي رحمه الله في «**البحار**» في بيان معنى الحديث: إنّ إرادة الله كما ذهب إليه أكثر متكلّمي الإمامية هي العلم بالخير والنفع وما هو الأصلح ولا يثبتون فيه تعالى وراء العلم شيئاً، ولعل المراد بهذا الخبر وأمثاله في الأخبار الدالة على حدوث الإرادة هو أنه يكون في الإنسان قبل حدوث الفعل اعتقاد النّفع فيه ثم الرّوية ثم الهمة ثم انبعاث الشوق منه ثمّ تأكّده إلى أن يصير إجماعاً باعثاً على الفعل، وذلك كلّه إرادة فينا متوسطة بين ذاتنا وبين الفعل وليس فيه تعالى بعد العلم القديم بالمصلحة من الأمور المقارنة للفعل سوى الأحداث والإيجاد، فالأحداث في الوقت الذي تقتضي المصلحة صدور الفعل فيه قائم مقام ما يحدث من الأمور في غيره تعالى، فالمعنى أن ذاته تعالى بصفاته الذاتية الكمالية كافية في حدوث الحادث من غير حاجة إلى حدوث أمر في ذاته عند حدوث الفعل[٢].

وقال الشارح المازندراني «**للكافي**» في شرحه: إن الراوي سأل عن الفرق بين إرادة الله

---

(١) الكافي: ١/ ١١٠، التوحيد للصدوق: ١٤٧ ح١٧.

(٢) بحار الأنوار: ٤/ ١٣٧.

وإرادة الخلق وطلب معرفتهما فقال عليه السلام: «الإرادة من الخلق الضمير» أي تصوّر الفعل وتوجّه الذّهن إليه «وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل» من صلة ليبدو لا بيان لما لأن الفعل هو المراد دون الإرادة، اللهم إلاّ أن يراد بالفعل مقومات الإرادة مثل تصوّر النفع والإذعان به والشوق إليه والعزم له وتحريك القدرة إلى تحصيل الفعل المراد[1].

والحاصل أن إرادة الخلق عبارة عن تصوّر الفعل ثمّ تصوّر النفع سواء كان النفع عقلياً أو خيالياً أو عينياً أو دنيوياً أو أخروياً، ثم التصديق بترتب ذلك النفع على ذلك الفعل والإذعان به جازماً أو غير جازم، ثم الشوق إليه، ثم العزم الراسخ المحرك للقوّة والقدرة المحركة للعضو إلى تحصيل الفعل على ما ينبغي.

فالفعل يصدر عن الخلق من هذه المبادىء المترتبة التي هي عبارة عن إرادتهم التامة المستتبعة له.

«وأما من الله فإرادته إحداثه لا غير ذلك» يعني أن إرادته بسيطة وهي إحداث الفعل وإيجاده على وجه يوافق القضاء الأصلي ويطابق العلم الأزلي من الكمال والمقدار والخواص والآثار، لا مركبة من الأمور المذكورة في إرادة الخلق ولا شيء منها، «لأنه تعالى لا يروّي» أي لا يفعل باستعمال الرّوية أي النظر في الأمر وعدم التعجيل «ولا يهم» أي لا يقصده «ولا يتفكّر» ليعلم حسنه وقبحه.

والحاصل أنّه لا ينظر إلى الفعل ليعلم نفعه ووجه حسنه ولا يهمه بالشوق والعزم المتأكّد ولا يتفكر ولا يتأمّل فيه ليعلم حسن عاقبته لتنزّهه عن استعمال الرأي وإحالة الهمّة وتحريك الشوق والعزم وارتكاب التعمق في الأمور والتفكّر في أمر عاقبتها.

«وهذه الصفات منفية عنه تعالى» لأنها من لواحق النفوس البشرية وتوابع الجهل ونقصان العلم وهو سبحانه منزه عن جميع ذلك «وهي من صفات الخلق» لاحتياجهم في تحصيل مقاصدهم وتكميل أفعالهم على وفق مطالبهم إلى حركات فكرية وهمة نفسانية وأشواق روحانية وآلات بدنية، بحيث لو فقدت إحداها بقوا متحيرين جاهلين لا يجدون إلى وجه الصواب دليلاً، ولا إلى طريق الفعل سبيلاً.

«فإرادة الله هي الفعل» أي الإيجاد والأحداث «لا غير ذلك» من الضمير المشتمل على المعاني المذكورة.

والخمسون أنه **(يحبّ ويرضى من غير رقة)** الرّضا والمحبة قيل: إنهما نظيران وإنما

(١) شرح أصول الكافي: ٢/ ٢٦٧ ح٣.

يظهر الفرق بضدّيهما، فالمحبة ضدّها البغض، والرضا ضدّه السخط.

قال الشارح البحراني: الرّضا قريب من المحبة ويشبه أن يكون أعمّ منها لأن كلّ محبّ راض عما أحبه ولا ينعكس.

وكيف كان فالمراد أنه يحبّ المؤمنين ويرضى عنهم قال سبحانه: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨] .

وقوله: من غير رقة إشارة إلى أنّ المحبة والرضا بالمعنى الذي يوصف به من الله سبحانه وليس بالمعنى الذي يوصف به المخلوق، فإن المحبة فينا هو الميل الطبيعي إلى المحبوب بسبب تصوّر اللّذة، والرضا هو سكون النفس بالنسبة إلى موافقة وملاءمة عند تصوّر كونه ملائماً وموافقاً.

ولما كان المحبة والرّضا بهذا المعنى يستلزم الرقة القلبية والانفعال النفساني الناشىء عن تصور المعنى الذي لأجله حصلت المحبة والميل إليه والداعي إلى الرضا عنه، وكان سبحانه منزهاً عن الانفعالات النفسانية والتغيرات الطبيعية لتنزهه عن قوابلها، لا جرم قال: من غير رقة.

فالمراد بمحبته سبحانه إما إدراك الكمال في المحبوب أو إرادته سبحانه للثواب والخير في حق العبد وللتكميل له.

فقد قيل في تفسير الآية السابقة أعني قوله: ﴿يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] إن محبة الله من صفات فعله فهي إحسان مخصوص يليق بالعبد، ومحبة العبد لله حالة يجدها في قلبه يحصل منها التعظيم وإيثار رضاه والاستئناس بذكره.

وقيل: محبته تعالى للعباد إنعامه عليهم وأن يوفقهم لطاعته ويهديهم لدينه الذي ارتضاه، وحبّ العباد أن يطيعوه ولا يعصوه.

وقال بعض المحققين: محبة الله للعبد كشف الحجاب عن قلبه وتمكنه من أن يطأ على بساط قربه فإنما يوصف به سبحانه باعتبار الغايات لا المبادىء، وعلامة حبّه للعبد توفيقه للتجافي عن دار الغرور والترقي إلى عالم النور والأنس بالله والوحشة ممن سواه وصيرورة جميع الهموم هماً واحداً، والمراد رضاه عن العبد قال الشارح المعتزلي: هو أن يحمد فعله، وقال البحراني: رضاه يعود إلى علمه بموافقته لأمره وطاعته له.

وقال الطبرسي في تفسير قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: الآية ١٨]

رضا الله سبحانه عنهم هو إرادته تعظيمهم وإثابتهم[١].

(و) الواحد والخمسون أنه **(يبغض ويغضب من غير مشقة)** يظهر معنى هذه الفقرة مما قدمناه في الفقرة السابقة، فإن البغض ضدّ الحبّ والغضب ضدّ الرضا.

فمعنى البغض فينا هو الكراهة للغير وميل النفس عنه لتصوّر كونه مضراً ومؤلماً، ويلزم ذلك النفرة الطبيعية وثوران الغضبية عليه وإرادة إهانته.

ومعنى الغضب فينا هو ثوران النفس وحركة القوّة الغضبيّة عن تصور المؤذي والمؤلم لإرادة دفعه والانتقام منه.

ولما كانا مستلزمين لإزعاج القلب وغليان دمه وأذى النفس وحصول التعب والمشقة. وكان وصف الله سبحانه بهما بهذا المعنى مستحيلاً لتنزّهه من صفات الأجسام لا جرم قيدهما بقوله: «من غير مشقة».

فالمراد بهما إذا نسبا إلى الله سبحانه غاياتهما، وهي إرادة العقوبة والإهانة والتعذيب.

قال الطبرسي رحمه الله في تفسير قوله: «فلما آسفونا انتقمنا منهم» أي أغضبونا، وغضب الله سبحانه على العصاة إرادة عقوبتهم، ورضاه عن المطيعين إرادة ثوابهم الذي يستحقونه على طاعتهم[٢].

وفي رواية عمرو بن عبيد مع أبي جعفر عليه السلام وقد قال له قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٨١] ما هذا الغضب؟ فقال عليه السلام: «هو العقاب يا عمرو، إنه من زعم أن الله قد زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة المخلوقين»[٣].

وفي «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن العباس بن عمرو عن هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي سأل أبا عبد الله عليه السلام أن قال له: فله رضى وسخط فقال: أبو عبد الله عليه السلام: «نعم لكن ليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، وذلك إنّ الرضا حالة تدخل عليه فتنقله من حال إلى حال لأن المخلوق أجوف معتمل مركب للأشياء فيه يدخل، وخالقنا لا يدخل للأشياء فيه لأنّه واحد واحدي الذات واحدي المعنى، فرضاه ثوابه وسخطه عقابه من غير شيء يتداخله فيهيّجه وينقله من حال إلى حال، لأن ذلك من صفة المخلوقين

---

(١) شرح أصول الكافي: ١١/ ٤٤٢ ح٢٤.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٩/ ٨٨.

(٣) تفسير غريب القرآن: ١١٦، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ١٩٩.

العاجزين المحتاجين»(١).

يعني أن عروض تلك الحالات والتغيّرات إنّما يكون لمخلوق أجوف له قابلية ما يحصل فيه ويدخله ـ معتمل ـ بالكسر أي يعمل بأعمال صفاته وآلاته أو بالفتح أي مركب يعمل فيه الأجزاء والقوى، والأول أولى ليكون تأسيساً، مركب من أمور متباينة في الحقيقة مختلفة في الصورة والكيفية للأشياء من الصفات والجهات والكيفيّات النفسانيّة مثل الرّضا والغضب وغيرهما، فيه يدخل وخالقنا لا يدخل للأشياء فيه لاستحالة التركيب عليه، لأنه واحد ليس كمثله شيء واحدي الذات لا تركيب فيه أصلاً لا ذهناً ولا خارجاً، واحدي المعنى والصّفات، فإذاً لا كثرة فيه لا في ذاته ولا في صفاته الحقيقيّة، وإنما الاختلاف في الفعل فيثيب عند الرضا ويعاقب عند السّخط والغضب من غير مداخلة شيء فيه يهيجه أي يوجب لهيجانه وثورانه، وينقله من حال إلى حال، لأن ذلك ينافي وجوب الوجود فلا يكون من صفاته سبحانه بل من صفات المخلوقين العاجزين.

والحاصل أنه إذا نسب الرضا والسخط والحب والبغض والموالاة والمعاداة إلى الله سبحانه وجب تأويلها وصرفها إلى معنى يصح في حقه، لأن نسبة معانيها المعروفة فينا إليه غير صحيحة.

إذ، الرّضا فينا حالة للنفس توجب تغيّرها وانبساطها لإيصال النفع إلى الغير أو الانقياد لحكمه.

والسخط حالة أخرى توجب تغيّرها وانقباضها وتحرّكها إلى إيقاع السوء به أو الإعراض عنه.

والمحبّة حالة لها توجب ميلها إليه أو نفس هذا الميل.

والبغض حالة لها توجب الإعراض عنه وإيصال الضرر إليه.

وقريب منهما الموالاة والمعاداة، وكل عليه سبحانه محال، فوجب التأويل.

والتأويل أن الرضا والمحبة والموالاة بمعنى الإثابة والإحسان وإيصال النفع والسخط والبغض والمعاداة بمعنى العقوبة والعذاب وعدم الإحسان والله المستعان.

والثاني والخمسون أنه **(يقول لما أراد كونه كن فيكون)** قال الشارح البحراني: فإرادته لكونه هو علمه بما في وجوده من الحكمة والمصلحة، وقوله: كن، إشارة إلى حكم قدرته

---

(١) الكافي: ١/ ١١٠ ح٦. ومعاني الأخبار: ٢٠ ح٣.

الأزلية عليه بالإيجاد ووجوب الصدور عن تمام مؤثريته وقوله: فيكون إشارة إلى وجوده، ودلّ على اللّزوم وعدم التأخر بالفاء المقتضية للتعقيب بلا مهلة.

وفي **«مجمع البيان»** في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢] والتقدير بأن يكوّنه فيكون فعبر عن هذا المعنى بكن لأنه أبلغ فيما يراد، وليس هنا قول وإنما هو إخبار بحدوث ما يريده.

وقال عليّ بن عيسى: الأمر ههنا أفخم من الفعل، فجاء للتفخيم والتعظيم قال: ويجوز أن يكون بمنزلة التسهيل والتهوين، فإنّه إذا أراد فعل شيء فعله بمنزلة ما يقول للشيء كن فيكون في الحال وأنشد:

فقالت له العينان سمعاً وطاعة وحدرتا كالدّر لمّا يثقب

وإنما أخبر عن سرعة دمعه دون أن يكون ذلك قولاً على الحقيقة.

وفي **«الكشاف»** إنما أمره أي شأنه إذا أراد شيئاً إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف، أن يقول له كن أن يكوّنه من غير توقف فيكون فيحدث أي فهو كائن موجود لا محالة.

فإن قلت: ما حقيقة قوله كن فيكون؟

قلت: هو مجاز من الكلام وتمثيل، لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، والمعنى أنه لا يجوز عليه مما يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئاً ممّا تقدر عليه من المباشرة بمحال المقدور واستعمال الآلات وما يتبع ذلك من المشقّة والتعب واللّغوب، وإنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل فيتكون.

وأنت بعد الخبرة بما ذكرنا تعرف أن قوله ﷺ **(لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع)** من باب الاحتراس، فإنّ ظاهر قوله ﷺ: يقول لما أراد كونه كن، لما كان موهماً أن قوله وكلامه تعالى من قبيل الحروف والأصوات أتى بذلك دفعاً لما يسبق إلى وهم العوام وتنبيهاً على أن قول كن منه ليس بلفظ مركب من الكاف والنّون متضمن بصوت يقرع الأسماع، ولا خطاب قابل للسّماع والاستماع.

وذلك لأن الصوت كيفيّة حادثة في الهواء حاصلة من تموّجه المعلول للقرع الذي هو أساس عنيف أو القلع الذي هو تفريق عنيف بشرط مقاومة المقروع للقارع والمقلوع للقالع، ويعرض له أي للصّوت كيفيّة مميّزة له عن غيره من الأصوات المماثلة له يسمى باعتبار تلك الكيفيّة حرفاً، فالحرف هي تلك الكيفيّة العارضة عند بعضهم، وذلك الصوت المعروض عند

آخر ومجموع العارض والمعروض عند غيرهم.

وعلى أي تقدير فالحروف الملفوظة المركبة منها الكلام هي من خصائص الإنسان يخرج من الحلق والحنجرة واللسان، فيقرع الهواء المجاور لفم اللفظ ويموّجه صدماً بعد صدم مع سكون بعد سكون حتّى يقع ويقرع العصبة المفروشة في سطح صماخ السامع فيحصل به السماع والاستماع.

ولما كان سبحانه منزهاً عن الآلات البدنية والجوارح الإنسانية يستحيل أن يخرج منه صوت يصدر منه لفظ، فإذاً لا يمكن أن يكون تكوينه للأشياء بكلام ملفوظ أو نداء مسموع وهذا معنى قوله عليه السلام: «لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع»، هذا.

والعجب من الشارح البحراني أنه قال في شرح لا بصوت يقرع: أي ليس بذي حاسّة فيقرعها الصوت، لأنْ الصّوت حال تعرض الأجسام فلو كان له تعالى آلة سمع لكان جسماً لكن التالي باطل بالمقدم مثله انتهى.

وأنت خبير بأن هذا الكلام نص في أن الغرض منه نفي كون تكوينه للأشياء بالأوامر الملفوظة والخطابات المنطوقة لا نفي كونه ذا سمع وتنزيهه من القوة السامعة، هذا.

ولما نفى كون تكوينه بكلام ملفوظ ونداء مسموع وكان المقام مقتضياً لبيان معنى كلامه عزّ وجلّ لا جرم عقبه بقول: **(وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله)**.

قال الشارح البحراني: أي أوجده في لسان النبي وصوّره في لسانه وسوّى مثاله في ذهنه.

وقال الشارح المعتزلي: مثّل القرآن لجبرائيل أي صوّر مثاله بالكتابة في اللوح المحفوظ فأنزل على محمد صلى الله عليه وآله.

(لم يكن) كلامه **(من قبل ذلك)** الإنشاء والإحداث **(كائناً)** إذ لو كان كذلك لكان قديماً لأن القديم ليس إلاّ ما لا يكون مسبوقاً بالعدم لا يفتقر الإنشاء والتكوين **(ولو كان قديماً)** كما زعمه الحنابلة حسبما عرفته في شرح المختار المائة والثامن والسبعين لكان واجب الوجود لذاته ولو كان واجب الوجود **(لكان إلهاً ثانياً)** لكن التالي باطل فالمقدم مثله.

وبيان الملازمة أنه لو لم يكن واجباً بل ممكناً موجوداً في الأزل لكان وجوده مفتقراً إلى المؤثر فذلك المؤثر إن كان غير ذاته تعالى فهو محال، لأنه يلزم افتقاره تعالى في تحصيل صفته إلى غيره وهو واضح البطلان، ويلزم أيضاً أن يكون في الأزل مع الله غيره يكون الاستناد إليه في حصول تلك الصفة فيكون إلهاً ثانياً بل هو أولى باللألوهية وهو

محال، وإن كان المؤثر فيه ذاته فهو محال أيضاً لأنّ المؤثر واجب التقدم بالوجود على الأثر فتعيّن أنه لو كان قديماً لكان واجب الوجود لذاته فكان إلهاً ثانياً.

وإما بطلان التالي فلقيام البراهين العقليّة والنقلية على وحدانيته تعالى حسبما مر كثير منها في تضاعيف الشرح، ونورد هنا حديث الفرجة الذي هو من غوامض الأحاديث لمناسبته بالمقام ونعقبه بحلّه وشرحه فأقول:

روى في **«الكافي»** عن هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام وكان من قول أبي عبد الله عليه السلام:

لا يخلو قولك إنهما اثنان من أن يكونا قديمين قويين أو يكونا ضعيفين أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويين فلم لا يدفع كلّ واحد منهما صاحبه وينفرد بالتدبير، وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنّه واحد بالربوبية كما نقول للعجز الظاهر في الثّاني وإن قلت إنّهما اثنان لم يخل من أن يكونا متفقين من كل وجه أو متفرقين من كلّ جهة.

فلما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً والتدبير واحداً واللّيل والنهار والشمس والقمر دل صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبّر واحد ثمّ يلزمك أن ادعيت اثنين فرجة ما بينهما حتّى يكونا اثنين فصارت الفرجة ثالثاً بينهما قديماً معهما فيلزمك ثلاثة فإن ادعيت ثلاثة لزمك ما قلت في الاثنين حتّى يكون بينهم فرجة فيكونوا خمسة ثم تتناهى في العدد إلى ما لا نهاية له في الكثرة[١].

ورواه في **«البحار من توحيد الصّدوق»** مسنداً عن هشام بن الحكم مثله.

وشرحه على ما شرحه صدر المتألهين في **«شرح الكافي»** بتلخيص منّا هو إنه إشارة إلى حجتين: إحداهما عامية مشهورة والأخرى خاصيّة برهانية.

أما الأولى فقوله عليه السلام: «لا يخلو قولك ـ إلى قوله ـ للعجز الظاهر في الثاني» ومعناه أنه لو فرض قديمان فلا يخلو أن يكون كلاهما قويين أو كلاهما ضعيفين أو أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً والثلاثة بأسرها باطلة.

أمّا الأوّل فلأنه إذا كانا قويين وكلّ منهما في غاية القوّة من غير ضعف وعجز كما هو المفروض والقوة تقتضي القهر والغلبة على كلّ شيء سواه فما السبب المانع لأن يدفع كلّ واحد منهما صاحبه حتى ينفرد بالتدبير والرّبوبية والغلبة على غيره، إذ اقتضاء القهر والغلبة والاستعلاء مركوز في كل ذي قوة على قدر قوته والمفروض أن كلاً منهما في غاية القوة.

---

(١) الكافي: ١/٨١، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/١٣١.

وأما فساد الشق الثاني فهو ظاهر عند جمهور الناس لما حكموا بالفطرة من أن الضعف ينافي الإلهية ولظهوره لم يذكره عليه السلام.

وأيضاً فساده يعلم بفساد الشق الثالث وهو قوله: «وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنه» أي الإله «واحد كما» نحن «نقول للعجز الظاهر» في المفروض ثانياً، لأن الضعف منشأ العجز، والعاجز لا يكون إلهاً بل مخلوقاً محتاجاً لأنّه محتاج إلى من يعطيه القوة والكمال والخيريّة.

وأما الحجة البرهانية فأشار إليها بقوله: «وإن قلت أنهما اثنان» وبيانه أنه لو فرض موجودان قديمان فإمّا أن يتفقا من كل جهة، أو يخلتفا من كل جهة أو يتفقا بجهة ويختلفا بأخرى والكل محال.

أمّا بطلان الأوّل فلأن الاثنينية لا تتحقق إلا بامتياز أحد الاثنين عن صاحبه ولو بوجه من الوجوه.

وأمّا بطلان الثاني فلما نبه عليه بقوله «فلما رأينا الخلق منتظماً» وتقريره أن العالم كلّه كشخص واحد كثير الأجزاء والأعضاء مثل الإنسان، فإنا نجد أجزاء العالم مع اختلاف طبائعها الخاصة وتباين صفاتها وأفعالها المخصوصة يرتبط بعضها ببعض ويفتقر بعضها إلى بعض، وكلّ منها يعين بطبعه صاحبه وهكذا نشاهد الأجرام العالية وما ارتكن فيها من الكواكب النيّرة في حركاتها الدّورية وأضوائها الواقعة منها نافعة للسّفليات محصلة لأمزجة المركبات التي يتوقف عليها صور الأنواع ونفوسها وحياة الكائنات ونشوء الحيوان والنبات، فإذا تحقق ما ذكرنا من وحدة العالم لوحدة النظام واتصال التدبير دلّ على أن إلهه واحد وإليه أشار بقوله «دل صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد».

وأمّا بطلان الشقّ الثالث وهو أنهما متفقان من وجه ومختلفان من وجه آخر فبأن يقال كما أشار إليه بقوله «ثم يلزمك» أنه لا بد فيهما من شيء يمتاز به أحدهما عن صاحبه وصاحبه عنه، وذلك الشيء يجب أن يكون أمراً وجودياً يوجد في أحدهما ولم يوجد في الآخر أو أمران وجوديّان يختص كل منهما بواحد، وأمّا كون الفارق المميّز بكلّ منهما عن صاحبه أمراً عدمياً فهو ممتنع بالضرورة، إذ الإعدام بماهي إعدام لا تمايز بينها ولا تميز بها، فإذا فرض قديمان فلا أقل من وجود أمر ثالث يوجد لأحدهما ويسلب عن الآخر، وهو المراد بالفرجة، إذ به يحصل الانفراج أي الافتراق بينهما لوجوده في أحدهما وعدمه في الآخر، وهو أيضاً لا محالة قديم موجود معهما وإلا لم يكونا اثنين قديمين، فيلزم أن يكون القدماء ثلاثة وقد فرض اثنان وهذا خلف، ثم يلزم من كونهم ثلاثة أن يكونوا خمسة وهكذا إلى أن يبلغ عددهم إلى ما لا نهاية وهو محال.

أقول: ولا يخفي عليك أنه يمكن جعل الحديث الشريف إشارة إلى ثلاث حجج:

إحداها ما أشار إليه بقوله: لا يخلو قولك إلى قوله: للعجز الظاهر في الثاني.

وثانيها ما أشار إليه بقوله: وإن قلت إنهما اثنان إلى قوله: دلّ على أن المدبر واحد.

وثالثها ما أشار إليه بقوله: ثم يلزمك، إلى آخر الحديث، فعليك بالتأمل في استخراجها والله الموفق.

الثالث والخمسون أنه عزّ وجل **(لا يقال)** في حقه **(كان بعد أن لم يكن)** هو نظير قوله عليه السلام في الفصل السادس من المختار الأوّل: كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، أي ليس وجوده بمحدث مسبوق بالعدم، بل هو قديم أزلي واجب الوجود لذاته أو توضح أن يقال في حقه ذلك لا تصف بالحدوث **(فتجري عليه الصّفات المحدثات)** وفي بعض النسخ صفات المحدثات بالإضافة وهو الأنسب الأحسن بعود الضميرين الآتيين في بينها وعليها إليها.

وعلى أيّ تقدير فالغرض أن وصفه بالكينونية بعد العدم أي وصفه بوصف الحدوث مستلزم لجريان الصّفات المحدثات أو صفات المحدثات عليه، لكن التالي أعني جريان تلك الصفات عليه باطل فالمقدم مثله.

وأشار إلى بطلان التالي بقوله **(ولا يكون بينها)** أي الصّفات المحدثات أو نفس المحدثات **(وبينه)** تعالى شأنه **(فصل)** لاشتراكهما في الحدوث والإمكان **(ولا له عليها فضل)** لاستوائهما في الافتقار والحاجة إلى المحدث **(فيستوي)** إذا **(الصانع والمصنوع ويتكافأ المبتدع)** أي يتماثل المخترع من الموجودات **(والبديع)** أي المبدع الصانع سبحانه.

فالفعيل بمعنى فاعل قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٧] ، وعن نسخة الرضي ويتكافأ المبدع والبديع ومعناه كما ذكرنا وعن نسخة أخرى المبدع بكسر الدال والبديع، فالمراد بالأوّل الصانع، وبالثاني المصنوع المبدع فالفعيل على ذلك بمعنى المفعول.

وعلى أي تقدير فالغرض أن اتصافه بصفات المحدثات مستلزم لاشتراكه معها في وصف الحدوث وهو ظاهر البطلان، بيّن الاستحالة.

والرابع والخمسون أنه **(خلق الخلائق على غير مثال خلا)** أي مضى وسبق **(من غيره)** يعني فعله وصنعه بعنوان الإبداع والاختراع فهو الخالق للأشياء على غير مثال امتثله، ولا مقدار احتذى عليه من معبود خالق كان قبله، وقد عرفت تحقيقه في شرح الفصل السابع من

«**المختار**» الأوّل وشرح الفصل الثاني من «**المختار**» التسعين.

والخامس والخمسون أنه (**لم يستعن على خلقها**) أي الخلائق (**بأحد من خلقه**) وإلا لكان ناقصاً بذاته مفتقراً إلى من هو مفتقر إليه وهو محال.

(و) **السادس والخمسون** أنه عزّ وجلّ خالق الأرض وباسطها مشتملة على ما فيها من بدائع الصنع، وعجائب القدرة ودلائل الكبرياء والعظمة، وقد مضى شرح واف لهذا المعنى في شرح الفصل الثالث والثامن من «**المختار**» الأوّل وشرح الفصل السادس من «**المختار**» التسعين وأشار هنا إلى بعض ما فيها من شواهد الربوبيّة وبراهين التوحيد والتفريد فقال:

(**أنشأ الأَرض فأمسكها من غير اشتغال**) أي أمسكها على بين الماء «كذا» بقدرته الكاملة من غير أن يشتغل بإمساكها عن سائر أفعاله وصنائعه، فإنّه لا يشغله شأن عن شأن وهو تنزيه له عن الصّفات البشرية، فإن الواحد منا إذا أمسك جسماً ثقيلاً اشتغل به عن سائر أموره.

(**وأرساها على غير قرار**) أي أثبتها على غير قرار يعتمد عليه ولا مقرّ يتمكن عليه.

(**وأقامها بغير قوائم**) أي أقامها على مور أمواج مستفحلة، ولجج بحار زاخرة بغير قوائم يقوم عليها.

(**ورفعها بغير دعائم**) أي رفعها على الماء بغير عماد ودعامة تعلو عليها وتستند إليها.

(**وحصنها من الأود والاعوجاج**) أي جعلها حصينة منيعة من أن تميل عن مركزها الحقيقي وتعوج إلى أحد جوانب العالم.

(**ومنعها من التهافت والانفراج**) أي جعلها كرة واحدة ثابتة في حيزها ومنعها من أن تساقط قطعاً وينفرج بعض أجزائها عن بعض.

(**أرسى أوتادها**) أي أثبت فيها الجبال الراسيات التي هي لها منزلة الأوتاد المانعة لها من الميدان والاضطراب على ما عرفت تحقيقه في شرح الفصل الثالث من «**المختار**» الأوّل.

(**وضرب أسدادها**) أي نصب بين بقاعها وبلادها على اقتضاء الحكمة والمصلحة أسداداً حاجزة وحدوداً مايزة من الجبال الراسية والأنهار الجارية ونحوها قال تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: الآية ٩٤].

(**واستفاض عيونها**) أي أفاض العيون وأجرى منها الماء الذي هو مادة حياة الأحياء (**وخدّ أوديتها**) أي شقها وجعلها مراتع للبهايم ومزارع للناس لعلّهم يعقلون.

لما عد عليه السلام عدداً من بدائع الصّنع وآثار العظمة فرع عليه قوله: (**فلم يهن ما بناه ولا ضعف ما قواه**) تنبيهاً على عظمة صانعها ومبدعها، لأن عدم تطرق الوهن والضعف على تلك

الآثار مع طول الزمان ومرور الدهور كاشف عن كمال قدرة المؤثر وقوته وعظمته.

والسابع والخمسون ما أشار إليه بقوله **(هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته)** أي الغالب القاهر على الأرض وما فيها باستيلاء قدرته وقوته وسلطنته القاهرة وعظمته الباهرة.

والثامن والخمسون ما أشار إليه بقوله **(وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته)** أي الخبير عليها وعلى ما فيها بعلمه الذي لا يعزب عنه شيء ولما كان المتبادر من الظهور والبطون الظهور والبطون الحسيين، قيد الأوّل بالسلطان والعظمة والثّاني بالعلم والمعرفة تنبيهاً على أن المراد بهما إذا نسبتا إلى الله سبحانه، ليس معناهما المتعارف لاستحالته في حقه تعالى واختصاصه بالأجسام والجسمانيات بل معنى آخر يليق بذاته ولا ينافي قدسه.

(و) التاسع والخمسون أنه **(العالي على كل شيء منها)** لا بالعلو الحسي المتصور في الأجسام كما يزعمه المجسمة القائلون بأنه على العرش متشبثين بقوله: **﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾** لما عرفت مراراً فساد هذا الزعم، كما عرفت تأويل الآية الشريفة بل بالعلوّ المعنوي وهو العلو **(بجلاله وعزته)** والمراد بجلاله تنزهه عن صفات النقصان وتقدّسه عن عوارض الإمكان، فهو باعتبار تنزهه عنها في أوج الكمال الأعلى والمراد بعزّته قهره وغلبته وسلطانه.

الستون أنه **(لا يعجزه شيء منها طلبه)** لتمام سلطانه وقدرته وافتقار جميع من سواه إليه في وجوده وبقائه وتقلباته فكيف يتصوّر أن يعجز من هو محتاج في ذاته وصفاته وحركاته وسكناته وجميع حالاته إليه قال عز من قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فَاطِر: الآية ٤٤].

(و) الواحد والستون **(لا يمتنع عليه شيء فيغلبه)** لما قلناه من تمام سلطانه وكمال قدرته وافتقار كل إليه، فلا راد لقضائه ولا دافع لحكه كما قال في كتابه العزيز: **﴿إن يشاء يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قدير﴾** وفي آية أخرى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: الآية ٤٥].

(و) الثاني والستون أنه **(لا يفوته السريع منها فيسبقه)** أي لا يفوته سريع السير والحركة من الأشياء فيسبقه بقوة حركته، لاستلزام ذلك نقصاً في قدرته وعجزاً في ذاته والاستواءِ نسبة الأمكنة والمكانيات والأزمنة والزمانيات إليه سبحانه قال تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾ [المعَارج: الآيات ٣٩ - ٤١].

قال الطبرسي: يعني أنا نقدر على أن نهلكهم ونأتي بدلهم بقوم آخرين خيراً منهم وأن هؤلاء الكفار لا يقوون بأن يتقدموا على وجه يمنع من لحاق العذاب بهم فإنهم لم يكونوا

سابقين ولا العقاب مسبوقاً منهم، والتقدير وما نحن بمسبوقين لفوت عقابنا إيّاهم فإنهم لو سبقوا عقابنا لسبقونا.

(و) **الثالث والستون** أنّه **(لا يحتاج إلى ذي مال فيرزقه)** لأنّه الغني المطلق وماسواه مفتقر إليه فكيف يفتقر إلى ما هو محتاج إليه، والمقصود بذلك وبما سبق كلّه تنزيهه من الصفات البشرية.

والرابع والستون أنه **(خضعت الأشياء)** كلها **(له وذلت مستكينة)** خاضعة مهانة **(لعظمته)** لكونها جميعاً أسيرة في قيد الإمكان مقهورة في سلسلة الحدوث والافتقار والنقصان.

فحيث كانت بهذه المثابة من الذل والانقهار فـ**(لا تستطيع الهرب)** والفرار **(من سلطانه إلى غيره)** لأن الهارب والمهروب إليه سيان في جهة التّذلل والافتقار وكلّ شيء خاشع له، وكلّ قوي ضعيف عنده، وكلّ عزيز ذليل لديه.

وعلى ذلك **(فـ)** لا يمكن للهارب أن **(يمتنع)** بالهرب إلى الغير والاعتصام به **(من نفعه وضره)** أي مما قضاه الله سبحانه في حقه وقدره من النفع والضرر.

فإن قلت: الممتنع إنّما يمتنع من الضرر والهارب يهرب منه دون المنفعة فما معنى قوله: من نفعه؟

قلنا: المراد منه سلب القدرة على تقدير امتناعه منه والإشارة إلى أنه قادر على ردّ شيء مما قدره الله في حقه مطلقاً وأنه لا عاصم له من أمر الله أصلاً، فهو نظير قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ١٧] أي من ذا الّذي يدفع عنكم قضاء الله ويمنعكم من الله إن أراد بكم عذاباً وعقوبة أو أراد بكم رحمة فإن أحداً لا يقدر على ذلك، ولا يجدون من دون الله وليّاً يلي أمورهم ولا نصيراً ينصرهم ويدفع عنهم.

(و) **الخامس والستون** **(لا كفوء له فيكافئه ولا نظير له فيساويه)** أي ليس له سبحانه مكافيء ومماثل.

إذ لو فرضنا له مكافئاً في رتبة الوجود فذلك المكافيء لو كان ممكن الوجود كان محتاجاً إليه متأخراً عنه في الوجود فكيف يكون مكافئاً له في رتبة الوجود.

وإن كان واجب الوجود فهو ينافي الأحدية ويستلزم التركيب لأن كلّ ماله مثل فذاته مركب من جزئين أحدهما جهة الاتحاد والمجانسة والثاني جهة الامتياز والأثنينية.

وأيضاً لا يتشخص المهيّة المشتركة بين شيئن أو الأشياء إلاّ بواسطة المادة الجسمانية

وعلائقها وهو سبحانه لبراءته من الأجسام والمواد ولكون أنيته نفس مهيته وليس له مهية سوى الهوية المحضة الوجودية كما أشير إليه في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] لا يكون له مثل أصلاً.

وبتقرير أوضح نقول: أنه سبحانه واحد أحد أحدي الذات فلا يمكن أن يكون له مماثل ومكافيء.

بيان ذلك كل مهيّة مركبة فهي مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزاء الشيء غيره، فكل مركب مفتقر إلى غيره وكل مفتقر إلى غيره متأخر عنه فهو ممكن محتاج في وجوده إلى ذلك الغير فلم يكن إلهاً واجب الوجود، والإله الذي هو مبدء لجميع الممكنات يمتنع أن يكون مركباً ممكناً فهو في نفسه أحد وإذا ثبت كونه أحداً ثبت كونه واحداً فرداً إذ لو لم يكن فرداً لكان له مجانس أو مماثل يشاركه في الوجود ولكان امتيازه عنه بمميّز فصلي فيعود التركيب هذا خلف.

السادس والستون ما أشار إليه بقوله: **(هو المفني لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها)** يعني أنه سبحانه يفني الأشياء ويعدمها حتى يصير ما هو موجود كأن لم يكن موجوداً أصلاً أو الكاف زائدة أي يصير موجودها مفقوداً معدوماً.

وهو ظاهر بل صريح في فناء الجميع، وأصرح منه قوله الآتي: أنه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده، لا شيء معه، وأصرح منهما قوله الذي يتلوه أعني: فلا شيء إلا الله الواحد القهار، لأن النكرة في سياق النفي يفيد العموم مؤكّداً بالاستثناءِ.

وقد وقع خلاف عظيم في هذه المسألة أعني مسألة طريان العدم على الأشياء حتى صارت معركة للآراء.

فذهب جمهور الحكماء إلى امتناع طريان العدم على أكثر أجزاء هذا العالم كالعقول المجرّدة والنفوس الناطقة والأجسام الفلكية والمادة العنصريّة، فإن ما ثبت قدمه امتنع عدمه لا لذاته بل لدوام علته وهذا لا ينافي الإمكان لأن الممكن ما يجوز عليه أصل العدم وهو مما لا نزاع فيه، وإنما نزاعهم في طريان العدم.

وذهب جمهور علماء الإسلام إلى جواز طريانه على جميع أجزائه ولكن اختلفوا في وقوعه.

فمنهم من قال: بعدم انعدام العرش قال الفخر الرازي في «**الأربعين**»: واعلم أن كثيراً من علماء الشريعة وعلماء التفسير قالوا إن في وقت قيام القيامة ينخرق الأفلاك وينهدم

الكواكب إلا أن العرش لا ينخرق، والتخصيص بالأكثر بالنسبة إلى عدم تخرق العرش وإلا فتخرق الأفلاك وانهدام الكواكب مما لا خلاف فيه.

ومنهم من قال: بتجرد النفس الناطقة وعدم قبولها للفناء.

وذهب الأكثرون إلى طريان العدم على جميع أجزائه أخذاً بظواهر الآيات والأدلة المفيدة لذلك مثل قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤] وقوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٦]. وقوله: ﴿هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، ومعلوم أنه تعالى مبدىء لجميع الأشياء فيكون معيداً للجميع ولا يتصور الإعادة إلا بعد الإعدام فلا بد من إعدام الجميع.

ثمّ وقع الخلاف بين هؤلاء القائلين بإعدام الجميع في معنى الإعدام الواقع وأن المراد به هل هو إفناء الجواهر والذوات بأسرها أو تفريق الأجزاء، وإزالة الأعراض.

فمن جوّز إعادة المعدوم بعينه قال بالأول.

ومن قال بامتناعه كما هو الحق الموافق للتحقيق وعليه المحققون حتى ادعى بعضهم أنه من البديهيات وقال الشيخ إن كل من رجع إلى فطرته السليمة ورفض عن نفسه الميل والعصبيّة شهد عقله الصريح بأن إعادة المعدوم ممتنع، فذهب إلى الثاني.

وإلا امتنع القول بالمعاد الجسماني لأن الغرض من المعاد هو إيصال الثواب على المطيع والعقاب على العاصي فمع إعدام الذوات والجواهر وامتناع إعادة المعدوم يكون المعاد غير المطيع والعاصي السابقين المستحقين للمثوبة والعقوبة، فالعقاب على المعاد يكون عقاباً على غير المستحق وهو خلاف العدل، فلا بد من المصير إلى أن المراد بالفناء والهلاك والعدم الوارد في الآيات والأخبار هو تفرق الأجزاء وزوال التأليف والتركيب عنها وخروجها عن حد الانتفاع.

قالوا: إن الله يفرق الأجزاء ويزيل التأليف عنها ولكنه لا يعدمها فإذا أعاد التأليف إليه وخلق الحياة فيه مرة أخرى كان هذا الشخص هو عين الشخص الذي كان موجوداً قبل ذلك فحينئذ يصل الثواب إلى المطيع والعقاب على العاصي وتزول الأشكال.

وقال في «التجريد»: والإمكان يعطي جواز العدم والسمع دل عليه بتأوّل في المكلّف بالتفرق كما في قصّة إبراهيم عليه السلام يعني كون العالم ممكناً يعطي جواز عدمه والأدلة السمعية دلت على وقوعه ولا ينافي في ذلك امتناع إعادة المعدوم.

أما في غير المكلّفين فإنه يجوز أن يعدم بالكليّة ولا يعاد.

وإمّا بالنسبة إلى المكلّفين فإنّه يتأول العدم بتفرق الأجزاء ويتأول المعاد بجمع تلك الأجزاء وتأليفها بعد التفريق.

والذي يصحح هذا التأويل قصة إبراهيم عليه السلام على ما حكى عنه الكتاب حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠] قال الله تعالى في جوابه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠].

ولكن استشكل الفخر الرازي فيه أي في القول بأن المراد بالعدم هو التفرق بأن المشار إليه لكل أحد بقوله: أنا ليس مجرّد تلك الأجزاء وذلك لأنا لو قدرنا أن هذه الأجزاء تفرقت وصارت تراباً من غير حياة ولا مزاج ولا تركيب ولا تأليف فإن كل أحد يعلم أن ذلك القدر من التراب الصرف ليس عبارة عن زيد، بل الإنسان المعبر بأنا إنما يكون موجوداً إذا تركبت تلك الأجزاء وتآلفت على وجه مخصوص ثمّ قام بها حياة وعلم وقدرة وعقل وفهم، فثبت أن الشخص المعيّن ليس عبارة عن مجرد تلك الأجزاء والذّوات، بل هو عبارة عن ذلك الأجزاء الموصوفة بالصفات المخصوصة، وإذا كان كذلك كانت تلك الصفات أحد أجزاء ماهية ذلك الشخص من حيث إنه ذلك الشخص، وعند تفرق الأجزاء يبطل تلك الصّفات وتفنى، فإن امتنعت الإعادة على المعدوم امتنعت على تلك الصفات فيكون العائد صفات أخرى لا تلك الصفات التي باعتبارها كان ذلك الشخص، وعلى هذا التقدير لم يكن العائد ثانياً هو الّذي كان موجوداً أولاً، فلم يكن الزيد الثاني عين الزيد الأوّل، فثبت بما ذكرنا أنّا إن جوزنا إعادة المعدوم فلا حاجة إلى ما ذكروه، وإن منعنا إعادة المعدوم كان الإشكال المذكور باقياً، سواء قلنا إنه تعالى لا يفنيها أو قلنا إنه يفنيها، انتهى.

ووافقه ذلك الشارح البحراني حيث قال: إن بدن زيد مثلاً ليس عبارة عن تلك الأجزاء المتشذبة المتفرقة فقط، فإن القول بذلك مكابرة للعقل بل عنها مع سائر الأعراض والتأليفات المخصوصة والأوضاع فإذا شذب البدن وتفرق فلا بد أن يعدم تلك الأعراض وتفنى وحينئذ يلزم فناء البدن من حيث إنه هذا البدن، فعند الإعادة إن أعيد بعينه وجب إعادة تلك الأعراض بعينها فلزمت إعادة المعدوم، وإن لم يعد بعينه عاد غيره فيكون الثواب والعقاب على غيره وذلك تكذب للقرآن الكريم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤].

اللهم إلا أن يقال: إن الإنسان المثاب والمعاقب إنما هو النفس الناطقة، وهذا البدن كالآلة فإذا عدم لم يلزم عوده بعينه بل جاز عود مثله، لكن هذا إنما يستقيم على مذهب الحكماء القائلين بالنفس الناطقة لا مذهب من يقول بالتشذب وتفرق الأجزاء، ومذهب أكثر المحققين من علماء الإسلام يؤل إلى هذا القول، انتهى.

أقول: بعد القول بالمعاد الجسماني وكونه من ضروريات الدين، وبعد القول بامتناع إعادة المعدوم وكونه من البديهيّات حسبما أشرنا إليه، لا مناص من القول بالتفرق.

وأمّا الإشكال المذكور فالجواب عنه بناء على نفي الجزء الصوري للأجسام وحصر أجزائها في الجواهر الفردة كما هو مذهب المتكلّمين ظاهر.

وأما بناء على ثبوت الجزء الصوري فربما يجاب عنه بأنه يكفي في المعاد الجسماني عود الأجزاء المادية بعينها، ولا يقدح تبدل الجزء الصوري بعد أن كان أقرب الصور إلى الصورة الزائلة.

لا يقال: إن هذا يكون تناسخاً.

لأنا نقول: الممتنع هو انتقال النفس إلى بدن مغاير له بحسب المادة لا إلى بدن يتألف من عين مادة هذا البدن وصورة هي أقرب الصّور إلى الصورة الزايلة، فإن سمّيت ذلك تناسخاً فلا بد من البرهان على امتناع فإن النزاع إنما هو في المعنى لا في اللفظ، هذا.

وقد أشير إلى هذا الجواب في ما رواه في «**الاحتجاج**» عن الصادق عليه السلام وهو أنه سأله ابن أبي العوجاء عن قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النِّساء: الآية ٥٦]، فقال: ما ذنب الغير؟ قال عليه السلام ويحك هي هي وهي غيرها، قال: فمثّل لي في ذلك شيئاً من أمر الدنيا قال عليه السلام: نعم أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكسرها ثم ردها في ملبنها فهي هي وهي غيرها[1].

ثم إن شئت مزيد توضيح لهذه المسألة أعني كون الإعدام والإفناء بالتفريق والتشذيب والإعادة بالجمع والتركيب فعليك بالرجوع آيات الكتاب وأخبار الأئمة عليهم السلام الأطهار الأطياب.

قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: الآيتان ٧٨ ـ ٧٩] وقد مضى تفسير الآية مفصلاً وتحقيق الكلام في إثبات المعاد الجسماني بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الثالث من «**المختار**» الثاني والثمانين.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: الآيتان ٣ ـ ٤] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٣].

(١) الاحتجاج: ٢/ ١٠٤، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٣٤٤.

روى في «الكافي» عن الباقر والصادق عليهما السلام أن هؤلاء أهل مدينة من مدائن الشام وكانوا سبعون ألف بيت قال لهم الله موتوا جميعاً، فماتوا من ساعتهم وصاروا رميماً يلوح، وكانوا على طريق المارة فكنستهم المارة فنحوهم وجمعوهم في موضع فمر بهم نبيّ من أنبياء بني إسرائيل يقال له: حزقيل، فلما رأى تلك العظام بكى واستعبر وقال: يا رب لو شئت لأحييتهم الساعة كما أمتّهم، فأوحى الله عزّ وجلّ أن قل كذا وكذا، فقال الذي أمر الله عز وجل أن يقوله فلما قال ذلك نظر إلى العظام يطير بعضها إلى بعض فعادوا أحياء ينظر بعضهم إلى بعض ـ والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة[1].

وقال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٩] أي انظر إلى عظامك كيف نرفع بعضها إلى بعض للتركيب، وقرء ننشرها بالراء المهملة من أنشر الله الموتى أحياهم.

روى عليّ بن إبراهيم القمي في حديث طويل عن الصادق عليه السلام ـ وساق الحديث إلى أن قال ـ فخرج أرميا على حمار ومعه تين قد تزوده وشيء من عصير فنظر إلى سباع البر وسباع البحر وسباع الجو تأكل تلك الجيف ففكر في نفسه ساعة ثم قال: أنّي يحيي الله هؤلاء وقد أكلتهم السّباع، فأماته الله مكانه وهو قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البَقَرة: الآية ٢٥٩] الآية، وبقي أرميا ميّتاً مائة سنة ثم أحياه الله فأوّل ما أحيا الله منه عينيه في مثل عزقي البيض فنظر فأوحى الله إليه كم لبثت قال لبثت يوماً ثم نظر إلى الشّمس قد ارتفعت فقال أبو بعض يوم فقال الله تعالى بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه أي لم يتغيّر، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للنّاس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فجعل ينظر إلى العظام البالية المتفطرة تجمع إليه وإلى اللحم الذي قد أكلته السباع يتألف إلى العظام من ههنا وههنا ويتلزق بها حتى قام وقام حماره فقال: إن الله على كل شيء قدير[2].

وفي «الاحتجاج» في حديث عنه عليه السلام قال: وأمات الله أرميا النبي الذي نظر إلى خراب بيت المقدس وما حوله حين غزاهم بخت نصرفقال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم أحياه ونظر إلى أعصابه كيف تلتئم وكيف تلبس اللحم وإلى مفاصله وعروقه كيف

(١) الكافي: ٨/ ١٩٩، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٢٦٣ ح٢٣٧.

(٢) بحار الأنوار: ٧/ ٣٤ ح٣، التفسير الصافي: ١/ ٢٩٠.

توصل، فلما استوى قاعداً قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير[١].

ثمّ إنه عليه السلام لما ذكر أنه تعالى يفني الأشياء بعد الوجود، وكان ذلك مستبعداً عند الأذهان القاصرة ومورداً للتعجب لاستبعادها طريان العدم على هذه الأشياء الكثيرة العظيمة كالسماوات الموطدات وما فيهن، والأرضين المدحوات وما عليهن وغيرها من الممكنات الموجودات أراد دفع الاستبعاد والتعجب فقال:

(وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها) لأن الإنشاء والإفناء إن لوحظا بالنسبة إلى قدرة الواجب تعالى فليس بينهما فرق، إذ نسبة جميع المقدورات إليه تعالى سواء، لأنها كلّها ممكنة قابلة للوجود والعدم لذواتها وهو سبحانه على كل شيء قدير، وإن لو حظا بالنظر إلى أنفسهما مع قطع النظر عن القدرة فالإبداع أغرب وأعجب من الإعدام سيّما إذا كان المبدع مشتملاً على بدائع الخلقة وأسرار الحكمة التي لا يهتدي إلى معشارها بعد الهمم ولا يصل إليها غوص الفطن كما أشار إليه بقوله:

(وكيف) أي كيف يكون الفناء أعجب **(ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وما كان من مراحها وسائمها)** أي من ذي مراحها أي الذي أراحه راعيه فيه بالعشي **(وأصناف أسناخها وأجناسها ومتبلدة أممها وأكياسها)** أي غبيّها وذكيّها **(على إحداث)** أصغر حيوان وأحقره وأضعفه من **(بعوضة)** ونحوها **(ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها)** كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحَجّ: الآية ٧٣].

ومحصّل المراد أنه كيف يكون الفناء أعجب من الإبداع وفي إبداع أضعف حيوان وأحقره وهي البعوضة ما يعجز عن تكوينه وإحداثه قدرة كلّ من تنسب إليه القدرة، وتقصر عن معرفة الطريق إلى إيجادها ألباب الألباء.

(ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت وعجزت قواها وتناهت) فإنها على صغرها وضعفها قد ودع فيها من بدائع الصنع وعجائب الخلقة ما لا يخفى، فإنه سبحانه قد خلقها على خلقة الفيل إلا أنه أكثر أعضاء من الفيل، فإن للفيل أربع أرجل وخرطوماً وذنباً، ولها مع هذه الأعضاء رجلان زائدتان وأربعة أجنحة، وخرطوم الفيل مصمت وخرطومها مجوّف نافذ للجوف، فإذا طعنت به جسد الإنسان استقى الدّم وقذفت به إلى جوفها فهو لها كالبلعوم والحلقوم ولذلك اشتد عضها وقويت على خرق الجلود الغلاظ قال الراجز:

(١) الاحتجاج: ٢/٨٨، وبحار الأنوار: ١٠/١٧٦.

مثل السّفاة دائماً طنينها ركب في خرطومها سكّينها

ومما ألهمها الله تعالى أنها إذا جلست على عضو الإنسان لا تزال تتوخى بخرطومها المسام التي يخرج منها العرق لأنها أرق بشرة من الجلد، فإذا وجدها وضعت خرطومها فيها، وفيها من الشره أن تمصّ الدّم إلى أن تنشق وتموت أو إلى أن تعجز عن الطيران فيكون ذلك سبب هلاكها.

وكان بعض الجبابرة من الملوك يعذب بالبعوض فيأخذ من يريد قتله فيخرجه مجرداً إلى بعض الآجام التي بالبطايح ويتركه فيها مكتوفاً فيقتل في أسرع وقت وأقرب زمان، قال الفتح البستي في هذا المعنى:

لا تستخفن الفتى بعداوة أبداً وإن كان العدوّ ضئيلا
إن القذى يؤذي العيون قليله ولربما جرح البعوض الفيلا

وقال آخر:

لا تحقرن صغيراً في عداوته إن البعوضة تدمي مقلة الأسد

فقد ظهر من ذلك أن عقول العقلاء لو فكرت في إيجادها وفيما أبدع من عجائب الصنع لتحيّرت وتاهت وعرفت أن القوى عاجزة عن إيجادها.

(ورجعت خاسئة) أي صاغرة ذليلة **(حسيرة عارفة بأنها مقهورة)** عاجزة غير متمكنة **(مقرّة بالعجز عن إنشائها مذعنة بالضعف عن إفنائها)**.

فإن قلت: كيف تذعن العقول بالضعف عن إفناء البعوضة مع إمكان ذلك وسهولته؟

قلت: إن الله سبحانه وإن خلق للعبد قدرة على الفعل والترك والإيذاء والإضرار لغيره، لكنه تعالى جعل للبعوضة أيضاً القدرة على الهرب والطيران والامتناع من ضرر الغير فضلاً عن إهلاكه، فلولا تسخير الرب القاهر لها وتمكينه إياها لما قدر العبد على قتلها وإهلاكها وما كان متمكناً من إفنائها وإعدامها.

ثمّ إنّه لما ذكر أنّه تعالى يفني الأشياء بعد وجودها حتّى يصير موجودها كمفقودها، وعقبها بجملات متعددة معترضة للاستبعاد وإفنائها عاد إلى إتمام ما كان بصدده من شرح حال الفناء فقال:

(وإنه سبحانه يعود بعد فناءِ الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها) يعني أنه يبقى بعد فناء الأشياء وحده لا شيء معه منها كما كان قبل وجودها.

قال الشارح البحراني: وقوله: **(يعود)**، إشعار بتغير من حالة سبقت إلى حالة لحقت وهما يعودان إلى ما تعتبره أذهاننا له من حالة تقدّمه على وجودها وحالة تأخّره عنها بعد عدمها، وهما اعتباران ذهنيان يلحقانه بالقياس إلى مخلوقاته.

وقوله: **(بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان)** يحتمل أن يكون قيداً بقوله: وحده أو قوله: يكون، فيكون إشارة إلى بقائه سبحانه بعد فناء الأشياء متوحداً منزهاً عن الزمان والمكان، بريئاً عن لحوقهما كما كان قبل وجودها كذلك، لأن الكون في المكان والزمان من خصائص الإمكان وخواص الأجسام.

ويحتمل أن يكون قيداً لقوله: فنائها أتى به تأكيداً له، يعني أنّه يفني الأشياء حتّى لا يبقى وقت ولا زمان ولا مكان.

وذلك لأن المكان إمّا الجسم الذي يتمكّن عليه جسم آخر، أو الجهة، وكلاهما لا وجود له بتقدير عدم الأفلاك وما في حشوها من الأجسام أما الأوّل فظاهر وأمّا الثاني فلأن الجهة لا تتحقق إلا بتقدير وجود الفلك لأنها أمر إضافي بالنسبة إليه فبتقدير عدمه لا يبقى لها تحقق أصلاً.

وأما الزمان فلأنه عبارة عن مقدار حركة الفلك فإذا قدرنا عدم الفلك فلا حركة فلا زمان.

وفيه ردّ على الفلاسفة القائلين بعدم فناء الأفلاك حسبما أشير إليه سابقاً ولدفع زعمهم الفاسد أيضاً أكده ثانياً بقوله:

(عدمت عند ذلك) أي عند فناء الأشياء **(الآجال والأوقات، وزالت السّنون والساعات)** لأنّ كل ذلك أجزاء للزّمان وحيث انعدم الزّمان لانعدام الفلك انعدم ذلك كله **(فلا شيء إلا الله الواحد القهار)** هذا نص صريح في فناء جميع الأشياء.

وهو على القول بطريان العدم عليها بجواهرها وذواتها لا غبار عليه.

وأما على القول بأن الفناء هو التشذب وتفرق الأجزاء كما عليه بناء المحققين حسبما عرفته سابقاً فلا بدّ من ارتكاب التأويل وفي أمثاله ينصرف لا عن نفي الجنس إلى نفي الكمال كما في لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد أي لا شيء يصحّ منه الانتفاع فإن الأجزاء المتشذبة المتفرّقة وإن صحّ إطلاق اسم الشيء عليها إلاّ أنّها خرجت بتفرقها عن حيّز الانتفاع، فكأنّها ليست بشيء أي لا يبقى بعد فناء الأشياء شيء معتدّ به إلا الله الواحد القهّار للأشياء بالعدم والفناء، والغالب عليها بالإعدام والإفناء، بحيث لا يطيق شيء منها من الامتناع من حكمه ومما يريد الإنفاذ فيها من أمره.

(الذي إليه مصير جميع الأمور) ومرجعها عاقبتها كما قال عزّ من قال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشّورى: الآية ٥٣].

وقال الطبرسي: أي إليه ترجع الأمور والتدبير يوم القيامة فلا يملك ذلك غيره.

وقال البحراني: معنى مصيرها إليه أخذه لها بعد هبته لوجودها.

ولما ذكر قهاريته على الأشياء وصيرورتها كلها إليه تعالى عقبه بقوله:

(بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها وبغير امتناع منها كان فناؤها) تنبيهاً على أن لازم قاهريته ذلك أي كون الكلّ مقهوراً تحت مشيته غير مقتدر على إيجاد نفسه ولا على الامتناع من فنائه فهو عاجز ضعيف داخر ذليل لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

(و) لما كان عدم اقتدارها على خلقتها بديهيّاً مستغنياً عن التعليل بخلاف اقتدارها على الامتناع علل الثاني بأنها **(لو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها)** لكن التالي باطل فالمقدّم مثله، ووجه الملازمة أن الفناء مكروه بالطبع لكلّ موجود فلو تمكن من الامتناع منه لامتنع فدام، وأما بطلان التالي فلما ثبت أنّه سبحانه يفنيها فلا يدوم بقاؤها فلا يكون لها قدرة على الامتناع.

والسابع والستون أنه تعالى **(لم يتكأده صنع شيء منها إذ صنعه)** أي لم يشق عليه سبحانه صنع شيء من المصنوعات، لأن صنعه تعالى ليس بقوّة جسمانية حتّى يطرئه الانفعال والتعب، بل فعله الإفاضة وصنعه الإبداع الناشيء عن محض علمه وإرادته من غير استعمال آلة أو حركة.

ونحن لو كنا بحيث لو وجد من نفس علمنا وإرادتنا شيء لم يلحقنا من وجوده تعب وانفعال، لكنا نحتاج في أفعالنا إلى حركة واستعمال آلة على أن علمنا وإرادتنا زائدتان على ذواتنا، فالله تعالى أولى بأن لا يلحقه تغيّر من صنعه، لأن فعله بمجرّد علمه ومشيئته الموجبتان لقوله وأمره الواسطتان لفعله وصنعه كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢].

(و) الثامن والستون إنّه **(لم يؤده منها خلق ما براه وخلقه)** أي لم يثقله إيجاد ما أوجده من المخلوقت، لأن الثقل والإعياء إنما يعرض لذي القوى والأعضاءِ من الحيوان، وإذ ليس سبحانه بجسم ولا ذي آلة جسمانية لم يلحقه بسبب فعله إعياء ولا تثقل ولا تعب كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٣] وقال: **﴿ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾**.

(و) **التاسع والستون** أن تكوينه وإيجاده للأشياء ليس لجلب منفعة لنفسه أو دفع مضرّة عنها، لما قد عرفت في شرح الخطبة الرابعة والستين مفصلاً من أنه ليس بفعله داع وغرض غير ذاته، فلو كان غرضه من التكوين جلب المنفعة أو دفع المضرة لزم نقصانه في ذاته واستكماله بغيره، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

(و) أشار إلى تفصيل وجوه المنافع المتصورة في التكوين والمضار المترتبة على عدمه ونفيها جميعاً بقوله:

(**لم يكوّنها لتشديد سلطان**) قد مضى شرحه في شرح الخطبة الرابعة والستين (**ولا لخوف من زوال ونقصان**) أي لخوفه من الزوال والعدم فخلقها ليتحصن بها من ذلك أو خوفه من النقصان فخلقها لأن يستكمل بها، وقد تقدّم تنزهه سبحانه عن الخوف في شرح الخطبة المذكورة أيضاً.

(**ولا لاستعانة بها على ندّ مكاثر**) متعرض للغلبة (**ولا للاحتراز بها من ضدّ مثاور**) مواثب ومحارب له (**ولا للازدياد بها في ملكه**) ومملكته بتكثير الجند والعساكر وأخذ الحصون والبلاد والقلاع (**ولا لمكابرة شريك في شركه**) أي لمفاخرة الشريك في الملك كما يكاثر الإنسان غيره ممن يشاركه في الأموال والأولاد قال سبحانهُ: ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ وإنما لم يكن تكوينه لأجل هذه الأمور لاستلزامه العجز والضعف والنقصان حسبما عرفته في شرح الخطبة التي أشرنا إليها.

(**ولا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها**) لتنزهه تعالى عن الاستيحاش والاستيناس حسبما تقدّم تفصيلاً في شرح الفصل السادس من الخطبة الأولى.

والسبعون أن إفنائه للأشياء ليس أيضاً من أجل جلب النفع أو دفع الضرر، وإليه أشار بقوله (**ثم هو يفنيها بعد تكوينها لا لسأم**) وملال (**دخل عليه في تصريفها وتدبيرها**)، لأن الضجر والملال إنما يلحقان للمزاج الحيواني فيمتنع أن يكون فناؤه لها لأجل دفعهما عنه لتنزّهه من المزاج.

(**ولا لـ**) تحصيل (**راحة واصلة إليه**) بسبب إعدامها (**ولا لـ**) دفع مضرّة (**ثقل شيء منها عليه**) حال وجودها، لأن هذا كلّه من لواحق الإمكان ولوازم الضعف والنقصان (**لا يملّه طول بقائها**) كما يمل غيره (**فيدعوه إلى سرعة إفنائها**) لما ذكرنا من تنزّهه من السأم والملال و(**لكنّه سبحانه دبّرها بلطفه**) أي ببرّه وإنعامه وتكرمته.

ومعنى تدبيره لها تصريفه إيّاها لتصريفها كلّياً وجزئيّاً على وفق حكمته وعنايته من غير مماسة بها ومباشرة لها لأن المباشرة والملامسة من صفات الأجسام.

(وأمسكها بأمره) أي بحكمه النافذ وسلطانه القاهر **(وأتقنها بقدرته)** أي جعلها متقنة محكمة مصونة من التزلزل والاضطراب بنفس قدرته الكاملة، فإذا كان تدبيرها باللطف وإمساكها بالحكم وإتقانها بمحض القدرة من غير حاجة فيها إلى المزاولة والمباشرة، امتنع عروض الثقل والملال عليه سبحانه بسبب بقائها ووصول الراحة إليه بسبب فنائها كما هو واضح لا يخفى.

والحادي والسبعون أن إعادته للأشياء بعد الفناء ليس أيضاً لأجل الأغراض البشريّة من جلب منفعة أو دفع المضرّة وإليه أشار بقوله:

(ثمّ يعيدها بعد الفناء) أي يعيد الأشياء لا جميعها بل بعضها وهو جميع أفراد النوع الإنساني قطعاً وجملة من غيره مما ورد في الأخبار الإخبار بإعادته، فالضمير عائد إلى الدّنيا أو إلى الأمور في قوله مصير جميع الأمور وأريد به البعض على طريق الاستخدام.

وكيف كان فإنه سبحانه يعيد من الأشياء ما اقتضت الحكمة إعادتها **(من غير حاجة منه إليها)** لأن الحاجة من صفات الممكن **(ولا استعانة بشيء منها عليها)** أي استعانة ببعضها على بعض **(ولا لانصراف من حال وحشة)** كانت له عند فقدانها **(إلى حال استيناس)** حصلت له عند وجودها **(ولا)** لانتقال **(من حال جهل وعمي)** حاصلة له بإعدامها **(إلى حال علم والتماس)** أي إلى استجداد علم ولمس **(ولا من فقر وحاجة إلى غني وكثرة ولا من ذلّ وضعة إلى عزّ وقدرة)** لأن هذه الأغراض كلّها إنما تليق بالممكنات الناقصة، وأمّا الواجب تعالى فله الكمال المطلق في ذاته وصفاته، فيتمنع أن يكون أفعاله لمثل هذه الأغراض المنبئة عن النقص والفاقة.

تنبيه

لا تحسبنّ من نفي الأغراض المذكورة عنه سبحانه في إيجاد الأشياء وإفنائها وإعادتها كون أفعاله عزّ وجل خالية عن الغرض مطلقاً كما زعمته الأشاعرة فيلزم كونه لاعباً عابثاً في فعله، تعالى شأنه عن ذلك علواً كبيراً وقد قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٦] ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: الآية ١٩١] ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٦].

بل المنفي عنه سبحانه هو الأغراض المستلزمة لنقصانه في ذاته واستكماله بمخلوقاته من قبيل جلب المنافع ودفع المضار.

وتحقيق المقام يتوقف على بسط في الكلام.

فأقول: ذهبت الطائفة المحقة الأمامية والمعتزلة من العامة إلى أن أفعاله سبحانه معلّلة بالأغراض والمصالح والحكم والمنافع، وخالفهم الأشاعرة.

قال العلامة الحلى قدّس الله روحه في كتاب «**نهج الحق**»: قالت الإمامية: إن الله إنما يفعل لغرض وحكمة وفائدة ومصلحة يرجع إلى المكلفين ونفع يصل إليهم، وقالت الأشاعرة: إنّه لا يجوز أن يفعل شيئاً لغرض ولا لمصلحة ترجع إلى العباد ولا لغاية من الغايات، ولزمهم من ذلك كون الله تعالى لاعباً عابثاً في فعله فإنّ العابث ليس إلا الّذي يفعل لا لغرض وحكمة بل محاباً والله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٦] والفعل الذي لا غرض للفاعل فيه باطل ولعب، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقال في موضع آخر من الكتاب المذكور: قالت الإماميّة: إن الله لم يفعل شيئاً عبثاً بل إنما يفعل لغرض ومصلحة وإنما يمرض لمصالح العباد ويعرض المؤلم بحيث ينتفى العبث والظلم، وقالت الأشاعرة: لا يجوز أن يفعل شيئاً لغرض من الأغراض ولا لمصلحة ويؤلم العبد بغير مصلحة ولا غرض بل يجوز أن يخلق خلقاً في النّار مخلّدين فيها أبداً من غير أن يكون قد عصوا أولاً، انتهى كلامه رفع مقامه.

وقال الشارح المعتزلي: أوجد الله تعالى الأشياء أولاً للإحسان إلى البشر وليعرفوه، فإنه لو لم يوجدهم لبقي مجهولاً لا يعرف، ثمّ كلف البشر ليعرضهم للمنزلة الجليلة التي لا يمكن وصولهم إليها إلا بالتكليف وهي الثواب، ثم يفنيهم لأنه لا بد من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاق التكاليف، ثمّ إنه يبعثهم ويعيدهم ليوصل إلى كلّ إنسان ما يستحقه من ثواب أو عقاب، ولا يمكن إيصال هذا المستحق إلا بالإعادة انتهى(١).

وقال الأول أيضاً في محكى كلامه من كتاب **نهاية الفصول**: إن النصوص دالة على أنه تعالى شرع الأحكام لمصالح العباد ثمّ إن الإماميّة والمعتزلة صرحوا بذلك وكشفوا الغطاء حتى قالوا: إنه تعالى يقبح منه فعل القبيح والعبث بل يجب أن يكون فعله مشتملاً على مصلحة وغرض، وأما الفقهاء قد صرّحوا بأنّه تعالى إنما شرع الحكم لهذا المعنى ولأجل هذا الحكمة ثمّ يكفرون من قال بالغرض مع أن معنى الكلام الغرض لا غير، انتهى.

فقد ظهر من كلامهما جميعاً اتفاق العدلية على كون أفعاله تعالى وأحكامه وجميع ما صدر عنه تكوينيّا كان أو تكليفيّاً معلّلاً بأغراض، وأنّ الغرض منها جميعاً إيصال النفع إلى المكلّفين والإحسان إليهم واللطف في حقهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٩٤.

ويشهد لهم صريحاً الآيات الكثيرة من الكتاب والأخبار التي لا تعدّ ولا تحصى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يُونس: الآية ٥] وقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المَائدة: الآية ٣٢] الآية وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٧].

وفي الحديث القدسي: لولاك لما خلقت الأفلاك، ويا إنسان خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي، وكنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف[1]. إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى إيراده.

وكفاك شاهداً في هذا الغرض كتاب «**علل الشرائع**» الّذي ألّفه الصدوق «قده» في علل تشريع الأحكام الشرعيّة.

واستدل الأشاعرة على مذهبهم بأنه لو كان فعله تعالى لغرض من جلب منفعة أو دفع مفسدة لكان هو ناقصاً بذاته مستكملاً بتحصيل ذلك الغرض، لأنه لا يكون غرضاً للفاعل إلا ما هو أصلح له من عدمه، وذلك لأن ما استوى وجوده وعدمه بالنظر إلى الفاعل وكان وجوده مرجوحاً بالقياس إليه لا يكون باعثاً له على الفعل وسبباً لإقدامه عليه بالضرورة، فكلّ ما كان غرضاً يجب أن يكون وجوده أصلح للفاعل وأليق به من عدمه وهو معني الكمال، فإذاً يكون الفاعل مستكملاً بوجوده ناقصاً بعدمه.

قالوا: وأما قول القائلين بكون أفعاله للغرض إنه لولاه لكان الله لاعباً عابثاً، فالجواب التحقيقي عنه إن العبث ما كان خالياً عن الفوائد، وفعاله تعالى محكمة متقنة مشتملة على حكم ومصالح لا يحصى راجعة إلى مخلوقاته تعالى، لكنها ليست أسباباً باعثة على إقدامه وعللاً مقتضية لفاعليته فلا يكون أغراضاً له ولا عللاً غائية لأفعاله حتّى يلزم استكماله بها، بل يكون غايات ومنافع لأفعاله وآثاراً مترتبة عليها، فلا يكون شيء من أفعاله عبثاً خالياً عن الفوائد، وما ورد من الظواهر الدالة على تعليل أفعاله تعالى فهو محمول على الفائدة والمنفعة دون الغرض والعلّة.

أقول: هكذا قرر الشارح الناصب روزبهان خفضه الله دليل الأشاعرة في «**شرح نهج الحق**» والمستفاد منه اتفاق الأشاعرة والعدلية على كون أفعاله سبحانه مشتملة على الحكم والمصالح العائدة إلى الخلق لا إليه تعالى، وعلى أن ظواهر الأدلّة هي العلّية والغاية.

(١) الغدير: ١١/ ٣٨٣ ح١٠٢، ونظرة إلى الغدير: ١٧٣.

وإنما النزاع في كون تلك المصالح والحكم غرضاً وعلة للفعل، فذهب العدلية إلى الغرض والعلّية مستدلين بظواهر الأدلة، وأنكرها الأشاعرة وصرفوا الأدلة عن ظواهرها بزعمهم استلزام القول بالغرض النّقصان بالذات والاستكمال بالغير وهو محال على الحق الأوّل سبحانه.

واعترض عليه الشارح الفاضل القاضي نور الله نور الله مرقده.

أولاً بأنّه إنما يلزم الاستكمال لو كان الغرض عائداً إليه تعالى ونحن لانقول بذلك، بل الغرض إما عائد إلى مصلحة العبد أو إلى اقتضائه نظام الوجود بمعنى نظام الوجود لا يتمّ إلا بذلك الغرض فيكون الغرض عائداً إلى النظام لا إليه وعلى كلّ من الأمرين لا يلزم الاستكمال.

فإن قيل: أولوية عود الغرض إلى الغير يفيد استكماله بالغير ومساواته بالنسبة إليه تعالى ينافي الغرضية.

قلت: لا نسلّم أنه لو استوى حصول الغرض وعدم حصوله بالنسبة إليه تعالى لم يصلح أن يكون غرضاً داعياً إلى فعله، وإنا يلزم لو لم يكن الفعل أولى من الترك بوجه من الوجوه، وههنا ليس كذلك فإنه بالنسبة إلى العبد أولى.

ولو سلم فنقول: الغرض كالإحسان مثلاً أولى وأرجح من عدمه عنده تعالى يعني أنه عالم بأرجحية الإحسان في نفس الأمر ولا يلزم أولوية الإحسان بالمعنى المذكور عنده استكماله تعالى به، لأن الأنفع أرجح في نفس الأمر، فلو لم يكن عالماً بالأرجحية يلزم عدم علمه بكونه أنفع، فيلزم النقص فيه وهو منزّه عن النقص.

وثانياً بأن تعليل أفعاله راجع إلى الصّفات والكمالات الفعلية كخالقية العالم ورازقية العباد، والخلو عنها ليس بنقص قطعاً وإنما النّقص خلوه عن الصّفات الحقيقية.

وثالثاً بأن ما ذكره من الجواب الّذي سمّاه تحقيقاً فبطلانه ظاهر لأنّه مع منافاته لما ذكروه في بحث الحسن والقبح العقليّين من أنه ليس في الأفعال قبل ورود الأمر والنهي جهة محسنة ومقبحة تصير منشئاً للأمر والنهي مردود بأن الفاعل إذ فعل فعلاً من غير ملاحظة فائدة ومدخليتها فيه يعدّ ذلك الفعل عبثاً أو في حكم العبث في القبح وإن اشتمل على فوائد ومصالح في نفس الأمر، لأن مجرّد الاشتمال عليها لا يخرجه عن ذلك، ضرورة أن ما لا يكون ملحوظاً للفاعل عند إيقاع الفعل ولا مؤثراً في إقدامه عليه في حكم العدم كما لا يخفى على من اتصف بالإنصاف، هذا.

وذكر اعتراضات آخر غير خالية عن التأمّل والنظر طوينا عن ذكرها كشحاً وإن كان

بعض هذه الاعتراضات التي ذكرناها غير خال عن المناقشة أيضاً كما لا يخفى هذا.

ولصدر المتألهين مسلك آخر في تقرير كون أفعاله تعالى معلّلة بالأغراض وتحقيق عميق في بيان معنى الغرض والغاية أشار إليه في مواضع عديدة بعضها إجمالاً وبعضها تفصيلاً من **«شرح الكافي»**.

قال في شرح الحديث الخامس من الباب السادس وهو باب الكون والمكان من كتاب **«التوحيد»** ما لفظه:

إن الأسباب لوجود ما له سبب ينحصر في أربعة: الفاعل، والغاية، والمادة، والصورة، والأخيرتان داخلتان في وجود المسبب عنهما إحداهما ما به وجود الشيء بالقوة كالخشب للسرير، والثانية ما به وجود الشيء بالفعل كهيئة السرير لأنها متى وجدت وجد السرير بالفعل، وأمّا الأوّلان فهما خارجان عن وجود المسبّب، والفاعل ما يفيد وجود الشيء، والغاية ما لأجله.

ومن المعاليل ما لا يحتاج إل السّببين الداخلين لكونه بسيطاً، وأمّا الفاعل والغاية فليس يمكن لشيء من الممكنات الاستغناء عنهما.

ثمّ الغاية لها اعتباران:

أحدهما: اعتبار كونها بحسب الوجود العلمي باعثة على فاعلية الفاعل، فهي متقدّمة على الفعل وكون الفاعل فاعلاً لأنها علة فاعليّة لفاعلية الفاعل فهي فاعل الفاعل بما هو فعل، وهذا في الفواعل الّتي في هذا العالم من المختارين الّذين يفعلون أفاعيلهم بقصد زائد وداعيه إرادة زائدة مكشوف معلوم، فإنهم ما لم يتصوروا غاية وفائدة لم يصيروا فاعلاً بالفعل، فالعلّة الغائية فيهم مغايرة للعلّة الفاعلة، وأما الاوّل تعالى فلما كان علمه بنظام الخير في العالم الّذي هو عين ذاته داعياً لإيجاده للعالم فالفاعل والغاية هناك شيء واحد بلا تغاير في الذات ولا تخالف في الجهات.

وثانيهما: اعتبار كونها غاية وثمرة مترتبة على الفعل، فربما يتأخر وجودها الخارجي عن وجود المعلول فيكون وجودها معلول معلول الفاعل كما في الغايات الواقعة تحت الكون.

ثمّ أعلم أنه قد وجد في كلام الحكماء أن أفعال الله تعالى غير معلّلة بالأغراض والدّواعي. ووجد أيضاً كثيراً من ألسنتهم على طبق ما ورد في هذه الأحاديث أنّه تعالى غاية الغايات وأنه المبدأ والغاية، وفي الكلام الإلهي **﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ ﴿وإن إلى ربك**

الرجعي﴾ إلى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى.

فإن كان المراد من نفس التعليل وسلب اللمية عن فعله تعالى نفي ذلك عنه بما هو غير ذاته فهو كذلك، لأنه تعالى تام في فاعليته كما هو تام في ذاته، لكن لا يلزم من ذلك نفي الغاية والداعي عن فعله مطلقاً حتّى لزم العبث والجزاف، تعالى عما يظنّه الجاهلون، بل علمه بنظام الخير الّذي هو نفس ذاته علّة غائية وغرض بالذات لفعله ووجوده، وهذا مما ساق إليه الفحص والبرهان وشهدت به عقول الفحول وأذهان الأعيان.

وقال في شرح الحديث الأول من الباب الرابع عشر وهو باب الإرادة من كتاب **«التوحيد»**:

التحقيق أن الإرادة تطلق بالاشتراك الصناعي على معنيين:

أحدهما: ما يفهمه الجمهور وهو الّذي ضده الكراهة وهي التي قد تحصل فينا عقيب تصوّر الشيء الملائم وعقيب التردّد حتّى يترجح عندنا الأمر الداعي إلى الفعل أو الترك، فيصدر أحدهما منا وهذا المعنى فينا من الصفات النفسانية، وهي والكراهة فينا كالشهوة والغضب فينا وفي الحيوان، ولا يجوز على الله بل إرادته نفس صدور الأفعال الحسنة منه من جهة علمه بوجه الحسن وكراهته عدم صدور الفعل القبيح منه لعلمه بقبحه.

وثانيهما: كون ذاته بحيث يصدر عنه الأشياء لأجل علمه بنظام الخير فيها التابع لعلمه بذاته، لا كاتباع الضوء للمضيء والسخونة للمسخن ولا كفعل الطبائع لا عن علم وشعور ولا كفعل المجبورين والمسخرين ولا كفعل المختارين بقصد زائد وإرادة زائدة ظنية يحتمل الطرف المقابل.

فإذا هو سبحانه فاعل للأشياء كلّها بإرادة ترجع إلى علمه بذاته المستتبع لعلمه بغير المقتضي لوجود غيره في الخارج لا لغرض زائد وجلب منفعة أو طلب محمدة أو ثناء أو التخلص من مذّمة، بل غاية فعله محبّة ذاته.

فهذه الأشياء الصادرة عنه كلها مرادة لأجل ذاته لأنها من توابع ذاته وعلمه بذاته، فلو كنت تعشق شيئاً لكان جميع ما يصدر عنه معشوقاً لك لأجل ذلك الشيء، وإليه الإشارة بما ورد في الحديث الإلهي عن نفسه تعالى: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف.

وقال في شرح الحديث السادس من الباب الخامس والعشرين من كتاب **«التوحيد»** **وهو** باب المشيئة والإرادة:

ليس لفعله تعالى غاية وغرض زائدتين على ذاته، وإنما الغاية والغرض لأفاعيل ما سواه من الفاعلين والغاية والغرض اسمان لشيء واحد بالذات متغاير بالاعتبار، فالذي لأجله يفعل الفاعل فعله ويسأل عنه بلم وهو يقع في الجواب يقال له الغاية بالنسبة إلى الفعل والغرض بالنسبة إلى الفعل، فإذا قلت لباني الفعل لم تبني البيت؟ فيقول في جوابك لأسكن فيه فالسّكنى غاية للبناء وغرض للبناء.

إذا علمت هذا فاعلم أن وجود الأشياء عنه تعالى من لوازم خيريته تعالى ليس يريد بإيجادها شيئاً آخر غير ذاته، بل كونه على كماله الأقصى يقتضي ذلك، إذ كلّ فاعل يقصد في فعله شيئاً فذلك الشيء أفضل منه وهو أدون منزلة من مقصوده.

فلو كان للأوّل تعالى قصد إلى ما سواه أي شيء كان من إيصال خيريّة أو نفع أو مثوبة إلى أحد أو طلب ثناء أو شكر أو محمدة أو غير ذلك لكان في ذاته ناقصاً مستكملاً بقصده، وذلك محال لأن وجوده على أقصى درجات الفضل والكمال إذ كلّ كمال وشرف وفضل فهو رشح من رشحات وجوده، فكيف يعود إليه من مجعولاته شيء من الفضيلة لم تكن في ذاته.

وأيضاً لو كان له قصد زائد أو لفعله غرض يلحق إليه بواسطة الفعل يلزم فيه الكثرة والانفعال، وقد ثبت أنه واحد أحد من كل وجه هذا خلف.

فإذا قد ظهر أنّه لالمية لفعله ولا يسأل عمّا يفعل وكلّ فاعل سواء فله في فعله غرض ولفعله غاية يطلبها هي لا محالة فوقه.

وتلك الغايات متفاضلة متفاوتة في الشرف على حسب تفاوت الفواعل.

والذي عنده من الملائكة المقرّبين ومن في درجتهم من عباده المكرمين فلا غاية لفعله وعبادته وتسبيحه إلاّ لقاء ذاته تعالى لا غير.

ولمن دونهم من الملائكة السّماوية والنفوس المدبرة غايات أخرى يشتاقون إليها ويتشبّهون بها ويصلون إليها هي بعد ذاته تعالى.

وهكذا يتنازل الغايات حسب تنازل النفوس والطبائع حتى أن الجمادات والعناصر لها في استحالاتها وحركاتها غايات طبيعيّة جعلها الله مركوزة في ذاتها مجبولة على قصدها وطلبها ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٨] .

فاتضح وتبين أن لكل أحد في فعله غاية يسأل عنها وهو معنى قوله: ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٢٣] .

وليس معنى قوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٢٣] كما زعمه علماء العامة

من الأشاعرة وغيرهم أن ذاته تعالى لا يقتضي الخير والنظام ولا يجب منه أن يكون العالم على أفضل ما يمكن من الخير والتمام والشرف والنظام بحيث لا يتصوّر ما هو أكمل وأتم مما هو عليه، مستدلين على صحّة ما ادعوه من المجازفة بأن لا اعتراض لأحد على المالك فيما يفعله من ملكه، والعالم ملكه تعالى فله أن يفعل فيه كلّ ما يريده سواء كان خيراً أو شراً أو عبثاً أو جزافاً، وهم لا يقولون بالمخصّص والمرجح في اختياره تعالى لشيء قائلين إن الإرادة تخصص أحد الطرفين من دون حاجة إلى مرجح لأنّه لا يسأل عن اللّمية فيما يفعله.

وهو كلام لا طائل تحته فإن الإرادة إذا كان الجانبان بالنسبة إليها سواء لا يتخصّص أحد الجانبين إلاّ بمرجح، ولا يقع الممكن إلاّ بمرجح، وبذلك يثبت الحاجة إلى وجود الصّانع وأمّا الخاصية الّتي يقولونها فهو هوس أليس لو اختار الجانب الآخر الذي فرض مساوياً لهذا الجانب كانت تحمل هذه الخاصيّة.

ثمّ تعلّق الإرادة بشيء مع أن النّسبة إلى الجانبين سواء هذيان، فإن الإرادة ما حصلت أوّلاً إرادة بشيء ما ثمّ تعلّقت بشيء مخصّص، فإن المريد لا يريد أيّ شيء اتفق ولا يكون للمريد إرادة غير مضافة إلى شيء أصلاً ثم يعرض لها أن تعلقت ببعض جهات الإمكان.

نعم إذا وقع التصوّر وحصل إدراك يرجح أحد الجانبين يحصل إرادة مخصّصة بأحدهما، فالترجيح مقدّم على الإرادة.

فإذا علمت أن كلّ مختار لا بدّ في اختياره أحد طرفي وجود شيء من مرجح فيجب أن يكون المرجح في فعل الغني المطلق غير زائد على ذاته وعلمه بذاته، فذاته هي الغاية المقتضية لفعله لا شيء آخر إذ لا يتصوّر أن يكون أمر أولى بالغنى المطلق أن يقصده، وإلا لكان الغني المطلق فقيراً في حصول ما هو الأولى له إني ذلك الشيء وهو محال.

فإذا هو الغاية للكلّ كما هو الفاعل للكلّ فهكذا يجب عليك أن تعلم تحقيق المقام لتكون موحداً مخلصاً مؤمناً حقّاً.

وقال في «شرح الهداية»:

إن من المعطّلة قوماً جعلوا فعل الله خالياً عن الحكمة والمصلحة متمسّكين بحجج أوهن من بيت العنكبوت.

منها قولهم: كون الإرادة مرجّحة صفة نفسيّة لها وصفات النفسية ولوازم الذات لا تعلّل كما لا يعلّل كون العلم علماً والقدرة قدرة، وهو كلام لا حاصل له، فإن مع تساوي طرفي الفعل كيف يتخصّص أحد الجانبين والخاصيّة الّتي يقولونها هذيان، فإن تلك الخاصية كانت حاصلة أيضاً لو فرض اختيار الجانب الآخر الذي فرض مساوياً لهذا الجانب.

ومنها قولهم بأن الإرادة متحققة قبل الفعل بلا اختصاص بأحد الأمور ثمّ تعلّقت بأمر دون أمر وهذا كاف في افتضاحهم، فإن المريد لا يريد أي شيء إذ الإرادة من الصفات الإضافية فلا يتحقق إرادة غير متعلّقة بشيء ثمّ يعرضها التعلّق ببعض الأشياء.

نعم إذا حصل تصوّر شيء قبل وجوده ويرجح أحد جانبي إمكانه يحصل إرادة متخصصة حينئذ فالترجيح مقدم على الإرادة.

فالحاصل أن المختار متى كانت نسبة المعلول إليه إمكانية من دون داع ومقتض لصدوره عنه يكون صدوره عنه ممتنعاً، لامتناع كون المساوي راجحاً، فإن تجويز ذلك من الفاعل ليس إلاّ قولاً باللّسان دون تصديق بالقلب، فذلك الداعي هو غاية الإيجاد.

وهو قد يكون نفس الفاعل كما في الواجب تعالى لأنه تام الفاعلية فلو احتاج في فعله إلى معنى خارج عن ذاته لكان ناقصاً في الفاعلية وسيعلم أنه سبب الأسباب وكل ما يكون سبباً أولاً لا يكون لفعله غاية غير ذاته.

فإن لم يستند وجودها إليه لكان خلاف الفرض وإن استند إليه فالكلام عائد فيما هو داعية لصدور تلك الغاية حتى ينتهي إلى غاية أي عين ذاته دفعاً للدور والتسلسل، وقد فرض كونها غير ذاته هذا خلف، فذاته تعالى غاية للجميع كما أنّه فاعل لها، انتهى كلامه.

ومحصله أن العلّة الغائية عنده من صفات الذات وهو علمه بنظام الخير وهو الداعي إلى إيجاد الموجودات والغرض من إيجادها هو ذاته تعالى فهو سبحانه الفاعل لها وهو الغرض منها، فالفاعل والغاية في أفعاله تعالى سواء لا مغايرة بينهما.

والمستفاد من صاحب إحقاق الحق ونهج الحق وغيرهما حسبما عرفت أنها من صفات الفعل راجعة إلى خالقيته تعالى ورازقيته، وأنها مغايرة للعلة الفاعلة كما أنها في غيره سبحانه كذلك، فالفاعل للأشياء هو الذات والغرض منها إيصال النفع والإفضال على العباد.

وعلى أيّ من القولين فقد تبيّن واستبان واتضح كل الوضوح أن إيجاد المجودات ليس خالياً عن الحكم والمصالح والغايات حسبما زعمته أبو الحسن الأشعري وأتباعه. غفلة عما يلزم عليه من المحالات التي مرّت الإشارة إلى بعضها هنا وذكر جملة منها العلامة الحليّ قدس الله سره في كتاب «**نهج الحق**» من أراد الاطلاع عليها فليراجع.

والحمد لله على توفيقه وعنايته، والصّلاة على رسول الله وخلفائه وعترته، ونسأل الله بهم وبالمقرّبين من حضرته أن يثبت ما أتينا به في شرح هذه الخطبة الشريفة من أصول العلم الإلهي في صحائف أعمالنا، ويثبتنا عليه عند الممات كما ثبتنا عليه حال الحياة، ويجعله نوراً يسعى بين أيدينا في الظلمات، ظلمات يوم الجمع وعند الجواز على الصّراط إنه على ذلك قدير، وبالإجابة حقيق جدير.

الترجمة

ازجملهٔ خطب‌شریفه آن‌ولي‌دين‌وامام‌مبين است دربيان توحيد خداوندوجمع ميكند اين خطبه از اصول علم الهى مطالبى را كه جمع نكرده است آن را هيچ خطبه‌ميفرمايد كه:

واحد ويگانه ندانست كسى كه‌اورا مكيّف‌نمود بكيفيات نفسانيه،وبحقيقت او نرسيده كسيكه از براى او مثلى قرار داده باشد ، و اورا قصد نكرده كسيكه اورا شبيه قراربدهد ، وقصد نكرده اورا كسيكه اشاره نمايد بسوى اوبااشاره حسيّه يا عقليّه وبوهم وخيال خود آورد اورا،هرشناخته شدهٔ بذات وحقيقت‌مصنوع است نه‌صانع، هر قائم بغير خود معلول است نه‌علّت، فاعل است بذاته محتاج نيست در فعل خود بتحريك آلات وأدوات ، مقدّراست كه درتقديرخود احتياج ندارد بجولان دادن فكر وخلجان خواطر ، غنى است نـه باا كتساب، مصاحب وجود او نميشود وقتها،واعانت وياري‌نميكند اورا آلات وقوى ، پيشي گرفته بوقتها هستى او ، وبعدم وجود او ، وبابتداء داشتن أزليّت وهميشه بودن او .

بسبب ايجاد مشاعر وحواس شناخته شد كه اومبرّا ازمشاعر وآلات ادراك است ، وبايجاد ضدّيت درميان أشياء شناخته شد كه ضدّ نيست اورا ، وبايجاداقتران درميان أشياء شناخته شد كه قريني‌نيست اوراضدّ گردانيدنورراباظلمت ،وآشكار را با ابهام ، وخشكي‌را بارطوبت ، وگرمى را باسردى ، تركيب كننده‌است بقدرت كامله ميان امور متباينه ، ومقارن كننده است ميان امور متضاده ، نزديك گردانيده است ميان دورها ، و جدا سازنده است ميان نزديكها ، فرو گرفته نشده بحدى از حدود ، وبحساب آورده نميشودباشمردن، جز اين نيست كه محدود ميكند ادوات وقواى مدركه نفسهاي‌خودرا، واشاره ميكند آلات بدنيه بنظاير خودش .

مانع شد أدوات وآلات را دخول لفظ منذ ازقديمى آنها ، ومنع كرد دخول لفظ قد ازازلي بودن آنها ، وكنارنمود دخول‌لفظ لولا دركامل بودن آنها ، باايجاد

مشاعر وقوى آشكار گشت صانع آنها از براى عقول دراكه ، وبا آنها معلوم شد امتناع اوازمشاهده چشمها ، جارى نميشود براو حركت وسكون ، وچگونه جارى شود براو چيزيكه او جارى كرده است آنرا ، وچگونه باز گردد دراو چيزيكه اواظهارفرموده آنرا،وچگونه‌حادث‌ميشود دراوچيزيكه‌اوحادث كرده‌است آن را .

هر گاه صانع متّصف باحركت وسكون باشد هرآينه متفاوت شود ذات او ومتجزى شود كنه‌او ، وممتنع باشد از أزلى بودن حقيقت او ، وهرآينه ميشد اورا پشت سر در صورتيكه يافته شد او را پيش رو ، وهرآينه خواهش تماميت و كمال مينمود درصورتى كه لازم بود اورا نقصان ، وهرگاه‌خواهش تماميّت نمايد هرآينه برپا شود وثابت باشد دراو علامت مصنوع ومخلوق ، وهرآينه بگردد واجب تعالى دليل‌بروجود صانع بجهت تضمّن علامت‌مصنوعيت بعدازاينكه‌بود مدلول همهٔ عالم دليل براو بودند حال آنكه خارج شده بسبب سلطنت وامتناع تاثر اتصاف بصفت مخلوقات از اينكه تأثير بكند در او چيزيكه تأثير ميكند درغير او .

وآنچنان پروردگارى كه منتقل نميشود ازحالى بحالى ، وزايل نمى‌شود از مكانى بمكانى ، و جايز نميشود براو غايب شدن ازمخلوقات ، خارج نبوده از او چيزى توليد نكرده چيزيرا تا اينكه متولّد شود او ازچيز ديگر ، وزائيده نشده تا اينكه محدود بحد متناهي بوده باشد .

بزرگست ذات او از أخذ اولاد و پسران ، و پاكست وجود او ازملامست ومعاشرت زنان ، ادراك نميكند اورا عقلها تا اينكه مقدّر بقدر معيّني نمايندأورا و بوهم و خيال نمياورد اورا ذكاوتها تا اينكه مصوّر بصورت شخصى كنند اورا ، ودرك نميكند اورا حواس ظاهره وباطنه تا اينكه احساس بكند اورا ، و طلب مس او نميكند دستها تا اينكه مس نمايند اورا ، متغيّر نشود بهيچ حال ، متبدل نشود درأحوال وأوصاف .

كهنه وفانى نميكند اورا شبها وروزها ، تغيير نميدهد اورا روشنى وتاريكى وصف نميشود با چيزي از اجزاء ، ونه با جوارح واعضا ، و نه با عرضى از اقسام اعراض ، ونه بامغايرت و ابعاض يعنى متّصف بأجزاء نيست كه بعضي مغاير بعضي بوده باشد.

گفته نمیشود از برای او حدّی ونه نهایتی ، ونه از برای بقاء او انقطاعی ونه غایة ومنتهائی ، و گفته‌نمیشوددرحق‌او که أشیاء فرو گرفته اورا تابلند گردانند اورا یا پست نمایند یا اینکه چیزی بردارد اورا تا میل دهد اورا بطرفی ، یا بعدل نگه دارد اورا .

نیست پروردگار حلول کننده در چیزها ، ونه بیرون بوده از آنها ، خبر میدهد نه بواسطهٔ زبان وپاره گوشتهائی که درآخر دهان ازطرف بالا متصل بزبان است ، ومیشنود نه بواسطهٔ سوراخهای گوش وآلتهای شنفتن ، میگوید پروردگار واحداث نمیکند لفظ را که معتمد بر تقاطع و مخارج است واز لوازم بشر است ، ومیداند ویاد میدارد خدا همه‌چیزراونمیباشد دانستن‌اوازجهت‌عادت کردن‌و کثرت مراجعه ، یا اینکه خدا نگه میدارد همه چیز را واحتیاج ندارد بچیزیکه خودش با او نگه‌دارد ، واراده میکند و چیزی در دل پنهان نمیکند ، زیرا که دل ندارد ودوست میدارد و خوشنود میشود بدون آنکه رقّتی وتغیری در ذات اقدسش پیدا بشود ، ودشمن‌میدارد وغضب مینماید بدون‌اینکه‌اورا زحمت‌و گرفتگی‌حاصل‌بشود

میفرماید مرآن چیزیرا که خواسته است بودنش را باش پس میشود ، لکن گفتن خدا نه با صدائیست که بگوبد هوا با صماخ گوش را ونه باخواندنی که شنفته شود ، واینست جز این نیست گفتار خدا فعلیست که ایجاد کرده اورا ومصوّر بیك صورتی کرده ونبود پیش از ایجاد موجود واگر بنا باشد که کلام الهی قدیم باشد چنانچه حنابله میگویند هرآینه این خدای دویم میباشد .

گفته نمیشود بود خدا پس از اینکه نبود تا اینکه جاری باشد در اوصفات تازه یا صفات چیزهای تازه ، ونباشد در این وقت فرقی میان خدا وآنها ، ونباشد مر خدا را برآنها زیادتی وبرتری ، پس خالق ومخلوق برابر میشوند و متماثل میشود آفریننده وآفرینش شده .

آفرید مخلوقات را برغیر صورتی که از کس دگر یادگار بوده باشد و کمك نگرفت برخلقشان احدی از خلق را .

وآفرید زمین را پس نگه داشت اورا بی‌اینکه این‌کارش واگذارد ازکارهای دیگر ، وثابت کرد اورا نه بربالای چیزی که براو تکیه بدهد ، وبرپا داشت‌اورا

بدون اینکه اورا دست وپا بوده باشد ، وبرداشت اورا بیستونها ، ومنع کرد زمین را از کجی و انحراف ، ومنع کرد اورا از افتادن وپاره شدن ، وثابت گردانید میخهای زمین یعني کوهها را ، ونصب نمود سدهای اورا ، وجاری گردانید چشمهایش وپاره کرد بیابانهایش پس سست نشد چیزیکه او بنا کرد ، ونه ضعیف شد چیزیکه خدا قوّتش داد .

واو است غالب بر زمین بپادشاهی وبزرگی خود ، واواست آگاه براو بدانائی ومعرفتش ، وبرتراست بهرچیزي از او بجلال وعزتش ، عاجز نمیکند او را چیزی که از آن میطلبد ، وامتناع ونافرمانی ندارد براوتاغالب آید براو ، وفوت نمیشود شتابنده از آن تا پیش دستی کند براو ، واحتیاج ندارد بسوی صاحب مالي تاروزی بدهند مر اورا .

پست شدند چیزها برای او ، وذلیل شدند در غایت خواری بواسطهٔ بزرگیش اقتدار ندارند گریختن را بسوی دیگري تا اینکه امتناع وخودداری نمایند ازنفع وضرر خدا ، ونیست مر اورا مثلی تامماثلت نماید بااو ، و نه مانندی هست اورا تا مساوی باشد اورا .

اوست نابود کنندهٔ أشیاء بعداز هستیشان تا اینکه موجودشان مثل نابود میباشد ازجهت عدم فائده ، ونیست نابود شدن دنیا بعداز هستی آوردنش عجب‌تر از اصل ایجاد واختراعش از نیستی بهستی .

و چگونـه عجیب‌تر باشد وحال آنکه اگر جمع بشود جمیع جنبند های أشیاء از مرغان وچهار پایان وهرچه هست از صاحب مراح ومسکن نشین وچرنده آنها واقسام سنخها و جنسها و از نافهم وکندهای طوائفشان وتیز فهمها بر ایجاد کردن یکپشه هر آینه قادر نمیشوند بر ایجاد ، ونمی‌شناسند چگونه است راه بر ایجاد وهر آینه عقولشان متحیّر میماند در دانستن این ، و سر گردان میمانند و عاجز میشود قوای ایشان وبآخر میرسد و برمیگردد همه آنهـا در حالتیکه ذلیل اند حسرتناك ، شناسنده بر اینکه ایشان مقهورند ، اقرار کننده‌اند بعاجز بودن از آفریدن آن ، گردن گذارنده‌اند بر ناتوانی ازنابود کردن .

بدرستیکه خداوند برمیگردد بعداز نیستی دنیا بتنهائی وچیزي با او نیست چنانچه بود پیش از خلق عالم همچنین میباشد بعداز نابودی او ، میماند پروردگار تنها بدون اینکه وقت و مکان باشد یا حین و زمان بلکه همه اینها فانی شده نیست شده باشد در این وقت مدّتها ووقتها ، وزایل میشود سالها وساعتها ، پس چیزي نمیباشد مگر یگانــه قهر کننده ، چنین خدائی که بسوی اوست بازگشت جمیع چیزها، بدون‌قدرت وتوانائی بود أوّل خلقت أشیاء یعنی ازخودشان قدرتی نداشتند وبیمضایقه وامتناع شد نابود شدن آنها واگر میتوانستند که مضایقه کنند هر آینه همیشگی بود ماندن شان دردنیا .

بملال و اندوه نینداخت ساختن چیزي از آنها خدارا در زمانی که ساخت اورا ، وسنگینی نکرد براو ازآنها آفریدن آنچه اورا آفرید .

ونیافرید آنهارا بجهة محکم ساختن پادشاهی خودش ، ونه ازبرای ترسیدن از رفتن وبرطرف شدن مملکت یا کم شدن وکاهیدن عزّت ودولت ، ونه ازبرای یاری جستن با آنها برضرر دشمن که برصدد غلبه برآمده است ، ونــه از برای خودداری ونگه داشتن با آنها از صدمات دشمن برجهنده از برای محاربه، ونه از برای علاوه کردن بسبب آنها در ملك و سلطنت و لشکر ورعیّت ، ونه ازبرای تفاخر بکثرت ازبرای آنکسی که شرکت دارد با او دربعضی چیزها ، ونه ازبرای ترس‌تنهائی که بوده‌است ازاوسابقاً پس‌خواسته که انس بگیرد بامخلوقات

بعدازاینها همه خداوند فانی میکند آن مخلوقات را بعداز اینکه ایشان را بهستی در آورده نه از جهت‌اندوه وملال که وارد آمده براو ازجهت‌تصرّف کردن در آنها ، وتغییر دادن از حالی بحالی واز جائی بجائی، ونه ازجهت تحصیل راحت که میرسد باو از فانی شدن آنها ، ونه‌ازجهت سنگینی چیزی ازآنها براو ، بملال نیانداخت اورا بسیار ماندن آنها دردنیا تا اینکه وادار نماید اورا بشتابیدن بسوی نابود کردنشان ، ولی خداوند سبحان تدبیر کرد آنهارا بلطف خود ونگه‌داشتشان بحکم خود ، ومحکم نمود آنهارا بقدرت وتوانائی خود .

پس از آن‌میگرداند آنهارا بسوی وجود بعدازعدم بدون اینکه حاجتی‌داشته

باشد بسوى آنها ، و بي اينكه يارى بجويد باچيزى از آنها بچيز ديگر از آنها ، ونه ازبراى بر گشتن از حال تنهائى ووحشت بحال انس گرفتن والفت ، ونـه از حال نادانى و كورى بحالت دانائى ومسّ كردن چيزى كه خوشش بيايد ، ونه از حال گدائى وپريشانى بحالت نيازمندي ودولت ، ونه ازحالت خوارى وپستى بسوى عزت وقدرت ، بجهت اينكه اينها همه از اوصاف امكان ولوازم نقص است كه خدا ازاو منزّه است ، والله أعلم بحقيقة المقال .

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسادسة والثمانون من المختار في باب الخطب

تختصّ بذكر الملاحم: الا بِأَبي وأُمّي هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمائهُمْ فِي السَّماءِ مَعْرُوفَةٌ، وفِي الأَرْضِ مَجْهُولَةٌ، أَلاَ فَتَوَقَّعُوا ما يَكُونُ مِنْ إِدْبارِ أُمورِكُمْ، وَانْقِطاعِ وُصَلِكُمْ، واسْتِعْمالِ صِغارِكُمْ، ذاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ، ذاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعطىٰ أَعْظَمُ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِي، ذاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرابٍ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرارٍ، وتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ (إِحْواج خ ل)، ذٰلِكَ إِذا عَضَّكُمُ الْبَلاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غارِبَ الْبَعِيرِ، ما أَطْولَ هٰذَا الْعَناءَ، وأَبْعَدَ هٰذَا الرَّجاءَ.

أَيُّهَا النّاسُ أَلْقُوا هٰذِهِ الأَزِمَّةَ الَّتي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الأَثْقالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ وَلاَ تَصَدَّعُوا عَلىٰ سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعالِكُمْ، وَلاَ تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نارِ الْفِتْنَةِ، وأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِها، وخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا، فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ في لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، ويَسْلَمُ فيها غَيْرُ الْمُسْلِمِ، إِنَّما مَثَلي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السِّراجِ في الظُّلْمَةِ يَسْتَضيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا، فَاسْمَعُوا أَيُّها النّاسُ وَعُوا، وأَحْضِرُوا آذانَ قُلوبِكُمْ تَفْهَمُوا[1].

اللغة

(الملاحم) جمع الملحمة وهي الوقعة العظيمة و**(الوصل)** جمع الوصلة وزان غرفة يقال ما بينهما وصلة أي اتّصال **(والمعطي)** الأوّل صيغة المفعول، والثاني بصيغة الفاعل و**(النعمة)** في بعض النسخ بفتح النون وهي غضارة العيش، وفي بعضها بالكسر وهي الخفض والدّعة والمال و**(النعيم)** هو النعمة بالمعنى الثاني و**(أحرجه)** أي ألجأه وأوقعه في الحرج والضيق وفي بعض النسخ من غير إحواج بالواو أي من غير أن يحوجكم أحد إليه، و**(عضضت)** اللقمة من باب سمع ومنع أمسكتها بأسناني، وعضّ بصاحبه لزمه، وعضّ الزمان والحرب شدّتهما و**(القتب)** بالتحريك معروف و**(الغارب)** ما بين العنق والسّنام و**(الصّدع)** الشق والفرقة، و**(الاقتحام)** الدخول في الشيء من غير روية و**(وعيت)** الحديث وعياً حفظته وتدبّرته والأمرع مثل ق من وقي وعواجمع ع.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٥٩، ونهج السعادة: ٨/ ٣٩٠.

الإعراب

قوله: بأبي وأمّي الباء للتفدية والجار والمجرور خبر مقدّم وهم مبتدأ، ومن في قوله من عدّة يحتمل التبعيض والتبيين والزيادة على ما قاله الأخفش والكوفيّون من جواز زيادتها في الإثبات، ومثله في الاحتمال الأوّل والأخير من في قوله من إدبار، وقوله: ما أطول هذا العناء قد مرّ إعرابه في شرح الفصل الأوّل من المختار المائة والثامن مفصّلاً فليراجع هناك، وعلى في قوله: على سلطانكم بمعنى عن كما في قول الشاعر:

إذا أضبت علـيّ بنو قشير لعمر الله أعجبني رضاها

المعنى

أعلم أن هذه الخطبة الشريفة كما قاله السيّد ﵀ واردة فيذكر الملاحم الآتية في غابر الزمان، ومن جملة أخباره الغيبية، والغرض منه الإخبار بما سيكون من ذلّ الشيعة وما يجري عليهم وذكر العدّة للأسف عليهم والتحزن بما يصيبهم من الظلم والجور.

وقوله: **(ألا بأبي وأمّي هم)** أي هم مفدى بأبي وأمي أي يكون أبي وأمي فداء لهم.

واختلف في المشار إليهم بالضمير فقال الشارح البحراني: المراد بهم أولياء الله فيما يستقبل من الزمان بالنسبة إلى زمانه ﵇.

وقال الشارح المعتزلي: الإماميّة تقول هذه هم الأئمة الأحد عشر من ولده، وغيرهم يقول إنّه عني الأبدال الّذين هم أولياء الله، وظاهر أن ذكر انتظار فرج الشيعة كما اعترف الشارح به بعد ذلك لا ارتباط له بحكاية الأبدال[1].

وقوله: **(من عدة أسماؤهم في السماء معروفة وفي الأرض مجهولة)** أي هؤلاء أشخاص معدودة أو من أشخاص معدودة معروفة أسماؤهم في السماء مشهورة عند الملائكة المقرّبين وفي الملأ الأعلى لعلوّ درجاتهم وسموّ مقاماتهم، وكون طينتهم مأخوذة من علّيين وكون أهل الملأ الأعلى مخلوقاً من فاضل طينتهم فكانوا أعرف بهم من أهل الأرض.

وأمّا أهل الأرض فهم عند أكثرهم مجهولون لاستيلاء الضّلال على أكثر السّتر «البشرظ» وغلبة الجهال يعني أن أكثر الناس لا يعرفونهم ولا يعرفون قدرهم ومنزلتهم، فلا ينافي معرفة الخواص لهم وإن كانوا أيضاً لا يعرفونهم حق معرفتهم، أو أراد به جهالة أسمائهم في وقت إيراد الكلام والتخصيص فيه أقل من الاحتمال الأول كما لا يخفى.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/٩٦.

ثم خاطب عليه السلام أصحابه بذكر الملاحم والفتن الحادثة في مستقبل الزمان فقال **(ألا فتوقعوا من إدبار أموركم وانقطاع وصلكم واستعمال صغاركم)** أي تفرق أموركم المنتظمة وانقطاع الاتصالات والانتظامات الحاصلة في أمر المعاش والمعاد من أجل تشتت الآراء واختلاف الأهواء وتفرق الكلمات، وتقديم الصّغار سناً على المشايخ وأرباب التجارب في الأعمال والولايات، أو تقديم الأوغاد والأراذل والصّغار قدراً على الأشراف والأكابر وذوي البيوتات، فإن استعمال هؤلاء وتوليتهم موجب لفساد النظام واختلال الانتظام.

وقد قيل لحكيم: ما بال انقراض دولة آل ساسان؟ قال: لأنهم استعملوا أصاغر العمال على أعاظم الأعمال فلم يخرجوا من عهدتها، واستعملوا أعاظم العمال على أصاغر الأعمال فلم يعتنوا عليها، فعاد وفاقهم إلى الشتات ونظامهم إلى البتات.

ولذلك كتب عليه السلام للأشتر في عهده إليه حين استعمله على مصر حسبما يأتي من باب المختار من كتبه عليه السلام إنشاء الله تعالى:

ثمّ انظر في أمور عمالك وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أغراضاً وأقل في المطامع إشرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً إلى آخر ما يأتي في مقامه بتوفيق الله وعنايته.

(ذاك حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون من الدرهم من حلّه) أي ذلك المذكور من انقطاع الوصل وإدبار الأمور حيثما يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقل مشقة من احتمال مشقة اكتساب الدّرهم الحلال لأجل اختلاط المكاسب واشتباه الحرام بالحلال وغلبة الحرام فيها.

(ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي) أي يكون المحسن إليه أعظم أجراً من المحسن، لأن أكثر الأموال في ذلك الزمان يكون من الحرام، وأيضاً لا يعطونها على الوجه المأمور به بل يعطونها للأغراض الفاسدة من الرياء والسمعة وهوى النفس الأمارة، وأما المحسن إليه فلكونه فقيراً يأخذ المال لسدّ خلّته وخلّ عياله الواجب النفقة لا يلزمه البحث عن المال وحليته، وحرمته فكان أعظم أجراً من المعطي.

قال الشارح المعتزلي: وقد خطر لي فيه معنى آخر، وهو أن صاحب المال الحرام إنما يصرفه في أكثر الأحوال في الفساد، فإذا أخذه الفقير منه على وجه الصدقة فقد فوّت عليه صرفه في القبائح فقد كفه الفقير بأخذه المال من ارتكاب القبيح[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٩٧.

وتبعه على ذلك الشارح البحراني، ولا يخلو عن بعد وكيف كان فأفعل التفضيل أعني قوله: أعظم أجراً مثل ما في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ [الفُرقان: الآية ١٥].

(ذاك حيث تسكرون من غير شراب بل من النعمة والنعيم) استعار لفظ السكر لغفلتهم عما يلزم عليهم من صلاح أمورهم، ولما كان المعنى الحقيقي للسّكر ما كان عن الشراب فأتى بقوله: من غير شراب، ليكون صارفاً عن الحقيقة إلى المجاز، وقد قيل: سكر الهوى أشدّ من سكر الخمر.

(وتحلفون من غير) إجبار و**(اضطرار)** أي تتهاونون باليمين وقد نهى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البَقَرة: الآية ٢٢٤].

(وتكذبون من غير إحراج) أي تكذبون من غير ضرورة توقعكم في الضيق والحرج وتلجئكم إلى الكذب بل لكونه عادة وملكة لكم واعتيادكم به تكذبون.

(ذلك إذا عضكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير) أي يشتد عليكم البلاء ويؤذيكم كما يؤذي القتب غارب البعير، فاستعار لفظ العض للأذية من باب الاستعارة التبعيّة، أو شبه البلاء بالجمل الصعب الشموس على سبيل الاستعارة المكنيّة وذكر العض تخييلاً، ثم شبه عض البلاء بعض القتب من باب تشبيه المعقول بالمعقول.

قال الشارح المعتزلي: هذا الكلام غير متصل بما قبله، وهذه عادة الرضى يلتقط الكلام التقاطاً ولا يتلو بعضه بعضاً.

قال: وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدم من الأجزاء الأول، وقبل هذا الكلام ذكر ما ينال شيعته من البؤس والقنوط ومشقة انتظار الفرج.

قال: وقوله: **(ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء)** حكاية كلام شيعته عليه السلام انتهى كلام الشارح.

فيكون المراد بالرجاء رجاء ظهور القائم عليه السلام فعلى هذا يكون المعنى أنهم في غيبته عليه السلام يصابون بالبلاء ويمتد زمن ابتلائهم ومشقتهم حتى يقولوا ما أطول هذا التعب والمشقة وما أبعد رجاء ظهور الدولة الحقة القائمية والخلاص من العناء والرّزية.

وقال الشارح البحراني: ويحتمل أن يكون الكلام متّصلاً ويكون قوله: ما أطول آه، كلاماً مستأنفاً في معنى التوبيخ لهم على إعراضهم عنه وإقبالهم على الدّنيا وإتعابهم أنفسهم في طلبها، وتنفير لهم عنها بذكر طول العناء في طلبهم وبعد الرجاء لما يرجى منها، أي ما

أطول هذا العناء اللاحق لكم في طلب الدنيا وما أبعد هذا الرجاء الذي ترجونه منها.

ثم خاطب أصحابه وقال (**أيها الناس ألقوا هذه الأزمة التي تحمل ظهورها الأثقال من أيديكم**) قال العلامة المجلسي رحمه الله: أي ألقوا من أيديكم أزمة الآراء الفاسدة والأعمال الكاسدة التي هي كالنوق والمراكب في حمل التبعات والآثام انتهى.

فيكون المراد بإلقاء أزمتها الإعراض عنها والترك لها، وبالأثقال أثقال الخطايا والذنوب قال سبحانه: ﴿**ولتحملن أثقالهم مع أثقالهم**﴾ وقال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعَام: الآية ٣١] هذا.

ولما كان اتباع تلك الآراء والاستبداد بها مستلزماً للتولي والإعراض عنه عليه السلام ونهى عن الملزوم ضمناً اتبعه بالنهي عن التلازم صريحاً فقال:

(**ولا تصدّعوا على سلطانكم**) أي لا تفرقوا عن إمامكم وأميركم المفترض الطاعة، وأراد به نفسه الشريف، وعلل عدم جواز التصدع بقوله (**فتذّ مواغب فعالكم**) يعني لو تفرقتم لعلمتم سوء فعالكم وذممتم عاقبتها وندمتم على ما فرطتم وهو تنفير عن التفرق بذكر ما يلزمُه من العاقبة المذمومة بسبب استيلاء العدو وتظاهر الفتن وانقلاب حالهم من العزّ إلى الذّلة ومن الرخاء إلى الشدة.

(**ولا تقتحموا ما استقبلتم**) وفي بعض النسخ ما استقبلكم (**من فور نار الفتنة**) أي هيجانها وغليانها، وإضافة النار إلى الفتنة من إضافة المشبه به إلى المشبّه، ووجه الشّبه شدّة الأذى، أي لا تسرعوا في دخول الفتن المستقبلة.

(**وأميطوا عن سننها**) أي تنحوا وتبعّدوا عن طريقتها (**وخلوا قصد السبيل لها**) أي دعوا واتركوا للفتنة سواء الطريق أي الطريق المستقيم لتسلكها ولا تتعرضوا لها لتكونوا حطباً لنارها.

(**فقد لعمري يهلك في لهبها المؤمن ويسلم فيها غير المسلم**) هذا بمنزلة التعليل للتنحي عن طريق الفتنة ولتخلية السبيل لها، والمراد إنكم إن سلكتم سبيلها وتعرضتم لها هلكتم، لأن أكثر من يصاب ويستأصل عند ظهور الفتن هو المؤمن المخالف رأيه لرأي أهل الفتنة، وأكثر من يسلم هو المنافق الموافق لهم في أباطيلهم والمتابع لهم على مساوي أعمالهم، وهو في الحقيقة أمر لهم بالانزواء والاعتزال عن الفتنة وأهلها، وهو نظير قوله في المختار الثاني والمائة: وذلك زمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نومة إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد، أولئك مصابيح الهدى وأعلام السرى ليسوا بالمسابيح ولا المذاييع البذر.

ولما نهاهم عن التصدّع عن سلطانهم وعن اقتحام الفتن معلّلاً بما يوجبه من الهلاك

أردفه بذكر فضل نفسه تنبيهاً على وجوب اتباعه وهو قوله:

(وإنما مثلي بينكم مثل السراج في الظلمة يستضىء به من ولجها) شبه نفسه بالسراج ووجه الشبه الاستضاءة التي أشار إليها فكما أن السراج يستضاء بضوئه في الظلمات الحسيّة فكذلك يستضاء به عليه السلام ويهتدي بنور علمه وهدايته في الظلمات المعقولة وهي ظلمات الجهالات كما أشار إلى ذلك في المختار الرابع بقوله: بنا اهتديتم الظلماء. وقد مضى في شرح ذلك «**المختار**» أخبار ومطالب نافعة في هذا المقام.

ولما نبه على كونه نوراً يستضاء به في ظلمات الجهالة ويهتدى به في غياهب الضلالة أمر المخاطبين باقتباس أنواره واتباع آثاره فقال:

(فاسمعوا أيها الناس وعوا) واحفظوا ما يقرع أسماعكم من جوامع الكلم **(واحضروا آذان قلوبكم)** لما يتلى عليكم من المواعظ ومجالس الحكم كي **(تفهموا)** معناها تدركوا مغزيها وتهتدوا إلى النهج القويم والمنهاج المستقيم فتفوزوا بنضرة النعيم.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن حضرت است که مخصوص است بذکر ملاحم وحوادث آینده میفرماید :

آگاه باشید پدر ومادرم فدای ایشان باد ـ یعنی أئمه هدی سلام الله علیهم ـ ایشان جماعت معدوده که نامهای نامی ایشان درآسمان معروفست ودرزمین مجهول آگاه باشید پس انتظار کشید چیزیرا که خواهد شد از ادبار کارهای خودتان و از انقطاع پیوندهای شما ، وعامل گرفتن کوچکان برأعمال بزرگ ، وقوع این حادثها درآن مکان خواهد شد که باشد ضربت شمشیر برمؤمن آسان تر از کسب درهم از وجه حلال ، ودر آن زمان خواهد شد که باشد فقیر عطا شونده بزرگتر از حیثیت اجر ازعطا کننده ، ودر آن زمان خواهد شد که مست میباشید شما بدون شرب شراب بلکه از کثرت نعمت ونعیم ، وقسم میخورید بدون اضطرار ، ودروغ میگوئید بدون ضرورت این آنوقت خواهد شد که بگزد شمارا بلاء وفتنهاچنانکه میگزد پالان کوهان شتررا ، چه قدر دوراست این مشقت وچه قدر دوراست این امیدواری .

ای مردمان بیندازید این مهارهارا که برداشته‌است پشتهای آنها گرانیهارا ازدستهای خودتان ، ومتصدّع نباشید برسلطان خودتان پس مذمت نمائید نفسهای خورا درعقب فعلهای خود ، وبي مبالات داخل مباشید آن چیزیرا که استقبال نمودید از جوشیدن آتش فتنه ، ودور شوید از طریقه ، وخالی نمائید وسط راه را از برای آن فتنه ، قسم بزند گانی خودم هلاك میشود در زبانه آتش آن فتنه مرد مؤمن ، وسلامت بماند در آن غیر مسلمان . بدرستیکه مثل من در میان شما مثل چراغیست درتاریکی ، روشنی میطلبد باو کسیکه داخل شود درآن تاریکی ، پس بشنوید أی مردمان وحفظ نمائید ، وحاضر بسازید گوشهای قلبهارا تابفهمید .

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والسابع والثمانون من المختار في باب الخطب

أُوصيكُمْ أَيُّهَا النّاسُ بِتَقْوَى اللَّه، وكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَىٰ آلائِهِ إِلَيْكُمْ، ونَعْمائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلاَئِه لَدَيْكُمْ، فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وتَدارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ، وأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وإِقْلاَلِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ، وكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ في مَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ، فَكَفَىٰ واعِظاً بِمَوْتى عايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلىٰ قُبُورِهِمْ غَيْرَ راكِبِينَ، وأُنْزِلُوا فيها غَيْرَ نازِلِينَ، فَكَأَنَّهُم لَمْ يَكُونُوا للدُّنْيا عُمّاراً، وكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ داراً، أَوْحَشُوا ما كانُوا يُوطِنُونَ، وأَوْطَنُوا ما كانوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِما فارَقُوا، وأَضاعُوا ما إِلَيْهِ انْتَقَلُوا، لا عَنْ قَبيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقالاً، وَلاَ في حَسَنٍ (حسنة خ) يَسْتَطيعُونَ ازْدِياداً، أَنِسُوا بالدُّنْيا فَغَرَّتْهُمْ، ووَثِقُوا بِها فَصَرَعَتْهُمْ.

فَسابِقُوا رَحِمَكُمُ الله إِلىٰ مَنازِلِكُمُ الَّتي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوها، وَالَّتي رُغِّبْتُمْ فِيها، ودُعِيتُمْ إِلَيْها، وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ الله عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طاعَتِهِ، وَالْمُجانَبَة لِمَعْصِيَته، فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قريبٌ، ما أَسْرَعَ السّاعاتِ في الْيَوْمِ[1] (في الأيّام خ ل)، وأَسْرَعَ الأَيّامَ في الشُّهُورِ، وأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمْرِ[2].

اللغة

قال الفيومي (**تدارك**) القوم لحق آخرهم أوّلهم واستدركت ما فات وتداركته وأصل التدارك اللحوق يقال أدركت جماعة من العلماء إذا لحقتهم و(**أعورتم له**) أي أبديتم عورتكم له، والعورة كل شيء يستره الإنسان أنفة وحياء والنساء عورة و(**تعرّض**) لكذا إذا تصدى له.

الإعراب

جملة أعورتم استئناف بياني قوله: فكفى واعظاً بموتى، لفظ موتى في محلّ الرفع فاعل كفى والباء زائدة كما في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الرّعد: الآية ٤٣].

وواعظاً إمّا حال من الفاعل قدم على ذيها للاتساع فيها، أو تميز رافع للإبهام عن

(١) في نسخة: الأيام.

(٢) ميزان الحكمة: ٢/ ١٢٤٥ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٩٩.

النسبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٤] وقوله: لله دره فارساً، قال أكثر علماء الأدبيّة في هذا المثال إنه تميز، وقال بعضهم إنه حال، أي ما أعجبه في حال فروسيته، ورجح ابن الحاجب الأوّل قال: لأن المعنى مدحه مطلقاً بالفروسية، وإذا جعل حالاً اختص المدح ويقيد بحال فروسيته، قال نجم الأئمة وأنا لا أرى بينهما فرقاً لأن معنى التمييز عنده: ما أحسن فروسيته، فلا يمدحه غير حال الفروسية إلاّ بها، وهذا المعنى هو المستفاد من ما أحسنه في حال فروسيته، وتصريحهم بمن في لله درّك من فارس دليل على أنه تميز، وكذا قولهم: عزّ من قائل.

وجملة عاينتموهم، في محل الرفع صفة لموتى، وجملة حملوا تحتمل الحال والاستئناف البياني، والفاء في قوله: فسابقوا، فصيحة وفي قوله: فإن غداً للتعليل.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة الشريفة واردة في مقام النصح والموعظة والأمر بتكميل الحكمة العمليّة والوصيّة بالتقوى وذكر الموت، وقدّم الوصيّة بالتقوى لأنّها العمدة الكبرى فيما يوصى به فقال:

(أوصيكم أيها الناس بتقوى الله) التي هي الزاد وبها المعاد وزاد رابح ومعاد منهج **(وكثرة حمده على آلائه إليكم ونعمائه عليكم)** لأن كثرة الحمد عليها موجبة لكثرتها وزيادتها، **(وبلائه لديكم)** وقد مضى بيان حسن الثناء على البلاء كحسنه على الآلاء، في شرح الخطبة المائة والثالثة عشر فتذكر.

(فكم خصّكم بنعمة وتدارككم برحمة) لفظة كم للتكثير أتى بها تنبيهاً على كثرة آلائه النازلة والطافة الواصلة.

وأشار إلى بعضاً بقوله **(اعورتم له فستركم)** أي أظهرتم وكشفتم له سبحانه سوآتكم وعوراتكم وقبائح أعمالكم وفضائح أفعالكم، فسترها لكم بمقتضى ستاريته وغفاريته تعالى، وهذه النعمة من أعظم النعماء وأجلّ الآلاء.

ولجلالتها وكونها من عمدة النعم جعل سيّد العابدين وزين الساجدين سلام الله عليه وعلى آبائه وأولاده أجمعين من جملة أدعيّته في «**الصحيفة الكاملة**» دعاء طلب الستر والوقاية وقال عليه السلام هناك:

«ولا تبرز مكتومي، ولا تكشف مستوري، ولا تحمل على ميزان الإنصاف عملي، ولا تعلن على عيون الملأ خبري، واخف عنهم ما يكون نشره عليّ عاراً، واطو عنهم ما يلحقني

عندك شناراً»[١].

وقال عليه السلام في دعائه بعد الفراغ من صلاة الليل:

«وتعدّيت عن مقامات حدودك إلى حرمات انتهكتها، وكبائر ذنوب اجترحتها، كانت عافيتك لي من فضائحها ستراً «إلى أن قال» اللهم وإذ سترتني بعفوك وتغمدتني بفضلك في دار الفناء بحضرة الأكفاءِ فأجرني من فضيحات دار البقاء عند مواقف الأشهاد من الملائكة المقرّبين والرّسل المكرمين والشهداء والصالحين، من جار كنت أكاتمه سيأتي، ومن ذي رحم كنت أحتشم منه في سريراتي، لم أثق رب بهم في الستر عليّ ووثقت بك رب في المغفرة لي، وأنت أولى من وثق به وأعطى من رغب إليه وأرأف من استرحم، فارحمني»[٢].

(وتعرضتم لأخذه فأمهلكم) أي تعرّضتم للمعاصي الموجبة لمؤاخذته فأمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة.

وهذه أيضاً نعمة عظيمة وموهبة كبيرة منه سبحانه على عباده العاصين، لأنه سبحانه عفوه أعلى من عقابه، ورحمته سابقة على غضبه، فإمهالهم للخاطئين ليس غالباً إلا كرامة لهم، وتفضّلاً منه سبحانه عليهم، فلا يعجل ولا يبادر في عقاب من عصاه، بل يحلم ويمهل ليتدارك المذنب ذنبه بالتوبة ونحوها.

ومن أسمائه الحسنى: الحليم أي الذي لا يستخفه شيء من المعاصي ولا يستفزه الغضب عليهم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: الآية ٤٥].

وقال سيد الساجدين عليه السلام في دعاءِ الاستقالة من الذنوب من أدعية **«الصحيفة الكاملة»**:

«سبحانك ما أعجب ما أشهد به على نفسي وأعدوه من مكتوم أمري، وأعجب من ذلك إناتك عنّي وإبطاؤك عن معاجلتي، وليس ذلك من كرمي عليك، بل تأنياً منك لي، وتفضّلاً منك عليّ لأن أرتدع عن معصيتك المسخطة، وأقلع عن سيئتي المخلقة، ولأنّ عفوك عنّي أحبّ إليك من عقوبتي»[٣].

روى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي

---

(١) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٩٧، والصحيفة السجادية: ١٩٣.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٧١، والصحيفة السجادية: ١٧١.

(٣) المزار: ١٥٨.

لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها إما بسقم في جسده، وإما بضيق في رزقه، وإما بخوف، في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت»(١).

والأخبار في هذا المعنى كثيرة، هذا.

ولما أوصاهم بالتقوى أردفه بالإيصاء بذكر الموت الّذي هو هادم اللّذات وقاطع الأمنيات فقال:

(وأوصيكم بذكر الموت) أي بكثرة ذكره **(وإقلال الغفلة عنه)** وإنما أوصاهم به لاستلزامه الإعراض عن الدنيا والرغبة إلى الآخرة، والإقلاع عن الإثم والمعصية والتقصير في الأمل والجد في العمل.

ومن هنا قال بعض العلماء: حق العاقل أن يكثر ذكر الموت، فذكره لا يقرب أجله ويفيده ثلاثاً: القناعة بما رزق، والمبادرة بالتوبة، والنشاط في العبادة.

وقال آخر: ذكر الموت يطرد فضول الأمل ويهون المصائب ويحول بين الإنسان والطغيان. وما ذكره أحد في ضيق إلاّ وسّعه عليه، ولا في سعة إلا ضيّقها عليه.

وكان علي بن الحسين عليه السلام من جملة دعائه إذا نعي إليه ميّت:

«اللهم صل على محمد وآل محمد واكفنا طول الأمل، وقصّره عنا بصدق العمل، حتى لا نؤمل استتمام ساعة بعد ساعة، ولا استيفاء يوم بعد يوم، ولا اتصال نفس بنفس ولا لحوق قدم بقدم، وسلمنا من غروره، وآمنا من شروره، وانصب الموت بين أيدينا نصباً، ولا تجعل ذكرنا له غبّاً، واجعل لنا من صالح الأعمال عملاً نستبطىء معه المصير إليك، ونحرص له على وشك اللحاق بك، حتّى يكون الموت مأنسنا الذي نأنس به، ومألفنا الّذي نشتاق إليه، وحامتنا التي نحب الدنو منها».

فإن قوله عليه السلام: **(وانصب الموت بين أيدينا نصباً)**، أراد به أن يجعله على ذكر بحيث لا يغيب عن الذهن لحظة، وهو تمثيل بحال ما ينصب أمام الإنسان فهو لا يغيب عن نظره وقتاً ما.

وقوله: **(ولا تجعل ذكرنا له غبّاً)**، أي وقتادون وقت ويوماً دون يوم، والغبّ في أوراد الإبل أن تشرب يوماً وتدعه يوماً.

---

(١) شرح أصول الكافي: ١٠/ ١٨٩ ح٣، ومستدرك الوسائل: ١١/ ٣٣١ ح١٣١٨٠.

وإلى هذا المعنى يلمح قوله عليه السلام في الدّيوان المنسوب إليه:

جنبي تجافي عن الوساد   خوفاً من الموت والمعاد
من جاف عن بكرة المنايا   لم يدر ما لذة الرقاد
قد بلغ الزرع منتهاه   لا بد للزرع من حصاد

ثم استفهم عن غفلتهم على سبيل التوبيخ والتقريع، وقال:

(**وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم وطمعكم فيمن ليس يمهلكم**) يعني أنكم إن غفلتم عنه بأنسكم بالدّنيا وفرط محبّتكم لها وطمعكم في بقائها، فهو ليس غافلاً عنكم ولا تاركاً ممهلاً لكم البتّة، قال في الدّيوان المنسوب إليه عليه السلام:

يا مؤثر الدّنيا على دينه   والتائه الحيران عن قصده
أصبحت ترجو الخلد فيها وقد   أبرز ناب الموت عن حدّه
هيهات إن الموت ذو أسهم   من يرمه يوماً بها يرده

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: عما ليس يغفلكم، هو الموت وبقوله: فيمن ليس يمهلكم، هو ملك الموت، أي كيف غفلتكم عن الموت الّذي لا يترككم غافلاً عنكم، وطمعكم في ملك الموت الّذي لا يمهلكم، لكونه مأمورا بعدم الإنظار والإمهال.

ولأجل شدة الاعتبار والاتعاظ اتبعه بقوله (**فكفى واعظاً بموتاً عاينتموهم**) كيف انتقلوا من ذروة القصور إلى خطّة القبور، ومن العزّ والمنعة إلى الذّل والمحنة (**حملوا إلى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها غير نازلين**).

لما كان المتعارف في الركوب والنزول ما كان عن قصد واختيار وشعور، وإرادة وعلى مثل الخيل والبغال، وكان حمل الموتى على الأسرة والجنائز وأعواد المنايا وإنزالهم منها لا عن شعور وإدراك، لا جرم نفي عنهم وصفي الركوب والنزول.

وبعبارة أخرى الركوب والنّزول من الأفعال الاختيارية للإنسان فبعد الموت وانقطاع الحسّ والحياة وارتفاع الإدراك والاختيار يكون مثل جماد محمول، فكما لا يوصف الجماد بالركوب فهكذا الميّت.

وهذه الفقرة مثل قوله عليه السلام في الخطبة المائة والعاشرة: «حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفاناً».

(**فكأنّهم لم يكونوا للدّنيا عماراً، وكأن الآخرة لم تزل بهم داراً**) يعني أنهم لظعنهم عن الدنيا وتركهم لها بكلّيتها كأنهم لم يكونوا ساكنين فيها وعامرين لها. وأنهم لارتحالهم إلى

الآخرة واستمرارهم فيها أبد الآباد كأنّها كانت لهم منزلاً ومقيلاً.

(أوحشوا ما كانوا يوطنون) من دار الدنيا **(وأوطنوا ما كانوا يوحشون)** من الدار الأخرى استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسعة ضيقاً وبالأهل غربة وبالنّور ظلمة.

(واشتغلوا بما فارقوا وأضاعوا ما إليه انتقلوا) أي اشتغلوا بما فارقوا عنه من نعيم الدّنيا وقيناتها وأضاعوا ما انتقلوا إليه من نعيم الآخرة ولذاتها.

وذلك لكون اشتغالهم بالدنيا وشعفهم بلذاتها الحاضرة مانعاً لهم عن الالتفات إلى الكمالات المؤدية إلى لذات الآخرة، فذهبت هذه اللذات ضياعاً، وفاتت عنهم لما فرطوا فيها وقصروا في تحصيلها وأعقبهم فواتها طول الحسرة والندامة، وملامة النفس اللوامة، وذلك لعظم ما حصلت لهم من الخيبة والخسران، وعدم إمكان تدارك تلك الحسرة والحرمان وإليه أشار بقوله:

(لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً ولا في حسن يستطيعون ازدياداً) أي لا يقدرون على الانتقال والإزعاج عن أعمالهم القبيحة المحصلة للعذاب، ولا على الإكثار والازدياد من الأعمال الحسنة الكاسبة للثواب، إذ الانتقال عن الأولى والازدياد من الأخرى إنما يتمكّن منهما في دار التكليف، والآخرة دار الجزاء.

ولذلك إن كلّا منهم إذا دخل في قبره وشاهد هول المطلع قال: **﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت﴾**، ويقال في الجواب: **﴿كلا أنها كلمة هو قائلها﴾**.

(أنسو بالدنيا فغرتهم) لأنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وتحببت إلى الناس بلذاتها العاجلة الحاضرة فأنسوا بها ونسوا الآخرة **(ووثقوا بها فصرعتهم)** أي اطمئنوا إليها واعتمدوا عليها لما شاهدوا من حسن ظاهرها فصرعتهم في مصارع الهوان فنسبت الدار لمن لم يتهمها ولم يكن منها على وجل فقد رأينا تنكرها وتغيّرها لمن دان له وأثرها داخلة إليها حين ظعنوا عنها لفراق الأبد هل زودتهم إلا السغب أو أحلتهم إلا الضنك أو نوّرت لهم إلاّ الظلمة أو أعقبتهم إلاّ الندامة فكيف يثق بها اللبيب أو يركن إليها الأريب، هذا.

ولما أوصاهم بذكر الموت وأتبعه بشرح حال الأموات تنفيراً عن الدّنيا وتحذيراً من الركون إليها فرّع عليها قوله:

(فسابقوا رحمكم الله إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها) وهي منازل الآخرة ودرجات الجنان، والمسابقة إليها وإلى عمارتها إنما تكون بصالح الأعمال المشار إليه بقول ذي الجلال: **﴿واستبقوا الخيرات﴾** ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

(و) تلك الجنة هي **(التي رغبتم فيها ودعيتم إليها)** أي دعاكم الله إليها بالآية السابقة الآمرة بالمسارعة إليها وبأمثالها ورغبكم فيها بقوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥] وبما ضاهاها من الآيات.

(واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته) فإن الصّبر على الطاعات والتحمل لمشاق العبادات والتجنب عن المعاصي والسيئات مؤدّية إلى شمول الألطاف الإلهية وإفاضة الآلاء الدنيويّة والأخروية، كما أفصحت عنه محكمات الكتاب، وشهدت به روايات الأئمة الأطياب، هذا.

ويحتمل أن يكون المراد من استتمام النعم بما ذكر هو طلب تمامها بإضافة النعم الأخرويّة على الدنيويّة وانضمامها إليها، فإنّها لا تحصل إلا بالمواظبة على الحسنات والمجانبة عن السيّئيات كما هو مقتضى رحمته الرّحيمية، وليست كالنعم الدنيويّة تنعم بها على البر والفاجر باقتضاء الرحمة الرحمانية، وقوله: واستتمّوا، لا يخلو من الإشعار بهذا الاحتمال كما هو غير خفي على صاحب الذّوق السليم.

ثمّ إنه لما أمر بالاستباق إلى منازل الجنان وباستتمام النعم، علل حسن الاستباق والمبادرة بقصر المدّة وقلّة زمان الفرصة وقال:

(فإن غداً من اليوم قريب) وكني بالغد عن يوم الممات وأوضح قربه بقوله: **(ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيام في الشهور وأسرع الشهور في السنين وأسرع السنين في العمر)** يعني سرعة مضيّ السّاعات موجبة لسرعة مضيّ اليوم، وسرعة مضيّ الأيام مستلزمة لسرعة انقضاء الشهور، وسرعة انقضائها مستلزمة لسرعة انقضاء السنين، وسرعة انقضائها مستلزمة لسرعة زوال العمر والحياة، وسرعة زواله موجبة لقرب زمان حلول الموت المكنى عنه بالغد.

وفي الإتيان بلفظة ما المفيدة للتعجب تأكيداً لبيان تلك السّرعة، ومحصله أن الساعات مفنية للأيام، والأيام مفنية للشهور، والشهور مفنية للسّنين، والسّنين مفنية للعمر ومقربة للأجل.

وهذه الفقرة تفصيل ما أجمله بقوله في الخطبة المائة والثالثة عشر: فسبحان الله ما أقرب الحي من الميت للحاقه به، هذا.

وما ذكرناه من كون الغد كناية عن زمان الموت أظهر من جعله كناية عن يوم القيامة كما قاله الشارح البحراني.

الترجمة

از جمله كلام شريف آنحضرت است در وصيّت بتقوى ميفرمايد :

وصيّت ميكنم شمارا اى مردمان بپرهيزكارى خداوند ، وبر كثرة حمدا ودر مقابل نعمتهاى او كه رسيده بسوى شما ، وبر نعماء او كه نازل شده برشما ، وبر بلا كه نزد شما است ، پس چه بسيار مخصوص فرموده شما را بنعمتي ، و دريافت نموده شمارا برحمت وعاطفتي ، وآشكار كرديد شما قبايح وفضايح معاصى را از براى اوپس پرده كشيد برشما ، ومتعرّض شديد برمؤاخذه آن پس مهلت داده بشما

ووصيّت ميكنم شمارا بذكر مرگ وبه كم كردن غفلت ازمرگ ، وچگونه است غفلت شما از چيزيكه غفلت نمى كند از شما ، وطمع شما در چيزيكه مهلت نميدهد شمارا ، و كفايت ميكند ازحيثيت واعظ بودن مردهائيكه معاينه ديديد ايشان را كه برداشته شدند بسوى قبرهادرحالتيكه نبودند سوارشوندگان ، وفرود آورده شدند درقبرها درحالتيكه نبودند فرود آيندگان ، گويا نبودند ازبراى دنيا عمارت كنندگان ، وگويا كه هميشه سراى آخرت خانه ايشان بوده ، وحشت كردند ازچيزيكه وطن ميكردند درآن ، ووطن نمودند درچيزيكه وحشت داشتند از او ، مشغول شدند بچيزى كه از او مفارقت نمودند ، وضايع كردند چيزيرا كه بسوى او منتقل شدند ، نه از فعل قبيح استطاعت انتقال دارند ، ونه در فعل حسن استطاعت زياده نمودن دارند ، انس گرفتند بدنيا پس دنيا فريب داد ايشان را ووثوق واعتماد كردند براو پس هلاك ساخت ايشان را .

پس سبقت كنيد اى مردمان خدا رحمت كند برشما بسوي منزلهاى خودتان كه مأمور شديد بتعمير آنها ، وآن منزلهائى كه ترغيب شديد بآن ، ودعوت شديد بسوى آن ، وطلب نمائيد تماميت نعمتهاى خدارا برخود باصبر نمودن برطاعت او وبا اجتناب كردن از معصيت او ، پس بدرستيكه فردا نزديكست از امروز ، چه قدرسرعت كننده اند ساعتهادرروز ، وسرعت كننده اند روزها درماه ، وسرعت كننده اند ماهها درسال ، وسرعت كننده اند سالها در انقضاء وزوال عمر .

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثامنة والثمانون من المختار في باب الخطب

«فَمِنَ الإيمانِ ما يَكُونُ ثابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي الْقُلُوبِ، ومِنْهُ ما يَكُونُ عَوارِيَّ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ إِلىٰ أَجلٍ مَعْلُومٍ، فَإذا كانَتْ لَكُمْ بَراءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتّىٰ يَحْضُرَهُ المَوْتُ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَراءَةِ، وَالْهِجْرَةُ قائِمَةٌ عَلَىٰ حَدِّهَا الْأَوَّلِ، ما كانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الْأُمَّةِ ومُعْلِنِها، لا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاَّ بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَرَفَها وأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهاجِرٌ، ولاَ يَقَعُ اسْمُ الاسْتِضْعافِ عَلَىٰ مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْها أُذُنُهُ، ووَعاها قَلْبُهُ، إِنَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لاَ يَحْتَمِلُهُ إِلاّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ (**مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أَوْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ مُؤْمِنٌ خ ل**) امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلإِيمانِ، وَلاَ يَعِي حَدِيثَنا إِلاّ صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وأَحْلاَمٌ رَزِينَةٌ، أَيُّها النّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّماءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ، قَبْلَ أَن تَشْغَرَ بِرِجْلِها فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطامِها، وتَذْهَبُ بِأَحْلاَمِ قَوْمِها»[1].

اللغة

(**العواريّ**) بالتشديد جميع العاريّة به أيضاً كما عن الصحاح وغيره، قال الفيومي: وقد تخفف في الشعر وتجمع على العواري بالتخفيف أيضاً، قال الفيومي وهي أي العارية مأخوذة من تعاوروا الشيء واعتوروه تداولوه، والأصل فعلية بفتح العين قال: قال الأزهري: نسبته إلى العارة وهي اسم من الإعارة يقال أعرته الشيء إعارة وعارة مثل أطعته إطاعة وطاعة وأجبته إجابة وجابة، قال: وقال الليث سمّيت عارية لأنها عار على طالبها، وقال الجوهري مثله، وقال بعضهم مأخوذة من عار الفرس إذا وهب من صاحبه لخروجها من يد صاحبها، قال الفيومي بعد نقل كلامهما: وهما غلط، لأن العارية من الواو، لأن العرب تقول هم يتعاورون العواري ويعتورونها بالواو إذا عار بعضهم بعضاً، والله أعلم والعار وعار الفرس من الياء، قال: فالصحيح ما قاله الأزهري.

و(**مستسّر الأمة ومعلنها**) بصيغة الفاعل يقال استسرّ القمر وخفي والسرّ ما يكتم، وأسررت الحديث أسراراً أخفيته وهو خلاف الإعلان و(**مستصعب**) مروي بفتح العين وكسرها و(**شغر برجلها**) رفعها وشغر الكلب شغراً من باب نفع رفع إحدى رجليه ليبول، وشغرت المرأة رفعت رجلها للنكاح وشغرتها فعلت بها ذلك يتعدى ولا يتعدى.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٦/ ٢٢٧ ح١٩، وحياة أمير المؤمنين: ٢/ ٢٢٢.

و(**الخطم**) بالخاء المعجمة والطاء المشالة وزن فلس من كل طائر منقاره ومن كل دابة مقدّم أنفه، وخطام البعير معروف وهو ما يوضع في أنفه، لينقاد به وجمعه خطم مثل كتاب وكتب سمّي بذلك لأنه يقع في خطمه.

الإعراب

قوله: ما كان لله (ا ه)، قال القطب الراوندي في محكى كلامه: ما ههنا نافية، ومن في قوله: من مستسرّ الأمة، لبيان الجنس أي لم يكن لله في أهل الأرض ممن أسرّ دينه أو أعلنه حاجة.

وقال الشارح المعتزلي: إنّها ظرفيّة ومن زائدة ولا حاجة لها إلى المتعلق قال: فلو حذفت لجر المستسرّ بدلاً من أهل الأرض، ومن إذا كانت زائدة لا تتعلق نحو ما جاءني من أحد انتهى[1].

وقوله: برجلها، الضمير راجع إلى فتنة لجواز الإضمار قبل الذكر لفظاً فقط.

المعنى

أعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة مسوقة لشرح أقسام الإيمان، وقد مضى تحقيق الكلام في بيان معنى الإيمان بما لا مزيد عليه في شرح المختار المائة والتاسع، وتلخص لك ممّا حققناه هناك أنّه عبارة عن الإذعان والتّصديق بالله سبحانه وبرسوله وبولاية أمير المؤمنين والطّيبين من ذرّيته ﷺ والبراءة من أعدائهم.

وقد اختلف كلام الشراح في شرح هذه الخطبة وقصرت أفهامهم عن إدراك ما فيها من كنوز الدقائق ورموز الحقائق، وتفرقوا في شرحها أيادي سبأ وأيدي سبأ ووقعوا في طخية عمياء وشوهاء كما هو غير خفي على من راجع إلى الشروح.

وذلك لقصور باعهم عن الإحاطة بأقطار الأخبار وأطراف الآثار المأثورة عن العترة الأطهار، فهيهات التنبّه للرمزة الدّقيقة الشأن واللّمحة الخفيّة المكان، ممن قلّ أنسه بروايات أولياءِ الدّين وكلمات الأئمة المعصومين سلام الله عليهم أجمعين.

إذا عرفت هذا فأقول مستمداً من الله سبحانه ومنه التوفيق والإعانة:

إن عمدة نظر أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين سلام الله عليه وآله في هذه الخطبة الشريفة

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/١٠٥.

إلى تقسيم الإيمان باعتبار ما تضمنه من الإذعان بالولاية، لا باعتبار ما تضمنه من الإذعان بالله سبحانه أو بالرسول صلى الله عليه وآله فقسمه بالاعتبار الّذي ذكرنا على قسمين وقال:

(فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم) يعني أن الإيمان أي التصديق بوجود الصّانع سبحانه وما له من صفات الجلال ونعوت الكمال والإذعان برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وما جاء به من عند الله والاعتقاد بولاية الأئمة الهداة قسمان:

قسم منه يكون ثابتاً مستقراً في القلوب راسخاً في النّفوس، وهو الإيمان الحقيقي البالغ إلى مرتبة اليقين وحد الملكة، لا يحركه العواصف ولا يزيله القواصف، لكونه مستنداً إلى الدليل القطعي والبرهان القاطع، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧] أي بالقول الّذي ثبت عندهم بالحجّة والبرهان وتمكّن في قلوبهم واطمأنت إليه أنفسهم، فلا يزلون في الدّنيا إذا افتتنوا في دينهم ولا يلتئمون في الآخرة إذا سئلوا عن معتقدهم.

وقسم آخر يكون غير راسخ فيها ولا بالغ إلى حدّ الملكة، لعدم استناده إلى الحجّة فيزول بتشكيك المشكك وتفتين المفتن، وشبهه بالعواري باعتبار كونه في معرض الزوال كما أن العواري في معرض الاسترجاع والرد، أو باعتبار ذهابه من القلوب وخروجه منها إن جعلنا العارية مأخوذة من عار الفرس، كما قاله بعض اللّغويّين حسبما تقدم، وهو الأنسب بالمقام.

وأتى بقوله: إلى أجل معلوم، ترشيحاً للتشبيه، إذ من شأن العارية أن تستعار إلى وقت معين، ويحتمل أن يكون قيداً للمشبه فيكون المراد أن بقائه في القلوب مستمر إلى وقت معين عند الله سبحانه وأجل معلوم تعلقت مشيئته سبحانه ببقائه فيها إليه، فقد تحصّل من ذلك أن الإيمان على قسمين مستقرّ ومستودع، هذا.

وقوله: **(فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتى يحضره الموت فعند ذلك يقع حد البراءة)** تفريع على كون الإيمان بكلا قسميه أمراً قلبيّاً، يعني أنّه إذا كان الإيمان أمراً باطنيّاً لا يمكن العثور عليه وأردتم التبرّي من أحد بمجرّد سوء الظن به، وزعم عدم كونه مؤمناً أو بمشاهدة المنكرات منه فاجعلوا ذلك الشخص موقوفاً أي لا تسرعوا إلى البراءة منه إلى حين حضور موته، فإن أدركه الموت ولم يصدر منه عمل صالح يستدل به على إيمانه أو توبة جابرة للمنكر الصادر عنه فعند ذلك يسوغ البراءة، إذ عند حضور الموت ينقطع زمان التكليف ولا يبقى بعده حالة ترجى وتنتظر، فالموت هو حدّ البراءة ومنتهاها.

وبقاؤه على سوء الظاهر مدّة عمره وتركه الصالحات رأساً إلى ذلك الحدّ يكون كاشفاً عن خبث باطنه، إذ بالإيمان يستدلّ على الصّالحات وبالصّالحات تستدلّ على الإيمان كما صرّح به في المختار المائة والخامس والخمسين.

وأمّا إلى حين الموت فلا تسوغ التبرّي إذ ربما يكون عمله منكراً ظاهراً وله محمل صحيح باطناً، كالكذب المتضمن لإنجاء مؤمن من القتل أو حفظ ماله أو عرضه ونحو ذلك وعليه تدلّ الأخبار الآمرة بحمل فعل المسلم على الصحّة، وعلى فرض عدم محمل صحيح لفعله وكونه قبيحاً باطناً أيضاً كما هو قبيح ظاهراً، فربما يتدارك ذنبه بالتوبة ونحوها.

ويفصح عنه ما رواه في «**البحار من كنز جامع الفوائد**» قال: روى شيخ الطائفة بإسناده عن زيد بن يونس الشحام قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: الرجل من مواليكم عاص يشرب الخمر ويرتكب الموبق من الذنب نتبرأ منه؟ فقال: تبرؤوا من فعله ولا تبرّؤوا من خيره، وابغضوا عمله، فقلت: يسع لنا أن نقول: فاسق فاجر؟ فقال: «لا الفاسق الفاجر الكافر الجاحد لنا ولأوليائنا، أبى الله أن يكون وليّنا فاسقاً فاجراً وإن عمل ما عمل، ولكنكم قولوا فاسق العمل فاجر العمل مؤمن النفس خبيث الفعل طيّب الرّوح والبدن»[1]، الحديث.

وقد تقدّم تمامه في شرح الفصل الثّاني من «**المختار**» المائة والثاني والخمسين، هذا.

ويحتمل أن يكون تفريعاً على خصوص القسم الأخير من الإيمان، فيكون المراد به النّهي عن التسرع إلى البراءة عن مؤمن بمحض احتمال كون إيمانه مستودعاً وعارية إلى أجل معين، واحتمال انقضاء ذلك الأجل وخروجه عن وصف الإيمان إلى النفاق لأن اليقين لا ينقض إلا بيقين مثله، فلا بدّ من الحكم ظاهراً ببقائه على إيمانه وبأنّه مؤمن إلى أن يظهر منه إلى حين موته أمر بيّن يدلّ على خروجه من حدّ الإيمان إلى حدّ الكفر والنّفاق كما ظهر من طلحة وزبير وأمثالهما من المنافقين، فعند ظهور ذلك الأمر البيّن يعلن أن إيمانه كان مستودعاً وحينئذ يجوز التبرّي عنه، وأمّا قبل ظهوره فلا.

ويرشد إلى ذلك قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النّساء: الآية ٩٤] الآية.

ويرشد إليه قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيما رواه القمّي: في تفسير هذه الآية: من أنه لما رجع أسامة إليه صلى الله عليه وآله وأخبره بقتل مرداس اليهودي بعد أن شهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفلا شققت الغطاء عن قلبه لا ما قال بلسانه قبلت ولا

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٢٣٧، وبحار الأنوار: ٢٧/ ١٣٧ ح١٣٩.

ما كان في نفسه علمت»(١)، هذا.

ولما قسّم الإيمان على قسمين وكان القسم الأوّل هو المطلوب، وكانت مطلوبيته من البديهيات الأوّليّة غنية عن البيان، لا جرم طوى عنه وأتى ما هو أحرى بالبيان وأهم بالتنبيه عليه، وهو الطريق الموصل إلى وصف الإيمان فقال:

(والهجرة قائمة على حدها الأوّل) لم تتغير ولم تتبدل أي من أراد الفوز بالإيمان والوصول إلى معارج اليقين فليهاجر إلى أئمة الدين، لأن الهجرة قائمة على حدّها الأوّل الذي كان في بدء البعثة، إذ الغرض الأصلي في ذلك الزمان لم يكن إلاّ الوصول إلى حضور حجة الله ورسوله وتحصيل الإيمان والمعرفة ومعالم الشرع معه، وهذا الغرض موجود الآن ويحصل بالوصول إلى حضور الأئمة، لكونهم حجج الله على عباده وخلفائه في بلاده وقائمين مقام الرسول صلى الله عليه وآله، فالهجرة إليهم هجرة إليه.

ويشهد به ما رواه في **«الصّافي»** عن العيّاشي عن محمد بن أبي عمير قال: وجّه زرارة بن أعين ابنه عبيداً إلى المدينة يستخبر له خبر أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام وعبد الله، فمات قبل أن يرجع إليه عبيد، قال محمد بن أبي عمير: حدثني محمد بن حكيم قال ذكرت لأبي الحسن زرارة وتوجيهه عبيداً إلى المدينة، فقال عليه السلام: «إنّي لأرجو أن يكون زرارة ممن قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٠] »(٢).

وفي الوسائل من معاني الأخبار عن حذيفة بن منصور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: المتعرّب بعد الهجرة التارك لهذا الأمر بعد معرفته»(٣) هذا.

ولما ذكر قيام الهجرة وبقائها على حدّها الأوّل تنبيهاً بذلك على مطلوبيتها ووجوبها أردفه بقوله **(ما كان لله في أهل الأرض حاجة من مستسرّ الأمة ومعلنها)** إشارة إلى أن مطلوبيّتها ليس لأجل حاجة وافتقار منه إلى المهاجرين وغيرهم من أهل الأرض مضمرين لما قصدوه بالهجرة أو مظهرين له.

وبعبارة أخرى أنه سبحانه طلب الهجرة من المهاجرين، لا لأجل حاجة منه في هجرتهم وغرض عائدة إليه تعالى من جلب منفعة أو دفع مضرّة أو طلب ثناء ومحمدة، بل هو الغني المطلق المتعالي عن الفاقة والافتقار، وإنما حثهم على الهجرة وعلى الإيمان المتحصّل

(١) بحار الأنوار: ٢١/ ١١ ح٦، وتفسير القمي: ١/ ١٤٨.
(٢) الكافي: ١/ ٣٧٨ ح٢، وتفسير أصول الكافي: ٦/ ٣٥٩ ح٢.
(٣) الكافي: ٢/ ٢٧٧ ح٣، وبحار الأنوار: ٧٥/ ٢٦٧ ح١٨٠.

بالهجرة وسائر التكاليف الشرعيّة المتفرّعة عليه لأجل إيصال النفع إلى العباد وإنجائهم من العقوبة يوم المعاد.

فهذه الجملة أعني قوله: ما كان لله اه، بمنزلة الاستئناف البياني فإن قوله: والهجرة قائمة اه، لما كان دالاً بدلالة التنبيه والإشارة على مطلوبيّة الهجرة، وربما يسبق منه إلى الأوهام القاصرة أن مطلوبيتها لأجل حاجة إليها منه سبحانه أتى بهذه الجملة دفعاً لذلك التوهم.

فقد ظهر بما ذكرناه ضعف ما قاله الشّارح المعتزلي من أن معناه: ما دام لله في أهل الأرض المستسرّ منهم باعتقاده والمعلن حاجة أي ما دام التكليف باقياً زعماً منه أن جعل ما نافية موجب لإدخال كلام منقطع بين كلامين يتصل أحدهما بالآخر.

وجه الضعف منع استلزام كونها نافية، لانقطاع هذه الجملة عما قبلها إذ قد ظهر بما ذكرناه اتصالها وحسن ارتباطها به كما لا يخفى.

مضافاً إلى أن وصف الله سبحانه بالحاجة على إبقائها على حقيقتها باطل، وعلى تأويلها بالمعنى المجازي كما أوّلها الشارح البحراني حيث جعل لفظ الحاجة مستعاراً في حقه تعالى باعتبار طلبه للعبادة بالأوامر وغيرها كطلب ذي الحاجة لها مما يشمئز منه الطباع ويأبى عنه الذوق السليم كما لا يخفى.

وبالجملة فهذه الجملة معترضة بين الجملتين، والغرض من الاعتراض تنزيه الله سبحانه من الحاجة والافتقار إلى عبادة أهل الأرض، فهي نظير الجملة المعترضة في قوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النّحل: الآية ٥٧] فإن قوله **(سبحانه)** جملة لكونه بتقدير الفعل وقعت في أثناء الكلام، لأن قوله: ولهم ما يشتهون، عطف على قوله: لله البنات، والنكتة فيه تنزيه الله وتقديسه عما ينسبونه إليه.

وكيف كان فلما ذكر قيام الهجرة على حدّها الأول أوضحه وشرحه بقوله **(لا يقع اسم الهجرة على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر)** يعني أنه لا يستحق أحد لإطلاق اسم المهاجر عليه وبوصفه بالهجرة إلا بمعرفة حجة الله في أرضه والإيمان به، وهذا الحجّة هو النبي ﷺ في زمانه والأئمة المعصومون القائمون مقامه بعده.

وذلك لما ذكرناه من أن الغرض الأصلي من الهجرة هو الوصول إلى حضور الحجة، وتحصيل الإيمان والمعرفة ومعالم الشريعة منه، لا مجرّد ترك الأوطان والهجرة من البلدان والمسير من مكان إلى مكان، فالمهاجر في الحقيقة هو الضارب في الأرض لمعرفة أمام زمانه والإيمان به.

ويؤمى إلى ذلك ما رواه في **«الصافي»** عن عليّ بن إبراهيم القمي رحمه الله في قوله:

«والسّابقون الأولون من المهاجرين والأنصار» قال: هم النقباء وأبو ذر والمقداد وسلمان وعمّار ومن آمن وصدق وثبت على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام[١].

ويدل عليه ما رواه في **«الكافي»** عن عليّ بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس بن عبد الرحمٰن قال: حدثنا حمّاد عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول العامة إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية»، فقال عليه السلام: الحق والله قلت: فإن إماماً هلك ورجل بخراسان لا يعلم من وصيّه لم يسعه ذلك؟ قال: لا يسعه إنّ الإمام إذا هلك وقعت حجة وصيّه على من هو معه في البلد وحق النفر على من ليس بحضرته إذا بلغهم إن الله عز وجل يقول: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التّوبَة: الآية ١٢٢] قلت: فنفر قوم فهلك بعضهم قبل أن يصل فيعلم، قال: إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٠][٢].

بل لا يبعد أن يقال إن من عرف إمام زمانه واتبعه وآمن به فيصح أن يسمى باسم المهاجر من دون حاجة إلى المسافرة، وبعبارة أخرى مجرّد المعرفة والاتباع كاف في صحّة التسمية كما يفصح عنه قوله صلى الله عليه وآله: «فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر»[٣].

وصحّة إطلاقه عليه ذلك إما باعتبار اشتراكه مع المهاجر المسافر في الغاية القصودة وإن افترقا بالمسافرة وعدم المسافرة، أو باعتبار كونه مهاجراً بسبب معرفته من الضلالة إلى الهدى كما أن المهاجر الاصطلاحي مهاجر من بلد إلى بلد آخر.

وعلى هذا فيكون قوله **(ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة فسمعها أذنه ووعاها قلبه)** توكيداً لما فهم من الجملة السابقة، فإنه لما كان مدلولها المطابقي على الاحتمال الأخير أن العارف بإمام زمانه مهاجر وحقيق بأن يوصف بالمهاجريّة من دون حاجة إلى السفر أتى بهذا الكلام توضيحاً لمدلولها الالتزامي.

فيكون محصل مراده حينئذ أن من بلغته حجيّة الحجة فسمعها بأذنه وحفظها بقلبه أي عرفها حق المعرفة ولو في وطنه ومع عدم تجشم السفر فهو ليس بمستضعف بل مهاجر، ولا يجوز عدّ مثل هذا الشخص في عداد المستضعفين المستحقين للذّم والعقاب بترك المهاجرة

---

(١) التفسير الصافي: ٢/٣٦٩، والتفسير الأصفى: ١/٤٨٦.

(٢) بصائر الدرجات: ٥٩، والكافي: ١/٦.

(٣) بحار الأنوار: ٩٧/٩٩ ح١.

والمسافرة المشار إليهم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٧].

فإن هذه الآية كما قيل نزلت في أناس من أهل مكّة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة واجبة في بدو الإسلام، فإن المفروض عليهم يومئذ هو المهاجرة بالأبدان وعلى من بعدهم هو المعرفة والإيمان من دون لزوم الهجرة بالبدن هذا.

ولكن الأظهر أن المراد بهذه الجملة أن من بلغته خبر الحجرة فسمعه ووعاه بقلبه أي علم علماً قطعياً بوجود الحجة فلا يقع عليه اسم الاستضعاف أي لا يسوغ له التقصير في الإيمان به والاعتذار بكونه مستضعفاً فلو قصر وفرط دخل في زمرة المستضعفين المذكورين في الآية السابقة الّذين لم يكونوا مستضعفين في الحقيقة، ولذلك استحقوا التقريع والعقوبة بالمقصّر المفرط يكون مثلهم في استحقاق السّخط.

ويشهد بذلك ما رواه في «**الصافي من الكافي**» عن الصادق عليه السلام أنه سئل ما تقول في المستضعفين؟ فقال: «شبيهاً بالفزع فتركتم أحداً يكون مستضعفاً وأين المستضعفون فوالله لقد مشى بأمركم هذا العواتق إلى العواتق في خدورهن وتحدثت به السقاآت في طرق المدينة»(١).

وعن الكاظم عليه السلام أنه سئل عن الضعفاء فكتب عليه السلام: «الضعيف من لم ترفع له هذا حجة ولم يعرف الاختلاف فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف»(٢).

ويؤيّده ما فيه عن عليّ بن إبراهيم في الآية المتقدمة أنها نزلت فيمن اعتزل أمير المؤمنين عليه السلام ولم يقاتلوا معه، فقالت الملائكة لهم عند الموت فيم كنتم، قالوا: كنّا مستضعفين في الأرض أي لم نعلم مع من الحقّ فقال الله تعالى: ﴿**ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها أي دين الله وكتاب الله واسع فتنظروا فيه**﴾(٣).

ووجه التأييد غير خفي على المتدبّر فتدبّر، هذا.

ولما فهم من الجملات السابقة تصريحاً وتلويحاً وجوب السعي والهجرة إليه عليه السلام وإلى الطيّبين من ذريّته لكونهم حجّة الله في عباده وخليفة الله في بلاده وعلم أنه لا يسوغ التقصير

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٠٥، ومعاني الأخبار: ٣٠٢.

(٢) الكافي: ٢/ ٤٠٦ ح١١، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٨٠.

(٣) تفسير القمي: ١/ ١٤٩، والتفسير الصافي: ١/ ٤٩٠.

والاستضعاف في معرفة حقهم أردف ذلك بالتنبيه على أن معرفتهم حق المعرفة من خواص المؤمنين المخلصين فقال عليه السلام:

(إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان) والغرض بذلك تشويق المخاطبين وترغيبهم إلى المهاجرة إليهم والمبادرة إلى معرفة شؤونات ولايتهم ليدخلوا في زمرة المؤمنين الممتحنين الكاملين في مقام العرفان والإيقان الحائزين قصب السبق في مضمار التصديق والإيمان.

وفي بعض النسخ لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان وهذا المعنى قد ورد عنهم عليهم السلام في أخبار كثيرة.

فقد روى في «الكافي» عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن محمد بن سنان عن عمار بن مروان عن جابر قال: قال أبو جعفر عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن حديث آل محمد صعب مستصعب لا يؤمن به إلا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فما ورد عليكم من حديث آل محمد، فلانت له قلوبكم وعرفتموه فاقبلوه، وما اشمأزّت منه قلوبكم وأنكرتموه فردّوه إلى الله وإلى الرسول وإلى العالم من آل محمد وإنما الهلاك أن يحدث أحدكم بشيء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا والله ما كان هذا والإنكار هو الكفر»[١].

ورواه في «البحار من الخرائج ومنتخب البصائر» عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام مثله إلاّ أن في أخره: والإنكار لفضائلهم هو الكفر.

وفيه عن أحمد بن إدريس عن عمران بن موسى عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكرت التقية يوماً عند عليّ بن الحسين عليه السلام فقال عليه السلام: «والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله»، ولقد آخا رسول الله صلى الله عليه وآله بينهما فما ظنكم بسائر الخلق، إن علم العلماء صعب مستصعب لا يحتمله إلّا نبيّ مرسل أو ملك مقرّب أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، فقال عليه السلام وإنما صار سلمان من العلماء لأنّه امرؤ منا أهل البيت فلذلك نسبته إلى العلماء[٢].

وقد مضى أحاديث آخر في هذا المعنى في شرح الفصل الرابع من **«المختار»** الثاني وقدّمنا هناك بعض الكلام في تحقيق معنى هذه الأحاديث.

---

(١) الكافي: ١/٤٠١، وروضة الواعظين: ٢١١.

(٢) الكافي: ١/٤٠١ ح٢، وبحار الأنوار: ١٩٠.

وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق:

إن المراد من أمر آل محمد عليهم السلام وعلمهم وحديثهم الوارد في هذه الروايات على اختلاف عناوينها شيء واحد، وهو ما يختص بهم عليهم السلام وما هو خصائص ولايتهم من شرافة الذات ونورانيتها والكمالات الكاملة والأخلاق الفاضلة والإشراقات التي يختصّ بها عقولهم والقدرة على ما لا يقدر عليه غيرهم وما لهم من المقامات النورانية والعلوم الغيبيّة والأسرار الإلهيّة والأخبار الملكوتيّة والآثار اللاهوتية والأطوار الناسوتية والأحكام الغريبة والقضايا العجيبة، فإن هذه الشؤونات صعب في نفسه مستصعب فهمه وتسليمه على الخلق لا يذعن به ولا يقبله إلّا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان وأعدّه بتطهيره وامتحانه وابتلائه بالتكاليف العقلية والنقلية حتى تحلّى بالكمالات العلمية والعملية، والفضائل الخلقية والنفسانية، وعرف مبادىء كمالاتهم وقدرتهم ولا يستنكر ما ذكر من فضائلهم وما صدر عنهم من قول أو فعل أو أمر أو نهي، ولا يتلقى شيئاً من ذلك بالتكذيب ولا ينسبهم عليهم السلام فيه إلى الكذب وذلك لكونه مخلوقاً من فاضل طينتهم معجوناً بنور ولايتهم مضافاً إليهم، فإذا ورد عليه شيء منهم وصل إليه فهمه وعرفه على ما هو حقه آمن به تفصيلاً، وإذا قصر عنه عقله آمن به إجمالاً ولا ينكره، كما قال عزّ من قائل: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩] .

وأما غير من ذكر فإذا ورد عليهم شيء من أمرهم وعلمهم وأحاديثهم وفضائلهم عليهم السلام نفرت قلوبهم واشمأزّت نفوسهم وتاهت عقولهم وسارعوا إلى ردّه وإنكاره ولا يحتملونه ولا يتحملونه بل يكفرون به ويكذبونه كما قال عليه السلام في «**المختار**» السبعين: «ولقد بلغني أنكم تقولون: عليّ يكذب، قاتلكم الله فعلى من أكذب أعلى الله؟ فأنا أوّل من آمن به، أم على نبيّه؟ فأنا أوّل من صدّقه، كلا والله ولكنّها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها ويل أمّه كيلا بغير ثمن لو كان له دعاء»[1] .

(و) قوله (**لا يعي حديثنا إلا صدور أمنية وأحلام رزينة**) توكيد لما دلت عليه الجملة السابقة أي لا يحفظ حديثنا الصّعب المستصعب إلا قلوب متصفة بالأمانة وعقول ذات ثقل ووقار ورزانة.

روى في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن البرقي، عن ابن سنان أو غيره رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا صدور منيرة أو قلوب سليمة أو أخلاق حسنة، إن الله أخذ من شيعتنا الميثاق كما أخذ على بني آدم ألست

(١) نهج البلاغة: ١/١١٩ والاختصاص: ١٥٥.

بربكم، فمن وفى لنا وفى الله له بالجنّة، ومن أبغضنا ولم يرد «يوادخ» إلينا حقّنا ففي النار خالداً مخلّداً»[١].

والمراد أنّه لا يحفظ ولا يحتمل حديثنا إلا صدور أمنية في احتماله وحفظه وكتمانه وستره إلى أن يؤديه إلى أهله على وفق ما احتمله وتحمله من دون تغير وتبديل ولا تحريف ولا زيادة ولا نقصان كما هو شأن الأمين يحفظ الأمانة ويردّها إلى أهلها صحيحة سالمة.

ويرشد إليه ما رواه في «**الكافي**» عن محمد بن يحيى وغيره عن محمد بن أحمد عن بعض أصحابنا قال كتبت إلى أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام جعلت فداك ما معنى قول الصادق عليه السلام: «حديثنا لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبهُ للإيمان؟»[٢] فجاء الجواب إنما معنى قول الصادق عليه السلام أي لا يحتمله ملك ولا نبيّ ولا مؤمن أن الملك لا يحتمله حتى يخرجه إلى ملك غيره، والنبيّ لا يحتمله حتى يخرجه إلى نبيّ غيره، والمؤمن لا يحتمله حتّى يخرجه إلى مؤمن غيره، فهذا معنى قول جدّي عليه السلام هذا.

ووصف الأحلام بالرزانة إشارة إلى أنها لا يستنفرها صعوبة ما سمعتها من الأحاديث الفضائل إلى ردّها وإنكارها ولا يستخفنها غرابتها إلى نشرها وإذاعتها.

روى في «البحار» من منتخب البصائر بسنده عن الحذاءِ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن أحبّ أصحابي إليّ أفقههم وأورعهم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي حالاً وأمقتهم إليّ الّذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروي عنّا واشمأزّ منه جحده، وأكفر من دان به ولا يدري لعل الحديث من عندنا خرج وإلينا أسند فيكون بذلك خارجاً من ديننا[٣].

وفيه منه بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٠] قال: هم الأئمة ويجري فيمن استقام من شيعتنا وسلم لأمرنا وكتم حديثنا عن عدونا تستقبله الملائكة بالبشرى من الله بالجنّة وقد والله مضى أقوام كانوا على مثل ما أنتم عليه من الذين استقاموا وسلّموا لأمرنا وكتموا حديثنا ولم يذيعوه عند عدونا ولم يشكوا فيه كما شككتم فاستقبلتهم الملائكة بالبشرى من الله بالجنّة[٤]، هذا.

---

(١) الكافي ١/٤٠١، ومجمع البحرين: ٤/٥٣.

(٢) شرح أصول الكافي ٧/٨ والكافي: ١/٤٠٢ ح٤.

(٣) بصائر الدرجات ٥٥٧ ومستدرك الوسائل: ١/٨.

(٤) بحار الأنوار ٢/٢٠٢ وبصائر الدرجات: ١١٤.

ولما فرغ عليه السلام من قسمة الإيمان إلى قسميه وندب إلى المهاجرة ورغب في احتمال أحاديثهم وتحملها وحفظها، عقب ذلك كله بالأمر بالسؤال وأرشدهم إلى المسألة عنه قبل الأزداف والانتقال فقال عليه السلام:

(أيها النّاس سلوني قبل أن تفقدوني) وقد قدمنا في شرح الفصل الأوّل من المختار الثاني والتسعين أن هذا كلام تفرد عليه السلام به وليس لأحد أن يقول على المنبر سلوني إلا هو وتقدّم هناك فصل واف فيما يترتب على العنوان.

وأقول هنا: إن أمره للمخاطبين بالمسألة في كلّ موقف ومكان وكلّ وقت وزمان مع عدم تقييد المسؤول عنه بشيء مخصوص يدل على غزارة علمه وأنه البحر الذي لا يساحل، والحبر الّذي لا يطاول، وأنه عالم بجميع العلوم وفارس ميدانها وسابق حلباتها وحائز قصبات رهانها ومبيّن غوامضها وصاحب بيانها، والفارس المتقدّم عند إحجام فرسانها وتأخر أقرانها، وأنّه فيها كلها قد بلغ الغاية القصوى وفضل فيها جميع الورى، فاسمع به وأبصر فلا نسمع بمثله غيره ولا ترى، واهتد إلى اعتقاد ذلك بناره فما كلّ نار أضرمت نار قرى ولنعم ما قيل:

قال اسألوني قبل فقدي ذوا ... إبانة عن علمه الباهر
لو شئت أخبرت عما قد مضى ... وما بقي في الزمن الغابر

ويكفي في إيضاح ذلك قوله: «علّمني رسول الله صلى الله عليه وآله من العلم ألف باب فانفتح لي من كلّ باب ألف باب»، فإذا كان المعلم المؤدب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أكمل العالمين وأعلاهم في درجات العرفان واليقين والتلميذ المتعلم أمير المؤمنين عليه السلام وهو في الفطنة والذكاء أفضل البارعين، فيحق له أن يبلغ أقصى غايات الكمال، وينال نهايات معارج العلم والمعرفة، ويتمكن من قول سلوني قبل أن تفقدوني.

(فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض) وقد ضمن بعض العشر ذلك وقال:

ومن ذا يساميه بمجد ولم يزل ... يقول سلوني ما يحلّ ويحرم
سلوني ففي جنبي علم ورثته ... عن المصطفى ما فات مني به الفم
سلوني عن طرق السماوات أنني ... بها عن سلوك الطرق في الأرض أعلم
ولو كشف الله الغطا لم أزد به ... يقيناً على ما كنت أدري وأفهم

قال الشارح المعتزلي: المراد بقوله ذلك ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور ولاسيّما في الملاحم والدّول قال: وقد تأوّله بعضهم على وجه آخر قالوا: أراد أنا بالأحكام

الشرعية والفتاوى الفقهيّة أعلم مني بالأمور الدّنيوية، فعبّر عن تلك بطرق السماء لأنها أحكام إلهية، وعبّر عن هذه بطرق الأرض لأنها الأمور الأرضيّة، قال: والأوّل أظهر، لأن فحوى الكلام وأدلته يدل على أنّه المراد[١].

وقال الشارح البحراني: أراد بطرق السماء وجوه الهداية إلى معرفة سكّان السماوات من الملأ الأعلى ومراتبهم من حضرة الربوبيّة ومقامات أنبياءِ الله وخلفائه من حظاير القدس وانتقاش نفسه القدسيّة عنهم بأحوال الفلك ومدبراتها والأمور الغيبية مما يتعلق بالفتن والوقائع المستقبلة، إذ كان له الاتصال التّام بتلك المبادىء، فبالحريّ أن يكون علمه بما هناك أتم وأكمل من علمه بطرق الأرض أي إلى منازلها.

ثمّ نقل عن الوبري أنّه قال: أراد أن علمه بالدّين أوفر من علمه بالدّنيا.

أقول: لا يخفى عن المتوقد الزّكي العارف بنكات العبارة وأساليب الكلام من أهل الجودة والذكاء والفطنة أن الشراح قصرت أفهامهم عن معرفة مراد الإمام وعزب أذهانهم عن فهم مغزى الكلام، لأنه عليه السلام أمرهم بالسؤال قبل فقدانه، وقبل ظهور فتنة كما هو مفاد قوله الآتي قبل أن تشغر برجلها فتنة، وعلل ذلك بأنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض، وهذا ملخص معنى كلامه عليه السلام.

فعلى هذا فليس للمعنى الذي حكاه الشارح المعتزلي عن بعضهم، وكذا المعنى الذي نقله البحراني عن الوبري ربط بالمقام أصلاً ولا شيء منهما مراداً من الكلام قطعاً.

وأمّا المعنى الّذي قاله الشارح المعتزلي فليس بذلك البعد ولكنّه لم يتبيّن منه جهة التعبير عن العلم بمستقبل الأمور بالعلم بطرق السماء كما لم يتبيّن وجه أعلميّته بها أي جهة التفضيل وكونه عليه السلام أعلم بها من علمه بطرق الأرض.

وأمّا ما قاله الشارح البحراني من أنه أراد بطرق السماء وجوه الهداية آه، ففيه أن وجوه الهداية إلى معرفة منازل سكان السماوات ومقامات الأنبياء وأحوال الفلك ومدبّراتها لا ربط لها بالمقام، فكيف يصح جعلها علة لقوله: سلوني آه.

وأما وجه الهداية إلى الأمور الغيبيّة فهو مناسب للمقام إلاّ أنّه قاصر عن تأدية المعنى المراد.

فإن قلت: إذا زيفت جميع ما ذكروه فماذا عندك في هذا المقام وما الّذي أراده بهذا الكلام وما المعنى المناسب السليم من النقض والإبرام؟

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٠١ وبحار الأنوار: ١٠/ ١٢٨.

قلت: الّذي اهتديت إليه بنور التوفيق وأدّى إليه النظر الدقيق.

إنّه لما كان عالماً بما يظهر بعده من الفتن والملاحم أراد من باب اللطف أن يرشد المخاطبين إلى ما هو أصلح لهم عند ظهورها، وأوفق بانتظام أمورهم عاجلاً وآجلاً، فأمرهم بأن يسألوه قبل أن يفقدوه، وقبل أن يظهر تلك الفتن حتّى يهتدوا بسؤاله عليه السلام إلى وجوه مصالحهم فيها، وعلّل ذلك بكونه أكمل علماً بطرق السماء من طرق الأرض.

وفهم معنى هذه العلّة وجهة ارتباطها بالمعلول يحتاج إلى تمهيد مقدمة وهي:

إن جميع ما يجري في عالم الملك والشهادة من المقضيات والمقدرات فهو مثبت في عالم الأمر والملكوت ومكتوب في أمّ الكتاب بالقلم الربّاني كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: الآية ٥٩] وقال: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النّمل: الآية ٧٥] وظهورها في هذا العالم مسبوق بثبوتها في ذلك العالم، وإليه الإشارة في قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحِجر: الآية ٢١] فالخزائن عبارة عما كتبه القلم الأعلى أوّلاً على الوجه الكلي في لوح القضاء المحفوظ عن التبديل الّذي يجري منه ثانياً على الوجه الجزئي في لوح القدر الّذي فيه المحو والإثبات مدرجاً على التنزيل، فإلى الأوّل أشير بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحِجر: الآية ٢١] وبقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ٣٩] وإلى الثاني بقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحِجر: الآية ٢١] ومنه تنزل وتظهر في عالم الشهادة.

إذا عرفت ذلك فأقول: إنه عليه السلام أراد بطرق السماء مجاري الأمورات المقدرة ومسالكها نازلة من عالم الأمر بتوسط المدبرات من الملائكة المختلفين بقضائه وأمره إلى عالم الشهادة، وبطرق الأرض مجاري تلك الأمور في ذلك العالم ومحال بروزها منها، وإلى نزولها أشار سبحانه بقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: الآية ٤] فإن كل أمر لفظ عام لم يبق بعده شيء كما في رواية أبي جعفر الثاني عليه السلام، والمنزل إليه هو رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام بعده والأئمة القائمون مقامه.

كما روى في «البحار» من تفسير العياشي عن محمد بن عذافر الصيرفي عمن أخبره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تعالى خلق روح القدس ولم يخلق خلقاً أقرب إليه منها، وليست بأكرم خلقه عليه، فإذا أراد أمراً ألقاه إليها فألقاه إلى النجوم فجرت به[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥/ ٧٠ وتفسير نور الثقلين: ٣/ ٨٧.

قال العلامة المجلسي رحمه الله: والظاهر أن المراد بالنجوم الأئمة عليهم السلام، وجريانها به كناية عن علمهم بما يلقى إليهم ونشر ذلك بين الخلق.

وفي تفسير «الصافي من تفسير القمي» قال: تنزل الملائكة والروح القدس على إمام الزمان ويدفعون إليه ما قد كتبوه[(١)].

وعن الصادق عليه السلام إذا كان ليلة القدر نزلت الملائكة والروح والكتبة إلى السماء الدنيا، فيكتبون ما يكون من قضاء الله تلك السنة، فإذا أراد الله أن يقدم شيئاً أو يؤخّره أو ينقص شيئاً أمر الملك أن يمحو ما يشاء ثمّ أثبت الّذي أراد[(٢)].

وفي «الكافي» عن أبي جعفر عليه السلام قال الله عزّ وجلّ في ليلة القدرة: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدّخَان: الآية ٤] يقول ينزّل فيها كل أمر حكيم «إلى أن قال» إنه ينزل في ليلة القدر إلى أولي الأمر تفسير الأمور سنة يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا وفي أمر النّاس بكذا وكذا، وإنّه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كل يوم علم الله عزّ وجل الخاص والمكنون العجيب المخزون مثل ما ينزل في تلك الليلة من الأمر ثمّ قرء: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ٢٧][(٣)].

ثمّ أقول: قد ظهر بدلالة هذه الرّوايات أن ما ينزل من عالم الأمر فإنّما ينزل أولاً إلى وليّ الأمر، ثمّ يجري بعده في المواد المقدرة، ولازمه كون ولي الأمر عالماً بها وبكيفيّة نزولها في مسالكها ومجاريها العلوية والسفليّة.

وأوضح دلالة منها ما رواه في **«البحار من بصائر الدّرجات»** عن سماعة بن سعد الخثعمي أنه كان مع المفضل عند أبي عبد الله عليه السلام فقال له المفضّل: جعلت فداك يفرض الله طاعة عبد على العباد ثمّ يحجب عنه خبر السماء؟! قال: الله أكرم وأرأف بعباده من أن يفرض عليه طاعة عبد يحجب عنه خبر السماء صباحاً أو مساء[(٤)].

وفيه من «البصائر» عن الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «لا والله لا يكون عالم جاهلاً أبداً عالم بشيء جاهل بشيء، ثمّ قال: الله أجلّ وأعزّ وأعظم وأكرم من أن

---

(١) تفسير الصافي: ٥/ ٣٥٣ وتفسير القمي: ٢/ ٤٣١.

(٢) بحار الأنوار: ٤/ ٩٩ وتفسير القمي: ١/ ٣٦٦.

(٣) الكافي: ١/ ٢٤٨، وبحار الأنوار: ٢٤/ ١٨٣.

(٤) الكافي: ١/ ٢٦١، وبحار الأنوار: ٢٦/ ١٠٩.

يفرض طاعة عبد يحجب عنه علم سمائه وأرضه ثمّ قال: لا لا يحجب ذلك عنه»[١].

بل قد يظهر من أخبار آخر علمهم عليهم السلام بجميع ما في السماء مثل علمهم بما في الأرض وقد مرّ كثير من هذه الأخبار في تضاعيف الشرح ونورد هنا بعضها.

وهو ما في «البحار» من تفسير علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن مرار عن يونس عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٥] قال: «كشط له عن الأرض ومن عليها وعن السماء وما فيها والملك الّذي يحملها والعرش ومن عليه، وفعل ذلك برسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين صلوات الله عليه»[٢].

ومن بصائر الدرجات عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه، قال: «كشط لإبراهيم السماوات السبع حتّى نظر إلى ما فوق العرش وكشط له الأرض حتّى رأى ما في الهواء وفعل بمحمّد صلى الله عليه وآله مثل ذلك، وإني لأرى صاحبكم والأئمة من بعده قد فعل بهم مثل ذلك»[٣].

وفيه من «البصائر» عن بريدة الأسلمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي إن الله أشهدك معي سبع مواطن حتى ذكر الموطن الثاني أتاني جبرئيل فأسرى بي إلى السماء فقال أين أخوك؟ فقلت: ودعته خلفي، قال: فقال: فادع الله يأتيك به، قال: فدعوت فإذا أنت معي، فكشط لي عن السماوات السبع والأرضين السبع حتّى رأيت سكانها وعمّارها وموضع كلّ ملك منها فلم أر من ذلك شيئاً إلا وقد رأيته كما رأيته»[٤].

وفيه من «البصائر» عن عبد الأعلى وعبيدة بن بشير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام ابتداء منه: «والله إنّي لأعلم ما في السماوات وما في الأرض وما في الجنّة وما في النّار وما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة، ثمّ قال: أعلمه من كتاب الله أنظر إليه هكذا، ثمّ بسط كفّيه ثمّ قال: إنّ الله يقول: ﴿**أنزلنا إليك الكتاب فيه تبيان كل شيء**﴾.

والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ولا حاجة إلى الإكثار من روايتها وكلّها متفق معنى في الدلالة على علم أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة الطاهرين من ذرّيته سلام الله

---

(١) الكافي: ١/ ٢٦١، وشرح أصول الكافي: ٦/ ٤٤.
(٢) تفسير القمي: ١/ ٢٠٥، وبحار الأنوار: ١٧/ ١٤٦.
(٣) بحار الأنوار: ١٢/ ٧٢.
(٤) بحار الأنوار: ١٨/ ٤٠٦.

عليهم بالسماوات وما فيها وبطرقها وأبوابها وأخبارها غير محجوب عنهم عليه السلام شيء من ذلك.

فإن قلت: غاية ما ظهر من هذه الأخبار كون الإمام عالماً بالسماء وما فيها كعلمه بالأرض وما عليها، ولم يظهر منها وجه التفضيل المستفاد من قوله: فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض فاللازم عليك بيان جهة التفضيل ومعناه.

قلت: قوله عليه السلام فلأنا بطرق السماء أعلم، يحتمل معنيين.

أحدهما: أنّه عليه السلام أسبق علماً بها، وذلك لما علمت أن الأمورات المقدرة في عالم الشهادة مبادئها في السماء ومنتهاها في الأرض، والمبدء مقدّم على المنتهى وسابق عليه، فيكون العلم به أسبق من العلم بالمنتهى كما يؤدي إليه النظر الدقيق.

وثانيهما: أنّه عليه السلام أكمل وأتمّ علماً بها، وذلك لأنه مع رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة من ذريتهما قد كانوا أنواراً مخلوقة قبل خلقة آدم وعالم بألفي عام أو أربعة عشر ألف عام أو خمسة عشر ألف عام أو أربعين ألف عام أو أربعمائة ألف سنة وأربعة وعشرين ألف سنة أو ألف ألف دهر على اختلاف الروايات الواردة في خلقتهم.

وقد كان منزلهم ومآويهم في تلك المدّة المتطاولة في سرادقات العزّة وحجابات العظمة وظلّ العرش والسماوات العاليات، ثمّ اهبطوا باقتضاء مصالح التكليف وإرشاد العباد إلى عالم الشهادة واكتسوا جلباب البشريّة ولبثوا في الأرض مدّة قليلة ثمّ رجعوا إلى أوطانهم الأصلية ومساكنهم النورانيّة، وقد دلت على ذلك كلّه الأخبار الصحيحة.

فبطول مدّة الإقامة والمكث فيها وتمادي توطنهم وبقائهم في الملأ الأعلى يكون علمهم بعالم الملكوت البتّة أكمل وأتمّ من علمهم بعالم الناسوت كما لا يخفى.

وبقي الكلام بعد ذلك كلّه في جهة ارتباط العلّة بالمعلول أعني ارتباط قوله: فلأنا بطرق السّماء أعلم، بقوله: سلوني قبل أن تفقدوني قبل أن تشغر فتنة آه.

وجهة الارتباط أنه لما أرشدهم إلى السؤال عن الفتن والملاحم المستقبلة علّله بذلك، لأن الفتن الحادثة مثل سائر الأمورات المقدورة مكتوبة في الألواح السّماوية قبل حدوثها وظهورها، وينزل علمها إلى الإمام في ليلة القدر وغيرها كما قال عزّ من قائل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: الآية ٢٢] أي ما يحدث من مصيبة وقضيّة في الأرض وفي أنفسكم إلاّ وقد كتبناها والحكم المتعلّق بها في كتاب من قبل أن نخلق المصيبة أو الأنفس.

روى القمّي رحمه الله عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: صدق الله وبلغت رسله كتابه في السّماء علمه بها، وكتابه في الأرض علومنا في ليلة القدر وغيرها[1].

فعلم أمير المؤمنين عليه السلام بالفتن وما يتعلّق بها لما كان حاصلاً من المبادىء العالية والطرق السماوية حسن تعليل الأمر بالسؤال عن الفتن بعلمه بطرق السّماء.

وأيضاً قد أخبر الله سبحانه الفتن الحادثة في كتابه الكريم وهو حبل ممدود من السماء إلى الأرض لنبيّه صلى الله عليه وآله بعضها في ظواهر آياته وبعضها في بواطنها، وأعلمها النبي صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام.

فمما أخبر بها في الظاهرة قوله سبحانه: ﴿**ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون**﴾.

روى في «**المجمع**» عن النبي صلى الله عليه وآله أنه لما نزلت هذه الآية قال: لا بد من فتنة تبتلى به الأمّة بعد نبيّها ليتعيّن الصادق من الكاذب، لأن الوحي قد انقطع وبقي السّيف وافتراق الكلمة إلى يوم القيامة[2].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسرَاء: الآية ٦٠] الآية فإنه إخبار عن فتن بني أميّة وملكهم كما ورد في غير واحد من الأخبار.

وممّا يدلّ على أن الفتن الحادثة وغيرها من سائر الأمورات مدرجة في مفاهيم الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النَّمل: الآية ٧٥] أي من خصلة غائبة يعني جميع ما أخفاه عن خلقه وغيبه عنهم مبين في الكتاب.

روى في «**البحار من بصائر الدرجات**» عن محمد بن الحسن عن حماد عن إبراهيم بن عبد الحميد عن أبيه عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام في حديث وإن كان في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر من الأمور التي أعطاها الله الماضين النبيين والمرسلين، وقد جعله الله ذلك كله لنا في أم الكتاب، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين**﴾ ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] فنحن الذين اصطفانا الله، فقد ورثنا علم هذا القرآن الذي فيه تبيان كل شيء[3].

---

(١) تفسير القمي: ٢/٣٥١، وتفسير الصافي: ٥/١٣٧.

(٢) تفسير مجمع البيان: تفسير مجمع البيان: ٤/٧٩، والتفسير الصافي ٤/١١٠.

(٣) بصائر الدرجات: ٦٨، وشرح أصول الكافي: ٥/٣٠٧.

هذا ما اهتديت إليه في شرح هذا المقام بالتمسك بولاية أمير المؤمنين وآله الطاهرين عليهم السلام، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وبعدما أسفر لك وجه المرام واتضح لك معنى الكلام فاستمع لما يتلى عليك في شرح قوله عليه السلام:

(قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها) قال الشارح البحراني: أراد فتنة بني أميّة وأحكامهم العادلة عن العدل وما يلحق النّاس في دولتهم من البلاء، وكنى بشغر رجلها عن خلوّ تلك الفتنة عن مدبّر يدبّرها ويحفظ الأمور وينتظم الدّين حين وقوع الجور، انتهى.

وأقول: أمّا حمله الفتنة على فتنة بني أميّة فلا بأس به لأنه نكرة في سياق الإثبات فلا تفيد العموم، فباقتضاء كونها أقرب الفتن إلى زمانه عليه السلام ومحلاً لابتلاء المخاطبين بها يكون حملها عليها أنسب وأولى ليسألوه عليه السلام عنها وعما ينجيهم من ورطاتها ويعرفوا مناصهم منها ومن هفواتها.

وأما جعله شغر رجلها كناية عن خلوّها عن المدبر ففيه أنه مبني على ما زعمه من أن لفظ تشغر هنا مأخوذ من شغرة البلدة إذا خلت عن مدبرها كما صرّح به في بيان لغته، وهو زعم فاسد.

أما أولاً فلأن قوله برجلها قرينة على أنه ليس هنا بمعنى الخلوّ من المدبر فافهم.

وأما ثانياً فلأنه بعد الغض عن ذلك يتوجه عليه أن فتنة بني أمية لم تكن خالية عن مدبر كيف ومثل معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص اللّعين ومروان بن الحكم وسائر الخلفاء الأمويين وأضرابهم من قادة الكفر وأولياء الضلال عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين كانوا مدبّرين لأمر تلك الفتن. وكانت أوقاتهم مستغرقة في تدبيرها وترويجها ونظم أمورها وحفظها وترتيبها.

نعم أمور الدّين وأحكام الشرع المبين قد كانت يومئذ معطلة مختلة مضطربة ليس لها حافظ ولا مدبّر لغلبة التقية وكون أئمة الحق في زاوية الخمول غير متمكنين من إقامة دعائم الشريعة ومن حفظ مراسمها وإصلاح معالمها.

فإن قلت: الظاهر أن مراد الشارح بقوله: عن مدبر يدبرها، من يدبر في رفع تلك الفتنة لا من يدبر في ترويجها وتقويتها، والقرينة على أن مراده ذلك قوله ويحفظ الأمور وينتظم الدّين كما هو غير خفي.

قلت: سلّمنا ظهور كلامه بقرينة الجملتين المعطوفتين في كون مراده ما ذكرت إلاّ أن

بقوله عليه السلام قبل أن تشغر برجلها فتنة لا يدلّ على هذا المعنى أصلاً كما هو واضح لا يخفى.

والذي عندي في شرح هذه الفقرة أنه شبه الفتنة على سبيل الاستعارة بالكناية بالبعير الشموس الذي يرفع رجله ويدوس من لقاه ويطأ في خطامه ويخبط من قاربه ودناه، لعدم قائد يقوده ولا ممسك يمسكه فأثبت لها الشغر بالرجل والوطاء في الخطام تخييلاً وترشيحاً للاستعارة.

ووجه الاستعارة أنّ البعير الموصوف بالأوصاف المذكورة كما أنه يكون عام الضرر ليس له من أذية رافع ولا رادع، فكذلك هذه الفتنة عند بروزها وظهورها لا يكون من مضارها ومفاسدها راد ولا مانع.

ونظير هذا التشبيه ما مرّ في «**المختار**» الثاني في قوله: في فتن داستهم بأخفافها ووطأتهم بأظلافها وقامت بهم على سنابكها.

وقوله: **(وتذهب بأحلام قومها)** نظير ما مرّ في «**المختار**» الثاني تلو العبارة المتقدّمة آنفاً: فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون.

والمراد أن تلك الفتنة لشدتها وقوّة الباطل فيها وضعف الحق فيها وغلبة الضلال على أهلها، يذهب بعقول ذوي العقول فيتردّدون في معرفة الحق، ولا يهتدون إلى سبيل الرّشاد وطريق الصلاح والسداد إلاّ من عصمه الله بفضله وهداه إلى قصد سبيله، وهو الهادي إلى النهج القويم والصراط المستقيم.

الترجمة

ازجملهٔ خطب شریفهٔ آن امام بحق وولیّ مطلق است درقسمت ایمان میفرماید پس قسمی از ایمان آنستکه میباشد ثابت وبرقرار در دلها ، وقسمی دیگر ازاو آنست که میشود مثل عاریتها در میان دلها وسینها تا وقت معلوم ، پس هرگاه باشد شمارا برائت وبیزاري ازأحدی ازآحاد ناس پس موقوف دارید اورا وصبر نمائید تا آنکه حاضر شود اورا مرگ پس در این حالت حضور مرگ واقع میشود حدّ برائت و هجرت از ضلالت بسوی رشاد و هدایت قائم است برحدّ أوّل خود نبوده است خداوند عزّوجلّ را در أهل زمین هیچ احتیاج ازکسانی که پنهان کننده باشند دین خودرا یا اظهار وآشکار کننده باشند .

واقع نمیشود اسم هجرت برأحدی مگر بمعرفت وشناختن حجت خدا درزمین پس هر که شناخت او را واقرار نمود باو پس او است مهاجر وواقع نمیشود اسم استضعاف ومستضعف گفته نمیشود برکسیکه رسیده باشد باو حجت پس بشنود آنرا گوش او ونگه داشته باشد آنرا قلب او .

بدرستیکه أمرمابالغایة صعب ودشواراست ومتحمل نمیشود آن را مگر بندهٔ مؤمنی که امتحان کرده باشد خداوندتعالی قلب اورا ازبرای ایمان وحفظ نمیکند حدیث مارا مگر سینهای أمین وعقلهای سنگین .

ای جماعت مردمان بپرسید از من علوم أوّلین و آخرین را قبل از اینکه نیابید مرا ، پس هرآینه من براههای آسمان داناترم از خود براههای زمین ، پیش ازاینکه بلند نماید پای خودرا فتنهٔ که پازند درمهارخود وببرد عقلهای قوم خودرا

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والتاسعة والثمانون من المختار في باب الخطب

أَحْمَدُهُ شُكْراً لِأَنْعامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، دَعَا إِلىٰ طاعَتِهِ وقاهَرَ أَعْداءَهُ، جِهاداً عَنْ دِينِهِ، لاَ يَثْنِيهِ عَنْ ذٰلِكَ اجْتِماعٌ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ وَالْتِمَاسٌ لِإِطْفاءِ نُورِهِ.

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وبادِرُوا غَمَراتِهِ، وَامْهَدُوا (وأمهدوا خ) لهُ قَبْلَ حُلوُلِهِ، وأَعِدّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ، فَإِنَّ الْغايَةَ الْقِيامَةَ، وَكَفَىٰ بِذَلِكَ واعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، ومُعْتَبِراً لِمَنْ جَهِلَ، وقَبْلَ بُلُوغِ الْغايَةِ ما تَعْلَمُونَ: مِنْ ضيقِ الأَرْماسِ، وشِدَّةِ الإِبْلاسِ، وهَوْلِ الْمُطَّلعِ وروعاتِ الْفَزَعِ وَاخْتِلافِ الأَضْلاَعِ، واسْتِكاكِ الأَسْماعِ، وظُلْمَةِ اللَّحدِ، وخيفَةِ الْوَعْدِ وغَمِّ الضَّرِيحِ، ورَدْمِ الصَّفِيحِ.

فَاللَّهَ اللَّهَ عِبادَ اللَّهِ فَإِنَّ الدُّنيا ماضِيَةٌ بِكُمْ عَلَىٰ سَنَنٍ، وأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ في قَرَنٍ، وَكَأَنَّها قَدْ جاءَتْ بِأَشْراطِها، وأَزِفَتْ بِأَفراطِها ووَقَفَتْ بِكُمْ عَلَىٰ صِراطِها، وكَأَنَّها قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلاٰزِلِها، وأَناخَتْ بِكَلاٰكِلِها، وانْصَرَفَتِ (وانصرمت خ ل) الدُّنْيَا بِأَهْلِها، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِها، فَكانَتْ كَيَوْمٍ مَضَىٰ، أَوْ شَهْرٍ انْقَضَىٰ، وصارَ جَدِيدُها رثًّا، وسَمِينُها غَثّاً، في مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقامِ، وأُمورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظامٍ، ونارٍ شَدِيدٍ كَلَبُها، عالٍ لَجَبُها، ساطِعٍ لَهَبُها، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُها، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُها، بَعيدٍ خُمُودُها، ذاكٍ وُقُودُها، مَخُوفٍ وعيدُها، غَمٌّ قَرارُها مُظْلِمَةٍ أَقْطارُها، حامِيَةٍ قُدُورُها، فَظيعَةٍ أُمُورُها.

وسيقَ الَّذينَ اتَّقَوْا ربَّهُمْ إِلى الْجنَّةِ زُمَراً، قَدْ أُمِنَ الْعَذابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتابُ، وزُحْزِحُوا عَنِ النّارِ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدّارُ، ورَضُوا الْمَثْوَىٰ وَالْقَرارَ، الَّذينَ كانَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا زاكِيَةً، وأَعْيُنُهُمْ باكِيَةً، وكانَ لَيْلُهُمْ في دُنْيَاهُمْ نَهاراً، تَخَشُّعاً واسْتِغْفاراً، وكانَ نَهارُهُمْ لَيْلاً تَوحُّشاً وَانْقِطاعاً، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً، وَالْجَزاءَ ثَواباً، وَكانُوا أَحَقَّ بها وأَهْلَها، في مُلْكٍ دائِمٍ ونَعِيمٍ قائِمٍ.

فَارْعَوْا عِبادَ اللَّهِ ما بِرِعايَتِهِ يَفُوزُ فائِزُكُمْ، وبِإِضاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ وبادِرُوا آجالَكُم بِأَعْمالِكُمْ فإنكم مُرْتَهِنُونَ بِما أَسْلَفْتُمْ، ومَدِينُونَ بِما قَدَّمْتُمْ، وكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ فَلاَ رَجْعَةَ تُنالُونَ، وَلاَ عَثْرَةَ تُقالُونَ.

اسْتَعْمَلَنَا اللَّهُ وَإِيّاكُمْ بِطاعَتِهِ وطاعةِ رَسُولِه، وعَفَا عَنّا وعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، أَلْزِمُوا

الْأَرْضَ وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلاَءِ، وَلاَ تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ وَهَوَىٰ أَلْسِنَتِكُمْ، وَلاَ تَسْتَعْجِلُوا بِما لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مَنْ ماتَ مِنْكُمْ عَلَىٰ فِراشِهِ وهُوَ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّه وحَقِّ رَسُولِهِ وأَهْلِ بَيْتِهِ ماتَ شَهيداً، ووَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللَّهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوابَ ما نَوَىٰ مِنْ صالِحِ عَمَلِه، وقامَتِ النِّيَّةُ مَقامَ إِصْلاَتِهِ بِسَيْفِهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وأَجَلاً[1].

اللغة

(الوظائف) جمع الوظيفة وهو ما يقدّر للإنسان من عمل ورزق وطعام وغير ذلك، ووظفت عليه العمل توظيفاً قدّرته، **(وقاهر أعداءه)** وفي بعض النسخ قهر أعداءه يقال: قهره قهراً غلبه فهو قاهر و**(ثنيت)** الشيء ثنياً من باب رمى إذا عطفته ورددته، وثنيته عن مراده إذا صرفته عنه و**(المعقل)** بفتح الميم وكسر القاف قريب من الحصن ويطلق على الملجأ و**(الذّروة)** بضمّ الذال وكسرها من كل شيء أعلاه، و**(مهد)** الرّجل مهداً من باب منع كسب وعمل ومهده كمنعه بسطه وهيّأه والمهد للصّبي السّرير الذي هيّأ له ويقال بالفارسيّة گهواره، في نسخة الشارح المعتزلي وأمهدوا له من باب الأفعال أي اتخذوا له مهاراً أي بساطاً وفراشاً قال سبحانه: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٦] أي بئس ما مهّد لنفسه في معاده.

و**(الرمس)** التراب تسميته بالمصدر ثم سمّى به القبر ويجمع على أرماس ورموس مثل فلس وفلوس ورمست الميّت رمساً من باب قتل دفنته وأرمسته بالألف لغة و**(أبلس)** الرّجل إبلاساً حزن وسكت من غم وأيس فلان آيس قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٤٤] ومنه سمّى إبليس لإياسه من رحمة الله تعالى.

و **(طلع)** الشمس طلوعاً ظهر قال الفيومي: كلّ ما بدا لك من علوّ فقد طلع عليك، وطلعت الجبل طلوعاً يتعدّى بنفسه أي علوته وطلعت فيه رفعته، وأطلعت زيداً على كذا مثل أعلمته وزناً ومعنى فاطلع على افتعل أي أشرف عليه وعلم به، والمطّلع مفتعل اسم مفعول موضع الاطلاع من المكان المرتفع إلى المكان المنخفض، وهول المطّلع من ذلك شبه ما يشرف عليه من أمور الآخرة بذلك، وقال الطريحي وفي الدّعاء، وأعوذ بك من هول المطلع، بتشديد الطاء المهملة والباء للمفعول أمر الآخرة وموقف القيامة الذي يحصل الاطلاع عليه بعد الموت.

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٥٥ ح١٩٩٧٨، وبحار الأنوار: ٥٢/ ١٤٤ ح٦٣.

و(**استكت**) مسامعه أي ضمنت و(**اللّحد**) الشق في جانب القبر والجمع لحود مثل فلس وفلوس واللّحد بالضمّ لغة وجمعه ألحاد مثل قفل وأقفال ولحدت اللحد لحداً من باب منع حفرته ولحدت الميّت وألحدته جعلته في اللّحد.

و(**غمّه**) الشيء غمّاً من باب قتل غطاه ومنه قيل للحزن غمّ، لأنّه يغطي السرور و(**ردمت**) الثلمة ونحوها ردماً من باب قتل سددتها و(**صفح**) السّيف بفتح الصاد وضمّها عرضه، وهو خلاف الطول، والصفح بالفتح من كلّ شيء جانبه، والصّفحة مثله ويقال لكلّ شيء عريض صفيحة وصفيح ومنه الصّفيح الأعلى للسماء.

و(**السّنن**) محركة الطريقة و(**القرن**) محركة الحبل الذي يشدّ به البعير و(**الأشراط**) جمع شرط بالتحريك مثل أسباب وسبب وهو العلامة و(**الإفراط**) جمع فرط بالتحريك أيضاً وهو من يتقدّم القوم في طلب الماء يهيىء الدّلاء والإرشاء يقال: فرط القوم فروطاً من باب قعد إذا تقدّم لذلك يستوي فيه الواحد والجمع يقال: رجل فرط وقوم فرط، ومنه يقال للطفل الميّت: اللّهمّ اجعله فرطاً، أي أجراً متقدّماً، وفي بعض النسخ بإفراطها مصدر أفرط يقال أفرط في الشيء إفراطاً أي تجاوز عن الحدّ وبلغ الغاية.

و(**الكلاكل**) جمع كلكل وهو الصّدر ويقال للأمر الثقيل: قد أناخ عليهم بكلكله، أي هدّهم ورضّهم كما يهدّ البعير البارك من تحته بصدره و(**انصرفت الدنيا**) وفي بعض النسخ وانصرمت بمعنى انقضت و(**الموقف**) وزن مسجد موضع الوقوف و(**ذكى**) النار بالذال المعجمة وذكّيتها بالتثقيل أي أتممت وقودها.

و(**الوقود**) بالضم المصدر من وقدت النار وقداً ووقداً ووقدة وقوداً ووقداناً اشتعلت وبالفتح ما يوقد به قال الشارح المعتزلي: ووقودها ههنا بضم الواو وهو الحدث، ولا يجوز الفتح لأنّه ما يوقد به كالحطب ونحوه، وذاك لا يوصف بأنه ذاك، وأقول أن أغمضنا عن ضبط النسخ فما ذكره من العلّة لا ينهض بإثبات كونه بالضم إذ كما يصحّ إن يقال نار تام الاشتعال، فكذلك يصحّ أن يقال نار تام الحطب، وهو ظاهر نعم لو علله بأنه عليه السلام جعله في مقابل الخمود وهو قرينة على كونه بالضمّ لأن الخمود إنما يقابل الاشتعال لكان حسناً.

و(**غمّ قرارها**) صفة مشبّهة من الغمّ بمعنى التغطية أو من غم اليوم فهو غمّ أي اشتد حرّه. فيأخذ بالنفس و(**المثوى**) بفتح الميم والعين المنزل والمقام من ثوى بالمكان وفيه أقام و(**زكا**) الرّجل يزكو إذا صلح فهو زاك.

وقوله (**فلا رجعة تنالون**) قال الشارح المعتزلي: الرواية بضمّ التاء أي تعطون يقال أنلت فلاناً مالاً منحته، وقد روى تنالون بفتح التاء.

الإعراب

قوله: شكراً لأنعامه، منصوب على المصدر بغير لفظ فعله وهو أحمد لكون المراد بالحمد هنا الشكر بقرينة إنعامه، وعزيز الجند وعظيم المجد، منصوبان على الحال من الضمير في أستعينه وليس إضافتهما إلى المعرفة مانعة من حاليتهما لأنها إضافة لفظية لا تفيد إلا تخفيفاً فلا يخرجان من النكارة التي هي شرط الحال.

وجهاداً منصوب إلى الحال من فاعل قاهر لكونه بمعنى الفاعل أي مجاهداً وقال الشارح البحراني: إنّه انتصب نصب المصادر عن قوله قاهر من غير لفظه إذ في قاهر معنى جاهد، وعن دينه عن هنا بمعنى التعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ [التّوبَة: الآية ١١٤] وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هُود: الآية ٥٣] ويجوز إبقاؤها على معناها الاصلي بتضمين جهاداً معنى الذّب والدفع والإبعاد.

وجملة لا يثنيه منصوب المحل على الحالية أيضاً من فاعل دعا أو قاهر.

وقوله: وقبل بلوغ الغاية، ظرف مستقرّ متعلّق بمقدّر في محلّ الرّفع على الخبر قدم على مبتدئه وهو قوله: ما تعلمون أي ما تعلمونه حاصل قبل بلوغ الغاية، وجملة المبتدأ والخبر في محلّ النصب حال من فاعل كفى والرابط للحال هو الواو، والعجب من الشارح البحراني أنه جعل الواو للعطف وقال: قوله: وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون عطف على قوله قبل نزوله، وفيه من السماجة ما لا يخفى ومن في قوله: من ضيق بيان لما.

وقوله: فالله الله، منصوبان بالتحذير أي اتقوا الله، أو بالإغراء أي راقبوا الله أو اعبدوا له ونحو ذلك قال نجم الأئمة الرضي: وحكمة اختصاص وجوب الحذف يعني حذف العامل بالمحذر منه المكرر كون تكريره دالاً على مقارنة المحذر منه للمحذر بحيث يضيق الوقت إلاّ عن ذكر المحذر منه على أبلغ ما يمكن وذلك بتكريره ولا يتسع لذكر العامل مع هذا المكرر، وإذا لم يكرر الاسم جاز إظهار العامل اتفاقاً.

وقوله: في موقف، متعلق بصار، وقوله: شديد كلبها، وما يتلوه من المجرورات التي تنيف على عشرة كلها صفات بحال متعلّقات موصوفاتها.

وقوله: وكان ليلهم في دنياهم نهاراً، الموجود في النسخ برفع ليل ونصب نهار على أنهما معمولان لكان الناقصة قال الشارح البحراني: وفي نسخة الرضي بخطه كان ليلهم نهار برواية كان للتشبيه ونصب ليل ورفع نهار، وكذا في القرينة الثانية أعني قوله: وكان نهارهم ليلاً برواية كأنّ نهارهم ليل.

وقوله وكان قد نزل، كأن مخففة من المثقلة واسمها ضمير شأن مستتر، وقوله فلا رجعة تنالون ولا عثرة تقالون، كلمة لا لنفي الجنس، ورجعة وعثرة في بعض النسخ بالبناء على الفتح وفي بعضها بالنصب على إلغاء لا التّبرية عن العمل وجعلهما مفعولين مقدمين على فعليهما.

وقوله: ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم وهوى ألسنتكم، هكذا في بعض النسخ وعليه فيحتمل زيادة الباء في المفعول أي لا تحرّكوا أيديكم اه على حدّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٥] ويؤيّده ما في بعض النسخ من إسقاط الباء، ويحتمل عدم زيادتها بأن يجعل الباء للسببية والمفعول محذوفاً أي لا تحركوا الفتنة بأيديكم.

وقوله: وهوى ألسنتكم عطف على سيوفكم وفي بعض النسخ في هوى ألسنتكم فلفظة في للظرفية المجازيّة كما في قوله ﷺ: في النّفس المؤمنة مائة من الإبل أي في قتلها فالسّبب الّذي هو القتل متضمن للدّية تضمن الظرف للمظروف وهذه هي الّتي يقال إنّها للسببيّة وهذه الرواية أيضاً مؤيدة لكون الباء في قوله: بأيديكم للزيادة، ويحتمل عدم زيادتها عليها أيضاً بأن تجعل للاستعانة، فافهم.

ويروى في بعض النسخ هوى ألسنتكم بدون في والواو فيكون منصوباً بإسقاط الخافض أي لا تحرّكوا أيديكم لهوى ألسنتكم.

المعنى

إعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة من أعيان خطبه ﷺ وناصع كلامه ورايقه وفيها من لطايف البلاغة ومحاسن البديع وسهل التركيب وحسن السّبك خالية من التكلّف والعقادة ما لا يخفى، تكاد تسيل من رقتها وتنحدر انحدار الماء في انسجامها، كيف وخطيبه سلام الله عليه وآله قطب البلاغة الذي عليه مدارها، وإليه إيرادها وإصدارها، إن ذكرت الرقة فهو ﷺ سوق رقيقها، أو الجزالة فهو صفح عقيقها.

وهي مسوقة في معرض النصح والموعظة والأمر بالتقوى وأخذ الزاد ليوم المعاد والنهي عن الرّكون إلى الدّنيا والاغترار بزخارفها والتحذير عن الموت الذي هو هادم اللّذات وقاطع الأمنيات، والتذكير بما بعده من شدائد البرزخ وظلمات القبر وأهوال القيامة، وفورات السعير وسورات الزفير وغيرها مما تطلع عليها.

وافتتح كلامه بما هو أحقّ أن يفتتح به كلّ كلام فقال: **(أحمده شكراً لأنعامه)** أي لأجل كونه تعالى منعماً وكون النعم كلها من عنده صغيرها وكبيرها وحقيرها وخطيرها، فإن الشكر عليها موجب للمزيد دافع للعذاب الشديد.

روى في «**الصافي من العيون**» عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن تفسير الحمد لله فقال: «إن الله عرف عباده بعض نعمه عليهم جملاً إذ لايقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل لأنها أكثر من أن تحصى أو تعرف، فقال: قولوا: الحمد لله على ما أنعم به علينا»[١].

وقد مضى فصل وافٍ في تحقيق معنى الشكر وما يتعلّق به في شرح الفصل الأوّل من الخطبة الثانية.

(**واستعينه على وظائف حقوقه**) أي أطلبُ منه التوفيق والإعانة على حقوقه الواجبة والمندوبة التي وظيفتها عليّ وقدرها في حقي من الصوم والصلاة والخمس والزكاة والبرّ والصدقات وحج بيت الله والجهاد في سبيل الله ونحوها من العبادات الموظفة والطاعات المقررة.

قال: في تفسير الإمام عند تفسير سورة الحمد لله وإياك نستعين على طاعتك وعبادتك وعلى دفع شرور أعدائك وردّ مكائدهم والمقام على ما أمرت[٢].

وفي الاستعانة منه تعالى على وظائف حقوقه إشارة إلى أن القيام بمراسم حقوقه وتكاليفه لا يمكن إلا بإعانته وتوفيقه سبحانه.

وذلك لأن التكاليف الشرعية والحقوق الإلهية كلها على كثرتها موقوفة على القدرة والاستطاعة البدنية والمالية، والعبد من حيث وصف الإمكان فيه عاجز ضعيف في ذاته لا يقدر على شيء أصلاً إلاّ بإقدار الله سبحانه وإفاضة القوى الظاهرة والباطنة والإعانة منه مالاً وبدناً وهو مستلزم لاتصافه تعالى بالقدرة والقوّة والعظمة والجلال وهو معنى قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: الآية ١٥] أي الغني المستقل في ذاته والحميد المحمود في صفاته.

فهو القادر القاهر (**عزيز الجند**) ومالك الملك (**عظيم المجد**) فباعتبار قدرته وعزّة جنده يطلب منه الإعانة في الجهاد، فإن حزبه هم الغالبون، وباعتبار عظمته ومجده يطلب منه التوفيق والإمداد لإقامة مراسم حقوقه المؤدية إلى الرشاد في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، فعلم من ذلك أنه سبحانه بماله من صفة العزّة والعظمة مبدأ الاستعانة به على القيام بوظائف التكاليف ولذلك عقبه بذكر الوصفين وآثرهما على سائر أوصافه.

ولما كان أعظم حقوقه الموظفة وأهمها بالقيام به معرفة الرسول صلى الله عليه وآله والإذعان برسالته

---

(١) علل الشرائع: ٢/ ٤١٧، وبحار الأنوار: ٢٦/ ٢٧٤ ح١٧.

(٢) بحار الأنوار: ٨٩/ ٢٥٢، وتفسير الإمام العسكري (ع) ٤١ ح١٨.

اتبع ثنائه سبحانه وبالشهادة برسالته قضاء لحقه الأعظم وفرضه الأهم فقال: **(وأشهد أن محمداً** ﷺ **(عبده)** المنتخب **(ورسوله)** المصطفى **(دعا)** عباده **(إلى طاعته)** بالحكمة والموعظة الحسنة **(وقاهر أعداءه جهاداً عن دينه)** أي قهرهم وغلبهم حال كونه مجاهداً لهم لأجل نصب قوائم الدّين ورفع دعائم الإسلام، أو جاهدهم جهاداً طرداً لهم وإبعاداً عن هدم أركان الدّين وإطفاء أنوار اليقين **(لا يثنيه من ذلك)** أي لا يصرفه من الدعوة إلى الطاعة أو من جهاد الأعداء **(اجتماع على تكذيبه)** مع قلّة ناصريه وكثرة معانديه **(والتماس لإطفاء نوره)** أي طلبهم لإبطال ما جاء به من عند الحق مع اهتمامهم به وجدّهم فيه.

واستعار لفظ النور لما جاء به من دين الحق وقرنه بالإطفاء الملائم للمستعار منه فهو استعارة تحقيقية مرشحة، والجامع أنّ الدّين يهدي إلى الصّراط المستقيم ونضرة النعيم كما أن النور يهتدي به في الغياهب والظلمات إلى نهج الرشاد ومنهج الصّلاح والسّداد.

ولما ذكر الغرض الأصلي من البعثة والرسالة وهو الدّعوة إلى الدّين والطاعة ونبّه على أن جهاد الكافرين قد كان لحماية الدّين أردف ذلك بأمر المؤمنين بحماية حماه والمواظبة عليه إجابة لدعوة الرسول وقضاء لحق ما لهم من الإيمان فقال:

(فاعتصموا بتقوى الله) التي هي الزاد وبها المعاد، زاد رابح ومعاد منجح وتقواه عبارة عن طاعته وعبادته وخشيته وهيبته وهي عاصمة مانعة من عذاب النار وغضب الجبار، ولذلك أمرهم بالاعتصام بها وعلله بقوله **(فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروته)** أي محكماً مقبضه لا يخشى من انفصامه، واستعار لفظ الحبل لدين الإسلام وهو استعارة تحقيقية ورشحها بالوصف لوثاقة العروة والجامع أن التّمسك بدين الإسلام سبب النجاة عن الرّدى كما أنّ التمسّك بالحبل الموثوق به سبب السّلامة عن التردي.

وقد وقع نظير هذه الاستعارة في الكتاب الكريم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: الآيتان ١٠٢ ـ ١٠٣] أي بدينه الإسلام والإيمان به.

قال في «**الكشاف**»: قولهم اعتصمت بحبله يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته بامتساك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه. وأن يكون الحبل استعارة لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه والمعنى واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تفرّقوا عنه، أو واجتمعوا على التمسك بعهده إلى عباده وهو الإيمان والطاعة.

وربما استعير للإسلام لفظ العروة قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ

﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦] قال الصادق عليه السلام: «هي الإيمان بالله وحده لا شريك له».

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: الآية ٢٢] .

وبالجملة فقد أمر أمير المؤمنين عليه السلام بالاعتصام بالتقوى معللاً بأن لها حبلاً وثيق العروة، ففيه تنبيه على أن المعتصم بالتقوى متمسك بالحبل المتين والعروة الوثقى التي ليس لها انفصام ولا انقطاع، وهو الدّين القويم والحنيفيّة البيضاء، فيستفاد منه أن من لم يعتصم بها لم يتمسّك بالعروة الوثقى فقد ضلّ وغوى وتهوّر في النار وتردّى كما صرّح عليه السلام به في المختار المائة والسادس بقوله: «فمن يبتغ غير الإسلام ديناً تتحقق شقوته وتنفصم عروته وتعظم كبوته ويكن مآبه الحزن الطويل والعذاب الوبيل، هذا».

وعلل أخرى بقوله **(ومعقلاً منيعاً ذروته)** أي ملجأً مانعاً أعلاه لمن التجأ إليه من نيل المكروه.

والظاهر أنه استعار لفظ المعقل لمقام القرب من الحق فكما أن المعقل يمنع الملتجىء إليه من إصابة السّوء فكذلك التقرب إلى الله سبحانه يمنع المتقرّب من نيل المكاره والمساوىء، فيكون محصل المعنى أن من اعتصم بالتقوى فقد التجأ إلى معقل منيع وحصن حصين وذلك الحصن هو رضوان الله سبحانه والزلفى لديه.

قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥] وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية ٧٢] هذا.

وقد شبه عليه السلام نفس التقوى بالحصن والحرز في بعض كلماته وهو قوله في المختار المائة والأربعة والخمسين: اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه.

ولما أمر بالاعتصام بالتقوى عقبه وأكده بالأمر بالمسارعة إلى الموت فقال **(وبادروا الموت وغمراته)** أي شدائده وسكراته، ومعنى المبادرة إليه المسارعة إليه بالخيرات والصالحات قال سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: الآية ١٤٨] ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] أي سارعوا إلى أسباب المغفرة وموجباتها وهي الأعمال الصّالحة لتكون زاداً للموت ولما بعده من الشدائد والأهوال.

ففي الحقيقة أمره عليه السلام بمبادرة الموت إلزام بالسّرعة إلى تهيئة الأسباب والمقدّمات النافعة عند قدومه، وإلا فلموت كلّ أحد أجل معيّن لا يتقدم عليه ولا يتأخر، وهو كذلك فلا يتصوّر فيه المسارعة والبدار قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٤].

ويوضح ما قلناه قوله عليه السلام **(وامهدوا له قبل حلوله)** فإنّه توضيح وتفسير للفقرة السابقة، أي اعملوا له واكتسبوا من صالح الأعمال لأجله قبل حلوله.

(وأعدّوا له قبل نزوله) أي هيّؤوا له من الحسنات والصالحات قبل نزوله، لأنّه إذا نزل والزاد معدّ والأسباب ممهدة والمقدمات مهيّأة فلا يكون في نزوله تكلّف ولا محنة، بل يكون بمنزلة ضيف عزيز في قدومه قرة عين للمضيف لكونه واسطة للوصول إلى محبوبه والنيل إلى مطلوبه وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ومن بيت الذل والمحنة إلى بيت العزو المنعة، ومن مجالسة الأشرار إلى مرافقة الأبرار.

فطوبى لمن كان موته سبباً للنزول على حظائر القدس ومجالس الأنس، وويل لمن لم يمهد الزاد ولم يدخر للمعاد وقدم عليه موته بلا مهاد فأخرجه إلى بيت وحدة ومنزل وحشة ومفرد غربة، فصار له من الصفح أجنان ومن التراب أكفان ومن الرّفات جيران، فقارب وسدّد واتق الله وحده ولا تستقل الزاد فالموت طارق هذا.

وعلل البدار إلى الموت وأخذ الزاد والمهاد له بقوله **(فإن الغاية القيامة)** إنذاراً وتحذيراً بذكر الغاية، وتنبيهاً على أنّ البلية ليست منحصرة في الموت والأمر بأخذ الزاد ليس لأجله فقط، بل هو أوّل منازل الآخرة والداهية الدّهياء والمصيبة العظماء آخر منازلها وهو يوم القيامة التي إليها مصير الخلائق ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: الآيتان ٤ ـ ٥] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحجّ: الآية ٢].

(وكفى بذلك واعظاً لمن عقل) أي كفى ذكر الموت وغمراته والقيامة وشدائدها، واعظاً للعقلاء **(ومعتبراً لمن جهل)** أي محلّ عبرة للجهلة والغافلين.

(و) الحال أن **(قبل بلوغ الغاية ما تعلمون)** وهو تحذير بأهوال البرزخ ودواهيه.

وفي إتيان المسند إليه بالموصول وإبهامه من التهويل والتفخيم ما لا يخفى، مثل قوله سبحانه: **﴿فغشيهم من أليم ما غشيهم﴾**.

ثمّ فسّر هذه الأهوال وفصّلها، لأن ذكر الشيء مبهماً ثمّ مفسّراً أوقع في النفوس فقال:

(من ضيق الأرماس) والقبور **(وشدّة الإبلاس)** أي الهم والغمّ والحزن بمفارقته من المال والأولاد والوطن وانقطاعه من الأحباب واحتباسه في سجن التراب **(وهول المطلع)** أي هول موقف الاطلاع ومقام الإشراف على الأمور الأخرويّة من الأهوال والإفزاع الّتي كان غافلاً عنها وكانت محجوبة منه فاطلع عليها وعاينها بعد الموت وارتفاع الحجاب قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: الآية ٢٢].

(وروعات الفزع) أي تارات الخوف ومراته قال الشارح البحراني: وإنّما حسن إضافة روعات إلى الفزع وإن كان الروع هو الفزع باعتبار تعدّدها وهي من حيث هي آحاد مجموع إفراد مهيّة الفزع. فجازت إضافتها إليها.

أقول: ومثل هذه الإضافة في كلامه عليه السلام غير عزيز كقوله: وسكائك الهواء في الخطبة الأولى، وقوله عليه السلام: لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم، في الخطبة التسعين.

وما ذكره الشارح من العلّة غير مطرد إذ قد ورد في كلامه عليه السلام لفظة رخاء الدّعة وهو من إضافة الشيء إلى نفسه بدون تعدد في المضاف.

قال نجم الأئمة الرضي وأمّا الإسمان اللذان ليس في أحدهما زيادة فائدة كشحط النوى وليث أسد فالفراء يجوز إضافة أحدهما للتخفيف: قال: إن العرب يجيز إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان، ثمّ قال الرضي: والإنصاف أن مثله لا يمكن دفعه ولو قلنا إن بين الاسمين في كلّ موضع فرقاً لاحتجنا إلى تعسفات كثيرة.

(واختلاف الأضلاع) أي اشتباكها الحاصل بضغطة القبر **(واستكاك الأسماع)** أي صممها الحاصل من شدّة الأصوات الهائلة، **(وظلمة اللّحد وخيفة الوعد)** أي خوف العذاب الموعود الذي وعده الله في كتابه وألسنة رسله، **(وغم الضريح)** أي الكرب الحاصل بضيق القبر بعد فتحه المنازل الدّنيويّة **(وردم الصّفيح)** أي سدّ الحجر العريض الّذي يسدّ به اللّحد.

وهذا كلّه تحذير للمخاطبين بما يحل عليهم بعد الموت وتذكير بأنهم سوف ينزلون من ذروة القصور في وهدة القبور ويستبدلون بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً وبالأهل غربة، وبالأمن خوفاً، وبالأنس وحشة، وبالنور ظلمة، وصارت الأجساد شحبة بعد بضّتها والعظام نخرة بعد قوتها، ليس لهم من عقوبات البرزخ فترة مريحة، ولا رعدة مزيحة، ولا قوة حاجزة، ولا موتة ناجزة، بين أطوار الموتات، وعقوبات الساعات.

(فالله الله عباد الله فإنّ الدّنيا ماضية بكم على سنن) أي على طريقة واحدة سبيل من مضى

قبلكم من السّلف الماضين والعشيرة والأقربين، فكما طحنتهم المنون وتوالت عليهم السّنون فأنتم مثلهم صائرون، وعلى أثرهم سائرون.

فكن عالماً أن سوف تدرك من مضى ولو عصمتك الراسيات الشواهق

(**وأنتم والساعة في قرن**) تهويل بالقيامة وقربها القريب كأنها وإياهم مشدودة بحبل واحد ليس بينهما فصل مزيد ولا أمد بعيد.

وأكّد زيادة قربها بقوله (**وكأنها قد جاءت بأشراطها**) ووجه التأكيد الإتيان بلفظة كأنّ المفيدة لتشبيهها في سرعة مجيئها بالتي جاءت، والإتيان بلفظة قد المفيدة للتحقيق، وبماضوية الجملة.

وقد أشير إلى قربها في غير واحدة من الآيات القرآنية.

قال سبحانه في سورة بني إسرائيل ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآيتان ٥١ ـ ٥٢] وفي سورة الأحزاب: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٣] وفي سورة النبأ: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبإ: الآية ٤٠] وفي سورة المعارج ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: الآيات ٤ ـ ٧] وفي سورة محمد ﷺ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمّد: الآية ١٨] أي علاماتها وإماراتها الّتي تدلّ على قربها.

روى في «**الصافي من العلل**» عن النبي ﷺ في أجوبة مسائل عبد الله بن سلام أما أشراط السّاعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب[١].

ومن «**الكافي**» عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة أن يفشو الفالج وموت الفجأة»[٢].

ومن «**روضة الواعظين**» عن النّبي ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويفشو الزّنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتّى أن الخمسين امرأة فيهنّ واحد من الرجال»[٣].

---

(١) علل الشرائع: ١/ ٩٥، ومعجم أحاديث الإمام المهدي (ع) ٢/ ٢٣٩.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٦١ ح٣٩، ومستدرك سفينة البحار: ٨/ ١٣٠.

(٣) روضة الواعظين: ٤٨٥، والتفسير الصافي: ٥/ ٢٤.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القمي عن أبيه عن سليمان بن مسلم الخشاب عن عبد الله بن جريح المكيّ عن عطاء بن أبي رياح عن عبد الله بن عبّاس قال: حججنا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة ثم أقبل علينا بوجهه فقال ﷺ: «ألا أخبركم بأشراط السّاعة؟» وكان أدنى منه يومئذ سلمان رضي الله عنه فقال: بلى يا رسول الله.

فقال ﷺ: «إن من أشراط القيامة إضاعة الصّلوات واتباع الشهوات والميل إلى الأهواء وتعظيم أصحاب المال وبيع الدّين بالدّنيا، فعندها يذوب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره»، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده إن عندها يليهم أمراء جورة ووزراء فسقة وعرفاء ظلمة وأمناء خونة»، فقال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سليمان إن عندها يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً ويؤتمن الخائن ويخون الأمين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق» قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان فعندها تكون إمارة النساء ومشاورة الإماء وقعود الصبيان على المنابر، ويكون الكذب ظرفاً والزكاة مغرماً والفيء مغنماً ويجفو الرجل والديه ويبرىء صديقه ويطلع الكوكب المذنب»، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: أي والّذي نفسي بيده يا سلمان وعندها تشارك المرأة زوجها في التجارة ويكون المطر قيضاً ويغيض الكرام غيضاً ويحتقر الرّجل المعسر فعندها تقارب الأسواق إذا قال هذا لم أبع شيئاً وقال هذا لم أربح شيئاً فلا ترى إلّا ذا مّا لله، قال سلمان: إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان فعندها يليهم أقوام إن تكلّموا قتلوهم وإن سكتوا استباحوهم ليستأثرون بفيئهم وليطؤون حرمتهم وليسفكنّ دماءهم وليملأن قلوبهم دغلاً ورعباً فلا تراهم إلا وجلين خائفين مرعوبن مرهوبين»، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان إن عندها يؤتى بشيء من المشرق وشيء من الغرب يلون أمّتي فالويل لضعفاء أمّتي منهم والويل لهم من الله لا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يتجافون «يتجاوزون خ» عن مسيء جثّته جثّة الآدميّين وقلوبهم قلوب

الشياطين»، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان وعندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ويركبن ذوات الفروج السّروج فعليهنّ من أمّتي لعنة الله» قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان إن عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع والكنائس وتحلّي المصاحف وتطول المنارات وتكثر الصفوف بقلوب متباغضة وألسن مختلفة»، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان وعندها تحلّي ذكور أمّتي بالذهب ويلبسون الحرير والدّيباج ويتخذون جلود النمور صفافاً»، قال سلمان: وإن هذ الكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان وعندها يظهر الربا ويتعاملون بالغيبة والرشاء ويوضع الّدين وترفع الدّنيا» قال سلمان: إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان وعندها يكثر الطلاق فلا يقام لله حدّ ولن يضر الله شيئاً» قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان وعندها تظهر القينات «المغنيات خ» والمعازف وتليهم أشرار أمّتي» قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان وعندها تحج أغنياء أمّتي للنزهة وتحج أوساطها للتجارة وتحج فقرائهم للرياء والسّمعة فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير الله ويتخذونه مزامير ويكون أقوام يتفقهون لغير الله ويكثر أولاد الزنا ويتغنون بالقرآن ويتهافتون بالدّنيا»، قال سلمان: إن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده، يا سلمان ذلك إذا انتهكت المحارم واكتسب المآثم وتسلّط الأشرار على الأخيار ويفشو الكذب وتظهر الحاجة «اللجاجة خ» وتفشو الفاقة ويتباهون في اللباس، ويمطرون في غير أوان المطر ويستحسنون الكوبة والمعازف وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتّى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذلّ من الأمة ويظهر قرّاؤهم وعبادهم فيها بينهم التلازم «خ التلاوم» فأولئك يدعون في ملكوت السّماوات الأرجاس الأنجاس» قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والذي نفسي بيده يا سلمان فعند ذلك لا يخشى الغني إلاّ الفقر حتى أن السائل يسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في كفّه شيئاً»، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: «أي والّذي نفسي بيده يا سلمان عندها يتكلّم الرويبضة» فقال: سلمان وما الرّويبضة يا رسول الله فداك أبي وأمي؟ قال: «يتكلّم في أمر العامة من لم يكن يتكلّم، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى تخور الأرض خورة فلا يظن كل قوم إلا أنّها خارت في ناحيتهم فيمكثون ما شاء الله ثم ينكثون في مكثهم فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها قال: ذهب وفضّة ثمّ أومى بيده إلى الأساطين فقال: مثل هذا، فيؤمئذ لا ينفع ذهب ولا فضّة فهذا معنى قوله: فقد جاء أشراطها»[1].

(وأزفت بأفراطها) أي قربت بمقدماتها فتكون عطف تفسير للجملة السابقة، وعلى رواية أفراطها بكسر الهمزة فالمعنى أنها قربت بتجاوزها عن الاعتدال في الشدائد والأهوال.

(ووقفت بكم على صراطها) نسبة الوقوف بهم إلى الساعة من باب المجاز العقلي، وقد مرّ تفصيل الكلام في الصراط في شرح الفصل السادس من فصول **«المختار»** الحادي والثمانين.

(وكأنها قد أشرفت بزلازلها) أي أشرفت عليكم بزلازلها الهائلة وكفى شاهداً على هولها وشدّتها تهويله تعالى منها وتفخيمه لها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: الآيتان ١ ـ ٢].

قال في **«مجمع البيان»**: معناه يا أيها العقلاء المكلفون اتقوا عذاب ربكم واخشوا معصية ربكم إن زلزلة الأرض يوم القيامة أمر عظيم هائل لا يطاق يوم ترونها أي الزلزلة أو أن الساعة تشغل كلّ مرضعة عن ولدها وتنساه وتضع كلّ ذات حمل حملها أي تضع الحبالى ما في بطونها، وفي هذا دلالة على أنّ الزلزلة تكون في الدّنيا فإن الرضاع ووضع الحمل إنّما يتصوّر فيها، ومن قال إن المراد به يوم القيامة قال إنّه تهويل لأمر القيامة وتعظيم لما يكون فيه من الشدائد، أي لو كان ثمّ مرضعة لذهلت أو حامل لوضعت وإن لم يكن هناك حامل ولا مرضعة؛ وترى الناس سكارى من شدّة الخوف والفزع، وما هم بسكارى من الشراب

(١) معجم أحاديث الإمام المهدي (ع): ٢/ ٢٢٠، والتفسير الصافي: ٥/ ٢٧.

ولكن من شدّة العذاب يصيبهم ما يصيبهم[١].

وقوله **(وأناخت بكلاكها)** تمثيل لهجومها عليهم بأهاويلها الهائلة ورضها لهم بشدائدها الفادحة بإناخة الجمل المناخ الّذي ترض من تحته بثقله ويهده بكلكله فيكون استعارة تمثيليّة، أو أنه شبهها بالجمل الفادح بحمله على سبيل الاستعارة بالكناية فيكون إثبات الكلكل تخييلاً والإناخة ترشيحاً، والأوّل أظهر.

وإنّما أتى بجمع لفظ الكلاكل مبالغة في شدة أهوالها وتنبيهاً على كونها كثيرة متعددة، هذا.

ولما ذكر أن الغاية القيامة ونبّه على قربها وحذر بأهوالها وبأهوال البرزخ الّذي قبلها، أردف ذلك بالتنبيه على زوال الدّنيا وفنائها وسرعة انقضائها فقال **(وانصرفت الدّنيا بأهلها)** أي ولّت وأدبرت ظاهر مساق الكلام يعطي كون هذه الجملة معطوفة على جملة أشرفت وأناخت، لكنّه يأبى عنه أن الجملتين السابقتين خبران لقوله كأنها وهذه الجملة لا يصح جعلها خبراً، لأن الضمير في كأنّها راجع إلى الساعة فلا يكون ارتباط بين اسم كان وخبرها إلاّ أن يجعل الضمير فيها ضمير القصّة ولكنه يبعده أن كأنّها هذه عطف على قوله وكأنّها قد جاءت، والضمير في المعطوف عليها راجع إلى الساعة قطعاً فليكن في المعطوفة كذلك.

وبعد هذا كلّه فلا مناص إلاّ أن يجعل الجملة مستأنفة غير مرتبطة على سابقتها ولا بأس بذلك، لأن الجملات السابقة في بيان أهوال الساعة، وهذه الجملة وما يتلوها في بيان أحوال الدّنيا.

وممّا حققنا ظهر فساد ما قاله الشارح البحراني حيث قال: **(لما كانت الأفعال من قوله: وأناخت إلى قوله: وصار سمينها غثاً)**، معطوفاً بعضها على بعض دخلت في حكم الشبه أي وكأن الدّنيا قد انصرفت بأهلها وكأنّكم قد أخرجتم من حضنها إلى آخر الأفعال، والمشبه الأوّل هو الدّنيا باعتبار حالها الحاضرة، والمشبه به هو انصرافها بأهلها وزوالهم، ووجه الشبه سرعة المضي أي كأنّها من سرعة أحوالها الحاضرة كالتي وقع انصرافها، وكذلك الوجه في باقي التشبيهات انتهى.

وملخص وجه الفساد إن القواعد الأدبيّة آبية من عطف الجملات بعضها على بعض.

وقوله: **(وأخرجتهم من حضنها)** استعارة بالكناية شبهها بالأم المربية لولدها في حضنها ثمّ أعرضت عنه وأخرجته من حضن تربيته وأسلمته إلى نفسه **(فكانت)** نسبتها إلى أهلها في

(١) تفسير مجمع البيان: ٧/ ١٢٧.

قصر الزمان وقلة المدّة (**كيوم مضى أو شهر انقضى**).

وأشار إلى تغيّر ما فيها وفساده بقوله: (**وصار جديدها رثاً**) أي خلقاً بالياً (**وسمينها غثاً**) أي رثيثاً مهزولاً قال الشارح البحراني: والسمين والغث يحتمل أن يريد بهما الحقيقة، ويحتمل أن يكنّى به عن ما كثر من لذاتها وخيراتها وتغيّر ذلك بالموت والزوال.

أقول: لا وجه لجعل الاحتمال الثاني في مقابل الاحتمال الأوّل قسيماً له، بل هما كنايتان ولا ينافيها إرادة الحقيقة لما قد مرّ في ديباجة الشرح من أنّ الكناية استعمال اللفظ في غير ما وضع له مع جواز إرادة ما وضع له.

ثمّ الظاهر أنّهما كنايتان عما عليه أهل المحشر من كون أجسادهم شحبة بعد بضّتها وعظامهم وهنة بعد قوتها لشدّة ما عاينوه من الأهوال والشدائد.

وقوله (**في موقف ضنك المقام**) أي صار جديدها وسمينها رثاً وغثاً في موقف القيامة، ووصفه بالضّنك والضيق لكثرة الخلائق ومزيد ازدحامهم فيه ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجمعون إلى ميقات يوم معلوم﴾.

أو لصعوبة الوقوف به وطوله مع تراكم الدواهي والأهاويل العظيمة وعدم إمكان المخلص منها ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القِيامَة: الآيات ٧ ـ ١٢].

(**وأمور مشتبهة عظام**) أراد بها أهاويلها العظيمة الملتبسة التي أوجبت التحير في وجه الخلاص منها والنجاة عنها، فهم فيها تائهون هائمون حائرون.

وإن شئت أن تعرف تفصيل ما تضمّنه هاتان الفقرتان من هول موقف القيامة وضيق مقامها ومزيد زحامها وزيادة شدّتها وطول مدّتها والتباس أمورها فعليك بما يتلى عليك من أنبائها.

فنقول: إن يوم القيامة يوم عظيم شأنه، مديد زمانه، قاهر سلطانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت. والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كوّرت، والجبال قد سيّرت، والعشار قد عطّلت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجّرت، والنفوس مع الأبدان قد زوّجت، والجحيم قد سعّرت، والجنّة قد أزلفت، والأرض قد مدّت.

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها. وأخرجت أثقالها.

فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقّت السّماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

يوم تذهل فيه كلّ مرضعة عما أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد.

يوم يمنع فيه المجرم من الكلام، ولا يسأل فيه عن الإجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام.

يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمد بعيد.

يوم تعلم فيهِ كلّ نفس ما أحضرت، وتشهد ما قدّمت وأخّرت.

يوم يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه يوم لا يقدرون أن ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، وعلى النار يفتنون، ولا ينفع مال ولا بنون.

يوم تبلى فيه السرائر وتبدى الضمائر وتردّ فيه المعاذير.

يوم تكشف الأستار وتخشع الأبصار وتنشر الدواوين وتنصب الموازين.

يوم تسكن فيه الأصوات ويقل الالتفات، وتبرز الخفيّات، وتظهر الخطيئات.

يوم يساق العباد، ومعهم الأشهاد، ويشيب الصغير، ويهرم الكبير.

يوم تغيّرت الألوان وخرس اللّسان ونطق جوارح الإنسان وبرّزت الجحيم وأغلى الحميم، وسعّرت النّار، وبئس الكفار.

وتفكر في طول هذا اليوم الّذي تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم، منفطرة قلوبهم، لا يكلّمون ولا ينظر في أمورهم، يقفون ثلاثة مائة عام لا يأكلون فيه أكلة، ولا يشربون فيه شربة، ولا يجدون فيه روح النسيم، ولقد أفصح عن طوله الكتاب الكريم وأبان عنه ذو العرش العظيم في سورة المعارج بقوله: **﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبرا جميلا﴾**.

وتأمل في ازدحام الخلائق واجتماعهم في موقف يجمع فيه أهل السّماوات السبع والأرضين السبع: من ملك، وجنّ، وإنسان، ووحش، وطير، وسبع، وشيطان، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرّها، وتبدّلت عما كان عليه من خفة أمرها، ثم أدنيت من رؤوس أهل العالمين مثل قاب قوسين، فأصهرتهم بحرّها، واشتد كربهم وغمّهم من وهجها، ثمّ تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام، واختلاف الأقدام، وضيق المقام،

وانضاف إلى ذلك شدّة الخجل والحياء، عند العرض على مليك الأرض والسماء، فاجتمع وهج الشمس وحرّ الأنفاس، واحتراق القلوب بنار الخوف، ففاض العرق من أصل كلّ شعرة حتّى سال على صعيد القيامة، ثمّ ارتفع على الأبدان فبعضهم بلغ العرق ركبتيه، وبعضهم إلى حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه.

قال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه، ومنهم من يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركبته، ومنهم من يبلغ فخذه، ومنهم من يبلغ خاصرته. ومنهم من يبلغ فاه فألجمها، ومنهم من يغطيه العرق» وضرب بيده على رأسه هكذا[1].

فتدبر أيّها العاصي والجاهل القاسي في هول ذلك اليوم وطول تعبه، وشدّة كربه وفيما عليه أهله من ضيق المقام، وطول القيام، ومساءة الحال، وعظم الشفق من سوء المآل، فمنهم من يقول ربّ أرحني من هذا الكرب والانتظار، ولو إلى النار.

وكلّ ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا كتاباً ولم يصيبوا عذاباً ولا عقاباً،

فكيف إذا فرغوا من الحساب وعاينوا الكتاب وحقّت عليهم كلمة العذاب.

فبيناهم وقوفاً ينتظرون ويخافون العطب، ويشفقون سوء المنقلب إذ نادى مناد من عند ذي العرش المجيد ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: الآية ٢٤].

فيبادر إليهم الزبانية بمقامع من حديد، ويستقبلونهم بعظائم التهديد، ويسوقونهم إلى العذاب الشديد **(و)** يدخلونهم في **(نار شديد كلبها)** أي شرّها وأذيها وحارتها **(عال لجبها)** أي صوتها وصياحها أو اضطراب أمواجها كالبحر الزخار **(ساطع لهبها)** أي شعلتها **(متغيظ زفيرها)** أي صوتها الناشىء من توقدهامتّصف بالهيجان والغليان.

قال الشارح البحراني: ولفظ التغيّظ مستعار للنّار باعتبار حركتها بشدّة وعنف كالغضبان انتهى.

وهذا التغيظ قد نطق به القرآن في سورة الفرقان قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفُرقان: الآيتان ١١ ـ ١٢] قال: بعض المفسرين التغيظ الصوت الذي يهمهم به المغتاظ، والزفير صوت يخرج من الصدر، وعن ابن عرفة أي من شدة الحريق تغيظت الهاجرة إذا اشتد حميمها فكان المراد الغليان.

---

(١) صحيح ابن حبان: ١٦/ ٣٢٤، والمعجم الكبير: ١٧/ ٣٠٢.

(متأجج سعيرها) أي متوقد ومتلهّب نارها المتحرقة **(بعيد خمودها)** أي سكونها **(ذاك وقودها)** أي وقودها متّصف بشدّة الوهج والاشتعال **(مخوف وعيدها)** قال بعض الشارحين أي توعدها لأهلها بإنطاقه سبحانه إيّاها أو كناية عن اشتدادها تدريجاً **(غمّ قرارها)** أي متغطّى قعرها وقرارها بحيث لا يكاد أن يدرك بالبصر لظلمته أو غاية عمقه أو تراكم لهبه.

وفي نسخة الشارح البحراني: عم قرارها، بالعين المهملة قال: أسند العمى إلى قرارها مجازاً باعتبار أنه لا يهتدي فيه لظلمته أو لأن عمقها لا يوقف عليه لبعده.

(مظلمة أقطارها) أي أطرافها وجوانبها **(حامية قدورها فظيعة أمورها)** أي شديدة شنيعة بلغت الغاية في الشدّة والشناعة، هذا.

وقد مضى فصل واف من أوصاف الجحيم وأهله في شرح الفصل الثالث من المختار المائة والثمانية وإنما فصّل عليه السلام هنا بعضها تخويفاً منها وتحذيراً عنها وتنفيراً عن المعصية ومتابعة الهوى الموقعة فيها وترغيباً إلى الزهد والتقوى العاصمة منها، لأن حقيقة التقوى هو أخذ الوقاية من النار ومن غضب الجبّار.

ولما ذكر سوء حال المجرمين أردفه بشرح حال المتقين حثّاً على اقتفاء آثارهم واقتباس أنوارهم فقال:

(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً) اقتباس من الآية الشريفة في سورة الزمر وآخرها **﴿حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخولها خالدين﴾** أي يساقون المتّقون إسراعاً بهم إلى دار الكرامة مكرمين زمرة بعد زمرة أي أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلوّ الدّرجة ويساقون راكبين كما عرفت في شرح الفصل التاسع من «**المختار**» الأول، حتّى إذا جاؤوها وقد فتحت أبواب الجنّة لهم قبل مجيئهم انتظاراً بهم، وقال لهم خزنتها عند استقبالهم: سلام عليكم أي سلامة من الله عليكم يحيّونهم بالسلامة ليزدادوا بذلك سروراً، طبتم أي طبتم بالعمل الصّالح في الدّنيا وطابت أعمالكم الصّالحة أو طاب مواليدكم لا يدخل الجنّة إلاّ طيب المولد، فادخلوا الجنّة خالدين مخلّدين وقد مضى فصل واف في وصف الجنّة وأوصاف أهلها في شرح الفصل التّاسع من «**المختار**» الأوّل وشرح الفصل الثالث من «**المختار**» المائة والثمانية.

وقوله **(قد أمن العذاب وانقطع العتاب وزحزحوا عن النار واطمأنت بهم الدار ورضوا المثوى والقرار)** أراد أنهم يساقون إلى الجنّة حال كونهم مأمونين من العقاب والعذاب، منقطعاً عنهما خطاب العتاب، مبعدين عن النار، مطمئنين بالدار راضين بالمثوى والقرار، أي بالمقام والمقر.

ونسبة مطمئنة إلى الدار من المجاز العقلي والإسناد إلى المكان أو من الكلام من باب

الاستعارة بالكناية فإنّ الدّار لما كانت مخلوقة لأجلهم معدّة لهم كما قال عزّ من قائل: ﴿**جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**﴾ شبهها بالمنتظر لقدوم محبوبه، حتى إذا قدم إليه ارتفع عنه الانتظار وحصل له الاطمئنان، فتكون الدار استعارة بالكناية وذكر الاطمئنان تخييلاً للاستعارة.

وأما كونهم راضين بالمثوى والقرار فلأجلِ ما أعدّ لهم فيها من جميع ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال سبحانه: ﴿**فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية**﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: الآيتان ٧ ـ ٨].

وهم (**الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية**) أي طيبة طاهرة من شوب الشرك والرّياء أو متصفة بالصلاح والسداد (**وأعينهم باكية**) من خشية الله والخوف من عذابه والإشفاق من عقابه.

والروايات في فضل البكاء من خشيته سبحانه كثيرة جداً ونشير إلى بعضها فأقول:

روى في «الوسائل» عن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حدي المناهي قال: «ومن ذرفت عيناه من خشية الله كان له بكلّ قطرة قطرت من دموعه قصر في الجنة مكلّل بالدّر والجواهر فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١).

وفيه من ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس شيء إلاّ وشيء يعدله إلاّ الله فإنه لا يعدله شيء ولا إله إلا الله لا يعدله شيء ودمعة من خوف الله فإنه ليس لها مثقال فإن سالت على وجهه لم يرهقه قتر ولا ذلة بعدها أبداً»(٢).

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كل عين باكية يوم القيامة إلاّ ثلاثة أعين: عين بكت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله وعين باتت ساهرة في سبيل الله»(٣).

وعن الرضا عليه السلام قال: «كان فيما ناجى الله به موسى عليه السلام أنه ما تقرب إليّ المتقربون بمثل البكاء من خشيتي، وما تعبد لي المتعبدون بمثل الورع عن محارمي ولا تزين لي

---

(١) الأمالي: ٥١٧، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٢٣ ح١٥.

(٢) ثواب الأعمال: ٣، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٢٥ ح٢٠٣٣٨.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٣١٨ ح٩٤٢، والخصال: ٩٨ ح٤٦.

المتزينون بمثل الزهد في الدّنيا عما يهم الغنى عنه، فقال موسى عليه السلام: يا أكرم الأكرمين فما أثبتهم على ذلك؛ فقال: يا موسى أما المتقرّبون لي بالبكاء من خشيتي فهم في الرفيق الأعلى لا يشركهم فيه أحد، وأما المتعبدون لي بالورع عن محارمي فإني أُفتش الناس عن أعمالهم ولا أُفتشهم حياء منهم، وأما المتزينون لي بالزهد في الدنيا فإني أبيحهم الجنة بحذافيرها يتبوّؤن منها حيث يشاؤون»[١].

وفيه من **«العيون»** عن الحسن بن علي العسكري عن آبائه عليهم السلام قال: قال الصادق عليه السلام «أن الرجل ليكون بينه وبين الجنة أكثر مما بين الثرى إلى العرش لكثرة ذنوبه فما هو إلاّ أن يبكي من خشية الله عزّ وجلّ ندماً عليها حتى يصير بينه وبينها أقرب من جفنه إلى مقلته»[٢].

وفيه من **«الكافي»** عن أبي عبد الله عليه السلام: «ما من شيء إلاّ وله كيل ووزن إلاّ الدّموع فإنّ القطرة تطفيء بحاراً من نار، فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة، فإذا فاضت حرّمها الله على النار، ولو أنّ باكياً بكى في أمة لرحموا»[٣].

وفي «عدّة الدّاعي» لأحمد بن فهد الحلّي قال: وفيما أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: «يا عيسى ابن البكر البتول ابك على نفسك بكاء من قد ودّع الأهل وقلى الدّنيا وتركها لأهلها وصارت رغبته عند إلهه»[٤].

وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام لما كلم الله موسى عليه السلام قال: «إلهي ما جزاء من دمعت عيناه من خشيتك؟ قال: يا موسى أقي وجهه من حرّ النّار وآمنه يوم الفزع الأكبر»[٥].

وفيه عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: «ما من قطرة أحبّ إلى الله من قطرة دموع في سواد اللّيل مخافة من الله لا يراد بها غيره»[٦].

وفيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة الوداع: «ومن ذرعت عيناه من خشية الله كان له بكلّ قطرة من دموعه مثل جبل أحد تكون في ميزانه من الأجر، وكان له بكلّ قطرة عين من الجنّة على حافتها من المدائن والقصور ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر»[٧].

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٢٢٦ ح٢٠٣٤١.
(٢) عيون أخبار الرضا: ١/ ٦ ح٤، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٢٧.
(٣) الكافي: ٢/ ٤٨١ ح١، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٢٧ ح٢٠٣٤٣.
(٤) الأمالي: ٦٠٧، ووسائل الشيعة: ٧/ ٧٧ ح٨٧٧٦.
(٥) بحار الأنوار: ٩٠/ ٣٢٨ ح١، وعدة الداعي: ١٥٧.
(٦) الكافي: ٢/ ٤٨٢ ح٣، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٢٨.
(٧) عدة الداعي: ٩٩، وبحار الأنوار: ٨/ ١٩١ ح١٦٨.

وفيه عن أبي جعفر عليه السلام أن إبراهيم النبي عليه السلام قال: إلهي ما لعبد بلّ وجهه بالدموع من مخافتك؟ قال الله تعالى: ﴿جزاؤه مغفرتي ورضواني يوم القيامة﴾ ـ إلى غير هذه مما لا نطيل بروايتها.

ثم وصف المتقين بوصفين آخرين.

أحدهما قوله (وكان ليلهم في دنياهم نهاراً تخشعاً واستغفاراً) يعني أنهم يسهرون لياليهم ويقومون من مضاجعهم ويتركون لذة الرقاد اشتغالاً بمناجاة رب العباد، فيجعلون ليلهم بمنزلة النهار في ترك النوم والقرار ويقومون بين يدي الرب المتعال بالخضوع والخشوع والتضرع والابتهال، ويواظبون على الدعاء والصلاة والاستغفار إلى أن يذهب الليل ويؤب الفجر والنهار.

وقد مدحهم في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧] وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا قام العبد من لذيذ مضجعه والنعاس في عينيه ليرضي ربّه عزّ وجلّ لصلاة ليله باهى الله به ملائكته فقال: أما ترون عبدي هذا قد قام من لذيذ مضجعه إلى صلاة لم أفرضها عليه، أشهدوا أنّي غفرت له»[1].

وقد مضى أخبار كثيرة في فضل صلاة الليل وقيامه في شرح الفصل السادس من الخطبة الثانية والثمانين وفي شرح الخطبة المائة والثانية والثمانين.

وأقول هنا مضافاً إلى ما مر: يكفي في فضل قيامه أمر الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله به في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المُزمّل: الآيات ١-٦].

قال أمين الإسلام الطبرسي: المعنى يا أيها المتزمل بثيابه المتلفف بها، قم اللّيل للصلاة إلاّ قليلاً من اللّيل نصفه، بدل من الليل أي قم نصف الليل أو انقص من النصف أو زد على النصف، وقال المفسرون: أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث أو زد على النصف إلى الثلثين.

وقوله: ورتل القرآن ترتيلا روى في «**الصافي من الكافي**» عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: بيّنه بياناً ولا تهذّه هذّ الشعر ولا تنثره نثر الرّمل، ولكن أفرغوا قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة.

---

(١) بحار الأنوار: ٨٤/١٥٦ ح٤٠، ووسائل الشيعة: ٨/١٥٧ ح١٠٢٩٧.

إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ـ قيل أي القرآن، لأنه لما فيه من التكاليف ثقيل على المكلفين، قال عليّ بن إبراهيم القمي: قولاً ثقيلاً قال عليه السلام قيام الليل وهو قوله أن ناشئة الليل الآية، وقيل: أي النفس التي تنشأ من مضجعها للعبادة أي تنهض أو العبادة التي تنشأ بالليل أي تحدث، وفي المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا: هي القيام في آخر الليل إلى صلاة الليل.

هي أشدّ وطأةً: أي أكثر ثقلاً وأبلغ مشقة، لأن الليل وقت الراحة والعمل يشق فيه، ومن قرء وطاء بالمد فالمعنى أشدّ مواطأة للسمع والبصر يتوافق فيه قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفكر والتفهم إذ القلب غير مشتغل بشيء من أمور الدّنيا.

وأقوم قيلا: أي أسدّ مقالاً وأصوب «خ أثبت» للقراءة، لفراغ البال وانقطاع ما يشغل القلب، هذا.

وفي «عدة الداعي» عن النبي صلى الله عليه وآله من كان له حاجة فليطلبها في العشاء فإنّها لم يعطها أحد من الأمم قبلكم، يعني العشاء الآخرة[١].

وفي رواية في السّدس الأوّل من النصف الثاني من الليل، ويعضدها ما ورد من الترغيب والفضل لمن صلّى اللّيل والنّاس نيام وفي الذكر في الغافلين، ولا شك في استيلاء النوم على غالب الناس في ذلك الوقت، بخلاف النصف الأوّل، فإنّه ربما يستصحب الحال فيه النهار، وآخر اللّيل ربما انتشروا فيه لمعايشهم وأسفارهم، وإنّما مخّ اللّيل هو وقت الغفلة وفراغ القلب للعبادة، لاشتماله على مجاهدة النفس ومهاجرة الرقاد ومهاجرة وثير المهاد والخلوة بمالك العباد وسلطان الدّنيا والمعاد، وهو المقصود: ومن جوف الليل وهي ما رواه عمر بن أذينة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ في الليل ساعة ما يوافق فيها عبد مؤمن يصلّي ويدعو الله فيها إلا استجاب له، قلت: أصلحك الله وأيّ ساعة الليل هي؟ قال: إذا مضى نصف الليل، وبقي السّدس الأوّل من النصف الثاني.

وأمّا الثلث الأخير فمتواتر قال: صلى الله عليه وآله: إذا كان آخر الليل يقول الله سُبحانه وتعالى: **﴿هل من داع فأجيبه هل من سائل فأعطيه سؤاله هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه﴾**[٢].

وروى إبراهيم بن محمود قال: قلت للرضا عليه السلام: ما تقول في الحديث الّذي يرويه

(١) مستدرك الوسائل: ٥/ ٢٨٢ ح٥٨٥٨، بحار الأنوار: ٨٤/ ١٦٧.

(٢) الأمالي: ٤٩٦، ووسائل الشيعة: ٧/ ٦٩ ح٨٧٤٩.

الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: إن الله تعالى ينزل في كلّ ليلة إلى السماء الدّنيا؟ فقال عليه السلام: لعن الله المحرفين الكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك إنما قال صلى الله عليه وآله: إنّ الله تعالى ينزل ملكاً إلى السماء الدّنيا كلّ ليلة في الثلث الأخير وليلة الجمعة من أوّل اللّيل فيأمره فينادي: هل من سائل فأعطيه سؤاله، هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، يا طالب الخير أقبل، يا طالب الشر أقصر، فلا يزال ينادي بها حتى يطلع الفجر، فإذا طلع عاد إلى محلّه من ملكوت السماء، حدّثني بذلك أبي عن جدّي عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

إذا عرفت ذلك فأقول: طوبى لعبد يتجافى جنبه عن المضجع والمهاد، ويسلب عن عينه لذة الرقاد، ويشتغل بعبادة ربّ العباد، ويناجيه في غلس الظلام والناس نيام، تارة بالقعود والسجود، وأُخرى بالرُّكوع والقيام، فيقوم بحضرة الملك الجليل قيام العبد الذّليل ويجعل ذنوبه وخطاياه نصب عينيه فيبكي على حاله ويسأله أن يعفو عنه، ويرحم عليه. ويرفع إلى الله سبحانه المسكنة والسؤال، ويقول بالتضرّع والذل والابتهال:

طرقت باب الرّجا والناس قد رقدوا ... وجئت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت ما أملي في كل نائبة ... ومن عليه بكشف الضر أعتمد
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها ... مالي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالذّل خاضعة ... إليك يا خير من مدّت إليه يد
فلا تردّنها يا ربّ خائبة ... فبحر جودك يروي كل من يرد
يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا ... ارحم عبيداً أتوا بالذل قد نكسوا

الوصف الثاني قوله عليه السلام: **(وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً)** وهو من التشبيه البليغ المحذوف الأداة، وعلى رواية كأنّ بالتشديد فهو تشبيه اصطلاحي، وطرفاه حسيّان وقد أشير إلى وجه الشبه وهو التوحش والانقطاع، فيكون من التشبيه المفصّل المذكور فيه أركان التشبيه بحذافيرها، ومثله القرينة السابقة أعني قوله: وكان ليلهم نهاراً **(اهـ)** وما ذكرناه هنا آت ثمة حرفاً بحرف وكيف كان فالمراد إن المتقين جعلوا نهارهم بمنزلة اللّيل في التوحش من الخلق والاعتزال منهم والانقطاع عنهم إلى الله سبحانه والفراغ للعبادة والطاعة، وقد مضى تفصيل الكلام في فوائد الاعتزال والانقطاع بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الثاني من المختار المائة والثاني فليراجع ثمة.

---

(١) دعائم الإسلام: ١/ ١٨٠، والأمالي: ٤٩٦.

ولما وصف حال المتقين وتمحيضهم العبادة لله وخلوصهم في مقام العبودية واستيحاشهم من الخلق واستيناسهم بالخالق أراد أن ينبّه على ما منحه الله عليهم جزاء لعملهم فقال:

(فجعل الله لهم الجنة مآباً) أي مرجعاً ومنزلاً ومقيلاً كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: الآية ٥٠] وقال: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٨].

(والجزاء ثوابا) كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النَّبَإِ: الآيات ٣١ - ٣٦].

(وكانوا أحق بها وأهلها) أي بالجنّة وبأهلها من الحور العين والولدان المخلّدين، أو أنّه من التقديم والتأخير والتقدير كانوا أهلها وأحقّ بها أي كان المتّقون أهل الجنّة واحتسابها من الفاسقين والكافرين، أو المراد أنهم كانوا أحق بدخول الجنة وأهلاً لها، وعلى أيّ احتمال ففيه إشارة إلى أنهم بصالح أعمالهم استحقوا بذلك الجزاء الجميل والأجر الجزيل وكانوا أحق بتلك النعمة العظيمة.

وأشار إلى بقائها وعدم نفاذها بقوله: **(في ملك دائم ونعيم قائم)** كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ١٠ و١١].

ثمّ أكد الحث على التقوى بعبارة أخرى مرغبة إلى أخذها محذرة من تركها فقال: **(فارعوا عباد الله ما برعايته يفوز فائزكم وبإضاعته يخسر مبطلكم)** أي حافظوا على ما بحفظه ومواظبته يفوز الفائزون وهو التقوى وصالح العمل كما نطق به كتاب الله عزّ وجلّ قال: **﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾** وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٢٠].

وبإضاعته وتركه يخسر المبطلون أي الآخذون بالباطل وسيىء العمل، وهم التاركون للتقوى والمنهمكون في الزيغ والزلل قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٧].

(وبادروا آجالكم) الموعودة **(بأعمالكم)** الصالحة أي استعدوا للموت قبل حلول الفوت **(فإنكم مرتهنون بما أسلفتم)** من الذّنوب محتاجون إلى فك رهانتها.

قال الشارح البحراني: لفظ المرتهن مستعار للنفوس الآثمة باعتبار تقيدها بالسيّئة وإطلاقها بالحسنة كتقيد الرهن المتعارف بما عليه من المال وافتكاكه بأدائه **(ومدينون بما قدمتم)** أي مجزيّون به إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشراً.

ثمّ نبّه على قرب الموت منهم بقوله: **(وكأن قد نزل بكم المخوف)** أي أشرف عليكم وأظلكم **(فلا رجعة تنالون ولا عثرة تقالون)** يعني أنّه إذا نزل فليس بعد نزوله رجعة تعطوها ولا عثرة تقالون منها، لأن إقالة العثرات بالتوبة إنا تكون في دار الدّنيا، لأنها دار التكليف والعمل وأما الآخرة فهي دار الجزاء لا ينفع فيه الندّم والاستقالة، ولو قال أحدهم ربّ أرجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت قيل له: كلا إنّها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون.

(استعملنا الله وإياكم بطاعته وطاعة رسوله) هو دعاء للتوفيق والإعانة منه سبحانه على القيام بوظائف تكاليفه ومراسم طاعته **(وعفا عنا وعنكم بفضلـ)**ـه الواسع وكرمه السابغ و**(رحمته)** الّتي وسعت كلّ شيء، هذا.

ولما فرغ من نصح المخاطبين ووعظهم والدّعاء لهم بما اقتضته الحال والمقام، عقب ذلك كله بالأمر بلزوم الأرض والصبر على البلاء فقال:

و**(الزموا الأرض)** وهو كناية عن ترك النهوض إلى الحرب **(واصبروا على البلاء)** وأذى الأعداء، لأن الصبر مفتاح الفرج والله مع الصّابرين **(ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم وهوى ألسنتكم)** أي لا تحركوا شيئاً منها لإثارة الفتنة وقد مضى في تفسيرها احتمالات أخر في بيان إعرابها فتذكر، وأراد بهوى الألسنة هفوات اللّسان وسقطات الألفاظ من السّب والشّتم والنميمة والغيبة ونحوها من فضول الكلام المهيجة للفتنة والفساد الناشئة من هوى الألسنة وميلها إليها باقتضاء هوى النفس الإمارة.

(ولا تستعجلوا بما لم يعجّله الله لكم) أي لا تسرعوا بإتيان ما لم يفرض عليكم فيكون نسبة التعجيل إلى الله من باب المشاكلة أو المراد ما لم يفرضه عليكم فوراً بل متراخياً وبعد حين لفقدان شرطه أو اقتضاء المصلحة لتأخيره.

قال الشارح المعتزلي: أمر عليه السلام أصحابه أن يثبتوا ولا يعجلوا في محاربة من كان مخالطاً من ذوي العقائد الفاسدة كالخوارج، ومن كان يبطن هوى معاوية، وليس خطابه هذا تثبيطاً لهم عن حرب أهل الشام كيف وهو لا يزال يقرعهم ويوبخهم عن التقاعد والإبطاء في ذلك، ولكن قوماً من خاصته كانوا يطلعون على ما عند قوم من أهل الكوفة ويعرفون نفاقهم

وعنادهم ويرومون قتلهم وقتالهم، فنهاهم عن ذلك، وكان يخاف فرقة جنده وانتشار حبل عسكره فأمرهم بلزوم الأرض والصبّر على البلاء.

وقال الشارح البحراني: الخطاب خاص ممنّ يكون بعده، فأمره بالصّبر في مواطنهم وقعودهم عن النهوض لجهاد الظالمين في زمن عدم قيام الإمام بالحق بعده.

واحتمل بعض الشارحين أن يكون الأمر بالصبر عند استدعاء الأصحاب لحرب أهل الشام أو الخوارج في زمان يقتضي المصلحة تركه وتأخيره.

أقول: والأظهر ما قاله الشارح المعتزلي كما هو غير خفي على المتدبر.

وكيف كان فلما كان أمرهم بالصّبر والثبات موجباً ليأسهم مما كانوا يرجونه بالحرب من تحصيل السعادة والفوز بالثواب، تدارك ذلك جبراً لانكسار قلوبهم، وبشارة لهم بقوله:

(فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حقّ ربّه وحق رسوله وأهل بيته مات شهيداً) يعني من مات على فراشه مذعناً بتوحيد الله سبحانه ورسالة رسوله ﷺ معتقداً بإمامة الأئمة الهداة من أهل بيته لحق بدرجة الشهداء وفاز ثواب السعداء **(ووقع أجره على الله)** تعالى **(واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله وقامت النية مقام اصلاته بسيفه)** يعني أنه استحق ثواب ما كان قصده الإتيان به من العمل الصالح وقامت نيّته مقام سلّه بسيفه.

وملخصه أنّه إذا كان عارفاً بحق الله وحق رسوله وبولاية الأئمة عليهم السلام، وكان من نيّته الحرب لمن حارب الله ورسوله وقع أجره على الله سبحانه واستوجب الثواب الجميل والأجر الجزيل لقيام نيّته مقام فعله، ونيّة المؤمن خير من عمله، وقد مرّ نظير مضمون هذا الكلام منه عليه السلام في **«المختار»** الثاني عشر.

وعلل حسن الصبر وترك الاستعجال بقوله **(فإن لكلّ شيء مدّة وأجلاً)** لا ينبغي التسرع إليه قبل مضي تلك المدّة وحلول ذلك الأجل، وبالله التوفيق.

الترجمة

ازجمله خطب شريفهٔ آنحضرت است درترغيب بتقوی وپرهيزكاری وتحذير از أهاويل قيامت وشدايد برزخ وعقوبات دوزخ وتشويق بنعيم بهشت ميفرمايد :

شكر ميكنم خداوند را شكر كردنی ازبرای نعمت دادن او ، و استعانت ميكنم ازاو بروظيفهای حقهای او درحالتيكه غالب است لشكر او ، وبزرگ است بزرگواری او ، وشهادت ميدهم باينكه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم بندهٔ او ورسول اواست دعوت فرمود آنحضرت بسوی اطاعت او ، وغلبه كرد دشمنان اورا درحالتيكه جهاد كننده بود از برای دين او ، باز نميگردانيد اورا از دعوت بطاعت اتفاق كردن كفار برتكذيب او ، وطلب نمودن ايشان فرو نشاندن نور اورا .

پس تمسّك نمائيد بتقوی و پرهيزكاری از جهت اينكه مر تقوی را است ريسمانی كه محكم است گوشهٔ آن ، وپناه گاهی كه مانع است بلندی آن ، ومبادرت نمائيد بسوی مرگ درسختيهای آن ، ومهيانمائيد ازبرای آن مرگ پيش از حلول كردن او ، وآماده نمائيد ازبرای آن قبل ازنازل شدن او ، پس بدرستيكه منتهاإليه خلايق قيامت است ، وكفايت ميكند مرگ وقيامت درحالتيكه واعظ است مرصاحب عقل را درحالتيكه محلّ عبرتست مرصاحب جهل را .

وپيش از رسيدن غايـة كه قيامت است آنچيزيست كه ميدانيد شما از تنگی قبرها ، وشدّت مأيوسی ، وترس محلّ اطلاع وترسهای فزع عذاب وبهم در رفتن استخوانها ازفشار قبر ، وكرشدن گوشها ، وتاريكی لحد گور ، وترس وعدهٔ عذاب وپوشانيدن شكاف قبر ، واستوار كردن سنگهای بالای لحد .

پس بترسيد ازخدا ای بندگان خدا پس بدرستيكه دنيا گذرنده است بشما بر يكطريقه ، وشما وقيامت گويا بسته شده‌ايد بيك ريسمان ، وگويا كه روز قيامت آمده‌است باعلامتهای خود ، ونزديك بوده‌است بامقدّمات خود ، ونگه داشته است شمارا بالای صراط خود ، وگويا كه آن مشرف بوده بازلزلهای خود ، وفرو

خوابانيده سينهاى خودرا كه عبارتست ازسنگينيهاى آن، وروبر گرداننده دنياباهل خود ، وبيرون كرده ايشان را از كنار تربيت خود ، پس گشت دنيا بمنزلهٔ روزى كه گذشت ، وبمنزلهٔ ماهى كه بنهايت رسيد ، و گرديد تازهٔ او كهنه ، وفربه اولاغر در موقفى كه تنگ است محل ايستادن او ودركارهائى كه مشتبه اند وبزرگ ، ودر آتشى كه سخت‌است حدت وأذيت آن ، بلند است آواز آن ، درخشنده است شعلهٔ آن ، صاحب غيظ است صداى منكرآن ، برافروخته‌است آتش‌سوزاننده آن ، دور است خاموشى آن ، تمام است اشتعال آن ، ترسناكست وعدهٔ آن ، پوشيده‌است قعر آن ، تاريك است اطراف آن ، گرم است‌ديگهاى‌آن ، فضاحت دارد كارهاى آن .

ورانده شدند باسرعت كسانى كه پرهيزكارى پروردگار خود نمودند بسوى بهشت فوج فوج درحالتيكه أمن‌حاصل‌شده‌است ازعذاب ، وبريده شده سرزنش‌وعتاب ودوركرده شده‌اند ايشان ازآتش‌جحيم ، وآرام گرفته بايشان دارنعيم ، وخوشنود شده‌اند بمنزل ومقر ، چنان كسانيكه بود عملهاى ايشان در دنيا پاك پاكيزه ، وچشمهاى ايشان پراز گريه ، وبود شب ايشان بمنزلهٔ روز ازجهت خضوع وخشوع وطلب مغفرت ، وروز ايشان بمنزله شب از جهت وحشت ازخلق روزگار وبريده شدن از ايشان بسوى‌پروردگار، پس گردانيد خداوند عالم ازبراى ايشان بهشت‌را محل بازگشت ، وجزاى عمل ايشان را ثواب بى‌نهايت ، وبودند ايشان سزاوارتر ببهشت وأهل بهشت در پادشاهى دائمى ونعمت باقى .

پس رعايت كنيد اى بندگان خدا چيزيرا كه بسبب رعايت آن فايز شود راستكار شما ، وبسبب ضايع نمودن آن زيان ميبرد تبه‌كار شما ، و مبادرت نمائيد براجلهاى خودتان باعملهاى خود ، پس بدرستى كه شما گروگذاشته شده‌ايد بسبب آنچه كه پيش‌فرستاده‌ايد، وجزا داده‌شده‌ايدبجهت‌آنچه كه مقدم ساخته‌ايد، وگويا كه نازل شد بشما مرگ هولناك ، پس بعداز مرگ بازگشتنى نيست كه عطا كرده شويد ، ونه لغزشى كه عفو كرده شويد .

توفيق بدهد خداوند مارا وشمارا باطاعت خود واطاعت رسول خود ، و عفو فرمايد از ما واز شما بافضل واحسان خود ورحمت خود ، لازم بشويد وآرام باشيد درزمين خود ، وصبر نمائيد بربلا ، وحركت ندهيد دستهاى خود وشمشيرهاى‌خود وخواهشات زبانهاى خودتان را ، وتعجيل نكنيد بچيزيكه تعجيل نفرموده خداى تعالى آنرا از براى شما ، پس بدرستيكه آنكس كه مرد از شما بررختخواب خود درحالتى كه‌عارف‌باشدبحق‌پرورد گارخودوبحق‌رسول خود وبحق‌أهل‌بيت‌اومرده‌است درحالتى كه شهيد بوده ، وواقع شده أجر آن‌برخداى تعالى، ومستحق بوده بثواب آنچه نيت كرده بود ازعمل صالح خود، و نايب ميشود نيت او مناب بر كشيدن او شمشير خودرا ، پس‌بدرستى كه هرچيزيرا مدتى وأجلى است .

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والتسعون
من «المختار» في باب الخطب

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْفاشي «فِي الْخَلْقِ خ ل» حَمْدُهُ، وَالْغالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعالي جَدُّهُ، أَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ التُّوام، وَآلاَئِهِ الْعِظامِ، الَّذي عَظُمَ حلْمُهُ فَعَفَىٰ، وعَدَلَ في كُلِّ ما قَضَىٰ، وعَلِم ما «بماخ» يَمْضِي ومَا مَضَىٰ، مُبْتَدِعِ الْخَلاَئِقِ بِعِلْمِهِ، ومُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلاَ اقْتِداءٍ وَلاَ تَعْليم، وَلاَ احْتِذاءٍ لِمِثالِ صانِعٍ حَكِيمٍ، وَلاَ إِصابَةِ خَطَّاءٍ، وَلاَ حَضْرَةِ مَلاَءٍ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ وَالنّاسُ يَضْرِبُونَ في غَمْرَةٍ، ويَمُوجُونَ في حَيْرَةٍ، قَدْ قادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحينِ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلَىٰ أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفالُ الرَّيْنِ.

أَوصيكُمْ عِبادَ الله بِتَقْوَى الله، فَإِنَّها حَقُّ الله عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَىٰ اللَّهِ حَقَّكُمْ، وأَنْ تَسْتَعينُوا عَلَيْها بالله، وتَسْتَعِينُوا بها عَلَى الله، فَإِنَّ التَّقْوى في الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وفي غَدٍ الطَّريقُ إِلى الْجَنَّةِ، مَسْلَكُها واضِحٌ، وسالِكُها رابِحٌ، ومُسْتَوْدَعُها حافِظٌ، لَمْ تَبْرَحْ عارِضَةً نَفْسَها عَلَى الأُمَمِ الْماضِينَ وَالْغابِرينَ لِحاجَتِهِمْ إِلَيْها غَداً إِذا أَعادَ اللَّهُ ما أَبْدا، وأَخَذَ ما أَعْطَىٰ، وسَأَلَ مَا أَسْدَىٰ، فَما أَقَلَّ مَنْ قَبِلَها، وحَمَلَها حَقَّ حَمْلِها أُولئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحانَهُ إِذْ يَقُولُ - وقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ - فَأَهْطِعُوا بِأَسْماعِكُم إِلَيْها، وأَكِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْها، وَاعْتاضُوها مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً، ومِنْ كُلِّ مُخالِفٍ مُوافِقاً، أَيْقِظُوا بِها نَوْمَكُمْ، وَاقْطَعُوا بِها يَوْمَكُمْ، وأَشْعِرُوا بِها قُلُوبَكُمْ، وارْحَضُوا بِها ذُنُوبَكُمْ، وداوُوا بِهَا الأَسْقامَ، وبادِرُوا بِهَا الْحِمامَ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضاعها، ولاَ يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطاعَها، أَلاَ وَصُونُوها وتَصَوَّنُوا بِها.

وكُونُوا عَنِ الدُّنْيا نُزّاهاً، وإِلى الآخِرَةِ وُلاّهاً، ولاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَىٰ، ولاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيا، ولاَ تَشيمُوا بارِقَها، ولاَ تَسْمَعُوا ناطِقَها، ولاَ تُجِيبُوا ناعِقَها، ولاَ تَسْتَضيئُوا بِإِشْراقِها، ولاَ تُفْتَنُوا بِأَعْلاقِها، فَإِنَّ بَرْقَها خالِبٌ، ونُطْقَها كاذِبٌ، وأَمْوالَها مَحْرُوبَةٌ، وأَعْلاقَها مَسْلُوبَةٌ، أَلاَ وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ، والْجامِحَةُ الْحَرُونُ، وَالْمائِنَةُ الْخَؤُونُ، والْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ حالُهَا انْتِقالٌ، ووطأَتُها زِلْزالٌ، وعِزُّها ذُلٌّ، وجِدُّها هَزْلٌ، وعُلْوُها سِفْلٌ، دارُ حَرْبٍ وسَلَبٍ ونَهْبٍ وعَطَبٍ، أَهْلُها عَلَى سَاقٍ وسِياقٍ، ولَحاقٍ وفِراقٍ، قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذاهِبُها، وأَعْجَزَتْ مَهارِبُها، وخابَتْ مَطالِبُها، فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعاقِلُ، ولَفَظَتْهُمُ الْمَنازِلُ، وأَعْيَتْهُمُ الْمَحاوِلُ، فَمِنْ ناجٍ مَعْقُورٍ، ولَحْمٍ مَجْزُورٍ، وشِلْوٍ مَذْبُوحٍ، ودَمٍ مَسْفُوحٍ، وعاضٍ عَلَىٰ يَدَيْهِ، وصافِقٍ بِكَفَّيْهِ «الكَفَّيه خ»، وَمُرْتَفِقٍ بُخَدَّيْهِ، وزارٍ عَلَىٰ رَأْيِهِ، وراجِعٍ عَنْ عَزْمِه، وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحيلَةُ، وأَقْبَلَتِ الْغيلَةُ، وَلاتَ حِينَ مَناصٍ، وهَيْهاتَ هَيْهاتَ قَدْ فاتَ ما فاتَ، وذَهَبَ

ما ذَهَبَ، ومَضَتِ الدُّنْيا لِحالِ بالِها ـ فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ(١).

اللغة

(فشا) الخبر يفشو فشواً أي ظهر وشاع وانتشر، وأفشيته وفشت أمور النّاس افترقت وفشت الماشية مرحت و**(الجدّ)** العظمة وهو مصدر يقال منه جدّ في عيون النّاس من باب ضرب أي عظم والجدّ أيضاً الحظّ يقال وجدت بالشيء من باب تعب أي حظظت به، وقيل الجد أصله القطع، ومنه الجدّ العظمة لانقطاع كلّ عظمة عنها لعلوّها عليه ومنه الجدّ أبو أب الأَب لانقطاعه بعلوّ أبوته وكلّ من فوقه لهذا الولد أجداد والجدّ الحظ لانقطاعه بعلوّ شأنه، والجدّ خلاف الهزل لانقطاعه عن السخف ومنه الجديد لأنه حديث عهد بالقطع.

و**(التوأم)** جمع توأم وزن فوعل وهو أبو المقارن أخاه في بطن واحد وكلّ واحد من الولدين توأم وهذا توأم هذا وهذه توأمته، والجمع توائم مثل جندل وجنادل، ويجمع أيضاً على توام وزن فعال كما في هذه الخطبة.

و**(استغلقني)** بيعته واستغلق عليّ بيعته أي لم يجعل لي خياراً في ردّه و**(الرّين)** الدنس يقال: ران على قلبه ذنبه أي دنسه ووسخه و**(أهطع)** في عدوه أي أسرع وأهطع البعير إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه، وفي بعض النسخ بدل فأهطعوا فانقطعوا بأسماعكم، فلا بدّ من التضمين أي انقطعوا مستمعين بأسماعكم.

و**(أكظوا)** أمر من الكظ وهو الجهد يقال كظه الأمر جهده والكظاظ طول الملازمة وشدّة الممارسة، وفي بعض النسخ: وألظوا من ألظ في الأمر أي ألح فيه وألظ المطر أي دام في بعض النسخ: وواكظوا من المواكظة وهي المداومة على الأمر و**(الجدّ)** في الشيء بالكسر المبالغة والاجتهاد فيه و**(رحضت)** الثوب رحضاً من باب منع غسلته و**(شام)** البرق يشمه إذا نظر إليه انتظاراً للمطر و**(تصدّى)** له تعرّض و**(عنّ)** الشيء يعن من باب ضرب عناً وعنناً وعنوناً إذا ظهر أمامك واعترض و**(جمح)** الفرس براكبه يجمح من باب منع جماحاً وجموحاً استعصى حتى غلبه فهو جموح وزن رسول وجامح، وجمحت المرأة خرجت من بيتها غضبى بغير إذن بعلها.

و**(حرن)** الدابة حروناً من باب قعد فهي حرون وهي الّتي إذا استدرّ جريها وقفت و**(مان)** يمين ميناً كذب فهو مائن و**(حادت)** الناقة عن كذا أي مالت عنه فهي حيود و**(مادت)**

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١١٦.

أي مالت فهي ميود فإن كانت عادتها ذلك سمّيت الحيود الميود و(**الجدّ**) في الكلام بالكسر ضدّ الهزل و(**الحرب**) بسكون الراء معروف وجمعه حروب وبفتحها مصدر يقال حربه حرباً مثل طلبه طلباً أي سلب ماله (**وسلبه**) سلباً وسلباً اختلسه و(**والنهب**) بسكون الهاء الغنيمة.

و(**الساق**) ما بين الكعب والركبة قال سبحانه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٢٩] والسّاق أيضاً الشدّة، ومنه قامت الحرب على ساق إذا اشتد أمرها وصعب الخلاص منها، وربما فسّرت الآية بهذا المعنى أي التفّت آخر شدّة الدّنيا بأوّل شدّة الآخرة.

(**والسّياق**) مصدر من ساق الماشية سوقاً وسياقة وساق المريض سوقاً وسياقاً شرع في نزع الروح و(**جزرت**) الجزور نحرتها و(**الشلو**) بالكسر العضو والجسد من كل شيء وكلّ مسلوخ أكل منه شيء وبقيت منه بقيّة والجمع أشلاء كحبر وأحبار و(**ارتفق**) إتكاء على مرفق يده أو على المخدة و(**الغيلة**) الشرّ أو بمعنى الاغتيال وهو الخديعة و(**المناص**) المهرب من ناص عن قرنه ينوص نوصاً إذا هرب والمناص أيضاً الملجأ.

وقوله (**لحال بالها**) قال الشارح المعتزلي كلمة يقال فيها انقضى وفرط أمره وقيل: البال القلب ورخاء النفس أي مضت الدّنيا لما يهواه قلبها.

الإعراب

جملة وقد أدبرت الحيلة في محلّ النصب حال من فاعل راجع وقوله: ولات حين مناص، لا مشبهة بليس والتاء زايدة وحين بالنصب خبر لا واسمها محذوف، قال نجم الأئمة: وقد يلحق لا التاء نحو لات فيختص بلفظ الحين مضافاً إلى نكرة، نحو لات حين مناص، وقد يدخل على لفظة أوان ولفظة هنا أيضاً وقال الفراء يكون مع الأوقات كلّها وأنشد: ولات ساعة مندم.

والتاء في لات للتأنيث كما في ربة وثمة قالوا: إما لتأنيث الكلمة أي لا، أو لمبالغة النفي كما في علامة فإذا وليها حين فنصبه أكثر من رفعه ويكون اسمها محذوفاً وحين خبرها أي لات الحين حين مناص وتعمل يعني لات عمل ليس لمشابهتها له بكسع التاء إذ يصير على عدد حروفه ساكنة الوسط ولا يجوز أن يقال بإضمار اسمها كما في نحو عبد الله ليس منطلقاً، لأن الحرف لا يضمر فيه وإن شابه الفعل، وإذا رفعت حين على قلّته فهو اسم لا والخبر محذوف أي لات حين مناص حاصلاً، ولا يستعمل إلاّ محذوفة أحد الجزئين.

هذا قول سيبويه وعند الأخفش أن لات غير عاملة والمنصوب بعدها بتقدير فعل، فمعنى لات حين مناص لا أرى حين مناص، والمرفوع بعدها مبتدأ محذوف الخبر، وفيه ضعف لأن وجوب حذف الفعل الناصب وخبر المبتدأ له مواضع متعينة.

قال نجم الأئمة: ولا يمتنع دعوى كون لات هي لاء التبرية، ويقوّيه لزوم تنكير ما أُضيف حين إليه، فإذا انتصب حين بعدها فالخبر محذوف كما في لا حول وإذا ارتفع فالاسم محذوف أي لات حين حين مناص كما في لا عليك، ونقل عن أبي عبيد أن التاء من تمام حين كما جاء:

العاطفون تحين ما من عاطف ... والمطعمون زمان ما من مطعم

وقد ضعف لعدم شهرة تحين في اللّغات واشتهار لات حين، وأيضاً فإنّهم يقولون لات أوان ولات هنا ولا يقال تاوان وتهنا.

وكيف كان فجملة ولات حين مناص في موضع النصب حال من فاعل أقبلت، وقوله: هيهات هيهات اسم فعل فيه معنى البعد، وفيه ضمير مرتفع عائد إلى مناص والمعنى بعد المناص جدّاً حتى امتنع.

قال نجم الأئمة وكل ما هو من أسماء الأفعال بمعنى الخبر ففيه معنى التعجّب فمعنى هيهات أي ما أبعده، وشتّان أي ما أشدّ الافتراق، وسرعان ووشكان أي ما أسرعه، وبطان أي ما أبطأه.

وقال الزمخشري في «**الكشاف**» في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٣٥ و٣٦] قرأ هيهات بالفتح والكسر والضمّ كلّها بتنوين وبلا تنوين وبالسّكون على لفظ الوقف.

وقال أبو عليّ وإنّما كرّر هيهات في الآية وفي قول جرير:

فهيهات هيهات العقيق ومن به ... وهيهات وصل بالعقيق فواصله

للتأكيد أمّا اللتان في الآية ففي كلّ واحد ضمير مرتفع يعود إلى الإخراج إذ لا يجوز خلوّه من الفاعل والتقدير: هيهات إخراجكم، لأنّ قوله: أنّكم مخرجون بمعنى الإخراج أي بعد إخراجكم للوعد إذ كان الوعد إخراجكم بعد موتكم، استبعد أعداء الله إخراجهم لما كانت العدة به بعد الموت، ففاعل هيهات هو الضّمير العائد إلى أنكم مخرجون الّذي هو بمعنى الإخراج.

وأمّا في البيت ففي هيهات الأوّل ضمير العقيق وفسّر ذلك ظهوره مع الثّاني، هذا.

وذكر في «**القاموس**» في هيهات إحدى وخمسين لغة لامهم بنا إلى ذكرها.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة المشتملة على كثير من محاسن البلاغة والبديع من

الانسجام وحسن السّبك وأنواع من الجناس وحسن الإسجاع والقوافي والاشتقاق ونسبة الاشتقاق وغيرها مما يعرفها الناقد البصير مسوقة للترغيب إلى التقوى والترهيب من الدنيا، وقبل الشروع في المقصود ابتدأ بحمد الله سبحانه وذكر جملة من نعوت جماله وصفات جلاله كما هو دأبه وديدنه في مقام الخطابة فقال:

(الحمد لله الفاشي حمده) أي الشائع المنتشر ثناؤه في جميع مخلوقاته بعضها كالكفار بلسان الحال فقط وبعضها به وبلسان المقال أيضاً.

قال تعالى في سورة الرّعد: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ١٣] وفي سورة النحل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النّحل: الآيتان ٤٨ و٤٩] وفي سورة بني إسرائيل ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] وفي سورة النور **﴿ألم تر إن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلواته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾** إلى غير هذه من الآيات الدالة على تسبيح كلّ شيء وتقديسه وحمده لله سبحانه.

والمراد بالتسبيح حسبما أشرنا إليه معنى منتظم لما ينطق به لسان الحال ولسان المقال بطريق عموم المجاز.

وذهب بعض أهل العرفان إلى أن المراد به التسبيح بلسان المقال حيث قال: خلق الله الخلق ليسبّحوه فأنطقهم بالتسبيح له والثناء عليه والسّجود له فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ﴾ [النّور: الآية ٤١] الآية وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحجّ: الآية ١٨] الآية وخاطب بهاتين الآيتين نبيّه ﷺ الذي أشهده ذلك وأراه فقال: ألم تر، ولم يقل: أم تروا فإنا ما رأيناه فهو لنا إيمان ولمحمد ﷺ عيان، فأشهده سجود كل شيء وتواضعه لله، وكل من أشهده الله ذلك وأراه دخل تحت هذا الخطاب، وهذا تسبيح فطري وسجود ذاتي نشأ عن تجل تجلّى لهم فأحبوه فانبعثوا إلى الثناء عليه من غير تكليف بل اقتضاء ذاتي، وهذه هي العبادة الذاتيّة الّتي أقامهم الله فيها بحكم الاستحقاق الذي يستحقه.

قال: وليس هذا التسبيح بلسان الحال كما يقوله أهل النظر ممّن لا كشف له.

قال: ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف، فقد سمعنا الأحجار تذكر الله رؤية عين

بلسان تسمعه آذاننا منها، وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله ممّا ليس يدركه كل إنسان، انتهى.

وفيه ما ذكره من الدّليل لا يفي بإثبات مدّعاه إذ التسبيح الذاتي والسجود الفطري الذي ذكره ليس أمراً وراء التسبيح بلسان الحال فما معنى قوله وليس هذا التسبيح بلسان الحال كما يقوله أهل النظر.

وبعبارة أخرى التسبيح، إما قاليّ وهو التسبيح بالنطق واللّسان مثل قول: سبحان الله ونحوه، وإما حاليّ وهو دلالة المخلوق على ما لا يليق بذاته تعالى من لواحق الإمكان ولواحق الحدوث والنقصان، إذ ما من موجود إلا وهو بإمكانه وحدوثه يدلّ دلالة واضحة على أن له صانعاً قادراً عليماً حكيماً واجب الوجود قطعاً للتسلسل.

فإن أراد بالسجود الذاتي هذا المعنى فينافيه قوله وليس هذا التسبيح بلسان الحال.

وإن أراد المعنى الأوّل فدليله لا ينهض به إذ محصّل ما ذكره من الدليل أن الخطاب في الآيتين متوّجه إلى النبي ﷺ بخصوصه، ولذلك قال: ألم تر ولم يقل: ألم تروا، ولو كان المراد التسبيح بلسان الحال لقال ألم تروا، لأن التسبيح الحالي يعرفه كلّ أحد بخلاف التسبيح القولي فإنّه مختص رؤيته بالنبيّ ﷺ.

ويتوجّه عليه أنا نمنع اختصاص الخطاب به ﷺ بل متوجّه إلى كلّ من يتأتى منه الرؤية والنظر لو قلنا بالقول الآخر، ويشهد بذلك قوله في سورة النحل: **﴿لم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾** حيث أتى بصيغة الجمع فلا فرق بين هذه الآية والآيتين المتقدمتين، غاية الأمر أن الاستفهام في الأوليين للتقرير وإن كان الخطاب مختصّاً بالنبي ﷺ، وفي هذه للتوبيخ والتقريع، ومن المعلوم أن التوبيخ إنّما توجّه عليهم بسبب تمكّنهم من الرؤية، والرؤية العيانية كما ذكره هذا القائل غير ممكنة، فلا بدّ من حمل السجود على السجود بلسان الحال، والرؤية بالرّؤية بمعنى التفكر.

ثمّ ما ادّعاه أخيراً من الكشف وأنّه سمع بإذنه ذكر الأحجار بعد الغض عن أنّه دعوى بلا برهان يناقض ما قرره أولاً من اختصاص الرؤية العيانية بالنبيّ ﷺ لأنّه على زعمه يكون شريك النبوّة في الرؤية العيانية مع سائر أرباب المكاشفة، وهذا يتقضي أن يؤتى الخطاب في الآيتين بصيغة الجمع ويقال: لم تروا.

اللّهم إلاّ أن يقال: إنّ النبيّ ﷺ له قوّة الرؤية لسجود جميع الأشياء، وهذا القائل ادعى تسبيح البعض كالأحجار، ولما ذكر سبحانه في الآيتين سجود الجميع وتسبيحهم لا جرم خصّ رؤيته بالنبيّ لكونه فقط متمكّناً من رؤية الكل، هذا.

وربما استدل على ما قاله هذا القائل من أن الجماد والنبات والحيوان كلها ناطقة بالحمد والثناء والتسبيح والتقديس قولاً لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٤] فإنّ التسبيح الّذي لا نفقهه هو التسبيح المقالي، وأمّا التسبيح الحالي فيفقهه كلّ من له عقل ونظر.

وفيه أولاً النقض بقوله: **﴿أول يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيوء ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون﴾** فإنّه سبحانه وبخهم على ترك رؤية سجود ما خلق الله، ولازم ذلك أن تكون الرّؤية ممكنة وإلاّ لم يحسن التوبيخ، والسجود المقالي غير ممكنة الرؤية إذ لا نفقهه فلا بد أن يكون سجودهم بالحال حتّى يمكن رؤيته ويحسن التوبيخ على تركها.

وثانياً بالحلّ وأنّه لا يثبت المدّعى، لأنّ قوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٤] كما يجوز أن يراد به التسبيح القولي ويكون عدم فهم المخاطبين له من أجل اختلاف اللغات وعدم معرفتهم بأصوات الحيوانات والجمادات وسائر المخلوقات، كذلك يجوز أن يراد به التسبيح الحالي ويكون عدم فهم المخاطبين له لأجل التشاغل والأغراض، أي لا تعلمون تسبيح هذه الأشياء حيث لم تنظروا فيها ولم تعرفوا كيفيّة دلالتها على صانعها.

ولذلك قال المفسرون إن الخطاب فيها للمشركين أي لا تفقهون أيّها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الّذي به يفقه ذلك، وإلى هذا أشير في قوله سبحانه ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٥].

وعلى ما قلنا فيكون مفاد هذه الآية موافقاً لمفاد الآية السابقة أعني قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ [النّحل: الآية ٤٨] ولمفاد سائر الآيات المتقدمة، فيكون المراد بالتسبيح والسجود والحمد في جميعها المعنى الأعم مما كان بلسان المقال، ويكون المراد بالرؤية فيها هو الرؤية بمعنى التأمّل والتدبّر في ملكوت السماوات والأرض ومعرفته دلّهم لله سبحانه قولاً وحالاً، هذا.

ولما كان هذا المقام من مطارح الأنظار ومسارح الأفكار أحببت أن أشبع فيه الكلام بتوفيق الملك العلام وإعانة الأئمة الكرام عليهم السلام.

فأقول: إنّ التسبيح والثناء لله سبحانه على قسمين.

أحدهما حاليّ، وهو دلالة أحوال المخلوق على وجود خالقه وتوحيده، والتسبيح، والثناء بهذا المعنى لا ريب في اتصاف جميع المخلوقات به ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٤] إذ كل موجود سوى القديم حادث يدعو إلى تعظيمه لافتقاره إلى صانع

غير مصنوع صنعه، أو صنع من صنعه فهو يدعو إلى تثبيت قديم غني بنفسه عن كلّ شيء سواه، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات.

وبعبارة أخرى نقصانات الخلائق دلائل كمالات الخالق، وكثراتها واختلافاتها شواهد وحدانيّته، وانتفاء الشريك والضّد والنّد عنه كما قال عليه السلام في المختار المائة والخمس والثمانين: بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له.

والثاني قاليّ، وهو في الإنسان والملك والجنّ قول: سبحانه الله والحمد لله ونحو ذلك من الألفاظ المتضمّنة للتنزيه والتقديس الخارجة من اللسان والمسموعة بالأسماع والآذان.

وأما في أصناف الحيوان فكلّ صنف بما اختصّ به من النطق وامتاز به عن سائر أبناء جنسه كالفرس في صهيله، والبعير في هديره، والحمار في نهيقه، والغراب في نعيقه وهكذا.

وأمّا في الجماد والنبات والماء والشجر والأرض والهواء فنحو آخر مثل الصرير في الأبواب، والجري في المياه، والانقضاض في الجدران والأخشاب، ونحو ذلك مما يعلمه الله سبحانه وتعالى.

إذا عرفت ذلك فأقول: أما ذوو العقول فلا كلام في تسبيحهم الله سبحانه حالاً وقالا، كما لا كلام في اتصاف غير ذوي العقول حيواناً أو جماداً بالتسبيح الحالي: وإنما الكلام في اتّصافها بالتسبيح القالي، والحق فيه أيضاً الإمكان بل الوقوع خلافاً لعلم الهدى السيّد المرتضى في كتاب «**الغرر والدّرر**»، وللفخر الرازي في «**التفسير الكبير**».

لنا على جوازه ووقوعه في الحيوان أن الأدلة من الكتاب والسّنة قد دلت على أن الأنواع على اختلافها منطقاً مفهوماً وألفاظاً تفيد أغراضها بمنزلة الأعجمي والعربي اللّذين لا يفهم أحدهما كلام صاحبه وإنما يفهمه المشارك له في هذه اللهجة فإذا جاز لها النطق في سائر أغراضها جاز لها النّطق في تسبيح خالقها أيضاً.

والشاهد على أنها ذوات نطق وإدراك وشعور، وأنها تنطق بتوحيده وتسبيحه تعالى قوله سبحانه حكاية عن نملة سليمان «قالت نملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النّمل: الآيتان ١٨ و١٩] وقوله تعالى: حكاية عن سليمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النّمل: الآية ١٦] وقوله عزّ وجلّ حكاية عن الهدهد وتكلّمه مع سليمان ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ

بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النّمل: الآيات ٢٠ ـ ٢٧].

وفي هذه الآية وجوه من الدلالة على المدّعى.

أحدها دلالة هذه الآيات بمجموعها على أن سليمان كان مع الهدهد في مقام الخطاب والسؤال والجواب حتّى نزله في آخر مقاله منزلة العاقلين وجعل خبره محتملاً للصدق والكذب وقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النّمل: الآية ٢٧] وذلك كلّه يدلّ على أنه كان عالماً فهماً شاعراً لما يقول ويجيب به.

الثاني قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ [النّمل: الآية ٢١] فإنّ التعذيب لا يجوز من النبي المعصوم إلا مع التقصير في التكليف، والهدهد لما كان مأموراً بطاعته كسائر الوحوش والطيور استحق العقاب لغيبته بدون إذنه، واعترف الرازي أيضاً بذلك حيث قال قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ [النّمل: الآية ٢١] (اهـ) فهذا لا يجوز أن يقوله إلاّ فيمن هو مكلّف أو فيمن قارب العقل فيصلح لأن يؤدّب.

الثالث قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النّمل: الآية ٢٢] فقد قال الرازي: فيه تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله من أحاط علماً بما لم يحط به، فيكون ذلك لطفاً له في ترك الإعجاب والإحاطة بالشيء أن يعلم من جميع جهاته.

الرابع ما دلّ عليه قوله ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ﴾ [النّمل: الآية ٢٤] إلى قوله: ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النّمل: الآية ٢٤] من أن الهدهد كان له معرفة بالله وبوجوب السجود له وأنه أنكر سجودهم للشمس وأضافه إلى الشيطان وتزيينه.

وما قاله الجبائي من أن الهدهد لم يكن عارفاً بالله وإنما أخبر بذلك كما يخبر مرهقو صبياننا لأنه لا تكليف إلاّ على الملائكة والإنس والجنّ، فيرانا الصّبي على عبادة الله فيتصور أن ما خالفها باطل، فكذلك الهدهد تصور أن ما خالف فعل سليمان باطل.

فهو خلاف ظاهر القرآن لأنه لا يجوز أن يفرق بين الحق الذي هو سجود لله وبين الباطل الذي هو السجود للشمس، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح إلاّ العارف بالله وبما يجوز عليه وبما لا يجوز عليه خصوصاً مع نسبة تزيين أعمالهم وصدّهم عن طريق الحقّ إلى

الشيطان، وهذا مقالة من يعرف العدل وأن القبيح غير جايز على الله سبحانه.

الخامس استنكاره عليهم في ترك السجود لله بقوله ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النّمل: الآية ٢٥] على القول بأن هذا الكلام إلى قوله ﴿الْعَظِيمِ﴾ [التّوبَة: الآية ٧٢] من تمام الحكاية لمقال هدهد كما عليه أكثر المفسرين لا جملة معترضة ومن كلامه سبحانه كما ذهب إليه بعضهم.

السادس قوله: (**الذي يخرج الخبأ**) إلى قوله: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هُود: الآية ٥] نص في معرفة الهدهد بقدرة الله وبعلمه.

السابع قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النّمل: الآية ٢٦] فإنّه نص صريح في معرفته بالله وتوحيده وتنطّقه بكلمة التوحيد وتسبيحه له وتقديسه من الشريك ووصفه بالربوبية، هذا.

ومن الأدلّة أيضاً قوله سبحانه في سورة النور: ﴿**ألم ترى أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلواته وتسبيحه**﴾ على أنّ الضمير في علم راجع إلى الطير كما عليه جملة من المفسّرين.

ومن السنةالأخبار الكثيرة العامية والخاصية الدالة على أنّ لها تسبيحاً وذكراً، وأنها تعرف خالقهم ومصالحهم ومفاسدهم، وأنه لا يصاد صيد في برّ أو بحر من طير أو وحش إلاّ بتضييعه التسبيح.

فمنها ما رواه في «**البحار**» من قصص الأنبياء عن ابن عبّاس عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل أجاب فيه عن مسائل قوم من أحبار اليهود قال: قالوا: فأخبرنا ما تقول هذه الحيوانات؟ قال عليه السلام: درّاج يقول: الرّحمن على العرش استوى، والدّيك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والفرس يقول إذا مشى المؤمنون إلى الكافرين: اللّهم انصر عبادك المؤمنين على عبادك الكافرين، والحمار يلعن العشّار وينهق في عين الشيطان، والضّفدع يقول: سبحانه ربي المعبود والمسبّح في لجج البحار، والقنبر يقول: اللّهم العن مبغضي محمد وآل محمّد(١).

وعن «**حياة الحيوان**» ذكر السرحان سبحان ربي، وذكر الدّراج: الرّحمن على العرش استوى، والعقاب: البعد عن الناس راحة، والخطاف: الفاتحة إلى آخرها وتمدّ صوته بقوله ولا الضّالين، والبازي: سبحان ربّي وبحمده، والقمري: سبحان ربي الأعلى، والغراب: يلعن العشار، والحدئة: كلّ شيء هالك إلا الله، والقطاة: من سكت سلم، والعنقا: ويل

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤١٢، وقصص الأنبياء: ٢٥٦.

لمن كانت الدّنيا همّه، والزرزور: اللّهم أسألك رزق يوم بيوم يا رزّاق، والقبرة: اللّهم العن مبغضي محمد وآل محمد، والدّيك: اذكروا الله يا غافلين، والنسر: يا ابن آدم عش ما شئت فإن آخره الموت، والفرس عند ملتقى الجمعين: سبّوح قدّوسٌ ربّ الملائكة والرّوح، والحمار يلعن المكاري وكسبه، والضّفدع سبحان ربّي القدّوس.

ومنها ما ورد في أخبار كثيرة في حديث المعراج وغيره من أن لله ملكاً في صورة الدّيك براثينه في الأرضين السابعة وعرفه تحت العرش وله جناحان يصفق بهما فإذا كان وقت السحر يسبح الله سبحانه ويقول في تسبيحه: سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والرّوح، وفي رواية سبحان الملك القدوس سبحان الله الكبير المتعال لا إله إلاّ الحي القيوم، فلا يبقى في الأرض ديك إلا أجابه ورفع صوته بالتسبيح، قال أمير المؤمنين عليه السلام وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ [النُّور: الآية ٤١] .

ومثلها الأخبار الواردة في مدح أجناس الطير والبهائم كالحمام والبلبل والقنبر والحجل والدّراج وما شاكل، كل ذلك من فصيحات الطّير معلّلاً بأنّها تنطق بالثناء على الله وعلى أوليائه ودعا لهم ودعا على أعدائهم، وذم أجناس أخر كالفواخت والرخم والعنقا والبوم والجرى والمارماهي والوزغ ونحوها لتنطقهم بذمّ أولياء الله وإنكارهم للولاية.

وهذه الأخبار فوق حدّ الإحصاء فلا يبقى مجال لإنكار تسبيحها القولي بمحض استبعاد الأوهام أو تقليداً للفلاسفة الّذين استبدوا بالعقول ولم يؤمنوا بما جاءت به الأنبياء الكرام عليهم السلام، وأيّ دليل على عدم شعورها وإدراكها للكليات وعدم تكلمها ونطقها، فإن كثيراً ما نسمع بعض كلام النّاس مع غيرهم ممن لا نفهم لغاتهم بوجه، فنظن أن كلامهم كأصوات الحيوانات لا نميّز بين كلماتهم ونتعجب من فهم البعض كلام بعض ولا استبعاد في كونها مكلفة ببعض التكاليف وتعذب في الدّنيا بتركها بأن يصاد أو يذبح. أو في الآخرة أيضاً كما روى في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥﴾ [التّكوير: الآية ٥] وإن لم يكن تكليفها عاماً وعقابها أبديّاً لضعف إدراكها.

قال السيّد المحدّث الجزايري في كتاب **«زهر الرّبيع»**:

تحقيق المقام أنّ النفس الناطقة إن كانت عبارة عن قوة النطق وإبراز الكلام فالحيوانات لها كلام يفهمه بعضها عن بعض كما هو المشاهد منها خصوصاً مع أولادها، وفسّر كلام بعضها الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

وإن كان المراد منها إدراك الكليات والعلوم كما هو الشائع في إطلاق النفس الناطقة، ففي الحيوانات من يدرك من جزئيات العلوم ما لا يدركه أعقل الناس كإدراك القرد من

لطائف الحيل ودقائق الأمور ما لا يخفى، وكذلك النحل.

وإن كان المراد من النفس الناطقة فهم كتابي الشفاء والإشارات ونحوهما، فإن بعد كثير من الناس عن هذا أبعد من الثرى إلى الثريا.

قال: وإلى هذا ذهب الشيخ شهاب الدين، وقد صرّح ابن سينا في جواب أسئلة بهمنيار إنّ الفرق بين الإنسان والحيوانات في هذا الحكم مشكل.

وقال القيصري في «**شرح فصوص الحكم**»: ما قاله المتأخرون من أن المراد بالنطق إدراك الكليات لا التكلم مع كونه مخالفاً بوضع اللغة لا يفيدهم لأنه موقوف على أنّ النفس الناطقة المجرّدة خاصّة بالإنسان، ولا دليل لهم على ذلك ولا شعور لهم بأن الحيوانات ليس لها إدراك الكليات، والجهل بالشيء لا ينافي وجوده وإمعان النظر فيما يصدر عنها من العجايب يوجب أن يكون لها إدراك الكليات انتهى.

وقال المحقق الدواني في «**شرح هياكل النور**»: اعتقادنا أن جميع الحيوانات لها نفوس مجرّدة كما في الإنسان، وبعض القدماء على ذلك بل صرّح بعضهم بأن النبات لها نفوس ناطقة أيضاً.

إذ عرفت ذلك فلنذكر ما ذكره الفخر الرازي في هذا المقام.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿**يسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن**﴾: اعلم أن الحيّ المكلف يسبّح لله بوجهين: الأوّل بالقول كقوله باللسان سبحان الله، والثاني بدلالة أحواله على توحيد الله وتقديسه وعزته، فأمّا الّذي لا يكون مكلفاً مثل البهائم ومن لا يكون حيّاً كالجمادات فهي إنّما تسبّح الله بالطريق الثاني، لأن التسبيح لا يحصل إلاّ مع الفهم والعلم والإدراك والنطق وكلّ ذلك في الجماد محال فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلاّ بالطريق الثاني.

وأنت بعد الخبرة بما ذكرنا تعرف فساد ما ادعاه بما لا مزيد عليه، والعجب أنّه عمم دعواه للبهائم والجماد وخصّ دليله بالجماد فقط، فإن كان مقصوده أن البهايم مثل الجماد في عدم العلم والإدراك وكان اكتفاؤه بالجماد من باب الاختصار فهو ممنوع لما ذكرناه من الآيات الصّريحة في أنّ لها إدراكاً وفهماً وشعوراً، وإلاّ فدليله أخصّ من مدّعاه وستعرف بطلان دليله في الجماد أيضاً إنشاء الله تعالى.

وأما علم الهدى فقد بالغ في إنكار تسبيح الحيوان، وشدّد النكير على من ادّعاه وأطال الكلام في تأويل الآيات والأخبار بما يشمئزّ منه الطباع ويأبى عنه الذّوق السليم والطبع المستقيم، وصرفها عن ظواهرها بغير دليل.

وعمدة جهة مصيره إلى الخلاف هو عدم عمله بأخبار الآحاد، وقد أقام علماؤنا الأصوليّون أدلّة معتبرة من الكتاب والسنّة والإجماع والعقل على حجيّتها، وبعد ثبوت الحجّية فالأخبار الّتي يثبت المدعى وتبطل قول المرتضى فوق حدّ الإحصاء هذا تمام الكلام في التسبيح القالي للحيوان.

وأما في الجماد والنّبات والسّماء والأرض وغيرها مما ليس لها حركات إرادية فالظاهر من أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام ثبوته أيضاً.

فقد روى في «الصّافي من الكافي» عن الصادق عليه السلام: «تنقض الجدر تسبيحها»[١].

وعن الباقر عليه السلام أنه سئل أتسبّح الشجر اليابسة؟ فقال: «نعم أما سمعت خشب البيت كيف ينقض فذلك تسبيحه فسبحان الله على كلّ حال»[٢].

وفي «البحار من العيون» عن الرضا عن آبائه عن الحسين بن علي ومحمد بن الحنفية عن أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «تختّموا بالعقيق فإنّه أوّل جبل أقرّ لله بالوحدانيّة ولي بالنبّوة ولك يا علي بالوصيّة»[٣].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة لا حاجة إلى الإطالة بروايتها.

وقد خالفنا فيه الرازي أيضاً فإنّه قال: من لا يكون حيّاً مثل الجمادات فهي إنّما تسبّح الله بالطريق الثاني، لأنّ التسبيح بالطريق الأوّل لا يحصل إلاّ مع الفهم والعلم والإدراك وكل ذلك في حق الجماد محال فلم يبق حصول التسبيح في حقّه إلا بالطريق الثاني ثمّ قال:

واعلم أنا لو جوزنا في الجماد أن يكون عالماً متكلّماً لعجزنا عن الاستدلال بكونه تعالى عالماً قادراً على كونه حيّاً وحينئذ ينسدّ علينا باب العلم بكونه حيّاً وذلك كفر، فإنّه يقال إذا جاز في الجمادات أن تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبيحه مع أنها ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشيء عالماً قادراً متكلماً كونه حيّاً وذلك جهل وكفر لأن من المعلوم بالضرورة أنّ من ليس بحيّ لم يكن عالماً قادراً، انتهى.

ومحصل دليله أمران: **أحدهما**: أن التسبيح القالي مستلزم للعلم والفهم والإدراك وهو في حق الجماد محال **وثانيهما** أنه لو كان متكلّماً لانسدّ باب الاستدلال على حياة الله سبحانه بالتقريب الّذي ذكره.

---

(١) التفسير الصافي: ٣/ ١٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٧/ ١٧٧ ح٦، وتفسير العياشي: ٢/ ٢٩٤ ح٨٤.

(٣) علل الشرائع: ١/ ١٥٨ ح٣. وعيون أخبار الرضا (ع): ١/ ٧٥ ح٣٢٤.

ويتوجه على دليله الأول أنه إن أراد الاستحالة العقلية فممنوعة وإن أراد الاستحالة العادية فلا تثبت المدّعي ولا تفيد الامتناع، والشاهد على ذلك قوله سبحانه في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سَبَإ: الآية ١٠] أي رجعي معه التسبيح قال عليّ بن إبراهيم القميّ أي سبّحي لله وقال: كان داود إذ مرّ بالبراري يقرء الزبور وتسبّح الطير معه والوحوش، وقال الرازي قوله: **﴿يا جبال أوّبى معه﴾** قال الزمخشري يا جبال بدل من قوله فضلاً معناه وآتيناه فضلاً قولنا يا جبال أو من آتينا ومعناه قلنا يا جبال أوبى، انتهى.

فتقول: إذا جاز تعلّق خطابه سبحانه على الجبال بالتأويب تفضّلاً منه على داود فيجوز تعلّق خطابه عليها في غير هذا المقام أيضاً، وبعبارة أخرى إذا كان الجبال قابلة للخطاب هناك كانت قابلة له مطلقاً غاية الأمر أن تأويبها مع داود عليه السلام كان ظاهراً يسمعه كلّ من حضر لإعجاز داود عليه السلام نظير تسبيح الحصى في يد رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي سائر المقامات كان خفيّاً لا يسمعه الناس كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٤].

وأوضح من ذلك دلالة قوله تعالى في سورة ص: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآيات ١٧ ـ ١٩] فإن الآية السابقة أفادت تعلق خطابه سبحانه على الجبال بالتسبيح، وهذه الآية دلّت على قبولها لذلك الخطاب ونصّت بأنّها يسبّحن بالرواح والصباح وأنّ الطير شاركتها في التسبيح وأن كلاً منها أوّاب له أيّ رجّاع إلى ما يريد مطيع له بالتسبيح.

والعجب أن الجبائي مع إنكاره لعرفان الهدهد بالله حسبما حكينا عنه في تفسير آية النّمل قال في تفسير هذه الآية: ولا يمتنع أن يكون الله خلق في الطيور من المعارف ما يفهم به أمر داود ونهيه فتطيعه فيما يريده منها وإن لم تكن كاملة العقل مكلفة.

وقال الفخر الرازي: قوله و﴿سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ [ص: الآية ١٨] الآية إن الله سبحانه خلق في جسم الجبال حياة وعقلاً وقدرة منطقاً وحينئذ صار الجبل مسبّحاً لله وقوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩] يدلّ على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً فشيئاً وحالاً بعد حال، وكان السامع محاضر تلك الجبال يسمعها تسبّح وقوله ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: الآية ١٩] معطوفة على الجبال والتقدير وسخّرنا الطير محشورة قال ابن عبّاس: كان داود إذا سبّح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبّحت معه، واجتماعها إليه هو حشرها فيكون حاشرها هو الله سبحانه.

ثم قال الرازي: **فإن قيل**: كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنّه لا عقل لها؟ **قلنا** لا يبعد أن يقال: إن الله كان يخلق لها عقلاً حتّى يعرف الله فيسبّحه حينئذ، وكلّ ذلك كان

معجزة لداود عليه السلام وقوله: ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية ١٩] معناه كل واحد من الجبال والطير أوّاب أي رجّاع، أي كلما رجع داود إلى التسبيح فهذه الأشياء أيضاً كانت ترجع إلى تسبيحاتها، والفرق بين هذه الصّفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا أن الجبال والطير سبّحت مع تسبيح داود، وبهذا اللّفظ فهمنا دوام تلك الموافقة، انتهى كلامه هبط مقامه.

فقد ظهر بذلك أنّه معترف بتسبيح الجبال والطيور مقر بأنه لا يبعد إفاضة الله إليها عقلاً فتعرف الله وتسبح غاية الأمر أنّه يقول إنّ ذلك كله كان معجزة لداود عليه السلام.

ويتوجّه عليه أنّه إذا لم يستبعد أن يفيض الله إليها عقلاً فيأمرها بالتسبيح لغرض الإعجاز فأيّ بعد في إفاضة العقل إليها وأمرها بالتسبيح لا لذلك الغرض بل لمصالح آخر اقتضت ذلك، وهذا يهدم مادة الاستحالة الّتي ادّعاها، فافهم جيّداً واغتنم وتدبّر، هذا.

ويتوجه على دليله الثاني أن إثبات الحياة لله سبحانه لا ينحصر دليله في العقل بل الإجماع والأدلّة النقليّة على اتّصافه بالحياة قائمة، وقد دللنا على جملة من صفاته بالسمع ككونه متكلماً سميعاً بصيراً فليكن صفة الحياة مثلها.

قال صدر المتألهين في المبدأ والمعاد: الحياة في حقنا يتمّ بإدراك هو الإحساس وفعل هو التحريك منبعثين عن قوتين مختلفتين، ولما ورد الشريعة بإطلاقها عليه تعالى فالحيّ في حقه تعالى هو الدراك الفعال، فإذا كان علمه مبدأ للوجود كله فهو حي إذ لم يزد علمه على ذاته ولا افتقار له في الفعل إلى قوّة محركة دالة كما لنا بل ذاته يعلم ويفعل فذاته حياته، انتهى.

فقد انقدح مما ذكرنا أن انتقاض دليل العقل للحياة بتسبيح الجماد لا يستلزم انتفاء الدليل مطلقاً حتّى من السمع، فلا يكون انتقاضه موجباً لانسداد باب الاستدلال رأساً ولا للكفر أصلاً، فلا إله إلاّ الله الحيّ القيوم تعالى شأنه وعظم سلطانه.

هذا كله على أن نقول بأن تسبيح السّماء والأرض والجماد والنبات مثل تسبيح ذوي العقول وأنه بالذكر والبيان والنطق واللسان.

وأما على القول بأن تسبيحها مغائر لتسبيحهم وأن تسبيح السماء بدورانها. والماء بجريانها، وتسبيح سائر الأشياءِ على حسبما طلبه منها ربّها وبارئُها كما قال به أهل العرفان والمعقول، ونطق به أخبار آل الرسول فيرتفع الإشكال رأساً.

قال القميّ في تفسير قوله تعالى: ﴿**يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله**﴾ الآية تحويل كلّ ظلّ خلقه الله هو سجود لله، وقال بعض أهل المعرفة في تفسير هذه الآية إن أمثال

هذه الآيات تدلّ على أنّ العالم كله في مقام الشهود والعبادة إلاّ مخلوق له قوّة التفكر وليس إلاّ النفوس الناطقة الإنسانية والحيوانية خاصة من حيث أعيان أنفسهم لا من حيث هياكلهم، فإنّ هياكلهم كسائر العالم في التسبيح له والسجود، فأعضاء البدن كلها مسبّحة ناطقة ألا تراها تشهد على النفوس المسخرة لها يوم القيامة من الجلود والأيدي والأرجل والألسنة والسمع والبصر وجميع القوى، فالحكم لله العلي الكبير.

وقال صدر المتألّهين في كتاب «**المبدأ والمعاد**»: ومما يجب عليك أن تعتقد أن الواجب تعالى كما أنّه غاية الأشياء بالمعنى المذكور، فهو غاية بمعنى أن جميع الأشياء طالبة لكمالاتها ومتشبّهة به تعالى في تحصيل ذلك بحسب ما يتصوّر في حقها، ولكلّ منها شوق وعشق إليه إرادياً كان أو طبيعياً، والحكماء الإلّهيون حكموا بسريان العشق والشوق في جميع الموجودات على تفاوت طبقاتهم، فلكل وجهة هو موليها يحسن إليها ويقتبس بنار الشوق نور الوصول لديها، وإليه أشير في قوله **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾**.

وقد صرّح الشيخ الرّئيس في عدّة مواضع من التعليقات بأن القوى الأرضية كالعقول الفلكية في أن الغاية في أفاعيلها ما فوقها إذ هي لا تحرك المادة لتحصيل ما تحتها من المزاج وغيره، وإن كانت هذه من التوابع اللازمة، بل الغاية في تحريكاتها كونها على أفضل ما يمكن لها ليحصل لها التشبه بما فوقها كما في تحريكات نفوس الأفلاك أجرامها بلا تفاوت، فقد ثبت أن غاية جميع المحركات من القوى العالية والسّافلة في تحريكها لما دونها استكمالها بما فوقها وتشبهها به إلى أن ينتهي سلسلة التشبهات والاستكمالات إلى الغاية الأخيرة والخير الأقصى الذي يسكن عنده السلك وتطمئن به القلوب، وهو الواجب جلّ مجده، فيكون غاية بهذا المعنى أيضاً، وبهذا نعلم حقيقة كلامهم: لولا عشق العالي لانطمس السّافل، ثم لا يخفى عليك إن فاعل التسكين كفاعل التحريك في أن مطلوبه ليس ما تحته كالأين مثلاً، بل كونه على أفضل ما يمكن له كما قال المعلم الثّاني: صلت السّماء بدورانها والأرض برجحانها وقيل في الشعر:

وذلك من عميم اللطف شكر ... وهذا من رحيق الشوق شكر

هذا.

وقد ظهر بما ذكرنا كلّه أن حمده سبحانه وثناءه وتسبيحه وتقديسه فاش في مخلوقاته حالاً أو مقالاً وعلم أنّه لا حاجة إلى تكلف حذف المضاف في قوله الفاشي حمده بأن يقال: المراد الفاشي سبب حمده وهو النعم التي لا يقدر قدرها كما تكلفه الشارح المعتزلي.

(والغالب جنده) كما قال سبحانه ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصّافات: الآية ١٧٣]

وقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٦] أي جنده، والمراد بجنده في السماء هو الملائكة قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢٦] وقال أيضاً: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

والمراد بجنده في الأرض الناصرون لدينه.

روى في «**الصافي**»: من التوحيد عن الصادق عليه السلام: يجيء رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة آخذاً بحجزة ربه ونحن آخذون بحجزة نبينا صلى الله عليه وآله وشيعتنا آخذون بحجزتنا فنحن وشيعتنا حزب الله وحزب الله هم الغالبون، والله ما يزعم أنها حجزة الإزار، ولكنها أعظم من ذلك يجيء رسول الله صلى الله عليه وآله آخذاً بدين الله ونحن نجيء آخذين بدين نبينا ويجيء شيعتنا آخذين بديننا.

فإن قيل: غلبة جنده السماوي في كلّ وقت لا غبار عليه ولا إشكال فيه، وأما جند الأرض فربما يكون مغلوباً وكفى به شاهداً وقعة الطف وشهادة سيد الشهداء عليه السلام مع أولاده وإخوانه وأتباعه وأنصاره مع كونهم حزب الله وأنصار دين الله فما معنى قوله عليه السلام: الغالب جنده؟ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٦].

قلت: يحتمل أن يكون غلبة جنده وحزبه محمولاً على الغلبة بالحجة أو على الأغلب لأنّه سبحانه أعزّ جنده ونصر أنصار دينه في أغلب الأوقات وأيّدهم بالجنود السماوية كما قال عزّ من قائل ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: الآيتان ٢٥ و٢٦].

ويجوز أن يقال: إنّ جنده وإن كان مغلوباً أحياناً في أوّل الأمر ولكن الغلبة لهم في آخره كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآيتان ٣٢ و٣٣].

روى في «**الصافي**»: من الإكمال عن الصادق عليه السلام وقد ذكر شق فرعون بطون الحوامل في طلب موسى كذلك بني أميّة وبنو العبّاس لما أن وقفوا على أن زوال ملك الأمراء والجبابرة منهم على يد القائم عليه السلام ناصبونا العداوة ووضعوا سيوفهم في قتل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وإبادة نسله طمعاً في الوصول إلى قتل القائم عليه السلام فأبى الله أن يكشف أمره

لواحد من الظلمة إلاّ أن يتم نوره ولو كره المشركون[١].

وفيه من الإكمال عن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: الآية ٣٣] والله ما نزل تأويلها بعد ولا نزل تأويلها حتى يخرج القائم فإذا خرج القائم عليه السلام لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه حتّى لو كان كافر أو مشرك في بطن صخرة لقالت يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «القائم منّا منصور بالرّعب مؤيّد بالنصر، تطوى له الأرض وتظهر له الكنوز يبلغ سلطانه المشرق والمغرب ويظهر الله دينه على الدّين كلّه فلا يبقى في الأرض خراب إلاّ عمر»[٣].

(والمتعالى جدّه) قال الطبرسي في قوله سبحانه: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجنّ: الآية ٣] معناه تعالى جلال ربنا وعظمته عن اتخاذ الصّاحبة والولد عن الحسن ومجاهد، وقيل: معناه تعالت صفات الله الّتي هي له خصوصاً وهي الصفات العالية الّتي ليست للمخلوقين، وقيل: معناه تعالى جدّ ربّنا في صفاته فلا تجوز عليه صفات الأجسام والأعراض، وقيل: تعالى قدرة ربّنا عن ابن عبّاس وقيل: تعالى ذكره، وقيل: فعله وأمره، وقيل: علا ملك ربنا، وقيل: تعالى آلاؤه ونعمه على الخلق، قال الطبرسي: والجميع يرجع إلى معنى واحد وهو العظمة والجلال، انتهى[٤].

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قال: هي شيءقالته الجن بجهالته فلم يرضه الله منهم، ومعنى جدّ ربّنا بخت ربّنا.

وفي «المجمع» وعن التهذيب والخصال عن الباقر عليه السلام «إنما: هو شيء قالته الجن جهالة فحكي الله عنهم، يعني ليس لله جد وإنما قالته الجن جهالة»[٥].

فإن قلت: لفظ الجدّ قد استعمله أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً في كلامه ووصف الله سبحانه به فكيف التوفيق بينه وبين روايتي الباقر والصادق عليهما السلام.

قلت: الجدّ حسبما عرفت قد يطلق بمعنى العظمة والجلال، وقد يطلق بمعنى البخت

(١) الغيبة: ١٧٠، وتفسير نور الثقلين: ٢/ ٢١١ ح١١٩.

(٢) معجم أحاديث الإمام المهدي (ع): ٥/ ١٤٥، والتفسير الصافي: ٢/ ٣٣٨.

(٣) تفسير نور الثقلين ٢١/ ٢١٢ ح١٢٤، والتفسير الصافي: ٢/ ٣٣٩.

(٤) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ١٤٥.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٤٠١ ح١١٩١، والخصال: ٥٠، وتهذيب الأحكام: ٢/ ٣١٦ ح١٢٩٠.

والطالع، ولا بأس باستعماله فيه تعالى بالمعنى الأول كما في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وأما استعماله فيه سبحانه بالمعنى الثاني فغير جائز، ولما عرف الأئمة عليهم السلام أن الجنّ يصفونه سبحانه به مريدين به المعنى الثاني لا جرم نسبوهم إلى الجهالة.

ولما حمد الله سبحانه باعتبارات لا يليق إلا له عقبه بالإشارة إلى سبب الحمد فقال:

(أحمد، على نعمه التوأم وآلائه العظام) أي على نعمه المترادفة المتواترة التي لا فترة بينها كالتوأمين من الأولاد يجيء أحدهما على الآخر، وعلى آلائه العظيمة التي يعجز عن معرفتها العقول ويحصر عن إحصائها اللسان ويقصر عن وصفها المنطق والبيان، وإن شئت أن تعرف نموذجاً من نعم الله سبحانه عليك فلنقتصر على نعمة الأكل التي بها قوام بدن الإنسان ونشر إلى جملة من الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل.

فنقول: إن الأكل فعل من الأفعال وكلّ فعل فهو حركة والحركة لا بدّ لها من جسم متحرّك هو آلتها، ولا بدّ لها من قدرة على الحركة، وإرادة محرّكة له فلنذكر الأعضاء الّتي لها مدخلية في الأكل ليقاس عليها غيرها.

فنقول: إذا رأيت الطعام من بعد واشتهيت أكله فلا بدّ لك من الحركة إليه، وحركتك لا تنفع ما لم تتمكن من أخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأنعم الله عليك بخلق اليدين وهما طويلتان مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتدّ وتثني إليك، فلا تكون كخشبة منصوبة ثمّ جعل رأس اليد عريضاً يخلق الكف ثمّ قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع، وجعلها في صفين ليكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية، ولو كانت جميعها في صف واحد لم يحصل بها تمام الغرض، فوضعها بحيث إن بسطتها كانت لك مجرفة، وإن ضممتها كانت مغرفة، وإن جمعتها كانت آلة للضرب، وإن نشرتها ثمّ قبضتها كانت لك آلة في القبض.

ثمّ خلق لها أظفار لتصون رؤوس الأصابع من التفتت ولتلتقط بها الأشياء الدقيقة الّتي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك.

فإذا أخذت بها الطعام فلا ينفعك الأخذ إلا إذا أمكنك إيصاله إلى المعدة، وهي في الباطن فلا بدّ وأن يكون في الظاهر دهليز إليها حتّى يدخل الطعام منه، فلا ينفعك منه.

فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة وراء كونه منفذاً للطعام إلى المعدة.

ثمّ إذا وضعت الطعام في الفم وهو قطعة فلا يتيسّر لك ابتلاعه حتّى تطحن فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس من العليا على السفلى لتطحن بهما

الطعام طحناً.

ثمّ الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع، ثمّ إلى الطحن بعد ذلك، فقسّم الأسنان إلى عريضة طواحن كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات، وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب.

ثمّ جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدّم ويتأخر حتّى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى، ولولا ذلك لما تيسّر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين ولا يتحصل به الطحن، فجعل اللّحي الأسفل متحركاً حركة دورية واللّحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك عكس الرحى الذي يصنعه المخلوق، فإن الحجر الأسفل منه يسكن والأعلى يتحرك.

ثمّ إنّك إذا وضعت الطعام في فضاء الفم فهو يحتاج إلى التصريف والتقليب والحركة من جانب إلى جانب، ولا يمكن أن يكون حركته باليد وهو في داخل الفم، فأنعم الله سبحانه بخلق اللسان، فإنّه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى، هذا.

مضافاً إلى ما فيه من فائدة الذّوق وقوّة النطق والحكم الّتي لا نطيل بذكرها.

ثمّ لما كان الطعام ربما يكون يابساً فلا يمكن ابتلاعه إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة، خلق الله سبحانه تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب، وينصب بقدر الحاجة حتّى يتعجن به الطعام.

ولما لم يكن إيصاله إلى المعدة بدفعه باليد ولم تكن المعدة ممتدة حتّى تجذبه من الفم إلى نفسها، هيّأ الله سبحانه المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثمّ تنطبق وتنضغط حتّى ينقلب الطعام بضغطه فيهوي إلى المعدة في دهليز المريء.

فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة بل لا بد وأن يطبخ طبخاً تامّاً حتّى تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام وتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، فلا يزال يلبث فيها إلى أن يتم الهضم وينضج بالحرارة الّتي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة، إذ من جانبها الأيمن الكبد، ومن الأيسر الطحال، ومن قدام الترائب، ومن خلف لحم الصّلب، فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء الّتي بها ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته، وهو بعد لايصلح للتغذية، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتّى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد.

والكبد معجون من طينة الدّم حتّى كأنّه دم، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد، فيصبّ الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوة الكبد، فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصّالح لغذاء الأعضاء إلاّ أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم.

فيتولّد من هذا الدّم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ أحدهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السّوداوي، والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصّفراء، ولو لم تفصل عنه فضلتان فسد مزاج الأعضاء.

فخلق الله المرارة والطحال وجعل لكل منهما عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً في تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصّفراوية، ويجذب الطحال العكر السّوداوي فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلاّ زيادة رطوبة ورقة.

فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كلّ منهما عنقاً طويلاً إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقها ليس داخلاً في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتّى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدّقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولـم يخرج من العروق، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدّم صافياً من الفضلات الثلاث نقيّاً من كلّ ما يفسد الغذاء.

ثمّ إنّ الله اطلع من الكبد عروقاً، ثمّ قسّمها بعد الطلوع أقساماً، وشعّب كلّ قسم بشعب، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهراً وباطناً فيجري الدّم الصافي فيها ويصل إلى أجزاء البدن تماماً.

ولو حلّت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصّفراويّة فسد الدّم وحصل منه الأمراض الصفراويّة كاليرقان والبثور والحمرة.

وإن حلّت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السّوداوي حدثت الأمراض السّوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها.

وإن لم تندفع المائية نحو الكلي حدث منه الاستسقاء وغيره.

ثم انظر إلى بديع حكمته سبحانه كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة.

أمّا المرارة فإنّها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة زلقة ويحصل في الأمعاء لذع يحركها للدفع فتنضغط حتّى ينـدفع الثفل

وينزلق ويكون صفرته لذلك.

وأمّا الطحال فإنّه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها في كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبّهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل.

وأما الكلية فإنّها تغتذي مما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة.

ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدّت للأكل، وقد مرّ في شرح الفصل الخامس من فصول الخطبة الثانية والثمانين بعض الكلام في تشريح جملة من أعضاء الإنسان وقد علم مما أوردناه هناك وههنا أن الله سبحانه أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وهذا الّذي أوردناه قطرة من بحار نعم الله بل جملة ما عرفناه وعرفه الخلق من نعمه سبحانه بالإضافة إلى ما لم نعرفه ولم يعرفوه أقلّ من قطرة من بحر إلا أن من علم شيئاً من ذلك عرف شمة من معاني قوله تعالى: **﴿وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها﴾** ونسأل الله سبحانه التوفيق لشكر نعمه، والثّناء عليها.

ولما حمده سبحانه على نعمه المترادفة وآلائه العظيمة أردفه بالإشارة إلى أعظم نعمه سبحانه وهو نعمة العفو فقال:

(الذي عظم حلمه فعفى) والحلم في الإنسان فضيلة يعسر معها انفعال النفس عن المكروهات المنافية للطبع، وأما في الله سبحانه فيعود إلى عدم تعجيله بالعقوبة والحليم من أسمائه الحسنى.

قال أحمد بن فهد: الحليم هو ذو الصّفح والأناة الذي لا يغيره جهل جاهل ولا غضب مغضب ولا عصيان عاص.

ولما وصف حلمه تعالى بالعظمة فرّع عليه وصفه بالعفو، لأن عظم الحلم مستلزم للعفو والعفو من الأسماء الحسنى أيضاً.

قال ابن فهد: هو المحّاء للذّنوب الموبقات ومبدلها بأضعافها من الحسنات، والعفو فعول من العفو وهو الصّفح عن الذّنب وترك مجازاة المسيء وقيل: مأخوذ من عفت الريح إذ درسته ومحته.

وقوله **(وعدل في كل ما قضى)** يعني أن جميع مقتضياته ومقدراته على حد الاعتدال روجه الكمال مصون من التفريط والإفراط، لجريانها جميعاً على مقتضى الحكمة والنظام الأصلح، ويحتمل أن يكون المراد بما قضاه ما حكم به، فالمعنى أنه سبحانه عادل في

تكاليفه وأحكامه الشرعيّة وما يترتّب عليها من المثوبات والعقوبات، لأن الظلم قبيح محال في حقه سبحانه وما ربّك بظلام للعبيد.

(وعلم ما يمضي وما مضى) لا يخفى ما في هذه القرينة من حسن الاشتقاق وتقديم يمضي على مضي لاقتضاء السجع والقافية مضافاً إلى ما فيه من نكتة لطيفة، وهو الإشارة إلى أن علمه بالمستقبل كعلمه بالماضي.

وبعبارة أخرى علمه بالمستقبل والماضي واحد بخلاف غيره فإن علمهم بالماضي أسبق وأكمل من علمه بالمضارع، فإذا أريد وصف غيره بالعلم يقال: فلان علم ما كان وما يكون أو يقال: علم ما مضى وما يأتي، فقدّم في وصفه سبحانه ما يأتي على ما سبق تنبيهاً على أن علمه ليس كعلم المخلوقين، والمقصود به الإشارة إلى إحاطته سبحانه بجميع الأمور مستقبلها وماضيها كلّيها وجزئيها، وقد مضى تحقيق ذلك في شرح الفصل السابع من المختار الأوّل وغيره أيضاً فليتذكر.

(مبتدع الخلائق بعلمه) أي مبدعهم ومخترعهم بإرادته التي هي العلم بالأصلح والنظام الخير فيكون علمه سبباً وعلة لما ابتدع من مخلوقاته مقدماً عليه، وعلى هذا فالباء في بعلمه سببية.

والمستفاد من الشارح المعتزلي أنها باء المصاحبة حيث قال: قوله: مبتدع الخلائق بعلمه، ليس يريد أن العلم علة في الإبداع كما يقال: هوى الحجر بثقله، بل المراد أبدع الخلق وهو عالم كما تقول خرج زيد بسلاحه أي خرج متسلّحاً.

والظّاهر أنّه وافق في ذلك المتكلمين حيث قالوا: إنّ العلم تابع للمعلوم والتابع يمتنع أن يكون سبباً فالباء على رأيهم أيضاً للاستصحاب، والحق ما ذكرناه لما مر من أمير المؤمنين عليه السلام في المختار الأول من قوله: عالماً بها قبل ابتدائها، فإنه صريح في أن علمه سبحانه بالأشياء مقدّم على الأشياء وليس تابعاً لها، وشرحناه هنا بما لا مزيد عليه، وقد تقدّم الكلام مستوفي في أن إبداع الأشياء إنما هو بالإرادة والعلم في شرح الفصل الثالث من «**المختار**» التسعين، ولا حاجة هنا إلى الإطالة.

(ومنشئهم بحكمه) أي موجدهم بحكمه الإلزامي التكويني الذي لا يمتنع منه شيء هو وحكم قدرته النافذ في الأشياء كلها بالوجود وإنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ويحتمل أن يكون المراد بالحكم الحكمة يعني أنه أوجد المخلوقات على وفق الحكمة والمصلحة ووضع كلاً منها موقعه اللائق به، ولا أحكام ولا نظام فوق أن يكون الموجودات على كثرتها وتفصيلها متفاوتة متعاضدة منتفعة بعضها ببعض مؤدية بعضها إلى بعض، ويكون

كثرتها ككثرة أعضاء شخص واحد وحركاتها المختلفة المتضادة كحركات صاحب الرقص المنتظم حيث يكون مع اختلاف هيآتها سرعة وبُطْأً وتعويجاً وتقويماً كهيئة واحدة، فأجزاؤها جميعاً مشدودة في رباط واحد مع أن كلاً منها متوجّه نحو غاية مخصوصة تترتب عليه، والكلّ من حيث هو كلّ له غاية واحدة وهو التوجّه إلى مبدعه ومنشئه.

ولما ذكر إيجاده سبحانه للأشياء على نحو الإبداع والإنشاء والاختراع لا بعنوان الاستفادة من الغير أكّد ذلك إيضاحاً بقوله.

(بلا اقتداء ولا تعليم ولا احتذاء لمثال صانع حكيم) يعني صنعه وإبداعه ليس باقتداء صانع صنع قبله فاتبعه ولا بتعليم ذلك الصانع له فيتعلمه لأنه سبحانه قبل القبل ليس شيء قبله حتى يستفيد منه ويتبعه ويحتذي حذوه، وقد مضى نظير هذه الفقرة في الفصل الثاني من فصول المختار التسعين وذكرنا هنا ما ينفعك في هذا المقام.

(ولا إصابة خطّاء) قال الشارح البحراني: أي لم يكن إنشاؤه للخلق أولاً اتفاقاً على سبيل الأضرار والخطاء من غير علم منه ثمّ علمه بعد ذلك فاستدرك فعله وأحكمه فأصاب وجه المصلحة فيه، والإضافة بمعنى اللام لأنّ الإصابة من لواحق ذلك الخطأ، انتهى.

أقول: محصله أنه سبحانه لم يخطىء في شيء من خلقه فيصيبه ويصلحه أي يجبر خطائه بالصواب وفساده بالصلاح، ويحتمل أن يكون الإصابة بمعنى المصادفة والوصول إلى الشيء.

(ولا حضرة ملاء) أي لم يكن خلقه للأشياء بحضور جماعة من العقلاء وأصحاب الرأي بحيث يشير كلّ منهم عليه برأيه ويعينه بقوله في كيفية خلقه كما هو المعروف في الصّناع البشريّة إذا أرادوا صنعة شيء معظم يجتمعون مع أبناء نوعهم ويشاورونهم ويستمدون منهم فيشيرون عليهم ويعينونهم، لأن ذلك مستلزم للنقص والافتقار والحاجة وهو سبحانه منزّه عنه.

وأيضاً فإنّ الملاء من جملة مخلوقاته فكيف يتصوّر حضورهم في خلق أنفسهم قال سبحانه: **﴿ما أشهدتم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾** أي أعواناً وهذا كلّه تنزيه لفعله من أن يكون مثل أفعال العباد محتاجاً إلى معاونة الغير.

ولما حمد الله سبحانه وأثنى عليه بما هو أهله اتبعه بالشهادة على رسالة رسوله ﷺ فقال:

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ابتعثه) أي بعثه **(و)** الحال أنّ **(الناس)** يوم بعثه

(يضربون في غمرة) أي يسيرون في الانهماك في الضلال والباطل لأنهم يومئذ كما قال عليه السلام في الفصل السادس عشر من «**المختار**» الأوّل: ملل مفترّقة وأهواء منتشرة وطرائق متشتتة بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير به إلى غيره.

أو أنهم يسيرون في الشدّة والزّحمة كما قال عليه السلام في الفصل الأوّل من «**المختار**» السّادس والعشرين: «إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شر دار منيخون بين حجارة خشن وحيات صم تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم».

(ويموجون في حيرة) أي يضطربون ويختلفون في حيرة وجهالة لكثرة الفتن في أيام الفترة وزمان البعثة كما قال عليه السلام في الفصل الثالث من «**المختار**»: «والناس في فتن تنجذم فيها حبل الدّين وتزعزت سواري اليقين واختلف النجر وتشتت الأمر وضاق المصدر وعمى المخرج «إلى قوله» فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون».

(وقد قادتهم أزمة الحين) أي أزمة الهلاك كانت تجرّهم وتقودهم إلى الهلاك الدّائم والخزي العظيم، فالمراد بالحين الهلاك الأخروي لا الهلاك الدنيوي والموت كما زعمه البحراني، واستعار لفظ الأزمة للمعاصي والآثام وشبههم بالحيوان الذي يتبع قائده ويسير خلفه، يعني أنّهم يتبعون الشّهوات ويسيرون خلف السّيئات فتقودهم إلى هلاك الأبد.

(واستغلقت على أفئدتهم إقفال الرّين) شبه رين الذنوب وهو وسخها ودنسها بالأقفال المغلقة وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس ووجه الشبه أن الأقفال إذا أغلقت على الأبواب تمنع من الدخول في البيت فكذلك رين الذنوب إذا طبع على القلوب يمنع من دخول أنوار الحق فيها كما قال سبحانه: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ١٤] وذكر الاستغلاق ترشيح للتشبيه أي استحكمت في قلوبهم أوساخ الذّنوب بحيث صارت مانعة من إفاضة أنوار الحق إليها كالبيوت المغلقة بالأقفال المانعة من الدخول عليها.

ثمّ شرع فيما هو الغرض الأصلي من الخطبة وهو النّصح والموعظة فقال:

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنّها حق الله عليكم) لما كان التقوى عبارة عن إتيان الواجبات واجتناب المنهيات جعلها حقّاً لله سبحانه، إذ حقه على عباده أن يعبدوه ويوحّدوه كما قال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦].

(والموجبة على الله حقكم) أي جزاءكم، وأتى بلفظ الحق للمشاكلة ومثله ما صدر عن صدر النبوة في رواية معاذ المتقدمة في شرح الفصل الرابع من «**المختار**» الأوّل قال: كنت رفقت النّبي صلى الله عليه وآله فقال يا معاذ هل تدري ما حق الله على العباد؟ يقولها ثلاثاً قلت: الله

ورسوله أعلم فقال رسول الله ﷺ: «حق الله عزّ وجلّ على العباد أن لا يشركوا به شيئاً»، ثمّ قال: هل تدري ما حقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ألاّ يعذّبهم أو قال ألاّ يدخلهم النار.

(وإن تستعينوا عليها بالله وتستعينوا بها على الله) لا يخفي ما في هذه القرينة من حسن المقابلة، والمراد بالاستعانة عليها بالله أن يطلب منه سبحانه التوفيق والإعانة على تحمل مشاق التكاليف الشرعية، وبالاستعانة بها على الله الاستعداد بها على الوصول إلى قرب الحق وجواره وساحل عزته وجلاله.

(فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة) لم يقل فإنها بل وضع المظهر موضع المضمر لزيادة التمكين في ذهن السامع كما في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: الآيتان ١ و٢] أو إيهام الاستلذاذ بذكره كما في قوله:

ليلاي منكن أم ليلا من البشر

يعني أنها في دار الدنيا حرز حريز وحصن حصين يمنع المتحرز بها والمتحصن فيها من شرّ الأعداء كما قال تعالى: ﴿**إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا**﴾ وهي جنّة وترس يقي المستتر بها من شدائد الدّنيا كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطّلاق: الآية ٢].

(وفي غد الطريق إلى الجنة) أي في يوم القيامة طريق إلى الجنة والخلود فيها كما قال عزّ وجل: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

(مسلكها واضح) جلي وهي جادة الشريعة وأي مسلك أوضح منها **(وسالكها رابح)** مليّ لأنه يسلك بها الجنّة وأي سفر أربح منها **(ومستودعها حافظ)** لما كان التقوى زاداً للآخرة شبّهها بالوديعة المودعة عند الله سبحانه وجعله تعالى بمنزلة المستودع، أي قابل الوديعة، والمراد أن مستودع التقوى وهو الله سبحانه حافظ لهذه الوديعة التي هو زاد الآخرة من التلف والضّياع كما قال تعالى: ﴿**أنا لا نضيع أجر من أحسن عملا**﴾.

ويجوز أن يراد بالمستودع الملائكة الحفظة الّتي هي وسائط بين الخلق وبين الله، فإنهم لما كانوا مأمورين بكتابة أعمال العباد وحفظها وضبطها كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفِطار: الآيات ١٠ ـ ١٢] شبّههم بالمستودع أي المستحفظ الّذي يطلب منه حفظ الوديعة.

ثم أشار إلى عموم منفعتها وعدم اختصاص مطلوبيّتها بالمخاطبين فقال:

(لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين منكم والغابرين) أي لم تزل تعرض نفسها على اللّف والخلف كالمرأة الصالحة الحسناء العارضة نفسها على الرجال للتزويج والاستمتاع والانتفاع منها في محن الدّهر ونوائب الزّمان وكذلك هذه عرضت نفسها على الأمم لينتفعون بها في الدّنيا.

(ولحاجتهم إليها غداً) أي في العقبى **(إذا أعاد الله ما أبدا وأخذ ما أعطى وسأل عمّا أسدى)** يعني أنهم محتاجون إليها إذا أنشر الله الموتى وإذا أخذ من الناس ما خوّلهم من متاع الدّنيا، وإذا سأل العباد عما أسدى وأحسن إليهم من النعم والآلاء، أو إذا سأل عما أسداه وأهمله من الجوارح والأعضاء.

وإنما كانوا محتاجين إليها في تلك الأحوال لوقايتها لهم من أهوال ذلك اليوم وداهي هذه الأحوال، فالمتقون بما لهم من التقوى من فزع النشر والمعاد آمنون، وإلى زادهم حين أخذها أعطى مطمئنون، وبصرف ما أسدى إليهم من الأموال في مصارفه وما أسداه من الأعضاء في مواقعها من مناقشة السؤال سالمون كما قال عز من قائل: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٥] وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطّلَاق: الآية ٢] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطّلَاق: الآية ٤] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطّلَاق: الآية ٥].

وأما غير المتقين فعند نشرهم يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون، وحين أخذ ما أعطى فإنهم إذاً لخاسرون، وإذا سئل عما أسدى فيخاطبون بخطاب قفوهم إنهم مسؤولون، فاليوم نختم على أفواههم وتكلّم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.

ثمّ تعجب من قلّة الآخذين بالتقوى مع كونها محتاجاً فقال:

(فما أقل من قبلها وحملها حق حملها) أي شرائطها ووظائفها المقررة الموظفة **(أولئك الأقلّون وهم أهل صفة الله سبحانه)** أي القابلون الحاملون لها الذين وصفهم الله تعالى في كتابه **(إذ يقول)** في حقهم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣] ربما فسّر الشكور بمن تكرر منه الشكر وقيل: الشكور المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته وقيل: الشكورمن يرى عجزه عن الشكر وقال ابن عباس: أراد به المؤمن الموحّد وفي هذا دلالة على أن المؤمن الشاكر يقل في كلّ عصر وزمان.

أقول: ويحتمل أن يراد بالشكور كثير الطاعة لله ويشهد به ما رواه في **«الكافي»** عن الباقر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت يا رسول الله لم تتعب نفسك قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: يا عائشة أما أكون عبداً شكوراً».

ولما ذكر ثمرات التقوى ونبه على الاحتياج إليها غداً أمر المخاطبين بالمواظبة عليها فقال:

(**فأهطعوا بأسماعكم إليها**) أي أسرعوا بأسماعكم إلى سماع وصفها ونعتها لتعرفوها حق المعرفة وتعملوا على بصيرة، (**وأكظوا بجدّكم عليها**) أي اجهدوا وداوموا بالجدّ والمبالغة (**واعتاضوها من كل سلف خلفا**) أي اجعلوها عوضاً من جميع ما سلف بكم وخذوها خلفاً منه لأنّه خير خلف محصل للسعادة الأبدية والعناية السرمدية، (**ومن كلّ مخالف موافقا**) الظاهر أن المراد بالمخالف والموافق المخالف لطريق الحق والموافق له، فيكون المعنى اجعلوا التقوى حال كونها موافقاً لطريق الحق عوضاً وبدلاً من كلّ ما يخالف طريقه، و(**أيقظوا بها نومكم واقطعوا بها يومكم**) الظاهر أنه أراد بهما قيام اللّيل وصيام النهار واللذين هما من مراسم التقوى، ويحتمل أن المراد بالأوّل الأمر بالانتباه بها من نوم الغفلة، وبالثاني الأمر بختم النهار بالعبادة.

(**وأشعروا بها قلوبكم**) قال الشارح المعتزلي يجوز أن يريد اجعلوها شعاراً لقلوبكم، وهو ما دون الدثار وألصق بالجسد منه، ويجوز أن يريد اجعلوها علامة يعرف بها القلب التقي من القلب المذنب كالشعار في الحرب يعرف به قوم من قوم، ويجوز أن يريد الإشعار بمعنى الإعلام من أشعرت زيداً بكذا أي عرفته إياه أي اجعلوها عالمة بجلالة موقعها وشرف محلها.

(**وأرحضوا بها ذنوبكم**) أي اغسلوها بها لأنها كفّارة لها كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطّلَاق: الآية ٥]، (**وداووا بها الأسقام**) أي أسقام الذّنوب وأمراض القلوب (**وبادروا بها الحمام**) أي الموت.

(**واعتبروا بمن أضاعها ولا يعتبرون بكم من أطاعها**) أمرهم بالاعتبار بالأمم الماضية قبلهم ممن أضاع التقوى واتبع الهوى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦٥ و١٦٦] ونهيهم عن كونهم عبرة للمطيعين وهو في الحقيقة نهي عن دخولهم في زمرة المضيعين، أي ادخلوا في حزب المطيعين لتعتبروا بغيركم ولا تدخلوا في حزب المضيعين حتّى يعتبر بكم غيركم.

(**ألا وصونوها وتصونوا بها**) أي صونوها حق الصيّانة واحفظوها من شوب العجب والرياء والسمعة وتحفظوا أنفسكم بها لأنها الحرز والجنّة.

ثمّ أمر بالزّهد في الدّنيا والوله إلى الآخرة لاستلزامهما للتقوى وهو قوله:

(وكونوا عن الدّنيا نزاهاً) متباعدين **(وإلى الآخرة ولاّهاً)** أي والهين مشتاقين، فإن الوله إلى الآخرة يوجب تحصيل ما يوصل إليها وهو التباعد عن الدّنيا والملازمة للتقوى **(ولا تضعوا من رفعته التقوى)** وهو نهي عن إهانة المتقين لكونه خلاف التقوى **(ولا ترفعوا من رفعته الدنيا)** وهو نهي عن تعظيم الأغنياء الذين ارتفاع شأنهم عند الناس ووجاهتهم من جهة ثروتهم، فإن تعظيمهم من هذه الجهة مناف للتقوى.

(ولا تشيموا بأرقها) أي لا تنظروا إلى سحابها صاحب البرق انتظاراً للمطر قال الشارح البحراني: استعار لفظ البارق لما يلوحُ للناس في الدنيا من مطامعها ومطالبها، ووصف الشيم لتوقع تلك المطالب وانتظارها والتطلع إليها على سبيل الكناية عن كونها كالسحابة التي يلوح بارقها فيتوقع منها المطر.

(ولا تسمعوا ناطقها ولا تجيبوا ناعقها) وهو نهي عن مخالطة أهل الدنيا ومعاشرتهم أي لا تسمعوا إلى مادحها ومن يزيّنها ويصفها بلسانه وبيانه ولا تصدقوا قوله، ولا تجيبوا صائحها أي لا تتبعوا ولا توافقوا المنادى إليها لأن سماع الناطق وإجابة الناعق يوجب الميل إليها، ويحتمل أن يكون الناطق والناعق استعارة لمتاع الدنيا ومالها، فإنّه لما كان يرغب فيها بلسان حاله ويدعو إليها شبه بالناطق والناعق.

(ولا تستضيئوا بإشراقها ولا تفتنوا بأعلاقها) استعار لفظ الإشراق لزينة الدنيا وزخارفها وزبرجها وأموالها ولفظ الاستضاءة للالتذاذ والابتهاج بتلك الزخارف أي لا تبتهجوا بزخارف الدنيا ولا تفتنوا بنفائسها.

ولما نهى عن شيم البارق وسماع الناطق وإجابة الناعق وعن الاستضاءة بالإشراق والافتتان بالأعلاق، أردفه بالإشارة إلى علل تلك المناهي فعلل النهي عن شيم البارق بقوله:

(فإن برقها خالب) أي خال من المطر فيكون الشيم والنظر خالياً من الثمر، قال الشارح البحراني: استعار لفظ الخالب لما لاح من مطامعها، ووجه المشابهة كون مطامعها وآمالها غير مدركة وإن أدرك بعضها ففي معرض الزوال كأن لم يحصل فأشبهت البرق الذي لا ماء فيه وإن حصل معه ضعيف غير منتفع به فلذلك لا ينبغي أن يشام بارقها.

وعلل النهي عن سماع الناطق وإجابة الناعق بقوله **(ونطقها كاذب)** أي ناطقها كاذب لأنّ قوله مخالف لنفس الأمر وما يزيّنه ويرغب فيه ويدعو إليه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

وعلل النّهي عن الاستضاءة بالإشراق بقوله **(وأموالها محروبة)** أي مأخوذة بتمامها، وما شأنها ذلك فلا يجوز الابتهاج والشغف بها.

وعلل النهي عن الفتون بالأعلاق بقوله **(وأعلاقها مسلوبة)** أي منهوبة مختلسة وما حالها ذلك فكيف يفتن بها ويمال إليها. ثمّ وصف الدنيا بأوصاف أخرى منفرة عنها فقال:

(ألا وهي المتصدّية العنون) أي مثل المرأة الفاجرة المتصدية المتعرضة للرجال المولعة في التعرّض لهم، وهو من التشبيه البليغ ومن قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس، ووجه الشبه أن المرأة الموصوفة كما تزين نفسها وتعرضها على الرجال لتخدعهم عن أنفسهم فكذلك الدنيا تتعرض بقيناتها لأهلها فتخدعهم.

(والجامحة الحرون) أي مثل الدّابة السيّئة الخلق التي لا تنقاد لراكبها البالغة في عدم الانقياد غايته، والتشبيه هنا مثل التشبيه في الفقرة السابقة، ووجه الشبه أن الدابة الموصوفة كما لا تنقاد لصاحبها ولا يتمكن من حملها وركوبها مهما أريد، فكذلك الدّنيا لا يتمكّن أهلها من تصريفها وتقليبها والانتفاع بها في مقام الضرورة والحاجة.

(والمائنة الخؤون) أي الكاذبة كثيرة الخيانة حيث إنها تخدع الناس بزينتها وتغرّهم بحليّها وتوقع في وهمهم وخيالهم لقيائها لهم، فما قليل ينكشف كذبها وتتبين خيانتها إذا زالت عنهم.

(والجحود الكنود) أي كثيرة الإنكار والكفران كالمرأة التي تكفر نعمة زوجها وتنكر معروفه وإحسانه، ويكون من شأنها الغدر والمكر، وكذلك الدّنيا تنفر عمن رغب فيها وسعى إليها واجتهد في عمارتها وتكون سبب هلاكه ثمّ تنتقل عنه إلى غيره.

(والعنود الصدود) لما كان من شأن الدّنيا الانحراف والميل عن القصد والعدول عن سنن قصود الطالبين الراغبين منها، شبّهها بالعنود الصدود، وهو الناقة العادلة عن مرعى الإبل والرعاية في جانب منه ووصفها بالصدود لكثرة إعراضها.

(والحيود الميود) أي كثيرة الميل والتغيّر والاضطراب **(حالها انتقال)** أي شأنها وشيمتها انتقال من حال إلى حال وانقلاب من شخص إلى شخص **(ووطأتها زلزال)** أي موضع قدمها متحرك غير ثابت **(وعزّها ذلّ)** أي العزّ الحاصل لأهل الدّنيا بسبب الثروة والغنى فهو ذلّ في الحقيقة، لأنّ ما تعززه به، من المال إن كان من حلال ففيه حساب وإن كان من حرام ففيه عقاب، فعزّتها موجب لانحطاط الدرجة عند الله سبحانه، ولذلك قال سيّد الساجدين عليه السلام في بعض أدعية الصحيفة: «فإنّ الشريف من شرّفته طاعتك، والعزيز من أعزّته عبادتك»[١].

(وجدّها هزل) قال الشارح البحراني: استعار لفظ الجدّ وهو القيام في الأمر بعناية

(١) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٨١.

واجتهاد لإقبالها على بعض أهلها بخيراتها كالصديق المعتني بحال صديقه ولإدبارها عن بعضهم وإصابتها له بمكروهها كالعدو القاصد لهلاك عدوّه، واستعار لجدّها لفظ الهزل الذي هو ضدّه، ووجه الاستعارة كونها عند إقبالها على الإنسان كالمعتنية بحاله، وعند إعراضها عنه ورميه بالمصائب كالقاصدة لذلك، ثمّ تسرع انتقالها عن تلك الحال إلى ضدّها فهي في ذلك كالهازل اللاعب.

(وعلوها سفل) وهو في معنى قوله: وعزّها ذلّ، أي العلوّ الحاصل بسببها موجب لانحطاط الرتبة في الآخرة.

(دار حرب وسلب ونهب وعطب) أي دار محاربة أو دار سلب واختلاس وغارة وهلاكة لأنّ أهلها ومالها غرض للآفات وهدف للقتل والغارات، أو أن مالها يسلب عن أهلها ويحرب وينهب بموت صاحب المال وهلاكه.

(أهلها على ساق وسياق) إن فسر الساق بساق القدم فالمراد بالجملة الإشارة إلى زوالها وانقضائها، يعني أن أهلها قائمون على سوقهم وأقدامهم مستعدون للسياق والمسير إلى الآخرة، وإن فسّر بالشدة فالمراد أن أهلها في شدّة ومحنة وعرضة للموت، ومعلوم أنها إذا كانت دار حرب ونهب وسلب وعطب يكون أهلها في شدّة لا محالة.

(ولحاق وفراق) أي أهلها يلحق بعضهم بعضاً أي يلحق أحياؤهم بالأموات ويفارقون من الأموال والأولاد.

(قد تحيرت مذاهبها) من المجاز العقلي أي تحيّر أهلها في مذاهبها ومساكلها لا يهتدون إلى طريق جلب خيرها ودفع شرّها، وذلك لاشتباه أمورها وعدم ووضح سبلها الموصلة إلى المقصود.

(وأعجزت مهاربها وخابت مطالبها) إسناد الإعجاز إلى المهارب والخيبة إلى المطالب أيضاً من باب المجاز، والمراد أن من أراد الهرب والفرار من شرورها فهو عاجز في مواضع الهرب، ومن أراد النيل إلى عيشها ومآربها فهو خائب في محال الطلب، وأشار إلى بعض ملازمات الخيبة بقوله:

(فأسلمتهم المعاقل) أي لم تحفظهم من الرزايا ولم تحصنهم «تحرزهم خ ل» من المنايا **(ولفظتهم المنازل)** أي ألقتهم ورمت بهم نحو سهام المنيّة **(وأعيتهم المحاول)** أي تصاريف الدّنيا وتغيرات الزمان أو الحيل لإصلاح أمورها.

ثم قسّم أهلها باعتبار ما يصيبهم من حوادثها ومزورها إلى أصناف بعضها أحياء وبعضها أموات وهو قوله:

(فمن ناج معقور) أي مجروح كالهارب من الحرب بعد مقاساة الأحزان والشدائد، وقد جرح بدنه، وهذا صفة الباقين في الدّنيا قد نجوا من الموت ولكن صاروا غرضاً للآفات.

(ولحم مجزور) أي قتيل صار لحماً مقطوعاً **(وشلو مذبوح)** قال الشارح البحراني: أراد ذي شلو أي عضو مذبوح أي قد صار بعد الذبح أشلاء متفرقة، ويحتمل أن يكون مذبوح صفة للشلو، وأراد بالذبح مطلق الشق كما هو في أصل اللغة **(ودم مسفوح)** أي ذي دم مسفوك **(وعاض على يديه)** بعد الموت ندماً على التفريط في أمر الله وهو وصف للظالمين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية ٢٧] **﴿يا ويلتي ليتني لم اتخذت فلانا خليلا﴾** **(وصافق بكفيه)** أي ضارب إحداهما على الأخرى تأسّفاً وتحسّراً **(ومرتفق بخديه)** أي جاعل راحة كفيه تحت خديه متكأ على مرفقيه هماً وحزناً **(وزار على رأيه)** أي عائب على اعتقاده فإنه لما كان عقيدته طول المكث والبقاء في الدنيا وامتداد زمان الحياة وكان ذلك موجباً للالتفات بكليته إليها وانقطاعه عن الآخرة وانهماكه في الشهوات، ثم انكشف بالموت فساد تلك العقيدة وبطلان ذلك الاعتقاد لا جرم أزرى على رأيه وعابه **(وراجع عن عزمه)** أي من قصده، وذلك لأن قصده لما كان السّعي في تحصيل الدنيا وعمارتها والإكثار من قيناتها وكان منشأ ذلك أيضاً زعم تمادى مدّة الحياة واللّبث فيها فانكشف خلافه، كان ذلك موجباً لرجوعه عن عزمه وندمه عليه، هذا.

ولما كانت الجملات المتعاطفات الأخيرة كلّها مشتركة المعنى في إفادة ندم الأموات على ما فرّطوا في جنب الله عقبها بالجملة الحالية أعنى قوله:

(وقد أدبرت الحيلة وأقبلت الغيلة) تنبيهاً بها على أنه لا ثمر للندم ولا منفعة في العض على اليدين والصفق بالكفين والارتفاق بالخدين ولا فائدة في الإزراء على الرأي والرجوع عن العزم، والحال أنه قد ولي الاحتيال وأقبل الهلاك والاغتيال.

لأن الحيلة للخلاص من العقاب والتدبر وللفوز بالثواب إنّما هو قبل أن يغتال مخالب المنية كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النِّساء: الآية ١٧].

وأما بعد ما أنشبت أظفارها فلا كما قال سبحانه: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال أني تبت الآن﴾** ولو قال بعد الموت **﴿رب أرجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت﴾** يقال له: **﴿كلا أنها كلمة هو قائلها﴾** فانقطع العلاج وامتنع الخلاص.

(ولات حين مناص هيهات هيهات) أي بعد المناص والخلاص جدّاً والحال أنه **(قد**

فات ما فات وذهب ما ذهب) الإتيان بالموصول في المقامين تخفيماً بشأن الفائت الذاهب أي فات زمان تدارك السيئات، وذهبت أيام جبران الخطيئات، وانقضى وقت تحصيل النجاة من العقوبات، والخلاص من ورطات الهلكات.

(ومضت الدّنيا لحال بالها) أي بما فيها خيراً كان وشرّاً، وقيل: أي مضت الدّنيا لما يهواه قلبها وللسّبيل الّذي أرادت ولم تكترث لحال القوم ولم تهتم لأمرهم بل نسيتهم، وهذا مثل قولهم: مضى فلان لسبيله، ومضى لشأنه.

(فما بكت عليهم السّماء والأرض وما كانوا منظرين) اقتباس من الآية الشريفة في سورة الدخان.

واختلف في معناها على وجوه:

أحدها أنّه لم تبك عليهم أهل السماء وأهل الأرض، لأنهم لا يستحقون أن يتأسّف عليهم أحد ويحزن لفقدهم وكأنهم توقعوا ذلك لعزّتهم ورفعة درجتهم في نظرهم.

الثاني أنّه ما بكى عليهم المؤمنون من أهل الأرض ولم يبك عليهم أهل السماء كما يكون على فقد الصالحين، لأنّ هؤلاء مسخوط عليهم، وهو قريب من الوجه الأوّل.

الثّالث أنّه سبحانه أراد المبالغة في وصف القوم بصغر القدر، فإن العرب إذا أخبرت عن عظم المصاب بالهالك قالت: بكاه السّماء والأرض، وأظلم لفقده الشمس والقمر، قال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز:

فالشّمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم اللّيل والقمر

أي ليست مع طلوعها كاسفة نجوم اللّيل والقمر لأن عظم المصيبة قد سلبها ضوءها، وقال النابغة:

تبدو كواكبه والشّمس طالعة لا النور نور ولا الإظلام إظلام

الرابع أن يكون ذلك كناية عن أنّه لم يكن لهم في الأرض عمل صالح يرفع منها إلى السماء، وقد روي عن ابن عبّاس أنه سئل عن هذه الآية فقيل: وهل يبكيان على أحد؟ قال: نعم مصلاه في الأرض، ومصعد عمله في السماء، وروي عن أنس عن النبي ﷺ ما من مؤمن إلاّ وله باب يصعد منه عمله وباب نزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه.

قال الطبرسي: على هذا يكون معنى البكاء الإخبار عن الاختلال بعده، قال مزاحم العقيلي:

بكت دارهم من أجلهم فتهلّلت دموعي فأيّ الجازعين ألوم

أمستعبراً يبكي من الهون والبلى أم آخر يبكي شجوه ويهيم

وقوله: وما كانوا منظرين، أي عوجلوا بالعقوبة ولم يمهلوا، نسأل الله سبحانه أن يوفقنا التوبة قبل حلول الفوت، وللإنابة قبل نزول الموت، وأن لا يجعلنا في زمرة من غضب عليه، ومن نادى واحسرتا على ما فرّطت في جنب الله، بمحمّد وآله الكرام عليهم الصلاة والسلام.

الترجمة

ازجمله خطب بليغه آن بزرگواراست درتحريض مردمان بتقوى وپرهيزكارى ميفرمايد:

حق وسپاس معبود بحقى را سزااست كه آشكاراست حمد او، و غالب است شكراو،وبلنداست عظمت وجلال او، حمدميكنم برنعمتهاى متواتراو، وبرعطاهاى بزرگ‌ومتكاثراو، چنان‌خداوندیكه‌بزرگ‌شدحلم‌اوپس‌عفوفرمود. وعدالت بجاآورد درهرچه كه‌حكم‌نمود، وعالم‌شدبآنچه ميگذردوبآنچه گذشت، آفريننده مخلوقاتست باعلم شامل خود، ايجاد كنندهٔ ايشان است با أمر كامل خود بدون اقتدا نمودن بكسى در ايجاد آنها، وبدون تعليم دادن ديگرى‌اورا، وبى‌اندازه گرفتن مرنمونه صنعت‌كار حكيم را، و بى رسيدن خطا وبدون حضور جماعتى ازعقلا كه مشاورت كنند با ايشان درامرايجاد.

وشهادت مى‌دهم باينكه محمّد بن عبدالله ﷺ بنده و رسول او است، مبعوث فرمود اورا درحالتيكه مردمان سيرميكردند درشدت وضلالت، و موج ميزدند در حيرت وجهالت، درحالتيكه كشيده بود ايشان را مهارهاى هلاكت، وبسته بود بردلهاى ايشان قفلهاى وسخ ذنوب.

وصيّت ميكنم شما را اى بندگان خدا بپرهيزكارى پروردگار، پس بدرستيكه تقوى حق خدااست برذمه شما، وواجب كننده‌است حق شما را برخدا، ووصيت ميكنم باينكه استعانت نمائيد برتقوى ازخدا، واستعانت نمائيد از تقوى برخدا، پس بتحقيق كه تقوى دراين روز دنيا پناه است وسپر، ودرفرداى آخرت راه است ببهشت، راه آن تقوى واضح است وآشكار، و راه رونده آن صاحب ربح است وبا منفعت، وأمانت گيرنده آن حافظ است آنرا از تلف.

همیشه تقوی اظهار کننده است نفس‌خودرا براشتهائی که گذشته‌اند و باقی مانده بجهت حاجت ایشان بآن‌درفردا زمانی که باز گرداند خداآنچه را که ایجاد فرموده بود ، وبگیردآنچه را که عطا نموده بود ، وسؤال‌نماید ازچیزی که احسان کرده بود ، پس چه قدر کم است اشخاصی که قبول تقوا کردند وبرداشتند آنرا حق برداشتن آنجماعت متقیان کم‌اند ازحیثیّت عدد ، و ایشان کسانی هستند که وصف فرموده خدا ایشان را در کتاب مجید خود وقتیکه میفرماید ــ و قلیل من عبادی الشکورــ یعنی اندك است ازبندگان من شکر کننده .

پس بشتابید بسمعهای خود بسوی شنیدن منافع تقوی ، و مداومت نمائید باجدوجهد خودتان‌برتقوی ، وعوض‌نمائید آن را ازهر گذشته ازجهت خلف صالح بودن ، وعوض نمائید آنرا ازهرچیزی که مخالف طریق حق است درحالتیکه آن موافق حق است، وبیدارنمائید باآن‌تقوی خواب‌خودرا ،وببریدباآن روز خودرا ، وشعار قلبهای خود نمائید آن‌را ، و بشوئید با آن گناهان خودرا ، ودوانمائید باآن ناخوشیهای خودرا ، و مبادرت کنید با آن بسوی مرگ ، وعبرت بگیرید با کسیکه ضایع ساخت تقوی را ، والبته نبایدعبرت گیرد باشما کسیکه اطاعت‌نماید بآن ، آگاه باشید پس نگاه دارید تقوی را ونگاه داری کنید با آن نفس خودرا .

وباشید ازدنیا دورشوندگان‌وبسوی‌آخرت شیفته‌گان، وپست مسازید کسی‌را که بلند نموده است او را تقوی ، وبلند مسازید کسیرا که بلند نموده‌است اورا دنیا ، وچشم ندوزید بزخارف برق زننده دنیا ، وگوش‌ندهید بمدح کننده آن ، و قبول نکنید خواننده بدنیارا ، و روشنی مخواهیدباروشنی‌آن ، ومفتون نشوید بنفایس‌آن ازجهت اینکه برق آن خالی‌است از باران ،وگفتار آن دروغ است ، و مالهای اوگرفته شده است بتمامی ، و نفایس آن ربوده‌شده بناکامی .

آگاه باشید که دنیا مثل زن فاجره است که متعرض شونده مردها است ، کثیر التعرض است بایشان مثل حیوان سرکشی است نافرمان ، و کاذبست بغایت خاین ، ومنکرات زیاده ناسپاس ، ومنحرفست بسیار عدول کننده وبر گردنده‌است زیاده متغیّر و مضطرب ، شأن آن زوال و فنا است و موضع قدم آن اضطرابست

وحركت ، وعزت آن خواريست وهمت آن سخريّه است واستهزاء و بلندی آن پستی است ، خانه ستاندن و ربودن و غارت و هلاکت است ، أهل آن برشدّت‌اند ورحلت وبرلاحق شدن روندگان‌اند و مفارقت از باقی‌ماندگان .

بتحقيق متحيّر بوده است راههای آن ، وعاجزنموده محلهای گریزازآن ، وخايب وناامیدشده مکانهای‌طلب او ، پس‌فروگذاشت وترك‌نمودایشان را پناگاهها، وانداخت ایشان را منزلها ، وعاجزساخت آنها را انقلابات روزگار .

پس بعضی از ایشان نجات یابنده است صاحب‌جراحت ، وبعضی گوشتی‌است پاره پاره ، و عضوی است بریده شده ، و خونیست ریخته شده ، و گزنده است با دندان دستهای خودرا از روی ندامت ، و زننده است کف دستهایش را بهم از روی حسرت ، و نهنده است مرفقین خود را زیر خدّین خود از جهت پریشانی و اندوه ، وعیب کننده است برعقیدهٔ فاسد خود ، ورجوع کننده است ازعزم وقصد خود .

وحال آنکه بتحقيق که ادبار نموده حیله وتدبیر ، و اقبال کرده مرگ ناگهان ، ونیست این وقت وقت چاره چه دور است بغایت دور چاره وعلاج ، و حال آنکه فوت شد آنچه که فوت شد ، ورفت آنچه که رفت ، وگذشت دنیا بحال دل خود نه بخواهش اهل روزگار ، پس‌نه گریست‌بأهل‌روزگار آسمان وزمین ، ومهلت داده نشدند وزود گرفتار عذاب گشتند .

ومن خطبة له عليه السلام تسمى بالقاصعة وهي المائة والحادية والتسعون من المختار في باب الخطب

قال السيد رحمه الله: وهي تتضمن ذم إبليس على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحميّة وتحذير النّاس من سُلوك طريقته.

أقول: وهذه الخطبة أبسط خطب النهج وأطولها، وشرحها في فصول، وقد روي بعض فصولها في ساشر كتب الأخبار باختلاف تطلع عليه إنشاء الله تعالى.

الفصل الأول

أَلْحَمْدُ للّهِ الَّذي لَبِسَ الْعِزَّ وَالكِبْرِياءَ، وَاخْتارَهُما لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِه، وجَعَلَهُما حِمًى وحَرَماً عَلىٰ غَيْرِهِ، وَاصْطَفاهُما لِجَلالِه، وجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلىٰ مَنْ نازَعَهُ فِيهِما مِنْ عِبادِهِ، ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ لِيُمَيِّزَ الْمُتَواضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقالَ سُبْحانَهُ وهُوَ الْعالِمُ بِمُضْمَراتِ الْقُلُوبِ، ومَحْجُوباتِ الْغُيُوبِ - إِنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ، فَإِذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلاّ إِبْلِيسَ - اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَافْتَخَرَ عَلىٰ آدَمَ بِخَلْقِهِ وتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ، فَعَدُوُّ اللّهِ إِمامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِين الَّذي وَضَعَ أَساسَ الْعَصَبِيَّةِ، ونازَعَ اللهَ رِداءَ الْجَبْرِيَّةِ، وادَّرَعَ لِباسَ التَّعَزُّزِ، وخَلَعَ قِناعَ التَّذَلُّلِ.

الاَ تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللّهُ بِتَكَبُّرِهِ، ووَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيا مَدْحُوراً، وأَعَدَّ لَهُ فِي الآخِرَةِ سَعِيراً، وَلَوْ أَراد اللّهُ سُبْحانَهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصارَ ضِياؤُهُ، ويَبْهَرُ الْعُقُولَ رُواؤُهُ، وطِيبٍ يَأْخُذُ الْأَنْفاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتِ الْأَعْناقُ خاضِعَةً لَهُ، ولَخَفَّتِ الْبَلْوَىٰ فِيهِ عَلَى الْمَلائِكَةِ، وَلٰكِنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ يَبْتَلي خَلْقَهُ بِبَعْضِ ما يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاخْتِبارِ لَهُمْ، ونَفْياً لِلإِسْتِكْبارِ عَنْهُمْ، وإِبْعاداً لِلْخُيَلاءِ مِنْهُمْ، فاعْتَبِرُوا بِما كانَ مِنْ فِعْلِ اللّهِ بِإِبْلِيس إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّويلَ، وجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وكانَ قَدْ عَبَدَ اللّهَ سِتَّةَ آلافِ سَنَةٍ لاَ يُدْرى أَمِنْ سِنّي الدُّنْيا أَمْ مِنْ سِنِيِّ الآخِرَةِ عَنْ كِبْرِ ساعَةٍ واحِدَةٍ فَمَنْ ذا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ، كَلا ما كانَ اللّهُ سُبْحانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْها مَلَكاً، إِنَّ حُكْمَهُ في أَهْلِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لَواحِدٌ، وَما بَيْنَ اللّهِ وبَينَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِه هوادَةٌ في إِباحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَىٰ الْعالَمينَ[1].

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/٤٦٦، وأجوبة مسائل جار الله: ٢٨.

اللغة

(قصع) الرجل قصعاً من باب منع إذا ابتلع جرع الماء وقصعت الناقة بجرّتها إذا ردّتها إلى جوفها أو مضغتها أو هو بعد الدسع وقبل المضغ أو هو بأن تملأ فاها أو شدة المضغ، وقصع الماء عطشه سكّنه، وقصع القملة بالظفر قتلها، وقصع فلاناً صغّره وحقّره، وقصع الله شبابه أكداه، وقصع الغلام أو هامته ضربه ببسط كفه على رأسه، قيل: والذي يفعل به ذلك لا يشبّ، وغلام مقصوع وقصيعٌ وقصعٌ كادي الشباب.

و(حمى) الشيء يحميه حمياً وحمايةً ومحمية منعه وكلاء حمى مثل رضى محمى والحميّة الأنف و(تجبّر) الرجل إذا تكبّر، والجبّار من الأسماء الحسنى القاهر المتكبّر الذي لا ينال، والجبّار في المخلوق العاتي المتمرد، والمتكبر الّذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والجبريّة بكسر الجيم وسكون الباء والجبريّة بكسرات والجبريّة بالفتحتين، والجبريّة بفتح الأوّل وسكون الثاني، والجبروة بالواو المضمومة والجبروت وزن برهوت كلّها مصادر بمعنى العظمة والجلالة.

و(ادّرع) الرّجل وتدرّع لبس درع الحديد و(القناع) بالكسر ما تقنع به المرأة رأسها وهو أوسع من المقنعة و(العرف) بفتح الأوّل وسكون الثاني الريح طيّبة أو منتنة وأكثر استعماله في الطيّبة و(الخيلاء) والخيل والخيلة الكبر و(الهوادة) اللين والرخصة وما يرجى به الصّلاح.

الإعراب

وتحذير في كلام الرضي بالنّصب عطف على مفعول تتضمّن وجملة اعترضته استئنافية بيانية، وتمييزاً مفعول لأجله لقوله يبتلي، وقوله: عن كبر ساعة، متعلق بقوله: أحبط، وعن للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ [التّوبَة: الآية ١١٤] وعلى في قوله: يسلم على الله، بمعنى من كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطفّفين: الآية ٢] أي منهم، وقوله: بأمر أخرج به، الباء الأولى للمصاحبة، والثانية للسببيّة.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة كما أشرنا إليه أطول خطب هذا الكتاب، ويخطف بالأبصار ضياؤها، يبهر من العقول رواؤها، ويذهب بالأحلام انسجامها، وقبل الشروع في شرحها فلنقدّم هنا فوائد:

الأولى - في اسمها ووجه تسميتها

قال الرّضي ﷺ: تسمى بالقاصعة، وهي مأخوذة من القصع والمعاني السبعة التي ذكرناها لتلك المادة في بيان اللّغة كلّها ممكنة الإرادة هنا.

فعلى المعنى الأوّل والثاني نقول: إن المواعظ والنصائح لما كانت في هذه الخطبة متتابعة مردّدة من أوّلها إلى آخرها شبّهت بجرع الماء المتتابعة المبتلعة جرعة بعد جرعة، وبجرات الناقة الّتي تقصع جرّة بعد جرة.

وعلى المعنى الثالث فلأنّ هذه الخطبة يذهب شموخ أنف المتكبّرين واعتلائهم، ويسكن نخوة بأدهم وسموّ غلوائهم إن استمعوا إليها وتدبّروا فيها، فشبهت بالماء المسكن للعطش.

وأما على المعنى الرابع فلأنّها بما فيها من المذام والمطاعن التي لإبليس وجنوده كالقاتلة لهم.

وأما على المعنى الخامس فلتضمّنها تصغير إبليس وتحقيره مع اتباعه، وهذا أحسن المعاني وأنسبها.

وأما على السادس والسابع فلأنها لبلوغها الغاية في ذم إبليس ومتابعيه من المتكبّرين، وتجاوزها الحد والنهاية في الكشف عن سوأتهم، صارت كالقاصعة اللاطمة على رأسهم، وصار إبليس بذلك كالمقصوع القميء الذي لا يشبّ ولا يزداد، وكذلك متابعوُه.

وقيل هنا وجه آخر: وهم أنه ﷺ حين خطب بهذه الخطبة كان راكباً على ناقته وهي تقصع بجرتها، فأصل الخطبة القاصعة الخطبة التي كانت خطابتها على الناقة القاصعة، ثم كثر الاستعمال فخفف وقيل: خطبة القاصعة من إضافة الشيء إلى ملابسه، ثم توسع فيه فجعل القاصعة صفة للخطبة نفسها فقيل: الخطبة القاصعة.

الفائدة الثانية

نقلوا في سبب هذه الخطبة أن أهل الكوفة كانوا في آخر خلافته ﷺ قد فسدوا وكانوا قبائل متعددة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى فيصيبه أدنى مكروه فينادي: باسم قبيلته، مثلاً يا للنخع يا لكندة نداء عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ، فيتألّب عليه فتيان القبيلة، فينادُون يا لتميم ويا لربيعة، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها فتثور الفتن وتسلّ السيوف، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلا تعرض الفتيان بعضهم ببعض، وكثر ذلك فخرج ﷺ على ناقته فخطبهم بهذه الخطبة كسراً لصولتهم.

الفائدة الثالثة

قال السيد رحمه الله **(وهي تتضمّن ذم إبليس على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وإنه أول من أظهر العصبية وتبع الحميّة وتحذير الناس من سلوك طريقته)**.

أقول: لله درّ السيّد فقد وقف على أنجد هذه الخطبة ولم يقف على أغوارها، وخاض في ضحاضحها ولم يلجج في غمارها، أو أن تقريره قصر عن التعبير بما انطوى عليه ضميره، فإن الغرض الأصلي لأمير المؤمنين عليه السلام من هذه الخطبة هو تقريع المتكبّرين، وتوبيخ المتجبّرين، وتهديد المستكبرين، وزجرهم وإزعاجهم عن التجبر والاستكبار، وردعهم عن الاتصاف بهذه الصفة الخبيثة الخسيسة والخصلة الرذيلة.

ولما كان اقتصاص حال إبليس أبلغ في التأدية إلى هذا الغرض وآكد في مقام الرد والإبعاد، وأشد في التهديد والإيعاد، لا جرم صدّر الكلام باقتضاء الحال والمقام لشرح حال إبليس اللّعين، وأطنب ببيان ما نزل به من النكال العظيم والعذاب الأليم.

وقد ذكرنا في ديباجة الشرح أن اللازم على الخطيب المصقع أن يراعي حسن الابتداء ويصدّر كلامه بما يناسب الغرض المسوق لأجله الكلام.

إذا عرفت ذلك ظهر لك إن كنت من الصناعة أن هذه الخطبة تقطر الفصاحة من أعطافها، وتؤخذ البلاغة من ألفاظها، وإن تدبّرت عرفت فيها حسن كفايتها في أداء ما سيق الكلام لأجله، وأنها في التحذير والتنفير عن الكبر والتهديد والتوعيد والطرد والإبعاد للمستكبرين كلام ليس فوقه كلام، بل إن أمعنت النظر فيها يظهر لك أنها تالي سورة البراءة، وما أشبهها بها.

فإنّها كما سيقت من أوّلها إلى آخرها لأجل تقريع الكفار والمنافقين والكشف عن فضائحهم والإفضاح عن مخازيهم ومقابحهم، وافتتحت بإظهار البراءة منهم ولأجل ذلك لم تصدّر بالبسملة، لأن بسم الله للأمان والرّحمة، وهذه السورة نزلت لرفع الأمان بالسّيف، وفتحتها تشهد بخاتمتها.

فكذلك هذه الخطبة من بدئها إلى ختمها ترهيب وتهويل وتهديد وتوعيد وتخويف وتريد على ذلك حسناً ورواء أن راعى في مطلعها صناعة براعة الاستهلال فقال:

(الحمد لله الّذي لبس العزّ والكبرياء) وهو من باب الاستعارة المكنيّة تشبيهاً للعزّ والكبرياء باللّباس فيكون ذكر اللبس تخييلاً، والجامع أنّ اللباس كما يحيط بلابسه فكذلك

العزّ والكبرياء لما كانا محيطين بذاته أي كان ذاته غير فاقد لهما، بل هما عين ذاته لكونهما من صفات الذات فشبها باللباس الّذي يتلبس به لابسه.

ويجوز أن يجعل من باب الاستعارة التبعية بأن يستعار اللّبس للاتصاف، فيكون نسبته إلى العزّ والكبرياء قرينة للاستعارة، والجامع أنّ اللباس كما يكون مختصّاً بلابسه وبه يعرف ويتميز، فكذلك هذان الوصفان لما كانا مخصوصين بذاته سبحانه استعار لاتصافه بهما لفظ اللبس.

ومعنى العزّ هو الملك والقدرة والغلبة والعزيز من أسمائه الحسنى قال الصدوق: هو المنيع الذي لا يغلب وهو أيضاً الّذي لا يعادله شيء وأنه لا مثل له ولا نظير وقد يقال للملك كما قال إخوة يوسف: يا أيها العزيز، أي يا أيها الملك.

وقال الطبرسي: العزيز القادر الذي لا يصحّ عليه القهر، والكبرياء هو السلطان القاهرة والعظمة القاهرة والعلوّ والرفعة، هذا.

وإنما قلنا: أنّ العزّ والكبرياء من صفات الذات، لأن صفة الذاتية ما لا يصحّ سلبه عنه سبحانه ولا يصح تعلق القدرة عليه.

قال صدر المتألهين في شرح الكافي في الفرق بين صفة الذات وصفة الفعل: إن القدرة صفة ذاتية تتعلق بالممكنات لا غير، ونسبتها بما هي قدرة إلى طرفي الشيء الممكن على السواء، فلا يتعلّق بالواجب ولا بالممتنع، فكلّ ما هو صفة الذات فهو أزلي غير مقدور، وكل ما هو صفة الفعل فهو ممكن مقدور، وبهذا يعرف الفرق بين الصّفتين، فإذا نقول: لما كان علمه بالأشياء ضرورياً واجباً بالذات وعدم علمه بها محالاً ممتنعاً بالذات فلا يجوز أن يقال: يقدر أن يعلم ولا يقدر أن لا يعلم، لأن أحد الطرفين واجب والآخر ممتنع بالذات، ومصحّح المقدورية هو الإمكان، وكذا الكلام في صفة الملك والعزة والحكمة والجود وغيرها من صفات الذات كالعظمة والكبرياء والجلال والجمال والجبروت وأمثالها، وهذا بخلاف صفات الفعل.

ثمّ لما كان المستفاد من قوله: لبس العزّ والكبرياء اتصافه سبحانه بهما ولم يستفد منه اختصاصهما به تعالى الاختصاص الحقيقي المفيد لعدم جواز اتصاف الغير بهما، لا جرم أكد ذلك بقوله:

(واختارهما لنفسه دون خلقه) والمراد باختيارهما لذاته تفرده باستحقاقهما لذاته، فإنّ المستحق للعزّ والكبرياء بالذات ليس إلا هو وأما غيره سبحانه فعزّه وعظمته وملكه عرضية مستفادة منه عزّ وجلّ كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ

تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٦] .

فهذان الوصفان مثل ساير الصفات الذاتية، فكما أن العلم والقدرة إذا نسبا إليه سبحانه وقيل: إنه عالم قادر يراد به أنه عالم بذاته والعلم ذاته وقادر بذاته والقدرة ذاته، وإذا نسبا إلى المخلوق وقيل: زيد عالم قادر يراد به أنه عالم بعلم زائد على ذاته ويقدر بقدرة زائدة على ذاته، فكذلك إذا قيل: فلان عزيز عظيم يراد به أنه عزيز بعزة زائدة وعظيم بعظمة كذلك، وأما إذا قيل: الله عزيز عظيم فعزته وعظمته عين ذاته.

وأيضاً فالعزّ والعظمة في الله هو العزّ المطلق والعظمة القاهرة المطلقة لا يستحقها غيره، وأما في المخلوق فهو عز ناقص وعظمة ناقصة فقول إخوة يوسف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٨] أرادوا أنه عزيز مصر، فالعز المطلق لله الواحد القهار المتكبّر العزيز الجبّار وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

فقد علم بذلك أن العز المطلق الكامل والكبرياء أي السلطان القاهر لله سبحانه ومن الصّفات المخصوصة به تعالى، فلا يجوز لغيره أن يتعزز ويتكبّر ويدّعي العز الكبرياء لنفسه.

وإلى هذا ينظر ما في الحديث القدسي قال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يقول الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنّم ولا أبالي.

وفي رواية أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أبو جعفر عليه السلام «العزّ رداء الله والكبرياء إزاره فمن تناوله شيئاً منه أكبه الله في جهنّم»[1]، هذا.

وقد تقدّم تفصيل الكلام في بيان حقيقة الكبر والأدلة الواردة في ذمُها ومفاسدها بما لا مزيد عليه في شرح «**المختار**» المائة والسابع والأربعين.

(وجعلهما حمى وحرماً على غيره) تشبيههما بهما باعتبار أن الحمى كما يحمى من أن يتصرف فيه الغير ويحفظ من أن يحام حوله، ولو دخله الغير كان مسؤولاً مؤاخذاً، فكذلك هذان الوصفان مخصوصان به سبحانه ليس لأحد أن يحوم حولهما ويدعيهما لنفسه ولو ادّعاهما كان معاقباً مدحوراً.

(واصطفاهما لجلاله) أي لتقدّسه وعلوّه عن شبه مخلوقاته، **(وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده)** أي جعل الطرد والإبعاد عن الرّحمة والدخول في النار والعذاب على

(١) ثواب الأعمال: ٢٢١.

المتكبّرين المتعززين المجادلين لله سبحانه في عزّه وسلطانه قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٠] وقال: ﴿فَادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النّحل: الآية ٢٩] .

(ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين) أي اختبرهم بالتكبّر وعدمه، أي عاملهم معاملة المختبر الممتحن فهو استعارة تبعية لأنّ حقيقة الاختبار وهو طلب الخبرة والمعرفة بالشيء محال على الله العالم بالسرائر والخبير بالصدوق والضمائر، وإنما هو في حق من لا يكون عارفاً ولكن لما كان شأنه أن لا يجازي عباده على ما يعلمه منهم أنهم سيفعلونه قبل أن يقع ذلك الفعل، وإنما يجازيهم على تكليفهم بما كلّفهم به فيثيب المطيعين منهم ويعاقب العاصين، فأشبه ذلك باختبار الإنسان لعبيده وتميزه لمن أطاعه ممن عصاه فاختباره لهم مجاز عن تكليفه إيّاهم وتمكينه لهم من اختيار أحد الأمرين، ما يريده الله وما يشتهيه العبد، وقد عرفت الكلام في تحقيق اختباره أبسط من ذلك في شرح المختار الثاني والستين.

والحاصل أنّه سبحانه امتحن بذلك ملائكته وهو يعلم المفسد من المصلح ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيي من حيّ عن بيّنة.

و**(ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين)** فيثيب الأوّلين وهم من أصحاب اليمين بجنّة عرضها السماوات والأرضين، ويعاقب الآخرين وهم من أصحاب الشمال بالجحيم ولبئس مثوى المتكبّرين.

(فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب) جملة معترضة أدمجها بين القول ومقوله تنزيهاً له سبحانه عن كون اختباره عن جهل كما في غيره والاعتراض هنا كما في قوله تعالى: ﴿**يجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون**﴾ يعني أنّه تعالى اختبر ملائكته بأن قال لهم مع عمله بباطنهم:

﴿**إني خالق بشرا من طين**﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٢٩] يعني إذا عدلت خلقته وأتممت أعضاءه وصورته وأحييته وجعلت فيه الروح. وإضافة الروح إلى نفسه للتشريف، ومعنى نفخت فيه إفاضته عليه من غير سبب وواسطة كالولادة المؤدّية إلى ذلك، فإنّ الله شرّف آدم وكرّمه بهذه الحالة. وقد مضى تفصيل الكلام في شرح خلقة آدم عليه السلام بما لا مزيد عليه في شرح الفصل العاشر من «**المختار**» الأوّل.

(فسجد الملائكة كلّهم أجمعون) طاعة لأمر رب العالمين **(إلا إبليس)** استكبر وكان من الكافرين وقد مضى تفصيل الكلام في أمر الملائكة بالسجود له وكيفيّة سجدتهم وإباء إبليس عنها وسائر ما يتعلق بهذا العنوان في شرح الفصل الحادي عشر من «**المختار**» الأول فليتذكر،

وأشار إلى علّة امتناع إبليس من السجدة بقوله:

(اعترضته الحميّة) والعصبيّة والآنيّة **(فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله)** أي تعزز بخلقة النار واستوهن خلق الصلصال فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] **﴿اسجد لبشر خلقته من صلصال من حماء مسنون﴾**.

وفي الحقيقة استفهامه ذلك كان اعتراضاً على الله عزّ وجل وإنكاراً عليه بأنه كيف يسوغ له أن يأمر الأشرف بتعظيم الأدنى ويرجح المخلوق من الطين على المخلوق من النّار.

وقد غلط الملعون في اعتراضه وأخطأ في قياسه، حيث قصر نظره بما للنار من النور ولم يمعن النظر فيما لآدم من النور الذي يضحي عنده كلّ نور وهو نور الأشباح الخمسة الذي كان آدم وعاء له وكان أمر الملائكة بالسّجود لأجله، وقد بيّنا فساد قياس الملعون في شرح الفصل الحادي عشر من «**المختار**» الأوّل بوجوه عديدة.

(فعدوّا لله) إبليس **(إمام المتعصبين)** ومقتديهم حيث إنّه أوّل من أسّس أساس العصبية **(وسلف المستكبرين)** ومقدمهم لأنه أوّل من بنى بنيان الاستكبار والنخوة وإليه أشار بقوله:

(الذي وضع أساس العصبيّة ونازع الله رداء الجبريّة) جعل استكباره وادعاءه لما ليس له وانتحاله للصفة الخاصة بالله سبحانه وهو صفة الكبرياء والجبروت بمنزلة منازعته إياه سبحانه، فتجوز بلفظ المنازعة عن ذلك.

وبعبارة أوضح كما أن من نازع لآخر في شيء يريد أن يجذب باب النزاع إلى نفسه ويستأثر به، فكذلك ذلك الملعون لتكبّره صار بمنزلة المنازع لله المريد للاستئثار بصفة الكبرياء.

(وادّرع لباس التعزّز) والتجبّر الذي هو وظيفة الرّبوبيّة **(وخلع قناع التذلل)** والتواضع الذي هو وظيفة العبوديّة.

ولما قص قصة إبليس أمر المخاطبين بالنظر فيما آل إليه أمره وأثمره كبره ليحذرُوا من اقتفاء أثره، ويجتنبوا من سلوك سننه فقال:

(ألا ترون كيف صغره الله بتكبره ووضعه بترفعه) وتجبّره **(فجعله في الدنيا)** مذموماً **(مدحوراً)** وقال: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: الآيتان ٣٤ و٣٥] **(وأعد)** الله **(له في الآخرة سعيراً)** وقال: **﴿لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾**.

ثم نبه على نكتة خلقِهِ آدم عليه السلام من الطين بقوله **(ولو أراد الله سبحانه أن يخلق آدم** عليه السلام

من نور يخطف الأبصار) أي يسلبها ويأخذها **(ضياؤه ويبهر العقول رواؤه)** أي يغلبها حسن منظره **(وطيب يأخذ الأنفاس عرفه)** أي ريحه وعطره **(لفعل)** لأنه أمر ممكن مقدور وهو سبحانه على كلّ شيء قدير **(ولو فعل)** ذلك **(لظلت الأعناق خاضعة له ولخفت البلوى فيه على الملائكة)**.

يعني أنه سبحانه لو أراد أن يخلق آدم في بدء خلقته من نور باهر يخطف سنا برقه بالأبصار لكان مقدوراً له سبحانه، ولو خلقه كذلك لصارت أعناق الملائكة وإبليس خاضعة منقادة له، ويسهل عليهم الامتحان في سجود آدم عليه السلام ولم يشق عليهم تحمل ذلك التكليف، ولساغ لهم السجود له وطاب أنفهسم به لما رأوا من شرف جوهره وعلوّ مقامه وفضل خلقته، لأن الشريف جليل القدر إنما يأبى ويستنكف من الخشوع والخضوع لمن هو دُونه، ولذلك قال إبليس اللعين خلقتني من نار وخلقته من طين، وأما من كان أصله مناسباً لأصله ومقارناً له في الشرف أو أعلى رتبة منه فلا، وخف حينئذ البلوى.

(ولكن الله سبحانه) لم يرد ذلك ولم يتعلّق مشيئته بخلقه من نور وصفه كيت كيت، وإنما خلقه من طين وصلصال من حمإ مسنون ليصعب تحمل التكليف سجوده ويثقل حمله، فيتميّز بذلك المحسن من المسيىء والمطيع من العاصي، ويستحق المطيع له على ثقله مزيد الزلفى والثواب لكون إطاعته عن محض الخلوص والتعبد والتسليم والانقياد، ويستحق العاصي لأليم العقاب لأجل كشف عصيانه عن كونه في مقام التمرد والآنية والعناد.

وكذلك جرت عادة الله سبحانه على أن **(يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم، ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم)** يعني أنّه سبحانه يكلفهم بأحكام لا يعلمون دليلها وسرّها ونكتتها والغرض منها، ليميّز المنقاد من المتمرّد والمتذلّل من المستكبر.

ألا ترى أن أكثر الأحكام الشرعيّة الّتي في شرعنا مما لم يستقل العقل بحكمه من هذا القبيل.

وكذلك غالب أحكام سائر الشرائع تعبدّيات صرفة مثل وجوب حمل الأمم السالفة قرابينهم على أعناقهم إلى بيت المقدّس، فمن قبل قربانه جاءته نار فأكلته، فإن علة وجوب حملها على الأعناق ونكتة ذلك التكليف الشاق غير معلومة.

وكذا المصلحة في إحراق القربان ذي الحياة بالنّار ممّا لا نفهمها.

ومثل ما امتحن الله به جنود طالوت من شرب الماء حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة:

الآية ٢٤٩] .

ومثله ما اختبر به أصحاب السّبت من نهيهم عن الصيد في يوم السّبت، فإن العقل لا يفرق بين أيام الأسبوع ولا يدرك قبح الصّيد في ذلك اليوم وجهة النهي عنه وحسنه في سائر الأيام وجهة إباحته، فانظر إلى عظم البلوى في ذات التكليف كيف أوقعهم التعدي عنه في الحزى العظيم. فكانوا قردة خاسئين.

كما قال سبحانه ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ أي اليهود ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٣] إلى قوله: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قال في تفسير الإمام قال علي بن الحسين عليه السلام قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ [الأعرَاف: الآية ١٦٦] صاروا وأعرضوا وتكبّروا عن قبول الزّجر ﴿**عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ مبعدين من الخير مبغضين، هنا.

ولما ذكر عليه السلام من بدء الخطبة إلى هنا اختصاص وصف العزّ والكبرياء بالربّ الأعلى وأن المنازع له فيهما ملعون مطرود من مقام الزلفي، ونبه على أن إبليس اللعين استحق النار وسخط الجبّار للتعزّز والترفع والاستكبار، تخلص إلى غرضه الأصلي من خطابة هذه الخطبة وهو نصح المخاطبين، فأمرهم بالاعتبار بحال هذا الملعون، وأنه كيف أحبط أعماله التي عملها في المدّة المتطاولة، وألوف من السنين بتكبّره وتمرّده عن أمر رب العالمين فقال:

(فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط) أي أبطل ثواب **(عمله الطويل وجهده الجهيد)** أي اجتهاده المستقصى وسعيه البالغ إلى النهاية **(وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة)** وهكذا في رواية «**البحار**» المتقدّمة في شرح الفصل الحادي عشر من «**المختار**» الأوّل عن العياشي عن ابن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن إبليس عبد الله في السماء في ركعتين ستة ألف سنة» لكن في رواية القمي المتقدمة هناك عن زرارة عنه عليه السلام أنه ركعهما في أربعة آلاف سنة، وفي رواية أخرى في ألفي سنة، وفي رواية رابعة في سبعة ألف سنة.

قال المحدّث العلامة المجلسي رحمه الله ويمكن دفع التنافي بين أزمنة الصلاة والسجود بوقوع الجميع أو بصدور البعض موافقاً لأقوال العامة تقية[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٤١.

وقوله: **(لا يدري أمن سني الدّنيا أم سني الآخرة)** لا دلالة فيه على عدم علمه عليه السلام بذلك إذ لفظ يدري بصيغة المجهول ويكفي في صدقه جهل المخاطبين به وإنما لم يفسّره لهم لما كان يعلمه عليه السلام في إبهامه من المصلحة كعدم تحاشي السامعين من طول المدّة.

وروى الشارح البحراني من نسخة الرّضي ما لا ندري بصيغة المتكلّم مع الغير، وهو أيضاً لا يستلزم جهله عليه السلام لأن غيره لا يدرونه فغلبهم على نفسه وباب التغليب باب واسع في المجاز.

أمّا مدّة سني الآخرة فقد أشير إليها في قوله سبحانه في سورة الحج: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٧] قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن زيد في تفسيرها: إن يوماً من أيام الآخرة يكون كألف سنة من أيام الدنيا.

وفي **«الصافي»** من إرشاد المفيد عن الباقر عليه السلام في حديث: وأخبر أي الله سبحانه بطول يوم القيامة وأنه كألف سنة مما تعدون[1].

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ٥] روى في مجمع البيان عن ابن عباس في هذه الآية أن معناها يدبر الله سبحانه أمر الدنيا فينزل القضاء والتدبير من السماء إلى الأرض مدّة أيام الدنيا، ثم يعرج الأمر ويعود التدبير إليه بعد انقضاء الدنيا وفنائها حتى ينقطع أمر الأمراء وحكم الحكام وينفرد الله بالتدبير في يوم كان مقدار ألف سنة، وهو يوم القيامة فالمدة المذكورة هو مدّة يوم القيامة إلى أن يستقرّ الخلود في الدارين.

قال الطبرسي: ويدلّ عليه ما روى: إن الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام.

فإن قلت: فما تقول لقوله سبحانه في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعَارج: الآية ٤] وما وجه الجمع بينه وبين الآيتين السالفتين؟

قلت: ربما يجمع بينهما بأن المراد بآية السجدة أن الملائكة ينزل بالتدبير والوحي ويصعد إلى السماء في يوم واحد من أيام الدنيا مسافة ألف سنة مما تعدون لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمس مائة عام لابن آدم، فيكون نزوله خمس مائة عام وصعوده خمس مائة

(١) الإرشاد: ٢/ ٣٨٥، والتفسير الصافي: ٣/ ٣٨٤.

عام، فمسافة الصعود والنزول إلى السماء الدّنيا في يوم واحد للملك مقدار مسيرة ألف سنة لغير الملك.

والمراد بآية المعارج هو مسافة الصعود والنزول إلى السماء السابعة، فإنها مقداره مسيرة خمسين ألف سنة.

ويؤيّده ما عن الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكرالنبي صلى الله عليه وآله قال: «أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر، وعرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام أقل من ثلث ليلة» انتهى إلى ساق العرش، هذا.

وقد يجمع بينهما بأن الآيتين المتقدّمتين محمولتان على مدة يوم القيامة والآية الأخيرة أريد بها بيان مدّة الدّنيا، يعني أن أوّل نزول الملائكة في الدّنيا وأمره ونهيه وقضائه بين الخلائق إلى آخر عروجهم إلى السّماء وهو يوم القيامة خمسون ألف سنة، فيكون مقدار الدّنيا هذه المدّة لا يدري كم مضى وكم بقي وإنما يعلمها الله سبحانه.

فإن قلت: هذان الوجهان وإن كان يرفع بها التنافي بين الآيات إلاّ أنّه على البناء على الوجه الأول لا يبقى في الآيتين دلالة على كون مقدار يوم الآخرة ألف سنة كما هو المقصود، وعلى الثاني فدلالتهما مسلمة لكنه ينافي ما ذكرتم في الآية الثالثة من أن المراد بها بيان مدّة الدّنيا ما رواه في «**الكافي**» عن الصّادق عليه السلام: «إنّ للقيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مقام ألف سنة» ثمّ تلا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعَارج: الآية ٤] فإن هذه الرواية كما ترى تدل على أن مقدار القيامة خمسون ألفاً، وأن الآية ناظرة إلى ذلك.

قلت: يمكن الجواب عنه بما أجاب به الطبرسي حيث قال بعدما روى عن ابن عباس: كون مقدار يوم القيامة ألف سنة، فأمّا قوله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فإنه أراد سبحانه على الكافر جعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف سنة، فإن المقامات في يوم القيامة مختلفة، انتهى.

يريد أنّه يطول ذلك اليوم في نظر الكافر هذه المدّة لشدّة عذابه، وأمّا في حق المؤمن فلا.

ويرشد إليه ما رواه الطبرسي عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفس محمد بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[1].

(١) مجمع البيان: تفسير مجمع البيان: ١/ ١٢٠.

وهذا كما يقال في المثل: أيّام السرور قصار وأيّام الهموم طوال، ويقال أيضاً سنة الفراق سنة وسنة الوصال سنة، قال الشاعر:

يطول اليوم لا ألقاك فيه وحول نلتقي فيه قصير

هذا ما يستنبط من الأدلة في هذا المقام والعلم عند الله وعند حججه الكرام عليهم السلام هذا.

وبعد البناء على أن مقدار يوم من أيام الآخرة ألف سنة من أيّام الدّنيا يكون مدّة عبادة إبليس في السّماء إذا كانت ستّة آلاف سنة من سني الآخرة هو ألفا ألف ألف ومائة ألف ألف وستّون ألف ألف سنة من سني الدُّنيا، ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام عدم تحمل أذهان أكثر السّامعين لذلك أبهم القول عليهم، وقال: لا يدري أمن سني الدّنيا أم سني الآخرة.

(عن كبر ساعة واحدة) أي أحبط عمله الذي بلغ ما بلغ لأجل كبر ساعة واحدة **(فمن ذا الذي بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته)** استفهام إنكاري إبطالي، أي من الّذي يبقى بعد إبليس سالماً من عذابه وسخطه سبحانه وقد جاء بمثل معصيته واتصف بصفته.

(كلاّ) حرف ردع أتى بها تأكيداً لما استفيد من الجملة السّالفة وتنبيهاً على أن زعم السّلامة من العذاب للمتكبر فاسد ومدّعيه كاذب إذ **(ما كان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشراً)** مصاحباً ومتلبساً **(بأمر)** ذي ذنب **(أخرج به)** أي بسبب ذلك الذنب **(منها ملكاً)**، وكيف يتوهّم ذلك والحال أن البشر لو قيس عمله إلى عمله وجهده وإن استقصى إلى جهده لم يكن إلاّ نسبة القطر إلى البحر.

والتعبير عن إبليس بالملك لكونه في السّماء وطول مخالطته بالملائكة لما قدمنا في شرح الفصل الحادي عشر من «**المختار**» الأوّل من الأدلة على أنه كان من الجنّ دون الملائكة.

ولما كان هنا مظنة أن يعترض معترض ويقول: إنا لا نسلم استلزام إخراج الملك لعدم إدخال البشر إذ يمكن أن يكون إخراجه مستنداً إلى كمال قربه، فإن أدنى ذنب من المقرّبين يقع في موقع عظيم، وأمّا البشر فلعدم قربه ذلك القرب لا يؤثر ذنبه ذلك التأثير فيجوز دخوله في الجنّة، وإن أذنب مثل ذنب الملك وأيضاً فمن الجائز أن يكون تحريمه للتكبّر مخصوصاً بأهل السّماء فقط، أجاب عليه السلام عن ذلك الاعتراض على طريق الاستئناف البياني بقوله:

«إن حكمه في أهل السماء والأرض لواحد وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين».

ومحصّل الجواب أن حكمه في أهل السّماء والأرض واحد لا اختلاف فيه والمطلوب من الجمع أن يكونوا داخرين في رق العبوديّة ويعرفوا ربّهم بالعظمة والربوبيّة، وقد جعل

الكبرياء رداءه والعظمة إزاره واختارهما لنفسه وجعلهما حمى وحرما على غيره وحرّم على جميع العالمين من أهل السّماء والأرضين أن يحوموا حوم ذلك الحمى وينازعوه فيهما كما عرفته في أوّل شرح هذا الفصل مفصّلاً.

وعلى ذلك فلا يبقى احتمال إباحة لأحد في دخول ذلك الحمى، ولا تجويز أن يكون بينه وبينه هوادة ومحابة ورخصة في تلبّس لباس العزّ والكبرياء، فمن انتحل شيئاً منهما سواء كان من أهل الأرض أو من أهل السّماء صار محروماً من الجنان ومنازل الأبرار، مستحقاً للنيران ومهاوي الفجار ولبئس مثوى المتكبرين ومهوى المستكبرين.

الترجمة

ازجمله خطب شريفه آن بزرگوار است که معروف است بخطبهٔ قاصعه از جهت اینکه متضمن تحقیر شیطان ملعون است.

سیّد رضي «ره» گفته که این‌خطبه متضمّن است مذمت‌ابلیس‌را برسر کشی وتکبّر او وترك کردن او سجده نمودن‌جناب آدم علیه السلام راواین را که اوأوّل کسی است که اظهارسر کشی نمود ومتابعت غیرت وحمیت کرد، ومتضمن است ترساندن مردمان را از رفتن راه او.

وشرح آن در ضمن چند فصل است فصل أوّل‌میفرماید:

حمد وثنا معبود بحقی را سزاست که پوشیده لباس عزّت و بزرگواری را واختیار فرموده این دو وصف را برای ذات‌خودنه‌ازبرای خلق خود، وگردانیده آن دو صفت را قوروق وحرام برغیر خود، وبرگزیده این هردو را برای جلال خود، وگردانیده لعنت را بر کسی که منازعت نماید با اودرآن دووصف ازبندگان خود، پس ازآن امتحان فرموده بااین‌ملائکهٔ مقرّبین خودرا تا اینکه تمیزبدهد متواضعان ایشان را ازمتکبّران، پس فرمود خداوند سبحانه وحال آنکه عالم‌است به‌پنهانی‌های قلبها وپوشیدهای غیبها ــ بدرستی که من آفرینندهام بشریرا از گل پس زمانی که تمام نمودم خلقت اورا ودمیدم دراو روحی را که پسندیدهٔ من‌است

پس بررو در افتید از برای اکرام او درحالتیکه سجده کنندگان باشید ، پس سجده کردند ملائکه همه ایشان بهیئت اجتماع مگر ابلیس ـ ملعون که عارض شد اورا حمیّت وعصبیّت ، پس فخر کرد بر آدم بسبب خلقت خود ، و متعصّب شد براو از جهت أصل خود که آتش بود .

پس دشمن خدا امام متعصّبین است و پیشرو متکبّرین که نهاد بنیاد عصبیت را ونزاع کرد در رداء کبریاء و عظمت ، وپوشید لباس عزّت را ، وبر کند لباس ذلّت را .

آیا نمی‌بینید چگونــه تصغیر وتحقیر نمود اورا خدای تعالی بسبب تکبّر او ، وپست کرد اورا بجهت بلند پروازی او ، پس گردانید در دنیا اورا رانده شده از رحمت ، ومهیا فرمود ازبرای او در آخرت آتش برافروخته را ، واگر میخواست خدای تعالی که خلق نماید جناب آدم عليه السلام را ازنوری که برباید دیدهارا روشنی آن ، وغلبه نماید برعقلها نضارت زیبائی آن ، واز عطری که بگیرد نفسهارا بوی خوش آن ، هرآینه مینمود .

واگر مینمود خلقت آن را باین قرار هرآینه میگردید ازبرای آن گردنها خضوع کننده ، وهرآینه سبك میشد امتحان درخصوص آن برملائکه ، ولکن حق سبحانــه و تعالی امتحان میفرماید مخلوقات خودرا ببعض چیزها که جاهل باشند بأصل آن ازجهت تمیز دادن ایشان بسبب امتحان ، وازجهت سلب نمودن گردن کشی را از ایشان ، واز جهت دور گردانیدن تکبّر وتجبّر را ازایشان .

پس عبرت بگیرید با آنچه که شد ازکار خدا درحق ابلیس زمانی که باطل نمود عمل دراز اورا و جد وجهد بی اندازه اورا وحال آنکه عبادت کرده بود خدارا در ظرف شش هزار سال معلوم نبود که آیا آن سالها ازسالهای دنیابود یا ازسالهای آخرت ازجهت کبر یك ساعت .

پس کیست بعدازابلیس که سلامت بماند از عذاب پروردگار که اقدام نموده باشد بمثل معصیت ابلیس ، همچنین نیست ، نیست خدا که داخل نماید در بهشت آدمی را بأمریکه خارج نمود بسبب آن أمر از بهشت ملکی را ، بدرستی که حکم خداوند در حق أهل آسمان وزمین یکی است ، و نیست میان خدا و میان هیچ أحدی ازخلق اورخصت ومحبت درمباح ساختن قوروقي را که حرام گردانیده آن را برجمیع عالمیان .

الفصل الثاني

فَاحْذَرُوا عِبادَ اللَّهِ عَدُوَّ اللَّهِ أنْ يُعْدِيَكُمْ بِدائِهِ، وأنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِخَيْلِهِ ورَجْلِهِ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وأَغْرَقَ لَكُم بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ ورَماكُمْ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ ـ وقالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ـ قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، ورَجْماً بِظَنٍّ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ به أَبْناءُ الْحَمِيَّةِ، وإِخْوانُ الْعَصَبِيَّةِ، وفُرْسانُ الْكِبرِ وَالْجاهِلِيَّةِ، حَتّىٰ إِذَا انْقادَتْ لَهُ الْجامِحَةُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَته الطَّماعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطانَهُ عَلَيْكُمْ، ودَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجاتِ الذُّلِّ، وأَحَلُّوكُمْ ورَطاتِ الْقَتْلِ، وأَوْطَأُوكُمْ أَثْخانَ الْجِراحَةِ، طَعْناً في عُيُونِكُمْ وحَزًّا في حُلوُقِكُمْ، ودَقًّا لِمَناخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقاتِلِكُمْ، وسَوْقاً بِخَزائِمِ الْقَهْرِ إِلىَ النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ، فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ في دِينِكُمْ جَرْحاً، وأَوْرَىٰ في دُنْياكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُناصِبِينَ، وعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ.

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَلَهُ جِدَّكُمْ، فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصْلِكُمْ، ووَقَعَ في حَسَبِكُمْ، ودَفَعَ في نَسَبِكُمْ، وأَجْلَبَ بخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ وقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكانٍ، ويَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنانٍ، لا تَمْتَنِعُونَ بِحيلَةٍ، ولاَ تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، في حَوْمَةِ ذُلٍّ، وحَلْقَةِ ضَيْقٍ، وعَرْصَةِ صَوْتٍ، وجَوْلَةِ بَلاءٍ.

فَاطْفِئُوا ما كَمَنَ في قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرانِ الْعَصَبِيَّةِ، وأَحْقادِ الْجاهِلِيَّةِ فَإِنَّما تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَراتِ الشَّيْطانِ ونَخَواتِهِ ونَزَغاتِهِ ونَفَثاتِه، واعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُسِكُمْ، وَإِلْقاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدامِكُمْ، وخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْناقِكُمْ، وَاتَّخِذُوا التَّواضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وبَيْنَ عَدُوكُمْ إِبْلِيسَ وجُنُودِهِ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وأَعْواناً، ورَجْلاً وفُرْساناً.

وَلا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَىٰ ابْنِ أُمِّه مِنْ غَيرِ ما فَضْلٍ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوىٰ ما أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَداوَةِ الْحَسَدِ، وقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ في قَلْبِهِ مِنْ نارِ الْغَضَبِ، ونَفَخَ الشَّيْطانُ في أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذي أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدامَةَ، وأَلْزَمَهُ آثامَ الْقاتِلِينَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ[1].

اللغة

(أعداه) الداء أصابه مثل ما بصاحب الداءِ وفي كلام العرب إن الجرب ليعدي أي يجاوز من صاحبه إلى من قاربه، والعدوى وزن جدوى مايعدي من جرب وغيره و**(الرجل)**

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٦٧، وميزان الحكمة: ٣/ ٧٦٥٦.

بفتح الراءِ وسكون الجيم اسم جمع لراجل مثل ركب راكب و(**فوق**) السهم وزن قفل موضع الوتر والجمع أفواق وفوّقت السّهم تفويقاً جعلت له فوقاً وإذا وضعت السّهم في الوتر لترمي به قلت أفقته إفاقة ورجمته رجماً من باب نصر ضربته بالرجم وهو الحجارة و(**جمح**) الفرس اعتز راكبه وغلبه و(**طمع**) فيه طمعاً وطماعاً وطماعيّة حرص عليه و(**نجم**) الشيء نجوماً طلع وظهر و(**دلف**) دلفاً ودلفافاً مشى مشي المقيّد وفوق الدّبيب، ودلفت الناقة لجمها نهضت به.

و(**الولجة**) محرّكة كهف يستتر فيه المارة من مطر وغيره و(**أوطأه**) فرسه إذا حمله عليه فوطئه وأوطأوهم جعلوهم يطئون فهراً و(**أثخن**) في القتل إثخاناً أي أكثر منه وبالغ وأثخنته أوهنته بالجراحة وأضعفته قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ [محمَّد: الآية ٤] أي غلبتموهم وكثر فيهم الجراح و(**الخزائم**) جمع خزامة وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير فيشدّ فيها الزمام و(**ورى**) الزند يرى ورياً من باب وعد خرجت ناره، وفي لغة ورى يرى بالكسر فيهما، وأورى بالألف أخرج ناره و(**القدح**) بالفتح إخراج النار من الزّند يقال قدح بالزند رام ألا يراد به وقدح فيه طعن و(**الحومة**) معظم الماء والحرب وغيرهما و(**النزغ**) الإفساد و(**المسلحة**) بفتح الميم قال في النهاية القوم الذين يحفظون الثغر من العدو يكونون ذوي صلاح، أو لأنهم يسكنون المسلحة وهي كالثغر والمرقب يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة انتهى، وفي «**القاموس**»: المسلحة بالفتح الثغر والقوم ذوو سلاح.

الإعراب

قوله: إن يعديكم في محلّ النصب بدل من عدو الله، والباء في قوله: بداتة للتعدية وفي قوله: بما أغويتني، للقسم، وما مصدريّة، وجوابه لأزينن، وقيل: أنها سببيّة وعلى التقديرين فمفعول أُزيننّ محذوف أي أزينن لهم المعاصي، وقذفا ورجما منتصبان على الحال، وهما مصدران بمعنى الفاعل، والباء في قوله: صدقه به، بمعنى في، وجملة صدقه في محلّ الجر صفة ظنّ، وروى صدقه أبناء الحميّة بدون لفظ به، واستفحل جواب حتّى إذا.

وأثخان الجراحة بالنصب مفعول أوّل لأوطئكم كما في قولك: أعطيت درهماً زيداً، أي جعلوا أثخان الجراحة واطئاً لهم، لا أنه جعلهم واطئين له على أنه مفعول ثان كما توهّمه الشارح المعتزلي، أو أنه منصوب بنزع الخافض أي جعلوهم موطوئين بأثخان الجراحة قهراً وغلبة، وعلى التقديرين فقوله: طعناً وحزاً ودقاً كلها منصوب على الأبدال من أثخان، وقصداً وسوقاً منصوبان على المصدر، والعامل محذوف، ويجوز انتصاب المنصوبات الخمسة جميعاً على المصدر.

وفي بعض النسخ أوطأوكم لإثخان الجراحة، باللام على المفعول له، وعلى هذا

فالمنصوبات الثلاثة الأول يحتمل كونها مفاعيل أوطأوا، أي أوطأوكم الطعن أي جعلوا الطعن واطئاً لكم لأجل أثخان جراحتكم، ويحتمل انتصابها على المصدر كما مر، والباء في قوله: بخزائم، للآلة والاستعانة لا للمصاحبة كما توهم، وأورى بصيغة التفصيل عطف على أعظم، وجرحاً وقدحاً منتصبان على التميز، وجملة يقتنصون حال من رجله أو خيله.

وقوله: في حومة بلاء، قال الشارح المعتزلي: حال من مفعول يقتنصون.

أقول: ويجوز كونه ظرف لغو متعلّق بيضربون أو بيقتنصون بدلاً من قوله: بكلّ مكان، وأن يكون حالاً من فاعل تمتنعون، وهو أنسب وأولى، وما في قوله عليه السلام من غير ما فضل، زائدة للتأكيد.

المعنى

اعلم أنّه عليه السلام لما أمر في الفصل السابق بالاعتبار بحال إبليس وبما فعل الله به من الطرد والإبعاد والإحباط لعمله، اتبعه بهذا الفصل وأمر فيه بالتحذّر عن متابعته، وبيّن فيه شدّة عداوته وحث على ملازمة التواضع والتذلّل فقال (**فاحذروا عباد الله**) من (**عدو الله**) إبليس (**أن يعديكم بدائه**) أي أن يجعل داءه مسرياً إليكم فتكونوا متكبّرين مثله (**وأن يستفزكم**) أي يستخفكم (**بخيله ورجله**) قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٦٤] .

قال الطبرسي: الاستفزاز الإزعاج والاستنهاض على خفة وإسراع، وأصله القطع فمعنى استفزّه استزلّه بقطعه عن الصّواب أي استزلّ من استطعت منهم وأضلّهم بدعائك ووسوستك، من قولهم صوت فلان إذا دعاه، وهذا تهديد في صورة الأمر وقيل: بصوتك، أي بالغنا والمزامير والملاهي، وقيل كلّ صوت يدعى به إلى الفساد فهو من صوت الشيطان.

وأجلب عليهم بخيلك ورجلك الأجلاب السوق بجلبة وهي شدّة الصوت، أي أجمع عليهم ما قدرت عليه من مكائدك وأتباعك وذرّيتك وأعوانك، فالباء مزيدة وكلّ راكب أو ماش في معصية الله من الإنس والجنّ فهو من خيل إبليس ورجله وقيل: هو من أجلب القوم وجلبوا، أي صاحوا أي صح بخيلك ورجلك فاحشرهم عليهم بالأغواء، انتهى.

(**فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد**) قال المحدُث العلامة المجلسي رحمه الله: أي وضع فوق سهمه على الوتر، والظاهر أنه جعل فوق بمعنى أفوق، وإلاّ فقد عرفت في بيان اللّغة أنّ معنى فوقت السّهم جعلت له فوقاً، وعلى إبقاء التفويق على معناه الأصلي يكون كناية عن التهيّؤ والاستعداد.

(وأغرق إليكم بالنزع الشديد) أي أستوفي مدّ القوس وبالغ في نزعها ليكون مرماه أبعد ووقع سهامه أشدّ.

(ورماكم من مكان قريب) لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق كما ورد في الحديث النبوي صلى الله عليه وآله وكنى عليه السلام به عن أنّ سهامه لا تخطىء **(وقال)** ما حكاه عنه عزّ وجلّ في سورة الحجر ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحِجر: الآيتان ٣٩ و٤٠]، أي أقسم بإغوائك إياي لأزيّننّ لهم المعاصي في الدّنيا التي هي دار الغرور، فالمراد بالأرض هي الدّنيا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٦] وعلى كون الباء للسببية فالمعنى بسبب إغوائك إياي أفعل بهم ذلك.

فإن قلت: ظاهر الإغواء هو الإضلال فكيف جاز نسبته إلى الله؟

قلت: على إبقائه على ظاهره فلا بدّ من حمله على أنّ إبليس كان جبريّ المذهب.

وأدلّة العدليّة بوجوه: أحدها أن المراد به التخيب أي بما خيبتني من رحمتك لأُخيبنّهم بالدعاء إلى معصيتك.

وثانيها أن معناه بما أضللتني من طريق جنتك لأضلنّهم بالدّاء إلى معصيتك.

وثالثها أن معناه بتكليفك إياي بالسجود لآدم الذي وقعت به في الغيّ لأضلنّهم أجمعين إلا عبادك الذين أخلصوا العبادة لله وانتهوا عما نهوا عنه.

وقوله **(قذفاً بغيب بعيد)** أي قال إبليس ذلك رمياً بأمر غائب متوهم على بعد خفيت إماراته وشواهده أي رمياً بأمر بعيد المرمى غائب عن النظر.

قال الشارح المعتزلي: والعرب تقول للشيء المتوهّم على بعد: هذا قذف بغيب بعيد، والقذف في الأصل رمي الحجر وأشباهه وبالغيب الأمر الغائب وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية قال تعالى في كفار قريش: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سَبَإ: الآية ٥٣] أي يقولون هذا سحر أو هذا من تعليم أهل الكتاب أو هذه كهانة وغير ذلك مما كانوا يرمونه[١].

قال الطبرسي في تفسير هذه الآية: أي يرجمون بالظن فيقولون لا جنة ولا نار ولا بعث، وهذا أبعد ما يكون من الظن وقيل معناه: يرمون محمداً صلى الله عليه وآله بالظنون من غير يقين، وذلك قولهم هو ساحر وهو شاعر وهو مجنون، وجعله قذفاً لخروجه في غير حق، وقيل:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/١٤١.

معناه ويبعدون أمر الآخرة فيقولون لأتباعهم: هيهات هيهات لما توعدون، وذلك كالشيء يرمى في موضع بعيد المرمى[1].

(ورجما بظن مصيب) يعني أنّ قوله: لأغوينّهم أجمعين كان رجماً بظن قد أصاب فيه وطابق الواقع كما يشهد به قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [سَبأ: الآيتان ٢٠ و٢١].

قال أمين الإسلام الطبرسي: المعنى أن إبليس كان قال: لأغوينّهم ولأضلنّهم وما كان ذلك عن علم وتحقيق وإنما قاله ظناً فلما تابعه أهل الزيغ والشرك صدّق ظنّه وحقّقه.

وفي بعض النّسخ ورجماً بظن غير مصيب قال الشارح المعتزلي وهذه الرّواية أشهر.

أقول: ووجّه بوجوه أحسنها وأصوبها وجهان:

أحدهما أن قوله: لأغوينّهم بمعنى الشرك أو الكفر والذين استثناهم بقوله إلا عبادك اه المعصومون من المعاصي، ومعلوم أن هذا الظن غير مصيب لأنّه ما أغوى كلّ البشر غير المخلصين، الغواية التي هي الشرك والكفر وإنما أغوى بعضهم به وبعضهم بالفسق فقط، فيكون ظنّه أنه قادر على إضلال البشر كلهم بالكفر ظنّاً غير مصيب.

وثانيهما أن إبليس لما ظن أنه متمكن من إجبارهم على الغيّ والضّلال، فقال: لأغوينّهم، مريداً به الإغواء بالجبر وسلب الاختيار حكم عليه السلام بخطأه.

ويوضح ذلك ما ذكره الطبرسي في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [سَبإ: الآية ٢١] أي ولم يكن لإبليس عليهم من سلطنة ولا ولاية يتمكن بها من إجبارهم على الغي والضلال، وإنما كان يمكنه الوسوسة فقط كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢].

فإن قلت: قوله ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢] يدلّ على أنّه لم يكن مراده بقوله: لأغوينّهم، الإجبار وأنّه لم يكن ظاناً بالقدرة على إجبارهم.

قلت: قوله لأغوينّهم، إنما قاله في بدء خلقته بتوهم التمكن من إجبارهم، وقوله: وما كان لي عليكم من سلطان إنما يقوله يوم القيامة كما يشهد به سابق الآية، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن

(١) مجمع البيان: تفسير مجمع البيان: ٨/ ٢٢٩.

سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢] .

فمحصّل الجواب أنّه لا منافاة بين كونه في أوّل الأمر ظاناً بالتمكن من الإجبار، وبين معرفته في آخر الأمر بعدم تمكّنه منه وبكونه خاطئاً في ظنّه.

وقوله (**صدقه به أبناء الحمية وإخوان العصبية وفرسان الكبر والجاهلية**) تأكيد لقوله رجماً بظنّ مصيب يعني أن إبليس ظن أنه يغويهم وكان هؤلاء قد غووا وضلوا بالحميّة والجاهلية والتعصب والتكبر، فكان ضلالهم ذلك تصديقاً فعليّاً منهم لإبليس في ظنّه وفي قوله: لأغوينّهم، وموجباً لإصابة ظنّه.

وعلى الرواية المشهورة أعني رجماً بظن غير مصيب، فيكون هذه الجملة في معرض الاستدراك، يعني أنّه قال ما قال لا على وجه العلم بل على سبيل الظن والحسبان والمصيب للحق هو العلم دون التوهم أو الظن، لكن اتفق وقوعهما لتصديق أبناء الحميّة فيه ووقوع الغواية منهم.

وعلى هذا فالأولى أن يجعل جملة: صدقه(اه) استئنافاً بيانياً لا صفة لظن فافهم جيّداً.

(**حتى إذا انقادت له**) الطائفة (**الجامحة**) منكم وهم الذين تقدّم ذكرهم أي أبناء الحميّة والعصبيّة والكبر ووصفهم بالجموح لخروجهم وتمردهم عن انقياد ربّهم المالك لهم ولكلّ شيء (**واستحكمت الطماعية**) أي الطمع (**منه فيكم**) بسبب مزيد انقيادكم له وإسراعكم إلى إجابة دعوته (**فنجمت**) أي ظهرت (**الحال من السرّ الخفي إلى الأمر الجلي**) أي خرج ما بالقوة إلى الفعل وإذ شاع آثار إغوائه (**استفحل سلطانه عليكم**) أي قوي واشتد وصار فحلاً (**ودلف بجنوده نحوكم**) أي نهض بهم إليكم (**فأقحموكم ولجات الذّل**) أي أدخلوكم من غير روية غير أن الذّلة (**واحلّوكم ورطات القتل**) أي أنزلوكم في مهالك القتل والهلاكة (**وأوطأوكم أثخان الجراحة**) أي جعلوا أثخان الجراحة واطئاً لكم، وقد مرّ تفصيل معناه في بيان الإعراب والمراد به كثرة وقع جراحات جنود إبليس فيهم وكونهم مقهورين مغلوبين منكوبين بوقوع الجراحات.

وفصل كثرتها بقوله (**طعناً في عيونكم وحزّاً**) أي قطعاً (**في حُلوقكم ودقاً لمناخركم**) وهو كناية عن صدماتهم وإحاطتها بالأعضاء جميعها، فيكون ذكر العيون والحلوق والمناخر من باب التمثيل والمراد بها ما يصيبهم من الصدمات والجراحات من أبناء نوعهم بسبب القتل والقتال، ولما كان منشأها جميعاً هو إغواء إبليس وجنوده نسبها إليهم، ولا يخفى ما في نسبة الطعن إلى العيون والحزّ إلى الحلوق والدق إلى المناخر من حسن الخطابة وصناعة البلاغة.

(وقصداً لمقاتلكم) أي قصدوا قصداً لمحالّ قتلكم تحريضاً على القتل **(وسوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدة لكم)** أي ساقوكم سوقاً إلى النار المهيّأة لكم بالخزائم القاهرة لكم على السياق، أو أنهم ساقوكم إليها بها بالقهر والغلبة.

والتعبير بالخزائم دون الأزمة تشبيهاً لهم بالناقة الّتي تقاد بالخزامة لا الخيل المقاد بالزمام، لأن الناقة إذا ما تقاد بالخزامة تكون أشدّ انقياداً وأطوع لقائدها من الخيل الّذي يقاد بالزّمام.

وللإشارة إلى هذه النكتة أتى بلفظ القهر واستعار لفظ الخزائم للمعاصي والسيّئات وشهوات النفس الأمّارة المؤديّة إلى النّار، والمراد أن إبليس وجنوده زيّنوا الشهوات والسيّئات في نظرهم فرغبوا فيها وركبوها فكان ذلك سبباً لتقحمهم في النار وسخط الجبار.

(فأصبح أعظم في دينكم جرحاً وأورى في دنياكم قدحاً) أي صار أكثر إخراجاً للنار من حيث إخراجه لها أو من حيث الطعن في دنياكم والثاني أظهر.

أما جرحه في الدّنيا[١] فمعلوم لأن جميع الصّدمات والمضار الدينية من الجرائم والآثام من إغواء هذا الملعون.

وأمّا الإيراء وقحده في الدّنيا فلا لها به نار الفتنة والفساد ونايرة الحسد والبغضاء والعناد بين الناس الموجب للقتل والقتال وتلف الأنفس والأموال ونحوها فجميع المضار الدينية وأغلب المضار الدنيويّة عند أهل النظر والاعتبار من ثمرات هذه الشجرة الملعونة.

فلذلك كان جرحه وقدحه أعظم وأشد **(من الذين أصبحتم لهم مناصبين وعليهم متألّبين)** أي من أعدائكم الذين نصبتم لهم العداوة وبالغتم في عداوتهم، وتجمعتم أي اجتمعتم من ههنا وههنا على قتلهم وقتالهم واستئصالهم دفعاً لشرهم عنكم.

ولنا نبّه عليه السلام على أنه عدوّ مبين وأعظم المعاندين وأن ضرره عائد إلى الدنيا والدين أمرهم بصرف عزيمتهم وهمّتهم إلى عداوته فقال:

(فاجعلوا عليه حدّكم) أي حدّتكم وسورتكم وبأسكم وسطوتكم، **(وله جدّكم)** أي سبلكم وجهدكم، ثم أقسم بالقسم البار تهييجاً وإلهاباً وتثبيتاً لهم على العداوة له فقال:

(فلعمر الله لقد فخر على أصلكم) أي على أبيكم آدم حيث امتنع من السجود له وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] **(ووقع في حسبكم ودفع في نسبكم)** أي

---

(١) في نسخة: في الدين.

عاب حسبكم وحقر نسبكم وهو الطين حيث قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآيتان ٦١ و٦٢] (**وأجلب بخيله عليكم وقصد برجله سبيلكم**) أي صاح بفرسانه فاحشرهم عليكم بالإغواء وقصد مع راجليه سبيلكم ليزيغوكم عن إجادة الوسطى.

(**يقتنصونكم بكل مكان**) أي يتصيدونكم ويجعلون ربق الذّل في أعناقكم (**ويضربون منكم كل بنان**) أي يضربون أطراف أصابعكم ويستقصون في أذاكم واستئصالكم (**لا تمتنعون**) من ضربهم (**بحيلة ولا تدفعون**) ضرهم (**بعزيمة**)، والحال أنكم (**في حومة ذلّ وحلقة ضيق وعرصة موت وجولة بلاء**) شرح لحالهم في الدّنيا، أي أنتم في معظم ذلّ ودائرة ضيق، لأن دار الدّنيا لا اتساع فيها ومعرض موت ومجال بلاء لا منجى منه.

فإذا كان شأن إبليس في عداوتكم هذا الشأن من الفخر على الأصل والوقع في الحسب والدفع في النسب والإجلاب بالخيل والقصد بالرجل وغير ذلك من الأمور المتقدّمة الدالة على كونه مجدّاً في العداوة.

(**فـ**)ـخذوا منه حذركم وتحرزوا من مصائده و(**اطفئوا ما كمن**) واستتر (**في قلوبكم من نيران العصبية**) والحميّة (**وأحقاد الجاهلية فإنما تلك الحمية**) والنخوة (**تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزغاته ونفثاته**) أي وساوسه المحركة للفساد يعني ما استتر في قلوبكم من التعصب والتكبر والحقد والحسد نار محرقة لكم في الدّنيا والآخرة فاطفئوها، واجتهدوا في إطفائها بماء التذلّل والتواضع والإصلاح، لأن منشأها جميعاً هو الشيطان اللعين الّذي هو عدّوكم المبين، فإنّه يوسوس في صدوركم ويوقع في أخاطركم النخوة والحميّة والعصبيّة وينزغ أي يفسد بينكم وبين إخوتكم المؤمنين وينفث أي ينفخ في قلوبكم وفي دماغكم ريح النخوة والغرور والاستكبار.

فإن قلت: لم قال تلك الحميّة تكون في المسلم من خطرات الشيطان مع أنّ الحميّة في الكافر أيضاً من خطراته فأيّ نكتة في الإتيان بهذا القيد؟

قلت: لما أمر المخاطبين بإطفاء نيران العصبيّة والاستبكار معلّلاً بأنها من وساوس إبليس وخطراته أتى بهذا القيد من باب الإلهاب لأن المسلم بما له من داعية الإسلام أسرع قبولاً للموعظة وأحق بالانتصاح والارتداع والتجنب من سلوك مسالك الشيطان، فكأنه قال: إن كنتم مسلمين فاتّقوا من متابعته وتوقوا من اقتفاء آثاره كما تقول: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، قال تعالى حكاية عن مريم ﷺ: ﴿**قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا**﴾.

(**واعتمدوا**) أي اقصدوا (**وضع**) تيجان (**التذلّل**) الّذي جعلتموها تحت أقدامكم (**على**

رؤوسكم و) تعمدوا **(إلقاء)** قلانس **(التعزز)** الّتي جعلتموها على رؤوسكم **(تحت أقدامكم)** ولا يخفى على أهل الصّنعة لطافة هذه العبارة وشرافتها وعظم خطرها لله درّ قائلها.

(و) اعتمدوا **(خلع)** أطواق **(التكبّر من أعناقكم واتخذوا)** التذلّل و**(التواضع مسلحة وثغراً بينكم وبين عدّوكم إبليس وجنوده)**.

ولما أمرهم باتخاذ المسلحة علّله بقوله **(فإن له من كلّ أمة)** من الجنّ والإنس **(جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً)** تنبيهاً على كثرة جنوده وأعوانه المقتضية للجدّ في اتخاذها توقياً من طروقهم واغتيالهم على غفلة هذا، وقد مضى بيان فضل التواضع والأخبار الواردة فيه في شرح **«المختار»** المائة والسابع والأربعين.

ثمّ ذكّرهم بقصة ابن آدم عليه السلام لكونها في مقام التذكرة والاعتبار أقوى تحذيراً وتنفيراً من التعزز والاستبكار فقال:

(ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن أمّه) أي لا تكونوا مثل قابيل الّذي تكبّر على أخيه هابيل.

وإنما قال ابن أمّه مع كونهما من أب وأم من الأب لأن الأخوين من أمّ أشدّ حنواً ومحبة وتعاطفاً من الأخوين لأن الأم هي ذات الحضانة والتربية، ولذلك قال هارون لأخيه موسى عليهما السلام مع كونه أخا لأبيه وأمّه: ابن أم أن القوم استضعفوني، فذكر الأم لكونه أبلغ في الاستعطاف، فمقصوده عليه السلام أن قابيل مع كون هابيل ابن أمّه المقتضي للعطوفة والمحبة تسلّط عليه الشيطان فأنساه محبّة الإخوة فتكبّر عليه وقتله بوسوسته إليه، فكونوا من إبليس وعداوته في حذر ولا تكونوا مثل قابيل الّذي لم يتوق منه بل اتبعه وتكبّر.

(من غير ما فضل جعله الله فيه سوى) بمنزلة استثناء منقطع أي غير **(ما ألحقت العظمة)** والكبرياء **(بنفسه من عداوة)** نشأت من **(الحسد وقدحت)** أي أخرجت **(الحمية)** والتعصّب **(في قلبه من نار)** انقدت من **(الغضب ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر)** المؤدّي إلى قتل أخيه **(الذي أعقبه الله به الندامة)** لا ندم التوبة بل ندم الحيرة أو شفقة على موت أخيه لا على ارتكاب الذنب **(وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة)** لأن من سنّ سنّة سيّئة كان له مثل وزر من عمل بها كما أن من سنّ سنّة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها، فهو لما كان أوّل من سنّ القتل فلا يقتل مقتول إلى يوم القيامة إلا كان له فيه شركة هذا.

وقد تقدّم في شرح الفصل الرابع عشر من **«المختار»** الأوّل كيفيّة قتل قابيل هابيل إجمالاً، لنورد هنا باقتضاء المقام بعض ما لم يتقدّم ذكره هناك من الآيات والأخبار الواردة في هذا الباب.

فأقول: قال الله عزّ وجل في سورة المائدة:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: الآيات ٢٧-٣١].

روى علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن هشام بن سالم عن أبي حمزة الثمالي عن ثوير بن أبي فاختة قال سمعت علي بن الحسين عليه السلام يحدّث رجلاً من قريش: «لما قرّب ابنا آدم قرّب أحدهما أسمن كبش كان في ضانه وقرّب الآخر ضغثاً من سنبل فتقبل من صاحب الكبش وهو هابيل ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل فغضب قابيل فقال لهابيل: والله لأقتلنك، فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٧] ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: الآيتان ٢٩ و٣٠] فلم يدر كيف يقتله حتى جاء إبليس لعنه الله فعلّمه فقال ضع رأسه بين حجرين ثمّ أشدخه فلما قتله لم يدر ما يصنع به، فجاء غرابان فأقبلا متضاربان حتى اقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر الذي بقي الأرض بمخاليه ودفن فيه صاحبه، قال قابيل: **﴿يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين﴾** فحفر له حفيرة ودفن فيها فصارت سنة يدفنون الموتى.

فرجع إلى أبيه فلم ير معه هابيل فقال له آدم: أين تركت ابني؟ قال له قابيل: أرسلتني عليه راعياً؟! فقال آدم عليه السلام، انطلق معي إلى مكان القربان، وأحسّ قلب آدم عليه السلام بالذي فعل قابيل.

فلما بلغ مكان القربان استبان قتله فلعن آدم عليه السلام الأرض التي قبلت دم هابيل، وأمر آدم أن يلعن قابيل ونودي قابيل من السّماء لعنت كما قتلت أخاك، ولذلك لا تشرب الأرض الدّم فانصرف آدم عليه السلام فبكى على هابيل أربعين يوماً وليلة.

فلما جزع عليه شكى ذلك إلى الله فأوحى الله إليه أنّي واهب لك ذكراً يكون خلفاً من هابيل فولدت حوّاء غلاماً زكيّاً مباركاً، فلما كان اليوم السابع أوحى الله إليه يا آدم إن هذا الغلام هبة منّي لك فسمّه هبة الله، فسمّاه آدم هبة الله»[1].

وروى القمي عن أبيه، عن عثمان بن عيسى، عن أبي أيّوب، عن محمد بن مسلم عن

(١) بحار الأنوار: ١١/ ٢٣١، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/ ٤٨٢.

أبي جعفر عليه السلام قال: كنت جالساً معه في المسجد الحرام فإذا طاووس «أي طاووس اليماني» في جانب الحرم يحدث حتى قال: أتدري أيّ يوم قتل نصف الناس؟ فأجابه أبو جعفر عليه السلام فقال أو ربع الناس يا طاووس، فقال: أو ربع الناس، فقال: أتدري ما صنع بالقاتل؟ فقلت: إن هذه المسألة.

فلما كان من الغد غدوت على أبي جعفر عليه السلام فوجدته قد لبس ثيابه وهو قاعد على الباب ينتظر الغلام أن يسرج له. فاستقبلني «فاستعجلني خ» بالحديث قبل أن أسأله فقال:

إن بالهند أو من وراء الهند رجل معقول برجل واحدة يلبس المسح موكل به عشرة نفر كلما مات رجل منهم أخرج أهل القرية بدلاً فالناس يموتون والعشرة لا ينقصون يستقبلون بوجهه الشمس حين تطلع يديرونه معها حتى تغيب ثم يصبون عليه في البرد الماء البارد وفي الحر الماء الحار.

قال: فمرّ عليه رجل من الناس فقال له من أنت يا عبد الله؟ فرفع رأسه ونظر إليه ثم قال: إما أن تكون أحمق الناس وأما أن تكون أعقل الناس، إني لقائم ههنا منذ قامت الدنيا ما سألني أحد من أنت غيرك، ثم قال عليه السلام: يزعمون أنه ابن آدم[(١)].

وفي الصافي من الاحتجاج قال طاووس اليماني لأبي جعفر عليه السلام: هل تعلم أيّ يوم مات ثلث الناس؟ فقال عليه السلام: يا عبد الله لم يمت ثلث الناس قط إنما أردت ربع الناس قال: وكيف ذلك؟ قال: كان آدم وحوّاء وقابيل وهابيل فقتل قابيل هابيل فذلك ربع الناس، قال: صدقت.

قال أبو جعفر عليه السلام هل تدري ما صنع بقابيل؟ قال: لا، قال: علق بالشمس ينضح بالماء الحار إلى أن تقوم الساعة[(٢)].

وروى القمي بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: جاء رجل النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله رأيت أمراً عظيماً، فقال صلى الله عليه وآله: وما رأيت؟ قال:

كان لي مريض ونعت له ماء من بئر بالأحقاف يستشفي به في برهوت، قال: فانتهيت ومعي قربة وقدح لآخذ من مائها واصب في القربة، وإذاً بشيء قد هبط من جوّ السّماء كهيئة السّلسلة وهو يقول: يا هذا الساعة أموت، فرفعت رأسي ورفعت إليه القدح لأسقيه فإذا رجل في عنقه سلسلة، فلما ذهبت أنا وله القدح اجتذب حتى علق بالشمس، ثم أقبلت على الماء

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ٢٣٢، وتفسير القمي: ١/ ١٦٧.

(٢) الاحتجاج: ٢/ ٦١، وبحار الأنوار: ١١/ ٢٢٩ ح٧.

أغرف إذ أقبل الثانية وهو يقول العطش العطش اسقني يا هذا الساعة أموت، فرفعت القدح لأسقيه فاجتذب منّي حتى علق بالشمس حتى فعل ذلك ثالثة وشددت قربتي ولم أسقه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ذاك قابيل بن آدم عليه السلام قتل أخاه وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرّعد: الآية ١٤]»(١).

وفي «البحار» من تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن قابيل ابن آدم عليه السلام معلق بقرونه في عين الشمس تدور به حيث دارت في زمهريرها وحميمها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة صيّره الله إلى النّار».

وفيه من الخصال عن رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة لسبعة نفر: أولهم ابن آدم الذي قتل أخاه، ونمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربّه، واثنان في بني إسرائيل هوّدا قومهم ونصّراهم، وفرعون الذي قال: أنا ربّكم الأعلى، واثنان من هذه الأمّة»(٢).

قال العلامة المجلسي رحمه الله الاثنان من هذه الأمّة أبو بكر وعمر.

وفيه من علل الشرائع عن حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كانت الوحوش والطير والسّباع وكل شيء خلق الله عزّ وجل مختلطاً بعضه ببعض، فلما قتل ابن آدم أخاه نفرت وفزعت فذهب كل شيء إلى شكله(٣).

---

(١) الدروع الواقية: ٢٢٨، وبحار الأنوار: ٣/ ١٩٩.

(٢) الخصال: ٣٤٦ ح١٥، وبحار الأنوار: ٨/ ٣١٣.

(٣) علل الشرائع: ١/ ٤ ج١، وبحار الأنوار: ١١/ ٢٣٦ ج١٧.

الترجمة

فصل دويم ازاين خطبه در تحذير مردمان است ازمتابعت شيطان وبيان‌شدت عداوت آن ملعون است با انسان و تحريص خلق است بتواضع وفروتنى‌ميفرمايد

پس حذر كنيداى بندگان خدا ازدشمن خدا از اينكه سرايت گرداندبشما درد بى‌درمان خود را، واز اينكه بلغزاند شما را ازراه راست باسواران و پيادگان خود، پس قسم بزندگانى خودم هرآينه مهيا نمود از براى شما تير وعيد را، و بر كشيد براى شما كمان را با كشيدن سخت، و انداخت بسوى شما ازمكان نزديك وگفت آن ملعون ـ أى‌پروردگار من بسبب مأيوس‌نمودن تو مرااز رحمت خود هر آينه البته زينت مى‌دهم از براى ايشان معاصى را در دنيا و هر آينه البته بضلالت مى‌اندازم همه ايشان را مگر بندگان خالص تورا ـ درحالتى كه اندازنده بودبامر غايب از حواس كه دور بود، و درحالتى كه رجم كننده بود بگمان و ظن‌ناصواب.

تصديق نمود او را بآن ظن پسران حميت ، و برادران عصبيت ، و سواران تكبر و جاهليت تا آنكه زمانى كه گردن نهادبراى او سركشان شما،ومستحكم شد طمع او درشما، پس ظاهر شد حال و حالت ازسرّ نهان بسوى امرروشن‌نمايان قوت يافت سلطنت او برشما، و سرعت نمود بالشگر خود بسوى شما.

پس انداختند شما را در غارهاى ذلت و نازل نمودند شما را در گودالهاى كشتن، و پامال كردند شما را با شدت جراحت‌با نيزه‌زدن در چشمهاى شما ، و با بريدن‌در گلوهاى شما،وبا كوفتن‌سوراخهاى‌دماغ‌شما،وقصد كردندقصد كردنى محلهاى كشتن‌شمارا، وراندند راندنى شما را بحلقه‌هاى‌بينى مهارباقهرو غلبه‌بسوى آتشيكه مهيا شده بود ازبراى شما .

پس گرديد آن ملعون‌بزرگتر در دين‌شماازحيثيت‌جراحت‌زدن‌دردنياى‌شما بيرون آرنده‌تر آتش از حيثيت خارج كردن آتش از آن كسان كه گرديديد شما از براى ايشان آشكارا عداوت كننده، و بر ايشان جمعيت فراهم آورنده، پس

بگردانید بر ضرر او حدت و تیزی خود را، و از برای دفع او جد و جهدخودرا.

پس قسم ببقای پروردگار فخر کرد شیطان برأصل شما که خاك است ، وطعن کرد در حسب شما، و ایراد نمود در نسب شما؛ و کشیدسواران خودرا بر شما، وقصد کرد بامصاحبت پیادگان خودراه شمارا در حالتی که شکار کنندشمارا در هرمکان ، و میزنند از شما همه اطراف انگشتان را، امتناع نمی توانید بکنید با هیچ حیله،دفع نمی‌توانید شر ایشان را با هیچ عزیمتی درحالتی که شمادرمعظم مذلت و خواری هستید، و در حلقه تنگی و تنگنائی و در عرصهٔ موت و فنا ودر گردش بلا می‌باشید

پس خاموش کنیدآنچه که پنهان‌است در قلبهای شما از آتش سوزان‌تعصب و کینهای زمان جاهلیت، و جز این نیست که این حمیت جاهلیت میباشد در مرد مسلمان‌ازوسوسهای‌شیطان و نخوتهای او، وازافسادهای‌او، واز دمیدنهای‌او وقصد نمائید نهادن تواضع را بر سر های خودتان ، و انداختن تکبر را بزیر قدمهاي خودتان، و کندن گردن کشی را از گردنهای خود ، و اخذ نمائید فروتنی را سنگر در میان خود ومیان دشمن خود که ابلیس ولشگر او است، پس بدرستی که مراوراست از هر گروهی لشگریان واعوان و پیادگان وسواران.

ومباشید مثل قابیل تکبّر کننده برپسر مادر خود که هابیل بود بدون فضل ومزیتی که گردانیده باشد خدا اورا وغیرازاینکه لاحق نمود عظمت وتکبّربنفس اوازعداوتی که ناشی بود ازحسد ، وآتش زد حمیّت وعصبیّت در قلب او از آتش غضب،ودمید شیطان دردماغ اوازباد کبر ونخوت چنان کبریکه درپی درآورد اورا خدای‌تعالی‌بسبب آن کبر ندامت وپشیمانی را ، ولازم گردانیدبراومثل گناهان‌جمیع قاتلین و کشندگان را تا روزقیامت .

الفصل الثالث

أَلَا وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وأَفْسَدْتُمْ فِي الأَرْضِ، مُصارَحَةً لِلَّهِ بِالْمُناصَبَةِ، ومُبارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بالْمُحارَبَةِ، فَاللَّهَ اللَّهَ في كِبْرِ الحَمِيَّةِ، وفَخْرِ الجاهِلِيَّةِ، فإِنَّهُ مَلاَقِحُ الشَّنَآنِ، ومَنافِخُ الشَّيْطانِ اللاتي خَدَعَ بِهَا الأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخالِيَةَ، حَتَّىٰ أَعْنَقُوا في حَنادِسِ جَهالَتِهِ، ومَهاوي ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً عَنْ سِياقِهِ، سُلُساً في قِيادِهِ، أَمْراً تَشابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وتَتابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وكِبْراً تَضايَقَتِ الصُّدُورُ به.

أَلاَ فَالْحَذَرَ عَنْ طاعَةِ ساداتِكُمْ وكُبَرائِكُمُ الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وتَرفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وأَلْقَوْا الْهَجِينَةَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وجاحَدُوا اللَّهَ ما صَنَعَ بِهِمْ، مُكابَرَةً لِقَضائِهِ، ومُغالَبَةً لآلائِهِ، فَإِنَّهُمْ قَواعِدُ أَساسِ الْعَصَبِيَّةِ، ودَعائِمُ أَرْكانِ الفِتْنَةِ، وسُيُوفُ اعْتِزاءِ الْجاهِلِيَّةِ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْداداً، وَلاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسّاداً، ولاَ تُطيعُوا الْأَدْعِياءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وأَدْخَلْتُمْ في حَقِّكُمْ باطِلَهُمْ، فَهُمْ أَساسُ الْفُسُوقِ، وأَحْلاسُ الْعُقُوقِ، اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطايا ضَلالٍ، وجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَىٰ النّاسِ، وتَراجِمَةً يَنْطِقُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ اسْتِراقاً لِعُقُولِكُمْ، ودُخُولاً في عُيُونِكُمْ، ونَفْثاً في أَسْماعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَىٰ نَبْلِهِ، ومَوْطِىءَ قَدَمِهِ ومَأْخَذَ يَدِهِ.

فَاعْتَبِرُوا بِما أَصابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وصَوْلاتِهِ ووَقائِعِهِ ومَثُلاتِهِ، واتَّعِظُوا بِمَثاوِي خُدُودِهِمْ، ومَصارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيذُوا باللَّهِ مِنْ لَواقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَ بِهِ مِنْ طَوارِقِ الدَّهْرِ.

فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبادِهِ لَرَخَّصَ فيهِ لِخاصَّةِ أَنْبِيائِهِ وأَوْلِيائِهِ، وَلٰكِنَّهُ **(لكِنَّ اللَّه خ)** سُبْحانَهُ كَرِهَ إِلَيْهِمُ التَّكابُرَ، ورَضِيَ لَهُمُ التَّواضُعَ، فَأَلْصَقُوا بالأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وعَفَرُوا فِي التّرابِ وُجُوهَهُمْ، وخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وكانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ، وقَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللّهُ بِالمَخْمَصَةِ، وَابْتَلاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وامْتَحَنَهُمْ بِالمَخاوِفِ ومَخَضَهُمْ بِالْمَكارِهِ، فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضا والسَّخَطَ، بِالْمال وَالْوَلَدِ، جَهْلاً بِمَواقِعِ الْفِتْنَةِ والاختِبارِ في مَواضِعِ الْغِنَىٰ والإِقْتارِ، فقد قال تَعالىٰ: **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾**.

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ يَخْتَبِرُ عِبادَهُ الْمُسْتَكْبِرينَ في أَنفُسِهِمْ بِأَوْلِيائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ في أَعْيُنِهِمْ، وَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرانَ ومَعَهُ أَخُوهُ هارُونَ عَلَيْهِما السَّلاَمُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وعَلَيْهِما مَدارِعُ الصُّوفِ، وبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطاَ لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقاءَ مُلْكِهِ، ودَوامَ عِزِّهِ، فَقال: أَلاَ تَعجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ

يَشْرِطانِ لي دَوامَ الْعِزِّ وبَقاءَ الْمُلْكِ وهُما بِما تَرَوْن مِنْ حالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلا أُلْقِي عَلَيْهِما أَساوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِعْظاماً للذَّهَبِ وجَمْعِهِ، وَاحْتِقاراً للصُّوف ولُبْسِهِ[1].

اللغة

(**أمعن**) في الأرض ذهب فيه بعيداً، وأمعن في الطلب أي جد وأبعد و(**صارح**) بما في نفسه أي أبداه و(**الحمية**) الحرب والعداوة أي عاديته وأظهرت له العداوة و(**لقحت**) المرأة والنخلة لقحاً إذا حملت وألقحت، والنخلة وضعت طلع الذكور في طلع الإناث والقح الفحل الناقة احبلها والملاقح بفتح الميم الفحول جمع ملقح وزن محسن يقال ألقحت الرياح الشجر إذا حملتها فهي لواقح وملاقح كذا قال الفيرزآبادي.

(**والشنآن**) بفتح الأوّل والثاني وسكونه البغض والشنان وزن رماد لغة فيه و(**المنافخ**) جمع منفخ بالفتح مصدر نفخ ونفخ الشيطان نفثه ووسوسته ويقال للمتطاول إلى ما ليس له: نفخ الشيطان في أنفه ويقال: رجل ذو نفخ أي فخر وكبر و(**القرون الخالية**) جمع قرن وهو من القوم سيّدهم ورئيسهم وكلّ أمّة هلكت فلم يبق منها أحد والوقت من الزمان و(**أعنق**) إعناقاً أسرع والعنق ضرب من السير سريع.

وليلة ظلماء (**حندس**) أي شديدة الظلمة و(**المهاوي**) جمع مهواة وهي الوهدة المنخفضة من الأرض يتردّى الصيد فيها، وقيل الوهدة العميقة وتهاوي الصيد في المهواة سقط بعضه أثر بعض و(**الذلل**) جمع ذلول وهو المنقاد من الإبل وغيره قال تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [النّحل: الآية ٦٩] و(**الهجينة**) الخصلة القبيحة، وفي بعض النسخ الهجنة وزن مضغة، قال في «**القاموس**»: الهجنة بالضم من الكلام ما تعيبه والهجين اللّئيم وعربي ولد من أمة أو من أبوه خير من أمّه وبرذونة هجين غير عتيق.

و(**أساس**) قال الشارح المعتزلي بالمد جمع أساس والموجود فيما رأيته من النسخ بصيغة المفرد و(**الاعتزاء**) الادّعاء والشعار في الحرب و(**الأدعياء**) جمع الدّعي وهو من انتسب إلى أبيه وعشيرته أو يدّعيه غير أبيه فهو فاعل من الأوّل ومفعول من الثاني قال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] .

(**وشريتم لصفوكم**) قال الشارح المعتزلي ويروى ضربتم أي مزجتم، ويروى شريتم أي ابتعتم واستبدلتم و(**الأحلاس**) جمع حلس بالكسر وهو كساء رقيق يكون على ظهرالبعير

(١) بحار الأنوار: ١٣/١٤١ ح٦١، والتفسير الصافي: ٤/ ٣٩٥.

ملازماً له فقيل لكلّ ملازم أمر هو حلس له، هكذا قال الشارح المعتزلي والجزري و(**سرق**) السمع مجاز واسترق السمع استمعه مختفياً واسترق الشيء وتسرّقه سرقة شيئاً فشيئاً.

(**ونفثاً في أسماعكم**) ويروى نثا في أسماعكم من نث الحديث أفشاه و(**وقعت**) بالقوم وقيعة وأوقعت بهم قتلت وأثخنت و(**المثاوي**) جمع المثوى من ثوى بالمكان نزل فيه و(**عفر**) وجهه ألصقه بالعفر وهو وجه الأرض أو التراب وعفّرت بالتثقيل مبالغة و(**مخض**) السقاء مخضاً حرّكه شديداً ليخرج زبد اللبن الذي فيه، ويروى ومحّصهم بالحاء والصاد المهملتين من التمحيص وهو التطهير و(**أقتر**) لعياله إقتاراً وقتر تقتيراً أي ضيق في النفقة و(**المدارع**) جمع مدرعة بالكسر وهي كالكساء وتدرّع الرّجل لبس المدرعة و(**العصيّ**) كقسيّ جمع عصا.

الإعراب

مصارحة ومبارزة منصوبان على المفعول له أو على التميز، وقوله: فالله الله بنصبهما على التحذير، وذللا حال من فاعل أعنقوا، وعن في قوله: عن سياقه بمعنى اللام، وفي بعض النسخ على سياقه فعلى للاستعلاء المجازي.

وقوله: أمراً تشابهت القلوب فيه، قال القطب الراوندي: أمراً منصوب لأنّه مفعول وناصبه المصدر الّذي هو سياقه وقياده تقول سقت سياقاً وقدت قياداً، واعترض عليه الشارح المعتزلي بأنّه غير صحيح، لأن مفعول هذين المصدرين محذوف تقديره عن سياقه إيّاهم وقياده إيّاهم، وقال الشارح: إنه منصوب بتقدير فعل أي اعتمدوا أمراً، وكبراً معطوف عليه أو ينصب كبراً على المصدر بأن يكون اسماً واقعاً موقعة كالعطاء موضع الإعطاء.

أقول: والأظهر عندي أن يجعل أمراً منصوباً بنزع خافض متعلّق بقوله أعنقوا، أي أسرعوا إلى أمر وكبر، وعلى هذا التأم معنى الكلام بدون حاجة إلى التكلّف وحذف الفعل.

وعن في قوله تكبروا عن حسبهم إما بمعنى من كما في قوله تعالى: ﴿**هو الذي يقبل التوبة عن عباده**﴾ أو بمعنى اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ [التوبَة: الآية ١١٤] فعلى الأوّل فهي بمعنى من النشوية، وعلى الثاني فبمعنى اللام التعليلية.

ومكابرة ومغالبة منصوبان على المفعول له والعامل جاحدوا، والباء في قوله: شربتم بصفوكم بمعنى مع على رواية شربتم بالباء الموحدة، وعلى رواية شريتم بالياء المثناة التحتانيّة فللمقابلة، واستراقاً مفعول لأجله لقوله: ينطق أو لقوله: اتخذهم إبليس، والثاني أولى.

وقوله تعالى: ﴿**إنما نمدهم به**﴾ الآية لفظة ما موصولة اسم إن وجملة نمدهم به صلة ما

لا محلّ لها من الإعراب، وجملة نسارع مرفوعة المحل خبر إنّ، والرابط محذوف أي نسارع لهم به.

والباء في قوله بما ترون بمعنى في، وجملة ألا تعجبون إلى قوله من ذهب مقول قال، وإعظاماً مفعول لأجله لقال، ويحتمل الانتصاب على الحال فيكون المصدر بمعنى الفاعل أي قال ذلك معظماً للذهب ومحتقراً للصّوف.

المعنى

اعلم أنه لما حذر في الفصل السابق من التكبر ورغب في التواضع عقّبه بهذا الفصل تأكيداً لما سبق، وصدّره بتوبيخ المخاطبين على البغي والفساد فقال:

(ألا وقد أمعنتم في البغي) أي بالغتم في السعي بالفساد والعدول عن القصد والخروج عن الاعتدال **(وأفسدتم في الأرض)** أي صرتم مفسدين فيها، وعلل إمعانهم في البغي بقوله: **(مسارحة الله بالمناصبة)** أي لأجل مواجهتكم له سبحانه بالمعاداة وكشفكم عن عداوته تعالى صراحة بالترفع والتكبر.

روى في «الكافي» عن أبي جعفر عليه السلام قال: الكبر رداء الله والمتكبر ينازع الله في ردائه[1].

وفيه عن حكيم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أدنى الإلحاد، فقال: إن الكبر أدناه[2].

وعلّل الإفساد في الأرض بقوله: **(ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة)** لأن الكبر والعظمة والرفعة على الخلق مثير للفساد، مؤدّ إلى الحرب والجدال، لأن المتكبر لا يقدر أن يحبّ للمؤمن ما يحبّ لنفسه ولا يتمكن من ترك الرذائل كالحقد والحسد والتقدم في الطرق، والمجالس وطرد الفقراء عن المجالسة والموانسة والغلظة في القول وعدم الرفق بذوي الحاجات والتطاول على الناس والأنف عن سماع الحق وقبوله، كل ذلك خوفاً من أن يفوته عزّه، ومعلوم أن هذه الخصال القبيحة لا محالة تكون سبباً للمحاربة للمؤمنين، بل لمحاربة الله سبحانه كما قال في الحديث القدسي: من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة.

(فالله الله في كبر الحمية وفخر الجاهلية) أي اتقوه عزّ وجل فيهما، لأنهما من صفة

---

(١) وسائل الشيعة: ١١/ ٢٩٩ ح٥، والكافي: ٢/ ٣٠٩ ح٤.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٠٩ ح١، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٣٧٤ ح٢٠٧٨١.

الكافر لا المُسلم والمؤمن قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: الآية ٢٦] .

وقال أبو عبد الله عليه السلام في رواية «**الكافي**»: «إذا خلق الله العبد في أصل الخلقة كافراً لم يمت حتى يحبّب الله إليه الشرّ فيقرب منه، فابتلاه بالكبر والجبريّة، فقسا قلبه، وساء خلقه، وغلظ وجهه، وظهر وخشه، وقل حياؤه، وكشف الله ستره وركب المحارم فلم ينزع عنها، ثم ركب معاصي الله، وأبغض طاعته، ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه»[1].

ومن ذلك ظهر حسن ما علل التوقي من الكبر والفخر به وهو قوله **(فإنّه)** أي كل من الكبر والفخر **(ملاقح الشنآن)** أي سبب توليد البغض والعداوة كما أن الفحول سبب توليد النتاج، والتعبير بصيغة الجمع بملاحظة تكثر أقسام الكبر وتعدد أنواعه باعتبارها به التكبر من العلم والثروة والمال وكثرة العشيرة وحسن الصوت والجمال وغيرها مما هو منشأ الكبر والتفاخر **(ومنافخ الشيطان)** أي نفخاته ونفثاته كما قال في الفصل السابق: وإنما تلك الحميّة تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونفثاته، وقال أيضاً: ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر.

ووصف المنافخ بأنها **(اللاتي خدع بها الأمم الماضية)** كقوم نوح وهود وعاد وثمود وفرعون ونمرود وغيرهم ممّن تكبّر وكذّب الرّسل لما زيّن لهم الشيطان نخوتهم فخدعهم وأضلّهم عن السّبيل **(والقرون الخالية)** عطف تفسير أي الأمم الهالكة والرؤساء الخالية منهم الدّنيا، وعلى جعل القرن بمعنى الوقت فيحتاج إلى تقدير مضاف أي خدع بها أهل الأزمنة التي خلت منهم، وعلى الأوّل فالصّفة بحال متعلق الموصوف، وعلى الثاني فهي بحال الموصوف نفسه.

وقوله **(حتى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته)** غاية لخداع الشيطان أي انتهى خداعه للأمم السابقة إلى أن أسرعوا في ظلمات جهالته التي لا يهتدون فيها، ومهاوي ضلالته الّتي يردوا فيها ولم يقدروا على الخروج منها **(ذللا عن سياقه سلساً في قياده)** أي حال كونهم ذليلين لسوقه سهل الانقياد لقوده **(أمراً)** أي إلى أمر أي جبرية وتكبّر **(تشابهت القلوب فيه)** أي صار قلوبهم كلّ منها شبيهاً بالآخر في قبوله **(وتتابعت القرون عليه)** أي تتابعت على التسليم والانقياد له **(وكبراً)** أي إلى كبر **(تضايقت الصّدور به)** ولم تسع لإخفائه وكتمانه من جهة كثرته وشدّته.

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٣٠ ح٢، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٣٧٥ ح٢.

ولمّا شاهد عليه السلام أن عمدة منشأ تكبّرهم وتعصّبهم هو اتباع الرّؤساء حذّرهم عن متابعتهم بقوله: **(ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم)** والتكرير لتأكيد التحذير وأن لا يكونوا مثل الكافرين الذين ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: الآيات ٦٦ ـ ٦٨] أي أطعنا قادة الكفر وأئمة الضلال.

قال الطبرسي: والسّيد المالك المعظم الذي يملك تدبير السواد الأعظم وهو جمع الأكثر أي أطعنا هؤلاء فأضلّونا عن سبيل الحق وطريق الرشاد بنا، ربّنا آتهم ضعفين من العذاب لضلالتهم في نفوسهم وإضلالهم إيّانا، والعنهم لعناً كبيراً مرّة بعد أخرى وزدهم غضباً إلى غضبك وسخطاً إلى سخطك.

وقال في سورة الشعراء حكاية لحال التابعين والمتبوعين ولمقالتهم ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٩٤ و٩٥] ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٩٩ ـ ١٠١].

ووصف الكبراء والسادات بأنهم **(الذين تكبروا عن حسبهم وترفعوا فوق نسبهم)** قال الشارح المعتزلي: أي جهلوا أنفسهم ولم يفكروا في أصلهم من النطف المستقذرة ومن الطين المتن ونحوه[1].

قال الشارح البحراني: والأظهر عندي أن يراد بتكبرهم عن حسبهم وتجبرهم بما يعدون في أنفسهم من الجود والسخاء والشجاعة ونحوها من المآثر أو ما يعدون في آبائهم من المفاخر.

قال في **«القاموس»**: الحسب ما تعدّه من مفاخر آبائك أو المال أو الدين أو الكرم أو الشرف في الفعل أو الفعال الصالح أو الشرف الثابت في الآباء، والحسب والكرم قد يكونان لمن لا آباء له شرفاء والشرف والمجد لا يكونان إلا بهم.

روى في «الكافي» عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله آفة الحسب الافتخار والعجب»[2].

وفيه عن عقبة الأسدي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أنا عقبة بن بشير الأسدي وأنا في

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/١٤٩.

(٢) الكافي: ٢/٣٢٨ ح٢، ووسائل الشيعة: ١٦/٤٣ ح٢٠٩٢٥.

الحسب الضخم من قومي «عزيز في قومي خ»، قال: فقال: «ما تمنّ علينا بحسبك إن الله رفع بالإيمان من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً، ووضع بالكفر من كان يسمونه شريفاً إذا كان كافراً، فليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى»[١].

والمراد بترفعهم فوق نسبهم وضعهم أنفسهم في مقام لا يليق بهم لا يقتضي نسبهم وضعها فيه، والمراد بنسبهم إما طرف الإباء خاصة أو مع الأقرباء أيضاً فيكون هذا الكلام منه عليه السلام مبتنياً على ما كان يعرفه في هؤلاء الكبراء والسّادات من عدم الشرف والمجد في آبائهم، أو كنى بنسبهم عن أصلهم الذي انتسابهم إليه وهو الطين والحمأ المسنون كما قال في الدّيوان المنسوب إليه:

فإن يكن لهم في أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

ويحتمل أن يريد به النطفة التي اختلاقهم منها وانتسابهم إليها، وعلى أي تقدير ففي هاتين الجملتين طعن على الرؤساء، وإزراء على افتخارهم وتكبّرهم بالحسب والنسب.

روى في «الكافي» عن أبي حمزة الثمالي قال: قال لي عليّ بن الحسين عليه السلام: «عجباً للمتكبّر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ثمّ غدا هو جيفة»[٢].

وفيه عن السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أتا رسول الله صلى الله عليه وآله رجل فقال يا رسول الله أنا فلان بن فلان حتّى عدّ تسعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما أنك عاشرهم في النار»[٣].

وفي كتاب «الروضة من الكافي» عن عليّ بن إبراهيم عن عبد الله بن محمد بن عيسى عن صفوان بن يحيى عن حنان قال سمعت أبي يروي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد فأقبلوا ينتسبون ويرقون في أنسابهم حتى بلغوا سلمان، فقال له عمر بن الخطاب: أخبرني من أنت ومن أبوك وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله كنت ضالاً فهداني الله جلّ وعزّ بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد صلى الله عليه وآله، هذا حسبي ونسبي».

قال: فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلمان يكلّمه فقال له سلمان: يا رسول الله ما لقيت من هؤلاء

---

(١) شرح أصول الكافي: ٩/ ٣٧٣ ح٣.

(٢) شرح أصول الكافي: ٩/ ٣٦٩ ح١، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٣٨١.

(٣) الكافي: ٢/ ٣٢٩ ح٥، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٤٢ ح٢٠٩٢٧.

جلست معهم فأخذوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتى إذا بلغوا إليّ قال عمر بن الخطاب: من أنت وما أصلك وما حسبك، فقال النبي ﷺ فما قلت له يا سلمان؟ قال قلت له: أنا سلمان بن عبد الله كنت ضالاً فهداني الله عزّ ذكره بمحمد ﷺ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد ﷺ وكنت مملوكاً فأعتقني الله عزّ ذكره بمحمد ﷺ هذا نسبي وهذا حسبي. فقال رسول الله ﷺ: يا معشر قريش إن حسب الرجل دينه، ومروته خلقه، وأصله عقله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣].

ثم قال النبي ﷺ لسلمان: ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلاّ بتقوى الله عزّ وجلّ، وإن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل[١].

وقد مضت مطالب وروايات مناسبة للمقام في شرح الخطبة المائة والسابعة والأربعين عند التعرض لمعالجات الكبر فتذكر، هذا.

وقوله: (**وألقوا الهجينة على ربهم**) أي نسبوا الخصلة القبيحة إلى الله سبحانه، قال الشارح المعتزلي: أي نسبوا ما في الأنساب من القبح بزعمهم إلى ربهم مثل أن يقولوا للرجل: أنت عجمي ونحن عرب، فإن هذا ليس إلى الإنسان بل هو إلى الله فأي ذنب له فيه.

(**وجاحدوا الله على ما صنع بهم**) أي أنكروه عزّ وجلّ على الذي أحسن به إليهم وأنعم به عليهم، وذلك لأن ما منحهم الله عزّ ذكره به من الثروة والعزّة والمجد والشرف وعلوّ النسب ونحوها من صنائعه وعطاياه تعالى كلّها نعم عظيمة موجبة لشكر المنعم وثنائه، ولما جعلوا ذلك سبب التنافس والتكبر والاعتلاء على من ليس فيه هذا السؤدد والشرف وعلى الفقراء والضعفاء كان ذلك منهم كفراناً للنعم وجحود للمنعم وإنكاراً له فيما أوجبه عليهم من الشكر والثناء والانقياد لأمره ونهيه.

وهذا معنى قوله (**مكابرة لقضائه**) يعني أن جحودهم لأجل مقابلتهم لما أمر الله به وفرضه عليهم من الشكر ومخالفتهم له ما للقرآن (**ومغالبة لآلائه**) أي أنبيائه وأوصيائه الذين هم أعظم الآلاء والنعماء.

ولما حذّر من طاعة السادات والكبراء ووصفهم بأوصاف منفرة علله بقوله (**فإنهم قواعد أساس العصبية**) يعني بهم قوام الكبر والعصبية وثباته كما أن قوام الأساس بقواعده واستحكامه بها.

---

(١) الكافي: ٨/١٨٢، وبحار الأنوار: ٢٢/٣٨٢.

روى في «الكافي» بإسناده عن الزهري قال: سئل علي بن الحسين عليه السلام عن العصبية فقال: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرّجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»(١).

وفيه عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»(٢).

وبسنده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من تعصب عصبه الله بعصابة من نار»(٣).

وعن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه»(٤).

(ودعائم أركان الفتنة) شبه الفتنة ببيت ذي أركان ودعامة على سبيل الاستعارة بالكناية، وذكر الأركان تخييل والدعائم ترشيح، وجعلهم بمنزلة الدعائم له لأن قيام البيت وأركانه كما يكون بالدعامة والعماد فكذلك هؤلاء بهم ثبات الفتن وقوامها.

(وسيوف اعتزاء الجاهلية) والمراد باعتزاء الجاهلية هو نداؤهم يا لفلان يا لفلان فيسمون قبيلتهم فيدعونهم إلى المقاتلة وإثارة الفتنة كما أشرنا إليه في شرح الفصل الأول في سبب خطابته عليه السلام بهذه الخطبة.

وإنما أضاف هذه الاعتزاء إلى الجاهلية لأن ذلك كان شعاراً للعرب فيها كما روى في وقعة بدر أن أبا سفيان لما أرسل ضمضم بن عمرو الخزاعي إلى مكة ليخبر قريش بخروج رسول الله صلى الله عليه وآله للتعرض بعيرهم أوصاه أن يخرم ناقته ويقطع أذنها حتى يسيل الدم ويشق ثوبه من قبل ودبر فإذا دخل مكّة يولّي وجهه إلى ذنب البعير ويصيح بأعلى صوته يا آل غالب يا آل غالب اللطيمة اللطيمة العير العير أدركوا وما أدريكم تدركون فإنّ محمّداً والصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم، ولما وافى مكّة واعتزى هذا العزاء تصايح الناس وتهيّأوا للخروج.

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٠٩، وشرح أصول الكافي: ١/ ٢٧٣.
(٢) الكافي: ٢/ ٣٠٨ ح٣، والأمالي: ٧٠٤ ح٩٦٦.
(٣) الكافي: ٢/ ٣٠٨ ح٤، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٣٢١.
(٤) الكافي: ٢/ ٣٠٧ ح١، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٣٧٠ ح٢٠٧٧٢.

وإنما جعلهم بمنزلة السيوف لاعتزاء الجاهلية لكونهم سبب قوّة للمغترّين ويستمد منهم في مقام الاعتزاء والمهيج للحرب والقتال، وبهم يضرم ناره فشبههم بالسّيف الذي هو آلة ممدة للحرب، وبه يستعان فيها.

ويجوز أن يكون من حذف المضاف أي أصحاب سيوف اعتزاء الجاهلية، قاله بعض الشارحين وما ذكرته ألطف وأحسن.

ثمّ عاد إلى الأمر بالتقوى فقال:

(**فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه أضداداً**) أي لا تكونوا مضادين لنعمه سبحانه بالبغي والكبر الموجبين للكفران الموجب لزوال النعم وتبدلها بالنقم كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سَبأ: الآيتان ١٦ و١٧] .

(**ولا لفضله عندكم حساداً**) يجوز أن تكون اللام زائدة للتقوية فالمحسود نفس الفضل أي لا تكونوا حاسدين بفضله وإحسانه الذي عندكم، وأن تكون للتعليل فالمحسود محذوف في الكلام أي لا تكونوا حاسدين لأنفسكم لأجل فضله كما تحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

فوجه تشبيههم بالحساد على الاحتمال الأوّل أن الحاسد إذا بلغ الغاية في حسده يتمنّى ويطلب موت المحسود وعدمه فكان هؤلاء بما فيهم من الكبر والكفران بمنزلة الطالب لزوال الفضل والمتمنّي لانقطاعه فأشبهوا بالحاسد له.

وعلى الاحتمال الثاني أن الحاسد إنما يطلب زوال النعمة من المحسود، فهؤلاء لمّا تكبّروا وبغوا صاروا كأنّهم يحسدون أنفسهم ويطلبون زوال ما آتاهم الله من فضله منها، وعلى أي تقدير ففي الكلام من الدلالة على المبالغة ما لا يخفى.

(**ولا تطيعوا الأدعياء**) المنتحلين للإسلام العارين من مراسمه (**الذين شربتم بصفوكم كدرهم**) أي مزجتم بأصفى من أمور دينكم ودنياكم بكدرهم فشربتموهما معاً، والمراد بكدرهم ما يوجب تكدر عيش المطيعين لهم في الدنيا من الحسد والبغض والقتل والقتال وغير ذلك ممّا ينشأ من طاعة الأدعياء وإثارتهم للشّر والفساد، وما يوجب تكدّر الأمور الدّينيّة وزوال خلوصها من البخل والحقد والحسد والبغضاء ونحوها من المنهيات والمعاصي التي يرتكبها التابعون بسبب إطاعة المتبوعين، وعلى رواية شريتم بالياء المثناة فالمعنى أنكم استبدلتم كدرهم بالصافي واشتريتم الأوّل بالثاني.

(**وخلطتم بصحتكم مرضهم**) أي خلطتم بصحة قلوبكم مرض قلوبهم فحذف المضاف

وأقيم المضاف إليه مقامه، والمراد بصحة القلوب سلامتها لقبول الحق، وبمرضها فتورها عن قبوله كما أن المرض في البدن هو فتور الأعضاء.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠] قال الزمخشري في «**الكشاف**»: استعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول في جوفه مرض، والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد والغلّ والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة والسّلامة في تقايض ذلك والمراد به ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر أو من الغل والحسد والبغضاء، لأن صدورهم كانت تغلي على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلاً وحنقا ويبغضونهم البغضاء الّتي وصفها الله في قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٨] ويتحرقون عليهم حسداً ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٠].

(**وأدخلتم في حقكم باطلهم**) المراد بالحق هو الإيمان والتعبّد بالعبادات الموظفة والمواظبة على صالح الأعمال، وبالباطل ما يقابل ذلك مما يؤدي إلى الهلكات ويحلّ في الورطات من الكذب والنفاق والبخل والحسد والكبر وغيرها من الرذائل.

(**وهم أساس الفسوق**) أي هؤلاء الأدعياء الذين نهيتكم عن طاعتهم أصل الفسوق وعليهم ابتناؤه، والمراد بالفسوق إمّا خصوص الكذب كما في قوله تعالى: ﴿**لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**﴾ على ما فسّر به في غير واحد من الأخبار، وكونهم أصلا له بما فيهم من وصف النّفاق الملازم للكذب إذ المنافقون يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم أو مطلق الخروج عن طاعة الله وهو الأظهر.

(**وأحلاس العقوق**) أي ملازمو العقوق لزوم الحلس للبعير، والمراد بالعقوق مخالفة الرسول ﷺ والإمام من بعده وترك متابعتهم والخروج عن طاعتهم الواجبة بقوله عزّ وجل: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النّساء: الآية ٥٩] وإنما عبّر عليه السلام عن مخالفتهما بالعقوق لأنهما أبوا هذه الأمّة.

(**اتخذهم إبليس مطايا ضلال**) أي أخذهم مطايا أي مراكب تمطو أي تسرع في السير إلى الضلال، وإنما شبّههم بالمطايا لأن المطية حين تركب صارت منقادة لراكبها يسوقها حيث أراد، فهؤلاء لما أعطوا قيادهم لإبليس يقصد بهم نحو الضّلال ذللاً ويسوقهم إليه جعلهم مطايا له.

(**وجندا بهم يصول على الناس**) أي أعواناً له كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: الآية ١٩] بهم يستطيل على الناس ليصرفهم عن طاعة الرب إلى طاعته.

(وتراجمة ينطق على ألسنتهم) وإنما جعلهم ترجماناً لأن أقوالهم كأفعالهم لما كانت صادرة عن إغواء إبليس ووسوسته تابعة لرضاه كأن أحكامهم أحكامه، وكلامهم كلامه، ونطقهم نطقه، فصار ما يصدر عن ألسنتهم ترجمة لقوله وصاروا بمنزلة الترجمان له.

وهذا الكلام نظير ما تقدّم منه عليه السلام في الخطبة السابقة من قوله: «اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم» (اهـ).

وعلّل نطقه على ألسنتهم بقوله **(استراقا لعقولكم)** أي لأجل سرقة عقولكم شيئاً فشيئاً وهو كناية عن إغفاله لهم بأقواله الكاذبة عن ذكر الحقّ والآخرة وترغيبهم إلى الباطل كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: الآيتان ١١٩ و١٢٠] فإنّ وعده قد يكون بالخواطر الفاسدة، وقد يكون بلسان أوليائه كما أشير إليه في قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: الآيات ٤ - ٦].

روى عن علي بن إبراهيم القمي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «ما من قلب إلاّ وله أذنان: على إحداهما ملك مرشد وعلى الأخرى شيطان مغتر، هذا يأمره وهذا يزجره كذلك من الناس شيطان يحمل الناس على المعاصي كما يحمل الشيطان من الجن»[1].

وأصرح من الآيتين إيضاحاً للمرام قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٣].

قال الطبرسي في «**تفسير الكلبي**» عن ابن عبّاس: إن إبليس جعل جنده فريقين فبعث فريقاً منهم إلى الإنس وفريقاً إلى الجن فشياطين الجنّ والإنس أعداء الرسل والمؤمنين، فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجنّ في كلّ حين فيقول بعضهم لبعض: أضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثلها، فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/٢٤٦، وتفسير القمي: ٢/٤٥٠.

وروى عن أبي جعفر عليه السلام أيضاً أنه قال: إن الشياطين يلقي بعضهم بعضاً فيلقي إليه بالغوى «ما يغوي ظ» به الخلق حتّى يتعلم بعضهم من بعض[١].

قال الطبرسي: يوحي بعضهم إلى بعض أي يوسوس ويلقي خفية زخرف القول أي المموّه المزين الذي يستحسن ظاهره ولا حقيقة له ولا أصل وقوله ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون، أي لتميل إلى هذا الوحي بزخرف القول أو إلى هذا القول المزخرف قلوب الذين لا يؤمنون[٢].

فقد ظهر بذلك أن الأدعياء الذين اتخذهم إبليس مطايا ضلال وجنود أو تراجمة له هم عبارة عن شياطين الإنس، فينطق إبليس بلسانهم بزخرف القول وتميل إليه أفئدة الناس فتسترق بذلك عقولهم ويقترفون أي يكتسبون ما هم مكتسبون من الجرائم والآثام.

وبذلك أيضاً يظهر معنى قوله **(ودخولاً في عيونكم)** لأنّه يزّين بتوسّط أتباعه وشياطينه من الإنس المعاصي في نظر الناس، ويموّه بزخرف قوله زينة الحياة الدنيا في أعينهم فيصرفهم عن النظر إلى آيات الله، وهذا معنى الدّخول في العيون.

وبه ظهر أيضاً معنى قوله **(ونفثاً في أسماعكم)** لأنّه يلقي إليهم بوساطة أوليائه زخرف القول فيستمعون إلى لغو حديثه ولا يستمعون إلى آيات الله التي إذا تليت عليهم زادتهم إيماناً.

وقوله **(فجعلكم مرمى نبله وموطأ قدمه ومأخذ يده)** تفريع على ماسبق وبمنزلة النتيجة له، يعني أنه إذا استرق عقولكم ودخل عيونكم ونفث أسماعكم فجعلكم بذلك هدفاً لسهامه أي وساوسه الموقعة في هلاك الأبد كما أن السّهم يهلك من يصيبه، وجعلكم محلاً لوطى أقدامه أي داخراً ذليلاً مهيناً إذ من شأن الموطوء بالقدم الذّلة والمهانة، ومأخذاً ليده أي أسيراً في يد اقتداره نافذاً حكمه فيكم متصرفاً فيكم كيف يشاء كما هو شأن الأسير المقيد المغلول.

ثمّ أمر بالاعتبار بما أصاب المتكبّرين من العذاب الأليم والسّخط العظيم فقال:

(فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم) لأجل استكبارهم **(من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته)** أي عذابه وعقرباته كما نطق به الكتاب الكريم قال: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ

(١) بحار الأنوار: ٦٠/ ١٥٠، التبيان: ٤/ ٢٤٢.

(٢) مجمع البيان: ٤/ ١٤٠.

أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: الآيات ٣٨ ـ ٤٦] إلى غير هؤلاء من المتكبرين المتجبرين المتمردين عن عبوديّة ربّ العالمين فانظروا إلى عاقبة أمورهم.

(واتعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم) أي منازل خدودهم ومساقط جنوبهم وما هم عليه من غم الضّريح وردم الصّفيح وضيق الأرماس وشدّة الإبلاس واختلاف الأضلاع واستكاك الأسماع وظلمة اللّحد وخيفة الوعد.

(واستعيذوا بالله من لواقح الكبر) أي أسبابه المولدة له والمحصّلة إياه **(كما تستعيذونه من طوارق الدهر)** وهي نوازله وآفاته بل ليكن استعاذتكم من الأولى أشد وأقوى من استعاذتكم من الثانية، لأن لواقح الكبر ألم أخروي وطوارق الدَّهر ألم دنيوي والألم الأخروي أشد تأثيراً وأخزى، فيكون بالاستعاذة والتوقي أجدر وأحرى.

ثمّ أشار إلى حمية الكبر مطلقاً وأنه لا رخصة فيه لأحد من آحاد المكلّفين فقال:

(فلو رخص الله) عزّ وجلّ **(في الكبر)** وأحلّه **(لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه)** وجه الملازمة أن الترخيص فيه إنما يكون مع اشتماله على المصلحة وخلوه عن المفسدة ولو كان كذلك لرخص فيه الأنبياء والأولياء ومن يخطرهم من فوائده ومنافعه لمكانتهم لديه وقربهم إليه وإلا لزم تفويت ما تضمنه من المصلحة في حقهم وهو غير معقول بما لهم من الزلفى والقرب.

(ولكن) التالي أعني الترخيص فيه للأنبياء والأولياء باطل فالمقدم مثله، وأشار إلى بطلان التالي بأن **(الله كره إليهم التكابر ورضي لهم التواضع)** كما يدلّ عليه العمومات والإطلاقات الناهية عن التكبّر من دون استثناء لأحد، والآمرة بالتواضع كذلك مضافة إلى الخطابات الخاصة بهم في الصّحف السّماوية والأحاديث القدسية.

(فألصقوا بالأرض خدودهم وعفروا في التراب وجوههم) امتثالاً لما أمروا به من التواضع والتذلل للخالق.

(وخفضوا أجنحتهم وكانوا قوماً مستضعفين) امتثالاً لما أمروا به من التواضع للخلائق قال العلامة المجلسي رحمه الله: خفض الجناح كناية عن لين الجانب وحسن الخلق والشفقة،

ومثله الشارح البحراني قال: لفظ الأجنحة مستعار من الطائر ليد الإنسان وجانبه باعتبار ما هو محلّ البطش والنفرة، وخفض الجناح كناية عن لين الجانب.

والأحسن ما في «**الكشاف**» قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٥] الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب، ومنه قول بعضهم:

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك في رفعه أجدلا

ينهاه عن التكبر بعد التواضع وأراد بقوله وكانوا قوماً مستضعفين كونهم متصفين بالضعف والمسكنة في نظر الناس وضيق العيش في الدنيا كما أوضحه بقوله:

(**وقد اختبرهم الله بالمخمصة**) والجوع (**وابتلاهم بالمجهدة**) والمشقة (**وامتحنهم بالمخاوف**) والأهاويل (**ومخضهم**) أي حركهم وزلزلهم، أو خلّصهم وطهرهم إن كان من التمحيص (**بالمكاره**) والشدائد.

ولما ذكر عليه السلام محبوبية التواضع لله سبحانه ومكروهية التكابر له تعالى واتصاف أنبيائه وملائكته المقرّبين مع مكانتهم لديه ومرضيّين عنده بوصف التواضع والتذلل والجوع والفقر والمسكنة فرّع عليه قوله:

(**فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد**) أي إذا عرفتم أن رضى الله عن أنبيائه وأوليائه بما لهم من الذّل والجهد والمشاق، فلا تجعلوا رضاه منوطاً بزهرة الحياة الدنيا من الأموال والأولاد وسخطه منوطاً بعدمها (**جهلاً بمواقع الفتنة**) والابتلاء (**والاختبار في مواضع الغنى**) والفقر (**والاقتار**) أي لا تجعلوا المال والولد علامة الرضا وعدمهما دليلاً على السّخط من أجل جهلكم بمواقع الامتحان في مواضع الثروة والفقر، إذ ربما يكون الابتلاء بالفقر والمسكنة لأجل النيل إلى مقام الزلفى لا من جهة السّخط كما في حق الأولياء المقربين من الأنبياء والمرسلين، ويكون الابتلاء بالمال والثروة للاستدراج والازدياد في المعصية لا من جهة الرضى كما يشهد به الكتاب الكريم.

(فـ)ـقد (**قال**) الله (**تعالى**) في سورة المؤمنين ﴿**أيحبسون إنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون**﴾ أي أيحسبون أن الذي أمددناهم به تعجيل لهم في الخير.

قال في الكشاف: المعنى أن هذا الامداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي

واستجراراً إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات وفيما لهم فيه نفع وإكرام ومعاجلة بالثواب قبل وقته كما يفعل بأهل الخير من المسلمين وقوله: بل، استدراك لقوله: أيحسبون، يعني هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور حتّى تأمّلوا ويتفكّروا أهو استدارج أو مسارعة في الخير.

فقد ظهرن ذلك أن الإمداد بالمال والبنين والبسط في الرّزق قد يكون نقمة وبلاء لا رحمة عطاء كما في حق فرعون وملائه الكافرين المستكبرين المسبوق ذكرهم في الآية الشريفة، ويكون الضيق والإقتار تفضلاً وإحساناً لا سخطاً وحرماناً كما في حق الأولياء المستضعفين من عباد الله المكرمين.

(فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم) لا يخفى حسن ارتباط هذه الجملة بسابقتها وليس كلاماً منقطعاً عما قبله يستدعي ابتداء يكون معلّلاً به كما زعمه الشارح البحراني، لأنه عليه السلام لما نبّه أن المال والولد ليس مناطاً للرضا والسّخط، ولا الإمداد بهما لأجل تعجيل الخير، بل لأجل الاختبار والافتتان للغاوين المستكبرين المكذّبين للرّسل عقبه بهذا الكلام توضيحاً وتبييناً، والمراد به أنه تعالى يمتحن المستكبرين بما أعطاهم من الأموال والأولاد والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والأنعام والحرث ونحوهما من متاع الحياة الدنيا ببعث أوليائه المستضعفين في نظرهم إليهم، وعقبه بذكر قصّة موسى وفرعون لزيادة الإيضاح فقال:

(و) لـ**(قد دخل)** كليم الله **(موسى بن عمران ومعه أخوه هارون** عليهما السلام **على فرعون)** اللعين بالرّسالة من ربّ العالمين **(وعليهما مدارع الصُّوف وبأيديهما العصى فـ)** ـدعياه إلى الإيمان بالله والتصديق به و**(شرطاً له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه)** وإنما شرطا له ذلك لأن قبول الدّعوة مع هذا الشرط أسهل فهو أقطع لوزره **(فقال)** نخوة واستكباراً للملاء حوله **(ألا تعجبون من هذين)** الإتيان باسم الإشارة للتحقير كما في قوله: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٦] أي هذا الحقير المسترذل يعني به إبراهيم عليه السلام.

(يشرطان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما) متلبسان **(بما ترون من حال الفقر والذّل فهلا ألقي عليهما أساورة من ذهب)**.

قال صاحب «**التلخيص**»: هلاّ في الماضي للتنديم، وقال شارح التلخيص ومع هذا فلا يخلو من ضرب من التوبيخ واللوم على ما كان يجب أن يفعله المخاطب قبل أن يطلب منه انتهى.

وعلى هذا فالمراد استحقارهما وتوبيخهما على الخلو من الزينة والتجمل، فإنهم كانوا إذا سوّروا رجلاً سوّروه بسوار من ذهب وطوّقوه بطوق من ذهب.

وقد ورد في الكتاب الكريم حكاية هذا المعنى عن فرعون نحو ما أورده أمير المؤمنين عليه السلام هنا: قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزّخرُف: الآيات ٥١ ـ ٥٣].

أي أفلا تبصرون هذا الملك العظيم وقوّتي وضعف موسى، بل أنا خير من هذا الذي هو ضعيف حقير ولا يكاد يفصح بكلامه وحججه للعقدة الّتي في لسانه، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ومقاليد الملك إن كان صادقاً وإنما قال ذلك (**إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه**).

تذييل

ينبغي أن نورد هنا شطراً من قصّة بعث موسى عليه السلام إلى فرعون اللّعين.

قال المحدث العلامة المجلسي قدس الله روحه في المجلّد الخامس من «**البحار**»: قال الثعلبي: قال العلماء بأخبار الماضين:

لما كلّم الله موسى وبعثه إلى مصر خرج ولا علم له بالطريق، وكان الله تعالى يهديه ويدلّه وليس معه زاد ولا سلاح ولا حمولة ولا شيء غير عصاه ومدرعة صوف وقلنسوة من صوف ونعلين، يظلّ صائماً ويبيت قائماً ويستعين بالصيد ويعول الأرض حتى ورد مصر، ولما قرب من مصر أوحى الله إلى أخيه هارون يبشّره بقدوم موسى عليه السلام ويخبره أنه قد جعله لموسى وزيراً ورسولاً معه إلى فرعون، وأمره أن يمرّ يوم السّبت لغرّة ذي الحجة متنكراً إلى شاطىء النيل ليلقى في تلك الساعة بموسى.

قال: فخرج هارون وأقبل موسى عليه السلام فالتقيا على شط النيل قبل طلوع الشمس فاتفق أنه كان يوم ورود الأسد الماء، وكان لفرعون أسد تحرسه في غيضة محيطة بالمدينة من حولها، وكانت ترد الماء غبّا، وكان فرعون إذ ذاك في مدينة حصينة عليها سبعون سوراً في كل سور رساتيق وأنهار ومزارع وأرض واسعة، في ربض كلّ سور سبعون ألف مقاتل.

ومن وراء تلك المدينة غيضة تولى فرعون غرسها بنفسه وعمل فيها وسقاها بالنيل ثم أسكنها الأسد، فنسلت وتوالدت حتى كثرت، ثم اتخذها جنداً من جنوده تحرسه، وجعل

خلال تلك الغيضة طرقاً تقضي من يسلكها إلى باب من أبواب المدينة معلومة ليس لتلك الأبواب طريق غيرها فمن أخطأ وقع في الغيضة فأكلته الأسد، وكانت الأسود إذا وردت النيل ظلّ عليها يومها كلها، ثم تصدر مع الليل.

فالتقى موسى وهارون عليهما السلام يوم ورودها فلما أبصرتهما الأسد مدّت أعناقها ورؤوسها إليهما وشخصت أبصارها نحوهما وقذف الله في قلوبها الرّعب فانطلقت نحو الغيضة منهزمة هاربة على وجوهها تطأ بعضها بعضاً حتى اندست في الغيضة، وكان له ساسة يسوسونها وذادة يذودونها ويشلونها بالناس، فلما أصابها ما أصابها خاف ساستها فرعون ولم يشعروا من أين أتوا.

فانطلق موسى وهارون عليهما السلام في تلك المسبعة حتى وصلا إلى باب المدينة الأعظم الذي هو أقرب أبوابها إلى منزل فرعون، وكان منه يدخل ومنه يخرج، وذلك ليلة الاثنين بعد هلال ذي الحجة بيوم، فأقاما عليه سبعة أيام فكلّمهما واحد من الحراس وزبرهما وقال لهما: هل تدريان لمن هذا الباب؟ فقال: إن هذا الباب والأرض كلّها وما فيها لربّ العالمين وأهلها عبيد له، فسمع ذلك الرّجل قولاً لم يسمع مثله قط ولم يظنّ أن أحداً من الناس يفصح بمثله، فلما سمع ما سمع أسرع إلى كبرائه الذين فوقه فقال لهم: سمعت اليوم قولاً وعاينت عجباً من رجلين هو أعظم عندي وأفظع وأشنع مما أصابنا في الأسد، وما كانا ليقدما على ما أقدما عليه إلاّ بسحر عظيم، وأخبرهم القصّة، فلا يزال ذلك يتداول بينهم حتّى انتهى إلى فرعون.

وقال السّدي: سار موسى عليه السلام بأهله نحو مصر حتى أتاها ليلاً فتضيف أمّه وهي لا تعرفه وإنما أتاهم في ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل ونزل في جانب الدار، فجاء هارون فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمّه فأخبرته أنّه ضيف، فدعاه فأكل معه فلما أن قعد تحدثا فسأله هارون فقال: من أنت؟ قال: أنا موسى، فقام كلّ واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه فلما أن تعارفا قال له موسى: يا هارون انطلق معي إلى فرعون فإن الله عزّ وجلّ قد أرسلنا إليه، فقال هارون: سمعاً وطاعة، فقامت أمّهما فصاحت وقالت: أنشدكما الله أن تذهبا إلى فرعون فيقتلكما، فأبيا ومضيا لأمر الله سبحانه فانطلقا إليه ليلاً فأتيا الباب والتمسا الدّخول عليه ليلاً، فقرعا الباب ففزع فرعون وفزع البواب، وقال فرعون: من هذا الذي يضرب بابي الساعة فأشرف عليهما البّواب فكلّمهما موسى: أنا رسول رب العالمين فأتى فرعون فأخبره وقال: إنّ هنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين(١).

---

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ١٤٣.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: خرج موسى عليه السلام لما بعثه الله سبحانه حين قدم مصر على فرعون هو وأخوه هارون حتّى وقفا على باب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: إنا رسول «لا» ربّ العالمين فأذنوا بنا هذا الرّجل، فمكثا سنتين يغدوان إلى بابه ويروحان لا يعلم بهما ولا يجتري أحد أن يخبره بشأنهما حتّى دخل عليه بطال له يلعب عنده ويضحكه فقال له: أيّها الملك إن على بابك رجلاً يقول قولاً عظيماً عجيباً يزعم أنّ له إلهاً غيرك، فقال: ببابي؟ ادخلوه، فدخل موسى ومعه هارون على فرعون، فلما وقفا عنده قال فرعون لموسى: من أنت؟ قال: أنا رسول ربّ العالمين، فتأمّله فرعون فعرفه.

فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ١٨ و١٩] معناه على ديننا هذا الذي تعيبه قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٠] المخطئين ولم أرد بذلك القتل ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١] أي نبوّة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١] ثمّ أقبل موسى ينكر عليه ما ذكر فقال ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٢٢﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢] أي اتّخذتهم عبيداً تنزع أبناءهم من أيديهم تسترق من شئت أي إنّما صيّرني إليك ذلك ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: الآيات ٢٣ ـ ٢٥] إنكاراً لما قال «قال» موسى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٦ و٢٧] يعني ما هذا الكلام صحيح إذ يزعم أن لكم إلهاً غيري ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٨ ـ ٣٠] تعرف به صدقي وكذبك وحقّي وباطلك ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: الآيتان ٣٢ و٣٣] فاتحة فاها قد ملأت ما بين سماطي فرعون واضعة لحييها الأسفل في الأرض والأعلى في سور القصر حتّى رأى بعض من كان خارجاً من مدينة مصر رأسها، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فارفض عنها الناس وذعر عنها فرعون ووثب عن سريره وأحدث حتى قام به بطنه في يومه ذلك أربعين مرّة وكان فيما يزعمون أنه لا يسعل ولا يصدع ولا يصيبه آفة مما يصيب الناس وكان يقوم في أربعين يوماً مرّة وكان أكثر ما يأكل الموز لكيلا يكون له ثقل فيحتاج إلى القيام به وكان هذه الأشياء ممّا زيّن له أن قال ما قال لأنّه ليس له من الناس شبيه.

قالوا: فلما قصدته الحيّة صاح يا موسى أنشدك بالله وحرمة الرضاع إلا أخذتها وكففتها عني وإني أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم نزع يده من جيبه فأخرجها بيضاء من الثلج لها شعاع كشعاع الشمس، فقال له فرعون: هذه يدك

فلما قالها فرعون أدخلها موسى جيبه ثمّ أخرجها الثانية لها نور ساطع في السماء تكلّ منها الأبصار وقد أضاءت ما حولها يدخل نورها في البيوت ويرى من الكوا من وراء الحجب، فلم يستطع فرعون النظر إليها، ثمّ ردّها موسى إلى جيبه ثمّ أخرجها فإذا هي على لونها الأوّل.

قالوا: فهمّ فرعون بتصديقه فقام إليه هامان وجلس بين يديه فقال له: بينا أنت إله تعبد إذاً أنت تابع لعبد، فقال فرعون لموسى: أمهلني اليوم إلى غد وأوحى الله تعالى إلى موسى أن قل لفرعون إنك إن آمنت بالله وحده عمرتك في ملكك ورددت شاباً طرياً، فاستنظره فرعون، فلما كان من الغد دخل عليه هامان فأخبره فرعون بما وعده موسى من ربّه فقال هامان: والله ما يعدل هذا عبادة هؤلاء لك يوماً واحداً ونفخ في منخره ثم قال له هامان أنا أردك شاباً فأتا بالوسمة فخضبه بها فلما دخل عليه موسى فرآه على تلك الحالة هاله ذلك، فأوحى الله إليه لا يهولنك ما رأيت فإنه لا يلبث إلاّ قليلاً حتّى يعود إلى الحالة الأولى[1].

وفي بعض الروايات أن موسى وهارون عليهما السلام لما انصرفا من عند فرعون أصابهما المطر في الطريق فأتيا على عجوز من أقرباء أمّهما ووجّه فرعون الطلب في أثرهما، فلما دخل عليهما اللّيل ناما في دارها وجاءت الطلب إلى الباب والعجوز منتبهة، فلمّا أحست بهم خافت عليهما فخرجت العصا من صبر الباب والعجوز تنظر، فقاتلهم حتى قتلت منهم سبعة أنفس ثم عادت ودخلت الدار، فلما انتبه موسى وهارون عليهما السلام أخبرتهما بقصّة الطلب ونكاية العصا منهم فآمنت بهما وصدقتهما.

ثمّ قال الثعلبي: قالت العلماء بأخبار الأنبياء: إن موسى وهارون وضع فرعون أمرهما وما أتيا به من سلطان الله سبحانه على السحر وقال للملاء من قومه إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما فماذا تأمرون أأقتلهما؟ فقال العبد الصالح خربيل مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: الآية ٢٨] ـ إلى قوله ـ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: الآية ٢٩] ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٣٦ و٣٧] وكانت لفرعون مدائن فيها السحرة عدّة للأمر إذا حزبه.

وقال ابن عبّاس: قال فرعون لما رأى من سلطان الله في اليد والعصا: أنا لا نغالب موسى إلاّ بمن هو مثله، فأخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال له الغرماء

---

(١) بحار الأنوار: ١٣/١٤٦، قصص الأنبياء: ٢٨٦.

يعلّمونهم السحر كما يعلّمون الصبيان الكتاب في الكتاب فعلّموهم سحراً كثيراً وواعد فرعون موسى موعداً، فبعث فرعون إلى السحرة فجاء بهم ومعهم معلمهم، فقالوا له: ماذا صنعت؟ فقال: قد علّمتهم سحراً لا يطيقه سحر أهل الأرض إلاّ أن يكون أمر من السماء فإنه لا طاقة لهم به، ثمّ بعث فرعون الشرطي في مملكته فلم يترك ساحراً في سلطانه إلاّ أتى به.

واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون.

فقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان منهم من القبط وهما رأسا القوم وسبعون من بني إسرائيل.

وقال الكلبي: كانوا سبعين ساحراً غير رئيسهم وكان الّذي يعلّمهم ذلك رجلين مجوسيّين من أهل نينوى.

وقال السّدي: كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً.

وقال عكرمة: سبعين ألفاً.

وقال محمد بن المنكدر: ثمانين ألفاً.

فاختار منهم سبعة آلاف ليس منهم إلاّ ساحر ماهر، ثمْ اختار منهم سبعة مائة ثم اختار من أولئك السبعة مائة سبعين من كبرائهم وعلمائهم.

قال مقاتل: وكان رئيس السحرة أخوين بأقصى مدائن مصر، فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمهما دلّينا على قبر أبينا. فدلّتهما عليه فأتياه فصاحا باسمه فأجابهما فقالا: إن الملك وجّه إلينا أن نقدم عليه لأنه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح ولهما عزّ ومنعة وقد ضاق الملك ذرعاً من عزهما ومعهما عصاً إذا ألقياها لا يقوم لها شيء تبلع الحديد والخشب والحجر، فأجابهما أبوهما انظرا إذا هما ناما فإن قدرتما أن تسلا العصا فسلاها، فإنّ الساحر لا يعمل سحره وهو نائم، وإن عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر رب العالمين ولا طاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا، فأتياهما في خفية وهما نائمان ليأخذا العصا فقصدتهما العصا.

قالوا: ثم واعدوه يوم الزينة وكانوا يوم سوق عن سعيد بن جبير، وقال ابن عباس: كان يوم عاشورا ووافق ذلك يوم السّبت في أوّل يوم من السنة وهو يوم النيروز وكان يوم عيد لهم يجتمع إليه الناس من الآفاق، قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وكان اجتماعهم للميقات بالاسكندرية ويقال بلغ ذنب الحيّة من وراء البحيرة يومئذ.

قالوا: ثمّ قال السحرة لفرعون: ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ ـ فرعون ـ

﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء الآيتان ٤١ و٤٢] عندي في المنزلة، فلما اجتمع النّاس جاء موسى عليه السلام وهو متكي على عصاه ومعه أخوه هارون حتّى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف قومه فقال موسى للسحرة حين جاءهم ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: الآية ٦١] فتناجى السحرة بينهم وقال بعضهم لبعض ما هذا قول ساحر فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه: الآية ٦٢] فقالت السحرة لنأتّينك اليوم بسحر لم تر مثله، وقالوا بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون وكانوا قد جاؤوا بالعصيّ والحبال تحملها ستّون بعيراً.

فلما أبوا إلا الإصرار على السّحر قالوا لموسى: إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى، قال بل ألقوا أنتم فألقوا حبالهم وعصيّهم فإذا هي حيّات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضها تسعى، فذلك قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: الآيتان ٦٦ و٦٧] وقال والله إن كانت لعصيّاً في أيديهم ولقد عادت حيّات وما يعدّون عصاي هذه أو كما حدث نفسه فأوحى الله تعالى إليه ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: الآيتان ٦٨ و٦٩].

ففرّج عن موسى وألقى عصاه من يده فإذا هي ثعبان مبين كأعظم ما يكون أسود مدلهم على أربع قوائم غلاظ شداد وهو أعظم وأطول من البختي وله ذنب يقوم عليه فيشرف فوق حيطان المدنية رأسه وعنقه وكاهله لا يضرب ذنبه على شيء إلا حطمه وقصمه ويكسر بقوائمه الصخور الصّم الصّلاب ويطحن كلّ شيء ويضرم حيطان البيوت بنفسه ناراً، وله عينان تلتهبان ناراً ومنخران تنفخان سموماً، وعلى مفرقه كأمثال الرّماح، وصارت الشعبتان له فيما سعته اثنا عشر ذراعاً، وفيه أنياب وأضراس وله محيح وكشيش وصرير وصريف فاستعرضت ما ألقى السحرة من حبالهم وعصيّهم وهي حيّات في عين فرعون وأعين الناس تسعى تلقفها وتبتلعها واحداً واحداً حتّى ما يرى في الوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، وانهزم الناس فزعين هاربين منقلبين، فتزاحموا وتساقطوا ووطىء بعضهم بعضاً حتّى مات منهم يومئذ في ذلك الزحام ومواطىء الأقدام خمسة وعشرون ألفاً، وانهزم فرعون فيمن انهزم منخوباً مرعوباً عازباً عقله وقد استطلق بطنه في يومه ذلك أربع مائة مرّة ثمّ بعد ذلك إلى أربعين مرّة في اليوم والليلة على الدوام إلى أن هلك.

فلما انهزم النّاس وعاين السحرة ما عاينوا وقالوا لو كان سحراً لما غلبنا ولما خفى علينا أمره، ولئن كان سحراً فأين حبالنا وعصيّنا، فألقوا سجّداً وقالوا آمنا برب العالمين ربّ موسى وهارون، وكان فيهم اثنان وسبعون شيخاً قد انحنت ظهورهم من الكبر وكانوا علماء

السحرة وكان رئيس جماعتهم أربعة نفر سابور وعادور وحطحط ومصّفادهم الذين آمنوا ورأوا ما رأوا من سلطان الله ثم آمنت السحرة كلّهم.

فلما رأى فرعون ذلك أسف وقال لهم متجلّداً ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طٰه: الآيات ٧١ ـ ٧٣].

فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جذوع النّخل وهو أوّل من فعل ذلك، فأصبحوا سحرة كفرة وأمسوا شهداء بررة، ورجع فرعون مغلوباً معلولاً، ثمّ أبى إلاّ إقامة على الكفر والتمادي فيه فتابع الله تعالى بالآيات وأخذه وقومه بالسنين إلى أن أهلكهم.

وخرج موسى عليه السلام راجعاً إلى قومه والعصا على حالها حيّة تتبعه وتبصبص حوله وتلوذ به كما يلوذ الكلب الألوف بصاحبه والناس ينظرون إليها ينخزلون ويتضاغطون حتّى وصل موسى عليه السلام عسكر بني إسرائيل وأخذ برأسها فإذا هي عصاه كما كانت أوّل مرّة، وشتت الله على فرعون أمره ولم يجد على موسى سبيلاً، فاعتزل موسى في مدينته ولحق بقومه وعسكروا مجتمعين إلى أن صاروا ظاهرين كافرين والحمد لله رب العالمين[١].

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ١٥٠، قصص الأنبياء: ٢٨٨.

الترجمة

فصل سيّم از اين خطبه درتوبيخ مخاطبين است ببغى وفساد ميفرمايد :

آگاه باشيد كه بغايت مبالغهمشغول شديدوستموفساد كرديددرزمين ازجهت آشكارا مقابل شدن خدا بعداوت ومبارزت نمودن مؤمنان بمحاربه ، پس بترسيد از خدا در گردن كشي ازحميّت و نازش جاهليّت ، پس بدرستيكه كبرتوليد كننده عداوت و دشمنيست ، و مواضع نفس زدن شيطان ملعون است كه فريب داد بآن اُمّتهاى گذشته وقرنهاى سابقه را تا اينكه سرعت كردند آن امّتها در تاريكيهاى جهالت او ، ومواضع افتادن ضلالت او ، درحالتيكه رام بودند ازراندن آنملعون ، وروان بودند دركشيدن آن بسوى امرى كه متشابه شد قلبها درآن ، ومتابع شد قرنها برآن وبسوى كبريكه تنگ شد سينها بسبب آن .

آگاه باشيد پس البته حذر نمائيد ازاطاعت آقايان خود وبزرگان خود كه تكبّر نمودند از جهت حسب خودشان ، و اظهار رفعت نمودند بالاى نسب خود ، وانداختند كار زشت و قبيح را بر پروردگارخود، و انكار خدانمودند براحسانى كه بايشان كرده بود بجهتانكار كردن برقضاى او ، وغلبگىجستن مرنعمتهاىاورا .

پس بدرستيكه آن رؤسا، قاعدهاى بناى عصبيّت است و ستونهاى ركنهاى فتنه وشمشيرهاى نسبتدادن جاهليّت .

پس پرهيز نمائيد از خدا ومباشيد مرنعمتهاى اورا ضدّها ونه احسان او را كه در نزد شما است حسد كنندها ، و اطاعت ننمائيد به كسانيكه ادّعاى اسلام ميكنند وعارى از شرايط اسلام ميباشند همچنان أشخاصيكه آشاميديد بآب صافى خودتان آب گلآلود ايشان را ، وآميختيد بتندرستى خود كه خلوص ايماناست ناخوشى ايشان را كه عبارتست از نفاق وعصيان ، وداخل كرديد درحق خود باطل ايشان را ، وايشان بنيان فسقند وملازمين عقوق رسولالله صلّى الله عليه وآله وامام عليه السلام اخذ كرد شيطان لعين ايشان را شتران باركش گمراهى ، ولشگرانى كه بايشان حمله ميكند برمردمان و ترجمانهائى كه حرف ميزند برزبانهاى ايشان بجهت دزديدن

اوعقلهای شما را ، وبجهت داخل شدن در دیدهای شما و دمیدن در گوشهای شما ، پس گردانید شیطان شما را نشان گاه تیر خود ، ومحل رفتار قدمهای خود وموضع گرفتن دست خود .

پس عبرت بگیرید بآنچه رسید بامتهائی که استکبار کردند پیش از شما ازسطوت خدا و حملهای او و عذابهای او و عقوبات او ، و متعظ بشوید بمقامهای رخسارهای ایشان درقبرها ، ومواضع افتادن پهلوهای ایشان ، وپناه برید بخدا از اسبابی که تولید کبرمینمایند چنانکه پناه میبرید باوازحوادث روزگار .

پس اگر رخصت میداد خداوند متعال در کبر نمودن از برای احدی از بندگان خودرا هرآینه رخصت میداد درآن ازبرای خواص انبیای خودلیکن خدا مکروه گردانید بسوی ایشان تکبررا ، و خوش داشت از برای ایشان تواضع وفروتنی را، پس چسبانیدند آن پیغمبران درزمین رخسارهای خودشان را ازغایت تواضع وخشوع ، ومالیدند رویهای خود را درخاك از فرط تذلل و خضوع ، وخفض جناح کردند از برای مؤمنان ، وبودند آن پیغمبران قومهای ضعیف شمرده شده که امتحان فرمود ایشان را خدای تعالی بگرسنگی ، ومبتلا گردانید ایشان را بأنواع مشقت وزحمت ، وامتحان فرمود ایشان را باسباب خوف ، واختبار کرد ایشان را باقسام مکروهات .

پس اعتبارمکنید خوشنودی وغضب خدا را بکثرت مال و فرزند وفقدآن از جهت نادانیشما بمواقع امتحان درجاهای توانگری ودرویشی ، پس بتحقیق فرموده است خدای عز وجل درقرآن مجید «آیا گمان میکنند ایشان که آن چیزیکه مدد میدهیم وزیاده میگردانیم ایشان را بآن ازمال و اولاد تعجیل میکنیم ازبرای ایشان درخیرات آن جهان بلکه نمیدانند که این ازبابت استدراج ومهلت است نه ازجهت سود ومنفعت» .

پس بدرستی که حقتعالی امتحان میفرماید بندگان خودرا که متکبرانند در نزد خودشان بدوستان مقربان خود که ضعیف شمرده میشود در دیدهای آن متکبران ، وبتحقیق که داخل شد موسی بن عمران علیه السلام در حالتیکه بااو بود

برادر اوهارون عليه السلام برفرعون ملعون وبر ايشان بود خرقهای پشمين ، و بر دست ايشان بود عصای چوبين ، پس شرط کردند از برای فرعون اگرمسلمان شودباقی بودن پادشاهی اورا، وهميشگی عزّت وسلطنت اورا، پس گفت فرعون بقوم خودازروی حقارت : آيا تعجب نمی کنيد از اين دو شخص که شرط ميکنند از برای من دوام رفعت و بقاء ملك و مملکت را وحال آنکه ايشان بآن حالی است که می بينيد از حالت فقروذلت ، پس چرا انداخته نشدبرايشان دست برنجها از طلا ، اين گفتار فرعون ازجهت بزرگ شمردن طلا وجمع کردن آن بود ، وبجهت حقيرشمردن پشم وپوشيدن آن که موسی وهارون پوشيده بودند .

الفصل الرابع

وهو مروي في «**الكافي**» باختلاف تطلع عليه إن شاء الله تعالى.

وَلَوْ أرادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأنْبيائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبانِ، ومَعادِنَ الْعِقْيانِ، ومَغارِسَ الْجِنانِ، وأنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طَيْرَ السَّماءِ، ووُحُوشَ الأَرْضِ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاءُ، وبَطَلَ الْجَزاءُ وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْباءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلينَ، وَلاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ لَزِمَتِ الْأَسْماءُ مَعانِيَها، وَلٰكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولي قُوَّةٍ في عَزائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فيما تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حالاتِهِمْ، مَعَ قَناعَةٍ تَمْلَأُ الْعُيُونَ وَالْقُلُوبَ غِنًى، وخَصاصَةٍ تَمْلَأُ الْأَبْصارَ وَالْأَسْماعَ أَذًى.

وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِياءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لاَ تُرامُ، وعِزَّةٍ لاَ تُضامُ، ومُلْكٍ تَمْتَدُّ نَحْوَهُ أَعْناقُ الرِّجالِ، وتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحالِ، لَكانَ ذٰلِكَ أَهْوَنَ عَلَىٰ الْخَلْقِ فِي الاعْتِبارِ، وأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الاسْتِكْبارِ، وَلَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مائِلَةٍ بِهِمْ، فَكانَتِ النِّيّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَناتُ مُقْتَسَمَةً.

وَلٰكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرادَ أَنْ يَكُونَ الاتِّباعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَالاسْتِكانَةُ لِأَمْرِهِ، وَالاسْتِسْلامُ لِطاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خاصَّةً لاَ يَشُوبُها مِنْ غَيْرِها شائِبَةٌ، وكُلَّما كانَتِ الْبَلْوَىٰ وَالاخْتِبارُ أَعْظَمَ، كانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزاءُ أَجْزَلَ.

أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعالَمِ بِأَحْجارٍ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلاَ تَسْمَعُ وَلاَ تُبْصِرُ، فَجَعَلَها بَيْتَهُ الْحَرامَ الَّذي جَعَلَهُ لِلنّاسِ قِياماً، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقاعِ الْأَرْضِ حَجَراً، وأَقَلِّ نَتائِقِ الدُّنْيا مَدَراً، وأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْراً، بَيْنَ جِبالٍ خَشِنَةٍ، ورِمالٍ دَمِثَةٍ، وعُيُونٍ وَشِلَةٍ، وقُرًى مُنْقَطِعَةٍ، لاَ يَزْكُو بِها خُفٌّ، ولاَ حافِرٌ، وَلاَ ظِلْفٌ، ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ وَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصارَ مَثابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفارِهِمْ، وغايَةً لِمُلْقَىٰ رِحالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمارُ الْأَفْئِدَةِ، مِنْ مَفاوِزِ قِفارٍ سَحِيقَةٍ، ومَهاوي فِجاجٍ عَمِيقَةٍ، وجَزائِرِ بِحارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّىٰ يَهُزُّوا مَناكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، ويَرْمُلُونَ عَلَىٰ أَقْدامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ قَدْ نَبَذُوا السَّرابِيلَ وَراءَ ظُهُورِهِمْ، وشَوَّهُوا بِإِعْفاءِ الشُّعُورِ مَحاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلاءً عَظِيماً، وامْتِحاناً شَدِيداً، وَاخْتِباراً مُبِيناً، وتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، ووُصْلَةً إِلَىٰ جَنَّتِهِ.

وَلَوْ أَرادَ سُبْحانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرامَ، ومَشاعِرَهُ الْعِظامَ، بَيْنَ جَنّاتٍ وأَنْهارٍ، وسَهْلٍ وقَرارٍ جَمِّ الْأَشْجارِ، دانِي الثِّمارِ، مُلْتَفِّ الْبُنَىٰ مُتَّصِلِ الْقُرَىٰ، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْراءَ، ورَوْضَةٍ خَضْراءَ، وأَرْيافٍ مُحْدِقَةٍ، وعِراصٍ مُغْدِقَةٍ، ورِياضٍ ناضِرَةٍ، وطُرُقٍ عامِرَةٍ، لَكانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزاءِ

عَلَى حَسَبَ ضِعْفِ الْبَلاءِ، وَلَوْ كَانَتِ الْأَساسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْها، وَالْأَحْجارُ الْمَرْفُوعُ بِها، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْراءَ، ويَاقُوتَةٍ حَمْراءَ، ونُورٍ وضِياءٍ، لَخَفَّفَ ذٰلِكَ مُسارَعَةَ الشَّكِّ في الصُّدُورِ، ولَوَضَعَ مُجاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، ولَنَفَى مُعْتَلِجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ.

ولٰكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبادَهُ بِأَنْواعِ الشَّدائِدِ، ويَتَعَبَّدُهُمْ بِأَلْوانِ الْمَجاهِدِ، ويَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكارِهِ، إِخْراجاً لِلتَّكَبُّرِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وإِسْكاناً لِلتَّذَلُّلِ في نُفُوسِهِمْ، ولِيَجْعَلَ ذٰلِكَ أَبْواباً فُتُحاً إِلىٰ فَضْلِهِ، وأَسْباباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ[١].

اللغة

(**الذُهبان**) بالضمّ والكسر جمع الذهب كإذهاب وذهوب و(**العقيان**) بالكسر ذهب ينبت كما في «**القاموس**»، وقيل: الذهب الخالص وهو الأنسب هنا بملاحظة المعادن و(**رام**) الشيء روماً كقال طلب و(**ضامه**) ضيماً كضاره لفظاً ومعنى، وفي القاموس ضامه حمقه واستضامه انتقصه فهو مضيم ومستضام والضيم.

و(**شابه**) شوباً من باب قال خلطه مثل شوب اللبن بالماء فهو مشوب وقولهم ليس فيه شائبة، قال الفيومي ذلك يجوز أن يكون مأخوذاً من هذا ومعناه ليس فيه شيء مختلط به وإن قل كما قيل ليس فيه علقة ولا شبهة وأن تكون فاعلة بمعنى مفعولة مثل عيشة راضية هكذا استعمله الفقهاء ولم أجد فيه نصّاً، نعم قال الجوهري الشائبة واحدة الشوائب وهي الأدناس والأقذار.

و(**قياماً**) مصدر وزن صيام و(**الوعر**) من الأرض ضدّ السّهل (**والبقاع**) كجبال جمع بقعة بالضم والفتح وهي القطعة من الأرض على غير هيئة الّتي إلى جنبها.

و(**النتايق**) جمع نتيقة فعيلة بمعنى مفعولة من النتق وهو الرفع والجذب.

قال الشارح البحراني: وسمّيت المدن والأماكن المشهورة والمرتفعة نتائق لارتفاع بنائها وشهرتها وعلوّها عن غيرها من الأرض كأنها جذبت ورفعت، وقال بعض الشارحين: النتايق البقاع المرتفعة وأراد مكة وكنى بنتقها عن شهرتها وعلوها بالنسبة إلى ما استفل عنها من البلاد.

وقال الشارح المعتزلي: أصل هذه اللفظة من قولهم امرأة نتاق أي كثيرة الحمل والولادة ويقال: ضيقة منتاق أي كثيرة الريع فجعل عليه السلام الضياع ذات المدر التي يثار للحرث

---

(١) الكافي: ٢٠١/٤.

تنايق. وقال عليه السلام: إن مكة أقلها إصلاحاً للزرع لأن أرضها حجرية.

أقول: والأظهر عندي أن يكون التنايق مأخوذة من قولهم أنتق فلان إذا حمل مظلّة من الشمس، والمظلّة بالفتح والكسر الكبير من الأخبية وتسمية البلاد بها لاشتمالها على الدّور والأبنية التي تستظلّ بها.

و(**المنتجع**) بفتح الجيم اسم مفعول من انتجع القوم إذا ذهبوا لطلب الماء والكلاء في موضعهما و(**المفازة**) الموضع المهلك من فوّز بالتشديد إذا مات، لأنّها مظنّة الموت و(**القفر**) من الأرض الّتي لا نبات بها ولا ماء (**يهلّلون لله**) من التهليل وفي بعض النسخ يهلّون من أهلّ المحرم رفع صوته بالتلبية عند الإحرام وكلّ من رفع صوته فقد أهلّ إهلالاً واستهلّ استهلالاً بالبناء فيهما للفاعل.

و(**رمل**) فلان رملاً من باب طلب ورملاناً بالتحريك فيهما هرول و(**الشعث**) محركة انتشار الأمر ومصدر الأشعث للمغبر الرأس وشعث الشعر شعثاً فهو شعث من باب تعب تغيّر وتلبد لقلة تعهده بالدّهن، والشعث أيضاً الوسخ، ورجل شعث وسخ الجسد، وشعث الرأس أيضاً وهو أشعث أغبر أي من غير استحداد ولا تنظف، والشعث أيضاً الانتشار والتفرق كما يتشعث رأس السّواك.

و(**السرابيل**) جمع السّربال وهو القميص و(**البرّة**) بالضّم واحدة البرّ وهي الحنطة و(**أرياف**) جمع ريف بالكسر أرض فيها زرع وخصب وما قارب الماء من أرض العرب أو حيث يكون به الخضرة والمياه والزروع.

و(**أحدقت**) الروضة صارت حديقة، والحديقة الرّوضة ذات الشجرة والبستان من النخل والشجر أو كل ما أحاط به البناء، أو القطعة من النخل هكذا في القاموس وقال الفيومي: والحديقة البستان يكون عليه حائط فعيلة بمعنى مفعولة، لأن الحائط أحدق بها أي أحاط، ثمّ توسعوا حتى أطلقوا الحديقة على البستان وإن كان بغير حائط والجمع حدائق.

و(**عراص**) جمع عرصة ككلاب وكلبة وهي البقعة الواسعة الّتي ليس بها بناء و(**مغدقة**) فيما رأيناه من النسخ بالغين المعجمة والدال المهملة من الغدق بالتحريك وهو الماء الكثير، وأغدق المطر كثر قطره، ويجوز أن يكون من العذق بالذال المعجمة مثل فلس وهو النخلة بحملها وبالكسر القنو منها والعنقود من العنب أو إذا أكل ما عليه و(**المعتلج**) مصدر بمعنى الاعتلاج من اعتلج الأمواج اضطربت وتلاطمت واعتلج الأرض طال نباتها، ويجوز كونه مفعولاً من الاعتلاج وفي بعض النسخ بصيغة الفاعل والكلّ صحيح و(**الفتح**) بضمتين الباب الواسع المفتوح و(**الذلل**) بضمتين أيضاً جمع ذلول بالفتح من الذّل بالضّم والكسر ضدّ الصّعوبة.

الإعراب

قوله: لفعل، جواب لو، وقوله: ولما وجب، عطف على قوله لسقط، والأسماء بالنصب كما في أكثر النسخ مفعول لزمت، وفي «**شرح البحراني**» عن نسخة الرضي «قده» بالرفع على الفاعل والمعنى واحد حسبما تعرفه إن شاء الله، والفاء في قوله: فكانت النيات، فصيحة، وقوله: أموراً خبر يكون، وخاصة، صفة له، وله، متعلق بها قدم عليها لتوكيد الاختصاص، وجملة لا يشوبها في محلّ الرّفع صفة ثانية جيء بها لمزيد التوكيد.

وقوله: بأحجار، متعلق بقوله: اختبر، وحجراً ومدراً وقطراً منصوبات على التميز، وجملة لا يزكو بها في محل الجر صفة لقرى، وذللاً، حال من فاعل يهزّوا وله، متعلق بقوله: يرملون، وابتلاء وامتحاناً واختباراً وتمحيصاً منصوبات على المصدر وحذف العوامل من ألفاظها أي ابتلاهم الله بهذه المشاق ابتلاء وامتحنهم بها امتحاناً وهكذا ويحتمل الانتصاب على المفعول له أي يفعلون ما ذكر من التكاليف الشاقة للابتلاءِ العظيم الذي ابتلوا به، وجملة لكان جواب لو أراد.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما ذكر في الفصل السابق اختبار الله لعباده المستكبرين بأوليائه المستضعفين، ومثل بقصة بعث موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، اتبعه بهذا الفصل ونبّه عليه السلام فيه على وجه الحكمة في بعث سائر الأنبياء والرّسل بالضعف والمسكنة والفقر والفاقة والضرّ وسوء الحال، وفي وضع بيته الحرام الذي جعله قبلة للأنام بواد غير ذي زرع وبلد قفر وأرض وعر، وأشار أن الحكمة في ذلك كلّه هو الابتلاء والاختبار وهو قوله عليه السلام:

(ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم) أي حين بعثهم **(إن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان)** لينفقوا منها ويكونوا ذي سعة ومنعة وعز ورفعة تدفع بها اعتراض الجاحدين وتنقطع ألسن المعاندين، ولم يقولوا فيهم مثل ما قالوه لنبينا صلى الله عليه وآله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: الآيتان ٧ و٨].

(وأن يحشر معهم طير السّماء ووحوش الأرض) احتشاماً وإعظاماً لقدرهم وإجلالاً لشأنهم في أعين المبعوثين إليهم **(لفعل)** ذلك كلّه لأنه عزّ وجلّ على كلّ شيء قدير، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ومحصله أن فتح الكنوز والمعادن وحشر الطيور والوحوش أمورٌ ممكنة في نفسها، وهو سبحانه قادر على جميع الممكنات وعالم بها، ولو تعلّقت إرادته بها مع عموم قدرته عليها لزم وقوعها.

(و) لكنه لم يتعلّق إرادته بها فلم يفعلها ولم تقع إذ (**لو فعل**) لترتب عليه مفاسد كثيرة وأمور كلّها خلاف مقتضى الحكمة الإلهيّة والنظم الأصلح وهي ستة أمور:

أحدها ما أشار إليه بقوله (**لسفط البلاء**) أي لو وقع هذه الأمور لسقط ابتلاء المتكبّرين بالمستضعفين من الأنبياء والمرسلين وارتفع اختبارهم بهم، إذ مع وقوعها ارتفع الضعف عنهم وانتفى علّة الاستضعاف.

(و) ثانيها أنه (**بطل الجزاء**) لأن الجزاء مترتب على التسليم للأنبياءِ وعلى امتثال التكاليف الإلهيّة على وجه الخلوص، ومع كون الأنبياء حين بعثهم بزينة الملوك والسلاطين يكون الانقياد لهم وامتثال أوامرهم ونواهيهم عن رغبة مائلة أو رهبة قاهرة، فلا تكون طاعتهم عن إخلاص حتى يستحق المطيعون للجزاء كما هو واضح لا يخفى.

(و) ثالثها أنه (**اضمحلت الأنباء**) أي أخبار الأنبياء، والمراد باضمحلالها انمحاؤها وذهاب أثرها.

وذلك لأن الغرض الأصلي من بعثهم ورسالتهم أن يجذبوا الخلق إلى الحق الأوّل عزّ وجلّ ويزهّدوهم عن الدنيا ويرغبوهم في الآخرة، فإذا فتحت لهم أبواب الكنوز والمعادن، واشتغلوا بزخارف الدّنيا وكانوا بزّي أهلها لم يؤثر موعظتهم في القلوب ولم يبق وقع للرسالة عند الناس، ولا وجدوا للمبعوثين إليهم مقالاً وتعريضاً عليهم بأن يقولوا يا أيها الرسل لم تقولون ما لا تفعلون، أنتم تزهّدونا عن الدّنيا وترغبون فيها، وترغّبونا في الآخرة واشتغالكم بغيرها، فيبطل بذلك المقصود الأصلي من البعث واضمحلّت الرسالة إذاً هذا.

وقال الشارح البحراني: في وجه اضمحلال الأنباء ما محصله: إن الأنبياء وإن كانوا أكمل الخلق نفوساً وأقواهم استعداداً لقبول الكمالات النفسانية، إلا أنهم محتاجون إلى الرّياضة التّامة بالإعراض عن الدّنيا وطيباتها وهو الزهد الحقيقي، فيكون تركهم للدّنيا شرطاً في بلوغ درجات الوحي والرّسالة وتلقّي أخبار السّماء، فلو خلقوا منغمسين في الدّنيا وفتحت عليهم أبوابها لانقطعوا من حضرة جلال الله، واضمحلّ بسبب ذلك عنهم الأنباء، وانقطع عنهم الوحي، وانحطوا عن مراتب الرسالة.

قال: وقال بعض الشارحين: أراد باضمحلال الأنباءِ سقوط الوعد والوعيد والإخبار عن أحوال الجنة والنار وأحوال القيامة انتهى.

والأظهر بل الأولى ما قلناه، لأن استلزام انفتاح أبواب الكنوز والمعادن لانقطاع الوحي والرسالة والانحطاط عن درجة النبّوة ممنوع وعلى فرض التسليم فإبداء الملازمة بين المقدم والتالي غير خال عن التكلف، ومثله الكلام فيما حكاه عن بعض الشارحين فتدبر.

(و) رابعها أنه **(لما وجب للقابلين)** لدعوة الرسل أي المتصدّقين لهم المؤمنين بهم **(أجور المبتلين)** الممتحنين، لأنه إذا سقط البلاء والامتحان حسبما عرفته آنفاً لا يبقى مبتلي ولا مبتلى به، فلا يكون قبول القابلين وتصديقهم للرسل عن وجه الابتلاء حتى يحسب لهم الأجر والجزاء بذلك.

(و) خامسها أنه **(لا استحق المؤمنون)** بالله وبأنبيائه ورسله **(ثواب المحسنين)** لعدم كون إيمانهم عن وجه الإخلاص حسبما عرفته، فلا يكونون محسنين حتّى يستحقوا الثواب الجزيل والجزاء الجميل، وإنما المؤمنون المحسنون الذين إذا سمعوا ما أنزل إلى الرّسول، ترى أعنيهم تفيض من الدّمع مما عرفوا من الحقّ، يقولون ربّنا آمّنا فاكتبنا مع الشاهدين ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقّ ونطمع أن يدخلنا ربّنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين.

(و) سادسها أنّه **(لا لزمت الأسماء معانيها)** برفع الأسماء ونصبها على اختلاف النسخ، والمراد واحد وهو ارتفاع الملازمة بينها وبين المعاني وانفكاك إحداهما عن الأخرى، لأن إطلاق اسم المسلم على المسلم حينئذ وتسميته به لمحض ماله من صورة الإسلام لا لوجود معنى الإسلام وحقيقته فيه، إذ المفروض أن إسلامه عن رغبة أو رهبة لا عن وجه الحقيقة والتمحيص والإخلاص، فيصدق الاسم بدون المعني، وكذلك التسمية بالمؤمن والمصدق والعابد والزاهد والراكع والساجد وغيرها، هذا.

ولما نبه عليه السلام أنّ الله سبحانه لو أراد بالأنبياء إذ بعثهم انفتاح الكنوز والمعادن والمغارس وحشر الوحوش والطيور لترتب عليه هذه الأمور السّتة الّتي كلّها خلاف الحكمة والمصلحة أراد التنبيه بما هو مقتضى النظم الأصلح فقال على وجه الاستدراك:

(ولكنّ الله سبحانه جعل رسله) حيث بعثهم **(أولي قوّة في عزائمهم)** وجدّ في تبليغ ما أمروا به من تكاليف ربّهم بالقتال والجهاد والصّبر على تحمل المكاره والأذى.

وقد قال بعض المفسّرين في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥] إن من للتبيين لا للتبعيض وإن كلّ الرسل أولو عزم لم يبعث الله رسولاً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال وعقل ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم في تبليغ الرّسالات وإنفاذ ما أمروا به.

(و) جعلهم مع ذلك **(ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم)** لاتصافهم بالضر والمسكنة والفقر والفاقة **(مع قناعة تملأ القلوب والعيون غني وخصاصة)** أي جوع **(تملأ الأبصار والأسماع أذى)**.

قال الشارح البحراني: استعار وصف الملاء للقناعة باعتبار استلزامها لقوة غنائهم وقلّة حاجتهم إلى شيء من متاع الدّنيا بحيث لا تميل نفوسهم ولا عيونهم إلى شيء من زينتها وقيناتها. فكأنها قد امتلأت فلا تتسع لشيء من ذلك فتطلبه وكذلك للخصاصة باعتبار استلزامها لقوّة الأذى في أسماعهم وأبصارهم، إذ الجوع المفرط مستلزم لأذى هاتين القوّتين لتحلّل الأرواح الحاملة لهما وضعفهما فكأنّ الأذى حشو أبصارهم وأسماعهم بحيث لا تتسع لغيره، كلّ ذلك طلباً لكمال الاستعداد لأن البطنة تورث القسوة وتذهب الفطنة وتزيل الرقة وتستلزم رذائل كثيرة لا دواء لها إلا الخصاصة. هذا.

وقوله **(ولو كانت الأنبياء أهل قوّة لا ترام وعزة لا تضام)** قياس اقتراني آخر من الشكل الأوّل أيضاً تأكيد للقياس المتقدّم ذكره، أي لو أراد الله بالأنبياء إذ بعثهم أن يكونوا أهل قوّة وقدرة لا يمكن أن تطلب وتقصد لبلوغها الغاية وأهل عزة وقهر وغلبة لا يمكن أن تنتقص أو تظلم أي يظلم صاحبها لانتهائها النهاية.

(و) أهل **(ملك)** وسلطنة **(تمتد نحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرحال)** أي يأمله الآملون، ويرجوه الراجون فإن كل من أمل شيئاً لاسيما إذا كان ملكاً عظيماً يطمح إليه بصره ويسافر برغبته إليه ويحيط مطايا الآمال عنده، فكنى عن ذلك بمد العنق وشدّ عقد الرحال.

والحاصل أن الأنبياء لو بعثوا بالقدرة والقوة والملك والسلطنة **(لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار)** أي أسهل في اعتبارهم بحالهم وأسرع في إجابتهم لدعوتهم كما هو المشاهد بالتجربة، فإن الملوك لا تصعب إجابتهم كما تصعب إجابة الفقراء لاسيما على المتكبّرين المتجبّرين **(وأبعد لهم في الاستكبار)** لأن الملوك أبعد من أن يتكبّر عليه ويُستنكف من طاعتهم بخلاف البائس الفقير.

(ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم) على الإيمان **(أو رغبة مائلة بهم)** إليه **(فكانت النيات)** إذا **(مشتركة)** بين الله وبين ما يأملونه من الشهوات غير خالصة له تعالى من هوى الأنفس كما قال: **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هويه﴾**.

(والحسنات مقتسمة) بينه تعالى وبين تلك الشهوات **(ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله)** وأنبيائه **(والتصديق بكتبه)** وصحفه السماوية **(والخشوع لوجهه)** والخنوع لذاته **(والاستكانة)** والتمكين **(لأمره والاستسلام)** والانقياد **(لطاعته أموراً له خاصة)** أي مختصة به

ممحضة له كما قال ﴿وما أمروا ألا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ **(لا يشوبها)** أي تلك الأمور **(من غيرها شائبة)** رغبة أو رهبة.

وإنما أراد عزّ وجل اختصاص هذه الأمور له وخلوصها من شوب الرغبة والرهبة لعظم البلوى والامتحان حينئذ **(وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل)** هذا.

ولما نبه عليه السلام على وجه الحكمة والمصلحة في بعث الأنبياءِ بالخصاصة والمسكنة، وأن الوجه في ذلك هو الامتحان والابتلاء ليترتّب على اتباعهم عظيم الأجر وجزيل الجزاء، أردفه بالتنبيه على حكمة وضع البيت الحرام بأوعر البقاع وأقفر البلدان فقال:

(ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار) بنى بها البيت **(لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع)** هذا باعتبار مجموع الأحجار أو بملاحظته في نظر الخلق فلا ينافي في ما مر في شرح الفصل الثامن عشر من الخطبة الأولى من أن حجر الأسود أوّل ملك آمن وأقرّ بالتوحيد والنبّوة والولاية وأنّه يجيء يوم القيامة وله لسان ناطق وعين ناظرة يشهد لكلّ من وافاه إلى ذلك وحفظ الميثاق.

(فجعلها بيته الحرام) ووصفه به لأنه حرام المشركين دخوله وحرام إخراج من تحصّن به منه حسبما عرفت في شرح الخطبة الأولى.

قال الرّماني: وإنما سميّ به لأن الله حرّم أن يصاد عنده وأن يعضد شجره، ولأنّه أعظم حرمة.

قال في «مجمع البيان»: وفي الحديث مكتوب في أسفل المقام: «إنّي أنا الله ذو بكّة حرّمتها يوم خلقت السماوات والأرض ويوم وضعت هذين الجبلين، وحففتها بسبعة أملاك حفاً، من جاءني زائراً لهذا البيت عارفاً بحقه مذعناً بالربوبيّة حرمت جسده على النار»[1].

(الّذي جعله للنّاس قياماً) أي مقيماً لأحوالهم في الدّنيا والآخرة ويستقيم به أمورهم الدنيويّة والآخروية يقال: فلان قيام أهله أي يستقيم به شؤونهم قال سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المَائدة: الآية ٩٧] أي لمعايشهم ومكاسبهم يستقيم به أمور دينهم ودنياهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح عنده التجار بإجماعهم عنده من سائر الأطراف، ويغفر بقصده للمذنب ويفوز حاجّه بالمثوبات.

روى في «مجمع البيان» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدّنيا

(١) مجمع البيان: ٢/ ٤٣٢.

والآخرة أصابه[1].

وقال ابن عبّاس: معناه جعل الله الكعبة أمناً للنّاس بها يقومون أي يؤمنون، ولولاها لفنوا وهلكوا وما قاموا، وكان أهل الجاهليّة يأمنون به فلو لقي الرّجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم ما قتله، وقيل: معنى قوله: قياماً للناس، أنهم لو تركوا عاماً واحداً لا يحجونه ما نوظروا أن يهلكوا.

ورواه علي بن إبراهيم عنهم عليهم السلام قال ما دامت الكعبة يحج الناس إليها لم يهلكوا فإذا هدمت وتركوا الحج هلكوا.

(ثم وضعه) أي البيت **(بأوعر بقاع الأَرض حجراً)** أي أصعب قطعها وأغلظها من حيث الحجر **(وأقل نتائق الدّنيا مداراً)** أي أقل بلدانها ومدنها من حيث التراب والمدر، وبذلك لم يكن صلاحية الزرع والحرث كما قال إبراهيم ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾.

(وأضيق بطون الأَودية قطراً) من حيث الناحية والجانب **(بين جبال خشنة)** غليظة **(ورمال دمثة)** لينة، والوصف بها إشارة إلى بعدها من الإنبات لأن الرّمل كلما كان ألين وأسهل كان أبعد من أن ينبت ولا يزكو به الدواب أيضاً لأنها تتعب في المشي به.

(وعيون وشلة) قليلة الماء **(وقرى منقطعة)** بعضها عن بعض **(لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف)** أي لا يزيد ولا ينمو بتلك الأَرض ذوات الخف كالإبل والحافر كالخيل والبغال والظلف كالبقر والغنم، وعدم نمائها بها لما عرفت من قلّة مائها ونباتها وخشونة جبالها وسهولة رمالها وخلوّها من المرتع والمرعى.

(ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه) أي يعطفوا ويميلوا جوانبهم معرضين عن كلّ شيء متوجّهين إليه قاصدين العكوف لديه، وقد مضى في شرح الفصل الثامن عشر من الخطبة الأولى عن أبي جعفر عليه السلام أن آدم عليه السلام أتى هذا البيت ألف آتية على قدميه منها سبعة مائة حجّة وثلاثة مائة عمرة، ومضى هناك حج سائر الأَنبياء والرّسل عليهم السلام فلينظر ثمة.

(فصار) البيت **(مثابة)** ومرجعاً **(لمنتجع أسفارهم)** كناية عما يرومونه في سفرهم إليه من المآب والمقاصد والمنافع والتجارات كما قال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٥] وقال: **﴿وليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله﴾**.

(وغاية لملقى رحالهم) أي مقصد القصد **(تهوي إليه ثمار الأَفئدة)** ثمرة الفؤاد كما قيل

---

(١) مجمع البيان: ٣/ ٤٢٤.

سويدان القلب أي تميل وتسقط باطن القلوب إليه، وهويها كناية عن سرعة سيرها يعني أنّه سبحانه جعل القلوب مايلة إليه محبّة له إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: **﴿واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم﴾**.

قال الشارح البحراني: هوى الأفئدة ميولها ومحبّتها إلاّ أنّه لما كان الّذي يميل إلى الشيء ويحبّه كأنّه يسقط إليه ولا يملك نفسه استعير لفظ الهوى للحركة إلى المحبوب والسعي إليه، والحاصل أن القلوب تسعى وتتوجّه إليه.

(من مفاوز قفار سحيقة) أي الأفلاء البعيدة **(ومهاوي فجاج عميقة)** أي من الوهاد والطرق العميقة الّتي بين الجبال ووصفها بالعمق على حد قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٧] **(وجزائر بحار منقطعة)** وصف الجزائر بالانقطاع إما باعتبار انقطاع الماء عنها، أو باعتبار انقطاعها عن سائر بقاع الأرض بسبب إحاطة البحر بها.

وقوله **(حتّى يهزوا مناكبهم ذللاً)** غاية لقوى تهوي، أي تسرع إليه قلوب الحاج من المفاوز والمهاوي إلى أن يحرّكوا المناكب مطيعين منقادين.

قال الشارح البحراني: وكنّي بهزّ مناكبهم عن حركاتهم في الطواف بالبيت إذ كان ذلك من شأن المتحرك بسرعة.

وقال المحدث العلامة المجلسي قده: هو كناية عن السفر إليه مشتاقين.

(يهلّلون لله حوله) أي حول البيت، وعلى رواية يهلّون فالمراد أنّهم يرفعون أصواتهم بالتلبية، وعلى هذه الرواية فلا بدّ من التخصيص بغير المتمتع والمعتمر بالعمرة المفردة فإن وظيفتهما قطع التلبية إذا شاهدا بيوت مكة أو حين يدخلان الحرم.

روى معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا دخلت مكة وأنت متمتع فنظرت إلى بيوت مكة فاقطع التلبية، وحدّ بيوت مكّة الّتي كانت قبل اليوم عقبة المدنيين، فإنّ الناس قد أحدثوا بمكة ما لم يكن، فاقطع التلبية وعليك بالتكبير والتحميد والتهليل والثناء على الله عزّ وجلّ بما استطعت[1].

وروى مرازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يقطع صاحب العمرة المفردة التلبية إذا وضعت

---

(١) الكافي: ٣٩٩/٤ ح١، الاستبصار: ١٧٦/٢ ح٥٨٣.

الإبل أخفافها في الحرم ـ وبمعناهما أخبار كثيرة[١].

وأما فضل الإهلال روى في الوسائل عن الصّدوق رحمه الله قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام ما من مهلّ يهلّ بالتلبية إلاّ أهلّ من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب، ومن عن يساره إلى مقطع التراب، وقال له الملكان: أبشر يا عبد الله وما يبشّر الله عبداً إلاّ بالجنّة[٢].

(**ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له**) أي يهرولون على أقدامهم لله سبحانه حال كونهم أشعث الرّؤوس متلبد الشعور متغيّر الألوان مغبّر الوجوه والأبدان وسخ الأجساد.

(**قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم**) يحتمل أن يكون المراد بالسرابيل الثياب المعهودة بالإحرام على وجه الاستعارة تشبيهاً لها بالسرابيل في إحاطتها بالبدن فيكون المقصود بنبذها وراء ظهورهم طرحها على عواتقهم ومناكبهم كما هو المعهود في لبس ثوب الإحرام، وأن يكون المراد بها مطلق المخيط من الثياب من باب المجاز المرسل فيكون النبذ وراء الظهور كناية عن خلعها عن الأبدان، والثاني أظهر.

(**وشوّهوا**) أي قبّحوا (**بإعفاء الشعور**) أي إكثارها وإطالتها (**محاسن خلقهم**) ابتلاهم الله سبحانه بهذه المشاق والبليات (**ابتلاءً عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً**) أي امتحاناً كاملاً (**جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنّته**) أي جعل حج البيت والبلاء بهذه الابتلاءات العظيمة والتكاليف الشديدة سبباً لشمول رحمته وطريقاً للوصول إلى جنّته كما يشهد به الأخبار الواردة في فضل الحجّ، وقد مضى جملة منها في شرح الفصل الثامن عشر من «**المختار**» الأوّل هذا.

ولما نبّه عليه السلام على وجه المصلحة في بناء البيت بالأحجار ووضعه بأوعر البقاع وتكليف ولد آدم عليه السلام بالحجّ إليه على الكيفيّات الخاصّة المتضمنة للتواضع والتذلل، وأشار إلى أن المصلحة في ذلك هو التمحيص والامتحان والاستعداد بذلك لإفاضة رحمة الله والوصول إلى جنّته والاستحقاق لجزيل الجزاء ومزيد الثواب أراد بالتنبيه على أن وضعه بغير هذا المكان من الأمكنة البهيجة المستحسنة كان موجباً لتصغير الجزاء وتقليل الثواب وهو خلاف المصلحة فقال:

(**ولو أراد الله سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام**) أي مواضع المناسك (**بين جنّات وأنهار وسهل وقرار**) من الأرض (**جمّ الأشجار داني الثمار**) دنوها كناية عن كثرتها وسهولة تناولها كما قال سبحانه في وصف الجنّة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحَاقَّة: الآية ٢٣]

(١) الكافي: ٤/٥٣٧، من لا يحضره الفقيه: ٢/٤٥٦.
(٢) وسائل الشيعة: ١٢/٣٧٩.

(ملتفّ البنى) أي مشتبك العمارات **(متصل القرى)** بكثرتها **(بين برّة سمراء)** أي حنطة حسن اللّون **(وروضة خضراء)** ذات الخضرة والنضارة **(وأرياف محدقة)** مشتملة على الحدائق والبساتين **(وعراص مغدقة)** ذات الماء الكثير والمطر **(ورياض ناضرة وطرق عامرة)** بكثرة المارة.

(لكان) جواب لو أي لو أراد الله سبحانه أن يضع بيته بين هذه الأمكنة الحسنة ذات البهجة والنضارة لكان قادراً عليه لكنه خلاف الوجه الأصلح لأنّه يلزم حينئذ أن يكون سبحانه **(قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء)** لما قد مرّ من أنّ الاختبار والبلوى كلّما كانت أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل.

ولما نبه عليه السلام في الشرطية المتقدمة على أن وضع البيت الحرام في غير هذا المكان الذي هو فيه الآن خلاف الحكمة والمصلحة اتبعها شرطية أخرى ونبه عليه السلام فيها على أنّ بناءه بغير هذه الأحجار المتعارفة التي بنى بها أيضاً خلاف مقتضى الحكمة وهو قوله:

(ولو كان الأساس المحمول عليها) البيت **(والأحجار المرفوع بها بين زمرّدة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء)** أي لو كان بناؤه بالأحجار المعدنية كالزمرّد والياقوت والجواهر النفيسة المتلألأة النيرة والمضيئة **(لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور)** أي سرعته، وفي بعض النسخ بالضاد المعجمة بمعنى المقاربة وفي بعضها بالصاد المهملة بمعنى المغالبة.

قال الشارح البحراني: وتلخيصه أنه تعالى لو جعل الأساس المحمول عليها بيته الحرام من هذه الأحجار المنيرة المضيئة لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور إذ يراد شك الخلق في صدق الأنبياء وعدم صدقهم وشكّهم في أن البيت بيت الله أو ليس، فإنه على تقدير كون الأنبياء بالحال المشهور من الفقر والذلّ وكون البيت الحرام من هذه الأحجار المعتادة، يقوّي الشك في كونهم رسلاً من عند الله وفي كون البيت بيتاً له، وعلى تقدير كونهم في الملك والعز وكون البيت من الأحجار النفيسة المذكورة ينتفي ذلك الشك، إذ يكون ملكهم ونفاسة تلك الأحجار من الأمور الجاذبة إليهم والداعية إلى محبتهم والمسارعة إلى تصديقهم، والحكم بكون البيت بيت الله لمناسبة في كماله ما ينسبه الأنبياء إلى الله سبحانه من الوصف بأكل طرفي النقيض ولكون الخلق أميل إلى المحسوس واستعار لفظ المسارعة للمغالبة بين الشك في صدق الأنبياء والشك في كذبهم فإن كلاً منهما يترجح على الآخر.

وبذلك أيضاً ظهر معنى قوله عليه السلام **(ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب)** فإن حج البيت المبني بالطوب والمدر والقيام بوظائفه وإقامة مناسكه مع ما فيه من المشاق العظيمة والرّياضات التي لا يكاد أن تتحمل عادة لا يتأتى إلاّ مع جهاد النفس ومجاهدة إبليس، بخلاف ما لو كان مبنيّاً بالجواهر النفيسة الشريفة من الياقوت والزمرّد والزبرجد ونحوها بين

جنات وأنهار وأشجار في أرض سهل وقرار فإن النفوس حينئذ كانت تميل إليه وترغب إلى رؤيته فلا تبقى إذاً حاجة إلى مجاهدة نفسانية أو شيطانية.

ويوضح ذلك الحديث الّذي قدمنا روايته عن الفقيه في شرح الفصل الثامن عشر من المختار الأول، ونعيد روايته هنا من «**الكافي**» باقتضاء المقام، ومزيد إيضاحه للغرض المسوق له هذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فأقول:

روى ثقة الإسلام الكلينيّ عطر الله مضجعه عن محمد بن أبي عبد الله عن محمد بن أبي يسر[١] عن داود بن عبد الله عن عمر بن محمد عن عيسى بن يونس قال:

كان ابن أبي العوجاء من تلامذة الحسن البصري فانحرف عن التوحيد، فقيل له: تركت مذهب أصحابك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة، فقال: إنّ أصحابي كان مخلطاً كان يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر، وما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه وقدم مكّة متمرّداً وإنكاراً على من يحجّ وكان يكره العلماء مجالسته ومسائلته لخبث لسانه وفساد ضميره، فأتى أبا عبد الله عليه السلام فجلس إليه في جماعة من نظرائه فقال: يا أبا عبد الله إنّ المجالس أمانات ولا بدّ لكلّ من به سعال أن يسعل أفتأذن لي في الكلام؟ فقال عليه السلام: تكلّم، فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المعمور بالطوب والمدر، وتهرولون هرولة البعير إذا نفر، إنّ من فكر هذا وقدر علم أن هذا فعل أسّسه غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسّه وتمامه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن من أضّله الله وأعمى قلبه استوخم الحق ولم يستعذبه فصار الشيطان وليّه وقرينه، وربّه يورده مناهل الهلكة ثمّ لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته وجعله محل أنبيائه وقبلةً للمصلّين إليه فهو شعبة من رضوانه. وطريق يؤدّي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجمع العظمة والجلال خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام فأحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما نهى عنه وذكر الله منشىء الأرواح والصور، هذا[٢].

وأما قوله **(ولنفي معتلج الريب من الناس)** فإنه ربما يعتري الشك على ذوي العقائد الضعيفة أنّه لو كان هذا البيت بيته سبحانه لبناه بما يليق عزه وجلاله من الحسن والبهاء والعزّ والشرف ومع بنائه على هذا الوصف كان ينتفي اعتلاج الريب منهم قطعاً.

(ولكن الله) عزّ وجلّ لم يبنه بهذا الوصف، وإنما بناه بالأحجار الغير النفيسة اختباراً

---

(١) في نسخة: نصر.

(٢) الكافي: ٤/١٩٨، علل الشرائع: ٢/٤٠٣ ح٤.

وامتحاناً وتمحيصاً وابتلاء فإنّه (**يختبر عباده بأنواع الشدائد**) والمشاق كتروك الإحرام والمناسك العظام (**ويتعبّدهم بألوان المجاهد**) من مجاهدة النفس ومجاهدة إبليس التي عرفت (**ويبتليهم بضروب المكاره**) التي تكرهها الطباع وترغب عنها النفوس (**إخراجاً للتكبر**) المبعد من الله سبحانه (**عن قلوبهم وإسكانا للتذلل**) والتواضع المقرّب إليه تعالى (**في نفوسهم وليجعل ذلك**) الاستعداد الحاصل لهم من الاختبار والابتلاء (**أبواباً فتحاً**) مفتوحة (**إلى فضله**) وإحسانه (**وأسباباً ذللا**) سهلة (**لعفوه**) وغفرانه.

تكملة

هذا الفصل من الخطبة رواه ثقة الإسلام الكليني «قده» باختلاف لما أورده السيّد رحمه الله هنا فأحببت إيراده بروايته مع بيان غريب موارد الاختلاف فأقول:

قال في «الكافي» وروى أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبة له:

«ولو أراد الله جلّ ثناؤه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن البلدان ومغارس الجنان وأن يحشر طير السماء ووحش الأرض معهم لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحل الابتلاء، ولما وجب للقائلين أُجور المبتلين ولا لحق المؤمنين ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مبين ولذلك لو أنزل الله من السماء آية فظلّت[1] أعناقهم لها خاضعين، ولو فعل لسقط البلوى عن الناس أجمعين.

ولكنّ الله جلّ ثناؤه جعل رسله أولي قوة في عزائم نياتهم، وضعفةً فيما ترى الأعين من حالاتهم من قناعة تملأ القلوب والعيون غناه، وخصاصة يملأ الأسماع والأبصار أذاه.

ولو كانت الأنبياء أهل قوّة لا ترام، وعزّة لا تضام، وملك يمدّ نحوه أعناق الرجال ويشد إليه عقد الرحال لكان أهون على الخلق في الاختبار، وأبعد لهم في[2] الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو غبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة والحسنة مقتسمة.

ولكن الله أراد أن يكون الاتباع لرسله، والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره، والاستسلام إليه أمور له خاصّة لا يشوبها من غيرها شائبة، وكل ما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل.

ألا ترون أن الله جلّ ثناؤه اختبر الأولين من لدن آدم عليه السلام إلى آخرين من هذا العالم

---

(١) في نسخة: لظلت.

(٢) في نسخة: من.

بأحجار ما تضرّ ولا تنتفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للنّاس قياماً، ثم جعله بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتايق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية معاشاً، وأغلظ محالّ المسلمين مياهاً بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، واتر من مواضع قطر المساء، واتر [داثر ـ كذا في كا] ليس بركوبه خف ولا ظلف ولا حافر.

ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار متّصلة وجزائر بحار منقطعة، ومهاوي فجاج عميقة، حتى يهزّوا مناكبهم ذللاً لله حوله، ويرملوا على أقدامهم شعثاً غبراً، قد نبذوا القنع والسرابيل وراء ظهورهم، وحسروا بالشعورُ حلقاً عن رؤوسهم، ابتلاءاً عظيماً، واختباراً كبيراً، وامتحاناً شديداً، وتمحيصاً بليغاً، وفتوناً مبيناً، جعله الله سبباً لرحمته، ووصلة ووسيلة إلى جنّته، وعلّة لمغفرته، وابتلاءاً للخلق برحمته.

ولو كان الله تبارك وتعالى وضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنّات وأنهار، وسهل قرار، جم الأشجار داني الثمار، ملتف النبات، متصل القرى، من برّة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص معذقة، وزروع ناضرة، وطرق عامرة، وحدائق كثيرة، لكان قد صغر الجزاء على حسب ضعف البلاء.

ثم لو كانت الأساس المحمول عليها، أو الأحجار المرفوع بها بين زمرّدة خضراء وياقوتة حمراء، ونور وضياء لخفّف ذلك مصارعة الشك في الصّدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس.

ولكن الله عزّل وجل يختبر عبيده بأنواع الشدائد، ويتعبّدهم بألوان المجاهدة، ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في أنفسهم، وليجعل ذلك أبواباً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه، وفتنة كما قال: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العَنكبوت: الآيات ١ ـ ٣]».

بيان

قوله عليه السلام «واتر من مواضع قطر السماء» واتر أي منفرد منقطع من الوتر وهو الفرد، وواتر الثاني يحتمل أن يكون تأكيداً لفظيّاً للأوّل، وأن يراد به أنّه ناقص من حيث النبات من وتره ماله نقصه، أو أنه مأخوذ من الوتيرة وهي قطعة تستدق وتغلظ من الأرض.

وقوله: «وحسروا بالشعور» من حسره حسراً كشفه، أي كشفوا شعورهم لأجل حلقها

عن رؤوسهم، وفتنه فتناً «وفتوناً» اختبره «وعراص معذقة» ضبطه في النسخة التي عندنا بفتح الميم والعين المهملة والذال المعجمة، أي محال العذق «والاس» مثلثة أصل البناء كالأساس والأسس محركة وأصل كل شيء معه أسياس وزن أسباب وقوله: «كما قال ألم أحسب (اهـ)» شاهد لقوله: فتنة، يعني أنّ الله يختبر العبيد ويتعبّدهم بالشدايد والمجاهد لأجل الامتحان وتميّز الجيّد من الرّدي والمؤمن من المنافق كما نصّ به سبحانه في كتابه المجيد، ليثيب المؤمنين بحسن إيمانهم ويعاقب المنافقين.

الترجمة

میفرماید و اگر اراده میفرمود خداوند متعال به پیغمبران خود وقتی که مبعوث نمود ایشان را اینکه بگشاید برای ایشان خزانهای طلا و معدنهای زر خالص و محلهای کاشتن باغها را،واینکه جمع نماید بایشان مرغ آسمان ووحشیهای زمینها را هر آینه مینمود، و اگر مینموداینها را هر آینه ساقط میشد امتحان وابتلاء، و باطل میشد جزا و ثواب، و بهم میخورد خبرهای پیغمبران ، و هر آینه واجب نمی گردید از برای قبول کنند گان احکام دین اجرهای ممتحنین ، و مستحق نمی شد مؤمنان ثواب نیکو کاران را ، و لازم نمی گردید اسمها بمعنی های حقیقی خود.

ولیکن حق سبحانه وتعالی گردانیده است پیغمبرهای خود را صاحبان قوّت در عزمهای خود ، و صاحبان ضعف در آنچه می‌بیند آن را چشمها از حالت های فقر و پریشانی ایشان با قناعتی که پر میکند قلبها و چشم ها را از حیثیت بی نیازی ، و با گرسنگی که پر گرداند دیده ها و گوشها را از حیثیت اذیّت.

و اگر بودندی پیغمبرها أهل قوتی که قصد کرده نشود ، و أهل عزتی که مغلوب و مظلوم نگردد ، و صاحب سلطنت و ملکی که کشیده شود بجانب آن گردنهای مردمان ، و بسته شود بسوی او گرههای پالانهای مرکبان ، هر آینه میشد آسان تر بر خلق در عبرت بر داشتن از ایشان ، و دورتر از برای ایشان از تکبّر نمودن بر ایشان ، و هر آینه ایمان می آوردند آن خلق از ترس و خوفی که قهر کننده باشد ایشان را، یا از رغبت و طمعی که میل آورنده باشد ایشان‌را و می بود نیتهای خلق غیر خالص و مشوب برهبت و رغبت ، و أعمال حسنه ایشان قسمت یافته و مخلوط بریاو سمعت.

ولیکن حق تعالی اراده فرمود این را که باشد متابعت پیغمبران اووتصدیق کتابهای او و فروتنی برای ذات او ، و تمکین کردن برای حکم او ، و گردن

نهادن برای طاعت او کار هائی که مختص بأو باشد که مشوب نباشد بآنها چیزی از رياء و سمعت، و هر قدر امتحان و ابتلا بزرك تر باشد ثواب و جزاء زیاد تر گردد.

آیا نمی‌بینید که خداوند تعالی امتحان فرموده اولین را از نزد جناب آدم عليه السلام تا آخرین از این عالم با سنگهائی که نه ضرر دارد و نه منفعت، و نمی‌بینند و نمیشنوند پس گردانید آنها را بیت الحرام خود چنان بیتی که گردانیده آنرا از برای خلق برپا دارنده أحوال ایشان در دنیا و آخرت پس نهاد آن خانه را به دشوارترین بقعه‌ای زمین از جهت سنك، و کمترین شهرهای زمین از جهت کلوخ و تنك ترين ميانهای وادیها از حیثیت قطر در میان کوههای درشت و ریکهای نرم و چشمهای کم آب و دههای بریده که میان آنها بایر است و خراب که فربه نمیشود در آنها شتر واسب و گوسفند و گاو وامثال آنها.

بعد از آن امر کرد خداوند عالم جناب آدم و فرزندان او را که بر گردانند اطراف و جوانب خود را بسوی آن، پس گردید بیت الحرام محل باز گشت از برای قصد منفعت سفر های ایشان، و نهایت از برای انـداختن بار های ایشان.

میافند بسوی آن یعنی مایل میشود بآن باطن قلبها از بیابانهای بی آب و علف دور دراز، و ازدرّهای واقعه‌درمیان کوهها که گروند و از جزیره‌های دریاها که بریده‌اند از سایر قطعات زمین بجهت احاطه آب تا آنکه حرکت میدهند دوشهای خودشان را در حالت ذلت، تهلیل و تکبیر می گویند از برای خداوند در آن، ومی‌دوند بر قدمهای خودشان در حالتیکه ژولیده مو غبار آلوده‌باشند برای معبود بحق در حالتیکه أنداخته‌اند پیراهنها را پس پشتهای خود هنگام احرام ، و زشت سازنده‌اند بجهت زیاد کردن مویها نیکوهای خلقت خود را در موسم حج

امتحان فرمود خداوند ایشان رابا این کارها امتحان بزرك و امتحان باشد ت و امتحان آشکار و امتحان کامل گردانید خداوند حج آن خانه را و ابتلاء این بلیّات را سبب رحمت خود، و مایهٔ اتصال بسوی جنت خود.

و اگر اراده مینمود حق تعالی اینکه بگذارد بیت الحرام خود و مواضع مناسك حج خود را در میان باغهای خوش ، و نهرهای دلکش، و زمین نرم‌وهموار متصفه با کثرت درختها ، و با نزدیکی میوها و با تویهم بودن بناها، و با اتصال دهها میان گندم مایل بسرخی، و مرغزار سبز و خرّم ، و کشت زار های مشتمله بر بساتین، و عرصه‌های موصوفه بزیادتی آب، و زراعتهای تر و تازه ، و راههای آباد و معموره هر آینه میشد ، پروردکار کوچك و حقیر میکرد مقدار جزا را بر حسب ضعف و سستی بلا .

و اگر بودی بنائی که نهاده شده بود بر او بنای حرم و سنگهائی که بلند شده با آن خانه خدا میان زمرّد سبز و یاقوت سرخ و سنگهای درخشنده و نور بخشنده هر آینه سبك مینمود اینوضع بنا شتابیدن شك را در سینها و هر آینه فرو نهادی مجاهده شیطان لعین را از قلبها ، و هر آینه نابود کردی اضطراب شك را از مردمان.

ولیکن خدای تعالی امتحان میفرماید بندگان خود را با أنواع سختیها ، و بندگی میخواهد از ایشان با گوناگون مجاهدها ، و مبتلا میسازد ایشان را بأقسام مکروهات از جهت بیرون کردن تکبّر از قلبهای ایشان، و ساکن نمودن تذلل در نفسهای ایشان، وتابگرداند اینرا درهای گشاده شده بسوی فضل و انعام خود، ووا سطهای رام شده برای عفو ومغفرت خود.

الفصل الخامس

«فَاللَّهَ اللَّهَ في عاجِلِ الْبَغْيِ، وآجِلِ وَخامَةِ الظُّلْمِ، وسُوءِ عاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّها مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظمىٰ، ومَكيدَتَهُ الْكُبْرىٰ، الَّتي تُساوِرُ قُلُوبَ الرِّجالِ مُساوَرَةَ السُّمُومِ الْقاتِلَةِ، فَما تُكْدي أَبداً، وَلاَ تُشْوىٰ أَحَداً لا عالِماً لِعِلْمِه، ولاَ مُقِلاً في طِمْرِهِ، وعَنْ ذٰلِكَ ما حَرَسَ اللَّهُ عِبادَهُ الْمُؤْمِنينَ بِالصَّلَواتِ، وَالزَّكَواتِ، ومُجاهَدَةِ الصِّيامِ في الأَيّامِ الْمَفرُوضاتِ، تَسْكِيناً لِأَطْرافِهِمْ، وتَخْشِيعاً لِأَبصارِهِمْ، وتَذْليلاً لِنُفُوسِهِمْ، وتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهاباً لِلْخُيَلاءِ عَنْهُمْ، لِمَا في ذٰلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرابِ تَواضُعاً، وَالْتِصاقِ كَرائِمِ الْجَوارِحِ بالأَرْضِ تَصاغُراً، ولُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيامِ تَذَلُّلاً، مَعَ ما فِي الزَّكاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَراتِ الأَرْضِ وغَيْرِ ذٰلِكَ إِلىٰ أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ.

أُنْظُرُوا إِلىٰ ما في هٰذِهِ الأَفْعالِ مِنْ قَمْعِ نَواجِمِ الْفَخْرِ، وقَدْعِ طَوالِعِ الْكِبْرِ، وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَما وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْياءِ إلاَ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَليطُ بِعُقُولِ السُّفَهاءِ غَيْرَكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ لاَ (ماخ) يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلاَ عِلَّةٌ، أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلىٰ آدَمَ لِأَصْلِهِ، وطَعَنَ عَلَيْهِ في خِلْقَتِهِ، فَقالَ: أَنا نارِيٌّ وأَنْتَ طِينِيٌّ، وأَمَّا الأَغْنِياءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لآثارِ «إِلىٰ آثار خ» مَواقِعِ النِّعَمِ فَقالُوا ـ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وأَوْلاَداً وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

فَإِنْ كانَ لا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكارِمِ الْخِصالِ، ومَحامِدِ الأَفْعالِ، ومَحاسِنِ الأُمُورِ الَّتي تَفاضَلَتْ فِيهَا الْمُجداءُ والنُّجَداءُ مِنْ بُيُوتاتِ الْعَرَبِ، ويَعاسِيبِ الْقَبائِلِ بِالأَخْلاَقِ الرَّغيبَةِ، وَالأَحْلاَمِ الْعَظِيمَةِ، وَالأَخْطارِ الْجَلِيلَةِ، وَالآثارِ الْمَحْمُودَةِ.

فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوارِ، وَالْوَفاءِ بِالذِّمامِ، وَالطّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَالأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَالإِعْظامِ لِلْقَتْلِ، وَالإِنْصافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَاجْتِنابِ الْفَسادِ فِي الأَرْضِ.

وَاحْذَرُوا ما نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الأَفْعالِ، وذَمِيمِ الأَعْمالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثالَهُمْ، فَإِذا تَفَكَّرْتُمْ في تَفاوُتِ حالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتْ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وزاحَتِ الأَعْداءُ لَهُ عَنْهُمْ، ومُدَّتِ الْعافِيَةُ عَلَيْهِمْ «فيه بهم خ» وانْقادتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، ووَصَلَتِ الْكَرامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ: مِنَ الاجْتِنابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ، وَالتَّحاضِّ عَلَيْها، وَالتَّواصِي بِها، وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ مِنَ

تَضاغُنِ الْقُلُوبِ، وتَشاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدابُرِ النُّفُوسِ، وتَخاذُلِ الأَيْدي.

وتَدَبَّرُوا أَحْوالَ الْماضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ كَيْفَ كانُوا في حالِ التَّمْحِيصِ وَالْبَلاءِ، أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلائِقِ أَعْباءً، وأَجْهَدَ الْعِبادِ بَلاءً وأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حالاً، اتَّخَذَتْهُمُ الْفَراعِنَةُ عَبِيداً فَسامُوهُمْ سُوءَ الْعَذابِ وجَرَّعُوهُمْ جُرَعَ الْمُرارِ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحالُ بِهِمْ في ذُلِّ الْهَلَكَةِ، وقَهْرِ الْغَلَبَةِ، لاَ يَجِدُونَ حِيلَةً في امْتِناعٍ، ولاَ سَبِيلاً إِلىٰ دِفاعٍ.

حَتَّىٰ إِذا رَأى الله جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَىٰ الأَذىٰ في مَحَبَّتِهِ، وَالاحْتِمالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضائِقِ الْبَلاءِ فَرَجاً، فَأَبْدَ لَهُمُ الْعِزَّ مَكانَ الذُّلِّ، وَالأَمْنَ مَكانَ الْخَوْفِ، فَصارُوا مُلُوكاً حُكاماً، وأَئِمَّةً أَعْلاماً، وبَلَغَتِ الْكَرامَةُ مِنَ اللّهِ لَهُمْ ما لَمْ تَذْهَبِ الآمالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

فَانْظُرُوا كَيْفَ كانُوا حَيْثُ كانَتِ الأَمْلاءُ مُجْتَمِعَةً، والأَهْواءُ مُؤْتَلِفَةً «مُتَّفِقَةً خ»، والْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالأَيْدِي مُتَرادِفَةً، والسُّيُوفُ مُتَناصِرَةً، وَالْبَصائِرُ نافِذَةً، وَالْعَزائِمُ واحِدَةً.

أَلَمْ يَكُونُوا أَرْباباً في أَقْطارِ الأَرَضِينَ، ومُلُوكاً عَلَىٰ رِقابِ الْعالَمِينَ فَانْظُرُوا إِلىٰ ما صارُوا إِلَيْهِ في آخِرِ أُمُورِهِمْ حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلمةُ والأَفْئِدَةُ، وتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وتَفَرَّقُوا مُتَحارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِباسَ كَرامَتِهِ، وسَلَبَهُمْ غَضارَةَ نِعْمَتِهِ، وبَقِيَ قِصَصُ أَخْبارِهِمْ فيكُمْ، عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ[١].

اللغة

(**البغي**) الظلم والعلوّ والاستطالة والعدول عن الحق وتجاوز الحد و(**وخم**) وخامة كشرف شرافة ثقل وطعام وخيم ثقيل رديء غير موافق و(**المصيدة**) بكسر الميم وسكون الصاد المهملة وفتح الدال آلة الصيّد من الشبكة ونحوها و(**المكيدة**) وزن معيشة مصدر بمعنى الكيد و(**ساوره**) مساورة دائبه، وسورة الخمر وغيرها حدّتها، ومن البرد شدّته، ومن السّلطان سطوته واعتداؤه.

و(**أكدى**) الحافر إذا بلغ في حفره إلى موضع صلب لا يمكنه حفره، وأكدت المطالب إذا صعبت في وجه طالبها فعجز عنها و(**أشوت**) الضربة تشوي أخطأت فلم تصب المقتل، وأشواه يشويه إذا رماه فلم يصب مقتله، ورجل (**مقلّ**) وأقلّ فقير و(**الطمر**) بالكسر الثوب الخلق والبالي من الثياب من غير الصوف والجمع أطمار.

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٧٣، ميزان الحكمة: ١/ ٧٦٤.

و(**عتاق**) الوجوه إما من العتق وهو الكرم والشرف والجمال والحريّة والنجابة قال في القاموس: والعتاق من الخيل النجائب، أو من العتيق وهو الخيار من كلّ شيء، وفي بعض النسخ وعتايق الوجوه جمع عتيقة يقال أمة عتيقة أي خارجة عن الرق و(**التمويه**) التدليس يقال موّهت النحاس أو الحديد تمويهاً أي طليته بالذهب أو الفضة و(**مواقع**) النعم جمع موقع اسم مكان ويحتمل المصدر و(**المجداء**) جمع مجيد مثل فقهاء وفقيه وهو الرفيع العالي والكريم الشريف الفعال (**والنجداء**) كفقهاء أيضاً جمع نجيد وهو الشجاع الماضي فيما يعجز غيره.

(**واليعسوب**) أمير النحل ورئيس القوم و(**الأخطار**) جمع خطر بالتحريك كأسباب وسبب وهو القدر والمنزلة و(**الجوار**) بالكسر أن تعطي الرّجل ذمّة فيكون بها جارك فتجيره ومصدر جاور يقال جاوره مجاورة وجواراً وجواراً بالضّم والكسر صار جاره و(**الذمام**) أيضاً الحق والحرمة وما يذمّ به الرّجل على إضاعته من العهد.

و(**مدت العافية**) بالبناءِ للمفعول كما هو الظاهر أو بالبناء على الفاعل من قولهم مدّ الماء إذا جرى وسال، وفي بعض النسخ ومدت العافية فيه بهم، وفي بعضها عليه بهم و(**الفقرة**) بالكسر ما انتظم من عظام الصّلب من الكاهل إلى العجز والجمع فقر كعنب و(**سام**) فلاناً أمراً أي كلّفه إياه وأكثر ما يستعمل في الشرّ والعذاب قال سبحانه ﴿**يسمونكم سوء العذاب**﴾.

(**والمرار**) بالضّم شجر مرّ إذا أكلت منه الإبل قلصت مشافرها و(**الإملاء**) جمع الملاء وهو الجماعة و(**قصص أخبارهم**) في بعض النسخ بكسر القاف جمع قصة، وفي بعضها بالفتح كصدر من قصصت الخبر قصاً حدثت به على وجهه، والأوّل أولى.

الإعراب

قوله: فإنّها مصيدة إبليس، الضمير راجع إلى كلّ من البغي والظلم والكبر أو الأخير فقط وهو الأظهر، والتأنيث باعتبار الخبر كما في قولهم: وما كانت أمّك فإن الضمير إذا وقع بين مرجع مذكر وخبر مؤنث أو بالعكس فالأولى رعاية جانب الخبر كما صرّح به علماء الأدب.

وقوله: عن ذلك ما حرس الله، قال الشارح المعتزلي: لفظة ما زائدة مؤكدة أي وعن هذه المكائد التي هي الظلم والبغي والكبر حرس الله عباده فعن متعلّقة بحرس.

قال: وقال القطب الراوندي رحمه الله: يجوز أن تكون مصدرية فيكون موضعها رفعاً بالابتداء وخبر المبتدأ قوله لما في ذلك، ويجوز أن يكون نافية أي لم يحرس الله عباده عن ذلك الجاه وقهراً، بل فعلوا اختياراً من أنفسهم.

والوجه الأوّل باطل لأن عن على هذا التقدير يكون من صلة المصدر فلا يجوز تقديمها عليه، وأيضاً فإن لما في ذلك لو كان هو الخبر لتعلق لام الخبر بمحذوف أي حراسة الله تعالى لعباده عن ذلك كائنة لما في ذلك من تعفير الوجوه، وهذا كلام غير مفيد إلاّ على تأويل بعيد لا حاجة إلى تعسّفه.

والثاني يأباه سياق الكلام، لأن قوله: تسكيناً وتخشعاً، وقوله: لما في ذلك، تعليل للحاصل الثابت لا للمنفي المعدوم، انتهى.

أقول: أما ما ذكره القطب الراوندي فغير خال من التكلّف حسبما قاله الشارح المعتزلي، ولكن اعتراض الشارح عليه بأن عن على هذا التقدير من صلة المصدر فلا يجوز تقديمها عليه ممنوع، لمنع عدم جواز تقديم معمول المصدر عليه مطلقاً وإنما هو مسلم في المفعول الصريح لضعف عمله، وأما الظرف وأخوه فيكفيهما رائحة الفعل.

قال نجم الأئمة الرضي: وأنا لا أرى منعاً من تقديم معموله عليه إذا كان ظرفاً أو شبهه، نحو قولك: اللّهم ارزقني من عدوّك بالبراءة وإليك الفرار قال تعالى: ﴿**ولا تأخذكم بهما رافة**﴾ وقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصّافات: الآية ١٠٢] ومثله في كلامهم كثير وتقدير الفعل في مثله تكلّف.

وأما ما ذكره الشارح من المعنى فلا بأس به وإن كان يتوجه عليه أنّ الأصل عدم زيادة ما وأن جعل مرجع اسم الإشارة هو الظلم والبغي والكبر يأبى عنه الذوق السليم.

والأظهر عندي أن عن في قوله: عن ذلك للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ [التّوبَة: الآية ١١٤] أو بمعنى من النشوية وذلك إشارة إلى تساور هذه المكائد في القلوب وتأثيرها في النفوس تساور السّموم القاتلة، وأن يكون الظرف مستقراً في موضع الرفع خبراً مقدّماً على مبتدئه وهو قوله: ما حرس الله، لكونه في تأويل المصدر، والمعنى أنّ حراسة الله لعباده بالصلاة والزكاة والصيام لأجل مفاسد هذه المكائد أو أنّها ناشئة من ذلك الفساد، وهو تأثيرها في النفوس تأثير السّموم، وعلى هذا فيتم الكلام لفظاً ومعنى على أحسن التئام وانتظام، فافهم واغتنم.

وتسكيناً وتخشيعاً وتذليلاً وتخفيضاً وإذهاباً منصوبات على المفعول له والعامل حرس، وعن، في قوله: عن علّة، للتعليل أو بمعنى من التشويه، وغيركم، بالنصب استثناء من قوله: أحداً، والعامل وجدت، وقوله: بالأخلاق الرغيبة، متعلّق بقوله: تفاضلت.

ولفظة في في قوله: ومدت العافية فيه، بمعنى اللام كما في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٢] وقوله ﷺ: «أن امرأة دخلت النار في هرّة حبستها»،

وقوله: من الاجتناب، بيان لأمر وجملة: اتخذتهم الفراعنة، استئناف بياني لا محلّ لها من الإعراب.

المعنى

اعلم أنه لما نبه في الفصل السابق على أن المطلوب من العباد هو التواضع والتذّلل وإخلاص النية والعمل، مستشهداً على ذلك ببعث الأنبياء العظام والسفراء الكرام بحال الذلّ والفاقة والفقر والخصاصة، وبوضع البيت الحرام بأقفر البلاد وأوعر الجبال، وختم الفصل بأن التواضع والتذلّل باب مفتوح للفضل والإحسان، وسبب ذلول للعفو والغفران، عقبّه بهذا الفصل تذكيراً للمخاطبين، وترغيباً لهم على ملازمة هذين الوصفين والأخذ بهما، وتحذيراً لهم عن الأخذ بضدّهما وهو التكبر والخيلاء، وتنبيهاً على أنّ الغرض الأصلي في وضع سائر العبادات من الصلاة والزكاة والصيام بكيفيّاتها المخصوصة أيضاً هذا المعنى أعني التذلّل والاستكانة فقال عليه السلام.

(فالله الله في عاجل البغي وآجل وخامة الظلم وسوء عاقبة الكبر) أي اتقوا الله سبحانه واحذروه تعالى فيما يترتب على البغي والظلم عاجلاً وآجلاً من العقوبات الدنيوية والأخروية، والإتيان في الأوّل بالعاجل وفي الثاني بالآجل لمجرّد التفنن لا للاختصاص.

والمعاني المتقدّمة للبغي كلّها محتملة هنا إلا أن الأنسب الأظهر بمساق الخطبة أن المراد به العدول عن الحق والتجاوز عن الحد أو السّعي في الفساد، أو الخروج عن طاعة الإمام وأمّا سوء عاقبة الكبر فلكونه مؤدّياً إلى الهلاك الأخروي الموجب للعذاب الأليم والنكال العظيم كما يفصح عنه تعليله وجوب الحذر عنه أو عنه وعن سابقيه بقوله:

(فإنّها مصيدة إبليس العظمى) الّتي يصيد بها القلوب ويأخذها ويملكها أخذ الصياد للصّيد بشركه وحبائله.

قال الشارح البحراني: ووصفها بالعظم باعتبار قوّة الكبر وكثرة ما يستلزمه من الرذائل.

(ومكيدته الكبرى) أي خديعته الكبيرة وكيده القوي، لأنّه يحسّنه في نظر المتكبّر ويزيّنه ويذكر محاسنه مع أنها مقابح في الواقع، فيوقعه فيه بتمويهه وتلبيسه من حيث لا يعلم.

ووصفه بالكبر لما نبّه عليه بقوله **(الّتي تساور قلوب الرّجال مساورة السّموم القاتلة)** فإن تزيين ما في باطنه تلك المفسدة العظيمة وذلك السّم الناقع، وتحسينه في نظر المتكبّر وإيقاعه له فيها من حيث لا يشعر إن هو إلا كيد عظيم وحيلة كبيرة.

وكنى بتساورها عن شدّة تأثيرها وحدّتها في القلوب، وشبهه بمساورة السّموم القاتلة

تأكيداً للشدة وتوضحياً لها، بل نقول إنّها أشدّ تأثيراً منها، لأن تأثير السموم في البدن وتأثير تلك الخصلة الذميمة في القلب، والأوّل موجب للألم الجسماني والهلاك الدنيوي، والثاني للألم الرّوحاني والهلاك الأخروي.

وقوله **(فما تكدى أبداً ولا تشوى أحداً)** تفريع على التشبيه وتوضيح لوجه الشبه، يعني أن السّموم القاتلة كما لا يمنع من تأثيرها في الأبدان مانع، ولا يقاومها شيء من الطبائع، ولا تخطى من إصابة مقاتل أحد من آحاد الناس، فكذلك تلك المكيدة لإبليس لا يردّها من مساورة القلوب شيء أصلاً، ولا يدفعها منها دافع أبداً، ولا يكاد أن يقاومها أحد من النّاس أو يقابلها واحدٌ من العقول، فتخطى من إصابتها وإهلاكها.

ولمزيد توكيد العموم المستفادة من قوله لا تشوى أحداً من حيث كونه نكرة في سياق النفي أتى بقوله **(لا عالماً بعلمه ولا مقلاً في طمره)** يعني أن العالم مع ماله من الكياسة والعلم بقبح هذه الصّفة الخبيثة وكونها من مكائد إبليس لا يكاد ينجو منها فضلاً عن الجاهل، وكذلك المقلّ المفتقر مع فقره وإعوازه للمال الّذي يتكبّر به لا يخلص من تلك المكيدة فكيف بالغنى الواجد لأسباب الطغيان والخيلاء، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، هذا.

ولما كانت الأحكام الشرعيّة تابعة للمصالح والمفاسد الكامنة كما عليه بناء العدلية من الإمامية والمعتزلة، وكان جعل العبادات الموظفة من الشارع لتحصيل تلك المصالح ودفع هذه المفاسد ونبه عليه السلام على أن في الكبر مفسدة عظيمة وسوء العاقبة وأنّه بمنزلة السموم القاتلة أشار بقوله:

(وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصّلوات والزّكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات) إلى أن وجود هذه المفاسد في الكبر سار علة ومنشئاً لجعل تلك العبادات، فإنها لاشتمالها على التواضع والتذلّل المنافي للكبر والمضاد له أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بها حراسة لهم وحفظاً عن الكبر ومفاسده العظيمة، وحثّاً على التواضع ومصالحه الخطيرة كما أمر بالحج مع ماله من الكيفيّات المخصوصة وباتباع الرّسل مع مالهم من الذّل والمسكنة لهذه النكتة أيضاً حسبما عرفت في الفصل المتقدّم تفصيلاً.

أما اشتمال الصلاة على التواضع وتنافيها للتكبّر فلكون مدارها بأفعالها وأركانها وأجزائها وشرائطها على ذلك ما يأتي ذكره في كلامه عليه السلام.

وأمّا كون ذلك علة لجعلها وتشريعها فيدلّ عليه صريحاً ما رواه في الفقيه قال:

كتب الرضا عليّ بن موسى عليهما السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله:

«أن علة الصلاة أنها إقرار بالرّبوبية لله تعالى، وخلع الأنداد وقيام بين يدي الجبّار جل

جلاله بالذّل والمسكنة والخضوع والاعتراف والطلب للإقالة من سالف الذّنوب، ووضع الوجه على الأرض كلّ يوم إعظاماً لله عزّ وجل، وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطر، ويكون خاشعاً متذلّلاً راغباً طالباً للزيادة في الدّين والدنيا، مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله بالليل والنهار لئلا ينسى العبد سيّده ومدبّره وخالقه، فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زجراً عن المعاصي ومانعاً له من الفساد[١].

وهذه الرواية كما دلّت على كون الصلاة مانعة من الكبر، فكذا دلّت على كونها مانعة من البغي والظلم المتقدّم ذكرهما في كلامه عليه السلام وغيرهما من المعاصي جميعاً، وهو نصّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٥].

وأمّا اشتمال الزكاة على التواضع فلأنها شكر النعمة المالية كما أن العبادات البدنية شكر للنعمة البدنية وظاهر أن شكر النعمة ملازم للتذّلل ومناف للتكبر على المنعم، ومن حيث إنها مستلزمة للتعاطف والترحم على الفقراء والضعفاء والمساكين تلازم الائتلاف بهم وتنافي التكبّر عليهم أيضاً كما يدلّ على ذلك:

ما رواه في «الوسائل» عن الصدوق رحمه الله بإسناده عن محمد بن سنان عن الرضا عليه السلام أنه كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله:

«إنّ علة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء، لأنّ الله عزّ وجل كلّف أهل الصّحة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوى، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٦] في أموالكم إخراج الزكاة وفي أنفسكم توطين الأنفس على الصبر، مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله عزّ وجل، والطمع في الزيادة مع ما فيه من الزيادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف والعطف على أهل المسكنة والحث لهم على المواساة، وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين، وهو «مو»عظة لأهل الغنىٰ وعبرة لهم ليستدلوا على فقراء الآخرة بهم، ومالهم من الحث في ذلك على الشكر لله تبارك وتعالى لما خوّلهم وأعطاهم، والدّعاء والتضرّع والخوف من أن يصيروا مثلهم في أمور كثيرة في أداء الزكاة والصّدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف»[٢].

وأمّا تضمّن الصيام للتذلّل وتنافيه للتكبر فلكونه موجباً لكسر سورة النفس الأمارة وذلّتها، وسبباً لتباعد الشيطان عنه، واندفاع وسوسته المنبعثة عنها الكبر ويرشد إلى ذلك:

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٢١٥، علل الشرائع: ٢/ ٣١٧ ح٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٩/ ١٣، وسائل الشيعة: ٦/ ٥ ح٧.

ما رواه في «الفقيه» قال: وكتب أبو الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله:

«علّة الصّوم عرفان مسّ الجوع والعطش ليكون ذليلاً مستكيناً مأجوراً محتسباً صابراً، ويكون ذلك دليلاً له على شدائد الآخرة مع ما فيه من الانكسار له عن الشهوات، واعظاً له في العاجل دليلاً على الآجل ليعلم شدّة مبلغ ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدنيا والآخرة»(١).

وفي «الفقيه» أيضاً قال النّبي صلى الله عليه وآله لأصحابه: «ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كتباعد المشرق من المغرب؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الصّوم يسوّد وجهه، والصّدقة تكسر ظهره، والحب في الله والموازرة على العمل الصالح يقطع وتينه، ولكلّ شيء زكاة وزكاة الأبدان الصّيام»(٢)، هذا.

ثمّ المراد بمجاهدة الصّيام بذل الجهد له واحتمال مشاقه ونسبة المفروضات إلى الأيام من باب المجاز العقلي والإسناد إلى الزمان كما في مثل نهاره صائم إلى الأيام المفروض فيها الصيام.

هذا تفصيل حصول الحراسة بهذه العبادات عن الكبر وأشباهه، وإجماله ما أشار إليه عليه السلام بقوله **(تسكيناً لأطرافهم)** أي للأعضاء والجوارح.

روى في «الوسائل» عن عليّ عليه السلام في حديث الأربعمائة قال: «ليخشع الرجل في صلاته فإن من خشع قلبه لله عز وجل خشعت جوارحه، فلا يعبث بشيء اجلسوا في الركعتين حتى تسكن جوارحكم ثم قوموا فإن ذلك من فعلنا، إذا قام أحدكم من الصلاة فليرجع يده حذاء صدره، فإذا كان أحدكم بين يدي الله جل جلاله فيتحرى بصدره وليقم صلبه ولا ينحنى»(٣).

وروى في «مجمع البيان» عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال صلى الله عليه وآله: أما أنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه(٤).

(وتخشيعاً لأبصارهم).

روى في «الكافي» عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا كنت في صلاتك فعليك

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٧٣ ح١٧٦٧، علل الشرائع: ٢/ ٣٧٨ ح١.

(٢) فضائل الأشهر الثلاثة: ١٢٣، كتاب النوادر: ١٣٥.

(٣) الخصال: ٦٢٨، وسائل الشيعة: ٥/ ٤٧١ ح٧٠٩٢.

(٤) دعائم الإسلام: ١/ ١٧٤، أصول الكافي: ٨/ ٢٢٧.

بالخشوع والإقبال على صلاتك فإنّ الله تعالى يقول: ﴿**الذين هم في صلواتهم خاشعون**﴾»[١].

روى في «الصافي» عن القمي في تفسير هذه الآية قال غضك: بصرك في صلاتك وإقبالك عليها[٢].

وفي «الصافي» روى أنه ﷺ كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته، فلما نزلت الآية طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض[٣].

(وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم) باستحضار عظمة الله عزّ وجلّ واستشعار هيبته.

فقد قال النّبي ﷺ: «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق».

وقال الصادق عليه السلام: «لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب أحد إلاّ وجبت له الجنّة فإذا صلّيت فأقبل بقلبك على الله عزّ وجلّ»[٤] الحديث.

وفي «الوسائل» عن الخصال بإسناده عن علي عليه السلام في حديث الأربع مائة قال عليه السلام: «لا يقومنّ أحدكم في الصلاة متكاسلاً ولا ناعساً. ولا يفكرّن في نفسه فإنه بين يدي ربّه عزّ وجلّ وإنما للعبد من صلاته ما أقبل عليه منها بقلبه»[٥].

(وإذهاباً للخيلاء) والتكبّر **(عنهم)** وعلل ذلة النفوس وخفض القلوب وإذهاب الخيلاء بقوله **(لما في ذلك)** فهو علّة للعلّة أي في ذلك المحروس به المتقدّم ذكره **(من تعفير عتاق الوجوه)** أي كرائمها وشرائفها وأحرارها **(بالتراب تواضعاً)** وتذلّلاً **(وإلصاق كرائم الجوارح)** وهي المساجد السّبعة **(بالأرض تصاغراً)**.

روى في «الفقيه» عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «كان موسى بن عمران عليه السلام إذا صلى لم ينفتل حتّى يلصق خده الأيمن بالأرض وخده الأيسر بالأرض»[٦].

قال: وقال أبو جعفر عليه السلام: «أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام أتدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال موسى عليه السلام: لا يا رب، قال: يا موسى إني قلبت عبادي ظهراً

---

(١) وسائل الشيعة: ٥/ ٤٧٣ ح٧٠٩٦.

(٢) بحار الأنوار: ٨١/ ٢٣٥ ح١٣.

(٣) تفسير نور الثقلين: ٣/٥٢٨ ح١٢.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٢٠٩ ح٦٣٢.

(٥) الخصال: ٦١٣ وسائل الشيعة: ٥/ ٤٧٧ ح٧١٠٧.

(٦) وسائل الشيعة: ٧/ ١١ ح٨٥٧٦، مستدرك سفينة البحار: ١٠/ ٣٦٧.

وبطناً فلم أجد فيهم أحداً أذلّ لي نفساً منك، يا موسى إنك إذا صليت وضعت خديك على التراب»(١).

(ولحوق البطون بالمتون من الصّيام تذلّلاً) فإن الجوع يلحق البطن بالمتن ويوجب ذلة النفس وقمعها عن الانهماك في الشهوات وزوال الأشر والبطر والخيلاء عنها **(مع ما في الزكاة من)** علة أخرى لتشريعها وهو **(صرف ثمرات الأرض)** من الغلات الأربع **(وغير ذلك)** من الأنعام الثلاثة والنقدين **(إلى أهل المسكنة والفقر)** المنصوص بهم في الكتاب الكريم بقوله ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: الآية ٦٠] والمسكين أسوأ حالاً من الفقير.

روى في «الكافي» عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: الآية ٦٠] قال عليه السلام: «الفقير الّذي لا يسأل الناس والمسكين أجهد منه والبائس أجهدهم، فكلّ ما فرض الله عليك فإعلانه أفضل من إسراره، وكلّ ما كان تطوّعاً فإسراره أفضل من إعلانه، ولو أن رجلاً يحمل زكاة ماله على عاتقه فقسمها علانية كان ذلك حسناً جميلاً»(٢).

(انظروا إلى ما في هذه الأفعال) وهي الصلاة والزكاة والصّيام **(من قمع نواجم الفخر)** أي إذلال ما تبدو وتظهر من خصال الفخر والخيلاء **(وقدع طوالع الكبر)** أي كف ما تطلع من آثار الكبر والاعتلاء.

وإن شئت مزيد المعرفة بأسرار هذه العبادات أعني الصّيام والصلاة والزكاة وبشرائطها وآدابها وعلل وجوبها وغير ذلك مما يتعلق بها، فعليك بمراجعة شرح **«المختار»** المائة والتسع، هذا.

ولما حذرهم عليه السلام من البغي والظلم والكبر أردفه بتوبيخهم على العصبيّة، والعناد من دون علة مقتضية لذلك فقال:

(ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلا عن علة) مقتضية لتعصّبه حاملة له عليه **(تحتمل)** وفي بعض النسخ تحمل **(تمويه الجهلاء)** أي تلبيس الأمر عليهم حتّى يزعمون لمكان جهالتهم صحّة تلك العلة مع بطلانها في نفس الأمر **(أو حجّة)** ودليل **(تليط بعقول السفهاءِ)** أي تلتصق بعقولهم ويظنون بمالهم من السفاهة حقيتها مع أنها باطلة في الحقيقة **(غيركم)** فيقبلونها أي ما وجدت أحداً يتعصب بشيء إلا وجدت تعصّبه

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٣٣٢ ح٩٧٥، علل الشرائع: ١/ ٥٦ ح١.

(٢) الكافي: ٣/ ٥٠١ ح١٦، تهذيب الأحكام: ٤/ ١٠٤ ح٢٩٧.

ناشئاً من علة غيركم. وبعبارة أخرى وجدت كلّ أحد يتعصّب لعلة إلاّ أنتم.

(فإنكم تتعصّبون لأَمر لا يعرف له سبب ولا علة) حاملة لتمويه الجهلاء وملتصقة بعقول السفهاء.

وليس المراد نفي مطلق السبب للعصبيّة، لما قد مر في شرح الفصل الأوّل والثالث من الخطبة من أن سبب تعصّبهم وثوران الفتنة بينهم هو اعتزاء الجاهلية الّذي كان بينهم، وإنما المراد نفي سبب ذلك الاعتزاء، يعني أنكم تتعصّبون لأمر وهو الاعتزاء ليس لذلك الأمر سبب معروف ظاهر مقبول ولو عند الجهال فإذا لم يكن للاعتزاء سبب مقبول تكون سببيّته للعصبيّة أيضاً سخيفة هيّنة، فيكون تعصبهم له بمنزلة التعصّب لا لعلة، هذا.

ولما ذكر إجمالاً أن تعصّب كلّ متعصّب من العالمين فإنّما هو علة مقتضية له أراد تفصيل ذلك الإجمال بالإشارة إلى بعض علل التعصّب الناشيء من المتعصّبية فقال:

(أما إبليس) اللعين وهو رئيس المتعصّبين والمستكبرين **(فتعصب على آدم لأَصله)** واستكبر عليه بشرف جوهره على زعمه لكونه مخلوقاً من النار، **(وطعن عليه في خلقته)** لكونه مخلوقاً من الطين، ففضل نفسه عليه قياساً للفرع على الأصل في الشرف والخسة، **(فقال: أنا ناريّ وأنت طيني)** فكانت علة تعصّبه أنه تعزز بخلقة النار واستوهن خلق الصلصال.

روى في «الكافي» عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الملائكة يحسبون أن إبليس منهم وكان في علم الله أنّه ليس منهم فاستخرج ما في نفسه بالحميّة والغضب، فقال خلقتني من نار وخلقته من طين»[١].

وقد مرّ تفصيل الكلام في قياسه وبطلان قياسه في شرح الفصل الحادي عشر من «**المختار**» الأوّل وشرح الفصل الأوّل من هذا «**المختار**» الذي نحن بصدد شرحه، من أراد الاطلاع عليه فليراجع الفصلين.

(وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم) أي الأمم المترفة وهم الذين أطغتهم النعمة أو المتنعمون الذين لا يمنع من تنعمهم أو المتروكون يصنعون ما يشاؤون ولا يمنعون **(فتعصّبوا الآثار مواقع النعم)**.

قال المحدث العلامة المجلسي رحمه الله: مواقع النعم هي الأموال والأولاد، وآثارها هي الترفه والغنى والتلذذ بها[٢].

---

(١) الكافي: ٢/٣٠٨ ح٦، شرح أصول الكافي: ٩/٣٢٢ ح٦.

(٢) البحار: ١٤/٤٨١.

وبمثله قال الشارح البحراني حيث قال: مواقعها هي الأموال والأولاد، وآثار تلك المواقع هي الغنى والترفه بها والتنعم والالتذاذ وكان تعصّبهم لذلك وفخرهم به، ثمّ قال: ويحتمل أن يريد بالنعم الأموال والأولاد وبمواقعها وقوعها، فإنه كثيراً ما يريد بمفعل المصدر وآثارها هي الغنى والترفه كما قدّمنا.

وكيف كان فالمقصود أن تعصّب المترفين وتفاخرهم إنما كان بسبب كثرة الأموال والأولاد كما أقروا به، **(فقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين)** وهو اقتباس من الآية الشريفة في سورة سبأ قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سَبَإ: الآيتان ٣٤ و٣٥].

قال الطبرسي: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٤] أي من نبي مخوف بالله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٤] أي جبابرتها وأغنياؤها المتنعمون فيها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٤] وفي هذا بيان للنّبي صلى الله عليه وآله أن أهل قريته جروا على منهاج الأوّلين وإشارة إلى أنه كان اتباع الأنبياء فيما مضى الفقراء وأوساط الناس دون الأغنياء[1].

ثمّ بين سبحانه علّة كفرهم بأن قال: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سَبَإ: الآية ٣٥] أي افتخروا بأموالهم وأولادهم ظنّاً بأن الله سبحانه إنما خوّلهم المال والولد كرامة لهم عنده فقالوا إذا رزقنا وحرمتم فنحن أكرم منكم وأفضل عند الله تعالى فلا يعذّبنا على كفرنا بكم وذلك قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٣٨] ولم يعلموا أن الأموال والأولاد عطاء من الله تعالى يستحق به الشكر عليهم، وليس ذلك للإكرام والتفضيل، هذا.

ولمّا وبخهم على التعصبات الباطلة أرشدهم إلى التعصّبات المرغوبة في الشريعة فقال:

(فإن كان ولا بد من العصبية فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال) وفي بعض النسخ لمكارم الأخلاق والمعنى واحد، وقد مضى تفصيلها في شرح الفصل الثالث من الخطبة السادسة والثمانين، وأقول هنا:

روى في «الوسائل» من الخصال عن الحسن بن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «المكارم عشر فإن استطعت أن تكون فيك فلتكن فإنها تكون في الرجل ولا تكون في ولده، وتكون في ولده ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في الحرّ: صدق النّاس[2].

---

(١) مجمع البيان: ٨/ ٢٢٠.

(٢) في نسخة: البأس.

وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، وإطعام السائل، والمكافأة على الصنائع، والتذمم للجار، والتذمم للصّاحب، ورأسهنّ الحياء»[١].

وفي «الوسائل» من معاني الأخبار وأمالي الصّدوق عن حماد بن عثمان قال: جاء رجل إلى الصادق عليه السلام فقال: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني عن مكارم الأخلاق فقال: «العفو عمّن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك، وقول الحق ولو على نفسك»[٢] **(ومحامد الأفعال)**.

روى في «الوسائل» من المجالس عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام إنّه قال: «عليكم بمكارم الأخلاق، فإن الله عزّ وجل يحبّها، وإياكم ومذامّ الأفعال فإن الله عزّ وجل يبغضها، وعليكم بتلاوة القرآن «إلى أن قال» وعليكم بحسن الخلق فإنّه يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم وعليكم بحسن الجوار فإن الله جل جلاله أمر بذلك، وعليكم بالسّواك فإنّه مطهّرة وسنّة حسنة، وعليكم بفرائض الله فأدّوها، وعليكم بمحارم الله فاجتنبوها»[٣].

(ومحاسن الأمور الّتي تفاضلت فيها المجداء والنجداء) أي أولو الشرف والكرم والشجاعة **(من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل)** أي رؤسائها وساداتها وذلك:

مثلما رواه في **«الكافي»** عن حبيب بن ثابت عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «لم يدخل الجنّة حميّة غير حميّة حمزة بن عبد المطلب، وذلك حين أسلم غضباً للنبيّ صلى الله عليه وآله»[٤] في حديث السلام الذي ألقي على النبي صلى الله عليه وآله فإنّ تعصبه للنبيّ صلى الله عليه وآله ودخوله في الإسلام إنما نشأ من فرط الغيرة والعصبية بمقتضى سؤدده وشرف نسبه وعلوّ حسبه وهكذا كان عادة الأشراف والأنجاد فإنهم إنّما كانوا يتعصبون ويتفاضلون **(بالأخلاق الرغيبة)** المرغوب فيها **(والأحلام)** أي العقول **(العظيمة والأخطار)** أي الأقدار والمراتب **(الجليلة والآثار المحمودة)**.

وقد أشير إليها في الحديث النبوي صلى الله عليه وآله المروي في **«الوسائل»** قال: قال النبي صلى الله عليه وآله إنّ خياركم أولو النّهى، قيل: يا رسول الله من أولو النهى؟ قال: هم أولو الأخلاق الحسنة، والأحلام الرزينة، وصلة الأرحام، والبررة بالأمهات والآباء، والمتعاهدون بالجيران واليتامى، ويطعمون الطعام ويفشون السلام في العالم ويصلّون والناس نيام غافلون.

---

(١) الكافي: ٢/ ٥٦، الخصال: ٤٣١ ح١١.

(٢) الأمالي: ٣٥٥ ح٤٣٣، معاني الأخبار: ١٩١ ح١.

(٣) الأمالي: ٤٤١، وسائلا لشيعة: ١٥/ ٢٠٠.

(٤) الكافي: ٢/ ٣٠٨ ح٥، شرح أصول الكافي: ١/ ٢٧٣.

ولما قال: فإن كان ولا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الأخلاق ومحامد الأفعال نبّه على تفصيلها بقوله **(فتعصبوا لخلال الحمد)** أي للخصال المحمودة وأورد منها هنا عشراً:

الأولى ما أشار إليه بقول **(من الحفظ للجوار)** يحتمل أن يكون المراد به حسن المجاورة وحفظ حقوق الجيران.

ففي «الكافي» عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حسن الجوار يعمر الدّيار وينسي الأعمار[1].

وعن أبي مسعود قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة الدّيار[2].

وفي «الوسائل» عن الصّدوق بإسناده عن شعيب بن واقد عن الحسين بن زيد عن الصادق عن آبائه عن علي عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث المناهي قال: «من أذى جاره حرّم الله عليه ريح الجنّة ومأواه جهنّم وبئس المصير، ومن ضيّع حقّ جاره فليس منّا، وما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورثه»[3].

قال بعض الأعلام: ليس حسن الجوار كف الأذى فقط، بل تحمل الأذى منه أيضاً، ومن جملة حسن الجوار ابتداؤه بالسلام، وعيادته في المرض، وتعزيته في المصيبة، وتهنئته في الفرح، والصفح عن زلاته، وعدم التطلع على عوراته، وترك مضايقته فيما يحتاج إليه من وضع جذوعه على جدارك، وتسلط ميزابه إلى دارك وما أشبه ذلك.

ويحتمل أن يكون المراد بالجوار أن تعطي رجلاً ذمته وأماناً يكون بذلك جارك، قال الطريحي: وفي الحديث أيّما رجل نظر إلى رجل من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله أي في أمن لا يظلم ولا يؤذي وعلى هذا فمعنى الحفظ للجوار هو المحافظة على ما أعطيته من الذمام والقيام بلوازمه وعدم الإضاعة له.

(و) الثانية (الوفاء بالذمام) أي الوفاء بالعهد والأمان.

روى في «الوسائل» عن الكلينيّ عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النوفليّ عن السكوني

---

(١) شرح أصول الكافي: ١١/ ١٥٣ ح٧.

(٢) الكافي ٢/ ٦٦٧ ح٧، وسائل الشيعة: ١٢/ ١٢٩ ح١٥٨٤٦.

(٣) دعائم الإسلام: ٢/ ٨٨، من لا يحضره الفقيه: ٤/ ١٣.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما معنى قول النّبي صلى الله عليه وآله: المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم؟ قال عليه السلام: «لو أن جيشاً من المسلمين حاصروا قوماً من المشركين فأشرف رجل فقال: أعطوني الأمان حتى ألقى صاحبكم وأناظره فأعطاه أدناهم الأمان وجب على أفضلهم الوفاء به»[١].

وفيه عن الصّدوق بسنده عن حبة العرني قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: من ائتمن رجلاً على دمه ثم خاس به فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول في النار[٢].

(و) الثالثة (الطاعة للبرّ) قيل: البرّ اسم جامع للخير كلّه فيكون المراد من طاعته الانقياد له والإتيان بالخيرات، ويجوز أن يكون بمعنى البارّ أو بحذف المضاف أي لذي البرّ على حدّ قوله تعالى: **﴿ليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى﴾** أي البار، أو ذو البر هو المتصف بالتقوى، وعلى هذا فالمراد بالطاعة للبرّ هو الطاعة للأبرار المتقين.

(و) الرابعة (المعصية للكبر) أي المجانبة والمخالفة بالملازمة للتواضع وإنما عبر بلفظة المعصية لتقدم لفظ الطاعة وكونها في قبالها، فعبّر بها لحسن المجاورة ومراعاة للنظير وهو من محاسن البلاغة.

(و) الخامسة (الأخذ بالفضل) يجوز أن يراد بالفضل التفضل والإحسان على الغير وأن يراد به العمل الصالح وعلى أي تقدير فأخذه عبارة عن المواظبة عليه وبهما فسّر قوله سبحانه **﴿ويمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾**.

قال أمين الإسلام الطبرسي قيل: إنّ الفضل بمعنى التفضّل والإفضال أي ويؤت كلّ ذي إفضال على غيره بمال أو كلام أو عمل بيد أو رجل جزاء إفضاله، فيكون الهاء في فضله عائداً إلى ذي الفضل، وقيل: إن معناه يعط كلّ ذي عمل صالح فضله أي ثوابه على قدر عمله، فإن من كثرت طاعته في الدّنيا زادت درجاته في الجنّة وعلى هذا فالأولى أن تكون الهاء في فضله عائداً إلى اسم الله.

أقول: ويرشد إلى المعنيين ما روى في **«الكافي»** عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: سمعته يقول: «إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد ثمّ ينادي مناد أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عنق من الناس فتلقّاهم الملائكة فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا، ونعطي من حرمنا، ونعفو

---

(١) الكافي: ٥/ ٣١، الخصال: ١٥٠ ح١٧٣.

(٢) تهذيب الأحكام: ٦/ ١٧٥ ح٣٤٩، وسائل الشيعة: ١٥/ ٦٩.

عمن ظلمنا، قال: فيقال لهم: صدقتم ادخلوا الجنّة».

(و) السادسة **(الكف عن البغي)** أي عن الظلم والاعتداء والاستطالة والعدول عن الحق.

روى في «الكافي» عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إن أعجل الشرّ عقوبة البغي.

وعن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يقول إبليس لجنوده: ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنّهما يعدلان عند الله الشرك.

أي يعدلانه في الإخراج من الدّين والعقوبة والتأثير في فساد نظام الخلق.

(و) السابعة **(الإعظام للقتل)** أي تعظيمه وعدّه عظيماً، والمراد قتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ فإنّه من أكبر الكبائر وأعظم الذنوب قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٩٣].

روى الصّدوق في عقاب الأعمال عن جابر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال أوّل ما يحكم الله في القيامة في الدّماء فيوقف ابني آدم فيفصل بينهما، ثم الذين يلونهم من أصحاب الدّماء حتى لا يبقى منهم أحد، ثمّ الناس بعد ذلك فيأتي المقتول قاتله. فيشخب دمه في وجهه فيقول: هذا قتلني، فيقول أنت قتلته، فلا يستطيع أن يكتم الله حديثاً[(١)].

وعن سعيد الأزرق عن أبي عبد الله عليه السلام في رجل قتل رجلاً يقال له: مت أي ميتة شئت إن شئت يهودياً وإن شئت نصرانياً وإن شئت مجوسياً[(٢)].

وعن أبي الجارود عن محمد بن علي صلوات الله عليهما قال: ما من نفس يقتل برّة ولا فاجرة إلاّ وهو يحشر يوم القيامة معلّقاً بقاتله بيده اليمنى ورأسه بيده اليسرى وأوداجه تشخب دماً يقول: يا رب سل هذا بم قتلني، وإن «فان ظ» كان قتله في طاعة الله عزّ وجلّ أثيب القاتل وذهب بالمقتول إلى النار، وإن كان في طاعة فلان قيل له: اقتله كما قتله، ثمّ يفعل الله فيهما مشيئته.

(و) الثامنة **(الإنصاف للخلق)** روى في **«الكافي»** عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام

---

(١) المحاسن: ١/ ١٠٦ ح٨٨، الكافي: ٧/ ٢٧١ ح٢.

(٢) الكافي: ٧/ ٢٧٣ ح٥٩، من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٥٧٤ ح٤٩٦٢.

قال: قال رسول الله ﷺ: سيّد الأعمال إنصاف الناس من نفسك، ومواساة الأخ في الله، وذكر الله على كلّ حال.

وعن أبي حمزة الثمالي عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يقول في آخر خطبته: طوبى لمن طاب خلقه وطهرت سجيّته وصلحت سريرته وحسنت علانيته وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله، وأنصف الناس من نفسه.

وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: إلا أنه من ينصف الناس من نفسه لم يزده الله إلاّ عزّاً.

وعن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب رجل لم تدعه قدرته في حال في غضبه إلى أن يحيف على من تحت يده، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة، ورجل قال بالحق فيماله وعليه.

(و) التاسعة (الكظم للغيظ) روى في «الكافي» عن مالك بن حصين السكوني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من عبد كظم الغيظ إلا زاده الله عزّ وجلّ عزّاً في الدّنيا والآخرة، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤] وأثابه الله مكان غيظه ذلك.

وعن سيف بن عميرة قال حدثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيمة رضاه.

وعن عبد الله بن منذر عن الوصافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة.

(و) العاشرة (اجتناب الفساد في الأرض) وهو الدّعوة إلى عبادة غير الله أو أخذ المال وقتل النفس بغير حق أو العمل بالمعاصي، وبها جميعاً فسّر قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٨٣] هذا.

ولما أمرهم بأخذ مكارم الخصال ومحامد الأفعال وأن يكون تعصّبهم لها أردفه بالتحذير عن مذام الأفعال وذمائم الأعمال بالتنبيه على سوء ما نزل بآخذيها من العذاب الأليم والخزي العظيم وهو قوله:

(واحذروا ما نزل بالأمم) السابقين **(قبلكم من المثلات)** والعقوبات **(بسوء الأفعال وذميم الأعمال)** أي سوء أفعالهم وذميم أعمالهم.

(فتذكّروا في الخير والشرّ أحوالهم) أي تذكّروا اختلاف حالاتهم ولاحظوا تفاوتها في الخير الناشىء من الأخذ بصالح الأعمال واللّزوم للائتلاف والاتفاق، والشرّ الناشىء من الأخذ بسوء الأفعال وسلوك مسلك العناد والافتراق.

(واحذروا أن تكونوا أمثالهم) بأن ينزل عليكم المثلات أيضاً بسوء أفعالكم وذميم أعمالكم.

(فإذا تفكّرتم في تفاوت حاليهم) بالخير والشر والنعمة والنقمة.

(فـ)اسلكوا مسلك الخير و**(الزموا كلّ أمر لزمت العزة به حالهم)** أي شأنهم **(وزاحت الأعداء له عنهم)** أي زالت وبعدت أعداؤهم عنهم لأجل ذلك الأمر **(ومدّت العافية فيه عليهم)** أي انبسطت وجرت العافية عليهم لأجله والعافية هو كف أذى النّاس عنهم وكف أذاهم عن النّاس **(وانقادت النعمة له معهم)** لكونه سبباً معداً لإفاضة النعم عليهم **(ووصلت الكرامة عليهم حبلهم)** قال البحراني: استعار لفظ الوصل لاجتماعهم عن كرامة الله لهم حال كونهم على ذلك الأمر ورشح بذكر الحبل.

(من الاجتناب للفرقة واللزوم للأُلفة) بيان للأمر الموجب لعزّتهم ولسائر ما تقدم من الخصائص الأربعة يعني أن الأمر الذي لزمت العزّة به شأنهم هو التجنب من الاختلاف والافتراق واللزومُ للمحبة والائتلاف **(والتحاضّ)** أي الحث والترغيب من الطرفين **(عليها والتواصي)** أي وصية بعضهم بعضاً **(بها)** أي بتلك الألفة.

واتركوا مسلك الشر **(واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم)** أي ظهرهم **(وأوهن منتهم)** أي قوتهم.

(من تضاغن القلوب) يعني أن الأمر الموجب لكسر ظهرهم هو انطواء قلوبهم على الحقد **(وتشاحن الصّدور)** أي تباغضها وإعلانها بالعداوة **(وتدابر النفوس)** أي تقاطعها ومصارمتها وهجران بعضها عن بعض وأصله أن من يعادي أحداً يولّيه دبره بعداوته ويعرض عنه بوجهه **(وتخاذل الايدي)** أي لا ينصر بعضهم بعضاً، وإضافة التخاذل إلى الأيدي لأن الأغلب أن يكون التناصر بها.

ولما ذكر على وجه العموم أن كلّ أمّة من الأُمم السابقة ترافدت أيديهم وتناصروا وتعاونوا كان ذلك سبباً لعزّتهم وإبعاد الأعداء عنهم، وكلّ أمّة افترقوا وتقاطعوا استلزم ذلك ذلّهم وكسر شوكتهم وضعف قوّتهم، عقبه بتذكير حال خصوص المؤمنين الماضين، وأن اجتماع كلمتهم جعلهم ملوكاً أقطار الأرضين واختلافها أوجب خلع لباس العزّ عنهم وكونهم مقهورين بعد ما كانوا قاهرين وهو قوله:

(وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء) أي حال الاختبار والابتلاء **(ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء)** أي أثقالاً **(وأجهد العباد بلاء وأضيق أهل الدّنيا حالاً)** وبيّن شدة ابتلائهم وضيق حالهم بقوله:

(اتخذتم الفراعنة عبيداً) والمراد بهم إما فراعنة مصر كما سنشير إليه وتقدّم ذكرهم في شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والإحدى والثمانين ويدلّ عليه صريحاً.

ما في «البحار» من تفسير القمّيّ عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٠٤] - إلى قوله - ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: الآية ٨٥] فإن قوم موسى عليه السلام استعبدهم آل فرعون وقالوا: لو كان لهؤلاء على الله كرامة لما يقولون ما سلطنا عليهم، الحديث[١].

أو مطلق العتاة كما قال الشارح المعتزلي: **(فساموهم)** أي كلّفوهم وأذاقوهم **(سوء العذاب وجرعوهم جرع المرار)** أي سقوهم المرار جرعة بعد جرعة، ويستعار شرب المرار لكل من يلقي شديد المشقة.

والمراد بسومهم سوء العذاب إمّا خصوص ذبح الأبناء وترك البنات، فيكون جرع المرار إشارة إلى سائر شدائدهم، أو الأعم منه ومن سائر أعماله الشاقة، فيكون عطف وجرّعوهم جرع المرار، من قبيل عطف المسبّب على السبب، يعني أنهم عذّبوهم بسوء العذاب من الذّبح وغيره، فأشربوهم بسبب ذلك التعذيب جرع المرار إلى كلّ من المعنيين ذهب المفسّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٤٩].

قال أمين الإسلام الطبرسي: فرعون اسم لملك العمالقة كما يقال لملك رومُ قيصر، ولملك الفرس كسرى، ولملك الترك خاقان، ولملك اليمن تبّع، فهو على هذا بمعنى الصفة، وقيل: إن اسم فرعون مصعب بن الرّيان، وقال محمد بن إسحاق هو الوليد بن مصعب.

قال الطبرسي: فصل سبحانه في هذه الآية النعمة الّتي أجملها فيما قبل فقال: واذكروا إذ نجيّناكم أي خلصناكم، من قوم فرعون وأهل دينه، يسومونكم يلزمونكم سوء العذاب، وقيل: يذيقونكم ويكلّفونكم، ويعذّبونكم، والكلّ متقارب واختلفوا في العذاب الذي نجّاهم الله منه فقال بعضهم: ما ذكر في الآية من قوله يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وهذا تفسيره[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ١٠٦ ح٢، وتفسير القمي: ١/ ٣١٤.
(٢) مجمع البيان: ١/ ٣٨٤ ح٧٤٣.

وقيل: أراد به ما كانوا يكلّفونهم من الأعمال الشاقة، فمنها أنهم جعلوهم أصنافاً فصنف يخدموهم، وصنف يحرثون لهم، ومن لا يصلح منهم للعمل ضربوا عليهم الجزية وكانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم مع ذلك، ويدلّ عليه قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٦] فعطفه على ذلك يدلّ على أنه غيره، ومعناه يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم يستبقونهن ويدعونهن أحياء ليستعبدون وينكحن على وجه الاسترقاق، وهذا أشد من الذبح، وفي ذلكم أي في سومكم العذاب وذبح الأبناء ابتلاء عظيم من ربّكم، لما خلى بينكم وبينه حتى فعل بكم هذه الأفاعيل.

والسّبب في قتل الأبناء أن فرعون رأى في منامه كان ناراً أقبلت من بيت المقدّس حتى اشتملت على بيوت مصر فاحترقتها واحترقت القبط وتركت بني إسرائيل، فهاله ذلك ودعا السّحرة والكهنة والقافة فسألهم عن رؤياه، فقالوا إنه يولد في بني إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك وتبديل دينك، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، وجمع القوابل فقال لهن لا يسقط في أيديكنّ غلام من بني إسرائيل إلاّ قتل، ولا جارية إلاّ تركت ووكل بهنّ، فكن يفعلن ذلك وأسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوس القبط على فرعون فقالوا له: إن الموت قد وقع في بني إسرائيل فيذبح صغارهم ويموت كبارهم ويوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هارون في السنة الّتي لا يذبحون فيها فترك، وولد موسى في السنّة الّتي يذبحون فيها.

وفي «**البحار**» عن الثعلبي في كتاب عرائس المجالس لما مات الريان بن الوليد فرعون مصر الأول صاحب يوسف عليه السلام وهو الذي ولى يوسف خزائن أرضه وأسلم على يديه، فلما مات ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف الثاني، فدعاه يوسف عليه السلام إلى الإسلام فأبى، وكان جبّاراً وقبض الله تعالى يوسف عليه السلام في ملكه ثم هلك وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس بن الوليد بن مصعب بن الريان بن أراشة بن مروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوز بن سام بن نوح عليه السلام، وكان أعتى من قابوس وأكبر وأفجر، وامتدّت أيام ملكه وأقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف وقد نشروا وكثروا وهم تحت أيدي العمالقة وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام شرعوا فيهم من الإسلام متمسكين به، حتى كان فرعون موسى الذي بعثه الله إليه ولم يكن منهم فرعون أعتى على الله ولا أعظم قولاً ولا أقسى قلباً ولا أطول عمراً في ملكه ولا أسوأ ملكة لبني إسرائيل، منه وكان يعذّبهم ويستعبدهم فجعلهم خدماً وخولاً وصنفهم في أعماله فصنف يبنون وصنف يحرسون، وصنف يتولون الأعمال القذرة ومن لم يكن من أهل العمل فعليه الجزية كما قال تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ

سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٩][١].

(فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة) أي لم يزالوا أذلاء هالكين مقهورين مغلوبين في أيدي الفراعنة وأتباعهم (لا يجدون حيلة في امتناع) منهم (ولا سبيلا إلى دفاع) عنهم.

(حتى إذا) طالت بهم المدّة وبلغت الغاية المشقة والشّدة و(رأى الله سبحانه جد الصبر منهم) أي رأى منهم أنهم مجدّون في الصّبر (على الأذى في محبته والاحتمال) أي التحمل (للمكروه من خوفه) وخشيته.

(جعل لهم من مضائق البلاء فرجاً) ومن سوء العذاب مخرجاً (فأبدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف) كما قال عزّ من قائل ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧] وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾ [الدّخَان: الآيات ٣٠ ـ ٣٢] أي نجّينا الذين آمنوا بموسى عليه السلام من العذاب المهين، يعني قتل الأبناء واستخدام النساء وتكليف المشاق والاستعباد بعد سنين متطاولة ومدد متمادية.

روى الصّدوق في كتاب «كمال الدّين وإتمام النعمة» عن سعيد بن جبير عن سيّد العابدين علي بن الحسين عن أبيه سيد الشهداء الحسين بن علي عن أبيه سيد الوصيّين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما حضرت يوسف الوفاة جمع شيعته وأهل بيته فحمد الله وأثنا عليه ثم حدثهم بشدّة تنالهم تقتل فيها الرجال وتشق بطون الحبالى وتذبح الأطفال حتى يظهر الله في القائم من ولد لاوي بن يعقوب وهو رجل أسمر طوال ونعته لهم بنعته فتسمّكوا بذلك، ووقعت الغيبة والشدة على بني إسرائيل وهم ينتظرون قيام القائم أربع مائة سنة حتّى إذا بُشّروا بولادته ورأوا علامات ظهوره واشتدّت البلوى وحمل عليهم بالحجارة «بالخشب والحجارة خ ل»[٢].

وطلب الفقيه الذي كانوا يستريحون إلى أحاديثه فاستتر، وراسلهم «وطلبوا خ ل» فقالوا كنا مع الشدّة نستريح إلى حديثك، فخرج بهم إلى الصحارى وجلس يحدثهم حديث القائم ونعته وقرب الأمر، وكانت ليلة قمراء.

---

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ٥١، وتفسير القرطبي: ١/ ٣٨٤.
(٢) قصص الأنبياء: ٢٥٦.

فبيناهم كذلك حتّى طلع عليهم موسى عليه السلام وكان في ذلك الوقت حدث السّن قد خرج من دار فرعون يظهر النزهة، فعدل عن موكبه وأقبل إليهم وتحته بغلة وعليه طيلسان خزّ.

فلمّا رآه الفقيه عرفه بالنعت فقام إليه وانكب على قدمه فقبّلها ثمّ قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتّى أرانيك، فلما رأى الشيعة ذلك علموا أنّه صاحبهم فأكبوا على الأرض شكر الله عزّ وجلّ فلم يزدهم على أن قال: أرجو أن يعجّل الله فرجكم.

ثمّ غاب بعد ذلك وخرج إلى مدينة مدين فأقام عند شعيب عليه السلام ما أقام فكانت الغيبة الثانية أشدّ عليهم من الأولى، وكانت نيفاً وخمسين سنة، واشتدّت البلوى عليهم.

واستتر الفقيه فبعثوا إليه أنه لا صبر لنا على استتارك عنّا، فخرج إلى بعض الصحارى واستدعاهم وطيّب نفوسهم وأعلمهم أن الله عز وجلّ أوحى إليه أنّه مفرّج عنهم بعد أربعين سنة، فقالوا بأجعمهم: الحمد لله، فأوحى الله عزّ وجل إليه قل لهم قد جعلتها ثلاثين سنة لقولهم الحمد لله، فقالوا: كلّ نعمة من الله، فأوحى الله إليه قل لهم: قد جعلتها عشرين سنة، فقالوا: لا يأتي بالخير إلا الله، فأوحى الله تعالى إليه قل لهم: قد جعلتها عشراً. فقالوا: لا يصرف السوء إلاّ الله، فأوحى الله إليه قل لهم: لا تبرحوا فقد أذنت لكم في فرجكم.

فبيناهم كذلك إذ طلع موسى عليه السلام راكباً حماراً فأراد الفقيه أن يعرف الشيعة ما يستبصرون به فيه، وجاء موسى عليه السلام حتّى وقف عليهم فسلّم عليهم فقال له الفقيه: ما اسمك؟ قال: موسى، قال: ابن من؟ قال: ابن عمران، قال: ابن من؟ قال: ابن فاهت بن لاوى بن يعقوب، قال: بماذا جئت؟ قال: جئت بالرسالة من عند الله عزّ وجل، فقام إليه فقبّل يده ثمّ جلس بينهم فطيّب نفوسهم وأمرهم أمره ثم فرقهم، فكان بين ذلك الوقت وبين فرجهم بغرق فرعون أربعون سنة.

(فصاروا) أي المؤمنون بعد غرق فرعون وجنوده **(ملوكاً حكاماً وأئمة أعلاماً)** كما يدل عليه قوله سبحانه في سورة القصص ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القَصص: الآية ٥] .

قال الطبرسي: المعنى أن فرعون كان يريد إهلاك بني إسرائيل وإفنائهم ونحن نريد أن نمنّ عليهم ونجعلهم أئمة أي قادة ورؤساء في الخير يقتدى بهم عن ابن عباس، وقيل: نجعلهم ولاة وملوكاً عن قتادة، وهذا القول مثل الأوّل، لأن الذين جعلهم الله ملوكاً فهم أئمة ولا يضاف إلى الله سبحانه ملك من يملك الناس ظلماً وعدواناً، وقد قال سبحانه ﴿فَقَدْ

ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٥٤] والملك من الله هو الذي يجب أن يطاع فالأئمة على هذا ملوك مقدّمون في الدين والدّنيا يطأ الناس أعقابهم.

وفي سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٠] أي اذكروا نعمة الله وأياديه لديكم إذ جعل فيكم أنبياء يخبرون بالغيب وتنصرون على الأعداء ولم يبعث في أمّة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، وقيل: هم الأنبياء الذين كانوا بعد موسى عليه السلام مقيمين فيهم إلى زمن عيسى عليه السلام مبينون لهم أمر دينهم، وجعلكم ملوكاً أي جعل منكم أوفيكم، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء بعد فرعون، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم وجعلهم مالكين لأنفسهم وأمورهم سماهم ملوكاً، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين، من فلق البحر وتظليل الغمام والمنّ والسّلوى وغيرها مما أكرمهم الله تعالى به.

(و) قد **(بلغت الكرامة من الله لهم ما)** أي إلى مقدار **(لم تذهب الآمال إليه بهم)** أي إلى ذلك المقدار، يعني بلغت كرامة الله لهم إلى غاية الغايات وفوق ما يأمله الآملون ويرجوه الراجون، حيث آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين.

ولذلك منّ الله عليهم في موضعين من سورة البقرة بقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٧] وذلك إن الله سبحانه فلق لهم البحر وأنجاهم من فرعون وأهلك عدوّهم وأورثهم ديارهم وأموالهم وأنزل عليهم التوراة فيها تبيان كلّ شيء يحتاجون إليه وأعطاهم ما أعطاهم في التيه، وذلك أنهم قالوا أخرجتنا من العمران والبنيان إلى مفازة لا ظلّ فيها ولا كنّ فأنزل الله عليهم غماماً أبيض رقيقاً ليس بغمام المطر أرق وأطيب وأبرد منه فأظلّهم وكان يسير معهم إذا ساروا، ويدوم عليهم من فوقهم إذا نزلوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٧] يعني في التيه تقيكم من حرّ الشمس.

ومن جملة كرامته تعالى لهم أنه جعل لهم عموداً من نور يضيء لهم بالليل إذ لم يكن ضوء القمر، فقالوا: هذا الظل والنور قد حصل فأين الطعام فأنزل الله تعالى عليهم المنّ.

واختلفوا فيه ففي تفسير الإمام هو الترنجبين وبه قال الضحاك، وقال مجاهد: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار وطعمه كالشهد، وقال وهب: هو الخبز الرقاق، وقال السّدي: هو عسل كان يقع على الشجر من الليل فيأكلون منه، وقال عكرمة: هو شيء أنزله عليهم مثل الربّ الغليظ.

وقال الزجاج: جملة المنّ ما يمنّ الله به مما لا تعب فيه ولا نصب فقالوا: يا موسى قتلنا هذا المنّ حلاوته فادع لنا ربّك يطعمنا اللحم فأنزل الله عليهم السّلوى.

اختلفوا فيه أيضاً ففي تفسير الإمام هو السماني أطيب طير لحماً يسترسل لهم فيصطادونه، وقال ابن عباس والأكثر: هو طائر يشبه السّماني، وقال أبو العالية ومقاتل: هو طير أحمر وكانت السّماء تمطر عليهم ذلك، وقيل: كانت طيراً مثل فراخ الحمام طيّباً وسميناً قد تمعط ريشها وزغبها فكانت الريح تأتي بها إليهم فيصبحون وهو في معسكرهم.

ومن جملة كراماته لهم أنهم عطشوا في التيه فقالوا يا موسى من أنزلنا الشراب. فاستسقى لهم موسى، فأوحى الله سبحانه أن أضرب بعصاك الحجر، قال ابن عبّاس: كان حجراً خفيفاً مربعاً مثل رأس الرّجل أمر أن يحمله فكان يضع في مخلاته، فإذا احتاجوا إلى الماء ألقاه وضرب بعصاه فسقاهم، وكان يسقي كلّ يوم ست مائة ألف.

ومنها أنهم قالوا لموسى: من أين لنا اللباس فجدّد الله لهم ثيابهم التي كانت عليهم حتّى لا تزيد على كرور الأيام ومرور الأعوم إلاّ جدة وطراوة لا تخلق ولا تبلى، وقد مضى تفصيل التيه في شرح الخطبة المائة والخامسة والسّتين، هذا.

ولما أمر بالتدبر في أحوال المؤمنين الماضين وتبدّل ذلّهم بالعزّ وخوفهم بالأمن وانتقالهم من عبوديّة الفراعنة إلى الملك والسلطنة، وبلوغهم من كرامة الله إلى ما لم تذهب إليه الآمال، عقّبه بالأمر بالنظر في حالهم والتّنبيه على أن المستلزم لتلك الخيرات كلّها إنما كان هو الألفة والاجتماع، وأنهم ما دامت كلمتهم متفقة وقلوبهم مؤتلفة كان العزّ والسلطنة فيهم مستقرّة، ولمّا اختلفت الآراءِ وتفتّتت الأهواء عاد جمعهم إلى الشتات وعزهم إلى البتات، فأبدلوا الذّل مكان العزّ، والخوف مكان الأمن وصار مآل أمرهم عبراً للمعتبرين وتذكرة للمتدبّرين وهو قوله:

(**فانظروا كيف كانوا**) في مبدء أمرهم بعد الخلاص من استرقاق الفراعنة (**حيث كانت الإملاء**) أي الجماعات والإشراف (**مجتمعة والأهواء مؤتلفة والقلوب معتدلة**) محفوظة من الميل إلى طرف الإفراط أو التفريط (**والأيدي مترادفة**) أي مترافدة متعاونة (**والسّيوف متناصرة**) نسبة التناصر إلى السيوف من باب التوسع والإسناد إلى السبب (**والبصائر نافذة**) أي ماضية غير متردّدة فإنّ من نفذت بصيرته في أمر لا يبقى له تردّد فيه لعلمه به وتحققه إياه (**والعزائم واحدة**) أي الإرادات الجازمة اللازمة على طلب الحق متفقة.

(**ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين**) الاستفهام للتقرير بما

بعد النفي والمقصود التنبيه على أنهم صاروا ملوكاً وأرباباً بسبب اتصافهم بشؤون الألفة، وملازمتهم لمراسم المحبّة فأمر المخاطبين بالنظر في حالهم ليقتفوا آثارهم في الايتلاف والاجتماع، فينالوا به الفوز العظيم، ثمّ أمرهم بالنظر إلى مآل أمرهم فقال:

(فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم) واحذروا أن تكونوا مثلهم في النفاق والافتراق فتقعوا في مهواة الذّلة ومفازة الهلكة، فإنهم **(حين وقعت الفرقة وتشتّتت)** أي تفرقت **(الألفة واختلفت الكلمة والأفئدة وتشعبوا)** أي صاروا شعوباً وقبائل حال كونهم **(مختلفين وتفرقوا متحاربين)** وفي بعض النسخ متحزبين أي اختلفوا أحزاباً **(قد خلع الله عنهم)** بسبب التفرق والاختلاف **(لباس كرامته)** وعزته **(وسلبهم غضارة نعمته)** أي طيبها ولذّتها **(وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين منكم)**.

ومحصّل ما ذكره عليه السلام أنهم خلعوا من لباس الكرامة وسلبوا من غضارة النعمة، ونزعوا من الملك والسلطنة بسبب افتراق الكلمة واختلاف الآراء وتفرقهم بالحرب والبغي والفساد وسفك الدماءِ فضربت عليهم الذّلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

وإلى ذلك أشير في قوله سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: الآية ٣٢] قال الباقر عليه السلام: «المسرفون هم الذين يستحلّون المحارم ويسفكون الدماء».

وفي الجاثية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: الآية ١٦] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ [الجاثية: الآيتان ١٦ و١٧] ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٩].

وفي سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: الآيات ٤ ـ ٧].

قال البيضاوي: وقضينا إلى بني إسرائيل أوحينا إليهم وحياً ومقضياً في التوراة، لتفسدنّ في الأرض إفسادتين أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتل شعياً وقتل أرمياً، وثانيتهما قتل

زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليه السلام، فإذا جاء وعد عقاب أوليهما بعثنا عليكم عباداً لنا بخت النصر عامل لهراسف على بابل وجنوده، وقيل جالوت، وقيل سحاريب من أهل نينوى، أولي بأس شديد ذوي قوّة وبطش في الحرب شديد، فجاسوا تردّدوا لطلبكم، خلال الديار وسطها للقتل والغارة، قتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرّقوا التوراة وخربوا المساجد، ثمّ رددنا لكم الكرّة أي الدّولة والغلبة عليهم على الذين بعثوا عليكم، وذلك بأن ألقى الله في قلب بهمن بن اسفنديار لما ورث الملك من جدّه كشتاسف بن لهراسف شفقة عليهم، فرد أسراءهم إلى الشام وملك دانيال عليهم فاستولوا على من كان فيها من اتباع بخت نصر، أو بأن سلّط داود على جالوت فقتله وجعلناكم أكثر نفيراً، مما كنتم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نفروهم المجتمعون للذهاب، فإذا جاء وعد الآخرة، وعد العقوبة الآخرة ليسؤوا وجوهكم أي بعثناهم ليسؤوا وجوهكم ليجعلوها بادية آثار المساءة فهيا، وليتبّروا ليهلكوا ما علوا ما غلبوه واستولوا عليه أو مدة علوهم، تتبيراً وذلك بأن سلّط الله عليهم الفرس مرّة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جورز وقيل جردوس.

قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دماً يغلي، فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منّا فقال: ما صدقتموني فقتل عليه الوفا منهم فلم يهدأ الدّم، ثمّ قال: إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً، فقالوا: إنّه دم يحيى عليه السلام، فقال: لمثل هذا ينتقم منكم ربكم، ثم قال: يا يحيى قد علم ربّي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله قبل أن لا أبقى أحداً منهم، فهدأ.

وفي «البحار» من قصص الأنبياء بالإسناد إلى الصّدوق بإسناده إلى وهب بن منبه قال: كان بخت نصر منذ ملك يتوقع فساد بني إسرائيل يعلم أنه لا يطيقهم إلا بمعصيتهم، فلم يزل يأتيه العيون بأخبارهم حتى تغيّرت حالهم وفشت فيهم المعاصي وقتلوا أنبياءهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤] إلى قوله: ﴿**فإذا جاء وعد أوليهما**﴾ يعني بخت نصر وجنوده أقبلوا فنزلوا بساحتهم[1].

فلما رأوا ذلك فزعوا إلى ربّهم وتابوا وصابروا على الخير وأخذوا على أيدي سفهائهم وأنكروا المنكر وأظهروا المعروف فردّ الله لهم الكرة على بخت نصر وانصرفوا بعد ما فتحوا المدينة، وكان سبب انصرافهم أن سهماً وقع في جبين فرس بخت نصر فجمح به حتى أخرجه من باب المدينة.

(١) قصص الأنبياء: ٢٢٤.

ثمّ إن بني إسرائيل تغيّروا فيما برحوا حتّى كر عليهم وذلك قوله تعالى: **﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم﴾** فأخبرهم أرميا أن بخت نصر يتهيّأ بالمسير إليكم وقد غضب الله عليكم وأن الله تعالى جلّت عظمته يستتيبكم لصلاح آبائكم ويقول هل وجدتم أحداً عصاني فسعد بمعصيتي أم هل علمتم أحداً أطاعني فشقي بطاعتي، وأمّا أحباركم ورهبانكم فاتخذوا عبادي خولاً يحكمون فيهم بغير كتابي حتى أنسوهم ذكري، وأما ملوككم وأمراؤكم فبطروا نعمتي فغرّتهم الحياة الدّنيا، وأمّا قراؤكم وفقهاؤكم فهم منقادون للملوك يبايعونهم على البدع ويطيعونهم في معصيتي، وأما الأولاد فيخوضون مع الخائضين، وفي كلّ ذلك ألبسهم العافية فلأبدلنّهم بالعزّ ذلاً وبالأمن خوفاً إن دعوني لم أجبهم، وإن بكوا لم أرحمهم.

فلما بلّغهم ذلك نبيّهم كذّبوه وقالوا: وقد أعظمت الفرية على الله تزعم أن الله معطل مساجده من عبادته، فقيّدوه، وسجنوه.

فأمر بخت نصر وحاصرهم سبعة أشهر حتى أكلوا خلاهم وشربوا أبوالهم، ثمّ بطش بهم بطش الجبّارين بالقتل والصّلب والإحراق وجدع الأنوف ونزع الألسن والأنياب ووقف النساءِ.

فقيل له: إنّ لهم صاحباً كان يحذرهم بما أصابهم، فاتهموه وسجنوه، فأمر بخت نصر فأخرج من السجن فقال له: أكنت تحذر هؤلاء؟ قال: نعم قال: وأنى علمت ذلك؟ قال: أرسلني الله به إليهم، قال: فكذبوك وضربوك؟ قال؛ نعم، قال: لبئس القوم قوم ضربوا نبيّهم وكذبوا رسالة ربّهم فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وإن أحببت أن تقيم في بلادك أمنتك؟ قال أرميا: إني لم أزل في أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا من أمانه لم يخافوك.

فأقام أرميا عليه السلام مكانه بأرض إيليا وهي حينئذ خراب وقد هدم بعضها فلما سمع به من بقي من بني إسرائيل اجتمعوا فقالوا عرفنا أنّك نبيّنا فانصح لنا، فأمرهم أن يقيموا معه، فقالوا: ننطلق إلى ملك مصر نستجير، فقال أرميا عليه السلام: إن ذمّة الله أوفى الذمم، فانطلقوا وتركوا أرميا، فقال لهم الملك: أنتم في ذمّتي.

فسمع ذلك بخت نصر فأرسل إلى ملك مصر ابعث بهم إلي مصفدين وإلا آذنتك بالحرب، فلما سمع أرميا عليه السلام بذلك أدركته الرحمة لهم فتبادر إليهم لينقذهم، فورد عليهم وقال: إن الله تعالى جلّ ذكره أوحى إليّ أني مظهر بخت نصر على هذا الملك وآية ذلك أنه تعالى أراني موضع سرير بخت نصر الذي يجلس عليه بعد ما يظفر بمصر، ثم عمد فدفن أربعة أحجار في ناحية من الأرض.

فصار إليهم بخت نصر فظفر بهم وأسرهم، فلما أراد أن يقسم الفيء ويقتل الأسارى ويعتق منهم كان منهم أرميا فقال له بخت نصر: أراك مع أعدائي بعدما عرضتك له من الكرامة، فقال أرمياً عليه السلام: أني جئتم مخوفاً أخبرهم خبرك، وقد وضعت لهم علامة تحت سريرك هذا وأنت بأرض بابل، ارفع سريرك فإن تحت كلّ قائمة من قوائمه حجراً دفنته بيدي وهم ينظرون، فلما رفع بخت نصر سريره وجد مصداق ما قال، فقال لارميا: إني لأقتلنهم إذ كذبوك ولم يصدقوك، فقتلهم ولحق بأرض بابل.

الترجمة

پس بترسید ازخدا درعذاب دنیوی بغی ، وعذاب اخروی سنگینی‌ظلم ، وبدی عاقبت کبر ، پس بدرستی که اینها اسباب شکار بزرگ شیطان است ، و حیله بزرگتر او که میجهد در قلبهای مردان مثل جستن زهرهای کشنده ، پس عاجز نمیشود هر گز ، وخطا نمی کند ازمقتل أحدی ، نه ازاهل علم بجهت علم خود ، ونه از فقیر پوشیده درلباس فقر خود .

واز اینست نگاه داشتن خداوند بندگان مؤمنان خودرا بوسیلهٔ نمازهاوزکاتها وجدوجهد روزه گرفتن درأیامی که فرض‌شده‌اند بجهت ساکن کردن اعضاوجوارح ایشان ، و خاشع نمودن چشمهای ایشان ، و رام گردانیدن نفسهای ایشان ، و پست ومتواضع فرمودن قلبهای ایشان ، و بیرون بردن تجبر از ایشان برای آنکه در این‌مذکوراتست ازمالیدن‌رخسارهای‌شریفه بخاك از جهت تواضع ، و از چسباندن اعضاء کریمه بزمین از جهت حقارت ،واز ملحق‌شدن شکمها بپشتهادرروزه گرفتن از جهت ذلّت ، علاوه بآنچه در زکاة است ازصرف کردن میوهای زمین وغیر آن بسوی درویشان‌وفقیران؛ نظر نمائید بسوی آنچه در این اعمال است از ذلیل ساختن ظاهر شوندهای فخر ، واز نگاه داشتن ازطلوع کنندهای کبر .

وبتحقیق نظر کردم بنظربصیرت پس نیافتم أحدی را ازأهل عالم که تعصب کند برای چیزی از چیزها مگر بجهت علّتی که حامل اشتباه کاری جاهلان‌شود

وبجهت دلیلی که چسبد بعقلهای سفیهان بغیر از شما ، پس بدرستیکه شما تعصّب مینمائید بجهت چیزیکه شناخته نمیشود از برای آن هیچ سبب وعلتی .

أما شیطان ملعون پس تعصّب کرد و تکبر نمود بجناب آدم عليه السلام بجهت أصل خود که آتش بود ، وطعن کرد براو درخلقت او ، پس گفت بآدم عليه السلام : من از آتش خلق شده‌ام وتوازگل آفریده‌شدهٔ ، وأمّا توانگران از متنعّمان امّتها پس تعصّب کردند بجهت آثار وقوع نعمتها پس گفتند ما بیشتریم از حیثیت اموال و اولاد ونیستیم ما عذاب شدگان .

پس اگر لابدّ شود از عصبیت پس باید که شود عصبیتها بجهت مکارم‌اخلاق و کارهای پسندیده و امورات نیکو که تفاخر میکردند در آنها صاحبان مجدت ونجدت از خانوادهای عربها و رئیسان قبیلها بخلقهای مرغوبه ، و عقلهای بزرگ ومرتبه‌های بلند ، واثرهای پسندیده .

پس تعصّب نمائیدبخصلتهاي ستوده ازمحافظت حقّ همسایگی ، ووفانمودن بعهد وأمان ، واطاعت نمودن نیکوکار ، ومخالفت نمودن کبر ، وفرا گرفتن‌فضل وباز ایستادن ازبغی ، وبزرگ شمردن کشتن ناحق ، وانصاف کردن ازبرای‌خلق وفرو خوردن خشم نزد فوران غضب ، وپرهیز کردن ازفساد در زمین .

وبترسید ازچیزی که نازل شدبامّتها که پیش از شما بودند از عقوبتها بسبب بدی فعلها وزشتی عملها ، پس متذکرباشید درنیکی وبدی أحوال ایشان را ، وحذر نمائید ازآنکه باشید امثال ایشان ، پس وقتی که تفکر کردید در تفاوت دوحالت ایشان یعنی حالت خوب وحالت بد ایشان .

پس لازم شوید هر کاری را که لازم شد بسبب آن کار عزّت بحال ایشان ودورشد دشمنان بجهت آن کار از ایشان و ممدود شد رستگاری‌درآنکار بایشان ، ومنقاد شد نعمت ازبرای آنکار با ایشان ، ووصل کرد کرامت وبزرگواری برآن کار ریسمان ایشانرا که عبارتست آن کار از اجتناب و پرهیز کردن از نفاق وافتراق ولازم شدن بایتلاف واتّفاق ، وترغیب کردن برآن ، ووصیت نمودن بآن

واجتناب نمائید از هرکاری که شکست مهرهٔ پشت ایشان را ، وسست کرد قوت ایشان را از کینه جوئی قلبها بیکدیگر ، ودشمنی سینه‌ها ، و پشت بیکدیگر کردن نفسها ، وخوار کردن دستها یکدیگر را .

وتدبّر نمائید درحال گذشتگان از مؤمنین که پیش از شما بودند که چگونه بودند درحال ابتلا وامتحان ، آیانبودند ایشان سنگین ترین خلق ازحیثیت بارهای گران ، و کوشش کننده‌ترین خلق ازحیثیّت بلا ، وتنگ‌ترین اهل دنیا ازحیثیّت حال ، اخذ کرد ایشانرا فرعونیان بندگان و غلامان ، پس عذاب کردند ایشانرا به‌بدترین عذاب ، وآشامیدند ایشان را جرعه‌های تلخ ، پس بود همیشه حال ایشان در ذلّت هلاکت ، و در قهر غلبه درحالتی که نمی‌یافتند حیله وعلاجی در امتناع از ظلم ایشان ، ونه راهی بسوی دفع کردن بلای ایشان .

تا آنکه چون دید خداوند متعال کوشش درصبر از ایشان براذیّت درمحبّت او،ومتحمّل‌شدن مکروه را ازخوف‌او ، گردانیدبرای ایشان ازتنگیهای بلاومحنت گشایش ، پس بدل کرد برایشان‌عزّت‌را بجای ذلّت ، وأمنیت را بجای خوف ، پس گشتند پادشاهان وحاکمان وامامانی که علمهای هدایتند ، ورسید کرامت از جانب خدا برای ایشان بمقامی که نمی‌برد آرزوها ایشانرا بآن مقام .

پس نظرنمائید بدیدهٔ اعتبار که چگونه بودند ایشان وقتی که بود جماعتها متّفق ، وخواهشات موافق ، وقلبهامعتدل ، ودستهایاری‌یکدیگر کننده ، وشمشیرها روبنصرت یکدیگر نهنده ، وبصیرتهانافذ ، وعزیمتها متّحد ، آیا نبودند ایشان‌مالکها در اطراف زمینها ، وپادشاهان بر گردن عالمیان .

پس نظر کنید بسوی آنچه که بر گشتند بآن درآخر کارهای خودشان‌وقتی که واقع شد پراکندگی ، وپراکنده شد پیوستگی ، ومختلف شد گفتار و قلوب ، ومنتشر شدند درحالتی که مختلف بودند ، ومتفرّق گشتند درحالتی که محارب یکدیگر بودند ، بر کند خدای تعالی ازایشان لباس کرامت خودرا ، وسلب نموداز ایشان‌لذّت نعمت خودرا ، وباقی ماند قصه‌های خبرهای ایشان درشما عبرتهاازبرای عبرت کنندگان ازشما .

الفصل السادس

فَاعْتَبِرُوا بِحالِ وَلَدِ إِسْماعِيلَ وَبَنِي إِسْحاقَ وبَنِي إِسْرائِيلَ عليهم السلام فَما أَشَدَّ اعْتِدالَ الْأَحْوالِ، وأَقْرَبَ اشْتِباهَ الْأَمْثالِ، تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ في حالِ تَشَتُّتِهِمْ وتَفَرُّقِهِمْ لَيالِيَ كانَتِ الْأَكاسِرَةُ والْقَياصِرَةُ أَرْباباً لَهُمْ، يَحْتازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْآفاقِ، وبَحْرِ الْعِراقِ، وخُضْرَةِ الدُّنيا إِلىٰ مَنابِتِ الشِّيحِ، ومَهافِي الرِّيحِ، ونَكَدِ الْمَعاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عالَةً مَساكِينَ إِخْوانَ دَبَرٍ ووَبَرٍ، أَذَلَّ الْأُمَمِ داراً، وأَجْدَبَهُمْ قَراراً، لاَ يَأْوُونَ إِلىٰ جَناحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِها، وَلاَ إِلى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلىٰ عِزِّها.

فَالْأَحْوالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالْأَيْدي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ في بلاءِ أَزْلٍ، وإِطْباقِ جَهْلٍ، مِنْ بَناتٍ مَوْؤُودَةٍ، وأَصْنامٍ مَعْبُودَةٍ، وأَرْحامٍ مَقْطُوعَةٍ، وغاراتٍ مَشْنُونَةٍ.

فَانْظُرُوا إِلى مَواقِعِ نِعَمِ الله عَلَيْهِمْ حينَ بَعَثَ إِلَيْهِم رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِه طاعَتَهُمْ، وجَمَعَ عَلىٰ دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ، كَيْفَ نَشَرَتْ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَناحَ كَرامَتِها، وأَسالَتْ لَهُمْ جَداوِلَ نَعِيمِها، والْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ عَوائِدَ بَرَكَتِها، فَأَصْبَحُوا في نِعْمَتِها غَرِقِينَ، وعَنْ خُضْرَةِ عَيْشِها فاكِهِينَ، وَقَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ في ظِلِّ سُلْطانٍ قاهِرٍ، وآوَتْهُمُ الْحالُ إِلىٰ كَنَفِ عِزٍّ غالِبٍ، وتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ في ذُرى مُلْكٍ ثابِتٍ، فَهُمْ حُكّامٌ عَلىٰ الْعالَمِينَ ومُلُوكٌ في أَطْرافِ الْأَرَضِينَ، يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كان يَمْلِكُها عَلَيْهِمْ، ويُمْضُونَ الْأَحْكامَ في مَنْ كانَ يُمْضِيها فيهِمْ، لا تُغْمَزُ لَهُمْ قَناةٌ ولا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفاةٌ[1].

اللغة

(الأَكاسرة) جمع كسرى بالكسر والفتح لقب من ملك الفرس معرّب خسرو أي واسع الملك ويجمع على كياسرة وأكاسر أيضاً وكلّها خلاف القياس والقياس كسرون وزن عيسون.

و (القياصرة) جمع قيصر لقب من ملك الرّوم و(الرّيف) بالكسر أرض فيها زرع وخصب وما قارب الماء من أرض العرب، أو حيث يكون به الخضر والمياه والزّروع، و(الشيح) بالكسر نبت معروف يقال له بالفارسيّة درمنه، و(هفت الريح) هفواً هبت وهفت به أي حركته و(عالة) جمع عائل مثل قادة وقائد وهو ذو العيلة أي الفقر قال تعالى: ﴿وإن خفتم فسوف يغنيكم الله من فضله﴾.

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٧٤، وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٧٧.

و(**الدّبر**) محرّكة الجرح في ظهر البعير من دبره القتب أي عقره، و(**الوبر**) للبعير بمنزلة الصّوف للغنم و(**وأد**) بنته دفنها في التراب حيّة قال تعالى: **﴿وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت﴾** و(**شن الغارة**) عليهم صبّها من كلّ وجه، و(**تفكّه به**) تمتّع بأكله والفاكهة التّمر والعنب والثّمر كله، وفي بعض النسخ فاكهين بدل فكهين أي ناعمين، وبها قرء قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدّخان: الآية ٢٧] وقال الأصمعي فاكهين مازحين والمفاكهة الممازحة.

(**وتربعت**) الأمور بهم اعتدلت من قولهم: رجل ربعة وامرأة ربعة أي معتدل وحذف الهاء في المذكر لغة وفتح الباء فيهما أيضاً لغة، وقال الشارح المعتزلي وغيره: تربعت بمعنى أقامت من قولك ربع بالمكان أي أقام به (**الذرى**) جمع ذروة بالضم والكسر وهي أعلى الشيء، و(**الغمز**) العصر والكبس باليد قال الشاعر:

وكنت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

و(**القناة**) الرّمح و(**الصّفاة**) الصّرة والحجر الأملس.

الإعراب

جملة يحتازونهم في محلّ النّصب على الحال من الأكاسرة والقياصرة وتحتمل الاستئناف البياني، وقوله: عالة مساكين، حال مترادفة، وقوله: إخوان دبر ووبر، بدل، وجملة: لا يأوون، حالية، والفاء في قوله: فالأحوال مضطربة، فصيحة.

وقوله: في بلاء أزل، متعلّق بمقدّر أي كائنون في بلاء أزل، فيكون خبراً لمبتدأ محذوف ويحتمل الحال لقوله متفرّقة، وإضافة بلاء إلى الأزل معنويّة بمعنى من وكذا إضافة أطباق إلى الجهل، هكذا قال الشّارح البحراني ولا بأس به، ومن في قوله: من بنات بيانيّة.

وقوله: في عوائد بركتها، قال الشّارح المعتزلي والبحراني: متعلّق بمحذوف وموضعه نصب على الحال أي جمعتهم الملّة كائنة في عوائد بركتها.

أقول: ويجوز تعلقه بقوله والتفت فيكون مفعولاً بالواسطة.

وقوله: وعن خضرة عيشها، قال الشّارح المعتزلي: عن متعلقة بمحذوف تقديره، فأصبحوا فاكهين فاكهة صادرة عن خضرة عيشها أي خضرة عيش النّعمة سبب لصدور الفكاهة والمزاح عنه.

أقول: لا حاجة إلى تقدير المحذوف لجواز تعلقها بقوله فاكهين كونها بمعنى من النشوية أو بمعنى اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن

مَّوْعِدَةٍ﴾ [التّوبَة: الآية ١١٤] .

المعنى

اعلم أنّه لمّا ذكر في الفصل السّابق محاسن الألفة والاتفاق ومفاسد الفرقة والافتراق، وأمر بالتدبّر في أحوال الماضين وأنّ ألفتهم في بداية حالهم أوجبتهم العزّة والكرامة، وفرقتهم في آخر أمرهم سلبتهم غضارة النعمة فبقي قصص أخبارهم عبراً للمعتبرين من المخاطبين، اتبعه بهذا الفصل تفصيلاً لما أجمله من قصص أخبارهم وتنبيهاً على جهة العبرة في تلك القصص فقال:

(فاعتبروا بحال ولد إسماعيل) الذّبيح **(وبني إسحاق)** بن إبراهيم الخليل **(وبني إسرائيل)** يعقوب بن إسحاق سلام الله عليهم، وعلّل وجوب الاعتبار بقوله:

(فما أشدّ اعتدال الأَحوال وأقرب اشتباه الأَمثال) يعني أنّ أحوالكم أشدّ اعتدالاً وتناسباً لأَحوالهم وأنّ أمثالكم أي صفاتكم أكثر قرباً ومشابهة لصفاتهم فإذا كانت الأَحوال معتدلة متناسبة، والصّفات متشابهة متماثلة وجب لكم الاعتبار بحالهم، وأشار إلى جهة العبرة فيهم بقوله:

(تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم وتفرّقهم ليالي كانت الأَكاسرة) أي ملوك الفرس **(والقياصرة)** أي ملوك الروم **(أرباباً لهم)** أي مالكين لرقابهم، وكانت العرب تسمّى الملوك أرباباً كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٤٢].

والمراد من المربوبين كما ذكره الشارح المعتزلي: بنو إسماعيل، فالضمير في أمرهم وتشتتهم وتفرّقهم راجع إليهم، والمراد من الأَرباب بنو إسحاق وبنو إسرائيل لأنّ الأَكاسرة من بني إسحاق، ذكره كثير من أهل العلم، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً، لأنّ الرّوم بنو العيص بن إسحاق ثمّ قال الشارح:

فإن قلت: فبنو إسرائيل أيّ مدخل لهم ههنا.

قلت: لأن بني إسرائيل كانوا ملوكاً بالشام حاربوا العرب من بني إسماعيل غير مرّة وطردوهم من الشام والجأوهم إلى المقام ببادية الحجاز، ويصير تقدير الكلام فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بني إسحاق وبني إسرائيل، وتخصيص ملوك بني إسحاق أي الأكاسرة والقياصرة بالذكر دون ملوك بني إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك ولد يعقوب حتّى يذكر أسماءهم في الخطبة، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بني ساسان

وبني الأصفر، هذا ملخّص ما قاله الشّارح هنا.

أقول: وهو مع أنّه غير خالٍ عن التكلف مخالف لظاهر كلامه عليه السلام فإنه كما ترى ظاهر في كون الضمائر في أمرهم وتشتتهم وتفرّقهم ولهم جميعاً راجعة إلى بني إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل جمعيهم، ونصّ في كون الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم مسلطين عليهم، ولا حاجة إلى تجشم الاستدلال في انتهاء نسبهم إلى ولد إسحاق، فإنّ تسلطهم على العرب واليهود وغيرهم وبعبارة أخرى بني إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل ملأى منه كتب التواريخ والسير، فلا وجه لتخصيص المقهورين بالعرب والقاهرين من الأكاسرة والقياصرة ببني إسحاق وبني إسرائيل من ملوك الشام كما زعمه الشّارح.

فإن قلت: الوجه في مصير الشّارح إلى هذه التكلفات كلها، ما ذكره في كلامه قبل ما حكينا عنه ملخّصاً، من أنّه لا نعرف أحداً من بني إسرائيل احتازتهم الأكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية إلاّ أن يقال يهود خيبر والنضير وبني قريظة وبني قيقاع، وهؤلاء نفر قليل لا يعتد بهم، مع أن فحوى الخطبة مانع من إرادتهم أيضاً، لأنّهم لم يكونوا أهل دبر ووبر، وإنّما كانوا ذوي حصون وقلاع فهذا الوجه ألجأ الشّارح إلى تخصيصه المقهورين بالعرب خاصّة.

قلت: غرض أمير المؤمنين عليه السلام من سوق كلامه حسبما عرفت سابقاً وتعرفه أيضاً، أحكام لحوق الذّل على فرق الأنام بسبب التفرق واختلاف الكلام من أيّ فرقة كانت، وذكر بني إسماعيل وإسحاق وإسرائيل من باب التمثيل والاستطراد ومزيد التوضيح لهذا المرام، ومن المعلوم أن الذل اللاحق ببني إسرائيل من أجل اختلاف الآراء أظهر وأجلى من الذلّ اللاحق ببني إسماعيل، فكون كلامه ذلك إشارة إلى مقهورية الفرقتين جميعاً أثبت لهذا الغرض وأدخل في التوضيح.

وما قاله الشارح في وجه تخصيص الأذلاء المقهورين بالفرقة الثانية، فقط من عدم المعرفة يحتازه الأكاسرة والقياصرة إلى البداية من بني إسرائيل.

ففيه أوّلاً أنّه بعد ثبوت قوّة سلطنة الأكاسرة والقياصرة واستيلائهم على البلدان وكون هممهم مقصورة على فتح الأمصار وعلى القتل والنّهب في الأصقاع والأقطار تارة بالعراق وتوابعها، وأخرى بالشام ومضافاتها، فالعادة قاضية بانجلاء أهلها منها حتماً، وهربهم منها إلى البوادي والمفاوز البعيدة حفظاً للدّماء، وحذراً من النّهب والاستئصال، فعدم المعرفة بأعيان المحتازين المشرّدين وعدم وجدانهم لا يدلّ على عدم الوجود بعد شهادة الاستقراء وقضاء العادة وإفادة ظاهر كلامه عليه السلام له.

وثانياً أنّ مفاد كلامه عليه السلام كما ترى أن بني إسمعيل وإسحاق وإسرائيل كانوا مشرّدين عن عقر دارهم إلى البوادي بفعل الأكاسرة والقياصرة، يكفي في صدق هذا الكلام وصحّته كون المشرّدين من مجموع الفرق الثلاث وإن كان من بعضها قليلاً كبني إسرائيل على زعم الشّارح، ومن البعض الآخر كثيراً كبني إسماعيل، فلا حاجة على ذلك إلى تمحّل التكلّف أصلاً.

وبعد هذا كلّه فلا بأس بأن نذكر طرفاً ممّا وقع على بني إسماعيل وبني إسرائيل من القتل والغارة في دولة الأكاسر والقياصرة بملاحظة اقتضاء المقام ومسيس الحاجة.

فأقول: أمّا بنو إسرائيل أعني العرب فقد قال في روضة الصّفا: إن شابور ذا الأكتاف بن هرمز بن نرسي بن بهرام من الأكاسرة لمّا بلغ سنّه ستّ عشر سنة انتخب من أصحابه من العجم أربعة آلاف من أنجادهم، فسار معهم إلى حدود فارس، وكان هناك جماعة من الأعراب أكثروا في تلك الحدود من القتل والنّهب والفساد، فقتل منهم من وجد، وهرب الباقون، ولم يبق منهم في أطراف دجلة والفرات عين ولا أثر، ثمّ سار إلى البحرين وقطيف والحجر، فقتل من قبائل تميم وبكر بن وائل وعبد قيس وغيرها جمّاً غفيراً.

فلمّا ملّ من القتل أمر بأن يثقب أكتاف من بقي من الأعراب ويدخل في ثقبها الحبال، فلقب من ذلك بذي الأكتاف.

ولمّا قضى وطره من استئصال العرب توجّه إلى بلاد الرّوم ودخل قسطنطنية وجرى له مع قيصر قصة مشهورة في الكتب مأثورة. وفوض إليه قيصر بلدة نصيبين بين الشام والعراق فأوفد إليها اثني عشر ألفاً من أهل أصبهان وفارس وسائر البلاد فتوطنّوا فيها، ولم يبق من العرب باقية في ملكه وملك سائر الأكاسرة.

وأمّا بنو إسرائيل فقد ظهر مقهوريتهم ممّا ذكرنا في شرح الفصل المتقدّم ونزيد توضيحاً بذكر ما أورده الطبرسي في تفسير الآية المتقدّمة هناك أعني قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤] إلى قوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٧].

قال الطبرسي: اختلف المفسّرون في القصّة عن هاتين الكرّتين اختلافاً شديداً، قالوا: لمّا عتى بنو إسرائيل في المرّة الأولى سلّط الله عليهم ملك فارس وقيل: بخت نصر، وقيل: ملكاً من ملوك بابل، فخرج إليهم وحاصرهم، وفتح بيت المقدس وخرب المسجد وأحرق التوراة وألقى الجيف في المسجد، وقتل على دم يحيى سبعين ألفاً وسبى ذراريهم وأغار عليهم وأخرج أموالهم وسبى سعبين ألفاً وذهب بهم إلى بابل فبقوا في يده مائة سنة يستعبدهم المجوس وأولادهم.

ثمّ تفضّل الله عليهم بالرحمة فأمر ملكاً من ملوك فارس عارفاً بالله سبحانه وتعالى، فردّهم إلى بيت المقدس فأقاموا به مائة سنة على الطريق المستقيم والطاعة والعبادة.

ثمّ عادوا إلى الفساد والمعاصي، فجاءهم ملك من ملوك الرّوم اسمه انطياحوس فخرب بيت المقدس وسبا أهله، وقيل: غزاهم ملك الرّوميّة وسباهم عن حذيفة.

وقال محمد بن إسحاق: كانت بنو إسرائيل يعصون الله تعالى وفيهم الأحداث والله يتجاوز عنهم، وكان أوّل ما نزل بهم بسبب ذنوبهم أن الله تعالى بعث إليهم شعيا قبل مبعث زكريّا عليه السلام، وشعيا هو الذي بشر بعيسى وبمحمّد صلى الله عليه وآله.

وكان لبني إسرائيل ملك كان شعيا يرشده ويسدّده، فمرض الملك، وجاء سنجاريب إلى بيت المقدس بستمائة ألف راية، فدعى الله سبحانه شعيا فبرىء الملك ومات جمع سنجاريب ولم ينج منهم إلا خمس نفر منهم سنجاريب فهرب وأرسلوا خلفه من يأخذه، ثم أمر سبحانه بإطلاقه ليخبر قومه بما نزل بهم، فأطلقوه وهلك سنجاريب بعد ذلك بسبع سنين.

واستخلف بخت نصر ابن ابنه فلبث سبع عشر سنة وهلك ملك بني إسرائيل ومرج أمرهم وتنافسوا في الملك، فقتل بعضهم بعضها، فقام شعيا فيهم خطيباً ووعظم بعظات بليغة وأمرهم ونهاهم فهمّوا بقتله، فهرب ودخل شجرة فقطعوا الشجرة بالمنشار فبعث الله إليهم أرميا من سبط هارون ثمّ خرج من بينهم لما رأى من أمرهم، ودخل بخت نصر وجنوده بيت المقدس وفعل ما فعل، ثمّ رجع إلى بابل بسبايا بني إسرائيل فكانت هذه الدّفعة الأولى.

وقيل أيضاً: إنّ سبب ذلك كان قتل يحيى بن زكريّا، وذلك إنّ ملك بني إسرائيل أراد أن يتزوّج بنت ابنته[1] فنهاه يحيى عليه السلام وبلغ أمّها فحقدت عليه وبعثته على قتله فقتله، وقيل إنّه لم يزل دم يحيى يغلي حتّى قتل بخت نصر منهم سبعين ألفاً أو اثنين وسبعين ألفاً حتّى سكن الدّم.

وذكر الجميع أنّ يحيى بن زكريّا هو المقتول في الفساد الثاني، قال مقاتل: وكان بين الفساد الأوّل والثاني مائة سنة وعشر سنين.

وقيل إنما غزا بني إسرائيل في المرّة الأولى بخت نصر وفي المرّة الثانية ملوك فارس والرّوم وذلك حين قتلوا يحيى فقتلوا منهم مائة ألف وثمانين ألفاً وخرب بيت المقدس، فلم يزل بعد ذلك خراباً حتّى بناه عمر بن الخطاب، فلم يدخله بعد ذلك رومي إلاّ خائفاً[2].

(١) في نسخة: امرأته.

(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٥٤، وتفسير مجمع البيان: ٦/ ٢٢٤.

فقد ظهر بذلك تسلّط الأكاسرة والقياصرة على بني إسماعيل وإسرائيل بسبب **اختلاف** كلماتهم وتشتّتهم وفسادهم في الأرض وأنّهم كانوا يشرّدونهم عن بلادهم وأوطانهم **فيظهر به** معنى قوله عليه السلام:

(**يحتازونهم**) أي يبعدونهم (**عن ريب الآفاق**) أي الأماكن المشتملة على المزارع والمراتع، والمنتجع من بلاد الشام وأراضي العرب القريبة من الماء (**وبحر العراق**) وهو دجلة والفرات، (**وخضرة الدّنيا إلى منابت الشيح**) وهي أرض العرب الخالي من الماء والكلاء، (**ومهافي الرّيح**) أي المواضع الّتي تهفو فيها الرياح وتهبّ من الفيافي والصّحارى (**ونكد المعاش**) أي ضيقه وقلّته (**فتركوهم عالة**) أي فقراء (**مساكين إخوان دبر ووبر**) أي معاشرين بجمال دبراء عجفاء عقراء، وهو إشارة إلى سوء الحال وضيق المعاش، فإنّ استعمال الجمل الأدبر والتعيّش بوبره علامة الضّر والمسكنة.

قال الشارح المعتزلي: إنّهم أجدبوا حتّى أكلوا الدّم بالوبر وكانوا يسمّونه العلهز[١]، انتهى.

وقد مضى في شرح الخطبة السّادسة والعشرين فصل واف في ضيق حال العرب وسوء معاشهم قبل بعثة النّبي صلى الله عليه وآله.

(**أذلّ الأمم داراً**) لعدم المعاقل والحصون المنيعة وإن كان لبعضهم حصن فلم يكن بحيث يحصن من عدو ذي عدد وقوّة (**وأجدبهم قراراً**) أي مستقرّاً لخلوه من الزرع والثّمر والخصب (**لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها**) أي لا يلتجؤون ولا ينضمّون إلى من يحبهم ويحضنهم إذا دعوه واستغاثوا به كما يحمي الطّاير فرخه بجناه ويحضنه.

ووصف الدّعوة بوصف الاعتصام لأنْ من عادة العرب إذا هجم عليهم عدوّ لا يتمكّنون من مقاومته يستغيثون بسائر القبائل ويستنجدونهم، فيعتصمون بالاستنجاد والدّعوة عن الشرّ والمكروه قال الشّاعر:

ألا يا أم زنباغ أقيمي صدور العيس نحو بني تميم
هنالك لو دعوتِ أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم

(**ولا إلى ظلّ ألفة يعتمدون على عزّها**) إضافة ظل إلى ألفة من إضافة المشبّه به إلى المشبّه، ووجه الشّبه أنّ الظّل سبب الرّاحة والسّلامة من حرارة الشمس والألفة سبب الرّاحة والسلامة من نار العدوّ، ووصف الألفة بالاعتماد لأن الألفة مستلزم العزّ، فبالاعتماد عليها

(١) العلهز: القراد الضخم، وطعام من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة.

يحصل العزّ اللازم منها.

ولمّا بيّن مساوىء حالاتهم من الفقر والفاقة والذلّة وضيق المعاش وغيرها فرّع عليه قوله:

(فالأحوال) أي أحوالهم **(مضطربة والأيدي مختلفة والكثرة متفرّقة)** كائنين **(في بلاء أزل وإطباق جهل)** أي في شدّة بلاء وطبقات من الجهل أي جهل متراكم بعضه فوق بعض، قال الشارح البحراني: وفي نسخة الرّضي وإطباق بكسر الهمزة فيكون المعنى وجهل مطبق عليهم عام.

ثمّ فصل ما نشأ من هذا الجهل من القبائح والفضائح بقوله **(من بنات موؤودة)** أي مدفونة حيّة فقد كانت العرب يئدون البنات ويرشد إليه قوله تعالى: **﴿وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾**.

وقيل إنّه مختصّ بني تميم واستفاض منهم في جيرانهم، وقيل: بل كان ذلك أي الوأد في بني تميم وقيس أسد وهذيل وبكر بن وائل ويؤيّده قوله: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾.

واختلفوا في سبب الوأد فقيل: هو الفقر والإملاق، قالوا: وذلك إنّ رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: اللّهم اشدد وطأتك على مضر واجعل عليهم سنين كسني يوسف، فأجدبوا سبع سنين حتّى أكلوا الوبر بالدّم فوأدوا البنات لفقرهم، ويدلّ على ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١].

وقيل: بل الأنفة ولحوق العار بهم من أجلهن، وذلك إنّ تميما منعت النعمان بن المنذر الخراج سنة من السّنين فوجّه إليهم أخاه الريّان بن المنذر فأغار عليهم واستاق النّعم وسبى الذّراري، فوفدت بنو تميم إلى النعمان واستعطفوه، فرقّ عليهم وأعاد عليهم السّبي وقال كلّ امرأة اختارت أباها ردت عليه وإن اختارت صاحبها تركت عليه، فكلّهن اخترن أباهن إلّا بنت قيس بن عاصم فإنها اختارت من سباها، فنذر قيس بن عاصم المنقري التميمي أن لا تولد له بنت إلاّ وأدها، ثمّ اقتدى به كثير من بني تميم.

واختلف في كيفيّة الوأد فقيل: كان الرّجل إذا ولدت له بنت فأراد بقاء حياتها ألبسها جبّة من صوف أو شعر لترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتّى إذا بلغت قامتها ستّة أشبار فيقول لأمّها طيّبيها وزيّنيها حتّى أذهب بها إلى أقاربها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها إلى البئر فيقول لها: انظري فيها ثمّ يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتّى يستوي البئر بالأرض.

وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرةً فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتاً رمتها في الحفرة، وإذا ولدت ابناً أمسكته.

وكانت صعصعة بن ناجية ممنّ منع الوأد، فافتخر الفرزدق به في قصيدته الّتي يهجو بها جريراً، وهو قوله:

ومنّا الّذي أحيي الوئيد وغالب وعمرو ومنّا حاجب والأقارع

وقد حكينا في ديباجة الشّرح، عن ابن أبي الدّينا أنّه قال: لم يكن أحد من أشراف العرب بالبادية كان أحسن ديناً من صعصعة، وهو الذي أحيى ألف موؤودة وحمل على ألف فرس.

وروى الشّارح المعتزلي هنا قال: إنّ صعصعة لمّا وفد على رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله إنّي كنت أعمل في الجاهليّة عملاً صالحاً فهل ينفعني ذلك اليوم؟ قال ﷺ: وما عملت؟ قال: أضللت ناقتين عشراوين فركبت جملاً ومضيت في بغائهما فرفع لي بيت حريد فقصدته فإذا شيخ جالس بفنائه فسألته عن الناقتين فقال: ما نارهما؟ قلت: ميسم بني دارم قال: هما عندي وقد أحيى الله بهما قوماً من أهلك من مضر، فجلست معه ليخرجهما إليّ فإذا عجوز قد خرجت من كسر البيت فقال لها: ما وضعت؟ فإن كان سقياً شاركنا في أموالنا وإن كان حائلاً أوأدناها، فقالت العجوز: وضعت أنثى، فقلت له: أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادها؟ قلت: إنّما أشتري حياتها ولا اشتري رقها، قال: فبكم؟ قلت: احتكم، قال: بالنّاقتين والجمل، قلت: ذاك لك على أن يبلغني الجمل فياها، قال: قد بعتك، فاستنقذتها منه بالجمل والنّاقتين وآمنت بك يا رسول الله وقد صارت لي سنة في العرب أن أشتري كلّ موؤودة بناقتين عشراوين وجمل، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موؤودة قد أنقذتهنّ، فقال ﷺ: لا ينفعك ذلك لأنّك لم تبتغ به وجه الله وإن تعمل في إسلامك عملاً صالحاً تصب عليه[١].

(وأصنام معبودة) قد مضى في شرح السّادس عشر من **«المختار»** الأوّل أنّ جمهور العرب كانوا عند بعثة النبي ﷺ عبدة أصنام، ومضى هناك تفصيل أصنامهم المعبودة ولا حاجة إلى الإعادة.

(وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة) أي مصبوبة من كلّ جهة، فإنّ القتل والغارة وقطع الأرحام كانت من شعار العرب في الجاهليّة، وقد أشار إلى ذلك وإلى بعض ما تقدّم هنا من

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/١٧٧.

حالات العرب في الفصل الأوّل من «**المختار**» السّادس والعشرين حيث قال عليه السلام هناك:

إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار، بين حجارة خشن، وحيّات صم، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة.

وقد ألّف إبراهيم بن مسعود الثقفي كتاباً سمّاه كتاب «**الغارات**» جمع فيه غارات العرب وحروبهم، وإن شئت أرشد إلى اثنين من تلك الحروب والغارات فإنّهما أنموذج منها.

أحدهما ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب الّتي تطاولت مائة وعشرين سنة إلى أن ألف الله بين قلوبهم بالإسلام.

وثانيهما ما كان بين تغلب وبكر بن وابل أربعين سنة حتّى صار من أمثال العرب السّائرة أشأم من البسوس.

قيل: إنها امرأة كانت لها ناقة فرآها كليب ترعى في حماه وقد كسرت بيض طائر كان قد أجاره، فرمى ضرعها بسهم فوثب جساس إلى كليب فقتله، فهاجت الحرب بين بكر وتغلب «تغلب وبكر ظ» بن وابل أربعين سنة.

قال التفتازاني: البسوس زارت أختها البهيلة وهي أمّ جساس بجار لها من جرم زياد له ناقة وكليب قد حمى أرضاً من العالية فلم يكن يرعاها إلاّ إبل جساس لمصاهرة بينهما، فخرجت في إبل جساس ناقة الجرمى ترعى في حمى كليب فأنكرها كليب فرماها فاختلّ زرعها[1] فولّت حتّى بركت بفناء صاحبها وزرعها[2] تشخب دما ولبناً، وصاحب البسوس: واذلاّه واعزيتاه، فقال جساس أيّتها الحرّة اهدئي فوالله لأعقرن فحلا هو أعزّ على أهله منها، فلم يزل جساس: يتوقّع عزّة كليب حتّى خرج وتباعد عن الحيّ فبلغ جساساً خروجه، فخرج على فرسه واتّبعه فرمى صلبه حتّى وقف عليه، فقال كليب: يا عمرو أغثني بشربة من ماء فأجهز عليه ونشب الشّر بين تغلب وبكر أربعين سنة.

وهذا أنموذج من شن الغارات في العرب وقطع الأرحام أوردناه تبصرة لك وتوضيحاً لكلامه عليه السلام هذا.

ولمّا ذكر ما كانت العرب عليه قبل بعثة النّبي صلى الله عليه وآله من الضّيم والذّل والفقر والجهل، أردفه بالتّنبيه على أعظم ما أنعم الله سبحانه به عليهم من بعث النبيّ الكريم محمد صلى الله عليه وآله إليهم

---

(١) في نسخة: ضرعها.

(٢) في نسخة: ضرعها.

وتبديل سوء حالهم بحسن الحال ببركة هذه النعمة العظيمة فقال:

(فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً) كريماً **(فعقد)** أي الله سبحانه أو الرّسول ﷺ **(بملّته طاعتهم)** لأن طاعتهم قد كانت في الجاهليّة تابعة لأهوائهم الباطلة، متشتّتة بتشتّت الآراء المختلفة، فلذلك اتخذوا لهم آلهة فأطاع كل منهم إلهه وصنمه فعقد الملة طاعتهم لله تعالى بعد الانتشار وعبادة الأصنام.

(وجمع على دعوته) أي الرّسول **(ألفتهم)** بعد طول تضاغن القلوب وتشاحن الصّدور وأشار إلى تفصيل مواقع نعم الله بقوله:

(كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها) شبّه النعمة أي نعمة الإسلام الحاصلة بالبعثة في انبساطها عليهم بالطائر الباسط لجناحه على فرخه على سبيل الاستعارة بالكناية وذكر الجناح تخييل والنّشر ترشيح.

(وأسالت) أي أجرت **(لهم جداول نعيمها)** والكلام في هذه القرينة مثله في سابقتها، فإنّ ﷺ شبه النعمة بالنّهر العظيم الذّ تسيل منه الجداول والأنهار الصّغار إلى المحال القابلة والمواضع المحتاجة، فأثبت الجداول تخييلاً والإسالة ترشيحاً، ووجه الشّبه أنّ جريان الجداول من النهر سبب لحياة الموات من الأرض وكذلك إفاضة أنواع النّعم وشؤون الخيرات من نعمة الإسلام الّتي هي أعظم النعماء في المواد المستعدّة سبب لحياة القلوب الميّتة بموت الجهل والضّلالة مضافة إلى الثّمرات الدّنيويّة.

(والتقت الملّة بهم عوائد بركتها) أي جمعتهم ملّة الإسلام بعدما كانوا متفرّقين في منافعها ومعروفاتها الحاصلة ببركتها، فكأن تلك المنافع ظرفاً لاجتماعهم حاوية لهم محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

(فأصبحوا) أي صاروا بحواية عوائدها لهم **(في نعمتها غرقين)** والتعبير به مبالغة في إحاطة النعمة عليهم من جميع الجهات إحاطة الماء بالغرقى والغائصين.

(وعن خضرة عيشها فكهين) أي اشربن فرحين بسعة المعاش وطيبه، أو ناعمين مازحين من خضرة العيش.

(وقد تربعت الأمور بهم) أي اعتدلت أمورهم واستقامت **(في ظل سلطان قاهر)** أي سلطان الإسلام الغالب على سائر الأديان **(وآوتهم الحال)** أي ضمّتهم حسن حالهم وأنزلتهم **(إلى كنف عز غالب)** أي إلى جانبه وناحيته أو كناية عن حرزه كما في قولك: أنت في كنف الله، أي حرزه وستر **(وتعطّفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت)** أي أقبلت السعادات الدّنيوية والأخرويّة عليهم بعد إدبارها عنهم إقبال الشفيق العطوف على من يشفق ويتعطف

عليه في أعالي السّلطنة الثّابتة المستقرّة.

(فهم حكّام على العالمين وملوك في أطراف الأرضين يملكون الأمور) أي أمور الملك والسلطنة **(على من كان يملكها عليهم)** من الكفرة الفجرة **(ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم)** من كفار مكّة، وقريش وغيرهم من عبدة الأوثان **(لا تغمز لهم قناة ولا تقرع لهم صفاة)** إشارة إلى قوّتهم وعدم تمكّن الغير من قهرهم وغلبتهم.

قال الشارح المعتزلي: ويكنّى عن العزيز الّذي لا يضام فيقال: لا يغمز له قناة، أي هو صلب والقناة إذا لم تكن في يد الغامز كانت أبعد عن الحطم والكسر، قال: ولا تقرع لهم صفاة مثل يضرب لمن لا يطمع في جانبه لعزّته وقوّته.

تبصرة

لمّا كان أوّل هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمّناً للإشارة إلى ملك الأكاسرة، وآخرها متضمّناً للإشارة إلى بعثة الرّسول صلى الله عليه وآله، واقتصاص حال أهل الجاهليّة في دولة الأكاسرة وأيّام الفترة وحين البعثة وبعدها، أحببت أن أورد هنا رواية متضمّنة لهذا المرام، مُبيّناً فيها أسماء الملوك مفصّلاً من زمن عيسى إلى زمن الرسول صلى الله عليه وآله وأسماء المبعوثين قبله صلى الله عليه وآله من الأنبياء والرّسل عليهم السلام لمزيد ارتباطها بالمقام فأقول:

روى الصّدوق في كتاب **«إكمال الدّين»** عن أبيه ومحمّد بن الحسن رضي الله عنهما قالا: حدّثنا سعد بن عبد الله قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن عيسى عن العبّاس بن معروف عن عليّ بن مهزيار عن الحسن بن سعيد عن محمّد بن إسماعيل القرشي عمّن حدّثه عن إسماعيل بن أبي رافع عن أبيه أبي رافع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ جبرئيل نزل عليّ بكتاب فيه خبر الملوك ملوك الأرض قبلي، وخبر من بعث قبلي من الأنبياء والرّسل - وهو حديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة إليه - قال:

لمّا ملك أشبح بن أشجان وكان يسمى الكيس وكان قد ملك مئتي وستّاً وستّين سنة.

ففي سنة إحدى وخمسين من ملكه بعث الله عزّ وجل عيسى ابن مريم عليه السلام واستودعه النور والعلم والحكم وجميع علوم الأنبياء قبله، وزاده الإنجيل، وبعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه وحكمته وإلى الإيمان بالله ورسوله، فأبى أكثرهم إلاّ طغياناً وكفراً، فلمّا لم يؤمنوا به دعا ربه وعزم عليه، فمسخ منهم شياطين ليريهم آية فيعتبروا فلم يزدهم ذلك إلاّ طغياناً وكفراً، فأتى بيت المقدس فمكث يدعوهم ويرغبهم فيما عند الله ثلاثاً وثلاثين سنة حتّى طلبه اليهود وادّعت أنّها عذّبته ودفنته في الأرض، وادّعى بعضهم أنّهم قتلوه وصلبوه، وما كان الله ليجعل لهم سلطاناً عليه وإنّما شبّه لهم وما قدروا على عذابه

ودفنه وعلى قتله وصلبه لقوله عزّ وجل: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] ولم يقدروا على قتله وصلبه لأنهم لو قدروا على ذلك كان تكذيباً لقوله تعالى: ولكن رفعه الله إليه بعد أن توفاه عليه السلام.

فلمّا أراد أن يرفعه، أوحى إليه أن استودع نور الله وحكمته وعلم كتابه شمعون ابن حمّون الصّفا خليفة على المؤمنين، ففعل ذلك فلم يزل شمعون في قومه يقوم بأمر الله عزّ وجلّ ويهتدي بجميع مقال عيسى في قومه من بني إسرائيل وجاهد الكفّار، فمن أطاعه وآمن به فيما جاء به كان مؤمناً، ومن جحده وعصاه كان كافراً حتى استلخص ربّنا تبارك وتعالى وبعث في عباده نبيّاً من الصّالحين وهو يحيى بن زكريّا عليه السلام وقبض شمعون.

وملك عند ذلك أردشير بن أشكان «زار كان خ ل» أربع عشرة سنة وعشرة أشهر، وفي ثمان سنين من ملكه قتلت اليهود يحيى بن زكريا عليه السلام.

ولمّا أراد الله سبحانه أن يقبضه أوحى إليه أن يجعل الوصيّة في ولد شمعون ويأمر الحواريّين وأصحاب عيسى عليه السلام بالقيام معه ففعل ذلك.

وعندها ملك سابور بن أردشير ثلاثين سنة حتّى قتله الله واستودع علم الله ونوره وتفصيل حكمته في ذرّيته يعقوب بن شمعون ومعه الحواريّون من أصحاب عيسى عليه السلام.

وعند ذلك ملك بخت نصر مائة سنة وسبعاً وثمانين سنة، وقتل من اليهود سبعين ألف مقاتل على دم يحيى بن زكريّا وخرّب بيت المقدّس وتفرّقت اليهود في البلدان.

وفي سبعة وأربعين سنة من ملكه بعث الله عزّ وجلّ العزير نبيّاً إلى أهل القرى التي أمات الله عزّ وجلّ أهلها ثمّ بعثهم له وكانوا عن قرى شتى فهربوا فرقاً من الموت فنزلوا في جوار عزير وكانوا مؤمنين وكان عزير يختلف إليهم ويسمع كلامهم وإيمانهم وأحبّهم على ذلك، وآخاهم عليه فغاب عنهم يوماً واحداً ثمّ أتاهم فوجدهم صرعى موتى فحزن عليهم، وقال: ﴿**أنى يحيى هذه الله بعد موتها**﴾ تعجباً منه حيث أصابهم قد ماتوا أجمعين في يوم واحد، فأماته الله عزّ وجلّ عند ذلك مائة عام فلبث «وهي خ ل» فيهم مائة سنة ثم بعثه الله وإيّاهم وكانوا مائة ألف مقاتل ثمّ قتلهم الله أجمعين لم يفلت منهم أحد على يدي بخت نصر.

وملك بعده مهروية بن بخت نصر ستّ عشر سنة وستّ وعشرين يوماً.

وأخذ عند ذلك دانيال وحفر له جبّاً في الأرض وطرح فيه دانيال عليه السلام وأصحابه وشيعته من المؤمنين فألقى عليهم النيران، فلمّا رأى أنّ النّار ليست تقربهم ولا تحرقهم استودعهم الجبّ وفيه الأسد والسّباع وعذّبهم بكلّ لون من العذاب حتّى خلّصهم الله عزّ وجلّ منه وهم

الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز فقال عزّ وجلّ ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝﴾ [البُرُوج: الآيتان ٤ و٥] .

فلمّا أراد الله أن يقبض دانيال أمره أن يستودع نور الله وحكمته مكيخا بن دانيال ففعل.

وعند ذلك ملك هرمز ثلاثة وستّين[1] سنة وثلاثة أشهر وأربعة أيّام.

وملك بعده بهرام ستّة وعشرين سنة.

وولّي أمر الله مكيخا بن دانيال وأصحابه المؤمنين وشيعته الصديقون غير أنّهم لا يستطيعون أن يظهروا الإيمان في ذلك الزّمان ولا أن ينطقوا به.

وعند ذلك ملك بهرام بن بهرام سبع سنين، وفي زمانه انقطعت الرّسل فكانت الفترة.

وولّي الأمر مكيخا بن دانيال وأصحابه المؤمنين فلّما أراد الله عزّ وجلّ أن يقبضه أوحى إليه في منامه أن استودع «يستودع» نور الله وحكمته ابنه انشو بن مكيخا وكانت الفترة بين عيسى وبين محمد ﷺ أربع مائة وثمانين سنة وأولياء الله يومئذ في الأرض ذرّية انشو بن مكيخا يرث ذلك منهم واحد بعد واحد ممّن يختاره الجبار عزّ وجلّ.

فعند ذلك ملك سابور بن هرمز اثنين وسبعين سنة، وهو أوّل من عقد التّاج ولبسه.

ووليّ أمر الله يومئذ انشو بن مكيخا.

وملك بعد ذلك أردشير اخو سابور سنتين، وفي زمانه بعث الله الفتية أصحاب الكهف والرّقيم.

وولي أمر الله يومئذ في الأرض رسيحا[2] بن انشوبن مكيخا.

وعند ذلك ملك سابور بن أردشير خمسين سنة.

وولّي أمر الله يومئذ رسيحاء بن أنشو.

وملك بعده يزدجرد بن سابور إحدى وعشرين وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً.

وولّي أمر الله يومئذ في الأرض رسيحا عليه السلام، ولما أراد الله عزّ وجل أن يقبض رسيحا أوحى إليه أن استودع علم الله ونوره وتفصيل حكمته نسطورس بن رسيحا.

---

(١) في نسخة: ثلاثين.

(٢) في نسخة: رشيحا.

فعند ذلك ملك بهرام جورستّا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وولّي أمر الله يومئذ نسطورس بن رسيحا.

وعند ذلك ملك فيروز بن يزدجرد بن بهرام سبعة وعشرين سنة.

ووليّ أمر الله يومئذ نسطورس بن رسيحا وأصحابه المؤمنين، فلمّا أراد الله عزّ وجلّ أن يقبضه أوحى إليه في منامه أن استودع نور الله وحكمته وكتبه مرعيداً.

وعند ذلك ملك فلاس بن فيروز أربع سنين.

وولّي أمر الله عزّ وجل مرعيدا.

وملك بعده قباد بن فيروز ثلاثاً وأربعين سنة.

وملك بعده جاماسف أخو قباد ستّاً وأربعين «خ ل ستين» سنة وولّي أمر الله يومئذ في الأرض مرعيداً.

وعند ذلك ملك كسرى بن قباد ستّاً وأربعين سنة وثمانية أشهر ووليّ أمر الله يومئذ مرعيداً عليه السلام وأصحابه وشيعته المؤمنين، فلمّا أراد الله عزّ وجل أن يقبض مرعيدا أوحى إليه في منامه أن استودع نور الله وحكمته بحيراء الرّاهب ففعل.

فعند ذلك ملك هرمز بن كسرى ثلاث وثمانين سنة.

ووليّ أمر الله يومئذ بحيرا وأصحابه المؤمنون وشيعته الصّديقون.

وعند ذلك ملك كسرى بن هرمز بن پرويز وولي أمر الله يومئذ بحيرا.

حتّى إذا طالت المدّة وانقطع الوحي واستخف بالنعم، واستوجب الغير ودرس الدّين وتركت الصلاة، واقتربت السّاعة وكثرت الفرق وصار النّاس في حيرة وظلمة وأديان مختلفة، أمور متشتّة وسبل ملتبسة، ومضت تلك القرون كلها ومضى صدر منها على منهج نبيّها عليه السلام، وبدّل آخر نعمة الله كفراً وطاعته عدواناً، فعند ذلك استخلص الله عزّ وجل لنبوّته ورسالته من الشجرة المشرفة الطيّبة والجرثومة المتحيّزة[1] التي اصطفاها الله عزّ وجلّ في سابق علمه ونافذ قوله قبل ابتداء خلقه، وجعلها منتهى خيرته وغاية صفوته ومعدن خاصّته محمداً صلى الله عليه وآله واختصّه بالنّبوة واصطفاه بالرّسالة وأظهر بدينه الحق ليفصل بين عباد الله القضاء، ويعطي في الحق جزيل العطاء، ويحارب أعداء رب السّماء وجمع عند ذلك ربّنا تبارك وتعالى

---

(١) في نسخة: المتمرة.

لمحمّد ﷺ علم الماضين وزاده من عنده القرآن الحكيم بلسان عربي مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيه خبر الماضين وعلم الباقين[(١)].

بيان

ما في هذه الرّواية من كون الفترة بين عيسى ومحمد أربع مائة وثمانين سنة مخالف لما في «البحار»، من كتاب «كمال الدّين» بسنده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان بين عيسى وبين محمد ﷺ خمس مائة عام منها مائتان وخمسون عاماً ليس فيها نبيّ ولا عالم ظاهر، قلت: فما كانوا؟ قال: كانوا متمسكين بدين عيسى، قلت: فما كانوا؟ قال: مؤمنين ثمّ قال عليه السلام: ولا تكون الأرض إلاّ وفيه عالم[(٢)].

وفيه أيضاً من «الاحتجاج» قال: سأل نافع مولى ابن عمر أبا جعفر عليه السلام كم بين عيسى وبين محمّد ﷺ من سنة؟ قال: أجيبك بقولك أم بقولي؟ قال: أجبني بالقولين قال عليه السلام: أمّا بقولي فخمس مائة سنة، وأمّا قولك فست مائة سنة[(٣)].

قال المحدّث العلامة المجلسي بعد نقل هذه الأخبار: والمعوّل على هذين الخبرين، ثمّ قال: ويمكن تأويل الخبر المتقدّم بأن يقال: لم يحسب بعض زمان الفترة من أوّلها لقرب العهد بالدّين.

أقول: أمّا أنّ التعويل على ما تضمّنه الخبران من كون المدّة بينهما خمس مائة عام فلا غبار عليه لشهرته. وأمّا التّأويل الّذي ذكره في الخبر فليس بذلك البعد ولكن في خصوص هذه الفقرة منه إلاّ أنّ السنين المشخّصة فيه لكلّ من السلاطين بين عيسى ومحمّد ﷺ يزيد مجموعها على تسع مائة سنة ومنافاته لكون المدّة بينهما خمس مائة سنة كما في الخبرين واضح ولا يمكن دفعه بالتّأويل المذكور، والجمع بينهما محتاج إلى التأمل.

---

(١) كمال الدين: ٢٢٨، وبحار الأنوار: ١٤/ ٥٢٠.

(٢) تفسير الميزان: ١٩/ ٢٥٧، وكمال الدين: ١٦١ ح٢٠.

(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٤٦ ح٢.

الترجمة

پس عبرت بردارید بحالت فرزندان جناب اسماعیل و پسران جناب إسحاق وفرزندان جناب یعقوب عليه السلام پس چه قدر سخت است معتدل شدن حالت شما با حالات ایشان ، وچه نزدیکست مشابهت صفات شما بصفتهای ایشان ، تدبّر نمائید کار ایشان را در حال پراکندگی ایشان و متفرّق بودن ایشان در شبهائی که بودند پادشاهان فارس وروم پادشاه ایشان ، درحالتي که دور میکردند ایشانرا از کشتزار آفاق و از دریای عراق که شطّ وفراتست ، وازسبزی دنیا یعنی بلاد معموره بسوی مواضع روئیدن درمنه (١) ومکانهای وزیدن باد وتنگی معاش .

پس گذاشتند پادشاهان ایشان را درحالتی که فقراو مساکین بودند برادران شتران مجروح صاحب کرك درحالتی که ذلیل‌ترین امّتها بودند از حیثیت خانه ، وقحط‌ترین ایشان بودند ازحیثیّت منزل ومقر ، نمي‌توانستند خودشان را بچسبانند وپناه برند بسوی جناح دعوتی که طلب حفظ کنند با آن ، ونه بسوی سایهٔ الفتي که اعتماد نمایند برعزّت آن .

پس احوال ایشان پریشان بود ودستهای ایشان مختلف ، وجمعیت و کثرت ایشان متفرّق ، در شدّت بلا وجهالت عام از دختران زنده درگور شده ، و بتهای عبادت کرده شده ، ورحمهای بریده شده ، وغارتهای ریخته شده ازهرطرف .

پس نظر کنید بمواقع نعمتهای خداوند برایشان وقتی که مبعوث فرمود بسوی ایشان پیغمبری را یعنی محمّد مصطفی صلى الله عليه وآله ، پس منعقد ساخت بامّلت خود اطاعت ایشانرا ، وجمع فرمود با دعوت خود الفت ایشان را چگونه منتشر ساخت و فراخ گردانید نعمتی که برایشان بود بال کرامت خودرا ، و جاری ساخت برایشان نهرهای نازونعمتهای خود ، وپیچیده شد ملّت بایشان یعنی جمع نمود دین اسلام ایشانرا درمنافع برکت خود .

---

(١) با ترکی یوشان . م

الترجمة

پس گرديدند در نعمت ملت غرق شدگان ، و از سبزى وطراوت عيش آن شادمان ، بتحقيق كه مستقيم شد كارهاى ايشان در سايهٔ سلطان غالب ، و نازل كرد ايشانرا حالت‌ايشان بسوى پناه عزّت قاهر ، ومهربانى كردند كارهابرايشان دربلنديهاى پادشاهى ثابت .

پس ايشان حاكمانند برعالميان ، وپادشاهانند در أطراف زمينها ، مالك مى‌شوند دركارها بر كسانى كه مالك بودند درآن كارهابرايشان ، وامضا مى كنند وجارى مى‌سازند حكمها را دراشخاصى كه امضاء مى‌نمودند آن كارهارا درايشان فشرده نمى‌شود براى ايشان هيچ نيزهٔ بجهت قوت ايشان ، و كوبيده نمى شود مرايشانرا هيچ سنگى بجهت غايت قدرت وجرأت ايشان .

هذا آخر الجزء الحادي عشر من هذه الطبعة النفيسة القيمة، وقد تم تصحيحه وتهذيبه وترتيبه بيد العبد ـ السيد إبراهيم الميانجي ـ عفى عنه وعن والديه، وذلك في اليوم الثالث عشر من شهر رجب الأصب، يوم ميلاد الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين سنة ١٣٨٢ ويليه إن شاء الله الجزء الثاني عشر وأوله «الفصل السابع» والحمد لله رب العالمين.

محتوى الجزء الحادي عشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

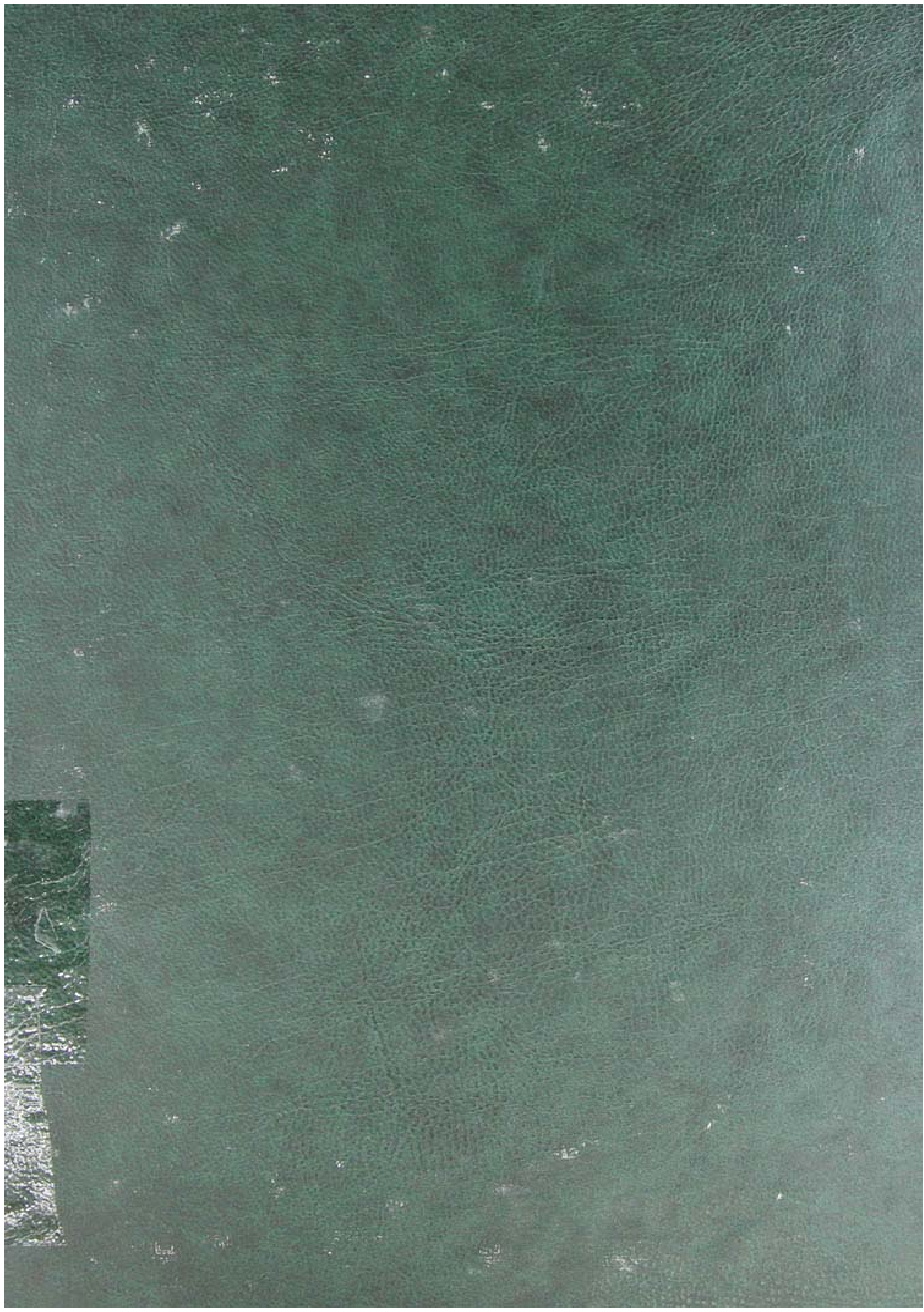

مِنهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الثاني عشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل السابع

«ألاَ وإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُم مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وثَلَمْتُمْ حِصْنَ الله المَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكامِ الجاهِلِيَّةِ، وإِنَّ الله سُبْحانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَىٰ جَماعَةِ هٰذِهِ الأُمَّة فيما عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هٰذِهِ الأُلْفَةِ، الَّتِي يَنْتَقِلُونَ[1] في ظِلِّها، ويَأْوُونَ إلىٰ كَنَفِها، بِنِعْمَةٍ لا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ المَخْلُوقِينَ لَهَا قيمَةً، لأَنَّها أَرْجَحُ مِن كُلِّ ثَمَنٍ، وأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الهِجْرَةِ أَعْراباً، وبَعْدَ المُوالاةِ أَحْزاباً، ما تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ بِاسْمِهِ، ولا تَعْرِفُونَ مِنَ الإِيْمَانِ إِلاَّ رَسْمَهُ، تَقُولُونَ: النَّارَ وَلاَ العارَ، كَأَنَّكُم تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِؤُا الإِسْلاَمَ عَلَىٰ وَجْهِهِ انْتِهاكاً لِحَرِيمِه، ونَقْضاً لمِيثاقِهِ، الَّذي وَضَعه الله لَكُمْ حَرَماً في أَرْضِه، وأَمْناً بَيْنَ خَلْقِه، وإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إلى غَيْرِهِ حارَبَكُمْ أَهْلُ الكُفْرِ، ثُمَّ لا جَبْرَئِيلَ ولا ميكائيلَ ولا مُهاجِرِينَ ولا أَنصارَ يَنْصُرُونَكُم إِلاَّ المُقارَعَةُ بِالسَّيْفِ، حَتَّىٰ يَحْكُمَ الله بَيْنَكُمْ، وإِنَّ عِنْدَكُمُ الأَمْثالَ مِنْ بَأْسِ الله وقَوارِعِه، وأَيامِهِ ووَقايِعِه.

فَلا تَسْتَبْطِؤُا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِه، وتَهاوناً بِبَطْشِه، ويَأْساً مِنْ بَأْسِه، فإِنَّ الله سُبْحانَهُ لَمْ يَلْعَنِ القَرْنَ الماضِيَ[2] بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، فَلَعَنَ الله السُّفَهاءَ لِرُكُوبِ المَعاصي، والحُلَماءَ لِتَرْكِ التَّناهي، ألا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الإِسْلاَمِ، وعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وأَمَتُّمْ أَحْكامَهُ»[3].

اللغة

(**نفضت**) الورقة من الشجرة أسقطتها، ونفضت الثوب نفضاً حركته ليزول عنه الغبار ونحوه فهو منتفض و (**ثلمت**) الإناء ثلماً من باب ضرب، كسرته من حافته فهو متثلم، والثلمة في الحائط وغيره الخلل، والجمع ثلم مثل غرفة وغرف و (**الخطر**) محرّكة السّبق الذي

---

(١) في نسخة: يتقلّبون. (٢) في نسخة: القُرُونَ الماضِيَةَ

(٣) البحار ١٤/ ٤٧٤.

يتراهن عليه، وخطر الرّجل خطراً وزان شرف شرفاً إذا ارتفع قدره ومنزلته فهو خطير.

و **(الأحزاب)** جمع حزب وهو الطّائفة من الناس وتحزّب القوم صاروا أحزاباً، ويوم الأحزاب هو يوم الخندق و **(كفأت)** الإناء قلبته وأكفأته مثله و **(بطش به)** من باب نصر وضرب أخذه بالعنف والسّطوة كالبطشة، والبطش الأخذ الشديد في كل شيء و **(تناهوا عن المنكر)** نهى بعضهم بعضاً.

الإعراب

قال الشارح المعتزلي: **(الباء)** في قوله: بنعمة، متعلّقة بقوله: امتنّ، **(وفي)** من قوله: فيما عقد بينهم متعلّقة بمحذوف وموضعها نصب على الحال، انتهى.

والظاهر من سياق كلامه: أن **(ذا الحال)** هو قوله: بنعمة، أي امتنّ بنعمة حاصلة فيما عقداه، ولا يضرّ تقدمها عليه لكونها ظرفاً يغتفر فيه ما لا يغتفر في غيره، ويجوز أن يكون **(ذو الحال)** قوله: على جماعة، أي امتنّ على جماعة هذه الأمة حال كونهم ثابتين مستقرين فيما عقد بينهم.

وقوله: النّار ولا العار، منصوبان بفعل مضمر، أي ادخلوا النار ولا تلتزموا العار، وانتهاكاً مفعول لأجله لقوله: تريدون، أو لقوله: تكفؤاً، والثاني أظهر وأقرب.

وقوله: لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرين، قال الشارح المعتزلي: الرواية المشهورة هكذا بالنصب وهو جائز على التشبيه بالنكرة كقولهم: معضلة ولا أبا حسن لها، انتهى.

أقول: قال نجم الأئمة بعد اشتراط كون اسم **(لا)** النافية للجنس نكرة: واعلم أنه قد يؤول العلم المشتهر ببعض الخلال بنكرة فينتصب وينزع منه لام التعريف إن كان فيه، نحو لا حسن في الحسن البصري، ولا صعق في الصعق، أو فيما أضيف إليه نحو لا امرؤ القيس ولا ابن زبير، ولتأويله بالمنكر وجهان: إما أن يقدّر مضاف هو مثل فلا يتعرف بالإضافة لتوغله في الإبهام، وإما أن يجعل العلم لاشتهاره بتلك الخلّة كأنه اسم جنس موضوع لإفادة ذلك المعنى، لأن معنى قضية ولا أبا حسن لها لا فيصل لها إذ هو عليه السلام كان فيصلاً في الحكومات على ما قال النبي صلى الله عليه وآله: «أقضاكم عليّ»، فصار اسمه كالجنس المفيد لمعنى الفصل والقطع كلفظ الفيصل، انتهى.

وعليه فالتأويل في كلامه أن يراد بقوله لا جبرائيل ولا ميكائيل: أنه لا ناصر لكم ولا معاون، هذا.

وعلى الرواية الغير المشهورة فالرفع في الجميع بالابتداء على أن لا ملغاة عن العمل،

وهو أحد الوجوه الخمسة التي ذكرها علماء الأدب في نحو لا حول ولا قوة إلاّ بالله، وعلى أي تقدير فالخبر محذوف، وجملة ينصرونكم وصف أو حال والأول أظهر وأولى من جعلها خبراً أيضاً كما ذهب إليه الشارح البحراني.

وقوله: إلاّ المقارعة بالسيف، يروى بالنصب وبالرفع.

أما النصب فعلى أنه استثناء من الأسماء الواقعة بعد لاء التبرئة لعمومها بعد تأويل الأولين منها بالنكرة حسبما عرفت، فإن الكلام بعد التأويل المذكور بمنزلة لا عوان ولا ناصرين ينصرونكم إلا المقارعة، ويجوز جعل المستثنى منه ضمير الجمع في ينصرون العائد إلى الأسماء المذكورة، وعلى أي تقدير فالظاهر أن الاستثناء متصل بعد ارتكاب التأويل المذكور لا منقطع كما قاله الراوندي.

وأما الرفع فعلى أنه بدل من الأسماء المذكورة على روايتها بالرفع، أو من ضمير ينصرون على روايتها بالنصب، والرفع هو المختار كما قاله علماء الأدب في مثل ما فعلوه إلا قليل وإلا قليلاً، أي فيما إذا وقع المستثنى (بإلا) في كلام غير موجب وذكر المستثنى منه أنه يجوز النصب ويختار البدل.

ومرادهم بالكلام الغير الموجب كما قاله نجم الأئمة: أن يكون المستثنى مؤخراً من المستثنى منه المشتمل عليه نفي أو نهي، فيدخل فيه الضمير الراجع قبل الاستثناء بإلّا على اسم صالح لأن يبدل منه معمول للابتداء أو أحد نواسخه نحو قولك: ما أحد ضربته إلاّ زيداً، يجوز لك الإبدال من هاء ضربته لأن المعنى: ما ضربت أحداً إلا زيداً، فقد اشتمل النفي على هذا الضمير من حيث المعنى، وكذلك إذا كان الضمير في صفة المبتدأ نحو: ما أحد لقيته كريم إلا زيداً، فإنه بمنزلة ما لقيت أحداً كريماً إلا زيداً.

فعلم بذلك أن جعل جملة ينصرون في كلامه عليه السلام صفة أو خبراً لا يوجب التفاوت في الإبدال من الضمير الذي فيه.

قال نجم الأئمة: والإبدال من صاحب الضمير أولى لأنه الأصل ولا يحتاج إلى تأويل **(اهـ)**.

فإن قلت: فعلى الإبدال يكون بدل غلط فكيف به في كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو أفصح الكلام؟

قلت: كلا بل هو بدل اشتمال، لأن نصرة جبرائيل وميكائيل والمهاجرين والأنصار لما كان بمقارعة السيوف حسن ذلك للإبدال، هذا ما يقتضيه النظر الجلي.

وأما الذي يقتضيه النظر الدقيق فهو أن جعل انتصاب المقارعة على رواية النصب بالمصدر كما قاله الشارح المعتزلي أولاً، لإفادته الدوام والثبوت.

بيان ذلك أنهم قد قالوا: إن المصدر إذا وقع مثبتاً بعد نفي داخل على اسم لا يكون خبراً عنه إلا مجازاً لكونه صاحب هذا المصدر يحذف عامله قياساً نحو ما زيد إلا سيراً، وما الدهر إلا تقلباً، وما كان زيد إلا سيراً، فإن سيراً لا يجوز جعله خبراً عن زيد، لأن زيداً صاحب السير لا نفس السير، وهكذا لا يصح جعل تقلّباً خبراً عن دهر، فلا بد من أن يكون العامل محذوفاً أي ما زيد إلا يسير سيراً، وما الدهر إلا يتقلّب تقلباً، وفيما نحن لا أنصار ينصرونكم إلا تقارعوا المقارعة بالسيف.

قال نجم الأئمة: وإنما وجب حذف الفعل لأن المقصود من هذا الحصر وصف الشيء بدوام حصول الفعل منه ولزومه له، ووضع الفعل على الحدوث والتجدّد، فلما كان المراد التنصيص على الدوام واللزوم لم يستعمل العامل أصلاً لكونه إما فعلاً وهو موضع على التجدد، أو اسم فاعل وهو مع العمل كالفعل لمشابهته، فصار العامل لازم الحذف، فإن أرادوا زيادة المبالغة جعلوا المصدر نفسه خبراً نحو: ما زيد إلا سير كما ذكرنا في المبتدأ في قولنا: إنما هي إقبال وإدبار، فينمحي إذاً عن الكلام معنى الحدوث أصلاً لعدم صريح الفعل وعدم المفعول المطلق الدال عليه، انتهى.

وبه يعلم أنه على رواية الرفع يجوز أن يكون ارتفاعه على الخبر قصداً إلى المبالغة كما في ما زيد إلاّ سير، فافهم جيداً.

المعنى

اعلم أنه لما أمر المخاطبين في الفصل السابق بالاعتبار بحال بني إسماعيل وبني إسرائيل، عاد في هذا الفصل إلى تقريعهم وتوبيخهم كما في أكثر الفصول السابقة بقلّة الطاعة وأخذ طريق الجاهلية فقال:

(ألا وإنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطّاعة) والتعبير بلفظ النفض دون الترك للإشارة إلى طرحهم له وإعراضهم عنه، فإن من يخلي الشيء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشد تخلية ممن لا ينفضها، بل يقنع بتخليته فقط.

وتشبيه الطاعة بالحبل من تشبيه المعقول بالمحسوس، ووجه الشبه أن الحبل آلة الوصلة بين الشيئين والطاعة سبب الاتصال بقرب الخالق، ولذلك أمر الله سبحانه بالاعتصام به في قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية) استعار حصن الله للإسلام، ورشح بذكر المضروب، والجامع بين المستعار منه والمستعار له أن الحصن سبب الحفظ والوقاية من شرّ الأعداء، والإسلام سبب السلامة من شرّ الأعداء في الدنيا ومن حرّ النار في الآخرة، يعني أنكم كسرتم حصن الإسلام الذي كنتم متحصنين فيه متحفظين به بأحكام

الجاهلية، وهي التفرّق والاختلاف والعصبية والاستكبار.

ولما وبخهم على ترك الطاعة وثلم الإسلام بالافتراق والاختلاف رغّبهم في الاعتصام بحبل الائتلاف والاجتماع بالتنبيه على أنه أعظم نعمة أنعم الله سبحانه بها على عباده وهو قوله:

(وإنّ الله سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمة) أي منّ عليهم **(فيما عقد بينهم من حبل هذه الإلفة التي ينتقلون)** وفي بعض النسخ يتقلّبون **(في ظلّها ويأوون إلى كنفها)** أي ينزلون ويسكنون إلى جانبها وناحيتها.

والمراد بحبل الإلفة هو الإسلام الموجب للائتلاف والارتباط بينهم، استعار له الحبل لذلك.

(بنعمة) أي امتنّ عليهم بنعمة عظيمة **(لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة)** والمراد بتلك النعمة نفس هذه الإلفة أو الإسلام الموجب لها، فإنها نعمة عظيمة يترتب عليها من المنافع الدنيوية والأخروية ما لا تحصى، ويندفع بها من المضار الدنيوية والأخروية ما لا تستقصى.

وفي هذه الفقرات تلميح إلى قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [١٠٢ـ١٠٣][١].

قال الطبرسي: أي تمسكوا بحبل الله وهو دين الله والإسلام، قاله ابن عباس، ولا تفرّقوا معناه ولا تتفرقوا عن دين الله الذي أمركم فيه بلزوم الجماعة والائتلاف على الطاعة وأثبتوا عليه[٢].

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم.

---

(١) قال في مجمع البيان في وجه نزول هذه الآية قال مقاتل: افتخر رجلان من الأوس والخزرج
فقال الأوسي: منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنا حنظلة غسيل الملائكة، ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدين، ومنا سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن له ورضي بحكمه في بني قريظة.
وقال الخزرجي: منا أربعة أحكموا القرآن أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم.
فجرى الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا وناديا، فجاء الأوس إلى الأوسي والخزرج إلى الخزرجي ومعهم السلاح، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله فركب حماراً وأتاهم، فأنزل الله الآيات فقرأها عليهم، فاصطلحوا، منه.

(٢) مجمع البيان: ٢/٣٥٧.

قيل: أراد ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب التي تطاولت مئة وعشرين سنة إلى أن ألّف الله بين قلوبهم بالإسلام فزالت تلك الأحقاد.

وقيل: هو ما كان بين مشركي العرب من الطوائل، والمعنى: احفظوا نعمة الله ومنّته عليكم بالإسلام والائتلاف، ورفع ما كان بينكم من التنازع والاختلاف، فهذا هو النفع الحاصل لكم في العاجل مع ما أعدّ لكم من الثواب الجزيل في الآجل، إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم، بجمعكم على الإسلام ورفع البغضاء والشحناء عن قلوبكم.

فأصبحتم بنعمته، أي بنعمة الله، إخواناً متواصلين وأحباباً متحابين، بعد أن كنتم متحاربين متعادين.

وكنتم على شفا حفرة من النار، أي وكنتم يا أصحاب محمد ﷺ على طرف حفرة من جهنم لم يكن بينكم وبينها إلاّ الموت.

فأنقذكم الله منها بأن أرسل إليكم رسولاً وهداكم للإيمان ودعاكم إليه فنجوتم بإجابته من النار.

وإنما قال: فأنقذكم منها، وإن لم يكونوا فيها، لأنهم كانوا بمنزلة من هو فيها حيث كانوا مستحقين لها.

وبما ذكرنا كله علم أن هذه النعمة، أعني نعمة الإلفة والمحبة على الإسلام، أعظم نعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة.

(لأنها) موجبة لسعادة النشأتين وعزّ الدارين وللإنقاذ من النار والدخول في جنات تجري من تحتها الأنهار والنزول في منازل الأبرار و **(أرجح من كل ثمن)** كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ﴾ [الأنفال: ٦٣] **(وأجلّ من كل خطر)** وشرف ومزية لجمعها جميع أقسام الشرف، إذ بها يتمكن من دركها وتحصيلها والوصول إليها.

(واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً) قال الشارح المعتزلي: الأعراب على عهد رسول الله ﷺ من آمن به من أهل البادية ولم يهاجر إليه، وهم ناقصو المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحّشهم وتشتّتهم في بعد من مخالطة العلماء وسماع كلام الرسول ﷺ، وفيهم أنزل: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧] وليست هذه الآية عامة في كل الأعراب بل خاصة ببعضهم، وهم الذين كانوا حول المدينة وهم: جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، وإليهم أشار سبحانه بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠١] وكيف يكون كل الأعراب مذموماً وقد قال

تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩٩] وصارت هذه الكلمة جارية مجرى المثل، انتهى[1].

وقال الشهيد الثاني: المراد بالأعراب من أهل البادية وقد أظهر الشهادتين على وجه حكم بإسلامه ظاهراً ولا يعرف من معنى الإسلام ومقاصده وأحكامه سوى الشهادتين **(اهـ)**.

إذا عرفت ذلك فأقول:

قد ظهر لك في شرح الخطبة المئة والثامنة والثمانين أن حقيقة المهاجرة هو الهجرة إلى حضور الحجة لمعرفته والعلم بوجوب إطاعته وامتثال أحكامه، وعلى هذا فمقصوده عليه السلام بقوله: صرتم بعد الهجرة أعراباً، توبيخهم على أنهم بعدما كانوا عارفين به وبمقامه عليه السلام ووجوب طاعته وعالمين بأحكام الشرع وآدابه ووظائف الإسلام كما هو شأن المهاجر، قد تركوا ذلك كله وصاروا مثل الأعراب الذين لا يعرفون إلا ظاهر الإسلام كما قال عزَّ وجل: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٩٧] أي أحرى بأن لا يعلموا حدود الله في الفرائض والسنن والحلال والحرام.

يعني أنكم قد صرتم بالعصبية والاستكبار والعناد وإثارة الفتن بمنزلة الأعراب الجاهلين بما لهم وما عليهم بعدما كنتم عارفين بذلك كله.

(وبعد الموالاة أحزاباً) أي بعد الألفة والاجتماع أحزاباً متعادية متشتتة مختلفة الآراء، أي صرتم حزباً حزباً وطائفة طائفة كل منكم يخالف آخرين، وكل حزب بما لديهم فرحون.

(ما تتعلقون من الإسلام إلاّ باسمه ولا تعرفون من الإيمان إلاّ رسمه) لما جعلهم أعراباً أحزاباً أتبعه بهذه الجملة ولكمال الاتصال بينهما وصلها بسابقته وترك العاطف.

والمراد أنهم لم يأخذوا من الإسلام وأحكامه شيئاً إلا اسمه فيسمون باسم المسلم، ولا يعرفون من الإيمان إلا صورته دون ماهيته وحقيقته، وفي بعض النسخ لا تعقلون بدل لا تعرفون والمقصود واحد.

(تقولون النار ولا العار) كلمة جارية مجرى المثل يقولها أهل الحميّة والأنفة من تحمل الضيم والذّل على نفسه أو من ينسب إليه من قومه وخاصته استنهاضاً وإلهاباً بها إلى النضال والجدال، فإذا قيلت في حق كان ثواباً وإذا قيلت في باطل كان خطأ.

ولما كان غرض المخاطبين منها هو الشر والفساد وإثارة الفتنة المخالفة لوظائف الإسلام شبّه حالهم في أعمالهم وأقوالهم بقوله:

(١) شرح النهج: ١٣/ ١٨١.

(كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه) بأنهم يريدون أن يكبّوا ويقلبوا الإسلام على وجهه، تشبيهاً له بالإناء المقلوب على وجهه، فكما أنه بعد قلبه لا يبقى فيه شيء أصلاً ويخرج ما كان فيه من حيّز الانتفاع، فكذلك الإسلام الذي لم يراع حدوده وأحكامه كأنه لم يبق منه شيء ينتفع به، وهو من الاستعارة المكنيّة وذكر الكفاءة تخييل.

وقوله: **(انتهاكاً لحريمه)** أراد به أن فعلكم ذلك كاشف عن كون غرضكم منه الانتهاك كالكفار والمنافقين وأعادي الدّين الذين لا غرض لهم إلا إبطال الإسلام وهتك حريمه.

(ونقضاً لميثاقه) وهي حدوده وشرائطه المقررة ووظائفه المأخوذة فيه **(الذي وضعه الله لكم حرماً في أرضه)** لمنعه الآخذين به والمواظبين له من الرّفث والفسوق والجدال.

(وأمناً بين خلقه) أي سبب أمن، أي أماناً لهم من شرّ الأعداء ومن تعدّي كل منهم إلى الآخر.

والمراد بنقضهم ميثاقه تركهم لوظائفه المقررة، وقطعهم لما أمر الله به أن يوصل، وسعيهم في إثارة الفتنة والفساد والقتل والقتال، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

قال الطبرسي: الذين ينقضون عهد الله، أي يهدمونه، أي لا يفون به، وعهد الله وصيته إلى خلقه على لسان رسوله بما أمرهم به من طاعته ونهيهم عنه من معصيته ونقضهم لذلك تركهم العمل به من بعد ميثاقه، قال في «**الصافي**»: أي تغليظه وأحكامه.

(ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل)، قال الطبرسي: معناه أُمروا بصلة النبي والمؤمنين فقطعوهم، وقيل: أُمروا بصلة الرّحم والقرابة فقطعوها، وقيل: أُمروا بأن يصلوا القول بالعمل ففرّقوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا، وقيل: معناه الأمر بوصل كل من أمر الله بصلته من أوليائه والقطع والبراءة من أعدائه، وهذا أقوى لأنه أعم.

وفي «**الصافي**» أقول: ويدخل في الآية التفريق بين الأنبياء والكتب في التصديق وترك موالاة المؤمنين والجمعة والجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شر لأنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد التي هي المقصودة بالذات من كل وصل وفصل[١].

(ويفسدون في الأرض)، قيل: نقضهم العهد، وقيل: أراد كل معصية تعدّى ضررها إلى غير فاعلها.

---

(١) تفسير الصافي: ١/ ١٠٥.

وفي «الصافي»: يفسدون بسبب قطع ما في وصله نظام العالم وصلاحه أولئك هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم بما صاروا إلى النيران وحرموا الجنان، فيا لها خساراً لزمتهم عذاب الأبد وحرمتهم نعيم الأبد.

ثم حذّرهم وخوّفهم بقوله: (**وإنكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر**) يعني أنكم إن قطعتم حبل الإسلام العاقد بينكم والجامع لجمعيتكم وتمسكتم بغيره من حمية أو جماعة أو كثرة عشيرة مع الخروج عن طاعة سلطان الإسلام والتفرّق فيه فإن ذلك يوجب أن يُطمع فيكم الكفار ويحاربونكم.

(**ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرين ولا أنصار ينصرونكم**) كما كانوا ينصرون في زمن الرسول ﷺ (**إلا المقارعة**) أي المضاربة وقرع بعضكم بعضاً (**بالسيف حتى يحكم الله بينكم**) وبينهم بغلبة أحد الفريقين على الآخر.

ثم ذكّرهم بالعقوبات النازلة على الأمم الماضية في القرون الخالية بخروجهم عن طاعة الله سبحانه فقال:

(**وإنّ عندكم الأمثال**) التي ضربها الله لكم بأهل القرون الماضية كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤] وقال أيضاً: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٨ ـ ٣٩].

(**من بأس الله**) وعذابه لهم (**وقوارعه**) أي دواهيه وأفزاعه التي كانت تقرع القلوب بشدّتها (**وأيامه**) التي انتقم الله فيها من القرون الأولى.

قال الطبرسي في قوله: وذكّرهم بأيام الله: معناه وأمرناه بأن يذكر قومه وقائع الله في الأمم الخالية وإهلاك من أهلك منهم ليحذروا ذلك.

أقول: ومن تلك الأيام ما أشير إليه في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩ـ ٢٠] وفي قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وفي قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧].

(**ووقائعه**) أي نوازله الشديدة وعقوباته الواقعة بالعاصين المتمردين كما أشير إليها في قوله عزّ وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وغرضه عليه السلام من التذكير بهذه الأمثال توعيد المخاطبين وتهديدهم من أن يقارفوا ما قارف أهل القرون المتقدمة من الذنوب والآثام، فتنزل عليهم ما نزل بهم من البأس والعذاب، ولذلك فرّع عليه قوله:

(فلا تستبطؤا وعيده) أي لا تعدّوا ما أوعدكم به من العذاب بطيئاً بعيداً فإنه قريب كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧].

ولا تبطؤوا إبطاءه للعذاب طمعاً منكم في أن إبطاءه يوجب ذهابه، وإمهاله يوجب إهماله، كما هو الغالب في وعيد غيره سبحانه، فإن تأخيره غالباً يوجب عدم وقوعه إما لحصول الغفلة والنسيان من الموعد، أو لأنه ربما يفوته من طلب أو يعجزه من هرب، وأما الله الحيّ القيوم القهّار ذو القوة المتين والبأس الشديد فإنه لبالمرصاد ولا يخلف الميعاد، والمخاطبون لما قاسوه عزّ شأنه بغيره ووعيده بوعيد غيره استبطؤه لذلك وإنما وقعوا في هذا الزعم الفاسد.

(جهلاً بأخذه وتهاوناً ببطشه ويأساً من بأسه) يعني أن جهلكم بمؤاخذته الشديدة، وتهاونكم ببطشه الناشيء من تأخير وقوعه، ويأسكم من بأسه الناشيء من طول مدة البأس صار علة للاستبطاء فأوجب ذلك جسارتكم على اقتراف الجرائم واقتحامكم في ورطات الآثام.

كما أن أهل القرون الأولى قد وقعوا في الهلاك الدائم واستحقوا العذاب الأليم أيضاً من الجهالة بأخذه كما أُشير إليه في الكتاب الكريم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣٢].

ومن التهاون ببطشه كما حكاه سبحانه عنهم بقوله عقيب هذه الآية: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الجاثية: ٣٣]، وبقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

ومن اليأس من بأسه كما أخبر عنهم بقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٧ ـ ٧٨].

وأما أهل العرفان والإيقان فيعرفون بنور الإيمان واليقين بما أخبر به الأنبياء والمرسلين وشهد به الكتاب المكنون أنّ وعده عزّ وجلّ ووعيده واقعان لا محالة وأن أخذه وبطشه وبأسه وإن تأخر حق محقق لا ريب فيه، كما قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، وقال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ

يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣١ـ ٣٢].

ويعلمون أن التأخير والإمهال في العقاب لاقتضاء الحكمة الإلٰهية ولو يعجل[١] الله للناس الشرّ استعجالهم بالخير لقضىٰ إليهم أجلهم.

ولكنه يُمهل المؤمنين من باب اللطف حتى يتوبوا ويتداركوا الذنوب بالإنابة والاستغفار.

ويمهل الظالمين ويذر الذين لا يرجون لقائه في طغيانهم يعمهون من باب الاستدراج كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨] هذا.

ولما ذكرهم بأمثال الذين خلوا من قبل ونهاهم عن استبطاء وعيد الله سبحانه أردفه بالتنبيه على عمدة سبب الاستحقاق القرون الخالية للطعن والعتاب واللعن والعقاب، وهو ارتفاع الركن الأعظم من الإسلام أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من بينهم، وغرضه بذلك تحذير المخاطبين وتنبيههم على أنهم مثلهم في استحقاق اللعن لارتفاع هذه الخصلة العظيمة من بينهم أيضاً ولذلك أتى **(بالفاء)** التفريعية فقال:

(فإن الله سبحانه لم يلعن القرون الماضية) ولم يحرمهم من رحمته الواسعة **(إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)** كما أُشير إليه في قوله سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ـ ٧٩].

قال الطبرسي: أخبر تعالى عما جرى على أسلافهم فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المائدة: ٧٨] الآية، معناه لعنوا على لسان داود فصاروا قردة، وعلى لسان عيسى فصاروا خنازير.

قال: وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: وأما داود فإنه لعن أهل أيلة لما اعتدوا في سبتهم وكان اعتداؤهم في زمانه فقال: اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرّداء ومثل المنطقة على الحقوين[٢]، فمسخهم الله قردة، فأما عيسى عليه السلام فإنه لعن الذين أُنزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك[٣].

(١) اقتباس من الآية في سورة يونس عليه السلام، منه.

(٢) المنطقة: ما يشد به الوسط، والحقو: معقد الإزار.

(٣) مجمع البيان ٣/ ٣٩٦.

قال الطبرسي: وإنما ذكر اللعن على لسانهما إزالة للإبهام بأن لهم منزلة بولادة الأنبياء تنجيهم من العقوبة، ثم بيّن الله تعالى حالهم فقال: كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، أي لم يكن ينهى بعضهم بعضاً ولا ينتهون أي لا يكفون عما نُهوا عنه.

قال ابن عباس: كان بنو إسرائيل ثلاث فرق: فرقة اعتدوا في السبت، وفرقة نهوهم ولكن لم يدعوا مجالستهم ولا مؤاكلتهم، وفرقة لما رأوهم يعتدون ارتحلوا عنهم وبقيت الفرقتان المعتدية والناهية المخالطة فلعنوا جميعاً.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق إطراء[1] أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم»[2].

وفي «**الوسائل**» عن الحسن بن علي بن شعبة في «**تحف العقول**» عن الحسين عليه السلام قال: ويروى عن علي عليه السلام: اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار إذ يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ [المائدة: ٦٣] وقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ - إلى قوله - لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٣- ٧٩] وإنما عاب الله عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالونه منهم، ورهبة مما يحذرون، والله يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنها إذا أدّيت وأقيمت استقامت الفرائض كلها وهيّنها وصعبها، وذلك إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام مع ردّ المظالم، ومخالفة الظالم، وقسمه الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها[3].

وقد تقدم هذا الحديث مع حديث آخر مناسب للمقام وبعض الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شرح الفصل الثاني من المختار المائة والخامس والخمسين.

(فلعن الله السفهاء) أي الجهال **(لركوب المعاصي والحلماء)** أي ذوي العقول والأناة، وفي بعض النسخ الحكماء بدله **(لترك التناهي)**.

وهذه الجملة إما إخبارية أتى بها إيضاحاً للجملة المتقدمة أعني قوله: إنّ الله لم يلعن

---

(١) الإطراء: المدح. (٢) المصدر السابق ٣/ ٣٩٧.

(٣) الوسائل ١٦/ ١٣ ح ٢١١٦٢١، وجواهر الكلام ٢١/ ٣٥٤.

القرون الماضية إلا لتركهم (اهـ)، ويؤيده إضمار فاعل لعن وإسقاط لفظ الجلالة في بعض النسخ.

وإما إنشائية دعائية منه عليه السلام أتى بها قياماً منه بوظيفته اللازمة، فإنّ لعنه عليهم نهي لهم عن المنكر وهو مقتضى وظيفة الإمامة.

فعلى الاحتمال الأول يكون المراد بالسفهاء والحلماء سفهاء القرون الماضية وحلماءهم.

وعلى الاحتمال الثاني سفهاء المخاطبين وحلمائهم، وأوضح استحقاقهم للعن ودخولهم في زمرة الملعونين بقوله:

(ألا وقد قطعتم قيد الإسلام) أي حبل الألفة عليه بالاعتزاء والعصبيّة **(وعطلتم حدوده)** أي تركتم وظائفه المقررة التي لم يجز التعدّي والتخطي منها **(وأمتّم أحكامه)** أي أبطلتم أحكامه التي كان يلزم عليكم إحياؤها والعمل بها.

وقد كان من جملة تلك الحدود والأحكام المتروكة المعطلة أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فإن القيام بهما غالباً شأن الرؤساء والكبراء، وقد كانوا قائمين بخلافه وكانوا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ولذلك حذّر عن طاعتهم ومتابعتهم في الفصل الثالث من هذه الخطبة وقال: إنهم قواعد أساس العصبية ودعائم أركان الفتنة وسيوف اعتزاء الجاهلية.

الترجمة

آگاه باشيد به درستى كه شما به تحقيق افشانده ايد دست هاى خود را از ريسمان اطاعت و بالمرّه اعراض كرده ايد از آن و خراب نموده ايد حصار خدا را كه زده شده است بر شما با احكام جاهليت و به درستى كه خداى تبارك و تعالى منّت نهاده بر جماعت اين امت در آن چه منعقد ساخته در ميان ايشان از ريسمان اين الفت، چنان الفتى كه برمى گردند در سايه آن و نازل مى شوند در پناهگاه آن با نعمتى كه نمى شناسد احدى از مخلوقات قيمت آن را، از جهت اين كه آن افزون تر است از هر بهايى و بزرگتر است از هر منزلت و مزيّتى.

و بدانید به درستی که شما گردیدید بعد از مهاجرت و معرفت به رسومات و آداب شریعت، مثل عربان بادیه نشین بی معرفت و بعد از دوستی و موالات طوایف مختلفه متعلق نمی شوید از اسلام مگر اسم آن را و نمی شناسید از ایمان مگر رسم آن را. می گویید النار و لاالعار، داخل آتش بشوید، قبول ننگ و عار ننمایید، گویا که می خواهید برگردانید اسلام را بر روی آن به جهت هتك احترام آن و به جهت شکستن پیمان آن، چنان اسلامی که نهاده است آن را خدای متعال برای شما حرم در زمین خود و ایمنی در میان خلقان خود.

و به درستی که اگر شما ملتجی بشوید به سوی غیر آن، یعنی اگر اعتماد نمایید بر غیر دین اسلام، محاربه می کنند با شما کفّار، بعد از آن نه جبرئیل است و نه میکائیل و نه مهاجرین و نه انصار که نصرت کنند شما را، مگر کوفتن یکدیگر با شمشیر آبدار تا آن که حکم کند خدای متعال در میان شما.

و به درستی که در نزد شما است داستانها از شدّت عذاب خدا و عقوبات کوبنده او و روزهای سخت او و واقعه های نکال او، پس بعید نشمارید وعده عذاب او را از جهت جهالت شما به مؤاخذه او و از جهت استخفاف به عنف و سطوت او و ازجهت نومیدی از عذاب او.

پس به درستی که خداوند لعنت نفرمود قرنهای گذشته را مگر به جهت ترك کردن ایشان امر به معروف و نهی از منکر را، پس لعنت کرده خدا سفیهان را به جهت ارتکاب معصیت ها و دانایان را به جهت ترك نهی کردن از مناهی. آگاه باشید، به درستی که شما بُریدید بند محکم اسلام را و معطل کردید حدهای نظام او را و فانی نمودید و باطل کردید احکام او را.

الفصل الثامن

«ألا وَقَدْ أَمَرَنِي الله بِقِتالِ أَهْلِ البَغْيِ والنَّكْثِ والفَسادِ في الأَرْضِ، فَأَمَّا النَاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وأمَّا القاسِطُونَ فَقَدْ جاهَدْتُ، وأمَّا المارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وأَمَّا شَيْطانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفيتُهُ بِصَعْقَةٍ سَمِعْتُ لها وَجْبَةَ قَلْبِه، ورَجَّةَ صَدْرِهِ، وبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ البَغْيِ وَلَئِنْ أَذِنَ الله فِي الكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لأُديلَنَّ مِنْهُمْ إِلاَّ ما يَتَشَذَّرُ في أَطْرَافِ البِلادِ تَشَذُّراً.

أَنَا وَضَعْتُ في الصِّغَرِ بِكَلاكِلِ العَرَبِ، وكَسَرْتُ نَواجِمَ قُرُونِ رَبيعَةَ ومُضَرَ.

وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعي مِنْ رَسُولِ الله ﷺ بالقَرابَةِ القَرِيبَةِ، والمَنْزِلَةِ الخَصِيصَةِ، وضَعَني في حِجْرِهِ وأَنَا وَلِيدٌ، يَضُمُّني إلىٰ صَدْرِهِ، ويَكْنُفُني في فِراشِهِ، ويُمِسُّني جَسَدَهُ، ويُشِمُّني عَرْفَهُ، وكانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنيهِ، وما وَجَدَ لي كِذْبَةً في قَوْلٍ، ولا خَطْلَةً في فِعْلٍ.

وَلَقَدْ قَرَنَ الله بِه ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَتِه، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ المَكارِمِ، ومَحاسِنَ أَخْلاقِ العالَمِ لَيْلَهُ ونَهارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّباعَ الفَصيلِ أَثَرَ أُمِّه، يَرْفَعُ لِي في كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاقِه عَلَماً، ويَأْمُرُني بالاقْتِداءِ بِه، وَلَقَدْ كانَ يُجاوِرُ في كُلِّ سَنَةٍ بِحِراءَ فَأَراهُ وَلا يَراهُ غَيْري، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ واحِدٌ يَوْمَئِذٍ في الإِسْلامِ غَيرَ رَسُولِ الله ﷺ وخَديجَةَ وأَنَا ثالِثُهُما، أرىٰ نُورَ الوَحْيِ وَالرِّسالَةِ، وأَشُمُّ ريحَ النُّبُوَّةِ.

ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطانِ حينَ نَزَلَ الوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ الله ما هٰذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقالَ: هٰذَا الشَّيْطانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ ما أَسْمَعُ، وتَرَىٰ ما أرىٰ، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، ولٰكِنَّكَ وَزيرٌ، وإِنَّكَ لَعَلىٰ خَيْرٍ»[1].

اللغة

(دوّخه) ذلّله و **(الرّدهة)** وزان تمرة حفرة في الجبل يجتمع فيها الماء والجمع: رده كتمر، قال في القاموس: وشبه أكمةٍ خشنةٍ وجمعه رَدَهٌ محركة.

و **(كفيته)** بالبناء على المفعول من كفاني الله مؤنته قتله أو دفع عنّي شرّه، و **(صعق)** صعْقاً وصعَقاً وصعقة غشي عليه فهو صعق ككتف، والصّعق محرّكة شدّة الصّوت والصّاعقة الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢/٢٨.

و (**الوجبة**) وزان تمرة الاضطراب للقلب و (**الرّجة**) الحركة والزلزلة و (**أدلت**) من فلان غلبته وقهرته أي صرت ذا دولة و (**تشذّر**) تبدّد وتفرّق و (**الكلاكل**) الصّدور والواحد الكلكل و (**النواجم**) جمع ناجمة من نجم الشيء أي طلع وظهر و (**القرن**) من الحيوان الرّوق وموضعه من رأسنا أو الجانب الأعلى من الرأس والجمع قرون.

و (**ربيعة ومضر**) وزان صرد، قبيلتان من قريش معروفتان يضرب لهما المثل في الكثرة نسبتهما إلى أبويهما وهما ربيعة ومضر ابنا نزار بن معدّ بن عدنان، ويقال للأول: ربيعة الفرس، وللثاني: مضر الحمراء بالإضافة، لأن ربيعة أعطي الخيل من ميراث أبيه ومضر أعطي الذهب.

و (**الوليد**) الصبي والمولود و (**يكنفني**) أي يجعلني في كنفه والكنف محركة الحرز والجانب والسّتر، وكنف الطائر جناحه و (**العرف**) وزان فلس الرائحة وأكثر استعماله في الطيبة و (**الخطلة**) بالفتح المرة من الخطل محركة وهو الخفة والسرعة والكلام الفاسد الكثير فهو خطل ككتف أي أحمق عجل.

و (**حراء**) بالكسر والمد وزان كتاب جبل بمكّة فيه غار كان النبي يعتزل إليه ويتعبّد أياماً يذكّر ويؤنث و (**الرنّة**) الصوت رنّ يرنّ رنيناً صاح ورنّ إليه أصغى.

الإعراب

الواو في قوله: ولئن أذن الله، للقسم والمقسم به محذوف، وقوله: لأديلنّ جواب القسم، و (**الباء**) في قوله: وضعت بكلاكل العرب، زائدة. وقال الشارح البحراني: ويحتمل أن تكون للإلصاق أي فعلت بهم الوضع والإهانة، وربيعة ومضر بالفتح لمنع الصرف بالتأنيث والعلمية، وجملة: وضعني في حجره، استئنافية بيانية.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لمّا لامَ المخاطبين في الفصول السابقة ووبّخهم على مخالفة شرائع الدّين وترك مراسم الإسلام، ودعاهم إلى الله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، ونصحهم بالتي هي أحسن، أردف بهذا الفصل المسوق لبيان فضائله ومناقبه وخصائصه الخاصة وعلوّ شأنه ورفعة مقامه، تنبيهاً بذلك على أنه إمام مفترض الطاعة، وأنه فيما يأمر وينهى بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله في أوامره ونواهيه، وغرضه بذلك جذب قلوب المخاطبين إلى قبول مواعظه ونصائحه وامتثال أوامره ونواهيه، وصدّر الفصل بالإشارة إلى أعظم تكليف كان مكلفاً به بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى قيامه به على أبلغ وجهه وهو قوله:

(**ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي**) والمراد بهم المجاوزون عن الحد والعادلون عن القصد الخارجون عليه عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الفرق الثلاث الذين يصرح بهم تفصيلاً.

وأمر الله سبحانه له بقتالهم إما بما أنزله سبحانه في ضمن آيات كتابه العزيز مثل قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الزخرف: ٤١].

فقد روى في (**غاية المرام**) عن يونس بن عبد الرحمن بن سالم عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية قال: الله انتقم بعليّ عليه السلام يوم البصرة وهو الذي وعد الله رسوله.

وفيه عن عديّ بن ثابت قال: سمعت ابن عباس يقول: ما حسدت قريش عليّاً بشيء مما سبق له أشدّ مما وجدت يوماً ونحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «كيف أنتم يا معشر قريش لو كفرتم بعدي ورأيتموني في كتيبة أضرب وجوهكم بالسيف؟، فهبط جبرائيل فقال: قل إن شاء الله أو علي؟ فقال: إن شاء الله أو علي»[1].

وفيه عن الشيخ في (**أماليه**) بإسناده عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «إني لأدناهم من رسول الله في حجة الوداع فقال: لأعرفنكم ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، وايم الله لئن فعلتموها لتعرفوني في الكتيبة التي تضاربكم»، ثم التفت إلى خلفه فقال: «أو عليّ أو عليّ أو عليّ ثلاثاً»، فرأينا أن جبرائيل غمزه فأنزل الله عزّ وجل: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ - بعليّ - أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤١-٤٢][2].

ومثل قوله سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

روى في (**الصافي من الكافي**) و (**التهذيب**) وعلي بن إبراهيم القميّ عن الصادق عن أبيه عليه السلام في حديث لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن منكم من يقاتل على التأويل كما قاتلت على التنزيل»، فسئل: من هو؟ فقال صلى الله عليه وآله: «خاصف النعل»، يعني أمير المؤمنين عليه السلام فقال عمار بن ياسر: قاتلت بهذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثاً وهذه الرابعة والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا السعفات من هجر لعلمنا أنّا على الحق وأنهم على الباطل، وكانت السيرة فيهم من أمير المؤمنين ما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة، فإنه لم يسب

(١) البحار ٣٢/٣١٣ ح ٢٧٩، وتأويل الآيات ٢/٥٥٩.

(٢) أمالي الطوسي ٣٦٣ ح ٧٦٠.

منهم ذرية وقال: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقىٰ سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، وكذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام يوم البصرة نادى فيهم: لا تسبوا لهم ذرّية، ولا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ومن أغلق بابه وألقىٰ سلاحه فهو آمن[١].

وفيه من (**الكافي**) عن الصادق عليه السلام إنما جاء تأويل هذه الآية يوم البصرة وهم أهل هذه الآية، وهم الذين بغوا على أمير المؤمنين عليه السلام فكان الواجب عليهم قتلهم وقتالهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، ولو لم يفيئوا لكان الواجب عليه عليه السلام فيما أنزل الله أن لا يرفع السيف عنهم حتى يفيئوا ويرجعوا عن رأيهم، لأنهم بايعوا طائعين غير كارهين، وهي الفئة الباغية كما قال الله عزّ وجلّ، فكان الواجب على أمير المؤمنين عليه السلام أن يعدل فيهم حيث كان ظفر بهم كما عدل رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل مكة إنما منّ عليهم وعفى، وكذلك صنع أمير المؤمنين عليه السلام بأهل البصرة حيث ظفر بهم بمثل ما صنع النبي صلى الله عليه وآله بأهل مكة حذو النعل بالنعل.

ومثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال في (**مجمع البيان**) في تفسير الآية، قيل: هم أمير المؤمنين وأصحابه حين قاتل من قاتله من الناكثين والقاسطين والمارقين، وروي ذلك عن عمار وحذيفة وابن عباس، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام قال: وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال يوم البصرة: والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم[٢].

وسيأتي لهذه الآية مزيد تحقيق وتفصيل بعد الفراغ من شرح هذا الفصل في أول التنبيهات الآتية.

وإما بما صدر عن لسان الرسول صلى الله عليه وآله في ضمن الأخبار النبوية من الأوامر الإنشائية والجملات الخبرية التي في معنى الإنشاء، حسبما عرفتها في شرح الفصل الخامس من المختار الثالث، وشرح المختار المائة والثامن والأربعين، وشرح الفصل الثاني من المختار المائة والخامس والخمسين في التنبيه الأول منه، وقد عرفت في التنبيه الثاني منه وفي شرح المختار الثالث والثلاثين تحقيق الكلام في كفر البغاة وسائر أحكامهم، فليراجع إلى المواضع التي أشرنا إليها، فإن مراجعتها توجب مزيد البصيرة في المقام.

---

(١) الكافي ٥/ ١٢ ح ٢، وتهذيب الأحكام ٤/ ١١٦، وتفسير الصافي ٥/ ٥٠.

(٢) مجمع البيان ٣/ ٣٥٨، وراجع البحار ٦٦/ ٣٥٢.

وتعرف بما أوردناه هنا وفيما تقدم أن أهل البغي الذين كان أمير المؤمنين عليه السلام مأموراً بقتالهم هم الناكثون والقاسطون والمارقون كما أوضحه بقوله:

(والنّكث والفساد في الأرض) وفصّلهم بقوله: **(فأما الناكثون)** أي الناقضون ما عقدوه من البيعة وهم أصحاب الجمل **(فقد قاتلت)** وقد مضى تفصيل قتالهم في شرح المختار الحادي عشر.

(وأمّا القاسطون) أي العادلون عن الحق والدّين وهم أصحاب معاوية وصفيّن **(فقد جاهدت)** ومضى تفصيل جهادهم في شرح المختار الخامس والثلاثين والمختار الحادي والخمسين والمختار الخامس والستين.

(وأمّا المارقة) وهم خوارج النهروان الذين مرقوا من الدّين أي جازوا منه مروق السهم من الرمية حسبما عرفته في التذييل الأول من شرح المختار السادس والثلاثين **(فقد دوّخت)** أي ذلّلتهم وقهرتهم حسبما عرفته في التذييل الثاني منه.

(وأما شيطان الرّدهة فقد كفيته) أي كفاني الله من شرّه **(بصعقة سمعت لها وجبة قلبه)** واضطرابه **(ورجة صدره)** وزلزاله.

وقد اختلفت الأقوال في شيطان الرّدهة، فقد قال قوم: إن المراد به ذو الثّدية رئيس الخوارج وتسميته بالشيطان لكونه ضالاً قائد ضلالة مثل شيطان الجنّ، وأما إضافته إلى الردهة فلما عرفته في التذييل الثاني من شرح المختار السادس والثلاثين من أنه بعد الفراغ من قتل الخوارج طلبه عليه السلام في القتلى فوجده بعد جدّ أكيد في حفرة دالية فنسبه عليه السلام إليها لذلك.

وأما الصعقة التي كفى عليه السلام عنه بها فقد قيل: إن المراد بها الصاعقة وهي صيحة العذاب لما روي أن علياً لما قابل القوم صاح بهم فكان ذو الثّدية ممن هرب من صيحته حتى وجد قتيلاً في الحفرة المذكورة.

وقيل: إنه رماه الله بصاعقة من السماء فهلك بها ولم يقتل بالسيف، وقيل: إنه لما ضربه عليه السلام بالسيف غشي عليه فمات.

وقال قوم: إن شيطان الردهة أحد الأبالسة المردة من أولاد إبليس اللعين. قال الشارح المعتزلي: ورووا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله وأنه كان يتعوّذ منه، وهذا مثل قوله صلى الله عليه وآله: «هذا أزب العقبة»[1]، أي شيطانها. ولعل أزب العقبة هو شيطان الرّدهة بعينه فتارة يعبّر بهذا اللفظ وأخرى بذلك.

(١) كتاب الغيبة للنعماني ٢٦٥، خ ٣١، وشرح نهج البلاغة ٢/ ٢٤٥.

أقول: والأظهر أن يكون المراد به شيطان الجنّ ويكون الإشارة بهذا الكلام إلى ما وقع منه عليه السلام في بئر ذات العلم.

فقد روى السيد السند السيد هاشم البحراني في كتاب **(مدينة المعاجز)** عن ابن شهرآشوب، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عبد الله بن الحارث عن أبيه، عن ابن عباس وعن أبي عمر وعثمان بن أحمد عن محمد بن هارون بإسناده عن ابن عباس في خبر طويل أنه أصاب الناس عطش شديد في الحديبيّة فقال النبي صلى الله عليه وآله: «هل من رجل يمضي مع السقاة إلى بئر ذات العلم فيأتينا بالماء وأضمن له على الله الجنة؟».

فذهب جماعة فيهم سلمة بن الأكوع، فلما دنوا من الشجر والبئر سمعوا حسّاً وحركة شديدة وقرع طبول ورأوا نيراناً تتقد بغير حطب فرجعوا خائفين[1].

ثم قال صلى الله عليه وآله: «هل من رجل يمضي مع السّقاة يأتينا بالماء أضمن له على الله الجنة؟»، فمضى رجل من بني سليم وهو يرتجز ويقول:

أمن غريف ظاهر نحو السلم ... ينكل من وجّهه خير الأمم
من قبل أن يبلغ آبار العلم ... فيستقي والليل مبسوط الظلم
ويأمن الذمّ وتوبيخ الكلم ... وصاحب السيف لسيف منهدم

فلما وصلوا إلى الحسّ رجعوا وجلين.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: «هل من رجل يمضي مع السقّاة إلى البئر ذات العلم فيأتينا بالماء أضمن له على الله الجنة؟»، فلم يقم أحد واشتدّ بالناس العطش وهم صيام.

ثم قال صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «سر مع هؤلاء السقاة حتى ترد بئر ذات العلم وتستقي وتعود إن شاء الله». فخرج علي عليه السلام قائلاً:

أعوذ بالرحمٰن أن أميلا ... من غرف جنّ أظهروا تأويلا
وأوقدت نيرانها تغويلا ... وقرعت مع غرفها الطبولا

قال: فداخلنا[2] الرعب فالتفت علي عليه السلام إلينا وقال: اتبعوا أثري ولا يفزعنّكم ما ترون وتسمعون فليس بضائركم إن شاء الله.

ثم مضى، فلما دخلنا الشجر فإذا بنيران تضطرم بغير حطب وأصوات هائلة ورؤوس

---

(١) في نسخة: خائبين.
(٢) في نسخة: فتداخلنا.

مقطعة لها ضجّة وهو يقول: اتّبعوني ولا خوف عليكم ولا يلتفت أحد منكم يميناً ولا شمالاً.

فلما جاوزنا الشّجر ووردنا الماء فأدلى البراء بن عازب دلوه في البئر فاستقى دلواً ودلوين ثم انقطع الدّلو فوقع في القليب، والقليب ضيّق مظلم بعيد القعر، فسمعنا في أسفل القليب قهقهة وضحكاً شديداً.

فقال علي عليه السلام: من يرجع إلى عسكرنا فيأتينا بدلو ورشا؟ فقال أصحابه عليه السلام: من يستطيع ذلك؟، فائتزر بمئزر ونزل في القليب وما تزداد القهقهة إلا علوّاً وجعل عليه السلام ينحدر في مراقي القليب إذ زلّت رجله فسقط فيه، ثم سمعنا وجبة شديدة واضطراباً وغطيطاً كغطيط المخلوق [المخنوق] ثم نادى علي عليه الصلاة والسلام والتحيّة والإكرام: الله أكبر الله أكبر أنا عبد الله وأخو رسول الله، هلمّوا قربكم فأفعمها وأصعدها على عنقه شيئاً فشيئاً ومضى بين أيدينا فلم نر شيئاً فسمعنا صوتاً.

أي فتى ليل أخي روعات وأيّ سبّاق إلى الغايات
لله درّ الغرر السادات من هاشم الهامات والقامات
مثل رسول الله ذي الآيات أو كعليّ كاشف الكربات
كذا يكون المرء في حاجات

فارتجز أمير المؤمنين عليه السلام:

«الليل هول يرهب المهيبا ومذهل المشجّع اللبيبا
وإنّني أهول منه ذيبا ولست أخشى الرّدع والخطوبا
إذا هززت الصّارم القضيبا أبصرت منه عجباً عجيبا»

وانتهى إلى النبي وله (زجل)[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ماذا رأيت في طريقك يا علي؟»، فأخبره بخبره كله فقال صلى الله عليه وآله: «إن الذي رأيته مثل ضربه الله لي ولمن حضر معي في وجهي هذا»، قال علي عليه السلام: اشرحه لي يا رسول الله،

فقال صلى الله عليه وآله: «أما الرؤوس التي رأيتم لها ضجّة ولألسنتها لجلجة، فذلك مثل قومي معي يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ولا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً ولا يقيم لهم يوم القيامة وزناً».

(١) زجل: الصوت.

«وأما النيران بغير حطب ففتنة تكون في أمتي بعدي القائم فيها والقاعد سواء لا يقبل الله لهم عملاً ولا يقيم لهم يوم القيامة وزناً».

«وأما الهاتف الذي هتف بك فذلك سلقعة وهو سملقة «كذا» بن غداف الذي قتل عدو الله مسعراً شيطان الأصنام الذي كان يكلّم قرين منها ويشرع في هجائي»، هذا[1].

وقوله عليه السلام: **(وبقيت بقيّة من أهل البغي)** أراد به معاوية وأصحابه لأنه لم يكن أتى عليهم بأجمعهم، بل بقيت منهم بقيّة بمكيدة التحكيم حسبما عرفته في شرح المختار الخامس والثلاثين.

(و) الذي فلق الحبّة وبرء النسمة **(لئن أذن الله في الكرة عليهم)** هذا بمنزلة التعليق بالمشيئة، أي إن شاء الله سبحانه لي الرجوع إليهم بأن يمدّ لي في العمر ويفسح في الأجل ويهيّأ أسباب الرجوع **(لأديلنّ منهم)** أي لتكون الدّولة والغلبة لي عليهم.

والإتيان في جواب القسم باللام ونون التوكيد لتأكيد تحقق الإدالة وثبوته لا محالة بعد حصول الإذن والمشيئة منه سبحانه، وذلك بمقتضى وعده الصادق وقوله الحق في كتابه العزيز: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وبعد هذا فلقائل أن يقول: إنه عليه السلام قد كان عالماً بعدم إذن الله سبحانه في الكرّة عليهم والإدالة منهم، وذلك لما كان يعلمه بأخبار الله سبحانه وإخبار رسوله صلى الله عليه وآله بأن بني أميّة يملكون البلاد ألف شهر، وقد كان عليه السلام نفسه أخبر بذلك حين شاع في الكوفة خبر موت معاوية بقوله: كلا أو تخضب هذه من هذه ويتلاعب بها ابن آكلة الأكباد، في الرواية التي تقدّمت في شرح المختار السادس والخمسين، ومع ذلك كله فما معنى قوله عليه السلام: ولئن أذن الله في الكرة (اهـ؟).

قلت: الإتيان بهذه الجملة الشرطية مع علمه عليه السلام بعدم وقوع مضمونها لربط جأش المخاطبين وتقوية قلوبهم.

ونظيره ما رواه عنه عليه السلام عليّ بن إبراهيم بسنده عن عديّ بن حاتم وكان معه عليه السلام في حروبه «كذا» أن علياً قال ليلة الهرير بصفين حين التقى مع معاوية رافعاً صوته يسمع أصحابه: لأقتلنّ معاوية وأصحابه، ثم قال في آخر قوله: إن شاء الله تعالى، يخفض بها صوته، وكنت قريباً منه فقلت: يا أمير المؤمنين إنك حلفت على ما قلت ثم استثنيت فما أردت بذلك؟ فقال عليه السلام: إن الحرب خدعة وأنا عند أصحابي صدوق فأردت أن أطمع أصحابي [في قولي][2]

---

(١) بطوله في مدينة المعاجز ٢/ ٨٢، ومناقب آل أبي طالب ١/ ٣٥٩.

(٢) زيادة من البحار.

كيلا يفشلوا ولا يفرّوا[١]، فافهم فإنك تنتفع بهذه بعد اليوم إن شاء الله. هذا.

وقوله عليه السلام: **(إلاّ ما يتشذّر في أطراف الأرض تشذّراً)** كلمة **(ما)** هنا بمعنى من كما في قوله: والسماء وما بناها، أي إلاّ من يتفرّق في أطرافها تفرّقاً ممن لم يتمّ أجله ثم نبّه على نجدته وشجاعته بقوله:

(أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب) استعار لفظ الكلاكل للأكابر والرؤساء من العرب وأشراف القبائل الذين قتلهم في صدر الإسلام، والجامع للاستعارة كونهم سبب قوة العرب ومقدّميهم وبهم انتهاضهم إلى الحرب كما أن الكلكل للجمل كذلك سبب لنهوضه وقيامه وقوته ومقدم أجزائه.

ويجوز أن يكون من باب الاستعارة بالكناية، بأن يشبه العرب بجمال مستجلات ذوات الصدور والكلاكل في القوّة، فيكون إثبات الكلاكل تخيلاً، والوضع ترشيحاً.

وعلى أي تقدير فأشار عليه السلام بوضعه لهم إلى قهرهم وإذلالهم كما أن إناخة الجمل يستلزم قهره وإذلاله. قال الشاعر:

مراجيح ما تنفكّ إلاّ مناخة على الحتف أو ترمى بها بلداً قفرا

وإن شئت أن تعرف أنموذجاً من قتله وقتاله وإذلاله للكلاكل والشجعان فاستمع لما وقع منه عليه السلام في أول غزاة كانت في الإسلام وهي غزوة بدر، وقد كانت تلك الغزوة على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة كما في **«كشف الغمة»** وكان عمره عليه السلام إذ ذاك سبعة وعشرين سنة.

قال المفيد في **(الإرشاد)**: وأما الجهاد الذي ثبتت به قواعد الإسلام، واستقرت بثبوته شرائع الملّة والأحكام، فقد تخصص منه أمير المؤمنين عليه السلام بما اشتهر ذكره في الأنام، واستفاض الخبر به بين الخاص والعام، ولم يختلف فيه العلماء، ولا تنازع في صحته الفهماء، ولا شك فيه إلاّ غفل لم يتأمّل في الأخبار، ولا دفعه أحد ممن نظر في الآثار إلا معاند بهّات لا يستحيي من العار.

فمن ذلك ما كان منه عليه السلام في غزاة البدر المذكورة في القرآن، وهي أول حرب كان به الامتحان، وملأت رهبة صدور المعدودين من المسلمين في الشجعان، وراموا التأخر عنها لخوفهم منها وكراهتهم لها على ما جاء به محكم الذّكر في التبيان.

وكان من جملة خبر هذه الغزاة أن المشركين حضروا بدراً مصرّين على القتال،

---

(١) البحار ٣٢/٦١٧ ح ٤٨٣، وتفسير نور الثقلين ٣/ ٣٨١.

مستظهرين فيه بكثرة الأموال، والعدد والعدّة والرجال، والمسلمون إذ ذاك نفر قليل عدد هناك، وحضرته طوائف منهم بغير اختيار، وشهدته على الكراهة منها له والاضطرار.

فتحدّتهم قريش بالبراز ودعتهم إلى المصافة والنزال واقترحت في اللقاء منهم الأكفاء، وتطاولت الأنصار لمبارزتهم فمنعهم النبي ﷺ من ذلك فقال لهم: «إنّ القوم دعوا الأكفاء».

ثم أمر علياً أمير المؤمنين بالبروز إليهم، ودعا حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث رضوان الله عليهما أن يبرزا معه، فلما اصطفوا لهم لم يثبتهم القوم لأنهم كانوا قد تغفّروا فسألوهم: من أنتم؟ فانتسبوا لهم، فقالوا: أكفاء كرام، ونشبت الحرب بينهم.

وبارز الوليد أمير المؤمنين عليه السلام فلم يلبثه حتى قتله، وبارز عقبة حمزة رضي الله عنه فقتله حمزة، وبارز شيبة عبيدة رحمه الله فاختلفت بينهما ضربة قطعت إحداهما فخذ عبيدة، فاستنقذه أمير المؤمنين عليه السلام بضربة بدر بها شيبة فقتله، وشاركه في ذلك حمزة.

فكان قتل هؤلاء الثلاثة أول وهن لحق المشركين، وذلّ دخل عليهم، ورهبة اعتراهم بها الرعب من المسلمين، وظهر بذلك أمارات نصر المسلمين.

ثم بارز أمير المؤمنين العاص بن سعيد بن العاص بعد أن أحجم عنه من سواه فلم يلبثه أن قتله، وبرز إليه حنظلة بن أبي سفيان فقتله، وبرز إليه طعيمة بن عدي فقتله، وقتل بعده نوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش.

ولم يزل عليه السلام يقتل واحداً منهم بعد واحد حتى أتى على شطر المقتولين منهم، وكانوا سبعين رجلاً تولى كافة من حضر بدراً من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسوّمين قتل الشطر منهم، وتولى أمير المؤمنين عليه السلام قتل الشطر الآخر وحده بمعونة الله له وتأييده وتوفيقه ونصره وكان الفتح له بذلك على يديه.

وختم الأمر بمناولة النبي ﷺ كفاً من الحصي فرمى بها في وجوههم وقال لهم: «شاهت الوجوه»، فلم يبق أحد منهم إلا ولى الدبر بذلك منهزماً، وكفى الله المؤمنين القتال بأمير المؤمنين عليه السلام وشركائه في نصرة الدين من خاصة الرسول عليه وآله السلام ومن أيّدهم به من الملائكة الكرام[١].

قال (المفيد): وقد أثبتت رواة العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح.

(١) الإرشاد ١/ ٦٩.

فكان ممن سموه: الوليد بن عتبة كما قدمناه وكان شجاعاً جريئاً وقاحاً فاتكاً تهابَه الرجال، والعاص بن سعيد وكان هولاً عظيماً تهابه الأبطال، وهو الذي حاد عنه عمر بن الخطاب، وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس أهل الضلال، ونوفل بن خويلد وكان من أشدّ المشركين عداوة لرسول الله ﷺ. وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطيعه وهو الذي قرن أبا بكر وطلحة قبل الهجرة بمكة وأوثقهما بحبل وعذّبهما يوماً إلى الليل حتى سئل في أمرهما ولما عرف رسول الله ﷺ حضوره بدراً سأل الله أن يكفيه أمره فقال: «اللهم اكفني نوفل بن خويلد»، فقتله أمير المؤمنين ﷺ.

وزمعة بن الأسود، وعقيل بن الأسود، والحارث بن زمعة، والنضر بن الحارث بن عبد الدار، وعمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحة بن عبيد الله، وعثمان، ومالك ابنا عبيد الله أخوا طلحة بن عبيد الله، ومسعود بن أبي أميّة بن المغيرة، وقيس بن الفاكهة بن المغيرة، وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعمرو بن مخذوم، وأبو المنذر بن أبي رفاعة، ومنية بن الحجاج السهمي، والعاص بن منية، وعلقمة بن كلدة، وأبو العاص بن قيس بن عدي، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، ولوذان بن ربيعة، وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، ومسعود بن أميّة بن المغيرة، وحاجب بن السايب بن عويمر، وأوس بن المغيرة بن لوذان، وزيد بن مليص، وعاصم بن أبي عوف، وسعيد بن وهب حليف بني عامر، ومعاوية بن عبد القيس، وعبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد، والسائب بن مالك، وأبو الحكم بن الأخنس، وهشام بن أبي أمية بن المغيرة.

فذلك ستة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين ﷺ فيه غيره، وهم أكثر من شطر المقتولين ببدر على ما قدمناه[1].

قال (المفيد): وفيما صنعه أمير المؤمنين ﷺ ببدر، قال أسيد بن إياس يحرض مشركي قريش عليه:

في كل مجمع غاية أخزاكم	جذع أبرّ على المذاكي القرّح
لله درّكم المّا تنكروا	قد ينكر الحرّ الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي أفناكم	ذبحاً وقتلاً قعصة لم يذبح
أعطوه خرجاً واتقوا تضريبه	فعل الذليل وبيعة لم تربح

(١) الإرشاد ١/ ٧٠ ـ ٧١.

أين الكهول وأين كل دعامة في المعضلات وأين زين الأبطح
أفناهم قعصاً وضرباً يعتري بالسيف يعمل حدّه لم يصفح

(وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر) والاستعارة في هذه القرينة مثل التي في سابقتها، فتحتمل الاستعارة التحقيقية بأن يراد تشبيه رؤساء القبيلتين وأنجادهم بقرون الحيوان، لأنهم أسباب القوة والصّولة والمحاربة للقبيلتين كما أن القرن آلة الحرب والنطح والصّيال للكبش.

وتحتمل الاستعارة المكنية بأن يراد تشبيه القبيلتين بالأكبش ذوات القرون في الصّولة والقوة، فيكون إثبات القرن تخييلاً، والكسر والنواجم ترشحياً، والمراد بكسره عليه السلام نواجم قرونهم قهرهم وإذلالهم، لأن الكبش إذا انتطح بكبش آخر فانكسر قرنه يُغلب ويهرب.

وقد قتل عليه السلام من ربيعة ومضر في مجاهداته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده في الجمل وصفّين جماً غفيراً يكاد أن يكون أغزر من قطر المطر وأكثر من عدد النجم والشجر، ولنعم ما قال كاشف الغمة:

سل عن علي مقامات عرفن به شدّت عرى الدين في حل ومرتحل
بدراً واحداً وسل عنه هوازن في أوطاس واسأل به في وقعة الجمل
واسأل به إذ أتى الأحزاب يقدمهم عمرو وصفّين سل إن كنت لم تسل

ثم ذكر المخاطبين بمناقبه الجميلة ومفاخره الجليلة، وعدّ منها تسعاً:

الأولى: ما أشار إليه بقوله: **(وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة)** لأن أبويهما عبد الله وأبا طالب أخوان لأب وأم، دون غيرهما من بني عبد المطلب فهما ابنا عم مضافاً إلى علاقة المصاهرة وكونه عليه السلام زوج ابنته فاطمة سلام الله عليها.

وإلى هذه القرابة أشيرت في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

روى في **(غاية المرام)** عن المالكي في الفصول المهمة عن محمد بن سيرين في هذه الآية أنها نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وعليّ بن أبي طالب ابن عمّ رسول الله وزوج ابنته فاطمة فكان نسباً وصهراً[١].

وفيه عن الشيخ في **(أماليه)** بسنده عن أنس بن مالك قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم بغلته فانطلق إلى جبل آل فلان وقال: «يا أنس خذ البغلة وانطلق إلى موضع كذا وكذا

(١) مناقب آل أبي طالب ٢/ ٢٩.

تجد عليّاً جالس يسبّح بالحصى، فأقْرِئْهُ مني السلام، واحمله على البغلة وأتي به إليّ».

قال أنس: فذهبت فوجدت عليّاً كما قال رسول الله ﷺ، فأتيت به عليه، فلما أن نظر عليه السلام برسول الله قال: السلام عليك يا رسول الله، قال: «وعليك السلام يا أبا الحسن، اجلس فإن هذا موضع قد جلس فيه سبعون نبياً مرسلاً ما جلس فيه أحد من الأنبياء إلا وأنا خير منه، وقد أجلس كل نبي أخ له ما جلس فيه من الأخوة واحد إلا وأنت خير منه».

قال أنس: فنظرت إلى سحابة قد أظلّتهما ودنت من رؤوسهما، فمدّ النبي ﷺ يده إلى السحابة فتناول عنقود عنب فجعله بينه وبين علي وقال: «كل يا أخي».

قلت: يا رسول الله، صف كيف عليّ أخوك؟ قال: «إن الله عزّ وجل خلق ماء تحت العرش قبل أن يخلق آدم بثلاثة آلاف عام، وأسكنه في لؤلؤة خضراء في غامض علمه إلى أن خلق آدم، فلما خلق آدم نقل ذلك الماء من اللؤلؤة فأجراه في صلب آدم إلى أن قبضه الله، ثم نقله في صلب شيث فلم يزل ذلك الماء ينتقل من ظهر إلى ظهر حتى صار في عبد المطلب ثم شقّه الله عزَّ وجل نصفين: نصف في أبي عبد الله بن عبد المطلب ونصف في أبي طالب فأنا من نصف الماء وعليّ من النصف الآخر، فعلي أخي في الدنيا والآخرة»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤][١].

وفي **(كشف الغمة)** عن جابر بن عبد الله قال: سمعت علياً ينشد ورسول الله ﷺ يسمع:

أنا أخو المصطفى لا شك في نسبي	معه ربيت وسبطاه هما ولدي
جدّي وجدّ رسول الله منفرد	وفاطم زوجتي لا قول ذي فند
فالحمد لله شكراً لا شريك له	البرّ بالعبد والباقي بلا أمد

قال: فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «صدقت يا عليّ»[٢].

الثانية: ما أشار إليه بقوله: **(والمنزلة الخصيصة)** أي الخاصة والمخصوصة بي وشرحها بقوله: **(وضعني في حجره)** وربّاني **(وأنا وليد)** طفل صغير **(يضمّني إلى صدره ويكنفني)** أي يضمني إلى كنفه وحضنه **(في فراشه ويمسّني جسده ويشمّني عرفه)** أي ريحه الطيّب **(وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه)** وهذا كله إشارة إلى شدّة تربيته صلّى الله عليه وآله له وقيامه بأمره.

ويوضحه ما رواه الشارح المعتزلي عن الطبري في **(تاريخه)** قال: حدثنا ابن حميد

(١) أمالي الطوسي ٣١٣ ح ٦٣٧

(٢) كشف الغمة للإربلي ٢/ ٢٢.

قال: حدثنا سلمة قال: حدثني محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن نجيح عن مجاهد قال: كان من نعمة الله عزَّ وجل على عليّ بن أبي طالب وماصنع الله له وأراد به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله ﷺ للعباس وكان من أيسر بني هاشم: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة فانطلق بنا فنخفّف عنه من عياله آخذ من بنيه واحداً وتأخذ واحداً فنكفيهما عنه»، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنّا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل علي بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيّاً، فاتبعه علي عليه السلام فأقرّ به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه[1].

ورواه **(كاشف الغمة)** عن الخطيب الخوارزمي عن محمد بن إسحاق ونحوه.

وروى الشارح المعتزلي عن الفضل بن عباس قال: سألت أبي عن وُلد رسول الله ﷺ الذكور أيهم كان رسول الله ﷺ أشدّ حباً؟ فقال: علي بن أبي طالب، فقلت: سألت لك عن بنيه، فقال: إنه كان أحب إليه من بنيه جميعاً وأرأف ما رأيناه زايلة يوماً من الدهر منذ كان طفلاً إلا أن يكون في سفر لخديجة وما رأينا أباً أبرّ بابن منه لعلي ولا ابناً أطوع لأب من علي له.

قال الشارح: وروى جبير بن مطعم قال: قال أبي مطعم بن عدي لنا ونحن صبيان بمكة: ألا ترون حب هذا الغلام ـ يعني عليّاً ـ لمحمد وأتباعه له دون أبيه، واللات والعزّى لوددت أنه ابني بفتيان بني نوفل جميعاً.

قال الشارح: وروى الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام قال: سمعت زيداً أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يمضغ اللحمة والتمرة حتى تلين ويجعلهما في فم علي وهو صغير في حجره[2].

الثالثة: ما أشار إليه بقوله: **(وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل)** أي لم تجد مني كذباً وخطاء أبداً ولو مرة واحدة، لوجود العصمة المانعة فيه وفي زوجته والطيبين من أولاده سلام الله عليهم أجمعين من الإقدام على الذنوب صغيرها وكبيرها باتفاق الإمامية

(١) الطرائف ١٨، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٨، وعيون الأثر ١/ ١٢٥.

(٢) البحار ٣٨/ ٣٢٤ ح ٣٣.

وحكم آية التطهير وغيرها، فلا يقع منهم ذنب أصلاً لا عمداً ولا نسياناً ولا خطأً.

روى في **(البحار من الخصال)** قال: قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] عنى به أن الإمامة لا تصلح لمن قد عبد صنماً أو وثناً أو أشرك بالله طرفة عين وإن أسلم بعد ذلك، والظلم وضع الشيء في غير موضعه وأعظم الظلم الشرك، قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وكذلك لا تصلح لمن قد ارتكب من المحارم شيئاً صغيراً كان أو كبيراً وإن تاب منه بعد ذلك، وكذلك لا يقيم الحدّ من في جانبه حدّ.

فإذاً لا يكون الإمام إلا معصوماً، ولا تعلم عصمته إلا بنص الله عزَّ وجل عليه على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله، لأن العصمة ليست في ظاهر الخلقة فترى كالسواد والبياض وما أشبه ذلك وهي مغيبة لا تعرف إلا بتعريف علاّم الغيوب.

وقد مضى وجوب عصمة الإمام بتقرير آخر في مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشّقشقيّة.

ثم نبّه على منقبة عظيمة لرسول الله صلى الله عليه وآله لتكون تمهيداً وتوطئة لمنقبته عليه السلام الرابعة فقال:

(ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره).

قال الشارح المعتزلي: روي أن بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام سأله عن قول الله عزَّ وجل: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٧] فقال عليه السلام: يوكّل الله بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم ويؤدون إليه تبليغهم الرسالة، ووكّل بمحمد صلى الله عليه وآله ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ويسدّه عن الشر ومساوىء الأخلاق، وهو الذي كان يناديه السلام عليك يا محمد يا رسول الله وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظن أن ذلك من الحجر والأرض فيتأمل فلا يرى شيئاً[١].

أقول: والظاهر على ما يستفاد من الأخبار وأشير إليه في غير واحدة من الآيات: إن المراد بهذا الملك هو روح القدس المخصوص بالنبي صلى الله عليه وآله وعترته الأطهار الأخيار.

فقد روى المحدّث العلامة المجلسي «ره» في **(البحار)** من تفسير علي بن إبراهيم في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول

(١) حلية الأبرار ١/ ٣٤، والبحار ١٥/ ٣٦٢.

الله ﷺ وهو مع الأئمة، وفي خبر آخر: هو من الملكوت.

وفيه منه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] هم الأئمة ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] قال: ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل وكان مع رسول الله ﷺ وهو مع الأئمة عليهم السلام.

وفيه من كتاب (**الاختصاص وبصائر الدرجات**) بسندهما عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] قال: خلق من خلق الله أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ يخبره ويسدّده وهو مع الأئمة من بعده[١].

وفيه من (**البصائر**) مسنداً عن سماعة بن مهران قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الروح خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ يسدّده ويرشده وهو مع الأوصياء من بعده[٢].

وفيه من (**البصائر**) عن البرقي عن أبي الجهم عن ابن أسباط قال: سأل أبا عبد الله عليه السلام رجل وأنا حاضر عن قول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فقال: منذ أنزل الله ذلك الروح على محمد ﷺ لم يصعد إلى السماء وأنه لفينا[٣].

وفيه من (**الاختصاص والبصائر**) عن ابن يزيد عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] قال: خلق أعظم من خلق جبرائيل وميكائيل لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد ﷺ وهو مع الأئمة يوفقهم ويسدّدهم، وليس كلما طلب وجد[٤].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة ولا حاجة إلى الإكثار والإطالة[٥].

والمستفاد من الرواية الأخيرة اختصاصه بالنبي والأئمة عليهم السلام وقوله عليه السلام فيها: وليس كلما طلب وجد معناه أن حصول تلك المرتبة الجليلة والمنقبة العظيمة لا يتيسر بالطلب بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) البحار ١٨/٢٥٤ ح ٣، و٣٥/٤٧ ح ١ ـ ٢، وتفسير القمي ٢/٢٦.

(٢) البصائر ٤٧٦ ح ٤.

(٣) بصائر الدرجات ٤٧٧، والبحار ٢٥/٦١.

(٤) بصائر الدرجات ٤٨١، والبحار ٢٥/٦٧ ح ٤٧.

(٥) قد فصّلناها في كتاب: آل محمد بين قوسي النزول والصعود.

الرابعة: ما أشار إليه بقوله: (**ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل**) وهو ولد الناقة (**أثر أمه**) وهو إشارة إلى فرط ملازمته له وعدم مفارقته إياه ليله ونهاره سفراً وحضراً في خلواته وجلواته.

ولما عرفت آنفاً أن رسول الله ﷺ كان مؤيداً مسدّداً بروح القدس من حين الطفولية إلى آخر عمره الشريف ملهماً إلى الخيرات موفقاً بتأييد الروح إلى سلوك طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم.

تعرف من ذلك أن أمير المؤمنين ﷺ إذا كان ملازماً له غير مفارق منه يكون تالياً له ﷺ في سلوك مسالك مكارم الخصال ومحامد الأفعال مقتبساً من أنوار مقتفياً لآثاره كما أوضحه بقوله[1]:

---

(١) **تساوي النبي وعلي عليهما السلام:**
وقال محمود بن الحسن الحمصي بعد ذكر آية المباهلة ﴿انفسنا وانفسكم﴾: فالمراد ان هذه النفس مثل ذلك النفس وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه، تُرك العمل بهذا العموم في حق النبوة وفي حق الفضل لقيام الدلائل؛ على ان محمداً ﷺ كان نبياً وما كان علي ﷺ كذلك ـ تفسير الرازي: ٨ / ٨ مورد آية المباهلة.
وعن عمرو عن رسول الله عندما سئل عن احب الناس اليه بعد ابو بكر وعمر فقيل له فعلي؟!
فقال ﷺ: «ان هذا يسألني عن النفس». كنز العمال: ١٣ / ١٤٢ ح٣٦٤٤٦.
ويأتي ان هذه المقولة صدرت أيضاً من ابن مسعود وابن عمر وابن عائشة.
وقال ابن ابي الحديد: امّا علي فانه عندنا بمنزلة الرسول في تصويب قوله والاحتجاج بفعله ووجوب طاعته ـ شرح النهج: ٢٠ / ٣٤ - ٣٥ حكمة رقم ٤٠٩ - كلام ابن المعالي في الصحابة.
وقال الفخر الرازي: واما سائر الشيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدلون بهذه الاية ﴿وانفسنا وانفسكم﴾على ان علياً مثل نفس النبي ﷺ إلاّ فيما خصه بالدليل، وكان نفس محمد أفضل من الصحابة، فوجب ان يكون نفس علي افضل ايضاً من سائر الصحابة» ـ تفسير الرازي: ٨ / ٨١ مورد آية المباهلة.
وللديلمي كلاماً في التساوي يشابه ما مرّ ويحتمل ان بعضهم أخذ عن بعض ـ ارشاد القلوب: ٢ / ١٢١ فضائل علي حين الولادة.
وقال ابو جعفر الحسني ما ملخصه: ومن العجب ان اول حروب رسول الله ﷺ كانت بدراً وكان هو المنصور فيها، واول حروب علي ﷺ الجمل وكان هو المنصور فيها.
ثم كان من صحيفة الصلح يوم صفين نظير ما كان يوم الحديبية.
ثم دعا معاوية في آخر ايام علي ﷺ الى نفسه وتسمى بالخلافة كما ان مسيلمة والاسود العنسي دعوا الى انفسهما في اخر ايام رسول الله ﷺ وتسميا بالنبوة.
وابطل الله امرهم بعد وفاة الرسول وعلي ﷺ.
ولم يحارب رسول الله من العرب إلاّ قريش ما عدا يوم صفين، ولم يحارب علياً من العرب أحد إلاّ قريش ما عدا يوم النهروان.
ولم يتزوج الرسول على خديجة ولم يتزوج علي على فاطمة وتوفي الرسول عن ثلاث وستين سنة وتوفي

علي عن مثلها.
وهذا شجاع وهذا شجاع، وهذا فصيح وهذا فصيح، وهذا سخي جواد وهذا سخي جواد، وهذا عالم بالشرائع وهذا عالم بالشرائع، وهذا زاهد وهذا زاهد ـ الى ان قال ـ :
فوجب ان يكون الكل شيمة واحدة وسوساً واحداً وطينة مشتركة ونفساً غير منقسمة وألاّ يكون بينهما فرق وفضل إلاّ النبوة فإمتاز رسول الله بذلك عمن سواه وبقي ما عدا الرسالة على امر الاتحاد، ثم ذكر حديث المنزلة.
وقال: فأبان نفسه منه بالنبوة واثبت له ما عداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما ـ شرح النهج: ٢٠ / ٢٢١ - ٢٢٢ كلام ١٩٣ ـ سياسة علي ـ.
وقالت فرقة الهاشمية اصحاب ابي هاشم (٩٩ هـ) ان الامام عالم يعلم كل شيء، وهو بمنزلة النبي ﷺ في جميع أموره ـ فرق الشيعة: ٥١ - ٥٢.
وقال الرازي: ان اهل بيته ﷺ ساووه في خمسة اشياء: في الصلاة عليه وعليهم وفي التشهد وفي السلام والطهارة وفي تحريم الصدقة وفي المحبة ـ نور الابصار: ٢٣١ باب ٢ مناقب الحسن والحسين ـ.
وفي الروايات ما يوجب التساوي بين النبي وعلي عليه السلام منها:
ما روي عن انس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلاّ وله نظير في امته وعلي نظيري». اخرجه القلعي، وأبو الحسن الخلعي، وصاحب الفردوس ـ مناقب الخوارزمي: ١٤١ ح١٦١ فصل ١٤، وكنز العمال: ١١ / ٧٥٧ ح ٣٣٦٨٧، وذخائر العقبى: ٦٤ ذكر أنه من النبي أو مثله، ذكر انه من النبي، وينابيع المودة: ١ / ٢٧٩ ـ المناقب السبعون ـ ح٣١، والرياض النضرة: ٢ / ١٦٤ ط. مصر الاولى، وجواهر المطالب: ١ / ٦١ باب ٩، والرياض النضرة: ١ / ٥٠ و٣ / ١٢٠.
وقال ﷺ: (يا علي) «وأنت الصاحب بعدي والوزير وما لك في امتي من نظير، يا علي انت قسيم الجنة والنار بمحبتك يعرف الابرار من الفجار». روضة الواعظين: ١٠١ - ١٠٢ مجلس في امامة علي عليه السلام.
وعنه ﷺ: «علي عديل نفسي». شرح النهج: ١ / ٢٩٤ الخطبة ١٩.
وقال ﷺ: «أنا وعلي في السلام سواء». مسند البزار: ٣ / ٥٤ ح ٨٠٨، ومجمع الزوائد: ٨ ٣٠ والبغية: ٦٥ ح ١٢٧٣٥..
وقال ﷺ: «علي فصاحته كفصاحتي». فرائد السمطين: ٢ / ٦٨..
وقال ﷺ: «علي صبره كصبري». الرياض النضرة: ٣ / ١٧٢..
وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «علي في الدنيا اذا مت عوض مني» مائة منقبة: ١٣٢ المنقبة ٧٢.
وقال ابو بكر: قال لي رسول الله ﷺ في الغار: «يا ابا بكر كفي وكف [يدي ويد] علي في العدل سواء». كنز العمال: ١١ / ٦٠٤ ح٣٢٩٢١ فضائله، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ٢ / ٤٣٩ ح٩٥٣ ومناقب ابن المغازلي: ١٢٩ ح١٧٠، كفاية الطالب: ٢٥٦ باب ٦٢، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ٢ / ٤٣٨ ح٩٥٢، وتاريخ بغداد: ٥ / ٢٤٠.
وفي لفظ: «كفي وكف علي في العدّ سواء». خرجه ابن السمان في الموافقات ـ جواهر المطالب: ١ / ٦١ باب ٩.
وفي رواية: «علي اصلي» ـ كنز العمال: ١١ / ٦٠٢ ح ٣٢٩٠٨، وكنوز الحقائق: ٤٤٣.
وعن ابن عمر: «علي مع الرسول في درجته». الرياض النضرة: ٣ / ١٨٠..
وفي رواية عنه ﷺ: «ليس احد من الامة يعدلك عندي». كنز الفوائد: ٢٨١ الاستدلال بصحة النص

بالامامة .
وقال ﷺ: «أنا وأنت حجة الله على خلقه» ـ ذيل تاريخ بغداد: ١٩ / ٦٦ . .
وعن انس بن مالك عنه ﷺ: « انا وعلي حجة الله على عباده» ـ كنز العمال: ١٣ / ١٥١ ح ٧٤ ٣٦٤٧٤، كتاب الاربعين للحافظ الخزاعي: ٦٢ ح ٢٠، وكشف الغمة: ١ / ١٦١ بيان انه أفضل الاصحاب .
وعن محمد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ: « وانا رسول الله والمبلغ عنه وانت وجه الله والمؤتم به فلا نظير لي إلاّ انت ولا مثلك إلاّ انا ». ارشاد القلوب: ٢ / ٤٠٤ .
وروي عن محمد بن صدقة عن ابي ذر عن امير المؤمنين قال: « يا سلمان ويا جندب انا محمد ومحمد انا وانا من محمد ومحمد مني ». الزام الناصب: ١ / ٣٤ الثمرة الخامسة، وسوف ياتي توضيح الحديث في الجزء الثاني .
وعن امير المؤمنين ﷺ في وصف الامام قال: « وادنى معرفة الامام انه عدل النبي ﷺ إلاّ درجة النبوة، ووارثه ». كفاية الاثر: ٢٥٩ .
وقال صادق اهل البيت جعفر بن محمد ﷺ: «ما جاء عن علي بن ابي طالب يؤخذ به وما نهى عنه ينتهى عنه، جرى له من الفضائل ما جرى لرسول الله ﷺ ولرسول الله الفضل على جميع ما خلق الله.
العايب على امير المؤمنين في شيء كالعايب على الله وعلى رسوله والرد عليه في صغير وكبير على حد الشرك بالله.
كان امير المؤمنين باب الله الذي لا يؤتى إلاّ منه وسبيله الذي من تمسك بغيره هلك وكذلك جرى حكم الائمة بعده واحداً بعد واحد .
اما علمت ان امير المؤمنين كان يقول: لقد اقر لي جميع الملائكة والروح مثل ما أقر لمحمد ﷺ ولقد حمّلت مثل حمولة محمد وهي حمولة الرب سبحانه وان محمد يدعى فيكسا ويستنطق فينطق وادعى فاكسا واستنطق فانطق ». ارشاد القلوب: ٢ / ٢٥٥ - ٢٥٦ فضائله من طريق اهل البيت: .
وعنه ﷺ: «أوتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحد: أوتيت صهراً مثلي ». رواه أبو سعيد في شرف النبوة ـ جواهر المطالب: ١ / ١٠٩ باب ٣٣ .
وقال ابن عمر: سألت النبي عن علي، فغضب وقال: «ما بال أقوام يذكرون من له منزلة كمنزلتي ». كتاب الاربعين للحافظ الخزاعي: ٣٠ ح ١ . .
وروى الباهلي وغيره قوله ﷺ: « يا علي فانك ستكس اذا كسيت وتدعى اذا دعيت وتحيى اذا حييت وتشفع اذا شفعت ». تذكرة الخواص: ٢٩ - ٣٠ باب ٤، وكنز العمال: ١٣ / ١٥٥ ح٣٦٤٨٢ بتفاوت .
وورد عن واثلة وعلي ﷺ: عن رسول الله ﷺ قال: «[يا علي] ما سألت ربي شيئاً [في صلاتي] إلاّ اعطاني وما سألت الله شيئاً إلاّ سالت لك مثله ». منتخب كنز العمال: ٥ / ٤٣، ومناقب ابن المغازلي: ١١٨ ح١٥٥، و١٣٥ ح١٧٨، ومناقب الخوارزمي: ١١٠ ح١١٧ فصل ٩، و١٤٣ ح١٦٤ فصل ١٤، وكنز العمال: ١١ / ٦٢٥ ح٣٣٠٤٨ و١٣ / ١١٣، و١٧٠ ح٣٦٣٦٨، و٣٦٥١٣، وخصائص النسائي: ١٢٧ ح١٤٣ .
وقريب منه عن عبد الله بن الحرث [الحارث] وابي ذر ـ خصائص النسائي: ١٢٧ ح١٤٤، وذخائر العقبى: ٦١، وينابيع المودة: ١ / ٢٤٠ باب ٥٦، وارشاد القلوب: ١ / ٢٦١ احتجاجه يوم الشورى .
وفي رواية عن امير المؤمنين ﷺ: « أنا امام لمن بعدي والمؤدي عمن كان قبلي ما يتقدمني إلاّ احمد وان جميع الرسل والملائكة والروح خلفنا وان رسول الله يدعى فينطق وادعى فانطق على حد منطقه ». بحار

(يرفع لي في كل يوم علماً) وراية **(من أخلاقه)** الفاضلة **(ويأمرني بالاقتداء به)** والمتابعة له.

الخامسة: ما أشار إليه بقوله: **(ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء)** ويعتزل عن الخلق ويتخلى للعبادة **(فأراه ولا يراه)** أحد **(غيري)**.

قال الشارح المعتزلي: حديث مجاورته بحراء مشهور، قد ورد في **(الكتب الصحاح)** أنه ﷺ كان يجاوره في حراء من كل سنة شهراً، وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من

الانوار: ٢٦ / ٣١٧ باب تفضيلهم على الانبياء ح٨٥.

وعن عمر بن ميثم قال: قال رسول الله لعلي ﷺ: «لا ادعى لخير إلاّ دعيت اليه» ـ كنز العمال: ١٣ / ١٥٥ ح٣٦٤٨١.

وروي عن الحسن العسكري ﷺ في بعض محاوراة امير المؤمنين مع اليهود جاء فيها: « نشهد ان محمداً رسول الله حقاً وانك يا علي وصيه حقاً لم يثبت محمد قدماً في مكرمة إلاّ وطأت على موضع قدمه بمثل مكرمته وانتما شقيقان من اشرق [اشرف] انوار الله فميزنتما [تميزتما] وانتما في الفضائل شريكان إلاّ انه لا نبي بعد محمد ﷺ» ـ معاني الاخبار: ٢٧ باب معنى الحروف المقطعة.

وورد عن ابي بكر عندما أرسل ابا عبيدة لأخذ البيعة من علي ﷺ قال: « يا ابا عبيدة انت أمين هذه الامة ابعثك الى من هو في مرتبة مَن فقدناه بالأمس ينبغي ان نتكلم عنده بحسن الادب » الغدير: ١ / ٣٩٦ نقلا عن العروة الوثقى للسمناني البياضي.

* قال الاربلي بعد الحديث: ان هذا يدل على ان كلما كان للنبي ﷺ فلعلي مثله، لاشتراكهما في انهما حجة الله على عباده، فأما النبوة فانها خرجت بديل آخر فبقي ما عداها من الولاية عليهم ـ كنز العمال: ١٣ / ١٥١ ح٧٤ ٣٦٤٧٤، وكشف الغمة: ١ / ١٦١ بيان أنه أفضل الاصحاب.

وكان المغيرة يساوي بين علي ورسول الله ـ العقد الفريد: ٢ / ٢٣٠.

وعن الامام الحسن ﷺ في اول خطبة له: « والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ما سبقه الاولون إلاّ بفضل النبوة ولا يدركه الآخرون » مروج الذهب: ٢ / ٤١٤ ذكر قتل علي.، وصيته ـ.

وعن عمار وسلمان والمقداد وعامر بن ابي ذر وحذيفة عن رسول الله ﷺ قال بعد حديث توسل ادم باصحاب الكساء: « وافتخر على الملائكة انه لم يعطي نبياً شيئاً في الفضل إلاّ اعطاه لنا » الفضائل لابن شاذان: ١٢٨.

وورد في حق رسول الله ﷺقوله: « رأيتني دخلت الجنة فاوتيت بكفة ميزان فوضعت فيها وجيء بأمتي فوضعت بكفته الاخرى فرجحت بامتي » الشريعة للآجري: ٣٨٧ ذيل كتاب الايمان بالميزان.

وورد في حق امير المؤمنين ﷺ عن ابن عمر: «لو أن السموات والارض موضوعتان في كفة وايمان علي في كفة لرجح ايمان علي » كنز العمال: ٦ / ١٥٦ ط. دكن، و١١ / ٦١٧ ح ٣٢٩٩٣ ط بيروت من كتاب الفضائل فضائل علي.

وقريب منه عن حذيفة وعمر وعلي ـ شواهد التنزيل: ٢ / ١٢ ح ٦٣٤، ومائة منقبة: ١٠٦ المنقبة ٤٧، ومناقب الخوارزمي: ١٣١ ح ١٣٥ فصل ١٢.

وورد أن روحهما من بين الخلق يقبضهما الله عزوجل ـ جواهر المطالب: ١ / ٦٢ باب ٩.

المساكين، فإذا قضى جواره من حراء كان أول ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته حتى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة، فجاور في حراء شهر رمضان ومعه أهله خديجة وعلي بن أبي طالب وخادم لهم، فجاءه جبرائيل بالرسالة قال صلى الله عليه وآله: «جاءني وأنا نائم بنمط فيه كتاب فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ فغشني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق ـ إلى قوله ـ: علّم الإنسان ما لم يعلم، فقرأته ثم انصرف عني، فتنبّهت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاب»، الحديث[١].

وفي كتاب (**حياة القلوب**) للمحدّث العلامة المجلسي عن علي بن إبراهيم وابن شهرآشوب والطبرسي والراوندي وغيرهم من المحدثين والمفسرين أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قبل مبعثه يعتزل عن قومه ويجاور الحراء ويفرغ لعبادة ربه سبحانه، وكان عزَّ وجل يسدده ويهديه ويرشده بالروح القدس والرؤيا الصادقة وأصوات الملائكة والإلهامات الغيبية، فيدرج في مدارج المحبّة والمعرفة، ويعرج إلى معارج القرب والزّلفى، وكان سبحانه يزينه بالفضل والعلم ومحامد الأخلاق ومحاسن الخصال ولا يراه أحد في أيام مجاورته به وخلال تلك الأحوال غير أمير المؤمنين عليه السلام وخديجة.

السادسة: ما أشار إليه بقوله: (**ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله** وخديجة وأنا ثالثهما).

هذا الكلام صريح في سبقه على جميع من سواه من الرجال بالإسلام، ونظيره قوله في المختار المئة والأحد والثلاثين: اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب لم يسبقني إلا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة[٢].

وقد تقدم في شرح المختار المذكور تحقيق تقدمه بالصلاة والإسلام كما هو مذهب الإمامية تفصيلاً وأبطلنا تقدم إسلام أبي بكر عليه كما ذهب إليه شرذمة من العثمانية وأوردنا ثمة من الأدلة والأخبار والأشعار في هذا المعنى ما لا مزيد عليه وأقتصر هنا على روايتين تقدمتا هناك إجمالاً ونرويهما هنا تفصيلاً.

إحداهما: عن (**كاشف الغمّة**) عن عفيف الكندي قال: كنت امرءاً تاجراً فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرءاً تاجراً فوالله إني لعنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى الشمس فلما رآها قد مالت قام يصلي.

---

(١) راجع (**شرح أصول الكافي**) للمازندراني ٦/ ٣٧٥.

(٢) البحار ٧٤/ ٢٩٥، وحياة أمير المؤمنين ١/ ٣١.

قال: ثم خرجت امرأة من الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه فصلّت، ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء فقام معه فصلى.

قال: فقلت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، قال: فقلت: من هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة بنت خويلد، قال: فقلت: من هذا الفتى؟ قال: علي بن أبي طالب ابن عمه، فقلت له: ما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي وهو يزعم أنه نبي ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر، وكان عفيف وهو ابن عم الأشعث بن قيس يقول بعد ذلك وهو أسلم وحسن إسلامه: لو كان رزقني الله الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع علي عليه السلام.

قال (**كاشف الغمة**): وقد رواه بطوله أحمد بن حنبل في (**مسنده**)، نقلته من الذي اختاره وجمعه عزّ الدين المحدّث، وتمامه من (**الخصائص**) بعد قوله: ثم استقبل الركن ورفع يديه فكبّر، وقام الغلام، ورفع يديه وكبّر، ورفعت المرأة يديها فكبّرت وركع وركعا وسجد وسجدا وقنت وقنتا، فرأينا شيئاً لم نعرفه أو شيئاً حدث بمكة فأنكرنا ذلك وأقبلنا على العباس فقلنا له: يا أبا الفضل، الحديث بتمامه[1].

والرواية الثانية قدمناها هناك من (**البحار**) من مناقب ابن شهرآشوب من كتاب محمد بن إسحاق وأرويها هنا بتفصيل من شرح المعتزلي رواها هنا عن الطبري عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق، ورواها أيضاً في تاسع المختار من باب الكتب من كتاب (**السيرة والمغازي**) لمحمد بن إسحاق قال الشارح المعتزلي: فإنه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرخين، ومصنّفه شيخ الناس كلهم، قال:

قال محمد بن إسحاق: لم يسبق عليّاً عليه السلام إلى الإيمان بالله ورسالة محمد أحد من الناس، اللهم إلا أن تكون خديجة زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال: وقد كان صلى الله عليه وآله يخرج ومعه علي عليه السلام مستخفياً من الناس فيصليان الصلاة في بعض شعاب مكة، فإذا أمسيا رجعا فمكثا بذلك ما شاء الله أن يمكثا لا ثالث لهما.

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لمحمد صلى الله عليه وآله: يا ابن أخي ما هذا الذي تفعله؟ فقال صلى الله عليه وآله: «أي عمّ هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أنبيائه»، أو كما قال صلى الله عليه وآله: «بعثني الله به رسولاً إلى العباد»، إلى أن قال: فزعموا أنه قال لعليّ عليه السلام: «أي بني ما هذا الذي تصنع؟»، قال: يا أبتاه آمنت بالله ورسوله وصدقته فيما جاء به وصليت إليه واتبعت

---

(١) كشف الغمة ١/ ٨٣ـ ٨٤، وسبيل الهدى والرشاد ٢/ ٢٩٧، والبحار ٣٨/ ٢٤٤.

قول نبيه فزعموا أنه قال له: «أما أنه لا يدعوك أو لن يدعوك إلا إلى خير فالزمه»(١).

قال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله فكان أول من أسلم وصلى معه صلى الله عليه وآله بعد علي بن أبي طالب، ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة فكان ثالثاً لهما، ثم أسلم عثمان بن عفان وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن وسعد بن أبي وقاص فصاروا ثمانية، فهم الثمانية الذين سبقوا الناس إلى الإسلام بمكة.

السابعة: ما أشار إليه بقوله: **(أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة)** قال الشارح البحراني: وهذه أعلى مراتب الأولياء، واستعار لفظ النور لما يشاهده بعين بصيرته من أسرار الوحي والرسالة وعلوم التنزيل ودقائق التأويل وإشراقها على لوح نفسه القدسيّة، ووجه الاستعارة كون هذه العلوم والأسرار هادية في سبيل الله إليه من ظلمات الجهل كما يهدي النور من الطرق المحسوسة، ورشح تلك الاستعارة بذكر الرؤية لأن النور حظ البصر وكذلك استعار لفظ الريح لما أدركه من مقام النبوة وأسرارها ورشح بذكر الشم لأن الريح خطّ القوة الشامة، انتهى.

أقول: ولقائل أن يقول: لا مانع من ظهور نور محسوس عند نزول الوحي أو في سائر الأوقات أيضاً، وكذلك عرف طيب يدركه أمير المؤمنين عليه السلام بقوة قوتيه الباصرة والشامّة، وإن لم يكن يحسّ به غيره ولا حاجة على ذلك إلى التأويل الذي ذكره.

ويشهد بما ذكرته ما رواه في **(البحار)** من أمالي الشيخ عن **(المفيد)** عن علي بن محمد البزاز عن زكريا بن يحيى الكشحي عن أبي هاشم الجعفري قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: لنا أعين لا تشبه أعين الناس، وفيها نور ليس للشيطان لها نصيب(٢).

وفي **(شرح المعتزلي)** روى عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: كان علي عليه السلام يرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقال صلى الله عليه وآله: «لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة فإن لا تكن نبيّاً فإنك وصيّ نبي ووارثه بل أنت سيد الأوصياء»(٣).

الثامنة: ما أشار إليه بقوله: **(ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة)** والصوت؟ **(فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته)** أي من أن يُعبد له.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١/ ٣٠١، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٨.

(٢) أمالي الطوسي ٢٤٥ ح ٤٢٧، والبحار ٢٦/ ٦٦ ح ٣.

(٣) العمدة ١٢، وشرح النهج ١/ ٣١٠.

وهذه المنقبة له عليه السلام تدل على كمال قوته السامعة أيضاً وسماعه ما لا يسمعه غيره.

وأما رنين هذا اللعين فقد روى علي بن إبراهيم القميّ عن أبيه عن الحسن بن علي بن فضال عن علي بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن إبليس رنّ رنيناً لما بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله على حين فترة من الرّسل وحين أنزلت أمّ الكتاب[1].

وروى المحدّث العلامة المجلسي في كتاب **(حياة القلوب)** عن الصّدوق عن الصادق عليه السلام أن إبليس رنّ أربع رنّات: يوم لعن، ويوم أهبط إلى الأرض، وحين بعث محمد على حين فترة من الرسل، وحين نزلت أمّ الكتاب.

وفي **(شرح المعتزلي)** من **(مسند)** أحمد بن حنبل عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله صبيحة الليلة التي أسري به فيها وهو بالحجرة يصلي، فلما قضى صلاته وقضيت صلاتي سمعت رنّة شديدة فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ قال: «ألا تعلم هذه رنّة الشيطان علم أني أسري في الليلة إلى السماء فأيس من أن يعبد في هذه الأرض»[2].

التاسعة: ما أشار إليه بقوله: **(إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى)** ظاهر هذا الكلام يفيد أن الإمام يسمع صوت الملك ويعاينه كالرسول.

أما سماع الصوت فلا غبار عليه ويشهد به أخبار كثيرة.

وأما المعاينة فيدلّ عليه بعض الأخبار.

مثل ما في **(البحار)** من أمالي الشيخ بإسناده عن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن منّا لمن ينكت في قلبه، وإن منا لمن يؤتى في منامه، وإن منّا لمن يسمع الصوت مثل صوت السلسلة في الطّشت، وأنّ منّا لمن يأتيه صورة أعظم من جبرائيل وميكائيل، وقال أبو عبد الله عليه السلام: منا من ينكت في قلبه، ومنا من يخاطب، وقال عليه السلام: إن منا لمن يعاين معاينة وإن منا لمن ينقر في قلبه كيت وكيت، وإن منّا لمن يسمع كوقع السلسلة في الطشت، قال: قلت: والذي يعاينون ما هو؟ قال: خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل[3].

ولكن الظاهر من الأخبار الكثيرة أن الإمام يسمع الصوت ولا يعاين، ومن ذلك اضطر المحدّث العلامة المجلسي «ره» بعد رواية هذه الرواية إلى تأويلها بقوله: والمراد بالمعاينة معاينة روح القدس وهو ليس من الملائكة مع أنه يحتمل أن تكون المعاينة في غير وقت

---

(١) الخصال ٢٦٣ ح ٦٤١، والبحار ١٨/ ١٧٩ ح ٩.

(٢) البحار ١٨/ ٢٢٣ ح ٦١.

(٣) بصائر الدرجات ٢٥٢، والاختصاص ٢٨٧، والبحار ١٨/ ٢٧٠.

المخاطبة، انتهى.

وتمام الكلام إن شاء الله في التنبيه الثاني من التنبيهات الآتية، هذا.

ولما كان ظاهر قوله صلى الله عليه وآله: «أنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى»، موهماً للمساوات بينه عليه السلام وبينه صلى الله عليه وآله استدرك ذلك بقوله: **(إلاّ أنك لست بنبيّ)** ونظير هذا الاستدراك قد وقع في كلام الصادق عليه السلام وهو:

ما رواه في «**البحار**» من البصائر بسنده عن علي السائي قال: سألت الصادق عليه السلام عن مبلغ علمهم، فقال: مبلغ علمنا ثلاثة وجوه: ماض، وغابر، وحادث. فأما الماضي فمفسّر، وأما الغابر فمزبور، وأما الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا ولا نبيّ بعد نبينا[1].

فإن النكث والنقر لما كانا مظنة لأن يتوهم السائل فيهم النبوة قال عليه السلام: ولا نبيّ بعد نبينا، ويتضح لك معنى هذا الحديث مما نورده في التنبيه الثاني إن شاء الله.

ثم إنه لما نفى عنه النبوة أثبت له الوزارة وهي عاشر المناقب، فقال: **(ولكنك لوزير وإنك لعلى خير)** بشّره بالوزارة ونبّه به على أنه الصالح لتدبير أمور الرسالة والمعاون له صلى الله عليه وآله في نظم أمور الدين وتأسيس قواعد شرع المبين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، ثم شهد به أنه على خير وأشار به على استقراره وثباته على ما هو خير الدنيا والآخرة، وأنه مجانب لما هو شرّ الدنيا والآخرة.

وهذا معنى عام متضمن لكونه عليه السلام جامعاً لجميع الكمالات والمكارم الدنيوية والأخروية والمحامد الصورية والمعنوية وكونه راسخاً فيها غير متزلزل ولا متكلف، هذا.

واعلم أن هذا الفصل من الخطبة الشريفة لما كان متضمناً لجلّ مسائل الرسالة والإمامة حسبما عرفته أتيت في شرحه من الروايات الشريفة والتحقيقات اللطيفة بما هو مقتضى مذهب الفرقة الناجية الإمامية، وأضربت عن روايات عامة ضعيفة أوردها الشارح المعتزلي في بيان عصمة النبي صلى الله عليه وآله بالملائكة.

والعجب من مبالغة الشارح البحراني له في إيراد بعض هذه الأخبار مع أنها مضافة إلى أنها خلاف أصول الإمامية مما تشمئز عنها الطباع وتنفر عنها الأسماع كما هو غير خفيّ على من لاحظ الشرحين بنظر الدقة والاعتبار.

---

(١) بصائر الدرجات ٣٣٨، والكافي ١/ ٢٦٤.

ثم لما بقي هنا بعض مطالب محتاجة إلى بسط من الكلام أردت إيرادها وتحقيق ما هو محتاج إلى التحقيق في ضمن تنبيهات ثلاثة، فأقول وبالله التوفيق:

التنبيه الأول

اعلم أنّا قد قلنا في شرح قوله عليه السلام في فاتحة هذا الفصل: ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي: إن من جملة الأوامر الآمرة بقتاله لهم قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

لكن جمعاً من العامة العمياء المتعصبين من المعتزلة والأشاعرة زعموا أن الآية ناظرة إلى أبي بكر ودالة على صحة إمامته، وقد أفرط في هذا المعنى الناصب المتعصب، فخر المشكّكين والمضلين، خذله الله تعالى وحشره مع أوليائه المرتدين، فأحببت أن أورد مقالهم وأُعقبه بالتنبيه على أخطائهم وضلالهم فأقول:

قال الشارح المعتزلي في شرح هذا الفصل:

واعلم أن أصحابنا قد استدلوا على صحة إمامة أبي بكر بهذه الآية، قال قاضي القضاة في «**المغني**»: وهذا خبر من الله تعالى ولا بد أن يكون كائناً على ما أخبر به، والذين قاتلوا المرتدين هم أبو بكر وأصحابه فوجب أن يكونوا هم الذين عناهم الله سبحانه بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وذلك يوجب أن يكون على صواب، انتهى.

وقال الفخر الرازي في تفسير الآية: اختلفوا في أن أولئك القوم من هم؟، فقال علي بن أبي طالب والحسن والقتادة والضحاك وابن خريج: هم أبو بكر وأصحابه لأنهم هم الذين قاتلوا أهل الرّدة، قالت عائشة: مات رسول الله صلى الله عليه وآله وارتدّت العرب واشتهر النفاق ونزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها.

وقال السدي: نزلت الآية في الأنصار، لأنهم هم الذين نصروا الرسول وأعانوه على إظهار الدين.

وقال مجاهد: نزلت في أهل يمن، وروى مرفوعاً أن النبي صلى الله عليه وآله لما نزلت هذه الآية أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: «هم قوم هذا».

وقال آخرون: هم الفرس لأنه روي أن النبي صلى الله عليه وآله لما سئل عن هذه الآية ضرب بيده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه»، ثم قال: «لو كان الدين معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس».

وقال قوم: إنها نزلت في علي عليه السلام ويدل عليه وجهان:

الوجه الأول: أنه صلى الله عليه وآله لما دفع الراية إلى علي عليه السلام يوم خيبر قال: «لأدفعنّ الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، وهذا هو الصفة المذكورة في الآية[1].

والوجه الثاني: أنه تعالى إنما ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥] الآية، وهذه في حق علي عليه السلام فكان الأولى جعل ما قبلها أيضاً في حقه عليه السلام، فهذه جملة الأقوال في هذه الآية، ولنا في هذه الآية مقامات:

المقام الأول: أن هذه الآية من أدلّ الدلائل على فساد مذهب الإمامية من الروافض.

وتقرير مذهبهم أن الذين أقرّوا بخلافة أبي بكر وإمامته كلهم كفروا وصاروا مرتدّين، لأنهم أنكروا النص الجلي على إمامة علي عليه السلام.

فنقول: لو كان كذلك لجاء الله تعالى بقوم يحاربهم ويقهرهم ويردّهم إلى الدين الحق بدليل قوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] الآية، وكلمة (من) في معرض الشرط للعموم، فهي تدل على أن كل من صار مرتداً عن دين الإسلام فإن الله يأتي بقوم يقهرهم ويردّهم ويبطل شوكتهم.

فلو كان الذين نصبوا أبا بكر للخلافة كذلك لوجب بحكم الآية أن يأتي الله بقوم يقهرهم ويبطل مذهبهم، ولما لم يكن الأمر كذلك بل الأمر بالضد فإن الروافض هم المقهورون الممنوعون من إظهار مقالاتهم الباطلة أبداً منذ كانوا علمنا فساد مذهبهم ومقالتهم، وهذا كلام ظاهر لمن أنصف.

المقام الثاني: أنّا ندعي أن هذه الآية يجب أن يقال: أنها نزلت في حق أبي بكر والدليل عليه وجهان:

الوجه الأول: أن هذه الآية مختصة بمحاربة المرتدين، وأبو بكر هو الذي تولى محاربة المرتدّين، ولا يمكن أن يكون المراد هو الرسول صلى الله عليه وآله، لأنه لم يتفق له محاربة المرتدّين، ولأنه تعالى قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا للاستقبال لا للحال، فوجب أن يكون ذلك القوم غير موجودين في وقت نزول هذا الخطاب.

فإن قيل: هذا لازم عليكم، لأن أبا بكر كان موجوداً في ذلك الوقت.

قلنا: الجواب من وجهين:

---

(١) المسترشد ٢٩٩، وأمالي الطوسي ٦١٤.

الأول: أن القوم الذين قاتل بهم أبو بكر أهل الردّة ما كانوا موجودين في الحال.

والثاني: أن معنى الآية أن الله تعالى قال: فسوف يأتي الله بقوم قادرين متمكنين من هذا الحراب، وأبو بكر وإن كان موجوداً في ذلك الوقت إلا أنه ما كان مستقلاً في هذا الوقت بالحراب والأمر والنهي، فزال السؤال فثبت أنه لا يمكن أن يكون هو الرسول ﷺ ولا يمكن أن يكون المراد هو علي عليه السلام لأن علياً لم يتفق له قتال مع أهل الردّة فكيف تحمل هذه الآية عليه.

فإن قالوا: بل كان قتاله مع أهل الردة، لأن كل من نازعه في الإمامة كان مرتداً.

قلنا: هذا باطل من وجهين:

الأول: أن اسم المرتد إنما يتناول من كان تاركاً للشرائع الإسلامية، والقوم الذين نازعوا علياً ما كانوا كذلك في الظاهر، وما كان أحد يقول إنهم خرجوا عن الإسلام وعلي لم يسمهم البتة بالمرتدين، فهذا الذي يقوله هؤلاء الروافض لعنهم الله بهت على جميع المسلمين وعلى علي عليه السلام أيضاً.

الثاني: أنه لو كان كل من نازعه في الإمامة مرتداً لزم في أبي بكر وفي قومه أن يكونوا مرتدين، ولو كان كذلك لوجب بحكم ظاهر الآية أن يأتي الله بقوم يقهرونهم ويردونهم إلى الدين الصحيح، ولما لم يوجد ذلك البتة علمنا أن منازعة علي في الإمامة لا يكون ردّة، وإذا لم تكن ردّة لم يمكن حمل الآية على عليّ لأنها نازلة فيمن يحارب المرتدين.

ولا يمكن أيضاً أن يقال: إنها نازلة في أهل فارس أو في أهل اليمن، لأنهم لم يتفق لهم محاربة مع المرتدين، وبتقدير أنه اتفقت لهم هذه المحاربة ولكنهم كانوا رعيّة وأتباعاً وأذناباً، وكان الرئيس المطاع الآمر في تلك الواقعة هو أبو بكر ومعلوم أن حمل الآية على من كان أصلاً في هذه العبادة ورئيساً مطاعاً فيها أولى من حملها على الرعية والأتباع والأذناب، فظهر بما ذكرنا من الدليل الظاهر أن هذه الآية مختصة بأبي بكر.

والوجه الثاني: في بيان أن هذه الآية مختصة بأبي بكر هو:

إنّا نقول: هب أن عليّاً قد كان حارب المرتدين، ولكن محاربة أبي بكر مع المرتدّين كانت أعلى حالاً وأكثر موقعاً في الإسلام من محاربة علي مع من خالفه في الإمامة وذلك لأنه علم بالتواتر أنه ﷺ لما توفي اضطربت الأعراب وتمردوا وأن أبا بكر هو الذي قهر مسيلمة وطليحة، وهو الذي حارب مانعي الزكاة، ولما فعل ذلك استقر الإسلام وعظمت شوكته وانبسطت دولته.

أما لما انتهى الأمر إلى علي فكان الإسلام قد انبسط في الشرق والغرب وصار ملوك الدنيا مقهورين وصار الإسلام مستولياً على جميع الأديان والملل، فثبت أن محاربة أبي بكر أعظم تأثيراً في نصرة الإسلام وتقويته من محاربة علي عليه السلام.

ومعلوم أن المقصود من هذه الآية تعظيم قوم يسعون في تقوية الدّين ونصرة الإسلام، ولما كان أبو بكر هو المتولي لذلك وجب أن يكون هو المراد بالآية.

المقام الثالث في هذه الآية: وهو أنّا ندعي دلالة هذه الآية على صحة إمامة أبي بكر، لما ثبت بما ذكرنا أن هذه الآية مختصة به، فنقول: إنه تعالى وصف الذين أرادهم بهذه الآية بصفات:

أولها: أنهم يحبّهم الله، فلما ثبت أن المراد بهذه الآية هو أبو بكر ثبت أن قوله: يحبهم ويحبونه، وصف لأبي بكر، ومن وصفه الله تعالى بذلك يمتنع أن يكون ظالماً، وذلك يدلّ على أنه كان محقاً في إمامته.

وثانيها: قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهو صفة أبي بكر أيضاً للدليل الذي قدمناه.

ويؤكده ما روي في الخبر المستفيض أنه ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[1]، فكان موصوفاً بالرحمة والشفقة على المؤمنين، وبالشدة مع الكفار.

ألا ترى أن في أول الأمر حين كان الرسول ﷺ في مكة وكان في غاية الضعف كيف كان يذب عن الرسول ﷺ وكيف كان يلازمه ويخدمه وما كان يبالي بجبابرة الكفّار وشياطينهم وفي آخر الأمر ـ أعني وقت خلافته ـ كيف لم يلتفت إلى قول أحد وأصرّ على أنه لا بد من المحاربة مع مانعي الزكاة حتى آل الأمر إلى أن خرج إلى قتال القوم وحده حتى جاء أكابر الصحابة وتضرعوا إليه ومنعوه من الذهاب.

ثم لما بلغ بعث العسكر إليهم انهزموا وجعل الله ذلك مبدءاً لدولة الإسلام، فكان قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] لا يليق إلا به.

وثالثها: قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهذا مشترك فيه بين أبي بكر وعليّ إلا أن حظ أبي بكر فيه أتم وأكمل.

---

(١) راجع الغدير ٩/ ٣٨٥.

وذلك لأن مجاهدة أبي بكر مع الكفار كان في أول البعث، وهناك الإسلام كان في غاية الضعف، والكفر كان في غاية القوة، وكان يجاهد الكفار بمقدار قدرته ويذبّ عن رسول الله ﷺ بغاية وسعه.

وأما علي عليه السلام فإنه إنما شرع في الجهاد يوم بدر وأحد، وفي ذلك الوقت كان الإسلام قوياً وكانت العساكر مجتمعة.

فثبت أن جهاد أبي بكر كان أكمل من جهاد علي عليه السلام من وجهين:

الأول: أنه كان متقدماً عليه في الزمان لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠].

والثاني: جهاد أبي بكر كان في وقت ضعف الرسول وجهاد علي كان في وقت القوة.

ورابعها: قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا لائق بأبي بكر لأنه متأكد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢] وقد بيّنا أن هذه الآية في أبي بكر.

ومما يدل على أن جميع هذه الصفات لأبي بكر أنّا بيّنا بالدليل أن هذه الآية لا بد وأن تكون في أبي بكر، ومتى كان الأمر كذلك كانت هذه الصفات لا بد وأن تكون لأبي بكر، وإذا ثبت هذا وجب القطع بصحة إمامته، إذ لو كانت باطلة لما كانت هذه الصفات لائقة به.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنه كان موصوفاً بهذه الصفات حال حياة الرسول ثم بعد وفاته لما شرع في الإمامة زالت هذه الصفات وبطلت.

قلنا: هذا باطل قطعاً، لأنه تعالى قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فأثبت كونهم موصوفين بهذه الصفات حال إتيان الله بهم في المستقبل، وذلك يدل على شهادة الله بكونه موصوفاً بهذه الصفات حال محاربته مع أهل الردّة، وذلك هو حال إمامته، فثبت بذلك الآية دلالة الآية على صحة إمامته.

أما قول الروافض، لعنهم الله: إن هذه الآية في حق علي عليه السلام بدليل أنه ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، وكان ذلك هو علي عليه السلام.

فنقول: هذا الخبر من باب الآحاد وعندهم لا يجوز التمسك به في العمل فكيف يجوز التمسك به في العلم؟.

وأيضاً إن إثبات هذه الصفة لعلي عليه السلام لا يوجب انتفاءها عن أبي بكر وبتقدير أن يدل

على ذلك لكنه لا يدل على انتفاء ذلك المجموع عن أبي بكر ومن جملة تلك الصفات كونه كرّاراً غير فرّار فلما انتفى ذلك عن أبي بكر لم يحصل مجموع تلك الصفات له فكفى هذا في العمل بدليل الخطاب، فأما انتفاء جميع تلك الصفات فلا دلالة في اللفظ عليه، فهو تعالى إنما أثبت هذه الصفة المذكورة في هذه الآية حال اشتغاله بمحاربة المرتدين بعد ذلك، فهب أن تلك الصفة ما كانت حاصلة في ذلك الوقت فلم يمنع ذلك من حصولها في الزمان المستقبل.

ولأن ما ذكرناه تمسك بظاهر القرآن وما ذكروه تمسك بالخبر المذكور المنقول بالآحاد.

ولأنه معارض بالأخبار الدّالة على كون أبي بكر محبّاً لله ورسوله وكون الله محبّاً له وراضياً عنه، قال تعالى في حق أبي بكر: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل: ٢١]، وقال صلى الله عليه وآله: «إن الله يتجلّى للناس عامة ويتجلّى لأبي بكر خاصة»، وقال صلى الله عليه وآله: «ما صبّ الله شيئاً في صدري إلا وصبّه في صدر أبي بكر»، وكل ذلك يدل على أنه كان يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله[١].

وأما **الوجه الثاني**: وهو قولهم: الآية التي بعد هذه الآية دالة على إمامة علي عليه السلام فوجب أن تكون هذه الآية نازلة في علي.

فجوابنا: أنّا لا نسلم دلالة الآية التي بعد هذه الآية على إمامته، وسنذكر الكلام فيه، فهذا ما في هذا الموضع من البحث والله أعلم، انتهى كلامه هبط مقامه.

ويتوجه عليه وجوه من الكلام وضروب من الملام.

الوجه الأول: أن نسبته كون المراد بقوم يحبهم ويحبونه هو أبو بكر وأصحابه إلى علي عليه السلام بهت وافتراء، وإنما المروي عنه عليه السلام وعن حذيفة وعمار وابن عباس حسبما تعرفه أن المراد به هو عليه السلام وأصحابه.

الثاني: ما ذكره من الوجه الثاني من استدلال الإمامية بأن الآية الواقعة بعد هذه الآية، أعني قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ في حق علي عليه السلام فكان الأولى جعل ما قبلها أيضاً في حقه فاسد، لأن أصحابنا وإن قالوا بكون ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ في حقه لكنهم لم يستدلوا بذلك على كون هذه الآية، أعني: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ فيه عليه السلام وإنما استدلوا على ذلك بالوجه الأول الذي حكاه عنهم ويأتي توضيحه، وبما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة:

(١) راجع تاريخ دمشق ٣٠/ ١٦٠، والغدير ٧/ ٨٨.

والله ما قوتل أهل الآية حتى اليوم وتلاها، وبما روي عن وجوه الصحابة مثل حذيفة وعمار وابن عباس من نزولها فيه عليه السلام كما قاله المرتضى في «الشافي»، ومثلهم الثعلبي قال في تفسير قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ الآية، هو علي بن أبي طالب.

الثالث: أن استدلاله على فساد مذهب الإمامية بقوله: وتقرير مذهبهم، إلى قوله: ولما لم يكن كذلك علمنا فساد مذهبهم، سخيف جداً، لأنّا لا ننكر ارتداد أبي بكر ومن تبعه حسبما نشير إليه، ولكن نمنع دلالة الآية على أن كل من صار مرتداً عن دين الإسلام، فإن الله يأتي بقوم يردّهم إلى الإسلام وإفادة من للشرط والعموم لا يقتضي ذلك.

وذلك لأنه سبحانه لم يقل: من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يجاهدهم ويقهرهم ويردّهم إلى الدّين الحق كما زعمه هذا الناصب، وإنما قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (اهـ).

ولا دلالة فيها على أن القوم المأتي بهم يجاهدون هؤلاء المرتدّين بل ظاهر معنى الآية ومساقها مع قطع النظر عن الأخبار أن من يرتدّ منكم عن دينه فلن يضرّ دينه شيئاً ولا يوجب ارتداده ضعفه ووهنه لأنه سبحانه سوف يأتي بقوم لهم هذه الصفات ينصرونه على أبلغ الوجوه، وبهم يحصل كمال قوّته وشوكته.

فيكون مساق هذه الآية مساق قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقد روى ابن شهرآشوب من طريق العامة بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية: يعني بالشاكرين علي بن أبي طالب، وبالمرتدّين على أعقابهم هم الذين ارتدّوا عنه عليه السلام.

فقد علم بما ذكرنا أن الآية لا تقتضي أن كل من ارتدّ لا بد وأن يأتي الله بمن يردّه عن ارتداده إلى دين الإسلام كما توهمه الرازي، كيف؟ ولو كان مفهومها ذلك لوجب أن لا يوجد مرتدّ إلا وله قاهر يقهره ورادّ يردّه إلى دين الإسلام، والمعلوم المشاهد بالتجربة والوجدان عدمه، فإن العالم ملاء من المرتدّين وليس لهم دافع ولا رادع.

وقد اعترف الرازي بخبطه من حيث لا يشعر، فإنه نقل قبل ما حكينا عنه من كلامه في جملة كلام نقله عن صاحب «الكشاف» وارتضاه.

أن من جملة المرتدّين غسان قوم جبلة بن الأيهم على عهد عمر، وذلك أن جبلة أسلم على يد عمر وكان ذات يوم جاراً رداءه فوطيء رجل طرف ردائه فغضب فلطمه، فتظلّم

الرجل إلى عمر، فقضى له بالقصاص عليه إلا أن يعفو عنه فقال: أنا أشتريها بألف، فأبى الرجل فلم يزل يزيد في الفداء إلى أن بلغ عشرة آلاف، فأبى الرجل إلا القصاص، فاستنظر عمر فأنظره فهرب إلى الروم وارتدّ، انتهى.

فأقول للرازي: إن هؤلاء كانوا مرتدّين بعد إسلامهم فلم لم يأتي الله بقوم يقهرونهم ويردّونهم إلى الإسلام على ما زعمت، فعلم فساد ما قاله في معنى الآية.

الرابع: قوله: إن هذه الآية مختصة بمحاربة المرتدّين وأبو بكر هو الذي تولى محاربتهم، قد علمت عدم دلالة الآية على محاربتهم فضلاً عن اختصاصها بها.

وعلى التنزل وتسليم الدلالة والاختصاص فنمنع اختصاص أبي بكر بمحاربتهم لأن من جملة المرتدّين الناكثين والقاسطين والمارقين وقد حاربهم أمير المؤمنين ﷺ.

ومن جملتهم بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسي وكان كاهناً ادعى النبوة في اليمن واستولى على بلادها وأخرج عمّال رسول الله منها، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن فأهلكه الله على يد فيروز الديلمي فقتله وأخبر رسول الله بقتله ليلة قتل، فسرّ المسلمون وقبض رسول الله ﷺ من الغد، وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول روى ذلك في «الكشاف» وحكاه عنه الرازي أيضاً.

وإذا لم تكن المحاربة مختصة بأبي بكر فلم لا يجوز أن يكون المقصود بالآية هؤلاء المحاربون بالمرتدّين لا أبو بكر وأصحابه؟.

الخامس: قوله: إن رسول الله ﷺ لم يتفق له محاربة المرتدّين قد علمت بطلانه.

فإن قلت: إنه ﷺ لم يتول بنفسه جهاد بني مدلج، وإنما أنفذ إليهم سريّة.

قلت: أبو بكر أيضاً لم يتول بنفسه.

السادس: قوله: ولأنه تعالى قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾، وهذا للاستقبال لا للحال، فوجب أن يكون هذا القوم غير موجودين في وقت نزول الخطاب.

فيه أنه مسلم ولكنه لا ينافي كون المراد بالمرتدين بنو مدلج أو قوم مسيلمة فإن محاربة رسول الله ﷺ لهم كان بعد مضي نزول الخطاب وفي آخر عمره الشريف، أما بنو مدلج فقد عرفت، وأما مسيلمة فقد ادعى النبوة فأنفذ رسول الله ﷺ لقتله جماعة من المسلمين وأمرهم أن يفتكوا به إن أمكنهم غيلة، واستقر عليه قبائل من العرب وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة بعد موت رسول الله ﷺ.

السابع: قوله: إن القوم الذين قاتل بهم أبو بكر أهل الردة ما كانوا موجودين في الحال.

فيه أولاً: أنه رجم بالغيب فمن أين له إثبات عدم وجودهم، بل بيّن الفساد لأن المرتدين هم الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ مثل خالد بن الوليد وأبو قتادة الأنصاري ونظرائهم وجلهم كان في جيش أسامة كما يظهر من كتب السّير.

وثانياً: بعد التنزل أن عدم وجودهم لا ينفع بحال أبي بكر على ما زعم مع كونه موجوداً بل يدخل المقاتلون معه في عموم الآية لعدم كونهم موجودين ويخرج هو بنفسه عنه لكونه موجوداً، فافهم جيداً.

الثامن: قوله: إن معنى الآية إن الله قال: فسوف يأتي الله بقوم قادرين متمكنين من هذا الحرب ـ إلى قوله ـ والأمر والنهي.

فيه إذا كان البناء في معنى الآية على ذلك فلنا أن نقول: إن أمير المؤمنين أيضاً كان موجوداً في ذلك الوقت وفي زمان أبي بكر لكنه لم يكن متمكناً من الحرب والأمر والنهي إلى أن استقلّ بالأمر، فقاتل المرتدين من الناكثين والقاسطين والمارقين، غاية الأمر إن عدم استقلال أبي بكر بوجود الرئيس الحق وهو رسول الله ﷺ وعدم استقلال أمير المؤمنين عليه السلام بوجود رئيس الباطل أعني الغاصبين للخلافة مع عدم المعاون.

التاسع: قوله: فثبت أنه لا يمكن أن يكون المراد هو الرسول ﷺ قد علمت فساده وإمكان إرادته.

العاشر: قوله: اسم المرتد إنما يتناول من كان تاركاً للشرائع الإسلامية (اهـ).

فيه أنه إن أراد به تركه لجميعها فيتعرض عليه بأن مانعي الزكاة لم يكونوا تاركين للجميع وإنما منعوا الزكاة فحسب فكيف حكمتهم بارتدادهم، ويدل على ما ذكرنا من عدم تركهم للجميع، مضافاً إلى ما يأتي قول قاضي القضاة في «**المغني**» حيث قال: فإن قال قائل: فقد كان مالك يصلي، قيل له: وكذلك سائر أهل الردة والكفر وإنما كفروا بالامتناع من الزكاة واعتقاد إسقاط وجوبها دون غيره.

وإن أراد به تناول الاسم ولو بترك بعضها فنقول: إن المحاربين لأمير المؤمنين عليه السلام قد كانوا تاركين للبعض، حيث أنهم قد كانوا يستحلون قتاله وقتله وقتل سائر المؤمنين التابعين له عليه السلام فضلاً عن إنكارهم النص الجلي ونقضهم لبيعته.

واستحلال قتل المؤمنين وسفك دمائهم فضلاً عن أكابرهم وأفاضلهم أشدّ من استحلال الخمر وشربه قطعاً، فيكونوا كفّاراً مرتدّين.

مع أن النبي ﷺ قال له عليه السلام بلا خلاف بين أهل النقل: «يا علي حربك حربي وسلمك

سلمي»[1]، ونحن نعلم أن المقصود به ليس إلا التشبيه في الأحكام، ومن أحكام محاربي النبي الكفر والارتداد بالاتفاق.

وملخص الكلام ومحصّل المرام أن الردة التي نقولها في حق محاربي علي عليه السلام هي بعينها مثل الردة التي تقولونها في حق مانعي الزكاة حرفاً بحرف.

قال شارح صحيح مسلم في «**المنهاج**» في كتاب الإيمان كلاماً استحسنه من الخطابي ما هذا لفظه، قال بعد تقسيم أهل الردة إلى ثلاثة أقسام:

فأما مانعو الزكاة منهم المقيمون على أصل الدّين فإنهم أهل بغي ولم يسمّوا على الانفراد منهم كفاراً وإن كانت الردة قد أُضيفت إليهم لمشاركتهم المرتدين في منع بعض ما منعوه من حقوق الدين، وذلك أن اسم الردة اسم لغوي وكل من انصرف عن أمر كان مقبلاً عليه فقد ارتدّ عنه، وقد وجد من هؤلاء القوم الانصراف ومنع الحق وانقطع عنهم اسم الثناء والمدح بالدين وعلّق بهم اسم القبيح لمشاركتهم القوم الذين كان ارتدادهم حقاً، انتهى[2].

وهذا الكلام كما ترى صريح في أن مانعي الزكاة كانوا مقيمين على أصل الدّين لكنه أطلق عليهم اسم المرتد لترك بعض حقوق الدين الواجبة، هذا.

وأما استبعاد الشارح المعتزلي لارتدادهم ـ أعني الناكثين والقاسطين والمارقين ـ بأنهم لا يطلق عليهم لفظ الردة.

أما اللفظ فبالاتفاق منا ومن الإمامية وإن سموهم كفاراً.

وأما المعنى فلأن في مذهبهم أن من ارتد وكان قد ولد على فطرة الإسلام بانت امرأته منه وقسم ماله بين ورثته وكان على زوجته عدّة المتوفى عنها زوجها، ومعلوم أن أكثر المحاربين لأمير المؤمنين قد ولدوا في الإسلام ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام.

ففيه منع أن الإمامية لا يطلقون عليهم اسم المرتد ومن أخبارهم المشهورة: ارتدّ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة أو أربعة.

وأما ما حكاه عنهم من أن مذهبهم أن من ارتد وكان قد ولد على الفطرة (اهـ)، فهو حق لكن نجيب عنه بأن أحكام الكفار كما أنها مختلفة وإن كان شملهم اسم الكفر، فإن منهم من يقتل ولا يستبقى، ومنهم من يؤخذ منهم الجزية ولا يقتل إلا بسبب طار غير الكفر، ومنهم من لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين، فكذلك من الجائز اختلاف أحكام

(١) الانتصار للمرتضى ٤٧٩، وأمالي الصدوق ١٥٦ ح ١٥٠.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: ١/ ٢٠٤.

الارتداد ويرجع في أن حكمهم مخالف لأحكام سائر الكفار والمرتدين إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم.

ولذلك قال الشافعي: أخذ المسلمون السيرة في قتال المشركين من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأخذوا السيرة في قتال البغاة من علي عليه السلام.

وبالجملة، فلو لم يكن الباغون عليه عليه السلام كفاراً مرتدين لما حاربهم أمير المؤمنين ولا استحل سفك دمائهم ولم يكن مأموراً من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وآله بقتالهم على ما صرّح به في أول هذا الفصل من كلامه بقوله: «وقد أمرني الله بقتال أهل البغي» (اهـ)[1].

إذ المسلم لا يجوز سفك دمه واستحلال قتله، فلما حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام ثبت بذلك كفرهم وارتدادهم.

ولما لم يسر فيهم بسيرة سائر الكفار من سبيهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم واتباع موليهم وإجهاز جريحهم، ولم يسر فيهم بسيرة سائر المرتدين من إبانة امرأتهم وتقسيم أموالهم وغيرها من الأحكام، علمنا بذلك اختلاف أحكامهم مع أحكام سائر الكفار والمرتدين، فإن فعل الإمام وسيرته كقوله حجة متبعة مثل الرسول صلى الله عليه وآله.

وإن شئت مزيد تحقيق لهذا المقام.

فأقول: إن ارتداد المنحرفين عنه عليه السلام كائناً من كان من الغاصبين للخلافة أو الباغين عليه عليه السلام وإطلاق اسم المرتد عليه قد ورد في الروايات العامية كوروده في أخبار الخاصة.

ففي غاية المرام عن الثعلبي قال: أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسن، حدثنا محمد بن شبيب حدثنا أبي عن يونس، عن ابن شهاب، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة أنه كان يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيجلون عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: إنك لا علم لك بما أحدثوا أنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى».

وفيه من صحيح البخاري في الجزء الخامس على حد ثلثه الأخير في تفسير قوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] قال:

حدثنا شعبة قال: أخبرنا المغيرة بن النعمان قال: سمعت سعيد بن جبير عن ابن

---

(١) البحار ١٤/ ٤٧٥.

عباس رضي الله عنه خطب رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة غرلاً»، ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] إلى آخر الآية، ثم قال ﷺ: «ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، فقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[١].

ورواه فيه من صحيح مسلم في الجزء الثالث من أجزاء ثلاثة من ثلثه الأخير بسنده عن ابن عباس نحوه[٢].

وفيه من البخاري من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة كان يحدث عن بعض أصحاب النبي قال: «يرد على الحوض رجال من أمتي فيجلون[٣] عنه فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك أنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى»[٤].

فإن قلت: غاية ما يستفاد من هذه الروايات أن جماعة من أمته ﷺ ارتدّوا بعده، ولا دلالة على أنهم مبغضو أمير المؤمنين عليه السلام والمخالفون له.

قلت: الجواب أولاً أنه قد ورد في النبوي المتفق عليه بالنقل البالغ حد الاستفاضة علي مع الحق والحق مع علي يدور معه، ومن جملة طرقه الزمخشري في ربيع الأبرار قال: استأذن أبو ثابت مولى علي عليه السلام على أمّ سلمة رضي الله عنها فقالت: مرحباً بك يا أبا ثابت، أين طار قلبك حين طارت القلوب مطائرها؟ قال: تبع عليّ، فقالت: والذي نفسي بيده سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي مع الحق والقرآن والحق والقرآن معه ولن يفترقا حتى يردَا عليّ الحوض».

ومن المعلوم أنه عليه السلام إذا كان معهما وكانا معه مصاحبين حتى يردا على الحوض يكون مخالفوه المنحرفون عنه مخالفين للحق والقرآن، مفترقين عنهما البتة وليس معنى الارتداد إلا ذلك فيكون المرتدون والمجلون عن الحوض هم هؤلاء.

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٩١ـ ٢٤٠.
(٢) كنز العمال ١٤/ ٣٥٨ ح ٣٨٩٢٩.
(٣) في المصدر: فيحلؤون، وفي بعضها: حجبوا.
(٤) صحيح البخاري ٧/ ٢٠٦ـ ٢٠٨، ومسند أحمد ٣/ ٢٨١.

وبمعناه ما رواه إبراهيم بن محمد الحمويني مسنداً عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة والأسود قالا: أتينا أبا أيوب الأنصاري وقلنا له: يا أبا أيوب، إن الله تعالى أكرمك بنبيه حيث كان ضيفاً لك فضيلة من الله فضلك بها أخبرنا بمخرجك مع علي عليه السلام تقاتل أهل لا إله إلا الله، قال: أقسم لكما بالله لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا البيت الذي أنتما فيه معي، وما في البيت غير رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي جالس عن يمينه وأنا جالس عن يساره وأنس قائم بين يديه، إذ حرّك الباب فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «افتح لعمّار الطيّب المطيّب»، ففتح الناس الباب ودخل عمار، فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله فرحب به ثم قال لعمار: «إنه سيكون في أمتي بعدي هناة حتى يختلف السيف فيما بينهم وحتى يقتل بعضهم بعضاً، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني ـ يعني علي بن أبي طالب ـ فإذا سلك الناس كلهم وادياً وسلك علي وادياً فاسلك وادي علي وخلّ عن الناس، يا عمار إن علياً لا يردك عن هدى ولا يدلك على ردى، يا عمار طاعة علي طاعتي وطاعتي طاعة الله عزّ وجل»[١].

ودلالته على المدّعي غير خفية.

وثانياً: إنه قد وقع التصريح منه صلى الله عليه وآله بأن المرتدين المطرودين عن الحوض مبغضوه عليه السلام في ما رواه موفق بن أحمد أخطب خوارزم بسنده عن إبراهيم بن عبد الله بن العلا عن أبيه عن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

قال النبي صلى الله عليه وآله يوم فتح خيبر: «لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت اليوم فيك مقالاً بحيث لا تمر على ملاء من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك، يستشفعون به، ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك ترثني وأرثك وأنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيّ بعدي. يا علي أنت تؤدي ديني وتقاتل على سنّتي وأنت في الآخرة أقرب الناس مني وإنك يا علي غداً على الحوض خليفتي تذود عنه المنافقين، وأنت أول من يرد على الحوض وأنت أول داخل في الجنة من أمّتي، وإن شيعتك على منابر من نور رواء مرويين مبيضة وجوههم حولي أشفع لهم فيكونون في الجنة غداً جيراني، وإن أعداءك غداً أظماء مظمئين مسوّدة وجوههم يتقحمون مقمعون يضربون بالمقامع وهي سياط من نار مقتحمين، حربك حربي، وسلمك سلمي، وسرّك سرّي، وعلانيتك علانيتي، وسريرة صدرك كسريرة صدري، وأنت باب علمي، وإن ولدك ولدي، ولحمك لحمي، ودمك دمي، وأن الحق معك والحق على لسانك وفي قلبك وبين

(١) مناقب آل أبي طالب ٣/٧، والبحار ٣٣/١٧.

عينيك، والإيمان خالط لحمك ودمك كما خالط لحمي ودمي، وأن الله عزَّ وجل أمرني أن أبشرك أنك أنت وعترتك في الجنة، وعدوك في النار لا يرد على الحوض مبغض لك، ولا يغيب عنه محب لك».

قال علي عليه السلام: فخررت ساجداً لله تعالى وحمدته على ما أنعم به عليّ من الإسلام والقرآن وحبّبني إلى خاتم النبيين وسيد المرسلين[١].

وقد أوردت هذه الرواية بطولها لتضمنها وجوهاً من الدلالة على المدّعي كما لا يخفى على المنصف المجانب عن العصبية والهوى.

فقد علم بذلك كله أن المحاربين له عليه السلام كالمنتحلين للخلافة مرتدّون على لسان الله والنبي والوصي ومنكر ارتدادهم منكر للنص الجلي.

الحادي عشر: قوله: لو كان كل من نازعه في الإمامة مرتداً (اهـ).

فيه أن ارتدادهم مسلّم حسبما عرفت ولكن وجوب إتيان الله بقوم يقهرونهم بحكم الآية غير لازم، لما عرفت أيضاً من عدم اقتضاء الآية ذلك لأنه سبحانه قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ولم يقل: يقهرونهم ويردونهم إلى الدين الصحيح.

لا يقال: لو كان أبو بكر وقومه مرتدّين لحاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كما حارب الناكثين والقاسطين والمارقين.

لأنّا نقول: نعم، ولكن تركه لمحاربتهم لأنه لم يجد عوناً له على الحرب كما أشار عليه السلام إلى ذلك في الخطبة الثالثة بقوله: وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى. وفي الفصل الثاني من الخطبة السادسة والعشرين: فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي فضننت بهم عن الموت وأغضيت على القذى وشربت على الشّجى وصبرت على أخذ الكظم وعلى أمرّ من طعم العلقم.

ومما رواه عنه نصر بن مزاحم وكثير من أرباب السّير أنه قال عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله: لو وجدت أربعين ذوي عزم.

وقد سأل الرماني عن الرضا عليه السلام قال: فقلت له: يا ابن رسول الله أخبرني عن علي بن أبي طالب لِمَ لَم يجاهد أعداءه خمساً وعشرين سنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ثم جاهد في أيام

---

(١) البحار ٣٨/ ٢٤٨، ومناقب الخوارزمي ١٢٩ ح ١٤٣.

ولايته؟ فقال: لأنه اقتدى برسول الله في تركه جهاد المشركين بمكة ثلاثة عشر سنة بعد النبوة وبالمدينة تسعة عشر شهراً، وذلك لقلّة أعوانه عليهم[1].

فلما لم تبطل نبوّة رسول الله ﷺ مع تركه الجهاد لم تبطل ولاية علي عليه السلام بتركه الجهاد خمساً وعشرين سنة إذ كانت العلة المانعة لهما عن الجهاد واحدة.

الثاني عشر: قوله: ومعلوم أن حمل الآية على الرئيس المطاع أولى.

فيه منع الأولوية أولاً ومنع اقتضاء الأولوية على فرض تسليمه للاختصاص ثانياً.

الثالث عشر: قوله: ولكن محاربة أبي بكر مع المرتدّين كانت أعلى حالاً ـ إلى قوله ـ: وجب أن يكون هو المراد بالآية.

فيه **أولاً**: إن محاربة أبي بكر كانت عقيب وفاة رسول الله ﷺ وكان الأنصار والمهاجرون وسائر المسلمين رغباتهم متوافرة وأيديهم متناصرة وآرائهم متّفقة وأبدانهم مجتمعة وأهوائهم متّحدة وكلمتهم واحدة في حماية الدّين وفي ذبّ الكفار عن شرع سيد المرسلين، وكان المرتدّون شرذمة قليلين، فحارب أبو بكر هؤلاء الجماعة الكثيرة المتفقة ذوي الحمية والعصبية هذه الشرذمة القليلة مع ما بين الطرفين من عداوة الدين وتضادّ المذهب على رأي المجاهدين المقتضي للجدّ والثبات في الحرب.

وأما حرب أمير المؤمنين عليه السلام فقد كانت بعد السنين المتطاولة وتعوّد الناس على محدثات المتخلفين الثلاثة وبدعاتهم مع كون سيرته عليه السلام فيهم بخلاف سيرة الشيخين الموجب لتقاعدهم عنه ومخالفتهم له، وكون هوى أكثرهم في الباطن خلاف هوى أمير المؤمنين عليه السلام ورأيهم مخالفاً لرأيه.

بل كان أكثرهم في شك وتردد من جواز قتال حرم رسول الله عائشة وجهاد قوم هم من أهل القبلة على ظاهر الإسلام وقوم لهم ثفنات في مساجدهم كثفنات البعير أجهد منهم عبادة وأكمل قراءة.

فقاتل بهؤلاء الجماعة المختلفة الأهواء والمشتتة الآراء الضعفاء الاعتقاد، المرتدين على كثرتهم، بمقتضى تصلّبه في الدين من دون أن يأخذه لومة لائم غير هائب ولا محتشم.

فحارب مع من حالهم ذلك بالناكثين، وقد بلغوا تسعة آلاف، وبالقاسطين وقد كانوا زهاء مائتي ألف، وبالمارقين وكانوا اثني عشر ألفاً في أول أمرهم وأربعة آلاف في آخره،

---

(١) علل الشرائع ١٤٨/١ ح ٥، وعيون أخبار الرضا ٨٨/١ ح ١٦.

فانظر ماذا ترى؟.

هل كانت محاربته ﷺ والحال بما وصفت أولى وأحق بالتعظيم وأن تقصد بالآية الشريفة أم محاربة أبي بكر؟!

وثانياً: إن محاربة أبي بكر لم تكن إلا بمحض الأمر والنهي وإنهاض الجيش والبرايا، وقد كان جالساً في كسر بيته وحوله المهاجرون والأنصار في أمن وراحة وطيب عيش ودعة على مصداق قوله:

ألا طعان ألا فرسان عادية ألا تجشوكم حول التنانير

وأما أمير المؤمنين ﷺ فقد كان شاهراً سيفه واضعاً له على عاتقه في حروب يضطرب لها فؤاد الجليد، ويشيب لهولها فؤاد الوليد، ويذوب لتسعر بأسها زبر الحديد، ويَجِبُ منها قلب البطل الصنديد.

فتولى ﷺ الحرب بنفسه النفيسة فخاض غمارها واصطلى نارها، ودوّخ أعوانها وأنصارها، وأجرى بالدماء أنهارها، وحكم في مهج الناكثين والقاسطين والمارقين فجعل بوارها، فصارت الفرسان تتحاماه إذا بدر، والشجعان تلوذ بالهزيمة إذا زأر، عالمة أنه ما صافحت صفحة سيفه مهجة إلا فارقت جسدها، ولا كافح كتيبة إلا افترس ثعلب رمحه أسدها.

وهذا حكم ثبت له بطريق الإجمال وحال اتصف به بعموم الاستدلال.

وأما تفصيله فليطلب من مظانه من الكتاب، فإنه لا يخفى على ذوي البصائر وأولي الألباب.

فأنشدك بالله هل مجاهدة ذلك أجدر وأحرى بالمحمدة والثناء؟ أم محاربة هذا؟! جزى الله خير الجزاء من تجنب العصبية والهوى.

الرابع عشر: قوله: فلما ثبت أن المراد بهذه الآية أبو بكر ثبت أن قوله: يحبهم ويحبونه وصف له.

فيه أن الاستدلال على اتصاف أبي بكر بهذا الوصف وما يتلوه من الأوصاف بسبب اختصاص الآية به أشبه شيء بالأكل من القفا، إذ المناسب لرسم المناظرة أن يقيم الدليل أولاً على اتصاف أبي بكر بهذه الأوصاف ثم يستدل بذلك على أن الآية في حقه لا بالعكس.

مع أنك قد علمت عدم دلالة الآية على خلافته فضلاً عن الاختصاص فلم يثبت اتصافه

بها بما زعمه من الدليل، بل قد علمت بما ذكرناه ونذكره نزولها في أمير المؤمنين عليه السلام وأنه المتصف بهذه الأوصاف لا غير.

الخامس عشر: قوله: ومن وصفه الله بذلك يمتنع أن يكون ظالماً.

هذا مسلّم لكن ظلمه محقق فاتصافه به ممتنع فمبطليته في الإمامة محققة لا غبار عليها.

أما تحقق ظلمه فلأن أعظم الظلم الشرك بالله وعبادة الأوثان كما قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأبو بكر قد كان مشركاً مدة مديدة وزمناً طويلاً من عمره، فيكون ظالماً البتة، ومن كان كذلك لا يستحق الإمامة بمقتضى قوله سبحانه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

روى أبو الحسن الفقيه ابن المغازلي الشافعي مسنداً ـ حذفت الإسناد للاختصار ـ عن مينا مولى عبد الرحمٰن بن عوف عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا دعوة أبي إبراهيم»، قلت: يا رسول الله وكيف صرت دعوة أبيك إبراهيم؟ قال: «أوحى الله عزَّ وجل إليه إني جاعلك للناس إماماً»، فاستخف إبراهيم الفرح قال عليه السلام: ومن ذريتي أئمة مثلي؟ فأوحى الله عزَّ وجل إليه: أن يا إبراهيم إني لا أعطيك عهداً لا أفي لك به، قال: يا ربّ ما العهد الذي لا تفي لي به؟ قال: أعطيك عهداً لظالم من ذريتك، قال إبراهيم عندها: واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ربّ إنهن أضللن كثيراً من عبادك»، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «فانتهت إليّ وإلى علي، لم يسجد أحدنا لصنم قط فاتخذني نبياً واتخذ علياً وصيّاً»(١).

وقال الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]: أعلمه أن في ذريته الظالم.

قال: وقال السدي: عهدي نبوتي يعني لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة في الدين من كان ظالماً في ولدك.

قال: وقال الفراء: لا يكون للناس إمام مشرك.

وقد ظهر بذلك كون المشرك ظالماً غير مستحق للإمامة، ولا كلام في شرك أبي بكر في أول أمره، فظلمه في بداية حاله ثابت، وأما ظلمه بعد إسلامه فكذلك، لأنه لم يكن معصوماً بالاتفاق حتى يكون له قوة العصمة المانعة من الظلم على نفسه وعلى غيره، وقد قال على المنبر: إن لي شيطاناً يعتريني فإذا ملت فسدّدوني، فمن كان محتاجاً إلى تسديد الغير

(١) الطرائف ٧٩ ح ١٠٦، ونهج الإيمان ١٥٣.

عند الميل والانحراف عن الرشاد كيف يكون مسدّداً لغيره على ما هي وظيفة الإمامة.

ومن ظلمه العظيم غصبه للخلافة وحكمه بإخراج أمير المؤمنين عليه السلام من بيته ملبياً للبيعة وانتزاع فدك من يد الصدّيقة الطاهرة حسبما عرفت وتعرف في تضاعيف الشرح ذلك كله بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ومن عظيم ظلمه الذي صار عليه من أعظم المطاعن ـ مضافاً إلى مطاعنه الأخرى ـ محاربته مانعي الزكاة مع عدم كونهم مرتدين وتركه إقامة الحد والقود على خالد بن الوليد وقد قتل مالك بن نويرة وضاجع المرأة من ليلته وأشار إليه عمر بقتله وعزله، فقال: إنه سيف من سيوف الله سلّه الله على أعدائه، وقال عمر مخاطباً لخالد: لأن وليّت الأمر لأقيدنك له.

وقد روى تفصيل ذلك أرباب السيَر ورواه أصحابنا في جملة مطاعن أبي بكر، ولا حاجة بنا في هذا المقام إلى ذكر التفصيل وإنما نورد ما له مزيد مدخل في إثبات المدّعي فأقول:

روى الطبري في **(تاريخه)** ورواه غيره أيضاً في جملة ما رواه من تلك القضية أن من جملة السّرية المبعوثة إلى بني يربوع قوم مالك بن نويرة أبا قتادة الحارث ابن ربعي، فكان ممن شهد أنهم قد أذنوا وأقاموا وصلوا، فحدث أبو قتادة الأنصاري خالد بن الوليد بأن القوم ماذوا بالإسلام وأن لهم أماناً، فلم يلتفت خالد إلى قوله وأمر بقتلهم وقسّم سبيهم، فحلف أبو قتادة أن لا يسير تحت لواء خالد في جيش أبداً، وركب فرسه شاذاً إلى أبي بكر وأخبره بالقصة وقال: إني نهيت خالداً عن قتله فلم يقبل قولي وأخذ بشهادة الأعراب الذين غرضهم الغنائم، وأن عمر لما سمع ذلك تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر، وقال: إن القصاص قد وجب عليه، ولما أقبل خالد بن الوليد قافلاً دخل المسجد وعليه قباء له عليه صداء الحديد معتجراً بعمامة له قد غرز في عمامته أسهماً فلما دخل المسجد قام إليه عمر فنزع الأسهم عن رأسه فحطمها ثم قال: يا عديّ نفسه، عدوت على امرء مسلم فقتلته ثم نزوت على امرأته والله لنرجمنك بأحجارك، وخالد لا يكلمه ولا يظن إلا أن رأي أبي بكر مثل ما رأى عمر فيه، حتى دخل إلى أبي بكر واعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه[1].

وقد رواه الشارح المعتزلي أيضاً في **(الشرح)** وفي غير ذلك المقام وقال عقيب ذلك:

فكان عمر يحرض أبا بكر على خالد ويشير عليه أن يقتصّ منه بدل مالك، فقال أبو بكر: إيهاً يا عمر، ما هو بأول من أخطأ فارفع لسانك عنهم، ثم ودى ذلك من بيت مال

(١) شرح نهج البلاغة ١٧/٢٠٦.

المسلمين، انتهى[(١)].

فقد علم بذلك أن أبا بكر كان ظالماً فكيف يكون محبوباً لله سبحانه ومحبّاً له؟!.

ثم لا يخفى عليك أن الله وصف القوم المأتي بهم بالمحبة ولم يخص المحبة بالرئيس فقط، ومن جملة المحاربين للمرتدين على زعمهم خالد بن الوليد الذي عرفت حاله من هتكه لناموس الإسلام وتضييعه لشرع سيد الأنام، أفترى من نفسك أن تحكم بأنه محبوب الله ومحبه؟! حاشا ثم حاشا.

السادس عشر: قوله: أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين، صفة لأبي بكر للدليل الذي قدمناه.

فيه **أولاً**: أنك قد عرفت عدم تمامية الدليل وعدم اختصاص الآية بأبي بكر، والخبر الذي رواه من قوله: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»، مما تفرّد العامة بروايته لا يكون حجة علينا.

وثانياً: أن قوله: الا ترى أن في أول الأمر كيف كان يذبّ عن رسول الله ﷺ؟

فيه أنه لم يسمع إلى الآن ذبّ منه عنه ﷺ ولم يكن له نسب معروف، ولا حسب مشهور، ولا فضل مأثور، ولا صيت مذكور، ولم يكن يومئذ ممن يعتنى بشأنه ويعبأ به في عداد الرجال حتى يذبّ عن رسول الله، ألم يكن يومئذ مثل شيخ بطحاء أبي طالب وأسد الله حمزة وذي الجناحين جعفر وأسد الله الغالب أمير المؤمنين وسائر فتية بني هاشم وأنجاد بني عبد مناف محدقين حوله ﷺ حامين له، ذابين عنه، حتى يكون الذّاب عنه مثل أخي تيم الجلف الجافي الرّذل، ولو كان له تلك المقام والمنزلة لم يعزله رسول الله ﷺ عن إبلاغ سورة براءة.

وثالثاً: قوله: وفي آخر الأمر أصرّ على المحاربة مع مانعي الزكاة.

فيه أنك قد علمت أنّ مانعي الزكاة لم يكونوا من المرتدين بل كانوا مسلمين ولذلك صارت محاربته معهم من أعظم المطاعن عليه فاستحق بذلك عقاباً ونكالاً، وصار له وزراً ووبالاً.

ورابعاً: قوله: حتى جاء أكابر الصحابة وتضرّعوا إليه ومنعوه من الذهاب.

النكتة في منعهم منه على تقدير صحته أنهم قد كانوا عارفين بجبنه، عالمين بضعف

(١) شرح نهج البلاغة ١/ ١٧٩، والغدير ٢/ ١٤٥.

قلبه، مجرّبين له في المعارك والمهالك، وأنه وصاحبه عمر عند منازلة الشجعان ومبارزة الأقران كان شيمتهما الفرار، وسجيّتهما عدم الحماية للذمار، وقد فرّا يوم خيبر وأحد والأحزاب وغزوة ذات السلسلة وغيرها على أقبح الوجوه كما أثبتته أرباب السّير، وعلى لسان الشعراء والمؤرخين شاع واشتهر.

قال الشارح المعتزلي في (**اقتصاص غزوة خيبر**) يقصّ فرارهما في قصائد السبع العلويات:

وما أنس لا أنس اللذين تقدما	وفرّهما والفرّ قد علما حوب[١]
وللراية[٢] العظمى وقد ذهبا بها	ملابس ذلّ فوقها وجلابيب
يشلّهما من آل موسى شمر دل	طويل نجاد السيف أجيد يعبوب
يمجّ منوناً سيفه وسنانه	ويلهب ناراً غمده والأنابيب
أحضرهما أم حضرا خرج خاضب	أذان هما أم ناعم الخدّ مخضوب
عذرتكما أن الحمام لمبغض	وإن بقاء النفس للنفس مطلوب

فكان تضرع الصحابة له في الرجوع والإياب مخافة أن يذهب فيهرب بمجرى عادته ومجرب شيمته، فيبطل بالمرة دين الإسلام ويضمحل شرع سيد الأنام فتضرعوا إليه بلسان المقال، وقالوا له بلسان الحال:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ويشهد بما ذكرنا أنه لو كان عرف في نفسه البأس والنجدة لأصرّ على المضي ولم يصغ إلى تضرعهم، وكان مثل أمير المؤمنين عليه السلام لما عزم على المسير إلى البصرة تضرع إليه ابنه الحسن بأن لا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال، وبكى وقال: أسألك أن لا تقدم العراق ولا تقتل بمضيعة.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها، ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً حتى آتي على يومي[٣]، على ما عرفت تفصيله في شرح سادس المختار في باب الخطب.

---

(١) الحوب: الإثم.

(٢) الراية الكبرى راية رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٣) أمالي الطوسي ٥٢ ح ٦٨.

ولعمري أن هذه المنقبة الشريفة ـ أعني العزة على الكافرين ـ هو حظ أمير المؤمنين عليه السلام لا غير، واستمع ما قاله الأديب النحرير الشاعر الماهر والأستاذ الفاضل:

بدر له شاهد والشعب من أحد والخندقان ويوم الفتح إن علموا
وخيبر وحنين يشهدان له وفي قريظة يوم صيل قتم
مواطن قد علت في كل نائبة على الصحابة لم أكتم وإن كتموا

وأما كونه عليه السلام ذليلاً على المؤمنين فلما عرفت في تضاعيف الشرح وتعرفه أيضاً من مكارم أخلاقه ومحامد خصاله التي أقرّ بها المخالف كالمؤالف، ونقله المنحرف كالمعترف، واعترف بها الخاصة والعامة، وتصدقها المحب والمبغض.

له شرف فوق النجوم محلّه أقرّ به حتى لسان حسوده

حدّث الزبير بن بكار عن رجاله قال: دخل محفن بن أبي محفن الضبي على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين جئتك من عند ألأمْ العرب، «وأبخل العرب ظ» وأعيا العرب، وأجبن العرب، قال: ومن هو يا أخا بني تميم؟ قال: علي بن أبي طالب، قال معاوية: اسمعوا يا أهل الشام ما يقول أخوكم العراقي، فابتدروه أيهم ينزله عليه ويكرمه، فلما تصدّع الناس عنه قال له: كيف قلت؟ فأعاد عليه، فقال له: ويحك يا جاهل كيف يكون ألأم العرب وأبوه أبو طالب وجده عبد المطلب وامرأته فاطمة بنت رسول الله؟! وأنّى يكون أبخل العرب فوالله لو كان له بيتان بيت تبن وبيت تبر لأنفذ تبره قبل تبنه، وأنى يكون أجبن العرب فوالله ما التقت فئتان قط إلا كان فارسهم غير مدافع وأنّى يكون أعيا العرب فوالله ما سنّ البلاغة لقريش غيره، فوالله لولا ما تعلم لضربت الذي فيه عيناك فإياك عليك لعنة الله والعود إلى مثل هذا.

فقد أقرّ بفضله العنود الحسود، وقيام الحجة بشهادة الخصم أوكد وإن تعددت الشهود.

ومليحة شهدت لها صراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

السابع عشر: قوله: إلا أن حظ أبي بكر فيه أتم ـ إلى قوله ـ يوم بدر وأُحد.

أقول: لا يكاد ينقضي عجبي من هذا الناصب المتعصب كيف أعمته العصبية إلى أن جاوز حدّه وخرج عن زيه وتكلم فوق قدره حتى رجح ابن أبي قحافة على أبي تراب، فواعجباً كيف يقاس التراب بالتبر المذاب، وأي نسبة للسراب إلى الشراب وأي شبه بين الدر والحصى والسيف والعصا، وأي تطابق بين الشجاع المبارز الغالب على كل غالب، والأجبن من كل الثعالب، وهذا مقام التمثيل بقول أبي العلاء:

إذا وصف الطائي بالبخل ما در وعيّر قسّاً بالفهاهة باقل
وقال السهيل للشمس أنت خفية وقال الدّجى للصبح لونك حائل

وطاولت الأرض السماء ترفعاً وطاول شهباً الحصى والجنادل
فيا موت زران الحياة ذميمة ويا نفس جدّي إن دهرك هازل

فيقال لهذا الخابط الهازل اللاغي الذي لا ينفعل من لغوه وهذيه: أي جهاد كان قبل غزوة بدر؟ وأي ذبّ نقل عن أبي بكر؟ ولو كان منه قدرة الذبّ والدفاع لنقل شيء منها في محاربات الرسول المختار مع الكفار، ولنزل فيه ما نزل في أبي الحسن الكرار، من مثل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾؟ ولا فتى إلاّ علي ولا سيف إلاّ ذو الفقار.

وقد كانت العساكر في هذه المعارك حسبما قال مجتمعة، والصفوف متلاصقة، والكتائب مترادفة، فاختار هو وصاحبه عمر والحال هذه الفرّ على الكرّ، وولّيا عن العدو الدّبر، فمن كان هذه حاله كيف كان يذبّ عن سيد الأنام حين ضعف الإسلام مع عدم العساكر، ولا معين ولا ناصر.

الثامن عشر: قوله: إنه كان متقدماً عليه في الزمان.

فيه: أنه إن أراد تقدّمه عليه من حيث الجهاد فقد عرفت بطلانه، إذ أول غزوة في الإسلام غزوة بدر وقد كانا كلاهما حاضرين فيها معاً، ثم فيما بين حضوريهما من التفاوت ما لا يخفى، فإن أبا بكر لم ينقل منه فيها فرد قتيل، وأما أمير المؤمنين عليه السلام فقد روى جمهور المؤرخين أن قتلاه فيها شطر جميع المقتولين وكانوا سبعين.

وإن أراد تقدّمه عليه في السنّ، ففيه: أن الزمان الذي تقدم به على أمير المؤمنين عليه السلام مع سبقه عليه السلام عليه بالإسلام، ومع كونه فيما تقدم به عليه من أهل الشرك وعبدة الأصنام، فأي شرف لهذا التقدم أو منقبة، أمْ أي خير فيه ومنفعة.

التاسع عشر: قوله: جهاد أبي بكر في وقت ضعف الرسول.

فيه: إنك قد عرفت فساده لأنه لم يكن قبل غزوة بدر غزوة معروفة إلا غزوات مختصرة مثل غزوة بواد بواط وعشيرة وغزوة بدر الصغرى، ولم ينجر الأمر فيها إلى القتال فيجاهد أبو بكر ويقعد عنه أمير المؤمنين مع أن حضور أبي بكر فيها وغياب علي عنها غير ثابت.

وأيضاً لم يكن الرسول عند المسير إليها ضعيفاً، وإن أراد أنه كان لأبي بكر جهاد قبل تلك الوقائع فهو مما تفرّد به ولم ينقله عن غيره.

نعم، لو قلنا أن أمير المؤمنين كان سابقاً بالجهاد لأنه جاهد الكفار صبيحة ليلة بات فيها على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله لما ذهب إلى الغار، وجاهدهم أيضاً عند الهجرة بأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة لما أرادت قريش المنع منها، لقلنا مقالاً رواه أرباب السّير، وورد في صحيح الخبر.

وكيف كان فجهاد أمير المؤمنين عليه السلام في سبيل الله وكون حظه فيه الأوفر أبين من الشمس في رابعة النهار، ولنعم ما قيل:

بعليّ شيّدت معالم دين الله والأرض بالعناد تمور
وبه أيّد الإله رسول الله إذ ليس في الأنام نصير
أسد ما له إذا استفحل الناس سوى رنّة السلاح زئير
ثابت الجأش لا يردعه الخطب ولا يعتريه فتور
عزمات أمضى من القدر المحتوم يجري بحكمه المقدور

فقد ظهر بذلك كله أن مصداق قوله سبحانه في الآية الشريفة: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤] هو أمير المؤمنين عليه السلام.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فيظهر كونه مصداقاً له ويصدّقه قوله صريحاً في الفصل الآتي: «وإني لمن قوم لا يأخذهم في الله لومة لائم».

وقوله عليه السلام في المختار الرابع والعشرين: ولعمري ما عليّ من قتال من خالف الحق وخابط الغيّ من ادهان ولا إيهان.

وقوله عليه السلام في المختار الحادي والتسعين لما أُريد على البيعة بعد قتل عثمان: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ـ إلى قوله ـ: واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب.

وقوله عليه السلام في المختار المئة والسادسة والعشرين لما عوتب على التسوية في العطاء: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه؟ والله ما أطور[1] به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً[2].

العشرون: قوله: وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا لائق بأبي بكر متأكد بقوله: ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة (اهـ)، وقد بينا أن هذه الآية في أبي بكر.

فيه: بعد الغض عما روي عن ابن عباس وغيره من أنها نزلت في جماعة من الصحابة أقسموا على أن لا تتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوهم، والبناء على نزولها في أبي بكر كما هو قول جمع من المفسرين، إن إحدى الآيتين لا ارتباط لها

(١) أي لا أقربه، راجع تاج العروس ٣/ ٣٦١، ولسان العرب ٤/ ٣٧٨ـ ٥٠٨.
(٢) البحار ٤٨/٣٢ ح ٣١.

بالأخرى، فإن المراد بالفضل في الآية الثانية هو الغنى والثروة، وبه في الآية الأولى اللطف والتوفيق، ومعنى قوله: وذلك فضل الله، إن محبتهم لله، ولين جانبهم للمؤمنين، وشدّتهم على الكافرين فضل من الله وتوفيق ولطف منه ومن جهته يمنّ به على من يشاء من عباده.

الحادي والعشرون: قوله: إنا بيّنا بالدليل.

فيه أنك قد عرفت عدم تمامية الدليل بما لا مزيد عليه.

الثاني والعشرون: قوله: هذا الخبر من باب الآحاد.

فيه منع كونه من الأخبار الآحاد التي لا يعول عليها، بل هو خبر مستفيض رواه المخالف والمؤالف معتضد مضمونه بأخبار كثيرة قطعية، ونقتصر على بعض الأخبار العامية لكونه أدحض لحجة الخصم.

ففي (**غاية المرام**) عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بسنده عن سعيد بن المسيّب أن النبي صلى الله عليه وآله قال يوم خيبر: «لأدفعنّ الراية إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله»، فدعا علياً وأنه لأرمد ما يبصر موضع قدميه، فتفل في عينيه ثم دفعها إليه ففتح الله عليه.

ورواه أيضاً عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى وعن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعنه عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعنه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعنه بسند آخر أيضاً عن عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة الأسلمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعنه عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

ورواه أيضاً من (**صحيح البخاري**) من الجزء الرابع في رابع كراسة عن سلمة الأكوع عن رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الجزء الرابع من (**صحيح البخاري**) أيضاً في ثلثه الأخير في باب مناقب علي عن سلمة عنه صلى الله عليه وآله ومن الجزء الخامس منه أيضاً عن سلمة عنه صلى الله عليه وآله.

ومن (**صحيح البخاري**) عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

ورواه أيضاً من (**صحيح مسلم**) من الجزء الرابع في نصف الكراس من أوله بإسناده عن

(١) راجع البحار ٣٩/ ٢٢، وتاريخ دمشق ٤٢/ ٨٤ـ ٩٧ـ ١٠٣ وذكر طرقه.

عمر بن الخطاب بعد قتل عامر أرسلني رسول الله ﷺ إلى علي عليه السلام وهو أرمد وقال: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، الحديث.

ومن (**صحيح مسلم**) في آخر كراس من الجزء الرابع منه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

ومن (**صحيح مسلم**) عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ.

ومن (**صحيح مسلم**) عن سلمة بن الأكوع عن رسول الله ﷺ[1].

ورواه أيضاً من (**تفسير الثعلبي**) في تفسير قوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] بإسناده عن رسول الله ﷺ.

ورواه أيضاً من (**مناقب ابن المغازلي**) بسند يرفعه إلى إياس بن سلمة عن أبيه في ذكر حديث خيبر قال: فقال النبي ﷺ: «لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله».

ومن (**مناقبه**) أيضاً عن أبي طالب محمد بن عثمان يرفعه إلى عمران بن الحصين قال: بعث رسول الله ﷺ عمر إلى خيبر فرجع فقال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ليس بفرّار».

ومن (**المناقب**) أيضاً عن القاضي أبو الخطاب يرفعه إلى عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فأعطاها علياً ففتح الله عزَّ وجل خيبر به.

ومن (**المناقب**) عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى خيبر فلم يفتح عليه ثم بعث عمر فلم يفتح عليه فقال: «لأعطين الراية رجلاً كرّاراً غير فرّار يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله».

ومن (**المناقب**) عن أحمد بن محمد بن عبد الوهاب بن طاران يرفعه إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فدفعها إلى علي بن أبي طالب.

ومن (**المناقب**) قال: أخبرنا أبو القاسم عمر بن علي بن الميموني وأحمد بن محمد بن

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٧٦، و٤/ ٢٠.

(٢) صحيح مسلم ٧/ ١٢٠ـ ١٢١.

عبد الوهاب بن طاران الواسطيان بقراءتي عليهما فأقرا به يرفعه إلى أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله حيث كان أرسل عمر بن الخطاب إلى خيبر هو ومن معه فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فبات تلك الليلة وبه من الغم غير قليل، فلما أصبح خرج إلى الناس ومعه الراية فقال: «لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، غير فرّار»، فتعرض لها جميع المهاجرين والأنصار، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أين علي؟»، فقالوا: يا رسول الله هو أرمد، فأرسل إليه أبا ذر وسلمان فجاء وهو يقاد لا يقدر على أن يفتح عينيه، ثم قال: «اللهم أذهب عنه الرمد والحر والبرد وانصره على عدوه وافتح عليه فإنه عبدك ويحبك ويحب رسولك[1] غير فرّار»، ثم دفع صلى الله عليه وآله الراية إليه عليه السلام واستأذنه حسان بن ثابت في أن يقول فيه شعراً، فقال صلى الله عليه وآله له: «قل»، فأنشأ يقول:

وكان عليّ أرمد العين يبتغي ... دواء فلما لم يحسّ مداويا
شفاه رسول الله منه بتفلة ... فبورك مرقياً وبورك راقيا
وقال سأعطي اليوم راية صارماً ... كميّاً محبّاً للرسول محاميا
يحبّ إلهي والإله يحبه ... به يفتح الله الحصون الأوابيا
فأصفى بها دون البرية كلها ... عليّاً وسمّاه الوزير المواخيا[2]

ومن (**المناقب**) أيضاً عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بحضرة أهل خيبر وقال: «لأعطين اللواء رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فلما كان من الغد صادف أبا بكر فدعا علياً وهو أرمد العين فأعطاه الراية.

ومن (**المناقب**) بسند مرفوع إلى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله».

وفيه من (**الجمع بين الصحاح الستة**) بإسناده عن سهل بن سعد عن أبيه قال: كان علي تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة خيبر فلحق، فلما أتينا الليلة التي فتحت في صبيحتها قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لأعطينّ غداً الراية رجلاً يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله».

ومن (**الجمع بين الصحاح الستة**) من صحيح الترمذي قال بالإسناد عن سلمة قال: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى علي وهو أرمد فقال: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله».

---

(١) في نسخة: رسوله.

(٢) راجع البحار ٣٩/١٥، والغدير ٣/١٩٥، ومجمع الزوائد ٦/١٥١.

وفيه عن إبراهيم بن محمد الحمويني مسنداً عن جابر بن عبد الله الأنصاري في ذكر حديث خيبر قال: فقال رسول الله ﷺ: «لأبعثن غداً رجلاً يحب الله ورسوله لا يولّي الدّبر»، هذا[١].

واقتصرنا على مورد الحاجة في أكثر هذه الروايات وحذفنا إسناد أكثرها للاختصار، وتركنا الأخبار الخاصية الواردة في هذا المعنى حذراً من الإطالة ودفعاً لمكابرة الخصم وعناده، وادعى صاحب (**غاية المرام**) تواتر الخبر في القصة من طريق العامة والخاصة.

أقول: وهذه الأخبار التي رواها المخالفون في كتبهم فضلاً عن أخبار الموالين له عليه السلام كافية لمن راقب العدل والإنصاف، وجانب التعصب والاعتساف في إثبات كونه عليه السلام محباً لله ورسوله وكون الله ورسوله ﷺ محبّين له.

ولكني أضيف إلى هذه الأخبار على رغم الناصب المعاند الرازي المتعصب الجاحد حديث الطير الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «اللهم أعطني[٢] بأحب الناس إليك» وفي بعض روايته: «إليك وإلى رسولك يأكل معي» فجاء علي عليه السلام وأكل معه.

وقد رواه في (**غاية المرام**) بستة وثلاثين طريقاً من طرق العامة، ومن جملتها أبو المظفر السمعاني في كتاب (**مناقب الصحابة**) عن السدي عن أنس بن مالك قال: كان عند النبي طير فقال: «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير» فجاء علي عليه السلام فأكل معه[٣].

وقد روي ذلك في (**الجمع بين الصحاح الستة**) لرزين من مسند أبي داود السجستاني.

ورواه أحمد بن حنبل بطريق واحد من طريق السفينة مولى رسول الله ﷺ.

ورواه ابن المغازلي الشافعي الواسطي من عشرين طريقاً[٤].

ومن جملة طرق (**غاية المرام**) أيضاً القاصم لظهر المكابرين والراغم لأنوف الناصبين ما أورده من كتاب (**المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة**)، روى أبو جعفر بن محمد بن أحمد بن روح مول بني هاشم قال: حدّثني العباس بن عبد الله الباكناني عن محمد بن يوسف

---

(١) راجع سنن الترمذي ٣/ ١٢٤، و٥/ ٣٠٢، وسنن ابن ماجه ١/ ٤٤، وتحفة الأحوذي ١٠/ ١٥٨، وسنن النسائي ٥/ ٤٦ـ ١٠٨ـ ١٠٩ـ ١١٠ـ ١٤٥ـ ١٧٣ـ ١٧٨.

(٢) في بعض الأحاديث: ايتني.

(٣) راجع علل الشرائع ١/ ١٦٢، والخصال ٥٥٥، والإرشاد ١/ ٣٨، والغدير ٤/ ٦٣، وسنن الترمذي ٥/ ٣٠٠، وسنن النسائي ٥/ ١٠٧.

(٤) راجع تاريخ دمشق ٤٢/ ٢٤٥ـ ٢٤٧ـ ٢٥٤ـ ٢٥٧ـ ٤٣٢، فقد ذكر طرقه.

السري عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: حدثني أبي صميم حوثن بن عدي عن أبي ذرّ (ره) قال:

بينا نحن قعود مع رسول الله ﷺ إذا هدى إليه طائر مشوي، فلمّا وضع بين يديه قال لأنس: انطلق به إلى المنزل، وتبعه رسول الله ﷺ حتّى دخل المنزل وضع أنس الطائر بين يديه، فرفع النبي يديه نحو السماء وقال: اللهم ايت إليّ بأحبّ النّاس إليك تحبه أنت ويحبه من في الأرض ومن في السماوات حتى يأكل معي من هذا الطير، قال أنس: فقلت: اللهم اجعله أبي فما لبثنا حتى أتى علي عليه السلام فقال له أنس: إن رسول الله ﷺ في حاجة حتى أتى علي عليه السلام ثلاث مرات.

فجثا النبي ﷺ على ركبتيه ورفع يديه إلى السماء حتّى بان بياض إبطيه وقال: حاجتي يا ربّ الساعة الساعة، فما لبثنا أن قرع الباب فقال أنس: من ذا؟ فقال: أنا علي وسمع النبي ﷺ صوته فقال افتح، ففتحه، فلما دخل وكز أنس بيده حتى ظنّ أنس أنه قد أنقذ يده من ظهره، فلما بصر به النبي ﷺ وثب قائماً وقبّل عينيه وقال: ما الذي أبطأك عني يا قرّة عيني، فقال عليه السلام: يا رسول الله قد أقبلت ثلاثاً ويردّني أنس، فصفق رسول الله ﷺ وكان لا يصفق حتى يغضب، فقال: يا أنس حجبت عني حبيبي، فقال: يا رسول الله إني أحببت أن يكون رجلاً من قومي.

فقال رسول الله ﷺ: يا أنس أما علمت أنّ المرء يحب قومه، إن علياً يحبني وإن الله يحبه والملائكة تحبه ويحبه الله، يا أنس إني وعلياً لم نزل ننقلب إلى مطهرات الأرحام حتى نقلنا إلى عبد المطلب فصار عليّ في صلب أبي طالب وصرت أنا في صلب عبد الله عمّ عليّ، فصارت في النبوّة وفي عليّ الولاية والوصيّة أما علمت يا أنس أن الله عزّ وجلّ اشتق لي اسماً من أسمائه ولعليّ اسماً فسماني أحمد لتحمدني أمتي وأما عليّ فالله العليّ سماه علياً، يا أنس كما حجبت عني علياً ضربك الله بالوضح، وكان لا يدخل المسجد بعد الدعوة إلّا متبرقع الوجه.

وهذه الرواية كما ترى ظاهرة بل صريحة من جهات عديدة في فرط محبة النبي ﷺ له ومحبته ﷺ ومحبة الله له.

والأخبار في كونه أحبّ الناس إلى الله وإلى رسوله متجاوزة عن حدّ الإحصاء، ولو أردنا أن نجمع ما نقدر عليه منها لصار كتاباً كبير الحجم ولكن أورد منها روايتين أختم بهما المقام ليكون ختامه مسكاً فأقول:

روى في كشف الغمة من مناقب الخوارزمي عن عبد الله بن عمر قال:

سمعت رسول الله ﷺ وسئل بأي لغة خاطبك ربك ليلة المعراج، قال: خاطبني بلغة عليّ بن أبي طالب فألهمني أن قلت يا ربّ أنت خاطبتني أم عليّ؟ فقال: يا أحمد أنا شيء لا كالأشياء ولا أقاس بالناس ولا أوصف بالأشياء، خلقتك من نوري وخلقت علياً من نورك فاطلعت على سرائر قلبك فلم أجد إلى قلبك أحبّ من عليّ بن أبي طالب، فخاطبتك بلسانه كيما يطمئن قلبك.

وفيه من المناقب قال:

وأخبرنا بهذا الحديث عالياً الإمام الحافظ سليمان بن إبراهيم الأصفهاني مرفوعاً إلى عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ، وهو في بيتي لما حضره الموت: ادعوا إليّ حبيبي، فدعوت أبا بكر فنظر إليه رسول الله ﷺ ثمّ وضع رأسه، ثمّ قال: ادعوا إليّ حبيبي فقلت: ويلكم ادعوا له عليّ بن أبي طالب فوالله ما يريد غيره، فلما رآه فرج الثوب الذي كان عليه ثمّ أدخله فيه فلم يزل يحتضنه حتى قبض ويده عليه[1].

إذا عرفت هذا فأقول:

قال فيه البليغ ما قال ذو العي فكلّ بفضله منطبق
وكذاك العدو ولم يعد أن قال فيه جميلاً كما قال المحب الصديق

ومع ذلك كلّه فانظر هداك الله إلى سلوك صراطه المستقيم إلى الرازي واستمراره على غيه، وغرقه في سبيل نصبه وتعصبه، ومكابرته الحق اللائح، وتنكبه الجدد الواضح، وعدوله عن السنن، وبقائه على غمط[2] حق أبي الحسن وإرادته ستر الشمس المجللة بنورها للعالم بالنقاب، والنير الأعظم بالحجاب، فجزاه الله عن رسوله وعن أمير المؤمنين سلام الله عليهما شرّ الجزاء.

الثالث والعشرون: قوله: ولأنه معارض بالأخبار الدالة على كون أبي بكر محبّاً لله ورسوله وكون الله محباً له (اهـ).

فيه **أولاً**: إنه ليس هنا خبر متضمن لمحبة أبي بكر لله أو محبة الله له يحتج به على الإمامية فضلاً عن الأخبار، وما رووه في هذا المعنى مما تفرّدوا بروايته لا يكون حجة علينا.

ومع ذلك فمعارض بالأخبار الكثيرة المتضمنة لكون علي عليه السلام أحب الناس إلى الله

(١) كشف الغمة: ١/ ١٠٠.

(٢) غمط حق فلان حقره، المنجد.

وإلى رسوله المستفيضة بل المتواترة معنى من طرقهم حسبما عرفت في الاعتراض الثاني والعشرين، وهي أقوى منها سنداً وأظهر دلالة فلا يكاد تكافوء الأخبار الأدلة على تقدير وجودها لها كما لا يخفى صدق المدّعي على أهل البصيرة والنهي.

الرابع والعشرون: قوله: قال تعالى في حق أبي بكر: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ٢١].

غير مسلّم نزولها في أبي بكر، ولما نزله الرازي عن ابن الزبير وعن أبي بكر الباقلاني، والمروي عن المفسرين خلافه، فقد روى الواحدي بالإسناد المتصل المرفوع عن عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من الأنصار، وعن عطاء قال: اسم الرجل أبو الدحداح، وفي بعض روايات أصحابنا أنها في علي عليه السلام.

وقال بعض المفسرين: الأولى إبقاؤها على العموم فيرجع الضمير إلى كل من يعطي حق الله من ماله ابتغاء وجه ربه، وإذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال.

وقوله: وقال: إن الله يتجلى للناس عامة ويتجلى لأبي بكر خاصة[1].

أنت خبير بأنه لا غبار في كونه من الأحاديث الموضوعة، لأنه إن أُريد من تجلّيه سبحانه تجلّيه بذاته فهو مستلزم للتجسم مخالف للأصول المحكمة والبراهين القاطعة الساطعة، وإن أُريد تجليه ببره وفضله وعناياته ولطفه المقرّب إلى طاعته والمبعد عن معصيته، ففيه أن التجلي بهذا المعنى لعموم الناس غير جائز إذ فيهم المؤمن والمنافق والمسلم والكافر، فكيف يتصوّر التجلّي في حق الكافر المنافق وإن خصّ بالمؤمنين فهو مع كونه خلاف الظاهر يتوجه عليه أن من جملة المؤمنين الأنبياء والرسل وفيهم أولو العزم وغيرهم، فيلزم أن يكون أبو بكر أعلى شأناً منهم وهو باطل بالاتفاق.

ثم كيف يتجلّى الله سبحانه على قلب أبي بكر وهو عشّ الشيطان وقد قال مخبراً عن نفسه: إنّ لي شيطاناً يعتريني فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني[2].

وقوله: وقال صلى الله عليه وآله: «ما صبّ الله شيئاً في صدري إلا وصبّه في صدر أبي بكر»[3].

هو كسابقه أيضاً في الوضع، لأن النكرة في سياق النفي مفيد للعموم، ومن جملة ما صبّ في صدر النبي نور النبوة والوحي والإلهام وعلم ما كان وما يكون وما هو كائن ونحوها، فهل ترى شيئاً من ذلك ينصب في قلب أبي بكر فضلاً عن جميعها ولو صح ذلك

---

(١) راجع الغدير ٧/ ٨٨، فقد ذكر الكلام حول سنده.

(٢) راجع الغدير ٧/ ٨٧، وكشف الخفاء ١/ ٢٤٥، والموضوعات للفتني ٩٣ فقد حكموا بوضع الحديث.

(٣) مصنف عبد الرزاق ١١/ ٣٣٦، والإمامة والسياسة ١/ ٣٤، والغدير ٧/ ١١٨.

الصبّ لم يخف عليه معنى الكلالة والأبّ.

الخامس والعشرون: قوله: إنّا لا نسلم دلالة الآية التي بعد هذه الآية على إمامته وسنذكر الكلام فيه (اهـ).

يريد عدم تسليم دلالة الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾؟ الآية، على إمامة أمير المؤمنين بما ذكره من الوجوه السخيفة في تفسير هذه الآية، وأنت قد عرفت تمامية دلالتها على إمامته في مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية، كما عرفت بطلان ما ذكره من الأدلة، لعدم تماميتها بما لا مزيد عليه.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأسأل الله أن يثبت ما أوردناه هنا في رد الرازي الناصب في صحائف أعمالي، ويردّه إلى يوم حشر الأولين والآخرين، ويثقل به ميزاني، ويحشرني مع من أتولاه وأحبه وأتعصب له من محمد وآله الطيبين الطاهرين، وأن يكتب ما أورده الناصب الرازي في صحيفة أعماله، ويرده إليه، ويحشره يوم القيامة مع من تعصب له من أوليائه الظالمين في حق آل الرسول صلى الله عليهم وعليه أجمعين إلى يوم الدين.

التنبيه الثاني

قد أشرنا في شرح قوله عليه السلام: **(إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى)**، أنه ظاهر في سماع الإمام ما يسمعه النبي من الملك ورؤيته له مثله، قد اختلفت الأخبار في ذلك.

فمما يدل على سماعه ورؤيته حديث «**الأمالي**» المتقدم في شرح الفقرة المذكورة.

ومنه أيضاً ما في (**البحار من البصائر**) عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّا نزاد في الليل والنهار ولولا أنا نزاد لنفد ما عندنا، فقال أبو بصير: جعلت فداك من يأتيكم؟ قال: إنّا منا لمن يعاين معاينة، ومنا من ينقر في قلبه كيت وكيت، ومنا من يسمع بإذنه وقعاً كوقع السلسلة في الطست، قال: قلت: جعلني الله فداك من يأتيكم بذاك؟ قال: هو خلق أكبر من جبرائيل وميكائيل[1].

ومن كتاب (**المحتضر**) للحسن بن سليمان بإسناده عن الرضا عليه السلام في حديث طويل قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: وإن شئتم أخبرتكم بما هو أعظم من ذلك، قالوا: فافعل! قال عليه السلام: كنت ذات ليلة تحت سقيفة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وأني لأحصي ستاً وستين

(١) بصائر الدرجات ٢٥١، وأمالي الطوسي ٤٠٨ ح ٩١٥.

وطأة من الملائكة كل وطأة من الملائكة أعرفهم بلغاتهم وصفاتهم وأسمائهم ووطئهم[١].

ومما يدل على السماع فقط من دون الرؤية مثل ما في الاحتجاج قال: كان الصادق عليه السلام يقول: علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الأسماع، فسئل عن تفسير هذا الكلام فقال عليه السلام: أما الغابر فالعلم بما يكون، وأما المزبور فالعلم بما كان، وأما النكت في القلوب فهو الإلهام، وأما النقر في الأسماع فحديث الملائكة نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم[٢].

ومثله الأخبار الكثيرة الفارقة بين الرسول والنبي والإمام والمحدث.

مثل ما رواه في (**الكافي**) عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾؟، ما الرسول وما النبي؟ قال عليه السلام: النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك، قلت: الإمام ما منزلته؟ قال: يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] ولا محدث[٣].

وفيه عن بريد (زيد خ) عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله عزل وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] ولا محدّث، قلت: جعلت فداك ليست هذه قراءتنا، فما الرسول والنبي والمحدث؟ قال: الرسول الذي يظهر له الملك فيكلمه والنبي هو الذي يرى في منامه وربما اجتمعت النبوة والرسالة لواحد، والمحدّث الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة، قال: قلت: أصلحك الله كيف يعلم أن الذي رأى في النوم حق وأنه الملك؟ قال: يوفق لذلك حتى يعرفه ولقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيكم الأنبياء[٤].

وفيه عن الأحوال قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرسول والنبي والمحدّث قال عليه السلام: الرسول الذي يأتيه جبرائيل قبلاً فيراه ويكلمه فهذا الرسول، وأما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول الله صلى الله عليه وآله من أسباب النبوّة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل عليه السلام من عند الله عزَّ وجل بالرسالة وكان محمد صلى الله عليه وآله حين جمع له النبوّة وجاءته الرسالة من عند الله عزَّ وجل يجيئه بها جبرائيل عليه السلام يكلمه بها قبلاً، ومن الأنبياء من

---

(١) المختصر للحلي ١٣١، والبحار ٢٦/ ٨٥.

(٢) روضة الواعظين ٢١٠، والاحتجاج ٢/ ١٣٤.

(٣) الكافي ١/ ١٧٧ ح ٤، والبحار ٢٦/ ٧٧.

(٤) الكافي ١/ ١٧٦ ح ١، والاختصاص ٣٢٨.

جمع له النبوة ويرى في منامه ويأتيه الروح ويكلمه ويحدثه من غير أن يكون يرى في اليقظة، وأما المحدث فهو الذي يحدّث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه[١].

وعن محمد بن مسلم قال: ذكر المحدث عند أبي عبد الله عليه السلام فقال: إنه يسمع الصوت ولا يرى الشخص، قلت له: جعلت فداك كيف يعلم أنه كلام الملك؟ قال: إنه يعطى السكينة والوقار حتى يعلم أنه كلام ملك[٢].

بيان

السكينة اطمئنان القلب وعدم التزلزل والوقار الحالة التي بها يعلم أنه كلام الملك.

وفي رواية زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: كيف يعلم أنه كلام من الملك ولا يخاف أن يكون من الشيطان إذا كان لا يرى الشخص؟ قال: إنه يلقى عليه السكينة فيعلم أنه من الملك ولو كان من الشيطان اعتراه فزع، وإن كان الشيطان بإزراره لا يتعرض لصاحب هذا الأمر.

وفي **(البحار)** من أمالي الشيخ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان علي محدّثاً وكان سلمان محدّثاً، قال: قلت: فما آية المحدّث؟ قال عليه السلام: يأتيه ملك فينكت في قلبه كيت وكيت[٣].

ومن **(البصائر)** عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أهل بيتي اثني عشر محدّثاً».

ومن **(البصائر)** عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: الاثني عشر الأئمة من آل محمد عليه وعليهم السلام كلهم محدّث من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وولد علي عليه السلام فرسول الله وعلي هما الولدان، فقال عبد الرحمٰن بن زيد وأنكر ذلك وكان أخاً لعلي بن الحسين عليهما السلام لأمّه، فضرب أبو جعفر عليه السلام فخذه فقال: أما ابن أمك كان أحدهم[٤].

ومنه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: كان علي عليه السلام والله محدثاً، قال: قلت له: اشرح لي ذلك أصلحك الله، قال: يبعث الله ملكاً يوقر في أذنه كيت وكيت[٥].

(١) الكافي ١/١٧٦، والبصائر ٣٩١.
(٢) الكافي ١/٢٧١، والبصائر ٣٤٣.
(٣) البصائر ٣٤٢، والبحار ٢٢/٣٢٧ ح ٣١.
(٤) بصائر الدرجات ٣٣٩، والخصال ٤٧٨.

ومنه عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ألست حدّثتني أن علياً عليه السلام كان محدّثاً؟ قال: بلى، قلت: من يحدّثه؟ قال: ملك يحدّثه، قال: قلت: فأقول إنه نبي أو رسول؟ قال: لا بل مثله مثل صاحب سليمان ومثل صاحب موسى ومثل ذي القرنين، أما بلغك أن علياً عليه السلام سئل عن ذي القرنين فقالوا: كان نبياً؟ قال: لا، بل كان عبداً أحب الله فأحبه، وناصح الله فناصحه فهذا مثله[١].

وبمعناها أخبار كثيرة أخرى تركنا ذكرها حذراً من الإطالة[٢].

بيان

المراد بصاحب موسى إما يوشع بن نون كما صرّح به في بعض الأخبار، أو الخضر على نبينا وعليه السلام كما في البعض الآخر، فيدل على عدم نبوّة واحد منهما ويمكن أن يكون المراد عدم نبوته في تلك الحال فلا ينافي نبوته بعد في الأول ونبوته قبل في الثاني، هكذا قال في (**البحار**)، والمراد بصاحب سليمان عليه السلام أما خضر عليه السلام أو آصف بن برخيا.

قال المحدّث العلامة المجلسي في (**البحار**)[٣] بعد إيراد هذه الأخبار ما هذا لفظه: استنباط الفرق بين النبي والإمام من تلك الأخبار لا يخلو من إشكال، وكذا الجمع بينها مشكل جداً، والذي يظهر من أكثرها هو أن الإمام لا يرى الحكم الشرعي في المنام والنبي قد يراه فيه.

وأما الفرق بين النبي والإمام وبين الرسول هو أن الرسول يرى الملك عند إلقاء الحكم والنبي غير الرسول والإمام لا يريانه في تلك الحال وإن رأياه في سائر الأحوال، ويمكن أن يخصّ الملك الذي لا يريانه بجبرائيل عليه السلام ويعم الأحوال لكن فيه أيضاً منافاة لبعض الأخبار.

ومع قطع النظر من الأخبار لعل الفرق بين الأئمة وغير أولي العزم من الأنبياء أن الأئمة عليهم السلام نوّاب للرسول صلى الله عليه وآله لا يبلّغون إلا بالنيابة، وأما الأنبياء وإن كانوا تابعين لشريعة غيرهم لكنهم مبعوثون بالأصالة وإن كانت تلك النيابة أشرف من تلك الأصالة.

وبالجملة لا بد من الإذعان بعدم كونهم عليهم السلام أنبياء وبأنهم أشرف وأفضل من غير نبينا

(١) البصائر ٣٤٠، والإرشاد ٢/ ٣٤٧.
(٢) البصائر ٣٤٣، والبحار ٢٦/ ٧١.
(٣) فصلنا ذلك وطرقه في كتاب علم آل محمد صلى الله عليه وآله.
(٤) البحار ٢٦/ ٨٢، ذيل حديث ٤٤.

عليه و عليهم السلام من الأنبياء والأوصياء، ولا نعرف جهة لعدم اتصافهم بالنبوة إلا رعاية جلال خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله، ولا يصل عقولنا إلى فرق بين النبوة والإمامة، وما دلت عليه الأخبار فقد عرفته، والله تعالى يعلم حقائق أحوالهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقال المفيد رحمة الله عليه في كتاب (**المقالات**): إن العقل لا يمنع من نزول الوحي إليهم صلوات الله عليهم وإن كانوا أئمة غير أنبياء فقد أوحى الله عزَّ وجل إلى أمّ موسى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ [القصص: ٧] الآية، فعرفت صحة ذلك بالوحي وعملت عليه ولم تكن رسولاً ولا نبياً ولا إماماً، ولكنها كانت من عباده الصالحين، وإنما منعت نزول الوحي إليهم والإيحاء بالأشياء إليهم للإجماع على المنع من ذلك والاتفاق على أنه من زعم أن أحداً بعد نبينا صلى الله عليه وآله يوحى إليه فقد أخطأ وكفر، ولحصول العلم بذلك من دين النبي صلى الله عليه وآله كما أن العقل لم يمنع من بعثة نبي بعد نبينا صلى الله عليه وآله ونسخ شرعنا كما نسخ ما قبله من شرائع الأنبياء عليهم السلام وإنما منع ذلك العلم والإجماع، فإنه خلاف دين النبي صلى الله عليه وآله من جهة اليقين وما يقارب الاضطرار، والإمامية جميعاً على ما ذكرت ليس بينها على ما وصفت خلاف.

وقال رحمة الله عليه في (**شرح عقائد الصدوق**) عليه الرحمة: أصل الوحي هو الكلام الخفي، ثم قد يطلق على كل شيء قصد به إفهام المخاطب على الستر له عن غيره والتخصيص له به دون من سواه، وإذا أضيف إلى الله تعالى كان فيما يخص به الرسل خاصة دون من سواهم على عرف الإسلام وشريعة النبي صلى الله عليه وآله - إلى أن قال -: وقد يرى الله في منامه خلقاً كثيراً ما يصح تأويله ويثبت حقه، لكنه لا يطلق بعد استقرار الشريعة عليه اسم الوحي ولا يقال في هذا الوقت لمن اطّلعه الله على علم شيء أنه يوحى إليه.

وعندنا أن الله تعالى يسمع الحجج بعد نبيه صلى الله عليه وآله كلاماً يلقيه إليهم أي الأوصياء في علم ما يكون لكنه لا يطلق عليه اسم الوحي لما قدمناه من إجماع المسلمين على أنه لا وحي لأحد بعد نبينا صلى الله عليه وآله، وأنه لا يقال في شيء مما ذكرناه أنه وحي إلى أحد، ولله تعالى أن يبيح إطلاق الكلام أحياناً، ويحظره أحياناً، فأما المعاني فإنها لا تتغير عن حقائقها، انتهى كلامه رفع مقامه[1].

التنبيه الثالث

في ذكر الأخبار الواردة في وزارته عليه السلام وهي كثيرة جداً من طرق الخاصة والعامة،

---

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية ١٢٢، والبحار ١٨/ ٢٥٠.

ولنقتصر على بعضهما حذراً من الإطالة، فأقول وبالله التوفيق:

في (**غاية المرام**) من مسند أحمد بن حنبل بسنده عن النسيم قال: سمعت رجلاً من خثعم يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم إني أقول كما قال موسى: اللهم اجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً»[١].

وفيه عن أبي نعيم الحافظ بإسناده عن رجاله عن ابن عباس قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي بن أبي طالب عليه السلام وبيدي ونحن بمكة وصلّى أربع ركعات، ثم مدّ يديه إلى السماء وقال: «اللهم إن نبيك موسى بن عمران عليه السلام سألك فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾﴾ [طه: ٢٥ـ ٢٦] الآية، وأنا محمد نبيّك أسألك: ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري»، قال ابن عباس: فسمعت منادياً ينادي: قد أوتيت ما سألت[٢].

وفيه عن أبي الحسن الفقيه من طريق العامة بإسناده عن الباقر عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة الله وخليفتي، وحجة الله وحجتي، وباب الله وبابي، وصفيّ الله وصفيي، وحبيب الله وحبيبي، وخليل الله وخليلي، وسيف الله وسيفي، وهو أخي، وصاحبي، ووزيري، ومحبّه محبي، ومبغضه مبغضي، ووليّه وليّي، وعدوه عدوي، وزوجته ابنتي، وولده ولدي، وحزبه حزبي، وقوله قولي، وأمره أمري، وهو سيّد الوصيين وخير أمتي»[٣].

وفيه عن ابن شاذان من طريق العامة بحذف الإسناد عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم اجعل لي وزيراً من أهل السماء، ووزيراً من أهل الأرض»، فأوحى الله إليه أني قد جعلت وزيرك من أهل السماء جبرائيل، ووزيرك من أهل الأرض علي بن أبي طالب عليه السلام[٤].

وأقنع من (**غاية المرام**) بهذه الأحاديث الأربعة، وقد روى فيه من طرق العامة أحد عشر حديثاً، ومن طرق الخاصة أحداً وعشرين حديثاً، جلها بل كلها ناصة بخلافته ووصايته عليه الصلاة والسلام.

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٥/١٩٦، والغدير ٢/٥٢.

(٢) راجع الغدير ٣/١١٦.

(٣) غاية المرام ٦٩ ح ١٦ الطبع الحجري.

(٤) غاية المرام ١٦٥ ح ٤٩.

وروى الشارح المعتزلي عن الطبري في **(تاريخه)** عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال:

لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] على رسول الله صلى الله عليه وآله دعاني فقال صلى الله عليه وآله لي: «يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وإني علمت متى أناديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمت حتى جاءني جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به يعذبك ربك، فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عسّاً من لبن، ثم اجمع بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أُمرت به»، ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه وفيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب.

فلما اجتمعوا إليه صلى الله عليه وآله دعا بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله صلى الله عليه وآله بضعة من اللحم فشقها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال صلى الله عليه وآله: «كلوا باسم الله» فأكلوا حتى ما لهم إلى شيء من حاجة، وايم الله الذي نفس علي بيده إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمته لجميعهم، قال صلى الله عليه وآله: «اسق القوم يا علي»، فجئتهم بذلك العسّ فشربوا منه حتى رووا جميعاً وايم الله أن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله.

فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكلمهم بدر أبو لهب إلى الكلام فقال: لشد ما سحركم صاحبكم، فتفرّق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال من الغد: «يا علي إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرّق القوم قبل أن أكلمهم فعدلنا اليوم إلى ما سمعت بالأمس ثم اجمعهم لي»، ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام فقربته لهم ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة، ثم قال: «اسقهم» فجئتهم بذلك العسّ فشربوا منه جميعاً حتى رووا.

ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم أن شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟».

فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت أنا ـ وإني لأحدثهم سناً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً ـ: أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه.

فأعاد صلى الله عليه وآله القول، فأمسكوا وأعدت ما قلت.

فأخذ صلى الله عليه وآله برقبتي ثم قال لهم: «هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له

وأطيعوا»، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[١].

قال الشارح المعتزلي: ويدل على أنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله من نصّ الكتاب والسنّة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٩-٣٢]. وقال النبي صلى الله عليه وآله في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، فأثبت له جميع مراتب هارون ومنازله عن موسى فإذاً هو وزير رسول الله صلى الله عليه وآله وشاد أزره، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكاً في أمره[٢].

أقول: وهذه الأخبار كما ترى صريحة في إمامته عليه السلام ووزارته وخلافته حسبما عرفت تحقيقه في مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

قال المفيد في **(الإرشاد)** بعد الاستدلال على إمامته عليه السلام بحديث المنزلة: فأوجب له الوزارة والتخصيص بالمودّة والفضل على الكافة له والخلافة عليهم في حياته وبعد وفاته لشهادة القرآن بذلك كله لهارون من موسى عليه السلام، قال الله عزَّ وجل مخبراً عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

فثبت لهارون شركة موسى عليه السلام في النبوة ووزارته على تأدية الرسالة وشدّ أزره به في النصرة.

وقال في استخلافه له: و ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فثبت له خلافته بمحكم التنزيل.

فلما جعل رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام جميع منازل هارون من موسى على نبينا و عليه السلام في الحكم له منه إلا النبوة وجبت له وزارة الرسول صلى الله عليه وآله وشدّ الأزر بالنصرة والفضل والمحبة لما تقتضيه هذه الخصال من ذلك في الحقيقة ثم الخلافة في الحياة بالصريح وبعد النبوة بتخصيص الاستثناء لما أخرج منها بذكر البعد، وأمثال هذه الحجج كثيرة يطول بذكرها الكتاب.

وقال: «ره» في موضع آخر من **(الإرشاد)**: **فأما مناقبه** عليه السلام الغنية لشهرتها وتواتر النقل

(١) بطوله في تاريخ الطبري ٢/ ٤٩، وأسد الغابة ٢/ ٥٥٦.

(٢) شرح النهج ١٣/ ٢١١.

بها وإجماع العلماء عليها عن إيراد أسانيد الأخبار بها فهي كثيرة يطول بشرحها الكتاب وفي رسمنا منها طرقاً كفاية عن إيراد جميعها.

فمن ذلك أن النبي ﷺ جمع خاصة أهله وعشيرته في ابتداء الدعوة إلى الإسلام، فعرض عليهم الإيمان واستنصرهم على الكفر والعدوان، وضمن لهم على ذلك الخطوة في الدنيا والشرف وثواب الجنان، فلم يجبه منهم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، فنحله[١] بذلك تحقيق الأخوة والوزارة والوصية والوراثة والخلافة، وأوجب له به الجنّة[٢].

وذلك في حديث الدار الذي أجمع على صحته نقّاد الآثار حين جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب في دار أبي طالب وهم أربعون رجلاً يومئذ يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً فيما ذكره الرواة.

وأمر ﷺ أن يصنع لهم طعاماً فخذ شاة مع مدّ من برّ ويعدّ لهم صاع من اللبن، وقد كان الرجل منهم معروفاً بأكل الجذعة ـ وهو من الضأن ما له سنة كاملة ـ في مقام واحد، ويشرب الفرق من الشراب في ذلك المقعد.

فأراد عليه وآله السلام بإعداد قليل الطعام والشراب لجماعتهم إظهار الآية لهم في شبعهم وريّهم مما كان لا يشبع واحداً منهم ولا يرويه، ثم أمر بتقديمه لهم، فأكلت الجماعة كلها من ذلك اليسير حتى تملوا منه ولم يبن ما أكلوه منه وشربوه فيه، فبهرهم بذلك وبيّن لهم آية نبوّته وعلامة صدقه ببرهان الله تعالى فيه.

ثم قال لهم بعد أن شبعوا من الطعام ورووا من الشراب: «يا بني عبد المطلب، إن الله بعثني إلى الخلق كافة وبعثني إليكم خاصة فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾؟ وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان تملكون بهما العرب والعجم وتنقاد لكم بهما الأمم، وتدخلون بهما الجنة، وتنجون بهما من النار: شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويوازرني عليه وعلى القيام به يكون أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي من بعدي».

فلم يجبه أحد منهم، فقال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: فقمت بين يديه من بينهم وأنا إذ ذاك أصغرهم سناً، وأحمشهم ساقاً، وأرمصهم عيناً فقلت: أنا يا رسول الله أوازرك على هذا الأمر، فقال ﷺ: «اجلس».

---

(١) نحله أي أعطاه.

(٢) الإرشاد ١/٤٨.

ثم أعاد ﷺ القول على القوم ثانية فصمتوا، فقمت أنا وقلت مثل مقالتي الأولى، فقال ﷺ: «اجلس».

ثم أعاد على القوم ثالثة فلم ينطق أحد منهم بحرف فقمت وقلت: أنا أوازرك يا رسول الله على هذا الأمر.

فقال ﷺ: «اجلس فأنت أخي ووصيّي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي»، فنهض القوم وهم يقولون لأبي طالب: يا أبا طالب ليهنئك اليوم إن دخلت في دين ابن أخيك فقد جعل ابنك أميراً عليك.

قال المفيد قدّس سرّه العزيز: وهذه منقبة جليلة اختصّ بها أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ولم يشركه فيها أحد من المهاجرين والأنصار ولا أحد من أهل الإسلام، وليس لغيره عليه السلام عدل لها من الفضل ولا مقارب على حال.

وفي الخبر بها ما يفيد أن به عليه الصلاة والسلام تمكن النبي ﷺ من تبليغ الرسالة وإظهار الدعوة والصدع بالإسلام، ولولاه لم تثبت الملّة ولا استقرّت الشريعة ولا ظهرت الدعوة.

فهو عليه الصلاة والسلام ناصر الإسلام، ووزيره الدّاعي إليه من قبل الله عزَّ وجل، وبضمانه لنبي الهدى عليه وآله السلام النصرة، تمّ له في النبوة ما أراد، وفي ذلك من الفضل ما لا توازنه الجبال فضلاً، وتعادله الفضائل كلها محلاً[1].

(١) بطوله في الإرشاد ١/٥١.

الترجمة

این فصل از خطبه شریفه مسوق است در بیان مناقب جلیله و فضایل جمیله خود. آن بزرگوار می فرماید:

آگاه باشید که به تحقیق امر فرمود خدای متعال مرا به قتال و جدال اهل ظلم و طغیان و اهل نقض بیعت و اهل فساد در زمین، پس اما ناقضان بیعت که اهل جمل بودند، پس به تحقیق مقاتله کردم با ایشان و اما عدول کنندگان از حق که اهل صفین بودند، پس به تحقیق جهاد کردم با ایشان و اما بیرون روندگان از دین که اهل نهروان بودند، پس به تحقیق که ذلیل گردانیدم ایشان را و اما شیطان ردهه، پس به تحقیق کفایت کرده شدم از او به آواز مهیبی که شنیدم به جهت شدت آن آواز، اضطراب قلب و حرکت سینه او را و باقی مانده بقیه از اهل ستم که معاویه و اهل شام است و اگر اذن بدهد خدای تعالی در رجوع بر ایشان، هرآینه البته غالب می شوم بر ایشان و بازگیرم دولت را از ایشان مگر این که متفرق شوند در اطراف زمین، متفرق شدنی.

من پست کردم رؤسای عرب را، شکستم شاخهای ظاهرشده ربیعه و مضر را و به تحقیق که شما دانسته اید مرتبه و مقام من را در نزد رسول خدا (ﷺ) با قرابت نزدیك و با رتبه و منزلت مخصوصه، نهاد مرا در کنار تربیت خود در حالتی که طفل بودم، می چسباند مرا به سینه خود و ضمّ می کرد مرا در رختخواب خود و مس می کرد به من بدن شریف خود را و می بویید مرا بوی معطر خود را و بود که مضغ می فرمود چیزی از طعام، پس می خوراند به من آن را.

پس به تحقیق که مقرون گردانید به آن بزرگوار از وقتی که فطیم و از شیر وا شده بود، اعظم ملکی را از ملائکه خود که می برد آن را به راه مکرمت ها و خوب ترین خلقهای عالم در شب و روز او و به تحقیق که تبعیت می نمودم او را مثل تبعیّت شتربچه در عقب مادر خود، بلند می گردانید از برای من در هر روز رأیتی از خلقهای عظیمه خود و امر می فرمود مرا به پیروی کردن به خود.

و هرآينه بود آن سيّد انام عليه صلوات الله الملك العلاّم، مجاور مى شد هر سال به كوه حرا، پس مى ديدم من او را و نمى ديد او را احدى غير از من و جمع نكرده بود يك خانه آن روز در اسلام غير رسول خدا (صلى الله عليه و آله) و خديجه كبرى(عليها السلام) و من ثالث ايشان بودم، مى ديدم نور وحى را و مى بوييدم بوى پيغمبرى را.

و به حقيق شنيدم ناله شيطان را در وقت نزول وحى بر آن بزرگوار، پس گفتم يا رسول الله اين چه ناله است؟ پس فرمود كه: اين شيطان است، به تحقيق نااميد شده است از اين كه عبادت و اطاعت كنند مردمان او را.

به درستى كه تو اى على مى شنوى آن چه كه مى شنوم من و مى بينى آن چه مى بينم من، مگر آن كه تو پيغمبر نيستى ولكن تو وزير منى و به درستى كه تو ثابت هستى بر خير دنيا و آخرت.

الفصل التاسع

«وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ ﷺ لمّا أتاهُ المَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقالُوا لَهُ: يا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظيماً لَمْ يَدَّعِه آباؤُكَ وَلا أحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ ونَحْنُ نَسألُكَ أمْراً إنْ أجَبْتَنا إلَيْهِ وأرَيْتَناهُ عَلِمْنا أنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنا أنَّكَ ساحِرٌ كذّابٌ.

قال ﷺ لَهُمْ: «وَمَا تَسْئَلُونَ؟».

قالُوا: تَدْعُ لَنا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِها وتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقالَ ﷺ: «إنَّ الله عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدير فَإنْ فَعَلَ الله ذٰلِكَ بِكُمْ أتُؤمِنُونَ وتَشْهَدُونَ بِالحَقِّ؟» قالُوا: نَعَمْ. قالَ: «فَإنِّي سَأُرِيكُمْ ما تطْلبُونَ، وإنِّي لأعْلَمُ أنَّكُمْ لا تَفِيئُونَ إلىٰ خَيرٍ، وأنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي القَلِيبِ، ومَنْ يُحَزِّبُ الأحْزابَ».

ثُمَّ قالَ ﷺ: «يا أيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إنْ كُنْتِ تُؤمِنِينَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ وتَعْلَمِينَ أنِّي رَسُولُ الله فَانقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّىٰ تَقِفي بَيْنَ يَدَيَّ بِإذْنِ الله.

والَّذِي بَعَثَهُ بالحَقِّ لانْقَلَعَتْ بِعُرُوُقِها وجاءَتْ وَلَها دَوِيٌّ شَدِيدٌ وقَصْفٌ كَقَصِيفِ أجْنِحَةِ الطَّيرِ، حَتَّىٰ وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ مُرَفْرِفَةً، وألْقَتْ بِغُصْنِها الأعْلىٰ عَلىٰ رَسُولِ الله ﷺ، وبِبَعْضِ أغصانِها عَلىٰ مِنكَبِي، وكُنْتُ عَنْ يَمِينِه ﷺ.

فَلَمَّا نَظَرَ القَوْمُ إلىٰ ذٰلِكَ قالُوا عُلُوّاً واسْتِكْباراً: فَمُرْها فَلْيأتِكَ نِصْفُها ويَبْقىٰ نِصْفُها، فَأمَرَها بِذٰلِكَ، فَأقْبَلَ إلَيْهِ نِصْفُها كَأعْجَبِ إقْبالٍ وَأشَدِّه دَوِيّاً، فَكادَتْ تَلْتَفُّ بِرسُولِ الله ﷺ، فَقالُوا كُفْراً وَعُتُوّاً: فَمُرْ هٰذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إلىٰ نِصْفِه كَما كانَ، فَأمَرَهُ ﷺ فَرَجَعَ.

فَقُلْتُ أنَا: لا إلٰهَ إلا الله فَإنِّي أوَّلُ مُؤمِنٍ بِكَ يا رَسُولَ الله وَأوَّلُ مَنْ أقَرَّ بِأنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ ما فَعَلَتْ بِأمْرِ الله تَعالىٰ، تَصْدِيقاً لِنُبُوَّتِكَ وإجْلالاً لِكَلِمَتِكَ، وقالَ القَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ ساحِرٌ كَذّابٌ عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ وهَلْ يُصَدِّقُكَ في أمْرِكَ إلاَّ مِثْلُ هٰذَا - يَعْنُونَني - وإنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لا تَأخُذُهُمْ فِي الله لَوْمَةُ لائِمٍ، سِيماهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وكَلامُهُمْ كَلامُ الأبْرارِ، عُمّارُ اللَّيْلِ، ومَنارُ النَّهارِ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ القُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ الله وسُنَنَ رَسُولِهِ لا يَسْتَكْبِرُونَ، وَلا يَعْلُونَ، ولا يَغُلُّون، ولا يُفْسِدُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي الجِنانِ، وأجْسادُهُمْ فِي العَمَلِ[1].

(١) البحار ١٤/ ٤٧٧.

اللغة

(**القليب**) البئر يذكّر ويؤنّث أو العادية القديمة منها و (**الأحزاب**) جمع الحزب الطائفة وجماعة الناس وتحزّبوا صاروا أحزاباً وحزّبتهم تحزيباً جعلتهم حزباً حزباً و (**القصف والقصيف**) الصوت، وفي بعض النسخ قصف كقصف أجنحة الطير، والجميع بمعنى واحد و (**رفرف**) الطائر بجناحيه إذا بسطهما عند السقوط على شيء يحوم عليه ليقع فوقه (**والسّيما**) بالقصر والمد العلامة و (**غلّ**) يغلّ من باب قعد غلولاً إذا خان في الغنيمة كأغلّ أو مطلق الخيانة وغلّ غلاً من باب ضرب أي حقد حقداً.

الإعراب

قوله: (**مرفرفة**) بالنصب حال من فاعل وقفت، وقوله: (**وألقت**) عطف على وقفت، (**وعلوّاً واستكباراً**) منصوبان على المفعول لأجله، و (**دويّاً**) منصوب على (**التمييز**)، و (**كفراً وعتوّاً**) أيضاً منصوبان على المفعول له وكذلك (**تصديقاً وإجلالاً**)، و (**عمّار الليل**) بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، قوله: وأجسادهم في العمل، (**الواو**) فيه للعطف وتحتمل الحال.

المعنى

اعلم أنه عليه الصلاة والسلام لما نبّه في الفصل السابق على علوّ مقامه ورفعة شأنه وشرف محلّه، وذكر المخاطبين بمناقبه الجميلة وعدّ فيه منها تسعاً أردفه بهذا الفصل تذكيراً لهم بمنقبته العاشرة وهو إيمانه برسول الله ﷺ وتصديقه بالمعجزة الظاهرة منه صلوات الله وسلامه عليه في الشجرة لما كفر به غيره ونسبوه إلى السحر والكذب وهو قوله عليه الصلاة والسلام:

(**ولقد كنت معه ﷺ لما أتاه الملاء من قريش**) أي الجماعة منهم (**فقالوا له: يا محمد إنك قد ادّعيت أمراً عظيماً**) وهو النبوة والرسالة (**لم يدّعه آباؤك**) أي الأقربون منهم وإن كان الأبعدون أنبياء ومرسلين كإسماعيل وإبراهيم وغيرهما (**ولا أحد من**) أهل (**بيتك ونحن نسألك أمراً**) خارقاً للعادة (**إن أجبتنا إليه**) وأتيت به (**وأريتناه علمنا أنك نبيّ ورسول**) لإتيانك بما أتى به سائر الأنبياء والرسل مما يعجز عنه غيرهم من الآيات البينات المصدّقة لرسالتهم ونبوّتهم (**وإن لم تفعل علمنا**) بطلان دعواك و (**إنك ساحر كذّاب**) لأن عدم فعلك لما نسأله كاشف عن عجزك من معاجزة النبوة ودلائل الرسالة.

فـ (**قال لهم**) النبي ﷺ: (**وما تسألون؟**).

(**قالوا تدع لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها**) من الأرض وتأتي (**وتقف بين يديك**) إجابة لدعوتك (**فقال ﷺ: إن الله على كل شيء قدير**) لا يعجزه شيء ولا يقصر قدرته عن

شيء (**فإن فعل الله ذلك بكم**) وأجاب إلى مسؤولكم (**أتؤمنون**) به (**وتشهدون بالحقّ**).

وإنما نسب الفعل إلى الله ولم ينسبه إلى نفسه تنبيهاً على أن ما يفعله ويصدر منه ﷺ فإنما هو فعل الله سبحانه وهو ﷺ مظهر له كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

ولذلك ذكر أولاً عموم قدرته تعالى وفرع عليه قوله: فإن فعل الله ذلك، إيماء إلى أن ما تسألونه من انقلاع الشجرة من مكانها ووقوفها بين أيديهم أمر يعجز عنه المخلوق الضعيف ويقدر عليه الخالق القاهر القادر على كل شيء، فقال لهم: فإن فعلت ذلك مع كوني بشراً مثلكم فإنما هو بكوني مبعوثاً من عنده خليفة له وكون فعلي فعله أتؤمنون حينئذ وتشهدون بأن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟.

(**قالوا: نعم، قال ﷺ: فإني سأريكم ما تطلبون**) أسند الإرائة إلى نفسه القدسي بعد إسناد الفعل إلى الله، لما ذكرناه من النكتة (**وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير**) أي لا ترجعون إلى الإسلام الجامع لخير الدنيا والآخرة.

وفي تصدير الجملة بأن و(**اللام**) تنبيهاً على أن عدم رجوعهم إلى الحق وبقائهم على الكفر والضلال محقق معلوم له ﷺ بعلم اليقين ليس فيه شك وريب.

(**وإن فيكم من**) يبقي على كفره ويقتل و (**يطرح في القليب**) قليب بدر (**ومن**) يستمر على غيّه و (**يحزّب الأحزاب**) ويجمع جموع الكفّار والمشركين على محاربتي وجهادي.

وهذا الخبر من أخباره الغيبية ودلائل نبوته ﷺ وقد وقع المخبر به على طبق الخبر، فممن طرح في القليب بعد قتلهم عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي جهل وأميّة بن عبد شمس والوليد بن المغيرة وغيرهم، وممن حزب الأحزاب أبو سفيان بن حرب وعمرو بن ود وصفوان بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو وغيرهم.

(**ثم قال ﷺ: يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أني رسول الله**) خطابه للشجرة بخطاب ذوي العقول يدلّ على أنها صارت بتوجه نفسه القدسي إليها شاعرة مدركة قابلة للخطاب كسائر ذوي العقول المتصفة بالإحساس والحياة لأن مشيئته ﷺ مشيئة الله وإذا أراد الله شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ونظير هذا الخطاب خطاب الله سبحانه للأرض والسماء بقوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: ٤٤] وفي قوله: إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر دلالة على أن للنبات والجماد تكليفاً كسائر المكلّفين، وقد مرّ بعض الكلام في ذلك في شرح المختار المائة والتسعين.

وكيف كان فقد خاطب الشجرة وقال لها: **(فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يديّ بإذن الله)** ومشيئته فـ **(والذي بعثه بالحق)** نبياً **(لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دويّ شديد)** صوت كصوت الريح **(وقصف كقصيف)** أي صوت مثل صوت **(أجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ)** ممتثلة لأمره منقادة لحكمه **(مرفرفة)** رفرفة الطير **(وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله ﷺ)** إجلالاً له وإعظاماً **(وببعض أغصانها على منكبي)** تكريماً وتعظيماً **(وكنت)** واقفاً **(عن يمينه ﷺ** فلما نظر القوم إلى ذلك) الإعجاز **(قالوا)** له ﷺ: **(علوّاً واستكباراً)** لا اهتداءً واسترشاداً **(فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها فأمرها بذلك)** إتماماً للحجة وإكمالاً للبيّنة **(فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشده دويّاً)** وهو كناية عن سرعة إجابتها لأمره **(فكادت تلتف برسول الله ﷺ)** بمزيد دنوّها منه ﷺ **(فقالوا)** ثالثة **(كفراً وعتوّاً)** وتمرّداً واعتلاء بقصد تعجيزه وإفحامه ﷺ: **(فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان فأمره ﷺ)** قطعاً للعذر وحسماً لمادة المكابرة **(فرجع)** إلى النصف الآخر وانضمّ إليه.

قال أمير المؤمنين لما شاهد هذه المعجزة: **(فقلت أنا: لا إله إلا الله فإني أول مؤمن بك)** أي برسالتك **(يا رسول الله وأول من أقرّ بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله)** وإذنه **(تصديقاً لنبوّتك وإجلالاً لكلمتك)** وإجابة لأمرك.

(فقال القوم كلهم: بل ساحر كذاب) أي أنت مموّه مدلّس لا حقيقة لما فعلته وإنما هو تمويه وتخييل لا أصل له وأنك كذّاب فيما تدعوننا إليه من التوحيد والإيمان.

وقد حكى الله عنهم ذلك بقوله في سورة (ص): ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [٤ـ ٥].

قال الطبرسي في وجه نزول الآية: قال المفسرون: إن أشراف قريش وهم خمسة وعشرون منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم وأبو جهل وأُبيّ وأميّة ابنا خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والنضر بن الحارث أتوا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فإنه سفّه أحلامنا وشتم آلهتنا، فدعى أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك، فقال: «ماذا يسألونني؟» قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلٰهك، فقال ﷺ: «أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟» فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك وعشر أمثالها، فقال: «قولوا: لا إلٰه إلا الله»، فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً؟!، فنزلت هذه الآيات، هذا[1].

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان ٨/ ٣٤٢.

ولما قالوا: إنه ﷺ ساحر ولم يكونوا شاهدين مثل ما أتى ﷺ به من غيره أعظموا أمره ووصفوه بأنه **(عجيب السحر)** لأنه قد أتى بما يعجز عنه غيره وبأنه **(خفيف فيه)** لأنه فعل ما فعل سريعاً من دون تراخ وتأخير.

ثم قالوا استحقاراً واستصغاراً: **(وهل يصدّقك)** ويؤمن بك **(في أمرك إلاّ مثل هذا)** الغلام الحدث السنّ **(يعنونني)** وقد حذا حذو هؤلاء الكفّار أتباعهم الذين فضّلوا ابن أبي قحافة على أمير المؤمنين عليه السلام حيث قالوا: إن ابن أبي قحافة أسلم وهو ابن أربعين سنة وعلي أسلم وهو حدث ولم يبلغ الحلم فكان إسلام الأول أفضل.

وقد نقل تفصيل مقالهم الشارح المعتزلي من كتاب **(العثمانية)** للجاحظ، وتفصيل الجواب عن ذلك من كتاب **(نقض العثمانية)** لأبي جعفر الإسكافي تغمّده الله بغفرانه، وكفانا نقل الشارح المعتزلي له مؤنة النقل هنا، من أراد الاطلاع فليراجع شرحه.

ثم أشار عليه السلام إلى مناقب له أخرى وفصّلها بقوله: **(وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم)** أي لا تأخذهم في سلوك سبيله والتقرّب إليه سبحانه وإقامة أحكام الدين وإعلاء كلمة الإسلام، ملامة لائم ووصف هؤلاء القوم بعشرة أوصاف:

أولها: أن **(سيماهم سيما الصّديقين)** أي علامتهم علامة هؤلاء.

قال الطبرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، قيل: في معنى الصّديق إنه المصدّق بكل ما أمر الله به وبأنبيائه لا يدخله في ذلك شكّ ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، وقال في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١] أي كثير التصديق في أمور الدّين، وقيل: صادقاً مبالغاً في الصدق فيما يخبر عن الله.

أقول: مقتضى كون الصديق من أبنية المبالغة أن يكون كثير الصدق مبالغاً فيه، وذلك مستلزم لكون عمله مطابقاً لقوله مصدّقاً له غير مكذّب أي صادقاً في أقواله وأفعاله.

قال سبحانه في وصف الصادقين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي **(البحار)** عن بصائر الدرجات عن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن

قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩] قال عليه السلام: إيانا عنى[١].

وفيه من **(البصائر)** عن أحمد بن محمد قال: سألت الرضا عليه السلام عن هذه الآية قال: الصادقون الأئمة الصّديقون بطاعتهم[٢].

وفيه من **(كنز جامع الفوائد)** عن عباد بن صهيب عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: هبط على النبي ملك له عشرون ألف رأس، فوثب النبي ليقّبل يده، فقال له الملك: مهلاً مهلاً يا محمد، فأنت والله أكرم على الله من أهل السماوات وأهل الأرضين أجمعين والملك يقال له: محمود، فإذا بين منكبيه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله علي الصّديق الأكبر، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «حبيبي محمود [منذ] كم هذا مكتوب بين منكبيك؟» قال: «من قبل أن يخلق الله أباك بائني عشر ألف عام»[٣].

فقد علم بما ذكرنا كله أن المراد بالصديقين خصوص الأئمة أو الأعم منهم ومن سائر المتقين، وعلى أي تقدير فرئيسهم هو أمير المؤمنين عليه السلام.

(و) الثاني: **(أنّ كلامهم كلام الأبرار)** أي المطيعين لله المحسنين في أفعالهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٥] قال الحسن في تفسيره: هم الذين لا يؤذون الذرّ ولا يرضون الشر وقيل: هم الذين يقضون الحقوق اللازمة والنافلة.

قال الطبرسي: وقد أجمع أهل البيت عليهم السلام وموافقوهم وكثير من مخالفيهم أن المراد بذلك عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، والآية مع ما بعدها متعينة فيهم.

وأيضاً فقد انعقد الإجماع على أنهم كانوا أبراراً وفي غيرهم خلاف، وعلى أي معنى فالمراد بكلامهم الذكر الدائم وقول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثالث: أنهم **(عمار الليل)** أي بالدعاء والمناجاة والصلاة وتلاوة القرآن.

(و) الرابع: أنهم **(منار النهار)** يعني أنهم يفرغون بالليل لعبادة الخالق ويقومون في النهار بهداية الخلائق فالناس يهتدون بهم من ظلمات الجهالة والضلالة كما يهتدى بالمنار في غياهب الدجى.

---

(١) البصائر ٥٠.
(٢) البصائر ٥١، والبحار ٢٤/٣١.
(٣) المحتضر ١٢٥.

الخامس: أنهم **(متمسكون بحبل القرآن)** قال الشارح البحراني: استعار لفظ الحبل للقرآن باعتبار كونه سبباً لمتعلميه ومتدبريه إلى التروي من ماء الحياة الباقية، كالعلوم والأخلاق الفاضلة كالحبل هو سبب الارتواء والاستسقاء من الماء أو باعتبار كونه عصمة لمن تمسك به صاعداً من دركات الجهل إلى أقصى درجات العقل كالحبل يصعد فيه من السفل إلى العلو، انتهى.

والأظهر أن تشبيهه بالحبل لأنه حبل ممدود من السماء إلى الأرض كما في أخبار الثقلين: من اعتصم به فاز ونجا وارتقى به إلى مقام القرب والزلفى، ومن تركه ولم يعتصم به ضلّ وغوى وفي مهواة المهانة هوى.

السادس: أنهم **(يحيون سنن الله وسنن رسوله ﷺ)** أي يقومون بنشر آثار الدين ويواظبون على وظائف الشرع المبين بأقوالهم وأعمالهم.

السابع: أنهم **(لا يستكبرون ولا يعلون)** لما قد علموا من مخازي الكبر والترفع ومفاسده التي تضمنتها هذه الخطبة الشريفة وغيرها من الخطب المتقدمة.

(و) الثامن: أنهم **(لا يغلون)** أي لا يحقدون ولا يحسدون علماً منهم برذائل الحقد والحسد المتكفلة لبيانها الخطبة الخامسة والثمانون وشرحها، ولرذالة هذه الصفة ودناءتها أخرجها سبحانه من صدور أهل الجنّة كما قال في وصفهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] أي أخرجنا ما في قلوبهم من حقد وحسد وعداوة في الجنة حتى لا يحسد بعضهم بعضاً وإن رآه أرفع درجة منه، وعلى كون يغلون من الغلول فالمراد براءتهم من وصف الخيانة لمعرفتهم برذالتها.

(و) التاسع: أنهم **(لا يفسدون)** أي لا يحدثون الفساد لأنه من صفة الفسّاق والمنافقين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البقرة: ١١] الآية، قال الطبرسي: معناه إذا قيل للمنافقين لا تفسدوا في الأرض بعمل المعاصي وصدّ الناس عن الإيمان أو بممايلة الكفار فإن فيه توهين الإسلام أو بتغيير الملّة وتحريف الكتاب.

والعاشر: أن **(قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل)** يعني أن قلوبهم متوجهة إلى الجنان مشتاقة إلى الرضوان، فهم والجنة كمن قد رآها وهم فيها منعمون، ومحصّله أن نفوسهم بكليتها معرضة عن الدنيا مقبلة إلى الآخرة، والحال أن أجسادهم مستغرقة في العبادة وأوقاتهم مصروفة بالطاعة.

وعلى كون الواو للعطف يكون قوله: وأجسادهم في العمل الوصف الحادي عشر، وعلى الاحتمالين فالمراد واحد.

تبصرة

حديث الشجرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله قد روي في ضمن معاجزه على أنحاء مختلفة لا حاجة بنا إلى روايتها، ولكني أحببت أن أورد رواية مرويّة في تفسير الإمام متضمنة لمعجزة شجرية له صلى الله عليه وآله أوجب مشاهدتها لمشاهدها علماً وإيماناً، كما أن مشاهدة ما رواه أمير المؤمنين عليه السلام لم يزد كفار قريش إلا كفراً وعتوّاً وطغياناً.

فأقول: في تفسير الإمام قال علي بن محمد عليه السلام: وأما دعاؤه صلى الله عليه وآله الشجرة فإن رجلاً من ثقيف كان أطبّ الناس يقال له حارث بن كلدة الثقفي، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد جئت أداويك من جنونك فقد داويت مجانين كثيراً فشفوا على يديّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا حارث أنت تفعل فعل المجانين وتنسبني إلى الجنون!»، قال الحارث: وماذا فعلته من أفعال المجانين؟، قال: «نسبتك إياي إلى الجنون من غير محنة منك ولا تجربة ونظر في صدقي أو كذبي»، فقال الحارث: أو ليس قد عرفت كذبك وجنونك بدعوتك النبوة التي لا تقدر لها، فقال صلى الله عليه وآله: «وقولك لا تقدر لها، فعل المجانين، لأنك لم تقل لم قلت كذا ولا طالبتني بحجّة فعجزت عنها»، فقال الحارث: صدقت وأنا أمتحن أمرك بآية أطالبك بها، إن كنت نبيّاً فادع تلك الشجرة ـ وأشار بشجرة عظيمة بعيد عمقها ـ فإن أتتك علمت أنك رسول الله وشهدت لك بذلك، وإلا فأنت المجنون الذي قيل لي.

فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله يده إلى تلك الشجرة وأشار إليها: أن تعالي، فانقلعت الشجرة بأصولها وعروقها وجعلت تخدّ في الأرض أخدوداً عظيماً كالنهر حتى دنت من رسول الله صلى الله عليه وآله فوقفت بين يديه ونادت بصوت فصيح: ها أنا ذا يا رسول الله، ما تأمرني؟.

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «دعوتك لتشهدي لي بالنبوة بعد شهادتك لله بالتوحيد، ثم تشهدي لعلي هذا بالإمامة وأنه سندي وظهري وعضدي وفخري، ولولاه لما خلق الله شيئاً مما خلق».

فنادت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك يا محمد عبده ورسوله، أرسلك بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأشهد أن عليّاً ابن عمك هو أخوك في دينك أوفر خلق الله من الدّين حظاً، وأجزلهم من الإسلام نصيباً، وأنه سندك وظهرك قاطع أعدائك وناصر أوليائك، باب علومك في أمتك، وأشهد أن أولياءك الذين يوالونه ويعادون أعداءه حشو الجنّة، وأن أعداءك الذين يوالون أعداءك ويعادون أولياءك حشو النار.

فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحارث بن كلدة فقال: «يا حارث أو مجنوناً تعدّ من هذه

آياته؟!» فقال: لا والله يا رسول الله، ولكني أشهد أنك رسول رب العالمين وسيد الخلق أجمعين. وحسن إسلامه[١].

وقد مضى نظير هذه المعجزة لأمير المؤمنين عليه السلام في شرح الفصل الأول من الخطبة المائة والسابعة فتذكر.

قال الشارح عفى الله عنه: إن الفصول السبعة الأول من هذه الخطبة الشريفة كما كانت قاطعة للمستكبرين المتجبرين، راغمة لأنفهم، لاطمة لرأسهم بمقامع التوبيخ والتقريع والتهديد، فكذلك الفصل الثامن والتاسع منها قاطعان للمنحرفين عنه عليه السلام من غاصبي الخلافة والناكثين والقاسطين والمارقين بما فصله عليه السلام فيهما من مناقبه ومفاخره، فتلك المناقب الجميلة له عليه السلام.

على قمم من آل صخر ترفّعت كجلمود صخرٍ حطّه السيل من عل

(١) تفسير الإمام العسكري ١٦٩، والبحار ٣١٧/١٧.

الترجمة

این فصل آخر از خطبه شریفه باز در ذکر مفاخر و مناقب خود آن بزرگوار است، می فرماید:

و به تحقیق بودم من با حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه و آله) وقتی که آمدند نزد آن حضرت جماعتی از کفار قریش، پس گفتند او را: ای محمد به درستی که تو ادعا کردی امر عظیمی را که ادعا نکرده بود آن را پدران تو و نه احدی از خانواده تو و ما خواهش می کنیم از تو کاری را، اگر اجابت کردی ما را به آن کار و نمودی آن را به ما، می دانیم که تو پیغمبر مرسلی و اگر اجابت نکردی، می دانیم که تو جادوگر و بسیار دروغگویی.

پس فرمود آن حضرت به ایشان: چه خواهش دارید؟ گفتند که بخوانی به جهت ما این درخت را تا برکنده شود با ریشه های خود و بایستد پیش تو؛ پس فرمود آن حضرت که خدای تعالی به هر چیز قادر است، پس اگر بکند خداوند عالم به جهت شما آن را، آیا ایمان می آورید و شهادت می دهید به حق؟ پس گفتند: بلی؛ فرمود: پس به درستی که به زودی بنمایم من به شما آن چیزی را که طلب می کنید و حال آن که به درستی که یقین من است که شما باز نمی گردید به سوی اسلام که خیر دنیا و آخرت است و به درستی که در میان شما است کسی که انداخته می شود در چاه بدر و کسی که جمع سازد لشکرهای کفار را به محاربه من.

بعد از آن فرمود آن حضرت به طریق خطاب به درخت که ای درخت، اگر هستی که ایمان داری به خدای تعالی و به روز آخرت و می دانی که منم پیغمبر خدا، پس برکنده شو با ریشه های خود تا این که بایستی پیش من با اذن خدا.

پس قسم به خدایی که مبعوث فرمود او را به حق، هرآینه برکنده شد با رگ و ریشه های خود و آمد به سوی آن حضرت در حالتی که مر او را صدای سخت بود و آوازی بود مانند آواز بالهای مرغان، تا این که ایستاد پیش حضرت رسالت مآب

(ﷺ)حرکت کنان مثل مرغ بال زنان و انداخت شاخه بلندتر خود را بر پیغمبر خدا و بعض شاخهای خود را بر دوش من و بودم من در جانب راست آن حضرت.

پس وقتی که نظر کردند آن جماعت به آن معجزه، گفتند از روی تکبّر و گردن کشی: پس امر کن تا بیاید به سوی تو نصف آن و باقی ماند بر جای خود نصف دیگر آن؛ پس امر فرمود آن را به این، پس پیش آمد به سوی او نصف آن درخت مانند عجب ترین روی آوردن و سخت ترین آن از روی آواز، پس نزدیك شد که پیچیده شود به حضرت رسول خدا، پس گفتند آن ملاعین از روی کفر و ستیزه گی: پس امر کن این نصف را برگردد به سوی آن نصف دیگر چنانکه در اصل بود، پس امر فرمود او را، پس برگشت.

پس گفتم من: لا اله الاّ الله، به درستی که من اول ایمان آورنده ام به تو یا رسول الله و اول کسی هستم که ایمان آورد به این که آن درخت کرد آن چه کرد به فرمان خدا، از جهت تصدیق پیغمبری تو و تعظیم فرمایش تو.

پس گفتند آن کفّار شقاوت آثار جمیعاً که تو جادوگر دروغ گویی، عجیب و غریب است سحر تو، چابك و سبك دستی در آن و تصدیق نمی کند تو را در پیغمبری تو مگر مثل این. وقصد می کردند در این حرف مرا. و به درستی که من از قومی هستم که اخذ نمی کند ایشان را در راه خدا ملامت هیچ ملامت کننده که علامت ایشان علامت صدیقین است و کلام ایشان کلام نیکوکاران، آبادکنندگان شب اند به عبادت و منارهای روزاند به هدایت، چنگ زنندگان اند به ریسمان محکم قرآن، زنده می کنند شریعت الهی و سنت رسالت پناهی را، تکبر نمی نمایند، بلندی نمی جویند، حقد و حسد نمی کنند، در راه فساد نمی پویند، قلبهای ایشان در بهشت برین است و بدنهای ایشان مشغول عبادت رب العالمین؛ و الحمد لله و الصلاة علی محمد و آله.

قال الشارح المحتاج إلى غفران ربه:

هذا آخر المجلد الخامس من مجلدات منهاج البراعة، ويتلوه إن شاء الله المجلد السادس بتوفيق منه سبحانه، وقد يسّر الله بفضله الواسع ختامه، وبكرمه السابغ إتمامه بعد حصول الإياس وتفرّق الحواس واضطراب الناس واختلال الحال بداهية دهيا، وبليّة عظمى، وزلزلة شديدة أدّب الله أهل بلدنا بها في هذه الأيام، يا لها رجفة ما رأيت مثلها وقد جاوزت خمسين درجة أخذتهم نصف الليل بينما كانوا راقدين فقاموا من مضاجعهم ذعرين مرعوبين كأنهم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون بهول ترتعد منه الفرائص، وتفتّ الأكباد، وتصدّع القلوب، وتقشعر الجلود، وكان الناس سكارى من مهول البلا.

فلولا أن تداركنا رحمته السابقة على غضبه سبحانه لم يكن لأحد منها النجاة ولا لذي روح طماعية في الحياة، وقد حرمنا منذ ليال من سبت الرقاد، وخرجنا من تحت الأبنية والعروش بعدما أشرفت على السقوط والانهدام، واتخذنا الأخبية مسكناً والمظلة أكناناً، والرجفة في هذه المدة وقد مضت منذ ظهرت عشرة أيام تطرقنا ساعة بعد ساعة.

نعوذ بالله سبحانه من غضبه ونسأله عزّ وجل أن لا يخاطبنا بذنوبنا ولا يؤاخذنا بأعمالنا ولا يقايسنا بأفعالنا، وأن يرفع عنا هذه البلية، وينجينا من تلك الرزيّة بمحمد وآله خير البرية، فإنه ذو المن الكريم والرؤوف الرحيم.

وقد وقع الفراغ منه ثالث عشر شهر ذي القعدة الحرام ـ من سنة سبع عشرة وثلاثمائة بعد الألف ـ وهذه هي النسخة الأصل كتبتها بيميني وأسأله سبحانه أن يحشرني في أصحاب اليمين بجاه محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرح صدور المؤمنين بمصابيح العرفان واليقين، ونوّر قلوب المتقين بأنوار التقوى في الدّين، فاهتدوا إلى المحجّة البيضاء ولزموا الشرع المبين، وسلكوا الجادّة الوسطى وتمسكوا بالحبل المتين، وفاز العارفون منهم بعظيم الزلفى وحسن المآب، وخرجت أرواح الواصلين منهم من أبدانهم خوفاً من العقاب وشوقاً إلى الثواب.

والصلاة والسلام على أشرف الأولين والآخرين محمد سيّد الأنبياء والمرسلين، ووصيّه ووزيره الوارث لعلمه، والحامل لسرّه، وباب مدينة علمه، ودار حكمته علي أمير المؤمنين وسيّد الوصيين، وآلهما الخائضين في بحار أنوار الحقائق، والغائصين في لجج تيّار الدقائق، أئمة المسلمين الهداة المهديين الأطيبين الأنجبين الغرّ الميامين:

هُم هداة الورى وهم أكرم الناس أُصولاً شريفة ونفوسا
معشر حبّهم يُجلّي الهموم ومزاياهم تحلّي طُروسا
كرموا مولداً وطابوا أُصولاً وزكوا محتداً وطالوا غروسا
ملاؤا بالولاء قلبي رجاء وبمدحي لهم ملئت الطروسا

أما بعد، فهذا هو المجلد السادس من مجلدات منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة إملاء راجي عفو ربه الغني **(حبيب الله بن محمد بن هاشم الهاشمي العلوي الموسوي)** وفّقه الله لما يتمنّاه وجعل عقباه خيراً من أولاه إنه وليّ الإحسان والكريم المنّان.

قال الشريف الرضي قدس سرّه العزيز:

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والثانية والتسعون من المختار في باب الخطب

وهي مرويّة في (الكافي) في باب علامات المؤمن وصفاته باختلاف كثير تطلع عليه بعد الفراغ، من شرح ما أورده السيد «ره» في المتن.

قال «قده»: روي أن صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له: همام، كان رجلاً عابداً فقال له: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم، فتثاقل عليه السلام عن جوابه ثم قال عليه السلام: يا همّام:

«اتَّقِ الله وأَحْسِنْ فَإنَّ الله مَعَ الذِينَ اتَّقُوا والَّذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ».

فلم يقنع همّام بذلك القول حتى عزم عليه فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال:

«أمَّا بَعْدُ، فَإنَّ الله سُبْحانَهُ خَلَقَ الخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غنِيّاً عَنْ طاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصاهُ، ولا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مَنْ أطاعَهُ، فَقَسَّمَ بَيْنَهُمْ مَعيشَتَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيا مَواضِعَهُمْ.

فَالمُتَّقُونَ فِيها هُمْ أَهْلُ الفَضائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوابُ، ومَلْبَسُهُمُ الاقْتِصادُ، ومَشْيُهُمُ التَّواضُعُ، غَضُّوا أَبْصارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ الله عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْماعَهُمْ عَلَى العِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ، نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي البَلاءِ كَالَّذِي نَزَلَتْ فِي الرَّخاءِ، وَلَوْلاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ الله لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْواحُهُمْ في أَجْسادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلىٰ الثَّوابِ وخَوْفاً عَنِ العِقابِ.

عَظُمَ الخالِقُ في أَنْفُسِهِمْ فَصَغِرَ ما دُونَهُ في أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ والجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآها فَهُمْ فيها مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآها فَهُمْ فيها مُعَذَّبُونَ، قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وأَجْسادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحاجاتُهُمْ خَفيفَةٌ، وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ راحَةً طَوِيلَةً، تِجارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَها لَهُمْ رَبُّهُمْ، أَرادَتْهُمُ الدُّنْيا فَلَمْ يُريدُوها، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْها».

«أَمَّا اللَّيْلُ فَصافُّونَ أَقْدامَهُمْ تالِينَ لأَجْزاءِ القُرْآنِ يُرَتِّلُونَهُ تَرْتيلاً يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ويَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَواءَ دائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيها تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْها طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْها شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّها نَصْبُ أَعْيُنِهِمْ، وإِذا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيها تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيها مَسامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَها في أُصُولِ آذانِهِمْ، فَهُمْ حانُونَ عَلىٰ أَوْساطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِباهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وأَطْرافِ أَقْدامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلىٰ الله تَعالىٰ في فَكاكِ رِقابِهِمْ.

وأمَّا النَّهارُ فَحُلَماءُ، عُلَماءُ، أَبرارٌ، أَتقِياءُ، قَدْ بَراهُمُ الخَوفُ بَرْيَ القِداحِ، يَنْظُرُ إلَيْهِمُ النّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضىٰ، وما بِالقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، ويَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا وَقَدْ خالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لا يَرضَوْنَ مِنْ أَعمالِهِمُ القَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرونَ الكَثِيرَ، فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعمالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدُهُمْ خافَ مِمّا يُقالُ لَهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسي مِنْ غَيري وربِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسي، اللَّهُمَّ لا تُؤاخِذْني بِمَا يَقُولُونَ، واجْعَلْني أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لي ما لا يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرىٰ لَهُ قُوَّةً في دِينٍ، وحَزْماً في لِينٍ، وإِيماناً في يَقِينٍ، وحِرْصاً في عِلمٍ، وعِلْماً في حِلْمٍ، وقَصْداً في غِنىً، وخُشُوعاً في عِبادَةٍ، وتَجَمُّلاً في فاقَةٍ، وصَبْراً في شِدَّةٍ، وطَلَباً في حَلالٍ، ونَشاطاً في هُدىً، وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ، يَعْمَلُ الأَعمالَ الصّالِحَةَ وهُوَ عَلىٰ وَجَلٍ، يُمْسي وهَمُّهُ الشُّكْرُ، ويُصْبِحُ وهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، ويُصْبِحُ فَرِحاً: حَذِراً لِما حُذِّرَ مِنَ الغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِما أَصابَ مِنَ الفَضْلِ والرَّحْمَةِ، إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فيما تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِها سُؤْلَها فيما تُحِبُّ قُرَّةُ عَيْنِهِ فيما لا يَزُولُ، وزَهادَتُهُ فيما لا يَبْقىٰ، يَمْزَجُ الحِلْمَ بِالعِلْمِ، والقَوْلَ بالعَمَلِ.

تَراهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خاشِعاً قَلْبُهُ، قانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ «أُكُلُهُ خ»، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ، الخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كانَ في الغافِلِينَ كُتِبَ في الذّاكِرِينَ، وإِنْ كانَ فِي الذّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغافِلِينَ، يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غائِباً مُنْكَرُهُ، حاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ، في الزَّلازِلِ وَقُورٌ، وَفِي المَكارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخاءِ شَكُورٌ».

«لا يَحِيفُ عَلىٰ مَنْ يُبْغِضُ، وَلا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ، يَعْتَرِفُ بِالحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لا يُضَيِّعُ ما اسْتُحْفِظَ، وَلا يَنْسىٰ ما ذُكِّرَ، وَلا يُنابِزُ بالأَلْقابِ، وَلا يُضارُّ بِالجارِ، وَلا يَشْمَتُ بِالْمَصائِبِ، وَلا يَدْخُلُ فِي الباطِلِ، وَلا يَخْرُجُ مِنَ الحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمُّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتّىٰ يَكُونَ اللهُ تَعالىٰ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ في عَناءٍ وَالنّاسُ مِنْهُ فِي راحَةٍ، أَتعَبَ نَفْسَهُ لآخِرَتِه، وأَراحَ النّاسَ مِنْ نَفْسِهِ، بُعْدُهُ عَمَّنْ تَباعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ ونَزاهَةٌ، ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنا مِنْهُ لِينٌ ورَحْمَةٌ، لَيْسَ تَباعُدُهُ بِكِبْرٍ وعَظَمَةٍ، وَلا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وخَدِيعَةٍ».

قال: فصعق همّام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين: أما والله لقد كنت أخافها عليه، ثم قال عليه السلام: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها، فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: ويحك إن لكلّ أجل وقتاً لا يعدوه، وسبباً لا يتجاوزه، فمهلاً لا

تعد لمثلها فإنما نفث الشيطان على لسانك[١].

اللغة

(**عزم**) على الأمر يعزم من باب ضرب عزماً ومعزماً وعزماناً وعزيماً وعزيمة وعزمة، أراد فعله وقطع عليه أو جدّ فيه فهو عازم وعزم الأمر نفسه عزم عليه وعزم على الرجل أقسم و (**الاقتصاد**) ضد الإفراط و (**صغر**) من باب شرف وفرح صغارة وصغراً وصغراً وصغراناً أي حقر وانحطّ قدره فهو صغير كحقير لفظاً ومعناً و (**ثار**) ثوراً وثوراناً أي هاج وأثار الغبار واستثاره هيجه.

و (**تطلّع**) إلى وروده استشرف و (**صغى**) إلى الشيء كرضي مال إليه وأصغى إليه سمعه أي أماله نحوه و (**حنيت**) العود حنوّاً وحناء عطفته فانحنى وتحنّى، وحنت الناقة على ولدها حُنواً عطفت ويقال لكل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم اللحى والضلع ونحوهما: الحنو بالكسر والفتح.

و (**برى**) السهم والعود والقلم يبريها برياً نحتها و (**القداح**) جمع القدح بالكسر فيهما وهو السهم قبل أن يراش وينصل و (**اختلط**) فلان وخولط في عقله أي فسد عقله واختلّ فهو خلط بيّن الخلاطة أي أحمق، وخالطه مخالطة مازجه وخالطه الدّاء خامره و (**تجمل**) فلان تزيّن وتكلف الجميل و (**نزر**) الشيء ككرم نزراً ونزارة قلّ فهو نزر ونزير ومنزور أي قليل.

و (**أكلة**) في بعض النسخ بفتح الهمزة وسكون الكاف فيكون مصدراً وفي بعضها بضمهما وهو الرزق والحظّ من الدنيا فيكون اسماً و (**الحريز**) الحصين يقول: هذا حرز حريز أي حصن حصين والحريزة من الإبل التي لا تباع نفاسة و (**المنابزة**) والتنابز التعاير والتداعي بالألقاب و (**صعق**) صعقاً كسمع وصعقاً بالتحريك وصعقة غشي عليه والصعق بالتحريك أيضاً شدّة الصوت و (**نفث**) ينفث من باب ضرب ونصر نفخ.

الإعراب

قوله: (**حين خلقهم**) ظرف زمان، وفي بعض النسخ حيث خلقهم بدله، وقوله: (**نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرخاء**)، اختلف الشرّاح في إعراب قوله (**كالذي**)، فقال الشارح المعتزلي: تقدير الكلام من جهة الإعراب: نزلت أنفسهم منهم في حال البلاء نزولاً كالنزول الذي نزلت منهم في حال الرخاء، فموضوع (**كالذي**) نصب لأنه صفة مصدر

(١) روضة الواعظين ٤٣٩.

ومحذوف، **(والذي)** الموصول قد حذف العائد إليه وهو **(الهاء)** في نزلته كقولك: ضربت الذي ضربت أي ضربت الذي ضربته.

وتبعه على ذلك الشارح البحراني حيث قال: **(والذي خلقه)** مصدر محذوف والضمير العائد إليه محذوف أيضاً، والتقدير: نزلت كالنزول الذي نزلته في الرّخا ثم احتمل وجهاً آخر وقال:

ويحتمل أن يكون المراد **(بالذي)** الذين فحذف النون كما في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] ويكون المقصود تشبيههم حال نزول أنفسهم منهم في البلاء بالذين نزلت أنفسهم منهم في الرّخاء.

وقال بعضهم: إنه لا بد من تقدير مضاف لأن تشبيه الجمع بالواحد لا يصح، أي كل واحد منهم إذا نزل في البلاء يكون كالرجل الذي نزلت نفسه في الرخاء ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ [البقرة: ١٧١].

أقول: وأنت خبير بأن هذه كلها تكلّفات يأبى عنها الذوق السليم مضافاً إلى ما في الوجه الآخر الذي احتمله البحراني وكذلك الوجه الأخير الذي حكيناه عن بعضهم أن المنساق من ظاهر كلامه عليه السلام تشبيه إحدى حالتي المتّقين بحالتهم الأخرى لا تشبيههم بغيرهم من أهل الرخاء.

ثم بعد الغض عن ذلك والبناء على ما ذكر فلا حاجة في تصحيح تشبيه الجمع بالمفرد إلى تأويل ما هو المفرد ظاهراً بالجمع والمصير إلى حذف النون كما تمحله الأول، أو تأويل الجمع بالمفرد بالمصير إلى تقدير المضاف كما تجشمه الآخر، لجواز تقدير موصوف الذي لفظ الرهط والجمع ونحوهما مما يكون مفرداً لفظاً وجمعاً في المعنى، ويكون المعنى نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالرهط أو الجمع الذي نزلت نفسهم منهم في الرخاء.

قال نجم الأئمة بعدما قال: بأنه قد يحذف **(نون)** الذين مستشهداً بقول الشاعر:

وإن الذي حانت بفيج دمائهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

ويجوز في هذا أن يكون مفرداً وصف به مقدر مفرد اللفظ مجموع المعنى أي وإن الجمع الذي، وإنّ الجيش الذي كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] فحمل على اللفظ أي الجمع الذي استوقد ناراً، ثم قال: بنورهم، فحمل على المعنى ولو كان في الآية مخفّفاً من الذين لم يجز إفراد الضمير العائد إليه وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣] وهذا كثير، أعني ذكر الذي مفرداً موصوفاً به مقدر مفرداً للفظ مجموع المعنى وأما حذف **(النون)** من الذين فهو قليل، انتهى.

وبعد ذلك كله فالأقرب عندي أن يجعل **(الذي)** مصدرياً بأن يكون حكمه حكم **(ما)** المصدرية كما ذهب إليه يونس والأخفش في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشورى: ٢٣] أي ذلك تبشير الله. وكذلك قالا في قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] وعلى هذا فيكون المعنى: نزلت أنفسهم منهم في البلاء مثل نزولها في الرخاء وهذا لا تكلف فيه أصلاً.

وقوله: تجارة مربحة، بالرّفع على أنه خبر محذوف المبتدأ، أي تجارتهم تجارة مربحة، وفي بعض النسخ بالنصب على المصدر أي اتجروا تجارة.

وقوله: **(أما الليل فصافون)**، بالنصب على الظرف، والناصب، إما لتضمنها معنى الفعل أو الخبر كما في نحو قولك: أما اليوم فأنا ذاهب وأما إذا قلت: أما في الدار فزيد، فالعامل هو أما لا غير، كما في قولهم: أما العبيد فذو عبيد، أي مهما ذكرت العبيد فهو ذو عبيد، هذا.

ويروى بالرفع على الابتداء فيحتاج إلى العائد في الخبر أي صافون أقدامهم فيها.

وقوله: **(تالين)** حال من فاعل صافون أو من الضمير المجرور بالإضافة في أقدامهم: والأول أولى، وجملة يرتلونه حال من فاعل تالين، وفي بعض النسخ يرتلونها، فالضمير عائد إلى أجزاء القرآن، ونصب أعينهم بنصب النصب على الظرفية، ويروى بالرفع على أنه خبر إن والمصدر بمعنى المفعول.

وقوله: **(يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم)**، تعدية الطلب بحرف الجر ـ أعني إلى ـ لتضمينه معنى التضرع **(وفي)** للظرفية المجازية، أي يتضرعون إليه سبحانه في فكاك رقابهم.

وأما ما قاله الشارح المعتزلي من أن الكلام على الحقيقة مقدّر فيه حال محذوفة يتعلق بها حرف الجر أي يطلبون إلى الله سائلين في فكاك رقابهم لأن **(طلبت)** لا تتعدى بحرف الجر فليس بشيء لأن تأويل الطلب بالسؤال لا ينهض بإثبات ما رامه كما لا يخفى.

وفي قوله: وقوّة في دين، ظرف لغو متعلق بقوّة، وفي قوله: وحزماً في لين ظرف مستقر متعلق بمقدّر صفة لقوله حزماً، وفي المعطوفات بعد ذلك في بعضها ظرف لغو وفي بعضها ظرف مستقرّ وصف لسابقه، فتدّبر تفهم.

المعنى

اعلم أنه قد **(روي أن صاحباً لأمير المؤمنين)** أي رجلاً من أصحابه وشيعته ومواليه **(يقال له: همّام)** بالتشديد، وهو كما في **(شرح المعتزلي)** همام بن شريح بن يزيد بن مرة بن

عمر بن جابر بن يحيى بن الأصهب بن كعب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذهل بن سيف بن سعد العشيرة.

وفي **(البحار)**: والأظهر أنه همام بن عبادة بن خثيم ابن أخ الربيع بن خثيم أحد الزهاد الثمانية كما رواه الكراجكي في **(كنزه)**.

وكيف كان فقد **(كان رجلاً عابداً)** زاهداً ناسكاً **(فقال له: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين)** واشرح لي حالهم **(حتى كأني أنظر إليهم)** وأبصر بهم لأقتفي آثارهم وأقتبس أنوارهم.

(فتثاقل عليه السلام عن جوابه) قال الشارح المعتزلي: تثاقله عليه السلام عن الجواب لعلمه بأن المصلحة في تأخير الجواب، ولعله كان في مجلسه عليه السلام من لا يحب أن يجيب وهو حاضر، فلما انصرف أجاب، أو لأنه رأى أن تثاقله عنه يزيد شوق همام إلى سماعه فيكون أنجع في موعظته، أو أنه تثاقل عنه لترتيب المعاني ونظمها في ألفاظ مناسبة ثم النطق بها كما يفعله المتروي في الخطبة والقريض.

والأولى ما قاله الشارح البحراني: من أنه عليه السلام تثاقل عنه لما رأى من استعداد نفسه لأثر الموعظة وخوفه عليه أن يخرج به خوف الله إلى انزعاج نفسه وصعوقها.

(ثمّ) إنه عليه السلام بعد تثاقله عن الجواب ووصف حال المتقين تفصيلاً لما رآه من المصلحة المقتضية لترك التفصيل أجابه بجواب إجمالي و **(قال)** له: **(يا همام اتق الله وأحسن)** يعني أن الفرض عليك القيام بالتقوى والأخذ بها على قدر ما حصل لك المعرفة به من معناها وحقيقتها من الكتاب والسنة، وتبين لك إجمالاً من ماهيتها كما يعرفها جميع المؤمنين، والزائد عن ذلك غير مفروض عليك ولا يجب البحث عنه.

وقد تقدم شرح معناها وحقيقتها وبعض ما يترتب عليها من الثمرات الدنيوية والأخروية في شرح الخطبة الرابعة والعشرين، وقد روينا هناك عن الصادق عليه السلام أنه قال في تفسيرها: أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك، هذا[1].

والمراد بقوله: وأحسن هو الإحسان في العمل، يعني أن اللازم عليك الأخذ بالتقوى والقيام بالحسنى من الأعمال الصالحة.

وهذا الذي قلنا أولى مما قاله الشارح البحراني من أن معنى كلامه أنه أمره بتقوى الله أي في نفسه أن يصيبها فادح بسبب سؤاله، وأحسن أي أحسن إليها بترك تكليفها فوق طوقها.

---

(١) شرح أصول الكافي ١/١١٨.

وكيف كان فلما أمره بالتقوى والإحسان علله بقوله: **(فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)** ترغيباً له إلى القيام بهما، وهو اقتباس من الآية الشريفة خاتمة سورة النحل، يعني أنه سبحانه مع الذين اتقوا ما حُرّم عليهم وأحسنوا فيما فرض عليهم أي معين لهم وناصر لهم وهو وليهم في الدنيا والآخرة.

(فلم يقنع همّام بذلك القول) ولم يكتف بالإجمال **(حتى عزم عليه عليه السلام)** وأقسم وألح في السؤال.

(فـ) أجاب عليه السلام مسؤوله وأنجح مأموله و **(حمد الله)** عزَّ وجل و **(أثنى عليه)** بما هو أهله **(وصلى على النبي وآله ثم قال: أما بعد، فإن الله سبحانه خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم)**.

وإنما مَهَّدَ هذه المقدمة لأنه عليه السلام لما كان بصدد شرح حال المتقين تفصيلاً حسبما اقترحه همام وكان ربما يسبق إلى الأوهام القاصرة أن ما يأتي به المتقون من مزايا الأعمال والصالحات وما كلفهم الله سبحانه به من محامد الخصال والقربات من أجل حاجة منه تعالى عن ذلك إليها، قدّم هذه المقدمة تنبيهاً على كونه سبحانه منزهاً عن ذلك، متعالياً عن صفات النقص والحاجة في الأزل كما في الأبد، وأنه لم يكن غرضه تعالى من الخلق والإيجاد تكميل ذاته بجلب المنفعة ودفع المضرّة كما في سائر الصناع البشرية يعملون الصنائع لافتقارهم إليها واستكمالهم بها بما في ذاتهم من النقص والحاجة، وأما الله الحي القيوم فهو الغني الكامل المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ولم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ولا استعانة على ندّ مثاور ولا شريك مكاثر ولا ضدّ منافر حسبما عرفته في الخطبة الرابعة والستين وشرحها بما لا مزيد عليه.

وهذا معنى قوله: **(لأنه لا تضرّه معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه)** وقد تقدم في شرح الخطبة المائة والخامسة والثمانين أن غرضه من الخلق والإيجاد ومن الأمر بالطاعة والانقياد هو إيصال النفع إلى العباد وإكمالهم بالتكاليف الشرعية ورفعهم بالعمل بها إلى حظائر القدس ومحافل الأنس.

وقوله: **(فقسم بينهم معايشهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم)** تفريع على قوله: خلق الخلق لا تقرير وتأكيد، لغناه المطلق كما قاله الشارح البحراني.

والمراد: أنه تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقسّم بينهم معيشتهم، أي ما يعيشون به في الحياة الدنيا من أنواع الرزق والخير والمنافع والنعماء، ووضع كلاً منهم موضعه اللائق بحاله من الفقر واليسار والغنى والافتقار والسعة والإقتار على ما تقتضيه حكمته البالغة وتوجبه المصلحة الكاملة، كما أشير إليه في قوله عزَّ وجل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] هذا.

وإنما فرع عليه السلام هذه الجملة على ما سبق وعقبه بها لتكون توطئة وتمهيداً بقوله: **(فالمتقون فيها هم أهل الفضائل)** يعني أن معايش الخلق في الدنيا لما كانت بحسب تقسيم الله سبحانه واقتضاء حكمته اقتضى العناية الإلٰهية والنظم الأصلح في حق المتقين بمقتضى كونهم من أهل السبق والقربى أن يكون عيشهم في الدنيا بخلاف معايش سائر الخلق وتكون حركاتهم وسكناتهم وحالاتهم وراء حالات أبناء الدنيا، فاتصفوا بالفضائل النفسانية وتزينوا بمكارم الأخلاق ومحامد الأوصاف التي فصلها عليه السلام بالبيان البديع والتفصيل العجيب.

أولها: أن **(منطقهم الصواب)** وهو ضدّ الخطأ، يعني أنهم لا يسكتون عما ينبغي أن يقال فيكونون مفرّطين، ولا يقولون ما ينبغي أن يسكت عنه فيكونون مفرطين ويحتمل أن يراد به خصوص توحيد الله تعالى وتمجيده والصلاة على نبيه وبه فسرّ في قوله سبحانه: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

(و) الثاني: أن **(ملبسهم الاقتصاد)** أي التوسط بين الإفراط والتفريط، وفي الإسناد توسع يعني أن لباسهم ليس بثمين جداً مثل لباس المترفين المتكبرين، ولا بذلة كلباس أهل الابتذال والخسّة والدناءة بل متوسط بين الأمرين.

(و) الثالث: أن **(مشيهم التواضع)** وفي الإسناد أيضاً توسع، يعني أنهم لا يمشون على وجه الأشر والبطر والخيلاء لنهي الله سبحانه عن المشي على هذا الوجه في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧] وأمره بخلافه في قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

وقد روى في **(الكافي)** عن عمرو بن أبي المقدام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: فيما أوحى الله عزَّ وجل إلى داود: كما أن أقرب الناس من الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون.

(و) الرابع: أنهم **(غضوا أبصارهم عما حرّم الله عليهم)** امتثالاً لأمره تعالى به في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] أي يغضوا أبصارهم عما لا يحلّ لهم النظر إليه.

وفي الوسائل من **(الكافي)** عن أبي عبد الله عليه السلام: كلّ عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثة أعين: عين غضّت عن محارم الله، وعين سهرت في طاعة الله، وعين بكت في جوف الليل من خشية الله[1].

---

(١) الكافي ٢/ ٤٨٢ ح ٤، وسائل الشيعة ١٥/ ٢٢٨.

(و) الخامس: أنهم **(وقّفوا أسماعهم على العلم النافع لهم)** في الدنيا والآخرة الموجب لكمال القوة النظرية والحكمة العملية، وأعرضوا عن الإصغاء إلى اللّغو والأباطيل كالغيبة والغناء والفحش والخناء ونحوها، وقد وصفهم الله سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ٣]، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢].

والسادس: أنهم **(نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرّخاء)** يعني أنهم موطّنون أنفسهم على ما قدّره الله في حقهم من الشدّة والرخاء والسرّاء والضّراء والضيق والسعة والمنحة والمحنة ومحصّله وصفهم بالرضاء بالقضاء.

روى في **(الكافي)** عن ابن سنان عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: بأي شيء يعلم المؤمن بأنه مؤمن؟ قال عليه السلام: بالتسليم لله والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط.

وفي رواية أخرى فيه عنه عليه السلام قال: رأس طاعة الله الصبر والرضا عن الله فيما أحب العبد أو كره، ولا يرضى عبد عن الله فيما أحب أو كره إلا كان خيراً له فيما أحب أو كره[١].

وعن محمد بن عذافر عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض أسفاره إذ لقيه ركب فقالوا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «ما أنتم؟» فقالوا: نحن المؤمنون يا رسول الله، قال: «فما حقيقة إيمانكم؟» قالوا: الرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله، والتسليم لأمر الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه تُرجعون»[٢].

(و) السابع: أنه **(لولا الأجل الذي كتب الله لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب)** وهو إشارة إلى غاية نفرتهم عن الدنيا وفرط رغبتهم إلى الآخرة لما عرفوا من عظمة وعده ووعيده، يعني أنهم بكليّتهم متوجهون إلى العقبى، مشتاقون إلى الانتقال إليها شدّة الاشتياق، لا مانع لهم من الانتقال إلا الآجال المكتوبة وعدم بلوغها غايتها.

---

(١) الكافي ٢/ ٦٠ ح ١، والوسائل ٣/ ٢٥٣.

(٢) المحاسن ١/ ٢٢٦، ح ١، والكافي ٢/ ٥٣.

روى في الوسائل من **(الكافي)** عن أبي حمزة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا[١].

والثامن: أنه **(عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم)** علماً منهم بأنه سبحانه موصوف بالعظمة والكبرياء والجلال غالب على الأشياء كلها، قادر قاهر عليها، وأن كل من سواه مقهور تحت قدرته داخر ذليل في قيد عبوديته، فهو سبحانه عظيم السلطان، عظيم الشأن، وغيره أسير في ذلّ الإمكان مفتقر إليه لا يقدر على شيء إلا بإذنه.

وأشار عليه السلام بهذا الوصف إلى شدّة يقين المتقين وغاية توكلهم وأن اعتصامهم في جميع أمورهم به وتوكلهم عليه وأنهم لا يهابون معه ممن سواه.

روى في **(الكافي)** عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ليس شيء إلا وله حدّ. قال: قلت: جعلت فداك فما حدّ التوكل؟ قال: اليقين، قلت: فما حدّ اليقين؟ قال: ألّا تخاف مع الله شيئاً.

وعن مفضل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أوحى الله عزَّ وجل إلى داود: ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات من يده وأسخت الأرض من تحته ولم أبال بأي واد هلك، هذا[٢].

ولما ذكر في الوصف السابع شدّة اشتياق المتقين إلى الجنة وخوفهم من العقاب أتبعه بقوله: **(فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم والنار كمن قد رآها وهم فيها معذّبون)** إشارة إلى أنهم صاروا في مقام الرجاء والشوق إلى الثواب وقوة اليقين بحقائق وعده سبحانه بمنزلة من رأى بحسّ بصره الجنة وسعادتها، فتنعموا فيها والتذوا بلذائذها، وفي مقام الخوف من النار والعقاب وكمال اليقين بحقائق وعيده تعالى بمنزلة من شاهد النار وشقاوتها فتعذّبوا بعذابها وتألموا بآلامها.

ومحصّله جمعهم بين مرتبتي الخوف والرجاء، وبلوغهم فيه إلى الغاية القصوى، وهي مرتبة عين اليقين كما قال عليه السلام مخبراً عن نفسه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً[٣]، وهذه

---

(١) الكافي ٢/ ٦٨، والوسائل ١٥/ ٢٢٠ ح ٣٠٣٢٥.

(٢) الكافي ٢/ ٦٣، والوسائل ١٥/ ٢١١.

(٣) شرح أصول الكافي: ١٢/ ١٨٩ ح ١٧٣، ومطلوب كل طالب: ٣.

المرتبة ـ أعني مرتبة عين اليقين ـ مقام جليل لا يبلغه إلاّ الأوحدي من الناس.

وقد روى في **(الكافي)** عن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «كيف أصبحت يا فلان؟» قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: «إن لكل يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟» فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة ويتعارفون على الأرائك يتكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان». ثم قال صلى الله عليه وآله له: «إلزم ما أنت عليه»، فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر[1].

وقد مر هذا الحديث في شرح الخطبة المائة والثالثة عشر، ورويناه هنا أيضاً لاقتضاء المقام كما هو ظاهر.

والتاسع: أن **(قلوبهم محزونة)** لما غلب عليهم من الخوف.

روى في **(الكافي)** عن معروف بن خربوز عن أبي جعفر عليه السلام قال: صلّى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق، فلما انصرف وعظهم فبكى وأبكاهم من خوف الله ثم قال: أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله وإنهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمصاً بين أعينهم كركب المعزى يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، ويناجون في فكاك رقابهم من النار، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون[2].

وفيه عن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام قال: صلّى أمير المؤمنين عليه السلام الفجر ولم يزل في موضعه حتى صارت الشمس على قدر رمح وأقبل على الناس بوجهه فقال: والله لقد أدركت أقواماً ما يبيتون لربهم سجداً وقياماً يخالفون بين جباههم وركبهم كأن زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما يميد الشجر كأنما القوم باتوا غافلين، قال عليه السلام: ثم

---

(١) الأصول الأصيلة ١٦.

(٢) حلية الأبرار ٢/ ١٨٢.

قام فما رُئي ضاحكاً حتى قُبِض[١].

(و) **العاشر**: أن (**شرورهم مأمونة**) لأن مبدأ الشرور والمفاسد كلها ورأس كل خطيئة هو حب الدنيا، والمتقون زاهدون فيها معرضون عنها مجانبون عن شرها وفسادها.

(و) **الحادي عشر**: أن (**أجسادهم نحيفة**) لإتعاب أنفسهم بالصيام والقيام وقناعتهم بالقدر الضروري من الطعام.

(و) **الثاني عشر**: أن (**حاجاتهم خفيفة**) لاقتصارهم من حوائج الدنيا على ضرورياتها وعدم طلبهم منها أكثر من البلاغ.

(و) **الثالث عشر**: أن (**أنفسهم عفيفة**) أي مصونة عن المحرمات لكسرهم سورة القوّة الشهوية.

روى في الوسائل من (**الكافي**) عن منصور بن حازم عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من عبادة أفضل عند الله من عفة فرج وبطن.

وعن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج.

والرابع عشر: أنهم (**صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم**) تلك الأيام القصيرة (**راحة طويلة**) يعني أنهم صبروا في دار الدنيا على طوارق المصائب وعلى مشاق الطاعات وعن لذّات المعاصي، بل احتملوا جميع مكاره الدنيا واستعملوا الصبر في جميع أهوالها فأوجب ذلك السعادة الدائمة في الدار الآخرة.

ويدل على ذلك ما رواه في (**الكافي**) عن حمزة بن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللّذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذّتها وشهوتها دخل النار[٢].

وفيه عن أبي حمزة الثمالي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد.

وفيه عن العزرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سيأتي على الناس زمان لا ينال فيه المُلك إلا بالقتل والتجبّر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبّة إلا

---

(١) الكافي ٢/ ٢٣٦، ووسائل الشيعة ١/ ٦٥.

(٢) الكافي ٢/ ٩١، ووسائل الشيعة ١٥/ ٢٣٦.

باستخراج الدّين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنىٰ، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبّة، وصبر على الذّل وهو يقدر على العزّ آتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممن صدّق بي»، هذا[١].

وفي وصف أيام الصبر بالقصر والراحة بالطول، تحريص وترغيب إليه، وأكد ذلك بقوله: **(تجارة مربحة)** استعار لفظ التجارة لاكتسابهم الراحة في مقابل الصبر، ورشّح بلفظ الربح.

وكونها مربحة باعتبار قصر مدة الصبر على المكاره وطول مدة الراحة وفناء الشهوات الدنيوية واللذائذ النفسانية وبقاء السعادات الأخروية مضافة إلى خساسة الأولى في نفسها وحقارتها، ونفاسة الثانية وشرافتها.

وأكد ثالثاً بقوله: **(يسّرها لهم ربّهم)** يعني أن فوزهم بتلك النعمة العظمى والسعادة الدائمة قد حصل بتوفيق الله سبحانه وتأييده ولطفه، ففيه إيماء إلى توجه العناية الربانية إليهم وشمول الألطاف الإلٰهية عليهم، وإلى كونهم بعين رحمة الله وكرامته.

والخامس عشر: أنهم **(أرادتهم الدنيا فلم يريدوها)** أي أرادت عجوزة الدنيا أن تفتنهم وتغرّهم وأن يتزوجوا بها، فأعرضوا عنها وزهدوا فيها بما كانوا يعرفونه من حالها وأنها قتّالة غرّالة ظاهرة الغرور كاسفة النور، يونق منظرها ويوبق مخبرها، قد تزيّنت بغرورها، وغرّت بزينتها، لا تفي بأحد من أزواجها الباقية كما لم تف بأزواجها الماضية.

(و) السادس عشر: أن الدنيا **(أسرتهم ففدوا أنفسهم منها)** الأشبه أن يكون المراد بقوله: أسرتهم، هو الإشراف على الأسر، يعني أنهم بمقتضى المزاج الحيواني والقوى النفسانية التي لهم كادوا أن تغرّهم الدنيا فيميلوا إليها ويقعوا في قيد أسره وسلسلة رقيته، لكنهم نظروا إليها بعين البصيرة وعرفوها حقّ المعرفة وغلب عقلهم على شهوتهم فرغبوا عنها وزهدوا فيها وأعرضوا عن زبرجها وزخارفها، فالمراد بفداء أنفسهم منها هو الإعراض عن الزخارف الدنيوية، فكأنهم بذلوا تلك الزخارف لها وخلصوا أنفسهم منها.

وإنما أتى **(بالواو)** في قوله: أرادتهم الدنيا ولم يريدوها، و **(بالفاء)** في قوله: وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، لعدم الترتيب بين الجملتين المتعاطفتين في القرينة السابقة، بخلاف هذه القرينة فإن الفدية مترتبة على الأسر كما لا يَخفى.

والسابع عشر: اتّصافهم بالتهجّد وقيام الليل وإليه أشار بقوله: **(أما الليل فصافون**

---

(١) الكافي ٢/ ٩١ ح ١٢.

أقدامهم) فيها للصلاة علماً منهم بما فيه من الفضل العظيم والأجر الخطير وقد مدح الله القيام فيها والقائمين في كتابه الكريم بقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الصادق عليه السلام في تفسيره: هو السهر في الصلاة، وبقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦].

قال الصادق عليه السلام: فيه قيام الرّجل عن فراشه يريد به وجه الله تعالى عزّ وجلّ لا يريد به غيره[1].

وكفى في فضله ما رواه في **(الفقيه)** عن جابر بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب عن قيام الليل بالقرآن، فقال عليه السلام: أبشر.

من صلّى من الليل عُشْر ليلةٍ مخلصاً ابتغاء ثواب الله قال الله لملائكته: اكتبوا لعبدي هذا من الحسنات عدد ما أنبت في الليل من حبة وورقة وشجرة وعدد كلّ قصبة وخوص ومرعى.

ومن صلّى تُسْع ليلة أعطاه الله عشر دعوات مستجابات وأعطاه الله كتابه بيمينه.

ومن صلّى ثُمْن ليلة أعطاه الله أجر شهيد صابر صادق النيّة وشُفّع في أهل بيته.

ومن صلّى سُبْع ليلة خرج من قبره يوم يُبْعث ووجهه كالقمر ليلة البدر حتى يمرّ على الصراط مع الآمنين.

ومن صلّى سُدْس ليلة كتب من الأوابين وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.

ومن صلّى خُمْس ليلة زاحم إبراهيم خليل الرحمٰن في قبته.

ومن صلّى رُبْع ليلة كان في أول الفائزين حتى يمر على الصراط كالريح العاصف ويدخل الجنة بلا حساب.

ومن صلّى ثُلُث ليلة لم يلق ملكاً إلاّ غبطه لمنزلته من الله، وقيل: ادخل من أي أبواب الجنة شئت.

ومن صلّى نصف ليلة فلو أعطي ملء الأرض ذهباً سبعين ألف مرة لم يعدل جزاه، وكان له بذلك عند الله أفضل من سبعين رقبة يعتقها من ولد إسماعيل عليه السلام.

(١) الكافي ٣/٤٤٦ ح ١٧، ومن لا يحضره الفقيه ١/٤٧٢ ح ١٣٦٤.

ومن صلّى ثلثي ليلة كان له من الحسنات قدر رمل عالج أدناها حسنة أثقل من جبل أُحد عشر مرات.

ومن صلّى ليلة تامة تالياً لكتاب الله راكعاً وساجداً وذاكراً أعطي من الثواب ما أدناه يخرج من الذنوب كما ولدته أمّه، ويُكتب له عدد ما خلق الله من الحسنات ومثلها درجات، ويثبت النور في قبره، ويُنزع الإثم والحسد من قلبه، ويُجار من عذاب القبر، ويُعطى براءة من النار، ويُبعث من الآمنين، ويقول الرب لملائكته: يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي أحيا ليله ابتغاء مرضاتي أسكنوه الفردوس وله فيها مائة ألف مدينة في كل مدينة جميع ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ولم يخطر على بال سوى ما أعددت له من الكرامة والمزيد والقربة[١]، هذا.

ولما وصف قيامهم بالصلاة في الليل أشار إلى قراءتهم ووصف قراءتهم تفصيلاً بقوله: **(تالين لأجزاء القرآن)** فإن البيوت التي يُتلى فيها القرآن تُضيء لأهل السماء كما تُضيء الكواكب لأهل الأرض، كما روي في غير واحد من الأخبار وتكثر بركتها وتحضرها الملائكة وتهجرها الشياطين كما رواه في **(الكافي)** عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(يرتّلونه ترتيلا) قال في **(مجمع البحرين)**: الترتيل في القرآن التّأني وتبيين الحروف بحيث يتمكن السامع من عدّها.

وفي **(الكافي)** عن عبد الله بن سليمان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: بيّنه تبياناً ولا تهذّه هذّ الشعر، ولا تنثره نثر الرّمل، ولكن أفزعوا قلوبكم القاسية ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة[٢].

وفي **(مجمع البحرين)** عن أمير المؤمنين عليه السلام: ترتيل القرآن حفظ الوقوف وبيان الحروف، وفسّر الوقوف بالوقف التام وهو الوقوف على كلام لا تعلق له بما بعده لا لفظاً ولا معنىً، وبالحسن وهو الذي له تعلق، وفسر الثاني بالإتيان بالصفات المعتبرة عند القراءة من الهمس والجهر والاستعلاء والإطباق[٣].

وعن الصاق عليه السلام: الترتيل هو أن تتمكث فيه وتُحسن به صوتك، وإذا مررت بآية فيها

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٤٧٦، والأمالي: ٣٦٨.
(٢) الكافي ٢/ ٦١٤ ح ١، الوسائل ٦/ ٢٠٧ ح ٧٧٤٣.
(٣) الكافي ٢/ ٦١٤ ح ٣.

ذكر الجنة فاسأل الله الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فتعوّذ بالله من النار[١].

وقوله عليه السلام: **(يحزنون به أنفسهم)** أي يقرؤنه بصوت حزين.

روى في **(الكافي)** عن ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن القرآن نزل بالحزن فاقرؤه بالحزن.

وفي **(الوسائل من الكافي)** عن حفص قال: ما رأيت أحداً أشدّ خوفاً على نفسه من موسى بن جعفر عليه السلام ولا أرجى للناس منه، وكانت قراءته حزناً، فإذا قرأ فكأنه يخاطب إنساناً.

وقوله: **(ويستثيرون به دواء دائهم)** الظاهر أن المراد بدائهم هو داء الذنوب الموجب للحرمان من الجنة والدخول في النار، وبدوائه هو التدبر والتفكر الموجب لقضاء ما عليهم من الحق وسؤال الجنة وطلب الرحمة والمغفرة والتعوّذ من النار عند قراءة آيتي الوعد والوعيد.

كما أوضحه وشرحه بقوله: **(فإذا مروا بآية فيها تشويق)** إلى الجنة **(ركنوا)** أي مالوا واشتاقوا **(إليها طمعاً وتطلعت)** أي أشرفت **(نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم)** أي أيقنوا أن تلك الآية أي الجنة الموعودة بها معدّة لهم بين أيديهم وإنما جعلنا الظن بمعنى اليقين لما قد مرّ من اتصافهم بعين اليقين وأنهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون.

(وإذا مروا بآية فيها تخويف) وتحذير من النار **(أصغوا)** أي أمالوا **(إليها مسامع قلوبهم وظنوا)** أي علموا **(أن زفير جهنم وشهيقها)** أي صوت توقدها **(في أصول آذانهم)** أو المراد زفير أهلها وشهيقهم، والزفير إدخال النفس والشهيق إخراجه، ومنه قيل: إن الزفير أول الصوت والشهيق آخره، والزفير من الصدر والشهيق من الحلق، وكيف كان فالمراد أنهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون.

ومحصل المراد أن المتقين يقرؤون القرآن بالترتيل والصوت الحسن الحزين ويشتدّ رجاؤهم عند قراءة آيات الرجا وخوفهم عند تلاوة آيات الخوف.

روى في **(الوسائل)** عن الشيخ عن البرقي وابن أبي عمير جميعاً عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ينبغي للعبد إذا صلّى أن يرتل في قراءته، فإذا مرّ بآية فيها ذكر الجنة وذكر النار سأل الله الجنة وتعوّذ بالله من النار، وإذا مرّ بيا أيها الناس ويا أيها الذين آمنوا يقول: لبيك ربنا[٢].

(١) بحار الأنوار ٨/٨٢. (٢) الكافي ٢/ ٢٤٤ ح ١٩، ووسائل الشيعة ٦/ ٦٩، ح ٧٣٦٨٢٦.

وعنه عن عثمان بن عيسى عن سماعة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ينبغي لمن قرأ القرآن إذا مرّ بآية فيها مسألة أو تخويف أن يسأل عند ذلك خير ما يرجو ويسأل العافية من النار ومن العذاب(١).

وفيه عن الكليني عن الزهري في حديث قال: كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قرأ مالك «ملك» يوم الدين يكررها حتى يكاد أن يموت(٢)، هذا.

ولما ذكر عليه السلام وصف قيامهم وقراءتهم أشار إلى ركوعهم بقوله: **(فهم حانون)** أي عاطفون **(على أوساطهم)** يعني أنهم يحنون ظهرهم في الركوع أي يميلونه في استواءٍ من رقبتهم ومن ظهرهم من غير تقويس.

وأشار إلى سجودهم بقوله: **(مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم)** أي باسطون لهذه الأعضاء السبعة في حالة السجدة على الأرض، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

قال في **(مجمع البيان)**: روي أن المعتصم سأل أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن هذه الآية فقال عليه السلام: هي الأعضاء السبعة التي يُسجد عليها(٣).

وفي **(الوسائل)** عن الشيخ بإسناده عن زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «السجود على سبعة أعظم: الجبهة، واليدين، والركبتين، والإبهامين من الرِّجلين، وترغم بأنفك إرغاماً»، أما الفرض فهذه السبعة وأما الإرغام بالأنف فسنّة من النبي صلى الله عليه وآله(٤).

وقوله عليه السلام: **(يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم)** إشارة إلى العلة الغائية لهم من عبادتهم الليلية، يعني أنهم يتضرعون إليه سبحانه ويلحّون في فكاك رقابهم من النار وإدخالهم الجنة.

والثامن عشر: اتّصافهم بأوصاف يطلع عليها الناظرون لهم نهاراً، وإليه أشار بقوله: **(وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء)** يعني أنهم متّصفون بالحلم والعلم والبرّ والتقوى.

أما الحلم فهو فضيلة متوسطة بين رذيلتي المهانة والإفراط في الغضب، وهو من جنود العقل ويقابله السّفه وهو من جنود الجهل، كما في الحديث المروي في **(الكافي)** عن أبي

---

(١) تهذيب الأحكام ٢/٢٨٦ ح ١١٤٧.
(٢) الكافي ٢/٦٠٢ ح ١٣، وسائل الشيعة ٦/١٥١ ح ٧٥٩٣.
(٣) مجمع البيان: ١٠/١٥٢.
(٤) وسائل الشيعة ٦/٣٤٣ ح ٨١٣٤، وتهذيب الأحكام ٢/٢٩٩ ح ١٢٠٤.

عبد الله علي عليه السلام.

قال صدر المتألهين في (**شرح الكافي**): الحلم الأناة، وهو من شعب الاعتدال في الغضب، والسفه الخفة والطيش، وسفه فلان رأيه إذا كان مضطرباً لا استقامة له فيكون من شعب الإفراط في الغضب ضدّ الحلم الذي من شعب الاعتدال فيه.

وقال بعض شرّاح (**الكافي**): الحلم الأناة والتثبت في الأمور، وهو يحصل عن الاعتدال في القوة الغضبية ويمنع من الانفعال عن الواردات المكروهة المؤذية، ومن آثاره عدم جزع النفس عند الأمور الهائلة، وعدم طيشها في المؤاخذة، وعدم صدور حركات غير منتظمة منها، وعدم إظهار المزية على الغير، وعدم التهاون في حفظ ما يجب حفظه شرعاً وعقلاً.

أقول ويشهد بفضل هذا الوصف:

ما رواه في (**الكافي**) عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله يحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفف»[1].

وعن سعيد بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان فيقولان للسفيه منهما: قلت وقلت وأنت أهل لما قلت ستجزى بما قلت، ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلمت سيغفر الله لك إن أتممت ذلك، قال: فإن ردّه الحليم عليه ارتفع الملكان، هذا[2].

وفي بعض النسخ بدل قوله عليه السلام: فحلماء: فحكماء، بالكاف، فيفيد اتصافهم بالحكمة وهو أيضاً من جنود العقل، ويقابله الهوى وهو من جنود الجهل كما في الحديث الذي أشرنا إليه.

قال صدر المتألهين في شرح هذا الحديث من (**الكافي**): الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء كما هي بقدر الطاقة والعمل على طبقه، والهوى الرأي الفاسد واتباع النفس شهواتها الباطلة، ويحتمل أن يكون المراد بالحكمة ما يُستعمل في كتب الأخلاق وهو التوسط في القوة الفكرية بين الإفراط الذي هو الجربزة والتفريط الذي هو البلاهة، فيكون المراد بالهوى الجربزة بما يلزمها من الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة، لأنها تضادّ الحكمة التي بهذا المعنى، وكلا المعنيين من صفات العقل وملكاته ومقابلاتهما من صفات الجهل وتوابعه.

---

(١) الكافي ٢/ ١١٢.

(٢) الكافي ٢/ ١١٢.

وأما العلم فهو أيضاً من جنود العقل، ويقابله الجهل كما في الحديث المتقدم إليه الإشارة، والمراد بكونهم علماء كمالهم في القوة النظرية بالعلم النظري الذي هو معرفة الصانع وصفاته والعلم الشرعي الذي هو معرفة تكاليفه وأحكامه[1].

(١) قال الفيض الكاشاني في الكلمات المكنونة: **كلمة فيها إشارة إلى كيفيّة تنزّلات الوجود ومعارجه:**
الوجود يبتدئ بعد مرتبة الغيب في التعيّن والتميّز، فينزل من سماء الإطلاق إلى أرض التقيّد، مرتّباً من الأشرف فالأشرف إلى أن ينتهي إلى ما لا أخسّ منه في الإمكان ولا أضعف، فتنقطع عنده السلسلة النزوليّة، ثمّ يأخذ في العروج كذلك متدرّجاً، فلا يزال يترقّى من الأرذل إلى الأفضل، إلى أن ينتهي إلى الذي لا أفضل منه في هذه السلسلة العروجيّة، فيكون هو بازاء ما بدى منه في النزول كما أشير إليه بقوله سبحانه: **﴿يُدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثمّ يعرج إليه﴾** ـ سورة السجدة: ٥. وكلّما كان إلى مبدأه سبحانه أقرب فهو إلى البساطة والوحدة والغناء أقرب، ومن الاختلاف والتركيب والافتقار أبعد.
وفي المرتبة الأولى التي يظهر فيها الوجود أوّلاً بصور الأعيان لا يفتقر في تقومه، ولا في شيء من صفاته وأفعاله إلى شيء سوى مبدعه القيّوم جلّ أسمه.
ويُسمّى أهل تلك المرتبة على إختلاف درجاتهم، بالعقول والأرواح والملائكة المقرّبين، ولهذا ورد أوّل ما خلق الله العقل.
وفي المرتبة الثانية وإن لم يفتقر في تقومه إلى غير ما فوقه، ولكنّه يفتقر في أفعاله وصفاته إلى ما دونه من المراتب، ويُسمّى أهلها على تفاوت أقدارهم، بالنفوس والبرازخ والملائكة المدبّرين.
وفي المرتبة الثالثة يفتقر في تقومه أيضاً إلى مادونه، ويُسمّى بالصور والطبائع، وفي المرتبة الرابعة، ليس له حيثيّة سوى حيثيّة الإمكان والقوّة، ولا شيئيّة له في ذاته متحصّلة إلاّ قبول الأشياء.
ويُسمّى بالمادّة والماء والهيولى والهباء، وهي نهاية تدبير الأمر وبداية مراتب الخلق.
ولهذا ورد أن «أوّل ما خلق الله الماء» ـ مستدرك سفينة البحار: ١٠ / ٢٣٢ . .
ثمّ يأخذ في العود، فأوّل ما يحصل فيه مركّب من مادّة وصورة، ويُسمّى بالجسم ثمّ يتخصّص الجسم بصورة أعلى وأشرف، فيصير بها ذا اغتذاء ونموّ، ويُسمّى بالنبات.
ثمّ يزيد تخصّصه بصورة أُخرى أعلى ممّا قبلها، ويصير بها ذا حسّ وحركة، ويُسمّى بالحيوان، ثمّ يزيد تخصّصه بصورة أعلى وأفضل يصير بها ذا نطق ويُسمّى بالإنسان. وللإنسان مراتب كثيرة إلى أن يصير كاملاً ذا عقل مستفاد، فحينئذ تتمّ دائرة الوجود، وتنتهي سلسلة الخير والجود.
فالوجودات ابتدأت، فكانت عقلاً، ثمّ نفساً، ثمّ صورة، ثمّ مادّة، فعادت متعاكسة كأنّها دارت على نفسها جسماً مصوّراً، ثمّ نباتاً، ثمّ حيواناً ثمّ إنساناً ذا عقل، فابتدأ الوجود من العقل وإنتهى إلى العقل **﴿كما بدأكم تعودون﴾** ـ سورة الأعراف: ٢٩ . **﴿كما بدأنا أوّل خلق نُعيده﴾** ـ سورة الاعراف: ٢٩. .
وفي الحقيقة، من الله البدء، وإليه يعود، وإلى الله المصير.
والشرف والكمال إنّما هو بالدنوّ من الحقّ المتعال، ففي البدو كلّما تقدّم كان أوفر اختصاصاً.
وفي العود كلّما تأخّر كان أعلى مكاناً.
وإلى البدء أشير بليلة القدر، وإنزال الكتب وإرسال الرسل المعنويين **﴿تنزّلُ الملائكة والروحُ فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر﴾** ـ سورة القدر: ٤.، وإلى العود بيوم القيامة والمعراج المعنوي: **﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾** ـ سورة المعارج: ٤ . .
وعنهما عبّر في الأخبار بالإقبال والإدبار.

وأما البر، فقد يطلق ويراد به الصادق، وقد يطلق على الذي من عادته الإحسان، وبهما فُسر قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، وكثيراً ما يخص الأبرار بالأولياء والزّهاد والعبّاد، وبه فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾ [الإنفطار: ١٣] أي الأولياء المطيعون في الدنيا.

وقال في (**مجمع البيان**) في تفسير قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٥] هو جمع البرّ المطيع لله المحسن في أفعاله، وقال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذّر ولا يرضون الشرّ، وقيل: هم الذين يقضون الحقوق اللازمة والنافلة.

وأما التقوى فالمراد به هنا الخوف، يعني أنهم خائفون من الله تعالى وتاركون جميع القبائح البدنية والنفسانية.

وأشار إلى كمال خوفهم بقوله: (**قد بريهم الخوف بري القداح**) أي نحتهم مثل نحت السهام وصاروا مثلها في الدّقة والنحافة، وإنما يفعل الخوف ذلك لاشتغال النفس المدبّرة للبدن به عن النظر في صلاح البدن ووقوف القوة الشهوية والغاذية عن أداء بدل ما يتحلل.

وقد كان هذا الوصف ـ أعني كمال الخوف من الله سبحانه ونحول البدن من شدّته ـ مأثوراً عن علي بن الحسين عليه السلام.

فقد روى المفيد في (**الإرشاد**) عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة وكانت الريح تميله بمنزلة السنبلة[1].

وفيه أيضاً عن عبد الله بن محمد القرشي قال: كان علي بن الحسين عليه السلام إذا توضّأ يصفرّ لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يغشاك؟ فيقول: أتدرون لمن أتأهّب للقيام بين يديه؟.

وفيه أيضاً عن سعيد بن كلثوم عن الصادق عليه السلام في حديث مدح فيه علي بن أبي طالب

روي في الكافي بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله خلق العقل وهو أوّل خلق [خلقه] من الروحانيين، عن يمين العرش من نوره، فقال له أدبر فأدبر، ثمّ قال له أقبل فأقبل، فقال الله تعالى: خلقتك [خلقاً] عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي».

ثم قال: «خلق الجهل من البحر الاجاج ظلمانياً، فقال له أدبر فأدبر، ثمّ قال له أقبل، فلم يقبل، فقال له استكبرت، فلعنه» ـ محاسن البرقي: ١ / ١٩٦، الكافي: ١ / ٢١ ح ١٤ . .

ثمّ ذكر عليه السلام جنود العقل من الخيرات، وجنود الجهل من الشرور، والجهل يتميّز ويظهر بالعقل، فوجوده بالعرض من غير صنع، وادباره تابع لادبار العقل وإقباله جميعاً، وإنّما لم يقبل لأنّه بالادبار بلغ أقصى مراتب الكمال المتصوّر في حقّه، ولهذا استكبر.

(١) روضة الواعظين ١٩٧، ووسائل الشيعة ٤/٩٨ ح ٤٦١٤.

بما هو أهله وأطراه إلى أن قال: وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبهاً به في لباسه وفقهه من علي بن الحسين عليه السلام، ولقد دخل ابنه أبو جعفر عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد فرآه قد اصفرّ لونه من السهر ورمصت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة قال أبو جعفر: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء فبكيت رحمة له، الحديث[١].

وقد كان شيعتهم عليهم السلام أيضاً متّصفون بذلك.

كما رواه في **(الوسائل من الخصال)** عن عمرو بن أبي المقدام عن أبيه قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: يا أبا المقدام إنما شيعة علي الشاحبون الناحلون الذابلون، ذابلة شفاههم، خميصة بطونهم، متغيّرة ألوانهم، مصفرّة وجوههم، إذا جنّهم الليل اتخذوا الأرض فراشاً واستقبلوا الأرض بجباههم، كثير سجودهم، كثيرة دموعهم، كثير دعاؤهم، كثير بكاؤهم، يفرح الناس وهم محزونون[٢].

وفيه من **(أمالي)** ابن الشيخ قال: روي أن أمير المؤمنين خرج ذات ليلة من المسجد وكانت ليلة قمراء فأمّ الجبانة ولحقه جماعة يقفون أثره، فوقف عليهم ثم قال: من أنتم؟ قالوا: شيعتك يا أمير المؤمنين، فتفرّس في وجوههم، قال: فما لي لا أرى عليكم سيماء الشيعة؟ قالوا: وما سيماء الشيعة يا أمير المؤمنين؟ قال: صفر الوجوه من السهر، عمش العيون من البكاء، حدب الظهور من القيام، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، عليهم غبرة الخاشعين، هذا[٣].

ولغلبة الخوف عليهم ونحول أجسادهم وانحلال أعضائهم وشحب ألوانهم من الجدّ والاجتهاد في العبادة **(ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى و)** الحال أنه **(ما بالقوم من مرض و)** لتوجه نفوسهم بالملاء الأعلى، وخروج أفعالهم عن المعتادة المتعارفة بين الناس **(يقول)** الناظر لهم أنهم **(قد خولطوا)** أي اختلّ عقلهم وفسد **(و)** الحال أنهم ما خولطوا بل **(قد خالطهم)** أي مازجهم **(أمر عظيم)** من الخوف فتولهوا لأجله.

التاسع عشر: أنهم **(لا يرضون من أعمالهم القليل)** أي لا يقنعون بالقليل لعلمهم بشرف الغايات المقصودة من العبادات وعظم ما يترتب عليها من الثمرات، وهو العتق من النار والدخول في الجنة والوصول إلى رضوان الله الذي هو أعظم اللّذات وأشرف الغايات.

---

(١) وسائل الشيعة ١/ ٩١ ح ٢١٥، والإرشاد ٢/ ١٤٢.
(٢) مشكاة الأنوار ١٥٠، والخصال ٤٤٤.
(٣) أمالي الطوسي ٢٦٦ ح ٣٧٧، والإرشاد ١/ ٢٣٧.

ولذلك إن أولياء الدين وأئمة التقوى واليقين كان همهم مقصور على الجد والاجتهاد والتفرّغ للعبادة.

ولقد قام رسول الله ﷺ كما في رواية الاحتجاج عن الكاظم عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورّمت قدماه واصفرّ وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله تعالى: ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۞﴾ [طه: ١ـ ٢] بل لتسعد به.

وفي رواية (**الكافي**) عن أبي بصير عن الباقر عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً؟»(١).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وكذلك ولده علي بن الحسين عليهما السلام حسبما عرفت آنفاً.

وروي في (**الوسائل من العلل**) عن أبي حمزة قال: سألت مولاة لعلي بن الحسين عليهما السلام بعد موته فقلت: صفي لي أمور علي بن الحسين عليهما السلام؟ فقالت: أطنب أو أختصر؟ فقلت: بل اختصري، قالت: ما أتيته بطعام نهاراً قط ولا فرشت له فراشاً بليل قط(٢).

وروي فيه أيضاً من (**العيون**) عن عبد السلام بن صالح الهروي في حديث أن الرضا عليه السلام كان ربما يصلي في يومه وليلته ألف ركعة، وإنما ينفتل من صلاته ساعة في صدر النهار وقبل الزوال وعند اصفرارالشمس، فهو في هذه الأوقات قاعد في صلاة «مصلاه ظ» يناجي ربه.

إلى غير ذلك من الأخبار الواردة في وصف عباداتهم عليهم السلام، وكفى في تأكد المداومة على العبادة والتفرّغ لها بقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞﴾ [الذاريات: ٥٦].

روى في (**الوسائل من العلل**) بسنده عن جميل بن درّاج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك ما معنى قول الله عزَّ وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞﴾؟ فقال: خلقهم للعبادة.

---

(١) الكافي ٢/ ٩٥، ومشكاة الأنوار ٧٦.

(٢) علل الشرائع: ١/ ٢٣٢ ح ٩، والخصال: ٥١٨.

وفيه عن الكليني عن عمرو بن يزيد عن أبي[١] عبد الله عليه السلام قال: **في (التوراة)** مكتوب: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى ولا أكلك إلى طلبك، وعليّ أن أسدّ فاقتك وأملأ قلبك خوفاً مني.

وعن عمر بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال[٢] رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم يسر».

وعن أبي جميلة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: قال الله تبارك وتعالى: يا عبادي الصّديقين تنعّموا بعبادتي في الدنيا فإنكم تنعمون بها في الآخرة[٣].

(و) العشرون: أنهم **(لا يستكثرون)** من أعمالهم **(الكثير)** أي لا يعجبون بكثرة العمل ولا يعدّونه كثيراً وإن أتعبوا فيه أنفسهم وبلغوا غاية جهدهم، لمعرفتهم بأن ما أتوا به من العبادات وإن بلغت في كثرتها غاية الغايات زهيدة قليلة في جنب ما يترتب عليها من الثمرات، كما أشار إليه في الخطبة الثانية والخمسين بقوله:

فوالله لو حننتم حنين الوله العجال، ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جؤار المتبتّلي الرهبان، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده أو غفرانِ سيئة أحصتها كتبه وحفظها رسله، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه، هذا[٤].

مع ما في استكثار العمل من العجب الموجب لإهباطه وللوقوع في الخزي العظيم والعذاب الأليم.

روى في **(الوسائل من الخصال)** عن سعد الإسكاف عن أبي جعفر عليه السلام قال: ثلاث قاصمات الظهر: رجل استكثر عمله، ونسي ذنوبه، وأعجب برأيه.

ومن الخصال عن عبد الرحمٰن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال إبليس: إذا استمكنت من ابن آدم في ثلاث لم أبال ما عمل فإنه غير مقبول: إذا استكثر عمله، ونسي ذنبه، ودخله العجب[٥].

وفيه عن الكليني عن سماعة قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: لا تستكثروا الخير

---

(١) الكافي ٢/ ٨٣، ووسائل الشيعة ١١/ ٨٣.
(٢) الكافي ٢/ ٨٣، ووسائل الشيعة ١/ ٨٣.
(٣) الكافي ٢/ ٨٣، وأمالي ٣٧٧ ح ٤٧٧.
(٤) نهج البلاغة ١/ ١٠٢، وميزان الحكمة ٢/ ٢٥٤٢.
(٥) بحار الأنوار: ٦٩/ ٣١٥ ح ١٥، ومستدرك سفينة البحار: ١/ ٤١٤.

ولا تستقلوا قليل الذنوب[١].

وعن الكليني عن يونس عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث: «قال موسى بن عمران لإبليس: أخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»[٢].

وقال: قال الله عزَّ وجل لداود: يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصّديقين، قال: كيف أُبشر المذنبين وأُنذر الصّديقين؟ قال: يا داود بشّر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصّديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبداً نصبه للحساب إلا هلك.

ولما ذكر عدم رضاهم بالقليل وإعجابهم بالكثير فرع عليه قوله: **(فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون)** يعني أنهم يتّهمون أنفسهم وينسبونها إلى التقصير في العبادة.

روى في **(الوسائل)** عن الكليني عن سعد بن أبي خلف عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قال لبعض ولده: يا بنيّ، عليك بالجدّ ولا تخرجنّ نفسك من حد التقصير في عبادة الله عزَّ وجل فإن الله لا يعبد حقّ عبادته.

وعن الفضل بن يونس عن أبي الحسن عليه السلام قال: أكثر من أن تقول: اللهم لا تجعلني من المعارين ولا تخرجني من التقصير، قال: قلت له: أما المعارون فقد عرفت إن الرجل يعار الدّين ثم يخرج منه، فما معنى: لا تخرجني من التقصير؟ فقال: كل عمل تريد به وجه الله فكن فيه مقصّراً عند نفسك فإن الناس كلهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصّرون إلا من عصمه الله[٣].

وعن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله عزَّ وجل: لا يتّكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم أعمارهم في عباداتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جنّاتي ورفيع الدرجات العلى في جواري ولكن برحمتي فليتّقوا «فليثقوا ظ» وفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا»[٤].

وأما إشفاقهم من أعمالهم فخوفهم من عدم قبولها أو من عدم كونها جامعة لشرائط الصحة والكمال على الوجه الذي يليق به تعالى فيؤاخذوا به، وقد مدح الله سبحانه المؤمنين

---

(١) شرح أصول الكافي: ١٠/ ٢١١ ح ١٧، ووسائل الشيعة: ١/ ٩٦ ح ٣.

(٢) قصص الأنبياء ١٥٦.

(٣) الكافي ٢/ ٧٣، وشرح أصول الكافي ٨/ ٢٣٤.

(٤) الكافي ٢/ ٦١، ووسائل الشيعة ١/ ٩٦ ح ٢٣١.

بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

روى في الصافي من **(الكافي)** عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: هي شفاعتهم ورجاؤهم يخافون أن تردّ عليهم أعمالهم إن لم يطيعوا الله ويرجون أن تقبل منهم[١].

وفي **(مجمع البيان)** قال أبو عبد الله عليه السلام: معناه خائفة أن لا يُقبل منهم.

وفي **(الوسائل من الكافي)** عن عبد الرحمٰن بن الحجاج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ثم يعمل شيئاً من البرّ فيدخله شبه العجب به، فقال عليه السلام: هو في حاله الأولى وهو خائف أحسن حالاً منه في حال عجبه[٢].

الحادي والعشرون: أنه **(إذا زكى أحدهم)** أي وصف ومدح بما فيه من محامد الأوصاف ومكارم الأخلاق ومراقبة العبادات ومواظبة الطاعات **(خاف مما يقال له)** واشمئز منه **(فيقول: أنا أعلم بنفسي)** أي بعيوبها **(من غيري وربّي أعلم مني بنفسي)** وإنما يشمئز ويخاف من التزكية لكون الرضا بها مظنة الإعجاب بالنفس والإدلال بالعمل.

ولهذه النكتة أيضاً نهى الله سبحانه عن تزكية النفس، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] أي لا تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير والطهارة من المعاصي والرذائل، فإنه يعلم التقي وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم.

قال في **(مجمع البيان)**: أي لا تعظموها ولا تمدحوها بما ليس لها فإني أعلم بها، وقيل: معناه لا تزكوها بما فيها من الخير ليكون أقرب إلى النسك والخشوع، وأبعد من الرّياء هو أعلم بمن برّ وأطاع وأخلص العمل.

وروى في **(الصافي من العلل)** عن الصادق عليه السلام أنه سئل عنها قال: يقول: لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه، لأن الله عزَّ وجل أعلم بمن اتّقى منكم[٣].

وقوله: **(اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون)** أي لا تؤاخذني بتزكية المزكين التي هي مظنة الإعجاب الموجب للسخط والمؤاخذة، واجعلني أفضل مما يظنون في التقوى والورع، واغفر لي الهفوات والآثام التي أنت عالم بها وهي مستورة عنهم.

---

(١) شرح أصول الكافي ١٢/ ٣٠٧ ح ٢٩٤، وتفسير الصافي ٣/ ٤٠٢.

(٢) الكافي ٢/ ٣١٤ ح ٨.

(٣) بحار الأنوار ٥/ ٢٣٣.

وعلى ما ذكرنا فهذه الجملة الدعائية متمّ كلام المتقين الذي حكاه عليه السلام عنهم، يعني إذا زكى أحدهم يخاف منه ويجيب المزكي بقوله: أنا أعلم بنفسي (اهـ)، ويدعو ربه بقوله: اللهم لا تؤاخذني (اهـ).

والعجب من الشارح المعتزلي حيث زعم أن هذه الجملة من كلام أمير المؤمنين نفسه لا حكاية عن المتقين قال: وقوله: **(اللهم لا تؤاخذني بما يقولون)**، إلى آخر الكلام، مفرد مستقلّ بنفسه منقول عنه عليه السلام أنه قاله لقوم مرّ عليهم وهم مختلفون في أمره، فمنهم الحامد له، ومنهم الذام فقال: اللهم لا تؤاخذني (اهـ)، ومعناه: اللهم إن كان ما ينسبه الذّامون إليّ من الأفعال الموجبة للذمّ حقاً فلا تؤاخذني بذلك، واغفر لي ما لا يعلمونه من أفعالي، وإن كان ما يقوله الحامدون حقاً فاجعلني أفضل مما يظنونه فيّ، انتهى[1].

والأظهر ما ذكرنا كما لا يخفى، هذا.

ولما ذكر جملة من أوصافهم الجميلة أردفها بسائر أوصافهم التي بها يعرفون وقال: **(فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوّة في دين)** أي تراه متصلباً فيه لا يؤثر فيه تشكيك المشكك ولا ينخدع بخداع الناس.

(وحزماً في لين) أي يكون لينه عن حزم وتثبت لا عن مهانة، وقال الشارح البحراني: يكون له الحزم في الأمور الدنيوية والتثبت فيها ممزوجاً باللين للخلق وعدم الفظاظة، وهي فضيلة العدل في المعاملة مع الخلق.

(وإيماناً في يقين) أي إيماناً مع يقين، فإن الإيمان وهو معرفة الصانع والرسول والتصديق بما جاء به من عند الله لما كان قابلاً للشدة والضعف، فتارة يكون عن وجه التقليد وهو الاعتقاد المطابق لا لموجب، وأخرى عن وجه العلم وهو الاعتقاد المطابق لموجب هو الدليل، وثالثه عن العلم به مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك وهو علم اليقين، أراد أن علمهم بأصول العقائد علم يقين لا يتطرق إليه احتمال.

وفي **(الكافي)** عن جابر قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا أخا جعفي إن الإيمان أفضل من الإسلام، وإن اليقين أفضل من الإيمان، وما من شيء أعزّ من اليقين[2].

وعن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الإيمان والإسلام فقال: قال أبو جعفر عليه السلام: إنما هو الإسلام والإيمان فوقه بدرجة والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسم بين الناس شيء أقل من

---

(١) شرح النهج: ١٠/١٤٨.

(٢) الكافي ٢/٥١.

اليقين، قال: قلت: فأي شيء اليقين؟ قال: التوكل على الله والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله، قلت: فما تفسير ذلك؟ قال: هكذا قال أبو جعفر عليه السلام[١].

قال بعض شراح (**الكافي**) في شرح هذا الحديث: الإسلام هو الإقرار والإيمان إما التصديق أو التّصديق مع الإقرار، وعلى التقديرين فهو فوق الإسلام بدرجة، أما على الثاني فظاهر، وأما على الأول فلأن التصديق القلبي أفضل وأعلى من الإقرار اللساني كما أن القلب أفضل من اللسان، والتقوى فوق الإيمان بدرجة لأن التقوى هو التجنّب عما يضر في الآخرة وإن كان ضرره يسيراً، واليقين فوق التقوى لأن التقوى قد لا تكون في مرتبة اليقين، وهي التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: لو كشف الغطاء لما ازددت يقيناً.

(**وحرصاً في علم**) أي وحرصاً في طلب العلم النافع في الآخرة والازدياد منه.

(**وعلماً في حلم**) أي علماً ممزوجاً بالحلم، وقد مرّ توضيحه في شرح قوله: وأما النهار فعلماء حلماء.

(**وقصداً في غنى**) يحتمل أن يكون المراد اقتصاده في طلب المال وتحصيل الثروة، يعني أنه لا يجاوز الحد في كسب المال وتحصيل الغنى بحيث يؤدي إلى فوات بعض ما عليه من الفرائض كما هو المشاهد في أبناء الدنيا، وأن يكون المراد أنه مع غناه مقتصد في حركاته وسكناته ومصارف ماله بل جميع أفعاله يعني أن غناه لم يوجب طغيانه وخروجه عن القصد وتجاوزه عن الحد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

(**وخشوعاً في عبادة**) أي خضوعاً وتذللاً في عباداته، وقد وصف الله المؤمنين بذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ٢].

قال في (**مجمع البيان**): أي خاضعون متواضعون متذللون لا يدفعون أبصارهم عن مواضع سجودهم ولا يلتفتون يميناً وشمالاً.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: «أما أنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[٢].

وفي هذا دلالة على أن الخشوع في الصلاة يكون بالقلب وبالجوارح، فأما بالقلب فهو أن يفرغ قلبه بجميع الهمة لها والإعراض عما سواها فلا يكون فيه غير العبادة والمعبود، وأما بالجوارح فهو غضّ البصر والإقبال عليها وترك الالتفات والعبث. قال ابن عباس: خشع فلا يعرف من على يمينه ومن على يساره.

---

(١) شرح أصول الكافي ١٦٦/٨.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٧٦/٧.

(وتجمّلاً في فاقة) أي يتعفّف ويظهر الغنى في حال فقره ويترك السؤال ويستر ما هو عليه من الفقر، وأصل التجمّل هو تكلّف الجميل.

وقد مدح الله سبحانه أصحاب الصفة بذلك في قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وكانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفّة مسجد رسول الله ﷺ يستغرقون أوقاتهم بالتعلّم والعبادة وكانوا يخرجون في كل سريّة يبعثها رسول الله ﷺ يظنّهم الجاهل بحالهم وباطن أمورهم أغنياء من التعفّف، أي من أجل التعفّف والامتناع من السؤال والتجمّل في اللباس والسّتر لما هم عليه من الفقر وسوء الحال طلباً لرضوان الله وجزيل ثوابه تعرفهم بسيماهم، أي تعرف حالهم بما يُرى في وجوههم من علامة الفقر من رثاثة الحال وصفرة الوجه لا يسألون الناس أصلاً فيكون إلحاح أي إصرار في السؤال، فهو من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع مثل قولك: ما رأيت مثله وأنت تريد أنه لا مثل له فيُرى، لا أن له مثلاً ما رأيته.

قال في **(مجمع البيان)** في الحديث: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويكره البؤس والتباؤس، ويحبّ الحليم المتعفّف من عباده، ويبغض البذيء السائل الملحف.

(وصبراً في شدّة) أي يتحمّل على شدائد الدنيا ومكارهها ويستحقرها بجنب ما يتصوره من الفرحة بلقاء الله وبما بشّر به من عظيم الأجر للصابرين في كتابه المبين مضافاً إلى ما فيه من التأسّي والاتباع للسلف الصالحين من الأنبياء والمرسلين وأولياء الدّين.

روى في (الكافي) عن حفص بن غياث قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا حفص إن من صبر صبر قليلاً، وإن من جزع جزع قليلاً، ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله عزّ وجل بعث محمداً ﷺ فأمره بالصبر والرّفق فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١٠ ـ ١١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥]. فصبر رسول الله ﷺ حتى نالوه بالعظائم ورموه بها، فضاق صدره فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨] ثم كذّبوه ورموه فحزن لذلك فأنزل الله عزّ وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٣ ـ ٣٤] فألزم النبي ﷺ نفسه الصبر، فتعدّوا فذكروا الله تعالى وكذّبوه فقال: قد صبرت في نفسي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلٰهي، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨ ـ ٣٩] فصبر النبي ﷺ في

جميع أحواله ثم بشر في عترته بالأئمة ووصفوا بالصبر فقال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] فعند ذلك قال صلى الله عليه وآله: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»، فشكر الله عزّ وجل ذلك له فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] فقال صلى الله عليه وآله: «إنه بشرى وانتقام»، فأباح الله عزّ وجلّ له قتال المشركين فأنزل: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] فقتلهم الله على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وأحبائه وعجّل له ثواب صبره مع ما ادّخر له في الآخرة. فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتى يقرّ الله عينه في أعدائه مع ما ادّخر له في الآخرة(١).

(**وطلباً في حلال**) أي يطلب الرزق من الحلال ويقتصر عليه ولا يطلبه من الحرام.

روى في (**الوسائل**) عن الكليني بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: «ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يخفنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بمعصية الله، فإن الله تبارك وتعالى قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً، فمن اتقى وصبر آتاه الله برزقه من حلّه، ومن هتاك حجاب السر «كذا» وعجل فأخذه من غير حله قصّ به من رزقه الحلال وحوسب عليه يوم القيامة»(٢).

وفيه عن (**المفيد في المقنعة**) قال: قال الصادق عليه السلام: الرزق مقسوم على ضربين، أحدهما واصل إلى صاحبه وإن لم يطلبه، والآخر معلق بطلبه، فالذي قسّم للعبد على كل حال آتيه وإن لم يسع له، والذي قسّم له بالسعي فينبغي أن يلتمسه من وجوهه وهو ما أحلّه الله له دون غيزه، فإن طلبه من جهة الحرام فوجده حسب عليه برزقه وحوسب به(٣).

(**ونشاطاً في هدى**) أي خفة وإسراعاً فيه، وبعبارة أخرى أن يكون سلوكه لسبيل الله وإتيانه بالعبادات المشروعة الموصلة إلى رضوان الله سبحانه بطيب النفس وعلى وجه الخفة والسهولة لا عن الكسل والتغافل، وذلك ينشأ عن قوة اليقين فيما وعد الله المتقين من الجزاء الجميل والأجر العظيم بخلاف أهل الرّياء فإنه يكسل في الخلوة وينشط بين الناس.

كما روى في (**الوسائل**) عن الكليني عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير

(١) الكافي ٢/ ٨٩ ح ٣، ووسائل الشيعة ١٥/ ٢٦٢ ح ٢٠٤٥٤.
(٢) الوسائل ١٧/ ٤٥ ح ١٩٣٨، وتهذيب الأحكام ٦/ ٣٢١ ح ٨٨٠.
(٣) الوسائل ١٧/ ٤٧ ح ٢١٩٤٦.

المؤمنين عليه السلام: ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحب أن يحمد في جميع أموره.

(وتحرّجاً عن طمع) أي تجنباً عنه أي لا يطمع فيما في أيدي الناس لعلمه بأنه من الرذائل النفسانية ومنشأ المفاسد العظيمة لأنه يورث الذلّ والاستخفاف والحقد والحسد والعداوة والغيبة وظهور الفضائح والمداهنة لأهل المعاصي والنفاق والرياء وسدّ باب النهي عن المنكر والأمر بالمعروف وترك التوكل على الله والتضرع إليه وعدم الرضا بقسمه إلى غير ذلك مما لا يحصى.

روى في **(الكافي)** عن سعدان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: الذي يثبت الإيمان في العبد؟ قال: الورع، والذي يخرجه منه؟ قال: الطمع(١).

وعن الزهري قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام: رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع مما في أيدي الناس(٢).

وفيه مرفوعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: بئس العبد عبد له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذله(٣).

(يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل) أي على خوف من ردّها وعدم قبولها لعدم اقترانها بالشرائط المقتضية للقبول كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وقد مضى توضيح ذلك في شرح قوله عليه السلام من هذه الخطبة: ومن أعمالهم مشفقون.

(يُمسي وهمه الشكر ويُصبح وهمه الذّكر) قال الشارح البحراني: أي يكون همّه عند المساء الشكر على ما رزق بالنهار وما لم يُرزق، ويُصبح وهمُّه ذكر الله ليذكره الله فيرزقه من الكمالات النفسانية والبدنية كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

أقول: ما ذكره «ره» قاصر عن تأدية المراد غير واف بإفادة نكتة تقييد الاهتمام بالذكر بالصباح والاهتمام بالشكر بالمساء، فالأولى أن يقال:

أما كون همّه مقصوراً على الذكر في الصباح فلتأكد استحباب الذكر فيه.

---

(١) الكافي ٢/ ٣٢٠، والخصال ٩ ح ٢٩.
(٢) الكافي ٢/ ١٤٨، والوسائل ٩/ ٤٤٩ ح ١٢٤٦٩.
(٣) الكافي ٢/ ٣٣٠ ح ٢.

ويدل عليه ما رواه في (**الوسائل**) من مجالس الصدوق بإسناده عن عمير بن ميمون قال: رأيت الحسن بن علي عليه السلام يقعد في مجلسه حين يصلي الفجر حتى تطلع الشمس، وسمعته يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من صلّى الفجر ثم جلس في مجلسه يذكر الله حتى تطلع الشمس ستره الله من النار، ستره الله من النار، ستره الله من النار».

وفيه أيضاً من (**المجالس**) عن أنس في حديث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعثمان بن مظعون: «من صلى الفجر في جماعة ثم جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس كان له في الفردوس سبعون درجة بُعْدُ مَا بين درجتين كحضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة».

وفيه عن الشيخ عن ابن عمر عن الحسن بن علي عليه السلام قال: سمعت أبي علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيما امرىء جلس في مصلاه الذي صلى فيه الفجر يذكر الله حتى تطلع الشمس كان له من الأجر كحجاج بيت الله وغُفر له»[1].

والنكتة الأخرى في ذلك أن الله سبحانه لما خلق النهار لتحصيل المعاش وطلب الرزق والابتغاء من فضله، كما أنه خلق الليل للدّعة والسكون والراحة والنوم، وكان للذكر عند الصباح مدخل عظيم في الرزق لا جرم كان اهتمامهم بالذكر فيه.

أما أن خلق النهار للرزق والمعاش فلقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبا: ٩ـ ١١].

وأما أن الذّكر في الصبح جالب للرّزق.

فلما رواه في (**الوسائل**) عن الصادق عليه السلام قال: الجلوس بعد صلاة الغداة في التعقيب والدعاء حتى تطلع الشمس أبلغ في طلب الرّزق من الضرب في الأرض[2].

وفيه عن الكليني عن حماد بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لجلوس الرجل في دبر صلاة الفجر إلى طلوع الشمس أنفذ في طلب الرزق من ركوب البحر، قلت: قد يكون للرجل الحاجة يخاف فوتها، فقال عليه السلام: يدلج فيها وليذكر الله عزّ وجل فإنه في تعقيب ما دام على وضوئه[3].

وبمعناهما أخبار أُخر لا نطيل بروايتها.

---

(١) دعائم الإسلام ١/ ١٦٧، وثواب الأعمال ٤٥.

(٢) الكافي ٣/ ٤٣١، ومن لا يحضره الفقيه ١/ ٣٢٩ ح ٩٦٦.

(٣) وسائل الشيعة ٦/ ٤٥٨.

وأما كون همّه بالشكر عند المساء، فلأن المساء ضد الصباح وإذا كان طلب الرزق واستنزال النعمة بالذّكر في أول النهار حسبما عرفت، فناسب أن يكون الشكر على النعم النازلة في النهار في آخره كما هو واضح.

(**يبيت حذراً او يُصبح فرحاً**) الظاهر عدم القصد إلى تخصيص الحذر بالبيات والفرح بالصباح، وإنما المراد أنه يبيت ويصبح جامعاً بين وظيفتي الخوف والرّجاء، فعبر عن الخوف بالحذر وعن الرجاء بالفرح لكونه موجباً للفرح والسرور.

وأشار إلى علتهما بقوله: (**حذراً لما حذّر**) منه (**من الغفلة**) والتقصير في رعاية وظائف العبودية، لما عرفت في شرح قوله: فهم لأنفسهم متّهمون ومن أعمالهم مشفقون، من عدم جواز إخراج النفس من حدّ التقصير في عبادته تعالى وإن بولغ فيها.

وبقوله: (**وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة**) أي بما وُفق له من فضل الله سبحانه وما تفضّل به عليه من دين الإسلام وموالاة محمد وآل محمد ﷺ وما أتى ﷺ به من شرائع الأحكام، فإن ذلك كله فضل منه عزّ وجل ورحمة يوفق له من يشاء من عباده كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧٣ـ ٧٤].

ويحتمل أن يكون المراد بما أصاب خصوص ما أتى به من الفروعات العملية والعبادات الشرعية الموجبة لفضل الله ورحمته عليه في الآخرة، فيكون محصل المراد بهذه الجملة سروره وفرحه بحسناته، لما فيها من رجاء الأجر والثواب، وبالجملة السابقة مساءته وخوفه من الغفلة لما فيها من الوزر والعقاب.

روى في (**الوسائل**) عن الكليني، عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن[1].

وعن سليمان عمن ذكره عن أبي جعفر عليه السلام قال: سئل النبي ﷺ عن خيار العباد فقال: «الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا»[2].

(**إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحبّ**) لما كان من شأن المتقي كراهته للمعاصي ومحبته للحسنات، ومن شأن نفسه الأمارة بالسوء عكس ذلك، أي

---

(١) كنز الفوائد ١٣.

(٢) روضة الواعظين ٢٩٥، ووسائل الشيعة ١٦/ ٦٧.

كراهته للحسنات ومحبته للمعاصي يقول عليه السلام: إن نفسه إن لم تطعه ولم يتمكن له في إتيان العبادات والحسنات التي تكرهها وكان ميلها ومحبتها في السيئات لم يعطها سؤلها ولا يطاوعها فيما تريد، بل يقهرها على خلاف ما تكره وتحب، ومحصّله أنه يجاهد نفسه لعلمه بأنها عدو له[١].

روى في (**الوسائل**) عن الكليني عن أحمد بن محمد بن خالد رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لرجل: اجعل قلبك قريناً برّاً وولداً واصلاً، واجعل علمك والداً تتبعه، واجعل نفسك عدواً تجاهده، واجعل مالك عارية تردها.

وفيه عن الصّدوق قال: ومن ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله: «الشديد من غلب نفسه».

وعن الصدوق عن المفضل بن عمر قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: من لم يكن له واعظ من قلبه، وزاجر من نفسه، ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه[٢].

وهذا الجهاد ـ أعني مجاهدة النفس ـ هو الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بالجهاد الأكبر، كما مر في الحديث الذي رويناه في شرح الخطبة الخامسة والثمانين ومضى هنالك أيضاً بعض الأخبار المناسبة لهذا المقام فلينظر ثمة.

(**قرّة عينه فيما لا يزول**) أي سروره وابتهاجه المستلزم لقرّة عينه في الباقيات الصالحات والسعادات الأخروية الباقية.

(**وزهادته فيما لا يبقى**) أي زهده في الدنيا وزخارفها الفانية.

(**يمزج الحلم بالعلم**) قد مرّ الوصف بالحلم والعلم في قوله: وأما النهار فحلماء علماء، وقدمنا هناك تفسير معناهما ولا حاجة إلى الإعادة وإنما أعاد عليه السلام الوصف بهما قصداً إلى أنه قد خلط حلمه بعلمه يعني قد تزيّن مع علمه بالحلم والوقار وليس بعالم سفيه جبّار.

كما قال أبو عبد الله عليه السلام في رواية (**الكافي**): اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبّارين فيذهب باطلكم بحقّكم.

وفيه بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: يا طالب العلم إن للعالم ثلاث علامات: العلم، والحلم، والصمت. وللمتكلّف

---

(١) الكافي ٢/ ٤٥٤، ووسائل الشيعة ١٥/ ١٦٢ ح ٢٠٢١٢.

(٢) أمالي ٥٢٦٠ ح ٧٢١، ووسائل الشيعة ١٢/ ٤١ ح ١٥٥٩٠.

ثلاث علامات: ينازع من فوقه بالمعصية، ويظلم من دونه بالغلبة، ويظاهر الظلمة[١].

وفيه بسند مرفوع عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال عليه السلام: لا يكون السّفه والغرّة في قلب العالم، هذا[٢].

وقال بعض الشارحين: معنى قوله: يمزج الحلم بالعلم أنه يحلم مع العلم بفضيلة الحلم لا كحلم بعض الجاهلين عن ضعف النفس وعدم المبالاة بما قيل له وفعل به، ولا بأس به.

(و) يمزج (**القول بالعمل**) أي يكون عمله موافقاً لقوله بأن يأمر بالمعروف ويأتي به، وينهى عن المنكر ويتناهى عنه، ويعد ويفي بوعده لا أن يقول ما لا يفعل ويعد فيخلف فيستحق بذلك السخط العظيم والمقت الشديد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، وقال: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ۝﴾ [الشعراء: ٩٤].

روى في (**الكافي**) عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية قال: هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره[٣].

(**تراه قريباً أمله**) لأن بعد الأمل وطوله ينشأ من حبّ الدنيا ونسيان الآخرة، حسبما عرفته تحقيقاً وتفصيلاً في شرح الخطبة الثانية والأربعين، والمؤمن المتّقي لزهده في الدنيا ونفرته عنها واشتياقه إلى الآخرة لا يطول له الأمل البتة كما هو ظاهر.

(**قليلاً زلله**) أي خطأه وذنبه لما له من ملكة العدالة المانعة من ارتكاب الكبائر وإصرار الصغائر.

(**خاشعاً قلبه**) أي خاضعاً ذليلاً من تصوّر عظمة الرب المتعال جلّ جلاله.

(**قانعة نفسه**) بما قدّره الله تعالى في حقه راضية بالقسم المقسوم مستغنية عن الناس.

روى في (**الكافي**) بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أراد أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يد غيره»[٤].

وفيه عن عمر بن أبي المقدام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مكتوب في (**التوراة**): يا ابن

---

(١) الكافي ١/ ٣٧، وبحار الأنوار ٢/ ٥٩.
(٢) الكافي ٢/ ٣٦، ووسائل الشيعة ١٦/ ٣٠ ح ٢٠٨٨٥.
(٣) المحاسن ١/ ١٢١، والكافي ١/ ٤٧.
(٤) روضة الواعظين ٤٢٦.

آدم، كن كيف شئت كما تدين تدان من رضي من الله بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفّت مؤنته وزكت مكسبته وخرج من حدّ الفجور[١].

وفيه عن محمد بن عرفة عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: من لم يقنعه من الرزق إلا الكثير لم يكفه من العمل إلا الكثير، ومن كفاه من الرزق القليل فإنه يكفيه من العمل القليل[٢].

(منزوراً أكله) أي قليلاً، فإن الجوع والتقليل من الطعام يورث رقة القلب وصفاء الذهن وإنفاذ البصيرة، وإيقاد القريحة والاستعداد للذّة المناجات والتأثر بالذكر والموعظة، مضافاً إلى ما فيه من المنافع الكثيرة التي أشرنا إليها في شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والتاسعة والخمسين.

وكفى في فضله أن فيه تأسياً بالسلف الصالحين من الأنبياء والمرسلين والأئمة المعصومين وأصحابهم الأكرمين حسبما عرفت في شرح الخطبة المذكورة فليراجع ثمة.

(سهلاً أمره) أي خفيف المؤنة لا يتكلّف لأحد ولا يكلّفه فإن شرّ الإخوان من يتكلّف له.

(حريزاً دينه) أي محرزاً محفوظاً من تطرّق الشكوك والشّبه لرسوخه وكونه عن علم اليقين المانع من عروض الاحتمال والخلل حسبما عرفت في شرح قوله: وإيماناً في يقين.

(ميتة شهوته) قال الشارح البحراني: لفظ الموت مستعار لخمود شهوته عما حرّم عليه ويعود إلى العفة.

أقول: روى في **(الكافي)** عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث أخافهن على أمتي بعدي: الضلالة بعد المعرفة، ومضلات الفتن، وشهوة البطن والفرج»[٣].

وفيه عن ميمون القداح قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ما من عبادة أفضل من عفّة بطن وفرج[٤].

وعن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) الكافي ٢/١٣٨، ووسائل الشيعة ١٥/٢٩٣ ح ٢٠٥٥٠.
(٢) الكافي ٢/١٣٨، ووسائل الشيعة ٢١/٥٣١ ح ٢٧٧٧٦.
(٣) عيون أخبار الرضا ١/٣٢، وبحار الأنوار ١٠/٣٦٨.
(٤) وسائل الشيعة ٢٠/٣٥٦ ح ٢٥٨١٧.

يقول: أفضل العبادة العفاف[١].

وفي (الوسائل) عن الصدوق بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمحمد بن الحنفية قال: ومن لم يعط نفسه شهوتها أصاب رشده[٢].

(مكظوماً غيظه) أي محبوساً، وكظم الغيظ حبسه وتكلف الحلم عند هياج الغضب، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] مدحهم بهذه الصفة يعني أنهم يحبسون غيظهم ويتجرّعونه عند القدرة.

روى في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن بعض أصحابه عن مالك بن حصين السكوني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عزَّ وجل عزاً في الدنيا والآخرة وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وأثابه الله مكان غيظه ذلك.

وفيه بإسناده عن أبي حمزة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من جرعة يتجرّعها العبد أحب إلى الله عزَّ وجل من جرعة غيظ يتجرّعها عند ترددها في قلبه إما بصبر وإما بحلم.

وعن سيف بن عميرة قال: حدثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه[٣].

وعن أبي حمزة بن علي بن الحسين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أحب السبيل إلى الله عزَّ وجل جرعتان: جرعة غيظ تردّها بحلم وجرعة مصيبة تردّها بصبر»[٤].

والأخبار في فضله كثيرة وقد عقد في (الكافي) باباً عليه وما أوردناها كافية في المقام.

(الخير منه مأمول) لكثرة الخيرات الصادرة منه وغلبتها الموجبة لأن يرجى ويؤمل منه خيره.

(والشر منه مأمون) لملكة التقوي المانعة من إقدامه على الشرور الباعثة على الأمن من شرّه.

(إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين) قال الشارح المعتزلي والبحراني وغيرهما: يعني أنه إن كان مع الغافلين عن ذكر الله وفي عدادهم كتب في الذاكرين لكونه ذاكراً لله بقلبه وإن لم يذكره بلسانه.

---

(١) وسائل الشيعة ١١/١٩٨.
(٢) وسائل الشيعة ١٥/٢٥، والكافي ٢/١١٠، والمحاسن ١/٢٩٢.
(٣) الكافي ٢/١١٠.
(٤) الكافي ٢/١١٠.

أقول: والأظهر عندي أن الغرض به الإشارة إلى دوام ذكره، يعني أنه مع كونه بين الغافلين وفي مجلسهم لا يغفل عن ذكره عزَّ وجل كغفلتهم عنه، بل يداوم عليه ويكتب في زمرة الذاكرين لعلمه بأن الذكر في الغافلين يوجب مزيد الأجر.

ويدل عليه ما في (**الكافي**) عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الذاكر لله عزَّ وجل في الغافلين كالمقاتل في المحاربين[١].

وعنه عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارّين، والمقاتل عن الفارّين له الجنة»[٢].

وفي (**الوسائل**) عن الشيخ بإسناده عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «يا أبا ذر الذاكر في الغافلين كالمقاتل في الفارّين في سبيل الله».

وفيه من (**عدّة الداعي**) قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من ذكر الله في السوق مخلصاً عند غفلة الناس وشغلهم بما فيه كتب الله له ألف حسنة وغفر الله له يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر»[٣].

(**وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين**) لعدم غفلته عن الذكر، لأنه مع عدم غفلته عنه مع كونه بين الغافلين كما عرفت آنفاً فعدم غفلته عنه إذا كان في الذاكرين بطريق أولى، ويجوز أن يراد به معنى آخر وهو الإشارة إلى كون ذكره عن وجه الخلوص والقربة وعدم كتبه من الغافلين لأجل ذلك، وأما غيره فربما يكتب من الغافلين وإن كان ذاكراً لعدم كون ذكره عن وجه الإخلاص بل يقصد الرّياء كما قال تعالى في حق المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

قال بعض المفسرين: إنما وصف الذكر بالقلّة لأنه سبحانه لم يقبله وكل ما ردّه الله فهو قليل.

روى الطبرسي في (**مجمع البيان**) عن العياشي بإسناده عن مسعدة بن زياد عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل: فيم النجاة غداً؟ قال: «النجاة أن لا تخادعوا الله فيخدعكم فإنه من يخادع الله يخدعه ونفسه يخدع لو شعر»، فقيل: إنه فكيف يخادع الله؟

---

(١) الكافي ٢/ ٥٠٢.

(٢) الكافي ٢/ ٥٠٢، ووسائل الشيعة ٧/ ١٦٥ ح ٩٠١٩.

(٣) وسائل الشيعة ٧/ ١٦٦ ح ٩٠٢٢، وعدة الداعي ٢٤٢.

قال: «يعمل بما أمره الله ثم يريد به غيره، فاتقوا الرّياء فإنه شرك بالله إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك وبطل أجرك ولا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له»[١].

فقد ظهر بذلك أن الذكر المشوب بالرّياء غير مكتوب في صحائف الحسنات بل في صحائف السيئات، والذاكر كذلك مكتوب في الخائبين الخاسرين فضلاً عن الغافلين، هذا.

ولا يخفى حسن المقابلة والمطابقة بين هذه القرينة والقرينة السابقة من كلامه عليه السلام وهي من مقابلة الثلاثة بالثلاثة.

(يعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل من قطعه) هذه الصفات الثلاث من مكارم الأخلاق ومحامد الخصال، فالأولى مندرجة تحت الشجاعة، والثانية مندرجة تحت السخاء، والثالثة مندرجة تحت العفة، وقد وردت الأخبار في فضلها كثيراً.

منها ما رواه في **(الكافي)** بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة: «ألا أخبركم بخير خلائق «أخلاق خ» الدنيا والآخرة: العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من حرمك»[٢].

وعن أبي حمزة الثعالبي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: سمعته يقول: إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم ينادي مناد: أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا ونعطي من حرمنا ونعفو عمن ظلمنا، قال: فيقال لهم: صدقتم ادخلوا الجنة[٣].

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ثلاث لا يزيد الله بهن المرء إلا عزاً: الصفح عمن ظلمه، وإعطاء من حرمه، والصلة لمن قطعه[٤].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة أوردها الكليني في باب العفو من **(الكافي)** ولامهم بنا إلى الإطالة، هذا.

وإنما خصّ العفو بمن ظلمه لقوة الداعي إلى الانتقام عنه وحاجة العفو حينئذ إلى

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٥٥، وتفسير مجمع البيان ٣/ ٢٢١، وتفسير الميزان ٥/ ١٢١.

(٢) الكافي ٢/ ١٠٧، والأمالي ٣٥٥ ح ٤٣٣.

(٣) الكافي ٢/ ١٠٨، وميزان الحكمة ٣/ ٢٤٣٤.

(٤) الكافي ٢/ ١٠٩، ووسائل الشيعة ١٢/ ١٧٣ ح ١٥٩٩٦.

مجاهدة نفسانية كاملة وكذلك إعطاء من حرمه وصلة من قطعه.

قال بعض شراح (**الكافي**): من صفات الكرام العفو عن الظلم والتجاوز عن المسيء، ومن صفات اللئام الانتقام وطلب التشفي والمعاقبة لدفع الغيظ وهو آفة نفسانية تغير الجهال والناقصين من أجل تأثّر نفوسهم عن كل ما يخالف هواها.

وأما إعطاء من حرمك فالمقصود به أنه إذا أحسنت إلى أحد ولم يقابل إحسانك بإحسان أو قابلك بالإساءة والكفران، فلا ترغب عن إحسانه بكفرانه، فإنه إذا لم يشكرك فقد يشكرك غيره، ولو لم يشكرك أحد فإن الله يحب المحسنين كما نطق به الكتاب المبين، وكفى شرفاً وفضلاً بأن تخاطب بخطاب أين أهل الفضل يوم الحشر الأولين والآخرين؟.

وأما صلة من قطعك فالمراد بها وصله بالمال واليد واللسان ومراقبة أحواله بقدر الإمكان لا سيما إذا كان من الأرحام حسبما عرفت في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثالثة والعشرين على بسط وتفصيل.

(**بعيداً فحشه**) إن أريد بالفحش معناه الظاهر أي السبّ وبذاءة اللسان فلا بد من صرف لفظ البعيد عن ظاهره وجعله كناية عن العدم، وإن أبقى البعد على ظاهره المفيد لإقدامه على الفحش أحياناً فلا بد من ارتكاب التأويل في لفظ الفحش وجعل المراد به فضول الكلام والقول القبيح الغير البالغ إلى حد الحرام لئلا ينافي ملكة العدالة والتقوى التي للمتقي.

وكيف كان فالفحش بمعناه الظاهر من الموبقات العظيمة، وقد حذّر منه في الأخبار الكثيرة وبشّر الفحاش بالنار.

مثل ما في (**الكافي**) بإسنادهِ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فحاشاً لا يبالي بما قال ولا بما قيل له.

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم الرجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل له فإنه لغيّة أو شرك شيطان»(١).

وعن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله حرّم الجنة على كل فحاش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له، فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغيّة أو شرك شيطان»، قيل: يا رسول الله، وفي الناس شرك شيطان؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما تقرأ قول الله عزّ وجل: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤]»، قال: وسأل رجل فقيهاً: هل في الناس من لا يبالي ما قيل له؟ قال: «من تعرّض الناس بشتمهم

(١) الكافي ٢/٣٢٣، ووسائل الشيعة ١٦/٣٢.

وهو يعلم أنهم لا يتركونه فذلك لا يبالي ما قال ولا ما قيل له»[١].

وعن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن من شرّ عباد الله من تكره مجالسته لفحشه».

وعن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: البذاء من الجفاء والجفاء في النار[٢].

(**ليّناً قوله**) أي يتكلم بالرفق ولا يغلظ في كلامه، فإن الرفق في القول يوجب المحبة ويجلب الإلفة ويدعو إلى الإجابة عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولذلك أمر الله عزّ وجل موسى وهارون عليهما السلام عند بعثهما إلى فرعون بأن يقولا له قولاً ليّناً ليكون أسرع إلى القبول وأبعد من النفور.

وروى في (**الكافي**) بإسناده عن عمار الساباطي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزّك[٣].

(**غائباً منكره حاضراً معروفه**) أي مفقوداً أعماله القبيحة المحرمة موجوداً أعماله الحسنة المتضمنة للرجحان الشرعي من الواجبات والمندوبات.

(**مقبلاً خيره مدبراً شره**) يعني أنه من الأخيار كثير الخير قليل الشر كما وصفه سابقاً بقوله: الخير منه مأمول والشر منه مأمون.

ومحصّل معناه أن خيره في إقبال يزيد شيئاً فشيئاً وشرّه في إدبار ينقص شيئاً فشيئاً إذ بقدر الزيادة في طلب الخير تحصل النقيصة في جانب الشر لأن كثرة أحد المتضادّين توجب بمقتضى التضاد قلّة الآخر كما هو ظاهر.

(**في الزلازل وقور**) يعني أنه في النوازل والشدائد والحوادث العظيمة الموجبة لاضطراب الناس متّصف بشدة الوقار والرزانة والسكينة والثبات كالجبل لا تحركه العواصف، والوقار من جنود العقل ويقابله الخفّة وهي الطيش والعجلة من جنود الجهل.

(**وفي المكاره صبور وفي الرخاء شكور**) لأن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر كما في الحديث المرفوع في إحياء العلوم عن النبي صلى الله عليه وآله والمتّقي بما له من وصف التقوى والإيمان قد أكمل بأخذهما كلا شطري الإيمان.

---

(١) الكافي ٢/ ٣٢٤، ووسائل الشيعة ١١/ ٣٢٩.

(٢) الكافي ٢/ ٣٢٥، والغدير ٩/ ٢٧٦.

(٣) الكافي ٢/ ١٤٩، ووسائل الشيعة ٩/ ٤٤٨ ح ١٢٤٦٧.

وإنما كانا نصف الإيمان لأن الإيمان الكامل حسبما عرفت فيما تقدم هو ما تضمن العلم والعمل، وكل ما يلاقيه العبد من الأعمال ينقسم إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة وإلى ما يضرّه فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضرّه ويكرهه طبعه حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر.

(**لا يحيف على من يبغض**) أي لا يظلمه مع قوة الداعي إلى الحيف وهو البُغض والعداوة (**ولا يأثم فيمن يحب**) مع قيام الداعي إلى الإثم وهو المحبة.

ومحصّل هاتين الفقرتين أنه لا يخرجه الحب والبغض عن تكليفه الشرعي إلى ما يخالفه كما هو شأن قضاة السوء وأمراء الجور ووظيفة أهل الهوى والعصبية.

(**يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه**) لأن مسيس الحاجة إلى الإشهاد إنما يكون في صورة الإنكار وإنكار الحق كذب صريح مناف للتقوى والعدالة.

(**لا يضيّع ما استحفظ**) أي لا يضيّع ما أمر الله بمحافظته من الصلوات الخمس ونحوها من الطاعات، قال سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وبشر الحافظين لها في سورة المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [٩- ١١] وفي سورة المعارج بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾ [٣٤- ٣٥].

والمراد بمحافظتها محافظة أوقاتها وحدودها ومراعاة آدابها وشرائطها والمداومة عليها، وضد المحافظة التهاون والأول من جنود العقل، والثاني من جنود الجهل كما في حديث (**الكافي**)، والمراد بالتضييع هنا الأعم من الترك والتهاون والإخلال بالحدود الموظفة.

(**ولا ينسى ما ذكر**) التذكر والنسيان أمران متقابلان، والأول من جنود العقل، والثاني من جنود الجهل.

وتوضيح معناهما حسبما أوضحه بعض المحققين أن الإدراك فينا عبارة عن حصول الصورة العقلية أو الحسية في قوة من قوانا، وتلك القوة هي المسماة بالمدركة، والحفظ عبارة عن وجود تلك الصورة في قوة أخرى فوقها هي المسماة بالخزانة والحافظة، والتذكر عبارة عن استحضار تلك الصورة مرة أخرى من الحافظة بعد اختزانها فيها، والنسيان عبارة عن زوالها عن المدركة والحافظة بما هي حافظة جميعاً، والسهو عبارة عن زوالها من المدركة فقط لا من الحافظة.

إذا عرفت ذلك فأقول: إن المراد بقوله: لا ينسى ما ذكر أنه لا ينسى المتّقي ما ذكره الله سبحانه بآيات كتابه الكريم من الفرائض والأحكام والعبر والأمثال وغيرها مما فيه تذكرة وذكرى لأولي الألباب، بل يعمل بها ويداوم على ملاحظتها ويكثر من أخطارها بباله ولا يغيبها عن نظره.

(ولا ينابز بالألقاب) لكون النبز منهياً عنه في الكتاب الحكيم، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] أي لا يدعو بعضكم بعضاً باللقب السوء مثل قول الرجل للرجل: يا كافر، يا فاسق، يا منافق، بئس الشيء تسميته باسم الفسوق، يعني الكفر بعد الإيمان، والنكتة في النهي عنه كونه موجباً للتباغض والعداوة وإثارة الفتن.

(ولا يضارّ بالجار) لوجوب كف الأذى عن الجار كما صرح به في غير واحد من الأخبار.

روى في **(الوسائل)** عن الكليني بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام قال: قال: قرأت في كتاب علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب: «إن الجار كالنفس غير مضارّ ولا إثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه»[(١)].

وعن عمرو بن عكرمة عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: أن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه رجل من الأنصار فقال: إني اشتريت داراً من بني فلان وإن أقرب جيراني مني جواراً من لا أرجو خيره ولا آمن شرّه، قال: فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وسلمان وأبا ذر ونسيت آخر وأظنه المقداد أن ينادوا في المسجد بأعلى صوتهم بأنه: لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه، فنادوا بها ثلاثاً ثم أومىء بيده إلى كل أربعين داراً من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله.

وعن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: المؤمن من آمن جاره بوائقه، قلت: ما بوائقه؟ قال: ظلمه وغشمه[(٢)].

وفيه عن الصدوق بإسناده عن شعيب بن واقد عن الحسين بن زيد عن الصادق عن آبائه عن علي عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث المناهي قال: «من آذى جاره حرّم الله عليه ريح الجنة ومأواه جهنم وبئس المصير، ومن ضيّع حق جاره فليس منا، وما زال جبرائيل يوصيني

(١) الكافي ٢/٦٦٦، ووسائل الشيعة ١٢/١٢٦ ح ١٥٨٣٨.

(٢) الكافي ٢/٦٦٦، ووسائل الشيعة ١٢/١٢٥، ح ١٥٨٣٧ والغشم هو الظلم.

بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، وما زال يوصيني بالمماليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم وقتاً إذا بلغوا ذلك الوقت أعتقوا، وما زال يوصيني بالسواك حتى ظننت أنه سيجعله فريضة، وما زال يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لن يناموا»[١].

(**ولا يشمت بالمصائب**) لأن المصائب النازلة إنما هي بقضاء من الله عزَّ وجل وقدر والشامت بسبب نزولها بغيره في معرض أن تصيبه مثلها فكيف يشمت ويفرح بمصيبة نزلت به.

روى في (**الكافي**) بإسناده عن أبان بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تبدي الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيرها بك.

وقال عليه السلام: من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن[٢]، هذا.

مضافاً إلى أن في الشماتة بالمؤمن كسراً لقلبه وإدخالاً للحزن عليه، وهو خلاف غرض الشارع.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تسمعوهم فإن ذلك يحزنهم»، رواه في (**الكافي**) عن حصن بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله[٣].

(**ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق**) الأولى أن يراد بالباطل كلما يبعد من الله تعالى، وبالحق كلما يقرب منه عزَّ وجل، فالمعنى أنه لا يخرج عن سمت الهدى إلى مسلك الضلال والردى.

(**إن صمت لم يغمه صمته**) لأنه بمقتضى عقله وكماله يضع كلاً من الصمت والكلام في موضعه اللائق به ومقامه المناسب له، فلا يكون داع إلى التكلم في مقام مقتضٍ للصمت حتى يكون إمساكه عن التكلم موجباً لاغتمامه.

وبعبارة أخرى، الاغتمام بالصمت إنما يكون ممن تعوّد لسانه بالهذر أي الهذيان وفضول الكلام، واعتاد الخوض فيما لا يعني، وأهل التقوى لعلمهم بما في الصمت من الثمرات الدنيوية والأخروية، وبما في الكلام من المفاسد والآفات الكثيرة كالخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والجدال وتزكية النفس والخوض في الباطل

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ١٣، وأمالي الصدوق: ٥١٤.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٥٩ ح ١، وشرح أصول الكافي: ١٠/ ١٤ ح ١.

(٣) الكافي ٢/ ٦٦٨، ووسائل الشيعة ١٢/ ١٢٦ ح ١٥٨٤٠.

والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات إلى غير هذه من الآفات اعتادوا أن لا يزيدوا في كلامهم على قدر الحاجة، والتزموا الصمت إلا في مقام الضرورة.

وإلى ذلك ينظر قول رسول الله ﷺ: «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله»[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إن كان كلامك من فضة فأيقن أن السكوت من ذهب[٢].

وقيل: أليق شيء يكون في السجن هو اللسان، وقيل: اللسان صغير الجرم عظيم الجرم.

قال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك: ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الثاني: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرابع: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على ردّ ما قلت.

وقد ورد في مدح الصمت وذمّ التكلم من الأخبار ما هو غير محصور.

مثل ما في **(الكافي)** بإسناده عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: قال أبو الحسن عليه السلام: من علامات الفقه العلم والحلم والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير[٣].

وعن الحلبي رفعه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمسك لسانك فإنها صدقة تصدق بها على نفسك»، ثم قال: «ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه».

وعن الحلبي أيضاً رفعه قال: قال رسول الله ﷺ: «نجاة المؤمن من حفظ لسانه»[٤].

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كان أبو ذر يقول: يا مبتغي العلم إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك[٥].

وعن عمر بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: كان المسيح يقول: لا تكثروا الكلام

---

(١) الكافي ٢/٣٥٩، ووسائل الشيعة ٣/٢٦٦ ح ٣٦٠٥.
(٢) الكافي ٢/٢٣٥ ح ١٨.
(٣) الكافي ٢/١١٤ ح ٦ وفيه: إن كنت زعمت أن الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب.
(٤) قرب الإسناد ٣٢٩ ح ١٣٢١، والكافي ٢/١١٣.
(٥) الكافي ٢/١١٤ ح ٩، ثواب الأعمال ١٨٣.

في غير ذكر الله فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون[١].

وعن الوشا قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: كان الرجل من بني إسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك عشر سنين[٢].

وعن منصور بن يونس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في حكمة آل داود: على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه[٣].

إلى غير هذه مما لم نطل بروايتها، وقد مضى بعضها في شرح الخطبة السابعة والسبعين.

(**وإن ضحك لم يعل صوته**) لأن ضحك المؤمن التبسم والقهقهة من الشيطان كما رواه في الوسائل من (**الكافي**) عن أبي عبد الله عليه السلام.

وفيه أيضاً من مجالس الشيخ عن هارون بن عمرو بن عبد العزيز عن محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه أبي عبد الله عن آبائه عن علي عليه السلام قال: كان ضحك النبي صلى الله عليه وآله التبسم، فاجتاز ذات يوم بفتية من الأنصار وإذا هم يتحدثون ويضحكون ملأ أفواههم، فقال صلى الله عليه وآله: «مه يا هؤلاء، من غرّه منكم أمله وقصّر به في الخير عمله، فليطلع القبور وليعتبر بالنشور، واذكروا الموت فإنه هادم اللّذات»[٤].

ومن مجالس الصدوق بسنده عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان بالمدينة رجل بطّال يضحك الناس فقال: قد أعياني هذا الرجل أن أضحكه ـ يعني علي بن الحسين عليهما السلام ـ الحديث، وفيه أن علي بن الحسين عليهما السلام قال: قولوا له: إن لله يوماً يخسر فيه المبطلون[٥].

ومن (**عيون الأخبار**) عن الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: قال الصادق عليه السلام: كم ممّن أكثر ضحكه لاغياً يكثر يوم القيامة بكاؤه، وكم ممن كثر بكاؤه على ذنبه خائفاً يكثر يوم القيامة في الجنة ضحكه وسروره[٦].

---

(١) الكافي ٢/ ١١٤ ح ١٠، والأمالي ١٨٠ ح ١.
(٢) الكافي ٢/ ١١٤ ح ١٠، ووسائل الشيعة ١٢/ ١٩٦ ح ١٦٠٧٠.
(٣) الكافي ٢/ ١١٦ ح ٢٠.
(٤) وسائل الشيعة: ١٢/ ١١٩ ح ١٣.
(٥) الأمالي ٢٩٠، ووسائل الشيعة ١٢/ ١١٦ ح ١٥٨٠٤.
(٦) وسائل الشيعة ١٢/ ١١٥ ح ١٥٨٠٢.

(وإن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له) يعني إن ظلمه أحد وتعدّى عليه صبر على ذلك وفوّض أمره إلى الله عزَّ وجل حتى ينتقم له من الباغي لأنه تعالى قد وعد له النصرة في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، أي من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ثم ظُلم عليه لينصرنه الله أي المظلوم الذي بغي عليه لا محالة، وإنما يصبر المتقي على بغي الباغي ولا يجازيه عملاً بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦] يعني إن أردتم معاقبة غيركم على وجه المجازاة والمكافأة فعاقبوا بقدر ما عوقبتم به ولا تزيدوا عليه، ولئن تركتم المكافأة والقصاص وجرعتم مرارته لهو - أي الصبر - خير وأنفع للصابرين لما فيه من جزيل الثواب.

(نفسه منه في عناء والناس منه في راحة) أي نفسه منه في تعب ومشقّة لمجاهدته لها ومخالفته لهواها وحمله إيّاها على ما تكره وردعه لها عما تحب كما عرفت في شرح قوله عليه السلام: **(إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب)**، كل ذلك لعلمه بأنها أمّارة بالسوء وأنها له عدوّ مبين، ولذلك كان الناس منه في راحة، لأن إيذاء الناس من هوى الأنفس فإذا كان قاهراً لها على خلاف هواها يكون الناس مأمومين من شرها مستريحين من أذاها.

(أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه) وهذه الجملة في الحقيقة تعليل وتوضيح للجملة السابقة، لأنه لما قال هناك: نفسه منه في عناء، علله هنا بأن إتعابه لنفسه إنما هو لأجل آخرته.

فقد روى في **(الوسائل)** عن الصّدوق عن شعيب العرقوفي عن الصادق عليه السلام قال: من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي حرّم الله جسده على النار[١].

ولما قال ثمّة: الناس منه في راحة، أوضحه هنا بأن استراحتهم من شرور نفسه لمجاهدته لها.

كما روى في **(الوسائل)** عن الصدوق عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام قال: «يا علي، أفضل الجهاد من أصبح لا يهمّ بظلم أحد»[٢].

(بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة) يعني بعده عن أهل الدنيا وعن مجالسهم من باب

---

(١) وسائل الشيعة ١٥/ ١٦٢ ح ٢٠٢١٥، والأمالي ٤٠٨ ح ٥٢٧.
(٢) وسائل الشيعة ١٥/ ١٦٢ ح ٢٠٢١٤، ومستطرفات ٦١٥.

الزهد والتباعد عن مكروههم وأباطيلهم.

(ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة) أي قربه من المؤمنين من باب التعاطف والتواصل كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال في **(مجمع البيان)**: قال الحسن: بلغ تشدّدهم على الكفار أن كانوا يتحرزون من ثياب المشركين حتى لا يلتزق بثيابهم، وعن أبدانهم حتى لا تمسّ أبدانهم، وبلغ تراحمهم فيهما بينهم أن كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

روى في **(الكافي)** بإسناده عن شعيب العقرقوفي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لأصحابه: اتّقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه.

وعن كليب الصيداوي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تواصلوا وتبارّوا وتراحموا وكونوا أخوة بررة كما أمركم الله عزَّ وجل[(١)].

وعن أبي المعز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عزَّ وجل رحماء بينهم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله[(٢)].

فقد ظهر بذلك أن تباعده وتدانيه عمن تباعد عنه ودنى منه من باب المواظبة على الوظائف والآداب الشرعية وأنه **(ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوه بمكر وخديعة)** كما هو فعل أبناء الدنيا وذوي الأغراض الفاسدة ومن شأن أهل النفاق يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا لقوا الذين آمنوا قال: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزؤون.

(قال) الراوي للحديث **(فصعق همام صعقة)** أي غشي عليه غشوة من فزع ما سمع من الموعظة البالغة كما خرّ موسى عليه السلام صعقاً ـ أي مغشياً عليه من هول ما رأى ـ **(كانت نفسه فيها)** أي مات في تلك الغشوة وخرجت روحه من بدنه.

قال الشارح المعتزلي: اعلم أن الوجد أمر شريف قد اختلف الناس فيه فقالت الحكماء فيه أقوالاً، وقالت الكافي: ٢/ ١٧٥ ح ٢، وشرح أصول

---

(١)

(٢) كتاب المؤمن ٤٤ ح ١٠١، والكافي ٢/ ١٧٤ ح ١٥.

الكافي: ٩/ ٥١ ح ٢. الصوفية فيه أقوالاً.

أما الحكماء فقالوا: الوجد حالة تحدث للنفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة إذا كان قد ورد عليها وارد مشوّق، وقال بعضهم: الوجد هو اتصال النفس بمبادئها المجردة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتصال.

وأما الصوفية فقد قال بعضهم: الوجد رفع الحجاب ومشاهدة المحبوب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وهو فناؤك من حيث أنت أنت، وقال بعضهم: الوجد سر الله عند العارفين ومكاشفة من الحق يوجب الفناء، والأقوال فيه متقاربة المعنى وإن اختلفت العبارة، انتهى[1].

وهي كلها مخالفة لمذاق أهل الشرع ما فيه للأخيار.

وكيف كان (**فقال أمير المؤمنين** عليه السلام: **أما والله لقد كنت أخافها**) أي تلك الصعقة التي فيها موت همّام (**عليه ثم قال** عليه السلام: **هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها، فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين**) لا تصنع موعظتك بك ما صنعت بهمّام (**فقال: ويحك إن لكل أجل**) محتوم (**وقتاً**) معيناً (**لا يعدوه**) أي لا يتجاوزه ولا يتأخر عنه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] (**وسبباً**) أي علّة معينة (**لا يتجاوزه**) أي لا يتجاوز عنه إلى سبب آخر.

ومحصّل الجواب أن كل إنسان له أجل حتمي مقدّر ووقت معين لموته لا يتقدم ولا يتأخر، وعلّة معينة لأجله لا تتبدل ولا تتغير كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وعلى ذلك فإنما مات همّام باستماع الموعظة البالغة لأنه قد تمّ عمره وبلغت مدّة حياته التي قدّرت في حقّه غايتها مع حصول السبب المعين المكتوب في أمّ الكتاب لموته وهو الانفعال بالموعظة.

وأما أنا فلم تكمل أيامي بعد ولم يبلغ أجلي غايته والسبب المقدّر في حقي غير هذا السبب وهو ما أنتظره من ضربة ابن ملجم المرادي عليه اللعنة والعذاب.

والحاصل أن مشيئة الله وإذنه عزَّ وجل قد تعلّق بموت همّام عن سببه الذي حصل ولم يتعلق بعد بموتي ولم يحصل سببه، وإن شئت مزيد توضيح لذلك فعليك بالكلام الحادي والستين وشرحه، هذا.

ولما أجاب عليه السلام عن اعتراض القائل نهاه عن العود إلى مثل ذلك بقوله: (**فمهلاً لا تعد**

---

(١) شرح النهج: ١٠/ ١٦١.

لمثلها) أي لا ترجع إلى مثل تلك الكلمة **(فإنما نفث الشيطان)** أي نفخ وتكلم **(على لسانك)**.

تكملة

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة حسبما أشرت إليه سابقاً مروية في **(الكافي)** باختلاف كثير جداً اقتضى المقام روايتها بالسند الذي فيه واتباعها ببيان غرائب ألفاظها فأقول وبالله التوفيق:

روى ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني قدّس الله روحه عن محمد بن يحيى عن جعفر عن محمد بن إسماعيل عن عبد الله بن زاهر عن الحسن بن يحيى عن قثم بن أبي قتادة الحرّاني عن عبد الله بن يونس عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

قام رجل يقال له: همّام وكان عابداً ناسكاً مجتهداً إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب، فقال: يا أمير المؤمنين صف لنا صفة المؤمن كأننا ننظر إليه، فقال عليه السلام:

يا همام المؤمن هو الكيّس الفطن، بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدراً، وأذلّ شيء نفساً، زاجرٌ عن كل فان، حاضٌ عن كل حسن، لا حقودٌ، ولا حسودٌ، ولا وثّابٌ، ولا سبّابٌ، ولا عيّاب، ولا مغتابٌ، يكره الرّفعة، ويشنأ السمعة، طويل الغمّ، بعيد الهمّ، كثير الصمت، وقورٌ، ذكور، شكورٌ، مغمومٌ بفكره، مسرورٌ بفقره، سهل الخليقة، لين العريكة، رصين الوفاء، قليل الأذى، لا متأفّكٌ، ولا متهتّكٌ، إن ضحك لم يخرق، وإن غضب لم ينزق، ضحكه تبسّمٌ، واستفهامه تعلّم، ومراجعته تفهّمٌ، كثير علمه، عظيمٌ حلمه، كثير الرحمة، لا يبخل، ولا يُعجل، ولا يضجر، ولا يبطر، ولا يحيف في حكمه، ولا يجور في علمه، أصلب من الصّلد، ومكاوحته أحلى من الشهد، لا جشعٌ، ولا هلعٌ، ولا عنفٌ، ولا صلفٌ، ولا متكلّفٌ، ولا متعمّق، جميل المنازعة، كريم المراجعة، عدلٌ إن غضب، رفيقٌ إن طلب، لا يتهوّر، ولا يتهتك، ولا يتجبّر، خالص الودّ، وثيق العهد، وفيّ العقد، شفيقٌ وصولٌ، حليمٌ خمول، قليل الفضول، راض عن الله عزَّ وجل، مخالف لهواه، لا يغلظ على من دونه، «يؤذيه خ» ولا يخوض فيما لا يعنيه، ناصرٌ للدين محام عن المؤمنين كهف للمسلمين، لا يخرق الثناء سمعه، ولا ينكى الطمع قلبه، ولا يصرف اللعب حكمه، ولا يطلع الجاهل علمه، قوّالٌ، عمالٌ، عالمٌ، حازمٌ، لا بفحاش، ولا بطيّاش، وصولٌ في غير عنف، بذول في غير سرف، لا بختّار، ولا بغدّار، ولا يقتفي أثراً، ولا يحيف بشراً، رفيق بالخلق، ساع في الأرض، عون للضعيف، غوث للملهوف، لا يهتك ستراً، ولا يكشف سرّاً، كثير البلوى، قليل الشكوى، إن رأى خيراً ذكره، وإن عاين شراً ستره، يستر العيب، ويحفظ الغيب، ويقيل العثرة، ويغفر الزلة، لا يطلع على نصح

فيذره، ولا يدع جنح حيف فيصلحه، أمين، رصين، تقيّ، نقيّ، زكيّ، رضيّ، يقبل العذر، ويجمل الذّكر، ويحسن بالناس الظن، ويتهم على العيب نفسه، يحبّ في الله بفقه وعلم، ويقطع في الله بحزم وعزم، لا يخرق به فرحٌ، ولا يطيش به مرحٌ، مذكّرٌ للعالم، معلّمٌ للجاهل، لا يتوقع له بائقة، ولا يخاف له غائلة، كل سعي أخلص عنده من سعيه، وكل نفس أصلح عنده من نفسه، عالمٌ بعيبه، شاغلٌ بغمه، لا يثق بغير ربه، غريب «خ ل قريب»، وحيدٌ حزين، يحب في الله ويجاهد في الله ليتّبع رضاه، ولا ينتقم لنفسه بنفسه، ولا يوالي في سخط ربه، مجالس لأهل الفقر، مصادقٌ لأهل الصدق، موازرٌ لأهل الحق، عونٌ للغريب، أبٌ لليتيم، بعلٌ للأرملة، حفيٌ بأهل المسكنة، مرجوٌ لكل كريهة، مأمولٌ لكل شدّة، هشّاشٌ، بشّاشٌ لا بعبّاس، ولا بجسّاس، صليبٌ، كظّام، بسّامٌ، دقيق النظر، عظيم الحذر، لا يبخل، وإن بخل عليه «خ ل عنه» صبر، عقل فاستحيى، وقنع فاستغنى، حياؤه يعلو شهوته، ووده يعلو حسده، وعفوه يعلو حقده، لا ينطق بغير صواب، ولا يلبس إلا الاقتصاد، مشيه التواضع، خاضع لربّه بطاعته، راض عنه في كل حالاته، نيّته خالصة، أعماله ليس فيها غشّ ولا خديعة، نظره عبرة، وسكوته فكرة، وكلامه حكمة، مناصحاً، متباذلاً، متواخياً، ناصحٌ في السرّ والعلانية، لا يهجر أخاه، ولا يغتابه، ولا يمكر به، ولا يأسف على ما فاته، ولا يحزن على ما أصابه، ولا يرجو ما لا يجوز له الرّجا، ولا يفشل في الشدّة، ولا يبطر في الرّخاء، يمزج العلم بالحلم، والعقل بالصبر، تراه بعيداً كسله، دائماً نشاطه، قريباً أمله، قليلاً زلله، متوقعاً لأجله، خاشعاً قلبه، ذاكراً ربّه، قانعةً نفسه، منفياً جهله، سهلاً أمره، حزيناً لذنبه، ميتة شهوته، كظوماً غيظه، صافياً خلقه، آمناً منه جاره، ضعيفاً كبره، قانعاً بالذي قدّر له، مبيناً «متيناً خ» صبره، محكماً أمره، كثيراً ذكره، يخالط الناس ليعلم، ويصمت ليسلم، ويسأل ليفهم، ويتّجر ليغنم، لا ينصب للخير ليفخر به، ولا يتكلم ليتجبر به على من سواه، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته فأراح الناس من نفسه، إن بغى عليه صبر حتى يكون الله الذي ينتصر له، بُعده ممن تباعد منه بغض ونزاهة، ودنوّه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده تكبّراً ولا عظمة، ولا دنوه خديعة ولا خلابة، بل يقتدي بمن كان قبله من أهل الخير، فهو إمام لمن بعده من أهل البرّ.

قال: فصاح همّام صيحة ثم وقع مغشياً عليه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أما والله لقد كنت أخافها عليه، وقال: هكذا تصنع الموعظة «المواعظ خ» البالغة بأهلها، فقال له عليه السلام قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: إن لكلٍّ أجلاً لن «لا خ» يعدوه وسبباً لا

---

(١) الكافي ٢/٢٢٩، وبحار الأنوار ٦٤/٣٦٦.

يجاوزه، فمهلاً لا تعد فإنما نفث على لسانك شيطان(١).

بيان

«الكيس» العاقل من الكيس وزان فلس خلاف الحمق، وقيل: جودة القريحة، وقوله: **(ولا وثاب)** أي ليس بخفيف من وثب وثوباً قام بسرعة، قوله: **(وقور)** أي كثير الوقار في الأمور الموجبة لاضطراب الناس.

قوله: **(لين العريكة)** أي سلس مطيع منقاد والعريكة الطبيعة، قوله: **(رصين الوفاء)** بالصّاد المهملة الحكم الثابت والخفي بحاجة صاحبه من رصنه أي أحكمه. وأكمله قوله: **(إن ضحك لم يخرق)** أي لم يشقّ فاه حتى يبلغ ضحكه القهقهة. قوله: **(إن غضب لم ينزق)** أي لا تأخذه الخفّة والطيش عند الغضب. قوله: **(ولا بطر)** من البطر وهو الطغيان عند النعمة، وقيل: التجبّر وشدّة النشاط.

قوله: **(أصلب من الصّلد)** أي لا يدخل قلبه ريب ولا جزع، والصّلد الحجر الصلب الأملس. قوله: **(مكادحته)** أي عمله وسعيه أحلى من العسل. قوله: **(لا جشع ولا هلع)** الجشع أشدّ الحرص على الطعام وأسوءه، والهلع أفحش الجزع. قوله: **(ولا عنف ولا صلف)** العنف وزان كتف من لا رفق له في قوله وفعله، والعنيف مثله والصّلف ككتف أيضاً من لا يتكلم بما يكرهه صاحبه ويمدح نفسه ولا خير عنده يقال: سحاب صلف أي قليل الماء كثير الرعد.

قوله: **(لا يتهور ولا يتهتك)** التهور الوقوع في الأمر بقلة مبالاة، والتهتك خرق الستر والافتضاح. قوله: **(خمول قليل الفضول)** أي خامل الذكر وقليل فضول كلامه. قوله: **(لا يخرق الثناء سمعه)** لكون أعماله لله لا للناس، فلا يؤثر فيه ثناؤهم ومدحهم.

قوله: **(ولا ينكى الطمع قلبه)** أي لا يجرحه ولا يؤثر فيه تأثير الجرح. قوله: **(عالم حازم)** في بعض النسخ بالحاء المهملة من الحزم وهو التثبت في عواقب الأمور، وفي بعضها بالجيم. قوله: **(ولا بطيّاش)** الطيش النزق والخفة. قوله: **(ولا بختّال)** أي بخدّاع من الختل وهو المخادعة. قوله: **(ولا يدع جنح حيف فيصلحه)** أي لا يترك ظلام ظلم وإصلاحه. قوله: **(لا يخرق به فرح)** من الخرق بالخاء المعجمة والراء المهملة وهو الحمق والجهل وضعف العقل. قوله: **(ولا يطيش به مرح)** المرح شدّة النشاط والفرح.

---

(١) الكافي ٢/ ٢٣٠، وبحار الأنوار ٦٤/ ٣٦٧.

و (**البائقة**) النازلة الشديدة والشر والداهية، و (**الغائلة**) الفساد والشر. وقوله: (**حفيّ بأهل المسكنة**) أي بارّ معين. قوله: (**هشاش بشاش**) من الهشاشة وهو طلاقة الوجه. قوله: (**لا يهجر أخاه**) الهجر الهذيان ويحتمل أن يكون من الهجر أي الترك والمفارقة. قوله: (**ويتّجر ليغنم**) أي يتّجر للآخرة.

قوله: (**ولا دنوه خديعة ولا خلابة**) الخلابة بكسر الخاء المعجمة وتخفيف (**اللام**) الخديعة باللسان بالقول اللطيف من خلبه يخلبه من باب قتل وضرب خدعه، والاسم الخلابة والفاعل خلوب كرسول.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام دين است در وصف متقين.

روايت شده مصاحبى بود از براى اميرالمؤمنين (عليه السلام) همام نام كه شخص عابدى بود. پس گفت به آن حضرت كه يا اميرالمؤمنين، وصف كن از براى من پرهيزكاران را تا اين كه گويا من نگاه مى كنم به سوى ايشان، پس سنگينى ورزيدند و درنگ كردند آن حضرت از جواب او و بعد از آن فرمود اى همام، بپرهيز از خدا و كار نيك بكن، پس به درستى كه خداى تعالى يار پرهيزكاران است و با نيكوكاران.

پس قناعت نكرد همام به اين جواب تا اين كه سوگند داد بر حضرت در جواب گفتن، پس حضرت حمد و ثناى خدا را به جا آورد و صلوات فرستاد بر پيغمبر و آل او، پس گفت:

اما بعد، پس به تحقيق كه خداوند سبحانه ايجاد فرمود مخلوقات را وقتى كه ايجاد فرمود ايشان را در حالتى كه بى نياز بود از طاعت ايشان و ايمن بود از ضرر معصيت ايشان، از جهت اين كه ضرر نمى رساند او را معصيت كسى كه معصيت نمود و منفعت نمى بخشد او را طاعت كسى كه اطاعت نمود، پس قسمت فرمود در ميان مخلوقات معيشتها و گذرانى ايشان را و گذاشت ايشان را از دنيا در جايگاه ايشان كه لايق شأن و مناسب حال هر يكى باشد.

پس پرهيزكاران در دنيا، ايشانند اهل فضيلتها، گفتار ايشان راست و درست و لباس ايشان حد وسط است و رفتار ايشان تواضع و فروتنى است، پوشيده اند چشمهاى خود را از چيزى كه خدا حرام كرده بر ايشان و واداشته اند گوشهاى خود را بر شنيدن علم منفعت بخشنده از براى ايشان، نازل شده نفسهاى ايشان از ايشان در بلا و شدت مثل نزول آنها در رفاه و فراخى. يعنى ايشان رضا به قضا دارند و شاكراند به طيب نفس به آنچه كه در حقّ ايشان مقدّر شده. اگر نبود اجل معينى كه نوشته شده است از براى ايشان، هرآينه قرار نمى گرفت روحهاى ايشان در بدنهاى ايشان لحظه اى از جهت اشتياق به ثواب و ترسيدن از عقاب.

بزرگ شد خالق تعالى در پيش نفسهاى ايشان، پس كوچك شد ماسواى خالق در نظر ايشان، پس حال ايشان با بهشت، حال كسى است كه با رأى العين ديده باشد او را، پس در آن جا به ناز و نعمت گذرانده باشد و حال ايشان با جهنم، حال كسى است كه ديده باشد آن را، پس در آنجا معذّب باشد. يعنى ايشان در امر بهشت و جهنم اعقتاد

يقينی دارند، به منزله مشاهده . .

قلبهای ایشان غمگین و محزون است و مردم از شرهای ایشان آسوده و ایمنند و بدنهای ایشان لاغر و ضعیف و حاجت و خواهشات ایشان سبك و خفیف، نفسهای ایشان باعفت است، صبر و تحمل کردند بر زحمات، چند روز کوتاه که عاقبت آن راحت و آسایش دراز گردید، تجارت با منفعتی است که میسر ساخت از برای ایشان پروردگار ایشان.

خواست ایشان را دنیا، پس نخواستند ایشان دنیا را و اسیر کرد ایشان را دنیا، پس دادند نفسهای خودشان از دنیا . یعنی به مقتضای شهوت و غضب جبلی انسانی که در ایشان بود، نزدیك بود که ایشان مفتون دنیا باشند و اسیر شهوات نفسانیه آن شوند ولیکن ایشان به مقتضای قوه عقلانیه ترك لذایذ دنیویه کرده، خودشان را از قید اسیری دنیا خلاص نمودند . .

اما حالت ایشان در شب، پس صف زنندگانند به پاهای خودشان در حالتی که تلاوت کنندگان باشند جزءهای قرآن را، در حالتی که نیك قرائت می کنند آن را نیك قرائت کردنی، با تأنّی و حفظ وقوف و اداء حروف، محزون می نمایند به سبب قرائت آن نفس های خودشان را و به هیجان می آورند با آن دوای درد خودشان را .

پس اگر بگذرند در اثنای قرائت آن به آیه ای که در آن تشویقی باشد به سوی بهشت، اعتماد می کنند به آن و مایل می شوند به سوی آن از جهت طمع آن بشارت و مطلع باشد نفسهایشان به سوی آن از روی شوق و گمان کنند که آن آیه . یعنی وعده بهشت که مضمون آن آیه است . پیش چشم ایشان است.

و اگر بگذرند به آیه ای که در آن ترساندن از عذاب باشد، متوجه باشند به سوی آن با گوشهای قلبهای خودشان و گمان می کنند که صدای افروخته شدن جهنم و شیون اهل آن در بیخهای گوشهای ایشان است، پس ایشان خم شوندگان باشند بر کمرهای خود، پهن سازندگان باشند مر پیشانی های خودشان را و کف های دست خود را و زانوهای خود را و سرهای پاهای خودشان را، تضرع می کنند به سوی خدا در واکردن گردنهای ایشان از زنجیر عذاب .

و اما حالت ایشان در روز، پس صاحبان علم و حلمند، نیکوکارانند، پرهیزکارانند، به تحقیق که باریك کرده و کاهانده است ایشان را ترس خدا مثل باریك شدن چوب تیر تراشیده شده، نگاه می کند به سوی ایشان نگاه کننده، پس گمان می کند

که ایشان مریضان اند و حال آن که نیست در این جماعت مرضی و می گویند که خبط آورده اند و حال آن که هرآینه آمیخته به ایشان امر بزرگی که اشتیاق و عشق به لقای خدا باشد.

راضی نمی شوند در عبادات و عمل های خودشان به اندك و بسیار نمی شمارند بسیار را، پس ایشان همیشه به نفسهای خود تهمت می زنند به جهت قصور در بندگی و از عبادات خود ترسناك اند، اگر تزکیه کرده شود یکی از ایشان، می ترسد از آن چیزی که درباره او گفته شده، پس می گوید که: من داناترم به نفس خودم از غیر خودم و پروردگار من داناتر است از من به نفس من، بارخدایا، مؤاخذه مکن مرا به سبب آن چه گفتند درباره من و بگردان مرا بهتر از آن چه گمان بردند در حق من و بیامرز از برای من گناهی را که ایشان نمی دانند.

پس علامت یکی از ایشان است این که تو می بینی از برای او قوّتی در دین و احتیاطی در نرمی و ایمانی در کمال یقین و حرصی در تحصیل علم و علمی در غایت حلم و میانه روی در بی نیازی و خضوع و خشوعی در عبادت و استغنایی در عین فقر و صبری در حالت شدّت و طلبی در کسب حلال و خوشحالی در هدایت و کناره جویی از طمع، می کند عملهای نیکو را و حال آن که ترسناك است، روز به شب می آورد و حال آن که همّت او مصروف به شکر است و شب را به صبح می رساند و حال آن که همّتش مصروف ذکر است.

بیتوته می کند در حالتی که ترسناك است، صباح می کند در حالتی که خوشحال، ترسناکی از جهت آنچه که ترسانده شده از غفلت در عبادت و خوشحالی به جهت آن چیزی که رسیده است از فضل و رحمت، اگر دشوار بگیرد بر او نفس او در چیزی که ناخوش دارد، نمی بخشد به نفس خود خواهش او را در چیزی که دوست دارد آن را.

چشم روشنی او در نعیم آخرت، جاودانی است و زهد او در لذت دنیای فانی، مخلوط می کند حلم را به علم و گفتار را به کردار، می بینی او را که نزدیك است آروزی او، اندك است لغزش او، ترسان است قلب او، قانع است نفس او، اندك است اکل او، آسان است کار او، محفوظ است دین او، مرده است شهوت او، فرونشانده شده است خشم او.

خیر از او امید گرفته شده است و شرّ از او ایمن شده، اگر در میان غافلان باشد نوشته می شود از ذکرکنندگان و اگر در زمره ذاکران باشد، نوشته نمی شود از غفلت

کنندگان، عفو می کند از کسی که ظلم نماید او را و عطا می کند به کسی که محروم نماید او را و صله رحم به جا می آورد با کسی که قطع صله رحم او کرده است.

دور است از مردم فحش گفتن او، نرم و ملایم است گفتار او، غایب است از مردمان بدی او، حاضر است از برای ایشان نیکی او، اقبال کننده است خیر او، ادبار کننده است شرّ او.

و در شداید روزگار صاحب تمکین و وقار است و در مصایب صبرکننده و بردبار و در حالت وسعت، شاکر؛ ظلم نمی کند بر کسی که دشمن دارد و مرتکب گناه نمی شود درباره کسی که دوست دارد، اقرار به حق می کند پیش از این که شهادت داده شود به ضرر او، ضایع نمی سازد چیزی را که طلب شده در او حفظ آن و فراموش نمی کند چیزی را که یادآوری او شده و نمی خواند مردم را به لقبهای بد و ضرر نمی رساند به همسایه و شماتت نمی کند به مصیبتها و داخل نمی شود در امر باطل و بیرون نمی رود از حق.

اگر ساکت شود، غمگین نسازد او را سکوت او و اگر بخندد، بلند نشود آواز او و اگر مظلوم شود، صبر می کند تا این که باشد خدای تعالی او انتقام می کشد از برای او، نفس او از او در رنج و مشقت است و مردمان از او در آسودگی و راحت، به مشقت انداخته نفس خود را از برای راحت آخرت و راحت کرده مردمان را از شرّ نفس خود.

دوری او از کسی که دوری جسته از او از بابت زهد و پاکی است و نزدیکی او از کسی که نزدیك شده به او، از بابت ملایمت و دلسوزی است، نیست دوری جستن او به سبب کبر و بزرگی و نه نزدیکی او به سبب مکر و خدعه.

گفت راوی حدیث: پس صیحه زد همام صیحه ای که بود روح او در آن صیحه، پس فرمود امیرالمؤمنین (عليه السلام): آگاه باشید، سوگند به خدا که هرآینه بودم می ترسیدیم آن صیحه را بر او، یعنی از این جهت تثاقل می کردم در جواب، پس از آن فرمود: همچنین، تأثیر می کند موعظه های کامل به اهلش.

پس گفت به آن حضرت گوینده ای: پس چگونه است حال تو ای امیرالمؤمنین؟ یعنی چرا به تو این تأثیر نکرد.

پس از آن فرمود: وای بر تو؛ از برای هر مرگی مدت معیّنی است که تجاوز نمی

كند از آن، پس فرمود: ترك كن اين كلام را و رجوع مكن بعد از اين به مثل آن، پس جز اين نيست كه دميده شيطان ملعون اين كلام را بر زبان تو. يعنى اعتراض به امام از اغواى شيطان است. .

ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين
وهي المائة والثالثة والتسعون
من المختار في باب الخطب

«نَحْمَدُهُ عليٰ ما وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذادَ عَنْهُ مِنَ المَعْصِيَةِ، ونَسْأَلُهُ لِمِنَّتِه تَماماً، وبِحَبْلِهِ اعْتِصاماً، ونَشْهَدُ أَنَّ مُحمَّداً صلى الله عليه وآله عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، خاضَ إِلىٰ رِضْوانِ الله كُلَّ غَمْرَةٍ، وتَجَرَّعَ فيهِ كُلَّ غُصَّةٍ، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنُونَ، وتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصُونَ، وخَلَعَتْ إِلَيْهِ العَرَبُ أَعِنَّتَها، وضَرَبَتْ إِلَىٰ مُحارَبَتِهِ بُطُونَ رَواحِلِها، حَتَّىٰ أَنْزَلَتْ بِساحَتِه عَداوَتَها مِنْ أَبْعَدِ الدّارِ، وأَسْحَقِ المَزارِ.

أُوصيكُمْ عِبادَ الله بِتَقْوَى الله، وأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفاقِ، فَإِنَّهُمُ الضّالُّونَ المُضِلُّونَ، والزّالُّونَ المُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْواناً، ويَفْتَنُّونَ افْتِناناً، ويَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمادٍ، ويَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصادٍ، قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وصِفاحُهُمْ نَقِيَّةٌ، يَمْشُونَ الخَفاءَ، ويَدِبُّونَ الضَّراءَ، وَصْفُهُمْ دَواءٌ، وقَوْلُهُمْ شِفاءٌ، وفِعْلُهُم الدّاءُ العَياءُ، حَسَدَةُ الرَّخاءِ، ومُؤَكِّدُوا البَلاءِ، ومُقَنِّطُوا الرَّجاءِ، لَهُمْ بِكُلِّ طَريقٍ صَريعٌ، وإِلىٰ كُلِّ قَلْبٍ شَفيعٌ، ولِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ، يَتَقارَضُونَ الثَّناءَ، ويَتَراقَبُونَ الجَزاءَ، إِنْ سَئَلُوا أَلْحَفُوا، وإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا، قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ باطِلاً، ولِكُلِّ قائِمٍ مائِلاً، ولِكُلِّ حَيٍّ قاتِلاً، ولِكُلِّ بابٍ مِفْتاحاً، ولِكُلِّ لَيْلٍ مِصْباحاً، يَتَوَصَّلُونَ إِلىٰ الطَّمَعِ بِاليَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْواقَهُمْ، ويُنَفِّقُوا بِهِ أَعْلاقَهُمْ، يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ ويَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ، قَدْ هَيَّؤُا الطَّرِيقَ، وأَضْلَعُوا المَضِيقَ، فَهُمْ لُمَّةُ الشَّيْطانِ، وحُمَّةُ النِّيرانِ، أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الخاسِرُونَ»[١].

اللغة

قال في (**محكي النهاية**): قد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرّف منه اسماً وفعلاً، وهو اسم لم يعرفه العرب بالمعنى المخصوص، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفاً. يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقاً، وهو مأخوذ من النافقاء أحد جحرتي اليربوع إذا طلب من واحد هرب إلى الآخر وخرج منه، وقيل: من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره، انتهى.

وقال الطريحي: المنافق هو الذي يستر الكفر ويظهر غيره من النفق وهو السرب في الأرض أي يستتر بالإسلام كما يستتر في السرب.

---

(١) بحار الأنوار ١٨/ ٢٢٤ ح ٦٢.

و **(الذّود)** الطرد والدفع و **(خاض)** في الأمر دخل فيه وأصل الخوض دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء والطين، ثم كثر استعماله في كل دخول فيه أذىً و **(الغمرة)** الشدّة وغمرات الموت شدائده، وفي **(القاموس)** غمرة الشيء شدته ومزدحمه و **(الغصة)** الشجي في الحلق والجمع غصص و **(سحق)** المكان فهو سحيق مثل بعد فهو بعيد لفظاً ومعنىً، قال تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١] أي بعداً و **(المزار)** المكان الذي يزار منه أو فيه، والمراد هنا الأول و **(زلّ)** فلان عن الأمر أخطأه وأزلّه غيره أوقعه في الخطأ.

ورجل **(مفنن)** ذو فنون في القول وغيره **(ويعمدونكم بكل عماد)** قال الشارح المعتزلي: أي يفدحونكم ويهدونكم، يقول: عمده المرض يعمده أي هدّه بكل عماد أي بأمر فادح وخطب مؤلم، انتهى.

أقول: ويجوز جعل يعمدونكم بمعنى يقصدونكم و **(رصدته)** رصداً من باب قتل إذا قعدت له على طريقه تترقبه، وقعد فلان بالمرصد وزان جعفر وبالمرصاد بالكسر أي بطريق الارتقاب والانتظار و **(خفي)** الشيء يخفى خفاء بالفتح إذا استتر و **(دب)** النمل دبيباً مشى مشياً رويداً و **(الضراء)** بالفتح وتخفيف الراء والمدّ الشجر الملتف في الوادي و **(الداء العياء)** الذي أعيا الأطباء ولم ينجع فيه الدواء و **(نفق)** البيع نفاقاً كسحاب راج ونفّق السلعة تنفيقاً روّجها كأنفقها و **(الأعلاق)** جمع علق كأحبار وحبر وهو النفيس من كل شيء و **(التمويه)** التزيين وموّه الشيء طلاه بفضّة أو ذهب وتحته نحاس ليزينه به.

قوله: **(قد هيؤا الطريق)** في بعض النسخ: هيّؤا بالهمزة من التهيّاء، وفي بعض بالنون من الهيّن وهو السهل فكأنه منقول من الواو إلى الياء، والأصل: هوّنوا الطريق أي سهّلوها و **(أضلع)** الشيء أماله وجعله معوجاً وضلع الشيء ضلعاً من باب تعب أعوج و **(اللّمة)** بضم اللام وفتح الميم مخففة الجماعة وبالتشديد الصاحب والأصحاب في السفر والمونس يستعمل في الواحد والجمع و **(حمّة النيران)** بالتشديد معظم حرها وبالتخفيف سمّ العقرب.

الإعراب

(من) في قوله: **(من الطاعة ومن المعصية)** بيان لما، والضمير في له وعنه عائد إلى ما، وقوله: **(خاض إلى رضوان الله إلى متعلق)** بمقدّر حال من فاعل خاض أي متوجهاً إلى رضوانه، **(والخفاء والضرّاء)** منصوبان على الظرفية المجازية.

المعنى

اعلم أن الخطبة السابقة لما كانت في وصف المتّقين عقبها الرضي «قد» بهذه الخطبة

التي يصف عليه السلام فيها المنافقين ملاحظة لحسن النظم وبديع ترتيب الكتاب، والمنافق حسبما عرفت آنفاً هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان كما قال الشاعر:

للمؤمنين أمور محزية ... وللمنافق سرّ دونه نفق

وإطلاق المنافق بهذا المعنى هو المعروف في الكتاب والسنّة، والمستفاد من بعض الأخبار أنه قد يطلق على الناقص الإيمان.

مثل ما رواه في **(الكافي)** في باب أصول الكفر وأركانه عن عدّة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن بعض أصحابه عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، إن الله عزَّ وجل قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧]، وفي قوله عزَّ وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤]»[١].

وفيه في باب النفاق والمنافق بإسناده عن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام قال: إن المنافق ينهى ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي، وإذا قام إلى الصلاة اعترض، قلت: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وما الاعتراض؟ قال عليه السلام: الالتفات وإذا ركع ربض، يمسي وهمّه العشاء وهو مفطر، ويصبح وهمه النوم ولم يسهر، إن حدّثك كذبك وإن ائتمنته خانك، وإن غبت اغتابك، وإن وعدك أخلفك[٢].

إذا عرفت ذلك فأقول: إنه عليه السلام قبل أن يأخذ في وصف المنافقين افتتح كلامه بما جرى عادته على الافتتاح به في باب الخطابة من ثناء الله تعالى وتعظيمه وتمجيد رسوله صلى الله عليه وآله فقال:

(نحمده على ما وفق له من الطاعة وذاد عنه من المعصية) أي نحمده على ما وفقنا له من طاعاته الموصلة إلى جنانه والمحصلة لرضوانه، وعلى ما أبعدنا منه من سيئاته المؤدية إلى نيرانه، والموجبة لخذلانه.

وحصول هذا التوفيق منه عزَّ وجل في حقه عليه السلام بما أفاض عليه من القوة العاصمة وملكة العصمة الداعية إلى المعروف والرادعة عن المنكر.

وأما في حق غيره الذين شرّكهم معه في ثنائه فبالأوامر والنواهي الواردة في الكتاب

(١) وسائل الشيعة ١٥/ ٣٤٠.

(٢) تحف العقول ٢٨٠ ح ٤، ووسائل الشيعة ١٥/ ٤٣٢ ح ١.

والسنّة واجتماع شرائط الطاعة وانقطاع أسباب المعصية.

(**ونسأله لمنته تماماً**) أي نسأل منه عزَّ وجل أن يتم علينا نعمته، فإنه المنان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال.

والمراد بنعمته التي سأل تمامها إما خصوص نعمة التوفيق المذكورة في الجملة السابقة أو الأعم منها، والأول أولى بسبق العهد، والثاني أنسب بمقام السؤال.

فإن قلت: نعم الله سبحانه غير متناهية كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] فكيف سأل تماميتها وهي أجل عن أن تستقصى وأعظم من أن تستتم.

قلت: إن أُريد بمنته خصوص نعمة التوفيق فلا إشكال، ويراد حينئذ بتماميتها كمالها واستمرارها إلى آخر العمر، وإن أُريد الأعم فيراد بتماميتها أن ينضم ما أنعم به عليه في الدنيا إلى نعمة الآخرة أي يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة كما قاله بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: ٦] من أن المراد بقوله: يتمّ نعمته أن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة بأن يجعلهم أنبياء وملوكاً ثم ينقلهم إلى نعيم الآخرة والدرجات العلى من الجنة.

(و) نسأله (**بحبله اعتصاماً**) أي تمسكاً بكتابه المبين، فإنه حبل الله المتين كما وصفه عليه السلام بذلك في الخطبة المائة والخامسة والسبعين وكذلك وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً به في حديث الثقلين الذي قدمنا روايته في شرح الخطبة السادسة والثمانين.

واستعير عنه أيضاً في الكتاب العزيز في قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣] على أحد تفاسيره، ووجه الاستعارة أن الاعتصام والتمسك بالحبل الوثيق المحكم كما أنه سبب النجاة من المهاوي والمهالك، فكذلك بالتمسك بالقرآن تحصل النجاة من الكفر والضلال الموجب للهلاك الدائم والخزي العظيم.

وروى الطريحي في (**مجمع البحرين**) عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: الإمام منا لا يكون إلا معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فتعرف، قيل: فما معنى المعصوم؟ قال عليه السلام: المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة[١].

وبما ذكرناه ظهر أن جعل المراد بالحبل في المتن هو القرآن أولى وأظهر من تفسيره بالدّين القويم كما في (**شرح البحراني**)، هذا.

(١) معاني الأخبار ١٣٢، وميزان الحكمة ٣/١٩٩٧ ح ٢٧٤٩.

ولما حمد الله عزَّ وجل بما هو أهله عقّبه بالشهادة بالرسالة فقال: **(ونشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله)** قد مر بيان معنى العبد وأن مرتبة الرسالة فوق مرتبة العبودية في شرح الخطبة الإحدى والسبعين فليتذكر.

ولما شهد برسالته أتبعه بشرح حاله ﷺ حين أداء الرسالة فقال: **(خاض إلى رضوان الله كل غمرة)** استعار لفظ الغمرة عن غمرة الماء وهي معظمه ومزدحمه للشدائد والمكاره التي ابتلي بها حين بعثته، والجامع للاستعارة أن غمرة الماء كما تغمر وتغطي الخائض فيها من كل جانب فكذلك تلك المكاره والشدائد حسبما تعرف كانت محيطة به ﷺ من كل طرف، ورشح الاستعارة بذكر لفظ الخوض.

ومحصل المراد أنه ﷺ تحمل كل مكروه وتوجها إلى منتهى رضاه عزَّ وجل **(وتجرّع فيه كل غصّة)** أي تجرّع الغصص في تحصيل رضوانه تعالى، أي ابتلعها جرعة بعد جرعة وأراد بالغصص الغموم والهموم العارضة له من مزيد أذى المشركين وسوء فعالهم.

(وقد تلوّن له الأدنون) أي تغيّر له أقاربه من قريش ألواناً **(وتألّب عليه الأقصون)** أي تجمّع على حربه الأباعد منه نسباً من أقصى البلاد **(وخلعت)** متوجهة **(إليه)** معاشر **(العرب أعنّتها وضربت إلى محاربته بطون رواحلها)** قال الشارح البحراني: هذان مثلان كنّي بهما عن المسارعة إلى حربه لأن أقوى عدو الخيل إذا خلعت أعنّتها وأقوى عَدْوِ الرواحل إذا ضربت بطونها وفيه إيماء إلى أنهم أتوه فرساناً وركباناً مسرعين إلى حربه.

(حتى أنزلت بساحته) ومنزله **(عداوتها)** أي حربها وإطلاقها عليه من باب إطلاق اسم السبب على المسبب، أي أسرعوا إلى حربه ﷺ **(من أبعد الدار وأسحق المزار)** وفيه إشارة إلى غاية عداوتهم، لأن الظعن إلى الحرب من مكان بعيد لا يكون إلا عن اهتمام أكيد وعناد عنيد وعداوة شديدة.

قال الشارح المعتزلي: من قرأ كتب السّير علم ما لاقى رسول الله ﷺ في ذات الله من المشقة واستهزاء قريش به، في أول الدعوة، ورميهم إياه بالحجارة حتى أدموا عقبيه وصياح الصبيان به وإلقاء فرث الكرش على رأسه، وفتل الثوب في عنقه، وحصره وحصر أهله في شعب بني هاشم سنين عديدة محرّمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتى كادوا يموتون جوعاً لولا أن بعض من كان يحنو عليهم لرحم أو لسبب غيره فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً.

ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق في الشمس وطردهم إياه عن شعاب مكة حتى خرج من خرج منهم إلى الحبشة وخرج ﷺ مستجيراً منهم تارة بثقيف، وتارة ببني

عامر، وتارة بربيعة الفرس وبغيرهم.

ثم أجمعوا إلى قتله والفتك به ليلاً حتى هرب منهم لائذاً بالأوس والخزرج، تاركاً أهله وأولاده وما حوته يده، ناجياً بحشاشة نفسه حتى وصل إلى المدينة، فناصبوه الحرب ورموه بالمناسر والكتائب، وضربوا له آباط الإبل.

ولم يزل منهم في عناء شديد وحروب متصلة حتى أكرمه الله تعالى وأيده ونصر دينه وأظهره، انتهى[١].

ومحصّل الكلام أنه صلى الله عليه وآله قد كابد الشدائد وقاسى الهموم وتجرّع الغصص لتأسيس أساس الإسلام وتشييد قوائم الدين، هذا.

وإنما مهد عليه السلام تلك المقدمة، أعني مقدمة البعثة، لأنه لما كان غرضه الأصلي من هذه الخطبة التحذير من المنافقين الذين كان همهم في إبطال الدين وترويج الباطل، أراد أن ينبه على مزيد خبث طينتهم الموجب لمزيد الحذر منهم حيث إنهم يريدون ليطفؤوا نور الله، ويبطلوا الدين القويم الذي قد قوسي فيه هذه المكاره، واحتمل تلك المشاق الكثيرة.

وقبل التحذير منهم أوصى المخاطبين بما لا يزال يوصي به فقال: **(أوصيكم عباد الله بتقوى الله)** والتصلب في الدين **(وأحذركم)** من كيد **(أهل النفاق)** وخديعة الخائنين أي الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر.

والظاهر أن غرضه عليه السلام منه التعريض على معاوية وعمرو بن العاص وأمثالهما من المنتحلين للإسلام، ويشعر بذلك قوله عليه السلام في عهده الآتي في المتن إلى محمد بن أبي بكر حين قلّده مصر حيث قال فيه متعرضاً على معاوية:

فإنه لا سواء إمام الهدى وإمام الردى، ووليّ النبي وعدّو النبي، ولقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني لا أخاف على أمتي مؤمناً، ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون»[٢].

ولما حذّر عن المنافقين أتبعه بذكر مذامهم ومثالبهم تنفيراً عنهم وقال: **(فإنهم الضالون)** عن الصراط المستقيم والنهج القويم **(المضلّون)** لغيرهم عنه بالشبه والتمويه **(والزّالون المزلّون)** أي الخاطئون الموقعون لغيرهم في الخطأ أيضاً.

---

(١) شرح النهج: ١٠/١٦٦.

(٢) نهج البلاغة ٣/٢٩.

(يتلوّنون الواناً) أي يتغيرون في أقوالهم وأفعالهم من حال إلى حال بحسب تبدّل أهوائهم الفاسدة فيلاقون كلاً بوجه ولسان غير الآخر.

(ويفتنون افتناناً) أي يتشعبون بأنحاء مختلفة في القول والعمل على مقتضى اختلاف آرائهم الباطلة.

(ويعمدونكم بكل عماد) أي يقصدونكم بكل أمر فادح ثقيل وخطب مؤلم على وجه الخدعة والحيلة.

(ويرصدونكم بكل مرصاد) أي يترقبونكم ويقعدون منتظرين بكل طريق معدّ للارتقاب، يعني أنهم لا يغفلون عنكم ولا يدعون مراقبتكم ويهيئون وجوه الحيل في إضلالكم وإصابتكم بكل مكروه.

(قلوبهم دوية) أي فاسدة من داء أصابها وهو الداء النفساني الموجب لمرضها كالحقد والحسد والعداوة والبخل والنّفاق والشك والارتياب، قد وصفهم الله سبحانه أيضاً بهذا الوصف حيث قال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

قال الطبرسي في تفسير الآية: إنما سمي الشك في الدين مرضاً لأن المرض هو الخروج عن حد الاعتدال، فالبدن ما لم تصبه آفة يكون صحيحاً سويّاً، وكذلك القلب ما لم يصبه آفة من الشك يكون صحيحاً، وقيل: المرض هو الفتور فهو في القلب فتوره عن الحق كما أنه في البدن فتور الأعضاء[1].

(وصفاحهم نقيّة) أي صفحات وجوههم طاهرة نظيفة، وهو كناية عن اتصاف ظاهرهم بالبشر والبشاشة والمحبة والنصح والصداقة خلاف ما في باطنهم من الشر والفساد واللّدد والعناد.

(يمشون) في **(الخفاء)** أي مختفياً، قال الشارح البحراني: وهو كناية عن كون حركاتهم القولية والفعلية فيما يريدونه في خفاء أفهام الناس.

(ويدبّون الضراء) وهو مثل يضرب لمن أراد أن يختل صاحبه يقال: فلان يدبّ له الضّراء إذا أراد بصاحبه سوء وأذى من حيث لا يعلم، كمن يمشي في الشجر الملتف الساتر للاصطياد.

(وصفهم دواء وقولهم شفاء وفعلهم الداء العياء) يعني أنهم يتصفون ظاهراً بأوصاف

---

(١) مجمع البيان: ١/١٠٢.

أهل الإيمان أو أنهم يصفون من الطاعات والخيرات ما هو دواء الأمراض النفسانية كالمؤمنين، ويقولون من الأقوال الحسنة والمواعظ البالغة ما هو شفاء الصدور كالناسكين والزاهدين، ويفعلون فعل الفاسقين الفاجرين الذي هو الداء الأكبر المعيي للأطباء من العلاج.

ومحصّله أنهم يتصفون ظاهراً بصفات المؤمنين، ويتكلمون بمثل كلامهم إلا أن أفعالهم خلاف أقوالهم، وباطنهم مناف لظاهرهم كما قال تعالى في وصفهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، وفي سورة آل عمران: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [١١٩].

(حسدة الرخاء) أي إن رأوا لأحد سعة ورفاهية في العيش ونعمة أنعم الله سبحانه بها عليه يحسدونه ويحزنونه به كما قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

(وموكّدوا البلاء) يعني إذا وقع أحد في بلاء ومكروه يسعون في تأكيده وتشديده بالسعاية والنميمة وسائر أسباب التشديد، ولا يسعون في دفعه ورفعه وإصلاحه. وفي بعض النسخ: ومولّدوا البلاء، **(باللام)** وهو ظاهر.

(ومقنطوا الرجاء) قال البحراني: أي إذا رجا راج أمراً ففي طباعهم أن يقنطوه ويؤيسوه، وهكذا شأن المنافق الكذاب أن يبعد القريب ويقرّب البعيد.

أقول: ويحتمل أن يكون المراد أنهم بمقتضى خبثهم الباطني يقنّطون الراجين من رحمة الله عزَّ وجل ويأيسونهم منها، وذلك لقنوطهم في أنفسهم منها بما لهم من الغيّ والضلال كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

(لهم بكل طريق صريع) الظاهر أن المراد به أن لهم في كل طريق من طرق البر صرعى أي هلكى لإضلالهم الناس عنها، وقال الشارح البحراني: إنه كناية عن كثرة من يقتلونه أو يؤذونه بخديعتهم، وكنّى بالطريق إما عن كل مقصد قصدوه أو عن كل حيلة احتالوها ومكر مكروه، فإنه لا بد أن يستلزم أذىً، والأظهر ما قلناه.

(وإلى كل قلب شفيع) أي إلى صرف كل قلب نحوهم وعطفه إليهم وسيلة وواسطة، وهي خلابة ألسنتهم وملقهم وما يظهرونه من التلطف والتودد والتملق، أو المراد أن لهم إلى تحريف كل قلب وإضلاله عن الحق شفيع، وعلى أي تقدير فالمراد به التنبيه على شدّة

استيلائهم على القلوب وتمكّنهم من التصرّف فيها بأي نحو كان.

(ولكل شجو دموع) يعني أنهم يسكبون دموعهم ويبكون رياء عند كل محزون ومصاب، تخييلاً بأنهم مشاركوهم في الحزن والأسف وقصدهم بذلك التوصل إلى حصول أغراضهم الفاسدة.

(يتقارضون الثناء) أي يثني أحدهم على الآخر ليثني الآخر عليه كأنه يقرض الثناء ليأخذ عوضه.

(ويتراقبون الجزاء) أي يترقب كل واحد منهم جزاء محمدته وثنائه من صاحبه إذا أثنى عليه وينتظر أن يجزيه بمثل ثنائه أو بغيره من وجوه الجزاء.

(إن سألوا ألحفوا) أي أسرّوا في سؤالهم وألحوا فيه **(وإن عذلوا كشفوا)** يعني إن لاموا أحداً ببعض المعايب كشفوا عيوبه عند الأجانب والأقارب، وربما يظهرونها عند من لا يرضى بالإظهار عنده، وذلك لعدم كون نصحهم عن وجه الصدق والخلوص حتى يناصحوه في الخلوة لا في الملاء،

(وإن حكموا أسرفوا) أي إذا ولّي أحدهم ولاية أسرف فيها بالظلم والطغيان وأفرط في الأكل والشرب والانهماك في شهوات نفسه كما فعل معاوية في ولاية الشام.

ويحتمل أن يراد به أنهم إذا فوّض إليهم الحكم تعدوا فيه وتجاوزوا عن الاعتدال كما صدر عن عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري في قضية التحكيم.

(قد أعدّوا لكل حق باطلاً) أي هيّؤوا لإبطال الحق شبهة فاسدة باطلة ليموهوا بها كما اعتذر المنافق الثاني في زوى الخلافة عنه عليه السلام بأن فيه دعابة، وتبعه على ذلك عمرو بن العاص اللعين كما حكى عليه السلام عنه في المختار الثالث والثمانين بقوله: عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام إن فيّ دعابة وإني امرؤ تلعابة.

(ولكل قائم مائلاً) أي أعدوا لكل أمر صحيح مستقيم ليس به اعوجاج ما يوجب اعوجاجه من الشبه والتمويهات.

(ولكل حيّ قاتلاً) يحتمل أن يراد به خصوص ذي الحياة من نوع الإنسان، فيراد بالقاتل معناه المعروف وأن يراد به معناه المجازي، أي هيؤوا لكل ما له قوام وثبات من أمور الدين ما يوجب فساده وإبطاله كما قال عليه السلام في المختار المائة والسابع والعشرين: وإنما حكم الحكمان ليحييا ما أحيى القرآن ويميتا ما أمات القرآن، وإحياؤه الاجتماع عليه وإماتته الافتراق عنه.

(ولكل باب مفتاحاً) أي لكل باب من أبواب الضلال مفتاحاً من وجوه التدبير والحيل يفتحونه به على الناس لإضلالهم.

(ولكل ليل مصباحاً) أي لكل أمر مظلم يعيى فيه رأياً يستضاء به فيه ويهتدى به إليه كما دبره ابن العاص عند ضيق الخناق على أهل الشام بصفين من رفع المصاحف على الرماح صبيحة ليلة الهرير، فأنجاهم بتلك الحيلة والمكيدة عن هذه الورطة العظيمة.

(يتوصلون إلى الطمع باليأس) لعل المراد أنهم يتزهدون ويظهرون اليأس والاستغناء عما في أيدي الناس وصلة به إلى مطامعهم، ومحصله أنهم يتركون الدنيا للدنيا ويستغنون عن الناس تزويراً.

(ليقيموا به أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم) شبههم في قصدهم إلى إضلال الناس بالتاجر الذي يجلس في السوق ويعرض متاعه على المشترين ويرغبهم إليه بحسن المعاملة قصداً إلى رواج متاعه، فجعلهم بمنزلة التاجر، وما عندهم من متاع الضلال بمنزلة المبيع، ومن يريدون إضلاله بمنزلة المشتري، وما عنده من الهدى بمنزلة الثمن.

فيكون محصل المعنى أنهم يظهرون اليأس من الناس جلباً لقلوبهم إليهم، وتوصلاً به إلى ما يطمعونه منهم من الإضلال والإغواء وغرضهم بذلك إقامة أسواقهم أي انتظام معاملتهم معهم وترويج ما لديهم من متاع الضلال الذي يزعمون أنه متاع نفيس مع أنه خبيث خسيس.

(يقولون فيشبهون) أي يقولون قولاً فاسداً فيوقعون به الشبهة في قلوب الخلق.

(ويصفون فيموهون) أي يصفون الباطل ويزينونه بصورة الحق.

(قد هيّنوا الطريق وأضلعوا المضيق) لعل المراد به أنهم جعلوا الطريق المؤدي إلى الضلال سهلاً هيّناً لمن أرادوا إسلاكهم فيه بالخدع والتمويهات، وجعلوا المسلك الضيق معوجاً لمن أراد الخروج من ورطة الضلال بعد تورطه فيها، فسهولة الطريق بالنسبة إلى الوارد، والضيق والاعوجاج بالنسبة إلى الخارج.

(فهم لمّة الشيطان) أي جماعته وأصحابه وأتباعه **(وحمة النيران)** أي معظم حرّها، وقال الشارح البحراني: مستعار لمعظم شرورهم، ووجه المشابهة استلزامها للأذى البالغ وكذلك حمة بالتخفيف.

(أولئك حزب الشيطان) لإضلالهم الناس عن الهدى إلى الردى، **(ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون)** اقتباس من الآية الشريفة في سورة المجادلة، قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ

عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [١٩] الآية.

قال الطبرسي في **(تفسيره)**: أي استولى عليهم يعني المنافقين وغلب عليهم لشدّة اتباعهم إياه فأنساهم ذكر الله حتى لا يخافون الله ولا يذكرونه، أولئك حزب الشيطان، أي جنوده، ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون، يخسرون الجنة ويحصل لهم بدلها النار.

أقول: وبعبارة أوضح، أنهم فوّتوا على أنفسهم النعيم المؤبد وعرضوها للعذاب المخلّد بما اتصفوا به من صفة النفاق.

روى في **(الكافي)** بإسناده عن محمد بن الفضيل قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن مسألة فكتب عليه السلام إليّ: إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً، ليسوا من الكافرين وليسوا من المؤمنين وليسوا من المسلمين يظهرون الإيمان ويصيرون إلى الكفر والتكذيب لعنهم الله[١].

(١) الكافي ٢/٣٩٥ ح ٢، والإفصاح ٦١.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است كه وصف فرموده در آن منافقين را، مى فرمايد:

حمد مى كنم خدا را در مقابل آن چيزى كه توفيق داد مر آن چيز را در طاعت و فرمانبردارى و دفع و منع فرمود بندگان را از آن از معصيت و گردن كشى و درخواست مى كنيم از او تمام كردن مر منّت او را و چنگ زدن به ريسمان محكم او كه عبارت است از اسلام يا قرآن.

و گواهى مى دهيم اين كه محمّد بنده پسنديده و فرستاده او است، فرو رفت در هر شدايد به جهت توجه به رضاى خدا و جرعه جرعه نوشيد هر غصّه در تحصيل رضاى الهى و حال آن كه متغيّر و متلوّن الحال شدند از براى او نزديكان و خويشان و جمع گشتند بر عداوت او بيگانگان و كندند طايفه عرب به سوى حرب او لجامهاى خود را و زدند بر شكم هاى شتران باركش خودشان به جهت رفتن به سوى جنگ او تا آن كه فرود آورند در فضاى خانه و منزل او دشمنى خودشان را از دورترين خانه و دورترين زيارتگاه.

وصيت مى كنم شما را اى بندگان خدا به پرهيزگارى خدا و مى ترسانم شما را از اهل نفاق، پس به درستى كه منافقان گمراهان و گمراه كنندگانند و لغزندگان و لغزانندگان اند، رنگ به رنگ و مختلف الحال مى شوند و خلق را تفتين مى كنند، قصد مى كنند شما را به هر امر سنگين و انتظار شما را مى كشند در هر گذرگاهى، قلبهاى ايشان فاسد است و صفحه روهاى ايشان پاك و نظيف، راه مى روند در پنهانى و حركت مى كنند در طرق اذيّت و اضرار.

صفت ايشان دواء است و گفتار ايشان شفاء است و كردار ايشان درد بى درمان، حسدكنندگان رفاهيت اند و محكم كنندگان بلا و مصيبت و مأيوس كنندگان اميدند، ايشات را است در هر راهى افتاده اى و به سوى هر قلبى واسطه اى و از براى هر اندوهى اشك چشمى، به قرض مى دهند به يكديگر ثنا و ستايش را و

منتظر می باشند از يكديگر جزا و احسان را.

اگر سؤال نمايند، اصرار می كنند و اگر ملامت نمايند، پرده دری می كنند و اگر حاكم نمايند ايشان را در حكومتی، اسراف می نمايند. به تحقيق كه مهيّا ساخته اند از برای هر حق، باطلی را و از برای هر راست، كجی را و از برای هر زنده، قاتلی را و از برای هر در، كليدی را و از برای هر شب، چراغی را.

يعنی صاحبان انواع و اقسام حيله و خدعه می باشند، توسل می كنند به سوی طمع با اظهار يأس از مردم تا اين كه برپا كنند به سبب اظهار يأس بازار كار خودشان را و رواج دهند متاع خود را، حرف می زنند، پس مشتبه می سازند خلق را و تعريف می كنند، پس زينت می دهند و آسان می گردانند راه باطل را به جهت داخلين و كج می كنند راه تنگ را به جهت خارجين، پس ايشان جماعت شيطان اند و چشمه آتش اند، ايشان دسته شيطان اند، آگاه باش به درستی دسته شيطان ايشان اند زيانكاران.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والرابعة والتسعون من المختار في باب الخطب

«الْحَمْدُ لله الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثارِ سُلْطانِه وجَلالِ كِبْرِيائِهِ ما حَيَّرَ مُقَل العُيُونِ مِنْ عَجائِبِ قُدْرَتِه، ورَدَعَ خَطَراتِ هَماهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفانِ كُنْهِ صِفَتِه، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰه إِلاَّ الله شَهادَةَ إِيْمانٍ وإِيقانٍ، وإِخْلاصٍ وإِذْعانٍ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وأَعْلامُ الهُدىٰ دارِسَةٌ، ومَناهِجُ الدِّينِ طامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالحَقِّ، ونَصَحَ لِلْخَلْقِ، وهَدىٰ إِلىٰ الرُّشْدِ، وأَمَرَ بالقَصْدِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وآلِهِ.

وَاعْلَمُوا عِبادَ الله أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، ولَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِه عَلَيْكُمْ، وأَحْصىٰ إِحْسانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتِحُوهُ، واسْتَنْجِحُوهُ، واطْلُبُوا إِلَيْهِ، واسْتَمْنِحُوهُ، فَما قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجابٌ، وَلا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بابٌ، وإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكانٍ، وفي كُلِّ حِينٍ وأَوانٍ «زمان خ»، ومَعَ كُلِّ إِنْسٍ وجانٍّ، لا يَثْلِمُهُ العَطاءُ، وَلا يَنْقُصُهُ الحَباءُ، وَلا يَسْتَنْفِدُهُ سائِلٌ، ولا يَسْتَقْصِيهِ نائِلٌ، وَلا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، ولا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، ولا تُحْجِزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلبٍ، ولا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلا تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقابٍ، وَلا يُجِنُّهُ البُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ البُطُونِ، قَرُبَ فَنَأىٰ، وَعَلا فَدَنَىٰ، وظَهَرَ فَبَطَنَ، وبَطَنَ فَعَلَنَ، ودانَ وَلَمْ يُدَنْ، لَمْ يَذْرَءِ الخَلْقَ بِاحْتِيالٍ وَلا اسْتَعانَ بِهِمْ لِكَلالٍ.

أُوصيكُمْ عِبادَ الله بِتَقْوَىٰ الله، فَإِنَّهَا الزِّمامُ وَالقِوامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثائِقِها، وَاعْتَصِمُوا بِحَقائِقِها، تَؤُلْ بِكُمْ إِلىٰ أَكنانِ الدَّعَةِ، وأَوْطانِ السَّعَةِ، ومَعاقِلِ الحِرْزِ، ومَنازِلِ العِزِّ، في يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصارُ، وتُظْلَمُ لَهُ الأَقْطارُ، وتُعَطَّلُ فيهِ صُرُومُ العِشارِ، ويُنْفَخُ في الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوامِخُ، والصُّمُّ الرَّواسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُها سَراباً رَقْرَقاً، ومَعْهَدُها قاعاً سَمْلَقاً، فَلا شَفيعٌ يَشْفَعُ، ولا حَمِيمٌ يَدْفَعُ، وَلا مَعْذِرَةٌ تَنْفَعُ»[(١)].

اللغة

(**المقل**) جمع مقلة كغرف وغرفة وهي شحمة العين التي تجمع سوادها وبياضها و (**الهمهمة**) الكلام الخفي أو صوت يسمع ولا يفهم محصوله وتردد الزئير في الصدر من الهمّ ونحوه، قاله في (**القاموس**).

أقول: والزئير مأخوذ من الزئر وهو ترديد الصوت في الجوف ثم مدّه، ويطلق الزئير

---

(١) بحار الأنوار ٧٤/ ٣١٤، وميزان الحكمة ٣/ ١٨٩٣.

على صوت الأسد من صدره وعلى كل صوت فيه بحح كصوت الفيلة ونحوها.

و (**طمست**) الشيء طمساً محوته وطمس هو يتعدّى ولا يتعدّى، وطمس الطريق درست و (**الجان**) إسم جمع للجن وأبو الجن و (**استمنحوه**) بالنون من المنحة وهي العطية، وفي بعض النسخ بالياء يقال: استمحت الرّجل طلبت عطاءه ومحت الرّجل أعطيته و (**الثّلمة**) في الحائط وغيره الخلل والجمع ثلم كغرفة وغرف و (**نفد**) الشيء ينفد من باب تعب نفاداً فني وانقطع وأنفدته أفنيته و (**النّائل**) العطاء كالنوال والنّال و (**سلبت**) ثوب زيد من باب قتل أخذته والسّلب بالتحريك الاختلاس واسم لما يسلب ومنه الحديث: من قتل قتيلاً فله سلبه.

وقوله: (**ولا يجنه البطون عن الظهور ولا يقطعه الظهور عن البطون**) هكذا في نسخة الشارح المعتزلي بتذكير الفعلين، وعليها فالبطون والظهور مصدر بطن وظهر، وفي بعض النسخ بتأنيثهما وعلى ذلك فلا بد من جعلهما جمعاً للبطن والظهر كما هو مقتضى القواعد الأدبية.

و (**الدّين**) الجزاء، ومنه الحديث: كما تدين تدان، أي كما تجازي تجازى بما فعلت، ويقال أيضاً على القهر والغلبة. قال ابن الأثير: ومنه الحديث: كان علي عليه السلام ديان هذه الأمة أي قاهرهم على الطاعة، وفي (**القاموس**): الدّين الحساب والقهر والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والحكم.

و (**الكلال**) العجز والإعياء و (**الأكنان**) جمع كن وهو الستر يستر من الحرّ والبرد، قال تعالى: و﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١] و (**المعاقل**) جمع معقل وهو الملجأ.

و (**الصّروم**) إما جمع صرمة بالكسر القطعة من الإبل ما بين العشرة إلى الأربعين والقطعة من السّحاب وتجمع على صرم مثل سدرة وسدر، وإما جمع صرم وهي الطائفة المجتمعة من القوم ينزلون بإبلهم ناحية من الماء ويجمع على أصرام مثل حمل وأحمال، أو جمع صرماء وهي الناقة القليلة اللبن، وتجمع على صرم وزان قفل والأخير أظهر.

و (**العشار**) من الإبل النوق أتى عليها من يوم أرسل الفحل فيها عشرة أشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع، والواحدة عشراء، وقال الفيروزآبادي: والعشراء من النوق التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية أو هي كالنفساء من النساء والجمع عشراوات وعشار، أو العشار اسم يقع على النّوق حتى تنتج بعضها وبعضها ينتظر نتاجها.

(**والشمّ**) جمع أشم يقول: جبل أشم أي فيه شمم وارتفاع، ورجل أشم أي بأنفه ارتفاع. قال في (**القاموس**) و (**رقرقان**) السراب بالضم ما ترقرق منه أي تحرك، والرّقراقة

التي كان الماء يجري في وجهها و (القاع) الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام و (السملق) الصفصف وهي المستوي من الأرض.

الإعراب

قوله: **(واطلبوا إليه)**، تعدية الطلب لتضمينه معنى التضرع، وقوله: **(تؤل)**، بالجزم لوقوعه في جواب الأمر كما في نسخة الشارح المعتزلي، وفي أكثر النسخ بالرفع، والظاهر أنه على الاستئناف البياني، وقوله: **(في يوم تشخص)**، متعلّق بقوله: **(تؤل)**، و **(الفاء)** في قوله: **(فتزهق)**، وقوله: **(فيصير)**، وقوله: **(فلا شفيع)** كلها فصيحة.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة مسوقة للنصح والموعظة والأمر بالتقوى مع التنبيه على جملة من صفات الكمال والعظمة والجلال لله عزّ وجلّ، وافتتحها بحمده والثناء عليه والشهادة بالتوحيد والرسالة فقال:

(الحمد لله الذي أظهر) في الملك والملكوت والأنفس والآفاق والأرض والسماوات **(من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مقل العيون)** وأبصار البصائر **(من عجائب قدرته)** وبدائع صنعته، وقد تقدم الإشارة إلى بعضها في شرح الخطب المسوقة لهذا الغرض ومرّ فصل وافٍ منها في الخطبة التسعين وشرحها، فانظر ماذا ترى.

ونسبة عجائب القدرة إلى سلطانه وجلال كبريائه لأن الآثار العظيمة والمبدعات المحكمة المتقنة إنما يناسب صدورها بالسلطنة الإلٰهية والجلال الإلٰهي.

(وردع خطرات هماهم النفوس عن عرفان كنه صفته) أي دفع ومنع الأفكار والروايات التي تخطر بالنفوس وتوجب همهمتها عن معرفة كنه صفات جماله وجلاله ويحتمل أن يراد بالهماهم نفس تلك الأفكار على سبيل الاستعارة لترددها في الجوف مثل تردد الهماهم.

وكيف كان فالغرض منه التنبيه على عجز العقول والمشاعر الظاهرة والباطنة عن إدراك حقيقته وذاته حسبما عرفته في شرح الفصل الثاني من الخطبة التسعين، وفي تضاعيف الشرح مراراً، وأردف الثناء عليه تعالى بالشهادة بتوحيده فقال:

(وأشهد أن لا إلٰه إلا الله) وقد مضى الكلام في تحقيق معناها والأخبار الواردة في فضلها بما لا مزيد عليه في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثانية، ووصفها هنا بأوصاف أربعة:

أحدها: كونها (**شهادة إيمان**) أي يطابق القول فيها للعقد القلبي.

(و) **ثانيها**: كونها شهادة (**إيقان**) أي صادرة عن علم اليقين لا عن وجه التقليد ولا تكون كذلك إلا باعتقاد أن لا إله إلا هو مع اعتقاد أنه لا يمكن أن يكون ذلك المعتقد إلاّ كذلك.

(و) **ثالثها**: أن تكون عن (**إخلاص**) أي جعلها خالصاً عن شوب غيرها من الرياء ونحوه، وقال الشارح البحراني: هي أن يحذف عن ذلك المعتقد كل أمر عن درجة الاعتبار ولا يلاحظ معه غيره، انتهى. وقد مر له معنى آخر في الأخبار المتقدمة في شرح الخطبة الثانية من أن إخلاصها أن حجزه لا إله إلا الله عما حرّم الله.

(و) **رابعها**: أن تكون متلبسة بـ (**إذعان**) وانقياد لما هو من توابعها ومقتضياتها من التكاليف والأحكام.

وأردفها بالشهادة بالرسالة لما عرفت في الأخبار المتقدمة في شرح الخطبة الثانية من فضل المقارنة بينهما فقال:

(**وأشهد أن محمداً عبده**) المرتضى (**ورسوله**) المصطفى (**أرسله**) إلى الخلق بالهدى ودين الحق على حين فترة من الرّسل وطول هجعة من الأمم وانتقاض من المبرم (**و**) الحال أن (**أعلام الهدى دارسة**) استعارها للأنبياء والمرسلين وأولياء الدين الذين يهتدى بأنوارهم في سلوك سبيل الله كما يهتدى بالأعلام في الطرق، ودروسها بما كانت من الفترة بعد عيسى إلى بعثه ﷺ (ومناهج الدّين طامسة) أي طرق المعارف الحقّة الإلهية مندرسة منمحية بطول المدة وبعد العهد وغلبة الغفلة.

(**فصدع بالحق**) امتثالاً لما كان مأموراً به بقوله عزَّ وجل: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] وأصل الصدع عبارة عن كسر الزجاجة وشقّها وتفريقها، فاستعير عنه للبيان الواضح والتبليغ الكامل، والجامع التأثر.

وقد قيل في تفسير الآية: أن معناها أبن الأمر إبانة لا تنمحي كما لا يلتئم كسر الزجاجة، وقيل: افرق بين الحق والباطل، وقيل: شقّ جماعاتهم بالتوحيد أو بالقرآن.

(**ونصح للخلق**) بصرفهم عن الرّدى إلى الهدى وردهم عن الجحيم إلى النعيم (**وهدى إلى الرشد**) أي إلى الصواب والسّداد في القول والعمل (**وأمر بالقصد**) أي بالعدل في الأمور المصون عن الإفراط والتفريط، ويحتمل أن يكون المراد به قصد السبيل الموصل إلى الحق أي الصراط المستقيم (**صلّى الله عليه وآله**) وسلّم.

ثم نبّه المخاطبين على عدم كونه تعالى في خلقهم وإيجادهم لاغياً عابثاً فقال: **(واعلموا عباد الله أنه لم يخلقكم عبثاً)** تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، وإنما خلقكم للمعرفة والعبودية كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

(ولم يرسلكم هملاً) أي لم يترككم سدى مهملين كالبهائم والأنعام، وإنما كلّفكم بالتكاليف والأحكام **(علم مبلغ نعمه)** ومقدارها كمّاً وكيفاً **(عليكم وأحصى إحسانه)** وفضله **(إليكم)** ليبلوكم أتشكرونه أم تكفرون، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإنه غنيّ كريم **(فاستفتحوه)** أي اطلبوا منه فتح أبواب النّعم **(واستنجحوه)** أي اطلبوا منه نجاح عوائد المزيد والقسم **(واطلبوا)** منه متضرعين **(إليه)** أن يصرف عنكم ما لا يصرفه أحد غيره من عذاب النار وسخط الجبّار.

(واستمنحوه) أي اطلبوا منه أن يعطيكم ما لا يعطيه أحد غيره من فوز الجنان ورضى الرحمٰن، وطلب ذلك كله منه سبحانه إنما هو بالقيام بمراسم الحمد والشكر وبالمواظبة على وظائف الطاعات والقربات التي بها يستعدّ لإفاضة الرحمة ونزول الخيرات، هذا.

ولما أمرهم بالطلب والسؤال أردفه بما يشوّقهم إلى ذلك ويرغّبهم إليه بالتنبيه على انتهاء جميع السؤالات والطلبات إليه وعدم رادع ومانع من وصولها إليه وهو قوله:

(فما قطعكم عنه حجاب ولا أغلق عنكم دونه باب) يعني أن بابه مفتوح لمن دعاه وليس بينه وبين خلقه حجاب مانع ولا باب مغلق يمنع من الوصول إليه ومن عرض الحوائج والمقاصد عليه كسائر الملوك والسلاطين يأخذون لأنفسهم حجاباً وبوّاباً، لأن ذلك من أوصاف الأجسام وصفات النقص والإمكان، والله تعالى موصوف بالعظمة والجلال منزّه عن الحيّز والمكان فلا يتصور أن يكون له باب أو عنده حجاب كما أفصح عن ذلك بقوله:

(وإنه لبكل مكان) بالعلم والإحاطة لا بالتحيّز والحواية، فلا يخفى عليه شيء من حوائج السائلين وإنما منظره في القرب والبعد سواء، لم يبعد منه قريب ولم يقرب منه بعيد، ولا يحويه مكان ولا يحيط به مكان حتى إذا كان في ذلك المكان يحجب عنه أخبار سائر الأمكنة والمكانيات.

يوضح ذلك ما رواه في **(الكافي)** بإسناده عن عيسى بن يونس قال: قال ابن أبي العوجاء لأبي عبد الله عليه السلام في بعض ما كان يحاوره: ذكرت الله فأحلت على غائب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويلك كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم ويعلم أسرارهم؟، فقال ابن أبي العوجاء: أهو في كل مكان؟ أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض وإذا كان في الأرض كيف يكون

في السماء؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل عن مكان اشتغل به مكان وخلا منه مكان فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن الملك الدّيان فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان[1].

وقد مر هذا الحديث في شرح الفصل السادس من الخطبة الأولى ومر تحقيق الكلام في تنزّهه سبحانه من المكان في شرح الفصل الخامس منها فليراجع ثمة فإن هناك مطالب نفيسة.

ولما نبّه على عدم خلوّ الأمكنة منه عزّ وجلّ أردفه بالتنبه على عدم خلوّ الأزمنة منه فقال:

(وفي كل حين وزمان) بالعلم والإحاطة أيضاً لا بمعنى ظرفيته له، لأن الكون فيه بمعنى الظرفية مستلزم للحدوث المنافي للوجوب، فالواجب الأول تعالى منزّه عن ذلك، وقد تقدم مزيد تحقيق لذلك في شرح الخطبة المائة والخامسة والثمانين.

(ومع كل إنس وجان) لا معية بالاقتران بل معنى كونه عالماً بهم، شاهداً عليهم، غير عائب عنهم كما قال عزَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧]، وقد مر مزيد تحقيق لهذا المعنى في شرح الفصل الخامس والسادس من الخطبة الأولى، هذا.

ولما شوّق المخاطبين إلى الطلب والسؤال بالتنبيه على عموم علمه بحالات السائلين وحاجات الطالبين وعدم خفاء شيء منها عليه، أكد تشويقهم بالتنبيه على سعة جوده فقال:

(لا يثلمه العطاء ولا ينقصه الحباء) أي لا يوجب كثرة عطائه ومزيد حبائه خللاً ونقصاً في خزانة كرمه وبحر جوده، وذلك لعدم تناهي مقدوراته.

ويوضح ذلك ما في الحديث المروي في **(الكافي)** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عزَّ وجل يقول: فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرّة، وكيف ينتقص ملك أنا قيمه، فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني[2].

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢/ ٢٥٠ ح ٢، وشرح أصول الكافي ٤/ ٧٦.

(٢) الكافي ٢/ ٦٧ ح ٧، ووسائل الشيعة ١٥/ ٢١٥.

ويذلك الحديث أيضاً اتضح معنى قوله: **(لا يستنفده سائل ولا يستقصيه نائل)** أي لا يفني جوده سائل وإن بلغ الغاية في طلبه وسؤاله، وكذا لا يبلغ القصوى والغاية عطاؤه ونواله بل لو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلزّ اللجين والعقيان ونثارة الدّر وحصيد المرجان ما أثّر ذلك في جوده ولا أنفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لا تنفده مطالب الأنام، لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين، ولا يبخّله إلحاح الملحين حسبما مر في الخطبة التسعين.

(ولا يلويه) أي لا يصرفه **(شخص عن شخص ولا يلهيه)** أي لا يشغله **(صوت عن صوت)** لأن الصرف واللهو يستلزمان الغفلة عن أمر والفطنة لغيره بعد الغفلة عنه وهما من عوارض المزاج الحيواني وتوابع الإمكان.

(ولا تحجزه هبة عن سلب) أي لا يمنعه البذل والإنعام عن سلب المال وأخذه. قال الشارح المعتزلي: أي ليس كالقادرين منّا فإن الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطية عن سلب مال عمرو حال ما يكون مهتماً بتلك العطيّة لأن اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر، انتهى.

أقول: ومحصّله أنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن، ويحتمل أن يراد به أنه تعالى لا يمنعه هبته لأحد وإنعامه عليه عن سلب نعمة أخرى عنه كالواحد منا إذا وهب يمنعه هبته عن سلبه، لاستلزام الهبة فينا التلطف والعطف، واستلزام السلب فينا الغيظ والغضب، وهما أمران متضادان لا يمكن اجتماعهما في شخص واحد في حالة واحدة، فلا يكون الواهب حال ما هو واهب سالباً وبالعكس، وأما الواجب تعالى فلما لم يكن منشأ هبته وسلبه والعطف والغضب لكونهما من عوارض المزاج الحيواني وتنزّهه عنها جاز إتصافه بهما معاً.

وهذان الاحتمالان يأتيان في قوله: **(ولا يشغله غضب عن رحمة)** والمراد بهما غايتهما، أي العقاب والإحسان لا معناهما المعروف المستلزم للحدوث والنقصان.

وأما قوله: **(ولا تولهه رحمة عن عقاب)** فقد قال الشارح المعتزلي: أي لا يحدث الرحمة لمستحقها عنده ولها وهو التحيّر والتردد ويصرفه عن عقاب المستحق، وذلك لأن الواحد منا إذا رحم إنساناً حدث عنه رقّة خصوصاً إذا توالت منه الرحمة لقوم متعددين فإنه يصير الرحمة كالملكة عنده فلا يطيق في تلك الحال أن ينتقم والباري سبحانه بخلاف ذلك، لأنه ليس بذي مزاج سبحانه، هذا.

وقوله: **(ولا يجنّه البطون عن الظهور)** قد تقدم منا في شرح الخطبة التاسعة والأربعين والخطبة الرابعة والستين ما هو كاف في شرح معنى هذه الفقرة وما يتلوها من الفقرات الآتية

إلى قوله: وبطن فعلن.

وأقول هنا مزيداً للتوضيح: إن الغرض بهذه الجملات جميعاً التنبيه على كمال الحق المتعال عزَّ وجل وعلى تنزّهه من صفات المخلوقين، فإن البطون في الخلق مانع من الظهور، والظهور من البطون، والقرب من البعد، والبعد من القرب، والعلوّ من الدنو، والدنو من العلو لكون كل من هذه الصفات بمعناه المعروف مضاداً للآخر، فلا يمكن اتصاف شخص واحد بهما معاً في حالةٍ واحدة ولا اجتماعهما في محل واحد على ما هو مقتضى التّضاد.

أما الله الحي القيوم جل جلاله فيتصف بهما جميعاً بمعنى آخر وراء ذلك المعنى المعروف، فهو تعالى ظاهر باطن قريب بعيد عال دان.

وعلى ذلك فلا يجنّه البطون عن الظهور، أي لا يستره خفاؤه بذاته عن ظهوره بآياته، أو لا يستره اختفاؤه عن الأبصار عن ظهوره للعقول والبصائر، أو لا يحجبه خفاؤه عن الأبصار والأوهام بذاته عن قهره وغلبته للأشياء بسلطانه وقدرته.

ومحصله أنه ليس بطونه بلطافة أو اجتنان، ولا ظهوره برؤية وعيان حتى يكون اتصافه بأحدهما حاجباً ومانعاً عن الآخر كما في المخلوق.

وعلى ما في بعض النسخ من رواية: لا تجنّه بصيغة التأنيث، فالمراد أنه لا تستره بواطن الأشياء عن ظواهرها أي لا تحجب علمه بطونها عن ظهورها، لأن علمه ببواطن الأشياء ليس على وجه الاستبطان والغور فيها، ولا علمه بظواهر الأشياء من أجل كونه فوقها حتى تحجبه البطون عن الظهور والظهور عن البطون كما فينا.

ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى حين ما هو عالم بالباطن عالم بالظاهر لكمال علمه وعموم إحاطته، وليس كالمخلوق حين علمه بأحدهما يغفل عن الآخر لنقصان علمه وقصوره.

(و) بذلك كله ظهر أيضاً معنى قوله: **(لا يقطعه الظهور عن البطون)**.

وأما قوله: **(قرب فنأى)** فالمراد به أنه قرب من الخلق بالعلم والإحاطة وبالرحمة والإفاضة، وبعد عنهم بالذات والحقيقة وليس قربه قرباً مكانياً حتى ينافي لبعده، ولا بعده بعداً مكانياً بتراخي مسافة حتى ينافي لقربه.

(وعلا فدنا) أي علا بحوله وقدرته وغلبته وسلطانه ودنا بطوله وفضله ومنه وإحسانه كما مر التصريح به منه عليه السلام في الخطبة الثانية والثمانين، ويجوز أن يراد علوّه على الأشياء بجلاله وعزّته ودنوّه منها بعلمه وإحاطته، وأن يراد بالعلو العلو بالعليّة وبالدنو قربه من

الأشياء قرب العلة من معلولها، وهذا هو الأولى بالإرادة هنا وأنسب بعطفه الدنو على العلو بالفاء المفيدة لتفريعه عليه، فافهم جيداً وقد مضى تحقيق ذلك في شرح الخطبة التاسعة والأربعين.

(وظهر فبطن) أي ظهر على الأشياء بسلطانه وعظمته، وبطن في الأشياء بعلمه ومعرفته **(وبطن فعلن)** أي خفي بذاته وكنهه وظهر بآثاره وآياته، وهاتان الفقرتان تأكيدتان للفقرتين المتقدمتين، فإنه لما نبّه فيهما على عدم حجب بطونه عن ظهوره وظهوره عن بطونه نبّه هنا على ما يستلزمه عدم الحجب وهو اتصافه بهما معاً.

روى في **(الكافي)** في باب الفرق بين المعاني التي تحت أسماء الله تعالى وأسماء المخلوقين عن علي بن محمد مرسلاً عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قال: وأما الظاهر فليس من أجل أنه علا الأشياء بركوب فوقها وقعود عليها وتسنّم لذراها، ولكن ذلك لقهره وغلبته الأشياء وقدرته عليها، كقول الرجل: ظهرت على أعدائي وأظهرني الله على خصمي، يخبر عن الفلج والغلبة فهكذا ظهور الله على الأشياء، ووجه آخر أنه الظاهر لمن أراده ولا يخفى عليه شيء، وأنه مدبّر لكل ما برء فأي ظاهر أظهر وأوضح من الله تبارك وتعالى، لأنك لا تعدم صنعته حيثما توجهت وفيك من آثاره ما يغنيك، والظاهر منا البارز بنفسه والمعلوم بحدّه فقد جمعنا الاسم ولم يجمعنا المعنى.

وأما الباطن فليس على معنى الاستبطان في الأشياء بأن يغور فيها، ولكن ذلك منه على استبطانه للأشياء علماً وحفظاً وتدبيراً كقول القائل: أبطنته، يعني خبرته وعلمت مكتوم سرّه، والباطن منا الغائب في الشيء المستتر وقد جمعنا الاسم واختلف المعنى[1].

(و) أما قوله: **(دان ولم يدن)** فأراد به أنه جزى العباد بأعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً، ولم يجز، أو أنه حاسب ولم يحاسب، أو أنه استعلا عليهم ولم يستعل عليه، أو أنه تسلّط على كل ما سواه ولم يسلّط عليه، أو أنه ملك جميع الخلائق ولم يُملك، أو أنه قهر الكل وغلبهم بافتقار الكل إليه واستغنائه عنهم ولم يقهر عليه.

قال الرضا عليه السلام في الحديث الذي قدمناه آنفاً:

وأما القاهر فإنه ليس على معنى علاج ونصب[2] واحتيال ومداراة ومكر كما يقهر العباد بعضهم بعضاً والمقهور منهم يعود قاهراً والقاهر يكون مقهوراً، ولكن ذلك من الله عزَّ وجل على أن جميع ما خلق ملبس به الذلّ لفاعله وقلّة الامتناع لما أراد به لم يخرج منه طرفة عين

(١) الكافي ١/ ١٢٢، والتوحيد ١٨٩.
(٢) في نسخة: وتصلّب.

أن يقول له: كن فيكون، والقاهر منا على ما ذكرت ووصفت فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى[١].

(لم يذرء الخلق باحتيال) أي لم يخلقهم باستخراج وجوه الحيل وإجالة الرأي والفكر في استخراجها كما هو شأن البشر في صنعهم، وذلك لأن الفكرة والحركة القلبية مختصة بذوي البصائر، وجلال الباري تعالى شأنه منزّه عنه وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون.

(ولا استعان بهم لكلال) أي لعجز وإعياء، لأن منشأ الإعياء تناهي القوّة الجسمية المخصوصة بذوي الأجسام، وطلب العون والحاجة إلى المعين من ضعف القدرة، وإذ لا ضعف ولا عجز لكمال ذاته سبحانه قوة وقدرة فلا يتصور في حقه الاستعانة.

ولما فرغ من تمجيد الحق المتعال بما هو أهله وتنزيهه عن صفات النقص والافتقار أردفه بالإيصاء بما لا يزال يوصي به فقال:

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها الزمام) للإنسان المانع له عن تقحم المهالك الجاذب إلى أقوم المسالك والصارف له عن الردى إلى الهدى وعن الجحيم إلى النعيم كما أن الزمام للخيل مانع لها عن اقتحام الهلكات وتورط الورطات **(و)** هي أيضاً **(القوام)** أي قوام الدين ونظام وظائف الشرع المبين.

(فتمسكوا بوثائقها) أي بعريها الوثيقة وحبالها المحكمة من الطاعات والقربات التي هي جزؤها.

(واعتصموا بحقائقها) أي بأصولها الثابتة الموافقة للواقع والمطابقة لغرض الشارع.

وأشار إلى ثمرة التمسك والاعتصام بها بقوله: **(تؤل بكم)** أي ترجعكم وتقودكم **(إلى أكنان الدّعة)** ومواطن الراحة متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً.

(وأوطان السعة) أي جنة عرضها السموات والأرض مع عيش سعيد وأكل رغيد، فالداخل فيها في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

(ومعاقل الحرز) المانعة من عذاب النار ومن غضب الجبار وظلّ ذي ثلاث شعب لا

---

(١) الكافي ١/ ١٢٣، وبحار الأنوار ٤/ ١٧٩.

ظليل ولا يغني من اللهب.

(ومنازل العزّ) أي حظائر القدس ومجالس الأنس مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين من السادة الأبرار والقادة الأخيار في جنات تجري من تحتها الأنهار، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً.

ولما أوصى بالتقوى وأمر بالتمسك والاعتصام بها ورغب فيها بالتنبيه على ما لها من المنفعة العظيمة وهي إرجاعها إلى جنة النعيم أكد ذلك الترغيب بإنجائها من الهول العظيم وأشار إلى ذلك بقوله:

(في يوم) أي إعتصموا بالتقوى تؤل بكم إلى مساكن الأمن والعز والسعة والراحة في يوم القيامة وما أعظم شدائدها وأهوالها، وقد زلزلت الأرض فيها زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها.

(تشخص فيه الأبصار وتظلم له الأقطار) أما شخوص الأبصار في ذلك اليوم فهو نص الكتاب الكريم، قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [٤٢ـ ٤٣].

قال الطبرسي: معناه إنما يؤخر عقابهم إلى يوم القيامة وهو اليوم الذي تكون الأبصار فيه شاخصة عن مواضعها لا تغمض لهول ما ترى في ذلك اليوم ولا تطرف، وقيل: تشخص أبصارهم إلى إجابة الداعي حين يدعوهم، وقيل: تبقى أبصارهم مفتوحة لا تنطبق للتحير والرعب[١].

(مهطعين) أي مسرعين، وقيل: يريد دائمي النظر إلى ما يرون ولا يطرفون.

مقنعي رؤوسهم، أي رافعي رؤوسهم إلى السماء حتى لا يرى الرجل مكان قدمه من شدة رفع الرأس، وذلك من هول يوم القيامة.

لا يرتدّ إليهم طرفهم، أي لا ترجع إليهم أعينهم ولا يطبقونها ولا يغمضونها، وإنما هو نظر دائم.

وأما ظلمة الأقطار فقد أشير إليها وإلى ما تقدم أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾

---

(١) مجمع البيان: ٦/٨٨.

وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة: ٧ ـ ١٠].

في (**الصافي**) عن القمّي قال: يبرق البصر فلا يقدر أن يطرف. وقرأ بفتح الراء وهو لغة، أو من البريق من شدّة شخوصه، وخسف القمر ذهب ضوؤه ونوره، وجمع الشمس والقمر، قال الطوسي: أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما بالخسوف ليتكامل ظلام الأرض على أهلها حتى يراهما كل أحد بغير نور وضياء[1].

وفي (**الصافي**) من الاحتجاج عن النبي ﷺ أنه سئل عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقيل له: فأين الناس يومئذ؟ فقال: في الظلمة دون المحشر[2].

(**وتعطل فيه صروم العشار**) قد مر تفسيرهما في بيان اللغة، وقد صرح بتعطيلها وأشير إلى ظلمة الأقطار كليهما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ [التكوير: ١ ـ ٤].

قال أمين الإسلام الطبرسي: أخبر الله سبحانه عن القيامة وشدائدها فقال: إذا الشمس كورت، أي ذهب ضوؤها ونورها فأظلمت واضمحلّت، وإذا النجوم انكدرت أي تساقطت وتناثرت، وإذا الجبال سيّرت عن وجه الأرض فصارت هباء منبثاً، وإذا العشار عطلت، أي النوق الحوامل التي أتت عليها عشرة أشهر، وهو أنفس مال عند العرب تركت هملاً بلا راع[3]، هذا.

ولما ذكر جملة من أوصاف يوم القيامة وأهاويلها تحذيراً منها أردفها بذكر نفخ الصّور الذي هو من أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على قربها تهويلاً به أيضاً فقال:

(**وينفخ في الصّور**) وقد مضى شرح وصفه وتفصيل كيفية النفخ فيه في شرح الفصل الثالث من الخطبة الثانية والثمانين بما لا مزيد عليه.

وأراد به النفخة الأولى كما يدل عليه قوله: (**فتزهق كل مهجة وتبكم كل لهجة**) أي تضمحل وتهلك كل قلب وتخرس كل لسان، وهو كناية عن هلاك العموم، وقد أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

ويدل عليه أيضاً قوله: (**وتذلّ الشّم الشوامخ**) أي الجبال الراسيات الشامخات العاليات (**والصمّ الرواسخ**) أي الثابتات المحكمات الراسيات وأراد بذلتها دكّ بعضها بعضاً من هيبة

---

(١) تفسير الصافي: ٥/ ٢٥٤، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ٤٦١ ح ٣.

(٢) علل الشرائع ١/ ٩٦ ح ٥، والاحتجاج ١/ ٥٨، ح ٥.

(٣) مجمع البيان: ١٠/ ٢٧٦.

جلاله عزَّ وجل ومخوف سلطنته.

وقد أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: ١٣ـ ١٥].

قال السيد المحدّث الجزائري: إن النفخة الأولى التي هي للهلاك تأتي الناس بغتة وهم في أسواقهم وطلب معايشهم، فإذا سمعوا صوت الصّور تقطعت قلوبهم وأكبادهم من شدّته فيموتوا دفعة واحدة فيبقى الجبار جلّ جلاله فيأمر عاصفة فتقطع الجبال من أماكنها وتلقيها في البحار، وتفور مياه البحار وكلٌّ ما في الأرض وتسطح الأرض كلها للحساب، فلا يبقى جبل ولا شجر ولا بحر ولا وهدة ولا تلعة، فتكون أيضاً بيضاء حتى أنه روى لو وضعت بيضة في المشرق رأيت في المغرب.

وإلى ذلك أشار بقوله: **(فيصير صلدها سراباً رقرقاً)** أي يصير صلبها مثل السراب المترقرق المتحرك.

(ومعهدها قاعاً سملقاً) أي ما كان منها معهداً للناس ومنزلاً لهم أرضاً خالية صفصفاً مستوية ليس للجبل فيها أثر.

وقد أشير إلى هذين في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ـ ١٠٧]، وفي قوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٥ـ ٦]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤] وقد مضى تفسير هذه الآيات وجملة مما ينفع في هذا المقام في شرح الفصل الثالث من الخطبة المائة والثامنة، هذا.

ولما ذكر جملة من أهوال يوم القيامة وأفزاعها وشدائدها رتب على ذلك قوله: **(فلا شفيع يشفع ولا حميم يدفع ولا معذرة تنفع)** تنبيهاً بذلك على أنه لا ملجأ من أهاويلها ولا منجا ترغيباً به على ملازمة التقوى التي هي الغرض الأصلي من سوق هذا الفصل والنتيجة لتمهيد تلك المقدمات لأنها المعاذ والملاذ والملجأ والمنجا من هذه الأهاويل القائدة للآخذ بها والملازم عليها إلى أكنان الدّعة وأوطان السّعة وغرفات الجنان ومنازل الرضوان، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

وقد أشير إلى عدم الشفيع والحميم في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [٨٨ ـ ٩١] إلى قوله حكاية عن الغاوين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:

١٠٠ـ ١٠١]. قال أمين الإسلام الطبرسي: أي لا ينفع المال والبنون أحداً إذ لا يتهيأ لذي مال أن يفتدي من شدائد ذلك اليوم به، ولا يتحمل من صاحب البنين بنوه شيئاً من معاصيه إلا من أتى الله بقلب سليم من الشّرك والشكّ.

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: هو القلب الذي سلم من حب الدنيا، ويؤيده قولُ النبي صلى الله عليه وآله: «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة»(١).

وأزلفت الجنة للمتقين، أي قربت لهم ليدخلوها، وبرزت الجحيم للغاوين، أي أظهرت وكشف الغطاء عنها للضالين عن طريق الحق والصواب.

ثم أظهر الغاوون الحسرة فقالوا: فما لنا من شافعين يشفعون لنا ويسألون في أمرنا، ولا صديق حميم أي ذي قرابة يهمّه أمرنا أي ما لنا شفيع من الأباعد ولا صديق من الأقارب، وذلك حين تشع الملائكة والنبيون والمؤمنون.

وأشير إلى عدم نفع المعذرة في سورة الروم بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾ [٥٧] أي لا ينفع الظالمين اعتذارهم لعدم تمكنهم من الاعتذار، ولو اعتذروا لم يقبل عذرهم ولا يطلب منهم الإعتاب والرجوع إلى الحق، وفي سورة المؤمن: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [٥٢] أي إن اعتذروا من كفرهم لم يقبل منهم وإن تابوا لم تنفعهم التوبة.

قال الطبرسي: وإنما نفى أن تنفعهم المعذرة في الآخرة مع كونها نافعة في دار الدنيا، لأن الآخرة دار الإلجاء إلى العمل والملجأ غير محمود على العمل الذي ألجأ إليه، ولهم اللعنة والبعد من الرحمة، ولهم سوء الدار جهنم وبئس القرار، نعوذ بالله من غضب الجبار(٢).

بشارة

إعلم أن ظاهر قوله: فلا شفيع يشفع ولا حميم يدفع، عموم انتفاء الانتفاع بالشفيع والحميم يوم القيامة على ما هو مقتضى القاعدة الأصولية المقررة من إفادة النكرة في سياق النفي للعموم، لكن الأدلة القاطعة من الكتاب والسنّة قد قامت على التخصيص.

أما القرابة فقد وردت في الأخبار الكثيرة المستفيضة أن كل سبب ونسب منقطع يوم

(١) الكافي ٢/ ١٣١، وميزان الحكمة ٢/ ٨٩٥ ح ١٢٢١.

(٢) مجمع البيان: ٨/ ٤٤٨.

القيامة إلا سبب رسول الله ﷺ ونسبه.

وأما الشفاعة فلا خلاف بين علماء الإسلام بل صارت من ضروري دين سيد الأنام أن رسول الله ﷺ يشفع يوم القيامة لأمّته بل لسائر الأمم أيضاً.

وإنما الخلاف في أن الشفاعة هل هي لطلب مزيد الأجر وجلب زيادة المنفعة فمختصّة بالمؤمنين المطيعين المستحقين للثواب فقط، أو لدفع مضرّة العقوبة أيضاً فتعمّ المجرمين المستحقين للعقاب؟.

فأكثر العامة على عدم اختصاصها بأحد الفريقين، وذهب الخوارج والوعيدية من المعتزلة إلى اختصاصها بالفرقة الأولى.

والذي ذهبت إليه أصحابنا الإمامية رضوان الله عليهم من دون خلاف بينهم هو عدم الاختصاص، وقالوا: إنه تنال الشفاعة للمذنبين من الشيعة ولو كان من أهل الكبائر.

والذي دلت عليه أخبارهم أيضاً عدم اختصاص الشفيع برسول الله ﷺ بل الأئمة الهداة من ذريته وكذا ابنته الصّديقة الكبرى سلام الله عليها وعليهم تترى أيضاً شفعاء دار البقاء بل المستفاد من بعض الأخبار أن علماء الشيعة والصالحين منهم أيضاً يشفعون.

إذا عرفت ذلك فلا بأس بإيراد بعض الآيات والأخبار الواردة في هذا الباب، فأقول:

قال أمين الإسلام في (**مجمع البيان**) في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] معناه: يقيمك ربك مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة تشرف فيه على جميع الخلائق تُسأل فتُعطى، وتُشفع فتُشفع.

وقد أجمع المفسرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطى فيه لواء الحمد فيوضع في كفّه ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة فيكون أول شافع وأول مشفّع.

وقال علي بن إبراهيم في تفسير هذه الآية: حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، قال: يلجم الناس يوم القيامة بالعرق فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم عليه السلام يشفع لنا، فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون: اشفع لنا عند ربك، فيقول: إن لي ذنباً وخطيئة فعليك بنوح عليه السلام، فيأتون نوحاً فيردهم إلى من يليه، ويردّهم كل نبي إلى من يليه حتى ينتهوا إلى عيسى عليه السلام فيقول: عليكم بمحمد رسول الله ﷺ، فيعرضون أنفسهم عليهم ويسألونه فيقول: «انطلقوا»، فينطلق بهم إلى باب الجنة ويستقبل باب الرحمٰن ويخر ساجداً فيمكث ما شاء الله فيقول الله: ارفع رأسك واشفع

تشفّع وسل تُعط، وذلك قول الله عزَّ وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩](١).

وروى علي بن إبراهيم أيضاً عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن معاوية وهشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو قمت المقام المحمود لشفعت في أبي وأمي وعمي وأخ كان لي في الجاهلية»(٢).

وفي (الصافي) عن العياشي عن أحدهما عليهما السلام في هذه الآية قال: «هي الشفاعة».

وفيه عن (روضة الواعظين) عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي».

قال: وقال صلى الله عليه وآله: «إذا قمت المقام المحمود تشفعت في أصحاب الكبائر من أمتي فيشفعني الله فيهم، والله لا تشفعت فيمن أذى ذرّيتي»(٣).

وقال الطبرسي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] إنه لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن رضيه الله وارتضاه وأذن له في الشفاعة مثل الملائكة والأنبياء والأولياء، ويجوز أن يكون المعنى: إلا لمن أذن الله في أن يشفع له فيكون مثل قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وإنما قال سبحانه ذلك لأن الكفار كانوا يقولون: نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، فحكم الله ببطلان اعتقاداتهم(٤).

وفي (تفسير) علي بن إبراهيم في هذه الآية قال: لا يشفع أحد من أنبياء الله ورسله يوم القيامة حتى يأذن الله له إلا رسول الله صلى الله عليه وآله فإن الله قد أذن له الشفاعة من قبل يوم القيامة والشفاعة له صلى الله عليه وآله وللأئمة من ولده، ثم بعد ذلك للأنبياء صلوات الله عليهم وعلى محمد وآله.

قال: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي العباس المكبّر قال:

دخل مولى لامرأة علي بن الحسين عليه السلام على أبي جعفر عليه السلام يقال له: أبو أيمن، فقال: يا أبا جعفر تغترّون الناس وتقولون شفاعة محمد شفاعة محمد، فغضب أبو جعفر عليه السلام حتى تربد وجهه ثم قال: ويحك يا أبا أيمن أغرّك أن عف بطنك وفرجك أما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله ويلك، فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار،

(١) معاني الأخبار ٣١٣.
(٢) مكارم الأخلاق ٤٤٢، والغدير ٧/ ٣٨٧ ح ٦.
(٣) روضة الواعظين ٢٧٣، وبحار الأنوار ٨/ ٣٧ ح ١٢.
(٤) مجمع البيان: ٨/ ٢١٤.

ثم قال: ما أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. ثم قال أبو جعفر عليه السلام: إن لرسول الله ﷺ الشفاعة في أمّته ولنا شفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا شفاعة في أهاليهم، ثم قال عليه السلام: وإن المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر، وإن المؤمن ليشفع حتى لخادمه ويقول: يا ربّ حق خدمتي كان يقيني الحر والبرد[١].

وقال الطبرسي في قوله عزَّ وجل: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ٨٧] أي لا يقدرون على الشفاعة فلا يشفعون ولا يشفع لهم حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض، لأن تلك الشفاعة على وجهين: أحدهما أن يشفع للغير، والآخر أن يستدعي الشفاعة من غيره لنفسه، فبيّن سبحانه أن هؤلاء الكفار لا تنفذ شفاعتهم لغيرهم ولا شفاعة لهم لغيرهم، ثم استثنى سبحانه فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي لا يملك الشفاعة إلا هؤلاء، وقيل: لا يشفع إلا لهؤلاء. والعهد هو الإيمان والإقرار بوحدانية الله تعالى وتصديق أنبيائه، وقيل: هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن يتبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله.

وفي (**الصافي**) من (**الكافي**) عن الصادق عليه السلام: إلا من دان الله بولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام من بعده فهو العهد عند الله.

وفيه من الجوامع عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه ذات يوم:

«أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً؟»، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: «يقول: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً ﷺ عبدك ورسولك، وأنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشرّ وتباعدني من الخير، وأني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً توفينه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع وضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عند الله عهد؟ فيدخلون الجنة»[٢].

وقال الطبرسي في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١] في الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي وصديقه في الجحيم؟ فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقي في النار: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم»[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٨/ ٣٨ ح ١٦، وميزان الحكمة ٢/ ١٤٧٦ ح ٢٠٤٩.

(٢) شرح أصول الكافي ٢/ ٢٤٣، وفتح القدير ٣/ ٣٥٢.

(٣) بحار الأنوار: ٧/ ١٥٣، وتفسير مجمع البيان: ٧/ ٣٣٨.

وقال: وروى العياشي عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: والله لنشفعن لشيعتنا، والله لنشفعنّ لشيعتنا، والله لنشفعنّ لشيعتنا حتى يقول الناس: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرّة فنكون من المؤمنين. وفي رواية أخرى: حتى يقول عدوّنا.

وعن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته فيشفع فيهم حتى يبقى خادمه فيقول ويرفع سبّابتيه: يا رب خويدمي كان يقيني الحرّ والبرد، فيشفع فيه[١].

وفي (الصافي) من المحاسن عن الصادق عليه السلام: الشافعون الأئمة والصّديق من المؤمنين، والله لنشفعنّ في المذنبين من شيعتنا حتى يقول أعداؤنا إذا رأوا ذلك: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم[٢].

وفيه من (الكافي) عن الباقر عليه السلام: وأن الشفاعة لمقبولة ولا تقبل في ناصب، وإن المؤمن ليشفع في جاره وما له حسنة فيقول: يا ربّ جاري، كان يكفّ عني الأذى، فيشفع فيه فيقول الله تبارك وتعالى: أنا ربك وأنا أحق من كافى عنك، فيدخله الله الجنة وما له حسنة، وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً فعند ذلك يقول أهل النار: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم[٣].

ولنقتصر بذلك في هذا المقام ونسأل الله سبحانه بمحمد صلى الله عليه وآله وآله الكرام عليهم السلام أن يثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا، وأن يخرجنا منها إلى الدار الأخرى بموالاة أئمة الهدى، وأن لا يحرمنا من شفاعتهم الكبرى يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا يدفع صديق حميم إلا من أتى الله بقلب سليم، إنه الغفور الرحيم ذو الفضل العظيم.

---

(١) تفسير مجمع البيان ٣٣٨/٧، وتفسير نور الثقلين ٦١/٤ ح ٦٨.

(٢) شرح الأخبار ٥٧٢/٣ ح ١٣٠٤، وبحار الأنوار ٣٧/٨ ح ١٥.

(٣) الكافي ١٠١/٨ ح ٧٢، وبحار الأنوار ٥٦/٨ ح ٧٠.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن بزرگوار است در حمد و ثنای الهی و وصیت به تقوی و پرهیزکاری، می فرماید:

سپاس خدا را است، آن چنان خدایی که آشکار کرد از آثار پادشاهی خود و بزرگی بزرگواری خود آن چیزی را که متحیّر گردانید دیده های عقلها را از مقدورات عجیبه خود و دفع نمود خطورات فکرهای نفسها را از شناسایی حقیقت صفت خود.

و شهادت می دهم به این که معبود به حقی نیست مگر خدا، شهادتی از روی اعتقاد جازم ثابت، خالص از شوب ریا، ملازم طاعات و عبادات و شهادت می دهم که محمد بن عبدالله (صلی الله علیه و آله) بنده خالص او است و پیغمبر او است، فرستاد او را در حالتی که نشانهای هدایت مندرس بود و راههای دین محو شده بود، پس آشکار کرد حق را و نصیحت کرد خلق را و هدایت نمود به راه راست و امر نمود به عدل و قسط؛ صلوات خدا بر او و بر اولاد او باد.

و بدانید ای بندگان خدا که به تحقیق خدا خلق نفرموده شما را عبث و بی فایده و رها نکرده شما را سر خود، دانسته است مقدار نعمتهای خود را بر شما و شمرده است انعام خود را بر شما، پس طلب فتح و نصرت کنید از او و طلب فوز به مقصود نمایید از او و متوجه شوید به سوی او در مطالب و طلب بخشش او کنید، پس نبریده است شما را از او پرده ای و بسته نشده است از شما نزد او هیچ دری و به درستی که او در هر مکان و در هر وقت و زمان حاضر و با هر انسان و جانّ مصاحب.

صدمه نمی رساند کرم او را بخشش و عطا و نقصان نمی رساند خزانه احسان او را کرم او و تمام نمی نماید بحر عطای او را هیچ سؤال کننده ای و به پایان نمی رساند نعمتهای او را هیچ عطیه ای، پیچیده نمی نماید او را شخصی از شخصی و مشغول نمی گرداند او را آوازی از آوازی و مانع نمی شود او را

بخششی از ربودنی و روگردان نمی سازد او را غضبی از رحمتی و حیران نمی گرداند او را رأفتی از عذابی و پنهان نمی دارد پنهانی ذات او از آشکاری آثار او و منقطع نمی سازد ظهور آثار او از خفای ذات او، نزدیك شد به مخلوقات با علم و قیّومیت، پس دور شد از ایشان به حسب ذات و بلند شد به همه چیز با استیلا و سلطنت، پس نزدیك شد به ایشان با علم و احاطه و ظاهر شد، پس از کثرت ظهور خفا به هم رساند و مخفی گشت، پس در خفایش آشکار گردید. و لنعم ما قیل:

از همگان بی نیاز و بر همه مشفق   وز همه عالم نهان و بر همه پیدا

و جزا داد به همه عباد و جزا داده نشد و خلق نفرمود خلق را با جولان فکر و تدبیر و طلب اعانت نجُست از ایشان به جهت عجز و ضعفی.

وصیّت می کنم شما را ای بندگان خدا به تقوی و پرهیزکاری خدا، پس به درستی که آن تقوی افساری است مانع از دخول هلاکتها و قوام دین شما با او است، پس بچسبید به ریسمان های محکم او و چنگ بزنید به حقیقت های آن، یعنی اعتقادات حقّه یقینیه که راجع می سازد شما را به مکان های راحت و وطنهای باوسعت و حصارهای محکم و منزلهای عزت، در روزی که شاخص می شود در آن دیده ها و تاریك می شود به سبب شدت آن روز اطراف عالم و معطل و بی صاحب می ماند در آن روز شتران کم شیر که از مدت حمل او ده ماه گذشته باشد و نزدیك به زاییدن شود.

و دمیده شود در صور اسرافیل، پس مضمحل و هلاك می شود هر قلب و لال می شود هر زبان و ذلیل می شود کوههای بلندبالا و سنگهای سخت محکم، پس می گردد سنگهای صلب آنها مثل سراب متحرّك و قرارگاههای آنها زمین خالی هموار بی بلند و پست، پس نباشد شفیعی که شفاعت نماید و نه خویشی که دفع عذاب کند و نه عذری که منفعت بخشد.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والخامس والتسعون من المختار في باب الخطب

بَعَثَهُ حِينَ لا عَلَمٌ قائِمٌ، ولا مَنارٌ ساطِعٌ، ولا مَنْهَجٌ واضِحٌ.

أُوصيكُمْ عِبادَ الله بِتَقْوَىٰ الله، وأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا فَإِنَّها دارُ شُخُوصٍ، ومَحَلَّةُ تَنْغيصٍ، ساكِنُها ظاعِنٌ، وقاطِنُها بائِنٌ، تَميدُ بِأَهْلِها مَيدانَ السَّفِينَةِ بِأَهْلِها، تَقْصِفُهَا العَواصِفُ في لُجَجِ البِحارِ، فَمِنْهُمُ الغَرِقُ الوَبِقُ، ومِنْهُمُ النَّاجي عَلىٰ مُتُونِ الأَمْواجِ، تَحْفِزُهُ الرِّياحُ بِأَذْيالِها، وتَحْمِلُهُ عَلىٰ أَهْوالِها، فَما غَرِقَ مِنها فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَما نَجىٰ مِنْها فَإِلىٰ مَهْلَكٍ.

عِبادَ الله الآنَ فَاعْمَلُوا وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، والأَبْدانُ صَحيحَةٌ، والأَعْضاءُ لَدْنَةٌ، والمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، والمَجالُ عَريضٌ، قَبْلِ إِرْهاقِ الفَوْتِ، وحُلُولِ المَوْتِ، فَحَقِّقُوا عَلَيْكُم نُزُولَهُ، وَلا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

اللغة

(**العلم**) محرّكة ما ينصب في الطريق ليهتدى به، ويقال أيضاً للجبل أو الجبل المرتفع والجمع أعلام، و (**المنار**) موضع النور والمسرجة كالمنارة وأصلها منورة وجمعه مناور وذو المنار أبرهة تبّع بن الرّايش لأنه أول من ضرب المنار على طريقه في مغازيه ليهتدي به إذا رجع.

و (**سطع**) الشيء من باب منع سطوعاً ارتفع و (**شخص**) من باب منع أيضاً شخوصاً خرج من موضع إلى غيره و (**نغص**) الرجل من باب فرح لم يتمّ مراده، والبعير لم يتم شربه وأنغص الله عليه العيش ونغّصه كدّره فتنغصت معيشته تكدّرت.

و (**قصفه**) يقصفه قصفاً كسره، وفي بعض النسخ: تصفقها بدل تقصفها من الصفق وهو الضرب يسمع له صوت، ومنه صفق يده على يده صفقاً وصفقة أي ضرب يده على يده، وذلك عند وجوب البيع.

و (**اللّجج**) جمع لجّة وهي معظم البحر و (**غرق**) غرقاً من باب فرح فهو غرق و (**وبق**) من باب وعد ووجل وورث وبوقاً وموبقاً هلك فهو وبق و (**حفزه**) يحفزه من باب ضرب دفعه من خلفه وبالرمح طعنه وعن الأمر أزعجه وأعجله وحفز الليل النهار ساقه.

و (**اللّدن**) واللّدنة اللين من كل شيء، والجمع لدان ولُدن بالضمّ، والفعل لدن من باب كرم لدانة ولُدونة أي لان و (**رهقه**) من باب فرح غشيه ولحقه أو دنا منه سواء أخذه أو لم يأخذه، والإرهاق أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه.

الإعراب

جملة **(تحفزه)** في محلّ النصب على الحال من الناجي، وقوله: فإلى مهلك متعلق بمقدّر خبر **(ما)**، وقوله: **(الآن)**، منصوب على الظرف مقدم على عامله وهو قوله: فاعملوا، وجملة: **(والألسن مطلقة)** مع الجملات الأربع التالية في موضع النصب حال من فاعل فاعملوا، وقوله: **(قبل إرهاق الفوت)**، يجوز تعلقه بعريض وبقوله فاعملوا، والأول أقرب لفظاً، والثاني أنسب معنى.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة مسوقة للوصية بالتقوى والتنفير من الدنيا بذكر معايبها المنفرة عنها، وللأمر بالأعمال الصالحة والمبادرة إليها قبل لحوق الفوت ونزول الموت، وقبل أن يشرع في الغرض افتتح بذكر بعثة الرسول ﷺ لكونها أعظم ما منّ الله به على عباده حيث أنها مبدأ جميع الآلاء والنعماء في الآخرة، ومنشأ السعادة الدائمة، فقال عليه السلام:

(بعثه حين لا علم) من أعلام الدّين **(قائم)** واستعاره للأنبياء والمرسلين لأنه يستدل بهم في سلوك طريق الآخرة كما يستدل بالأعلام في طرق الدنيا.

(ولا منار) للشرع المبين **(ساطع)** إستعاره لأولياء الدين وقادة اليقين لأنه يهتدى بهم ويقتبس من علومهم وأنوارهم في ظلمات الجهالة كما يهتدى بالمنار في ورطات الضلالة.

وأشار بعدم سطوع المنار وقيام العلم إلى خلوّ الأرض من الرّسل والحجج وانقطاع الوحي حين بعثه ﷺ، لأنه كان زمان فترة كما قال عليه السلام في الخطبة الثامنة والثمانين: أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم ـ إلى قوله ـ والدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور، وقد مضى في شرحها ما ينفعك المراجعة إليه في هذا المقام.

(ولا منهج) لليقين **(واضح)** وأشار به إلى اندراس نهج الحق وانطماس طريق السلوك إلى الله وكون الناس في خبط وضلالة وغفلة وجهالة.

ثم شرع بالوصية بالتقوى والتحذير من الدنيا فقال: **(أوصيكم عباد الله بتقوى الله)** فإنها اليوم الحرز والجنّة وغداً الطريق إلى الجنة **(وأحذركم الدنيا فإنها)** ظل زائل وضوء آفل وسناد مائل **(دار شخوص)** وارتحال **(ومحلّة تنغيص)** وتكدير لتكدّر عيشه بالآلام والأسقام **(ساكنها ظاعن)** مرتحل **(وقاطنها بائن)** مفترق يعني أن الساكن فيها ليس بساكن في الحقيقة، والمقيم بها منتقل عنها البتة.

وذلك لما بيّنا في تضاعيف شرح الخطب السابقة أنها في الحقيقة سفر الآخرة وهي

الوطن الأصلي للإنسان فهو من أول يوم خرج من بطن أمه ووضع قدمه في هذه النشأة دائماً في حركة وإزبال وإزداف وانتقال وينقضي عمره شيئاً فشيئاً يبعد من المبدأ ويقرب من المنتهى فسكونها نفس زوالها، وإقامتها نفس إرتحالها، وبقاؤها عين انتقالها، ووجودها حدوثها، وتجددها فناؤها، فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل، بينا تراه سابغاً حتى قلص، وزايداً حتى نقص.

ثم ضرب للدنيا وأهلها مثلاً عجيباً بقوله: (**تميد بأهلها ميدان السفينة بأهلها**) حال كونها (**تقصفها**) القواصف وتصفقها (**العواصب**) من الرياح (**في لجج البحار**) الغامرات المتلاطمة التيار المتراكمة الزّخار، وهو من تشبيه المركب بالمركب على حدّ قول الشاعر:

وكـأن أجـرام الـنـجـوم طـوالـعـاً　　　درر نـشـرن عـلـى بـسـاط أزرق

شبّه عليه السلام الدنيا بالسفينة التي في اللّجج حال كونها تضربها الرياح الشديدة العاصفة، وشبّه أهل الدنيا بأهل السفينة، وشبّه تقلباتها بأهلها بالهموم والأحزان والغموم والمحن بميدان السفينة واضطرابها بأهلها، وشبّه الأمراض والآلام والعلل والأسقام ونحوها من الإبتلاءات الدنيوية الموجبة للهموم والغموم بالرياح العاصفة الموجبة لاضطراب السفينة، ووجه الشبه أن راكبي السفينة في لجج البحار الغامرة عند هبوب الريح العاصفة والزعزع القاصفة كما لا ينفكون من علز القلق وغصص الجرض، فكذلك أهل الدنيا لا ينفكون من مقاسات الشدائد وألم المضض.

وأيضاً (فـ)كما أن راكبي السفينة بعدما انكسرت بالقواصف على قسمين: قسم (**منهم الغرق الوبق**) الهالك في غمار البحر (**و**) قسم (**منهم الناجي**) من الغرق على بعض أخشاب السفينة وألواحها (**على متون الأمواج**) المتلاطمة المتراكمة (**تحفزه**) وتدفعه (**الرياح**) العاصفة والزعازع القاصفة (**بأذيالها**) من جنب إلى جنب (**وتحمله على أهوالها**) وتسوقه من رفع إلى خفض ومن خفض إلى رفع.

فكذلك أهل الدنيا ينقسم إلى قسمين: أحدهما الهالك عاجلاً بغمرات الآلام وطوارق الأوجاع والأسقام، والثاني الناجي من الهلاك بعد مكابدة تعب الأمراض ومقاساة مرارة العلل.

وأيضاً (فـ)كما أن (**ما غرق منها**) أي من السفينة وأراد به الغريق من أهلها مجازاً (**فليس بمستدرك**) أي ممكن التدارك (**وما نجى منها**) أي الناجي من أهلها (فـ)عاقبته (**إلى مهلك**) أي إلى الهلاك وإن عاش يسيراً.

فكذلك أهل الدنيا من مات منهم لا يتدارك ولا يعود، ومن حصل له البرء والشفاء من

مرضه ونجا من الموت عاجلاً فمآله إليه لا محالة آجلاً وإن تراخى أجله قليلاً.

والغرض من هذه التشبيهات كلها التنفير عن الدنيا والتنبيه على قرب زوالها وتكدّر عيشها ومرارة حياتها ليرغب بذلك كله إلى العمل للدار الآخرة، ولذلك فرع عليه قوله:

(عباد الله الآن فاعملوا) أي بادروا العمل واستقربوا الأجل ولا يغرّنكم طول الأمل **(والألسن مطلقة)** متمكنة من التكلم بما هو فرضها من القراءة والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوها قبل ثقلها واعتقالها بالمرض الحائل بينها وبين منطقها كما في حالة الاحتضار.

(والأبدان صحيحة) مقتدرة على الإتيان بالتكاليف الشرعية قبل سقمها وعجزها منها.

(والأعضاء) والجوارح **(لدنة)** لينة ببضاضة الشباب وغضارة الصحة قادرة على القيام بالطاعات والحسنات قبل يبسها بنوازل السقم وعجزها بحواني الهرم.

(والمنقلب فسيح) أي محل الانقلاب والتصرف وسيع، لأن الخناق مهمل والروح مرسل في راحة الأجساد وباحة الاحتشاد.

(والمجال عريض) لانفساح الحوبة وإمكان تدارك الذنوب بالتوبة قبل الضنك والضيق والرّوع والزهوق.

و **(قبل إرهاق الفوت)** وقدوم الغائب المنتظر **(وحلول الموت)** وأخذة العزيز المقتدر.

(فحققوا عليكم نزوله) ولا تستبطؤوه **(ولا تنتظروا قدومه)** ولا تسوّفوه وهو أمر بالاستعداد للموت والمبادرة إلى أخذ الزاد له ولما بعده.

يقول: إن الموت قد أظلكم وأشرف عليكم فكأنه قد أدرككم ونزل إلى ساحتكم، فلا يغرّنكم الأمل ولا يطولنّ بكم الأمد، فبادروا إلى الصالحات واستبقوا الخيرات، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها الأرض والسماوات، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا يغرّه الآمال، ولا تلهيه الأمنيات، إنه الموفّق والمعين.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است در اشارت به بعثت و وصيّت به تقوى و تحذير از دنيا، مى فرمايد:

مبعوث فرمود حضرت پروردگار، رسول مختار را در زمانى كه نبود هيچ علمى بر پا و نه مناره اى بلند و نه راهى روشن.

وصيّت مى كنم شما را اى بندگان خدا به تقوى و پرهيزكارى خدا و مى ترسانم شما را از دنياى بيوفا، پس به درستى كه آن دنيا خانه رحلت است و محله كدورت، ساكن او كوچ كننده است و مقيم او جدا شونده، مضطرب مى شود به اهل خود مثل اضطراب كشتى در حالتى كه سخت بوزد به آن كشتى تندبادها در گردابهاى درياها، پس بعضى از اهل آن كشتى غرق وهلاك شونده باشند و بعضى ديگر نجات يابنده بر بالاى موجها، در حالتى كه براند او را بادها با دامنهاى خود و بردارد او را به جاهاى هولناك دريا، پس كسى كه غرق شده از آن كشتى، درك نمى شود و كسى كه نجات يافته از آن، پس عاقبت كار او به هلاكت است.

اى بندگان خدا، پس مواظب عمل باشيد، اين زمان در حالتى كه زبانها سلامت است و بدنها صحيح است و عضوها تر و تازه و مكان تصرّف وسيع است و مجال عبادت فراخ، پيش از احاطه وفات و حلول ممات، پس محقق انگاريد به خودتان حلول آن را و منتظر نباشيد به قدم و آمدن آن.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسادسة والتسعون من المختار في باب الخطب

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلىٰ الله وَلاَ عَلىٰ رَسُولِهِ ساعَةً قَطُّ، وَلَقَدْ واسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي المَواطِنِ الَّتي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطالُ، وتَتَأَخَّرُ فِيهَا الأَقْدامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي الله بِها، وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلىٰ صَدْرِي، وَلَقَدْ سالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُها عَلىٰ وَجْهِي، ولَقَدْ وَلَّيْتُ غُسْلَهُ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وآلِهِ - والمَلائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدّارُ والأَفْنِيَةُ، مَلأٌ يَهْبِطُ، ومَلأٌ يَعْرُجُ، وَما فارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ وارَيْناهُ في ضَرِيحِه، فَمَنْ ذا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً ومَيِّتاً، فَانْفُذُوا عَلىٰ بَصائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيّاتُكُمْ فِي جِهادِ عَدُوِّكُمْ، فَوالَّذِي لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَعَلَىٰ جادَّةِ الحَقِّ، وإِنَّهُمْ لَعَلىٰ مَزَلَّةِ الباطِلِ، أَقُولُ ما تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ الله لِي وَلَكُمْ.

اللغة

(**المستحفظون**) بصيغة المفعول من استحفظه الشيء أي أودعه عنده وطلب منه أن يحفظه فهو مستحفظه وذاك مستحفظ و (**واسيته**) من المواساة، يقال: واسيته وآسيته وبالهمزة أفصح و (**نكص**) عن الشيء نكوصاً من باب قعد أحجم عنه، ونكص على عقبيه رجع، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

و (**النّجدة**) البأس والشدة والشجاعة و (**النفس**) بسكون الفاء الدّم وبالتحريك واحد الأنفاس و (**فناء**) الدار وزان كساء ما اتسع أمامها أو ما امتدّ من جوانبها والجمع أفنية وفنى و (**الضجيج**) الصياح عند المكروه والجزع و (**الهينمة**) بفتح الهاء الصوت الخفيّ، وقيل: الكلام الخفي لا يفهم و (**الضّريح**) القبر أو الشقّ وسطه والأول هو المراد هنا و (**المزلة**) الموضع الذي تزل فيه قدم الإنسان كالمزلقة.

الإعراب

(**الواو**) في قوله: (**و**) لقد في المواضع الخمسة كلها للقسم والمقسم به محذوف واللام جواب القسم، قوله: (**نجدة**)، منصوب على المفعول له والعامل واسيته قال الشارح المعتزلي: منصوب على المصدر والعامل محذوف والأول أظهر.

وقوله: (**ملاء يهبط وملاء يعرج**)، مرفوعان بالابتداء ولا يضرّ كونهما نكرتين لتضمن الفائدة العظيمة، وجملة: (**وما فارقت**)، في محل النصب على الحال من فاعل يهبط ويعرج، وجملة: (**يصلّون**) استئنافية بيانية وتحتمل الانتصاب محلاً على الحالمن هيمنة أي ما فارقت

سمعي هينمتهم حال كونهم يصلّون، والأول أولى لاحتياج الثاني إلى نوع تكلف، وقوله: **(حيّاً وميّتاً)**، حالان من الضمير المجرور في به **(والفاء)** في قوله: **(فانفذوا)**، فصيحة.

المعنى

إعلم أن هذه الخطبة الشريفة مسوقة لبيان جملة من مناقبه الجميلة وخصائصه المختصة به المفيد لمزيد اختصاصه برسول الله ﷺ وقربه منه استدلالاً بذلك على أنه أحقّ وأولى بالخلافة والقيام مقامه ﷺ وأنه على الحق وغيره على الباطل، وغرضه منه تنبيه المخاطبين على وجوب إطاعته فيما يأمرهم به من جهاد الأعداء المبطلين.

إذا عرفت ذلك فأقول: إنه ذكر خمساً من فصائله وصدّر كلاً بالقسم البار تأكيداً للغرض المسوق له الكلام وتنبيهاً على أن اتّصافه بها جميعاً حق لا يعتريه ريب ولا يدانيه شك.

أولها: ما أشار إليه بقوله: **(ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد ﷺ أني لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعة قطّ)** المراد بالمستحفظون خيار الصحابة المطلعون على أسرار رسول الله ﷺ وسيرته ومعجزاته وكراماته وعهوده ومواثيقه والملاحم الواقعة في زمانه ﷺ ونحو ذلك مما يتعلق به ﷺ، في نفسه وفي أوصيائه وأتباعه من الأمور المعظمة التي يهتمّ بها في الشريعة ولها مدخل في قوام أركان الدين وإعلاء لواء الشرع المبين الذين كلّفوا بحفظ ذلك كله وأمروا بأن يبلغوها ويؤدّوها في مقام الضرورة والحاجة.

وإنما خصّ علم ما ذكره بهؤلاء مع عدم اختصاصه بهم لأن هؤلاء بمقتضى تصلّبهم في الدين لا يكتمون الشهادة ولا يغيّرونها ولا يبدّلونها في مقام الحاجة للأغراض الدنيوية الفاسدة كما كتمها جمع منهم مثل زيد بن أرقم وأنس بن مالك ونظرائهم.

كما روى في **(البحار من الخصال والأمالي)** عن جابر الجعفي عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال:

خطبنا علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن قدام منبركم هذا أربعة رهط من أصحاب محمد ﷺ منهم أنس بن مالك والبراء بن عازب الأنصاري والأشعث بن قيس الكندي وخالد بن يزيد البجلي. ثم أقبل بوجهه على أنس بن مالك فقال:

يا أنس إن كنت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله حتى يبتليك ببرص لا تغطيه العمامة.

وأما أنت يا أشعث فإن كنت سمعت من رسول الله ﷺ وهو يقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله حتى يذهب بكريمتيك.

وأما أنت يا خالد بن يزيد إن كنت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه» ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله إلاّ ميتة جاهلية.

وأما أنت يا براء بن عازب إن كنت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه» ثم لم تشهد لي بالولاية فلا أماتك الله إلا حيث هاجرت منه[١].

قال جابر بن عبد الله الأنصاري: والله لقد رأيت أنس بن مالك قد ابتلي ببرص يغطيه بالعمامة فما يستره.

ولقد رأيت الأشعث بن قيس وقد ذهبت كريمتاه وهو يقول: الحمد لله الذي جعل دعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالعمى في الدنيا ولم يدع عليّ بالعذاب في الآخرة فأعذّب.

وأما خالد بن يزيد فإنه مات فأراد أهله أن يدفنوه وحفر له في منزله فسمعت بذلك كندة فجاءت بالخيل والإبل فعقرتها على باب منزله فمات ميتة جاهلية.

وأما البراء بن عازب فإنه ولاّه معاوية اليمن فمات بها ومنها كان هاجر.

فقد ظهر بذلك أن المستحفظين هم المكلفون بحفظ الأمور المهمة المعتدّ بها في أمر الدين، وأن تخصيصهم بالعلم لعدم كتمانهم لما حملوه لو رجع الخاطئون إليهم.

وأما أنه عليه السلام ما ردّ على الله ورسوله أبداً فهو معلوم محقّق لا خفاء فيه، بل من ضروريات المذهب لملكة العصمة المانعة من مخالفته لله ولرسوله ﷺ.

وقال الشارح المعتزلي: والظاهر أنه يرمز في قوله عليه السلام: لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط، إلى أمور وقعت من غيره كما جرى يوم الحديبية عند سطر كتاب الصلح، فإن بعض الصحابة أنكر ذلك، وقال: يا رسول الله ألسنا المسلمين؟ قال ﷺ: «بلى»، قال: أو ليسوا الكافرين؟ قال: «بلى»، قال: فكيف نعطي الدّنية من دنيانا والله لو أجد أعواناً لم

(١) الخصال ٢١٩ ح ٤٤، والأمالي ١٨٤ ح ١٩٠.

أعط الدنية أبداً، فقال أبو بكر لهذا القائل: ويحك إلزم غرزه فوالله إنه لرسول الله وإن الله لا يضيعه. ثم قال له: أقال لك أنه سيدخلها هذا العام؟ قال: لا، قال: فسيدخلها. فلما فتح النبي ﷺ مكة وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال: «هذا الذي وعدتم به»[1].

قال الشارح: واعلم أن هذا الخبر صحيح لا ريب فيه، والناس كلهم رووه وليس عندي بقبيح ولا بمستهجر أن يكون سؤال هذا الشخص رسول الله ﷺ عما سأله عنه على سبيل الاسترشاد والتماساً لطمأنينة النفس. فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد كانت الصحابة تراجع رسول الله ﷺ في الأمور وتسأله عما يشتبه عليها وتقول له: أهذا منك أم من الله؟.

وأما قول أبي بكر له: إلزم غرزه فوالله أنه لرسول الله ﷺ، فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه، ولا يدلّ ذلك على الشك، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤] وكل أحد لا يستغني عن زيادة اليقين والطمأنينة.

قال: وقد كانت وقعت من هذا القائل أمور دون هذه القصة، كقوله: دعني أضرب عنق أبي سفيان، وقوله: دعني أضرب عنق عبد الله ابن أُبي، وقوله: دعني أضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة، ونهى النبي ﷺ عن التسرع إلى ذلك وجذبه ثوب رسول الله ﷺ حين قام على جنازة ابن سلول يصلّي وقوله: تستغفر لرأس المنافقين.

وليس في ذلك جميعه ما يدل على وقوع القبيح منه وإنما كان الرجل مطبوعاً على الشدة والشراسة والخشونة، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجية التي طبع عليها، وعلى أي حال كان فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيراً، انتهى[2].

أقول: مراد الشارح بهذا الرجل الذي حكى عنه هذه الأباطيل هو عمر بن الخطاب، وإنما ترك التصريح باسمه ملاحظة لجانبه، ولقد عكس في شرح قوله ﷺ: فصيرها في حوزة خشناء، من الخطبة الثالثة، وقال هناك: قال عمر للنبي ﷺ: لم تقل لنا ستدخلونها في ألفاظ نكره حكايتها حتى شكاه النبي ﷺ إلى أبي بكر وحتى قال له أبو بكر: إلزم بغرزه فوالله إنه لرسول الله ﷺ، انتهى.

---

(١) شرح أصول الكافي ١٢/ ٤٥٤.

(٢) شرح النهج: ١٠/ ١٨١.

فصرّح باسمه وطوى عن تحصيل مقاله وفضول كلامه استكراهاً واستهجاناً لما صدر منه من الردّ والمخالفة وإساءة الأدب على رسول الله ﷺ واستحياء منه ﷺ.

ولكن غير خفي على المنصف البعيد عن العصبية والهوى أن شناعة ما صدر من هذا الرجل لا يمكن أن يتدارك بالستر والكتمان والإبهام عن اسمه تارة والإجمال عن هذيانه أخرى، ونِعم ما قيل:

ولن يصلح العطار ما أفسد الدّهر

فلقد صدر منه من القول الشنيع القبيح ما هو أشدّ وأعظم من ذلك، وهو ما قاله لرسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه لما قال ﷺ: «ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً»، فقال عمر: إن الرجل ليهجر[١].

وفي (البحار) من المجلد الثاني من (صحيح مسلم) فقال: إن رسول الله ﷺ يهجر[٢].

وأما ما اعتذر به الشارح عن مثالبه بأنه ليس بقبيح أن يكون سؤال هذا الرجل على سبيل الإسترشاد والتماساً لطمأنينة النفس.

ففيه أنه لو كان غرضه الإسترشاد دون الإعتراض لاكتفى بما سمعه من النبي ﷺ له وأمسك عن فضول كلامه ولم يغضبه ﷺ حتى يشكوا إلى أبي بكر، فعلم بذلك أنه أراد التعريض والاعتراض كما علم عدم جواز قياس سؤاله بسؤال الخليل ﷺ الذي كان غرضه منه الطمأنينة كما صرح به بقوله: بلى ولكن ليطمئن قلبي، وستعرف مزيد توضيحه بما نحكيه من (البحار) في التنبيه الآتي.

وأما سؤال سائر الصحابة عنه ﷺ في الأمور وقولهم له: أهذا من الله أو منك؟

ففيه أن سؤالهم ذلك أيضاً كان ناشئاً عن جهالتهم، لأنهم لو كانوا معتقدين بما أنزل الله في حقه من قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣ـ ٤] ومذعنين بأنّ جميع ما يقوله ويفعله بوحي من الله سبحانه وإذنٌ منه عزّ وجل، لم يكن لهم حاجة إلى السؤال، ولسلّموا في جميع أفعاله وأقواله تسليماً.

وأما التمثيل على نفي الشك عن عمر بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝﴾.

---

(١) بحار الأنوار ٣٠/ ٥٣٠، وتدوين القرآن ٥٧.

(٢) صحيح مسلم: ٥/ ٧٦ ط. دار الفكر بيروت.

ففيه أن النبي ﷺ قد قامت الأدلة القاطعة من العقل والنقل على عصمته وعلى رسوخه في الدين، والآية وإن كان الخطاب فيها ظاهراً متوجهاً إلى النبي ﷺ إلا أن المراد بها أمّته قبيل إياك أعني واسمعي يا جارة.

وعلى إبقائه على ظاهره فالمراد بتثبيته ﷺ هو تثبيته بالنبوة والعصمة والألطاف الخفيّة الإلهية، لما قد دللنا على أنه كان معصوماً، وأما عمر فأي دليل على أنه لم يكن شاكّاً في الدين حتى يقال: إن قول أبي بكر له: فوالله إنه لرسول الله لم يكن لأجل الشك بل لتثبيته على عقيدته، فافهم جيداً.

وأما دنس جذبه بثوب رسول الله ﷺ حين إرادته الصلاة على ابن سلول فلا يطهره النيل ولا الرّس.

إذ فيه من القباحة والمخالفة والاعتراض وسوء الأدب والتعريض ما لا مزيد عليه.

مضافاً إلى قوله: كيف تستغفر لرأس المنافقين؟ أكان رسول الله ﷺ والعياذ بالله جاهلاً بتكليفه الشرعي فعلّمه عمر، وقد كان معالم الدين منه ظهرت وأحكام الشرع المبين منه أخذت، وهو ﷺ شارعها وصادعها؟!.

وقيامه على جنازة ابن سلول وصلاته عليه إما من جهة أداء حق ولده وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول فلقد كان مؤمناً.

وإما من جهة أنه ﷺ صلّى عليه لا ترحماً له بل دعا عليه بالنار والعذاب ولم يكن به بأس[١].

وأما استغفاره ﷺ فلكونه ﷺ مخيّراً بين الاستغفار وعدم الاستغفار.

ويوضح ما ذكرناه ما رواه في **(الكافي)** عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن حماد بن عثمان عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما مات عبد الله بن أبي سلول حضر النبي ﷺ جنازته، فقال عمر لرسول الله: يا رسول الله ألم ينهك الله أن تقوم على قبره؟ فسكت. فقال: يا رسول الله ألم ينهك الله أن تقوم على قبره؟ فقال له: «ويلك وما يدريك ما قلت؟ إني قلت: اللهمّ احش جوفه ناراً واملأ قبره ناراً وأصله ناراً»، قال أبو عبد الله صلوات الله عليه: فأبدى من رسول الله ﷺ ما كان يكره[٢].

وفي **(الصافي)** من تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ

---

(١) أقول: وقد يقال أن ذلك كان منه صلوات الله عليه لما رآه من المصلحة في اتباع ابن سلول واستمالتهم.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢/١٢٦ ح ٩٧، ومنتقى الهجمان: ١/ ٢٧٧.

لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] أنها نزلت لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ومرض عبد الله بن أبي وكان ابنه عبد الله مؤمناً فجاء إلى النبي ﷺ وأبوه يجود بنفسه فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي إن لم تأت أبي كان ذلك عاراً علينا، فدخل عليه رسول الله ﷺ والمنافقون عنده، فقال ابنه عبد الله بن عبد الله: يا رسول الله، استغفر له، فاستغفر له، فقال عمر: ألم ينهك يا رسول الله أن تصلي عليهم وتستغفر لهم؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأعاد عليه، فقال له: «ويلك إني خيّرت إن الله يقول استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» الآية.

فلما مات عبد الله جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أرأيت تحضر جنازته، فحضر رسول الله ﷺ وقام على قبره فقال له عمر: يا رسول الله أو لم ينهك الله أن تصلي على أحد منهم مات أبداً وأن تقوم على قبره؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويلك وهل تدري ما قلت؟ إنما قلت: اللهم احش قبره ناراً وجوفه ناراً واصله ناراً»، فبدا من رسول الله ﷺ ما لم يكن يحب[1].

وفي (**الصافي**) عن العياشي عن الباقر عليه السلام أن النبي ﷺ قال لابن عبد الله بن أبي: «إذا فرغت من أبيك فأعلمني»، وكان قد توفي فأتاه فأعلمه فأخذ رسول الله ﷺ نعليه للقيام، فقال له عمر: أليس قد قال الله تعالى: ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره؟ فقال ﷺ له: «ويلك أو ويحك إنما أقول: اللهم املأ قبره ناراً واملأ جوفه ناراً، واصله يوم القيامة ناراً».

وفي رواية أخرى أنه أخذ بيد ابنه في الجنازة فمضى فتصدّى له عمر ثم قال: أما نهاك ربك عن هذا أن تصلي على أحد منهم مات أبداً أو تقوم على قبره؟ فلم يجبه، فلما كان قبل أن ينتهوا به إلى القبر أعاد عمر ما قاله أولاً، فقال النبي ﷺ لعمر عند ذلك: «ما رأيتنا صلّينا له على جنازة ولا قمنا له على قبر».

ثم قال ﷺ: «إن ابنه رجل من المؤمنين وكان يحقّ علينا أداء حقّه»، فقال عمر: أعوذ بالله من سخط الله وسخطك يا رسول الله[2].

قال في (**الصافي**) بعد إيراد هذه الروايات:

أقول: وكان رسول الله ﷺ حيياً كريماً كما قال الله عزَّ وجل فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق، فكان يكره أن يفتضح رجل من أصحابه ممن يظهر الإيمان، وكان يدعو

---

(١) تفسير الصافي: ٢/ ٣٦٤.

(٢) تفسير العياشي ٢/ ١٠٢ ح ٩٥، وتفسير الصافي ٢/ ٣٦٥.

على المنافق ويورّى أنه يدعو له، وهذا معنى قوله ﷺ لعمر: «ما رأيتنا صلّينا له على جنازة ولا قمنا له على قبر»، وكذا معنى قوله في حديث القمي: خيّرت فاخترت، فورّى ﷺ باختيار الاستغفار.

وأما قوله ﷺ فيه: «فاستغفر له» فلعله استغفر لابنه لما سأل لأبيه الاستغفار وكان يعلم أنه من أصحاب الجحيم، ويدل على ما قلنا قوله: فبدا من رسول الله ﷺ ما لم يكن يحبّ، انتهى.

فقد اتضح بما ذكرنا كل الوضوح نكتة قيام رسول الله ﷺ على قبر ابن سلول وصلاته عليه، وعلّة ما صدر منه ﷺ من الاستغفار.

ومع الغضّ عن ذلك أيضاً فهو ﷺ أعلم بعلل ما يقول ويفعل، وبوجوه المصالح الكامنة فيما يأتي ويأمر به، فلا حق للجلف الجافي ابن حنتمة وأمثاله من الأوغاد الطغام أن يعترضوا على سيد الأنام ورسول الملك العلام عليه وآله آلاف التحية والإكرام.

وأما ما اعتذر به الشارح المعتزلي أخيراً من أن الرجل كان مطبوعاً على الشدة والشراسة والخشونة وكان يقول ما يقول على مقتضى سجيته التي طبع عليها.

فقد تقدم جوابه في شرح الفصل الثاني من الخطبة الشقشقية.

ومحصل ما قلناه هناك: إن خشونة سجيته وجفاوة طبيعته إن كانت بالغة إلى مرتبة لم يبق له معها اختيار في الإمساك عن فضول كلامه وسقطات لسانه والكفّ عن هجره وهذيانه، فيتوجه عليه أن من كان كذلك يعدّ في زمرة المجانين فكيف يصلح لإمامة الأمة وخلافة النبوّة؟.

وإن لم تكن بالغة إلى تلك المرتبة فذلك الاعتذار لا يدفع عنه العار والشنار، كما لم يدفع عن إبليس استحقاق النار وسخط الجبار، ولم يرفع عنه لؤم الاستكبار حين استكبر بمقتضى الجبلة النارية واعتذر به في قوله: خلقتني من نار وخلقته من طين، بل استحق اللعنة والإبعاد إلى يوم الدين وخلّد في الجحيم أبد الآبدين.

وأما قول الشارح: وعلى أي حال كان فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيراً.

فيه أنه هب أن إنهاض الجيوش وبعث العساكر وفتح بعض البلاد كان في زمان خلافته بأمره، ولكن إذا كان أصل الخلافة باطلة حسبما عرفته في تضاعيف الشرح مراراً فأي ثمر أخروي له في هذه الخيرات النائلة منه إلى الإسلام على فرض تسليمها لأنه عزّ وجل إنما يتقبّل من المتّقين، بل كل ما صدر منه في أيام ولايته وخلافته ومخالفته لله ولرسوله كان عليه وزراً ووبالاً دون أن يكون له ثواباً ونوالاً.

كمطعمة الرّمان مما زنت به جرت مثلاً للخائن المتصدّق

فقال لها أهل البصيرة والتّقى لك الويل لا تزني ولا تتصدّق

بل لو قيست سيئة من سيئاته وهي غصب الخلافة من آل بيت الرسول وإحراقه لباب ابنته البتول وما كان بأمره من كسر ضلعها وسقوط جنينها، وما نشأت من تلك الشجرة الملعونة الخبيثة وثمرته من أعظم الظلم في وقعة الطّف الذي لا يتصور ظلم فوقه، إلى سيئات جميع الأمة لرجحت عليها، فضلاً عن سائر جرائمه وبدعاته ومحدثاته التي بقيت على صفحات الأيام، واستمرت إلى يوم القيامة والقيام، فليحملن أوزارها كاملة ومن أوزار الذين بها يعملون، وسيعلم الذين ظلموا آل محمد حقّهم أي منقلب ينقلبون.

الثانية: ما أشار إليه بقوله: (**ولقد واسيته في المواطن التي تنكص**) وترجع (**فيها الأبطال**) والأنجاد (**وتتأخر فيها الأقدام**) من أجل (**نجدة**) وشجاعة (**أكرمني الله بها**) وجعلها مخصوصة بي وآثرني بها على غيري.

قال الشارح المعتزلي: وهذا يعني المواساة مما اختص عليه السلام بفضيلته غير مدافع ثبت معه يوم أُحد وفرّ الناس وثبت معه يوم حُنين وفرّ الناس، وثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحها وفرّ من كان بعث من قبله.

أقول: أول مواساته عليه وآله آلاف التحية والثناء مبيته على فراش خاتم الأنبياء حتى باهى الله به ملائكة السماء، فوهب نفسه لله تعالى وبذلها لنبيه المصطفى وبات على فراشه لينجو به من كيد الأعداء، ويتمّ له بذلك السلامة والبقاء، وينتظم له به الغرض في الدعاء إلى الحنيفية البيضاء، فكان ذلك سبب نجاة النبي صلى الله عليه وآله وبقائه وحقن دمه حتى صدع بأمر ربه.

ولولاه عليه السلام لما تمّ لرسول الله صلى الله عليه وآله التبليغ والأداء ولا استدام له العمر والبقاء ولظفر به الحسدة والأعداء، فلما أصبحوا وعرفوا تفرّقوا عنه وانصرفوا وقد ضلّت لهم الحيل وانقطع بهم الأمل، وانتقض ما بنوه من التدبير وخابت لهم الظنون.

وكان بذلك انتظام الإيمان وإرغام الشيطان وخذلان أهل الكفر والعدوان، وهذه منقبة لم يشركه عليه السلام فيها أحد من أهل الإسلام، وقد أنزل فيه محكم التبيان وهو قول الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وأما مواساته له صلى الله عليه وآله في مواطن جهاده، ومواطن جده واجتهاده، ومقامات جداله بالسنّة الأسنة وجلاده، فهو فوق حد الإحصاء، متجاوز عن حدّ العدّ والاستقصاء.

منها غزوة بدر التي هدّت قوى الشرك، وقذفت طواغيته في قليب الهلك، ودوّخت مردة الكفار، وسقتهم كاسات الدمار والبوار، ونقلتهم من القليب إلى النار.

فيومها اليوم الذي لم يأت الدهر بمثله، وأفاض الله فيه من أحسن فضله، أنزل فيه الملائكة لتأييد رسوله تفضيلاً له على جميع رسله، وحباه من علوّ القدر ما لم ينله أحد من قبله، وأشرب صناديد قريش كأس أسره وقتله، وجبرئيل ينادي: أقدم حيزوم لإظهار دينه على الدين كله، وأمير المؤمنين كان فارس تلك الملحمة فما تُعدّ الأسدُ الغضاب بشسع نعله، ومسعرّ تلك الحرب العوان ينصب على الأعداء انصباب السحاب ووبله، ونار سطوته ونجدته تتسعر تسعر النار في دقيق الغضا وجزله.

وقد عرفت في شرح الفصل الثامن من الخطبة المائة والحادية والتسعين أن نصف القتلى في تلك الوقعة وكانوا سبعين رجلاً كان قتيله باشر بنفسه قتله من دون شركة غيره له.

ومنها غزوة أُحُد.

قال في **(كشف الغمة)** في حديث عمران بن حصين، قال:

لما تفرّق الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله جاء علي عليه السلام متقلّداً بسيفه حتى قام بين يديه فرفع رأسه إليه وقال صلى الله عليه وآله له: «ما لك لم تفرّ مع الناس؟» فقال: يا رسول الله أرجع كافراً بعد إسلامي!، فأشار إلى قوم انحدروا من الجبل، فحمل عليهم فهزمهم فجاء جبرئيل، وقال: يا رسول الله قد عجبت الملائكة من حسن مواساة علي لك بنفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما يمنعه من ذلك وهو مني وأنا منه؟» فقال جبرئيل: وأنا منكما.

وفيه عن زيد بن وهب قال: قلت لابن مسعود: انهزم الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله حتى لم يبق معه إلا علي عليه السلام وأبو دجانة وسهل؟ قال: انهزم الناس إلا علي وحده، وثاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله نفر كان أولهم عاصم بن ثابت وأبو دجانة وسهل بن حنيف، ولحقهم طلحة بن عبيد الله، فقلت له: فأين كان أبو بكر وعمر؟ قال: كانا فيمن تنحّى، فقلت: فأين كان عثمان؟ قال: جاء بعد ثالثة من الوقعة فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد ذهبت فيها عريضة»، قلت: فأين كنت؟ قال: فيمن تنحّى، قلت: فمن حدثك بهذا؟ قال: عاصم بن ثابت وسهل بن حنيف، قلت: إن ثبوت علي في ذلك المقام لعجب، قال: إن تعجب منه فقد تعجّبت منه الملائكة أما علمت أن جبرئيل قال في ذلك اليوم وهو يعرج إلى السماء: لا سيف إلا ذو الفقار لا فتى إلا علي، فقلنا: ومن أين علم أن جبرئيل قال ذلك؟ قال: سمع الناس النداء بذلك وأخبرهم به النبي صلى الله عليه وآله[1].

قال **(كاشف الغمة)**: وروي عن عكرمة قال: سمعت علياً يقول: لما انهزم الناس عن

---

(١) الإرشاد ١/ ٨٦، ومناقب آل أبي طالب ٢/ ٣١٥.

رسول الله ﷺ يوم أُحُد لحقني من الجزع عليه ما لم أملك نفسي وكنت أضرب بسيفي بين يديه فرجعت أطلبه فلم أره فقلت: ما كان رسول الله ﷺ ليفرّ وما رأيته في القتلى وأظنه رفع من بيننا إلى السماء، فكسرت جفن سيفي وقلت: لأقتلنّ به حتى أُقتل، وحملت على القوم فأفرجوا فإذا أنا برسول الله ﷺ وقد وقع مغشياً عليه، فنظر إليّ وقال: «ما فعل الناس يا علي؟» قلت: كفروا يا رسول الله وولّوا الدبر وأسلموك، فنظر إلى كتيبة قد أقبلت فقال: «ردّهم عني»، فحملت عليهم أضربهم يميناً وشمالاً حتى فرّوا، فقال ﷺ: «أما تسمع مديحك في السماء، إن ملكاً اسمه رضوان ينادي: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي»، فبكيت سروراً وحمدت الله على نعمته.

قال: وقد ذكر أهل السيّر قتلى أحد من المشركين وكان جمهورهم قتلي أمير المؤمنين عليه السلام وانصرف المشركون إلى مكة وانصرف النبي ﷺ إلى المدينة فاستقبلته فاطمة ومعها إناء فيه ماء فغسل به وجهه، ولحقه أمير المؤمنين عليه السلام وقد خضب الدم يده إلى كتفه ومعه ذو الفقار، فناوله فاطمة وقال: خذي هذا السيف فقد صدقني اليوم، وقال عليه السلام:

أفاطم هاك السيف غير ذميم ... فلست برعديد ولا بمليم
أميطي دماء الكفر عنه فإنه ... سقا آل عبد الدار كأس حميم
لعمري لقد أعذرت في نصر أحمد ... وطاعة ربّ بالعباد عليم

وقال رسول الله ﷺ: «خذيه يا فاطمة فقد أدّى بعلك ما عليه، وقد قتل الله صناديد قريش بيده»(١).

ومنها غزوة الأحزاب المعروفة بغزاة خندق(٢).

قال المفيد في (**الإرشاد**): وقد روى قيس بن الربيع قال: حدثنا أبو هارون العبدي في ربيعة السعدي قال: أتيت حذيفة بن اليمان فقلت: يا أبا عبد الله إنا لنتحدث عن علي عليه السلام ومناقبه فيقول لنا أهل البصرة: إنكم لتفرطون في علي عليه السلام، فهل أنت تحدّثني بحديث فيه؟ قال حذيفة: يا ربيعة وما تسألني عن علي؟ فوالذي نفسي بيده لو وضع جميع أعمال أصحاب محمد ﷺ في كفّة الميزان منذ بعث الله محمداً إلى يوم الناس هذا، ووضع عمل علي عليه السلام في الكفّة الأخرى لرجح عمل علي عليه السلام على جميع أعمالهم، فقال ربيعة: هاذ الذي لا يقام ولا يقعد، فقال حذيفة: يا لكع، وكيف لا يحمل وأين كان أبو بكر وعمر وحذيفة وجميع أصحاب محمد ﷺ يوم عمرو بن عبدود وقد دعا إلى المبارزة فأحجم الناس كلهم ما خلا

---

(١) كشف الغمة: ١/ ١٩٥.

(٢) الإرشاد ١/ ٩٠، وحلية الأبرار ٢/ ٤٣٢ ح ٣.

علياً عليه السلام، فإنه برز إليه وقتله الله على يده، والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من عمل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة.

قال في (**كشف الغمة**): رأيت في بعض الكتب أن النبي صلى الله عليه وآله قال حين بارز علي عمرو بن عبدود: «خرج الإسلام كله إلى الشرك كله»[1].

قال: وروي أن عبد الله بن مسعود كان يقرأ: وكفى الله المؤمنين القتال بعليّ وكان الله قويّاً عزيزاً.

قال: وفي قتل عمرو يقول حسان بن ثابت:

أمسى الفتى عمرو بن عبد يبتغي	بجنوب يثرب غارة لم تنظر
فلقد وجدت سيوفنا مشهورة	ولقد وجدت جيادنا لم تقصر
ولقد رأيت غداة بدر عصبة	ضربوك ضرباً غير ضرب المحشر
أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة	يا عمرو أو لجسيم أمر منكر

قال: ولما بلغ شعر حسان بني عامر أجابه فتى منهم فقال يرد عليه فخره:

كذبتم وبيت الله لا تقتلوننا	ولكن بسيف الهاشميين فافخروا
بسيف ابن عبد الله أحمد في الوغا	بكفّ عليّ نلتم ذاك فاقصروا
فلم تقتلوا عمرو بن ودّ ولا ابنه	ولكنه الكفّ الجسور الغضنفر
عليّ الذي في الفخر طال بناؤه	فلا تكثروا الدعوى علينا فتحقروا
ببدر خرجتم للبراز فردّكم	شيوخ قريش جهرة وتأخّروا
فلما أتاهم حمزة وعبيدة	وجاء عليّ بالمهند يخطر
فقالوا: نعم أكفاء صدق وأقبلوا	إليهم سراعاً إذ بغوا وتجبروا
فجال عليّ جولة هاشمية	فدمّرهم لما عتوا وتكبروا
فليس لكم فخر علينا بغيرنا	وليس لكم فخر يعدّ ويذكر

ومنها غزوة وادي الرّمل وتسمى غزوة ذات السلسلة.

وقد كان الفتح فيها لأمير المؤمنين عليه السلام خاصة بعد أن كان فيها من غيره من الإفساد ما كان، وفيها نزل على النبي صلى الله عليه وآله سورة (والعاديات) فتضمنت ذكر ما فعله أمير المؤمنين فيها.

(١) الإرشاد ١/١٠٣، وحلية الأبرار ٢/١٥٩.

قال (**المفيد**): روي عن أمّ سلمة قالت: كان نبي الله ﷺ قائلاً في بيتي إذ انتبه فزعاً من منامه فقلت له: الله جارك، قال: «صدقت والله جاري لكن هذا جبرئيل يخبرني أن علياً قادم»، ثم خرج إلى الناس فأمرهم أن يستقبلوا علياً عليه السلام، فقام المسلمون له صفين مع رسول الله ﷺ فلما بصر بالنبي ﷺ ترجّل عن فرسه وأهوى إلى قدميه يقبلهما، فقال له ﷺ: «اركب فإن الله تعالى ورسوله عنك راضيان»، فبكى أمير المؤمنين عليه السلام فرحاً وانصرف إلى منزله، وتسلّم المسلمون الغنائم - إلى أن قال - ثم قال ﷺ له: «يا علي لولا أنني أشفق أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمرّ بملاء منهم إلا أخذوا التراب من تحت قدميك».

ومنها غزوة الحُدَيْبِيَة.

وفيها أقبل سهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ فقال له: يا محمد إن أرقاءنا لحقوا بك فارددهم علينا، فغضب رسول الله ﷺ حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال: «لتنتهن يا معاشر قريش أو ليبعثن الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان يضرب رقابكم على الدين»، فقال بعض من حضر: يا رسول الله أبو بكر ذلك الرجل؟ قال: «لا»، قال: فعمر؟، قال: «لا، ولكنه خاصف النعل في الحجرة»، فتبادر الناس إلى الحجرة ينظرون من الرجل فإذا هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. رواه المفيد في (**الإرشاد**)، ورواه في (**كشف الغمة**) و (**صحيح الترمذي**) ونحوه[1].

ومنها غزوة خَيْبَر.

قال المفيد: ثم تلت الحديبية خيبر وكان الفتح فيها لأمير المؤمنين عليه السلام بلا ارتياب، فظهر من فضله في هذه الغزاة ما أجمع عليه نقلة الرواة وتفرّد فيها مناقب لم يشركه فيها أحد من الناس.

وقال كاشف الغمة: قال ابن طلحة: وتلخيص المقصد فيها على ما ذكره أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب (**السيرة النبوية**) يرفعه بسنده عن ابن الأكوع قال:

بعث النبي ﷺ أبا بكر برايته وكانت بيضاء إلى بعض حصون خيبر، فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح وقد جهد، ثم بعث عمر بن الخطاب فكان كذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، ليس بفرّار»، قال سلمة: فدعا علياً وهو أرمد فتفل في عينيه ثم قال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله

---
(١) الإرشاد ١/ ١٢٤.

عليك»، فخرج يهرول وأنا خلفه نتبع أثره حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع عليه يهودي من الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم حصننا وما أنزل على موسى، أو كما قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه[١].

ومنها فتح مكّة.

قال المفيد ره: وفيما ذكرناه من أعمال أمير المؤمنين عليه السلام، في قتل من قتل من أعداء الله بمكة وإخافة من أخاف ومعونة رسول الله صلى الله عليه وآله على تطهير المسجد من الأصنام وشدّ بأسه في الله وقطع الأرحام في طاعة الله عزَّ وجل، أول دليل على تخصيصه من الفضل بما لم يكن لأحد منهم سهم فيه حسبما قدمناه.

ومنها غزوة حُنين.

فاستظهر فيها رسول الله صلى الله عليه وآله بكثرة الجمع، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه عشرة آلاف من المسلمين فظنّ أكثرهم أنهم لن يغلبوا لما شاهدوا من كثرة جمعهم وعددهم وعدّتهم، وأعجب أبا بكر الكثرة يومئذ فقال: لن نغلب اليوم من قلّة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه وعانهم أبو بكر.

فلما التقوا لم يلبثوا وانهزموا بأجمعهم فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله إلا تسعة من بني هاشم وعاشرهم أيمن بن أم أيمن، وقتل رحمه الله وثبت التسعة الهاشميون رئيسهم أمير المؤمنين عليه السلام ورجعوا بعد ذلك وتلاحقوا وكانت الكرّة لهم على المشركين، فأنزل الله في إعجاب أبي بكر بالكثرة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ـ ٢٦] يريد علياً عليه السلام ومن ثبت معه من بني هاشم.

قال (**كاشف الغمة**) بعد شرح هذه الغزوة: فانظر إلى مفاخر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الغزاة ومناقبه، وجل بفكرك في بدائع فضله وعجائبه، واحكم فيها برأي صحيح الرأي صائبه، وأعجب من ثباته حين فرّ الشجاع على أعقابه، ولم ينظر في الأمر وعواقبه، واعلم أنه عليه السلام أحق بالصحبة حين لم ير مفارقة صاحبه، وتيقن أنه إذا حمّ الحمام لم ينتفع المرء بغير أهله وأقاربه، فإذا صح ذلك عندك بدلائله وبيناته، وعرفته بشواهده وعلاماته، فاقطع أن ثبات من ثبت من نتائج ثباته، وأنهم كانوا أتباعاً له في حروبه ومقاماته، وأن رجوع من رجع من هزيمته فإنما كان عندما بان لهم من النصر وأماراته[٢].

---

(١) شرح الأخبار ١/ ٣٠٢، والطرائف ٥٧ ح ٥٣. (٢) كشف الغمة: ١/ ٢٥٥.

قال الشارح الفقير: هذا قليل من كثير، ويسير من جمّ غفير من مناقبه ومفاخره ومجاهداته ومواساته لرسول الله ﷺ أوردته باقتضاء المقام وشرحاً لمعنى قوله عليه السلام: ولقد واسيته في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام.

وكم له عليه السلام من الآثار والمناقب والأخبار التي لا تستر، والمفاخر والفضائل والمجاهدات المثبتة في كتب التواريخ والسيّر، وكم له من المزايا والخلال والبلاء المذكور في النّزال، ولا صدرت منه عليه السلام، هذه الأفعال إلا عن نجدة وشجاعة تذلّ لها الأبطال، وتقلّ لديها الأهوال، ولا تقوم بوصفها الأقلام والأقوال، ولا يحتاج في إثباتها إلى تجشّم الاستدلال، وعلى الجملة والتفصيل فمقام بأسه ونجدته لا ينال وماذا بعد الحق إلا الضلال.

الثالثة: ما أشار إليه بقوله: (**ولقد قبض رسول الله ﷺ** وإن رأسه لعلى صدري) قيل: لعله عليه السلام أسنده ﷺ إلى صدره عند اشتداد مرضه، وقيل: إنه كان رأسه على ركبته فيكون رأسه ﷺ في صدره عند إكبابه عليه، والأول أظهر.

ويؤيده ما في (**البحار**) عن أمالي الشيخ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كنت[١] عند رسول الله ﷺ في مرضه الذي قُبض فيه، وكان رأسه في حجري، والعباس يذبّ عن وجه رسول الله ﷺ فأغمي عليه إغماء ثم فتح عينه فقال: «يا عباس يا عم رسول الله اقبل وصيتي واضمن ديني وعداتي»، فقال العباس: يا رسول الله أنت أجود من الريح المرسلة وليس في مالي وفاء لدينك وعداتك، فقال النبي ﷺ ذلك ثلاثاً يعيده عليه والعباس في كلّ ذلك يجيبه بما قال أول مرة.

قال: فقال النبي ﷺ: «لأقولنها لمن يقبلها ولا يقول يا عباس مثل مقالتك»، فقال: «يا علي إقبل وصيتي واضمن ديني وعداتي».

قال: فخنقتني العبرة وارتج جسدي ونظرت إلى رأس رسول الله ﷺ يذهب ويجيء في حجري، فقطرت دموعي على وجهه ولم أقدر أن أجيبه، ثم ثنّى فقال: «إقبل وصيتي واضمن ديني وعداتي» قال: قلت: نعم بأبي أنت وأمي، قال: «أجلسني»، فأجلسته فكان ظهره في صدري، فقال: «يا علي أنت أخي في الدنيا والآخرة، ووصيي وخليفتي في أهلي»[٢].

ثم قال ﷺ: «يا بلال هلمّ سيفي ودرعي وبغلتي وسرجها ولجامها ومنطقتي التي أشدّ بها على درعي»، فجاء بلال بهذه الأشياء فوقف بالبغلة بين يدي رسول الله ﷺ فقال: «يا

---

(١) الأمالي ٥٧٢ ح ١١٨٦/١٢، وبحار الأنوار ٤٩٩/٢٢ ح ٤٦.

(٢) الأمالي ٥٧٢ ح ١١٨٦.

علي قم فاقبض»، فقال: قمت وقام العباس فجلس مكاني، فقمت فقبضت ذلك، فقال: «انطلق به إلى منزلك»، فانطلقت ثم جئت فقمت بين يدي رسول الله ﷺ قائماً فنظر إليّ ثم عمد إلى خاتمه فنزعه ثم دفعه إليّ فقال: «هاك يا علي هذا لك في الدنيا والآخرة» والبيت غاصّ من بني هاشم والمسلمين.

فقال: «يا بني هاشم، يا معشر المسلمين، لا تخالفوا عليّاً فتضلّوا ولا تحسدوه فتكفروا، يا عباس قم من مكان علي ﷺ»، فقال: تقيم الشيخ وتُجلس الغلام؟ فأعادها ثلاث مرات، فقام العباس فنهض مغضباً وجلست مكاني.

فقال رسول الله ﷺ: «يا عباس يا عمّ رسول الله لا أخرج من الدنيا وأنا ساخط عليك فيدخلك سخطي عليك النار»، فرجع وجلس.

ومن **(الأمالي)** أيضاً عنه ﷺ في حديث قال:

فقال رسول الله ﷺ: «يا علي أجلسني»، فأجلسته وأسندته إلى صدري قال علي ﷺ: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ليثقل ضعفاً وهو يقول يسمع أهل البيت أعلاهم وأدناهم: «إن أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي في أهلي علي بن أبي طالب ﷺ، يقضي ديني، وينجز وعدي، يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، لا تبغضوا عليّاً ولا تخالفوا عن أمره فتضلّوا، ولا تحسدوه وترغبوا عنه فتكفروا، أضجعني يا علي» فأضجعته، الحديث[1].

وفي **(البحار)** من الأمالي أيضاً بإسناده عن ابن أبي رافع عن علي بن أبي طالب ﷺ قال:

دخلت على نبي الله وهو مريض، فإذا رأسه في حجر رجل أحسن ما رأيت من الخلق والنبي نائم، فلما دخلت عليه ﷺ قال الرجل: ادن إلى ابن عمك فأنت أحق به مني، فدنوت منهما فقام الرجل وجلست مكانه ووضعت رأس النبي ﷺ في حجري كما كان في حجر الرجل، فمكث ساعة.

ثم إن النبي ﷺ استيقظ فقال: «أين الرجل الذي كان رأسي في حجره؟» فقلت: لما دخلت عليك دعاني إليك ثم قال: ادن إلى ابن عمّك فأنت أحق به مني، ثم قام فجلست مكانه. فقال النبي ﷺ: «فهل تدري من الرجل؟»، قلت: لا بأبي وأمي، فقال النبي ﷺ: «ذاك جبرئيل كان يحدثني حتى خفّ عني وجعي ونمت ورأسي في حجره»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٠١، وميزان الحكمة: ١/ ١٣٧ ح ١٧٣.

(٢) الخصال ٥٥٨، واليقين ١٤٨.

وأما كيفية وفاته صلوات الله وسلامه عليه وآله

ففي (البحار) من أمالي الصدوق بإسناده عن ابن عباس قال:

لما مرض رسول الله ﷺ وعنده أصحابه، قام إليه عمار بن ياسر فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله فمن يغسلك منّا إذا كان ذلك منك؟ قال: «ذلك علي بن أبي طالب لأنهم لا يهمُّ بعضو من أعضائي إلا أعانته الملائكة على ذلك».

فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله فمن يصلّي عليك منّا إذا كان ذلك منك؟ قال: «مه رحمك الله».

ثم قال ﷺ لعلي عليه السلام: «يا ابن أبي طالب، إذا رأيت روحي قد فارقت جسدي فاغسلني وانق غسلي، وكفني في طمريّ هذين أو في بياض مصر حبرة وبرديمان، ولا تغال في كفني واحملوني حتى تضعوني على شفير قبري، فأول من يصلّي عليّ الجبّار جل جلاله من فوق عرشه، ثم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في جنود من الملائكة لا يحصي عددهم إلا الله جلّ وعزّ، ثم الحافّون بالعرش ثم سكّان أهل سماء فسماء ثم جلّ أهل بيتي ونسائي الأقربون فالأقربون يؤمون إيماء ويسلمون تسليماً لا يؤذوني بصوت نادبة «نائحة خ» ولا مرنّة».

ثم قال: «يا بلال هلم عليّ بالناس»، فاجتمع الناس فخرج رسول الله ﷺ متعصباً بعمامته متوكئاً على قوسه حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «معاشر أصحابي، أي نبي كنت لكم؟ ألم أجاهد بين أظهركم؟ ألم تكسر رباعيتي؟ ألم يعفر جبيني؟ ألم تسل الدماء على حرّ وجهي حتى كنفت لحيتي؟ ألم أكابد الشدّة والجهد مع جهّال قومي؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟!».

قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ ولقد كنت لله صابراً، وعن منكر بلاء الله ناهياً، فجزاك الله عنا أفضل الجزاء.

قال ﷺ: «وأنتم فجزاكم الله»، ثم قال: «إن ربي عزَّ وجل حكم وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم، فناشدتكم بالله أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة إلا قام فليقتص منه فالقصاص في دار الدنيا أحب إليّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء».

فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له: سوادة بن قيس، فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله إنك لمّا أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك الغضباء وبيدك القضيب الممشوق، فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني فلا أدري عمداً أو خطأً.

فقال ﷺ: «معاذ الله أن أكون تعمّدت»، ثم قال: «يا بلال قم إلى منزل فاطمة فائتني بالقضيب الممشوق».

فخرج بلال وهو ينادي في سكاك المدينة: يا معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة، فهذا محمدﷺ يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة.

وطرق بلال الباب على فاطمة عليها السلام وهو يقول: يا فاطمة قومي فوالدك يريد القضيب الممشوق، فأقبلت فاطمة عليها السلام وهي تقول: يا بلال وما يصنع والدي بالقضيب وليس هذا يوم القضيب؟ فقال بلال: يا فاطمة أما علمت أن والدك قد صعد المنبر وهو يودّع أهل الدين والدنيا، فصاحت فاطمة عليها السلام وقالت: واغماه لغمك يا أبتاه، من للفقراء والمساكين وابن السبيل يا حبيب الله وحبيب القلوب، ثم ناولت بلالاً القضيب، فخرج حتى ناوله رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «أين الشيخ؟» فقال الشيخ: ها أنا ذا يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فقال: «فاقتصّ مني حتى ترضى»، فقال الشيخ: فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عن بطنه فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله ﷺ من النار.

فقال رسول الله ﷺ: «يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتصّ؟» فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال ﷺ: «اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفى عن محمد نبيك».

ثم قام رسول الله فدخل بيت أم سلمة وهو يقول: «ربّ سلّم أمة محمد من النار ويسّر عليهم الحساب»، فقالت أم سلمة: يا رسول الله ما لي أراك مغموماً متغير اللون؟ فقال ﷺ: «نعيت إليّ نفسي هذه الساعة، فسلام لك في الدنيا فلا تسمعين بعد هذا اليوم صوت محمد أبداً»، فقالت أم سلمة: واحزناه حزناً لا تدركه الندامة عليك يا محمد.

ثم قال ﷺ: «ادع لي حبيبة قلبي وقرّة عيني فاطمة»، فجاءت فاطمة وهي تقول: نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوفاء يا أبتاه لا تكلمني كلمة فأني أنظر إليك وأراك مفارق الدنيا وأرى عساكر الموت تغشاك شديداً.

فقال ﷺ لها: «يا بنية إني مفارقك، فسلام عليك مني»، قالت: يا أبتاه، فأين الملتقى يوم القيامة؟ قال ﷺ: «عند الحساب»، قالت: فإن لم ألقك عند الحساب؟ قال: «عند الشفاعة لأمتي»، قالت: فإن لم ألقك عند الشفاعة لأمتك؟ قال: «عند الصراط جبرئيل عن يميني وميكائيل عن يساري والملائكة خلفي وقدامي ينادون ربّ سلم أمة محمد من النار ويسّر عليهم الحساب»، قالت فاطمة: فأين والدتي خديجة؟ قال: «في قصر له أربعة أبواب

إلى الجنة».

ثم أُغمي على رسول الله ﷺ فدخل بلال وهو يقول: الصلاة رحمك الله، فخرج رسول الله ﷺ وصلّى بالناس وخفّف الصلاة.

ثم قال: «ادعوا لي عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد»، فجاءا فوضع ﷺ يده على عاتق علي والأخرى على أسامة ثم قال: «انطلقا بي إلى فاطمة»، فجاءا به حتى وضع رأسه في حجرها فإذا الحسن والحسين يبكيان ويصطرخان وهما يقولان: أنفسنا لنفسك الفداء، ووجوهنا لوجهك الوقاء.

فقال رسول الله ﷺ: «من هذان يا علي؟» فقال عليه السلام: إبناك الحسن والحسين، فعانقهما وقبّلهما وكان الحسن عليه السلام أشدّ بكاء، فقال ﷺ: «كفّ يا حسن فقد شققت على رسول الله ﷺ».

فنزل ملك الموت قال: السلام عليك يا رسول الله، قال: «وعليك السلام يا ملك الموت لي إليك حاجة»، قال: وما حاجتك يا نبي الله؟ قال: «حاجتي أن لا تفيض روحي حتى يجيئني جبرئيل فيسلم عليّ وأسلم عليه».

فخرج مالك الموت وهو يقول: يا محمداه، فاستقبله جبرئيل في الهواء فقال: يا ملك الموت قبضت روح محمد؟ قال: لا يا جبرئيل سألني أن لا أقبضه حتى يلقاك فتسلم عليه ويسلم عليك، فقال جبرئيل: يا ملك الموت أما ترى أبواب السماء مفتوحة لروح محمد ﷺ أما ترى الحور العين قد تزين لروح محمد ﷺ؟.

ثم نزل جبرئيل فقال: السلام عليك يا أبا القاسم، فقال: «وعليك السلام يا جبرئيل، ادن مني حبيبي جبرئيل»، فدنا منه، فنزل ملك الموت فقال له جبرئيل: يا ملك الموت احفظ وصية الله في روح محمد، وكان جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، وملك الموت آخذ بروحه، فلما كشف الثوب عن وجه رسول الله ﷺ نظر إلى جبرئيل فقال له: «عند الشدائد تخذلني»، فقال: يا محمد إنك ميت وإنهم ميتون، كل نفس ذائقة الموت.

فروى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ في ذلك المرض كان يقول: «ادعوا لي حبيبي» فجعل يُدعا له رجل بعد رجل فيعرض عنه فقيل لفاطمة عليها السلام: امضي إلى علي فما نرى رسول الله يريد غير علي. فبعثت فاطمة إلى علي عليه السلام فلما دخل فتح رسول الله ﷺ عينيه وتهلّل وجهه ثم قال: «إليّ يا علي، إليّ يا علي» فما زال ﷺ يدنيه حتى أخذه بيده وأجلسه عند رأسه.

ثم أُغمي عليه فجاء الحسن والحسين عليهما السلام يصيحان ويبكيان حتى وقعا على رسول

الله ﷺ، فأراد علي أن ينحيهما عنه ﷺ فأفاق رسول الله ﷺ ثم قال: «يا علي دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودان مني أما أنهما سيظلمان بعدي ويقتلان ظلماً فلعنة الله على من يظلمهما»، يقول ذلك ثلاثاً.

ثم مدّ يده إلى علي فجذبه إليه حتى أدخله تحت ثوبه الذي كان عليه، ووضع فاه على فيه وجعل يناجيه مناجاة طويلة حتى خرجت روحه الطيبة صلوات الله عليه وآله.

فانسلّ علي من تحت ثيابه وقال: أعظم الله أجوركم في نبيكم فقد قبضه الله إليه، فارتفعت الأصوات بالضجة والبكاء، فقيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما الذي ناجاك به رسول الله ﷺ حين أدخلك تحت ثيابه؟ فقال: علّمني ألف باب كل باب يفتح ألف باب[1].

قال الشارح عفى الله عنه: ما في هذا الحديث من قصة سوادة مناف للأصول المحكمة والأدلة القاطعة العقلية والنقلية الدالة على كون الأنبياء معصومين من السهو والخطأ والنسيان كعصمتهم من المعاصي مطلقاً حسبما عرفته تفصيلاً في شرح الفصل الثاني عشر من الخطبة الأولى، فلا بد من تأويله على وجه لا ينافي العصمة أورده لمخالفته لأصول مذهب الإمامية، ولعل الصدوق رواه بناء على مذهبه من تجويزه السهو على النبي كما صرح به في الفقيه وغيره.

وفي **(كشف الغمة)** من كتاب أبي إسحاق الثعلبي قال:

دخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد ثقل فقال: يا رسول الله متى الأجل؟ قال ﷺ: «قد حضر»، قال أبو بكر: الله المستعان على ذلك، فإلى ما المنقلب؟ قال ﷺ: «إلى السدرة المنتهى والجنة المأوى وإلى الرفيق الأعلى والكأس الأوفى والعيش المهني»، قال أبو بكر: فمن يلي غسلك؟ قال: «رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى»، فقال: ففيم نكفنك؟ قال: «في ثيابي هذه التي عليّ أو في حلة يمانية أو في بياض مصر»، قال: كيف الصلاة عليك؟ فارتجت الأرض بالبكاء.

فقال لهم النبي ﷺ: «مهلاً عفى الله عنكم، إذا غسلت فكفنت فضعوني على سريري في بيتي على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن الله تبارك وتعالى أول من يصلي عليّ ثم يأذن الملائكة في الصلاة عليّ، فأول من ينزل جبرئيل ثم إسرافيل ثم ميكائيل ثم ملك الموت عليه السلام في جنود كثير من الملائكة بأجمعها، ثم ادخلوا عليّ زمرة زمرة فصلوا عليّ وسلموا تسليماً ولا تؤذوني بتزكية ولا رنّة، وليبدأ بالصلاة عليّ الأدنى فالأدنى من أهل بيتي، ثم النساء، ثم الصبيان زمراً».

---

(١) البحار: ٢٢/٥١١.

قال أبو بكر: فمن يدخل قبرك؟ قال: «الأدنى فالأدنى من أهل بيتي مع ملائكة لا ترونهم، قوموا فأدوا عني إلى من ورائكم» فقلت للحارث بن مرة: من حدثك بهذا الحديث؟ قال: عبد الله بن مسعود عن علي عليه السلام.

قال: كان جبرئيل ينزل على النبي صلى الله عليه وآله في مرضه الذي قبض فيه في كل يوم وليلة فيقول: السلام عليك إن ربك يقرؤك السلام، فيقول: كيف تجدك وهو أعلم بك ولكنه أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً إلى ما أعطاك على الخلق وأراد أن يكون عيادة المريض سنّة في أمتك.

فيقول له النبي صلى الله عليه وآله إن كان وجعاً: «يا جبرئيل أجدني وجعاً»، فقال له جبرئيل: إعلم يا محمد أن الله لم يشدد عليك وما من أحد من خلقه أكرم عليه منك، ولكنه أحب أن يسمع صوتك ودعاءك حتى تلقاه مستوجباً للدرجة والثواب الذي أعدّ لك والكرامة والفضيلة على الخلق.

وإن قال له النبي صلى الله عليه وآله: «أجدني مريحاً في عافية» قال له: فاحمد الله على ذلك فإنه يحب أن تحمده وتشكره ليزيدك إلى ما أعطاك خيراً فإنه يحب أن يحمد ويزيد من يشكر.

قال: وإنه نزل عليه في الوقت الذي كان ينزل فيه فعرفنا حسّه فقال علي عليه السلام: فخرج من كان في البيت غيري، فقال له جبرئيل: يا محمد إن ربك يقرؤك السلام ويسألك وهو أعلم بك كيف تجدك؟ فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «أجدني ميتاً»، قال له جبرئيل: يا محمد ابشر فإن الله إنما أراد أن يبلغك بما تجد ما أعدّ لك من الكرامة، قال له النبي صلى الله عليه وآله: «إن ملك الموت استأذن عليّ فأذنت له فدخل واستنظرته مجيئك»، فقال له جبرئيل: يا محمد إن ربك إليك مشتاق فما استأذن ملك الموت على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «لا تبرح يا جبرئيل حتى يعود».

ثم أذن للنساء فدخلن عليه فقال لابنته: «إدني مني يا فاطمة»، فأكبّت عليه فناجاها فرفعت رأسها فعيناها تهملان دموعاً، فقال لها: «ادني مني» فدنت منه فأكبّت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك.

فتعجبنا لما رأينا، فسألناها فأخبرتنا أنه نعى إليها نفسه، فبكت، فقال لها: «يا بنية لا تجزعي فإني سألت الله أن يجعلك أول أهل بيتي لحاقاً بي فأخبرني أنه قد استجاب لي» فضحكت.

قال: ثم دعا النبي صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام فقبّلهما وشمّهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان.

قال الشارح عفى الله عنه: ولقد كنت عند نقلي هذه الرواية للثعلبي كاد أن يشرح قلبي بالسكاكين مما تضمنه صدرها من شنيع فعل أبي بكر وإصراره في سؤال الرسول ﷺ ومن أجله وغسله ودفنه وكفنه ومنقلبه في هذه الحال من شدّة مرضه وضعفه، وقد أحاطت به غمرات الآلام وغشيته طوارق الأوجاع والأسقام، وكيف تمالك نفسه ولم تخنقه عبرته وبالغ في السؤال حتى ارتجّت الأرض بالبكاء وألجأ رسول الله ﷺ إلى ردعه بقوله: «مهلاً، فيا لله ما أقلّ حياء الرجل وأسوء أدبه وأقسى قلبه وأقبح فعله»[1].

وفي (**البحار**) من المناقب عن سهل بن أبي صالح عن ابن عباس أنه أغمي على النبي ﷺ في مرضه فدقّ بابه، فقالت فاطمة: من ذا؟ قال: أنا رجل غريب أتيت أسأل رسول الله أتأذنون لي في الدخول عليه؟ فأجابت: امض رحمك الله لحاجتك فرسول الله عنك مشغول.

فمضى ثم رجع فدقّ الباب وقال: غريب يستأذن على رسول الله ﷺ أتأذنون للغرباء؟ فأفاق رسول الله ﷺ من غشيته وقال: «يا فاطمة أتدرين من هذا؟» قالت: لا يا رسول الله، قال: هذا مفرّق الجماعات ومنقض «منغص» اللّذات، هذا ملك الموت ما استأذن والله على أحد قبلي ولا يستأذن على أحد بعدي، استأذن عليّ لكرامتي على الله ائذني له»، فقالت: ادخل رحمك الله، فدخل كريح هفافه وقال: السلام على أهل بيت رسول الله، فأوصى النبي ﷺ إلى عليّ عليه السلام بالصبر عن الدنيا وبحفظ فاطمة وبجمع القرآن وبقضاء دينه وبغسله وأن يعمل حول قبره حائط وبحفظ الحسن والحسين[2].

وفي (**كشف الغمة**) عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما حضرت النبي الوفاة استأذن عليه رجل فخرج إليه علي عليه السلام فقال: ما حاجتك؟ قال: أريد الدخول على رسول الله، فقال علي: لست تصل إليه فما حاجتك؟ فقال الرجل: أنه لا بد من الدخول عليه، فدخل علي عليه السلام فاستأذن النبي ﷺ فأذن له، فدخل فجلس عند رأس رسول الله ﷺ.

ثم قال: يا نبي الله إني رسول الله إليك، قال: «وأي رسل الله أنت؟» قال: أنا ملك الموت أرسلني إليك يخيّرك بين لقائه والرجوع إلى الدنيا، فقال له النبي ﷺ: «فامهلني حتى ينزل جبرئيل فأستشيره».

ونزل جبرئيل فقال: يا رسول الله الآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى، لقاء الله خير لك، فقال ﷺ: «لقاء ربي خير لي فامض لما أُمرت به»، فقال جبرئيل

(١) الأمالي ٧٣٧، وروضة الواعظين ٧٥.

(٢) بحار الأنوار ٧٤/٤٢٨.

لملك الموت: لا تعجل حتى أعرج إلى السماء «ربي خ» وأهبط، قال ملك الموت: لقد صارت نفسه في موضع لا أقدر على تأخيرها، فعند ذلك قال جبرئيل: يا محمد هذا آخر هبوطي إلى الدنيا إنما كنت أنت حاجتي فيها[١].

وفي **(البحار)** من كتاب **(أعلام الورى)** قال الصادق ﷺ: قال جبرئيل: يا محمد هذا آخر نزولي إلى الدنيا، إنما كنت أنت حاجتي منها، قال: وصاحت فاطمة وصاح المسلمون ويضعون التراب على رؤوسهم ومات ﷺ لليلتين بقيتا من صفر سنة عشر من الهجرة، وروى أيضاً لاثني عشر ليلة من ربيع الأول صلى الله عليه وآله وسلّم تسليماً كثيراً[٢].

الرابعة: ما أشار إليه بقوله: **(ولقد سالت نفسه في كفي فأمررتها على وجهي)**.

قال الشارح البحراني: أراد بنفسه دمه، يقال: إن رسول الله ﷺ قاء وقت موته دماً يسيراً وأن علياً ﷺ مسح بذلك الدم وجهه، ولا ينافي ذلك نجاسة الدم لجواز أن يخصص دم الرسول كماروى أن أبا طيبة الحجام شرب دمه ﷺ حين حجمه فقال ﷺ: «إذاً لا ينجع بطنك»، انتهى كلامه، ومثله الشارح المعتزلي.

أقول: أما طهارة دم النبي ﷺ فلا ريب فيها كما قال الشاعر:

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإنّ المسك بعض دم الغزال

ويشهد بها آية التطهير.

فإن قلت: لو كان طاهراً لم حذّر النبي ﷺ أبا سعيد الخدري من شربه كمارواه في **(البحار)** من تفسير الإمام في حديث طويل قال فيه:

وأما الدم، فإن رسول الله ﷺ احتجم مرة فدفع الدم الخارج منه إلى أبي سعيد الخدري وقال له: «غيبه»، فذهب فشربه فقال ﷺ له: «ما صنعت به؟» قال له: شربته يا رسول الله، قال: «ألم أقل لك غيبه؟» فقال له: غيبته في وعاء حريز، فقال رسول الله ﷺ: «إياك وأن تعود لمثل هذا، ثم اعلم أن الله قد حرّم على النار لحمك ودمك لما اختلط بلحمي ودمي»[٣].

قلت: لعل تحذيره عن شربه لأجل حرمته لا لأجل النجاسة.

وأما حمل النفس في قوله ﷺ: ولقد سالت نفسه بمعنى الدم فلا يخفى بعده بل

(١) كشف الغمة ١/١٨.

(٢) بحار الأنوار ٢/٥٣٤، وكشف الغمة ١/١٩.

(٣) بحار الأنوار ٢٢/٥٢، والأنوار البهية ٤١.

ضعفه، والأقوى عندي أن يراد بالنفس نفسه الناطقة القدسية التي هي مبدأ الفكر والذكر والعلم والحلم والنباهة، ولها خاصية الحكمة والنزاهة، فيكون محصّل المراد بالكلام أن روحه الطيبة الكاملة التي هي المصداق الحقيقي لقوله: «قل الروح من أمر ربي»، والمقصود الأصلي بقوله: ونفخت فيه من روحي، لما فارقت جسده الطاهر فاضت بيدي فمسحت بها على وجهي.

ولعل هذا مراد من قال: إن المراد بسيلان النفس هبوب النفس عند انقطاع الأنفاس، هذا.

وإنما مسح بها على وجهه إما تيمناً أو لحكمة عظيمة لا نعرفها.

وإنما فعل عليه السلام ذلك بوصية منه صلى الله عليه وآله كما رواه في **(البحار)** من مناقب ابن شهرآشوب قال: ومن طريقة أهل البيت عليهم السلام أن عائشة دعت أباها فأعرض عنه ودعت حفصة أباها فأعرض عنه ودعت أم سلمة علياً فناجاه طويلاً ثم أغمى عليه فجاء الحسن والحسين عليهما السلام يصيحان ويبكيان حتى وقعا على رسول الله صلى الله عليه وآله وأراد علي عليه السلام أن ينحيهما عنه، فأفاق رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: يا علي دعهما أشمهما ويشماني وأتزوّد منهما ويتزوّدان مني.

ثم جذب علياً عليه السلام تحت ثوبه ووضع فاه على فيه وجعل يناجيه، فلما حضره الموت قال له: «ضع رأسي يا علي في حجرك فقد جاء أمر الله فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك ثم وجّهني إلى القبلة وتولّ أمري وصلّ عليّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي واستعن بالله عزَّ وجل».

وأخذ عليّ برأسه فوضعه في حجره فأُغمي عليه فبكت فاطمة فأومى إليها بالدنو منه، فأسرّ إليها شيئاً تهلّل وجهها ـ القصة ـ.

ثم قضى صلى الله عليه وآله ومدّ أمير المؤمنين عليه السلام يده اليمنى تحت حنكه ففاضت نفسه فيها، فرفعها إلى وجهه فمسحه بها ثم وجّهه ومدّ عليه إزاره واستقبل بالنظر في أمره.

وفي **(البحار)** من كتاب أعلام الورى قضى رسول الله صلى الله عليه وآله ويد أمير المؤمنين اليمنى تحت حنكه، ففاضت نفسه فيها فرفعها إلى وجهه فمسحه بها ثم وجّهه وغمّضه ومدّ عليه إزاره واشتغل بالنظر في أمره[١].

الخامسة: ما أشار إليه بقوله: **(ولقد وليت)** أي باشرت **(غسله** صلى الله عليه وآله والملائكة أعواني) باطناً، والفضل بن عباس يعينه ظاهراً، وكان مباشرته بغسله صلى الله عليه وآله أيضاً بوصيته صلى الله عليه وآله.

---

(١) بحار الأنوار ٢٢/ ٥٢٤.

كما يدل عليه ما رواه في (**البحار**) من المناقب عن أبان بن بطة قال يزيد بن بلال: قال علي عليه السلام: أوصى النبي ألا يغسله أحد غيري فإنه لا يرى عورتي أحد إلا طمست عيناه، قال: فما تناولت عضواً إلا كأنما يقلّبه معي ثلاثون رجلاً حتى فرغت من غسله.

وروى أنه لما أراد علي عليه السلام غسله استدعا الفضل بن عباس ليعينه وكان مشدود العينين وقد أمره علي عليه السلام بذلك إشفاقاً عليه من العمى، وفي هذا المعنى قال العبدي:

من ولي غسل النبي ومن لفّقه من بعد في الكفن

وقال آخر:

غسّله إمام صدق طاهر من دنس الشرك وأسباب الغير

فأورث اللّه عليّاً علمه وكان من بعد إليه يفتقر

وفي (**البحار**) من كتاب الطرف لابن طاووس نقلاً من كتاب (**الوصية**) للشيخ عيسى بن المستفاد الضرير عن موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي أضمنت ديني تقضيه عني؟» قال: نعم، قال: «اللهم فاشهد»، ثم قال: «يا علي تغسلني ولا يغسلني غيرك فيعمى بصره»، قال علي عليه السلام: ولم يا رسول الله؟ قال: «كذلك قال جبرئيل عن ربي أنه لا يرى عورتي غيرك إلاّ عمى بصره»، قال علي عليه السلام: فكيف أقوى عليك وحدي؟ قال: «يعينك جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وإسماعيل صاحب السماء الدنيا»، قلت: فمن يناولني الماء؟ قال: «الفضل بن العباس من غير أن ينظر إلى شيء مني فإنه لا يحل له ولا لغيره من الرجال والنساء النظر إلى عورتي، وهي حرام عليهم، فإذا فرغت من غسلي فضعني على لوح وأفرغ عليّ من بئري بئر غرس أربعين دلواً مفتحة الأبواب» أو قال: «أربعين قربة» شككت أنا في ذلك، «ثم ضع يدك يا علي على صدري واحضر معك فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام من غير أن ينظروا إلى شيء من عورتي ثم تفهّم عند ذلك تفهم ما كان وما هو كائن إن شاء الله».

ومن كتاب (**فقه الرضا**) وقال جعفر عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى علي أن: «لا يغسلني غيرك»، فقال علي عليه السلام: يا رسول الله من يناولني الماء، وإنك رجل ثقيل لا أستطيع أن أقلّبك؟ فقال: «جبرئيل معك يعاونك ويناولك الفضل الماء، وقل له فليغطّ عينيه فإنه لا يرى أحد عورتي غيرك إلا انفقأت عيناه»، قال: كان الفضل يناوله الماء وجبرئيل يعاونه وعليّ يغسّله[1].

---

(١) كفاية الأثر ١٢٥، وبحار الأنوار ٧٨/ ٣٠٢.

وقوله: **(فضجّت الدار والأفنية ملاء يهبط وملاء يعرج)** نسبة الضجيج إلى الدار والأفنية من التوسع، والإسناد إلى المكان، والمراد به ضجيج الملائكة النازلين فيهما حين موته صلى الله عليه وآله وبكاؤهم عليه مثل ضجيج سائر الحاضرين لديه.

ويشهد على ذلك ما في **(البحار)** من كتاب الطرف لابن طاووس في الحديث الذي قدمنا روايته آنفاً وفيه بعد قوله صلى الله عليه وآله: «تفهم ما كان وما هو كائن»: «أقبلت يا علي؟» قال: نعم، قال: «اللهم فاشهد».

قال: «يا علي ما أنت صانع لو قد تأمّر القوم عليك بعدي وتقدّموا عليك وبعث إليك طاغيتهم يدعوك إلى البيعة ثم لبّيت بثوبك تقاد كما يقاد الشارد من الإبل مذموماً مخذولاً محزوناً مهموماً وبعد ذلك ينزل بهذه الذّل».

قال: فلما سمعت فاطمة ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله صرخت وبكت، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله لبكائها وقال: «يا بنية لا تبكين ولا تؤذين جلساءك من الملائكة، هذا جبرئيل بكى لبكائك وميكائيل وصاحب سرّ الله إسرافيل، يا بنية لا تبكين فقد بكيت السماوات والأرض لبكائك».

فقال علي عليه السلام: يا رسول الله انقاد للقوم وأصبر على ما أصابني من غير بيعة لهم ما لم أصب أعواناً لم أناجز القوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم اشهد»[(١)].

وفيه من الكتاب المذكور أيضاً من كتاب الوصية لعيسى الضرير عن موسى بن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال:

لما كانت الليلة التي قبض النبي صلى الله عليه وآله في صبيحتهما دعى علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وأغلق عليه وعليهم الباب، وقال: «يا فاطمة»، وأدناها منه فناجاها من الليل طويلاً، فلما طال ذلك خرج علي ومعه الحسن والحسين وأقاموا بالباب والناس خلف الباب ونساء النبي ينظرون إلى علي ومعه إبناه.

فقالت عائشة: لأمر ما أخرجك منه رسول الله صلى الله عليه وآله وخلا بابنته دونك في هذه الساعة؟

فقال علي عليه السلام: قد عرفت الذي خلا بها وأرادها له وهو بعض ما كنت فيه وأبوك وصاحباه مما قد سمّاه، فوجمت أن ترد عليه كلمة.

قال علي عليه السلام: فما لبثت أن نادتني فاطمة عليها السلام دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وهو

(١) الصراط المستقيم ٢/ ٩٣.

يجود بنفسه فبكيت ولم أملك نفسي حين رأيته بتلك الحال يجود بنفسه.

فقال ﷺ لي: «ما يبكيك يا علي ليس هذا أوان البكاء فقد حان الفراق بيني وبينك فاستودعك الله يا أخي فقد اختار لي ربي ما عنده، وإنما بكائي وغمّي وحزني عليك وعلى هذه ـ أي فاطمة ـ أن تضيع بعدي، فقد أجمع القوم على ظلمكم وقد استودعكم الله وقبلكم مني وديعة يا علي قد أوصيت فاطمة ابنتي بأشياء وأمرتها أن تلقيها إليك فأنفذها فهي الصادقة المصدّقة».

ثم ضمها إليه وقبّل رأسها وقال: «فداك أبوك يا فاطمة»، فعلا صوتها بالبكاء ثم ضمها إليه وقال: «والله لينتقمن الله ربي وليغضبن لغضبك، فالويل ثم الويل للظالمين» ثم بكى رسول الله ﷺ.

وقال علي عليه السلام: فوالله لقد حسبت بضعة مني قد ذهبت لبكائه ﷺ حتى هملت عيناه مثل المطر حتى بلّت دموعه لحيته وملاءة كانت عليه وهو يلتزم فاطمة لا يفارقها ورأسه على صدري وأنا مسنده والحسن والحسين يقبّلان قدميه ويبكيان بأعلى أصواتهما.

قال علي عليه السلام: فلو قلت أن جبرئيل في البيت لصدقت لأني كنت أسمع بكاء ونغمة لا أعرفها وكنت أعلم أنها أصوات الملائكة لا أشك فيها، لأن جبرئيل لم يكن في مثل تلك الليلة يفارق النبي ﷺ، ولقد رأيت بكاء منها أحسب أن السماوات والأرضين قد بكت لها.

ثم قال لها: «يا بنية الله خليفتي عليكم وهو خير خليفة».

«والذي بعثني بالحق لقد بكى لبكائك عرش الله وما حوله من الملائكة والسماوات والأرضون وما بينهما».

«يا فاطمة والذي بعثني بالحق لقد حرّمت الجنة على الخلائق حتى أدخلها وأنك لأول خلق الله يدخلها بعدي كاسية حالية ناعمة، يا فاطمة هنيئاً لك».

«والذي بعثني بالحق إنك لسيدة من يدخلها من النساء، والذي بعثني بالحق إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرّب ولا نبي مرسل إلا صعق، فينادى إليها أن يا جهنم يقول لك الجبار اسكني بعزّي واستقري حتى تجوز فاطمة بنت محمد إلى الجنان لا يغشيها قترة ولا ذلّة».

«والذي بعثني بالحق ليدخلن حسن وحسين، حسن عن يمينك وحسين عن يسارك ولتشرفنّ من أعلى الجنان بين يدي الله في المقام الشريف ولواء الحمد مع علي بن أبي طالب يكسى إذا كسيت ويحبى إذا حبيت».

«والذي بعثني بالحق لأقومنّ لخصومة أعدائك وليندمن قوم أخذوا حقك وقطعوا مودتك وكذبوا علياً وليختلجن دوني فأقول: أمتي أمتي فيقال أنهم بدلوا بعدك وصاروا إلى السعير»(١).

قال الشارح عفى الله عنه: وإنما أوردت هذه الرواية بتمامها وطولها مع كون موضع الحاجة منها بعضها كأكثر الأخبار المتقدمة في شرح هذه الخطبة، لكونها متضمنة مثل سائرها تقدم للغرض الذي سوق هذه الخطبة لأجله مؤكدة له، وهو إفادة مزيد اختصاصه عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله وقرباه منه، على أنّا أحببنا أن يكون شرح هذه الخطبة متكفلاً لجمل أخبار وفاة الرسول صلى الله عليه وآله.

وقوله: **(وما فارقت سمعي هينمة منهم)** أي لم تغب أصواتهم عن سمعي ولم تخف عليّ، ويدل عليه عموم الأخبار المفيدة لكونه محدثاً يسمع صوت الملك ولا يرى شخصه، وقد تقدمت جملة منها في التنبيه الثاني من شرح الفصل الثامن من الخطبة المائة والحادية والتسعين.

ويدل عليه خصوصاً بل يدل على رؤيته عليه السلام لهم أيضاً في تلك الحال ما رواه في **(البحار)** من كتاب بصائر الدرجات عن أحمد بن محمد وأحمد بن إسحاق عن القاسم بن يحيى عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله هبط جبرئيل ومعه الملائكة والروح الذين كانوا يهبطون في ليلة القدر، قال: ففتح لأمير المؤمنين بصره فرآهم في منتهى السماوات إلى الأرض يغسّلون النبي معه ويصلون عليه معه ويحفرون له، والله ما حفر له غيرهم حتى إذا وضع في قبره نزلوا مع من نزل، فوضعوه فتكلم، وفتح لأمير المؤمنين سمعه فسمعه يوصيهم به فبكى عليه السلام وسمعهم يقولون لا نالوه جهداً وإنما هو صاحبنا بعدك إلا أنه ليس يعايننا ببصره بعد مرّتنا هذه.

حتى إذا مات أمير المؤمنين عليه السلام رأى الحسن والحسين عليهما السلام مثل ذلك الذي رأى ورأيا النبي صلى الله عليه وآله يعين الملائكة مثل الذي صنعوا بالنبي صلى الله عليه وآله.

حتى إذا مات الحسن عليه السلام رأى منه الحسين مثل ذلك ورأى النبي صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام يعينان الملائكة.

حتى إذا مات الحسين عليه السلام رأى علي بن الحسين عليهما السلام منه مثل ذلك ورأى النبي صلى الله عليه وآله وعلياً والحسن عليهما السلام يعينون الملائكة.

---

(١) البحار: ٢٢/ ٤٩٢ ح ٣٦، وبصائر الدرجات ٢٤٥ ح ١٧، ومدينة المعاجز ٣٠/ ٣٨١.

حتى إذا مات علي بن الحسين عليه السلام رأى محمد بن علي مثل ذلك ورأى النبي صلى الله عليه وآله وعلياً والحسن والحسين عليهم السلام يعينون الملائكة.

حتى إذا مات محمد بن علي عليه السلام رأى جعفر عليه السلام مثل ذلك ورأى النبي صلى الله عليه وآله وعلياً والحسن والحسين وعلي بن الحسين عليهم السلام يعينون الملائكة.

حتى إذا مات جعفر عليه السلام رأى موسى عليه السلام منه مثل ذلك، هكذا يجري إلى آخرنا[1].

وقوله: (**يصلون عليه**) صريح في صلاة الملائكة، وقد مر في شرح قوله عليه السلام: ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله في رواية الأمالي إن أول من يصلي عليه هو الله سبحانه ثم الملائكة، ثم المسلمون.

وروى في (**الكافي**) بسنده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما قبض النبي صلى الله عليه وآله صلّت عليه الملائكة والمهاجرون والأنصار فوجاً فوجاً.

وقال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في صحته وسلامته: «إنما أنزلت هذه الآية عليّ في الصلاة بعد قبض الله لي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦][2].

وفي (**البحار**) من الاحتجاج وفي رواية سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي أنه قال:

أتيت علياً عليه السلام وهو يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله وقد كان أوصى أن لا يغسله غير علي عليه السلام وأخبر عنه أنه لا يريد أن يقلّب منه عضو إلا قلب له، وقد قال أمير المؤمنين لرسول الله صلى الله عليه وآله: من يعينني على غسلك يا رسول الله؟ قال: «جبرئيل».

فلما غسّله وكفّنه أدخلني وأدخل أبا ذر والمقداد وفاطمة وحسناً وحسيناً عليهم السلام فتقدم وصففنا خلفه وصلى عليه، وعائشة في الحجرة لا تعلم قد أخذ جبرئيل ببصرها ثم أدخل عشرة عشرة من المهاجرين والأنصار فيصلون ويخرجون، حتى لم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا صلى عليه، الخبر[3].

ومن كتاب (**أعلام الورى**) قال أبان: وحدثني أبو مريم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال الناس: كيف الصلاة عليه؟ فقال علي عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله إمامنا حياً وميتاً فدخل عليه عشرة عشرة فصلوا عليه يوم الإثنين وليلة الثلاثاء حتى صلى عليه كبيرهم وصغيرهم وذكرهم

---

(١) مدينة المعاجز ٣/٤٨ ح ٥، وبحار الأنوار ٢٢/٥١٣، ح ١٣.

(٢) الكافي ١/٤٥١ ح ٣٨، وبحار الأنوار ٢٢/٥٤٠ ح ٤٨.

(٣) وسائل الشيعة ٣/٨٣، ح ٣٠٨٢، وبحار الأنوار ٢٢/٥٢٩.

وأثناهم وضواحي المدينة بغير إمام.

ومن (**المناقب**) قال أبو جعفر عليه السلام قال الناس: كيف الصلاة؟ فقال علي عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله إمام حياً وميتاً، فدخل عليه عشرة عشرة فصلوا عليه يوم الإثنين وليلة الثلاثاء حتى الصباح ويوم الثلاثاء حتى صلى عليه الأقرباء والخواص، ولم يحضر أهل السقيفة وكان علي عليه السلام أنفذ إليهم بريدة، وإنما تمّت بيعتهم بعد دفنه[١].

ومن (**المناقب**) وسئل الباقر عليه السلام كيف كانت الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله؟ فقال: لما غسّله أمير المؤمنين وكفّنه وسجّاه وأدخل عليه عشرة فداروا حوله، ثم وقف أمير المؤمنين عليه السلام في وسطهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ الآية، فيقول القوم مثل ما يقول حتى صلى عليه أهل المدينة وأهل العوالي[٢].

قال المحدّث العلامة المجلسي (قد) بعد إيراد هذه الأخبار في (**البحار**): يظهر من مجموعها أن الصلاة الحقيقية هي التي كان أمير المؤمنين عليه السلام صلاّها أولاً مع الستة المذكورين في خبر سليم، ولم يدخل في ذلك سوى الخواص من أهل بيته وأصحابه لئلا يتقدم أحد من لصوص الخلافة في الصلاة أو يحضر أحد من هؤلاء المنافقين فيها، ثم كان يدخل عشرة عشرة من الصحاب فيقرأ الآية ويدعون ويخرجون من غير صلاة.

وقوله: (**حتى واريناه في ضريحه**) روى في (**البحار**) من المناقب قال: واختلفوا أين يدفن فقال بعضهم: في البقيع، وقال آخرون: في صحن المسجد، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله لم يقبض نبياً إلا في أطهر البقاع فينبغي أن يدفن في البقعة التي قبض فيها، فاتفقت الجماعة على قوله ودفن في حجرته.

ومن فقه الرضا عليه السلام وقال جعفر عليه السلام فلما أن فرغ من غسله وكفنه أتاه العباس فقال: يا علي إنّ الناس قد اجتمعوا على أن يدفن النبي صلى الله عليه وآله في بقيع المصلى وأن يؤمهم رجل منهم، فخرج علي عليه السلام إلى الناس فقال: يا أيها الناس أما تعلمون أن رسول الله إمامنا حياً وميتاً وهل تعلمون أنه صلى الله عليه وآله لعن من جعل القبور مصلى، ولعن من جعل مع الله إلٰهاً، ولعن من كسر رباعيته وشقّ لثته، قال: فقالوا: الأمر إليك فاصنع ما رأيت، قال: وإني أدفن رسول الله صلى الله عليه وآله في البقعة التي قبض فيها، الحديث[٣].

---

(١) مستدرك الوسائل ٢/٢٦٣ ح ١٩١٨، والأنوار البهية ٤٨.

(٢) بحار الأنوار ٢٢/٥٤١.

(٣) كفاية الأثر ١٢٥، وبحار الأنوار ٢/٥١٧.

ومن **(أعلام الورى)** عن أبي جعفر عليه السلام قال: وخاض المسلمون في موضع دفنه صلى الله عليه وآله فقال علي عليه السلام: إن الله لم يقبض نبياً في مكان إلا وارتضاه لرمسه فيه، وإني دافنه في حجرته التي قبض فيها، فرضى المسلمون بذلك.

فلما صلى المسلمون عليه أنفذ العباس إلى أبي عبيدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكة ويضرح، وأنفذ إلى زيد بن سهل أبي طلحة وكان يحفر لأهل المدينة ويلحد فاستدعاهما وقال: اللهم خرّ لنبيك، فوجد أبو طلحة فقيل له: احفر لرسول الله صلى الله عليه وآله فحفر له لحداً ودخل أمير المؤمنين علي عليه السلام والعباس والفضل وأسامة بن زيد ليتولوا دفن رسول الله صلى الله عليه وآله، فنادت الأنصار من وراء البيت: يا علي إنا نذكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يذهب ادخل منا رجلاً يكون لنا حظ به من مواراة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: ليدخل أوس بن خولى رجل من بني عوف بن الخزرج وكان بدرياً، فدخل البيت وقال له علي عليه السلام: إنزل القبر، فنزل، ووضع عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله على يديه ثم ولاّه حفرته، ثم قال له: اخرج فخرج، ونزل علي عليه السلام فكشف عن وجهه ووضع خده على الأرض موجهاً إلى القبلة على يمينه ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب[1].

ومن **(الديوان)** المنسوب إليه عليه السلام في رثائه صلوات الله وسلامه عليه وآله:

أمن بعد تكفين النبي ودفنه	بأثوابه آسى على هالك ثوى
رزئنا رسول الله فينا فلن نرى	بذاك عديلاً ما حيينا من الرّدى
وكان لنا كالحصن من دون أهله	له معقل حرز حريز من الرّدى
وكنا بمرآه نرى النور والهدى	صباحاً ومساء راح فينا أو اغتدى
لقد غشيتنا ظلمة بعيد موته	نهاراً فقد زادت على ظلمة الدّجى
فيا خير من ضمّ الجوانح والحشا	ويا خير ميت ضمّه الترب والثرى
كانت أمور الناس بعدك ضمّنت	سفينة موج حين في البحر قد سما
وضاق فضاء الأرض عنهم برجة	لفقد رسول الله إذ قيل قد مضى
فقد نزلت بالمسلمين مصيبة	كصدع الصفا لا شعب للصدع في الصفا
فلن يستقل الناس تلك مصيبة	ولم يجبر العظم الذي منهم وهى
وفي كل وقت للصلاة يهيجه	بلال ويدعو باسمه كلما دعا
ويطلب أقوام مواريث هالك	وفينا مواريث النبوة والهدى

(١) الإرشاد ١/ ١٨٨، والأنوار البهية ٤٨.

وقالت فاطمة عليها السلام في رثائه ﷺ أيضاً:

إذا اشتدّ شوقي زرت قبرك باكياً ... أنوح وأشكو لا أراك مجاوبي
فيا ساكن الصحراء علّمتني البكا ... وذكرك أنساني جميع المصائب
فإن كنت عني في التراب مغيّباً ... فما كنت عن قلب الحزين بغائب

ولها صلوات الله وسلامه عليها أيضاً:

إذا مات يوماً ميّت قلّ ذكره ... وذكر أبي قد مات والله أزيد
تذكرت لما فرّق الموت بيننا ... فعزّيت نفسي بالنبي محمد ﷺ
فقلت لها إن الممات سبيلنا ... ومن لم يمت في يومه مات في غد

ولها أيضاً ما اشتهر في الألسنة والأفواه:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبّت عليّ مصائب لو أنها ... صبّت على الأيام صرن لياليا

هذا، ولما مهد عليه السلام المقدمات المفيدة لمزيد اختصاصه برسول الله ﷺ وقربه منه في حال حياته وحين مماته حسبما عرفته تفصيلاً تحقيقاً فرّع على ذلك قوله:

(فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً) وهو استفهام على سبيل الإنكار والإبطال يقتضي أن ما بعده غير واقع وأن مدّعيه كاذب فيفيد كونه أولى به في حياته وأحق بالخلافة والوصاية بعد موته، وهو حق لا ريب فيه على رغم الناصب الجاحد والمبغض المعاند.

(فانفذوا) أي أسرعوا إلى قتال عدوكم مستقرين **(على بصائركم)** وعقائدكم الحقّة **(ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم)** أي انهضوا إلى عدوكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة سالمة من اعتراض الشك والرّيب والشبهة ولا يوسوسنكم الشيطان بكونهم من أهل القبلة والإسلام غير جائز قتلتهم وقتالهم، لأنكم أتباع الإمام الحق وهم تابعوا الإمام الباطل.

(فو) الله **(الذي لا إله إلا هو أني لعلى جادّة الحق وأنهم لعلى مزلّة الباطل)** كما يشهد به النبوي المعروف بين الفريقين: عليّ مع الحق والحق مع عليّ.

ولا يخفى حسن المقابلة بين جادة الحق وبين مزلّة الباطل كما لا يخفى لطف إضافة الجادة إلى الحق وإضافة المزلة إلى الباطل، لأن طريق الحق لما كان واضحاً جلياً ثابتاً بالبينة والبرهان يوصل سالكها إلى منزل الزلفى وجنات النعيم وطريق الباطل لما كان تمويهاً وتدليساً مخالفاً للواقع يزلّ فيه قدم سالكه ويزلق فيهوى إلى دركات الجحيم.

(أقول ما تسمعون) من قول حق وكلام صدق **(وأستغفر الله لي لكم)**.

تنبيهان

الأول: روى الشارح المعتزلي في شرح هذه الخطبة من قصة وفاة رسول الله ﷺ ما هو ظاهر بل نص في الطعن على المتخلفين المنتحلين للخلافة وعلى المتعصبين لهم السالكين لطريقتهم من العامة العمياء أحببت أن أذكر ملخص ما أورده مما يطعن به عليهم فأقول:

قال الشارح: قد روى من قصة وفاة رسول الله ﷺ أنه عرضت له الشكاة التي عرضت في أواخر من سنة إحدى عشرة للهجرة، فجهز جيش أسامة بن زيد بالمسير إلى البلقاء حيث أصيب زيد وجعفر من الروم.

وخرج ﷺ في تلك الليلة إلى البقيع وقال: «إني قد أُمرت بالاستغفار عليهم»، فقال ﷺ: «يا أهل القبور ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها»، ثم استغفر لأهل البقيع طويلاً[1].

ثم انصرف إلى بيته، فخطب الناس في غده وأعلمهم بموته ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خفيفة، ثم دخل بيت أم سلمة.

ثم انتقل إلى بيت عائشة يعلّله النساء والرجال، أما النساء فأزواجه وبنته، وأما الرجال فعلي عليه السلام والعباس والحسن والحسين وكانا غلامين يومئذ وكان الفضل بن العباس يدخل أحياناً إليهم.

ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مرضه.

فأول ذلك التنازع الواقع يوم قال: «أئتوني بدواة وقرطاس»، وتلى ذلك حديث التخلف عن جيش أسامة، ثم اشتد به المرض وكان عند خفّة مرضه يصلي بالناس بنفسه، فلما اشتد به المرض أمر أبا بكر أن يصلي بالناس.

وقد اختلف في صلاته بهم فالشيعة تزعم أنه لم يصلّ بهم إلا صلاة واحدة وهي الصلاة التي خرج رسول الله ﷺ فيها يتهادى بين علي والفضل فقام في المحراب مقامه وتأخر أبو بكر، والصحيح عندي وهو الأكثر الأشهر أنها لم تكن آخر الصلاة في حياته بالناس جماعة وأن أبا بكر صلّى بالناس بعد ذلك يومين.

ثم مات ﷺ فمن قائل يقول: توفى لليلتين بقيتا من شهر صفر وهو الذي تقوله الشيعة،

(١) الكافي ٢/ ٥٩٩ ح ٢، والوسائل ٦/ ١٧١ ح ٧٦٥٧.

والأكثرون أنه توفى في شهر ربيع الأول بعد مضي أيام منه، وقد اختلفت الرواية في موته فأنكر عمر ذلك وقال: إنه لم يمت وإنه غاب وأنه سيعود فثناه أبو بكر هذا القول وتلى عليه الآيات المتضمنة أنه سيموت، فرجع إلى قوله.

وصلّوا عليه أرسالاً لا يؤمهم أحد، وقيل: إن علياً عليه السلام أشار بذلك فقبلوه وأنا أعجب من ذلك لأن الصلاة عليه كانت بعد بيعة أبي بكر فما الذي منع من أن يتقدم أبو بكر فيصلي عليه إماماً؟.

وتنازعوا في تلحيده وتضريحه فأرسل العباس عمه إلى أبي عبيدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكة ويضرح على عادتهم رجلاً وأرسل إلى أبي طلحة الأنصاري وكان يلحد لأهل المدينة على عادتهم رجلاً وقال: اللهم اختر لنبيك، فجاء أبو طلحة فلحد له وأدخل في اللحد.

وتنازعوا فيمن ينزل معه القبر فمنع علي الناس أن ينزلوا معه وقال: لا ينزل قبره غيري وغير العباس، ثم أذن في نزول الفضل وأسامة بن زيد مولاهم ثم ضجّت الأنصار وسألت أن ينزل منها رجل في قبره فأنزلوا أوس بن خولى وكان بدرياً.

فأما الغسل فإن علياً تولاّه بيده وكان الفضل يصبّ عليه الماء، انتهى ما أهمّنا نقله من كلامه.

ووجوه الطعن في تلك القضية على ما صدر من أهل الخلافة غير خفيّة على الفطن العارف إلا أنا ننبه على بعضها لكونها أشد تشنيعاً وطعناً.

أولها: ما أشار إليه الشارح بقوله: فأول ذلك التنازع الواقع يوم قال: «أئتوني بدواة وقرطاس»، فقد روت العامة والخاصة أن النبي صلى الله عليه وآله أراد في مرضه أن يكتب لأُمّته كتاباً لئلا يضلوا بعده ولا يختلفوا، فطلب دواة وكتفاً أو نحو ذلك، فمنع عمر من إحضار ذلك وقال: إنه ليهجر، أو ما يؤدي هذا المعنى، وقد وصفه الله سبحانه: بأنه لا ينطق عن الهوى وأن كلامه ليس إلا وحياً يوحى، وكثر اختلافهم وارتفعت أصواتهم حتى تسأم وتزجر فقال بعضهم: احضروا ما طلب، وقال بعضهم: القول ما قاله عمر، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

روى في (**البحار**) من كتاب «**الطرائف**» للسيد علي بن طاووس رضي الله عنه أنه قال: من أعظم طرائف المسلمين أنهم شهدوا جميعاً أن نبيهم أراد عند وفاته أن يكتب لهم كتاباً لا

يضلون بعده أبداً، وأن عمر بن الخطاب كان سبب منعه من ذلك الكتاب وسبب ضلال من ضلّ من أمته وسبب اختلافهم وسفك الدماء بينهم وتلف الأموال واختلاف الشريعة وهلاك اثنين وسبعين فرقة من أصل فرق الإسلام وسبب خلود من يخلد في النار منهم، ومع هذا كله فإن أكثرهم أطاع عمر بن الخطاب الذي قد شهدوا عليه بهذه الأحوال في الخلافة وعظموه وكفّروا بعد ذلك من يطعن فيه وهم من جملة الطاعنين، وضلّلوا من يذمّه وهم من جملة الضالين، وتبرؤوا ممن يقبّح ذكره وهم من جملة المقبحين.

فمن روايتهم في ذلك ما ذكره الحميدي في (**الجمع بين الصحيحين**) في الحديث الرابع من المتفق عليه في صحته من مسند عبد الله بن عباس قال: لما احتضر النبي ﷺ وفي بيته رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي ﷺ: «هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً»، فقال عمر بن الخطاب: إن النبي قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبكم كتاب ربكم.

وفي رواية ابن عمر من غير كتاب الحميدي قال عمر: إن الرجل ليهجر.

وفي كتاب الحميدي قالوا: ما شأنه هجر.

وفي المجلد الثاني من (**صحيح مسلم**) فقال: إن رسول الله ﷺ يهجر.

قال الحميدي: فاختلف الحاضرون عند النبي ﷺ، فبعضهم يقول: القول ما قاله النبي ﷺ، فقرّبوا إليه كتاباً يكتب لكم، ومنهم من يقول: القول ما قاله عمر.

فلما أكثروا اللفظ «اللغط» والاختلاط قال النبي ﷺ: «قوموا عني فلا ينبغي عندي التنازع»، فكان ابن عباس يبكي حتى يبلّ دموعه الحصا ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس.

قال راوي الحديث، فقلت: يا ابن عباس وما يوم الخميس؟ فذكره عبد الله بن عباس يوم منع رسول الله من ذلك الكتاب، وكان يقول: الرّزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه[١].

وثانيها: حديث التخلف عن جيش أسامة، فإن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا من جيشه، وقد كرّر رسول الله ﷺ لما اشتد مرضه الأمر بتجهيز جيشه ولعن المتخلّف عنه فتأخروا عنه واشتغلوا بعقد البيعة في سقيفة بني ساعدة وخالفوا أمره، وشملهم اللعن وظهر أنهم لا يصلحون للخلافة.

---

(١) سعد السعود ٢٩٧، والطرائف ٤٣٣.

قال أصحابنا: ولو تنزّلنا عن هذا المقام وقلنا بما ادّعاه بعضهم من عدم كون أبي بكر من الجيش نقول: لا خلاف أن عمر منهم، وقد منعه أبو بكر من النفوذ معهم، وهذا كالأول في كونه معصية ومخالفة لرسول الله ﷺ.

أما أنهم كانوا من جيش أسامة، فقد رواه علم الهدى في (**الشافي**) بطرق كثيرة من العامة.

قال (ره): إن كون أبي بكر في جيش أسامة قد ذكره أصحاب السير والتواريخ.

قال: وقد روى البلاذري في (**تاريخه**) وهو معروف ثقة كثير الضبط وبريء من مماثلة الشيعة: إن أبا بكر وعمر كانا معاً في جيش أسامة وأورد روايات أخرى من أراد الاطلاع عليها فعليه بالمراجعة إلى الكتاب المذكور، وستطلع عليه مما نحكيه عن (**المفيد**) في الإرشاد في الطعن الآتي.

وأما تخلّفهم عن الجيش فلا ينازع فيه أحد.

وأما إن ذلك قادح في خلافتهم وموجب للطعن عليهم، فلاستحقاقهم بسبب التخلف للعن الصريح من الله ومن رسوله، والملعون لا يصلح للإمامة.

أما اللعن من الله فإنهم لما خالفوا أمر رسول الله ﷺ بعد تأكيده وتكريره آذوه فيدخلون في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وأما لعن رسول الله ﷺ فلما رواه الشهرستاني في كتاب (**الملل والنّحل**) عند ذكر الاختلافات الواقعة في مرض النبي ﷺ: الخلاف الثاني أنه قال: جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلّف عن جيش أسامة، فقال قوم: يجب علينا امتثال أمره وأسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: قد اشتدّ مرض النبي فلا تسع قلوبنا لمفارقته والحال هذه، فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره.

وثالثها: صلاة أبي بكر بالناس وعدم إقرار رسول الله ﷺ عليها دليل على عدم قابليته للإمامة في الصلاة، فكيف بإمامة الأمة؟

قال المفيد في كتاب (**الإرشاد**) في قصة وفات النبي ﷺ:

واستمر به المرض في بيت عائشة أياماً وثقل فجاء بلال عند صلاة الصبح ورسول الله ﷺ مغمور بالمرض فنادى: الصلاة رحمكم الله، فأُوذن رسول الله ﷺ بندائه فقال: «يصلي بالناس بعضهم فإني مشغول بنفسي» فقالت عائشة: مروا أبا بكر، وقالت حفصة:

مروا عمر، فقال رسول الله ﷺ حين سمع كلامهما ورأى حرص كل واحدة منهما على التنويه بأبيها وافتتانهما بذلك ورسول الله ﷺ حيّ: «أكففن فإنكن صويحبات يوسف».

ثم قام ﷺ مبادراً خوفاً من تقدم أحد الرجلين، وقد كان أمرهما بالخروج مع أسامة ولم يك عنده أنهما قد تخلّفا، فلما سمع من عائشة وحفصة ما سمع علم أنهما متأخران عن أمره، فبدر لكف الفتنة وإزالة الشبهة فقام عليه الصلاة والسلام وأنه لا يستقل على الأرض من الضعف، فأخذ بيده علي بن أبي طالب والفضل بن العباس فاعتمد عليهما ورجلاه تخطان الأرض من الضعف.

فلما خرج إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب، فأومأ إليه بيده أن تأخر عنه، فتأخر أبو بكر، وقام رسول الله ﷺ مقامه، فكبر وابتدأ الصلاة التي كان قد ابتدأها ولم يبن على ما مضى من أفعاله، فلما سلّم انصرف إلى منزله.

واستدعا أبا بكر وعمر وجماعة ممن حضر بالمسجد من المسلمين ثم قال: «ألم آمركم أن تنفذوا جيش أسامة؟» فقالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فلم تأخرتم عن أمري؟» قال أبو بكر: إني خرجت ثم رجعت لأجدد بك عهداً، وقال عمر: يا رسول الله إني لم أخرج لأنني لم أحب أن أسأل عنك الرّكب، فقال النبي ﷺ: «انفذوا جيش أسامة» يكررها ثلاث مرات.

ثم أُغمي عليه من التعب الذي لحقه والأسف الذي ملكه فمكث هنيهة مغمى عليه، وبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وولده ونساء المسلمين وجميع من حضر من المسلمين، فأفاق رسول الله ﷺ فنظر إليهم.

ثم قال: «أئتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً»، ثم أُغمي عليه فقام بعض من حضره يلتمس دواة وكتفاً فقال له عمر: ارجع فإنه يهجر، فرجع وندم من حضر على ما كان منهم من التضجيع في إحضار الدواة والكتف وتلاوموا بينهم وقالوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون لقد أشفقنا من خلاف رسول الله ﷺ.

فلما أفاق قال بعضهم: ألا نأتيك بدواة وكتف يا رسول الله؟ فقال: «أبعد الذي قلتم؟ لا، ولكني أوصيكم بأهل بيتي خيراً»، وأعرض بوجهه عن القوم فنهضوا، انتهى ما أهمّنا نقله من كلامه رضي الله عنه[١].

وقد ذكرناه بطوله لأنه قد ثبت أنه ثقة مقبول الكلام عند العامة والخاصة لا مغمز فيه لأحد ولا يطعن بالعصبية والهوى.

---

(١) بحار الأنوار ٢/ ٤٦٩.

ثم أقول: يا أولي الأبصار انظروا بنظر الإنصاف والاعتبار إلى سوء حركات هؤلاء الأوغاد الأشرار كيف آذوا رسول الله في تلك الحال وقد استولت عليه غمرات الأمراض والآلام وطوارق الأوجاع والأسقام، ولم يتركوه وحاله ليستريح في فراشه ويشغل نفسه، حتى ألجأوه إلى الخروج إلى المسجد ورجلاه يخطان الأرض وكابدوه الغصص بالتخلف عن الجيش ونسبوه إلى الهذيان عند طلب الكتف والدواة لعنهم الله وأبعدهم وعذّبهم عذاباً أليماً.

رابعاً: إنكار عمر لموته ﷺ وبلوغه في الجهل إلى حيث لم يعلم بأن كل نفس ذائقة الموت وأنه يجوز الموت عليه وأنه أسوة الأنبياء في ذلك، فقال: والله ما مات حتى يقطع أيدي الرجال وأرجلهم، فقال له أبو بكر: أما سمعت قول الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال: فلما سمعت ذلك أيقنت بوفاته وسقطت إلى الأرض وعلمت أنه قد مات، فمن بلغ من غاية الجهل إلى هذه المرتبة كيف يليق بالخلافة الكلية والرئاسة الإلهية؟!.

الثاني: لما كانت هذه الخطبة الشريفة التي نحن في شرحها مسوقة لذكر مناقبه وخصائصه الجميلة المخصوصة به المفيدة لكونه أحق وأولى بالخلافة والإمامة من غيره، أحببت أن أورد رواية متضمنة لجل كراماته وبيناته التي لم يشركه فيها أحد تأكيداً للغرض المسوق له الخطبة الشريفة وتكميلاً له، وهو:

ما رواه في **(البحار)** من الخصال عن القطان والسنان والدقاق والمكتب والوراق جميعاً عن ابن زكريا القطان عن ابن حبيب عن ابن بهلول عن سليمان بن حكيم عن ثور بن يزيد عن مكحول قال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: لقد علم المستحفظون من أصحاب النبي محمد ﷺ أنه ليس فيهم رجل له منقبة إلا وقد شركته فيها وفضلته، ولي سبعون منقبة لم يشركني فيها أحد منهم، قلت: يا أمير المؤمنين فأخبرني بهن، فقال عليه السلام:

إن **أول** منقبة لي: أني لم أشرك بالله طرفة عين ولم أعبد اللاّت والعزّى.

والثانية: أني لم أشرب الخمر قطّ.

والثالثة: أن رسول الله ﷺ استوهبني من أبي في صباي فكنت أكيله وشريبه ومونسه ومحدّثه.

والرابعة: إني أول الناس إيماناً وإسلاماً.

والخامسة: أن رسول الله ﷺ قال: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

والسادسة: أني كنت آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ ووليته في حفرته.

والسابعة: أن رسول الله ﷺ أنامني على فراشه حيث ذهب إلى الغار وسجّاني ببرده فلما جاء المشركون ظنوني محمداً فأيقظوني وقالوا: ما فعل صاحبك؟ فقلت: ذهب في حاجته، فقالوا: لو كان هرب لهرب هذا معه.

وأما **الثامنة**: فأن رسول الله ﷺ علّمني ألف باب من العلم يفتح كل باب ألف باب، ولم يعلّم ذلك أحداً غيري.

وأما **التاسعة**: فإن رسول الله ﷺ قال لي: «يا علي إذا حشر الله عزَّ وجل الأولين والآخرين نصب لي منبراً فوق منابر النبيين ونصب لك منبراً فوق منابر الوصيين فترتقي عليه».

وأما **العاشرة**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا أُعطي في القيامة شيئاً إلا سألت لك مثله».

وأما **الحادية عشرة**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنت أخي وأنا أخوك يدك في يدي حتى ندخل الجنة».

وأما **الثانية عشرة**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا علي مثلك في أمتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق».

وأما **الثالثة عشرة**: فإن رسول الله ﷺ عممني بعمامة نفسه بيده ودعى لي بدعوات النصر على أعداء الله فهزمتهم بإذن الله عزَّ وجل.

وأما **الرابعة عشرة**: فإن رسول الله ﷺ أمرني أن أمسح يدي على ضرع شاة قد يبس ضرعها فقلت: يا رسول الله بل امسح أنت، فقال: «يا علي، فعلك فعلي»، فمسحت عليها يدي فدرّ عليّ من لبنها فسقيت رسول الله ﷺ شربه، ثم أتت عجوز فشكت الظماء فسقيتها فقال رسول الله: «إني سألت الله عزَّ وجل أن يبارك في يدك ففعل».

وأما **الخامسة عشرة**: فإن رسول الله ﷺ أوصى إليّ وقال: يا علي لا يلي غسلي غيرك، ولا يواري عورتي غيرك، فإنه إن رأى عورتي غيرك تفقأت عيناه»، فقلت له: كيف لي بتقليبك يا رسول الله؟ فقال: «إنك ستعان»، فوالله ما أردت أن أقلّب عضواً من أعضائه إلا قُلب لي.

وأما **السادسة عشرة**: فإني أردت أن أجرّده عليه السلام فنوديت: يا أخ «وصى خ» محمد لا تجرّده فغسلته والقميص عليه، فلا والله الذي أكرمه بالنبوة وخصّه بالرسالة ما رأيت له عورة خصّني الله بذلك من بين أصحابه.

وأما **السابعة عشرة**: فإن الله عزَّ وجل زوجني فاطمة وقد كان خطبها أبو بكر وعمر، فزوجني الله من فوق سبع سماواته فقال رسول الله ﷺ: «هنيئاً لك يا علي فإن الله عزَّ وجل قد زوجك فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وهي بضعة مني» فقلت: يا رسول الله أولست منك؟ قال: «بلى يا علي أنت مني وأنا منك كيميني من شمالي لا أستغني عنك في الدنيا والآخرة».

وأما **الثامنة عشرة**: فإن رسول الله ﷺ قال: «يا علي أنت صاحب لواء الحمد في الآخرة وأنت يوم القيامة أقرب الخلائق مني مجلساً يبسط لي ويبسط لك فأكون في زمرة النبيين وتكون في زمرة الوصيين، ويوضع على رأسك تاج النور وإكليل الكرامة يحف بك سبعون ألف ملك حتى يفرغ الله عزَّ وجل من حساب الخلائق».

وأما **التاسعة عشرة**: فإن رسول الله ﷺ قال لي: «ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين فمن قاتلك منهم فإن لك بكل رجل منهم شفاعة في مائة ألف من شيعتك»، فقلت: يا رسول الله فمن الناكثون؟ قال: «طلحة والزبير سيبايعانك بالحجاز وينكثانك بالعراق، فإذا فعلا ذلك فحاربهما فإن في قتالهما طهارة لأهل الأرض»، قلت: فمن القاسطون؟ قال: «معاوية وأصحابه»، قلت: فمن المارقون؟ قال: «أصحاب ذو الثدية وهم يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرمية فاقتلهم فإن في قتلهم فرجاً لأهل الأرض وعذاباً مؤجلاً عليهم وذخراً لك عند الله عزَّ وجل يوم القيامة».

وأما **العشرون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثلك في أمتي مثل باب حطة في بني إسرائيل فمن دخل في ولايتك فقد دخل الباب كما أمره الله عزَّ وجل».

وأما **الحادية والعشرون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، ولن يدخل المدينة إلا من بابها»، ثم قال: «يا علي أنك سترعى ذمتي وتقاتل على سنّتي وتخالفك أمتي».

وأما **الثانية والعشرون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى خلق ابني الحسن والحسين من نور ألقاه إليك وإلى فاطمة، وهما يهتزان كما يهتزّ القرطان إذا كانا في الأذنين، ونورهما متضاعف على نور الشهداء سبعين ألف ضعف، يا علي إن الله عزَّ وجل قد وعدني أن يكرمهما كرامة لا يكرم بها أحداً ما خلا النبيين والمرسلين»[1].

وأما **الثالثة والعشرون**: فإن رسول الله ﷺ أعطاني خاتمه في حياته ودرعه ومنطقه

(١) بحار الأنوار ٣١/٤٢٦.

وقلّدني سيفه وأصحابه كلهم حضور وعمّي العباس حاضر، فخصّني الله عزّ وجل دونهم.

وأما **الرابعة والعشرون**: فإن الله عزّ وجل أنزل على رسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢] فكان لي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت إذا ناجيت رسول الله أصدق قبل ذلك بدرهم، ووالله ما فعل هذا أحد من أصحابه قبلي ولا بعدي، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المجادلة: ١٣] الآية، فهل تكون التوبة إلا من ذنب كان؟.

وأما **الخامسة والعشرون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجنة محرّمة على الأنبياء حتى أدخلها أنا وهي محرّمة على الأوصياء حتى تدخلها أنت، يا علي إن الله تبارك وتعالى بشّرني فيك ببشرى لم يبشّر بها نبياً قبلي، بشّرني بأنك سيد الأوصياء وأن ابنيك الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة يوم القيامة».

وأما **السادسة والعشرون**: فإن جعفراً أخي الطيار في الجنة مع الملائكة المزين بالجناحين من درّ وياقوت وزبرجد.

وأما **السابعة والعشرون**: فعمي حمزة سيد الشهداء.

وأما **الثامنة والعشرون**: فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى وعدني فيك وعداً لن يخلفه، جعلني نبياً وجعلك وصياً، وستلقى من أمتي من بعدي ما لقى موسى من فرعون فاصبر واحتسب حتى تلقاني، فأوالي من والاك وأعادي من عاداك».

وأما **التاسعة والعشرون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا علي أنت صاحب الحوض لا يملكه غيرك وسيأتيك قوم فيستسقونك فتقول: لا ولا مثل ذرّة، فينصرفون مسودّة وجوههم وسترد عليك شيعتي وشيعتك فتقول: روّوا رواء مرويين فيردون مبيضة وجوههم».

وأما **الثلاثون**: فإني سمعته ﷺ يقول: «يحشر أمتي يوم القيامة على خمس رايات: فأول راية ترد عليّ راية فرعون هذه الأمة وهو معاوية، والثانية: مع سامري هذه الأمة عمرو بن العاص، والثالثة: ما جاثليق هذه الأمة وهو أبو موسى الأشعري، والرابعة: مع أبي الأعور السلمي، وأما الخامسة: فمعك يا علي تحتها المؤمنون وأنت أمامهم، ثم يقول الله تبارك وتعالى للأربعة: ارجعوا ورائكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وهم شيعتي ومن والاني وقاتل معي الفئة الباغية والناكثة عن الصراط، وباب الرحمة هم شيعتي، فينادي هؤلاء: ألم نكن معكم؟ قالوا: بل ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي موليكم وبئس المصير، ثم ترد أمتي وشيعتي فيروون من

حوض محمد ﷺ وبيدي عصا عوسج أطرد بها أعدائي طرد غريبة الإبل».

وأما **الحادية والثلاثون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولا أن يقول فيك الغالون من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولاً لا تمر بملاء من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يستشفون».

وأما **الثانية والثلاثون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى نصرني بالرعب فسألته أن ينصرك بمثله فجعل لك من ذلك مثل الذي جعله لي».

وأما **الثالثة والثلاثون**: فإن رسول الله ﷺ التقم أذني وعلّمني ما كان وما يكون إلى يوم القيامة فساق الله عزَّ وجل ذلك إلى لسان نبيه[1].

وأما **الرابعة والثلاثون**: فإن النصارى ادّعوا أمراً فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] فكانت نفسي نفس رسول الله ﷺ، والنساء فاطمة والأبناء الحسن والحسين، ثم ندم القوم فسألوا الأعفاء فأعفاهم، والذي أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد لو باهلوا لمسخوا قردة وخنازير.

وأما **الخامسة والثلاثون**: فإن رسول الله ﷺ وجّهني يوم بدر فقال: «ائتني بكف حصيات مجموعة في مكان واحد». فأخذتها ثم شممتها فإذا هي طيبة تفوح منها رائحة المسك، فأتيته بها فرمى بها وجوه المشركين وتلك الحصيات أربع منها كن من الفردوس وحصاة من المشرق وحصاة من المغرب وحصاة من تحت العرش مع كل حماة مائة ألف ملك مدداً لنا، لم يكرم الله عزَّ وجل بهذه الفضيلة أحداً قبل ولا بعد».

وأما **السادسة والثلاثون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل لقاتلك إنه أشقى من ثمود ومن عاقر الناقة وإن عرش الرحمٰن ليهتزّ لقتلك فابشر يا علي فإنك في زمرة الصديقين والشهداء والصالحين».

وأما **السابعة والثلاثون**: فإن الله تبارك وتعالى قد خصني من بين أصحاب محمد ﷺ بعلم الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والخاص والعام، وذلك مما منّ الله به عليّ وعلى رسوله ﷺ، وقال لي الرسول: «يا علي إن الله عزَّ وجل أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأعلمك ولا أجفوك وحقّ عليّ أن أطيع ربي وحق عليك أن تعي».

وأما **الثامنة والثلاثون**: فإن رسول الله ﷺ بعثني بعثاً ودعا إليّ بدعوات وأطلعني على

---

(١) الخصال ٥٧٥، والشيعة في أحاديث الفريقين ١١١.

ما يجري بعده، فحزن لذلك بعض أصحابه ﷺ وقال: لو قدر محمد أن يجعل ابن عمه نبياً لجعله، فشرّفني الله بالاطلاع على ذلك على لسان نبيّه.

وأما **التاسعة والثلاثون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كذب من زعم أنه يحبني ويبغض علياً، لا يجتمع حبي وحبه إلا في قلب مؤمن، إن الله عزَّ وجل جعل أهل حبي وحبك يا علي في أول زمرة السابقين إلى الجنة، وجعل أهل بغضي وبغضك في أول الضالين من أمتي إلى النار»[1].

وأما **الأربعون**: فإن رسول الله ﷺ وجّهني في بعض الغزوات إلى ركيّ فإذا ليس فيه ماء، فرجعت إليه فأخبرته، فقال: «أفيه طين؟»، فقلت: نعم، فقال: «ائتني منه»، فأتيت منه بطين فتكلم فيه ثم قال: «إلقه في الركيّ»، فألقيته فإذا الماء قد نبع حتى امتلأ جوانب الركي، فجئت إليه فأخبرته فقال لي: «وفّقت يا علي وببركتك نبع الماء» فهذه المنقبة خاصة لي من دون أصحاب النبي.

وأما **الحادية والأربعون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبشر يا علي فإن جبرئيل عليه السلام أتاني فقال لي: يا محمد إن الله تبارك وتعالى نظر إلى أصحابك فوجد ابن عمك وختنك على ابنتك فاطمة خير أصحابك، فجعله وصيّك والمؤدى عنك».

وأما **الثانية والأربعون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبشر يا علي فإن منزلك في الجنة مواجه منزلي، وأنت معي في الرفيق الأعلى في أعلى عليين»، قلت: يا رسول الله وما أعلى عليّون؟ فقال: «قبّة من درّة بيضاء لها سبعون ألف مصراع مسكن لي ولك يا علي».

وأما **الثالثة والأربعون**: فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عزَّ وجل رسخ حبي في قلوب المؤمنين، وكذلك رسخ حبك يا علي في قلوب المؤمنين ورسخ بغضي وبغضك في قلوب المنافقين، فلا يحبك إلا مؤمن تقي، ولا يبغضك إلا منافق كافر».

وأما **الرابعة والأربعون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يبغضك من العرب إلا دعي، ولا من العجم إلا شقي، ولا من النساء إلا سلقلقية».

وأما **الخامسة والأربعون**: فإن رسول الله ﷺ دعاني وأنا رمد العين فتفل في عيني وقال: «اللهم اجعل حرّها في بردها وبردها في حرّها»، فوالله ما اشتكت عيني إلى هذه الساعة.

---

(١) بحار الأنوار ٣١/٤٣٩، والخصال ٥٧٦.

وأما السادسة والأربعون: فإن رسول الله ﷺ أمر أصحابه وعمومته بسدّ الأبواب وفتح بابي بأمر الله عزَّ وجل، فليس لأحد منقبة مثل منقبتي.

وأما السابعة والأربعون: فإن رسول الله ﷺ أمرني في وصيته بقضاء ديونه وعداته، فقلت: يا رسول الله قد علمت أنه ليس عندي مال، فقال: «سيعينك الله»، فما أردت أمراً من قضاء ديونه وعداته إلا يسّره الله لي حتى قضيت ديونه وعداته وأحصيت ذلك فبلغ ثمانين ألفاً وبقي بقية فأوصيت الحسن أن يقضيها(١).

وأما الثامنة والأربعون: فإن رسول الله ﷺ أتاني في منزلي ولم نكن طعمنا منذ ثلاثة أيام فقال: «يا علي هل عندك من شيء؟» فقلت: والذي أكرمك بالكرامة واصطفاك بالرسالة ما طعمت وزوجتي وإبناي منذ ثلاثة أيام. فقال النبي ﷺ: «يا فاطمة ادخلي البيت وانظري هل تجدين شيئاً؟»، فقالت: خرجت الساعة، فقلت: يا رسول الله أدخله أنا؟ فقال: «ادخل باسم الله»، فدخلت فإذا بطبق موضوع عليه رطب وجفنة من ثريد، فحملتها إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «يا علي رأيت الرسول الذي حمل هذا الطعام؟» فقلت: نعم، فقال: «صفه لي»، فقلت: من بين أحمر وأخضر وأصفر، فقال ﷺ: «تلك خطط جناح جبرئيل مكللة بالدر والياقوت»، فأكلنا من الثريد حتى شبعنا فما رأى إلا خدش أيدينا وأصابعنا، فخصّني الله عزَّ وجل بذلك من بين أصحابه(٢).

وأما التاسعة والأربعون: فإن الله تبارك وتعالى خصّ نبيه بالنبوة، وخصني النبي ﷺ بالوصية، فمن أحبني فهو سعيد يحشر في زمرة الأنبياء عليهم السلام.

وأما الخمسون: فإن رسول الله ﷺ بعث ببراءة مع أبي بكر، فلما مضى أتى جبرئيل فقال: يا محمد لا يؤدّى عنك إلا أنت أو رجل منك، فوجهني على ناقته الغضباء، فلحقته بذي الحليفة فأخذتها منه، فخصّني الله عزَّ وجل بذلك منه.

وأما الحادية والخمسون: فإن رسول الله ﷺ أقامني للناس كافة يوم غدير خم فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، فبعداً وسحقاً للقوم الظالمين».

وأما الثانية والخمسون: فإن رسول الله ﷺ قال: «يا علي ألا أعلمك كلمات علمنيهن جبرئيل؟» فقلت: بلى، قال: «قل: يا رازق المقلين ويا راحم المساكين ويا أسمع السامعين

(١) الخصال ٥٧٧، وبحار الأنوار ٣١/ ٤٤١.

(٢) في نسخة: الصحابة.

ويا أبصر الناظرين ويا أرحم الراحمين ارحمني وارزقني»(١).

وأما **الثالثة والخمسون**: فإن الله تبارك وتعالى لن يذهب بالدنيا حتى يقوم منا القائم يقتل ولا يقبل الجزية ويكسر الصليب والأصنام ويضع الحرب أوزارها، ويدعو إلى أخذ المال فيقسمه بالسوية ويعدل في الرعية.

وأما **الرابعة والخمسون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا علي سيلعنك بنو أميّة ويردّ عليهم ملك بكل لعنة ألف لعنة، فإذا قام القائم عليه السلام لعنهم أربعين سنة».

وأما **الخامسة والخمسون**: سمعت أن رسول الله ﷺ قال: «سيفتتن فيك طوائف من أمتي فتقول: إن رسول الله لم يخلف شيئاً فبما إذا أوصي علياً، أو ليس كتاب ربي أفضل الأشياء بعد الله عزَّ وجل، والذي بعثني بالحق لأن لم تجمعه باتقان لم يجمع أبداً»، فخصني الله عزَّ وجل بذلك من دون الصحابة.

وأما **السادسة والخمسون**: فإن الله تبارك وتعالى خصني بما خص به أولياءه وأهل طاعته، وجعلني وارث محمد ﷺ فمن ساءه ساءه، ومن سرّه سرّه، وأومى بيده نحو المدينة.

وأما **السابعة والخمسون**: فإن رسول الله ﷺ كان في بعض الغزوات ففقد الماء، فقال لي: «يا علي قم إلى هذه الصخرة وقل: أنا رسول رسول الله انفجري إلى ماء»، فوالله الذي أكرمه بالنبوة لقد أبلغتها الرسالة فاطلع منها مثل ثدي البقر فسال من كل ثدي منها ماء، فلما رأيت ذلك أسرعت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: «انطلق يا علي فخذ من الماء»، فجاء القوم حتى ملأوا أقربهم وأدواتهم وسقوا دوابهم وشربوا وتوضؤوا، فخصني الله عزَّ وجل بذلك من دون الصحابة.

وأما **الثامنة والخمسون**: فإن رسول الله ﷺ أمرني في بعض غزواته وقد نفد الماء وقال: «يا علي ائت بثور»، فأتيته به فوضع يده اليمنى ويدي معها في الثور، فقال: «انبع»، فنبع الماء من بين أصابعنا.

وأما **التاسعة والخمسون**: فإن رسول الله ﷺ وجهني إلى خيبر، فلما أتيته وجدت الباب مغلقاً فزعزعته شديداً فقلعته ورميت به أربعين خطوة فدخلت، فبرز إليّ مرحب فحمل إليّ وحملت عليه وسقيت الأرض دمه، وقد كان وجّه رجلين من أصحابه فرجعا منكسفين.

وأما **الستون**: فإني قتلت عمرو بن عبد ود وكان يعدّ بألف رجل.

---

(١) الخصال ٥٧٨، وبحار الأنوار ٣١/٤٤٢.

وأما **الحادية والستون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا علي مثلك في أمتي مثل قل هو الله أحد، فمن أحبك بقلبه فكأنما قرأ ثلث القرآن، ومن أحبك بقلبه وأعانك بلسانه فكأنما قرأ ثلثي القرآن، ومن أحبك بقلبه ولسانه ونصرك بيده فكأنما قرأ القرآن كله»[١].

وأما **الثانية والستون**: فإني كنت مع رسول الله ﷺ في جميع المواطن والحروب وكانت رايته معي.

وأما **الثالثة والستون**: فإني لم أفر من الزحف قط، ولم يبارزني أحد إلا سقيت الأرض من دمه.

وأما **الرابعة والستون**: فإن رسول الله ﷺ أتي بطير مشويّ من الجنة فدعى الله عزَّ وجل أن يدخل عليه أحب الخلق إليه، فوفقني الله تعالى للدخول عليه حتى أكلت معه من ذلك الطير.

وأما **الخامسة والستون**: فإني كنت أصلي في المسجد فجّاء سائل فسأل وأنا راكع فناولته خاتمي من أصبعي، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

وأما **السادسة والستون**: فإن الله تبارك وتعالى ردّ عليّ الشمس مرتين ولم يردها على أحد من أمة محمد ﷺ غيري.

وأما **السابعة والستون**: فإن رسول الله ﷺ أمر أن أدعى بإمرة المؤمنين في حياته وبعد موته، ولم يطلق ذلك لأحد غيري.

وأما **الثامنة والستون**: فإن رسول الله ﷺ قال: «يا علي إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش: أين سيد الأنبياء؟ فأقوم، ثم ينادى: أين سيد الأوصياء؟، فتقوم ويأتيني رضوان بمفاتيح الجنة ويأتيني مالك بمقاليد النار فيقولان: إن الله جل جلاله أمرنا أن ندفعها إليك ويأمرك أن تدفعها إلي عليّ بن أبي طالب، فتكون يا علي قسيم الجنة والنار»[٢].

وأما **التاسعة والسبعون**: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولاك ما عرفت المنافقون من المؤمنين».

وأما **السبعون**: فإن رسول الله ﷺ نام ونوّمني وزوجتي فاطمة وابنيّ الحسن والحسين، وألقى علينا عباءة قطوانية فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ

---

(١) الخصال ٥٧٩، وبحار الأنوار ٣١/ ٤٤٣.

(٢) تفسير نور الثقلين ٥/ ٧٠١.

أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال جبرئيل: أنا منكم يا محمد فكان سادسنا جبرئيل[١].

(١) الخصال ٥٨٠.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن امام مبین است در ذکر مزید اختصاص خود به حضرت رسول الله (صلی الله علیه و آله) و اولویت خود به خلافت، می فرماید:

و البته دانسته اند مطلعان به اسرار رسالت که مأمور به حفظ آن بودند از صحابه محمد (صلی الله علیه و آله)، این که به درستی من ردّ ننموده ام بر خدای تعالی و بر رسول او هر ساعتی فرمایش آنها را و به تحقیق مواسات نمودم من با آن بزرگوار به نفس خودم در مواردی که پس برمی گشتند در آنها شجاعان و تأخیر می نمودند در آن ها قدمها به جهت سطوت و شجاعتی که گرامی داشته بود خدای تعالی مرا به آن.

و به تحقیق که قبض شد روح پرفتوح حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه و آله) در حالتی که سر مبارك او بالای سینه من بود و به تحقیق که سیلان نمود نفس نفیس آن برگزیده پروردگار در دست من، پس کشیدم من آن را بر روی خودم.

و به تحقیق مباشر شدم غسل آن سید ابرار را (صلی الله علیه و آله) در حالتی که ملائکه معین من بودند، پس ناله نمود خانه و اطراف خانه، جماعتی هبوط می کردند و جماعتی عروج می نمودند و مفارقت نکرد قوه سامعه من از صوت ایشان، نماز می کردند بر آن تا این که دفن کردیم و پنهان نمودیم آن برگزیده ناس را در قبر خود، پس کیست که اولی باشد به او از من در حالت زندگی او و در حالت مردگی او؟ پس بشتابید بر بصیرتهای خودتان و باید که با صدق رفتار نمایید در جهاد دشمن خودتان.

پس قسم به پروردگاری که نیست معبود به حقی غیر از او، به درستی که من بر راه راست حقّم و به درستی که ایشان بر محلّ لغزش باطل اند، می گویم آن چیزی را که می شنوید و طلب مغفرت می کنم از پروردگار عزّوجلّ از برای خود و از برای شما.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائة والسابعة والتسعون من المختار في باب الخطب

وشرحها في فصول ثلاثة:

الفصل الأول

«يَعْلَمُ عَجِيجَ الوُحُوشِ في الفَلَواتِ، ومَعاصِيَ العِبادِ في الخَلَواتِ، وَاخْتِلافَ النِّينانِ في البِحارِ الغامراتِ، وتَلاطُمَ الماءِ بِالرِّياحِ العاصِفاتِ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً صَلَّى الله عَلَيْهِ وآلِهِ نَجِيبُ الله وسَفِيرُ وَحْيِهِ، ورَسُولُ رَحْمَتِه.

أمَّا بَعْدُ فَإنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإلَيْهِ يَكُونُ مَعادُكُمْ، وبِهِ نَجاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَإلَيْهِ مُنْتَهىٰ رَغْبَتِكُمْ، ونَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وإلَيْهِ مَرامِي مَفْزَعِكُمْ، فَإنَّ تَقْوَىٰ الله دَواءُ داءِ قُلوبِكُمْ، وبَصَرُ عَمىٰ أفْئِدَتِكُمْ، وشِفاءُ مَرَضِ أجْسادِكُمْ، وصَلاحُ فَسادِ صُدُورِكُمْ وطَهُورِ دَنَسِ أنْفُسِكُمْ، وجِلاءُ غِشاءِ أبْصارِكُمْ، وأمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وضِياءُ سَوادِ ظُلْمَتِكُمْ.

فَاجْعَلُوا طاعَةَ الله شِعاراً دُونَ دِثارِكُمْ، ودَخِيلاً دُونَ شِعارِكُمْ، ولَطِيفاً بَيْنَ أضْلاعِكُمْ، وأمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، ومَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ، وجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، ومَصابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، ونَفَساً لِكَرْبِ مَواطِنِكُمْ.

فَإنَّ طاعَةَ الله حِرْزٌ مِنْ مَتالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، ومَخاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وأُوارِ نِيرانٍ مُوقَدَةٍ، فَمَنْ أخَذَ بِالتَّقْوَىٰ غَرَبَتْ «عزبت خ» عَنْهُ الشَّدائِدُ بَعْدَ دُنُوِّها، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الأُمُورُ بَعْدَ مَرارَتِها، وانْفَرَجَتْ عَنْهُ الأمْواجُ بَعْدَ تَراكُمِها، وأسْهَلَتْ لَهُ الصِّعابُ بَعْدَ انْصِبابِها، وهَطَلَتْ عَلَيْهِ الكَرامَةُ بَعْدَ قُحُوطِها، وتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِها، وتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِها، ووَبَلَتْ عَلَيْهِ البَرَكَةُ بَعْدَ إرْذاذِها.

فَاتَّقُوا الله الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِه، ووَعَظَكُمْ بِرِسالَتِه، وامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِه، فَعَبِّدُوا أنْفُسَكُمْ لِعِبادَتِه، وَاخْرُجُوا إلَيْهِ مِنْ حَقِّ طاعَتِه[1].

---

(١) بحار الأنوار ٦٧/ ٢٨٤، ونهج البلاغة ٢/ ١٧٤.

اللغة

(**عجّ**) عجّاً من باب ضرب وعجيجاً أيضاً رفع صوته بالتلبية، ومنه الحديث أفضل الأعمال إلى الله العجّ والثجّ، فالعجّ رفع الصوت في التلبية، والثجّ إسالة الدماء من الذبح والنحر في الأضاحي.

و (**النّينان**) جمع نون وهو الحوت، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ونهر (**غامر**) أي كثير الماء يغمر من يدخله أي يغطيه ويستره، وغمره البحر من باب نصراي إذا علاه وغطاه و (**الطلبة**) بكسر اللام ما طلبته.

و (**غشاء**) أبصاركم في بعض النسخ بالغين المعجمة والمدّ وزان كساء وهو الغطاء، قال تعالى: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ٩] أي جعلنا على أبصارهم غشاوة وغطاء وفي بعضها بالعين المهملة (**والقصر**) سوء البصر بالليل والنهار مصدر عشي، يقال: عشى عشيَ من باب تعب ضعف بصره فهو أعشى والمرأة عشواء، و (**الجأش**) القلب.

و (**الشّعار**) الثوب الملاصق للبدن وهو الذي يلي شعر الجسد و (**الدثار**) ما فوق الشعار من الثياب و (**دخلة**) الرجل ودخله ودخيلته ودخيله نيّته ومذهبه وخلده و (**المنهل**) المشرب والشرب والموضع الذي فيه المشرب و (**الطلبة**) بكسر اللام كالطلب محرّكة إسم من طالبه بحقه مطالبة، وقال الشارح المعتزلي: الطلبة ما طلبته من شيء فيكون إسم عين.

و (**النفس**) محركة إسم وضع موضع المصدر الحقيقي من نفس تنفيساً ونفساً أي فرّج تفريجاً و (**الأوار**) بضم الهمزة وزان غراب حرّ النار والشمس والعطش واللهب و (**هطل**) السماء تهطل من باب ضرب أمطرت هطلاً وهو بالفتح تتابع المطر المتفرّق العظيم القطر والمطر الضعيف الدائم و (**نضب**) الماء نضوباً غار و (**وبلت**) السماء تبل أمطرت وابلاً وهو المطر الشديد الضخم القطر و (**ارذّت**) السماء بتشديد الذال المعجمة أمطرت رذاذاً، وهو بالفتح كسحاب المطر الضعيف أو الساكن الدائم الصغار القطر كالغبار.

الإعراب

(**الباء**) في قوله: بالرّياح سببية ونحوه منصوب بنزع الخافض، والفاء في قوله: (**فإنّ**)، تقوى الله للتعليل، وفي قوله: فاجعلوا فصيحة.

المعنى

إعلم أن الغرض الأصلي من هذا الفصل من الخطبة الشريفة هو النصح والموعظة والوصية بالتقوى والطاعة والترغيب عليهما بالتنبيه على عظم ما يترتب عليهما من الثمرات

والمنافع المرّغبة، وصدّر الفصل باقتضاء صناعة البلاغة ورعاية براعة الاستهلال بذكر إحاطة علمه بجزئيات الموجودات تنبيهاً به على أنه عزَّ وجل لا يخفى عليه طاعة المطيعين ومعصية المذنبين فقال عليه السلام:

(يعلم عجيج الوحوش في الفلوات) أي صياحها فيها بالتسبيح ورفع أصواتها إلى عزّ جنابه تبارك وتعالى بالتقديس وتضرّعها إليه سبحانه في إنجاح طلباتها وتنفس كرباتها وسؤالها منه لدفع شدائدها.

وفيه حثّ للمخاطبين على الطلب والسؤال والتضرّع والابتهال والإنابة إليه عزَّ وعلا وعلى كل حال، لأنهم أولى بذلك من الحيوانات العجم.

ويشهد بذلك الحديث الذي قدمناه: أفضل الأعمال إلى الله العجّ والثجّ.

وفي حديث آخر مروي في الوسائل من **(الكافي)** عن حريز رفعه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أحرم أتاه جبرئيل فقال له: مر أصحابك بالعجّ والثجّ، والعجّ رفع الصوت بالتلبية، والثجّ نحر البدن.

وفي **(الكافي)** في كتاب الدعاء بإسناده عن حنان بن سدير عن أبيه قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أيّ العبادة أفضل؟ قال: ما من شيء أفضل عند الله عزَّ وجل من أن يسأل ويطلب مما عنده، وما أحد أبغض إلى الله عزَّ وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده[١].

وفيه عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ادع ولا تقل قد فرغ من الأمر، فإن الدعاء هو العبادة إن الله عزَّ وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وفيه مسند عن ميسر بن عبد العزيز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: يا ميسر ادع ولا تقل إن الأمر قد فرغ منه، إن عند الله عزَّ وجل منزلة لا تنال إلا بمسألة، ولو أن عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فاسأل تعط، يا ميسر إنه ليس من باب يقرع إلا يوشك أن يفتح لصاحبه[٢].

(و) يعلم **(معاصي العباد في الخلوات)** بمقتضى عموم علمه بالسرّ والخفيّات وما تحت

---

(١) وسائل الشيعة الإسلامية ٤/ ١٠٩٢ ح ٢، وتفسير نور الثقلين ٤/ ٥٢٩ ح ٨٣.

(٢) الكافي ٢/ ٤٦٧، وشرح أصول الكافي ١٠/ ٢٢٩ ح ٣.

الثرى وفوق الأرضين والسماوات، وفيه تحذير للسامعين عن ارتكاب الخطيئات وحثّ لهم عن الإزعاج من السيئات وتخصيصها بها لكون الخلوة مظنّة الوقوع في المعصية بعدم وجود الرادع والحاجز.

(واختلاف النينان في البحار الغامرات) أي ترددها فيها وسبحها في البحر صعوداً وهبوطاً طولاً وعرضاً.

(وتلاطم الماء بالرياح العاصفات) أي اضطراب ماء البحار وتراكم أمواجها بالرياح الشديدة الهبوب، ثم عقّب بالشهادة بالرسالة فقال:

(وأشهد أن محمداً ﷺ نجيب الله) أي الكريم الحسيب، أفضل الناس حسباً ونسباً، شرّفه الله تعالى بهذا الوصف الشامخ واختاره به من خلقه.

(وسفير وحيه ورسول رحمته) كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي نعمة عليهم لأن ما بعث به سبب لصلاح معاشهم ومعادهم موجب للسعادة الدائمة، وكونه رحمة للكفار أمنهم به من الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال.

قال في **(مجمع البيان)**: قال ابن عباس: رحمة للبرّ والفاجر والمؤمن والكافر، فهو رحمة للمؤمن في الدنيا والآخرة، ورحمة للكافر بأن عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والمسخ.

قال: وروي أن النبي ﷺ قال لجبرئيل عليه السلام لما نزلت هذه الآية: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: نعم، إني كنت أخشى عاقبة الأمر فآمنت بك لما أثنى الله عليّ بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ٢٠]، وقيل: إن الوجه في أنه نعمة على الكافر أنه عرّضه للإيمان والثواب الدائم وهداه وإن لم يهتد، كمن قدم الطعام إلى جائع فلم يأكل فإنه منعم عليه وإن لم يقبل[١].

(أما بعد فإني أوصيكم) عباد الله (بـ)ـما لا أزال أوصيكم به أعني **(تقوى الله الذي ابتدأ خلقكم)** وفي الإتيان بهذه الجملة وما يتلوها من الجملات الوصفية تعظيم لشأنه عزَّ وجل وتأكيد للغرض المسوق له الكلام، لأن العلم باتصافه بهذه الصفات يوجب مزيد الملازمة بالتقوى والمواظبة على أوامره ونواهيه عزَّ وتعالى.

والمراد بهذه الجملة أن الله الذي حباكم خلعة الخلقة وأخرجكم من العدم وأفاض عليكم نعمة الوجود التي هي أصل جميع النعم صغيرها وكبيرها وجليلها وحقيرها أحرى بأن

---

(١) بحار الأنوار ١٦/٣٠٦.

يخشى منه ويتقى ولا يقابل نعمه العظام بالكفران وآلائه الجسام بالتمرد والطغيان.

(وإليه يكون معادكم) أي عودكم ورجوعكم يوم حشركم ونشركم، فإن الكل إليه راجعون، فيجازيهم بما كانوا يعملون، وأما الذين اتّقوا فأولئك هم الفائزون، وأما الذين ظلموا فلا ينفع معذرتهم ولا هم يستعتبون كما قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات: ٤١ ـ ٤٤].

(وبه نجاح طلبتكم وإليه منتهى رغبتكم) أي الظفر بمطالبكم وقضاء مقاصدكم ونيل حوائجكم، فإنه تعالى قاضي حوائج السائلين، ومنجح طلبات الراغبين، ومن كان هذا شأنه يجب أن يُطاع ويُعبد لا أن يُعصى لحكمه ويتمرّد.

(ونحوه قصد سبيلكم) لأنه منتهى سير السالكين، وغاية مراد المريدين، فلا بد من سلوك صراطه المستقيم، المؤدي إلى قربه وزلفاه، وهو صراط الملازمين لطاعته وتقواه وأما غيرهم فإنهم عن الصراط لناكبون، وعن لقائه محرومون.

(وإليه مرامي مفزعكم) يعني إذا دهمكم الخوف والفزع ترميكم الأفزاع نحوه، لأنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عنه إذا ناداه.

وفي الحديث: ليس وراء الله مرمى، قال الطريحي: أي مقصد ترمى إليه الآمال ويوجه نحوه الرجاء، تشبيهاً بالهدف التي ترمي إليها السهام، وإذا كان شأنه العزيز أنه إذا فاجأكم الفزع فإليه تضرعون، وإذا مسكم الضر فإليه تجأرون، فلا بد من أن يُطاع ولا يُعصى، ويُذكر ولا يُنسى.

ثم لما وصف الله عزَّ وعلا بأوصاف توجب منه الإتقاء أردفه بالتنبيه على منافع التقوى والثمرات المترتبة عليها في الدين والدنيا لمزيد الحثّ والترغيب إليها فقال:

(فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم) يعني أنها رافعة للأمراض القلبية والرزائل النفسانية الموبقة من البخل والحسد والنفاق والعداوة والبغضاء وغيرها، لأنها مضادة لها كما أن الدواء ضد الداء.

(وبصر عمى أفئدتكم) بيان ذلك أن حصول وصف العمى للأعمى لما كان موجباً لعجزه عن إدراكه للمحسوسات، وسبباً لضلاله عن الطريق، فكذلك حصول هذا الوصف للأفئدة الناشيء من اتباع الهوى والانهماك في الشهوات، موجب لقصورها عن إدراك

---

(١) الخصال ٢٤ ح ٩٠، وبحار الأنوار ٦٧/ ٥٣ ح ١٦.

المعقولات، وعن الاهتداء إلى الصراط المستقيم.

وكما أن بحسّ البصر يرتفع عمىٰ الأبصار الظاهرة ويحصل إدراك المحسوسات فكذلك بالتقوى يرتفع عمىٰ الأفئدة ويتمكن من إدراك المعقولات ويهتدي إلى الصراط المستقيم، لكونها مانعة من متابعة الهوى وانهماك الشهوات الموجبين لعماها، وهذا معنى كونها بصراً لعمىٰ أبصار الأفئدة.

روى في **(الصافي)** في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦] من التوحيد والخصال عن السجاد عليه السلام أن للعبد أربع أعين: عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح الله له العينين اللّتين في قلبه فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته، وإذا أراد الله به غير ذلك ترك القلب بما فيه[١].

وفيه من **(الكافي)** عن الصادق عليه السلام: إنما شيعتنا أصحاب الأربعة أعين: عينان في الرأس، وعينان في القلب، ألا وإن الخلائق كلهم كذلك إلا أن الله عزَّ وجل فتح أبصاركم وأعمىٰ أبصارهم[٢].

(وشفاء مرض أجسادكم) هذا وارد مورد الغالب، لأن عمدة سبب المرض هو الشبع والبطنة وأهل التقوى لكونه متصفاً بقلّة الأكل وقناعته بالحلال حسبما عرفت في الخطبة المائة والثانية والتسعين وشرحها يسلم جسده غالباً من الأمراض والأسقام.

ويرشد إلى ذلك ما رواه المحدّث الجزائري في **(زهر الربيع)** أن حكيماً نصرانياً دخل على الصادق عليه السلام فقال: أفي كتاب ربكم أم في سنّة نبيكم شيء من الطب؟ فقال: أما في كتاب ربنا فقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وأما في سنّة نبينا: «الإسراف في الأكل رأس كل داء، والحمية منه أصل كل دواء».

وفيه أيضاً عنه عليه السلام: أنه لو سئل أهل القبور عن السبب والعلّة في موتهم لقال أكثرهم: التخمة.

وفيه أيضاً قال: وروي أن المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء[٣].

---

(١) التفسير الصافي ٣/ ٣٨٣.

(٢) الكافي ٨/ ٢١٥، وبحار الأنوار ٦٥/ ٨٢.

(٣) الكافي ٦/ ٢٦٨ ح ٢، الخصال ٣٥١ ح ٢٧.

وقد تقدم في شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والتاسعة والخمسين فصل واف في فوائد الجوع وآفات الشبع فليراجع ثمة.

(وصلاح فساد صدوركم) لأن فساد الصدور وهو كونها ساقطة عن الاعتبار خالية عن المنفعة، وإنما ينشأ من طريان ما يفسدها من الغلّ والحقد والحسد ونحوها من الوساوس النفسانية عليها، وبالتقوى ترتفع هذه كلها ويحصل صلاحها، وبه يظهر أيضاً معنى قوله:

(وطهور دنس أنفسكم) لأن هذه الطوارىء أيضاً أوساخ موجبة لتدنس النفوس بها، والتقوى مطهرة لذلك الدنس والوسخ.

(وجلاء غشاء أبصاركم) يعني أن التقوى تجلو وتكشف غطاء أبصار البصائر وتستعد بذلك لإدراك المعقولات، كما أن الباصرة إذا ارتفع حجابها وانجلت غشاوتها تصلح لإدراك المبصرات.

(وأمن فزع جاشكم) إذ بها تحصل قوة القلب في الدنيا، وهي أمان من أفزاع يوم القيامة وأخاويفها كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٣٥]، وفي سورة النمل: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [٨٩]، وفي سورة الأنبياء: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [١٠٣].

(وضياء سواد ظلمتكم) الظاهر أن المراد بالظلمة هو ظلمة القلوب الحاصلة لها من اكتساب الآثام وانهماك الشهوات، فإن المعاصي توجب ظلمة القلب واسوداد الوجه، وبالتقوى والطاعة يحصل له نور وضياء واستعداد لقبول الإفاضات الإلهية، هذا.

ولا يخفى ما في هذه الفقرة وما تقدمت عليها من الفقرات السبع من حسن المطابقة ولطفها.

ولما أوصى بالتقوى ورغّب فيها بالتنبيه على ما يترتب عليها من الثمرات العظيمة أكد ذلك بالأمر بملازمة الطاعة المحصّلة لها وبالغ في المواظبة عليها فقال:

(فاجعلوا طاعة الله شعاراً دون دثاركم) أي بمنزلة الشعار الملاصق للبدن لا الدثار الذي فوق الشعار. وهو إشارة إلى المواظبة عليها باطناً لا ظاهراً فقط، وأكد استبطانها بقوله:

(ودخيلاً دون شعاركم) أي داخلاً في باطنكم تحت الشعار، وبقوله: **(ولطيفاً بين أضلاعكم)** وهو غاية المبالغة في إدخالها في الباطن، وأكّدَ دلالة عليه من سابقيه والغرض منه جعله مكنوناً في الخلد متمكناً في القلوب.

وقوله: (**وأميراً فوق أموركم**) أي يكون ورودكم وصدوركم في أموركم الدنيوية بأمره ونهيه كسائر الأمراء بالنسبة إلى الرعيّة.

(**ومنهلاً لحين ورودكم**) أي مشرباً تشربون من صفوها وعذبها حين الورود يوم القيامة كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٥ـ ٦].

(**وشفيعاً لدرك طلبتكم**) أي واسطة ووسيلة لإدراك مطالبكم الدنيوية والأخروية إذ بالتقوى والطاعة يحصل الاستعداد لدركها كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٢ـ ٣].

فقد دل قوله: يجعل له مخرجاً، على أنها حصن حصين وحرز حريز بها تحصل النجاة من الشدائد والوقاية من المكاره، وقوله: ويرزقه من حيث لا يحتسب على أنها كنز كاف بها يدرك المطالب ويفاز بالمآرب، وقوله: ومن يتوكل على الله فهو حسبه، على أنه تعالى كاف لمن توكل عليه واكتفاه، قادر على إنجاح ما يبتغيه ويتمناه.

(**وجنّة ليوم فزعكم**) أي وقاية يوم القيامة من النار وغضب الجبّار كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [مريم: ٧٢].

(**ومصابيح لبطون قبوركم**) فإن القبر بيت الظلمة، والعمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء المصباح الظلمة، على ما جاء في الخبر.

(**وسكناً لطول وحشتكم**) أي في القبور، فإنها بيت الغربة والوحدة والوحشة والأعمال الصالحة كما ورد في أخبار كثيرة تتصور في صور حسنة يستأنس بها صاحبها ويسكن إليها ويطيب بها نفسه ويرفع عنه وحشة القبر.

روى في (**الكافي**) بسنده عن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من موضع قبر إلا وهو ينطق كل يوم ثلاث مرات: أنا بيت التراب، أنا بيت البلاء، أنا بيت الدّود[1].

قال عليه السلام: فإذا دخله عبد مؤمن قال: مرحباً وأهلاً، أما والله لقد كنت أحبك وأنت تمشي على ظهري فكيف إذا دخلت بطني فسترى ذلك؟.

قال: فيفسح له مدّ البصر ويفتح له باب يرى مقعده من الجنة.

قال: ويخرج من ذلك رجل لم تر عيناه شيئاً قط أحسن منه، فيقول: يا عبد الله ما

(١) الكافي ٣/ ٢٤١ ح ٤٧٣١، وبحار الأنوار ٦/ ٢٦٦، ح ١١٤.

رأيت شيئاً قط أحسن منك، فيقول: أنا رأيك الحسن الذي كنت عليه وعملك الصالح الذي كنت تعمله، قال: ثم تؤخذ روحه فتوضع في الجنة حيث رأى منزله ثم يقال له: نم قرير العين، فلا تزال نفحة من الجنة تصيب جسده ويجد لذّتها وطيبها حتى يُبعث[١].

وفي (البحار) من المحاسن بإسناده عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال: إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستة صور فيهن صورة أحسنهن وجهاً وأبهاهنّ هيئة وأطيبهنّ ريحاً وأنظفهن صورة.

قال: فتقف صورة عن يمينه وأخرى عن يساره وأخرى بين يديه وأخرى خلفه وأخرى عند رجله، وتقف التي هي أحسنهن فوق «رأسه ظ» فإن أتى عن يمينه منعته التي عن يمينه، ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات السّت قال: فتقول أحسنهن صورة: ومن أنتم جزاكم الله خيراً؟ فتقول التي عن يساره: أنا الزكاة، وتقول التي بين يديه: أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحجّ والعمرة، وتقول التي عند رجليه: أنا برّ من وصلت من إخوانك، ثم يقلن: من أنت؟ فأنت أحسننا وجهاً وأطيبنا ريحاً وأبهانا هيئة؟!، فتقول: أنا الولاية لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين[٢].

(ونفساً لكرب مواطنكم) أي سعة وروحاً لكرب منازل الآخرة ومواقف القيامة **(فإن طاعة الله حرز من متالف مكتنفة)** أي عوذة من المهالك المحيطة **(ومخاوف متوقعة)** أي مخاوف الآخرة المنتظرة الوقوع **(وأُوار نيران موقدة)** أراد به حرّ نار الجحيم.

(فمن أخذ بالتقوى) وعمل صالحاً **(غربت)** أي بعدت وغابت **(عنه الشدائد بعد دنوّها)** أي شدائد الآخرة وأهاويلها، ويجوز أن يراد بها الأعم لأن المتقي بقناعته وخفّة مؤنته واعتزاله عن مخالطة أبناء الدنيا ومجالستهم سالم غالباً من المحن والشدائد وإيذاء أبناء النوع.

(واحلولت له الأمور بعد مرارتها) أي صارت الأمور الدنيوية والأخروية حلواً له، أما الدنيوية كضيق العيش والجوع والفقر والعرى وما ضاهاها فلما له من الرضا بالقضاء، وأما الأخروية كمشاقّ الطاعات والعبادات فلكونها أحلى وألذّ عنده من كل شيء وإن كان مرّاً في ذوقه في مبدأ السلوك، وذلك لما له من علم اليقين بأن هذه المشقة القليلة توجب راحة طويلة، وتلك المرارة اليسيرة تجلب لذّة دائمة.

---

(١) الكافي ٣/٢٤١ ح ٤٧٣١، وتفسير نور الثقلين ٣/٥٥٦ ح ١٢٩.

(٢) مجمع النورين ١٧٣.

(وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها) أي انكشفت عنه أمواج الفتن الدنيوية بعد تراكمها وكثرتها، وذلك لأن الآخذ بالتقوى لكونه بمعزل من الدنيا وأهلها، سالم من الفتن والمحن التي ابتلي بها أهلها.

(وأسهلت له الصعاب بعد انصبابها) أي صارت الأمور الصعبة والمشاق النفسانية سهلة له بعد إيقاعها إياه في النصب والتعب، وذلك لما عرفت آنفاً من أن المتقي لمعرفته بعظم ما يترتب على طاعته وتقواه من الثمرات الأخروية يسهل عليه كل خطب ويهون له الشدائد **(وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها)** شبه كرامة الله سبحانه الشاملة للمتقي بالمطر العظيم القطر المتتابع على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات الهطل تخييل والقحوط ترشيح. ونظيرها الفقرتان المتقدمتان فإنهما أيضاً من قبيل الاستعارة المكنية التخيلية الترشيحية.

والمراد أن أهل التقوى انصبت عليه وتتابعت في حقه كرامة الله العزيز عزَّ وجل بسبب اتصافه بالتقوى بعد احتباسها ومنعها عنه، وذلك قبل أن يستعد بالتقوى لها ويشهد بذلك أي بإفاضة كرامته على المتقي صريحاً نص قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

(وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها) أي تعطفت عليه الرحمة الإلٰهية بعد ما كانت نافرة عنه حين ما لم يكن متصفاً بالتقوى ومستعداً لها. وهذه الفقرة أيضاً مثل سوابقها حيث شبّه الرحمة بالناقة العاطفة على ولدها على سبيل الاستعارة بالكناية وأثبت التحدّب تخييلاً والنفور ترشيحاً.

(وتفجّرت عليه النعم بعد نضوبها) إما استعارة مكنية مثل ما مرت تشبيهاً للنعم بالينابيع الجارية المنفجرة، فيكون ذكر التفجّر والنضوب تخييلاً وترشيحاً، أي انفجرت عليه ينابيع النعم بعد اغورارها.

ويجوز أن يراد بالتفجر التتابع بعلاقة الملازمة فيكون مجازاً مرسلاً، والنعم قرينة التجوز أو أريد بالتفجر الإفاضة والجامع التتابع والدوام فيكون استعارة تبعية وعلى هذين الاحتمالين فيراد بالنضوب الفقدان مجازاً ولا يخفى على المتدبر أن هذين الاحتمالين يأتيان أيضاً في بعض القرائن المتقدمة كالقرينة المتأخرة، أعني قوله:

(ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها) فيجوز أن تكون الاستعارة بالكناية بأن يشبه البركة بالمطر الشديد العظيم القطر والوبل والإرذاذ تخييل وترشيح، وأن تكون استعارة تبعية بأن يستعار الوبل للفيض الكثير والجامع الكثرة، وأن يكون مجازاً مرسلاً ويراد بالوبل النزول، وعلى التقديرين فيراد بالإرذاذ القلّة والضعف مجازاً.

ثم بعد التنبيه على جملة من ثمرات التقوى والمنافع العظيمة المترتبة عليها عاد إلى الأمر بها تأكيداً وتقوية لما قدم فقال:

(فاتقوا الله الذي نفعكم بموعظته) وهي ما وعظكم بها في كتابه المبين ولسان نبيه الأمين وهداكم بها إلى الجنة وأنقذكم بها من النار وأي منفعة أعظم من هذه وأنفع.

(ووعظكم برسالته) التي بعث بها رسله ولم يبق عذر لعاذر بعد مواعظهم البليغة في ترك التقوى والطاعة.

(وامتن عليكم بنعمته) الغير المحصاة التي لا يجوز للعاقل أن يقابلها بالكفران ويكافئها بترك التقوى والطاعة والعصيان.

(فعبّدوا أنفسكم لعبادته) أي ذللوها لحمل أثقال العبادة.

(واخرجوا إليه من حقّ طاعته) أي من طاعته التي هو حق عليكم وثابت في ذمتكم، أو من طاعته التي حقيق به عزّ وجل أي اخرجوا إليه من كمال طاعته التي يليق بحضرته.

الترجمة

می داند خداوند تبارك و تعالى صداى وحشيان را در بيابانها و معصيتهاى بندگان را در مكان خلوت و تردّد ماهيان را در درياهاى گود و تلاطم آب درياها را با بادهاى تند وزنده و شهادت مى دهم به اين كه محمد مصطفى صلوات الله و سلامه عليه و آله بنده نجيب خدا است و ايلچى وحى او و پيغمبر رحمت است.

اما پس از ثناى خدا، پس به درستى كه من وصيت مى كنم شما را به تقوى و پرهيزكارى خداوندى كه ايجاد فرموده خلقت شما را و به سوى او است بازگشت شما و با عنايت او است رسيدن مطالب شما و به طرف او است قصد راه شما و به سوى او است نشانگاه فزع و خوف شما، پس به درستى كه تقوى دواى درد قلبهاى شما است و چشم كورى دلهاى شما و شفاى ناخوشى بدنهاى شما و صلاح فساد سينه هاى شما و پاكيزگى كثافت نفسهاى شما است و جلاى پرده هاى بصرهاى شما و خاطرجمعى خوف قلبهاى شما و روشنى سياهى تاريكى قلب شما است.

پس بگردانید طاعت و عبادت پروردگار را لباس باطنی خودتان، نه لباس ظاهری و داخل در باطن خود، نه شعار ظاهری و چیزی لطیف در میان دنده های خودتان و امیر حکمران بالای جمیع کارهای خودتان و محل آب خور از برای زمان ورود آن و واسطه از برای درك مطالب خودتان و سپر از برای روز فزع خود و چراغها از برای بطون قبرهای خود و مایه انس از برای طول وحشت خود و فرج و راحت از برای اندوه و محنت مواطن خودتان.

پس به درستی که طاعت خدا حرز است از مهلکه های محیطه و از محلهای خوفی که متوقع است و از حرارت آتشهای روشن شده، پس کسی که اخذ نمود تقوی را غایب شد از آن شدتها، بعد از نزدیکی آنها به او و شیرین شد از برای او کارها، بعد از تلخی آنها و منکشف شد از او موجها، بعد از تراکم و تلاطم آنها و آسان شد از برای او کارهای صعب، بعد از مشقت انداختن آنها و بارید به او باران های کرامت، بعد از قحطی آن و برگشت با مهربانی بر او رحمت خدا، بعد از رمیدن آن و منفجر شد بر او چشمه های نعمتها، بعد از نایابی آنها و بارید به او باران برکت باشدت، بعد از ضعف و قلّت آن.

پس پرهیز نمایید از خدا، چنان خداوندی که نفع بخشید به شما با موعظه بالغه خود و موعظه فرمود به شما با رسالت رسولان خود و منت گذاشت بر شما با نعمت فراوان خود، پس ذلیل نمایید نفسهای خودتان را با بار عبادت او و خارج شوید به سوی او از حق اطاعت او که لایق حضرت او است.

الفصل الثاني

«ثُمَّ إِنَّ هٰذَا الإِسْلامَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلىٰ عَيْنِه، وأَصْفاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقامَ دَعائِمَهُ عَلىٰ مَحبَّتِه، أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ المِلَلَ بِرَفْعِه، وَأَهانَ أَعْدائَهُ بِكَرامَتِه، وخَذَلَ مُحادّيهِ بِنَصْرِهِ، وهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلالَةِ بِرُكْنِهِ، وَسَقىٰ مَنْ عَطِشَ مِنْ حِياضِهِ، وَأَتَاقَ الحِياضَ بِمَواتِحِه.

ثُمَّ جَعَلَهُ لا انفِصامَ لعُرْوَتِهِ، وَلا فَكَّ لِحَلْقَتِه، وَلا انْهِدامَ لأَساسِهِ، وَلا زَوالَ لِدَعائِمِه، وَلا انْقِلاعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلا انْقِطاعَ لِمُدَّتِه، وَلا عَفاءَ لِشَرايِعِه، وَلا جَذَّ لِفُرُوعِه، وَلا ضَنْكَ لِطُرُقِه، وَلا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِه، وَلا سَوادَ لِوَضحِه، وَلا عِوَجَ لانْتِصابِهِ، وَلا عَصَلَ فِي عُودِه، وَلا وَعْثَ لِفَجِّه، وَلا انْطِفَاءَ لِمَصابِيحِه، وَلا مَرارَةَ لِحَلاوَتِه.

فَهُوَ دَعائِمُ أَساخَ في الحَقِّ أَسْناخَها، وَثَبَّتَ لَها أَساسَها، وَيَنابيعُ غَزُرَتْ عُيُونُها، وَمَصابيحُ شُبَّتْ نِيرانُهَا، وَمَنارٌ اقْتَدَى بِها سُفّارُها، وأَعْلامٌ قُصِدَ بِها فِجاجُها، وَمَناهِلُ رُوِيَ بِهَا وُرّادُها، جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهىٰ رِضْوانِهِ، وذِرْوَةَ دَعائِمِه، وَسَنامَ طاعَتِه.

فَهُوَ عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ، رَفِيعُ البُنْيَانِ، مُنِيرُ البُرْهانِ، مُضِيءُ النِّيرانِ، عَزِيزُ السُّلْطانِ، مُشْرِفُ المَنارِ، مُعْوِزُ المَثارِ، فَشَرِّفُوهُ، وأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مواضِعَهُ»[1].

اللغة

(**اصطنعه على عينه**) افتعال من الصنع، والصنع اتخاذ الخير لصاحبه كذا في (**مجمع البيان**)، وقيل: من الصنيعة وهي العطية والإحسان والكرامة يقال: اصطنعتك لنفسي اخترتك لأمر استكفيكه واصطنع خاتماً أمر أن يصنع له، قال تعالى في سورة (طه) مخاطباً لموسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾ [٤١-٤٢].

وقال الشارح المعتزلي: اصطنعه على عينه كلمة يقال لما يشتدّ الاهتمام به، تقول للصانع: إصنع لي خاتماً على عيني، أي اصنعه صنعة كالصنعة التي تصنعها وأنا حاضر أشاهدها.

وقال الزمخشري في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٧٥، وبحار الأنوار ٦٥/ ٣٤٤ ح ١٦.

لتربى ويُحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك كما يرعى الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي.

و **(الخيرة)** بفتح **(الياء)** وزان عنبة كالخيرة بسكونها إسم من اخترت الرجل أي فضلته على غيره و **(الدعائم)** جمع الدعامة بالكسر عماد البيت والخشب المنصوب للتعريش و **(حادّه)** محادّ عادّهُ وغاضبه وخالفه مأخوذ من الحدد وهو الغضب، قال تعالى: ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

و **(تئق)** الحوض من باب فرح امتلأ ماء وأتاق الحياض ملأها و **(المواتح)** جمع الماتح، وهو الذي يستقى بالدّلو من المتح وهو الاستقاء. يقال: متحت الدّلو أي استخرجتها و **(عروة)** الكوز مقبضه و **(الجذ)** **(بالذال)** المعجمة القطع أو القطع المستأصل، وفي بعض النسخ **(بالحاء)** المهملة وهو القطع، وفي بعضها **(بالجيم)** **(والدال)** المهملة وهو القطع أيضاً والفعل في الجميع كمدّ.

و **(وعث)** الطريق وعوثة من باب قرب وتعب إذا شقّ على السالك فهو وعث، وقيل: الوعث رمل دقيق تغيب فيه الأقدام فهو شاق، ثم استعير لكل أمر شاق من تعب وإثم وغير ذلك، ومنه وعثاء السفر أي شدّة النصب والتعب.

و **(الوضح)** محرّكة بياض الصبح والقمر ومحجة الطريق و **(العصل)** محركة الاعوجاج في صلابة، ومنه العصال بالكسر وهو السهم المعوّج و **(الفج)** الطريق الواسع بين الجبلين و **(ساخت)** قوائمه في الأرض أي غابت وساخت بهم الأرض أي خسفت ويعدى بالهمزة فيقال: أساخه الله و **(الينبوع)** العين ينبع منه الماء أي يخرج، وقيل: الجدول الكثير الماء وهو أنسب و **(غزر)** الماء بضمّ **(الزاء)** المعجمة غزارة كثيرة فهو غزير و **(شبت نيرانها)** بضم **(الشين)** بالبناء على المفعول أي أوقدت.

و **(ورّادها)** جمع وارد، قال الشارح المعتزلي: وروى روّادها جمع رائد وهو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم الماء والكلاء و **(ذروة)** الشيء بالكسر والضم أعلاه و **(سنام)** بالفتح وزان سحاب أيضاً أعلاه و **(عوز)** الشيء عوزاً من باب تعب عزّ فلم يوجد، وعزت الشيء أعوزه من باب قال: احتجت إليه فلم أجده، وأعوزني مثل أعجزني وزناً ومعنىً، وأعوز الرّجل إعوازاً أفتقر، وأعوزه الدّهر أفقره.

و **(ثار)** الغبار يثور ثوراً وثوراناً هاج، وثار به الناس أي وثبوا عليه، وفلان أثار الفتنة أي هيجها، والمثار مصدر أو إسم للمكان.

الإعراب

قوله: **(على عينه)** ظرف مستقر حال من فاعل اصطنع، وقوله: **(على محبة)** يحتمل أن يكون ظرف لغو متعلق بقوله: **(أقام)**، فالضمير راجع إلى الله، وأن يكون ظرفاً مستقراً حالاً من فاعل أقام أو من الضمير في دعائمه، فالضمير فيه على الأول أيضاً راجع إلى الله، وعلى الثاني فيعود إلى الإسلام، ويجوز جعل على بمعنى **(اللام)** للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] وعلى هذا أيضاً ظرف لغو والضمير يصحّ عوده إلى الله وإلى الإسلام فتدبّر، **(والباء)** في قوله: **(بعزّته)** للسببية، وقوله: **(ثم جعله لا انفصام لعروته)** المفعول الثاني لجعل محذوف وجملة **(لا انفصام لعروته)** صفة له.

المعنى

إعلم أنه عليه السلام لما أوصى في الفصل السابق بالتقوى والطاعة أردفه بهذا الفصل المتضمن لشرف الإسلام وفضائله لكونهما من شؤونه فقال:

(ثم إن هذا الإسلام دين الله) أي لا دين مرضيّ عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتّدرّع بالشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] أي من يطلب غيره ديناً يدين به لن يقبل منه بل يعاقب عليه وهو من الهالكين في الآخرة، وفيه دلالة على أن الدّين والإسلام واحد وهما عبارتان عن معبر واحد، وهو التسليم والانقياد بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله.

وهو **(الذي اصطفاه)** الله واختاره من بين سائر الأديان **(لنفسه)** أي لأن يكون طريقاً إلى معرفته وطاعته مؤدياً إلى جنته.

(واصطنعه على عينه) أي اتخذه صنعة واختاره حال كونه مراعياً حافظاً له، مراقباً عليه، مشاهداً إيّاه، ويجوز جعل العين مجازاً في العلم فيكون المعنى أنه اصطنعه وأسس قواعده على ما ينبغي وعلى علم منه به أي حال كونه عالماً بدقائقه ونكاته أو بشرفه وفضله.

ويحتمل أن يكون معنى: اصطنعه، أنه طلب صنعته، أي أنه أمر بصنعته والقيام به حال كونه بمرئى منه أي كالمصنوع المشاهد له، وذلك أن من صنع لغيره شيئاً وهو ينظر إليه صنعه كما يحب ولا يتهيّأ له خلافه، أو أنه أمر بأن يُصنع أي بصنعه وصنيعته أي بكرامته والإتيان به على وجه الكمال.

وعلى هذا الاحتمال فالصانع له أي المأمور بالصنعة والصنع والصنيعة المكلفون

المطلوب منهم الإسلام.

وهذا نظير ما قاله المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] على قراءة لتصنع بلفظ الأمر مبنياً للمفعول. إن المعنى ليصنعك غيرك أي لتربّى وتغذّى ويحسن إليك بمرئى مني أي يجري أمرك على ما أريد من الرفاهة.

(واصطفاه خيرة خلقه) أي آثر واختار للبعثة به خير خلقه محمداً صلى الله عليه وآله، أو جعل خيرة خلقه خالصاً لتبليغه دون غيره.

(وأقام دعائمه على محبته) أي أثبت أركان الإسلام فوق محبته تعالى، فإن من أحبه سبحانه أسلم له، أو أنه أقام دعائمه حال كونه تعالى محباً له أو حال كون الإسلام محبوباً له تعالى، أو لأجل حبه إياه، أو لأجل محبوبيته عنده على الاحتمالات المتقدمة في الإعراب.

ثم المراد بدعائمه إما مطلق أركانه التي يأتي تفصيلها منه عليه السلام في أوائل باب المختار من حكمه وهو الأنسب.

أو خصوص ما أشير إليه في الحديث المروي في **(البحار)** من أمالي الصدوق بسنده عن المفضل عن الصادق عليه السلام قال: بني الإسلام على خمس دعائم: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وولاية أمير المؤمنين والأئمة من ولده صلوات الله عليهم[١].

(أذلّ الأديان بعزّته) أراد بذلتها نسخها أو المراد ذلّة أهلها على حذف المضاف.

ويحتملهما قوله: **(ووضع الملل برفعه)** ويصدّق هاتين القرينتين صريحاً قوله تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

(وأهان أعداءه بكرامته) أي أهان أعداء الإسلام وهم اليهود والنصارى والمشركون وكل من عانده ولم يتديّن به من أهل الملل المتقدمة، وإهانتهم بالقتل والاستئصال وأخذ الجزية والذل والصغار.

(وخذل محادّيه بنصره) أي ترك نصرة المخالفين للإسلام المحادين له، وأخزاهم بنصرته للإسلام وأهله.

(وهدم أركان الضلالة بركنه) ركن الشيء جانبه الذي يستند إليه ويقوم به، فاستعار أركان الضلالة للعقائد المضلّة أو رؤساء أهل الضلالة أو الأصنام، وأراد بركنه أصوله وقواعده أو النبي أو كلمة التوحيد.

---

(١) الكافي ٢/١٨ ح ١، والأمالي ٣٤٠ ح ٤٠٤.

(وسقى من عطش من حياضه) المراد بمن عطش الجاهل بقواعد الإسلام، المبتغي له، وبالحياض النبي والأئمة سلام الله عليهم المملؤون بمياه العلوم الحقة، أو الأعم الشامل للعلماء الراشدين أيضاً ويسقيه هدايته له إلى الاستفادة وأخذ علوم الدين عنهم عليهم السلام.

(وأتاق الحياض بمواتحه) أي ملأ صدور أوليّ العلم عليهم السلام من زلال المعارف الحقة والعلوم الدينية بوساطة المبلّغين من الله تعالى من الملائكة وروح القدس والإلهامات الإلْهية. وإن أريد بالحياض الأعم الشامل للعلماء فيعمم المواتح للأئمة لأنهم يستفيدون من علومهم عليهم السلام ويستضيؤون بأنوارهم عليهم السلام وقيل هنا: معان أخرى، والأظهر ما قلناه.

(ثم جعله) وثيقاً **(لا انفصام لعروته)** كما قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال أمين الإسلام الطبرسي (قد): قد ظهر الإيمان من الكفر والحق من الباطل، فمن يكفر بما خالف أمر الله ويصدق بالله وبما جاءت به رسله فقد تمسك واعتصم بالعصمة الوثيقة وعقد لنفسه من الدّين عقداً وثيقاً لا يحله شبهة، لا انفصام لها أي لا انقطاع لها كما لا ينقطع من تمسك بالعروة وكذلك لا ينقطع أمر من تمسك بالإيمان، ومحصّله أن من اعتصم بعروة الإسلام فهي تؤديه إلى غاية مقصده من رضاء الحق ورضوانه ونزول غرفات جنانه لأنها وثيقة لا تنقطع ولا تنفصم.

(و) جعله محكماً **(لا فكّ لحلقته)** قال الشارح البحراني: كناية عن عدم انقهار أهله وجماعته.

(و) مشيداً **(لا انهدام لأساسه)** قال البحراني: إستعار لفظ الأساس للكتاب والسنّة الذين هما أساس الإسلام، ولفظ الانهدام لاضمحلالهما، انتهى. ولا بأس به، وقد يفسر في بعض الروايات بالولاية.

وهو ما رواه في **(البحار)** من أمالي الشيخ بإسناده عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: لما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله مناسكه من حجّة الوداع ركب راحلته وأنشأ يقول: «لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً»، فقام إليه أبو ذر الغفاري فقال: يا رسول الله وما الإسلام؟ فقال صلى الله عليه وآله: «الإسلام عريان ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وملاكه الورع، وكماله الدّين، وثمرته العمل، ولكل شيء أساس وأساس الإسلام حبنا أهل البيت»[1].

(١) بحار الأنوار ٢٧/ ٨٢ ح ٢٢، ومستدرك سفينة البحار ٥/ ١١٣.

(و) ثابتاً **(لا زوال لدعائمه)** قال البحراني: إستعار لفظ الدعائم لعلمائه أو للكتاب والسنّة وقوانينهما، وأراد بعدم زوالها عدم انقراض العلماء أو عدم القوانين الشرعية، انتهى.

والأولى أن يراد بالدعائم ما يأتي تفصيلها منه عليه السلام في أوائل باب المختار من حكمه عليه السلام وهو ثالث أبواب النهج.

(و) راسخاً **(لا انقلاع لشجرته)** الظاهر أنه من قبيل إضافة المشبّه به على المشبه كما في لجين الماء، والمراد أن الإسلام كشجرة ثابتة أصلها ثابت وفرعها في السماء كما أُشير إليه في قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، الآية.

قال الطبرسي: قال ابن عباس: هي كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله كشجرة زاكية نامية راسخة أصولها في الأرض عالية أغصانها، وثمارها في السماء، وأراد به المبالغة في الرّفعة والأصل سافل والفرع عال إلا أنه يتوصل من الأصل إلى الفرع.

قال: وقيل: إنه سبحانه شبّه الإيمان بالنخلة لثبات الإيمان في قلب المؤمن كثبات النخلة في منبتها، وشبّه ارتفاع عمله إلى السماء بارتفاع فروع النخلة، وشبّه ما يكسبه المؤمنون من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت وحين بما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها من الرطب والتمر.

وفي **(البحار)** من علل الشرائع بإسناده عن معمر بن قتادة عن أنس بن مالك في حديث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال حبيبي جبرئيل عليه السلام: إن مثل هذا الدّين كمثل شجرة ثابتة الإيمان أصلها، والصلاة عروقها، والزكاة ماؤها، والصوم سعفها، وحسن الخلق ورقها، والكفّ عن المحارم ثمرها، فلا تكمل شجرة إلا بالثمر كذلك الإيمان لا يكمل إلاّ بالكف عن المحارم»[١].

(و) متمادياً **(لا انقطاع لمدّته)** لاستمراره وبقائه إلى يوم القيامة.

(و) جديداً **(لا عفاء لشرائعه)** أي لا اندراس لما شرع الله منه لعباده ولا انمحاء لطرقه وشعبه التي يذهب بسالكها إلى حظائر القدس ومحافل الأنس.

(و) زاكياً **(لا جذّ لفروعه)** أي لا ينقطع ما يتفرع عليه من الأحكام التي يستنبطها المجتهدون بأفكارهم السليمة من الكتاب والسنة، ويحتمل أن يراد بها ما يتفرّع عليه من الثمرات والمنافع الدنيوية والأخروية.

---

(١) وسائل الشيعة: ١/ ١٤ ح ٣، وعلل الشرائع: ١/٢٤٩ ح ٥.

(و) وسيعاً **(لا ضنك لطرقه)** أي لا ضيق لمسالكه بحيث يشقّ على السالكين سلوكه، والمراد أنها ملة سمحة سهلة ليس فيها ثقل على المكلّفين كما كان في الملل السابقة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال أمين الإسلام الطبرسي: معناه يبيح لهم المستلذات الحسنة ويحرّم عليهم القبائح وما تعافه الأنفس، وقيل: يحلّ لهم ما اكتسبوه من وجه طيّب ويحرّم عليهم ما اكتسبوه من وجه خبيث، وقيل: يحل لهم ما حرّمه عليهم رهبانيهم وأحبارهم وما كان يحرّمه أهل الجاهلية من البحائر والسوائب وغيرها، ويحرّم عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذكر معها[1].

(ويضع عنهم إصرهم) أي ثقلهم شبه ما كان على بني إسرائيل من التكليف الشديد بالثقل، وذلك إن الله سبحانه جعل توبتهم أن يقتل بعضهم وجعل توبة هذه الأمة الندم بالقلب حرمة للنبي ﷺ.

والأغلال التي كانت عليهم قيل: يريد بالأغلال ما امتحنوا به من قتل نفوسهم في التوبة وقرض ما يصيبه البول من أجسادهم وما أشبه ذلك من تحريم السبت وتحريم العروق والشحوم وقطع الأعضاء الخاطئة ووجوب القصاص دون الدية، انتهى.

وقيل: الإصر الثقل الذي يأصر حامله أي يحبسه في مكانه لفرط ثقله.

وقال الزمخشري: هو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، وكذلك الأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وفرض موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم وتحريم السبت.

وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى الأعناق، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة.

(و) سهلاً **(لا وعوثة لسهولته)** يعني أنه على حد الاعتدال من السهولة، وليس سهلاً مفرطاً كالوعث من الطريق يتعسر سلوكه ويشق المشي فيه لرسوب الأقدام.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٢/١٢٦، وتفسير مجمع البيان: ٤/ ٣٧٤.

(و) واضحاً **(لا سواد لوضحه)** يعني أن بياضه لا يشوبه الظلام كما قال النبي ﷺ: «بعثت إليكم بالحنيفية السمحة السهلة البيضاء»، وبياضه كناية عن صفائه عن كدر الباطل.

(و) مستقيماً **(لا عوج لانتصابه)** أي لا اعوجاج لقيامه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، والمراد أنه صراط مستقيم مؤدّ لسالكه إلى الجنة، رضوان الله تعالى ليس فيه عوج ولا أمت.

(و) مستوياً **(لا عصل في عوده)** وهو أيضاً كناية عن استقامته وأدائه إلى الحق.

(و) يسيراً **(لا وعث لفجّه)** أراد بالفج مطلق الطريق مجازاً من إطلاق المقيد على المطلق، ويمكن إرادة المعنى الحقيقي ويكون النظر في التشبيه إلى أنه الجادة الوسطى بين طرفي الإفراط والتفريط، كما أن الفجّ هو الطريق الواسع بين الجبلين.

(و) مضيئاً **(لا انطفاء لمصابيحه)** الظاهر أن المراد بمصابيحه أئمة الدين وأعلام اليقين الذين هم مصابيح الدجى ومنار الهدى، وأراد بعدم انطفائها عدم خلوّ الأرض منهم عليهم السلام.

(و) حلواً **(لا مرارة لحلاوته)** لأنه أحلى وألذّ في أذواق المتدينين من كل حلو، ولذيذ لا يشوبه مرارة مشقّة التكليف.

كما قال الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] لذّة ما في النداء أزال تعب العبادة والعناء.

(فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها) يعني أن الإسلام دعائم العبودية فلا ينافي حملها عليه هنا لما تقدم سابقاً من إضافتها إليه في قوله: أقام دعائمه على محبّته، وقوله: ولا زوال لدعائمه، نظراً إلى أن ظهور الإضافة في التغاير.

وجه عدم المنافاة أن الغرض فيما سبق تشبيه الإسلام والدين بالبيت فأثبت له الدعائم على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية، فهو لا ينافي كون الإسلام نفسه أيضاً دعائم لكن للعبودية.

ويمكن دفع المنافاة بوجه آخر وهو أنّا قد بيّنا فيما سبق أن المراد بدعائم الإسلام إما الدعائم التي يأتي تفصيلها منه عليه السلام في باب المختار من حكمه أو خصوص العبادات الخمس، أعني الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والولاية، حسبما أُشير إليه في الحديث الذي رويناه في **(البحار)** وفي أحاديث كثيرة غيره تركنا ذكرها، وعلى أي تقدير فلما كان قوام الإسلام بتلك الدعائم وثباته عليها حتى أنه بدونها لا ينتفع بشيء من أجزائه فجعله نفس تلك الدعائم مبالغة من باب زيد عدل.

ويوضح ذلك ما في **(البحار)** من **(الكافي)** عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث

قال: إن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة عمود دينكم»[(١)].

وفي (الكافي) أيضاً بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود نفعت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طناب ولا وتد ولا غشاء»[(٢)].

وأما قوله: **(أساخ في الحق أسناخها)** فمعناه: أنه تعالى أثبت أصولها في الحق يعني أنه بناء محكم بني على الحق وثبت قوائمه عليه دون الباطل، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] أي ذلك الدين المستقيم الحقّ.

(وثبّت لها أساسها) أي أحكم لهذه الدعائم أبنيتها.

(وينابيع غزرت عيونها) يعني جداول وأنهار كثيرة ماء عيونها التي تجريان منها، والظاهر أنه من التشبيه البليغ، والمراد أن الإسلام بما تضمنه من الأحكام الكثيرة الإسلامية بمنزلة ينابيع وصفها ما ذكر، ووجه الشبه أن الينابيع منبع مادة حياة الأبدان والأحكام الإسلامية منشأ مادة حياة الأرواح، إذ بامتثالها يحصل القرب من الله المحصّل لحياة الأبد.

وفي وصف المشبه به بغزارة العيون إشارة إلى ملاحظة ذلك الوصف في جانب المشبّه أيضاً لأن الأحكام الإسلامية صادرة عن صدر النبوة وصدر الأئمة التي هي معادن العلوم الإلهية وعيونها، وكفى بها كثرة وغزارة.

(ومصابيح شبّت نيرانها) وهو أيضاً من التشبيه البليغ، يعني أن الإسلام بما فيه من الطاعات والعبادات التي من وظائفه مثل المصابيح الموقدة النيران المشتعلة التي هي في غاية الإضاءة، ووجه الشبه أن المصابيح التي وصفها ذلك كما أنها ترفع الظلام المحسوس، فكذلك الطاعات الموظفة في دين الإسلام إذا أقيست عليها تنوّر القلوب وتجلو ظلمتها المعقولة.

(ومنار اقتدى بها سفّارها) يعني أنه بما فيه من الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة التي يستدل بها العلماء في المقاصد، مثل منائر يهتدي بها المسافرون في الفلوات، وإضافة سفار إلى ضمير المنار من التوسع.

ومثله قوله: **(وأعلام قصد بها فجاجها)** أي مثل أعلام قصد بنصب تلك الأعلام إهداء

---

(١) الكافي ٢/١٩، ووسائل الشيعة ١/٧.

(٢) المحاسن ١/٤٥، والكافي ٣/٢٦٦ ح ٩.

المسافرين في تلك الفجاج.

(ومناهل روى بها ورّادها) يعني أنه بما فيه من العلوم الإسلامية النقلية والعقلية بمنزلة مشارب تروي بمائها العطاش الواردون إليها.

(جعل الله فيه منتهى رضوانه) أي غاية رضاه لكونه أتمّ الوسائل وأكملها في الإيصال إلى قربه وزلفاه كما أُشير إليه في قوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

(وذروة دعائمه) الظاهر أن المراد بالدعائم العبادات التي بنيت عليها بيت العبودية، ولما كان دين الإسلام أشرف الأديان وأفضلها تكون العبادات الموظفة فيه أفضل العبادات وأعلاها، وإضافة الدعائم إلى الله من باب التشريف والتكريم باعتبار أنها مجعولات له سبحانه أو من أجل كونها مطلوبة له تعالى.

وبه يظهر أيضاً معنى قوله: **(وسنام طاعته)** ويستفاد من بعض الأخبار أن ذروة الإسلام وسنامه هو خصوص الجهاد.

وهو ما رواه في **(البحار)** من **(الكافي)** بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبي جعفر عليه السلام قال: ألا أخبرك بأصل الإسلام وفرعه وذروة سنامه؟ قلت: بلى جعلت فداك، قال: أما أصله فالصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنامه الجهاد[1].

قال المحدث العلامة المجلسي: الإضافة في ذروة سنامه بيانية أو لامية إذ للسنام الذي هو ذروة البعير ذروة أيضاً هو أرفع أجزائه، وإنما صارت الصلاة أصل الإسلام لأنه بدونها لا يثبت على ساق، والزكاة فرعه لأنه بدونها لا تتم، والجهاد ذروة سنامه لأنه سبب لعلوّه وارتفاعه، وقيل: لأنه فوق كل برّ كما ورد في الخبر.

وكيف كان **(فهو عند الله وثيق الأركان)** لابتنائه على أدلة محكمة وأصول متقنة.

(رفيع البنيان) كناية عن علوّ شأنه ورفعة قدره على سائر الأديان.

(منير البرهان) أي الدليل الدال على حقيقته من الآيات والمعجزات الباهرة منير واضح.

(مضيء النيران) كناية عن كون أنواره، أي العلوم والحكم الثاقبة التي فيه في غاية الضياء بحيث لا تُخفى على الناظر المتدبر.

---

(١) الكافي ٢/ ٢٤، ودعائم الإسلام ١/ ٣٤٢.

(عزيز السلطان) يريد أن حجته قوية أو أن سلطنته غالبة على سائر الأديان كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

(مشرف المنار) أي مرتفع المنارة، قال الشارح البحراني: وكنى به عن علوّ قدر علمائه وأئمته وانتشار فضلهم والهداية بهم.

(معوز المثار) قيل: أي يعجز الناس إزعاجه وإثارته لقوّته وثباته ومتانته. وقال البحراني: أي يعجز الخلق إثارة دفائنه واستخراج ما فيه من كنوز الحكمة ولا يمكنهم استقصاؤها، وفي بعض النسخ: معوز المثال أي يعجز الخلق عن الإتيان بمثله، وفي بعضها معوز المنال أي يعجزون عن النيل والوصول إلى نكاته ودقائقه وأسراره.

(فشرّفوه) أي عظموه وعدوه شريفاً واعتقدوه كذلك **(واتبعوه وأدوا إليه حقه)** أي ما يحقه من الاتباع الكامل **(وضعوه مواضعه)** أراد به الكفّ عن تغيير أحكامه والعلم بمرتبته ومقداره الذي جعله الله له، أو العمل بجميع ما تضمنه من الأوامر والنواهي، وفقنا الله لذلك بجاه محمد وآله سلام الله عليه وعليهم.

الترجمة

فصل ثانی از این خطبه شریفه در وصف اسلام است و ذکر فضایل آن، می فرماید:

پس به درستی این اسلام دین خدا است که پسند فرموده آن را از برای خودش و برگزیده آن را در حالتی که عالم است به فضیلت آن و خالص گردانیده به او بهترین خلق خود را که پیغمبر آخرالزمان (ﷺ) باشد و برپا داشته ستونهای آن را بر بالای محبت خود، ذلیل نموده دین ها را به سبب عزیزی آن و پست فرموده ملتها را به جهت بلندی آن و خوار نموده دشمنهای خود را به جهت گرامی داشتن آن و ذلیل کرده معاندین خود را با یاری کردن آن و خراب کرده ارکان ضلالت و گمراهی را با رکن آن و سیراب فرموده تشنگان را از حوض های آن و پر کرده حوضها را با آب کشندگان آن.

پس گردانیده آن را که گسیخته نمی شود جای دستگیر آن و فك نمی شود حلقه

آن و خرابی نیست اساس آن را و زوال نیست ستونهای آن را و برکندگی نیست درخت آن را و انقطاع نیست مدت او را و اندراس نیست شریعتهای او را و بریدگی نیست شاخهای او را و تنگی نیست راههای آن را و دشواری نیست از برای سهولت آن و سیاهی نیست از برای سفیدی آن و کجی نیست از برای استقامت آن و اعوجاج نیست از برای چوب آن و صعوبت نیست از برای راههای آن و خاموشی نیست چراغهای آن را و تلخی نیست شیرینی آن را.

پس آن اسلام، ستونهایی است که ثابت و محکم کرده خدا در حق، اصلهای آنها را و به غایت مستحکم نموده از برای آنها بنیان های آنها را و نهرهای پرآبی است که زیاده است آبهای چشمه های آنها و چراغهایی است که افروخته شده آتشهای آنها و مناره هایی است که هدایت یافته با آنها مسافران آنها و علم هایی است که قصد کرده شده با آنها راه روندگان گدوکهای آنها و سرچشمه هایی است که سیراب شده با آنها واردین به آنها، گردانیده است خداوند تبارك و تعالی در او غایت رضای خود را و بلندتر ستونهای خود را و کوهان طاعت خود را.

پس او است در نزد خدا که محکم است رکنهای آن و بلند است بنایی آن، نورانی است دلیل آن، روشن است آتشهای آن، عزیز است سلطنت آن، بلند است مناره آن، نایاب است معارضه گری آن، پس مشرّف و گرامی دارید او را و تبعیت نمایید به آن و ادا کنید به او حق او را و بگذارید او را جایی که لایق او است.

الفصل الثالث والرابع
في بعثة النبي ﷺ ونبذ من فضائل القرآن

«ثُمَّ إِنَّ الله بعَثَ مُحَمَّداً ﷺ حِينَ دَنا مِنَ الدُّنْيَا الانقِطاعُ، وأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلاعُ، وأَظْلَمَتْ بَهْجَتُها بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وقَامَتْ بِأَهْلِها عَلىٰ ساقٍ، وَخَشُنَ مِنْها مِهادٌ، وَأَزِفَ مِنها قِيادٌ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِها، وَاقْتِرابٍ مِن أَشْراطِها، وتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِها، وانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِها، وَانْتِشارٍ مِنْ سَبَبِها، وعَفَاءٍ مِنْ أَعْلامِها، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِها، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهاَ.

جَعَلَهُ الله سُبْحانَهُ بَلاغاً لِرِسالَتِه، وَكَرَامَةً لأُمَّتِهِ، وَرَبِيعاً لأَهْلِ زَمانِهِ، وَرِفْعَةً لأَعْوانِهِ، وَشَرَفاً لأَنْصارِهِ.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتابَ نُوراً لا تُطْفَأُ مَصابِيحُه، وَسِراجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وبَحْراً لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهاجاً لا يَضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعاعاً لا يُظْلَمُ ضَوْئُهُ، وَفُرْقاناً لا يُخْمَدُ بُرهانُهُ، وَبُنْياناً لا تُهْدَمُ أَرْكانُهُ، وَشِفَاءً لا تُخْشَىٰ أَسْقامُهُ، وَعِزّاً لا تُهْزَمُ أَنْصارُهُ، وَحَقّاً لا تُخْذَلُ أَعْوانُهُ.

فَهُوَ مَعْدِنُ الإيمانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنابِيعُ العِلْم وبُحُورُهُ، وَرِياضُ العَدْلِ وَغُدْرانُهُ، وَأَثافِيُّ الإِسْلام وَبُنْيانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الحَقِّ وَغِيطانُهُ، وَبَحْرٌ لا يَنْزِفُهُ المُسْتَنْزِفُونَ «المُنْتَزِفون خ ل»، وَعُيُونٌ لا يَنْضِبُهَا الماتِحُونَ، وَمَناهِلُ لا يَغِيضُها الوارِدُونَ، وَمَنازِلُ لا يَضِلُّ نَهْجَها المُسَافِرُونَ، وَأَعْلامٌ لا يَعْمَىٰ عَنْهَا السّائِرُونَ، وَآكامٌ لا يَجُوزُ عَنْهَا القاصِدُونَ.

جَعَلَهُ الله رِيّاً لِعَطَشِ العُلَماءِ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الفُقَهاءِ، وَمَحاجٌّ لِطُرُقِ الصُّلَحاءِ، وَدَواءً مَعَهُ «بَعْده خ ل» داءٌ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلّاهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدىً لِمَنِ ائْتَمَّ بِه، وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وَبُرْهاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِه، وشَاهِداً لِمَنْ خاصَمَ بِهِ، وَفُلْجاً لِمَنْ حاجَّ بِه، وَحامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، ومَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلامَ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَىٰ، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوىٰ، وَحُكْماً لِمَنْ قَضىٰ»[١].

اللغة

(**الإطلاع**) الإشراف من موضع عال و (**السّاق**) الشدّة، قال تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ [القيامة: ٢٩] أي اتصلت آخر شدّة الدنيا بأول شدّة الآخرة، و (**المهاد**) بالكسر كالمهد

---

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٧٨، وتحف العقول ١٦٣.

موضع يهيّأ للصبي والفراش و **(قاد)** الرّجل الفرس قوداً من باب قال: وقياداً بالكسر وهو نقيض السّوق. قال الخليل: القود أن يكون الرجل أمام الدابة آخذاً بقيادها، والسّوق أن يكون خلفها، فإن قادها لنفسه قيل: اقتادها، والمقود بالكسر الحبل يقاد به، والقياد مثله مثل لحاف وملحف.

و **(العورة)** السوءة وكل أمر يستحيٰ منه و **(الطول)** الامتداد، يقول: طال الشيء طولاً بالضم امتدّ وخلاف العرض، وفي بعض النسخ: من طولها وزان عنب وهو حبل تشدّ به قائمة الدّابة أو تشدّ وتمسك طرفه وترسلها ترعىٰ، وطال طولك وطيلك وطيالك أي عمرك أو مكثك أو غيبتك.

(ومنهاجاً لا يضلّ نهجه) المنهاج والنهج وزان فلس الطريق الواضح، ونهج الطريق نهجاً من باب منع سلكه، ويضل من باب الأفعال وفي بعض النسخ بصيغة المجرد.

و **(الغدران)** جمع الغدير وهو النهر و **(الأثافي)** بفتح الهمزة وتشديد الياء كأُثاف جمع الأثفية بالضم والكسر وهو الحجر يوضع عليه القدر والأثافي في الأحجار الموضوع عليها القدر على شكل مثلّث و **(نضب)** الماء نضوباً من باب قعد غار في الأرض وينضب بالكسر من باب ضرب لغة.

و **(غاض)** الماء غيضاً من باب سار نضب وقلّ، وغاضه الله يتعدّى ولا يتعدّى فالماء مغيض. قال الشارح المعتزلي: وروى لا يغيضها بالضمّ على قول من قال: أغضت الماء وهي لغة غير مشهورة[1].

و **(الأكمة)** بالتحريك التلّ، وقيل: شرفة كالرابية وهو ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد، وربما غلظ والجمع أكم وأكمات مثل قصبة وقصبات، وجمع الأكم آكام مثل جبل وجبال، وجمع الآكام أُكم بضمتين مثل كتاب وكتب وجمع الآكم أكام مثل عنق وأعناق، هكذا قال الفيومي.

و **(المحجة)** بالفتح جادة الطريق و **(الفلج)** بالضم إسم من الفلج وهو الظفر والفوز، وفلج بحجته أثبتها، وأفلج الله حجّته أظهرها و **(وعى)** الحديث وعياً من باب وعد حفظه وجمعه وتدبّره.

الإعراب

قوله: **(في انقطاع من مدتها)** ظرف لغو متعلق بقوله: أزف، و **(في)** بمعنى **(مع)**،

---

(١) شرح النهج: ١٠/ ١٩٩.

ويحتمل أن يكون ظرفاً مستقراً متعلقاً بمقدّر حالاً من قياد، وقوله: نوراً بدل من الكتاب، وقوله: ومنهاجاً لا يضلّ نهجه إن كان من باب الإفعال **(فنهجه)** منصوب على المفعول والفاعل ضمير مستكن راجع إلى منهاجاً، وإن كان بصيغة المجرّد فهو مرفوع على الفاعل وإسناد الفعل إليه من المجاز العقلي والمصدر بمعنى الفاعل فمجاز لغويّ والإسناد حينئذ على حقيقته.

المعنى

إعلم أنه عليه السلام لما ذكر في الفصل السابق فضل الإسلام وشرفه أردفه بهذا الفصل وأشار فيه إلى بعثة من جاء بالإسلام، وشرح حال زمان البعثة تنبيهاً بذلك على عظم ما ترتّب على بعثه صلى الله عليه وآله من الفوائد العظيمة، ثم عقب بذكر أعظم نعمة أنعم الله به على عباده ببعثه وهو تنزيل الكتاب العزيز وذلك قوله:

(ثم إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله) بالهدى ودين الحق **(حين دنا من الدنيا الإنقطاع وأقبل من الآخرة الإطلاع)** الظاهر أن المراد به قرب انقطاع دنيا كل أمة وإقبال آخرتهم بحضور موتهم حسبما عرفت تفصيله في شرح قوله: أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وأن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، من الخطبة الثامنة والعشرين.

ويحتمل أن يراد به قرب زوالها بالكلية وإشراف الآخرة والقيامة الكبرى بناء على أن ما مر من عمر الدنيا أكثر مما بقي، ويعضده بعض الأخبار.

مثل ما رواه في **(البحار)** من البرسي في **(مشارق الأنوار)** عن الثمالي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: إن الله خلق محمداً وعلياً والطيبين من ذريتهما من نور عظمته وأقامهم أشباحاً قبل المخلوقات. ثم قال: الظن إن الله لم يخلق خلقاً سواكم بلى والله لقد خلق الله ألف ألف آدم وألف ألف عالم وأنت والله في آخر تلك العوالم[1].

وفيه أيضاً من **(جامع الأخبار)** قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن موسى سأل ربه عزَّ وجل أن يعرّفه بدء الدنيا منذ كم خلقت؟ فأوحى الله عزَّ وجل إلى موسى: تسألني عن غوامض علمي؟ فقال: يا رب أحب أن أعلم ذلك، فقال: يا موسى خلقت الدنيا منذ مائة ألف ألف عام عشر مرات وكانت خراباً خمسين ألف عام، ثم بدأت في عمارتها فعمرتها خمسين ألف عام، ثم خلقت فيها خلقاً على مثال البقر يأكلون رزقي ويعبدون غيري خمسين ألف عام، ثم أمتّهم كلهم في ساعة واحدة، ثم خربت الدنيا خمسين ألف عام، ثم بدأت في عمارتها فمكثت

(١) الخصال ٦٥٢ ح ٥٤، والتوحيد ٢٧٧ ح ٢.

عامرة خمسين ألف عام، ثم خلقت فيها بحراً فمكث البحر خمسين ألف عام لا شيء مجاجاً من الدنيا يشرب، ثم خلقت دابّة وسلّطتها على ذلك البحر فشربته بنفس واحد، ثم خلقت خلقاً أصغر من الزّنبور وأكبر من البق فسلطت ذلك الخلق على هذه الدابة فلدغها وقتلها، فمكثت الدنيا خراباً خمسين ألف عام، ثم بدأت في عمارتها فمكثت خمسين ألف سنة، ثم جعلت الدنيا كلها آجام القصب وخلقت السلاحف وسلطتها عليها فأكلتها حتى لم يبق منها شيء، ثم أهلكتها في ساعة واحدة، فمكثت الدنيا خراباً خمسين ألف عام، ثم بدأت في عمارتها فمكثت عامرة خمسين ألف عام، ثم خلقت ثلاثين آدم ثلاثين ألف سنة من آدم إلى آدم ألف سنة، فأفنيتهم كلهم بقضائي وقدري، ثم خلقت فيها ألف ألف مدينة من الفضة البيضاء، وخلقت في كل مدينة مائة ألف ألف قصر من الذهب الأحمر، فملأت المدن خردلاً عند الهواء يومئذ ألذ من الشهد وأحلى من العسل وأبيض من الثلج، ثم خلقت طيراً أعمى وجعلت طعامه في كل ألف سنة حبّة من الخردل أكلها كلها حتى فُنيت، ثم خرّبتها فمكثت خراباً خمسين ألف عام، ثم بدأت في عمارتها فمكثت عامرة خمسين ألف عام، ثم خلقت أباك آدم بيدي يوم الجمعة وقت الظهر ولم أخلق من الطين غيره، وأخرجت من صلبه النبي محمداً صلى الله عليه وآله»[1].

وهذان الخبران كما ترى يعضدان ما ذكرناه من كون الغابر من الدنيا أكثر من الباقي.

لكن العلامة المجلسي «قد» قال في المجلّد التاسع من(**البحار**) بعد إيراد رواية البرسي: لا أعتمد على ما تفرّد بنقله، وقال في المجلد الرابع عشر بعد رواية الخبر الثاني من (**جامع الأخبار**): هذه من روايات المخالفين أوردها صاحب (**الجامع**) فأوردتها ولم أعتمد عليها.

فعلى ذلك لا يمكن التعويل عليهما مع منافاتهما لما رواه المحدّث الجزائري في (**الأنوار**) عن ابن طاووس «ره» أن عمرالدنيا مائة ألف سنة يكون منها عشرون ألف سنة ملك جميع أهل الدنيا، ويكون ثمانون ألف سنة منها مدة ملك آل محمد صلى الله عليه وآله والأولى ردّ علم ذلك إلى الله والراسخون في العلم عليهم السلام هذا.

وقوله: (**وأظلمت بهجتها بعد إشراق**) أراد به أنه سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله حين فترة من الرّسل بعدما كانت الدنيا مبتهجة بوجودهم مشرقة مضيئة بأنوار هدايتهم، فأظلمت بهجتها أي ذهب حسنها ونضارتها بطول زمان الفترة وتمادي مدة الغفلة والضلالة.

(**وقامت بأهلها على ساق**) قد مضى تحقيق معنى هذه الجملة في شرح الخطبة المائة

---

(١) بحار الأنوار ٥٤/٣٣١.

والثامنة والثلاثين فليراجع ثمة.

ومحصل المراد بلوغها حين بعثته إلى غاية الشدة بأهلها لما كانت عليه العرب حينئذ من ضيق العيش والضّر والحروب والقتل والغارة وإثارة الفتن وتهييج الشرور والمفاسد، كما قال عليه السلام في الخطبة السادسة والعشرين: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار منيخون بين حجارة خشن وحيات صمّ، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دمائكم وتقطعون أرحامكم (اهـ)[١].

(وخشن منها مهاد) كناية عن عدم الاستقرار بها وفقدان طيب العيش والراحة، لأن ذلك إنما يتم بانتظام الشرائع وثبات قوانين العدل ويرتفع بارتفاعها.

(وأزف منها قياد) أي قرب منها اقتياد أهلها وتعريضهم بالهلاك والفناء، أو انقيادها بنفسها للعدم والزوال، والثاني أظهر بملاحظة الظروف التي بعدها أعني قوله:

(في انقطاع من مدّتها) وانخراطها في سلك العدم.

(واقتراب من أشراطها) أي آياتها وعلاماتها الدالة على زوالها، والمراد بها أشراط الساعة التي أشير إليها في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪﴾ [الدخان: ١٠-١١]

وإنما جعلها من أشراط الدنيا مع كونها من أشراط الساعة لوقوعها في الدنيا مع أنها كما تدل على قرب القيامة تدل على انقطاع الدنيا وتمامها، فتكون أشراطاً لهما معاً، ومضى تفصيل هذه الأشراط في شرح الخطبة المائة والتاسعة والثمانين.

وروى في **(الصافي)** في حديث أشراط الساعة: أول آيات الدخان، ونزول عيسى، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر.

وفي **(البحار)** من **(مجمع البيان)**: وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدابة، والدجال، والدخان، وخويصة أحدكم أي موته، وأمر العامة»، يعني القيامة[٢].

(وتصرّم من أهلها) أي انقطاع منهم **(وانفصام من حلقتها)** أي انكسار واندراس من

---

(١) نهج البلاغة ١/٦٦ ح ٢٦، وبحار الأنوار ١٨/٢٢٦ ح ٦٨.

(٢) بحار الأنوار ٦/٢٩٧، والتبيان ١/١٧١.

نظام أهلها واجتماعهم على الشريعة والدين **(وانتشار من سببها)** أي تفرق من حبلها وربقتها المشدودة بها رقاب أهلها وهو حبل الإسلام.

(وعفاء من أعلامها) أي دروس منها وهو كناية عن فقدان الأنبياء والعلماء الصالحين الذين يهتدى بهم في ظلمات الجهالة ويستضاء بأنوارهم في بوادي الضلالة.

(وتكشّف من عوراتها) أي ظهور من معايبها ومساوئها التي كانت مستورة بحجاب الشرائع وأستار الإسلام.

(وقصر من طولها) أي من تماديها وامتدادها، أو المراد قصر عمرها على رواية طول بكسر الطاء وفتح الواو.

وتعديد هذه الحالات التي كان عليها الناس حين بعثه ﷺ وشرحها وبسطها تذكيراً للمخاطبين بأن بعثه في مثل تلك الحالات أعظم من منّ الله تعالى به على عباده، ليؤدّ السامعون بتذكره وذكراه وظائف شكر تلك النعمة العظمى، ويقوموا بمراسم حمده حيث أنقذهم ببعثه سلام الله عليه وآله من ورطات الكفر والضلال، وأنجاهم من العقاب والوبال.

(جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته) أي تبليغاً لها كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [النور: ٥٤] أي إلاّ أداء الرسالة وبيان الشريعة، أو كفاية لها كما في قوله تعالى في وصف القرآن: ﴿هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي موعظة بالغة كافية [إبراهيم: ٥٢] وعلى المعنيين فلا بد من جعل المصدر بمعنى الفاعل، أي جعله عزَّ وجل مبلّغاً للرسالة أو كافياً لها أي غير محتاج معه إلى رسول آخر، ولذلك كان ﷺ خاتم النبّوة.

(وكرامة لأمّته) أي أكرمهم عزَّ وجل بجعله رسولاً لهم وجعلهم أمة له ﷺ وفضّلهم بذلك على سائر الأمم.

(وربيعاً لأهل زمانه) تشبيهه بالربيع إما من أجل ابتهاجهم ببهجة جماله وبديع مثاله كما يبتهج الناس بالربيع ونضراته وطراوته، أو من أجل أن أهل زمانه قد خرجوا بوجوده الشريف من ضنك المعيشة إلى الرخاء والسعة، كما أن الناس يخرجون في الربيع من جدب الشتاء وضيق عيشها إلى الدّعة والرفاهة.

(ورفعة لأعوانه وشرفاً لأنصاره) يحتمل رجوع الضميرين إلى الله كما في الفقرة الأولى وإلى محمد ﷺ كما في الفقرتين الأخيرتين، وعلى أي تقدير فالمراد بالأعوان والأنصار المسلمون، أما كونهم أنصاراً له ﷺ فواضح، وأما جعلهم أنصاراً وعوناً لله عزَّ وجل على الاحتمال الأول فلكونهم أنصار دين الله وأعوان رسوله، أضافهما إليه تعالى تشريفاً وتكريماً.

وكيف كان فقد شرّف الله تعالى المسلمين ورفع شأنهم في الدنيا والآخرة بمتابعتهم لرسوله ومعاونتهم له وسلّطهم على محادّيه وجاحديه لعنهم الله تعالى وعذّبهم عذاباً أليماً، هذا.

ولمّا ذكر بعثة النبي ﷺ وأشار إلى بعض فوائد بعثه أردفه بذكر أعظم معجزات النبوة وهو الكتاب العزيز، وأشار إلى جملة من أوصافه ومزاياه تنبيهاً على علوّ قدره وعزّة شأنه فقال:

(ثم أنزل عليه الكتاب) وعدّ به اثنين وأربعين منقبة.

أولها:)كونه **(نوراً لا تُطفىء مصابيحه)** أما أنه نور فلاهتداء الناس به من ظلمات الجهل كما يُهتدى بالنور المحسوس في ظلمة الليل، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأما مصابيحه فاستعارة لطرق الاهتداء وفنون العلوم التي تضمنها القرآن.

(و) الثانية: كونه **(سراجاً لا يخبو توقده)** أما أنه سراجاً فلما مرّ آنفاً، وأما أنه لا يخبو توقده فالمراد به عدم انقطاع اهتداء الناس به واستضاءتهم بنوره.

(و) الثالثة: كونه **(بحراً لا يُدرك قعره)** استعارة البحر له باعتبار اشتماله على النكات البديعة والأسرار الخفية ودقائق العلوم التي لا يدركها بعد الهمم ولا ينالها غوص الفطن كما لا يدرك الغائص قعر البحر العميق.

(و) الرابعة: كونه **(منهاجاً لا يضلّ نهجه)** أي طريقاً واضحاً مستقيماً إلى الحق لا يُضل سالكه أو لا يَضلّ سلوكه.

(و) الخامسة: كونه **(شعاعاً لا يظلم ضوءه)** أي حقاً لا يدانيه شك وريب، أي لا تشوبه ظلمة الباطل فتغطيه وتستره كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

قال الطبرسي: قيل: إن الباطل الشيطان، ومعناه لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقاً أو يزيد فيه باطلاً، وقيل: لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات فلا تناقض في ألفاظه ولا كذب في أخباره، ولا يعارض ولا يزاد فيه ولا يغيّر بل هو محفوظ حجة على المكلّفين إلى يوم القيامة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩][1].

---

(١) مجمع البيان: ٩/ ٢٧.

(و) **السادسة**: كونه **(فرقاناً لا يخمد برهانه)** أي فارقاً بين الحق والباطل وفاصلاً بينهما لا تنتفي براهينه الجلية وبيناته التي بها يفرق بينهما كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝﴾ [الطارق: ١٣ـ ١٤]، وقال: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

(و) **السابعة**: كونه **(بنياناً لا تُهدم أركانه)** شبّهه ببنيان مرصوص وثيق الأركان فاستعار له لفظه والجامع انتظام الأجزاء واتصال بعضها ببعض، وقوله: لا تهدم أركانه، ترشيح للاستعار، وفيه إشارة إلى أن البنيان الوثيق كما أنه مأمون من التهافت والهدم والانفراج فكذلك الكتاب العزيز محفوظ من طرو النقص والخلل والاندراس.

(و) **الثامنة**: كونه **(شفاء لا تخشى أسقامه)** يعني أنه شفاء للأبدان والأرواح.

وأما الأبدان فبالتجربة والعيان مضافاً إلى الأحاديث الواردة في خواص أكثر الآيات المفيدة للاستشفاء والتعويذ بها.

مثل ما في **(الكافي)** بإسناده عن السكوني عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال: شكى رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وجعاً في صدره، فقال: «استشف بالقرآن فإن الله عزَّ وجل يقول: وشفاء لما في الصدور»[(١)].

وعن سلمة بن محرّز قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: من لم يبرءه الحمد لم يبرءه شيء[(٢)].

وعن إبراهيم مهزم عن رجل سمع أبا الحسن عليه السلام يقول: من قرأ آية الكرسي عند منامه لم يخف الفالج إنشاء الله، ومن قرأها في دبر كل فريضة لم يضره ذو حمة[(٣)].

وفي **(مجمع البيان)** من كتاب العياشي بإسناده أن النبي صلى الله عليه وآله قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟» قال: فقال له جابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله علّمنيها، قال: فعلّمه الحمد أمّ الكتاب، ثم قال: «يا جابر ألا أخبرك عنها؟» قال: بلى بأبي أنت وأمي فأخبرني، فقال: «هي شفاء من كل داء إلا السّام»، والسّام الموت، إلى غير هذه مما لا حاجة إلى إيرادها[(٤)].

---

(١) الكافي ٢/ ٦٠٠ ح ٩.
(٢) تفسير مجمع البيان ١/ ٤٨.
(٣) الكافي ٢/ ٦٢١ ح ٨، روسائل الشيعة ٦/ ٤٦٨ ح ٨٤٦٤.
(٤) وسائل الشيعة ٦/ ٤٣٢ ح ٧٨١٣، ومجمع البيان ١/ ٤٨.

وأما الأرواح فلأنه بما تضمنه من فنون العلوم شفاء لأمراض الجهل.

فقد ظهر بذلك كونه شفاء للأبدان من الأوجاع والأسقام، وشفاء للقلوب من كل شك وريب وشبهة، ويصدق ذلك قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وفي سورة بني إسرائيل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال أمين الإسلام الطبرسي: وجه الشفاء فيه من وجوه:

منها ما فيه من البيان الذي يزيل عمى الجهل وحيرة الشك.

ومنها ما فيه من النظم والتأليف والفصاحة البالغة حد الإعجاز الذي يدل على صدق النبي ﷺ فهو من هذه الجهة شفاء من الجهل والشك والعمى في الدين ويكون شفاء للقلوب.

ومنها أنه يتبرّك به وبقراءته ويستعان به على دفع العلل والأسقام ويدفع الله به كثيراً من المكاره والمضارّ على ما يقتضيه الحكمة.

ومنها ما فيه من أدلة التوحيد والعدل وبيان الشرائع، فهو شفاء للناس في دنياهم وآخرتهم، ورحمة للمؤمنين أي نعمة لهم، وإنما خصّهم بذلك لأنهم المنتفعون به، انتهى.

فقد تحصل من ذلك أنه شفاء لا يخاف أن يعقب سقماً، لأن الكمالات النفسانية الحاصلة من قراءته وتفكّره وتدبّر آياته تصير ملكات راسخة لا تتبدل بأضدادها ولا تتغير.

(و) **التاسعة**: كونه **(عزاً لا تهزم أنصاره)** أي لا تغلب ولا تقهر.

(و) **العاشرة**: كونه **(حقاً لا تخذل أعوانه)** والمراد بأعوانه وأنصاره هم المسلمون العارفون بحقّه العاملون بأحكامه وعدم هزمهم وخذلانهم نص قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

قال في **(مجمع البيان)** فيه أقوال:

أحدها: أن المراد لن يجعل الله لليهود على المؤمنين نصراً ولا ظهوراً.

وقيل: لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً بالحجة وإن جاز أن يغلبوهم بالقوّة، لكن المؤمنين منصورون بالدلالة والحجة.

وقيل: لن يجعل لهم في الآخرة عليهم سبيلاً لأنه مذكور عقيب قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٣١]، بيّن الله سبحانه أنه إن يثبت لهم سبيل على المؤمنين في الدنيا

بالقتل والقهر والنهب والأسر وغير ذلك من وجوه الغلبة فلن يجعل لهم يوم القيامة عليهم سبيلاً.

والحادية عشر: ما أشار إليه بقوله: **(فهو معدن الإيمان وبحبوحته)**.

أما أنه معدن الإيمان، فلأن المعدن عبارة عن منبت الجوهر من ذهب وفضة ونحوهما، ولما كان الإيمان بالله ورسوله جوهراً نفيساً لا جوهر أنفس منه ولا أغلى عند ذوي العقول، وكان يستفاد من القرآن ويستخرج منه جعله معدناً له.

وأما أنه بحبوحته ووسطه فلأن الإيمان بجميع أجزائه وشرائطه ومراسمه يدور عليه، فهو بمنزلة القطب والمركز لدائرة الإيمان كما هو ظاهر.

(و) الثانية عشر: أنه **(ينابيع العلم وبحوره)**.

أما أنه ينابيع العلم فلأن العلوم بجميع أقسامه منه تفيض كالعيون الجارية منها الماء.

وأما أنه بحوره فلاحتوائه بفنون العلم كاحتواء البحر بمعظم الماء.

(و) الثالثة عشر: أنه **(رياض العدل وغدرانه)**.

أما كونه رياض العدل فلأن الرياض عبارة عن مجامع النبات والزهر والرياحين التي تبتهج النفوس بخضرتها ونضرتها، وتستلذّ الطباع بحسنها وبهجتها، كما قال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠] فشبّه التكاليف الشرعية المجعولة عن وجه العدل والحكمة بالزهر والنبات الحسن لإيجابها لذّة الأبد وجعل الكتاب العزيز رياضاً لها لاجتماعها فيه واستنباطها منه.

وأما كونه غدران العدل فلأن الغدير عبارة عن مجمع الماء فشبّه الأحكام العدلية بالماء لما فيها من حياة الأرواح كما أن بالماء حياة الأبدان وجعله غديراً لجامعيته لها.

(و) الرابعة عشر: أنه **(أثافيّ الإسلام وبنيانه)** لما قد عرفت من أن الأثافي عبارة عن الأحجار التي عليها القدر، فجعله أثافي للإسلام لاستقراره وثباته عليه مثل استقرار القدر على الأثافي.

وبهذا الاعتبار أيضاً جعل الصلاة والزكاة والولاية أثافية في حديث البحار من **(الكافي)** عن الصادق عليه السلام قال: أثافي الإسلام ثلاثة: الصلاة، والزكاة، والولاية، لا تصح واحدة منهن إلا بصاحبتها.

قال العلامة المجلسي: وإنما اقتصر عليها لأنها أهم الأجزاء ويدل على اشتراط قبول كل منها بالآخرين، ولا ريب في كون الولاية شرطاً لصحة الأخريين.

(و) الخامسة عشر: أنه **(أودية الحق وغيطانه)** يعني أن طالب الحق إنما يجده في هذه الأودية والأراضي المطمئنة. قال الشارح البحراني: واللفظان مستعاران باعتبار كونه معدناً للحق ومظنّة له، كما أن الأدوية والغيطان مظانّ الكلاء والماء.

(و) السادسة عشر: أنه **(بحر لا ينزفه المستنزفون)** أي لا ينزحه كله ولا يفنيه المستقون، وهو إشارة إلى عدم انتهاء العلوم المستفادة منه، فإن فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة حسبما عرفت في شرح الفصل السابع عشر من الخطبة الأولى.

(و) السابعة عشر: أنه **(عيون لا ينضبها الماتحون)** أي لا يغيّرها المستسقون.

(و) الثامنة عشر: أنه **(مناهل لا يغيضها الواردون)** أي مشارب لا ينقص مائها الواردون على كثرة ورودهم عليها.

(و) التاسعة عشر: أنه **(منازل لا يضلّ نهجها المسافرون)** يعني أنه منازل السالكين إلى الله لا يضلّ مسافروه منهاج تلك المنازل لكونه واضحاً جليّاً وجادة مستقيمة.

(و) العشرون: أنه **(أعلام لا يعمى عنها السائرون)** لاستنارتها وإضاءتها.

(و) الحادية والعشرون: أنه **(آكام لا يجوز عنها القاصدون)** قال الشارح البحراني: استعار لفظ الأعلام والآكام للأدلة والإمارات فيه على طريق إلى معرفته وأحكامه باعتبار كونها هادية إليها كما تهدى الأعلام والجبال على الطرق.

(و) الثانية والعشرون: أنه **(جعله الله تعالى ريّاً لعطش العلماء)** شبّه شدّة اشتياق نفوس العلماء وحرصهم على المعارف الحقة الإلٰهية بعطش العطاش، وحيث إن الكتاب العزيز كان رافعاً لغللهم جعله مروياً لهم كما يروى الماء الغليل.

(و) الثالثة والعشرون: أنه جعله سبحانه **(ربيعاً لقلوب الفقهاء)** لابتهاج قلوبهم به واستلذاذهم منه كما يبتهج الناس بالربيع.

(و) الرابعة والعشرون: أنه جعله **(محاجّ لطرق الصلحاء)** أي جواد واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا خفاء، لأنه يهدي للتي هي أقوم.

(و) الخامسة والعشرون: أنه جعله **(دواء ليس معه داء)** حسبما عرفته في شرح قوله: وشفاء لا تخشى أسقامه.

---

(١) الكافي ٢/١٨ ح ٤، ووسائل الشيعة ١/١٦ ح ٧.

(و) **السادسة والعشرون**: أنه جعله **(نوراً ليس معه ظلمة)** أي حقاً لا يشوبه باطل حسبما عرفته في شرح قوله: وشعاعاً لا يظلم نوره.

وفي **(الكافي)** بإسناده عن أبي جميلة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: كان في وصية أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه: إن هذا القرآن هدى النهار ونور الليل المظلم على ما كان من جهد وفاقة[1].

وفيه عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدجى فليجل جال بصره ويفتح للضياء نظره، فإن التفكّر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور[2].

(و) **السابعة والعشرون**: أنه جعله **(حبلاً وثيقاً عروته)** لا يخشى من انفصامه من تمسّك به واتّبع بأحكامه نجا ومن تركه هلك.

(و) **الثامنة والعشرون**: أنه جعله **(معقلاً منيعاً ذروته)** أي ملجأ وحصناً حصيناً يمنع الملتجي إليه من أن يناله المكروه وسوء العذاب.

(و) **التاسعة والعشرون**: أنه جعله **(عزّاً لمن تولاه)** يعني من اتخذه وليّاً وألقى إليه أزمّة أموره وعمل بأوامره ونواهيه فهو عزّة له في الدارين.

(و) **الثلاثون**: أنه جعله عزَّ وجل **(سلماً لمن دخله)** قال الشارح البحراني: أي أمناً، ودخوله الخوض في تدبّر مقاصده واقتباسها وبذلك الاعتبار يكون مأمناً من عذاب الله ومن الوقوع في الشبهات التي هي مهاوي الهلاك، وقيل: استعار لفظ السلم باعتبار عدم أذاه لمن دخله فهو كالمسالم له.

(و) **الحادية والثلاثون**: أنه جعله **(هدى لمن ائتمّ به)** وهو واضح كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

(و) **الثانية والثلاثون**: أنه جعله **(عذراً لمن انتحله)** ولعل المراد كونه عذراً منجياً من العذاب يوم القيامة لمن دان به وجعله نحلته، وقيل: إن المراد أن من انتسب إليه بأن جعل نفسه من أهل القرآن وافتخر بذلك كان القرآن نفسه عذراً له، لعلوّ شأنه، وما ذكرناه أقرب.

(و) **الثالثة والثلاثون**: أنه جعله **(برهاناً لمن تكلم به)** أي حجة واضحة وبياناً جليّاً لمن احتجّ به.

---

(١) مستدرك سفينة البحار ٨/ ٤٤٩.

(٢) وسائل الشيعة ٦/ ١٧٠ ح ٧٦٥٥، ونهج السعادة ٨/ ٤٠٦.

(و) **الرابعة والثلاثون**: أنه جعله **(شاهداً لمن خاصم به)** أي دليلاً محكماً للمستدلّ.

(و) **الخامسة والثلاثون**: أنه جعله **(فلجاً لمن حاجّ به)** أي ظفراً وفوزاً للمخاصم يعني أن من خاصم واحتج به فاز بمقصده وغلب خصمه.

روى في **(البحار)** من **(كنز الفوائد)** بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا معشر الشيعة، خاصموا بسورة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾ [القدر: ١] تفلجوا، فوالله إنها لحجّة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وإنها لسيدة دينكم وإنها لغاية علمنا، يا معشر الشيعة خاصموا بـ ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝﴾ [الزخرف: ١ـ ٢] فإنها لولاة الأمر خاصة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

(و) **السادسة والثلاثون**: أنه جعله **(حاملاً لمن حمله)** يعني أن من حمل القرآن وحفظه وعمل به واتبع أحكامه حمله القرآن إلى دار القدس وغرفات الجنان.

روى في **(الكافي)** بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا معاشر قرّاء القرآن اتقوا الله عزَّ وجل فيما حملكم من كتابه فإني مسؤول وإنكم مسؤولون، إني مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأما أنتم فتسألون عما حملتم من كتاب الله وسنّتي»[١].

وفيه عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة، والمجتهدون قواد أهل الجنة، والرّسل سادات أهل الجنة».

وعن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أحق الناس بالتخشّع في السر والعلانية لحامل القرآن، وإن أحق الناس في السر والعلانية بالصلاة والصوم لحامل القرآن»، ثم نادى بأعلى صوته: «يا حامل القرآن، تواضع به يرفعك الله ولا تعزّز به فيذلك الله، يا حامل القرآن، تزيّن به لله يزيّنك الله به ولا تزيّن به للناس فيشينك الله به، من ختم القرآن فكأنما أدرجت النبوّة بين جنبيه ولكنه لا يوحى إليه، ومن جمع القرآن فنوله لا يجهل مع من يجهل عليه، ولا يغضب فيمن يُغضب عليه، ولا يحدّ فيمن يحدّ عليه، ولكنه يعفو ويصفح ويغفر ويحلم لتعظيم القرآن، ومن أوتي القرآن فظنّ أن أحداً من الناس أوتي أفضل مما أوتي فقد عظّم ما حقّر الله، وحقّر ما عظّم الله»[٢].

(و) **السابعة والثلاثون**: أنه جعله **(مطيّة لمن أعمله)** أي مركباً سريع السير يبلغ بمن أعمله إلى منزله ومقصده، وهو حظائر القدس ومجالس الأنس، والمراد بأعماله هو حفظه

---

(١) شرح أصول الكافي ٦/ ١٢ ح ٦.

(٢) الكافي ٢/ ٦٠٤ ح ٥، ووسائل الشيعة ٦/ ١٨١ ح ٧٦٧٦.

والمواظبه عليه وعدم الغفلة عنه.

روى في **(الكافي)** بإسناده عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الرجل إذا كان يعلم السورة ثم نسيها وتركها ودخل الجنة أشرفت عليه من فوق في أحسن صورة فتقول: تعرفني؟ فيقول: لا، فتقول: أنا سورة كذا وكذا لم تعمل بي وتركتني أما والله لو عملت بي لبلغت بك هذه الدرجة، وأشارت بيدها إلى فوقها.

وعن يعقوب الأحمر قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن عليّ ديناً كثيراً وقد دخلني شيء ما كاد القرآن يتفلّت مني، فقال أبو عبد الله عليه السلام: القرآن، القرآن، إن الآية من القرآن والسورة لتجيء يوم القيامة حتى تصعد ألف درجة يعني في الجنة، فتقول: لو حفظتني لبلغت بك هٰهنا.

وعن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: من نسي سورة من القرآن مثّلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة في الجنة، فإذا رآها قال: ماأنت ما أحسنك ليتك لي، فتقول: أما تعرفني؟ أنا سورة كذا وكذا ولو لم تنسني لرفعتك إلى هذا[١].

(و) **الثامنة والثلاثون**: أنه جعله **(آية لمن توسّم)** أي دلالة للمتفكّر المعتبر وعلامة يستدل بها المتفرّس، وأصل التوسّم هو النظر في السمّة أي العلامة الدالة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥] أي دلالات للمتفكرين المعتبرين.

وقال في **(مجمع البيان)**: وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن وأنه ينظر بنور الله»، وقال: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»، ثم قرأ هذه الآية[٢].

(و) **التاسعة والثلاثون**: أنه جعله **(جنة لمن استلام)** أي وقاية وسلاحاً لطالب الدرع والسلاح، والمراد كونه وقاية لقارءه من مكاره الدنيا والآخرة.

أما الآخرة فواضحة، لأنه يوجب النجاة من النار والخلاص من غضب الجبار جل جلاله.

وأما الدنيا فيدلّ على كونه وقاية من مكارهها صريح قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥].

---

(١) الكافي ٢/ ٦٠٨ ح ٣، ووسائل الشيعة ٦/ ١٩٤ ح ٧٧١٠.

(٢) تفسير مجمع البيان ٦/ ١٢٦، وتفسير نور الثقلين ٣/ ٢٤ ح ٨٧.

قال الطبرسي: قال الكلبي: وهم أبو سفيان والنضر بن الحرث وأبو جهل وأم جميل امرأة أبي لهب، حجب الله رسوله عن أبصارهم، وكانوا يأتونه ويمرون به ولا يرونه[١].

وفي (**الصافي**) من قرب الإسناد عن الكاظم عليه السلام أن أمّ جميل امرأة أبي لهب أتته صلى الله عليه وآله حين نزلت سورة (تبّت) ومع النبي صلى الله عليه وآله أبو بكر بن قحافة، فقال: يا رسول الله هذه أم جميل منخفضة أو مغضبة تريدك ومعها حجر تريد أن ترميك به، فقال صلى الله عليه وآله: «إنها لا تراني»، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك؟ قال: حيث شاء الله، قالت: لقد جئته لو أراه لرميته فإنه هجاني واللات والعزّى إني لشاعرة، فقال أبو بكر: يا رسول الله لم ترك؟ قال صلى الله عليه وآله: «لا، ضرب الله بيني وبينها حجاباً مستوراً»[٢].

وأما سائر الناس فيشهدوا بكونه جنّة لهم من المكاره.

ما رواه في (**الكافي**) بإسناده عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: والذي بعث محمداً بالحق وأكرم أهل بيته ما من شيء تطلبونه من حرز من حرق أو غرق أو سرق أو إفلات دابة من صاحبها أو آبق إلا وهو في القرآن، فمن أراد ذلك فليسألني عنه.

قال: فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عما يؤمن من الحرق والغرق؟ فقال عليه السلام: إقرأ هذه الآيات: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى قوله سبحانه: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] فمن قرأها فقد أمن من الحرق والغرق، قال: فقرأها رجل واضطرمت النار في بيوت جيرانه وبيته وسطها فلم يصبه شيء.

ثم قام إليه رجل آخر فقال: يا أمير المؤمنين إن دابتي استصعبت عليّ وأنا منها على وجل، فقال: إقرأ في أذنها اليمنى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] فقرأها فذلت له دابته.

وقام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين إن أرضي أرض مسبعة إن السباع تغشي منزلي ولا تجوز حتى تأخذ فريستها، فقال: إقرأ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨ـ ١٢٩]، فقرأهما الرجل فاجتنبته السباع.

---

(١) بحار الأنوار: ٩/ ١١٨.

(٢) التفسير الصافي ٥/ ٣٨٩، تفسير نور الثقلين ٥/ ٦٩٨ ح ٧.

(٣) تفسير نور الثقلين ٣/ ٦١١ ح ١٩٧، وفلاح السائل ٢٨٣.

ثم قام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين إن في بطني ماء أصفر فهل من شفاء؟ فقال: نعم بلا درهم ولا دينار ولكن اكتب على بطنك آية (الكرسي) وتغسلها وتشربها وتجعلها ذخيرة في بطنك فتبرأ بإذن الله عزَّ وجل، ففعل الرجل فبرأ بإذن الله.

ثم قام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الضّالة؟ فقال ﷺ: إقرأ (يسٓ) في ركعتين وقل: يا هادي الضّالة ردّ عليّ ضالتي، ففعل فرد الله عليه ضالته.

ثم قام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الآبق؟ فقال ﷺ: إقرأ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فقالها الرجل فرجع إليه الآبق.

ثم قام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن السّرق فإنه لا يزال قد يسرق لي الشيء بعد الشيء ليلاً، فقال له: إقرأ إذا آويت إلى فراشك: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١٠ـ ١١١].

ثم قال أمير المؤمنين ﷺ: من بات بأرض قفر فقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إلى قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، حرسته الملائكة وتباعدت عنه الشياطين.

قال: فمضى الرجل فإذا هو بقرية خراب فبات فيها ولم يقرأ هذه الآية فغشته الشياطين وإذا هو آخذ بخطمه فقال له صاحبه: انظره، واستيقظ الرجل فقرأ الآية فقال الشيطان لصاحبه: أرغم الله أنفك احرسه الآن حتى يُصبح.

فلما أصبح رجع إلى أمير المؤمنين ﷺ فأخبره فقال له: رأيت في كلامك الشفاء والصدق. ومضى بعد طلوع الشمس فإذا هو بأثر شعر الشياطين مجتمعاً في الأرض[1].

(و) الأربعون: أنه جعله **(علماً لمن وعى)** أي علماً كاملاً بالمبدأ والمعاد لمن حفظه وعقله وجعله في وعاء قلبه قال الطريحي: وفي الحديث لا يعذّب الله قلباً وعى القرآن، أي عقل القرآن إيماناً منه وعملاً، فأما من حفظ ألفاظه وضيّع حدوده فهو غير واع له، وفيه: خير القلوب أوعاها، أي أحفظها للعلم وأجمعها له.

(و) الحادية والأربعون: أنه جعله **(حديثاً لمن روى)** قال أمين الإسلام الطبرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ

---

(١) الكافي ٢/ ٦٢٥، وبحار الأنوار ٤/ ١٨٣.

رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] يعني القرآن، وإنما سمّاه الله حديثاً لأنه كلام الله والكلام سمى حديثاً كما يسمى كلام النبي حديثاً، لأنه حديث التنزيل بعدما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء، وهو أحسن الحديث لفرط فصاحته ولإعجازه ولاشتماله على جميع ما يحتاج المكلّف إليه من التنبيه على أدلة التوحيد والعدل وبيان أحكام الشرائع وغير ذلك من المواعظ وقصص الأنبياء والترغيب والترهيب، كتاباً متشابهاً يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً، ليس فيه اختلاف وتناقض، وقيل: إنه يشبه كتب الله المتقدمة وإن كان أعم وأجمع وأنفع.

(و) **الثانية والأربعون**: أنه جعله **(حكماً لمن قضى)** يعني من يقضي بين الناس، فالقرآن حكم له لا حكم له غيره لأنه الحكم الحق وغيره باطل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

قيل في توجيهه: إن الحاكم بغير ما أنزل الله إن كان لامع الاعتقاد فهو إما ظالم أو فاسق، وإن حكم بذلك مع اعتقاد أنه غير ما أنزل الله فهو كافر، هذا.

وقد تقدم في شرح الفصل السابع عشر من الخطبة الأولى وغيره فصل واف في فضل الكتاب العزيز وما يتعلّق به فليراجع هناك، ونسأل الله سبحانه أن يجعلنا من العارفين بفضله، والعاملين بأحكامه، والواعين لعلمه، والرّاوين لحديثه، والقاضين بحكمه بجاه محمد وآله سلام الله عليه وعليهم.

الترجمة

فصل سیم و چهارم از این خطبه در بیان بعثت حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه و آله) و اشاره بر فواید بعثت است و ذکر نزول کتاب کریم و اشاره بر مناقب آن، می فرماید:

پس به درستی که خداوند تعالی مبعوث فرمود محمد بن عبدالله (صلی الله علیه و آله) را با حق، هنگامی که نزدیك شده از دنیای فانی بریده شدن آن و اقبال کرده بود از آخرت مشرف بودن آن، و ظلمانی شده بود شکفتگی دنیا بعد از روشنایی آن و برپا ایستاده بود به اهل خود به غایت شدّت و ناهموار شده بود از آن بساط آن و نزدیك شده بود از آن انقیاد آن به زوال در انقطاع مدّت آن و نزدیکی علامتهای فنای آن و بریده شدن اهل آن و گسیخته شدن حلقه آن و تفرّق ریسمان آن و اندراس علمهای آن و انکشاف قبایح آن و کوتاهی درازی آن.

گردانید او را حق تعالی کفایت کننده از برای رسالت خود و کرامت از برای امّت او و بهار از برای اهل زمان او و سربلندی به جهت اعوان او و شرف مر یاران او را.

پس نازل فرمود بر آن بزرگوار کتاب عزیز خود را، نوری که خاموش نمی باشد چراغهای آن و چراغی که نابود نمی گردد اشتعال آن و دریایی که درك نمی شود ته آن و جاده واضحی که ضلالت نمی افتد سالك آن و شعاعی که تاریك نمی باشد روشنایی آن و فرقانی که خاموش نمی شود برهان و دلیل آن و بنیادی که خراب نمی شود رکنهای آن و شفایی که ترسیده نمیَ شود مرضهایَ آن و عزیزی که مغلوب نمی باشد ناصران آن و حقی که خوار نمی باشد یاران آن.

پس آن کتاب معدن ایمان و وسط او است و چشمه های علم و دریاهای او است و باغهای عدالت و گودالهای آب او است و پایه های اسلام و بنیان او است و بیابانهای حق و گودی های او است ودریائی است که نمی تواند بکشد آب آن را آب کشندگان و چشمه هایی است که تمام نمی کند آب آن را آب بردارندگان و

سرچشمه هایی است که ناقص نمی نماید آن را واردان و منزلهایی است که گم نمی کند راه آن را مسافران و علامتهایی است که نابینا نمی شود از آنها سیرکنندگان و تل هایی است که تجاوز نمی نماید از آنها قاصدان.

گردانید خداوند آن را سیرابی از برای تشنگی عالمیان و بهار از برای قلبهای فقیهان و راههای روشن از برای طرق صالحان و دوایی که نیست بعد از آن دردی و نوری که نیست با وجود آن ظلمتی و ریسمانی که محکم است جای دستگیر آن و پناهگاهی که مانع است بلندی آن و عزیزی از برای کسی که آن را به جهت خود دوست اخذ نموده باشد و امن امان از برای کسی که داخل آن شود و هدایت از برای کسی که اقتدا نماید به آن و عذر از برای کسی که نسبت آن را به خود بدهد و برهان واضح به جهت کسی که با آن تکلم نماید و شاهد صادق به جهت کسی که مخاصمه نماید با آن و غلبه و ظفر برای کسی که احتجاج کند با آن و بردارنده مرحاملان خود را و مرکب از برای کسی که اعمال نماید آن را و علامت از برای کسی که تفکر نماید و زره از برای کسی که طالب سلاح باشد و علم کامل کسی را که حفظ کند آن را و حدیث صحیح کسی را که روایت نماید و حکم به حق از برای کسی که حکم نماید.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والثامن والتسعون
من المختار في باب الخطب

وهو مروي في (**الكافي**) ببسط واختلاف كثير تطلع عليه بعد الفراغ من شرح ما أورده السيد (ره) هنا.

«تعاهَدُوا أمْرَ الصَّلاةِ وحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْها، وتَقَرَّبُوا بِها، فَإِنَّها كانَتْ عَلىٰ المُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً، ألاَ تَسْمَعُونَ إلىٰ جوابِ أهْلِ النَّارِ حَيْثُ سُئِلُوا ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَر، قالوا: لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ، وَإنَّها لَتَحُتُّ الذنوب حَتَّ الوَرَقِ، وَتُطْلِقُها إطْلاقَ الرِّبَقِ، وَشَبَّهَها رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بِالحَمَّةِ تَكُونُ عَلىٰ بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنها فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرّاتٍ، فَما عَسىٰ أنْ يَبْقىٰ عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ، وَقَدْ عَرَفَ حَقَّها رِجالٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ الَّذينَ لا تَشْغَلُهُمْ عَنْها زينَةُ مَتاعٍ، وَلا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ ولا مالٍ، يَقُولُ الله سُبْحانَهُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧] **وَكانَ رَسُولُ الله** صلى الله عليه وآله نَصِباً بِالصَّلاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالجَنَّةِ، لِقَوْلِ الله سُبْحانَهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، **فَكانَ يَأْمُرُ أَهلَهُ وَيُصَبِّرُ عَلَيْها نَفْسَهُ.**

ثُمَّ إنَّ الزَّكاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاةِ قُرْباناً لأهْلِ الإسْلام، فَمَنْ أعْطاها طَيِّبَ النَّفْسِ بِها فَإنَّها تُجْعَلُ لَهُ كَفّارَةً، وَمِنَ النّارِ حِجازاً وَوِقايَةً، فَلا يُتْبِعَنَّها أحَدٌ نَفْسَهُ، وَلا يُكْثِرَنَّ عَلَيْها لَهَفَهُ، فَإنَّ مَنْ أعْطاها غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِها يَرْجُو بِها ما هُوَ أفْضَلُ مِنْها، فَهُوَ جاهِلٌ بالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ الأجْرِ، ضالُّ العَمَلِ، طَويلُ النَّدَمِ.

ثُمَّ أداءُ الأمَانَةِ فَقَدْ خابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أهْلِها، إنَّها عُرِضَتْ عَلىٰ السَّماواتِ المَبْنِيَّةِ، والأرَضِينَ المَدْحُوَّةِ، وَالجِبالِ ذاتِ الطُّولِ المَنْصُوبَةِ فَلا أطْوَلَ، وَلا أعْرَضَ، وَلا أعْلىٰ، وَلا أعْظَمَ مِنْها، وَلَو امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ، أوْ عَرْضٍ، أوْ قُوَّةٍ، أوْ عِزٍّ، لأمْتَنَعْنَ ولٰكِنْ أشْفَقْنَ مِنَ العُقُوبَةِ، وَعَقِلْنَ ما جَهِلَ مَنْ هُوَ أضْعَفُ مِنْهُنَّ، وَهُوَ الإنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً.

إنَّ الله سُبْحانَهُ لا يَخْفىٰ عَلَيْهِ مَا العِبادُ مُقْتَرِفُونَ في لَيْلِهِم وَنَهارِهِمْ، لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وَأحاطَ بِهِ عِلْماً، أعْضائُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَواتُكُمْ عِيانُهُ».

اللغة

(تعاهدوا أمر الصلاة) وروى تعهدوا بدله، يقال: تعهدت الشيء وتعاهدته ترددت إليه وتفقدته وأصلحته، وحقيقته تجديد العهد به، وفي الدعاء عند الحجر الأسود: ميثاقي تعهدته

لتشهد لي بالموافاة يوم القيامة، وفي رواية (العلل) عن أبي عبد الله عليه السلام تعاهدته بدله، أي جددت العهد به، قال الفيومي: قال الفارابي: تعهدته أفصح من تعاهدته، وقال ابن فارس: ولا يقال تعاهدته، لأن التعاهد لا يكون إلاّ من اثنين ويردّه كلام أمير المؤمنين عليه السلام على رواية السيد، ودعاء الحجر على رواية (العلل) وما في الحديث من قوله: «تعاهدوا نعالكم عند أبواب مساجدكم»[1].

و (حتّ) الرجل الورق من الشجر حتاً من باب مدّ أسقطه وأزاله، وتحاتت الشجرة تساقط ورقها و (الرّبق) وزان عنب جمع ربق بالكسر وزان حمل حبل فيه عدة عرى يشدّ به البهم، وكل عروة ربقة و (الحمة) بفتح الحاء المهملة كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى بها الأعلاّء، وفي بعض النسخ بالجيم وهي البئر الكثيرة الماء و (الدّرن) محركة الوسخ.

و (إقام الصلاة) أصله إقوام مصدر أقوم مثل أكرم إكراماً، (والتاء) في إقامة عوض من (العين) الساقط بالأعلال، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض و (نصب) نصباً كتعب وزناً ومعنى فهو نصب.

و (يصبّر عليها نفسه) بالتثقيل أي يأمرها بالصبر من صبّرته أي حملته على الصبر بوعد الأجر، وقلت له: اصبر ويروى بالتخفيف أي يحبس عليها نفسه و (القربان) كفرقان إسم لما يتقرّب به إلى الله من أعمال البرّ.

وقوله: (فلا يتبعنّها) بنون التوكيد مثقلة من اتبعت فلاناً لحقته، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [طه: ٧٨] أي لحقهم و (العيان) بالكسر المعاينة يقال: لقاه عياناً أي معاينة لم يشك في رؤيته إياه.

الإعراب

قوله: (على المؤمنين) متعلق بقوله: موقوتاً، قوله: (فما عسى أن يبقى عليه من الدرن) كلمة (ما) نافية وعسى تامة بمعنى (كاد)، وأن يبقى عليه، في موضع رفع بأنه فاعل (عسى) كما في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢١٦] وفاعل (يبقى) محذوف (ومن الدرن) بيان للفاعل المحذوف أي يبقى عليه شيء من الدّرن.

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل يسبّح المذكور قبل ذلك، قال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] وعلى قراءة يسبّح مبنياً للمفعول فالجار والمجرور أعني له نائب عن الفاعل ورجال مرفوع بفعل محذوف يدل عليه الفعل المذكور

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٨٠، ومنهج السعادة ٨/ ٥٧.

كأنه بعدما قيل: يسبّح له سئل عن المسبّح فقال: رجال، أي يسبّح له رجال على حدّ قول الشاعر:

لِيَبْكِ يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوايح

أي يبكيه ضارع، وقوله: طيّب النفس، منصوب على الحال من فاعل أعطى، وقوله: غير طيب النفس، وجملة يرجو بها منصوبان لفظاً ومحلاً أيضاً على الحال، وقوله: لا يخفى عليه ما العباد مقترفون، كلمة **(ما)** موصولة منصوبة محلاً مفعول يخفى وما بعدها صلة لها والعائد محذوف أي مقترفون له.

المعنى

إعلم أن مدار هذا الكلام الشريف على فصول ثلاثة:

الفصل الأول: في الأمر بالصلاة والحثّ عليها.

والفصل الثاني: في الترغيب في الزكاة والإلزام بها.

والفصل الثالث: في التحضيض على أداء الأمانة والتحذير من المعاصي.

أما الفصل الأول

فهو قوله: **(تعاهدوا أمر الصلاة)** أي جددوا العهد بها وراقبوا عليها في أوقاتها المخصوصة ولا تضيّعوها ولا تغفلوا عنها، لأنها عماد الدين، ومعراج المؤمنين، وقربان كل تقي ومؤمن نقي، وأول ما يحاسب به العبد إن قبلت قبل ما سواها وإن ردّت ردّ ما سواها.

وقد ذمّ الله أقواماً توانوا عنها واستهانوا بأوقاتها فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون: ٤ـ٥]، قال أمير المؤمنين عليه السلام في رواية الخصال: يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها[١].

(وحافظوا عليها) أي على أوقاتها ورعاية آدابها وسننها وحدودها ومراسمها وشروطها وأركانها.

فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه».

وقال صلى الله عليه وآله: «لا تضيعوا صلاتكم فإن من ضيع صلاته حشره الله تعالى مع قارون وفرعون وهامان لعنهم الله وأخزاهم وكان حقاً على الله أن يدخله النار مع المنافقين، فالويل

(١) تفسير نور الثقلين ٥/٦٧٧ ح ٤.

لمن لم يحافظ على صلاته»[١].

وقال أبو جعفر عليه السلام: إن الصلاة إذا ارتفعت في أول وقتها رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة، تقول: حفظتني حفظك الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة تقول: ضيّعتني ضيّعك الله[٢].

وقد أمر الله عزَّ وجل بمحافظتها في الكتاب العزيز بقوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

قال أمين الإسلام الطبرسي: أي داوموا على الصلوات المكتوبات في مواقيتها بتمام أركانها، ثم خص الوسطى تفخيماً لشأنها فقال: والصلاة الوسطى[٣].

وقال المحدّث العلامة المجلسي: ويدل بناء على كون الأمر مطلقاً أو خصوص أمر القرآن للوجوب على وجوب المحافظة على جميع الصلوات إلا ما أخرجها الدليل، وربما يستدل بها على وجوب صلاة الجمعة والعيدين والآيات، ولكن في بعض الروايات أن المراد بها الصلوات الخمس، وعلى تقدير العموم يمكن تعميمها بحيث تشمل النوافل والتطوعات أيضاً، فلا يكون الأمر على الوجوب، ويشمل رعاية السنن في الصلاة الواجبة أيضاً كما يفهم في بعض الأخبار.

وخص الصلاة الوسطى بذلك بعد التعميم لشدة الاهتمام بها لمزيد فضلها أو لكونها معرضة للضياع من بينها فهي الوسطى بين الصلاة وقتاً أو عدداً أو الفضلى من قولهم: للأفضل الأوسط.

وقد قال بتعيين كل من الصلوات الخمس قوم إلا أن أصحابنا لم يقولوا بغير الظهر والعصر كما يظهر من المنتهى وغيره.

فقال الشيخ في **(الخلاف)**: إنها الظهر، وتبعه جماعة من أصحابنا وبه قال: زيد بن ثابت وعائشة وعبد الله بن شداد، لأنها بين صلاتين بالنهار، ولأنها في وسط النهار، ولأنها تقع في شدّة الحر والهاجرة وقت شدّة تنازع الإنسان إلى النوم والراحة، فكانت أشق، وأفضل العبادات أحمزها، وأيضاً الأمر بمحافظة ما كان أشق أنسب وأهم ولأنها أول صلاة فرضت ولأنها في الساعة التي يفتح فيها أبواب السماء فلا تغلق حتى تصلّى الظهر ويستجاب فيها الدعاء.

---

(١) بحار الأنوار ٧٩/ ٢٠٢ ح ٢. (٢) المحاسن ١/ ٨١ ح ٢، والكافي ٣/ ٢٦٨ ح ٤.

(٣) مجمع البيان: ٢/ ١٢٦.

وروى الجمهور عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشدّ على أصحاب رسول الله ﷺ منها، فنزلت الآية.

وروى الترمذي عن أبو داود عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قرأ: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر»[(١)].

قال في (**المنتهى**): والعطف يقتضي المغايرة لا يقال: (**الواو**) زائدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] لأنّا نقول: الزيادة منا فيه للأصل فلا يصار إليه إلا لموجب والمثال الذي ذكروه يمنع زيادة (**الواو**) فيه بل هي للعطف على بابها.

وقال في (**مجمع البيان**): كونها الظهر هو المروي عن الباقر والصادق عليهما السلام وروى فيه عن علي عليه السلام أنها الجمعة يوم الجمعة والظهر في سائر الأيام.

وقال السيد المرتضى: هي صلاة العصر، وتبعه جماعة من أصحابنا، وبه قال أبو هريرة وأبو أيوب وأبو سعيد عبيدة السلماني والحسن والضحاك وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد.

ونقله الجمهور عن علي عليه السلام قالوا: لأنها بين صلاتي ليل وصلاتي نهار.

واحتجّ السيد (ره) بإجماع الشيعة.

والمخالفون بما رووا عن النبي ﷺ أنه قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً»[(٢)].

وفي (**الوسائل**) بعد رواية الأخبار الدالة على أنها الظهر قال: وتقدم ما يشعر بأنها العصر، وهو محمول على التقية في الرواية.

وقيل: إنها إحدى الصلوات الخمس لم يعينها الله وأخفاها في جملة الصلوات المكتوبة ليحافظوا على جميعها كما أخفى ليلة القدر في ليالي شهر رمضان، واسمه الأعظم في جميع الأسماء، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة لئلا يتطرّق التشاغل بغيرها بل يهتم غاية الاهتمام بالكل فيدرك كمال الفضل.

(**واستكثروا منها**) فإنها خير موضوع، فمن شاء أقل ومن شاء أكثر.

روى في (**البحار**) من البصائر عن محمد بن الحسين عن عبد الرحمٰن بن أبي هاشم بن

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ٨/ ٤٥٥، ومسند أحمد: ٤/ ٣٠١.

(٢) بحار الأنوار ٧٩/ ٢٨٠.

العتبة العابدة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام وذكر عنده الصلاة فقال: إن في كتاب علي عليه السلام الذي أملاه رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله لا يعذّب على كثرة الصلاة والصيام ولكن يزيده جزاء» «خيراً خ»[١].

وفي (الوسائل) عن الشيخ بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: أتي رسول الله صلى الله عليه وآله رجل فقال: إدع الله أن يدخلني الجنة، فقال صلى الله عليه وآله: «أعنى بكثرة السجود»[٢].

وفيه عن الصدوق بإسناده عن أبي جعفر العطار قال: سمعت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام يقول: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله كثرت ذنوبي وضعف عملي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أكثر السجود فإنه يحطّ الذنوب كما تحتّ الريح ورق الشجر»[٣].

(وتقرّبوا بها) إلى الله سبحانه فإنها قربان كل تقيّ.

كما رواه في **(البحار من العيون)** بإسناده عن محمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال: الصلاة قربان كل تقيّ.

وفيه من ثواب الأعمال بإسناده عن موسى بن بكر عن أبي الحسن عليه السلام قال: صلاة النوافل قربان كل مؤمن[٤].

بل هي أفضل ما يتقرّب به إليه تعالى.

كما يدلّ عليه ما رواه في **(الكافي)** بإسناده عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرّب به العباد إلى ربّهم؟ فقال: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أن العبد الصالح عيسى بن مريم عليه السلام قال: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، هذا.

ولما أمر بتعاهدها ومحافظتها والتقرّب بها عقب عليه السلام ذلك وعلله بوجوه مرغبة.

أحدها: قوله: **(فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)** اقتباس من الآية الشريفة في سورة (النساء).

قال في **(مجمع البيان)**: اختلف في تأويله فقيل: إن الصلاة كانت على المؤمنين واجبة مفروضة، وهو المروي عن الباقر والصادق عليهما السلام، وقيل: معناه فرضاً موقوتاً أي منجماً

(١) مكاتب الرسول: ٢/٢٠٦ ح ٥.
(٢) بحار الأنوار ٧٩/٣٠٨ ح ٨.
(٣) الأمالي ٥٨٩ ح ٨١٤، ووسائل الشيعة ٤/١٠٣.
(٤) ثواب الأعمال ٢٩، ووسائل الشيعة ٤/٧٣ ح ٤٥٤٧.

تؤدّونها في أنجمها.

وفي (**الكافي**) بإسناده عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، قال: كتاباً ثابتاً وليس إن عجّلت قليلاً أو أخرت قليلاً بالذي يضرّك ما لم تضيّع تلك الإضاعة فإن الله عزّ وجل يقول لقوم: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩][١].

وفيه عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية أي كتاباً موجوباً «موجباً خ ل» هذا.

وتخصيص المؤمنين بالذكر في الآية الشريفة لتحريضهم وترغيبهم على حفظها وحفظ أوقاتها حالتي الأمن والخوف ومراعاة جميع حدودها في حال الأمن وإيماء بأن ذلك من مقتضى الإيمان وشعار أهله فلا يجوز أن تفوتهم وإن التساهل فيها يخلّ بالإيمان وأنهم هم المنتفعون بها لعدم صحتها من غيرهم.

الثاني: قوله: (**ألا تسمعون إلى جواب أهل النار**) والاستفهام للتقرير بما بعد النفي أو للتوبيخ والتقريع، والغرض منه تنبيه المخاطبين على أن ترك الصلاة يوجب دخول النار وسخط الجبار ليتحرزوا من تركها ويحافظوا عليها.

وذلك أن أهل النار (**حين سئلوا**) أي سألهم أهل الجنة على ما حكى الله عنهم في سورة (المدثر) بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٣٨ـ ٤٧].

قال أمين الإسلام الطبرسي في تفسير الآية: كل نفس بما كسبت رهينة، أي محبوسة بعملها مطالبة بما كسبته من طاعة أو معصية، ثم استثنى سبحانه أصحاب اليمين وهم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم، وقال الباقر عليه السلام: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين[٢].

في جنات يتساءلون، أي يسأل بعضهم بعضاً، وقيل: يسألون عن المجرمين أي عن حالهم وعن ذنوبهم التي استحقوا بها النار.

ما سلككم في سقر؟، هذا سؤال توبيخ، أي تطلع أهل الجنة على أهل النار فيقولون: ما أوقعكم في النار؟.

---

(١) الكافي ٣/ ٢٧٠ ح ١٤، ووسائل الشيعة ٤/ ٢٩ ح ٤٤٢٨.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠/ ١٨٧، وبحار الأنوار ٢٤/ ٩.

قالوا: **(لم نك من المصلين)**، أي كنا لا نصلي الصلاة المكتوبة على ما قرّرها الشرع، وفي هذا دلالة على أن الإخلال بالواجب يستحق به الذمّ والعقاب، لأنهم علقوا استحقاقهم العقاب بالإخلال بالصلاة، وفيه دلالة أيضاً على أن الكفار مخاطبون بالعبادات الشرعية، لأنه حكاية عن الكفار بدليل قوله: وكنا نكذّب بيوم الدين.

وقوله: **(ولم نك نطعم المسكين)**، لم نك نخرج الزكوات التي كانت واجبة علينا، والكفارات التي وجب دفعها إلى المساكين، وهم الفقراء.

(وكنا نخوض مع الخائضين)، أي كلما غوى غاو بالدخول في الباطل غوينا معه والمعنى كنا نلوث أنفسنا في المرور بالباطل كتلويث الرجل بالخوض، فهؤلاء لما كانوا يجرون مع من يكذّب بالحق مشيعين لهم في القول كانوا خائضين معهم.

(وكنا نكذّب بيوم الدين)، مع ذلك، أي نجحد يوم الجزاء وهو يوم القيامة.

(حتى أتانا اليقين)، أي أتانا الموت على هذه الحالة، وقيل: حتى جاءنا علم اليقين من ذلك بأن عايناه، هذا.

وفي **(الصافي)** عن **(الكافي)** عن الصادق عليه السلام في قوله: لم نك من المصلين، قال عليه السلام: لم نك من أتباع الأئمة الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠ـ ١١]، أما ترى الناس يسمون الذي يلي السابق في الحلبة مصلّياً، فذلك الذي عنى حيث قال: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣] أي لم نك من أتباع السابقين[١].

وعن الكاظم عليه السلام: يعني أنّا لم نتول وصي محمد والأوصياء من بعده ولم نصلّ عليهم، وهذان لا ينافيان التفسير المتقدم لأن المتقدم تنزيلها وهذا تأويلها[٢].

(و) الثالث: (إنها لتحت الذنوب حتَّ الورق) أي تسقطها من الرقاب سقوط الأوراق من الأشجار.

كما وقع التصريح به في رواية **(الوسائل)** من مجالس ابن الشيخ بإسناده عن سلمان الفارسي قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في ظلّ شجرة، فأخذنا غصناً منها فنفضه فتساقط ورقه فقال: «ألا تسألوني عما صنعت؟» فقالوا: أخبرنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «إن العبد المسلم إذا قام إلى الصلاة تحاطت خطاياه كما تحاطت ورق هذه الشجرة»، هذا[٣].

(١) تفسير الصافي ٥/٢٥١، والكافي ١/٤١٩ ح ٣٨.
(٢) الكافي ١/٤٣٤، وتفسير الصافي ٥/٢٥١ ح ٤٣.
(٣) وسائل الشيعة ٤/١٠٣ ح ٤٦٢٩، وسائل الشيعة ٣/٧٦.

والتشبيه في كلامه عليه السلام من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس، وكذلك في قوله:

(وتطلقها إطلاق الرّبق) والكلام على القلب، والمراد أنها تطلق أعناق النفوس أي تفكّها من أغلال الذنوب إطلاق أعناق البهائم من الأرباق.

ولما ذكر إسقاطها للذنوب أيّده بقوله: **(وشبهها رسول الله صلى الله عليه وآله بالحمة تكون على باب الرّجل)** وأشار إلى وجه الشّبه بقوله: **(فهو يغتسل منها)** ويطهر جسده من الأوساخ **(في اليوم والليلة خمس مرات فما عسى أن يبقى عليه)** شيء **(من الدرن)** وكذلك من صلّى الصلوات الخمس لا يبقى عليه شيء من الذنوب.

وقد تقدم في شرح الخطبة المائة والتاسعة رواية متن الحديث النبوي من الفقيه عن الصادق عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنما مثل الصلاة فيكم كمثل السرى وهو النهر على باب أحدكم، يخرج إليه في اليوم والليلة، يغتسل منه خمس مرات، فلم يبق الدرن على الغسل خمس مرات، ولم يبق الذنوب على الصلاة خمس مرات»[1].

والرابع: ما أشار إليه بقوله: **(وقد عرف حقّها)** وقدرها **(رجال من المؤمنين)** وهو عليه السلام رئيسهم وسيدهم وأفضلهم حسبما تطلع عليه في الأخبار الآتية وهم **(الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع ولا قرّة عين من ولد ولا مال)** لعلمهم بأن المال والبنين زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربهم ثواباً وخير أملاً.

(يقول الله سبحانه) في وصفهم في سورة (النور) ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [٣٦] **(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع)** من عطف الخاص على العام لشمول التجارة سائر أنواع المكاسب **(عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)** يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار.

قال في **(مجمع البيان)**: روى مرفوعاً أنه سئل النبي صلى الله عليه وآله لما قرأ الآية: أي بيوت هذه؟ فقال: «بيوتات الأنبياء»، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه البيوت منها؟ ـ لبيت عليّ وفاطمة ـ قال صلى الله عليه وآله: «نعم من أفاضلها»[2].

والمراد بالرفع التعظيم ورفع القدر من الأرجاس والتطهير من المعاصي، ويذكر فيها اسمه أي يتلى فيها كتابه يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال، أي يصلي فيها بالبكر والعشايا، رجال لا تلهيهم، أي لا تشغلهم ولا تصرفهم، تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة، أي

---

(١) وسائل الشيعة ٤/١٥، ح ٤٣٩٢، وسائل الشيعة ٣/٩ ح ٤٣٩.

(٢) بحار الأنوار: ٣/٨٠، ومناقب أهل البيت: ٩٤.

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أي إخلاص الطاعة لله، وقيل: يريد الزكاة المفروضة.

وروى عن كتاب (**غاية المرام**) من تفسير مجاهد والي يوسف يعقوب بن سفين «كذا» قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١] إن دحية الكلبي جاء يوم الجمعة من الشام بالمسيرة فنزل عند أحجار الزيت ثم ضرب بالطبول ليأذن بقدومه ومضوا الناس إليه إلا علي والحسن والحسين وفاطمة وسلمان وأبو ذر والمقداد وصهيب، وتركوا النبي ﷺ قائماً يخطب على المنبر، فقال النبي ﷺ: «لقد نظر الله يوم الجمعة إلى مسجدي فلولا هؤلاء الثمانية الذين جلسوا في مسجدي لاضطرمت المدينة على أهلها ناراً وحصبوا بالحجارة كقوم لوط»، فنزل فيهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ [النور: ٣٧][١].

وفيه عن محمد بن العباس عن محمد بن همام عن محمد بن إسماعيل عن عيسى بن داود قال: حدثنا الإمام موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام في قول الله عزَّ وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦] الآية، قال: بيوت آل محمد ﷺ بيت علي وفاطمة والحسن والحسين وحمزة وجعفر عليهم السلام، قلت: بالغدو والآصال، قال: الصلاة في أوقاتها، قال: ثم وصفهم الله عزَّ وجل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]، قال: هم الرجال لم يخلط الله معهم غيرهم، ثم قال: ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، قال: ما اختصهم به من المودة والطاعة المفروضة وصير مأواهم الجنة والله يرزق من يشاء بغير حساب.

(و) **الخامس**: إن في المحافظة على الصلاة أسوة بالنبي ﷺ فلقد (**كان رسول الله نَصِباً بالصلاة**) أي تعباً بها كل التعب.

حتى روى أنه كان يصلّي الليل كله ويعلّق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم، فعاتبه الله على ذلك وأنزل عليه: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ [طه: ١ ـ ٢] وأمره بأن يخفف على نفسه وذكر أنه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كل هذا التعب.

روى في (**الصافي**) من الاحتجاج عن الكاظم عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لقد قام رسول الله ﷺ عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورّمت قدماه واصفرّ وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عزَّ وجل: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ بل لتسعد[٢].

---

(١) مستدرك الوسائل ٦/ ٢٥ ح ٦٣٤٧، ومناقب آل أبي طالب ١/ ٤٠٧.

(٢) الاحتجاج ١/ ٣٢٦.

قيل: الشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقى من رائض المهر، وسيد القوم أشقاهم، ولعله عدل إليه للإشعار بأنه أنزل إليه ليسعد.

وقوله: **(بعد التبشير له بالجنة)** إشارة إلى أنه لم تكن مواظبته على الصلاة شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار، بل قد كان انصبابها مع وجود تلك البشارة متحملاً كل التعب امتثالاً **(لقول الله سبحانه)** وأمره له بالصبر عليها في سورة (طه) حيث قال:

(وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [١٣٢].

قال في **(مجمع البيان)**: معناه وأمر يا محمد أهل بيتك وأهل دينك بالصلاة واصبر على فعلها، وفي **(الصافي)**: وداوم عليها، لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، بل كلّفناك العبادة وأداء الرسالة وضمنا رزق الجميع، نحن نرزقك وإياهم ففرّغ بالك للآخرة، والعاقبة المحمودة لذوي التقوى.

قال في **(مجمع البيان)**: روى أبو سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأتي باب فاطمة وعلي تسعة أشهر عند كل صلاة فيقول: «الصلاة رحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرّكم تطهيرا»[1].

قال: وقال أبو جعفر عليه السلام: أمره الله أن يخصّ أهله دون الناس ليعلم الناس أن لأهله عند الله منزلة ليست للناس، فأمرهم مع الناس عامة ثم أمرهم خاصة[2].

وفي **(الصافي)** من العيون عن الرضا عليه السلام في هذه الآية قال: خصّنا الله هذه الخصوصية إذ أمرنا مع الأمة بإقامة الصلاة، ثم خصنا من دون الأمة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يجيء إلى باب علي وفاطمة بعد نزول هذه الآية تسعة أشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات فيقول: «الصلاة رحمكم الله، وما أكرم الله أحداً من ذراري الأنبياء بمثل هذه الكرامة التي أكرمنا بها وخصّنا من دون جميع أهل بيتهم»[3].

(فكان) صلى الله عليه وآله (يأمر) بها **(أهله ويصبّر عليها نفسه)** أي يأمر نفسه بالصبر والتحمل على تعبها، هذا.

وقد تقدم في شرح الخطبة المائة والتاسعة تفصيل الكلام في فضل الصلاة وآدابها وأسرارها وعقاب تاركها، فليراجع هناك.

---

(١) التفسير الصافي ٣/ ٣٢٧ ح ١٣١.

(٢) بحار الأنوار ١٦/ ١٠٣، وتفسير مجمع البيان ٧/ ٦٨.

(٣) الأمالي ٦٢٦، وبحار الأنوار ٢٥/ ٢٣٣.

وأما الفصل الثاني

فقد أشار إليه بقوله: (**ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام**) يعني كما جعل الله سبحانه الصلاة قرباناً للمسلمين يتقرّبون بها إليه تعالى، جعل الزكاة أيضاً قرباناً لهم مثلها.

ويدل على ذلك أنه سبحانه عقّب الأمر بإقام الصلاة في أكثر آيات كتابه العزيز بالأمر بإيتاء الزكاة، فجعل الزكاة تالي الصلاة في المطلوبية.

ويشهد به أيضاً ما في (**الوسائل**) عن الصدوق بإسناده عن المجاشعي عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «بني الإسلام على خمس خصال: على الشهادتين، والقرينتين»، قيل له: أما الشهادتين فقد عرفناهما، فما القرينتان؟ قال: «الصلاة والزكاة، فإنه لا يقبلَ إحداهما إلا بالأخرى، والصيام وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، وختم ذلك بالولاية»[1].

وقد مضى الكلام في فضلها وعقوبة تاركها وأقسامها في شرح الخطبة المائة والتاسعة بما لا مزيد عليه فليراجع ثمة.

ولما ذكر كونها قرباناً لأهل الإسلام نبّه على شرط قربانيتها وهو كون إتيانها عن وجه الخلوص وطيب النفس، وسرّ ذلك ما قدمناه في شرح الخطبة التي أشرنا إليه، ومحصّل ما قدمناه أن الإسلام موقوف على توحيد الرب عزَّ وجل وكمال توحيده عبارة عن الإخلاص له، ومعنى الإخلاص إفراده بالمعبودية والمحبوبية وإخلاء القلب عن محبة ما سواه فلا تجتمع محبة المال مع محبته تعالى.

(**فـ**)ـعلم من ذلك أن (**من أعطاها طيب النفس بها**) حباً له تعالى وامتثالاً لأمره وابتغاءً لمرضاته وتقرّباً إليه عزَّ وجل (**فإنها**) حينئذ تقرّبه إليه وتوجب حبه تعالى له والقرب والزلفى لديه و (**تجعل له**) من الذنوب (**كفارة ومن النار حجازاً ووقاية**) أي حاجزاً مانعاً من النار ووقاية من غضب الجبار.

كما يشهد به ما رواه في (**الفقيه**) عن الصادق عليه السلام قال: خياركم سمحاؤكم وشراركم بخلاؤكم، ومن خالص الإيمان البرّ بالإخوان، والسعي في حوائجهم، وإن البارّ بالإخوان ليحبه الرحمٰن، وفي ذلك مرغمة للشيطان، وتزحزح عن النيران، ودخول الجنان. ثم قال عليه السلام لجميل: يا جميل أخبر بهذا غرر أصحابك، قلت: جعلت فداك من غرر أصحابي؟

---

(١) وسائل الشيعة ١/١٧ ح ٣٣.

قال: هم البارّون بالإخوان في العسر واليسر، ثم قال: يا جميل إعلم أن صاحب الكثير يهوّن عليه ذلك وإنما مدح الله في ذلك صاحب القليل، فقال في كتابه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩][1].

وبعد ذلك (فـ)ـاللازم أن (**لا يتبعنها أحد**) من المعطين لها (**نفسه ولا يكثرنّ عليها لهفه**) وتحسّره، لأن اتباع النفس وإكثار اللهف كاشف محبته لها وهو ينافي محبته تعالى فكيف يتقرّب بإعطائها إليه ويبتغي القرب والزّلفى لديه.

(**فإن من أعطاها**) على وجه الإكراه (**غير طيّب النفس بها**) والحال أنه (**يرجو**) ويتوقع (**بها ما هو أفضل منها**) من رضوان الله تعالى والخلد في جنانه (**فهو**) كاذب في دعوى المحبة (**جاهل بالسنّة**) لأن السنّة في أدائها أن تكون بطيب النفس، ولذلك مدح الله الباذلين للمال كذلك بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

(**مغبون الأجر**) لأن الأجر مترتب على العمل، فإذا كان العمل لا على وجه الرضا يكون الجزاء المترتب عليه كذلك، ومن هنا قيل: كما تدين تدان، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الروم: ٣٩].

(**ضال العمل**) حيث أتابه على غير الوجه المطلوب شرعاً (**طويل النّدم**) في الآخرة على ما فوّته على نفسه من الأجر الجزيل والجزاء الجميل.

وأما الفصل الثالث

فهو ما أشار إليه بقوله: (**ثم أداء الأمانة**) التي جعل الله المحافظة عليها من وصف المؤمنين الموصوفين في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٨] والأخبار في فضلها بالغة حدّ الاستفاضة.

منها ما في (**البحار من الكافي**) عن الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عزّ وجل لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر[2].

---

(١) الكافي ٤/٤١ ح ١٥، ومن لا يحضره الفقيه ٢/٦١، ح ١٧٠٧.

(٢) الكافي ٢/١٠٤، وشرح أصول الكافي ٨/٢٩٧ ح ١.

ومن قرب الإسناد عن ابن طريف عن ابن علوان عن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الأمانة تجلب الغنى والخيانة تجلب الفقر»[١].

ومن **(الأمالي)** عن عمر بن يزيد قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «اتّقوا الله وعليكم بأداء الأمانة إلى من ائتمنكم، فلو أن قاتل أمير المؤمنين ائتمنني على أمانة لأدّيتها إليه»[٢].

وعن الثمالي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: سمعته عليه السلام يقول لشيعته: عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمداً بالحق نبيّاً لو أن قاتل أبي الحسين بن علي عليهما السلام ائتمنني على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه[٣].

وعن أحمد بن محمد الهمداني عن أبي جعفر الثاني عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة»[٤].

وعن الحسين بن أبي العلاء عن الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: أحبّ العباد إلى الله عزَّ وجل رجل صدوق في حديثه، محافظ على صلاته وما افترض الله عليه مع أداء الأمانة، ثم قال عليه السلام: من اؤتمن على أمانة فأدّاها فقد حلّ ألف عقدة من عنقه من عقد النار، فبادروا بأداء الأمانة، فإن من اؤتمن على أمانة وكّل به إبليس مائة شيطان من مردة أعوانه ليضلوه ويوسوسوا إليه حتى يهلكوه إلا من عصم الله عزَّ وجل[٥].

(فقد) علم من ذلك أنه **(خاب من ليس من أهلها)** أي خسر في الدنيا وفي الآخرة من لم يكن من أهلها، بل كان من أهل الخيانة، فإن الخيانة حسبما عرفت تجلب الفقر في الدنيا والنار في العقبى وخسر أهلها خسراناً عظيماً.

وإن شئت أن تعرف عظم الخطب ومزيد ثقل التكليف فيها فاستمع لما يتلى عليك من قوله:

(إنها عرضت على السماوات المبنيّة والأرضين المدحوة) المبسوطة على الماء

(١) الكافي ٥/ ١٣٣ ح ٧، وبحار الأنوار ٧٢/ ١١٤ ح ٦.
(٢) الأمالي ٣١٨ ح ٣٧٣، والكافي ٥/ ١٣٣ ح ٤.
(٣) وسائل الشيعة ١٩/ ٧٦، ومشكاة الأنوار ١٠٨ ح ٧.
(٤) عيون أخبار الرضا ١/ ٥٦، والأمالي ٣٧٩ ح ٤٨١.
(٥) الاختصاص ٢٤٢، ومستدرك سفينة النجاة ١/ ٢٢٣.

(والجبال) الراسيات **(ذات الطول المنصوبة)** المرفوعة على الأرض ولكنها مع أنها أعظم ما خلق الله عزَّ وجل في الكون **(فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها)** امتنعن من حمل هذا التكليف، أي تكليف الأمانة وأبَيْنَ أن يحملنها لثقلها وصعوبتها لا للعظمة والاستكبار عن الطاعة، بل للخوف والإشفاق من المعصية.

(ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوّة أو عزّ لامتنعن) بل كن أولى بالامتناع بما لهن من أوصاف العظمة التي ليست في غيرهن **(ولكن أشفقن من العقوبة وغفلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان)** فحملها مع ما به من الضعف والنقصان **(إنه كان ظلوماً جهولاً)**.

قال الشارح البحراني: وذكر كون السماوات مبنية والأرض مدحوة والجبال بطولها وعرضها وعظمتها، تنبيه للإنسان على جرئته على المعاصي وتضييع هذه الأمانة إذا هي لها وحملها وتعجب منه في ذلك، فكأنه يقول: إذا كانت هذه الأجرام العلوية التي لا أعظم منها قد امتنعت من حمل هذه الأمانة حين عرضت عليها فكيف حملها من هو أضعف منها؟.

أقول: تحقيق هذا المقام يحتاج إلى بسط الكلام.

قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد اختلفت أقوال المفسرين كالإخبار في تفسير هذه الآية في مواضع:

الأول: أن المراد بالأمانة المعروضة ماذا؟

فقيل: هي ما أمر الله به من طاعته ونهى عنه من معصيته، وبعبارة أخرى هي التكاليف والأحكام الشرعية المطلوبة من الإنسان، فإن الله سبحانه لما اقتضت عنايته لإيجاد هذه العبادة المخصوصة، وأن يجعل في الأرض خليفة لعمارتها، خلق الإنسان وجعله واسطة بين الملك والحيوان، فهو كالحيوان في الشهوة والغضب والتناسل وسائر القوى البدنية المخصوصة بالحيوان، وكالملك في العقل والعلم والعبادة وسائر الكمالات النفسانية، فلو كان خالياً من العقل والفهم لم يتأهل لمعرفته وعبادته الخاصة كسائر أصناف الحيوان ولو كان خالياً عن الشهوة والغضب مثل الملك لم يصلح لعمارة الأرض وخلافته، ولذلك قال الله للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فإذاً هذه العبادة الخاصة لا يصلح لها إلا الإنسان، وهي المراد بالأمانة في الآية.

ويؤيد هذا القول ما في **(الصافي)** من العوالي أن علياً عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلّون فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت الصلاة، وقت

أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبينّ أن يحملنها وأشفقن منها[١].

وقيل: هي أمانات الناس والوفاء بالعهود.

ويؤيده ما في (**البحار**) من (**مشكاة الأنوار**) نقلاً من كتاب (**المحاسن**) قال: وسئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الآية، ما الذي عرض عليهن؟ وما الذي حمل الإنسان؟ وما كان هذا؟ قال: فقال: عرض عليهن الأمانة بين الناس وذلك حين خلق الخلق[٢].

وعن بعض أصحابه رفعه قال: قال لابنه يا بني أدّ الأمانة تسلم لك دنياك وآخرتك وكن أميناً تكن غنياً.

وقيل: إن المراد بها الإمامة قال في تفسير القمي: الأمانة هي الإمامة والأمر والنهي، والدليل على أن الأمانة هي الإمامة قول الله عزَّ وجل للأئمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] يعني الإمامة، فالأمانة هي الإمامة عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها أن يدعوها أو يغصبوها أهلها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، يعني الأول إنه كان ظلوماً جهولاً، انتهى.

ويدل على ذلك أخبار كثيرة مثل ما في (**البحار**) من (**كنز الفوائد**) عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية، قال: يعني ولاية أمير المؤمنين[٣].

ومن(**جامع الأخبار والعيون**) عن الحسين بن خالد قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الآية، قال: الأمانة الولاية والإنسان أبو الشرور المنافق[٤].

ومن (**البصائر**) عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، قال: الولاية أبَيْنَ أن يحملنها كفراً بها، وحملها الإنسان، والإنسان الذي حملها أبو فلان، إلى غير هذه مما لا نطيل بروايتها[٥].

قال المحدث العلامة المجلسي بعد رواية هذه الروايات: على تأويلهم عليهم السلام يكون

---

(١) عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٧٤، وعدة الداعي ١٣٩.

(٢) مشكاة الأنوار ١٠٨، ومستدرك الوسائل ١٤/ ٧ ح ١٥٩٤١.

(٣) بحار الأنوار ٢٣/ ٢٧٥ ح ١.

(٤) معاني الأخبار ١١٠ ح ٢، وبحار الأنوار ٢٣/ ٢٧٩.

(٥) بحار الأنوار ٢٣/ ٢٨١ ح ٢٤، وتفسير الصافي ٤/ ٢٠٧.

اللام في الإنسان للعهد وهو أبو البشر، ورأى أبو بكر أو للجنس ومصداقه الأول في هذا الباب أبو بكر، والمراد بالحمل الخيانة، والمراد بالولاية الخلافة وادعائها بغير حق، فعرض ذلك على أهل السماوات والأرض أو عليهما بأن يبين لهم عقوبة ذلك وقيل لهم: هل تحملون ذلك؟ فأبوا إلا هذا المنافق وأضرابه حيث حملوا ذلك مع ما بيّن لهم من العقاب المترتب عليه[١].

الثاني: اختلفوا في المراد بعرض الأمانة على السماوات والأرض.

فقيل: إن المراد به عرضها على نفس الأرض والسماء وإنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال: إني فرضت فريضة وخلقت جنّة لمن أطاعني وناراً لمن عصاني، فقلن: نحن مسخّرات لأمرك لا نحتمل فريضة ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوماً لنفسه بتحمّلها ما يشقّ عليها، جهولاً لوخامة عاقبته.

وهذا القول، أعني عرضها على نفس السماوات والأرض مرويّ عن ابن عباس ويدل عليه ظاهر كلام أمير المؤمنين عليه السلام في المتن حيث قال: وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن[٢].

ويشهد به أيضاً ما رواه في **(البحار)** و **(غاية المرام)** من مناقب أبي بكر الشيرازي في نزول القرآن في شأن علي عليه السلام بالإسناد عن مقاتل عن محمد بن حنفية عن أمير المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ عرض الله أمانتي على السماوات السبع بالثواب والعقاب فقلن: ربنا لا نحملنها بالثواب والعقاب ولكنا نحملها بلا ثواب ولا عقاب، وإن الله عرض أمانتي وولايتي على الطيور، فأول من آمن بها البزاة البيض والقنابر وأول من جحدها البوم والعنقا، فلعنهما الله تعالى من بين الطيور، فأما البوم فلا تقدر أن تظهر بالنهار لبغض الطير لها، وأما العنقاء فغابت في البحار، وإن الله عرض أمانتي على الأرضين فكل بقعة آمنت بولايتي جعلها طيبة زكية وجعل نباتها وثمرتها حلواً عذباً وجعل ماءها زلالاً، وكل بقعة جحدت إمامتي وأنكرت ولايتي جعلها سبخاً وجعل نباتها مرّاً علقماً، وجعل ثمرها العوسج والحنظل، وجعل ماءها ملحاً أجاجاً، ثم قال: وحملها الإنسان، يعني أمتك يا محمد ولاية أمير المؤمنين وإمامته بما فيها من الثواب والعقاب، إنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً لأمر ربه، من لم يؤدّها بحقها ظلوم غشوم[٣].

---

(١) البحار: ٢٣/ ٢٨٠ ح ٢٠.

(٢) نهج البلاغة ٢/ ١٨٠، وبحار الأنوار ٣٣/ ٤٥٠.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢/ ١٤٢، وبحار الأنوار ٢٣/ ٢٨٢.

ومحصل هذا القول: أن المراد بالأمانة التكليف بالعبودية على وجهها والتقرّب بها إلى الله سبحانه كما ينبغي لكل عبد بحسب استعداده لها، وأعظمها الولاية والخلافة الإلٰهية، ثم تسليم من لم يكن من أهلها لأهلها وعدم ادّعاء منزلتها لنفسه، ثم سائر التكاليف الشرعية، والمراد بعرضها على السماوات والأرض والجبال اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن وبإبائهنّ الإباء الطبيعي الذي هو عبارة عن عدم اللياقة والاستعداد، وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وتحمّله إياها وكونه ظلوماً جهولاً، تقصيره في أدائها لما غلب عليه من القوة الشهوية والغضبية.

وقيل: إن المراد العرض على أهلها فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، وعرضها عليهم هو تعريفها إياهم أن في تضييع الأمانة الإثم العظيم، وكذلك في ترك أوامر الله وأحكامه، فبيّن سبحانه جرأة الإنسان على المعاصي وإشفاق الملائكة من ذلك، فيكون المعنى: عرضنا الأمانة على أهل السماوات والأرض والجبال من الملائكة والجن والإنس فأبى أهلهن أن يحملوا تركها وعقابها والمآثم فيها وأشفقن أهلها من حملها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً لنفسه بارتكاب المعاصي، جهولاً بموضع الأمانة في استحقاق العقاب على الخيانة فيها.

وقيل: إنه على وجه التقدير إلا أنه جرى عليه لفظ الواقع، لأن الواقع أبلغ من المقدر، والمعنى أنه لو كانت السماوات والأرض والجبال عاقلة ثم عرضت عليها الأمانة وهي وظائف الدين أصولاً وفروعاً بما فيها من الوعد والوعيد، لاستثقلت ذلك مع كبر أجسامها وشدّتها وقوتها ولامتنعت من حملها خوفاً من القصور عن أداء حقها، ثم حملها الإنسان مع ضعف جسمه ولم يخف الوعيد لظلمه وجهله.

الثالث: قوله: وحملها الإنسان.

المراد بالإنسان إما نوع الإنسان أي بنو آدم، أو خصوص أمة محمد ﷺ، فالمراد بحملهم لها قبولهم للإتيان بما كلّف عليهم من الطاعات والعبادات والتسليم لإمامة أئمة الدين، وكونه ظلوماً جهولاً لعدم خروجهم عن عهدة التكاليف وعدم وفائهم بما حملوه من طاعة الأئمة وتقصيرهم في أداء الأمانة، وهو وصف للجنس باعتبار أغلب أفراده الأنبياء والأولياء والمؤمنون القائمون بوظائف العبودية الرّاعون لعهد الإمامة خارجون عن عموم الآية قطعاً.

وأما خصوص فرد منه وهو أبو بكر حسبما تقدم في الأخبار، وعليه فالمراد بحمله للأمانة أي الخلافة ادعائه لها لنفسه من غير استحقاق وأهليّة، وبعبارة أخرى خيانته وتقصيره فيها وظلمه على من كان مستحقاً به وجهله بمرتبة نفسه حيث وضعها موضعاً ليس له.

وقيل: إن المراد بالإنسان هو آدم عليه السلام، واعترض عليه في (**مجمع البيان**) بقوله: ولا يجوز أن يكون الإنسان محمولاً على آدم لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٣٣] فكيف يكون من اصطفاه الله من بين خلقه موصوفاً بالظلم والجهل.

هذا تفصيل ما قيل، أو يقال في تفسير الآية الشريفة، وقد ظهر منه اختلافهم في المراد بالأمانة المذكورة فيها على أقوال.

وأما في كلام أمير المؤمنين عليه السلام فالظاهر أن المراد بها خصوص الأمانة المعهودة بين الخلق حسبما عرفتها في الأخبار المتقدمة، وإنما قلنا: إن الظاهر ذلك، لإشعار تقديم ذكر الصلاة والزكاة عليها على عدم كون المراد بها مطلق التكاليف الشرعية، بل التكليف المخصوص الذي في عداد الصلاة والزكاة القسيم لهما.

لكن الأظهر بمقتضى الحال والمقام، وأن وصيته بهذا الكلام إلى أصحابه كان في مقام الحرب مع الناكثين والقاسطين والمارقين حسبما تعرفه في التكملة الآتية هو: أن المراد بها الإمامة والولاية، فيكون غرضه بقوله: ثم أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها آه الطعن والتعريض على المعارضين له والجاحدين لولايته والناصبين له العداوة من معاوية وطلحة والزبير وأتباعهم وأهل النهر وأمثالهم بكونهم خائبين خاسرين، لعدم كونهم أهلاً للأمانة أي الخلافة والولاية، وبأنهم حملوا وادّعوا ما أبت السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامهما من حملها وادعائها، وأشفقن من ذلك، وبأنهم كانوا متصفين بالظلم والجهل حيث ظلموه عليه السلام حقه وجهلوا بشأنه ومقامه.

وكيف كان فلما أمر وأوصى أصحابه بالصلاة والزكاة وأداء الأمانة، وشدّد الترغيب فيها والتحذير من مخالفتها بكون الخائن أو المقصّر ظلوماً جهولاً، عقّبه بالتنبيه على أن كل ما يفعله العباد من خير أو شر بعين الله التي لا تنام وعلمه الذي لا تخفى عليه خافية لتأكيد تحضيض المخاطبين بمواظبة هذه العبادات الثلاث وسائر الحسنات وتحذيرهم من مخالفتها فقال:

(**إن الله سبحانه لا يخفى عليه**) ولا يعزب عن علمه (**ما العباد مقترفون**) أي مكتسبون له من خير أو شر حسن أو قبيح (**في ليلهم ونهارهم**) يعني أن الليل والنهار سيّان بالنسبة إلى علمه، وليس كغيره من مخلوقاته يكون إدراكه للمحسوسات بطريق الإحساس حتى تكون ظلمة الليل حجاباً وحجازاً عن إدراكه.

وقدم الليل على النهار لمزيد الاهتمام من حيث كونها مظنة لاختفاء ما يفعل فيها من المعاصي، وأردف بالنهار لدفع توهم الاختصاص.

(لطف به خبراً) أراد به علمه بخفيّات أفعال العباد وخبرويّته بها، واللطيف الخبير حسبما تقدم في شرح الخطبة السابقة من جملة أسمائه الحسنى عزَّ وعلا.

وتسميته باللطيف من جهة علمه بالشيء اللطيف مثل البعوضة وأخفى منها وموضع النشوء منها والعقل والشهوة للفساد والحدب على نسلها ونقلها الطعام والشراب إلى أولادها في المفاوز والأودية والقفار.

ومعنى الخبير هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة فلا يجري شيء في الملك والملكوت ولا تتحرك ذرّة ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرة، وهو بمعنى العليم إلا أن العليم إذا أُضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، وقد مرّ تفصيل نفاذ علمه في خفاء الأشياء في الفصل الثامن من الخطبة التسعين.

(وأحاط به علماً) وقد تقدم في شرح غير واحدة من الخطب المتقدمة كالخطبة الأولى والخطبة التاسعة والأربعين والخامسة والثمانين وغيرها تحقيق إحاطة علمه تعالى بالكليات والجزئيات ولا حاجة إلى الإعادة.

(أعضاؤكم شهوده) يعني أنها تشهد على العباد بما اقترفوه من المعاصي والآثام.

(وجوارحكم جنوده) يعني أنها تكون معينة له عليهم، وذلك لأن جنود الملك عبارة عن أعوانه على أعدائه فتلك الأعضاء والجوارح لما شهدت على المجرمين بما فعلوه صارت بمنزلة المعين له بذلك الاعتبار.

ويشهد بشهادة الأعضاء والجوارح قول الله تعالى في سورة (يس): ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [٦٥] أي نستنطق الأعضاء التي كانت لا تنطق في الدنيا لتشهد عليهم ونختم على أفواههم التي عهد منها النطق وهذا حقيقة الختم يوضع على أفواه الكفار يمنعها من النطق والكلام.

قال علي بن إبراهيم القمي قال: إذا جمع الله عزَّ وجل الخلق يوم القيامة دفع إلى كل إنسان كتابه فينظرون فيه فينكرون أنهم عملوا من ذلك شيئاً، فتشهد عليهم الملائكة فيقولون: يا رب ملائكتك يشهدون لك، ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من ذلك شيئاً، وهو قول الله عزَّ وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]، فإذا فعلوا ذلك ختم الله على ألسنتهم وتنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون.

وقال تعالى في سورة (فصلت): ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن

﴿يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [فصلت: ١٩_ ٢٢].

قال أمين الإسلام الطبرسي: أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرقوا، حتى إذا جاؤوا النار التي حشروا إليها شهد عليهم سمعهم بما قرعه من الدعاء إلى الحق فأعرضوا عنه ولم يقبلوه، وأبصارهم بما رأوا من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى فلم يؤمنوا، وسائر جلودهم بما باشروه من المعاصي والأفعال القبيحة(١).

وقيل في شهادة الجوارح قولان: **أحدهما**: أن الله تعالى يبينها بيّنة الحيّ ويلجئها إلى الاعتراف والشهادة بما فعله أصحابها، **والآخر**: أن الله يفعل فيها الشهادة أي يجعل فيها كلاماً، وإنما نسب الكلام إليها لأنه لا يظهر إلا من جهتها.

وقيل: فيه وجه ثالث: وهو أن معنى شهادتها وكلامها أن الله تعالى يجعل فيها من الآيات ما يدل على أن أصحابها عصوا الله بها، فسمّي ذلك شهادة منها كما يقال: عيناك تشهدان بِسَهَرِكَ.

وقيل: إن المراد بالجلود الفروج.

أقول: وهو المروي في **(الصافي)** عن **(الكافي)** عن الصادق عليه السلام ومن الفقيه عن أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم أنطق الله ألسنتهم فيقولون لجلودهم: لم شهدتم علينا؟ فتقول في جوابهم: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ﴾ [فصلت: ٢١] الآية، وليس هذا من جواب الجلود.

وقول: **(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم)** معناه وما كنتم تستخفون أي لم يكن يتهيأ لكم أن تستتروا أعمالكم عن هذه الأعضاء لأنكم كنتم بها تعملون، فجعلها الله شاهدة عليكم يوم القيامة، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون فاجترأتم على المعاصي لذلك. وقيل: بل معناه ما كنتم تتركون المعاصي حذراً أن يشهد عليكم جوارحكم بها لأنكم ما كنتم تظنون ذلك، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون، لجهلكم بالله فهان عليكم ارتكاب المعاصي لذلك، هذا.

وفي **(الصافي)** من**(الكافي)** عن الباقر عليه السلام: وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عزَّ وجل: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١](٢).

(١) مجمع البيان: ٩/ ١٥.
(٢) الكافي ٢/ ٣٢، وتفسير الصافي ٢/ ٢٥٦.

وقوله: **(وضمائركم عيونه)** قال الشارح البحراني: أي طلائعه وجواسيسه كقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وتلك الشهادة بلسان الحال، انتهى.

أقول: يعني أن الضمائر لا تخفى ما فيها من الأسرار ولا تكتمها عليه تعالى كما أن من شأن الجاسوس المراقب بشيء أن لا يكتمه ممن وكّله به، وعلى ذلك فالمراد بالضمائر القلوب، ويحتمل أن يكون المراد بالضمائر ما تضمره القلوب من الأسرار والخفيات.

(والعيون) جمع العين بمعنى الحاضر وهو أحد معانيه كما في **(القاموس)** وغيره، فيكون المعنى أن جميع ما أضمرته نفوسكم فهو حاضر لديه سبحانه غير محجوب عنه كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وقال: ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ﴾ [آل عمران: ٢٩].

ومحصل المراد أنه لا يخفى ما في النفوس عليه عزَّ وجل كما يخفى على غيره، فيكون مساقه مساق قوله عليه السلام في الخطبة التسعين: **(عالم السرّ من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين)**، وقوله في الخطبة المائة والسابعة: **(خرق علمه باطن غيب السترات وأحاط بغموض عقائد السريرات)**.

وقوله: **(وخلواتكم عيانه)** قال البحراني: كني بالخلوات عما يفعل فيها من معاصي الله مجازاً، وإنما خصصها لأنها مظنة المعصية، ويحتمل أن يريد بالخلوة مصدر قولك خلوت أخلو لا المكان، فيكون حقيقة، وظاهر كونها عيناً لله أي معاينة له.

وكل ذلك تحذير وتنفير عن تحريك الجوارح والخلوة بها فيما لا ينبغي من المعاصي، وبالله التوفيق والعصمة.

تذييل

الآية التي استدل بها أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكلام على وجوب المحافظة على الصلاة أعني قوله تعالى حكاية عن المجرمين: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣] مما استدل بها أكثر أصحابنا الأصوليون كالمعتزلة على أن الكفار مكلفون بالفروع حسبما أشار إليه أمين الإسلام الطبرسي «ره» أيضاً في تفسير الآية على ما حكيناه عنه سابقاً، وحيث إن هذه المسألة من المسائل الغامضة المعظمة، ويتفرّع عليها كثير من الأحكام الشرعية فلا بأس بتحقيق الكلام وبسطه فيها لكونها حقيقة بذلك.

فأقول وبالله التوفيق:

المشهور بين أصحابنا بل كاد أن يكون إجماعاً أن الكفار مكلفون بفروع العبادات كما أنهم مكلفون بأصول الإعتقادات وهو مذهب جمهور العامة أيضاً، ولم ينقلوا فيها خلافاً إلا

عن أبي حنيفة ولم أجد منا مخالفاً أيضاً إلا شرذمة من الأخبارية كالأمين الأسترابادي وصاحب (**الحدائق**) وصاحب (**الوافي**)، وهو الحق الموافق للتحقيق، وأستدل له بوجوه:

الأول: عموم الأدلة على التكاليف مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، و ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] وغيرها، فإنها تشمل الكافر مثل شمولها للمؤمن.

والاعتراض عليه بحملها على المؤمنين حملاً للمطلق على المقيّد والعام على الخاص كما في (**الحدائق**) فاسد، لما تطلع عليه عند ذكر أدلة الخصم.

الثاني: أن الكفر لا يصلح للمانعية حيث إن الكافر متمكن من الإتيان بالإيمان أولاً حتى يصير متمكناً من الفروع.

واعترض عليه صاحب (**الحدائق**) أيضاً بأنه مصادرة محضة.

وفيه مع عدم كونه مصادرة لأن المدعي أن الكفار مكلفون بالعبادات ومخاطبون بها، والدليل أن ما زعمه الخصم مانعاً من توجه الخطاب عليهم ومن الإتيان بها على الوجه الصحيح وهو الكفر لا يصلح للمانعية فكيف يكون مصادرة؟.

ومحصله أن ما دل على التكليف بالفروع عام ولا يمنع من ذلك عدم التمكن من الصحيح حال الكفر لأن الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، على أن الإيمان من شرائط الوجود التي يجب تحصيلها على المكلف لا شرائط الوجوب، فلا مانع من التكليف حال عدمها مع التمكن منها.

الثالث: قوله تعالى: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣] فإنه حكاية عن الكفار وأنهم علّلوا دخولهم النار بتركهم للصلاة على ما تقدم تفصيله سابقاً.

واعترض صاحب (**الحدائق**) أيضاً ما يحمل على المخالفين المقرّين بالإسلام إذ لا تصريح فيه بالكفار، ويدل عليه ما ورد في تفسير علي بن إبراهيم من تفسيرها باتباع الأئمة، أي لم نَكُ من أتباع الأئمة وهو مروي عن الصادق عليه السلام حسبما عرفت سابقاً وعن الكاظم عليه السلام يعني أنا لم نتول وصي محمد من بعده ولم نصل عليهم[1].

وفيه أن الصلاة حقيقة شرعية في الأركان المخصوصة وظاهر معنى المصلّين هو

---

(١) التفسير الصافي: ٥/٢٥١، وعوائد الأيام: ٩٩.

المقيمون للصلاة أي الأركان المخصوصة والحمل على المعنى اللغوي أي التابعين خلاف الظاهر المتبادر منه، فلا وجه لحملها على المخالفين، وإنكار التصريح فيه بالكفار مورد تعجب لأن قوله حكاية عنهم: وكنّا نكذّب بيوم الدين، صريح في كونهم كافرين منكرين للمعاد فكيف يكونون مقرّين بالإسلام؟ وأما الخبران المرويان عن الصادق والكاظم عليهما السلام فلا دلالة فيهما، لكونهما تفسيراً بالباطن كما قلناه عند شرح المتن فلا يوجبان رفع اليد عن الظاهر، ويشهد بذلك استدلال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكلام الذي نحن في شرحه بظاهرها على وجوب المحافظة على الصلوات الخمس وتعاهدها.

الرابع: قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١ـ ٣٢].

واعترض عليه أيضاً بجواز حمل الصلاة فيها على ما دلت عليه الأخبار في الآية الأولى وأن اللفظ من الألفاظ المجملة المتشابهة المحتاجة في تعيين المراد منها إلى التوقيف، فالاستدلال بها والحال كذلك مردود بتصادم الاحتمالات والدخول تحت قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] الآية، على أن ما ذكرنا من المعنى هو الموجود في تفسير علي بن إبراهيم كما لا يخفى على من راجعه.

وفيه **أولاً**: منع كون الآية من المتشابهات التي يتبعها الذين في قلوبهم زيغ، بل من المحكمات التي تؤخذ بظواهرها وهن أمّ الكتاب، وظاهر الآية كما ترى أنه لم يصدّق بكتاب الله ورسوله ولا صلى لله ولكن كذّب بالكتاب والرسول وأعرض عن الإيمان، وهذاوصف الكافر لا المخالف.

ويدل على ذلك ما في **(مجمع البيان)** قال: وجاءت الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ بيد أبي جهل ثم قال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة: ٣٤ـ ٣٥] فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني؟ لا تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لأعزّ أهل هذا الوادي، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا.

وأما ما في تفسير علي بن إبراهيم من أنه كان سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا إلى بيعة علي يوم غدير خم فلما بلّغ الناس وأخبرهم في علي ما أراد أن يخبر رجع الناس فاتكى معاوية على المغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري ثم أقبل يتمطى نحوه ويقول: ما نقرّ بالولاية لعلي أبداً ولا نصدّق محمداً مقالته، فأنزل الله جل ذكره: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة: ٣١] الآيات، فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر وهو يريد البراءة منه، فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦] فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

(١) تفسير القمي: ٢/ ٣٩٧، والتفسير الصافي: ٥/ ٢٥٨.

فالجواب عنه أن ظاهر قوله سبحانه: فلا صدق ولا صلى ولكن كذّب وتولى، يفيد أنه لم يصدق أصلاً لا ظاهراً ولا باطناً، ولم يقم الصلاة بل كذّب وأعرض ظاهراً وباطناً، وهذا شأن الكافر لا المخالف المصدّق ظاهراً فقط، والمكذّب المعرض باطناً فقط.

وعلى ذلك فاللازم ترجيح الرواية المفيدة لكون المراد بهذه الآية هو أبو جهل الكافر كما في (**مجمع البيان**) على ما في تفسير القمي من (**المفيد**) كون المراد بها معاوية لأن في الأخذ بالرواية الأولى إبقاء الآية على ظاهرها والأخذ بالثاني يوجب صرفها إلى خلاف ما هو الظاهر المتبادر.

ويؤيد كون المراد به أبو جهل أن هذه الآية في سورة (القيامة) وهي مكية كما صرح به في (**مجمع البيان**) في تفسير هذه السورة ورواه أيضاً في تفسيره سورة (هل أتى) فإنه يقوي الظن بكون نزولها بمكة في حق أبي جهل لا في غدير خم في حق معاوية، والله العالم.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ـ ٧] وهو نص صريح في المطلوب.

السادس: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: ٤٨] ذمّ الله المكذبين بتركهم للركوع.

قال في (**الصافي**): روى أنها نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة فقالوا: لا نحني، وفي رواية: لا نجبّي فإنها سبّة، ورواها في (**المجمع**) قال: فقال: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود، أقول: أي لا نحني بالمهملة والنون أي لا نعطف ظهورنا، وعلى الرواية بالجيم والباء الموحدة المشددة أي لا ننكب على وجوهنا وهما متقاربان.

وأما ما في تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام قال: إذا قيل لهم تولوا الإمام لم يتولّوه، فهو تفسير بالباطن لا يوجب صرف اليد عن الظاهر كما لا يخفى.

واحتج القائلون بالعدم بوجوه فصّلها صاحب (**الحدائق**) في مبحث غسل الجنابة من الكتاب المذكور لا بأس بذكر عبارته على تفصيلها ثم نتبع كل وجه بما يتوجه عليه من وجوه الكلام وضروب الملام.

فأقول: قال في (**الحدائق**):

المشهور بين الأصحاب رضي الله عنهم، بل كاد أن يكون إجماعاً، أنه يجب الغسل على الكافر لأن الكفار مكلّفون بالفروع ولم ينقلوا في المسألة خلافاً من أحد من الخاصة بل من العامة إلا عن أبي حنيفة، قالوا: لكن لا يصح منه حال كفره لاشتراط الصحة بالإسلام ولا يجبّه الإسلام وإن جبّ الصلاة لخروجها بدليل خاص.

وما ذكروه منظور عندي من وجوه:

الأول: عدم الدليل على التكليف المذكور وهو دليل العدم كما هو مسلّم بينهم، وما استدلوا به مما سيأتي ذكره مدخول بما سنذكره.

أقول: وفيه أنك قد عرفت الأدلة المحكمة على هذا التكليف كما عرفت اندفاع الاعتراضات التي اعترض بها عليها.

الثاني: الأخبار الدالة على توقف التكليف على الإقرار والتصديق بالشهادتين.

منها ما رواه في **(الكافي)** في الصحيح عن زرارة قال: قلت للباقر عليه السلام: أخبرني عن معرفة الإمام منكم واجبة على جميع الخلق؟ قال: إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله إلى الناس أجمعين رسولاً وحجة لله على خلقه في أرضه، فمن آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله واتّبعه وصدّقه فإن معرفة الإمام منا واجبة عليه، ومن لم يؤمن بالله ورسوله ولم يتّبعه ولم يصدّقه ويعرف حقهما فكيف يجب عليه معرفة الإمام، وهو لا يؤمن بالله ورسوله ويعرف حقهما؟، الحديث(١).

وهو كما ترى صريح الدلالة على خلاف ما ذكروه وأنه متى لم يجب معرفة الإمام قبل الإيمان بالله ورسوله فبالطريق الأولى معرفة سائر الفروع التي هي متلقاة من الإمام. والحديث صحيح السند باصطلاحهم صريح الدلالة، فلا وجه لردّه وطرحه والعمل بخلافه إلا مع الغفلة عن الوقوف عليه.

قال: وإلى العمل بالخبر المذكور ذهب المحدث الكاشاني حيث قال في **(الوافي)** بعد نقله ما صورته: وفي هذا الحديث دلالة على أن الكفار ليسوا مكلّفين بشرائع الإسلام كما هو الحق، خلافاً لما اشتهر بين أصحابنا، انتهى.

قال: ويظهر ذلك أيضاً من الأمين الاسترابادي في **(الفوائد المدنية)** حيث صرّح فيها بأن: حكمة الله اقتضت أن يكون تعلّق التكاليف بالناس على التدريج بأن يكلّفوا أولاً بالإقرار بالشهادتين ثم بعد صدور الإقرار عنهم يكلّفون بسائر ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك صحيحة زرارة في **(الوافي)** ثم ساق الرواية بتمامها.

قال: وقال أيضاً بعد نقل جملة من أخبار الميثاق المأخوذ على العباد في عالم الذّر بالتوحيد والإمامة ونقل جملة من الأخبار الدالة على فطرة الناس على التوحيد وأن المعرفة من صنع الله تعالى ما لفظه، أقول: هنا فوائد إلى أن قال: الثالثة: أنه يستفاد منها أن ما زعمه الأشاعرة من أن مجرد تصوّر الخطاب من غير سبق معرفة إلهامية بحقائق العالم، وبأن

---

(١) الكافي ١/١٨١، ومستدرك سفينة البحار ٩/١٥٢.

له رضاً وسخطاً وأنه لا بد له من معلّم من جهته ليعلّم الناس ما يصلحهم وما يفسدهم كاف في تعلّق التكليف لهم ليس بصحيح، انتهى.

واعترض عليه أولاً بأن الاستدلال يتوقف على القياس بطريق الأولى، وهو ممن أنكره في مقدمات الكتاب وأنكره أشد الإنكار فكيف يجوز له التمسك به في هذا المقام مضافاً إلى أنه مع القول بحجيته كما هو الحق الحقيق بالاتباع الموافق للآية وللأخبار المسلّم عند كافة علمائنا الأبرار حتى عند المستدلّ في مواضع عديدة ومنها هذا الموضع يتوقف على ثبوت الحكم في المقيس عليه ومسلميّته وقبوله وعدم مخالفته للضرورة، والأمر في المقام ليس كذلك وذلك فإنه لا خلاف ولا إشكال عند أحد حتى عند المستدل حيث جعل محلّ نزاعه مع كافة العلماء عدا أبي حنيفة في خصوص الفروع، والإمامة من الأصول لا من الفروع إجماعاً منه ومن علمائنا.

وثانياً: أن مقتضى هذه الصحيحة عدم التكليف بالإمامة وسائر الفروع إلا بتصديق الله ورسوله وهو حقيقة في التصديق والإذعان القلبي لا مجرد الإقرار باللسان، وعلى تقدير تسليم العموم فالمراد هنا التصديق القلبي جزماً لقوله عليه السلام: **(ويعرف حقّهما)** فإن المعرفة ليس مما يتوهم فيه حصوله باللسان خاصة، بل هو أمر قلبي جزماً وإذعان نفساني قطعاً، فحينئذ تدلّ هذه الصحيحة على أن المنافقين ومنهم الخلفاء الثلاثة لم يكونوا مأمورين بالإمامة ولا سائر الفروع، ومقتضى هذا أنه لم يكن عليهم إثم في غصب الخلافة وسائر ما فعلوه بالنسبة إلى أهل البيت من ضرب فاطمة عليها السلام وغصب حقّها وإضرام النار حول بيتها وإلقاء الحبل على رقبة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وغير ذلك مما فعلوه بالنسبة إليهم وإلى غيرهم من البدع التي ابتدعوها في الدّين وتضييع دين خاتم النبيين وسيد المرسلين، وكذا ما فعله يزيد وسائر جنود المخالفين مع سبط الرسول الأمين، وما فعله المخالفون بالنسبة إلى شيعتهم وغير ذلك، وفي جميع ذلك لم يكونوا مأثومين أصلاً بل هم وغيرهم من الكفّار الذين لم يصدر منهم شيء من ذلك متساويين في عقاب واحد، وهو عدم الإيمان بالله ورسوله، وذلك من حيث عدم تصديقهم لله ورسوله ومعرفة حقّهما، فإنهم وإن أقرّوا باللسان إلا أنهم لم يصدقوهما قلباً ولم يعرفوا حقّهما، فبمقتضى الصحيحة نظراً إلى عدم إيمانهم بالله ورسوله ومعرفتهم حقّهما كيف يكلّفهم الله تعالى بالإمامة وسائر الفروع، وليس في الصحيحة أن مجرد الإقرار باللسان كان في ذلك، وعلى هذا لم يكن لشكاويهم عليهم السلام عن المخالفين والخلفاء الثلاثة وطعنهم ولعنهم وإثبات الويل عليهم وتكفيرهم من الجهات التي ذكرت وتفسيقهم وكذا طعن علمائنا ومنهم المستدل عليهم وجه، بل كان لغواً محضاً ويلزمه أنه لو فعل ذلك أو شيئاً من ذلك غير المنافقين من سائر الكفار الذين لم يقروا بالإسلام بالنسبة إلى سادة الأنام وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسبطيه عليهما السلام وغيرهم من شيعتهم وأولادهم وذراريهم

بالقتل والنهب والأسر أنه لم يكن عليهم في ذلك شيء، ويكونون هم وسائر من لم يحدث أمثال هذا عنه في العقاب متساويين، وقطعي أن المستدل لا يقول به أيضاً إذ القول بذلك من أشنع الشنائع وأقبح الفضائح، وهل كان مراد النبي ﷺ بقوله في حق فاطمة عليها السلام: «من آذاها فقد آذاني»، وغير ذلك بالنسبة إليها وإلى غيرها من الحسنين وأمير المؤمنين عليه السلام وأولادهم خصوص المؤمنين المصدقين لله ولرسوله العارفين بحقّهما، أو المراد منه الأعم بل ملحوظ نظره خصوص المخالفين، أفيجوّز المستدل ذلك بالنسبة إلى غيرهم فيحكم بجواز أسر غيرهم للسادات والعلويات والفاطميات وقتلهم ونهب أموالهم وهتك عرضهم وغير ذلك من الناس، بل الأنبياء؟، ما هذا إلا شيء عجيب أقرب من الكفر لو لم يكن كفراً.

وثالثاً: إن المخالفين عند المستدل كفار حقيقة بالكفر المقابل للإسلام، فيلزمه جريان أحكامهم فيه، ومنها القول الذي استحدثه من عدم العقاب على ترك شيء من التكاليف ما هذا إلا أمر غريب وشيء عجيب وبالجملة فإن الصحيحة صريحة في عدم تكليف المخالفين بالإمامة ولا بشيء من الفروع، ويفصح عنه قوله عليه السلام: فكيف يجب عليه معرفة الإمام وهو لا يؤمن بالله ورسوله ويعرف حقهما، وذلك بالتقريب الذي تقدّم، ونزيد حينئذ وجه دلالته على ذلك هنا فنقول: إن مقتضاها أن التكليف بالإمامة فرع الإيمان بالله ورسوله وهو على ما عرفوه وورد به الخبر، وقد ذكره في أول كتاب الصلاة هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان ولا ريب في أن ذلك لم يتحقق في حق الخلفاء الثلاث لعدم تصديقهم بالجنان، هذا، أفتجوّز أيها العاقل أن الكفار المحاربين للنبي ﷺ، والكاسرين لأسنانه، والقاتلين للمسلمين في زمنه ﷺ، والمتصدّين لإيقاع البلايا والمحن عليه أن يكونوا في جميع ذلك معذورين غير مأثومين؟! وأن دعاءه ﷺ عليهم في بعض الحروب كان عبثاً ولغواً بلا منشأ وأن المنشأ هو عدم الإقرار مع أنه لا وجه لدعائه ﷺ عليهم في ذلك الحين خاصة دون غيرهم أو لهم في غير تلك الحال.

ورابعاً: أن هذه الصحيحة معارضة بما في **(التهذيب)** في باب أن الجزية واجبة على جميع أهل الكتاب عن محمد بن يعقوب الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد عن حريز، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن صدقات أهل الذمة وما يؤخذ من جزيتهم من ثمن خمورهم ولحم خنازيرهم وميتتهم، قال عليه السلام: عليهم الجزية في أموالهم، يؤخذ منهم من ثمن لحم الخنزير أو خمر كل ما أخذوا منهم من ذلك فوزر ذلك عليهم وثمنه للمسلمين حلال، يأخذونه في جزيتهم[1].

---

(١) الكافي ١/١٨١، وتحريرات في الأصول ٥/٣٣٣.

وهذا الخبر ليس في سنده من يتوقف فيه سوى إبراهيم بن هاشم وهو على المشهور حسن كالصحيح، وعند المحققين من المتأخرين كما ذكره المستدل وارتضاه ثقة، والسند المشتمل عليه إذا كان الباقي من رجال السند لا يتوقف فيه صحيح، هذا.

مع أنه لم يقل بهذا الاصطلاح الذي تصدّى لنا سلبه متاخراً وأصحابنا ـ شكر الله سعيهم ـ فالحديث حجّة عنده ولو كان راويه من أكذب البريّة وصرّح بكذبه الأئمة، وتصحيح سنده منّا تبرعيّ وسد لباب فرار الخصم لو ادعى مراعاة الصحة في السند بعد وقوع المعارضة بينه وبين ما صح سنده، ومع صحة سنده كما ترى صريح في ثبوت الوزر عليهم في استحلالهم ثمن ما لا يحل ثمنه في ملّة الإسلام ومع ثبوت الوزر عليهم في ذلك يثبت في المعاصي التي ذكرناها التي هي أشدّ منها. ومقتضى الأولوية التي تمسّك بها في إثبات مطلبه ثبوت الوزر عليهم في المعاصي التي هي أشد بطريق الأولوية هذا، مضافاً إلى عدم القول بالفصل.

قال المحقق الثاني المحقق الشيخ علي بعد ذكر هذا الخبر:

فيه دلالة على أن الكافر يؤخذ بما يستحلّه إذا كان حراماً في شريعة الإسلام، وأن ما يأخذونه على اعتقاد الحل حلال علينا وإن كان ذلك الأخذ حراماً عندنا.

ومراده بقوله: يؤخذ بما يستحله، المؤاخذة عليه وإيجاب ذلك العقاب لا أخذ الجزية لتبادر الأول من العبارة.

وبه اعترف من كتاب (**الزكاة**) في مسألة استحباب ما سوى الزكاة من الحقوق التي في المال من الضغث بعد الضغث والحفنة بعد الحفنة يوم الجذاذ حيث إنه من القائلين بالاستحباب مستنداً إلى رواية معاوية بن شريح قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: في الزرع حقّ تؤخذ به وحقّ تعطيه[١].

حيث قال: المتبادر من هذه العبارة العقاب على تركه، وهو كناية عن الوجوب والإلزام به شرعاً.

واستشهد لذلك بما في (**المصباح المنير**) من قوله: وأخذ بذنبه، عاقبه عليه، وإن كان في الاستشهاد نوع تأمّل.

وهذه الصحيحة مع صراحتها في ذلك معتضدة بعمل كافة العلماء إلا أبا حنيفة على اعترافه ومعتضده بأدلة العقلاء التي ديدنه التمسك بها فكيف يعارضها التي ذكرها المستدل؟.

---

(١) الكافي ٣/ ٥٦٤ ح ٦٠٠٨، ووسائل الشيعة ٩/ ١٩٦ ح ١١٨٢٠.

مضافاً إلى معارضة الكتاب العزيز لها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨] وقد نهاهم الله عن القرب من المسجد الحرام، وبمقتضى الصحيحة لم يكن لهذا التكليف وجه، وكذا تكليفهم بالجزية وأخذها منهم وإيجابها عليهم.

ويدل على أنهم مكلفون بشريعة الإسلام وفروعها زيادة على الإيمان قوله عزَّ من قائل: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

أُنظر، أيّدك الله تعالى، إلى ظهور هذه الآية في كونهم مكلّفين بتحريم ما حرّم الله والتّدين بدين الحق، بل وصراحتها في ذلك، فإنهم لو لم يكونوا مكلفين بذلك لما كان لإرداف قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخره، بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، وإيراد ذلك في بيان منشأ مقابلتهم وأخذ الجزية منهم وجه، إذ كان عدم الإيمان كافياً في ذلك، فيصير الإرداف المذكور لغواً بحتاً وخالياً عن الفائدة بالمرة تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الفرقان: ٦٨ـ ٦٩].

أُنظر إلى صراحة هذه الآية أيضاً، فجعل العذاب المضاعف جزاء لهم على الأفعال المذكورة ومن جملتها قتل النفس والزنا، فلولا أن كلاً من الأمور المذكورة يصير سبباً لضعف العذاب يوم القيامة أو المجموع من حيث المجموع، لما كان لتأخير الإشارة أي لفظة ذلك عن جميع ذلك وجه، بل كان المناسب بل اللازم دفعاً لتوهم الاشتراك إردافها بالأمر الأول فقط وهو الشرك ليفيد انفراده في السبَّبية.

والآيات الظاهرة في ذلك كثيرة، والعمل بالصحيحة يوجب ردّها بأجمعها، وأيّ عاقل يرضى بهذا وقد أمروا ﷺ في أخبار كثيرة مستفيضة بالأخذ بما وافق الكتاب، وهذه الأخبار متلقاة بالقبول حتى عند المستدل، فالصحيحة الموافقة له وهي ما ذكرناها ترجّح على الصحيحة المخالفة له وهي ما ذكرها.

وبعد هذا كله نقول:

الذي يفهم من الصحيحة غير ما فهمه المستدل وذكره، بل المراد منها والله العالم وقائله أعلم: أن مخاطبة الكفار المنكرين غير المقرّين بالله ورسوله إلى معرفة الإمام الذي هو نائبه وخليفته ومن تجب إطاعته، وتوجيه الخطاب بذلك إليهم يكاد أن يكون ذلك لغواً،

وذلك لا يستلزم عدم إرادتها ومطلوبيتها منهم.

ونظير ذلك في الشرع كثير، منه تكليف النائم وكذا الغافل وكذا فاقد الطهور عند المحققين في الأخير وعند الكل في الأولين بقضاء الصلاة التي فاتتهما الذي هو عبارة عن تدارك ما فات اتفاقاً، فلولا أن الصلاة مرادة ومطلوبة منهم في تلك الأحوال لما كان للأمر بالقضاء معنى.

ولذلك مثال في العرف كأن يكون لشخص عبد لا يطيعه ويعصيه فلا يأمره بإطاعة وكيله مثلاً، ولا يوجه إليه الخطاب بإطاعة الوكيل مع أنه لو وجهه لا يطيعه جزماً، فإن ذلك لا يوجب عدم المطلوبية منه وعدم إرادته على وجه الوجوب واللزوم لينحصرا فيما دل عليه الأمر الخطابي.

فالمراد بقوله عليه السلام: كيف يجب عليه معرفة الإمام؟ أنه كيف يوجه الخطاب إليه.

ولذلك مثال آخر وهو أن الأمر بالشيء عند المحققين لا يستلزم الأمر بما هو مقدمة لوجوده، ويقولون بعدم حرمته من حيث إنها مقدمة ومع ذلك يقولون: إن الخطاب بالإباحة وعدم الحرمة يكون لغواً وإن كان ما تضمنه الخطاب حقاً، ويكون مثله كبيان الواضحات مثل أن النائم لا يبصر، والأسود الزنجي لا يعلم الغيوب، وأمثال ذلك. فعدم توجه الخطاب من حيث القبح في الصدور لا يستلزم عدم ما تضمنه لو صدر وقبحه وذلك واضح لا يخفى.

قال صاحب (**الحدائق**):

ومنها ما رواه الثقة الجليل أحمد بن أبي طالب الطبرسي في (**الاحتجاج**) عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الزنديق الذي جاء إليه مستدلاً عليه بآي القرآن قد اشتبهت حيث قال عليه السلام:

فكان أول ما قيّدهم به الإقرار بالوحدانية والربوبية وشهادة أن لا إله إلا الله، فلما أقرّوا بذلك تلاه بالإقرار لنبيه صلى الله عليه وآله بالنبوة والشهادة بالرسالة، فلما انقادوا لذلك فرض عليهم الصلاة ثم الصوم ثم الحج، الحديث[1].

وفيه بعد تسليم حجيته بحسب السند حيث إنه ليس من أخبار الكتب التي يدعي قطعيتها: أن التكليفات في صدر الإسلام وأول البعثة صدرت تدريجاً ولم تنسخ الشريعة السابقة دفعة، بل إنما نُسخت شيئاً فشيئاً، وليس ذلك من محل النزاع في شيء؛ فإنه لا ريب أنهم متعبّدون بشريعتهم السابقة، ولكن النبي صلى الله عليه وآله لم ينسخها عنهم دفعة بل أبقاهم في أول

(١) بحار الأنوار ٩٠/ ١٢٢، والتفسير الصافي ٤/ ٢٢٥ ح ٤٦.

الشريعة على شريعتهم ونسخ منها شيئاً فشيئاً فأوجب عليهم بعض التكاليف تدريجاً، وذلك لا يستلزم عدم كونهم مكلفين بالتكاليف في شريعتنا بعد انتساخ شريعتهم، قال:

ومنها ما رواه الثقة الجليل علي بن إبراهيم القمي في (**تفسيره**) عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧]، حيث قال عليه السلام:

أترى أن الله عزّ وجل طلب من المشركين زكاة أموالهم وهم يشركون به حيث يقول: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾، إنما دعى الله العباد للإيمان به، فإذا آمنوا بالله ورسوله افترض عليهم الفرض[1].

قال المحدّث الكاشاني في كتاب (**الصافي**) بعد نقل الحديث المذكور:

أقول: هذا الحديث يدل على ما هو التحقيق عندي من أن الكفار غير مكلفين بالأحكام الشرعية ما داموا باقين على الكفر، انتهى.

وفيه بعد تسليم السند الحمل على التقية لكونه مذهب أبي حنيفة كما اعترف، وهو قد كان في زمان مولانا الصادق عليه السلام ومن تلامذته، ومذهبه كان مشهوراً بينهم في زمانه.

والشاهد على الحمل على التقية وتعينه أنه مع عدم هذا الحمل يلزم مناقضة مضمون الخبر لنص الآية، فإنها صريحة في أن المراد بالمشركين هم الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة حيث وصفهم فيها بقوله: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

وحينئذ فمقتضى الخبر أن مورد الآية إما المسلمون أو الذين لا نعرفهم أو لا مورد لها، والأخيران باطلان جزماً، وكذلك الأول لأنه يلزم أن يكون المسلمون والمؤمنون مشركين كافرين باليوم الآخر، فيحكم بنجاستهم وكفرهم وعدم قربهم من المسجد الحرام وغير ذلك من أحكام الكفر، كما فعل ذلك المستدل في الحكم بكفر المخالفين من حيث إطلاق الكفر عليهم في الأخبار وجعلهم بذلك كفاراً حقيقة بالكفر المقابل للإسلام، فإذا كان المؤمن لا يؤتي الزكاة يلزم الحكم بكفره وشركه ونجاسته واستحقاقه للخلود في النار وهو قطعي الفساد عند المستدل وعند الكل، هذا.

مع أن الشرك والكفر بالآخرة الواقعين في الآية وصفاً لمن لا يؤتي الزكاة حقيقة فيمن صدر عنه هذان الوصفان، وليس المسلم كذلك جزماً ووجداناً، وحينئذ فالعمل بالخبر يستلزم إلغاء الآية وعدم وجود مصداق لها أو القول بكفر من لا يؤتي الزكاة من المؤمنين وشركه

---

(١) بحار الأنوار ٩/ ٢٣٤، وتفسير الصافي ٢/ ٢٦٢.

وترتب أحكامهما عليه ولا أراه يقول به.

وبالجملة، ظاهر الخبر مناقض لصريح الآية، وقد قالوا في أخبار كثيرة: ما خالف الكتاب فاضربوه على الحائط، وأي مخالفة أشد من هذه المخالفة؟.

ولو قيل بكون هذا الخبر تفسيراً لها ووجوب المصير إليه لزم منه طرح تلك الأخبار، ويلزم منه أن لا يوجد مصداق لتلك الأخبار الآمرة لضرب المخالف للقرآن على الحائط إذ كل خبر مخالف يحتمل أن يكون تفسيراً للقرآن، وإن لم يرد في تفسيره فأي خبر يعلم منه المخالفة للقرآن؟.

وبمقتضى جميع ما ذكر يتعين الحمل على التقية التي هي باعتراف المستدل رأس كل آفة وبليّة.

مع أنه يحتمل أن يكون المراد بهذا الخبر ما قدمناه في الاعتراض على الخبر الأول من أن عدم توجه الخطاب إليهم لا ينافي مطلوبيته منهم، أو ما قدمناه في الاعتراض على الخبر الثاني من أنهم في صدر الإسلام وأول البعثة لم يؤمروا بذلك، وإنما كلفوا بالتكاليف شيئاً فشيئاً، وإليه يشير قوله عليه السلام في آخر الخبر: إنما دعا الله العباد للإيمان، وعلى ذلك فلا دلالة فيه على ما رامه.

قال صاحب (**الحدائق**):

ومما يدل على ذلك ما ورد عن الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] حيث قال: كيف يأمر بطاعتهم ويرخص في منازعتهم؟ إنما قال ذلك للمأمورين الذين قيل لهم: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول[1].

أقول: تمام الحديث ما رواه (**الكافي**) عن بريد العجلي، قال: تلا أبو جعفر عليه السلام ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ﴾ وأولي الأمر منكم، ثم قال: كيف يأمر بطاعتهم ويرخص في منازعتهم؟ إنما قال ذلك للمأمورين الذين قيل لهم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[2].

وهو كما ترى لا دلالة فيه على ما رامه المستدل بوجه، بل محصّل معناه أنه كان في مصحفهم عليهم السلام: فارجعوه مكان فردّوه، ويحتمل أن يكون تفسيراً له، كما أن قوله: فإن خفتم

---

(١) الكافي ١/ ٢٧٦ ح ١، وبحار الأنوار ٢٣/ ٢٩١ ح ١٧.

(٢) الكافي ١/ ٢٧٦، وبحار الأنوار ٢٣/ ٢٩١.

تنازعاً للأمر تفسير لقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾، ويستفاد منه أيضاً أنه كان في مصحفهم: وإلى أولي الأمر منكم، فيدل على أنه لا يدخل أولوا الأمر في المخاطبين بقوله: إن تنازعتم، كما زعمه المفسرون من المخالفين، فقوله: كيف يأمر بطاعتهم ويرّخص في منازعتهم؟ يريد به أن الله سبحانه أمر بطاعتهم أولاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، ومع ذلك فلا يجوز إدخالهم في المخاطبين بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾، إذ وجوب الإطاعة لا تجتمع مع الترخيص في المنازعة فلا بد أن يكون المقصود بالخطاب غيرهم، وهم الذين أمروا أولاً بإطاعة الله والرسول وأولي الأمر، فأمروا ثانياً عند التنازع بالرد والرجوع إليهم أيضاً، فافهم جيداً.

الثالث: لزوم تكليف ما لا يطاق، إذ تكليف الجاهل بما هو جاهل به تصوراً وتصديقاً عين تكليف ما لا يطاق، وهو مما منعته الأدلة العقلية والنقلية لعين ما تقدم في حكم معذورية الجاهل، وإليه يشير كلام (**الذخيرة**) في مسألة الصلاة مع النجاسة عامداً حيث نقل عن بعضهم الإشكال في إلحاق الجاهل بالعامد، وقال بعده: والظاهر أن التكليف متعلق بمقدمات الفعل كالنظر والسعي والتعلم، وإلا لزم تكليف الغافل أو التكليف بما لا يطاق، والعقاب يترتب على ترك النظر ـ إلى أن قال ـ ولا يخفى أنه يلزم على هذا أن لا يكون الكفار مخاطبين بالأحكام، وإنما يكونون مخاطبين بمقدمات الأحكام، وهذا خلاف ما قرره الأصحاب رضي الله عنهم وتحقيق المقام من المشكلات.

قال صاحب (**الحدائق**) بعد نقل هذا الكلام:

لا إشكال بحمد الله سبحانه فيما ذكره بعد ورود الأخبار بمعذورية الجاهل حسبما مر، وورودها بخصوص الكافر كما نقلنا هنا، ولكنهم يدورون مدار الشهرة في جميع الأحكام وإن خلت عن الدليل في المقام، سيما مع عدم الوقوف على ما يضادّها من أخبار أهل الذكر عليهم السلام.

وفيه **أولاً**: أن هذا الدليل أخص من المدعي لا يشمل من تصور أحكام الإسلام وعرفه.

و **ثانياً**: إن كان مراده بذلك الجاهل المستضعف الذي لا يعرف الإسلام ولم يسمع صيته أصلاً فلا كلام فيه.

وإن أراد من سمع صيت الإسلام وعرفه فلا نسلّم أنه جاهل تصوّراً وتصديقاً بل لا ريب أنه عالم بالشرائع الموظفة ولو إجمالاً.

نعم، ليس عالماً بذلك تفصيلاً فهو متصوّر لما في الإسلام من شريعة وأحكام كما أنّا

مثلاً عارفون بدين أهل الكفر وأن لهم شرائع وأحكاماً وإن كنا جاهلين بذلك تفصيلاً، وهذا القدر من العلم يكفي.

ولذلك أن أصحابنا لا يعذرون الجاهل في الأحكام نظراً إلى علمه بذلك إجمالاً، ولو لم يكف هذا المقدار لزم أن لا يكلف المقرّ بالله ورسوله بمعرفة الإمام والفروع أصلاً حتى الصلاة والزكاة والحج ولا يعاقب بتركها أيضاً، ويكون الأمر بالمعرفة الواردة في الأخبار ليس فيه فائدة، ومن الفروع وجوب تحصيل المعرفة بالأحكام وعلى ما ذكره يلزم أن لا يكونوا مكلفين، وهو ممن يقول بوجوب تحصيل المعرفة على المسلمين.

وعلى قوله لم يكن فرق بينها وبين سائر الواجبات والمحرمات، إذ الجهل الذي هو علة لعدم تعلق التكليف بما وراء المعرفة من حيث استلزامه التكليف بما لا يطاق جاء في نفس المعرفة أيضاً فأنّى له بالفارق؟، هذا.

مع أنه لو صح ما ذكر يلزم قبح التكليف بالأصول أيضاً لاتحاد العلة، بل ازديادها فيها، وذلك فإن من تيقن بطلان الإسلام فضلاً عن أن يجهله مكلف بالأصول جزماً فتكليف من هو جاهل بها أولى كما لا يُخفى.

ويلزم على ذلك خروج أكثر الكفار لو لم يكن كلهم عن التكليف بالإسلام لاستحالة تكليف الجاهل فضلاً عن العالم، ولا ريب أن كل من دان بدين إلا من شذّ متيقن بدينه جازم بصحته، ففي حال الجزم واليقين كيف يكلّف بالعلم ببطلان ما علمه وفساد ما تيقن به؟.

وبذلك يظهر أنهم ليسوا مكلّفين بالأصول، والحال أن المستدل لا يقول به، وليت شعري كيف لا يلتزم به مع اقتضاء دليله ذلك وجريانه فيه بل أولى بالجريان كما عرفت، هذا.

وقد يقرر هذا الدليل ـ أعني لزوم التكليف بما لا يطاق ـ بوجه آخر وهو أن الكافر غير قادر على الإتيان بالعبادة الصحيحة المشروطة بالإيمان.

وأجيب عنه بأنّا نقول: أنهم مكلفون بالفروع حال الكفر لا بشرط الكفر، فالكفر ظرف للتكليف لا للمكلّف فلا يلزم التكليف بما لا يطاق.

الرابع: الأخبار الدالة على وجوب طلب العلم كقولهم عليهم السلام: طلب العلم فريضة على كل مسلم، فإن موردها المسلم دون مجرد البالغ العاقل.

وفيه أن الاستدلال بتلك الأخبار موقوف على القول بحجية مفهوم اللّقب وهو مع كونه خلاف التحقيق لا يقول به المستدل أيضاً، فلا وجه لاستدلاله بها على المدّعي.

الخامس: اختصاص الخطاب القرآني (**بالذين آمنوا**)، وورود يا (**أيها الناس**) في بعض، وهو الأقل، يحمل على المؤمنين حملاً للمطلق على المقيّد والعام على الخاص كما هو القاعدة المسلمة بينهم.

والجواب ما قدمنا في الدليل السابق، وهو أن دلالته من حيث مفهوم اللقب الذي ليس بحجة عنده وعند المحققين.

تكملة

هذا الكلام الشريف له عليه السلام حسبما أشرنا إليه مرويّ في (**الكافي**) عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن بعض أصحابه عن أبي حمزة عن عقيل الخزاعي أن أمير المؤمنين صلوات الله عليه كان إذا حضر الحرب يوصي للمسلمين بكلمات يقول:

تعاهدوا الصلاة وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقرّبوا بها فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، وقد علم ذلك الكفار حين سألوا: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين، وقد عرف حقها من طرقها وأكرم بها من المؤمنين الذين لا يشغلهم عنها زين متاع ولا قرّة عين من مال ولا ولد، يقول الله عزَّ وجل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله منصباً لنفسه بعد البشرى له بالجنة من ربه فقال عزَّ وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] الآية، فكان يأمر بها أهله ويصبّر عليها نفسه[1].

ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام على أهل الإسلام، ومن لم يعطها طيب النفس بها يرجو بها من الثمن ما هو أفضل منها فإنه جاهل بالسنّة، مغبون الأجر، ضالّ العمر، طويل الندم بترك أمر الله عزَّ وجل الرغبة عما عليه صالحو عباد الله، يقول الله عزَّ وجل: ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى من الأمانة، فقد خسر من ليس من أهلها وضلّ عمله، عرضت على السماوات المبنيّة، والأرض المهاد، والجبال المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم، ولو امتنعن «امتنعت خ ل» من طول أو عرض أو عظم أو قوّة أو عزّة امتنعن، ولكن أشفقن من العقوبة.

ثم إن الجهاد أشرف الأعمال بعد الإسلام، وهو قوام الدين والأجر فيه عظيم مع العزّة والمنعة وهو الكرة فيه الحسنات والبشرى بالجنة بعد الشهادة وبالرزق غداً عند الرب والكرامة، يقول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾

(١) الكافي ٥/٣٦ ح ١، ووسائل الشيعة ٤/٣٠ ح ٨.

[آل عمران: ١٦٩] الآية.

ثم إن الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازرين على الضلال ضلال في الدين وسلب للدنيا مع الذلّ والصغار، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف عند حضرة القتال، يقول الله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال: ١٥].

فحافظوا على أمر الله عزَّ وجل في هذه المواطن التي الصبر عليها كرم وسعادة، ونجاة في الدنيا والآخرة من فظيع الهول والمخافة، فإن الله عزَّ وجل لا يعبأ بما العباد مقترفون ليلهم ونهارهم لطف به علماً، وكان «كل خ ل» ذلك في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى، فاصبروا وصابروا واسألوا النصر، ووطنوا أنفسكم على القتال واتّقوا الله عزَّ وجل، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

بيان

رواه المحدث العلامة المجلسي في **(البحار من الكافي)** كما رويناه، وقال بعد نقله:

قوله: من طرقها، لعله من الطروق بمعنى الإتيان بالليل أي واظب عليها في الليالي، وقيل: أي جعلها دأبه وصنعته من قولهم: هذا طرقة رجل، أي صنعته.

ولا يخفى ما فيه ولا يبعد أن يكون تصحيف طوّق بها على المجهول، أي ألزمها كالطوق بقرينة أكرم بها على بناء المجهول أيضاً.

قوله: على أهل الإسلام، الظاهر أنه سقط هنا شيء، قوله: من الأمانة، لعله بيان لسبيل المؤمنين، أي المراد بسبيل المؤمنين ولاية أهل البيت عليهم السلام وهي الأمانة المعروفة.

قوله عليه السلام: وهو الكرة، أي الحملة على العدو وهي في نفسها أمر مرغوب فيه، إذ ليس هو إلا مرة واحدة وحملة فيها سعادة الأبد، ويمكن أن يقرأ الكرة بالهاء، أي هو مكروه للطباع فيكون إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال الجوهري: زحف إليه زحفاً، مشي، والزّحف الجيش يزحفون إلى العدو، وقوله: لطف به، الضمير راجع إلى الموصول في قوله: ما العباد مفترقون.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام است، وصيت مى كرد به آن اصحاب خود را، مى فرمود:

مواظبت نماييد به امر نماز و محافظت نماييد بر آن و بسيار كنيد از گزاردن آن و تقرب جوييد به درگاه پروردگار با آن، پس به درستى كه آن نماز بر مؤمنين فرض واجب، آيا گوش نمى كنيد به سوى جواب اهل آتش وقتى كه سؤال كرده شدند كه چه باعث شد به آمدن شما در دوزخ؟ گفتند: نبوديم ما در دنيا از نمازگزارندگان و به درستى كه آن نماز مى ريزد گناهان را مثل ريختن برگ از درختان و برمى دارد قيد گناهان را از گردن گناه كاران مثل برداشتن بند ريسمان از گردن حيوان.

و تشبيه فرموده است نمازهاى پنج گانه را حضرت رسالت مآب (ﷺ)، به چشمه آب گرمى كه باشد در خانه مرد، پس بشويد آن مرد بدن خود را در آن چشمه در روز و شب پنج دفعه، پس نزديك نيست كه باقى ماند بر بدن او چركى و كثافتى و به تحقيق كه شناخت قدر نماز را مردانى از مؤمنين كه مشغول نمى كند ايشان را از آن نماز، زينت متاع دنيا و نه چشم روشنى از اولاد و نه مال آن؛ مى فرمايد حق تعالى در شأن ايشان: "رجال لاتلهيهم تجارة. . . " ، يعنى تسبيح كند خداوند را مردانى كه مشغول نمى نمايد ايشان را تجارت و خريد و فروش از ذكر پروردگار و از اقامه نماز و از دادن زكات و بود حضرت رسول خدا به غايت متحمل به مشقت و زحمت نماز با وجود اين كه بشارت بهشت داده بود او را به جهت فرمايش خدا كه خطاب فرمود او را كه: "امر كن اهل خود را به نماز و صبر كن به زحمت آن" ، پس بود آن بزرگوار امر مى فرمود اهل خود را و وادار مى نمود نفس خود را بر آن.

پس از آن به درستى كه زكات گردانيده شده با نماز مايه تقرب خدا از براى اهل اسلام، پس كسى كه عطا نمايد زكات را در حالتى كه با طيب نفس بدهد آن را، پس به درستى كه باشد آن از براى او كفاره گناهان و حاجب و مانع از آتش سوزان، پس البته نبايد احدى چشمش بر پشت آن بدوزد و البته نبايد غمگين و

پریشان شود به آن از جهت این که هر کسی که بدهد زکات را با وجه اکراه و عدم طیب نفس در حالتی که امیدوار باشد به جهت دادن آن ثوابی را که افضل باشد از آن، پس آن کس جاهل است به سنت، مغبون است در اجرت، گمراه است در عمل، دراز است پشیمانی و ندامت آن.

پس از آن ادای امانت است، پس به تحقیق که نومید شد کسی که نبوده از اهل آن، به درستی که آن امانت اظهار شد بر آسمانهای بنا شده و بر زمینهای فرش شده و بر کوههایی که صاحب بلندی و منصوب است بر زمین، پس نیست هیچ چیز درازتر و پهن تر و بلندتر و بزرگتر از آنها و اگر امتناع می نمودی چیزی به جهت درازی یا پهنی یا به جهت قوّت یا عزت، هرآینه آنها امتناع می کردند ولکن ترسیدند از عذاب پروردگار و فهمیدند چیزی را که جاهل شد به آن کسی که ضعیف تر از ایشان بود که عبارت باشد از انسان، به درستی که آن انسان، بسیار ظالم است، بسیار نادان. به درستی که خدای تعالی مخفی نمی ماند بر او چیزی که بندگان کسب نمایند آن را در شب و روز خودشان، لطیف خبیر است به کار ایشان و محیط است با علم خود به آن، اعضای شما شاهدان اویند و جوارح شما لشکران او و قلبهای شما جاسوسان او و خلوتهای شما آشکار است در نظر آن.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائة والتاسع والتسعون من المختار في باب الخطب

«وَالله ما مُعاوِيَةُ بِأَدْهىٰ مِنِّي، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ ويَفْجُرُ، وَلَوْلا كَراهِيَّةُ الغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَىٰ النَّاسِ، وَلٰكِنَّ كُلَّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وكُلَّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، ولِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ، وَالله ما أُسْتَغْفَلُ بِالمَكِيدَةِ، وَلا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ.

اللغة

(**الدّهي**) بسكون الهاء والدهاء الفكر والأرب وجودة الرأي و (**غدر**) غدراً من باب ضرب ونصر نقض عهده و (**فجر**) يفجر من باب قتل و (**الغدرة**) و (**الفجرة**) و (**الكفرة**) كلها في بعض النسخ بفتح (**الفاء**) وسكون (**العين**) وزان تمرة فالتاء للمرة، وفي بعضها بتحريك (**الفاء**) و (**العين**) وزان مردة فيكون جمع غادر وفاجر وكافر، وفي بعضها بضم (**الفاء**) وفتح (**العين**) وزان هُمزة فـ (**التاء**) للمبالغة أي الكثير الغدر والفجور والكفر، فإن أسكنت (**الغين**) فالبناء للمفعول تقول: رجل سخرة، كهمزة يسخر من الناس، وسُخرة كغرفة من يُسخر منه.

(**ولا أستغمز**) (**بالزاء**) المعجمة من الغمز وهو العصر باليد يقال: غمزه غمزاً من باب ضرب، والغمز محركة الرجل الضعيف، قال الشارح البحراني: وروي (**بالراء**) المهملة، أي لا أستجهل بشدائد المكائد، انتهى. ولعله من الغمر بالتحريك وهو من لم يجرّب الأمور والأول أصوب وأنسب.

الإعراب

(**الباء**) في قوله: (**بأدهى**) زائدة في الخبر جيء بها لتأكيد معنى النفي كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: بالشديدة، صفة محذوفة الموصوف أي بالدواهي الشديدة ونحو ذلك.

المعنى

إعلم أن الغرض من هذا الكلام دفع توهّم من كان معتقداً أن معاوية أجود رأياً وأكثر تدبيراً منه، وتعرض به على معاوية من أجل عدم تحرّزه في تدبير الأمور عن الغدر والفجور، وصدّر الكلام بالقسم البار تأكيداً للمقصود، فقال:

(**والله ما معاوية بأدهى مني**) أي ليس بأجود رأياً وأحسن تدبيراً وأبعد غوراً وأعمق فكراً وأشد دهاء مني، وإن فسر الدهاء بخصوص استعمال العقل والرأي فيما لا ينبغي فعله

من الأمور الدنيوية المعبر عنه بالنكراء، فلا بد من جعل قوله عليه السلام: أدهى، بمعنى أعرف بطرق الدهاء وأبصر بها، لعدم اتّصافه بالدهاء بهذا المعنى فضلاً عن كونه أدهى.

(ولكنه يغدر ويفجر) أي يستعمل الغدر في أموره السياسية فيزعم أهل الجهل أنه أدهى.

وقوله: **(ويفجر)**، إشارة إلى نتيجة الغدر، يعني أنه من أجل إقدامه على الغدر يكون فاجراً، وذلك لأن الغدر مقابل الوفاء، والوفاء فضيلة داخلة تحت العفّة، فيكون الغدر رذيلة داخلة تحت الفجور.

وأيضاً الوفاء توأم الصدق والغدر توأم الكذب حسبما عرفت تفصيلاً في الخطبة الحادية والأربعين وشرحها، والكذب من أعظم الفجور.

وإيضاح هذه الفقرة ما تقدم في الخطبة المذكورة حيث قال عليه السلام هناك:

ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، ما لهم قاتلهم الله قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين[١].

وروى في **(الكافي)** في حديث مرفوع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمٰن واكتسب به الجنان، قال: قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء تلك الشيّطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل[٢].

ولما نبّه على أن اتصاف معاوية بالدهاء من جهة عدم مبالاته بالغدر والفجور، عقبّه بالتنبيه على ما هو المانع من اتصافه عليه السلام به مع كونه أعرف وأغدر به منه، فقال:

(ولولا كراهية الغدر) والمكر واستلزامه للكذب والغش والخيانة والفجور المنافي لمرتبة العصمة **(لكنت من أدهى الناس)** فيدل هذه الجملة بمقتضى مفاد لولا الامتناعية على امتناع اتصافه بالدهاء الملازم للغدر.

والمراد بالكراهة هنا الحرمة لا معناها المعروف في مصطلح المتشرعة كما صرح به في عبارته التي نقلناها آنفاً من الخطبة الحادية والأربعين، أعني قوله: قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها.

---

(١) شرح أصول الكافي ٩/ ٣٩٤، ومستدرك الوسائل ١١/ ٤٧ ح ٢.

(٢) المحاسن ١/ ١٩٥ ح ١٥، والكافي ١/ ١١ ح ٣.

وأصرح منه ما رواه في (**الكافي**) عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس(١).

وأصرح منهما قوله: (**ولكن كل غدرة فجرة وكل فجرة كفرة**) وقد روى نظير هذه العبارة عنه عليه السلام في (**الكافي**) بإسناده عن الأصبغ بن نباته قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم وهو يخطب على المنبر بالكوفة: أيها الناس، لولا كراهية الغدر كنت أدهى الناس، ألا أن لكل غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة، ألا وأن الغدر والفجور والخيانة في النار(٢).

قال بعض شرّاح (**الكافي**): الظاهر أن (**اللام**) في لكل مفتوحة للمبالغة في التأكيد، وقوله: الغدر والخيانة في النار، إما على حذف المضاف أي صاحبها، أو المصدر بمعنى الفاعل، هذا.

فإن قلت: استلزام الغدر للفجور المستفاد من قوله عليه السلام: (**ولكن كل غدرة فجرة**)، قد عرفنا وجهه سابقاً، وأما استلزام الفجور للكفر المستفاد من قوله: وكل فجرة كفرة، فما الوجه فيه؟.

قلت: قال بعض الشارحين: وجه لزوم الكفر هنا أن الغادر على وجه استباحة ذلك واستحلاله كما كان هو المشهور من حال عمرو بن العاص ومعاوية في استباحة ما علم تحريمه بالضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله وجحده هو الكفر.

وقال الشارح البحراني: ويحتمل أن يريد كفر نِعَم الله وسترها بإظهار معصية كما هو المفهوم اللغوي من لفظ الكفر، انتهى.

ويتوجه على الأول، **أولاً**: أنه أخص من المدعي لأن المدعي هو كفر كل غادر كما هو ظاهر المتن لا الغادر المستبيح المستحل للغدر فقط، **وثانياً**: كون حرمة الغدر من ضروريات الدين غير معلوم.

وعلى الثاني أنه خلاف الظاهر.

والأظهر أنه داخل في القسم الرابع من أقسام الكفر التي تقدم تفصيلها في حديث (**الكافي**) في شرح الفصل الثامن عشر من الخطبة الأولى، فقد روينا هناك عن الكلبي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الكفر في كتاب الله عزَّ وجل على خمسة أوجه ـ إلى أن قال ـ

---

(١) الكافي: ٢/٣٣٦ ح ١، ووسائل الشيعة: ١٢/٢٤٢ ح ١٦٢٠١.
(٢) الكافي ٢/٣٣٨ ح ٦، وتحف العقول ٩٩ ح ٤.

الوجه الرابع من الكفر: ترك ما أمر الله وهو قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥]، فكفرهم بترك ما أمر الله ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقوله: **(ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة)** قال الشارح المعتزلي: حديث صحيح مروي عن النبي صلى الله عليه وآله.

أقول: وهو تنفير عن الغدر.

ونحوه ما رواه في **(الكافي)** عن علي بن إبراهيم عن أبيه النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يجيء كل غادر يوم القيامة بإمام مائل شدقه حتى يدخل النار، ويجيء كل ناكث بيعة إمام أجذم حتى يدخل النار»، هذا[1].

ولما ذكر أن معاوية ليس بأدهى منه ونبّه على معرفته بطرق الدهاء وخبرويته بها أكده بقوله:

(والله ما أُستغفل بالمكيدة) أي لا يطمع في إغفالي بالكيد عليّ، لأني أحذر من الغراب وإن كان الطامع في الكيد أروغ من الثعلب، فإن من كان أعرف بطرق الخداع ووجوه التدابير والحيل لا يتمكن من إغفاله ولا يلحقه الغفلة عما يراد في حقه من الكيد والخديعة كما قال عليه السلام في الكلام السادس: **(والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها)**.

(ولا أُستغمز بالشديدة) أي لا أُستضعف بالخطوب الشديدة والدواهي العظيمة لأني البطل الأهيس والحازم الأكيس والشجاع الأسوس.

فقد اتضح كل الوضوح بما أتى به في هذا الكلام بطلان توهم من زعم أن معاوية كان أدهى منه عليه السلام وأصح تدبيراً.

وقد بسط الكلام في هذا المرام أبو عثمان الجاحظ على أحسن تقرير وتبيان، وفصّل الشارح المعتزلي تفصيلاً عجيباً أحببت نقل ما قالا، لأنه من لسانهما أحلى، فأقول:

---

(١) الكافي ٢/ ٣٣٧ ح ٢، وبحار الأنوار ٧/ ٢٠١ ح ٨١.

أما الجاحظ فقد قال في محكى كلامه:

وربما رأيت بعض من بطن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز وهو من العامة ويظن أنه من الخاصة يزعم أن معاوية كان أبعد غوراً وأصح فكراً وأجود روية وأبعد غاية وأدق مسلكاً، وليس الأمر كذلك وساري إليك بجملة تعرف بها موضع غلطه والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله.

كان علي عليه السلام لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنّة.

وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنّة كما يستعمل الكتاب والسنّة، ويستعمل جميع المكائد حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى رتبيل.

وعليٌّ عليه السلام يقول: لا تبدؤا بالقتال حتى يبدؤكم، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مغلقاً، وهذه سيرته في ذي الكلاع وفي أبي أعور السلّمي، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مسلمة وفي جميع الرؤساء كسيرته في الحاشية والحشو والأتباع والسّفلة(١).

وأصحاب الحروب إن قدروا على البينات تبيّنوا، وإن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفة عين، ولم يؤخرّوا الحرق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدم لم يتكلّفوا الحصار، ولم يدعوا أن ينصبوا المجانيق والعراوات والنّقب والشريب والدبابات والكمين، ولم يدعوا دسّ السموم ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات وتوهيم الأمور وإيحاش بعضهم من بعض، وقتلهم بكل آلة وحيلة، كيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال.

فمن اقتصر من التدبير حفظك الله على ما في الكتاب والسنّة وكان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكائد، والكذب أكثر من الصدق، والحرام أكثر عدداً من الحلال، وكذلك الإيمان والكفر والطاعة والمعصية والحق والباطل، وكذلك الصحة والسقم والصواب والخطأ.

فعليٌّ عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عزّ وجل رضيّ، وممنوع اليدين عن كل بطش إلا ما هو لله رضي، ولا يرى الرضاء إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضاء إلا فيما دل عليه الكتاب والسنّة دون ما يقول عليه أصحاب الدهاء والنكراء

(١) الكافي ٥/٧، ودعائم الإسلام ١/٣٩٤.

والمكائد والآراء.

فلما أبصرت العوام كثرة بوادر معاوية في المكائد، وكثرة غرائبه في الخداع، وما أنفق له وتهيأ على يده، ولم يروا ذلك من علي، ظنوا بقصر عقولهم أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند علي، فقالوا: لو لم ما يُعدّ له من الخدع إلا رفع المصاحف.

ثم انظر هل خدع بها إلا من عصى رأي علي وخالف أمره؟، فإن زعمت أنه قد نال من أراد من الاختلاف فقد صدقت وليس في هذا اختلفنا، ولا عن غرارة أصحاب علي عليه السلام وعجلتهم وتسرّعهم وتنازعهم دفعنا، وإنما كان قولنا في التمييز بينهما في الدهاء والنكراء وصحة الرأي والعقل.

على أنّا لا نصف الصالحين بالدهاء والنكراء، ولا يقول أحد عنده شيء من الخير: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدهى العرب والعجم، وأنكر قريش وأنكر كنانة.

لأن هذه الكلمة إنما وضعت في مديح أصحاب الإرب ومن يتعمّق في الرأي في تأكيد أمر الدنيا وزبرجها وتشديد أركانها.

فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر، وإنما يصلحون على تدبير خالق البشر لا يمدحون بالدهاء والنكراء، ولم يمنعوا إلا ليعطوا أفضل منه.

وأما الشارح المعتزلي فقد قال:

إن السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل برأيه وبما يرى فيه صلاح ملكه وتمهيد أمره، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة بمقتضى ما قلناه فبعيد أن ينتظم أمره أو يستوسق حاله.

وأمير المؤمنين عليه السلام كان مقيّداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتباعها ورفض ما يصلح من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن لم يلتزم بذلك.

ولسنا زارين بهذا القول على عمر بن الخطاب، ولكنه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء وبالاستنباط من أصول يقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرة والسوط من يتغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب، كل ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره.

ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعدّاها

إلى الاجتهاد والأقيسة، ويطبّق أمور الدنيا على أمور الدين، ويسوق الكل مساقاً واحداً، ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنص، فاختلفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة.

وكان عمر مع ذلك شديد الغلظة، وكان علي عليه السلام كثير الحلم والصفح والتجاوز، فازدادت خلافة ذلك قوّة، وخلافة هذا ليناً.

ولم يمنّ عمر بما مني عليّ به من فتنة عثمان التي أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده ومقاربتهم للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة.

ثم تلى تلك الفتنة فتنة الجمل وفتنة صفّين ثم فتنة النهروان وكل تلك الأمور مؤثرة في اضطراب أمر الوالي وإغلال معاقد ملكه، ولم يتفق لعمر شيء من ذلك، فشتّان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة وصحة تدبير الخلافة.

فإن قلت: فما قولك في سياسة الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيره؟ أليس كان منتظماً سديداً مع أنه كان لا يعمل إلا بالنصوص والتوقيف من الوحي، فهلا كان تدبير علي عليه السلام وسياسته كذلك؟.

قلت: أما سياسة الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيره فخارج عما نحن فيه، لأنه معصوم لا تتطرق العلة إلى أفعاله، وليس بواحد من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا ـ إلى أن قال ـ:

وكان أبو جعفر بن أبي زيد الحسني نقيب البصرة إذا حدّثناه في هذا يقول: إنه لا فرق عند من قرأ السّير بين سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسياسة أصحابه أيام حياته، وبين سيرة أمير المؤمنين وسياسة أصحابه أيام حياته، فكما أن علياً عليه السلام لم يزل أمره مضطرباً معهم بالمخالفة والعصيان والهرب إلى أعدائه وكثرة اختلافه والحروب، فكذلك كان النبي صلى الله عليه وآله ممنوّاً بنفاق المنافقين وأذاهم وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه وكثرة الحروب والفتن.

وكان يقول: ألست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم والتألم من أذاهم له؟ كما أن كلام علي مملوء بالشكوى من منافقي أصحابه والتألم من أذاهم له.

ثم ذكر كثيراً من الآيات المتضمنة لنفاق المنافقين والشكوى منهم لا حاجة بنا إلى ذكرها ثم قال:

فمن تأمل كتاب العزيز علم حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت ولم ينقله الله إلى جواره إلا وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف ما يضمرون من تصديقه في جهاد شديد، حتى لقد كاشفوه مراراً فقال لهم يوم الحديبية: «احلقوا وانحروا»، فلم يحلقوا ولم ينحروا ولم يتحرك أحد منهم عند قوله، وقال له بعضهم وهو يقسّم الغنائم: اعدل يا محمد

فإنك لم تعدل، وقالت الأنصار له مواجهة يوم حُنين: أتأخذ ما أفشاه الله علينا بسيوفنا فتدفعه إلى أقاربك من أهل مكة، حتى أفضى إلى أن قال لهم في مرض موته: «ائتوني بدواة كتف أكتب لكم ما لا تضلون بعده»، فعصوه ولم يأتوه بذلك، وليتهم اقتصروا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا وهو يسمع[١]، قال:

وكان أبو جعفر يقول من هذا ما يطول شرحه والقليل منه ينبىء عن الكثير، وكان يقول:

إن الإسلام ما جلا عندهم ولا ثبت في قلوبهم إلا بعد موته ﷺ حين فتح عليهم الفتوح وجاءتهم الغنائم والأموال وكثرت عليهم المكاسب وذاقوا لذّة الحياة وعرفوا لذة الدنيا ولبسوا الناعم وأكلوا الطيب وتمتّعوا بنساء الروم وملكوا خزائن كسرى، وتبدّلوا بذلك التقشّف واللبس الخشن وأكل الضباب والقنافذ واليرابيع ولبس الصوف والكرابيس وأكل اللوزينجات والفالوزجات ولبس الحرير والديباج، فاستدلوا بما فتحه الله عليهم وأتاحه لهم على صحة الدعوة وصدق الرسالة.

وقد كان ﷺ وعدهم بأنه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر، فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله ﷺ عظموه وأحبوه وانقلبت تلك الشكوى وذلك النفاق وذلك الاستهزاء إيماناً ويقيناً وإخلاصاً، وطاب لهم العيش، وتمسكوا بالدين لأنهم رأوه طريقاً إلى نيل الدنيا، فعظموا ناموسه، وبالغوا في إجلاله وإجلال الرسول الذي جاء به.

ثم انقرض الأسلاف وجاء الأخلاف على عقيدة ممهدة وأمر أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين دبّوا في حجورهم، ثم انقرض ذلك القرن وجاء من بعدهم كذلك وهلم جرّاً، قال:

ولولا الفتوح والنصر والظفر الذي منحهم الله تعالى إياه، والدولة التي ساقها إليهم لانقرض دين الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان يذكر في التواريخ كما يذكر نبوة خالد بن سنان العنسي حيث ظهر ودعا إلى الدين وكان الناس يعجبون من ذلك ويتذاكرونه كما يعجبون ويتذاكرون أخبار من نبغ من الرؤساء والملوك والدعاة الذين انقرض أمرهم وبقيت أخبارهم، وكان يقول:

من تأمل الرجلين وجدهما متشابهين في جميع أمورهما أو في أكثرها.

وذلك لأن حرب رسول الله ﷺ مع المشركين كانت سجالاً انتصر يوم بدر وانتصر المشركون عليه يوم أُحد، وكان يوم الخندق كفافاً خرج هو وهم سواء لا له ولا عليه، لأنهم

(١) مكاتيب الرسول ١/ ٦١١.

قتلوا رئيس الأوس وهو سعد بن معاذ وقتل منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبدود، وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت، ثم حارب قريشاً بعدها يوم الفتح فكان الظفر له.

وهكذا كانت حروب علي عليه السلام، انتصر يوم الجمل وخرج بينه وبين معاوية على سواء قتل من أصحابه رؤساء، ومن أصحابه رؤساء، وانصرف كل واحد من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه، ثم حارب بعد صفين أهل النهروان فكان الظفر له، قال:

ومن العجب أن أول حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كانت بدراً وكان هو المنصور.

ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية.

ثم دعا معاوية في آخر أيام علي عليه السلام إلى نفسه وتسمّى بالخلافة كما أن مسيلمة والأسود العنسي دعوا إلى أنفسهما في آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وتسميا بالنبوة، واشتد على علي عليه السلام ذلك كما اشتد على رسول الله صلى الله عليه وآله أمر الأسود ومسيلمة، وبطل أمرهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وكذلك بطل أمر معاوية وبني أمية بعد وفاة علي عليه السلام.

ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله أحد من العرب إلا قريش ما عدا يوم حُنين، ولم يحارب علياً عليه السلام أحد من العرب إلا قريش يوم النهروان.

ومات علي عليه السلام شهيداً بالسيف، ومات رسول الله صلى الله عليه وآله شهيداً بالسمّ.

وهذا لم يتزوج على خديجة أم أولاده حتى ماتت، وهذا لم يتزوج على فاطمة أم أشرف أولاده حتى ماتت.

مات رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثلاث وستين سنة ومات علي عليه السلام عن مثلها، وكان يقول: انظروا إلى أخلاقهما وخصائصهما.

هذا شجاع وهذا شجاع، وهذا فصيح وهذا فصيح، وهذا سخي جوّاد وهذا سخي جوّاد، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلهية وهذا عالم بالفقه والشريعة والأمور الدقيقة الغامضة، وهذا زاهد في الدنيا غير نهِم عليها ولا مستكثر منها، وهذا زاهد في الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها، وهذا مذيب نفسه في الصلاة والعبادة وهذا مثله، وهذا غير محبب إليه شيء من الأمور العاجلة إلا النساء وهذا مثله، وهذا ابن ابن عبد المطلب بن هاشم وهذا في تعداده، وأبوهما أخوان لأب واحد دون غيرهما من بني عبد المطلب وربّى محمد صلى الله عليه وآله في حجر والده هذا وهو أبو طالب فكان عنده جارياً مجري أحد أولاده، ثم لما شبّ وكبر

استخلص من بني أبي طالب وهو غلام فربّاه في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به، فامتزج الخلقان وتماثلت السجيتان، وإذا كان القرين مقتدياً بالقرين فما ظنك بالتربية والتثقيف الدهر الطويل؟.

فوجب أن تكون أخلاق محمد ﷺ كأخلاق أبي طالب، وأن تكون أخلاق علي كأخلاق أبي طالب أبيه وأخلاق محمد ﷺ مربّيه وأن يكون الكل شيمة واحدة وسوساً واحداً وطينة مشتركة ونفساً غير منقسمة ولا متجزئة، وأن لا يكون بين بعض هؤلاء وبعض فرق ولا فضل لولا أن الله اختص محمداً ﷺ برسالته واصطفاه لوحيه لما يعلمه من مصالح البرية في ذلك، فامتاز رسول الله ﷺ بقوله: «أخصمك بالنبوة فلا نبوة بعدي»، وتخصم الناس بسبع وقال ﷺ له أيضاً: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، فأبان نفسه بالنبوة وأثبت له ما عداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما[1].

قال الشارح المعتزلي:

وكان النقيب أبو جعفر غزير العلم صحيح العقل منصفاً بالجدل غير متعصب للمذهب وإن كان علوياً، وكان يعترف بفضائل الصحابة ويثني على الشيخين ويقول: إنهما مهّدا دين الإسلام وأرسيا قواعده ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله ﷺ وإنما مهّداه بما تيسّر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما وكان يقول في عثمان: «إن الدولة في أيامه كانت على إقبالها وعلوّ جدها بل كانت الفتوح في أيامه أكثر والغنائم أعظم لولا أنه لم يراع ناموس الشيخين ولم يستطع أن يسلك مسلكهما وكان مضعفاً في أصل القاعدة مغلوباً عليه وكثير الحب لأهله»، وأتيح له من مروان وزير سوء ما أفسد القلوب عليه وحمل الناس على خلعه وقتله[2].

قال الشارح: وكان أبو جعفر لا يجحد الفاضل فضله. والحديث شجون، قلت له مرة:

ما سبب حب الناس لعلي بن أبي طالب ﷺ وعشقهم له وتهالكهم في هواه؟ ودعني في الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة وغير ذلك من الخصائص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيب منها.

فضحك وقال لي: لِمَ تجمع جراميزك علي؟ ثم قال: هٰهنا مقدمة ينبغي أن تعلم، وهي:

---

(١) كتاب الأربعين ٤٥٣، وبحار الأنوار ٣٨/ ١٠ ح ١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٠/ ٢٢٣.

إن أكثر الناس موتورون من الدنيا أمّا المستحقون فلا ريب في أن أكثرهم محرومون.

نحو عالم يرى أنه لا حظ له من الدنيا، ويرى جاهلاً غيره مرزوقاً موسعاً عليه.

وشجاع قد أبلى في الحرب وانتفع بموضعه ليس له عطاء يكفيه ويقوم بضروراته، ويرى غيره وهو جبان فشل ينفر من ظلمه مالكاً بقطر عظيم من الدنيا وقطعة وافرة من المال والرزق.

وعاقل سديد الرأي صحيح العقل قد قدّر عليه رزقه وهو يرى غيره أحمق مائقاً تدّر عليه الخيرات له أخلاف الرزق.

وذي دين قويم وعبادة حسنة وإخلاص وتوحيد وهو محروم ضيق الرزق ويرى غيره يهودياً أو نصرانياً أو زنديقاً كثير المال حسن الحال حتى أن هذه الطبقات المستحقة يحتاجون في أكثر الوقت إلى الطبقات التي لا استحقاق لها، وتدعوهم الضرورة إلى الذل لهم والخضوع بين أيديهم إما لدفع ضرر أو لاستجلاب نفع.

ودون هذه الطبقات من ذوي الاستحقاق أيضاً ما يشاهد عياناً من تجار حاذق أو بناء عالم أو نقاش بارع أو مصور لطيف على غاية ما يكون من ضيق رزقهم وقلّة الحيلة بهم، ويرى غيرهم ممن ليس يجري مجراهم ولا يلحق طبقتهم مرزوقاً مرغوباً كثير المكسب طيب العيش واسع الرزق.

فهذا حال ذوي الاستحقاق والاستعداد.

وأما الذين ليسوا من أهل الفضائل كحشو العامة فإنهم أيضاً لا يخلون من الحقد على الدنيا والذم لها والحنق والغيظ منها، لما يلحقهم من حسد أمثالهم وجيرانهم ولا نرى أحداً منهم قانعاً بعيشه ولا راضياً بحاله يتزيد ويطلب حالاً فوق حاله، قال:

فإذا عرفت هذه المقدمة فمعلوم أن علياً عليه السلام كان مستحقاً محروماً بل هو أمير المستحقين المحرومين وسيدهم وكبيرهم، ومعلوم أن الذين تلحقهم النزلة وينالهم الضيم يتعصب بعضهم لبعض ويكونون الباً ويداً واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا لاشتراكهم في الأمر الذي ألّمهم وساءهم وعضّهم ومضّهم، واشتراكهم في الأنفة والحمية والغضب والمنافسة لمنّ عليهم وقهر عليهم وبلغ من الدنيا ما لم يبلغوه.

فإذا كان هؤلاء ـ أعني المحرومين ـ متساوين في المنزلة والمرتبة وتعصب بعضهم لبعض فما ظنك بما إذا كان رجل عظيم القدر، جليل الخطر، كامل الشرف، جامع للفضائل، محتوٍ على الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محروم محدود قد جرّعته الدنيا

علاقمها، وعللته عللاً بعد نهل من صباتها وصبرها، ولقي منها برحاً بارحاً وجهداً جهيداً وعلا عليه من هو دونه وحكم فيه وفي بيته وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان في حسابه، ولا دائراً في خلده، ولا خاطراً بباله، ولا كان أحد من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه في الأمران، قتل هذا الرجل الجليل في محرابه وقتل بنوه بعده وسبى حريمه ونساؤه وتتبع أهله وبنو عمه بالطرد والقتل والتشريد والشجون مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم وانتفاع الخلق بهم.

فهل يمكن أن لا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص وهل تستطيع أن لا تحبه وتهواه وتذوب فيه وتفنى في عشقه انتصاراً له وحميّة من أجله وأنفة مما ناله وامتعاضاً مما جرى عليه؟.

وهذا أمر مركوز في الطبائع، مخلوق في الغرائز، كما يشاهد الناس على الجرف إنساناً قد وقع في الماء العميق وهو لا يحسن السباحة فإنهم بالطبع البشري يرقّون عليه رقّة شديدة.

وقد بلغني أنه رمى قوم منهم أنفسهم في الماء نحوه يطلبون تخليصه لا يتوقعون على ذلك مجازاة منه بمال أو شكر ولا ثواب في الآخرة فقد يكون منهم من لا يعتقد أمر الآخرة، ولكنها رقة بشرية وكان الواحد منهم يتخيل في نفسه أنه ذلك الغريق فكما يطلب خلاص نفسه لو كان بهذا الغريق كذلك يطلب تخليص من هو في تلك الحال الصعبة للمشاركة الجنسية.

وكذلك لو أن ملكاً ظلم أهل بلد من بلاده ظلماً عنيفاً لكان أهل ذلك البلد يتعصّب بعضهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك والاستعداء عليه.

فلو كان من جملتهم رجل عظيم القدر، جليل الشأن، قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إياهم وأخذ أمواله وضياعه وقتل أولاده وأهله كان لياذهم به وانضوائهم إليه واجتماعهم والتفافهم به أعظم وأعظم، لأن الطبيعة البشرية تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب والاضطرار ولا يستطيع الإنسان منه امتناعاً.

قال الشارح: هذا محصول في قول النقيب أبي جعفر قد حكيته والألفاظ لي والمعنى له، وكان لا يعتقد في الصحابة ما يعتقده أكثر الإمامية فيهم ويسّفه رأي من يذهب فيهم إلى النفاق والتكفير، وكان يقول: حكمهم حكم مسلم مؤمن عصى في بعض الأفعال فحكمه إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء غفر له.

قلت له مرة: أفتقول إنهما من أهل الجنة؟

فقال: إي والله أعتقد ذلك لأنهما إما أن يعفو الله عنهما إبتداءً أو بشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله أو بشفاعة علي عليه السلام أو يؤاخذهم بعقاب أو عتاب ثم ينقلهما إلى الجنة، لا أستريب في ذلك

أصلاً ولا شك في إيمانهما برسول الله ﷺ وصحة عقيدتهما.

فقلت له: فعثمان؟

قال: وكذلك عثمان، ثم قال: رحم الله عثمان وهل كان إلا واحداً منا وغصناً من شجرة عبد مناف، ولكن أهله كدّروه علينا وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا.

قلت له: فيلزم ذلك على ما تراه في أمر هؤلاء أن يجوز دخول معاوية الجنة لأنه لم تكن منه إلا المخالفة وترك امتثال أمر النبوة؟

فقال: كلا، إن معاوية من أهل النار لا لمخالفته علياً ولا بمحاربته إياه، ولكن عقيدته لم تكن صحيحة ولا إيمانه حقاً، كان من رؤوس المنافقين هو وأبوه، ولم يسلِم قلبه قط وإنما أسلم لسانه، وكان يتذكر من حديث معاوية من فلتات قوله وما حفظ من كلام يقتضي فساد العقيدة شيئاً كثيراً ليس هنا موضع ذكره فأذكره.

وقال لي مرة: حاشى لله أن يثبت معاوية في جريدة الشيخين الفاضلين أبي بكر وعمر، والله ما هما إلا كالذهب الإبريز ولا معاوية إلا كالدرهم الزائف، أو قال: كالدرهم القمي.

ثم قال لي: فما يقول أصحابكم فيهما؟

قلت: أما الذي استقر عليه رأي المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم في التفضيل وغيره: إن علياً عليه السلام أفضل الجماعة، وإنهم تركوا الأفضل لمصلحة رأوها وإنه لم يكن هناك نص قاطع العذر، وإنما كانت إشارة وإيماء لا يتضمن شيء منها صريح النص، وإن علياً نازع ثم بايع، وجمح ثم أسحب، ولو قام على الامتناع لم نقل بصحة البيعة له ولا بلزومها، ولو جرّد السيف كما جرّده في آخر الأمر لقلنا بفسق كل من خالفه على الإطلاق إنه فاسق كافر، ولكن رضى بالبيعة أخيراً ودخل في الطاعة، وبالجملة أصحابنا يقولون: إن الأمر كان له وكان هو المستحق والمتعين فإن شاء أخذه بنفسه وإن شاء ولآه غيره، فلما رأيناه قد وافق على ولاية غيره اتبعناه ورضيناه.

فقال: قد بقي بيني وبينكم قليل أنا أذهب إلى النص وأنتم لا تذهبون إليه؟

فقلت: إنه لم يثبت النص عندنا بطريق يوجب العلم، وما تذكرونه أنتم صريحاً، فأنتم تنفردون بنقله، وما عدا ذلك من الأخبار التي نشارككم فيها فلها تأويلات معلومة.

فقال وهو ضجر: يا فلان، لو فتحنا باب التأويلات لجاز أن نتأوّل قولنا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، دعني من التأويلات الباردة التي تعلم القلوب والنفوس أنها غير مرادة وأن المتكلمين تكلفوها وتعسفوها، فإنما أنا وأنت في الدار ولا ثالث لنا فيستحيي أحدنا من

صاحبه أو يخافه.

قال الشارح: فلما بلغنا إلى هذا الموضع دخل قوم ممن كان يخشاه فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث وخضنا في غيره، انتهى[١].

قال الشارح المحتاج إلى رحمة رب العالمين المتمسك بحبل الله المتين وولاية أمير المؤمنين:

لله در الشارح المعتزلي والنقيب أبي جعفر الحسني، فلقد أجاد كل منهما فيما أفاد، وأسفرا النقاب عن وجه المراد، وحققا ما هو الحق الأحق بالإتباع، وأفصحا عن صريح مذهب الشيعة الإمامية رضي الله عنهم لولا إنكار الأول للنص الجلي، وتعصّب الثاني في حق الشيخين، وقوله: بأنهما من أهل الجنة بشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله أو بشفاعة علي عليه السلام وبعبارة أخرى عدم تبرّيه من الشيخين مع توليه لأمير المؤمنين.

فإن كان ما قالاه مقتضى التقية التي هي شعار الإمامية أي يكون ما أضمراه خلاف ما أظهراه، فطوبى لهم وحسن مآب وجنات خلد مفتّحة الأبواب.

وإن كان سريرتهما وفق علانيتهما فويل لهما من ديّان الدين يوم حشر الأولين والآخرين.

وما أدري ماذا يعتذران به إذا لاقيا أمير المؤمنين في موقف حساب رب العالمين، وكيف يمكن إنكار النص مع وجود النصوص القاطعة المتواترة العامية والخاصية حسبما عرفت في تضاعيف الشرح وتعرف أيضاً في المواقع اللائقة، أم كيف يمكن اجتماع ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ومحبته في القلب مع محبة الشيخين وما جعل الله لرجل في جوفه من قلبين ولنعم ما قال مجنون العامري:

ولو كان لي قلب يذوب بحبها وقلب بأخرى أنها لقلوب

وقد تقدم في شرح الخطبة المائة والسابعة والأربعين أخبار كثيرة في عدم اجتماع محبته عليه السلام مع محبة غيره فليتذكر، هذا.

مضافاً إلى النص الذي هو مسلّم النقيب كما أنه مثبت لخلافة أمير المؤمنين ناف لخلافة المتخلين المبطلين، وبالجملة لازمة الولاية الحقة الثبات في عداوة الثلاثة.

وهنا لطيفة مناسبة للمقام يعجبني ذكرها وهو:

---

(١) شرح النهج: ١٠/ ٢٢٧.

أن الشيخ صالح بن حسن سأل عن الشيخ الأجل بهاء الملّة والدين قدّس الله روحه، وقال: ما قول سيدي وسندي في هذه الأبيات لبعض النواصب فالمأمول أن تشرفوا بجواب منظوم يكسر سورته:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا ... أرضى بسبّ أبي بكر ولا عمرا
ولا أقول إذا لم يعطيا فدكاً ... بنت النبي رسول اللّه قد كفروا
اللّه يعلم ماذا يأتيان به ... يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

فأجابه الشيخ قدّس سره العزيز: التمست أيها الأخ الأفضل الصفيّ الوفيّ أطال الله بقاك وأدام في معارج العزّ ارتقاك الإجابة عما هذر به هذا المخذول، فقابلت التماسك بالقبول، وطفقت أقول:

يا أيها المدّعي حب الوصيّ ولم ... تسمح بسبّ أبي بكر ولا عمرا
كذبت واللّه في دعوى محبته ... تبت يداك ستصلى في غد سقرا
فكيف تهوى أمير المؤمنين وقد ... أراك في سبّ من عاداه مفتكرا
فإن تكن صادقاً فيما نطقت به ... فابرأ إلى اللّه ممن خان أو غدرا
وأنكر النص في خمّ وبيعته ... وقال إن رسول اللّه ﷺ قد هجرا
أتيت تبغي قيام العذر في فدك ... أتحسب الأمر في التمويه مستترا
إن كان في غصب حق الطهر فاطمة ... سيقبل العذر ممن جاء معتذرا
فكلّ ذنب له عذر غداة غد ... وكل ظلم ترى في الحشر مغتفرا
فلا تقولوا لمن أيامه صرفت ... في سبّ شيخيكم قد ضلّ أو كفرا
بل سامحوه وقولوا لا نؤاخذه ... عسى يكون له عذر إذا اعتذرا
فكيف والعذر مثل الشمس إذ بزغت ... والأمر متضح كالصبح إذ ظهرا
لكنّ إبليس أغواكم وصيّركم ... عمياً وصماً فلا سمعاً ولا بصرا[1]

(١) اللمعة البيضاء: ٧٤٣.

الترجمة

می فرماید: قسم به خدا نیست معاویه زیرك تر از من در تدبیر امورات دنیویه ولكن آن ملعون مكر و حیله می كند و مرتكب فسق و فجور می شود و اگر حیله كردن حرام نمی شد، هرآینه می بودم من از زیرك ترین خلق ولكن هر حیله كننده، فاسق و فاجر است و هر فاسق و فاجر، كافر و هر صاحب حیله را علمی است، شناخته می شود با او در روز قیامت. به خدا سوگند طلب نمی شود غفلت از من به جهت كید و حیله و طمع نمی شود در ضعف من به جهت شداید و سختی های روزگار.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان من المختار في باب الخطب

«أيُّها النَّاسُ لا تَسْتَوْحِشُوا في طَرِيقِ الهُدىٰ لِقِلَّةِ أَهْلِه، فَإنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلىٰ مائِدَةٍ شِبَعُها قَصِيرٌ، وَجُوعُها طَويلٌ، أيُّها النَّاسُ إنَّما يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضا والسَّخَطُ، وإنَّما عَقَرَ ناقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ واحِدٌ فَعَمَّهُمُ الله بِالعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضا، فَقالَ سُبْحانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء: ١٥٧] فَمَا كَانَ إلاَّ أنْ خارَتْ أرْضُهُمْ بِالخَسْفَةِ خُوارَ السِّكَّةِ المُحْماةِ في الأرْضِ الخَوَّارَةِ، أيُّها النَّاسُ مَنْ سَلَكَ الطَّريقَ الواضِحَ وَرَدَ الماءَ، وَمَنْ خالَفَ وَقَعَ في التِّيهِ».

اللغة

قال الأزهري: **(العقر)** عند العرب قطع عرقوب الناقة ثم جعل النّحر عقراً لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره و **(الخوار)** بالضم صوت البقر والغنم والسهم والخور المنخفض من الأرض، والأرض الخوّارة الكثيرة الخوار و **(خسف)** المكان غار في الأرض وخسفه الله يتعدّى ولا يتعدّى و **(السّكة)** بالكسر حديدة الفدّان التي تثير بها الأرض و **(حميت)** الحديدة تحمى من باب تعب فهي حامية إذا اشتدّ حرّها بالنار ويعدّى بالهمزة فيقال: أحميتها فهي محماة و **(التّيه)** بكسر **(التاء)** المفازة التي لا علامة فيها يهتدى بها، وتاه الإنسان في المفازة يتيه ضلّ عن الطريق.

الإعراب

ثمود بالفتحة قبيلة من العرب الأولى، وهم قوم صالح، وصالح من ولد ثمود، سمّوا بإسم أبيهم الأكبر ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح يصرف ولا يصرف، فمن جعله إسم حيّ أو واد صرفه لأنه حينئذ مذكّر، ومن جعله إسم قبيلة أو أرض لم يصرفه للتأنيث والعلمية، وأرض ثمود قريبة من تبوك، ولما عموه في بعض النسخ بتشديد الميم فتكون ظرفية بمعنى **(إذ)**، وفي بعضها بكسر **(اللام)** وتخفيف **(الميم)** فتكون **(ما)** مصدرية، وقوله: فأصبحوا نادمين إن **(كان)** أصبحت ناقصة بمعنى صار **(فنادمين)** خبرها، وإن كانت تامة بمعنى الدخول في وقت الصباح فهو حال من فاعلها، ويؤيّد الثاني قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [٨٣]، وكذا قوله: فما كان، يحتمل أن تكون **(كان)** ناقصة واسمها مضمر فيها، أي ما كان الانتقام منهم، وتامة بمعنى وقع.

المعنى

إعلم أن الغرض من هذا الكلام ترغيب أصحابه على الثبات على ما كانوا عليه من سلوك سبيل الحق، ولما كانت العادة جارية بأن يستوحش الناس من الوحدة وقلّة الرفيق في الطريق، لا سيما إذا كان طويلاً صعباً غير مأنوس، فنهى عن الاستيحاش في تلك الطريق وقال:

(أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله) وكني به عما عساه يعرض لبعضهم من الوسوسة بأنهم ليسوا على الحق لقلتهم وكثرة مخالفيهم، وأيضاً قلة العدد في الطرق الحسية مظنة الهلاك والسلامة مع الكثرة، فنبههم عليه السلام على أنهم في طريق الهدى والسلامة وإن كانوا قليلين وأن طرق الآخرة لا تقاس بطرق الدنيا.

ثم نبّه على قلّة أهل الهدى بأن أغلب الناس مفتونون بحبها الصارف لهم عن طريق الهدى إلى طريق الردى فقال:

(فإن الناس اجتمعوا على مائدة) استعارها للدنيا والجامع كونهما مجتمع اللذات وتفرعها بأن **(شبعها قصير وجوعها طويل)** وكنى بقصر شبعها عن قصر مدتها وبطول جوعها عن استعقاب الانهماك فيها للعذاب الطويل في الآخرة.

قال الشارح البحراني: لفظ الجوع مستعار للحاجة الطويلة بعد الموت إلى المطاعم الحقيقية الباقية من الكمالات النفسانية الفانية بسبب الغفلة في الدنيا، فلذلك نسب الجوع إليها.

وكيف كان ففيه تنفير للمخاطبين من الاجتماع على تلك المائدة مع المجتمعين عليها من أهل الدنيا وحثّ لهم على الاجتماع على مائدة شبعها طويل وجوعها قصير مع المجتمعين عليها من أهل الآخرة.

وإنما يحصل ذلك بسلوك صراطهم المستقيم المؤدي إلى جنة النعيم، عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، أولئك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون، على سرر متقابلين، يطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذّة للشاربين، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، هذا.

أما قلّة أهل الهدى فقد أُشير إليها في كثير من آيات الكتاب العزيز وفي أخبار أهل البيت عليهم السلام، وقد مدح الله القليل وذمّ الكثير في كثير من آي التنزيل، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبا: ٣٤]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا

قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

والغرض منها رفع ما يسبق إلى الأوهام العامية من أن الكثرة دليل الحقية والقلّة دليل البطلان، ولذا يميل أكثر الناس إلى السواد الأعظم من أن في أعصار جميع الأنبياء كان أعداؤهم أضعاف أتباعهم وأوليائهم.

روى في (البحار) من (الكافي) بإسناده عن سماعة بن مهران قال: قال لي عبد صالح عليه السلام: يا سماعة، أمنوا على فرشهم وأخافوني أما والله لقد كانت الدنيا وما فيها إلا واحد يعبد الله ولو كان معه غيره لأضافه الله عزَّ وجل إليه حيث يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، فصبر بذلك ما شاء الله ثم أن الله آنسه بإسماعيل وإسحاق فصاروا ثلاثة، أما والله إن المؤمن لقليل وإن أهل الكفر كثير، أتدري لما ذلك؟ فقلت: لا أدري جعلت فداك، فقال: صيروا أُنساً للمؤمنين يثبتون إليهم ما في صدورهم فيستريحون إلى ذلك ويسكنون إليه[1].

قال المحدّث العلامة المجلسي بعد نقله: قوله: وأخافوني، أي بالإذاعة وترك التقيّة، والضمير في أمنوا راجع إلى المدّعين للتشيّع الذين لم يطيعوا أئمتهم في التقيّة وترك الإذاعة، وأشار بذلك إلى أنهم ليسوا بشيعة لنا، وقوله: وإن أهل الكفر كثير، المراد بالكفر هنا المقابل للإيمان الكامل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقوله: أتدري لم ذاك؟ أي قلّة عدد المؤمنين مع أنهم بحسب الظاهر كثيرون أو لأن الله لم يجعل هؤلاء في صورة المؤمنين، والمعنى أن الله جعل هؤلاء المتشيّعة أنساً للمؤمنين لئلا يستوحشوا لقلّتهم أو تكون علّة لخروج هؤلاء عن الإيمان، فالمعنى أنه جعل المخالفين أنساً للمؤمنين فيبثون - أي المؤمنين إلى المخالفين - أسرار أئمتهم فبذلك خرجوا عن الإيمان.

ويؤيد الاحتمالات المتقدمة ما رواه علي بن جعفر قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: ليس كل من يقول بولايتنا مؤمناً ولكن جعلوا أنساً للمؤمنين.

وفي (البحار) من (الكافي) عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك ما أقلّنا لو اجتمعنا على شاة ما أفنيناها، فقال عليه السلام: ألا أُحدثك بأعجب من ذلك؟ المهاجرون والأنصار إلاّ - وأشار بيده - ثلاثة[2]، فقلت: جعلت فداك، ما حال عمّار؟ قال:

---

(١) الكافي ٢/ ٢٤٤، وبحار الأنوار ٤٧/ ٣٧٣ ح ٩٤.

(٢) ثلاثة: المراد بثلاثة أصابع من يده وثلاثة من كلام الإمام عليه السلام والمراد بالثلاثة: سلمان وأبو ذر والمقداد.

رحم الله عماراً أبا اليقظان بايع ومات شهيداً، فقلت في نفسي: ما شيء أفضل من الشهادة، فنظر إليّ فقال: لعلك ترى أنه مثل الثلاثة أيهات أيهات[١].

وفيه من **(الكافي)** عن قتيبة الأعشى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: المؤمنة أعزّ من المؤمن، والمؤمن أعزّ من الكبريت الأحمر، فمن رأى منكم الكبريت الأحمر؟[٢].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة وفيما رويناه كفاية.

وقوله: **(أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط)** أي يجمعهم في العذاب رضاهم بالمنكرات وفي الخلاص منه سخطهم لها، كما أنه يجمعهم في الثواب رضاهم بالصالحات وفي الحرمان منه سخطهم لها، لأن الراضي بفعل قوم كالداخل معهم فيه، ويدل على ذلك أخبار كثيرة.

مثل ما في **(الوسائل)** عن البرقي في **(المحاسن)** عن محمد بن مسلم قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنما يجمع الناس الرضا والسخط فمن رضى أمراً فقد دخل فيه ومن سخطه فقد خرج منه[٣].

وفيه من **(العيون والعلل)** بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله ما تقول في حديث روي عن الصادق عليه السلام قال: إذا خرج القائم عليه السلام قتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائها، فقال: هو كذلك، فقلت: قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ما معناه؟ قال: صدق الله في جميع أقواله، ولكن ذراري قتلة الحسين يرضون بفعال آبائهم ويفتخرون بها، ومن رضى شيئاً كان كمن أتاه، ولو أن رجلاً قتل بالمشرق فرضي بقتله رجل بالمغرب لكان الراضي عند الله شريك القاتل، وإنما يقتلهم القائم عليه السلام إذا خرج لرضاهم بفعل آبائهم[٤].

وفيه من **(العيون والعلل)** بهذا الإسناد عن الرضا عليه السلام قال: قلت له: لأيّ علّة أغرق الله عزَّ وجل الدنيا كلها في زمن نوح عليه السلام وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فقال: ما كان فيهم الأطفال لأن الله عزَّ وجل أعقم أصلاب قوم نوح وأرحام نسائهم أربعين عاماً فانقطع نسلهم فغرقوا ولا طفل فيهم، ما كان الله ليهلك بعذابه من لا ذنب له، وأما الباقون من قوم

(١) الكافي ٢/ ٢٤٤ ح ٦، وبحار الأنوار ٢/ ٣٤٥.

(٢) الكافي ١/ ١٣٤، ودرر الأخبار ٤٥٦ ح ٧.

(٣) المحاسن ١/ ٢٦٢ ح ٣٢٣، ووسائل الشيعة ١٦/ ١٤٠ ح ٢١١٨٥.

(٤) علال الشرائع ١/ ٣٠، والتوحيد ٩٣٢ ح ٢.

نوح فأغرقوا بتكذيبهم لنبي الله نوح عليه السلام وسائرهم أغرقوا برضاهم بتكذيب المكذّبين، ومن غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهده وأتاه(١).

وفيه عن العياشي في (تفسيره) عن محمد بن هاشم عمن حدّثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣] وقد علم أن قد قالوا: والله ما قتلنا ولا شهدنا، وإنما قيل لهم: ابرأوا من قتلتهم، فأبوا(٢).

وعن محمد بن الأرقط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تنزل الكوفة؟ قلت: نعم، قال: ترون قتلة الحسين بين أظهركم؟ قال: قلت: جعلت فداك ما بقي منهم أحد، قال: فأنت إذاً لا ترى القاتل إلا من قتل أو من ولي القتل، ألم تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فأي رسول قتل الذي كان محمد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم ولم يكن بينه وبين عيسى رسول؟ وإنما رضوا قتل أولئك فسمّوا قاتلين، هذا(٣).

ولما ذكر عليه السلام أن الناس يجمعهم الرضا والسخط استشهد عليه بقصة ثمود، فقال:

(**وإنما عقر ناقة**) الصالح التي جعلها الله آية قومه (**ثمود رجل واحد**) منهم أزرق، أشقر، أحمر يقال له: قدار بن سالف، وكان ولد زنا ولم يكن ابن سالف وإنما ولد في بيته فانتسب إليه (**فعمهم الله بالعذاب**) وهي الصيحة والرجفة والصاعقة والزلزلة الشديدة (**لما عموه بالرضا**) أي أنزل العذاب على جميعهم لما كان الجميع راضين بذلك الفعل، أعني عقر الناقة (**فقال تعالى**) في سورة الشعراء (**فعقروها**) نسب العقر إلى جميعهم لما ذكر (**فأصبحوا نادمين**) على عقرها عند معاينة العذاب.

وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [٦٧]، وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [٧٨].

قال الطبرسي في تفسير هذه الآية الأخيرة: أي الصيحة، وقيل: الزلزلة هلكوا بها، وقيل: الصاعقة، وقيل: كانت صيحة زلزلت به الأرض وأصل الرجفة الحركة المزعجة الشديدة، وإنما قال: فأصبحوا جاثمين لأن العذاب أخذهم عند الصباح، وقيل: أتتهم

(١) وسائل الشيعة ١٦/ ١٤٢، وبحار الأنوار ٩٧/ ٩٥.

(٢) التفسير الصافي ١/ ٢٢٩ ح ١٩٣، ومجمع النورين ٣٦٦.

(٣) وسائل الشيعة ١٦/ ٢٦٨ ح ٢١٥٣٤.

الصيحة ليلاً فأصبحوا على هذه الصفة، والعرب تقول عند الأمر العظيم: وا سوء صباحاه.

أقول: ويؤيد الأول قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [٨٣]، وستعرف تفصيل قصتهم وتمام الآية المذكورة في المتن في التذنيب الآتي إن شاء الله.

(فما كان) عقوبتهم بعد العقر **(إلا أن)** أخذتهم الرجفة و **(خارت أرضهم بالخسفة)** أي صوتت بسبب الخسف في الأرض **(خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة)** أي مثل تصويت السكة المحدّدة التي هي أقوى صوتاً وأشد غوصاً في الأرض الصلبة الكثيرة الصوت فارية بالمحماة المحددة مجازاً بعلاقة ما كان لأنها تحمى في النار أولاً ثم تحدد أو بعلاقة الملازمة.

وأبقاه الشارح المعتزلي على معناه الحقيقي وقال: إنما جعلها محماة لأنه يكون أبلغ في ذهابها في الأرض، لأن السكة المحماة تخرق الأرض بشيئين: أحدهما تحدّد رأسها، والثاني حرارتها، فإن الجسم المحدد إذا اعتمد عليه في الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدد على النفوذ بتحليلها ما يلاقي من صلابته الأرض، لأن شأن الحرارة التحليل، فيكون غوص ذلك الجسم المحدد في الأرض أسهل، انتهى.

وفيه أن الحديد عند التسخين ملين واللين يوجب ضعف النفوذ لا قوته كما هو ظاهر فكيف تكون الحرارة معينة على نفوذها.

ثم إنه فسر الخوارة باللينة وفسرها الشارح البحراني بالضعيفة، فيتوجه عليه أن الأرض اللينة الضعيفة وإن كان نفوذ السكة فيها أبلغ إلا أنها لا يكون لها صوت وإنما يخرج الصوت من اصطدام الحديد بالصلب من الأرض، ولذلك اشترطوا في خروج الصوت مقاومة المقروع للقارع والمقلوع للقالع، هذا.

ولما افتتح كلامه بالنهي عن الاستيحاش في سلوك طريق الهدى، ختمه بالترغيب في سلوكه بالتنبيه على ما فيه من المنافع فقال:

(أيها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء ومن خالف وقع في التّيه) وهو من قبيل إرسال المثل فإن سالك الجادة الوسطى يصل المنزل ويرد الماء، والآخذ باليمين والشمال يضل عنها ويقع في المفازة الخالية من الماء والكلاء ويهلك من العطش.

والمراد به أن ناهج المنهج القويم والصراط المستقيم يصل إلى جنات النعيم ويشرب من كوثر وتسنيم، والتارك له صار إلى الجحيم، ووقع في العذاب الأليم، والخزي العظيم، نعوذ بالله من اتباع الهوى ومن الضلال بعد الهدى.

تنبيه

ما أوردته في شرح هذا الكلام له عليه السلام جرياً على مقتضى ظاهره المسوق سوق العموم، والذي يقتضيه النظر الدقيق أن نظره عليه السلام فيه إلى أمر الخلافة والحثّ على متابعته والتحذير والتنفير من متابعة أئمة الضلال.

فيكون محصل المعنى على ذلك أمر المخاطبين بعدم الاستيحاش من متابعته ومن تخليص الإيمان بولايته لقلّة المؤمنين وكثرة المنافقين، لأن الناس المجتمعين على عوائد أئمة الضلال وموائدهم والمتفعون من عطياتهم وجوائزهم لا سيما ما كان في زمن عثمان ومعاوية من خضم مال الله خضم الإبل نبتة الربيع قد اجتمعوا على مائدة فيها اللذة العاجلة القليلة، والنقمة الآجلة الكثيرة، والشبع القصير، والجوع الطويل، وحذّرهم عن الرضا بفعل أئمة الضلال من الظلم في حقه مضافاً إلى البدع والمنكرات التي أحدثوها أن يعمهم العذاب ويحيط بهم كما أحاط بقوم ثمود من أجل رضاهم بما فعله واحد منهم من عقر ناقة الله والظلم في حقها.

ثم أكد عليه السلام ذلك، أي وجوب متابعته وحرمة مخالفته والعدول عنه إلى غيره، بالتنبيه على أن سالك سبيل ولايته يشرب من الرحيق المختوم، والعادل عنه إلى غيره تاه في أودية الضلال، ويسقى من الضريع والزّقوم.

ومن ذلك عُلم حسن إقحام قصة ثمود في البين وارتباط أجزاء الكلام بعضها ببعض ويزيد ذلك وضوحاً:

ما رواه في (**البحار**) من الثعلبي بإسناد معروف عن النبي صلى الله عليه وآله: «يا علي أتدري من أشقى الأولين؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: عاقر الناقة، قال: «أتدري من أشقى الآخرين؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «قاتلك»، وفي رواية أخرى قال: «أشقى الآخرين من يخضب هذه من هذه» وأشار إلى لحيته ورأسه[١].

وفي (**البحار**) أيضاً من (**قصص الأنبياء**) عن الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل قال: وإنما مثل علي عليه السلام والقائم صلوات الله عليهما في هذه الأمة مثل صالح عليه السلام[٢].

---

(١) بحار الأنوار ١١/ ٣٩٣، وتفسير جوامع الجامع ١/ ٦٧٢.

(٢) بحار الأنوار ١١/ ٣٨٧، وقصص الأنبياء ١٠٤ ح ٩١.

تذنيب

في تفصيل قصة صالح وثمود وكيفية عقر الناقة فأقول:

قد ذكر الله سبحانه هذه القصة في عدة سور من كتابه العزيز في بعضها إجمالاً وبعضها تفصيلاً وهي: سورة (الأعراف) و (هود) و (الحجر) و (الشعراء) و (النمل) و (السجدة) و (الذاريات) و (القمر) و (الحاقة) و (الفجر) و (الشمس)، ونحن نورد الآيات المتضمنة لها في سورة (الشعراء) تبعاً للمتن، ونعقبها بالأخبار الواردة في تلك القصة، قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ [١٤١ـ ١٥٩].

روى الكليني في كتاب **(الروضة من الكافي)** عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله سأل جبرئيل: «كيف كان مهلك قوم صالح؟» فقال: يا محمد إن صالحاً بعث إلى قومه وهو ابن ست عشرة سنة، فلبث فيهم حتى بلغ عشرين ومائة سنة لا يجيبونه إلى خير.

قال: وكان لهم سبعون صنماً يعبدونها من دون الله عزَّ ذكره، فلما رأى ذلك منهم قال: يا قوم بعثت إليكم وأنا ابن ست عشرة سنة وقد بلغت عشرين ومائة سنة وأنا أعرض عليكم أمرين إن شئتم فاسألوني حتى أسأل إلٰهي فيجيبكم فيما سألتموني الساعة، وإن شئتم سألت آلهتكم فإن إجابتي بالذي أسألها خرجت عنكم فقد سئمتكم وسئمتموني.

قالوا: قد أنصفت يا صالح فاتعدو اليوم يخرجون فيه.

قال: فخرجوا بأصنامهم إلى ظهرهم[1] ثم قرّبوا طعامهم وشرابهم فأكلوا وشربوا فلما أن فرغوا دعوه، فقالوا: يا صالح سل، فدعا صالح كبير أصنامهم، فقال: ما إسم هذا؟ فأخبروه باسمه، فناداه باسمه فلم يجب، فقال صالح: ما له لا يجيب؟ فقالوا له: ادع غيره.

(١) ظهرهم: أي خارج بلدهم.

قال: فدعاها كلها فلم يجبه منها شيء، فقال: يا قوم قد ترون قد دعوت أصنامكم فلم يجبني واحد منهم فاسألوني حتى أدعو إلٰهي فيجيبكم الساعة، فأقبلوا على أصنامهم فقالوا لها: ما بالكن لا تجبن صالحاً فلم تجب، فقالوا: يا صالح تنحّ عنا ودعنا وأصنامنا قليلاً.

قال: فرموا بتلك البسط التي بسطوها بتلك الآنية ونحّوا الثياب وتمرغوا في التراب وطرحوا التراب على رؤوسهم وقالوا لها: لئن لم تجبن صالحاً لنفضحنّ، ثم دعوه فقالوا: يا صالح تعال فاسألها، فعاد فسألها فلم تجبه، فقال لهم: يا قوم قد ذهب صدر النهار ولا أرى آلهتكم تجيبني، فاسألوني حتى أدعو إلٰهي فيجيبكم الساعة.

فانتدب له منهم سبعون رجلاً من كبرائهم وعظمائهم والمنظور إليهم منهم، فقالوا: يا صالح نحن نسألك فإن أجابنا ربك تبعناك وأجبناك ويابعك جميع أهل قريتنا، فقال لهم: سلوني ما شئتم، فقالوا: تقدم بنا إلى هذا الجبل، وكان الجبل قريباً، فانطلق معهم صالح فلما انتهوا إلى الجبل قالوا: يا صالح ادع لنا ربك يخرج لنا من هذا الجبل الساعة ناقة حمراء شقراء وبراء عشراء بين جنبيها ميل، فقال لهم صالح: قد سألتموني شيئاً يعظم عليّ ويهون على ربي جل وعز وتعالى.

قال: فسأل الله تبارك وتعالى صالح ذلك فانصدع الجبل صدعاً كادت تطير منه عقولهم لما سمعوا ذلك، ثم اضطرب الجبل اضطراباً شديداً كالمرأة إذا أخذها المخاض، ثم لم يفجاهم[1] إلا ورأسها قد طلع عليهم من ذلك الصدع، فما استتمت رقبتها حتى اجترت ثم خرج سائر جسدها ثم استوت قائمة على الأرض.

فلما رأوا ذلك قالوا: يا صالح ما أسرع ما أجابك ربك، ادع لنا يخرج لنا فصيلها.

فسأل الله عزَّ وجل ذلك، فرمت به، فدبّ حولها فقال لهم: يا قوم أبقي شيء؟ قالوا: لا، انطلق بنا إلى قومنا نخبرهم بما رأينا ويؤمنون «يؤمنوا» بك.

قال: فرجعوا فلم يبلغ السبعون إليهم حتى ارتدّ منهم أربعة وستون رجلاً، وقالوا: سحر وكذب.

قال: فانتهوا إلى الجميع فقال الستة: حق، وقال الجميع: كذب وسحر، قال: فانصرفوا على ذلك ثم ارتابت من الستة واحد وكان فيمن عقرها.

قال ابن محبوب: فحدثت بهذا الحديث رجلاً من أصحابنا يقال له سعد بن يزيد،

---

(١) لم يفجاهم: لم يظهر عليهم شيء من أعضائها إلا رأسها.

فأخبرني أنه رأى الجبل الذي خرجت منه بالشام فرأى جنبها قد حكّ الجبل فأثر جنبها فيه وجبل آخر بينه وبين هذا ميل[١].

وفي (الروضة) عن علي بن العباس عن الحسن بن عبد الرحمٰن عن علي بن حجرة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾ [القمر: ٢٣ـ ٢٥].

قال عليه السلام: هذا بما كذبوا صالحاً وما أهلك الله قوماً قط حتى يبعث إليهم قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم فبعث الله عزَّ وجل إليهم صالحاً فدعاهم إلى الله فلم يجيبوه وعتوا عليه عتوّاً وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء، وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها، فقالوا له: إن كنت كما تزعم نبيّاً رسولاً فادع لنا إلٰهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصمّاء ناقة عشراء، فأخرجها الله كما طلبوا منه.

ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة من الماء شرب يوم ولكم شرب يوم، فكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت ذلك اليوم الماء فيحلبونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم.

فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض وقالوا: أعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم، ثم قالوا: من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحب، فجاءهم رجل أحمر، أشقر، أزرق ولد زنا لا يعرف له أب يقال له: قدار، شقيّ من الأشقياء مشؤوم عليهم، فجعلوا له جعلاً، فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت الماء وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم تعمل شيئاً، فضربها ضربة أخرى فقتلها وخرّت إلى الأرض على جنبها وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل، فرغا ثلاث مرات إلى السماء، وأقبل قوم صالح فلم يبق أحدٌ إلا شركه في ضربته واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها.

فلما رأى ذلك صالح أقبل عليهم فقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم أعصيتم ربكم؟

فأوحى الله تعالى إلى صالح: إن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة

(١) الكافي ٨/ ١٨٥ ح ٢١٣، وشرح أصول الكافي ١٢/ ٢٤٣.

عليهم ولم يكن عليهم منها ضرر وكان لهم فيها أعظم المنفعة، فقل لهم: إني مرسل عليكم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث.

فأتاهم صالح فقال لهم: يا قوم إني رسول ربكم إليكم وهو يقول لكم: إن أنتم تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت لكم.

فلما قال لهم ذلك كانوا أعتى ما كانوا وأخبث وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال: يا قوم إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني وجوهكم محمرّة، واليوم الثالث وجوهكم مسوّدة.

فلما أن كان أول يوم أصبحوا ووجوهم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً.

فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح وما تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها. ولم يتوبوا ولم يرجعوا.

فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فمشى بعضهم إلى بعض فقال: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح.

فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل عليه السلام فصرخ بهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم، وفلقت قلوبهم، وصدعت أكبادهم، وقد كانوا في تلك الثلاثة أيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم، فماتوا أجمعين في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم فلم يبق منهم ناعقة ولا راعية ولا شيء إلا أهلكه الله فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى أجمعين، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين، وكانت هذه قصتهم[١].

ورواه المحدث العلامة المجلسي في **(البحار من الروضة)** كما نقلناه، وقال بعد روايته:

(إيضاح) قوله: كذّبت ثمود بالنذر، بالإنذارات أو المواعظ أو الرسل، فقالوا: أبشراً منا من جنسنا وجملتنا لا فضل له علينا، انتصابه بفعل يفسره ما بعده، واحداً، منفرداً لا تابع

(١) تفسير نور الثقلين ٢/٤٨، وقصص الأنبياء ١٠٦.

له أو من آحادهم دون أشرافهم، نتبعه إذاً لفي ضلال وسعر، كأنهم عكسوا عليه فرتبوا على اتباعهم إياه ما رتّب على ترك اتباعهم له، أألقي الذكر، الكتاب والوحي، عليه من بيننا، وفينا من هو أحق منه بذلك؟، بل هو كذاب أشر، حمله بطره على الرفع علينا بادعائه.

والشرب بالكسر النصيب من الماء، والأشقر من الناس من تعلو بياضه حمرة، لا يعرف له أب أي كان ولد زنا، وإنما كان ينسب «إلى سالف ظ» لأنه كان وُلِد على فراشه، قال الجوهري: قدار بضم (القاف) وتخفيف (الدال)، يقال له: أحمر ثمود وعاقر ناقة صالح، انتهى.

ورغا البعير صوّت وضجّ، لم يبق منهم ناعقة ولا راعية أي لم يبق جماعة يتأتى منهم النعيق والرعي، والنعيق صوت الراعي بغنمه، وفي بعض النسخ: ثاغية ولا راغية، أي شاة ولا ناقة.

وفي (مجمع البيان) فإذا كان يوم الناقة وضعت رأسها في مائهم فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيه ثم ترفع رأسها فتفجج لهم فيحتلبون ما شاؤوا من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملأوا أوانيهم كلها.

قال الحسن بن محبوب: حدثني رجل من أصحابنا يقال له سعيد بن يزيد قال: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة بين الجبلين ورأيت أثر جنبيها فوجدته ثمانين ذراعاً وكانت تصدر من غير الفجّ الذي منه وردت، ولا تقدر على أن تصدر من حيث ترد لأنه يضيق عنها وكانوا في سعة ودعة منها، وكانوا يشربون الماء يوم الناقة من الجبال والمغارات، فشقّ ذلك عليهم وكانت مواشيهم تنفر عنها لعظمها فهمّوا بقتلها.

قالوا: وكانت امرأة جميلة يقال لها: صدوف، ذات مال من إبل وبقر وغنم وكانت أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام فدعت رجلاً يقال له: مصدع بن مهرج، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة، وامرأة أخرى يقال لها: عنيزة، دعت قدار بن سالف وكان أحمر، أزرق قصيراً وكان ولد زنا ولم يكن لسالف الذي يدعى إليه ولكنه وُلِد على فراشه، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه، فانطلق قدار بن سالف ومصدع فاستغويا غواة ثمود فاتبعهما سبعة نفر وأجمعوا على عقر الناقة.

قال السدي: ولما ولد قدار وكبر جلس مع أناس يشربون الشراب، فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم، وكان ذلك اليوم شرب الناقة، فوجدوا الماء قد شربته الناقة، فاشتد ذلك عليهم فقال قدار: هل لكم في أن أعقرها لكم؟ قالوا: نعم.

وقال كعب: كان سبب عقرهم الناقة أن امرأة يقال لها: ملكاء، كانت قد ملكت ثمود،

فلما أقبل الناس على صالح وصارت الرئاسة إليه حسدته، فقالت لامرأة يقال لها: قطام، وكانت معشوقة قدار بن سالف، ولامرأة أخرى يقال لها: إقبال، وكانت معشوقة مصدع، وكان قدار ومصدع يجتمعان معهما كل ليلة ويشربون الخمر فقالت لهما ملكاء: إذا أتاكما الليلة القدار ومصدع فلا تطيعاهما وقولا لهما: إن الملكاء حزينة لأجل الناقة ولأجل صالح، فنحن لا نطيعكما حتى تعقرا الناقة، فلما أتياهما قالتا هذه المقالة لهما، فقالا: نحن نكون من وراء عقرها.

قالوا: فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرمى بسهم فانتظم به عضلة وخرجت عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فأسفرت لقدار ثمَّ زمّرته[1] فشدّ على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها «سقيتها خ» ثم طعن في لبّتها فنحرها وخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه.

فلما رأى الفصيل ما فُعِل بأمه وليّ هارباً حتى صعد جبلاً ثم رغا رغاء تقطع منه قلوب القوم، وأقبل صالح فخرجوا يعتذرون إليه إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا.

فقال صالح: انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يُرفع عنكم العذاب، فخرجوا يطلبونه في الجبل فلم يجدوه، وكانوا عقروا الناقة ليلة الأربعاء، فقال لهم صالح: تمتعوا في داركم، يعني في محلّتكم في الدنيا، ثلاثة أيام، فإن العذاب نازل بكم.

ثم قال: يا قوم، إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرّة، واليوم الثاني تصبحون ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة.

فلما كان أول يوم أصبحت وجوههم مصفرة، فقالوا: جاءكم ما قال لكم صالح، ولما كان اليوم الثاني احمرت وجوههم، واليوم الثالث اسودّت وجوههم.

ولما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل عليه السلام فصرخ بهم صرخة خرقة أسماعهم وصدعت أكبارهم وفلقت قلوبهم، وكانوا قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم، فماتوا أجمعين في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم، فلم يبق الله منهم ثاغية ولا راغية ولا شيئاً يتنفس إلا أهلكها فأصبحوا في ديارهم موتى جاثمين، ثم أرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين[2].

---

(١) زمرته: أي شجعته.

(٢) تفسير نور الثقلين ٢/ ٤٩، والكافي ٨/ ١٨٩.

وفي كتاب علي بن إبراهيم: فبعث الله عليهم صيحة وزلزلة فهلكوا.

نعوذ بالله من غضب الله وسخطه، ونتوسل إليه بمحمد وآله أن لا يؤاخذنا بأعمالنا، وأن يغفر لنا ويصفح عنا فإنه كريم الصفح، وعظيم المنّ، وحسن التجاوز، ووليّ الإحسان، والكرم والامتنان، وعلى كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام انام (عليه السلام) است در تحريص مردمان به راه هدايت و تحذير ايشان از طريق ضلالت، مى فرمايد:

اى مردمان مستوحش نباشيد در راه هدايت به جهت كمى اهل آن، پس به درستى كه خلق جمع شده اند بر طعامى كه سير بودن از آن زمانش كوتاه و گرسنگى آن مدتش طولانى است. اى مردمان به درستى كه جمع مى كند خلق را در عذاب الهى، رضا شدن ايشان به مناهى و خشمناك بودن ايشان به طاعات و جز اين نيست كه پى نمود ناقه قوم صالح پيغمبر (عليه السلام) را يك نفر از ايشان، پس شامل كرد خداى تعالى به جميع ايشان عذاب را وقتى كه همه ايشان راضى شدند به فعل قبيح آن يك نفر، پس فرمود خداوند در كتاب مجيد خود: "فعقروها فاصبحوا نادمين"؛ يعنى پى كردند و كشتند آن قوم ناقه را پس صباح نمودند در حالتى كه پشيمان بودند، پس نشد مؤاخذه و انتقام ايشان مگر اين كه صدا كرد زمين ايشان به جهت زلزله شديده و فرورفتن در زمين مثل صداى آهن تيزشده كه زمين را با آن شخم مى كنند در زمينى كه بسيار صداكننده باشد هنگام شخم، اى مردمان هركه راه برود در راه آشكار و راست، وارد مى شود به آب و هركه تخلف نمايد، مى افتد به بيابان گمراهى و هلاكت.

هنا انتهى الجزء الثاني عشر من هذه الطبعة النفيسة القيّمة، وقد تمَّ تصحيحه وتهذيبه وترتيبه بيد العبد ـ السيد إبراهيم الميانجي ـ عفىٰ الله عنه وعن والديه، وذلك ـ ٢٥ـ من شهر شعبان سنة ١٣٨٢ـ ويليه إنشاء الله الجزء الثالث عشر وأوله:

«ومن كلام له عليه السلام عند دفن الزهراء سلام الله عليها» والحمد لله أولاً وآخراً.

محتوى الجزء الثاني عشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٤٥٠٥
التاريخ ٢٩ / ١ / ٢٠٠٥

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

مِنهاج البَراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملي

مؤسسة التاريخ العربي

منهاج البراعة

شرح

نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق
علي عاشور

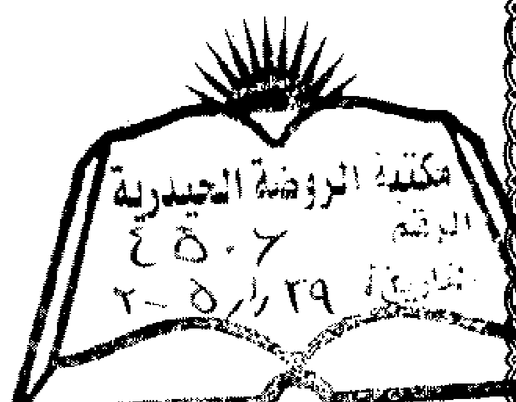

المجلد الثالث عشر

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ شارع دكاش ـ هاتف: ٢٧٢٦٥٢ ـ ٢٧٢٦٥٥ ـ ٢٧٢٧٨٢ ـ ٢٧٢٧٨٢ فاكس: ٨٥٠٧١٧ ـ ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

ومن كلام له عليه السلام عند دفن الزهراء سلام الله عليها وهو المائتان والواحد من المختار في باب الخطب

وهو مروي في (**الكافي**) وفي (**كشف الغمة**) وفي (**البحار**)[1] من أمالي الشيخ ومجالس المفيد باختلاف وزيادة تطلّع عليه إن شاء الله.

«السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله عَنِّي وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جَوارِكَ، والسَّريعَةِ اللّحاقِ بِكَ، قَلَّ يا رَسُولَ الله عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْري، وَرَقَّ عَنْها تَجَلُّدي، إلاَّ أَنَّ لي في التَّأسي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وسَّدْتُكَ في مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفاضَتْ بَيْنَ نَحْري وَصَدْري نَفْسُكَ».

إنَّا لله وَإنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ، فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الوَديعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهينَةُ، أَمّا حُزْني فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلي فَمُسَهَّدٌ، إلىٰ أَنْ يَخْتارَ اللّهُ لِي دارَكَ الَّتي أَنْتَ بِها مُقِيمٌ، وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَظافُرِ أُمَّتِكَ عَلىٰ هَضْمِها، فَأَحْفِهَا السُّؤالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الحالَ، هٰذَا وَلَمْ يَطلِ العَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلامُ عَلَيْكُما سَلامَ مُوَدِّعٍ، لا قالٍ وَلا سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِف فَلا عَنْ مَلالَةٍ، وَإِنْ أَقِمْ فَلا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِما وَعَدَ اللّهُ الصّابِرِينَ.

اللغة

(**التجلّد**) تكلّف الجلادة، وهي القوة والشدة كما في (**القاموس**) و (**الكنز**)، قال الشاعر:

بتجلّدي للشامتين أريهم ... إنّي لريب الدّهر لا أتضعضع

أو تكلّف الجلد، وهو الصبر، قال الشاعر:

ما الاصطبار لسلمي أم لها جلد ... إذا ألاقي الذي لاقاه أمثالي

وأصل الجلد كما في (**القاموس**) جلد البوء تحشي تماماً ويخيّل للناقة فتعطف بذلك على ولد غيرها أو جلد حوار يلبس حواراً آخر لترامه أم المسلوخة، وعلى ذلك فإطلاقه على الصبر مجاز لعلاقة السببية.

و (**الفرقة**) بالضم إسمٌ من الافتراق و (**عزّيته**) تعزية قلت له: أحسن الله عزاك، أي رزقك الصبر الحسن، والعزاء اسم من ذلك مثل سلّم سلاماً وكلّم كلاماً، وتعزّى هو تصبّر

(١) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٩٠، وكشف الغمة: ٢/ ١٩٠، والكافي: ١/ ٤٥٩.

وشعاره أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

و (**استرجعت**) و (**أخذت**) بالبناء على المجهول و (**السهد**) بالضم الأرق وقد سهد سهداً من باب فرح، والسهد بضمتين القليل النوم، وسهّدته فهو مسهّد أي مورق وهو ذو سهدة يقظة و (**هضمه**) هضماً من باب ضرب دفعه عن موضعه فانهضم، وقيل: هضمه كسره وهضمه حقه نقصه هكذا في (**المصباح**)، وقال في (**القاموس**): هضم فلاناً ظلمه وغصبه كاهتضمه وتهضّمه فهو هضيم.

و (**الإحفاء**) في السؤال المبالغة فيه والاستقصاء و (**قليت**) الرجل أقليه من باب رمي قليّ بالكسر والقصر ومقلية أبغضه فأن قال و (**سئم**) الشيء ساماً وسأماً وسامة ملّ منه فهو سؤم وسئم و (**أقام**) بالبلد إقامة اتخذه وطناً فهو مقيم.

الإعراب

قوله: (**إلا أن لي**)، استثناء منقطع، (**وموضع تعزٍّ**) بالنصب إسم (أن) وقدم خبرها للتوسع، وقوله: (**في ملحودة قبرك**)، إضافة الملحودة إلى القبر من إضافة الصفة إلى الموصوف لا بيانية كما توهم، والتأنيث باعتبار الخطة والحفرة، وقوله: (**وأما ليلي فمسهد**)، من المجاز العقلي من باب الإسناد إلى الزمان كما في قول الشاعر رحمه الله:

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد

وقوله: (**إلى أن يختار**)، ظرف لغو متعلق بقوله مسهّد، وقوله: (**استخبرها الحال**)، قال الشارح المعتزلي: أي عن الحال فحذف الجار، اهـ، والأظهر أن يجعل الحال مفعولاً به والجار محذوفاً قبل الضمير أي استخبر عنها الحال، وقوله: (**هذا ولم يطل العهد**)، خبر هذا محذوف على أنه مبتدأ أو فاعل لفعل محذوف، وجملة ولم يطل في محل النصب على الحال، وقوله: (**لا قال ولا سئم**)، صفة لمودّع.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام كما قال السيد «ره» قد روى عنه عليه السلام أنه قاله عند دفن سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام إظهاراً للتفجع بمصابها والتوجع من ألم فراقها كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وآله عند قبره، وينبغي قبل الشروع في شرح كلامه أن نذكر طرفاً من الأخبار الواردة في تسميتها سلام الله عليها بفاطمة وفي تلقّبها بسيدة النساء وبالزهراء.

أما تسميتها بفاطمة:

ففي (**البحار**) من (**العيون**) بالإسناد إلى دارم قال: حدثنا علي بن موسى الرضا ومحمد بن

علي عليه السلام قالا: سمعنا المأمون يحدث عن الرشيد عن المهدي عن المنصور عن أبيه عن جده، قال: قال ابن عباس لمعاوية: أتدري لم سميت فاطمة فاطمة؟ قال: لا، قال: لأنها فُطمت هي وشيعتها من النار، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقوله[١].

ومن **(العيون)** بالأسانيد الثلاثة عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني سميت ابنتي فاطمة لأن الله عز وجل فطمها وفطم من أحبها من النار»[٢].

ومن **(علل الشرائع)** بسنده عن يزيد بن عبد الملك عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما وُلدت فاطمة سلام الله عليها أوحى الله عز وجل إلى ملك فأنطق به لسان محمد صلى الله عليه وآله فسماها فاطمة ثم قال: «إني فطمتك بالعلم وفطمتك عن الطمث»، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: والله لقد فطمها الله تبارك وتعالى بالعلم وعن الطمث في الميثاق[٣].

قال المحدث العلامة المجلسي «قد» بعد نقله: فطمتك بالعلم، أي أرضعتك بالعلم حتى استغنيت وفطمت، أو قطعتك عن الجهل بسبب العلم، أو جعلت فطامك من اللبن مقروناً بالعلم كناية عن كونها في بدء فطرتها عالمة بالعلوم الربانية، وعلى التقادير كان الفاعل بمعنى المفعول كالدافق بمعنى المدفوق، ويقرأ على بناء التفعيل أي جعلتك قاطعة الناس من الجهل، أو المعنى لما فطمها من الجهل فهي تفطم الناس منه، والوجهان الأخيران يشكل إجراؤهما في قوله: **(فطمتك عن الطمث)** إلا بتكلف بأن يجعل الطمث كناية عن الأخلاق والأفعال الذميمة.

وفي **(البحار)** من المناقب عن الصادق عليه السلام قال: تدري أي شيء تفسير فاطمة؟ قال: فطمت من الشر، ويقال: إنما سميت فاطمة لأنها فطمت عن الطمث[٤].

وأما تلقبها بسيدة النساء:

فقد روي في **(البحار)** من مناقب ابن شهرآشوب عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أتاني ملك فبشّرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة أو نساء أمتي»[٥].

وعن جابر بن سمرة عن النبي صلى الله عليه وآله في خبر: «أما أنها سيدة النساء يوم القيامة».

---

(١) علل الشرائع: ١/ ١٧٩، وبحار الأنوار: ٤٣/ ١٢-١٥.

(٢) عيون أخبار الرضا: ١/ ٥١.

(٣) علل الشرائع: ١/ ١٧٩.

(٤) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٦.

(٥) البحار: ٢١/ ٢٧٩، وكنز العمال: ١٢/ ١١، ٣٤٢٣١.

ومن (**الأمالي**) بسنده عن الحسن بن زيد العطار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» أسيدة نساء عالمها؟، قال صلى الله عليه وآله: «تلك مريم، وفاطمة سيدة نساء الجنة من الأولين والآخرين»، فقلت: فقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»؟، قال: والله هما سيدا شباب أهل الجنة من الأولين والآخرين[1].

ومن (**معاني الأخبار**) بإسناده عن المفضل قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله في فاطمة: «أنها سيدة نساء العالمين» أهي سيدة نساء عالمها؟ فقال: ذاك لمريم كانت سيدة نساء عالمها وفاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين[2].

ومن (**الأمالي**) بسنده عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً ذات يوم وعنده علي وفاطمة والحسن والحسين فقال: «اللهم إنك تعلم أن هؤلاء أهل بيتي وأكرم الناس عليّ فاحبب من أحبهم، وابغض من أبغضهم، ووال من والاهم، وعاد من عاداهم، وأعن من أعانهم، واجعلهم مطهرين من كل دنس، معصومين من كل ذنب، وأيّدهم بروح القدس منك».

ثم قال: «يا علي أنت إمام أمتي وخليفتي عليها بعدي، وأنت قائد المؤمنين إلى الجنة، وكأني أنظر إلى ابنتي فاطمة قد أقبلت يوم القيامة على نجيب من نور عن يمينها سبعون ألف ملك، وبين يديها سبعون ألف ملك، وعن يسارها سبعون ألف ملك، وخلفها سبعون ألف ملك، تقود مؤمنات أمتي إلى الجنة فأيما امرأة صلّت في اليوم والليلة خمس صلاة، وصامت شهر رمضان، وحجّت بيت الله الحرام، وزكّت مالها، وأطاعت زوجها، ووالت علياً بعدي دخلت الجنة بشفاعة ابنتي فاطمة، وأنها لسيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وأنها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من الملائكة المقرّبين، وينادونها بما نادت به الملائكة مريم فيقولون: يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين».

ثم التفت إلى علي عليه السلام وقال: «يا علي إن فاطمة بضعة مني وهي نور عيني وثمرة فؤادي يسوؤني من «ما» ساءها ويسرّني من «ما» يسرّها، وأنها أول من يلحقني من أهل بيتي، فأحسن إليها بعدي، وأما الحسن والحسين فهما ابناي وريحانتاي وهما سيّدا شباب أهل الجنة فليكونا عليك كسمعك وبصرك».

ثم رفع يده إلى السماء فقال: «اللهم إني أشهدك أني محب لمن أحبهم، ومبغض لمن

---

(١) أمالي الصدوق: ١٨٧، ج ١٩٦.

(٢) معاني الأخبار: ١٠٧.

أبغضهم، وسلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم، وعدو لمن عاداهم، ووليّ لمن والاهم»[١].

وأما تلقّبها بالزهراء:

فقد روي في (**البحار**) من معاني الأخبار، و (**علل الشرائع**) عن الطالقاني عن الجلودي عن الجوهري عن ابن عمارة عن أبيه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن فاطمة لم سميت زهراء؟ قال: لأنها كانت إذا قامت في محرابها زهر نورها لأهل السماء كما يظهر نور الكواكب لأهل الأرض[٢].

ومن (**العلل**) بسنده عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: لم سميت فاطمة الزهراء زهراء؟ فقال: لأن الله عز وجل خلقها من نور عظمته، فلما أشرقت أضاءت السماوات والأرض بنورها، وغشيت أبصار الملائكة وخرّت الملائكة ساجدين لله وقالوا: إلٰهنا وسيدنا ما هذا النور؟ فأوحى الله إليهم: هذا نور من نوري أسكنته في سمائي خلقته من عظمتي، أخرجه من صلب نبيّ من أنبيائي أُفضله على جميع الأنبياء، وأخرج من ذلك النور أئمة يقومون بأمري يهدون إلى حقي «خلقي» وأجعلهم خلفائي في أرضي بعد انقضاء وحيي[٣].

ومن (**المناقب**) عن أبي هاشم العسكري قال: سألت صاحب العسكر: لم سمّيت فاطمة الزهراء؟ فقال: كل وجهها يزهر لأمير المؤمنين عليه السلام من أول النهار كالشمس الضاحية، وعند الزوال كالقمر المنير، وعند غروب الشمس كالكوكب الدرّي[٤].

ومن (**العلل**) بسنده عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله لم سميت الزهراء زهراء؟ قال: لأنها تزهر لأمير المؤمنين في النهار ثلاث مرات بالنور[٥].

كان يزهر نور وجهها صلاة الغداة والناس في فراشهم فيدخل بياض ذلك النور إلى حجراتهم بالمدينة فتبيض حيطانهم فيعجبون من ذلك فيأتون النبي صلى الله عليه وآله فيسألونه عمّا رأوا، فيرسلهم إلى منزل فاطمة فيأتون منزلها فيرونها قاعدة في محرابها تصلي والنور يسطع من محرابها ومن وجهها، فيعلمون أن الذي رأوه كان من نور فاطمة.

---

(١) أمالي الصدوق: ٥٧٥، ج ٧٨٧، مجلس ١١.
(٢) علل الشرائع: ١/ ١٨١، وبحار الأنوار ٤٣/ ١٢.
(٣) علل الشرائع: ١/ ١٨٠.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١١٠.
(٥) علل الشرائع: ١/ ١٨٠.

فإذا انتصف النهار وترتّبت للصلاة زهر نور وجهها بالصفرة فتدخل الصفرة في حجرات الناس فتصفر ثيابهم وألوانهم فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما رأوا، فيرسلهم إلى منزل فاطمة عليها السلام فيرونها قائمة في محرابها وظهر نور وجهها صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها بالصفرة، فيعلمون أن الذي رأوا كان من نور وجهها.

فإذا كان آخر النهار وغربت الشمس احمر وجه فاطمة عليها السلام وأشرق وجهها بالحمرة فرحاً وشكراً لله عز وجل فكانت تدخل حمرة وجهها حجرات القوم وتحمر حيطانهم فيعجبون من ذلك ويأتون النبي ﷺ ويسألونه عن ذلك فيرسلهم إلى منزل فاطمة فيرونها جالسة تسبّح الله وتمجده وتحمده ونور وجهها يزهر بالحمرة فيعلمون أن الذي رأوا كان من نور وجه فاطمة.

فلم يزل ذلك النور في وجهها حتى ولد الحسين، فهو يتقلب في وجوهنا إلى يوم القيامة في الأئمة منا أهل البيت إمام بعد إمام[١].

---

(١) البحار: ٤٣/ ١١ـ ١٢.

أسماء فاطمة عليها السلام

١ ـ نهي فاطمة، فعن علي عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ لفاطمة: يا فاطمة، أتدرين لِمَ سُمّيت فاطمة؟
قال علي: يا رسول الله، لِمَ سُمّيت فاطمة؟
قال: إنّ الله عزّ وجلّ قد فطمها وذُرّيتها من النار يوم القيامة ـ ذخائر العقبى: ٢٦ . .
وعن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام نحوه وزاد فيه: وولدها ومَنْ أحبهم، وفي رواية: ومَن تولاّها. البحار ٤٣ / ١٥ ح ١١.
وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ ابنتي فاطمة حوراء، إذ لم تحض ولم تطمث، وإنّما سمّاها فاطمة، لأنّ الله عزّ وجلّ فطمها ومحبّيها من النار ـ تاريخ بغداد: ١٢/٣٢٨، والفردوس: ١/٣٤٦، ح ١٣٨٥ . .
وقال أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام: لمّا ولدت فاطمة عليها السلام، أوحى الله الى ملَكَ فأنطق به لسان محمد ﷺ فسمّاها فاطمة، ثمّ قال إنّ الله تعالى فطمكِ عن الطمث ـ البحار: ٤٣/١٣، ح ٩ . .
وقيل: سُمّيت فاطمة لأنّها فُطمت عن الشرّ كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام ـ البحار: ٤٣/ ١٠، ح ١ . .
وقيل: إنّها سُمّيت فاطمة لأنّها فُطمت عن الطمع ـ البحار: ٤٣/ ١٣، ح ٧ . .
وقيل: سُمّيت فاطمة لأنّ الخلق فُطموا عن معرفتها ـ البحار: ٤٣/ ٦٥، ح ٥٨ . .
٢ ـ ولُقّبت بالزهراء: لأنّها كانت بيضاء اللون، وعن جعفر بن محمد بن علي عليه السلام عن أبيه ـ قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام، عن فاطمة: لِمَ سُمّيت الزهراء؟
فقال: لأنّها كانت إذا قامت في محرابها، يزهو نورها لأهل السماء، كما يزهو نور الكواكب لأهل الأرض ـ البحار: ٤٣/١٢، ح ٦ . .
وروي أنها عليها السلام سُمّيت الزهراء، لأنّ الله عزّ وجلّ خلقها من نور عظمته ـ دلائل الإمامة: ١٤٩ ح ٦٠، وكشف الغمة: ٢ / ٩٢ . .

إذا عرفت ذلك فلنشرع في شرح كلامه عليه السلام فأقول:

وقيل: إنّه حين وضعتها السيّدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ حدث في السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك اليوم، وبذلك لُقّبت بالزهراء ـ أمالي الصدوق: ٦٩٢ ح ٩٤٧، والعدد القوية للحلي: ٢٢٤ ح ١٥ . .
وقيل: إنّها سُمّيت الزهراء، لأنّها كانت لا تحيض، وكانت إذا ولدت طُهرت من نفاسها بعد ساعة حتّى لا تفوتها صلاة ـ السيدة فاطمة الزهراء لمحمد بيومي: ١٠٩ . .
وقيل: أنّها سُمّيت بالزهراء لطهارتها ووضاءتها ـ راجع فاطمة الزهراء لتوفيق أبو علم: ٥٩ . .
وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل أنّ سبب تسميتها بالزهراء هو زهور السماوات بنورها قال: ... ثمّ أظلمت المشارق والمغارب فشكت الملائكة إلى الله تعالى أن يكشف عنهم تلك الظُلمة، فتكلّم الله جلّ جلاله كلمة فخلق منها روحاً ثمّ تكلّم بكلمة فخلق من تلك الكلمة نوراً فأضاف النور إلى تلك الروح وأقامها مقام العرش، فزهرت المشارق والمغارب، فهي فاطمة الزهراء، ولذلك سُمّيت الزهراء، لأنّ نورها زهرت به السماوات...» ـ بحار الأنوار: ٤٠/ ٤٤، ح ٨١ . .
وروي قريب منه عن الصادق عليه السلام وسلمان ـ البحار: ٤٣/ ١٢، ح ٥ و ١٧ ح ١٦ . .
وفي رواية كيفيّة ولادتها: «... وحدث في السماء نور زاهر لم تره الملائكة من قبل ذلك اليوم فلذلك سُمّيت الزهراء عليها السلام» ـ بحار الأنوار: ١٦/ ٨١، ح ٢٠ . .
وعن أبي عبد الله عليه السلام عندما سُئل لما سُمّيت زهراء قال: «لأنّها تزهر لأمير المؤمنين في النهار ثلاث مرّات بالنور...» ـ بحار الأنوار: ٤٣/ ١١، ح ٢ . .
وذكر كيفيّة ذلك كما يأتي في بحث نورها.
وفي رواية أُخرى: لأنّ لها في الجنّة قبّةً من ياقوت حمراء...» ـ البحار: ٤٣/ ١٦ . .
٣ ـ وبالمحدَّثة: لأنّ الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها، كما كانت تنادي مريم ابنة عمران عليها السلام، ويحدّثها روح القدس ـ فاطمة الزهراء لتوفيق أبو علم: ٥٩ . .
قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّما سُمّيت فاطمة محدّثة لأنّ الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها كما تنادي مريم بنت عمران فتقول: يا فاطمة إن الله إصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساء العالمين يا فاطمة اْقنتي لربّكِ واسجدي واركعي مع الراكعين، فتحدّثهم ويحدّثونها ـ البحار: ٤٣/ ٧٨، ح ٦٥، وعلل الشرائع ١/ ١٨٢.
٤ ـ ولُقّبت بالبتول ـ البتل: في اللغة القطع،، لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً، وديناً، وحسباً.
وقيل: لانقطاعها عن]حبّ[الدنيا إلى الله تعالى ـ المواهب اللدنيّة: ١/ ٣٩٤، ونسبة إلى ابن الأثير، والروضة الفيحاء: ٢٤٥ . .
وفي تاج الدروس: لُقّبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بالبتول تشبيهاً لها بمريم في المنزلة عند الله تعالى ـ البحار: ٤٣/ ١٥، ح ١٣ . .
وقال ثعلب: لانقطاعها عن نساء زمانها وعن نساء الأمّة فضلاً، وديناً، وحسباً وعفافاً، وهي سيّدة نساء العالمين ـ تاج العروس: ٧/ ٢٢٠، وتحفة الأحوذي: ٤/ ١٧١ . .
وقيل: البتول من النساء المنقطعة عن الدنيا إلى الله تعالى، وبه لُقّبت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ .
وفي مجمع البحار: وسُمّيت مريم وفاطمة عليهما السلام بالبتول لانقطاعهما عن نساء زمانهما فضلاً وديناً، وعن الدنيا إلى الله تعالى.
وعن عمر بن علي رضي الله عنه: أنّ النبيّ سُئل عن البتول، وقد قيل له: سمعناك يارسول الله تقول مريم بتول، وفاطمة بتول: فما ذاك؟ فقال: «البتول التي لم تر حمرة قطّ»، أي لم تحض، فإن الحيض مكروه في بنات الأنبياء (عليهم السلام) ـ البحار: ٤٣/ ١٦، ح ١٤ . .

بدأ عليه السلام بالسلام قبل الكلام رعاية لرسم الأدب ومواظبة على الندب فقال: **(السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك)** أي في البقيع كما روي عن ابن عباس في حديث وفاتها قال: فلما أرادوا أن يدفنوها نودوا من بقعة من البقيع: إليّ إليّ، فقد رفع تربتها مني، فنظر فإذا هي بقبر محفور، فحملوا السرير إليها فدفنوها، أو في بيتها وهو المشهور.

روى في **(البحار)**[١] من المناقب قال: قال أبو جعفر الطوسي: الأصوب أنها مدفونة في دارها أو في الروضة يؤيد قوله قول النبي صلى الله عليه وآله: «إن بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»، وفي **(البخاري)**[٢] بين بيتي ومنبري، قالوا: حد الروضة ما بين القبر إلى المنبر إلى الأساطين التي تلي صحن المسجد[٣].

وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت قد شهدت فاطمة قد ولدت بعض ولدها، فلم أر لها دماً، فسألت رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي: «يا أسماء إنّ فاطمة خُلقت حوريّة إنسيّة، أما علمتِ أنّ فاطمة طاهرة مطهرة». فاطمة الزهراء لتوفيق: ٦٠، وبحار الأنوار: ٤٣/ ٧، ح ٨ . .

لقد كانت فاطمة إلى جانب إنسانيّتها تحمل كلّ صفات الملائكة وسمات الحور العين، كانت إنسانة، وكانت حوراء.

ولقد قال أبوها النبي الكريم صلى الله عليه وآله: «خلق الله نور فاطمة قبل أن يخلق الأرض والسماء».

فقال بعض الناس: يا نبي الله، فليست هي إنسيّة.

فقال: «فاطمة حوراء إنسيّة».

ومن علامات الحور العين أنّها لا تطمث، فقد قال تعالى: ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ**﴾.

وكذلك الزهراء فإنّها كانت طاهرة من الحيض والنفاس. وقد أجمع المسلمون علىَ أنّها لم ترَ حيضاً ولا نفاساً. وهذه ميزة فريدة امتازت بها على بنات حوّاء. فاطمة الزهراء لتوفيق أبو علم: ٦٠ . ٦١ . .

وقيل: سُمّيت بتولاً لأنّها بُتلت عن الظير، قاله عبيد الهروي. بحار الأنوار: ٤٣/ ١٦ . .

٥ . وهي المنصورة، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث التفّاحة جاء فيه: «... فإنّ ذلك النور للمنصورة في السماء وهي في الأرض فاطمة».

قلت: حبيبي جبرائيل ولِمَ سُمّيت في السماء المنصورة وفي الأرض فاطمة؟

قال: سُمّيت في الأرض فاطمة لأنّها فطمت شيعتها من النار وفطم أعداؤها عن حبّها، وهي في السماء المنصورة وذلك قوله الله عزّ وجلّ ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله فينصرُ من يشاء**﴾ ﴿**سورة الروم: ٤**﴾ يعني نصر فاطمة لمحبّيها». بحار الأنوار: ٤٣/ ٤ . ٥، ح ٣ . .

٦ . وهي الطاهرة «وسُمّيت الطاهرة لطهارتها من كلّ دنس وطهارتها من كلّ رفث وما رأت قط يوماً حمرة ولا نفاساً» كما روي عن الإمام الباقر عليه السلام . بحار الأنوار: ٤٣/ ١٩، ح ٢٠ . .

٧ . وبالصدّيقة، والمباركة، والطاهرة، والزكيّة، والراضية، والمرضيّة، وهي آيات على ما اتّسمت به . رضي الله عنها . من الصدق والبركة، والطهارة، والرضا، والطمأنينة . فاطمة الزهراء لتوفيق أبو علم: ٥٩ . .

(١) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٨٥. (٢) راجع جواهر الكلام: ٢٠/ ٨٥.

(٣) صحيح البخاري: ٢/ ٥٧.

وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قبر فاطمة، فقال: دفنت في بيتها فلما زادت بنو أمية في المسجد صارت في المسجد. ورواه أيضاً في **(الكافي)** عن علي بن محمد وغيره عن سري بن زياد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن الرضا عليه السلام مثله(١).

(والسريعة اللحاق بك) واردة في مقام التفجع والتشكي من تواتر المحن والمصائب الموجبة لقصر عمرها والمعذّة لسرعة لحاقها به سلام الله عليها وعلى أبيها.

وروى في **(البحار)** من المناقب عن **(البخاري)** و **(مسلم)** و **(الحلية)** و **(مسند أحمد بن حنبل)** عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله دعا فاطمة في شكواه الذي قبض فيه فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها «سارّها ظ» فضحكت، فسألت عن ذلك فقالت: أخبرني النبي صلى الله عليه وآله أنه مقبوض فبكيت، ثم أخبرني أني أول أهله لحوقاً به فضحكت(٢).

ومن **(المناقب)** من كتاب ابن شاهين قالت أم سلمة وعائشة: إنها لما سئلت عن بكائها وضحكها فقالت: أخبرني النبي صلى الله عليه وآله أنه مقبوض فبكيت، ثم أخبرني أن بنيه سيصيبهم بعدي شدّة فبكيت، ثم أخبرني أني أول أهله لحوقاً به(٣).

وقد اختلفت الأخبار جداً في مدة بقائها بعد أبيها.

قال أبو الفرج في **(مقاتل الطالبيين)**: كانت وفاة فاطمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بمدة يختلف في مبلغها، فالمكثر يقول: ثمانية أشهر؛ والمقلّل يقول: أربعين يوماً إلا أن الثبت في ذلك ما روي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام أنها توفيت بعده بثلاثة أشهر، حدثني بذلك الحسن بن علي عن الحرث عن ابن سعد عن الواقدي عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر محمد بن علي(٤).

وفي **(كشف الغمة)** ونقلت من كتاب الذرية الطاهرة للدولابي في وفاتها ما نقله عن رجاله قال: لبثت فاطمة عليها السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله ثلاثة أشهر(٥).

وقال ابن شهاب ستة أشهر وقال الزهري ستة أشهر ومثله عن عائشة ومثله عن عروة بن الزبير(٦).

---

(١) الكافي: ١/٤٦١، والمبسوط للطوسي: ١/٣٨٦.

(٢) البحار: ٤٣/١٨١، وصحيح البخاري: ٤/٢١٠، وفضائل فاطمة لابن شاهين: ١٨.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ٣/١٣٦.

(٤) مقاتل الطالبيين: ٨، والبحار: ٤٣/٢١٥.

(٥) كشف الغمة: ٢/١٣٣، والذرية الطاهرة: ١٠٩.

(٦) راجع البحار: ٤٣/١٨٨.

وعن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام: خمساً وتسعين ليلة في سنة إحدى عشرة، وقال ابن قتيبة في (معارفه): مائة يوم، وقيل: ماتت في سنة إحدى عشرة ليلة الثلاثاء لثلاث ليال من شهر رمضان المبارك وهي بنت تسع وعشرين سنة أو نحوها.

وفي (البحار) عن الكفعمي في الثالث من جمادي الآخرة[١].

وفي (الكافي) بسنده عن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً وكان دخلها حزن شديد على أبيها وكان يأتيها جبرئيل فيحسن عزاها على أبيها ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك[٢].

كانت وفاة الصّديقة سنة إحدى عشرة.

قال في (البحار) بعد نقله الأخبار على كثرة اختلافها:

أقول: لا يمكن التطبيق بين أكثر تواريخ الولادة والوفاة ومدّة عمرها الشريف، ولا بين تواريخ الوفاة وبين ما مر في الخبر الصحيح أنها عاشت بعد أبيها خمسة وسبعين يوماً، إذ لو كان وفاة الرسول صلى الله عليه وآله في الثامن والعشرين من صفر كان على هذا وفاتها في أواسط جمادى الأولى، ولو كان في ثاني عشر ربيع الأول كما ترويه العامة كان وفاتها في أواخر جمادى الأولى، وما رواه أبو الفرج عن الباقر عليه السلام: من كون مكثها بعده ثلاثة أشهر يمكن تطبيقه على ما هو المشهور من كون وفاتها في ثالث جمادى الآخرة، هذا[٣].

وأما مدة عمرها فالأخبار فيه أيضاً مختلفة.

ففي (الكافي): ولدت فاطمة بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس سنين، وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً، وبقيت بعد أبيها خمسة وسبعين يوماً[٤].

ونحوه في (البحار) من (عيون المعجزات) للسيد المرتضى قال: روي أن فاطمة عليها السلام توفيت ولها ثمان عشرة سنة وشهران، وأقامت بعد النبي صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً، وروي أربعين يوماً[٥].

وفي (البحار) من بعض كتب المناقب القديمة عن سيد الحفاظ أبي منصور الديلمي بإسناده أن عبد الله بن الحسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبي فقال هشام لعبد

---

(١) المصدر السابق. (٢) الكافي: ١/ ٢٤١.
(٣) راجع بحار الأنوار: ٤٣/ ٧٩ـ ١٥٦ـ ١٩٥. (٤) الكافي: ٣/ ٢٢٨.
(٥) البحار: ٣٦/ ٣٠٨، و٤٣/ ٧ـ ٢١٥.

الله بن الحسن: يا أبا محمد كم بلغت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله من السن؟ فقال: بلغت ثلاثين، فقال الكلبي: ما تقول؟ قال: بلغت خمساً وثلاثين، فقال هشام لعبد الله: ألا تسمع ما يقول الكلبي؟ فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين سلني عن أمي فأنا أعلم بها، وسل الكلبي عن أمه فهو أعلم بها[١].

وعن العاصمي بإسناده عن محمد بن عمر قال: توفيت فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله لثلاث ليال خلون من شهر رمضان وهي بنت تسع وعشرين أو نحوها، وقال محمد بن إسحاق توفيت ولها ثمان وعشرون سنة، وقيل: سبع وعشرون سنة.

وفي رواية أنها ولدت على رأس سنة إحدى وأربعين من مولد النبي صلى الله عليه وآله فيكون سنّها على هذا ثلاثاً وعشرين، والأكثر على أنها كانت بنت تسع وعشرين أو ثلاثين، والله العالم بحقائق الوقائع.

ثم أنه عليه السلام بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله شرع في إظهار التفجّع والأسف فقال:

(قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري) قال الشارح المعتزلي: أجله صلى الله عليه وآله عن أن يقول: عن ابنتك، فقال: عن صفيتك وهذا من لطائف عبارته ومحاسن كنايته عليه السلام.

أقول: وفيه مضافاً إلى ذلك الإشارة إلى كونها صفية له مختارة عنده كما أنها كانت صفية لله حسبما عرفت في رواية **(الأمالي)** المتقدمة في وجه تسميتها بسيدة النساء من أن الملائكة يسلمون عليها وينادونها بما نادت به الملائكة مريم فيقولون: يا فاطمة إنّ الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين.

وفي **(البحار)** من الخصال فيما أوصى به النبي صلى الله عليه وآله إلى علي عليه السلام: «يا عليّ إنَّ الله عز وجل أشرف على الدنيا فاختارني منها على رجال العالمين، ثم اطلع الثانية فاختارك على رجال العالمين بعدي، ثم اطلع الثالثة فاختار الأئمة من ولدك على رجال العالمين بعدك، ثم اطلع الرابعة فاختار فاطمة على نساء العالمين»[٢].

وفي الإشارة أيضاً إلى ما كان له صلى الله عليه وآله في حقها من التبجيل والمحبة والإعظام ما لم يكن في حق غيره حتى روي عن القرطبي في كتاب **(إكمال الإكمال)**: أن فاطمة عليها السلام أحب بناته صلى الله عليه وآله وأكرمهن عنده وسيدة نساء الجنة وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فيصلي ركعتين ثم ببيت فاطمة عليها السلام فيسأل عنها ثم يدور على نسائه إكراماً لفاطمة واعتناءً بها.

وفي **(البحار)** من «**الأمالي**» بسنده عن عائشة بنت طلحة عن عائشة قالت: ما رأيت أحداً

---

(١) البحار: ٤٣/٢١٣، ج ٤٤.

(٢) الخصال: ٢٠٦، والبحار: ٤٣/ ٢٦ـ ٩٩.

من الناس أشبه كلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه رحّب بها وقبّل يديها وأجلسها في مجلسه، فإذا دخل عليها قامت إليه فرحبّت به وقبّلت يديه، الخبر[١].

ومن المناقب من (**جامع الترمذي**) وإبانة العكبري وأخبار فاطمة عن أبي عن الصولي و (**تاريخ خراسان**) عن السلامى مسنداً أن جميعاً التميمي قال: دخلت مع عمتي على عائشة فقالت لها عمتي: ما حملك على الخروج على عليّ؟ فقالت عائشة: دعينا فوالله ما كان أحد من الرجال أحب إلى رسول الله ﷺ من علي، ولا من النساء أحب إليه من فاطمة[٢].

وقوله: (**ورقّ عنها تجلّدي**) أي ضعف عن فراقها تحملي للجلد والصبر من عظم الرزية وشدة المصيبة.

(**إلا أن لي في التأسي**) والاقتداء (**بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزّ**) وهو وارد مورد التسلية لنفسه القدسية، فإنه لما ذكر عظم وجده في افتقاد الصديقة سلام الله عليها وشدة تأثيره فيه استدرك ذلك، بأني قد أصبت قبل ذلك بعظيم فراقك وثقيل مصابك فصبرت عليه مع كونه أعظم رزء وأشد تأثيراً فينبغي لي أن أقتدي في الصبر على تلك المصيبة الحادثة بالصبر على هذه المصيبة الماضية لكونها سهلاً عندها.

وبعبارة أوضح فكأنه يقول: إن صفيتك وإن عظم بفراقها المصاب، وقلّ عنها الصبر والتحمل، إلا أن فراقك قد كان أعظم وأجلّ، ومصابك أشدّ وأثقل، فكما صبرت في تلك الرزية العظمى فلئن أصبر في هذه المصيبة كان أولى وأحرى.

ثم أكّد شدة تأثّره بفراقه ﷺ بشرح بعض حالاته معه ﷺ حين موته المفيدة لمزيد اختصاصه به فإن الاختصاص كلما كان أزيد كان تأثير الفراق أشدّ، فقال:

(**فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك**) أي اتخذت لك وسادة في قبرك المعمولة فيها اللّحد وهو كناية عن دفنه له فيها بيده.

(**وفاضت بين نحري وصدري نفسك**) وقد مضى تحقيق معنى هذه الفقرة وتفصيل الكلام فيها وفي سابقتها في شرح الخطبة المائة والسادسة والتسعين فليراجع هناك.

والمراد بهاتين الفقرتين حسبما أشرنا إليه إظهار مزيد تفجُعِهِ بمصيبته به ﷺ وتجرّعه بغصص الفراق، فإن أعظم المصائب وأشدّ الآلام أن تخرج روح أحب الخلق إلى الرجل ورأسه في صدره وأن يدفنه بيده في قبره.

ثم لما كان الاسترجاع موجباً للسلوة ولجبران المصيبة مضافاً إلى ما فيه من عظيم

---

(١) أمالي الطوسي: ٤٠٠، والبحار: ٤٣/ ٢٥. (٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١١١.

الأجر والاستبشار بالنعمة الدائمة استرجع وقال:

(**إنّا لله وإنّا إليه راجعون**) أما الاستبشار فلقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧]. وأما السلوة والأجر العظيم:

فلما رواه في (**الصافي**) من (**مجمع البيان**) عن النبي صلى الله عليه وآله: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضيه»، قال: وقال: «من أُصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أُصيب»[1].

وفيه من (**الكافي**) عن الباقر عليه السلام: ما من عبد يصاب بمصيبة فيسترجع عند ذكر المصيبة إلا غفر الله له كل ذنب فيما بينهما[2].

وعن الصادق عليه السلام: من ذكر مصيبة ولو بعد حين فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، اللّهم أجرني على مصيبتي واخلف عليّ أفضل منها، كان له من الأجر مثل ما كان له عند أول صدمته[3].

وقوله عليه السلام: (**فلقد استرجعت الوديعة وأُخذت الرهينة**) استعار عليه السلام لفظ الوديعة والرهينة لتلك النفس الكريمة لأن الأرواح كالوديعة والرهن في الأبدان أولاً: أن النساء كالودائع والرهائن عند الأزواج يجب عليهم مراقبتهن ومحافظتهن كما يجب على المستودع والمرتهن حفظ الودائع والرهائن.

ثم ذكر ما ناله من تلك المصيبة فقال: (**أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهّد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم**) يريد أن حزنه دائم وأنه يسهر ليله إلى انتقاله إلى الدار الآخرة والتحاقه برسول الله صلى الله عليه وآله في مجلس القدس ومحفل الأنس.

وهذا كما قال الشارح المعتزلي من باب المبالغة التي يستعملها الفصحاء والشعراء في كلامهم وهو من محاسن البلاغة. قال الشاعر:

قال لي كيف أنت قلت عليل ... سهر دائم وحزن طويل

وإنما قلنا: أنه من باب المبالغة لأنه ما سهر منذ ماتت فاطمة عليها السلام إلى أن قتل، وإنما أسهر ليلة أو شهراً أو سنة نعم دوام الحزن فهو على حقيقته فإنه لم يزل حزيناً إذا ذُكرت فاطمة عليها السلام عنده.

---

(١) مجمع البيان: ١/ ٤٤٢، وتفسير الصافي: ١/ ٢٠٤.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٢١- ٢٢٤. (٣) المصدر السابق، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٤٩، ح ٣٥٤٢.

ثم ساق الكلام مساق التشكي إلى رسول الله ﷺ من سوء فعل الأمة بعده فقال: **(وستنبئك ابنتك بتظافر أمتك على هضمها)** لا يخفى ما في هذه العبارة من حسن البيان مع بديع الإيجاز فإن التظافر بمادته التي هي الظفر وهو الفوز على المطلوب يدل على أن هضمها كان مطلوباً لهم ولكنهم لم يكونوا متمكنين من الفوز به ما دام كونه ﷺ حيّاً بين أظهرهم، فلما وجدوا العرصة خالية من وجوده الشريف فازوا به.

وإن كان مأخوذاً من أظفر الصقر الطائر من باب افتعل وتظافر أي علق عليه ظفره وأخذه برأسه فيدلّ على أنهم علقوا أظفارهم على هضمها قاصدين بذلك قتلها وإهلاكها.

ثم أن المعاني الخمسة المذكورة للهضم كلها مناسبة للمقام.

أما المعنى الأول: فلأنهم قد تظافروا على رفعها عن محلها ومقامها الذي كان لها وحطّوها عن مرتبتها المقررة ولم يراعوا في حقها ما كان لازماً عليهم من التبجيل والإعظام والتعظيم والإكرام، بل تعاملوا معها معاملة الرعية والسوقة حتى ألجأوها إلى الخروج إلى مجامع الرجال في أمر فدك وغيره مثل سائر النسوة البررة.

وعلى المعنى الثاني: فيكون إشارة إلى ما صدر عنهم من كسر ضلعها وإسقاط جنينها يوم إخراجه عليه السلام من البيت ملبيّاً للبيعة.

وعلى الثالث: فيكون إشارة إلى اجتماعهم على نقص حقها المقرر لها بقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

ومثله المعنى الخامس فيكون إشارة إلى غصب فدك.

وأما المعنى الرابع: فهو أولى بالإرادة لشموله جميع مظالمها وما وقع في حظها من الظلم والجور، فإلى الله المشتكى من سوء عمل الأمة وشنيع فعلهم بالعترة وما أدري:

ماذا يقولون إذ قال النبي لهم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضرّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحم

(فأحفها السؤال) أي بالغ في سؤالها واستقص في مسألتها **(واستخبرها الحال)** أي حالها وحالي بعد ارتحالك وافتقادك.

(هذا) أي تظافر الأمة على الهضم كائن (و) الحال أنه **(لم يطل العهد)** أي عهدهم بك أو ما عاهدتهم عليه من المودّة في القربى والمواظبة بالثقلين **(ولم يخل منك الذكر)** أي لم يرتفع ذكر الجميل عن أفواههم.

ومحصّله أنه لم يطل المدة من موتك حتى ينسوا وصاياك المتأكدة في حق العترة أو

يغفلوا من صنايعك العظيمة في حقهم فيقابلوها بهذا الكفران العظيم.

ولما أراد الوداع ختم كلامه بالسلم كما بدأ به جرياً على مجاري عادة الأحباب عند وداع بعضهم لبعض فقال:

(والسلام عليكما سلامُ مودّع) محبٌ مشتاق مشفق **(لا قال ولا سئم)** أي لا مبغض لكما ولا ملول من طول صحبتكما، وأوضح ذلك بقوله: **(فإن أنصرف)** عن زيارتكما **(فلا عن ملالة، وإن أقم)** أي أقمت عند ضريحكما **(فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين)** بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧].

تذنيب

ينبغي لنا أن نذكر شطراً من الأخبار فيما وقع عليها من الظلم وبكائها وحزنها وشكايتها في مرضها وكيفية وفاتها ودفنها صلوات الله عليها ولعنة الله على غاصبي حقها وظالميها، فأقول:

روى في **(كشف الغمة)** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب ويوسف، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله، وعلي بن الحسين عليهما السلام.

فأما آدم فبكى على الجنة حتى صار في خدّيه مثل الأودية.

وأما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره وحتى قيل له: ﴿تَاللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذّى به أهل السجن فقالوا: إما أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل، وإما أن تبكي الليل وتسكت بالنهار، فصالحهم على واحدة منهما.

وأما فاطمة فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى مقابر الشهداء فتبكي حتى تقضي حاجتها وتنصرف.

وأما علي بن الحسين فبكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة أو أربعين وما وضع بين يديه طعام قط إلا بكى حتى قال له عليه السلام مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين، قال: إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، أني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني لذلك العبرة[1].

(١) الخصال: ٢٧٢، وروضة الواعظين: ١٧٠ـ ٤٥٠.

وفي **(البحار)** من الأمالي عن الدقاق عن الأسدي عن النخعي عن النوفلي عن البطائني عن أبيه عن ابن جبير عن ابن عباس في خبر طويل أخبر فيه النبي ﷺ بظلم أهل البيت، قال ﷺ:

«وأما ابنتي فاطمة فإنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي بضعة مني، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الأنسية متى ما قامت في محرابها بين يدي ربها جل جلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله عز وجل لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أمتي فاطمة سيدة إمائي قائمة بين يديّ ترتعد فرائصها من خيفتي وقد أقبلت بقلبها على عبادتي أشهدكم أني قد أمّنت شيعتها من النار.

وإني لما رأيتها ذكرت ما صنع بها بعدي كأني بها وقد دخل الذل بيتها وانتهكت حرمتها وغصبت حقها ومنعت إرثها وكسر جنبها وأسقطت جنينها وهي تنادي: يا محمداه، فلا تجاب وتستغيث فلا تغاث، فلا تزال بعدي محزونة مكروبة باكية تتذكر انقطاع الوحي عن بيتها مرة وتتذكر فراقي أخرى وتستوحش إذا جنَّها الليل لفقد صوتي الذي كانت تستمع إليه إذا تهجدت بالقرآن، ثم ترى نفسها ذليلة بعد أن كانت أيام أبيها عزيزة، فعند ذلك يؤنسها الله تعالى ذكره بالملائكة فنادتها بما نادت به مريم بنت عمران، فتقول: يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا فاطمة اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين».

«ثم يبتدىء بها الوجع، فتمرض، فيبعث الله عز وجل إليها مريم بنت عمران تمرّضها وتؤنسها في علتها فتقول عند ذلك: يا رب إني قد سئمت الحياة وتبرمت بأهل الدنيا فألحقني بأبي، فتكون أول من يلحقني من أهل بيتي، فَتُقدِم عليّ محزونة مكروبة مغمومة مغصوبة مقتولة، فأقول عند ذلك: اللهم العن من ظلمها وعاقب من غصبها وذلّل من أذلّها، وخلّد في نارك من ضرب جنبها حتى ألقت ولدها، فتقول الملائكة عند ذلك: آمين»[(1)].

ومن كتاب **(دلائل الإمامة)** للطبري بالإسناد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قبضت فاطمة في جمادي الآخرة يوم الثلاثاء لثلاث خلون منه سنة إحدى عشر من الهجرة، وكان سبب وفاتها أنَّ قنفذ مولى عمر لكزها بنعل السيف بأمره فأسقطت محسناً ومرضت من ذلك مرضاً شديداً ولم تدع أحداً ممن أذاها يدخل عليها.

وكان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ سألا أمير المؤمنين أن يشفع لهما إليها، فسألها أمير المؤمنين عليه السلام فلما دخلا عليها قالا لها: كيف أنت يا بنت رسول الله ﷺ؟ قالت: بخير

(١) البحار: ٣٨/٢٨، ج ١، ٢٤/٤٣ ج ٢٠.

بحمد الله، ثم قالت لهما: ما سمعتما النبي صلى الله عليه وآله يقول: «فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله»؟، قالا: بلى، قالت: فوالله لقد آذيتماني، قال: فخرجا من عندها وهي ساخطة عليهما[١].

أقول: وقد تقدم في المقدمة الثالثة من مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية برواية سليم بن قيس الهلالي تفصيل كيفية دخول قنفذ اللعين بيت فاطمة وإحراق بابها وبعض مظالمها، وأورد هنا بعض ما تقدم من رواية سليم ملخصاً ونضيف إليه ما لم يتقدم هناك بحسب اقتضاء المقام وما أورده هنا أنقله من المجلد العاشر من **(البحار)** على ما لخصته أيضاً، فأقول:

قال المحدث العلامة المجلسي: وجدت في كتاب سليم بن قيس الهلالي برواية أبان بن أبي عياش عنه عن سلمان وعبد الله بن العباس قالا: توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله يوم توفي فلم يوضع في حفرته حتى نكث الناس وارتدّوا وأجمعوا على الخلاف، واشتغل علي عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله حتى فرغ من غسله وتكفينه وتحنيطه ووضعه في حفرته، ثم أقبل على تأليف القرآن وشغل عنهم بوصية رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عمر لأبي بكر: يا هذا إن الناس أجمعين قد بايعوك ما خلا هذا الرجل وأهل بيته فابعث إليه، فبعث إليه ابن عم لعمر يقال له: قنفذ، فقال: يا قنفذ انطلق إلى علي فقل له: أجب خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعثا مراراً وأبى عليٌّ عليه السلام أن يأتيهم فوثب عمر غضباناً ونادى خالد بن الوليد وقنفذاً فأمرهم أن يحملا حطباً وناراً.

ثم أقبل حتى انتهى إلى باب عليٍّ عليه السلام وفاطمة عليها السلام قاعدة خلف الباب قد عصبت رأسها ونحل جسمها في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأقبل عمر حتى ضرب الباب ثم نادى: يا ابن أبي طالب افتح الباب، فقالت فاطمة عليها السلام خلف الباب: ما لنا ولك لا تدعنا وما نحن فيه؟، قال: افتحي الباب وإلا أحرقنا عليكم، فقالت: يا عمر، أما تتقي الله تدخل على بيتي وتهجم على داري بغير إذني، فأبى أن ينصرف.

ثم دعا عمر بالنار فأضرمها في الباب فأحرق الباب[٢]، ثم دفعه عمر فدخل فاستقبلته

---

(١) دلائل الإمامة: ١٣٤، صراط النجاة: ٣/ ٤٤١.

(٢) **تهديد بيت فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله بالإحراق**

* قال المسعودي في مروج الذهب: وكان عروة بن الزبير يعذر أخاه عبد الله في حصر بني هاشم في الشعب وجمعه الحطب ليحرقهم، ويقول: انما أراد بذلك ان لا تنتشر الكلمة ولا يختلف المسلمون، وأن يدخلوا في الطاعة فتكون الكلمة واحدة. كما فعل عمر بن الخطاب ببني هاشم لما تأخروا عن بيعة أبي بكر فانه أحضر الحطب ليحرّق عليهم الدار» (شرح النهج لابن أبي الحديد: ٤ / ٤٩٥ ذيل شرح الحكمة: ٤٦١ ط. دار الكتب العربية بمصر ١٣٢٩، و٢٠ / ١٤٧ من الطبعة الاولى سنة ١٣٧٨ / ١٩٦١ للحلبي بمصر.

فاطمة وصاحت: يا أبتاه يا رسول الله، فرفع عمر السيف وهو في غمده فوجى به جنبها

بتحقيق محمد أبو الفضل، وذكر بالهامش: مروج الذهب: ٣ / ٨٦ مما يشعر بأنه وقف على نسخة الكتاب غير المحرفة) . هذا في شرح النهج .

* أما في مروج الذهب المطبوع والمحرف فقال المسعودي: « وحدث النوفلي في كتابه في الاخبار عن ابن عائشة عن أبيه عن حماد بن سلمة قال: كان عروة بن الزبير يعذر أخاه إذا جرى ذكر بني هاشم وحصره اياهم في الشعب وجمعه الحطب لتحريقهم ويقول انما أراد بذلك ارهابهم ليدخلوا في طاعته، كما أرهب بنو هاشم وجمع لهم الحطب لاحراقهم اذ هم أبوا البيعة فيما سلف، وهذا الخبر لا يحتمل ذكره هنا وقد أتينا على ذكره في كتابنا في مناقب أهل البيت وأخبارهم المترجم بكتاب حدائق الاذهان »أنتهى (مروج الذهب: ٢ / ٧٢ . تحت عنوان: (ذكر أيام معاوية بن يزيد . . . وعبد الله بن الزبير) . من الطبعة الاولى بالمطبعة الازهرية المصرية سنة ١٣٠٣ هـ، و٣ / ٧٧ ط . المصورة في ايران . دار الهجر ١٤٠٤ هـ و٢ / ١٠٠ ط. مصر ١٣٤٦ هـ) . فحذف اسم عمر منها .

* وقال أبو بكر الجوهري في كتابه السقيفة: عن سلمة بن عبد الرحمن قال: «لما جلس أبو بكر على المنبر كان علي والزبير وناسٌ من بني هاشم في بيت فاطمة فجاء عمر اليهم فقال: والذي نفسي بيده لتخرجنّ الى البيعة أو لأحرقنّ البيت عليكم »! .

وفي رواية سعد بن أبي وقاص: كان معهم المقداد أيضاً، ولكن فيه: «وخرجت فاطمة عليها السلام تبكي وتصيح» (شرح النهج لابن أبي الحديد: ١ / ١٣٤ . ١٣٠ شرح الخطبة ٢٦ من طبعة دار الكتب العربية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ، و٢ / ٥٦ . ٤٥ . من طبعة الحلبي الاولى بمصر ١٩٦١ م . ١٣٧٨ هـ بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الموافقة للمصورة في ايران).

* وقال الطبري: عن زياد بن كليب قال: أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ الى البيعة» (تاريخ الطبري: ٣ / ١٩٨ . ٢٠٠ أوائل حوادث سنة ١١ من الطبعة الحسينية الاولى بمصر سنة ١٣٢٦، و٢ / ٤٤٣ من طبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ، الموافقة للمصورة بايران).

* وقال توفيق أبو علم: بعد ذكر رواية الطبري: وفي رواية أخرى أنه عمر قال لعلي ان لم تبايع أبا بكر لاحرقن دارك . قال علي: أوتحرقها وفيها بنت رسول الله !!

قال: أحرقها وفيها بنت رسول الله !، واستشهد بأبيات شاعر النيل حافظ ابراهيم «(أهل البيت: ٢٣٨ موقف الامام بعد وفاة الرسول).

* ونقل المدائني عن ابن عون: ان أبا بكر أرسل الى علي يريد البيعة فلم يبايع، فجاء عمر ومعه فتيلة فتلقته فاطمة على الباب فقالت: يا ابن الخطاب أتراك محرّقاً عليّ بابي ؟

قال: نعم وذلك أقوى فيما جاء به أبوك «(أنساب الاشراف: ١ / ٥٨٦ ح ١١٨٤ حديث الشورى، ط . دار المعارف . القاهرة الطبعة الثالثة).

* وقال اليعقوبي (وبعض المؤرخين): « وبلغ ابا بكر وعمر ان جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي بن أبي طالب في منزل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فأتوا في جماعة حتى هجموا الدار، فخرج علي ومعه السيف، فلقيه عمر فصارعه عمر فصرعه وكسر سيفه، ودخلوا الدار، فخرجت فاطمة فقالت: والله لتخرجنّ او لأكشفن شعري ولأعجنّ الى الله !

فخرجوا (تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٢٦ ذيل خبر السقيفة، وبيعة أبي بكر، وأهل البيت لتوفيق أبو علم: ٢٣٨ وقال: ذكرها اليعقوبي وغيره من المؤرخين).

فصرخت: يا أبتاه، فرفع السوط فضرب به ذراعها ونادت: يا رسول الله بئس ما خلفك أبو بكر وعمر.

* وقال في الملل والنحل عن ابراهيم النظام: ان عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت الجنين من بطنها، وكان يصيح أحرقوا دارها بمن فيها وما كان في الدار غير علي وفاطمة والحسنين (الملل والنحل: ٨٣ باب ١ فصل ١ . ذكر المعتزلة . فرقة النظامية . من ط . مصر، ، وج ١ / ٧٣ ط . مصر الاولى ١٣١٧، و٥٧ من ط . دار الفكر . بيروت).

* وأخرج الحموي بسنده الى ابن عباس: وأما ابنتي فاطمة فانها سيدة نساء العالمين من الاولين والاخرين، وهي بضعة مني، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الانسية، واني لما رأيتها ذكرت ما يُصنع بها بعدي، كأني وقد دخل الذل بيتها وانتهكت حرمتها وغصب حقها ومنعت ارثها وكسر جنبها واسقطت جنينها وهي تنادي يا محمداه فلا تجاب وتستغيث فلا تغاث ... اللهم ألعن من ظلمها، وعاقب من غصبها، وذلل من أذلها، وخلد في النار من ضرب جنبها حتى القت ولدها، فتقول الملائكة عند ذلك آمين (فرائد السمطين: ٢ / ٣٥ الباب السابع ح ٣٧١).

* وقال ابن قتيبة: ان ابا بكر تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه فبعث عمر فجاء فناداهم في دار علي فأبوا ان يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: الذي نفس عمر بيده لتخرجن او لأحرقنها على من فيها قيل له: يا ابا حفص ان فيها فاطمة عليها السلام ؟فقال: وإن !! . فوقفت فاطمة رضي الله عنها على بابها فقالت:« لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدينا وقطعتم امركم بينكم، لم تستأمرونا ولم تردوا لنا حقاً ».

فانصرفوا . ثم قام عمر فمشى معه جماعة حتى اتوا باب فاطمة فدقوا الباب فلما سمعت اصواتهم نادت بأعلى صوتها:« يا ابت يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة» .

ثم قال: فقال عمر لابي بكر: انطلق بنا الى فاطمة فانا اغضبناها، فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلماه فادخلهما عليها، فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام .

فقالت:« أرأيتكما ان حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ تعرفانه وتفعلان به ؟ »قالا: نعم .

فقالت: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد احبني ومن أرضى فاطمة فقد ارضاني ومن اسخط فاطمة فقد اسخطني ».

قالا: نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وآله .

قالت: فاني اشهد الله وملائكته انكما اسخطماني وما ارضيتماني ولئن لقيت النبي لاشكونكما اليه .

فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه تزهق .

وهي تقول:« والله لأدعون الله عليك في كل صلاة اصليها »(الامامة والسياسة: ١ / ١٣ تحت عنوان:« كيف كانت بيعة علي »من طبعة الفتوح: الادبية بمصر سنة ١٣٤٤، وج ١ / ١٨ . ١٩ من طبعة الحلبي بالقاهرة بتحقيق الدكتور طه الزيني سنة ١٣٧٨ هـ، و١ / ٣٠ من الطبعة المصورة في ايران عن طبعة مصر بتحقيق علي شيري .، وكتاب سليم: ٢٥٤، وبحار الأنوار: ٤٣ / ٢٠٤، وعلل الشرائع: ١ / ١٨٦ باب ١٢٩).

فوثب عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام فأخذ بتلابيب عمر فصرعه ووجى أنفه ورقبته وهمّ بقتله فذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وما أوصاه به من الصبر والطاعة، فقال: والذي أكرم محمداً بالنبوة يا ابن ضحاك لولا كتاب من الله سبق لعلمت أنك لا تدخل بيتي.

فأرسل عمر يستغيث فأقبل الناس حتى دخلوا الدار فكاثروه وألقوا في عنقه حبلاً فحالت بينهم وبينه فاطمة عند باب البيت فضربها قنفذ الملعون بالسوط، فماتت حين ماتت، وأن في عضدها كمثل الدّملج من ضربته لعنه الله، فألجأها إلى عضادة بيتها ودفعها فكسر ضلعها من جنبها فألقت جنينها من بطنها، فلم تزل صاحبة فراش حتى ماتت صلّى الله عليها من ذلك شهيدة ـ وساق الحديث إلى أن قال ـ:

قال ابن عباس: ثم إن فاطمة بلغها أن أبا بكر قبض فدكاً، فخرجت في نساء بني هاشم حتى دخلت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر أتريد أن تأخذ مني أرضاً جعلها لي رسول

---

* وروي الجوهري بعض هذا الكلام في خطبة فاطمة في مجلس أبي بكر اختصره ابن أبي الحديد، جاء فيه: « والله لا كلمتك أبدا ! والله لأدعون الله عليك »(شرح النهج: ١٦ / ٢١٤ كتاب ٤٥ كتابه الى عثمان بن الاحنف).

* وقال محمد الحفناوي في كتابه (أبو سفيان): وأشهر الروايات في تخلف علي وبني هاشم، وأكثرها ذيوعاً ما أورده ابن قتيبة في الامامة والسياسة، وذكر الخبر بطوله »(أبو سفيان لمحمد الحفناوي: ١٦٩ الطبعة الاولى. دار الزيني بمصر سنة ١٣٧٨ / ١٩٥٩).

* وقال ابن عبد البر الاندلسي: الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر: علي والعباس والزبير وسعد بن عبادة، فأما علي والعباس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث اليهم عمرَ بن الخطاب ليخرجوا من بيت فاطمة، وقال له: « ان أبوا فقاتلهم ».

فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: « يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا!؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الامة ! (العقد الفريد: ٤ ٢٥٩ ـ ٢٦٠ كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء تحت عنوان: « الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر »من طبعة القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٢ م، و٢ / ٢٥٠ ط، مصر ١٢٩٣ هـ، و٤ / ٢٤٧ ط، دار احياء التراث العربي بيروت).

* وقال حافظ ابراهيم: تحت عنوان: « عمر وعلي »

وقولة لعلي قالها عمر	أكرم بملقيها أعظم بملقيها
حرقت دارك لا أبقى عليك بها	إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص يفوه بها	أمام فارس عدنان وحاميها
فاذكرهما وترحم كلما ذكروا	أعاظماً ألهوا في الكون تاليها

قال المحقق في هامش الديوان: يشير بهذه الابيات الى امتناع علي عن البيعة لابي بكر يوم السقيفة وتهديد عمر اياه باحراق بيته إذا استمر على امتناعه وكان فيه زوجة علي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (ديوان حافظ ابراهيم: ١ / ٦٣ طبعة صادر الاولى ببيروت ١٤٠٩ هـ، ونقل الابيات توفيق أبو علم مع تغاير بسيط أشرت له . أهل البيت لتوفيق: ٢٣٨ موقف الامام بعد وفاة الرسول).

الله ﷺ؟. فدعا أبو بكر بدواة ليكتب به لها فدخل عمر لعنه الله فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ لا تكتب لها حتى تقيم البيّنة بما تدّعي، فقالت فاطمة: عليٌّ وأم أيمن يشهدان بذلك. فقال عمر: لا تقبل شهادة امرأة أعجمية لا تفصح، وأما علي فيجرّ النار إلى قرصته، فرجعت فاطمة عليها السلام مغتاظة فمرضت.

وكان علي عليه السلام يصلّي في المسجد الصلوات الخمس، فلما صلى قال له أبو بكر وعمر: كيف بنت رسول الله؟ إلى أن ثقلت فسألا عنها وقالا: وقد كان بيننا وبينها ما قد علمت فإن رأيت أن تأذن لنا لنعتذر إليها من ذنبنا، قال: ذاك إليكما، فقام فجلسا في الباب.

فدخل عليٌّ على فاطمة فقال: أيتها الحرة فلان وفلان في الباب يريدان أن يسلّما عليك فما تريدين؟ قالت: البيت بيتك والحرة زوجتك وافعل ما تشاء، فقال: سدي قناعك، فسدّت قناعها وحوّلت وجهها إلى الحائط، فدخلا وسلما وقالا: أرضي عنّا رضي الله عنك، فقالت: ما دعا إلى هذا؟ فقالا: اعترفنا بالإساءة ورجونا أن تعفي عنا، فقالت: إن كنتما صادقين فأخبراني عما أسألكما عنه فإني لا أسألكما عن أمر إلا وأنا عارفة بأنكما تعلمانه، فإن صدقتما علمت أنكما صادقان في مجيئكما، قالا: سلِ عما بدا لك، قالت: نشدتكما بالله هل سمعتما رسول الله ﷺ يقول: «فاطمة بضعة مني فمن آذاها فقد آذاني»؟ قالا: نعم، قال: فرفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم إنهما قد أذياني فأنا أشكوهما إليك وإلى رسولك لا والله لا أرضى عنكما أبداً حتى ألقى أبي رسول الله ﷺ وأخبره بما صنعتما فيكون هو الحاكم فيكما.

قال: فعند ذلك دعى أبو بكر بالويل والثبور وجزع جزعاً شديداً، فقال عمر له: تجزع يا خليفة رسول الله ﷺ من قول امرأة؟

قال: فبقيت فاطمة بعد وفاة أبيها أربعين ليلة فلما اشتدّ بها الأمر دعت عليها السلام عليّاً وقالت: يا ابن عم، ما أراني إلا لما بي وإني أوصيك أن تتزوج بأمامة بنت أختي زينب تكون لولدي مثلي، واتخذ لي نعشاً فإني رأيت الملائكة يصفونه لي، وأن لا يشهد أحد من أعداء الله جنازتي ولا دفني ولا الصلاة عليّ.

قال ابن عباس: فَقُبِضت فاطمة عليها السلام من يومها، فارتجت المدينة بالبكاء من الرجال والنساء، ودهش الناس كيوم قُبض فيه رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر وعمر يعزّيان علياً عليه السلام ويقولان له: يا أبا الحسن لا تسبقنا بالصلاة على ابنة رسول الله ﷺ.

فلما كان الليل دعا عليّ عليه السلام العباس والفضل والمقداد وسلمان وأبا ذر وعماراً فقدّم العباس وصلى عليها ودفنوها ليلاً.

فلما أصبح الناس أقبل أبو بكر وعمر والناس يريدون الصلاة على فاطمة عليها السلام فقال

المقداد: قد دفنا فاطمة البارحة، فالتفت عمر إلى أبي بكر فقال: ألم أقل لك إنهم سيفعلون؟ فقال العباس: إنها أوصت أن لا تصليا عليها، فقال عمر: لا تتركون يا بني هاشم حسدكم القديم لنا أبداً، إن هذه الضغائن الذي في صدوركم لن تذهب، والله لقد هممت أن أنبشها فأُصلي عليها، فقال علي عليه السلام: والله لو رمت ذلك يا ابن صهاك لا رجعت إليك يمينك، لئن سللت سيفي لأغمدته دون إزهاق نفسك، فانكسر عمر وسكت وعلم أن علياً عليه السلام إذا حلف صدق.

ثم قال عليٌّ عليه السلام: يا عمر ألست الذي همّ بك رسول الله ﷺ وأرسل إليّ فجئت متقلداً سيفي ثم أقبلت نحوك لأقتلك فأنزل الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٤][١].

وفي (**كشف الغمة**) روي أنها عليها السلام أوصت علياً وأسماء بنت عميس أن يغسلاها.

وعن ابن عباس قال: مرضت فاطمة مرضاً شديداً فقالت لأسماء بنت عميس: ألا ترين إلى ما بلغت؟ فلا تحمليني على سرير ظاهر، فقالت: لا لعمري ولكن أصنع نعشاً كما رأيت يصنع بالحبشة، قالت: فأرينها، فأرسلت إلى جرائد رطبة فقطعت من الأسواق ثم جعلت على السرير نعشاً وهو أول ما كان النعش، فتبسمت وما رُئيت مبتسمة إلا يومئذ، ثم حملناها ودفناها ليلاً وصلى عليها العباس بن عبد المطلب ونزل في حفرتها هو وعليّ والفضل بن العباس[٢].

وعن أسماء بنت عميس أن فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ قالت: إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها لمن رأى، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ﷺ إني أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة، قال: فدعت بجريدة رطبة فحسنتها ثم طرحت عليها ثوباً فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله لا تُعرف به المرأة من الرجل، قال: قالت فاطمة: فإذا مت فاغسليني أنت ولا يدخلنّ عليّ أحد. فلما توفيت فاطمة جاءت عائشة تدخل عليها فقالت أسماء: لا تدخلي، فكلمت عائشة أبا بكر فقالت: إن هذه الخثعمية تحول بيننا وبين ابنة رسول الله ﷺ وقد جعلت لها مثل هودج العروس، فقالت أسماء: أمرتني أن لا يدخل عليها أحد وأريتها هذا الذي صنعت وهي حية فأمرتني أن أصنع لها ذلك. فقال أبو بكر: اصنعي ما أمرتك، فانصرف وغسلها عليّ وأسماء[٣].

وقيل: قالت فاطمة لأسماء حين توضأت وضوءها للصلاة: هاتي طيبي الذي أتطيّب

---

(١) بطوله في البحار: ٢٨/ ٣٠٢ـ ٣٠٥، و ٤٣/ ١٩٩.
(٢) كشف الغمة: ٢/ ١٢٦. (٣) كشف الغمة: ٢/ ١٢٦.

به، وهاتي ثيابي التي أُصلي فيها، فتوضأت ثم وضعت رأسها فقالت لها: اجلسي عند رأسي فإذا جاء وقت الصلاة فأقيميني فإن قمت وإلا فارسلي إلى عليّ. فلما جاء وقت الصلاة قالت: الصلاة يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا هي قد قُبضت، فجاء علي عليه السلام فقالت له: قد قُبضت ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال علي: متى؟ قالت: حين أرسلت إليك، قال: فأمر أسماء فغسلتها وأمر الحسن والحسين يدخلان الماء، ودفنها ليلاً وسوّى قبرها، فعوتب على ذلك فقال: بذلك أمرتني[١].

وفي (**البحار**) من مناقب ابن شهراشوب عن ابن جبير عن ابن عباس قال: أوصت فاطمة عليها السلام أن لا يُعلم إذا ماتت أبو بكر ولا عمر، ولا يصليا عليها، قال: فدفنها علي ليلاً ولم يعلمهما بذلك[٢].

وعن (الأصبغ) بن نباتة أنه سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن دفنها ليلاً، فقال: أنها كانت ساخطة على قوم كرهت حضورهم جنازتها وحرام على من يتولاهم أن يصلي على أحد من ولدها[٣].

وروي أنه عليه السلام سوّى قبرها مع الأرض مستوياً وقالوا: سوّى حواليها قبوراً مزورة مقدار سبعة حتى لا يُعرف قبر لها[٤].

وروي أنه رشّ أربعين قبراً حتى لا يبين قبرها من غيره من القبور، فيصلوا عليها[٥].

وفي (**البحار**) وجدت في بعض الكتب خبراً في وفاتها عليها السلام فأحببت إيراده، وإن لم آخذه من أصل يعول عليه.

روى ورقة بن عبد الله الأزدي قال: خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام راجياً لثواب الله ربّ العالمين، فبينما أنا أطوف وإذا أنا بجارية سمراء مليحة الوجه عذبة الكلام وهي تنادي بفصاحة منطقها وتقول:

اللهم ربّ الكعبة الحرام والحفظة الكرام وزمزم والمقام والمشاعر العظام وربّ محمد خير الأنام البررة الكرام أن تحشرني مع ساداتي الطاهرين وأبنائهم الغرّ المحجلين الميامين، ألا فاشهدوا يا جماعة الحجاج والمعتمرين أن موالي خيرة الأخيار وصفوة الأبرار الذين علا قدرهم على الأقدار وارتفع ذكرهم في سائر الأمصار المرتدين بالفخار.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٣٧، والبحار: ٣١/ ٦١٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٣٨.
(٥) المصدر السابق.

قال ورقة بن عبد الله، فقلت: يا جارية إني لأظنك من موالي أهل البيت؟ فقالت: أجل، قلت: ومن أنت من مواليهم؟ قالت: أنا فضة أمة فاطمة الزهراء، ابنة محمد المصطفى صلّى الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها، فقلت لها: مرحباً بك وأهلاً وسهلاً فلقد كنت مشتاقاً إلى كلامك ومنطقك فأُريد منك الساعة أن تجيبيني من مسألة أسألك فإذا أنت فرغت من الطواف قفي لي عند سوق الطعام حتى آتيك وأنت مُثابة مأجورة، فافترقنا في الطواف.

فلما فرغت من الطواف وأردت الرجوع إلى منزلي جعلت طريقي على سوق الطعام وإذا بها جالسة في معزل عن الناس، فأقبلت إليها واعتزلت بها وأهديت إليها هدية ولم أعتقد أنها صدقة، ثم قلت لها: يا فضة أخبريني عن مولاتك فاطمة الزهراء عليها السلام وما الذي رأيت منها عند وفاتها بعد موت أبيها محمد ﷺ؟

قال ورقة: فلما سمعت كلامي تغرغرت عيناها بالدموع ثم انتحبت نادبة وقالت: يا ورقة بن عبد الله هيجت عليّ حزناً ساكناً وأشجاناً في فؤادي كانت كامنة، فاسمع الآن ما شاهدتُ منها.

إعلم أنه لما قبض رسول الله ﷺ افْتُجِع له الصغير والكبير وكثر عليه البكاء وقلّ العزاء وعظم رزؤه على الأقرباء والأصحاب والأولياء والأحباب والغرباء والأنساب، ولم تلق إلا كل باك وباكية ونادب ونادبة، ولم يكن في أهل الأرض والأصحاب والأقرباء أشد حزناً وأعظم بكاءً وانتحاباً من مولاتي فاطمة الزهراء، وكان حزنها يتجدد ويزيد، وبكاؤها يشتد فجلست سبعة أيام لا يهدىء لها أنين ولا يسكن منها حنين، وكل يوم جاء كان بكاؤها أكثر من اليوم الأول.

فلما كان في اليوم الثامن أبدت ما كتمت من الحزن فلم تطق صبراً إذ خرجت وصرخت فكأنها من فم رسول الله ﷺ تنطق، فتبادرت النسوان وخرجت الولائد والولدان، وضجّ الناس بالبكاء والنحيب، وجاء الناس من كل مكان، وأُطفئت المصابيح لكيلا تتبين صفحات النساء، وخيّل إلى النسوان أن رسول الله ﷺ قد قام من قبره، وصار الناس في دهشة وحيرة لما قد رهقهم، وهي تنادي وتندب: أباه وا أبتاه وا صفياه وا محمداه وا أبا القاسماه وا ربيع الأرامل واليتامى آه من للقبلة والمصلّى، ومن لابنتك الوالهة الثكلى.

ثم أقبلت تعثر في أذيالها وهي لا تبصر شيئاً من عبرتها من تواتر دمعتها حتى دنت من قبر أبيها محمد ﷺ فلما نظرت إلى الحجرة وقع طرفها على المأذنة فقصرت خطاها ودام نحيبها وبكاها إلى أن أُغمي عليها، فتبادرت النسوان إليها فنضحن الماء عليها وعلى صدرها وجبينها حتى أفاقت وهي تقول:

رفعت قوتي، وخانني جلدي، وشمت بي عدوي، والكمد قاتلي، يا أبتاه بقيت والهة وحيدة وحيرانة فريدة فقد انخمد صوتي، وانقطع ظهري، وتنغّص عيشي؛ وتكدّر دهري، فما أجد يا أبتاه بعدك أنيساً لوحشتي، ولا راداً لدمعتي، ولا معيناً لضعفي، فقد فنى بعدك محكم التنزيل، ومحبط جبرئيل، ومحل ميكائيل، انقلبت بعدك يا أبتاه الأسباب، وتغلقت دوني الأبواب، فأنا للدنيا بعدك قالية، وعليك ما ترددت أنفاسي باكية، ولا ينفد شوقي إليك، ولا حزني عليك.

ثم نادت: يا أبتاه وا لبّاه»، ثم قالت:

إنّ حزني عليك حزن جديد	وفؤادي والله صبّ عنيد
كلّ يوم يزيد فيه شجوني	واكتئابي عليك ليس يبيد
جلّ خطبي فبان عني عزائي	فبكائي كل وقت جديد
إن قلباً عليك يألف صبراً	أو عزاء فإنه لجليد

ثم نادت: يا أبتاه انقطعت بك الدنيا بأنوارها، وزوت زهرتها وكانت ببهجتك زاهرة قد اسودّ نهارها، فكان يحكي حنادسها رطبها ويابسها، يا أبتاه لا زلت آسفة عليك إلى التلاق، يا أبتاه زال غمضي منذ حقّ الفراق، يا أبتاه من للأرامل والمساكين، ومن للأمة إلى يوم الدين، يا أبتاه أمسينا بعدك من المستضعفين، يا أبتاه أصبحت الناس عنا معرضين، ولقد كنا بك معظّمين في الناس غير مستضعفين، فأي دمعة لفراقك لا تنهمل، وأي حزن بعدك عليك لا يتصل، وأي جفن بعدك بالنوم يكتحل، وأنت ربيع الدين، ونور النبيين، فكيف للجبال لا تمور، وللبحار بعدك لا تغور، والأرض كيف لم تتزلزل، رميت يا أبتاه بالخطب الجليل، ولم يكن الرزيّة بالقليل، وطرقت يا أبتاه بالمصاب العظيم، وبالفادح المهول، بكتك يا أبتاه الأملاك، ووقفت الأفلاك، فمنبرك بعدك مستوحش، ومحرابك خال من مناجاتك، وقبرك فَرِحٌ بمواراتك، والجنة مشتاقة إليك وإلى دعائك وصلاتك، يا أبتاه ما أعظم ظلمة مجالسك، فوا أسفاً عليك إلى أن أقدم عاجلاً عليك، والكل أبو الحسن المؤتمن أبو ولديك الحسن والحسين وأخوك ووليك وحبيبك ومن ربيته صغيراً وآخيته كبيراً، وأحلى أحبابك وأصحابك من كان منهم سابقاً ومهاجراً وناصراً، والثكل شاملنا، والبكاء قاتلنا، والأسى لازمنا.

ثم زفرت زفرة وأنّت أنّة كادت روحها أن تخرج، ثم قالت:

قلّ صبري وبان عني عزائي	بعد فقدي لخاتم الأنبياء
عين يا عين اسكبي الدمع سخا	ويك لا تبخلي بفيض الدماء
يا رسول الإله يا خيرة الله	وكهف الأيتام والضعفاء

قد بكتك الجبال والوحش جمعاً والطير والأرض بعد بكى السماء
وبكاك الحجون والركن و المشعر يا سيدي مع البطحاء
وبكاك المحراب والدّرس للقرآن في الصبح معلناً والمساء
وبكاك الإسلام إذ صار في النا س غريباً من سائر الغرباء
لو ترى المنبر الذي كنت تعلوه علاه الظلام بعد الضياء
يا إلهي عجّل وفاتي سريعاً قد تنغصت الحياة يا مولائي

قالت: ثم رجعت إلى منزلها وأخذت بالبكاء والعويل ليلها ونهارها وهي لا ترقى دمعتها، ولا تهدىء زفرتها.

واجتمع شيوخ أهل المدينة وأقبلوا إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام فقالوا له: يا أبا الحسن إن فاطمة تبكي الليل والنهار فلا أحد منّا يتهنأ بالنوم في الليل على فراشنا ولا بالنهار قرار على أشغالنا وطلب معايشنا، وإنّا نخبّرك أن تسألها إما أن تبكي ليلاً أو نهاراً، فقال: حبّاً وكرامة.

فأقبل أمير المؤمنين حتى دخل على فاطمة عليها السلام وهي لا تفيق من البكاء، ولا ينفع فيها العزاء، فلما رأته سكتت هيمنة له فقال لها: يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله إن شيوخ المدينة يسألوني أن أسألك إما أن تبكين أباك ليلاً وإما نهاراً، فقالت: يا أبا الحسن ما أقلّ مكثي بينهم وما أقرب مغيبتي من بين أظهرهم، فوالله لا أسكت ليلاً ولا نهاراً أو ألحق بأبي رسول الله، فقال لها علي: افعلي يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ما بدا لك.

ثم إنه عليه السلام بنى لها بيتاً في البقيع نازحاً من المدينة يسمّى بيت الأحزان وكانت إذا أصبحت قدّمت الحسن والحسين أمامها وخرجت إلى البقيع باكية فلا تزال بين القبور باكية، فإذا جاء الليل أقبل أمير المؤمنين إليها وساقها بين يديه إلى منزلها.

ولم تزل على ذلك إلى أن مضى لها بعد أبيها سبعة وعشرون يوماً، واعتلّت العلّة التي توفيت فيها، فبقيت إلى يوم الأربعين وقد صلّى أمير المؤمنين صلاة الظهر وأقبل يريد المنزل إذ استقبلته الجواري باكيات حزينات فقال عليه السلام لهن: ما الخبر وما لي أراكن متغيرات الوجوه والصور؟ فقلن: يا أمير المؤمنين أدرك ابنة عمك الزهراء وما نظنك تدركها.

فأقبل أمير المؤمنين مسرعاً حتى دخل عليها وإذا بها ملقاة على فراشها وهو من قباطي مصر وهي تقبض يميناً وتمدّ شمالاً، فألقى الرداء عن عاتقه والعمامة عن رأسه وحلّ أزراره.

وأقبل حتى أخذ رأسها وتركه في حجره وناداها: يا زهراء، فلم تكلمه، فناداها: يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم تكلمه، فناداها: يا بنت من حمل الزكاة في أطراف ردائه وبذلها

على الفقراء، فلم تكلمه، فناداها: يا ابنة من صلّى بالملائكة في السماء مثنى مثنى، فلم تكلمه، فناداها: يا فاطمة كلميني فأنا ابن عمك علي ابن أبي طالب.

قالت: ففتحت عينيها في وجهه ونظرت إليه وبكت وبكى، وقال عليه السلام: ما الذي تجدينه فأنا ابن عمك علي بن أبي طالب، فقالت: يا ابن العم إني أجد الموت الذي لا بد منه ولا محيص عنه، وأنا أعلم أنك بعدي لا تصبر على قلّة التزويج، فإن أنت تزوجت امرأة اجعل لها يوماً وليلة واجعل لأولادي يوماً وليلة، ولا تصح في وجوههما فيصبحان يتيمين غريبين منكسرين، فإنهما بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقدان أمهما، فالويل لأمة تقتلهما وتبغضهما، ثم أنشأت تقول:

إبكني إن بكيت يا خير هادي ... واسبل الدمع فهو يوم الفراق
يا قرين البتول أوصيك بالنسل ... فقد أصبحا حليف الاشتياق
ابكني وابك لليتامى ولا ... تنسى قتيل العدى بطف العراق
فارقوا فأصبحوا يتامى حيارى ... يخلف الله فهو يوم الفراق

قالت: فقال علي: من أين لك يا بنت رسول الله هذا الخبر والوحي قد انقطع عنا؟ فقالت: يا أبا الحسن رقدت الساعة فرأيت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله في قصر من الدرّ الأبيض، فلما رآني قال: هلمي إليّ يا بنية فإني إليك مشتاق، فقلت: والله أني لأشدّ شوقاً منك إلى لقائك، فقال: أنت الليلة عندي وهو الصادق لما وعد والموفي لما عاهد، فإذا أنت قرأت (يسّ) فاعلم أني قد قضيت نحبي، فغسّلني ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهرة، وليصلّ عليّ معك من أهلي الأدنى فالأدنى ومن رزق أجري وادفني ليلاً في قبري، بهذا أخبرني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال علي عليه السلام: والله لقد أخذت في أمرها وغسلتها في قميصها ولم أكشفه عنها، فوالله لقد كانت ميمونة طاهرة مطهّرة، ثم حنّطتها من فضلة حنوط رسول الله صلى الله عليه وآله وكفنتها وأدرجتها في أكفانها.

فلما هممت أن أعقد الرداء ناديت: يا أم كلثوم، يا زينب، يا سكينة، يا فضة، يا حسن، يا حسين، هلموا تزودوا من أمكم فهذا الفراق واللقاء في الجنة، فأقبل الحسن والحسين وهما يناديان: واحسرتاه لا تنطفىء أبداً من فقد جدّنا محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وأمنا فاطمة الزهراء، يا أم الحسن يا أم الحسين إذا لقيت جدّنا محمد المصطفى صلى الله عليه وآله فاقرئيه منا السلام وقولي له: إنّا قد بقينا بعدك يتيمين في دار الدنيا.

فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: إني أشهد الله أنها قد حنّت وأنّت ومدّت يديها

وضمتهما إلى صدرها ملياً وإذا بهاتف من السماء ينادي: يا أبا الحسن ارفعهما عنها فلقد أبكيا والله ملائكة السماوات، فقد اشتاق الحبيب إلى المحبوب.

فقال: فرفعتهما من صدرها وجعلت أعقد الرداء وأنا أنشد بهذه الأبيات:

فراقك أعظم الأشياء عندي وفقدك فاطم أدهى الثكول
سأبكي حسرة وأنوح شجواً على خلّ مضى أسناء سبيل

ثم حملها على يده وأقبل بها إلى قبر أبيها ونادى:

السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا نور الله، السلام عليك يا صفوة الله مني السلام عليك والتحية مني واصلة إليك ولديك، ومن ابنتك النازلة عليك بفنائك، وإن الوديعة قد استردّت، والرهينة قد أُخذت، فواحزناه على الرسول، ثم من بعده على البتول، ولقد اسودّت عليّ الغبراء، وبعدت عني الخضراء، فواحزناه ثم واأسفاه.

ثم عدل بها على الروضة فصلى عليها في أهله وأصحابه ومواليه وأحبائه وطائفة من المهاجرين والأنصار، فلما واراها وألحدها في لحدها أنشأ بهذه الأبيات يقوله:

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة وإن بقائي عندكم لقليل
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل[١]

أقول: وفي الديوان المنسوب إليه عليه الصلاة والسلام أنه أنشد عند وفاة فاطمة صلوات الله وسلامه عليها بهذه الأبيات:

ألا هل إلى طول الحياة سبيل وأنى وهذا الموت ليس يحول
وإني وإن أصبحت بالموت موقناً فلا أمل من دون ذاك طويل
وللدهر ألوان تروح وتغتدي وإن نفوساً بينهن تسيل
ومنزل حقّ لا معرّج دونه لكل امرء منها إليه سبيل
قطعت بأيام التعزز ذكره وكل عزيز ما هناك ذليل
أرى علل الدنيا عليّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل
وإني لمشتاق إلى من أحبه فهل لي إلى من قد هويت سبيل
وإني وإن شطت بي الدهر نازحاً وقد مات قبلي بالفراق جميل

(١) بطوله في البحار: ٤٣/ ١٧٤ـ ١٨٠، ح ١٥.

فقد قال في الأمثال في البين قائل — أضر به يوم الفراق رحيل
لكل اجتماع من خليلين فرقة — وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد — دليل على أن لا يدوم خليل
وكيف هناك العيش من بعد فقدهم — لعمرك شيء ما إليه سبيل
سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي — ويظهر بعدي للخليل عديل
وليس خليلي بالملول ولا الذي — إذا غبت يرضاه سواي بديل
ولكن خليلي من يدوم وصاله — ويحفظ سري قلبه ودخيل
إذا انقطعت يوماً من العيش مدتي — فإن بكاء الباكيات قليل
يريد الفتى أن لا يموت حبيبه — وليس إلى ما يبتغيه سبيل
وليس جليلاً رزء مال وفقده — ولكنّ رزء الأكرمين جليل
لذلك جنبي لا يواتيه مضجع — وفي القلب من حرّ الفراق غليل(١)

خاتمة

نذكر فيها بعض الأخبار الواردة في كيفية مجيئها سلام الله عليها إلى المحشر وتظلّمها يوم القيامة وعقاب ظالميها.

وإنما أوردت هذه الأخبار لأن الأخبار السالفة المتضمنة لما جرى عليها بعد وفاة أبيها سلام الله عليه وعليها من البغي والعدوان والظلم والطغيان لا سيما ما تضمنت أنينها وحنينها وبكائها ومظلوميتها ووحدتها وغربتها حالة وفاتها، قد ملأت قلبي قيحاً وشحنت صدري قرحة، وجرّعتني نغب التهمام أنفاساً، فصرت عند روايتها لا أضبط دمعتي، ولا أملك كمدي ولوعتي، وكانت الدمعات من عظم مصيبتها جارية، وحرقات القلب مشتعلة.

فأحببت إيراد هذه الأخبار تسلية لبعض همومي وهموم سائر الموالين، لعن الله ظالميها وظالمي بعلها وبنيها، فلقد أوغلوا في العداوة والطغيان، وبالغوا في التعدية والعدوان، وشمّروا في استئصال أهل البيت الشريف بالفعل واللسان، وأبانوا عن دناءة أصلهم بقبح فعلهم وفعل الأعوان، وركبوا مركباً وعراً أجابوا فيه دعوة وليّهم الشيطان.

فليتهم، أخزاهم الله، إذ لم يكفّوا عن غصب فدك والخلافة، كفوا عن إحراق باب بيت العصمة والطهارة، وليتهم قنعوا بتلبيب سيد الأولياء، وأمسكوا عن ضرب السوط وإسقاط جنين سيدة النساء.

---

(١) البحار: ٤٣/٢١٦، ح ٤٨.

ثم نسبهم الخبيث وأصلهم الدنيء قد نفى عنهم الغيرة والمروّة وأقامهم على دعوى الجاهلية لأن الإناء ينضح بما فيه، والولد سرّ أبيه.

روى في **(البحار)** من تفسير العياشي عن أبي بصير قال: يؤتى بجهنم لها سبعة أبواب: الأول للظالم وهو زريق، وبابها الثاني لحبتر، والباب الثالث للثالث، والباب الرابع لمعاوية، والباب الخامس لعبد الملك، والباب السادس لعسكر بن هوسر، والباب السابع لأبي سلامة، فهم أبواب لمن اتبعهم(١).

قال المحدث العلامة المجلسي: عسكر اسم جمل عائشة فيكون كناية عن عائشة وصاحبيها، ويحتمل كناية عن بعض ولاة بني أمية كأبي سلامة، ويحتمل أن يكون أبو سلامة كناية عن أبي مسلم إشارة إلى من سلّطهم من بني العباس(٢).

ومن العياشي عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه إذا كان يوم القيامة يؤتى بإبليس في سبعين غلاً وسبعين كبلاً، فينظر الأول إلى زفر في عشرين ومائة كبل وعشرين ومائة غلّ فينظر إبليس فيقول: من هذا الذي أضعفه الله العذاب وأنا أغويت هذا والخلق جميعاً؟ فيقال: هذا زفر، فيقول: بما جدّد له هذا العذاب؟ فيقال: ببغيه على عليّ عليه السلام، فيقول له إبليس: ويل لك وثبور لك أما علمت أن الله أمرني بالسجود لآدم فعصيته وسألته أن يجعل لي سلطاناً على محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وشيعته فلم يجبني إلى ذلك، وقال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢] وما عرفتهم حتى استثناهم إذ قلت: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧] فمنيت به نفسك غروراً.

فيوقف بين يديّ الخلائق فيقال له: ما الذي كان منك إلى عليّ وإلى الخلق الذين اتبعوك على الخلاف؟ فيقول الشيطان وهو زفر لإبليس: أنت أمرتني بذلك، فيقول له إبليس: فلم عصيت ربك وأطعتني؟ فيرد عليه زفر ما قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢] إلى آخر الآية(٣).

قال العلامة المجلسي «قد»: قوله عليه السلام: فيردّ زفر عليه، ظاهر السياق أن يكون قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾، كلام إبليس فيكون كلام زفر ما ذكر قبل تلك الآية من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

ومن كتاب سليم بن قيس الهلالي عن أبان بن أبي عياش عن سليم قال: سمعت سلمان الفارسي يقول: إذا كان يوم القيامة يؤتى إبليس مزموماً بزمام من نار ويؤتى بزفر

---

(١) البحار: ٣٠/٢٣٢، ح ٩٧، وتفسير العياشي ٢/٢٤٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير العياشي: ٢/٢٢٣، ح ٩.

مزموماً بزمامين من نار، فينطلق إليه إبليس فيصرخ ويقول: ثكلتك أمك من أنت؟ أنا الذي فتنت الأولين والآخرين وأنا مزموم بزمام واحد وأنت مزموم بزمامين؟ فيقول: أنا الذي أمرت فأطعت وأمر الله فعصى[١].

وفي (**عقاب الأعمال**) عن حنان بن سدير قال: حدثني رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة لسبعة نفر: أولهم ابن آدم الذي قتل أخاه، ونمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربه، واثنان في بني إسرائيل هوّدا قومهما ونصّراهما، وفرعون الذي قال: أنا ربّكم الأعلى، واثنان من هذه الأمة أحدهما شرّهما في تابوت من قوارير تحت الفلق في بحار من نار[٢].

وفيه عن أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أخبرني بأول من يدخل النار؟ قال: إبليس، ورجل عن يمينه، ورجل عن يساره[٣].

وفيه عن إسحاق بن عمار الصيّرفي عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: قلت: جعلت فداك حدثني فيهما بحديث فقد سمعت عن أبيك فيهما أحاديث عدة، قال: فقال لي: يا إسحاق الأول بمنزلة العجل، والثاني بمنزلة السامري.

قال: قلت: جعلت فداك زدني فيهما، قال: هما والله هوّدا ونصّرا ومجّسا فلا غفر الله ذلك لهما.

قال: قلت: جعلت فداك زدني فيهما، قال: ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قال: قلت: جعلت فداك فمن هم؟ قال: رجل ادعى إماماً من غير الله، وآخر طغى في إمام من الله، وآخر زعم أن لهما نصيباً في الإسلام.

قال: قلت: جعلت فداك زدني فيهما، قال: ما أبالي يا إسحاق محوت المحكم من كتاب، أو جحدت محمداً النبوة، أو زعمت أن ليس في السماء إلٰهاً، أو تقدمت على علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال: قلت: جعلت فداك زدني، قال عليه السلام: إن في النار لوادياً يقال له: محيط لو طلع منها شرارة لأحرق من على وجه الأرض وإن أهل النار يتعوذون أهل ذلك الوادي من حرّ ذلك الجبل ونتنه وقذره وما أعدّ الله فيه لأهله، وإن في ذلك الجبل لشعباً يتعوّذ جميع أهل ذلك الجبل من حرّ ذلك الشعب ونتنه وقذره وما أعد الله فيه لأهله، وإن في ذلك الشعب

---

(١) البحار: ٣٠/ ٢٣٢. (٢) ثواب الأعمال وعقابها: ٢١٥.
(٣) ثواب الأعمال: ٢١٥.

لقليباً يتعوّذ «أهل ظ» ذلك الشعب من حر ذلك القليب ونتنه وقذره وما أعدّ الله فيه لأهله، وإن في ذلك القليب لحيّة يتعوّذ جميع أهل ذلك القليب من خبث تلك الحية ونتنها وقذرها وما أعدّ الله عز وجل في أنيابها من السم لأهلها، وإن في جوف تلك الحية لسبع صناديق فيها خمسة من الأمم السالفة واثنان من هذه الأمة.

قال: قلت: جعلت فداك ومن الخمسة؟ ومن الاثنان؟ قال: أما الخمسة فقابيل الذي قتل هابيل، ونمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربّه قال: أنا أحيي وأُميت، وفرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، ويهود الذي هوّد اليهود، وبولس الذي نصّر النصارى، ومن هذه الأمة الأعرابيان[١].

أقول: الأعرابيان أبو بكر وعمر عبّر عنهما بذلك إشارة إلى كفرهما كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ [التوبة: ٩٧].

وفيه عن أبي خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يؤتى يوم القيامة بإبليس مع مضلّ هذه الأمة في زمامين غلظهما مثل جبل أُحد، فيسحبان على وجوههما فيسدّ بهما باب من أبواب النار[٢].

وفيه عن شريك يرفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة جاءت فاطمة في لُمةٍ من نسائها فيقال لها: ادخلي الجنة، فتقول: لا أدخل حتى أعلم ما صُنع بولديّ من بعدي، فيقال لها: انظري في قلب القيامة، فتنظر إلى الحسين عليه السلام قائماً وليس عليه رأس فتصرخ صرخة وأصرخ لصراخها وتصرخ الملائكة لصراخنا، فيغضب الله لنا عند ذلك فيأمر ناراً يقال لها: هبهب قد أوقد عليها ألف عام حتى اسودت لا يدخلها روح أبداً ولا يخرج منها غمّ أبداً، فيقال لها: التقطي قتلة الحسين وحملة القرآن، فتلقطهم فإذا صاروا في حوصلتها صهلت وصهلوا بها وشهقت وشهقوا بها وزفرت وزفروا بها، فينطقون بألسنة زلقة طلقة: يا ربنا بما أوجبت النار لنا قبل عبدة الأوثان؟ فيأتيهم الجواب عن الله عز وجل إن من علم ليس كمن لا يعلم»[٣].

وفيه عن محمد بن سنان عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة نُصب لفاطمة قبّة من نور وأقبل الحسين عليه السلام رأسه على يده، فإذا رأته شهقت شهقة لا يبقى في الجمع ملك مقرّب ولا نبي مرسل ولا عبد مؤمن إلا بكى لها، فيمثل الله عز وجل رجلاً لها في أحسن صورة وهو يخاصم قتلته بلا رأس، فيجمع الله

(١) الخصال: ٣٩٩ ح ١٠٦، وثواب الأعمال: ٢١٦.
(٢) ثواب الأعمال: ٢٠٨.
(٣) ثواب الأعمال: ٢١٧.

قتله، والمجهزين عليه ومن شرك في قتله فيقتلهم حتى يأتي على آخرهم، ثم ينشرون فيقتلهم أمير المؤمنين عليه السلام، ثم ينشرون فيقتلهم الحسن عليه السلام، ثم ينشرون فيقتلهم الحسين عليه السلام، ثم ينشرون فلا يبقى من ذرّيتنا أحد إلا قتلهم قتلة، فعند ذلك يكشف الله الغيظ وينسى الحزن».
ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: رحم الله شيعتنا، شيعتنا والله هم المؤمنون فقد والله شركونا في المصيبة بطول الحزن والحسرة[١].

وفي (**البحار**) من مجالس الشيخ عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينادي مناد: غضّوا أبصاركم ونكسوا رؤوسكم حتى تجوز فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله الصراط.

قال: فتغضّ الخلائق أبصارهم، فتأتي فاطمة سلام الله عليها على نجيب من نجب الجنة يشيّعها سبعون ألف ملك، فتقف موقفاً شريفاً من مواقف القيامة، ثم تنزل من نجيبها فتأخذ قميص الحسين بن علي عليهما الصلاة والسلام بيدها مضمخاً بدمه، وتقول: يا ربّ هذا قميص ولدي الحسين وقد علمت ما صُنع به، فيأتيها النداء من قبل الله عز وجل: يا فاطمة لك عندي الرضا، فتقول: يا رب انتصر لي عن قاتله، فيأمر الله تعالى عنقاً من النار فتخرج من جهنم، فتلتقط قتلة الحسين بن علي صلوات الله وسلامه عليهما كما يلتقط الطير الحب، ثم يعود العنق بهم إلى النار، فيعذّبون فيها بأنواع العذاب.

ثم تركب فاطمة سلام الله عليها نجيبها حتى تدخل الجنة ومعها الملائكة المشيّعون لها وذرّيتها بين يديها وأولياؤهم من الناس عن يمينها وشمالها[٢].

أقول: ولقد أجاد من قال مضمناً لمضمون هذه الأخبار:

كأنني بالبتول الطّهر واقفة — في الحشر تشكو إلى الرحمٰن باريها
تأتي وقد ضمخت ثوب الحسين دماً — فيض النحور البحاري ويل مجريها
تدعو ألا أين مسمومي ويا أسفاً — على ذبيحي وأسرى من ذراريها
تقول واحزني بل آه وا حسني — هذا حسيني قتيل في فيافيها
هذا حسيني رضيض الجسم منجدلا — تسفى على جسمه العاري سوافيها
آه على جثث بالطف قد قُطعت — رؤوسها وهجير السيف يصليها
آه على جثث فيها القنى لعبت — وأركضت ماضيات في تراقيها
يا فتية ذبحت في كربلا وثوت — على الوجوه عرايا في صحاريها

(١) ثواب الأعمال: ٢١٧. (٢) بحار الأنوار: ٤٣/ ٢٢٤، ح ١١، وأمالي المفيد: ١٣٠.

ينتم فبان لكم سلوانُ فاطمة ولا عج الوجد بالوجدان يشجيها

ألا لعنة الله على القوم الظالمين، وسيعلم الذين ظلموا آل محمد صلّى الله عليه وعليهم حقّهم أي منقلب ينقلبون.

تكملة

قد أشرنا إلى أن هذا الكلام مروي في عدّة من أصول معتمدة على اختلاف وزيادة، أحببت رواية ما فيها على مجرى عادتنا، فأقول:

روى ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني عن أحمد بن مهران وعن أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار الشيباني قال: حدثني القاسم بن محمد الرازي قال: حدثني علي بن محمد الهرمزاني عن أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام قال:

لما قُبضت فاطمة سلام الله عليها دفنها أمير المؤمنين عليه السلام سرّاً وعفى على موضع قبرها ثم قام فحوّل وجهه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

السلام عليك يا رسول الله عني والسلام عليك عن ابنتك وزائرتك والبائتة في الثرى ببقعتك، ولقد اختار الله لها سرعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، وعفي عن سيدة نساء العالمين تجلّدي، إلا أن في التأسي لي بسنّتك في فرقتك موضع تعزّ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك، وفاضت نفسك بين نحري وصدري، بلى وفي كتاب الله لي أنعم القبول إنا لله وإنا إليه راجعون، قد استرجعت الوديعة وأُخذت الرهينة، وأُخلست «اختلست» الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله، أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهّد، وهمّ لا يبرح من قلبي أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم، كمد مقيّح، وهم مهيّج، سرعان ما فرق بيننا، وإلى الله أشكو، وستنبئك ابنتك بتظافر أمتك على هضمها، فأحفها السؤال، واستخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً، وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين، سلام مودّع لا قال ولا سئم فإن أنصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين، واه واها والصبر أيمن وأجمل، ولولا غلبة المستولين لجعلت المقام واللبث لزاماً معكوماً، ولأعولت أعوال الثكلى على جليل الرزية، فبعين الله تُدفن ابنتك سرّاً وتُهضم حقها وتُمنع إرثها، ولم يتباعد العهد ولم يخلق منك الذكر، وإلى الله يا رسول الله المشتكى، وفيك يا رسول الله أحسن العزاء، صلى الله عليك، وعليها السلام والرضوان(١).

(١) البحار: ٤٣/١٩٣، ح ٢١، والكافي: ١/٤٥٩.

بيان

(العفو) المحو والانمحاء و **(المختار الله)** من إضافة الصفة إلى فاعلها و **(سرعة اللحاق)** مفعوله أي التي اختار الله لها سرعة لحاقها بك.

قوله: **(وفي كتاب الله لي أنعم القبول)** أي فيه ما يصير سبباً لقبول المصائب أحسن القبول وأطيبه و **(أخلسته)** واختلسته استلبته، والخُلسة ما يؤخذ سلباً ومكابرة.

قوله: **(وكمد مقيّح)** الكمد محرّكة وبالفتح الحزن الشديد ومرض القلب، والمقيّح بتشديد الياء من القيح أي حزني حزن شديد يورث في القلب قيحاً، و **(سرعان)** اسم فعل مبني على الفتح بمعنى سرع وقرب مع تعجب أي ما أسرع ما فرق و **(ما)** كناية عن الموت و **(ستنبئك)** من باب الأفعال والتفعيل والنبأ وهو الخبر و **(الغليل)** حرارة الجوف و **(اعتلجت)** الأمواج التطمت.

وقوله: **(سلام مودّع)** منصوب على المصدر محذوف العامل مطرداً وقوله: **(واهٍ واها)** وفي بعض النسخ: واها واها يقال: واها لك ويترك تنوينه كلمة تعجب من طيب شيء وكلمة ملهف والتكرير للتأكيد كما قال الشاعر:

واهاً لريّا ثم واهاً واها   هي المنا لو أننا نلناها

و **(معكوفاً)** أي محبوساً و **(العويل)** رفع الصوت بالبكاء والصياح، وقوله: **(فبعين الله)** (آه) أي تدفن ابنتك سراً بحفظ الله أو بحضوره وشهوده **(ولم يخلق)** من الخلق وهو البالي أي لم يبل ولم يندرس ذكرك وقوله: **(وفيك)** أي في إطاعة أمرك **(أحسن العزاء)**.

وفي **(البحار)** من المجالس **(وأمالي المفيد)** عن الصدوق عن أبيه عن أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن القاسم بن محمد الرازي عن علي بن محمد الهروي عن علي بن الحسين عن أبيه عليه السلام قال:

لمّا مرضت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وصّت إلى علي بن أبي طالب أن يكتم أمرها ويخفي خبرها ولا يؤذن أحداً بمرضها، ففعل ذلك وكان يمرّضها بنفسه وتعينه على ذلك أسماء بنت عميس على استسرار بذلك كما وصّت به.

فلما حضرتها الوفاة وصّت أمير المؤمنين عليه السلام أن يتولى أمرها ويدفنها ليلاً ويعفّي قبرها، فتولى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام ودفنها وعفّى موضع قبرها، فلما نفض يَده من تراب القبر هاج به الحزن فأرسل دموعه على خدّيه وحوّل وجهه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك من ابنتك وحبيبتك وقرّة عينك وزائرتك

والبائتة في الثرى ببقيعك، المختار الله لها سرعة اللحاق بك؛ قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، وضعف عن سيدة النساء تجلّدي، إلا أن في التأسي لي بسنّتك والحزن الذي حلّ بي لفراقك موضع التعزّي، ولقد وسّدتك في ملحود قبرك بعد أن فاضت نفسك على صدري، وغمضتك بيدي، وتوليت أمرك بنفسي، نعم، وفي كتاب الله أنعم القبول إنا لله وإنا إليه راجعون، قد استرجعت الوديعة، وأُخذت الرهينة، واختلست الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، لا يبرح الحزن من قلبي أو يختار الله لي دارك التي فيها أنت مقيم، كمد مقيح، وحزن مهيج، سرعان ما فرّق الله بيننا، وإلى الله أشكو، وستنبئك ابنتك بتظافر أمتك عليّ وعلى هضمها حقها فاستخبرها الحال، فكم من غَليلٍ معتلج بصدرها لم تجد إلى بثه سبيلاً، وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين، سلام عليك يا رسول الله سلام مودّع، لا قالٍ ولا سَئِم، فإن أنصرف فلا عن ملالة وإن أقم فلا عن سوء ظني بما وعد الله الصابرين، الصبر أيمن وأجمل ولولا غلبة المستولين علينا لجعلت المقام عند قبرك لزاماً، والتلبث عنده معكوفاً، ولأعولت إعوال الثكلى على جليل الرزية، فبعين الله تُدفن ابنتك سرّاً، ويُهتضم حقها قهراً، ويُمنع إرثها جهراً، ولم يطل العهد ولم يخلق منك الذكر، فإلى الله يا رسول الله المشتكى، وفيك أجمل العزاء صلوات الله عليها وعليك ورحمة الله وبركاته(١).

ورواه في (**كشف الغمة**) مثل ما رواه السيد في المتن إلى قوله: (**بما وعد الله الصابرين**)، ثم قال: وفي رواية أخرى زيادة على قول علي عليه السلام عند موتها:

أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، ولا نبرح أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم، سرعان ما فرّق بيننا، وإلى الله أشكو، وستنبئك ابنتك بتظافر أمتك على هضمها حقها [قهراً]، فأحفها السؤال، واستخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثه سبيلاً، فستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين، والسلام عليكما سلام مودّع، لا قال ولا سئم، فإن أنصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين، فالصبر أيمن وأجمل، فبعين الله تُدفن ابنتك صبراً، وتُهتضم حقها، وتُمنع إرثها، ولم يبعد العهد، فإلى الله المشتكى يا رسول الله، وفيك يا رسول الله أحسن العزاء صلوات الله عليك وعليها معك(٢).

---

(١) الكافي: ٤٥٩/١، ح ٣، وأمالي المفيد: ٢٨٢، وأمالي الطوسي: ١١٠، ح ١٦٦.

(٢) كشف الغمة: ١٢٨/٢، وأمالي المفيد: ٢٨٣ وما بين معكوفين منه.

الترجمة

از جمله كلام آن امام است كه روايت كرده اند از او كه گفته اين كلام را در وقت دفن كردن حضرت سيده زنان فاطمه زهرا(عليها السلام)، گويا مناجات مى نمود بااين كلام با حضرت رسالت مآب (صلى الله عليه وآله) و عرض مى نمود:

السّلام عليك يا رسول الله، سلام باد بر تو اى پيغمبر خدا از طرف من و از طرف دخترت كه نازل شد در همسايگى تو و زود لاحق شد به تو، كم شد يا رسول الله از دختر پسنديده تو صبر من و ضعيف شد از فراق او تحمّل و قوّت من، لكن مرا است در پيروى نمودن جدايى بزرگ تو و مصيبت سنگين تو محلّ تسلى، پس به تحقيق خواباندم تو را در قبر لحددار تو و سيلان نمود ميان گلو و سينه من روح تو.

و انّا لله و انّا اليه راجعون، پس به تحقيق كه باز يافت شد امانت و پس گرفته شد گرو. كنايه است از حضرت فاطمه كه به منزله امانت و رهن بود در نزد شوهرش. .

اما حزن و اندوه من پس هميشگى است و اما شب من پس بى خوابى است تا آنكه اختيار نمايد خداى تعالى از براى من خانه اى را كه تو در آنجا اقامت كرده اى و به زودى خبر مى دهد تو را دختر تو به اجتماع امّت ستمكار تو بر ظلم و ستم آن مظلومه، پس درست سؤال كن از آن و بپرس از آن حال من و او را.

بود اين ظلم ظالمان در حالتى كه عهد ايشان با تو طول نيافته بود و ذكر خبر تو از زبان خلق نرفته بود و سلام باد بر تو يا رسول الله و بر دختر تو، مانند سلام وداع كننده اى مهربان كه صاحب خشم و ملال نباشد از صحبت شما، پس اگر مراجعت نمايم از نزد شما نه از جهت ملال است و اگر اقامت كنم در نزد قبر شما نه از جهت سوء ظنّ و بدگمانى است به آنچه كه وعده فرموده است خداوند تبارك و تعالى در حق صبركنندگان.

ومن كلام له عليه السلام وهو
المائتان والثاني من المختار
في باب الخطب

ورواه في **(الإرشاد)** وفي **(البحار)** من أمالي الصدوق بتفاوت يسير مع زيادة حسبما تعرفه في التكملة الآتية إن شاء الله.

«أَيُّها النَّاسُ، إِنَّما الدُّنْيا دارُ مَجازٍ، وَالآخِرَةُ دارُ قَرارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلا تَهْتِكُوا أَسْتارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْها أَبْدانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِها خُلِقْتُمْ، إِنَّ المَرْءَ إِذَا هَلَكَ قالَ النّاسُ: ما تَرَكَ، وَقالَتِ المَلائِكَةُ: ما قَدَّمَ لِلَّهِ آباؤُكُمْ، فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ، وَلا تُخَلِّفُوا كُلاًّ فَيَكُونَ عَلَيْكُمْ»[(١)].

اللغة

(المجاز) مصدر ميمي من جاز المكان يجوزه جوزاً وجوازاً إذا سار فيه وعبره و **(القرار)** اسم من قرّ الشيء قرّاً من باب ضرب استقرّ بالمكان و **(لا تخلّفوا كلاً)** مضارع خلّف الرجل الشيء بالتشديد تركه بعده.

الإعراب

(من) في قوله: **(من ممرّكم)** نشوية وقوله: **(لله آباءكم)**، جملة اسمية تستعمل في مقام التعجب والاستعظام كقولهم: لله أبوك ولله درّك وتسمّى هذه اللام بلام التعجب.

قال نجم الأئمة: أما معنى قولهم: لله درّك، فالدّر في الأصل ما يدرّ أي ينزل من الضرع من اللبن ومن الغيم من المطر، وهو هٰهنا كناية عن فعل الممدوح الصادر عنه، وإنما نسب فعله إليه تعالى قصداً للتعجب لأن الله منشىء العجائب، فكل شيء عظيم يريدون التعجب منه ينسبونه إليه تعالى ويضيفونه نحو قولهم: لله أبوك ولله أنت، فمعنى لله درّه ما أعجب فعله، وقد تقدم مزيد تفصيل فيه في شرح المختار المائة والتاسع والسبعين.

المعنى

اعلم أن الغرض من هذا الكلام التنفير من الدنيا والترغيب في الآخرة والأمر بأخذ الزاد ليوم المعاد وبالاستعداد للموت قبل حلول الفوت، وصدّر الكلام بحرف النداء والتنبيه

---

(١) البحار: ٧٠/ ١٣٤.

إيقاظاً للمخاطبين من نوم الغفلة فقال:

(أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار) يعني أن الأُولى دار عبور والأُخرى دار استقرار، والإتيان بكلمة إنما المفيدة للحصر تأكيداً للغرض المسوق له الكلام، وتنبيهاً على أن وجود الدنيا نفس حدوثها وبقاءها عين زوالها، فلا صلاحية لها إلا لأن تكون مجازاً ومعبراً بمنزلة قنطرة يتجاوز منها إلى المقرّ والمأوى، فمن نوى البقاء فيها والقرار فقد جهل وضلّ وخبط خبطاً عظيماً وخسر خسراناً مبيناً، وإذا كان شأنها ذلك:

(فخذوا من ممركم لمقركم) أي خذوا من الدنيا من الخيرات والحسنات والباقيات الصالحات التي هي زاد الآخرة، لتنالوا بها حسن الثواب فيها وتحصّلوا النعمة الدائمة.

(ولا تهتكوا أسراركم عند من يعلم أسراركم) أي لا تجاهروا بالمعصية والعدوان عند من لا يُخفى عليه شيء من السر والإعلان، بل يعلم ما أنتم مقترفون في ليلكم ونهاركم، لطف به خبراً وأحاط به علماً، أعضاؤكم شهوده، والحفظة جنوده، وضمائركم عيونه، وخلواتكم عيانه كما قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٦ـ ١٨].

(وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن يخرج منها أبدانكم) وهو أمر بالزهد في الدنيا والإعراض عنها وحذف محبتها عن ساحة القلب والاستعداد للموت قبل حلوله، لأن من كانت الدنيا همّه وأشرب محبتها قلبه اشتدت عند مفارقتها حسرته.

روى في (**البحار**) من «**الأمالي**» قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما الاستعداد للموت؟ قال: أداء الفرائض واجتناب المحارم والاشتمال على المكارم ثم لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، والله ما يبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت أم وقع الموت عليه[1].

وفيه من (الخصال ومعاني الأخبار) بسنده عن عبد الله بن بكر المرادي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عن علي بن الحسين عليه السلام قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم جالس مع أصحابه يعبيهم للحرب إذ أتاه شيخ عليه شجّة السفر فقال: أين أمير المؤمنين؟ فقيل: هو ذا، فسلّم ثم قال: يا أمير المؤمنين إني أتيتك من ناحية الشام وأنا شيخ كبير قد سمعت فيك من الفضل ما لا أحصي، وأني أظنك ستقاتل، فعلمني مما علمك الله.

قال عليه السلام: نعم يا شيخ، من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كانت الدنيا همَّه اشتدت

---

(١) البحار: ٦/١٣٨، ح ٤٣.

حسرته عند فراقها، ومن كانت غده شرّ يوميه فهو محروم. وساق الرواية إلى أن قال:

فقال: يا شيخ إن الله عز وجل خلق خلقاً ضيّق الدنيا عليهم نظراً لهم فزهدهم فيها وفي حطامها، فرغبوا في دار السلام الذي دعاهم إليه وصبروا على ضيق المعيشة وصبروا على المكروه واشتاقوا إلى ما عند الله من الكرامة، وبذلوا أنفسهم ابتغاء رضوان الله وكانت خاتمة أعمالهم الشهادة، فلقوا الله وهو عنهم راض وعلموا أن الموت سبيل من مضى فتزودوا لآخرتهم غير الذهب والفضة ولبسوا الخشن وصبروا على القوت، وقدموا الفضل وأحبوا في الله وأبغضوا في الله عز وجل أولئك المصابيح وأهل النعيم في الآخرة والسلام[1].

(ففيها اختبرتم ولغيرها خُلقتم) يعني أنه سبحانه خلقكم في الدنيا لا لأجل الدنيا والبقاء فيها والركون إليها، بل لأجل الآخرة وتحصيل النعمة الدائمة، وإنما خلقكم في الدنيا لمحض الابتلاء والامتحان كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد مضى تحقيق معنى الابتلاء في شرح الخطبة الثانية والستين، وبينا هناك أن اللازم على الإنسان قصر همّته في محصّلات السعادة الأخروية ليخلص من قالب الامتحان، وليستحق القرار في غرفات الجنان، ويدرك مرتبة الرضوان الذي هو أعظم السعادات وأشرف اللذات وأكبر البهجات.

(إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك، وقالت الملائكة: ما قدّم) وهو تأكيد لما سبق، فإنه عليه السلام لما أمر بالأخذ من الممر للمقر وبالزهد في الدنيا والإعراض عن قنياتها وزخارفها، ونبّه على أن الغرض الأصلي من الخلقة هو العبادة والطاعة وتحصيل السعادة الأخروية.

أكده بأن المرء إذا مات قال أبناء الدنيا من عشائر الميت والأقرباء والأخوان والقرناء المصروف هممهم بها والمشغولين بها عن التوجه إلى الأخرى: ما ترك؟ أي يسأل بعضهم بعضاً عما خلّفه الميت من متاع الدنيا وما تركه من الأولاد والأموال.

وقالت الملائكة الذين نظرهم إلى محصلات القرب والزلفى لديه تعالى فقط: ما قدّم الميت لنفسه وادّخره ليوم فاقته ومقام حاجته؟، فينبغي على ذلك ترجيح مسؤول الملائكة على مسؤول الناس، وتقديم محصّلات الزلفى على قنيات الدنيا.

قال الشارح البحراني: وفي لفظ ما ترك وما قدّم لطف تنبيه على أن متاع الدنيا مفارق متروك والأعمال الصالحة مقدّمة باقية نافعة للمرء في معاده، فينبغي أن تكون العناية بها دون المفارق المتروك.

---

(١) معاني الأخبار: ١٩٩، والبحار: ٦٦/ ٢٧٢ ح ٤.

(لله آبائكم) استعظمهم بنسبة آبائهم إلى الله حيث ولدوا مثل هؤلاء الأولاد.

وقوله: **(فقدّموا بعضاً يكن لكم ولا تخلّفوا كلاً فيكون عليكم)** تفريع على ما تقدم، فإنه لما صدّر الكلام بالأمر بالأخذ من الممر للمقر وأكّده بأن سؤال الملائكة وفحصهم عن المقدم دون المؤخر، رتب عليه هذه الجملة تنبيهاً على مقدار ما يؤخذ ويقدم.

ولا يخفى ما في هاتين القرينتين من حسن المقابلة، وهو مقابلة الأربعة بالأربعة حيث جعل القرينة الأولى موجبة والثانية سالبة، ثم قابل بين التقديم والتخليف وبين البعض والكل وبين لكم وعليكم.

وفي بعض النسخ: **(فقدموا بعضاً يكن لكم قرضاً، ولا تخلّفوا كُلاً فيكون عليكم كلاً)** فتكون من مقابلة الخمسة بالخمسة.

أي خذوا من ممرّكم لمقرّكم بعض أموالكم، وقدموه وأنفقوه في سبيل الله يكن لكم قرضاً على الله تستحقون بأخذ مثله من الله في مقام الحاجة وموطن الفاقة بل يضاعفه لكم أضعافاً مضاعفة كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ [الحديد: ١١] «وقد مر معناه في شرح الخطبة المائة والثانية والثمانين وقال أيضاً» وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً.

(ولا تتركوا جميع أموالكم فيكون عليكم كلاً) أي ثقيلاً لا خير فيه أو وزراً وثقلاً أي يكون عبؤه لكم ومهناؤه لغيركم.

روى في **(الوسائل)** عن الصدوق في قول الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]، قال: هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله عز وجل بخلاً ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله أو بمعصية الله، فإن عمل فيه بطاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرة وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله عز وجل[(١)].

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما محق الإسلام محق الشحّ شيء»، ثم قال: «إن لهذا الشحّ دبيباً كدبيب النمل وشعباً كشعب الشرك»[(٢)].

وفي **(الكافي)** بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ليس يتبع الرجل

---

(١) الكافي: ٤/ ٤٢، والوسائل: ٩/ ٣٧، ح ١١٤٦٢.

(٢) الوسائل: ح ١١٤٦٣.

بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته، وسنّة هدي سنّها فهي يُعمل بها بعد موته، وولد صالح يدعو له[1].

وفيه عن أبي كهمس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ستة يلحق المؤمن بعد وفاته: ولد يستغفر له، ومصحف يخلفه، وغرس يغرسه، وقليب يحفره، وصدقة يجريها، وسنّة يؤخذ من بعده[2].

ثم إن قوله عليه السلام: (**فقدموا بعضاً** آه)، يدل بمنطوقه على مطلوبية تقديم البعض وبمفهومه على عدم مطلوبية تقديم الكل، كما أن قوله: (**ولا تخلّوا كلاً** آه)، يدل بمنطوقه على مبغوضية تخليف الكل وبمفهومه على مبغوضية تخليف البعض، فيكون محصّل مفاد القضيتين تقديم البعض وتخليف البعض، وعلى ذلك:

فإن أُريد بالأمر، أعني قوله: (**قدموا معناه الحقيقي الذي هو الوجوب**)، فالمراد بالبعض الذي يجب تقديمه هو الحقوق المالية الواجبة من الخُمس والزكاة ومصارف الحج ونفقة من يجب نفقته عليه ونحوها.

وإن أُريد به الأعم من معنى الحقيقي أي الرجحان المطلق فيعمّ البعض حينئذ للحقوق الواجبة والمندوبة من وجوه البرّ وصنائع المعروف والحق المعلوم للسائل والمحروم ونحوها، وهذا هو الأظهر.

فينبغي على الإنسان أن يقدم البعض لنفسه ويخلّف البعض لوارثه ولا يجوز أن يخلّف الكل فيحرم ولا أن يقدم الكل فيحرم الوارث ويظلم.

ويدل على ذلك ما رواه في (**الكافي**) مرسلاً قال: وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال لرجل من الأنصار: أعتق ممالك له لم يكن له غيرهم فعابه النبي صلى الله عليه وآله وقال: «ترك صبية صغاراً يتكفّفون الناس»، ورواه في (**الوسائل**) عن الصدوق بإسناده عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام[3].

ويدل عليه أيضاً الأخبار الدالة على عدم جواز الجور في الوصية والحيف فيها بتجاوز الثلث ووجوب ردّها إلى العدل والمعروف.

---

(١) الكافي: ٧/٥٦، ح ١ـ٣.

(٢) المصدر السابق، ح ٥.

(٣) الكافي: ٧/٩، ح ١٠، والوسائل: ١٩/٣٠٠، ح ٢٤٦٤٣.

مثل ما رواه في **(الوسائل)** عن الشيخ بإسناده عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: قضى أمير المؤمنين عليه السلام في رجل توفّى وأوصى بماله كله أو أكثره فقال عليه السلام: إن الوصية تردّ إلى المعروف ويترك لأهل الميراث ميراثهم[١].

وفي **(الوسائل)** عن الشيخ بإسناده عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: من عدل في وصيته كان كمن تصدّق بها في حياته ومن جار في وصيته لقى الله عز وجل يوم القيامة وهو عنه معرض[٢].

وفيه عن الشيخ بإسناده عن علي بن يقطين قال: سألت أبا الحسن عليه السلام ما للرجل من ماله عند موته؟ قال: الثلث والثلث كثير[٣].

وفيه من **(مجمع البيان)** قال: جاء في الحديث إن الضرار في الوصية من الكبائر.

وفيه عن الصدوق بإسناده عن السكوني عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال علي عليه السلام: الوصية بالخمس لأن الله عز وجل قد رضى لنفسه بالخمس، وقال: الخمس اقتصاد، والربع جهد، والثلث حيف[٤].

وفيه من قرب الإسناد عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام قال: لئن أوصي بالخمس أحب إليّ من أن أوصي بالربع، ولئن أوصي بالربع أحب إليّ من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث فلم يترك شيئاً[٥].

ورواه في **(الكافي)** بإسناده عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لئن أوصي بخمس مالي أحب إليّ من أن أوصي بالربع، ولئن أوصي بالربع أحب إليّ من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث فلم يترك وقد بلغ الغاية، إلى أن قال: ويترك لأهل الميراث ميراثهم، وقال: من أوصى بثلث ماله فلم يترك وقد بلغ المدى، ثم قال: لئن أوصي بخمس مالي أحب إليّ من أن أوصي بالربع[٦].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة ولا حاجة إلى الإطالة، ولنختم بما هو أحرى بأن يُختم

---

(١) الكافي: ٧/ ١١، ح ٤، والوسائل: ١٩/ ٢٦٧.
(٢) الوسائل: ١٩/ ٢٦٧ ح ٢٤٥٦٢.
(٣) الانتصار ٥٧٠، والوسائل: ١٩/ ٢٧٤.
(٤) الوسائل: ح ٢٤٥٦٨.
(٥) الوسائل: ١٩/ ٢٧٠ ح ٢٤٥٦٧.
(٦) الكافي: ٧/ ١١ ح ٤.

به المقام.

وهو ما رواه في (**الوسائل**) عن الصدوق بإسناده عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من خُتم له بلا إله إلا الله دخل الجنة، ومن خُتم له بصيام يوم دخل الجنة، ومن خُتم له بصدقة يريد بها وجه الله دخل الجنة»[١].

ومن الله أسأل أن يجعل خاتمة أمورنا خيراً بجاه محمد وآله الأبرار، سلام الله عليهم ما تعاقب الليل والنهار.

تكملة

روى في (**البحار**) من الأمالي للصدوق قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه:

أيها الناس إن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا يُخفى عليه أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففي الدنيا حييتم، وللآخرة خلقتم، إنما الدنيا كالسم يأكله من لا يعرفه، إن العبد إذا مات قالت الملائكة: ما قدّم، وقال الناس: ما أخّر، فقدموا فضلاً لكم يكن لكم، ولا تؤخروا كلاً يكن عليكم فإن المحروم من حرم خير ماله، والمغبوط من ثقل بالصدقات والخيرات موازينه، وأحسن في الجنة بها مهاده، وطيّب على الصراط بها مسلكه[٢].

وفي (**الإرشاد**) من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في الحكمة والموعظة:

خذوا رحمكم الله من ممركم لمقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا يُخفى عليه أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن يخرج منها أبدانكم، فللآخرة خُلقتم، وفي الدنيا حبستم، إن المرء إذا هلك قالت الملائكة: ما قدّم، وقال الناس: ما خلّف، فللّه آباؤكم قدّموا بعضاً يكن لكم، ولا تخلّفوا كلاً فيكون عليكم، فإنما مثل الدنيا مثل السمّ يأكله من لا يعرفه[٣].

(١) الوسائل: ١٠/٤٠١، ح ١٣٦٩٢.
(٢) البحار: ٧٠/٨٩، ح ٥٦.
(٣) الإرشاد للمفيد: ١/٢٩٥.

الترجمة

از جمله كلام حكمت نظام آن امام است در تنفير از دنياى فانى مى فرمايد:

اى مردمان، به درستى كه دنيا خانه تجاوز و عبور است و آخرت خانه برقرارى. پس اخذ نماييد از گذرگاه خودتان براى قرارگاه خودتان و برندريد پرده هاى خودتان را در نزد خداوندى كه مى داند سرّهاى شما را و بيرون كنيد از دنيا قلب هاى خود پيش از اينكه خارج شود از آن بدن هاى شما، پس در دنيا امتحان شده ايد و از براى غير دنيا يعنى آخرت خلق شده ايد، به درستى كه مرد هرگاه هلاك شود و بميرد گويند مردمان كه تركه آن مرده چه بوده است؟ و گويند ملائكه كه او از براى خود چه پيش فرستاده است؟ از براى خدا است پدران شما (يعنى خدا رحمت كند پدران شما را)، پس پيش بفرستيد بعض مال خود را تا آنكه دريابيد منفعت آن را و باقى نگذاريد همه را، پس برسد به شما ضرر آن.

ومن كلام له عليه السلام كان كثيراً ما ينادي به أصحابه وهو المائتان والثالث من المختار في باب الخطب

وهو مروي في (البحار) من أمالي الصدوق باختلاف كثير تطلع عليه.

«تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ الله فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وانْقَلِبُوا بِصالِحِ ما بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزّادِ، فَإِنَّ أَمامَكُمْ عَقَبَةً كَئُوداً، وَمَنازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لا بُدَّ مِنَ الوُرُودِ عَلَيْها، والوُقُوفِ عِنْدَها، واعْلَمُوا أَنَّ مَلاحِظَ المَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دانِيَةٌ، وَكَأَنَّكُم بِمَخالِبِها وقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْها مُفْظِعاتُ الأُمُورِ، وَمُعْضِلاتُ المَحْذُورِ، فَقَطِّعُوا عَلائِقَ الدُّنْيا، وَاسْتَظْهِرُوا بِزادِ التَّقْوىٰ»[1].

قال السيد «ره»: وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدم بخلاف هذه الرواية.

أقول: الأشبه أن يكون مراده به ما تقدم في الخطبة الرابعة والثمانين.

اللغة

(**جهاز**) المسافر ما يحتاج إليه في قطع المسافة، وهو بالفتح وبه قرأ السبعة في قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٧٠] والكسر لغة قليلة، وجهاز العروس والميت باللغتين أيضاً ما يحتاجان إليه وجهّزته تجهيزاً هيّأت جهازه فتجهز و (**العرجة**) بالضم الإقامة من عرّج تعريجاً وتعرّج تعرّجاً أي أقام وحبس المطيّة على المنزل و (**عقبة كئود**) ككفور وكأداء أي صعبة شاقّة من تكأدني الأمر شق عليّ و (**هاله**) الأمر هولاً أفزعه، والهول المخافة والجمع أهوال وهول هائل ومهول كمصون تأكيد، و (**الملاحظ**) جمع الملحظ مصدر ميميّ بمعنى اللحظ، يقال: لحظه وإليه لحظاً من باب منع، ولحظاناً بالتحريك نظر بمؤخّر عينه، قال الشاعر:

وأسرار الملاحظ أين تخفى ... وقد يقرأ بذي اللحظ الظنون

قال الفيروز أبادي: اللحظ أشدّ التفاتاً من الشزر و (**دئب**) في الأمر دئباً جدّ وتعب، وفي بعض النسخ: دانية بل دائبة من الدنو بمعنى القرب و (**المخلب**) من السباع كالظفر من غيرها و (**نشب**) نشباً من باب تعب علق و (**المعضلات**) الشدائد من أعضل به الأمر اشتد.

وفي نسخة الشارح المعتزلي: مضلعات المحذور، وفسرها بالخطوب التي تضلع أي

(١) البحار: ٦٨/ ١٧٢ ح ٤.

تجعل الإنسان ضلعاً أي معوجاً.

أقول: لعله أخذه من ضلع السيف ضلعاً من باب فرح أعوج، ولأقيمن ضلعك بالتحريك وبالسكون أيضاً وهو الاعوجاج خلقة ولكن الأظهر أن يكون مأخوذاً من أضلعه الدين أثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء وحمل مضلع وزان محسن أي ثقيل، وإن كان مرجعه أيضاً إلى الأول.

وروي: مظلعات المحذور بالظاء المشالة، قال الشارح المعتزلي: أراد الأمور التي تجعل الإنسان ظالعاً أي يغمر في مشيه لثقلها عليه والماضي ظلع بالفتح يظلع ظلعاً فهو ظالع، وفي **(القاموس)**: ظلع البعير كمنع غمز في مشيه، والظالع المائل، والظلاع كغراب داء في قوائم الدابة لا من سير ولا تعب.

الإعراب

قول السيد: **(كثيراً ما ينادي)**، كثيراً منصوب على الظرفية المجازية مفعول لقوله: **(ينادي)** قدم عليه لتضمنه معنى الظرف، أي ينادي حيناً كثيراً أي في كثير من الأوقات، ونحوكم منصوب بنزع الخافض متعلق بقوله: دائبة، وقوله: **(وكأنكم بمخالبها)**، كأن للتشبيه والظرف متعلق بفعل محذوف بقرينة المقام أي كأنكم تبصرون بمخالبها على حد قوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص: ١١]، والجملة خبر كأن، وجملة وقد نشبت في محل النصب حال من مخالبها لكونه مفعولاً بالواسطة، وقوله: **(وقد دهمتكم)** جملة مستأنفة، والفاء في قوله: **(فقطعوا)** فصيحة.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام حسبما أشار إليه السيد كان عليه السلام كثيراً ما يُنادي به أصحابه بعد صلاة العشاء الآخرة كما صرّح به في رواية **(الأمالي)** الآتية إيقاظاً لهم عن نوم الغفلة وإزعاجاً من الاغترار بالدنيا يناديهم بحيث يسمع من في المسجد.

(تجهزوا رحمكم الله) أي خذوا جهاز الموت وهيئوا ما تحتاجون إليه في طيّ منازل الآخرة والوصول إلى حضرة ربّ العزة.

(فقد نُودي فيكم بالرحيل) أي بالارتحال والمسافرة إلى العقبى، والمراد بالمنادى: إما توارد الآلام والأسقام وتراكم الأسباب المعدّة للمزاج وللفساد، أو الملك المأمور من الله تبارك وتعالى بالنداء، يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب أوطرو المشيب والهرم كما قال عليه السلام في الديوان المنسوب إليه:

الشيب عنوان المنية وهو تاريخ الكبر
وبياض شعرك موت شعرك ثم أنت على الأثر
وإذا رأيت الشيب عمّ الرأس فالحذر الحذر

ويحتمل أن يكون المراد بالرحيل الإزعاج من الدنيا والتوجه إلى الآخرة والسفر إلى الله بالرياضيات الكاملة، فالمراد بالنداء حينئذ ما نطق به الكتاب العزيز وجرى على ألسنة الأنبياء والرسل والأئمة من الأوامر الواردة بالزهد كما قال عليه السلام: موتوا قبل أن تموتوا، أو أن المراد به إخبارهم بأنهم يرتحلون ولا يبقون كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، و ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨] ونحو ذلك، وقد مر نظير هذه الفقرة في الخطبة الثالثة والستين وهو قوله: **(ترحلوا فقد جدَّ بكم)**، فليراجع ثمة.

(وأقلوا العرجة على الدنيا) أي الإقامة عليها وحب البقاء فيها، والمراد به الأمر بقصر الأمل وعدم تطويله، لأن دول الأمل ينسي الآخرة.

كما قال عليه السلام في المختار الثاني والأربعين: إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ومضى في شرحه مطالب نافعة وأخبار نفيسة.

وقال عليه السلام في المختار الثامن والعشرين: ألا وأنكم قد أُمرتم بالظعن ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم إتباع الهوى وطول الأمل، ومضى في شرحه أيضاً مطالب وأخبار شريفة وروينا هناك عن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من تعلّق قلبه بالدنيا تعلّق بثلاث خصال: همّ لا يفنى، وأمل لا يُدرك، ورجاء لا يُنال[1].

ومحصل المراد من إقلال الإقامة على الدنيا الزهد فيها والقناعة على القدر الضروري من العيش وارتقاب الموت، ولنعم ما قال عليه السلام في الديوان المنسوب إليه:

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت
ولقد يكفيك منها أيها الطالب قوت ولعمري عن قليل كل من فيها يموت[2]

وقال أيضاً:

ألم تر أن الدهر يوم وليلة يكرّان من سبت جديد إلى سبت

(١) الكافي: ٢/ ٣٢٠ ح ١٧.

(٢) محاسن النفس للكفعمي: ١٤٤، ولم ينسبه.

فقل لجديد الثوب لا بد من بلى — وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت

وقال أيضاً:

بيت ويوم وقوت يوم — يكفي لمن في غدٍ يموت

وربما مات نصف يوم — والنصف من قوته يفوت

وفيه أيضاً:

بيت يواري الفتى وثوب — يستر من عورة وقوت

هذا بلاغ لمن تحسى — وذا كثير لمن يموت

(وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد) أي انصرفوا إلى وطنكم الأصلي الذي منه خرجتم وهو الدار الآخرة والجنة، وذلك باعتبار كونهم ذرّاً في صلب أبيهم آدم منه خرج وإليه عاد أو المراد انصرافهم إلى الحق الأول عزَّ وجل فإنه تعالى منه البداء وإليه الانتهاء، وهو غاية مراد المريدين، ومنتهى سير السائرين، ومرجع الراجعين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤]، وقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وعلى أي تقدير فلا يخفى ما في التعبير بلفظ الانقلاب من حسن التقرير وبديع الصناعة، ومحصل المراد الأمر بتحصيل صالح الزاد ليوم المعاد وأراد به التقوى كما قال عز وعلا: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وعلّل شدة الحاجة إلى أخذ الزاد بقوله: **(فإن أمامكم عقبة كئودا)** أي صعبة شاقة المصاعد.

(ومنازل مخوفة مهولة لا بد من الورود عليها والوقوف عندها) أشار بها إلى شدائد الموت ومشاق البرزخ ومنازل الآخرة ومواقف القيامة وأهاويلها وأخاويفها وأفزاعها ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢].

روى في **(البحار)** من أمالي المفيد عن حفص بن غياث قال: قال أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، فإن في القيامة خمسين موقفاً كل موقف كألف سنة مما تعدّون، ثم تلا هذه الآية: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤][1].

(١) البحار: ٦٧/ ٦٤، ح ٤، و٧٢/ ١٠٧ ح ٧.

ومن (تفسير) علي بن إبراهيم في هذه الآية قال عليه السلام: إن في القيامة خمسين موقفاً لكل موقف ألف سنة[١].

وقال الصدوق في (عقائده): اعتقادنا في العقبات التي على طريق المحشر أن كل عقبة منها اسم فرض وأمر ونهي، فمتى انتهى الإنسان إلى عقبة اسمها فرض وكان قد قصر في ذلك الفرض حُبس عندها وطُولب بحق الله فيها.

فإن خرج منه بعمل صالح قدّمه أو برحمة تداركها نجى منها إلى عقبة أخرى فلا يزال من عقبة إلى عقبة ويُحبس عند كل عقبة فيسأل عما قصر فيه من معنى اسمها، فإن سلم من جميعها انتهى إلى دار البقاء فيحيىٰ حياة لا موت فيها أبداً وسعد سعادة لا شقاوة معها أبداً، وسكن في جوار الله مع أنبيائه وحججه والصّديقين والشهداء والصالحين من عباده.

وإن حُبس على عقبة فطُولب بحق قصّر فيه ولم ينجه عمل صالح قدّمه ولا أدركته من الله عزَّ وجل رحمة زلّت به قدمه عن العقبة فهوى في جهنم، نعوذ بالله منها.

وهذه العقبات كلها على الصراط اسم عقبة منها الولاية يُوقَفُ جميع الخلائق عندها فيسألون عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من بعده فمن أتى بها نجا وجاز ومن لم يأت بها بقي فهوى وذلك قول الله عزَّ وجل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤].

وأهم عقبة منها المرصاد وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، ويقول الله عزَّ وجل: «وعزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم، واسم عقبة منها الرحم، واسم عقبة منها الأمانة، واسم عقبة منها الصلاة وباسم كل فرض وأمر ونهي عقبة ويحبس عندها العبد فيُسأل»[٢].

وقال الشيخ المفيد في (شرحه): العقبات عبارة عن الأعمال الواجبة والمسائلة عنها والمواقفة عليها، وليس المراد بها جبال في الأرض يقطع، وإنما هي الأعمال شبهت بالعقبات، وجعل الوصف لما يلحق الإنسان في تخلصه من تقصيره في طاعة الله تعالى، كالعقبة التي يجهده صعودها وقطعها، قال الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١ـ ١٣]، فسمّى الله سبحانه الأعمال التي كلفها العبد عقبات تشبيهاً بالعقبات والجبال لما يلحق الإنسان في أدائها من المشاق كما يلحقه في صعود العقبات وقطعها[٣].

---

(١) البحار: ١٢٦/٧ ح ٥.
(٢) الاعتقادات: ٧١ ـ ٧٢.
(٣) تصحيح اعتقادات الإمامية: ١١٢.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إن أمامكم عقبة كئوداً ومنازل مهولة لا بد من الممر بها والوقوف عليها، فإما برحمة الله نجوتم وإما بهلكة ليس بعدها انجبار.

أراد عليه السلام بالعقبة تخلص الإنسان من العقبات التي عليه، وليس كما ظنه الحشوية من أن في الآخرة جبالاً وعقبات يحتاج الإنسان إلى قطعها ماشياً وراكباً وذلك لا معنى له فيما توجبه الحكمة من الجزاء، ولا وجه لخلق عقبات تسمى بالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من الفرائض تلزم الإنسان أن يصعدها فإن كان مقصراً في طاعة الله حال ذلك بينه وبين صعودها.

إذ كان الغرض في القيامة الموافقة على الأعمال والجزاء عليها بالثواب والعقاب وذلك غير مفتقر إلى تسميته عقبات وخلق جبال وتكليف قطع ذلك وتصعيبه وتسهيله مع أنه لم يرد خبر صحيح بذلك على التفصيل فيعتمد عليه وتخرج له الوجوه، وإذا لم يثبت بذلك خبر كان الأمر فيه ما ذكرناه، انتهى كلامه رُفع مقامه[١].

واعترض عليه المحدث العلامة المجلسي في (**البحار**) بعد نقله له بقوله: إن تأويل ظواهر الأخبار بمحض الاستبعاد بعيد عن الرشاد، ولله الخيرة في معاقبة العاصين من عباده بأي وجه أراد، وقد مضى الأخبار في ذلك وسيأتي بعضها والله الموفق للخير والسداد، هذا[٢].

ولما حذّر من عقبات الآخرة ومواقفها المهولة المقتضية لأخذ الزاد لها، عقبه بالإشارة إلى قرب الموت المعقب لهذه الأهاويل والعقبات وكونه بالرصد والترقب والاخترام تنبيهاً به على وجوب المبادرة بأخذ الزاد لقرب الحاجة إليه وعلى عدم التواني والتسويف فيه بتوهم بعد زمان الاحتياج، فقال عليه السلام:

(**واعلموا أن ملاحظ المنية نحوكم دائبة**) أي مجدّة، يعني أنها تنظر إليكم باللحظ والشزر أي بمؤخر عينها نظر الغضبان محدّة فيه قصداً لاخترامكم.

(**وكأنكم بمخالبها وقد نشبت فيكم**) شبهها بالسبع الفتاك الضاري على طريق الاستعارة المكنية وأثبت لها المخالب والنشوب تخييلاً وترشيحاً، يريد قرب أخذها لهم وانتشاب مخالبها فيهم، وإلى هذا ينظر قوله عليه السلام في الديوان المنسوب إليه:

يا مؤثر الدنيا على دينه	والتائه الحيران عن قصده
أصبحت ترجو الخلد فيها وقد	أبرز ناب الموت عن حدّه

(١) تصحيح الاعتقادات: ١١٢.

(٢) البحار: ٧/ ١٣٠.

هيهات إن الموت ذو أسهم من يرمه يوماً بها يرده[١]

(وقد دهمتكم منها مفظعات الأمور) أي غشيتكم من المنية الأمور الشنيعة البالغة في الشناعة الغاية.

(ومعضلات المحذور) أي الإفراغ والدواهي الشديدة التي تحذر منها وتحترز، وعلى رواية: مضلعات المحذور فالمراد المحاذير التي توجب انحناء ظهر الإنسان لثقلها وشدتها من سكرة ملهثة وغمرة كارثة وجذبة متعبة وسوقة مكربة ونحوها من أفزاع الموت.

(فقطعوا علائق الدنيا) وأميطوا محبتها عن قلوبكم **(واستظهروا بـ)**ـخير الزاد **(زاد التقوى)** لتقووا به إلى قطع منازل الآخرة والوصول إلى حضرة الرب الأعلى.

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من المستظهرين به، والواصلين إلى مقام القرب والزلفى لديه بمحمد وآله سلام الله عليه وعليهم.

تكملة

روى في **(البحار)** من الأمالي عن أبيه عن سعد عن ابن هاشم عن ابن أبي نجران عن ابن حميد عن محمد بن قيس عن أبي جعفر قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة إذا صلّى العشاء الآخرة ينادي الناس ثلاث مرات حتى يسمع أهل المسجد:

أيها الناس تجهّزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل فما التعرّج على الدنيا بعد النداء فيها بالرحيل، تجهزوا رحمكم الله وانتقلوا بأفضل ما بحضرتكم من الزاد وهو التقوى، واعلموا أن طريقكم إلى المعاد، وممركم على الصراط والهول الأعظم أمامكم على طريقكم عقبة كئودة، ومنازل مهولة مخوفة، لا بد لكم من الممر عليها، والوقوف بها فإما برحمة من الله فنجاة من هولها وعظم خطرها وفظاعة منظرها وشدّة مختبرها، وإما بهلكة ليس بعدها انجبار[٢].

---

(١) جواهر المطالب: ٢/ ١٣٧.

(٢) البحار: ٦٨/ ١٧٢ ح ٤، وأمالي الصدوق: ٥٨٧، ح ٨١٠.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام است كه اكثر اوقات ندا مى كرد به آن اصحاب خود را، مى فرمود:

ضروريات سفر آخرت را مهيا نماييد، خدا رحمت كند به شما، پس به تحقيق ندا كرده شد در ميان شما به كوچ كردن و كم نماييد اقامت در دنيا را و رجوع نماييد به سوى آخرت با بهترين چيزى كه نزد شما است از توشه آخرت، پس به درستى كه پيش شما است عقبه سخت و منزل هاى خوفناك و خطرناك، لابد هستيد از آمدن آن منزل ها و از توقف نمودن در نزد آنها و بدانيد كه نظرهاى تند و غضبناك مرگ به سوى شما متوجه است و گويا مى بيند كه چنگال هاى آن سبع قتال به شما بند شده و به تحقيق كه احاطه كرده شما را از آن مرگ امورات قبيحه بى نهايت و محذورات شديده به غايت شدت. پس ببرّيد علايق دنيا را و طلب اعانت نماييد با توشه تقوى و پرهيزكارى.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والرابع من المختار في باب الخطب

ورواه الشارح المعتزلي في شرح المختار الحادي والتسعين من كتاب **(نقض كتاب العثمانية)** لأبي جعفر الإسكافي باختلاف كثير تعرفه إن شاء الله.

قال السيد: كلّم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه من ترك مشورتهما والاستعانة في الأُمور بهما.

«لَقَدْ نَقَمْتُما يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُما كَثِيراً، أَلا تُخْبِراني أَيُّ شَيْءٍ لَكُما فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُما عَنْهُ، وَأَيُّ قَسْم اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُما بِه، أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ أَمْ أَخْطَأْتُ بابَهُ، وَالله ما كانَتْ لِي في الخلافَةِ رَغْبَةٌ، وَلا في الوِلايَةِ إِرْبَةٌ، وَلٰكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُوني إِلَيْها، وحَمَلْتُمُوني عَلَيْها، فَلَمّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلىٰ كِتابِ الله ومَا وَضَعَ لَنَا وَأَمَرَنا بِالحُكْمِ بِه فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَسَنَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلىٰ رَأْيِكُما، وَلا رَأْيِ غَيْرِكُما، وَلا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَأَسْتَشِيرَكُما وَإِخْوانِي مِنَ المُسْلِمينَ، وَلَوْ كانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُما وَلا عَنْ غَيْرِكُما».

«وأَمَّا ما ذَكَرْتُما مِنْ أَمْرِ الأُسْوَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُم أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلا وَلَّيْتُهُ هَوىً مِنّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وأَنْتُما ما جاءَ بِه رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله قَدْ فَرَغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُما فِيما قَدْ فَرَغَ الله مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضىٰ فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا وَالله عِنْدِي وَلا لِغَيْرِكُما فِي هٰذَا عُتْبىٰ، أَخَذَ الله بِقُلُوبِنا وَقُلُوبِكُمْ إِلىٰ الحَقِّ، وأَلْهَمَنا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ».

«ثُمَّ قَالَ عليه السلام: رَحِمَ الله رَجُلاً رَأىٰ حَقّاً فَأَعانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأىٰ جَوْراً فَرَدَّهُ، وكانَ عَوْناً بِالحَقِّ عَلىٰ صاحِبِهِ»(١).

اللغة

(نقمت) عليه أمره ونقمت منه نقماً من باب ضرب، ونقمت أنقم من باب تعب لغة إذا عبته وكرهته أشدّ الكراهة بسوء فعله، واللغة الأولى هي الفصيحة وبهما قرىء قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٢٦] أي وما تطعن فينا وتقدح، وقيل: ليس لنا عندك ذنب ولا ركبنا مكروهاً و **(أرجأته)** بالهمزة أخرته **(وقسمته)** قسماً من باب ضرب فرزته أجزاء فانقسم، والقسم بالكسر إسم منه، ثم أُطلق على الحصة والنصيب فيقال: هذا قسمي، والجمع أقسام مثل حمل وأحمال.

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١١/ ٨، والبحار: ٣٢/ ٥٠ ح ٣٣.

و (**استأثر**) بالشيء استبدّ به أي انفرد به من غير مشارك له فيه و (**حمله**) على الأمر يحمله فانحمل أغراه به و (**الأسوة**) بالضم والكسر القدوة (**ولا وليته هوى مني**) في أكثر النسخ بتشديد اللام، يقال: وليّته تولية أي جعلته والياً، وفي بعضها بالتخفيف وهو الأظهر من وليه إذا قام به ومنه وليّ الصغير أي القائم بأمره، و (**عتب**) عليه عتباً من باب ضرب وقتل لامه في تسخط، وأعتبني الهمزة للسلب أي أزال الشكوى والعتاب، والعتبى وزان فعلى اسم من الإعتاب.

الإعراب

قوله: (**بعد بيعته بالخلافة**) من إضافة المصدر إلى المفعول، ويسيراً وكثيراً منصوبان على المفعول به، وقوله: (**ألا تخبراني أي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه**)، (**أي**) إسم استفهام مرفوع على الابتداء وجملة (دفعتكما عنه) خبره، وجملة (لكما فيه حق) صفة لشيء، (**ولكما**) ظرف لغو متعلق بحق، (**وفيه**) ظرف مستقر متعلق بمقدر خبر مقدم، (**وحق**) مبتدأ ويحتمل أن يجعل الأول ظرف مستقر والثاني ظرف لغو، وجملة (**أي شيء**) (اه) منصوبة المحل مفعول لتخبراني (اه).

وقوله: (**أم أي قسم**)، في بعض النسخ أو بدل (**أم**) وكذلك في قوله: (**أم جهلته**)، وقوله: (**ولا وليته هوى مني**)، على رواية (**وليّته**) بالتشديد يكون (**هوى**) مفعولاً به أي لم أجعل هواي والياً في هذا الأمر. وعلى رواية التخفيف فهو مفعول له أي ما قمت به لأجل هوى نفسي، وجملة (**قد فرغ منه بالبناء**) على الفاعل حال من رسول الله، وفي بعض النسخ بالبناء على المفعول فتكون حالاً من ما جاء به، (والفاء) في قوله: (**فليس**) فصيحة، وجملة (**رحم الله رجلاً**) (اه)، دعائية لا محل لها من الإعراب.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام حسبما أشار إليه الرضى رضي الله عنه: كلّم به طلحة والزبير بعد بيعتهما له بالخلافة وقد عتبا من ترك مشورتهما والاستعانة في الأمور بهما، ومن ترك تفضيلهما في العطاء على غيرهما.

قال الشارح المعتزلي: أنهما قالا: ما نراه يستشيرنا في أمر ولا يفاوضنا في رأي ويقطع الأمر دوننا، وكانا يرجوان غير ذلك، وأراد طلحة أن يوليه البصرة وأراد الزبير أن يوليه الكوفة[1].

فلما شاهدا صلابته في الدين وقوته في العزم، وهجره الإدهان والمراقبة ورفضه

---

(١) شرح النهج: ١١/١٠.

المدالسة والمواربة، وسلوكه في جميع مسالكه منهج الكتاب والسنّة، وقد كانا يعلمان ذلك قديماً من طبعه وسجيته، وكان عمر قال لهما ولغيرهما: إن الأجلح أي الأنزع إن وليها ليحملنّكم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم، وكان النبي ﷺ قال من قبل: «وإن تولّوها علياً تجدوه هادياً مهدياً»، إلا أنه ليس الخبر كالعيان، ولا القول كالفعل، ولا الوعد كالإنجاز[1].

حالا عنه وتنكرا له ووقعا فيه، وعاباه، تطلّبا له العلل والتأويلات، وتنقما عليه الاستبداد وترك المشاورة، وانتقلا من ذلك إلى الوقيعة فيه بمساواة الناس في قسمة الأموال، وأثنيا على عمر وحمدا سيرته وصوّبا رأيه، وقالا: إنه كان يفضّل أهل السوابق، وضلّلا علياً فيما رآه وقالا: إنه أخطأ، وإنه خالف سيرة عمر، واستنجدا عليه بالرؤساء من المسلمين كان عمر يفضّلهم في القسم على غيرهم.

والناس أبناء الدنيا ويحبون المال حباً جماً، فتنكّرت على أمير المؤمنين بتنكرهما قلوب كثيرة.

وكان عمر منع قريشاً والمهاجرين وذوي السوابق من الخروج من المدينة ونهاهم عن مخالطة الناس، ونهى الناس عن مخالطتهم ورأى أن ذلك أساس الفساد في الأرض، وأن الفتوح والغنائم قد أبطرت المسلمين، ومتى بعد الرؤوس والكبراء منهم عن دار الهجرة وانفردوا بأنفسهم وخالطهم الناس في البلاد البعيدة لم يؤمن أن يحسنوا لهم الوثوب وطلب الإمارة ومفارقة الجماعة وحل نظام الإلفة، ولكنه نقض هذا الرأي السديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من الشورى فإن ذلك كان سبب كل فتنة وقعت وتقع إلى أن تنقضي الدنيا.

قال: وقد قدمنا ذكر ذلك وشرحنا ما أدى إليه أمر الشورى من الفساد بما حصل في نفس كل من الستة من ترشيحه للخلافة إلى أن قال: إن طلحة والزبير لما آيسا من جهة علي عليه السلام ومن حصول الدنيا من قبله قلبا له ظهر المجن، فكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتاباً لاذعاً.

قال: روى أبو عثمان الجاحظ قال:

أرسل طلحة والزبير إلى علي عليه السلام قبل خروجهما إلى مكة محمد بن طلحة وقالا: لا تقل له: يا أمير المؤمنين ولكن قل له: يا أبا الحسن لقد قال «أي أخطأ» فيك رأينا وخاب ظننا أصلحنا لك الأمر ووطدنا لك الإمرة وأجلبنا على عثمان حتى قتل، فلما طلبك الناس

---

(١) الإيضاح: ٢٣٧، ومسند أحمد: ١/١٠٩، ومستدرك الحاكم: ٣/٧٠.

لأمرهم أسرعنا إليك وبايعناك وقدنا إليك أعناق العرب، ووطأ المهاجرون والأنصار أعقابنا في بيعتك حتى إذا ملكت عنانك استبددت برأيك عنا ورفضتنا رفض التريكة وأذللتنا إذالة الإماء وملكت أمرك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب.

فلما جاء محمد بن طلحة أبلغه ذاك فقال: إذهب إليهما فقل لهما: فما الذي يرضيكما؟ فذهب وجاء وقال: إنهما يقولان ولِّ أحدنا البصرة وآخرنا الكوفة.

فقال عليه السلام: لاها الله إذاً يحلم الأديم، ويستشري الفساد، وتنتقض عليّ البلاد من أقطارها، والله إني لا آمنهما وهما عندي بالمدينة فكيف آمنهما وقد ولّيتهما العراقين، إذهب إليهما فقل أيها الشيخان احذرا من الله ونبيه صلى الله عليه وآله على أمته ولا تبغي المسلمين غايلة وكيداً وقد سمعتما قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

فقام محمد بن طلحة فأتاه إليهما ولم يعدا له وتأخرا عنه أياماً ثم جاءاه فاستأذنا في الخروج إلى مكة للعمرة فأذن لهما بعد أن أحلفهما أن لا ينقضا بيعته ولا يغدرا به ولا يشقا عصا المسلمين ولا يوقعا الفرقة بينهم، وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة، فحلفا على ذلك كله ثم خرجا ففعلا ما فعلا.

قال: وروى الطبري في **(التاريخ)** قال: لما بايع الناس علياً وتمّ الأمر له قال طلحة للزبير: ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلا ككشحة أنف الكلب[1].

فقد ظهر لك من ذلك ويظهر أيضاً مما نرويه من الإسكافي أن علة نقم طلحة والزبير منه عليه السلام إنما كانت ترك استشارتهما ومداخلتهما في أمر الخلافة وعدم بذل مأمولهما في تولية العراقين والتسوية بينهما وبين غيرهما في القسم ولما نقما عليه بذلك أجاب لهما بقوله عليه السلام:

(لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً) أي طعنتما وعتبتما عليّ شيئاً يسيراً وهو ترك الاستشارة وأمر التسوية حسبما عرفت مع عدم كونهما مورد طعن وعيب في الحقيقة، وأخرتما شيئاً كثيراً من رعاية حقوقي الواجبة والسعي فيما يعود إلى صلاح حال المسلمين وانتظام أمر الدين واتّساق حبل الألفة والجماعة.

وقال الشارح المعتزلي: أي نقمتما من أحوالي اليسير، وتركتما الكثير الذي ليس لكما ولا لغيركما فيه طعن فلم تذكراه فهلا اغتفرتما اليسير الكثير.

وقال الشارح البحراني: يحتمل أن يريد أن الذي أبدياه ونقماه بعض مما في أنفسهما

---

(١) البحار: ٣٢/ ٢٥ـ ٢٤ ح ٨، وشرح النهج للمعتزلي: ١١/١٦.

وقدر ذلك على ذلك أن في أنفسهما أشياء كثيرة وراء ما ذكراه.

أقول: يعني قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، والأظهر ما قلناه.

ثم استخبر عما نقماه واستفهم عن وجوه النقم المتصورة في المقام استفهاماً إنكارياً إيطالياً تنبيهاً به على بطلان تلك الوجوه جميعاً وعلى كذب مدّعيها فقال:

(ألا تخبراني أي شيء لكما فيه حق) ما ليّ أو غير ما ليّ **(دفعتكما عنه)** وظلمتكما فيه.

وبطلان هذا الوجه مع كونه معصوماً واضح، ويزيده وضوحاً قوله الآتي في الكلام المائتين والعشرين: وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثرى حلولها، وقوله عليه السلام فيه أيضاً: والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته. ومن هذا حاله كيف يتصور في حقه الظلم؟!.

(وأيّ قسم استأثرت عليكما به) أي، أي سهم ونصيب أخذت من بيت المال وتفرّدت به ولم أشارككم.

وبطلانه أيضاً واضح مما مر ويزيده توضيحاً ما مر في الكلام المائة والسادس والعشرين من قوله عليه السلام: لو كان المال لي لسوّيت بينهم فكيف والمال مال الله؟، وما يأتي في باب المختار من كتبه في كتابه إلى عثمان بن حنيف الأنصاري من قوله عليه السلام: وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، ومن هذا شأنه كيف يحيف الغير ويذهب نجقّه وغيره؟!.

وبما ذكرته علم الفرق بين هذا الوجه والوجه الأول، فإن الأول أعم من الحق المالي وغيره، وهذا مخصوص بالمالي، وأيضاً دفع الحق عنهما أعم من أن يصير إليه أو إلى غيره أو لم يصر إلى أحد بل يبقى في بيت المال والاستئثار عليهما به هو أن يأخذ حقهما لنفسه.

(أم أي حق رفعه إليّ أحد من المسلمين ضعفت عنه) وكنت محتاجاً فيه إلى المعاون والمعين.

وبطلان هذا الوجه أيضاً لا ريب فيه لما قد عرف من بأسه وشجاعته وأنه لولا سيفه لما قام للإسلام عمود ولا اخضرّ للدين عود، وقد قال في الكلام السابع والثلاثين: واستبددت برهانها كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزايله العواصف لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقويّ عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه.

وقال في الكلام المائة والسادسة والثلاثين: وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق، وإن كان كارهاً.

(أم جهلته أم أخطأت بابه) وكنت محتاجاً إلى التعليم والتنبيه والفرق بين الجهل والخطأ في الباب الأول أن يكون الله سبحانه قد حكم بحرمة شيء مثلاً فأحلّه الإمام، والثاني أن يصيب في الحكم ويخطىء في طريقه والاستدلال عليه، أو أن الأول أن يجهل الحكم ويتحير فيه ولا يدري كيف يحكم، والثاني أن يحكم بخلاف الواقع.

وعلى أي تقدير فتوهم أحد الأمرين في حقه عليه السلام، مع علمه بما كان وما يكون وما هو كائن وكونه أعلم بطرق السماء من طرق الأرض وكونه باب مدينة العلم والحكمة وكونه أقضى الأمة على ما صدر عن صدر النبوة وعرفته في تضاعيف الشرح غير مرة أوضح البطلان وفساده غني عن البرهان، ولما أشار عليه السلام إلى بطلان وجوه النّقم المتصورة إجمالاً أراد إبطال ما نقما به عليه تصريحاً وهو ترك الاستشارة وأمر الأسوة وأجاب عن النقم بهما تفصيلاً.

وقبل الشروع في الجواب مهّد مقدمة لطيفة دفع بها توهم كون نهوضه بالخلافة من حب الملك والرئاسة ومحبة السلطنة والولاية المقتضية للمماشاة والمشاورة مع الحاشية، والبطانة كما كان في المتخلّفين الثلاثة ورفعا بها متّهما عنه عليه السلام حيث منّا عليه بأنا أصلحنا الأمر ووطدنا لك الإمرة وبايعناك وقدنا إليك أعناق العرب على ما مر في رواية أبي عثمان الجاحظ.

وتلك المقدمة قوله عليه السلام: **(والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة)** وحاجة، أما عدم احتياجه إليها فواضح، وأما عدم رغبته فيها فلكراهته لها طبعاً، وإن كان يحبها شرعاً أو كراهته لها من حيث الملك والسلطنة فلا تنافي رغبته من حيث التمكن من إعلاء لواء الشرع وإقامة المعروف وإزاحة المنكر، أو أن عدم الرغبة حين عدم تحقق الشرائط.

كما يشعر بذلك قوله عليه السلام في الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية: أما والذي فلق الحبة وبرىء النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولألقيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز.

ويشعر به أيضاً قوله عليه السلام في الكلام الحادي والتسعين: دعوني والتمسوا غيري، ومضى هناك أخبار مناسبة للمقام.

(ولكنكم دعوتموني إليها) على رغبة منكم **(وحملتموني عليها)** على كراهة مني كما أوضحه عليه السلام في المختار المائتين والخامسة والعشرين حيث قال هناك: وبسطتم يدي فكففتها

ومددتموها فقبضتها ثم تداككتم عليّ تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعل وسقطت الرداء وطيء الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير.

ولما مهّد المقدمة الشريفة المنبئة عن عدم رغبته في الولاية والخلافة ورفع بها متّهما عليه في المبايعة رتب عليها الجواب عن نقمهما الأول، أعني مسألة المشاورة وقال:

(فلما أفضت) أي وصلت الخلافة **(إليّ نظرت إلى كتاب الله)** عز وجل **(و)** إلى **(ما وضع لنا)** أي ما وظفه لنا وألزمه علينا معاشر الأئمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحكم بين الناس بالعدل حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

روى في **(البحار)** عن العياشي عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في قراءة علي عليه السلام: «كنتم خير أئمة أخرجت للناس» قال: هم آل محمد صلى الله عليه وآله[(١)].

وعن العياشي عن أبي بصير عنه عليه السلام، قال: إنما أنزلت هذه الآية على محمد صلى الله عليه وآله فيه وفي الأوصياء خاصة فقال: «أنتم خير أئمة (أمة خ) أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» هكذا والله نزل بها جبرئيل وما عنى بها إلا محمداً وأوصياءه صلوات الله عليهم[(٢)].

وقال تعالى أيضاً: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨] فإن هذه الآية أيضاً خطاب لخصوص ولاة الأمر، وعلى كونها خطاباً للعموم فيدخل فيه ولاة الأمر، وعلى أي تقدير فقد بيّن الله وظيفتهم فيها.

قال في **(مجمع البيان)**: قيل في معنى هذه الآية أقوال:

أحدها: أنها في كل من اؤتمن أمانة من الأمانات وأمانات الله أوامره ونواهيه وأمانات عباده فيما يأتمن بعضهم بعضاً من المال وغيره، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

وثانيها: أن المراد به ولاة الأمر، أمرهم الله أن يقوموا برعاية الرعية وحملهم على

---

(١) راجع تفسير الأصفى: ١/ ٧٠.

(٢) تفسير العياشي: ١/ ١٩٥ ح ١٢٨.

موجب الدين والشريعة. ورواه أصحابنا عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام قالا: أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلّم الأمر إلى من بعده، ويعضده أنه أمر الرعية بعد هذا بطاعة ولاة الأمر.

وروى عنهم عليهم السلام أنهم قالوا: آيتان إحداهما لنا والأخرى لكم، قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ الآية، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] الآية.

وهذا القول داخل في القول الأول لأنه من جملة ما ائتمن الله عليه الأئمة الصادقين عليهم السلام ولذلك قال أبو جعفر عليه السلام: إن الصلاة والزكاة والصوم والحج من الأمانة ويكون من جملتها الأمر لولاة الأمر بقسم الصدقات والغنائم وغير ذلك مما يتعلق به حق الرعية، وقد عظم الله أمر الأمانة بقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩ ـ ٥٠][1].

فإن هذه الآيات كما ترى صريحة في وجوب الأخذ بحكم الكتاب، والآية الأخيرة، وإن كانت خاصة بالنبي إلا أنها تعمّ الأئمة القائمين مقامه صلى الله عليه وآله بل تعمّ سائر أحكام الشرع بمقتضى أدلة الشركة في التكاليف.

وغير خفي على الفطن العارف حسن انطباق مفاد الآية الأخيرة بالمقام، فإن الله سبحانه أمر نبيه فيها في الحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله ونهاه عن اتباع هواهم وحذّره من تفتينهم وأشار إلى توليهم عن حكم الله، وإلى ابتغائهم حكم الجاهلية، وكذلك كان حال أمير المؤمنين عليه السلام مع طلحة والزبير اللذين هما تاليا أهل الكتاب فقد كان مراده أن يحكم بحكم الله وبالأخذ بسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وكان مرادهما أن يداخلهما في الأمر ويشاورهما ويتابع هواهما ويسير فيهما وفي غيرهما بسيرة عمر، وكان غرضهما تفتينه وتغييره حكم الله إلى حكم الجاهلية، إذ حكم الجاهلية لم يكن منحصراً في أحكام أيام الفترة بل كل حكم خالف الكتاب والسنّة.

كما روي في (**الكافي**) عن الصادق عن أمير المؤمنين عليهما السلام الحكم حكمان: حكم الله

---

(١) مجمع البيان: ٣/ ١١٣.

وحكم الجاهلية فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية(١).

وقال الطبرسي في قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، قيل: المراد به كل من طلب غير حكم الله فإنه يخرج منه إلى حكم الجاهلية وكفى بذلك أن يحكم بما يوجبه الجهل دون ما يوجبه العلم.

فقد علم بذلك أن تكليف الأئمة عليهم السلام إتباع أمر الله والأخذ بحكم الله لا الحكم بالرأي والأهواء كما في أئمة الجور.

روى في **(البحار)** من تفسير علي بن إبراهيم عن حميد بن زياد عن محمد بن الحسين عن محمد بن يحيى عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: الأئمة في كتاب الله إمامان، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤] لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلافاً لما في كتاب الله(٢).

وكيف كان فمحصل مفاد قوله عليه السلام: إني نظرت إلى كتاب الله جل شأنه وإلى ما عين لنا فيه من التكاليف والأحكام فاتبعته.

(و) نظرت إلى **(ما استسن النبي** صلى الله عليه وآله**)** وشرعه **(فاقتديته)** وتابعته **(فلم)** يبق الكتاب والسنة شيئاً من الأحكام الشرعية **(احتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما)** من الآراء الباطلة والاستحسانات الفاسدة.

(ولا وقع حكم جهلته) وهذا أحد الوجوه المتقدمة التي أنكرها سابقاً على سبيل الاستفهام ونفاه هنا صريحاً أي لم يقع حكم شرعي لا أعلم به فأحتاج إلى التعلّم والمشاورة **(فأستشيركما وإخواني من المسلمين)** فيه وأتعلّمه منكم **(ولو كان ذلك)** أي لو وقع حكم كذلك **(لم أرغب عنكما ولا عن غيركما)**.

ولما أجاب عن نقمهما الأول شرع في الجواب عن نقمهما الثاني فقال:

(وأما ما ذكرتما من أمر الإسوة) أي القدوة واقتدائكما بغيركما في النصيب والقسمة **(فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي)** ومن تلقاء نفسي **(ولا وليته هوى مني)** أي ما جعلت هواي والياً أو ما باشرته بهواي **(بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله** صلى الله عليه وآله**)** من القسم بالسوية

(١) الكافي للحلبي: ٤٢٥، والكافي للكليني: ٧/٤٠٧.
(٢) البحار: ٢٤/١٥٦ ح ١٣.

والعدل في الرعية والحال أنه **(قد فرغ منه)** وأكمل ولم يبق مجال للكلام **(فلم أحتج إليكما)** ولا إلى غيركما **(فيما قد فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه)** نسبة الفراغ أولاً إلى الرسول صلى الله عليه وآله وثانياً إلى الله تنبيهاً على اتحاد حكمهما لعدم كونه ناطقاً عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، والمراد أنه لا حاجة لي إلى الغير في مال قد فرغ الله من تقسيمه وحكم فيه بالحكم النافذ الإلزامي بأن يقسم بالسوية لا بالتفاوت.

(فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا) القسم بالسوية **(عتبى)** أي ليس لكما ولا لغيركما عليّ أن أرضيكم وأزيل شكواكم عني.

ثم دعا لنفسه ولهما بقوله: **(أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق)** أي صرفها إليه **(وألهمنا وإياكم الصبر)** أي ألهمني الصبر على مشاق الخلافة ومقاساة المكاره والمساوىء من الرعية وألهمكم الصبر على ما تكرهه نفوسكم الأمارة من القسم بالسوية ونحوه مما مر.

(ثم قال عليه السلام: رحم الله رجلاً رأى حقاً) وعدلاً **(فأعان عليه)** وعلى العمل به **(أو رأى جوراً)** وظلماً **(فردّه)** ودفعه **(وكان عوناً بالحق على صاحبه)** أي على صاحب الجور.

والمراد به الجذب إلى طاعته وإعانته والصرف عن مخالفته وإعانة ظالميه، لأنه عليه الصلاة والسلام مع الحق والحق معه عليه السلام والصلاة يدور معه حيثما دار هو عليه التحية والثناء، فالمعين له عليه الصلاة والسلام معين للحق، والمعاند له عليه السلام معاند للحق ومعين للجور والباطل.

تكملة وتبصرة

روى في **(البحار)** من الأمالي الشيخ عن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت عن أحمد بن عقدة قال: حدثنا الحسن بن صالح من كتابه في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأحمد بن يحيى عن محمد بن عمرو عن عبد الكريم عن القاسم بن أحمد عن أبي الصلت الهروي وقال ابن عقدة وحدثناه القاسم بن الحسن الحسيني عن أبي الصلت عن علي بن عبد الله بن النعجة عن أبي سهيل بن مالك عن مالك بن أوس بن الحدثان قال:

لما ولّي علي بن أبي طالب أسرع الناس إلى بيعة المهاجرين والأنصار وجماعة الناس لم يتخلف عنه من أهل الفضل إلا نفر يسير خذلوا وبايع الناس، وكان عثمان قد عود قريشاً والصحابة كلهم؛ وصبت عليهم الدنيا صباً، وآثر بعضهم على بعض، وخص أهل بيته من بني أمية وجعل لهم البلاد وخوّلهم العباد فأظهروا في الأرض الفساد، وحمل أهل الجاهلية والمؤلفة قلوبهم على رقاب الناس حتى غلبوه على أمره، فأنكر الناس ما رأوا من ذلك فعاتبوه فلم يعتبهم، وراجعوه فلم يسمع منهم، وحملهم على رقاب الناس حتى انتهى إلى أن

ضرب بعضاً ونفى بعضاً وحرّم بعضاً.

فرأى أصحاب رسول الله ﷺ أن يدفعوه وقالوا: إنما بايعناه على كتاب الله وسنّة نبيه والعمل بهما، فحيث لم يفعل ذلك لم تكن له عليهم طاعة، فافترق الناس في أمره على خاذل وقاتل.

فأما من قاتل فرأى أنه حيث خالف الكتاب والسنّة واستأثر بالفيء واستعمل من لا يستأهل رأوا أن جهاده جهاد.

وأما من خذله فإنه رأى أنه يستحق الخذلان ولم يستوجب النصرة بترك أمر الله حتى قتل.

واجتمعوا على علي بن أبي طالب عليه السلام فبايعوه فقام وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلّى على النبي ﷺ وآله ثم قال:

أما بعد، فإني كنت كارهاً لهذه الولاية يعلم الله في سماواته وفوق عرشه على أمة محمد ﷺ حتى اجتمعتم على ذلك فدخلت فيه، وذلك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيّما والٍ ولي أمر أمتي من بعدي أُقيم يوم القيامة على الصراط ونشرت الملائكة صحيفته، فإن نجى فبعدله، وإن جار انتفض به الصراط انتفاضة تزيل ما بين مفاصله حتى يكون بين كل عضو وعضو من أعضائه مسيرة مائة عام يحرق به الصراط، فأول ما يلقى به النار أنفه وحرّ وجهه» ولكني لما اجتمعتم عليّ نظرت فلم يسعني ردّكم حيث اجتمعتم أقول ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم.

فقام إليه الناس فبايعوه فأول من قام فبايعه طلحة والزبير، ثم قام المهاجرون والأنصار وسائر الناس حتى بايعه الناس وكان الذي يأخذ عليهم البيعة عمار بن ياسر وأبو الهيثم بن التيهان وهما يقولان: نبايعكم على طاعة الله وسنّة رسوله وإن لم نف لكم فلا طاعة لنا عليكم ولا بيعة في أعناقكم والقرآن أمامنا وأمامكم.

ثم التفتّ علي عليه السلام عن يمينه وعن شماله وهو على المنبر وهو يقول:

ألا لا يقولن رجال منكم غداً: قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الردقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً إن لم يغفر لهم الغفار إذا منعوا ما كانوا فيه، وصيروا إلى حقوقهم التي يعلمون يقولون: حرمنا علي بن أبي طالب وظلمنا حقوقنا ونستعين بالله ونستغفره، وأما من كان له فضل وسابقة منكم فإنما أجره فيه على الله، فمن استجاب لله ولرسوله ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده فأنتم أيها الناس عباد الله المسلمون والمال مال

الله يقسم بينكم بالسوية وليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى، وللمتقين عند الله خير الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين جزاء وما عند الله خير للأبرار، إذا كان غداً فاغدوا فإن عندنا مالاً اجتمع فلا يتخلّفن أحد كان في عطاء أو لم يكن إذا كان مسلماً حراً، احضروا رحمكم الله.

فاجتمعوا من الغد ولم يتخلّف عنه أحد، فقسم بينهم ثلاثة دنانير لكل إنسان، الشريف والوضيع والأحمر والأسود ولم يفضل أحداً، ولم يتخلّف عنه أحد إلا هؤلاء الرهط طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم وناس معهم، فسمع عبيد الله بن أبي رافع وهو كاتب علي بن أبي طالب عليه السلام عبد الله بن الزبير وهو يقول للزبير وطلحة وسعيد بن العاص: لقد التفت إلى زيد بن ثابت فقلت له: إياك أعني واسمعي يا جارة، فقال عبيد الله: يا سعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير إن الله يقول في كتابه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، قال عبيد الله: فأخبرت علياً عليه السلام فقال عليه السلام: لأن سلمت لهم لأحلمنهم على الطريق، قاتل الله ابن العاص لقد علم في كلامي أني أريده وأصحابه بكلامي والله المستعان.

قال مالك بن الأوس: وكان علي بن أبي طالب أكثر ما يسكن القناة، فبينا نحن في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة فجلسا ناحية عن علي، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير والمسور بن مخرمة، فجلسوا وكان علي عليه السلام جعل عمار بن ياسر على الخيل، فقال لأبي الهيثم بن التيهان والخالد بن زيد أبي أيوب ولأبي حية ولرفاعة بن رافع في رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: قوموا إلى هؤلاء القوم فإنه بلغنا عنكم ما نكره من خلاف أمير المؤمنين إمامهم والطعن عليه وقد دخل معهم قوم من أهل الجفاء والعداوة فإنهم سيحملونهم على ما ليس من رأيهم فقال: فقاموا وقمنا معهم حتى جلسوا إليهم.

فتكلم أبو الهيثم بن التيهان فقال: إن لكم لقدماً في الإسلام وسابقة وقرابة من أمير المؤمنين عليه السلام وقد بلغنا عنكم طعن وسخط لأمير المؤمنين فإن يكن أمر لكما خاصة فكاتبا ابن عمتكما وإمامكما، وإن كان نصيحة للمسلمين فلا تؤخراه عنه ونحن عون لكما فقد علمتما أن بني أمية لن تنصحكما وقد عرفتما.

وقال أحمد: عرفتم عداوتهم لكما وقد شركتما في دم عثمان ومالئتما.

فسكت الزبير وتكلم طلحة فقال:

افرغوا جميعاً مما تقولون، فإني قد عرفت أن في كل واحد منكم خطبة.

فتكلم عمار بن ياسر رحمه الله فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وقال:

أنتما صاحبا رسول الله ﷺ وقد أعطيتما إمامكم الطاعة والمناصحة والميثاق على العمل بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وأن يجعل كتاب الله إماماً.

قال أحمد: وجعل كتاب الله إماماً ففيم السخط والغضب على علي بن أبي طالب، فغضب الرجال للحق أنصرا نصركما الله.

فتكلم عبد الله بن الزبير، فقال: لقد تهددت يا أبا اليقظان.

فقال عمار: ما لك تتعلق في مثل هذا يا أعبس؟، ثم أمر به فأُخرج.

فقام الزبير فقال: أعجلت يا أبا اليقظان على ابن أخيك رحمك الله.

فقال عمار: يا أبا عبد الله أنشدك الله أن تسمع قول من رأيت فإنكم معشر المهاجرين لم يهلك من هلك منكم حتى استدخل في أمره المؤلفة قلوبهم.

فقال الزبير: معاذ الله أن نسمع منهم.

فقال عمار: والله يا أبا عبد الله لو لم يبق أحد إلا خالف علي بن أبي طالب لما خالفته ولا زالت يدي مع يده، وذلك لأن علياً لم يزل مع الحق منذ بعث الله نبيه ﷺ فإني أشهد أنه لا ينبغي لأحد أن يفضل عليه أحداً.

فاجتمع عمار بن ياسر وأبو الهيثم ورفاعة وأبو أيوب وسهل بن حنيف فتشاوروا أن يركبوا إلى علي عليه السلام بالقناة فتخبروه بخبر القوم، فركبوا إليه فأخبروه باجتماع القوم وما هم فيه من إظهار الشكوى والتعظيم لقتل عثمان، وقال له أبو الهيثم: يا أمير المؤمنين انظر في هذا الأمر.

فركب بغلة رسول الله ﷺ ودخل المدينة وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه واجتمع أهل الخير والفضل من الصحابة والمهاجرين فقالوا لعلي: إنهم قد كرهوا الإسوة وطلبوا الأثرة وسخطوا لذلك، فقال علي عليه السلام: ليس لأحد فضل في هذا المال، وهذا كتاب الله بيننا وبينكم ونبيكم محمد ﷺ وسيرته.

ثم صاح بأعلى صوته: يا معشر الأنصار أتمنون عليّ بإسلامكم أنا أبو الحسن القرم؟.

ونزل عن المنبر وجلس ناحية المسجد وبعث إلى طلحة والزبير فدعاهما ثم قال لهما عليه السلام: ألم تأتياني وتبايعاني طائعين غير مكرهين فما أنكرتم أجور في حكم أو استئثار في فيء؟

قالا: لا.

قال: أو في أمر دعوتماني إليه في أمر المسلمين فقصرت عنه؟

قالا: معاذ الله.

قال: فما الذي كرهتما في أمري حتى رأيتما خلافي؟

قالا: خلافك لعمر بن الخطاب في القسم وانتقاصنا حقنا من الفيء، جعلت حظنا في الإسلام كحظ غيرنا مما أفاء الله علينا بسيوفنا ممن هو لنا فيء، فسويت بيننا وبينهم.

فقال علي عليه السلام: الله أكبر، اللهم إني أشهدك وأشهد من حضر عليهما أما ما ذكرتما من الاستئثار فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة ولا لي فيها محبة، ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها فكرهت خلافكم، فلما أفضت إليّ نظرت إلى كتاب الله وما وضع وأمر فيه بالحكم وقسّم وسنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فأمضيته ولم أحتج فيه إلى رأيكما ودخولكما معي ولا غيركما ولم يقع أمر جهلته فأتقوى فيه برأيكما ومشورتكما، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما إذا لم يكن في كتاب الله ولا في سنّة نبينا، فأما ما كان فلا يحتاج فيه إلى أحد.

وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه ووجدت أنا وأنتما ما قد جاء به محمد صلى الله عليه وآله من كتاب الله فلم أحتج فيه إليكما قد فرغ من قسمه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأما قولكما: جعلته فيه كمن ضربناه بأسيافنا وأفاء الله علينا وقد سبق رجال رجالاً فلم يضرّهم ولم يستأثر عليهم من سبقهم ولم يضرّهم حتى استجابوا لربهم، والله ما لكم ولا لغيركم إلا ذلك ألهمنا الله وإياكم الصبر عليه.

فذهب عبد الله بن الزبير يتكلم فأمر به فوجئت عنقه وأُخرج من المسجد وهو يصيح ويقول: ردوا إليه بيعته.

فقال علي عليه السلام: لست مخرجكما من أمر دخلتما فيه ولا مدخلكما في أمر خرجتما منه.

فقاما عنه فقالا: أما أنه ليس عندنا أمر إلا الوفاء، قال:

فقال عليه السلام: رحم الله عبداً رأى حقاً فأعان عليه أو رأى جوراً فردّه وكان عوناً للحق على من خالفه[1].

---

(١) بطوله في أمالي الطوسي: ٧٢٨ ح ١٥٣٠، والبحار: ٣٢/ ٢٥ـ ٣٠ ح ٩ عن ابن عقدة.

وروى الشارح المعتزلي في شرح الخطبة الحادي والتسعين عن أبي جعفر الإسكافي من كتابه الذي نقض به كتاب **(العثمانية)** للجاحظ قال:

قال أبو جعفر: لما اجتمعت الصحابة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتل عثمان للنظر في أمر الإمامة أشار أبو الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر بعلي عليه السلام وذكروا فضله وسابقته وجهاده وقرابته، فأجابهم الناس إليه فقام كل واحد منهم خطيباً بذكر فضل علي عليه السلام، فمنهم من فضّله على أهل عصره خاصة، ومنهم من فضّله على المسلمين كلهم كافة، ثم بويع فصعد المنبر في اليوم الثاني من يوم البيعة وهو يوم السبت لإحدى عشر ليلة بقين من ذي الحجة، فحمد الله وأثنى عليه وذكر محمداً ﷺ فصلى عليه، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا فزهّدهم فيها وذكر الآخرة فرغّبهم إليها ثم قال عليه السلام:

أما بعد، فإنه لما قبض رسول الله ﷺ استخلف الناس أبو بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فعمل بطريقه ثم جعلها شورى بين ستّة فأفضى الأمر منهم إلى عثمان فعمل ما أنكرتم وعرفتم ثم حصر وقتل، ثم جئتموني فطلبتم إليّ وإنما أنا رجل منكم لي ما لكم وعليّ ما عليكم، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ولا يحمل هذا الأمر إلا أهل الصبر والنصر والعلم بمواقع الأمر، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أُمرت به، إن استقمتم لي وبالله المستعان ألا إن موضعي من رسول الله ﷺ بعد وفاته كموضعي منه أيام حياته، فامضوا لما تؤمرون وقفوا عما تنهون عنه، ولا تعجلوا في أمر حتى نبينه لكم، فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذراً، ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارهاً للولاية على أمة محمد ﷺ حتى اجتمع رأيكم على ذلك لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيّما وال وليّ الأمر من بعدي أُقيم على حد الصراط ونشرت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله وإن كان جائراً انتقض به الصراط حتى تتزايل مفاصله ثم يهوي إلى النار، فيكون أول ما يتّقيها به أنفه وحرّ وجهه، ولكني لما اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم.

ثم التفت يميناً وشمالاً فقال:

ألا لا يقولن رجال منكم غداً: قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصايف الرّدقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا، ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته فإن له الفضل النير غداً عند

الله وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدّق ملتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسّم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد وللمتقين غداً عند الله أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم ولا يتخلّفن أحد منكم عربي ولا عجمي كان من أهل العطاء أو لم يكن إذا كان مسلماً حراً، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ثم نزل.

قال أبو جعفر: وكان هذا أول ما أنكروه من كلامه عليه السلام وأورثهم الضغن عليه وكرهوا إعطاءه وقسمه بالسوية.

فلما كان من الغد غدا وغدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: إبدأ بالمهاجرين فنادهم وأعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فافعل به مثل ذلك.

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين هذا غلامي وقد أعتقته اليوم.

فقال عليه السلام: نعطيه كما نعطيك، فأعطى كل واحد منهم ثلاثة دنانير، ولم يفضل أحداً على أحد، وتخلّف عن هذا القسم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ورجال من قريش وغيرها.

قال: وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبد الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد: ما خفي علينا أمس من كلام علي عليه السلام ما يريد، فقال سعيد بن العاص والتفت إلى زيد بن ثابت: إياك أعني واسمعي يا جارة.

فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله بن الزبير: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

ثم إن عبيد الله بن أبي رافع أخبر علياً عليه السلام بذلك فقال عليه السلام: إن بقيت وسلمت لهم لأُقيمنهم على المحجة البيضاء والطريق الواضح، قاتل الله بني العاص، لقد عرف من كلامي ونظري إليه أمس أني أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هلك.

قال: فبينا الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة فجلسا ناحية عن علي عليه السلام ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير فجلسوا إليهما، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم فتحدثوا نجياً ساعة.

ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فجاء إلى علي عليه السلام فقال: يا أبا الحسن قد وترتنا جميعاً أما أنا فقتلت أبي يوم بدر صبراً وخذلت أخي يوم الدار بالأمس، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب وكان ثور قريش، وأما مروان فسخفت أباه عند عثمان إذ ضمه إليه ونحن أخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال في أيام عثمان، وأن تقتل قتلته وإنا إن خفناك تركنا والتحقنا بالشام.

فقال عليه السلام: أما ما ذكرتم من وتري إياكم فالحق وتركم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلتهم أمس ولكن لكم عليّ إن خفتموني أن أؤمنكم وإن خفتكم أن أسيركم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحدثهم وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف.

فلما ظهر ذلك من أمرهم قال عمار بن ياسر لأصحابه: قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من خلاف وطعن على إمامهم وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق، يعني طلحة.

فقام أبو الهيثم وعمّار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم على عليّ، فقالوا: يا أمير المؤمنين انظر في أمرك وعاتب قومك هذا الحي من قريش، فإنهم قد نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك وقد دعونا في السر إلى رفضك هداك الله لرشدك، وذاك لأنهم كرهوا الأسوة وفقدوا الأثرة ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستأثروا عدوّك وأعظموه وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة وتألفاً لأهل الضلالة فرأيك.

فخرج علي عليه السلام فدخل المسجد وصعد المنبر مرتدياً بطاق مؤتزراً ببرد قطري متقلّداً سيفاً متوكئاً على قوس فقال:

أما بعد، فإنا نحمد الله ربنا وإلٰهنا ووليّنا ووليّ النعم علينا الذي أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة امتناناً منه بغير حول منا ولا قوة ليبلونا أنشكر أم نكفر؟ فمن شكر زاده ومن كفر عذّبه، فأفضل الناس عند الله منزلة وأقربهم من الله وسيلة أطوعهم لأمره وأحملهم «أعملهم خ» بطاعته وأتبعهم لسنّة رسوله وأحياهم لكتابه، ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول، هذا كتاب بين أظهرنا وعهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرته فينا لا يجهل ذلك إلا جاهل عاند عن الحق منكر، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم صاح بأعلى صوته: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين، ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم بل الله

يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين، ثم قال: أنا أبو الحسن ـ وكان يقولها إذا غضب ـ.

ثم قال: ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتهم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم وترضيكم ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له، فلا تغرنكم فقد حذرتموها واستتموا نِعَم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله والذلّ لحكمه جل ثناؤه، فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه إثرة، فقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وإليه أسلمنا وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض فليتولّ كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه.

ثم نزل عن المنبر فصلى ركعتين ثم بعث بعمّار بن ياسر وعبد الله بن خلّ القرشي إلى طلحة والزبير وهما في ناحية المسجد، فأتياهما فدعوهما فقاما حتى جلسا إليه فقال لهما:

نشدتكما الله هل جئتما طائعين للبيعة ودعوتماني إليها وأنا كاره لها؟

قالا: نعم.

فقال: غير مجبرين ولا مقسورين فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما.

قالا: نعم.

قال: فما دعاكما إلى ما أرى؟

قالا: أعطيناك بيعتنا على أن لا تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبدّ بذلك علينا ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت، فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

فقال عليه السلام: لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً، فاستغفرا الله يغفر لكما ألا تخبراني: أدفعتكما عن حق وجب لكما فظلمتكما إياه؟

قالا: معاذ الله.

قال: فهل استأثرت من هذا المال لنفسي بشيء؟

قالا: معاذ الله.

قال: فوقع حكم أو حق لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟

قالا: معاذ الله.

قال: فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟

قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القسم إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا وسوّيت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاءه الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا وظهرت عليه دعوتنا وأخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً.

فقال: أما ما ذكرتماه من أمر الاستشارة فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها وجعلتموني عليها فخفت أن أردكم فتختلف الأمة فلما أفضت إليّ نظرت في كتاب الله وسنّة رسوله، فأمضيت ما ولاّني عليه واتبعته ولم أحتج إلى رأيكما فيه ولا رأي غيركما، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنّة برهانه واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه.

وأما القسم والأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادىء بدء، قد وجدت أنا وأنتما رسول الله ﷺ يحكم بذلك وكتاب الله ناطق به وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأما قولكما: جعلت فيئنا وما أفاءه سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا فقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلا فضّلهم رسول الله ﷺ في القسم ولا آثرهم بالسبق والله سبحانه موفّ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر - ثم قال - رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ورأى جوراً فردّه وكان عوناً للحق على من خالفه.

قال أبو جعفر: وقد روي أنهما قالا له عليه السلام وقت البيعة: نبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر.

فقال عليه السلام: ولكنكما شريكاي في الفيء لا أستأثر عليكما ولا على عبد حبشي مجدّع بدرهم فما دونه، لا أنا ولا ولداي هذان، فإن أبيتم إلا لفظ الشركة فأنتما عونان لي عند العجز والفاقة لا عند القوة والاستقامة.

قال أبو جعفر: فاشترطا ما لا يجوز في عقد الإمامة وشرط عليه السلام لهما ما يجب في الدين والشريعة.

قال الشارح المعتزلي بعد نقله هذا الكلام من الإسكافي:

فإن قلت: فإن أبا بكر قسّم بالسوية كما قسمه أمير المؤمنين ولم ينكروا ذلك كما أنكروه أيام أمير المؤمنين فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إن أبا بكر قسّم محتذياً لقسم رسول الله ﷺ، فلما وليّ عمر الخلافة وفضّل

قوماً على قوم ألفوا ذلك ونسوا تلك القسمة الأولى وطالت أيام عمر وأشربت قلوبهم كثرة العطاء وحب المال، وأما الذين اهتضموا فقنعوا ومرّنوا على القناعة ولم يخطر لأحد من الفريقين أن هذه الحال تنتقض أو تتغير بوجه ما.

فلما وليّ عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلك ومن ألف أمراً شقّ عليه فراقه وترك العادة فيه.

فلما وليّ أمير المؤمنين أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله ﷺ وأبي بكر وقد نسي ذلك ورفض وتخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة فشق ذلك عليهم وأكبروه حتى حدث ما حدث من نقض البيعة ومفارقة الطاعة، ولله أمر هو بالغه[1].

الترجمة

از جمله كلام نصيحت انجام آن امام است كه خطاب فرموده طلحه و زبير را بعد از آنكه بيعت كردند با او به خلافت او و عتاب كردند مر او را به جهت ترك نمودن آن بزرگوار مشاوره ايشان را و نخواستن اعانت از ايشان را در امور خلافت، مى فرمايد:

به تحقيق ايراد نموديد چيز مختصرى را و تأخير انداختيد چيز زياد را، چرا خبر نمى دهيد به من كدام چيزى كه شما را در آن حق بوده است من مانع از حق شما شده ام؟ و كدام سهم و حصّه از بيت المال من علاوه از شما برداشته و به شما نداده ام؟ يا كدام حقى كه يك نفر مسلمان نزد من آورده از اجراء آن ضعيف بوده ام؟ يا به حكم آن جاهل شده يا در دليل آن خطا نموده ام؟

قسم به خداى تعالى نبود مرا در خلافت هيچ رغبتى و نه در ولايت هيچ حاجتى وليكن شما خوانديد مرا به سوى آن و الزام نموديد مرا بر آن، پس هنگامى كه رسيد به من، نظر نمودم در كتاب عزيز خداوند و به چيزى كه واجب فرموده به ما و امر نموده ما را به حكم كردن آن، پس تبعيت نمودم به آن و نظر نمودم به

(١) بطوله في البحار: ٣١/ ٤٥ـ ٤٩، وشرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٧/ ٤٣.

چیزی که پیغمبر خدا (ﷺ) سنت خود قرار داده، پس متابعت کردم آن را، پس محتاج نبودم در این خصوص به رأی و تدبیر شما و نه به رأی و تدبیر غیر شما و اتفاق نیفتاده حکمی که جاهل باشم به آن تا مشاوره نمایم با شما یا با سایر برادران خود از مسلمانان و اگر همچنین حکمی اتفاق می افتاد اعراض نمی کردم از شما و نه از غیر شما.

و اما آن چیزی که اظهار نمودید آن را از امر اسوه، یعنی برابری شما با سایرین در قسمت، پس به درستی که این چیزی است که من خودسر با رأی خود در آن حکم ننموده و با هوای نفس خود مباشر آن نبوده ام، بلکه یافتم من و شما چیزی را که آورد آن را حضرت رسالت مآب (ﷺ) از قسمت بالسّویّه، در حالتی که فارغ شده بود از آن، پس احتیاج نداشتم من به شما در چیزی که خدا از قسمت آن فارغ بوده و امضای حکم خود را در آن فرموده، پس نیست شما را به حق خدا در نزد من و نه غیر شما را اینکه ترضیه خواطر و ازاله شکایت شما را نمایم؛ برگرداند خداوند قلب های ما و قلب های شما را به سوی حق و الهام فرماید به ما و شما صبر را.

پس از آن فرمود: رحمت کند خدا مردی را که بیند حق را، پس اعانت نماید به آن یا بیند ظلم و ستم را، پس رفع نماید آن را و باشد معین به حق بر ضرر صاحب جور و ظلم.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والخامس من المختار في باب الخطب

ورواه الشارح المعتزلي من كتاب نصر بن مزاحم في شرح المختار السادس والأربعين باختلاف تطلع عليه إن شاء الله.

وقد سمع قوْماً من أصْحابه يسبّون أهل الشّام أيّام حربهم بصفّين.

«إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَن تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلٰكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حالَهُمْ، كانَ أَصْوَبَ فِي القَوْلِ، وأَبْلَغَ فِي العُذْرِ، وقُلْتُمْ مَكانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقُنْ دِمَاءَنا ودِماءَهُمْ، وأَصْلِحِ ذاتَ بَيْنِنا وبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلالَتِهِمْ حَتّىٰ يَعْرِفَ الحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، ويَرْعَوِي عَنِ الغَيِّ والعُدْوانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ»[1].

اللغة

(السب) الشتم كالسّباب بكسر السين وتخفيف الباء من سبّه يسبّه من باب نصر، ورجل مسبّ بكسر الميم وسبّ وسبّاب كثير السبّ، والتساب التشاتم ورجل سبّة بالضم أي يكسر الناس سبّه وسببة كهمزة أي كثير السّب للناس والسبّابة الأصبع التي تلي الإبهام لأنها يشار بها عند السبّ.

و **(حقنت)** الماء في السقاء حقناً من باب نصر جمعته فيه **(وحقنت دمه)** خلاف هدرته أي منعته أن يسفك.

و **(البين)** بالفتح من الأضداد يطلق على الفرقة والوصل، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، أي وصلكم، ويكون اسماً وظرفاً متمكناً. قال الفيومي: البين يطلق على الوصل وعلى الفرقة ومنه ذات البين للعداوة والبغضاء، وقولهم: لإصلاح ذات البين أي لإصلاح الفساد بين القوم، والمراد إسكان النائرة وبين ظرف مبهم لا يتبين معناه إلا بالإضافة إلى اثنين فصاعداً أو ما يقوم مقام ذلك كقوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨].

و **(ارعوى)** عن القبيح ارتدع عنه ورجع و **(الغيّ)** الضلال، وروى العمى بدله، و **(لهج)** بالشيء لهجاً من باب تعب أولع به.

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٢١/١١، والبحار: ٣٢/ ٥٦١ ح ٤٦٦.

الإعراب

قوله: **(وقلتم)** عطف على قوله: وصفتم، فتدخل عليه لو وحذف جوابها بدلالة الجواب السابق عليه أي، ولو قلتم مكان سبّكم هذا الدعاء لكان أحسن وأصوب.

وقوله: **(ذات بيننا وبينهم)** بإضافة **(ذات)** إلى بين، وبينهم على ما رأيناه في عدّة من النسخ بالنصب عطف على ذات، والأصوب أن يكون بالجر عطفاً على بيننا.

(وذات) إما بمعنى صاحبة كما في قوله تعالى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢] فتكون كناية عن نائرة العداوة والبغضاء، **(وبيننا وبينهم)** على هذا ظرف مكان أي أصلح ما بيننا وبينهم من البغضاء والعداوة، ولما كانت العداوة مصاحبة البين وملابسة له أضيفت إليه كما أن الضمائر لما كانت ملابسة للصدور، قيل: ذات الصدور.

وأما بمعنى نفس الشيء وحقيقته كما في قولهم: **(ذات يوم وذات ليلة)**، وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]، أي عليم بما في الصدور من الضمائر أو عليم بنفس الصدور وبواطنها، وبين على هذا المعنى الثاني يجوز أن يكون ظرفاً، وأن يكون إسماً بمعنى الفرقة والوصل حسبما تعرف في بيان المعنى.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام كما قاله الرضي ويأتي في رواية الطبرسي أيضاً خاطب به أصحابه (و) ذلك أنه **(قد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين)** فمنعهم بهذا الكلام من باب التأديب والإرشاد إلى القول الصواب وكرائم الأخلاق المطلوبة في كل باب.

وقبل الشروع في شرح كلامه ينبغي أن نمهد مقدمة فقهية في جواز السب وعدم جوازه مطلقاً أو في الجملة تحقيقاً للمقام وتوضيحاً لمرام الإمام عليه السلام.

فأقول وبالله التوفيق:

السب لغة هو الشتم كقولك: يا شارب الخمر، يا آكل الربا، يا ملعون، يا خائن، يا فاجر، يا فاسق، يا حمار، يا كلب، يا ابن الكلب ونحو ذلك، أو يا أعور، يا أعمى، يا أجذم، يا أبرص، ونحوها، ويشمل القذف أيضاً مثل يا ابن الزانية، يا ابن الحرام، ويا ديّوث، ويا قوّاد، ومثل ذلك.

وهو إما في حق المؤمن، أو في حق غيره من المنافق والكافر والناصب.

أما المؤمن فسبّه حرام مطلقاً، سواء كان متضمناً للقذف أم لا، ويدل عليه الأخبار

المستفيضة المتقدمة جملة منها في شرح المختار المائة والثاني والتسعين خصوصاً، وعموم الأخبار الكثيرة الدالة على حرمة إهانة المؤمن واستحقاره واستذلاله.

مثل ما رواه في **(الكافي)** بسنده عن معاوية عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله لي: يا محمد من أذلّ لي وليّاً فقد أرصدني بالمحاربة، ومن حاربني حاربته، فقلت: يا رب ومن وليّك هذا؟ فقد علمت أن من حاربك حاربته، قال: ذاك من أخذت ميثاقه لك ولوصيّك ولذرّيتكما بالولاية»[١].

وفيه عن المعلّى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله عز وجل: قد نابذني من أذلّ عبدي المؤمن»[٢].

وعن المعلّى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله عز وجل: من استذلّ عبدي فقد بارزني بالمحاربة»، ونحوها أخبار أُخر[٣].

وكما يحرم سبّه يحرم لعنه أيضاً، ومعناه الطرد والإبعاد من رحمة الله، بل هو نوع من السب فيدل على حرمته ما دل على حرمة السب مضافاً إلى خصوص الأخبار الناهية عنه.

مثل ما رواه في **(الكافي)** عن علي بن أبي حمزة عن أحدهما عليهما السلام قال: سمعته يقول: إن اللعنة إذا خرجت عن فيّ صاحبها ترددت فإن وجدت مساغاً وإلا رجعت على صاحبها[٤].

وفيه عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن اللعنة إذا خرجت من فيّ صاحبها ترددت بينهما فإن وجدت مساغاً وإلا رجعت على صاحبها[٥].

وعن معلّى عن أحمد بن غسّال عن سماعة قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي مبتدءاً: يا سماعة ما هذا الذي بينك وبين جمّالك إياك أن تكون فحاشاً أو سخاباً أو لعّاناً، فقلت: والله قد كان ذلك إنه ظلمني، فقال: إن كان ظلمك لقد أربيت عليه إن هذا ليس من فعالي ولا آمر به شيعتي استغفر ربك ولا تعد، قلت: أستغفر الله ولا أعود[٦].

ثم المراد بالمؤمن الذي قلنا بعدم جواز سبّه ولعنه هل هو مطلق المؤمن أو خصوص من لم يستحق الاستخفاف؟، ظاهر الأخبار الإطلاق لكن المستفاد من بعض الأخبار وكلمات علمائنا الأبرار هو الاختصاص، فيجوز سبّ المستحق إذا لم يكن متضمناً للقذف.

---

(١) الكافي: ٢/٣٥٣ ح ١٠.
(٢) الكافي: ٢/ ٣٥٢.
(٣) الوسائل: ٦٢/ ٢٧٠ ح ١٦٢٨٠.
(٤) مصباح الفقاهة: ١/ ٤٣٧، والكافي: ٢/ ٣٦٠ ح ٦.
(٥) الكافي: ٢/ ٣٦٠ ح ٦ـ ٧.
(٦) الكافي: ٢/٣٢٦ ح ١٤.

قال في (**البحار**) بعدما روى من (**الكافي**) عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه[١].

قال المجلسي: السِّباب هنا بالكسر مصدر باب المفاعلة، وهو إما بمعنى السب أو المبالغة في السب أو على بابه من الطرفين والإضافة إلى المفعول أو الفاعل، والأول أظهر فيدل على أنه لا بأس بسبّ غير المؤمن إذا لم يكن قذفاً.

بل يمكن أن يكون المراد بالمؤمن من لا يتظاهر بارتكاب الكبائر ولا يكون مبتدعاً مستحقاً للاستخفاف[٢].

قال المحقق في (**الشرائع**): كل تعريض بما يكرهه المواجه ولم يوضع للقذف لغة ولا عرفاً يثبت به التعزير إلى قوله: ولو كان المقول له مستحقاً للاستخفاف فلا حدّ ولا تعزير، وكذا كل ما يوجب أذى كقوله: يا أجذم أو يا أبرص.

وقال الشهيد الثاني في (**شرحه**): لما كان أذى المؤمن الغير المستحق للاستخفاف محرماً فكل كلمة تقال له ويحصل له بها الأذى ولم تكن موضوعة للقذف بالزنا وما في حكمه لغة ولا عرفاً يجب بها التعزير بفعل المحرم كغيره من المحرمات ومنه التعبير بالأمراض.

وفي (**صحيحة**) عبد الرحمٰن بن أبي عبد الله قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل سبّ رجلاً بغير قذف يعرّض به هل يجلد؟ قال: عليه التعزير[٣].

والمراد بكون المقول له مستحقاً للاستخفاف أن يكون فاسقاً متظاهراً بفسقه فإنه لا حرمة له حينئذ.

لما روي عن الصادق عليه السلام: إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له، ولا غيبة[٤].

قال: وفي بعض الأخبار: من تمام العبادة الوقيعة في أهل الريب[٥].

وفي (**الصحيح**) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم أهل البدع والرّيب من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبّهم والقول فيهم والوقيعة وباهتوهم لئلا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات، ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة»، انتهى[٦].

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٦٠ ح ٢. (٢) البحار: ٧٢/ ١٦١ ذيل حديث ٣٣.
(٣) مجمع الفائدة: ١٣/ ١٥٧، وكشف اللثام: ٢/ ٤١١.
(٤) السرائر: ٣/ ٦٤٤، ورسائل الكركي: ٢/ ٤٥.
(٥) كشف اللثام: ٢/ ٤١٢، وجواهر الكلام: ٤١/ ٤١٢.
(٦) بطوله في البحار: ٧٢/ ١٦٠ـ ١٦١.

وأما غير المؤمن من الكافر والمنافق والمبغض لآل محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، فلا ريب في جواز لعنهم ووجوب معاداتهم والبراءة منهم، وآيات الكتاب وروايات الأئمة الأطياب مشحونة به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤]، وقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وفي **(البحار)** من **(العيون)** بإسناد التميمي عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[١].

قال الصّدوق في **(عقائده)**: اعتقادنا في الظالمين أنهم ملعونون والبراءة منهم واجبة، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: ١٨ـ ١٩][٢].

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: سبيل الله عزَّ وجل في هذا الموضع عليُّ بن أبي طالب، والأئمة في كتاب الله عز وجل إمامان: إمام هدى، وإمام ضلالة، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال عز وجل في أئمة الضلال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١ـ ٤٢].

ولما نزلت هذه الآية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾ [الأنفال: ٢٥]، قال النبي صلى الله عليه وآله: «من ظلم علياً مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوّتي ونبوّة الأنبياء من قبلي، ومن تولى ظالماً فهو ظالم، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال الله عز وجل: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وقال عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، فمن ادّعى الإمامة وليس بإمام فهو الظالم الملعون، ومن وضع الإمامة في غير أهلها فهو ظالم ملعون»، انتهى كلامه رفع مقامه[٣].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٤/ ٦٩، والبحار: ٢٣/ ٢٤٤، ح ١٥.
(٢) البحار: ٨/ ٣٦٥.
(٣) المصدر السابق.

وأما سبّ هؤلاء وشتمهم فالظاهر جوازه أيضاً كما ظهر من المحدّث العلامة المجلسي، بل هو ظاهر عبارة الشهيد الثاني أيضاً لعدم الريب في فسقهم الموجب للاستخفاف بأي نحو كان.

ويدل على ذلك صريحاً ما في تفسير علي بن إبراهيم القمي في تفسير سورة (الأحزاب) في اقتصاص غزوة بني قريظة قال: فجاء أمير المؤمنين عليه السلام فأحاط بحصنهم فأشرف عليهم كعب بن أسيد من الحصن يشتمهم ويشتم رسول الله صلى الله عليه وآله فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على حمار فاستقبله أمير المؤمنين عليه السلام فقال: بأبي وأمي يا رسول الله لا تدن من الحصن، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي لعلهم شتموني أنهم لو رأوني لأذلهم الله»، ثم دنا رسول الله صلى الله عليه وآله من حصنهم فقال: «يا أخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت أتشتموني؟! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحهم»، فأشرف عليهم كعب بن أسيد من الحصن فقال: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً، فاستحى رسول الله صلى الله عليه وآله حتى سقط الرداء من ظهره حياء مما قاله، الحديث[1].

ويدل عليه أيضاً ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في المختار التاسع عشر للأشعث بن قيس: عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين حائك بن حائك منافق بن كافر، وما قاله في المختار المائة والخامس والثلاثين للمغيرة بن الأخنس: يا ابن اللعين الأبتر والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، والأخبار في هذا المعنى كثيرة كما هو غير خفي على المتتبع الخبير[2].

هذا كله إذا لم يتضمن سبّهم للقذف، وأما إن تضمن ذلك فلا كالمؤمن.

ويدل على ذلك ما رواه في (**الكافي**) بإسناده عن عمرو بن النعمان الجعفي قال: كان لأبي عبد الله عليه السلام صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً، فبينما هو يمشي معه في الحذائين ومعه غلام سندي له يمشي خلفهما إذا التفت الرجل يريد غلامه ثلاث مرات فلم يره، فلما نظر في الرابعة قال: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ قال: فرفع أبو عبد الله عليه السلام يده فصك بها جبهة نفسه ثم قال عليه السلام: سبحان الله تقذف أمه قد كنت أرى أن لك ورعاً فإذا ليس لك ورع، فقال: جعلت فداك إن أمه سندية مشركة فقال عليه السلام: أما علمت أن لكل أمة نكاحاً؟ تنحّ عني، قال: فما رأيته يمشي معه حتى فرّق الموت بينهما، قال: وفي رواية أخرى أن لكل أمة نكاحاً يحتجزون به عن الزنا[3].

وفي (**الوسائل**) من (**الكافي**) عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن عمير عن أبي الحسن

(١) تفسير القمي: ٢/ ١٨٩.
(٢) الكافي: ١/ ٣١٧.
(٣) الكافي: ٢/ ٣٢٤ ح ٥.

الحذاء قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسألني رجل ما فعل غريمك؟ قلت: ذاك ابن الفاعلة، فنظر إليّ أبو عبد الله عليه السلام نظراً شديداً قال: فقلت: جعلت فداك إنه مجوسي أمه أخته، فقال عليه السلام: أو ليس ذلك في دينهم نكاحاً؟[1].

وإذا تمهد لك هذه المقدمة الشريفة وعرفت جواز سبّ غير المؤمن ولعنه وطعنه والوقيعة فيه فلنرجع إلى شرح المتن ونبين وجه منعه عليه السلام لأصحابه عن سبّ أهل الشام كما يستفاد من قوله عليه السلام:

(إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين) ولعل النكتة في ذلك أنه عليه السلام لما كان غرضه الأصلي ومقصوده بالذات في جميع حروبه هداية الأنام وإعلاء كلمة الإسلام وإنقاذهم من ورطات الجهالة والضلالة لا القتل والغارة والملك والسلطنة بالأصالة كما أشار إلى ذلك في المختار الرابع والخمسين بقوله عليه السلام حين استبطاء أصحابه إذنه لهم في القتال بصفّين: وأما قولكم شكاً في أهل الشام فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي به وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها، وكان حصول هذا الغرض بالرّفق والمداراة والحلم وكظم الغيظ لا بالغلظة والخشونة والسبّ واللعنة، لا جرم منعهم من السب لئلا يبعث على شدّة العناد ومزيد العداوة.

وإلى ذلك يومي ما رواه في **(الكافي)** عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن رجلاً من بني تميم أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: «لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة بينهم»[2].

ويدل على ذلك صريحاً قوله تعالى في سورة (بني إسرائيل): ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣] أي أن الشيطان يفسد بينهم ويغري بعضهم ببعض ويلقي بينهم العداوة.

قال في **(الصافي)** في تفسير الآية: قل لعبادي يعني المؤمنين يقولوا للمشركين الكلمة التي هي أحسن ولا يخاطبوهم بما يغيظهم ويغضبهم إن الشيطان يهيج بينهم المراء والشر، فلعل المخاشنة بهم يفضي إلى العناد وازدياد الفساد[3].

وقال تعالى أيضاً في سورة (السجدة): ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا

(١) الكافي: ٧/ ٢٤٠ ح ٣.
(٢) البحار: ٧٢/ ١٦٣ ح ٣٤.
(٣) تفسير جامع الجوامع: ٢/ ٣٧٧، وتفسير الصافي: ٣/ ١٩٧.

ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ـ ٣٥].

قال في (مجمع البيان): لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة، فلا يستوي الصبر والغضب والحلم والمداراة، والغلظة والعفو والإساءة، ثم بيّن سبحانه ما يلزم على الداعي من الرفق بالمدعوّ فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، خاطب النبي ﷺ فقال: «ادفع بحقك باطلهم وبحلمك جهلهم وبعفوك إساءتهم، فإنك إذا دفعت خصومك بلين ورفق ومداراة صار عدوك الذي يعاديك في الدين بصورة وليك القريب فكأنه وليّك في الدين وحميمك في النسب، وما يلقيها أي ما يلقي هذه الفعلة وهذه الحالة التي هي دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ واحتمال المكروه، وما يلقيها أي هذه الخصلة إلا ذو نصيب وافر من العقل والرأي»[١].

وقال تعالى أيضاً في سورة (الشورى): ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [٣٩ـ ٤٣].

قال أمين الإسلام الطبرسي: الذين إذا أصابهم البغي من غيرهم هم ينتصرون ممن بغىٰ عليهم، فمن انتصر وأخذ بحقه ولم يجاوز في ذلك ما حدّ الله فهو مطيع لله ومن أطاع الله فهو محمود.

ثم ذكر حدّ الانتصار فقال: وجزاء سيئة سيئة مثلها، قيل: هو جواب القبيح إذا قال: أخزاك الله، قال: أخزاك الله، وسمى الثانية سيئة للمشاكلة وكونها في مقابلة الأولى.

ثم ذكر سبحانه العفو فقال: فمن عفى وأصلح فأجره على الله أي فمن عفى عما له المؤاخذة به وأصلح أمره بينه وبين ربه فثوابه على الله إنه لا يحب الظالمين. بيّن سبحانه أنه لم يرغب المظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لحبه إياه ولكنه ليعرّضه بذلك لجزيل الثواب ولحبه الإحسان والفضل.

ثم ذكر سبحانه المنتصر فقال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى: ٤١] معناه من انتصر لنفسه وانتصف من ظالمه بعد ظلمه، أي بعد أن ظلم وتعدّى عليه فالمنتصرون ما عليهم من إثم وعقوبة ذمّ إنما السبيل أي الإثم والعقاب على الذين يظلمون الناس ابتداء ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم، ولمن صبر

(١) تفسير مجمع البيان: ٩/ ٢٣.

وتحمّل المشقة في رضاء الله وغفر فلم ينتصر، فإن ذلك الصبر والتجاوز لمن عزم الأمور.

فقد علم بما ذكرنا كله أن استكراهه عليه السلام لسبّ أهل الشام لم يكن لتحريمه كما توهمه الشارح البحراني، بل لإيرائه ازدياد الفساد ومزيد العداوة والعناد المنافي لغرضه عليه السلام، مع أن في الرفق والمداراة والعفو والصفح من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا تحصى حسبما أشيرت إليها في الآيات الشريفة والأخبار التي لا تستقصى.

ولكون هذه الخصال من مكارم الأخلاق ومزايا الخصال واظب عليها في نفسه كما حث عليها أصحابه.

فقد روى في **(البحار)** من كتاب (صفّين) لنصر بن مزاحم عن رجل عن منازل الجهني عن زيد بن وهب أن علياً مرّ على جماعة من أهل الشام فيهم الوليد بن عقبة وهم يشتمونه فأخبروه بذلك فوقف في ناس من إخوانه فقال:

انهدوا إليهم وعليكم بالسكينة وسيماء السالكين ووقار السلام، والله لأقرب قوم من الجهل بالله عز وجل قوم قائدهم ومؤدبهم معاوية وابن النابغة وابن الأعور السلمي وابن أبي معيط شارب الحرام والمجلود حداً في الإسلام، وهم أولى يقومون فيقصبوني ويشتموني وقبل اليوم ما قاتلوني وشتموني وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، فالحمد لله ولا إله إلا الله، وقديماً ما عادني الفاسقون إن هذا هو الخطب الجليل إن فساقاً كانوا عندنا غير مرضيين، وعلى الإسلام وأهله متخوّفين، حتى خدعوا شطر هذه الأمة وأشربوا قلوبهم حب الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، وقد نصبوا لنا الحرب، وجدّوا في إطفاء نور الله، والله مُتمِّمٌ نوره ولو كره الكافرون، اللهم إنهم قد ردّوا الحق فافضض جمعهم، وشتّت كلمتهم، وابسلهم بخطاياهم، فإنه لا يذلّ من واليت، ولا يعزّ من عاديت[1].

فانظر إلى كريم خلقه وشرفه وسؤدده وحلمه، فإنه مع سماعه لشتمهم، لعنهم الله، كيف كفّ وحلم وصفح وأمر أصحابه بالنهد إليهم وأوصاهم بالسكينة والوقار ولزوم سيماء الصالحين، ولعمري إنه عليه السلام المصداق الحق لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٥] هذا.

ويحتمل أن يكون السر في المنع من سبّ أهل الشام التحرّز من سبّهم له، فيكون السب لهم والحال ذلك حراماً، ويراد بالكراهة الحرمة لا معناها المعروف في مصطلح المتشرعة.

---

(١) البحار: ٥٠٦/٣٢ ح ٤٣٤، ووقعة صفين: ٣٩١.

فيكون مساقه مساق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] قال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فنهاهم عن ذلك لئلا يسبوا الله فإنهم قوم جهلة.

وفي (**مجمع البيان**) نهى الله المؤمنين أن يسبوا الأصنام، لما في ذلك من المفسدة فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي لا تخرجوا من دعوة الكفار ومحاجتهم إلى أن تسبوا ما يعبدون، فإن ذلك ليس من الحجاج في شيء فيسبوا الله عدواً أي ظلماً بغير علم وأنتم اليوم غير قادرين على معاقبتهم بما يستحقون، فيدل على وجوب كف اللسان عن المخالفين وعن أئمتهم في مقام عدم التمكن[١].

وفي (**تفسير**) علي بن إبراهيم قال: حدثني أبي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن النبي صلى الله عليه وآله: «إن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاء سوداء في ليلة ظلماء»، قال عليه السلام: كان المؤمنون يسبّون ما يعبد المشركون من دون الله، فكان المشركون يسبّون ما يعبد المؤمنون، فنهى الله المؤمنين عن سبّ آلهتهم لكيلا يسبّوا الكفار إله المؤمنين فيكون المؤمنون قد أشركوا بالله من حيث لا يعلمون، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية[٢].

وفي (**الصافي**) من (**الكافي**) عن الصادق عليه السلام في حديث: إياكم وسبّ أعداء الله حيث يسمعونكم فيسبوا الله عدواً بغير علم[٣].

بل المستفاد من بعض الأخبار أن المقصود بالآية النهي عن سبّهم لئلا يسبّوا وليّ الله فيكون المراد بالآية والمراد بكلام الإمام شيئاً واحداً.

فقد روى في (**الصافي**) عن العياشي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال عليه السلام: أرأيت أحداً يسبّ الله؟ فقيل: لا، وكيف؟ قال: من سبّ وليّ الله فقد سبّ الله[٤].

قال في (**الصافي**): وفي الاعتقادات عنه عليه السلام إنه قيل له: إنا نرى في المسجد رجلاً يطعن بسبّ أعدائكم ويسبّهم، فقال: ما له لعنه الله تعرض بنا، قال الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية[٥].

قال: وقال الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: لا تسبّوهم فإنهم يسبون عليّكم، قال:

---

(١) مجمع البيان: ٤/ ١٣٢. (٢) تفسير القمي: ١/ ٢١٣.
(٣) الكافي: ٨/ ٧ ـ ٤٠١، وتفسير الصافي: ٢/ ١٤٧.
(٤) تفسير الصافي: ٢/ ١٤٧، وتفسير العياشي: ١/ ٣٤٠ ح ٨٠.
(٥) المصدر السابق.

ومن سبّ ولي الله فقد سب الله، قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «من سبّك فقد سبني، ومن سبّني فقد سبّ الله، ومن سبّ الله فقد كبّه الله في منخريه في نار جهنم»(١).

فقد تحصل مما ذكرنا أن سبّ أعداء الله ولعنهم وطعنهم مندوب مرغوب شرعاً عند التمكن والقدرة، والكف عنهم والصفح والإعراض واجب عند عدم الاستطاعة كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] هذا.

ولما منعهم من السب رغّبهم بأحسن القول وأصوبه الذي لا يهيج الفساد، فقال: **(ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم)** بدل السباب لهم وشرحتم ما هم عليه من البغي والظلم والعدوان واتباع الهوى والانحراف عن قصد السبيل من باب النصح والإرشاد والتنبيه على الخطأ **(كان أصوب في القول)** لأنه من باب الدفع والجدال بالتي هي أحسن المأمور بها في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون: ٩٦] أي إدفع باطلهم ببيان الحجج على ألطف الوجوه وأوضحها وأقربها إلى الإجابة والقبول نحن أعلم بما يكذبون ويقولون ونجازيهم بما يستحقون، وفي قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال الطبرسي: أي ادع إلى دينه لأنه الطريق إلى مرضاته بالحكمة والموعظة الحسنة وهو الصرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه والتزهيد في فعله، وفي ذلك تليين القلوب بما توجب الخشوع، وجادلهم بالكلمة التي هي أحسن، والمعنى اقتلوا المشركين واصرفوهم عما هم عليه بالرفق والسكينة ولين الجانب في النصيحة ليكونوا أقرب إلى الإجابة، فإن الجدل هو فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج(٢).

(و) كان **(أبلغ في العذر)** إن مسّت الحاجة إلى الاعتذار مثل أن لو اعترض عليكم معترض منهم في قتلهم وقتالهم كان لكم أن تجيبوهم وتعتذروا إليهم بأنا قد ذكرناكم فلم تتذكروا، ونصحناكم فلم تنتصحوا، ووعظناكم فلم تقبلوا، فليس لكم عندنا عتبى.

(و) لو **(قلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دمائنا ودمائهم)** أي احفظها وأمسكها من السفك **(واصلح ذات بيننا وبينهم)** أي العداوة التي بيننا وبينهم أو أصلح حقيقة فرقتنا وبينونتنا وبدّلها بالائتلاف والاجتماع **(واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق)** ويفيء إليه **(من جهله ويرعوي)** أي يرتدع **(عن الغي)** والضلال **(والعدوان من لهج)** وأولع **(به)** لكان أحسن القول وأجمله.

---

(١) المصدر السابق. (٢) تفسير مجمع البيان: ٦/ ٢١٠.

تكملة

هذا كلام رواه الشارح المعتزلي في شرح المختار السادس والأربعين من كتاب **(صفّين)** لنصر بن مزاحم باختلاف وزيادة أحببت نقله.

قال: قال نصر: حدثنا عمر بن سعد عن الحرث بن حصين عن عبد الله بن شريك قال:

خرج حجر بن عدي وعمرو بن الحمق بظهران البراءة من أهل الشام، فأرسل علي عليه السلام إليهما أن: كفا عما لا ينبغي عنكما، فأتياه فقالا: يا أمير المؤمنين ألسنا محقين؟ قال: بلى، قالا: أو ليسوا مبطلين؟ قال: بلى، قالا: فلم منعتنا من شتمهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين وتبرون ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم فقلتم من سيرتهم كذا وكذا ومن أعمالهم كذا وكذا كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءهم ودماءنا وأصلح ذات بينهم وبيننا واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان منهم من لهج به، لكان أحب إليّ وخيراً لكم، فقالا: يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ونتأدب بأدبك[١].

ويظهر من هذه الرواية أنه عليه السلام كما كان يكره منهم الشتم كذلك يكره اللعن والبراءة للنكتة التي قدمناها، فما قاله الشارح المعتزلي في شرح المقام: من أن الذي كرهه عليه السلام منهم أنهم كانوا يشتمون أهل الشام ولم يكن يكره منهم لعنهم إياهم والبراءة منهم ليس بوجيه.

(١) البحار: ٣٩٩/٣٢، ومختلف الشيعة للحلي: ١/ ١٢٠.

الترجمة

ازجملهٔ کلام نصیحت انجام آن بزرگواراست درحالتی که شنید جماعتی‌را از اصحاب خود که فحش میدادند شامیان را در ایام جنك صفین :

بدرستی که من ناخوش دارم برای شما اینکه فحاش بشوید ، ولیکن اگر تعریف نمائید عملهای ایشان را وذکر نمائید حالهای ایشانرا مقرون بصواب باشد درگفتار ، و مقرون بکمال باشد درمقام اعتذار ، واگر بگوئید بجای فحش دادن شما ایشان را : بارپروردگارا نگه بدار خونهای ما وخونهای ایشان‌را از ریخته شدن ، واصلاح بفرما عداوت ودشمنی‌میان ماومیان ایشانرا ، وهدایت کن ایشانرا از گمراهی خودشان تا اینکه بشناسد حق را کسی که جاهل بوده است بآن وبرگردد از گمراهی وتعدی کسی که حریص ومهیج باشدبآن هرآینه این‌بهتر خواهد شد ، اللهم وفقنا للطاعة .

ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صفين وهو المائتان والسادس من المختار في باب الخطب

وقد رأى الحسن عليه السلام ابنه يتسرّع إلى الحرب:

«أَمْلِكُوا عَنِّي هٰذا الغُلامَ لا يَهُدَّني، فَإِنِّي أَنْفَسُ بِهٰذَيْنِ - يعني الحَسَن والحُسَين عليهما السلام - عَلىٰ المَوْتِ، لِئَلاّ يَنْقَطِعَ بِهِما نَسْلُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله».

قال الرضى أبو الحسن «ره»: قوله: أملكوا عني هذا الغلام من أعلى الكلام وأفصحه.

اللغة

(ملكه) يملكه من باب ضرب ملكاً بتثليث الميم احتواه قادراً على الاستبداد به، فهو مالك وذاك مملوك وعبد مملكة مثلّثة اللام إذا سُبي وملك ولم يملك أبواه، وملك على الناس أمرهم إذا تولى السلطنة فهو ملك بكسر اللام، وأملكه الشيء وملّكه من باب الأفعال والتفعيل بمعنى واحد، وملكت العجين ملكاً من باب ضرب شددته وقوّيته وأنعمت عجنه، وملك نفسه منعها من السقوط في شهواتها وما تمالك أن فعل أي لم يقدر على حبس نفسه.

ولفظ أملكوا في أكثر النسخ حسبما صرح به العلامة المجلسي أيضاً بفتح الألف من باب الأفعال.

وضبطه الشارح المعتزلي بصيغة الثلاثي مجرداً قال: (الألف) في (أملكوا) وصل لأن الماضي ثلاثي من ملكت الفرس والدار والعبد أملك بالكسر أي احجروا عليه كما يحجر المالك على مملوكه، قال: وعن متعلّقه بمحذوف تقديره استولوا عليه وأبعدوه، ولما كان الملك سبب الهجر على مملوكه عبر بالسبب عن المسبب، انتهى.

وعلى النسخ المشهورة فلا بد من جعل المزيد بمعنى المجرد كما يستعمل المتعدي مورد اللازم في نحو كبّه فأكب.

وقال الراوندي في محكي كلامه: (أملكوا) أي أمسكوه لأجلي، يقال: ما تمالك أن قال، أي ما تماسك، وقيل: إنه من ملكت العجين أي خذوه بالشدة.

وقال البحراني: (أملكوه) شدّوه واضبطوه و **(الهدّ)** الهدم بشدة والكسر و **(نفس)** به من باب فرح ضنّ وبخل و **(انسل)** الولد ونسل نسلاً من باب ضرب كثر نسله وتناسلوا توالدوا أي ولد بعضهم من بعض.

الإعراب

حرف (عن) في قوله: (أملكوا عني)، على قول الشارح المعتزلي والبحراني بمعناها الأصلي أعني المجاوزة، أو بمعنى (من) كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥] وعلى قول الراوندي فهي بمعنى اللام للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ [التوبة: ١١٤] والأظهر عندي أنها بمعنى البدل والعوض كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨].

وقوله: (لا يهدّني)، في بعض النسخ بالنصب على إضمار (أن) أي لئلا يهدّني، وفي بعضها بالرفع على إلغاء (أن) المضمرة عن العمل كما في قولهم: وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه على رواية الرفع، وقد روى بالوجهين أيضاً قول طرفة:

ألا أيّهذا الزاجري احضر الوغى وإن أشهد اللذات هل أنت مخلد

قال علماء الأدب: وانتصاب المضارع في هذا الشعر بأن شاذّ لعدم وقوعه في جواب أحد الأشياء الستة.

ويحتمل أن يكون انتصاب يهدّني بلفظة (كي) مضمرة إن جوّزنا إضمارها كما نصبت مظهرة في قوله تعالى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وقوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ [الحشر: ٧] و ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠] ونحوها.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام حسبما أشار إليه الرّضي قد خاطب به أصحابه في بعض أيام صفّين وقد رأى الإمام الهمام أبا محمد الحسن عليه السلام ابنه يتسرّع أي يتعجّل إلى الحرب فقال لهم:

(أملكوا عني هذا الغلام) أراد به منعهم له من التسرّع إليه وحفظهم إياه بدلاً منه.

قال الشارح المعتزلي في وجه علو هذا الكلام وفصاحته على ما أشار إليه السيد: إنه لما كان في (أملكوا) معنى العبد أعقبه (بعن)، وذلك أنهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلا وقد أبعدوه عنه، ألا ترى أنك إذا حجرت على زيد دون عمرو فقد باعدت زيداً عن عمرو، فلذلك قال: (أملكوا عني)، انتهى.

ولا بأس به إلا أنه إنما يحسن لو كان الحسن في تسرّعه إلى الحرب متابعاً لأبيه عليه السلام معاقباً له فيستحسن حينئذ أن يقول عليه السلام: (أبعدوه عني)، ولكن الرواية لا دلالة فيها على ذلك.

والأوجه عندي أنه عليه السلام لما شاهد من ابنه مسارعته إلى الحرب وكان بنفسه غير متمكن من حفظه وممانعته لمكان اشتغاله بكريهة الحرب والقتل والقتال أمر أصحابه بمحافظته عليه السلام بأحسن تعبير وألطف عبارة وقال لهم: **(أملكوا)**، أي أملكوه من التسرع، فعدل عن التعبير بلفظ المنع والضبط والحفظ والمراقبة والإمساك وما ضاهاها إلى التعبير بلفظ الملك، لما فيه من الدلالة على التسلط والاستيلاء والتمكن من التصرف والقدرة على الممانعة والحفظ بأي وجه أمكن وأي نحو شاء وأراد المالك ما ليس في غيره من الألفاظ المذكورة، يعني امنعوه واحفظوه منع المالك لملكه وحفظه إياه.

ثم أكد ذلك بقوله: **(عني)**، يعني أني كما لو كان ممكناً لي لكنت أملكه وأراقبه غاية المراقبة، فحيث إنه لا يمكن لي ذلك فكونوا مالكين له مراقبين عليه بدلاً مني وراقبوه مثل مراقبتي غير متوانين ولا مقصرين.

فقد علم بذلك أن في هذه العبارة من الدلالة على تأكيد المنع والمحافظة ما ليس في غيرها.

وعلل عليه السلام ذلك بقوله: **(لا يهدّني)** أي لئلا يكسرني لأن التسرع إلى الحرب مظنة القتل والهلاك وموت الولد الصالح المعين خصوصاً مثل أبي محمد الحسن عليه السلام موجب لأنك «كذا» ظهر الوالد وذهاب قوة قلبه ونور بصره.

ثم علل عليه السلام بعلة ثانية وقال: **(فإني أنفس)** أي أبخل **(بهذين ـ يعني الحسن والحسين عليهما السلام ـ على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله)**.

تنبيه

قال الشارح المعتزلي[1]:

فإن قلت: يجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وولد رسول الله صلى الله عليه وآله وذرية رسول الله صلى الله عليه وآله ونسل رسول الله صلى الله عليه وآله.

قلت: نعم، لأن الله تعالى سماهم إبناه في قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] وإنما عنى الحسن والحسين ولو أوصى لولد فلان بمال دخل فيه أولاد البنات وسمى الله تعالى عيسى ذرية إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥] ولم يختلف أهل اللغة في أن ولد البنات من نسل الرجل.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١١/٢٦، والبحار: ٤٣/٢٣٤.

فإن قلت: فما تصنع بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؟

قلت: أسألك عن أبوته لإبراهيم بن مارية فكل ما تجيب به عن ذلك فهو جوابي عن الحسن والحسين عليهما السلام والجواب الشامل للجميع أنه عنى زيد بن حارثة لأن العرب كانت تقول: زيد بن محمد على عادتهم في تبنّي العبد، فأبطل الله ذلك ونهى عن سنّة الجاهلية وقال: إن محمداً ليس أباً لواحد من الرجال الباغين المعروفين بينكم ليفترى إليه بالنبوّة، وذلك لا ينفي كونه أباً لأطفال لم يطلق عليهم لفظة الرجال كإبراهيم وحسن وحسين عليهم السلام.

فإن قلت: أتقول إن ابن البنت إبنٌ على الحقيقة الأصلية أم على سبيل المجاز؟

قلت: لذاهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصلية لأن الأصل في الاستعمال الحقيقة، وقد يكون اللفظ مشتركاً بين مفهومين وهو في أحدهما أشهر ولا يلزم من كونه أشهر في أحدهما أن لا يكون حقيقة في الآخر، ولذاهب أن يذهب إلى أنه حقيقة عرفية، ولذاهب إلى كونه مجازاً قد استعمله الشارع، فجاز إطلاقه في كل حال واستعماله كسائر المجازات المستعملة.

قال: وما يدل على اختصاص ولد فاطمة عليها السلام دون بني هاشم كافة بالنبي صلى الله عليه وآله أنه ما كان يحل له عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذرّيتهما وإن بعدت وطال الزمان، ويحل له نكاح بنات غيرهم من بني هاشم من الطالبيين وغيرهم وهذا يدل على مزيد الأقربية وهي كونهم أولاده.

فإن قلت: فقد قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

وقال حكيم العرب أكثم الصيفي في البنات يذمهنّ: إنهن يلدن الأعداء ويورثن البعداء.

قلت: إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر، وليس في قول أكثم ما يدل على نفي بنوّتهم وإنما ذكر أنهن يلدن الأعداء وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدوّاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] ولا ينفي كونه عدواً كونه إبناً، انتهى[1].

أقول: ما حققه الشارح هو الحق الموافق للتحقيق، وهو مأخوذ من أخبار أهل بيت العصمة والطهارة حسبما نشير إلى بعضها، وإن شئت مزيداً على ذلك فأقول:

---

(١) شرح النهج: ١١/ ٢٨.

لا شك إن نسبة الإبن والبنت إلى الأب والأم من حيث التكوين والخلقة نسبة واحدة لكونهما مخلوقين من نطفتهما، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] أي أخلاط، لأن ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها يكون مشيجاً أربعين ليلة، وقال أيضاً: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ـ ٧] أي صلب الرجل وترائب المرأة أي صدرها، لأن منيها يخرج منه ومن أجل اتحاد نسبتهما إليهما في التكوّن صح إضافتهما إلى كل منهما في مقام التلفظ والتعبير من دون تفاوت، فيقال: ابن فلان وابنة فلان وابن فلانة وابنة فلانة، ولم يخالف في صحة هذه الإضافة أحد من أهل العرف واللغة أصلاً، وقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢].

فإذا صح إضافة الابن إلى الأم والأم إلى أبيها وهكذا إضافته إلى الأب والأب إلى أبيه بلا خلاف فلتصح إضافته إلى أب الأم كما تصح إلى أب الأب، لعدم مانع يتصور إلا الشعر المتقدم أعني قوله:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

وهو لا يصلح للمانعية.

إما لما قاله الشارح المعتزلي: من ابتنائه على كون إطلاق الابن على ابن الابن أشهر وأغلب من إطلاقه على ابن البنت، والشهرة في الإطلاق لا تدل على كونه حقيقة فيه فقط ومجازاً في غيره كما برهن في الأصول.

أو لابتنائه على مجرى عادة العرب من إسقاطهم البنات مع كونهن أولاداً حقيقة من درجة الأولاد من أجل الاستنكاف والإلفة والنخوة العربية وحميّة الجاهلية كما شرح الله حالهم في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨ـ ٥٩]، وقد بلغوا في الاستنكاف منهن إلى أن جرت عادتهم على الوئد والقتل حتى نهاهم الله عن ذلك وعاتبهم عليه في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨ـ ٩] حسبما عرفت تفصيل ذلك في شرح الفصل السادس من الخطبة المائة والحادية والتسعين المعروفة بالقاصعة.

أو لما قاله ابن إدريس في محكي كلامه من السرائر: من أن الشاعر إنما أراد بقوله: بنونا بنو أبنائنا (آه) الإنتساب بمعنى أن أولاد البنت لا ينسبون إلى أمهم وإنما ينسبون إلى آبائهم وليس كلامنا فيه بل في الولادة وهي متحققة من جهة الأم من غير خلاف والذكر والأنثى فيه سواء.

وقد وافقنا على ذلك غير واحد من الأصحاب منهم المرتضى وابن إدريس وصاحب **(الجواهر)** في غير موضع منه، وقد بسط الكلام في ذلك كل البسط في كتاب الخمس منه، وقال بعد اختياره موافقة المرتضى في كونه ابنه حقيقة: إنه يظهر ذلك من جماعة من الأصحاب في غير المقام، بل قد يظهر من المحكي عن ابن إدريس في كتاب **(المواريث)** الإجماع عليه كما عن المرتضى فيه أيضاً نفي الخلاف فيه، بل وكذا المحكي عن خلاف الشيخ في باب الوقف والميراث، بل ظاهره فيهما إجماع الأمة على ذلك.

ثم ساق الأدلة على ذلك، وأجاب عن الشعر المتقدم بأنه مضافاً إلى أنه قول أعرابي جاهل لا يعارض الكتاب والسنّة محتمل لإرادة المتعارف المعتاد في جلب المنافع الدنيوية والمضار بالأولاد وأولادهم دون أولاد البنات، فكانوا كالأباعد بالنسبة إلى ذلك، بل لعل ظهور إرادة هذا الشاعر المجاز والمبالغة في النفي شاهدة على العكس، إذ من البعيد إرادته بيان الوضع واللغة فتأمل، انتهى كلامه رفع مقامه.

والحاصل أنّا نرى أنهم يستعملون لفظ الابن والولد في ابن البنت وولدها كاستعمالهم لهما في ابن الابن وولده مع عدم صحة السلب، فيكونان حقيقة فيهما ولا دليل على المصير إلى المجاز.

وإذا عرفت ذلك فأقول: إن رسول الله ﷺ قد أطلق على الحسنين ﷺ لفظ الابن في غير واحد من الأخبار فيكونان إبنيه حقيقة.

ومن جملة هذه الأخبار الحديث المشهور أنه ﷺ قال فيهما: «هذان إبناي إمامان»[١].

وفي **(البحار)** من المناقب عن فردوس الديلمي عن سلمان قال النبي ﷺ: «سمّى هارون ابنيه شبراً وشبيراً، وإنني سميت ابنيّ الحسن والحسين»[٢].

وعن الدارقطني بالإسناد عن ابن عمر قال: قال ﷺ: «إبناي هذان سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما»[٣].

وعن الراغب عن أبي هريرة وبريدة: رأيت النبي ﷺ يخطب على المنبر ينظر إلى الناس مرة وإلى الحسن مرة وقال: «إن ابني هذا سيصلح الله به بين فئتين من المسلمين»[٤].

---

(١) الطرائف لابن طاووس: ١٩٦.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/١٦٦، والبحار: ٤٣/٢٥٢.
(٣) الخلاف للطوسي: ٤/٨، والمعجم الكبير: ٣/٣٩.
(٤) المحلى لابن حزم: ٤/٢٢٧، والبحار: ٤٣/٢٩٣، ومسند أحمد: ٥/٣٨.

وعن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ أقبل الحسين عليه السلام فجعل ينزو على ظهر النبي ﷺ وعلى بطنه، فبال وقال ﷺ: «دعوه»، قال أبو عبيدة في غريب الحديث أنه قال: «لا تزرموا ابني» أي لا تقطعوا عليه بوله، ثم دعا بماء فصبّه على بوله(١).

وعن الطبري عن طاووس اليماني عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «رأيت في الجنة قصراً من درّة بيضاء لا صدع فيها ولا وصل، فقلت: حبيبي جبرئيل لمن هذا القصر؟ قال: للحسين ابنك، ثم تقدمت أمامه فإذا أنا بتفاح فأخذت تفاحة ففلقتها فخرجت منها حوراء كأن مقاويم النسور أشفار عينيها، فقلت: لمن أنت؟ فبكت ثم قالت: لابنك الحسين»، إلى غير هذه مما لا نطيل بروايتها(٢).

فقد ظهر مما ذكرنا واتضح كل الوضوح أنه لا شك في كونهما عليهما السلام ابنيه ﷺ حقيقة فلا يستريب فيه إلا جاهل متعنّت أو جاحد متعصب، وقد احتج على ذلك الأئمة عليهم السلام وغيرهم أيضاً في مجالس المخالفين وغيرها بأحكام بيّنة وبرهان.

فقد روي في **(البحار)** من تفسير علي بن إبراهيم عن أبيه عن ظريف بن ناصح عن عبد الصمد بن بشير عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال:

قال لي أبو جعفر عليه السلام: يا أبا الجارود ما يقولون في الحسن والحسين عليهما السلام؟ قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله ﷺ، قال عليه السلام: فبأي شيء احتججتم عليهم؟ قلت: بقول الله عز وجل في عيسى ابن مريم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]. فجعل عيسى من ذرية إبراهيم، قال عليه السلام: فأي شيء قالوا لكم؟ قلت: قالوا: قد يكون ولد الإبنة من الولد ولا يكون من الصلب، قال عليه السلام: فأي شيء احتججتم عليهم؟ قلت: احتججنا عليهم بقول الله عز وجل: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] الآية، قال عليه السلام: فأي شيء قالوا لكم؟ قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب إبني رجل واحد فيقول أبنائنا وإنما هما إبن واحد قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: والله يا أبا الجارود لأعطينّكها من كتاب الله تسمى بصلب رسول الله ﷺ لا يردها إلا الكافر، قال: قلت: جعلت فداك وأين؟ قال: حيث قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ إلى أن ينتهي إلى قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فسلهم يا أبا الجارود: هل حلّ لرسول الله ﷺ نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم، فكذبوا والله وفجروا،

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ٢/٣٠١، ولسان العرب: ١٢/٢٦٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/٢٢٩، وكشف الغمة: ٢/٨٧.

وإن قالوا: لا، فهما والله ابناه للصّلب وما حرمتا عليه إلا للصلب(١).

قال المحدث العلامة المجلسي: وجه الاحتجاج بالآية الأخيرة هو اتفاقهم على دخول ولد البنت في هذه الآية والأصل في الاستعمال الحقيقة أو أنهم يستدلون بهذه الآية على حرمة حليلة الولد ولا يتم إلا بكونه ولداً حقيقة للصّلب(٢).

وهنا قصة لطيفة

وفي **(البحار)** وجدت في بعض كتب المناقب مرسلاً عن عامر الشعبي أنه قال:

بعث إليّ الحجاج ذات ليلة فخشيت فقمت فتوضأت وأوصيت ثم دخلت عليه فنظرت فإذا نطع منشور والسيف مسلول، فسلّمت عليه فرد عليّ السلام فقال: لا تخف فقد أمنتك الليلة وغداً إلى الظهر، وأجلسني عنده.

ثم أشار فأتى برجل مقيّد بالكبول والأغلال، فوضعوه بين يديه فقال: إن هذا الشيخ يقول: إن الحسن والحسين كانا ابنيّ رسول الله ﷺ ليأتيني بحجة من القرآن وإلا لأضربن عنقه، فقلت: يجب أن تحلّ قيده فإنه إذا احتج فإنه لا محالة يذهب، وإن لم يحتج فإن السيف لا يقطع هذا الحديد، فخلّوا قيوده وكبوله فنظرت فإذا هو سعيد بن جبير فحزنت بذلك وقلت: كيف يجد حجّة على ذلك من القرآن؟ فقال له الحجاج: إئتني بحجة من القرآن على ما ادّعيت وإلا أضرب عنقك، فقال له: إنتظر، فسكت ساعة ثم قال له مثل ذلك، فقال: إنتظر، فسكت ساعة ثم قال له مثل ذلك، فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ثم سكت، وقال للحجاج: إقرأ ما بعده، فقرأ: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٥]، فقال سعيد: كيف يليق هٰهنا عيسى؟ قال: إنه كان من ذريته، قال: إن كان عيسى من ذرية إبراهيم ولم يكن له أب بل كان ابن ابنته فنُسب إليه مع بعده فالحسن والحسين أولى أن يُنسبا إلى رسول الله ﷺ مع قربهما منه، فأمر له بعشرة آلاف دينار، وأمر بأن يحملوها معه إلى داره وأذن له في الرجوع.

قال الشعبي: فلما أصبحت قلت في نفسي: قد وجب عليّ أن آتي هذا الشيخ فأتعلم منه معاني القرآن لأني كنت أظن أني أعرفها. فأتيته فإذا هو في المسجد وتلك الدنانير بين يديه يفرّقها عشراً عشراً ويتصدّق بها، ثم قال: هذا كله ببركة الحسن والحسين ﷺ لئن كنا أغممنا واحداً لقد أفرحنا ألفاً وأرضينّ الله ورسوله(٣).

---

(١) وسائل الشيعة: ٢٠/٤١٦، وبحار الأنوار: ٤٣/٢٣٢ ح ٨.

(٢) البحار: ٩٣/٢٤٠ ح ٣، و٤٣/٢٣٣ ح ٩. (٣) البحار: ٤٣/ ٢٢٧ـ ٢٢٩، وشجرة طوبى: ٢/٣٧٩.

فقد تحصل مما ذكرنا أنه حصل لهما عليهما السلام من النسب ما لم يحصل لغيرهما فإنهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسبطاه وولداه وذرّيتاه وسيّدا شباب أهل الجنة، فجدّهما رسول ربّ العالمين، وأبوهما أمير المؤمنين، وأمهما سيدة نساء العالمين، وهذا هو النسب الذي تتضاءل عنده الأنساب، والشرف الذي أسجل بصحته الأثر والكتاب.

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

فهما عليهما السلام دوحتا النبوة التي طابت فرعاً وأصلاً، وشعبتا الفتوّة التي سمت رفعة ونبلاً، وإنسانا عيني السيادة والفخار، وسليلا الشرف الذي أظهر الخيلاء في مضر ونزار، قد اكتنفهما العز والشرف، فما له عنهما منصرف، وأحاط بهما المجد من طرفيهما، وتصوّرا من الجلالة فكادت أن تقطر من عطفيهما، وتكوّنا من الأريحية فهي تلوح على شمائلهما، تبدو كما يبدو النهار على مخائلهما، وفاقا في طيب الأعراق وطهارة الأخلاق رتبة الأواخر والأوائل، فعلت سماء فضلهما حتى قيل: أين الثريا من يد المتناول، نسبهما يتصل بمحمد صلى الله عليه وآله من قبل الأم بغير فصل، ومن قبل الأب يجتمع في عبد المطلب فأعجب لطيب فرع وذكاء أصل.

أنتم ذوو النسب القصير وطولكم باد على الكبراء والأشراف
الخمر إن قيل ابنة العنب اكتفت بأب من الألقاب والأوصاف

تكميل

قد تقدم في شرح الخطبة المائة والسادسة والتسعين وبعض الخطب المتضمنة لذكر النبي جملة من مناقبه صلى الله عليه وآله، وتقدم في غير موضع من تضاعيف الشرح فصلٌ وافٍ من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وكراماته وفضائله، وفي شرح المختار الواحد والمائتين جملة من مناقب الصدّيقة الكبرى سيدة النساء سلام الله عليها فأحببت أن أذكر هنا شطراً من مناقب الإمامين الهمامين السبطين الزكيين أبي محمد الحسن وأبي عبد الله الحسين عليهما السلام تيمناً بذكر فضائل جميع الخمسة من آل العباء عليهم التحية والثناء، راجياً بذلك مزيد الأجر والذخر يوم الجزاء، وإن كانت مناقبهم الجميلة لا تعد ولا تحصى، ومآثرهم الجليلة لا تحدّ ولا تستقصى، إلا أن الميسور لا يسقط بالمعسور، وعسى أن يدرك المرجوّ بالمقدور.

رويدك إن أحببت نيل المطالب فلا تعد عن ترتيل آي المناقب
مناقب أصحاب الكساء قدوة الورى بهم يبتغي مطلوبه كل طالب
مناقب تجلى سافرات وجوهها ويجلو سناها مدلهما الغياهب
عليك بها سرّاً وجهراً فإنها تحلل عند الله أعلى المراتب

وجد عندما يتلو لسانك آينا | بدعوة قلب حاضر غير غائب
لمن قام في تأليفها واعتنى به | ليقضي من مفروضهم كل واجب
عسى دعوة تزكو بها حسناته | فيحظى من الحسنى بأسنى المواهب

فأقول: روى في **(كشف الغمة)** من كتاب **(معالم العترة الطاهرة)** للجنابذي عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فلما رآهما فنزل فأخذهما ثم صعد فوضعهما في حجره ثم قال: «صدق الله ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] رأيت هذين فلم أصبر حتى أخذتهما»[١].

وعن فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ أنها أتت رسول الله ﷺ ومعها الحسن والحسين عليهما السلام في مرضه الذي توفى فيه قالت: يا رسول الله ﷺ إن هذين لم تورّثهما شيئاً، قال ﷺ: «أما الحسن فله هيبتي وأما الحسين فله جرأتي وجودي»[٢].

وعن عبد الله بن عباس قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبلت فاطمة تبكي، فقال لها النبي ﷺ: «ما يبكيك؟» قالت: يا رسول الله إن الحسن والحسين خرجا فوالله ما أدري أين سلكا.

فقال النبي ﷺ: «لا تبكين فداك أبوك فإن الله عز وجل خلقهما وهو أرحم بهما، اللهم إن كانا قد أُخذا في برّ فاحفظهما، وإن كانا قد أُخذا في بحر فسلّمهما».

فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: يا أحمد لا تغتم ولا تحزن هما فاضلان في الدنيا فاضلان في الآخرة وأبوهما خير منهما وهما في حظيرة بني النجار نائمين، وقد وكّل الله بهما ملكاً يحفظهما.

قال ابن عباس: فقام رسول الله ﷺ وقمنا معه حتى أتينا معه حظيرة بني النجار فإذا الحسن معانق الحسين وإذا الملك قد غطاهما بأحد جناحيه.

قال: فحمل النبي ﷺ الحسن وأخذ الحسين الملك والناس يرون أنه ﷺ حاملهما، فقال أبو بكر وأبو أيوب الأنصاري: يا رسول الله ألا نخفف عنك بأحد الصبيين؟ فقال ﷺ: «دعاهما فإنهما فاضلان في الدنيا فاضلان في الآخرة وأبوهما خير منهما»، ثم قال: «والله لأشرّفنهما اليوم بما شرّفهما الله»، فخطب فقال:

---

(١) كشف الغمة: ٢/١٦٨، وتاريخ دمشق: ١٤/١٦٢.

(٢) دلائل الإمامة للطبري: ٦٩، والبحار: ٤٣/٢٩٣.

«يا أيها الناس، ألا أخبركم بخير الناس جداً وجدة؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الحسن والحسين جدّهما رسول الله ﷺ وجدّتهما خديجة بنت خويلد».

«ألا أخبركم بخير الناس أباً وأُماً؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الحسن والحسين أبوهما علي بن أبي طالب عليه السلام وأمهما فاطمة بنت محمد عليها السلام».

«ألا أخبركم أيها الناس بخير الناس عمّاً وعمة؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الحسن والحسين عمهما جعفر بن أبي طالب وعمتهما أم هاني بنت أبي طالب».

«أيها الناس، ألا أخبركم بخير الناس خالاً وخالةً؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الحسن والحسين خالهما القاسم بن محمد وخالتهما زينب بنت محمد ألا إن أباهما في الجنة وأُمهما في الجنة وجدّهما في الجنة وجدّتهما في الجنة وخالهما في الجنة وخالتهما في الجنة وعمّهما في الجنة وعمتهما في الجنة وهما في الجنة، ومن أحبّهما في الجنة ومن أحب من أحبهما في الجنة»[1].

وفي (البحار) من بعض كتب المناقب القديمة عن محمد بن أحمدبن علي بن شاذان بإسناده عن ابن عباس قال:

كنت جالساً بين يدي النبي ﷺ ذات يوم وبين يديه علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام إذ هبط جبرئيل ومعه تفاحة، فحيّا بها النبي ﷺ وحيّا بها علي بن أبي طالب عليه السلام فتحيا بها عليّ وقبّلها وردها إلى رسول الله، فتحيا بها رسول الله ﷺ وحيّا بها الحسن وتحيّا بها الحسن وقبّلها وردّها إلى رسول الله ﷺ فتحيّا بها رسول الله وحيّا بها الحسين وتحيّا بها الحسين وقبّلها وردّها إلى رسول الله ﷺ فتحيّا بها وحيّا بها فاطمة فتحيّت بها وقبّلتها وردّتها إلى النبي ﷺ، فتحيّا بها الرابعة وحيّا بها علي بن أبي طالب فلما همّ أن يردّها إلى رسول الله ﷺ سقطت التفاحة من بين أنامله فانفلقت بنصفين فسطع منها نور حتى بلغ إلى السماء الدنيا فإذا عليها سطران مكتوبان: «باسم الله الرحمٰن الرحيم تحية من الله إلى محمد المصطفى وعلي المرتضى وفاطمة الزهراء والحسن والحسين سبطي رسول الله وأمان لمحبيهما يوم القيامة من النار»[2].

وعن ابن شاذان عن زاذان عن سلمان قال:

أتيت النبي ﷺ فسلّمت عليه ثم دخلت على فاطمة عليها السلام فقالت: يا أبا عبد الله هذان

---

(١) كفاية الأثر: ٣٦، وكشف الغمة: ٢/١٤٧.

(٢) مائة منقبة: ٢٧، والبحار: ٤٣/٣٠٨ ح ٧٢.

الحسن والحسين جائعان يبكيان فخذ بأيديهما فاخرج بهما إلى جدّهما، فأخذت بأيديهما وحملتهما حتى أتيت بهما إلى النبي ﷺ قال: «ما لكما يا حسناي؟» قالا: نشتهي طعاماً يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «اللهم أطعمهما» ثلاثاً، قال:

فنظرت فإذا سفرجلة في يد رسول الله ﷺ شبيهة بقلّة من حجر أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل وألين من الزبد، فعركها بإبهامه فصيرها نصفين ثم دفع إلى الحسن نصفها وإلى الحسين نصفها، فجعلت أنظر إلى النصفين في أيديهما وأنا أشتهيها قال ﷺ: «يا سلمان هذا طعام من الجنة لا يأكله أحد حتى ينجو من الحساب»[1].

وبإسناده عن الطبراني بإسناده عن سلمان قال:

كنا حول النبي ﷺ فجاءت أم أيمن فقالت: يا رسول الله ﷺ لقد ضلّ الحسن والحسين، وذلك عند ارتفاع النهار، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا فاطلبوا ابنيّ»، فأخذ كل رجل تجاه وجهه وأخذت نحو النبي ﷺ فلم يزل حتى أتى صفح الجبل وإذا الحسن والحسين عليهما السلام ملتزق كل واحد منهما بصاحبه، وإذا شجاع قائم على ذنبه يخرج من فيه شبه النار فأسرع لي «إليه» رسول الله ﷺ فالتفت مخاطباً لرسول الله ﷺ، ثم انساب فدخل بعض الأجحرة، ثم أتاهما فأفرق بينهما ومسح وجوههما وقال: «بأبي وأمي أنتما ما أكرمكما على الله»، ثم حمل أحدهما على عاتقه الأيمن والآخر على عاتقه الأيسر، فقلت: طوبى لكما نعم المطية مطيتكما، فقال رسول الله ﷺ: «ونعم الراكبان هما وأبوهما خير منهما»[2].

وروي في المراسيل أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يكيان، فقال الحسن للحسين عليه السلام: خطي أحسن، وقال الحسين: لا بل خطي أحسن من خطك، فقالا لفاطمة عليها السلام: احكمي بيننا، فكرهت فاطمة عليها السلام أن تؤذي أحدهما، فقالت لهما: سلا أباكما، فسألاه فكره أن يؤذي أحدهما، فقال: سلا جدكما رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «لا أحكم بينكما حتى أسأل جبرئيل»، فلما جاء جبرئيل قال: لا أحكم بينهما ولكن إسرافيل يحكم بينهما، فقال إسرافيل: لا أحكم بينهما ولكن أسأل الله أن يحكم بينهما، فسأل الله ذلك فقال تعالى: «لا أحكم بينهما ولكن أمهما فاطمة تحكم بينهما»، فقالت فاطمة: أحكم بينهما يا رب، وكانت لها قلادة فقالت: أنا أنثر بينكما جواهر هذه القلادة فمن أخذ منها أكثر فخطه أحسن، فنثرتها وكان جبرئيل وقتئذ عند قائمة العرش، فأمره الله تعالى أن يهبط إلى الأرض وينصف الجواهر بينهما كي لا يتأذى أحدهما، ففعل ذلك جبرئيل إكراماً لهما وتعظيماً[3].

---

(١) مائة منقبة: ١٦٢، والبحار: ٣٠٨/٤٣.

(٢) المعجم الكبير: ٣/ ٦٥، ح ٢٦٧٧.

(٣) البحار: ٤٣/ ٣٠٨ـ ٣٠٩.

وروى ركن الأئمة عبد الحميد بن ميكائيل عن يوسف بن منصور الساوي عن عبد الله بن محمد الأزدي عن سهل بن عثمان عن منصور بن محمد النسفي عن عبد الله بن عمرو عن الحسن موسى عن صعدان عن مالك بن سليمان عن ابن جريح عن عطا عن عائشة قالت:

كان رسول الله ﷺ جائعاً لا يقدر على ما يأكل، فقال لي: «هاتي ردائي»، فقلت: أين تريد؟ قال: «إلى ابنتي فأنظر إلى الحسن والحسين فيذهب بعض ما بي من الجوع»، فخرج حتى دخل على فاطمة عليها السلام فقال: يا فاطمة أين إبناي؟ فقالت: يا رسول الله خرجا من الجوع وهما يبكيان، فخرج النبي ﷺ في طلبهما فرأى أبا الدرداء فقال: «يا عويمر هل رأيت ابنيّ؟» قال: نعم يا رسول الله هما نائمان في ظل حائط بني جذعان، فانطلق النبي ﷺ فضمهما وهما يبكيان وهو يمسح الدموع عنهما، فقال له أبو الدرداء: دعني أحملهما، فقال: «يا أبا الدرداء، دعني أمسح الدموع عنهما فوالذي بعثني بالحق نبياً لو قطرت قطرة في الأرض لبقيت المجاعة في أمتي إلى يوم القيامة»، ثم حملهما وهما يبكيان وهو يبكي فجاء جبرئيل عليه السلام فقال: السلام عليك يا محمد رب العزة جل جلاله يقرؤك السلام، ويقول: ما هذا الجزع؟ فقال النبي ﷺ: «يا جبرئيل ما أبكي جزعاً بل أبكي من ذلّ الدنيا»، فقال جبرئيل: إن الله تعالى يقول: أيسرّك أن أحوّل لك أُحداً ذهباً ولا ينقص مما عندي شيء قال ﷺ: «لا»، قال: لم؟ قال: «لأن الله تعالى لم يحب الدنيا ولو أحبها لما جعلها للكافر أكملها»، فقال جبرئيل: أدع بالجفنة المنكوبة التي في ناحية البيت، قال: فدعا بها، فلما حملت فإذا فيها ثريد ولحم كثير، فقال: كل يا محمد واطعم ابنيك وأهل بيتك، قال: فأكلوا وشبعوا قال: ثم أرسل بها إليّ فأكلوا وشبعوا وهو على حالها، قال: ما رأيت جفنة أعظم بركة منها فرفعت عنهم، فقال النبي ﷺ: **«والذي بعثني بالحق لو سكتّ لتداولها فقراء أُمتي إلى يوم القيامة»**[١].

وفي (**البحار**) وجدت في بعض مؤلفات أصحابنا أنه روى مرسلاً من جماعة من الصحابة قالوا:

دخل النبي ﷺ دار فاطمة فقال: «يا فاطمة إن أباك اليوم ضيفك»، فقالت: يا أبت إن الحسن والحسين يطالباني بشيء من الزاد فلم أجد لهما شيئاً يقتاتان به[٢].

ثم أن النبي ﷺ دخل وجلس مع علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام وفاطمة عليها السلام متحيرة ما تدري كيف تصنع، ثم إن النبي ﷺ نظر إلى السماء ساعة وإذا بجبرئيل قد نزل وقال: يا محمد العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك: قل لعليّ

---

(١) البحار: ٤٣/ ٣١٠ ح ٧٢.
(٢) البحار: ٤٣/ ٣١٠ ح ٧٣.

وفاطمة والحسن والحسين أي شيء يشتهون من فواكه الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «يا علي ويا فاطمة ويا حسن ويا حسين إن رب العزّة علم أنكم جياع فأي شيء تشتهون من فواكه الجنة؟» فأمسكوا عن الكلام ولم يردوا جواباً حياء من النبي ﷺ.

فقال الحسين: عن إذنك يا أبتا يا أمير المؤمنين وعن إذنك يا أماه يا سيدة نساء العالمين وعن إذنك يا أخا الحسن الزكي أختار لكم شيئاً من فواكه الجنة.

فقالوا جميعاً: قل يا حسين ما شئت فقد رضينا بما تختاره لنا. فقال: يا رسول الله قل لجبرئيل: إنّا نشتهي رطباً جنيّاً، فقال النبي ﷺ: «قد علم الله ذلك»، ثم قال: «يا فاطمة قومي وادخلي البيت واحضري إلينا ما فيه»، فدخلت فرأت فيه طبقاً من البلور مغطى بمنديل من السندس الأخضر وفيه رطب جنيّ في غير أوانه، فقال النبي ﷺ: «يا فاطمة أنى لك هذا؟» قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب كما قالت مريم بنت عمران.

فقام النبي ﷺ وتناوله وقدّمه بين أيديهم ثم قال: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم**»، ثم أخذ رطبة واحدة فوضعها في فم الحسين عليه السلام فقال: «هنيئاً مريئاً لك يا حسين»، ثم أخذ رطبة فوضعها في فم الحسن عليه السلام وقال: «هنيئاً مريئاً لك يا حسن»، ثم أخذ رطبة ثالثة فوضعها في فم فاطمة الزهراء عليها السلام وقال: «هنيئاً مريئاً لك يا فاطمة الزهراء»، ثم أخذ رطبة رابعة فوضعها في فم علي عليه السلام وقال: «هنيئاً مريئاً لك يا علي»، ثم ناول عليّاً رطبة أخرى ثم رطبة أخرى والنبي ﷺ يقول له: «هنيئاً مريئاً لك»، ثم وثب النبي قائماً ثم جلس ثم أكلوا جميعاً من ذلك الرّطب.

فلما اكتفوا وشبعوا ارتفعت المائدة إلى السماء بإذن الله تعالى.

فقالت فاطمة: يا أبت لقد رأيت اليوم منك عجباً.

فقال ﷺ: «يا فاطمة أما الرّطبة الأُولى التي وضعتها في فم الحسين وقلت له هنيئاً يا حسين فإني سمعت ميكائيل وإسرافيل يقولان هنيئاً يا حسين فقلت أيضاً موافقاً لهما في القول، ثم أخذت الثانية فوضعتها في فم الحسن فسمعت جبرئيل وميكائيل يقولان: هنيئاً لك يا حسن فقلت أنا موافقاً لهما في القول، ثم أخذت الثالثة فوضعتها في فمك يا فاطمة فسمعت الحور العين مسرورين مشرفين علينا من الجنان يقلن: هنيئاً لك يا فاطمة، فقلت موافقاً لهن بالقول، ولما أخذت الرابعة فوضعتها في فم علي عليه السلام سمعت النداء من قبل الحق يقول: هنيئاً مريئاً لك يا علي، فقلت موافقاً لقول الله عز وجل، ثم ناولت عليّاً رطبة أخرى ثم أخرى وأنا أسمع صوت الحق سبحانه يقول: هنيئاً مريئاً لك يا علي، فقلت موافقاً لقول الله، ثم قمت إجلالاً لرب العزّة جلّ جلاله فسمعته يقول: يا محمد ﷺ وعزّتي

وجلالي لو ناولت علياً من هذه الساعة إلى يوم القيامة رطبة رطبة لقلت هنيئاً مريئاً بعد بلا انقطاع»[١].

وروى في بعض الأخبار:

أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله لقد صدت خشفة غزالة وأتيت بها إليك هدية لولديك الحسن والحسين، فقبلها النبي ﷺ ودعا له بالخير، فإذا الحسن واقف عند جده فرغب إليها فأعطاه إياه، فما مضى ساعة إلا والحسين قد أقبل فرأى الخشفة عند أخيه يلعب بها فقال: يا أخي من أين لك هذه الخشفة؟ فقال الحسن: أعطانيها جدي رسول الله ﷺ، فسار الحسين مسرعاً إلى جدّه فقال: يا جدّاه أعطيت أخي خشفة ولم تعطني مثلها، وجعل يكرر القول على جدّه وهو ساكت لكنه يسلّي خواطره ويلاطفه بشيء من الكلام حتى أفضى من أمر الحسين عليه السلام إلى أن همّ يبكي.

فبينما هو كذلك إذ نحن بصياح قد ارتفع من باب المسجد، فنظرنا فإذا ظبية ومعها خشفها ومن خلفها ذئبة تسوقها إلى رسول الله ﷺ وتضربها بأحد أطرافها حتى أتت بها النبي ﷺ.

ثم نطقت الغزالة بلسان فصيح فقالت: يا رسول الله قد كانت لي خشفتان إحداهما صادها الصياد وأتى بها إليك، وبقيت لي هذه الأخرى وأنا بها مسرورة وإني كنت الآن أرضعها فسمعت قائلاً يقول: أسرعي أسرعي يا غزالة بخشفك إلى النبي محمد ﷺ وأوصليه سريعاً لأن الحسين واقف بين يدي جدّه وقد همّ أن يبكي والملائكة بأجمعهم قد رفعوا رؤوسهم من صوامع العبادة، ولو بكى الحسين لبكت الملائكة المقربون لبكائه، وسمعت أيضاً قائلاً يقول: أسرعي يا غزالة قبل جريان الدموع على خدّ الحسين فإن لم تفعلي سلّطت عليك هذه الذئبة تأكلك مع خشفك فأتيت بخشفي إليك يا رسول الله وقطعت مسافة بعيدة ولكن طويت لي الأرض حتى أتيتك سريعة وأنا أحمد الله ربي على أن جئتك قبل جريان دموع الحسين على خدّه، فارتفع التهليل والتكبير من الأصحاب ودعا النبي ﷺ للغزالة بالخير والبركة وأخذ الحسين الخشفة وأتى بها إلى أمه الزهراء فسرّت بذلك سروراً عظيماً[٢].

وروى عن سلمان الفارسي قال:

أُهدي إلى النبي ﷺ قطف من العنب في غير أوانه فقال لي: «يا سلمان ائتني بولديّ

---

(١) البحار: ٤٣/ ٣١١ـ٣١٢.

(٢) البحار: ٤٣/ ٣١٣.

الحسن والحسين ليأكلا معي من هذا العنب»، قال سلمان الفارسي: فذهبت أطرق عليهما منزل أمهما فلم أرهما، فأتيت منزل أختهما أم كلثوم فلم أرهما.

فخبّرت النبي ﷺ بذلك، فاضطرب ووثب قائماً وهو يقول: «واولداه واقرّة عيناه من يرشدني عليهما فله على الله الجنة»، فنزل جبرئيل من السماء وقال: يا محمد على من هذا الانزعاج؟ فقال: «على ولديّ الحسن والحسين فإني خائف عليهما من كيد اليهود»، فقال جبرئيل: يا محمد بل خف عليهما من كيد المنافقين، فإن كيدهم أشد من كيد اليهود، إعلم يا محمد أن ابنيك الحسن والحسين نائمان في حديقة أبي الدحداح.

فسار النبي ﷺ من وقته وساعته إلى الحديقة وأنا معه حتى دخلنا الحديقة وإذا هما نائمان وقد اعتنق أحدهما الآخر وثعبان في فيه طاقة ريحان يروّح بها وجهيهما.

فلما رأى الثعبان النبي ﷺ ألقى ما كان في فِيه فقال: السلام عليك يا رسول الله، لست أنا ثعباناً ولكني ملك من ملائكة الكرّوبيين غفلت عن ذكر ربي طرفة عين فغضب عليّ ربي ومسخني ثعباناً كما ترى وطردني من السماء إلى الأرض ولي منذ سنين كثيرة أقصد كريماً إلى الله فأسأله أن يشفع لي عند ربي عسى أن يرحمني ويعيدني ملكاً كما كنت أولاً إنه على كل شيء قدير.

قال: فجاء النبي ﷺ يقبّلهما حتى استيقظا فجلسا على ركبتي النبي ﷺ.

فقال لهما النبي ﷺ: «أُنظرا يا ولديّ هذا ملك من ملائكة الله الكروبيين قد غفل عن ذكر ربه طرفة عين فجعله الله هكذا وأنا مستشفع بكما إلى الله فاشفعا له».

فوثب الحسن والحسين ﷺ فأسبغا الوضوء وصلّيا ركعتين وقالا: اللهم بحق جدّنا الجليل الحبيب محمد المصطفى، وبأبينا علي المرتضى، وبأمنا فاطمة الزهراء إلا ما رددته إلى حالته الأولى.

قال: فما استتمّ دعاؤهما فإذا بجبرئيل نزل من السماء في رهط من الملائكة وبشّر ذلك الملك برضى الله عنه وبردّه إلى سيرته الأولى ثم ارتفعوا إلى السماء وهم يسبّحون الله تعالى.

ثم رجع جبرئيل إلى النبي ﷺ وهو متبسم، وقال: يا رسول الله إن ذلك الملك يفتخر على الملائكة السبع السماوات ويقول لهم: من مثلي وأنا في شفاعة السيدين السبطين الحسن والحسين ﷺ[1].

---

(١) البحار: ٤٣/ ٣١٤.

وقال: حكي عن عروة البارقي قال:

حججت في بعض السنين فدخلت مسجد رسول الله ﷺ فوجدت رسول الله ﷺ جالساً وحوله غلامان يافعان وهو يقبّل هذا مرة وهذا أخرى، فإذا رآه الناس يفعل ذلك أمسكوا عن كلامه حتى يقضي منهما وما يعرفون لأي سبب حبّه إياهما.

فجئته وهو يفعل ذلك بهما فقلت: يا رسول الله ﷺ هذان ابناك؟ فقال: «إنهما ابنا ابنتي وابنا أخي وابن عمي وأحب الرجال إليّ ومن هو سمعي وبصري ومن نفسه نفسي ونفسي نفسه ومن أحزن لحزنه ويحزن لحزني».

فقلت له: قد عجبت يا رسول الله ﷺ من فعلك بهما وحبك لهما.

فقال ﷺ له: «أحدثك أيها الرجل أني لما عُرِج بي إلى السماء ودخلت الجنة انتهيت إلى شجرة في رياض الجنة فعجبت من طيب رائحتها فقال لي جبرئيل: يا محمد تعجب من هذه الشجرة فثمرها أطيب من ريحها، فجعل جبرئيل يتحفني من ثمرها ويطعمني من فاكهتها وأنا لا أملّ منها، ثم مررنا بشجرة أخرى فقال لي جبرئيل: يا محمد ﷺ كل من هذه الشجرة فإنها تشبه الشجرة التي أكلت منها الثمر فهي أطيب طعماً وأزكى رائحة».

قال: «فجعل جبرئيل يتحفني بثمرها ويشمّني من رائحتها وأنا لا أملّ منها، فقلت: يا أخي جبرئيل ما رأيت في الأشجار أطيب ولا أحسن من هاتين الشجرتين، فقال لي: يا محمد أتدري ما اسم هاتين الشجرتين؟ فقلت: لا أدري، فقال: إحداهما الحسن والأخرى الحسين، فإذا هبطت يا محمد إلى الأرض من فورك فأت زوجتك خديجة وواقعها من وقعتك وساعتك فإنه يخرج منك طيب رائحة الثمر الذي أكلته من هاتين الشجرتين فتلد لك فاطمة الزهراء، ثم زوّجها أخاك علياً فتلد له ابنين فسمّ أحدهما الحسن والآخر الحسين».

قال رسول الله ﷺ: «ففعلت ما أمرني أخي جبرئيل فكان الأمر ما كان، فنزل إليّ جبرئيل بعدما ولد الحسن والحسين فقلت له: يا جبرئيل ما أشوقني إلى تينك الشجرتين، فقال لي: يا محمد إذا اشتقت إلى الأكل من ثمرة تينك الشجرتين فشمّ الحسن والحسين».

قال: فجعل النبي ﷺ كلما اشتاق إلى الشجرتين يشم الحسن والحسين عليهما الصلاة والسلام ويلثمهما وهو يقول: «صدق أخي جبرئيل»، ثم يقبّل الحسن والحسين عليهما السلام ويقول: «يا أصحابي إني أود أني أقاسمهما حياتي لحبي لهما وهما ريحانتاي من الدنيا»، فتعجب الرجل وصف النبي ﷺ للحسن والحسين عليهما السلام[١].

(١) بطوله في البحار: ٤٣/ ٣١٥.

وفي (**كشف الغمة**) قال البغوي يرفعه إلى يعلى قال:

جاء الحسن والحسين يسعيان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ أحدهما فضمّه إلى إبطه وأخذ الآخر فضمه إلى إبطه الأخرى فقال: «هذان ريحانتاي من الدنيا من أحبني فليحبهما»[١].

وفيه عن أبي هريرة قال:

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه حسن وحسين عليهما السلام هذا على عاتقه وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله إنك تحبهما؟ فقال: «من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني»[٢].

أقول: هذه الأخبار أنموذج من مناقب أخبار السبطين سلام الله عليهما وعلى جدهما وأبيهما وأمهما وظهر منها كيف عناية الله تعالى وعناية رسوله صلى الله عليه وآله وإكرامهما في حقهما كما ظهر فرط محبة الرسول صلى الله عليه وآله ومحبة أمير المؤمنين إياهما إلى مرتبة يودّ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقاسمهما حياته كما مر في آخر روايات (**البحار**) ويرضى أمير المؤمنين عليه السلام بأن يخوض بنفسه الشريف في غمرات الحرب ويضنّ بهما ذلك حذراً من انقطاع نسل رسول الله صلى الله عليه وآله حسبما مرّ في هذا الكلام الذي نحن في شرحه.

فلعن الله أُمة بلغت الغاية في العصيان، ووصلت إلى النهاية في إرضاء الشيطان، وأقدمت على أمر عظيم من إسخاط الرحمٰن، كيف سعوا في إطفاء نور الله، وجدّوا في قطع نسل رسول الله صلى الله عليه وآله، وبدّلوا ما وصاهم الله به من مودّة القربى بالعداوة والبغضاء، وما أوصاهم به رسول الله صلى الله عليه وآله من محبة العترة بالشقاوة والشقاء.

فشوهاً لتلك الوجوه التي شوّهها الكفر والفسوق والعصيان، وسوأة لهذه الأمة التي لم تبق شيئاً من مراتب العداوة والعناد والطغيان، فكيف لو شاهدهم النبي صلى الله عليه وآله مع ما أقسموا عليه في حقّ الآل من سفك الدماء، وقتل الرجال، وسبي الحريم، وذبح الأطفال، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

---

(١) كشف الغمة: ٢/ ٢٢٠.

(٢) كشف الغمة: ٢/٢٣، ومصنف عبد الرزاق: ٣/ ٤٧٢ ح ٦٣٦٩.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرت است در بعض ايام جنگ صفين، در حالتى كه ديد پسرش امام حسن (عليه السلام) را مى شتابد به سوى جنگ، فرمود به اصحاب خود:

مالك شويد و ممانعت نماييد به عوض من اين جوان را تا آنكه نشكند بنيه بدن مرا، پس به درستى كه من بخيل ترم به اين دو جوان كه حسن و حسين(عليهما السلام) باشند بر مرگ، مبادا بريده شود به جهت موت ايشان نسل برگزيده پيغمبران رسول خدا (صلى الله عليه و آله).

سيّد رضى (رحمه الله) گفته كه: فرمايش آن حضرت كه فرموده مالك شويد به عوض من از جمله كلام عالى مقام او و متضمّن غايت فصاحت است.

ومن كلام له عليه السلام وهو
المائتان والسابع من المختار
في باب الخطب

وقد رويناه في شرح الخطبة الخامسة والثلاثين من كتاب (صفين) لنصر بن مزاحم باختلاف يسير عرفته، قاله لما اضطرب عليه عليه السلام أصحابه في أمر الحكومة.

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلىٰ ما أُحِبُّ، حَتَّىٰ نَهَكَتْكُمُ الحَرْبُ، وَقَدْ واللَّهِ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنهكَ، لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ اليَوْمَ مَأْمُوراً، وكُنْتُ أَمْسِ ناهِياً، فَأَصْبَحْتُ اليَوْمَ مَنْهِيّاً، وقَدْ أَحْبَبْتُمُ البَقَاءَ، ولَيْسَ لي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلىٰ ما تَكْرَهُونَ»[١].

اللغة

(**نهكته**) الحمّى نهكاً من باب منع وتعب هزلته، ونهكه السلطان عقوبة بالغ فيه، ونهكت الثوب لبسته حتى خلق وبلى (**والحرب**) مؤنث سماعي وقد تذكر ذهاباً إلى معنى القتال فيقال: حرب شديد.

الإعراب

قوله عليه السلام: (**وقد والله أخذت**)، جملة القسم معترضة بين قد ومدخولها جيئت بها لتأكيد الكلام.

المعنى

إعلم أنه قد تقدم في شرح الخطبة الخامسة والثلاثين تفصيل قصة الحكومة وعرفت هناك أن أهل الشام لما ضعفوا عن مقاومة أهل العراق وعجزوا عن مقاتلتهم ورأوا علوّ كلمة الحق وأيقنوا بالهلاك والعطب، عدلوا عن القراع إلى الخداع، فرفعوا المصاحف على الرماح بتدبير ابن النابغة عمرو بن العاص اللعين على وجه الخديعة والمكيدة.

ولما رأى أهل العراق منهم ذلك كفّوا أيديهم عن القتال واجتمعوا عليه عليه السلام وطالبوه بالكفّ عنهم وكانوا في ذلك على أقسام.

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١١/٢٩.

فمنهم من دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف واعتقدوا أنهم لم يرفعوها خديعة وحيلة بل حقاً وعملاً بموجب الكتاب وتسليماً للدين الحق، فرأى أن الاستسلام للحجة أولى من الإصرار على الحرب.

ومنهم من قد كان ملّ من الحرب بطول المدة، فلما رأى شبهة ما يسوغ التعلق بها في رفض المحاربة وحب العافية أخلد إليها.

ومنهم من كان يبغض أمير المؤمنين عليه السلام بالباطن ويطيعه بالظاهر كما يطيع كثير من الناس السلطان ظاهراً ويبغضه باطناً، فلما وجد طريقاً إلى خذلانه وترك نصرته أسرع إليها.

فاجتمع جمهور عسكره إليه عليه السلام وطالبوه الكفّ، فامتنع امتناع عالم بالمكيدة وعرّفهم أنها خدعة وحيلة وقال لهم: إني أعرف بالقوم منكم وأعلم أنهم ليسوا بأهل دين ولا قرآن فلا تغتروا برفعهم للمصاحف وانهدوا إليهم ولم يبق منهم إلا آخر نفسهم، فأبوا عليه ولجّوا وأصرّوا على القعود والخذلان، وطلبوا أن ينفذ إلى الأشتر وسائر المحاربين أن يكفّوا عن الحرب ويرجعوا.

فأرسل إلى الأشتر وأمره بالرجوع، فقال الأشتر: وكيف أرجع وقد لاحت أمارات الظفر؟ وقال له: ليمهلني ساعة واحدة ولم يكن عالماً بصورة الحال، فلما عاد إليه الرسول بذلك غضبوا وشغبوا وقالوا: أنفذت إلى الأشتر سراً تأمره بالجد وتنهاه عن الكفّ وإن لم يعد قتلناك كما قتلنا عثمان.

فرجعت الرسل إلى الأشتر فقالوا له: أتحب أن تظفر بالعدو وأمير المؤمنين قد سلّت عليه خمسون ألف سيف، فقال: ما الخبر؟ قالوا: إن الجيش بأسره قد أحدقوا به وهو جالس بينهم على الأرض تحته نطع وهو مطرق والبارقة تلمع على رأسه يقولون: لئن لم يرجع الأشتر قتلناك.

فرجع فوجد أمير المؤمنين تحت الخطر قد ردوه أصحابه بين الأمرين إن لم يكفّ عن الحرب إما أن يسلموه إلى معاوية أو يقتلوه ولا ناصر له منهم إلا ولداه وابن عمه ونفر قليل لا يبلغ عشرة.

فلما رآهم الأشتر شتمهم وشتموه وأبوا وقالوا: المصاحف المصاحف والرجوع إليها لا نرى غير ذلك، فأجابهم أمير المؤمنين إلى ذلك كرهاً دفعاً للأفسد بالفاسد وقال لهم:

(أيها الناس إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب) من قتال أهل البغي والعدوان واستئصال القاسطين من حزب الشيطان **(حتى)** عاد طاعتكم لي إلى المخالفة ونصرتكم إلى الخذلان والمنابذة، فأبيتم إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة بما **(نهكتكم)** وهزلتكم

(الحرب) بطول مدّتها وثقل أوزارها.

ونبّه على خطئهم في القعود عنها بقوله: **(وقد والله أخذت منكم)** طائفة **(وتركت)** طائفة فلم تستأصلكم بالمرة بل بقيت منكم بقية **(وهي لعدوكم)** أنكى و **(أنهك)** إذ لم يبق منهم إلا حشاشة ضعيفة، فإن القتل في أهل الشام كان أشد استحراراً والوهن فيهم أظهر، ولولا فساد أهل العراق لاستؤصل الشام وخلص إلى معاوية فأخذه بعنقه، ولم يكن قد بقي من قوّة أهل الشام إلا حركة المذبوح ومثل حركة ذنب الوزغة عند قتلها يضطرب يميناً وشمالاً.

ثم أخذ في التشكي منهم بسوء فعلهم فقال: **(لقد كنت أمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً)** لا يخفى حسن المقابلة بين القرينتين وهو من مقابلة الثلاثة بالثلاثة وكذا في قوله: **(وكنت أمس ناهياً فأصبحت اليوم منهياً)** ثم ساق الكلام مساق التعريض والتقريع فقال: **(وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون)** من القتال والقتل، وعدم حمله لهم على ذلك إما لعدم القدرة أو لعدم اقتضاء المصلحة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

الترجمة

از جمله کلام معجزنظام آن امام انام (عليه السلام) است که فرموده آن را هنگامی که مضطرب شدند و اغتشاش نمودند اصحاب او بر او در امر حکومت حکمین، پس فرمود آن بزرگوار به ایشان:

ای مردمان، به درستی که ثابت بود امر من و شما بر چیزی که دوست می داشتم تا اینکه لاغر و ضعیف نمود شما را حرب و کارزار و حال آنکه قسم به خدا آن حرب بعض شما را فرا گرفت و بعضی را فرو گذاشت و از برای دشمن زیادتر موجب لاغری آنها شد، به تحقیق بودم دیروز امیر شما، پس گردیدم امروز مامور و بودم دیروز نهی کننده و گردیدم امروز نهی شده و به تحقیق دوست داشتید زندگانی را و نیست مرا که الزام نمایم شما را بر چیزی که مکروه طبع شما است.

ومن كلام له عليه السلام بالبصرة وهو المائتان والثامن من المختار في باب الخطب

وهو مروي في (شرح) المعتزلي باختلاف تعرفه إن شاء الله، وروى بعض فقراته في (الكافي) أيضاً مسنداً بسند نذكره في التكملة الآتية.

قال الرضي رضي الله عنه: وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعوده، فلما رأى سعة داره قال عليه السلام:

«ما كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هٰذِهِ الدَّارِ في الدُّنْيا، أما أَنْتَ إِلَيْها في الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ، وبَلىٰ إنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وتُطْلِعُ مِنْهَا الحُقُوقَ مَطالِعَها، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ».

فَقَالَ لَهُ عليه السلام العَلاءُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عاصِمَ بْنِ زِيادٍ قالَ عليه السلام: وما لَهُ؟ قالَ: لَبِسَ العَباءَ وَتَخَلّىٰ مِنَ الدّنْيا، قال عليه السلام: **عَلَيَّ بِهِ، فَلَمّا جاءَ قالَ:**

«يا عُدَيَّ نَفْسِهِ، لَقَدِ اسْتَهامَ بِكَ الخَبِيثُ، أما رَحِمْتَ أَهْلَكَ ووَلَدَكَ، أَتَرىٰ الله أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّباتِ وهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَها، أَنْتَ أَهْوَنُ عَلىٰ الله مِنْ ذٰلِكَ، قال: يا أَمِير المُؤْمِنِينَ هٰذا أَنْتَ في خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ، قال عليه السلام: وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ الله تَعالىٰ فَرَضَ عَلىٰ أَئِمَّةِ الحَقِّ أَنْ يَقْدِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلا يَتَبَيَّغَ بِالفَقِيرِ فَقْرُهُ»[١].

اللغة

(وسع) المكان القوم ووسع المكان يسع أي اتّسع يتعدّى ولا يتعدّى والمصدر سعة بفتح السّين وبه قرأ السبعة في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وكسرها لغة وبه قرأ بعض التابعين قال الفيومي قيل: الأصل في المضارع الكسر ولهذا حذفت الواو لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة ثم فتحت بعد الحذف لمكان حرف الحلق، ومثله يهب ويقع ويدع ويلغ ويطأ ويضع، والحذف في يسع ويطأ مما ماضيه مكسور شاذّ لأنهم قالوا: فعل بالكسر مضارعه يفعل بالفتح واستثنوا أفعالاً ليست هذه منها.

و **(قريت)** الضعيف أقريه من باب رمى و **(عديّ نفسه)** تصغير عدو، وأصله عديو

(١) البحار: ٤٠/٣٣٦ ح ١٨، والكافي: ١/٤١٠.

فحذفت إحدى الواوين وقلبت الثانية ياء تخفيفاً ثم أدغمت ياء التصغير فيها و **(هام)** يهيم خرج على وجهه لا يدري أين يتوجه فهو هائم واستهام بك أي جعلك هائماً، وقال الشارح البحراني: أي أذهبك لوجهك وزيّن لك الهيام وهو الذهاب في التّيه.

و **(الملبس)** و **(المأكل)** مصدران بمعنى المفعول، وطعام **(جشب)** ومجشوب غليظ، وقيل: الذي لا أدام معه و **(أئمة الحق)** في بعض النسخ أئمة العدل بدله و **(يقدروا)** أنفسهم في بعض النسخ بالتخفيف مضارع قدر من باب ضرب وفي بعضها بالتثقيل والمعنى واحد مأخوذان من القدر بمعنى التضييق، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] أو بمعنى قياس الشيء بالشيء، ويقال أيضاً: هذا قدر هذا وقدره أي مماثلة و **(البيغ)** ثوران الدم وتبيّغ عليه الأمر اختلط والدم هاج وغلب.

الإعراب

قوله: **(ما كنت تصنع)**، **(كان)** هنا زائدة كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] وقوله: **(أما أنت)** (اه) **(أما)** حرف إستفتاح يبدأ بها الكلام وفائدتها المعنوية توكيد مضمون الجملة التي بعدها، قال نجم الأئمة: وكأنها مركبة من همزة الإنكار وحرف النفي والإنكار نفي ونفي النفي إثبات، ركب الحرفان لإفادة الإثبات والتحقيق وفائدتها اللفظية كون الكلام بعدها مبتدأ به، وفي بعض النسخ (ما أنت) بدل **(أما أنت)** وعليه فتكون (ما) موصولة بدلاً من الدار أو من شقه والأول أظهر.

وقوله: **(إليها متعلق)** بقوله: **(أحوج)**، وكذا قوله: **(في الآخرة)**، وقوله: **(وبلى)** إستدراك عن الجملة السابقة، قال الفراء: أصلها بل زيدت عليها الألف للوقف، وقال نجم الأئمة: لفظة بل التي تليها الجمل للانتقال من جملة إلى أخرى أهم من الأولى، قال: وتجيء بعد الاستفهام أيضاً كقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ـ ١٦٦].

أقول: ويكون (بلى) هنا بمعنى الاستدراك أدخلت عليها الواو كما تدخل على لكن، ويجوز جعلها عاطفة للجملة على الجملة ولكن جعلها اعتراضية أظهر من حيث المعنى.

وجملة: **(تقرى فيها الضيف)** يجوز أن تكون حالاً من قوله بها، ويجوز أن تكون استئنافاً بيانياً فإنه عليه السلام لما قال له: **(إن شئت بلغت بها)**، فكأنه سئل عن كيفية البلاغ فقال: **(تقرى فيها)**.

وقوله: **(عليّ به)**، إسم فعل أي ائتوني به، قال نجم الأئمة: يقال عليك زيداً أي خذه

كأن الأصل عليك أخذه وأما **(عليّ)** بمعنى أدلّني فهو مخالف للقياس من وجه آخر إذ هو أمر لكن الضمير المجرور به في معنى المفعول يقال على زيداً أي قرّبنيه والقياس أن يكون المجرور فاعلاً، وقوله: **(يا عديّ نفسه)** يحتمل أن يكون التصغير للتحقير، وأن يكون للتعظيم كما في قول الشاعر:

وديـــهــيــة تــصــفــرّ مــنــهــا الأنــامــل

وجملة: **(لقد إستهام بك)**، جواب قسم مقدّر **(والباء)** زائدة، وأما **(رحمت)** حرف تنديم **(وأترى الله)** إستفهام توبيخي، وقوله: **(هذا أنت في خشونة ملبسك)**، الظرف حال من أنت لأنه في المعنى مفعول لمدلول هذا، أي أُشير إليك حال كونك في خشونة (اه) ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧١] أي أنبه عليه أو أُشير إليه شيخاً.

المعنى

إعلم أن هذا الكلام قاله بالبصرة وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعوده ويتفقّد حاله لمرضه، فلما رأى عليه السلام سعة داره قال:

(ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا) إستفهام وارد معرض التوبيخ والإنكار لما صنعه لمنافاته الزهد المطلوب ولما نبه على ذلك أردفه بقوله: **(أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج)** تنبيهاً له على كون السعة محتاجاً إليها في الآخرة مزيد الاحتياج، وذلك لكون الدنيا دار فناء وانقطاع والآخرة دار قرار وبقاء، ومعلوم أن إصلاح المقر أولى من الممر، والحاجة إليه فيه أزيد وأشد.

ثم استدرك بقوله: **(وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة)** يعني أنك بعدما فرطت في توسعتها وبنائها يمكن لك تدارك ذلك بأن تجعلها بلاغاً وصلة ووسيلة إلى اتساع الدار الآخرة بأن **(تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم)** والقرابة **(وتطلع منها الحقوق مطالعها)** أي تخرج فيها الحقوق المالية الواجبة والمندوبة من الخمس والزكاة والصدقات وصنائع المعروف والحق المعلوم للسائل والمحروم وسائر وجوه البر المقرّبة إلى الله سبحانه وتضعها في مواضعها اللائقة وتصرفها في مصارفها المستحقة.

وقال الشارح البحراني: مطالع الحقوق وجوهها الشرعية المتعلقة به كالزكاة والصدقة وغيرهما، والأظهر بل الأولى ما ذكرناه.

وكيف كان فالمراد أنك إن أتيت فيها بالقربات والحسنات وأقمت بإخراج الحقوق المفروضات والمندوبات **(فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة)** وأحملت «جمعت ظ» بينها وبين

الدنيا **(فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد قال: وما له؟ قال: لبس العباء وتخلّى من الدنيا)**.

قيل: المراد بلبس العباء جعلها شعاراً أو ترك القطن ونحوه والاكتفاء بلبسها في الصيف والشتاء وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «يكون في آخر الزمان قوم يلبسون الصوف في صيفهم وشتائهم يرون لهم بذلك الفضل على غيرهم أولئك يلعنهم ملائكة السماوات والأرض»، انتهى[1].

أقول: والأظهر أن المراد أنه اقتصر بلبس العباء وترك الدنيا بالمرة ولم يأخذ منها سواها.

(قال عليه السلام: عليّ به) أي ائتوني به واحضروه لديّ **(فلما جاء قال** عليه السلام: **يا عديّ نفسه)**.

قال الشارح البحراني: صغّره استصغاراً له باعتبار أن شيطانه لم يقده إلى كبيرة بل قاده إلى أمر وإن كان خارجاً به عن الشريعة إلا أنه قريب من السلامة ودخل عليه بالخدعة في رأي الصالحين، وقيل: بل صغّره من جهة حقارة فعله ذلك لكونه عن جهل منه، انتهى.

والأظهر أن يكون التصغير للتعظيم، والغرض منه استعظامه لعداوته لها باعتبار ظلمه عليها، وذلك لأن لنفسه ولكل من جوارحه عليه حقاً.

وقد روينا في شرح الخطبة التاسعة والثمانين في ضمن أخبار محاسبة النفس من الوسائل من الخصال ومعاني الأخبار عن عطا عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث قال: «وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها صنع الله إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال فإن هذه الساعة معينة لتلك الساعات، واستجمام للقلوب وتفريغ لها».

وفي **(البحار)** من كتاب **(تنبيه الخاطر)** قيل: إن سلمان رضي الله عنه جاء زائراً لأبي الدرداء فوجد أُم الدرداء مبتذلة، فقال: ما شأنك؟ قالت: إن أخاك ليست له حاجة في شيء من أمر الدنيا، قال: فلما جاء أبو الدرداء رحّب لسلمان وقرّب إليه طعاماً فقال لسلمان: أطعم، فقال: إني صائم، قال: أقسمت عليك إلا ما أطعمت، فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: وبات عنده فلما جاء الليل قام أبو الدرداء فحبسه سلمان فقال: يا أبا الدرداء إن لربك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فصم وافطر وصلّ ونم وأعط كل ذي

(١) أمالي الطوسي: ٥٣٩ ح ١١٦٢.

حق حقه، فأتى أبو الدرداء النبي ﷺ فأخبره بما قال سلمان، فقال ﷺ مثل قول سلمان[١].

وقوله: **(لقد استهام بك الخبيث)** أي جعلك هائماً متحيراً لا تدري ما تفعل وأين تذهب؟، وفيه تنبيه على أن تركه للدنيا لم يكن عن خالص العقل، بل كان بمداخلة الشيطان وشوب الهوى، وذلك بما كان في فعله ذلك من الإخلال بجملة من الحقوق الواجبة شرعاً عليه من حق الأهل والأولاد كما أشار إليه بقوله:

(أما رحمت أهلك وولدك) إستفهام في معرض التوبيخ والإنكار، لإعراضه عنهم وتركه لهم وعدم ترحمه عليهم، وقد جعل الله تعالى عليه حقاً.

كما يدل عليه ما رواه في **(البحار)** من كتاب **(تحف العقول)** في رسالة علي بن الحسين عليه السلام المعروفة برسالة الحقوق، قال عليه السلام:

وأما حق أهل بيتك عامة، فإضمار السلامة، ونشر جناح الرحمة، والرفق بمسيئهم، وشكر محسنهم إلى نفسه وإليك فإن إحسانه إلى نفسه إحسانه إليك إذا كف عنك أذاه وكفاه مؤنته وحبس عنك نفسه، فعمهم جميعاً بدعوتك وانصرهم جميعاً بنصرتك، وأنزلهم جميعاً منك منازلهم، كبيرهم بمنزلة الوالد، وصغيرهم بمنزلة الولد، وأوسطهم بمنزلة الأخ.

وفي هذه الرسالة أيضاً: وأما حق ولدك فتعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره وأنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه والمعونة له على طاعته فيك وفي نفسه فمثاب على ذلك ومعاقب، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا المعذر إلى ربّه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه والأخذ له منه ولا قوة إلا بالله[٢].

وفي **(البحار)** من الفقه الرضوي أروي عن العالم عليه السلام، أنه قال لرجل: ألك والدان؟ فقال: لا، فقال: ألك ولد؟ قال: نعم، قال له: برّ ولدك يحسب لك برّ والديك[٣].

وروى أنه قال: برّوا أولادكم وأحسنوا إليهم فإنهم يظنون أنكم ترزقونهم.

وفي **(الفقيه)** قال الصادق عليه السلام: برّ الرجل بولده برّه بوالديه[٤].

وفي خبر آخر: من كان عنده صبي فليتصابّ له[٥].

(١) المجموع للنووي: ٦/٣٨٨، وصحيح ابن حبان: ٢/٢٤.
(٢) تحف العقول: ٢٦٣، والبحار: ٧١/١٥ ح ٢.
(٣) البحار: ٧١/٧٧.
(٤) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٤٨٣ ح ٤٧٠٦.
(٥) وسائل الشيعة: ٢١/٤٨٦ ح ٩٠، وعوالي اللئالي: ٣/٣١١.

وفي (**الوسائل**) من (**الكافي**) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله ليرحم العبد لشدة حبه بولده[١].

وعن كليب الصيداوي قال: قال أبو الحسن عليه السلام: إذا وعدتم الصبيان ففوا لهم فإنهم يرون أنكم الذين ترزقونهم، إن الله عز وجل ليس يغضب لشيء كغضبه للنساء والصبيان[٢].

وفي (**الكافي**) في كتاب (**المعيشة**) في باب الحث على الطلب والتعرض للرزق عن معلى بن خنيس قال: سأل أبو عبد الله عليه السلام عن رجل وأنا عنده، فقيل: أصابته الحاجة، فقال: ما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه، قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: والله الذي يقوته أشدّ عبادة منه[٣].

وفيه عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: من طلب الدنيا استعفافاً عن الناس وسعياً على أهله وتعطفاً على جاره لقى الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر[٤].

ثم أنكر عليه ثانياً بقوله: (**أترى الله أحلّ لك الطيبات**) من الرزق والفاخرات من اللباس (**وهو يكره أن تأخذها**) ونبّه بهذه الجملة الإنكارية على أن التخلية من الدنيا بالكلية ليست مطلوبة للشارع، لأنها توجب اختلال نظام العالم، وفيه نقض لغرض الشارع ومقصوده الذي هو عمارة الأرض وبقاء النوع الإنساني حيناً من الدهر ومدة من الزمان التي اقتضت الحكمة الإلٰهية والمشيئة الربانية بقائه إلى تلك المدة ليعبدوه ويوحدوه سبحانه فيها، لأن التعمير والتمدن وبقاء النوع لا يحصل ولا يتم إلا بتعاون أبناء النوع وتشاركهم على القيام بمصالح البقاء ولوازمه وترك الدنيا والإعراض عنها مناف لذلك الغرض البتة وفي قوله عليه السلام: (**أترى الله أحل لك الطيبات**)، تلميح إلى قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أي من حرّم الثياب التي تتزين بها الناس وسائر ما يتجمل به مما أخرجها الله من الأرض لعباده من القطن والكتان والإبريشم والصوف والجواهر والمستلذات من المآكل والمشارب.

روى في (**الصافي**) من (**الكافي**) عن الصادق عليه السلام: بعث أمير المؤمنين عبد الله بن عباس إلى ابن الكوّا وأصحابه وعليه قميص رقيق وحلّة، فلما نظروا إليه قالوا: يا ابن عباس أنت خيرنا في أنفسنا وأنت تلبس هذا اللباس؟ قال: وهذا أول ما أخاصمكم فيه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ

---

(١) الكافي: ٦/ ٥٠ ح ٥.

(٢) الكافي: ٦/ ٥٠ ح ٨.

(٣) الكافي: ٥/ ٧٨ ح ٤.

(٤) تهذيب الأحكام: ٦/ ٣٢٤ ح ٨٩٠.

﴿زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾، وقال الله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١](١).

وعن الصادق عليه السلام أنه كان متكئاً على بعض أصحابه فلقيه عباد بن كثير وعليه عليه السلام ثياب مروية فقال: يا أبا عبد الله إنك من أهل بيت النبوة وكان أبوك وكان فما لهذه الثياب المروية عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب؟ فقال له: ويلك يا عباد من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق إن الله عز وجل إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يراها عليه ليس بها بأس، ويلك يا عباد إنما أنا بضعة من رسول الله فلا تؤذوني وكان عباد يلبس ثوبين من قطن(٢).

وفي (شرح) المعتزلي روى أن قوماً من المتصوّفة دخلوا بخراسان على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقالوا له: إن أمير المؤمنين فكّر فيما ولاّه الله من الأمور فرآكم أهل البيت أولى الناس أن تؤموا الناس ونظر فيكم أهل البيت فرآك أولى الناس بالناس فرأى أن يرد هذا الأمر إليك والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشب ويلبس الخشن ويركب الحمار ويعود المريض، فقال عليه السلام لهم: إن يوسف كان نبياً يلبس أقبية الديباج المزرورة بالذهب، ويجلس على متكئات آل فرعون ويحكم، إنما يراد من الإمام قسطه وعدله، إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز، إن الله لم يحرّم لبوساً ولا مطعماً، ثم قرأ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢](٣).

وقال ابن عباس في قوله: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢] يعني أن المؤمنين يشاركون المشركين في الطيبات في الدنيا فأكلوا من طيبات طعامهم، ولبسوا من جياد ثيابهم، ونكحوا من صالح نسائهم، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء.

وفي (**الصافي**) من (**الأمالي**) عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: واعلموا يا عباد الله إن المتقين حازوا عاجل الخير وآجله، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباحهم الله الدنيا ما كفاهم وأغناهم، قال الله عز وجل: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ الآية، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم من طيبات ما يأكلون، وشربوا من طيبات ما يشربون، ولبسوا من أفضل ما يلبسون، وسكنوا من أفضل ما يسكنون، وتزوّجوا من أفضل ما يتزوجون، وركبوا من

(١) الكافي: ٦/ ٤٤١ ح ٦.
(٢) الكافي: ٦/ ٤٤٣ ح ١٣.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١١/ ٣٤.

أفضل ما يركبون، وأصابوا لذّة الدنيا مع أهل الدنيا، وهم غداً جيران الله يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة، فإلى هذا يا عباد الله يشتاق إليه من كان له عقل، هذا[١].

وقوله عليه السلام: **(أنت أهون على الله من ذلك)** يعني: أن أفعال الله سبحانه وأحكامه ليست كأفعال خلقه وأحكامهم، فربما يعطى الواحد منا مالاً لآخر مع عدم طيب نفسه به بل على كره منه له أو يأذن له أن يسكن في منزله باقتضاء مصلحة لاحظها فيه من مداراة معه ونحوها مع كراهة له باطناً، وأما الله القادر القاهر العزيز ذو السلطان فأجلّ وأعلى من أن يكون ما أعطاه وأحلّه لعباده من باب المصانعة والمجاملة، لأنهم أهون عنده تعالى من ذلك، وأي ملاحظة للخالق من مخلوقه الذليل، ومداهنة للقاهر من مقهوره الضعيف المقيّد بقيد الرقية والعبودية.

(قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت) إمامنا وقدوتنا حال كونك **(في خشونة ملبسك)** حيث قنعت من اللباس بطمريه **(وجشوبة مأكلك)** حيث اقتصرت من الطعام بقرصيه، فينبغي لنا أن نتأسى ونأتم بك ونحذو حذوك.

(قال عليه السلام: ويحك) كلمة رحمة قالها شفقة وعطوفة **(إني لست كأنت)** يعني أن تكليفي الشرعي غير تكليفك، وأشار إلى وجه المغايرة، بقوله:

(إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس) أي يضيقوا على أنفسهم في المعاش بضيق الفقراء والضعفاء أو يقيسوا أنفسهم بهؤلاء ويكونوا شبيهاً بهم.

(كيلا يتبيغ) ويغلب **(بالفقير فقره)** فيقل صبره فيعطب، وذلك فإن الفقير إذا رأى إمامه ومقتداه بزيّ الفقراء ومعاشه مثل معاش المساكين كان له تسلية عما يتجرّعه من غصص الفقر ونغص المسكنة، هذا.

ويؤيد ما ذكره عليه السلام من أن الفرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بالضعفاء:

ما رواه في **(الصافي)** عن الصادق عليه السلام أنه قيل له: أصلحك الله ذكرت أن علي بن أبي طالب كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك ونرى عليك اللباس الجيّد، فقال عليه السلام له: إن علي بن أبي طالب كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهر به، فخير لباس كل زمان لباس أهله غير أن قائمنا عليه السلام إذا قام لبس ثياب علي بن أبي طالب عليه السلام وسار بسيرته[٢].

---

(١) أمالي الطوسي: ٢٧، وتفسير الصافي: ٢/١٩٣.

(٢) الكافي: ١/٤١١، وتفسير الصافي: ٢/١٩٢.

فإنه يستفاد منه أن القائم عند ظهوره يسير سيرة أمير المؤمنين عليه السلام، ويسلك مسلكه في اللباس وغيره، لكونه مطمح نظر العموم كأمير المؤمنين، وأما سائر الأئمة فلا، وما أجاب الصادق عليه السلام به للسائل فجواب إقناعي لإسكاته، والجواب الحقيقي ما قاله عليه السلام في المتن من أن لا يتبيّغ بالفقير فقره.

تكملة

قال الشارح المعتزلي: واعلم أن الذي رويته عن الشيوخ ورأيته بخط أحمد بن عبد الله بن الخشاب:

أن الربيع بن زياد الحارثي أصابه نشّابة في جبينه فكانت تنتقض عليه في كل عام، فأتاه علي عليه السلام عائداً فقال: كيف تجدك يا أبا عبد الله؟ قال: أجدني يا أمير المؤمنين لو كان لا يذهب ما بي إلا بذهاب بصري لتمنيت ذهابه، قال: وما قيمة بصرك عندك؟ قال: لو كانت الدنيا لفديته بها، قال: لا جرم ليعطينك الله على قدر ذلك إن الله يعطي على قدر الألم والمصيبة وعنده تضعيف كثير، قال الربيع: يا أمير المؤمنين ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخي؟ قال عليه السلام: وما له؟ قال: لبس العباء وترك الملاء وغمّ أهله وحزن ولده، فقال عليه السلام: ادعوا لي عاصماً، فلما أتاه عبس وجهه وقال: ويحك يا عاصم أترى الله أباح لك اللذات وهو يكره ما أخذت منها لأنت أهون على الله من ذلك، أو ما سمعته يقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ [الرحمٰن: ١٩]؟، ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٣]، وقال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢] أما والله ابتذال نِعَم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال، وقد سمعتم الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، وقوله: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أن الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض نسائه: «ما لي أراك شعثاء مرهاء سلتاء؟»، قال عاصم: فلم اقتصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن وأكل الجشب؟ قال عليه السلام: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا ما لأنفسهم بالقوام كيلا يتبيّغ بالفقير فقره، فما قام علي عليه السلام حتى نزع عاصم العباء ولبس ملاءة[1].

قال الشارح: والربيع بن زياد هو الذي افتتح بعض خراسان، وأما العلاء بن زياد الذي ذكره الرضي رحمه الله فلا أعرفه لعل غيري يعرفه.

---

(١) البحار: ٤٢/ ١٧٤ ح ٣٤، والشعثاء: ذات الشعر المتلبد، والمرهاء: التي فسدت وابيضت بواطن أجفانها، والسلتاء: التي قطع أنفها.

أقول: ويؤيد ما ذكره الشارح رواية الكليني، فإنه روى في **(الكافي)** في باب سيرة الإمام عن علي بن محمد عن صالح بن أبي حماد وعدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد وغيرهما بأسانيد مختلفة في احتجاج أمير المؤمنين على عاصم بن زياد حين لبس العباء وترك الملاء وشكاه أخوه الربيع بن الزياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قد غمّ أهله وأحزن ولده بذلك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: عليّ بعاصم بن زياد، فجيء به، فلما رآه عبس في وجهه فقال له: أما استحييت من أهلك، أما رحمت ولدك؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أخذك منها أنت أهون على الله من ذلك أو ليس الله يقول: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾ [الرحمن: ١٠ـ ١١]، أو ليس الله يقول: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ١٩ـ ٢٢] فبالله لابتذال نِعَم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، فقال عاصم: يا أمير المؤمنين فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الجشوبة وفي ملبسك على الخشونة؟ فقال: ويحك إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره، فألقى عاصم بن زياد العباء ولبس الملاء[1]، اللهم وفقنا لطاعتك بمحمد وآله.

تنبيه

على مذهب الصوفية وهداية

إعلم أنه قد ظهر لك إجمالاً من هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام الذي نحن في شرحه أن سلوك نهج العبودية بغير ما قرره صاحب الشريعة زيغ وضلال، ووزر على سالكه ووبال، وأنه من إستهامة الشيطان اللعين وتسويله وتمويه النفس وتدليسه، فأحببت باقتضاء المقام ومناسبته بسط المقال في هذا المرام والتنبيه على ضلال أقوام زاغوا عن نهج الرشاد ونكبوا عن طريق السداد، ونبذوا أمر الله وراء ظهورهم واشتغلوا بالمجادلات الكلامية والهذيانات الفلسفية وأبدعوا عبادات مخترعة، وأعرضوا عن حقائق علوم الدين والملّة، ودقائق أسرار الكتاب والسنّة، وسمّوا أنفسهم بالمتصوفة والصوفية.

وقبل الشروع في المقصود لا بد من تمهيد مقدمة شريفة وهي:

إنه لا شك أن الغرض الأصلي والمقصود بالذات من خلق الإنسان هو العبودية والعرفان، كما شهد به الكتاب المكنون في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

(١) الكافي: ١/ ٤١١ ح ٣.

[الذاريات: ٥٦] كما لا شك أيضاً أن المقصود من بعث الأنبياء والرسل وإنزال الصحف والكتب لم يكن إلا ذلك، أعني جذب الخلق إلى الحق الأول عز وجل وأنهم ﷺ على كثرتهم واختلاف شرائعهم لم يكن غرضهم إلا شيئاً واحداً وهو التنفير عن الدنيا والترغيب إلى العقبى والقطع عن الخلق والوصل إلى الحق والإرشاد والدلالة على الصراط المستقيم المؤدي إليه والمحصّل للقرب والزلفى لديه.

فبعثهم الله إلى الناس بما شرع لهم من الدين ليدلوهم عليه ويعلموهم كيفية السلوك إليه ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة.

فهم ﷺ أدلاء سبل الحق، والهادون إليها، والمعلّمون لكيفية سلوكها بما أتوا به من الشرائع والأديان التي شرعها الله تعالى لطفاً منه في حق عباده، ولم يتركهم سبحانه وآراءهم ولم يكلهم في سلوك سبيله إلى عقولهم الناقصة وأهوائهم المختلفة وآرائهم المتشتتة، فليس لهم أن يسلكوا طريق عبوديته بما يستحسنه العقول.

وقد ورد في أخبار كثيرة أن دين الله لا يصاب بالعقول، وأنه لا شيء أبعد عن دين الله من عقول الرجال.

ولو كانت العقول كافية عن سلوك سبيل العبودية لم تكن إلى بعث الأنبياء والحجج حاجة، كما أنه لو كان ما يرتضيه العقول ويخترعه من العبادات مرضياً عند الرب مطلوباً له تعالى لم يكن داع إلى جعل الأديان والشرائع التي شرعها وبعث بها الأنبياء ﷺ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

فقد علم بذلك أن اللازم على العبد إذا أراد أن يعبد الله ويتقرب إليه أن يعبده بالعبادات المجعولة في الشريعة الموظفة المشروحة فيها ماهية وهيئة وكماً وكيفاً ووقتاً وعدداً بآدابها الموظفة وشرائطها المقررة وأركانها وأجزائها المختصة وسننها المعينة وغيرهما مما جعله صاحب الشرع وشرعه.

لأن المطلوب للحق والمقرّب إليه ليس إلا ولا يقبل عزَّ وجل من العبادات إلا ما أرسل به حججه وأنطق به ألسنتهم.

ومن ذلك: أن الشيطان اللعين لما أبى من السجود لآدم ﷺ الذي كان مأموراً به ومطلوباً له تعالى مع أنه قال: يا رب أعفني من السجود لآدم وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرّب ولا نبي مرسل، صار مستحقاً للطرد والإبعاد من حيث أراد أن يعبد الله من غير الوجه الذي كان مأموراً به، وقد قال الله له: لا حاجة لي في عبادتك إنما أُريد أن أُعبد من

حيث أريد لا من حيث تريد، على ما مر في رواية علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام في أول تنبيهات شرح الفصل الحادي عشر من الخطبة الأولى[١].

وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وإتيان البيوت من الأبواب هو الأخذ بقول الحجج والرجوع في سلوك نهج الحق إليهم، كما يدل عليه رواية **(الصافي)** عن أمير المؤمنين المتقدم في شرح الفصل الرابع من الخطبة الأولى.

ومر هنا رواية علي بن إبراهيم عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: **ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضى الرحمٰن الطاعة للإمام بعد معرفته أما لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته ما كان له على الله حق في ثوابه**[٢].

فحاصل الكلام وملخص المرام أن العبادة المحصلة للقرب والزلفى هي العبادة المتلقاة من بيوت النبوة والولاية، والمعلومة الثبوت في الكتاب والسنّة فما لم يعلم ثبوتها فيهما مثل ما علم عدم ثبوتها بدعة وضلالة موجبة لسخط الرحمٰن ورضى الشيطان، مؤدّية إلى العذاب الأليم والخزي العظيم.

إلا أن جماعة من العامة والجهال الخاصة غفلوا عما قررناه في هذه المقدمة واستبدوا بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، وسلكوا السبيل من غير دليل وأضلّهم الشيطان وضلّوا عن سواء السبيل، ومع ذلك يزعمون أنهم أهل السلوك والمعرفة والزهد والقشف والرياضة.

وهم قوم يسمون بأهل الذكر والتصوف، يدعون البراءة من التصنع والتكلف، يلبسون خرقاً، ويجلسون حلقاً، يخترعون الأذكار، ويتغنون بالأشعار، ويغلبون بالتهليل، وليس لهم إلى العلم والمعرفة دليل، إبتدعوا شهيقاً ونهيقاً، واخترعوا رقصاً وتصفيقاً، قد خاضوا في الفتن، وأخذوا بالبدع دون السنن، رفعوا أصواتاً بالنداء، وصاحوا صيحة الشقاء، أمن الضرب يتألمون؟ أم من الطعن يتظلمون؟ أم مع أكفائهم يتكلمون؟ إن الله لا يسمع بالصماخ، ولا يحتاج في سماعه إلى الصراخ، أتنادون باعداً؟ أم توقظون راقداً؟ تعالى الله لا تأخذه السّنة، ولا تحيط به الألسنة، سبّحوه تسبيح الحيتان في البحر، وادعوه تضرعاً

(١) راجع درر الأخبار: ١٢٠ ح ٤.

(٢) شرح أصول الكافي: ٨/ ٦٣، ووسائل الشيعة: ١/ ١١٩ ح ٢.

وخيفة دون الجهر، إنه ليس منكم ببعيد، بل هو أقرب إليكم من حبل الوريد.

وأنت إذا عرفت ما مهّدناه في هذه المقدمة فاستمع لما يتلى عليك من شرح حال هذه الطائفة وبيان عقائدهم ومذاهبهم ووجه تسميتهم، وما ورد من العلماء والعترة الطاهرة سلام الله عليهم في طعنهم والإزراء عليهم وتفصيل ذلك في مقامات.

المقام الأول في وجه تسميتهم بالصوفية

وذكروا فيه أقوالاً:

الأول: وهو الأشهر أن اشتقاقها من الصوف، سمّوا بها للبسهم الصوف في الصيف والشتاء، وهذا الوجه هو المستفاد من الأخبار الآتية.

ورووا عن أنس بن مالك أنه قال: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبيد تواضعاً، ويركب الحمار غير مستنكف، ويلبس الصوف غير متكلف.

وقال الحسن البصري: لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف والشعر.

وفي رواية الجمهور أيضاً عن إمامهم البيهقي المشهور نقلاً عن عبد الله بن مسعود أنه قال: كانت الأنبياء يركبون الحمار، ويلبسون الصوف، ويحلبون الشاة.

وفي **(البحار)** من إكمال الدين بإسناده عن الحسين بن مصعب عن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس لا أدعهنّ حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوبي الحمار موكفاً، وحلب العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان لتكون سنّة من بعدي»[1].

وفي بعض كتب أصحابنا ولقد روي عن رسول الله ﷺ بطريق أهل البيت عليهم السلام أن عيسى ابن مريم كان يلبس الصوف والشعر، ويأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم كلّم الله موسى كان عليه جبّة من صوف، وسراويل من صوف، وقلنسوة مدوّرة من صوف، ونعلاه من جلد»[2].

ويستفاد من هذه الأخبار وغيرها مما لا حاجة إلى إيرادها أن لبس الصوف مندوب شرعاً وأنه لباس الأنبياء والأئمة والصلحاء.

ولكن هذه الطائفة لما كان لبسهم له تكلفاً وتصيّداً وقصداً للإشتهار وإظهاراً للفضل كما

---

(١) علل الشرائع: ١٠/ ١٣٠، باب ١٠٨، والبحار: ٦٣/ ٤١٣.

(٢) سنن الترمذي: ٣/ ١٣٨ ح ١٧٨٨، ومسند أبي يعلى: ٨/ ٣٩٩.

قال عليه السلام في الخطبة الثانية والثلاثين في تعديد أصناف الناس: ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه فتحلّى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة وليس من ذلك في مراح ولا مغدى، لا جرم كان ذلك موجباً للإزراء عليهم.

ويشهد بما ذكرته النبوي المتقدم في شرح قوله عليه السلام في المتن: لبس العباء وتخلّى من الدنيا حيث قال لأبي ذر: قوم يلبسون الصوف في الصيف والشتاء يرون لهم بذلك الفضل على غيرهم، الحديث[1].

الثاني: أنه مأخوذ من الصوف لا بالمعنى المتقدم بل بمعنى آخر نقلوه عن جنيدهم البغدادي أنه قال: الصوفي مشتق من الصوف والصوف ثلاثة أحرف: صاد وواو وفاء، والصاد صبر، وصدق، وصفاء، والواو ودّ، وورد، ووفاء، والفاء فرد، وفقر، وفناء.

الثالث: أنهم سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله كان يسكنها فقراء المهاجرين، وكانت مسقفة بجريد النخل وكانوا أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر يدرسون القرآن بالليل ويرضحون النوى بالنهار، ويحتطبون على ظهورهم، ويغزون مع كل سرية، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وأكثر أصحابه يؤانسونهم ويأكلون معهم، ويتعاهدونهم بالمبرات.

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً إليهم وشاهد منهم فقرهم وطيب نفوسهم بالشدة فقال: «أبشروا يا أهل الصفة، إن من أمتي من كان على حالكم ووصفكم ونعتكم التي أنتم عليها إنكم وإنهم رفقائي في الجنة».

وقد رتبهم أبو نعيم الحافظ في (حليته) على ترتيب حروف المعجم ذكر من مشاهيرهم سلمان وأبا ذر وعمار وصهيب وبلال وأبا هريرة وخباب بن الأرت وحذيفة بن اليمان وأبا سعيد الخدري وبشر بن الخصاصية وأبا مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله كان هؤلاء أزهدهم وأعملهم بالكتاب والسنّة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنهم يلبسون الصوف ويخيطون ثيابهم بالأغصان الدقيقة من الشجر.

ونقل في وصفهم: أنهم كانوا أضياف الإسلام إلا أن بعضهم زلت قدمه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وركن إلى الدنيا ومال إلى حطامها كأبي هريرة وصهيب، والذين ثبتت قدمهم في الفقر والزهد سلمان وأبو ذر وحذيفة وبلال وأبو سعيد، فإنهم كانوا من السابقين الراجعين إلى أمير المؤمنين عليه السلام وكانوا يسمون بالشيعة.

---

(١) أمالي الطوسي: ٥٣٩، ومكارم الأخلاق: ٤٧١.

قال أمين الإسلام الطبرسي في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨] إن الآية نزلت في سلمان وأبي ذر وصهيب وغيرهم من فقراء أصحاب النبي ﷺ.

وذلك إن المؤلفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ عينية بن الحصين والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا: يا رسول الله إن جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح ضئنانهم ـ وكانت عليهم جبات الصوف ـ جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك فلا يمنعنا من الدخول إلا هؤلاء، فلما نزلت الآية قام النبي ﷺ يلتمسهم فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله عزَّ وجل فقال ﷺ: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أُمتي معكم المحيا والممات»، انتهى[1].

والحاصل أن الصوفية على زعمهم وادعائهم لما شاكلت حالهم حال أهل الصفة لكونهم مجتمعين متألّفين مصاحبين لله وفي الله قديماً وحديثاً في الربط والزوايا قيل لهم: صوفية، وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي إلا أن يراعى فيه الخفة على اللسان، ولا بأس به من حيث المعنى.

الرابع: أن هذه النسبة إلى صوفة كما يقال: الكوفي للمنتسب إلى كوفة، وبني صوفة جماعة من العرب كانوا يتزهدون ويتقللون من الدنيا، فنسب هذه الطائفة إليهم، وفي (**القاموس**) صوفة أبو حيّ من مضر، وهو الغوث بن مرّ بن آر بن طابخة كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج في الجاهلية أي يفيضون بهم من عرفات، أو هم قوم من أفناء القبائل تجمّعوا فتشبكوا كتشبك الصوفة، وكذا في (**الصحاح**) وغيره من كتب اللغة.

المقام الثاني

في ابتداء ظهور هذه الطائفة على اختلاف الأقوال والروايات

فأقول: قال المحدث الجزائري: إن هذا الإسم وهو التصوف كان مستعملاً في فرقة من الحكماء الزائغين عن طريق الحق، ثم قد استعمل بعدهم في جماعة من الزنادقة أي من الهنود والبراهمة، وبعد مجيء الإسلام استعمل في جماعة من أهل الخلاف كالحسن البصري وسفيان الثوري وأبي هاشم الكوفي ونحوهم، وقد كانوا في طرف من الخلاف مع الأئمة عليهم السلام، فإن هؤلاء المذكورين قد عارضوا الأئمة وباحثوهم وأرادوا إطفاء نور الله

(١) بحار الأنوار: ١٧/ ٤١.

بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون إلى أن قال: وقد استمر الحال إلى هذه الأعصار وما قاربها.

ثم إن جماعة من علماء الشيعة طالعوا كتبهم واطلعوا على مذاهبهم فرأوا فيها بعض الرّخص والمسامحات مثل قولهم بأن الغناء المحرّم هو الذي يستعمل في مجالس أهل الشرب وأهل الفسوق، فأباحوا أفراد الغناء وأنواعه لمتابعيهم وكانوا من أهل العلم والناس يميلون إلى من يسهل إليهم مثل هذه الأمور التي كان للنفس منها إلْتِذَاذُ، وكتركهم التزويج وإقبالهم على الغلمان الحسان، والعجب من بعض الشيعة كيف مالوا إلى هذه الطريقة مع اطلاعه على أنها مخالفة لطريقة أهل البيت إعتقاداً وأعمالاً.

وقال أيضاً: والدواعي لهم على اختراع هذا المذهب أمور:

الأول: ما نقل أن خلفاء بني أمية وبني العباس لعنهم الله كانوا يحبون أن يحصّلوا رجالاً من أهل العبادة والزهادة والتكلم ببعض المغيبات وإن لم تقع، لأجل معارضات الأئمة الطاهرين عليهم السلام وعلمهم وزهدهم وكمالاتهم حتى يصغروا أهل البيت وأطوارهم في أعين الناس، فلم يجدوا أحداً يقدم على هذا سوى هذه الفرقة الضالة، فمن هذا مال إليهم سلاطين الجور لعنهم الله وبنوا لهم البقاع وحملوا إليهم الأموال وطلبوا منهم الدعاء في مطالب دنياهم وقاسوهم بأهل البيت عليهم السلام، وأين الثريا من يد المتناول.

الثاني: سهولة هذا المسلك وصعوبة طريق العلم، فإن العامي منهم قد يجلس في بيت ضيق مظلم أربعين يوماً، وربما ترائى له إخوانه من الجن والشياطين فإذا خرج صار من رؤسائهم وحصل له درجة العالم الذي يحصلها في خمسين سنة وأكثر، بل ربما كان اعتبار هذا بين رعاع الناس أزيد من اعتبار ذلك العالم.

الثالث: أن هذا المذهب شرك لصيد الأولاد وجمع الأموال والجاه والاعتبار ونحو ذلك.

وقال أبو القاسم القشري الصوفي العامي في محكى كلامه من رسالته المعروفة بـ **(القشرية)**:

إعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لم يتسمّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول صلى الله عليه وآله إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثاني سمى من صحب الصحابة التابعين ورأوا ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعى أن

فيهم زهاداً فانفردوا خواص أهل الشريعة المراعون أنفسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة، انتهى.

ومن كتاب (**نفحات الأنس**) أن أول من اخترع له هذا الإسم أبو هاشم الكوفي الشامي الصوفي المعاصر مع السفيان الثوري.

وفي كتاب (**حديقة الشيعة**) أنه كان يلبس ثياباً خشنة من الصوف كالرهبان ويقول بالحلول والاتحاد لنفسه كالنصارى في عيسى عليه السلام، وكان في الظاهر أموياً جبرياً، وفي الباطن ملحداً دهرياً، والطائفة التي ينتسب إليه باعتبار لباسه تسمى صوفية سواء لبست الصوف أو لم تلبس، وبهشمية وأبو هاشمية باعتبار كنيته وعثمانية وشريكية لأن اسمه واسم أبيه عثمان بن شريك.

قال في (**حديقة الشيعة**): وكان غرض هذا الملعون من وضع مذهب التصوف هدم مذهب الإسلام، وقد ورد من الأئمة عليهم السلام أحاديث في طعنه.

ولما رأى سفيان الثوري طريقته إستحسنه وأضاف إليه الرؤية والصورة والتشبيه والتجسيم ووسع دائرة التصوف، فنسبت هذه الفرقة إليه، فقالوا: ثورية وسفيانية ثم نسبت إلى أبي يزيد البسطامي فسميت باليزيدية والبسطامية، ثم بملاحظة قولهم بالحلول والاتحاد سميت حلولية واتحادية، ثم لما بالغ بعضهم في الاتحاد وقال بوحدة الوجود سميت وحدتية، ونسبت إلى حسين بن منصور الحلاج فقيل منصورية وحلاجية، وبملاحظة غلوّهم في المشايخ وزعمهم حلول الحق فيهم قيل لهم: غالية وغاوية، ولمكرهم وخديعتهم وتفتينهم للناس قيل لهم: زراقية وخداعية.

ولما اخترعوا مذهباً متضمناً للرهبانية والنصرانية والكفر والإسلام سماهم الأئمة عليهم السلام مبتدعة، ولكونهم من أهل الرياء سموا مرائية، ولوضعهم التصوف سماهم العلماء بالمتصوفة، ولكثرة صلفهم سموا بالمتصلّفة، ولهم أسماء أُخرى وأشهر ألقابهم وأسمائهم الصوفية والمتصوفة والمتصلفة والمبتدعة والزراقية والغلات والغالية والحلاجية، انتهى كلامه رفع الله مقامه في أعلى عليين مع الذين أنعم عليهم بنعمة الإيمان وألبسهم لباس الكرامة والشرف.

المقام الثالث في عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الباطلة

وقد حققنا عقائدهم الفاسدة وبينا أعمالهم الباطلة إن شاء الله وثبتنا أن عقائدهم مخالفة للشريعة الطاهرة بالدلائل العقلية والنقلية بعون الله الملك المتعال.

أما العقائد، فمنها

إعتقادهم بالحلول والإتحاد، وقد نسب أكثر المتكلمين من الفريقين وغيرهم في مبحثي الحلول والإتحاد من كتبهم الكلامية هاتين النسبتين إلى هذه الفرقة الضالة خذلهم الله تعالى.

قال المحقق الطوسي في رسالته الموسومة بـ **(قواعد العقائد)**:

ومنها، أي من الصفات السلبية، أنه تعالى لا يمكن أن يكون في جهة أو حين أو محل لاحتياج ما يكون كذلك إلى الحيز والمحل، وكذلك لا يمكن أن يشار إليه إشارة حسية، وخالفت المشبهة والمجسمة في ذلك إذ قالوا في جهة فوق أو جسم لا كغيره من الأجسام، وذهب بعض الصوفية إلى جواز حلوله في قلوب أوليائه ولعل مرادهم غير ما يعنى به من حلول الأعراض في محلها، انتهى.

وقال العلامة في شرح هذه الرسالة الموسومة بـ **(كشف الفوائد)**:

ذهب المحققون إلى أنه تعالى لا يمكن أن يكون في جهة أو محاذاة ولا في حيّز ومكان ولا في محل يحل فيه حلول العرض في محله، لأن كل ما كان كذلك كان مفتقراً إلى الجهة والحيّز والمحل بالضرورة لاستحالة حلول الغنى عن المحل فيه والاحتياج ينافي الوجوب، وهذا المعنى لا يمكن أن يشار إليه إشارة حسية بأنه هنا أو هناك لتوقف ذلك على الحصول في الحيز والجهة والمحل، وخالفت المجسمة والمشبهة في ذلك فقالوا: إن الله في جهة فوق وإنه جسم لا كالأجسام وقد تقدم بطلانه وقال بعض الصوفية: بأنه تعالى حال في قلوب العارفين، فإن عنوا به حلول العرض في المحل فهو باطل بما تقدم، وإن عنوا به شيئاً آخر فلا بد من بيانه[١].

وقال المحقق الطوسي في تلك الرسالة:

ولا يجوز عليه الاتحاد وهو صيرورة الشيئين شيئاً واحداً، بأن ينتفي أحدهما ويبقى الآخر أو ينتفيا معاً، ويحدث شيء آخر، فإن ذلك محالاً عقلاً، وقال قوم من القدماء: كل من تعقل شيئاً تعقلاً تاماً اتحد بمعقوله ذلك، وإليه ذهب جمع من الصوفية، وذلك بالمعنى الذي ذكرناه غير معقول.

وقال العلامة في الشرح:

الإتحاد يطلق على صيرورة شيئين شيئاً آخر، بأن يعدم عن الأول شيء ويحدث فيه آخر

---

(١) راجع شرح أصول الكافي: ٣/ ٥٢ـ ٢١٤.

كما يقال: صار الماء هواء، فإن الصورة المائية زالت واتصفت بالصورة الهوائية أو بأن يمتزج شيئان ويحدث صورة ثالثة مغايرة للأول كما يقال: صار الخشب سريراً، وهذان ممكنان لكن إطلاق الاتحاد عليهما بنوع من المجاز، وهذا المعنى وإن كان ممكناً في حق غيره تعالى إلا أنه يستحيل في حقه أيضاً لاستحالة انفعاله عن الغير وصيرورته جزءاً من غيره.

وأما الإتحاد الحقيقي وهو صيرورة الشيئين شيئاً واحداً لا بأحد المعنيين بل بأن ينتفي الذاتان ويتحدا إحداهما بالأخرى فهذا ضروري البطلان.

فإن الشيئين إن بقيا بعد الاتحاد بحالهما فهما إثنان، وإن عدم أحدهما فلا اتحاد لاستحالة اتحاد المعدوم بالموجود، وإن عدما معاً ووجد ثالث فلا اتحاد بل إعدام شيء وإيجاد آخر.

وذهب فرفوريوس بعد المعلم الأول إلى أن من عقل شيئاً اتحدت ذاته بذلك المعقول، وإليه ذهب الرئيس في المبدأ والمعاد، لأن الصورة العقلية إذا حلت الجوهر العاقل بالقوة صيرته عقلاً بالفعل وإنما يكون كذلك مع الاتحاد وإلا لكان ما هو بالقوة بعد القوة والملازمة ممنوعة.

ثم لو اتحد العاقل بمعقوله لزم أن لا يعقل إلا شيئاً واحداً أو يتحد الذوات المعقولة في أنفسها أيضاً وقوم من الصوفية إن الله تعالى يتحد بأبدان العارفين والكل غير معقول بالمعنى الذي ذكرناه.

وقال الفاضل المقداد في شرحه على الباب الحادي عشر:

قال: أي العلامة «قد»: ولا يجوز أن يكون في محل وإلا افتقر إليه ولا في جهة وإلا لافتقر إليها.

أقول: هذان وصفان سلبيان، الأول إنه ليس في محل خلافاً للنصارى وجمع من المتصوفة والمعقول من الحلول هو قيام موجود بموجود على سبيل التبعية: فإن أرادوا هذا المعنى فهو باطل، وإلا لزم افتقار الواجب وهو محال، وإن أرادوا غيره فلا بد من تصوره أولاً ثم الحكم عليه بالنفي والإثبات، انتهى ما أهمّنا نقله.

وقال أيضاً في شرح قول العلامة «قد» ولا يتحد بغيره لامتناع الاتحاد مطلقاً.

أقول: الإتحاد يقال على معنيين: مجازي وحقيقي، أما المجازي فهو صيرورة الشيء شيئاً آخر بالكون والفساد، إما من غير إضافة شيء آخر كقولهم: صار الماء هواء وصار

الهواء ماء، أو مع إضافة شيء آخر كما يقال: صار التراب طيناً بانضياف الماء إليه، **وأما الحقيقي** فهو صيرورة الشيئين الموجودين شيئاً واحداً موجوداً.

إذا تقرّر هذا فاعلم أن الأول مستحيل عليه تعالى قطعاً لاستحالة الكون والفساد عليه، وأما الثاني فقد قال بعض النصارى إنه اتحد بالمسيح فإنهم قالوا: اتّحدت لاهوتية الباري مع ناسوتية عيسى، وقال النصيرية،: إنه اتحد بعلي عليه السلام وقال بعض المتصوفة: أنه اتحد بالعارفين، فإن عنوا غير ما ذكرناه فلا بد من تصوره أولاً ثم يحكم عليه، وإن عنوا ما ذكرناه فهو باطل قطعاً لأن الاتحاد مستحيل في نفسه فيستحيل إثباته لغيره، وأما استحالته فهو أن المتحدين بعد اتحادهما إن بقيا موجودين فلا اتحاد، لأنهما إثنان لا واحد، وإن عدما معاً فلا اتحاد بل وجد ثالث، وإن عدم أحدهما بقي الآخر فلا اتحاد أيضاً لأن المعدوم لا يتحد بالموجود.

وقال الشيخ المفيد «قد» في (**شرح عقائد الصدوق**):

الحلاجية حزب من أصحاب التصوف وهم أصحاب الإباحة والقول بالحلول، ولم يكن الحلاج يتخصص بإظهار التشيع وإن كان ظاهر أمره التصوف، وهم قوم ملحدة زنادقة يموّهون بمظاهرة كل فرقة بدينهم ويدعون للحلاج الأباطيل ويجرون في ذلك مجرى المجوس ودعواهم لزردشت المعجزات ومجرى النصارى في دعواهم لرهبانهم الآيات البينات، والنصارى والمجوس أقرب إلى العبادات منهم وهم أبعد من الشرائع والعمل بها من النصارى والمجوس[١].

وقال الشارح القوشجي في شرح (**إلهيات التجريد**):

ذهب بعض المتصوفة إلى أنه تعالى يحل في العارفين والنصارى إلى حلوله في عيسى، فإن أرادوا بالحلول هذا المعنى فباطل، وإن أرادوا أنه غير ذلك فلا يمكن نفيه أو إثباته إلا بعد تصور ما هو المراد.

وقال الشارح البحراني في كتاب (**قواعد العقائد**) له:

أنه تعالى لا يتحد بغيره، خلافاً للنصارى وبعض الحكماء السابقين وبعض المتصوفة.

لنا أن المراد من الاتحاد إن كان صيرورة الشيئين شيئاً واحداً كما هو المفهوم من لفظه فهو باطل، لأن المتحدين إن بقيا موجودين فلا اتحاد، وإن عدما معاً فالموجود غيرهما فلا اتحاد أيضاً، وإن عدم أحدهما دون الآخر فلا اتحاد إذ المعدوم لا يتحد بالموجود، وإن

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية: ١٣٤.

أرادوا به معنى آخر فلا بد من إفادة تصوره لننظر فيه.

وقال شارح (**الطوالع**):

حكى القول بالاتحاد والحلول عن النصارى وجمع من المتصوفة، فإنه حكى عن النصارى أنهم قالوا: إتّحدت الأقانيم الأب والابن وروح القدس واتحدت ناسوت المسيح واللاهوت وحل الباري في عيسى، وحكى عن جمع من المتصوفة أنهم قالوا: إذا انتهى العارف نهاية مراتبه انتهى هويته وصار الموجود هو الله سبحانه، وهذه المرتبة هي الفناء في التوحيد، وقالوا: إن الله تعالى يحل في العارفين، فإن أرادوا بالاتحاد والحلول ما ذكرناه فقد بان فساده، وإن أرادوا به غيره لا بد من تصوره أولاً ليتأتى التصديق به نفياً أو إثباتاً، فإنه لا يمكن نفيه وإثباته إلا بعد تصور ما هو المراد.

وقال المحدث العلامة المجلسي في (**عقائده**):

والقول بحلوله تعالى في غيره كما قال بعض الصوفية والغلاة، أو اتحاده مع غيره كما قاله بعض الصوفية، أو أن له تعالى صاحبة أو ولداً أو شريكاً كما قاله النصارى، أو أنه تعالى جسم أو أن له مكاناً كالعرش وغيره، أو جزءاً أو عضواً فكل ذلك كفر إلى غير ذلك مما حكوه عنهم وشنّعوا عليهم.

ثم لما رأى المتأخرون منهم فساد ما قاله متقدّموهم وبطلانه، وشناعته وجهوا كلامهم بأن مرادهم به وحدة الوجود لا الاتحاد والحلول، وهو من قبيل دفع الفاسد بالأفسد وتوجيه الشنيع بالأشنع.

وقال صاحب (**الشوارق**) فيه:

قد اشتهر من مشايخ الصوفية القول بوحدة الوجود وأن الوجودات بل الموجودات ليس بمتكثرة في الحقيقة بل هناك موجود واحد قد تعددت شؤونه وتكثرت أطواره ثم قال: ولما كان ذلك بحسب الظاهر وبالمعنى المتبادر مخالفاً لما يحكم به بديهة العقل من تكثر الموجودات بالحقيقة لا بمجرد الاعتبار تصدّى كثير من المحققين لتوجيه كلامهم، انتهى.

وقال القيصري في (**شرح الفصوص**) لمحيي الدين:

حقيقة الوجود إذا أخذت بشرط أن لا يكون معها شيء فهي المسماة عند الصوفية بالمرتبة الأحدية المستهلكة جميع الأسماء والصفات فيها، ويسمى جمع الجمع وحقيقة الحقائق والعماء أيضاً، وإذا أخذت بشرط شيء، فإما أن يؤخذ بشرط جميع الأشياء اللازمة لها كليّها وجزئيها المسماة بالأسماء والصفات فهي المرتبة الإلٰهية المسماة عندهم بالواحدية

ومقام الجمع، وهذه المرتبة باعتبار إيصال مظاهر الأسماء التي هي الأعيان والحقائق إلى كمالاتها المناسبة لاستعداداتها في الخارج تسمى مرتبة الربوبية، وإذا أخذت لا بشرط شيء آخر ولا بشرط لا شيء فهي المسماة بالهوية السارية في جميع الموجودات، وإذا أخذت بشرط ثبوت الصور العلمية فيها فهي مرتبة الإسم الباطن المطلق والأول والعليم ورب الأعيان الثابتة ـ إلى أن قال ـ وإذا أخذت بشرط الصور الحسية العينية فهي مرتبة الإسم المصور ورب العالم الخيال المطلق والمقيد. وإذا أخذت بشرط الصور الحسية الشهادتية فهي مرتبة الاسم الظاهر المطلق والآخر ورب عالم الملك، ومرتبة الإنسان الكامل عبارة عن جميع المراتب الإلٰهية والكونية من العقول والنفوس الكلية والجزئية ومراتب الطبيعة إلى آخر تنزلات الوجود، ويسمى بالمرتبة العمائية أيضاً فهي المضاهية للمرتبة الإلٰهية، ولا فرق بينهما إلا بالربوبية والمربوبية، ولذلك صار خليفة الله، وإذا علمت هذا علمت الفرق بين المراتب الإلٰهية والربوبية والكونية، انتهى.

وقال صاحب **(الشوارق)** في گوهر مراد في الفصل الذي ساقه لبيان كيفية صدور المعلول من العلة ما محصّله:

إن الصوفية قالوا: إن صدور المعلول من العلة عبارة عن تنزّل العلة بمرتبة وجود المعلول وتطورها بطور المعلول ومن هنا تفطنوا بوحدة الوجود بمعنى أن الوجود حقيقة واحدة سارية في جميع الموجودات، وليست مهيات الممكنات إلا أموراً اعتبارية والموجودات بأسرها مظاهر تلك الحقيقة الواحدة بحيث لا يلزم الاتحاد والحلول، لأنهما فرع الأثنينية ولا موجود إلا واحد.

قال: وفهم هذا المعنى بغاية الإشكال لأنهم ادعوا أن فهم ذلك لا يتيسر بالعقول المتعارفة بل بالرياضة والمجاهدة وبطور وراء طور العقل، وهو فناء السالك في سلوكه من نفسه وعقله ومن جميع المعقولات والموهومات فضلاً عن المحسوسات وقصره همته في التوجه إلى الحق وذكره له بلسانه وقلبه بحيث لا يخطر بقلبه سواه ولا يبقى في قلبه غيره حتى يغيب عن نفسه حال ملاحظته لجلال الله، وإن لاحظها فمن حيث هي لاحظه لا من حيث هي مزينة بزينة الحق، بل لا يكون الذكر أيضاً ملحوظاً فضلاً عن الذاكر.

قال: وإذا داوم السالك على ذلك يفيض عليه نور من أنوار الإلٰهية يشاهد به حقائق الأشياء على ما هي عليها كما يشاهد المحسوسات بحس البصر.

قال: ونحن اعتقدنا بإمكان صدق هذه الدعوى بحسن ظننا بالسلف، وليس المراد بهذا النور المذكور نور يفاض عليه من الخارج، بل نور مودع في نفس الإنسان ذواته، والغرض من الرياضة والمجاهدة تصفيته وتجليته من الأكدار الطبيعية والحسية والخيالية والوهمية، وإذا

حصلت التصفية والتجلية بالرياضات العلمية والعملية والاعتقاد بالعقائد الحقة صار هذا النور من القوة إلى الفعل، ويرى به الأشياء ويشاهدها بعين اليقين، اللهم بلّغنا إلى ذلك المقام العالي بإخراجنا عن هذا المنزل الفاني البالي، انتهى ما أهمنا نقله من كلامه.

وقد سلك هذا المسلك صدر المتألهين وصرّح به في كتبه الكلامية وغيرها في موارد كثيرة.

قال في الفصل الأول من **(إلٰهيات الأسفار)** الذي ساقه لإثبات وجود الواجب تعالى والوصول إلى معرفة ذاته ما هذه عبارته:

إعلم أن الطرق إلى الله كثيرة لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض، وأسدّ البراهين وأشرفها هو الذي لا يكون الوسط في البرهان غيره بالحقيقة، فيكون الطريق إلى المقصود هو عين المقصود، وهذه سبيل الصديقين الذين يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله واحداً بعد واحد.

وذلك لأن الربانيين ينظرون إلى الوجود يحققونه ويعلمون أنه أصل كل شيء ثم يصلون بالنظر إليه إلى أنه بحسب حقيقته واجب الوجود، وأما الإمكان والحاجة والمعلولية وغير ذلك فإنما يلحقه لا لأجل حقيقته بل لأجل نقائص وإعدام خارجة عن أصل حقيقته، ثم بالنظر فيما يلزم الوجوب والإمكان يصلون إلى توحيد ذاته وصفاته ومن صفاته إلى كيفية أفعاله.

وتقريره أن الوجود كما مر حقيقة عينية واحدة بسيطة لا اختلاف بين أفرادها لذاتها إلا بالكمال والنقص والشدة والضعف أو بأمور زائدة كما في أفراد ماهية نوعية وغاية كمالها ما لا أتم منه وهو الذي لا يكون متعلقاً بغيره ولا يتصور ما هو أتم منه، إذ كل ناقص متعلق بغيره مفتقر إلى إتمامه.

فإن الوجود إما مستغن عن غيره، وإما مفتقر لذاته إلى غيره، والأول هو واجب الوجود وهو صرف الوجود الذي لا أتم منه ولا يشوبه عدم ولا نقص، والثاني هو ما سواه من أفعاله وآثاره ولا قوام لما سواه إلا به لما مر أن حقيقة الوجود لا نقص لها وإنما يلحقه النقص لأجل المعلولية، وقد مر أن الوجود إذا كان معلولاً كان مجعولاً بنفسه جعلاً بسيطاً وكان ذاته بذاته مفتقراً إلى جاعل، وهو متعلق الجوهر والذات بجاعله.

فإذن قد ثبت واتضح أن الوجود إما تام الحقيقة واجب الهوية، وإما مفتقر الذات إليه متعلق الجوهرية، وعلى أي القسمين ثبت وتبين وجود واجب الوجود غنيّ الهوية عما سواه - إلى أن قال بعد جملة من النقص والإبرام:

فإذن حقيقة الوجود في كل موجود بحسبه وأما الوحدة التي تجمع الكل فهي ليست نوعية ولا جنسية بل ضرباً آخر من الوحدة لا يعرفها إلا الكاملون.

وقال في (**شرح الكافي**) في شرح الحديث الأول من باب جوامع التوحيد:

(**توحيد عرشي**) إعلم أن ذاته تعالى حقيقة الوجود بلا حد، وحقيقة الوجود لا يشوبه عدم، فلا بد أن يكون بها وجود كل الأشياء وأن يكون هو وجود الأشياء كلها، إذ لو كانت تلك الذات وجود الشي بعينه أو الأشياء بعينها ولم تكن لشيء آخر أو لأشياء أخرى لم يكن حقيقة الوجود، وقد فرضناها حقيقة الوجود أو حقيقة الشيء وصرفه لا يتعدد كالإنسان مثلاً فإنه لا يمكن أن يتعدد من حيث هو إنسان، وليس التعدد في زيد وعمرو إلا بأمر خارج عن حقيقة الإنسانية، فحقيقة الوجود لا يتعدد إلا بشيء خارج، ولكن الخارج ليس إلا العدم إذ المعاني والمهيات تابعة للوجود والعدم ليس بشيء ثابت فثبت أن لا تعدد في الوجود إلا من جهة الإعدام والنقائص.

فإذن لما كان واجب الوجود محض حقيقة الوجود الصرف الذي لا أتم منه فلا خارج عنه إلا النقائص العدمية والإعدام فهو كل الذوات ولا يشذّ عنه شيء من الموجودات من حيث كونه موجوداً بل من حيث كونه ناقصاً أو معدوماً.

وقال في شرح الحديث الأول من باب أدنى المعرفة:

إعلم أن للتوحيد وسائر معارف الإيمان أربع درجات كقشر الجوز، وقشر قشره، ولبّه، ولبّ لبّه.

الدرجة **الأولى**: أن يقول باللسان: لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافق.

والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما يصدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد وليس بعرفان.

والثالثة: أن يعرف ذلك بطريق الكشف بالبرهان بواسطة نور الحق وهو مقام المقرّبين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

الرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً وهو مشاهدة الصدّيقين، وتسميه الصوفية بالفناء في التوحيد.

فالأول: موحّد باللسان ويعصم ذلك صاحبه عن السيف والسنان.

والثاني: موحّد بمعنى أنه معتقد بقلبه.

والثالث: موحّد بمعنى أنه لم يشاهد إلا مؤثراً واحداً ويرى أنه لا فاعل بالحقيقة إلا واحد، والوسائط مترتبة في القرب والبعد منه تعالى لصدورها منه على الترتيب الضروري لا لكونها علل الإيجاد بخلاف ما عليه الأشاعرة.

والرابع: موحّد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد الحق فلا يرى الكل من حيث هو كثير بل من حيث هو واحد، لأن المهيات المختلفة لا وجود لها إلا بالوجود، والوجود بذاته موجود وله حقيقة واحدة متفاوتة الدرجات والمقامات ولكل مقام خواص ولوازم ينتزع منه ويصدق عليه وهي المسماة بالمهيات والأعيان الثابتة التي ما شمّت رائحة الوجود، ولا هي مجعولة وكذا الأعدام والنقائص لا يتعلق بها جعل وتأثير، إذ لا وجود لها، فالحقيقة على صرافة وحدتها الذاتية التي لا مثل لها ولا شبه ولا ند ولا ضد، إذ ليست هذه الوحدة وحدة عددية يحصل بتكررها العدد، سواء كان في العين أو في الذهن، ولا جنسية ولا نوعية ولا مقدارية ولا غير ذلك من أقسام الوحدات.

فهذا هو الغاية القصوى في التوحيد وإن كانت الأذهان قاصرة عن إدراكها ولكن لا أقل من التسليم وعدم التلقي بالجحود والإنكار، والله ذو الفضل العظيم.

وقال في شرح الحديث الخامس من باب حدوث العالم:

إن مهيته تعالى إنيّته بمعنى أن لا مهية له سوى الحقيقة المحضة والأنية البحتة والوجود الصرف الذي لا يشوبه عدم ولا عموم ولا خصوص فإليه الإشارة بقوله عليه السلام: شيءٌ بخلاف الأشياء.

لأن كل ما سوى حقيقة الوجود له مهيّة خاصة يعرضها عدم وقصور يلحقها كلية وجزئية، وكل منها يسلب عنها أشياء كثيرة وجودية، فهذا جسم وهذه صورة، وهذا فلك وهذا إنسان، فما هو فلك ليس بإنسان، وما هو جسم ليس بعقل، وما هي صورة ليست بمادة.

وهذا بخلاف ذاته تعالى إذ هو كل الوجود وكله الوجود ما من شيء إلا وهو ذاته أو تبع ورشح لذاته، وما في الوجود إلا ذاته وصفاته وأفعاله.

وقال في شرح الحديث الرابع من باب إطلاق القول بأنه شيء:

ونسبة جميع الأشياء إليه تعالى نسبة سائر الأضواء وظلالها إلى ضوء الشمس الذي به يضيء كل شيء وهو مستغن عن غيره لو كان لضوئها قيام بنفسه ولكنه يغاير الأول تعالى بأن الضوء فيها يحتاج إلى موضوع وهو محسوس، والوجود الأول لا موضوع له ولا محسوس، بل معقول لذاته وعاقل وعقل لذاته ولما سواه من الأنوار العقلية القاهرة والمدبرة وسائر

الصور والأجرام وعوارضها والوجودات الفائضة منه كالأنوار والمهيات التابعة لها كالظلال والأجسام كالظلمات، ولله المثل الأعلى في السماوات، إلى غير ذلك مما لا نطيل بنقله.

وقال بعضهم:

كل ما في الكون وهم أو خيال — أو عكوس في المرايا أو ظلال

وقال عامر بن عامر البصري وهو من صوفية الشيعة كما في **(مجالس المؤمنين)** في مفتتح قصيدته التي سماها **(ذات الأنوار)** في معنى الوحدة الصرفة:

إن ذلك ليس بحلول كما ظنه بعض المتوهمين، وذلك لأن الحلول يقتضي وجود شيئين أحدهما حال والثاني محل، وليس الأمر كذلك عند فحول المتوحدين، بل عندهم أن الواحد المطلق من كل الوجوه لا يبقى سواه، وهو ظاهر بالكل للكل، ولكل فرد من أفراد كثرته الداخلة في حقيقة وحدته نصيب من عين تلك الوحدة، ولا خروج له عنها ولا انعدام يطري على شيء.

ثم شرع في القصيدة المسماة **(بذات الأنوار)** وقال في مطلعها:

تجلّى لي المحبوب في كل وجهة — فشاهدته في كل معنى وصورة

وخاطبني مني بكشف السرائر — تعالت عن الأغيار لطفاً وجلّت

فقال أتدري من أنا قلت أنت يا — مناي أنا إذ كنت أنت حقيقتي

فقال كذاك الأمر لكنما إذا — تعيّنت الأشياء بي كنت نسختي

فأوصلت ذاتي باتحادي بذاته — بغير حلول بل بتخصيص نسبة

فصرت فناء في بقاء مؤبّد — لذات بديمومية سرمدية

إذا رمت إثباتاً لانيّتي محا — هواه وجودي محوه أيّ محوة

فيأخذني مني فأصبح سائلاً — لنفسي عن نفسي حضوراً لغيبة

وأنظر في مرآة ذاتي مشاهداً — لذاتي بذاتي وهو غاية غايتي

فأغدوا وأمري بين أمرين واحد — علومي تمحوني ووهمي مثلتي

إلى أن قال:

بدا ظاهراً بالكل للكل بيّناً — فشاهده العينان في كل ذرّة

وأشرق منه مطلق قيد الورى — عموماً بوحدانية صمدية

هو الواحد الفرد الكثير بنفسه — وليس سواه إن نظرت بدقة

به كل حيّ وهو حيّ بذاته — وإن شئت أن تحيى به فله مت

له كل عين في الوجود يرى بها ... له كل أذن في البرايا وعيّة
له كل كفّ في الورى باطشاً بها ... له كل علم من علوم الخليقة
لذلك ما قال الإله لآدم ... على صورتي كانت لخلقك خلقتي
فكثرته مخفيّة تحت وحدةٍ ... كما أنا فرد كثرتي تحت وحدتي
بقيت به لما فنيت له كما ... وجدت حياتي فيه من بعد موتتي

إلى أن قال:

نظرت فلم أبصر سوى محض وحدة ... بغير شريك قد تقسط بكثرة
تكثرت الأشياء والكل واحد ... صفات وذات ضمنتا في هوية
يحجب عنا واختفى بظهوره ... فضلل فيه كل قوم بحجة
فسائر ذرات الوجود مظاهر ... له إن رآه باصر ببصيرة
محا ممكنات الوهم منه بواجب ... حوى كثرة توحيدها بالضرورة
وذاك لأن لا شيء يوجد غيرها ... وجملتها موجودة بالمعيّة
لكل الكل يا من لا سواه فمن رأى ... سواك فرؤيا ذاك من أحولية

ومحصّله كما ترى أن ذات الوجود المطلق والممكنات ليست إلا مجالى ومظاهر له.

وبعبارة أخرى الوجود إذا اعتبر لا بشرط التعين وعدم التعين يكون حقيقة الواجب، وإذا اعتبر بشرط التعين بالماهية يكون عين حقيقة الممكنات، فيكون حقيقة كل ممكن هو الوجود المتعين بالماهية، فإذا لم يعتبر فيه التعين كان عين حقيقة الواجب، تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

إذا عرفت ذلك فأقول:

إن بطلان هذا الاعتقاد الفاسد مما دل عليه العقل والنقل، ولكونه من مزالّ الأقدام يحتاج إلى بسط الكلام في ذلك المقصود والمرام، بعون الله المالك المهيمن السلام، وبالله أستعين وأستمدّ وبمحمد وآله الطاهرين سلام الله عليه وعليهم أجمعين أتوسل في كشف الحجاب عن وجه المرام.

أما الدليل العقلي على بطلانه

فموقوف على تمهيد مقدمة متضمنة للفرق بين الواجب تعالى شأنه والممكن وهو بوجوه:

الأول

الإفتقار وعدم الإفتقار

بيانه: أن الموجود إما موجود بنفسه غير مفتقر في وجوده إلى غيره أي العلة الموجدة، أو موجود لا بنفسه بل مفتقر إلى العلة، والحصر بينهما عقلي دائر بين النفي والإثبات، فلا يتصور واسطة بين الافتقار وعدم الافتقار، فلا موجود خارجاً من القسمين والمتصف بعدم الافتقار هو الواجب وبالافتقار هو الممكن.

أما **الثاني**: فلا بد أن ينتهي وجوده إلى علة قائمة بذاتها موجودة بنفسها، إذ معنى افتقاره هو قبوله لأثر العلة الذي هو الوجود، فلو لم تكن العلة بنفسها موجودة لكانت فاقدة للأثر والفاقد للشيء كيف يكون معطياً، ومجرد وصول الأثر بواسطة إلى محل لا يرفع الافتقار فلا بد من الانتهاء إلى المؤثر القائم بذاته.

وأما **الأول**: أعني غير المفتقر في وجوده إلى غيره.

فإما بأن يكون وجوده علة لوجوده وهو غير معقول لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه.

وإما بأن يكون نفسه عين الوجود أي لا يكون له ماهية ووجود كما في الممكنات، بل يكون ماهيته أنيته وهو المطلوب.

فإن قلت: هل له تعالى ماهية؟

قلت: الماهية لها معنيان:

أحدهما: بإزاء الوجود كما يقال: وجود الممكن زائد على ماهيته والماهية بهذا المعنى يعرضها العموم والاشتراك فليست له تعالى ماهية بهذا المعنى.

وثانيهما: ما به الشيء هو هو وهذا يصح له عزّ وجل وقد صرّح به الصادق عليه السلام في جواب الزنديق في حديث طويل مرويّ في **(الكافي)** قال: قال له السائل: فله أنية ومائية؟ قال عليه السلام: نعم لا يثبت الشيء إلاّ بإنية ومائية[1].

---

(١) التوحيد للصدوق: ٢٤٦، والبحار: ١٠/ ١٩٧.

الثاني

أنه تعالى منزّه عن الحد والرسم والمثل والشبه والضد والند، والتنزه مقتضى ذاته والممكن محدود ممثل.

أما الأول: فلما عرفت من أنه تعالى نفس الوجود ومتعين الذات بوجوب وجوده وليس له ماهية ووجود فليس بذي أجزاء وما لا أجزاء له لا جنس له ولا فصل له وما لا جنس له ولا فصل له لا حد له، وإذ ليست له صفة لازمة ولا خاصة فلا إسم له، وما لا حد له يمتنع إقامة البرهان عليه إلا أنه من حيث كونه مبدءاً لأفعاله وآثاره وبارئاً لمخلوقاته مما يقام عليه البرهان كما يقال: العالم مصنوع مبني يقتضي أن له صانعاً بانياً، فالعالم له صانع وإذا ثبت أن للعالم صانعاً ثبت وجوده ضرورة.

وأما الثاني: فلتركبه من الوجود والماهية يكون ذا أجزاء والوجود للممكنات أمر عقلي متصور في الذهن مشترك بين الموجودات زائد في التصور على المهيات وقد عرفت أن المهية التي هي معروض الوجود أيضاً مما يعرضه العموم والاشتراك، فإفراد الممكنات بجميعها مشتركة في أمر جامع بينها به يشابه أحدها الآخر ويشاكله ويتميز أحدها عن الآخر بأمر بائن، وليس الحد إلا عبارة عن الجامع الفارق.

وأيضاً كل متصف بالوجود الإمكاني فله مهية ووجود.

أما المهية: فلكونها غير الوجود يحتاج في موجوديتها إلى جاعل يجعلها موجوداً إذ المهية لا تقتضي نفسها وجودها، وإلا لكان وجودها قبل وجودها وهو محال ضرورة تقدم المقتضي على المقتضى.

وأما الوجود: فلأن كل وجود غير وجوده تعالى فهو يشوبه عدم ونقص فيحتاج إلى موجد وله حد معين من مراتب الوجود يحتاج إلى محدد إذ لو كانت نفس طبيعة الوجود تقتضي ذلك الحد لكان الجميع كذلك وليس كذلك، فإذن الوجود في كل موجود نفس تعينه الخاص ووحدته الشخصية وتشخصه المحدد والمعين، وكل ما له حد فله علة محددة تحدده على ذلك الحد.

وهذا بخلاف الوجود الإلٰهي الذي هو عين ذاته وتعينه بالوجوب فلا قاهر فوقه ولا محدد له إذ ليس فيه إلا محض الحقيقة القدسية والتنزّه.

بل قد قال بعض الأساطين: إن انفكاك المهية من الوجود إنما هو في تحليل العقل، وأما في الواقع فهي عينه حيث قال:

إن الوجود لا بد له عما يخرجه عن الإبهام، فلا يتحقق إلا بعد التعين التمام بالفصول المتنازلة إلى أن ينتهي إلى التشخص، فبعد التعين التام يتحقق والترتب إنما هو في المرتبة والتحليل، وهذا ما أشاروا إليه بقولهم: إن الشيء ما لم يتشخص لم يوجد وما لم يوجد لم يتشخص، وأن التشخص يساوق الوجود، فإنه ذات الوجود وخلوّه عنه سلب الشيء عن نفسه.

وبما حققنا ظهر أن الماهية عين الوجود، وإنما ينفكان في التحليل، فيحمل الوجود على الماهية ويعرضها باعتبار كما أن الماهية تعرض الوجود باعتبار آخر، وفي الحقيقة ليس هناك إلا الوجود الخاص، فالوجود الذي هو نقيض العدم بنفسه لا يتقوّم بل هو والحد والتحديد مستند إلى أمر وراء ذلك، فالمبدأ تعالى ليس له ذات ووجود، وإنما يعبر بعبارتين بالإلجاء وضيق المجال كما هو الحال في جميع صفات الجمال، وهذا متن بيان مقتبس من **(مشكاة النبوّة)** إلى أن قال:

ظهر من جميع ما تقدم أن إثبات المبدأ تعالى لا ينفك عن التوحيد، ضرورة أن الحد ينافي الوجود والتعدد لا يعقل إلا بالحدود، وقال:

وكشف الحجاب أن الوجود عين هويته ونفس الماهية كما هو محصل عروض الوجود للماهية، والتفكيك إنما هو بالتحليل وكذا الحمل والعروض، فقبل التحقق الذي هو عين الواقع والخارج لا وجود ولا ماهية، ومعه لا تمائز.

فللحيوانية مثلاً نحو من الوجود لأن الحركة بالإرادة والحس وجود والمعدوم لا يعقل أن يكون حيواناً وحساساً، وكذا النطق وهو إدراك الكليات وملكة إكتساب النظريات نحو من الوجود والمعدوم ليس ناطقاً بالضرورة.

وكذا الحال في جميع الأجناس والفصول والأنواع الملتئمة منها المترتبة فإنه صرف الفرض وليس كون الإنسان قبل الوجود إنساناً وكون الوجود وجوداً قبل التحقق إلا مجرد الفرض، فعدم كون الإنسان والوجود، قبل التحقق وجوداً وإنساناً مخالف للفرض لا أنه سلب للشيء عن نفسه كيف وليس هناك شيء ولا نفس إلا بالفرض.

ألا ترى أن اجتماع النقيضين لو كان اجتماعاً تحقيقياً لكان محققاً وإنما هو مجرد فرض وتقدير، فالإنسانية التحقيقية وهو الحيوانية مع النطق لو كانت غير الوجود فكيف بكون متحركاً بالإرادة ومدركاً للمعقولات وهو لا وجود له.

ومن خفي عليه هذا المعنى خبط خبطة عشواء فبين من ذهب إلى أن التقرير مرحلة سابقة على الوجود، ومن توهم أن بين الوجود والعدم مرحلة تسمى بالحال ولم يتفطنوا أن

ارتفاع النقيضين محال، انتهى ما أهمّنا نقله من كلامه دام عزّه وعلاه.

وقد اتضح منه كل الوضوح أن الممكن لا تحصل له إلا بالوجود والماهية وأن الماهية بحسب الخارج عين الوجود وحده، وأن معنى عروض الوجود للماهية أن الملحوظ في الوجود إنما هو حدّه المعين لا أن هناك عارضاً ومعروضاً وعروضاً.

فانقدح منه أن قول الصوفية بأن الماهية ماهية حال العدم وهي المعبر عنها بالعين الثابت، وقولهم بأن الأعيان الثابتة ما شمّت رائحة الوجود مما لا معنى له أو التفكيك بين الثبوت والوجود والقول باتصاف الماهية بالأول دون الثاني سفسطة محضة.

الثالث

أن الواجب تعالى وجوده تام فوق التمام، والممكن موصوف بالقصور والنقصان، والتمام مقتضى ذات الأول كما أن النقصان لازم وجود الثاني.

والمراد بكونه تاماً كونه جامعاً لجميع صفات الكمال إذ قد قلنا إنه عين الوجود والكمالات كلها وجود، فتكون الكمالات جميعاً حاصلة له بالفعل بنفسه من دون افتقار إلى الاستكمال بالغير، وهذا من ضيق العبارة بل كما أن ذاته تعالى صرف الوجود كذلك صرف العلم والقدرة والاختيار والحياة وغيرها من الصفات الكمالية، وهذه الصفات عين ذاته كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: علم كله قدرة كله حياة كله[1].

والمراد بفوق التمام كونه مع جامعيته للكمالات وتماميتها له موجداً لوجود غيره وكمالاتهم جميعاً أيضاً.

وأما الممكن فلا ينفك عن وصف الافتقار والإمكان والمهية والمعلولية والتركيب وغيرها من النقائص، وما يتصور فيه من وصف الكمال فإما أن لا يكون حاصلاً له بالفعل بل بالقوة كالإنسان مثلاً، أو يكون حاصلاً بالفعل ولكن حصوله ليس بنفسه بل بالغير، فعلم من ذلك أن الواجب تام والممكن ناقص.

وإذا عرفت هذه المقدمة الشريفة ظهر لك فساد القول بوحدة الوجود، لأنه إذا كان الواجب علة والممكن معلولاً، والأول مستغنياً والثاني مفتقراً، والأول منزّهاً عن الحد والتعين والثاني محدوداً متعيناً بالماهية، والأول بسيطاً والثاني مركباً، والأول تاماً فوق التمام والثاني مكتنفاً بالعدم والنقصان حسبما عرفته في المقدمة التي مهدناها، فكيف يعقل

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ١/١٧، مستدرك سفينة البحار: ٧/ ٣٣٠.

ترقي الثاني إلى مرتبة الأول؟ فإن ذاتيّ الشيء لا ينفك عنه والمعلولية والمحدودية والافتقار والنقصان من لوازم ذات الممكن فكيف يتصور أن يلقى الممكن أنيته على اصطلاحهم ويصل إلى مرتبة الواجب.

مع أن أنيته ليس إلا تعينه بماهيته وبعد ارتفاع التعين والتحدد لا يبقى ماهية ولا وجود، فلا يكون هناك شيء أصلاً.

وكذلك إذا كان الواجب تعينه بذاته وبكنهه ومنزّهاً عن الحدود لكونه صرف الوجود وكان تاماً فوق التمام كان مبايناً للممكن غاية البينونة كما قال الرضا عليه السلام في الحديث المروي عنه في (**الكافي**): «مباينته إياهم مفارقته إنيتهم»، فكيف يتوهم كونه سارياً في الموجودات[1].

وهؤلاء الجهلة لما سمعوا أن الواجب وجود خال من جميع الحدود والقيود، وأن الوجود مفهوم واحد نقيض العدم، فتوهموا أن الوجود الخالي من جميع القيود هو الوجود المطلق لا بشرط التعين وعدم التعين، فيجتمع مع جميع التعينات الإمكانية، ويكون عين حقيقة كل ممكن.

وهذا التوهم من الفساد بمكان لأن معنى خلوّ الواجب من القيود، هو خلوّه من التعينات الإمكانية لا من مطلق التعين ولو بذاته، فتعينه سبحانه بوجوب وجوده الذي هو عين ذاته فعلى هذا يكون طرد الحدود والتعينات الإمكانية محالاً، وليس معنى خلوّه منها كونه مبهماً سارياً في التعينات مثل سريان الكليات في مصاديقها الخارجية المتعينة.

وبعبارة أوضح أن الواجب مع قطع النظر عن الحدود والتعينات إما مبهم أو متعين.

أما **الأول**: فتحققه محال بالضرورة، لأن الشيء ما لم يتشخص لم يوجد ومن هنا قالوا: إن الكلي الطبيعي أمر مبهم لا يمكن تحققه في الخارج إلا بضم التعينات وتشخصات الأفراد.

وأما **الثاني**: فإما أن يكون سرايته في المخلوقات مع تعينه الذي هو له فهو محال، لأنه جمع بين النقيضين إذ التعين الوجوبي مناف للتعين الإمكاني ومناقض له، أو مع إلقائه لتعينه الذاتي وتعينه بالتعين الإمكاني وهو فرع أن يكون متحرك غير واجب وممكن يكون في تلك المراتب ويكون واجباً تارة وممكناً أخرى وهو باطل.

والحاصل أن الواجب إما مبهم محض وجامع بين جميع الموجودات كما هو شأن الجامعة السارية، وهو مستلزم لنفي وجود الصانع تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإما أنه متعين

(١) التوحيد: ٣٦.

بحب ذاته فيستحيل سريانه في الأمور المتعينة بالحدود والقيود.

وإلى ذلك أشار المحقق الطوسي في (**شرح الإشارات**) حيث قال:

حقيقة الواجب ليست هي الوجود العام بل هي مجرد وجوده الخاص به المخالف لسائر الموجودات لقيامه بالذات.

وقال أيضاً: الوجود داخل في مفهوم ذات واجب الوجود لا الوجود المشترك الذي لا يوجد إلا في العقل بل الوجود الخاص الذي هو المبدأ الأول لجميع الموجودات وإذ ليس له جزء فهو نفس ذاته وهو المراد من قولهم: مهيته هي أنيته، انتهى.

وقال المعلم الثاني من محكى كلامه من كتاب (**الجمع بين الرأيين**):

إنه لما كان الباري جل جلاله بإنيته ذاته مبايناً لجميع ما سواه وذلك له بمعنى أشرف وأفضل وأعلى بحيث لا يناسبه في إنيته شيء ولا يشاكله ولا يشبهه حقيقة ولا مجازاً، ثم مع ذلك لم يكن بد من وصفه وإطلاق كل لفظة كمالية من هذه الألفاظ المتواطئة عليه، فإن من الواجب الضروري أن نعلم أن مع كل لفظة نقولها في شيء من أوصافه معنى بذاته بعيداً من المعنى الذي نتصوره من تلك اللفظة وذلك كما قلناه بمعنى أشرف وأعلى حتى إذا قلنا: إنه موجود علمنا مع ذلك أن وجوده لا كوجود سائر ما دونه، وإذا قلنا: إنه حيّ علمنا أنه بمعنى أشرف من الحي الذي هو دونه وكذلك الأمر في سائرها، انتهى.

وهو كما ترى نص صريح مثل الأخبار الآتية الواردة من معادن القدس والطهارة في أن مباينته لغيره بنفس ذاته، فلا يتصف بالماهية ولا بالوجود بالمعنى المتصور في الممكن، بل إذا قلنا: إنه موجود ووصفناه بالوجود فهو بمعنى أعلا مما يتصوره العقل، وهكذا إذا وصفناه بالعلم والحياة وسائر الصفات الثبوتية.

وهو معنى ما ورد في غير واحد من الأخبار الكثيرة من أنه سبحانه شيء لا كالأشياء فوصفه بأنه شيء من ضيق المجال والخروج من حد التعطيل، وبأنه لا كالأشياء للتنزيه والتقديس ونفي التشبيه والإشارة إلى كونه بائناً من الأشياء وكونها بائنة منه بنفس ذاته المقدسة.

والحاصل أنه تعالى ممتاز عما سواه بذاته، والوجود عين ذاته، والوجود الذي له عز وجل ليس بالمعنى الذي لها، كيف والوجود الذي لغيره أمر بديهي يعرفه الكل كسائر البديهيات، والوجود المخصص به لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن، وغاية معرفتنا بذاته أنا لا نعرف ذاته.

بيان ذلك أن كل مدرك بإحدى القوى والحواس ظاهرية كانت أو باطنية وكل ما تدركه المشاعر صورة كانت أو معنى فهو محدود متمثل تحدّه الحواس وتمثّله الأفكار، وكل ما هو

كذلك فهو مخلوق مثلنا مصنوع بفكرنا، وخالق الأشياء منزّه عنه فنعرف ذاته بأنا لا نعرف ذاته إذ غاية ما يحصل لنا من الآثار والأفعال كونه مبدأ لتلك الآثار والأفعال صانعاً لها، ومن ذلك يحصل الجزم بوجوده تعالى.

إذ لو لم يكن موجوداً ثابتاً لكان معدوماً منفيّاً إذ لا مخرج منهما ولا واسطة بين النفي والإثبات والوجود والعدم.

ويلزم من عدمه أن لا يكون في الوجود شيء أصلاً واللازم باطل بالبديهة فكذا الملزوم ووجه الملازمة أن الكل مفتقر في وجوده إليه فما هو معدوم في نفسه كيف يكون مفيضاً للوجود، فثبت بذلك أنه موجود ممتاز بذاته عما عداه، هذا.

والصوفية أولياء الشيطان لما ضاق بهم الخناق في إقامة البرهان على مذهبهم الفاسد واعتقادهم الكاسد إستندوا إلى الكشف والعيان.

قال بعض من له خوض في التصوف:

إن مستند الصوفية فيما ذهبوا إليه هو الكشف والعيان لا النظر والبرهان، فإنهم لما توجهوا إلى جناب الحق سبحانه بالتعرية الكاملة وتفريغ القلب بالكلية عن جميع التعلقات الكونية والقوانين العلمية مع توحيد العزيمة ودوام الجمعية والمواظبة على هذه الطريقة بدون فترة ولا تقسيم خاطر ولا تشتت عزيمة من الله سبحانه عليهم بنور كاشف يريهم الأشياء كما هي.

وهذا النور يظهر في الباطن عند ظهور طور وراء طور العقل، ولا تستبعدن وجود ذلك، فوراء العقل أطوار كثيرة يكاد لا يعرف عددها إلا الله.

ونسبة العقل إلى ذلك النور كنسبة الوهم إلى العقل، فكما يمكن أن يحكم العقل بصحة ما لا يدركه الوهم كوجود موجود مثلاً لا خارج العالم ولا داخله، فكذلك يمكن أن يحكم ذلك النور الكاشف بصحة بعض ما لا يدركه العقل، كوجود حقيقة مطلقة محيطة لا يحصرها التقييد ولا يقيّدها التعيين.

مع أن وجود حقيقة كذلك ليس من هذا القبيل، فإن كثيراً من الحكماء والمتكلمين ذهبوا إلى وجود الكلي الطبيعي في الخارج.

والمقصود هنا رفع الإستحالة العقلية والإستبعادات العادية عن هذه المسألة لا إثباتها بالبراهين والأدلة، انتهى.

وهو سخيف جداً لامتناع أن يكون طور وراء العقل إلا النبوة، ولو جوّز ذلك لبطلت

الشرائع والأديان والأحكام النقلية والعقلية وارتفع الأمان وانسدّ باب الإيمان.

وليس نتيجة ما ذكر من الرياضة والمجاهدة إلا تلطيف السر وتهذيب الباطن وتصفية القلب ليسهل النظر ويسرع الفكر ويصفو الذهن من الكدر، فيتجرد المعقولات النظرية عن الغواشي الوهمية ويتميز المعقول عن الموهوم، وذلك هو معنى الكشف ونور الله الكاشف لا ما توهموه.

ومثله في السخافة استناد بعضهم في ذلك إلى الأدلة السمعية حيث قال:

إذا علمت أن الوجود هوالحق علمت سرّ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٥٧]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، وكنت سمعه وبصره(١)، وسرّ قوله: ولو دليتم بحبل لهبط على الله(٢)، وأمثال ذلك من الأسرار المنبهة للتوحيد بلسان الإشارة، انتهى.

ولا دلالة فيها على ما زعموه بوجه.

أما الآية الأولى: فدلالتها على بطلان ما زعموه وفساده أظهر، بل مكذبة لدعواهم، لأن وجود الأشياء عينها في الخارج لا معها، وقد عرفت أن التغاير في طرف التحليل، والمراد بكونه تعالى معنا في جميع الأمكنة ما حققناه في شرح الفصل السادس من الخطبة الأولى في شرح قوله عليه السلام: مع كل شيء لا بمقارنة.

وأما الآية الثانية: فهي أيضاً مكذبة لهم لأن الأقربية مستلزمة للمغايرة والمنافية للعينية، والمراد بها القرب بالعلم والإحاطة أو باعتبار كون ذاته ووجوده منه تعالى حدوثاً وبقاءً بحيث لو قطع النظر عنه آناً ما هلك وصار عدماً محضاً لاستحالة بقاء المعلول من غير علّة.

وأما الآية الثالثة: فهي أيضاً دليل على البينونة والمغايرة، لإفادته كون نفس الشخص آية على صانعه وهو استدلال إنّي وأين ذلك من الاتحاد؟.

وأما الآية الرابعة: فالمراد بها انحصار الألوهية في جميع العوالم فيه تعالى وهو أيضاً مكذب للعينية لمنافاة الأُلوهية لها.

وأما الآية الخامسة: فالمراد بها أنه هاد لأهل السماوات بلا واسطة ولأهل الأرض

(١) أنظر البحار: ٨٤/ ٣١.

(٢) ميزان الاعتدال: ٤/ ٥٧٩، وشرح الأسماء الحسنى: ١/ ٩٠.

بواسطة الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام، وقد ورد تفسيره بهذا المعنى في أخبار أهل البيت سلام الله عليهم.

وأما الآية السادسة: فهي أيضاً مكذبة لدعواهم لأن وجود الشيء ليس محيطاً به بل هو في الخارج وفي التحليل عارض له.

وأما الحديث القدسي فلا دلالة فيه أيضاً على الاتحاد، بل المراد به معنى آخر أشار به في (**البحار**).

فإنه بعدما روي من (**المحاسن**) عن عبد الرحمٰن بن حماد عن حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله تعالى: ما تحبّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته إليه، وإن عبدي ليتحبب إليّ بالنافلة حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها إذا دعاني أجبته وإذا سألني أعطيته»[1].

قال: هذا الخبر يحتمل وجوهاً:

الأول: أنه لكثرة تخلّقه بأخلاق ربه ووفور حبه لجناب قدسه تخلى عن شهوته وإرادته، ولا ينظر إلا إلى ما يحبه سبحانه ولا يبطش إلا إلى ما يوصله إلى قربه تعالى، وهكذا.

الثاني: أن يكون المراد أنه تعالى أحب إليه من سمعه وبصره ولسانه ويده ويبذل هذه الأعضاء الشريفة فيما يوجب رضاه، فالمراد بكونه سمعه أنه في حبِّهِ وإكرامه بمنزلة سمعه بل أعز منه لأنه يبذل سمعه في رضاه، وكذا البواقي.

الثالث: أن يكون المعنى كنت نور سمعه وبصره وقوة يده ورجله ولسانه والحاصل أنه لما استعمل نور بصره فيما يرضي ربه أعطاه بمقتضى وعده سبحانه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] نوراً من أنواره به يميز بين الحق والباطل، وبه يعرف المؤمن والمنافق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: ٧٥]، وقال عليه السلام: المؤمن ينظر بنور الله، وكذا لما بذل قوته في طاعته أعطاه قوة فوق طاقة البشر كما قال مولانا الأطهر: ما قلعت باب الخيبر بقوة جسمانية بل بقوة ربانية، وهكذا.

الرابع: أنه لما خرج عن سلطان الهوى وآثر على جميع إراداته ومراداته وشهواته لرضى المولى صار الربّ تعالى متصرّفاً في نفسه وبدنه، مدبراً لقلبه وعقله وجوارحه فيه يسمع وبه يبصر وبه ينطق وبه يمشي وبه يبطش كما ورد في تأويل قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾

---

(١) محاسن البرقي: ١/ ٢٩١ ح ٤٤٣.

[الإنسان: ٣٠]، وهذا معنى دقيق لا يفهمه إلا العارفون وليس المراد به المعنى الذي باح به المبتدعون فإنه الكفر الصريح والشرك القبيح، انتهى كلامه رفع مقامه[١].

وأما الرواية الأخيرة فعلى تسليم صحة سندها وعدم كونها من موضوعات العامة فمعناها: إحاطته تعالى بجميع العوالم وعدم خلوّ مكان منه عز وجل بهذا المعنى، وأين هذا مما زعمه حزب الشيطان من أن الوجود هو الله، تعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

فقد وضح واتضح من هذا كله أن ما ذهب إليه الزنديق اللعين محيي الدين وأتباعه الذين هم أولياء الشيطان وهادموا أساس الشرع المبين من أن الوجود هو الحق الأول وأنه سار في الموجودات وأنها على كثرتها مجالي ومظاهر له، وأن الواجب إذا اشتمل على الحد والتعين صار ممكناً، وأن الممكن إذا ارتفع عنه الحد والتعين صار واجباً، ففي قوس النزول يكون الواجب ممكناً، وفي قوس الصعود يكون الممكن واجباً، غلط بيّن وكفر وزندقة وإلحاد.

والعجب من صدر المتألهين أنه مع ذكائه وبراعته في فن الكلام وإذعانه بأكثر ما أوردناه في المقدمة الشريفة، غفل عن نتيجتها وقلّد الصوفية فيما هم عليه زعماً منه أن ما ذهبوا إليه من وحدة الوجود هو نتيجة كلمات الأساطين من الحكماء والمتكلمين، ولم يتعقل المباينة، ثم ذهب إلى كونه مشتركاً مقولاً على ما تحته بالتشكيك حسبما نقلناه.

قال في (الأسفار):

«فصل»: في أن مفهوم الوجود مشترك محمول على ما تحته حمل التشكيك لا حمل التواطىء.

أما كونه مشتركاً بين الماهيات فهو قريب من الأوليات، فإن العقل يجد بين موجود وموجود من المناسبة والمشابهة ما لا يجد مثلهما بين الموجود والمعدوم، وأطال في إثبات الاشتراك بما لا طائل تحته إلى أن قال:

وأما كونه محمولاً على ما تحته بالتشكيك أعني الأولية والأقدمية والأشدّية، فلأن الوجود في بعض الموجودات بمقتضى ذاته كما سيجيء دون بعض وفي بعضها أقدم بحسب الطبع من بعض، وفي بعضها أتم وأقوى.

فالوجود الذي لا سبب له أولى بالموجودية من غيره، وهو متقدم على جميع الموجودات بالطبع، وكذا وجود كل واحد من العقول الفعالة متقدم على تاليه، ووجود

(١) البحار: ٨٤/ ٣٢.

الجوهر متقدم على وجود العَرَض.

وأيضاً فإن الوجود المفارقي أقوى من الوجود المادي، وخصوصاً وجود نفس المادة القابلة، فإنها في غاية الضعف حتى كأنه يشبه العدم والمتقدم والمتأخر وكذا الأقوى والأضعف كالمقومين للموجودات، وإن لم يكن كذلك للماهيات.

فالوجود الواقع في كل مرتبة من المراتب لا يتصور وقوعه في مرتبة أخرى لا سابقة ولا لاحقة، ولا وقوع وجود آخر في مرتبته لا سابق ولا لاحق، انتهى.

واعترض عليه بعض أساطين مشايخنا المعاصرين أطال الله بقاءه بقوله:

إن هذا الكلام يكشف عن أنه لم يتعقل معنى الوجود والماهية، ضرورة أن المتصف بالكلية والجزئية والتواطىء والتشكيك إنما هو الكلي الطبيعي، فموضوع هذه الأحكام إنما هو الماهية، وأما الوجود المنسلخ عنها في التحليل فهو كالعدم، ومع عدم لحاظ الانسلاخ فيه لا تعدد ولا تغاير ولا ماهية ولا وجود، بل هو حينئذ عينها وهي عينه كما لا يخفى ولا يصلح لأن يتّصف بشيء من هذه الصفات إلا تبعاً للذات.

بل التحقيق أن الأعراض بأسرها على هذا المنوال فإنها جهات تحليلية لا آنية لها ولا ماهية وإنما هي شؤون المعروض، فإن العروض بلحاظ ارتباطه مع الغير فهو غير متأصّل لا محالة كالفوقية والأبوّة وكذا ما يلزم من وجوده التكرر كالوجود.

وأما اللون وما شاكله فهو متأصل لا كما توهموه من أن له ماهية ووجوداً إلا أنه في وجوده يحتاج إلى موضوع بخلاف الجوهر، وإلا لكان المعروض من مقولة الأين بالنسبة إلى العرض مع أن وجود العرض لنفسه عين وجوده للغير لا أن هناك وجودين وهذا معنى الحلول وهو عبارة أخرى عما أشرنا إليه من أنه نحو وجود المعروض، فالموجود له ذات ووجود ولوجوده شؤون وخصوصيات تسمى بالأعراض، وأما الماهية فلا يعرضها إلا الوجود، وأما الزوجية في الأربعة وما يشابهها فليست عرضاً لماهية، ضرورة أن الأربعة كم منفصل لا ماهية من الماهيات بل هو تحليل في تحليل في خصوصيات الوجود ولو على سبيل التقدير.

وأما ما توهمه من أن الوجود في بعض الموجودات بمقتضى ذاته فمرجعه إلى كون الشيء علة لنفسه وأما الواجب تعالى فهذا التعبير بالنسبة إليه جل ذكره كسائر التعابير ليس على ما توهمه بل مرجعه إلى أنه تعالى مقدّس عن الوجود الذي هو نقيض العدم ونسبة الوجود إليه تعالى سلب نقص العدم عنه لا إثبات الوجود.

وبالجملة فكون الوجود معلولاً للذات ضروري الاستحالة، فإن الفاقد لا يكون معطياً مع أن تقدم الشيء على نفسه أيضاً ضروري الفساد.

وأما الأقدمية بحسب الطبع فهو أيضاً من الأغلاط لما عرفت من أنه تعالى منزّه عن الطبع.

وأما العقول فعلى القول بها فلا تقدم لشيء منها على تاليه إلا بالعلية.

وأما الجوهر فهو تقدم الموضوع على العرض وهو نحو آخر من السبق التحليلي وهو عين العروض.

وأما اختلاف حال المجرد والمادي فليس مستنداً إلى اختلاف أنحاء الوجود بل إنما الاختلاف بين الجواهر بالمادية والتجرد بالذات وإن لم تكن موجودة، والهيولى مع قطع النظر عن الوجود متميز عن العقل وغيره من أقسام الجواهر كتميز سائر الماهيات، وضعف المادة عبارة أخرى عن كونها مادة محضة في الانفعال، وهذه جهة ثانية لا ربط لها بالوجود.

وأما ما توهمه من أن الوجود الواقع في كل مرتبة من المراتب لا يتصور وقوعه في مرتبة أخرى (آه) فقد أخذه من أهل العلم من حيث لا يشعر، ضرورة أن مقتضى مذهب أئمته من أن الوجود حقيقة واحدة أنه لا تميز بين الوجودات إلا بالاعتبار، فالمراتب إنما ترتّبت باعتبار التنزلات، ففي قوسي النزول والصعود تتحرك العين في الوجود، وهذا ما ذهبوا إليه من الحركة الجوهرية.

مع أن هذا مناف لهذا الكلام الذي تقدم منه من الاختلاف بين العقل والهيولي مثلاً في شدة الوجود وضعفه، فإن هذا إنما ينطبق على ما ذهبوا إليه من أن الأعيان الثابتة ما شمّت رائحة الوجود وإنما هي إضافات إشراقية تختلف قوة وضعفاً باختلاف النزول والصعود والبعد والقرب، ولهذا كان الناسوت أضعف الدرجات، لأنها منتهى قوس النزول واللاهوت أقوى حيث أنه مبدأ لهذه الدرجات المتدرّجة.

وبالجملة، فاستحالة تبدّل الوجودات إنما تتم على مذهب غير الصوفية، فإن العرض لا ينتقل، وإنما يتم هذا فيما لم يكن وجود في طول الآخر، وأما في السلسلة الطولية فهو غلط صرف، فشيء من الشخصين لا يتبدل بالآخر كما أن الحمار أيضاً لا يتبدل بالإنسان، وأما النطفة فتكون علقة ومضغة وحيواناً وإنساناً وليس هذا من تبدّل الصورة مع بقاء الهيولى، وكذا الحال في تبدل العناصر بعضها ببعض على ما هو التحقيق، فإنه من تبدّل وجود بآخر بمعنى الترقي والصعود كما أن مراتب الفناء دركات النزول، ولتحقيق هذه المسائل مقام آخر، انتهى كلامه رفع الله مقامه.

وقال السيد محمد قطب [في] السلسلة الذهبية في نظمه:

زعموا الوجود مشككاً سبحانه ... عن اشتراك وضيعها وشريفها

في الاشتراكين التزام ضلالة ... قد ضاع في نهج الهدى تقطيعها

هذا وربما اعترض على القول بالتشكيك بامتناعه في الذاتيات، وأجاب عنه القيصري في (**شرح الفصوص**) بما لا طائل تحته ولا بأس بنقل كلامه وتعقيبه بما يتوجه عليه من النظر.

قال: وما يقال: إن الوجود تقطع على أفراده لا على التساوي، فإنه يقع على العلة ومعلولها بالتقدم والتأخر، وعلى وجود الجوهر والعرض بالأولوية وعدمها، وعلى وجود القارّ وغير القارّ بالشدة والضعف، فيكون مقولاً عليها بالتشكيك وما هو مقول بالتشكيك لا يكون عين ماهية شيء ولا جزئه.

إن أرادوا به أن التقدم والتأخر والأولوية وعدمها والشدّة والضعف باعتبار الوجود من حيث هو هو، فهو ممنوع لكونها من الأمور الإضافية التي لا يتصور إلا بنسبة بعضها إلى بعض، ولأن المقول على سبيل التشكيك باعتبار العموم والكلية والوجود من حيث هو هو لا عام ولا خاص.

وإن أرادوا به أنها يلحق الوجود بالقياس إلى الماهيات، فهو صحيح لكن لا يلزم أن يكون الوجود من حيث هو مقولاً عليها بالتشكيك إذ اعتبار المعروضات غير اعتبار الوجود.

وذلك بعينه كلام أهل الله لأنهم ذهبوا إلى أن الوجود باعتبار تنزّله في مراتب الإمكان وظهوره في خطائر الإمكان وكثرة الوسائط يشتدّ خفاؤه، فيضعف ظهوره وكمالاته وباعتبار قلّتها يشتد نوريته ويقوى ظهوره، فيظهر كمالاته وصفاته فيكون إطلاقه على القوي أولى من إطلاقه على الضعيف، انتهى.

وفيه: أن الماهية مع قطع النظر عن الوجود وكذا الوجود مع قطع النظر عن الماهية لا يحكم عليهما بحكم لما عرفت من أنهما تحليليان لا أمران متغايران، فالشدة والضعف إنما تعرضان الوجود التحقيقي الواحد للماهية، لا المتسلخ عنها فالماهية يشتد وجودها المنظم إليها.

وما نسجته هذه الطائفة من أن الوجود هو الحق وأن الماهيات مظاهر ومجالي وأن الاختلاف إنما هو في الدرجات التجلي بحسب القرب والبعد وقلّة الوسائط وكثرتها، مما ليس له معنى محصّل.

وبالجملة فقد تحصل مما ذكرنا كله أن وجوده تعالى مغاير لوجود غيره مباين له، واتصافه بالوجود ليس كاتصاف غيره به إذ الوجود الذي له تام فوق التمام واتصافه به بمعنى أجلّ وأشرف وأعلى من أن يبلغه العقول والأوهام كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في الفصل الثاني من الخطبة الأولى: الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن[1].

---

(١) البحار: ٥٤/١٧٦ ح ١٣٣.

بل قد قال بعض المحققين: إن وصفه تعالى بالوجود من ضيق العبارة، وإن معنى قولنا: إنه موجود إنه ليس بعدم ولا معدوم، فيكون مرجع اتصافه به إلى سلب العدم عنه لا إثبات الوجود الذي هو نقيض العدم له، فإنه تعالى منزّه عن ذلك، لأن الوجود الذي هو نقيضه حدٌ له واقع في طرفه وقباله.

كما يتضح ذلك بقولنا مثلاً: خرج الشيء من العدم إلى الوجود ومن الوجود إلى العدم، فإن الوجود والعدم متناقضان متقابلان صار كل منهما حدّاً للآخر وفي قباله وطرفه، والله سبحانه لما كان منزّهاً عن الحدود لا يمكن اتصافه بالوجود الذي هو حد العدم وطرفه.

ويوضح ذلك قوله عليه السلام في المختار المائة والخامس والثمانين: سبق الأوقات كونه والعدم وجوده، وأيضاً الوجود الذي هو نقيض العدم إنما يتصور فيما يتصور فيه العدم كالماهيات والله عز وجل منزّه عن الماهية وعن عوارضها.

والحاصل أن وصفه بالوجود كوصفه بسائر أوصاف الجمال مثل قولنا: إنه عالم، أي ليس بجاهل، وقادر أي ليس بعاجز، وهكذا.

وأما غيره تعالى من الموجودات الممكنة فإنما يتصف بالوجود المقابل للعدم المناقض له لكونه ذي ماهية مشخصة لوجوده كما أن وجوده كان مشخصاً له فإن الشيء ما لم يتشخص لم يوجد وما لم يوجد لم يتشخص.

وبعد هذا كله، فكيف يزعم العاقل إتحاد وجود المخلوقات الذي هو من البديهيات الأولية على ما قيل مع وجود الخالق الذي إذا حاول الفكر المُبَّرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتنال علم ذاته رجعت إذا جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا يخطر ببال أولى الرّويات خاطرة من تقدير جلال عزته، فتعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً.

وأما الدليل النقلي

فهو جميع الأخبار والأحاديث الدالة على تقديسه وتنزيهه عن التشبيه والتحديد، والمفيدة لمغايرته لمخلوقاته ومباينته إياهم بنفس ذاته الأقدس ووجوده الأجلّ الأشرف الأعلى.

وأكثرها احتواءً لذلك خطب أمير المؤمنين الواردة في مقام التوحيد المتقدمة في تضاعيف الكتاب، ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما تقدم منه عليه السلام في هذا الباب تذكرة وذكرى

وما يذكّر إلا أولو الألباب.

فمنه قوله عليه السلام في الفصل السادس من المختار الأول:

كائنٌ لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة(١).

فإن قوله عليه السلام: موجود لا عن عدم، نص صريح في أن وجوده ليس مثل وجود سائر موجودات المسبوق بالعدم المناقض له كما أن إثبات مغايرته لكل شيء ونفي مقارنته له صريحان في عدم الاتحاد والوحدة، بل قوله: مع كل شيء أيضاً لا يخلو عن الدلالة، لأن المعية مقتضية للإثنينية المنافية للوحدة والعينية كما لا يُخفى.

ومحصل الجميع مباينة الحق للخلق بذاته وكونه معهم بالعلم والإحاطة والقيومية والعلّية، فإن المعلول لا يغيب عن علّته.

ومنه قوله عليه السلام في المختار الرابع والستين:

لم يُحلل في الأشياء فيقال: هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال: هو منها بائن.

فإن الفقرة الأولى صريحة في إبطال الحلول والاتحاد كما هو مذهب قدماء الصوفية على ما حكينا عنهم سابقاً، والمراد بالفقرة الثانية نفي المباينة المتصورة بين المتباينين المتباعد أحدهما عن الآخر، فلا تنافي ما قدمناه من بينونته لها لذاته من أجل تنزّهه عن الحد وكونها مشتملة على الحدود مع قربه لها بالعلم والإحاطة والإفضال والرحمة.

ومنه قوله عليه السلام في الفصل الثاني من المختار التسعين:

كذب العادلون بك إذ شبّهوك بأصنامهم ومحلوك حلية المخلوقين بأرهامهم - إلى أن قال - فاشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك والعادل بك كافر بما تنزّلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيّناتك(٢).

فإنه كسائر الأخبار المتواترة والآيات القرآنية في كفر من شبّهه عزّ وجل بالأصنام وزيّنه بزينة المخلوقات، فكيف المتصوفة الجاعلون إياه سبحانه عين الأصنام والمعتقدون أن هويته سارية فيها وإن وجودها عين وجوده الظاهر في صورة الصنمية وأنها مجالى ومظاهر له وأن العبادة لها عبادة له؟ تعالى عما يقول الملحدون علوّاً كبيراً.

ولعلك إذا سمعت نسبة هذا القول والاعتقاد منا إلى هذه الطائفة الضالة المضلّة نسبتنا

(١) البحار: ٤/٢٤٧ ح ٥. (٢) التوحيد: ٥١ ح ١٣.

إلى العصبية والعناد، وبادرت إلى تكذيبنا وقلت: كيف يمكن أن يعتقد هؤلاء مع كونهم من المسلمين المؤمنين على خلاف ما هو من ضروريات الدين، بل ما هو أساس الدين وأصله ـ أعني توحيد الرب وتفريده بالمعبودية ـ الذي لم يكن بعث الأنبياء والرّسل وإنزال الكتب والصحف وتشريع الشرائع والأديان من لدن زمن آدم عليه السلام إلى آخر الزمن إلا لأجله؟.

فإن شئت أن تعرف صحة هذه النسبة وتعلم حقّيتها بعلم اليقين فاستمع لما يتلى عليك من كلام قطب أقطابهم الزنديق اللعين ابن العربي محيي الدين في (**الفصوص**) ومن كلام القيصري في شرحه:

قالا في (**الفص الهاروني**) بعدما ذكرا غضب موسى عليه السلام على أخيه هارون لما شاهد من قومه عبادة العجل ما صريح عبارتهما:

«ثم قال هارون لموسى: إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل فتجعلني سبباً في تفريقهم فإن عبادة العجل فرّقت بينهم فكان منهم من عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجع إليهم موسى فيسألونه في ذلك، فخشى هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم إليه وكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه علم ما عبده أصحاب العجل».

أي علم موسى ما الذي عبده أصحاب العجل في الحقيقة «لعلمه بأن الله قضى ألا نعبد إلاّ إيّاه» كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

«وما حكم الله بشيء إلا وقع، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه» أي كان عتب موسى أخاه هارون لأجل إنكاره عبادة العجل وعدم اتساعه قلبه لذلك.

«فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء، فكان موسى يربّي هارون تربية علم»[١].

واعلم أن هذا الكلام وإن كان حقاً من حيث الباطن لكن لا يصح من حيث النبوة والظاهر، فإن النبي يجب عليه إنكار العبادة للأرباب الجزئية كما يجب عليه إرشاد الأمة إلى الحق المطلق، ولذلك أنكر جميع الأنبياء عبادة الأصنام وإن كانت مظاهر للهوية الإلٰهية، فإنكار هارون عبادة العجل من حيث كونه نبياً حق إلا أن يكون محمولاً على أن موسى علم بالكشف أنه ذهل عن شهود الحق الظاهر في صورة العجل، فأراد أن ينبّهه على ذلك وهو عين التربية والإرشاد منه عليه السلام وإنكاره على السامري وعجله على بصيرة، فإن إنكار الأنبياء

---

(١) أنظر مستدرك سفينة البحار: ٢/ ٥٠١.

والأولياء لعبادة الأصنام التي هي المظاهر ليس كإنكار المحجوبين فإنهم يرون الحق مع كل شيء، بخلاف غيرهم بل ذلك لتخليصهم عن التقيد بصورة خاصة وتجلّي خاص إذ فيه إنكار باقي المجالى وهو عين الضلال.

(ولذلك) أي لأجل أنه كان مرّبياً لهارون «لما قال له هارون ما قال رجع إلى السامري فقال له: فما خطبك يا سامري؟» أي ما شأنك وما مرادك، يعني فيما صنعت من عدولك إلى صورة العجل على الاختصاص وصنعك هذا الشبح من حليّ القوم وتركك الإله المطلق.

«فغلبت عليه الغيرة فحرقه ثم نسف رماد تلك الصورة في اليمّ نسفاً وقال له: انظر إلى إلٰهك فسمّاه بطريق التنبيه للتعليم» أي نبّه أنه مظهر من المظاهر ومجلى من مجاليه ـ إلى أن قال:

فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل أن ينفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سلط عليه موسى حكمة من الله ظاهرة في الوجود ليعبد في كل صورة وإن ذهبت تلك الصورة، بعد ذلك فما ذهبت إلا بعدما تلبست عند عابدها بالألوهية.

أي عدم تأثير هارون في منعهم عن عبادة العجل أو عدم تسلّطه عليهم كما تسلّط عليهم موسى كان حكمة من الله ظاهرة في الوجود الكوني فيكون معبوداً في صور الأكوان كلها، وإن كانت هذه الصورة ذاهبة فانية لأن ذهابها وفنائها إنما هو بعد التلبس بالعبودية عند عابدها.

(ولهذا) أي ولأجل أنه أراد أن يعبد في كل صورة «ما بقي من نوع من الأنواع إلا وعبد إما عبادة تألّه، أو عبادة تسخير فلا بد من ذلك لمن عقل» أما العبادة بالإلٰهية كعبادة الأصنام وغير ذلك من الشمس والقمر والكواكب والعجل، وأما العبادة بالتسخير فكما يعبدون الأموال وأصحاب الجاه والمناصب، إلى أن قال بعد جملة من ترهاته:

«والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه ولذلك» أي ولأجل أن الحق هو الذي ظهر في ذلك المجلى وعبد «سمّوه كلهم إلٰهاً مع اسمه الخاص بحجر أو حيوان أو شجر أو إنسان أو كوكب أو ملك أو فلك هذا اسم الشخصية فيه والألوهية مرتبة تخيل العابد له» أي لمعبوده «أنها مرتبة معبوده الخاص وهي على الحقيقة مجلى للحق» انتهى كلامهما هبط مقامهما ببعض تلخيص منا.

ومحصل كلامهما كما ترى أن الأصنام جميعاً مجالى الحق ومظاهره، بل هي عين الحق، بل الأشياء جميعاً مظاهره ومجاليه وعبدة الأوثان والأصنام وكذلك العابدون للشمس والقمر والكواكب والشجر والحجر والنار والعجل، وكذلك عبادة المدّعين للألوهية من

فرعون وشداد، وكذلك المنقادين للجبابرة وسائر الظلمة من أرباب الجاه والمناصب المسلطين على الرَّعية كلهم جميعاً عابدون لله تعالى، لأن هذه المعبودات كلها هو الحق ظهر في هذه المظاهر وتصوّر بهذه الصور المختلفة فهي على كثرتها ليست في الحقيقة إلا واحداً.

ومنع الأنبياء والأولياء من عبادة الأصنام لم يكن من حيث إنها عبادة باطلة مبغوضة لله تعالى، بل من أجل حصر العابد للصنم أو الشجر أو الحجر مثلاً عبادته في هذا المعبود الخاص، فبعث الله الأنبياء ليرشدوا أمتهم ويعلمومهم أن الله شاء وقضى أن يُعبد في كل صورة ومجلّى، وأن المجالّى كلها إله فليس لكم أن تقصروا عبادتكم بمعبود خاص وتخصصوه به وتتخذوه إلٰهاً دون غيره.

ومن هذا الباب كان غضب موسى على هارون فإنه عليه السلام لما كان أعلم منه وكان يعلم أن الله شاء أن يعبد في كل صورة حتى صورة العجل وما شاءه وقضاه عزَّ وجل لا بد من وقوعه لا محالة وكان هارون لا يعلم ذلك ولذلك أنكر على قومه عبادته، فعتب موسى عليه لأجله ونبّهه على عدم إتساع قلبه وعلى غفلته وذهوله عن حقيقة الأمر.

والحاصل: أن الأنبياء إنما بعثوا ليأمروا أمتهم بعبادة كل شيء من صنم أو غيره وليردعوهم عن قصر عبادتهم بشيء مخصوص معيّن فقط، وقد أوضح الرجس الخبيث هذا الغرض في بعض فقرات **(الفصّ النّوحي)**.

قال في جملة ما نقل من كلام نوح وقومه: «ومكروا مكراً كبّاراً لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية فهذا عين المكر على بصيرة فنبّه أن الأمر له كله فأجابوه مكراً كما دعاهم».

قال شارحه القيصري: أي لما مكر نوح معهم مكروا مكراً كباراً في جوابه وذلك لأن الدعوة إلى الله مكر من الداعي بالمدعو، لأن المدعو ما عدم الحق من البداية حتى يدعى إليه في الغاية لأنه مظهر هويته في بعض مراتب وجوده فالحق معه بل هو عينه فالداعي إذا دعى مظهراً ما يمكر به، فإنه يريد إن الحق ليس معه أو هو غيره وهو عين المكر.

لكن مثل هذا المكر من الأنبياء إنما هو على بصيرة كما قال: أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني، أي يعلم النبي أنه مظهر هوية الحق لكن يدعوه ليخلصه عن القيود وترتفع عنه الحجب الموجبة للضلالة فيرى ذاته مظهراً للهوية ويشاهد جميع الموجودات مظاهر للحق ويعبده بجميع أسمائه وصفاته كما عبده من حيث اسمه الخاص، وفاعل نبه ضمير يرجع إلى نوح أو إلى الحق أي نبههم على أن الملك كله لله ليس كما تخيلوا أنه لهم.

قال: «فقالوا في مكرهم لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق

ونسرا فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من عرفه ويجهله من جهله فالعالم يعلم من عبد وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وإن التفريق والكثرة كالأعضاء المحسوسة وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية».

قال الشارح القيصري: فالعالم بالله ومظاهره يعلم أن المعبود هو الحق في أي صورة كانت سواء كانت حسية كالأصنام أو خيالية كالجن أو عقلية كالملائكة ويعلم أن التفريق والكثرة مظاهر لأسمائه وصفاته وهي كالأعضاء في الصورة الإنسانية، فإن العين مظهر للإبصار والأذن للسمع والأنف للشمّ واليد للبطش، وكالقوى الروحانية كالعقل والوهم والذاكرة والحافظة والمفكرة والمتخيلة فإنها كلها مظاهر لصفات الروح، انتهى.

ومحصل كلامهما أن قوم نوح في عبادتهم للأصنام كانوا محقين لكونها مظاهر الحق كما أن العابدين لها كذلك لأنهم أيضاً كانوا مظهر الحق وكان الحق معهم، بل هو عينهم، وكان نوح أيضاً يعلم أنهم على الحق إلا أنه أراد على وجه المكر والخديعة أن يصرفهم عن عبادتها إلى عبادته.

وإنما كان هذا مكراً منه عليه السلام لأنه كان يقول لهم ما لم يكن معتقداً به ويموّه خلاف ما أضمره واعتقده إذ كان عالماً أو على بصيرة من ربه بأن الأصنام مظاهر الحق وعبادتها عبادته إلا أنه عليه السلام أراد أن يخلصهم من القيود حتى لا يقصروا عبادتهم فيها فقط، بل يعبدوه في كل معنى وصورة.

ولما شاهد القوم منه ذلك المكر أنكروا عليه وأجابوه بما هو أعظم مكراً وأكبر من مكره فقالوا: لا تتركوا آلهتكم إلى غيرها، لأن في تركها ترك عبادة الحق بقدر ما ظهر فيها وقصر عبادته في سائر المجالي وهو جهل وغفلة لأن للحق في كل معبود وجهاً يعرفها العارفون سواء كان ذلك المعبود في صورة صنم أو حجر أو شجر أو بقر أو جن أو ملك أو غيرها.

هذا محصل كلام هذين الرجسين النجسين النحسين وكم لهما في الكتاب المذكور من هذا النمط والأسلوب، وسنشير إلى بعضها فيما سيأتي، فلينظر المؤمن الكيس البصير إلى أنهما كيف موّها الباطل بصورة الحق وأوّلا كلام الله بآرائهم الفاسدة وأحلامهم الكاسدة على طبق عقائدهم الباطلة، وقد قال النبي المختار صلى الله عليه وآله: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[١].

(١) الحدائق الناضرة: ١/ ٢٩، ونور البراهين: ١/ ١٨٧.

ولعمري أنهما ومن حذا حذوهما حزب الشيطان وأولياء عبدة الطاغوت والأوثان، ولم يكن غرضهما إلا تكذيب الأنبياء والرسل، وما جاؤوا به من البينات والبرهان وهدم أساس الإسلام والإيمان وإبطال جميع الشرائع والأديان، وترويج عبادة الأصنام وجعل كلمة الكفر العليا وخفض كلمة الرحمٰن.

وأقسم بالله الكريم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنهم المصداق الحقيقي لقول أمير المؤمنين عليه السلام في المختار السابع: اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً واتخذهم له أشراكاً فباض وفرّخ في صدورهم ودبّ ودرج في حجورهم فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم فركّب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل فعل من شرّكه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه[1].

ومع ذلك فالعجب كل العجب أنهم يزعمون أنهم الموحدون العارفون الكاملون وأن غيرهم لمحجوبون وبالحق جاهلون، بل يترقى بعضهم ويدعي الولاية والقطبية ويطغى آخرون فيدعون لأنفسهم الأُلوهية والربوبية ويزعمون أن ربهم تجلى فيهم وظهر في صورهم المنحوسة.

فيقول ابن العربي في **(فتوحاته)**: إن الله تجلى لي مراراً وقال: انصح عبادي. ويقول البسطامي: سبحاني وما أعظم شأني ولا إله إلا أنا، ويقول الحلاج: ليس في جبّتي سوى الله، ويقول: أنا الحق وأنا الله.

وبعضهم يبلغ الغاية ويجاوز النهاية فيقول ويجهر، ويتكلم تكلم المجنون الذي لا يشعر، فيخاطب الرب عزَّ وجل والعياذ بالله مخاطبة الموالي للعبيد وهو قطبهم أبو يزيد.

فقد نقل عنه القيصري في شرح الفص النوحي أنه قال في مناجاته عند تجلي الحق له: ملكي أعظم من ملكك لكونك لي وأنا لك فأنا ملكك وأنت ملكي وأنت العظيم الأعظم وملكي أنت، فأنت أعظم من ملكك وهو أنا.

فلينظر العاقل إلى مهملات هذا الجاهل، ثم لينظر إلى سوء أدبه وقبح خطابه ومناجاته حيث لم يرفع يده عن الأنانية فعبّر بلفظ أنا وأنت غير مرة في مثل هذا المقام الذي هو مقام الفناء والتجلّي على زعمهم وكيف يجتمع ذلك مع قولهم السائر:

بيني وبينك أنني ينازعني فارفع بلطفك أنني من البين

وإنما أطنبنا الكلام في المقام تنبيهاً على ضلالة هذه الجهلة الذين زعموا أنهم من أهل

---

(١) مستدرك سفينة النجاة: ٥/ ٤٠٥.

الكشف والشهود واليقين والموحدين المخلصين مع أنهم من الضالين المكذبين للأنبياء والمرسلين، وتعالى الله عما يقول الظالمون والملحدون علّواً كبيراً.

ومنه

قوله عليه السلام في الخطبة المائة والثانية والخمسين:

الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته وباشتباههم على أن لا شبه له، لا تستلمه المشاعر ولا تحجبه السواتر، لافتراق الصانع والمصنوع، والحادّ والمحدود، والربّ والمربوب ـ إلى أن قال ـ والبائن لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة، بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه، من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله[1].

وقد مضى شرح هذه الفقرات في محلها، وأقول هنا: إن فيها وجوهاً من الدلالة على بطلان مذهب هذه الملاحدة.

أولها: قوله: لا تحجبه السواتر، (آه).

فإن هذه الطائفة زعمت أنه سبحانه وتعالى احتجب في مخلوقاته وسرت هويته فيها وصارت صور الموجودات حجاباً ساتراً له.

ويوضح ذلك ما قاله ابن الأعرابي في الفص الإبراهيمي من الفصوص: «إنما سمّي الخليل عليه السلام خليلاً لتخلّله وحصره جميع ما اتصفت به الذات، قال الشاعر:

قد تخلّلت مسالك الروح منّي   وبه سمّي الخليل خليلاً

كما يتخلل اللون والمتلون ولتخلل الحق وجود صورة إبراهيم وكل حكم يصح من ذلك.

قال القيصري: أي سمّي الخليل خليلاً لتخلله كما سمي الخمر خمراً لتخميره العقل وتخلله عليه السلام عبارة عن سريانه في المظاهر الإلٰهية والصفات الربوبية كسريان هوية الحق فيها من حيث اسمه اللطيف ولكون اسم التخلل هنا مجازاً عطف عليه قوله وحصره جميع ما اتصفت به الذات الإلٰهية وهو الصفات الثبوتية الحقيقية.

والمراد بالروح في البيت المستشهد: الروح الحيواني، أي سريت في ذاتي وقلبي كسريان الروح الحيواني في مسالكه، فأورد مثالين، أحدهما عقلي كقول الشاعر لأن تخلل

---

(١) الكافي: ١/ ١٤٠ ح ٥.

عشق المحبوب مسالك الروح من المحب العاشق عقلي، والآخر حسيّ كقوله: كما يتخلل اللون المتلوّن أي تخلل الخليل الذات الإلٰهية بالاختفاء فيها والاتصاف بصفاتها كما يتخلل اللون المتلوّن بسريانه في جميع أجزاء المتلوّن بحيث يكون هو هو في الحس بحيث لا يفرق بينهما بالإشارة الحسية فيكون مكانه عين مكان المتلوّن ولا يكون بينهما امتياز في الحسّ.

وقوله: ولتخلل الحق عطف على قوله: ولتخلله وحصره أي سمي الخليل خليلاً لتخلله ولتخلل الحق بظهور الهوية وسريانها في وجود إبراهيم في الخارج وعينه في العلم، وفي كل حكم يصح من ذلك الوجود من الصفات والكمالات اللازمة لتعينه والمراد بالصورة عينه الخارجي.

ثم قال في المتن والشرح: «إعلم أنه ما تخلل شيء شيئاً إلا كان محمولاً فيه» لأن المتخلل هو الذي ينفذ في الشيء ويدخل في جوهره فالداخل محمول ومستور فيه والمدخول فيه حامل له وظاهره.

«فالمتخلّل إسم فاعل محجوب بالمتخلّل إسم مفعول، فإسم المفعول هو الظاهر وإسم الفاعل هو الباطن المستورد وهو غذاء له كالماء يتخلل الصّوفة فتربو به وتتسع فإن كان الحق هو الظاهر فالخلق مستور فيه فيكون الخلق جميع أسماء الحق سمعه وبصره وجميع نسبه وإدراكاته وإن كان الخلق هو الظاهر فالحق مستور باطن فيه فالحق سمع الخلق وبصره ويده ورجله وجميع قواه كما ورد في الخبر الصحيح».

قال القيصري: أي ما دخل شيء في شيء إلا كان الداخل مستوراً في المدخول فيه، فالمتخلل الذي هو إسم الفاعل أي الداخل محجوب مستور في المتخلل الذي هو إسم المفعول أي المدخول فيه، فالمدخول فيه هو الظاهر والداخل هو الباطن، والظاهر إنما يغتذي من الباطن لأن الفيض عليه لا يحصل إلا منه، فالباطن غذاء الظاهر إذ به قوامه ووجوده.

وإذا كان الأمر كذلك لا يخلو إما أن يكون الحق ظاهراً أو الخلق باطناً أو بالعكس، فإن كان الحق ظاهراً أي محسوساً بتجلّيه في مرتبة من مراتب الإسم الظاهر فالخلق مستور فيه وباطنه فيكون الخلق جميع أسماء الحق وصفاته من السمع والبصر والإرادة وغيرها وجميع النسب التي هي تلحقه بالحق شرعاً.

وإن كان الخلق هو الظاهر في مرآة الحق فالحق مستور فيه وباطنه فالحق سمع الخلق وبصره وجميع قواه الباطنة، وهذا نتيجة قرب النوافل، والأول نتيجة قرب الفرائض، وإنما جاء باليد والرجلين اللذين من الظاهر مع أن كلامه في الباطن لورود الخبر الصحيح كذلك،

وفي الحديث دليل على أن الحق عين باطن العبد وعين ظاهره، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

ومحصّل ما قالاه كما ترى: كون الخلق حجاباً للخالق، والخالق حجاباً للخلق، وكون كل منهما عين الآخر ومحجوباً به، قد أبطله أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: لا تحجبه السواتر، معللاً بافتراق الصانع والمصنوع والحاد والمحدود والربّ والمربوب، والمفترقان كيف يكون أحدهما عين الآخر على ما توهمّه هؤلاء الجهلة.

والعجب أن الكتاب والسنّة بل جميع الأنبياء والمرسلين ينادون بأعلى أصواتهم وجهوريّ أقوالهم بتوحيد الخالق والتفريق بينه وبين خلقه، وهؤلاء الملاحدة وقفوا في قبالهم وبالغوا في مقام الإنكار والمكابرة والمعارضة، وأصروا في جعله عينه زاعمين أن ذلك عين التوحيد مع أنه عين الإلحاد والجحود والتشريك، هذا.

مع ما يتوجه على ما قالاه من وجوه الكلام وضروب الملام.

أما **أولاً**: فلأن نسبة إبراهيم عليه السلام ليس من أجل تخلله في وجود الحق وتخلل الحق فيه، بل لأجل كماله في مقام الخلّة وهي المودّة والصداقة، والخلّ والخليل الصديق المختص، فلأجل مزيد اختصاصه به وكرامته لديه سمّي خليلاً، ولو كان تسمية الخليل بهذا الاسم من أجل التخلل في الوجود لما صح إطلاقه على سائر الأخلاء إلا بالمجاز، لأن المعنى الحقيقي ـ أعني تخلل كل من الخليلين في وجود الآخر غير متصور ـ فلا بد من ارتكاب المجاز والمصير إلى أن مودة كل منهما بلغت الغاية بحيث تخللت القلب وصارت خلاله وباطنه، وبعد البناء على المجاز ففيما نحن فيه أيضاً كذلك، فيراد به مزيد الاختصاص لاستلزام كمال المودة ذلك.

وأما **ثانياً**: فلأن البيت لا شاهد فيه على ما ادعاه، إذ المراد به المبالغة في تخلل محبة محبوبه في قلبه بتشبيهها بتخلل الروح، وليس المراد تخلل نفس المحبوب في ذاته كما قال. وبذلك السبب سمّي الخليل خليلاً لكون محبته داخلة في قلب خليله، مضافاً إلى أنه لا دلالة في البيت على أنه أراد بالخليل إبراهيم حتى يستشهد به على المدّعا.

وأما **ثالثاً**: فلأن وجه التسمية لو كان ما زعم لما اختص الخليل عليه السلام بالخلّة إذ على أصله الفاسد جميع المخلوقات متخللة فيه وهو متخلل فيها لكونها جميعاً مجاليه ومظاهره، وقد صرح بذلك أيضاً أخيراً بقوله: فالمتخلّل محجوب بالمتخلل إلى آخر كلامه، وعلى ذلك فيكون الله سبحانه وتعالى خليل جميع الموجودات من الإنسان والحيوان وغيرهما بجميع أنواعها وأصنافها، وكذلك جميع الموجودات حتى الكلاب والخنازير والعياذ بالله ثم العياذ بالله خليلاً له، أفيرضى السّفيه بهذا الاعتقاد فضلاً عن العاقل؟!.

وقد صرّح بالعموم أيضاً في الفصّ الإسماعيلي بقوله:

«فلا تنظر إلى الحق فتعريه عن الخلق ولا تنظر إلى الخلق وتكسوه سوى الحق»

قال القيصري: أي لا تنظر إلى الحق بأن تجعله موجوداً خارجياً مجرداً عن الأكوان منزهاً عن المظاهر الخلقية، عارياً عنها وعن صفاتها، ولا تنظر إلى الخلق بأن تجعله مجرداً عن الحق مغايراً له من كل الوجوه وتكسوه لباس الغيرية وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، بل انظر إلى الحق في الخلق لترى الوحدة الذاتية في الكثرة الخلقية وترى الكثرة الخلقية في الوحدة الذاتية.

وأما **رابعاً**: فلأن أقوله فاسم المفعول هو الظاهر وإسم الفاعل هو الباطن المستور وهو غذاء له، فيه إنا لم نر إلى الآن في آية ولا رواية ولا في كلام حكيم أو متكلم أو محدّث أو فقيه ولا عاقل ولا سفيه غير هذا المعتوه إطلاق أن الله غذاء للخلق والخلق غذاء الله، مضافاً إلى فساده في نفسه لأن الغذاء بالمعنى الحقيقي مستحيل إرادته، وإن أُريد به المجاز على وجه الاستعارة حسبما تمحله القيصري وأشار إليه في قوله: والظاهر إنما يغتذي من الباطن لأن الفيض عليه لا يحصل إلا منه فالباطن غذاء الظاهر إذ به قوامه ووجوده، فبعد تسليم صحة هذا التجوز والغض عن استكراه الذوق السليم له واستهجانه عنده، فيه أنه إنما يستقيم إذا كان الباطن المستور هو الحق لا الخلق، وإلا فيلزم افتقار الحق سبحانه وتعالى إلى الخلق في قوامه ووجوده وهو محال كما هو ظاهر.

وقد فصّلا غذائية كل منهما للآخر في الفصّ اللقماني، قال في المتن:

«إذا شاء الإله يريد رزقاً له فالكون أجمعه غذاء»

«وإن شاء الإله يريد رزقاً لنا فهو الغذاء كما يشاء»

قال الشارح: أي إذا تعلقت مشيئته بأن يريد له رزقاً فالكون بأجمعه غذاء له، وقد تقدم أن الحق من حيث أسمائه وصفاته لا يظهر في الشهادة إلا بأعيان الأكوان، وإن كان من حيث ذاته مع قطع النظر عن الظهور والبطون والأسماء والصفات غنياً عن العالمين، فالأعيان غذاء له من حيث إظهارها إياه ومن حيث فنائها واختفائها فيه ليظهر بوحدته الحقيقية كفناء الغذاء وانعدامها واختفائها في المغتذي وإن كان باعتبار آخر هو غذاء للأعيان.

وإليه أشار البيت الثاني وذلك لأن الغذاء هو ما يغتذي في عين المغتذي ويظهر على صورته ليقوم به والهوية الإلهية هي التي تختفي في أعيان الخلائق وتصير ظاهرة بصورتها مقوّمة لها، فهي غذاء للأعيان ونسبة الاغتذاء والرزق إليه مع أنه يطعم ولا يطعم ونسبة كونه غذاء لنا بعينها كنسبة بعض الصفات الكونية إليه بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

[البقرة: ٢٤٥]، ومرضت فلم تعدني، وأمثال ذلك مما جاء في الشرع.

وهذه النسبة أيضاً من باطن الشرع، فإن النبي ﷺ أعطي الكتاب وأمر بإخراجه إلى الخلق فلا ينبغي أن يسيىء أحد ظنه من المؤمنين في حق الأولياء والكاملين في أمثال هذه الأشياء، انتهى.

ومقتضى ما ذكراه من كون الكون بأجمعه غذاء له وبالعكس أن الكلاب والخنازير والميتة ونحوها غذاء له سبحانه وهو غذاء لها إن هو إلا كفر صريح وإلحاد صحيح.

وما اعتذر به الشارح من ورود أمثال ذلك في الشرع فيه إنا تابعون للشرع فإذا ورد في الشرع وصفه ببعض الصفات الكونية فنحن أيضاً نصفه به لثبوت الإذن فيه من الشارع ونؤوّله على وفق الأصول الشرعية، وأما ما لم يثبت الإذن فيه فنضربه على الجدار فضلاً عما علم بطلانه وفساده من العقل والشرع.

وأما قوله: وهذه النسبة أيضاً من باطن الشرع، فإن النبي أعطي الكتاب وأمر بإخراجه إلى الخلق، فأشار به إلى ما ذكره في ديباجة الفصوص بقوله: فإني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة أُريتها في العشر الآخر من المحرم لسنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده كتاب فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، انتهى.

ولعمري إن هذه الرؤيا إما إفك وإفتراء لا أصل لها أصلاً، وإنما نسجها من تلقاء نفسه لتفتين مردته الحمقاء وترويج كتاب ضلاله، أو أضغاث أحلام نفثها الشيطان في روعه وألقاها في أمنيته وكيف يمكن أن يؤتيه النبي كتاباً فيه هدم أساس دينه وتخريب بنيان مذهبه وملّته؟.

وأما **خامساً**: فلأن قوله: فالحق سمع الخلق وبصره ويده ورجله وجميع قواه كما ورد في الخبر الصحيح فيه إن هذا الخبر الذي استند إليه هنا وجعله سند مذهبه الفاسد في مقامات كثيرة من كتابه قد قدمنا روايته في ذيل الدليل العقلي وأوردنا في تأويله وجوهاً عديدة موافقة لأصول المذهب ونقلنا عن المحدث العلامة المجلسي هناك أن حمله على ظاهره كما ذهبت إليه هذه الطائفة المبتدعة كفر صريح وشرك قبيح.

وأقول هنا: إن أظهر الوجوه المحتملة في معناه هو الوجه الأخير المتقدم ثمة ومحصّله أن العبد إذا تقرّب إلى ربّه بالفرائض والنوافل صار مقرّباً لديه ومحبوباً إليه، فيفاض عليه التوفيقات الربّانية ويحيط به الألطاف الإلهية فلا يشاء إلا أن يشاء الله، ولا يصرف حواسه ومشاعره إلا بما فيه رضا مولاه، وبإزاء ذلك من انهمك في الشهوات وغمر في بحر السيئات والخطيئات فيحيط به الخذلان ويكون قلبه عش الشيطان فلا يصرف مشاعره وقواه إلا بما فيه

رضاه فيشركه في سلطانه وينطق بالباطل على لسانه.

والحاصل أن مساق هذه الرواية في حق عباد الله المقربين مساق قول أمير المؤمنين عليه السلام في حق عبيد الشيطان المبعدين حيث قال في المختار السابع: اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً واتخذهم له أشراكاً فباض وفرّخ في صدورهم ودبّ ودرج في جحورهم فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم فركّب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل فعل من قد شرّكه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه.

فكما أن المراد بهذا الكلام المجاز والإستعارة قطعاً لا الحقيقة، فكذلك الحديث المذكور كما هو غير خفي على ذوي البصائر إلا أن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، هذا.

ومما وقع التصريح فيه أيضاً في كلام ابن العربي بأن الحق مستور في الخلق والخلق ساتر له، ما صريح عبارته في الفصّ العيسوي، فإنه بعدما ذكر كيفية إحياء عيسى عليه السلام للموتى ومشاهدة القوم ذلك منه وتحيّرهم فيه في إحيائه لكونه من الخصائص الإلهية قال:

«فأدّى بعضهم إلى القول بالحلول وأنه هو الله بما أحيى به من الموتى ولذلك نسبوا إلى الكفر وهو الستر لأنهم ستروا الله الذي أحيى الموتى بصورة بشرية عيسى».

قال القيصري: أي فأدى نظر بعضهم فيه إلى القول بالحلول فقال: إن الله حل في صورة عيسى فأحيى الموتى، وقال بعضهم: إن المسيح هو الله، ولما ستروا الله بالصورة العيسوية المقيدة فقط نسبوا إلى الكفر.

«فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، فجمعوا بين الخطأ وبين الكفر في تمام الكلام كله» أي جمعوا بين الكفر وهو ستر الحق بالصورة العيسوية وبين الخطأ وهو حصر هوية الله في كلمة العيسوية، والمراد بقوله: في تمام الكلام، أي بمجموع قولهم إن الله هو المسيح ابن مريم، جمعوا بين الكفر والخطأ.

«لا بقولهم هو الله ولا بقولهم ابن مريم» لأن قولهم: هو الله أو الله هو صادق من حيث إن هوية الحق هي التي تعينت وظهرت بالصورة العيسوية كما ظهرت بصورة العالم كله، وقولهم: المسيح ابن مريم أيضاً صادق، لأنه ابن مريم بلا شك لكن تمام الكلام ومجموعه غير صحيح لأنه يفيد حصر الحق في صورة عيسى فقط وهو الباطل لأن العالم كله غيباً وشهادة صورته لا عيسى فقط، انتهى.

ومحصل كلامهما أن النصارى القائلين بالحلول إنما أرادوا بذلك أن لاهوتية الإله

تغيّبت بناسوتيّة عيسى فاستتر الحق بالصورة العيسوية كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ [المائدة: ١٧]، فإن المراد بالكفر هنا معناه اللغوي وهو الستر لا الإصطلاحي، فيكون معنى الآية: إن الذين قالوا إن الله هو المسيح قد ستروه به وهم كانوا مصيبين في ذلك القول والاعتقاد لكون الهوية الإلٰهية مختفية فيه وظهورها بصورته كاختفائها في أعيان الخلائق كلها وظهورها بصورها، لكنهم أخطأوا في حصرهم الحق في صورة عيسى فقط وجعله مظهراً له دون غيره مع أن العالم كله مظهره لا عيسى فقط.

والحاصل أن النصارى إنما أخطأوا حيث قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، ولم يقولوا: إن الله هو العالم كله، فلو قالوا كذلك ارتفع عنهم الخطأ والعائبة بالمرة.

أقول: هذا ملخص مراد هذا الملحد الضّليل الذي أضلّ كثيراً وضلّ عن سواء السبيل، فانظر إلى أنه كيف يبدّل كلمة الكفر بالإسلام، وكلمة الإسلام بالكفر، ويؤوّل كلام الله الظاهر بل النص في تكفير النصارى إلى معنى تشمئز منه الطباع وتنفر عنه الأسماع.

فيا عجباً عجباً وما لي لا أعجب من أن الله سبحانه وتعالى إنما حكم بكفر النصارى ولعنهم وطردهم وإبعادهم من أجل قولهم بحلوله في عيسى فقط فكيف بمن يقول بحلوله في جميع الأعيان والأكوان حتى الكلاب والخنازير؟ نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من هذا الاعتقاد الفاسد، ولعن الله المعتقدين به وعذّبهم عذاباً أليماً لا يعذبه أحداً من العالمين.

الوجه الثاني من وجوه الدلالة قوله عليه السلام: الظاهر لا برؤية والباطن لا بلطافة[1].

يعني أنه ظاهر بلا اقتراب وباطن بلا حجاب، وبعبارة أخرى أنه عزَّ وجل ظاهر بآياته ومحتجب بذاته وليس ظهوره كظهور سائر الأشياء بأن يكون مرئياً بحاسة البصر، ولا بطونه بلطافة قوامه كالهواء والروح ونحوهما حسبما عرفت تفصيلاً في مقامه وإليه أشار سبحانه بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقال الرضا عليه التحية والثناء في الحديث الذي رواه في **(البحار)** من التوحيد والعيون عن الحسين بن خالد عنه عليه السلام في تفسير أسمائه سبحانه وتعالى وبيان أن إطلاقها عليه عزَّ وجل ليس على الوجه الذي يطلق على غيره وأن المعنى الذي يراد عند إطلاق اسم عليه سبحانه مخالف للمعنى المراد عند إطلاقه على غيره، قال عليه السلام:

وأما الظاهر فليس من أجل أنه على الأشياء بركوب فوقها وقعود عليها وتسنّم لذراها،

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٤٠ ح ١٥٢، وميزان الحكمة: ٣/ ١٩١٧ ح ٢٦٥٦.

ولكن ذلك لقهره ولغلبته الأشياء وقدرته عليها ـ إلى أن قال ـ: ووجه آخر أنه الظاهر لمن أراده لا يخفى عليه شيء وأنه مدبّر لكل ما يرى، فأي ظاهر أظهر وأوضح أمراً من الله تبارك وتعالى فإنك لا تعدم صنعته حيثما توجهت وفيك من آثاره ما يغنيك والظاهر منا البارز بنفسه والمعلوم بحدّه فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى.

وأما الباطن فليس على معنى الإستبطان للأشياء بأن يغور فيها ولكن ذلك منه على استبطانه للأشياء علماً وحفظاً وتدبيراً كقول القائل: بطنته، أي خبّرته وعلمت مكتوم سره، والباطن منا بمعنى الغائر في الشيء المستتر فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى، الحديث[١].

فقد علم بذلك كله بطلان ما زعمه الصوفية، فإنهم يقولون: إن ظهوره عبارة عن ظهوره بصور الموجودات كما حكينا عن القيصري فيما سبق من قوله: إن حقيقة الوجود إذا أخذت بشرط الصور الحسية الشهادتية فهي مرتبة الاسم الظاهر المطلق، وأن بطونه عبارة عن تخلّله واحتجابه بالخلق حسبما عرفت قريباً، وعلى قولهم فيكون ظهوره برؤية البصر له في مجاليه ومظاهره وبطونه للطافته وسراية هويته في الموجودات واختفائه فيها.

وقد أشار إلى تفصيل ذلك ابن العربي في الفصّ اليهودي حيث قال:

«فالعالم صورته وهو روح العالم المدبّر له، فالعالم هو الإنسان الكبير، فالعالم من حيث إنه عالم صورة الحق والحق روحه المدبر له، فالعالم هو الإنسان الكبير فهو الكون كله وهو الواحد الذي قام كوني بكونه ولذا قلت يغتذي فوجودي غذاؤه وبه نحن نغتذي».

قال القيصري: أي الحق هو الوجود كله وهو الواحد بحسب الذات والحقيقة والقيّوم الذي قام وجُودي ووجود العالم كله بوجوده وذاته، وقوله: ولذا إشارة إلى قوله: قام كوني بكونه، أي ولأجل أن وجودي قائم بوجوده ووجوده ظاهر بوجودي نسبت الغذاء إليه فغذاؤه وجود العالم وغذاء العالم وجوده وأسماؤه لأن الغذاء عبارة عما به بقاء المغتذي في الخارج وذلك باختفائه وظهوره على صورة من يغتذي، ولا شك أن وجودنا يحصل باختفاء هويته فينا وظهوره بصورنا وبقائنا أيضاً يحصل بإيصال الفيض الدائم إلينا كذلك أعيان العالم يختفي في ذاته ويظهر وجوده وأسماؤه وأحكامها في الخارج.

إلى أن قالا بعد جملة من ترّهاتهما:

«إذ هو الظاهر وهو باطنها إذ هو الباطن»، لأن الحق هو الظاهر وظاهريته بصور العالم والحق باطنها، لأنه هو الباطن كما أنه هو الظاهر «وهو الأول إذ كان ولا هي» أي الحق هو

(١) الكافي: ١/ ١٢٢ ح ٢، والبحار: ٤/ ١٧٨ ح ٥.

الأول لأنه كان وليس صور العالم موجودة كما قال ﷺ: كان ولا شيء معه، «وهو الآخر إذ كان عينها عند ظهورها» أي هو الآخر لأنه عين أعيان العالم وصورها عند ظهورها في الخارج «فالآخر عين الظاهر والباطن عين الأول».

قال القيصري: الآخر يطلق على معنيين:

أحدهما: ما ذكره هنا وهو كون الحق عين الأعيان الخارجية الموجودة في الخارج لأنه آخر المراتب.

وثانيهما: كون الأعيان مستهلكة في الحق بالفناء فيه، فعلى الأول الآخر عين الظاهر والباطن عين الأول لكون الحق باطناً أولاً ولا ظهور للأشياء إلى أن قالا:

«وإذا كان الحق وقاية للعبد بوجه» وهو كون الحق ظاهر العبد «والعبد وقاية للحق بوجه» وهو كون العبد ظاهر الحق «فقل في الكون ما شئت إن شئت قلت هو الخلق» كما يقول المحجوبون باعتبار صفات النقص «وإن شئت قلت هو الحق» كما يقول الموحدون باعتبار صفات الكمال «وإن شئت قلت هو الحق والخلق» باعتبار الجمع بين الكمال والنقصان «وإن شئت قلت لا حق من كل وجه ولا خلق من كل وجه» كما يقول المحققون الجامعون بين المراتب الإلٰهية والعبودية «وإن شئت قلت بالحيرة في ذلك» كما قيل: العجز عن درك الإدراك إدراك.

«فقد بانت تبعيتك المراتب ولولا التحديد ما أخبرت الرسل بتحوّل الحق في الصور ولا وصفته بخلع الصور عن نفسه فلا تنظر العين إلا إليه ولا يقع الحكم إلا عليه».

قال القيصري: لما كان كون الحق عين الأشياء يوجب التحديد قال: ولولا التحديد واقعاً في نفس الأمر ما أخبرت الرسل بأن الحق يتحول في الصور كما جاء في الحديث الصحيح: إن الحق يتجلى يوم القيامة للخلق في صورة منكرة، فيقول: أنا ربكم الأعلى، فيقولون: نعوذ بالله منك، فيتجلى في صورة عقائدهم فيسجدون له والصور كلها محدودة، فإذا كان الحق يظهر بالصور المحدودة ونطق الكتاب بأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، حصل العلم للعارف أن الظاهر بهذه الصورة أيضاً ليس إلا هو فلا تنظر العين إلا إليه ولا يقع الحكم إلا عليه، إذ لا موجود سواه ليكون مشاهداً إياه بل هو الشاهد والمشهود عليه والحاكم والمحكوم عليه، انتهى.

ويتوجه عليهما أولاً أن البراهين المحكمة من العقل والنقل قد قامت على استحالة رؤيته سبحانه بحس البصر، وقد تقدم ذكرها مكرراً في تضاعيف الكتاب وقد قال تعالى صريحاً: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]

فنص كلام الحق سبحانه وتعالى ناطق بأن ما قالاه إفك وبهت وافتراء.

وأما **ثانياً**: فقد عرفت سابقاً وستعرف أيضاً مباينة الحق للخلق ومفارقة الصانع والمصنوع والرب والمربوب والحاد والمحدود، ومع ذلك فكيف يمكن أن يكون الحق وقاية للعبد والعبد وقاية للحق ويتفرّع على ذلك بطلان الوجوه الأربعة جميعاً لكونها كلها خلاف ما قاله الأنبياء والرسل والحجج المعصومون سلام الله عليهم أجمعين، نعم الحيرة في إدراك ذاته حق من جهة تنزّهه عن التحديد لا بالمعنى الذي توهمه هذا الجاهل، فإن حجج الله المعصومين مع كونهم عالمين بحقائق الأشياء على ما هي عليها بالعلم اللدني قد اعترفوا بالعجز عن إدراك ذاته، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما عرفناك حق معرفتك»، فعلم أن عجزهم ليس من جهة استتاره في الخلق واستتار الخلق فيه كما زعمه هذا الضّليل[(١)].

وأما ثالثاً فإن ما نسبه إلى الرسل كذب فاحش والحديث الذي استدل به من أن الحق يتجلى للعبد يوم القيامة (آه) موضوع مجعول لكونه مخالفاً للعقل والنقل والضرورة.

ومثله في الجعل ما رواه الغزالي في آخر كتاب (**إحياء العلوم**) عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»[(٢)].

وروى عن (**صحيح مسلم**) عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، قالوا: ما هذا الموعد ألم يثقّل موازيننا ويبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب، وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجه الله»[(٣)].

قال الغزالي: وقد روى حديث الرؤية جماعة من الصحابة.

أقول: ولو روى ألف صحابة حديثاً مفيداً لرؤيته سبحانه بحاسة البصر لطرحناه لكونه مخالفاً لنص الكتاب فضلاً عن البراهين الساطعة، نعم لو كان حديثاً معتبراً قابلاً للتأويل أوّلناه كما نؤوّل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ـ ٢٣] وقوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ونحوهما بما لا يخالف أصول

(١) الفوائد العلية: ٢/ ٣٩٣.

(٢) المحلى لابن حزم: ٣٠/ ٢٨.

(٣) الديباج على مسلم: ٦/ ١٦.

المذهب، والله هو الهادي.

الوجه الثالث من وجوه الدلالة قوله ﷺ: بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه.

فإنه صريح في مباينته للأشياء بغلبته واستيلائه عليها وقدرته على إيجادها وإعدامها كما هو شأن الواجب تعالى وبخضوع الأشياء وذلّها في قيد الإمكان ورجوعها وافتقارها في وجودها وكمالاتها إليه عز وجل كما هو مقتضى حال الممكن ومع ذلك فكيف يمكن جعل أحدهما عين الآخر على ما ذهب إليه المتصوفة؟.

الوجه الرابع قوله ﷺ: من وصفه فقد حدّه ـ إلى قوله ـ: فقد أبطل أزله.

وهو صريح في تنزّهه سبحانه عن الأوصاف والحدود الإمكانية فيبطل القول بظهوره في صور الموجودات واتصافه بأوصافها وحدودها وتشكله بالأشكال المختلفة كما هو مذهب الصوفية خذلهم الله تعالى.

ومنه

أكثر فقرات الخطبة المائة والثانية والستين:

فمنها قوله ﷺ فيها: حدّ الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها.

أي أنه تعالى جعل للأشياء عند إيجاده إياها أجزاء وذاتيات إن كان الحد بمعناه المنطقي أو حدوداً ونهايات إن كان بمعناه اللغوي. ومحصله أنه تعالى جعلها محدودة مشخصة بحدود معينة تقف عندها ولا يتجاوز عنها إلى غيرها.

وإنما جعلها كذلك ليتميز بعضها عن بعض ويفترق أحدها عن الآخر، لأن الشخص ما لم يتشخص لم يوجد، والوقوف إلى حد معين لا بد له من علة محددة، إذ ماهية الشيء لو كانت مقتضية للانتهاء إلى ذلك الحد المخصوص لكان جميع أفراد تلك الماهية كذلك وليس فليس والعلة المحددة لا بد أن يكون منزّهاً عن الحد، وإلا فيحتاج إلى علة أخرى فيتسلسل.

وبعبارة أخرى الأشياء لكونها ذي ماهية مركبة من الجنس والفصل محدودة الحد المنطقي، ولكونها منتهية إلى حد معين ومقدار مشخص محدودة بالحد اللغوي، وهو من لواحق الكم المتصل والمنفصل اللذين هما من أقسام العرض، والواجب تعالى لكونه منزّهاً عن التركيب المستلزم للافتقار لا يكون محدوداً بالحد المنطقي، ولعدم كونه عرضاً امتنع أن

(١) التوحيد: ٥٥، والبحار: ٤/ ٢٧٧.

يكون محدوداً بالحد اللغوي فيكون مبايناً لمخلوقاته منزّهاً عن مشابهتها بنفس ذاته.

وقال عليه السلام في هذه الخطبة أيضاً بعد جملة كلام له:

تعالى عما ينحله المتحددون من صفات الأقدار ونهايات الأقطار وتأثّل المساكن وتمكّن الأماكن، فالحد لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب[(١)].

وأوضح منهما ما في (**البحار**) من التوحيد للصدوق بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عن أمير المؤمنين في خطبة طويلة له عليه السلام قال: لما شبّهه العادلون بالخلق المبعض في صفاته ذوي الأقطار والنواحي المختلفة في طبقاته وكان عزَّ وجل الموجود بنفسه لا بأداته انتفى أن يكون قدّروه حق قدره فقال تنزيهاً لنفسه عن مشاركة الأنداد وارتفاعاً عن قياس المقدرين له بالحدود من كفرة العباد: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

ومثل هذه الدلالة على تنزّهه سبحانه من التحديد والتشبيه أخبار كثيرة قريبة من التواتر بل متواترة.

مثل ما رواه في (**البحار**) من توحيد الصدوق عن إبراهيم بن محمد الهمداني قال: كتبت إلى الرجل ـ يعني أبا الحسن عليه السلام ـ إن من قبلنا من مواليك قد اختلفوا في التوحيد، فمنهم من يقول: جسم، ومنهم من يقول: صورة، فكتب عليه السلام بخطه: سبحان من لا يحدّ ولا يوصف ليس كمثله شيء وهو السميع العليم، أو قال: البصير[(٢)].

وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام أنه قال لهشام: إن الله تعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء وكل ما وقع في الوهم فهو بخلافه[(٣)].

قال: وروي عنه عليه السلام أيضاً أنه قال: سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، لا يحدّ ولا يحسّ ولا يدركه الأبصار ولا يحيط به شيء، ولا هو جسم ولا صورة ولا بذي تخطيط ولا تحديد[(٤)].

وفيه من التوحيد عن هشام بن إبراهيم العباسي قال: قلت له ـ يعني أبا الحسن عليه السلام ـ: جعلت فداك أمرني بعض مواليك أن أسألك عن مسألة، قال عليه السلام: ومن هو؟ قلت:

---

(١) الكافي: ١/١٠٢ ح ٥ـ٨.

(٢) التوحيد للصدوق: ٨٠ ح ٣٥.

(٣) الكافي: ١/١٠٤ ح ١.

(٤) التوحيد: ١٠١ـ١٠٧.

الحسن بن سهل، قال: وفي أي شيء المسألة؟ قال: قلت: في التوحيد، قال: وأي شيء من التوحيد؟ قال: يسألك عن الله جسم أو لا جسم؟ فقال عليه السلام لي: إن للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: إثبات بتشبيه، ومذهب النفي، ومذهب إثبات بلا تشبيه، فمذهب الإثبات بتشبيه لا يجوز، ومذهب النفي لا يجوز، والطريق في المذهب الثالث إثبات بلا تشبيه[1].

وفيه من **(التوحيد)** عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من شبّه الله بخلقه فهو مشرك، إن الله تبارك وتعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، وكل ما وقع في الوهم فهو بخلافه[2].

وفيه من **(العقائد)** بإسناده عن محمد بن زياد قال: سمعت يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً إلا أني أختصر لك منه أحرفاً، يزعم أن الله جسم لأن الأشياء شيئان، جسم وفعل الجسم، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويله ما علم أن الجسم محدود متناه والصورة محدودة متناهية فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً، قال: قلت: فما أقول؟ قال: لا جسم ولا صورة وهو مجسّم الأجسام ومصوّر الصور، ولم يتجزّأ ولم يتناه ولم يتزايد ولم يتناقص لو كان كما يقول لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق، ولا بين المنشىء والمنشأ، لكن هو المنشىء فرّق بين من جسّمه وصوّره وأنشأه إذا كان لا يشبهه شيء ولا يشبه هو شيئاً[3].

قال المحدث العلامة المجلسي بعد روايته ذلك:

استدل عليه السلام على نفي جسميته تعالى بأنه لو كان جسماً لكان محدوداً بحدود متناهياً إليها لاستحالة لا تناهي الأبعاد، وكل محتمل للحد قابل للانقسام بأجزاء متشاركة في الاسم والحد، فله حقيقة كلية غير متشخصة بذاتها ولا موجودة بذاتها إذ هو مركّب من أجزاء حال كل واحد منها ما ذكر فيكون مخلوقاً، أو بأن كل قابل للحد والنهاية قابل للزيادة والنقصان لا يتأبى عنهما في حد ذاته وإن استقر على حد معين، فإنما استقر عليه من جهة جاعل.

ثم استدل عليه السلام بوجه آخر وهو ما يحكم به الوجدان من كون الموجد أعلى شأناً وأرفع قدراً من الموجد، وعدم المشابهة والمشاركة بينهما وإلا فكيف يحتاج أحدهما إلى العلة دون الآخر؟ وكيف صار هذا موجداً بدون العكس؟ ويحتمل أن يكون عدم المشاركة والمشابهة

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/١٠٥ ح ١.

(٢) الكافي: ١/١٠٦.

(٣) راجع البحار: ٣/٣٠٢.

فيما يحتاج إلى العلة فيحتاج إلى علة أخرى، انتهى[١].

فقد علم بذلك كله كونه سبحانه منزهاً عن الحد والشبه وأنه يجب تنزيهه عن التحديد والتشبيه، وأن القائل بهما كافر مشرك.

وذهب محيي الدين على أصله الفاسد إلى أن القول بهما عين التوحيد، والقائل بهما مؤمن موحّد كامل، والنافي لهما عنه تعالى جاهل، وتبعه على ذلك القيصري.

قال في **«الفصوص»**، في الفصّ النوحي:

«إعلم أن التنزيه عند أهل الحقائق في الجناب الإلٰهي عين التحديد والتقييد والمنزّه إما جاهل وإما صاحب سوء أدب».

قال القيصري: إعلم أن التنزيه إما أن يكون عن النقائص الإمكانية فقط أو منها ومن الكمالات الإنسانية أيضاً، وكل منهما عند أهل الكشف والشهود تحديد للجناب الإلٰهي وتقييد له، لأنه يميز الحق عن جميع الموجودات ويجعل ظهوره في بعض مراتبه وهو ما يقتضي التنزيه دون البعض وهو ما يقتضي التشبيه كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وغير ذلك، وليس الأمر كذلك فإن الموجودات بذواتهم ووجوداتهم وكمالاتهم كلها مظاهر للحق وهو ظاهر فيهم ومتجلّي لهم وهو معهم أينما كانوا فيه ذواتهم ووجودهم، وبقاؤهم وجميع صفاتهم، بل هو الذي ظهر بهذه الصور كلها فهي للحق بالأصالة وللخلق بالتبعية، فالمنزه إما جاهل بالأمر على ما هو عليه أو عالم بأن العالم كله مظهره، فإن كان جاهلاً وحكم بجهله على الله وقيده على بعض مراتبه فهو جاهل وصاحب سوء أدب، وإن كان عالماً به فقد أساء الأدب مع الله تعالى ورسله بنفيه عنه ما أثبته هو لنفسه في مقاميّ جمعه وتفصيله.

هذا في مقام الإلٰهية، وأما في مقام الأحدية الذاتية فلا تشبيه ولا تنزيه إذ تعدد فيه بوجه أصلاً، قال الشيخ - يعني محيي الدين - في **(عنقاء المغرب)** مخاطباً للمنزّه: وغاية معرفتك به أن تسلب عنه نقائض الكون وسلب العبد عن ربه ما لا يجوز عليه راجع إليه، وفي هذا المقام قال من قال: سبحاني دون التواني هيهات وهل يعرى من شيء إلا من لبسه أو يؤخذ شيء إلا من حبسه؟ ومتى لبس الحق صفات النقص حتى تسلبها عنه أو تعريه؟ والله ما هذه حالة التنزيه، فالتنزيه راجع إلى تطهير محلك لا إلى ذاته وهو من جملة منحه لك وهباته والباري منزّه عن التنزيه فكيف عن التشبيه؟.

---

(١) أضواء على الصحيحين: ١٥٥، ومسند أحمد: ٤/ ١١.

قال الماتن: «ولكن إذا أطلقاه وقالا به فالقائل بالشرائع المؤمن إذا نزّه ووقف عند التنزيه ولم ير غير ذلك فقد أساء الأدب وأكذب الحق والرسل صلوات الله عليهم وهو لا يشعر ويتخيل أنه في الحاصل وهو في الفائت، وهو كمن آمن ببعض وكفر ببعض».

قال الشارح: أي الجاهل وصاحب سوء الأدب إذا أطلقا التنزيه وقالا به كل منهما إما أن يكون مؤمناً بالشرائع والكتب الإلهية أو غير مؤمن، فالمؤمن إذا نزّه الحق ووقف عنده ولم يشبّه في مقام التشبيه ولم يثبت تلك الصفات التي هي كمالات في العلم فقد أساء الأدب وكذّب الرسل والكتب الإلهية فيما أخبر به عن نفسه بأنه الحي القيوم السميع البصير ولا يشعر بهذا التكذيب الصادر منه ويتخيل أن له حاصلاً من العلوم والمعارف وأنه مؤمن وموحّد وما يعلم أنه فائت منه وهو كمن آمن ببعض وهو مقام التنزيه وكفر ببعض وهو مقام التشبيه، وغير المؤمن سواء كان قائلاً بعقله كالفلاسفة أو لم يكن كمقلديهم المتفلسفة فقد ضل وأضل، لأنه ما علم الأمر على ما هو عليه وما اهتدى بنور الإيمان الرافع للحجب وإنما ترك هذا القسم لظهور بطلانه، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

ومحصله: أن اللازم على المؤمن الموحّد أن يكون جامعاً بين مرتبتي التنزيه والتشبيه، بأن ينزهه في مقام التنزيه من النقائص الإمكانية، ويشبهه في مقام التشبيه بأن يثبت له صفات الكمال التي في المخلوقات من السمع والبصر والإرادة والحياة ونحوها، لأن المخلوقات كلها مظاهر له وكمالها كماله بل ليس في الوجود خلق تشاهده العين إلا وعينه وذاته عين الحق الظاهر في تلك الصورة.

كما قال في الفص اليهودي: «وما خلق تراه العين إلا عينه حق» وقال في الفصّ الإسماعيلي ما هذه عبارته:

«فلا تنظر إلى الحق فتعريه عن الخلق ولا تنظر إلى الخلق وتكسوه سوى الحق
ونزّهه وشبّهه وقم في مقعد الصدق»

قال القيصري: أي لا تنظر إلى الحق فتجعله موجوداً خارجياً مجرداً عن الأكوان منزّهاً عن المظاهر الخلقية عارياً عنها وعن صفاتها، ولا تنظر إلى الخلق بأن تجعل الخلق مجرداً عن الحق مغايراً له من كل الوجوه وتكسوه لباس الغيرية، بل انظر إلى الحق في الخلق لترى الوحدة الذاتية في الكثرة الخلقية وترى الكثرة الخلقية في الوحدة الذاتية، ونزّه الحق الذي في الخلق بحسب مقام أحديته عن كل ما فيه شائبة الكثرة والإمكانية والنقصان، وشبّهه أيضاً بكل صفات كمالية كالسمع والبصر والإرادة والقدرة، فإنك إذا جمعت بين التشبيه والتنزيه كما هو عادة الكاملين فقد قمت مقام الصدق وهو مقام الجمع بين الكمالين.

وأوضح ذلك في الفص الإلياسي وشرحه بقوله:

«وإذا أعطاه الله المعرفة بالتجلي كملت معرفته بالله فنزّه في موضع وشبّه في موضع» أي نزّه في موضع التنزيه تنزيهاً حقانياً وشبّه في موضع التشبيه تشبيهاً عيانياً فيكون تنزيهه تنزيه الحق وتشبيهه تشبيه الحق.

«ورأى سريان الحق بالوجود في الصور الطبيعية والعنصرية فما بقيت له صورة إلا ويرى عين الحق عينها وهذه المعرفة التامة فلا يمكن أن يخلو تنزيه عن تشبيه ولا تشبيه عن تنزيه».

وذلك لأن كل ما نزّهته عنه من النقائص فهو ثابت له عند ظهوره في المراتب الكونية وهو التشبيه، وكل ما شبهته به وأثبت له من الكمالات فهو منفي عنه في مرتبة أحديته وهو التنزيه، وعلى ذلك فلا يجوز للمؤمن أن يقتصر في مقام التوحيد على التنزيه فقط.

أما **أولاً**: فلأن التنزيه عن التحديد والتشبيه عين التحديد لأن التميز عن كل شيء محدود بتمايزه عنها.

وأما **ثانياً**: فلأنه جهل بالله الكريم حيث أنه قيّده في بعض مراتبه وميزه عن سائر مجاليه ومظاهره.

وأما **ثالثاً**: فلأنه أساء الأدب مع الله ومع رسوله حيث لم يثبت له صفات الكمال التي له في مجاليه.

وأما **رابعاً**: فلأنه كذّب الله ورسوله فيما أخبرا به من اتصافه بصفات الكمال، هذا.

وأنت خبير بتدليس هذا الجاهل الضليل وتلبيسه الباطل بصورة الحق والحق بصورة الباطل، غير خفي على الفطن العارف لأن العقل والنقل والأنبياء والرسل جميعاً متفقون على تنزّهه سبحانه عن النقائص الإمكانية وعن اتصافه بصفات المحدثات وعن مشابهة المخلوقات وقد نزّه ذاته وهو أعلم به من غيره في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال أيضاً: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٣]، وقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٢]، إلى غير هذه من الآيات البيّنات.

وأما الوجوه التي أُستند إليها في عدم جواز الاقتصار على التنزيه فكلها فاسدة.

أما **الوجه الأول**: فلمنع كون التنزيه موجباً للتحديد إذ معنى التنزيه هو إبداء المغايرة بين الحق والخلق من أجل اتصاف الخلق بصفات النقصان وعوارض الإمكان، وكون الحق بريئاً

منها من حيث وجوب وجوده وكونه تاماً فوق التمام.

وبعبارة أخرى، جعله سبحانه خلوّاً من خلقه وخلقه، خلوّاً منه من أجل كون الخلق محدوداً والحق منزّهاً عن الحد، فحقيقة التنزيه هو إظهار كونه مبايناً لمخلوقاته مفارقاً لها بنفس ذاته الأقدس الأعلى من أجل اتصافها بالحدود والنهايات، وذلك لا يوجب كونه محدوداً بوجه أصلاً لا بالحد الاصطلاحي ولا بالحد اللغوي.

وإن أراد بقوله: إنه عين التحديد، إن فيه تميز الحق عن كل ما سواه لما فيها من القصور والنقصان والمحدودية بحدود الإمكان، فهذا هو محض الإيمان المطلوب عقلاً وشرعاً، فلا معنى للاستناد إليه في عدم الجواز.

بل أقول: إن عمدة الغرض من التنزيهات الواردة في الكتاب المبين والصادرة عن ألسنة الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين والحجج المعصومين سلام الله عليهم أجمعين، ليس إلا تنزيهه سبحانه وتقديسه تعالى عما نسبته إليه عزَّ وجل هذه الطائفة المضلّة الضالة من ظهوره في صور الموجودات واتصافه بصفات المحدثات فتعالى الله عما يقول الظالمون وسبحان الله ربّ العرش عما يصفون.

وأما **الوجه الثاني**: فلمنع كونه جهلاً بل هو محض العلم والعرفان والتوحيد والإيمان، وإنما الجاهل من قال بتجليه في مخلوقاته وبظهوره في صور مصنوعاته.

وأما **الوجه الثالث**: فلأن سيء الأدب من قال: سبحاني ما أعظم شاني، لا من قال: سبحان الله وسبحان ربي، ومن قال: إني أنا الله وليس في جبّتي سوى الله، لا من قال: لا إلٰه إلا الله.

وأما **الوجه الرابع**: فلأن المكذّب للأنبياء والرسل أمثال هذا الجاهل القائل بتجلّيه في مخلوقاته واتصافه بصفات محدثاته لا القائل بتنزهه عن مجانسة مخلوقاته واتصافه بنعوت العظمة والجلال وصفات العزّة والجمال بذاته، وبعبارة أخرى المكذّب للرسل والأنبياء من نزّه وشبه وقال: إنه كل الأشياء لا من قدّس ونزّه وقال: إنه ليس كمثله شيء وإنه شيء لا كالأشياء.

والحاصل: أنا ننزهه من مشابهة غيره في ذاته وصفاته ونصفه بصفات الكمال بذاته، ونقول: إنه حي قيوم، عالم سميع بصير، قادر خبير، بمعنى أجلّ وأعلى على ما نبّه عليه الحجج المعصومون في (**شرح الأسماء الحسنى**)، ونقدّسه من صفات المخلوق مطلقاً سواء كانت صفة نقصان كالعجز والحاجة والافتقار أو صفة كمال كالعلم والإرادة والقدرة والاختيار، فإن هذه الصفات وإن كانت كمالات للمخلوق إلا أن إثباتها للخالق بالاعتبار الثابت للمخلوق

موجب لاتصافه بصفات المحدثات، فتكون بالنسبة إليه تعالى نقصاً لا كمالاً.

وهذا هو الذي دلّ عليه السنّة والكتاب، وصرح به الأئمة الأطياب، وحققه العلماء الراسخون وأولو الألباب.

وأما ما قاله هؤلاء الجهال: من أن صفات كماله هو عين صفات الكمال في مخلوقاته لكونها مجاليه ومظاهره، فمما لم يرد به كتاب ولا سنّة، بل هو إفك وفرية بينة، وقد قال سبحانه: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩ـ ٤٠].

وبالجملة، فحالنا وحال هؤلاء كما قال تعالى في كتابه، فنحن نقول: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٤ـ ١٥].

وقد علم بذلك كله أن التنزيه ينافي التشبيه والتشبيه ينافي التنزيه، بل ليس الغرض من التنزيه إلا التنزيه من التشبيه.

فظهر به أن ما قاله ابن العربي من أنه لا يمكن أن يخلو تنزيه عن تشبيه ولا تشبيه عن تنزيه غلط صرف وخبط واضح.

وأفحش من ذلك غلطاً وشططاً كلامه الذي حكاه القيصري عن كتابه المسمى بـ **(عنقاء المغرب)**:

فإن قوله: إن تنزيه العبد لربه راجع إلى تنزيهه لنفسه، وإن معنى سبحان الله سبحاني لأن الله سبحانه لم يكن متصفاً بصفات النقص حتى ينزّه عنها ولا متلبساً بها حتى تسلب عنه ويعرى منها، وإنما المتصف بها هو المنزِّه بنفسه فهو المحتاج إلى التنزيه دون ربه فقول باطل وكلام فاسد ومن الفساد بمكان.

أما **أولاً**: فلأن تنزيه الرب من النقائص لا يستلزم إتصافه بها في الواقع أولاً، ثم يسلب لأن القضية السلبية لا تستلزم الإيجاب وإلا لم يصح قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، وبعد التنزل نقول: إن المراد به تنزيهه عما وصفه به أهل الكفر والضلال ونسبه إليه السفهاء والجهال من المشبّهة والمجسّمة والإيصانية والمتصوّفة وغيرها من الجهال، ولذلك قال تعالى في كتابه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقد قال: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وأما ثانياً: فلأن قوله: تنزيه الرب راجع إلى تنزيه نفس المنزّه وتطهيره محله لا يقوله إلا سفيه أو مجنون، لأن العيب والنقصان من لوازم ذات الممكن فكيف ينزّه المنزه نفسه عنهما؟.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى بقية كلامه الذي نقلناه عن الفص النوحي.

قال بعد جملة من ترهاته: «فنسبته لما ظهر من صور العالم نسبة الروح المدبّر للصورة فيؤخذ في حد الإنسان مثلاً باطنه وظاهره وكذلك كل محدود فالحق محدود بكل حد».

قال القيصري: أي إذا كان العالم صورة الحق وهو روحه فنسبة الحق إلى كل ما ظهر من صور العالم نسبة الروح الجزئي المدبّر للصورة المعينة إليها في كونه مدبراً، ولما كان ظاهر العالم ظاهر الحق وباطنه باطن الحق والباطن والظاهر مأخوذ في تعريف الإنسان وتحديده لأنه معرف بالحيوان الناطق، والناطق باطنه والحيوان ظاهره والهيئة الاجتماعية الحاصلة من الجنس والفصل ظاهره الذي به سرى الأحدية فيه وحقائقهما المشتركة والمميزة باطنه والحق مأخوذ في حده، وكذلك كل محدود إذ لا بد في كل من المحدودات من أمر عام مشترك وأمر خاص مميز وكلاهما ينتهيان إلى الحق الذي هو باطن كل شيء، فالحق محدود بكل حد لأن كل ما هو محدود بحد مظهر من مظاهره، ظاهره من اسمه الظاهر، وباطنه من اسمه الباطن، والمظهر عين الظاهر باعتبار الأحدية فالحق هو المحدود.

قال الماتن: «وصور العالم لا ينضبط ولا يحاط بها ولا يعلم حدود كل صورة منها إلا على قدر ما حصل لكل عالم من صورة فلذلك يجهل حد الحق فإنه لا يعلم حده إلا ويعلم حد كل صورة، وهذا محال حصوله فحد الحق محال».

قال الشارح: أي صور العالم وجزئياته مفصلةً غير منضبطة ولا منحصرة والحدود لا تعلم إلا بعد الإحاطة بصور الأشياء وحقائقها، فالعلم بحدودها محال، فحد الحق من حيث مظاهره أيضاً محال.

قال الماتن: «وكذلك من شبّهه وما نزّهه فقد قيده وحدده وما عرّفه ومن جمع في معرفته بين التنزيه والتشبيه ووصفه بالوصفين على الإجمال لأنه يستحيل ذلك على التفصيل لعدم الإحاطة بما في العالم من الصور فقد عرّفه مجملاً لا على التفصيل»، انتهى.

ومحصله: أن الحق محدود بحدود غير متناهية لا يمكن معرفتها تفصيلاً بل إجمالاً، وذلك لأنه باطن العالم وصور العالم الذي هو مظهره غير متناهية ولا منضبطة، وحدودها كذلك لأن كل صورة فلها حد معين فيعدد الحدود بتعين الصور وبتعدد حدودها يتعدد حدود الحق فلا يمكن معرفتها إلا إجمالاً كما لا يمكن معرفة صور العالم وحدود تلك الصور إلا كذلك.

وقوله: **(وكذلك من شبهة)** (آه) عطف على ما سبق أي كما أن التنزيه بدون التشبيه عين التحديد والتقييد ومستلزم للجهل، فكذلك العكس فمن شبهه ولم ينزهه فقد قيده بما يقتضيه التشبيه وحدده بحدود المظاهر، فلم يعرّفه حق المعرفة لخلوّ معرفته من التنزيه، فالعارف من جمع بين التنزيه والتشبيه ووصفه بهما على الإجمال لأن معرفة صور العالم التي نقيضها التشبيه غير ممكنة تفصيلاً حسبما عرفت، هذا محصل كلامه وقد عرفت فساده بما لا مزيد عليه.

وقالا في الفص اليهودي وشرحه: «وما رأينا قط من عند الله تعالى في حقه تعالى في آية أنزلها أو أخبار عنه أوصلها إلينا فيما يرجع إليه إلا بالتحديد تنزيهاً كان أو غير تنزيه أولها العماء الذي ما فوقه هواء ولا تحته هواء وكان الحق فيه قبل أن يخلق الخلق».

أي أول ذلك التحديد هو المرتبة العمائية التي أشار إليها النبي ﷺ عند سؤال الأعرابي: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ قال: «كان في عماء ما فوقه هواء ولا تحته هواء»[1]، وإنما كان العماء أول التحديدات لأنه لغة عبارة عن الضباب، وفي اصطلاح أهل الله عبارة عن أول تعين ظهر للحق بحسب اسمه الجامع الإلهي، وكلاهما محدودان، وهذه المرتبة هي مرتبة الإنسان الكامل فإنه أول ما تعين ظهر بالصورة المحمدية ﷺ ثم فصلها فخلق منها أعيان العالم علماً وخارجاً.

«ثم ذكر أنه استوى على العرش فهذا تحديد أيضاً» لأن الإستواء عليه ظهور الإسم الرحماني في صورة العرشية وهو أيضاً تحديد لأنه يتعين فيظهر فيها.

«ثم ذكر أنه ينزل إلى السماء الدنيا فهذا تحديد» أي ذكر الحق بلسان نبيه ﷺ أن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ والنزول إلى المقام المعين تحديد.

«ثم ذكر أنه في السماء وأنه في الأرض» كما قال: وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وكونه في السماء وفي الأرض تحديد.

«وأنه معنا أينما كنا» أي وذكر معنا كما قال: وهو معكم أينما كنتم.

«إلى أن أخبرنا أنه عيننا» أي حدد نفسه إلى أن جعله أعيننا كما قال: كنت سمعه وبصره، الحديث.

«ونحن محدودون فما وصف نفسه إلا بالحد وقوله: **(ليس كمثله شيء)**، حد أيضاً إن أخذنا (الكاف) زائدة لغير الصفة» أي لا تكون للتشبيه ليفيد ليس مثل مثله شيء.

---

(١) روضة الواعظين: ٣٧٠، والبحار: ٣/ ٢٩٧.

«ومن تميز عن المحدود فهو محدود بكونه ليس عين هذا المحدود، **فالإطلاق من التقييد تقييد والمطلق مقيد بالإطلاق لمن فهم، وإن جعلنا (الكاف) للصفة فقد حددناه»** أي على التقديرين يلزم التحديد، أما على الأول فلأن الممتاز عن المحدود لا يكون إلا محدوداً بكونه ممتازاً عنه كما أن الإطلاق المقابل للتقييد أيضاً تقييد بعدم التقييد والمطلق مقيد بالإطلاق، وأما على الثاني فلأن نفي مثل المثل إثبات للمثل وهو محدود فما يماثله أيضاً محدود.

«وإن أخذنا (**ليس كمثله شيء**) على نفي المثل تحققنا بالمفهوم وبالأخبار الصحيح أنه عين الأشياء والأشياء محدودة وإن اختلفت حدودها» أي وإن حملنا على نفي المثلية مطلقاً سواء كان زائداً أو غير زائد مع عدم القصد بوجود المثل بل المقصود المبالغة في التنزيه كما يقال: مثلك لا يغضب، والغرض نفي الغضب منه يلزم التحديد أيضاً، لأن ما يمتاز عن الشيء محدود بامتيازه عنه فسلب المثلية تحدده، وهو المراد بقوله: **(تحققنا بالمفهوم)**، أي علمنا حقيقته بالمفهوم من الآية أنه محدود وكذلك تحديده بالخبر الصحيح، وهو: كنت سمعه وبصره، الحديث. لأنه صار عين الأشياء والأشياء محدودة بحدود مختلفة وأن في قوله: **(وإن اختلفت حدودها)** للمبالغة.

«فهو محدود بحد كل محدود فما يحد شيء إلا وهو حد للحق» لما كان الحد عبارة عن التعيين والحد الاصطلاحي إنما يسمى بالحد لأنه أيضاً يعين الشيء ويميزه عن غيره نقل الكلام إلى الحد الاصطلاحي الموجب لتعين الأشياء في العقل وإنما جعله محدوداً بحد كل محدود لأنه عين لكل محدود فحده حد الحق، وقوله وهو عائد إلى الحد الذي يدل عليه قوله فما يحد، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

أقول: فيالله لهذا الرجل من سوء الاعتقاد والزيغ عن نهج الرشاد والإصرار في ترويج الزندقة والإلحاد، وصرف الآيات المحكمات عن ظواهرها إلى تصحيح عبادة الطاغوت والاستناد إلى المتشابهات في إثبات مذهب هي أوهن من بيت العنكبوت، وقد قال عزّ من قائل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ [آل عمران: ٧].

فهل يحكم العاقل بدليل متشابه على أن الحق بكل حد محدود؟ أم هل يسلّم القول بوحدة الوجود الذي هو في معنى الكفر والجحود بمجرد الاستناد إلى كشف وشهود؟ وقد عرفت بطلان التشبيه والتحديد ببرهان متين وبيان لا عليه مزيد.

والأدلة التي استند إليها هنا في إثبات تلك الدعوة غير خفية الفساد على ذوي العقل والنهي.

أما الدليل الأول: وهو حديث العماء ففيه أنه من مجعولات العامة ويدل عليه الأخبار النافية للزمان والمكان عنه تعالى، وقد تقدم كثير منها في تضاعيف الشرح مضافاً إلى قيام الدليل العقلي أيضاً على ذلك كما أشار إليه الأئمة عليهم السلام في أخبارهم.

مثل ما رواه المحدث العلامة المجلسي «قد» في (**البحار**) من كتاب (**روضة الواعظين**) قال: روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال له رجل: أين المعبود؟ فقال: لا يقال له أين لأنه أين الأينية، ولا يقال له: كيف، لأنه كيف الكيفية، ولا يقال له: ما هو لأنه خلق الماهية، سبحانه من عظيم تاهت الفطن في تيار أمواج عظمته، وحصرت الألباب عند ذكر أزليته، وتحيّرت العقول في أفلاك ملكوته[1].

وفيه من كتاب (**التوحيد**) للصدوق قال: وروى أنه سئل أمير المؤمنين عليه السلام أين كان ربنا قبل أن يخلق سماءً وأرضاً؟ فقال: أين سؤال عن مكان كان الله ولا مكان؟[2].

وفيه منه بإسناده عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من زعم أن الله في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، لو كان عزَّ وجل على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً[3].

قال العلامة المجلسي: قوله: لكان محمولاً أي محتاجاً إلى ما يحمله، وقوله: محصوراً أي عاجزاً ممنوعاً عن الخروج من المكان أو محصوراً بذلك الشيء ومحوياً به، فيكون له انقطاع وإنتهاء فيكون ذا حدود وأجزاء.

وفيه منه بإسناده عن حماد بن عمرو عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كذب من زعم أن الله عز وجل في شيء أو من شيء أو على شيء[4].

قال الصدوق: الدليل على أن الله عزَّ وجل لا مكان أن الأماكن كلها حادثة وقد قام الدليل على أن الله قديم سابق للأماكن، وليس يجوز أن يحتاج الغني القديم إلى ما كان غنياً عنه، ولا أن يتغير عما لم يزل موجوداً عليه فصح اليوم أنه لا في مكان كما أنه لم يزل كذلك.

وتصديق ذلك ما حدثنا به القطان عن ابن زكريا القطان عن ابن حبيب عن ابن بهلول

---

(١) التوحيد للصدوق: ١٧٥.

(٢) الهداية للصدوق: ١٧، والتوحيد: ١٧٨.

(٣) التوحيد: ١٧٨، ح ١٠.

(٤) التوحيد: ١٧٨.

عن أبيه عن سليمان المروزي عن سليمان بن مهران قال: قلت لجعفر بن محمد عليه السلام: هل يجوز أن تقول إن الله عزَّ وجل في مكان؟ فقال عليه السلام: سبحان الله وتعالى عن ذلك إنه لو كان في مكان لكان محدثاً لأن الكائن في مكان محتاج إلى المكان والاحتياج من صفات الحديث لا القديم[١].

وأما الدليل الثاني: فقد عرفت الجواب عنه في شرح الفصل الخامس من الخطبة الأولى وقلنا هناك: إن المراد بالاستواء في الآية هو الاستيلاء والسلطنة.

وقال أمير المؤمنين في رواية الاحتجاج عنه عليه السلام في جواب أسئلة الزنديق المنكر للقرآن: يعني استوى أمره وعلا تدبيره.

وأما الدليل الثالث: فهو من مجعولات العامة أيضاً.

ويدل على ذلك صريحاً ما رواه في **(البحار)** من **(الأمالي والتوحيد والعيون)** عن الدقاق عن الصوفي عن الروياني عن عبد العظيم الحسني عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يروي الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا؟» فقال عليه السلام: لعن الله المحرّفين للكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك إنما قال صلى الله عليه وآله: «إن الله تبارك وتعالى يُنزل ملكاً إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الأخير وليلة الجمعة في أول الليل فيأمره فينادي: هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأستغفر له؟ يا طالب الخير أقبل ويا طالب الشر أقصر، فلا يزال ينادي هذا إلى أن يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر عاد إلى محله من ملكوت السماء»، حدثني بذلك أبي عن جدي عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله[٢].

وفيه من الاحتجاج عن يعقوب بن جعفر الجعفري عن أبي إبراهيم موسى عليه السلام قال: ذكر عنده قوم زعموا أن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا، فقال عليه السلام: إن الله لا ينزل ولا يحتاج إلى أن ينزل إنما منظره في القرب والبعد سواء لم يبعد منه قريب ولم يقرب منه بعيد، ولم يحتج إلى شيء بل يُحتاج إليه، وهو ذو الطول لا إله إلا هو العزيز الحكيم، أما قول الواصفين إنه ينزل تبارك وتعالى عن ذلك فإنما يقول ذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة، وكل متحرك محتاج إلى من يحركه أو يحرك به، فمن ظن بالله الظنون فقد هلك وأهلك،

---

(١) التوحيد: ١٧٨.
(٢) أمالي الصدوق: ٤٩٦، والبحار: ٣/ ٣١٤ ح ٧.

فاحذروا في صفاته من أن تقفوا له على حد من نقص أو زيادة أو تحريك أو تحرك أو زوال أو إستنزال أو نهوض أو قعود، فإن الله عزَّ وجل عن صفة الواصفين ونعت الناعتين، وتوهم المتوهمين[(١)].

فانظر إلى هذا الحديث الشريف كيف أبطل ما يقوله الملاحدة بالدليل العقلي، فإن قوله: فإنما يقول ذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة، يريد به أن النزول المكاني إنما يتصور في حق المتحيز وكل متحيز موصوف بالتقدر وكل متقدر متصف بالنقص عما هو زائد منه وبالزيادة على ما هو أنقص منه أو يكون في نفسه قابلاً للزيادة والنقصان، والوجوب الذاتي ينافي ذلك لاستلزامه التجزىء والانقسام المستلزمين للإمكان.

وأيضاً كل متحرك يحتاج إلى من يحركه أو يتحرك به لأن المتحرك إما جسم أو متعلق بالجسم والجسم المتحرك لا بد له من محرك لأنه ليس يتحرك بجسميته، والمتعلق بالجسم لا بد له في تحركه من جسم يتحرك به وهو سبحانه منزّه عن الاحتياج إلى المتحرك وعن التغيّر بمغيّر وعن التعلق بجسم يتحرك به.

وأما الدليل الرابع: فإن معنى الآية الشريفة ليس ما توهمه هذا الجاهل بسوء فهمه واعتقاده، بل بمعنى آخر.

كما نبه عليه الصادق عليه السلام في الرواية المروية في **(البحار)** من التوحيد عن أبيه عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن الحكم قال: قال أبو شاكر الديصاني: إن في القرآن آية هي قولنا، قلت: وما هي؟ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، فلم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد الله عليه السلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك بالكوفة، فإنه يقول فلان، فقل: ما اسمك بالبصرة، فإنه يقول: فلان، فقل: كذلك ربنا في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه وفي كل مكان إلٰه، قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال: هذه نقلت من الحجاز[(٢)].

ومحصل جوابه عليه السلام أنه تعالى مسمى بهذا الإسم في السماء وفي الأرض، وقال أكثر المفسرين: إن الظرف متعلق بالإلٰه لكونه بمعنى المعبود، وقال البيضاوي في تفسير قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]: هو الله الضمير لله والله خبره وفي السماوات وفي الأرض متعلق باسم الله، والمعنى هو المستحق للعبادة فيهما لا غير كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

---

(١) الكافي: ١/ ١٢٥، والبحار: ٣/ ٣١١ ح ٤.
(٢) الكافي: ١/ ١٢٩ ح ١٠، والبحار: ٣/ ٣٢٣.

وروى في (**البحار**) من التوحيد بإسناده عن مثنى الجناط عن أبي جعفر أظنه محمد بن النعمان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾، قال: كذلك هو في كل مكان، قلت: بذاته؟ قال: ويحك إن الأماكن أقدار فإذا قلت في مكان بذاته لزمك أن تقول في أقدار وغير ذلك ولكن هو بائن من خلقه محيط بما خلق علماً وقدرة وإحاطة وسلطاناً، وليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء لا يبعد منه شيء، والأشياء له سواء علماً وقدرة وسلطاناً وملكاً وإحاطة[١].

وأما الدليل الخامس فالجواب عنه بمثل الجواب عن سابقه، فإن المراد به كونه معنا بالعلم والإحاطة والقيومية.

وأجاب عنها أمير المؤمنين عليه السلام بجواب آخر رواه في (**البحار**) من الاحتجاج في جواب أسئلة الزنديق المنكر للقرآن، قال عليه السلام: وقوله: «وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه»، وقوله: ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾، وقوله: ﴿**وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم**﴾، فإنما أراد بذلك استيلاء أمنائه بالقدرة التي ركّبها فيهم على جميع خلقه وأن فعلهم فعله الحديث[٢].

وأما الدليل السادس: فقد مر جوابه بما لا مزيد عليه قبل أوراق.

وأما الدليل السابع: فأوهن من الجميع، لأن المراد بالآية هو التنزيه فقط ونفي المثل من جميع الجهات، إما بجعل (الكاف) زائدة أو بمعناها الأصلي قصداً للمبالغة في نفي المثل على حد قولهم: مثلك لا يبخل.

روى في (**الصافي**) من (**مصباح المتهجد**) في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام: ليس كمثله شيء إذ كان شيء الشيء من مشيته فكان لا يشبه مكونه[٣].

وروى في (**البحار**) من (**روضة الواعظين**) عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً أنه قال: اتّقوا أن تمثلوا بالرب الذي لا مثل له أو تشبهوه من خلقه أو تلقوا إليه الأوهام أو تعلموا[٤] فيه الفكر وتضربوا له الأمثال أو تنعتوه بنعوت المخلوقين، فإن لمن فعل ذلك ناراً[٥].

وأما ما قاله من إستلزام التنزيه للتقييد والتحديد معللاً بأن الإطلاق من التقييد تقييد والمطلق بالإطلاق مقيد، فقد عرفت فيما سبق ضعفه وأنه غير مستلزم له.

---

(١) البحار: ٣/ ٣٢٣.
(٢) البحار: ٣/ ٣١٠.
(٣) تفسير الصافي: ٤/ ٣٦٨.
(٤) في نسخة: تعملوا
(٥) البحار: ٣/ ٢٩٨ ح ٢٥، وروضة الواعظين: ٣٧.

ونزيد توضيحاً ونقول: محصل مراده إن الآية محتملة لوجوه ثلاثة:

أحدها: كون (الكاف) زائدة والمراد بها نفي المثل.

والثاني: كونها للتشبيه والمراد بها نفي مثل المثل.

والثالث: كونها للتشبيه أيضاً لكن المراد نفي المثل مبالغة وعلى جميع الوجوه فهي مفيدة للتحديد.

أما على الوجه الأول: فلأن المعنى أنه ليس شيء من الأشياء مثله وشبهه، والأشياء كلها محدودة بالحدود فإذا نفيت مشابهته بها وميزته عنها، فقد أثبت له الحدّ بتنزيهك إذ المتميز عن المحدود محدود بأنه غيره والمغايرة لا تكون إلا بالحدود، فيكون محدوداً بتمايزه عن المحدودات وهو معنى قوله: فالإطلاق من التقييد تقييد (آه).

وأما على الوجه الثاني: فلأنه يفيد إثبات المثل حيث إن المنفي مثل المثل لا نفس المثل والمثل محدود فمثله وهو الله تعالى عن ذلك أيضاً محدود.

وأما على الوجه الثالث: فلأنه كالوجه الأول يفيد التحديد بتميزه عن المحدود فعلى جميع الوجوه يثبت كونه محدوداً، وأنت خبير بأن هذا كله ناشىء من قلة الفهم إذ قد عرفت أن المراد بالآية هو نفي المثل على الوجه الأول أو على الوجه الثالث، والمقصود بها التنزيه من التشبيه.

وما توهمه من إستلزام التنزيه للتقييد والتحديد، فهو ظاهر في أنه لم يفهم معنى التنزيه والتميز ولم يميز بين تمايز الموجودات بعضها عن بعض وبين تمايز الواجب تعالى عنها وافتراقه لها.

فنقول: إن التميز على قسمين:

أحدهما: التميز بالحد وهو الذي بين الموجودات فإنها جميعاً لكونها محدودة مركبة من الأجناس والفصول ومشتملة على الأقدار والنهايات يكون تميز كل منها عن الآخر بالحد المخصوص به.

وثانيهما: التميز عن المحدود وهو تميز الواجب عن غيره كائناً ما كان، فإن الممكنات بأسرها لما كانت محدودة يكون تميز الواجب عنها بتنزهه عن الحد وهو عبارة أخرى عن وجوب الوجود، فإنه سبحانه لكونه صرف الوجود وكون وجوده عين ذاته وكون تعينه بذاته يكون متمايزاً عما تعينه وتحصله بالحدود. فافهم واغتنم وعلى الصراط المستقيم فاستقم.

ومنها قوله عليه السلام في الخطبة المذكورة أيضاً: لا تقدره الأوهام بالحدود والحركات ولا

بالجوارح والأدوات[١].

فإن الفقرة الأولى تدلّ على تنزهه من الحدود حسبما عرفت آنفاً وعلى تنزهه من التحول في الصور كما قال في الفص الإلياسي: «يتجلى في القيامة بصورة فيعرف ثم يتحول في صورة فينكر ثم يتحول عنها في صورة فيعرف وهو هو المتجلي في كل صورة ليس غيره» انتهى.

وتدل أيضاً على تنزهه من النزول إلى السماء الدنيا ومن التنزل إلى مرتبة الممكنات وسراية هويته فيها حسبما قدمنا حكاية ذلك كله عن هذه الطائفة الضالة.

والفقرة الثانية تدل على تنزهه من الجوارح والأعضاء فتدل على بطلان اتصافه بها وكون أعضاء الإنسان أعضاء له كما قال محيي الدين في غير موضع من «**الفصوص**».

وصرح به في الفص الهودي إجمالاً بقوله: «فالغير يقول: السمع سمع زيد والعارف يقول: السمع عين الحق وهكذا ما بقي من القوى والأعضاء فما كل أحد عرف الحق فتفاضل الناس وتميزت المراتب» أي تفاضل الناس في العلم بالحق وتميزت مراتبهم فبان الفاضل والمفضول في الخلائق.

وفي الفص السليماني تفصيلاً بقوله: «والعمل ينقسم على ثمانية أعضاء من الإنسان».

قال القيصري: وهي اليدان والرجلان والسمع والبصر والجبهة واللسان إذ باليدين يتمكن من التوضيء والتطهر، وعلى الرجلين يقوم في الصلاة ويسعى ويحجّ، وبالسمع يتمكن من سماع كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، وبالبصر يتمكن من المشاهدة في جميع أعماله، وباللسان يثني على الله تعالى ويسبّحه ويقرأ كلامه، وبالجبهة يسجد في صلاته.

«وقد أخبر الحق تعالى أنه هوية كل عضو منها فلم يكن العامل فيها غير الحق والصورة للعبد والهوية مندرجة فيه أي في اسمه لا غير».

قال القيصري: أي أخبر الحق بأنه عين كل عضو بقوله: كنت سمعه الذي يسمعه به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، والعامل بحسب الظاهر الشخص وأعضاؤه، والحق عينها فلا يكون العامل غير الحق غير أن الصورة صورة العبد والهوية الإلهية مندرجة في العبد، ولما كانت الهوية إنما تندرج في أسمائه فسر بقوله: أي في اسمه، ليعلم أن عين العبد هو أيضاً اسم من أسمائه لا غير ليلزم اندراج الحق في غيره مطلقاً فيتوهم منه الحلول، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

---

(١) البحار: ٤/٤٠٦.

وقد عرفت فيما تقدم أن المراد بحديث: كنت سمعه وبصره، معنى آخر لا ما توهما، فيبطل جميع ما فرعا عليه.

ومنها قوله عليه السلام في الخطبة المذكورة أيضاً: الظاهر لا يقال مما والباطن لا يقال فيما لا شبح فيتقضى ولا محجوب فيحوى[١].

فإنه يدل على أن اتصافه بالظهور والبطون ليس بالمعنى المتبادر منهما في غيره، وعلى أنه لا يتشخص بتشخص الممكنات وصور الموجودات كما هو مذهب هذه الفرقة الضالة حسبما عرفت تفصيلاً، وعلى أنه لا يكون محجوباً بالحجاب فيدل على بطلان ما ذهبوا إليه أيضاً من كونه محتجباً بالخلق على ما عرفت تفصيلاً، وأشار عليه السلام إلى دليل بطلان الاحتجاب بقوله: فيحوى، يعني أنه لو كان محجوباً لكان محوياً وكان حجابه حاوياً له محيطاً به فيكون له انقطاع وانتهاء ويكون ذا حدود وأجزاء وهو باطل.

ومثله ما رواه عنه عليه السلام في **(البحار)** من **(الإرشاد والاحتجاج)** عن الشعبي روى أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يقول: والذي احتجب بسبع طباق، فعلاه عليه السلام بالدرة ثم قال: يا ويلك إن الله أجلّ من أن يحتجب من شيء أو يحتجب عنه شيء، سبحان الذي لا يحويه مكان ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فقال الرجل: أفأُكفّر عن يميني يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: لا لم تحلف بالله فيلزمك الكفارة وإنما حلفت بغيره[٢].

ومنه

قوله عليه السلام (في المختار) المائة والثامن والسبعين حين سأله ثعلب اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟ قال: وكيف تراه؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان[٣].

فإن قوله عليه السلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان يبطل القول بالكشف والشهود وأن الحق بكل صورة مشهود كما قال محيي الدين في الفص الهودي:

«وما خلق تراه العين إلا عينه حق ولكن مودع فيه لهذا صورة حق»

قال القيصري: أي ليس خلق في الوجود تشاهده العين إلا وعينه وذاته عين الحق الظاهر في تلك الصورة، فالحق هو المشهود والخلق موهوم، ولذلك يسمى به، فإن الخلق

---

(١) البحار: ٤/٤٠٦.

(٢) الإرشاد للمفيد: ١/٢٢٤، والاحتجاج: ١/٣١٣، والبحار: ٣/٣١٠.

(٣) الكافي: ١/٩٧ ح ٥.

في اللغة الإفك والتقدير، وقال تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]، أي إفك وتقدير من عندكم ما أنزل الله بها من سلطان، وقوله: ولكن مودع (آه) أي صوَّر الخلق حق له بضم (الحاء) وهو جمع كالحقاق شبه صور الخلائق بالحقاق والحق بما فيها والصور جمع صورة سكن (الواو) لضرورة.

وقال في ذلك الفص أيضاً: «فالقرب الإلٰهي من العبد لا خفاء به في الإخبار الإلٰهي فلا قرب أقرب من أن تكون هويته عين أعضاء العبد وقواه وليس العبد سوى هذه الأعضاء والقوى، فهو أي العبد حقٌّ مشهود في خلق متوهم».

قال الشارح القيصري: أي ظاهر في صورة خلق متوهم وهي الصورة الظلية، وقد مر غير مرة أن كل ما يدرك ويشهد فهو حق والخلق متوهم لأن الحق هو الذي تجلى في مرايا الأعيان فظهر بحسبها في هذه الصورة فالظاهر هو الحق لا غير.

«فالخلق معقول والحق محسوس مشهود عند المؤمنين وأهل الكشف والوجود وما عدا هذين الصنفين فالحق عندهم معقول والخلق مشهود» وهم المحجوبون كالحكماء والمتكلمين والفقهاء وعامة الخلائق سوى المؤمنين بالأولياء وأهل الكشف لأنهم أيضاً يجدون في بواطنهم حقيقة ما ذهب إليه الأولياء وإلا ما آمن.

وقال فيه أيضاً: «فلا تنظر العين إلا إليه ولا يقع الحكم إلا عليه» قال الشارح: إذ لا موجود سواه ليكون مشاهداً إياه بل هو الشاهد والمشهود والحاكم والمحكوم عليه إلى أن قال: «فمن رأى الحق منه بعينه فذلك العارف» أي فمن رأى الحق الظاهر على صورته من الحق المطلق في عين الحق بعين الحق فهو العارف، أو من رأى الحق من نفسه في نفسه بعين الحق فهو العارف «ومن رأى الحق منه فيه بعين نفسه فذلك غير العارف» أي من رأى الحق من نفسه بنفسه بعين نفسه فذلك غير العارف مع أنه صاحب الشهود لعدم اطلاعه على أنه لا يمكن إدراك الحق بعين غيره، «ومن لم ير الحق منه ولا فيه وانتظر أن يراه بعين نفسه فذلك الجاهل» أي من لم ير الحق من نفسه ولا في نفسه وانتظر أن يراه في الآخرة بعين نفسه فهو الجاهل، لأنه من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً.

إلى غير هذه من ترهاتهم ومزخرفاتهم التي لا طائل فيها وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المختار وغيره مما مر وسيأتي دليل على بطلانها جميعاً.

وأصرح من كلماته عليه السلام كلها ما رواه في **(البحار)** من **(التوحيد والعيون)** عن الرضا عليه السلام في خطبة طويلة له خطب بها في مجلس المأمون في توحيد الله سبحانه وتمجيده وتنزيهه قال

عليه السلام فيها: ظاهر لا بتأويل المباشرة متجلّي لا باستهلال رؤية[١].

التجلي الإنكشاف والظهور يقال: إستهل الهلال بصيغة المعلوم والمجهول أي ظهر وتبين أي ظاهر ليس ظهوره بأن يباشره حاسة من الحواس بل ظاهر بأمارة غالب على كل شيء بقدرته وظاهر أيضاً لا بظهور من جهة الرؤية كما هو زعم هذه الجهلة.

ومنه

قوله عليه السلام (في المختار) المائة والرابع والثمانين: الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم على أن لا شبه له.

فإن كلاً من هذه الفقرات دليل على بطلان مقالاتهم الزيفة المتقدمة كما لا يخفى على من أحاط خبراً بما قدمناه من ذوي الفطن الثاقبة.

وقال عليه السلام في هذا (المختار) أيضاً: تلقاه الأذهان لا بمشاعرة، وتشهد له المرائي لا بمحاضرة.

وقد عرفت معناهما في مقامهما وأقول هنا: إن الفقرة الثانية دليل على بطلان قولهم بأن أعيان الممكنات مرايا للحق لظهوره فيها كما أن الحق مرآة لها باعتبار آخر ويستفاد من تقريراتهم أن مرآتيها بعنوان المحاضرة بل العينية.

وأشار إلى ذلك محيي الدين في الفص اليوسفي إجمالاً وشرحه القيصري تفصيلاً قالا: «فكل ما تدركه فهو وجود الحق في أعيان الممكنات»، أي كل ما تدركه بالمدركات العقلية والقوى الحسية فهو عين وجود الحق الظاهر في مرايا أعيان الممكنات، وقد علمت أن الأعيان مرايا للحق وأسمائه كما أن وجود الحق مرآة للأعيان، فبالاعتبار الأول جميع الموجودات عين ذات الحق والأعيان على حالها في العدم لأن حامل صور الأعيان هو النفس الرحماني، والنفس الرحماني إشارة إلى ما قالاه في الفص الهودي وشرحه.

قال الماتن: «ولهذا الكرب تنفس فنسب النفس إلى الرحمٰن» قال الشارح: أي لكون الحق ذواته مشتملاً على حقائق العالم وصورها وطلب ملك الحقائق ظهورها حصل الكرب في الباطن ولهذا الكرب تنفّس الحق أي تجلى لإظهار ما في الباطن من أعيان العالم في الخارج فنسب ـ أي الحق ـ النفس إلى الرحمٰن أي إلى الاسم الرحماني بلسان نبيه صلى الله عليه وآله في

---

(١) مسند الإمام الرضا عليه السلام: ٢/١٢٢.

قوله: «إني أجد نفس الرحمان من قبل اليمن»، والنفس عبارة عن الوجود المنبسط على الأعيان عيناً وعن الهيولى الحامل لصور الموجودات والأول مرتب على الثاني.

«لأنه رحم ما طلبته النسب الإلٰهية من إيجاد صور العالم التي قلنا هي ظاهر الحق» أي نسب النفس إلى الرحمٰن لأن الحق بالنفس الرحماني رحم الأعيان فأعطى ما طلبته النسب الإلٰهية التي هي الأسماء والصفات من وجود صور العالم التي هي ظاهر الحق، انتهى.

وهو أي النفس الرحماني عين وجود الحق والوجود الإضافي الفائض عليها أيضاً عين الحق فليس المدرك والموجود إلا عين الحق والأعيان على حالها في العلم، وهذا مشرب الموحد، وبالاعتبار الثاني الأعيان هي الظاهرة الموجودة في مرايا الوجود والوجود معقل محض، وهذا مشرب المحجوبين عن الحق ومشرب المحقق الجامع بين المراتب العالم بهما في هذا المقام الجمع بين الحق والخلق بحيث شهود أحدهما لا تحجبه عن شهود الآخر، وذلك لجمعه بين المرآتين، لأن المرايا إذا تقابلت تظهر منها عكس جامع لما فيها، فيتحد ما في المرايا المتعددة بحكم اتحاد انعكاس أشعتها وإلى هذا الاعتبار أشار بقوله:

«فمن حيث هوية الحق هو وجوده» أي فكل ما تدركه من حيث هوية الحق الظاهرة فيه هو عين وجوده «ومن حيث اختلاف الصور فيه» أي في كل ما تدركه «هو أعيان الممكنات» انتهى كلامهما هبط مقامهما.

وأنت قد عرفت فساد ذلك كله مضافاً إلى قوله عليه السلام هنا بما حققناه سابقاً من أن وجود الحق بذاته مباين لمخلوقاته فكيف يكون أحدهما مرآتاً للآخر على أن مرآتية الأعيان تستلزم التحديد والحواية للحق وعرفت منافاتهما لوجوب الوجود.

ومنه

أكثر فقرات الخطبة المائة والخامسة والثمانين التي تجمع من أصول علم التوحيد ما لا تجمعه خطبة حسبما يعرفه المتدبر الخبير.

فمن جملة هذه الفقرات قوله عليه السلام: ولا حقيقته أصاب من مثله ولا إياه عنى من شبهه.

فإنه صريح في التنزيه من التمثيل والتشبيه، وقد عرفت أن هؤلاء يقولون بالجمع بين التنزيه والتشبيه كما قال في الفص النوحي:

«فإن قلت بالتنزيه كنت مقيداً وإن قلت بالتشبيه كنت محدداً
وإن قلت بالأمرين كنت مسدداً وكنت إماماً في المعارف سيداً»

وعرفت فساده بما لا مزيد عليه.

ومنها قوله عليه السلام: كل معروف بنفسه مصنوع وكل قائم في سواه معلول[١].

فإنه مبطل لقولهم بتجلي وجود الحق في العالم وظهوره في مرايا الأعيان.

كما قال في الفص الإبراهيمي: «ويعطيك الكشف أن العالم ليس إلا تجليه في صور أعيانهم الثابتة التي يستحيل وجودها بدونه، وأنه يتنوع ويتصور بحسب حقائق هذه الأعيان وأحوالها».

قال القيصري: أي يعطيك الكشف أن الحق هو الذي ظهر في صور العالم وتنوّع بحسب أنواع الأعيان وتصور بصور هذه الحقائق وأحوالها، فالأعيان باقية على عدمها والمشهود هو الوجود الحق لا غير، انتهى.

وهو عبارة أخرى عن قولهم بأن وجود الحق سار في المخلوقات وأنه متخلل فيها مثل تخلل اللون المتلون حسبما قدمنا حكايته عنهما من الفص الإبراهيمي وبينا فساده هناك.

ومنها قوله عليه السلام: غنيّ لا باستفادة.

يعني أن غناه بذاته لاتصافه بالوجوب لا كسائر الأغنياء مستفيداً للغني من الغير، وإلا لزم أن يكون ناقصاً بذاته مستكملاً لغيره وهو محال، وهذا دليل على بطلان قولهم بأن الحق سبحانه من حيث ذاته الأحدية غني عن العالمين، ولكن من حيث الإلٰهية والربوبية والقادرية وغيرها من الأسماء والصفات محتاج إليها، وقد صرحا بذلك في مواضع من الفصوص وشرحه.

قال القيصري في شرح الفص العيسوي: قد مر في أول الكتاب أن الذات الإلٰهية من حيث أحديتها موصوفة بالغنى عن العالمين ومن حيث إلٰهيتها وأسمائها موصوفة بالافتقار حيث قال: فالكل مفتقر ما لكل مستغن.

وقال محيي الدين في الفص الإبراهيمي: «ثم إن الذات لو تعرّت عن هذه النسب لم تكن إلٰهاً».

قال القيصري: واعلم أن الإلٰه اسم الذات من حيث هي هي مع قطع النظر عن الأسماء والصفات باعتبار، واسم الذات مع جميع الأسماء والصفات باعتبار آخر، والمراد هنا الاعتبار الثاني، والإلٰهية إسم مرتبة حضرة الأسماء والصفات التي هي النسب المتكثرة باعتبارات ووجوه تحصل للذات بالنظر إلى الأعيان الثابتة المتكثرة الثابتة في أنفسها

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ١٣٦، وأمالي المفيد: ٢٥٤.

واستعداداتها، لأن المرتبة كما يستدعي من يقوم بها كذلك يستدعي من يجري عليها أحكامها كالسلطنة والقضاء، فلو لم يعتبر هذه النسب لم يبق إلا الذات الإلٰهية لا يشار إليها بوجه من الوجوه ولا يوصف بنعت من النعوت، وهو مقام الهوية الأحدية التي تستهلك النسب كلها فيه فيكون الحق تعالى إلٰهاً أي في مرتبة حضرة الأسماء والنسب الإلٰهية باعتبار أعياننا كما أن السلطان سلطان بالنظر إلى الرعية والقاضي قاض بالنظر إلى أهل المدينة فتلحق هذه النسب إليه بنا.

«وهذه النِّسَبُ أحدثتها أعياننا فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلٰهاً».

قال القيصري: أي هذه الصفات إنما ظهرت بأعيانها إذ لو لم يكن لما كان يظهر الخالق والرازق والقادر ولا السميع والبصير وغير ذلك من الأسماء والصفات الإضافية، وليس المراد بالجعل الأحداث والإيجاد لأنا مجعولون وموجودون فبجعل الحق وإيجاده إيانا تظهر تلك الصفات، والمراد بالمألوهية عند هذه الطائفة مرتبة العبودية وبالمألوه العبد لا المعبود لا كما يقول المفسرون من أن الإلٰه بمعنى المألوه وهو المعبود كالكتاب بمعنى المكتوب، ومعناه نحن أظهرنا بعبوديتنا معبوديته وبأعياننا إلٰهيته إذ لو لم يوجد موجود قط ما كان يظهر أنه تعالى إلٰه كما نطق به: كنت كنزاً مخفياً، الحديث، فالجعل ليس على معناه الحقيقي بل على معناه المجازي وهذا ليس بلسان أهل الصحو وفيه نوع من الشطح لما فيه من الرعونة الغير اللائقة للمتأوبين بين يدي الرحمٰن ونظيره كما يقول لسان الرعية والمريد والتلميذ: إن السلطان بوجودي صار سلطاناً وبإرادتي وقراءتي عليه صار الشيخ شيخاً والأستاذ أستاذاً.

وقالا في الفص الشعيبي وشرحه: «وأما الإشارة من لسان الخصوص فإن الله وصف نفسه بالنفس بفتح الفاء وهو من باب التنفيس» أي وصف بلسان نبيه في قوله: إني أجد نفس الرحمان من قبل اليمن نفسه بأن له النفس وهو مأخوذ من التنفيس لأنه إرسال الهواء الحار من الباطن، وإيراد الهواء البارد لترويح المتنفس عن الكرب، فالمتنفس إنما يتنفس دفعاً للكرب فنسبة النفس الإلٰهي بالنفس الإنساني وأضاف الكرب إليه لا من حيث إنه غني عن العالمين بل من حيث إنه رب لهم وكربه طلب الأسماء الإلٰهية الباقية في الذات الأحدية بالقوة ظهورها وأعيانها، فتنفس وأوجد أعيان تلك الأسماء فظهرت الإلٰهية.

«وإن أسماء الإلٰهية عين المسمى» أي من حيث الوجود وأحدية الذات وإن كانت غيراً باعتبار كثرتها «وليس إلا هو» أي وليس المسمى إلا عين هوية الحق «وإنها طالبة ما تعطيه الحقائق» أي وأن الأسماء طالبة وجود ما تعطي الحقائق الكونية للحق من الأحكام والصفات الكونية «وليست الحقائق التي يطلبها الأسماء إلا العالم فالألوهية تطلب المألوه» والربوبية

تطلب المربوب لأن كل واحد من أسماء الصفات والأفعال يقتضي محل ولايته ليظهر به، كالقادر للمقدور والخالق للمخلوق والرازق للمرزوق وهكذا غيرها، والفرق بين الألوهية والربوبية أن الإلٰهية حضرة الأسماء كلها اسم الذات والصفات والأفعال، والربوبية حضرة أسماء الصفات والأفعال، ولذا تأخرت عن المرتبة الإلٰهية، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢].

«وإلاّ» أي وإن لم يكن الألوهية والربوبية طالبة للمألوه والمربوب لا يكون شيء منها متحققاً كما لا يتحقق الأبوة إلا بالابن والبنوة إلا بالأب لأنهما من قبيل المتضايفين «فلا عين لها إلا به وجود أو تقدير أفلا عين للألوهية والربوبية إلا بالعالم» سواء كان موجوداً بالوجود الحقيقي أو مقدراً، «والحق من حيث ذاته غني عن العالمين والربوبية ما لها هذا الحكم» إذ لا غناء لها عن المربوب «فبقي الأمر بين ما تطلبه الربوبية وما يستحقه الذات من الغنيّ عن العالم» أي بقي الشأن بين الغني الذاتي والافتقار الأسمائي فيجب أن ينزل كل منهما على مقامه فنقول: الغنى من حيث الذات لأن العالم كان أو لم يكن لا يحصل التغير في الذات أصلاً بل هي على حالها أزلاً وأبداً عند وجود العالم وعدمه، والافتقار من حيث الربوبية والألوهية.

ولما كانت الربوبية صفة الذات الغنية والصفة عين الموصوف في الأحدية قال: «وليست الربوبية على الحقيقة والاتصاف إلا عين هذه الذات» فللذات الغنى عن العالمين من وجه وهو وجه الأحدية المتعالية عن النسب والإضافات ولها الافتقار إليهم من وجه وهو وجه الواحدية الطالبة للنسب ومظاهرها، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

وهو كما ترى صريح في افتقاره تعالى في صفاته المضافة إليه سبحانه سواء كانت صفة ذات كالعلم والألوهية والقدرة والربوبية وغيرها أو صفة فعل كالخلق والرزق والإرادة والإماتة والإحياء ونحوها مما هو معاني أسمائه الحسنى إلى غيره، وإن كان غنياً من حيث ذاته الأحدية العارية عن النسب والإضافات.

وهذا زعم فاسد ووهم باطل لما قدمنا في المقدمة التي مهدناها سابقاً للدليل العقلي من أن الواجب تعالى تام فوق التمام، وقلنا: إن المراد بتماميته كونه جامعاً للصفات الكمالية كلها وكونها جميعاً حاصلة له بالفعل بنفسه من دون حاجة إلى الغير، لأن الكمالات كلها وجود وهو تعالى عين الوجود، فكيف يكون ناقصاً في ذاته مستكملاً لغيره ومفتقراً بذاته مستغنياً بمخلوقاته؟.

وهو معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: غني لا باستفادة، وقول الحكماء الإلٰهيين: واجب الوجود بالذات واجب الوجود من جميع الجهات.

والحاصل إنا نقول: إنه عزَّ وجل إلٰه ومعبود عالم قادر قاهر غالب ربّ رحيم سميع بصير خالق رازق غير مفتقر في اتصافه بهذه الصفات إلى مألوه وعابد ومعلوم ومقدور وهكذا بل كل هذه الصفات ثابتة له في الأزل قبل وجود المخلوقات.

ويدل على ذلك صريحاً قول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة التي رويناها عنه في (**الكافي**) في شرح المختار المائة والثامن والسبعين حيث قال فيها: كان رباً إذ لا مربوب، وإلٰهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم، وسميعاً إذ لا مسموع[1].

ومثله بل أصرح منه قول الرضا في الحديث الآتي روايته تماماً المروي عنه عليه السلام في (**البحار**) من (**التوحيد والعيون**) حيث قال فيه: له معنى الربوبية إذ لا مربوب وحقيقة الإلٰهية إذ لا مألوه ومعنى العالم إذ لا معلوم ومعنى الخالق إذ لا مخلوق وتأويل السمع ولا مسموع ليس مذ خلق استحق معنى الخالق ولا بإحداثه البرايا استفاد معنى البرائية[2].

قال المحدث العلامة المجلسي: قوله عليه السلام له معنى الربوبية أي القدرة على التربية إذ هي الكمال، وقوله: إذ لا مألوه، أي من له إلا له أي كان مستحقاً للمعبودية إذ لا عابد، وإنما قال: وتأويل السمع لأنه ليس فيه تعالى حقيقة بل يؤول بعلمه بالمسموعات، وقوله: ليس مذ خلق استحق معنى الخالق، إذ الخالقية التي هي كماله هي القدرة على خلق كل ما علم أنه أصلح، ونفس الخلق من آثار تلك الصفة الكمالية ولا يتوقف كماله عليه والبرائية، بالتشديد الخلاقية.

فقد علم بذلك أن قول محيي الدين: إن الذات لو تعرّت عن هذه النسب لم تكن إلٰهاً، وقوله: هذه النسب هي التي أحدثتها أعياننا، باطل جداً، وما أعظم جسارته وأقبح هجره في قوله: ونحن جعلناه بمألوهيتنا إلٰهاً، والشارح القيصري لما رأى فرط شناعته وفظاعته أراد إصلاحه بصرفه عن ظاهره ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر.

وبالجملة فالقول بافتقار الله سبحانه في ذاته أوصافه أو أفعاله إلى مصنوعاته ونقصانه بذاته والتماسه التمام بمخلوقاته إلحادٌ وجحودٌ وإنكارٌ لوجوب الوجود.

فإن قلت: لعل غرض هؤلاء إن الحق سبحانه كان متصفاً بتلك الصفات في الأزل من دون حاجة إلى غيره، ولكن ظهور اتصافه بها كان موقوفاً على وجود المخلوق ومحتاجاً إليه، وبعبارة أخرى أنه مستغن في ذاته وصفاته عن غيره ولكن في إظهار هذه الصفات وتلك

---

(١) أمالي المفيد: ٣٨، وأمالي الطوسي: ٢٠٣.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/٢٩٦، والتوحيد: ٣٤٠.

النسب والإضافات كان مفتقراً إلى إيجاد الموجودات.

قلت: نسبة الافتقار إلى الله تعالى شأنه بأي اعتبار كان غلط بيّن، نعم إن قلنا إنه عز وجل كان متصفاً بصفات العظمة والكمال غنياً في ذاته وصفاته عن غيره، ثم اقتضى العلم الأصلح والحكمة البالغة إبداع الموجودات وإيجاد الممكنات فخلقهم وأبدعهم على ما شاء وأراد، ولما أفاض الوجود علينا وصرنا موجودين ظهر لنا بما أرانا في الآفاق والأنفس من عجائب قدرته وبدائع صنعته وجوده وعلمه وقدرته وحكمته وإرادته وسائر صفاته الكمالية وعلمنا علماً يقيناً جامعيته لجميع الكمالات التي هي معنى إلٰهيته، كان قولاً حقاً دلّنا عليه الكتاب المبين، وأدلاء الحق من الأنبياء والمرسلين، والحجج المعصومين سلام الله عليهم أجمعين، وهذا هو الاعتقاد الصواب الذي نطق به السنة والكتاب فيجب أن يُدَان به ويرفض غيره والله الهادي إلى سواء السبيل الحق.

ومنها قوله عليه السلام: يخبر لا بلسان ولهوات، ويسمع لا بخروق وأدوات، يقول ولا يلفظ[١].

وهو مبطل لقولهم بأن الرب يتكلم وينطق بلسان العبد ويسمع بسمعه لتجليه فيه وفي جوارحه عموماً، وقد مر بيان ذلك تفصيلاً.

وصرح محيي الدين بذلك، أي بأن كلامه خصوصاً في الفص العيسوي حيث قال في تأويل قوله تعالى على رأيه الفاسد خطاباً لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ما نص عبارته:

«فقال وقدم التنزيه سبحانك فحدد (بالكاف) التي تقتضي المواجهة والخطاب».

قال القيصري: أي نزّه الحق أولاً عن مقام فيه وهو العبودية المنعوتية بالإمكان ونقائصه اللازمة له، وميز بين مقام الألوهية والعبودية (بكاف) الخطاب والمواجهة كما خاطبه الحق بضمير الخطاب، وذلك التنزيه والتميز هو التحديد كما مر في الفص النوحي.

لذلك قال: فحدد (بالكاف) «ما يكون لي من حيث أنا لنفسي دونك أن أقول ما ليس لي بحق أي ما يقتضيه هويتي ولا ذاتي» قد مر مراراً أن لكل موجود جهتين: جهة الربوبية وجهة العبودية، والثاني متحقق بالأول فقوله: ما يكون لي أي لنفسي من جهة العبودية والأنانية مجردة من جهة الربوبية والهوية الإلٰهية، أن أقول ما ليس لي بحق ثابت في نفس الأمر، وقوله: أي ما يقتضيه هويتي ولا ذاتي تفسير لقوله: ما يكون لي، ومعناه ما يقتضيه

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١٢٢، والاحتجاج: ١/ ٣٠٢.

عيني وهويتي أن يظهر بدعوى الألوهية من حيث نفسها المتعينة كالفراعنة وإلا ما كنت نبياً ولا من المرسلين.

«إن كنت قلته فقد علمته لأنك أنت القائل في صورتي ومن قال أمراً فقد علم ما قال، وأنت اللسان الذي أتكلم به» أي أنت القائل في صورتي وأنت اللسان الذي أتكلم به بحكم أنك متجلي في هويتي وعيني، ومحل لها بتلك الكمالات «الكلمات ظ» فهي لك في الحقيقة وما لي إلا العدم، فإن قلت ذلك تكون أنت القائل والقائل لا بد أن يعلم القول الذي صدر منه.

فإن قلت: قوله: لأنك أنت القائل، يدل على أن الحق هو المتكلم، وقوله: وأنت اللسان الذي أتكلم به، يدل على أن العبد هو المتكلم لا الحق فبينهما منافاة.

قلت: الأول إشارة إلى نتيجة قرب الفرائض، والثاني إلى نتيجة قرب النوافل وفي الأول المتكلم هو الحق بلسان العبد، وفي الثاني المتكلم هو العبد بلسان الحق، فتغايرت الجهتان.

ولما فسره بما هو مناسب الحديث الرباني قال: «كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله عن ربه في الخبر الإلهي فقال: «كنت لسانه الذي يتكلم به»، فجعل هويته عين لسان المتكلم ونسب الكلام إلى عبده»، أي قال الله في حق عبده، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه فبي ينطق وبي يبصر وبي يسمع فالمتكلم والسميع والبصير هو العبد لكن بالحق وذلك لأن هذا المقام أي مقام الفناء في الصفات مقام نتيجة النوافل لا مقام الفناء في الذات مقام نتيجة الفرائض.

«ثم تمم العبد الصالح الجواب بقوله: تعلم ما في نفسي» أي تعلم ما في نفسي من هويتك وكمالاتك المتسترة في هويتي وما يخطر في خاطري «والمتكلم الحق» أي والحال أن المتكلم بهذا الكلام هو الحق من مقام تفصيله بلسان عيسى، والتاء للخطاب إلى مقام جمعه فهو السامع كما أنه هو المتكلم «ولا أعلم ما فيها فنفى العلم عن هوية عيسى من هويته لا من حيث هو قائل وذو أثر» أي نفى الحق المتكلم بلسان عيسى العلم عن هوية عيسى حتى لا يكون العلم بها، وذلك النفي من حيث هويته العدمية لا من حيث قائل أو قادر فإنه من هذه الحيثية حق لا غير، وإنما قال: ولا أعلم ما فيها ولم يقل ما في نفسك كما في القرآن تنبيهاً على أن نفسه عين نفس الحق في الحقيقة وإن كان غيره بالتعين، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

أقول: فيا أله ولهذين الجاهلين الضليلين كيف يحرفون كلام الله وكلام رسوله عن مواضعه ثم يقولون هذا من عند الله وما هو من عند الله، ويؤوّلون آيات الكتاب المجيد

الواردة في التوحيد والتمجيد والتنزيه من التشبيه والتحديد إلى كلمة الكفر والشرك والضلال زعماً منهم أن هذا عين الإخلاص والتوحيد الذي غاب عن غيرهم، واختصوا بعرفانه بالكشف والشهود مع أنه عين الشرك والإلحاد والجحود، وويل لمن كفره نمرود.

قال قطب الدين بن محيي الدين الكوشكناري وهو من أجلّ مشايخ الصوفية: أيما رجل من أهل الكشف وجدنا أسلوبه في عبارته عن مكاشفاته يغاير أسلوب صاحب الوحي علمنا أنه مدخول وكشفه معلول، وأن الحرص والعجلة دعتاه إلى تركيب ما قذف في قلبه من النور البسيط والتصرف فيه والتخليط، ثم إن هذا الأسلوب الذي انتشر في الأرض من صاحبي **«الفصوص»** و**«النصوص»** اسلوب هو عن المناسبة والمشابهة بأسلوب صاحب الوحي بمعزل بالكلية، فيحصل لنا بمقتضى ذلك القانون العلم بأنهما معلولان وفي كشفهما مدخولان، فيكون سبيلنا مع كلامهما وكتبهما الهجران، انتهى.

ولنعم ما قال الفاضل الفيض ملاّ محسن القاساني في أواخر كتابه المسمى **(بشارات الشيعة)** ما عبارته:

هذا شيخهم الأكبر محيي الدين ابن العربي وهو من أئمة صوفيتهم ومن رؤساء أهل معرفتهم يقول في فتوحاته: إني لم أسأل الله أن يعرّفني إمام زماني، ولو كنت سألته لعرّفني، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

فإنه لما استغنى عن هذه المعرفة مع سماعه حديث من لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية المشهور بين العلماء كافة كيف خذله الله وتركه ونفسه، فاستهوته الشياطين في أرض العلوم حيران، فصار مع وفور علمه، ودقّة نظره، وسيره في أرض الحقائق وفهمه للأسرار والدقائق لم يستقم في علم من علوم الشرائع، ولم يعرض على حدودها بضرس قاطع، وفي كلامه من مخالفات الشرع الفاضحة ومناقضات العقل الواضحة ما يضحك منه الصبيان وتستهزء به النسوان كما لا يخفى على من تتبع تصانيفه ولا سيما **«الفتوحات»** خصوصاً ما ذكره في أبواب أسرار العبادات.

ثم مع دعاويه الطويلة العريضة في معرفة الله ومشاهدته المعبود وملازمته في عين الشهود وتطوافه بالعرش المجيد وفنائه في التوحيد تراه ذا شطح وطامات، وصلف ورعونات في تخليط وتناقضات تجمع الأضداد، وفي حيرة محيّرة تقطع الأكباد، يأتي تارة بكلام ذي ثبات وثبوت، وأخرى بما هو أوهن من بيت العنكبوت.

وفي كتبه وتصانيفه من سوء أدبه مع الله في الأقوال ما لا يرضى به مسلم بحال، في جملة كلمات مزخرفة مخبّطة تشوش القلوب وتدهش العقول وتحيّر الأذهان، وكأنه كان يرى

في نفسه من الصور المجردة ما يظهر للمتخلي في العزلة فيظن أن لها حقيقة وهي له، فكان يتلقيها بالقبول ويزعم أنها حقيقة الوصول، ولعله ربما يختل عقله لشدة الرياضة والجوع، فيكتب ما يأتي بقلمه مما يخطر بباله من غير رجوع، انتهى.

ولعمري إنه كلام في شرح حال ابن العربي ليس فوقه كلام، وهذا أيضاً حال من حذا حذوه من تلامذته ومتابعيه، ومع هذا كله فالعجب كل العجب من ادعائهم أنهم العارفون بالله وأن غيرهم لمحجوبون مع أنهم الجاهلون الضالون المكذبون للأنبياء والمرسلين، فويل لهم ثم ويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.

ولو أردت البسط من مزخرفاتهم لخرجنا عن وضع الكتاب، وفيما أوردناه من أحاديث الأئمة الأطهار والأطياب ونقلنا من خطب أمير المؤمنين عليه السلام الواردة في هذا الباب كفاية في تسفيه أحلامهم، وإبطال مقالهم لأُولي الألباب.

وأكثر الخطب تضمناً لهذا الغرض الخطبة المائة والخامسة والثمانون التي نقلنا منها هنا أخيراً عدة فقرات، ومن أراد زيادة البصيرة فليراجع أصل الخطبة.

وتتلوها خطبة أخرى لأبي الحسن الرضا عليه السلام وأكثر فقراتها ومضامينها مطابقة لخطبة جده سلام الله عليه وآله، ولما كانت خطبته عليه السلام متضمنة لزيادات نفيسة ونكات بديعة خلت عنها خطبة أمير المؤمنين عليه السلام أحببت روايتها.

والناقد المتوقد الخبير المحيط خبراً بما قدمناه من الأدلة النقلية في إبطال مقال هؤلاء الجهال من أهل الضلال إن لاحظ هذه الخطبة بنظر الدقة والاعتبار، ووصل إلى فحواها وعمق في معناها عرف أنها في الحقيقة فذلكة تلك الأدلة، وأنها قالعة لأساس بنيان مذهب الصوفية أصابهم حاصب ولا بقي منهم آبر حتى لا يذكر من هذا المذهب ذاكر، ولا يسمر فيه سامر، فأقول وبالله التوفيق:

روى المحدث العلامة المجلسي في **(البحار)** من التوحيد والعيون قال: حدثنا محمد بن الحسن بن الوليد رضي الله عنه، قال: حدثنا محمد بن عمرو الكاتب عن محمد بن أبي زياد القلزمي عن محمد بن أبي الجدي صاحب الصلاة بجدّة، قال: حدثني محمد بن يحيى بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يتكلم بهذا الكلام عند المأمون في التوحيد.

قال ابن زياد: ورواه لي أيضاً أحمد بن عبد الله العلوي مولى لهم وخالاً لُبعضهم، عن القاسم بن أيوب العلوي أن المأمون لما أراد أن يستعمل الرضا عليه السلام جمع بني هاشم فقال: إني أريد أن أستعمل الرضا على هذا الأمر من بعدي فحسده بنو هاشم وقالوا: تولى رجلاً

جاهلاً ليس له بصر بتدبير الخلافة فابعث إليه يأتنا فترى من جهله ما تستدل به عليه، فبعث إليه فأتاه فقال له بنو هاشم: يا أبا الحسن اصعد المنبر وانصب لنا نعبد الله عليه.

فصعد عليه السلام المنبر فقعد ملياً لا يتكلم مطرقاً ثم انتقض انتقاضة واستوى قائماً وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وأهل بيته ثم قال:

أول عبادة الله معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه، لشهادة العقول أن كل صفة وموصوف مخلوق، وشهادة كل موصوف أن له خالقاً ليس بصفة ولا موصوف، وشهادة كل صفة وموصوف بالإقتران، وشهادة الاقتران بالحدث، وشهادة الحدث بالامتناع من الأزل الممتنع من الحدث، فليس الله من عرّف بالتشبيه ذاته، ولا إياه وحّد من اكتنهه، ولا حقيقته أصابت من مثله، ولا بد صدّق من نهاه، ولا صمد صمده من أشار إليه، ولا إياه عنى من شبّهه، ولا له تذلل من بعّضه، ولا إياه أراد من توهمه، كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول، بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول تعتقد معرفته وبالفطرة تثبت حجته، خلقة الله الخلق حجاب بينه وبينهم، ومباينته إياهم مفارقته أينيتهم «إنيّتهم» وابتداؤه إياهم دليلهم على أن لا ابتداء له، لعجز كل مبتدأ عن ابتداء غيره، وأوده إياهم دليلهم على أن لا أداة فيه، لشهادة الأدوات بفاقة المادين، فاسماؤه تعبير، وأفعاله تفهيم، وذاته حقيقة، وكنهه تفريق بينه وبين خلقه، وغيوره تحديد لما سواه، فقد جهل الله من استوصفه، وقد تعدّاه من اشتمله، وقد أخطأه من اكتنهه، ومن قال كيف فقد شبّهه، ومن قال لم فقد علّله، ومن قال متى فقد وقّته، ومن قال فيم فقد ضمنه، ومن قال إلى م فقد نهاه، ومن قال حتى م فقد غيّاه، ومن غيّاه فقد غاياه، ومن غاياه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد وصفه، ومن وصفه فقد ألحد فيه، لا يتغير الله بانغيار المخلوق كما لا ينحد بتحديد المحدود أحد لا بتأويل عدد، وظاهر لا بتأويل المباشرة، متجلّي لا باستهلال رؤية، باطن لا بمزايلة، مباين لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسم، موجود لا بعد عدم، فاعل لا باضطرار، مقدّر لا بجول فكرة، مدبّر لا بحركة، مريد لا بهمامة، شاء لا بهمة، مدرك لا بمجسة، سميع لا بآلة، بصير لا بأداة، لا تصحبه الأوقات، ولا تضمنه الأماكن، ولا تأخذه السنات، ولا تحدّه الصفات، ولا تفيده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، وبمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأمور عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، والجلاية بالبهم، والجسوء بالبلل، والصرد بالحرور، مؤلف بين متعادياتها، مفرّق بين متدانياتها، دالة بتفريقها على مفرّقها، وبتأليفها على مؤلفها، ذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩] ففرق بها بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرزها، دالة بتفاوتها

أن لا تفاوت لمفاوتها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبينها غيرها، له معنى الربوبية إذ لا مربوب، وحقيقة الإلٰهية إذ لا مألوه، ومعنى العالم ولا معلوم، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وتأويل السمع ولا مسموع، وليس مذ خلق استحق معنى الخالق، ولا بإحداثه البرايا استفاد معنى البرائية، كيف ولا تغيّبه (مذ)، ولا تدنيه (قد)، ولا يحجبه (لعل)، ولا يوقّته (متى)، ولا يشتمله (حين)، ولا تقارنه (مع)، إنما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلة إلى نظائرها وفي الأشياء يوجد فعالها، منعتها (مذ) القدمة، وحمتها (قد) الأزلية، وجنبتها (لولا) التكملة، افترقت فدلت على مفرّقها، وتباينت فأعربت عن مباينها، بها تجلى صانعها للعقول، وبها احتجب عن الرؤية، وإليها تتحاكم الأوهام، وفيها أثبت غيره، ومنها أُنيط الدليل، وبها عرفها الأفراد، بالعقول يعتقد التصديق بالله، وبالإقرار يكمل الإيمان به، لا ديانة إلا بعد معرفة، ولا معرفة إلا بإخلاص،، ولا إخلاص مع التشبيه، ولا نفي مع إثبات الصفات للتشبيه[1]، فكل ما في الخلق لا يوجد في خالقه، وكل ما يمكن فيه يمتنع في صانعه، لا تجري عليه الحركة والسكون، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه[2] ما هو ابتدأه، إذاً لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كنهه، ولامتنع من الأزل معناه، ولما كان للباري معنى غير المبرء[3]، ولوحد له وراء إذاً حد له أمام، ولو التمس له التمام إذاً لزمه النقصان، كيف يستحق الأزل من لا يمتنع من الحدث، وكيف ينشىء الأشياء من لا يمتنع من الإنشاء، إذاً لقامت فيه آية المصنوع، ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه، ليس في محال القول حجّة، ولا في المسألة عنه جواب، ولا في معناه له تعظيم، ولا في إبانته من الخلق ضيم إلا بامتناع الأزلي أن يثنى، وما لا بدءٌ له أن يبدأ، لا إلٰه إلا الله العلي العظيم، كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً، وخسروا خسراناً مبيناً، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين[4].

ورواه في (**البحار**) أيضاً من الاحتجاج مرسلاً من قوله عليه السلام: وكان المأمون لما أراد أن يستعمل الرضا عليه السلام إلى آخر الخبر.

ومن (**أمالي الشيخ**) عن (**المفيد**) عن الحسن بن حمزة العلوي عن محمد الحميري عن أبيه عن ابن عيسى عن مروك بن عبيد عن محمد بن زيد الطوسي الطبري قال: سمعت الرضا عليه السلام يتكلم في توحيد الله فقال: أول عبادة الله معرفته إلى آخر الخطبة[5].

---

(١) في نسخة: بالتشبيه.

(٢) في التوحيد والعيون: إليه. (٣) في التوحيد: المبروء.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ١٣٧، والتوحيد: ٤٠.

(٥) محاسن البرقي: ١/ ١٩٤، والتوحيد للصدوق: ٣٤.

ومن المجالس عن الحسن بن حمزة مثله بتغيير ما.

بيان

قال المحدث العلامة المجلسي (قد) «مليّاً» أي طويلاً و «الإنتقاض» شبه الإرتعاد والإقشعرار.

قوله: **(أول عبادة الله معرفته)** نظير قول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الأولى: أول الدين معرفته، أي أشرف عبادته وأقدمها زماناً ورتبة، لأن طاعة المعبود بعد معرفة نفس المعبود، وقال بعض المحدثين: المراد بالعبادة هنا العبودية أن كون العبد عبداً، فإنه موقوف على معرفة المولى، وأصل المعرفة التوحيد إذ مع إثبات الشريك أو القول بتركب الذات، أو زيادة الصفات يلزم القول بالإمكان المنافي للوجوب، فالمشرك القائل بالتعدد لم يعرف الواجب.

قوله: **(ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه)** قد عرفت معناه في شرح الخطبة الأولى ونقول هنا إنه عليه السلام استدل على نفي الصفات الزائدة بقوله: **(لشهادة العقول)** إلى قوله: **(من الحدث)**.

قال في **(البحار)**[1]: ويمكن تقريره بوجوه:

الأول: أن يكون إشارة إلى دليلين:

الأول: أن كل صفة وموصوف لا بد أن يكونا مخلوقين لأن الصفة محتاجة إلى الموصوف لقيامها به وهو ظاهر، والموصوف محتاج إلى الصفة في كماله والصفة غيره وكل محتاج إلى الغير ممكن، فلا يكون شيء منهما واجباً ولا المركب منهما، فثبت احتياجهما إلى علة ثالثة ليس بموصوف ولا صفة وإلا لعاد المحذور.

الثاني: أن الصانع لا بد أن يكون كاملاً أزلاً وأبداً، لشهادة جميع العقول به، فلا بد أن تكون الصفات الزائدة مقارنة له غير منفكة عنه، ولا يجوز قدم الجميع لبطلان تعدد القدماء، فيلزم حدوث الذات والصفات معاً، فلا يكون شيء منهما واجباً، فالمراد بقوله: شهادة كل صفة وموصوف شهادة كل موصوف فرض صانعاً وصفته أو الصفات اللازمة للذوات.

الوجه الثاني: أن يكون إشارة إلى دليلين على وجه آخر:

الأول: أنه لو كانت له صفات زائدة لكانت ممكنة لامتناع تعدد الواجب، ولا يجوز أن

(١) بحار الأنوار: ٤/ ٢٣١.

يكون الواجب موجداً لها إما لامتناع كون الشيء قابلاً وفاعلاً لشيء واحد، أو لأن تأثير الواجب فيها يتوقف على اتصافه بتلك الصفات إذ لو لم يتوقف التأثير في تلك الصفات التي هي منشأ صدور جميع الممكنات عليها لم يتوقف التأثير في شيء عليها، فلا يثبت له تعالى شيء من الصفات، فيكون معلولة لغيره تعالى، ومن كانت جميع صفاته الكمالية من غيره لا يكون واجباً صانعاً لجميع الموجودات بالضرورة.

الثاني: أن التوصيف اقتران خاص يوجب الاحتياج من الجانبين كما مر، والاحتياج موجب للحدوث المنافي للأزلية.

الوجه الثالث: أن يكون راجعاً إلى دليل واحد.

وتقريره أنه لو كانت الصفات زائدة لكانت الذات والصفات مخلوقة، وهذا خلف، وبين الملازمة بقوله: وشهادة كل صفة وموصوف بالاقتران بنحو ما مر من الاحتياج المستلزم للإمكان.

وقد يقرر بوجه آخر وهو أن العقل مستقل بأن الموصوف والصفة مخلوقان، لأن الذات لو كانت عين الوجود ولم تكن محدودة بحد معين لم تكن فاقدة لجهة من جهات الكمال الطارئة عليها، ولم يتميز الموصوف عن الصفة حينئذ، وكل محدود محتاج إلى محدد غيره، وذلك الغير لا بد أن يكون أحديّ الذات منزهاً عن الحد.

قوله عليه السلام: **(فليس الله من عرّف بالتشبيه ذاته)** أي ليس من عرّف ذاته بالتشبيه بالممكنات واجباً، لأنه يكون ممكناً مثلها.

قوله: **(ولا إياه عنى من اكتنهه)** أي من بين كنه ذاته أو أراد الوصول إلى كنهه، إذ لو كان يعرف كنهه لكان شريكاً مع الممكنات في التركيب والصفات الإمكانية وهو ينافي التوحيد، وبعبارة أخرى معرفة الكنه إنما تحصل بالإحاطة بالحدود من الأجناس والفصول، وقد عرفت أنه سبحانه منزّه عن الحد، فغاية معرفته تعالى أنا لا نعرفه بل نقول: إن الإحاطة بأنواع الممكنات على كثرتها والاطلاع على شؤوناتها الغير المتناهية غير ممكنة، مع أنها محدودة فكيف بالذات المنزهة عن الحد.

قوله: **(ولا حقيقة أصاب من مثله)** أي جعل له شخصاً ومثالاً، قال الفيروز أبادي: مثله تمثيلاً صوّره له حتى كأنه ينظر إليه، أو المراد من مثّله في ذهنه وجعل الصورة الذهنية مثالاً له، أو المراد أثبت له مثلاً وشبهه بغيره، وقد تقدم في شرح الخطبة المائة والخامسة والثمانين تحقيق تنزّهه من الشبه والمثل.

قوله: **(من نهّاه)** بالتشديد، أي جعل له حد أو نهاية، ومن جعله كذلك لم يصدّق

بوجوده بل بممكن غيره.

قوله: **(ولا صمد صمده)** أي قصد نحو **(من أشار إليه)** وقد مر تحقيق ذلك أيضاً في شرح الخطبة المذكورة.

قوله: **(ولا له تذلل من بعضه)** أي من أثبت أجزاء وأبعاضاً فهو في عبادته وعبوديته لم يتذلل للحق المنزه عن ذلك، بل عرفه وهو غيره.

وقوله: **(ولا إياه أراد من توهمه)** أي من تخيل له في نفسه صورة أو هيئة وشكلاً، فإن ما ميّزه بوهمه مخلوق له مصنوع مثله.

وقوله: **(كل معروف بنفسه مصنوع وكل قائم في سواه معلول)**، قد تقدم تحقيقه في شرح الخطبة المذكورة، ولما ذكر عدم إمكان معرفته بنفسه أتبعه بقوله: **(بصنع الله يستدل عليه)** إشارة إلى أن طريق معرفته هو الإستدلال عليه بآثاره وصنائعه فقط.

وقوله: **(بالفطرة تثبت حجته)** أي بأن فطرهم وخلقهم خلقة قابلة للتصديق والإذعان والمعرفة والاستدلال، أو بتعريفهم في الميثاق وفطرهم على ذلك التعريف.

وقوله: **(خلقة الله الخلق حجاب بينه وبينهم)** أي كونه خالقاً وأن الخالق لا يكون بصفة المخلوق ويكون مبايناً له في الصفات صار سبباً لاحتجابه عن الخلق فلا يدركونه بحواسهم وعقولهم.

والحاصل: أن كماله ونقص مخلوقيه حجاب بينه وبينهم، وبتقرير آخر لما خلق الله الخلق محدوداً وكان سبحانه منزهاً عن الحد حسبما عرفت سابقاً أوجب تحددهم وتنزهه الاحتجاب.

والحاصل: أن المخلوقية علة تامة للاحتجاب، لأن الإشتمال على الحد من لوازم ذات المخلوق فيستحيل إلقاؤه للحد ووصوله إلى مرتبة الواجب أو اشتمال الواجب على الحد وتنزّله على مرتبة الممكن، فيبطل ما قالته الصوفية من ترقي المخلوق إلى مرتبة الخالق، وتنزّل الخالق إلى مرتبة المخلوق في قوس الصعود والنزول واحتجاب كل منهما بالآخر حسبما قدمنا حكايته عن كلام محيي الدين في الفص الإبراهيمي وغيره.

وقوله: **(ومباينته إياهم مفارقته إينيتهم)** أي مباينته تعالى ليس بحسب المكان حتى يكون في مكان وغيره في مكان آخر بل إنما هي بأن فارق أينيتهم فليس له أين ومكان وهم محبوسون في مطمورة المكان، أو المعنى أن مباينته لمخلوقيه في الصفات صار سبباً لأن ليس له مكان.

ورواه بعض مشايخنا المعاصرين: مفارقته أنيتهم أي تحققهم ووجودهم يعني أن مفارقة

الخالق للمخلوقات ليس كافتراق المخلوقات بعضها عن بعض، لأن مفارقتها إنما هو بالحدود المميزة وإنما هو بمعنى أجلّ وأعلى وهو مفارقة وجوده من حيث تنزّهه عن الحد لوجودها من حيث اشتمالها على الحدود، وهذا أيضاً مبطل لقولهم: بأن الخلق عين الحق والحق عين الخلق كما عرفت سابقاً.

قوله: **(وأوده إياهم دليل على أن لا أداة فيه)** أي جعلهم ذوي أدوات يحتاجون إليها في الأعمال من الأعضاء والجوارح والقوى دليل على أنه ليس فيه شيء منها، لشهادة الأدوات فيما يشاهد في المادين بفاقتهم واحتياجهم إليها، وهو منزّه عن الاحتياج، أو المعنى أن الأدوات التي هي أجزاء للمادين تشهد بفاقتهم إلى موجد لكون كل ذي جزء محتاجاً ممكناً فكيف تكون فيه تعالى.

قوله: **(فأسماؤه تعبير)** أي ليست عين ذاته وصفاته حسبما تزعمه الصوفية على ما عرفت بل هي معبرات عنها **(وأفعاله تفهيم)** ليعرفوه ويستدلوا بها على وجوده وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته.

قوله: **(وذاته حقيقة)** أي حقيقة مكنونة عالية لا تصل إليها العقول، بأن يكون التنوين للتفخيم أو جديرة بأن تتصف بالكمالات دون غيرها أو ثابتة واجبة لا يعتريها التغير والزوال.

قوله: **(وكنهه تفريق بينه وبين خلقه)** لعل الغرض بيان أنه لا يشترك في ذاتي مع الممكنات بأبلغ وجه، أي كنهه يفرق بينه وبينهم لعدم اشتراكه معهم في شيء، هكذا قال في **(البحار)**، والأظهر أن المراد به هو المراد بقوله المتقدم: مباينته إياهم مفارقته أنيتهم أي أنه سبحانه بذاته مفارق لهم لأن كنهه هو التنزه من الحد وكنه المخلوق الاكتناف بالحدود.

ويؤيد ذلك قوله: **(وغيوره تحديد لما سواه)** أي مغايرته له أوجب التحديد، يعني أن مغايرته لما سواه ليس كمغايرة ما سواه من المخلوقات بعضها ببعض، فإن مغايرتها بالحدود الذاتية ومغايرة الحق لها إنما هو بالتنزه من الحد لا غير.

وقوله: **(فمن استوصفه)** أي طلب وصف كنهه أو سأل عن الأوصاف والكيفيات الجسمانية فقد جهل عظمته.

وقوله: **(وقد تعداه من اشتمله)** أي تجاوز عنه ولم يعرفه من توهمه شاملاً لنفسه، فيكون رداً على القول بالحلول والاتحاد كما هو مذهب الصرفية، وفي بعض النسخ أشمله أي جعله شاملاً أو مشمولاً وعلى التقديرين ففيه أيضاً دلالة على بطلان مذهبهم.

قوله: **(وقد أخطأه من اكتنهه)** أي من توهم أنه عرف كنهه فقد أخطأ خطأ عظيماً.

قوله: **(ومن قال كيف فقد شبّهه)** أي من سأل عن الكيفيات الجسمانية فقد شبهه بخلقه في التكيف بالكيفية **(ومن قال لم فقد علله)** أي لِمَ صار قادراً وعالماً أو لِمَ صار موجوداً فقد علل ذاته وصفاته، وليس لذاته وصفاته علّة وإنما هو تعالى علّة العلل: **(ومن قال متى فقد وقّته)** لأن **(متى)** سؤال عن نسبة الشيء إلى الزمان فمن قال متى كان فقد وقّت أول وجوده وليس له أول **(ومن قال فيم فقد ضمّنه)** أي من سأل أنه في أي شيء فقد جعله في ضمن ذلك الشيء وجعل ذلك الشيء متضمناً له وهو من خواص الأجسام والله سبحانه منزّه عن ذلك **(ومن قال إلى م فقد نهاه)** أي إلى أيّ شيء ينتهي شخصه فقد جعله ذا نهاية وانقطاع **(ومن قال حتى م)** يكون وجوده **(فقد غياه)** أي جعل لبقائه غاية ونهاية **(ومن غياه فقد غاياه)** أي من جعل له غاية فقد حكم باشتراكه مع المخلوقين في الفناء فيصح أن يقال غايته قبل غاية فلان أو بعده **(ومن غاياه فقد جزّأه)** أي من حكم باشتراكه مع المخلوقين ولو في الجملة فقد جزّأه، لأن ما به الاشتراك غير ما به الامتياز، فلا بد أن يكون ذا أجزاء بعضها جهة امتياز وبعضها جهة اشتراك.

ويحتمل أن يكون المراد أن السائل عنه تعالى بحتام توهم في حقه الغاية والنهاية والمتوهم في حقه الغاية جعله ذا نهاية ينتهي إليها والجاعل له النهاية جعله مركباً من الأجزاء، إذ النهاية من لوازم الكم المتصل والمنفصل والمتكمم المشتمل على الأجزاء، وبعبارة أخرى الغاية والنهاية من عوارض الأجسام وذات الأوضاع والمقادير والأجزاء.

(ومن جزّأه) أي أثبت له الجزء **(فقد وصفه)** بصفة الإمكان وأثبت له صفات الممكنات المتجزأة ومن حكم بذلك فقد ألحد في ذاته.

وقوله: **(لا يتغير الله بانغيار المخلوق كما لا ينحد بتحديد المحدود)** أي ليس التغيرات التي تكون في مخلوقاته موجبة للتغير في ذاته وصفاته الحقيقية، بل إنما التغير في الإضافات الاعتبارية كما أن خلقه للمحدودين حدوداً لا يوجب كونه متحدداً بحدود مثلهم.

ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يتغير كتغير المخلوقين ولا يتحد كتحدد المصنوعين المحدودين، أي لا يتغير بمثل تغيرهم ولا يتحد بمثل تحددهم، والمعنى الأول أظهر ويؤيده ما في رواية المجالس: لا يتغير الله بتغير المخلوق ولا يتحدد بتحدد المحدود.

وقال بعض مشايخنا المحققين دام تأييده من الله: إن المراد به أن مغايرة المخلوق للخالق وقبوله للغيرية وانفعاله بذلك لا يوجب التغير فيه أصلاً إذ لم يحدث فيه جهة موجبة لمغايرته لمخلوقه، بل كان كما كان وإنما حصلت الغيرية في المخلوق وتميز عن الخالق من أجل اتصافه بالحدود وتحدد كل نوع منه بحد مخصوص، والواجب لم يخصص بحد يوجب المغايرة والتميز به عن المخلوق، وقوله: كما لا ينحد (آه) بمنزلة الدليل على ذلك، لأن

التغير بانغيار المخلوق إنما ينتزع من الاختصاص بحد مخصوص في قبال الحد الذي في المخلوق، كما أن تغاير المخلوقات بعضها ببعض على ذلك الوجه أي من جهة أن لكل منها حداً مخصوصاً ليس في الآخر، والله سبحانه لما كان منزهاً عن الحد لا يوجب انغيار المخلوق الحاصل له من الاكتناف بالحدود تغيره البتة.

ومحصّله ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المائة والخامسة والثمانين: وخرج بسلطان الامتناع من يؤثر فيه ما يؤثر في غيره[1].

وقوله: (**أحد لا بتأويل عدد**) يعني أنه أحديّ الذات بسيط الحقيقة لا جزء له ذهناً وعقلاً وخارجاً، أو أنه واحد ليس كمثله شيء وليست وحدته وحدة عددية لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد.

وقوله: (**ظاهر لا بتأويل المباشرة**) أي ليس ظهوره بأن يباشره حاسة من الحواس أو ليس ظهوره بأن يكون فوق جسم يباشره كما يقال: ظهر على السطح، بل هو ظاهر بآثاره غالب على كل شيء بقدرته.

وقوله: (**متجلي لا باستهلال رؤية**) أي ظاهر ليس ظهوره من جهة الرؤية.

وقوله: (**باطن لا بمزايلة**) أي ليس بطونه بمفارقة مكان بأن انتقل من مكان إلى مكان فخفى عنهم، أو بأن دخل في بواطنهم حتى عرفها بل لخفاء كنهه عن عقولهم وعلمه ببواطنهم وأسرارهم.

وقوله: (**مباين لا بمسافة**) أي ليس مباينته لبعده بحسب المسافة عنهم بل لغاية كماله وتمامه ونقصانهم وافتقارهم باينهم في الذات والصفات.

وقوله: (**قريب لا بمداناة**) أي ليس قربه قرباً مكانياً بالدنو من الأشياء، بل بالعلم والغلبة والتربية والرحمة.

وقوله: (**لطيف لا بتجسم**) أي ليس لطفه بكونه جسماً له قوام رقيق أو حجم لطيف أو تركيب غريب وصنع عجيب، بل لخلقه الأشياء اللطيفة وعلمه بها أو لتجرد ذاته.

وقوله: (**فاعل لا باضطرار**) أي هو فاعل مختار ليس بموجب.

وقوله: (**مقدّر لا بجول فكرة**) أي ليس في تقديره للأشياء محتاجاً إلى جولان الفكر.

قوله: (**مدبر لا بحركة**) أي ليس في تدبيره محتاجاً إلى حركة ذهنية أو بدنية.

---

(١) البحار: ٤/٢٥٤.

قوله: (**مريد لا بهمامة**) أي بعزم واهتمام.

قوله: (**شاء لا بهمة**) أي ذو مشيئة لا بهمة وقصد وعزم.

قوله: (**مدرك لا بمجسة**) أي ليس إدراكه بحس اليد ولمسها أو بالتجسس والتفحص.

قوله: (**لا تصحبه الأوقات**) لكونه منزّهاً من الزمان.

قوله: (**لا تضمنه**) بحذف إحدى التائين.

قوله: (**ولا تأخذه السنات**) كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لأنهما من خواص الطبيعة الحيوانية.

قوله: (**ولا تحدّه الصفات**) أي لا تحده صفات الواصفين كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون[1].

قوله: (**ولا تفيده الأدوات**) أي لا ينتفع بها ولا يحتاج في صنعه إلى الاستفادة منها كما هو شأن المخلوق.

وقوله: (**سبق الأوقات كونه**) إلى قوله: (**لا مشعر له**) قد مضي تحقيق ذلك كله في شرح الخطبة المائة والخامسة والثمانين فليراجع ثمة.

وقوله: (**بتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له**) أي بتحقيق حقائقها وإيجاد مهيئاتها عرف أنها ممكنة وكل ممكن محتاج إلى مُبدء فمبدء المبادىء لا يكون حقيقة من هذه الحقائق.

وقوله: (**وبمضادته بين الأشياء**) إلى قوله: (**لا قرين له**) قد تقدم تحقيقه أيضاً في شرح الخطبة المذكورة ولا حاجة إلى الإعادة وكذا تقدم هناك معنى قوله: (**ضادّ النور بالظلمة والجلاية بالبهم**) إلا أن هناك والوضوح بالبهمة، بدله.

وقوله: (**والجسوء بالبلل**) قال الفيروز أبادي: جسأ جسوءَ صلب وجسئت الأرض فهي مجسوءة من الجساءِ وهو الجلد الخشن والماء الجامد وفي الخطبة المذكورة: والجمود بالبلل، بدله.

وقوله: (**والصّرد بالحرور**) الصرد بفتح الراء وسكونها البرد فارسي معرّب والحرور بضم الحاء الحرارة وبفتحها الريح الحارة.

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٩٤.

وقوله: **(مؤلّف بين متعادياتها)** إلى قوله: **(على مؤلفها)** قد تقدم تحقيقه أيضاً في شرح الخطبة المذكورة.

وقوله: **(ذلك قوله)** عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩] استشهاد لكون التأليف والتفريق، دالين على الصانع بالتقريب الذي قدمناه في شرح الخطبة المذكورة، وقال بعض المفسرين: المراد بالشيء الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان، فمن كل جنس نوعان كالجوهر فمنه المادي والمجرد، ومن المادي الجماد والنامي، ومن النامي النبات والمدركُ الصامت والناطق، وكل ذلك دليل على أنه واحد لا كثرة فيه، وقيل: كل موجود دون الله ففيه زوجان اثنان: كالمهية والوجود، والوجوب والإمكان، والمادة والصورة، والجنس والفصل، وأيضاً كل ما عداه يوصف بالمتضايفين كالعلية والمعلولية والقرب والبعد والمقارنة والمباينة والتألّف والتفرق والمعاداة والموافقة وغيرها من الأمور الإضافية فقوله: لعلكم تذكرون أي تعرفون من اتصاف كل مخلوق بصفة التركيب والزوجية والتضايف أن خالقها واحد أحد لا يوصف بصفاتها.

وقوله: **(ليعلم أن لا قبل له ولا بعد)** يدل على عدم كونه تعالى زمانياً، ويحتمل أن يكون المعنى عرفهم معنى القبلية والبعدية ليحكموا أن ليس شيء قبله ولا بعده.

وقوله: **(شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرّزها)** أي شاهدة بطبائعها على أن لا طبيعة لموجد طبائعها ومفيضها عليها، ويمكن حملها وأمثالها على الجعل البسيط **(والمفاوت)** بصيغة الفاعل من جعلها بينها التفاوت **(وتوقيتها)** تخصيص حدوث كل منها بوقت معين وبقائها إلى وقت معين.

وقوله: **(حجب بعضها عن بعض)** أي بالحجب الجسمانية أو الأعم ليعلم أن ذلك نقص وعجز وهو منزّه عن ذلك، بل ليس لهم حجاب عن الرب إلا أنفسهم لإمكانهم ونقصهم، وقال بعض المحققين: المراد أنه قد قرر لكل واحد من الممكنات حداً معيناً لا يتعداه، فلا يمكن أن يكون أحدها عين الآخر، وبذلك يعلم أن لا حجاب بين المخلوق وبين الخالق إلا نفس المخلوق، لأن المخلوق محدود والخالق منزه عن الحد، فالحجاب في جهة المخلوق لا في جهة الخالق.

قوله: **(له معنى الربوبية)** إلى قوله: **(معنى البرائية)** قد تقدم معناها قريباً في أواخر ذكر الأدلة النقلية.

وقوله: **(كيف ولا تغيبه مذ)** أي كيف لا يكون مستحقاً لهذه الأوصاف والأسماء في الأزل والحال أنه لا يصير كلمة (مذ) الموضوعة لأول الزمان سبباً لأن يغيب عنه شيء، فإن الممكن إذا كان قبل ذلك المبدء أو بعده يغيب هذا عنه، ولله تعالى جميع الأشياء مع أزمتها

حاضرة في علمه في الأزل، أو أنه ليس لوجوده زمان حتى يغيب عن غيره فيقال: مذ كان موجوداً كان كذا.

(و) لما لم يكن زمانياً **(لا تدنيه كلمة قد)** التي هي لتقريب الماضي إلى الحال، أو ليس في علمه شدة وضعف حتى تقرّبه كلمة **(قد)** التي للتحقيق إلى العالم بحصول شيء **(ولا تحجبه كلمة لعل)** التي هي لترجّي أمر في المستقبل، أي لا يخفى عليه الأمور المستقبلة **(وليس له أول)** وقت **(حتى يقال له متى)** وجد أو متى علم أو متى قدر وهكذا **(ولا يشتمله حين ولا زمان)** لأنه خالق الحين والزمان فكيف يكونان شاملين له ومحيطين به **(ولا تقارنه مع)** أي لا يوجب كلمة مع المفيدة للمصاحبة اقترانه بالأشياء زماناً أو مكاناً، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الأولى: **(مع كل شيء لا بمقارنة)**، أي معينة للأشياء ليست بعنوان المقارنة التي في المخلوقات بل بالعلم والإحاطة والقيومية والتربية.

وقوله: **(إنما تحد الأدوات أنفسها)** إلى قوله: **(لولا التكملة)** قد تقدم شرح هذه الفقرات وتحقيقها في شرح الخطبة المائة والخامسة والثمانين بما لا مزيد عليه.

وقوله: **(افترقت فدلّت على مفرّقها)** أي افترقت الأدوات والآلات باختصاص إدراك كل منها بنوع خاص من المدركات، أو اختصاص كل منها بحد مخصوص، فدلت على مفرق فرّقها وخصصها بحد مخصوص.

وقوله: **(وتباينت فأعربت عن مباينها)** أي تباينت بعضها مع بعض لاختصاص كل منها بوضع خاص فأظهرت عن صانعها الموجد للمباينة بينها أو عن صانعها المباين لها في الصفات وفي التنزه عن الحد كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢].

وقوله: **(بها تجلّى صانعها للعقول وبها احتجب عن الرؤية)** قد تقدم معناهما أيضاً في شرح الخطبة المذكورة، وقال العلامة المجلسي: أي بالعقول احتجب عن الرؤية لأن الحاكم بامتناع رؤيته هو العقل، وإلى العقل تتحاكم الأوهام عند اختلافها.

قوله: **(وفيها أثبت غيره)** أي كلما يثبت ويرتسم في العقول أو في المشاعر فهو غيره، ويحتمل أن يكون غيره مصدراً بمعنى المغايرة أي بالعقول يثبت مغايرته تعالى للممكنات، ويمكن إرجاع الضمير إلى الأوهام أي القول بالشريك له تعالى فعل الوهم لا العقل لكن فيه تفكيك.

وقوله: **(ومنها أنيط الدليل)** أي من العقول يستنبط الدليل على الخالق **(وبها عرّفها الإقرار)** أي بالعقول عرّف الله العقول أو ذويها الإقرار به عزّ وجل.

وقوله: (**لا ديانة إلا بعد معرفة**) مثل قول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الأولى: (**أول الدين معرفته**)، أي لا تدين بدين الله إلا بعد معرفة الله (**ولا معرفة إلا بإخلاص**) أي بإخلاص الحقّ مما لا يليق بذاته المقدسة من نقائص الإمكان (**ولا إخلاص مع التشبيه**) له بمخلوقاته في الذات والصفات (**ولا نفي**) للتشبيه (**مع إثبات الصفات**) الزائدة على الذات.

فقوله: (**للتشبيه**) متعلق بالنفي أي لم ينتف التشبيه من أثبت له الصفات الزائدة، وفي بعض النسخ بالتشبيه بدل قوله للتشبيه أي بنفي التشبيه المستفاد من قوله: ولا إخلاص مع التشبيه، فالمراد أن لا نفي له مطلقاً بنفي التشبيه أي لا يلزم النفي المطلق مع إثبات الصفات الكمالية له على وجه لا يستلزم النقص بنفي تشبيه لغيره كما نقول: شيء كالأشياء وعالم لا كعلم المخلوق وقادر لا كقدرتنا وهكذا، فيكون إشارة إلى وجوب إخراجه عن حد النفي وحد التشبيه.

وقوله: (**فكل ما في الخلق لا يوجد في خالقه وكل ما يمكن فيه يمتنع في صانعه**) تفريع على ما سبق وتصريح بتنزهه عن مشابهة مخلوقاته ونص في إبطال مقال الصوفية القائلين بأن جميع ما للمخلوقات من الصفات فهي صفات الخالق، لأنهم مظاهر الحق ومجاليه حسبما عرفت فيما سبق.

وقوله: (**ولا يجري عليه الحركة والسكون**) إلى قوله: (**لزمه النقصان**) قد تقدم تحقيق معاني هذه الفقرات في شرح الخطبة المائة والخامسة والثمانين أيضاً.

وقوله: (**كيف يستحق الأزل من لا يمتنع من الحدث**) استفهام في معرض الإنكار أي لو التمس التمام والاستكمال بالغير لزم اتّصافه بالكمالات الحادثة وعدم امتناعه من أن يحدث فيه تلك الحوادث، ومن كان كذلك وكان محلاً للحوادث لا يكون أزلياً واجب الوجود.

وقوله: (**وكيف ينشىء الأشياء من لا يمتنع من الإنشاء**) وهو أيضاً في معرض الإنكار، أي لو التمس التمام لاحتاج في تماميته إلى غيره لينشىء له صفات الكمال الموجبة لتمامه وكماله، ومن كان كذلك كان ممكناً فلا يمكن أن يكون منشئاً للأشياء أي الممكنات جميعاً لأن إنشاءها من شأن الواجب.

ثم استدل عليه السلام على جميع ما تقدم بقوله: (**إذاً لقامت فيه آية المصنوع ولتحول دليلاً بعدما كان مدلولاً عليه**) أي لو كانت فيه تلك الحوادث والتغيرات وإمكان الحدوث لقامت فيه علامة المصنوع ولكان دليلاً على وجود صانع آخر غيره كسائر الممكنات لاشتراكه معهم في صفات الإمكان وما يوجب الحاجة إلى العلة لا مدلولاً عليه بأنه صانع.

وقوله: (**ليس في محال القول حجّة**) أي ليس في إثبات هذا القول المحال أي إثبات الحوادث والصفات الزائدة له حجة (**ولا في المسألة عنه**) أي في السؤال عن هذا القول لظهور

خطئه وبطلانه **(جواب ولا في معناه له تعظيم)** أي في إثبات معنى هذا القول له تعالى وتوصيفه بصفات الممكنات تعظيم له بل هو نقص في حقه حسبما عرفت **(ولا في إبانته من الخلق)** وتنزيهه من صفاتهم **(ضيم)** أي نقص وظلم في حقه تعالى شأنه **(إلا بامتناع الأزلي أن يثني وما لا بدء له أن يبدء)** أي لا نقص له في إبانته من خلقه إلا بأن الأزلي يمتنع من الأثنينية وبأن ما لا بدء أي لا مبدأ له يمتنع من أن يبدء ويكون له مبدء، وما نسبوه إليه تعالى مما مر مستلزم لكونه تعالى ذا مبدء وعلّة.

والحاصل أنه لا يتصور في تفريقه تعالى من خلقه ومن صفاتهم ظلم ونقص له تعالى إلا بهذا الوجه والحال أنه ليس بظلم أصلاً ولا نقص، بل هو عين الكمال، والاستثناء في قوله عليه السلام كما في قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وهو من قبيل إخراج المدح بما يشبه الذم.

وقوله: **(كذب العادلون بالله)** أي الجاعلون له عديلاً وشبيهاً وتعالى الله سبحانه عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

وأقول: يا أُولي الألباب والضمائر وذوي الأبصار والبصائر إن تدبّرتم في معاني هذه الخطبة الشريفة حق التدبر وجدتموها كنزاً مشحوناً بأنواع الدرّ والجواهر، وبحراً موّاجاً في علم التوحيد ليس له ساحل، ولو استقصيتم فيها النظر وبذلتم عميقات الفكر عرفتم أن كل فقرة من فقراتها دليل مستقل في بطلان مقالات أولياء الشيطان وإخوان عبدة الأوثان الزاعمين أنهم أهل اليقين والعرفان، والخلّصون في التوحيد والمعرفة والإيمان لقولهم بوحدة الوجود، وأن ليس غيره في الحقيقة بموجود، وذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

ثم أقول: أنت إذا أحطت خبراً بما قدمنا علمت فساد القول بوحدة الوجود وسخافة ما يترتب على تلك الشجرة الملعونة من الثمرات الخبيثة، وعرفت أن وجوده سبحانه وجود خاص به قائم بذاته ممتاز عن سائر الموجودات بنفس ذاته وبكونه مُبدء للكل وهو أيضاً نفس ذاته وممتاز عن المهيات بكونه وجوداً خاصاً بخلاف شيء من المهيات، فإنه ليس وجوداً أصلاً لا خاصاً ولا مطلقاً، فليس له تعالى مهية وحقيقة يشارك بها شيئاً من الممكنات، فلا يحتاج إلى مميز ذاتي يميزه عما به المشاركة الذاتية مع غيره، فحقيقته هوية بسيطة ووجود خاص ممتاز عن كل ما سواه بتجرده وتنزهه من الحدود، ويكون كل ما سواه محدوداً، ولنقتصر في هذه المسألة على ذلك ولنعد إن شاء الله تعالى إلى ذكر سائر عقائدهم الفاسدة، فأقول وبالله التوفيق والاعتماد:

ومنها

قولهم: بأن الكفار غير مخلّدين في النار.

وهو خلاف إجماع المسلمين، وخلاف ما دلت عليه آيات الكتاب المبين وأخبار الحجج المعصومين.

قال ابن العربي في الفص اليونسي من الفصوص: «وأما أهل النار فمآلهم إلى النعيم، ولكن في النار إذ لا بد لصورة النار بعد انتهاء مدة العقاب أن يكون برداً وسلاماً على من فيها وهذا نعيمهم فنعيم أهل النار بعد استيفاء الحقوق نعيم خليل الله حين ألقي في النار».

قال القيصري: أي ومآل أهل النار إلى النعيم المناسب لأهل الجحيم إما بالخلاص من العذاب أو الالتذاذ به بالتعوّد أو تجلي الحق في صورة اللطف في عين النار كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ولكن ذلك بعد انتهاء مدة العقاب كما جاء ينبت في قعر جهنم الجرجير وما جاء نص بخلود العذاب بل جاء الخلود في النار ولا يلزم منه خلود العذاب.

وقال القيصري أيضاً في شرح الفص الهودي: واعلم أن كل من اكتحلت عينه بنور الحق يعلم أن العالم بأسره عباد الله وليس لهم وجود وصفة وفعل إلا بالله وحوله وقوته، وكلهم محتاجون إلى رحمته وهو الرحمٰن الرحيم ومن شأن من هو موصوف بهذه الصفات أن لا يعذب أحداً عذاباً أبداً وليس ذلك المقدار من العذاب أيضاً إلا لأجل إيصالهم إلى كمالاتهم المقدّرة لهم كما يذهب الذهب والفضة في النار لأجل الخلاص مما يكدره وينقّص عياره، فهو متضمن لعين اللطف والرحمة كما قيل:

وتعذيبكم عدل وسخطكم رضى وقطعكم وصل وجوركم عدل

أقول: فلينظر العاقل إلى هذين الضليلين كيف يخالفان إجماع المسلمين وينبذان آيات الكتاب المبين وراء ظهورهما بآرائهم الفاسدة والاستحسانات الكاسدة ويعتمدان في ذلك على أخبارهم المجعولة وأحاديثهم الموضوعة.

وقد تبعهما في حديثهم المرسل المجعول المتصوف الجامي في (**شرح منتخب الفصوص**) حيث نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أن بعض أهل النار يتلاعبون بالنار»، ونقل عنه صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «سيأتي على جهنم زمان ينبت في قعرها أو من قفرها الجرجير»[1].

وهذه الأحاديث مضافاً إلى مخالفتها لصريح الآيات والروايات المتواترة قد نص في

(١) أنظر نور البراهين: ١/٥٧، واختيار معرفة الرجال: ١/١٥٧.

أخبارنا بأنها مجعولة كاذبة كما نُص على رد ما توهموه من انقطاع العذاب وإنفاد العقاب.

فقد روي عن الكليني في **(الكافي)** بإسناده عن أبي بصير مولى أبي عبد الله عليه السلام عن موفق مولى أبي الحسن عليه السلام قال: كان مولاي أبو الحسن عليه السلام إذا أمر بشراء البقل يأمر بالإكثار منه ومن الجرجير، فيشرى له وكان يقول عليه السلام: ما أحمق بعض الناس يقولون: إنه ينبت في وادي جهنم، والله عز وجل يقول: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٣]، فكيف ينبت البقل؟[١].

وروى عن البرقي في **(المحاسن)** عن العبيدي عن الأهوازي عن النضر بن سويد عن درست عن الأحول عن حمران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنما بلغنا أنه يأتي على جهنم حين يصطفق أبوابها فقال: لا والله إنه الخلود، قلت: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، فقال عليه السلام: هذه في الذين يخرجون من النار[٢].

وأما ما قاله القيصري: من أنه ما جاء نص بخلود العذاب بل جاء الخلود في النار ولا يلزم منه خلود العذاب فناشيء من جهله بآيات الكتاب، فقد قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وأمثال هذه الآية كثيرة في القرآن غير عزيزة.

وهل هذه الدعوى الباطلة والمقالة الفاسدة في مقابلة النصوص الصريحة المستفيضة بل المتواترة إلا الملاعبة بالدين والتكذيب للأنبياء والمرسلين.

وأعظم من ذلك جرأتهم على تأويل الآيات الواردة في النقمة والعقاب للكفار وأهل العذاب بالرحمة والثواب، مثل ما تمحّله ابن العربي في الفص الهودي في الآيات الواردة في عاد قوم هود وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤ـ ٢٥]، قال ما لفظه:

«ألا ترى عاداً قوم هود كيف قالوا هذا عارض ممطرنا فظنوا خيراً بالله».

قال القيصري: أي ألا ترى أن قوم هود كيف قالوا لما تجلى عليهم الحق في صورة السحاب: إن هذا عارض، أي سحاب ممطرنا وينفعنا فظنوا أن الله تجلى لهم بالحق والرحمة «وهو عند ظن عبده به فأضرب له الحق عن هذا القول فأخبرهم بما هو أتم وأعلى في القرب» أي أضرب بقوله: بل هو ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤] أي هو مطلوبكم

(١) جواهر الكلام: ٣٦/٥٠١، ومحاسن البرقي: ٢/٥١٨.

(٢) البحار: ٨/٣٤٦.

الذي يوصلكم إلى كمالكم ويعطيكم الخلاص من أنياتكم ويخرجكم من عالم التضاد والظلمة إلى عالم الوفاق والرحمة.

وإنما كان هذا المعنى أتم وأعلى «فإنه إذا أمطرهم فذلك حظ الأرض وسقى الحبة المزروعة فيها «فما يصلون إلى نتيجة ذلك المطر إلا عن بعد لأن المطر إذا سقى الحبة المزروعة لا بد أن يمضي عليها زمان طويل ومدة كثيرة حتى تحصل نتيجته ويحصل منها الغذاء الجسماني وهو من حظوظ أنفسهم المبعّدة لهم عن الحق وهذا الإهلاك يوصلهم في الحال إلى ربهم ويقرّبهم منه، فقال لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] وإنما كان استعجالهم في وصولهم إلى كمالهم وقربهم من غاية مرتبتهم.

ولما كان هذا المطلوب لا يمكن إلا بفنائهم في الحق أهلكهم الله عن أنفسهم وأفناهم عن هياكلهم وهي أبدانهم الجسمانية الحاجبة لهم عن إدراك الحقائق «فجعل» أي الحق «الريح إشارة إلى ما فيها من الراحة فإن بهذه الريح أراحهم من هذه الهياكل المظلمة والمسالك الوعرة وفي هذه الريح عذاب أي أمر يستعذبونه إذا ذاقوه إلا أنه يوجعهم لفرقة المألوفات» أي الريح المهلكة وإن كانت في الظاهر مؤلمة موجعة لهم لإخراجهم عن العالم الجسماني المتألّفة قلوبهم به لكن فيها لطف مستور، لأن في كل قهر لله تعالى ألطافاً خفية يستعذبونه إذا وصلوا إليه عقيب الوجع «فباشرهم العذاب» أي أهلكهم «فكان الأمر إليهم أقرب مما تخيلوه» أي الأمر الذي كان مطلوبهم بالحقيقة كان أقرب إليهم من المطلوب المتخيل لهم وهو ما يحصل من المزروعات «فدمرت كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يروا إلا مساكنهم أي جثثهم التي عمرتها أرواحهم الحقية».

ومحصل كلامهما أن قوم هود عليه السلام مع العتوّ والكفر والإنكار لم يكونوا من المعذّبين بل صاروا بذلك من المقرّبين المنعمين وأوصلهم الكفر والضلال إلى درجة الفضل والكمال، واستحقوا بالجحود عظيم الزلفى وحسن المآل.

والآيات وإن كانت ظاهرة في الإهلاك والتعذيب لكن الظواهر غير مرادة بل المراد معنى آخر يعرفه أهل الكشف والشهود لا أهل الحجاب.

وهو أن الريح في الآية مأخوذة من الروح والراحة والعذاب من العذوبة والحلاوة والغرض من إهلاكهم بالريح التعجيل في إراحتهم من العلائق البدنية وإخراجهم من الهياكل الجسمانية وإيصالهم إلى مرتبة القرب والزلفى والبقاء بالفناء، وقد أعطاهم الله خيراً مما يرجون وأفضل مما يأملون، فإنهم لما رأوه عارضاً ممطراً حسبوا أنه ينزل منه المطر ينتفع به ويسقى به الحرث والزرع فقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم﴾، أي ليس هذا ما ذهبت إليه ظنونكم بل هو خير منه، فإن العارض الممطر فيه منفعة مؤجلة دنيوية، وفي الريح منفعة

معجلة أخروية والأُولى قليلة فانية والأخرى كثيرة باقية هذا حاصل مراد هذين الملحدين.

أقول: يا أهل المروة والإنصاف المجانبين للهوى والاعتساف، أنشدكم بالله العظيم هل يرتضي ذو شعور أن يكون مراده تعالى من تلك الآيات ما قاله هذا الجاهل الزنيم؟.

ثم أقول: يا قائد الجهال وقطب أهل الضلال هب أنك خالفت إجماع المسلمين بل إتفاق جميع المليين ونابذت آيات الكتاب المبين في مسألة تخليد الكفار والمشركين، وزعمت عدم كونهم في النار مخلدين معذبين، فهلا استحييت من الله رب العالمين أن جعلت آيات كتابه لعبة اللاعبين ومسخرة المستهزئين؟! فما أقل حياؤك في هتك ناموس الإسلام، وأعظم جرأتك في هدم أساس ملّة سيّد الأنام.

أفيجوّز الجاهل السفيه فضلاً عن العاقل النبيه أن مراد الحق من هذه الآيات الشريفة هذه التأويلات السخيفة؟ أم يتوهم أن هذه الألفاظ والكلمات قوالب تلك المعاني الترهات؟ أفيبقى بعد البناء على أمثال هذه المزخرفات اعتماد بالكتاب عند الضرورة والاحتياج؟ أو يمكن به الاستدلال في الأصول والفروع في مقام الاحتجاج؟.

ثم كيف يزعم من دان بكلمة الإسلام أن قوم عادٍ وثمود وقوم نوحٍ ولوط أقرب إلى الله من المؤمنين الموحّدين؟، حيث عجل في إفناء الأولين إيصالاً لهم إلى مراتب الزلفى وحبس الآخرين في سجن الدنيا، وحرمهم من تلك النعمة العظمى حاشا ثم حاشا.

والعجب مع هذا كله أنه اشتبه في حق نفسه وزعم أنه محيي الدين وخاتم ولاية المحمديين، ولعمري أنه ماحي الدين بل مبطل أساس جميع شرائع النبيين.

ثم العجب من القيصري فإنه بعد ذكر ما قدمناه قال: والشيخ - يعني ابن العربي - إنما يشير في أمثال هذه المواضع إلى ما فيها من الرحمة الحقانية، وهي من المطلعات المدركة بالكشف، لا أنه ينكر وجود العذاب وما جاء به الرسل من أحوال جهنم فإن من يبصر بعينه أنواع التعذيب في النشأة الدنياوية بسبب الأعمال القبيحة كيف ينكره في النشأة الأخروية وهو من أكبر ورثة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، فلا ينبغي أن يسيىء أحد ظنه في الأولياء الكاشفين لأسرار الحق بأمره، انتهى.

أقول: هذا مقام أن يقال:

يا ناعي الإسلام قم فانعه قد مات عرف وبدا المنكر

فإنك خبير بأنه مع هذا الإصرار المؤكد كله من الشيخ في نشر كلمات الضلال، لم يبق للحمل على الصحة مجال، فهذا ليس موضع سوء الظن بل مقام علم اليقين، وكيف يكون المكذّب للأنبياء والمرسلين من أكبر ورثة النبيين؟ أم كيف يكون حامي الكفار والمشركين من

الأولياء الكاشفين؟ لعن الله المضلين والمبطلين، وعذّبهم عذاباً لا يعذّبه أحداً من العالمين.

وأعظم من ذلك ما قالاه في حق أشقى الأولين والآخرين المعارض الصريح في سلطان رب العالمين، المعلن بقول: أنا ربكم الأعلى في قبال ديّان الدين أعني فرعون المتمرد عن طاعة الرحمٰن المتمادي في العتوّ والكفر والطغيان، حيث قالا: إنه تاب فطاب وندم وأناب وطهر وصار من أهل الإيمان مع أن كونه من المخلّدين نص آيات الكتاب المبين، وكونه من أهل التابوت وأشد الناس عذاباً صريح أخبار سيد المرسلين، وسقوط إيمانه من درجة الاعتبار مفاد: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١].

فيا لله ما أجرأ هذين الضالين على الله، وكأين لهما من يد طولى في تغيير معاني كتاب الله وتأويل الآيات البينات على المذاهب الفاسدة، وتطبيق النصوص المحكمات بالمقالات الباطلة.

فقد قالا في الفص الموسوي وشرحه: «فقالت لفرعون في حق موسى أنه قرّة عين لي ولك فيه» أي في موسى «قرّة عينها بالكمال الذي حصل لها وكان قرّة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق» وذلك لأن الحق تكلم بلسانها من غير اختيارها وأخبر بأنه قرّة عين لها ولفرعون فوجب أن يكون كذلك في نفس الأمر «فقبضه» أي الحق «طاهراً مطهراً ليس فيه شيء من الخبث لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام والإسلام يجبّ ما قبله وجعله آية على عنايته سبحانه بمن شاء حتى لا ييأس أحد من رحمة الله فإنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون فلو كان فرعون ممن ييأس ما بادر إلى الإيمان».

قال الشارح: لما كان إيمان فرعون في البحر حيث رأى طريقاً واضحاً عبر عليه بنو إسرائيل قبل التغرغر وقبل ظهور أحكام الدار الآخرة مما يشاهدونه عند الغرغرة، جعل إيمانه صحيحاً معتدّاً به، فإنه إيمان بالغيب لأنه كان قبل الغرغرة وهو بعينه كإيمان من يؤمن عند القتل من الكفار؛ وهو صحيح من غير خلاف وإنما كان إيمان المتغرغر غير صحيح لظهور أحكام الدار الآخرة له من النعيم والجحيم والثواب والعقاب، وجعله طاهراً مطهراً من الخبث الاعتقادي أي من الشرك ودعوى الربوبية لأن الإسلام يجبّ ما قبله كما ورد في الخبر الصحيح، ولم يكتسب بعد الإيمان شيئاً من الآثام والعصيان، وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾، نوع من العتاب عند التوجه إلى الحق والإيمان به، وهو لا ينافي صحة إيمانه، إلى أن قال بعد تأويل جملة من الآيات الدالة على خلوده وتعذيبه على زعمه الفاسد:

وفائدة إيمانه على تقدير التعذيب عدم الخلود في النار، والتعذيب بالمظالم وحقوق

العباد مما لا يرتفع بالإسلام لا ينافي أيضاً الإسلام والطهارة من الشرك وخبث العقيدة، فلا ينكر على الشيخ ما قاله مع أنه مأمور بهذا القول إذ جميع ما في الكتاب مسطور بأمر الرسول ﷺ فهو معذور كما أن المنكر المغرور معذور، وقوله: وجعله آية على عنايته، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، وهذا أيضاً صريح في نجاته لأن الكاف خطاب له أي ننجيك مع بدنك من العذاب لوجود الإيمان الصادر منك بعد العصيان، والله أعلم بالسرائر من كل مؤمن وكافر، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

ويتوجه عليهما وجوه من الكلام وضروب من الملام:

الأول: أن قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، لا دلالة فيه على المدعي، لأنها إنما قالت ذلك من جهة أنه لم يكن له ولد فأطمعته في الولد بهذا الكلام، مع أن المروي عن ابن عباس في تفسير الآية نقض صريح لقول ابن العربي.

فقد روى في **(مجمع البيان)** وغيره أن أصحاب فرعون لما علموا بموسى جاؤوا ليقتلوه فمنعتهم، وقالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: ٩]، قال فرعون: قرّة عين لك، فأما لي فلا، قال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلف به لو أقرّ فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه به كما هداها، ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه»[١].

الثاني: إن كفر فرعون محقق وإيمانه لم يقم عليه دليل بل الدليل إنما قام على عدمه، وذلك لأنه إنما آمن حيث لم ينفعه الإيمان لكونه إيمان إلجاء لا يستحق به الثواب ولا ينجيه من العقاب لوقوعه حال الغرق وعند الإياس من الحياة واليقين بالهلاك كما يشهد به قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فأنكره عزَّ وجل عليه وقال: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١] أي أتؤمن الآن حين لا ينفع الإيمان ولا يُقبل، لأنه حال الإلجاء وقد عصيت بترك الإيمان في حال ينفعك فهلا آمنت قبل ذلك؟، فلو كان إيمانه صحيحاً مقبولاً لما استحقّ التوبيخ والتقريع والإنكار.

ويشهد بذلك صريحاً ـ أي بعدم منفعة الإيمان في تلك الحال ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤ـ ٨٥].

---

(١) السنن الكبرى: ٦/ ٣٩٧، وتفسير مجمع البيان: ٧/ ٤١٨.

روى في (**الصافي**) من (**العيون**) عن الرضا عليه السلام أنه سئل: لأي علة أغرق الله فرعون وقد آمن به وأقرّ بتوحيده؟ قال عليه السلام: لأنه آمن عند رؤية البأس، والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول، وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف والخلف، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآيتين[(١)].

وفيه من (**الكافي**) قدّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة فأراد أن يقيم عليه الحد فأسلم، فقيل: قد هدم إيمانه شركه وفعله، وقيل: يضرب ثلاثة حدود، وقيل غير ذلك، فأرسل المتوكل إلى الهادي عليه السلام وسأله عن ذلك، فكتب عليه السلام: يضرب حتى يموت، فأنكروا ذلك وقالوا: هذا شيء لم ينطق به كتاب ولم تجيء به سنّة. فسألوه ثانياً البيان فكتب هاتين الآيتين بعد البسملة، فأمر المتوكل فضرب حتى مات[(٢)].

وبهذا الحديث علم أيضاً أن إيمان الكافر حين القتل ليس بصحيح مطلقاً كما قاله القيصري، وإنما يصح إيمان من أُريد قتله لأجل كفره مثل الكافر الحربي فإنه لو آمن حين القتل قبل إيمانه ويدرء عنه القتل بسبب الإيمان.

الثالث: إن قوله: حتى لا ييأس أحد من رحمة الله فإنه لا ييأس أحد من رحمة الله إلا القوم الكافرون، فيه أن الفرعون داخل في المستثنى أعني الكافرون الآيسين، لا في المستثنى منه كما يدل عليه صريح قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤٠-٤٢]، أي أردفناهم لعنة بعد لعنة وهي البعد عن الرحمة والخيرات.

وبالجملة رحمة الله سبحانه قريبة من المحسنين دون الكافرين، وهو سبحانه أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة، وأعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة.

الرابع: أن قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢] الآية، ليس المراد بالنجاة فيه النجاة من العذاب كما زعمه القيصري، ولا من كونه آية أنه آية عنايته كما توهمه ابن العربي، بل معناه: نلقيك على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع ليراك بنو إسرائيل لتكون لمن وراءك وهم بنو إسرائيل آية أي علامة يظهر لهم عبوديتك ومهانتك، وأن ما كنت تدّعيه من الربوبية محال وكان في أنفسهم أن فرعون أجلّ شأناً من أن يُغرق.

---

(١) علل الشرائع: ١/ ٥٩، وعيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/ ٨٣، وتفسير الصافي: ٢/ ٤١٧.

(٢) الكافي: ٧/ ٢٣٨.

وعن تفسير علي بن إبراهيم أن موسى أخبر بني إسرائيل أن الله قد أغرق فرعون، فلم يصدقوه فأمر الله عزَّ وجل البحر فلفظه به على ساحل البحر حتى رأوه ميتاً.

وفي (الصافي) من (العيون) عن الرضا عليه السلام في حديث غرقه وقد كان فرعون من قرنه إلى قدمه في الحديد وقد لبسه على بدنه، فلما غرق ألقاه الله تعالى على نجوة على الأرض ببدنه ليكون لمن بعده علامة فيرونه مع تثقله بالحديد على مرتفع من الأرض، وسبيل الثقيل أن يرسب ولا يرتفع فكان ذلك آية وعلامة ـ إلى أن قال ـ ولئلا يشك أحد في إهلاكه أنهم كانوا قوماً اتخذوه ربّاً فأراهم الله عز وجل إياه جيفة ملقاة بالساحل ليكون لمن خلفه عبرة وعظة، هذا[١].

والعجب من القيصري، فإنه بعد مشاهدته لهذا الخبط العظيم كله من ابن العربي لم يرفع يده عن العصبية له ويقول: إنه مأمور بهذا القول من جانب الرسول صلى الله عليه وآله كما أنه مأمور من جانبه بجميع ما يقوله في الفصوص فهو معذور.

أقول: ولقائل أن يقول له: يا أحمق الرجال ومفتن الجهال أيأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بنشر الإفك والضلال؟ أفهذا من أسرار الرب المتعال؟ أم يأذن بتحريف آيات القرآن والعصبية في حق فرعون وهامان أهذا من مقتضيات رحمة الرحمٰن؟ لا والله بل هو من أمنيات الشيطان، وكيف يسوغ عبادة يغوث ويعوق واللاّة والعزّى بزعم أن عبادتها عين عبادة العلي الأعلى وإن الحق تعالى فيها تجلى؟! إن هذا إلا اختلاق وافتراء، وقد نطق الكتاب المبين على رغم ابن العربي ماحي الدين ورغم سائر الصوفيين القائلين بوحدة الوجود بأن عبادته يحصل لعبادة كل معبود: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

أبقي بعد هذا التفكيك الصريح، والبيان الفصيح، والتبيان النصيح ريب في بطلان القول بالوحدة والاتحاد أو معتذر للقائلين به في عتبى ربّ العباد أم لا؟ فأنى يؤفكون أم أين يصرفون؟ تعالى الله عما يقول الظالمون، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلّ الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين، هذا.

ولنعد إلى ما كنا فيه من مسألة تعذيب الكفار وخلودهم في النار، فأقول:

إن ما ذهب إليه ابن العربي من نفيه العذاب في حق قوم عاد وفرعون ذي الأوتاد وسائر الكفار والمشركين مبني على أصل فاسد أسسه في الفص الإسماعيلي، وهو أن خلف الوعد

---

(١) دعائم الإسلام: ١/٢٣٦، وتفسير القمي: ١/٣١٦.

من الله غير جائز بخلاف خلف الوعيد، قال:

«الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد والحضرة الإلٰهية تطلب الثناء بالذات المحمودة فيثني عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل التجاوز فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ولم يقل وعيده بل قال: ويتجاوز عن سيئاتهم مع أنه توعد على ذلك فأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد وقد زال الإمكان في حق الحق لما فيه من طلب المرجّح».

قال القيصري: أي قد زال في حق الحق إمكان وقوع الوعيد إذ لا شك أن الحق تعالى وعد بالتجاوز فقال: ويتجاوز عن سيئاتهم، وقال: إن الله يغفر الذنوب جميعاً، وقال: ويعفو عن كثير من السيئات وأمثال ذلك، ووقوع وعده واجب وهو التجاوز والعفو والغفران، فزال إمكان وقوع الوعيد، لأن وقوع أحد طرفي الممكن لا يمكن إلا بمرجّح، ومن ثُم ما يطلب الوعيد إلا الذنب، وهو يرتفع بالتجاوز فزال سبب وقوع الوعيد وعدمُ العلة موجب لعدم المعلول:

فلم يبق إلا صادق الوعد وعده ... وما لوعيد الحق عين تعاين

أي إذا زال سبب الوعيد فلم يبق إلا تحقق وعده وحده، لأنه صادق في وعده وما بقي لوعيد الحق عين تعاين على البناء للمفعول لزوالها بالمغفرة والعفو في حق العاصين، وأما في حق الكافرين والمنافقين لانقلاب عذابهم بنعيهم يناسبهم كما قال:

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد فالأمر واحد ... وبينهما عند التجلي تباين

أي مباين لنعيم جنات الخلد، قوله: فالأمر واحد، إشارة إلى أن التجلي الإلٰهي على السعداء والأشقياء ليس إلا واحداً، والتباين إنما يقع بحسب القوابل، وكل منها يأخذ بحسب استعداده وقابلِيته كماء واحد نزل من السماء فصار في موضع سكراً وفي موضع حنظلاً.

يسمّى عذاباً من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صائن

أي يسمى ذلك النعيم الذي لأهل الشقاء عذاباً لعذوبة طعمه بالنسبة إليهم فإن العذاب مأخوذ من العذب في الأصل، وذاك أي لفظ العذاب له أي للعذب كالقشر والقشر صائن له من الآفات، فلفظ العذاب يصون معناه عن إدراك المحجوبين الغافلين عن حقائق الأشياء، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

ومحصل ما استدلا به وجوه:

الأول: إن الله سبحانه يحمد ويثني بالعفو والغفران لا بالتعذيب والانتقام، وهو طالب للحمد والثناء، فيجب الصدق في الوعد بالثواب لا الوعيد بالعقاب.

الثاني: إن الله تعالى قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، ولم يقل: ووعيده، فالخلف في الوعيد جائز.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٦]، فلا بد من وقوع التجاوز عن السيئات لأنه وعد الصدق، وليس بمخلف وعده.

الرابع: أنه إذا كان التجاوز عن السيئات والذنوب لازم الوقوع فلا يمكن وقوع الوعيد لأن بقاء المعلول من دون علته محال، وقد كانت علة الذنوب ارتفعت بالتجاوز.

أقول: وأنت خبير بأن هذا كله مما نسجه عدو الله الشيطان اللعين على لسان وليه عدو رسول الله ماحي الدين، إغراءً للكفار على الكفر والعدوان، وللعصاة على التمرد والعصيان كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

ويبطل ما ذكره كله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المائة والخامسة والسبعين: ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور لا يُطلب، فأما الظلم الذي لا يُغفر فالشرك بالله، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وأما الظلم الذي يُغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأما الظلم الذي لا يُترك فظلم العباد بعضهم بعضاً[1].

فإن هذه الآية والحديث يخصان التجاوز عن السيئات في الآية السابقة بالمؤمنين وبغير مظالم العباد، فتبقى الوعيدات الواردة في حق الكفار وفي حقوق الناس على حالها لعدم ارتفاع عللها.

ويستفاد هذا التخصيص من صدر الآية السابقة أيضاً، فإن قوله تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٦]، يدل على أن المراد بالآية المؤمنون خاصة، إذ الكافر ليس له عمل صالح حسن مقبول.

وأيضاً لو أبقينا التجاوز عن السيئات على عمومه لكانت الوعيدات الإلٰهية كلها لغواً وعبثاً، لاستحالة وقوعها بعد ارتفاع عللها، بل يلزم أن يكون الله سبحانه في أخباره المتضمنة للوعيد كاذباً، ومن أصدق من الله قيلاً، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(١) البحار: ٧/ ٢٧١، ونهج البلاغة: ٢/ ٩٥ (محمد عبده).

ثم إن صدور أمثال هذه المقالات من هذه الطائفة وقبول أمثالهم تلك الخيالات منهم صار سبباً لغلط أعظم من غلطهم المتقدم، وهو إثباتهم للمتصلبين من الكفار مزية وفضيلة بقدر تصلبه وإصراره على الكفر والجهالة حتى أن بعضهم سمى إبليس رئيس الموحدين، مثل أحمد الغزالي فقد قال الشارح المعتزلي في شرح الفصل الثاني عشر من الخطبة الأولى: وكان في المسلمين ممن يرمي بالزندقة من ذهب إلى تصويب إبليس في الامتناع من السجود ويفضّله على آدم عليه السلام وهو بشار بن مرو والبرغث، ومن الشعر المنسوب إليه:

النار مشرقة والأرض مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار

وكان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ أخو أبي حامد الغزالي الفقيه الشافعي قاصّاً لطيفاً وواعظاً مفوّهاً، وهو من خراسان من مدينة طوس، وقدم إلى بغداد ووعظ بها وسلك في وعظه مسلكاً منكراً، لأنه كان يتعصب لإبليس ويقول: إنه سيد الموحدين.

وقال يوماً على المنبر: من لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق أمر أن يسجد لغير سيده فأبى.

ولست بضارع إلا إليكم وأما غيركم حاشا وكلا

وقال مرة أخرى لما قال له موسى عليه السلام: أرني، فقال: لن، قال: هذا شغلك تصطفي آدم ثم تسوّد وجهه وتخرجه من الجنة وتدعوني إلى الطور ثم تشمت بي الأعداء هذا عملك بالأحباب فكيف تصنع بالأعداء؟

وقال مرة أخرى وقد ذكر إبليس على المنبر: لم يدر ذلك المسكين أن أظافير القضاء إذا حكّت أدمت، وأن أقسى القدر إذا رمت أصمّت، ثم قال لسان حال آدم عليه السلام ينشد في قصته وقصة إبليس:

وكنت دليلي في صعود من الهوى فلما توافينا ثبتّ وزلت

وقال مرة أخرى: التقى موسى وإبليس عند عقبة الطور فقال موسى: يا إبليس لما لم تسجد لآدم عليه السلام؟ فقال: كلا ما كنت لأسجد لبشر، كيف أوحّده ثم ألتفت إلى غيره، ولكنك أنت يا موسى سألت رؤيته ثم نظرت إلى الجبل فأنا أصدق منك في التوحيد.

وكان هذا النمط من كلامه ينفق على أهل بغداد، وصار له بينهم صيت مشهور واسم كبير.

وحكى ابن الجوزي في **(التاريخ)** أنه قال على المنبر: معاشر المسلمين، كنت دائماً أدعوكم إلى الله وأنا اليوم أحذركم منه، والله ما شدّت الزنانير إلا في حبه ولا أديت الجزية إلا

في عشقه[١].

وقال أيضاً: إن رجلاً يهودياً دخل عليه ليسلم على يده، فقال له: لا تسلم، فقال له الناس: كيف يمنعهم من الإسلام؟ فقال: احملوه إلى أبي حامد - يعني أخاه - ليعلمه، لا إلى المنافقين. ثم قال: ويحكم أتظنون أن قوله لا إله إلا الله منشور ولايته ذا منشور عزله، وهذا نوع يعرّفه الصوفية بالغلوّ والشطح.

ويروى عن أبي يزيد البسطامي منه كثير، فمما يتعلق بقصة إبليس ما رووه بعض من مردته عنه من قوله:

فمن آدم في البين ومن إبليس لولاكا فتنت الكل والكل مع الفتنة يهواكا[٢]

انتهى.

وقال عبد الرزاق الكاشي في شرح الفص النوحي من الفصوص: كلما كان المدعو أصلب في دينه وأشد إباء للداعي إلى ضد مقامه كان أشد طاعة وقبولاً لأمر ربه وحكمه، حتى أن إباء إبليس عن السجود وعصيانه واستكباره بحسب ظاهر الأمر عين سجوده وطاعته وخدمته وتواضع لربه باعتبار الإدارة؛ انتهى.

ونقل بعضهم عن سهل بن عبد الله التستري من مشاهير مشايخهم أنه رأى إبليس فتكلم معه ووبّخه على عدم إطاعته في سجدة آدم وإبعاد نفسه عن تناول الرحمة، فقال له إبليس: كيف تبعدني عن رحمته؟ هلاّ قرأت في القرآن: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؟ [الأعراف: ١٥٦] وأنا داخل في كل شيء فرحمته تسعني بمقتضى وعده، فأفحم الشيخ بذلك فسكت وفارقه ثم رجع إلى القرآن فوجد الآية مقيدة بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فدخلت الحسرة عليه بعدم تذكّر هذا القيد حتى يجيبه ويلزمه به، وكان يتمنى أن يراه مرة أخرى، فاتفق ذلك واستبشر برؤيته فقال له: إن الآية التي تمسّكت بها مقيدة بقيد، فقرأ تمام الآية وظن أنه غلب عليه وأفحمه بالحجة من أجل خروجه بالقيد، فضحك إبليس ونظر إليه نظرة تعجب من عقله وعرفانه وقال له: إن ثقتي بعرفانك كانت أكثر من ذلك، قال الشيخ: وكيف؟ قال إبليس اللعين: إني كنت معتقداً بمعرفتك بأنه ليس في طرف الحق قيد بل هناك الإطلاق كله وإنما التقييد من جهتك فتبين لي خلاف اعتقادي في حقك، فاعترف الشيخ بغلطه واعتذر منه لما رأى أنه يتكلم على اصطلاحهم ويستعمل الألفاظ الدائرة بينهم، وعلم أنه أعرف بمقاصدهم ومطالبهم منه[٣].

---

(١) نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/١٠٨. (٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ونقل عن المتصوف الجامي في بعض حواشيه على كتاب (**نقد النصوص في شرح نقش الفصوص**) نقل هذه القصة بوجه إجمالي:

قال: إن سهلاً التستري رأى إبليس فقال له: هل ترجو رحمة من عند الله؟ قال: نعم، لأن رحمته وسعت كل شيء، فقال سهل: لكنه قيّدها بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، الآية، فقال إبليس: مه يا سهل فإن التقييد صفتك لا صفته، انتهى.

وأعجب من هذه أن الجامي قد نظم في مبحثه مباحثة بين موسى ﷺ وبين إبليس من هذا القبيل.

پور عمران بدل آن غرقة نور ... ميشد از بهرمناجات بطور
ديد در راه سر دوران را ... قائد لشكر مهجوران را
گفت گزسجدة آدم بچه روى ... تافتى روي رضا رات بگوى
گفت عاشق كه بوه كامل سير ... پيش جانان نبرد سجدة غير
گفت موسى كه بفر مودة دوست ... سر نهد هر كه بجان بندة اوست
گفت مقصود از آن گفت وشنود ... امتحان است محب رانه سجود
گفت موسى كه اگرحال اينست ... لعن وطعن تو چراش آيين است
برتو چون از غضب سلطانى ... شد لباس ملكى شيطامى
گفت كاين هردو صفت عاريتند ... مانده از ذات بيك ناحيتند
گر بيايد صد از اين يا برود ... حال ذاتم متغيّر نشود
ذات من بر صفت خويشتن است ... عشق او لازمة ذات منست
تاكنون عشق من آميخته بود ... در غرضهاى من آويخته بود
داشت بخت سيه وروز سفيد ... هر دمم دست خوش بيم اميد
ايندم از كشمكش آن رستم ... پس زانوى وفا بنشتم
لطف وقهرم همه يگرنك شده ... كوه وكاهم همه همنسك شده
عشق شست از دل من نقش هوس ... عشق با عشق همى بازم ربس

وترجمة ما نظمه: أن موسى بن عمران ذهب إلى الطور للمناجاة فرئي له إبليس اللعين في أثناء الطريق، فقال ﷺ له: لم أبيت عن السجدة لآدم أجبني صدقاً؟ قال إبليس: العاشق الكامل في السير والسلوك لا يسجد غير معشوقه، فقال ﷺ: نعم ولكن العاشق الصادق يطيع معشوقه في كل ما يأمر ويريد، قال إبليس: لم يكن المطلوب بالذات من الأمر إلا

الامتحان لا السجود، فقال عليه السلام: لو كان الأمر على ما زعمت لم صرت رجيماً واستوجبت اللعن والطرد والإبعاد؟ ولم انتزعت منك كسوة الملكية وتلبست بلباس الشيطنة؟ قال إبليس: كل من هذين الوصفين لباس العارية لا مدخلية لهما في اتحاد الذات والتغير في الصفات بالغة ما بلغت لا يوجب التغيّر في الذات والذات باقية بحالها في جميع الصور المتبدّلة وعشقه لازم لذاتي وكان عشقي غير ممحض وأمري دائراً بين الخوف والرجاء حتى إذ أبيت السجود تمحضت في مقام التوحيد وعبودية المعبود، فلم يبق فرق بالنسبة إليّ بين القهر والرحمة ولا بين الجحيم والجنة.

أقول: الظاهر أن راوي هذه المناظرة هو نفس إبليس اللعين رواها لأوليائه المتصوفين وأثبت فيه غلبته على موسى عليه السلام وتسليم موسى عليه السلام له كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

ويظهر من ولعهم بروايته ونظمهم له في أشعارهم ابتهاجهم بتلك المحاجة وامتنانهم من إبليس، لكونه صوفيّ المذاق، بل يظهر من ذلك أن أصل المؤسس لمذهبهم هو إبليس حيث أسس الأصل في مسألة وحدة الوجود فأوحى بذلك إلى أوليائه الملحدين فأطاعوه واتّخذوه لهم ديناً وجعلوا أنفسهم للشيطان قريناً فساء قريناً، لعن الله الضالين والمضلين والهادين والمهديين والمرادين والمريدين وعذّبهم عذاباً أليماً.

ومنها

قولهم بالجبر كالأشاعرة:

وهو لازم القول بوحدة الوجود، فإن الخلق إذا كان عين الحق وكان سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وجميع جوارحه على زعمهم حسبما عرفت فيما تقدم فيكون جميع ما يصدر منه مستنداً إليه تعالى كما تقدم التصريح بذلك فيما حكيناه عن فصوص ابن العربي من الفص العيسوي، حيث قال هناك في تأويل قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: إن كنت قلته فقد علمته، لأنك أنت القائل في صورتي ومن قال أمراً فقد علم ما قال، وأنت اللسان الذي أتكلم به كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله عن ربه في الخبر الإلٰهي، فقال: «كنت لسانه الذي يتكلم به»، فجعل هويته عين لسان المتكلم، ونسب الكلام إلى عبده، وقد صرّح بمثل ذلك في غير موضع من الفصوص، وتكرر في كلامه وكلام غيره أن لا فاعل إلا هو.

وقال شيخهم الشيخ محمود الشبستري في كتاب (**كلشن راز**):

هر آنكس راكه مذهب غير جبراست نبي فرمود كومانند كبراست

أقول: لما كان مذهبه الجبر فسر الخبر المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وهو قوله صلى الله عليه وآله: «القدرية مجوس هذه الأمة»[١]، بما فسر ولا يخفى أن الجبرية يقولون: إن القدرية هم المفوّضة لإنكارهم قضاء الله وقدره في أفعال العباد، والمفوضة يقولون: إن القدرية هم الجبرية لقولهم بالقضاء الحتم والقدر اللازم في أفعال العباد. والذي يستفاد من عدة أحاديث أنهم المفوضة، ويستفاد من بعض الأخبار أنهم الجبرية، وهو المستفاد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يأتي ذكره في شرح أوائل باب الحكم عند شرح قوله، ومن كلام له عليه السلام لما سأله سائل: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره؟ آه، فإنا إن ساعدنا التوفيق إن شاء الله نروي هناك من **(الكافي)** وغيره عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال بعد إبطال الجبر: تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمٰن وحزب الشيطان وقدرية هذه الأمة ومجوسها[٢].

قال بعض الأفاضل: والجمع بين الأحاديث يقتضي أن يكون الجبرية والمفوضة كلهم قدرية ومجوس هذه الأمة، والمؤمن المحق من قال بالأمر بين الأمرين.

والحاصل أن الصوفية متحدون مع الأشاعرة في القول بالجبر إلا أن مشربهم فيه مختلف، فإن مسلك كل من الطائفتين يخالف مسلك الآخر في ذلك.

قال السيد حيدر بن علي العبيدي الحسيني وهو من صوفية الشيعة كما في **(مجالس المؤمنين)** في محكى كلامه من كتابه المسمى بـ **(جامع الأسرار)** ومن شرحه على الفصوص:

إن بعض الناس توهم أن الأشاعرة الذين نسبوا أفعال العباد حسناً وقبحاً إلى الله والقائلين بأنه لا فاعل إلا هو موافقون في توحيد الأفعال مع أهل الكشف والحال، مع أن ما قاله الأشاعرة خطأ محض، وذلك لأنهم وإن كان بحسب ظاهر كلامهم وعبارتهم يقولون: لا فاعل إلا هو، كما يقوله أهل الكشف ولكن بحسب الباطن والمعنى بينهما بون بعيد، لأن الأشاعرة مختفية في الظلمات محجوبة بالحجاب، مشركة بالشرك الخفي، لأنهم لم يخلصوا بعد من رؤية الغير، ولم يصلوا إلى مرتبة التوحيد الوجودي الذي هو مشاهدة وجود الحق من دون ملاحظة وجود الغير، وأما أهل الكشف والحال فإنهم قد تكلموا بهذا الكلام، وقالوا هذا القول بعد الفناء في الحق والفراغ عن رؤية الخلق قال شاعرهم:

قومي نه زظاهر نه زباطن آكاه   وآنكه زجهالت بضلالت كمراه
مستغرق شركند حقيقت كويند   لا فاعل أصلاً أبداً غير الله

هذا وأنت بعدما عرفت بطلان القول بوحدة الوجود من أصله تعرف بطلان القول

---

(١) شرح أصول الكافي: ٥/ ٤ ح ١، والصراط المستقيم: ٣/ ٦٢.

(٢) الكافي: ١/ ١٥٥ ح ١.

بالجبر الذي يقوله الصوفية، لكون هذه المسألة من فروعات تلك المسألة، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

وأما بطلانه على ما يقوله الأشاعرة فستعرفه بما لا مزيد عليه إن شاء الله تعالى في باب المختار من الحكم إن ساعدنا التوفيق والمجال، ووفقنا الله العزيز المتعال والله هو الموفق والمعين على كل حال.

ومنها

اعتقادهم بأن السالك إذا عبد الله وبلغ إلى مرتبة الوصول واليقين سقطت عنه العبادات ولا يبقى له حاجة إليها لقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]، واليقين عندهم هو العلم والعرفان وعند أهل البيت عليهم السلام اليقين هو الموت.

ويشهد بأن اعتقادهم ذلك ما قاله العلامة الحلي قدس الله روحه في كتاب **(نهج الحق)** حيث قال:

شاهدت جماعة من الصوفية في حضرة مولانا الحسين عليه السلام وقد صلّوا المغرب سوى شخص واحد منهم كان جالساً ولم يصلّ، ثم صلوا بعد ساعة العشاء سوى ذلك الشخص، فسألت بعضهم عن ترك ذلك الشخص لصلاته فقال: وما حاجته هذا إلى الصلاة وقد وصل أيجوز أن يجعل بينه وبين الله حاجباً؟، فقلت: لا، فقال: الصلاة حاجب بين العبد والرب.

قال **(قد)**: فانظر أيها العاقل إلى هؤلاء وعقائدهم في الله تعالى كما تقدم وعبادتهم كما سبق واعتذارهم في ترك الصلاة كما مر، ومع هذا فإنهم عندهم الأبدال، فهؤلاء اسم أجهل الجهال، انتهى كلامه رفع مقامه.

وروى بعض أصحابنا عن ابن أبي جمهور الأحسائي في كتابه الموسوم **(مجلى مرآة المنجي)** قال: قال في أواسط الكتاب المذكور:

من هذا التقرير علم أن التكليف البدني لا يتم بدون التكليف العقلي، وأنه متى خلا منه كان غير صحيح فالتوجه والإقبال ودوام الفكر شرط في صحة العبادة البدنية؛ ولا يكفي حصولها من البدن من دون ذلك التوجه والإقبال المستلزمين لدوام الفكر والحضور المعنوي عند المعبود على ما تحقق عند أهل هذه الطريقة رداً على أهل الظاهر.

وعلم أيضاً أن التوجه والإقبال والحضور المعنوي من دون الأعمال الصورية الظاهرة بالقوى البدني غير كاف، ولا مخرج من عهدة التكليف العقلي، خلافاً للإباحية القائلين بأن العارف الواصل لا يحتاج إلى هذه الصورة الظاهرة لانقطاعه عنها ووصوله إلى ما ورائها، فتكون حاجبة له، وهو عند التحقيق وأهل الله من الأوهام الشيطانية، فإن ملاحظة الصور كما

لا يتم بدون المعاني كذا لا تتم المعاني بدون الصور، والأعمال مظاهر هذه المعاني، فلا يتم حصولها بدون مظاهرها، والمقصود من الوصول ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل فتدبره فإنه به تم هذا الموضع، وما أحسنه من سر لا يطّلع عليه إلا بفكرة صادقة.

وبه ينحلّ ما يرد من الشكوك من جماعة الإباحية كما قد وقع لي مع بعض الإباحية من المباحثة فأجبته بهذا الجواب فانقطع.

وذلك أنه قد ذكر لي وأنا يومئذ مقيم بأرض نجد ببلاد يقال لها: الذّرعية، إن في جبل بها رجلاً منقطعاً عن الناس معتزلاً بنفسه عن مخالطة أحد من بني نوعه وأنه في الأصل رجل من أهل اليمن ورد غريباً وانقطع إلى هذا الجبل.

فجئت إلى موضعه وسلّمت عليه فرد السلام فرأيت رجلاً نبيلاً حسن المنطق عليه أثر الصلاح، فحادثته في فنون العلم فرأيت له ذوقاً جيداً.

فقلت له: ما أحسن ما أنت فيه من هذا الانقطاع إلا أني سمعت أنك لا تصلي الصلاة الشرعية بالصورة الظاهرة التي جاء بها الشرع المحمدي، أفلست على ملّته؟

فقال: بلى، ولكن ما أعمل بهذه الصورة الظاهرة أنها حجاب للواصل مرتبة الحضور المنقطع عن هذه الصور المشاهد الحقّاني الذي لم يفارق باب الملك، أولا تعلم أن الصلاة مشتقة من الصلة وبها يتوصل المحجوب بالصور إذ لاحظ بها القرب المعنوي؟

قلت: بلى.

فقال: فما احتياج الواصل إلى ما به يتوصل إنه قد استغنى بالوصول عن الموصل ويعمل الحاجّ بالراحلة إذا وصل إلى مكة وتمّ نسكه وقصده المجاورة فإنه حينئذ لغني عنها.

فقلت: وأنت من أهل الوصول والاتصال بحضرة ذي الجلال؟

فقال: نعم.

فقلت: على تقدير تسليم وصولك فهل وصولك أتم من وصول نبيك محمد ﷺ؟ وهل اتصالك أعلى من اتصاله؟

فقال: حاشا وكلا، بل الواصل الحقيقي هو لا غيره وبه يتصل الكل وجميع الخاصة وخاصة الخاصة عنه أخذوا مراتبهم ومقاماتهم في النشأتين.

فقلت: فكيف هو مع ذلك الوصول التام والاتصال الكامل لم يترك هذه الصور الظاهرة ولا العبادات الشرعية، بل كان دائم المواظبة عليها شديد العناية بها؟

فقال: إنه ﷺ وصل ورُدّ وأنا وصلت وما رددت.

فعجبت من كلامه وفهمت منه ظاهره وخفي عليّ في باديء الحال باطنه، فقلت: إذاً يلزمك أن تكون أفضل منه إذ لا يشك كل عاقل أن غير المردود أفضل من المردود.

فضحك عن تهافت فهمي عن إدراك ما أراد من معنى الرد.

فقال لي: وهذا منك ضمّ جهل إلى جهل.

فقلت له: أبِنْ لي عن مقصودك وأفهمني مرادك لأقوم لك بالعذر.

فقال: إنه ردّ إلى تكميل الخلق وإيصالهم إلى بارئهم ومنشئهم على الطريقة المرضية لما علم الله فيه من القوة الملكية والنفس القدسية البالغة في حد الكمال إلى مرتبة القدرة على التكميل والإرشاد لهذا الخلق والجمع بين الجانبين، فلا يمنعها الاشتغال بتكميل الخلق عن الحضور بين يديه في أغلب أوقاته وأخذ ما يحتاج إليه الخلق منه، ولا يمنعها الحضور بين يديه والاشتغال بخدمته عن هداية الأنام وتكميلهم لما فيه من القوة الجامعة بين الأمرين، وأنا المسكين لما لم أكن في هذه المرتبة بل ولا قريباً من بعض البعض منها لم أكن من أهل الردّ ولا من المستحقين له، بل شأني ومنتهى ما تقتضيه قوتي لزوم باب الملك والحضور بين يديه والتلقي لنفحاته وإرداته، فأنا في مرتبة قولهم: لو نطق العارف هلك، فهذا معنى قولي: إنه ﷺ وصل وردّ وأنا وصلت وما رددت، لا كما ذهب إليه وهمك الرديء وفهمك القاصر.

ثم قال: فإذا علمت أنه ﷺ من المردودين لتكميل الخلق وإيصالهم إليه بطريق الشريعة والطريقة والحقيقة على مراتبهم لم يحسن منه بل ولم يجز له ترك الصورة الظاهرة، ولا رفض الأعمال البدنية لأنه المقتدى به والمتبوع أثره فصلاته وعباداته لا للتوصل والتقرب بها، لأنه في الحقيقة واصل قريب بل هو الأقرب الذي ليس وراء قربه قرب ولا بعد وصوله وصول، بل لتقتدي به العامة ويتوصل بآثاره وأطواره الخاصة، وأما أنا فلا حاجة لي إلى هذه الصورة لانقطاعي عنها بمشاهدة الحقائق.

فسحرني بكلامه وبهر عقلي بزخارف تقريراته حتى غلب عليّ الوهم أنه محق أو قريب من التحقيق، ثم أيّدني الله بمنّه فرجعت إلى نفسي وثاب إليّ عقلي وقلت له في الحال بلا إمهال: ليس بالوصول ينقطع العمل، ولا لأجله يترك الأوامر الشرعية، فإن ذلك وهم شيطاني مهلك، وخيال إبليسي مرد، بل الوصول عند أهل الوصول ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل.

فسكت وانقطع عن الجواب وبقي ساعة متفكراً ثم قال: يا هذا قد أشغلتني عما أنا فيه فلا تكثر عليّ الكلام ولا تعاودني بشيء من الخطاب. فقم عني عجلاً ودعني وشغلي فما

انقطعت في هذه المفازة إلا خوفاً من أمثالك.

فخرجت عنه وانقطعت حجته وبان عجزه وعلمت أن الوهم المردي هو الذي أهلكه، فعلم أن انقطاع حجج الإباحية إنما يكون بملاحظة هذا السر فلا تغفل عن تدبّره، انتهى.

أقول: يا أهل البصيرة والبصر وأولي الأربة والفكر، انظروا بنظر الدقة والعبر إلى عقيدة هذا الصوفي الذي عن الخلق اعتزل، وبزعمه إلى مقام الزلفى وصل، والحال أنه تاهَ وضلّ، وهو بمعزل عن الحق عزَّ وجل، فليكفك من العيان السماع، ومن الغيب الخبر، فقس على اعتقاده عقيدة من مضى منهم ومن غبر، تعرف بذلك أن من دان بهذه العقيدة كالأنعام، بل أضلّ سبيلاً، فلعن الله المتدين بها بكرة وأصيلا، وعذّبهم عذاباً أليماً وبيلا.

والعجب من ابن أبي الجمهور كيف سلّم لهذا الجاهل هذه الترهات، ولم يردعه من تلك السقطات، ولم يكفّره في أول الأمر ولم يقل: إن دعواك الوصول نفخ بغير ضرم، ومشي بلا قدم، كنت تدعي أنك من المسلمين مع أنك من المشركين، وتزعم أنك على ملّة سيد المرسلين وأنت في تلك الدعوى من المبطلين.

لأن الواجب على المتدين بدين الإسلام، والمستن بسنّة سيد الأنام أن يطيع الله ورسوله وأولياء أمره الكرام، في جميع ما جاء به الكتاب والسنّة من التكاليف والأحكام.

وأعظم تلك التكاليف الصلاة التي هي عمود الدين، ومعراج المؤمنين، وكم من آية متضمنة لخطاب (أقيموا الصلاة)، وكأين من رواية قائمة على وجوب إقامتها في الأوقات الموظفات، بل ضرورة الدين قاضية بعدم جواز تركها في شيء من الحالات، حتى حالة الإشراف على الموت والإياس من الحياة، فما هذا شأنها كيف يمكن سقوطها في حالة الوصول، مع أن الوصول بالمعنى الذي تقول غلط غير مقبول؟.

وبالجملة، فاللازم على ابن أبي الجمهور أن يجيب هذا الجاهل السفيه المعتوه بمجرد اعترافه بأنه من المسلمين بأن وجوب الصلاة في جميع الحالات من ضروريات الدين، فأي دليل دل على سقوطها من الواصلين، بل لما جعلها سيد المرسلين بمنزلة عمود الفسطاط كان تاركها هادماً لفسطاط دينه متردّياً في أسفل السافلين.

ولكنه لما كان صوفي المذاق ولذلك سلك في كتبه مسلك الملاحدة اللئام والمتصوفة العوام أصغى إلى طول مقال هذا الجاهل، وأطال في سؤاله وجوابه بلا طائل، ثم أجاب بمصطلحات الصوفية على مقتضى مذاقه وسليقته، ولم يجبه بالأصول الشرعية الممهدة حسبما أجبناه، لأن الأرواح جنود مجنّدة، وإنما الفيل يألف الفيلا.

فوالله العظيم جل جلاله إن الإباحية من الصوفية بل جميع المدعين للوصول لناكبون

عن طريق السداد، وزائغون عن نهج الرشاد، مستحقون اللعن والطرد والإبعاد، محجوبون عن حضرة رب العباد، ومن أضلّ الله فما له من هاد، ولنكتفي من ذكر عقائدهم الفاسدة بما أوردناه ونعطف عنان القلم إلى ما سواه، فأقول وبالله التوفيق:

أما الأفعال والأعمال التي انحرفوا فيها عن النهج المقررة في الشريعة واستبدّوا فيها بآرائهم الفاسدة وعقولهم السخيفة فأكثر من أن تحصى ولنشر إلى بعضها فأقول:

منها

إعتمادهم على الأحاديث المجهولة وتأويلهم على الأخبار المجعولة كما يظهر ذلك لمن راجع إلى كتبهم؛ بل يجوّز بعضهم الأحاديث الكاذبة مع ما سمعوه من قول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه بين الفريقين: «من كذّب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار» حسبما يأتي في المختار الآتي.

ويشهد بتجويزهم للوضع ما قاله قاضي القضاة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني القاهري الشافعي في شرح رسالة كتبها في علم الدراية وسماها بـ (**نخبة في مصطلح أهل الأثر**) بعدما ذكر بعضاً من القرائن التي يدرك بها الوضع:

والحامل للواضع على الوضع، إما عدم الدين كالزنادقة أو غلبة الجهل كبعض المتعبّدين، أو فرط العصبية كبعض المقلدين، أو اتباع هوى بعض الرؤساء أو الأحزاب بقصد الاشتهار وكل ذلك حرام بإجماع من يعتدّ به.

إلا أن بعض الكرامية وبعض الصوفية نقل عنهم إباحة الوضع في الترغيب والترهيب، وهو خطأ من فاعله نشأ من جهل، لأن الترغيب والترهيب من جملة الأحكام الشرعية واتفقوا على أن تعمد الكذب على النبي ﷺ من الكبائر.

وبالغ أبو محمد الجويني فكفر من تعمّد الكذب على النبي ﷺ، واتفقوا على تحريم رواية الموضوع إلا مقروناً ببيانه لقوله ﷺ: «من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذّابين»، أخرجه مسلم، انتهى[١].

وقال السيد نظام الدين أحمد بن إسحاق من كتاب الأربعين المسمى بـ (**نظام اللآلىء الملاح في الأحاديث العوالي الصحاح**):

لا فرق في تحريم الكذب عليه ﷺ بين ما كان في الأحكام وفيما لا حكم فيه

(١)مواهب الجليل: ٣/ ٣٢٠، وميزان الحكمة: ١/ ٥٤٨ ح ٧٢٢.

كالترغيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك، فكله حرام من أكبر الكبائر وأقبح القبائح بإجماع المسلمين الذين يعتدّ بهم.

خلافاً للكرامية المبتدعة في زعمهم الباطل أنه يجوز وضع الحديث في الترغيب والترهيب، وتابعهم على هذا كثير من الجهلة المنتسبين إلى الزهد، وشبهة زعمهم الباطل أنه جاء في رواية من كذّب عليّ متعمداً ليضلّ به الناس فليتبوّأ مقعده من النار.

وقد أجاب العلماء عنه بأجوبة أحسنها وأخصرها أن قوله: «ليضلّ به الناس» زيادة باطلة باتفاق الحفاظ على إبطالها وأنها لا تعرف صحيحة بحال.

الثاني: جواب أبي جعفر الطحاوي أنها لو صحت لكانت للتأكيد كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

الثالث: أن اللام في: ليضل، ليست لام التعليل بل هي لام الصيرورة، والعاقبة معناه أن عاقبة كذبه ومصيره إلى الإضلال كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨]، ونظائره في القرآن وكلام العرب أكثر من أن تحصى وعلى هذا يكون معناه: فقد يصير أمر كذبه إضلالاً.

ونقل الجامي في (**شرحه**) على منتخب الفصوص: إن سلطان العارفين أبا يزيد البسطامي قال لبعض علماء الرسوم ونقلة الأحكام والآثار والأخبار: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا من الحيّ الذي لا يموت.

أقول: وهذا تعريض منه على المحدثين ورواة أحاديث المعصومين عليهم السلام بل هو تصريح بنقصهم وانحطاط درجتهم سلام الله عليهم.

ونقل مثل ذلك الجزائري في (**الأنوار النعمانية**) قال: وقد كان في زماننا رجل من الصوفية يزعم أنه من علماء الشيعة وكان يخطب أصحابه يوماً فقال وهو على المنبر: إني كتبت الأصول الأربعة ـ يعني (**الكافي**) و (**التهذيب**) و (**الاستبصار**) و (**الفقيه**) ـ وقرأتها وصححتها ولما رأيتها عديمة الفائدة بعتها بدرهم واحد ورميت ذلك الدرهم بالماء، فانظر إلى إيمان هذا الرجل عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

فقد علم بذلك أن الصوفية سنيّاً كانت أو شيعياً لا جريحة لهم في أمر الدين، ولا مبالاة في ملاحظة مدارك الشرع المبين، فتارة يجوّزون وضع الأحاديث، وتارة يعتمدون على الأخبار المرسلة والمجهولة، بل على الموضوعة والمجعولة في إثبات مطالبهم الفاسدة، وثالثة يستخفون الأخبار المعتبرة ويستحقرون رواتها ويستهزؤون لنقلة الأحاديث والأخبار، وذلك كله لبعدهم عن قوانين الشريعة، ومع ذلك يزعمون أنهم وصلوا الحقيقة، والحال أنهم

لم يعرفوا الشريعة فضلاً عن الطريقة والحقيقة.

ومنها

إلتزامهم بكون ورودهم وصدورهم في مقام السير والسلوك بدلالة المرشد زعماً منهم أنه أعرف بطرق السير ومتابعته أسرع في الإيصال والوصول، وذكروا في آداب السالك أنه:

يجب أن يكون كامل الاعتقاد في حق الشيخ بحيث لا يرى أكمل منه في عصره من حيث الإرشاد والتربية والتهذيب والتأديب، إذ لو كان ضعيف الاعتقاد لم يكن له وقع عنده فلا يؤثر فيه أقواله وأفعاله، وكلما كان اعتقاده به أشد كان تأثير أقواله وأفعاله فيه أكيد.

ويجب أيضاً أن يقوم في مقام التسليم والإذعان حتى لو رأى منه منكراً لا ينكره ولا يطعن به عليه ويذكر في ذلك قصة موسى والخضر عليهما السلام.

ويجب أيضاً أن يسلب عن نفسه بكليته الاختيار ويكون مطيعاً له في كل ما يأمر وينهى من الأمور الدنيوية كالأكل والشرب والنوم واللباس والقيام والقعود والحركة والسكون وغيرها، أو الأمور الدينية حتى العبادات المندوبة من الصوم والإفطار والإكثار من النوافل والاقتصار على الفرائض والذكر والتلاوة والمراقبة وغيرها، فلا يقدم على شيء منها إلا بإذنه ولو رأى أنه يكرهها لا يجوز إقدامه عليها.

ويجب أيضاً أن ينتظر ويترصدها يصدر عن لسان الشيخ فيتبعه لكونه واسطة كلام الحق إلى غير ذلك مما ذكروه في آداب السالك.

ومحصل ذلك كله أن يشرب المريد قلبه حب الشيخ ويكون راسخ الاعتقاد في حقه ويأخذ معالم دينه عنه، لأنه صاحب الولاية الجزئية، ومن مجالي الولاية الكلية وللولي أن يكون نافذ التصرف في حق المولّي عليه.

وأول من أسس هذا الأصل الفاسد وادعى لنفسه الولاية وتلقاه أتباعه منه بالقبول هو الرجس الخبيث ابن العربي، فإنه لكونه سنيّاً ضالاً منحرفاً عن أولياء الدين والحجج المعصومين سلام الله عليهم أجمعين ادعى أنه خاتم الأولياء ثم سرى ذلك الوهم الباطل والغلط الفضيح منه إلى الأعقاب حتى جهّال الشيعة المتصوفة فسموا مرشديهم بالأولياء.

وينبغي إشباع الكلام في المقام لأنه مما زلّت فيه أقدام أقوام من العوام فأقول:

زعم ابن العربي ماحي الدين وهادم أساس الشرع المبين أنه خاتم الولاية المحمدية، وقد أشار إلى ذلك في مواضع من «**الفصوص**» و«**الفتوحات**» ولنشر إلى موضع واحد:

قال في «**الفصوص**» في الفص الشيثي: «ولما مثل النبي صلى الله عليه وآله النبوة بالحائط من اللّبن

وقد كمل سوى موضع لبنة واحدة فكان ﷺ تلك اللّبنة غير أنه لا يراها إلا كما قال لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا فيرى ما مثّله به رسول الله ﷺ، ويرى في الحائط موضع لبنتين واللبنتان من ذهب وفضة فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل الحائط بهما لبنة ذهب ولبنة فضة فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين فيكمل الحائط».

قال القيصري: أي لما مثل خاتم الرسل النبوة بالحائط ورأى نفسه تنطبع فيه لا بد أن يرى خاتم الولاية نفسه كذلك لما بينهما من المناسبة والاشتراك في مقام الولاية.

«والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر وهو» أي كونه تابعاً «موضع اللبنة الفضية وهو ظاهر وما يتبعه فيه من الأحكام» أي موضع اللبنة الفضية صورة متابعة خاتم الأولياء لخاتم الرسل عن الأحكام وصورة ما يتبعه فيه وانطباعه موضع اللبنة يكمل المتابعة ولا يبقى بعده متابع آخر كما لا يبقى بعده وليّ آخر.

«كما هو آخذ عن الله في السر ما هو بصورة الظاهر متبع فيه» أي خاتم الولاية تابع للشرع ظاهراً كما أنه آخذ عن الله باطناً لما هو متبع فيه للصورة الظاهرة «لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراها هكذا» أي لأنه مطلع على ما في العلم من الأحكام الإلٰهية ومشاهد له وإلا لم يكن خاتماً «وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن» أي كونه رائياً للأمر الإلٰهي على ما هو عليه في الغيب هو موضع اللبنة الذهبية «فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول» وهو الحق تعالى، هذا.

ونقل القيصري عنه في شرح هذا الفص أنه قال في **(فتوحاته)**:

أنه رأى حائطاً من ذهب وفضة وقد كمل إلا موضع لبنتين إحداهما من فضة والأخرى من ذهب، فانطبع موضع تلك اللبنتين وقال فيه: وأنا لا أشك أني أنا الرائي ولا أشك أني أنا المنطبع موضعهما وبي كمّل الحائط، ثم عبرت الرؤيا بانختام الولاية بي وذكرت المنام للمشايخ الذين كنت في عصرهم وما قلت من الرائي فعبروا بما عبرت به.

والظاهر مما وجدت في كلامه في هذا المعنى أنه خاتم الولاية المقيّدة المحمدية لا الولاية المطلقة التي لرتبته الكلية.

ولذلك قال في أول **«الفتوحات»** في المشاهدة: فرآني - أي رسول الله - ورأى الختم لاشتراك بيني وبينه في الحكم فقال له السيد: هذا عديلك وابنك وخليلك، **والعديل هو** المساوي.

قال في الفصل الثالث عشر من أجوبة الإمام محمد بن علي الترمذي: **الختم ختمان**،

ختم يختم الله به الولاية مطلقاً، وختم يختم الله به الولاية المحمدية.

فأما ختم الولاية على الإطلاق فهو عيسى عليه السلام فهو الولي بالنبوة المطلقة في زمان هذه الأمة وقد حيل بينه وبين نبوة التشريع والرسالة، فينزل في آخر الزمان وارثاً خاتماً لا وليّ بعده، فكان أول هذا الأمر نبي وهو آدم عليه السلام وآخر نبي وهو عيسى عليه السلام، أعني نبوة الاختصاص، فيكون له حشران حشر معنا وحشر مع الأنبياء والرسل.

وأما ختم الولاية المحمدية فهو لرجل من العرب أكرمها أصلاً وبدءاً وهو في زماننا اليوم موجود عرفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق فيه عن عيون عباده وكشفها لي بمدينة فأمن حتى رأيت خاتم الولاية منه وهي الولاية الخاصة لا يعلمه كثير من الناس، وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما تحقق به من الحق في سره.

وكما أن الله ختم بمحمد صلى الله عليه وآله نبوّة التشريع كذلك ختم الله بالختم المحمدي الولاية التي تحصل من الوارث المحمدي لا التي تحصل من سائر الأنبياء فإن من الأولياء من يرث إبراهيم وموسى وعيسى وهؤلاء يوجدون بعد هذا الختم المحمدي؛ هذا ختم الولاية المحمدية.

وأما ختم الولاية العامة الذي لا يوجد بعده وليّ فهو عيسى.

وقال في الفصل الخامس عشر منها: فانزل في الدنيا من مقام اختصاصه استحقّ أن يكون لولايته الخاصة ختم يواطىء اسمه اسمه صلى الله عليه وآله ويجوز خلقه وما هو بالمهدي المسمى المعروف المنتظر فهو ذلك من عترته وسلالته الحسيّة والختم ليس من سلالته الحسية ولكن من سلالة أعرافه وأخلاقه والكل إشارة إلى نفسه، انتهى ما نقله القيصري.

فقد علم بذلك كله أن هذا الخبيث الملحد قد ادعى دعوى أعظم من فيه حيث إنه ادعى تارة أنه خاتم الولاية، وأخرى أنه عديل النبوة ومساو له صلى الله عليه وآله في الرتبة، وثالثة أنه أفضل من الأنبياء والرسل لتلقيه الوحي بلا واسطة من الحق وتلقي الرسل له بواسطة الملك كما قال في آخر كلامه: فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسل وهو الحق تعالى.

ولما سمع أصحابه منه هذه الهذيانات سلموا له ذلك لما استحوذ عليهم الشيطان اللعين وأضلّهم عن السبيل وسرى ذلك الفساد والضلال إلى الأعقاب وإلى أتباع كل ناعق من متصوفة العامة فسمّوا مرشدهم بالشيخ والولي ووصفوهم بالولاية.

ثم تعدّى عنهم إلى جهّال الخاصة المتصوفة فاحتذوا حذوهم واتخذ كل سلسلة منهم مرشداً مخصوصاً ووصفوه بالولاية وفوّضوا عليه زمام أمورهم الدنيوية والدينية وعنه أخذوا

الأذكار المخترعة والأوراد المبتدعة، ووقّروه وعظموه ومجدوه وزاروه، بل ربما ينقشون صورته المنحوسة في قرطاس أو لوح ويجعلونه في مصلاهم يزورون تلك الصورة ويقبلونها ويضعونها على رؤوسهم في الغدوّ والرواح يلتمسون بذلك الخير والبركة والتقرّب إلى الله تعالى، زعماً منهم أن تقرّبه موجب لتقربه عزَّ وجل كما قال عبدة الأصنام: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ولم يدروا أن ذلك كله بدعة وضلالة لكونه مخالفاً للأصول الشرعية ولقواعد مذهب الإمامية.

وذلك لأن الولاية الكلية والسلطنة الإلٰهية ووجوب الإطاعة بنص آية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٥٥] الآية، وآية: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣٢] الآية، وغيرها من آيات الكتاب وأحاديث الأئمة الأطياب منحصرة في الله سبحانه وفي رسوله وأولي الأمر من ذريته، أعني الأئمة الهداة والقادة الدعاة والسادة الولاة سلام الله عليهم أجمعين، فيجب طاعتهم والرجوع إليهم وأخذ معالم الدين عنهم في زمان حضورهم.

وأما في زمان الغيبة الكبرى والطامة العظمى فيجب الرجوع إلى من أرجعنا أولياء الأمر عليهم السلام إليه وفرضوا علينا أخذ التكاليف الشرعية منه وأوجبوا علينا متابعته وطاعته، وهم المجتهدون الجامعون لشرائط الإفتاء والقابلون لنيابة الإمام فقط[١].

فلقد قال صاحب الأمر عجل الله فرجه في حقهم: وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجّة الله[٢].

وقال الصادق عليه السلام في مقبولة عمر بن حنظلة الطويلة الواردة في حق المتخاصمين: ينظران إلى من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته عليكم حاكماً فإذا حكم بحكم فلم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا ردّ والرّاد علينا كافر[٣] رادّ على الله وهو على حد الشرك بالله[٤].

ونحوهما أخبار لا حاجة إليها، فبمقتضى هذه الأخبار وسائر الأدلة التي ذكرها

---

(١) جواهر الكلام: ١١/ ١٩٠، وكمال الدين: ٤٨٤، وغيبة الطوسي: ٢٩١.

(٢) الكافي للحلبي: ٤٢٥، والكافي للكليني: ١/ ٦٧ ح ١٠، ووسائل الشيعة: ١/ ٢٣، ح ١٢، والاحتجاج: ٢/ ١٠٦.

(٣) هذه الزيادة (كافر) موجودة فقط في الاحتجاج والبحار: ٢/ ٢٢١.

(٤) قد فصّلنا ذلك في كتابنا «ولاية الفقيه» فليراجع.

أصحابنا رضي الله عنهم في كتب الأصول لا يجوز التعويل والاعتماد على غير هؤلاء.

فالصوفية الذين يتخذون لهم مرشداً ودليلاً ويسمونه شيخاً ووليّاً ويأخذون آداب السير والسلوك إلى الله منه مع كونه جاهلاً ضالاً عن طريق الهدى إلى سمت الردى مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، بل مثل من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم.

وذلك لأنهم قد سلكوا الطريق بغير دلالة الدليل الواجب الاتباع وهو المجتهد الجامع لشرائط الإفتاء، بل قلّدوا جاهلاً لا يعرف الباطل والحق ولا يفرق بين النعق والنهق، ولئن قلت لهم: أنتم قلّدتم هذا الجاهل فيستوحشون منه وينكرون غاية الإنكار مع أن التقليد ليس عبارة إلا عن أخذ قول الغير من غير مطالبة الدليل وهذا حالهم مع هذا الضّليل.

وقد أُشير إلى بطلان مثل هذه المتابعة والتقليد وإلى النهي عنها في آيات وأخبار كثيرة.

مثل ما رواه في **(الوسائل)** عن الكليني بإسناده عن محمد بن عبيد قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: يا محمد أنتم أشد تقليداً أم المرجئة؟ قال: قلت: قلّدنا وقلّدوا، فقال عليه السلام: لم أسألك عن هذا، فلم يكن عندي جواب أكثر من الجواب الأول، فقال أبو الحسن عليه السلام: إن المرجئة نصبت رجلاً لم تفترض طاعته وقلّدوه وأنتم نصبتم رجلاً وفرضتم طاعته ثم لم تقلّدوه فهم أشد منكم تقليداً.

وبإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت لهم: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فقال عليه السلام: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم ما أجابوهم ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون[١].

وبإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال عليه السلام: والله ما صاموا لهم ولا صلّوا لهم ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فاتّبعوهم[٢].

وبإسناده عن عبد الله بن مسكان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك[٣].

وبإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إياك والرئاسة وإياك أن

(١) الكافي ١/ ٥٣ ح ١، والوسائل ٢٧/ ١٢٤ ح ٣٣٣٨٢.

(٢) الكافي: ١/ ٥٣.

(٣) الكافي: ٢/ ٢٩٧ ح ٣.

تطأ أعقاب الرجال، قلت: جعلت فداك أما الرئاسة فقد عرفتها، وأما أن أطأ أعقاب الرجال فما نلت ما في يدي إلا مما وطئت أعقاب الرجال، فقال عليه السلام لي: ليس حيث تذهب إياك أن تنصب رجلاً دون الحجة فتصدقه في كل ما قال(١).

وفي **(الوسائل من الاحتجاج)** في حديث طويل عن الحسن العسكري عليه السلام قال: وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة والتكالب على الدنيا وحرامها فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمّهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم، فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لمولاه فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلا بعض فقهاء الشيعة لا كلهم، فإن من ركب من القبائح والفواحش مراكب علماء العامة فلا تقبلوا منهم عنا شيئاً ولا كرامة، وإنما كثر التخليط فيما يتحمل عنا أهل البيت لذلك لأن الفسقة يتحملون عنا فيحرفونه بأسره لجهلهم ويضعون الأشياء على غير وجهها لقلّة معرفتهم، وآخرون يتعمدون الكذب علينا، إلى غير هذه مما لا نطيل بروايتها.

والحديث الأخير وإن كان في حق العلماء السوء ومقلديهم إلا أنه يشمل كل من يأخذ أمر دينه ممن ليس له قابلية لأن يؤخذ منه مثل ذلك إما لجهله أو لفسقه كالصوفية ومشايخهم الفسقة الجهال.

وأي فسق أعظم من تجويز التصفيق والرقص والغناء واختراع الأذكار والأوراد المبتدعة بكيفيات خاصة وشرائط مقررة عندهم من حيث العدد والوقت والزمان والمكان وغيرها مما ليس منها في الكتاب والسنّة عين ولا أثر.

ثم العجب أن أتباع هؤلاء الفسقة يقصدون بالتقرّب إليهم وبتوقيرهم وتمجيدهم وتعظيمهم التقرب إلى الله، وهكذا كانت حال عبدة الأصنام كما قال الله تعالى في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

والضمير في يختلفون للكفرة ومقابليهم أولهم ولمعبوديهم، فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونهم.

وأعجب من ذلك تبرّكهم بتمثال المرشد وتعظيمهم وتقبيلهم وزيارتهم له، وقد قال إبراهيم عليه السلام لعبدة الأصنام: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٤].

(١) محاسن البرقي: ٢/ ٦٢٩، والكافي: ٢/ ٢٩٨ ح ٥.

ومنها

الغناء والرقص والتصفيق، وهو أعظم عباداتهم يقومون بها في الأوقات الشريفة المخصوصة، وقد عاتب الله أهل الجاهلية الكفار بذلك فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، أي يقيمون الصفير والتصفيق مكان الصلاة.

قال الصوفية في أسباب حصول الجذبة والحالة التي تحصل للمريد يلازم سماع الغناء.

قال الغزالي: اعلم أن السماع أول الأمر ويثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص.

قال أبو طالب المكي: لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل المكة على السماع إلى زماننا، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين وقد أعدّهن للصوفية.

قال: وقال الجنيد: ينزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع: عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً.

قال بعد الاستدلال على حليته بالقياس والاستحسانات العقلية الفاسدة وبالأخبار الموضوعة وبعد تفصيل الموارد التي يتغنى فيها مثل الغناء لتهيّج الحجيج وتشويقهم إلى الحج ولتحريض القضاة على الجهاد، وفي أيام السرور والعيد ونحوها واستقصاها إلى سبعة ما لفظه:

السابع سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه، فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه ومور زناد قلبه، ومستخرج منه أحوالاً من المكاشفات والملاطفات لا يحيط بها الوصف يعرفها من ذاقها وينكرها من كلّ حسّه عن ذوقها، وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وَجْداً مأخوذ من الوجود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالاً لم يكن يصادفها قبل السماع، ثم تكون تلك الأحوال أسباباً لروادف وتتابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقي النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مكاشفات ومشاهدات وهي غاية مطالب المحبين لله، فالمفضي إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي والمباحات.

ثم ذكر آداب مجلس السماع للغناء إلى أن قال:

الأدب الرابع أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن إن رقص وتباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة لأن التباكي استجلاب للحزن والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط فكل سرور مباح فيجوز تحريكه إلى أن قال:

والأدب الخامس موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجدٍ صادق من غير رياء وتكلف أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة، فلا بد من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع ثيابه إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصحبة والعشرة إذ المخالفة موحشة. ولكل قوم رسم ولا بد من مخالفة الناس بأخلاقهم، وقول القائل: إن ذلك بدعة لم يكن في الصحابة، فليس كل ما يحكم بإباحته منقولاً من الصحابة وإنما المحذورات ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة إلى أن قال:

ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه ولا يشوش عليهم أحوالهم، إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح والمتواجد هو الذي يلوح للجمع منه أثر التكلف ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع، فقلوب الحاضرين إذا كان من أرباب القلوب محك للصدق، إلى أن قال:

فقد خرج من جملة التفصيل السابق أن السماع قد يكون حراماً محضاً، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون مستحباً.

أما الحرام فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة.

وأما المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكن يتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو.

وأما المباح فهو لمن لا حظَّ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن.

وأما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، انتهى ما أهمّنا نقله من لغويات كلامه.

وإنما أطنبنا بنقله تنبيهاً لك على سوء أعمالهم وأفعالهم واستباحتهم لما نثبت حرمته بالكتاب والسنّة بل حكمهم باستحبابه بمقتضى قياساتهم الفاسدة والاستحسانات الساقطة عن درجة الاعتبار، وكفانا مؤنة أدلة التحريم، ذكر أصحابنا رضوان الله عليهم لها في كتاب

(المكاسب من الفقه) وفي كتب الأخلاق وغيرها، ولنعم ما قيل في حق هؤلاء:

أيا جيل التّصوف شرّ جيل   لقد جئتم بشيء مستحيل
أفي القرآن قال لكم إلهي   كلوا مثل البهائم وارقصوا لي

وإذا عرفت أقوالهم في جواز التغني والسماع والرقص فنذكر مواظبتهم بأعمالها في مجالس ذكرهم لأن إلحاق ذكر الفعل بالقول وإقران العمل بالعلم أكمل وأبلغ في إيضاح مذاق هؤلاء الفساق، فأقول:

قال هبة الله بن محمد في شرح الحديث الخامس من رسالته المسماة **(بالأحاديث الخمسين المروية عن آل يسّ)**: سمعت من قطب الأولياء والسالكين، ظهير الملّة والدين، حكاية أبيه الشيخ الرباني نجيب الدين علي بن يزعش الفارسي أنه قد حضر سماعاً في دار شيخ مشايخ الإسلام شهاب الملة والدين السهروردي، وكان الشيخ على أعلى السطح، فلما شرع المطرب القول والضرب اقتصر الأصحاب على السماع المجرد وهو بلا حركة مبرد، فصاح الشيخ من فوق وقال: يا أصحابي، السماع بلا كشكش كبستان بلا مشمش.

فتواجد القوم كلهم وأنشد مطربهم هذا:

أيا جبلي نعمان بالله خلّيا   نسيم الصبا يخلص إليّ نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت   على قلب محزون تجلّت همومها
أجد بردها أو تشف مني حرارة   على كبد لم يبق إلا صميمها
ألا إن أو دائي بليلى قديمة   وأقتل داء العاشقين قديمها

وكان هناك فقير قاعد في الحاشية عند مواقف الحاشية إذ أقرأ المطرب هذه الأبيات وقع في الاضطراب على أعجب الحالات وتلألأ منه نور وحرقة بحيث أدهش جماعة الفرقة، فأخذوا في الذوق والبكاء والجزع والغلق إلى آخر المجلس فما أفاقوا.

قال ذلك الفقير: أتدرون يا صحبي ما معنى جبلي نعمان وأي شيء وقع في خاطري من المناسبة وما المراد للفقراء عند إطلاق هذا اللفظ؟ فقال بعضهم: الخوف والأمل، وقال بعضهم: النفس الحيوانية والطبيعية، وقال بعضهم: الملك والشيطان، وقال بعضهم: الأمّارة واللوامة، وهو ما التفت إلى هذه الأجوبة، فقالوا: قد رضينا بجوابك وسيرك فمرنا بأمرك، فقال: ما أقول إلا بحضور الشيخ، فاستحضروا خدمة شيخهم وجلس وقال: أجب لهم يستفيدون منك، فقال: إنهما محمد وإبراهيم صلوات الله عليهما وشرائعهما ما يخليان أن يهب نسيم الروح إلى العشاق وقد سدّ طريق الانبساط والأذواق ووضعا سلاسل الأحكام على أيدي الخواص والعوام، ورسما مراتب العبادات ووسما كل شخص بسمة في الدرجات

والدركات، فاستحسنه الشيخ وأصحابه، وفتحوا للعيش أبوابه، واشتغلوا بالسماع إلى الصباح من المصباح، وأمر الشيخ بأن السماع عند من له قلب وسمع من أشرف الطاعات بعيداً عن أرباب العادات، انتهى.

وهذا المجلس أنموذج سائر مجالسهم وبه عرف أن الغناء الذي استحلّوه لأجل كونه مهيّجاً للوجد والمكاشفات على زعمهم لم يكن مهيجاً له بل منتجاً للأقوال والأباطيل والهزل والهذيان، ومحصلاً لإعلان عداوة النبي ﷺ وعداوة خليل الرحمٰن، حيث قيّداهم بقيد الشريعة ولم يخلياهم وأنفسهم كالبهائم المرسلة والأنعام المهملة يرتعون ما يشتهون ويعملون ما يشاؤون تبعاً لوليهم الشيطان، وذلك لأنهم في تحليل الغناء به اقتدوا ومن بحره استقوا، وعلى منهاجه جروا.

كما يدل عليه ما عن العياشي في (**تفسيره**) عن جابر عن النبي ﷺ قال: «كان إبليس أول من ناح وأول من تغنّى وأول من حدا»، قال ﷺ: «لما أكل آدم من الشجرة تغنّى، فلما أهبط به حدا، فلما استقر على الأرض ناح فأذكره ما في الجنة» الحديث، هذا[1].

والعجب كل العجب من متصوفة الإمامية أنهم مع إذعانهم بأئمة الدين واعتقادهم بولاية الحجج المعصومين سلام الله عليهم أجمعين قد أخذوا في مقام العمل مسلك العامة العميا المنحرفين عن أئمة الهدى والتاركين للحنيفية البيضاء، فاحتذوا حذوهم في أصل التصوف وتشييد بنيانه، ثم في الأخذ بفروعه وأغصانه، وأوردوا في مؤلفاتهم نظماً ونثراً ما هو مفيد لحسن السماع والرقص، مع أنه خلاف الإجماع والكتاب والنص حسبما تعرفه في ضمن الأخبار الآتية إن شاء الله تعالى، قال بعض أقطابهم:

وحين يسمع ذكر اللّه سامعهم ... في لحن داود عهد اللّه يذكر
طوبى لهم يا جبال أوبي معهم ... والطير عن ذكره للسمع يبتدر
وحين يستمع الأشعار منصتهم ... من نظم أمجاد أهل اللّه يبتدر
يتلو بنغمة حسن الصوت مطربهم ... نظماً بديعاً به يصغد الحجر
كلامهم من جنود اللّه يأخذ من ... هو الأسير لدى الدنيا وينتصر
يكاد يندكّ من ألحانه طرباً ... شمّ الجبال ومنها يخضع الخدر
هم كالمجانين عند الغافلين وهم ... مسافرون وفي الرّجعى لهم سفر

وروى قطبهم الآخر في كتابه أنه أنشد بحضرة رسول الله ﷺ شعر مشتمل على ذكر

(١) تفسير العياشي: ١/ ٤٠ ح ٢٣.

الحبيب فطفق ﷺ يهتزّ ويهرول ويكرر قول: يا حبيب يا حبيب، فقال معاوية: ما أحسن لعبك يا رسول الله، فقال: مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتزّ بذكر الحبيب[١].

ولعله نقله من كتب العامة وإلا فليس الاهتزاز والهرولة واللعب بسماع الشعر لائقاً به ﷺ وبمنصب النبوّة.

وقد روى مثله في كتب العامة قالوا: وقد أنشد شخص بحضرته:

لسعت حيّة الهوى كبدي فلا طبيب ولا راق

إلا الحبيب الذي كلفت به فإنه منيتي وترياقي

فتمايل عليه وسقط رداؤه من أعلاه فتقاطعوه تبركاً، فواعجباً من ركون قوم على الإفك والأباطيل، وعكوفهم على ترهات الأقاويل، ومن اعتمادهم في الأصول والفروع على الأخبار الموضوعة المجعولة، وإعراضهم عن الصحاح وموثقات المقبولة، واتخاذهم ثقات العلماء والمحدثين حرباً، والأفاكين من الشياطين حزباً، ومن إقبالهم على النوافل والمندوبات، وإدبارهم عن الواجبات والمفروضات، وعنايتهم بالعبادات المبتدعة، والعادات المخترعة، وتوقّيهم عن المكروهات، وتقحّمهم في الشبهات والمحرمات؛ إن سألت أحدهم عن أشعارهم الجاهلية وغزليات الصوفية ينبسط ويجيب بلا مهل، وإذا سألت عن حدود الصلاة المفروضة من الأجزاء والأركان والسهو والشك والطمأنينة ينقبض ويرتطم ارتطام الحمار في الوحل، يتركون الأدعية المأثورة بالأسناد المعتبرة، ويداومون بالأذكار الجلية والخفية المتلقاة من مشايخهم الفجرة، ولو قرؤا القرآن في بعض الأحيان من باب التقية يتغنّون في تلاوته بجميع النغمات الموسيقية.

فما أشبه حالهم بحال مولى جارية حكاه الزمخشري في (**ربيع الأبرار**) عن أبي العيناء قال: رأيت جارية في النخاس تحلف لا ترجع إلى مولاها فقلت: لم؟ قالت: يواقعني من قيام، ويصلّي من قعود، ويشتمني بأعراب، ويلحن في القرآن، ويصوم الإثنين والخميس ويفطر في رمضان، ويصلي الضحى ويترك الفجر، هذا.

وأما ما ورد في الأخبار العامية من قوله عليه السلام: ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي ﷺ يتغنّى بالقرآن.

فالجواب عنه بعد الغضّ عن سنده ما أجاب به الشريف الرضي رضي الله عنه حيث قال في محكى كلامه من كتابه الموسوم بـ (**مجازات الآثار النبوية**): ومن ذلك قوله عليه السلام: ما أذن

(١) لم أجده في مصادر الفريقين مع كثرتها.

الله لشيء كإذنه لنبي يتغنّى بالقرآن[١]، وهذا القول مجاز والمراد ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يداوم تلاوة القرآن فيجعله دأبه وديدنه وهجيرانه وشغله كما يجعل غيره الغناء متروح حزنه ومستفسح قلبه ليس هناك غناء به على الحقيقة، وهذا كما يقول القائل: قد جعل فلان الصوم لذّته والصلاة طربه إذا أقامهما مقام شغل غيره باللّذات وطربه إلى المستحسنات.

وقد قيل: إن المراد بذلك تحزين القراءة ليكون أشجى للسامع وآخذ بقلب العارف، فسمى هذه الطريقة غناء على الاتساع لأنه يقول: زيّنوا أصواتكم بالقرآن في حديث آخر، وليس المراد بذلك تلحين القراءة وتطريبها، فإن الأخبار قد وردت بذمّ هذه الطريقة حتى ذكر عليه السلام في أشراط الساعة أموراً عددها ثم قال: وأن يتخذ القرآن مزامير.

وقال بعضهم: معنى يتغنّى بالقرآن أي يذكر القرآن، من قولهم: تغنّى فلان بفلان إذا ذكره في شعره إما هجواً وإما مدحاً.

فأما الحديث الآخر وهو قوله صلى الله عليه وآله: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»[٢]، فليس المراد به هذا المعنى، وإنما أراد صلى الله عليه وآله ليس منا من لم يستغن بالقرآن عما سواه، وتغنى هٰهنا بمعنى استغنى وهو تفعل من الاستغناء لا من الغناء، قال العجاج:

أرى الغواني قد غنين عني وقلن لي عليك بالتغني

أي استغنين عني وقلن لي: إستغن عنا كما استغنينا عنك، وهذا عند موت الشباب وانقضاء الاراب، ويؤكد ذلك الحديث الآخر وهو قوله عليه السلام: من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظّم صغيراً وصغّر عظيماً، ولو كان المراد بالتغني في هذا الخبر ترجيع الصوت بالقرآن لكان من لم يقصد هذه في تلاوته ويعتمدها في صلاته داخلاً تحت الذم ومقارفاً للذنب، لأنه عليه السلام قال: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»، فبان أن المراد به الاستغناء لا الغناء، انتهى كلامه رفع مقامه.

ولبعض الأعلام كلام في المقام ليس فوقه كلام في إيضاح المرام في إبطال دين الصوفية في مسألة الغناء وكشف سائر سوآتهم وبيان نكتة سراية التصوف من العامة إلى الخاصة، يعجبني نقله تنبيهاً للمتصوفة الخاصة من نومة الغفلة والجهالة، وإيقاظاً لهم من رقدة الضلالة فأقول:

قال الشيخ علي بن الشيخ محمد العاملي في محكى كلامه من كتاب **(الدرّ المنثور)** من

(١) فتح الباري: ١٣/ ٤١٩، وتفسير مجمع البيان: ٥/ ٧٧.

(٢) المبسوط للطوسي: ٨/ ٢٢٧، والكافي: ٢/ ٦٠٥.

المأثور وغير المأثور، عند شرحه الحديث السابع في الغناء نقلاً عن **(الكافي)** ما هذه عبارته:

ومن ذلك ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اقرؤوا القرآن بألحان العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر فإنه سيجيء من بعدي أقوام يرجّعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية لا تجوز تراقيهم قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبه شأنهم»(١).

أقول: هذا الحديث يدل صريحاً على أن الغناء يحصل بترجيع القرآن على النحو المتعارف في هذا الزمان، ويدل على تفسير الغناء بالترجيح المطرب والطرب خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور كما ذكره أهل اللغة، وفي كون فعلهم كفعل أهل الفسوق والكبائر وعدم جوازه التراقي وقلب قلوبهم وقلوب من يعجبه ذلك ما هو ظاهر لمن عقله كيف لا؟ وهو كلام سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه وآله، وهل سمعت أو رأيت أحداً يقرأ القرآن بالمثاني والطنبور والأوتار ونحوها حتى تخصّ الغناء بمثل ذلك ويسهل طريق سماع ما صار متعارفاً شائعاً بعدما ظهر أنه غناء في غير القرآن أيضاً لصدق الغناء عليه بما عرفته، وسنوضحه فيما بعد، وهل لذلك وجه غير إجابة الشيطان وميل الطبع؟.

وقد سرى ذلك من صوفية المخالفين وملاحدتهم ميلاً إلى طريقتهم واعتقادهم وكراهة لما ورد من طرفنا من النهي عن مثله.

وقد خص المحرم منه مثل الغزالي وأحزابه بما يستعمل في مجالس الشرب وأهل الفسوق، فقلّده في ذلك من أعجبه وأحسن الظن به مع إساءة ظنه بالأئمة عليهم السلام وعلماء شيعتهم، ولم ينظر إلى نصبه وعداوة للأئمة عليهم السلام وعلمائهم، فالغناء إن كان هو الترجيع الذي ذكره علماؤنا فهو صادق على مثل ذلك، وإن كان راجعاً إلى العرف كما قيل كان صادقاً أيضاً، فإنا لم نعرف في عرب بلاد العرب إذا سمعوا من ينشد الشعر وغيره على الطريق المعهود إلا أنهم يقولون: هذا يغني وهذا مغنّ.

وقد ذكر الصوفية في أسباب حصول الجذبة والحالة التي تحصل للمريد أنه يلازم سماع الغناء، وتارة يقولون: إن من أسبابها سماع الغناء، فهذا اعتراف منهم بأن مثل ما يفعلونه ويسمعونه غناء، فإن قلت بالعرف فقد اعترفوا به، وإن رجعت إلى الترجيع المطرب فكونه كذلك بديهي، وإذا ثبت ما يتحقق معه الغناء كان حراماً على مذهب الإمامية للأدلة الواردة في الكتاب والسنة واتفاق علمائنا.

---

(١) الدعوات للراوندي: ٢٤ ح ٣٢، والكافي: ٢/ ٦١٤.

فظهر أن تقسيم الغناء إلى المحرم وغيره لا يجامع مذهب الإمامية بوجه، وقد استثنى أهل شرعنا من الغناء الحدي للإبل بدليل خاص، فليت شعري كون الحدي من الغناء عرفاً وما يدعي أنه ليس منه هل هو إلا من حبّك الشيء يعمى ويصمّ.

وما ورد من لفظ الألحان كما في هذا الحديث وفهم المعنى المنهيّ عنه منه ناشيء من ضيق الفطن عن معرفة مواقع الألفاظ ومقامات استعمالها، وذلك لتألف طبيعة أهل الغناء بكون مثل النغمة والألحان تنصرف إلى المعنى المتعارف بينهم، كما يحمل بعض الحكمة في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، على حكمتهم فيتوهمون أنه قد يفارق الغناء فيكون ألحاناً ولا يكون غناء وإلا فالألحان والنغمات والأصوات معان متقاربة تختلف معانيها باختلاف مقاماتها فتصدق من الغناء وغيره والكلام في لحن يصدق عليه الغناء أو لا يصدق ومما يبثه من له قلب ما في هذا الحديث من التعبير بألحان العرب ولحون أهل الفسوق.

وبالجملة فميل النفس إلى شيء مع مساعدة الشيطان يزينان للإنسان ارتكاب ما لا يحسن ولا يليق، وهذا شأن صاحب كل شيمة ركبت في ذهنه وطبعه وكره النزوع عنها، فإنه يتشبث لإثباتها بمثل هذه التمحلات لئلا يغلب هواه على ما استقر عنده ودعاه.

ولو فرض عدم تحقق كون مثل هذا غناء فاحتماله راجح أو مساو ومن يميل إلى تقوى الله هل اللائق بحاله اجتناب مثله أم لا؟ كيف وما ذكر سابقاً من الحديث وغيره شاهد عدل على كون مثله غناء.

وقد سرى هذا وما هو أعظم منه من معاشرة أهل الخلاف ومن ضارعهم ومطالعة كتبهم وعدم تميز الغثّ منها من السمين والميل إلى طريقتهم لما فيها من التساهل وغير ذلك، نسأل الله الهداية ونعوذ به من الخذلان والإملاء والغواية إنه جوّاد كريم.

واعلم أن هذا الاسم وهو التصوف كان مستعملاً في فرقة من الحكماء الزائغين عن طريق الصواب، ثم من بعدهم كان يستعمل في جماعة من الزنادقة وجماعة من أهل الخلاف بعد حصول الإسلام، وكان أعداء آل محمد كالحسن البصري وسفيان الثوري وأبي هاشم الكوفي ونحوهم ومن أعظم رؤسائهم حسين بن منصور الحلاج، وله قصص منقولة في كتب أصحابنا ككتاب (**الغيبة والاقتصاد**) للشيخ الطوسي وغيرهما، وادعى الإلهية وورد التوقيع من صاحب الأمر بلعنا كما في كتاب (**الاحتجاج**) وغيره، وصنف الشيخ المفيد كتاباً في الرد عليه وعلى متابعيه.

ولم يستعمل هذا الاسم أحد من الإمامية لا في زمن الأئمة عليهم السلام ولا بعد غيبة صاحب الأمر عليه السلام.

ثم لما انتهى الأمر إلى هذا الزمان وما قاربه طالع بعض الإمامية كتب الصوفية فمنهم من أعجبه منها ما يليق ولا منافاة له لقواعد الشريعة فأعجبه ذلك لكن كان متمسكاً بقوانين الشرع فلم يتجاوز ما هو موافق ولم يلتفت إلى ما سوى ذلك.

ثم سرى الأمر إلى تعلّق البعض بجميع طريقتهم ورأوا أن من تبع بعض مسالكهم كان من هذه الفرقة فصار لهم كالمستند في ذلك فانتهت الحال إلى جعل الرقص والصفق والغناء من العبادة، بل صارت أفضلها وأكملها عندهم، ونسوا أو تناسوا ما ورد ممن ينتسبون إليهم ظاهراً من النهي عن ذلك، وصار اعتقادهم في النوائب والزنادقة أنهم على الحق فتركوا أمور الشريعة وأظهروا الضعيفي العقول والعوام حسن هذه الطريقة، وموّهوا عليهم أشياء يدعون أنها من باب الكشف والكرامات، واستخفّوهم لذلك فأطاعوهم وساعدهم على ذلك رفع المشاق التكاليف الشرعية وميل الطبع إلى ما فيه لذّة النفس حتى النظر إلى صورة الذكور الحسنة، وادعوا أنهم تنكشف عليهم الأمور من غير واسطة بشر أو غيره، فتبعهم رعاء الناس وغثاؤهم، وأتعبوا أنفسهم في الرياضات المنهي عن مثلها في شرعنا لعل أذهانهم تصفو بذلك.

وليت شعري لو حصل من هذا شيء مما يدعون فأي فرق بين المؤمن والكافر والمسلم والزنديق، فإنه قد شاع وذاع أن كفار الهند وغيرهم لكثرة ما يرتاضون ربما أخبروا بمثل ما يدّعونه بل بما هو أبلغ، وأهل التسخير والشعبدة والسحر ربما ظهر منهم أشياء فوق ما يدّعيه هؤلاء من غير صحة لمن تفحّص وتحقق ذلك.

وأهل الكرامات والمعجزات هم الذين كانت تظهر لهم هذه الأمور غير الرياضة ولم يكونوا من أهل التسخير والشعبدة والسحر ونحو ذلك. وأهل التقوى الذين هم محل لأن تظهر منهم الكرامات لم يدّعوا ولا ادّعى لهم شيء من ذلك، وكانت تريدهم الدنيا فيفرون منها فرارك من الأسد.

وترى هؤلاء يضيّعون العمر فيما يلبسونه لغاية انقياد العوام إليهم ليبلغ ذلك الأكابر والحكام ويشيع خبرهم فيصلون بهم وبخدمتهم ويجعلون ذلك وسيلة إلى التقرب إليهم وجلباً لقلوبهم وسبباً إلى التردد إليهم، ومع ذلك يتوقعون منهم ويأخذون منهم الأموال وربما تعزّز بعضهم بعدم قبول اليسير شركاً لوقوع الكثير أو حباً لثبات الجاه وبقاء الميل إليهم.

ولو كان تركهم الدنيا لله وللآخرة لم يكن شيء من هذا ولعملوا:

بقول رسول الله ﷺ: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون قلّة الشيء أحب إليه من

كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف»[1].

وبقول الباقر عليه السلام في وصيته لجابر: اغتنم من أهل زمانك خمساً: إن حضرت لم تعرف، وإن غبت لم تفتقد، وإن شهدت لم تشاور، وإن قلت لم يقبل قولك، وإن خطبت لم تزوّج، الحديث، وهو طويل وهذا وأمثاله هو الزهد والتقوى كما قيل:[1]

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصل الأمر إلى أن صار التصوف غير مشروط بالعلم ولو بعلمهم الذي يدعونه، بل بمجرد تغيير اللباس المتعارف عند أكثر الناس، وتلبيس الظاهر بذلك وترك الباطن إما فارغاً مما ينبغي أو مملوءاً مما يعلمه الله وصار من زهده وصلاحه بطريق الشريعة ممقوتاً عندهم وما ذاك إلا أنه لو سئل لقال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وقال أمير المؤمنين وغيرهما، وهم يدّعون أنهم يقولون: قال الله من غير واسطة، وقد يقول بعضهم: قال الرسول ولكن بدعوى مشافهته له وإن كان بينهما ألف سنة فما زاد فيلبّس أنه رآه في صورة المثال وكذلك الأئمة عليهم السلام وأنهم يسألونهم عن كل ما يريدون ونحو ذلك من الخرافات التي لا تقبلها عقول المجانين.

نعم لا يبعد أن الشياطين تتراءى لهم في صور مختلفة أو أنه يحصل لهم خبط وتغير مزاج بحيث يرون ما يوهم مثل ما يدّعون وقد ينضم إلى ذلك استعمال بعض المغيرات للمزاج الباعثة على مثل ذلك.

وإني لأعجب ممن يدعون ذلك على اختلاف مذاهبهم فكل يدعي كشفاً يوافق اعتقاده، فالغزالي مع دعواه الوصول إلى هذه المرتبة انكشف له فضل أبي بكر على علي بن أبي طالب عليه السلام بمراتب كما هو ظاهر على من طالع إحياءه الذي هو إحياء الباطل.

وكما انكشف له عدم جواز سبّ يزيد لعنه الله لأنه رجل مسلم ولو كان قاتلاً للحسين عليه السلام لم يجز ذلك، لأن غاية هذا أنه فِعْلٌ كبيرٌ وذلك لا يجوّز سبّه.

وانكشف له بطلان مذهب الإمامية بعد أن ترك التدريس وانقطع في دمشق ومكة المشرفة نحو عشر سنين ملازماً للخلوة في آخر عمره، فصنف كتاباً سماه **(المنقذ من الضلال)**، يتضمن الرد على من يدّعي العصمة وإبطال مذهبهم وسماهم أهل التعليم، وضرب لهم مثلاً بأخذهم عن المعصوم بمن تلوّث بجميع النجاسات ثم طلب ماء يتطهر به منها وسعى في ذلك، فلما انتهى إلى ذلك الماء لم يجده ماء يطهره ويزيل عنه الأخباث فبقي مرتكساً في النجاسات طول عمره وتكرر منه في **«الإحياء»** وغيره: قالت الروافض خذلهم الله.

---

(١) تحف العقول: ٢٨٤، والبحار: ٧٥/ ١٦٢ ح ١.

وقال فيه: إنه لو جاء إلينا رافضي وادّعى أن له طلب دم عند أحد قلنا له: دمك هدر، لأن استيفاءه مشروط بحضور إمامك فاحضره حتى يستوفي لك، ومثل ذلك كثير وما نقلته مضمون كلامه ومعناه كان بخاطري ولم يحضرني عين ألفاظه وعباراته، وإن لم تصدق فعليك بالمراجعة.

وقد صرّح في كتابه (**المنقذ**) أنه كان يستفيد من الأنبياء والملائكة مع مشاهدتهم على وجه القطع كلما يريد.

نعم ينسب إليه كتاب يسمى (**سر العالمين**) فيه مقالة يظهر منها ميله إلى الحق أو نطقه به ليكون حجة عليه، فإن كان سابقاً فقد ضلّ بعده عن الحق، وظاهر «**المنقذ**» أنه كتب في أواخر عمره حتى أن بعضهم ينكر كون «**سر العالمين**» له أو أن المقالة المذكورة تلحقه من غيره، فإن بقية الكتاب ليس فيها شيء من هذا القبيل.

ولو فرض كونه له وأنه كتبه آخر جميع ما كتب صار يستحق بذلك جميع ما يذكر في شأنه، وكان ممن قد صرفوا أعمارهم في حفظ شريعة النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وخاطروا بأنفسهم حتى بلغت لذلك أمرهم على غير الحق بسبب سلوكهم غير هذا الطريق المظلم الذي لا يستضاء فيه بمصابيح الدنيا.

وحكى الشيخ محيي الدين في (**فتوحاته**): أنه أسرى به مراراً أظنها سبعاً أو تسعاً في كلام طويل يتضمن سورة (الإسراء) وذكر في هذا المقام أو ما يناسبه أحد رأى أبا بكر الصديق لما وصل إلى العرش بعد أن كان يرى في كل سماء واحداً من الأنبياء مثل نبينا ﷺ وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم، فكانت مرتبته أعلى من مرتبتهم ومساوية لمرتبته تعالى أو مقاربة لها.

وادعى في أول «**الفصوص**» أنه من إملاء رسول الله ﷺ وأمره له بعين ما كتبه، وسمى نفسه خاتم الولاية لمنام رآه وغير ذلك له ولغيره مما يتعجب منه.

فيالله العجب من مكاشفات يظهر منها للناصبي أنه على الحق وللملحد أنه على الحق ولعابد الوثن، أنه على الحق، وللإمامي أنه على الحق وكذا غيرهم فما أدري أي حق وأي دين هذا؟ وأي مكاشفة هذه؟ وما وجه الجمع والتوفيق في ذلك؟ فلو كانت هذه المكاشفات للغزالي ونحوه حقاً كان للإمامي أن يعتقد بطلان مذهب الإمامية إن قلدهم وإن انكشف ذلك له كما انكشف لهم كان أظهر في البطلان.

ومن العجب الاعتقاد في مثل هؤلاء والشهادة لهم بالتحقيق والتكفير أجلاء علماء الإمامية بل كلهم بكنايات أبلغ من التصريح كتسميتهم: إنّا وجدنا، يكون إشارة إلى قوله

تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ومثل: **﴿يا بني اركب معنا﴾**، أي ولا تكن من الكافرين بعد التشنيع عليهم بالخصوص كالسيد المرتضى والشيخ المفيد وأمثالهما، وبما يقتضي شمول الجميع باستلزامه ذلك من حيث ثبوت ذلك لكل من خالف طريقته التي اخترعها، ولم يوجد من الإمامية عالم سلك هذا الطريق وحاصل بعضه أنه سلك طريقاً لا يفضي إلى الاختلاف في شيء كدعوى الغزالي في كتابه **(المنقذ من الضلال والاختلاف)** جعله من أسباب التكفير.

وقد جعل الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، الصوفية وفي هذا رد على من خصهم بالرسول والأئمة ﷺ كما هو مذكور في باب من **(الكافي)** وغيره مشتمل على أحاديث عنهم ﷺ تدل على اختصاصهم بذلك.

وهذا سبيل من يدّعي العلم منهم والكشف بسبب تحصيل هذا العلم والرياضة فما ظنك بأقوام منهم وهم أكثرهم في هذا الزمان، فإنك لو فتشت عن حالهم واختبرت حقيقة مقالهم وجدتهم كالبهائم الهائمة لا يعرفون مسألة من دين الله ولا حراماً ولا حلالاً، ولا يجدون لهم إلى حسن التكلم مجالاً، وترى الناس يقبلون عليهم ويهرعون إليهم ويكادون يسجدون لهم كفعل الكفار بأصنامهم وما آل اعتقادهم فيهم إلى ما قيل في أبي بكر: أنه أفضل الصحابة لأمر وقر في نفسه، وحاشى البهائم أن يشبه بها مثل هؤلاء فإنها ليست مكلّفة وتركت ما كلفت به بل منقادة لما سخرت له مسبحة بحمد ربها منزّهة عن مثل هذه الرذائل.

ولقد شاهدت بعض هؤلاء وتفحصت عمن لم أره منهم فانكشف إليّ من حالهم ما ليس من باب الكشف الذي يدعونه أو يدعى لهم، وقل تعجبي ممن يعبد الخشب والحجر وزاد يقيني في هوان الدنيا وسوء أحوالها.

ومن تأمل أحوال الدنيا وخستها قديماً وحديثاً رأى لهذا نظائر وأشباهاً، وليس من أعطاه الله العقل مع إرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر باتباعهم بمعذور في ترك التأمل والمتابعة والمجاهدة، فإن كلاً ميسر لما خلق له ولا تكليف لما لا يطاق.

واعلم أنه لما سرت سيرة الصوفية إلى الإمامية كان في أول الأمر من يفرّق بين القشر واللباب والذهب والتراب، فكان من يميل إلى طرف من مقالتهم يختار منه اللباب ويترك القشر إذا كان اللباب حسناً إما مأخوذاً من كلام الأنبياء والأوصياء أو من يحذو حذوهم من العلماء والأتقياء، فإنهم كانوا يدخلون مثل ذلك في كتبهم ومؤلفاتهم ليحسن الظن بهم لكونه مثل كلام أمير المؤمنين ونحوه.

ثم بعد ذلك يترقون إلى تأويله تدريجاً بما يوافق مطالبهم ويناسب مآربهم، وكان من يختار وينتخب ما ذكر بجعله وسيلة إلى تطهير النفس وتزكيتها وإبعادها عن الرذائل، ومع ذلك فالمطلب الأسنى عنده والخلة الحسنى لديه سلوك طريق الشرع وإنفاد العمر فيه كما يراه من عرف حال مثل جدّي الشهير الثاني وغيره من علماء الفرقة المحقة.

ثم تلاشى الأمر ووصل إلى ارتكاب ما سلكوه والاعتماد على ما قالوه ولو بسماع بعضه من غير تميز وفرق إلى أن وصل الأمر إلى التنفّر من الشرع وأهله ودخل تحت هذا الاسم وهو الصوفية من يسمى به، وينتسب إليه فقط، فاقتصر المدّعي على ذلك واكتفى المريد به فصار الملحوظ محض الاسم في الغالب وإلا فلا مشاحة في التسمية إذا كان المسمى مبنياً على أساس صحيح ثابت.

وهذا من مفاسد هذا الاسم المشتمل على ما ذكرناه، ولو بقي ما هو متعارف سابقاً من الزهد والصلاح والتقوى والورع وأمثال ذلك وهو الذي كان شائعاً بين أهل الإيمان وورد به القرآن والأخبار لم يتطرق إليه هذا الغش ولم تترتب عليه هذه المفاسد التي ترتبت على لفظ التصوف ومعناه.

فدخل الغشّ فيهما والتبس على غير المميز أمرهما بل على المميز أيضاً إذا لم يعمل بعقله وتميزه، ومحك الفرق والتميز الميل إلى جانب الشرع وأهله والتنفر منه ومن أهله، وعلامة التنفر منه التنفر من أهله.

وربما أظهروا التنفر من أهله متعللين بتقصير يدعونه فيهم، وهذه خدعة إبليس، لأن التنفر عن الشرع ليس لهم فيه مصلحة ولا صرفة فأبطنوه وأخرّوه إلى وقت يمكنهم إظهاره، وتعلّلوا بالقدح في أهله فلو كان تقصير من حاملي الشرع لا يلزم منه القدح منه في الشريعة وعدم متابعتها.

وكأن هذا الزمان الذي ذكره سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وآله في وصايا طويلة لأبي ذر رضي الله عنه حيث قال من جملتها:

«يا أبا ذر يكون في آخر الزمان قوم يلبسون الصوف في صيفهم وشتائهم يرون الفضل بذلك لهم على غيرهم أولئك تلعنهم ملائكة السماوات والأرض». مثل ذلك ورّام بن أبي فراس وغيره بالسند المذكور في محله وهي مشهورة في كتب أصحابنا[1].

---

(١) الوسائل: ٥/٣٥ ح ٥٨٢٨، وأمالي الطوسي: ٥٣٩ ح ١١٦٢.

ومن مواعظ عيسى عليه السلام وحكمه من الإنجيل وغيره وهي مشهورة مكررة في كتب أصحابنا أيضاً:

«بحق أقول لكم إن شر الناس لرجل عالم آثر دنياه على علمه فأحبها وطلبها وجهد عليها حتى لو استطاع أن يجعل الناس في حيرة وماذا يغني عن الأعمى سعة نور الشمس وهو لا يبصرها، وكذلك لا يغني من العالم علمه إذا هو لم يعمل به، ما أكثر ثمار الشجر وليس كلها تنفع ولا يؤكل، وما أكثر العلماء وليس كلهم ينتفع بما علم، وما أوسع الأرض وليس كلها يسكن، وما أكثر المتكلمين وليس كل كلامهم يصدق، فاحتفظوا من العلماء الكذبة الذين عليهم ثياب الصوف منكسوا رؤوسهم إلى الأرض يزوّرون بها الخطايا، يطوفون من تحت حواجبهم كما ترمق الذئاب، وقولهم يخالف فعلهم، وهل يجتني من العوسج العنب؟ ومن الحنظل التين؟ وكذلك لا يثمر قول العالم الكاذب إلا زوراً وليس كل من يقول يصدق»، انتهى المنقول من كلامه صلوات الله عليه[1].

فإن قيل: كلام عيسى يدخل تحته كل عالم غير عامل وترى كثيراً من علماء الشرع من هذا القبيل.

قلت: قد ورد في شأن العالم بغير عمل في كلام غير عيسى أيضاً من كلام الأنبياء والأئمة والحديث القدسي ما يقسم الظهور كما هو معلوم لمن تتبّع، ولكن علماء الشرع إن تساهلوا في العمل ومالوا إلى حب الدنيا وهم الأقلّون قبل هذا الزمان فإنهم مع تساهلهم في العمل طريقهم واعتقادهم في العلم غير مستودع وإن كانوا ملومين غير معذورين بالنسبة إلى العمل.

وهذا بخلاف ترك ما هو طريق العمل فإنه مع عدم العلم أو مع عدم اعتقاد العلم يكون العمل مبنياً على غير أساس إن حصل ما يسمى عملاً في الجملة أو لم يكن عمل، على أن ما لا طريق له من العمل لا يستحق صدق اسم العمل عليه فالذي يفني عمره في مثل ذلك لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أتى، والأول يكون تاركاً لأقبح القبيحين والآخر تابع له وإن كان العلم مقروناً إلى العمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه.

واحتجاج أبي عبد الله عليه السلام على الصوفية لما دخلوا إليه فيما ينهون عنه من طلب الرزق بما يتعلق بسفيان الثوري وغيره مشهور في **(الكافي)** وغيره، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: هذا كلام جيد في توضيح المقام ورفع الحجاب عن وجه المرام لكنه ينبغي أن

---

(١) تحف العقول: ٥٠٣.

نفصل بعض ما أجمله وننبه على ما أهمله من خبط الغزالي وابن العربي وغلطهما، فأقول:

تذييل

أما محيي الدين فقد نقلنا في إبطال القول بوحدة الوجود فصلاً وافياً من كلامه وأردفناه بالتنبيه على هفواته وآثامه، وأما دعواه الإسراء به إلى السماء فهو من ثمرات رياضاته ونتائج مجاهداته التي حصلت له مرض الخيالات التي نشئت منه أمثال تلك الخرافات، ويشهد بصحة ما ادعاه رؤيته أبا بكر في أعلى الطبقات والأنبياء في أدناها، كدعوى الثعلب والشاهد عليه ذنبها.

وأما الغزالي فما أشار إليه من أغاليطه وأباطيله وترّهاته وهذياناته أمور.

الأول: عدم تجويز اللعن على يزيد.

وأنا أتقرّب إلى الله وإلى رسوله بلعنهما كليهما وأقول: عليهما لعائن الله والملائكة والناس أجمعين بما لا مزيد وعلى من حذا حذوهما من كل كفار عنيد وشيطان مريد.

وتفصيل ما قاله في ذلك العنوان ما ذكره في **(إحياء العلوم)** في باب آفات اللسان حيث قال:

الآفة الثامنة اللعن، واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على ما يتصف بصفة تبعده من الله تعالى، والصفات المقتضية ثلاثاً: الكفر، والبدعة، والفسق. واللعن في كل واحدة منها ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة.

الثانية: اللعن بأوصاف أخص منه كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض.

الثالثة: اللعن للشخص المعين، وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع.

والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعاً فيجوز لعنته كقولك: فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعاً، أما شخص بعينه في زماننا كقولك: زيد لعنه الله وهو يهودي مثلاً فهذا فيه خطر لأنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله فكيف يحكم بكونه ملعوناً؟.

فإن قلت: يلعن لكونه كافراً في الحال كما يقال للمسلم: رحمه الله لكونه مسلماً في

الحال وإن كان يتصور أن يرتدّ.

فاعلم أن معنى قولنا: رحمه الله، أي ثبّته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة، ولا يمكن أن يقال: ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة، فإن هذا سؤال الكفر وهي في نفسه كفر بل الجائز أن يقال: لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه الله إن مات على الإسلام، وذلك غيب لا يُدرى، والمطلق تردد بين الجهتين. ففيه خطر.

وإذا عرفت هذا في الكافر ففي زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى إلى أن قال: فلا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره.

فإن قيل: هل يجوز لعنة يزيد لكونه قاتل الحسين أو آمراً به؟

قلنا: هذا لم يثبت أصلاً، فلا يجوز أن يقال: إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت فضلاً عن اللعنة، لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق.

فإن قيل: فهل يجوز أن يقال: قاتل الحسين لعنه الله أو الآمر بقتله لعنه الله؟

قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة، فإن وحشياً قاتل الحمزة قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعاً ولا يجوز أن يلعن، والقتل كبيرة ولا تنتهي إلى رتبة الكفر فإذا لم يقيّد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر وهو أولى. انتهى كلامه لعنه الله تعالى وخذله وضاعف في عذابه.

أقول: لما صادف نقل كلام هذا الناصب اللعين في ليلة القدر، وهي الليلة الثالثة والعشرون من شهر الصيام كما يستفاد من أكثر أخبار الأئمة عليهم السلام وكان الناس مشتغلين وقتئذ في المساجد الجامعة والمشاهد المشرّفة بالعبادات والطاعات، متقرّبين إليه تعالى بالتلاوة والتسبيح والتقديس والدعوات، مبتهلين متضرّعين إليه عزَّ وجل في غفران الذنوب والزلّات، فرأيت اشتغالي بما يلوح من المطاعن على هذا الناصب الملعون أهم وأحرى، وأحتسب بذلك الأجر والزلفى لديه تعالى وأتقرّب به إلى أئمة الهدى تعصباً لخامس آل العباء سلام الله عليه وعليهم تترى، وأستشفع بهم إلى الله سبحانه أن يثبت ما أكتبه هنا في صحائف حسناتي، ويجعله ممحاة سيئاتي، ويحشرني في زمرة موالي وساداتي إنه مجيب الدعوات، ووليّ الخيرات والحسنات، وهو الغفور الرحيم والشكور الكريم.

فأقول: يتوجه على هذا الناصب وجوه من الكلام وضروب من المثالب والملام.

الأول: أن اللعن في اللغة هو الطرد والإبعاد من الله ورحمته، ومن الخلق طلب الطرد

والدعاء بالعذاب، فمعنى قولنا: لعن الله الكافرين والظالمين والمبتدعة والنواصب ومنهم الغزالي باعدهم الله من رحمته وضاعف عليهم العذاب لاستحقاقهم له بما صدر عنهم من الكفر والظلم والنصب والبدعة، والكتاب والسنة مشحونة بلعن هؤلاء وقد ثبت الإذن والترخيص لنا قولاً وفعلاً وتقريراً في لعنهم، ولا فرق فيه بين الأنواع والأشخاص.

والتفرقة بين النوع والشخص بتجويزه في الأول دون الثاني كما توهمه الناصب شطط من الكلام وغلط.

أما أولاً: فلأن احتمال توبة الشخص الكافر وجواز رجوعه إلى الإسلام لا يوجب رفع اليد عن لعنه المترتب على كفره المحقق كسائر الأحكام المترتبة على كفره، لأن اليقين لا تنقض إلا بيقين مثله، ولو كان مجرد الاحتمال كافياً لجاز الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين وتجهيزه وتكفينه مثل سائر المسلمين وليس فليس.

وأما ثانياً: فلأن معنى لعن أشخاص الكفار طلب العذاب في حقهم لاستحقاقهم بالفعل له، وتجويز توبتهم لا يمنع من جواز الدعاء عليهم، لتبدّل الأحكام بتبدل الموضوعات، ألا ترى أن الله يكره الفاسق ويبغضه حال فسقه ويحبه حال توبته مع أنه عالم بما يؤول أمره.

وأما ثالثاً: فلأن قوله: معنى قولنا: رحمه الله، أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة ولا يمكن أن يقال: ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فيه أنه لم يفهم معنى الرحمة واللعنة إذ ليس معناهما طلب التثبيت على الإسلام والكفر، بل طلب الثواب لمن كان ثابتاً على إسلامه، وطلب العقاب على من كان ثابتاً على كفره.

وأما رابعاً: فلأنه لا فرق بين جواز اللعن على اليهود عموماً وبين جوازه على أشخاصهم، لأنه إن كان معناه طلب الثبات والاستمرار على الكفر على ما توهمه فلا يجوز مطلقاً، وإن كان المراد منه الإبعاد عن رحمة الله فالكل بعيد منها حالة اليهودية الأشخاص والأنواع، وجواز التوبة كما يمكن في حق الشخص يمكن في حق النوع، والقرب والبعد لا تتفاوت فيه أحكام الشريعة، وبالجملة النوع ليس إلا عبارة عن الأشخاص المجتمعة، والتفرقة بينهما سفسطة.

الثاني: أن قوله: فلا خطر في السكوت عن لعن إبليس فضلاً عن غيره، يظهر منه أن بينه وبين إبليس محابة وأخوة لا يرضى بلعنه، ولا غرو في ذلك لأنه قائد الضلال بوسوسته وهذا قائد الضلال بسفسطته، وهو كافر بالله، وهذا كافر بولاية وليّ الإله، فلهما اشتراك في المذهب، ومشاركة في المذاق والمشرب، وإلا فلم لا يرضى بلعنه مع أن استحقاق الكفار والظالمين للعن والطرد والإبعاد إنما هو لأجل الكفر والظلم، وهذا الملعون أول كافر بالله كما

يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وأيضاً فلنا برسول الله ﷺ أسوة حسنة، وكلما جرى على لسانه الشريف ذكر هذا الملعون أردفه بالطعن واللعن، فيجب لنا اتباعه ﷺ في أقواله وأفعاله، ولو كان السكوت عن لعنه حسناً لم يتخذه ﷺ سنّة.

مع أن التبرّي من أولياء الضلال ظاهراً وباطناً بأي نحو كان واجب، واللعن من جملة أنحاء التبرّي كالإهانة والإذلال والتوهين والسب والإزراء ونحوها.

الثالث: ما قاله في حق يزيد اللعين ابن اللعين من أنه لم يثبت كونه آمراً بقتل الحسين عليه السلام دليل على جهله بكتب التواريخ والسير التي صنّفها علماؤهم فضلاً عن علمائنا، إذ لم ينكر أحد منهم ذلك ولا خلاف بينهم في أن يزيد ولّى ابن زياد عليه اللعنة والعذاب على العراقين لهذا الغرض، وأنه أنهض العساكر وعبّأ الجيوش والكتائب لقتاله سلام الله عليه وأمره بالقتل أو البيعة فآل الأمر إلى ما آل.

وقد قيل لبعض القضاة: كيف يستحق يزيد اللعن على قتل الحسين بن علي وكان في الشام وقُتل هو بالعراق؟ فأنشد:

سهم أصاب وراميه بذي سلم ... من بالعراق لقد أبعدت مرماك

فإذا ثبت أمره بقتله ثبت وجوب لعنه، لأن فرط محبة رسول الله ﷺ للحسين ولأخيه الحسن عليهما السلام ومزيد اختصاصهما به غني عن البيان، مستغن عن البينة والبرهان.

وقوله ﷺ فيهما: «من أبغضهما أبغضته ومن أبغضته أبغضه الله وأصلاه جهنم وساءت مصيراً»، رواه المحدثون فأوجب النار في بغضهما فكيف لقتلهما؟[1].

وقد روت الخاصة والعامة حتى الغزالي قوله ﷺ فيهما: «هما وديعتي في أمتي»[2].

ورووا أيضاً قوله ﷺ: «اللهم إني أستودعكهما وصالح المؤمنين»[3].

وقوله ﷺ: «أنا من حسين وحسين مني» إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره[4].

ويدل ذلك كله على أنه ﷺ يؤذيه ما يؤذي الحسين عليه السلام فضلاً عن قتله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ

(١) الإرشاد للمفيد: ٢/٢٨، وذخائر العقبي: ١٢٣، فضائل الصحابة لأحمد: ٢/٢٠، ومسند أحمد: ٢/٢٨٨.

(٢) البحار: ٤٣/٢٨٥ ح ٥٠.

(٣) مجمع الزوائد ٩/١٩٤، والمعجم الكبير للطبراني: ٥/١٨٥.

(٤) راجع تاريخ دمشق: ٥٤/٣٣١، وسير أعلام النبلاء: ٤/١١٥.

رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١] كما في آية التوبة، وفي آية الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [٥٧].

الرابع: قوله: لا يجوز نسبة المسلم إلى كبيرة من غير تحقيق.

أقول: هذا مسلّم ولكن كفر يزيد وظلمه وارتكابه ما لم يرتكبه أحد من الكفار بلغ مبلغ اشتهار الشمس في رابعة النهار، لأن زمان ذلك الملعون كان كله ظلماً وفتنة، فإنه بعد قتل الحسين عليه السلام وقتل من قتل معه جهّز الجيوش إلى ابن الزبير وبعث بها إليه مع عقبة بن مسلم إلى مدينة الرسول ﷺ وهي حرمه الذي حرّمه كما أن إبراهيم حرّم مكة، ولعن رسول الله ﷺ من أحدث في المدينة حدثاً فقتل أهلها، وأباح قتلهم ثلاثة أيام يقتل فيها الرجال ويسبي النساء وتُنتَهب الأموال، ثم سار إلى مكة فمات في طريق مكة لعنه الله تعالى، فولىٰ يزيد ابن الحصين مكانه، فانتهى إلى مكة فأباحها وأضرم النار في أستار الكعبة فاحترقت وأحرق سقفها وسقط جدارها وهي حرم الله الذي حرّمه وعظّمه غاية التعظيم، وقال في حقه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ولم يقدم المشركون مع شركهم ولا أهل الجهالة على جهالتهم على أدنى شيء مما فعل تعظيماً له ورعاية لحرمته، ومن هذا شأنه فكيف يكون مسلماً؟.

نعم، هذا الملعون كأبيه وجده معاوية وأبي سفيان الملعونين، أظهر الإسلام توسلاً به إلى إرابه وأبطن الكفر وقد نقل أنه ذكر عنده رسول الله ﷺ يوماً فقال الملعون:

تلاعب بالبرية هاشميّ ... بلا وحي أتاه ولا كتاب

وهذا منه قدح قديح في النبوّة وسنذكر مثله منه في الأشعار الآتية.

الخامس: أن قوله: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة فيه: أن مجرد الاحتمال غير كاف في ارتفاع اللعن والطرد والويل والنكال.

وكيف يكون تائباً وقد صدر منه بعد قتله سلام الله عليه ما هو أعظم خزياً من الحركات الشنيعة في حق العترة الهاشمية من سبي الحريم والنساء وأمره بأن يسار بهم في سكك الشام على أقتاب بغير وطاء سوق السبايا والإماء ثم إحضارهم إلى مجلسه مكرراً ابتهاجاته وفخره وسروره.

ويكشف عن عدم ندمه مضافاً إلى هذا وضعه الرأس الشريف بين يديه وتمثله بقول ابن الزبعري:

لـيـت أشـيـاخـي بـبـدر شـهـدوا　　جـزع الـخـزرج مـن وقـع الأسـل
لأهـلّـوا واسـتـهـلّـوا فـرحـاً　　ثـم قـالـوا يـا يـزيـد لا تـشـل
لـسـت مـن خـنـدف إن لـم أنـتـقـم　　مـن بـنـي أحـمـد مـا كـان فـعـل
لـعـبـت هـاشـم بـالـمـلـك فـلا　　خـبـر جـاء ولا وحـي نـزل

أفي حقّ من يتلك الأشعار يتمثل يجوّز الندم ويحتمل ولنعم ما قال ابن هاني المغربي:

بـأسـيـاف ذاك الـبـغـي أول سـلـهـا　　أُصـيـب عـلـيّ لا بـسـيـف ابـن مـلـجـم
وبـالـحـقـد حـقـد الـجـاهـلـيـة أنـه　　إلـى الآن لـم يـذهـب ولـم يـتـصـرّم

فلعن الله تعالى على يزيد بن معاوية عدد الحجر والمدر والنبات والشجر وعلى المتعصبين له من أمثال الغزالي اللعين ذوي الأنفس الخبيثة، والعقول المختلّة، والعقائد الفاسدة، والهمم الساقطة، والأديان المدخولة، والأحلام الطائشة، والأقوال الواهية، والقلوب التي لا تهتدي إلى رشاد، والعيون التي لا تنظر إلى سداد، وقد غطى عليها الغين، وفيهم يقال: أعمى القلب والعين، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً.

الثاني من أغلاط الغزالي

دعواه أنه يستفيد من الملائكة والأنبياء ومشاهدته لهم على وجه القطع كلما يريد.

وعلى ذلك الغلط جرت سيرة الصوفية فإنك ترى كثيراً منهم يستندون ما يأفكون إلى الأنبياء والرسل، ويدعون رؤيتهم إما بالكشف والشهود، وإما في المنام، بل ربما يترقى بعضهم ويدّعي رؤية الله تعالى ظاهراً بحسّ البصر، ولا بأس بنقل بعض خرافاتهم.

فأقول: من أعظم مشايخ هذه الفرقة محيي الدين الملحد والغزالي الناصب وقد نقلنا من كلام الأول فيما سبق كثيراً.

وأعظم مما مر كله ما نقله أبو الفتح محمد بن مظفر الدين المعروف بالشيخ المكي في كتابه المسمى بـ **(الجانب الغربي في حل مشكلات ابن العربي)** قال في محكى كلامه من خاتمة الكتاب المذكور عند ذكر كراماته.

ومنها أن الشيخ ـ يعني محيي الدين ـ قال: كان محبوبي يتجسد لي كما أن جبرئيل يكون مجسداً لرسول الله وأنا لا أقدر على النظر إليه، وكان يتكلم إليّ وأنا أسمع كلامه وأفهمه، وكانت مشاهدته تمنعني من الغذاء عدة أيام، وكلما أحضرت المائدة كان يقف في جانب منهاويقول بلسان أسمعه: تأكل وأنت تشاهدني، وكان ذلك مانعاً لي من الطعام، وما

كنت أجد ما كان بي من الجوع وكان النظر إليه عوضاً عن الغذاء والماء، وهكذا كان حالي في أكثر الأيام لا أذوق فيها شيئاً ولا يكون محبوبي غائباً عن نظري، وكان يقوم لقيامي ويقعد لقعودي، انتهى.

وهذه منه دعوى مشاهدة الرب تعالى وتقدّسه بالصورة الجسمية بعين الكشف ولا يبعد أن شيطانه تجسد له ليحكم إغواءه ويشدّد إضلاله حسبما نشير إلى تفصيله تحقيقاً إن شاء الله.

وأما رؤيته للنبي ﷺ فقد ادّعاه في (**ديباجة الفصوص**) حيث قال:

أما بعد، فإني رأيت رسول الله في مبشرة أُريتها في العشر الآخر من المحرم لسنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده كتاب فقال لي: هذا كتاب «**فصوص الحكم**» خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا.

وادعى أيضاً رؤيته ورؤية سائر الأنبياء جميعاً في الفص الهودي قال هناك:

واعلم أنه لما أطلعني الحق وأشهدني أعيان رسله وأنبيائه كلهم البشريين من آدم إلى محمد صلوات الله عليهم أجمعين في مشهد أقمت فيه بقرطبة سنة ست وثمانين وخمسمائة ما كلمني أحد من تلك الطائفة إلا هود عليه السلام فإنه أخبرني بسبب جمعيتهم ورأيته رجلاً ضخماً في الرجال حسن الصورة لطيف المحاورة عارفاً بالأمور كاشفاً لها.

قال القيصري: قيل: كان سبب جمعيتهم إنزاله مقام القطبية ليكون قطب الأقطاب في زمانه وكلام هود عليه السلام بشارته أنه خاتم الولاية المحمدية ووارث الأنبياء والمرسلين كما ذكره من نفسه في مواضع من فتوحاته تصريحاً وتلويحاً.

وأما رؤية الغزالي للرسول ﷺ فقد نقل عن (**شرح المثنوي**) أنه قال:

إن الإمام أبا حامد الغزالي المشهور قال لأخيه أحمد الغزالي يوماً: نِعْم الفقيه أنت لو اجتهدت في الشريعة أكثر من هذا، فقال له الشيخ أحمد: ونعم العالم أنت لو اهتممت في الحقيقة أكثر من هذا، فقال الإمام: أزعم أن لي السبق في مضمار الحقيقة، فقال الشيخ: متاع التصور والحسبان ليس كثير الرواج في سوق الأسرار، فقال: وليكن بيننا حكم، فقال الشيخ: وحكم هذا الطريق رسول الله ﷺ، فقال الإمام: وكيف لنا به ﷺ حتى نرى مكانه ونسمع بيانه؟ قال: ولم يجد حظاً من الحقيقة من لم يره حيث أراد ولم يسمع من أسراره وحقائقه فاشتعلت من أثر هذا الملام نائرة الغيرة في باطن الإمام.

ثم إنهما جعلا رسول الله ﷺ حكماً لأنفسهما وافترقا، حتى إذا جاء الليل أخذ كل منهما طريق تعبّده.

فبالغ الإمام في التضرّع والبكاء والتوسل إلى أن سخنت عيناه، فرأى أن رسول الله ﷺ دخل عليه مع رجل من أصحابه وبشّره بشرف المعرفة بهذا الأمر وكان على يدي ذلك الصحابي طبق من الرّطب، ففتح عن طرف منه وأعطاه من ذلك تميرات، فلما أفاق الإمام رأى تلك التميرات موجودة في يده على خلاف سائر مناماته، فقام مبتهجاً مسروراً إلى حجرة أخيه، وجعل يدق الباب بقوته، فإذا هو يقول من وراء الباب: لا ينبغي مثل هذا العُجب والدلال على تُميرات معدودة.

فزاد تحيّر الإمام من دهشة هذا القول، فلما دخل على أخيه قال: وكيف علمت ما لحقني من التشريف؟ فقال الشيخ: ولم يعطك رسول الله ﷺ ما أعطاك حتى لم يعرضه عليّ سبع مرات، وإن لم تصدقني في ذلك فقم إلى رفّ الحجرة وانظر ماذا ترى؟.

فلما قام الإمام رأى ذلك الطبق الذي كان على يدي الصحابي هناك وقد نقص من طرف منه بمقدار تلك التميرات، فعلم أن ما بلغه منه أيضاً كان من بركات أنفاس الشيخ.

ثم أنه أخذ في طريقة السير والسلوك واستكشاف أسرار الحقائق إلى أن صار مقتدى أصحاب الطريقة بلا كلام، انتهى.

أقول: هذه القصة إما مجعولة من ناقلها، أو من المنامات الشيطانية وإلا فكيف يتصور من رسول الله ﷺ عنايته ومودته لمن حادّ الله ورسوله؟ وقد منع الله سبحانه المؤمنين من موادّتهم وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ومن أعظم محادّة لله تعالى ولرسوله من الناصب المتعنت؟ وقد علمت نصب أبي حامد الغزالي بما لا مزيد عليه ونصب أخيه أحمد يعلم مما ذكره القاضي نور الله في مجالس المؤمنين عند ترجمة أخيه أبي حامد، بل قد علمت سابقاً كفره وإلحاده حيث حكينا عنه تعصبه لإبليس عليه اللعنة وتسميته له: بسيد الموحّدين وغير ذلك من ترهاته.

وكم للصوفية من دعوى أمثال تلك المكاشفات وادعاء مشاهدة النبي والأئمة ﷺ إما بالرؤية أو بالرؤياء.

وأعظم من ذلك دعوى رؤساء كل طبقة والكملين منهم على زعمهم تجلي الرب تقدس وتعالى فيهم ومعاينتهم له سبحانه بالكشف والشهود، مع أن بعضهم مؤمن وبعضهم ملحد وبعضهم شيعي وبعضهم سنّي، والشيعي أيضاً بعضهم إمامي وبعضهم غير إمامي، والسني بعضهم ناصبي وبعضهم غير ناصبي.

على أن كلاً من هذه الفرق على اختلاف مذاهبهم ولعن بعضهم بعضاً وتبريء بعضهم

من بعض مشاربهم في السير والسلوك والرياضات والأوراد والأذكار والعبادات المبتدعة أيضاً مختلفة.

فبعضهم جلاليّ، وبعضهم خاكساري، وبعضهم نقشبندي، وبعضهم طيفوري، وبعضهم نعمة اللهيّ، وبعضهم ذهبي، وبعضها سفاريّ إلى غير هذه من سلاسلهم الكثيرة، وكل سلسلة يخطيء السلسلة الأخرى، فلو كانت هذه المكاشفات التي يدّعيها الكل صحيحة صادقة لصحت مذاهب هذه الفرق كلها ولم تكن الناجية منحصرة في واحدة.

مع أن رسول الله ﷺ قال في الحديث الذي رواه الكل: «إن أمة موسى افترقت بعده على إحدى وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية وسبعون في النار، وافترقت أمة عيسى بعده على اثنتين وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية وإحدى وسبعون في النار، وإن أمتي ستفترق بعدي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية واثنان وسبعون في النار»[١].

فعلم بذلك كله أن ما يدعون كله تدليس وتلبيس وتمويه وتخريق وتزويق كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب.

فإن قيل: سلمنا هذا كله ولكن يستبعد جداً اتفاق هؤلاء على كثرتهم على الكذب في دعوى المعاينة.

قلت: هو كذلك ولكن مرجع تلك الدعوى إلى أحد أمور:

الأول: أنهم بما اعتادوه من تحمل المشاق والرياضات المبتدعة والجلوس في بيت مظلم أربعين يوماً والتزام ترك الحيواني ونحو ذلك ربما يحصل لهم خبط وتغير مزاج مضافاً إلى شرب بعضهم للبنج ونحوه من الأدوية المسبتة، فيوجب ذلك الاختراعات الخيالية فيتوهم المتخيل محسوساً مع أنه لا أصل له كالسراب الذي يراه الناظر من بعد ماءً.

وقد أشار إلى ذلك النفيسي في (**شرح الأسباب**) حيث قال: وقد يبلغ الفساد في بعضهم إلى حد يظن أنه يعلم الغيب وكثيراً ما يخبر بما سيكون قبل كونه، وقد يبلغ الفساد في بعضهم إلى حد يظن أنه صار ملكاً، وقد يبلغ في بعضهم إلى أعلا من ذلك فيظن أنه الحق تعالى عن ذلك، وأكثرهم يرون أنهم يلزمون التقوى وحسن السيرة بتوحشهم وانصرافهم عن الناس، وقال بعد شطر من كلامه: قد عرض هذا المرض لكثير من الفلاسفة كأفلاطون ونظرائه.

وقال الطبري: قد رأيت جماعة من الأفاضل تفردوا بأنفسهم وتركوا الاشتغال بغير

---

(١) كفاية الأثر: ١٥٥، وأمالي المفيد: ٢١٣، ومسند أحمد: ٢/ ٢٣٢.

العلوم ولزموا مجانبة الناس فاحترقت أخلاطهم وحدث بهم الماليخوليا، منهم الفارابي فإنه كان لا يختلط بالناس ويتجنبهم وإذا عاب إنساناً عابه بأنه يجالس العامة والسوقة، فحدث به ضرب من الماليخوليا، كان يخرج إلى السوق ويقعد ويهذي بالمنطقيات ويلعب به الصبيان والسوقة، انتهى مجملاً.

الثاني: أنهم لانحرافهم عن النهج القويم وعدولهم عن الصراط المستقيم وأخذهم بالبدعات وركوبهم للضلالات، شملهم من الله الخذلان، وتراءى لهم الشيطان وتجسم في نظرهم وحضر في مجلسهم وتكلّم معهم وخاطبهم، فأسمعهم وتلاطف بهم تثبيتاً لما أسسوه من بنيان الزيغ والضلال، وتشييداً لما أقاموه من أركان الوزر والوبال.

وقد أشار إلى ذلك الشيخ علي سبط الشهيد الثاني قدّس الله روحهما في محكي كلامه من كتابه المسمى بـ **(السهام المارقة من أغراض الزنادقة)** حيث قال: نعم لا يبعد أن الشياطين تتراءى لهم في صور مختلفة فربما يغويهم الشيطان ويقول لهم: أنا إمامكم بل أنا إلٰهكم، وحضور الجن والشياطين عند أهل الرياضيات والتسخير وغيرهم شائع مشهور ولا بعد فيه من جهة العقل والنقل.

وفي الأحاديث تكررت تشكّل الجن بأشكال بني آدم فاستبعاد هذا أو نفيه نفي واستبعاد لكمال قدرته تعالى وردّ لأحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام.

قال: وحكى في بلادنا جماعة عن رجل قريب من هذا العصر أن أباه كان يخبر بأخبار البلاد المتباعدة وما يقع بها ويرسل كتابات يصل من مثل الشام إلى مكة في أوقات يسيرة يعلم ذلك من تاريخها، وكان الناس يتعجبون من ذلك ونحوه، فلما توفّي الأب أخبر الولد أن بعد وفاة أبيه جاء شخص بصورة عبد أسود طويل فقال له: أنا كنت خادماً لأبيك في حياته فإن أردت أن أكون لك كما كنت لأبيك فعلت إن تقوم بشرط كان بيني وبينه، وهو أني شرطت عليه أن يسجد لي دون الله فقبل وفعل، فامتنع الولد من ذلك فانصرف ولم يره بعده، نقل جماعة وأظن أن بعضهم حكى أنه أدرك ذلك الولد.

قال «ره» ولا بعد أيضاً في أنه يحصل لهم خبط وتغير مزاج بحيث يرون ما يوهم مثل ما يدّعون، وقد ينضم إلى ذلك تناول كثير من التراكيب المغيّرة للمزاج الباعثة على مثل ذلك ونحوها من المغيّرات، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: ما قاله قدّس سره من ترائي الشياطين لهم في صور مختلفة فهو نص الكتاب الكريم والأخبار الكثيرة الدالة على ظهورهم وترائيهم لأولياء الضلال، قال سبحانه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

[الشعراء: ٢٢١ـ ٢٢٣]، أي تنزّل الشياطين على كل كذّاب فاجر كثير الإثم.

قال الطبرسي: يلقون السمع معناه أن الشياطين يلقون ما يسمعونه إلى الكهنة والكذابين ويخلطون به كثيراً من الأكاذيب ويوحونه إليهم.

وفي (**الصافي**): أي الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون منهم ظنوناً وإمارات لنقصان علمهم فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها، انتهى[1].

ولعمري أن الصوفية هم أظهر مصاديق هذه الآية، وكذا الآية الأخرى في سورة الجاثية وهو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [٧ـ ١٠].

ومن أحاط خبراً بما قدمناه من إفك ابن العربي وأباطيله الكثيرة كدعاويه رؤية النبي ﷺ وتجلّي الحق فيه وإسرائه إلى السماء وتلقّيه الأحكام من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسل، وادعائه أنه خاتم الولاية واستهزائه بآيات الله وتأويله لها على المعاني الباطلة وتصحيحه لعبادة من دون الله من الأصنام والأوثان إلى غير ذلك مما قدمناه نقله منه، عرف أن ذلك الملحد أظهر مصاديق تلك الآية.

وأما الأخبار فمنها ما رواه في (**الكافي**) عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث طويل قال: ليس من يوم وليلة إلا وجميع الجن والشياطين تزور أئمة الضلال ويزور إمام الهدى عددهم من الملائكة حتى إذا أتت ليلة القدر فيهبط فيها من الملائكة إلى وليّ الأمر خلق الله أو قال: قيض الله عز وجل من الشياطين بعددهم، ثم زاروا أولي الضلالة فأتوه بالإفك والكذب حتى لعله يصبح فيقول: رأيت كذا وكذا، فلو سئل وليّ الأمر عن ذلك لقال: رأيت شيطاناً أخبرك بكذا وكذا حتى يفسّر له تفسيراً ويعلمه الضلالة[2].

ومنها أن الحسن البصري، وهو رئيسهم، مر به أمير المؤمنين بعد حرب الجمل وهو يتوضأ فقال عليه السلام: يا حسن أسبغ الوضوء، فقال: يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويصلّون الخمس ويسبغون الوضوء، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: قد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدوّنا؟ فقال: والله لأصدقنّك يا أمير المؤمنين، لقد خرجت في أول يوم فاغتسلت وتحنّطت وصببت عليّ

---

(١) البحار: ٩/ ١٣٣، وتفسير الصافي: ٤/ ٥٥.

(٢) الكافي: ١/ ٢٥٣ ح ٩.

سلاحي وأنا لا أشك في أن التخلّف عن أمّ المؤمنين كفر، فلما انتهيت إلى موضع من الخربية نادى منادياً: حسن إلى أين؟ ارجع، فإن القاتل والمقتول في النار، قال علي عليه السلام: صدقت، أفتدري من ذلك المنادي؟ قال: لا، قال عليه السلام: أخوك إبليس وصدقك أن القاتل والمقتول منهم في النار(١).

وقد مر رواية ذلك الحديث بتمامه من الاحتجاج عن ابن عباس في شرح المختار الثالث عشر فليراجع هناك.

ويفهم منه أن الشياطين ربما ينادون أولياءهم ويخاطبونهم من غير أن يظهروا لهم.

ويدل على ذلك ما قدمنا روايته في التذييل الثاني من شرح الفصل الثاني من فصول المختار المائة والحادي والثمانين عن أمير المؤمنين عليه السلام في قصة أصحاب الرّس بعدما ذكر أنه كانت لهم اثنتي عشرة قرية وفي كل منها صنوبرة يعبدونها.

قال عليه السلام: وقد جعلوا في كل شهر من السنة في كل قرية عيداً يجتمع إليه أهلها فيضربون على الشجرة التي فيها كلّة من حرير فيها أنواع الصور، ثم يأتون بشاة وبقر يذبحونها قرباناً للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتارها في الهواء وحال بينهم وبين النظر إلى السماء خرّوا سجداً يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم، فكان الشيطان يجيء فيحرك أغصانها ويصيح من ساقها صياح الصبي أن قد رضيت عنكم فطيبوا نفساً، فيرفعون رؤوسهم عند ذلك إلى أن قال عليه السلام: حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم فضربوا عند الصنوبرة والعين سرادقاً من ديباج عليه من أنواع الصور وجعلوا له اثني عشر باباً كل باب لأهل قرية منهم ويسجدون للصنوبرة خارجاً من السرادق ويقرّبون لها الذبائح أضعاف ما قرّبوا للشجرة في قربتهم، فيجيء إبليس عند ذلك فيحرك الصنوبرة تحريكاً شديداً ويتكلم من جوفها كلاماً جهورياً، ويعدهم ويمنّيهم بأكثر ما وعدتهم ومنّتهم الشياطين كلها، فيرفعون رؤوسهم عن السجود ولهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون ولا يتكلمون، الحديث، والأخبار في هذا المعنى كثيرة ولا حاجة إلى الإطالة(٢).

الثالث: تعمد بعضهم في الكذب والإفك وادعائه ما ليس له أصل أصلاً.

فإنهم لانحرافهم عن جادة الشريعة وضلالهم عن الحق وإضلالهم كثيراً من العوام كالأنعام والرعاع الذين يصغون إلى كل ناعق بما أظهروه من خوارق العادات التي نشير إلى

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٥١، والبحار: ٣٢/ ٢٢٦ ح ١٧٥.

(٢) علل الشرائع: ١/ ٤١، باب ٣٨ ح ١، والبحار: ٥٦/ ١١٠ ح ٧.

منشئها إن شاء الله، نسبوا إلى أنفسهم ما لا أصل له من رؤية الأنبياء والأئمة ﷺ، تثبيتاً لمتابعيهم المفتتن بهم على ما اعتقدوه في حقهم من مقام القطبية والولاية[1].

---

(١) **انحصار القطبية والخلافة الباطنية بأهل البيت (عليهم السلام)**

قال أبو بكر الحضرمي: بل ذهب بعض العلماء الى ان المجدد الذي يبعث على رأس كل مائة سنة لا يكون إلاّ من أهل البيت مستدلا بحديث أحمد بن حنبل الآتي .

وقد ذكر ذلك الجلال السيوطي قدس الله سره في منظومة له ذكر فيها المجددين قال: (وان يكون في حديث قد روي من أهل بيت المصطفى وهو قوي، والحديث المذكور هو ما أخرجه ابن عساكر من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل رضي الله عنهما قال: سمعت أبي يقول: رويت عن النبي ﷺ انه قال :

« يقيض الله في رأس كل مائة سنة رجلا من أهل بيتي يعلم امتي الدين ».

وأخرج أبو سعيد الهروي من طريق حميد ابن زنجويه قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يروى في الحديث عن النبي ﷺ :«ان الله يمن على أهل دينه في رأس كل مائة سنة برجل من أهل بيتي يبين لهم أمر دينهم» (حلية الاولياء: ٩ / ٩٧ ترجمة الشافعي بسنده الى أحمد، والمشرع الروي: ١ / ٢٠ عن أحمد).

وقال الحافظ جلال الدين المذكور: وأقول: ان الرواية المقيدة بقوله :« من أهل بيتي »وان كانت غير معروفة السند ؛ فإن أحمد أوردها بغير اسناد، ولم يوقف على اسنادها في شيء من الكتب ولا الاحاديث، إلاّ انها في غاية الظهور من حيث المعنى، فإن القائم في هذا المنصب الشريف جدير بان يكون من أهل البيت النبوي، وهو نظير قول من اشترط في القطب ان يكون من أهل البيت .

إلاّ ان القطب من شأنه غالباً الخفاء وعدم الظهور، فإذا لم يوجد في الظاهر من أهل البيت من يصلح للاتصاف حمل على انه قام بذلك رجل منهم في الباطن .

واما القائم بتجديد الدين فلابد ان يكون ظاهراً حتى يسير عمله في الآفاق وينشر في الاقطار، ولا يمكن ان يقال في المئات السابقة: لعل رجلا من أهل البيت قام بذلك في الباطن، لان ذلك غير مقصود الحديث والحاصل ان الاوجه من حيث المعنى ان المناصب الثلاثة لا يقوم بها إلاّ رجل من أهل البيت :

. منصب الخلافة الظاهرة وهي القيام بامر الإمام .

. ومنصب الخلافة الباطنة وهي القطبية .

. ومنصب تجديد الدين على رأس كل مائة سنة .

ولكن يبقى النظر في تحرير المراد بأهل البيت، فإن اراد ﷺ بقوله: «رجل من أهل بيتي »أي من قريش، كما هو المراد في الخلافة الظاهرة اتسع الامر وسهل، وحينئذ فلا يعدم واحد من المذكورين ان يكون قرشياً» (رشفة الصادي ١٢٦).

وأخرج علي بن حميد في مسنده عن أمالي أبي طالب بسنده الى علي قال: قال النبي: «عند كل بدعة تكون من بعدي يُكاد بها الايمان ولياً من أهل بيتي موكلاً يذب عنه الحق وينوره ويرد عنه كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الابصار وتوكلوا على الله» . مسند شمس الاخبار: ١ / ١٣٣ الباب السادس عشر .

أقول: ذكر انحصار القطبية بهم كل من السمهودي والسفاريني وابن حجر والعلامة الصبان والقطب الشعراني . جواهر العقدين: ٢٠٦ ، واسعاف الراغبين: ١٩٢ بهامش نور الابصار، ولوامع انوار الكوكب: ٢ / ٧١، والاتحاف بحب الاشراف: ٢٠، ودرر الغواص للشعراني: ٩٦ المطبوع بهامش كتاب الابريز ط. مصر ١٣٠٦ الاولى .

* قال الامام الفاروقي مجدد الالف الثاني: القطبية لم تكن على سبيل الاصالة الاّ لائمة أهل البيت

ونظير ذلك ما نقل من أن أبا الطيب المتنبي الشاعر المعروف ادعى لنفسه النبّوة بحبسه للمطر، فافتتن به كثير من أهل أطراف الشام.

نقل عن الخطيب التبريزي أنه قال في **(شرح ديوان أبي الطّيب)**: قال أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي، قدم المتنبي اللاذقية في سنة نيّف وعشرين وثلاثمائة، وضوى إليّ فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته، فلما تمكّن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه وأعجبني ما رأيت، قلت: والله إنك لشاب خطر تصلح لمنادمة ملك كبير، فقال لي: ويحك أتدري ما تقول؟ أنا نبي مرسل، فظننت أنه يهزل، ثم ذكرت أني لم أحصّل عليه كلمة هزل منذ عرفته، فقلت له: ما تقول؟ فقال: أنا نبي مرسل، فقلت له: مرسل إلى من؟ قال: إلى هذه الأمة الضالة المضلّة، فقلت: تفعل ماذا؟ قال: أملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً، فقلت: بماذا؟ قال: بإدرار الأرزاق والثواب العاجل والآجل لمن أطاع وأتى، وضرب الأعناق وقطع الأرزاق لمن عصى وأبى، فقلت: إن هذا أمر عظيم أخاف منه عليك وعذلته على قوله، فقال بديهاً:

أيا عبد الإله معاذ أنّي ... خفيّ عنك في الهيجا مقامي

القطعة، فقلت له: ذكرت أنك نبي مرسل إلى هذه الأمة أفبوحي يوحى إليك؟ قال: نعم، قلت: فاتل عليّ شيئاً من الوحي إليك، فأتى بكلام ما مر بسمعي أحسن منه، فقلت: وكم أوحي عليك من هذا؟ فقال: مائة عبرة وأربع عشر عبرة، فقلت: وكم العبرة؟ فأتى بمقدار أكبر الآي من كتاب الله تعالى، فقلت: ففي كم مدة أوحي إليك؟ قال: جملة واحدة، قلت: فاسمع في هذه العبرات كل طاعة في السماء فما هي؟ قال: حبس المدرار لقطع

المشهورين، ثم انها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة ... فاذا جاء المهدي ينالها أصالة كما نالها غيره من الائمة. تفسير روح المعاني: ١٢ / ٢٨ مورد اية التطهير.

* وقال العلامة الالوسي: قطب الاقطاب لا يكون الا منهم لانهم أزكى الناس اصلاً وأوفرهم فضلاً، وأن من ينال هذه الرتبة منهم لا ينالها الا على سبيل الاصالة دون النيابة والوكالة؛ وأنا لا اتعقل النيابة في ذلك المقام. تفسير روح المعاني: ١٢ / ٢٨ مورد اية التطهير.

* وقال الحكيم الترمذي: ... وقوله« أهل بيتي أمان لامتي »فأهل بيته من خلفه من بعده على منهاجه، وهم الصديقون والابدال .... فاذا ماتوا فسدت الأرض وخربت الدنيا ....؛ فعلم أن المراد به من به تقوم الدنيا، وهم أعلامُهُ وأدلةُ الهدى في كل وقت، فاذا تفانوا لم يبق للأرض حرمة؛ فعمهم بالبلاء. نوادر الاصول للحكيم الترمذي: ٣ / ٦٣ . ٦٦ الاصل الثاني والعشرون والمائتان.

* وقال الشيخ الرفاعي: شاع وذاع في سائر البقاع من أن أكابر الاولياء والاقطاب والاوتاد والانجاب والافراد والاحباب من آل هذا النبي الاواب، واتفقت كلمتهم قديماً وحديثاً أن رئيس الاقطاب الملقب بالغوث لا يكون إلاّ من الآل بلا ريب ولا اشكال، ولا شك في أن الغوث هو الذي يتلقى خلعة الولاية من رسول الله ويوصلها الى من اختاره الله. ضوء الشمس: ١ / ١١٩.

أرزاق العصاة والفجار، قلت: أتحبس من السماء قطرها؟ قال: أي والذي فطرها أفما هي معجزة؟ فقلت: بلى والله، قال: فإن حبست ذلك عن مكان تنظر إليه ولا تشك فيه هل تؤمن بي وتصدّقني على ما أتيت به من ربّي؟ قلت: أي والله، قال: سأفعل فلا تسألني عن شيء بعدها حتى آتيك بهذه المعجزة ولا نظهر شيئاً من هذا الأمر حتى يظهر، وانتظرت ما وعدنيه من غير أن أسأله.

فقال لي بعد أيام: أتحب أن تنظر إلى المعجزة التي جرى ذكرها؟ فقلت: بلى والله، فقال لي: إذا أرسلت أحد العبيد فاركب معه ولا تؤخّر ولا يخرج معك أحد، قلت: نعم.

فلما كان بعد أيام تغيّمت السماء في يوم من أيام الشتاء وإذا عبده قد أقبل فقال: يقول اركب للوعد، فبادرت بالركوب معه وقلت: أين ركب مولاك؟ قال: إلى الصحراء، ولم يخرج معه أحد غيري. واشتدّ وقع المطر فقال: بادر بنا حتى نستكنّ معه من هذا المطر فإنه ينتظرنا بأعلى تل لا يصيبه فيه المطر، قلت: وكيف عمل؟ قال: أقبل ينظر إلى السماء أول ما بدأ السحاب الأسود وهو يتكلم بما لا أفهم ثم أخذ السوط فأدار به في موضع ستنظر إليه من التلّ وهو يهمهم والمطر مما يليه ولا قطرة منه عليه.

فبادرت معه حتى نظرت إليه وإذا هو على تلّ على نصف فرسخ من البلد فأتيته وإذا هو قائم ما عليه من ذلك المطر قطرة واحدة وقد خضت في الماء إلى ركبتيّ الدابة والمطر في أشد ما يكون، ونظرت إلى مائتي ذراع في مثلها من ذلك التل يابس ما فيه ندى ولا قطرة مطر، فسلمت عليه فرد عليّ فقال لي: أترى؟ قلت: ابسط يدك فإني أشهد أنك رسول الله، فبسط يده فبايعته بيعة الإقرار بنبوّته.

ثم قال لي: ما قال هذا الخبيث لما دعى بك؟ يعني عبده، فشرحت له ما قال لي في الطريق لما استخبرته، فقتل العبد وقال وقد جاوز حد الإساءة:

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق محتقر في همّتي كشعرة في مفرقي

وأخذت بيعته لأهلي، ثم صح بعد ذلك أن البيعة قد عمت كل مدينة بالشام، وذلك بأصغر حيلة تعلّمها من بعض العرب وفي صدحة المطر يصرفه بها عن أي مكان أحب بعد أن يحوي عليه بعصا وينفث بالصدقة التي لهم.

ورأيت لهم كثيراً منهم بالسّكون وحضرموت والسّاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاظمونه حتى أن أحدهم يصدح عن غنمه وإبله وبقره وعن القرية من القرى، فلا يصيبها من المطر قطرة ويكون المطر مما يلي الصّدقة، وهو ضرب من السحر، ورأيت لهم من السحر

ما هو أعظم من هذا وسألت المتنبي بعد ذلك: هل دخلت السّكون؟ فقال: نعم ووالدي منها أما سمعت قولي:

أمنسي السّكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

فقلت: ومن ثم استفاد ما جوّزه على طغام أهل الشام، وجرت له أشياء بعد ذلك من الحروب والحبس والانتقال من موضع إلى موضع حتى حصل عند سيف الدولة، انتهى.

أقول: وإلى مثل ذلك يرجع خرافات أكثر رؤساء الفرق الثلاث الضالة المضلّة: الصوفية، والشيخية، والبابيّة، خذلهم الله جميعاً، هذا كله تحقيق ما يتعلق بالمكاشفة بعنوان الشهود والرؤية والعيان.

وأما الكشف بالرؤيا والمنام وعليه مدار أكثر دعاوي المتصوّفة وأباطيلها حيث إن أعظم بضاعتهم: أريت البارحة وقد جرت عادتهم على أنهم ينقلون ما يرون في المنام إلى مرشديهم فيعبّره على ما هو مناسب لمذاق التصوّف.

فتحقيق الكلام فيه ما أفاده المفيد قدّس الله سره.

فقد روى في **(البحار)** من **(كنز الفوائد)** للكراجكي قال: وجدت لشيخنا المفيد رضي الله عنه في بعض كتبه أن الكلام في باب رؤيا المنامات غزير، وتهاون أهل النظر به شديد، والبلية بذلك عظيمة، وصدق القول فيه أصل جليل[1].

والرؤيا في المنام تكون من أربع جهات:

أحدها: حديث النفس بالشيء والفكر فيه حتى يحصل كالمنطبع في النفس فيخيّل إلى النائم ذلك بعينه وأشكاله ونتائجه، وهذا معروف بالاعتبار.

والجهة **الثانية**: من الطباع وما يكون من قهر بعضها لبعض، فيضطرب له المزاج ويتخيل لصاحبه ما يلائم ذلك الطبع الغالب من مأكول ومشروب ومرئي ومنكوح وملبوس ومبهج ومزعج، وقد ترى تأثير الطبع الغالب في اليقظة والمشاهد حتى أن من غلبت عليه الصفراء ويصعب عليه الصعود إلى المكان العالي يتخيّل إليه وقوعه منه ويناله من الهلع والزّمع ما لا ينال غيره، ومن غلبت عليه السوداء يتخيل به أنه قد صعد في الهواء وناجته الملائكة ويظن صحة ذلك حتى أنه ربما اعتقد في نفسه النبوة وأن الوحي يأتيه من السماء وما أشبه ذلك.

والجهة **الثالثة**: ألطاف من الله عزّ وجل لبعض خلقه من تنبيه وتبشير وإعذار وإنذار،

(١) كنز الفوائد: ٢١٠، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/ ٢٠٢.

فيلقي في روعه ما ينتج له تخيلات أمور تدعوه إلى الطاعة والشكر على النعمة وتزجره عن المعصية وتخوفه الآخرة ويحصل له بها مصلحة وزيادة فائدة وفكر يحدث له معرفة.

والجهة الرابعة: أسباب تأتي من الشيطان ووسوسته يفعلها الإنسان يذكّره بها أموراً تحزنه وأسباباً تغمّه وتطمعه فيما لا يناله أو تدعوه على ارتكاب محظور يكون فيه عطبه، أو تخيل شبهة في دينه يكون منها هلاكه، وذلك مختص بمن عدم التوفيق لعصيانه وكثرة تفريطه في طاعات الله، ولن ينجو من باطل المنامات وأحلامها إلا الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم ومن رسخ في العلم من الصالحين.

وقد كان شيخي رضي الله عنه قال لي: كل من كثر علمه واتسع قلّة مناماته فإن رأى مع ذلك منامات وكان جسمه من العوارض سليماً فلا يكون منامه إلا حقاً، ويريد بسلامة الجسم عدم الأمراض المهيجة للطباع وغلبة بعضها على ما تقدم به البيان، والسكران أيضاً لا يصح له منام وكذلك الممتلىء من الطعام لأنه كالسكران.

ولذلك قيل: إن المنامات قلّ ما تصح في ليالي شهر رمضان، فأما منامات الأنبياء فلا تكون إلا صادقة وهي وحي في الحقيقة ومنامات الأئمة جارية مجرى الوحي وإن لم تسمّ وحياً ولا تكون قط إلا حقاً وصدقاً وإذا صح منام المؤمن لأنه من قبل الله كما ذكرناه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رؤيا المؤمن جزء من سبعة وسبعين جزء من النبوة»[1].

وروى عنه ﷺ أنه قال: «رؤيا المؤمن تجري مجرى كلام تكلم به الرب عنده»[2].

فأما وسوسة شياطين الجن فقد ورد السمع بذكرها، قال الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝﴾ [الناس: ٤ـ٦]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وما ورد به السمع فلا طريق إلى دفعه.

فأما كيفية وسوسة الجنّي للأنسي فهو أن للجنّ أجسام رقاق لطاف فيصح أن يتوصل أحدهم برقة جسمه ولطافته إلى غاية سمع الإنسان ونهايته فيوقّر فيه كلاماً يلبّس عليه إذا سمعه ويشبّه عليه بخواطره، لأنه لا يرد عليه ورود المحسوسات من ظاهر جوارحه ويصح أن

(١) الموطأ لمالك: ٢/٩٥٦، وعيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/٢٨٨.

(٢) كنز الفوائد: ٢١١، والبحار: ٥٨/٢١٠.

يفعل هذا بالنائم واليقظان جميعاً وليس هو في العقل مستحيلاً.

وروى جابر بن عبد الله أنه قال: بينا رسول الله ﷺ يخطب إذ قام إليه رجل فقال: يا رسول الله إني رأيت كأن رأسي قد قطع وهو متدحرج، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تحدث بلعب الشيطان بك». ثم قال: «إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدثن به أحداً»(١).

وأما رؤية الإنسان للنبي ﷺ وأحد الأئمة ﷺ في المنام، فإن ذلك عندي على ثلاثة أقسام:

قسم أقطع على صحته، وقسم أقطع على بطلانه، وقسم أجوّز فيه الصحة والبطلان فلا أقطع فيه على حال.

فأما الذي أقطع على صحته فهو كل منام رأى فيه النبي أو أحد الأئمة ﷺ وهو فاعل الطاعة أو آمر بها وناه عن معصية أو مبين بقبحها، وقائل لحق أو داع إليه، وزاجر على باطل أو ذام لمن هو عليه.

وأما الذي أقطع على بطلانه فهو كلما كان ضد ذلك لعلمنا أن النبي ﷺ والإمام صاحبا حق وصاحب الحق بعيد عن الباطل.

وأما الذي أجوّز فيه الصحة والبطلان فهو المنام الذي يرى فيه النبي والإمام وليس هو آمراً ولا ناهياً، وعلى حال يختص بالديانات مثل أن يراه راكباً أو ماشياً أو جالساً ونحو ذلك.

فأما الخبر الذي يروى عن النبي ﷺ من قوله: «ومن رآني فقد رآني، فإن الشيطان لا يتشبه بي»، فإنه إذا كان المراد به المنام يحمل على التخصيص دون أن يكون في كل حال، ويكون المراد به القسم الأول من الأقسام الثلاثة لأن الشيطان لا يتشبه بالنبي ﷺ في شيء من الحق والطاعات(٢).

وأما ما روي عنه: «من رآني نائماً فكأنما رآني يقظاناً» فإنه يحتمل الوجهين(٣).

أحدهما: أن يكون المراد به رؤيا المنام، ويكون خاصاً كالخبر الأول على القسم الأول الذي قدمناه.

---

(١) مسند أحمد: ٣/ ٣١٥، وصحيح مسلم: ٧/ ٥٥.

(٢) كنز الفوائد: ٢١٢، وأمالي الطوسي: ٣٢٤.

(٣) مستدرك الصحيحين: ٣/ ٤٦١، ومجمع الزوائد: ٢/ ٢٢٠.

والثاني: أن يكون أراد رؤية اليقظة دون المنام، ويكون قوله: نائماً حالاً للنبي ﷺ وليست حالاً لمن رآه، فكأنه قال: من رآني وأنا نائم فكأنما رآني وأنا منتبه، والفائدة في هذا المقام أن يعلمهم بأنه يدرك في الحالتين إدراكاً واحداً فيمنعهم ذلك إذا حضروا عنده وهو نائم أن يغيظوا فيما لا يحسن أن يذكروه بحضرته وهو منتبه.

وقد روى عنه ﷺ أنه غفى ثم قام يصلي من غير تجديد وضوء، فسئل عن ذلك فقال: «إني لست كأحدكم تنام عيناي ولا ينام قلبي»، وجميع هذه الروايات أخبار آحاد، فإن سلمت فعلى هذا المنهاج[١].

وقد كان شيخي رضي الله عنه يقول: إذا جاز من بشر أن يدّعي في اليقظة أنه إلٰه كفرعون ومن جرى مجراه مع قلّة حيلة البشر وزوال اللبس في اليقظة، فما المانع أن يدّعي إبليس عند النائم بوسوسته له أنه نبي مع تمكّن إبليس بما لا يتمكن عنه البشر وكثرة اللبس المعترض في المنام؟.

ومما يوضح لك أن من المنامات التي تتخيل للإنسان أنه قد رأى فيها رسول الله والأئمة صلوات الله عليهم ما هو حق ومنها ما هو باطل.

أنك ترى الشيعي يقول: رأيت في المنام رسول الله ﷺ ومعه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يأمرني بالاقتداء به دون غيره ويعلمني أنه خليفة من بعده وأن أبا بكر وعمر وعثمان ظالموه وأعداؤه، وينهاني من موالاتهم ويأمرني بالبراءة منهم ونحو ذلك مما يختص بمذهب الشيعة.

ثم يرى الناصبي يقول: رأيت رسول الله ﷺ في النوم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وهو يأمرني بمحبتهم وينهاني عن بغضهم ويعلمني أنهم أحقّاء في الدنيا والآخرة وأنه معهم في الجنة ونحو ذلك مما يختص بمذهب الناصبية.

فنعلم لا محالة أن أحد المنامين حق والآخر باطل، فأولى الأشياء أن يكون الحق منهما ما ثبت الدليل في اليقظة على صحة ما تضمنه، والباطل ما أوضحت الحجة عن فساده وبطلانه، وليس يمكن للشيعي أن يقول للناصبي: إنك كذبت في قولك إنك رأيت رسول الله ﷺ لأنه يقدر أن يقول له مثل هذا بعينه.

وقد شاهدنا ناصبياً تشيع وأخبرنا في حال تشيعه بأنه يرى منامات بالضد مما كان يراه في حال نصبه، فبان بذلك أن أحد المنامين باطل وأنه من نتيجة حديث النفس أو من وسوسة

(١) البحار: ١٦/٣٩٩، ومسند أحمد: ٥/ ٤٠.

إبليس ونحو ذلك، وأن المنام الصحيح هو لطف من الله سبحانه لعبده على المعنى المتقدم وصفه.

وقولنا في المنام الصحيح: إن الإنسان رأى في نومه النبي ﷺ إنما معناه أنه كان قد رآه، وليس المراد به التحقيق في اتصال شعاع بصره بجسد النبي ﷺ وأي بصر يدرك به حال نومه، وإنما هي معان تصورت في نفسه تخيل له فيها أمر لطف الله تعالى له به قائم مقام العلم، وليس هذا بمناف للخبر الذي روي من قوله ﷺ: «من رآني فقد رآني»، لأن معناه فكأنما رآني وليس يغلط في هذا المكان إلا من ليس له من عقله اعتبار، انتهى كلامه رفع الله تعالى في أعلا عليين مقامه.

وإنما نقلناه بطوله لاشتماله على فوائد جمة وفيه قلع أساس منامات الصوفية حيث إنهم يسندون أكثر أباطيلهم إلى الرؤيا والمنام، فإن كانوا صادقين في أصل الرؤيا فإنما هي من أضغاث الأحلام وعمل الشيطان.

وكفى بذلك شاهداً أن محيي الدين حسبما نقلناه عنه سابقاً نسب كتاب **(الفصوص)** الذي هو من كتب الضلال يقيناً إلى رسول الله ﷺ وذكر في أول الكتاب أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام بمحروسة دمشق وبيده كتاب فقال له: هذا كتاب **(فصوص الحكم)** خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، وقد ذكر في الكتاب المذكور مضافة إلى سائر أباطيله منامات كلها مخالفة لدين الإسلام وشريعة سيد الأنام كما يعرفه من رجع إليه من ذوي البصائر والأفهام.

ومنها

منعهم من طلب الرزق زعماً منهم أنه مناف للتوكل.

وقولهم بذلك إفراط حيث إنهم يحرمون ما أحلّ الله كما أن تجويزهم للغناء والرقص ونحوهما تفريط وتحليل لما حرّم الله.

قال آية الله في العالمين العلامة الحليّ قدس الله روحه وجعل مقامه في أعلا عليين في كتاب **(مناهج اليقين في أصول الدين)**:

منع الصوفية من طلب الرزق لأن الحلال قد اختلط بالحرام بحيث لا يمكن تمييزه فيجب اجتنابه، ولأن فيه مساعدة الظالمين لطلب الخروج والضمان، ولأنه تعالى أمر بالتوكل وهو ينافي الطلب، وهذا خيال ضعيف، فإن المكلف إذا عرف الشيء المعين قد اختلط فيه الحلال بالحرام اجتنبه أما مع فقد العلم فلا، والمساعدة ليست مقصودة بالذات، والتوكل لا ينافي الطلب.

وقال الشيخ مقداد في كتابه (**إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين**) عند شرح قول العلامة قدس الله روحه: ويجوز طلبه، يعني الرزق لأنه يندفع به الضرر، ولقوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] وغير ذلك من الآيات ما لفظه:

اعلم أن الرزق يجوز طلبه بل قد يجب كما إذا لم يكن ثمَّ وجه غيره، وقد يستحب، وقد يباح، وقد يحرم كما إذا اشتمل على وجه نهى الشارع عنه، وقد يكره كما إذا اشتمل على ما ينبغي التنزّه عنه.

ثم إن الرزق قد يكون تفضلاً منه تعالى بأن لا يكون للمكلّف فيه لطف وقد يكون فيه لطف، وذلك فيما يجتهد في تحصيله، ووجه لطفيته أن يحصل للطالب عقيدة بأن المنافع الدنيوية إنما تحصل بالتعب وكذا الأخروية، وذهبت الصوفية إلى أنه لا يجوز السعي في طلبه.

والدليل على ما قلناه من وجوه:

الأول: أن طلب الرزق مما يدفع به الضرر عن النفس ودفع الضرر عن النفس واجب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال المفسرون: الإبتغاء التكسب والفضل الرزق وغير ذلك من الآيات.

الثالث: قوله ﷺ: «سافروا تغنموا»[١]، وقوله ﷺ: «الرزق عشرة أجزاء تسعة منها في التجارة»، وغير ذلك من الأخبار[٢].

واحتجت الصوفية بوجوه:

الأول: أن الحلال مختلط بالحرام ولا يتميز فلا يجوز طلبه.

الثاني: أن في الطلب مساعدة للظالم بإعطائه الطمغاء وغيرها ومساعدة الظالم حرام فكذا ما يؤدي إليها.

الثالث: قوله تعالى: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٣]، وإذا كان التوكل مأموراً به كان الطلب منهياً عنه.

والجواب عن **الأول**: إن أردتم أن كل الحلال مختلط فهو ممنوع، وإن أردتم بعضه

(١) محاسن البرقي: ٢/٣٤٥ ح ٢. (٢) الكافي: ٥/٣١٩ ح ٥٩.
(٣) مستدرك الوسائل: ١١/٢١٧ ح ١٢٧٨٧، وعوالي اللئالي: ٤/٥٧.

فمسلم لكن التكليف مشروط بالعلم، فمع عدم العلم لا حرمة خصوصاً واليد ظاهرة في الملك، وأورد عليهم شيخنا سالم بن محفوظ أنه يلزم من هذا أنه لا يجوز أكله كما لا يجوز طلبه، ولهم أن يقولوا: إنا نأكل قدر الضرورة، لكن الواقع منهم بخلافه.

وعن **الثاني**: أن المساعدة ليست مقصودة ولا مرادة بل تؤخذ قهراً.

وعن **الثالث**: أن التوكل لا ينافي الطلب والمكتسب في حال طلبه متوكل أيضاً، ولهذا أردفه ﷺ: «بالغدوّ»، مع أنه ليس في الحديث نهي عن الطلب الذي هو مناط البحث بل بين فيه أنكم لو اشتغلتم بالطاعة عن الطلب لرزقكم ما يقيم به أبدانكم كما يرزق الطير ما يقيم به أبدانها بتهيئة الأسباب، لكن أردفه بالغدوّ الذي هو الطلب، انتهى كلامه رُفع مقامه.

أقول: ويرد على دليلهم الأول أيضاً أن قولهم: الحلال مختلط بالحرام، إن أرادوا به الحلال والحرام الواقعين ففيه أنّا لسنا مكلفين بتحصيل الحلال الواقعي ولا بترك الحرام الواقعي لعدم السبيل إليهما، وإن أريد بهما ما هو حلال وحرام في ظاهر الشرع فالاختلاط إنما هو في بعضهما لا الجميع وعلى ذلك فكل شيء فيه حلال وحرام فهو لنا حلال حتى نعرف الحرام منه بعينه فندعه، ولو كان جميع الحلال مختلطاً بالحرام لم يقل رسول الله ﷺ: «حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات[1] بين ذلك»، ولا قال أمير المؤمنين عليه السلام مثل ذلك، فتقسيمهما الأشياء إلى ثلاثة أقسام دليل على وجودها جميعاً، وقد حققه الأصحاب في كتب (**أصول الفقه**) بما لا مزيد عليه، نعم لو كان المختلط شبهة محصورة لوجب الاجتناب أيضاً والتفصيل في محله[2].

والأخبار في طلب الرزق كثيرة:

منها ما رواه في (**مجمع البيان**) عن عمرو بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إني لأركب في الحاجة التي كفاها الله ما أركب فيها إلا التماس أن يراني الله أضحى في طلب الحلال أما تسمع قول الله عز اسمه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا۟ فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، أرأيت لو أن رجلاً دخل بيتاً وطيّن عليه بابه ثم قال: رزقي ينزل عليّ كان يكون هذا؟[3].

ونقل عن كتاب (**نور الحقيقة ونور الحديقة**) لوالد شيخنا البهائي قدس سرهما قال: ذكر جماعة عند رسول الله ﷺ رجلاً بخير فقالوا: يا رسول الله خرج معنا حاجّاً فإذا أنزلنا منزلنا

---

(١) الكافي: ١/ ٦٨. (٢) وسائل الشيعة: ١٧/ ٢٣ ح ٢١٨٨٤.
(٣) راجع فرائد الأصول: ١/ ٢٣٣، ونهاية الأفكار: ٤/ ١٨٨.

لم يزل يصلّي حتى نرحل فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله تعالى حتى ننزل، فقال: «من كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه؟» فقالوا: كلنا، فقال ﷺ: «كلكم خير منه».

وعن **(الكافي)** عن عدة من أصحابنا عن البرقي عن محمد بن علي عن هارون بن حمزة عن علي بن عبد العزيز قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ما فعل عمر بن مسلم؟ قلت: جعلت فداك أقبل على العبادة وترك التجارة، فقال: ويحه أما علم أن تارك الطلب لا يُستجاب له إن قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ لما نزلت: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فقال: «ما حملكم على ما صنعتم؟» فقالوا: يا رسول الله تكفّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، فقال: «إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»[١].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً لا حاجة إليها، ونِعم ما قيل: الزهد في الدنيا قصر الأمل لا لبس العباء، وليس الزاهد من لا يملك شيئاً ولكنه الذي لا يملكه شيء، وإن الدراهم مراهم لأنها تداوي كل جريح ويشترى بها الآخرة كما يشترى بها الدنيا.

إذا عرفت ذلك فاستمع لما نحكيه عليك من عجيب من خرافات ابن العربي في **(فتوحاته)**، قال في محكى كلامه من الباب التاسع والعشرين من **(الفتوحات)**:

كل عبد إلٰهي توجه لأحد عليه حق من المخلوقين فقد نقص من عبوديته لله سبحانه قدر ذلك الحق فإن ذلك المخلوق يطلبه بحقه وله عليه سلطان فلا يكون عبداً مخلصاً لله، وهذا هو الذي يرجح عند المنقطعين إلى الله انقطاعهم عن الخلق ولزومهم السياحات ولزومهم البراري والسواحل والفرار من الناس والخروج من ملك الحيوان، فإنهم يريدون الحرية من جميع الأكوان ولقيت منهم جماعة كثيرة في أيام سياحتي.

ومن الزمان الذي حصل لي هذا المقام ما ملكت حيواناً أصلاً ولا الثوب الذي ألبسه، فإني لا ألبسه إلا عارية لشخص معين أذن لي في التصرف فيه، والزمان الذي أتملك الشيء فيه أخرج عنه ذلك الوقت إما بالهبة أو بالعتق إن كان مما يعتق.

وهذا حصل لي لما أراد التحقق بعبودية الاختصاص لله.

قيل لي: لا يصح ذلك حتى لا يقوم لأحد عليك حجة؟

قلت: لا والله ولا لله إن شاء الله.

---

(١) الكافي: ٥/٨٣ ح ٥، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/١٩٢.

قيل لي: وكيف يصحّ أن لا يقوم لله عليك حجة؟

قلت: إنما يقوم الحجج على المنكرين لا على المعترفين، وعلى أهل الدعاوي وأصحاب الحظوظ لا على من قال ما لي حق ولا حظ، انتهى كلامه هبط مقامه.

أقول: ويتوجه على هذا الجاهل:

أولاً: أن المخلص للعبودية لله سبحانه هو من يتسنّ بسنّة النبي ﷺ ويسلك مسلكه ويكون له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، والرهبانية والانقطاع عن الخلق والسياحة خلاف سنّته، وقد قال ﷺ: إن سياحة أمتي ورهبانيتهم الجهاد[١]. ويأتي إن شاء الله أخبار كثيرة في هذا المعنى.

وثانياً: أن الخروج من ملك الحيوان وإرادة الحرية من جميع الأكوان محال عادة، وقد خلق الله سبحانه الإنسان مدنيّاً بالطبع وجعل كل فرد منه محتاجاً إلى غيره ولو في أقل ضروريات العيش، فكل من قام بحاجة غيره وهيّأ أسباب معيشته ورفع عنه الضرورة والحاجة ولو في أقل مراتبها التي لا يمكن التعيش والبقاء بدونه يكون له بقدر ما قام بمحاويجه حقاً عليه وإن كانت الحقوق في الحقيقة كلها لله سبحانه إلا أن من لم يشكر الخلائق لم يشكر الخالق.

وقد ورد في الحديث: من لم يشكر الناس لم يشكر الله[٢]؛ فإرادة الحرية من جميع الأكوان والخروج من ملك الحيوان لا يصدر إلا عن سفيه جاهل.

ثم الحقوق ليست منحصرة في الحقوق المالية، بل للوالد حق على الولد وللولد حق على الوالد، وللأرحام حق وللجار حق وللمعلم حق وللمتعلم حق وللإخوان المؤمنين حق، بل لكل من أعضائك وجوارحك من قرنك إلى قدمك عليك حق كما أشار إليه الأئمة ﷺ في أبواب الحقوق، فالانقطاع عن الخلق لا يبطل تلك الحقوق، ثم القيام بها من أجل أمره سبحانه وتعالى به من جملة العبادات فلا ينافي العبودية والإخلاص كما توهم.

وثالثاً: أن قوله: فإني لا ألبس الثوب إلا عارية لا ملكاً، عجيب جداً.

إذ لو كان المراد به أن للثوب المملوك حقاً على لابسه دون المستعار فهو غلط، بل يجب في العارية من الحفظ والمواظبة وعدم التفريط ما ليس في الثوب الذي هو له، لأنه مال الغير ولا يجوز الخيانة فيه بخلاف ماله مع أن للعارية حقاً للمعير على المستعير حق الاسترداد وحق الضمان لو فرّط، وليس في الثوب المملوك له لأحد حق عليه.

---

(١) بحار الأنوار: ٤٠/ ٣٢٨ ح ١٠، ومستدرك سفينة البحار: ٦/ ٣٩٩.

(٢) تهذيب الأحكام: ٦/ ١٢٢، والوسائل: ١٥/ ١٧.

وإن كان المراد به أنه كان يلبس العارية دون الملك لزهده وتركه ملاذ الدنيا ففيه أن الملك والعارية لا مدخلية لهما في الزهد وعدمه، وقد كان أزهد الزاهدين في الدنيا رسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام ولم نسمع منهما إلى الآن أنهما يلبسان اللباس عارية لا ملكاً، وقد كان عليه السلام يشري لباساً ويلبسه ويقول: الحمد لله الذي ألبسني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي.

ورابعاً: أن ادّعاءه أن ليس لله حجة عليه لكونه من المعترفين لا من المنكرين فهو ناشيء من خبطه وسفهه وجهله وضلاله وعجبه، فما أعظم جرأته وأشد جسارته حيث لم يدع هذا المقام أحد من الأنبياء والمرسلين والحجج المعصومين على عصمتهم، وجدّهم في مقام العمل وبلوغهم الغاية في المعرفة.

وقد تقدم في شرح الخطبة المائة والثانية والتسعين عند شرح قوله عليه السلام في وصف المؤمنين: ولا يستكثرون الكثير فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون، أخبار نافعة في المقام[١].

منها قول أبي الحسن موسى عليه السلام لبعض ولده: يا بنيّ عليك بالجدّ ولا تخرجنّ نفسك من حد التقصير في عبادة الله عزَّ وجل، فإن الله لا يعبد حق عبادته[٢].

وقول أبي جعفر عليه السلام: ثلاث قاصمات الظهر: رجل استكثر عمله ونسي ذنوبه وأُعجب برأيه[٣].

وقول أبي عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث: «قال موسى بن عمران لإبليس: أخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه»، إلى غير هذه مما لا نطيل بإعادتها[٤].

ثم أقول: لو لم يحتج الله عليه إلا بعدم معرفة إمام زمانه على ما اعترف به نفسه حسبما حكينا من فتوحاته فيما تقدم وبادعائه أنه خاتم الولاية وأنه يتلقى الوحي بدون واسطة من الله عزَّ وجل فضلاً عن قوله بوحدة الوجود وعن سائر أباطيله المتقدمة حكايتها، لكان في ذلك الاحتجاج ما لا تقوم به السماوات والأرض ولتُدكْدكُ من نكاله الجبال، نعوذ بالله من

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١٦٢ (محمد عبده).
(٢) الكافي: ٢/ ٦١، والتوحيد: ٤٠٥.
(٣) الخصال: ١١٢، ومعاني الأخبار: ٣٤٣.
(٤) الكافي: ٢/ ٣١٤ ح ٨.

الضلال وسوء الخاتمة والمآل وعظيم العقوبة والنكال، والحمد لله الذي هدانا إلى الصراط المستقيم، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونصلّي ونسلّم على محمد رسول الله ﷺ وخلفائه الذين هم أولياء الله.

المقام الرابع في نبذ من صلائف الصوفية

وواقعاتهم العجيبة وهذياناتهم المفرطة التي تضحك منها الثكلى وتعجب لها الصبيان، والظاهر أن منشئها إفراط الخبط وشدّة الأمراض الخيالية.

فمنها

ما عن شيخهم برهان الدين الماليقي وهو من أعاظم مرتاضيهم وأكابر مشايخهم ومشاهيرهم لا سيما في بلاد الهند.

ونحن نذكر عنه من كتاب (**الواقعات**) له ثلاثاً منها لتكون أنموذجاً لما طوينا عن ذكرها، قال:

الواقعة الأولى

أما بعد حمداً لله تعالى والصلاة والسلام على حبيبه محمد وآله:

لما برزت الإشارة المولوية الشيخية الربانية أن كلما حدث من الواقعات في أثناء السلوك ينبغي أن يقيّد بالكتابة، امتثل هذا الحقير أوامره الشريفة وكتب ما بقي منها في خاطره بعد التعوّذ والاستعانة بالله تعالى.

لما كان اليوم الثاني من أيام بعض الخلوات كنت في الذّكر مستغرقاً إذا رأيت كأني في البر وشخص واقع كأنه ملك وستر معلّق من السماء إلى الأرض وكأن شخصاً يقول لي: إلى أين تذهب؟ قلت: إلى الحق، فقال: بين الحق والعبد سبعون ألف حجاباً بحماية من تذهب إليه؟ فقلت: بحماية الشيخ نور الدين عبد الرحمٰن، فلما سمع كلام العبد لم يثن عليه القول وحضر الشيخ في الحال.

فلما رأى هذا الحقير أن أمر المريد لا يتيسر بدون شيخ مرشد والشيخ المرشد لا بد له من ولاية الحماية إذا توجه إليه المريد حضر في الحال بالعناية الربانية، فلما توجه العبد نحوه رآه حضر وبيده عصاً وهو واقف.

وقد ظهر بهذا الحقير أنواع من الصور الشيطانية المختلفة وغيره يقصده والشيخ يدفعها عنه بعصاه، وفي أثناء ذلك حضر شخص بخاري يقال له النور البيمارستاني وكان لهذا الحقير

به قديماً يسير إرادة وقصد نحو هذا الحقير فحمل الشيخ بعصاه فهرب، ثم قصد هذا الحقير ثانياً فحمل الشيخ عليه ثانياً بعصاه فهرب، فلما قصد نحو هذا الحقير ثالثاً ضرب الشيخ بالعصا رأسه فكأنه شجه فرمى نفسه على أقدام الشيخ ثم هرب.

فلما رأى هذا الحقير أن الله أظهر له ولاية الشيخ على هذه الصورة التجأ إليه سبحانه وتعالى أن يلهم الشيخ القعود حيث طال قيامه، فجلس الشيخ كمن جلس على صفة وولّى برجليه الأرض مستنفذاً، فلم يطمئن القلب لذلك حتى التجأ إليه سبحانه ثانياً وطلب سكون الشيخ وقراره بالقعود عنده، فتربّع الشيخ بعد ذلك عنده فالتجأ إليه سبحانه ثالثاً أن يقرّ الشيخ عنده على صورة لا يهاب منها المخالفة، فرأى كأن الشيخ دخل باطن هذا الحقير دخول لابس ثوب ويدا هذا الحقير كُمَّاه.

فلما لبس الشيخ هذا الحقير صار الشيخ هو وفنى هو في الشيخ بحيث لم يبق منه شيء سوى العلم بوجود الشيخ وفناء نفسه فيه.

ثم هذا الحقير سأل الشيخ بتوفيق الله إياه وقال: أيها الشيخ ما سبب أن صرت هذا الحقير؟ فأجاب وقال: لما لم يكن قوة صيرورة نفسك إياي صيرت نفسي إياك لتصير إياي.

ثم بعد ذلك كان الله تعالى أظهرلهذا الحقير أن الشيخ قد جلس في باطن هذا الحقير مربعاً كما رأى ظاهراً أولاً، وكلما ذكر الله تعالى ذكر الشيخ أيضاً في باطنه، فإذا شرع في ابتداء الذكر يقول الشيخ في باطنه: اذكر فإنك حسن الذكر.

فلما استقر بفضل الله تعالى سر الشيخ في باطن هذا الحقير تواترت عليه الإلهامات الربانية الروحانية ساعة فساعة، فلو حصل إذن الحق سبحانه وتعالى إلهاماً بذكر الإلهامات كلها وتحقيق كونها ليست من الإلهامات الروحانية والملكية وغيرها بل هي ربانية حقاً لامتثل إن شاء الله تعالى.

الواقعة الثانية

كان هذا الحقير في أثناء الذكر ليلة والشيخ في باطنه متمكن إذا رأى كأنه تولد من باطنه من جانبه الأيسر مما يلي القلب جرو كلب أبيض أذناه سود وفي ظهره عند ذنبه سواد وكان تارة يقعد وتارة ينام ولا يقرّ قلقاً من ذكر هذا الحقير.

فحصل لهذا الحقير من ذلك خوف فالتجأ إلى الحضرة الإلٰهية واستمد من باطن الشيخ خفارة الالتجاء، لأن كل دعاء والتجاء لا خفارة له لا وصول له إلى الحضرة، ولذلك صار الإخلاص خفير جميع العبادات، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

ولما لم يجد للالتجاء به إخلاصاً استمد بالعناية الإلٰهية من باطن الشيخ خفارة ذلك الالتجاء، فنظر في الحال إذا الشيخ قد مدّ يده وأخذ ذلك الجرو من باطن هذا الحقير ومضى، فتبعه الحقير في أثره فرأى في عنق الجرو حبلاً أبيض ورأس الحبل بيد الشيخ.

فلما مشينا قليلاً قتل الشيخ ذلك الجرو ومسح قدمه به ومع ذلك يخاف هذا الحقير أن يعيش ثانياً، فلما مسح الشيخ رجله به صار الجرو المقتول تحت رجله طيناً، فلما رجع رجله عنه عاش ثانياً فأخذه الشيخ ثانياً ليقتله فلم يمكنه من نفسه وكان حقيراً في العين قوياً في نفسه، فوقع على هذا الحقير منه خوف فرأى كأن الشيخ قلع رأسه من بدنه ورمى به وخرق بطنه بسكين فرمى به أيضاً إلى الأرض ووضع عليه حجراً ثقيلاً ومع هذا كان مفتوح العين ينظر إلى هذا الحقير سراً، فوضع الشيخ قدمه إليه فصار تحت قدمه طيناً لكن الخوف غالب على هذا الحقير أن يعيش ثالثاً فما التفت إلا وقد رمى بالحجر عن نفسه وخرج من تحته فأخذه الشيخ ثالثاً وقتله.

فقال هذا الحقير: ينبغي أن يحرق، فأخذه وجعله في تنّور وكان كلما احترق يعود كما كان حياً، فأخذه الشيخ وأحرقه مرة بعد أخرى إلى أن احترق وصار رماداً.

فقال الشيخ: ماذا ينبغي أن يفعل بعد هذا؟ فقال هذا الحقير: ينبغي أن يرمى بالرماد إلى الماء الجاري، فلما رمى صار الرماد كله على رأس الماء أمطرت السماء فقال هذا الحقير: أيها الشيخ ينبغي أن نتبع أثر هذا الماء كي لا يعيش هذا الجرو مرة أخرى. فتقدم الشيخ وهذا الحقير في أثره فوصلا ذلك الماء الجاري إلى بحر فقال الحقير للشيخ: نخاف أن يعيش هذا الجرو فلننظر هذا البحر إلى أين ينتهي، فنزل الشيخ إلى البحر وهذا الحقير في أثره فرأى كأن ماء البحر يدخل في شقّ فوقف الشيخ على رأس الشقّ وهذا الحقير في خدمته إلى أن دخل جميع ماء البحر ذلك الشق، فظهر في قعر البئر حوض وفيه ماء فابتلعت الأرض ماء البحر فظهر في أسفل الحوض سمكة صغيرة فقتلها الشيخ.

وقال: ماذا ينبغي أن يفعل بعد هذا؟ فالتمس الحقير من الشيخ أن يطلع الشمس حتى ييبس طين البحر، فلما أن طلعت الشمس ويبس الطين.

قال الشيخ: ماذا ينبغي أن يفعل؟ فقال هذا الحقير: يمكن أن ينبت من هذا نبات ينبغي أن نحرقه، فالتفت فإذا بالحشيش قد نبت.

فقال الشيخ: ما ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: نحصد الحشيش ونحرقه فحصداه وتركاه في الشمس حتى يبس ثم أحرقاه.

ثم قال الشيخ: ماذا ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: ينبغي أن نرمي برماد الحشيش إلى

شقّ الجبل.

ثم قال الشيخ: ماذا ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: ينبغي أن نملأ الحوض بالحجارة ليعتدل من الأرض ونسدّ باب الشق بالحجارة، فلما فعل الشيخ ذلك كله.

قال الشيخ: ماذا ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: لو أمطرت السماء بماء يغتسل فيه هذا الحقير وابتلعت الأرض ذلك الماء كان حسناً كل ذلك من غلبة الخوف من ظهور آثار ذلك الجرو، فالتفت فإذا بالغيث قد نزل وسال ودخل جميعه في ثقب قد لا يسع إنساناً من ضيقه، فلما اغتسل الحقير وإذا به قد حضر عنده من العناية الإلٰهية ثوب أبيض فلبسه.

فقال الشيخ أيضاً: ما ينبغي أن نفعل؟ وفي تكرار قول الشيخ: ما ينبغي أن نفعل سرّ يعرفه الشيخ، فقال الحقير: نقصد الكعبة المعظمة، فتقدم الشيخ والحقير في أثره إلى أن وصلا الكعبة ودخلا الحرم الشريف، فاغتسل الحقير بماء زمزم وحضر ثوب أبيض فلبس الحقير بين يدي الشيخ ودخلا الكعبة وصلّينا فيه.

ثم قال الشيخ: ما ينبغي أن نفعل؟ فقال هذا الحقير: بالعناية الإلٰهية ينبغي أن نذهب إلى التنّور الذي أحرقنا فيه الجرو والحجر الذي وضعنا على رأسه والموضع الذي قتلناه فيه ونأخذ الجميع ونلقي في الثقب الذي كان الماء يدخله كي لا يبقى في هذا الموضع للجرو أثر، فتقدم الشيخ والحقير في أثره وجاءا وجمعا كل ذلك فأراد الحقير أن يحمله فإذا بحبشيّ قد ظهر في الحال وجعلا الكل في وعاء وحملاّه إياه فلما دخلا إلى الثقب الذي دخله ذلك الماء العظيم ألقياه فيه، ثم قتل هذا الحقير بالعناية الإلٰهية ذلك الحبشي، وألقاه في الثقب أيضاً.

ثم قال الشيخ: ما ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: نرجع إلى الكعبة المعظمة، فتقدم الشيخ والحقير في أثره فدخلا الحرم الشريف، واغتسل الحقير ثانياً بماء زمزم وكان الشيخ يغسله، ثم بعد الغسل حضر ثوب صوف أخضر فلبسه الحقير وصلينا في مقام إبراهيم عليه السلام ثم دخلنا الكعبة فلما أن صلينا فيها.

قال الشيخ: ما ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: ينبغي أن نشدّ رأس الثقب الذي ألقينا فيه الحبشي المقتول والتنور والحجر كي لا يظهر منه أثر، فتقدم الشيخ والحقير في أثره فجاءا وشدّا رأس الثقب.

ثم قال الشيخ: ما ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: نرجع إلى الكعبة المعظمة. فتقدم الشيخ والحقير في أثره فدخلنا الحرم الشريف وجئنا إلى بئر زمزم فخلع الحقير ثوبه ووضعه على ميزاب الكعبة واغتسل بماء زمزم وكان الشيخ يغسله.

ثم قال الحقير بالعناية الإلٰهية للشيخ: اقطع بطن الحقير واغسل بهذا الماء قلبه وكبده وباطنه كي لا يكون قد بقي في باطن هذا الحقير شيء من أثر الجرو، فقطع الشيخ بطن هذا الحقير بالسكين وغسل باطنه بالماء.

فبينا الشيخ كذلك إذ ألقى الله سبحانه في نفسي مني نفرة عظيمة فضربتُ عنقي بالعناية الإلٰهية وأخذت بإحدى يدي شعر رأسي وبيدي الأخرى رجلي ورميت به خارج الحرم ولم أزل أضرب برأسي الذي بيدي عتبة الحرم إلى أن نفيت ورميت به خارج الحرم ودخلت الحرم واغتسلت بماء زمزم بحضور الشيخ وحضر ثوب أزرق وعمامة بيضاء فلبستهما.

ثم قال: ما ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: نصعد سطح الكعبة، فتقدم الشيخ والحقير في أثره فصعدنا سطح الكعبة.

فقال الشيخ: ما ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: ينبغي أن نصعد السماء، ففي أثناء هذا الكلام حضر فرسان بسرجيهما فركب الشيخ أحدهما والحقير الآخر، فلما وصلنا إلى السماء الأولى فإذا ملكان جالسان، فدخل الشيخ بلا إذن والحقير في أثره فسأل أحد الملكين صاحبه: من هذا؟ فقال له: الشيخ عبد الرحمٰن ومريده، وكان الشيخ إماماً يخرق السماء ويصعد والحقير في أثره ينظر فرآه كي لا يصل بنا أثر الجرو فيرى مواضع عروجنا يعود كما كان مسدوداً فاطمئن لذلك باطنه.

فلما وصلنا إلى السماء الثالثة كأن الملائكة كانوا يمنعون الحقير ويأمرونه بالتجريد، ويعدهم الحقير بذلك، وكان الشيخ قد أخذ بعناق فرس الحقير ويمده، فلم يبق لهم إمكان منع الحقير.

وكان الشيخ كلما عرج إلى السماء يقول: أين تذهب؟ فيقول الحقير: إلى الجنة، ولون السماء وكيفياتها كما ذكرها العلماء في كتبهم فلا حاجة إلى ذكرها.

وكان الشيخ كلما جاء إلى باب السماء يدخل بلا إذن الملائكة ولا يلتفت إليهم وإن حصل في بعض أبواب السماوات تمانع يأخذ بعنان هذا الحقير ويمده ويدخل وكانت سبعة وكل باب من أبواب السماوات أضيق من الذي قبله، وكان في أثناء العروج في السماوات السبع يأتي خيول مختلفة الألوان بسروجها غير التي قبلها.

فلما عرجنا إلى السماء السابعة ووصلنا إلى الجنة الأولى ودخلناها جاءتنا خيول غير تلك الخيول بسروجها، وكانت الحور العين تتعلق بالشيخ وفرسه ولم يلتفت إليهن أصلاً، وكان كلما وصل إلى باب جنة من الجنات يستقبلنا خزنتها ويدخل الشيخ الجنة بلا التفات إلى أحد منهم.

فلما وصلنا إلى جنة الفردوس استقبلنا خزنتها بالأطباق أو بالطباق المغطاة الرؤوس وكان في طبق منها الفاكهة مكتوب فيها: الله، وفي طبق منها فاكهة أيضاً مكتوب فيها: الحق، فأكل هذا الحقير جميعها.

فلما قربنا من جنة الفردوس دخل الشيخ والحقير في أثره، فلما أراد الشيخ أن يدخل جنة الفردوس وكانت طبقتين ردوا باب طبقة منها، فأخذ الشيخ بيد الحقير وأدخله إليها وهكذا إلى أن عبرنا ثماني جنات كلما حصل تمانع من واحد منها إما أن يأخذ الشيخ بيد الحقير، وإما أن يأخذ بعنان فرسه ويدخله وأدخلنا إلى أربع جنات منها ركباناً وإلى أربع منها مشاة.

وكان في أثناء عروجنا من هذه الجنات الثمانية تأتينا خيول مختلفة الألوان خضر وصفر وزرق بسروجها.

فلما عبرنا من الجنات الثمانية كلها قال الشيخ: أين تذهب؟ قال الحقير: إلى العرش والكرسي، وكنا نرى في أثناء ذلك الملائكة عليهم السلام بعضهم في القيام وبعضهم في الركوع وبعضهم في السجود والشيخ والحقير راكبان يعبران.

وكلما حصل تمانع من الملائكة لهذا الحقير كان أكثر من قبل التجريد وكان الحقير يتقبل لهم به والشيخ يدفعهم عنه بالعناية الإلْهية، حتى وصلنا إلى العرش.

فقال الشيخ: ما ينبغي أن نفعل؟ فقال الحقير: نصعد فوق العرش، فحضر طيران على شكل النعامة وعليهما سرجان فركب الشيخ أحدهما وركب الحقير الآخر وكأنه كان كلما حركنا جناحهما قطعنا مسافة الشرقية أقلّ وأكثر إلى أن عيينا، وحضر طيران آخران على شكل الطاووس وعليهما سرجان وكان الخطاب يصل ساعة فساعة من الحق: تجرد لتصير محفوظاً بتجلياتي وأجلسك على العرش، فتجرد الحقير بالعناية الإلْهية ورمى بالمحقر الذي كان معه من جيفة الدنيا ومع حقارته وقلّته كان حجاباً عظيماً، سبحان من هذا بعض مقدوراته تارة يجعل التجريد حجاباً، وتارة يجعل عدم التجريد حجاباً، أعوذ بالله من الله في جميع الأحوال.

ثم بعد ذلك رقاه الحق إلى العرش، الشيخ أمامه والحقير في أثره، فلما صعدنا العرش طلب من الحق سبحانه موضع نعليّ الرسول ﷺ فأُشير إلى موضع معين وكان الحقير يقبّل الموضع ويعفّر خده فيه، ثم صلينا ركعتين فيه كان الشيخ إماماً والحقير مأموماً، وقرأ في الركعة الأولى: (إنا فتحنا)، وفي الثانية: (ألم نشرح)، و (إذا جاء نصر الله)، فإن وقعت الإشارة من الحق سبحانه أن يذكر عبور بحر الناري وسير دركات الجحيم طبقة بعد طبقة

امتثلت بالتوفيق الإلٰهي بالسمع والطاعة إن شاء الله تعالى.

الواقعة الثالثة

وهذه الواقعة إنما كتبت بإشارة الرسول ﷺ، وفي أثناء الإشارة استخار الحقير من النبي صلوات الله وسلامه عليه في أنه يلقب نفسه المسكين أو الحقير فاختار لي الحقير وأشار به.

رأى هذا الحقير مرة كأنه يأكل الكعبة المعظمة زادها الله شرفاً وكأن الكعبة تمطر من هذا الحقير، وفي أثناء ذلك صار الحقير الكعبة وبمقتضى الحكمة الربانية ظهر هذا الحقير على سطحها وظهر عند ذلك أيضاً روح النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع أرواح جميع الأنبياء صلوات الله عليهم على سطح الكعبة المعظمة.

ثم إن الأرواح الشريفة النبوية نزلت كلها من السطح بإذن الله تعالى سوى روح نبينا محمد ﷺ، ثم بعد ذلك أوحى الله تعالى إلى الأنبياء ﷺ أن هذه كعبتي طوفوا حول كعبتي، فطاف الأنبياء كلهم عليهم السلام، ثم أوحى الله إليهم أن آمنوا به واسجدوا، فقالوا كلهم: آمنا بالله، وسجدوا حول الكعبة والكعبة في الوسط.

ثم بعد ذلك رأى كأن الحق سبحانه وتعالى من التشبيه والتعطيل بيده عصاً ضرب بها سطح الكعبة المعظمة، فصارت شجرة كأنها تمطر منها كلمة لا إلٰه إلا الله.

ثم ظهر من حيطان الكعبة أيد لا يعلم عددها إلا الله تعالى وقد التزم بكل يد منها نبي من الأنبياء ويقول: أنا النبي الفلاني حتى أن نوحاً ﷺ ملتزم بيد منها يقول: أنا النوح النبي، وكل منهم يقول مشيراً نحوي: يا برهان قد جعلك الله مشيراً فاعمل أعمال الأنبياء والأولياء؛ وكذا الأولياء رحمهم الله على ما ذكرنا وهذه الأيدي بإذن الله تعالى يجذب بعضها المتعلق بها إليها وبعضها يقطع رأس المتعلق بها ويرميه.

ثم بعد ذلك خرج هذا الحقير من تلك الصورة وظهر بإذن الله تعالى وهو سبحانه فوق رأسه كرحمته تعالى عن التكيف والتمثيل، وروح النبي ﷺ جالس متمكن، انتهى كلامه هيط مقامه.

أقول: يا أهل المعرفة والإيمان والعلم والإيقان وذوي الفطن الثاقبة، انظروا إلى مقالات هذه الطائفة وعقائد إخوان عبدة الأوثان والصائبة كيف زين لهم أعمالهم الشيطان وصدّهم عن السبيل.

ثم انظروا إلى هذيانات هذا الجاهل السفيه النجس المرتكس في أحداثه والملحد

المغتذي من أرواثه، كيف ارتقى مرتقى صعباً دحضاً، وادعى تارة رفعاً وأخرى خفضاً، وخبط خبطة عشواء، وركب ركاب الجاهلية الجهلاء.

فواعجباً عجباً من تلبيسات إبليس وتدليسات النفس وطول باع الشيطان في فنون الإغواء والإضلال، وقوة تصرّفه في أوهام الجهال، ومن شدة تصاريف قوة المتخيلة وسعة مجال القوة المتوهمة كيف نسجت على ألسنتهم نسيجات العنكبوت وحيّرتهم في ظلمات الجهل والغياهب، وأغرقتهم في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، نعوذ بالله من فساد الاعتقاد والانحراف عن السداد والإلحاد في المبدأ والمعاد بمحمد وآله الأمجاد.

المقام الخامس في كرامات الصوفية وحماقاتهم

وما نسبوه إليهم من الأفعال والأحوال الخارقة للعادة والكرامات التسلم «كذا» يتفق مثلها لأولي العزم من الرسل؛ وفيما ادعاه بعض متصلّفيهم وحمقاهم من الصلف والرعونة والشطح الذي ليس منشأه إلا الحمق والجنون والسفاهة.

قال القيصري في شرح الفص الهودي من **«الفصوص»**:

قال: ـ أي محيي الدين في فتوحاته ـ إن الله تجلى لي مراراً وقال: انصح عبادي، وقال:

قال في آخر الباب الثاني عشر من **(الفتوحات)**: وقد ورد أن المؤذّن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس، والشرائع والنبوات من هذا القبيل مشحونة ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف، فقد سمعنا «رأينا خ ل» الأحجار تذكر الله رؤية عين بلسان نطق تسمعه آذاننا منها وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله مما ليس يدركه كل إنسان.

وقال في شرح الفص النوحي: ظواهر العالم من الإنسان والحيوان والنبات والجماد وغيرهم يثني بألسنتهم وألسنة قواهم الروحانية والجسمانية على روحه الحقيقي الذي هو الحق وتسبّحه وتنزّهه عن النقائص اللازمة لهم اللاحقة بهم، ولكن لا يقصد هذا التسبيح والتنزيه إلا من تنور باطنه بنور الإيمان أولاً، ثم الإيقان ثانياً، ثم العيان ثالثاً، ثم يوجدان نفسه وروحه سارياً في عين كل مرتبة وحقيقة كل موجود حالاً وعلماً شهوداً فقط كسريان الحق فيها، فيدرك تسبيح الموجودات بذلك النور ويسمعه، إلى أن قال:

قال الشيخ في آخر الباب الثاني عشر من **(الفتوحات)**: فإن المسمى بالجماد والنبات عندنا لهم أرواح بطنت عن إدراك غير أهل الكشف إياها في العادة، فلا يحس بها مثل ما يحس بها من الحيوان، فالكل عند أهل الكشف حيوان ناطق غير أن هذا المزاج الخاص يسمى

إنساناً لا غير، ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف، فقد سمعنا الأحجار تذكر الله رؤية عين بلسان نطق تسمعه آذاننا منها وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله مما ليس يدركه كل إنسان، قال:

وقال في موضع آخر منه: وليس هذا التسبيح بلسان الحال كما يقوله أهل النظر ممن لا كشف له، هذا شأن من تحقق بالمراتب الثلاث الأولى، وأما صاحب المقام الرابع فهو مسبّح لربه بلسان تلك الحقائق وحامد له في تلك المراتب، فهو العبد التام لله يعبده في كل موطن ومقام عبادة جميع العالم، ويحمده حمدهم ويرى جميع ما يراه بالبصر وبالبصيرة عند تحققه بمقام الجمادية ويسمع ما كان يسمع. ويعقل ما كان يعقل من غير خلل ونقصان، وفي هذا المقام يطوى الزمان والمكان، ويتصرف في جميع الأكوان تصرف النفوس في الأبدان، ويظهر في الحالة الواحدة في مراتب الأرواح النورانية والنفوس القدسية الروحانية والأجسام الكثيفة الظلمانية، ولهذه المراتب أسرار غامضة جداً يحرم كشفها. انتهى كلامه قاتله الله.

وهو كما ترى صريح في أن هؤلاء الزنادقة فضلاً عن دعواهم سريان هوية الحق في حقائق الأشياء ادعوا سريان هوية المكاشفين منهم أيضاً في حقائقها. فلم يبق بينهم وبينه سبحانه على زعمهم فصل ولا له عليهم فضل، قاتلهم الله فأنّى يؤفكون.

وقد صرح بذلك القيصري في الفصل الثامن من ديباجة شرح الفصل حيث قال في تحقيق: أن حقائق العالم في العلم والعين كلها مظاهر للحقيقة الإنسانية التي هي مظهر لاسم الله بعد جملة من الكلام ما لفظه:

ولذلك قيل: الإنسان الكامل لا بد أن يسري في جميع الموجودات كسريان الحق فيها، وذلك في السفر الثالث من الحق إلى الخلق بالحق، وعند هذا السفر يتم كماله وبه يحصل حق اليقين من المراتب الثلاث.

وقال الجامي في رسالته التي كتبها في تحقيق مذهب الصوفية والمتكلمين والحكماء المتقدمين، يُروى عن قضيب البان الموصلي أنه كان يُرى في زمان واحد في مجالس متعددة مشتغلاً في كل بأمر غير ما في الآخر، ولما لم يسع هذا الحديث أوهام المتوغلين في الزمان والمكان تلقوه بالرد والعناد وحكموا عليه بالبطلان والفساد، وأما الذين مُنحوا التوفيق للنجاة من هذا المضيق فلما رأوه متعالياً عن الزمان والمكان علموا أن نسبة جميع الأزمنة والأمكنة إليه نسبة واحدة متساوية، فجوّزوا ظهوره في كل زمان ومكان بأي شأن شاء وبأي صورة أراد، انتهى كلامه خذله الله تعالى سبحانه.

وقال محيي الدين في الفص العيسوي: إن أبا يزيد نفخ في النملة التي قتلها فحييت،

فكان عيسوي المشهد.

وقال الغزالي في (**إحياء العلوم**): قيل لبعض العارفين: بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام؟ فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه.

قال: وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة: حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى، فصاح ثم قال: ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك، قيل: فحدثنا بأشدّ مجاهدتك لنفسك في الله تعالى، فقال: هذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه، قيل: فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك، فقال: نعم دعوت نفسي إلى الله فجمحت عليّ فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك.

قال: ويُحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزاً على صدور قدميه، رافعاً أخمصيه مع عقبيه عن الأرض، ضارباً بذقنه على صدره، شاخصاً بعينيه لا يطرف.

قال: ثم سجد عند السحر فأطاله، ثم قعد فقال: اللهم إن قوماً طلبوك فأعطيتهم طيّ الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي في الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفاً وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء، ثم التفت فرآني فقال: يحيى؟ فقلت: نعم يا سيدي، فقال: منذ متى أنت هٰهنا؟ قلت: منذ حين، فسكت فقلت: يا سيدي حدّثني بشيء، فقال: أحدثك بما يصلح لك.

أدخلني في الفلك الأسفل فدوّرني في الملكوت السفلي وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوّف بي في السماوات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك، فقلت: يا سيدي ما رأيت شيئاً أستحسنه فأسألك إياه، فقال: أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي صدقاً، لأفعلنّ بك ولأفعلنّ، فذكر أشياء.

قال يحيى: فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت: يا سيدي لم لا تسأله المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك: سلني ما شئت؟ قال: فصاح بي صيحة وقال: اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه.

قال الغزالي: وحكى أن أبا تراب الخشبي كان معجباً ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته، فقال له أبو تراب يوماً: لو رأيت أبا يزيد

فقال: إني عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا يزيد، هاج وجد المريد، فقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد؟! قد رأيت الله فأغناني عن أبي يزيد.

قال أبو تراب: فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت: ويلك تغترّ بالله عزَّ وجل، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة، قال: فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال: وكيف ذلك؟ قال له: ويلك أما ترى الله عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره، فعرف ما قلت فقال: احملني إليه، فذكر قصة قال في آخرها، فقال:

فوقفناه على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع، قال: فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره. فقلت للفتى: هذا أبو يزيد فانظر إليه، فنظر إليه الفتى، فصعق فحركناه فإذا هو ميت، فتعاونا على دفنه فقلت لأبي يزيد: يا سيدي نظره إليك قتله، قال: لا ولكن صاحبكم صادقاً واستكن في قلبه سرّ لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك.

قال الغزالي: ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله دفعهم، فسكت ثم قال: إن لله عباداً في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون، قيل: لم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب، ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال: ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها، وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها، فإن القدرة واسطة والفضل عميم، وعجائب الملك والملكوت كثيرة، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها، وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له.

ولذلك كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلّة إبراهيم، فاطلب ما وراء ذلك أضعافاً مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حجبت به، وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل.

وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش وينثني معهن، فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوماً، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لي: انظر إليهن، قال: فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن، وقلت: أعوذ بك مما سواك لا حاجة لي بهذا، فلم أزل حتى صرفهن الله عني.

وفي كتاب **(قوائم الأنوار)** تأليف قطب السلسلة الذهبية المسمى بميرزا أبو القاسم الشهير ميرزا بابا الذهبي ألّفه بالفارسية، قال في الشطر الثالث في بيان حقيقة العشق الإلهي ما ترجمته مخاطباً لابنه محمد وهو رئيس السلسلة الذهبية وقطبهم في زماننا هذا:

يا بني إن شئت أن تطّلع على سير السلاك والمجذوبين والعشاق الإلهيين فاستمع قصة سلطان العارفين الشيخ أبي يزيد البسطامي في سير معراجه.

قال الشيخ: إني بعدما خدمت مائة وثلاثين شيخاً من المشايخ الكُملين، ولازمت الرياضة والمجاهدة ثمانين عاماً آتاني الله تعالى عيناً من نور وحدانيته وجناحين من آثار قدرته، فطرت ثلاثين ألف عام في عالم الوحدانية، وثلاثين ألف عام في مرتبة الفردانية، وثلاثين ألف عام في مرتبة الصمدية، فشاهدت قد بقيت بقية من الآنية فاهتزني غيرة شوق الوحدة فطرت أربعين ألف عام آخر في الوحدة فبلغت غاية ما يمكنني من السّير فشاهدت أن وجودي المتوهم لم ينعدم بعد، فعجزت وقلت: إلّهي أعلم أن وجودي بوجودك شرك وأنا لا أقدر الوصول إليك بوجودي فكيف لي في فناء وجودي؟ قال سبحانه: ضع رأسك على عتبة باب رسول الله ﷺ.

قال أبو يزيد: فغلبني شوقه فقلت: أحالني سبحانه إلى بابه فطرت بجناحي الهمة والعشق حتى وصلت أرواح الأنبياء عليهم السلام فسلّمت على كل واحد منهم وسلّموا عليّ حتى جاوزت من الأنبياء وسعيت في الطيران إلى أن وصلت فناء حضرة محمد ﷺ فرأيت مائة آلاف ألف بحر من نار لا بد من العبور منها، ثم نظرت فرأيت آلاف ألف حجاب من حجب النور وعلمت أنه ما لم أعبر من بحار النار لا يمكن لي الوصول إلى حجب النور، ولو أضع قدمي على أول بحر منها لاحترقت وهلكت، ثم أمعنت النظر فرأيت أطناب سرادق رسول الله ﷺ مضروبة في منتهى حجب النور، فقلت: هذا هو الذي قاله رؤساء الدين: إن الوصول إلى الله سهل وإلى الرسول صعب.

فلما يئست من الوصول إلى حضرته، فقلت: باب الرسول في هذا العصر هو ابنه جعفر الصادق عليه السلام، فقدمت إلى حضرته فقلت: يا مولاي جعلت فداك إن الله تعالى بعد ثمانين عاماً من المجاهدات والرياضات في سلوك طريقه وخدمة مائة وثلاثين من الأولياء أحالني إلى بابك وإني بعد طول الرياضة في هذه المدة والمواظبة على العبادة والانقطاع من الخلق والعزلة والتفريد والتجريد جئت إلى بابك غير معجب بشيء من ذلك، فهب أني مجوسي أو يهودي أو نصراني جئت إلى حضرتك لطلب دين الحق فأدخلني في الإسلام، فقال عليه السلام: قل لا إله إلا الله.

قال أبو يزيد: فلما قلت: لا إله كلمة النفي فشاهدت المحو والفناء في جميع العالم

حتى في وجودي، فلما قلت: إلا الله كلمة الإثبات فظهرت صورة الصادق عليه السلام فقلت: سبحان الله الفناء والبقاء والمحو والإثبات الذي كنت أطلبه في تسعين عاماً مع طول الرياضات والمجاهدات وخدمة مائة وثلاثين من الأولياء وسير مائة وثلاثين ألف عام في الوحدة قد حصل لي في دقيقة واحدة بتلقينه عليه السلام كلمة لا إله إلا الله.

فلزمت حضرة الصادق عليه السلام وسألت أن يفوّض إليّ بعض خدماته ففوّض سقاية بيته الشريف إليّ، فكنت سقاء في بيته سبع سنين، فقال الصادق عليه السلام لي يوماً من الأيام: يا طيفور هات الكتاب من الرّف، فقلت: جعلت فداك وأين الرف؟ فقال: فوق رأسك وقد كنت منذ سنين عندنا في هذا الدار والبيت وما رأيت الرف فوق رأسك؟ فقلت: بالله الذي أجلسك في مسند الخلافة شغلي بك وبأنوارك منعتني عن هذا، فقال عليه السلام: قد تم لك الأمر امض إلى بسطام وادع الناس إلى الله سبحانه وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأوليائه، وأرسل معه بعض ولده فقدما متفقين إلى بسطام ودعى أهله إلى الصادق عليه السلام، وكان يوم الجمعة مشغولاً بإرشاد الخلق وهدايتهم إلى السير والسلوك وسائر أيام الأسبوع مشغولاً بالفتاوى والأحكام، انتهى ما نقله بطوله.

أقول: هذه القصة لم أجدها في مؤلفات أحد من المتصدّين لنقل كرامات الصوفية حتى في كتاب (**تذكرة الأولياء**) لهم أيضاً مع أن أصل مقصود صاحب (**التذكرة**) من تأليفه ليس إلا ذكر أمثال ذلك، والعهدة في ذلك على ناقله، نعم كون أبي يزيد سقاء في دار الصادق عليه السلام قد ذكره صاحب (**التذكرة**) وغيره.

لكن ردّه الشيخ نور الدين المحدث كما حكاه القاضي نور الله في (**مجالس المؤمنين**) عنه، فإنه بعدما حكى كونه سقّاء في داره عن جماعة قال:

وقال الشيخ نور الدين أبو الفتوح المحدث إنه صح عن علماء التاريخ أن وفاة مولانا الصادق عليه السلام كانت في سنة ثمان وأربعين ومائة وأن وفاة السلطان أبي يزيد المذكور في سنة إحدى وستين ومائتين، ولم يختلف أحد من العلماء في هذين التاريخين مع أن التفاوت ما بينهما مائة وثلاثة عشر سنة، ولم يذكروا أيضاً عمر أبي يزيد أكثر من الثمانين، فاحتمل أن يكون ملازمته في الخدمة لباب مولانا علي بن موسى بن جعفر الرضا عليه السلام.

ووافقه على ذلك المحقق الشريف في شرح المواقف حيث قال: وأما أبو يزيد فلم يدرك جعفراً عليه السلام بل هو متأخر، ولكنه استفاض من روحانية جعفر ولذا اشتهر انتسابه إليه، انتهى.

وكيف كان فقد نسبت إلى أبي يزيد ذلك كرامات كثيرة وقد أطروا في حقه حتى قال

جنيدهم البغدادي: إنه كان بين الأولياء كجبرئيل بين الملائكة.

ولكن هذا كله ينافي ما رواه غير واحد من العامة والخاصة منه من قوله: سبحاني ما أعظم شأني فإنه تنزيه يليق بالخالق ويختص به دون المخلوق.

وأعظم من ذلك ما رواه بعضهم عنه من قوله: ليس في جبّتي سوى الله، وروى بعضهم ذلك من حسين بن منصور الحلاج، والظاهر صدور هذا الهذيان من خبيث لسان كلا الرجلين بلا اختصاص له بأحدهما، لأنه مقتضى القول بوحدة الوجود ومن لوازمه، والعجب من بعض المتصوفة أنه بعد نقل هذه الخرافات عن الرجلين الجلفين جاء إلى مقام الاعتذار.

قال أبو حامد الغزالي في محكى كلامه من كتاب **(مشكاة الأنوار)** بعدما ذكر فصلاً طويلاً في حال الحلاج: إن قوله: أنا الحق وما في الجبّة إلا الله من فرط المحبة وشدة الوجد، وهذا مثل قول القائل:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... فإذا أبصرتني أبصرتنا

وتبعه على ذلك قطب الذهبية في كتابه **(قوائم الأنوار)**، قال في ذكر الشرط الخامس من شرائط السلوك بعد جملة كلام له ما ترجمته: إن السالك بعد ترقيه إلى غاية مقام القرب من الحضرة الأحدية لا يبقى له طريق الترقي إلى ما فوق ذلك وهو باب الولاية الإلٰهية، ولا يمكن له دخول ذلك الباب بالرياضات والمجاهدات إلا بجذبة عناية إلٰهية تفوح من مكمن الغيب الذي هو باطن باب الولاية وتجذب السالك حتى تدخله في ذلك الباب وتجعله عارفاً بأسرار الولاية العلوية روح العالمين فداه، وهذه الأسرار هي التي برزت من أولياء أهل العصمة كما أن السلطان أبا يزيد البسطامي الذي كان سقّاء الصادق عليه السلام قال في خلساته وعند استغراقه في نور الولاية من غير اختيار منه: ليس في جبّتي سوى الله، وكان الحسين بن منصور الحلاج يسجد تراب عتبته عليه السلام ويقول من غير شعور: أنا الحق، وبعدما قتلوه وأحرقوا جسده وصار رماداً ألقوا رماده في دجلة فكانت حباباب الدجلة متشكل بشكل: الله الله، وكانت دماؤه المتقاطرة على وجه الأرض تتنقّش بنقش: أنا الحق، وذلك لأنهم لما لم يسمعوا كلام مواليهم المعصومين عليهم السلام في عدم إذاعة أسرارهم فأذاعوها من غير اختيار منهم في الإذاعة، ذاقوا ألم الحديد ونالوا بالشهادة ولا يعلم أسرار ولايتهم عليهم السلام التي هي ولاية الله إلا الله سبحانه والذين تنصروا فمن جرى على لسانه اختياراً كلمات الكفر هذه فهو كافر بلا ريب، وأما هؤلاء فقد جرى على لسانهم من غير اختيار، والدليل على عدم الاختيار انتقاش الدم والرماد بنقش: أنا الحق والله الله، وقد رأى بعضهم الحلاج في المنام فسأل عنه: كيف عومل معك؟ قال: عاتبني رسول الله صلى الله عليه وآله وقال لي: «لم ثلمت ثلمة في شريعتي؟» فقلت: جعلت فداك وإن ثلمت ولكن جعلت رأسي موضع الثلمة حتى لا يجترىء على ذلك أحد من بعدي، فعفا عني

رسول الله صلى الله عليه وآله، انتهى كلامه.

أقول: ويتوجه على المعتذرين لا سيما على الثاني منهما وجوه من الكلام وضروب من الملام.

أما أولاً: فلأن كون هذه الكلمات من كلمات الكفر كما اعترفا به أيضاً ليس عليه غبار، والاعتذار بأن صدورها من الرجلين لم يكن بالاختيار باطل لمنع عدم الاختيار، وعلى تقدير تسليمه فأقول:

أفٌ وتفٌ على مذهب وطريقة يكون أعلى أعلى مقام ترقياتها وغاية غايات جذباتها ووجدها أن يخرج سالكها عن حد التميز والعقل والشعور والاختيار ويتكلم بالهجر والهذيان، أبهذا أمرهم صاحب الشريعة؟ معاذ الله ثم معاذ الله من الضّلال والخذلان وإغواء الشيطان.

ثم العجب كل العجب مما ذكره الثاني في تعليل عدم الاختيار من انتقاش الدم والرماد، وقد ذكره غيره أيضاً من أولياء هذا المقتول الملحد المرتدّ وأتباعه تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وكيف يذهب وهم العاقل إلى صدق ذلك فضلاً عن الاعتقاد به؟.

والذي يدل على بطلانه ضرورة وأنه إفك محض أن ثاني سيدي شباب أهل الجنة ودرّة صدف الطهارة والعصمة وسبط رسول الأمة الموصوف والمخصوص بالكرامة صاحب الولاية المطلقة سابق مضمار المعرفة والمحبة، القائل في مناجاته:

تركت الخلق طرّاً في هواكا	وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطّعتني في الحب إرباً	لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

سلام الله عليه وعلى جده وأبيه وأمه وأخيه وذريّته وبنيه مع كونه مجاهداً في دين الله مقتولاً في سبيل الله وكون دمه الطاهر المطهر ثار لله وكون ثائره هو الله عزَّ وجل، لم يُرَ ولم يَروِ أحد في دمه الانتقاش، ولو جاز في حق أحد ذلك لكان هو أحرى بذلك بمقتضى معرفته الكاملة ومحبته التامة البالغة لا الدم النجس للرجس الساحر الكافر الملحد المشعبد حسبما تعرف كفره وإلحاده وشعبدته تفصيلاً إن شاء الله.

وأما ثانياً: فلأن ارتكاب التأويل في كلمات هؤلاء الكفرة قد ورد فيه النهي الصريح من الأئمة عليهم السلام.

مثل ما رواه مولانا الأردبيلي في كتاب **(حديقة الشيعة)** عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي قال: قال رجل للصادق جعفر بن محمد عليه السلام: **قد ظهر في هذا الزمان قوم يقال لهم الصوفية فما تقول فيهم؟** قال عليه السلام: **إنهم أعداؤنا فمن مال إليهم فهو منهم ويحشر معهم**

وسيكون أقوام يدّعون حبنا ويميلون إليهم ويتشبهون بهم ويلقّبون أنفسهم بلقبهم ويؤولون أقوالهم ألا فمن مال إليهم فليس منا وإنا منهم براءة، ومن أنكرهم ورد عليهم كان كمن جاهد الكفار بين يدي رسول الله ﷺ[١]، هذا.

مضافاً إلى أن فتح باب التأويل كما قيل أول مراتب الإلحاد وبدء الضلال عن السداد، إذ بانفتاح تلك الأبواب وقبول الاحتمالات السخيفة في التكلم والخطاب ومقام السؤال والجواب ينهدم أساس الدين وينثلم أحكام الشرع المبين ويبطل إقامة التعذيرات والحدود على المستحقين لها من أهل الفسق والارتداد والجحود كما يبطل تكفير المتشرعين لسائر الكفار إذا تكلموا بكلمات الكفر ثم اعتذروا بعدم الاختيار أو ادّعوا الخذف والإضمار.

وظاهر أن بناء علماء الإسلام بل سائر المليّين على خلاف ذلك في جميع الأعصار فإنهم لا يقبلون تأويلاً من غير دليل وبمجرد سماع كلمة الكفر يحكمون بالتكفير والتضليل.

وقد ورد في الحديث المعتبر المتين عن أولياء اليقين والحجج المعصومين سلام الله عليهم أجمعين إن لنا في كل خلف عدولاً ينفون عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

فإلى الله نشكو من فقد نبينا ﷺ وغيبة وليّنا وكثرة عدونا وشدة الفتن بنا وتظاهر الزمان علينا.

إذ بغيبة الإمام عليه وعلى آبائه آلاف التحية والسلام والإكرام وبموت نوّابه الكرام ونقصان خلفائه العظام من العلماء الأعيان والمشايخ والمجتهدين الأعلام في الأصقاع والبلدان، ثلم ثلمة عظيمة في الإسلام، واشتدت البلية وعظمت الرزية وعاد الزمان زمان الجاهلية فتفرّق أهلها أيادي سبا وأيدي سبا باتباع الأهواء واختلاف الآراء واقتداء الآباء، فسلك كل منهم مسلكاً وسبيلاً، واتخذوا الشيطان لهم ملاكاً ودليلاً.

فتاه بعضهم في بادية البابيَّة وركب آخرون مركب المغيرية والخطابية، ومال ثالث إلى الحلاجية، وشرب رابع من قدح الشيخية، وارتوى خامس من كأس التصلف والكشفية، كل ذلك لقصورهم عن العروج إلى معارج العلم واليقين، وفتورهم عن نهج مناهج المجتهدين، وجهلهم بقوانين الاجتهاد والتقليد في الأصول وفروع الدين.

والعجب من بعض رؤساء هذه الفرق حيث إنه على جهله وبلادته وعدم تميزه بين الهرّ والبرّ، وتفرقته بين الشعير والبرّ، يؤلف كتاباً ورسائل ويودع فيها ما ألقاه الشيطان في روعه

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٣٢٣ ح ١٤٢٠٥.

من الضلال، وأجراه على لسانه من مقالات الجهال وترهات الأقوال التي تضحك من سخافتها الثكلى، وتسقط الطير من السماء، ثم يذيعها على سخافتها بين أتباعه الجهلة العوام الذين هم كالأنعام، وينشره بين الهمج الرعاع الذين يصغون إلى كل ناعق ويتبعون على كل حمار ناهق، فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ونسأل الله سبحانه من فضله الواسع وكرمه العميم السابغ بمقتضى ما جرت عادته عليه في البلاد والعباد عند غلبة الضّلال والفساد وإشراف آثار الشريعة من الاندراس، وقرب شموس العلوم الحقة من الانطماس:

أن يُرسل شهاباً ثاقباً من كبراء المجتهدين والفقهاء المجددين على الضالين والمضلّين من أولياء الشياطين الذين يكادون هدم أساس الشريعة بكيفيات خيالهم ويسقط أعلام الشيعة بكشفيات مقالهم ليقذفهم من كل جانب دحوراً حتى لا يدعوا ثبوراً واحداً بل يدعون ثبوراً كثيراً، وليكون حامياً لبيضة الدين، ماحياً لآثار المفترين، ناشراً لناموس الهداية، كاسراً لناقوس الغواية، متمماً للقوانين العقلية، متقناً للفنون النقلية، مجدداً لمآثر الشريعة المصطفوية، محدداً لجهات الطريقة المرتضوية، فإن فقيهاً واحداً كما قال النبي صلى الله عليه وآله: «أشدّ على إبليس من ألف عابد إذ به إرغام كل شيطان مارد، وإدغام كل ملحد معاند»[1].

وأما **ثالثاً**: فلأن ما يستفاد من كلام ثاني المتعذرين من كون أبي يزيد والحلاج من أولياء أهل العصمة عليهم السلام وحامل أسرارهم، فيه منع ظاهر.

أما أبو يزيد فإنه وإن اختلف في كونه من أهل زمن الصادق عليه السلام وفي كونه سقّاء في داره كما هو المشهور أو من أهل زمن الرضا أو الجواد عليهما السلام كما قاله بعضهم واشتهر أنه شيعي المذهب، أما أنه من الكاملين من ولاية الأئمة عليهم السلام ومن جملة حملة الأسرار فلا، إذ الكامل في مقام الولاية لا بد أن يكون في أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته تابعاً لمولاه.

وهذا الرجل وإن نقل منه ما يفيد متابعته لهم عليهم السلام ومواظبته على الوظائف الشرعية.

مثل ما نقله أبو القاسم القشيري عنه أنه قال: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة.

---

(١) تذكرة الفقهاء: ١/ ٩، والبحار: ١٠٨/ ٢٠.

وقال القشيري: أنه سئل بأي شيء وجدت هذه المعرفة؟ قال: ببطن جائع أو بدن عاري.

قال: وقيل: لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن، بمعنى حفظه عن ظهر قلب.

قال: أخبرنا أبو حاتم السجستاني قال: أنبأنا أبو نصر السراج قال: سمعت طيفور البسطامي يقول: سمعت المعروف بمعميّ البسطامي - بفتح العين المهملة وكسر الميم وتشديد الياء - يقول: سمعت أبي يقول: قال أبو يزيد: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلاً مقصوراً مشهوراً بالزهد، فمضينا فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببزاقه تجاه قبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه؟.

وبهذا الإسناد قال أبو يزيد: لقد هممت أن أسأل الله أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله ﷺ فلم أسأله، ثم إن الله سبحانه كفاني مؤنة النساء حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط؟

وفي (**تذكرة الأولياء**) نقل أنه كان بين داره وبين المسجد أربعون قدماً ولم ير منه أن يرمي ببزاقه إلى الأرض رعاية لحرمة المسجد، إلى غير ذلك مما رووه عنه من مواظبته بحدود الشريعة وآدابها.

لكنه كله ينافي ما قدمنا نقله عنه من معراجه وسائر صلائفه، ومن قوله: ليس في جبتي سوى الله، وقوله: سبحاني ما أعظم شأني كما نقله غير واحد.

وما نقله في «**تذكرة الأولياء**» من أنه عزم الحج وسار منازل عديدة ثم رجع فقيل له: ما رأينا منك فسخ العزم فما بدا لك؟ قال: رأيت في الطريق امرأة سلّت سيفها وقالت لي: ارجع وإلا ضربت عنقك تركت الله ببسطام وقصدت البيت الحرام؟.

وفي «**التذكرة**» أيضاً أنه رأى رسول الله ﷺ ليلة في المنام، فقال: يا رسول الله خدمت مائة وثلاثة عشر شيخاً وما وجدت ما طلبته من الكمال، فقال ﷺ: «اذهب إلى أهل بيتي واخدمهم حتى تكمل»، فاستيقظ من منامه وذهب إلى المدينة فرأى الصادق عليه السلام وهو ابن سبع سنين مع أطفال يتلاعبون وهو ينظر إليهم قال أبو يزيد: فترددت بين السلام عليه من حيث كونه ابن رسول الله وبين عدم السلام من حيث كونه طفلاً صغيراً ثم سلّمت عليه فرد عليّ السلام ثم قال: يا أبا يزيد طب نفساً، تعال نلعب معك، فقال: يا ابن رسول الله أيّ لعب نلعب؟ فقال: غب أنت فأنا أجدك ثم أغيب أنا فأنت تجدني، فغاب أبو يزيد أولاً فدار

الإمام ﷺ تمام وجه الأرض فلم يجده، ثم ذهب إلى السماوات فطلبه في السماء الأولى والثانية والثالثة فلم يجده فيها، ووجده في السماء الرابعة في عين الشمس وأخذ بيده وجاء به إلى الأرض فقال له: ها أغيب الآن فلتجدني، فغاب ﷺ فطلبه أبو يزيد فلم يجده في تمام الأرض ثم طلبه في السماوات السبع ولم يجده فيها، ثم رجع إلى الأرض وعجز عن طلبه، فقال: يا ابن رسول الله إني عجزت عن وجدانك فأظهر لي نفسك بعميم كرمك، فخرج الصادق ﷺ من قلب أبي يزيد، فقال: أنا معك فأين تدور؟ وكان هذا إشارة منه ﷺ وإرشاداً له فهداه إلى ما طلب وفتح له باباً انغلق.

إلى غير ذلك مما نقلوه عنه من هذا النمط والأسلوب المخالف للأصول الشرعية والمنافي لطريقة صاحب الشريعة.

ولا يكاد ينقضي عجبي منه حيث إنه لاحظ رمي البزاق في المسجد وفي طريق المسجد مع أنه إما مكروه وإما مباح، ولم يلاحظ كلمة الكفر الجارية على لسانه من قوله: ليس في جبّتي سوى الله، ونحو ذلك، وليت شعري في أي مقام وأي حديث رخّص صاحب الشريعة بالتفوّه بهذه الهذيانات.

هذا كله بناء على التنزل والمماشاة وإلا فأقول: يكفي في كفره وإلحاده وكونه سنّياً شهادة مثل مولانا المقدس الأردبيلي «قد» على ذلك.

قال في (**حديقة الشيعة**): إن هذه الطائفة أي الصوفية كانوا يؤدون في المجالس بعض أسرارهم الكفرية بالرموز والإشارة إلا أبا يزيد، فإنه يقول مكرراً غير هائب ولا محتشم: ليس في جبّتي سوى الله وسبحاني سبحاني ما أعظم شأني، ورأيت الله في المنام في صورة شيخ هرم، وكان هو في الأصول ظاهراً على التشبيه والحلول وفي الفروع عاملاً بمذهب مالك، وكان في الباطن زنديقاً ملحداً وكونه سقّاء في بيت الصادق ﷺ من مفتريات العامة بل كان ذلك الشقي معاصراً للحسن العسكري وخدم عدة أيام للجعفر الكذاب؛ انتهى كلامه رفع مقامه.

وأما الحلاج فلا خفاء في كفره وإلحاده وبعده عن طريقة الموحدين وقربه من أهواء الملحدين، ويظهر ذلك بشرح حاله، فأقول:

قال في (روضات الجنان): إنه كان جده مجوسياً كما في (الوفيات) ويا ليته كان دين جده، وأصله فارسياً بيضاوياً لم يصل البياض إلى صفحة قلبه وخده، وتوجه في حداثة سنه إلى ديار الأهواز فاشتغل بها على الشيخ أبي محمد سهل بن عبد الله التستري زماناً، ثم إلى العراق وهو ابن ثماني عشرة سنة وخالط بها الصوفية، وصحب الجنيد البغدادي وأبا الحسين

الثوري وغيرهما.

ثم رجع إلى تستر وتأهل، فخرج منها بعد زمان في جمع من خلطائه إلى بغداد، ومنها إلى مكة المشرّفة.

ثم لما رجع منها إلى بغداد بقصد زيارة الجنيد ودخل عليه سأله عن مسألة فلم يجبه، وقال له: أنت مدّع في سؤالك، فتكدّر منه الحلاج وعاود إلى تستر وحصل له وقع عظيم في هذه المرة عند أهلها بحيث قد خاف على نفسه فاستتر عنهم نحواً من خمس سنين، وكان في هذه المدة يتردد إلى بلاد خراسان وما وراء النهر وسجستان وفارس، ويظهر لهم الدعوة ويصنّف فيهم الكتب حسبما يريد، وكان يدعى عندهم بأبي عبد الله الزاهد.

ثم لما رجع في هذه الكرّة إلى الأهواز نطقوا عنه بحلاج الأسرار لكثرة ما كان يخبر عن ضمائرهم إلى أن جعل له الحلاج لقباً على التدريج، فسافر منها إلى البصرة ومنها إلى مكة ثانياً وهكذا إلى تمام أربعة أسفار إليها بينهن سفر منه إلى طرف الهند والصين وبلاد الترك، وتشنيع شديد من الشيخ أبي يعقوب النهرجوري عليه.

ثم رجع إلى بغداد وكان قد توفي الجنيد فتوطن هناك في هذه الكرّة إلى أن تغير عليه وجوه الفقهاء والقضاة وآل أمره إلى ما آل إلى أن قال:

والعجب أن كل من كان له أدنى فائحة من نسيم الجنة ورائحة من شميم الكتاب والسنّة لم يذكره إلا لسوء الرأي وفساد العقيدة ونهاية التزوير والمهارة في فنون التسخير والتقرير إمامياً كان أو سنّياً وظاهرياً كان أم صوفياً وكأن ذلك لأنه اختص بقبائح أمور في هذه الشريعة لم يعهد مثلها لأحد من المتصوفين الإسلاميين.

منها أنه أظهر الدعاوى الشديدة من عند نفسه وأية دعاو.

ففي بعض المواضع أنه ادعى الربوبية والعياذ بالله العظيم مراراً كثيرة، وفي بعضها أنه ادعى طيبة الأرض وعلوم الغيب والاتحاد مع الله تعالى شأنه العزيز، وفي بعضها أنه لما ورد قم كان مدّعياً لرؤية صاحب الزمان والنيابة عنه والبابية له، فلم يتهنأ له فيها العيش فخرج منها إلى مكة المشرّفة وهو يدّعي الإمامة لنفسه وقطبيّة الأرض ثم لما دخل مكة زاد في طنبور ملعنته نغمة إلى داعية الربوبية، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

ومنها أنه لم يمت إلا وقد ظهر منه خلافات وانكشف منه خرافات بحيث لم يبق لأحد من العقلاء شك في فساد عقيدته وبطلان طريقته.

وذلك أن شيخنا الأقدم المفيد رضوان الله تعالى عليه قد عمل في الرد على الحلاجية

كتاباً، وفتح الصدوق ابن بابويه القمي في كتاب اعتقاداته الحقة إلى كفر أولئك باباً، ورفع شيخنا الطوسي أيضاً في كتاب **(الغيبة والاقتصاد)** عن وجه هذا المرام حجاباً ونقاباً، حيث عدّه في الأخير من السحرة الكافرين، وقال في الأول:

ومنهم يعني ومن الكذابين الملعونين بلسان أهل البيت لادعائهم الرؤية والبابية بعد الغيبة الكبرى ووفاة خاتمة السفراء والمقرّبين، وهو الحسين بن منصور الحلاج.

أخبرنا الحسين بن إبراهيم عن أبي العباس أحمد بن علي بن نوح عن أبي نصر هبة الله بن محمد الكاتب ابن بنت أم كلثوم بنت أبي جعفر العمري قال: لما أراد الله أن يكشف أمر الحلاج ويظهر فضيحته ويخزيه وقع له أن أبا سهل إسماعيل بن علي النوبختي رضي الله عنه ممن تجوز عليه مخرفته وتتم عليه حيلته، فوجه إليه يستدعيه وظن أن أبا سهل كغيره من الضعفاء في هذا الأمر بفرط جهله وقدر أن يستجبره إليه فيتمخرق ويتسوّف بانقياده على غيره فيتطيب له ما قصد إليه من الحيلة والبهرجة على الضعفة لقدر أبي سهل في أنفس الناس ومحلّه من العلم والأدب أيضاً عندهم، ويقول له في مراسلته إياه: إني وكيل صاحب الزمان عليه السلام وبهذا أولاً كان يستجرّ ثم يعلو منه إلى غيره وقد أُمرت بمراسلتك وإظهار ما تريده من النصرة لك لتقوّي نفسك ولا ترتاب بهذا الأمر.

فأرسل إليه أبو سهل رضي الله عنه يقول لك: إني أسألك أمراً يخف مثله عليك في جنب ما ظهر على يديك من الدلائل والبراهين وهو: إني رجل أحب الجواري وأصبو إليهن ولي منهن عدة أتخطاهن والشيب يبعدني منهن وأحتاج إلى أن أخضبه في كل جمعة وأتحمل منه مشقة شديدة لأستر عنهن ذلك وإلا انكشف أمري عندهن فصار القرب بعداً والوصال هجراً، وأُريد أن تغنيني عن الخضاب وتكفيني مؤنته وتجعل لحيتي سوداء فإنني طوع يديك وصائر إليك وداع إلى مذهبك مع ما لي في ذلك من البصيرة ولك من المعونة.

فلما سمع ذلك الحلاج من قوله وجوابه علم أنه قد أخطأ في مراسلته وجهل في الخروج إليه بمذهبه وأمسك عنه فلم يرد إليه جواباً ولم يرسل إليه رسولاً.

وصيّره أبو سهل رضي الله عنه أحدوثة وضحكة وتطرءة عند كل أحد وشهّر أمره عند الصغير والكبير، وكان هذا الفعل سبباً لكشف أمره وتنفير الجماعة عنه[١].

وأخبرني جماعة عن أبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه: أن الحلاج صار إلى قم وكاتب قرابة أبي الحسن يستدعيه ويستدعي أبا الحسن أيضاً ويقول: أنا

---

(١) بطوله في غيبة الشيخ الطوسي: ٤٠٢ ح ٣٧٦.

رسول الإمام ووكيله.

قال: فلما وقعت المكاتبة في يد أبي رضي الله عنه خرقها وقال لموصلها إليه: ما أفرغك للجهالات، فقال له الرجل: وأظن أنه قال أنه ابن عمته أو ابن عمه: فإن الرجل قد استدعانا فلم خرقت مكاتبته وضحكوا منه وهزؤوا به، ثم نهض إلى دكانه ومعه جماعة من أصحابه وغلمانه.

قال: فلما دخل إلى الدار التي كان فيها وكأنه نهض له من كان هناك جالساً غير رجل رآه جالساً في الموضع فلم ينهض له ولم يعرفه أبي، فلما جلس وأخرج حسابه ودواته كما تكون التجار أقبل على بعض من كان حاضراً فسأله عنه فأخبره فسمعه الرجل يسأل عني فأقبل عليه وقال له: تسأل عني وأنا حاضر؟ فقال له أبي: أكبرتك أيها الرجل وأعظمت قدرك أن أسألك، فقال له: تخرق رقعتي وأنا أشاهدك تخرقها؟ فقال له أبي: فأنت الرجل إذاً؟ ثم قال: يا غلام برجله وبقفاه، فخرج من الدار العدو لله ولرسوله، ثم قال له: أتدّعي المعجزات عليك لعنة الله، أو كما قال: فاخرج بقفاه. فما رأيناه بعدها بقم، انتهى.

أقول: المراد بأبي الحسن هو علي بن موسى والد الصدوق وإنما كنّي به لمكان ابنه الأوسط الذي كان مشتغلاً بالعبادة والزهد لا يختلط بالناس ولا فقه له بخلاف الأخويين الباقيين أبي جعفر محمد وأبي عبد الله الحسين راوي هذا الحديث، فإنهما كانا فقيهين ماهرين في الحفظ يحفظان ما لا يحفظه غيرهما من أهل قم، لأنهما ولدا بدعاء الإمام عليه السلام على ما في كتاب **(الغيبة)** للصدوقين القمي والطوسي «قهما» وغيرهما بل هذا أمر مستفيض عند أهل قم.

وقال العلامة «قد» الحلّي في محكي كلامه من خلاصته: الحسين الحلاج ابن المنصور، ظهر ببغداد وكان أعجمياً وادّعى أنه الباب وظفر به الوزير علي بن عيسى فضربه ألف عصا وفصّل أعضاءه ولم يتأوّه وكان كلما قطع عنه عضو قال:

وحرمة الودّ الذي لم يكن يطمع في إفساده الدهر
ما قدّ لي عضو ولا مفصل إلا وفيه لكم ذكر

وقال في **(فوائد الخلاصة)**: إنه من الكذّابين، وذكر الشيخ له أقاصيص ومراده بالأقاصيص ما نقلناه آنفاً.

وقال مولانا المقدس الأردبيلي «قد» في كتابه **(حديقة الشيعة)**: أما حسين بن منصور الحلاج فقد أفرط وجاوز الحد في الفضاحة وأظهر الكفر والإلحاد بلا حجاب وخرج التوقيع بلعنه ومن جملة من أفتى بقتله وكتب خطه في وجوب قتله هو الحسين بن روح رضي الله عنه

وكيل صاحب الزمان عليه السلام.

وقال أبو ريحان البيروني السندي من أكابر المنجمين في **(تاريخه)** حين ذكر تاريخ المتنبين وأممهم المخدوعين عليهم لعنة رب العالمين: ثم ظهر رجل متصوف من أهل فارس يعرف بالحسين بن منصور الحلاج، فدعى إلى المهدي أولاً وزعم أنه يخرج من الطالقان الذي بالديلم فأخذوا دخل مدينة السلام، وحبس شهراً فاحتال حتى تخلّص من السجن، وكان رجلاً مشعبداً متصنعاً مازجاً نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه، ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمّى بالإله، وصارت له رقاع إلى أصحابه معنونة بهذه الألفاظ.

من الهوهو الأزلي الأول النور الساطع اللامع والأصل الأصلي وحجة الحجج ورب الأرباب ومنشيء السحاب ومشكاة النور ورب الطور والمتصور في كل صورة إلى عبده فلان.

وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه بـ: سبحانك يا ذات الذوات ومنتهى غاية اللذات، يا عظيم يا كبير، أشهد أنك الباري القديم المنير المتصوّر في كل زمان وأوان في زماننا بصورة الحسين بن منصور عبيدك ومسكينك وفقيرك والمستجير بك والمنيب إليك والراجي رحمتك يا علاّم الغيوب يقول كذا وكذا.

وصنّف كتاباً في دعواه مثل كتاب **(نور الأصل)** وكتاب **(جمّ الأكبر)** وكتاب **(جمّ الأصغر)**، فعثر عليه المقتدر بالله في سنة إحدى وثلاثمائة للهجرة وضربه ألف سوط وقطع يديه ورجليه وضرب عنقه، ثم زرقه بالنفط حتى احترقت جثته ورمى برماده في دجلة ولم يتكلم بحرف فيما فعل به ولم يقطب وجهه ولم يحرك شفته وبقيت بقيّة من أتباعه منسوبون إليه يدعون إلى المهدي وأنه يخرج بالطالقان، انتهى.

وقال الشيخ محمد الشهير بحاجي مؤمن الخراساني: والذي أعتقد فيه ـ يعني الحلاج ـ الرد عليه وعلى أصحابه، لأن كل حقيقة ردّته الشريعة فهي مردودة كما حققناه وقد رد عليه كبار المشايخ المتقدمين والمتأخرين كالجنيد، والشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي رئيس المحدّثين المتألّهين، وشيخ الطائفة أبي جعفر محمدبن الحسن الطوسي، والشيخ الطبرسي، والشيخ المفيد، والسيد المرتضى علم الهدى، والشيخ جمال الدين المطهر الحلي، والسيد بن طاووس صاحب المقامات والكرامات، والشيخ أحمد بن فهد الحلي المتألّه شيخ المتأخرين رضي الله عنهم، وكلهم اتفقوا على أنه من المذمومين وبعضهم على أنه خرج من الناحية توقيع بلعنه، وأنت إذا تأملت أدنى تأمل وجدت أكثر من ينتمي إلى الحلاج ويعتقد رأيه قائلين بالحلول والتجسيم والتشبيه والزندقة وترك الشرائع والأحكام والأمر والنهي، ويدّعي الوصول إلى أعلى مرتبة العرفان والتوحيد والإباحة وينفي الحلال

والحرام كالفرقة المردفية المشركة المجوسية، انتهى.

أقول: ويؤيد ما ذكره أخيراً من المتصوفة الحلاجية ما قاله الصدوق في اعتقاداته: علامة الحلاجية من الغلاة دعوى التجلي بالعبادة مع تدينهم بترك الصلاة وجميع الفرائض، ودعوى المعرفة بأسماء الله العظام، ودعوى انطباع الحق لهم وأن الولي إذا خلص وعرف مذهبهم فهو عندهم أفضل من الأنبياء عليهم السلام، ومن علامتهم أيضاً دعوى علم الكيمياء ولا يعلمون منه إلا الدّغل والتلفيق بالشبه والرّصاص على المسلمين، اللهم لا تجعلنا منهم والعنهم جميعاً. انتهى كلامه رُفع مقامه.

وفي كتاب **(روضات الجنان)** من كتاب **(روض المناظر في علم الأوائل والأواخر)** تأليف الشيخ محب الدين الحنفي، ألّفه في بيان سوانح كل سنة من لدن زمن أنبياء بني إسرائيل إلى سنة ثلاث وثمانمائة قال:

إن في سنة تسع وثلاثمائة قتل حسين بن منصور الحلاج، كان يخرج فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس، ويمدّ يده في الهواء ويعيدها وفيها دراهم وعليها مكتوب: قل هو الله أحد، يسميها دراهم القدرة ويخبر الناس بما صنعوا في بيوتهم ويتكلم بما في ضمائرهم، وفتن به خلق كثير واختلفوا فيه اختلاف النصارى بالمسيح، وكان يصوم الدهر ويفطر على ماء وثلاث عضاة من قرص.

قدم من خراسان إلى العراق وصار إلى مكة وجاور بها سنة ثم عاد إلى بغداد فالتمس حامد الوزير من المقتدر أن يسلمه إليه، وجدّ الوزير في قتله واستنطقه عدة مجالس بحضرة العلماء آخرها أنه ظهر منه بخطه كتاب يتضمن: أن من لم يمكنه الحج إذا أفرد في داره بيتاً نظيفاً ولم يدخله أحداً فطاف حوله أيام الحج وفعل ما يفعله الحاج ثم جمع ثلاثين يتيماً وأطعمهم أجود الطعام في ذلك البيت وكساهم وأعطى كل واحد منهم سبعة دراهم كان كمن حجّ.

فقال القاضي أبو عمرو الحجاج: من أين لك هذا؟ فقال: من كتاب **(الإخلاص)** للحسن البصري، فقال القاضي: كذبت يا حلال الدم قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا، فطالبه الوزير بكتابة خطه أنه حلال الدم أياماً ثم أجابه وكتب بإباحة دمه ووافقه جماعة من العلماء، فقال الحلاج: ما يحل لكم دمي وديني الإسلام ومذهبي السنة ولي فيها كتب موجودة يكون عند الوراقين، فالله الله في دمي ولم يزل يردد هذا.

وعن تاريخ حبيب السير أنه قال بعد ذكره لهذه الواقعة بالفارسية إلى قوله: ومذهبي السنة: وتفضيل الخلفاء والعشرة المبشرة، ولي في السنة كتب موجودة تكون عند الوراقين، فالله الله في دمي، ولم يزل يردد هذا وهم يكتبون خطوطهم حتى استكملوا ما أرادوا،

ونهضوا من المجلس.

فحمل الحلاج إلى السجن وكتب الوزير إلى المقتدر بالله الخليفة فهرست الوقائع، فصدر منه الجواب بعيد ساعة بأن قضاة البلد إذا كانوا قد أفتوا بقتل الرجل فليسلم إلى صاحب الشرطة وليتقدم إليه يضربه ألف سوط فإن هلك وإلا يضربه ألفاً آخر ويضرب عنقه.

فسلّمه إلى الشرطي وأخبره بما رسم به المقتدر وقال: فإن لم يتلف بالضرب فاقطع يده ثم رجلاه ثم تنحر رقبته وتحرق جثته؛ وإن خدعك وقال: أنا أجري لك الفرات ودجلة ذهباً وفضة فلا تقبل ذلك منه، ولا ترفع العقوبة عنه.

فتسلّمه الشرطي ليلاً فأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة فأخرجه إلى باب الطاق وكان يتبختر في قيوده واجتمع عليه من العامة خلق كثير لا يحصون.

فضربه الجلاد ألف سوط فلم يتأوّه شيئاً بل قال للشرطي لما استوفى ستمائة: ادع بي إليك فإن لك عندي نصيحة تعدل فتح قسطنطينية الروم، فقال له: قد قيل لي: إنك تقول هذا الكلام وأكثر منه وليس إلى رفع السياط عنك سبيل، فلما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة ثم جزّ رأسه وأحرق جثته بالنار، ولما صارت رماداً ألقاها في دجلة ونصب رأسه على الجسر، واتفق أن ارتفع ماء دجلة في تلك السنة فادعى بعض أصحابه أن ذلك ببركة ما ألقي فيها من الرماد، وتواعدوا في أنفسهم أيضاً على السر أنه سيعود إليهم بعد أربعين يوماً من ذلك التاريخ، وادعى بعضهم أنه لم يقتل وإنما ألقي شبهه على عدوّ له فقتل.

ثم إن في تاريخ **(روض المناظر)** أنه قتل وحرق ونصب رأسه ببغداد قال: وقد ترجمه الذهبي في عدة أماكن من كتبه، وكذا الخطيب وغيره ترجمة قبيحة وأنه كان ساحراً مشعبذاً محلولاً والله أعلم، انتهى.

وفي **(وفيات الأعيان)** نقلاً عن أبي بكر بن ثوابة القصري أنه قال: سمعت الحسين بن منصور وهو على الخشبة يقول:

طلبت المستقرّ بكل أرض ... فلم أر لي بأرض مستقرّاً
أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لكنت حرّاً[1]

فقد علم بذلك كله أن الرجل من أهل الغلوّ والإلحاد، والحلول والاتحاد فكيف يكون من أولياء أئمة الدين سلام الله عليهم أجمعين؟، ولو كان من أهل الولاية لورد فيه منهم عليهم السلام ما يدل على مدحه وفضله وعلوّ شأنه، لا ما يدل على لعنه وطعنه.

---

(١) راجع صلة تاريخ الطبري للقرطبي: ٦٩ ط. الأعلمي.

قال في **(روضات الجنان)**: لو شئت زيادة بصيرة بأحوال وأباطيل الملاحدة من هذه الطائفة فعليك بمراجعة رسالة الشيخ الحر العاملي الموضوعة للتشنيع عليهم وتحذير أهل الإسلام من اتباعهم، وبيان جملة من قبائح أفعالهم، فإنها البالغة حدّ الكمال في هذا الباب، وكذلك كتاب مولانا محمد طاهر القمي المعاصر له المشنع على المولى محسن الفيض الكاشي صاحب **(الوافي)** في ميله إلى هذه الطائفة، بل المكفّر إياه من هذه الجهة ورسالتي الشيخ علي بن الشيخ محمد الشهيدي والمولى إسماعيل الخاجوئي بالعربية والفارسية، في تخطئتهم وتنفير قلوب عوام الناس عنهم، وغير ذلك من تضاعيف مصنفات الشيعة وأهل السنة والجماعة، فإنهم في الحقيقة مصداق قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] ومنكرون لأساس الشريعة الغراء، أعاذنا الله وجميع المؤمنين والمؤمنات من متابعة أهوائهم وسلوك سبيلهم آمين رب العالمين.

المقام السادس في منشأ الكرامات وخوارق العادات الصادرة من هذه الطائفة

كالإخبار عن المغيبات واستجابة الدعوات وتأثير الأنفاس وطي الأرض ونحوها، مما رويت عنهم ونسبت إليهم في كتبهم المدونة لهذا الغرض، مثل كتاب **(تذكرة الأولياء)** وغيره، فأقول وبالله التوفيق:

إن ظهور الكرامات من أولياء الله الجامعين بين مرتبتي العلم والعمل على اصطلاح المتشرعة وبين الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة، وبعبارة أخرى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وبرد اليقين على اصطلاح المتصوفة: غير قابل للإنكار وليس عليه غبار، لأن العبودية جوهرة كنهها الربوبية.

وقد نقل من أصحاب النبي وأتباع الأئمة عليهم السلام الكاملين في مقام المعرفة والولاية، ومن العلماء الراسخين وغيرهم من عباد الله الصالحين المتّقين المتصفين بالصفات المتقدمة في الخطبة المائة والثانية والتسعين في حديث همام وغيرها كرامات متجاوزة عن حد الإحصاء، وظهورها منهم عناية خاصة من الله عز وجل بهم، ولطف مخصوص في حقهم إكراماً لهم وإظهاراً لشرفهم لديه وقربهم إليه.

وأما غير هؤلاء من أهل التصنع والتكلف والتصوف والتصلف؛ فظهور بعض خوارق العادة منهم مستند إلى أحد أمور:

منها **الشعبدة**: وهي حركات سريعة تترتب عليها أفعال عجيبة بحيث يخفى على الحسّ الفرق بين الشيء وشبهه لسرعة الانتقال منه إلى شبهه، فيحكم الرائي له بخلاف الواقع.

فالمشعبد الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا

اطمأن باستغراق نظرهم إليه عمل شيئاً آخر بسرعة شديدة، وبذلك يحصل عند الناظر أمر عجيب، وسببه الاشتغال بما أظهره أولاً والسرعة المزبورة.

وهذا هو المراد بقولهم: إن المشعبد يأخذ بالعيون، لأنه في الحقيقة يأخذ بالعيون إلى غير الجهة التي يحتال، وكلما كان أخذه للعيون وجذبه للخواطر إلى سوى مقصوده أقوى كان أحذق في عمله.

ولها أقسام أخرى معروفة بين المشعبدين من الإفرنج وغيرهم.

ومنها **التنجيم**: وهو الاستدلال بحركات النجوم على بعض الحوادث الواقعة فقد أخبر آذر بطريق النجوم على إبراهيم.

قال الصادق عليه السلام في المروي عنه في تفسير علي بن إبراهيم: إن آذر أبا إبراهيم كان منجماً لنمرود بن كنعان فقال له: إني أرى في حساب النجوم أن هذا الزمان يحدث رجلاً فينسخ هذا الدين ويدعو إلى دين آخر، فقال نمرود: في أي بلاد يكون؟ قال: في هذه البلاد، الحديث[1].

وعن صاحب كتاب **(التجمل)** أن آذر كان منجماً لنمرود فقال له يوماً: رأيت في النجوم أمراً عجيباً، قال: وما هو؟ قال: رأيت مولوداً يولد في زماننا يكون هلاكنا على يديه ولا يلبث إلا قليلاً حتى يحمل به، قال: فتعجب من ذلك ثم قال: هل حملت النساء؟ قال: لا، فحجب الرجال عن النساء، ولم يدع امرأة إلا جعلها في المدينة قال: فوقع آذر على أهله فحملت بإبراهيم فظن أنه صاحبه فأرسل إلى قوابل ذلك الزمان وكُنّ أعلم الناس بالجنين فنظرن فألزم ما في الرحم الظهر فقلن: ما نرى في بطنها شيئاً، قال: وكان مما أوتي من العلم أن المولود سيحرق بالنار ولم يؤت أن الله سينجيه منها[2].

وقد تضمنت كتب التواريخ وغيرها الأخبار بنبوّة موسى ورسالته من النجوم، وكذا نبوة نبينا صلى الله عليه وآله وظهور العرب على الفرس كما لا يخفى على من لاحظها.

والأخبار النجومية للمنجمين من الوقائع المستقبلة فوق حد الإحصاء، وقد مر في شرح الكلام الثامن والسبعين مطالب نافعة في هذا المقام.

ومنها **الكهانة**: وهي عمل تقتضي طاعة بعض الجان.

قال العلامة «قد» في محكى القواعد: الكاهن هو الذي له رائد من الجن يأتيه بالأخبار.

---

(١) راجع تاريخ بغداد: ٨/ ١٢٧، وسير أعلام النبلاء: ١٤/ ٣٤٦.

(٢) بحار الأنوار: ٥٥/ ٢٣٨ ح ١٩، وجواهر الكلام: ٢٢/ ١٠٢.

وعن **(النهاية)** الكهانة هي تعاطي الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان، وقد كان في العرب كهنة فمنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله.

ومنها **السحر**: قال فخر المحققين في **(المحكي عن الإيضاح)**: إنه استحداث الحوادث والخوارق، إما بمجرد التأثيرات النفسانية وهو السحر، أو بالاستعانة بالفلكيات فقط وهو دعوة الكواكب، أو على تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهو الطلسمات أو على سبيل الاستعانة بالأرواح الساذجة وهو العزائم، ويدخل فيه النّيرنجات والكل حرام في شريعة سيد المرسلين.

وفي **(الجواهر)** أنه عبارة عن إيجاد شيء تترتب عليه آثار غريبة وأحوال عجيبة بالنسبة إلى العادة بحيث تشبه الكرامات، وتوهم أنها من المعجزات المثبتة للنبوات من غير استناد إلى الشرعيات بحروز أو دعوات أو نحوها من المأثورات.

ومنها **استخدام الجن والشياطين**: وعن **(المسالك)** دخوله في الكهانة وفي الدروس دخوله في السحر قال: يحرم الكهانة والسحر بالكلام والكتابة والرقعة والدّخنة بعقاقير الكواكب وتصفية النفس والتصوير والعقد والنفث والأقسام والعزايم بما لا يفهم معناه ويضرّ بالغير فعله.

ومن السحر الاستخدام للملائكة والجن والاستنزال للشياطين في كشف الغائب وعلاج المصاب[1].

ومنه الاستحضار بتلبيس الروح ببدن منفعل كالصبي والمرأة وكشف الغائب على لسانه.

ومنه النّيرنجات، وهي إظهار غرائب خواص الامتزاجات وأسرار النيرين ويلحق به الطلسمات وهي تمزيج القوى العالية الفاعلة بالقوى السافلة المنفعلة ليحدث عنها فعل الغرائب، فعمل هذا كله والتكسب به حرام أما علمه ليترقى أو لئلا يعتريه فلا، وربما وجب على الكفاية لدفع المتنبىء بالسحر ويقتل مستحلّه، انتهى.

وعن الصادق عليه السلام أنه لما سأله الزنديق عن السحر ما أصله وكيف يقدر الساحر على ما يوصف من عجائبه وما يفعل؟ قال: إن السحر على أقسام وجوه شتى، منها بمنزلة الطب كما أن الأطباء وضعوا لكل داء دواء فكذلك علماء السحر احتالوا لكل صحة آفة ولكل عافية سقماً، وكل معنى حيلة ونوع منه آخر خطفة وسرعة ومخاريق وخفة ونوع منه ما يأخذ أولياء

(١) البحار: ٢٩/١٢ ح ٦.

الشياطين منهم[١].

وذكر بعضهم أنه على أقسام:

الأول: سحر الكذابين وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها المدبرة لهذا العالم إلا أنهم فرق ثلاث:

الأولى: زعمت أن الأفلاك والكواكب واجبة الوجود لذاتها، وهي المدبرة لهذا العالم والخالقة له.

والثانية: أنها مخلوقة إلا أنها قديمة لقدم العلة التامة المؤثرة في وجودها فالساحر عند الفرقتين هو الذي يعرف قوى العالية الفعالية بسائطها ومركباتها، ويعرف ما يليق بكل واحد من العوالم السفلية، ويعرف المعدّات ليعدّها، ويعرف العوائق لينحيها معرفة بحسب الطاقة البشرية، وذلك يكون متمكناً من استجذاب ما يخرق العادة.

الفرقة **الثالثة**: أنها حادثة مسبوقة بالعدم إلا أن خالقها خلقها عاقلة مختارة، وفوّض تدبير العالم إليها والساحر حينئذ من عرفته بالتقريب السابق.

القسم الثاني: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، وهو يكون بتجريد النفس عن الشواغل البدنية وعن مخالطة الخلق وأمورهم، وبه يحصل تأثيرها في جميع ما تريده من الأشياء، وتوجد صورته في ذهنها ويقتدر بذلك على الإتيان بما هو خارق للعادة، نعم النفوس في ذلك مختلفة.

فمنها القوية المستعلية على البدن الشديدة الانجذاب إلى عالم السماوات، بل كأنها من الأرواح السماوية، وهذه لا تحتاج التأثير إلى هذا العالم إلى آلة وأداة.

ومنها ما لا يكون كذلك، فيحتاج إلى تصفية وتجربة، وربما استعانت على ذلك بالرّقي المعلومة ألفاظها بل وغير المعلومة باعتبار حصول دهشة للنفس وحيرة، وربما ما حصل في أثناء ذلك انقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل وجدّ عظيمٌ، ويقوّي التأثير النفساني وربما استعانت على ذلك أيضاً بالدّخنة على الوجه الذي سمعته في الرّقي.

الثالث: الاستعانة بالأرواح الأرضية وهي الجن، فإن اتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، لشدة المشابهة والمشاكلة وإن كان التأثير مع الاتصال بتلك الأرواح أعظم بل هو كالقطرة بالنسبة إلى البحر، وقد قالوا: إن الاتصال بها يحصل بأعمال

---

(١) راجع الدروس: ٣/ ١٦٤، ومفتاح الكرامة: ٤/ ١١١، وجواهر الكلام: ٢٢/ ٨٠.

سهلة قليلة من الرقي والدّخن والتجريد، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن، انتهى.

أقول: وهذا كله من فروعات علم السيميا الذي قيل في تعريفه: هو علم بأمور يتمكن به الإنسان من إظهار ما هو مخالف للعادة أو منع ما هو موافق للعادة، بعضه متعلق بالطلسمات، وبعضه بدعوة الكواكب وتسخير السيارات، وبعضه بتسخير الوحوش والطيور، وبعضه بالتعظيم والتنجيم واستخدام الجن والإنس والشياطين بأعمال وشرائط مقررة عند أهل هذا الفن وهو علم طويل عريض عميق والوصول إليه والقيام بشرائطه في غاية الصعوبة وعجائبه لا تحصى.

فقد نقل عن بعض التفاسير أن سبب تمرّد نمرود اللعين عن طاعة الله تعالى أن الحكماء قد عملوا في مقرّ سلطنته أرض بابل طلسمات ستة تحار فيها العقول:

أولها: بطة من نحاس إذا دخل في البلد سارق أو جاسوس كانت هذه البطة تصوّت بأعلى صوت يسمعه كل من بالبلد، ويعرفون علة تصويته فيطلبون الداخل ويدركونه.

الثاني: طبل إذا ضلّل أحدهم شيئاً يجيء إلى ذلك الطبل ويضربه بعود فيخرج منه صوت ويعرّفه مكان الضالة.

الثالث: مرآة كل من كان أهل البلد له غائب لا يعرف خبره وأراد أن يطلع عليه جاء إلى هذه المرآة فينظر فيها ويشاهد فيها الغائب بحالته التي هو عليها والعمل الذي هو مشتغل به وبالمكان الذي هو فيه.

الرابع: حوض كان نمرود في كل سنة يجلس يوماً عنده للعيش ويجتمع إليه بطانته من الأمراء والوزراء والأشراف، ويأتي كل منهم بأشربة مختلفة ويصبونها جميعاً في الحوض، فإذا امتلأ أمر نمرود سقايته فيسقونهم منه ويشرب كل منهم ما جاء به من الشراب.

الخامس: غدير ماء إذا ورد فيه المتخاصمان كان الماء يعلو المبطل منهما، فإن أناب إلى الحق وإلا غرق.

السادس: شجرة في بابه يستظل بها تمام جيشه وجنوده.

ونقل عن أرسطاطاليس أنه كان بين برهماطوس وبيداغوش منازعة في أرض بابل، قال بيداغوش: كيف تقاومني ومرّيخ وزحل عاجزان من مقاومتي؟ فلما سمعه برهماطوس دخن أترجة واستعان بروح المريخ وأحرق بيداغوش واستراح الناس من شرّه بدون حاجة إلى المحاربة.

ونقل عن أبي معشر البلخي أنه قال: كان في بلاد الهند ملك عالم بأسرار النجوم وقد سخّر المريخ فقصده ملك آخر للحرب فلم يهتم به، وكلما قال له وزراؤه وأتباعه: قد وصل الخصم، لم يلتفت إليهم حتى إذا دنا من بلده وكان الملك مشغولاً مع ندمائه في مجلس العيش فرجع إلى المريخ واستعان منه على دفع الخصم، فما مضت هنيئة إلا ورأوا شيئاً هابطاً من السماء، فإذا هو مرآة من نحاس مثلّث الشكل ومعه رأس مذبوح، فلما رأوه هابوا منه وهربوا، فضحك الملك ثم أحضرهم وقال لهم: أبشروا هذا رأس من كان قاصداً لبلادكم، فقد دفعت شرّه بعلم كنتم تلومونني في تحصيله وتنسبونني إلى الحمق والسّفه والجنون.

وفي (**نفائس الفنون**) أن بهذا العلم يتمكن من رؤية الأشياء المتباعدة غاية البعد ولو بمقدار ألف فرسخ ويتمكن من التصرف فيها.

قال ثابت بن قرة: كان من أهل هذا العلم من صنع كحلاً إذا اكتحل به يرى الأشياء من الأماكن البعيدة وكنت أنا وقسطاء بن لوقا أردنا امتحانه فجلسنا في بيت وكتبنا فيه خطاً بغاية الخفاء لا يكاد يقرأ، وكان ذلك الرجل جالساً في بيت آخر فكان يقرأ كل ما نكتب حرفاً حرفاً، ولو رام غيره أن يقرأه لا يمكن له ذلك لخفائه، وسأله قسطاء من حال أخيه وكان غائباً منه فقال: إنه مريض وقد تولّد له ولد وطالعه الثور بثلاث درجات فاستخبرنا منه وكان كما قال. إلى غير هذه مما نقل من عجائب هذا العلم.

وهذه المنقولات وإن لم تكن محل اعتماد يصلح التعويل عليها، ولكنها مثل العجائب المنقولة من المشايخ المتصوفة لا تفاوت بينهما في الصحة والبطلان والرد والقبول.

فقد علم بما ذكرنا أن ظهور بعض الأمور الخارقة للعادة من أحد من هؤلاء الطائفة أو من غيرهم لا يدل على كونه عارفاً بالله كاملاً في معرفة الله ومن أهل الزلفى والكرامة لديه، لما عرفت من أن جلّ مدارك الخوارق وعمدة أسبابها أمور غير شرعية.

فإن الشعبذة والسحر والكهانة وعلم السيميا والنّيرنجات كلها محرّمة بالأدلة الشرعية المحكمة، كما فصلها فقهاؤنا رضوان الله عليهم في أبواب المكاسب من الفقه.

وأعظم أسباب ظهور الخوارق من هذه الطائفة من جانب وليّهم إبليس، فإنهم لأخذهم في الأصول والفروع خلاف مسلك أهل الشرع كان للشيطان بهم مزيد عناية، وفي إعداد معدات ضلالهم وخذلانهم زيادة اهتمام، فيوحي إليهم زخرف القول غروراً حسبما عرفت سابقاً، وينطق على لسانهم ويريهم العجائب وينبههم بالغرائب ليطيّب بذلك أنفسهم وليقرّوا به عيناً، ويفرحوا به ليثبتوهم على ما دانوا به من الدين الفاسد، ولتصغى إليه أفئدة الذين لا

يؤمنون بالآخرة وليقترفوا ما هم مقترفون.

ولئن سلمنا أن صدور العجائب والغرائب منهم مستند إلى الله سبحانه كاستجابة دعواتهم وتأثير أنفاسهم فهو أيضاً لا يدل على القرب والزلفى مع زيغهم عن نهج الهدى وضلالهم عن الحنيفية البيضاء، لجواز كون ذلك من قبيل الاستدراج.

بيان ذلك أنهم لما تحملوا المشاق وارتاضوا بالرياضات الشاقة نيلاً إلى ما طلبوه من الأرباب الدنيوية، فلا يبعد أن يؤتيهم الله ما طلبوه بمقتضى رحمته الرحمانية فإنه تعالى لا يضيّع عمل عامل براً كان أو فاجراً كما ورد في الأخبار، وقال في كتابه الكريم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠٠ـ ٢٠٢].

ويقرب ما ذكرناه أن الشيطان بعدما عبد الله تعالى في السماوات ستة آلاف سنة، ثم صار رجيماً بإبائه عن السجود لآدم أعطاه الله النظرة جزاء لعلمه، وسلطه على ابن آدم وأعطاه سائر ما سأل حسبما عرفته في شرح الخطبة الأولى.

ومثله إن فرعون اللعين مع قوله: أنا ربكم الأعلى، أمهله الله أربعمائة عام لحسن خلقه وكونه سهل الحجاب، واستجاب دعاؤه في إجراء النيل، فإنه لما غار النيل وأتاه أهل مملكته وسألوه إجراءه فخرج معهم إلى الصعيد وتنحى عنهم حيث لا يرونه ولا يسمعون كلامه، فألصق خده بالأرض وأشار بالسبابة وقال: اللهم إني خرجت إليك خروج العبد الذليل إلى سيده وإني أعلم أنك تعلم أنه لا يقدر على إجرائه أحد غيرك فأجره، قال: فجرى النيل جرياً لم يجر مثله، فأتاهم وقال لهم: إني قد أجريت لكم النيل فخرّوا له سجداً، رواه في **(البحار)** من علل الشرائع[1].

وأوضح من ذلك كله أن كفار الهند مع ما هم عليه من الكفر والجحود ربما يخبرون بالمغيبات إذا تكلّفوا بالمشاق والرياضات.

قال السيد المحدث الجزائري في **(الأنوار النعمانية)**: وربما جرت على أيديهم الأفعال العجيبة والأمور الغريبة وليس هذا إلا جزاء لأفعالهم ورياضاتهم التي زعموا أنها عبادة، وقد شاهدت في أصفهان في عشر السبعين بعد الألف رجلاً من كفّار الهند رافعاً يديه إلى السماء

(١) جواهر الكلام: ٢٢/ ٨٤، والاحتجاج: ٢/ ٨٢.

وقد يبستا وصارت أظفاره كالمناجل فرأيت الكفار يعظّمونه ويسجدون له فسألتهم عن أحواله فقالوا: له سبع سنين على هذه الحالة وبقي له خمس سنين حتى يكون المجموع اثنا عشر سنة، فإذا بلغ إلى هذا العدد وهو على هذا الحال صار شيخاً في العبادة يخبر بالأخبار الغائبة وتنكشف له الأمور، ورأيت إنساناً جالساً إلى جانبه والكفّار تعظّمه أيضاً فقيل لي: إن هذا وقف على رجليه اثني عشر سنة لم يجلس على الأرض إلى غير ذلك من الرياضات، انتهى.

فقد تحصل مما ذكرنا كله أن ظهور العجائب والغرائب تارة يكون مستنداً إلى أسباب صحيحة وأخرى إلى مقدمات فاسدة، وأن المدار في الكرامات على صحة الاعتقاد ومواظبة الرياضات الشرعية.

وعلى ذلك فإذا رأيت من أحد أموراً خارقة للعادات أو إخباراً عن الغائبات أو استجابة للدعوات، فلا تحكم بمجرد رؤية ذلك على أنه من أهل الزهد والصلاح والفوز والفلاح، وأن ذلك من فضل الله عليه، بل انظر إلى عقيدته وعمله.

فإن كان موافقاً للأصول الشرعية ولقواعد المذهب الحقة الإمامية، فاعلم أن ما ظهر منه كرامة وتفضّل من الله الكريم إليه ولطف رباني في حقه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وإن لم يكن كذلك سواء كان كافراً أو مسلماً سنيّاً أو إمامياً آخذاً في سلوك طريق العبودية غير ما قرره صاحب الشريعة، فليس ما يظهر منه بكرامة وإنما هو وزر ووبال، معقّب لويل ونكال لاستناده إما إلى مقدمات فاسدة وأسباب محرّمة أو إلى إضلال شيطاني أو إلى استدراج رحماني كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

المقام السابع في مطاعن الصوفية

وذكر ما ذكره أساطين علمائنا الأعلام ومشايخنا العظام قدّس الله ضرايحهم وطيّب الله أرماسهم، وما صدر من غيرهم من علمائنا الأبرار وفقهائنا الأخيار من الفرقة الناجية الإمامية رضوان الله عليهم، ومن علماء العامة العمياء أيضاً من الطعن والإزراء على هذه الطائفة وكشف سوءاتهم وفضايحهم بعناوين مختلفة بعضها بعنوان العموم وبعضها بعنوان الاختصاص بطائفة خاصة منهم، وبعضها على صوفية زمانه، وبعضها على شخص معين منهم خذلهم الله جميعاً، فأقول وبالله التوفيق:

منهم رئيس المحدثين والمتألهين الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي قدس الله روحه، فقد قال في اعتقاداته حسبما نقلنا عنه في المقام

الخامس:

علامة الحلاجية من الغلاة دعوى التجلي بالعبادة مع تدينهم بترك الصلاة وجميع الفرائض، ودعوى المعرفة بأسماء الله العظام، ودعوى انطباع الحق لهم فإن الولي إذا خلص وعرف مذهبهم فهو عندهم أفضل من الأنبياء، ومن علامتهم أيضاً دعوى علم الكيمياء ولا يعلمون إلا الدّغل وتلفيق الشبه والرصاص على المسلمين، اللهم لا تجعلنا منهم والعنهم جميعاً.

ومنهم الحبر المتبحّر الفريد الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام رفع الله في علّيين له المقام.

فقد ألّف في الرد على الحلاجية كتاباً مخصوصاً كما ذكره النجاشي وسائر علماء الرجال في تضاعيف تعداد كتبه، ولم أظفر بعد على أصل نسخة الكتاب ونقلنا عنه في أوائل المقام الثالث من شرح عقائده للصدوق كلاماً متضمناً للطعن عليهم.

ومنهم شيخ الطائفة الحقة ورئيس الفرقة المحقة الشيخ المطلق محمد بن الحسن الطوسي قدس سره القدوسي.

فقد نقلنا عنه من كتاب (**الغيبة**) له في المقام الخامس من الطعن والإزراء على الحلاج ما عرفت.

وقال في ذلك الكتاب أيضاً: قال الصفواني: سمعت أبا علي بن همام يقول: سمعت محمد بن علي العزاقري الشلمغاني يقول: إن الحق واحد وإنما تختلف قمصه، فيوم يكون في أبيض، ويوم يكون في أحمر، ويوم يكون في أزرق، قال ابن همام: فهذا أول ما أنكرته من قوله لأنه قول أصحاب الحلول[1].

أقول: وهذا مثل ما قاله بعض متأخري الصوفية في كتابه المسمى بـ (**منهاج الولاية**): تفطّن للذة أهل العشق الإنساني من رؤية معشوقهم، فإن الله تجلى في صورة العاشق بالعاشقية، وفي صورة المعشوق بالمعشوقية بحيث يتصوّر العاشق معشوقه غيره تصوراً صحيحاً، لأنهما غيران في تعيّنهما وإن كان الحق المتجلي فيهما واحداً ليحصل اللذة الأتم الأكمل، يسمي أهل المحبة ذلك التجلي الثنوي تجلي المكر والخديعة، لأنه يتجلى لنفسه بنفسه في مظهرين بحيث لا يعلمان اتحاد المتجلي والمتجلى له.

عاشق خودكه بود معشوق خود   بهرلذّت در دوپيكرسرزند، انتهى

(١) علل الشرائع: ٥٨/١، والبحار: ١٣٣/١٣ ح ٣٧.

وهذا كفر عظيم وإلحاد قبيح لا يتصور فوقه كفر، لعن الله القائل به والمعتقد له ملء السماوات والأرضين وعذّبه عذاباً أليماً لا يعذّبه أحداً من العالمين.

وعن شرح كتاب (**التوحيد**) للشيخ أبي منصور الماتريدي شيخ الطائفة الماتريدية قال:

قال قوم من الصوفية: إذا رأيت غلاماً أمرد حسناً فإنه ربك، وقال بعضهم: ويسمون بالحلولية إن الغلام الذي هو حسن الوجه قد حله بعض صفات الله تعالى فمن ثم ظهرت فيه آثار القدرة ويسمونه شاهداً ويقولون: إنا نشاهد فيه بعض الصفات ويحبونه ويعانقونه ويقبّلونه ويقولون: إن محبتنا إياه لهذا المعنى، انتهى.

وفي وصف حالهم والفرق بين الأمرد والملتحي قال بعض الشعراء:

إذا ما التحى الإنسان طار جماله فلحيته ريش يطير به الحسن

ومنهم آية الله في العالمين جمال الملّة والدين العلامة الحلّي أعلى الله مقامه في محكى كلامه من رسالته التي سماها بالسعدية:

إن الله تعالى لا يحل في غيره ولا يتحد بغيره، هذا مذهب طوائف المسلمين إلا ما نقل خواجه نصير الملة والحق والدين قدس الله روحه عن الصوفية أنهم يذهبون إلى أن الله يحل أبدان العارفين ويتحد بهم، وهذا مذهب رديء، لأن الضرورة قاضية ببطلان الاتحاد، فإنه لا يعقل صيرورة شيئين شيئاً واحداً بغير ممازجة ولا انفعال ولا زيادة في مقدار أو كمٍّ، والحلول غير معقول في حق واجب الوجود، فإن المجرد لذاته لا يمكن أن يحل الماديات ولا غيرها، ولأن الحال مفتقر في قيامه إلى المحل فكل مفتقر ممكن وواجب الوجود ليس بممكن فلا يكون حالاً، وإذا بطل هذا المذهب ثبت الأول.

وقال أيضاً في كتاب (**نهج الحق**): إن الله لا يتحد بغيره، والضرورة قاضية ببطلان الاتحاد، فإنه لا يعقل صيرورة الشيئين شيئاً واحداً، وخالف في ذلك جماعة من الصوفية من الجمهور، فحكموا أن الله تعالى يتحد بأبدان العارفين حتى تمادى بعضهم وقال: إنه تعالى نفس الوجود، فكل موجود هو الله تعالى، وهذا عين الكفر والإلحاد، الحمد لله الذي فضلنا باتباع أهل البيت عليهم السلام دون أهل الأهواء الباطلة.

ثم قال رضي الله عنه: وإنه تعالى لا يحل في غيره لأنه من المعلوم القطعي أن الحال مفتقر إلى المحل، والضرورة قاضية بأن كل مفتقر إلى الغير ممكن، فلو كان الله تعالى حالاً في غيره لزم إمكانه فلا يكون واجباً هذا خلف.

وخالفت الصوفية من الجمهور في ذلك، وجوّزوا عليه الحلول في أبدان العارفين تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فانظر إلى هؤلاء المشايخ الذين يتبركون بمشاهدهم كيف اعتقادهم في ربهم وتجويزهم عليه تارة الحلول وأخرى الاتحاد، وعبادتهم الرقص والتصفيق والغناء، وقد عاب الله تعالى على أهل الجاهلية الكفار في ذلك، فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي تغفيل أبلغ من تغفيل من يتبرك بمن يتعبد الله بما عاب به الكفار، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

ومنهم الشيخ السعيد والقطب المجيد الفقيه المتبحر الأكمل المعروف بالشهيد الأول شمس الملة والدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين المكي رفع الله درجته كما شرّف خاتمته في الدروس في كتاب الوقف منه في بيان مصارف الوقف:

والصوفية المشتغلون بالعبادة والمعرضون عن الدنيا والأقرب اشتراط الفقر والعدالة فيهم لتحقق المعنى المقتضية للفضيلة وأولى منه اشتراط أن لا يخرجوا عن الشريعة المحقة، وفي اشتراط ترك الحرفة تردد، ويحتمل استثناء التوريق والخياطة وما يمكن فعلها في الرباط، ولا يشترط سكنى الرباط ولا لبس الخرقة من الشيخ ولا زيّ مخصوص، انتهى.

فإن اشتراطه للعدالة وعدم الخروج من الشريعة المحقّة صريح في أن الفاقد للوصفين ليس له من التصوف إلا الاسم ولا فضيلة له أصلاً.

وقد أفصح عن ذلك في أشعاره الرائقة الفائقة المحكية عنه في (**روضات الجنان**) برواية السيد محمد العاملي رحمة الله عليه قال:

بالشوق والذوق نالوا عزة الشرف	لا بالذلوف ولا بالعجب والصّلف
ومذهب القوم أخلاق مطهرة	بها تخلّقت الأجساد في النطف
صبرٌ وشكرٌ وإيثارٌ ومخمصةٌ	وأنفس تقطع الأنفاس باللهف
والزهد في كل فان لا بقاء له	كما مضت سنّة الأخيار والسلف
قوم لتصفية الأرواح قد عملوا	وأسلموا عرض الأشباح للتلف
ما ضرّهم رثّ أطمار ولا خلق	كالدّر حاضرة مخلولق الصلف
لا بالتخلّق بالمعروف تعرفهم	ولا التكلف في شيء من الكلف
يا شقوتا قد تولّت أمة سلفت	حتى تخلفتُ في خلف من الخلف
ينمّقون تزاوير الغرور لنا	بالزور والبهت والبُهتان والسرف
ليس التصوف عكازاً ومسبحةً	كلا ولا الفقر رؤيا ذلك الشرف
وإن تروح وتغدو في مرقعة	وتحتها موبقات الكبر والسرف

وتظهر الزهد في الدنيا وأنت على	عكوفها كعكوف الكلب في الجيف
الفقر سرّ وعنك النفس تحجبه	فارفع حجابك تجلو ظلمة التّلف
وفارق الخبس وأقر النفس في نفس	وغب عن الحس واجلب دمعة الأسف
واتلُ المثاني ووحدان عزمت على	ذكر الحبيب وصف ما شئت والتصف
واخضع له وتذلّل إذ دعيت له	واعرف محلّك من أباك واعترف
وقف على عرفات الذلّ منكسراً	وحول كعبة عرفان الصفا فطف
وادخل إلى خلوة الأفكار مبتكراً	وعد إلى حانة الأذكار بالصحف
وإن سقاك مدبر الرّاح من يده	كأس التجلي فخذ بالكأس واغترف
واشرب واسق ولا تبخل على ظماءٍ	فإن رجعت بلا ريّ فوا أسفي

أقول: ما ذكره «قد» في مطلع القصيدة وذيلها هو الزهد الحقيقي وروح الفقر وحقيقة العرفان الذي حثّ عليه الرسل والأنبياء وندب إليه الحجج والأولياء، ولأجله إنزال الصحف والكتب من السماء.

فإن كان التصوف عبارة عن ذلك فنفسي للمتّصفين به الفداء وأجزل الله لهم الجزاء.

وإن كان عبارة عن التصنع والتكلف والريّاء والتصلف والتطريب بالغزليات والأشعار والترنم بمخترعات الأذكار بخفيها وجليّها آناء الليل وأطراف النهار، مثل النهيق والشهيق للحمار فويل لمن حاله ذلك من النار، ثم ويل له من سخط القهار.

ثم أقول: لله درّ الشهيد فإنه مع كونه من العلماء الأعيان والفقهاء الأركان، انظر إلى غاية ارتفاعه في مراتب الذوق والعرفان، وأخذه لقصب السبق في مضمار القريض والبيان، وتدبّر في لطائف نظمه من بديع الأسلوب ومحاسن البلاغة وحسن الانسجام والرقة والسلاسة والنظام، ولعمري أنه أرقّ وأروح من نسيم السحر، وآخذ لقلوب العارفين من سحر الساحر إذا سحر، وأحلى عند أهل الذوق من الشهد والشكر.

ومنهم الشيخ الإمام والعلم العلاّم وقدوة علماء الإسلام الغائص في بحار المعالي والمعاني المشتهر بالشهيد الثاني زين الدين ابن علي بن أحمد بن محمد بن علي العاملي الشامي أفاض الله على تربته سجال رحمته، وأسكنه في بحبوحة جنته. قال في محكي كلامه من شرح رسالته التي كتبها في علم دراية الحديث عند ذكر أصناف الواصفين «الواضعين ظ» للأحاديث الكاذبة:

وأعظمهم ضرراً من انتسب منهم إلى الزهد والصلاح بغير علم فاحتسب بوضعه أي زعم أنه وضعه حِسبةً لله وتقرّباً إليه ليجذب بها قلوب الناس إلى الله بالترهيب والترغيب،

فقبل الناس موضوعاتهم ثقة منهم بهم، وركوناً إليهم لظاهر حالهم بالصلاح والزهد، ويظهر لك ذلك من أحوال الناس التي وضعها هؤلاء في الوعظ والزهد، وضمنّوها أخباراً عنهم ونسبوا إليهم أفعالاً وأحوالاً خارقة للعادة، وكرامات لم يتفق مثلها لأولى العزم من الرسل بحيث يقطع العقل بكونها موضوعة، وإن كانت كرامات الأولياء ممكنة في نفسها، إلى آخر ما يأتي نقله في شرح المختار الآتي إن شاء الله تعالى، وفي آخر كلامه حسبما يأتي تصريح بأن مراده بهذه الطائفة هو الصوفية.

وقال في كتاب (**منية المريد**): عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا مررتم في رياض الجنة فارتعوا»، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذّكر، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفّوا بهم»[1].

قال بعض العلماء: حلق الذّكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف يشتري ويبيع ويصلي ويصوم وينكح ويطلق، انتهى.

فإنه صريح في الطعن على الصوفية القائلين بأن المراد بحلق الذكر مجالس الذكر الجلي لهم.

وقد صرح بذلك في (**البحار**) حيث قال: حلق الذكر المجالس التي يذكر فيها الله على قانون الشرع ويذكر فيها علوم أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم ومجالس الوعظ الذي يذكر فيها وعده ووعيده، لا المجالس المبتدعة المخترعة التي يعصى الله فيها، فإنها مجالس الغفلة لا حلق الذكر، انتهى[2].

والعجب من المتصوفة الذهبية يزعمون أن الشهيد «قد» منهم ويذكرون في تأليفاتهم أنه من طبقاتهم قصداً بذلك رواج بدعاتهم، وإن هذه النسبة إلا اختلاق وافتراء، وأين الثرى من الثريا، وأعيان العلماء من الجاهلية الجهلاء، والظلام من الضياء، وأي نسبة بين الزبد والسيل، والنهار والليل، والسهل والسهيل؟.

وكيف يكون مثل الشهيد الذي عقمت النساء أن يلدن مثل هذا الدر اليتيم الفريد المتقلب في فنون العلوم الدائر في أدوار الفروع والأصول، والسائر في أطوار المعقول والمنقول، الصاعد مصاعد الدقائق، والعارج معارج الحقائق، الموزع أوقاته في إصلاح أمر المعاش والمعاد، الموظف نهاره في التصنيف والتأليف والتدريس والبحث والاجتهاد، وليله

(١) راجع كتاب الغيبة للطوسي: ٤٠٨ ح ٣٨٠.

(٢) روضة الواعظين: ٣٩١، والبحار: ١/ ٢٠٥ ح ٣٤.

في الاحتطاب لقوت عياله والصلاة والدعاء ومناجاة رب العباد، من الصوفية الذين لا يعرفون من الشريعة إلا الاسم، ومن الطريقة إلا الرسم، وبين مذاق المجتهدين والصوفيين بون بعيد بعد المشرقين.

فإن مدار الأولين في مقام العلم على الاستدلال والاجتهاد والاستنباط، والأخذ بظواهر المحكمات من الآيات والروايات، وفي مقام العمل على العبادات الموظفات والأذكار المأثورات.

ومدار الآخرين في مقام العلم على دعوى الكشف والشهود والأخذ بالمتشابهات في ترويج بضاعتهم المزجاة، وفي مقام العمل على بدعات العادات والرياضات، ومخترعات الأذكار والعبادات.

وبالجملة فالمدار على الحقيقة دون الاسم، وعلى المعنى دون اللفظ.

فمن كان سالكاً مسالك الشريعة آخذاً بحدودها وقوانينها المتقنة في الأصول والفروع، مواظباً على الحلال والحرام، والتكاليف والأحكام، فنعم الرجل هو.

ومن كان بخلاف ذلك فبئس الرجل، فإن كان المسمى بلفظ الصوفي والمراد به حيثما يطلق هو الأول فلا مشاحة في التسمية، وإن أرادوا به الثاني فويل لمن حاله ذلك، ثم ويل له من وقوعه في المهاوي والمهالك.

ومنهم عمدة العلماء المتّقين، ونخبة الأتقياء المرتقين محمد تقي بن مقصود علي المشتهر بالمجلسي الأول أفاض الله على روحه من شآبيب الرحمة، قال في محكي كلامه من شرح الفقيه عند شرح ما رواه الصدوق عن النبي ﷺ من قوله: «بادروا إلى رياض الجنة»، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذّكر»[1].

قوله: (حلق الذكر)، أي المجامع التي يطيب فيها العلوم الدينية، فإن الحلق التي وصلت إلينا من طرق الأصحاب إلى النبي والأئمة صلوات الله عليهم هي هذه أو مجامع الوعظ كما روي عنهم عليهم السلام أنهم كانوا يعظون.

وأما التي اشتهرت من الاجتماع للذكر الجلي فلم يصل علينا عنهم صلوات الله عليهم وهذه بطرق العامة أشبه، كما رواه الكليني في القوى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: من ذكر الله في السر فقد ذكر الله كثيراً إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السر، فقال عز وجل: ﴿يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] إلى آخر ما أورده رضي

---

(١) البحار: ١/٢٠٢ ح ١٢.

الله عنه فيه من الأحاديث الدالة على نفاقهم وفساد طريقتهم ومناقضتها لطريقة أصحاب الأئمة صلوات الله عليهم، واشوقاه إلى تلك الأشباح، سلام الله على تلك الأرواح، رحل أولئك السادة، وبقي قرناء الوسادة، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: وهذا الرجل كان أفضل أهل عصره في فهم الحديث، وأحرسهم على إحيائه، وأعلمهم برجاله، وأعملهم بموجبه، وأعدلهم في الدين، وأقواهم في النفس، وأجلّهم في القدر، وأزهدهم في الدنيا، وأكملهم في التقوى، وأوقفهم لدى الشبهات، وأجهدهم في العبادات.

وقد كتب حاشية نافعة على الفقيه وشرحاً جامعاً على الخطبة المائة والثانية والتسعين المسوقة لوصف حال المتقين، بل قيل: إنه أول من نشر حديث الشيعة بعد انتهاء السلطنة إلى سلاطين الصفوية.

ومع ذلك كله فالعجب أنه اشتهر بين الصوفية نسبته إلى التصوف، وربما ينسب إليه كتاب صغير مؤلف على مذاق المتصوّفة، وهو بعيد منه غاية البعد، بل الظاهر أنه افتراء في حقه.

ويشهد بذلك ما قاله ابنه المحدث العلامة المجلسي الثاني قدس الله رمسه في آخر رسالة اعتقاداته ما صريح عبارته:

وإياك أن تظن بالوالد العلامة نور الله ضريحه أنه كان من الصوفية ويعتقد مسالكهم ومذاهبهم، حاشاه عن ذلك، وكيف يكون كذلك؟ ومن كان آنس أهل زمانه بأخبار أهل البيت، وأعلمهم وأعملهم بها، بل كان مالك الزهد والورع، وكان في بدء أمره يتسمى باسم التصوف ليرغب إليه هذه الطائفة ولا يستوحشوا منه فيردعهم عن تلك الأقاويل الفاسدة والأعمال المبتدعة، وقد هدى كثيراً منهم إلى الحق بهذه المجادلة الحسنة، ولما رأى في آخر عمره أن تلك المصلحة قد ضاعت ورفعت أعلام الضلال والطغيان وغلبت أحزاب الشيطان وعلم أنهم أعداء الله صريحاً تبرّأ منهم، وكان يكفرهم في عقائدهم الباطلة، وأنا أعرف بطريقته وعندي خطوطه في ذلك، انتهى كلامه رفع الله مقامه[1].

وشهادة مثل العلامة المجلسي على براءة ساحة رجل أجنبي من دنس نسبة ردية كافية في تزكيته وطهارته، فكيف في حق والده مع خبرويته بسره وعلانيته؟ فإن الولد سرّ أبيه، وأهل البيت أدرى بما فيه.

(١) البحار: ١/٢٠٢ ح ١٢.

ومنهم غوّاص بحار أنوار الأخبار، ناشر مآثر الأطهار الأخيار، مروّج مذهب الشيعة في الأصقاع والأقطار، محيي شريعة سيد المرسلين، راغم أنوف المخالفين والمعتدين، دامغ صولات أضاليل المبطلين، وأباطيل المبدعين، سيما الصوفية المبتدعين محمد باقر بن محمد تقي المتقدم الذكر المشهور بالعلامة المجلسي أفاض الله على روحه نوره القدوسي.

فإنه قد بثّ في تصانيفه من مطاعن الصوفية ما هو فوق حد الإحصاء، متجاوز عن طور الاستقصاء، ولا بأس بالإشارة إلى بعضها، فأقول:

منها ما ذكره في رسالة اعتقاداته تصريحاً وتلويحاً بل يفهم من ديباجتها أن أصل غرضه من وضع تلك الرسالة إبطال مذهب هذه الفئة الضالة حيث قال بعد حمد الله وثنائه والصلاة على رسول الله وآله:

أما بعد، فيقول المشتاق إلى ربه الغافر بن محمد تقي محمد باقر أوتيا كتابهما يميناً وحوسبا حساباً يسيراً، إنه قد سألني بعض من هداه الله إلى طلب مسالك الحق والرشاد، وأودع قلبه خوف المعاد أن أبيّن له ما هداني الله إليه من طريق النجاة في هذا الزمان الذي اشتبه على الناس الطرق، وأظلم عليهم المسالك، واستحوذ الشيطان على أوليائه فأوردهم المهالك، فنصب الشيطان وأحزابه من الجنّ والأنس على طريق السالكين فخوخهم ومصائدهم يميناً وشمالاً، ومشوا لهم على مثال الحق بدعة وضلالاً، فوجب عليّ أن أبين لهم مناهج الحق والنجاة بأعلام نيّرة ودلائل واضحة وإن كنت على وجل من فراعنة أهل البدع وطغاتهم.

فاعلموا يا إخواني أني لا ألوكم نصحاً ولا أطوي عنكم كشحاً في بيان ما ظهر لي من الحق وإن أرغمت منه المراغم، ولا أخاف في الله لومة لائم.

وساق الكلام في فضل النبي وأهل بيته سلام الله عليه وعليهم وكونهم المقصودين من إيجاد عالم الوجود والمخصوصين بالشفاعة الكبرى والمقام المحمود وأنهم وسائط الفيوضات النازلة والنعم الواصلة من الله سبحانه إلى عباده في هذه النشأة والنشأة الآخرة، إلى أن ذكر وجوب متابعة النبي بنص قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] في أصول الدين وفروعه وأمور المعاش والمعاد.

ثم ذكر أنه ﷺ أودع حكمه ومعارفه وأحكامه وآثاره وما نزل عليه من الآيات القرآنية والمعجزات الربانية في أهل بيته، ثم إنهم تركوا بيننا أخبارهم فليس لنا في هذا الزمان إلا التمسك بأخبارهم والتدبر في آثارهم، فترك الناس في زماننا آثار أهل بيت نبيهم واستبدّوا بآرائهم، فمنهم من سلك مسلك الحكماء الذين ضلوا وأضلوا ولم يقرّوا بنبي ولم يؤمنوا

بكتاب، واعتمدوا على عقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة فاتخذوهم أئمة وقادة، ومعاذ الله أن يتكل الناس على عقولهم في أصول العقائد فيتحيرون في مراتع الحيوانات، إلى أن قال:

وطائفة من أهل دهرنا اتخذوا البدع ديناً يعبدون الله به وسموه بالتصوّف فاتخذوا الرهبانية عبادة مع أن النبي ﷺ قد نهى عنها وأمر بالتزويج ومعاشرة الخلق والحضور في الجامعات والاجتماع من المؤمنين في مجالسهم وهداية بعضهم بعضاً وتعلّم أحكامها وتعليمها، وعيادة المرضى وتشييع الجنائز وزيارة المؤمنين والسعي في حوائجهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله ونشر أحكامه، والرهبانية التي ابتدعوها تستلزم ترك جميع الفرائض والسنن.

ثم أنهم في تلك الرهبانية أحدثوا عبادات مخترعة.

فمنها الذكر الذي هو عمل خاص على هيئة خاصة لم يرد به نص ولا خبر ولم يوجد في كتاب ولا أثر، ومثل بدعة محرمة بلا شك ولا ريب، قال رسول الله ﷺ: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة سبيلها إلى النار»[1].

ومنها الذكر الجلي الذي يتغنون فيه بالأشعار ويشهقون شهيق الحمار، يعبدون الله تعالى بالمكاء والتصدية، ويزعمون أن ليس عبادة إلا هذين الذكرين المبتدعين، ويتركون جميع السنن والنوافل ويقنعون من الصلاة الفريضة بنقرة كنقرة الغراب ولولا خوف العلماء لكانوا يتركونها رأساً.

ثم إنهم أمة لا يقنعون بالبدع، بل يحرفون أصول الدين ويقولون بوحدة الوجود، والمعنى المشهور في هذا المسموم من مشايخهم كفر بالله العظيم، ويقولون بالجبر وسقوط العبادات وغيرها من الأصول الفاسدة السخيفة.

فاحذروا يا إخواني واحفظوا إيمانكم وأديانكم من وساوس هؤلاء الشياطين وتسويلاتهم، وإياكم أن تنخدعوا عن أطوارهم المتصفة التي تملّقت بقلوب الجاهلين.

فها أنا ذا أحرر مجملاً ما تبين لي من الأخبار المتواترة من أصول المذهب لئلا تضلّوا بخدعهم وغرورهم، وأتمم حجة ربكم عليكم وأؤدي ما وصل إليّ من مواليكم إليكم ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بينة، وأتلو عليكم ما أردت إيراده في بابين:

الباب الأول: فيما يتعلق بأصول العقائد، وساق الكلام فيه على أصول المتشرّعة، وقال في تضاعيفه والقول بحلوله تعالى في غيره كما قال بعض الصوفية والغلاة أو اتحاده مع

(١) الرسائل العشر لابن فهد الحلي: ٨.

غيره كما قاله بعض الصوفية كفر إلى أن قال:

الباب الثاني: فيما يتعلق بكيفية العمل، قد علمت يا خليلي ما أثبتناه أولاً من لزوم متابعة أهل بيت العصمة سلام الله عليهم في أقوالهم وأفعالهم والتدبّر في أخبارهم وآثارهم.

فاعلم أن الخير كل الخير وجدناه في أخبارهم إذ ما من حكمة من الحكم الإلهية إلا وهي فيها مصرحة مشروحة لمن أتاها بقلب سليم وعقل مستقيم، لم يعوج عقله بسلوك طريق الضلال، ولم يأنس فهمه بأطوار أهل الزيغ والردى.

وطريق الوصول إلى النجاة والفوز بالسعادات ظاهرة بينة فيها لمن رفع غشاوة الهوى عن بصريته، وتوسل إلى ربه في تصحيح نيته، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ومحال أن يخلف الله وعده إذا أتى الله من الأبواب التي أمر الله أن يؤتى منها.

فالذي يجب أولاً للسالك إلى الله أن يصحح نيته، لأن مدار الأعمال في قبولها وكمالها على مراتب النيات، ولا يتأتى ذلك إلا بالتوسل التام بجنابه تعالى والاستعاذة من شر الشياطين وغلبة الأهواء إلى أن قال: فإذا توسل السالك بجنابه تعالى وصح نيته بقدر الجهد في بدو الأمر يطلب ما يعلم أن خير آخرته فيه ولا يبالي بأن يعدّه أهل الزمان وجهلة الدوران حشوياً أو قشرياً أو زاهداً خشكاً أو ينسبونه إلى الجهل.

وإذا كان بهذه المنزلة يظهر له الحق عياناً فينبغي أن يبتغي بعد ذلك معلماً مستأنساً بكلام أهل البيت وأخبارهم مصدّقة إليها لا من يؤوّل الأخبار بالآراء بل من صح عقائده عن الأخبار ويشرع في طلب العلم ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ويتدبر في أخبار أهل البيت عليهم السلام ويكون مقصده التحصيل، فلا العمل ينفع بدون العلم كما ورد عن الصادق عليه السلام: أن العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً[١]، ولا العلم ينفع بدون العمل كما روي: من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم[٢].

ثم ساق الكلام في المواظبة على العلم والعمل من الصلاة والأدعيات المأثورات والمناجاة المعروفة بالإنجيلية ودعاء كميل النخعي وغيرها والصحيفة الكاملة جلّها بل كلها إلى أن قال:

ثم أن أعظم صفات النفس الأخلاق الحسنة الزكية من المصافاة والجود والسخاوة

---

(١) البحار: ٢/٣٠٣، والكافي: ١/٥٦ ح ٨.

(٢) محاسن البرقي: ١/١٩٨ ح ٢٤، والكافي: ١/٤٣ ح ١.

والإخلاص والمسكنة وغيرها من الأخلاق الحسنة التي استحسنها الشرع والعقل.

وأقوى مهلكات النفس الأخلاق الذميمة الردية من البخل والجبن والكبر والعجب والرياء والغضب والحقد وغيرها من الملكات الردية التي استقبحها العقل والشرع، فيجب على الإنسان التخلي عن الأخلاق السيئة والتحلي بالأطوار المرضية.

وزعمت الصوفية أنهما يحصلان بترك المألوفات، والاعتزال عن الخلق وارتكاب المشاق، وملازمة الجوع المنهمك والسهر الدائم وسائر ما هو طورهم ودأبهم.

وإني وجدت من يقاس تلك الشدائد منهم تزيد أخلاقه الرديئة وتقل أخلاقه الحسنة، إذ يغلب عليه السَّوداء فلا يمكن لأحد أن يتكلم معهم بكلمة لسوء خلقهم ويقوى تكبّرهم وعجبهم بحيث يظنون أنهم تجاوزوا عن درجة الأنبياء ويبغضون جميع الخلق ويستوحشون منهم وكذا سائر صفاتهم لكن لا يظهر ذلك للخلق لعدم معاشرتهم ومعاملتهم معهم.

ومنها ما قاله في **(ديباجة مرآة العقول)** في شرح أخبار آل الرسول:

إني لما ألفيت أهل دهرنا على آراء مشتتة وأهواء مختلفة قد طارت بهم الجهالات إلى أركانها، وقاصت بهم الفتن في غمارها، وجذبتهم الدواعي المتنوعة إلى أقطارها، وحيرتهم الضلالة في فيافيها وقفارها.

فمنهم من سمى جهالة أخذها من حثالة من أهل الكفر والضلالة لشرائع النبوة وقواعد الرسالة حكمة، واتخذ من سبقه في تلك الحيرة والعمى أئمة يوالي من والاهم ويعادي من عاداهم، ويفدي بنفسه من اقتفى آثارهم، ويبذل نفسه في إنكار من أنكر آراءهم وأفكارهم، ويسعى بكل جهد في إخفاء أخبار الأئمة الهادية صلوات الله عليهم وإطفاء أنوارهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

ومنهم من يسلك مسلك أهل البدع والأهواء المنتهين إلى الفقر والفناء فليس لهم في دنياهم وآخرتهم إلا الشقاء والعناء، فضحهم الله عند أهل الأرض كما خذلهم عند أهل السماء، فهم اتخذوا الطعن على أهل الشرائع والأديان بضاعتهم وجعلوا تحريف العقائد الحقة وصرف النواميس الشرعية من سماتها بضم البدع إليها صناعتهم.

ومنهم من تحير في جهالته يخطفهم شياطين الجن والأنس يميناً وشمالاً، فهم في ريبهم يترددون عمياناً وضلالاً فبّصر الله نفسي بحمده تعالى هداها فألهمها فجورها وتقواها، فاخترت طريق الحق إلى آخر ما قال.

ومنها ما ذكره في أواخر كتاب **(عين الحياة)** الذي ألّفه بالفارسية في شرح قول رسول

الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذر يكون في آخر الزمان قوم يلبسون الصوف في صيفهم وشتائهم ويرون أن لهم الفضل بذلك على غيرهم، أولئك يلعنهم ملائكة السماوات والأرض، يا أبا ذر ألا أخبرك بأهل الجنة؟»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: «كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبرّه». قال (ره) ما ترجمته:[1]

اعلم أن رسول الله ﷺ لما كان عالماً بالوحي الإلٰهي بجميع العلوم، ومطلعاً بالأمور الغيبية فمدح الفقر والتواضع لعلمه بأنه يأتي بعده قوم من أهل البدعة والضلالة يلبسون هذا اللباس ـ أي لباس الصوف مكراً وتزويراً ـ ليخدعون الناس فذكر ﷺ علامتهم وأنهم ملعونون لئلا يغترّ الناس بهم، وهذه العلامة مخصوصة بالفرقة الضالة المبتدعة الصوفية.

وهذا الكلام من جملة معجزاته حيث أخبر بهم قبل وجودهم فلا ريب في حقيقة هذا الكلام المتضمن للإعجاز فمن أنكره فعليه لعنة الله تعالى ورسوله.

وليس منشأ استحقاقهم للعن هو لبس الصوف بل لما كان يعلم ﷺ بالوحي الإلٰهي أن هذه الفرقة يبطلون شرعه ويهدمون أساس دينه ويعتقدون في العقائد بالكفر والزندقة ويتركون في مقام العمل الموظفات الشرعية ويعملون البدعات والمخترعات ويصرفون الناس عن العبادات، لعنهم لذلك ووصفهم بعلامتهم ليعرفهم الناس ويحذروا منهم.

فاكشف أيها العزيز عصابة العصبية من عينك، وانظر بنظر الإنصاف والاعتبار إلى كلامه ﷺ فإنه كاف في ظهور بطلان مذهب هذه الطائفة فضلاً عن الأحاديث الكثيرة الواردة تصريحاً وتلويحاً في بطلان أطوارهم وأعمالهم، وذمّ مشايخهم وأكابرهم.

وقد ذمهم أكثر علماء الشيعة من المتقدمين منهم والمتأخرين وصنّف بعضهم كتاباً في الرد عليهم.

مثل علي بن بابويه «قد» الذي كان بينه وبين صاحب الأمر عليه السلام مكاتبات، وولده الصدوق محمد بن بابويه رئيس المحدثين الذي كانت ولادته ببركة دعاء صاحب الأمر عليه السلام وهذا الدعاء متضمن لمدحه أيضاً.

ومثل شيخ المفيد عماد مذهب الشيعة الذي كان أكثر الفضلاء والمحدثين من تلامذته وخرج التوقيع من صاحب الأمر صلوات الله عليه وهذا التوقيع أيضاً متضمن لمدحه.

ومثل الشيخ الطوسي «قد» الذي هو شيخ الطائفة المحقة وأكثر أحاديث الشيعة إليه منسوبة.

(١) رواه في البحار: ٢/ ٣٠، ح ١٤.

ومثل العلامة الحلّي «قد» المشهور علماً وفضلاً في الآفاق.

ومثل الشيخ الشهيد، والشيخ علي في كتاب **(مطاعن المجرمية)**، وابنه الشيخ حسن في كتاب **(عمدة المقام)**، والشيخ العالي القدر جعفر بن محمد الدرويشي في كتاب **(الإعتقاد)**، وابن حمزة في كتب عديدة، والسيد مرتضى الرازي في كتب متعددة، وزبدة العلماء والمتورعين مولانا المقدس أحمد الأردبيلي قدّس الله أرواحهم وشكر الله مساعيهم وغيرهم من علماء الشيعة رضوان الله عليهم.

ونقل كلام هؤلاء الأفاضل والأعيان وما أوردوه من الأخبار في ذلك الباب موجب لتطويل المقال، وأكتب إن شاء الله كتاباً مستقلاً في ذلك.

فإن كنت معتقداً بيوم الدين فأعدّ حجتك لغدك حتى يكون لك جواب صحيح وعذر مقبول إذا احتجّ الله سبحانه وتعالى عليك.

وما أدري بعد ورود الأخبار الصحيحة الصريحة من أهل بيت الرسالة ﷺ وشهادة هؤلاء الأعاظم والأجلّة من علماء الشيعة على بطلان طريقة هذه الطائفة بأي عذر تعتذر عند الله سبحانه في متابعتهم.

أفتقول: كنت تابعاً للحسن البصري الذي قد وردت أحاديث عديدة في لعنه؟

أو تابعاً لسفيان الثوري المعلن بعداوة الصادق عليه السلام والمعارض له دائماً؟

أو تابعاً لأبي حامد الغزالي الناصب يقيناً الذي كان يقول في كتبه بالمعنى: إذا كان عليٌّ إماماً أنا أيضاً إمام؟ ويقول: اللاعن على يزيد لعنه الله مذنب، وكتب كتباً في اللعن والرد على الشيعة مثل كتاب **(المنقذ من الضلال)** وغيره.

أو تابعاً لأخيه الملعون أحمد الغزالي الذي كان يقول: إن الشيطان من أكابر أولياء الله؟

أو متشفعاً بالملا الرومي الذي يقول: إن أمير المؤمنين يشفع لابن ملجم المرادي عليه اللعنة والعذاب ويدخله الجنة وكان عليه السلام يقول له: لم يكن لك ذنب وإنما كان المقدّر ذلك وكنت مجبوراً في هذا العمل ـ يعني قتله ـ وليست صفحة من صفحات المثنوي إلا مشعرة بالجبر أو وحدة الوجود أو سقوط العبادات أو غيرها من العقائد الفاسدة، وكما هو المشهور بين أتباعه وتلقوه منه بالقبول: أن الدف والطنبور والمزمار من جملة العبادات[١].

---

(١) أمالي الطوسي: ٥٣٩ ح ١١٦٢، والبحار: ٧٠/ ٦٥ ح ٣٣.

أو كنت ملتجئاً بمحيي الدين الملعون الذي سمعت سابقاً خرافاته وفضائحه وكان يقول: إن جماعة من أولياء الله يرون الرّفضة على صورة الخنزير، ويقول: رأيت في المعراج درجة علي أسفل من درجة أبي بكر وعمر وعثمان، ورأيت أبا بكر في العرش، فلما رجعت قلت لعلي: كيف كنت تدّعي في الدنيا أنك أفضل من هؤلاء وقد رأيت أنك أسفل درجة منهم؟ وهذا الملعون وغيره كم لهم من هذه الكلمات الزائفة ذكرها موجب للإطناب، فلو خُدعت من دعاويهم العظيمة فلم لا تفكر في أن منشآتها لعلة حب الدنيا الدنيئة؟!.

وإن شئت اختبار من ادعى أنه يعلم جميع الأسرار الغيبية بالكشف وأنه يعرج كل ليلة عشر مرات إلى العرش فاسأل عنه مسألة من شكوك الصلاة أو من المواريث أو حديثاً مشكلاً من الأحاديث فإن كان صادقاً فيما ادّعاه فيجيبك عن هذه المسائل أيضاً.

وقد روي عن الصادق عليه السلام بسند صحيح أنه قال: علامة الكذاب أنه يخبرك بأخبار السماء والأرض والمشرق والمغرب، ولئن سألته عن الحلال والحرام لا يعلم.

والعجب أن هذا الرجل الذي يدّعي أنه يعرف وحدة الوجود على غموضها مع قصور عقول جميع الفضلاء الأذكياء من فهمها كيف لا يعرف معنى سهلاً ولو لقن عليه خمسين مرة، وكيف لا يفهم أولوا الأفهام الثاقبة ما ادعى ذلك الرجل فهمه.

وأيضاً فإنهم مع اعترافهم باجتماع الكشف مع الكفر كما في كفّار الهند فعلى فرض صحة ما ادعوه من الكشف وأن له حقيقة فأي منقبة في هذا الكشف وأي دلالة فيه على فضل صاحبه وكماله؟.

ولما كان مجال الكلام في هذا المرام واسعاً اقتصرت في هذا المقام على ذلك وأوردت في أول الكتاب وفي مواضع عديدة منه ما فيه كفاية لطالب الهداية.

ثم ختم المقام «قد» بذكر أحاديث متضمنة للطعن والإزراء عليهم وسنشير إلى بعضها إن شاء الله في المقام الآتي فانتظر.

وذكر قدّس الله روحه أيضاً في هذا الكتاب في شرح قوله صلى الله عليه وآله: «يا أبا ذر جعل الله جل ثناؤه قرّة عيني في الصلاة (آه) لمعات عشر متضمنة للعن والملام على هذه الطائفة»[1]، وقال في اللمعة العاشرة المتضمنة لبيان معنى الذكر بعد جملة من الكلام ما ترجمته:

واعلم أنه قد شاع بين الصوفية نوعان من الذكر وكلاهما بدعة وهم يزعمون أنهما من أفضل العبادات ويصرفون أوقاتهم فيهما ويضلون الناس بالمداومة عليهما.

(١) رسائل الكركي: ٣/ ٢٢٥، والكافي: ٥/ ٣٢١ ح ٧ ـ ٩.

الأول: الذكر الجلي وهو مشتمل على أمور:

الأول: أن هذا النوع من العبادة لم يُتلق من الشارع بل الأدلة من الآيات والأخبار في كيفية الذكر الجلي قائمة على خلافه، قال سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ونقل جملة من الأخبار ثم قال:

الثاني: أنهم يتغنون فيه ويترنمون في خلاله بالأشعار والغزليات العشقية بالنغمات الموسيقية وهو حرام بإجماعنا فضلاً عن أعمالهم الشنيعة التي يظهرونها في أثناء الذكر من التصفيق والرقص ونحوهما، وقد ذمّ الله كفار المشركين على ذلك.

الثالث: أنهم يأتون بذلك في المساجد مع أن إنشاد الأشعار في المساجد مذموم شرعاً وقد روي بسند معتبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سمعتموه ينشد الشعر في المساجد فقولوا له: فضّ الله فاك إنما نصبت المساجد للقرآن»[1]، وقد ورد النهي أيضاً من رفع الصوت فيها وهم يعملون غالب تلك الأعمال في ليلة الجمعة ويومها مع أن إنشاد الشعر فيهما مكروهة.

ولو قيل لهم: إن هذه الأعمال تشريع وبدعة يقولون: يحصل لنا منها قرب معنوي، ويسمونه بالحال. وساق الكلام فيه إلى أن قال:

ولا دليل أعظم وأحكم على كون ذلك كله بدعة أنه لم ينقل أحد من الشيعي والسني والصوفي وغير الصوفي أن رسول الله والأئمة عليهم السلام أو أصحابهم أو رواة أخبارهم وعلماء ملّتهم كان لهم مطرب يطربهم ويترنّم لهم أو كان لهم حلق الذكر عقدوها، أو أمر أصحابهم بعقدها، ولو كانت هذه عبادة لها وقع فلم لم يأمروا أصحابهم بها؟.

نعم البدعة أحلى وألذّ والعبادات ثقيلة على النفس.

ألا ترى أنه لو قال لهم خمسون من العلماء العدول: إنه قد تواتر عن الصادق عليه السلام أنه قال: من صلى ليلة الجمعة صلاة جعفر غفر الله له ذنوبه[2] مضافاً إلى ما فيها من الفضائل الغير المتناهية لم يرغب إليها واحد من عشرة آلاف من الناس؟

---

(١) المعتبر للحلي: ٢/ ٤٥٢، وجواهر الكلام: ١٤/ ١١٢.

(٢) راجع من لا يحضره الفقيه: ١/ ٥٥٤ ح ١٥٣٦ وما بعده.

وأما إذا مروا ببقعة اجتمع فيها جماعة من الأجلاف ويصيحون: يا ربي يا ربي، فيدخلون في حلقتهم بتمام الميل والرغبة ويثبون وثوبهم من أول الليل إلى الصباح.

فهلا تفكر في أنه أي يوم كانت لك هذه الرغبة والإقبال على الخيرات؟ ولم لا تهتم بسائر الخيرات مثل اهتمامك بها؟

فعليك بالإنصاف إذا كان قد ورد من أهل بيت النبوة عليهم السلام زهاء ألف حديث في أعمال ليلة الجمعة ويومها وعلّموك فيها الوفاء من طرق العبودية والقربى فلا تعبأ بشيء منها أصلاً بل تصرف تمام تلك الليلة واليوم في عمل يحكمون جميع علماء زمانك بحرمته مضافاً إلى اعترافك بأنه لم يرد به نص.

فأي عذر لك في ذلك عند الله تعالى؟ وبأي جهة ترجو الثواب من الله؟ وأنت إذا أردت تعقيب صلاة مندوب شرعاً تضم إليه بدعات عديدة أبهذا تستحق الثواب أم بتركك الأوراد والأذكار والأدعيات والمناجاة المأثورة من أهل بيت الرسالة سلام الله عليهم البالغة إلى مائة ألف بيت؟ وبإقبالك على قراءة الأوراد الفتحية التي جمعها جماعة من أهل السنة على معان غير مرتبة وألفاظ مغلوطة خالية من القواعد الأدبية.

أفهؤلاء الجهّال من العامة العمياء كانوا أعرف بمناجاة الرب المتعال وذكره من قادة الدين وأصفياء رب العالمين وأفصح فصحاء أهل الأرضين؟

وقد كان الأنبياء والرسل يتمنون متابعتهم والدخول في زمرة شيعتهم وأنت تستنكف عن اتباعهم وتقبل على تلك الأذكار المخترعة وتترنّم بقراءتها، وتضيف معصية الغناء إلى معصية البدعة.

وقد رُوي أنه جاء رجل إلى الصادق عليه السلام فقال له: اخترعت دعاء؟ فقال عليه السلام: دع ما اخترعت واقرأ ما نقول[1].

الثاني: الذكر الخفي، وهو بالمعنى الذي قدمناه سابقاً من أفضل العبادات، وهو أن يكون متذكراً لله سبحانه دائماً في مقام المصيبة فيصبر عنها، وفي مقام الطاعة فيقوى على مشاقها، وفي مقام المعصية فيكفّ نفسه عنها.

وأما بالوجه الذي اخترعته هذه الطائفة على هيئة مخصوصة فمما لم يثبت له سند صحيح من الشارع، فالإتيان بهذه الهيئة بقصد العبادة بدعة محرّمة كما علمت في تعريف البدعة، ولم يرد تلك الهيئة في حديث من أحاديث الشيعة بل لم أجده في كتاب **(أخبار**

(١) راجع الكافي: ٣/٤٧٦، وتهذيب الأحكام: ١/١١٦ ح ٣٠٦.

العامة) أيضاً.

وهؤلاء يقولون: رواه المعروف الكرخي عن الرضا عليه السلام، وهو باطل من وجوه:

الأول: أنه لم يثبت وصول المعروف الكرخي إلى خدمة الرضا عليه السلام وما يقولون من أنه كان بوّاباً له عليه السلام غلط البتة لضبط أصحابنا علماء الرجال في كتبهم جميع خدّامه عليه السلام وملازمي حضرته شيعياً كان أم سنياً حتى ذكروا في تلك الكتب المترددين إلى حضرته من متعصبي العامة الذين رووا عنه الحديث، فلو كان هذا الرجل بوّاباً له لنقلوه البتة.

الثاني: أن داود الطائي قد ذكر في **(تذكراته)** مشايخ طريقته، والمعلوم من أحواله أنه كان من متعصبة العامة ولم يكن له أصلاً توسل بالأئمة عليهم السلام.

الثالث: أن السند الذي يسندون باعتقادهم إليه فيه جماعة لا يعجبني ذكر قبائح اعتقاداتهم وأعمالهم، مثل السيد محمد نوربخش وهو كما في الكتب الصوفية قال: إني المهدي صاحب الزمان، وقال: اتفق أولوا الألباب على ذلك، وكغيره ممن هو معروف بالعصبية والبدعة.

الرابع: أنا قد سمعنا من مشايخهم أن الذكر الخفي أنواع مختلفة أخذه أهل كل طريقة بنحو مخصوص من مشايخهم يغاير ما أخذه أهل الطريقة الأخرى من شيخهم، فلو كانت صحيحة النقل عن الأئمة عليهم السلام لكان المنقول واحداً لا متعدداً.

الخامس: أنه إذا كانت هذه الأذكار من أفضل العبادات على ما يزعمون ويقولون إنه يحصل بها مزيد قرب ليس في الصلاة فكيف يمكن أن يضنّ بها الأئمة عليهم السلام ويخصون المعروف الكرخي فقط بها ولا يعلّمونها لغيره؟

فإن قلتم: غيره لم يكن قابلاً لذلك وإنما كان المعروف بين جميع أصحاب الرضا عليه السلام قابلاً لذلك المقام لعلوّ درجته.

قلت: إذا كان كذلك فلم تعلّمونها أنتم كل بليد أحمق؟

السادس: لو كان معروف قابلاً لهذا السر ولم يكن سلمان ولا أبو ذر رضي الله عنهما قابلين له، لزم أن يرد من الأحاديث الكثيرة البالغة إلى خمسمائة بل إلى ألف حديث وارد في شأن سلمان وأبي ذر حديث أو حديثان في شأن ذلك الرجل، ولزم أن يعده واحد من العلماء من خواص أصحاب الرضا عليه السلام وليس فليس.

السابع: أنه على فرض تسليم وروده فهو حديث مجهول، وليس وظيفة الحزم والاحتياط في الدين أن يرفع اليد من الأعمال المتواترة الثبوت من الأئمة عليهم السلام ويواظب على عمل رواه

رجال مجهولة الحال، فنقتصر في المقام على ذلك لأن التطويل موجب للملال. انتهى ما أهمّنا نقله من كلامه زاد الله في إكرامه.

وقد ذكر في أوائل الكتاب المذكور أيضاً فصلاً وافياً في هذا الباب طوينا عن نقله حذراً من الإطناب، وفيما نقلناه كفاية لمن اهتدى وابتغى الرشد والصواب، ثبّتنا الله وإياكم على الصلاح والسداد في القول والاعتقاد بمحمد وآله الأمجاد.

ومنهم وحيد العصر في الزهد والورع والأمانة، وفريد الدهر في الفضل والتقدّس والديانة، صاحب الملكات القدسية والصفات الملكية، ومظهر المقامات الزاهرة والكرامات الباهرة، الواصل إلى حضرة وليّ الرحمٰن سيد الأنس والجان إمام العصر والزمان سلام الله عليه وعلى آبائه، العالم العلم الفقيه المتكلم الأوحد مولانا أحمد بن محمد المعروف بالمقدس الأردبيلي أفاض الله على تربته أنوار رحمته فقد ذكر فصلاً مفصّلاً في المجلد الثاني من كتاب **(حديقة الشيعة)** عند ذكر أحوال الصادق عليه السلام في مطاعن الصوفية وشرح أحوالهم وتفصيل فرقهم المختلفة من أراد الاطلاع عليها فليرجع إليه، ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما أورده «قد» هناك بغاية تلخيص واختصار منا فأقول:

إنه ذكر أن أصل مذهب الصوفية من مخترعات العامة وإن أول من تسمى بهذا الاسم أي بالصوفي، هو أبو هاشم الكوفي، من أجل لبسه بالصوف وكان قائلاً بالحلول والاتحاد مثل النصارى لكن النصارى قالوا بالحلول في عيسى عليه السلام وهذا الملعون ادعى الحلول في حق نفسه، وكان في الظاهر أُموياً جبرياً وفي الباطن ملحداً دهرياً وكان غرضه من وضع هذا المذهب هدم مذهب الإسلام، وقد ورد من الأئمة عليهم السلام أحاديث عديدة في الطعن عليه فنسب إليه التابعون له وقيل لهم: صوفية.

ثم ساق الكلام في سائر أسمائهم حسبما حكينا عنه «ره» في المقام الثاني إلى أن قال:

وأكثر هذه الطائفة في الظاهر على مذهب أحمد بن حنبل ومالك يعملون في الفروع بعملهم، وكان الشبلي مالكياً وذو النون تلميذاً لمالك وكثير منهم في الباطن كافراً ملحداً، إلى أن قال:

وقد ورد من الأئمة عليهم السلام أحاديث كثيرة في الرد على هذه الطائفة المبتدعة. وأكثرها من الصادق عليه السلام، وقد ورد اللعن عليهم في أخبار كثيرة مروية عن الأئمة عليهم السلام بل عن الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً، وقد أخبروا بأن الله سبحانه يلعنهم والملائكة أيضاً يلعنون.

ثم نقل بعض الأخبار ثم عقد باباً في بيان مذاهبهم وقال فيه:

إعلم أن مذاهب الصوفية كثيرة، فقيل: إن أصل تلك المذاهب أربعة والباقية متفرّعة

عليها. أول تلك الأربعة مذهب الحلولية، والثاني مذهب الاتحادية، والثالث مذهب الواصلية، والرابع مذهب العشاقية.

وقيل: إن أصول مذهبهم ستة وأضافوا إلى الأربعة التلقية والزراقية، وقيل: سبعة وأضافوا إليها الوحدتية المأخوذة من القول بوحدة الوجود، ثم قال:

والحق أن أصل مذهبهم اثنان: القول بالحلول، والقول بالاتحاد، والبواقي متفرعة عليهما، فالكلام في فصلين الفصل الأول في بيان المذهبين.

الأول في مذهب الحلولية، فإنهم يقولون: إن الله سبحانه قد حلّ فينا وحلّ أيضاً في أبدان جميع العارفين، وبطلان مذهبهم ظاهر لأن كل عاقل يعلم علماً قطعياً بأن الحالّ محتاج إلى المحل، والضرورة قاضية بأن كل محتاج ممكن فلو كان سبحانه حالاً في غيره لزم أن يكون ممكناً لا واجباً نعوذ بالله من هذا الاعتقاد.

الثاني مذهب الاتحادية، وهم يقولون: إنا قد اتّحدنا مع الله سبحانه وكذا اتّحد الله تعالى بنا. والعقل أيضاً قاض ببطلان هذا المذهب، وهم يشبهون الله سبحانه بالنار وأنفسهم بالحديدة المحماة بملاقاة النار.

وهذا محض الكفر والزندقة، إذ من له أدنى مسكة من العقل يعلم قطعاً أن تبدل طبيعة ممكن بممكن آخر أو صورته لا يستلزم تبدل الوجوب بالإمكان والإمكان بالوجوب وكون الواجب ممكناً والممكن واجباً، وكيف يقاس الواجب بالممكن والممكن بالواجب؟ وصاحب هذا الاعتقاد كالمعتقد بالحلول كافر خارج من الدين، ملحد زنديق لعين، وعلى اعتقاد كلتا الطائفتين يلتزم تعدد الإله وتكثّره، لجواز أن يكون في كل عصر ألف عارف وزيادة.

وقال صاحب كتاب (**بيان الأديان**): إن القول بالحلول والاتحاد بعد الجرمانية من الصائبة قد نشأ من النصارى فأخذه عنهم غلاة الشيعة يعني الذين يقولون في الأئمة الاثني عشر بالألوهية، وغلاة أهل السنة يعني الصوفية الذين يقولون في مشايخهم بالألوهية، وليس مذهب من المذاهب أقرب إلى مذهب النصارى من هذين المذهبين، انتهى كلام صاحب (**بيان الأديان**)[1].

واعلم أن متقدمي الصوفية كأبي يزيد البسطامي وحسين بن منصور الحلاج كانوا على أحد هذين المذهبين، ولاعتقادهم هذا الاعتقاد الفاسد يعني الغلوّ عدّهم أكثر علماء الشيعة

(١) وهو محمد بن الحسين العلوي (٤٨٥هـ).

كالمفيد وابن قولويه وابن بابويه قدس سرهم من الغلاة، سواء قالوا بالحلول أو بالاتحاد، وهم غلاة النواصب وأكثر طوائف الغلاة.

وتجاوز بعض متأخري الاتحادية كمحيي الدين الأعرابي والشيخ عزيز النسفي وعبد الرزاق الكاشي عن الحد في الكفر والإلحاد، وقالوا بوحدة الوجود وأن كل موجود هو الله، تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً.

وعلة تمادي هذه الطائفة في الكفر والطغيان أنهم لما طالعوا كتب الفلاسفة واطلعوا على قول أفلاطون القبطي وأتباعه فاختاروا بغاية الضلال مقالهم، وكي لا يتفطن أحد بأنهم لصوص مقالات الفلاسفة واعتقاداتهم الفاضحة الفاسدة غيروا لباس ما قالوا، ولبّسوه بلباس آخر وسموه بوحدة الوجود، ولما سئلوا عن معنى هذه الكلمة قالوا: تلبيساً وخديعة إن هذا المعنى لا يمكن الإفصاح عنه بالبيان، ولا يحوم حوم تقريره اللسان، وإنما يدرك بالرياضات والمجاهدات الكاملة وخدمة الكملين من مشايخ الطريقة، فحيروا بذلك الحمقاء من الناس، وضيّع السفهاء منهم أوقاتهم في فهمه وتأويله وأوّلوا هذا الفكر العظيم بتأويلات مختلفة.

ثم أشار إلى سائر سرقات الصوفية من مزخرفات الفلاسفة إلى أن قال:

وأما ما قاله أفلاطون القبطي ومتابعوه وتصرّف فيه هذه الطائفة وسموه بوحدة الوجود، فهو أنهم قالوا: إن العلة الأولى خلق الخلق من نفسه فكل موجود خالق ومخلوق، خذلهم الله تعالى.

الفصل الثاني: في ذكر بعض فروع مذهبي الصوفية يعني مذهب الحلول ومذهب الاتحاد وبيان قليل من عقائدهم.

فاعلم أن فروع المذهبين كثيرة فلنقتصر بذكر قليل من عقائد فرقهم البالغة إلى أحدى وعشرين، ثم ساق الكلام فيها.

أقول: ولا حاجة بنا إلى نقل تمام ما قاله فيها، وإنما ينبغي نقل ما ذكره «قد» في عقائد الفرق الخمس التي تقدمت إليه الإشارة.

الفرقة الأولى الوحدتية.

وهم قالوا بوحدة الوجود واعتقادهم أن كل إنسان بل كل شيء هو الله تعالى شأنه كما أشير إليه، وهم أشد كفراً وأعظم خزياً من نمرود وشدّاد وفرعون لاعتقادهم بإلهية جميع الأشياء الغير الطاهرة فضلاً عن غيرها، فلو سميت تلك الفرقة بالكثرتية كان أبلغ لمبالغتهم في كثرة الإله بحيث لا يبقى شيء مما سوى الله تعالى إلا ويقولون: إنه الله، وإن زعموا أن

الجميع واحد.

وقد ذكر محيي الدين في كتبه من ذلك كثيراً لا سيما في «**الفصوص**» فقال في الفص اللقماني منه: إن الاختلاف بيننا وبين الأشاعرة في العبارة، وقال في (**الفصوص**): إن الله لطيف فمن لطافته ولطفه أنه في الشيء المسمى بكذا المحدود بكذا عين ذلك الشيء حتى لا يقال فيه إلا ما يدل عليه اسمه بالتواطؤ والاصطلاح فيقال: هذه سماء، وهذه أرض وصخرة وشجرة وحيوان وملك ورزق وطعام والحال أن العين واحدة من كل شيء كما تقول الأشاعرة: إن العالم كله متماثل بالجوهر فهو جوهر واحد فهو عين، قولنا العين واحدة، ثم قالت ـ أي الأشاعرة ـ ويختلف بالأعراض وهو قولنا، ويختلف ويكثر بالصور والنسب، انتهى.

وقال في الفص الموسوي: إن فرعون عين الحق قد ظهر بهذه الصورة وصريح عبارته هكذا: فصحّ قوله أنا ربكم الأعلى وإن كان عين الحق فالصورة لفرعون، وقد عرف العطار في كتاب (**الجوهر**) الذات، وقال: أنت أيضاً قل مثل أنا الحق، وادعى صريحاً الإلهية في الكتاب المذكور.

وقال محيي الدين في أول (**الفتوحات**): سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها، وطعن عليه علاء الدولة السمناني وهو من مشايخ هذه الطائفة بهذا القول.

أقول: أراد «قد» به ما كتبه علاء الدولة في حاشية (**الفتوحات**) في قوله: سبحان من أظهر أن ما لفظه: إن الله لا يستحي من الحق أيها الشيخ لو سمعت من أحد أنه قال: فضلة الشيخ هو عين وجود الشيخ لا تسامحه البتة بل تغضب عليه، فكيف يسوغ لك أن تنسب هذا الهذيان إلى الملك الديان؟ تب إلى الله توبة نصوحاً لتنجو من هذه الورطة الوعرة التي يستنكف منها الدهريون والطبيعيون واليونانيون، والسلام على من اتبع الهدى، انتهى.

قال (ره): واستحسن محيي الدين والشيخ عزيز النسفي وعبد الرزاق الكاشي والعطار وملا الرومي وجمع كثير من متأخري الصوفية وصرحوا به في كلامهم نظماً ونثراً؛ وقد شبّه هؤلاء الحق سبحانه وتعالى بالبحر والخلق بأمواجه، ويقولون: إن موج البحر عين البحر، وهم يحبون كل من ادعى ألوهية كناية كالقائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، أو صراحة كفرعون وشداد ونمرود، وما أدري من الذي اشتبه من متأخري الشيعة في حق هؤلاء حتى اعتقد فيهم الخير والصلاح فقلده غيره من متصوفي الشيعة؟.

نعم، إعلم أن متقدمي علماء الإمامية قد ذموهم كثيراً وألّفوا كتباً في مطاعنهم ورووا أحاديث كثيرة من الأئمة عليهم السلام في كفرهم وإلحادهم وبطلان مذهبهم والرد عليهم مع أنه لم يكن في زمانهم قائل بوحدة الوجود أصلاً.

والعاقل المنصف إن راجع (**الكافي**) ولاحظ فيه باب دخول الصوفية على أبي عبد الله عليه السلام واحتجاجهم عليه يعرف البتة أن هذه الطائفة من المخالفين.

وإن لاحظ كتاب (**الاعتقادات**) للصّدوق وقوله: إن تديّنهم بترك الصلاة وجميع الفرائض، ولاحظ قول (**المفيد**) دينهم ترك الفرائض والمستحبات وارتكاب المناهي والمحرمات، يعلم أنهم من الزنادقة والملحدين[1].

والدليل على أنهم من المخالفين وجوه كثيرة.

الأول: أن علماء الشيعة الذين صنّفوا الكتب في بيان الفرق الإسلامية عدوّهم من المخالفين.

والثاني: أن قدماء علماء الشيعة لم يوجد من أحدهم تصنيف في التصوف، بخلاف قدماء علماء العامة فإن لهم فيه تصانيف كثيرة إلى غير ذلك من الوجوه.

ومع الغضّ عنها نقول: إن المعصومين عليهم السلام لما حكموا ببطلان مذهبهم كما يعلم ذلك بالرجوع إلى رواياتهم المروية في كتب الثقات، لزم أن يتبرأ الشيعة من هؤلاء القوم الزائغين عن الحق ويتجنب عن عقائدهم.

فإن قال قائل: إني ما عثرت بعد على تلك الكتب وتلك الأخبار.

فالجواب: إن شرط الاحتياط في الدين ووظيفة العبودية والتقوى هو التوقف في محبة تلك الطائفة والتسمية باسمهم والإمساك عن تأويل كلماتهم الكفرية حتى يظهر له الأمر الواضح.

والظاهر أن جمعاً من غفلة الشيعة لما رأوا مدح أمير المؤمنين عليه السلام في كلامهم انخدعوا من أجل ذلك ولم يعلموا أن مذهبهم لو لم يكن الإلحاد هو الجبر، ولازم القول به استحسان كل شيء وإظهارهم لمحبته عليه السلام ومدحهم له من جهة أنه لما قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه، وأدلة هؤلاء الملاحدة على وفق مدّعاهم كما قال محيي الدين في الفص الشعيبي: من عرف نفسه بهذه المعرفة فقد عرف ربه فإنه على صورته بل هو عين هويته وحقيقته فأحبوه عليه السلام لذلك وأكثروا من مدحه.

وربما يكون مدحهم من أجل تفتين الشيعة، وقد ورد في الحديث: أن لا تفتروا «لا تغتروا ظ» بمدحهم كما هو ظاهر لمن تتبع الأخبار، ولم يعلم الغافلون المفترون

(١) الاعتقادات للمفيد: ١٠١، وراجع البحار: ٢٥/ ٣٤٤.

«المغترون ظ» أن شرائط محبته عليه السلام كثيرة وليس طائفة من النصارى واليهود وسائر أهل الملل الباطلة إلا ولهم مع فساد مذهبهم كلمات حسنة، ولم يفهموا أن هذه الطائفة الضالة لهم مع الطائفة المحقة مخالفة كثيرة في الأصول الخمسة كما هو غير خفي على المنصف البعيد عن الهوى والعصبية.

ولو فرضنا اعتقادهم بأن أمير المؤمنين عليه السلام خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله بلا فصل وأنه إمام مفترض الطاعة، ولكن قولهم بإلّهية الحسين بن منصور الحلاج الساحر الكافر، بل إلّهية جميع الموجودات له كمال المنافاة والمباينة بالإيمان والإسلام.

وأيضاً فإنهم لما كانوا أهل مكر وخديعة يخدعون الناس عن أديانهم وتقرّب جمع منهم إلى كل طائفة بإظهار ما هوى تلك الطائفة فيه، كما أن الحلاج قبل الافتضاح كان يتقرّب إلى أهل السنة بإظهار السنية، وإلى الشيعة بإظهار النيابة من صاحب الزمان عليه صلوات الله الملك المنّان، وإلى السفهاء من الناس بادعاء الألوهية، وسمى بعض المفتونين به بأسماء الأنبياء وفرّقهم في البلدان يدعون الناس إلى عبوديته إلى أن قال:

ومن جملة مطاعنهم تأويلهم للأخبار والآيات مثل الملاحدة على مذاهبهم الباطلة، وقولهم بالجبر والتشبيه والتجسيم والرؤية والصورة.

ومن جملة مطاعنهم دعواهم علم الغيب وتسميتهم له بالكشف، وتمادى بعضهم ونسب العلم به إلى براهمة الهند أيضاً، إلى أن قال:

وينبغي أن يعلم أن هذه الملاحدة والمعتقدين بهم كما ورد في الحديث ثلاث طوائف: الضالون، والخادعون، والغافلون، وفي رواية بدل الغافلون: الأحمقون، وفي رواية أخرى بدلها: الجاهلون.

وذلك لأن من كان عارفاً بعقائدهم الباطلة وكان مع ذلك معتقداً أيضاً بعقيدتهم فهو ضال كافر بالأدلة العقلية والنقلية، ومن كان عارفاً ببطلان عقائدهم غير معتقد به باطناً إلا أنه يتجاهل ظاهراً ويتسمى بسمتهم صورة ويسلك مسلكهم تزويراً فهو الخادع المحتال، وغرضه أن يخدع السفهاء والجهال فيخدعوا به ويكونوا مريداً لهم، ومن سلك مسلكهم وأخذ بطريقتهم ومال إليهم سفهاً وحمقاً وغفلة وجهالة فهو الجاهل الأحمق الغافل.

فغير العارف ببطلان عقائدهم والمعترف بخفيّة مذهبهم وقع بسبب جهالته في الضلالة، فلو ادعى مع وجود هذا الجهل للعلم كان جاهلاً مركباً تاه في متاه الضلال، وربما يغترّ به العوام ويزيغ عن طريق الحق ويتيه في وادي الخذلان.

والعارف بسوء اعتقادهم، والمعتقد على بطلان مذهبهم، والمطلع على سوء سريرتهم

والمذعن بفساده باطناً إن مدح مشايخهم ظاهراً لخداع الخلق وباطناً ووصفهم بالزهد والصلاح والمعرفة والكمال توسلاً بذلك إلى ملاذ الدنيا، فقد باع دينه بدنياه، وباء بسخط من الله حيث أضل الخلق بالدنيا الدنيّة وفوّت على نفسه السعادات الأبدية.

وإن كان العارف بسوء اعتقاداتهم مظهراً لحقيّة مذهبهم وطريقتهم فقد زاغ عن طريق الحق وأعرض عن دين الإمامية وهو أسوأ حالاً من السابقين.

فلو ادعى الصوفي التشيع مع التصوف لا بد أن لا تقبله الشيعة منه وأن لا يعدّوه منهم، لأنه مضطر بسبب القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود من القول بالجبر والحب لليهود والنصارى والمجوس والتّولي لأبي بكر وعمر وعثمان وليزيد ومعاوية وأبي سفيان لعنهم الله جميعاً، بل حب جميع الفساق والفجار والمشركين والكفار لأنهم جميعاً مجالي الحق، بل إن أعلن بعداوة هؤلاء فلا بد أن لا يغترّ به الشيعة، بل إن لعنهم أيضاً، لأن اللعنة عندهم عين الرحمة، فلعنة الله عليهم وعلى مشايخهم الزنديقين.

الفرقة الثانية: الواصلية

وهم يقولون: إنا وصلنا إلى الله تعالى واتصلنا به، قيل: إن هذا المذهب أيضاً من أصول مذاهب الصوفية كما تقدمت إليه الإشارة، والحق أنه من فروع مذهب الاتحادية لكنهم اختصوا بأقوال شنيعة وأفعال قبيحة امتازوا بها عن سائر الاتحادية.

فمن جملتها أنهم يقولون: إن الصوم والصلاة والحج وسائر التكاليف إنما وضعها الشارع لتهذيب الأخلاق وتكميل النفوس، والوصول إلى الحق، ونحن قد هذّبنا الأخلاق وحصل لنا العلم بالأشياء والمعرفة بالحق والوصول إليه فسقطت عنا التكاليف الشرعية، فليس شيء بواجب علينا، وجميع المحرمات حلال في حقنا.

ومنها قولهم: بأن من وصل إلى هذا المقام العالي فكل ما يصدر منه من شرب الخمر والزنا واللواط والسرقة وغيرها فليس لأحد الاعتراض عليه، ولا يجوز ردعه عن شيء من ذلك، لأنه مستحسن منه، ولو أراد الزنا بأمه وأخته وبنته واللواط بابنه كان حلالاً له، ولو وطىء بنات غيره وأبنائهم وأزواجهم وصل منه الفيض إليهم، ولو كان ملوطاً لغيره كان جائزاً.

نعم إذا كان المفتي لهم ملا ميرزاجان الشيرازي القائل بأن ذلك لا يضرّ بالنفس الناطقة يصدر عنها هذه الأقوال والأفعال الشنيعة.

قال ملا الرومي في خطبة من خطب المثنوي: إذا حصلت الحقيقة بطلت الشريعة، وقصة ملاقاته للشمس التبريزي وعرضه لابنه وابنته عليه وشرائه للشراب له وحمله الشراب

على عاتقه كما ذكره الجامي في كتاب **(نفحات الأنس)** من القصص المشهورة.

وأورد الخواجه نصير الدين عبد الله بن حمزة الطوسي «ره» في كتاب **(نهج الحق)** ما رآه بعينه وسمعه بأذنه في باب تركهم للصلاة واعتذارهم منه من أراد الاطلاع فليراجع إليه.

وينبغي أن يعلم أن ترك الصلاة وسائر الفرائض واستحلال جميع المعاصي مذهب جميع فرق الصوفية كما صرح به المفيد وغيره من علماء الشيعة وورد به النص أيضاً، إلا أن بعض الفرق يظهرون ذلك وبعضها يخفونه وأكثرهم يخدعون السفهاء والجهال بإقامة الصلاة ومواظبة الفرائض والسنن وإظهار العبادة والزهادة، وبعضهم يستحسنون التظاهر بالمحرمات وبعضهم يستقبحونه.

ومنها قولهم: بأنه إذا غلب الشهوة على واحد منا وأراد المجامعة بالغير فامتنع هو منه فلم يبلغ الممتنع بعد إلى مقام الوصول بل هو كافر، ومن مكّن المجامع له من نفسه وأجابه إلى ما يريد سواء كان ذكراً أو أنثى فاز بدرجة الولاية وصار من الأولياء المكمّلين.

قالوا: إن رابعة وجمع من النسوة وصلنّ إلى مرتبة الولاية لقضاء أوطار الناس، ومزخرفات هذه الفرقة كثيرة ودلائل كفرهم وإلحادهم خارجة عن حد الإحصاء، وذكرها موجب للملال وتطويل المقال.

الفرقة الثالثة: العشاقية.

وهم جماعة يسمّون أنفسهم بالعشاق ومحبة الله سبحانه عشقاً وفي هذا المعنى قال بعضهم:

العشق نور الذي بالفقر يفتخر ... وكل نور بتلك الشمس ينسفر
العشق شدّة حب الله ليس سوى ... معناه مقصدنا والقصد معتبر
وشدّة الحب في القرآن واردة ... وفي الحديث بلفظ العشق تذكر
طاعات أعداء أهل العشق احتبطت ... ولو بزمزم بل بالكوثر اطّهروا
لأنها من لباب الحب خاوية ... وهي للقشور له واللّب يدّخروا
طوبى لقوم علت في الكون همتهم ... فأولجوا في طريق العشق وابتكروا
أما تغيّر حالات يهيّجهم ... عند السماع فلسنا عنه نعتذر
لأن أحوال أهل العشق عارضة ... بلا اختياراتهم والعشق يعتذر

وهم غافلون من أن العشق إسم مرض من الأمراض الدماغية، ويقولون: إن الاشتغال بغير الحق قصور في معرفته ومع هذا الحال وتلك الدعوى يتعشقون أبناء الناس وبناتهم

ويقولون: إن المجاز قنطرة الحقيقة، وأكثرهم من غاية عدم المبالاة في الدين والخوف من ربّ العالمين يتعمدون الكذب على رسول الله ﷺ ويأفكون ويقولون: إن ذلك حديث مأثور عن النبي ﷺ، نعوذ بالله من ذلك.

ولأكثرهم مبالغة عظيمة في تكلّف العشق بالمرد الحسان وذوات الحسن من النسوان زعماً منهم أن ذلك عشق مجازي والعشق المجازي موصل إلى الحقيقة التي هي حب الله تعالى.

وهذه الفرقة لهم عداوة عظيمة مع الأنبياء يقولون: إن الأنبياء قد قيّدونا بقيد التكاليف الشرعية فحجبونا من الوصول إلى الحق فلا ينبغي للمرء أن يعبأ بقولهم عليهم السلام، ومع هذه الحال يظهرون المحبة لأبي بكر وعمر وعثمان، ويمدحونهم تطيباً لنفوس أهل السنّة وترضية لخواطرهم، وإذا لقوا الشيعة يظهرون ولاية الأئمة ومحبّتهم ولا يبرزون عداوة الأنبياء والأوصياء عند العموم ملاحظة للتقيّة، ومزخرفاتهم كثيرة ونقلها موجب للإطناب.

الفرقة الرابعة: التلقية.

ويقال لهم النظرية أيضاً، ومذهبهم أن النظر في الكتب العلمية حرام إلا الكتب المدونة في علم التصوف بشرط قراءتها عند الشيخ الكامل، وزعموا أن المعرفة لا تحصل إلا بتلقين الشيخ وأن قراءة العلوم الشرعية مطلقاً حرام وأن ما يحصل للعلماء بالتعلم والتحصيل والمطالعة والتدريس في مدة سبعين سنة وأزيد يحصل بإرشاد المرشد وتلقينه في ساعة واحدة، وأن ما وجده السالكون للطريقة، الكاملون في المعرفة فإنما وجدوه بإرشاد الشيخ الكامل الذي هو من علماء الباطن لا بالتعلم من العلماء الظاهرية.

وزعموا أيضاً أن ما اشتغل به علماء الشريعة علم رسمي ظاهري وليس لهم حظ من علم الباطن، وإنما العلم في الحقيقة هو علم الباطن وأما علم الظاهر فلا خير فيه ولا منفعة والعارف الكامل المحقق من علم علم الباطن.

ثم إنهم يزعمون أن الإيمان ليس بمخلوق وأن الولاية أمر كسبي يحصل بالرياضة، وأكثرهم يزعمون أن النبوة أيضاً كسبية، وعادة هذه الفرقة كأكثر فرقهم على إعطاء الشيخ الخرقة والبرنس للمريد وأمره له بالجلوس في الخلوة أربعين يوماً ويترك أكل الحيواني ويسمونه بالچلّة، وهؤلاء أعداء الدين قد وضعوا ذلك في قبال الاعتكاف خرّب الله بنيانهم ودفع شرّهم وطغيانهم.

الفرقة الخامسة: الزرّاقية

وهم طائفة متصفة بالخسة والدناءة يعاشرون الناس بالمكر والحيلة، ويأتونهم من باب

الخديعة لتحصيل الدنيا وامتلاء البطون من الغذاء، ويميلون إلى السماع والرقص، وأكثرهم يخلطون مذاهب أكثر فرق الصوفية ويجعلونه مذهباً واحداً ويدينون به.

ومن عادتهم ترويج مشايخهم وتشهيرهم بين الناس تحبيباً للجهال إليهم وإنكار العلماء والسادات ومعاداتهم لا سيما من كان منهم غير مداهن للصوفية.

نعم من كان له حظ من العلم وداهنهم ومدح مشايخهم إما حباً للدنيا أو غفلة وجهلاً عن إلحادهم وانحرافهم عن نهج الهدى فهم يهدون إليه ويحبونه ويبالغون في تعظيمه ويسطرون مدحه وكما أنه يثني عليهم ويروّج مذهبهم الفاسد فهم أيضاً يثنون عليه ويروجون متاعه الكاسد.

وقد شاهدت مراراً رجلا ليس له نصيب من العلوم الشرعية بل من مطلق العلم إلا أنه يترجم معاني أشعار كتاب كلشن راز لشيخهم الشبستري وهم يقولون: إنه أعلم العلماء وأفضلهم إلى أن قال:

فاللازم على من تابع النبي ﷺ وآله ﷺ أنه إذا رأى أحداً يدّعي التصوف سواء كان عالماً أو جاهلاً أن يعرض عنه ولا يعتقد عليه، وإذا رأى من سلك مسلك الزراقية فيجب عليه إنكاره، وإن ظهر منه القول بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود فهو خارج من دائرة الإسلام والحال أنه لا يخلو أحد من الصوفية من القول بأحدها ومن القول بالجبر إلا أن ينتحل التصوف ويسمي نفسه بهذا الإسم من أجل الحمق والجهالة أو من باب المكر والخديعة. انتهى ما أهمنا نقله من كلامه زاد الله في إكرامه بغاية تلخيص منا.

وطوينا عن نقل باقي ما أورده في هذا الباب حذراً من الإطناب، وربما كان ما طوينا عنه يزيد على ما حكيناه أضعافاً مضاعفة كما يظهر على من راجع إليه، ومع ذلك فما اقتصرنا بنقله أيضاً غير خال من الإطناب.

كما أن ما نقلنا قبله من كلام المحدث العلامة المجلسي روح الله روحه أيضاً كذلك، وإنما أطنبت بنقل كلاميهما تنبيهاً لسفهاء الشيعة من نومة الغفلة والجهالة وإنقاذاً لهم من ورطة الضلالة.

فإن شهادة مثل هذين الوحيدين الفريدين العادلين الأعدلين العالمين العلمين الأعلمين الخبيرين بالأخبار وآثار الأئمة الأطهار مع كونهما من أساطين الشيعة وأركان الشريعة على فساد هذه الطريقة طريقة الصوفية وكشفهما عن سوءاتهما وفضائحها وقبائحها وشنائعها كافية في رداءتها وشناعتها، وكفى بهما شهيداً فضلاً عن غيرهما ممن تقدم حكاية كلامه ونذكره بعد ذلك إن شاء الله.

فهلكاً لمن دان بمذهب وسلك مسلكاً يكون مرّوجه ماحي الدين الأندلسي ومزيفه العلامة المجلسي، ومادحه الرجس الغزالي، وقادحه المقدس الأردبيلي، ومزكيه أبو يزيد وجارحه الشيخ المفيد، والمتدينون به الملاحدة اللئام وأتباعهم من سفهاء الأحلام، والطاعنون عليه أئمة الأنام وحجج الملك العلام.

وبعد ذلك فلا يجوز للعاقل أن يشتبه ويغترّ بما يذكرونه في مطاوي مقالاتهم من الكلمات المزخرفة والأقوال المستطرفة والمواعظ الحسنة والنصائح المستحسنة والكمالات المرغوبة الغير المخالفة للأصول الشرعية بل الموافقة لموظفات الشريعة.

لأن هذه كلها من حبائلهم وحيلهم وفخوخهم ومصائدهم إنما نصبوها لتصيد العوام وصيد الجهلة كالأنعام وأكثر كلامهم الذي من هذا النمط فإنما هو مقتبس من كلام الأنبياء والحجج عليهم السلام انتحلوه ونسبوه إلى أنفسهم وعلى فرض كونه منهم أيضاً فلا يجوز الاغترار والافتتان به، لأن جميع الفرق من الكفار والمشركين الملاحدة والمعاندين مع ما هم عليه من الكفر والإلحاد والزّيغ عن نهج الرشاد ترى في ضمن كلماتهم الكفرية كلامات مقبولة عند ذوي العقول من مدح العدل والإحسان والصدق والأمانة وقلّة الأكل وقلّة النوم وذمّ الحرص والحسد والبخل والخيانة إلى غير ذلك.

والحاصل أنهم قد خلطوا الجيد بالرديء والطيب بالخبيث ومزجوا الحق بالباطل لاصطياد العوام.

وإلى ذلك ينظر كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو الخمسون من المختار في باب الخطب: إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتّبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً على غير دين فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

ومنهم السيد السند والمتبحّر المعتمد السيد نعمة الله المحدث الجزائري قدس سره، فقد أورد في (**الأنوار النعمانية**) فصلاً مبسوطاً في ذكر عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الباطلة، وقال في جملة كلامه هنا ما نقلناه سابقاً في المقام الثاني، وهو قوله:

وأما الدواعي لهم على اختراع هذا المذهب وشهوته فأمور:

الأول: أن خلفاء بني أمية وبني العباس لعنهم الله كانوا يحبون أن يحصّلوا رجالاً من أهل العبادة والزهادة والتكلم ببعض المغيبات، وإن لم يقع لأجل معارضات الأئمة الطاهرين عليهم السلام

وعلمهم وزهدهم وكمالاتهم حتى يصغروا في أعين الناس أهل البيت وأطوارهم، فلم يجدوا أحداً يقدم على هذا سوى هذه الفرقة الضالة، فمن هذا مال إليهم سلاطين الجور لعنهم الله وبنوا لهم البقاع وحملوا إليهم الأموال وطلبوا منهم الدعاء في مطالب دنياهم وقاسوهم بأهل البيت عليهم صلوات الله الملك الحيّ المتعال، وأين الثريا من يد المتناول.

الثاني: سهولة هذا المسلك وصعوبة طريق العلم، فإن العامي منهم قد يجلس في بيت ضيق مظلم أربعين يوماً وربما تراءى له إخوانه من الجن والشياطين، فإذا خرج صار من رؤسائهم وحصّل درجة العالم الذي يحصّله في خمسين سنة وأكثر، بل ربما كان اعتبار هذا بين رعاع الناس أزيد من اعتبار ذلك العالم.

الثالث: أن هذا المذهب شرك لصيد الأولاد وجمع الأموال والجاه والاعتبار ونحو ذلك.

وقال أيضاً: والعجب من بعض الشيعة كيف مال إلى هذه الطريقة مع اطلاعه على أنها مخالفة لطريقة أهل البيت عليهم السلام اعتقاداً وعملاً.

أما الإعتقاد فقد قالوا بالحلول وهو أن الله سبحانه قد حل بكل مخلوقاته حتى بالقاذورات، تعالى الله عما يقول الكافرون علوّاً كبيراً، وقد مثّلوا حلول الله بهذه المخلوقات بالبحر وقت اضطراب أمواجه، فإن الأمواج وإن كانت متعددة إلا أن كلها ماء واحد في بحر واحد قد كثّره التموج، فهي واحدة بالحقيقة متعددة بالاعتبار، والمخلوقات كلها عين الله سبحانه وهو عينها والتعدد إنما جاء من هذه العوارض الخارجية والتشخصات العارضة للمادة.

وكان من أعظم مشايخهم عندهم الشيخ العطار، لما سمع سلطان ذلك الزمان بكفره وإغوائه المسلمين أرسل إليه جلاداً يأخذ رأسه، فلما أتى إليه الجلاد وأخبره بما أتى به فقال له الشيخ العطار: أنت ربي بأي صورة شئت فتصوّر فإن أردت قتلي فأنا هذا، ثم قتله.

وقال: ومن اعتقاداتهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة أنهم تركوا العبادات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام ودوّنها الشيعة في كتبهم، وأقبلوا على اختراع عبادات وأذكار لم تذكر في الشريعة، وليس هذا إلا لقصد الخلاف على علماء أهل البيت حتى يكونوا في طرف النقيض، فلا يقال لهم إنهم مقلّدو العلماء فيزدادون بذلك اعتباراً من عوام الناس وغثائهم.

وما علموا أن الله سبحانه لا يقبل من العبادات إلا ما أرسل حججه وقاله على ألسنتهم، وإلا فقد مر سابقاً أن الشيطان لم يتكبّر على السجود لله تعالى لكنه قال: أنا أسجد لك يا رب ولا أسجد لآدم، وذلك أن الله سبحانه يجب أن يُطاع من حيث أمر كما قال:

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقد كان في زماننا رجل من الصوفية ويزعم أنه من علماء الشيعة وكان يخطب أصحابه يوماً فقال وهو على المنبر: إني كتبت الأصول الأربعة ـ يعني **(الكافي)** و **(التهذيب)** و **(الاستبصار)** و **(الفقيه)** ـ وقرأتها وصححتها، ولما رأيتها عديمة الفائدة بعتها بدرهم واحد ورميت ذلك الدرهم بالماء.

فانظر إلى إيمان ذلك الرجل عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وقد كان مع أصحابه في حضرة مولانا الرضا ﷺ مشغولين بذكرهم الجلي وهو ما اشتمل على الغناء والرقص والترنم والوجد، فهوى بعضهم على محجر القبر الشريف فشجّ رأسه وسال دمه وبلغ إلى المحجر، فاحتال الخدمة إلى إزالة تلك الدم، فقال شيخ الصوفية: لا تحتالوا بهذه الحيل لإزالة هذا الدم لأن هذا من دم العشاق ودم العشاق طاهر.

ثم لما لم يسمع الناس هذا منه موّه على الناس كلاماً آخر وقال: إن الشمس ذكروا أنها من المطهرات فكيف لا تكون شمس الرضا مطهرة لهذا الدم، فقبل منه هذا الكلام بعض البهائم من أتباعه ثم بعد زمان قليل خذله الله سبحانه وسقط عن درجة واعتبار وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ورأيت في شيراز رجلاً صوفياً عليه لعنة الله، وكان صاحب ذكر وحلقة وأتباع، وكان كل ليلة جمعة يأتي إلى قبة السيد الأجل السيد أحمد ابن الإمام موسى الكاظم ﷺ فيصنع الذكر المعهود وقد كان عزباً لم يتزوج، نعم كان عنده ولد مقبول من أولاد شيراز وكان ذلك الرجل صاحب تحصيل لحطام الدنيا؛ وكلما يحصل في نهاره يعطيه لذلك الولد ويبقي لنفسه شيئاً يسع قوت الشعير، وكان إذا خرج من البلاد ثم دخل إليها يسأله بعض خواصه أين كنت؟ فيقول: كنت أذرع الآدميين.

وقد استمر على هذا الحال برهة من الزمان فظهر عليه وعلى أصحابه أنهم أرادوا الخروج وادعى واحد منهم أنه الرب، وآخر أنه النبي، وثالث أنه الإمام إلى غير ذلك، فأخذهم حاكم تلك البلاد وأمر بقتلهم وكنت مع الحاضرين في ذلك الوقت.

فلما أتوا لشيخهم إلى الميدان ليقتلوه كانت أخته فوق سطح جدار تنتظر إلى ما يصنع بأخيها وتضحك، وقيل لها: لم تضحكين؟ فقالت: إن أخي هذا رجل شائب فإذا قتلوه يجييء بعد أربعين يوماً بصورة شاب حسن الوجه قويّ البدن، فظهر أنهم كانوا قائلين بالتناسخ أيضاً، وقد رأينا منهم في شيراز وقائع غريبة وأطوار عجيبة لا توافق إلا مذهب الملاحدة والزنادقة.

ومنهم المحدث الفاضل ملا محسن الفيض القاساني في محكى كلامه من المجلد الخامس من **(الوافي)** في صدر أبواب صفة الصلاة وأذكارها وتعقيبها وآدابها وعللها بعد ذكر الآيات الواردة فيها من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، إلى آخره، وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، قال:

المساجد فسّرت تارة بالأعضاء السبعة، وأخرى بالمساجد المعروفة، وأخرى ببقاع الأرض كلها، وعلى التقديرات أنها خلقت لأن يعبد الله بها أو فيها، فلا تشركوا معه غيره في سجودكم وعبادتكم، والأمر بالدعاء والذكر تضرعاً وخفية وخيفة يشمل سائر أذكار الصلاة وغير الصلاة، ودون الجهر من القول يدل على لزوم الاقتصاد فيها جميعاً وكراهة الاعتداء، فما يفعله المتصوفة في حلقهم من الجهر بالذكر والاعتداء بالنداء ممنوع منه بمقتضى هذه الآيات، ويأتي تمام الكلام فيه في صدر أبواب الذكر إن شاء الله تعالى.

وقال في أبواب الذكر والدعاء وفضائلهما من المجلد المذكور بعد ذكر الآيات التي وردت فيها، كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦].

في هذه الآية دلالة على كراهة ما يفعله المتصوّفة من رفعهم الأصوات بكلمة التوحيد وإظهارهم المواجيد، فإنه اعتداء ومجاوزة عن حد ما وسمه الشرع في الذكر والعبادة، هذا إن اقتصروا على الإجهار بالذكر، وأما سائر ما يفعلونه من التغني بالأشعار في أثناء الأذكار والتواجد بالسماع واستمالة الأبصار والأسماع بالشهيق والنهيق والرقص والتصفيق والهبوط والسقوط فلا شك أنه بدع في الدين، بل كاد يكون استهزاء بالشرع المبين، أعاذنا الله من شرّ الشياطين.

وقال في كتابه المسمى بـ **(منهاج النجاة)**: لا تحضر في الجامع الحلق ولا مجالس القصاص، بل مجلس العلم النافع، وهو الذي يزيد في خوفك من الله وينقص من رغبتك في الدنيا.

وقال في المقالة الرابعة والستين من الكلمات الطريفة:

«داهية» ومن الناس من يدّعي علم المعرفة ومشاهدة المعبود، ومجاوزة المقام المحمود، والملازمة في عين الشهود، ولا يعرف من هذه الأمور إلا الأسماء، ولكنه تلقف في المطامات كلما يرددها لدى الأغنياء كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن السماء، ينظر إلى أصناف العباد والعلماء بعين الإزدراء يقول في العباد: إنهم أجراء متعبون، وفي العلماء:

إنهم بالحديث عن الله محجوبون، ويدّعي لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبي مقرب؛ ولا علماً أحكم ولا عملاً هذّب، يأتي إليه الرعاع الهمج من كل فجّ أكثر من إتيانهم مكة للحج، يزدحم عليه الجمع ويلقون إليه السمع وربما يخرّون له سجداً كأنهم اتخذوه معبوداً، يقبلون يديه ويتهافتون على قدميه، يأذن لهم في الشهوات، ويرخّص لهم في الشبهات، يأكل ويأكلون كما تأكل الأنعام، ولا يبالون أمن حلال أصابوا أم حرام، وهو لحلوائهم هاضم ولدينه وأديانهم حاطم ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥]، ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣]، ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١]، ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤٢]، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦].

وقال في المقالة الخامسة والستين منها:

ومن هؤلاء من طوى بساط الأحكام، ورفض الفصل بين الحلال والحرام، وحلّ قيود الشرع من عنقه وأطلق لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ﷺ ولا يدينون دين الحق، متعللين تارة بأن الله غنيّ عن الأعمال، وأخرى بأن التكليف إنما هو لتطهير القلب من الشهوات وهو أمر محال، وأخرى بأن أعمال الجوارح لا وزن لها عند الله وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة إلى حب الله، واصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، فلا يصدنا عن سبيل الله عصياننا، كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون، إن أعمالك لنفسك احتسبت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وليس التكليف بقلع الشهوات، بل بانقيادها لحكم العقل والشرع بالرياضات؛ والأبدان تابعة للقلوب، والشهادات شائعة للغيوب، أيها المغرور ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٤]،.

وقال في المقالة الثانية والستين:

ومن الناس من يزعم أنه بلغ في التصوّف والتأله حداً يقدر معها أن يفعل ما يريد بالتوجه، وأنه يسمع دعاؤه في الملكوت، ويستجاب نداؤه في الجبروت تسمى بالشيخ والدرويش، وأوقع الناس بذلك في التشويش، فيفرطون فيه أو يفرّطون فمنهم من يتجاوز به حد البشر، وآخر يقع فيه بالسوء والشر، يحكى من وقائعه ومناماته ما يوقع الناس في الرّيب، ويأتي في أخباره بما ينزل منزلة الغيب، وربما تسمعه يقول: قتلت البارحة ملك الروم،

ونصرت فئة العراق، وهزمت سلطان الهند، وقلبت عسكر النفاق، أو صرعت فلاناً يعني به شيخاً آخر نظيره، أو أفنيت بهماناً يريد به من لا يعتقد فيه إنه لكبيره، وربما تراه يقعد في بيت مظلم يسرج فيه أربعين يوماً، ويزعم أنه يصوم صوماً، ولا يأكل فيه حيواناً ولا ينام نوماً، وقد يلازم مقاماً، يردد فيه تلاوة سورة أياماً، يحسب أنه يؤدي بذلك دين أحد من معتقديه، أو يقضي حاجة من حوائج أخيه، وربما يدّعي أنه سخّر طائفة من الجنة، ووقى نفسه أو غيره بهذه الجنة ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبا: ٨]، انتهى كلامه.

أقول: هذه الكلمات كما ترى تنادي بأعلا صوتها على طهارة ذيل هذا الفاضل البارع من دنس التصنع والتصوّف، وبراءة ساحته من الإنحراف والتصلّف، ومثلها كلمات له أخرى تركنا حكايتها حذراً من الإطناب.

إلا أنه في أكثر كتبه سلك مسلك الصوفية وجرى على قواعدهم لا سيما في كتابه المسمى بـ (**اللآلىء**)، وذكر فيه تفصيل الحضرات الخمسة التي هي من مصطلحات الصوفية ومخترعاتهم، وأول بعض الأخبار والأدعية إلى ما أوردها هناك، ولا حاجة بنا إلى إيرادها.

ومن أجل كون كلامه وحديثه ذا فنون وشجون اختلف العلماء المعاصرون له والمتأخرون عنه في مدحه وقدحه وتعديله وجرحه، حتى أفرط بعضهم فنسبه إلى الكفر أو ما يشارف الكفر.

منهم الشيخ علي المعاصر له سبط الشهيد الثاني «قد» فقد نسب إليه في ذيل رسالته في تحريم الغناء كثيراً من الأقاويل الفاسدة والآراء الباطلة التي تفوح منها رائحة الكفر المضادة بضروريات الدين.

قال في (**روضات الجنان**): ولو أردنا تأويل جملة منها بمحامل وجيهة صحيحة لما أمكننا ذلك بالنسبة إلى ما يدل عليه ألفاظه الظاهرة بل الصريحة من منافيات أصول هذه الشريعة وفروع مذهب الشيعة، مثل قوله بوحدة الوجود، وبعدم خلود الكفار في عذاب النار، وعدم نجاة أهل الاجتهاد من النار وإن كانوا من أجلائنا الكبار، وقوله بعدم منجسية المتنجس لغيره مثل النجس، وبعدم انفعال الماء القليل بمحض ملاقاته للنجس، وإن وافقه في هذه المسألة العماني.

ومنهم صاحب (**لؤلؤة البحرين**) الشيخ يوسف البحراني قال في ترجمته:

وهذا الشيخ كان فاضلاً محدثاً أخبارياً صلباً كثير الطعن على المجتهدين ولا سيما في رسالته (**سفينة النجاة**) حتى أنه يفهم منه نسبة جملة من العلماء إلى الكفر فضلاً عن الفسق؛ مثل إيراده الآية: ﴿**يا بني اركب معنا**﴾، أي ولا تكن مع الكافرين وهو تفريط وغلوّ بحت، مع

أن له من المقالات التي جرى فيها على مذهب الصوفية والفلاسفة ما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله، مثل ما يدل في كلامه على القول بوحدة الوجود.

وقد وقفت له على رسالة قبيحة صريحة في القول بذلك، وقد جرى فيها على عقائد ابن عربي الزنديق وأكثر فيها من النقل عنه وإن عبّر عنه ببعض العارفين وقد نقلنا جملة من كلامه في تلك الرسالة وغيرها في رسالتنا التي في الرد على الصوفية المسماة بـ (**النفحات الملكوتية**)، نعوذ بالله من طغيان الأفهام وزلل الأقدام.

وقد تتلمذ في الحديث على السيد ماجد البحراني في بلاد شيراز، وفي الحكمة والأصول على صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي الشهير بصدرا، وكان صهره على ابنته ولذا ترى أن كتبه في الأصول كلها على قواعد الصوفية والفلاسفة، ولاشتهار مذهب التصوّف في ديار العجم وميلهم إليه بل غلوّهم فيه صارت له المرتبة العليا في زمانه، والغاية القصوى في أوانه، وفاق عند الناس جملة أقرانه، حتى جاء على أثره شيخنا المجلسي «قد» فسعى غاية السعي في سدّ تلك الشقاشق الفاغرة، وإطفاء نائرة تلك البدع البائرة، انتهى.

والعجب من صاحب (**روضات الجنات**) حيث أراد تزكية الرجل فجرحه، وتطهيره فدّنسه، وتبرئته فلوّثه، قال بعد تفصيل كلام له فيه:

ثم ليعلم أن ظني في نسبة التصوف الباطل إليه أنها فرية بلا مرية، والباعث عليه اقتداؤه بهذه الطريقة في الموالاة مع الغلاة والملحدين، وإظهار البراءة من أجلائنا المجتهدين، وعدم اعتنائه بالمخالفة لإجماع المسلمين، والإنكار لبعض ضروريات هذا الدين المبين، وإلا فبين ما يقوله ويقولونه مع قطع النظر عن هذا القدر المشترك بون بعيد، وإنكاره على أطوار هذه الطائفة في حدود ذواتها إنكار بليغ شديد، ثم نقل عنه ما قدمنا نقله من المقالات.

وأنت خبير بأنه إذا كان موافقاً للصوفية في أصل مذهبهم الفاسد وهو القول: بوحدة الوجود على ما عزّاه إليه غير واحد من العلماء، فكل الصيد في جوف الفراء، فضلاً عما نسب إليه من إنكاره لبعض ضروريات الدين وخلافاته لإجماع المسلمين، وإحتذائه حذو الغلاة والملحدين، وهذا مقام ما قيل، ويقال:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه وكل قرين بالمقارن يقتدى

والله العالم بالسرائر والخبير بالضمائر من كل برّ وفاجر.

ومنهم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري المعروف بجار الله المجاور في حرم الله، قال في (**الكشاف**) في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾

[آل عمران: ٣١] ما لفظه:

وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل، فمن ادعى محبته وخالف سنّة رسوله ﷺ فهو كذاب، وكتاب الله يكذّبه، وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكرها ويطرب وينعر ويصعق فلا شك في أنه لا يعرف الله، ولا يدري ما محبة الله وما تصفيقه ونعرته وصعقته إلا تصور في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة، فسماها الله بجهله وذعارته ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصورها وربما رأيت المني قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامة حواليه قد ملأوا أردانهم بالدموع لما رقّقهم من حاله(١).

وقال في كتابه المسمى بـ **(أطواق الذهب)**:

يا رافع اليد بالدعاء، ويا داعي الحق بالنداء، إنه لا يسمع بالصماخ فاقصر من الصراخ، أتنادي باعداً، أم توقظ راقداً تعالى الله الملك لا تأخذه السنة ولا تغلّطه الألسنة، يعلم رموز البكم والخرس، كما يعرف لغة الترك والفرس، يسمع دبيب النملة الخرساء على الصخرة الملساء، كما يسمع بعام(٢) الظبة الجيداء على صحن البيداء، ألا إن رفع اليد بالدعاء سمعة، ورفع الصوت بالشكاية شنعة، ما هذه الشهقة والنداء، وما هذه الصيحة الشنعاء، أمن الضرب تتألم؟ أم مع أكفائك تتكلم؟ أتحسبه قسّاماً نسى قسمك؟ أم رزّاقاً جهل اسمك؟ أنام من خلق الأنام؟ أرقد من أنشأ الذئب والنقد(٣) معاشر الضعفة أتظنون أن لا تأكلوا أقواتكم دون أن ترفعوا أصواتكم لا تدعوا اليوم ثبوراً لقد ظننتم بالله ظن السوء وكنتم قوماً بوراً.

ومنهم الفاضل البارع المحقق السيد علي بن محمد الحسيني الجرجاني المشتهر بالسيد الشريف شارح المواقف، قال في حاشيته على **(شرح التجريد)** للأصفهاني في المسألة الثانية: في أن الوجود زائد على المهية وليس نفسها عندما يعنون قول الشارح: فيلزم أن يكون المهيّات متحدة وليس كذلك قيل عليه: ذهب جماعة من الصوفية إلى أن ليس في الواقع إلا ذات واحدة لا تركيب فيها أصلاً بل لها صفقات هي عينها وحقيقة الوجود المنتزعة في حد ذاتها عن شوائب العدم وسمات نقصان الإمكان، ولها تقيّدات بقيود اعتبارية بحسب ذلك يترائى موجودات متمايزة فيتوهم من ذلك تعدّد حقيقي، فما لم يقم برهان على بطلان ذلك لم يتم ما

(١) راجع مجمع البحرين: ١/ ٤٤٠.

(٢) بعام: أي صوتها.

(٣) النقد من الغنم قصار الأرجل، كذا في الصحاح.

ذكروه من عدم اتحاد المهيات، ولا يتم أيضاً اشتراك الوجود بل لا يثبت وجود ممكن أصلاً.

أقول: هذا خروج عن طور العقل، فإن بداهته شاهدة بتعدد الموجودات تعدداً حقيقياً وأنها ذوات وحقائق مختلفة بالحقيقة دون الاعتبار فقط، والذاهبون إلى تلك المقالة يدّعون استنادها إلى مكاشفاتهم ومشاهداتهم وأنه لا يمكن الوصول إليها بمباحث العقل ودلالته، بل هو معزول هناك كالحس في إدراك المعقولات.

وأما المتقيدون بدرجات العقل والقائلون بأن ما يشهد به العقل فمقبول وما شهد عليه فمردود وأنه لا طور وراءه، فيزعمون أن تلك المكاشفات والمشاهدات على تقدير صحتها مؤوّلة بما يوافق العقل، فهم بشهادة بديهته عندهم مستغنون من إقامة برهان على إبطال أمثال ذلك، ويعدّون تجويزها مكابرة لا يلتفت إليها.

وقال في (**شرح المواقف**) في المقصد الخامس من المرصد الثاني من الموقف الخامس منه:

إعلم أن المخالف في هذين الأصلين يعني عدم الاتحاد وعدم الحلول طوائف ثلاثة: الأولى النصارى، الطائفة الثانية النصيرية والإسحاقية من غلاة الشيعة، الطائفة الثالثة بعض المتصوفة، وكلامهم مخبط بين الحلول والاتحاد والضبط ما ذكرناه في قول النصارى، والكل باطل سوى أنه تعالى خصّ أولياءه بخوارق عادات كرامة لهم.

ورأيت من الصوفية الوجودية من ينكره ويقول: لا حلول ولا اتحاد إذ كل ذلك يشعر بالغيرية ونحن لا نقول بها، بل نقول: ليس في الدار الوجود غيره ديار، وهذا العذر أشد قبحاً وبطلاناً من ذلك الجرم، إذ يلزم تلك المخالطة التي لا يجترىء على القول بها عاقل ولا مميز أدنى تمييز.

وقال في المقصد الثالث من المرصد الأول من الموقف السادس:

لبعض الصوفية من أهل الإباحة أن التكليف بالأفعال الشاقة البدنية يشغل الباطن عن التفكر في معرفة الله وما يجب له من الصفات ويجوز ويمتنع عليه من الأفعال، ولا شك أن المصلحة المتوقعة من هذا الغائب وهو النظر فيما ذكر تربى أي تزيد وتفضل على ما يتوقع مما كلف به فكان ممتنعاً عقلاً.

والجواب: أن ذلك ـ أي التفكر في معرفة الله وصفاته وأفعاله ـ أحد أغراض التكليف، بل هو العمدة الكبرى منها وسائر التكاليف معينة عليه داعية إليه ووسيلة إلى إصلاح المعاش المعين على صفاء الأوقات عن المشوّشات التي تربي شغلها عن شغل التكاليف.

وقال في المقصد السادس من المرصد الخامس من الموقف الأول منه:

إن قلت: لا نسلّم أن المعرفة لا تتم إلا بالنظر كما ادعيتم بل قد تحصل بالتصفية فإن رياضة النفس بالمجاهدات وتجريدها عن الكدورات البشرية والعوائق الجسدية والتوجه إلى الحضرة الصمدية والتزام الخلوة والمواظبة على الذكر والطاعة تفيد العقائد الحقة التي لا يحوم حولها شائبة رائبة، وأما أصحاب النظر فيعرض لهم في عقائدهم الشكوك والشبهات الناشئة من أدلة الخصم.

قلنا: هي تحتاج إلى معونة النظر ألا ترى أن رياضة المبطلين من اليهود والنصارى يؤدّيهم إلى عقائد باطلة، فلا بد من الإستعانة بالنظر، أو قلنا: المراد أنه لا مقدور لنا من طرق المعرفة إلا النظر فإن التصفية كما هو حقها تحتاج إلى مجاهدات شاقة ومخاطرات كثيرة قلما يفي من المزاج فهي في حكم ما لا يكون مقدوراً.

ومنهم الفخر الرازي في المسألة الحادية والثلاثين في النبوة من كتابه المسمى بـ **(الأربعين)** قال:

إعلم أن الذين ينكرون نبوة محمد ﷺ طوائف، ثم تعرّض لذكرها إلى أن قال: الطائفة السادسة جمع من الصوفية يقولون: الإشتغال بغير الله حجاب عن معرفة الله تعالى، والأنبياء يدعون الخلق إلى الطاعات والتكاليف، فهم يُشغلون الخلق بغير الله ويمنعونهم عن الاشتغال بالله فوجب أن لا يكون حقاً وصدقاً.

ومنهم الدّميري في كتاب **(حياة الحيوان)** في باب العين المهملة عند ذكر العجل قال:

«فائدة»: نقل القرطبي عن أبي بكر الطرطوشي أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان يقرؤون شيئاً من القرآن ثم ينشد لهم منشد شيئاً من الشعر فيرقصون ويطربون ويضربون بالدّف والشبابة هل الحضور معهم حلال أم لا؟

فقال: مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنّة رسول الله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حوله ويتواجدون، فهو دين الكفار وعبّاد العجل، وإنما كان مجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوّابه أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين[١].

(١) رواه في عون المعبود: ١٣/ ١٨٧.

ومنهم محمد بن محمد المحدّث البخاري المعروف في كتابه الذي سماه **(فاضحة الملحدين وناصحة الموخدين)**، قال:

ثم إن أولئك الملحدين الذين هم إخوان الشياطين يخدعون الجاهلين بتمسّكهم في ذلك الضلال المبين بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ويلحدون في الآية الأولى بتفسيرهم وجه الله هٰهنا بذات الله موافقاً لرأيهم لا بالجهة التي أمر بها ورضيها على ما هو الحق المبين والمطابق لقواعد الدين ولإجماع علماء الإسلام والمسلمين، ولما يدل صدر هذه الآية أيضاً وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، فإنه يدل على أن جهات المشرق والمغرب لله تعالى، لا أنها هو الله تعالى وإلا يوجب أن يكون النظم: والله المشرق والمغرب، لا: ولله المشرق والمغرب.

وأنت خبير بأن ثمة المكان وأن الله تعالى منزّه عن الجهة والمكان، وأن كون الشيء الواحد في آن واحد في أمكنة مختلفة بديهي البطلان، وأن تفسير هذه الآية بما فسّره الملاحدة مستلزم لكون الله تعالى في مكان وجهة بل كونه في آن واحد في أمكنة الجهات المختلفة عند اختلاف أماكن المتوجهين وذلك محال على محال ومع ذلك كفر صريح وضلال.

ويلحدون في الآية الثانية حيث يفسرون: قضي بحكم وقدّر، مخالفاً لقواعد الدين ولإجماع المفسرين لا بأوجب وأمر على ما هو مطابق لقواعد الإسلام ولإجماع الرسل والأنبياء عليهم السلام.

ومنهم الشيخ المتبحر البصير والمتتبع الخبير الشيخ علي ابن الشيخ محمد ابن الشيخ حسن ابن الشيخ زين الدين الشهيد الثاني «قد» فقد ألّف رسالة مستقلة في الرد على الصوفية وسماها: **(السهام المارقة من أغراض الزنادقة)**، وقد حكينا عنه في المقام الثالث من كتابه المسمى بـ **(الدر المنثور من المأثور وغير المأثور)** كلاماً مبسوطاً متضمناً لمطاعنهم فليراجع هناك.

ومنهم الشيخ المحدث محمد بن الحسن بن علي بن محمد الحرّ العاملي صاحب كتاب **(وسائل الشيعة)**، فقد ألّف في الرد عليهم رسالة كما صرح به في خاتمة الكتاب المذكور عند تعداد كتبه.

ومنهم السيد الأعظم قدوة أُولي الألباب أبو تراب مرتضى ابن الداعي الحسن الرازي «قد» فقد جمع في بيان مذاهب الصوفية ما يتضمن من مطاعنهم كتاباً بالعجمية وسماه **(تبصرة العوام)**، وآخر بالعربية وسماه **(الفصول التامة في هداية العامة)**.

ومنهم الشيخ نصير الدين علي بن حمزة بن الحسن الطوسي، فقد ألّف كتاب (**إيجاز المطالب في إبراز المذاهب**) وضمنه جملة من مطاعن الصوفية حسبما نقل عنه مولانا المقدس الأردبيلي «قد» في كتاب (**حديقة الشيعة**).

إلى غير ذلك مما صدر من علماء الإسلام من الخاصة والعامة من مطاعن هذه الطائفة تصريحاً وتعريضاً إجمالاً وتفصيلاً، ولنقتصر في المقام بذلك ولنعقبه بما يجب التنبيه عليه دفعاً لبعض تلبيسات هؤلاء، وإبطالاً لتمويهاتهم، فأقول مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه:

تنبيه وهداية

قد رأيت في بعض كتب المتصوفة ممن يدّعي التشيع نسبة التصوف إلى جماعة من علماء الإمامية مثل السيد علي بن طاووس، وابن فهد الحلّي، والشهيد الثاني، والمجلسي الأول بل الثاني أيضاً، وشيخنا البهائي ونظرائهم، وهي فرية بيّنة وبهتان عظيم، وغرضهم من هذا الاختلاق تكثير السواد وإصلاح ما ذهبوا إليه من مذهب الفساد، ولعاً بترويج متاعهم الكاسد، وشغفاً بتلفيق سلعتهم الفاسدة، فإن العادة جارية والطبيعة مائلة إلى أن كل من عمل عملاً حقاً أو باطلاً يطلب له فيه مشاركاً، وكل من سلك سبيلاً برّاً أو فاجراً يشغف بمن كان معه فيه سالكاً، لا سيما إذا كان من أهل البدعة والضلالة يكون سعيه في تحصيل الموافق له أشد وآكد، وفرحه وانبساطه إليها بوجدانه أعظم وأكثر.

وهؤلاء لزيغهم عن قصد السبيل، وشغفهم بكلام بدعة ودعاء ضلالة، وكونهم فتنة لمن افتتن بهم، ضالين عن هدى من كان قبلهم، مضلّين لمن اقتدى بهم في حياتهم وبعد وفاتهم، نسبوا تلك الطريقة الفاسدة إلى أساطين العلماء تفتيناً للهمج الرعاع، وخداعاً للجاهلية الجهلاء، والعوام الذين هم كالأنعام.

وقد علمت تفصيلاً عند نقل كلام الشهيدين والمجلسيين طهارة لوح خواطرهم من هذا الدنس والرّين، وظهر لك هناك أن تلك النسبة إليهم إفك فاحش وبين.

ومنه يعلم أيضاً نزاهة ساحة ابني فهد وطاووس من ذلك الرجس وقد أشار إليه المحدّث العلامة المجلسي «قد» أيضاً في كتاب (**عين الحياة**) حيث قال ما ترجمته:

قد كان بين أهل الحق دائماً عبّاد وزهّاد ثابتة على الصراط المستقيم، مواظبة على سلوك طريق القرب والزلفى والمباحات والعبادة والعبودية، خارجة من سلسلة الصوفية، لم يعدهم أحد منهم مثل سلطان العلماء والمحققين الشيخ صفي الدين، وسيد الأفاضل ابن طاووس، وزبدة المتعبّدين ابن فهد الحلي، والشهيد السعيد الشيخ زين الدين رضوان الله عليهم أجمعين وغيرهم من الزهّاد الذين أخذوا طريقة الرياضة والعبادة والعبودية بقانون

الشريعة المقدسة.

وبعد فراغهم من العلوم الشرعية توجهوا إلى العبادة والرياضة، وهداية الخلق وتدريس العلوم الحقة، ولم يؤثر عن أحد منهم بدعة وضلالة.

ولأجل ذلك لم يعدّ المتصوف الجامي في النفحات أحداً منهم من الصوفية، ولم يدخلهم في زمرتهم مع غاية اشتهارهم وصيتهم شهرة الشمس في رابعة النهار.

وقد أشرق وجه الأرض بأنوارهم وتصانيفهم وآثارهم، وصارت الدنيا معمورة بميامن بركاتهم، وراج دين الإمامية والشيعة الاثني عشرية بمساعيهم الجميلة حتى بذلوا في طريق الشريعة مهجهم الزكية وأنفسهم القدسية.

بخلاف أهل الباطل من الصوفية، فقد بالغوا في تخريب الدين وهدم أساس الشرع المبين، وقد سمعت معارضات السفيان الثوري وعباد البصري وأضرابهما من الصوفية مع أئمة اليقين وتعارضهم دائماً مع علماء الشيعة بعذر من الأئمة عليهم السلام، هدانا الله وإياكم إلى الحق المبين بمحمد وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين، انتهى كلامه رُفع مقامه.

وقد ظهر منه ومما قدمنا نقله عنه من اعتقاداته أن نسبة تلك الطريقة الباطلة إلى هؤلاء العلماء العظام والأساطين الأعيان بيّنة الفساد والبطلان.

وأما الشيخ البهائي فربما عزى إليه القول بالتصوف وطعن عليه بذلك لما يتراءى من بعض كلماته وأشعاره، إلا أن الظاهر أن صدور تلك الكلمات منه مداراةً للخلق، ومنازلة إلى أذواقهم، ومعاشرة معهم.

كما أفاده السيد المحدّث نعمة الله الجزائري حيث قال في ما حكى عنه في **(لؤلؤة البحرين)**: إن الشيخ المذكور كان يعاشر كل فرقة وملّة بمقتضى طريقتهم ودينهم وملّتهم وما هم عليه، حتى أن بعض علماء العامة ادعى أنه منهم[1]، قال السيد: فأظهرت له كتاب **(مفتاح الفلاح)** وكان معي فتعجب من ذلك وذكر جملة من المؤيدات لما ذكره، ثم استدل بقوله قدس سره في قصيدته التي في مدح القائم عليه السلام:

وإني أمرؤ لا يدرك الدهر غايتي	ولا تصل الأيدي إلى سير أغواري
أخالط أبناء الزمان بمقتضى	عقولهم كي لا تفوهوا بإنكاري
وأظهر أني مثلهم يستفزّني	صروف الليالي باختلاء وإمرار

(١) راجع طرائف المقال: ٢/ ٣٩٣.

انتهى.

وقال السيد أيضاً في محكي كلامه في (**روضات الجنات**): كانت كل طائفة من طوائف المسلمين ينسبه إليها، وسمعت الشيخ الفاضل الشيخ عمر من علماء البصرة يقول: إن بهاء الدين محمداً من أهل السنة والجماعة إلا أنه كان يتّقي من سلطان الرافضة، وكذلك الملاحدة والصوفية والعشّاق سمعت كل هؤلاء يقولون: إنه من أهل نحلتنا، ومن هذا كان شيخنا المعاصر ـ يعني به العلامة المجلسي ـ يزدري عليه بهذا وأمثاله، وفيض الله التفريشي لم يوثقه في كتاب (**الرجال**) وإن أثنى عليه في العلم والحفظ وغير ذلك، والحق أنه ثقة معتمد عليه في النقل والفتوى، انتهى.

فقد ظهر بذلك عدم ثبوت تصوّف هذا العالم البارع النحرير، كثبوت عدم تصوّف من تقدم ذكره من العلماء.

وبعد الغضّ عن ذلك وتسليم إتصافهم به وقبول أنهم من الصوفية فأقول:

إن التصوف الذي لهم ليس على حذو ما عليه سائر الصوفية على ما توهمه هؤلاء الجهلة الذين نسبوه إليهم ابتهاجاً بمشاركتهم معهم في المذاق وموافقتهم لهم في المذهب.

وذلك لأن تصوف هؤلاء الأجلّة عبارة عن العمل بالأوامر والنواهي الشرعية، وترك الشبهات والزهد والتقشف والرياضة، والتحلي بالفضائل والتخلي عن الرزائل، وملازمة المروّة والتقوى، والإعراض عن ملاذ الدنيا وإخلاص العبادات ومواظبة التضرع والابتهال والمناجاة، وإقامة الصلوات المكتوبات والتعقيبات المأثورات والأذكار والأدعيات الموظفات في الأوقات المرسومات، والاشتغال بالتعليم والتدريس وتأليف كتب الفقه والأخبار والروايات وسائر العلوم الشرعية.

وتصوّف تلك الجهلة عبارة عن المداومة على العبادات المبتدعة والأذكار المخترعة، ودعوى الكرامات الكاذبة والصلائف الباطلة، وترك أحكام الشريعة وأخذ مراسم الطريقة على زعمهم، والوصول إلى معارج الحقيقة على حسبانهم وإن لم يقع، وادّعاء الكشف والشهود والقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود إلى غير هذه من أطوار الفريقين التي بينهما بعد المشرقين.

نعم، قد وجدت من علماء الشيعة رجلاً واحداً لا ريب في تصوّفه وموافقته للصوفية في أكثر أقوالهم الفاسدة، ولذلك أهبط قدره عن درجة الاعتبار، وأسقط قوله عن نظر علمائنا الأبرار، وهذا الرجل هو محمد بن الحسن بن علي بن أبي جمهور الإحسائي صاحب كتاب (**غوالي اللآلي**).

قال الشيخ يوسف البحراني في (**لؤلؤة البحرين**): والشيخ محمد بن أبي جمهور كان فاضلاً مجتهداً متكلماً له كتاب (**غوالي اللآلي**) جمع فيه جملة من الأحاديث إلا أنه خلط الغث فيه بالسمين وأكثر فيه من أحاديث العامة، ولهذا أن بعض مشايخنا لم يعتمد عليه، وله كتاب (**شرح زاد المسافرين**) وكتاب (**المجلي على مذاق الصوفية**).

وقال المحدّث النيسابوري في (**ترجمته**): متكلم فقيه صوفي له كتب منها كتاب (**المجلي**) جمع فيه بين الكلام والتصوف، ونقل في (**روضات الجنات**) من أواخر كتاب (**وسائل الشيعة**) كون كتابي حديثه وهو كتاب (**غوالي اللآلي ونثر اللآلي**) خارجين عن درجة الاعتماد والاعتبار، مع أن صاحب (**الوسائل**) من جملة مشاهير الإخبارية والإخبارية لا يعتنون بشيء من التصحيحات الاجتهادية والتنويعات الاصطلاحية.

وقال المحدث العلامة المجلسي في (**مقدمات البحار**): كتاب (**غوالي اللآلي**) وإن كان مشهوراً ومؤلفه في الفضل معروفاً لكنه لم يميز القشر من اللباب وأدخل أخبار متعصبي المخالفين في روايات الأصحاب، فلذا اقتصرنا على نقل بعضها، ومثله كتاب (**نثر اللآلي**)، انتهى.

أقول: ومن جملة الأخبار العامية التي رواها في (**الغوالي**) ما رواه عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «صلوا خلف كل برّ وفاجر»، ومن جملة أحاديث الصوفية التي نقلها فيه ما رواه فيه عن النبي صلى الله عليه وآله قيل له: يا رسول الله صلى الله عليه وآله أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ قال: «كان في عماء ما فوقه هواء ولا تحته هواء»[1].

وهذا الحديث من موضوعات الصوفية حسبما أشرنا إليه فيما تقدم، وقد رواه أكثر الصوفية في كتبهم حتى محيي الدين في (**الفصوص**) وأكثر شرّاح الفصوص أيضاً.

ومن جملة ما رواه أيضاً فيه ما نقله عن علي عليه السلام قال: وروى عنه وقد سئل عن معنى التصوف والتصوف مشتق من الصوف وهو ثلاثة أحرف: ص، و، ف، فالصاد صبر وصدق وصفاء، والواو ودّ وورد ووفاء، والفاء فقر وفرد وفناء[2].

وآثار الوضع على هذا الحديث غير خفية كما يعرف ذلك مما ذكرناه في المقام الثاني، فإن بدء ظهور الصوفية واستعمال هذا الإسم فيهم وتسميتهم بها كان في زمان أبي هاشم الكوفي في عصر الصادق عليه السلام ولم يكن في عصر أمير المؤمنين عليه السلام أحد يسمى بهذا الإسم.

---

(١) مسند أحمد: ١٢/٤، وتفسير الطبري: ٧/١٢.

(٢) عوالي اللآلي: ٤/ ١٠٥ ح ١٥٦.

وكم له في كتبه من أخبار الصوفية وأحاديثهم الموضوعة وأقوالهم الرديئة حسبما نقلها عنه أصحابنا في كتبهم إزدراء عليه بذلك.

قال بعض تلامذة العلامة المجلسي في كتابه الذي ألّفه في (**الرد على الصوفية**) في تفصيل خرقة هذه الطائفة ما هذه عبارته:

فمرة قال شيخ شيوخ الصوفي أعني ابن أبي جمهور الإحسائي في كتاب (**مجلى مرآة المنجي**): أن شيخ طائفتهم الشيخ الجنيد لبس الخرقة من يد خاله الشيخ السري السقطي، والسري لبسها من معروف الكرخي، والمعروف الكرخي لبسها من الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

ومرة قال: إن معروف لبس من داود الطائي وأخذ هذه الطريقة منه، وهو من حبيب الأعجمي، وهو من الحسن البصري، وهو من أمير المؤمنين عليه السلام.

وتارة أخرى ذكر أن الإمام أبا علي شقيق البلخي أخذها عن الإمام أبي عمرو موسى بن زهد الفراعي عن أويس القرني «ره» عن أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وكتب في الحاشية: أن سلسلتهم تنتهي إلى ذي النون المصري، وشيخ ذو النون كان من تلامذة مولانا وسيدنا الحسن الأخير العسكري عليه وعلى ابنه الحجّة وآبائه السلام، انتهى.

أقول: فانظروا إلى هذا الإحسائي الشيعي باعتقاده كيف هبت به ريح الهوى إلى قبّة هذه الفئة، فضلّ وجار عن قصد السبيل، وقال غير الجميل، وسار بغير دليل، وتاه متاه بني إسرائيل، ولم يفهم مضادة الحسن البصري السامري مع أئمتنا لا سيما مولانا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، ولم يعلم أن هذه الاختلافات في الروايات العامية الملاحدة من أعظم القوارح فيها كيف ولم يذكر ما دونه هذا الرجل في كتابه شيخ الطائفة المحقة فمن دونه، ولو كان له أصل لذكروه وليس فليس إلى أن قال:

نعم ذكر الجامي في ترجمة الشيخ محيي الدين المغربي من كتاب (**النفحات**) أن نسبة خرقته في التصوف تصل إلى الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني بواسطة واحدة.

وبالجملة للجامي في الكتاب المذكور، والسهروردي في كتاب (**العوارف**) وهبة الله الأصفهاني في كتاب (**الخمسين**)، وشمس الدين محمد بن محمد بن الجزري الشافعي في (**خاتمة عواليه**)، وغيرهم من علماء العامة المتصوفة هذيان طويل في أمر الخرقة وأحكامها.

والفاضل الإحسائي سرقه منها وأسرف في تزيينه وتشهيره ولا جناح عليهم في هذا

الإجماع منهم، فإن من الأمثال المشتهرة: عند الخنازير تنفق العذرة.

قال: ذكر السيد نظام أحمد في **(خاتمة أربعينه)** عند ذكر الأسانيد التي كانت له في **(المصافحة والمصاحبة ولبس الخرقة)** ما هذه عبارته:

لبس الشيخ حاتم الأصم من الشيخ شقيق البلخي، وهو من الشيخ إبراهيم بن أدهم، وهو من موسى بن يزيد الراعي، وهو من مقدم التابعين أويس القرني، وهو من أمير المؤمنين أبي حفص عمر وأبي الحسن رضي الله عنهما، وهما من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقال في موضع آخر منه: قال الشيخ العارف الرباني أبو بكر الهوارا: رأيت النبي صلى الله عليه وآله في المنام وطلبت لبس الخرقة منه، فأشار صلوات الله وسلامه عليه إلى أبي بكر الصديق، فألبسنيها.

وفي موضع آخر منه قال شيخ الإسلام أبو البيان الدمشقي القرشي الشافعي: لبستها من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الخضر المعمّر عليه السلام وذلك في اليقظة التي لا شك فيها ولا ريب عند أهل الإيمان بالغيب.

قال: أقول: ولكن ليس هذا بأعجب من سائر ما تقوله في ذلك الكتاب لا شك ولا ارتياب، مثل أنه كتب في مبحث السلوك منه أنه قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن لله تعالى شراباً لذيذاً إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم، انتهى[1].

قال: أقول: جاء هذا الخبر من طريقنا معاشر الشيعة الإمامية الموحدة هكذا وفي **(شرح مختصر العضدي)** للحاجبي: قال علي عليه السلام: إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، فأرى عليه[2] حدّ المفتري، انتهى[3].

ومما يضحك منه العبوس القمطرير أن الطبيب الجيلاني المدعو بالمؤمن ذكر في رسالة **(الملعونة)** أن هذا الحديث مذكور في كتاب **(صحيفة الرضا عليه السلام)** وكتب في مبحث الكشف منه أنه نقل أنه صلى الله عليه وآله قال: رأيت ربي ليلة المعراج في أحسن صورة فوضع يده بين كتفي

---

(١) راجع التحفة السنية (مخطوط): ٨٦، وشرح الأسماء الحسنى: ١/١٩٨.

(٢) في المصادر: فاجلدوه.

(٣) راجع الكافي: ٧/ ٢١٥، والتهذيب: ١٠/ ٩٠، والبحار: ٤٠/ ١٩٢.

فوجدت بردها بين ثديي فعلمت علوم الأولين والآخرين، انتهى كلامه رُفع مقامه[1].

وقد أطنبت بنقله تنبيهاً لك على اعتماد الإحسائي على أحاديث المخالفين وركونه إلى أخبار الناصبين، وليته قنع بذلك ولم يسع في تخريب قواعد الدين حيث انحرف عن مناهج المتشرعين، وولع بترويج طريقة المتصوفين، وتشهير مزخرفات المبتدعين جزاه الله ما يستحقه يوم حشر الأولين والآخرين.

(١) أنظر عوالي اللئالي: ١/ ٥٢.

محتوى الجزء الثالث عشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

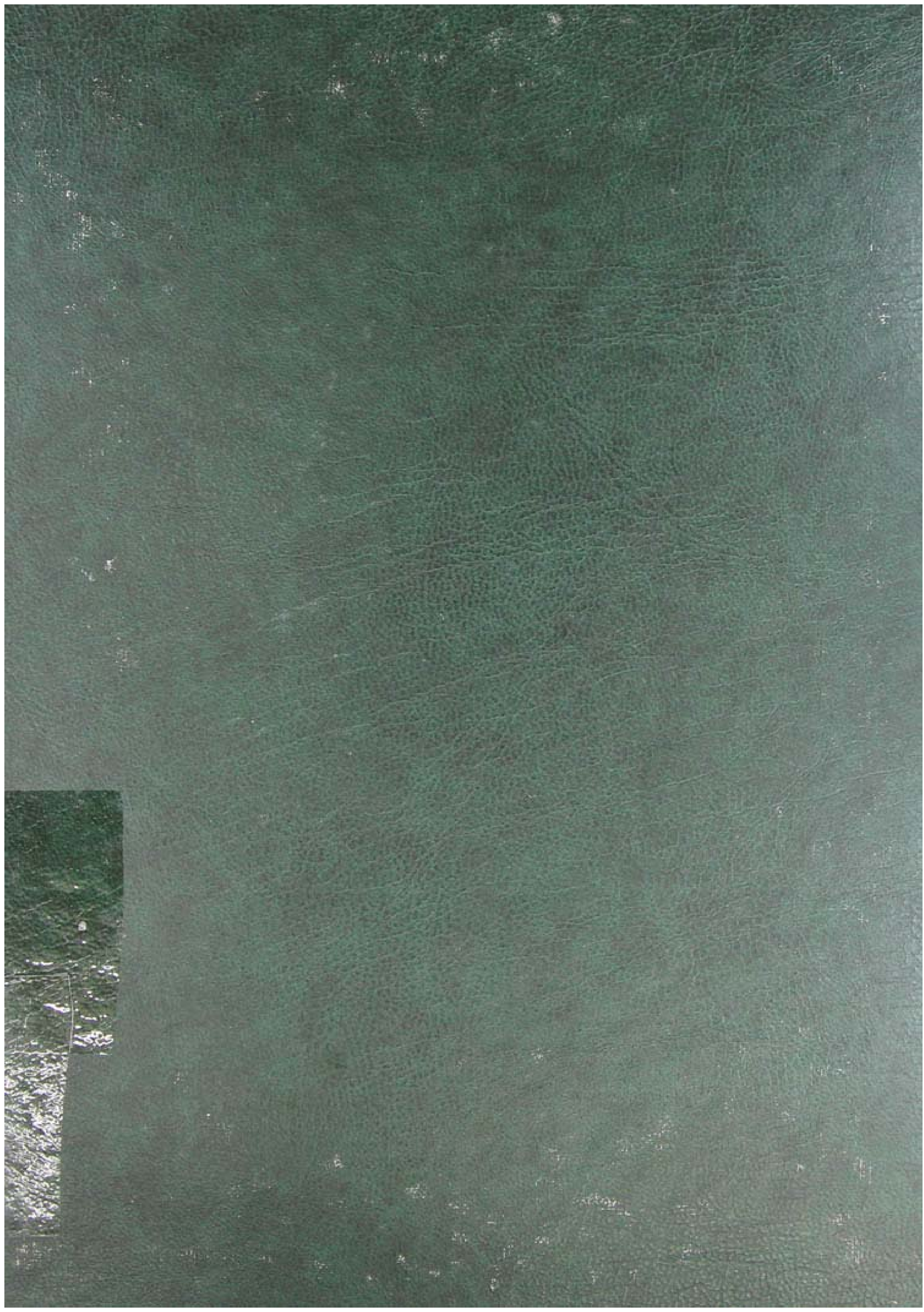

مِنهاجُ البَراعَة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعة

شَرح

نَهجُ البَلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الرابع عشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقام الثامن في الأخبار الواردة في ذم الصوفية

ولعنهم وطعنهم، وفي المنع من التصوف والرهبانية، وهي كثيرة لا تحصى، ولنشير إلى بعضها فأقول وبالله التوفيق:

الأول: ما رواه علي بن إبراهيم في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]، قال: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: نزلت هذه الآية في أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأما أمير المؤمنين عليه السلام فحلف أن لا ينام بالليل أبداً، وأما بلال فإنه حلف أن لا يفطر بالنهار أبداً، وأما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبداً، فدخلت امرأة عثمان على عائشة وكانت امرأة جميلة، فقالت عائشة: ما لي أراك متعطلة؟ فقالت: ولمن أزيّن فوالله ما قربني زوجي منذ كذا وكذا فإنه قد ترهّب ولبس المسوح وزهد في الدنيا، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرته عائشة بذلك، فخرج فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يحرّمون على أنفسهم الطيبات ألا إني أنام الليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنّتي فليس مني»[1]، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله قد حلفنا على ذلك، فأنزل الله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

الثاني: في (**البحار**) من (**إكمال الدين**) بإسناده عن زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس في أمتي رهبانية ولا سياحة ولا زمّ» يعني سكوت[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ١١٦ ح ٤، والتفسير الصافي: ٢/ ٨٠.

(٢) الخصال: ١٣٨، ووسائل الشيعة: ٨/ ٢٤٩ ح ٤.

الثالث: في (**البحار**) بعدة طرق عن النبي ﷺ في جملة وصاياه لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذر يكون في آخر الزمان قوم يلبسون الصوف في صيفهم وشتائهم، يرون أن لهم الفضل بذلك على غيرهم، أولئك يلعنهم ملائكة السماوات والأرض»[١].

الرابع: في (**روضات الجنان**) من الكشكول للشيخ البهائي قال: قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة على أمتي حتى يخرج قوم من أمتي يحلقون للذّكر رؤوسهم، ويرفعون أصواتهم بالذّكر يظنون أنهم على طريق إبراهيم عليه السلام، بل هم أضلّ من الكفار، لهم شهقة كشهقة الحمار، وقولهم كقول الفجار، وعملهم عمل الجهال، وهم ينازعون العلماء ليس لهم إيمان، وهم معجبون بأعمالهم ليس لهم من عملهم إلا التعب».

الخامس: ما تقدم روايته في المتن في الكلام السابع عشر من المختار في باب الخطب قال أمير المؤمنين عليه السلام هناك: إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكّله الله إلى نفسه جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هدى من كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمّال خطايا غيره، رهن بخطيئته[٢].

ورواه الكليني في باب البدع والرأي والمقاييس من (**الكافي**) نحوه، وقال شارح الكافي ملاّ خليل القزويني: إن مراده عليه السلام بهذا الرجل هو الصوفي الغير متقيد بقيود الشريعة، لا خفاء في أن الصوفية من مصاديق هذا الكلام لاتصافهم بالأوصاف المذكورة فيه.

السادس: في كتاب (**الاحتجاج**) عن أبي يحيى الواسطي قال: لما فتح أمير المؤمنين عليه السلام البصرة اجتمع الناس عليه وفيهم الحسن البصري ومعه الألواح، فكان كلما لفظ أمير المؤمنين بكلمة كتبها، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام بأعلى صوته: ما تصنع؟ فقال: نكتب آثارهم لنحدّث بها بعدكم، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أما أن لكل قوم سامرياً وهذا سامريّ هذه الأمة، أما أنه لا يقول: لا مساس ولكنه يقول: لا قتال[٣]، والحسن البصري من مقدّم مشايخ الصوفية كما ذكروه في كتبهم.

السابع: في (**البحار**) في باب احتجاجات الحسن عليه السلام على المخالفين من كتاب (**العدد**) للشيخ الفقيه رضي الدين علي بن يوسف بن المطهر الحلي قال:

(١) وسائل الشيعة: ٥/٣٥ ح ٥٨٢٨، وميزان الحكمة: ٣/٦٥٨ ح ٣ـ٦.
(٢) الكافي: ١/٥٥، ووسائل الشيعة: ١٨/٢٤.
(٣) بحار الأنوار: ٤٢/١٤٢، ومكاتيب الرسول: ١/٤٥٣ ح ١٠.

كتب الحسن البصري إلى الحسن بن علي عليه السلام: أما بعد، فأنتم أهل بيت النبوة ومعدن الحكمة، وإن الله جعلكم الفلك الجارية في اللجج الغامرة يلجأ إليكم اللاجىء ويعتصم بحبلكم العالي، من اقتدى بحبلكم اهتدى ونجى، ومن تخلّف عنكم هلك وغوى، وإني كتبت إليك عند الحيرة واختلاف الأمة في القدر، فتقضي إلينا ما أقضاه الله إليكم أهل البيت فنأخذ به.

فكتب إليه الحسن بن علي عليه السلام: أما بعد، فإنّا أهل بيت كما ذكرت عند الله وعند أوليائه فأما عندك وعند أصحابك فلو كنا كما ذكرت ما تقدمتمونا ولا استبدلتم بنا غيرنا، ولعمري لقد ضرب الله مثلكم في كتابه حيث يقول: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] هذا لأوليائك فيما سألوا ولكم فيما استبدلتم، ولولا ما أُريد من الاحتجاج عليك وعلى أصحابك ما كتبت إليك بشيء مما نحن عليه، ولئن وصل كتابي إليك لتجدن الحجة عليك وعلى أصحابك مؤكدة حيث يقول الله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] فاتّبع ما كتب إليك في القدر فإنه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر، ومن حمل المعاصي على الله فقد فجر.

إن الله عز وجل لا يطاع بإكراه، ولا يعصى بغلبة، ولا يهمل العباد من الملكة، ولكنه المالك لما أملكهم، والقادر على ما أقدرهم، فإن ائتمروا بالطاعة لن يكونوا صادّاً مثبطاً، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ما ائتمروا به فعل، وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها ولا كلّفهم إياها جبراً، بل تمكينه إياهم وإعذاره إليهم طرفهم ومكنهم، فجعل لهم السبيل إلى أخذها ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، ووضع التكليف عن أهل النقصان والزمانة، والسلام(١).

وهذا الحديث الشريف وإن كان صدره مختصاً بالطعن على الحسن البصري وأتباعه إلا أنه بتمامه متضمن للرد على جميع الصوفية في قولهم بالجبر، وعلى الواصلية والإباحية خصوصاً حيث قالوا بسقوط التكاليف عند الوصول حسبما عرفت فيما تقدم تفصيلاً.

الثامن: في الاحتجاج روي أن زين العابدين عليه السلام مرّ بالحسن البصري وهو يعظ الناس بمنى فوقف عليه ثم قال له: امسك أسألك عن الحال التي أنت عليها مقيم أترضاها لنفسك فيما بينك وبين الله للموت إذا نزل بك غداً؟ قال: لا، قال: أفتحدّث نفسك بالتحوّل والانتقال عن الحال التي لا ترضاها لنفسك إلى الحال التي ترضاها؟ قال: فأطرق ملياً ثم قال: إني أقول ذلك بلا حقيقة، قال: أفترجو نبياً بعد محمد صلى الله عليه وآله يكون لك معه سابقة؟ قال:

(١) بحار الأنوار: ١٠/ ١٣٧، والعدد القوية: ٣٤.

لا، قال: أفترجو داراً غير الدار التي أنت فيها فتردّ إليها فتعمل فيها؟ قال: لا، قال: أفرأيت أحداً به مسكة عقل رضي لنفسه من نفسه بهذا أنك على حال لا ترضاها ولا تحدّث نفسك بالانتقال إلى حال ترضاها على حقيقة ولا ترجو نبياً بعد محمد ﷺ ولا داراً غير الدار التي أنت فيها فتردّ إليها فتعمل فيها وأنت تعظ الناس؟ قال: فلما ولّيّ عليه السلام قال الحسن البصري: من هذا؟ قالوا: علي بن الحسين عليهما السلام، قال: أهل بيت علم، فما رأي الحسن بعد ذلك يعظ الناس[1].

وهذا الحديث مثل سابقيه كافٍ في الدلالة على سوء حال الحسن البصري وكونه من حزب الشيطان، ومع ذلك عدّه العطار في **(التذكرة)** في الدرجة الثالثة ونقلوا عنه كرامات عديدة.

التاسع: في الاحتجاج لقي عباد البصري علي بن الحسين عليهما السلام في طريق مكة فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينه وإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ - إلى قوله -: وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١-١١٢]؟ فقال علي بن الحسين عليهما السلام: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ[2].

العاشر: في الاحتجاج عن ثابت البناني قال: كنت وجماعة عباد البصرة مثل أيوب السجستاني وصالح المروي وعتبة الغلام وحبيب الفارسي ومالك بن دينار، فلما أن دخلنا مكة رأينا الماء ضيقاً وقد اشتد بالناس العطش لقلة الغيث، ففزع إلينا أهل مكة والحجاج يسألوننا أن نستسقي لهم، فأتينا الكعبة وطفنا بها ثم سألنا الله خاضعين متضرعين بها فمنعنا الإجابة، فبينا نحن كذلك إذا نحن بفتى قد أقبل قد أكربته أحزانه وأقلقته أشجانه، فطاف بالكعبة أشواطاً ثم أقبل علينا فقال: يا مالك بن دينار ويا ثابت البناني ويا أيوب السجستاني ويا صالح المروي ويا عتبة الغلام ويا حبيب الفارسي ويا سعد ويا عمر ويا صالح الأعمى ويا رابعة ويا سعدانة ويا جعفر بن سلمان، فقلنا: لبيك وسعديك يا فتى، فقال: أما فيكم أحد يحبه الرحمٰن؟ فقلنا: يا فتى علينا الدعاء وعليه الإجابة، فقال: ابعدوا عن الكعبة فلو كان فيكم أحد يحبه الرحمٰن لأجابه، ثم أتى الكعبة فخرّ ساجداً فسمعته يقول في سجوده: سيدي بحبك لي إلا سقيتهم الغيث، قال: فما استتمّ الكلام حتى أتاهم الغيث كأفواه القرب، فقلت: يا فتى من أين علمت أنه يحبك؟ فقال عليه السلام: لو لم يحبني لم يستزرني فلما استزارني علمت أنه يحبني، فسألته بحبه

---

(١) بحار الأنوار: ١٠/١٤٦ ح ٢، والاحتجاج: ٢/٤٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/٢١٩ ح ٢٢٠، والكافي: ٥/٢٢ ح ١.

لي فأجابني ثم ولّى عنا وأنشأ يقول:

من عرف الربّ فلم تغنه	معرفة الرب فهذا شقي
ما ضرّ في الطاعة ما ناله	في طاعة الله وماذا لقي
ما يصنع العبد بعزّ الغنى	والعزّ كل العزّ للمتّقي

فقلت: يا أهل مكة من هذا الفتى؟ قالوا: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام[1].

أقول: وهؤلاء المذكورون في هذا الحديث جلهم من الصوفية، وكذا عبّاد البصري المذكور في الحديث السابق كما يظهر من كتب الصوفية وتذكراتهم.

الحادي عشر: في **(الكافي)** في باب من يظهر الغشية عند القرآن، عدّة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن يعقوب بن إسحاق الضبي عن أبي عمران الأرمني عن عبد الله بن الحكم عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: إن قوماً إذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حدّثوا به صعق أحدهم حتى نرى أن أحدهم لو قطعت يداه أو رجلاه لم يشعر بذلك، فقال: سبحان الله ذاك من الشيطان ما بهذا نعتوا إنما هو اللين والرقة والدمعة والوجل[2].

أقول: وهذه الحالة التي نقلها جابر للباقر عليه السلام هي حالة الصوفية في مجالس ذكرهم ويسمونها بالوجد والجذبة.

الثاني عشر: في **(حديقة الشيعة)** بسند صحيح عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي قال: قال رجل من أصحابنا للصادق جعفر بن محمد عليه السلام: قد ظهر في هذا الزمان قوم يقال لهم الصوفية فما تقول فيهم؟ فقال عليه السلام: إنهم أعداؤنا فمن مال إليهم فهو منهم ويحشر معهم، وسيكون أقوام يدّعون حبنا ويميلون إليهم ويتشبّهون بهم ويلقبون أنفسهم بلقبهم ويؤوّلون أقوالهم ألا فمن مال إليهم فليس منا وإنا منهم براء، ومن ردّهم وأنكر عليهم كان كمن جاهد الكفار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله[3].

ورواه المحدّث الجزائري في **(الأنوار النعمانية)** عن البزنطي عنه عليه السلام أيضاً.

الثالث عشر: في **(حديقة الشيعة)** عن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي في قرب الإسناد عن سعد بن عبد الله عن محمد بن عبد الجبار عن الحسن العسكري قال: سئل

(١) الصحيفة السجادية: ١٠٩، ومستدرك الوسائل: ٦/ ٢٠٩ ح ٦٧٥٧.

(٢) التحفة السنية: ١٥٠، والكافي: ٢/ ٦١٧.

(٣) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٣٢٣ ح ١٤٢٠٥.

أبو عبد الله عليه السلام عن حال أبي هاشم الصوفي الكوفي فقال عليه السلام: إنه كان فاسد العقيدة جداً وهو الذي ابتدع مذهباً يقال له التصوف وجعله مفرّاً لعقيدته الخبيثة[١].

وفي رواية بسند آخر قال عليه السلام: وجعله مفراً لعقيدته الخبيثة لنفسه وأكثر الملاحدة، وجنة لعقائدهم الباطلة.

الرابع عشر: في (**كشف الغمة**) روى محمد بن طلحة عن سفيان الثوري قال: دخلت على جعفر بن محمد عليه السلام وعليه جبّة خزّ دكناء وكساء خزّ فجعلت أنظر إليه تعجباً، فقال لي: يا ثوري مالك تنظر إلينا لعلك تعجب مما ترى؟ فقلت: يا ابن رسول الله فليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك، قال: يا ثوري كان ذلك زمان إقتار وافتقار، وكانوا يعملون على قدر إقتاره وافتقاره، وهذا زمان قد أسبل كل شيء عز إليه، ثم حسر ردن جبّته فإذا تحتها جبّة صوف بيضاء، يقصر الذيل عن الذيل والردن عن الردن، وقال: يا ثوري لبسنا هذا لله وهذا لكم، فما كان لله أخفيناه وما كان لكم أبديناه[٢].

الخامس عشر: في (**الكافي**) في كتاب (**المعيشة**) باب دخول الصوفية على أبي عبد الله عليه السلام واحتجاجهم عليه فيما ينهون الناس عنه من طلب الرزق.

علي بن إبراهيم عن أبيه عن مسعدة بن صدقة قال: دخل سفيان الثوري على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياب بياض كأنها غرقىء[٣] البيض فقال له: إن هذا اللباس ليس من لباسك، فقال عليه السلام: اسمع مني وعِ ما أقول لك فإنه خير لك عاجلاً وآجلاً إن أنت متّ على السنّة والحق ولم تمت على بدعة، أُخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جدب، فأما إذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها، فما أنكرت يا ثوري فوالله إنني لمع ما ترى ما أتى عليّ مذ عقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حق أمرني أن أضعه موضعاً إلا وضعته.

قال: وأتاه قوم ممن يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف فقالوا له: إن صاحبنا حصر عن كلامك ولم تحضره حججه، فقال لهم: فهاتوا حججكم، فقالوا له: إن حججنا من كتاب الله، فقال لهم: فادلوا بها فإنها أحق ما اتّبع وعمل به، فقالوا: يقول الله تبارك وتعالى مخبراً عن قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فمدح فعلهم وقال في موضع آخر: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

---

(١) خاتمة المستدرك: ٢/ ٩٢. (٢) بحار الأنوار: ٤٧/ ٢٢١ ح ٧، وتهذيب الأحكام ٥/ ٨٦.

(٣) الغرقئ: قشر البيض الخفيف تحت القشر الصلب توصف به الثياب الرقيقة البيضاء الناعمة (لسان العرب ١/ ١١٩).

[الإنسان: ٨]، ونحن نكتفي بهذا، فقال رجل من الجلساء: إنا رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيبة ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتى تمتعوا أنتم منها، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: دعوا عنكم ما لا ينتفع به أخبروني أيها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضلّ وهلك من هلك من هذه الأمة؟ فقالوا له أو بعضه: فأما كله فلا، فقال لهم: فمن هنا أتيتم، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ، فأما ما ذكرتم من إخبار الله عز وجل إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله عز وجل، وذلك أن الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره ناسخاً لفعلهم وكان نهي الله تعالى رحمة منه للمؤمنين ونظراً لكيلا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضعفة الصغار والولدان والشيخ الفاني والعجوزة الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً.

فمن ثم قال رسول الله ﷺ: «خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على قرابته الفقراء، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله وهو أحسنها[1] أجراً»[2].

وقال ﷺ للأنصاري حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: «لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنوه مع المسلمين يترك صبية صغاراً يتكففون الناس».

ثم قال عليه السلام: حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال: «ابدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى».

ثم هذا ما نطق به الكتاب ردّاً لقولكم ونهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧] أفلا ترون أن الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثرة على أنفسهم وسمى من فعل ما تدعون إليه مسرفاً في غير آية من كتاب الله يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير لكن أمر بين أمرين لا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له.

للحديث الذي جاء عن النبي ﷺ: «إن أصنافاً من أمتي لا يستجاب لهم دعاؤهم:

---

(١) في رواية: «أخسها».

(٢) الكافي: ٥/٦٦، وتحف العقول: ٣٥٠.

رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب له ولم يشهد عليه، ورجل يدعو على امرأته وقد جعل الله تخلية سبيلها بيده، ورجل يقعد في بيته ويقول رب ارزقني ولا يخرج ولا يطلب الرزق فيقول الله عز وجل له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري ولكيلا تكون كلاً على أهلك فإن شئت رزقتك وإن شئت قترت عليك وأنت معذور عندي، ورجل رزقه الله عز وجل مالاً كثيراً فأنفقه ثم أقبل يدعو: يا رب ارزقني، فيقول الله عز وجل: ألم أرزقك رزقاً واسعاً فهلا اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيتك عن الإسراف، ورجل يدعو في قطيعة رحم».

ثم علّم الله جل اسمه نبيه ﷺ كيف ينفق، وذلك أنه كان عنده أوقية من الذهب فكره أن يبيت عنده فتصدّق بها فأصبح وليس عنده شيء وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل واغتم هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان ﷺ رحيماً رقيقاً فأدّب الله عز وجل النبي ﷺ بأمره فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩] يقول: إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال.

فهذه أحاديث رسول الله ﷺ يصدقها الكتاب والكتاب يصدقه أهله من المؤمنين.

وقال أبو بكر عند موته حيث قيل له: أوصِ، فقال: أوصي بالخمس والخمس كثير، فإن الله عز وجل قد رضي بالخمس، وقد جعل الله عز وجل له الثلث عند موته ولو علم أن الثلث خير له أوصى به.

ثم قد علمتم من بعده في فضله وزهده سلمان رضي الله عنه وأبو ذر رحمه الله.

فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتى يحضر عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً، فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليّ الفناء؟ أما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت.

وأما أبو ذر رضي الله عنه فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم أو نزل به ضيف أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشاة على قدر ما يذهب عنهم بقرم اللحم، فيقسمه بينهم ويأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضل عليهم.

ومن أزهد من هؤلاء؟ وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم.

واعلموا أيها النفر أني سمعت أبي يروي عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ قال يوماً: ما عجبت من شيء كعجبي من المؤمن إنه إن قرض جسده في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له، وكل ما يصنع الله عز وجل به فهو خير له.

فليت شعري هل يحق فيكم ما قد شرحت لكم منذ اليوم أم أزيدكم أما علمتم أن الله عز وجل قد فرض على المؤمنين في أول الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم، ومن ولاّهم يومئذ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار، ثم حوّلهم من حالهم رحمة منه لهم فصار الرجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عز وجل للمؤمنين، فنسخ الرجلان العشرة.

وأخبروني أيضاً عن القضاة أجورة حيث هم يقضون على الرجل منكم نفقة امرأته إذا قال إني زاهد إني لا شيء لي، فإن قلتم جورة ظلمكم أهل الإسلام وإن قلتم: بل عدول خصمتم أنفسكم، وحيث تردّون صدقة من تصدّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث.

أخبروني لو كان الناس كلهم كالذين تريدون زهاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم فعلى من كان يصدق بكفارات الإيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة من الذهب والفضة والتمر والزبيب وسائر ما وجب فيه الزكاة من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك إذا كان الأمر كما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلا قدّمه وإن كان به خصاصة فبئس ما ذهبتم فيه وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله عز وجل وسنّة نبيه ﷺ وأحاديثه التي يصدقها الكتاب المنزل وردّكم إياها بجهالتكم وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي.

وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام؟ حيث سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه عز وجل اسمه ذلك وكان يقول الحق ويعمل به ثم لم نجد الله عز وجل عاب عليه ذلك ولا أحداً من المؤمنين وداود النبي ﷺ قبله في ملكه وشدّة سلطانه.

ثم يوسف النبي ﷺ حيث قال لملك مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن، وكانوا

يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل به فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه.

ثم ذو القرنين عليه السلام عبد أحب الله فأحبه الله وطوى له الأسباب وملّكه مشارق الأرض ومغاربها وكان يقول الحق ويعمل به ثم لم نجد أحداً عاب ذلك عليه.

فتأدّبوا أيها النفر بآداب الله عز وجل للمؤمنين، اقتصروا على أمر الله ونهيه ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به، وردّوا العلم إلى أهله تؤجروا وتعذروا عند الله تبارك وتعالى، وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه وما أحلّ الله فيه مما حرّم فإنه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل، ودعوا الجهالة لأهلها فإن أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦][١].

السادس عشر: في **(الكافي)** في كتاب الحجة في باب ما أمر النبي صلى الله عليه وآله بالنصيحة لأئمة المسلمين.

محمد بن الحسن عن بعض أصحابنا عن علي بن الحكم عن الحكم بن مسكين عن رجل من قريش من أهل مكة قال: قال سفيان الثوري: اذهب بنا إلى جعفر بن محمد عليهما السلام قال: فذهبت معه إليه فوجدناه قد ركب دابّته فقال له سفيان: يا أبا عبد الله حدثنا بحديث خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الخيف، قال عليه السلام: دعني حتى أذهب في حاجتي فإني قد ركبت فإذا جئت حدثتك، فقال: أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله لما حدثتني، قال: فنزل، فقال سفيان: من لي بدواة وقرطاس حتى أثبته فدعى عليه السلام به ثم قال: اكتب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الخيف نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلّغها من لم تبلغه يا أيها الناس ليبلغ الشاهد الغائب فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون أخوة تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم.

فكتبه سفيان ثم عرضه عليه وركب أبو عبد الله عليه السلام وجئت أنا وسفيان، فلما كنا في بعض الطريق فقال لي: كما أنت حتى أنظر في هذا الحديث، فقلت له: قد والله ألزم أبو عبد الله عليه السلام رقبتك شيئاً لا يذهب من رقبتك أبداً، فقال: وأيّ شيء ذلك؟ فقلت: ثلاث لا يغلّ

(١) بطوله في بحار الأنوار: ٤٧/٢٣٧، والكافي: ٥/٦٩.

عليهن قلب امرىء مسلم: إخلاص العمل لله قد عرفناه والنصيحة لأئمة المسلمين من هؤلاء الأئمة الذين يجب علينا نصيحتهم معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وكل من لا تجوز شهادته عندنا ولا تجوز الصلاة خلفهم، وقوله: واللزوم لجماعتهم فأي الجماعة مرجىء؟ يقول: من لم يصلّ ولم يصم ولم يغتسل من جنابة وهدم الكعبة ونكح أمه فهو على إيمان جبريل وميكائيل، أو قدريّ يقول: لا يكون ما شاء الله عز وجل ويكون ما شاء إبليس، أو حروريّ يبرأ من علي بن أبي طالب عليه السلام ويشهد عليه بالكفر، أو جهميّ يقول: إنما هي معرفة الله وحده ليس الإيمان شيء غيرها، قال: ويحك فأي شيء يقولون؟ فقلت: يقولون: إن علي بن أبي طالب وآله الإمام الذي يجب علينا نصيحته ولزوم جماعتهم أهل بيته، قال: فأخذ الكتاب وخرقه ثم قال: لا تخبر بها أحداً[١].

السابع عشر: المحدّث الجزائري في **(الأنوار النعمانية)**:

في الحديث إن الصوفية لما دخلوا على الصادق عليه السلام وسفيان الثوري لابس الصوف الخشن والصادق عليه السلام لابس الثياب الرقاق فقال له سفيان: إن جدك أمير المؤمنين عليه السلام كان يلبس ما خشن من الثياب فلم لا تقتدي به؟ فقال له الصادق عليه السلام: إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان في زمان الضيق ولم تسع الدنيا على المسلمين كاتساعها في هذا الوقت، ونحن قوم إذا وسّع الله علينا وسّعنا على أنفسنا، وإذا ضيّق الله علينا ضيّقنا على أنفسنا وإن الله تعالى إنما خلق الدنيا وما فيها من الملاذ للمؤمن لا للكافر لأنه لا قدر له عنده ولو كان علي عليه السلام في هذا العصر لما وسعه إلا أن يسلك مثل ما سلك أهله لئلا يقال له: إنه مراء ولئلا يشتهر بثيابه ومأكله، مع أن أمير المؤمنين عليه السلام كان والياً وينبغي لوالي المسلمين أن يكون في المعاش كواحد من فقراء المسلمين، وقد قيل له: يا أمير المؤمنين إنك تبيت جائعاً ولك الملك؟ فقال عليه السلام: أخاف أن أشبع وواحد في اليمامة يبيت جائعاً وحتى يسهل الفقر على أهله إذا نظروا إلى الوالي مع ما هو عليه، وأما أنا فلست بوالي والملك قد غصب منا، فلو كنت والياً لاقتديت به.

ثم قال عليه السلام لسفيان الثوري: أدن مني، فدنا منه، فمد يده إلى تحت ثياب سفيان فأخرج ثوباً حريراً كان سفيان لابسه تحت ثياب الصوف لرفاهية بدنه والثياب الصوف فوقه لخدع الناس، ثم أخذ يد سفيان فقال: انظر يا سفيان ما تحت ثيابي هذه الرقاق، فنظر فإذا هو عليه السلام لابس ثوباً خشناً، فقال: يا سفيان، هذا تواضعاً لله تعالى وهذه الثياب الرقاق إظهار النعمة لله تعالى[٢].

---

(١) الكافي: ١/ ٤٠٤، وشرح أصول الكافي: ٧/ ١٨.

(٢) العمدة: ١٥١، ومناقب أهل البيت: ١٣٩.

الثامن عشر: في **(البحار)** عن كتاب المسائل لعلي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألت أخي موسى عليه السلام عن الرجل المسلم هل يصلح أن يسيح في الأرض أو يترهب في بيت لا يخرج منه؟ قال عليه الصلاة والسلام: لا[١].

التاسع عشر: في **(البحار)** من **(الدرة الباهرة)** قال له «أي للرضا» عليه السلام: إن المأمون وقد ردّ هذا الأمر إليك وأنت أحق الناس به إلا أنه تحتاج أن يتقدم منك تقدمك إلى لبس الصوف وما يحسن لبسه، فقال عليه السلام: ويحكم إنما يراد من الإمام قسطه وعدله إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، إن يوسف عليه السلام لبس الديباج المنسوج بالذهب وجلس على متكئات آل فرعون[٢].

وقد مر هذا الحديث برواية الشارح المعتزلي في شرح المتن بأبسط من ذلك فليراجع هناك.

العشرون: في **(حديقة الشيعة)** عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي وإسماعيل بن بزيع عن الرضا عليه السلام قال: من ذكر عنده الصوفية ولم ينكرهم بلسانه وقلبه فليس منا، ومن أنكرهم فكأنما جاهد الكفار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله.

ورواه أيضاً المحدث الجزائري في **(الأنوار النعمانية)** عن البزنطي عن الرضا عليه السلام مثله.

الحادي والعشرون: في **(حديقة الشيعة)** عن السيد المرتضى ابن الداعي الحسن الرازي وابن حمزة جميعاً عن **(المفيد)** بسنده عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب وكان من خواص أصحاب الأئمة عليهم السلام.

قال: كنت مع الهادي علي بن محمد عليه السلام في مسجد النبي صلى الله عليه وآله، فأتاه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفري، وكان رجلاً بليغاً وكانت له منزلة عظيمة عنده عليه السلام، ثم دخل المسجد جماعة من الصوفية وجلسوا في جانبه مستديراً وأخذوا بالتهليل.

فقال عليه السلام: لا تلتفتوا بهؤلاء الخدّاعين فإنهم خلفاء الشياطين ومخرّبو قواعد الدين، يتزهدون لراحة الأجسام ويتهجدون لتصييد الأنعام، يتجوّعون عمراً حتى يذبحوا للإيكاف حمراً، لا يهللون إلا لغرور الناس ولا يقللون الغذاء إلا الملاء العساس، واختلاس قلب الدقناس يتكلمون الناس بإملائهم في الحب، ويطرحونهم بأزاليلهم[٣] في الجبّ،

---

(١) جواهر الكلام: ١٨/١٤٧، ومسائل علي بن جعفر: ١١٦ ح ٥٠.
(٢) بحار الأنوار: ١٠/٣٥١ ح ١١، ومسند الإمام الرضا: ١/٣٠٤.
(٣) بأوليائهم.

أورادهم الرقص والتصدية، وأذكارهم الترنم والتغنية؛ فلا يتبعهم إلا السفهاء ولا يعتقدهم إلا الحمقاء، فمن ذهب إلى زيارة أحد منهم حياً أو ميتاً فكأنما ذهب إلى زيارة الشيطان، وعبادة الأوثان، ومن أعان أحداً منهم فكأنما أعان يزيد ومعاوية وأبا سفيان.

فقال رجل من أصحابه: وإن كان معترفاً بحقوقكم؟

قال: فنظر إليه شبه المغضب وقال عليه السلام: دع ذا عنك، من اعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا، أما تدري أنهم أخسّ طوائف الصوفية، والصوفية كلهم من مخالفينا، وطريقتهم مغايرة لطريقتنا، وإن هم إلا نصارى ومجوس هذه الأمة، أولئك الذين يجحدون[١] في إطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون[٢].

ورواه المحدث الجزائري أيضاً في **(الأنوار)** من كتاب قرب الإسناد مسنداً عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب مثله.

الثاني والعشرون: في **(حديقة الشيعة)** عن السيد المرتضى أيضاً بسنده عن المفيد عن أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد عن أبيه عن عبد الله عن محمد بن عبد الجبار عن الحسن العسكري عليه السلام أنه خاطب أبا هاشم الجعفري فقال عليه السلام:

يا أبا هاشم سيأتي زمان على الناس وجوههم ضاحكة مستبشرة، وقلوبهم مظلمة منكدرة، السنّة فيهم بدعة، والبدعة فيهم سنّة، المؤمن بينهم محقّر، والفاسق بينهم موقّر، أمراؤهم جاهلون جائرون، وعلماؤهم في أبواب الظلمة سائرون، أغنياؤهم يسرقون زاد الفقراء، وأصاغرهم يتقدمون على الكبراء، كل جاهل عندهم خبير، وكل محيل عندهم فقير، لا يميزون بين المخلص والمرتاب، ولا يعرفون الضأن من الذئاب، علماؤهم شرار خلق الله على وجه الأرض، لأنهم يميلون إلى الفلسفة والتصوف، وأيم الله إنهم من أهل العدول والتحرّف، يبالغون في حب مخالفينا ويضلّون شيعتنا وموالينا، فإن نالوا منصباً لم يشبعوا من الرشاء، وإن خذلوا عبدوا الله على الرياء، ألا إنهم قطّاع طريق المؤمنين، والدعاة إلى نحلة الملحدين، فمن أدركهم فليحذرهم وليصن دينه وإيمانه.

ثم قال: يا أبا هاشم هذا ما حدثني به أبي عن آبائه عن جعفر بن محمد عليهما السلام وهو من أسرارنا فاكتمه إلا عن أهله[٣].

---

(١) يسعون، في نسخة.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٧/ ٢٩١.

(٣) مستدرك الوسائل: ١١/ ٣٨٠ ح ١٣٣٠٨.

ورواه المحدّث الجزائري أيضاً في (**الأنوار**) مرسلاً عن العسكري عليه السلام مثله.

الثالث والعشرون: في (**الاحتجاج**) روى أصحابنا:

إن أبا محمد الحسن الشريعي كان من أصحاب أبي الحسن علي بن محمد ثم الحسن بن علي عليهما السلام، وهو أول من ادّعى مقاماً لم يجعله الله فيه من قبل صاحب الزمان عليه السلام وكذب على الله وعلى حججه عليهم السلام ونسب إليهم ما لا يليق بهم وما هم منه براء، ثم ظهر منه القول بالكفر والإلحاد[١].

وكذلك كان محمد بن نصير النميري من أصحاب أبي محمد الحسن، فلما توفي عليه السلام ادّعى النيابة لصاحب الزمان عليه السلام ففضحه الله بما ظهر منه من الإلحاد والغلو والقول بالتناسخ، وكان يدعي أنه رسول نبي أرسله علي بن محمد عليهما السلام ويقول فيه بالربوبية ويقول بالإباحة للمحارم.

وكان أيضاً من جملة الغلاة أحمد بن هلال الكرخي وقد كان من قبل في عداد أصحاب أبي محمد عليه السلام ثم تغيّر عما كان عليه وأنكر نيابة أبي جعفر محمد بن عثمان رضي الله عنه، فخرج التوقيع بلعنه من قبل صاحب الزمان عليه السلام.

وكذا كان أبو طاهر محمد بن علي بن بلال، والحسين بن منصور الحلاج، ومحمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر لعنهم الله، فخرج التوقيع بلعنهم والبراءة منهم جميعاً على يد الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح رضي الله عنه نسخته:

عرّف أطال الله بقاك وعرّفك الله الخير كله وختم به عملك من تثق بدينه وتسكن إلى نيته من إخواننا أدام الله سعادتهم بأن محمد بن علي المعروف بالشلمغاني عجّل الله له النقمة ولا أمهله قد ارتد عن الإسلام وفارقه وألحد في دين الله وادّعى بالكفر معه بالخالق جلّ وتعالى وافترى كذباً وزوراً وقال بهتاناً وإثماً مبيناً، كذّب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً وخسروا خسراناً مبيناً، وإنّا برئنا إلى الله تعالى وإلى رسوله صلوات الله عليه وآله منه، ولعنّاه عليه لعائن الله تترى في الظاهر منا والباطن في السر والجهر وفي كل وقت وعلى كل حال وعلى من شايعه وبايعه وبلغه هذا القول منا فأقام على توليه بعده وأعلمهم تولاكم الله أننا في التوقي والمحاذرة منه على مثل ما كنا عليه ممن تقدمه من نظرائه من الشريعي والنميري والهلالي والبلالي وغيرهم، وعادة الله جل ثناؤه مع ذلك قبله وبعده عندنا جميلة، وبه نثق وإياه نستعين، وحسبنا الله في كل أمورنا ونعم الوكيل[٢].

---

(١) مستدرك الوسائل: ٣١٩/١٢ ح ١٤١٩٧، والإحتجاج: ٢٨٩/٢.

(٢) الغيبة: ٣٧٤، ومعجم أحاديث الإمام المهدي (ع): ٣١١/٤، ح ١٣٣٠.

بيان

هؤلاء الجماعة المذكورون في هذا الحديث كلهم من الذين ادعوا البابية لصاحب الزمان عليه السلام والسفارة من جانبه عجّل الله فرجه، وليتهم لعنهم الله تعالى قنعوا بذلك ولم يظهر منهم الكفر والإلحاد والقول بالحلول والاتحاد وإباحة المحارم كما هو مذهب الصوفية.

قال الشيخ «قد» في محكي كلامه في (**البحار**) من كتاب (**الغيبة**): كل هؤلاء المدّعين إنما يكون كذبهم أولاً على الإمام عليه السلام وأنهم وكلاؤه، فيدعون الضعفة بهذا القول إلى موالاتهم، ثم يترقى الأمر بهم إلى قول الحلاجية كما اشتهر من أبي جعفر الشلمغاني ونظرائه عليهم جميعاً لعائن الله تترى.

وقد ذكر في كتاب (**الغيبة**) على ما حكي عنه في (**البحار**) فصلاً مبسوطاً في أحوال هؤلاء وأقوالهم وعقائدهم المتضمنة للكفر والإلحاد، ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما ذكره ليعلم أنهم من الصوفية مشاركون معهم في العقائد والأعمال فأقول:

قال: أول المدعين للبابية الشريعي، قال هارون: وأظن اسمه كان الحسن وكان من أصحاب أبي الحسن علي بن محمد وساق الكلام فيه نحو ما رويناه من الاحتجاج إلى قوله: وما هم منه براء، ثم قال: فلعنته الشيعة وتبرأت منه وخرج توقيع الإمام عليه السلام بلعنه والبراءة منه، ثم ظهر منه القول بالكفر والإلحاد.

ومنهم محمد بن نصير النميري قال سعد بن عبد الله: كان محمد بن نصير النميري يدّعي أنه رسول نبي وأن علي بن محمد أرسله وكان يقول بالتناسخ ويغلو في أبي الحسن عليه السلام ويقول فيه بالربوبية ويقول بالإباحة للمحارم وتحليل نكاح الرجال بعضهم بعضاً في أدبارهم، ويزعم أن ذلك من التواضع والإخبات والتذلل في المفعول به، وأنه من الفاعل إحدى الشهوات والطيبات، وأن الله عز وجل لا يحرّم شيئاً من ذلك أخبرني بذلك عن محمد بن نصير أبو زكريا يحيى بن عبد الرحمٰن بن خاقان أنه رآه عياناً وغلام له على ظهره، قال: فلقيته فعاتبته على ذلك، فقال: إن هذا من اللذات وهو من التواضع لله وترك التجبّر.

أقول: ورأيت في بعض مؤلفات أصحابنا نقلاً من الفاضل عبد الوهاب بن علي الحسيني الاسترابادي في شرح كتاب (**الفصول النضير**) ما هذا لفظه:

قالت النصيرية والإسحاقية من غلاة الشيعة ظهور الروحاني في الجسماني لا ينكر، ففي طرف الشر كالشياطين فإنه كثير ما يتصور الشيطان بصورة إنسان ليعلمه ويكلمه بلسانه، وفي طرف الخير كالملائكة فإن جبريل كان يظهر بصورة دحية الكلبي والأعرابي.

قالوا: فلا يمتنع أن يظهر الله تعالى في صورة بعض الكاملين وأولى الخلق بذلك

أشرفهم وأكملهم هو العترة الطاهرة، ومن يظهر فيه العلم والقدرة التامة من الأئمة من تلك العترة.

ولم يتحاشوا عن إطلاق الإلٰهية على أئمتهم وهذه ضلالة بيّنة لا يحتاج بطلانه إلى بيان، ومع ذلك نقول: ظهور شيء في صورة شيء آخر لا يقتضي الحلول والاتحاد، فإن جبريل لم يتحد بدحية ولا حل فيه فلا يلزم مطلوبكم، انتهى.

وأولى من ذلك أن يقال: إن المثال غير مطابق للمثل لأنه تعالى ليس بروح ولا روحاني ولا جسم ولا جسماني تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، فلا يمكن ظهوره بصورة غيره بل يستحيل استحالة عقلية، هذا.

وقال الشيخ «قد» في أحمد الكرخي ومحمد البلالي نحو ما نقلناه فيهما من الاحتجاج وذكر في حسين بن منصور الحلاج ما قدمنا روايته عنه في المقام السادس، وقال في حق الشلمغاني، قال الصفواني: سمعت أبا علي بن همام يقول: سمعت محمد بن علي العزاقري الشلمغاني يقول: الحق واحد وإنما تختلف قمصه فيوم يكون في أبيض ويوم يكون في أحمر ويوم يكون في أزرق فهذا أول ما أنكرته من قوله لأنه قول أصحاب الحلول.

وأخبرنا جماعة عن أبي محمد هارون بن موسى عن أبي علي محمد بن همام أن محمد بن علي الشلمغاني لم يكن قط باباً إلى أبي القاسم ولا طريقاً له، ولا نصبه أبو القاسم بشيء من ذلك على وجه ولا سبب، ومن قال بذلك فقد أبطل وإنما كان فقيهاً من فقهائنا فخلط وظهر عنه ما ظهر، وانتشر الكفر والإلحاد منه فخرج فيه التوقيع على يد أبي القاسم بلعنه والبراءة منه وممن تابعه وشايعه وقال بقوله، هذا.

خاتمة

قد تبين وتحقق لك مما أوردناه في شرح هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام أن مذاهب الصوفية بحذافيرها مخالفة لمذهب المتشرعة الإمامية الحقة شيّد الله بنيانه وأحكم قواعده وأركانه، كما ظهر لك أن الآيات والأخبار في لعنهم وطعنهم والتعريض والإزراء عليهم لعنهم الله تعالى صريحة متظافرة وأن الأخبار التي تمسكت بها هذه الفئة الضالة المضلّة المبتدعة المطرودة الملعونة إما موضوعة مجعولة أو متشابهة مؤوّلة أو ضعيفة سخيفة.

فلا ينبغي للفطن الكيس أن يشتبه وينخدع بما أوردها بعض علماء الشيعة كمحمد بن علي بن أبي جمهور الإحسائي وغيره من الأخبار في كتبهم، فإن أكثر هذه الأخبار مأخوذة من كتب متصوفة العامة كما يظهر ذلك لمن رجع إليها.

وبالجملة، فالصوفي شيعياً أو سنياً وحدتياً أو اتحادياً مخالف للمتشرع الإمامي أصولاً وفروعاً واعتقاداً وعملاً.

فويل لقوم اتخذوا سلفهم الذين مهّدوا لهم البدعات وموّهوا لهم الضلالات أرباباً فرضوا بالشبلي والغزالي وابن العربي وجنيد البغدادي أئمة، وبالقرمطة فلسفة وبالزهد خلاعة، وبالمثنوي وسائر منظوماتهم كتاباً، وبالشياطين إخواناً، وبمرقد أبا يزيد البسطامي وعبد القادر الجيلاني قبلة، وبالهوى إلٰهاً، وبالوسواس إلهاماً، وبالسحر والشعبذة والسيميا كرامة ومقاماً.

خذلهم الله تعالى في الدنيا وضاعف عليهم العذاب في العقبى بمحمد وآله الأمجاد أئمة المؤمنين وأولياء المتشرّعين المتدينين في المبدء والمعاد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ولعنة الله على مخالفيهم ومعانديهم من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

إستدراك

لا يذهبنّ عليك مما أوردته في شرح هذا الكلام على طوله من الطعن والتعريض والإزراء على الصوفية وإبطال مذاهبهم وإضلال مشاربهم وإظهار مثالبهم وتسفيه أحلامهم وتزييف مناقبهم والإعلان بعداوتهم والحكم بفسق طائفة وكفر الآخرين منهم، إنّا منكرون لحسن العرفان بالله وجاحدون لسلوك سبيل المعرفة معاندون للعارفين بالحق الذين سلكوا سبيل الهدى ونهوا النفس عن الهوى وزهدوا في الدنيا ورغبوا في الأخرى وصدّقوا بالحسنى وشربوا من كأس المحبة وخاضوا في تيار المعرفة فلم يكن لهم هم إلا رضى المولى والنيل إلى مقام الزلفى والسكنى في حظائر القدس والتأنس في محافل الأنس مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وكيف لا ولم يكن بعث الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين من لدن خلق آدم عليه السلام أبي البشر إلى الختم بسيد المرسلين صلى الله عليه وآله إلا لذلك المقصود.

فإنهم على اختلاف شرائعهم وتفاوت مللهم ومذاهبهم لم يكن همّهم إلا هماً واحداً وهو جذب الخلق إلى الحق بالهداية إلى الصراط المستقيم، والدلالة على النهج القويم، والتنحية عن الرذائل والتحلية بالفضائل، والحث على مكارم الأخلاق والحضّ على إحياء العقول بالمعارف والكمالات، والتأكيد في إماتة النفوس بالمجاهدة والرياضات.

فالعارف الحقيقي الذي يحقّ أن يسمى بهذا الاسم هو من اتصف بهذه الكمالات لا

من أخذ بالبدع والضلالات، ومن تبع في أقواله وأفعاله بالأئمة لا من قال: إنا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على آثارهم لمهتدون.

وإن شئت أن تعرف تفصيل أوصاف هذا الشخص الذي يليق بهذا الاسم فاعرف ذلك من تضاعيف خطب أمير المؤمنين عليه السلام لا سيما الخطبة المائة والثانية والتسعين الواردة في شرح حال المتقين، والكلام المائتين والثامن عشر المسوق في وصف حال العارفين.

ولئن رجعت إليهما وإلى شرحهما تعرف معنى المعرفة والعرفان، وتعلم أن الصوفية في متاه الجهل والضلال حيران، نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى، ومن تبدّل البصيرة بالعمى، إنه لا يضل من هداه، والحمد لله على ما هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

يا رب أدخل في عبادك عبدك ... الرّاجي بفضلك واعطف به نظرا
وجد يا إلّهي لي بجودك والطف ... بعبد ذليل عاجز متحيرا
وأدخله في أرباب علم وحكمة ... وأصحاب عرفان الذي منك مخبرا
وأشربه كأس الحب والصدق والصفا ... وأكرم به في روضة الخلد منظرا
وفي محفل الأنس آنسه بمحمد ... وأولاده الطهر الكرام المطهرا

الترجمة

از جمله کلام هدایت نظام امیرمومنان (عليه السلام) است در بصره در حالتی که داخل شد بر علا پسر زیاد حارثی و او از اصحاب آن حضرت بود، عیادت می فرمود او را، پس وقتی که دید وسعت خانه او را فرمود:

چه کار می کنی با وسعت این خانه در دنیا؟ آگاه باش که تو به سوی وسعت خانه در آخرت هستی محتاج تر و بلی اگر بخواهی می توانی برسی با آن به آخرت، مهمانداری بکنی در آن مهمانان را و صله ارحام نمایی و اخراج حقوق الله کنی و در مصارف شرعیه صرف نمایی، پس در این صورت تو محققاً رسیده ای با او به سوی آخرت.

پس عرض کرد به آن حضرت علا که یا امیرالمومنین شکایت می کنم به سوی تو از برادرم عاصم بن زیاد.

فرمود آن حضرت: چه خبر است او را؟

عرض نمود که: عبا پوشیده و از دنیا خلوت گزیده.

فرمود که: حاضر کنید او را نزد من.

پس وقتی که آمد فرمود: ای دشمنك نفس خود، به تحقیق که سرگردان کرده تو را شیطان خبیث، آیا رحم نکردی اهل خود را و اولاد خود را؟ آیا همچنین اعتقاد می کنی که خدا حلال کرده از برای تو پاکیزه ها و طیبات دنیوی را؟ و حال آن که آن خدا کراهت دارد که تو فراگیری آنها را، تو خوارتری نزد خدا از این.

عرض کرد: ای امیر مومنان، این تو هستی در خشونت و زبری پوشاك و غلظت و بی مزگی خوراك.

فرمود: وای بر تو، به درستی من نیستم مثل تو، به درستی خداوند تعالی واجب ساخته بر امامان حق عادل که تنگ بگیرند بر نفسهای خود یا قیاس نمایند نفسهای خودشان را به ضعفا و فقرای خلق در رفتار و کردار تا این که غالب نشود و مضطرب نسازد فقیر را فقر و پریشانی او، و بالله التوفیق و منه الاستعانه و علیه التوکل و الاعتماد حتی وفقنا لما یحب و یرضی و هدانا سبیل الرشد و طریق الوصل الیه.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والتاسع من المختار في باب الخطب

ورواه غير واحد من أصحابنا بطرق مختلفة مع بسط واختلاف كثير حسبما تطلع عليه في التكملة الآتية إن شاء الله.

قال السيد رحمه الله: وقد سأله سائل عن أحاديث البدع وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر، فقال عليه السلام:

إِنَّ في أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وباطِلاً، وصِدْقاً وكِذْباً، وناسِخاً ومَنْسُوخاً، وعَامّاً وخاصّاً، ومُحْكَماً ومُتَشابِهاً، وحِفْظاً ووَهْماً، ولَقَدْ كُذِبَ عَلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله عَلىٰ عَهْدِهِ حَتّىٰ قَامَ خَطِيباً فَقالَ: «مَنْ كَذِبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ».

وَإِنَّما أَتاكَ بِالحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجالٍ لَيْسَ لَهُمْ خامِسٌ:

رَجُلٌ مُنافِقٌ مُظْهِرٌ للإِيمانِ مُتَصَنِّعٌ بِالإِسْلامِ لا يَتَأَثَّمُ وَلا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله مُتَعَمِّداً فَلَوْ عَلِمَ النّاسُ أَنَّهُ مُنافِقٌ كاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَولَهُ وَلٰكِنَّهُمْ قالُوا: صاحِبُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله رَآهُ وسَمِعَ مِنْهُ ولَقِفَ عَنْهُ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ وَقَدْ أَخْبَرَكَ الله عَنِ المُنافِقِينَ بِما أَخبَرَكَ، ووَصَفَهُمْ بِما وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلامُ فَتَقَرَّبُوا إِلَىٰ أَئِمَّةِ الضَّلالَةِ والدُّعاةِ إِلىٰ النَّارِ بالزُّورِ والبُهْتانِ، فَوَلَّوهُمُ الأَعْمالَ وجَعَلُوهُمْ حُكّاماً عَلىٰ رِقابِ النَّاسِ، وأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيا وإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ المُلُوكِ والدُّنْيا إِلاَّ مَنْ عَصَمَ الله فَهُوَ أَحَدُ الأَرْبَعَةِ.

ورَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلىٰ وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، ولَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً فَهُوَ في يَدَيْهِ ويَرْوِيهِ ويَعْمَلُ بِهِ ويَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، فَلَوْ عَلِمَ المُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذٰلِكَ لَرَفَضَهُ.

ورَجُلٌ ثالِثٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ ثُمَّ نَهىٰ عَنْهُ وهُوَ لا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهىٰ عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وهُوَ لا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ المَنْسُوخَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ المُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

وَآخَرُ رابِعٌ لَمْ يَكْذِبْ عَلىٰ الله وَلاَ عَلىٰ رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلكِذْبِ خَوْفاً مِنَ الله وتَعْظِيماً لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، وَلَمْ يَهِمْ بَلْ حَفِظَ ما سَمِعَ عَلىٰ وَجْهِهِ، فَجاءَ بِهِ عَلىٰ سَمْعِهِ لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَحَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وحَفِظَ المَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وعَرَفَ الخاصَّ والعامَّ،

فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وعَرَفَ المُتَشابِهَ ومُحْكَمَهُ.

وَقَدْ كانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله الكَلامُ لَهُ وَجْهانِ: فَكَلامٌ خاصٌ، وكَلامٌ عامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لا يَعْرِفُ ما عَنَى الله بِهِ، ولا ما عَنىٰ بِهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله، فَيَحْمِلُهُ السّامِعُ ويُوَجِّهُهُ عَلىٰ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْناهُ ومَا قُصِدَ بِهِ وما خَرَجَ مِنْ أَجْلِه، ولَيْسَ كُلُّ أَصْحابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله مَنْ كانَ يَسْأَلُهُ ويَسْتَفْهِمُهُ، حَتّىٰ أَنْ كانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الأَعْرابِيُّ أو الطّارِئُ فَيَسْأَلَهُ عليه السلام حَتّىٰ يَسْمَعُوا، وكانَ لا يَمُرُّ بِي عَنْ ذٰلِكَ شَيْءٌ إلاّ سَأَلْتُ عَنْهُ وحَفِظْتُهُ، فَهٰذا وُجُوهُ ما عَلَيْهِ النّاسَ في اخْتِلافِهِمْ وعِلَلِهِمْ في رِواياتِهِمْ[1].

اللغة

(**الوهم**) من خطرات القلب أو مرجوح طرفي المتردد فيه، والجمع أوهام، ووهم في الحساب كوجل غلط، ووهمت في الشيء من باب وعد أي ذهب وهمي إليه ووقع في خلدي. وروي وهماً بالفتح والسكون كليهما و (**بوّأه**) منزلاً وفي منزل أنزله فيه، وبوّأته داراً أسكنته إياها وتبوّأ بيتاً اتخذه مسكناً و (**التصنع**) تكلف حسن السمت والتزين و (**التأثم**) و (**التحرج**) مجانبة الإثم والحرج أي الضيق، يقال: تحرج أي فعل فعلاً جانب به الحجر كما يقال: تحنث إذا فعل ما يخرج به عن الحنث، قال ابن الأعرابي: للعرب أفعال تخالف معانيها ألفاظها، قالوا: تحرّج وتحنّث وتأثّم وتهجد إذا ترك الهجود.

و (**لقفه**) لقفاً من باب سمع ولقفاناً بالتحريك تناول بسرعة، قال تعالى: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، و (**عصمه الله**) من المكروه من باب ضرب حفظه ووقاه و (**جنبه**) واجتنبه وتجنبه وجانبه وتجانبه بعد عنه، وجنبه إياه أبعده عنه (**طرأ**) فلان علينا بالهمز يطرأ أي جاء بغتة من بلد آخر فهو طارىء بالهمز.

الإعراب

قوله: خطيباً حال من فاعل قام، وقوله: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله بالرفع خبر محذوف المبتدأ أي هو أو هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وجملة رآه تحتمل الحال والوصف، وجملة ويرويه عطف على جملة هو في يديه، وفي بعض النسخ بدون الواو فتكون حالاً من الضمير في يديه أو استئنافاً بيانياً.

وقوله: وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان، اسم كان ضمير الشأن

---

(١) الإحتجاج: ١/ ٣٩٥، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٣١.

المستتر ويكون تامة مستغنية عن الخبر، وهي مع اسمها أعني الكلام خبر كان وله وجهان نعت للكلام، لأنه في حكم النكرة ويجوز أن يكون حالاً منه لأنه في معنى الفاعل، ويحتمل أن يجعل يكون ناقصة فهو حينئذ خبر له وليس بنعت، وقوله: فكلام خاص آه، الفاء عاطفة للتفريع على قوله: له وجهان.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام الشريف حسبما أشار إليه السيد «قد» تكلم به حين **(سأله سائل)** وهو سليم بن قيس الهلالي حسبما تعرفه في التكملة الآتية إن شاء الله تعالى وله كتاب مشهور بين أصحابنا.

قال المحدث العلامة المجلسي «ره» في **(ديباجة البحار)**: وقد طعن في كتابه جماعة والحق أنه من الأصول المعتبرة.

وقال العلامة في **(الخلاصة)**: سليم بن قيس الهلالي بضم السين روى الكشي أحاديث يشهد بشكره وصحة كتابه إلى أن قال: وقال السيد علي بن أحمد العقيقي: كان سليم بن قيس من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام طلبه الحجاج ليقتله فهرب وأوى إلى أبان بن أبي عياش، فلما حضرته الوفاة قال لأبان: إن لك عليّ حقاً وقد حضرني الموت يا ابن أخي إنه كان من الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كيت وكيت، وأعطاه كتاباً فلم يرو عن سليم بن قيس أحد سوى أبان وذكر أبان في حديثه قال: كان شيخاً متعبّداً له نور يعلوه، وقال ابن الغضايري: سليم بن قيس الهلالي العامري روى عن أمير المؤمنين والحسن والحسين وعلي بن الحسين عليهم السلام. قال العلامة في آخر كلامه: والوجه عندي الحكم بتعديل المشار إليه والتوقف في الفاسد من كتابه، انتهى[1].

وكيف كان فقد سأله عليه السلام سليم بن قيس **(عن أحاديث البدع)** أي الأحاديث المبتدعة الموضوعة أو المربوطة بالبدع والأمور المحدثة التي لا أصل لها في الشريعة كما يشعر به ما رواه جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في خطبة: «إن أحسن الحديث كتاب الله؛ وخير الهدى هدى محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وقوله: **(وعمّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر)** أراد به الأخبار المختلفة المخالفة لما عندهم عليهم السلام **(فقال عليه السلام)** في جواب السائل:

(١) شرح أصول الكافي: ٢/ ١٣٩، ووسائل الشيعة: ٣٠/ ٣٨٥.

(إنّ في أيدي الناس حقاً وباطلاً وصدقاً وكذباً) ذكر الصدق والكذب بعد الحق والباطل من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأن الأخيرين من خواص الخبر والأولان يصدقان على الأفعال أيضاً، وقيل: الحق والباطل هنا من خواص الرأي والاعتقاد والصدق والكذب من خواص النقل والرواية.

أو ناسخاً ومنسوخاً وعاماً وخاصاً ومحكماً ومتشابهاً، وقد مضى بيان معاني هذه الستة جميعاً وتحقيق الكلام فيها في شرح الفصل السابع عشر من الخطبة الأولى فليراجع هناك.

(وحفظاً ووهماً) أي حديثاً محفوظاً من الزيادة والنقصان مصوناً عن الخلل والغلط حفظه راويه على ما سمعه، وحديثاً غير محفوظ من ذلك لسهو الراوي أو غلطه وعدم حفظه له على وجهه.

(ولقد كذب) أي افترى **(على رسول الله ﷺ على عهده)** أي في زمانه.

قال الشارح البحراني: وذلك نحو ما روي أن رجلاً سرق رداء رسول الله ﷺ وخرج إلى قوم، قال: هذا رداء محمد ﷺ أعطانيه لتمكنوني من تلك المرأة، واستنكروا ذلك، فبعثوا من سأل الرسول ﷺ عن ذلك، فقام الرجل الكاذب فشرب ماء فلدغته حيّة فمات، وكان النبي ﷺ حين سمع بتلك الحال قال لعلي عليه السلام: «خذ السيف وانطلق فإن وجدته وقد كفيت فأحرقه بالنار»، فجاء عليه السلام وأمر بإحراقه.

(حتى) لما سمع ﷺ ذلك الخبر وغيره مما كذبوا عليه **(قام خطيباً فقال)**: «أيها الناس قد كثرت عليّ الكذّابة فـ **(من كذّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)**»، أي لينزل منزله من النار، وهو إنشاء في معنى الخبر كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وهذا الحديث النبوي ﷺ مما رواه الكل وادعى تواتره واستدل به على وجود الأخبار الكاذبة رداً على من أنكر وجودها أو استبعدها، وقد حكي أن علم الهدى تناظر مع علماء العامة وبين لهم أن الأخبار التي رووها في فضائل مشايخهم كلها موضوعة، فقالوا: من يقدر أن يكذب على رسول الله ﷺ؟ فقال لهم: قد ورد في الرواية عنه ﷺ أنه قال في حياته: «ستكثر عليّ الكذابة بعد موتي فمن كذّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، فهذا الحديث إما صدق أو كذب وعلى التقديرين يحصل المطلوب.

ثم شرع عليه السلام في بيان وجه اختلاف الأخبار فقال: **(وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال لا خامس لهم)** قال الشارح البحراني: ووجه الحصر في الأقسام الأربعة أن الناقل للحديث عنه ﷺ المتسمين بالإسلام إما منافق أو لا، والثاني إما أن يكون قد وهم فيه أو

لا، والثاني إما أن لا يكون قد عرف ما يتعلق به من شرائط الرواية أو يكون.

فأشار عليه السلام إلى القسم الأول بقوله: (**رجل منافق مظهر للإيمان**) بلسانه منكر له بقلبه (**متصنّع بالإسلام**) أي متكلّف بآدابه ولوازمه ومراسمه ظاهراً من غير أن يعتقد به باطناً يعني أنه ليس مسلماً في نفس الأمر وإنما تسمى بالإسلام لتدليس الناس (**لا يتأثم ولا يتحرّج**) أي لا يكف نفسه عن موجب الإثم ولا يتجنب عن الوقوع في الضيق والحرج، أو لا يعدّ نفسه آثماً بالكذب بل (**يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً**) لغرضه الدنيوي وداعية هواه النفساني (**فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه**) حديثه كما قبلوه (**ولم يصدّقوا قوله**) كما صدّقوه (**ولكنهم**) اشتبهوا و (**قالوا**) هذا (**صاحب رسول الله ﷺ رآه وسمع منه ولقف**) أي تناول الحديث (**عنه فيأخذون بقوله**) غفلة عن كذبه لحسن ظنهم به (**وقد أخبرك الله عن المنافقين**) في كتابه المبين (**بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك**).

الظاهر أنه عليه السلام أراد به قوله تعالى في سورة (المنافقين): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [٤] الآية، كما صرح عليه السلام به في سائر طرق الرواية حسبما تعرفه في التكملة الآتية، وقد أفصح تعالى عن أحوالهم وأوصافهم بهذه الآية والآيات قبلها في السورة المذكورة وقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٤].

قال أمين الإسلام الطبرسي «قد»: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم: إنهم يعتقدون أنك رسول الله، فكان إكذابهم في اعتقادهم وأنهم يشهدون ذلك بقلوبهم. ولم يكذبوا فيما يرجع إلى ألسنتهم، لأنهم شهدوا بذلك وهم صادقون فيه ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦] أي سترة يستترون بها من الكفر لئلا يقتلوا ولا يسبوا ولا تؤخذ أموالهم ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٦] فأعرضوا بذلك عن دين الإسلام، وقيل: منعوا غيرهم عن اتباع سبيل الحق بأن دعوهم إلى الكفر في الباطن، وهذا من خواص المنافقين، يصدّون العوام عن الدين كما تفعل المبتدعة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩] أي بئس الذين يعملونه من إظهار الإيمان مع إبطان الكفر والصد عن السبيل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ [المنافقون: ٣] عند الإقرار بلا إله إلا الله محمد رسول الله ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بقلوبهم لما كذبوا بهذا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم عليها بسمة تميّز الملائكة بينهم وبين المؤمنين على الحقيقة ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، أي لا يعلمون من حيث إنهم لا يتفكرون حتى يميزوا بين الحق والباطل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ بحسن منظرهم وتمام خلقتهم وجمال بزّتهم ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لحسن منطقهم وفصاحة لسانهم وبلاغة بيانهم ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] أي كأنهم أشباح بلا أرواح، شبّههم الله في خلوّهم من العقل والأفهام بالخشب

المسنَدة إلى شيء لا أرواح فيها[١].

وفي **(الصافي)**: مسنّدة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والنظر[٢].

(ثم بقوا) أي المنافقون **(بعده عليه وآله السلام فتقرّبوا إلى أئمة الضلالة)** كمعاوية وأضرابه من رؤساء بني أمية **(والدعاة إلى النار)** فيه تلميح إلى قوله تعالى: **﴿وجعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار﴾** **(بالزور)** أي الكذب **(والبهتان فولوهم الأعمال وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس)** أي أئمة الضلال بسبب وضع الأخبار أعطوا هؤلاء المنافقين الولايات وسلّطوهم على الناس، ويحتمل العكس أي بسبب مفتريات هؤلاء المنافقين صاروا والين على الناس وصنعوا ما شاؤوا وابتدعوا ما أرادوا. قال المحدث العلامة المجلسي: ولكنه بعيد.

أقول: ولعل وجه استبعاده أن ظاهر كلامه عليه السلام يفيد كون إمامة أئمة الضلالة متقدمة على وضع الأخبار حيث تقربوا بها إليهم فلا تكون حينئذ ولايتهم وإمامتهم مستندة إلى وضعها ومسبّبة منها، ولكن يمكن رفع البعد بأن يكون المراد أن ثبات حكومتهم وولايتهم واستحكامها كان بسبب مفتريات المنافقين وإن لم يكن أصل الولاية بسببها.

وقوله: **(وأكلوا بهم الدنيا)** أي معهم أو بإعانتهم، والضمير الأول راجع إلى أئمة الضلالة، والثاني إلى المنافقين المفترين، ويحتمل العكس أيضاً.

وأشار إلى علّة تقرّبهم إلى الولاة بمفترياتهم بقوله: **(وإنما الناس)** جميعاً **(مع الملوك والدنيا)** لكون هواهم فيها فهم عبيد لها ولمن في يديه شيء منها حيثما زالت زالوا إليها وحيثما أقبلت أقبلوا عليها **(إلا من عصم الله)** تعالى منها ومن أهلها، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم **(فهو أحد الأربعة)**.

الثاني منهم **(رجل سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً لم يحفظه على وجهه)** الذي صدر من لسانه الشريف **(فوهم فيه)** أي غلط وسهى **(ولم يتعمد كذباً)** كتعمد الرجل السابق الذكر **(فهو في يديه)** ينقله **(ويرويه)** لغيره **(ويعمل به)** في نفسه **(يقول أنا سمعته من رسول الله)** يسنده إليه صلى الله عليه وآله بزعم أنه عين ما قاله صلى الله عليه وآله **(فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه ولو علم هو أنه كذلك لرفضه)** أي نبذه وتركه ولم يروه.

أقول: ومن ذلك اشتراط علماء الدراية الضبط في الراوي يرى ضبطه لما يرويه بمعنى كونه حافظاً له متيقظاً غير مغفل إن حدّث من حفظه ضابطاً لكتابه حافظاً من الغلط والتصحيف والتحريف إن حدّث منه عارفاً بما يختلّ به المعنى إن روي به أي المعنى على القول بجوازه حسبما نعرفه إن شاء الله تفصيلاً.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/١٩.
(٢) تفسير الصافي: ٥/١٧٧.

(ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم) بنهيه **(أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم)** بأمره **(فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ فلو علم أنه منسوخ لرفضه ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه)** ولكنه لجهله وغفلته عن الناسخ روى المنسوخ لغيره فقبلوه منه بحسن وثوقهم به.

روى في **(الكافي)** بسند موثق عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما بال أقوام يروون عن فلان وفلان عن رسول الله ﷺ لا يتهمون بالكذب، فيجيء منهم خلافه؟ قال عليه السلام: إن الحديث ينسخ كما ينسخ القرآن[1].

وفيه بسنده عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: قلت: فأخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ صدقوا على محمد أم كذبوا؟ قال: بل صدقوا، قال: قلت: فما بالهم قد اختلفوا؟ فقال عليه السلام: أما تعلم أن الرجل كان يأتي رسول الله ﷺ فيسأله عن المسألة فيجيبه فيها بالجواب، ثم يجيئه بعد ذلك بما ينسخ ذلك الجواب فنسخت الأحاديث بعضها بعضاً[2].

قال الشهيد الثاني في دراية الحديث عند تعداد أقسام الأحاديث: وسادس عشرها الناسخ والمنسوخ، فإن من الأحاديث ما ينسخ بعضها بعضاً كالقرآن[3].

والأول وهو الناسخ ما أي حديث دلّ على رفع حكم شرعي سابق، فالحديث المدلول عليه بما بمنزلة الجنس يشمل الناسخ وغيره ومع ذلك خرج به ناسخ القرآن والحكم المرفوع شامل للوجودي والعدمي وخرج بالشرعي الذي هو صفة الحكم الشرعي المبتدأ بالحديث، فإنه يرفع به الإباحة الأصلية لكن لا يسمى شرعياً، وخرج بالسابق الاستثناء والصفة والشرط والغاية الواقعة في الحديث، فإنها قد ترفع حكماً شرعياً لكن ليس سابقاً.

والثاني: وهو المنسوخ ما رفع حكمه الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه وقيوده يعلم بالمقايسة على الأول، وهذا فن صعب مهم حتى أدخل بعض أهل الحديث فيه ما ليس منه لخفاء معناه، وطريق معرفته النص من النبي ﷺ مثل: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»، ونقل الصحابي مثل كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ: «أنه ترك الوضوء مما مسته النار»، أو التاريخ فإن المتأخر منهما يكون ناسخاً للمتقدم لما روي عن الصحابة: كنا

---

(١) الذكرى: ١٣٤، ووسائل الشيعة: ٢٧/١٠٨ ح ٣٣٣٣٧.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٧/٢٠٨ ح ٣٣٦١٦، ووصول الأخبار إلى أصول الأخيار: ١١٨.

(٣) دراسات في عالم الدراية: ٤٩.

نعمل بالأحاديث، فالأحاديث أو الإجماع كحديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة نسخه الإجماع على خلافه حيث لا يتخلل الحد، والإجماع لا ينسخ بنفسه وإنما يدل على النسخ، انتهى كلامه رفع مقامه.

وينبغي أن يعلم أن النسخ إنما يكون في الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله إذ لا ينسخ بعده.

(وآخر رابع) له عناية بأمر الدين واهتمام بمدارك الشرع المبين **(لم يكذب على الله ولا على رسوله)** صلى الله عليه وآله كالرجل الأول المنافق المتصنع بالإسلام تحرجاً من الكذب والزور **(مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله ولم يهم)** أي لم يغلط ولم يسه كالرجل الثاني الغير الضابط **(بل حفظ)** ووعى **(ما سمع على وجهه)** كما أشير إليه في قوله عز وجل: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

(فجاء به على سمعه) أي نقله على الوجه المسموع، وفي بعض النسخ على ما سمعه بزيادة ما وهو أقرب **(لم يزد فيه ولم ينقص منه)** أي رواه من غير زيادة ولا نقصان فاستحق بذلك البشارة العظيمة من الله تعالى في قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ـ ١٨].

فقد روى في **(البحار)** من الاختصاص بإسناده عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في هذه الآية قال عليه السلام: هم المسلمون لآل محمد صلى الله عليه وآله إذا سمعوا الحديث أدّوه كما سمعوه لا يزيدون ولا ينقصون[١].

وفيه عن الكليني بسنده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، قال عليه السلام: هو الرجل يستمع الحديث فيحدّث به كما سمعه لا يزيد فيه ولا ينقص.

(فحفظ الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنّب عنه) لا كالرجل الثالث يحفظ المنسوخ ويرويه ولم يحفظ الناسخ ويغيب عنه **(وعرف الخاص والعام فوضع كل شيء موضعه)** أي أبقى العمومات الغير المخصصة على عمومها وحمل المخصصات على الخصوص، وكذا المطلق والمقيد وسائر أدلة الأحكام **(وعرف المتشابه)** فوكل علمه إلى الله تعالى ورسوله والراسخين في العلم عليهم السلام **(ومحكمه)** فأخذ به واتّبعه.

ثم أكد كون كلام الرسول صلى الله عليه وآله ذا وجوه مختلفة بقوله: **(وقد كان يكون من رسول**

---

(١) تهذيب الأحكام: ٤/ ١٢٠، وشرح أصول الكافي: ٤/ ١١٥.

الله ﷺ **الكلام له وجهان)** ككتاب الله العزيز وكلامه عز شأنه (فـ)بعضه **(كلام خاص و)** بعضه **(كلام عام فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ولا ما عنى به رسول الله ﷺ)** من العموم والخصوص **(فيحمله السامع)** على غير معناه المراد من أجل اشتباهه وعدم معرفته **(ويوجّهه)** أي يؤوله **(على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله)** أي العلة المقتضية لصدور الكلام منه ﷺ، وكذا الحال والمقام الذي صدر فيه.

(وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ يسأله ويستفهمه) لمهابته أو إعظاماً له **(حتى إن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي)** من سكان البادية **(أو الطارىء)** أي الغريب الذي أتاه عن قريب من غير أنس به ﷺ وبكلامه **(فيسأله** عليه السلام **حتى يسمعوا)** وإنما كانوا يحبون قدومهما إما لاستفهامهم وعدم استعظامهم إياه، أو لأنه ﷺ كان يتكلم على وفق عقولهم فيوضحه حتى يفهم غيرهم.

ثم أشار عليه الصلاة والسلام إلى علو مقامه ورفعة شأنه وبلوغه ما لم يبلغه غيره بقوله **(وكان لا يمر بي عن ذلك)** أي من كلام رسول الله ﷺ **(شيء إلا سألت عنه ﷺ وحفظته)** لمزيد اختصاصه عليه الصلاة والسلام به وكونه عيبة علمه وقد كان يجب عليه، عليه الصلاة والسلام، السؤال والحفظ كما كان يجب عليه ﷺ التعليم والتفهيم لاقتضاء تكليف الاستخلاف ووظيفة الخلافة ذلك.

(فهذا وجوه ما عليه الناس في اختلافهم) في الروايات **(و)** ضروب **(عللهم)** وأمراضهم **(في رواياتهم)** المختلفة.

وينبغي تذييل المقام بأمور مهمة

الأول

قال الشيخ الشهيد الثاني في كتاب **(دراية الحديث)** عند تعداد أصناف الحديث الضعيف:

الثامن الموضوع وهو المكذوب المختلق الموضوع بمعنى أن واضعه اختلق وضعه لا مطلق حديث الكذوب، فإن الكذوب قد يصدق، وهو أي الموضوع شر أقسام الضعيف، ولا تحل روايته للعالم به إلا مبيناً لحاله من كونه موضوعاً بخلاف غيره من الضعيف المحتمل للصدق حيث جوّزوا روايته في **(الترغيب والترهيب)**.

ويعرف الموضوع بإقرار واضعه بوضعه فيحكم حينئذ عليه بما يحكم على الموضوع في نفس الأمر لا بمعنى القطع بكونه موضوعاً، لجواز كذبه في إقراره، وإنما يقطع بحكمه لأن

الحكم يتبع الظن الغالب، وهو هنا كذلك ولولاه لما ساغ قتل المقرّ بالقتل ولا رجم المعترف بالزنا، لاحتمال أن يكونا كاذبين فيما اعترفا به.

وقد يعرف أيضاً بركاكة ألفاظه ونحوها، ولأهل العلم بالحديث ملكة قوية يميزون بها ذلك، وإنما يقوم به منهم من يكون اطلاعه تاماً، وذهنه ثاقباً، وفهمه قوياً، ومعرفته بالقرائن الدالة على ذلك ممكنة، وبالوقوف على غلطه ووضعه من غير تعمّد، كما وقع لثابت بن موسى الزاهد في حديث: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، فقيل: كان شيخ يحدّث في جماعة فدخل رجل حسن الوجه، فقال الشيخ في أثناء حديثه: من كثرت صلاته بالليل الخ... فوقع لثابت بن موسى أنه من الحديث فرواه.

والواضعون أصناف:

منهم من قصد التقرّب به إلى الملوك وأبناء الدنيا، مثل غياث بن إبراهيم دخل على المهدي بن المنصور وكان تعجبه الحمام الطيارة الواردة من الأماكن البعيدة، روى حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا سبق إلا في خفّ أو حافر أو نصل أو جناح»، فأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما خرج قال المهدي: أشهد أن قفاه قفا كذّاب على رسول الله صلى الله عليه وآله ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله جناح ولكن هذا أراد أن يتقرب إلينا، فأمر بذبحها وقال: أنا حملته على ذلك[1].

ومنهم قوم من السؤال يضعون على رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث يرتزقون بها كما اتفق لأحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة.

وأعظم ضرراً من انتسب منهم إلى الزهد والصلاح بغير علم فاحتسب بوضعه أي زعم أنه وضعه حسبة لله تعالى وتقرّباً إليه ليجذب بها قلوب الناس إلى الله تعالى بالترهيب والترغيب، فقبل الناس موضوعاتهم فنقلوا منهم وركنوا إليهم بظهور حالهم بالصلاح والزهد.

ويظهر ذلك من أحوال الأخبار التي وضعها هؤلاء في الوعظ والزهد وضمنوها أخباراً عنهم ونسبوا إليهم أفعالاً وأحوالاً خارقة للعادة وكرامات لم يتفق مثلها لأولي العزم من الرسل بحيث يقطع العقل بكونها موضوعة وإن كانت كرامات الأولياء ممكنة في نفسها.

ومن ذلك ما روي عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي أنه قيل له: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إن الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة وكان يقال لأبي عصمة هذا: الجامع، فقال: أبو حاتم بن

(١) شرح أصول الكافي: ١/ ٥٨، ومستدرك الوسائل: ١٤/ ٨٣.

الحيان: جمع كل شيء إلا الصدق[١].

وروى ابن حيان عن أبي مهدي قال: قلنا لميسرة بن عبد ربه: من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ بكذا فله كذا، فقال: وضعتها أرغّب الناس فيها[٢].

وهكذا قيل في حديث أبي الطويل في فضائل سور القرآن سورة سورة، فروي عن المؤمل بن إسماعيل قال: حدثني شيخ به فقلت للشيخ: من حدثك؟ فقال: حدثني رجل بالمدائن وهو حي، فصرت إليه وقلت: من حدثك؟ فقال: حدثني شيخ بواسط وهو حي، فصرت إليه وقلت: من حدثك؟ فقال: حدثني شيخ بالبصرة، فصرت إليه فقال: حدثني شيخ بعبادان، فصرت إليه فأخذ بيدي وأدخلني بيتاً فإذا فيه قوم من الصوفية ومعهم شيخ فقال: هذا الشيخ حدثني، فقلت: يا شيخ من حدثك؟ فقال: لم يحدثني أحد ولكن رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذه الأحاديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن.

وكل من أودع هذه الأحاديث في تفسيره كالواحدي والثعلبي والزمخشري فقد أخطأ في ذلك ولعلهم لم يطلعوا على وضعه مع أن جماعة من العلماء قد نبّهوا عليه، وخطب من ذكره مستنداً كالواحدي أسهل.

ووضعت الزنادقة كعبد الكريم بن أبي العوجاء الذي أمر بضرب عنقه محمد بن سليمان بن علي العباسي، وبيان الذي قتله خالد القشيري[٣] وأحرقه بالنار، والغلاة من فرق الشيعة كأبي الخطاب ويونس بن ظبيان ويزيد الصايغ وأضرابهم جملة من الحديث ليفسدوا بها الإسلام ويبصروا به مذهبهم.

روى العقيلي عن حماد بن يزيد قال: وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث.

وروي عن أبي عبد الله[٤] بن يزيد المقري أن رجلاً من الخوارج رجع عن مذهبه فجعل يقول: انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه كنا إذا رأينا رأياً جعلنا له حديثاً.

ثم نهض جهابذة النقاد، جمع جهبذ وهو الناقد البصير، بكشف عوارها، بفتح العين وضمها والفتح أشهر وهو العيب، ومحوا عارها، فلله الحمد حتى قال بعض العلماء: ما

---

(١) تهذيب الأحكام: ٦١/٣٠.

(٢) كتاب المجروحين: ٦٤/١، والموضوعات: ٤٠/١.

(٣) «القسري» في نسخة.

(٤) «عبد الله» في نسخة.

ستر الله أحداً يكذب في الحديث.

وقد ذهب الكرامية، بكسر الكاف وتخفيف الراء وبفتح الكاف وتشديد الراء، على اختلاف نقل الضابطين لذلك، وهم الطائفة المنتسبون بمذهبهم إلى محمد بن كرام وبعض المبتدعة من المتصوفة إلى جواز وضع الحديث للترغيب والترهيب للناس وترغيباً في الطاعة وزجراً لهم عن المعصية.

واستدلوا بما روي في بعض طرق الحديث: «من كذب علي متعمداً ليضل به الناس فليتبوأ مقعده من النار»، وهذه الزيادة قد أبطلها نقلة الحديث وحمل بعضهم: من كذب عليّ متعمداً، على من قال: إنه ساحر أو مجنون، حتى قال بعض المخذولين: إنما قال من كذب عليّ، ونحن نكذّب له ونقوّي شرعه نسأل الله السلامة من الخذلان.

وحكى القرطبي في **(المفهم)** عن بعض أهل الرأي: إن ما وافق القياس الجلي جاز أن يعزى إلى النبي ﷺ.

ثم المروي تارة يخترعه الواضع، وتارة يأخذ كلام غيره كبعض السلف الصالح وقدماء الحكماء والإسرائيليات، أو يأخذ حديثاً ضعيف الإسناد فيركّب له إسناداً صحيحاً ليروّج.

وقد صنّف جماعة من العلماء كتباً في بيان الموضوعات.

وللصغاني الفاضل الحسين بن محمد في ذلك كتاب **(الدّر الملتقط في تبيين الغلط)** جيد في هذا الباب ولغيره كأبي الفرج ابن الجوزي دونه في الجودة، لأن كتاب ابن الجوزي ذكر فيه كثير من الأحاديث التي ادّعى وضعها لا دليل على كونها موضوعة وإلحاقها بالضعيف أولى وبعضها قد يلتحق بالصحيح والحسن عند أهل النقد، بخلاف كتاب الصغاني فإنه تام في هذا المعنى يشتمل على إنصاف كثير.

الثاني

اعلم أن أكثر أخبار الموضوعة قد وضعت في زمن بني أمية لعنهم الله قاطبة كما ظهر لك تفصيل ذلك في شرح الكلام السابع والتسعين مما رويناه من **(البحار)** من كتاب سليم بن قيس الهلالي ونضيف إليه ما ذكره ونقله الشارح المعتزلي هنا لاشتماله على زيادة لم يتقدم ذكرها مع كونه مؤيداً لما قدمنا فأقول:

قال الشارح بعدما ذكر أنه خالط الحديث كذب كثير صدر عن قوم غير صحيحي العقيدة قصدوا به الإضلال وتخليط القلوب والعقائد، وقصد به بعضهم التنويه بذكر قوم كان لهم في التنويه بذكرهم غرض دنيوي ما صريح عبارته:

وقد قيل: إنه افتعل في أيام معاوية خاصة حديث كثير على هذا الوجه، ولم يسكت المحدثون الراسخون في علم الحديث عن هذا بل ذكروا كثيراً من هذه الأحاديث الموضوعة وبيّنوا وضعها وأن رواتها غير موثوق بهم إلا أن المحدثين إنما يطعنون فيما دون طبقة الصحابة ولا يتجاسرون على الطعن في أحد من الصحابة لأن عليه لفظ الصحبة على أنهم قد طعنوا في قوم لهم الصحبة كثير[1] بن أرطأة وغيره.

فإن قلت: من أئمة الضلال[2] الذين تقرّب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله ﷺ وصحبوه بالزور والبهتان، وهل هذا إلا تصريح بما تذكره الإمامية وتعتقده؟

قلت: ليس الأمر كما ظننت وظنوا، وإنما يعني معاوية وعمرو بن العاص ومن شايعهما على الضلال.

كالخبر رواه من رواه في حق معاوية: اللهم قِهِ العذاب والحساب وعلّمه الكتاب.

وكراوية عمرو بن العاص تقرّباً إلى قلب معاوية: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء وإنما وليّي الله وصالح المؤمنين.

وكرواية قوم في أيام معاوية أخباراً كثيرة من فضائل عثمان تقرّباً إلى معاوية بها.

ولسنا نجحد فضل عثمان وسابقته، ولكنا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيه موضوع كخبر عمرو بن مرّة فيه وهو مشهور وعمرو بن مرّة ممن له صحبة وهو شامي.

وليس يجب من قولنا: إن بعض الأخبار الواردة في حق شخص فاضل مفتعلة أن تكون قادحة في فضل ذلك الفاضل، فإنا مع اعتقادنا أن علياً عليه السلام أفضل الناس نعتقد أن بعض الأخبار الواردة في فضائله مفتعل ومختلق.

وقد روي أن أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال لبعض أصحابه:

يا فلان ما لقينا من ظلم قريش إيانا وتظاهرهم علينا وما لقي شعيتنا ومحبّونا من الناس، إن رسول الله ﷺ قبض وقد أخبر أنّا أولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه، واحتجّت على الأنصار بحقنا وحجتنا، ثم تداولتها قريش واحد بعد واحد حتى رجعت إلينا فنكثت بيعتنا ونصبت الحرب لنا ولم يزل صاحب الأمر في صعود كئود حتى قتل[3].

---

(١) «كبير» في نسخة.

(٢) أراد بهم ما تقدم ذكرهم في المتن منه.

(٣) بحار الأنوار: ٦٨/٤٤، والدرجات الرفيعة: ٥.

فبويع الحسن عليه السلام ابنه عوهد ثم غدر به وأسلم ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه، وانتهب عسكره وعولجت خلاخيل أمهات أولاده فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته وهم قليل حق قليل.

ثم بايع الحسين عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفاً ثم غدر به وخرجوا عليه وبيعته في أعناقهم.

ثم لم تزل أهل البيت تستذلّ وتستضام ونقصي ونمتحن ونحرم ونقتل ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم؛ وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلدة، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنا ما لم نقله ليبغضونا إلى الناس.

وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة وكان من يذكر حبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره.

ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد لعنه الله قاتل الحسين عليه السلام.

ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنّة وتهمة حتى أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال شيعة علي عليه السلام، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير والعلّة ورعاً صدوقاً يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حق لكثرة من قد رواها ممن لم يعرف بكذب ولا بقلّة ورع.

وروى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدايني في كتاب **الأحداث** قال:

كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته.

فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً عليه السلام ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته. وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم.

وكتب معاوية لعنه الله إلى عماله في جميع الآفاق: لا يجيزوا لأحد من شيعة علي

وأهل بيته شهادة.

وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه. فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم واكتبوا إليّ بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصّلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي وكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجزي مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبه إلا كتب اسمه وقرّبه، وشفّعه فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب إلى عماله: أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وأتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها.

وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشاروا يذكروا ذلك على المنابر، وألقى إلى معلّمي الكتاب فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلّموه كما يتعلمون القرآن وحتى علّموه بناتهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من أقامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه.

وشفّع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره.

فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه.

فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القراء المراؤون، والمتصنعون الذين يظهرون الخشوع والنسك، فيفتعلون ذلك ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقرّبوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل.

حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تديّنوا.

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض.

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه الصلاة والسلام وولّي عبد الملك بن مروان فاشتدّ على الشيعة.

وولّى عليهم الحجاج بن يوسف فتقرّب أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي عليه السلام وموالاة أعدائه وموالاة من يدعي قوم من الناس أنهم أيضاً أعداؤه فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغض من علي عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنان له.

حتى أن إنساناً وقف للحجاج ويقال جد الأصمعي عبد الملك بن قريب فصاح به: أيها الأمير إن أهلي عقّوني فسموني علياً، وإني فقير بائس وأنا إلى صلة الأمير محتاج، فتضاحك له الحجاج وقال: للطف ما توسلت به قد وليتك موضع كذا.

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرّباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنف بني هاشم.

ثم قال الشارح بعد جملة من الكلام:

واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة: فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث كذا مختلقة في صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم.

نحو حديث السطل، وحديث الرمانة، وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين ويعرف كما زعموا بذات العلم، وحديث غسل سلمان الفارسي وطيّ الأرض، وحديث الجمجمة ونحو ذلك.

فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث.

نحو لو كنت متخذاً خليلاً، فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء.

ونحو سدّ الأبواب فإنه كان لعلي عليه السلام فقلّبته البكرية إلى أبي بكر.

ونحو ائتوني بداوة وبياض أكتب فيه لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه اثنان ثم قال: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر.

فإنهم وضعوه في مقابلة الحديث المروي عنه صلى الله عليه وآله في مرضه: ائتوني بداوة وبياض أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً، فاختلفوا عنده وقال قوم منهم: لقد غلبه الوجع حسبنا

كتاب الله.

ونحو حديث: أنا راض عنك فهل أنت عني راض، ونحو ذلك.

فلما رأت الشيعة ما وقد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث.

فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه فتله في عنق خالد.

وحديث اللوح الذي زعموا أنه كان في غدائر الحنفية أم محمد.

وحديث: لا يفعل خالد ما أمر به.

وحديث الصحيفة علّقت عام الفتح بالكعبة.

وحديث الشيخ الذي صعد المنبر يوم بويع أبو بكر فسبق الناس إلى بيعته.

وأحاديث مكذوبة كثيرة[1] تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين

---

(١) **نموذج من سرقة فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)**
ليس من الغريب تحريف حديث سد الأبواب بل هذه من عادة الظالمين إذا لم يستطيعوا ردّ فضائل أمير المؤمنين أوجد مثلها في غيره، أخرج أحمد في المناقب وابن راهويه في المسند وعبد الرزاق في المصنف عن معمر قال: سألت الزهري من كان كاتب الكتاب يوم الحديبية؟

فضحك وقال: علي، ولو سألت هؤلاء قالوا عثمان . يعني بني أمية (فضائل الصحابة لاحمد: ٢/ ٥٩١ ح ١٠٠٢ مناقب علي وراجع الهامش، والمطالب العالية: ٤/ ٢٣٤ ح ٤٣٤٦ باب الحديبية، والمصنف لعبد الرزاق: ٥/ ٣٤٣ ح ٩٧٢٢).

ـ وكما عرفت في حديث المنزلة المتواتر في علي من طرقهم فضلاً عن طرقنا، وكيف رووا أنه في أبي بكر وعمر (لسان الميزان: ٤/ ٢٥٢ ترجمة علي بن الحسن رقم ٥٧٨٣ بلفظ: أبو بكر مني بمنزلة هارون من موسى ؛ ووصفه ابن حجر بالخبر الكذب). ـ وكذلك حديث المباهلة قالوا إن النبي جمع أبو بكر وعمر وأهل بيته (كنز العمال: ٢/ ٣٧٩ ح ٤٣٠٦ الكتاب الثاني ـ التفسير ـ تفسير البقرة).

ـ وكذلك حديث مدينة العلم المستفيض في علي عليه السلام، فرووا عن إسماعيل بن علي بن المثنى الاسترابادي: أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها وعثمان سقفها وعلي بابها . فسألوه أن يخرج لهم إسناده فوعدهم به وفي هذا الرجل يقول ابن السمعاني في الأنساب كان يقول له: كذاب ابن كذاب، ويقول النخبشي: كان يقص ويكذب (فتح الملك العلي: ١٥٥ ـ ١٥٦ عن لسان الميزان: ١/ ٤٢٢ ترجمة إسماعيل بن علي أبو سعيد). وقال ابن حجر في الفتاوي: حديث أنا مدينة العلم وعلي بابها رواه جماعة وصححه الحاكم وحسنه الحافظان العلائي وابن حجر (الفتاوي الحديثة: ١٢٣ ط. مصر الاولى ١٣٥٣ هـ .). وقال في الحديث الاول: أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسها ورواه صاحب مسند الفردوس وتبعه ابنه بلا إسناد عن ابن مسعود مرفوعاً، وهو حديث ضعيف كحديث أنا مدينة العلم وعلي بابها ومعاوية حلقها (الفتاوي الحديثة: ١٩٢ ط. مصر الاولى ١٣٥٣ هـ).

ـ وكحديث خلق علي ومحمد من طينة واحدة (الفتوح لابن الاعثم: ١/ ٢٦٩ ذيل ذكر الوقعة الثانية =

وكفرهم وعلى أدونى الطبقات فِسْقِهِم.

= بصفين - عن معاوية، وأخرجه الطبراني بلفظ «إن علياً مني وأنا منه خلق من طيتني» المعجم الأوسط: ٧/ ٥٠ ح ٦٠٨٢) فرووه في أبي بكر وعمر (كنز العمال: ١١/ ٥٦٧ ح ٣٢٨٣ فضل الصحابة إجمالا - ذكر أبي بكر، والفوائد المجموعة: ٣٣٩ باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ٢٨، ونقل بطلانه ووضعه عن الحفاظ، واللآلىء المصنوعة: ١/ ٣٠٩ مناقب الخلفاء الأربعة ونقل ضعفه وعدم صحته عن ابن الجوزي).
- وكتحريف آية: (وصالح المؤمنين) (التحريم ٤ - راجع كنز العمال: ٢/ ٥٣٩ ح ٤٦٧٥، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٤١١ ،والتعريف والأعلام للسهيلي: ١٣٣ مورد الآية، وشواهد التنزيل: ٢/ ٣٤١ ح ٩٨١ مورد الآية، ومجمع الزوائد: ٩/ ١٩٤ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ٣١١ ح ١١٥١٤٣ كتاب المناقب) حتى رووا أنه أبو بكر وعمر معاً وفي رواية في عمر خاصة (المحاسن والمساوي للبيهقي: ٣٨ محاسن عمر، ومجمع الزوائد: ٩/ ٥٢ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ٣٨ ح ١٤٣٤٩ كتاب المناقب وضعف بعض رواته).
- وحديث معاذ: إن الله ليكره في السماء أن يُخَطأ علي في الأرض - أخرجه الديلمي في الفردوس (الفردوس بمأثور الخطاب: ١/ ١٥٩ ح ٥٨٧ ط. دار الكتب العلمية وحرف في ط. دار الكتاب العربي: ١/ ٢٠١ ح ٥٩١)، فروي في حق أبي بكر وقال ابن الجوزي موضوع (اللآلىء المصنوعة: ١/ ٣٠٠ مناقب الخلفاء الأربعة).
- وكحديث إن أحب الخلق إلى الرسول علي وفاطمة المتقدم من طرق، فرووا عن عمرو بن العاص قال: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قال: من الرجال؟ قال: أبو بكر (المعجم الكبير: ٢٣/ ٤٣ ح ١٣١٩٠ ترجمة عائشة - باب نظر عائشة الى جبريل). وهذا بعينه روي من طرق في علي وفاطمة (أنظر سنن الترمزي: ٥/ ٣٦٢ ح ٣٩٦٥) فتأمل السرقات المفضوحة!؟!
- وحديث: أول من تنشق عنه الأرض المروي في علي (قال النبي: أعطاني فيك أن أول من ينشق عنه الارض يوم القيامة أنا وأنت «التدوين في أخبار قزوين: ٢/ ١٢٦ ترجمة إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن جهينة - وأخرج أيضاً عنه: أنا أول من تنشق عنه الأرض وأنت معي . . . » ج ٣/ ٤١٩ ترجمة علي بن محمد البياري . وأخرجه البغدادي بلفظ: أنت أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة» تاريخ بغداد: ٥/ ١٠٠ . وأخرجه أبو نعيم بلفظ: علي أول من ينفض عن رأسه الغبار يوم القيامة . تاريخ أصبهان: ١/ ٣٦٢ . وقال: «أبشر يا علي إنك تكسى إذا كسيت وتدعى إذا دعيت وتحيا إذا حييت» فضائل الصحابة لأحمد: ٢/ ٦٦٤ ح ١١٣١ مناقب علي، وعن عمر: « يا علي يدك في يدي تدخل معي الجنة يوم القيامة حيث أدخل » تلخيص المتشابه في الرسم للخطيب: ١/ ٣٧ رقم ٢٧ الفصل الأول . وأخرج البغدادي: هذا أول من يصافحني » تاريخ بغداد: ٩/ ٤٦٠)، فرووه في أبي بكر وعمر (المعجم الكبير: ١٢/ ٢٣٥ ترجمة ابن عمر - ما أسنده سالم عنه).
- وحديث كفة الميزان المشهور يوم الخندق في علي، رووه عن أبي بكر وعمر (المعجم الكبير: ٢٠/ ٨٦ ترجمة معاذ بن جبل ما روى أبو إدريس الخولاني عنه، وإحياء علوم الدين: ١/ ٥٢ الباب الخامس في آداب المتعلم من كتاب العلم، والمحاسن والمساويء: ٣٥ محاسن أبو بكر).
- حتى حديث: الحق مع علي وعلي مع الحق، رووه في حق عمر: «الحق بعدي مع عمر حيث كان » (المعجم الكبير: ٨/ ٢٨١ ترجمة الفضل بن العباس ما روى عطاء عن ابن عباس عنه).
- وحديث العلم عشرة أجزاء لعلي تسعه، رووه في عمر قال ابن مسعود: إني لأحسب عمر قد رفع معه يوم مات تسعة أعشار العلم (المعجم الكبير: ٩/ ١٦٣ ح ٨٨١٠ ترجمة ابن مسعود، والطبقات الكبرى: ٢/

فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في علي وفي ولديه، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل،

---

٢٥٦ ذكر من كان يفتي بالمدينة من أصحاب الرسول ﷺ).
- وحديث كون علي وفاطمة في درجة الرسول يوم القيامة راجع كنز العمال: ١٣/ ٦٣٩ ح ٣٧٦١٢ فضائل أهل البيت، ومجمع الزوائد: ٩/ ١٦٩ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيقمجمع الزوائد: ٩/ ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧١ - ٢٧٦ ح ١٤٩٩١ - ١٥٠٠٤ - ١٥٠٢٢ كتاب المناقب)، فروه في أبي بكر (حلية الاولياء: ٢/ ٣٣ ترجمة أبو بكر، وتاريخ الخميس: ١/ ٣٢٧ الفصل الأول من الموطن الأول من الركن الثالث).
- ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن داود الواسطي عن عبد الرحمن عن جابر عن أبي بكر في حق عمر قال له: يا خير الناس بعد رسول الله.
فقال أبو بكر: أما إنك إن قلت ذاك، فلقد سمعت رسول الله يقول ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر (المستدرك: ٣/ ٩٠ ذيل مناقب عمر، ومجمع الزوائد: ٩/ ٤٤ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ٢٤ - ٤٠ ح ١٤٣١٤ - ١٤٣٥٧ كتاب المناقب وضعف بعض رواته وكذب البعض).
فتقدم ما تواتر من الروايات في كون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الناس والبشر ومن أبى فقد كفر على أن عبد الله ضعفوه وعبد الرحمن تكلموا فيه وكما قال الذهبي: الحديث شبه موضوع (تلخيص المستدرك: ٣/ ٩٠ مناقب عمر).
- وكحديث أن علي أول من يدخل الجنة (عن عمر: «يا علي يدك في يدي تدخل معي الجنة يوم القايمة حيث أدخل» تلخيص المتشابه في الرسم للخطيب: ١/ ٣٧ رقم ٢٧ الفصل الأول)، فجعلوه في أبي بكر (لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٣١٦ فصل في ذكر الصحابة - تفضيل الصديق).
- وحديث الدواة والكتف عند وفاة الرسول فرووه في أبي بكر: آتوني بدواة وكتف لأكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه من بعدي (التبيين في أنساب القرشيين: ٢٧٣ - أبو بكر).
ولو صح هذا فلماذا اعترض عمر ووصف النبي بالهجر؟! إلاّ أن نقول أن عمر كان يرغب فيها لنفسه (تقدم الكلام في ذلك).
- وكحديث وضوء علي من قدح الذهب والمنديل الذي جاء به جبرائيل (مناقب ابن المغازلي: ٧٩ ط. بيروت و٩٤ ح ١٣٩ ط. النجف)، فرووه في أبي بكر (الفوائد المجموعة: ٣٣١ باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ٢، وقال: هو حديث موضوع، واللآليء المصنوعة: ١/ ٢٨٩ مناقب الخلفاء الأربعة ونقل وضعه عن الحفاظ).
- وكحديث شهرة علي في السماء أكثر من الأرض (كنز الفوائد: ٢٦٠)، رووه في أبي بكر (الفوائد المجموعة: ٣٣٢ باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ٩، ونقل عن الحفاظ أنه موضوع وإسناده مظلم، واللآليء المصنوعة: ١/ ٢٩٤ مناقب الخلفاء الأربعة ونقل وضعه وضعفه عن الحفاظ).
- وكحديث نصب الكرسي على العرش لعلي بين إبراهيم ومحمد (ذخائر العقبى: ٩٠ ذكر قصره في الجنة) فرووه في أبي بكر (الفوائد المجموعة: ٣٣٣ باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ١١، ونقل بطلانه، واللآليء المصنوعة: ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦ مناقب الخلفاء الأربعة ونقل وضعه وضعفه عن الحفاظ).
- وكحديث وجود اسم علي مع اسم محمد في السماء، فرووه في أبي بكر وعمر بل وفي عثمان (الفوائد المجموعة: ٣٣٣ - ٣٣٩ - ٣٤٢ باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ١٢ - ٢٧ - ٣٨، ونقل بطلانه ووضعه من الحفاظ، ومجمع الزوائد: ٩/ ٤١ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ١٩ - ٤٨ ح ١٤٢٩٦ - ١٤٣٨٣ كتاب المناقب وضعف بعض رواته، واللآليء المصنوعة: ١/ ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣٠٩ مناقب الخلفاء الأربعة ونقل وضعه وتضعيفه عن الحفاظ).
=

وتارة إلى ضعف السياسة، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها، ولقد كان الفريقان في غنية

= ـ وكحديث رجحان إيمان علي على الناس فرووه في أبي بكر (الفوائد المجموعة: ٣٣٥ باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ١٨، ونقل بطلانه).

ـ وكحديث التفاحة التي خرجت منها الجارية لعلي (مسند شمس الاخبار: ١/ ٨٨ الباب الخامس بإسناده إلى عبد الوهاب)، فرووه في عثمان (الفوائد المجموعة: ٣٤٠ باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ٣١، ونقل بطلانه ووضعه، واللآلىء المصنوعة: ١/ ٣١٢ ـ ٣١٤ مناقب الخلفاء الأربعة ونقل عدم صحته عن ابن الجوزي ـ وقال ابن حجر في الميزان: موضوع ـ وقال ابن حبان: لا أصل له).

ـ وكحديث أنت وليّي في الدنيا والآخرة (كما يأتي في نص الغدير) رووه في عثمان (الفوائد المجموعة: ٣٤١ باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ٣٥، ونقل بطلانه ووضعه، والبيان والتعريف في أسباب ورود الحديث: ٣/ ٥ ح ١١٧١ ويلاحظ الهامش ـ قال: أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال: لا أصل له ولا صحة، واللآلىء المصنوعة: ١/ ٣١٧ مناقب الخلفاء الأربعة ونقل وضعه عن ابن الجوزي وتضعيفه عن ابن حبان).

ـ وكحديث سؤال الله للنبي عن من خلّفه لأمته فقال: تركت علياً (مناقب الخوارزمي: ٣٠٣ ح ٢٩٩، وإرشاد القلوب: ٢/ ٢٧٣)، فرووه في أبي بكر (الفردوس بمأثور الخطاب: ٣/ ٤٢٩ ح ٥٣١٤ ط. دار الكتب العلمية).

ـ وحديث عدم معاتبة الله لعلي في شيء ومعاتبة بقية الأصحاب (مجمع الزوائد: ٩/ ١١٢ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ١٤٤ ح ١٤٦٦٠ كتاب المناقب عن الطبراني، وفضائل الصحابة لأحمد: ٢/ ٦٥٤ ح ١١١٤ مناقب علي)، فرووه في أبي بكر (شرح الشمائل المحمدية: ٢/ ٢٢٧ باب ما جاء في وفاة النبي).

ـ وحديث قتل علي لمرحبة أخرجه مسلم والحاكم وقال: الأخبار متواترة على أن قاتل مرحبة علي (صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير ـ باب غزوة ذي قردة ح ١٨٠٧ والمستدرك: ٣/ ٤٣٦ مناقب محمد بن مسلمة من كتاب المعرفة)، فرووه في محمد بن سلمة (المستدرك: ٣/ ٤٣٦ مناقب محمد بن مسلمة من كتاب المعرفة، ومسند أبي يعلى: ٣/ ٣٨٥ ح ١٨١٦).

ـ وآية: (والذي جاء بالصدق وصدق به) في علي (الشفا: ١/ ٢٣)، قالوا أنه أبو بكر (لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٣١٣ فصل في ذكر الصحابة ـ تفضيل الصديق)، روي عن موسى بن عمير وهو واه كما قال الذهبي (تلخيص المستدرك: ٣/ ٧٠ كتاب معرفة الصحابة مناقب أبي بكر).

ـ وكحديث الحديقة أو القصر التي رآها النبي في الجنة لعلي (المصنف لابن أبي شيبة: ٦/ ٣٧٤ ح ٣٢١٠٢ كتاب الفضائل ـ فضائل علي، ومسند البزار: ٢/ ٢٩٣ ح ٧١٦ وبالهامش صححه الحاكم والذهبي، ومجمع الزوائد: ٩/ ١١٨ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ١٥٥ ح ١٤٦٩٠ كتاب المناقب، وفضائل الصحابة لأحمد: ٢/ ٦٥١ ح ١١٠٩ مناقب علي، ومسند أبي يعلى: ١/ ٤٢٧ ح ٥٦٥ مسند علي وبالهامش رجاله ثقات سوى الفضل القيسي وثقه ابن حبان، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: ٣/ ١٣٩ كتاب المعرفة ـ مناقب علي، والمقصد العلي: ٣/ ١٨٠ ح ٣١٢١ والمطالب العالية: ٤/ ٦٠، وتاريخ بغداد: ١٢/ ٣٩٤) رووها في عمر (ذيل تاريخ بغداد: ١٩/ ٥٠ ترجمة ابن المغازلي رقم ٨٥٥).

ـ وحديث أن أهل البيت في قبة من ياقوتة تحت العرش (الفردوس: ٤/ ١٦٢ ح ٤٢٨٤، واللآلىء المصنوعة: ١/ ٣٩٢)، فرووه في أبي بكر من طريق الذراع الكذاب الدجال كما يقول الدارقطني، وقال ابن الجوزي والخطيب: الحديث باطل ـ موضوع لا أصل له (آفة أصحاب الحديث لأبي الفرج بن الجوزي: =

عمّا اكتسباه واجترحاه.

أقول: ولقد أجاد الشارح فيما نقل وأفاد إلا أن ما قاله أخيراً في ذيل قوله: واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل إلى آخر كلامه غير خال من الوهم والخبط.

وذلك أنّا لا ننكر صدور بعض المفتريات والأحاديث الموضوعة من غلاة الشيعة وجهاً لهم ومما لا مبالاة له في الدين كما صدر أكثر بكثير من هذه من علماء العامة وجهاً لهم وأكابرهم وأصاغرهم حسبما تعرفه في التنبيه الآتي إن شاء الله تعالى.

لكن الأحاديث الخاصة التي أشار إليها بخصوصها من حديث السطل والرمانة وغزوة الجن وغسل سلمان والجمجمة وحديث الطوق واللوح والصحيفة الملعونة والشيخ الذي سبق إلى بيعة أبي بكر لا دليل على وضع شيء منها، بل قد روى بعضها المخالف والموافق جميعاً كحديث السطل.

= ١٢٥ الباب السادس، واللآليء المصنوعة: ١/ ٢٩٢ مناقب الخلفاء الأربعة).

ـ وكحديث معرفة الإمام علي لصوت الخضر عليه السلام عندما جاء يعزي أهل البيت بموت النبي (صلى الله عليه وآله) (أخرجه البيهقي في الدلائل والغزالي في الإحياء عن ابن عمر وابن أبي الدنيا عن أنس والحاكم راجع مشارق الأنوار للحمزاوي: ٧٧ الفصل الأول من الباب الأول ـ الخاتمة، والذخائر المحمدية: ٣٩٤ عن البيهقي، ورسالة الزهر النضر: ٢١٦، وأنساب الأشراف: ١/ ٥٦٤ ح ١١٤٥ ط. مصر و٢/ ٢٣٩ المحمودي، والإصابة: ١/ ٤٤٢، والمواهب اللدنية: ٣/ ٣٨٧، المطالب العالية: ٤/ ٢٥٩، وقصص الانبياء: ٤٣)، فرووه في أبي بكر

ـ وحديث المودة المستفيض في حق علي وفاطمة والحسنين، رووه في حق أبي بكر (تفسير آية المودة: ٥٦).

وحديث أهل بيتي أمان لأمتي أخرج الحاكم عن المكندر عن أبيه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ضمن حديثه عن الصلاة قال: .. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: « النجوم أمان لأهل السماء فإن طمست النجوم أتى السماء ما يوعدون، وأنا أمان لأصحابي فإذا قبضت أتى أصحابي ما يوعدون، وأهل بيتي أمان لأمتي فإذا ذهب أهل بيتي أتى أمتي ما يوعدون » (مستدرك الصحيحين: ٣/ ٤٥٧ ذكر مناقب المكندر، ونوادر الأصول باختصار: ٣/ ٦٦ الأصل ٢٢٢).

فرووه مع قصة الصلاة ورفع رأس النبي (صلى الله عليه وآله) إلى السماء بلفظ: «وأصحابي أمنة لأمتي ..» (مسند أحمد: ٤/ ٣٩٩ ط. م و٥/ ٥٤٣ ح ١٩٠٧٢ ط. بيروت).

ـ ومن ذلك سرقة رثاء فاطمة للنبي المشهور: «ماذا على من شم تربة أحمد» حيث نسبوه لعائشة (شرح الشمائل المحمدية: ٢/ ٢٣١ ذيل باب ما جاء في وفاة النبي).

ـ ومن ذلك سرقة زهد أمير المؤمنين (عليه السلام) وزيارته للقبور حيث روى المفسر المشهور الثعلبي وابن حبان دخول علي المقابر وقوله: « السلام عليكم يا أهل القبور أموالكم قسمت ..... فهتف هاتف: وعليكم السلام.... » (تفسير الثعلبي: ١/ ٢٥٨ مورد آية ١٠٩ من سورة البقرة، والثقات لابن حبان: ٩/ ٢٣٥). فرواه بعضهم نفسه عن عمر وذكر مقولته (كنز العمال: ١٥/ ٧٥١ ح ٤٢٩٧٧).

فقد رواه السيد المحدّث الناقد البصير السيد هاشم البحراني في كتاب **(غاية المرام)** في الباب السابع والتسعين منه بأربعة طرق من طرق العامة، وفي الباب الثامن والتسعين منه بأربعة طرق من طرق الخاصة.

وقد روي حديث الرمانة أيضاً في الباب السابع عشر ومائة منه بطريق واحد من طرق العامة، وفي الباب الذي يتلوه بطريق واحد أيضاً من طرق الخاصة.

وأما حديث غزوة الجن فقد مضى روايته في شرح الفصل الثامن من الخطبة المائة والإحدى والتسعين، وقد رواه الشيخ المفيد «ره» في الإرشاد بنحو آخر.

ولعل زعم الشارح وضعه مبنيّ على أصول المعتزلة.

ولقد أبطله المفيد في **(الإرشاد)** فإنه بعدما قال في عداد ذكر مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ومن ذلك ما تظاهر به الخبر من بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى وادي الجن وقد أخبره جبريل عليه السلام أن طوائف منهم قد اجتمعوا لكيده فأغنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وكفى الله المؤمنين به كيدهم ودفعهم عن المسلمين بقوته التي بان بها عن جماعتهم[(١)].

ثم روي الحديث عن محمد بن أبي السري التميمي عن أحمد بن الفرج عن الحسين بن موسى النهدي عن أبيه عن وبرة بن الحرث عن ابن عباس وساق الحديث إلى آخره قال بعد روايته ما هذا لفظه:

وهذا الحديث قد روته العامة كما روته الخاصة، ولم يتناكروا شيئاً منه والمعتزلة لميلها إلى مذهب البراهمة تدفعه ولبعدها عن معرفة الأخبار تنكره وهي سالكة في ذلك طريق الزنادقة فيما طعنت به في القرآن وما تضمنه من أخبار الجن وإيمانهم بالله ورسوله وما قصّ الله من نبأهم في القرآن في سورة (الجن) وقولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [١ـ ٢] إلى آخر ما تضمّنه الخبر عنهم في هذه السورة.

وإذا بطل اعتراض الزنادقة في ذلك بتجويز العقول وجود الجن وإمكان تكليفهم وثبوت ذلك مع إعجاز القرآن والأعجوبة الباهرة فيه كان مثل ذلك ظهور بطلان طعون المعتزلة في الخبر الذي رويناه، لعدم استحالة مضمونه في العقول وفي مجيئه من طريقين مختلفين وبرواية فريقين في دلالته متباينين برهان صحته.

وليس إنكار من عدل عن الإنصاف في النظر من المعتزلة والمجبّرة قدح فيما ذكرناه من وجوب العمل عليه.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٩/ ١٧٦، والإرشاد: ١/ ٣٣٩.

كما أنه ليس في جحد الملاحدة وأصناف الزنادقة اليهود والنصارى والمجوس والصابئين ما جاء صحته من الأخبار بمعجزات النبي ﷺ كانشقاق القمر وحنين الجذع وتسبيح الحصى في كفه وشكوى البعير وكلام الذراع ومجيء الشجرة وخروج الماء من بين أصابعه في الميضأة وإطعام الخلق الكثير من الطعام القليل قدح في صحتها وصدق رواتها وثبوت الحجة بها.

بل الشبهة لهم في دفع ذلك وإن ضعفت أقوى من شبهة منكري معجزات أمير المؤمنين عليه السلام وبراهينه لما لا خفاء عليها وعلى أهل الاعتبار به مما لا حاجة إلى شرح وجوهه في هذا المكان.

ثم قال قدّس الله روحه بعد جملة من الكلام:

ولا أزال أجد الجاهل من الناصبة والمعاند يظهر التعجب من الخبر بملاقاة أمير المؤمنين عليه السلام الجن وكفه شرهم عن النبي ﷺ وأصحابه ويتضاحك لذلك وينسب الرواية له إلى الخرافات الباطلة، ويضع مثل ذلك في الأخبار الواردة بسوى ذلك من معجزاته عليه السلام ويقول: إنه من موضوعات الشيعة وتخرّص من افتراه منهم للتكسب بذلك أو التعصب[1].

وهذا بعينه مقال الزنادقة كافة وأعداء الإسلام فيما نطق به القرآن من خبر الجن وإسلامهم في قوله تعالى: ﴿ يَهْدِيَ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [١ـ٢].

وفيما ثبت به الخبر عن ابن مسعود في قصة ليلة الجن ومشاهدته لهم كالزّط، وفي غير ذلك من معجزات الرسول ﷺ، وأنهم يظهرون التعجّب من جميع ذلك ويتضاحكون عند سماع الخبر به والاحتجاج بصحته ويستهزؤون ويلغطون فيما يسرفون به من سبّ الإسلام وأهله واستحماق معتقديه والناصرين له ونسبتهم إياهم إلى العجز والجهل، ووضع الأباطيل.

فلينظر القوم ما جنوه على الإسلام بعداوتهم لأمير المؤمنين عليه السلام واعتمادهم في دفع فضائله ومناقبه وآياته على ما ضاهوا به أصناف الزنادقة والكفار مما يخرج عن طريق الحجاج إلى أبواب الشغب والمسافهات، انتهى كلامه رفع مقامه.

وبذلك كله ظهر أيضاً فساد زعم وضع حديث بيعة الشيطان لأبي بكر وظهوره بصورة شيخ وصعوده المنبر وسبقته إلى البيعة حسبما عرفت روايته تفصيلاً في المقدمة الثانية من مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

إذ الظاهر أن زعم وضعه أيضاً مبني على استبعاد ظهوره بصورة إنسان، ويدفع ذلك ما

(١) الإرشاد: ١/ ٣٤٤، والخرائج والجرائح: ١/ ٢٠٦.

اجتمع عليه أهل القبلة من ظهوره لأهل دار الندوة بصورة شيخ من أهل نجد واجتماعه معهم في الرأي على المكر برسول الله صلى الله عليه وآله وظهوره يوم بدر للمشركين في صورة سراقة بن جعشم[1] المدلجي وقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وأما سائر الأحاديث فلا استبعاد بشيء منها حتى يزعم وضعها، وقد أتى آصف بن برخيا الذي عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس بطيّ الأرض من مكان بعيد في طرفة عين، فكيف يستبعد في حق أمير المؤمنين عليه السلام الذي عنده علم الكتاب كله حسبما عرفت في غير موضع من تضاعيف الشرح حضوره عليه السلام بطيّ الأرض عند جنازة سلمان مع اختصاصه الخاص به عليه السلام وفوزه درجة السلمان منا أهل البيت.

وقد قال عليه السلام وهو أصدق القائلين في حال حياته ما رواه عنه المخالف والمؤالف:

يا حار همدان من يمت يرني ... من مؤمن أو منافق قبلا[2]

---

(١) «جعشم» في نسخة.

(٢) **حضور آل محمد عند كل ميت**

يمكن أن يستدل على ذلك بأمور:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا بلغت نفس أحدكم هذه قيل له: أمّا ما كنت تحزن مِن هَم الدنيا وحزنها فقد أمِنت منه ويقال له: أمَامَك رسول الله وعلي وفاطمة:» - بحار الأنوار: ٦/ ١٨٤ ح ١٧ باب ما يعاين المؤمن والكافر عند الموت، والكافي: ٣/ ١٣٤ ح ١٠.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **والذي نفسي بيده لا تفارق روح جسد صاحبها حتى يأكل من ثمر الجنة أو من شجر الزقوم، وحتى يرى ملك الموت ويراني ويرى علياً وفاطمة والحسن والحسين..**» أهل البيت لتوفيق ابو علم: ٦٨ . ٦٩ الباب الثاني، وبشارة المصطفى: ٦ ح ٧ مع تفاوت بسيط.

وفي قصة السيد الحميري ورؤيته لاميرالمؤمنين عليه السلام عند موته ما يزيد ذلك وانشد في ذلك شعراً:

كذب الزاعمون أن علياً ... لن ينجي محبه من هنات

قد وربي دخلت جنة عدن ... وعفا لي الاله عن سيئاتي

فابشروا اليوم اولياء علي ... وتولوا علي حتى الممات

ثم من بعده تولوا بنيه ... واحداً بعد واحد بالصفات

كشف الغمة: ٢/ ٣٩ . ٤٠ مناقب أميرالمؤمنين عليه السلام، والبحار: ٦/ ١٩٢ ح ٤٢ باب ما يعاني المؤمن والكافر عند الموت.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ويمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم:» بحار الأنوار: ٦/ ١٩٦ ح ٤٩.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا يموت ميت حتى يشاهده عليه السلام حاضراً عنده وانشد للحارث الهمداني:

يا حارِ همدان من يمت يرني ... من مؤمن او منافق قبلا

وبالجملة، فالأخبار المذكورة ليس على وضعها دليل من جهة العقل، ولا من جهة

يعرفني طرفه واعرفه بعينه واسمه وما فعلا
أقول للنار وهي توقد للـ ـعرض ذريه لا تقربي الرَّجُلا
ذريه لا تقربيه إن له حبلاً بحبل الوصي متصلا
وأنت يا حار إن تمت ترني فلا تخف عثرة ولا زللا
اسقيك من بارد على ظمأ تخاله في الحلاوة العَسَلا

شرح النهج لابن ابي الحديد: ١/ ٢٩٩ الخطبة ٢٠، ورسائل الشريف المرتضى: ٣/ ١٣٣.
والروايات في ذلك كثير. وهي تثبت حضور أصحاب الكساء عند كل ميت في آن واحد وفي أكثر من مكان، وأيضاً في إمكان رؤيتهم بروحهم وجسدهم وبمثاله.
وقد جوز ابن العربي رؤية النبي محمد ﷺ بجسمه وروحه وبمثاله الآن الحاوي للفتاوى: ٢/ ٤٥٠.
وقال تاج الدين السبكي لمن سأله عن رؤية القطب في اكثر من مكان: الرجل الكبير القطب يملأ الكون.
وانشد بعضهم:
كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا
الحاوي للفتاوي: ٢/ ٤٥٤.
وصرح السيوطي بإمكان رؤية الأنبياء يقظة الرسائل العشرة: ١٨، وشرح الشمائل المحمدية: ٢/ ٢٤٦.
وقال في الذخائر المحمدية: إن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ممكن لعامة أهل الأرض في ليلة واحدة الذخائر المحمدية: ١٤٦.
وأجاب الشيخ بدر الدين الزركشي عن سؤال له في آن واحد من اقطار متباعدة مع أن رؤيته ﷺ حق: بأنه ﷺ سراج ونور الشمس في هذا العالم، مثال نوره في العوالم كلها، وكما أن الشمس يراها من في المشرق والمغرب في ساعة واحدة وبصفات مختلفة، فكذلك النبي ﷺ. ولله در القائل:
كالبدر من اي النواحي جئته يهدي الى عينيك نوراً ثاقبا
المواهب اللدنية: ٢/ ٢٩٧ خصائص رسول الله ﷺ.
واستدل عليه الحافظ البرسي في مشارقه ببعض الآيات القرآنية فلتراجع مشارق أنوار اليقين: ١٤٢.
هذا، وتواتر حديث: «من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل مكاني. لا يستطيع أن يتمثل بي. لا يتكون في صورتي. لا يتشبه بي» المواهب اللدنية: ٢/ ٢٩٣ الى ٣٠١ ذكر خصائصه وذكر جملة من المصادر، وكشف الغمة: ٢/ ٢٦٩.
وقال العلماء في معناه: هو في الدنيا قطعاً ولو عند الموت لمن وفق لذلك الذخائر المحمدية: ١٤٧.
وروى الإمام الرضا عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «من رآني في منامه فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي ولا في صورة أحد من أوصيائي» كشف الغمة: ٣/ ١٢٠ فضائل الرضا، والأنوار النعمانية: ٤/ ٥٤.
وقال القاضي أبو بكر ابن العربي: رؤيته ﷺ بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال، فإن الصواب أن الأنبياء لا تغيرهم الأرض، ويكون ادراك الذات الكريمة حقيقة، وإدراك الصفات إدراك المثال المواهب اللدنية: ٢/ ٢٩٤ خصائص النبي ﷺ، وارشاد الساري: ١٤/ ٥٠٢.
وقال القسطلاني: فإن قلت: كثيراً يرى على خلاف صورته المعروفة ويراه شخصان في حالة واحدة في مكانين والجسم الواحد لا يكون إلاّ في مكان واحد.
أجيب: بأنه في صفاته لا في ذاته، فتكون ذاته عليه الصلاة والسلام مرئية، وصفاته متخيلة غير مرئية، فالادراك لا يشترط فيه تحديق الابصار ولا قرب المسافة، فلا يكون المرئي مدفوناً في الأرض ولا ظاهراً

النقل، فدعواه مكابرة محضة، فبالله التوفيق وعليه التكلان[١].

عليها، وإنما يشترط كونه موجوداً ارشاد الساري: ١٤/ ٥٠٣ .
ومن حال كثير من العلماء وقصصهم يعلم امكان رؤية النبي وأهل بيته: ، وكما ذكر ذلك في محله راجع المواهب اللدنية: ٢/ ٢٩٧ - ٣٠١، وينابيع المودة: ٢/ ٥٥١ - ٥٥٤، وكشف الغمة: ١/ ٢٣٩ - ٣٨٣، والزام الناصب: / ٣٤٠ الى ٤٢٧ ، ودلائل الامامة: ٢٧٣ الى ٢٨٨ و٢٩٤ الى ٣٢٠.
قال الشيخ المرسي: لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.المواهب اللدنية: ٢/ ٣٠٠ خصائص النبي ﷺ .
ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: «إن للشمس وجهين وجه يلي أهل السماء ووجه يلي أهل الأرض، فالامام مع الخلق كلهم لا يغيب عنهم ولا يحجبون عنه»مشارق انوار اليقين: ١٣٩ .
وعن الإمام الصادق ﷺ: «الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق» كمال الدين: ١/ ٢٢١ باب ٢٢ ح ٥ ، والانسان الكامل: ٨٧.
وعن علي بن موسى الرضا ﷺ قال لمن سأله أن يدعو له: «أولست افعل؟ والله إن أعمالكم لتعرض علي في كل يوم وليلة» أصول الكافي: ١/ ٢١٩ عرض الاعمال على النبي ح ٤ .
وأخرج عبدالرزاق عن رسول الله ﷺ: «انتم تعرضون علي باسمائكم وسيمائكم» المصنف: ٢/ ٢١٤ ح ٣١١١ عن مجاهد .
واخرج البخاري في الادب المفرد عن أبي ذر أنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«عرضت علي أعمال أمتي - حسنها وسيئها - فوجدت محاسن اعمالهم» الادب المفرد: ٨٠ ح ٢٣١ باب إماطة الأذى ١١٦ .
واخرج الحارث والبزار عن رسول الله ﷺ: «حياتي خير لكم تحدثون ونحدث لكم وموتي خير لكم تعرض علي أعمالكم» المطالب العالية: ٤/ ٢٢ ح ٣٨٥٣ .
ويؤيد ذلك ما روي عن أمير المؤمنين ﷺ عندما قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، اسألوني عن طرق السموات، فإني أعرَف بها مني بطرق الأرض» .
فقام رجل من القوم فقال: يا أمير المؤمنين اين جبرائيل هذا الوقت؟
فقال: «دعني انظر، فنظر الى فوق وإلى الأرض يمنة ويسرة، فقال ﷺ: «أنت جبرائيل» .
فطار من بين القوم شق سقف المسجد بجناحه، فكبر الناس وقالوا: الله أكبر يا أمير المؤمنين من أين علمت أن هذا جبرائيل .
فقال: «إني لما نظرت الى السماء بلغ نظري ما فوق العرش والحجب، ولما نظرت الى الأرض خرق بصري طبقات الأرض الى الثرى، ولما نظرت يمنة ويسرة رأيت ما خلق ولم أرَ جبرائيل في هذه المخلوقات، فعلمت انه هو» الأنوار النعمانية: ١/ ٣٢ .
وهذا يدل على إمكان إحاطة الأمير بالكون بأجمعه في لحظة واحدة.
وقال الإمام الصادق في حق الإمام الكاظم ٨: «بلغ ما بلغه ذوالقرنين وجازه بأضعاف مضاعفة، فشاهد كل مؤمن ومؤمنة» الهداية الكبرى للخصيبي: ٢٧٠ باب ٩ .
(١) هنا آخر المجلد السادس على ما في الطبعة الأولى.

المجلد السابع من منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة

الثالث
في جملة من الأخبار الموضوعة

فأقول: أما الأخبار الخاصية فقد دسّ فيها بعض الأخبار الموضوعة، وضعها الغلاة والمغيرية والخطابية والصوفية وأمثالهم من أهل الفساد في العمل والاعتقاد، ومن ذلك اهتمّ علماؤنا الأخيار غاية الاهتمام بحفظ الأخبار وضبطها ونقدها وتمييز غثّها من سمينها وصحيحها من سقيمها، وقسّموها إلى الصحيح والموثق والحسن والضعيف، وصنّفوا كتباً في علم الدراية وعلم الرجال، وقد أشير إلى ما ذكرنا في مؤلفات أصحابنا وأخبار أئمتنا سلام الله عليهم.

وأرشدك إلى بعض ما رواه في **(البحار)** من رجال الكشي عن محمد بن قولويه والحسن بن الحسن بن بندار معاً عن سعد عن اليقطيني عن يونس بن عبد الرحمٰن أن بعض أصحابنا سأله وأنا حاضر فقال له: يا أبا محمد ما أشدّك في الحديث وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا، فما الذي يحملك على ردّ الأحاديث؟ فقال: حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنّة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي فاتّقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنّة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، فإنا إذا حدّثنا قلنا: قال الله عز وجل، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله، قال يونس: وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم فعرضتها بعد على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام، وقال لي: إن أبا الخطاب كذّب على أبي عبد الله عليه السلام فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنا إن حدثنا حدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنّة إما عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله نحدّث، ولا نقول: قال فلان وفلان فيتناقض كلامنا، إن كلام آخرنا مثل كلام أوّلنا وكلام أوّلنا مصداق لكلام آخرنا، وإذا أتاكم من يحدّثكم بخلاف ذلك فردّوه عليه وقولوا: أنت أعلم وما جئت به، فإن مع كل قول منا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك قول الشيطان[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٢٥٠، والرسائل الفقهية: ٢٠٣.

وفي (البحار) أيضاً عن الكشي بهذا الإسناد عن يونس عن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان المغيرة بن سعيد يتعمّد الكذب على أبي ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة، فكان يدسّ فيها الكفر والزندقة ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه فيأمرهم أن يبثوها في الشيعة، فكلما كان في كتب أصحاب أبي من الغلوّ فذاك مما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم(١).

وفيه أيضاً عن الكشي بإسناده عن زرارة قال: قال ـ يعني أبا عبد الله عليه السلام ـ: إن أهل الكوفة نزل فيهم كذّاب، أما المغيرة فإنه يكذّب على أبي يعني أبا جعفر قال: حدّثه أن نساء آل محمد إذا حضن قضين الصلاة، وإن والله عليه لعنة الله ما كان من ذلك شيء ولا حدّثه، وأما أبو الخطاب فكذب عليّ وقال: إني أمرته أن لا يصلي هو وأصحابه المغرب حتى يروا كواكب كذا، فقال القنداني: والله إن ذلك لكوكب ما أعرفه(٢).

وأما الأخبار العامية

فالموضوعة فيها أكثر من أن تحصى، وقد تقدم الإشارة إلى بعضها في التنبيهات السابقة من الشهيد والشارح المعتزلي وسبق بعضها في شرح الكلام السابق، ووقعت الإشارة إلى جملة منها فيما رواه في الاحتجاج.

قال: وروي أن المأمون بعدما زوّج ابنته أم الفضل أبا جعفر عليه السلام كان في مجلس وعنده أبو جعفر عليه السلام ويحيى بن أكثم وجماعة كثيرة.

فقال له يحيى بن أكثم: ما تقول يا ابن رسول الله في الخبر الذي روي أنه نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد إن الله يقرؤك السلام، ويقول لك: سل أبا بكر هل هو عني راض فإني راض عنه.

فقال أبو جعفر عليه السلام: إني لست بمنكر فضل أبي بكر ولكن يجب على صاحب هذا الخبر أن يأخذه مثل الخبر الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: «قد كثرت عليّ الكذّابة واستكثر فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنّتي فلا تأخذوا به»، وليس يوافق هذا الحديث كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، فالله تعالى خفي عليه رضا أبي بكر من سخطه حتى سأل عن مكنون سرّه؟، هذا مستحيل في العقول.

---

(١) تحف العقول: ٣١١، وبحار الأنوار: ٢٠/ ٢٥٠ ح ٦٣.
(٢) بحار الأنوار: ٢/ ٢٥١، وتسديد الأصول: ٢/ ٧٧.

ثم قال يحيى بن أكثم: وقد روي أن مثل أبي بكر وعمر في الأرض كمثل جبريل وميكائيل في السماء.

فقال عليه السلام: وهذا أيضاً يجب أن يُنظر فيه، لأن جبريل وميكائيل ملكان مقرّبان لم يعصيا الله قط ولم يفارقا طاعته لحظة واحدة، وهما قد أشركا بالله عز وجل وإن أسلما بعد الشرك، فكان أكثر أيامهما الشرك بالله فمحال أن يُشبها بهما.

قال يحيى: وروي أيضاً أنهما سيدا كهول أهل الجنة فما تقول فيه؟

فقال عليه السلام: وهذا الخبر محال أيضاً، لأن أهل الجنة كلهم يكونون شباناً ولا يكون فيهم كهل، وهذا الخبر وضعه بنو أمية لمضادّة الخبر الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله في الحسن والحسين عليهما السلام: بأنهما سيدا شباب أهل الجنة.

فقال يحيى بن أكثم: وروي أن عمر سراج أهل الجنة[1].

فقال عليه السلام: وهذا أيضاً محال، لأن في الجنة ملائكة الله المقرّبين وآدم ومحمد صلى الله عليه وآله، وجميع الأنبياء والمرسلين لا تضيء بأنوار حتى تضيء بنور عمر.

فقال يحيى: وقد روي أن السكينة تنطق على لسان عمر[2].

فقال عليه السلام: لست بمنكر فضله ولكن أبا بكر أفضل من عمر وقد قال على رأس المنبر: إن لي شيطاناً يعتريني فإذا ملت فسددوني.

فقال يحيى: قد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لو لم أُبعث لبُعث عمر».

فقال عليه السلام: كتاب الله أصدق من هذا، يقول الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، فقد أخذ الله ميثاق النبيين، فكيف يمكن أن يبدّل ميثاقه، وكل الأنبياء لم يشركوا بالله طرفة عين فكيف يبعث بالنبوة من أشرك وكان أكثر أيامه مع الشرك بالله، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نُبئت وآدم بين الروح والجسد».

فقال يحيى بن أكثم: وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ما احتبس الوحي عني قطّ إلا ظننته قد نزل على آل الخطاب».

فقال عليه السلام: وهذا أيضاً محال، لأنه لا يجوز أن يشك النبي صلى الله عليه وآله في نبوّته، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فكيف يمكن أن تنتقل النبوّة ممن اصطفاه الله إلى من أشرك به؟.

---

(١) وهو حديث موضوع كما ذكر الفتني في تذكرة الموضوعات: ٩٤.

(٢) انظر المسترشد للطبري: ١٨٥.

قال يحيى: وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لو نزل العذاب لما نجىٰ منه إلاّ عمر بن الخطاب».

فقال عليه السلام: وهذا أيضاً محال، لأن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣] فأخبر الله تعالى أنه لا يعذّب أحداً ما دام فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وما داموا يستغفرون الله تعالى(١).

وأُشير إلى جملة أخرى أيضاً فيما رواه في **(البحار من عيون الأخبار)** عن أبيه وابن الوليد عن محمد العطار وأحمد بن إدريس معاً عن الأشعري عن صالح بن أبي حماد الرازي عن إسحاق بن حاتم عن إسحاق بن حماد بن زيد، قال: سمعنا يحيى بن أكثم القاضي قال:

أمرني المأمون بإحضار جماعة من أهل الحديث وجماعة من أهل الكلام والنظر، فجمعت له من الصنفين زهاء أربعين رجلاً، ثم مضيت بهم فأمرتهم بالكينونة في مجلس الحاجب لأعلمه بمكانهم، ففعلوا فأعلمته فأمرني بإدخالهم ففعلت فدخلوا وسلّموا فحدّثهم ساعة وآنسهم.

ثم قال: إني أُريد أن أجعلكم بيني وبين الله في هذا اليوم حجّة فما أحد تقرّب إلى مخلوق بمعصية الخالق إلا سلّطه الله عليه فناظروني بجميع عقولكم إني رجل أزعم أن علياً خير البشر بعد النبي صلى الله عليه وآله فإن كنت مصيباً فصوّبوا قولي، وإن كنت مخطئاً فردّوا عليّ وهلموا فإن شئتم سألتكم وإن شئتم سألتموني.

فقال له الذين يقولون بالحديث: بل نسأل.

فقال: هاتوا وقلّدوا كلامكم رجلاً منكم فإذا تكلم فإن كان عند أحدكم زيادة فليزد وإن أتى بخلل فسدّدوه.

فقال قائل منهم: أما نحن فنزعم أن خير الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله أبو بكر من قبل أن الرواية المجمع عليها جاءت عن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»، فلما أمر نبي الرحمة بالاقتداء بهما علمنا أنه لم يأمر إلا بالاقتداء بخير الناس.

فقال المأمون: الروايات كثيرة ولا بد من أن كلها حقاً أو كلها باطلاً أو بعضها حقاً وبعضها باطلاً، فلو كانت كلها حقاً كانت كلها باطلاً من قبل أن بعضها ينقض بعضاً، ولو كانت كلها باطلاً كان في بطلانها بطلان الدين ودروس الشريعة. فلما بطل الوجهان ثبت الثالث بالاضطرار وهو أن بعضها حق وبعضها باطل فإذا كان كذلك فلا بد من دليل على ما يحق منها ليعتقد وينفي خلافه، فإذا كان دليل الخبر في نفسه حقاً كان أولى ما أعتقد وآخذ به

(١) بحار الأنوار: ٥٠/ ٨٣، وموسوعة الإمام الجواد «ع»: ٢/ ٢٣٧ ح ١.

وروايتك هذه من الأخبار التي أدلّتها باطلة في نفسها، وذلك إن رسول الله ﷺ أحكم الحكماء وأولى الخلق بالصدق وأبعد الناس من الأمر بالمحال وحمل الناس على التّدين بالخلاف وذلك إن هذين الرجلين لا يخلو من أن يكونا متفقين من كل جهة أو مختلفين، فإن كانا متفقين من كل جهة كانوا واحداً في العدد والصفة والصورة والجسم، وهذا معدوم أن يكون اثنان بمعنى واحد من كل جهة، وإن كانا مختلفين فكيف يجوز الاقتداء بهما، وهذا تكليف ما لا يطاق لأنك إذا اقتديت بواحد خالفت الآخر، والدليل على اختلافهما إن أبا بكر سبى أهل الردة وردهم عمر أحراراً، وأشار عمر إلى أبي بكر بعزل خالد وبقتله بمالك بن نويرة فأبى أبو بكر عليه، وحرّم عمر المتعة ولم يفعل ذلك أبو بكر، ووضع عمر ديوان العطية ولم يفعله عمر، واستخلف أبو بكر ولم يفعل ذلك عمر، ولهذا نظائر كثيرة[1].

قال الصدوق رضي الله عنه: في هذا فصل لم يذكره المأمون لخصمه وهو أنهم لا يرووا أن النبي ﷺ قال: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»، وإنما رووا: أبو بكر وعمر وروى أبا بكر وعمر، فلو كانت الرواية صحيحة لكان معنى قوله بالنصب اقتدوا باللذين من بعدي كتاب الله والعترة يا أبا بكر وعمر، ومعنى قوله بالرفع: اقتدوا أيها الناس وأبو بكر وعمر باللذين من بعدي كتاب الله والعترة. رجعنا إلى حديث المأمون.

فقال آخر من أصحاب الحديث: فإن النبي ﷺ قال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً».

فقال المأمون: هذا مستحيل من قبل أن رواياتكم أنه ﷺ آخى بين أصحابه وأخّر علياً عليه السلام فقال له في ذلك فقال ﷺ: «ما أخّرتك إلا لنفسي»، فأي الروايتين تثبت بطلت الأخرى.

قال آخر: إن علياً عليه السلام قال على المنبر: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر.

قال المأمون: هذا مستحيل من قبل أن النبي ﷺ لو علم أنهما أفضل ما ولى عليهما مرة عمرو بن العاص، ومرة أسامة بن زيد، ومما يكذب هذه الرواية قول عليه السلام: قبض النبي ﷺ وأنا أولى بمجلسه مني بقميصي ولكني أشفقت أن يرجع الناس كفاراً. وقوله عليه السلام: أنى يكونان خيراً مني وقد عبدت الله عز وجل قبلهما وعبدته بعدهما؟.

قال آخر: فإن أبا بكر أغلق بابه فقال: هل من مستقيل فأقيله؟ فقال عليه السلام: قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا يؤخّرك؟.

فقال المأمون: هذا باطل من قبل أن علياً عليه السلام قعد عن بيعة أبي بكر ورويتم أنه عليه السلام قعد عنها حتى قبضت فاطمة عليها السلام وأنها أوصت أن تدفن ليلاً لئلا يشهدا جنازتها،

---

(١) مواقف الشيعة: ١/ ٢٩٥، والمناظرات في الإمامة: ٢٢١.

ووجه آخر وهو أنه إن كان النبي ﷺ استخلفه فكيف كان له أن يستقيل وهو يقول للأنصاري: «قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أبا عبيدة وعمر».

قال آخر: إن عمرو بن العاص قال: يا رسول الله من أحب الناس إليك من النساء؟ فقال: «عائشة»، فقال: من الرجال؟ فقال: «أبوها».

فقال المأمون: هذا باطل من قبل أنكم رويتم أن النبي ﷺ وضع بين يديه طائر مشويّ فقال ﷺ: «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك»، فكان علي عليه السلام فأي روايتكم نقبل؟!.

فقال آخر: فإن علياً عليه السلام قال: من فضّلني على أبي بكر جلدته حد المفتري.

قال المأمون: كيف يجوز أن يقول علي عليه السلام: أجلد الحد من لا يجب عليه الحد، فيكون متعدياً لحدود الله عز وجل، عاملاً بخلاف أمره، وليس تفضيل من فضله عليه السلام عليهما فرية، وقد رويتم عن إمامكم أنه قال: وليتكم ولست بخيركم فأي الرجلين أصدق عندكم أبو بكر على نفسه أو علي عليه السلام على أبي بكر مع تناقض الحديث في نفسه، ولا بد له من قوله من أن يكون صادقاً أو كاذباً، فإن كان صادقاً فإن عرف ذلك بالوحي فالوحي منقطع أو بالنظر فالنظر متحيّر منحّت؛ وإن كان غير صادق فمن المحال أن يلي أمر المسلمين ويقوم بأحكامهم ويقيم حدودهم وهو كذاب.

قال آخر: فقد جاء أن النبي ﷺ قال: «إن أبا بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة».

قال المأمون: هذا الحديث محال لأنه لا يكون في الجنة كهل، ويروى أن أشجعية كانت عند النبي، فقال ﷺ: «لا يدخل الجنة عجوز»، فبكت، فقال النبي ﷺ: إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]»، فإن زعمتم أن أبا بكر ينشأ شاباً إذا دخل الجنة فقد رويتم أن النبي ﷺ قال للحسن والحسين: «إنهما سيّدا شباب أهل الجنة من الأولين والآخرين وأبوهما خير منهما».

قال آخر: قد جاء أن النبي ﷺ قال: «لو لم أبعث فيكم لبُعث عمر».

قال المأمون: هذا محال لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] فهل يجوز أن يكون من لم يؤخذ[1] ميثاقه على النبوّة مبعوثاً ومن أخذ ميثاقه على النبوة مؤخراً؟!.

قال آخر: إن النبي ﷺ نظر إلى عمر يوم عرفة فتبسّم وقال: إن الله تعالى باهى بعباده عامة وبعمر خاصة.

---

(١) «منه» في نسخة.

فقال المأمون: فهذا مستحيل من قبل أن الله تعالى لم يكن ليباهي بعمر ويدع نبيه ﷺ فيكون عمر في الخاصة والنبي ﷺ في العامة، وليست هذه الرواية بأعجب من روايتكم أن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة فسمعت خفق نعلين فإذا بلال مولى أبي بكر قد سبقني إلى الجنة»، وإنما قالت الشيعة: علي عليه السلام خير من أبي بكر، فقلتم: عبد أبي بكر خير من رسول الله ﷺ لأن السابق أفضل من المسبوق، وكما رويتم أن الشيطان يفرّ من حس عمر، وألقي على لسان النبي ﷺ أنهن الغرانيق العُلى ففرّ من عمر، وألقي على لسان النبي ﷺ بزعمكم الكفر.

قال آخر: قال النبي ﷺ: «لو نزل العذاب ما نجا إلا عمر بن الخطاب».

قال المأمون: هذا خلاف الكتاب أيضاً، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فجعلتم عمر مثل الرسول ﷺ.

قال آخر: فقد شهد النبي ﷺ لعمر بالجنة في عشرة من الصحابة.

فقال: لو كان هذا كما زعمت كان عمر لا يقول لحذيفة: نشدتك بالله أمن المنافقين أنا؟ فإن كان قال له: أنت من أهل الجنة ولم يصدّقه حتى زكاه حذيفة وصدق حذيفة ولم يصدق النبي فهذا على غير الإسلام، وإن كان قد قصد النبي ﷺ فلم سأل حذيفة؟ وهذان الخبران متناقضان في أنفسهما.

فقال آخر: فقد قال النبي ﷺ: «وضعت أمتي في كفة الميزان ووضعت في أخرى فرجّحت بهم، ثم مكاني أبو بكر فرجح بهم، ثم عمر فرجح، ثم رفع الميزان».

فقال المأمون: هذا محال من قبل أنه لا يخلو من أن يكون أجسامهما أو أعمالهما، فإن كانت الأجسام فلا يخفى على ذي روح أنه محال، لأنه لا يرجح أجسامها بأجسام الأمة، وإن كانت أفعالهما فلم تكن بعد فكيف يرجح بما ليس [موجوداً]، وخبّروني بما يتفاضل الناس؟.

فقال بعضهم: بالأعمال الصالحة.

قال: فأخبروني فمن فضل صاحبه على عهد النبي ﷺ ثم إن المفضول عمل بعد وفاة النبي ﷺ بأكثر من عمل الفاضل على عهد النبي ﷺ أيلحق به؟ فإن قلتم: نعم، أوجدتكم في عصرنا هذا من هو أكثر جهاداً وحجاً وصوماً وصلاة وصدقة من أحدهم.

قالوا: صدقت، لا يلحق فاضل دهرنا فاضل عصر النبي ﷺ.

قال المأمون: فانظروا فيما رويت عن أئمتكم الذين أخذتم عنهم أديانكم في فضائل علي عليه السلام وقايسوا إليها ما رووا في فضائل تمام العشرة الذين شهدوا لهم بالجنة فإن كانت جزء من أجزاء كثيرة فالقول قولكم، وإن كانوا قد رووا في فضائل علي عليه السلام أكثر فخذوا عن أئمتكم ما رووا ولا تعدوه.

قال: فأطرق القوم جميعاً.

فقال المأمون: ما لكم سكتم؟

قالوا: استقصينا[١].

أقول: هذا أنموذج من أحاديثهم الموضوعة التي هي خارجة عن حد الإحصاء.

الرابع

لا ريب في جواز نقل الحديث بالمعنى، ويدل عليه أخبار كثيرة.

وتفصيل القول في ذلك على ما حققه المحدث العلامة المجلسي (ره) أنه إذا لم يكن المحدّث عالماً بحقائق الألفاظ ومجازاتها ومنطوقها ومفهومها ومقاصدها لم تجز له الرواية بالمعنى بغير خلاف، بل يتعين اللفظ الذي سمعه إذا تحققه وإلا لم تجز له الرواية.

وأما إذا كان عالماً بذلك.

فقد قال طائفة من العلماء: لا يجوز هي، لأن لكل تركيب معنى بحسب الوصل والفصل والتقديم والتأخير وغير ذلك لو لم يراع ذلك لذهبت مقاصدها، بل لكل كلمة مع صاحبتها خاصية مستقلة كالتخصيص والاهتمام وغيرهما، وكذا الألفاظ المشتركة والمترادفة، ولو وضع كل موضع الآخر لفات المعنى المقصود، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وآله: «نضّر الله عبداً سمع مقالتي وحفظها ووعاها وأدّاها فرّب حامل فقه غير فقيه وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، وكفى هذا الحديث شاهداً بصدق ذلك.

وأكثر الأصحاب جوّزوا ذلك مطلقاً مع حصول الشرائط المذكورة، وقالوا كلما ذكرتم خارج عن موضوع البحث لأنا إنما جوّزنا لمن يفهم الألفاظ ويعرف خواصها ومقاصدها ويعلم عدم اختلال المراد بها فيما أداه.

وقد ذهب جمهور السلف والخلف من الطوائف كلها إلى جواز الرواية بالمعنى إذا قطع بأداء المعنى بعينه، لأنه من المعلوم أن الصحابة وأصحاب الأئمة عليهم السلام لم يكونوا يكتبون الأحاديث عند سماعها، ويبعد بل يستحيل عادة حفظهم جميع الألفاظ على ما هي عليه، وقد سمعوها مرة واحدة خصوصاً في الأحاديث الطويلة مع تطاول الأزمنة ولهذا كثيراً ما يروى عنهم المعنى الواحد بألفاظ مختلفة ولم ينكر ذلك عليهم ولا يبقى لمن تتبع الأخبار في هذا شبهة.

---

(١) بحار الأنوار: ٤٩/١٩٦، ومواقف الشيعة: ١/٢٩٩.

ويدل عليه أيضاً ما رواه الكليني عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسمع الحديث منك فأزيد وأنقص؟ فقال عليه السلام: إن كنت تريد معانيه فلا بأس[١].

نعم لا مرية في أن روايته بلفظه أولى على كل حال لا سيما في هذه الأزمان لبعد العهد وفوت القرائن وتغيّر المصطلحات.

وقد روى الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، قال: هو الرجل يسمع الحديث فيحدث به كما سمعه لا يزيد فيه ولا ينقص[٢].

تذنيب

قال بعض الأفاضل: نقل المعنى إنما جوزوه في غير المصنفات، أما المصنفات فقد قال أكثر الأصحاب: لا يجوز حكايتها ولا نقلها بالمعنى ولا تغيير شيء منها على ما هو المتعارف.

تكملة

هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام مروي في **(البحار)** من خصال الصدوق «قد» عن أبيه عن علي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن إبراهيم بن عمر اليماني وعمر بن أذينه عن أبان بن أبي عياش عن سليم بن قيس الهلالي قال:

قلت لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ورأيت في أيدي الناس شيئاً كثيراً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أن ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم؟

قال: فأقبل علي عليه السلام عليّ فقال: قد سألت فافهم الجواب: إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً وعاماً وخاصاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً، وقد

(١) الكافي: ١/٥١ ح ٢، وشرح أصول الكافي: ٢/٢١١ ح ٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٧/٧٩ ح ٣٣٢٥٣، ومنية المديد: ٣٧٣.

كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: «أيها الناس قد كثرت عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ثم كذب عليه من بعده.

إنما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس:

رجل منافق يظهر الإيمان متصنع بالإسلام لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كذاب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوه، ولكنهم قالوا: هذا قد صحب رسول الله ﷺ ورآه وسمع منه، فأخذوا منه وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبر الله عز وجل عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلال والدعاة إلى النار بالزور والكذب والبهتان، فولّوهم الأعمال وولوهم على رقاب الناس وأكلوا بهم الدنيا وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله، فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه وهم فيه ولم يتعمد كذباً، فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه ويقول: أنا سمعته من رسول الله ﷺ، فلو علم المسلمون أنه وهم لم يقبلوه، ولو علم هو أنه وهم لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً أمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون أنه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على رسول الله ﷺ مبغض للكذب خوفاً من الله عز وجل وتعظيماً لرسول الله ﷺ، لم يسه بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به كما سمع لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلم الناسخ من المنسوخ فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ.

وإن أمر النبي ﷺ مثل القرآن ناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومحكم ومتشابه، وقد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان: كلام عام وكلام خاص، وقال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ما عنى الله به ورسوله، وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ يسأله عن الشيء فيفهم كان منهم من يسأله ولا يستفهم، حتى كانوا ليحبون أن يجيىء الأعرابي الطارىء فيسأل رسول الله ﷺ حتى يسمعوا.

وكنت أدخل على رسول الله ﷺ كل يوم دخلة فيخليني فيها أدور معه حيثما دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، وربما كان ذلك في شيء يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني

وأقام عني نساءه فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في بيتي لم تقم عنه فاطمة ولا أحد من بنيّ وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكت عنه وفنيت مسائلي ابتدأني.

فما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها، ودعا الله لي أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعاه.

وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام أمر ولا نهي كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله في أمر بطاعة أو نهي عن معصية إلا علّمنيه وحفظنيه[1] فلم أنس حرفاً واحداً، ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً، فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمي إني منذ دعوت الله عز وجل لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه أفتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال: «لا لست أخاف عليك النسيان ولا الجهل»[2].

ورواه في (**الكافي**) أيضاً عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبان بن أبي عياش عن سليم بن قيس مثله.

ورواه في (**البحار**) أيضاً من كتاب الغيبة للنعماني عن ابن عقدة ومحمد بن همام وعبد العزيز وعبد الواحد ابنا عبد الله بن يونس عن رجالهم عن عبد الرزاق وهمام عن معمر بن راشد عن أبان بن أبي عياش عن سليم مثله.

ورواه في (**الاحتجاج**) عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عليه السلام قال:

خطب أمير المؤمنين ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كيف أنتم إذا ألبستم الفتنة ينشأ فيها الوليد، ويهرم فيها الكبير، ويجري الناس عليها حتى يتخذوها سنّة، فإذا غير منها شيء قيل: أتى الناس بمنكر غيّرت السنة، ثم تشتد البلية وتنشأ فيها الذرية وتدقّهم الفتن كما تدق النار الحطب وكما تدق الرحى بثفالها، فيومئذ يتفقه الناس لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة.

ثم أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ومعه ناس من أهل بيته وخاص من شيعته فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسول الله ﷺ ثم قال:

---

(١) «حفظنه» في نسخة.

(٢) بحار الأنوار: ٢/ ٢٣٠، ومعجم أحاديث الإمام المهدي «ع»: ٣/ ١٥٢.

لقد عملت الولاة قبلي بأمور عظيمة خالفوا فيها رسول الله ﷺ متعمدين لذلك ولو حملت الناس على تركها وحولتها إلى مواضعها التي كانت عليها على عهد رسول الله ﷺ لتفرق عني جندي حتى أبقى وحدي إلا قليلاً من شيعتي الذين عرفوا فضلي وإمامتي من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

أرأيتم لو أمرت بمقام إبراهيم عليه السلام فرددته إلى المكان الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ ورددت فدك إلى ورثة فاطمة عليها السلام ورددت صاع رسول الله ﷺ ومدّه إلى ما كان، وأمضيت قطائع كان رسول الله ﷺ أقطعها للناس مسمين؛ ورددت دار جعفر بن أبي طالب إلى ورثته وهدمتها من المسجد، ورددت الخمس إلى أهله، ورددت قضاء كل من قضى بجور، ورددت سبي ذراري بني تغلب، ورددت ما قسم من أرض خيبر، ومحوت ديوان العطاء وأعطيت كما كان يعطي رسول الله ﷺ ولم أجعلها دولة بين الأغنياء.

والله لقد أمرت الناس أن لا يجتمعوا[1] في شهر رمضان إلا في فريضة فنادى بعض أهل عسكري ممن يقاتل سيفه معي أنعي به الإسلام وأهله: غيّرت سنة عمر ونهى أن يصلى في شهر رمضان في جماعة حتى خفت أن يثور في ناحية عسكري ما لقيت ولقيت هذه الأمة من أئمة الضلالة والدعاة إلى النار.

وأعظم من ذلك سهم ذوي القربى، قال الله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ - منا خاصة - إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] نحن والله عنى بذوي القربى الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه ﷺ ولم يجعل لنا في الصدقة نصيباً أكرم الله نبيه ﷺ وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ أيدي الناس.

فقال له عليه السلام رجل: إني سمعت من سلمان وأبي ذر والمقداد شيئاً من تفسير القرآن والرواية عن النبي ﷺ وسمعت منك تصديق ما سمعت منهم - ثم ساق الحديث نحواً مما مر إلى قوله - حتى أن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي أو الطارىء فيسأله حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته وحفظته[2].

فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم.

---

(١) «يجمعوا» في نسخة.

(٢) شرح أصول الكافي: ٢/ ٣٠٦ ومكاتيب الرسول: ١/ ٤٢٣.

الترجمة

از جمله كلام آن امام متقين است در حالتى كه سؤال كرد از او سؤال كننده از حديث هاى بدعت ها و از آن خبرى كه در دست مردمان است از اختلاف اخبار نبويه، پس فرمود:

به تحقيق كه در دست مردم حق است و باطل است و راست است و دروغ است و ناسخ است و منسوخ است و محكم است كه معنى آن ظاهر و متشابه است كه معنى آن مشتبه و محفوظ است از تحريف و زياده و نقصان و موهوم است كه غير محفوظ از خطا و خلل و غلط بوده و به تحقيق كه دروغ بسته شد بر رسول خدا (صلى الله عليه وآله)

در حال حيات تا اينكه برخاست در حالتى كه خطبه خواند، پس فرمود: كسى كه دروغ بندد بر من عمداً، پس بايد منزل دهد جاى نشيمن خود را در آتش جهنم و جز اين نيست آورد به تو حديث را چهار كس كه نيست پنجمى از براى آنها:

اول كسى است كه منافق است كه ظاهر ساخته ايمان را و به خود بسته اسلام را، پرهيز ندارد از گناه و باك نمى كند از تنگى معصيت، دروغ مى بندد بر رسول خدا (صلى الله عليه وآله)از روى عمد، پس اگر بدانند مردمان كه او منافق و دروغ گو است قبول نمى كنند از او و تصديق نمى كند قول او را، وليكن ايشان مى گويند كه اين شخص مصاحب رسول خدا است، ديده است و شنيده است از او و اخذ نموده از او، پس فراگيرند قول او را و به تحقيق كه خبر داده است تو را خداى تعالى در قرآن از حال منافقان به آن چيز كه خبر داده و وصف فرموده ايشان را به آن چيز كه وصف كرده است از براى تو، پس باقى ماندند آن منافقان بعد از رحلت حضرت رسول (صلى الله عليه وآله) و تقرب جستند به سوى امامان ضلالت و گمراهى و دعوت كنندگان به سوى آتش جهنم به سبب دروغ و بهتان گفتن بر رسول خدا (صلى الله عليه وآله)، پس گردانيدند ايشان را صاحبان اختيار كارها و حاكمان بر مردان و خوردند با دست يكى بودن ايشان مالها را و جز اين نيست كه مردمان مايلند به پادشاهان و راغب اند به دنيا مگر كسى كه حفظ نمايد او را خدا، پس اين كس يكى از آن چهار كس

است.

دومی کسی است که شنید از رسول (صلی الله علیه و آله) چیزی را که حفظ نکرد آن را با وجهی که پیغمبر فرموده بود، پس غلط کرد در آن و عمداً دروغ نگفت، پس آن حدیث که شنیده بود در دست او بود و روایت می کرد آن را و عمل می نمود به آن و می گفت که من شنیده ام آن را از رسول خدا (صلی الله علیه و آله)، پس اگر می دانستند مسلمانان که او غلط کرده است در آن، قبول نمی کردند آن حدیث را از او و اگر می دانست آن کس که آن حدیث همچنین است هرآینه ترك می نمود آن را.

و شخص سومی شنید از حضرت رسالت مآب (صلی الله علیه و آله) چیزی را که امری نمود به آن، پس نهی فرمود آن و آن شخص ندانست نهی آن را یا این که شنید که رسول خدا (صلی الله علیه و آله)نهی می کرد از چیزی، پس امر فرمود به آن و آن شخص ندانست امر به آن را، پس حفظ نمود منسوخ را که حکم اولی است و حفظ نکرد ناسخ راکه حکم ثانوی بود، پس اگر می دانست که حکم اولی منسوخ است هرآینه ترك می کرد آن حکم را و اگر مسلمانان می دانستند وقتی که از او شنیدند آن را که آن منسوخ است هرآینه ترك می کردند آن را.

و شخص دیگر چهارمی است که دروغ نگفته بر خدای تعالی و نه بر رسول خدا، دشمن دارنده دروغ است از جهت ترس خدا و تعظیم رسول خدا و توهم و غلط نکرده است بلکه حفظ نموده آن چه که شنیده است بر وجهی که شنیده است، پس آورد آن را یعنی روایت نمود به همان قرار شنیده شده بدون زیاده و نقصان، پس حفظ کرده ناسخ را و عمل کرده به آن و حفظ کرده منسوخ را و اجتناب نموده از آن و شناخته است خاص و عام را، پس گذاشته هر خبر را در مکان خود و شناخته متشابه و محکم را.

و گاهی بود که صادر می شد از رسول خدا (صلی الله علیه و آله) کلامی که از برای او دو وجه بود، پس کلامی که مخصوص بود و کلامی که عموم داشت، پس می شنید آن را کسی که نمی شناخت آن چه را که قصد کرده بود خدا به آن و نه آن چه را قصد کرده بود به آن رسول خدا (صلی الله علیه و آله)، پس حمل می نمود سامع آن کلام را و توجیه می نمود آن را بدون معرفت به معنای آن و به آن چه که قصد شده به آن و به آن چه که صادر شده آن کلام از برای آن.

و نبودند جميع صحابه رسول خدا (ﷺ) كه سؤال كنند از او و طلب فهم نمايند از آن تا اينكه دوست مى داشتند اينكه بيايد عرب باديه نشينى يا غريب تازهواردى، پس سؤال كند از او (عليه السلام) تا اين كه بشنوند جواب را و بود كه نمى گذاشت به من در كلام حضرت رسول (ﷺ) خبرى مگر اين كه مى پرسيدم رسول خدا را از آن و حفظ مى نمودم آن را.

پس اين است وجه هاى آن چيزى كه بودند مردمان بر آن در مختلف شدن ايشان و علّت هاى ايشان در اختلاف روايات ايشان.

ومن خطبة له عليه السلام وهو المائتان والعاشرة من المختار في باب الخطب

وكَانَ مِنْ إقْتِدارِ جَبَرُوتِه، وبَدِيعِ لَطائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ البَحْرِ الزَّاخِرِ المُتَراكِمِ المُتَقاصِفِ يَبَساً جامِداً، ثُمَّ فطَرَ مِنْهُ أطْباقاً، فَفَتَقَها سَبْعَ سَماواتٍ بَعْدَ ارْتِتاقِها، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وقامَتْ عَلىٰ حَدِّهِ، يَحْمِلُهَا الأَخْضَرُ المُثعَنْجِرُ، والقَمْقامُ المُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لأَمْرِهِ، وأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، ووَقَفَ الجارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ، وجَبَلَ جَلامِيدَها، ونُشُوزَ مُتُونِها وأَطْوادِها، فَأَرْسَاها في مَراسِيها، وأَلْزَمَهَا قَرارَتَها، فَمَضَتْ رُؤُسُها في الهَواءِ، وَرَسَتْ أُصُولُها فِي المَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبالَهَا عَنْ سُهُولِها، وأَساخَ قَواعِدَها في مُتُونِ أَقْطارِها، ومَواضِعِ أَنْصابِها، فَأَشْهَقَ قِلالَها، وأَطالَ أَنْشازَها، وجَعَلَها للأَرْضِ عِماداً، وأَرَزَّها فِيها أَوتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلىٰ حَرَكَتِها مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِها، أَوْ تَسِيخَ بِحَمْلِها، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَواضِعِها.

فَسُبْحانَ مَنْ أَمْسَكَها بَعْدَ مَوَجانِ مِياهِها، وأَجْمَدَها بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنافِها، فَجَعَلَها لِخَلْقِهِ مِهاداً، وبَسَطَها لَهُمْ فِراشاً، فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ راكِدٍ لا يَجْري، وقائِمٍ لا يَسْري، تُكَرْكِرُهُ الرِّياحُ العَواصِفُ، وتَمْخَضُهُ الغَمامُ الذَّوارِفُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات: ٢٦][1].

اللغة

(**الجبروت**) وزن ملكوت فعلوت من الجبر وهو القهر والغلبة، والجبار من جملة الأسماء الحسنى، قال الصدوق: معناه القاهر الذي لا ينال، وله التجبر والجبروت أي التعظم والعظمة، ويقال للنخلة التي لا تنال: جبارة و (**زخر**) البحر كمنع امتد أمواجه وارتفع و (**قصف**) الرعد اشتد صوته وتقاصف البحر تزاحم أمواجه.

و (**اليبس**) قال الشارح المعتزلي بالتحريك المكان يكون رطباً ثم يبس ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ [طه: ٧٧] واليبس بالسكون اليابس خلقة، يقال: حطب يبس هكذا يقول أهل اللغة وفيه كلام لأن الحطب ليس يابساً خلقة بل كان رطباً من قبل. فالأصوب أن يقال: لا تكون هذه اللفظة محركة إلا في المكان خاصة، انتهى.

وقال الفيومي: شيء يبس ساكن الباء بمعنى يابس، وحطب يبس كأنه خلقة ومكان

(١) بحار الأنوار: ٥٤/ ٣٩، وتفسير نور الثقلين: ١/ ٤٢ ح ٥٤.

يبس إذا كان فيه ماء فذهب، وقال الفارابي: مكان يبْس ويبَس وكذلك غير المكان.

و (**الأطباق**) جمع طبق كأسباب وسبب وهو غطاء كل شيء، والطبق من كل شيء ما ساواه و (**المثعنجر**) بصيغة الفاعل كما في النسخ السائل من ماء أو دمع وبفتح الجيم وسط البحر وليس في البحر ماء يشبهه، هكذا قال الفيروزأبادي، وقال الجزري في حديث علي عليه السلام يحملها الأخضر المثعنجر: هو أكثر موضع في البحر ماء والميم والنون زائدتان ومنه حديث ابن عباس: فإذا علمي بالقرآن في علم علي عليه السلام كالقرارة في المثعنجر، والقرارة الغدير الصغير.

و (**القمقام**) بالفتح كما في النسخ وقد يضم البحر و (**المسخر**) في بعض النسخ بالخاء المعجمة وفي بعضها بالجيم من سجر النهر ملأه وتسجير الماء تفجيره و (**الجلمد**) بالفتح الجلمود بالضم الحجر العظيم الصلب و (**النشوز**) جمع النشز بالفتح المكان المرتفع و (**المتن**) ما صلب من الأرض وارتفع و (**الطود**) بالفتح الجبل أو العظيم منه و (**القرارة**) موضع القرار وفي بعض النسخ: قراراتها بصيغة الجمع.

و (**رست**) أي ثبتت وفي بعض النسخ: رسبت يقال: رسب في الماء كنصر وكرم رسوباً ذهب سفلاً و (**نهد**) ثدي الجارية كمنع ونصر أي كعب وارتفع و (**السهل**) من الأرض ضد الحزن و (**الأنصاب**) جمع النصب بالفتح ويحرك وهو العلم المنصوب وبالضم وبضمتين كل ما جعل علماً وكل ما عبد من دون الله و (**القلال**) بالكسر جمع قلة بالضم وهي أعلى الجبل و (**العماد**) بالكسر الخشبة التي يقوم عليها البيت والأبنية الرفيعة العالية.

و (**أرز**) يأرز بتقديم المهملة كنصر وضرب وعلم أي ثبت، وأرزّ بتشديد المعجمة أي أثبت، وفي أكثر النسخ بالتخفيف وفتح العين وفي بعضها بالتشديد. قال في (**النهاية**) في كلام علي عليه السلام: أرزّها فيها أوتاداً أي أثبتها إن كانت الزاي مخففة، فهي من أرزت الشجرة تأرز إذا أثبت في الأرض، وإن كانت مشددة فهي من أرزّت الجرادة إذا أدخلت ذنبها في الأرض لتلقي فيها بيضها، ورززت الشيء في الأرض رزاً أثبته فيها وحينئذ تكون الهمزة زائدة، انتهى.

قيل: وروي آرزها بالمد من قولهم: شجرة آرزة أي ثابتة في الأرض و (**موجان مياهها**) صيغة فعلان بالتحريك في المصدر تدل على الاضطراب كالميدان والنزوان والخفقان، وقد قال عليه السلام في الخطبة الأولى: ووتّد بالصخور ميدان أرضه و (**المهاد**) بالكسر الفراش والموضع يهيىء للصبي ويوطأ، و (**الفراش**) البساط و (**اللجة**) بالضم معظم البحر.

و (**الكركرة**) تصريف الرياح السحاب إذا جمعته بعد تفرق وأصله تكرره من التكرر

وكركرته عني أي دفعته ورددته و (**مخض**) اللبن يمخضه من باب نصر وضرب ومنع استخراج زبده بصب الماء فيه وتحريكه و (**الغمام**) جمع الغمامة كالسحاب والسحابة لفظاً ومعناً أو خصوص البيضاء منها و (**ذرف عينه**) أي سال دمعها وذرفت العين دمعها أي أسال يتعدّى ولا يتعدّى.

الإعراب

(**أطوادها**) بالنصب عطف على جلاميدها وفي بعض النسخ بالجر عطفاً على متونها، (**وأوتاداً**) حال من مفعول أرزها، و(**على**) في قوله على حركتها، للاستعلاء المجازي وفي بعض النسخ عن حركتها بدل على فهي بمعنى بعد كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، و(**الباء**) في قوله: (**بأهلها**) بمعنى مع، وكذلك في قوله: بحملها، وقال الشارح المعتزلي: هي للتعدية والأول أشبه.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة مسوقة لإظهار عظمة الله تعالى وكمال قدرته وجلاله وجبروته في خلق السماوات والأرض والجبال، وقد مضى فصل وافٍ في هذا المعنى منه عليه السلام في الفصل الثالث والثامن من المختار الأول، وفي الفصل الرابع والسادس من المختار التسعين، وقال عليه السلام هنا:

(**وكان من اقتدار جبروته**) أي من قدرة عظمته وتجبره وجباريته أي قهاريته وغلابيته، ونسبة الاقتدار إلى جبروته تعالى إما تعظيماً وتفخيماً كما يقال إذا صدر أمر من السلطان: أمر الباب العالي، أو الحضرة الشريفة بكذا، أو تنبيهاً على أنه عز وجل الأعظم المطلق حيث خلق هذه الأجرام القوية العظيمة السماوية والأرضية.

(**و**) نسبته إلى (**بديع لطائف صنعته**) ملاحظة لما أودع فيها من عجائب الصنع ولطائف التدبير التي يعجز عن إدراك أقل قليلها عقول البشر، ففيه تنبيه على كمال لطفه وتدبيره وحكمته.

ومحصول مراده أنه تعالى كان قدرته ولطفه منشئاً (**أن جعل**) أي خلق (**من ماء البحر**) وفي بعض النسخ اليم بدله وهو بمعناه (**الزاخر**) المرتفع الممتلىء الممتد جداً (**المتراكم المتقاصف**) أي الذي اجتمع بعضه فوق بعض وتزاحمت أمواجه واشتد صوته الهائل من كثرة الأمواج (**يبساً جامداً**) أراد به الأرض، فإنه سبحانه خلقها من زبد الماء حسبما عرفته تفصيلاً في التذييل الثاني من شرح الفصل الثامن من الخطبة الأولى.

(ثم فطر منه) أي خلق من الماء أي من بخاره ودخانه حسبما عرفته أيضاً في شرح الفصل المذكور **(أطباقاً)** أي طبقاً بعد «فوق» طبق **(ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها)** يريد أنها كانت طبقات منفصلة في الحقيقة متصلة في الصورة بعضها فوق بعض ففتقها وفرّقها وباعد بعضها عن بعض فحصل سبع سماوات متميزات بينها أمكنة الملائكة بعدما كانت ملتزقة متصلة.

وفيه تلميح إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

قال مجاهد والسدي في تفسير الآية: كانت السماوات مرتتقة مطبقة ففتقناها سبع سماوات وكانت الأرض كذلك ففتقناها سبع أرضين، وقيل: في تفسيرها وجوه أخر تقدمت في شرح الخطبة الأولى وكلامه عليه السلام مؤيد لهذا الوجه.

(فاستمسكت بأمره) أي احتسبت واعتصمت وقامت بأمر الله سبحانه والغرض عدم تفرقها كأن بعضها معتصم ببعض **(وقامت على حدة)** أي وقفت على ما حدّ لها من المكان والمقدار والهيئة والشكل والأقطار والنهايات، ولم تجاوز عن حدودها المعينة والضمير في حده راجع إلى الله سبحانه.

(يحملها الأخضر المثعنجر) أي يحمل الأرض المستفادة من اليبس ماء البحر السائل، ووصف الماء بالخضرة من عادة العرب والتعبير عن البحر بالأخضر لأنه بصفة لون السماء فيرى أخضر و **(القمقام المسخر)** أي البحر الذي سخره الله تعالى أي ذلله لحملها كما أشار إليه بقوله: **(قد ذلّ)** وانقاد **(لأمره)** عز وجل **(وأذعن)** وخضع **(لهيبته)** وجلاله **(ووقف الجاري منه لخشيته)** أي وقف السائل بالطبع فوقوفه عدم جريانه طبعاً بإرادته سبحانه أو السائل منه قبل إرادته.

(وجبل جلاميدها) أي خلق سبحانه صخور الأرض الصلبة العظيمة **(ونشوز متونها وأطوادها)** أي مرتفعات صلبتها وجبالها **(فأرساها في مراسيها)** أي أثبت هذه الجلاميد والأطواد في مواضعها المعينة التي اقتضت الحكمة الإلهية إثباتها فيها **(وألزمها قرارتها)** أي أمسكها حيث استقرت **(فمضت رؤوسها في الهواء ورست)** أي رسبت وثبتت **(أصولها في الماء)** الذي بين أجزاء الأرض **(فانهد جبالها عن سهولها)** أي رفع جبال الأرض وأعلاها عن أراضيها المطمئنة **(وأساخ قواعدها في متون أقطارها)** أي غيّب قواعد الجبال في جوانب أقطار الأرض **(و)** في **(مواضع أنصابها)** وأعلامها **(فأشهق قلالها وأطال أنشازها)** أي جعل قلالها مرتفعة عالية وإطالة الأنشاز مؤكدة لها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧].

(وجعلها) أي الجبال **(للأرض عماداً)** قيل: المراد جعلها مواضع رفيعة في الأرض، والظاهر أن المراد به ما أوضحه بقوله: **(وأرزها فيها أوتاداً)** أي أثبتها في الأرض حال كونها بمنزلة الوتد لها تمنعها من الحركة والاضطراب كالسفينة إذا ألقى فيها جسم ثقيل.

(فسكنت على حركتها) التي هي من شأنها لكونها محمولة على سائل متموج أو على أثر حركتها يتموج الماء **(من أن تميد)** وتضطرب **(بأهلها)** كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] أي لئلا تميد أو كراهة أن تميد، قيل: إن الأرض كانت تميد وترجف رجوف السقف بالوطيء فثقّلها بالجبال الرواسي ليمنع من رجوفها، وقد تقدم في شرح الفصل الثالث من الخطبة الأولى بيان الاختلاف في كيفية كون الجبال سبباً لسكون الأرض فليراجع ثمة.

ومن جملة الوجوه التي قيل في ذلك: إن المراد بالأرض قطعاتها وبقاعها لا مجموع كرة الأرض، ويكون الجبال أوتاداً لها أنها مانعة لها عن الميدان والاضطراب بالزلزلة ونحوها إما لحركة البخارات المختنقة في داخلها بإذن الله تعالى أو لغير ذلك من الأسباب التي يعلمها مبدعها ومنشئها، قال المحدث العلامة المجلسي قدس سره: وهذا وجه قريب يؤيده ما سيأتي في باب الزلزلة من حديث ذي القرنين.

وقوله: **(أو تسيخ بحملها)** أي تغوص في الماء مع ما عليها **(أو تزول عن مواضعها)** قال الشارح المعتزلي:

فإن قلت: ما الفرق بين الثلاثة تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها؟.

قلت: لأنها لو تحركت لكانت إما على مركزها أو لا على مركزها، والأول هو المراد بقوله: تميد بأهلها، والثاني: ينقسم إلى أن تنزل إلى تحت أو لا تنزل إلى تحت، فالنزول إلى تحت هو المراد بقوله: أو تسيخ بحملها، والثاني: هو المراد بقوله: أو تزول عن مواضعها.

وقال المحدث العلامة المجلسي: ويحتمل أن يراد بقوله عليه السلام: تميد بأهلها تحركها واضطرابها بدون الغوص في الماء كما يكون عند الزلزلة، وبسوخها بحملها حركتها على وجه يغوص أهلها في الماء سواء كانت على المركز أم لا فتكون الباء للتعدية، وبزوالها عن مواضعها خراب قطعاتها بالرياح والسيول أو بتفرق القطعات وانفصال بعضها عن بعض، فإن الجبال كالعروق السارية فيها تضبطها عن التفرق، ويؤيده إيراد المواضع بلفظ الجمع، هذا[1].

(١) بحار الأنوار: ٥٤/ ٤٢.

ولما نبّه عليه السلام على كمال اقتداره تعالى وجلاله وعظمته في خلق الأرض والجبال مضافاً إلى خلق السماء أردفه بتنزيهه على ذلك وقال:

(فسبحان من أمسكها) أي الأرض بقدرته **(بعد موجان مياهها)** قال في **(البحار)**: لعل المراد بهذا الموجان ما كان غامراً للأرض أو أكثرها وإمساكها بخلق الجبال التي تقدم في الكلام **(وأجمدها بعد رطوبة أكنافها)** أي جوانبها لميدانها قبل خلق الجبال، وقول الشارح البحراني: بأنه إشارة إلى أن أصلها من زبد الماء ليس بشيء.

وقوله عليه السلام: **(فجعلها لخلقه مهاداً)** كقوله تعالى في سورة النبأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝﴾ [٦]، أي وطاء وقراراً ومهيأ للتصرف فيه من غير أذية، وفي سورة طه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [٥٣]، وفي سورة الزخرف: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝﴾ [١٠] أي كالمهد تتمهدونها.

وقوله عليه السلام: **(وبسطها لهم فراشاً)** كقوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [٢٢]، وفي سورة نوح: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝﴾ [١٩ـ ٢٠].

قال بعض المفسرين: الفراش اسم لما يفرش كالبساط لما يبسط وليس من ضرورات الافتراش أن يكون مسطحاً مستوياً كالفراش على ما ظن، فسواء كانت كذلك أو على شكل الكرة فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع لعظم جرمها وتباعد أطرافها ولكنه لا يتم الافتراش عليها ما لم تكن ساكنة في حيزها الطبيعي وهو وسط الأفلاك لأن الأثقال بالطبع تميل إلى تحت كما أن الخفاف بالطبع تميل إلى فوق والفوق من جميع الجوانب ما يلي السماء والتحت ما يلي المركز، فكما أنه يستبعد حركة الأرض فيما يلينا إلى جهة السماء فكذلك يستبعد هبوطها في مقابل ذلك، لأن ذلك الهبوط صعوداً أيضاً إلى السماء، فإذاً لا حاجة في سكون الأرض وقرارها في حيزها إلى علاقة من فوقها، ولا إلى دعامة من تحتها، بل يكفي في ذلك ما أعطاها خالقها وركز فيها من الميل الطبيعي إلى الوسط الحقيقي بقدرته واختياره.

وقوله عليه السلام: **(فوق بحر لجيّ)** كثير الماء **(راكد لا يجري)** أي ساكن لا يجري إلى أحد الجوانب **(وقائم)** أي ثابت **(لا يسري)** عن مكانه وذلك لملازمة مركزه على حذو ما عرفت آنفاً في بيان فراشية الأرض **(تكركره)** أي تردده وتكرره **(الرياح العواصف)** الشديدة **(وتمخضه الغمام الذوارف)** أي تحركه السحاب المواطر وذلك لأن الحر إذا وقع فيه المطر يرتجّ ويتمخض ويضطرب كثيراً لتحريك انصباب المطر بكثرة وقوة له.

ولما ذكر عليه السلام عظيم قدرته عز وجل في خلق السماء والأرض والجبال والماء أتبعه

بقوله عليه السلام: (**إن في ذلك لعبرة لمن يخشى**) أي فيما قدمناه من آثار القدرة ودلائل الجبروت والعظمة اعتبار لمن خشي ربه، وإنما خصه به لأجل أن عدم الخشية يوجب عدم المبالاة بالعبر والالتفات إليها، والمراد بمن يخشى العلماء بمقتضى الحصر الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وتخصيص الخشية بهم لأن شرطها معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله وقدرته وقهره فمن كان أعلم به كان أخشى منه، اللهم ارزقنا هذه المرتبة.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است در اشاره به عجايب قدرت، مى فرمايد:

و هست از قدرت و توانايى سلطنت آفريدگار و عجايب صنعتهاى لطيفه او اين كه خلق فرمود از آب درياى بسيار موج زننده برهم نشسته پرصدا زمين خشك بى رطوبت را، پس از آن خلق فرمود از بخار آن آب طبقاتى بر روى هم چيده، پس جدا ساخت آن طبقات را هفت آسمان بعد از جمع بودن و يكجا بودن آنها، پس بايستادند به فرمان او و قايم شدند به اندازه مقرره او در حالتى كه برمى دارد آن زمين را آب كبود سيلان كننده و درياى مسخر شده در تحت قدرت در حالتى كه ذليل بود از براى امر او و منقاد بود به هيبت و جلال او و ايستاد و ساكن گشت جارى از آن آب از ترس حكم او و خلق فرمود سنگهاى زمين را و بلند پستهاى آن را و كوههاى آن را، پس برقرار گردانيد آنها را در قرارگاه هاى آنها و لازم گردانيد آنها رادر جاى ثبات آنها، پس گذر كرد سرهاى آنها در هوا و فرو رفت بيخ هاى آنها در آب دريا، پس بلند گردانيد كوههاى زمين را از همووارى زمين و فرو برد اساس آنها را در پشتهاى اطراف آن و در مواضع علامتهاى آن، پس بلند كرد سرهاى كوهها را و دراز گردانيد بلند شدن از زمين آنها را و گردانيد آن كوهها را از براى زمين ستون و فرو گرفت آنها را در زمين در حالتى كه ميخهاى زمين بودند، پس ساكن شد زمين از حركت خود از اين كه بلرزاند اهل خود را يا اين كه فرو برد حمل خود را يا اين كه زايل گردد از مواضع خود.

پس تنزيه مى كنم تنزيه كردنى، كسى را كه نگاه داشت زمين را بعد از موج زدن آبهاى آن و خشك گردانيد آنرا بعد از تر بودن اطراف آن، پس گردانيد آن را از براى مخلوقات خود آرامگاه و گسترانيد آن را از براى ايشان فرش و بساط بالاى درياى بزرگ انبوه ساكن غير جارى و قائم غير سارى، در حالتى كه بر گرداند و به هم ميزند آنها دريا را بادهاى تند و زنده و حركت مى دهد آن را ابرهاى ريزنده، به تحقيق كه در اين دلائل قدرت و عظمت عبرتى است از براى كسى كه بترسد از خدا.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائتان والحادية عشر
من المختار في باب الخطب

اللَّهُمَّ أَيُّما عَبْدٍ مِنْ عِبادِكَ سَمِعَ مَقالَتَنا العادِلَةَ غَيْرَ الجائِرَةِ، والمُصْلِحَةَ غَيْرَ المُفْسِدَةِ، فِي الدِّينِ والدُّنْيا، فَأَبىٰ بَعْدَ سَمْعِهِ لَها إِلاَّ النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، والإِبْطاءَ عَنْ إِعْزازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يا أَكْبَرَ الشاهِدِينَ، ونَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَنْ أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وسَماواتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ البَعْدُ المُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ والآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ[1].

اللغة

(**المصلحة**) بضم الميم اسم فاعل من باب الأفعال وكذلك المفسدة و (**نكص**)عن الأمر نكصاً ونكوصاً تكأكأ عنه وجبن وأحجم، وعلى عقبيه رجع عما كان عليه من خير، قال الفيروزأبادي: خاص بالرجوع عن الخير، ووهم الجوهري في إطلاقه أو في الشر نادراً.

الإعراب

(**ما**) في أيما زائدة للتأكيد، وغير منصوب على الحالية أو الوصفية، وقوله: في الدين، متعلق بالمصلحة، وقوله: إلا النكوص، استثناء مفرّغ.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة كما نبه عليه الشارح البحراني ملتقطة من خطبة كان يستنهض بها أصحابه إلى جهاد أهل الشام.

قال بعد تقاعد أكثرهم عن صوته منادياً لله عز وجل: (**اللهم أيما عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة**) أي قولنا المتصف بالعدل، وفي وصفه به توسع، وقال الشارح البحراني: العادلة المستقيمة التي هي طريق الله العائدة للناس إلى الرشاد في دينهم ودنياهم، وما قلناه أولى.

وإنما وصفه عليه السلام بالعدل، لأن استنهاضه إلى جهاد أهل الشام إنما كان من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع ما فيه من الامتثال لنص قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [الحجرات: ٩].

---

(١) نهج السعادة: ٦/ ٣٢٨ ح ١٠٠.

وقد كان عليه السلام متصفاً بالعدل في جميع أقواله وأفعاله كما يشهد به قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي أئمة عدلاً على ما ورد في تفسير أهل البيت عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١].

روي في **(البحار)** عن العياشي عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية قال عليه السلام: هم الأئمة عليهم السلام.

وفيه من **(الكافي)** عن الحسين بن محمد عن المعلى عن الوشا عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ الآية، قال: هم الأئمة صلوات الله عليهم(١).

ويشهد به أيضاً ما في **(البحار)** من تفسير علي بن إبراهيم في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، قال عليه السلام: كيف يستوي هذا وهذا الذي يأمر بالعدل، يعني أمير المؤمنين، والأئمة عليه وعليهم السلام، هذا.

وإنما عقّب بقوله: **(غير الجائرة)** إما تأكيداً أو من باب الاحتراس الذي تقدم في ديباجة الشرح في ضمن المحاسن البديعية، فإنه لما وصف مقالته بالعدل وكان هنا مظنة أن يتوهم أن عدالتها إنما يتصور في حق أهل الكوفة وأما في حق أهل الشام فلا، لأن الاستنهاض إلى حربهم وسفك دمائهم جور في حقهم وظلم عليهم فكيف يكون عدلاً؟ فدفع ذلك التوهم بقوله: غير الجائرة، تنبيهاً على أن محاربتهم من باب النهي عن المنكر والردع لهم عن متابعة معاوية ومنعهم عن الائتمام بالإمام الباطل وردعه عن ظلمه وطغيانه ودعواه الخلافة من غير استحقاق، وهذا فرض شرعاً فلا يكون جوراً بل عين العدل واللطف، هذا.

مضافاً إلى ما فيه من التعريض على معاوية حيث إن حضه لأهل الشام على حرب أهل الكوفة وحربه عليه السلام محض الجور والعدوان، لأنه من باب الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وأي جور أعظم من ذلك؟.

أما في حق أهل الشام فلأنه يدعوهم بذلك التحضيض إلى النار.

وأما في حق أهل الكوفة فلردعهم عن الائتمام بالإمام الحق وإرادة دفعه عن مقامه الذي يستحقه وإيهام أن الحق معه لمطالبته بدم عثمان المظلوم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٢٥ ح ٤٢.

فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

روى في **(البحار)** من كتاب الغيبة للنعماني عن الكليني بإسناده عن محمد بن منصور قال: سألته، يعني أبا عبد الله عليه السلام، عن هذه الآية فقال عليه السلام: فهل رأيت أحداً زعم أن الله أمر بالزنا وشرب الخمر أو شيء من هذه المحارم؟ قلت: لا، قال عليه السلام: فما هذه الفاحشة التي يدّعون أن الله أمرهم بها؟ قلت: الله أعلم ووليه، قال علي عليه السلام: فإن هذا في أولياء أئمة الجور ادّعوا أن الله أمرهم بالائتمام بهم فردّ الله ذلك عليهم وأخبرهم أنهم قالوا عليه الكذب وسمى ذلك منهم فاحشة[1].

وفيه من تفسير علي بن إبراهيم بسنده عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه قال: الأئمة في كتاب الله إمامان، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، يقدّمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلافاً لما في كتاب الله[2].

والحاصل أنه عليه السلام بمقتضى ملكة العصمة التي فيه إنما يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي تبعاً لأمر الله، لأنه والأئمة من صلبه عليهم السلام محال مشيئة الله وما يشاؤون إلا أن يشاء الله وهم بأمره يعملون.

وقوله عليه السلام: **(والمصلحة غير المفسدة في الدين والدنيا)** أي فيها صلاح حال السامعين في الدارين وانتظام أمورهم في النشأتين.

أما في الآخرة فلأن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة، حسبما عرفته في الخطبة السابعة والعشرين، ففي نهوضهم إلى قتال القاسطين استنهاضه عليه السلام امتثال لأمر الله، إعزاز لدين الله، تحصيل لرضوان الله تعالى شأنه، وفي تقاعدهم عنه سخط عظيم وعذاب أليم.

وأما في الدنيا فلأن مبارزة الأقران من عادة الأبطال والشجعان والمنع من النار من آثار الفتوة وشعار المروءة والمجاهد في سبيل الله ينتظر من الله إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة أو الشهادة الموجبة للذكر الجميل والثناء الباقي، والنكوص عن الجهاد محصّل للخذلان معقّب للهوان وعار في الأعقاب ونار يوم الحساب، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله

---

(١) الكافي: ١/ ٣٧٣ ح ٩، وكتاب الغيبة: ١٣١.

(٢) تفسير القمي: ٢/ ١٧١، وكتاب الغيبة: ١٣١.

ثوب الذل وشمله البلاء وديّث بالصغار والقماء، هذا.

وتعقيب المصلحة بغير المفسدة إما من باب التأكيد أيضاً أو تعريضاً على الطرف المقابل، أعني معاوية اللعين الذي كان يستنهضهم إلى حربه، فإن نظر ذلك اللعين في جميع مقالاته وكلماته لم يكن إلا إلى شق عصا الإسلام وإفساد حال المسلمين وهدم أركان الدين، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في الخطبة الثانية والتسعين: ألا إن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة، إلى آخر ما مر هناك.

وقوله عليه الصلاة والسلام: **(فأبى بعد سمعه لها إلا النكوص عن نصرتك والإبطاء عن إعزاز دينك)** لا يخفى ما في هذا الكلام من بديع البيان وحسن التقرير وعجيب التعبير، حيث لم يقل: فأبى بعد سمعه لها عن قبولها أو إجابتها، بل عدل عنه إلى قوله: إلا النكوص (آه) للطافة معناه وبعد غوره وغزارة فحواه.

وذلك لأن في التعبير بهذه من التنبيه على عظيم خطأ الممتنعين المتقاعدين عن قبول أمره عليه السلام ومزيد تقصيرهم وكبير ذنبهم ما لا يخفى على الفطن الخبير بمحسنات البيان.

أما **أولاً**: فلما مر من أن النكوص مخصوص بالرجوع عن الخير أو نادر الاستعمال في الرجوع عن الشر وعلى التقديرين ففيه دلالة على أنهم بتقاعدهم قد فوّتوا على أنفسهم الخير الكثير الذي كان لهم عاجلاً وآجلاً.

وأما **ثانياً**: فإن في قوله: عن نصرتك دلالة على أنهم بقتال القاسطين ناصرون لله سبحانه كما أنهم بترك القتال ناكصون عن نصرته، والله سبحانه يقول: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فلم يكن استنصاره من ضعف وذل بل استنصرهم وله جنود السماوات والأرض ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب فيستوجب بالقتال ثواب الامتثال.

ثم في إضافة النصرة إلى كاف الخطاب إشارة إلى أن نصرته عليه السلام هو نصرة الله، لأن إطاعة الرسول وإطاعة ولي الأمر هو إطاعة الله، لكونهم مبلّغين عن الله والآمر والناهي في الحقيقة هو الله، ولذلك قرن الله طاعتهم بطاعته في قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، بل جعل طاعتهم عين طاعته في قوله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

روي في **(الصافي)** عن العياشي عن الباقر عليه السلام قال: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب

الأشياء ورضى الرحمٰن الطاعة للإمام بعد معرفته، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(١).

فإن استشهاد الإمام عليه السلام لوجوب طاعة الإمام بالآية مفيد لكون طاعته طاعة الرسول كما أن طاعته طاعة الله.

وأما **ثالثاً**: فإن قوله: والإبطاء عن إعزاز دينك، تقريع شديد على المتقاعدين لإفادته أنهم بتقاعدهم مذلون للدين مضيعون لمسالك الشرع المبين، فقد ظهر بما ذكرنا كله أن قوله عليه الصلاة والسلام تحذيراً عظيماً للمتقاعدين.

وأكد ذلك الغرض بقوله عليه السلام: **(فإنا نستشهدك عليه)** حيث خالف أمرك وترك نصرتك وأهان دينك **(يا أكبر الشاهدين)** الذي لا يعزب عنه شيء في السماء والأرض وهو على كل شيء شهيد.

(ونستشهد عليه جميع من أسكنته أرضك وسماواتك) من الملائكة والأنس والجن ليشهدوا يوم الدين بأني ما قصرت ولا فرطت في تبليغ أمرك إلى المتخاذلين ولكنهم تولوا عنه معرضين **(ثم أنت البعد)** أي بعد تلك الشهادة **(المغني)** لما **(عن نصره)** إذ بيدك جنود السماوات والأرض وأنت لما تشاء قدير، وفي هذه الفقرة تعظيم لرب العالمين واستحقار للمتخاذلين **(والآخذ له بذنبه)** وفيه تحذير عظيم لهم وتهديد شديد من سخطه وعقابه لكونه عز وجل شديد العقاب وأشد بأساً وأشد تنكيلاً، لا يعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب، نعوذ بالله من سخطه وغضبه.

---

(١) وسائل الشيعة: ١/ ١١٩ ح ٢٩٨، وفقه الصادق (ع): ١٦/ ١٦٥.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن امام انام (عليه السلام) است كه گفته:

بارالها، هركدام بنده از بندگان تو كه شنيد گفتار با عدالت ما را كه ظلم كننده نيست و گفتار اصلاح كننده ما را كه افسادكننده نيست در دين و دنيا، پس امتناع كرد بعد از شنيدن او مر آن را مگر از برگشتن از يارى تو و تأخير نمودن از براى اعزاز دين تو، پس به درستى كه ما شاهد مى گيريم تو را بر آن شخص اى بزرگترين شاهدها و شاهد مى گيريم تو را و جميع كسانى را كه ساكن فرموده ايشان را در زمين خود و آسمانهاى خود، پس تو بعد از آن شهادت غنى كننده اى از يارى او و مؤاخذه كننده اى او را به گناه و معصيت او؛ والله الهادى.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائتان والثانية عشر من المختار في باب الخطب

الحَمْدُ لله العَلِيّ عَنْ شَبَهِ المَخْلُوقينَ، الغالِبِ لِمَقالِ الواصِفِينَ، الظاهِرِ بِعَجائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنّاظِرِينَ، والباطِنِ بِجَلالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ المُتَوَهِّمِينَ، العالِمِ بِلا اكْتِسابٍ وَلا ازْدِيادٍ، وَلا عِلْمٍ مُسْتَفادٍ، المُقَدِّرُ لِجَمِيعِ الأُمُورِ بلا رَوِيَّةٍ ولا ضَمِيرٍ، الَّذِي لا تَغْشاهُ الظُّلَمُ، وَلا يَسْتَضِيءُ بِالأَنْوارِ، وَلا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ وَلا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهارٌ، لَيْسَ إِدْراكُهُ بِالأَبْصارِ، وَلا عِلْمُهُ بالأَخْبارِ(١).

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله:

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي الاصْطِفاءِ، فَرَتَقَ بِهِ المَفاتِقَ، وساوَرَ بِهِ المَغالِبَ، وذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وسَهَّلَ بِهِ الحُزُونَةَ، حَتّىٰ سَرَّحَ الضَّلالَ عَنْ يَمينٍ وشِمالٍ(٢).

اللغة

(الشّبه) بالتحريك كالشبه والشبيه بمعنى المثل والمشابه وشبّهت الشيء بالشيء أقمته مقامه بصفة جامعة بينهما، وأشبه الولد أباه وشابهه إذا شاركه في صفة من الصفات و **(رهق)** الدين رهقاً من باب تعب غشيه ورهقت الشيء أدركته و **(الأخبار)** في أكثر النسخ بالكسر مصدر أخبر وفي بعضها بالفتح جمع الخبر وكذلك الأبصار.

و **(رتقت)** الفتن رتقاً من باب قال سددته فارتتق و **(فتق)** الثوب شقّه فانفتق وتفتق والفتق أيضاً شقّ عصا الجماعة ووقوع الحرب بينهم ومفتق الثوب محل شقه ويجمع على مفاتق كمقعد ومقاعد و **(ساور)** فلاناً واثبه سواراً ومساورة وساوره أخذه برأسه والوثوب الظفر و **(غلبه)** غلباً وغلباً وغلبة ومغلباً قهره والمغلب وزان معظم المغلوب مراراً والمحكوم له بالغلبة ضدّ، والمغلبني وزان مسلنقي الذي يغلبك ويعلوك و **(الحزونة)** ضد السهولة والحزن ما غلظ من الأرض والسهل ما لان منها و **(سرحت)** المرأة تسريحاً طلّقتها، قال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أي تطليق.

الإعراب

(الباء) في قوله: **(بالضياء)** للمصاحبة كما في دخلت عليه بثياب السفر، وفي قوله: **(به)** للسببية، وقوله: **(عن يمين وشمال)**، ظرف لغو متعلق بسرّح على تضمين معنى الطرد والإبعاد.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة كما ذكره بعض الشراح وأشار إليه السيد «ره» مشتملة على فصلين:

الفصل الأول

في تمجيد الله عز وجل وثنائه بنعوت جلاله وجماله وأثنى عليه تعالى باعتبارات:

أولها: قوله: **(الحمد لله العليّ عن شبه المخلوقين)** أي المتعالي عن مشابهة مخلوقاته فلا يشابه شيئاً منها، ولا يشابهه شيء، فليس له شبه وشبيه ونظير.

وذلك لما عرفت مراراً في تضاعيف الشرح لا سيما شرح الخطبة المائة والخامسة والثمانين وشرح الكلام المائتين والثامن أن المخلوقات كلها محدودة بالحدود الاصطلاحية المركبة من الجنس والفصل، وبالحدود اللغوية أي النهاية والله سبحانه منزّه عن الحد اصطلاحياً كان أو لغوياً لاستلزام الأول للتركيب والثاني للافتقار إلى محدد، وكل مركب ومفتقر ممكن، فالواجب تعالى لا يمكن أن يكون له مشابه ومشارك في ذاته وصفاته وأفعاله.

والحاصل أن الواجب تعالى أجلّ وأعلى من أن يتصف بالصفات الإمكانية، فيشابه المحدثات ويشاركهم في جهة من الجهات.

الثاني: أنه **(الغالب لمقال الواصفين)** يعني أنه تعالى شأنه أجلّ من أن يقدر الواصفون على وصفه وبيان محامده، لعدم وقوف صفاته الكمالية وأوصافه الجمالية والجلالية إلى حد معين حتى يحيط بها العقول وبصفة الألسنة كيف وقد اعترف سيد البشر ﷺ بالعجز عن ذلك، وقال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1]، فأنى لغيره بذلك؟.

وهذه الفقرة مساوقة لقوله عليه السلام في الخطبة الأولى: الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، فإن المدح والثناء والوصف كلها بمعنى:

---

(١) منتهى الطلب: ١/ ٢٩٩، وتذكرة الفقهاء: ٢/ ٢٦٥.

لا يـدرك الـواصـف الـمـطـري مـحـامـده وإن يـكـن سـابـقـاً فـي كـل مـا وصـفـا

فحيث قصرت ألسنة الواصفين وكلّت عن تعداد صفاته الحميدة فهو كالغالب على أقوالهم لعجزها عن البلوغ إلى مدى صفاته.

الثالث: أنه **(الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين)** يعني أنه تعالى ظاهر للناظرين وليس ظهوره بذاته كما توهمه المجسمة وغيرهم من المجوزين للرؤية، بل بآثار قدرته وإعلام عظمته وبدائع صنعه وعجائب تدبيره وحكمته حسبما عرفته تفصيلاً في شرح الخطبة التاسعة والأربعين والخطبة الرابعة والستين وغيرهما.

(و) الرابع: أنه **(الباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين)** يعني أنه محتجب عن الأوهام والعقول، وليس احتجابه واختفاؤه بصغر جسمه وحقارته أو لطافة قوامه كالهواء والروح ونحوهما، بل باعتبار جلاله وعزّته وجبروته وعظمته حسبما عرفت في شرح الخطبتين المذكورتين والحاصل أنه ظاهر بآياته باطن بذاته.

قال الشارح البحراني: وإنما قال: **(فكر المتوهمين)**، لأن النفس الإنسانية حال التفاتها إلى استلاحة الأمور العلوية المجردة لا بد أن يستعين بالقوة المتخيلة بباعث الوهم في أن تصور تلك الأمور بصور خيالية مناسبة لتشبيهها بها وتحطها إلى الخيال، وقد علمت أن الوهم إنما يدرك ما كان متعلقاً بمحسوس أو متخيل من المحسوسات، فكل أمر يتصوره الإنسان وهو في هذا العالم سواء كان ذات الله سبحانه أو غير ذلك فلا بد أن يكون مشوباً بصورة خيالية ومعلقاً بها، وهو تعالى منزّه بجلال عزّته عن تكيف تلك الفكر له وباطن عنها، انتهى.

وقد تقدم ما يوضح ذلك في شرح الفصل الثاني من الخطبة الأولى وشرح الخطبة المائة والخامسة والثمانين فليراجع هناك.

الخامس: إنه **(العالم بلا اكتساب ولا ازدياد ولا علم مستفاد)** يعني أنه عز وجل عالم بذاته والعلم ذاته وليس علمه باكتساب له بعد الجهل، ولا بازدياد منه بعد النقص، ولا باستفادة وأخذ له عن غيره كما هو شأن علم المخلوقين، إذ لو كان كذلك لكان سبحانه متغيراً أو ناقصاً في ذاته مستكملاً بغيره وهو باطل.

السادس: أنه **(المقدر لجميع الأمور بلا روية ولا ضمير)** أي الموجد لمخلوقاته على وفق حكمته وقضائه كلاً منها بقدر معلوم ومقدار معين من دون أن يكون إيجادها مستنداً إلى الروية والفكر، ولا إلى ما يضمر في القلب من الصور كما يحتاج إليها سائر الصناع، لأنه سبحانه منزّه من الضمير والقلب، والرويّات لا تليق إلا بذوي الضمائر حسبما عرفت تفصيلاً في شرح الفصل الأول من الخطبة المائة والسابعة.

السابع: أنه **(الذي لا تغشاه الظلم ولا يستضيء بالأنوار)** أي لا يغطيه ظلام كما يغطي سائر الأجسام لكونه منزهاً عن الجسمية، ولا يستضيء بالأنوار كما يستضيء بها ذوات الأبصار لكونه منزهاً من حاسة البصر وسائر الحواس، مضافاً إلى أنه تعالى نور السماوات والأرض، والجميع به يستضيء فكيف يستضيء بغيره وإلا لزم أن يكون مفتقراً إلى غيره مستكملاً به وهو باطل.

(و) الثامن: أنه **(لا يرهقه ليل ولا يجري عليه نهار)** يعني لا يتعور عليه ليل ونهار لكونه منزهاً عن الزمان والحركة فلو تعاورا عليه لتفاوتت ذاته وتغيرت صفاته وامتنع من الأزل معناه.

(و) التاسع: أنه **(ليس إدراكه بالأبصار)** لتنزهه من الاحتياج في الإدراك إلى الآلات والمشاعر والأدوات.

والعاشر: ما أشار إليه بقوله: **(ولا علمه بالأخبار)** أي بأن يخبره غيره بشيء فيحصل له العلم بذلك الشيء بسبب هذا الخبر، لاستلزام ذلك للجهل أولاً والافتقار إلى حاسة السمع ثانياً، والنقص بالذات والاستكمال بالغير ثالثاً، وهذا كله مناف لوجوب الوجود.

الفصل الثاني

(منها في ذكر النبي ﷺ) قال عليه السلام: **(أرسله بالضياء)** الساطع والنور اللامع.

والمراد به إما نور الإيمان، وبه فسر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وإما نور العلم يعني النبوة الذي كان في قلبه ﷺ، وبه فسر **(المصباح)** في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

روي في **(الصافي)** من التوحيد عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] قال: كذلك عز وجل: «مثل نوره» قال محمد ﷺ: «كمشكوة» قال صدر محمد ﷺ: «فيها مصباح» قال فيه نور العلم يعني النبوة الحديث[١].

وإما القرآن كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

---

(١) معاني الأخبار: ١٥ ح ٧، وبحار الأنوار: ٤/ ١٥ ح ٤.

[المائدة: ١٥ـ١٦] فهو نور عقلي يُهتدى به في سلوك سبيل الجنان ويستضاء به في الوصول إلى مقام الزلفى والرضوان.

(وقدّمه في الاصطفاء) أي قدمه على جميع خلقه في أن اختاره منهم وفضله عليهم كما قال الشاعر:

لله في عالمه صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم
وصفوة الصفوة من هاشم محمد الطهر أبو القاسم

وقد مضى أخبار لطيفة في هذا المعنى في شرح الخطبة الثالثة والتسعين فليراجع هناك.

وقوله: **(فرتق به المفاتق)** أي أصلح به المفاسد، وهو إشارة إلى ما كانت عليه أهل الجاهلية حين بعثه من سفك الدماء وقطع الأرحام وعبادة الأصنام واجتراح الآثام قد استهوتهم الأهواء، واستزلتهم الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، تائهين حائرين في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل، فبالغ صلى الله عليه وآله في نصحهم وموعظتهم ودعائهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى سبيل ربهم، وجادلهم بالتي هي أحسن، فأصلح الله بوجوده الشريف ما فسد من أمور دنياهم وآخرتهم، ورفع به ضغائن صدورهم، وهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة.

(وساور به المغالب) في إسناد المساورة إلى الله توسع، والمراد تسليطه على المشركين والكفار والمنافقين الذين كان لهم الغلبة على غيرهم كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾ [المجادلة: ٢٠ـ ٢١]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

قال في **(مجمع البيان)** في تفسير الآية الأولى: روي أن المسلمين قالوا: لما رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى ليفتحن الله علينا الروم وفارس فقال المنافقون: أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتم عليها، فأنزل الله هذه الآية[1].

وقال في الآية الثانية في تفسير قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ معناه ليغلب دين الإسلام على جميع الأديان بالحجة والغلبة والقهر لها حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلا مغلوب.

(وذلل به الصعوبة) صعوبة الجاهلية التي أشرنا إليها في شرح قوله: فرتق به المفاتق **(وسهل به الحزونة)** أي حزونة طريق الحق وتسهيلها بالإرشاد إلى معالمه والهداية إليه.

---

(١) مجمع البيان: ٩/٤٢١، وتفسير الميزان: ١٩/١٩٨.

(حتى سرّح الضلال عن يمين وشمال) غاية للجملات السابقة جميعاً أو لخصوص الجملة الأخيرة أي إلى أن طردوا بعد ظلمات الجهل والضلال بميامين بعثته وأنوار هدايته عن يمين النفوس وشمالها.

قال الشارح البحراني: وهو إشارة إلى إلقائه رذيلتي التفريط والإفراط عن ظهور النفوس كتسريح جنبي الحمل عن ظهر الدابة، وهو من ألطف الاستعارات وأبلغها.

الترجمة

حمد وثنا خدایی را است که برتر است از مشابهت مخلوقات و غلبه کننده است مر گفتار وصف کنندگان کنه ذات و صفات. یعنی او غالب است به توصیف هر واصفی و هیچ کس قدرت وصف او ندارد. ظاهر است و هویدا با عجایب و غرایب تدبیر خود از برای متفکران و پنهان است به جهت جلال عظمت و شدت نور خود از فکر صاحبان وهم و عقل دانا و عالم است بدون حاجت به کسب علم از دیگری و بدون احتیاج به افزون کردن علم و بدون علمی که استفاده شود از خارج، مقدر است جمیع امورات را بدون فکر و خطور خاطری، چنان خدایی که احاطه نمی کند او را ظلمتها و طلب روشنی نمی کند به نورها و درك نمی کند او را شب و جاری نمی شود بر او روز، نیست دیدن او با دیدن بصر و نه دانستن او به خبر دادن کسی دیگر.

از جمله فقرات این خطبه در ذکر اوصاف پیغمبر (صلی الله علیه و آله) است، می فرماید:

فرستاد خدای تعالی او را با نور پر ظهور و مقدم فرمود او را به جمیع مخلوقات در پسند کردن او، پس بست به وجود او گشادگی ها را و سد کرد شکافتگی ها را و شکست داد با قوت او اشخاصی را که همیشه غلبه داشتند و ذلیل کرد به سبب او سرکشی را و هموار گردانید با او ناهموار را تا این که برطرف ساخت و دور نمود ضلالت را از راست و چپ طریق حق.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائتان والثالثة عشر من المختار في باب الخطب

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وحَكَمٌ فَصَلَ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وسَيِّدُ عِبادِهِ، كُلَّما نَسَخَ اللهُ الخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ في خَيرِهِما، لَمْ يُسْهَمْ فِيهِ عاهِرٌ، وَلا ضَرَبَ فِيهِ فاجِر.

أَلا وَإِنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً، وَلِلْحَقِّ دَعائِمَ، ولِلطَّاعَةِ عِصَماً، وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طاعَةٍ عَوْناً مِنَ اللهِ يَقُولُ عَلىٰ الأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ الأَفْئِدَةَ، فِيهِ كِفاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفاءٌ لِمُشْتَفٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبادَ اللهِ المُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، ويُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ، يَتَواصَلُونَ بِالوَلايَةِ، ويَتَلاقُونَ بِالمَحَبَّةِ، ويَتَساقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ، ويَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ، لا تَشُوبُهُمُ الرِّيْبَةُ، وَلا تُسْرِعُ فِيهِمُ الغَيْبَةُ، عَلىٰ ذٰلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلاقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحابُّونَ، وَبِهِ يَتَواصَلُونَ، فَكانُوا كَتَفاضُلِ البَذْرِ يُنْتَقىٰ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ ويُلْقَىٰ، قَدْ مَيَّزَهُ التَّلْخِيصُ، وهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ، فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ كَرامَةً بِقَبُولِها، وَلْيَحْذَرْ قارِعَةً قَبْلَ حُلُولِها، وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ في قَصِيرِ أَيّامِهِ، وقَلِيلِ مُقامِهِ، في مَنْزِلٍ حَتّىٰ يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ، ومَعارِفِ مُنْتَقَلِهِ، فَطُوبىٰ لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ أَطاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ، وأَصابَ سَبِيلَ السَّلامَةِ بِنَصْرِ مَنْ بَصَّرَهُ، وطاعَةِ هادٍ أَمَرَهُ، وبادَرَ الهُدىٰ قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوابُهُ، وتُقْطَعَ أَسْبابُهُ، وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَماطَ الحَوْبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلىٰ الطَّرِيقِ، وهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ(١).

اللغة

(نسخت) الكتاب نسخاً من باب منع نقلته وانتسخته كذلك، ونسخت الشمس الظل أي أزالته، قال ابن فارس: وكل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه، فيقال: انتسخت الشمس الظل والشيب والشباب أي أزاله وكتاب منسوخ ومنتسخ منقول. والنسخة الكتاب المنقول، وتناسخ الأزمنة والقرون تتابعها وتداولها، لأن كل واحد ينسخ حكم ما قبله ويثبت الحكم لنفسه، ومنه تناسخ المواريث لأن الإرث لا يقسم على حكم الميت الأول بل على حكم الثاني وكذلك ما بعده.

و **(يسهم)** بالبناء على المفعول من أسهمت له أعطيته سهماً أي نصيباً و **(عهر)** عهراً من

---

(١) بحار الأنوار: ٦٦/ ٣١١.

باب تعب زنا وفجر فهو عاهر وعهر عهوراً من باب قعد لغة، وفي الحديث: الولد للفراش وللعاهر الحجر، أي إنما يثبت الولد لصاحب الفراش وهو الزوج وللعاهر الجنبة[١] ولا يثبت له نسب وهو كما يقال له التراب أي الخيبة لأن بعض العرب كان يثبت النسب من زنا فأبطله الشرع.

و **(الدعامة)** بالكسر ما يستند به الحائط إذا مال يمنعه من السقوط والجمع دعائم كعمائم، ويستعار بسيد القوم فيقال: هو دعامة القوم، كما يقال: هو عمادهم، و **(عصمه)** الله من المكروه من باب ضرب حفظه ووقاه، والاسم العصمة بالكسر ويجمع على عصم وزن عنب وجمع الجمع أعصم وعصمة وجمع جمع الجمع أعصام.

و **(كفى)** الشيء يكفي كفاية فهو كاف إذا حصل به الاستغناء عن غيره، قال الشارح المعتزلي: فيه كفاء لمكتف وشفاء لمشتف، الوجه فيه كفاية فإن الهمز لا وجه له هٰهنا لأنه من باب آخر ولكنه أتى بالهمزة للازدواج بين كفاء وشفاء كما قالوا: الغدايا والعشايا، وكما قال عليه السلام: مأزورات غير مأجورات، تأتي بالهمزة والوجه الواو للازدواج.

و **(الولاية)** بفتح الواو المحبة والنصرة و **(الكأس)** بهمزة ساكنة ويجوز تخفيفها القدح المملوء من الشراب ولا تسمى كأساً إلا وفيها شراب وهي مؤنثة سماعية و**(روي)** من الماء واللبن كرضي ريا وريًا وتروى وارتوى الاسم الذي بالكسر، وماء روي كغني ورواء كسماء كثير مرو و **(القارعة)** الداهية لأنها تقرع الناس بشدّتها ومنه سمّي الموت قارعة وكذلك القيامة لمزيد هولها و **(معارف)** الدار ما يعرفها المتوسم بها واحدها معرف مثل معاهد الدار ومعالم الدار و **(طوبى)** مصدر من الطيب قلبت ياؤه واواً لضمة ما قبلها أو اسم شجرة في الجنة.

الإعراب

قوله: **(كلما نسخ الله)** بنسخ كل على الظرف، و**(الفاء)** في قوله: **(فليقبل)** فصيحة، وقوله: **(حتى يستبدل)**، متعلق بقوله: **(ولينظر)**، وقوله: **(فطوبى لذي قلب سليم)** الفاء فصيحة، وطوبى مرفوع على الابتداء خبره لذي قلب ونهج السبيل بالنصب على نزع الخافض.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة مسوقة لوصف حال عباد الله الصالحين وأوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وختمها بالذكرى والموعظة وافتتحها بالشهادة بعدل الله عز وجل

(١) «الخيبة» في نسخة.

وفصله ثم بنعت رسول الله ﷺ وتزكية نسبه وأصله، فقال:

(وأشهد أنه عدل عدل) قال الشارح المعتزلي: الضمير في **(أنه)** راجع إلى القضاء والقدر المذكور في صدر هذه الخطبة ولم يذكره الرضي رحمه الله، قال: ونسبة العدل إلى القضاء على طريق المجاز، وهو بالحقيقة منسوب إلى ذي القضاء والقاضي به هو الله تعالى (اه)، ومحصله أنه تعالى عدل مبالغة أو عادل حقيقة في جميع أفعاله وأحكامه لكون الظلم قبيحاً عقلاً ونقلاً فيستحيل في حقه.

قال الشارح البحراني: والباري تعالى عادل بالنظر إلى حكمه وقضائه أي لا يقضي في ملكه بأمر إلا وهو على وفق النظام الكلي والحكمة البالغة، ويدخل في ذلك جميع أفعاله وأقواله، فأنه لا يصدر منها شيء إلا وهو كذلك، وأما الجزئيات المعدودة شروراً وصورة جور في هذا العالم، فإنها إذا اعتبرت شروراً نسبة ومع ذلك فهي من لوازم الخير والعدل لا بد منها، ولا يمكن أن يكون الخير والعدل من دونها كما لا يمكن أن يكون الإنسان إنساناً إلا وهو ذو غضب وشهوة يلزمهما الفساد والشر الجزئي، ولما كان الخير أكثر وكان ترك خير الكثير لأجل الشر القليل شراً كثيراً في الجود والحكمة وجب تلك الشرور الجزئية لوجود ملزوماتها، وأشار بقوله: عدل إلى إيجاد العدل بالفعل، انتهى.

(وحكم فصل) أي حاكم بالحق فصل بين الحق والباطل بما بعث به رسوله من كتابه العزيز، وإنه لقول فصل وما هو بالهزل، ويفصل أيضاً بين عباده يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: ٢٥]، أي يقضي فيميز الحق من الباطل تمييز المحق من المبطل والطيب من الخبيث فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧] أي بالحكومة بينهم وإظهار الحق من المبطل وجزاء كل بما يليق به.

(وأشهد أن محمداً) ﷺ **(عبده وسيد عباده)**.

أما أنه عبده فقد شهد به الكتاب العزيز في مواضع عديدة مقدماً على شهادته ﷺ قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩]، إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره. وقد تقدم بيان حقيقة العبودية في شرح الخطبة الحادية والسبعين تفصيلاً فليراجع ثمة، وإجمال ما قدمناه هنا أن العبد لا يكون

عبداً حقيقة إلا أن لا يرى لنفسه مالاً ولا له في أموره تدبيراً، وتكون أوقاته مستغرقة بخدمة مولاه، وهكذا كان حال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله والطيبين من آله سلام الله عليهم، فإنهم رأوا جميع ما في أيديهم مال الله فصرفوه في عيال الله وهم الفقراء والمساكين، ووكلوا جميع أمورهم إلى الله رضاء بقضائه فشكروا على نعمائه وصبروا على بلائه وكانت أوقاتهم مصروفة إلى عبادته وقيام أوامره ونواهيه وطاعته.

وأما أنه سيد عباده فلا ريب فيه، والظاهر أن المراد به جميع البشر لا خصوص عباد الله الصالحين الكاملين من الأنبياء والرسل ومن دونهم، لدلالة الأدلة على العموم حسبما عرفت تفصيلاً في تضاعيف الشرح، وأقول هنا مضافاً إلى ما قدمنا:

روي في (**البحار**) من الكافي بإسناده عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام أن بعض قريش قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله بأي شيء سبقت ولد آدم؟ قال: «إنني أول من أقرّ بربي إن الله أخذ ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى، فكنت أول من أجاب»[1].

وفيه من الخصال في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي إن الله عز وجل أشرف على الدنيا فاختارني منها على رجال العالمين، ثم اطلع الثانية فاختارك على رجال العالمين بعدي، ثم اطلع الثالثة فاختار الأئمة من ولدك على رجال العالمين بعدك، ثم اطلع الرابعة فاختار فاطمة على نساء العالمين»[2].

وفيه من تفسير فرات بن إبراهيم بسنده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما أُسري بي إلى السماء قال لي العزيز الجبّار: يا محمد إني اطلعت إلى الأرض اطلاعة فاخترتك منها واشتققت لك اسماً من أسمائي لا أذكر في مكان إلا وأنت معي، فأنا محمود وأنت محمد» الحديث[3].

وفيه من (**العيون**) عن الهروي عن الرضا عليه السلام في حديث طويل قال: إن آدم على نبينا وآله وعليه السلام لما أكرمه الله تعالى بإسجاد ملائكته وبإدخاله الجنة قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل مني، فعلم الله عز وجل ما وقع في نفسه فناداه: ارفع رأسك يا آدم فانظر إلى ساق عرشي، فرفع آدم رأسه فنظر إلى ساق العرش فوجد عليه مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين والحسن

---

(١) الكافي: ٢/ ١٢ ح ٣، وبحار الأنوار: ١٥/ ١٦.

(٢) اللمعة البيضاء: ١٨٠، والخصال: ٢٠٧ ح ٢٥.

(٣) الغيبة: ١٤٨، وبحار الأنوار: ٢٦/ ٣٠٨.

والحسين سيدا شباب أهل الجنة، فقال آدم: يا رب من هؤلاء؟ فقال عز وجل: هؤلاء من ذريتك وهم خير منك ومن جميع خلقي ولولاهم ما خلقتك ولا خلقت الجنة والنار ولا السماء والأرض»[١] إلى آخر ما تقدم روايته في التذنيب الثاني من شرح الفصل الثاني عشر من الخطبة الأولى.

وفيه أيضاً من إكمال الدين عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن موسى عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا سيد من خلق الله وأنا خير من جبرائيل وميكائيل وحملة العرش وجميع الملائكة المقرّبين وأنبياء الله المرسلين، وأنا صاحب الشفاعة والحوض الشريف وأنا وعلي أبوا هذه الأئمة[٢] من عرفنا فقد عرف الله، ومن أنكرنا فقد أنكر الله عز وجل» الحديث[٣].

وفي (**شرح المعتزلي**) عنه صلى الله عليه وآله قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «ادعوا لي سيد العرب علياً»، فقالت عائشة: ألست سيد العرب؟ فقال صلى الله عليه وآله: «أنا سيد البشر وعليّ سيد العرب»[٥].

والأخبار في هذا المعنى فوق حد الإحصاء ولا حاجة إلى الإطالة بروايتها.

قال الصدوق في (**الهداية**): يجب أن يعتقد أن النبوة حق كما اعتقدنا أن التوحيد حق، وأن الأنبياء الذين بعثهم الله مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي، جاؤوا بالحق من عند الحق، وأن قولهم قول الله وأمرهم أمر الله وطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله، وأنهم لم ينطقوا إلا من الله عز وجل وعن وجهه وأن سادة الأنبياء خمسة الذين عليهم دارت الرحى وهم أصحاب الشرائع وهم أولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم وأن محمداً صلوات الله عليه سيدهم وأفضلهم، وأنه جاء بالحق وصدّق بالمرسلين، وأن الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، ويجب أن يعتقد أن الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقاً أفضل من محمد صلى الله عليه وآله ومن بعده الأئمة صلوات الله عليهم، وأنهم أحب الخلق إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه وأولهم إقراراً به لما أخذ الله ميثاق النبيين في الذر. إلى آخر ما قال[٦].

(**كلما نسخ الله الخلق فرقتين**) أي خلّفهم حيث نقلهم من البطن الأول إلى البطن الثاني

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ١٦٥، والتفسير الصافي: ١/ ١١٧.
(٢) «الأمة» في نسخة.
(٣) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٩٤ ح ٦٦.
(٤) شرح النهج: ١١/ ٦٦.
(٥) مناقب أهل البيت: ١١٧، وبحار الأنوار: ٣٨/ ١٥ ح ٢٢.
(٦) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٧٣.

وقسمهم إلى فرقتين فرقة خير وفرقة شر **(جعله في خيرهما)** حسبما عرفت تفصيلاً في شرح الخطبة الثالثة والتسعين.

قال الشارح المعتزلي: وهذا المعنى قد ورد مرفوعاً في عدة أحاديث نحو قوله ﷺ: ما افترقت فرقتان منذ نسل آدم ولده إلا كنت في خيرهما، ونحو قوله ﷺ: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل مضر واصطفى من مضر كنانة واصطفى من كنانة قريش واصطفى من قريش هاشماً واصطفاني من بني هاشم.

(لم يسهم فيه عاهر) أي لم يجعل في نسبه الشريف ذا سهم ونصيب **(ولا ضرب فيه فاجر)** أي لم يكن لفاجر فيه شرك، يقال: ضرب في كذا بنصيب إذا كان شريكاً فيه.

والمراد طهارة نسبه الشامخ من شوب دنس الجاهلية ونجس السفاح أي تناسخته كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام وكان نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تدنس نسبه الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسه من مدلهمات ثيابها وقد عرفت تفصيله أيضاً في شرح الخطبة الثالثة والتسعين، هذا.

ولما فرغ عليه السلام من وصف النبي ﷺ رغّب المخاطبين في دخولهم في زمرة أهل الخير والحق والطاعة بقوله:

(ألا وإن الله قد جعل للخير أهلاً) وهم الأبرار المتقون وأهل الزهد والصلاح من المؤمنين، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧] أي تحروا ما هو خير وأصلحوا فيما تأتون وتذرون كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكان الأخلاق.

وقال الصادق عليه السلام: جعل الخير كله في بيت ومفتاحه الزهد في الدنيا، وخير الخير هو رضوان الله تعالى، وشر الشر سخطه والنار[1].

والخيرات الأخروية إنما تكسب بالخيرات الدنيوية ولذلك أمر الله سبحانه بها في الآية السابقة بقوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وفي قوله: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أي الأعمال الصالحة والطاعات المفروضة والمندوبة ورئيس أهل الخير هم الأئمة عليهم الصلاة والسلام كما أشير إليه في زيارتهم الجامعة بقوله: إن ذكر الخير كنتم أوله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه.

(وللحق دعائم) الظاهر أن المراد بالحق ضد الباطل وبدعائمه الأئمة عليهم السلام لأنهم أئمة الحق بهم قوامه ودوامه وثباته وغيرهم أئمة الباطل كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ

(١) الكافي: ٢/١٢٨ ح ٢.

خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴿١٨١﴾ [الأعراف: ١٨١]، وقوله: ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى﴾ [يونس: ٣٥] وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه بين الفريقين: «الحق مع علي وهو مع الحق أينما دار»، ومن طرق الخاصة مستفيضاً بل متواتراً كما قيل عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام عنه ﷺ أنه قال: الحق مع الأئمة الإثني عشر، وفي زيارتهم الجامعة: الحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه.

وفي رواية **(الكافي)** عن محمد بن مسلم قال: سمعت أباجعفر عليه السلام: يقول: ليس عند أحد من الناس حق ولا صواب ولا أحد من الناس يقضي بقضاء حق إلا ما خرج منا أهل البيت، وإذا تشعبت بهم الأمور كان الخطأ منهم والصواب من علي عليه السلام[1].

وقوله: **(وللطاعة عصماً)** يحتمل أن يكون المراد بالعصمة ما يعتصم به كما فسر به قوله تعالى: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ [الممتحنة: ١٠] أي بما يعتصم به الكافرات من عقد وسبب أي لا تمسكوا بنكاح الكوافر، وسمي النكاح عصمة لأنها لغة المنع والمرأة بالنكاح ممنوعة من غير زوجها.

وعلى ذلك فالمراد بعصم الطاعة هم الأئمة عليهم السلام والقرآن إذ بهما يعتصم ويتمسك في الطاعات.

أما الأئمة عليهم السلام فلاستناد الطاعة والعبادة إليهم لأنهم عليهم السلام نشروا شرائع الأحكام وبموالاتهم علمنا الله معالم ديننا، وبموالاتهم تقبل الطاعة المفترضة كما ورد في فقرات الزيارة الجامعة وفي رواية **(الكافي)** المتقدمة في شرح الفصل الخامس من الخطبة الثانية عن مروان بن مياح عن الصادق عليه السلام قال: وبعبادتنا عبد الله ولولا نحن ما عبد الله، وفي غير واحد من أخبارهم: بنا عرف وبنا عبد الله وسبّحنا فسبّحت الملائكة وهلّلنا فهلّلت الملائكة، والحاصل أنهم أساس الدين وعماد اليقين.

وأما القرآن فلكونه مدرك التكاليف والطاعات، كما قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: ٩]، أي طريق الشريعة والطاعة، ولذلك أمر الله بالاعتصام به في قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي بالقرآن استعير له الحبل لأن الاعتصام والتمسك به سبب النجاة من الرّدى كما أن التمسك بالحبل سبب النجاة من الردى.

ويحتمل أن يكون المراد بها أي بالعصمة الحفظ والوقاية كما في قولهم: عصمه الله من المكروه أي حفظه ووقاه، وعصمة الله للعبد منعه وحفظه له من المعصية وعلى ذلك فالمراد بعصم الطاعة الخواص الكامنة لها المانعة له من هلكات الدنيا وعقوبات الآخرة كما

(١) شرح أصول الكافي: ٦/٤٢٦ ح ١.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ٧].

والإتيان بصيغة الجمع، أعني عصما، إما باعتبار تعدد أنواع الطاعة أو تعدد خواصها أو كثرة ما يعصم بها منها من أنواع العقوبات، فإنّ كلّ طاعة فلها عصمة من نوع مخصوص أو أنواع من العذاب، ويقابلها الذنب والمعصية، فإن لكل ذنب أثراً خاصاً في جلب نوع مخصوص أو أنواع من السخط كما أشير إلى ذلك في الدعاء: اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء، اللهم اغفر لي الذنوب التي تقطع الرجاء، هذا.

وأنت بعد الخبرة بما حققناه في شرح هذه الفقرة وسابقتيه تعرف أن ما قلناه أولى مما قاله الشارح البحراني في تلك الفقرات حيث قال: قوله عليه السلام ألا وإن الله ـ إلى قوله عصماً ـ ترغيب للسامعين أن يكونوا من أهل الجنة ودعائم الحق وعصم الطاعة.

ومما قاله الشارح المعتزلي من أن دعائم الحق الأدلة الموصلة إليه المثبت له في القلوب وعصم الطاعة هي الإدمان على فعلها والتمرن على الإتيان بها، لأن المرّن على الفعل يكسب الفاعل ملكة تقتضي سهولته عليه.

ومما قاله بعض الشراح من أن المراد بعصم الطاعة العبادات التي توجب التوفيق من الله سبحانه وترك المعاصي الموجبة لسلبه أو الملائكة العاصمة للعباد عن اتباع الشياطين انتهى، فافهم جيداً.

قوله عليه السلام: **(وإن لكم عند كل طاعة عوناً من الله)** الظاهر أن المراد بالعون توفيق الله ولطفه المخصوص في حق المطيعين، فإن الإتيان بالطاعات إنما هو بعونه وتوفيقه كما أن المعاصي بخذلانه وسلب توفيقه كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وأشير إليه أيضاً في أخبارهم عليهم السلام.

روي في **(البحار)** من توحيد الصدوق بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن معنى: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال عليه السلام: لا حول لنا عن معصية الله إلا بعون الله، ولا قوة لنا على طاعة الله إلا بتوفيق الله عز وجل[1].

وفيه من **(كنز الكراجكي)** قال الصادق عليه السلام: ما كل من نوى شيئاً قدر عليه، ولا كل من

---

(١) التوحيد: ٢٤٢ ح ٣، ومعاني الأخبار: ٢٢.

قدر على شيء وفق له، ولا كل من وفق لشيء أصاب به، فإذا اجتمعت النية والقدرة والتوفيق والإصابة فهنالك تمت السعادة(١).

وفيه أيضاً من التوحيد عن الهاشمي قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام عن قوله: «وما توفيقي إلا بالله» وقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠] فقال عليه السلام: إذا فعل العبد ما أمره الله عز وجل به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عز وجل وسمي العبد به موفقاً، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين المعصية كان تركه لها بتوفيق الله تعالى، ومتى خلّي بينه وبين المعصية فلم يحل بينه وبينها حتى يرتكبها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه(٢).

فقد ظهر بما ذكرنا أن طاعة الله عز وجل لا يتمكن منها إلا بعونه وتوفيقه لأن التوفيق عبارة عن أن يجمع بين جميع الأسباب التي يحتاج إليها في حصول الفعل، ولهذا لا يقال فيمن أعان غيره: وفّقه لأنّه لا يقدر أن يجمع بين جميع الأسباب المحتاج إليها في حصول الفعل.

ولانحصار التوفيق فيه تعالى جيء بكلمة الحصر في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي نستوفق ونطلب المعونة على عبادتك وعلى أمور ما كلها منك وإنّ غيرك «كذا» إذا لا يقدر عليه أحد سواك، وإذا حصل التوفيق وشمله اللطف وعلم أن له في فعل العبادة الثواب العظيم زاد ذلك في نشاطه ورغبته، فيسهل للعبد حينئذ القيام بوظائف الطاعات لأنه يعين عليها ويقوي الأعضاء والجوارح على الإتيان بها.

ولتقويته لها قال عليه السلام: **(يقول على الألسنة)** فأسند إليه القول توسعاً لكونه ممداً له.

ولكونه سبباً لتثبيت القلوب واطمئنانها، قال عليه السلام: **(ويثبت الأفئدة)** فأسند التثبيت إليه مجازاً لأنه في الحقيقة فعل الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وإلى هذا التثبيت وتوضيحه أُشير في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

روي في **(البحار)** من محاسن البرقي عن أبيه عن فضالة عن أبي بصير عن خيثمة بن عبد

---

(١) الكافي: ٤/ ٢٦ ح ٣، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٢٩٣ ح ٢١٥٨١.

(٢) التوحيد: ٢٤٢، وبحار الأنوار: ٥/ ٢٠٠.

الرحمٰن الجعفي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن القلب ينقلب من لدن موضعه إلى حنجرته ما لم يصب الحق فإذا أصاب الحق قرّ ثم ضمّ أصابعه وقرأ هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ الآية[1].

وفي (**البحار**) أيضاً من التوحيد والعيون عن ابن عبدوس عن ابن قتيبة عن حمدان بن سليمان قال: سألت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فقال علي عليه السلام: من يرد الله أن يهديه بإيمانه في الدنيا إلى جنّته ودار كرامته في الآخرة يشرح صدره للتسليم بالله والثقة به والسكون إلى ما وعده من ثوابه حتى يطمئن ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه له في الدنيا ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ حتى يشك في كفره ويضطرب من اعتقاده قلبه حتى يصير ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] [الأنعام: ١٢٥].

فقد علم بما ذكرنا كله أن الله سبحانه في حق عباده المطيعين المقربين الذين لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ولا يريدون إلا ما أراد الله ألطافاً خاصة وعناية مخصوصة يستولي على قلوبهم بلطفه، ويتصرف في جوارحهم بأمره ففي كل آن يحصل منه التوفيق والإفاضات على أرواحهم والتصرف في أبدانهم فيطمئن به قلوبهم وينظرون بنور الله ويبطشون بقوة الله كما قال تعالى فيهم: فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي وبي يبطش، وقال عز وجل: كنت سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه.

(**فيه كفاء لمكتف وشفاء لمشتف**) يعني في عون الله عز وجل غناء لمن استغنى، إذ مع عونه لا يبقى افتقار إلى غيره وشفاء لمن استشفى لأنه تعالى الكافي الشافي لا كافي سواه كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ولا شافي غيره كما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠] ولا يحصل الغنى والشفاء إلا بعونه وحوله وقوته ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بإكثار الحوقلة عند الفقر والمرض.

كما رواه في (**الروضة**) من (**الكافي**) عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ألح عليه الفقر فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[3].

وقال عليه السلام: فقد النبي صلى الله عليه وآله رجلاً من الأنصار فقال: «ما غيّبك عنا؟» فقال: الفقر يا

---

(١) المحاسن: ١/ ٢٠٢ ح ٣١، وبحار الأنوار: ٥/ ٢٠٤ ح ٣٤.

(٢) قرب الإسناد: ٣٤٩، والتوحيد: ٢٤٣.

(٣) الكافي: ٨/ ٩٣ ح ٦٥، والأمالي: ٦٥١ ح ٨٨٥.

رسول الله وطول السقم، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك كلاماً إذا قلته ذهب عنك الفقر والسقم؟» فقال: بلى يا رسول الله، فقال: «إذا أصبحت وأمسيت فقل لا حول ولا قوة إلا بالله توكلت على الحي الذي لا يموت والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً»، فقال الرجل: فوالله ما قلته إلا ثلاثة أيام حتى ذهب عني الفقر والسقم(١).

ثم شرع في وصف عباد الله الكمّلين ترغيباً للمخاطبين إلى اقتفاء آثارهم واقتباس أنوارهم وسلوك مسالكهم فقال عليه السلام:

(واعلموا أن عباد الله المستحفظين علمه) المستحفظين في أكثر النسخ بصيغة المفعول أي الذين طلب منهم الحفظ، وفي بعضها بصيغة الفاعل أي الطالبين للحفظ.

والمراد بهم إما الأئمة عليهم السلام خصوصاً أو هم مع خيار شيعتهم لاتصافهم جميعاً بالاستحفاظ وبغيره من الأوصاف الآتية وإن كان اتصافهم بها آكد وأقوى لكونهم عليهم السلام حفظة لسره وخزانة لعلمه كما ورد في فقرات الزيارة الجامعة، وفيها أيضاً: وائتمنكم على سره(٢)، وقد وصفهم عليه السلام بذلك في الفصل الرابع من الخطبة الثانية حيث قال: هم موضع سره ولجاء أمره وعيبة علمه، وقدمنا هنالك مطالب نفيسة، وإلى ذلك الحفظ أشير في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] أي تحفظها أذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظها بتذكره وإشاعته والتفكر فيه والعمل بمقتضاه.

روي في **(الصافي)** من **(مجمع البيان)** عن النبي ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي إن الله تعالى أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أُعلمك وتعي وحقّ على الله أن تعي»، فنزل: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾(٣).

وفيه منه ومن **(العيون والجوامع)** عنه ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «سألت الله عز وجل أن يجعلها أذنك يا علي»(٤).

وفي رواية لما نزلت قال: اللهم اجعلها أذن عليّ، قال علي عليه السلام: فما سمعت شيئاً من رسول الله ﷺ فنسيته، وزاد في أخرى: وما كان لي أن أنسى(٥).

---

(١) المحاسن: ١/ ٤٣، والكافي: ٨/ ٩٣ ح ٦٥. (٢) أنظر شرح أصول الكافي: ٥/ ١٧٣.
(٣) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ١٠٧، وتفسير الميزان: ١٩/ ٣٩٦.
(٤) شرح أصول الكافي: ١/ ٨٨، وبحار الأنوار: ٣٥/ ٣٢٨ ح ٥.
(٥) بحار الأنوار: ٣٥/ ٣٣٠ ح ١٤، وتفسير مجمع البيان: ١٠/ ١٠٧.

وفي (**الكافي**) عن الصادق عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«هي أذنك يا علي»**[١].

وبالجملة فالأئمة سلام الله عليهم خزنة علم الله أمرهم الله بحفظه كما أن خيار شيعتهم أوعية علومهم المتلقاة من الله عز وجل، وهم أيضاً طلبوا منهم حفظها عن الضياع والنسيان.

(**يصونون مصونه ويفجرون عيونه**) أي يحفظون ما يجب حفظه لكونه من الأسرار التي لا يجوز إظهارها أصلاً، فإن حديثهم صعب مستصعب لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان على ما عرفت تحقيقه في شرح الفصل الرابع من الخطبة الثانية.

أو لا يجوز إظهارها إلا للأوحدي من شيعتهم الحافظين لها وإليه أشار علي بن الحسين عليه السلام بقوله: لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله.

ويفجرون ينابيعه ويظهرون ما ليس من قبيل الأسرار بل من قبيل التكاليف والأحكام ونحوها ويعلمونها غيرهم.

وتشبيه العلم بالعين استعارة بالكناية وذكرالعيون تخييل والتفجير ترشيح والجامع أن في العلم حياة الأرواح كما أن في الماء حياة الأبدان، وإنما شبّه بماء العين بخصوصه لكونه زلالاً صافياً وفيه من العذوبة والصفاء ما ليس في سائر المياه؛ فكان أبلغ في التشبيه.

وقد وقع نظير ذلك التشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] يعني إن غاب إمامكم فمن يأتيكم بعلم الإمام كما فسر به في عدة روايات.

ولما أشار عليه السلام إلى كمال المستحفظين في الحكمة النظرية عقّبه بالتنبيه على كمالهم في الحكمة العملية فقال:

(**يتواصلون بالولاية**) أي بالمحبة والنصرة أو القرب والصداقة، يعني أن مواصلتهم عن وجه الصدق والصفا والود والوفا، لا عن وجه النفاق كما هو الغالب في وصل أبناء الزمان، ويحتمل أن يكون المراد بالولاية القرابة فيكون المراد بالجملة التواصل بالأرحام وصلة الرحم والأول أظهر.

(**ويتلاقون بالمحبة**) هذه الجملة كالتفسير للجملة السابقة، أي يكون ملاقاتهم عن حب كل منهم لصاحبه.

فقد قال أبو عبد الله في رواية (**الكافي**) عن صفوان الجمال عنه عليه السلام: **ما التقى مؤمنان** قط إلا كان أفضلهما أشد حباً لأخيه.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٨٨، والتفسير الأصفي: ٢/ ١٣٤٣.

وفيه أيضاً عن شعيب العقرقوفي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لأصحابه: اتقوا الله وكونوا أخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه[١].

(ويتساقون بكأس روية) أي يسقى كل منهم للآخر بكأس العلم والمعرفة التي بها رواء كل غليل.

أما الأئمة فلأن كل منهم أخذ علمه عن الآخر حتى انتهى إلى أمير المؤمنين وأخذه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله بوحي أو إلهام[٢].

---

(١) الأمالي: ٦٠ ح ٨٧، والكافي: ٢/ ١٧٥ ح ١.

(٢) **تحقيق في مصدر علم آل محمد صلى الله عليه وآله**

روايات مصدر علمهم على طوائف:

١ ـ ما دل أن مصدر علمهم القرآن والكتاب فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «والله إنّي لأعلم ما في السموات وما في الأرض، وما في الجنة وما في النار، وما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة، ثم قال: اعلمه من كتاب انظر إليه هكذا، ثم بسط كفّيه ثم قال: ان الله يقول: (انّا أنزلنا إليك الكتاب فيه تبيان كلّ شيء) (بصائر الدرجات: ١٢٧ باب علمهم بما في السموات ح٢).

٢ ـ أن علمهم من ليلة القدر فعن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث جاء فيه: «فإذا كانت ليلة ثلاثة وعشرين فيها يفرق كل أمر حكيم، ثم ينهي ذلك ويمضي».

قلت: إلى مَنْ ؟

قال: «إلى صاحبكم، ولولا ذلك لم يعلم ما يكون في تلك السنة» (بصائر الدرجات: ٢٢٢ ح١١ و٢٢٠ ح٣ باب ما يلقى إليهم في ليلة القدر).

وعنه (عليه السلام) قال: «إن الله يقضي فيها مقادير تلك السنة ثم يقذف به إلى الأرض». فقلت: إلى مَنْ ؟ فقال لي: «من ترى يا عاجز» (بصائر الدرجات: ٢٢١ ح١٠).

٣ ـ أن علمهم من عامود النور فعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): «إن لله عاموداً من نور حجبه الله عن جميع الخلائق طرفه عند الله وطرفه الآخر في أذن الإمام، فإذا أراد الله شيئاً أوحاه في أذن الإمام» (بحار الأنوار: ٢٦/ ١٣٤ باب رفع العامود للإمام ح٩).

٤ ـ أن علمهم وراثة من رسول الله فعن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث عن علم الإمام علي(عليه السلام) قال: «وورث علم الأوصياء وعلم من كان قبله» (الكافي: ١/ ٢٢٤ باب أنّهم ورثوا النبي ح٢).

وفي حديث الإمام الصادق (عليه السلام): «إنّا ورثنا محمّداً» (الكافي: ١/ ٢٢٥ ح٣).

وعن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: «أمّا بعد فإن محمّداً كان أمين الله في خلقه فلما قبض كنّا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه، عندنا علم البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وإنّا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق» (الكافي: ١/ ٢٢٣ ح١).

٥ ـ أن علمهم بواسطة القذف والنقر فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «إن علمنا غابر مزبور ونكت في القلوب ونقر في الأسماع.

فقال: أمّا الغابر فما تقدّم من علمنا، وأمّا المزبور فما يأتينا، وأمّا النكت في القلوب فإلهام، وأمّا النقر =

ويشهد بذلك ما رواه في (الكافي) عن الحكم بن عتيبة قال: لقي رجل الحسين بن

= في الأسماع فأمر الملك» (أصول الكافي: ١/ ٢٦٤ باب جهات علومهم ح٣ ـ ١ ـ ٢، وبصائر الدرجات: ٣١٨ ح٢).

٦ ـ أن علمهم (عليهم السلام) بالإلهام فعن الإمام الرضا(عليه السلام) في حديث طويل جاء فيه: «إن العبد إذا اختاره الله عزوجل لأمور عباده شرح صدره لذلك وادع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً فلم يعي بعده بجواب» (بحار الانوار: ٢٥/ ١٢٧ ح٣).

٧ ـ في أنهم (عليهم السلام) محدثون فعن ابن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إنّا نقول إن عليّاً لينكت في قلبه أو ينقر في صدره وأذنه ؟

قال (عليه السلام): «إن عليّاً كان محدثاً».

قال: فلما أكثرت عليه قال (عليه السلام): «إن عليّاً يوم بني قريظة وبني النضير كان جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره يحدثاه» (بصائر الدرجات: ٣٢١ باب أن المحدث كيف صفته ح٢ ـ ٧، وأصول الكافي: ١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠ ح ١ وما بعده).

٨ ـ أن علمهم (عليهم السلام) بواسطة الوحي وجبرائيل

فعن الإمام الصادق (عليه السلام) الصحيح السند في علمهم انّه: «وحي كوحي أمّ موسى» (الاختصاص: ١٢/ ٢٨٦، وبصائر الدرجات: ٣١٧ ح ١٠ باب ما يفعل بالإمام من النكت).

وعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): «إنه محدث كصاحب سليمان وموسى وذي القرنين» (بصائر الدرجات: ٢٤١ ج ٧ ب ٦ ح ٣).

وعنه (عليه السلام) قال: «بيت علي وفاطمة من حجرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسقف بيتهم عرش ربّ العالمين، وفي قعر بيوتهم فرجة مكشوفة إلى العرش معراج الوحي، والملائكة تنزل عليهم بالوحي صباحاً ومساءً، وفي كل ساعة وطرفة عين، والملائكة لا ينقطع فوجهم فوج ينزل وفوج يصعد.

وأن الله تبارك وتعالى كشط لإبراهيم عن السماوات حتى أبصر العرش، وزاد الله في قوّة ناظره، وأن الله زاد في قوّة ناظرة محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين، وكانوا يبصرون العرش ولا يجدون لبيوتهم سقفاً غير العرش» (كنز الفوائد: ٤٧٣، وبحار الانوار: ٢٥/ ٩٧ ح٧١ باب الأرواح التي فيهم).

وعن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام): «إن فاطمة (عليها السلام) مكثت بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)خمسة وسبعين يوماً، وكان دخلها حزن شديد على أبيها وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيّب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة» (الكافي: ١/ ٢٤١ ح٥ باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة، وبصائر الدرجات: ١٥٣ ح٦، وبحار الانوار: ٤٦/ ١٩٥).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام): «فليشرق الحكم بن عتيبة وليغرب، أما والله لا يصيب العلم ـ وفي رواية: لا يوجد ـ إلاّ من أهل بيت نزل عليهم جبرائيل» (أصول الكافي: ١/ ٣٩٩ ح ٤، والوسائل: ١٨/ ٤٧ ح ٣٣٢٠٩، وبصائر الدرجات: ٩ ح ٢ ـ ٣ باب الأمر بطلب العلم من معدنهم).

وعن عمر بن يزيد قال: قلت: لأبي عبد الله (عليه السلام) الذي أملاه جبرائيل على علي (عليه السلام)أقرآن هو ؟ قال (عليه السلام): «لا» (بصائر الدرجات: ١٥٧ ح١٧ باب إنهم أعطوا الجفر والجامعة).

علي ﷺ بالثعلبية وهو يريد كربلاء فدخل عليه فسلّم فقال له الحسين ﷺ: من أي البلاد

= وعن أبي جعفر(عليه السلام) قال في قوله تعالى: (وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا)قال أبو جعفر(عليه السلام): «يعني الأئمّة من ولد فاطمة يوحى إليهم بالروح في صدورهم» (بحار الانوار: ٢٤/ ١٥٨ ح٢١).

٩ ـ أن علمهم (عليهم السلام) بواسطة الروح قال أبو حمزة: سألت أبا عبد الله(عليه السلام) عن العلم أهو علم يتعلّمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه ؟

قال (عليه السلام): «الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قوله تعالى: (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان)... بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم» (الكافي: ١/ ٢٧٣ ح٥ باب الروح التي يسدد الله بها الأئمة).

وعن علي بن موسى الرضا (عليهما السلام) قال: «إن الله أيّدنا بروح منه مقدّسة مطهّرة ليست بملك، لم تكن مع أحد ممن مضى إلاّ مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهي مع الأئمّة منّا تسدّدهم وتوفقّهم، وهو عمود من نور بيننا وبين الله» (عيون أخبار الرضا: ٢/ ٢٠٠ باب ٤٦ ح١).

وعن الإمام العسكري (عليه السلام): «هذا روح القدس الموكل بالأئمة عليهم السلام يوفقهم ويسددهم ويزينهم بالعلم» (الأنوار النعمانية: ٢/ ١٨).

١٠ ـ أن علمهم بلا واسطة بل من الله بالمباشرة:

*** ويدل عليه آيات وروايات:**

فمن الآيات قوله تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى) (النجم: ١٠).

فعن جعفر بن محمد الصادق(عليهما السلام) في قوله تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى)قال: «أوحى إليه بلا واسطة».

ونحوه عن الواسطي (الشفا: ١/ ٢٠٢ فصل في قوله (فأوحى إلى عبده)، وتاريخ الخميس: ١/ ٣١٢قصة المعراج).

وفي تفسير القمي: (فأوحى إلى عبده ما أوحى) قال: «وحي مشافهة» (تفسير الميزان: ١٩/ ٣٤، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ١٥٢ وتفسير القمي: ٢/ ٣٣٤ مورد الآية).

ومنها قوله تعالى:(وعلّمك ما لم تكن تعلم) (النساء: ١١٣).

وقوله تعالى: (علّمه شديد القوى) (النجم: ٥).

ومنها قوله تعالى: (الرحمن علم القرآن علمه البيان) (الرحمن: ١).

وهذه نصوص صريحة أن الذي علمه هو الله تعالى بالمباشرة.

*** ومن الروايات:**

فعن معاذ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «سبق العلم وجفّ القلم ومضى القدر بتحقيق الكتاب وتصديق الرسل».

إلى أن قال (صلى الله عليه وآله): «عن الله أروي حديثي: إن الله تبارك وتعالى يقول يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء» (كتاب التوحيد للصدوق: ٣٤٣ ـ ٣٤٤ باب ٥٥ المشيئة ح١٣).

وعن عبد الله بن عمر قال: «إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يروي حديثه عن الله عزّ وجل» =

أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال ﷺ: أما والله يا أخا أهل الكوفة لو لقيتك بالمدينة

= (كتاب التوحيد للصدوق: ٣٤٠ ح١٠).
وقد عنون البخاري في صحيحه عنواناً: «باب ذكر النبي وروايته عن ربه».
وأخرج ثلاثة أحاديث: عن قتادة عن أنس عن النبي يرويه عن ربه قال: «إذا تقرب العبد إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً» (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ١٥/ ٥٩٥ كتاب التوحيد ـ باب ذكر النبي وروايته عن ربه، وفتح الباري شرح صحيح البخاري: ١٣/ ٦٢٦ ح ٧٥٣٦ كتاب التوحيد ـ باب ذكر النبي وروايته عن ربه).
وعن محمد بن زياد نحوه قال: «.. عن النبي يرويه عن ربكم..» (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ١٥/ ٥٩٧ كتاب التوحيد ـ باب ذكر النبي وروايته عن ربه).
وعن ابن عباس عن النبي فيما يرويه عن ربه قال «لا ينبغي لأحد أن يقول انه خير من يونس» (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ١٥/ ٥٩٧ كتاب التوحيد ـ باب ذكر النبي وروايته عن ربه).
قال القسطلاني بعد ذكر هذه الأحاديث الثلاثة: (قال الكرماني: الرواية عن الربّ أعم من أن تكون قرآناً أو غيره بالواسطة أو بدونها، لكن المتبادر الى الذهن المتداول على الألسنة كان بغير الواسطة) (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ١٥/ ٥٩٩ كتاب التوحيد ـ باب ذكر النبي وروايته عن ربه).
وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني قول الكرماني بلفظ: (الرواية عن الربّ أعم من أن تكون قرآناً أو غيره بدون الواسطة، وإن كان المتبادر هو ما كان بغير الواسطة والله أعلم) (فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١٣/ ٦١٣ ح ٧٥٤٠ كتاب الترحيد ـ باب ذكر النبي وروايته عن ربه).
وقال القاضي عياض: اعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده والعلم بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداءً دون واسطة لو شاء (الشفا: ١/ ٢٤٩ الباب الرابع).
وقال الإمام الجواد(عليه السلام) لمن سأله عن كيفية العلم بالمغيب: «نحن من علم الله علمنا، وعن الله نخبر» (الهداية الكبرى: ٣٠٤ باب ١١).
وعن سالم بن أبي حفصة قال: لما هلك أبو جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قلت لأصحابي: انتظروني حتى أدخل على أبي عبد الله جعفر بن محمد(عليهما السلام)فأعزيه به.
فدخلت عليه فعزيته ثم قلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذهب والله من كان يقول: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله)» فلا يسأل عن مَنْ بينه وبين رسول الله، لا والله لا يرى مثله أبداً.
قال: فسكت أبو عبد الله(عليه السلام) ساعة ثم قال: «قال الله تعالى: إنّ من عبادي من يتصدّق بشق تمرة فاربيها له».
فخرجت إلى أصحابي فقلت: ما رأيت أعجب من هذا، كنّا نستعظم قول أبي جعفر (عليه السلام): «قال رسول الله..» بلا واسطة، فقال لي أبو عبد الله (عليه السلام): «قال الله تعالى..» بلا واسطة (بحار الأنوار: ٤٧/ ٣٣٧ ح١٢ باب أحوال أصحابه وأهل زمانه٧ عن أمالي الطوسي: ٧٨، وأمالي المفيد: ٣٥٤ ذيل الكتاب مجلس ٤٢ ح٧).
ـ وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث المناجاة المشهور قال لمن اعترض عليه كيف يناجي يوم الطائف علياً (عليه السلام): «ما أنا انتجيته بل الله تعالى انتجاه» (الإرشاد: ١/ ١٥٣ اعتراض عمر على النبي في مناجاته علياً، والعمدة: ٣٦١ ح٧٠١ إلى ح٧٠٦، والمعجم الكبير للطبراني: ٢/ ١٨٦ ح١٧٥٦، ومناقب ابن المغازلي: ٩٥ ط. الحياة، وط. طهران: ١٢٤ ح١٦٢ إلى ١٦٦). =

لأريتك أثر جبريل من دارنا ونزله بالوحي على جدي، يا أخا أهل الكوفة أفمستقى الناس العلم من عندنا فعلموا وجهلنا؟ هذا ما لا يكون[١].

وفيه عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وآله برمانتين من الجنة فلقيه علي عليه السلام فقال: ما هاتان الرمانتان اللتان في يدك؟ فقال: أما هذه فالنبوة ليس لك فيها نصيب، وأما هذه فالعلم، ثم فلقها رسول الله صلى الله عليه وآله بنصفين فأعطاه نصفها وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله نصفها ثم قال: «أنت شريكي فيه وأنا شريكك فيه»، قال: فلم يعلم والله رسول الله صلى الله عليه وآله حرفاً مما علّمه الله عز وجل إلا وقد علمه علياً، ثم انتهى العلم إلينا، ثم وضع يده على صدره[٢].

= وفي بعض الروايات: «بل الله ناجاه» (العمدة: ٣٦١ ح٧٠١، ومناقب ابن المغازلي: ٩٥ ط. الحياة، وط. طهران: ١٢٤ ح١٦٢).

وفي رواية: «ما أنا بمناجي له، إنّما يناجي ربّه» (بصائر الدرجات: ٤١٠ ح٢ باب ان الله ناجاه بالطائف).

وعن حمران بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله(عليه السلام): جعلت فداك بلغني أن الله تبارك وتعالى قد ناجى عليّاً (عليه السلام).

قال (عليه السلام): «أجل قد كان بينهما مناجات بالطائف نزل بينهما جبريل» (بصائر الدرجات: ٤١٠ ح١).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «نحن من شجرة طيبة برأنا الله من طينة واحدة فَضْلُنا من الله، وعلمنا من عند الله» (بحار الانوار: ٣٦٣/٢٥ ح٢٣ باب إنّه جرى لهم من الفضل ما جرى للرسول).

وقال الحسن (عليه السلام) لعائشة عندما سألته كيف عرفت ما كان بيني وبين النبي (صلى الله عليه وآله)؟

قال: «هذا من علم الله» (الهداية الكبرى: ١٩٨ ذيل باب ٤).

وفي رواية مصحف فاطمة (عليها السلام) الصحيحة الذي فيها: «هو شيء أملاها الله وأوحى إليها »، وفي رواية: «ولكنه كلام من كلام الله أنزل عليها» (بصائر الدرجات: ١٥٢ ح٣ باب إنّهم أعطوا الجفر والجامعة وح١٤).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له: «إنّا أهل بيت من علم الله علمنا ومن حكم الله الصادق قلنا، ومن قول الصادق سمعنا» (كتاب سليم: ١٥٩، والمسترشد: ٥٦١ ح٢٣٨).

الترجيح بين الطوائف العشر

١ ـ القرآن. ٢ ـ ليلة القدر. ٣ ـ عامود النور. ٤ ـ وراثة من النبي.

٥ ـ القذف والنقر. ٦ ـ الإلهام. ٧ ـ التحديث. ٨ ـ الوحي وجبرائيل.

٩ ـ الروح. ١٠ ـ من الله مباشرة.

والذي يقوى في النفس ان أرجح الإحتمالات هو الإحتمال العاشر، وذلك لأمور فصّلتها في كتاب: آل محمد بين قوسي النزول والصعود ـ الجزء الثاني (طبع في بيروت/ دار الهادي.).

(١) الكافي: ٣٩٩/١، وبحار الأنوار: ٩٤/٤٥.

(٢) الكافي: ٢٦٣/١ ح ٣، وشرح أصول الكافي: ٤٨/٦ ح ٣.

وفيه عن هشام بن سالم وحماد بن عثمان وغيره قالوا: سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين عليه السلام، وحديث الحسين عليه السلام حديث الحسن عليه السلام، وحديث الحسن عليه السلام حديث أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، وحديث أمير المؤمنين عليه السلام حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله قول الله عز وجل[١].

وأما أصحاب الأئمة عليهم السلام فلأنهم قد استقوا من منهل علومهم عليهم السلام وتعلموها منهم وعلموها غيرهم بأمرهم عليهم السلام.

كما يشير إليه ما رواه في **(الكافي)** عن يزيد بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تزاوروا فإن في زيارتكم إحياء لقلوبكم وذكراً لأحاديثنا تعطف بعضكم على بعض فإن أخذتم بها رشدتم ونجوتم، وإن تركتموها ضللتم وهلكتم فخذوا بها وأنا بنجاتكم زعيم[٢].

وفي **(الوسائل عن الكافي)** عن محمد بن حكيم قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: فقّهنا في الدين وأغنانا الله بكم من الناس حتى أن الجماعة منا ليكون في المجلس ما يسأل رجل صاحبه إلا يحضره المسألة ويحضره جوابها فيما منّ الله علينا بكم[٣].

فقد ظهر بذلك أن المستحفظين علم الله عز وجل من الأئمة عليهم السلام وأصحابهم يأخذون العلوم الحقة والمعارف اليقينية من عين صافية ويستقون بكأس مروية **(ويصدرون)** عنها **(بريّة)** لا ظمأ بعدها.

وأما غيرهم فقد استقوا من ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

(لا تشوبهم الريبة) يحتمل أن يكون المراد نفي الشك عنهم لشدة يقينهم ومزيد تقواهم ورسوخهم في الإيمان.

قال الرضا عليه السلام فيما رواه في **(الكافي)** عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عنه عليه السلام: الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسم بين العباد شيء أقل من اليقين[٤].

---

(١) الكافي: ١/٥٣ ح ١٤، والإرشاد: ٢/١٨٦.
(٢) الكافي: ٢/١٨٦ ح ٢، ووسائل الشيعة: ١٦/٣٤٦ ح ٢١٧٢٤.
(٣) بحار الأنوار: ٢/٣٠٦، والمحاسن: ١/٢١٢ ح ٨٩.
(٤) الكافي: ٢/٥١ ح ٢، والخصال: ٢٨٥ ح ٣٦.

ويحتمل أن يكون المراد نفي التهمة وسوء الظن أي لا يتهم بعضهم بعضاً لأنه إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء، رواه في **(الكافي)** عن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبي عبد الله عليه السلام.

(ولا تسرع فيهم الغيبة) أي إذا أراد أحد غيبتهم فلا يتسرع غيبته إليهم كما يتسرع إلى غيرهم بطهارة نفوسهم من القبائح والمساوىء الموجبة لسرعتها بما لهم من ملكة العصمة والعدالة **(على ذلك)** أي على ما ذكر من الأوصاف الكمالية **(عقد)** الله **(خلقهم وأخلاقهم)** يعني أن اتصافهم بتلك الكمالات ليس بتكلف، بل هي مقتضى سجيتهم وهم مجبولون عليها لأن طينتهم عليهم السلام من أعلى عليين وشيعتهم مخلوقة من فاضل طينتهم عجينة بنور ولايتهم.

كما قال الصادق عليه السلام: شيعتنا منا خلقوا من فاضل طينتنا وعجنوا بنور ولايتنا[1].

وفي **(الكافي)** بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن الله عز وجل خلقنا من أعلى عليين وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه وخلق أبدانهم من دون ذلك وقلوبهم تهوى إلينا لأنها خلقت مما خلقنا منه، ثم تلا هذه الآية: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين: ١٨-٢١][2].

(فعليه) أي على ذلك العقد **(يتحابون وبه يتواصلون)** لأن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تخالف منها اختلف كما في النبوي صلى الله عليه وآله.

فقد قيل: إن المراد به أن الأرواح خلقت مجتمعة على قسمين مؤتلفة ومختلفة كالجنود التي يقابل بعضها بعضاً ثم فرقت في الأجساد، فإذا كان الائتلاف والمؤاخاة أولاً كان التعارف والتآلف بعد الاستقرار في البدن وإذا كان التناكر والتخالف هناك كان التنافر والتناكر هناك.

ولعله إلى ذلك ينظر إلى ما رواه في **(الكافي)** عن حمزة بن محمد الطيار عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: لم تتواخوا على هذا الأمر إنما تعارفتم عليه[3].

ومثله عن ابن مسكان وسماعة جميعاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لم تتواخوا على هذا الأمر وإنما تعارفتم عليه[4].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٣/ ٣٠٣.

(٢) المحاسن: ١/ ١٣٢ ح ٥، والكافي: ١/ ٣٩٠ ح ٤.

(٣) شرح أصول الكافي: ٩/ ٣٩ ح ٢.

(٤) شرح أصول الكافي: ٩/ ٣٩ ح ٢.

يعني أن المؤاخاة على الولاية والأخوة في الإيمان كانت ثابتة بينكم في عالم الأرواح ولم تقع هذا اليوم وفي هذه النشأة وإنما الواقع في هذه النشأة هو التعارف الكاشف عن مواخاة عالم الأرواح الناشيء منه.

(فكانوا) في تفاضلهم على سائر الناس **(كتفاضل البذر)** وهو أول ما يعزل من البذر للزراعة من الحبوب **(ينتقى)** ويزكى **(فيؤخذ منه)** الرديء **(ويلقى)** فلا يبقى منه إلا الجيد الخالص **(قد ميزه)** الانتقاء و **(التخليص وهذّبه التمحيص)** والتميز.

ومحصله: أن تفاضلهم كتفاضل البذر المنقى جيده والملقى ردّيه، وهو من تشبيه المعقول بالمعقول، وتعقيبه بالانتقاء والإلقاء ترشيح لأنهما من خواص المسند به والتخليص والتمحيص تجريد لكونهما من ملائمات المشبه، فهو من قبيل التشبيه المرشح المجرد، وقد مر توضيحه في ديباجة الشرح عند ذكر أقسام الاستعارات.

وقد وقع نظير هذا التشبيه في حديث أبي عبد الله عليه السلام المروي في **(البحار)**عن العياشي عن الوشا بإسناد له يرسله إليه عليه السلام قال: والله لتمحصن والله لتميزن والله لتغربلن حتى لا يبقى منكم إلا الأندر، قلت: وما الأندر؟ قال: البيدر، وهو أن يدخل الرجل قبّة الطعام يطين[(١)] عليه ثم يخرجه وقد تآكل بعضه ولا يزال ينقيه ثم يكن عليه ثم يخرجه حتى يفعل ذلك ثلاث مرات حتى يبقى ما لا يضره شيء[(٢)].

ثم أصل التمحيص التخليص وكثيراً ما يستعمل في التخليص الحاصل بالاختبار والامتحان، قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي ليمتحن الله ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق فيجازي المخلص بإخلاصه والمنافق بنفاقه لأن المجازات إنما هي بعد ظهور السرائر وإلا فهو سبحانه عالم بالسرائر والضمائر قبل ظهورها كما هو عالم بها بعد ظهورها، وليمحص أي وليكشف ويميز ما في قلوبكم من الطيب والخبيث.

وقال أيضاً: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١] أي وليبتلي الله الذين آمنوا وليخلصهم من الذنوب أو ينجيهم من الذنوب بالابتلاء ويهلك الكافرين بالذنوب عند الابتلاء.

---

(١) هكذا في النسخة والبحار ولعله تصحيف: تبين عليه أو بطين عليه بالباء الجارة والله العالم، منه.

(٢) بحار الأنوار: ٥/٢١٦ ح ١، وتفسير العياشي: ١/١٩٩ ح ١٤٦.

وفي **(الكافي)** عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ويل لطغاة العرب من أمر قد اقترب، قلت: جعلت فداك كم مع القائم عليه السلام من العرب؟ قال: نفر يسير، قلت: والله إن من يصف هذا الأمر منهم لكثير، قال عليه السلام: لا بد للناس من أن يمحصوا ويميزوا ويغربلوا ويستخرج في الغربال خلق كثير[١].

وحاصل المرام أن المستحفظين علم الله قد امتازوا عن سائر الناس وتفاضلوا عليهم وخرجوا تام العيار من قالب الامتحان لكونهم المخلصين في توحيد الله والتّامين في محبة الله، وإخلاصهم العمل لله، هذا.

ولما فرغ من شرح حال المستحفظين فرّع عليه قوله: **(فليقبل امرؤ كرامة بقبولها)** أي ليقبل كرامة الله وإفضاله وعوائد موائده بقبول هذه المكارم والصفات الجميلة، يعني إذا كان المستحفظون متخلقين بهذه المكارم والأخلاق الحسنة فليتقبلها المؤمن بقبول حسن وليحتذي حذوهم حتى يدخل في زمرتهم ويفوز بالكرامة العظيمة والنعمة الدائمة المعدة في حق المخلصين المكرمين على ما بشّر به في الكتاب الكريم في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٣٨-٤٦] الآيات، هذا.

ولما لم يمكن تحصيل المكارم ونيل هذه الكرامات إلا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل حلول الفوت، عقبه بقوله:

(وليحذر قارعة) أي داهية الموت **(قبل حلولها ولينظر امرؤ في قصير أيامه وقليل مقامه في منزل)** أي ليتفكر في أيامه القصيرة وإقامته القليلة في دار الدنيا **(حتى)** يتنبه من نوم الغفلة و **(يستبدل به منزلاً)** غيره، وهي دار الخلود التي ليس لأيامه نفاد ولا لإقامته انقطاع **(فليصنع لمتحوله)** أي ليصنع المعروف ويعمل بالصالحات لمحل انقلابه **(ومعارف منتقله)** أي معالم موضع انتقاله.

ثم رغّب عليه السلام إلى متابعته ومتابعة الطيبين من أولاده الأئمة الهداة عليه وعليهم السلام بقوله:

(فطوبى لذي قلب سليم) من حب الدنيا وشوب الشرك والريا وكدر المعاصي وهو الذي أشير إليه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

---

(١) الكافي: ١/ ٣٧٠ ح ٢، وبحار الأنوار: ٥/ ٢١٩ ح ١٣.

(أطاع من يهديه) من أئمة الهدى **(وتجنب من)** يهلكه و **(يرديه)** من أئمة الضلال والردى **(وأصاب سبيل السلامة)** وهي الجادة الوسطى المحفوظة من رذيلتي الإفراط والتفريط والصراط المستقيم المؤدي إلى جنته والمبلّغ إلى رضوانه ورحمته **(بنصر من بصره)** أي بعون إمامه الحق الذي جعله بإرشاده صاحب بصر وبصيرة في سلوك سبيل السلامة **(وطاعة هاد أمره)** بالمعروف ونهاه عن المنكر فاهتدى بأمره إلى الجادة المستقيمة.

(وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه) عليه **(وتقطع أسبابه)** عنه بموته، فإن الموت إذا حلّ ارتفعت التكاليف المحصلة للسعادة وانسدّت أبواب الهداية.

(واستفتح) باب **(التوبة وأماط الحوبة)** أي أزال الإثم والخطية ونحاها عن لوح نفسه بممحاة استغفاره وتوبته **(فقد أُقيم على الطريق وهدي نهج السبيل)** الواضح أي أقامكم الله على ذلك وهداكم الله بما نزّل في كتابه على نبيه من محكمات آياته كما أفصح عنه بقوله: ﴿قَالُوا يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠] فلم يبق بعد تلك الإقامة والهداية معذرة للمذنب ولا عتبى للمستعتب.

تذييل

قال الشارح المعتزلي في شرح قوله عليه السلام: **(لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر)**:

في هذا الكلام رمز إلى جماعة من الصحابة في أنسابهم طعن كما يقال: إن آل سعد بن أبي وقاص ليسوا من بني زهرة بن كلاب وأنهم من بني عذرة من قحطان، وكما قالوا: إن آل الزبير بن العوام من أرض مصر من القبط وليسوا من بني أسد بن عبد العزى، وكما يقال في قوم آخرون: نرفع هذا الكتاب عن ذكر ما يطعن في أنسابهم كي لا يظن بنا أنا نحب القالة في الناس، إلى أن قال:

قال أبو عثمان يعني الجاحظ: وبلغ عمر بن الخطاب أن أناساً من رواة الأشعار وحملة الآثار يعيبون الناس ويثلبونهم في أسلافهم، فقام على المنبر وقال: إياكم وذكر العيوب والبحث عن الأصول فلو قلت لا يخرج اليوم من هذه الأبواب من لا وصمة فيه، لم يخرج منكم أحد، فقام رجل من قريش نكره أن نذكره فقال: إذا كنت أنا وأنت يا أمير المؤمنين نخرج، فقال: كذبت بل كان يقال لك: يا قين ابن قين، اقعد[1].

قال الشارح: قلت: الرجل الذي قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي كان عمر يبغضه لبغضه أباه خالداً، ولأن المهاجر كان علوي الرأي جداً وكان

(١) شرح النهج: ١١/٦٩، وبحار الأنوار: ٣١/١٠١، مناقب أهل البيت: ٣٢١.

أخوه عبد الرحمٰن بخلافه شهد المهاجر صفّين مع علي عليه السلام وشهدها عبد الرحمٰن مع معاوية وكان مهاجر مع علي عليه السلام يوم الجمل وفقئت ذلك اليوم عينه، ولا الكلام الذي بلغ عمر بلغه عن مهاجر، وكان الوليد بن المغيرة مع جلالته في قريش حداداً يصنع الدروع وغيرها بيده.

قال: وروى أبو الحسن المدائني هذا الخبر في كتاب (**أمهات الخلفاء**)، وقال: إنه روي عند جعفر بن محمد عليه السلام بالمدينة، فقال عليه السلام: لا تلمه يا ابن أخي إنه أشفق أن يحدج بقضية نفيل بن عبد العزى وصهاك أمة الزبير بن عبد المطلب، ثم قال عليه السلام: رحم الله عمر فإنه لم يعد السنة، وتلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩] انتهى كلام الشارح[١].

أقول: قول الصادق عليه السلام: إنه أشفق أن يحدج بقضية نفيل (آه) إشارة إلى ما قدمنا في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية من نسب عمر تفصيلاً وعرفت هناك أن نسبه الكثيف أنجس من جميع أنساب أولاد البغايا المدنسة بأنجاس الجاهلية لم يسبقه في ذلك سابق ولم يلحقه لاحق، وأقول هنا مضافاً إلى ما سبق:

روى الشيخ الكليني في كتاب (**الروضة**) من (**الكافي**) عن الحسين عن أحمد بن هلال عن زرعة عن سماعة قال:

تعرض رجل من ولد عمر بن الخطاب بجارية رجل عقيلي فقالت له: إن هذا العمري قد أذاني، فقال لها: عديه وأدخليه الدهليز، فأدخلته فشد عليه فقتله وألقاه في الطريق فاجتمع البكريون والعمريون والعثمانيون وقالوا: ما لصاحبنا كفؤ أن يقتل به إلا جعفر بن محمد، وما قتل صاحبنا غيره، وكان أبو عبد الله عليه السلام قد مضى نحو قبا، فلقيته بما اجتمع القوم عليه، فقال عليه السلام: دعهم، فلما جاء ورأوه وثبوا عليه، وقالوا: ما قتل صاحبنا أحد غيرك وما يقتل به أحد غيرك، فقال عليه السلام: ليكلمني منكم جماعة فاعتزل قوم منهم فأخذ بأيديهم وأدخلهم المسجد، فخرجوا وهم يقولون: شيخنا أبو عبد الله جعفر بن محمد معاذ الله أن يكون مثله يفعل هذا ولا يأمر به، انصرفوا.

قال: فمضيت معه فقلت: جعلت فداك ما كان أقرب رضاهم من سخطهم.

قال عليه السلام: نعم دعوتهم فقلت: أمسكوا وإلا أخرجت الصحيفة.

فقلت: وما هذه الصحيفة جعلني الله فداك؟

فقال عليه السلام: إن أم الخطاب كانت أمة للزبير بن عبد المطلب، فسطر بها نفيل فأحبلها،

---

(١) بحار الأنوار: ٢٨/٢٧٨، ومناقب أهل البيت «ع»: ٣٢٢.

فطلبه الزبير فخرج هارباً إلى الطائف، فخرج الزبير خلفه، فبصرت به ثقيف فقالوا: يا أبا عبد الله ما تعمل هٰهنا؟ قال: جاريتي سطر بها نفيلكم، فهرب منه إلى الشام، وخرج الزبير في تجارة له إلى الشام، فدخل على ملك الدومة فقال له: يا أبا عبد الله لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك أيها الملك؟ فقال: رجل من أهلك قد أخذت ولده فأحب أن يرده عليه، قال: ليظهر لي حتى أعرفه، فلما أن كان من الغد دخل إلى الملك، فلما رآه الملك ضحك فقال: ما يضحكك أيها الملك؟ قال: ما أظن هذا الرجل ولدته عربية لما رآك قد دخلت لم يملك إسته أن جعل يضرط، فقال: أيها الملك إذا صرت إلى مكة قضيت حاجتك، فلما قدم الزبير تحمل[1] عليه ببطون قريش كلها أن يدفع إليه ابنه فأبى، ثم تحمل عليه بعبد المطلب فقال: ما بيني وبينه[2] عمل أما علمتم ما فعل في ابن فلان؟ ولكن امضوا أنتم إليه فكلموه، فقصدوه وكلموه فقال لهم: إن الشيطان له دولة وإن ابن هذا ابن الشيطان ولست آمن أن يترأس علينا، ولكن أدخلوه من باب المسجد عليّ على أن أحمي له حديدة وأخطّ في وجهه خطوطاً وأكتب عليه وعلى ابنه أن لا يتصدر في مجلس ولا يتأمّر على أولادنا ولا يضرب معنا بسهم، قال: ففعلوا وخط وجهه بالحديدة وكتب عليه الكتاب، وذلك الكتاب عندنا، فقلت لهم: إن أمسكتم وإلا أخرجت الكتاب ففيه فضيحتكم، فأمسكوا[3].

بيان

قول عبد المطلب: أما علمتم ما فعل في ابني فلان؟ أراد به العباس وكنى عنه الإمام عليه السلام تقيّة من خلفاء العباسية.

وهو إشارة إلى ما رواه في **(الروضة)** أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: إن نثيلة كانت أمة لأم الزبير وأبي طالب وعبد الله فأخذها عبد المطلب فأولدها فلاناً فقال له الزبير: هذه الجارية ورثناها من أمنا وابنك هذا عبد لنا، فتحمل عليه ببطون قريش، قال: فقال: قد أجبتك على خلّة على أن لا يتصدّر ابنك هذا معنا في مجلس ولا يضرب معنا بسهم، فكتب عليه كتاباً وأشهد عليه[4].

---

(١) أي استشفع.
(٢) أي الزبير.
(٣) شرح أصول الكافي: ١٢/ ٣٥٧، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٧٠.
(٤) الكافي: ٨/ ٢٦٠، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٣٥٨.

الترجمة

از جمله خطبه های بلاغت نظام آن امام (عليه السلام) است مى فرمايد:

شهادت مى دهم بر اينكه به تحقيق خداوند تعالى، عادلى است كه عدالت كرده در احكام و افعال خود و حاكمى است كه فصل فرموده ميان حق و باطل و شهادت مى دهم بر اين كه محمد (صلى الله عليه و آله) بنده او و فرستاده او است و آقاى بندگان او است، هر وقتى كه نقل كرد خلق را از اصلاب به ارحام و قسمت كرد ايشان را به دو فرقه، گردانيد آن بزرگوار را در بهترين آن دو فرقه، صاحب سهم نشد در نسب شريف آن زناكارى و شريك و صاحب نصيب نگرديد در اصل آن فاسق فاجرى.

آگاه باشيد كه به تحقيق خداى تعالى قرار داده است از براى عمل خير كه طاعات و قربات است اهل معينى و از براى عقايد و اعمال حقه ستونها و پايه هايى و از براى عبادت و اطاعت، حافظان و نگاه دارندگانى يا حفظهايى از مهالك دنيا و آخرت.

و به تحقيق كه شما را است نزد هر طاعتى معينى و ناصرى از جانب خدا كه مى گويد به زبانها و برقرار مى گرداند دلها را و در آن معين كفايت است از براى اكتفاكننده و شفا است از براى طالب شفا.

و بدانيد كه به تحقيق بندگان خدا كه از ايشان طلب حفظ علم او شده حفظ مى كنند آن علمى را كه لازم الحفظ و از قبيل اسرار است و جارى مى كنند چشم هاى آن علمى را كه بايد به مردم اظهار نمود از قبيل تكاليف و احكام، وصلت مى كنند ايشان با يكديگر با نصرت و يارى و ملاقات مى كنند با آشتى و محبت و سيراب مى كنند يكديگر را با كاسه سيراب كننده علم و معرفت و بازمى گردند با سيرابى، مخلوط نمى شود به اعتقادات ايشان شك و شبهه و نشتابد به سوى ايشان غيبت كنندگان به جهت طهارت نفوس ايشان، بر اين اوصاف بسته و عقد كرده است خداى تعالى خلقت و اخلاق ايشان را، پس بالاى اين عقد خلقى و خلقتى

با همدیگر در مقام محابه می باشند و به سبب آن در مقام وصال اند، پس هستند ایشان در زیادتی مرتبه و تفاوت درجه نسبت به سایرین مثل زیادتی تخم نسبت به بقیه آن، در حالتی که امتیاز داده است او را خالص گردانیدن و پاکیزه کرده او را تمیزکردن.

پس باید قبول نماید مرد کرامت را به سبب قبول این صفات و باید بپرهیزد از مرگ با شدت پیش از حلول آن، پس باید نگاه کند مرد در کوتاهی روزگارش و کمی درنگش در منزلی تا آنکه بدل کند با آن منزل منزل دیگر را، پس باید کاری کند از برای مکان رجوع خود و از برای علامات محل انتقال خود.

پس خوشحالی از برای صاحب قلب با سلامتی است که اطاعت کرد کسی را که هدایت کند او را و بیگانگی کرد از کسی که هلاك نماید او را و رسیده راه سلامت را به سبب نصرت و یاری کسی که صاحب بصیرت کرد او را و اطاعت هدایت کننده که امر کرد او را و مبادرت نمود به هدایت پیش از آنی که بسته شود درهای آن و بریده شود اسباب آن و طلب نمود گشودن در توبه را و ازاله نمود گناه را، پس به تحقیق که اقامه شد به راه حق و هدایت شد بر راه راست.

ومن دعاء كان يدعو به عليه السلام كثيراً وهو المائتان والرابع عشر من المختار في باب الخطب

الحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً، ولا سَقِيماً، ولا مَضْرُوباً عَلىٰ عُرُوقي بِسُوءٍ، ولا مَأخُوذاً بِأسْوَءِ عَمَلي، ولا مَقْطُوعاً دابِري، وَلا مُرْتَدّاً عَنْ دِيني، ولا مُنْكِراً لِرَبّي، ولا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيماني، وَلا مُلْتَبساً عَقْلي، وَلا مُعَذَّباً بِعَذابِ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِي، أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظالِماً لِنَفْسي، لَكَ الحُجَّةُ عَلَيَّ، وَلا حُجَّةَ لِي، لا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلاَّ ما أَعْطَيْتَني، وَلا أَتَّقِي إِلا ما وَقَيْتَني، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِناكَ، أَوْ أَضِلَّ في هُداكَ، أَوْ أُضْئَمَ في سُلْطانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ والأَمْرُ لَكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُها مِنْ كَرائِمي، وأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُها مِنْ وَدائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتايَعَ بِنا أَهْوَاؤنا دُونَ الهُدَى الَّذِي جاءَ مِنْ عِنْدِكَ[1].

اللغة

(**الدابر**) الآخر من دبر إذا أدبر، قال تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، يعني آخرهم أي يستأصلون عن آخرهم، وقال: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] أي باستئصالهم وقتلهم وأسرهم، وقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٥] أي آخر من بقي منهم.

و (**الضيم**) الذل و (**ضهده**)كمنعه قهره (**نفتتن**) بصيغة المتكلم المجهول، وفي بعض النسخ بالبناء على الفاعل وقوله: (**أو تتايع**) بالياء المثناة من تحت التهافت والإسراع في الشر واللجاج والاقتحام فيه من غير روية وركوب الأمر على خلاف الناس، وفي بعض النسخ: تايع بحذف إحدى التائين، وفي بعضها تتابع بالباء الموحدة يقال: تتابعوا على الأمر أي توالوا وتبع بعضهم بعضاً.

الإعراب

(**كثيراً**) في كلام الرّضي صفة إما لظرف محذوف أو لمصدر محذوف أي حيناً كثيراً أو دعاءً كثيراً والأول أظهر، وقوله: (**ميتاً**)، قال الشارح المعتزلي: منصوب على الحال أي لم

(١) بحار الأنوار: ٩١/٢٢٦، ونهج السعادة: ٦/٢٣٩.

يفلق الصباح عليّ ميتاً ولا يجوز أن يكون يصبح ناقصة ويكون ميتاً خبرها كما يقول الراوندي، لأن خبر كان وأخواتها يجب أن يكون هو الاسم، ألا ترى أنهما مبتدأ وخبر في الحال، واسم يصبح ضمير الله تعالى وميتاً ليس هو الله سبحانه، انتهى.

أقول: ولقائل أن يقول: إن مراد الراوندي بكون **(ميتاً)** خبر أصبح أنه في الأصل خبرها والمخبر به ياء المتكلم فإن أصبح على كونها ناقصة بمعنى صار، فلما عدّيت بالباء صارت بمعنى صيّر وتكون من أفعال التصيير فيكون المعنى: لم يصيّرني ميتاً، كما يقال: صيرني الله فداك، وهذا مما لا غبار عليه، وقوله عليه السلام: **(إلا ما أعطيتني)** استثناء مفرّغ.

وقوله: **(أفتقر في غناك)**، قال الشارح المعتزلي: موضع الجار والمجرور نصب على الحال، وفي متعلقة بمحذوف، والمعنى أفتقر وأنت الموصوف بالغنى الفائض على الخلق، وقوله: **(دون الهدى)**، ظرف متعلق بقوله: تتايع، وهو إما بمعنى عند أو بمعنى أمام.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام حمد الله عز وجل وأثنى عليه بما أنعم عليه من نعمه العظيمة وقال: **(الحمد لله الذي لم يصبح بي ميتاً)** أي لم يدخلني في الصباح والحال أني ميت أو لم يصيرني ميتاً.

فإن قلت: كيف يجتمع حمده عليه السلام على عدم موته مع قوله الذي ما زال عليه السلام يقوله من كونه آنس بالموت من الطّفل بثدي أمه، فإن الأول مشعر بحبه عليه السلام للبقاء والثاني مفيد للقاء.

قلت: لا تنافي بين الكلامين لانتفاء المنافاة في المقامين.

فإن الأول، أعني الحمد على الحياة، إنما هو في مقام الرضا بالقضاء والشكر على النعماء، فإن وظيفة أهل اليقين لا سيما أئمة الدين الذين لا يشاؤون إلا أن يشاء الله هو أن يرضى بجميع ما قدره الله في حقه وقضاه من الحياة والممات والصحة والسقم والغنى والفقر، فقد قال تعالى في الحديث القدسي: «من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يقنع بعطائي، فيطلب رباً سوائي، ويخرج من تحت أرضي وسمائي»، فهم ما لم يقدر في حقهم الموت لا بد أن يكونوا راضين بالحياة محبين لها شاكرين عليها لكونها المقدرة في حقهم، حتى إذا بلغ الكتاب أجله وتم مقاديره يكون الموت أحب إليهم وقرّة عينهم فيه.

ويشير إلى ذلك ما رواه المحدث الجزائري عن الشهيد الثاني أن جابر بن عبد الله الأنصاري ابتلي في آخر عمره بضعف الهرم والعجز فرآه محمد بن علي الباقر عليه الصلاة

والسلام فسأله عن حاله فقال: أنا في حالة أحب فيها الشيخوخة على الشباب وإن جعلني الله شاباً أحب الشبوبة وإن أمرضني أحب المرض وإن شفاني أحب الشفاء والصحة وإن أماتني أحب الموت وإن أبقاني أحب البقاء، الحديث[١].

وأما **الثاني**: وهو إظهار فرط أنسه بالموت فإنما هو في مقام الزهد والنفرة عن الدنيا وزخارفها ولذاتها وشهواتها الفانية وأمنياتها الباطلة.

وأيضاً فإن الدنيا من حيث أنها معبد أحباء الله ومسجد أولياء الله ومتجر عباد الله والوصلة إلى الرحمة والوسيلة إلى الرضوان والجنة فحياتها مطلوبة وبقاؤها نعمة عظيمة يجب الشكر عليها بل لا نعمة فوقها لكونها المحصلة لجميع النعم.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: بقية عمر المؤمن لا ثمن لها يدرك بها ما فات ويحيي بها ما مات[٢].

وقال بعضهم: الدنيا أحب إلي من الجنة لأني فيها مشغول بعبادة ربي وفي الجنة مشغول بلذة نفسي، وبين الأمرين بون بائن، ومن حيث إنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وتجلّبت بالأمنيات ضرارة غرارة تزينت بغرورها وغرت بزينتها مهانة على ربها مبغوضة إليه تعالى، ولذلك لم يصفها لأوليائه ولم يضن بها على أعدائه فهي أهون عند أهل المعرفة وأخسّ وأحقر من عراق خنزير في يد مجذوم، والموت أحب إليهم من هذه الجهة لإيصاله إلى الدار الآخرة.

وبما حققنا علم سر ثنائه على سلامته كما أشار إليه بقوله: **(ولا سقيماً)** مضافاً إلى أن في حالة المرض احتمال فوات بعض العبادات أو فوات كمالاتها وإن كان المريض معذوراً فيها، وأما حالة الصحة ففيها تكميل العبادة والعبودية فهي نعمة عظيمة حرية بأن يحمد عليها.

(ولا مضروباً على عروقي بسوء) أي على أعضائي بآفة توجب سوء المنظر وقبحه كالجذام والبرص ونحوهما.

وقال الشارح المعتزلي: أي ولا أبرص والعرب تكنّي عن البرص بالسوء، وفي أمثالهم: ما أنكرك من سوء، أي ليس إنكاري لك عن برص حدث بك فغير صورتك، وأراد بعروقه أعضاءه، ويجوز أن يريد ولا مطعوناً في نسبي والأول أظهر، انتهى[٣].

---

(١) مسكن الفوائد للشهيد الثاني: ٨٢.

(٢) إثنا عشر رسالة: ٨/ ٣١، وميزان الحكمة: ٣/ ٢١١٤ ح ٢٩٢٧.

(٣) شرح النهج: ١١/ ٥٨.

(**ولا مأخوذاً بأسوء عملي**) أي معاقباً بأقبح ذنوبي (**ولا مقطوعاً دابري**) أي عقبي وآخري وهو كناية عن انقراض نسله بالاستئصال ومحو اسمه واندراس أثره ورسمه (**ولا مرتداً عن ديني ولا منكراً لربي**) عطف الثاني على الأول من قبيل ذكر الخاص بعد العام لمزيد الاهتمام وأن الارتداد قد يكون بإنكار الضروريات من دون الجحود (**ولا مستوحشاً من إيماني**) أي غير مستأنس به ومتنفراً عنه، أو شاكاً في كونه مستقراً أو مستودعاً لأن الشك في العقيدة يوجب الوحشة، والأول أظهر.

(**ولا ملتبساً عقلي**) أي مختلطاً بالجنون (**ولا معذباً بعذاب الأمم من قبلي**) أي بالمسخ والخسف والصاعقة والظلّة ونحوها.

ولما حمد الله تعالى على ما أنعم به عليه من ضروب نعمه التي عددها أردفه بالاعتراف بالذل والتقصير والاستكانة فقال:

(**أصبحت عبداً مملوكاً**) أي صرت داخراً ذليلاً في قيد العبودية (**ظالماً لنفسي**) لأجل التقصير في طاعته وعدم التمكن من القيام بوظائف عبادته على ما يليق بحضرته عز وجل وإن كان ما أتى به فوق عبادة جميع البشر ما خلا رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيما رواه في (**الوسائل**) من (**الكافي**) بإسناده عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله: «قال الله عز وجل: لا يتّكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا، وفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا»، الحديث[1].

وفي (**البحار**) من كتاب (**فتح الأبواب**) عن الزهري قال: دخلت مع علي بن الحسين عليهما السلام على عبد الملك بن مروان قال: فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليهما السلام فقال: يا أبا محمد لقد بيّن عليك الاجتهاد ولقد سبق لك من الله الحسنى وأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله قريب النسب وكيد السبب وأنك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك ولقد أُوتيت من العلم والفضل والدّين والورع ما لم يؤته أحد مثلك ولا قبلك إلا من مضى من سلفك ـ وأقبل يثني عليه يطريه ـ قال: فقال علي بن الحسين عليهما السلام: كل ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم يا أمير المؤمنين؟ كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقف في الصلاة حتى ترم قدماه ويظمأ في الصيام حتى يصعب

(١) الكافي: ٢/ ٦١ ـ ٧١، والبحار: ٦٧/ ٣٨٥.

فوه، فقيل له: يا رسول الله ألم يغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً، الحمد لله على ما أولى، وأبلى، وله الحمد في الآخرة والأولى، والله لو انقطعت أعضائي وسالت مقلتاي على صدري لن أقوم لله جل جلاله بشكر عشر العشير من نعمة واحدة من جميع نعمه التي لا يحصيها العادّون ولا يبلغ حد نعمة منها على جميع حمد الحامدين، لا والله أو يراني الله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في ليل ولا نهار ولا سر ولا علانية، ولولا أن لأهلي عليّ حقاً ولسائر الناس من خاصهم وعامهم عليّ حقوقاً لا يسعني إلا القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم لرميت بطرفي إلى السماء وبقلبي إلى الله ثم لم أرددهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين»، هذا[1].

وفي أدعية الصحيفة السجادية من اتهام النفس والاعتراف بالتقصير ما لا يحصى وقد مضى في شرح الخطبة المائة والثانية والتسعين عند قوله عليه السلام: فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون، أخبار نفيسة، وكذلك في التنبيه الثالث من الفصل الثالث عشر من فصول الخطبة الأولى تحقيقات عميقة كثيرة الفائدة في هذا المقام.

(لك الحجة عليّ) حيث إنك ما كلفتني إلا ما آتيتني ولا حتمتني إلا ما أعلمتني ولا فرضت عليّ إلا ما أقدرتني عليه ومكنتني منه كما هو حكمه تعالى في حق جميع المكلفين، فقد قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ١٤]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وفي الدعاء: أزاح العلل في التكليف وسوّى التوفيق بين الضعيف والشريف.

(ولا حجة لي) عليك، أو لم يبق لي عذر في ترك تكاليفك كما لسائر المكلفين لأنه عز وجل إنما كلف بعد البيان وبعدما مكّن أداء المأمور وسهل سبيل اجتناب المحظور، ولم يكلف الطاعة إلا دون الوسع والطاقة لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ولا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، فلم تبق عاذرة للمعذرين.

و **(لا أستطيع أن آخذ)** من نعمتك **(إلا ما أعطيتني ولا)** أقدر أن **(أتقي)** من نقمتك **(إلا ما وقيتني)** لكوني عبداً ذاخراً ذليلاً مسكيناً مستكيناً لا يملك لنفسه موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً.

(اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك) أي أن أكون محتاجاً والحال أنك الغني المطلق الباسط بالجود والكرم يده على العالمين.

(أو أضل في هداك) أي أكون ضالاً والحال أنك نور السماوات والأرضين هادي أهلها إلى نهج اليقين.

---

(١) مستدرك الوسائل: ٢/٤١٨، وفتح الأبواب: ١٧١.

(أو أضثم في سلطانك) أي أكون ذليلاً مظلوماً والحال أن السلطنة لك وأنت ذو القوة المتين.

(أو أضطهد والأمر لك) أي أكون مغلوباً مقهوراً وأنت صاحب الاختيار والقدرة القاصم لظهور الجبابرة والظالمين.

(اللهم اجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائمي) أي أول كل كريم وعزيز تنزعه من قوائمي وأعضائي وإنما كنى عنها بالكرائم لكرامتها وعزتها عنده والمراد بالدعاء طلب عافية الأعضاء النفسانية والبدنية وبقائها إلى حين الممات وأن لا يكون ذهابها سابقاً على الموت.

كما قال زين العابدين عليه السلام: اللهم احفظ عليّ سمعي وبصري إلى انتهاء أجلي.

ومن دعائه عليه السلام إذا سأل العافية: وامنن عليّ بالصحة والأمن والسلامة في ديني وبدني والبصيرة في قلبي والنفاق في أموري والخشية لك والخوف منك والقوة على ما أمرتني به من طاعتك والاجتناب لما نهيتني عنه من معصيتك.

ومن هذا الدعاء يستفاد سر طلب أمير المؤمنين عليه السلام كون نفسه أول الكرائم المنتزعة، لأن سبق انتزاعها على نفسه يوجب العجز عن إقامة وظائف الطاعات المربوطة بها وعدم القدرة على تحصيل الضروريات من المعاش وعدم النفاذ في الأمور.

وقوله: **(وأول وديعة ترتجعها من ودائع نعمك عندي)** التعبير عن المشاعر والقوى بالنعمة لعظم الانتفاع بها ولذلك منّ بها على الإنسان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠].

وتشبيهها بالوديعة لكونها في معرض الاسترجاع والاسترداد كالوديعة وإليه يومي قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨].

(اللهم إنّا نعوذ بك أن نذهب عن قولك) أي أوامرك ونواهيك التي نطق بها كتابك الكريم ونفرّ منها، والاستعاذة منه من أجل أنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير: ٢٥ ـ ٢٧] قال أمين الإسلام الطبرسي: فإن تعدلون عن القرآن وهو الشفاء والهدى ما هو إلا تذكرة وعظة للخلق يمكنهم أن يتوصلوا به إلى الحق.

(أو نفتتن عن دينك) أي نُضل أو نَضل عن دينك على اختلاف النسخ في رواية نفتتن

(١) الصحيفة السجادية: ٨٦ ـ ١٢٥ ـ ١٠١.

على ما قدمنا، والمراد على الأول الوقوع في الضلال بإضلال الغير، وعلى الثاني الوقوع فيه من تلقاء النفس.

(أو تتايع بنا أهواؤنا دون الهدى الذي جاء من عندك) أراد به إيقاع الأهواء له في مهاوي الهلكات وصرفها إياه عن الهدى النازل في محكمات الآيات كما قال عز من قائل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾ [البقرة: ٩٧].

الترجمة

از جمله دعای آن حضرت است که اکثر اوقات دعا می کرد به این دعا:

حمد و ثنا معبود به حقی را سزا است که داخل نکرد مرا در صباح در حالتی که مرده باشم و نه در حالتی که مریض باشم و نه در حالتی که مؤاخذه شده باشم به قبیح تر عمل خودم و نه در حالتی که مقطوع النسل و بی عقب باشم و نه در حالتی که مرتد باشم از دینم و نه در حالتی که منکر باشم پروردگارم را و نه در حالتی که وحشت کننده باشم از ایمان خودم و نه در حالتی که مخلوط باشد عقل من به جنون و نه در حالتی که معذب باشم به عذاب امتان که پیش از من بودند.

صباح کردم من در حالتی که بنده مملوکی هستم ظلم کننده مر نفس خود را، از برای تو است حجت بر من و نیست حجتی از برای من، استطاعت و قدرت ندارم که دریافت نمایم مگر چیزی را که تو عطا کرده ای مرا و نه پرهیز نمایم مگر از چیزی که که تو نگه داشته ای مرا.

بار الها، به تحقیق که من پناه می برم به تو از این که فقیر باشم با وجود غنی بودن تو یا این که گمراه شوم با وجود هادی بودن تو یا مظلوم شوم با وجود سلطنت تو یا مقهور و مغلوب باشم و حال آنکه اختیار تو را است.

پروردگارا، بگردان روح مرا اول نعمت عزیزی که انتزاع می کنی تو آن را از نعمتهای عزیز بدن من و اول امانتی که پس می گیری تو آن را در امانت های نعمتهای تو که در نزد من است. پروردگارا، به تحقیق که پناه می برم به تو از اینکه به در رویم از امر و فرمایش تو یا اینکه فریفته شویم از دین تو تا این که بشتاباند ما را خواهشات نفسانیه ما در ضلالت و برگرداند از هدایتی که آمده است از جانب تو.

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين وهي المائتان والخامسة عشر من المختار في باب الخطب

وهي مروية في كتاب (**الروضة**) من (**الكافي**) باختلاف كثير وزيادة ونقصان حسبما تعرفه إن شاء الله تعالى بعد الفراغ من شرح تمام الخطبة في التكملة الآتية، وشرحها في فصلين:

الفصل الأول

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ الله لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلايَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الحَقِّ مِثْلَ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْياءِ فِي التَّواصُفِ، وأَضْيَقُها فِي التَّناصُفِ، لا يَجْرِي لأَحَدٍ إلاَّ جَرىٰ عَلَيْهِ، وَلا يَجْرِي عَلَيْهِ إلاَّ جَرىٰ لَهُ، وَلَوْ كَانَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلا يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكانَ ذٰلِكَ خالِصاً لله سُبْحانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِه عَلىٰ عِبادِهِ، ولِعَدْلِه فِي كُلِّ ما جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضائِهِ، وَلٰكِنَّهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلىٰ العِبادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضاعَفَةَ الثَّوابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وتَوسُّعاً بِما هُوَ مِنَ المَزِيدِ أَهْلُهُ.

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَها لِبَعْضِ النَّاسِ عَلىٰ بَعْضٍ، فَجَعَلَها تَتَكافَأُ فِي وُجُوهِها، ويُوجِبُ بَعْضُها بَعْضاً، وَلا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُها إلاَّ بِبَعْضٍ.

وأَعْظَمُ ما افْتَرَضَ سُبْحانَهُ مِنْ تِلْكَ الحُقُوقِ حَقُّ الوالِي عَلىٰ الرَّعِيَّةِ وحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلىٰ الوَالِي، فَرِيضَةً فَرَضَها الله سُبْحانَهُ لِكُلٍّ عَلىٰ كُلٍّ، فَجَعَلَها نِظاماً لإلْفَتِهِمْ، وعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إلاَّ بِصَلاحِ الوُلاةِ، وَلا تَصْلُحُ الوُلاةُ إلاَّ باسْتِقامَةِ الرَّعِيَّةِ.

فَإذا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلىٰ الوَالِي حَقَّهُ، وأَدَّى الوَالِي إِلَيْها حَقَّها، عَزَّ الحَقُّ بَيْنَهُمْ، وقامَتْ مَناهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعالِمُ العَدْلِ، وجَرَتْ علىٰ أَذْلالِهَا السُّنَنُ، فَصَلُحَ بِذٰلِكَ الزَّمانُ، وطُمِعَ في بَقاءِ الدَّوْلَةِ، ويَئِسَتْ مَطامِعُ الأَعْداءِ.

وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيهَا وأَجْحَفَ الوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنالِكَ الكَلِمَةُ، وظَهَرَتْ مَعالِمُ الجَوْرِ، وكَثُرَ الإِدْغالُ فِي الدِّينِ، وتُرِكَتْ مَحاجُ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بالهَوىٰ، وعُطِّلَتِ الأَحْكامُ، وكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيم حَقٍّ عُطِّلَ، ولا لِعَظِيمِ باطِلٍ فُعِلَ، فَهُنالِكَ تَذِلُّ الأَبْرارُ، وتَعِزُّ الأَشْرارُ، وتَعْظُمُ تَبِعاتُ اللَّهِ سُبْحانَهُ عِنْدَ العِبادِ.

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّناصُحِ في ذٰلِكَ، وحُسْنِ التَّعاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنِ اشْتَدَّ عَلىٰ رِضاءِ اللَّهِ حِرْصُهُ، وطالَ فِي العَمَلِ اجْتِهادُهُ، بِبالِغٍ حَقِيقَةَ مَا الله سُبْحانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطّاعَةِ لَهُ، وَلٰكِنْ مِنْ

واجِبِ حُقُوقِ الله سُبْحانَهُ عَلىٰ عِبادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، والتَّعاوُنِ عَلىٰ إقامَةِ الحَقِّ بَيْنَهُمْ، ولَيْسَ امْرُؤٌ وإنْ عَظُمَتْ فِي الحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ، بِفَوْقِ أَنْ يُعانَ عَلىٰ ما حَمَّلَهُ الله مِنْ حَقِّهِ، وَلا امْرُؤٌ وَإنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ واقْتَحَمَتْهُ العُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعينَ عَلىٰ ذٰلِكَ أَوْ يُعانَ عَلَيْهِ[١].

اللغة

(تواصفوا) الشيء أي وصفه بعضهم على بعض و **(تناصف)** الناس أنصف بعضهم لبعض و **(صروف)** الدهر تغيراته وانقلاباته جمع الصرف و **(التكافؤ)** التساوي والاستواء و **(يستوجب)** بالبناء على المفعول و **(المنهج)** واضح الطريق و **(ذلّ)** الطريق بالكسر محجتها والجمع أذلال كحبر وأحبار و **(الإدغال)** بالكسر أن يدخل في الشيء ما ليس منه وبالفتح جمع الدغل محركة كأسباب وسبب هو الفساد و **(المحاجّ)** بتشديد الجيم جمع المحجة بفتح الميم وهي الجادة.

و **(تذلّ)** و **(تعز)** بالبناء على الفاعل من باب ضرب وفي بعض النسخ بالبناء على المفعول و **(التبعة)** وزن كلمة ما تطلبه من ظلامة والجمع تبعات و **(نصحت)** له نصحاً ونصيحة وفي لغة يتعدّى بنفسه فيقال: نصحته وهو الإخلاص والصدق والمشورة والعمل.

وقال الجزري: النصيحة في اللغة الخلوص، يقال: نصحته ونصحت له ومعنى نصيحة الله صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتاب الله هو التصديق به والعمل بما فيه، ونصيحة رسول الله صلى الله عليه وآله التصديق بنبوّته ورسالته والانقياد لما أمر به ونهى عنه، ونصيحة الأئمة أن يطيعهم في الحق، ونصيحة عامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم.

الإعراب

قوله: **(لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه)**، خالصاً حال من ذلك والعامل فيه كان، وعلى قول بعض النحويين: من أن جميع العوامل اللفظية تعمل في الحال إلا كان وأخواتها، فلا بد من جعل كان تامة ودون خلقه في محل النصب أيضاً على الحال، وهي حال مؤكدة.

وقوله: **(وتوسعاً بما هو من المزيد أهله)**، توسعاً منصوب على المفعول لأجله، وما موصولة وجملة هو أهله مبتدأ وخبر صلة ما ومن المزيد بيان لما.

وقوله: **(فريضة فرضها الله)** في بعض النسخ بالنصب على الاشتغال أو على الحال كما قاله بعض الشراح؛ وفي بعضها بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/ ٢٥٢، ودراسات في نهج البلاغة: ١٤٦.

وقوله: **(يبالغ)** خبر ليس اعترضت بينهما جملة وإن اشتد (آه) والباء فيه زائدة، وقوله: أو يعان عليه، في بعض النسخ بالواو بدل أو.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة حسبما أشار إليه الرضي ويأتي في رواية **(الكافي)** أيضاً في آخر الفصل الثاني من جملة الخطب التي خطبها بصفّين، وعمدة غرضه عليه السلام في هذا الفصل منها نصيحة المخاطبين وإرشادهم إلى ما هو صلاحهم في الدنيا والآخرة من اتباعهم لأمره وإطاعتهم له وإسراعهم فيما يأمر وينهى واتفاقهم على التعاون والتناصف وغير ذلك من وجوه مصالح محاربة القاسطين لعنهم الله أجمعين.

قال عليه السلام: **(أما بعد)** حمد الله عز وجل والصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله **(فقد جعل الله)** عز شأنه **(لي عليكم حقاً بولاية أمركم)** أي لي عليكم حق الطاعة لأن الله جعلني والياً عليكم متولياً لأموركم وأنزلني منكم منزلة عظيمة هي منزلة الإمامة والولاية والسلطنة ووجوب الطاعة كما قال عزّ من قائل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

(ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم) أراد بالحق الذي لهم عليه ما هو حق الرعية على الوالي، والحقان متماثلان في الوجوب، وقد صرح بهما في الخطبة الرابعة والثلاثين بقوله:

أيها الناس إن لي عليكم حقاً ولكم عليّ حق، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كي لا تجهلوا وتأديبكم كي ما تعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم[١].

(فالحق أوسع الأشياء في التواصف) يعني إذا أخذ الناس في بيان الحق ووصفه بعضهم لبعض كان لهم في ذلك مجال واسع لسهولته على الألسنة **(وأضيقها في التناصف)** يعني إذا حضر التناصف بينهم أي انصاف بعضهم لبعض فطلب منهم ضاق عليهم المجال لشدّة العمل وصعوبة الإنصاف.

ومحصّله سعة الحق في مقام الوصف والقول وضيقه في مقام الإنصاف والعمل.

(لا يجري لأحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له) لما ذكر حقهُ عليهم وحقهم عليه أتبعه بهذه الجملة تأكيداً وإيذاناً بأن جريان حقه عليهم إنما هو بجريان حقهم عليه

(١) شرح أصول الكافي: ٥/ ٣٠٢، والغارات: ١/ ٣٧.

وبالعكس، وفيه توطين لأنفسهم على ما عليهم وتشويق لهم إلى ما لهم.

وإنما ساق الكلام مساق العموم تنبيهاً على أن اللازم على كل أحد أن يقوم في الحقوق بما له وما عليه بمقتضى العدل والإنصاف؛ فإن حق الوالي على الرعية والرعية على الوالي والوالد على الولد والولد على الوالد والزوج على الزوجة والزوجة على الزوج والمعلم على المتعلم والمتعلم على المعلم والجار على الجار وغيرهم من ذوي الحقوق حسبما نشير إليهم تفصيلاً إنما هو بالتناصف بين الطرفين.

ويوضحه ما في **(البحار)** من **(الكافي)** عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «حقّ على المسلم إذا أراد سفراً أن يعلم إخوانه، وحقّ على إخوانه إذا قدم أن يأتوه»[١].

قال العلامة المجلسي: فيه إيماء إلى أنه إذا لم يعلمهم عند الذهاب لا يلزم عليهم إتيانه بعد الإياب[٢].

(ولو كان لأحد أن يجري له) حق على غيره **(ولا يجري)** لغيره **(عليه لكان ذلك)** الحق الجاري **(خالصاً لله سبحانه دون خلقه)** أي متجاوزاً عن حقه وذلك **(لقدرته على عباده)** وعجز غيره، فيجوز له أن يجري حقه عليهم ويطلب منهم الطاعة وينفذ أمره فيهم إلزاماً فيطيعوه قهراً بدون إمكان تمرد أحد منهم عن طاعته لكونه قاهراً فوق عباده فعالاً لما يشاء، لا رادّ لحكمه ولا دافع لقضائه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

ولما كان هنا مظنة أن يتوهم ويقال: إنه إذا جرى حقه عليهم وخرجوا من عهدته وقاموا بوظائف عبوديته وطاعته طوعاً أو كرهاً يكون حينئذ لهم حق عليه وهو جزاء ما أتوا به فلو لم يجزهم لكان ذلك منافياً للعدل دفع ذلك التوهم بقوله:

(ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه) وأنواعه المتغيرة المتبدلة، يعني أن الجزاء ليس مقتضى العدل حتى يكون عدمه منافياً له بل هو العادل في جميع مقضياته ومقدراته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، نعم هو مقتضى التفضل، والتفضل ليس بلازم عليه فلا يثبت لعباده بإطاعتهم له حق لهم عليه، هكذا ينبغي أن يفهم المقام.

وقد تاه فيه أفهام الشراح، فمنهم من طوى عن تحقيقه كشحاً ومنهم من خبط فيه خبطة عشواء، فانظر ماذا ترى.

---

(١) الكافي: ٢/ ١٧٤ ح ١٦، وشرح أصول الكافي: ١٩/ ٥٠ ح ١٦.

(٢) البحار: بحار الأنوار: ٧١/ ٢٥٨.

وقريب مما حققناه ما قاله العلامة المجلسي في (**البحار**) حيث قال في شرح ذلك: والحاصل أنه لو كان لأحد أن يجعل الحق على غيره ولم يجعل له على نفسه لكان هو سبحانه أولى بذلك، واستدل على الأولوية بوجهين:

الأول: القدرة، فإن غيره تعالى لو فعل ذلك لم يطعه أحد والله قادر على جبرهم وقهرهم.

والثاني: أنه لو لم يجزهم على أعمالهم وكلفهم بها لكان عادلاً لأن له من النعم على العباد ما لو عبدوه أبد الدهر لم يوفوا حق نعمة واحدة منها، انتهى.

فقد علم بذلك كله أنه عز وجل ليس بمقتضى عدله لأحد عليه حق.

(**ولكنه**) عزّ شأنه مع ذلك قد (**جعل**) له على عباده حقاً ولهم عليه كذلك بمقتضى إنعامه وفضله فجعل (**حقه على العباد أن يطيعوه**) ويوحدوه (**وجعل جزاءهم**) لم يقل حقهم رعاية للأدب ودفعاً لتوهم الاستحقاق أي جعل جزاء طاعتهم (**عليه مضاعفة الثواب**) كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣]، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

(**تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله**) فيه تنبيه على أن الحق الذي جعل لهم عليه أعظم مما أتوا به مع عدم كونه من جهة الاستحقاق بل لمحض التفضل والإنعام بما هو أهله من الزيادة والتوسعة.

ولما بيّن حق الله على عباده وهو الحق الذي له لنفسه عقبه ببيان حقوق الناس بعضهم على بعض فقال:

(**ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض**) وجعلها من حقوقه لافتراضها من قبله تعالى وفي القيام بها إطاعة له وامتثال لأمره، فتكون بهذا الاعتبار من حقوقه الواجبة على عباده، وهذه الجملة توطئة وتمهيد لما يريد أن ينبه عليه من كونه حقه عليه السلام واجباً عليهم من قبله تعالى وكون القيام به إطاعة له عز وعلا فيكون ذلك أدعى لهم على أدائه.

(**فجعلها**) أي تلك الحقوق التي بين الناس (**تتكافأ**) وتتقابل (**في وجوهها**) أي جعل كل وجه من تلك الحقوق مقابلاً بمثله، فحقّ الوالي على الرعية مثلاً وهو الطاعة مقابل بمثله فهو العدل وحسن السيرة الذي هو حق الرعية على الوالي.

(**ويوجب بعضها بعضاً ولا يستوجب**) أي لا يستحق (**بعضها إلا ببعض**) كما أن الوالي إذا لم يعدل لا يستحق الطاعة والزوجة إذا كانت ناشزة لا تستحق النفقة.

ولما مهد ما مهد تخلص إلى غرضه الأصلي فقال: (**وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق**) المتكافئة (**حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي**) وإنما كان من أعظم الحقوق لكون مصلحته عامة لجميع المسلمين وباعثاً على انتظام أمر الدين.

ولذلك أكده بقوله: (**فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل**) وأشار إلى وجوه المصلحة فيها بقوله: (**فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم**) لأنها سبب اجتماعهم وبها يقهرون أعداءهم ويعزون أديانهم.

(**فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة**) كما هو المشاهد بالعيان والتجربة وشهدت عليه العقول السليمة (**ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية**) في الطاعة إذ بمخالفتهم وعصيانهم يؤول جمعهم إلى الشتات وحبل نظامهم إلى التبات.

(**فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقه**) وأطاعوه (**وأدّى الوالي إليها حقها**) وعدل (**عز الحق بينهم**) أي يكون عزيزاً (**وقامت مناهج الدين**) وسبله (**واعتدلت معالم العدل**) أي مظانه أو العلامات التي نصبت في طريق العدل لسلوكه (**وجرت على أذلالها السنن**) أي جرت على محاجّها ومسالكها بحيث لا تكون فيها اعوجاج وتحريف.

(**فصلح بذلك الزمان**) نسبة الصلاح إلى الزمان من باب التوسع والمراد صلاح حال أهله بانتظام أمورهم الدنيوية والأخروية (**وطمع في بقاء الدولة**) والسلطنة (**ويئست مطامع الأعداء**) أي أطماعها باتفاق أهل المملكة وقوتهم.

(**و**) أما (**إذا**) كان الأمر بخلاف ذلك بأن (**غلبت الرعية واليها وأجحف الوالي برعينه**) أي تعدى عليهم وظلمهم فـ (**اختلفت هنالك الكلمة**) باختلاف الآراء (**وظهرت معالم الجور**) **أي علاماته، إذ بغلبة الرعية على الوالي وإجحاف الوالي يحصل الهرج والمرج ويختلط الناس بعضهم ببعض ويتسلّط الأشرار على الأبرار ويظلم الأقوياء الضعفاء** (**وكثر الأدغال**) أي الإبداع والتلبيس أو المفاسد (**في الدين**) لاختلاف الأهواء وأخذ كل ما تشتهيه نفسه مما هو مخالف للدين ومفسد له (**وتركت محاجّ السنن**) أي طرقها الواضحة لإعراض الناس عنها.

(**فعمل بالهوى وعطلت الأحكام**) الشرعية والتكاليف الدينية (**وكثرت علل النفوس**) أي أمراضها بما حصلت لها من الملكات الرديئة كالحقد والحسد والعداوة ونحوها، وقيل: عللها وجوه ارتكاباتها للمنكرات فيأتي كل منكر بوجه وعلة ورأي فاسد.

(**فلا يستوحش لعظيم حق مطل**) لكثرة تعطيل الحقوق وكونه متداولاً متعارفاً بينهم (**ولا لعظيم باطل فعل**) لشيوع الباطل واعتيادهم عليه مع كونه موافقاً لهواهم (**فهنالك تذلّ الأبرار**) لذلّة الحق الذي هم أهله (**وتعزّ الأشرار**) لعزة الباطل الذي هم أهله (**وتعظم تبعات الله عند**

العباد) إضافة التبعات وهي المظالم إليه تعالى باعتبار أنه المطالب بها والمؤاخذ عليها وإلا فالتبعات في الحقيقة لبعض الناس عند بعض.

ولما ذكر مصالح قيام كل من الوالي والرعية بما عليها من الحقوق ومفاسد تركها أمرهم بالمواظبة على الحق وقال:

(فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون) عليه أي بنصيحة بعضكم لبعض وإعانة كل منكم لآخر في سلوك نهج الحق وإقامة أعلامه.

وأكد إلزامهم بالتناصح والتعاون بقوله: **(فليس أحد وإن اشتد على رضاء الله حرصه وطال في العمل اجتهاده)** وسعيه **(ببالغ حقيقة ما الله أهله من الطاعة له)** أي لا يمكن لأحد أن يبلغ مدى عبادة الله وحقيقة طاعته وإن أتعب فيها نفسه وبذل جهده وبلغ كل مبلغ.

(ولكن من واجب حقوق الله على العباد «عباده» النصيحة) أي نصيحة بعضهم لبعضهم **(بمبلغ جهدهم والتعاون على إقامة الحق بينهم)** بقدر ما يمكنهم لا بقدر ما هو أهله ويستحقه، فإن ذلك غير ممكن.

ولما حث على التعاون والتناصح أردفه بقوله: **(وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعان على ما حمّله الله من حقه)**.

ودفع بذلك ما ربما يسبق إلى بعض الأوهام من أن البالغ إلى مرتبة الكمال في الطاعة والحائز قصب سبق الفضيلة كمثله عليه السلام وسائر ولاة العدل أيّ حاجة له إلى المعين.

وجه الدفع أن البالغ إلى مرتبة الكمال أيّ مرتبة كانت والمتقدم في الفضيلة أيّ فضيلة تكون لا استغناء له عن المعين ولا مقامه أرفع من أن يعان على ما حمله الله تعالى وكلفه به من طاعته الذي هو حقه.

وذلك لأن من جملة التكاليف ما هو من عظائم الأمور كالجهاد في سبيل الله وإقامة الحدود ونشر الشرائع والأحكام وجباية الصدقات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك مما هو وظيفة الإمام ونائبه، ومعلوم أنه محتاج في هذه التكاليف وما ضاهاها إلى إعانة الغير البتة.

ثم أردفه بقوله: **(ولا امرؤ وإن صغرته النفوس واقتحمته)** أي احتقرته **(العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه)**.

ودفع بذلك ما ربما يسبق إلى بعض الأوهام أيضاً من أن بعض الناس من السوقة والسفلة أيّ حاجة إلى إعانتهم وأيّ فائدة في معاونتهم.

وجه الدفع أن ذلك البعض وإن كان بالغاً في الحقارة والدناءة وانحطاط الشأن لكنه ليس بأدون وأحقر من أن يكون معيناً على الحق ولو في صغائر الأمور ومحقراتها مثل أن يكون راعياً لدواب المجاهدين أو سقاء لهم أو حطاباً أو خياطاً ولا أقل من أن يكون خاصفاً لنعلهم، فإن في ذلك كله إعانة الحق وأهله أو معاناً عليه ولو بأداء الأخماس ودفع الصدقات إليهم ولا أقل من تعليمه معالم دينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

ومحصل المراد بالجملتين المتعاطفتين من قوله عليه الصلاة والسلام ـ وليس أمرؤ ـ إلى قوله عليه السلام: يعان عليه، دفع توهم عدم الحاجة إلى الإعانة في العظماء لرفعة شأنهم وعدم الاحتياج إلى الضعفاء لحقارتهم وانحطاط درجتهم.

تذييلان

الأول

لما كان هذا الفصل من كلامه عليه السلام مسوقاً لبيان حقوق الولاة على الرعية والرعية على الولاة، أحببت أن أذكر جملة من الأخبار والآثار الواردة في هذا المعنى، فأقول:

قال المحدث الجزائري في (**الأنوار النعمانية**): في بعض الأخبار أن عدل الحاكم يوماً يعادل عبادة العابد خمسين.

وفي الحديث: من ولي من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار[1].

وروي أيضاً أنه إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقذف على جسر جهنم فيأمر الله سبحانه الجسر فينتقض به انتقاضة فيزول كل عظم منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى العظام فترجع إلى أماكنها ثم يسائله فإن كان لله مطيعاً أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصياً أخرق به الجسر فغرق وهوى به في جهنم مقدار سبعين خريفاً.

وفي الرواية أنه كان في زمن بني إسرائيل سلطان ظالم فأوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائه أن قلّ لهذا ظالم: ما جعلتك سلطاناً إلا لتكف أصوات المظلومين عن بابي، فوعزتي وجلالي لأطعمن لحمك الكلاب، فسلّط عليه سلطاناً آخر حتى قتله فأطعم لحمه الكلاب.

وفي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى حبيب بن المنتجب والي اليمن: أوصيك بالعدل في رعيتك والإحسان إلى أهل مملكتك واعلم أن من وليّ على رقاب عشرة من المسلمين ولم يعدل بينهم حشره الله يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه لا يكفها إلا عدله في دار الدنيا[2].

---

(١) مسند أحمد: ٥/ ٢٧.

(٢) عوالي اللئالي: ١/ ٣٦٦.

وفي الأثر بعث قيصر ملك الروم إلى كسرى ملك الفرس بماذا أنتم أطول أعماراً وأدوم ملكاً؟

فأجابه كسرى: أما بعد أيها السيد الكريم والملك الجسيم أما سبب الملك وإعزازه في معززه ورسوخه في مركزه فلأمور أنتم عنها غافلون ولستم لأمثالها فاعلون منها: أن ليس لنا نوّاب يرشي ويمنع ولا بواب يروع ويدفع، لم تزل أبوابنا مشرعة ونوّابنا لقضاء الحوائج مسرعة، لا أقصينا صغيراً ولا أدنينا أميراً، ولا احتقرنا بذوي الأصول، ولا قدمنا الشبان على الكهول، ولا كذبنا في وعد، ولا صدقنا في إيعاد، ولا تكلمنا بهزل، ولا سمنا وزيراً إلى عزل، موائدنا مبسوطة، وعقولنا مضبوطة، لا نقطع في أمل، ولا لجليسنا نمل، خيرنا مضمون، وشرنا مأمون، وعطاؤنا غير ممنون، ولا نحوج أحداً إلى باب، بل نقضي بمجرد الكتاب، ونرقّ للباكي، ونستقصي قول الحاكي، ما جعلنا همنا بطوننا ولا فروجنا، أما البطون فلقمة، وأما الفروج فأمة، ولا نؤاخذ على قدر غيظنا، بل نؤاخذ على قدر الجناية، ولا نكلف الضعيف المعدم ما يتحمله الشريف المنعم، ولا نؤاخذ البريء بالسقيم، ولا الكريم باللئيم، النمام عندنا مفقود، والعدل في جانبنا موجود، الظلم لا نتعاطاه، والجور أنفسنا تأباه، ولا نطمع في الباطل، ولا نأخذ العشر قبل الحاصل، ولا ننكث العهود، ولا نحنث في الموعود، الفقير عندنا مدعوّ، والمفتقر لدينا مقصوّ، جارنا لا يضام؛ وعزيزنا لا يرام، رعيتنا مرعية، وحوائجهم لدينا مقضية، صغيرهم عندنا خطير، وذريهم لدينا كبير، الفقير بيننا لا يوجد، والغني بما لديه يسعد، العالم عندنا معظم مكرّم، والتقي لدينا موّقر مقدّم، لا يسد بمملكتنا باب، ولا يوجد عندنا سارق ولا مرتاب، سماؤنا ممطرة، وأشجارنا لم تزل مثمرة، لا نعامل بالشهوات، ولا نجازي بالهفوات، الطير إلينا شاكي، والبعير أتانا متظلّم باكي، عدلنا قد عمّ القاصي والداني، وجودنا قد عمّ الطائع والعاصي، عقولنا باهرة، وكنوزنا ظاهرة، وفروجنا عفائف، وزبولنا نظائف، أفهامنا سليمة، وحلومنا جسيمة، كفوفنا سوافح، بحورنا طوافح، نفوسنا أبيّة، وطوالعنا المعيّة، إن سئلنا أعطينا، وإن قدرنا عفونا، وإن وعدنا أوفينا، وإن أُغضبنا أغضينا.

فلما وصل الكتاب إلى قيصر قال: يحق لمن كان هذه سياسته أن تدوم رئاسته.

قال أنو شيروان: حصن البلاد بالعدل فهو سور لا يغرقه ماء ولا يحرقه نار ولا يهدمه منجنيق.

كان كسرى إذا جلس في مجلس حكمه أقام رجلين عن يمينه وشماله وكان يقول لهما: إذا زغت فحركوني ونبهوني، فقالا له يوماً والرعية تسمع: أيها الملك انتبه فإنك مخلوق لا خالق وعبد لا مولى وليس بينك وبين الله قرابة، انصف الناس وانظر لنفسك.

وكان يقال: صنفان متباغضان متنافيان: السلطان والرعية، وهما مع ذلك متلازمان إن صلح أحدهما صلح الآخر وإن فسد أحدهما فسد الآخر.

وكان يقال: محلّ الملك من الرعية محل الروح من الجسد، ومحل الرعية منه محل الجسد من الروح، فالروح تألم بألم كل عضو من البدن وليس كل واحد من الأعضاء يألم بألم غيره، وفساد الروح فساد جميع البدن، وقد يفسد بعض البدن وغيره من سائر البدن صحيح.

وكان يقال: ظلم الرعية استجلاب البليّة.

وكان يقال: العجب ممن استفسد رعيته وهو يعلم أن عزّه بطاعتهم.

وكان يقال: أيدي الرعية تبع ألسنتها حتى يملك جسومها، ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه، ولن تحبه حتى يعدل عليها في أحكامه عدلاً يتساوى فيه الخاصة والعامة وحتى يخفف عنها المؤن والكلف، وحتى يعفيها من رفع أوضاعها وأراذلها عليها، وهذه الثالثة تحقد على الملك العلية من الرعية وتطمع السفلة في الرتب السنيّة.

وكان يقال: الرعية ثلاثة أصناف: صنف فضلاء مرتاضون بحكم الرئاسة والسياسة يعلمون فضيلة الملك وعظيم غنائه ويرثون له من ثقل أعبائه فهؤلاء يحصل الملك موادّتهم بالبشر عند اللقاء ويلقى أحاديثهم بحسن الإصغاء، وصنف فيهم خير وشر فصلاحهم يكتسب من معاملتهم بالترغيب والترهيب وصنف من السفلة الرعاع أتباع لكل راع لا يمتحنون في أقوالهم وأفعالهم ولا يرجعون في الموالاة إلى عقد.

وكان يقال: ترك المعاقبة للسفلة على صغائر الجرائم تدعوهم إلى ارتكاب الكبائر العظائم، ألا ترى أول نشوز المرأة كلمة سومحت بها، وأول حران الدابة حيدة سوعدت عليها؟.

وكان يقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بإنصاف الرعية خرب ملكه بعصيان الرعية.

قيل لأنو شيروان: أي الجنن أوقى؟ قال: الدين، قيل: فأي العدو أقوى؟ قال: العدل.

وفي (شرح المعتزلي) جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب متظلماً، فقال: يا أمير المؤمنين هذا مكان العائذ بك، قال: لو عذت بمكان ما شانك؟ قال: سابقت ولد عمرو بن العاص بمصر فسبقته فجعل يعنفني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين، وبلغ أباه ذلك فحبسني خشية أن أقدم عليك، فكتب إلى عمرو: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وابنك، فلما

قدم عمرو وابنه دفع الدرّة إلى المصري وقال: اضربه كما ضربك، فجعل يضربه وعمر يقول: اضرب ابن الأمير، اضرب ابن الأمير، يرددها حتى قال: يا أمير المؤمنين قد استقدت منه، فقال وأشار إلى عمرو: ضعها على صلعته، فقال المصري: يا أمير المؤمنين إنما اضرب من ضربني، فقال: إنما ضربك بقوة أبيه وسلطانه فاضربه إن شئت فوالله لو فعلت لما منعك أحد منه حتى تكون أنت الذي يتنزع بالكف عنه، ثم قال: يا ابن العاص متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً[١].

كتب عديّ بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإن قبلنا قوماً لا يؤدّون الخراج إلا أن يمسهم نصب من العذاب، فاكتب إليّ يا أمير المؤمنين برأيك، فكتب: أما بعد فالعجب كل العجب تكتب إليّ تستأذنني في عذاب البشر كان إذني لك جنة من عذاب الله أو كان رضاي ينجيك من سخط الله فمن أعطاك ما عليه عفواً فخذ منه، ومن أبى فاستحلفه وكلّه إلى الله، فلأن يلقوا الله بجرائمهم أحب إليّ من أن ألقاه بعذابهم.

التذييل الثاني

لما استطرد عليه السلام في هذا الفصل ذكر حق الله تعالى على عباده وذكر حقوق بعضهم على بعض ينبغي أن نذكر طرفاً منها من طريق الأخبار وهي كثيرة جداً لا تستقصى، ونقنع منها بأجمعها لتلك الحقوق، وهي رسالة علي بن الحسين عليهما السلام المعروفة برسالة الحقوق، فأقول وبالله التوفيق:

روي في (**البحار**) من كتاب (**تحف العقول**) تأليف الشيخ أبي محمد الحسن بن علي بن شعبة قال: رسالة علي بن الحسين عليهما السلام المعروفة برسالة الحقوق:

اعلم رحمك الله أن لله عليك حقوقاً محيطة بك في كل حركة حركتها أو سكنة سكنتها أو منزلة نزلتها أو جارحة قلبتها وآلة تصرفت بها بعضها أكبر من بعض وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه لنفسه تبارك وتعالى من حقه الذي هو أصل الحقوق ومنه تفرّع، ثم أوجبه عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك فجعل لبصرك عليك حقاً، ولسمعك عليك حقاً، وللسانك عليك حقاً، وليدك عليك حقاً، ولرجلك عليك حقاً، ولبطنك عليك حقاً، ولفرجك عليك حقاً، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال، ثم جعل عز وجل لأفعالك عليك حقوقاً فجعل لصلاتك عليك حقاً، ولصومك عليك حقاً، ولصدقتك عليك حقاً، ولهديك عليك حقاً، ولأفعالك عليك حقاً، ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١١/٩٨.

الحقوق الواجبة عليك، وأوجبها عليك حقاً أئمتك، ثم حقوق رعيتك، ثم حقوق رحمك، فهذه حقوق يتشعب منها حقوق، فحقوق أئمتك ثلاثة أوجبها عليك حق سائسك بالسلطان، ثم سائسك بالعلم، ثم حق سائسك بالملك وكل سائس إمام، وحقوق رعيتك ثلاثة أوجبها عليك حق رعيتك بالسلطان، ثم حق رعيتك بالعلم فإن الجاهل رعية العالم، وحق رعيتك بالملك من الأزواج وما ملكت من الأيمان، وحقوق رحمك كثيرة متصلة بقدر اتصال الرحم في القرابة، فأوجبها عليك حق أمك، ثم حق أبيك، ثم حق ولدك، ثم حق أخيك، ثم الأقرب فالأقرب، والأول فالأول، ثم حق مولاك المنعم عليك، ثم حق مولاك الجاري نعمتك عليه، ثم حق ذي المعروف لديك، ثم حق مؤذنك بالصلاة، ثم حق إمامك في صلاتك، ثم حق جليسك، ثم حق جارك، ثم حق صاحبك، ثم حق شريكك، ثم حق مالك، ثم حق غريمك الذي تطالبه، ثم حق غريمك الذي يطالبك، ثم حق خليطك، ثم حق خصمك المدعي عليك، ثم حق خصمك الذي تدعي عليه، ثم حق مستشيرك، ثم حق المشير عليك، ثم حق مستنصحك، ثم حق الناصح لك، ثم حق من هو أكبر منك، ثم حق من هو أصغر منك، ثم حق سائلك، ثم حق من سألته، ثم حق من جرى لك على يديه مساءة بقول أو فعل أو مسرّة بذلك بقول أو فعل عن تعمد منه أو غير تعمد منه، ثم حق أهل ملتك عامة، ثم حق أهل الذمة، ثم الحقوق الحادثة بقدر علل الأحوال وتصرف الأسباب، فطوبى لمن أعانه الله على قضاء ما أوجب عليه من حقوقه ووفّقه وسدّده.

١ـ فأما حق الله الأكبر فإنك تعبده لا تشرك به شيئاً فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة ويحفظ لك ما تحب منها.

٢ـ وأما حق نفسك عليك فأن تستوفيها في طاعة الله فتؤدي إلى لسانك حقه، وإلى سمعك حقه، وإلى بصرك حقه، وإلى يدك حقها، وإلى رجلك حقها، وإلى بطنك حقه، وإلى فرجك حقه، وتستعين بالله على ذلك.

٣ـ وأما حق اللسان فإكرامه عن الخنا، وتعويده الخير، وحمله على الأدب وإلجامه إلا لموضع الحاجة والمنفعة للدين والدنيا، وإعفاؤه عن الفضول الشنعة القليلة الفائدة التي لا يؤمن ضررها مع قلة عائدتها، وبعد شاهد العقل والدليل عليه وتزين العاقل بعقله حسن سيرته في لسانه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٤ـ وأما حق السمع فتنزيهه عن أن تجعله طريقاً إلى قلبك إلا لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيراً أو تكسب خلقاً كريماً، فإنه باب الكلام إلى القلب يؤدي إليه ضروب المعاني على ما فيها من خير أو شر، ولا قوة إلا بالله.

٥ـ وأما حق بصرك فغضّه عما لا يحل وترك ابتذاله إلا لموضع عبرة تستقبل بها بصراً

أو يستفيد بها علماً، فإن البصر باب الاعتبار.

٦ـ وأما حق رجليك فأن لا تمشي بهما إلى ما لا يحل لك، ولا تجعلهما مطيّتك في الطريق المستخفة بأهلها فيها فإنها حاملتك وسالكة بك مسلك الدين والسبق لك، ولا قوة إلا بالله.

٧ـ وأما حق يدك فأن لا تبسطها إلى ما لا يحل لك فتنال بما تبسطها إليه من الله العقوبة في الأجل ومن الناس بلسان اللائمة في العاجل، ولا تقبضها مما افترض الله عليها، ولكن توقّرها بقبضها عن كثير مما لا يحل لها وبسطها إلى كثير مما ليس عليها، فإذا هي قد عقلت وشرفت في العاجل وجب لها حسن الثواب من الله في الآجل.

٨ ـ وأما حق بطنك فأن لا تجعله وعاء لقليل من الحرام ولا لكثير، وأن تقتصد له في الحلال ولا تخرجه من حد التقوية إلى حد التهوين وذهاب المروءة وضبطه إذا همّ بالجوع والظمأ فإن الشبع المنتهي بصاحبه إلى التخم مكسلة ومثبطة ومقطعة عن كل بر وكرم، وإن الرّي المنتهي بصاحبه إلى السكر مسخفة ومجهلة ومذهبة للمروءة.

٩ـ وأما حق فرجك فحفظه مما لا يحل لك، والاستعانة عليه بغضّ البصر فإنه من أعون الأعوان وكثرة ذكر الموت والتهدّد لنفسك بالله والتخويف لها به وبالله العصمة والتأييد، ولا حول ولا قوة إلا به.

ثم حقوق الأفعال

١٠ـ فأما حق الصلاة فأن تعلم أنها وفادة إلى الله وأنك قائم بها بين يدي الله فإذا علمت ذلك كنت خليقاً أن تقوم فيها مقام الذليل الراغب الراهب الخائف الراجي المستكين المتضرّع المعظم من قام بين يديه بالسكون والإطراق وخشوع الأطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له في نفسه والطلب إليه في فكاك رقبتك التي أحاطت به خطيئتك واستهلكتها ذنوبك، ولا قوّة إلا بالله.

١١ـ وأما حق الصوم فأن تعلم أنه حجاب ضرب الله على لسانك وسمعك وبصرك وفرجك وبطنك ليسترك به من النار وهكذا جاء في الحديث: «الصوم جنّة من النار»، فإن سكنت أطرافك في حجبتها رجوت أن تكون محجوباً، وإن أنت تركتها تضطرب في حجابها وترفع جنبات الحجاب فتطلع إلى ما ليس لها بالنظرة الداعية للشهوة والقوة الخارجة عن حد التقية لله لم تأمن أن تخرق الحجاب وتخرج منه، ولا قوة إلا بالله.

١٢ـ وأما حق الصدقة فأن تعلم أنها ذخرك عند ربك ووديعتك التي لا تحتاج إلى

الأشهاد، فإذا علمت ذلك كنت بما استودعته سرّاً أوثق بما استودعته علانية، وكنت جديراً أن تكون أسررت إليه أمراً أعلنته، وكان الأمر بينك وبينه فيها سراً على كل حال ولم تستظهر عليه فيما استودعته منها إشهاد الأسماع والأبصار عليه بها كأنها أوثق في نفسك لا كأنك لا تثق به في تأدية وديعتك إليك، ثم لم تمتن بها على أحد لأنها لك فإذا امتننت بها لم تأمن أن تكون بها مثل تهجين حالك منها إلى من مننت بها عليه لأن في ذلك دليلاً على أنك لم ترد نفسك بها ولو أردت نفسك بها لم تمتنّ على أحد، ولا قوة إلا بالله.

١٣ـ وأما حق الهدي فأن تخلص بها الإرادة إلى ربك والتعرض لرحمته وقبوله ولا تريد عيون الناظرين دونه فإذا كنت كذلك لم تكن متكلفاً ولا متصنعاً وكنت إنما تقصد إلى الله واعلم أن الله يراد باليسير ولا يراد بالعسير كما أراد بخلقه التيسير ولم يرد بهم التعسير، وكذلك التذلل أولى بك من التدهقن لأن الكلفة والمؤونة في المدهقنين فأما التذلل والتمسكن فلا كلفة فيهما ولا مؤونة عليهما لأنهما الخلقة وهما موجودان في الطبيعة، ولا قوة إلا بالله.

ثم حقوق الأئمة

١٤ـ فأما حق سائسك بالسلطان فأن تعلم أنك جعلت له فتنة وأنه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان، وأن تخلص له في النصيحة، وأن لا تماحكه وقد بسطت يده عليك فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه وتذلل وتلطف لإعطائه من الرضا ما يكفّه عنك ولا يضر بدينك وتستعين عليه في ذلك بالله ولا تعازّه، ولا تعانده فأنك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك فعرضتها لمكروهه وعرضته للهلكة فيك وكنت خليقاً أن تكون معيناً له على نفسك وشريكاً له فيما أتى إليك، ولا قوة إلا بالله.

١٥ـ وأما حق سائسك بالعلم فالتعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه والإقبال عليه والمعونة له على نفسك فيما لا غنى بك عنه من العلم بأن تفرغ له عقلك وتحضره فهمك وتذكي له وتجلي له بصرك بترك اللذات ونقص الشهوات وأن تعلم أنك فيما ألقى رسوله إلى من لقاك من أهل الجهل فلزمك حسن التأدية عنه إليهم فلا تخنه في تأدية رسالته والقيام بها عنه إذا تقلّدتها ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٦ـ وأما حق سائسك بالملك فنحو من سائسك بالسلطان إلا أن هذا يملك ما لا يملكه ذاك تلزمك طاعته فيما دقّ وجلّ منك إلا أن تخرجك من وجوب حق الله تعالى ويحول بينك وبين حقه وحقوق الخلق فإذا قضيته رجعت إلى حقه فتشاغلت به، ولا قوة إلا بالله.

ثم حقوق الرعية

١٧ـ فأما حقوق رعيتك بالسلطان فأن تعلم أنك استرعيتهم بفضل قوتك عليهم فإنه إنّما أحلّهم محل الرعية منك ضعفهم وذلّهم فما أولى من كفاكه ضعفه وذلّه حتى صيّره لك رعية وصيّر حكمك عليه نافذاً لا يمتنع منك بعزّة ولا قوة ولا يستنصر فيما تعاظمه منك إلا بالله بالرحمة والحياطة والأناة وما أولاك إذا عرفت ما أعطاك الله من فضل هذه العزة والقوة التي قهرت بها أن تكون لله شاكراً ومن شكر الله أعطاه فيما أنعم عليه، ولا قوة إلا بالله.

١٨ـ وأما حق رعيتك بالعلم فأن تعلم أن الله قد جعلك لهم فيما آتاك من العلم وولاّك من خزانة الحكمة فإن أحسنت فيما ولاّك الله من ذلك وقمت به لهم مقام الخازن الشفيق الناصح لمولاه في عبده الصابر المحتسب الذي إذا رأى ذا حاجة أخرج له من الأموال التي في يديه كنت راشداً وكنت لذلك أهلاً[1] معتقداً وإلا كنت له خائناً ولخلقه ظالماً ولسلبه وعزه متعرضاً.

١٩ـ وأما حق رعيتك بملك النكاح فأن تعلم أن الله جعلها سكناً ومستراحاً وأنساً وواقية وكذلك كل واحد منكما يجب أن يحمد الله على صاحبه ويعلم أن ذلك نعمة منه عليه ووجب أن يحسن صحبة نعمة الله ويكرمها ويرفق بها وإن كان حقك عليها أغلظ وطاعتك لها ألزم فيما أحببت وكرهت ما لم تكن معصية فإن لها حق الرحمة والمؤانسة وموضع السكون إليها قضاءً للذة التي لا بد من قضائها وذلك عظيم، ولا قوة إلا بالله.

٢٠ـ وأما حق رعيتك بملك اليمين فأن تعلم أنه خلق ربك ولحمك ودمك وأنك تملكه لا أنك صنعته دون الله ولا خلقت له سمعاً ولا بصراً ولا أجريت له رزقاً ولكن الله كفاك ذلك بمن سخّره لك وائتمنك عليه واستودعك إياه لتحفظه فيه وتسير فيه بسيرته فتطعمه مما تأكل وتلبسه مما تلبس ولا تكلّفه ما لا يطيق، فإن كرهت خرجت إلى الله منه واستبدلت به ولم تعذب خلق الله، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق الرحم

٢١ـ فحق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحمل أحد أحداً وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحد أحداً وأنها وقتك بسمعها وبصرها ويدها ورجلها وشعرها وبشرها وجميع جوارحها مستبشرة بذلك فرحة موبلة محتملة لما فيه مكروهها وألمها وثقلها وغمها حتى دفعتها عنك يد القدرة وأخرجتك إلى الأرض فرضيت أن تشبع وتجوع هي وتكسوك

---

(١) «آملا» في نسخة.

وتعرى وترويك وتظمأ وتظلك وتضحي وتنعمك ببؤسها وتلذذك بالنوم بأرقها وكان بطنها لك وعاء وحجرها لك حواء وثديها لك سقاء ونفسها لك وقاء تباشر حر الدنيا وبردها لك ودونك فتشكرها على قدر ذلك ولا تقدر عليه إلا بعون الله وتوفيقه.

٢٢ـ وأما حق أبيك فتعلم أنه أصلك وأنك فرعه وأنك لولاه لم تكن فمهما رأيت في نفسك مما تعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه واحمد الله واشكره على قدر ذلك.

٢٣ـ وأما حق ولدك فتعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره وإنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه والمعونة له على طاعته فيك وفي نفسه فمثاب على ذلك ومعاقب، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا المعذر إلى ربه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه والأخذ له منه، ولا قوة إلا بالله.

٢٤ـ وأما حق أخيك فتعلم أنه يدك التي تبسطها وظهرك الذي تلتجىء إليه وعزّك الذي تعتمد عليه وقوتك التي تصول بها فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله ولا عدة للظلم بخلق الله ولا تدع نصرته على نفسه ومعونته على عدوّه والحول بينه وبين شياطينه وتأدية النصيحة إليه والإقبال عليه في الله فإن انقاد لربه وأحسن الإجابة له وإلا فليكن الله آثر عندك وأكرم عليك منه.

٢٥ـ وأما حق المنعم عليك بالولاء فأن تعلم أنه أنفق فيك ماله وأخرجك من ذلّ الرق ووحشته إلى عز الحرية وأنسها وأطلقك من أسر الملكة وفكّ عنك حلق العبودية وأوجدك رائحة العز وأخرجك من سجن القهر ودفع عنك العسر وبسط لك لسان الإنصاف وأباحك الدنيا كلها فملّكك نفسك وحل أسرك وفرّغك لعبادة ربك واحتمل بذلك التقصير فيما له فتعلم أنه أولى الخلق بك بعد أولي رحمك في حياتك وموتك وأحق الخلق بنصرك ومعونتك ومكانفتك في ذات الله فلا تؤثر عليه نفسك ما احتاج إليك أحداً أبداً.

٢٦ـ وأما حق مولاك الجارية عليه نعمتك فأن تعلم أن الله جعلك حامية عليه وواقية وناصراً ومعقلاً وجعله لك وسيلة وسبباً بينك وبينه فبالحري أن يحجبك عن النار فيكون في ذلك ثوابك منه في الآجل ويحكم لك بميراثه في العاجل إذا لم يكن له رحم مكافأة لما أنفقته من مالك عليه وقمت به من حقه بعد إنفاق مالك فإن لم تخفه خيف عليك أن لا يطيب لك ميراثه، ولا قوة إلا بالله.

٢٧ـ وأما حق ذي المعروف عليك فأن تشكره وتذكر معروفه وأن تنشر له المقالة الحسنة وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه فإنك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سراً وعلانية ثم إن أمكنك مكافأته بالفعل كافأته وإلا كنت مرصداً له موطناً نفسك عليها.

٢٨ـ وأما حق المؤذن فأن تعلم أنه مذكرك بربك وداعيك إلى حظك وأفضل أعوانك على قضاء الفريضة التي افترضها الله عليك فتشكره على ذلك شكرك للمحسن إليك وإن كنت في بيتك متهماً لذلك لم تكن لله في أمره متهماً وعلمت أنه نعمة من الله عليك لا شك فيها فأحسن صحبة نعمة الله بحمد الله عليها على كل حال، ولا قوة إلا بالله.

٢٩ـ وأما حق إمامك في صلاتك فأن تعلم أنه قد تقلّد السفارة فيما بينك وبين الله والوفادة إلى ربك وتكلم عنك ولم تتكلم عنه ودعا لك ولم تدع له، وطلب فيك ولم تطلب فيه، وكفاك همّ المقام بين يدي الله والمساءلة له فيك ولم تكفه ذلك فإن كان في شيء من ذلك تقصير كان به دونك وإن كان آثماً لم تكن شريكه فيه ولم يكن لك عليه فضل فوقى نفسك بنفسه ووقى صلاتك بصلاته فتشكر له على ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٣٠ـ وأما حق الجليس فأن تلين له كنفك وتطيب له جانبك وتنصفه في مجاراة اللفظ ولا تغرق في نزع اللحظ إذا لحظت وتقصد في اللفظ إلى إفهامه إذا لفظت وإن كنت الجليس إليه كنت في القيام عنه بالخيار وإن كان الجالس إليك كان بالخيار ولا تقوم إلا بإذنه، ولا قوة إلا بالله.

٣١ـ وأما حق الجار فحفظه غائباً وكرامته شاهداً ونصرته ومعونته في الحالين جميعاً، لا تتبع له عورة، ولا تبحث له عن سوءة لتعرفها، فإن عرفتها منه عن غير إرادة منك ولا تكلّف كنت لما علمت حصناً حصيناً، وستراً ستيراً، لو بحثت الأسنّة عنه ضميراً لم تتصل إليه لانطوائه عليه، لا تستمع عليه من حيث لا يعلم، لا تسلمه عند شديدة، ولا تحسده عند نعمة، تقيل عثرته وتغفر زلّته ولا تدّخر حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له، ترد عنه الشتيمة، وتبطل فيه كيد حامل النصيحة، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٣٢ـ وأما حق الصاحب فأن تصحبه بالفضل ما وجدت إليه سبيلاً وإلا فلا أقل من الإنصاف وأن تكرمه كما يكرمك وتحفظه كما يحفظك، ولا يسبقك فيما بينك وبينه إلى مكرمة فإن سبقك كافأته ولا تقصد به عما يستحق من المودة تلزم نفسك نصيحته وحياطته ومعاضدته على طاعة ربه ومعاونته على نفسه فيما يهمّ به من معصية ربه ثم تكون[1] رحمة ولا تكون عليه عذاباً، ولا قوة إلا بالله.

٣٣ـ وأما حق الشريك فإن غاب كفيته، وإن حضر ساويته، ولا تعزم على حكمك دون حكمه، ولا تعمل برأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله وتنفي عنه خيانته فيما عز أو هان،

---

(١) «عليه» في نسخة.

فإنه بلغنا أن يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، ولا قوة إلا بالله.

٣٤ـ وأما حق المال فأن لا تأخذه إلا من حلّه ولا تنفقه إلا في حله ولا تحرّفه عن مواضعه ولا تصرفه عن حقائقه ولا تجعله إذا كان من الله إلا إليه وسبباً إلى الله ولا تؤثر به على نفسك من لعله لا يحمدك وبالحري أن لا يحسن خلافتك في تركتك ولا يعمل فيه بطاعة ربك فتكون معيناً له على ذلك وبما أحدث فيما لك أحسن نظراً لنفسك فيعمل بطاعة ربه فيذهب بالغنيمة وتبوء بالإثم والحسرة والندامة مع التبعة، ولا قوة إلا بالله.

٣٥ـ وأما حق الغريم الطالب لك فإن كنت موسراً أوفيته وكفيته وأغنيته ولم تردده وتمطله فإن رسول الله ﷺ قال: مطل الغني ظلم، وإن كنت معسراً أرضيته بحسن القول وطلبت إليه طلباً جميلاً ورددته عن نفسك ردّاً لطيفاً ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته فإن ذلك لؤم، ولا قوة إلا بالله.

٣٦ـ وأما حق الخليط فأن لا تغرّه ولا تغشه ولا تكذبه ولا تغفله ولا تخدعه ولا تعمل في انتقاصه عمل العدو الذي لا يبقى على صاحبه وإن اطمأن إليك استقصيت له على نفسك وعلمت أن غبن المسترسل ربا، ولا قوّة إلا بالله.

٣٧ـ وأما حق الخصم المدعي عليك فإن كان ما يدعي عليك حقاً لم تنفسخ في حجته ولم تعمل في إبطال دعوته وكنت خصم نفسك له والحاكم عليها والشاهد له بحقه دون شهادة الشهود، فإن ذلك حق الله عليك وإن كان ما يدّعيه باطلاً رفقت به وردعته وناشدته بدينه وكسرت حدته عنك بذكر الله وألقيت حشو الكلام ولغطه الذي لا يرد عنك عادية عدوك بل تبوء بإثمه وبه يشحذ عليك سيف عداوته لأن لفظة السوء تبعث الشر والخير مقمعة للشر، ولا قوة إلا بالله.

٣٨ـ وأما حق الخصم المدعى عليه فإن كان ما تدعيه حقاً أجملت في مقاولته بمخرج الدعوى، فإن للدعوى غلظة في سمع المدعى عليه وقصدت قصد حجتك بالرفق وأمهل المهلة وأبين البيان وألطف اللطف ولم تتشاغل عن حجتك بمنازعته بالقيل والقال فتذهب عنك حجتك ولا يكون لك في ذلك درك، ولا قوة إلا بالله.

٣٩ـ وأما حق المستشير فإن حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة وأشرت إليه بما تعلم أنك لو كنت مكانه عملت به، وذلك ليكن منك في رحمة ولين فإن اللين يؤنس الوحشة وإن الغلظ يوحش موضع الأنس، وإن لم يحضرك له رأي وعرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه وأرشدته إليه فكنت لم تأله خيراً ولم تدّخره نصحاً، ولا قوة إلا بالله.

٤٠ـ وأما حق المشير عليك فلا تتهمه فيما يوافقك عليه من رأيه إذا أشار عليك فإنما هي الآراء وتصرف الناس فيها واختلافهم فكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتهمت رأيه فأما تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن وجه مشورته فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والإرصاد بالمكافأة في مثلها إن فزع إليك، ولا قوة إلا بالله.

٤١ـ وأما حق المستنصح فإن حقه أن تؤدي إليه النصيحة على الحق الذي ترى له أنه يحمل ويخرج المخرج الذي يلين على مسامعه، وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه، وليكن مذهبك الرحمة، ولا قوة إلا بالله.

٤٢ـ وأما حق الناصح فأن تلين له جناحك ثم تشرئب له قلبك وتفتح له سمعك حتى تفهم عنه نصيحته ثم تنظر فيها فإن كان وفّق فيها للصواب حمدت الله على ذلك وقبلت منه وعرفت له نصيحته، وإن لم يكن وفّق لها[1] رحمته ولم تتهمه وعلمت أنه لم يألك نصحاً إلا أنه أخطأ إلا أن يكون عندك مستحقاً للتهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على كل حال، ولا قوة إلا بالله.

٤٣ـ وأما حق الكبير فإن حقه توقير سنه وإجلال إسلامه إذا كان من أهل الفضل في الإسلام بتقديمه فيه وترك مقابلته عند الخصام ولا تسبقه إلى طريق ولا تؤمه في طريق ولا تستجهله وإن جهل عليك تحملت وأكرمته بحق إسلامه مع سنّه فإنما حق السن بقدر الإسلام، ولا قوة إلا بالله.

٤٤ـ وأما حق الصغير فرحمته وتثقيفه وتعليمه والعفو عنه والستر عليه والرفق به والمعونة له والستر على جرائر حداثته فإنه سبب للتوبة والمداراة له وترك مماحكته فإن ذلك أولى[2] لرشده.

٤٥ـ وأما حق السائل فإعطاؤه إذا تهيأت صدقة وقدرت على سدّ حاجته والدعاء له فيما نزل به والمعاونة له على طلبته، فإن شككت في صدقه وسبقت إليه التهمة له ولم تعزم على ذلك لم تأمن أن يكون من كيد الشيطان أراد أن يصدك عن حظك ويحول بينك وبين التقرب إلى ربك وتركته بستره ورددته رداً جميلاً، وإن غلبت نفسك في أمره وأعطيته على ما عرض في نفسك منه فإن ذلك من عزم الأمور.

٤٦ـ وأما حق المسؤول فحقه إن أعطى قبل منه ما أعطي بالشكر له والمعرفة لفضله

---

(١) في نسخة: زيادة فيها.
(٢) «أدنى» في نسخة.

وطلب وجه العذر في منعه وأحسن به الظن واعلم أنه إن منع ماله منع وإن ليس التثريب في ماله وإن كان ظالماً فإن الإنسان لظلوم كفّار.

٤٧ـ وأما حق من سرّك الله به وعلى يديه فإن كان تعمّدها لك حمدت الله أولاً ثم شكرته على ذلك بقدره في موضع الجزاء وكافأته على فضل الابتداء وأرصدت له المكافأة، فإن لم يكن تعمدها حمدت الله وشكرت له وعلمت أنه منه توحدك بها وأحببت هذا إذا كان سبباً من أسباب نعم الله عليك وترجو له بعد ذلك خيراً فإن أسباب النعم بركة حيث ما كانت وإن كان لم يعتمد، ولا قوة إلا بالله.

٤٨ـ وأما حق من ساءك القضاء على يديه بقول أو فعل فإن كان تعمدها كان العفو أولى بك لما فيه له من القمع وحسن الأدب مع كثير أمثاله من الخلق فإن الله يقول: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ إلى قوله: ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤١ـ ٤٣]، وقال عز وجلّ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦] هذا في العمد، فإن لم يكن عمداً لم تظلمه بتعمد الانتصار منه فتكون قد كافأته في تعمد على خطأ ورفقت به ورددته بألطف ما تقدر عليه، ولا قوة إلا بالله.

٤٩ـ وأما حق أهل ملتك عامة فإضمار السلامة ونشر جناح الرحمة والرفق بمسيئهم وتألفهم واستصلاحهم وشكر محسنهم إلى نفسه وإليك فإن إحسانه إلى نفسه إحسانه إليك إذا كفّ عنك أذاه وكفاك مؤونته وحبس عنك نفسه فعمهم جميعاً بدعوتك، وانصرهم جميعاً بنصرتك، وأنزلهم جميعاً منك منازلهم كبيرهم بمنزلة الوالد وصغيرهم بمنزلة الولد وأوسطهم بمنزلة الأخ، فمن أتاك تعاهدته بلطف ورحمة وصل أخاك بما يجب للأخ[1] على أخيه.

٥٠ـ وأما حق أهل الذمة فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله وكفى بما جعل الله لهم من ذمته وعهده وتكلهم إليه فيما طلبوا من أنفسهم وأجبروا عليه وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك فيما جرى بينك من معاملة وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله صلى الله عليه وآله حائل، فإنه بلغنا أنه صلى الله عليه وآله قال: «من ظلم معاهداً كنت خصمه»، فاتق الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذه خمسون حقاً محيطاً بك لا تخرج منها في حال من الأحوال يجب عليك رعايتها والعمل في تأديتها والاستعانة بالله جل ثناؤه على ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله والحمد لله رب العالمين[2].

---

(١) «يحب الأخ» في نسخة.

(٢) تحف العقول: ٢٧٢، وبحار الأنوار: ٢١/٧١ ح ٢.

قال الشارح عفى الله عنه ووفّقه لأداء حقوقه: وإنما أوردت الرواية بتمامها مع كون صدرها خارجاً عن الغرض لكثرة فوائدها ومزيد عوائدها فضننت بها عن الإسقاط والاقتصار.

ثم أقول: النسخة التي رويت منها كانت غير خالية عن السقم فرويت كما رأيت، فلعل الله يوفّقني على إصلاحها ومقابلتها فيما بعد بتحصيل نسخة صحيحة، وهو الموفق والمعين وبه اعتمادي.

الترجمة

از جمله خطبه های شریفه آن امام مبین و سیدالوصین است که خطبه خواند آن را در صفین، می فرماید:

اما بعد از حمد خدا و نعمت رسول خدا، پس به تحقیق گردانیده است خدا از برای من بر شما حق بزرگی را به سبب صاحب اختیار بودن من بر امر شما و از برای شما است بر من از حق مثل آن حقی که مرا است بر شما، پس حق فراترین خیرها است در مقام وصف کردن بعضی با بعضی اوصاف آن را و تنگ ترین چیزها است در مقام انصاف کردن بعضی مر بعضی را، جاری نمی شود آن حق از برای منفعت احدی مگر این که جاری شود بر ضرر او و جاری نمی شود بر ضرر او مگر این که جاری شود از برای منفعت او.

و اگر باشد از برای کسی که جاری شود حق او بر غیر و حق بر او جاری نشود هرآینه باشد و مختص به خداوند سبحانه بدون خلق او و از جهت قدرت او بر بندگان خود و از جهت عدالت او در هر چیزی که جاری شد بر آن چیز اقسام قضا و حکم او ولیکن گردانید خدای تعالی حق خود را بر بندگان، این که اطاعت او نمایند و گردانید جزای طاعت ایشان را بر خود، اینکه ثواب ایشان را بالمضاعف کند از حیثیت تفضل و احسان و از روی وسعت دادن با چیزی که خود اهل او است از زیاده کردن جزا.

پس گردانید حق سبحانه و تعالی از جمله حقوق خود حقوقی را که واجب

گردانیده است آنها را از برای بعضی از مردمان بر بعضی، پس گردانید آنها را متساوی و متقابل در جهات آنها و باعث می شود بعضی از آنها به بعضی و مستحق نمی شود بعضی را مگر به عوض بعضی.

و بزرگرین چیزی که واجب گردانید حق سبحانه و تعالی از این حقوق، حق والی و پادشاه است بر رعیّت و حقّ رعیّت است بر والی و پادشاه، فریضه ای است که فرض کرده خدای سبحانه و تعالی آن را از برای هر یکی از والی و رعیت بر دیگری، پس گردانید آن حق را سبب نظم از برای الفت ایشان و مایه عزت از برای دین ایشان، پس صلاح نمی یابد حال رعیّت مگر به صلاح حال پادشاهان و صلاح نمی یابد حال پادشاهان مگر به انتظام امر رعیّت.

پس وقتی که ادا کند رعیّت به والی حق او را که اطاعت و فرمان برداری است و ادا کند والی به رعیّت حقّ او را که عدالت و دادرسی است عزیز می شود حقّ در میانه ایشان و مستقیم می شود راه های دین و معتدل می شود علامتهای عدالت و جاری می شود سنن شرعیّه بر راههای خود پس صلاح می یابد به سبب این روزگار و امیدواری می شود در دوام و بقای سلطنت و مأیوس می گردد جایگاه طمع دشمنان.

و وقتی که غالب گردد و تمرّد نماید رعیّت بر پادشاه خود یا ظلم و تعدی کند پادشاه بر رعیّت خود، مختلف می شود در آن وقت سخنان و آشکار گردد علامتهای ظلم و ستم و بسیار گردد دغل و مفاسد در دین و ترك شود جادّ سنن شرعیّه، پس عمل کرده می شود به خواهشات نفسانیّه و معطّل گردد احکام شرعیّه نبویّه و بسیار شود ناخوشی های نفس ها، پس استیحاش نمی شود، یعنی مردم وحشت نمی کنند از بزرگ حقّی که تعطیل افتد و نه از بزرگ باطلی که آورده شود، پس در آن وقت ذلیل و خوار گردند نیکوکاران و عزیز گردد بدکرداران و بزرگ می شود مظالم خدا بر ذمّه بندگان خدا.

پس بر شما باد نصیحت کردن یکدیگر را در آن حقّ واجب و معاونت خوب همدیگر بالای آن.

پس نیست احدی و اگرچه شدید باشد در تحصیل رضای خدا عرض او و دراز باشد در عمل سعی و تلاش او که برسد حقیقت آن چیزی را که خدای تعالی اهل

و سزاوار او است از اطاعت و عبادت وليكن از حقوق واجبه خدا بر بندگان نصيحت كردن است به مقدار طاقت ايشان و اعانت كردن يكديگر است برپا داشتن حق و عدل در ميان خودشان.

و نيست مردى و اگر چه بزرگ شود در حق گذارى مرتبه او و مقدّم باشد در دين دارى فضيلت او و بالاتر از اينكه اعانت كرده شود بر چيزى كه بار كرده است خدا بر او از حقّ خود، يعنى البته محتاج است به معين.

و نيست مردى اگرچه كوچك شمرده باشد او را نفس ها و حقير ديده باشد او را چشمها پست تر از اين كه اعانت كند بر آن حقّ يا اعانت كرده شود بر آن.

الفصل الثاني

قال السيد رضي الله عنه: فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له عليه السلام.

فقال عليه السلام:

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلالُ الله فِي نَفْسِهِ، وجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعِظَمِ ذٰلِكَ كُلُّ ما سِواهُ، وإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كانَ كَذٰلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ الله عَلَيْهِ، ولَطُفَ إِحْسانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ الله عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاّ ازْدادَ حَقُّ الله عَلَيْهِ عِظَماً.

وإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حالاتِ الوُلاةِ عِنْدَ صالِحِ النَّاسِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الفَخْرِ، ويُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَىٰ الكِبْرِ، وقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنّي أُحِبُّ الإِطْراءَ، وَاسْتِماعَ الثَّناءِ، ولَسْتُ بِحَمْدِ الله كَذٰلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقالَ ذٰلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطاطاً لِلّهِ سُبْحانَهُ عَنْ تَناوُلِ ما هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ العَظَمَةِ والكِبْرِياءِ، ورُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّناءَ بَعْدَ البَلاءِ، فَلا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَناءٍ لإِخْراجِي نَفْسي إِلَىٰ الله وإِلَيْكُمْ مِنَ البَقِيَّةِ في حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدائِها، وفَرائِضَ لا بُدَّ مِنْ إِمْضائِها.

فَلا تُكَلِّمُوني بِما تُكَلَّمُ بِهِ الجَبابِرَةُ، ولا تَتَحَفَّظُوا مِنّي بِما يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ البادِرَةِ، وَلا تُخالِطُوني بِالمُصانَعَةِ، ولا تَظُنُّوا بِي[1] ([بِهِ]) اسْتِثْقالاً في حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلا الْتِماسَ إِعْظامٍ لِنَفْسي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الحَقَّ أَنْ يُقالَ لَهُ، أَوِ العَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كانَ العَمَلُ بِهِما أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلا تَكُفُّوا عَنْ مَقالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنّي لَسْتُ في نَفْسي بِفَوْقَ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي إِلاّ أَنْ يَكْفِيَ الله مِنْ نَفْسي ما هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنّي، فَإِنَّما أَنَا وأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لا رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنّا ما لا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنا، وأَخْرَجَنا مِمّا كُنّا فِيهِ إِلَىٰ ما صَلُحْنا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلالَةِ بالهُدَى، وأَعْطانَا البَصِيرَةَ بَعْدَ العَمَىٰ[2].

اللغة

(صغر) الشيء يصغر من باب شرف صغر أو زان عنب إذا صار صغيراً وصغر صغراً من

---

(١) «به» في نسخة.

(٢) الكافي: ٨/ ٣٥٧، ونهج السعادة: ٢/ ١٨٦.

باب تعب إذا ذلّ وهان، قال تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] أي داخرون ذليلون و (**عظم**) الشيء بالضم أيضاً عظماً كعنب إذا صار عظيماً و (**سخف**) سخفاً وسخافة وزان قرب قرباً فهو سخيف وفلان في عقله سخف أي نقص، وقال الخليل: السخف في العقل خاصة والسخافة في كل شيء.

. و (**أطريت**) فلاناً مدحته بأحسن ما فيه، وقيل: بالغت في مدحه وجاوزت الحد. وقال السرقسطي في باب الهمز والياء: أطرأته مدحته وأطريته أثنيت عليه.

وقوله: (**من البقية**) بالباء الموحدة كما في نسخة الشارح المعتزلي وغيرها من بقي الدين كذا فضل وتأخر، والبقية اسم منه والجمع بقايا وبقيات مثل عطية وعطايا وعطيات، والمنقول من خط الرضي من التقية بالتاء المثناة و (**البادرة**) الحدة والكلام الذي يسبق من الإنسان في حالة الغضب و (**المصانعة**) الرشوة والمداراة و (**كفه**) عن المكروه أي صرفه فكفَّ هو أي انصرف يستعمل متعدياً ولازماً.

الإعراب

قوله: (**من حق**) خبر إنّ قدم على اسمها وهو قوله: أن يصغر، وهو مؤوّل بالمصدر والواو في (**وأن أحق**) (**آه**) حرف قسم حذف المقسم به وجواب القسم قوله: لمن عظمت، ويحتمل أن تكون للعطف فتكون اللام في لمن تأكيداً.

وقوله: (**وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب**)، يكون زائدة بعد أن الناصبة جيء بها لمحض إصلاح اللفظ وتصحيح دخول أن الناصبة وإلا فلا حاجة إليها من حيث المعنى، والدليل على زيادتها أنها لم تعمل شيئاً أصلاً ومثلها في الزيادة قول أم عقيل ابن أبي طالب وهي ترقّصه:

أنت تكون ماجد نبيل إذا تهبّ شمال بليل

وجملة: أن يكون جال في محل النصب مفعول كرهت، وجملة إني أحب فاعل جال، وقوله: ولست بحمد الله كذلك، (**الباء**) في بحمد الله إما للمصاحبة والجار والمجرور في موضع الحال أي لست كذلك مصاحباً بحمده أي حامداً له تعالى على حد قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨] أي سبّحه حامداً له أي نزهه عما لا يليق به وأثبت له ما يليق وإما للاستعانة على أنه من إقامة المسبب مقام السبب كما قاله بعض علماء الأدبية في «سبحانك اللهم وبحمدك»: إن المعنى وبمعونتك التي هي نعمة توجب على حمدك سبّحتك لا بحولي وقوتي، وعلى هذا فيكون المعنى لست كذلك بإعانته التي توجب حمده تعالى.

وقوله: (**انحطاطاً لله**)، مفعول لأجله لتركته، وعن تناول متعلق بانحطاطاً وإضافة تناول

إلى ما من إضافة المصدر إلى مفعوله، وقوله: لإخراجي علّة للمنفي، لا للنفي وقوله: في حقوق، متعلق بالبقية **(والفاء)** في قوله: فلا تكلموني، فصيحة.

وقوله: **(فإنه من استثقل الحق أن يقال له)**، الضمير في أنه للشأن وأن يقال له بدل من الحق بدل اشتمال وكذلك أن يعرض عليه بدل من العدل، و**(الباء)** في قوله: بفوق، زائدة للتأكيد وزيادتها في خبر ليس مطردة، و**(الفاء)** في قوله: فأبدلنا **(آه)**، عاطفة للتفصيل في الإجمال.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما خطب بما تقدم في الفصل الأول (فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له) وستطلع على كلام هذا الرجل في التكملة الآتية إن شاء الله تعالى.

قال المحدث العلامة المجلسي في **(البحار)** عند رواية هذه الخطبة من **(الكافي)**: الظاهر أن هذا الرجل كان الخضر عليه السلام وقد جاء في مواطن كثيرة وكلمه عليه السلام لإتمام الحجة على الحاضرين، وقد أتى بعد وفاته عليه السلام وقام على باب داره وبكى وأبكى وخاطب عليه السلام بأمثال تلك الكلمات وخرج وغاب عن الناس.

أقول: ويؤيده ما يأتي في رواية **(الكافي)** من أنه لم يكن رُئِيَ في عسكره عليه السلام قبل هذا اليوم ولا بعده، وكيف كان فلما سمع عليه السلام كلامه فقال عليه السلام مجيباً له:

(إن من حق من عظم جلال الله في نفسه وجلّ موضعه من قلبه أن يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه) فإن من كمل معرفته بالله وشاهد عظمته وجلاله وكبرياءه لا يبقي لغيره وقع في نظره، لما ظهر من جلاله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في ما رواه عنه صلى الله عليه وآله في **(إحياء العلوم)**: لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير.

(وإن أحق من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه ولطف إحسانه إليه) يعني أحق الناس بتعظيم جلال الله وتصغير ما سواه هم الأئمة عليهم السلام لعظم نعمة الله عليهم وكمال معرفتهم بجلال ربهم، فحق الله تعالى عليهم أعظم من غيرهم فينبغي أن يصغر عندهم أنفسهم فلا يحبوا الثناء والإطراء.

أو أن من عظمت نعمه ولطفه وإحسانه إليه فهو أحق وأجدر بأن يعظم جلال الله ويجلّ محله في قلبه، ومن كان كذلك فيضمحل عند ملاحظة جلاله ومشاهدة عظمة غيره، فلا يكون

له التفات وتوجه إلى الخلق في أعماله حتى يطلب رضاهم ومدحهم وثناءهم.

ومن هنا لما قال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد[١].

وقال بعضهم: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط، وقال آخر: هو إخراج الخلق عن معاملة الرب.

ويؤيد الثاني تعليله بقوله: **(فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلا ازداد حق الله عليه عظماً)** وأعظم حقه هو الإخلاص كما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

(وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر) لظهور مخائل حبه عليهم، وذلك لضعف عقولهم وحبهم للجاه والمنزلة عند الناس وللثناء والمحمدة منهم.

والنكتة في محبتهم لذلك هو ارتياح النفس والتذاذ القلب به وميل الطبع إليه بسبب استشعار الكمال من قول المادح وذلك لأن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ، فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت وتلذّذت فالمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها.

فإن الوصف الذي يمدح به إما أن يكون جلياً ظاهراً كوصفه بأنه طويل القامة وحسن الوجه، أو خفياً مشكوكاً كوصفه بالقدرة والشجاعة والسخاوة، والالتذاذ بالأول أقل وبالثاني أعظم، لأن الإنسان ربما يكون شاكاً في كمال قدرته وشجاعته وسخاوته، وبمدح غيره له بذلك يرتفع شكه ويحصل له الطمأنينة باستشعار ذلك الكمال، فتعظم لذته لا سيما إذا كان المادح من أهل الخبرة فهذا هو النكتة في حب الجاه والفخر والثناء.

وأيضاً فإن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بحمده، ومدحه إما عن طوع أو عن قهر والحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة والسلطنة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح في الباطن غير معتقد بما مدح به لأن اضطراره إلى مدحه ووصفه نوع قهر واستيلاء عليه، فيورث ذلك حب الولاة للمحمدة والثناء.

وإنما جعله من أسخف الحالات، لأن من غلب على قلبه حب الجاه والمنزلة والفخر صار همته مقصوراً على ملاحظة الخلق ومراعاتهم في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يوجب وقعه في نظرهم ومنزلته عندهم ورضائهم منه رجاء لمدحهم وخوفاً من ذمهم وهذا من محض ضعف العقل وقصوره.

---

(١) ميزان الحكمة: ١/٧٥٨ بتفاوت، وتفسير القرطبي: ١٠/٢٨.

لأن هذه الصفة التي يحب المدح بها إما أن يكون متصفاً بها واقعاً أم لا.

فإن كان متصفاً بها فهي إما من الكمالات النفسانية كالقدرة والشجاعة والعدالة، أو ليست من الكمالات النفسانية بل من الأعراض الدنيوية كالثروة والجلال والشوكة ونحوها.

أما الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بما أنبتت الأرض من النبات الذي يصير عن قريب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة عقل العاقل فلا ينبغي أن يفرح بما هو في معرض الزوال والفناء، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بل بوجوده والمدح ليس سبب وجوده.

وأما الكمالات النفسانية فينبغي أن يكون فرحه فيها بفضل الله تعالى أيضاً لا بمدح المادح، فإن اللذة في استشعار الكمال والكمال موجود بفضل الله لا بمدح المادح والمدح تابع له.

وإن لم يكن متصفاً بها واقعاً فحب المدح بها غاية الجنون، ومثله كمثل من يهزأ به إنسان ويقول له: سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائك وما أطيب الروائح التي تفوح منك إذا قضيت حاجتك، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان ومع ذلك فيفرح بمدحه، فإذاً المادح إن كان صادقاً فليكن فرحه بصفته التي هي من فضل الله وإن كان كاذباً فينبغي أن يغمه مدحه حيث إنه يستهزء به ويستسخر منه فكيف يفرح به؟.

وأما الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح فمرجعها أيضاً إلى قدرة عارضة لا ثبات لها، فعلم بذلك أن حب الفخر من أسخف حالات الولاة.

(و) من أسخف حالاتهم أيضاً أن **(يوضع أمرهم على الكبر)** أي يتهموا بالكبر لاستعظامهم لنفسهم واستحقارهم لغيرهم وترفعهم عليه وأنفهم من عباداتهم وهو أيضاً من ضعف العقل لأن الكبر والعز والعظمة والجلال لا يليق إلا بالقادر القاهر مالك الملك والملكوت فأين يليق به العبد الضعيف المسكين المستكين الذي لا يملك لنفسه موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً.

فالوالي المتكبر منازع لله تعالى في صفة لا يليق إلا بجلاله مثل الغلام الذي أخذ قلنسوة الملك فوضعها على رأسه وجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت والخزي وما أقبح ما تعاطاه وأشد جرأته على مولاه وأفحش سفهه عند أهل البصيرة هذا.

ولما ذكر إجمالاً أن المشاهد لجمال الربوبية يصغر في نظره ما سواه وأن أحق الناس بمشاهدة جلاله واستصغار غيره هو من فاز لعظيم نعمة المعرفة وعقبه بذكر حالة الولاة من حبهم للفخر والكبر واتهامهم بذلك.

أردف ذلك بالتصريح على براءة نفسه القدسية من هذه الحالات ونزاهته عن حب الإطراء والثناء بمقتضى مشاهدته لجلال الرب تعالى فقال:

(وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء) أي المجاوزة عن الحد في المدح والمبالغة فيه **(واستماع الثناء)** قال بعض الشارحين: جولان الظن حصول المعنى في النفس من غير إذعان كامل، وكراهته عليه السلام له يدل على كراهته للإذعان التام بطريق أولى.

(ولست بحمد الله كذلك) أي محباً لها **(ولو كنت أحب أن يقال ذلك)** أي لو أحببت الإطراء والثناء والتعظيم والتبجيل بما فيه من التذاذ النفس **(لتركته)** قطعاً **(انحطاطاً لله)** وتذللاً لأجله وتصاغراً **(عن تناول ما هو أحق به)** مني ومن كل أحد **(من العظمة والكبرباء)**.

ويحتمل أن يكون أحق بمعنى حقيق غير مراد به التفضيل كما في قولهم: العسل أحلى من الخل وهو الأظهر بل أولى لأن العظمة والكبرياء لا يليق إلا به تعالى كما قال في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي».

وفي كلامه عليه السلام إشارة إلى أن الإطراء والثناء يجران إلى الكبر وذلك أن المادح إذا بالغ في المدح وذكر مناقب الممدوح ومحاسنه وأثنى عليه بها يورث ذلك في الممدوح الارتياح والاهتزاز واستعظامه لنفسه بما فيها من المناقب والمحاسن واستحقاره بغيره لخلوه منها، وليس الكبر إلا عبارة عن ذلك.

(وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء) أي استحلى من أبلى بلاء حسناً من الولاة وغيرهم أن يمدح ويثني عليه بعد ابتلائه بالشدائد ومكابدته المشاق.

قال الشارح البحراني: هذا يجري مجرى تمهيد العذر لمن أثنى عليه فكأنه عليه السلام يقول: وأنت معذور حيث رأيتني أجاهد في سبيل الله وأحث الناس على ذلك ومن عادة الناس أن يستحلوا الثناء عندما يبلوا بلاء حسناً في جهاد أو غيره من الطاعات.

ثم أجاب عليه السلام عن هذا العذر بقوله: **(فلا تثنوا علي بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها وفرائض لا بد من إمضائها)** أي لا تثنوا عليّ لأجل ما ترونه مني من طاعة الله فإن ذلك إنما هو لإخراج نفسي إلى الله من حقوقه الباقية عليّ لم أفرغ بعد من أدائها، وهي حقوق نعمه وفرائضه التي لا بد من المضي فيها وكذلك إليكم من الحقوق التي أوجبها الله من النصيحة في الدين والإرشاد إلى الطريق الأفضل والتعظيم لكيفية سلوكه.

وفي المنقول من خط الرضي من التقية بالتاء والمعنى فإن الذي أفعل من طاعة الله إنما هو لإخراج نفسي إلى الله وإليكم من تقية الخلق فيما يجب عليّ من الحقوق إذ كان عليه السلام إنما يعبد الله لله غير ملتفت في شيء من عبادته وأداء واجب حقه إلى أحد سواه خوفاً منه أو رغبة إليه.

أو المراد التقية التي كان يعملها في زمن الخلفاء الثلاثة وتركها في أيام خلافته، وكأنه قال: لم أفعل شيئاً إلا وهو أداء حق واجب عليّ وإذا كان كذلك فكيف أستحق أن يثنى عليّ لأجل إتيان الواجب بثناء جميل، وأقابل بهذا التعظيم، وهو من باب التواضع لله وتعظيم كيفية أداء حقه، وكسر للنفس عن محبة الباطل والميل إليه.

ولما نهاهم عن الثناء عليه أردف بتعليمهم كيفية سلوكهم معه عليه السلام قولاً وفعلاً فقال عليه السلام:

(فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة) والظلمة أي لا تكلموني بكلام متضمن للتملق لي والتودد إليّ كما يتكلم به عند أهل الغرور والنخوة من المتجبرين العتاة.

(ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة) أي لا تحرّزوا مني بما يتحرّز به عند أهل الهدة من الملوك والسلاطين والأمراء؛ فإن الناس إنما يتحفظون عنهم ويتكلمون عندهم حقاً أو باطلاً بما يعجبهم ويوافق مذاقهم من الثناء والإطراء والملق، ويحتشمون منهم ويقومون بين أيديهم ويخضعون لهم، كل ذلك خوفاً من سطوتهم وتوّقياً من سورتهم.

(ولا تخالطوني) وعن بعض النسخ لا تخاطبوني بدله **(بالمصانعة)** أي بالرشوة والمداراة، وقال بعض الشارحين: المصانعة أن تصنع لأحد شيئاً ليصنع لك شيئاً آخر والغرض النهي عن المخالطة أو المخاطبة بحسب ما يرونه صلاحاً في حصول أغراضهم أو ما يعجبه عليه السلام على زعمهم.

(ولا تظنوا بي استثقالاً في حق لي ولا التماس إعظام لنفسي) أي لا يذهب ظنكم إلى أن فيّ توانياً من الحق الذي قيل لي، وإني أعدّه ثقيلاً عليّ، ولا إلى أني أطلب من الخلق التعظيم لنفسي، وذلك لأنه مع الحق والحق معه يدور معه كيف دار ولمعرفته بمن هو أهل للإعزاز وأحق به لاختصاصه بالعظمة والكبرياء فقط جلّ جلاله دون غيره حسبما صرّح به سابقاً، ومن هذا شأنه فكيف يستثقل الحق ويلتمس الإعظام.

(فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه) يعني من كان استماع الحق والعدل ثقيلاً عليه عند إظهارهما عليه كان عمله بهما أثقل وأشقى،

لكن شيئاً منهما ليس ثقيلاً عليه فضلاً عن إصغائه إليه، بل المعلوم من حاله عليه السلام مضافاً إلى شهادة قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١] النازل فيه وفي الأئمة من ذريته عليه و عليهم السلام مواظبته على الحق والعدل في جميع حالاته.

ولما نهاهم عن التحفظ منه ونبههم على عدم ثقل استماع القول الحق والعدل عليه كعدم ثقل عمله بهما فرّع عليه قوله: **(فلا تكفوا عن مقالة بحق)** أي لا تمسكوا عنها وفيه تلطف لهم **(أو مشورة بعدل)** وفيه تطييب لقلوبهم.

ولهذه النكتة أيضاً أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] بالتشاور من دون حاجة لأحد منهما إلى استخراج الوجه بالمشاورة لعلمهما بوجوه المصالح جميعاً في الحرب وغيرها.

وأما التعليل بقوله: **(فإني لست في نفسي بفوق أن أخطىء ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني)** فإنما هو من الانقطاع إلى الله والتواضع الباعث لهم على الانبساط معه بقول الحق وعدّ نفسه من المقصّرين في مقام العبودية والإقرار بأن عصمته عليه السلام من نعمه تعالى.

وليس اعترافاً بعدم العصمة كما يتوهم بل ليست العصمة إلا ذلك فإنها عبارة عن أن يعصم الله العبد من ارتكاب الخطأ والمعصية وقد أشار إليه بقوله: إلا أن يكفي الله، على حد قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

وأراد بقوله: ما هو أملك به العصمة من الخطأ فإنه تعالى أقدر على ذلك للعبد من العبد نفسه.

ثم اتبعه بمزيد الهضم وسوّى بينهم وبينه وقال: **(فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره يملك منا ما لا نملك من أنفسنا)** ويعصمنا مما لا نقدر أن نعتصم منه بأنفسنا من مكاره الدنيا والآخرة **(وأخرجنا مما كنا فيه)** من الجهالة وعدم العلم والمعرفة **(إلى ما صلحنا عليه)** من الكمالات التي يسّرها لنا ببعثة الرسول صلى الله عليه وآله **(فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى)**.

قال الشارح المعتزلي: ليس هذا إشارة إلى خاص نفسه لأنه لم يكن كافراً فأسلم، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفناء الناس، فيأتي بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسعاً، ويجوز أن يكون معناها: لولا ألطاف الله تعالى ببعثة محمد صلى الله عليه وآله

لكنت أنا وغيري على مذهب الأسلاف[١].

تكملة

هذه الخطبة رواها ثقة الإسلام الكليني في كتاب **(الروضة)** من **الكافي** والسند علي بن الحسن المؤدب عن أحمد بن محمد بن خالد وأحمد بن محمد عن علي بن الحسن التميمي[٢] جميعاً عن إسماعيل بن مهران قال: حدثني عبد الله بن الحرث عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس بصفين فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمد النبي صلى الله عليه وآله ثم قال عليه السلام:

أما بعد، فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم ومنزلتي التي أنزلني الله عز ذكره بها منكم ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم، والحق أجمل الأشياء في التراصف[٣] وأوسعها في التناصف لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري ذلك له ولا يجرى عليه لكان ذلك لله عز وجل خالصاً دون خلقه، لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه ضروب قضائه، ولكن جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل كفارتهم عليه حسن الثواب تفضلاً منه وتطولاً بكرمه وتوسعاً بما هو من المزيد له أهل، ثم جعل من حقوقه حقوقاً فرضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض.

فأعظم ما افترض الله تبارك وتعالى من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي فريضة فرضها الله عز وجل لكل على كل فجعلها نظام إلفتهم وعزاً لدينهم وقواماً لسنن الحق فيهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية.

فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقه وأدى إليها الوالي كذلك عز الحق بينهم، فقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن، وصلح بذلك الزمان وطاب به العيش وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء.

وإذا غلبت الرعية واليهم وعلا الوالي الرعية اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت مطامع الجور وكثر الإدغال في الدين وتركت معالم السنن، فعمل بالهوى وعطلت الآثار وكثرت

---

(١) شرح النهج: ١١/١٠٨، والكافي: ٨/٣٥٧.

(٢) «التيمي»: في نسخة.

(٣) «التواصف»: في نسخة.

علل النفوس ولا يستوحش لجسيم حد عطل ولا لعظيم باطل أثل، فهنالك تذل الأبرار، وتعزّ الأشرار، وتخرب البلاد، وتعظم تبعات الله عز وجل عند العباد.

فهلم أيها الناس إلى التعاون على طاعة الله عز وجل والقيام بعدله والوفاء بعهده والإنصاف له في جميع حقه، فإنه ليس العباد إلى شيء أحوج منهم إلى التناصح في ذلك وحسن التعاون عليه، وليس أحد وإن اشتد على رضاء الله حرصه وطال في العمل اجتهاده ببالغ ما أعطى الله من الحق أهله، ولكن من واجب حقوق الله عز وجل على العباد النصيحة له بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم.

وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته وجسمت في الخلق فضيلته بمستغن عن أن يعان على ما حمله الله عز وجل من حقه، ولا لامرىء مع ذلك خسأت به الأمور واقتحمته العيون بدون ما أن يعين على ذلك أو يعان عليه، وأهل الفضيلة في الحال وأهل النعم العظام أكثر من ذلك حاجة وكل في الحاجة إلى الله عز وجل شرع سواء.

فأجابه عليه السلام رجل من عسكره لا يدري من هو ويقال: إنه لم ير في عسكره قبل ذلك اليوم ولا بعده، فقام وأحسن الثناء على الله عز وجل بما أبلاهم وأعطاهم من واجب حقه عليهم والإقرار بما ذكر من تصرف الحالات به وبهم ثم قال: أنت أميرنا ونحن رعيتك بك أخرجنا الله عز وجل من الذل وبإعزازك أطلق على عباده من الغل، فاختر علينا فامض اختيارك وائتمر فامض ائتمارك فإنك القائل المصدّق والحاكم الموفق والملك المخول لا نستحل في شيء من معصيتك ولا نقيس علماً بعلمك يعظم عندنا في ذلك خطرك، ويجلّ عنه في أنفسنا فضلك.

فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام: إن من حق من عظم جلال الله في نفسه وعظم موضعه من قلبه أن يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه، وإن أحق من كان كذلك لمن عظمت نعم الله عليه ولطف إحسانه إليه فإنه لم تعظم نعم الله تعالى على أحد إلا ازداد حق الله عليه عظماً.

وإنّ من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء، واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء، وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها وفرائض لا بد من إمضائها.

فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة ولا

تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي لما لا يصلح لي فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست في نفسي بفوق أن أخطىء ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى.

فأجابه الرجل الذي أجابه من قبل فقال: أنت أهل ما قلت والله فوق ما قلته فبلاؤه عندنا ما لا يكفر، وقد حملك الله تعالى رعايتنا وولاك سياسة أمورنا فأصبحت علمنا الذي نهتدي به، وإمامنا الذي نقتدي به، وأمرك كله رشد، وقولك كله أدب، قد قرّت لك في الحياة أعيننا، وامتلأت بك من سرور قلوبنا، وتحيّرت من صفة ما فيك من بارع الفضل عقولنا، ولسنا نقول لك أيها الإمام الصالح تزكية لك، ولا نجاوز القصد في الثناء عليك، ولم[1] يكن في أنفسنا طعن على يقينك أو غشّ في دينك فنتخوّف أن يكون أحدثت بنعم الله تبارك وتعالى تجبّراً، أو دخلك كبر، ولكنا نقول ما قلنا تقرباً إلى الله عز وجل بتوقيرك، وتوسعاً بتفضيلك وشكراً بإعظام أمرك، فانظر لنفسك ولنا وآثر لأمر الله على نفسك وعلينا فنحن طوع فيما أمرتنا ننقاد من الأمور مع ذلك فيما ينفعنا.

فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام فقال: وأنا أستشهدكم عند الله على نفسي، لعلمكم فيما وليت به من أموركم وعما قليل يجمعني وإياكم الموقف بين يديه والسؤال عما كنا فيه، ثم يشهد بعضنا على بعض، فلا تشهدوا اليوم بخلاف ما أنتم شاهدون غداً، فإن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية، ولا يجوز عنده إلا منا صحة الصدور في جميع الأمور.

فأجابه الرجل ويقال: لم ير الرجل بعد كلامه هذا لأمير المؤمنين عليه السلام فأجابه وقد عال الذي في صدره والبكاء تقطع منطقه، وغصص الشجى تكسر صوته إعظاماً لخطر مرزأته ووحشة من كون فجيعته، فحمد الله وأثنى عليه ثم شكى إليه هول ما أشفى عليه من الخطر العظيم والذل الطويل في فساد زمانه وانقلاب جده وانقطاع ما كان من دولته، ثم نصب المسألة إلى الله عز وجل بالامتنان عليه والمدافعة عنه بالتفجع وحسن الثناء فقال:

يا رباني العباد ويا ساكن البلاد أين يقع قولنا من فضلك، وأين يبلغ وصفنا من فعلك، وأنّى نبلغ حقيقة حسن ثنائك أو نحصي جميل بلائك، كيف وبك جرت نعم الله علينا، وعلى يدك اتصلت أسباب الخير إلينا، ألم تكن لذلّ الذليل ملاذاً، وللعصاة الكفار إخواناً، فبمن

(١) «لن» في نسخة.

إلا بأهل بيتك وبك أخرجنا الله عز وجل من فظاعة تلك الخطرات، أو بمن فرّج عنا غمرات الكربات، وبمن إلا بكم أظهر الله معالم ديننا واستصلح ما كان فسد من دنيانا، حتى استبان بعد الجور ذكرنا، وقرّت من رخاء العيش أعيننا لما ولّيتنا بالإحسان جهدك ووفيت لنا بجميع وعدك، وقمت لنا على جميع عهدك، فكنت شاهد من غاب منا، وخلف أهل البيت لنا، وكنت عز ضعفائنا، وثمال فقرائنا، وعماد عظمائنا، يجمعنا في الأمور عدلك، ويتسع لنا في الحق تأنيك فكنت لنا أنساً إذا رأيناك، وسكناً إذا ذكرناك، فأي الخيرات لم تفعل، وأي الصالحات لم تعمل، ولو أن الأمر الذي نخاف عليك منه يبلغ تحريكه جهدنا، وتقوى لمدافعته طاقتنا أو يجوز الفداء عنك منه بأنفسنا وبمن نفديه بالنفوس من أبنائنا لقدمنا أنفسنا وأبناءنا قبلك، ولأخطرناها وقلّ خطرها دونك، ولقمنا بجهدنا في محاولة من حاولك، ومدافعة من ناواك، ولكنه سلطان لا يحاول وعز لا يزاول، ورب لا يغالب، فإن يمنن علينا بعافيتك، ويترحم علينا ببقائك ويتحنن علينا بتفريج هذا من حالك إلى سلامة منك لنا وبقاء منك بين أظهرنا نحدث الله عز وجل بذلك شكراً نعظمه، وذكراً نديمه، ونقسّم أنصاف أموالنا صدقات، وأنصاف رقيقنا عتقاء، ونحدث له تواضعاً في أنفسنا، ونخشع في جميع أمورنا، وإن يمض بك إلى الجنان ويجري عليك حتم سبيله، فغير متهم فيك قضاؤه، ولا مدفوع عنك بلاؤه، ولا مختلفة مع ذلك قلوبنا بأن اختياره لك ما عنده على ما كنت فيه، ولكنا نبكي من غير إثم لعز هذا السلطان أن يعود ذليلاً، وللدين والدنيا أكيلا، فلا نرى لك خلفاً نشكو إليه، ولا نظيراً نأمله ولا نقيمه[1].

بيان

لما يحتاج إلى البيان من موارد الاختلاف التي لم يتقدم شرحها عند شرح المتن: قوله عليه السلام: «والحق أجمل الأشياء في التراصف» أصل التراصف تنضيد الحجارة بعضها ببعض، والمراد أن الحق أحسن الأشياء في إنفاق الأمور وأحكامها.

قوله: «وأوسعها في التناصف» أي إذا أنصف الناس بعضهم لبعض فالحق يسعه ويحتمله ولا يقع الناس في العمل بالحق ضيق.

قوله: «وجعل كفارتهم عليه حسن الثواب» قال في (**البحار**): لعل المراد بالكفارة الجزاء العظيم لستره عملهم حيث لم يكن في جنبه قدر، فكأنه قد محاه وستره، وفي أكثر النسخ بحسن الثواب فيحتمل أيضاً أن يكون المراد بها ما يقع منهم لتدارك سيئاتهم كالتوبة وسائر الكفارات، أي أوجب قبول كفاراتهم وتوبتهم على نفسه مع حسن الثواب بأن يثيبهم على ذلك

---

(١) الكافي: ٨/ ٣٦٠، وبحار الأنوار: ٧٤/ ٣٦٣.

أيضاً.

قوله: «قواماً يسرّ الحق فيهم» أي بها يقوم جريان الحق فيهم وبينهم.

قوله: «أثّل» بالثاء المثلثة والبناء على المفعول من باب التفعيل يقال: أثل ماله تأثيلاً زكاه وأصّله وأثّل ملكه عظمه وأثّل أهله كساهم أفضل كسوة والآثال وزان سحاب وغراب المجد والشرف.

قوله: «فهلمّ أيها الناس» اسم فعل بمعنى تعال يستوي فيه الواحد والجمع والتذكير والتأنيث على لغة أهل الحجاز.

قوله: «حقيقة ما أعطى الله من الحق أهله» أي جزاء ما أعطى الله أهل الحق من الدين المبين وسائر ما هداهم الله إليه، بأن يكون المراد بالحقيقة الجزاء مجازاً أو يكون في الكلام تقدير مضاف أي حقيقة جزاء ما أعطى من الحق، وقيل: المراد بحقيقة ما أعطى الله شكر نعمة هدايته تعالى إلى دين الحق.

قوله: «ولا لامرىء مع ذلك» قال في (**البحار**): كأنه راجع إلى ما حمّل الله على الوالي أو إلى الوالي الذي أشير إليه سابقاً، أي لا يجوز أو لا بد لامرىء أو لا استغناء لامرىء على الوالي أو مع كون واليه مكلفاً بالجهاد وغيره من أمور الدين وإن كان ذلك المرء محقّراً ضعيفاً بدون أن يعين على إقامة الدين أو يعينه الناس أو الوالي عليه.

قوله: «خسأت به الأمور» يقال: خسأت الكلب خسئاً طردته وخسا الكلب يتعدى ولا يتعدى ويجوز أن يكون استعمل هنا غير متعد بنفسه، فعدّي بالباء أي طردته الأمور، والمراد أنه ليس بحيث يتمشى أمر من أموره ولا ينفع سعيه في تحصيل شيء من الأمور.

قوله: «بدون ما» لفظة ما زائدة.

قوله: «وأهل الفضيلة في الحال» المراد بهم الأئمة عليهم السلام والولاة والأمراء والعلماء وكذا «أهل النعم العظام».

قوله: «والإقرار» عطف على الثناء أي أقرّ إقراراً حسناً بأشياء ذكرها ذلك الرجل ولم يذكره عليه السلام اختصاراً أو تقيّة من تغيّر حالاته من استيلاء أئمة الجور ومظلوميته وتغيّر أحوال رعيته من تقصيرهم في حقه وعدم قيامهم بما يحق من طاعته والقيام بخدمته.

قوله: «من الغلّ» أي أغلال الشرك والمعاصي.

قوله: «وائتمر» أي أقبل ما أمر الله به فامضه علينا.

قوله: «والملك المخوّل» أي الملك الذي أعطاك الله الإمرة علينا وجعلنا خدمك

وتبعك.

قوله: «لا نستحلّ في شيء من معصيتك» لعل التعدية بفي لتضمين معنى الدخول أو المعنى لا نستحلّ معصيتك في شيء من الأشياء على أن يكون من زائدة.

قوله: «في ذلك» أي في العلم بأن تكون كلمة في تعليلية، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما دل عليه الكلام من إطاعته عليه الصلاة والسلام.

قوله: «خطرك» أي قدرك ومنزلتك.

قوله: «ويجلّ عنه» أي عما قلته في وصفك.

قوله: «فبلاؤه عندنا ما لا يكفر» أي نعمته عندنا وافرة بحيث لا نستطيع كفرها وسترها، أو لا يجوز كفرانها وترك شكرها.

قوله: «ولم يكن» في بعض النسخ: لن يكون، وفي بعضها: لن يكنّ، بالبناء على المفعول من كننت الشيء سترته أو بفتح الياء وكسر الكاف من كنّ الطائر بيضه حضنه.

قوله: «وتوسعاً» أي في الفضل والثواب.

قوله: «مع ذلك» أي مع طوعنا فيما أمرت، وفي **(البحار)**: أي مع طاعتنا لك، فإن نفس الطاعة أمر مرغوب فيه ومع ذلك موجب لحصول ما ينفعنا وما هو خير لنا في دنيانا وآخرتنا.

قوله: «إلا مناصحة الصدور» أي خلوصها من غشّ النفاق بأن يضمر فيها خلاف ما يظهر أو نصح الإخوان نصحاً يكون في الصدور لا بمحض اللسان.

قوله: «وقد عال الذي في صدره» يقال: عالني الشيء أي غلبني، وعال أمرهم اشتدّ.

قوله: «وغصص الشّجى» جمع غصّة بالضم وهو ما يعترض في الحلق، والشّجى الحزن.

قوله: «لخطر مرزأته» الخطر القدر والإشراف على الهلاك، والمرزأة المصيبة وكذا الفجيعة، والضمير راجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام والقائل كان عالماً بقرب أو أن شهادته عليه السلام فلذا كان يندب ويتفجّع وإرجاعهما إلى القائل بعيد.

قوله: «ثم شكى إليه» أي إلى الله تعالى.

قوله: «أشفى عليه» أي أشرف عليه.

قوله: «وانقلاب جدّه» أي بخته.

قوله: «بالتفجع» متعلق بقوله: نصيب، والتفجع التوجع في المصيبة أي سأل الله دفع هذا البلاء الذي قد ظن وقوعه عنه عليه السلام مع التفجع والتضرع.

قوله: «يا رباني العباد» قال الجزري: الرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، وقيل: هو من الرب بمعنى التربية لتربيتهم المتعلّمين بصغار العلوم وكبارها، والرباني العالم الراسخ في العلم والدين يطلب بعلمه وجه الله، وقيل: العالم العاقل المعلّم.

قوله: «ويا ساكن البلاد» في بعض النسخ: سكن البلاد محركة وهو كلما يسكن إليه.

قوله: «وبك جرت نِعَم الله» أي بمجاهداتك ومساعيك الجميلة في ترويج الدين وتشييد أركان الإسلام في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وبعده.

قوله: «وللعصاة الكفار إخواناً» أي كنت تعاشر من يعصيك ويكفر نعمتك بالشفقة والرأفة معاشرة الإخوان، أو المراد الشفقة على الكفار والعصاة والاهتمام في هدايتهم، ويحتمل أن يراد بهم المنافقون الذين كانوا في عسكره وكان يلزمه رعايتهم بظاهر الشرع.

قوله: «من فظاعة تلك الخطرات» أي قباحتها وشدّتها.

قوله: «ثمال فقرائنا» أي غياثهم ولجائهم، وقيل: الثمال المطعم في الشدة.

قوله: «يجمعنا من الأمور عدلك» أي هو سبب اجتماعنا في جميع الأمور أو من بين سائر الأمور أو هو سبب لانتظام جميع أمورنا وعدلك محيط بجميعنا في جميع الأمور.

قوله: «ويتسع لنا في الحق تأنيك» أي صار مداراتك وعدم تعجيلك في الحكم علينا بما نستحقه سبباً لوسعة الحق علينا وعدم تضيّق الأمور بنا.

قوله: «ليبلغ تحريكه» أي تغييره وصرفه، وفي النسخة القديمة: تحويله.

قوله: «ولا خطرناها» لا نجعل لها خطراً أي قدراً ومنزلة كما في حديث وصف الأئمة عليهم السلام: ما أجلّ خطركم أي قدركم ومنزلتكم عند الله أو لا نعدّها خطيراً أي رفيعاً.

قوله: «وقلّ خطرها دونك» أي شرفها أو هلاكها والخطر أيضاً السبق يتراهن عليه ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدر ومزيّة.

قوله: «حاولك» أي قصدك.

قوله: «من ناواك» أي عاداك.

قوله: «ولكنه سلطان» أي الرب تعالى.

قوله: «وعزّ» ذو عزّ وغلبة.

قوله: «لا يزاول» أي لا يحاول ولا يطالب، وهذا إشارة إلى أن هذه الأمور بقضاء الله وقدره والمبالغة في دفعها في حكم مغالبة الله في تقديراته.

قوله: «بأن اختياره لك ما عنده» ما عنده خبر أن أو خبره محذوف أي خير لك والمعنى أنه لا تختلف قلوبنا بل هي متفقة على أن الله اختار لك بإمضائك النعيم والراحة الدائمة على ما كنت فيه من المشقة والجهد والعناء.

قوله: «نبكي من غير إثم» أي لا نأثم على البكاء عليك فإنه من أفضل الطاعات.

قوله: «وللدين والدنيا أكيلا» أي آكلاً فالفعيل بمعنى الفاعل لا بمعنى المفعول أي نبكي لتبدّل هذا السلطان الحق بسلطنة الجور فيكون آكلاً للدين والدنيا.

قوله: «ولا نرى لك خلفاً» أي من بين السلاطين لخروج السلطنة من أهل البيت عليهم السلام.

قال الشارح: أكثر ما أوردته هنا التقطته من كلام المحدث العلامة المجلسي قدس سره في (البحار).

الترجمة

فصل دوم از آن خطبه است، سيّد رضى گفته: پس جواب داد آن حضرت را مردى از اصحاب او به سخن درازى كه در آن بسيار ستايش مى كرد او را و ذكر مى نمود در آن شنيدن و اطاعت كردن خود را به آن بزرگوار، پس فرمود آن حضرت كه:

به تحقيق از حقّ كسى كه بزرگ است جلال و عظمت خدا در نفس او و اجلّ است مرتبه او در قلب او اين است كه كوچك و حقير باشد در نزد او به جهت بزرگى آن جلال و عظمت هرچيزى كه غير خداى تعالى است و به تحقيق سزاوارتر كسى كه باشد بر اين حال كسى است كه بزرگ شده نعمت خدا بر او و لطيف شده احسان و انعام او به سوى او از جهت اين كه بزرگ نمى گردد نعمت خدا بر احدى مگر اين كه زايد گردد بزرگ بودن حقّ خدا بر او.

و به درستى كه از سخيف و خفيف ترين حالات پادشاهان در نزد مردمان صالح سالم العقل اين است كه گمان برده شود به ايشان دوست داشتن افتخار بر مردمان را و حمل شود بناء امر ايشان به تكبر به خلقان.

و به تحقيق كه ناخوش داشتم اين را كه جولان كند در ظنّ شما اين كه من دوست دارم زيادت تعريف و استماع ستايش را و نيستم من بحمدالله همچنين و اگر بودم كه دوست مى داشتم اين كه گفته شود مدح و ثنا درباره من، البته ترك مى كردم آن را از جهت پستى و تواضع از براى خدا و فروتنى از اخذ كردن چيزى كه خدا سزاوارتر است به آن از عظمت و كبريا و بسا هست كه شيرين مى دانند مردمان مدح و ثنا را بعد از زحمت بلا، پس ستايش نكنيد بر من با ثناء جميل به سبب خارج كردن من نفس خودم را به سوى خدا و به سوى شما از بقيّه حقوقى كه فارغ نگشته ام از اداء آنها و از واجباتى كه لابد و ناچارم از امضا و اجراى آنها.

پس تكلم نكنيد با من به سخنانى كه تكلم كرده شود با آن ستمكاران و جبّاران و تحفّظ نكنيد از من با چيزى كه تحفّظ كرده مى شود با آن در نزد پادشاهان با

حدّت و سطوت و آميزش نكنيد با من به تملق و چاپلوسى و گمان نبريد در من اين كه گرانى دارم در حقّى كه گفته شده به من و اين كه خواهش دارم بزرگ شمردن نفس خودم را از جهت اين كه كسى كه گران دارد حق را از اين كه گفته شود مر او را يا عدالت را از اين كه اظهار شود بر او باشد عمل كردن به حقّ و عدل گرانتر به او، پس خوددارى نكنيد از گفتگوى به حقّ و از مشورت به عدل.

پس به تحقيق كه من نيستم در پيش نفس خود برتر از اين كه خطا بكنم و ايمن نيستم خطا را از كار خودم مگر اين كه كافى باشد خدا از نفس من چيزى را كه قادرتر است به آن چيز از من، پس جز اين نيست كه من و شما بندگان مملوكيم از براى پروردگارى كه غير از او پروردگارى نيست، مالك است از ما چيزى را كه ما مالك آن نيستيم از نفسهاى خود ما و بيرون آورده است ما را از جهالتى كه در آن بوديم به سوى علم و معرفتى كه صلاح ما بر آن حاصل شد، پس بدل كرد ما را بعد از گمراهى به هدايت، و عطا فرمود به ما بعد از نابينايى بصيرت را.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والسادس عشر من المختار في باب الخطب

وهو ملتقط من كلام طويل قدمنا روايته في شرح الفصل الثالث من الخطبة السادسة والعشرين:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ علىٰ قُرَيْشٍ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمي، وأَكْفَئُوا إِنائِي، وأَجْمَعُوا عَلىٰ مُنازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلىٰ بِهِ مِنْ غَيْرِي، وقالُوا: أَلا إِنَّ فِي الحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وفِي الحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً، فَنَظَرْتُ فَإِذا لَيْسَ لِي رافِدٌ، ولا ذابٌّ، ولا مُساعِدٌ إِلاَّ أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ المَنِيَّةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَىٰ القَذىٰ، وجَرِعْتُ رِيقِي عَلىٰ الشَّجىٰ، وصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الغَيْظِ عَلىٰ أَمَرَّ مِنَ العَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ حَزِّ الشِّفارِ[1].

وقد مضىٰ هٰذا الكلام في أثناءِ خطبة متقدمة إلا أني كررته ها هنا لاختلاف الروايتين.

ومنه في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام:

فَقَدِمُوا عَلى عُمّالِي وَخُزّانِ بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ الَّذِي في يَدَيَّ، وعَلىٰ أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ في طاعَتِي، وعَلىٰ بَيْعَتِي، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَماعَتَهُمْ، ووَثَبُوا عَلىٰ شِيعَتِي فَقَتَلُوا طائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً، وطائِفَةٌ مِنْهُمْ عَضُّوا عَلىٰ أَسْيافِهِمْ، فَضارَبُوا بِها حتى لَقُوا الله صادِقِينَ[2].

اللغة

(**الاستعداء**) الاستعانة والاستنصار، وقال الشارح المعتزلي: العدوى طلبك إلى وال أن يعديك على من ظلمك أي ينتقم لك منه، يقال: استعديت الأمير على فلان فأعداني أي استعنت به عليه فأعانني و (**كفاء**) الإناء من باب منع قلبته وكبته و (**تأخذه**) و (**تمنعه**) بالتاء المثناة فيهما والأول بصيغة المعلوم والثاني بصيغة المجهول، وفي بعض النسخ بالنون بصيغة المتكلم والمرويّ عن خط الرضي هو الأول.

و (**رفده**) رفداً من باب ضرب أعانه وأعطاه فهو رافد و (**ضنّ**) بالشيء يضنّ من باب تعب وضرب بخل به و (**أغضيت**) على كذا أي صبرت وسكتّ و (**القذى**) ما يقع في العين من

(١) الغارات: ١/٣٠٨ ح ٦، وكتاب الأربعين: ١٨٦.

(٢) الجمل: ١١٥، وبحار الأنوار: ٣٢/٨٣.

تراب وغيره و **(الشجى)** ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه و **(العلقم)** شجر شديد المرارة و **(الحزّ)** القطع، وفي بعض النسخ: ذخر الشفار وهو الطعن الخفيف بالرمح وغيره و **(الشفار)** جمع الشفرة وهو السكين العظيم وما عرّض وحدّ من الحديد وجانب النصل وحدّ السيف.

الإعراب

قوله: **(حقاً)** منصوب بنزع الخافض أي لحق أو في حق وعلى الأول فمتعلق بأجمعوا و**(على)** الثاني بعلى منازعتي، وعلى في قوله: على القذى وعلى الشجى وعلى أمرّ جميعاً للاستعلاء المجازي، قوله: وطائفة منهم عضّوا برفع طائفة على الابتداء، وجملة عضوا خبر، وفي نسخة الشارح المعتزلي: وطائفة عضوا بالنصب على العطف فتكون جملة عضّوا صفة.

المعنى

اعلم أنك قد عرفت في شرح الفصل الثالث من الخطبة السادسة والعشرين أن هذا الكلام من جملة فصول كلام طويل له عليه السلام قدمنا روايته هناك، وظهر لك ثمة أن هذا الفصل منه وارد في اقتصاص مجلس الشورى والتّظلم من إزواء الخلافة عنه عليه السلام إلى عثمان والتشكي إلى الله عز وجل في ذلك.

إذا عرفت ذلك فأقول: قوله: **(اللهم إني أستعديك على قريش)** أي أطلب منك الإعانة والنصرة عليهم والانتقام منهم **(فإنهم قد قطعوا رحمي)** أي قرابتي. قال الشارح المعتزلي: أي أجروني مجرى الأجانب، ويجوز أن يريد أنهم عذوني كالأجنبي من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويجوز أن يريد أنهم جعلوني كالأجنبي منهم لا ينصروني ولا يقومون بأمري.

(وأكفأوا إنائي) وهو استعارة لإبطال حقه فإن قلب الإناء بما فيه يوجب إضاعته وكذلك إبطال الحق مستلزم لإضاعته.

(وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري) أي اتفقوا على النزاع معي في حق أنا أولى به وهو حق الخلافة والولاية، والمراد بأولويته استحقاقه لها بالنص الجلي من الله ورسوله حسبما عرفت في تضاعيف الشرح لا سيما في مقدمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية لا الاستحقاق بمجرد الأفضلية فقط كما توهمه الشارح المعتزلي وفاقاً لسائر المعتزلة.

(وقالوا ألا إنّ في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تمنعه) قال القطب الراوندي: في خط الرضي بالتاء ومعنى ذلك أنك إن ولّيت أنت كانت ولايتك حقاً وإن وليّ غيرك كانت حقاً على مذهب أهل الاجتهاد، ومن رواها بالنون فالمعنى ظاهر.

(فاصبر مغموماً أو مت متأسفاً) يحتمل أن يكون هذا القول منهم بلسان القال، وأن يكون بلسان الحال، يعني إذا كان ممنوعيتك حقاً أيضاً ولم تكن راضياً به فليس لك إلاّ الصبر أو الموت متلهفاً متحسراً **(فنظرت)** لما رأيت منازعتهم وسمعت مقالتهم **(فإذا ليس لي رافد)** أي ناصر ومعين **(ولا ذابّ ولا مساعد)** أي دافع ومعاون **(إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية)** أي بخلت بهم عنها.

وهو صريح في أن تركه لحقه لم يكن عن طوع كما زعمه المعتزلة وإنما تركه لما شاهد من أنه إذا نهض بطلب حقه لجعل نفسه وأهل بيته أغراضاً للمنايا.

ويؤكد ذلك قوله **(فأغضيت على القذى)** لدلالته على شدّة تحمله وكذلك قوله: **(وجرعت)** أي ابتلعت **(ريقي على الشجى)** لدلالته على مزيد غصته.

وهكذا قوله **(وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم)** لإفادته غاية غيظه، وقوله **(وآلم للقلب من حزّ الشفار)** لدلالته على منتهى تألمه ومن هذا حاله فكيف يكون سكوته عن قيام غيره بالأمر دليلاً على رضاه، وقد تقدم في شرح الفصل الثاني من الخطبة السادسة والعشرين فصل واف في هذا المعنى.

قال الرضي «ره»: **(وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدمة)** وهي الخطبة المائة والحادية والسبعون بل هذا الكلام وتلك الخطبة والخطبة السادسة والعشرون جميعاً ملتقطة من كلام طويل له عليه السلام رويته في شرح الفصل الثالث من الخطبة السادسة والعشرين، والداعي على تكراره ما أشار إليه بقوله **(إلا أني كررته هٰهنا لاختلاف الروايتين)**.

أقول: ومع هذا التكرار ففيه أيضاً بعض الاختلاف لما قدمنا روايته كما هو ظاهر لمن راجع هناك، هذا.

ومنه أي بعض هذا الكلام. وفي نسخة **(الشارح المعتزلي)** و **(البحراني)** العنوان: ومن كلام له عليه السلام، والظاهر أنه اشتباه من الناسخ لأنه مع ما قبله كلاهما من فقرات الكلام الذي تقدم روايته وليس كل منهما كلاماً مستقلاً أو ملتقطاً من كلامين متغايرين.

وكيف كان فهو **(في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام)** من طلحة والزبير وعائشة وجنودهم.

(فقدموا على عمالي) وهو عثمان بن حنيف الأنصاري ومن تبعه كان عاملاً له عليه السلام على البصرة **(وخزّان بيت مال المسلمين الذي في يدي)** وكانوا أربعمائة رجل **(وعلى أهل مصر)**

يريد به البصرة (**كلهم في طاعتي وعلى بيعتي فشتتوا كلمتهم**) أي ألقوا الاختلاف بينهم (**وأفسدوا عليّ جماعتهم**).

وذلك لأن عائشة بعد دخول البصرة والتقاء الفئتين أقبلت على جملها ونادت بصوت مرتفع: أيها الناس أقلّوا الكلام واسكتوا، فسكت الناس لها، فقالت في جملة كلام تحرّضهم فيه على القتال والإجلاب على قتلة عثمان:

ألا إن عثمان قتل مظلوماً، فاطلبوا قتلته فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرّهط الذين اختارهم عمر بن الخطاب ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان.

قال الراوي: فماج الناس واختلطوا، فمن قائل يقول: القول ما قالت، ومن قائل يقول: وما هي وهذا الأمر إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها، وارتفعت الأصوات وكثر اللّغط حتى تضاربوا بالنعال وتراموا بالحصى، ثم أن الناس تمايزوا فصاروا فريقين، فريق مع عثمان بن حنيف وفريق مع عائشة وأصحابها.

وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: فشتتوا كلمتهم وأفسدوا جماعتهم، (**ووثبوا على شيعتي فقتلوا طائفة منهم غدراً**) وهم السيابجة حرّاس بيت المال (**وطائفة منهم عضوا على أسيافهم**) وهم حكيم بن جبلة العبدي وأتباعه.

قال الشارح المعتزلي: عضّهم على أسيافهم كناية عن الصبر في الحرب وترك الاستسلام، وهي كناية فصيحة شبّه قبضهم على السيوف بالعضّ، انتهى.

يعني أنهم جدّوا في الحرب ولزموا سيوفهم (**فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين**) في ولائهم لأمير المؤمنين عليه السلام وفي تمسكهم بحبل بيعته المتين أو صادقين فيما عاهدوا الله عليه كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

واعلم أن هذا الكلام الذي نقله الرضي عنه عليه السلام في السائرين إلى البصرة مختلف جداً لما قدمنا روايته عنه في شرح الخطبة السادسة والعشرين. فإن الموجود فيه هكذا:

فقدما ـ يعني طلحة والزبير ـ على عاملي وخزّان بيت مالي وعلى أهل مصر في الذين كلّهم على بيعتي وفي طاعتي فشتتوا كلمتهم وأفسدوا جماعتهم ثم وثبوا[1] على شيعتي من المسلمين فقتلوا طائفة منهم غدراً وطائفة صبراً وطائفة منهم غضبوا لله فشهروا سيوفهم وضربوا بها حتى لقوا الله صادقين.

---

(١) «دلبوا»: في نسخة.

ثم اعلم أنه قد تقدم في شرح الخطبة المائة والإحدى والسبعين تفصيل قصة السائرين إلى البصرة وما فعلوا فيها من قتل طائفة صبراً وطائفة غدراً وغيره من الفضائح التي لا يحصى من أراد الاطلاع عليها فليراجع هناك.

تنبيه

قال الشارح المعتزلي بعد شرح الفقرات الأول من هذا الكلام ـ أعني قوله: **(اللهم إني أستعديك على قريش)** ـ إلى قوله: **(من حزّ الشفار)**، ما عبارته:

واعلم أن هذا الكلام قد نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يناسبه ويجري مجراه ولم يؤرّخ الوقت الذي قاله فيه ولا الحال التي عناها به، وأصحابنا يحملون ذلك على أنه عليه السلام قاله عقيب الشورى وبيعة عثمان، فإنه ليس يرتاب أحد من أصحابنا على أنه تظلّم وتألم حينئذ، ويكره أكثر أصحابنا حمل أمثال هذا الكلام على التألم من يوم السقيفة.

ولقائل أن يقول لهم: أتقولون إن بيعة عثمان لم تكن صحيحة؟

فيقولون: لا.

فيقال لهم: فعلى ماذا تحملون كلامه عليه السلام مع تعظيمكم له وتصديقكم لأقواله؟

فيقولون: نحمل ذلك على تألمه وتظلّمه منهم إذ تركوا الأولى والأفضل، فإنكم لستم تنكرون أنه كان الأفضل والأحق بالأمر بل تعترفون بذلك وتقولون: ساغت إمامة غيره وصحت، لمانع كان فيه وهو ما غلب على ظنون العاقدين للأمر من أن العرب لا تطيعه فإنما تخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولي الخلافة لأسباب يذكرونها ويعدّونها، وقد روى كثير من المحدثين أنه عليه السلام عقيب يوم السقيفة تألم وتظلّم واستنجد واستصرخ حيث ساموه الحضور والبيعة، وأنه قال وهو يشير إلى القبر: إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، وأنه قال: واجعفراه ولا جعفر لي اليوم، واحمزتاه ولا حمزة لي اليوم، وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدم وكل ذلك محمول عندنا على أنه طلب الأمر من جهة الفضل والقرابة وليس بدال عندنا على وجود النص، لأنه لو كان هناك نص لكان أقل كلفة وأسهل طريقاً وأيسر لما يريد تناولاً أن يقول: يا هؤلاء إن العهد لم يطل وإن رسول الله صلى الله عليه وآله أمركم بطاعتي واستخلفني عليكم بعده، ولم يقع منه بعدما علمتموه نص ينسخ ذلك ولا يرفعه فما الموجب لتركي والعدول عني؟.

فإن قالت الإمامية: كان خاف القتل لو ذكر ذلك.

قيل لهم: فهلا خاف القتل وهو يقتل ويدفع ليبايع وهو يستصرخ تارة بقبر رسول

الله ﷺ وتارة بأخيه جعفر وعمّهِ حمزة وهما ميتان، وتارة بالأنصار؛ وتارة ببني عبد مناف ويجمع الجموع في داره ويبث الرسل ليلاً ونهاراً إلى الناس يذكرهم فضله وقرابته ويقول للمهاجرين: خصمتم الأنصار بكونكم أقرب إلى رسول الله ﷺ وأنا أخصمكم بما خصمتم به الأنصار، لأن القرابة إن كانت هي المعتبرة فأنا أقرب منكم. وهلا خاف من الامتناع ومن هذا الاحتجاج ومن الخلوة في داره بأصحابه ومن تنفير الناس عن البيعة التي عقدت[١].

وكل هذا إذا تأمله المنصف علم أن الشيعة أصابت في أمر وأخطأت في أمر.

أما الأمر الذي أصابت فيه فقولها: إنه امتنع وتلكأ وأراد الأمر لنفسه.

وأما الأمر الذي أخطأت فيه فقولها: إنه كان منصوصاً عليه نصاً جلياً بالخلافة تعلمها الصحابة كلها أو أكثرها، وإنّ ذلك خولف طلباً للرئاسة الدنيوية وإيثاراً للعاجلة، وإن حال المخالفين للنص لا تعدو أحد الأمرين إما الكفر أو الفسق، فإن قرائن الأحوال وأماراتها لا تدل على ذلك، وإنما تدل وتشهد بخلافه.

وهذا يقتضي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان في مبدأ الأمر يظن أن العقد لغيره كان من غير نظر في المصلحة، وأنه لم يقصد به إلا صرف الأمر عنه والاستئثار عليه فظهر منه ما ظهر من الامتناع والقعود في بيته إلى أن صح عنده وثبت في نفسه أنهم أصابوا فيما فعلوه وأنهم لم يميلوا إلى الهوى ولا أرادوا الدنيا، وإنما فعلوا الأصلح في ظنونهم، لأنه رأى من بعض الناس له وانحرافهم عنه وميلهم عليه وثوران الأحقاد التي وترهم فيما قبل بها، والدماء التي سفكها منهم وأراقها، وتعلل طائفة أخرى منهم للعدول عنه عليه السلام بصغر سنه واستهجانهم تقديم الشباب على الشيوخ والكهول، وتعلل طائفة أخرى منهم بكراهية الجمع بين النبّوة والخلافة في بيت واحد فيجفخون[٢] على الناس كما قاله من قاله، واستصعاب قوم شكيمته وخوفهم شدّته وعلمهم بأنه لا يداجي[٣] ولا يحابي ولا يراقب ولا يجامل[٤] في الدين، وأن الخلافة تحتاج إلى من يجتهد برأيه ويعمل بموجب استصلاحه، وانحراف قوم آخرين عنه كان للحسد الذي كان له عندهم في حياة رسول الله ﷺ لشدة اختصاصه له وتعظيمه إياه وما قال فيه، فأكثر من النصوص الدالة على رفعة شأنه وعلو مكانه، وما اختص به من مصاهرته وأخوّته ونحو ذلك من أحواله معه، وتنكّر قوم آخرين له لنسبتهم إليه العجب والتّيه كما

---

(١) «لم عقدت له» في نسخة.

(٢) «أي يتكبرون».

(٣) أي لا يداري.

(٤) جامله: عامله بالجميل أو أحسن العشرة.

زعموا واحتقاره العرب واستصغاره الناس كما عدّدوه عليه وإن كانوا عندنا كاذبين، ولكنه قول قيل، وأمر ذكر، وحال نُسبت إليه، وأعانهم عليها ما كان يصدر عنه من أقوال توهم، مثل هذا نحو قوله: فإنّا صنائع ربّنا والخلق بعد صنائع لنا، ما صح به عنده أن الأمر لم يكن ليستتمّ له يوماً واحداً ولا ينتظم ولا يستمر، وأنه لو وليّ الأمر لفتقت العرب عليه فتقاً يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه، فأذعن بالبيعة وسمح إلى الطاعة، وأمسك عن طلب الإمرة وإن كان على مضض ورمض، وهذا المذهب هو أقصد المذاهب وأصحها وإليه يذهب أصحابنا المتأخرون من البغداديين وبه نقول.

قال: واعلم أن حال علي عليه السلام في هذا المعنى أشهر من أن تحتاج في الدلالة عليها إلى الإسهاب والإطناب، فقد رأيت انتقاض العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس وعشرين سنة، وفي دون هذه المدة تنسى الأحقاد، وتموت الترات، وتبرد الأكباد الحامية، وتسلو القلوب الواجدة، ويعدم قرن من الناس ويوجد قرن، ولا يبقى من أرباب تلك الشحناء والبغضاء إلا الأقل، فكانت حاله بعد هذه المدة الطويلة مع قريش كأنها حالة لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه من إظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب، حتى أن الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكانه في أسلافهم وآبائهم فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله وتقاعست عن بلوغ شأوه، فكيف كانت تكون حاله لو جلس على منبر الخلافة وسيفه بعد يقطر دماً من مهج العرب، لا سيما من قريش الذين بهم كان ينبغي لو دهمه خطب أن يعتضد وعليهم كان وجب أن يعتمد إذا كانت تدرس أعلام الملّة وتتعفّى رسوم الشريعة وتعود الجاهلية الجهلاء إلى حالها، ويفسد ما أصلحه رسول الله صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين سنة في شهر واحد، فكان من عناية الله تعالى بهذا الدين أن ألهم الصحابة ما فعلوه، والله متمّ نوره ولو كره المشركون. انتهى كلامه جزاه الله ما يستحقه[1].

أقول: ويتوجه عليه:

أولاً: أن قوله: إن هذا الكلام قد نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يناسبه ويجري مجراه ولم يؤرّخ الوقت الذي قاله فيه ولا الحالة التي عناها.

فيه: إن تاريخ هذا الكلام بخصوصه هو أواخر خلافته بعد فتح مصر وشهادة محمد بن أبي بكر، ونظره فيه إلى مجلس الشورى وعدولهم عنه إلى عثمان حسبما ظهر لك ذلك في شرح الخطبة السادسة والعشرين عندما روينا عنه عليه السلام تمام الخطبة التي هذا الكلام ملتقط

(١) شرح نهج البلاغة: ١١/ ١١٤.

منها:

والعجب أن الشارح المعتزلي رواها أيضاً في شرح الكلام السابع والستين من كتاب **(الغارات)** كما رويناه منه لكنه أسقط صدرها اختصاراً أو اقتصاراً، فلعله نسي ما قدمه فجهل التاريخ.

وأعجب من ذلك أن الشارح البحراني لقصور باعه وقلّة اطلاعه على الأخبار والسّير توهم أنه عليه السلام عنى به السائرين إلى البصرة حيث قال: ويشبه أن يكون صدور هذا الكلام منه حين خروج طلحة والزبير إلى البصرة تظلماً عليهما فيكون المفهوم من قوله عليه السلام: وأجمعوا على منازعتي حقاً، إنكار إجماعهم منازعة ذلك الحق، هذا.

وأما ما يجري مجرى هذا الكلام ويناسبه فتاريخه بعد يوم السقيفة إلى آخر عمره كما يقف عليه المتتبع الخبير بالأخبار والناقد البصير بما قدمناه في تضاعيف الشرح في غير موضع.

وثانياً: أن ما حكاه من أكثر أصحابه المعتزلة من كراهتهم حمل أمثال هذا الكلام على التألم من يوم السقيفة وعدم استنكافهم لحملها على التظلم من يوم الشورى.

ففيه أن التفرقة بين اليومين شطط من الكلام كما اعترف به الشارح نفسه أيضاً واعترض به على أصحابه، وذلك لأن كلماته المتضمنة للتظلم والشكاية من جميع الثلاثة فوق حدّ الإحصاء متجاوزة عن طور الاستقصاء، وليس كلها مجملاً قابلاً للحمل على يوم الشورى على زعمهم، بل أكثرها نص في التظلم من الشيخين وكثير منها عام لجميع الثلاثة، وقليل منها ناظر إلى الشورى، والمجمل منها إن كان فهو أقل القليل بل لا وجود له أصلاً.

وثالثاً: أن ما حكاه من أصحابه وهو مذهبه ومعتقده أيضاً وفاقاً لهم من قولهم: بأنه ساغت إمامة غيره عليه السلام وصحت لمانع كان فيه وهو ما غلب على ظنون العاقدين للأمر من أن العرب لا تطيعه.

ففيه أنه بعد اعترافهم واتفاقهم على أنه عليه السلام الأولى والأفضل المقتضى لأحقيته بها بحكم العقل والنقل، فكيف يجوز العدول إلى غيره بمجرد الظن؟.

وقد نهى الله صريحاً عن اتباع هذا الظن بخصوصه في قوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [يونس: ٣٥ ـ ٣٦].

وعموماً في سائر الآيات الناهية عن العمل بالظن مثل قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي

ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم: ٢٨-٣٠] إلى غير هذه مما لا نطيل بذكرها.

ورابعاً: أن قوله: وكل ذلك محمول عندنا على أنه طلب الأمر من جهة الفضل والقرابة وليس بدال عندنا على وجود النص لأنه لو كان هناك نص لكان أقلّ كلفة وأسهل طريقاً وأسهل لما يريد تناولاً.

فيه أن إنكار النص كإنكار الأعمى للشمس في رابعة النهار، ونعم ما قيل:

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

وقد قدمنا في مقدمات الخطبة (**الشقشقية**) من النصوص المتواترة والأدلة العقلية والنقلية كتاباً وسنّة ما فيه كفاية لمن له إنصاف ودراية، وقد احتج عليه السلام واحتج أصحابه أيضاً بها على المتخلفين يوم السقيفة والشورى حسبما مرّ تفصيلاً في مقدمات الخطبة المذكورة وغيرها من المواقع المناسبة في تضاعيف الشرح فانظر ماذا ترى، لكنهم خذلهم الله تعالى لم ينفعهم الذكرى لما غلب عليهم من حب الرئاسة واتباع الهوى.

وخامساً: أن خوفه عليه السلام من القتل مما لا غبار عليه، كما يشهد به ما رواه الشارح نفسه هنا عن كثير من المحدّثين: أنه عقيب يوم السقيفة تألم وتظلم واستنجد واستصرخ حيث ساموه الحضور والبيعة وقال مشيراً إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله: يا ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا أن يقتلوني.

ويشهد به أيضاً قوله في هذا الكلام الذي نحن في شرحه: فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذابّ ولا مساعد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية، ونظير ذلك في كلماته عليه السلام لكثير كما هو غير خفي على الناقد البصير.

وسادساً: قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان في مبتدأ الأمر يظن أن العقد لغيره، كان من غير نظر في المصلحة، إلى قوله: وبه نقول.

محصّله على طوله أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن في بدءِ الأمر عالماً بما علم به أبو بكر وعمر من مصلحة الإسلام وظن أن قيامهما بالخلافة لمحض حبّ الرئاسة والاستئثار عليه، ولذلك تظلّم وتألّم وأراد الأمر لنفسه، فلما استبان خلاف ظنه وصح عنده أنهم راعوا مصلحة الإسلام وأنه لو قام به لم يكن ليتم له ولا ينقاد العرب للسخائم التي في صدورهم أو

غيرها من علل النفوس بل يستأصل شأفة الإسلام وينهدم أركانه ويذهب عن أصله، سكت وأمسك عن الطلب وبايع طوعاً وطاب به نفساً.

وفيه، **أولاً**: أن لازم ذلك أن يكون الأعرابيان الجاهلان الجلفان أعلم بمصالح الإسلام من باب مدينة العلم والحكمة، وكيف يمكن أن يخفى عليه عليه السلام ما لم يخف على الأعرابي البوال على عقبيه، وقد اعترفت المعتزلة أيضاً بكونه أكثر علماً منهم كما هو قول الإمامية.

وثانياً: أنه لو كان الأمر على ما زعموا من أنه انكشف له خلاف ظنه وصح حقيّة غيره فأذعن بالبيعة وانقاد للطاعة لوجب له عليه السلام أن يستعتب ويعتذر ويستحل منهم حيث أساء الظن في حقهم ولوجب أن يترك التظلّم والشكاية والتوجد مع أنه ما زال متظلّماً إلى آخر عمره الشريف.

ألا ترى إلى الخطبة (**الشقشقية**) المتضمنة للتظلم والشكوى من أولها إلى آخرها وقد خطبها بعد وقعة الخوارج في أواخر عمره كما يشهد به مضمونها.

وإلى ما قاله في سادس المختار من باب الخطب حين عزمه على المسير إلى البصرة لحرب الجمل من قوله: فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله حتى يوم الناس هذا.

وما قاله في الخطبة السادسة والعشرين التي خطبها بعد شهادة محمد بن أبي بكر وفتح مصر: فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي فضننت بهم عن الموت، إلى آخر ما مر.

وما قاله في **المختار** المائة والواحد والستين حين سأله بعض أصحابه: كيف دفعكم القوم عن مقامكم وأنتم أحق به؟ فقال: وأما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً والأشدون بالرسول صلى الله عليه وآله نوطاً، فإنها كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين، والحكم الله والمعود إليه القيامة، إلى غير هذا مما تقدم في تضاعيف المتن والشرح.

والحاصل أن المعلوم من حاله عليه السلام عند الموالف والمخالف أنه لم يكن طلبه للخلافة من حب الرئاسة والسلطنة بل لإحكام أساس الدين وانتظام حال الإسلام والمسلمين، فإذا حصل هذا الغرض بقيام غيره فضلاً عن كونه أصلح به منه عليه السلام كما زعمه المعتزلة، فوجب عليه أن يرضى منهم أشد الرضا ويشكر لهم ويقبل المنّة منهم حيث رفعوا عن عاتقه ثقل ما حملوه لا أن يتظلم منهم ويتشكى عنهم ويزري عليهم دائماً ليله ونهاره إلى آخر عمره.

وسابعاً: أن قوله: واعلم أن حال علي عليه السلام في هذا المعنى أشهر من أن تحتاج في الدلالة عليها إلى الإسهاب والإطناب، إلى آخر قوله: والله متمّ نوره ولو كره المشركون.

فيه أنه من تسويلات نفوس المعتزلة وتمويهاتهم وتلبيساتهم ومزخرفاتهم التي أوحى بها إليهم أخوهم الشيطان كما قال عزَّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٦].

وسبقهم إلى تلك المزخرفات اللعين بن اللعين ابن آكلة الأكباد معاوية بن أبي سفيان في كتابه الذي كتبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام فإنه كتب فيه:

ومن قبل ذلك ما عيّبت خليفتي رسول الله صلى الله عليه وآله أيام حياتهما فقعدت عنهما وألبت عليهما وامتنعت من بيعتهما، ورمت أمراً لم يرك الله تعالى له أهلاً، ورقيت سلّماً وعراً، وحاولت مقاماً دحصاً، وادعيت ما لم تجد عليه ناصراً، ولعمري لو ولّيتها حينئذ لما ازددت إلا فساداً واضطراباً، ولا أعقبت ولايتها إلا انتشاراً وارتداداً، لأنك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيل على الناس بلسانه ويده.

فإن قوله، لعنه الله تعالى: لو ولّيتها حينئذ لما ازددت إلا فساداً واضطراباً ولا أعقبت ولايتها إلا انتشاراً وارتداداً، عين ما يقوله المعتزلة ويدين به. ومحصّل ما زخرفه الشارح ببياناته الطويلة المموهة.

ويبطل جميع ما قاله وقالوه ما أبطل به الشارح نفسه، قول معاوية، فإنه عند شرح الثاني والستين من **المختار** في باب الكتب والرسائل الذي يأتي عنوانه من السيد بقوله: ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً: أما بعد، فإنّا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت من الإلفة والمحبة والجماعة، آه، أورد هناك الكتاب الذي كتبه معاوية إلى أمير المؤمنين عليه السلام المتضمن لما قدمنا ذكره، ثم أجاب عن جميع ما أدرجه ذلك الملعون في كتابه بجواب مفصل إلى أن بلغ إلى قوله المتقدم ذكره، فقال فيه ما لفظه:

فأما قوله: لو ولّيتها حينئذ لفسد الأمر واضطرب الإسلام، فهذا علم غيب لا يعلمه إلا الله، ولعله عليه السلام لو وليّها حينئذ لاستقام الأمر وصلح الإسلام وتمهّد، فإنه ما وقع الاضطراب عند ولايته بعد عثمان إلا لأن أمره عليه السلام هان عندهم بتأخره عن الخلافة وتقدم غيره عليه، فصغر شأنه في النفوس وقرر من تقدمه في قلوب الناس أنه لا يصلح لها كل الصلاحية، والناس على ما يحصل في نفوسهم ولو كان وليها ابتداءً وهو على تلك الجلالة التي كان عليها أيام حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وتلك المنزلة الرفيعة والاختصاص الذي كان له لكان الأمر غير الذي رأيناه عند ولايته بعد عثمان. انتهى كلامه[١].

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٩٤.

أقول: فواعجباً عجباً، وما لي لا أعجب من الشارح؟!، فإنه مع هذا الكلام الذي يبطل مذهب المعتزلة من أصله ويزعزع أركانه ويهدم أساسه وبنيانه، كيف لا يرفع يده عن ذيل مذهب الاعتزال؟ أفيرضى العاقل أن يتدّين بدين بناؤه على الظن والتخريص والحسبان ويذعن بمحض الوهم والاستحسان بصحة ولاية الجبت والطاغوت إن مثلهم إلا كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، بل كمن أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم، هذا.

وقد مضى تحقيقات لطيفة في ما يتعلق بهذا المعنى في مقدمات الخطبة (الشقشقية).

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است در تظلم و شكايت از اهل شورى و غاصبان خلافت كه گفته:

بارالها، به درستى كه من طالب اعانت و انتقام مى كنم از تو بر منافقان قريش، پس به درستى كه ايشان بريدند ريسمان قرابت مرا و پشت رو كردند ظرف خلافت مرا و اتفاق كردند بر منازعت من در حقّى كه من سزاوارتر بودم به آن از غير من و گفتند كه آگاه باش كه در حقّ است كه اخذ كنى تو خلافت را و در حقّ است كه ممنوع بشوى تو از آن، پس صبر كن در حالت اندره و غم يا بمير در حالت تأسف و حسرت، پس نگاه كردم به كار خود، پس آن زمان نبود مرا معينى و نه دفع كننده و نه ناصرى مگر اهل بيت خودم، پس بخل ورزيدم به ايشان از اين كه هدف تير مرگ نمايم ايشان را، پس پوشانيدم چشم خود را بالاى چيزى ك اذيت رساننده بود و بلعيدم آب دهان خود را بالاى غم و غصّه كه گلوگير بود و صبر كردم از نگاه داشتن غيظ خود بر چيزى كه تلخ تر بود از طعم درخت عقلم و دردناك تر بود مر قلب را از بريدن كارد بزرگ بر آن.

گفته است سيّد رضى رحمة الله عليه كه گذشت اين كلام در اثناى خطبه اى كه سابقاً گذشته بود، ليكن من مكرر نمودم ذكر آن را در اينجا به جهت اختلاف دو

روایت.

و از جمله این کلام است در بیان سیرکنندگان به سوی شهر بصره از برای جنگ با آن حضرت که طلحه و زبیر و عایشه و متابعان ایشان بودند، می فرماید:

پس آمدند ایشان بر حاکمان من که در بصره بودند و بر خزینه داران بیت المال مسلمانان که در دست تصرف من بود و بر اهل شهری که همه ایشان در طاعت و بر بیعت من بودند، پس مختلف ساختند کلمه ایشان را و فاسد نمودند جمعیت آنها را و برجستند بر شیعیان من، پس کشتند طایفه ای از ایشان را از راه مکر و حیله و طایفه ای دیگر از ایشان سخت گرفتند شمشیران خودشان را، پس محاربه کردند با آنها تا این که ملاقات نمودند پروردگار را و به درجه شهادت رسیدند در حالتی که صادق الاعتقاد بودند.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والسابع عشر من المختار في باب الخطب

لما مرّ بطلحة وعبد الرحمٰن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل:

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهٰذَا المَكانِ غَرِيباً، أَما وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلىٰ تَحْتَ بُطُونِ الكَواكِبِ، أَدْرَكْتُ وِتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ، وأَفْلَتَتْني أَعْيانُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْناقَهُمْ إِلىٰ أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ، فَوُقِصُوا دُونَهُ.

اللغة

(قريش) قبيلة، وأبوهم النضر بن كنانة، ومن لم يلده فليس بقرشيّ، وقيل: قريش هو فهد بن مالك، ومن لم يلده فليس بقرشيّ. وأصل القرش: الجمع، وتقرشوا إذا تجمعوا، وبذلك سميت قريش لاجتماعها بعد تفرّقها في البلاد، وقيل: قريش دابة تسكن البحر وبه سمي الرجل. قال الشاعر:

وقريش هي التي تسكن البحر   بها سمّيت قريش قريشاً

قالوا: إن النضر بن كنانة ركب في بحر الهند، فقالوا: قريش كسرت مركبنا، فرماها النضر بالحراب فقتلها وحزّ رأسها، وكان لها أذان كالشراع تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى، فقدم به مكة فنصبه على أبي قبيس فكان الناس يتعجبون من عظمه فيقولون: قتل النضر قريشاً، فكثر الاستعمال حتى سمّوا النضر قريش، وقيل في وجه التسمية وجوه أُخر لا حاجة إلى ذكرها.

و **(القتلى)** جمع قتيل، كالجرحى وجريح و **(الوتر)** ـ بكسر الواو ـ الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي و **(أفلت)** الطائر وغيره إفلاتاً تخلّص، وأفلته أنا إذا أطلقته وخلّصته، يستعمل لازماً ومتعدياً، واتفلت وتفلّت خرج بسرعة و **(الأعيان)** بالنون الرؤساء والأشراف، وفي بعض النسخ بالراء المهملة جمع العير بفتح العين وجمع الجمع عيارات، والعير الحمار، وغلب على الوحشي، ويقال أيضاً للسيد والملك.

و **(بني جمح)** في نسخة الشارح المعتزلي: بضم الجيم وفتح الميم، وفي بعض النسخ: بسكون الميم، وما ظفرت بعد على ضبطه فيما عندي من كتب اللغة و **(التلع)** محرّكة: طول العنق، وتلع الرّجل من باب كرم وفرح طال عنقه، فهو أتلع وتليع، وتلع الرجل من باب منع

أخرج رأسه من كل شيء كان فيه، وأتلع مدّ عنقه متطاولاً و **(وقص)** عنقه كوعد كسرها فوقصت، يستعمل لازماً ومتعدياً، ووقص الرجل بالبناء على المفعول فهو موقوص.

الإعراب

(الباء) في قوله عليه السلام: بهذا المكان، بمعنى في، وفي قوله: أفلتتني على الحذف والإيصال، أي أفلتت مني، وقوله: أهله بالنصب على أنه خبر كان ويحتمل الانتصاب بحذف الجار فيكون الجار والمجرور خبراً لها، أي لم يكونوا من أهله.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام حسبما أشار إليه الرضي تكلم به عند تطوافه على القتلى بعد انقضاء الحرب فإنه **(لما مرّ بطلحة)** بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة **(وعبد الرحمٰن بن عتاب بن أسيد)** بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس **(وهما قتيلان يوم الجمل)** وقف على جسد طلحة وقال:

(لقد أصبح أبو محمد) وهو كنية طلحة **(بهذا المكان غريباً)** ووقف على جسد عبد الرحمٰن بن عتاب وقال: لهفي عليك يعسوب قريش، هذا فتى الفتيان هذا اللّباب المحض من بني عبد مناف شفيت نفسي وقتلت معشري إلى الله عجري وبجري، فقال له قائل: لشدّ ما أطريت الفتى يا أمير المؤمنين منذ اليوم، قال عليه السلام: إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك، هكذا نقله الشارح المعتزلي، وقال أيضاً: وعبد الرحمٰن هذا هو الذي احتملت العقاب كفه يوم الجمل وفيها خاتمه فألقتها باليمامة فعرفت بخاتمه وعرف أهل اليمامة بالوقعة، وقال أيضاً: إنه ليس بصحابي ولكنه من التابعين وأبوه عتاب بن أسيد من مسلمة الفتح، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى حنين استعمله عليها فلم يزل أميرها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم أقسم بالقسم البارّ فقال: **(أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب)** أي مقتولين في معارك القتال مصروعين تحت السماء في الأودية والفلوات بحالة الذل والابتذال لا يكنّهم كنّ ولا يواري أجسادهم سقف ولا ظلال.

وإنما استكره عليه السلام قتلهم لأن المطلوب الذاتي للأنبياء والأولياء عليهم السلام جذب الخلق إلى الحق وهدايتهم إلى الصراط المستقيم واستقامة أمورهم في المعاش والمآب. وحصول هذا المطلوب إنما هو بوجودهم وحياتهم، فاهتداؤهم بنور هدايته يكون أحب إليه من موتهم على الضلال.

ولذلك أنه عليه السلام لما استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين، أجابهم بقوله المتقدم

في الكلام الرابع والخمسين: وأما قولكم شكّاً في أهل الشام، فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي وذلك أحب إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها.

وتخصيص قريش بالذكر لاقتضاء المقام ولمزيد حبه لاهتدائهم بملاحظة الرحم والقرابة.

وقوله: **(أدركت وتري من بني عبد مناف)** قال الراوندي في محكي كلامه: يعني طلحة والزبير، كانا من بني عبد مناف. واعترض عليه الشارح المعتزلي بأن طلحة من تيم بن مرّة والزبير من أسد بن عبد العزى بن قصي، وليس منهما أحد من بني عبد مناف، وولد عبد مناف أربعة: هاشم، وعبد شمس، ونوفل، والمطلب، فكل من لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة، فليس من ولد عبد مناف، وردّ: بأنهما من بني عبد مناف من قبل الأم لا من قبل الأب.

وكيف كان، فالمراد بقوله عليه السلام: أدركت وتري، أدركت جنايتي التي جناها عليّ بنو عبد مناف، والمراد بتلك الجناية ما فعلوه بالبصرة من قتل النفوس، ونهب بيت المال مما كان راجعاً إليه عليه السلام، فإن الجناية على شيعته وبيت ماله جناية عليه.

وقوله **(وأفلتتني أعيان بني جمح)** أي ساداتهم وأوتادهم وعلى كون أعيار جمع عير، بمعنى الحمار، فهي استعارة بالكناية حيث شبّهوا بحمر مستنفرة فرّت من قسورة.

قال الشارح المعتزلي: بنو جمح من بني حصيص بن كعب بن لؤي بن غالب، واسم جمح: تيم بن عمرو بن حصيص، وقد كان مع عائشة منهم يوم الجمل جماعة هربوا، ولم يُقتل منهم إلا اثنان، فمن هرب ونجا بنفسه، منهم عبد الله الطويل ابن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، ومنهم يحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية بن خلف، ومنهم عامر بن مسعود بن أمية بن خلف، كان يسمى دحروجة الجعل لقصره وسواده. ومنهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعة الأعور بن أهيب بن حذافة بن جمح. وقتل من بني جمح مع عائشة: عبد الرحمٰن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة، وعبد الله بن ربيعة بن دراج بن العنبس بن دهيان بن وهب بن حذافة، لا أعرف من بني جمح أنه قتل ذلك اليوم منهم غيرهما.

(لقد أتلعوا أعناقهم إلى أمر لم يكونوا أهله) أي مدّت قريش بالتطاول أعناقهم إلى الخلافة مع عدم استحقاقهم وأهليتهم لها **(فوقصوا دونه)** أي كسرت أعناقهم واندقت عند ذلك الأمر وهو كناية عن عدم نيلهم إلى المقصود وقتلهم قبل وصوله. خسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

تذييل

روي في (**البحار**) من (**الكافية**) في إبطال توبة الخاطئة قال: روى خالد بن مخلد عن زياد بن المنذر عن أبي جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: مرّ أمير المؤمنين عليه السلام على طلحة وهو صريع فقال: أجلسوه، فأُجلس، فقال: أمَا والله لقد كانت لك صحبة ولقد شهدت وسمعت ورأيت ولكن الشيطان أزاغك وأمالك فأوردك جهنم[١].

وقد قدمنا هذه الرواية في شرح الكلام الثاني عشر وكررنا هنا باقتضاء المقام، وتقدمت أيضاً هناك مطالب نفيسة من أراد الاطلاع فليراجع ثمة هذا.

وفي (**الإرشاد**): ومن كلامه عليه السلام عند تطوافه على القتلى: هذه قريش جدعت أنفي وشفيت نفسي، لقد تقدمت إليكم أحذّركم عضّ السيف وكنتم أحداثاً لا علم لكم بما ترون، ولكنه الحين وسوء المصرع وأعوذ بالله من سوء المصرع.

ثم مرّ على معيد بن المقداد فقال: رحم الله أبا هذا، لو كان حياً لكان رأيه أحسن من رأي هذا، فقال عمار بن ياسر: الحمد لله الذي أوقعه وجعل خدّه الأسفل، أما والله يا أمير المؤمنين لا نبالي من عند عن الحق من والد وولد، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: رحمك الله وجزاك عن الحق خيراً.

ومرّ بعبد الله بن ربيعة بن درّاج في القتلى فقال: هذا البائس ما كان أخرجه، أدين أخرجه أم نصر لعثمان؟ والله ما كان رأي عثمان فيه ولا في أبيه بحسن.

ثم مرّ بمعبد بن زهير بن أبي أمية فقال: لو كانت الفتنة برأس الثريا لتناولها هذا الغلام، والله ما كان فيها بذي نخيرة، ولقد أخبرني من أدركه وأنه ليولول فرة من السيف.

ثم مرّ بمسلم بن قرظة فقال: البرّ أخرج هذا، والله لقد كلمني أن أكلم عثمان في شيء كان يدّعيه قبله بمكة فأعطاه عثمان وقال: لولا أنت ما أعطيته إن هذا ما علمت بئس أخو العشيرة، ثم جاء المشوم للحين ينصر عثمان.

ثم مرّ بعبد الله بن حميد بن زهير فقال: هذا أيضاً ممن أوضح في قتالنا، زعم يطلب الله بذلك وقد كتب إليّ كتباً يؤذي عثمان فيها فأعطاه شيئاً فرضي عنه.

ثم مرّ بعبد الله بن حكيم بن حزام فقال: هذا خالف أباه في الخروج وأبوه حين لم ينصرنا قد أحسن في بيعته لنا وإن كان قد كفّ وجلس حين شك في القتال، ما ألوم اليوم من

(١) الكافئة: ٢٦ ح ٢٥، وبحار الأنوار: ٣٢/٢٠١ ح ١٥٢.

كفّ عنّا وعن غيرنا، ولكن المليم الذي يقاتلنا.

ثم مرّ عليه السلام بعبد الله بن المغيرة بن الأخنس فقال: أما هذا فقتل أبوه يوم قتل عثمان في الدار فخرج مغضباً لقتل أبيه وهو غلام حدث جبن لقتله.

ثم مرّ عليه السلام بعبد الله بن أبي عثمان بن الأخنس بن شريق فقال: أما هذا فكأني أنظر إليه وقد أخذ القوم السيوف هارباً يعدو من الصفّ فنهنهت عنه لم يسمع من نهنهت حتى قتله وكان هذا مما خفي على فتيان قريش أغمار لا علم لهم بالحرب خدعوا واستزلوا فلما وقفوا لجحوا فقتلوا.

ثم مشى قليلاً فمرّ بكعب بن سور فقال: هذا الذي خرج علينا في عنقه المصحف يزعم أنه ناصر أمة يدعو الناس إلى ما فيه وهو لا يعلم ما فيه، ثم استفتح فخاب كل جبار عنيد، أما أنه دعا الله أن يقتلني فقتله الله. أجلسوا كعب بن سور، فأُجلس، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يا كعب لقد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال عليه السلام: أضجعوا كعباً.

ومرّ على طلحة بن عبيد الله فقال: هذا الناكث بيعتي والمنشىء الفتنة في الأمة، والمجلب عليّ والداعي إلى قتلي وقتل عترتي، أجلسوا طلحة بن عبيد الله، فأُجلس، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يا طلحة قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال عليه السلام: أضجعوا طلحة.

وسار، فقال له عليه السلام بعض من كان معه: أتكلم كعباً وطلحة بعد قتلهما؟ فقال عليه الصلاة والسلام: والله لقد سمعوا كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر[1].

إيضاح

قوله (**جدعت أنفي**) أي قطعت، والفاعل راجع إلى قريش، وهو كناية عن جنايتهم التي جنوها عليه عليه السلام حسبما عرفت في (**شرح المتن**)، وقال المحدّث العلامة المجلسي: جدعت أنفي، أي لم أكن أحب قتل هؤلاء وهم من قبيلتي وعشيرتي ولكن اضطررت إلى ذلك، انتهى. وعلى تفسيره: فجدعت بصيغة المتكلم والأظهر أنه بصيغة الغائب كما قلناه و (**العض**) المسك بالأسنان فاستعير لحدّ السيف و (**الحين**) الهلاك.

(١) الإرشاد: ١/٢٥٦، وبحار الأنوار: ٦/٢٥٥.

قوله: **(ما كان بذي نخبرة)** النخير صوت بالأنف أي كان يقيم الفتنة لكن لم يكن بعد قيامها صوت وحركة بل كان يخاف.

قوله **(ويولول)** يقال: ولولت المرأة: أعولت، والفرق شدّة الفزع، قوله: **(هذا ما علمت)** أي فيما علمت وفي علمي، قوله: **(ممن أوضع)** على البناء على الفاعل، أي ركض دابته وأسرع أو على البناء على المفعول، قال الجوهري: وضع الرجل في تجارته وأوضع على ما لم يسم فاعله فيهما أي خسر و **(المليم)** المذموم، وقوله **(فنهنهت عنه)** أي كففت وزجرت.

قوله **(وكان هذا مما خفي عليّ)** قال العلامة المجلسي: أي لم أعلم بوقت قتله، فتيان قريش مبتدأ و **(الأغمار)** جمع غمر بالضم وبضمتين وهو الذي لم يجرّب الأمور، انتهى.

(ولجج) السيف يلجلج لججاً من باب تعب، أي نشب فلا يخرج، ومكان لجج ضيق.

و **(كعب بن سور)** قاضي البصرة، ولاّه عمر بن الخطاب على قضائها فلم يزل عليها حتى قُتل عثمان، فلما كان يوم الجمل خرج مع أهل البصرة وفي عنقه مصحف، فقتل هو يومئذ وثلاثة أخوة له أو أربعة، فجاءت أمهم فوجدتهم في القتلى فحملتهم وجعلت تقول:

أيا عين ابكي بدمع سرب على فتيةٍ من خيار العرب
فما ضرّهم غير جبن النفوس وأيّ امرىء لقريش غلب

قوله **(ثم استفتح)** تلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: ١٥]، أي سألوا من الله الفتح على أعدائهم، و **(أجلب)** عليه الناس، أي حزّبهم وجمعهم، و **(القليب)** البئر التي لم تطو، يذكّر ويؤنث، وكان حفر يوم بدر قليب أُلقي فيه القتلى من الكفار.

الترجمة

از جمله کلام آن امام است (عليه السلام)، وقتی که مرور کرد به طلحه و عبدالرحمن بن عتاب بن اسید در حالتی که کشته شده بودند در روز جنگ جمل، می فرماید:

هر آینه به تحقیق صباح کرد ابومحمد، یعنی طلحه در این مکان در حالتی که غریب است، آگاه باش قسم به خدا به تحقیق بودم من ناخوش می گرفتم این که شوند طایفه قریش کشته شدگان در زیر شکم ستارگان، دریافت نمودم جنایت خود را از پسران عبد مناف و رمیدند و گریختند از من اشراف و بزرگان قبیله جمح، به تحقیق دراز کردند ایشان، یعنی قریش گردن های خودشان را به سوی چیزی که اهل آن نبودند، یعنی طلب خلافت نمودند بدون استحقاق، پس شکسته شد گردنهای ایشان نزد آن چیز.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والثامن عشر من المختار في باب الخطب

قَدْ أَحْيا عَقْلَهُ وأَماتَ نَفْسهُ، حَتَّىٰ دَقَّ جَلِيلُهُ، ولَطُفَ غَلِيظُهُ، وبَرَقَ لَهُ لامِعٌ كَثِيرُ البَرْقِ، فَأَبانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وتَدافَعَتْهُ الأَبْوابُ إِلىٰ بَابِ السَّلامَةِ، ودارِ الإِقَامَةِ، وثَبَتَتْ رِجْلاهُ بِطَمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ في قَرارِ الأَمْنِ والرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ وأَرْضَى رَبَّهُ[1].

اللغة

(دقّ) الشيء يدق دقة، من باب ضر خلاف غلظ، فهو دقيق، وغلظ الشيء بالضم غلظاً وزن عنب، والاسم الغلظة وهو غليظ و (أبان) وبين وتبين واستبان كلها بمعنى الوضوح والانكشاف وجميعها يستعمل لازماً ومتعدياً إلا بان الثلاثي فلا يستعمل إلا لازماً، قاله الفيومي.

الإعراب

جليله وغليظه مرفوعان على الفاعل للزوم فعليهما، و(الباء) في قوله: سلك به، للتعدية. وفي قوله: بطمأنينة بدنه، للمصاحبة. وفي قوله: بما استعمل، للسببية. وكلتا الأخيرتين متعلقتان بقوله: ثبتت.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام على غاية وجازته جامع لجميع صفات العارف الكامل ولكيفية سلوكه، ولمآل أمره، ولعمري إنه لا يوجد كلام أوجز من هذا الكلام في أداء هذا المعنى، وهو في الحقيقة قطب دائرة العرفان وعليه مدارها، وفي الإيجاز الذي هو فنّ نفيس من علم البلاغة تالي كلام الملك الرحمٰن، مثل قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] الجامع للزهد كله، وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] الجامع لمكارم الأخلاق جميعاً، وشرحه يحتاج إلى بسط في المقال بتوفيق الرب المتعال، فأقول مستعيناً بالله وبوليّه عليه السلام:

---

(١) بحار الأنوار: ٦٦/ ٣١٧، وميزان الحكمة: ٢/ ١١٣٢.

قوله عليه السلام (**قد أحيا عقله وأمات نفسه**) المراد بعقله: العقل النظري والعملي، وبنفسه: النفس الأمارة بالسوء، والمراد بحياة الأول: كونه منشئاً للآثار المترتبة عليه مقتدراً على تحصيل الكمالات والمعارف الحقّة ومكارم الأخلاق المحصّلة للقرب والزّلفى لديه تعالى، وبموت الثاني بطلان تصرفاته وآثاره المبعدة عنه عزّ وجل بحذافيره، فإن الحياة والموت عبارة أخرى عن الوجود والعدم لا أثر له أصلاً.

وأراد بإحيائه الأول وإماتته الثاني تقويته وتغليبه له عليه بحيث يكون الأول بمنزلة سلطان قادر قاهر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، والثاني بمنزلة عبد ذليل داخر مقهور لا يرد ولا يصدر إلا بإذن مولاه.

ولا يحصل تقوية الأول وتذليل الثاني إلا بملازمة الكمالات العقلانية والمجاهدة والرياضة النفسانية، والمجاهدة عبارة عن ذبح النفس بسيوف المخالفة كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠ـ ٤١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لما بعث سرية ورجعوا: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر**»، فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: «**جهاد النفس**».

وقال بعض أهل العرفان: جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولد من قلّة الطعام موت الشهوات، ومن قلّة المنام صفو الإرادات، ومن قلّة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات. وليس على العبد شيء أشدّ من الحلم عند الجفا، والصبر على الأذى، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام، جرّدت عليها سيوف قلّة الطعام من غمد التهجد وقلّة المنام وضربتها بأيدي الخمول وقلّة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها من بين سائر الأيام وتصفّيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها، فتصير عن ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية، فتجول في ميدان الخير وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفارة في الميدان وكالمسلك المتنزّه في البستان.

وقال أيضاً: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

وتفصيل ذلك على ما قرر في علم السلوك: إن للسالك الطريق الحق المريد للوصول إلى حظيرة القدس شروطاً ووظائف لا بد من ملازمتها.

أما الشروط التي لا بد من تقديمها في الإرادة فهي: رفع الموانع والحجب التي بينه وبين الحق، فإن حرمان الخلق من الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق، قال

الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩].

والسد بين المريد وبين الحق ثلاثة: المال، والجاه، والمعصية، ورفع حجاب المال إنما يحصل بالخروج منه حتى لا يبقى منه إلا قدر الضرورة فما دام يبقى له درهم ملتفت إليه فهو مقيّد به محجوب عن الله عز وجل، ورفع حجاب الجاه إنما يحصل بالبعد من موضع الجاه والهرب منه وإيثار خمول الذكر، ورفع حجاب المعصية إنما يحصل بالتوبة والندم على ما مضى من المعاصي وتدارك ما فات من العبادات وردّ المظالم وإرضاء الخصوم.

وإذا قدّم هذه الشروط فلا بد له من المواظبة على وظائف السلوك، وهي خمس: الجوع، والصمت، والسهر، والعزلة، والذكر.

أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه ويلطفه، وفي بياضه وتلطيفه نوره، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رقته ورقته مفتاح انكشاف الحجب كما أن قساوته سبب الحجاب، ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدوّ الشيطان، فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فضيّقوا مجاريه بالجوع**»، أو قال: «**بالصوم**». وفي حديث آخر: «**ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «**الصوم يسود وجهه**» الحديث.

ففائدة الجوع في كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء أمر ظاهر لأن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوّة ويكسر سورة النفس الأمارة كالدابة الجموح إذا شبعت شردت وجمحت لا يمكن ضبطها باللجام، وإذا جاعت ذللت وانقادت.

وبالجملة، فالشبع يورث القسوة والشهوة والسبعية، والجوع يوجب الرقة وانكسار الشهوة والصولة، وهو مشاهد بالتجربة، ومن هنا قيل: مفتاح الدنيا الشبع ومفتاح الآخرة الجوع، وقال النبي ﷺ: «**من أجاع بطنه عظم فكره وفطن قلبه**»، وقال أيضاً: «**أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك وقلّة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترق**».

وأما الصمت، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة لأن الكلام يشغل القلب وميل القلوب إلى الكلام عظيم، فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر، وفي الحديث: «**طوبى لمن أنفق فضول ماله وأمسك عن فضول كلامه**»؛ هذا في الكلام المباح، وأما الكلام الغير المباح من الكذب والنميمة والبهت وغيرها فبينه وبين السلوك إلى الحق بون بعيد بعد المشرقين.

وأما السهر فأنه يجلو القلب ويصفيه وينوّره، ولذلك مدح الله سبحانه المستغفرين بالأسحار لأنها أوقات صفاء الذهن ونزول الرحمة والألطاف الإلهية، فيضاف صفاء السهر إلى الصفاء الحاصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدريّ والمرآة المجلوة مستعداً لإفاضة الأنوار الإلهية، فيلوح فيه سبحات جمال الحق، ويشاهد رفعة الدرجات الأُخروية، وعظم خطرها، وخسّة الزخارف الدنيوية وحقارتها، فتتمّ بذلك رغبته عن الدنيا وشوقه إلى الآخرة، والسهر أيضاً من خواص الجوع وبالشبع غير ممكن.

وأما العزلة والخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، فإنهما دهليز القلب، والقلب بمنزلة حوض تنصبّ إليه مياه كريهة كدرة من مجاري الحواس. والمقصود بالرياضة تفريغ الحوض من المياه الردغة ومن الطين الحاصل منها فينفجر أصل الحوض فينبع منه ماء نظيف سائغ صاف ولا يمكن نزح ماء الحوض والأنهار إليه مفتوحة فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص.

قال الرضا عليه التحية والثناء: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: طوبى لمن أخلص لله العبادة ولم يشغل قلبه بما تراه عيناه ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، الحديث.

فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة ولا يتم ذلك إلا بالعزلة والخلوة.

قال بعض السيّاحين: قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلى الحق؟ قال: أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق. وقلت له مرة: دلّني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام، فقال لي: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة. قلت: لا بد لي من ذلك، قال: فلا تسمع كلامهم، فإن في سماع كلامهم قسوة. قلت: لا بد لي من ذلك، قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة، قال: قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة، وقد عرفت أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة هوى النفس، فإذا حصل للسالك هذه المقدمات اشتغل بذكر الله تعالى بالأذكار الشرعية من الصلاة وتلاوة القرآن والأدعية المأثورة والتسبيح والتهليل وغير ذلك بلسانه وقلبه، فلا يزال يواظب عليها حتى لا يبقى على قلبه ولسانه غير ذكره تعالى، ولا يكون له منظور غيره أصلاً، فعند ذلك يتجلّى له من أنوار جماله وسبحات عظمته وجلاله ما لا يحيط به لسان الواصفين، ويقصر عنه نعت الناعتين.

هذا من الشرائط والوظائف المقررة، قد أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام في مطاوي

كلماته وخطبه المتقدمة وغيرها كثير.

مثل ما رواه في **(الوسائل)** من أمالي الشيخ قال: روي أن أمير المؤمنين عليه السلام خرج ذات ليلة من المسجد وكانت ليلة قمراء، فأمّ الجبّانة ولحقه جماعة يَقْفُونَ أثره، فوقف عليهم ثم قال عليه السلام: من أنتم؟ قالوا: شيعتك يا أمير المؤمنين، فتفرّس في وجوههم وقال: فما لي لا أرى عليكم سيماء الشيعة؟ قالوا: وما سيماء الشيعة يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: صفر الوجوه من السهر، عمش العيون من البكاء، حدب الظهور من القيام، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، عليهم غبرة الخاشعين[1].

وقال عليه السلام في الخطبة الثانية والثمانين: فاتّقوا الله تقاة ذي لبّ شغل التفكّر قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجّد غرار نومه، وأظمأ الرجاء هواجر يومه، وأظلف الزهد شهواته، وأوجف الذكر بلسانه، وقدّم الخوف لإبانه، وتنكب المخالج عن وضح السبيل، وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب.

وغير ذلك مما تقدم في ضمن خطبه المسوقة في الحثّ على الزهد والتقوى ووصف حال المتقين ولا حاجة إلى الإعادة.

ثم لا يخفى عليك أن مطلوبية الاعتزال والخلوة إنما هي للفراغ للذكر والخلوة والعبادة وكون المعاشرة مانعة منه، وأما إذا لم تكن المعاشرة مانعة بل تبعثه على سلوك الصراط المستقيم كالجمعة والجماعات وزيارة الإخوان المؤمنين والاجتماع في مجالس الذكر، ونحوها، فهي من أعظم العبادات، وسلوك نهج الحق، على ما ذكرنا من الآداب والوظائف هو المتلقى من صاحب الشرع.

وأمّا غيرها مما ذكره الصوفية من الآداب والوظائف في المجاهدة والرياضة وكيفية السلوك مثل قولهم بالجلوس في بيت مظلم، والخلوة أربعين يوماً، واشتراطهم الاعتصام بالشيخ، وكون السلوك بإرشاده، وقولهم بالمداومة على ذكر مخصوص ألقاه الشيخ إلى المريد من الأذكار الفتحية أو غيرها نحوها من الأذكار المبتدعة أو من الأذكار الشرعية لكن على هيئة مخصوصة وعدد مخصوص لم يرد به نصّ، وقولهم: بأن المريد إذا أتمّ مجاهدته ولم يبق في قلبه علاقة تشغله يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب، ويكون ورده ورداً واحداً وهو ملازمة القلب لذكر الله عزّ وجل بعد الخلوّ عن ذكر غيره، فعند ذلك يلزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويلقّنه ذكراً من الأذكار حتى

---

(١) الوسائل: ١/٩٢، وأمالي الطوسي: ٢١٦ ح ٣٧٧.

يشغل به لسانه وقلبه، فيجلس ويقول مثلاً: الله الله، أو سبحان الله سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الكلمات، فلا يزال يواظب عليها حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه، قد فرغ من كل ما سواه ونحو ذلك مما قالوه، فشيء منها لم يرد به إذن من الشارع بل هو من بدعاتهم التي ابتدعوها، اللهم إلا أن يستدلّ على الأخير ـ أعني المواظبة على الذكر باللسان والقلب ـ على ما وصل بعمومات أدلة الإكثار من ذكر الله والتفكّر في الله.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى شرح المتن، فأقول:

قوله عليه السلام **(حتى دقّ جليله ولطف غليظه)** غاية لإماتته لنفسه أولها ولإحيائه لعقله أيضاً، والجملة الثانية إما مؤكدة للأولى، فالمعنى: أن تكميله لعقله وتركه لشهوات نفسه انتهى إلى مرتبة أوجبت هزال جسمه ونحول بدنه، أو المراد بالجليل أعضاؤه العظام كالرأس واليدين والفخذين والساقين، وبالغليظ غيرها، أو المراد بالأول عظامه وبالثاني جلده وأعصابه، أو بالأول بدنه وبالثاني قلبه.

وعلى أي معنى فالمقصود كونه ناحل الجسم ضعيف البدن إما من خوف الله تعالى وتحمله لمشاق العبادات، أو لجوعه وكفّه عن الأكل والشرب وسائر الشهوات.

كما قال عليه السلام في الخطبة المائة والثانية والتسعين في وصف المتقين: قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض.

وقال في الخطبة الثانية والثمانين: فاتقوا الله تقية ذي لبّ شغل التفكّر قلبه وأنصب الخوف بدنه، أي أمرضه وأتعبه.

وقال في الخطبة المائة والتاسعة والخمسين حكاية عن كليم الله على نبينا وعليه السلام، إذ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ القصص: ٢٤]، والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذّب لحمه.

وقوله عليه السلام **(وبرق له لامع كثير البرق)** الظاهر أنه عطف على سابقه فيكون هو أيضاً غاية لتكميل عقله وجهاد نفسه، يعني أنه بلغ من كمال قوته النظرية والعملية إلى مقام شروق الأنوار والمعارف الإلهية على مرآة سرّه فصار مشاهداً بعين بصيرته أنوار قدسه وسبحات وجهه عين اليقين.

كما أشار عليه السلام إليه في الخطبة السادسة والثمانين في وصف أحب عباد الله تعالى إليه عزّ وجل بقوله: فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس.

وقال زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام في المناجاة التاسعة من المناجاة الخامسة عشرة، وهي مناجاة المحبين: يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة[١]، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة[٢][٣].

وقال عليه السلام في المناجاة الثانية عشر منها، وهي مناجاة العارفين: إلٰهي فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون، وشرائع المصافات يروون، قد كشف الغطاء عن أبصارهم، وانجلت ظلمة الرّيب عن عقائدهم في ضمائرهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم، وعلت لسبق السعادة في الزهادة هممهم، وعذب في معين المعاملة شربهم، وطاب في مجلس الأنس سرّهم، وأمن في موطن المخافة سربهم، واطمأنت بالرجوع إلى ربّ الأرباب أنفسهم، وتيقنّت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقرّ بإدراك السؤال ونيل المأمول قرارهم[٤]، هذا.

ولأهل السلوك والصوفية كلام طويل في **البروق اللامعة** أسندوها إلى الشهود والمكاشفة.

قال الرئيس أبو علي بن سينا في محكي كلامه من **(الإشارات)** في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان ما لفظه:

ثم إنه إذا بلغت به الرياضة والإرادة حداً ما عنت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه، وهي التي تسمى عندهم أوقاتاً، وكل وقت يكتنفه وجد إليه ووجد عليه، ثم إنه ليكثر عليه هذا الغواشي إذا أمعن في الارتياض، ثم إنه ليتوغل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض فكلما لمح شيئاً عاج منه إلى جانب القدس فتذكر من أمره أمراً فغشيه غاش فيكاد يرى الحق في كل شيء، ولعله إلى هذا الجد تستولي عليه غواشيه ويزول عن سكينته ويتنبه جليسه لاستنفاره عن قراره، فإذا طالت عليه الرياضة لم

---

(١) الروق الصافي من الماء وغيره والعجب.

(٢) شفته شوفاً: جلوته؛ ودينار مشوف: مجلو.

(٣) بحار الأنوار: ٩١/ ١٤٩.

(٤) بحار الأنوار: ٩١/ ١٥١، والصحيفة السجادية: ٤١٨.

يستنفره غاشية وهدى للتّأنس بما هو فيه، ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينته فيصير المخطوب مالولاً والوميض شهاباً بيّناً، ويحصل له معارفه مستقرة كأنها صحبة مستمرة ويستمتع فيها ببهجته فإذا انقلب عنها انقلب حيران أسفاً.

وقال أبو القاسم القشيري في رسالة **(القشيرية)**، المحاضرة قبل المكاشفة: فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة، وقال: هي أرفع الدرجات، فالمحاضرة حضور القلب وقد تكون بتواترها البرهان والإنسان بعد وراء الستر وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر، وأما المكاشفة فهي الحضور البيّن غير مفتقر إلى تأمل الدليل وتطلّب السبيل، ثم المشاهدة وهي وجود الحق من غير بقاء تهمة، وقال أيضاً: هي ثلاث مراتب: اللوائح، ثم اللوامع، ثم الطوالع. فاللوائح كالبروق ما ظهرت حتى استترت، ثم اللوامع وهي أظهر من اللوائح وليس زوالها بتلك السرعة فقد تبقى وقتين وثلاثة ولكن كما قيل: والعين باكية لم تشبع النظرا، فأصحاب هذا المقام بين روح وتوح لأنهم بين كشف وستر يلمع ثم يقطع لا يستقرّ لهم نور النهار حتى تكرّ عليهم عساكر الليل، ثم الطوالع وهي أبقى وقتاً وأقوى سلطاناً وأدوم مكثاً وأذهب للظلمة وأنقى للتهمة.

وقال عمرو بن عثمان المكي: المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلي على القلب من غير أن يتخللها ستر ولا انقطاع، كما لو قدر اتصال البروق في الليلة المظلمة فكما أنها تصير بذلك في ضوء النهار فكذلك القلب إذا دام له التجلي منع النهار فلا ليل. وأنشدوا شعراً:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس سار
والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

وقال الشارح البحراني: قوله عليه السلام **(وبرق له لامع)** كثير البروق، أشار باللامع إلى ما يعرض للسالك عند بلوغ الإرادة بالرياضة به حدّاً ما من الخلسات إلى الجناب الأعلى فيظهر له أنوار إلٰهية لذيذة شبيهة بالبرق في سرعة لمعانه واختفائه وتلك اللوامع مسماة عند أهل الطريقة أوقاتاً، وكل وقت فإنه محفوف بوجد إليه ما قبله ووجد عليه ما بعده لأنه لما ذاق تلك اللذة ثم فارقها حصل فيه حنين وأنين إلى ما فات منها، ثم إن هذه اللوامع في مبدأ الأمر تعرض له قليلاً فإذا أمعن في الارتياض كثرت، فأشار عليه السلام باللامع إلى نفس ذلك النور وبكثرة برقه إلى كثرة عروضه بعد الإمعان في الرياضة، انتهى.

وهو كما ترى محصّل ما قدمنا حكايته عن الشيخ الرئيس، ومثل هذه المقالات في كتب المتصوفة كثير لكنها لم يرد بها خبر من الأئمة عليهم السلام، مع أنهم رؤساء السالكين وأقطاب العارفين ونادر في أخبارهم عليهم السلام مثل هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام الذي نحن في شرحه، فإنما هو من المجملات وحملها على ما يوافق مذاق أهل الشرع بأن يراد باللوامع أنوار

العلوم الحقّة ولوامع المعارف الإلٰهية البالغة إلى مرتبة الكمال ومقام عين اليقين وببروقها فيضانها عليه من الحضرة الأعلى أولى، والله العالم بحقائق كلام وليّه.

وقوله عليه السلام **(فأبان له الطريق وسلك به السبيل)** أي أظهر ذلك البرق اللامع وأوضح له الطريق المؤدّي إلى رضوانه، وسلك به السبيل المبلغ إلى جنانه، وهو الطريق المطلوب من الله تعالى الاهتداء إليه في قوله: إهدنا الصراط المستقيم.

قال الصادق عليه السلام في تفسيره: يعني أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: يعني أدم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ماضي أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا[٢].

قال في **(الصافي)**: لما كان العبد محتاجاً إلى الهداية في جميع أموره آناً فآناً، ولحظة فلحظة، فإدامة الهداية هي هداية أخرى بعد الهداية الأولى فتفسير الهداية بإدامتها ليس خروجاً عن ظاهر اللفظ[٣].

وفيه من **(معاني الأخبار)** عن الصادق عليه السلام: هي الطريق إلى معرفة الله وهما صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة. فأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم[٤].

قال الفاضل الفيض بعد نقله لتلك الأخبار: ومآل الكل واحد عند العارفين بأسرارهم، وبيانه على قدر فهمك:

أن لكل إنسان من ابتداء حدوثه إلى منتهى عمره انتقالات جبليّة باطنية في الكمال، وحركات نفسانية وطبيعية تنشأ من تكرر الأعمال وتنشأ منها المقامات والأحوال، فلا يزال ينتقل من صورة إلى صورة ومن خلق إلى خلق، ومن عقيدة إلى عقيدة، ومن حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن كمال إلى كمال، حتى يتصل بالعالم العقلي والمقرّبين، ويلحق الملأ الأعلى والسابقين إن ساعده التوفيق وكان من الكاملين، أو بأصحاب اليمين إن كان

---

(١) معاني الأخبار: ٣٣ ح ٤، ووسائل الشيعة: ٢٧/ ٤٩.

(٢) معاني الأخبار: ٣٣ ح ٤، وبحار الأنوار: ٢٤/ ٩ ح ١.

(٣) التفسير الأصفي: ١/ ٧ ح ٣.

(٤) معاني الأخبار: ٣٢ ح ١، وبحار الأنوار: ٨/ ٦٦ ح ٣.

من المتوسطين، أو يحشر مع الشياطين وأصحاب الشمال إن ولاّه الشيطان وقارنه الخذلان في المآل، وهذا معنى الصراط والمستقيم منه إذا سلكه سالكه أوصله إلى الجنة وهو ما يشتمل عليه الشرع كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ـ ٥٣]، وهو صراط التوحيد والمعرفة والتوسط بين الأضداد في الأخلاق والتزام صوالح الأعمال، وبالجملة صورة الهدى الذي أنشأه المؤمن لنفسه ما دام في دار الدنيا مقتدياً فيه بهدي إمامه وهو أدقّ من الشّعر وأحدّ من السيف في المعنى، مظلم لا يهتدي إلا من جعل الله له نوراً كما يمشي به في الناس يسعى عليها على قدر أنوارهم، انتهى.

فإن قلت: إن العارف إذا أحيا عقله وأمات نفسه فيكون واقعاً قصد على الطريق، وسالكاً للسبيل البتة، فما معنى قوله ﷺ: فأبان له الطريق، فإن ظاهره بمقتضى إفادة الفاء للترتيب كون وضوحها وظهورها وسلوكها مترتباً على الإحياء والإماتة.

قلت: وإن كان المكمّل لعقله والمجاهد لنفسه سالكاً سبيل الحق، لكن في سلوك هذا السبيل احتمال خلجان الشك وطريان القواطع عن سلوكه بعروض الوساوس الشيطانية كما قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ـ ١٧]. وأما بعدما أكمل عقله بعلم اليقين وأمات نفسه، واستنار قلبه بأنوار العلم والمعارف، وتجلّى عليه اللوامع الغيبية والألطاف الإلهية، وبلغ في الكمال إلى مرتبة عين اليقين، فإنه يشاهد حينئذ بعين بصيرته الصراط المستقيم الذي هو سبيل مقيم، ويكون مشيه وسلوكه فيه بذلك النور الذي تجلّى له كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، وإذا كان سلوكه به فلا يضلّ ولا يشقى ولحق بالملأ الأعلى.

(وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة) الظاهر أن المراد بالأبواب مقامات العارفين ودرجات السالكين اللاتي بعضها فوق بعض، وأراد بتدافعها إياه: ترقيه من مقام إلى مقام ومن درجة إلى درجة إلى أن ينتهي ترقياته إلى مرتبة حق اليقين.

فوصل به الصراط الأقوم إلى باب الله الأعظم الذي من دخل منه كان سالماً في الدنيا من المعاطب والمهالك ومن الزيغ والضلال، وسالماً في الآخرة من الخزي والنكال، وهو في الحقيقة باب دار السلام الموعود للمذكّرين في قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٦ـ ١٢٧]، والمدعو إليه في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥] أي دار السلامة الدائمة من كل آفة وبليّة مما يلقاه أهل النار والعذاب.

ووصل به أيضاً إلى دار الإقامة وهي دار المخلصين في التوحيد في الدنيا والمقيمين عليه وهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠] والجنات المخصوصة في الآخرة وهي ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٣-٣٥].

قال في **(التفسير)**: جنات عدن، أي جنات إقامة وخُلد، وهي بطنان الجنة أي وسطها، وقيل: هي مدينة في الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى والناس حولهم والجنان حولها، وقيل: إن عدن أعلى درجة في الجنة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من يوم خلقها الله حتى ينزلها أهلها الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله.

(وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة) يعني أنه بعد اندفاعه إلى باب السلامة ودار الإقامة التي هي مقرّ الأمن والراحة استقر فيها، وثبوت رجليه كناية عنه، وحصل له برد اليقين الموجب للطمأنينة الكاملة وهو منتهى سير السالكين وغاية غايات المريدين وآخر مقامات العارفين، وأعلى درجات المقرّبين.

وهو الذي أشار إليه سيد الساجدين عليه السلام فيما قدمنا حكايته عنه عليه السلام قريباً بقوله في وصف العارفين: وطاب في مجلس الأنس سرّهم، وأمن في موطن المخافة سربهم، واطمأنت بالرجوع إلى ربّ الأرباب أنفسهم، وتيقنّت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقرّت بإدراك السؤال ونيل المأمول قرارهم[١].

قال الشارح البحراني: قوله: وثبتت رجلاه، إشارة إلى الطور الثاني للسالك فإنه ما دام في مرتبة الوقت يعرض لبدنه عند لمعان تلك البروق في سره اضطراب وقلق، لأن النفس إذا فاجأها أمر عظيم اضطربت وتقلقلت، فإذا كثرت تلك الغواشي ألفتها بحيث لا تنزعج عنها ولا يضطرب لورودها عليها البدن بل يسكن ويطمئن لثبوت قدم عقله في درجة أعلى من درجات الجنة التي هي قرار الأمن والراحة من عذاب الله. انتهى.

وهو متفرّع على ما قدمنا حكايته عن المتصوفة في **(شرح البروق اللامعة)**، وكلام السجاد عليه السلام غير خال من الإشارة إليه.

---

(١) بحار الأنوار: ٩١/ ١٥١، والصحيفة السجادية: ٤١٨.

ويجوز أن يراد بقرار الأمن والراحة جنة الآخرة كما قال عليه السلام في الخطبة المائة والثانية والتسعين في وصف المتقين: صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة تجارة مربحة يسّرها لهم ربهم.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٧٥ـ ٧٦]، وقال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ـ ٢٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر: ٤٥ـ ٤٦] أي يقال لهم: ادخلوا الجنات بسلامة من الآفات وبراءة من المكاره والمضرات، آمنين من الإخراج منها، ساكني النفس إلى انتفاء الضرر فيها. قال الزجاج: السلام اسم جامع لكل خير لأنه يتضمن السلامة، وقول الملائكة: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [الحجر: ٤٦] بشارة لهم بعظيم الثواب.

وذلك كله **(بما استعمل قلبه وأرضى ربه)** أي حصول ذلك المقام العالي ونيل تلك الكرامات العظيمة له إنما هو بسبب استعمال قلبه في الذّكر والتفكر في الله وإرضائه لربه بالمجاهدة والرياضات والملازمة على الطاعات والقربات، بل خلوّه عن الإرادات والمرادات في جميع الحالات وجعل رضاه تابعاً لرضى مولاه لا يشاء شيئاً إلا أن يشاء الله.

فينادى من عند ربّ العزّة بنداء: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ـ ٣٠]، ويدخل في حزب من قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧ـ ٨]، ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

الترجمة

از جمله کلام آن امام عالی مقام (عليه السلام) است در وصف عارف به حقّ، می فرماید:

به تحقیق زنده کرده است او عقل خود را و کشته است نفس خود را تا این که ضعیف و تخفیف شده اعضای بزرگ او و لطافت پیدا نموده اجزای درشت او و برق زده به قلب او نور ساطعی که به غایت برّاق است، پس ظاهر گردانیده آن نور از برای او راه حق را و راه رفته بر روشنی او در راه حق و دفع کرده او را درهای فضل و کرامت به سوی در سلامت و خانه خلود و اقامت و محکم شده پاهای او با اطمینان و آرامی بدن او در قرارگاه ایمنی و استراحت به سبب استعمال قلب خود در تفکر و معرفت و راضی نمودن پروردگار خود را با جهاد نفس و مواظبت طاعت و عبادت.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والتاسع عشر من المختار في باب الخطب

بعد تلاوة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١ـ ٢]، ورواه في **(البحار)** من كتاب **(عيون الحكم والمواعظ)** لعلي بن محمد الواسطي مرسلاً كما في المتن، وشرحه في فصول:

الفصل الأول

يا لَهُ مَراماً ما أَبْعَدَهُ، وزَوْراً ما أَغْفَلَهُ، وخَطَراً ما أَفْظَعهُ، لَقَدِ اسْتَخْلَوا مِنْهُم أيَّ مُذَّكِرٍ، وتَناوشُوهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ، أَفبِمَصارِعِ آبائِهِمْ يَفْخَرُونَ، أَمْ بِعَدِيدِ الهَلْكَى يَتَكاثَرُونَ، يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْساداً خَوَتْ، وحَرَكاتٍ سَكَنَتْ، ولأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقَّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، ولأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنابَ ذِلَّةٍ أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقامَ عِزَّةٍ، لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصارِ العَشْوَةِ، وضَرَبُوا مِنْهُمْ في غَمْرَةِ جَهالَةٍ.

وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصاتِ تِلْكَ الدِّيارِ الخاوِيَةِ، والرُّبُوعِ الخالِيَةِ، لَقالَتْ: ذَهَبُوا في الأَرْضِ ضُلاّلاً، وذَهَبْتُمْ في أَعْقابِهِمْ جُهّالاً، تَطَؤُونَ في هامِهِمْ، وتَسْتَنْبِتُونَ في أَجْسادِهِمْ، وتَرْتَعُونَ فِيما لَفَظُوا، وتَسْكُنُونَ فِيما خَرَّبُوا، وَإِنَّما الأَيّامُ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ بَواكٍ ونَوائِحُ عَلَيْكُمْ، أُولائِكُمْ سَلَفُ غايَتِكُمْ، وفُرّاطُ مَناهِلِكُمْ، الَّذِينَ كانَتْ لَهُمْ مَقاوِمُ العِزِّ وحَلَباتُ الفَخْرِ مُلُوكاً وسُوَقاً.

سَلَكُوا في بُطُونِ البَرْزَخِ سَبِيلاً، سُلِّطَتْ الأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وشَرِبَتْ مِنْ دِمائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا في فَجَواتِ قُبُورِهِمْ جَماداً لا يَنْمُونَ، وضِماراً لا يُوجَدُونَ، لا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الأَهْوالِ، وَلا يُحْزِنُهُمْ تَنَكُّرُ الأَحْوالِ، وَلا يَحْفِلُونَ بِالرَّواجِفِ، ولا يَأْذَنُونَ لِلْقَواصِفِ، غُيَّباً لا يُنْتَظَرُونَ، وشُهُوداً لا يَحْضُرُونَ، وإِنَّما كانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وأُلافاً فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ وبُعْدِ مَحَلِّهِمْ عَمِيَتْ أَخْبارُهُمْ، وصَمَّتْ دِيارُهُمْ، وَلٰكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وبِالسَّمْعِ صَمَماً، وبِالحَرَكاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ في ارْتِجالِ الصِّفَةِ صَرْعىٰ سُباتٍ[١].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٣٣، وتفسير نور الثقلين: ٣/ ٥٥٤ ح ١٢٥.

اللغة

(**الزّور**) بفتح الزّاء وسكون الواو، اسم يطلق على الواحد والجمع كالضيف فيراد فيه الزائر والزائرون، وكذلك الزور بضم الزاء وفتح الواو و (**الخطر**) محرّكة الإشراف على الهلاك و (**أي مذّكر**) بصيغة اسم الفاعل من التذكير. وفي بعض النسخ: أي مدّكر مصدر ميمي من الإدكار وأصله مدتكر قلبت تاؤه دالاً وأدغم و (**خوت**) الدار وخويت خيّاً وخواء وخواية تهدّمت وخلت من أهلها، وأرض خاوية خالية من أهلها، والخوا بالقصر والمدّ خلو الجوف من الطعام.

و (**الجناب**) بفتح الجيم الفناء و (**الحجى**) العقل والفطنة وهو حجى كفتى أي جدير و (**العشوة**) كالعشا مقصورة والعشاوة سوء البصر بالليل و (**ضرب**) في الماء سبح، وضرب في الأرض سار، قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ١٠٦]. و (**غمرة**) الشيء شدّته ومعظمه، وغمر الماء كثر، والغمر عرصات وأعراص وعراص و (**الربوع**) جمع الربع وهي الدار حيث كانت والمحلّة والمنزل و (**الهام**) جمع الهامة وهي الرأس.

و (**تستنبتون**) بالنون من النبات، ويروى بالثاء المثلثة بدل النون و (**لفظه**) رماه من فِيهِ و (**السّلف**) محركة كل من تقدمك من آبائك وأقوامك وغيرهم والجمع أسلاف وسلاف و (**الغاية**) الحد الذي ينتهي إليه الشيء و (**الفرط**) محركة المتقدم إلى الماء يطلق على الواحد والجمع و (**المنهل**) المشرب والموضع الذي فيه المشرب والمنزل يكون بالمفازة.

و (**المقاوم**) المقامة كالمفاوز والمفازة وهي المجلس، وقال الشارح المعتزلي: جمع القوم وهي الخشبة التي يمسكها الحراث و (**حلبات**) جمع حلبة كعرصات وعرصة وهي الخيل تجمع للسباق من كلّ أوب لا تخرج من اصطبل واحد و (**سوق**) وزن صرد جمع سوقة بالضم الرعية و (**الفجوات**) جمع فجوة وهي الفرجة وساحة الدار و (**لا ينمون**) بتخفيف الميم من نمى ينمي وينمو نموّاً ونمياً ونماء زاد ويروى بالتشديد من النميمة و (**الضمار**) وزن كتاب كل ما لا يرجى رجوعه من المال والدين وغيره.

و (**حفل**) القوم حفلاً كاحتفل وتحفّل اجتمعوا و (**أذن**) إليه وله من باب علم استمع معجباً و (**الآف**) جمع آلف مثل زهاد وزاهد و (**ارتجل**) الكلام تكلم به من غير أن يهيّأه و (**صرعى**) جمع صريع وهو المصروع من الصرع وهو الطرح على الأرض و (**السبات**) كغراب النوم.

الإعراب

قوله عليه السلام: يا له مراماً ما أبعده، النداء للتعجب دخل على المتعجب منه فإن هذا النداء إنما يستعمل في مقامين:

أحدهما: أن يرى المتكلم أمراً عظيماً عجيباً فينادي جنسه كقولهم: يا للماء وللدواهي إذا تعجبوا من كثرتهما.

والثاني: أن يرى أمراً يستعظمه، فينادي من له نسبة إليه ومكنة فيه نحو: يا للعلماء، وغلب في المنادي المتعجب منه جرّه باللام كما في المنادي المستغاث وقد يستغنى عنها بالألف مثل: يا عجباً.

والضمير في له مبهم يفسره التمييز بعده، وهذا من جملة المواضع التي جوّزوا فيها عود الضمير على المتأخر لفظاً ورتبة كما في نعم رجلاً زيد، فإن فاعل نعم ضمير يفسّره رجلاً وكذلك قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ [الأعراف: ١٧٧] و ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ﴾ [الكهف: ٥]، وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه، وأصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، ثم وضع هي موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ويبيّنها.

ومراماً منصوب على التمييز كما أشرنا إليه وهو رافع للإبهام عن الضمير مقدّر في المعنى بمن، أي يا له من مرام، وجملة ما أبعده، صفة لمراماً، وما فيها للتعجب مبتدأ خبره أبعده كما في قولهم: ما أحسن زيداً. قال سيبويه: هي نكرة تامة بمعنى شيء لتضمنها معنى التعجب وما بعدها من الجملة الفعلية خبر، وقال الفراء: إنها استفهامية، وهو المنقول عن الكوفيين وهو موافق لقولهم بإسمية: أفعل، لأن الاستفهام المشوب بالتعجب لا يليه إلا الأسماء نحو ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]، و ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ﴾ [النمل: ٢٠].

قوله: **(وزوراً ما أغفله)**، مأخوذ من فعل مفتوح العين من باب قعد، ولكن بعد نقله إلى فعل مضموم العين لتصريح علماء الأدبية بأن فعل التعجب لا يبنى إلا من فعل مضموم العين في أصل الوضع أو من المنقول إلى فعل إذا كان من غيره نحو ما أضرب وما أقتل ليدل بذلك على أن التعجب منه صار كالغريزة لأن باب فعل موضوع لهذا المعنى.

وقوله: **(أي مذّكر)**، بنصب أي﴿ لكونها حالاً من ضمير منهم كما في قولك مررت بزيد أيُّ رجل أي كاملاً في الرجولية، وقوله: أفي مصارع آبائهم الاستفهام للتوبيخ والإنكار، وقوله: يرتجعون منهم أجساداً، الجملة لا محل لها من الإعراب لأنها استئناف بياني.

وقوله: **(الذين كانت لهم مقاوم العزّ)** الجملة في محل الرفع صفة لفرّاط، ولهم خبر كانت قدم على الاسم للتوسع، وقوله: ملوكاً وسوقاً منتصبان على الحال من لهم، وجماداً وضماراً حالان من ضمير أصبحوا إن كانت تامة وإلا فخبران لها، وقوله: طول عهدهم، متعلق بقوله: عميت، وقدم عليه للتوسع.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام مسوق في مقام الموعظة والنصيحة وإيقاظ المخاطبين من سبات الغفلة، وحضهم على الاعتبار بالماضين من الأباء والأسلاف والأقرباء والآلاف والأوكار بأهل المقابر حيث نزلوا من معاقل العزّ وذروة القصور إلى وهدة القبور فعميت عنهم الآثار وانقطعت عنهم الأخبار.

قاله عليه السلام بعد تلاوة قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١ ـ ٢]، أي شغلكم التفاخر في الكثرة والتغالب بها.

وذكر المفسرون في تفسيره وجهين:

الأول: أن المراد به التكاثر بالعدد، روي أن بني عبد مناف وبني سهم بن عمرو تفاخروا وتعادّوا وتكاثروا بالسادات والأشراف؛ فقال كل من الفريقين: نحن أكثر منكم سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً، فكثرهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم: إن البغي أفنانا في الجاهلية فعدّوا مجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم، ففعلوا فكثرهم، فنزلت الآية والمعنى: أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات فعبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكماً بهم، وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان، يفتخرون بذلك.

الوجه الثاني: أن المراد به التكاثر بالمال، والمعنى ألهاكم التكاثر بالأموال وطلب تكثيرها والحرص على جمعها إلى أن متم وقبرتم مضيّعين أعماركم في طلب الدنيا معرضين عما يهمّكم من السعي للآخرة فتكون زيارة القبور كناية عن الموت.

وعلى كلا الوجهين فالآية واردة في مقام التوبيخ والتقريع على التكاثر، وحذف متعلق ألهاكم ليذهب الوهم والخيال فيه كل مذهب، فيعم جميع ما يحتمله المقام من الإلهاء عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات في المعرفة والطاعة والتدبّر والتّفكر، ومحصله إلهاء التكاثر بالأمور الدنيوية عن الأمور الدينية والأخروية.

وربما أيّد الوجه الثاني بما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه تلا هذه السورة فقال: «**يقول ابن آدم مالي ومالك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**»[1].

ويدل على الأول كلام أمير المؤمنين عليه السلام هنا لإنكاره عليهم التكاثر بعديد الهلكى والتفاخر بمصارع الأباء وتعجبه من التكاثر والتفاخر مزيد التعجب بقوله: (**يا له مراماً ما**

---

(١) أمالي الطوسي: ٥١٩ ح ١١٤١.

أبعده) وفيه من الدلالة على المبالغة في التعجب ما لا يخفى، حيث أتى بنداء التعجب أولاً وبلام التعجب ثانياً، وبالضمير المبهم المفسر بما بعده لوقعه في النفوس ثالثاً وبما التعجب رابعاً، وبأفعل التعجب خامساً والمعنى: يا عجباً من مرام هو من البعد بمكان، وبالغ في التعجب به غايته.

والمراد بالمرام هو ما كان مقصدهم من التفاخر من إثبات الفخر والمنقبة لأنفسهم ولو بعدد الأموات، فبيّن عليه السلام أن ذلك المرام بعيد جداً، لأن الفخر بالميت كالفخر بالجماد في جنب الإنسان فحصوله به غير ممكن وطلبه تحصيل لما يتحصل، وما شأنه ذلك فهو أحرى بأن يتعجب منه.

وبعد التنزل عن ذلك نقول: إن التفاخر إنما يكون بإثبات الإنسان نوعاً من أنواع الكمال لنفسه، وخيال الكمال ثلاثة: أحدها في النفس، والثاني: في البدن، والثالث: فيما له ربط بالبدن من خارج.

أما الذي في النفس فهي العلوم والمعارف والأخلاق الفاضلة التي بها تُنال السعادة الأبدية.

وأما الذي في البدن فهي الصحة والجمال.

وأما الذي له ربط بالبدن فقسمان: أحدهما: ضروري وهو المال والجاه، والآخر: غير ضروري وهو القوم والأقرباء، وهذا الذي عددنا في المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه يجعل المال والجاه فداء له، وأما الكمال البدني من الصحة والسلامة من الآفات فإنما يريده العقل للنيل به إلى الكمال النفساني، فإنه ما لم يكن صحيح البدن لا يتفرّغ لاكتساب الكمال النفساني المحصّل للسعادة الدائمة.

إذا عرفت ذلك فنقول: العاقل ينبغي أن يكون دائماً نظره إلى الأهم والأفضل ويقدمه على غيره، فالتفاخر بكثرة العدد وكذا بالمال والجاه تفاخر بأحسن مراتب الكمال ومانع من تحصيل السعادة النفسانية بالعلم والعمل، فيكون ذلك ترجيحاً لأحسن المراتب في الكمال على أشرفها وأفضلها وهو مورد التعجّب.

وقوله **(وزوراً ما أغفله)** والكلام في إفادته للمبالغة كالكلام في سابقه.

والمراد بالزور: الزائرون للمقابر المتفاخرون بهم، والتعجب من غفلتهم لجعلهم الأموات التي هي محل الاعتبار مناطاً للافتخار وموضع العبرة عدداً للكثرة غافلين عن الصواب معرضين عما ينفعهم في المآب.

وفيه أيضاً من الدلالة على تماديهم في الغفلة ما لا يخفى، لاشتراطهم في فعل التعجب أن لا يبني إلا مما وقع واستمر حتى يستحق أن يتعجب منه، ويضاف إلى ذلك ما قدمناه من اشتراطهم أيضاً بناءه من فعل مضموم العين ليدل على أن المتعجب منه صار كالغريزة.

وقوله **(وخطراً ما أفظعه)** والكلام فيه كما في سابقيه.

والمراد بالخطر الهلاك، هلاك من في المقابر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢]، وأشار عليه السلام بقوله: ما أفظعه إلى شدة شناعته وغاية قباحته، لأن كل شنيع حقير عند شناعة الموت، فإن المرءَ عند الموت وحالة الاحتضار في سكرة ملهية وغمرة كارثة وأنّة موجعة وجذبة مكربة وسوقة متعبة. وهو بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه، يردد طرفه بالنظر في وجوههم يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم، ثم قبض بصره كما قبض سمعه وبعدما خرج الروح من جسده صار جيفة بين أهله قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه، ثم حمل إلى دار غربته ومنقطع زورته، وابتلى هنالك ببهتة السؤال وعثرة الامتحان متقلباً بين أطوار الموتات وعقوبات الساعات ونزل الحميم وتصلية الجحيم، فأي شيء يكون أعظم فظاعة منه؟.

ولما نبّه عليه السلام على عظم فظاعة هلاك المزورين تعريضاً به على الزائرين حيث لم يعتبروا بهم مع كونهم محل العبرة أكده بقوله:

(لقد استخلوا منهم أيّ مذّكر) أي استخلوا الديار، فالمفعول محذوف، والمعنى أن الزائرين المتفاخرين بالأموات وجدوا الديار خالية منهم، أي من المزورين حال كونهم كاملين في التذكير والإدكار.

وهذا المعنى أقرب وأنسب مما ذكره الشارح المعتزلي حيث قال: أراد باستخلوا ذكر من خلا من آبائهم أي من مضى، والمعنى أنه عليه السلام استعظم ما يوجبه حديثهم عما خلا وعمن خلا من أسلافهم وأسار أسلافهم من التذكير فقال: أي مذّكر وواعظ في ذلك؟[1].

(وتناوشوهم من مكان بعيد) أي تناولوهم من مكان بعيد بينهم وبينهم بعد المشرقين بل يزيد، لبقاء المتناوشين في الدنيا ومصير الآخرين إلى الآخرة، فكيف يمكن من في الدنيا تناول من في الآخرة وتفاخره به وكسب الفخر والشرف منه لنفسه وقد قال تعالى في عكس ذلك: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢] أي كيف يمكن لهم تناول الإيمان في الآخرة وقد كفروا به في الدنيا، يعني ما محله الدنيا لا يمكن أن يتناوله من هو في الآخرة لغاية بُعد

(١) بحار الأنوار: ٧٩/ ١٥٩.

الدارين وتباعد النشأتين.

ولما ذكر تناوشهم من مكان بعيد تعريضاً به عليهم أردفه بقوله: **(أفبمصارع آبائهم يفخرون)** تقريعاً وتوبيخاً، وأكد بقوله: **(أم بعد يد الهلكى يتكاثرون)** إنكاراً.

ولما كان هنا مقام أن يسأل عن علة إنكاره للتكاثر الهلكى وجهة تقريعه وتوبيخه لهم به، أجاب عن ذلك بقوله: **(يرتجعون منهم أجساداً)** يعني استحقاقهم للتوبيخ والملام من جهة أنهم يطلبون من الهلكى رجوع أجسادهم إلى الدنيا وهو طلب غير عقلاني لأن تلك الأجساد قد **(خوت)** أي خلت من الأرواح وارتفعت عليها الحياة فرجوعها إلى الدنيا محال وطالب المحال يعدّ في زمرة السفهاء ويستحق الطعن والتعزير والإنكار.

فإن قلت: ما معنى ارتجاعهم للأجساد؟

قلت: إنهم حيث تكاثروا بالأموات وتفاخروا بهم فكأنهم طلبوا منهم أن يرجعوا إلى الدنيا ويدخلوا في حزبهم فيكثر بهم عددهم ويتمّ به فخرهم وشرفهم.

(و) يطلبون أيضاً رجوع **(حركات سكنت)** أي يرتجعون من الأموات حركات أبدانهم ليتحركوا إليهم ويدخلوا في زمرتهم، وهو أيضاً طلب للمحال لأن تلك الحركات قد فنت ونفدت وتبدّلت بالسكون بطروء الموت عليها وما هو كذلك فلا يطلبه العاقل.

ثم أكد التوبيخ بقوله **(ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً)** لأن مقامهم مقام الاعتبار لا مقام الافتخار **(ولأن يهبطوا بهم جناب ذلّة أحجى)** وأجدر **(من أن يقوموا بهم مقام عزّة)** لأنهم بأنفسهم في بيت الوحدة ودار الوحشة على غاية الابتذال والذلّة، صاروا عظاماً نخرة وأجزاء متفتّتة وجيفاً منتنة يهرب منها الحيوان، ويتنفر منها كل إنسان ويكرهها لشدة الإنتان، بل صاروا أوراثاً في أجواف الديدان، ومن هذا حاله فينبغي أن يهرب منه ويتنفر لا أن يتعزز به ويفتخر، بل ينبغي أن يدفع قرابته وتنكر لأن النسبة إليه تورث الذلة وتبطل العزّة بجلب الابتذال والانكسار لا الشرف والافتخار.

(لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة) أي بأبصار مريضة، لذلك خفيت عليهم معايبهم **(وضربوا منهم في غمرة جهالة)** أي خاضوا من ذكر هؤلاء الموتى في بحر الجهل والغفلة ولذلك افتخروا بمصارعهم.

(ولو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار) أي ديارهم **(الخاوية)** منهم **(والربوع)** أي منازلهم **(الخالية)** عنهم **(لقالت)** بلسان حالها: **(ذهبوا في الأرض ضلاّلاً)** هالكين **(وذهبتم في أعقابهم جهّالاً)** غافلين **(نطأون في هامهم)** أي تمشون في رؤوسهم؛ وتخصيصها بالذكر لأنها أشرف الأعضاء والوطء عليها أبلغ في إظهار استهانتهم النافية للمفاخرة بهم المسوق له الكلام،

وقد أخذ أبو العلاء المعري هذا المعنى في نظمه، قال:

خفف الوطء ما أظن أديم | الأرض إلاّ من هذه الأجساد
ربّ لحد قد صار لحداً مراراً | ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين | من عهود الآباء والأجداد
صاح هذا قبورنا تملأ الأرض | فأين القبور من عهد عاد
سر إن استطعت في الهواء رويداً | لا اختيالاً على رقاب العباد

(وتستنبتون في أجسادهم) أي تنبتون فيها النباتات وتزرعون الزراعات لأن أديم الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الأموات يكون الزرع لا محالة في التراب المستحيل من أجزاء الحيوانات، وعلى رواية: تستثبتون بالثاء، فالمراد: أنكم تنصبون في أجسادهم الأشياء المثبتة من الأوتاد والدعائم والأساطين وغيرها.

(وترتعون فيما لفظوا) أي تأكلون مما تركوا **(وتسكنون فيما خرّبوا)** أي تسكنون في بيوت ارتحلوا عنها وفارقوها، فإن البيوت إنما تكون عامرة بأهلها، فالتخريب كناية عن الارتحال، أو المراد أنهم لم يعمروها بالعبادة والطاعات، وقد فسرت العمارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، بذلك قالوا: عمارتها شغلها بالعبادة وتجنّب أعمال الدنيا واللهو وإكثار زيارتها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«قال الله تعالى: إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زوّاري فيها عمّارها، فطوبى لعبد تطهّر في بيته ثم زارني في بيتي فحقّ على المزور أن يكرم زائره»**[1].

(وإنما الأيام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائح عليكم) يعني الأيام والليالي التي بينكم وبين الأموات وهي بقية زمان حياتكم وتحدوكم لالتحاقكم بهم، تبكي وتنوح عليكم لمفارقتها إياكم.

(أولئكم سلف غايتكم) أي المتقدمون إلى الموت الذي هو غايتكم وغايتهم لانتهاء كل ذي روح إليها **(وفرّاط مناهلكم)** أي سابقوكم إلى مشارب الآخرة ومنازلها، وردُوا إليها فشربوا من كأس الموت المصبرة وتجرّعوا من نغب سهام الآخرة وغصص أقداح البرزخ جرعة بعد جرعة.

(الذين كانت لهم مقام العزّ) أي مجالسه **(وحلبات الفخر)** أي خيل السباق، والصافنات الجياد التي يفتخر بها، ويحتمل أن تكون حلبات الفخر استعارة عن أسباب الفخر التي توجهت

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٧، ووسائل الشيعة: ١/ ٢٦٧ ح ٤.

إليهم من كل جهة كما تجمع الحلبات من كل أوب **(ملوكاً وسوقاً)** أي بعضهم سلاطين وبعضهم رعايا.

(سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً)، قال الشارح المعتزلي: البرزخ الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع القبر لأنه حاجز بين الميت وبين أهل الدنيا، ويجوز أن يريد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور، والأول أقرب إلى مراده عليه السلام لأنه قال: في بطون البرزخ، ولفظة البطون تدل على التفسير الأول، انتهى.

أقول: إما أن البرزخ بمعنى الحاجز فعليه قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٠].

وأما أنه من حين الموت إلى وقت البعث فعليه قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وأما كونه بمعنى القبر فيدل عليه ما في **(البحار)** عن علي بن الحسين عليه السلام أنه تلا هذه الآية وقال: هو القبر، وإن لهم فيه لمعيشة ضنكاً، والله إنّ القبر لروضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران[1]، وفي **(مجمع البحرين)** في حديث الصادق عليه السلام: البرزخ القبر وهو الثواب والعقاب وبين الدنيا والآخرة[2].

وأما أن المراد بالبرزخ هنا القبر، فيؤيده ما روي عن بعض النسخ من بطون القبور بدل بطون البرزخ.

وأما تأييد إرادته بلفظة البطون كما زعمه الشارح فلا، بل دلالتها على المعنى الثاني أظهر، إذ لو أراد الأول لكان الأنسب أن يقال: في بطن البرزخ، بصيغة المفرد، وإن كان يمكن تصحيحه بجعل اللام في البرزخ للجنس. ولعل نظر الشارح إلى أن البرزخ بالمعنى الثاني ليس له بطن بخلاف القبر، ويدفعه أن بطن كل شيء جوفه وما خفي منه، فيراد ببطون البرزخ على المعنى الثاني: ما خفي علينا واحتجب عنا نشأته وحالاته.

وكيف كان شبّه مكثهم في البرزخ إلى حين البعث الذي هو غايتهم بمن سلك طريقاً يسلك به إلى منزله، فاستعار عليه السلام له لفظ السلوك.

ثم أشار عليه السلام إلى بعض حالاتهم البرزخية فقال: **(سلطت الأرض عليهم فيه)** أي في

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٧١ ح ٤٩٨، والأمالي: ٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ٦/ ٢١٨ ح ١٢، وميزان الحكمة: ١/ ٢٥٢ ح ٣٤٧.

البرزخ (**فأكلت لحومهم وشربت من دمائهم**) نسبة الأكل والشرب إلى الأرض من باب المجاز والاستعارة، فأن المأكول والمشروب يصيران جزءاً من بدن الآكل والشارب، فحيث إن أبدانهم في البرزخ تصير بعد البلى تراباً وتنقلب بالأجزاء الأرضية فكأن الأرض كانت لهم آكلة شاربة.

(**فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون**) أي صاروا في فرج القبور بمنزلة الجماد الذي لا ينمو ولا يزيد لبطلان حياتهم بالموت، والنمو والزيادة من توابع الحياة (**وضماراً لا يوجدون**) كناية عن كونهم غيّباً لا يرجى رجوعهم.

(**لا يفزعهم ورود الأهوال**) أي لا يخافون من توارد أهاويل الدنيا وأفزاعها عليهم لخروجهم منها وكونهم من أهل العالم الآخر (**ولا يحزنهم تنكّر الأحوال**) أي تقلّب الحالات الدنيوية وتغيّراتها الموجبة لحزن أهلها.

(**ولا يحفلون بالرواجف**) أي لا يجتمعون بالزلازل ولا يبالون بها، ولعله كناية عن عدم مبالاتهم بالدواهي الدنيوية الموقعة في الاضطراب (**ولا يأذنون للقواصف**) أي لا يصغون إلى الأصوات الشديدة الهائلة كصوت الرعد والأعاصير وغيرها.

(**غيباً لا ينتظرون**) أي لا ينتظر الناس عودهم (**وشهوداً لا يحضرون**) أي شاهدين صورة حاضرين بالأبدان غير حاضرين حقيقة لغيابهم بالأرواح (**وإنما كانوا جميعاً فتشتتوا**) وكانوا مجتمعين فتفرّقوا (**وألآفاً فافترقوا**) أي مؤتلفين فافترقوا بالموت، كما قال الشاعر:

وكنّا باجتماع كالثريا ففرّقنا الزمان بنات نعش

(**وما عن طول عهدهم**) وزمانهم (**و**) لا (**بعد محلّهم**) ومكانهم (**عميت**) أي خفيت (**أخبارهم وصمّت ديارهم**) إسناد الصمم إلى الديار من التوسع كما في قولهم: سال الميزاب وجرى النهر.

والمراد أن خفاء أخبارهم عن الأحياء ليس من جهة طول العهد وبُعد المكان بين الطرفين، وكذلك صمم ديارهم أي قبورهم ومزارهم حيث لا تجيب داعياً ولا تكلّم منادياً ليس من جهة عدم وصول ندائهم وبلوغ أصواتهم إليها ببعد المسافة (**ولكنهم سقوا كأساً**) اليؤس للتفخيم أي كأساً وبيئة فيها سمّ ناقع شديد المرارة عظيم التأثير وهي كأس الموت (**بدّلتهم بالنطق خرساً**) فلا يستطيعون أن يجيبوا داعياً ولا أن يخبروا عن حالهم و(**بالسمع صمماً**) فلا يقدرون أن يستمعوا منادياً ويردّوا جواب كلامهم (**وبالحركات سكوناً**) أي حركات الألسنة والصماخ وسائر الأعضاء والجوارح سكونها، فعجزوا عن التكلم والإصغاء وعن الحركة والسعي إلى الأحياء وعن إيصال أحوالهم إليهم.

(**فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات**) يعني إذا وصفهم واصف مرتجلاً بلا سبق تأمل

وروية شبّههم بمصروعي سبات، أي يقول: إنهم سقطوا في الأرض للنوم فإن النوم والموت أخوان ولا شيء أشد شباهة من النائم بالميت ولا من الميّت بالنائم.

وقد أخذ الماتن الشريف أبو الحسن الرضي معنى الفقرات الأخيرة في نظمه حيث قال:

ولقد حفظت له فأين حفاظه ... ولقد وفيت له فأين وفاؤه

أدعا الدعاء فلم يجبه قطيعة ... أم ضلّ عنه من البعاد دعاؤه

هيهات أصبح سمعه وعيانه ... في الترب قد حجبتهما أقذاؤه

يمشي ولين مهاده حصباؤه ... فيه ومؤنس ليله ظلماؤه

قد قلّبت أعيانه وتنكّرت ... أعلامه وتكشفت أضواؤه

معف وليس للذّة إعفاؤه ... مغض وليس لفكرة إغضاؤه

والبيت الأخير مأخوذ من آخر كلامه عليه السلام وهو قوله: صرعى سبات.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت و فصاحت نظام آن امام رفيع المقام است بعد از تلاوت آيه مباركه "الهيكم التّكاثر حتّى زرتم المقابر".

مروى است از مقاتل و كلبى كه بنى عبد مناف و بنى سهم بر يكديگر تفاخر كردند به كثرت مردم قبيله و هر يكى گفتند كه مردمان ما بيشترند و سادات و اشراف در ميان ما زيادتر، چون تعداد مردمان يكديگر كردند و همه را شمردند بنى مناف غالب آمدند، بنى سهم گفتند بسيارى از مردمان ما را در زمان جاهليت كشتند، بايد مرده و زنده قبيله طرفين را بشماريم، چون بدين نوع شمردند بنى سهم زياد آمد، حق سبحانه و تعالى در مزمّت ايشان سوره تكاثر را نازل ساخت و فرمود: "الهيكم التكاثر" يعنى مشغول كرد شما را مفاخرت بر يكديگر به بسيارى قبيله، "حتى زرتم المقابر" تا اين كه گورستانها را زيارت كرديد، يعنى از زندگان گذشتيد و مردگان را به شمار آورديد. حضرت امير مومنان بعد از تلاوت اين آيه فرمودند:

اى بسا تعجب از مقصودى كه چه قدر است آن و از زيارت كننده قبورى كه چه اندازه با غفلت است آن و از هلاكتى كه بسيار زشت و شنيع است آن، به تحقيق كه خالى يافتند شهرها را از ايشان در حالتى كه كامل يادآورنده بودند و تناول كردند ايشان را از مكان دورى، پس آيا به مكان هاى افتادن و مردن پدران خود فخر مى كنند يا به شماره هلاك شدگان اظهار كثرت مى نمايند؛ طلب برگشتن مى كنند از ايشان بدن هايى را كه افتاده اند به زمين و حركاتى را كه مبدل شده به سكون و هرآينه اگر شوند آن هلاك شدگان مايه عبرت ايشان سزاورتر است از اين كه شوند مايه مفاخرت ايشان و اگر نزول كنند به سبب ايشان در ناحيه حقارت، خردمندانه تر است از اين كه بايستند به سبب ايشان در مقام عزّت، به تحقيق كه نگاه كردند به سوى ايشان به ديده هاى معيوب شب كور و سير كردند از ايشان در درياى جهالت. و اگر استنطاق نمايند از حال ايشان عرصه هاى اين شهرهاى خراب شده و منزلهاى خالى از سكنه را، هرآينه مى گويند آن عرصه ها به زبان

حال که رفتند ایشان در زیر زمین در حالتی که گمراهان بودند و رفتید شما در عقب ایشان در حالتی که بودید گام می گذارید در کلّه های سر ایشان و نباتات می رویانید در جسدهای ایشان و چرا می کنید در چیزی که ایشان انداختند و ساکن می شوید در مکانی که ایشان خراب کردند و جز این نیست که روزها میان شما و میان ایشان گریه کننده گان و نوحه کننده گان اند بر شما، ایشان پیش روندگان مقصد شمایند و پیش رفتگان منزلگاه شما، آن چنان اشخاصی که بود از برای ایشان مقامها یا قائمه های عزّت و اعتبار و مایه های مفاخرت و افتخار، در حالتی که پادشاهان و رعایا بودند.

راه رفتند در شکمهای عالم برزخ، مسلّط گردیده شد زمین بر ایشان در آن برزخ قبر، پس خورد از گوشت های ایشان و آشامید از خون های ایشان، پس صباح کردند در شکافهای قبرهای خودشان در حالتی که جمادی بودند که نموّ نمی کردند و غایبی بودند که امید مراجعت ایشان نبود، نمی ترساند ایشان را وارد شدن خوفهای دنیا و غمگین نمی سازد ایشان را تغیّر و انقلاب حالات دنیا و مجتمع نمی شوند به سبب خوف زلزله ها و گوش نمی دهند آوازهای سخت و مهیب دنیا را، غایبانی باشند که انتظار کشیده نمی شوند و حاضرانی باشند که حاضر نمی شوند.

و جز این نیست که بودند مجتمع با یکدیگر، پس متفرق شدند و با الفت بودند، پس جدا گشتند و نه از جهت طول عهد و نه از جهت دوری مکان. کور و پنهان گردید خبرهای ایشان و کر گردید شهرهای ایشان ولیکن آشاماندند به ایشان جام مرگی را که تبدیل کرد گویایی ایشان را به لالی و شنوایی ایشان را به کری و حرکت را به سکون، پس گویا ایشان در ارتجال صفت افتادگان بی هوشی اند، یعنی اگر کسی بخواهد بدون فکر و مقدمه بیان حال و صفت ایشان نماید می گوید که افتاده و خوابیده اند و بی هوش اند.

الفصل الثاني

جِيرانٌ لا يَتَأَنَّسُونَ، وأَحِبّاءُ لا يَتَزاوَرُونَ، بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَى التَّعارُفِ، وانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبابُ الإِخاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وبِجانِبِ الهَجْرِ وَهُمْ أَخِلاّءُ، لا يَتعارَفُونَ لِلَيْلٍ صَباحاً، ولا لِنَهارٍ مَساءً، أَيُّ الجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شاهَدُوا مِنْ أَخْطارِ دارِهِمْ أَفْظَعَ مِمّا خافُوا، ورَأَوْا مِنْ آياتِها أَعْظَمَ مِمّا قَدَّرُوا، فَكِلْتا الغايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلىٰ مَباءَةٍ فاتَتْ مَبالِغَ الخَوْفِ والرَّجاءِ، فَلَوْ كانُوا يَنْطِقُونَ بِها لَعَيُّوا بِصِفَةِ ما شاهَدُوا وما عايَنُوا، ولَئِنْ عَمِيَتْ آثارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصارُ العِبَرِ، وسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذانُ العُقُولِ، وتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهاتِ النُّطْقِ، فَقالُوا: كَلَحَتِ الوُجُوهُ النَّواضِرُ، وخَوَتِ الأَجْسادُ النَّواعِمُ، ولَبِسْنا أَهْدامَ البِلىٰ، وتَكاءَدَنا ضِيقُ المَضْجَعِ، وتَوارَثْنا الوَحْشَةَ، وتَهَكَّمَتْ عَلَيْنا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحاسِنُ أَجْسادِنا، وتَنَكَّرَتْ مَعارِفُ صُوَرِنا، وطالَتْ في مَساكِنِ الوَحْشَةِ إِقامَتُنا، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، ولا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الغِطاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْماعُهُمْ بِالهَوامِّ فَاسْتَكَّتْ، واكْتَحَلَتْ أَبْصارُهُمْ بالتُّرابِ فَخَسَفَتْ، وتَقَطَّعَتِ الأَلْسِنَةُ في أَفْواهِهِمْ بَعْدَ ذَلاقَتِها، وهَمَدَتِ القُلُوبُ في صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِها، وعاثَ فِي كُلِّ جارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلىً سَمَّجَها، وسَهَّلَ طُرُقَ الآفَةِ إِلَيْها مُسْتَسْلِماتٍ، فَلا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجانَ قُلُوبٍ، وأَقْذاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ مِنْ كُلِّ فَظاعَةٍ صِفَةُ حالٍ لا تَنْتَقِلُ، وغَمْرَةٌ لا تَنْجَلِي[1].

اللغة

(المباءة) بالمد والفتح المنزل، كالبيأة والباءة، ويقال: إن المباءة هو الموضع الذي تبوء أي ترجع إليه الإبل، ثم جعل عبارة عن المنزل، وقوله **(لعيوا)** بتشديد الياء من عيّ بالأمر وعن حجته يعيي من باب تعب عيّاً عجز عنه، وقد يدغم في الماضي ويقال: عيّ، وعليه قوله: لعيّوا، وفي **(شرح المعتزلي)**: وروي لعيوا بالتخفيف كما تقول: حيوا، قالوا: ذهب الياء الثانية لالتقاء الساكنين لأن الواو ساكنة وضمّت الياء الأولى لأجل الواو.

و **(كلح)** يكلح من باب منع كلوحاً تكشر في عبوس و **(نضر)** نضارة حسن و **(الأهدام)** جمع الهدم بالكسر الثوب البالي والمرقع و **(تكاءد)** في الأمر وتكادني من باب تفاعل وتفعّل

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٣٥.

شقّ عليّ، وعقبة كؤود أي صعب و (**التهكم**) التهدم في البئر ونحوه، وفي بعض النسخ: **تهدمت بدل تهكمت**، قال (**الشارح المعتزلي**): يقال: تهدّم فلان على فلان غضباً إذا اشتدّ غضبه، ويجوز أن يكون تهدّمت أي تساقطت، قال: وروي تهكمت بالكاف وهو كقولك: تهدمت بالتفسيرين جميعاً.

و (**رسخ**) الغدير يرسخ من باب منع رسوخاً نشّ ماؤه ونضب فذهب، ورسخ المطر نضب نداؤه في الأرض و (**الهوام**) بتشديد الميم جمع الهامة بالتشديد أيضاً مثل دواب ودابة قال الأزهري: ما له سمّ يقتل كالحية، وقال الفيومي: وقد تطلق الهوام على ما لا تقتل كالحشرات، ولسان (**ذلق**) ذرب وذلق السكين حدده و (**الهمود**) الموت وطفؤه النار وذهاب حرارتها و (**عاثه**) يعيثه من باب ضرب أفسده.

الإعراب

قوله: (**وهم جميع**)، الجملة في محلّ النصب على الحال، وكذلك قوله: (**وهم أخلاء**)، وقوله: (**أي الجديدين**) مبتدأ خبره كان، وقوله: (**ولئن عميت**)، الواو للقسم والمقسم به محذوف واللام موطئة عند سيبويه وزائدة عند غيره، وجواب القسم قوله: (**لقد رجعت**) واستغنى به عن جواب الشرط كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ [الحشر: ١٢] وهذه قاعدة مطردة، فإن القسم والشرط إذا اجتمعا في الكلام فالجواب للمتقدم منهما ويستغنى عن جواب الثاني لقيام جواب الأول مقامه، والقسم المقدّر في حكم المقسم الملفوظ كما صرح به ابن الحاجب في (**الكافية**) ونجم الأئمة الرضي في (**شرحه**)، وقوله: (**وقد ارتسخت**)، الجملة في محل النصب على الحال من مفعول مثلتهم، وقوله: (**مستسلمات**) حال من ضمير إليها، وقوله: (**لرأيت أشجان قلوب**) جواب (**لو مثلتهم**).

المعنى

اعلم أنه لما افتتح كلامه في الفصل السابق بالتوبيخ والتعريض على المتكاثرين بالأموات، واستطرد بشرح حال الموتى في البرزخ وإبانة فظائعهم أتبعه بهذا الفصل للتنبيه على بقية حالاتهم، فقال:

(**جيران لا يتأنسون وأحباء لا يتزاورون**) يعني أنهم جيران لقرب قبورهم ولكن لا يقدرون على الاستئناس، لأن المؤانسة من صفات الأحياء، وأحباء لقرب أبدانهم فيها أو لمحابتهم في دار الدنيا ولكن لا يستطيعون التزاور لأن الزيارة من حالات المتصفين بالحسّ والحياة وهو عبارة أخرى لقوله عليه السلام في بعض كلماته تدانوا في خططهم وقربوا في مزارهم وبعدوا في لقائهم.

(بليت بينهم عرى التعارف وانقطعت منهم أسباب الأخاء) يعني أنهم مع ما كانوا عليه في الدنيا من معرفة بعضهم بعضاً والمحبة والمودة والأخوة التي كانت بينهم، فقد بليت عراها يعني وصلها واندرست وانقطعت حبالها وانفصمت بحلول الموت ونزول الفناء والفوت.

(فكلّهم وحيد وهم جميع وبجانب الهجر وهم أخلاء) أي كل واحد منهم وحيد حقيقة وهم مع ذلك مجتمعون صورة لاجتماع مقابرهم، وكل منهم في جانب الهجر واقعاً مع خلّتهم ظاهراً بمقتضى قرب الجوار، أو المراد بالاجتماع والخلّة ما كانوا عليه في الدنيا من المودة والصداقة والأول أظهر، وقد أشار إليه الشريف الرضي في قوله:

بادون في صور الجميع وأنهم ... متفرّدون تفرّد الآحاد

قال الشارح المعتزلي: فإن قلت: ما معنى قوله: بجانب الهجر، وأي فائدة في لفظة جانب في هذا الموضع؟

قلت: لأنهم يقولون: فلان في جانب الهجرة وفي جانب القطيعة ولا يقولون: في جانب الوصل وفي جانب المصافاة، وذلك أن لفظة جنب في الأصل موضوعة للمباعدة، ومنه قولهم: الجار الجنب وهو جارك من قوم غرباء، يقال: جنب الرجل وأجنبته وتجنّبته وتجانبته كلها بمعنى ورجل أجنبي وأجنب وجانب كله بمعنى[1].

(لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساء) أي لا يعرفون لليل نهاراً ولا للنهار ليلاً، لأن اختلاف الليل والنهار وتبدل أحدهما بالآخر من الأوضاع الدنيوية ولا اختلاف لهما بالنسبة إلى أهل القبور لكونهم في بيت الظلمة والنشأة الآخرة بالنسبة إليهم سيّان.

ويحتمل أن يكون المراد أنهم لا يتعارف بعضهم بعضاً أي لا يجتمعون ولا يتكلمون في نهارهم للنظر في أمور ليلهم ولا في ليلهم للنظر في أمور نهارهم كما هو عادة أهل الدنيا يجتمعون في النهار لترتيب ما يفعلونه بالليل وفي الليل لترتيب ما يفعلونه بالنهار، والأول أظهر.

ويومىء إليه قوله عليه السلام **(أي الجديدين ظعنوا فيهم كان عليهم سرمداً)** أراد بالجديدين الليل والنهار لتجددهما دائماً أي أيّ واحد من الليل والنهار ارتحلوا فيه كان عليهم باقياً أبداً فإن من مات ليلاً لا يتبدل ليله بالنهار، ومن مات نهاراً لا ينقلب نهاره إلى ليل لخروجه من الدنيا التي فيها يتعاقب الليل والنهار ويتبدل أحدهما بالآخر.

والظاهر أن ثبوت هذه الحالة للموتى كسائر الحالات المتقدمة بالنسبة إلى أجسادهم

---

(١) شرح النهج: ١١/١٥٩، وبحار الأنوار: ٧٩/١٦٢.

المدفونة في القبور، وأما بالنسبة إلى أرواحهم المنتقلة إلى جنة الدنيا ونعيمها كأرواح السعداء أو المنتقلة إلى نار الدنيا وجحيمها كأرواح الأشقياء، فالمستفاد من أخبار أهل البيت عليهم السلام تعاور الليل والنهار عليهم، ويستفاد منها أيضاً أن أهل الجنة من المؤمنين يجتمعون ويتزاورون ويتحدثون ويتأنّسون.

ويدل عليه صريحاً ما في (**البحار**) من تفسير علي بن إبراهيم القميّ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] قال عليه السلام: ذلك في جنات الدنيا قبل القيامة والدليل على ذلك قوله: بكرة وعشياً، فالبكرة والعشا لا تكونان في الآخرة في جنان الخلد وإنما يكون الغدو والعشي في جنان الدنيا التي تنتقل إليها أرواح المؤمنين(١).

وفيه منه في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ﴾ [غافر: ٤٦] قال عليه السلام: ذلك في الدنيا قبل القيامة وذلك إن في القيامة لا يكون غدواً ولا عشياً، لأن الغدّو والعشاء إنما يكونان في الشمس والقمر وليس في جنان الخلد ونيرانها شمس ولا قمر.

قال: وقال رجل لأبي عبد الله صلوات الله عليه: ما تقول في قول الله عزّ وجل: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ﴾؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما يقول الناس فيها؟ فقال: يقولون: إنها في نار الخلد وهم لا يعذّبون فيما بين ذلك، فقال عليه السلام: فهم من السعداء، فقيل له: جعلت فداك فكيف هذا؟ فقال: هذا في الدنيا فأما في نار الخلد فهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦](٢).

وفيه منه عن أبيه رفعه قال: سئل الصادق عليه السلام عن جنّة آدم على نبينا وعليه السلام: أمن جنان الدنيا كانت أم من جنان الآخرة؟ فقال عليه السلام: كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها(٣).

ويدل على تأنسهم وتزاورهم ما قدمنا روايته في تذييلات شرح الفصل السابع من فصول الخطبة الثانية والثمانين من (**الكافي**) بإسناده عن (**حبة العرني**) قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر ـ أي ظهر الكوفة ـ فوقف بوادي السلام كأنه مخاطب لأقوام فقمت بقيامه حتى أعييت، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت حتى نالني مثل ما نالني أولاً، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت وجمعت ردائي فقلت: يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة، ثم طرحت الرداء ليجلس عليه، فقال عليه السلام لي: يا حبة إن هو

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ٢٨٥ ح ٤، وتفسير القمي: ٢/ ٥٢.
(٢) بحار الأنوار: ٦/ ٢٨٦ ح ٦، وتفسير القمي: ٢/ ٢٥٨.
(٣) بحار الأنوار: ٦/ ٢٨٥ ح ٣، وتفسير القمي: ١/ ٤٣.

إلا محادثة مؤمن أو مؤانسته، قال: قلت: يا أمير المؤمنين وإنهم لكذلك؟ قال عليه السلام: نعم ولو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً محتبين يتحادثون، فقلت: أجساد أم أرواح؟ فقال عليه السلام لي: أرواح، وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلا قيل لروحه: الحقي بوادي السلام، وإنها لبقعة من جنة عدن[1].

وتقدم هناك أيضاً في مرفوعة (**الكافي**) عن أبي عبد الله عليه السلام في صفة أرواح المؤمنين في وادي السلام: إنه عليه السلام قال: كأني بهم حلق حلق قعود يتحدثون[2]، هذا.

وقوله عليه السلام: (**شاهدوا من أخطار دارهم مما خافوا ورأوا من آياتها أعظم مما قذروا**) أي شاهد المجرمون من هلكات الدار الآخرة يعني نقماتها وعقوباتها أشد مما كانوا يخافون منها ويحذرون في الدنيا، ورأى المتقون من آثار الفضل والرحمة وعلامات الثواب والكرامة أعظم مما كانوا يقدرونها بحسناتهم ويرجون في الدنيا كما قال عز من قائل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧] وقال عليه السلام في الخطبة المائة والثالثة عشر: إنه ليس شيء بشرّ من الشرّ إلا عقابه وليس شيء بخير من الخير إلاّ ثوابه، وكل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه.

(**فكلتا الغايتين مدّت لهم إلى مباءة فأتت مبالغ الخوف والرجاء**) المراد بالغايتين غايتا المجرمين والمتّقين وأراد بالغاية الموت كما في الحديث «**الموت غاية المخلوقين**»، أو أجلهما كما في قوله عليه السلام في الخطبة الثالثة والستين: وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وعلى أي تقدير فنسبة مدت إلى الغاية من باب المجاز والتوسع، إذ بها يحصل الوصول إلى مباءة، وأراد بالمباءة منزل الفريقين من النار والجنة.

فيكون محصّل المعنى أن موت المجرمين وموت المتقين أو أجلهما استجرهم وجذبهم إلى منزل ومرجع تجاوز وكان هو فوق ما يبلغه خوف الخائف أو رجاء راج، فكنى بفوقه من مبالغ الخوف والرجاء عن شدّة هول النار وعظم خطر الجنة وتجاوزهما عن غاية غايات الخوف والرجاء.

(**فلو كانوا ينطقون بها لعيوا بصفة شاهدوا وما عاينوا**) أي لو كانت لهم قدرة النطق والإخبار عن تلك المباءة لعجزوا عن وصف ما شاهدوا فيها من مؤلمات العقاب وكلّت ألسنتهم عن شرح ما عاينوا فيها من مضاعفات الكرامة والثواب.

---

(١) الفصول المهمة: ١/ ٣٣١، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٦٨.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٤٣ ح ٤٧٣٥، وميزان الحكمة: ١/ ٢٥٣.

(ولئن عميت آثارهم) أي خفيت عن أبصار الناظرين **(وانقطعت أخبارهم)** عن آذان المستمعين **(لقد رجعت فيهم أبصار العبر وسمعت عنهم آذان العقول)** هذا ناظر إلى طرف الأحياء **(وتكلموا من غير جهات النطق)** هذا ناظر إلى طرف الأموات.

ومحصل المراد أن الأحياء وإن لم يمكن لهم إدراك حالات من القبور بطرق المشاعر الظاهرة واستطلاعها بالأبصار والآذان، لكنهم تمكنوا من معرفتها بأبصار البصائر والعبر والاطلاع عليها بطريق العقل، وكذلك الموتى وإن لم يكن لهم إيصال أخبارهم إلى الأحياء وإظهار حالاتهم بالنطق ولسان المقال، لكنهم أخبروهم وتكلموا بلسان الحال.

(فقالوا كلحت الوجوه النواضر) أي عبست الوجوه ذات الحسن والبياض والبهجة والنضارة قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] أي عابسون، وقيل: هو من الكلوح الذي قصرت شفته عن أسنانه كما تقلص رؤوس الغنم إذا شيطت بالنار.

(وخوت الأجساد النواعم) وفي بعض النسخ الأجسام النواعم أي سقطت الأجساد المنعمة بلذائذ الدنيا في وهدة القبور أو خلت الأبدان الناعمة اللينة من الأرواح فصارت جيفة منتنة أو المراد خلوها من الدم والرطوبة وذهاب طراوتها.

(ولبسنا أهدام البلى) قال الشارح البحراني: استعار لفظ الأهدام للتغير والتقشف والتمزيق العارض لجسم الميت لمشابهتها العظم البالي، ويحتمل أن يريد بها الأكفان، انتهى.

أقول: يجوز أن يكون الكلام من قبيل التشبيه المرشح بأن يقدر تشبيه البلى المحيط بهم بالأهدام والأثواب الممزقة البالية المحيطة بالبدن، فأُضيف المشبّه به إلى المشبه ثم قرن بما يلائم المشبه به ويناسبه وهو اللبس ترشيحاً للتشبيه، وأن يكون من باب الاستعارة لا الاستعارة الأصلية كما توهمه الشارح لعدم انتظام معنى الكلام على ما ذكره إلا بتكلف، بل من الاستعارة التبعية بأن يستعار اللبس للشمول والإحاطة فيكون محصل المعنى أحاط بنا وشملنا البلى والتمزيق إحاطة اللباس بالبدن فافهم.

(وتكاءدنا ضيق المضجع) أي شق علينا ضيق القبر **(وتوارثنا الوحشة)** أي وحشة القبور، واستعار لفظ التوارث لكون الوحشة منها لآبائهم وأسلافهم قبلهم فحملت لهم بعدهم.

(وتهكمت علينا الربوع الصموت) أي تساقطت علينا المنازل الصامتة، وأراد بها القبور ووصفها بالصمت من المجاز العقلي، وتساقطها كناية عن خرابها وانهدامها، وعلى كون التهكم بمعنى اشتداد الغضب، فيكون استعارة لعذاب القبور ويختص بغير المؤمن لأن المؤمن مأمون منه.

كما يدل عليه ما رواه في **(الكافي)** عن يحيى عن محمد بن الحسين عن عبد الرحمٰن بن

أبي هاشم عن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من موضع قبر إلا وهو ينطق كل يوم ثلاث مرات: أنا بيت التراب، أنا بيت البلى، أنا بيت الدود. قال عليه السلام: إذا دخله عبد مؤمن قال: مرحباً وأهلاً أما والله لقد كنت أحبك وأنت تمشي على ظهري فكيف إذا دخلت بطني فسترى ذلك، قال عليه السلام: فيفسح له مدّ البصر ويفتح له باب يرى مقعده من الجنة ـ إلى أن قال ـ فلا تزل نفحة من الجنة تصيب جسده ويجد لذّتها وطيبها حتى يبعث.

قال عليه السلام: وإذا دخل الكافر قالت: لا مرحباً بك ولا أهلاً، والله لقد كنت أبغضك وأنت تمشي على ظهري فكيف إذا دخلت بطني سترى ذلك، قال عليه السلام: فتضمّ عليه فتجعله رميماً ويعاد كما كان ويفتح له باب إلى النار يرى مقعده من النار ـ إلى أن قال ـ ثم لم تزل نفحة من النار تصيب جسده فيجد ألمها وحرّها في جسده إلى يوم يبعث، الحديث[1].

وقد مر بتمامه مع أحاديث أُخر ومطالب نافعة في التذييل الثالث من تذييلات شرح الفصل السابع من فصول الخطبة الثانية والثمانين فليراجع هناك.

ويؤيد المعنى الأخير تفريع قوله (**فانمحت محاسن أجسادنا**) أي ذهب آثار المواضع الحسنة من أبداننا لشدة عذاب القبور ومزيد تأثير آلامها، (**وتنكرت معارف صورنا**) أي تغيّرت وجوهنا التي بها كنا نعرف في الدنيا بعظم تأثير أهاويل البرزخ (**وطالت في مساكن الوحشة**) أي القبور (**إقامتنا ولم نجد من كرب**) وهو الغمّ الذي يأخذ بالنفس (**فرجاً ولا من ضيق متسعاً**) أي من ضيق المضجع محلاً ذا سعة يكون بدلاً منه، أو مطلق الضيق أي لم نجد من ضيق الحال وضنك المعيشة اتساعاً أي رفاه حال ورغد عيش، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُمْ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] أي عيشاً ضيّقاً، قال ابن مسعود وغيره: هو عذاب القبر.

(**فلو مثلتهم بعقلك**) أي تخيّلت صورهم ومثالهم بقوتك المتخيلة (**أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك**) أي ارتفع عنهم الغطاء الحاجب وتبين حالهم عندك فالمفعول بمعنى الفاعل كما في: حجاباً مستوراً. وقال الشارح البحراني: أي ما حجب بأغطية التراب والسواتر لأجسادهم عن بصرك، انتهى.

وعلى قوله: فالمحجوب وصف للميت لا للغطاء ويبعّده لفظة عنهم كما لا يخفى.

وكيف كان فالمراد: إنه لو شاهدتهم (**و**) الحال أنه (**قد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكت**) أي ذهبت رطوبتها ونضبت نداوتها، بتسلّط حشرات الأرض عليها فانسدّت (**واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت**) أي فقئت (**وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها**)

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٤٢، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٦٧ ح ١١٧.

وحدّتها (**وهمدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها**) أي سكنت حركتها وذهبت حرارتها بعدما كانت متيقظة، وهو كناية عن موتها بعد حياتها (**وعاث في كل جارحة منهم جديد بلى سمجها**) أي أوقع الفساد في كل جارحة من جوارحهم بليٌّ متجدد أوجب سماجتها وقبحها وسوء منظرها (**وسهل طرق الآفة إليها**) لأن العنصر الترابي إذا استولى على الأعضاء قوى استعدادها للاستحالة من صورتها التي هي عليها إلى غيرها حال كونها (**مستسلمات**) منقادات غير ممتنعة من قبول الآفة والفساد (**فلا أيد**) أي قوة وقدرة وسلطان أو كف (**تدفع**) الآلام والآفات عنها (**ولا قلوب تجزع**) وتحزن لما نزل بها.

(**لرأيت**) جواب لو، أي لو تصوّرت حالاتهم بخيالك أو شاهدت فظائعهم بعينك على ما فصّل لرأيت (**أشجان قلوب وأقذاء عيون**) أي شاهدت فيهم من الفظائع والشنائع المفرطة المجاوزة عن الحد ما يورث حزن قلوب الناظرين وأذى عيونهم.

(**لهم من كل فظاعة صفة حال لا تنتقل**) قال الشارح المعتزلي: أي لا تنتقل إلى حسن وصلاح وليس يريد: لا تنتقل مطلقاً، لأنها تنتقل إلى فساد واضمحلال. (و) من كل شناعة (**غمرة لا تنجلي**) أي شدة لا تنكشف، وقد مضى في شرح الخطبة الثانية والثمانين مطالب مناسبة لهذا الفصل من أراد الاطلاع فليراجع ثمة.

الترجمة

فصل ثانی از این کلام در ذکر شداید برزخ و حالات اهل آن است، می فرماید که:

ایشان همسایگانی باشند با یکدیگر انس نمی کنند و دوستانی هستند که زیارت یکدیگر نمی نمایند، پوسیده شده در میان ایشان علاقه های شناسایی و بریده شده از ایشان ریسمان های اخوت و برادری، پس همه ایشان تنها باشند و حال آن که در یك جا هستند و به کنار هجران و دوری باشند و حال آنکه دوستان هستند، نمی شناسند از برای شب صبحی را و نه از برای روز شبی را، هر یك از شب و روز را که رحلت کنند در آن باشد برایشان همیشگی.

مشاهده کردند از هلاکت های خانه آخرت خودشان شدیدتر از آن چیزی که ترسیده بودند و دیدند از علامت های آخرت، بزرگتر از آن چیزی که تصویر کرده بودند، پس هر دو غایب، یعنی اجل سعداء و اجل اشقیا کشاند ایشان را به سوی منزلگاهی که متجاوز شد از منت های مرتبه خوف خائفین و رجاء راجین، پس اگر بودند که ناطق بشوند با آن هر آینه عاجز می شدند در بیان صفت آن چیزی که مشاهده کردند و به چشم دیدند و اگر مخفی شده اثرهای ایشان و منقطع گردیده خبرهای ایشان.

به تحقیق مراجعت کرده در ایشان دیده های عبرت ها و شنیده از ایشان گوش های عقل ها و سخن گفتند ایشان به زبان حال از غیر جهت نطق به لسان، پس گفتند که زشت گشت صورتها با آب و رنگ و به خاك افتاد بدن های نرم و نازك و پوشیدیم ما لباسهای پاره پاره کهنه را و به مشقّت انداخت ما را تنگی خوابگاه و به ارث بریدیم از یکدیگر وحشت را و منهدم شد بر ما منزلهای خاموش قبرها، پس محو گشت نیکویی های بدن های ما و تغییر یافت معروف های صورتهای ما و طول یافت در مسکن های وحشت اقامت ما و نیافتیم از شدت محنت فرجی و از تنگی حالت وسعتی.

پس اگر تصوّر نمایی تو حالت های ایشان را به عقل خودت، یا برداشته شود از ایشان پرده پوشان از برای تو در حالتی که فرو رفته باشد رطوبت گوش های ایشان به جهت تسلّط حشرات الارض، پس کر شده باشد و سرمه کشیده باشد چشم های ایشان به خاك، پس فرو رفته باشد در استخوان سر و پاره پاره گشته زبان ها در دهن های ایشان بعد از تیزی و بلاغت آنها و مرده و ساکن شود قلب ها در سینه های ایشان بعد از بیداری آنها و فساد کرده باشد در هر عضوی از ایشان پوسیدگی تازه ای که زشت گردانیده باشد آنها را و آسان کرده باشد طریق آفات به آنها در حالتی که آنها گردن نهاده باشند به آن آفت ها، پس نباشد دست هایی که دفع کنند آنها را و نه دل هایی که جزع کنند از آنها، هرآینه بعد از آن تصوّر عقل و کشف حجاب خواهی دید اندوه های قلب ها و خونابه چکیدن چشم ها را، از برای ایشان است از هر شناعت و رسوایی صفت حالتی که منتقل نشود و شدت و سختی که منکشف نگردد و بر طرف نباشد.

الفصل الثالث

وَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزيزِ جَسَدٍ، وأَنيقِ لَوْنٍ، كانَ في الدُّنْيا غَذِيَّ تَرَفٍ، ورَبِيبَ شَرَفٍ، يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ في ساعَةِ حُزنِه، ويَفْزَعُ إِلَىٰ السَّلْوَةِ إِنْ مُصيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنّاً بِغَضارَةِ عَيْشِهِ، وشَحاحَةً بِلَهْوِهِ ولِعبِه.

فَبَيْنا هُوَ يَضْحَكُ إِلَىٰ الدُّنْيا، وتَضْحَكُ الدُّنْيا إِلَيْهِ، في ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِيءَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ، ونَقَضَتِ الأَيّامُ قُواهُ، ونَظَرَتْ إِلَيْهِ الحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ، فَخالَطَهُ بَثٌّ لا يَعْرِفُهُ، ونَجِيُّ هَمٍّ ما كانَ يَجِدُهُ، وتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَراتُ عِلَلٍ آنَس ما كانَ بِصِحَّتِهِ.

فَفَزِعَ إِلَىٰ ما كانَ عَوَّدَهُ الأَطِباءُ مِنْ تَسْكِينِ الحارِّ بِالقارِّ، وتَحْرِيكِ البارِدِ بِالحارِّ، فَلَمْ يُطْفِىءْ بِبارِدٍ إِلاَّ ثَوَّرَ حَرارَةً، ولا حَرَّكَ بحارٍّ إِلاَّ هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلا اعْتَدَلَ بِمُمازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبائِعِ إِلاَّ أَمَدَّ مِنْها كُلَّ ذاتِ داءٍ، حَتَّىٰ فَتَرَ مُعَلِّلُهُ، وذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وتَعايا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دائِهِ، وخَرِسُوا عَنْ جَوابِ السّائِلِينَ عَنْهُ، وتَنازَعُوا دُونَهُ شَجِيَ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ، فَقائِلٌ هُوَ لِما بِهِ، ومُمَنٍّ لَهُمْ إِيابَ عافِيَتِهِ، ومُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَىٰ فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الماضِينَ مِنْ قَبْلِهِ.

فَبَيْنا هُوَ كَذٰلِكَ عَلَىٰ جَناحٍ مِنْ فِراقِ الدُّنْيا، وتَرْكِ الأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوافِذُ فِطْنَتِهِ، ويَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسانِهِ، فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوابِهِ عَرَفَهُ فَعِيَّ عَنْ رَدِّهِ، ودُعاءٍ مُؤْلِمٍ لِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصامَّ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كانَ يَرْحَمُهُ، وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَراتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَىٰ قُلُوبِ أَهْلِ الدُّنْيا[1].

اللغة

(ترف) ترفاً من باب منع، تنعّم وأترفته النعمة: أطغته، والتّرفه بالضم النعمة والطعام الطيّب و **(ربّ)** فلان الصبي يربته ربّاً ربّاه حتى أدرك، والرّبيب المربوب، قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣] و **(السلوة)** بفتح السين وضمها اسم من سلى همّه سلوّاً وسليّاً ونسيه و **(عيش غفول)** وزن صبور، كثير الغفلة و **(الحسك)** محركة نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم وعند ورقه شوك ملزّز صلب ذو ثلاث شعب.

و **(الحتوف)** بالضم جمع الحتف بالفتح وهو الموت و **(الكثب)** محركة القرب وهو يرى

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٣٧ ح ٤٧، وميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٧٢.

من كثب أي قرب و (**النجي**) فعيل من ناجاه مناجاة أي ساره و (**القارّ**) البارد من قرّ القدر إذا صبّ فيه ماء بارداً و (**الثور**) الهيجان و (**علّل**) الصبي بطعام وغيره شغله به وتعلل بالأمر تشاغل و (**التمريض**) حسن القيام على المريض و (**عيّ**) بالأمر وعيي وتعايا واستعيا لم يهتد لوجه مراده أو عجز منه ولم يطق إحكامه و (**خرس**) خرساً من باب فرح، انعقد لسانه عن الكلام و (**الأُسى**) بالضم جمع الأسوة وهو ما يتأسى به الإنسان ويتسلّى.

الإعراب

قوله عليه السلام: (**وكم أكلت الأرض من عزيز جسد**)، لفظة (كم) خبرية بمعنى كثير، مبنية على السكون لشباهتها بكم الاستفهامية لفظاً ومعنى من حيث إبهام كلتيهما، وهي منصوبة المحل لكونها مفعول: أكلت، قدمت عليه لأن لها صدر الكلام، ومن عزيز جسد تمييز رافع للإبهام الذي فيها، أي أكلت الأرض كثيراً من عزيز جسد، وعزيز صفة لموصوف محذوف أي من ميّت عزيز الجسد، وإضافة عزيز إلى جسد من إضافة الصفة إلى فاعله كما في قولك: مررت برجل حسن وجه أي حسن وجهه، وهذا القسم من إضافة الصفة المشبّهة وإن استقبحه علماء الأدبية لأجل خلوّ الصفة من ضمير يعود إلى الموصوف لفظاً إلا أنه يسوغ كثرة الاستعمال ووجود الضمير تقديراً، وجملة كان في الدنيا، في محل الخفض على أنها صفة لعزيز جسد، وجملة يتعلل، في محل النصب حال من اسم كان.

وقوله: (**ضنّاً**) مفعول لأجله، وعيش غفول في نسبة غفول إلى عيش توسّع كما في عيشة راضية، وقوله: إذا وطيء الدهر، إذ للمفاجأة لوقوعها بعد بينا. نص على ذلك سيبويه، قال: إذا وقعت بعد بينا وبينما فهي للمفاجأة، ومثال وقوعها بعد بينما قوله:

استقدر الله خيراً وارضينّ به ... فبينما العسر إذ دارت مياسير
وبينما المرء في الأحياء مغتبط ... إذ صار في الرمس تعفوه الأعاصير

و(**الباء**) في وطيء به للتعدية، أي أوطأه.

وقوله عليه السلام: (**آنس ما كان بصحته**)، آنس منصوب على الحال من ضمير فيه والعامل فيه تولّدت، و(**ما**) نكرة موصوفة كما في: مررت بما معجب لك، وكان تامة، وبصحته متعلق بآنس، ومحصّل المعنى تولدت فيه فترات والحال أنه آنس شيء وجد أي آنس الأشياء بصحته، ويحتمل أن تكون ما مصدرية زمانية كما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] أي مدة استطاعتكم ومدة دوامي حيّاً فيكون معناه: آنس مدة كونه ووجوده بصحته، أي آنس زمان عمره به، وقيل فيه معان أُخر وما قلته أظهر.

قوله: (**شجي**) خبر من إضافة الصفة إلى الموصوف أي خبر ذي شجى وغصّة، وقوله:

فقائل، خبر لمبتدأ محذوف والجملة معطوفة على جملة تنازعوا وتفصيل له، واللام في قوله: لما به، بمعنى على كما في قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] وليست بمعناها الأصلي كما توهم.

قوله: **(ودعاء مؤلم لقلبه)**، اللام للتقوية، وفي بعض النسخ: بقلبه بالياء بدل اللام، وعليه فهي زائدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ويجوز جعلها بمعنى **(في)** على تضمين مؤلم معني مؤثر، وبهذا المعنى جاءت الباء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] أي فيها.

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما نبّه في الفصلين السابقين على أهاويل البرزخ وفظائعه أردفهما بهذا الفصل استطراداً وتنبيهاً على غمرات الموت وشدائده وحالات الميت عند الإشراف على الموت والاحتضار، فقال:

(وكم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون) إمّا استعارة بالكناية تشبيهاً للأرض بالأكل وإثبات الأكل تخييلاً، أو استعارة تبعية كما في: نطقت الحال بكذا، تشبيهاً لإفناء الأرض لأجزاء الميت واستحالتها لها بالتراب بأكلها لها، فاستعير الأكل للإفناء ودل على الاستعارة بذكر الأرض، والمعنى: أفنت الأرض وأبلت كثيراً كثيراً من ميت طري البدن معجب اللون لصفائه وبياضه وإشراقه.

(كان في الدنيا غذّي ترف وربيب شرف) أي غذّي وتنعّم بالتنعم الموجب لبطره وطغيانه، وربّي في عزّ وشرف ومنعة.

(يتعلل بالسرور في ساعة حزنه) أي يتشاغل بما يسرّه ويتلهى به عما يحزنه **(ويفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به)** أي يلتجىء إلى ما يسلي همّه وينسيه إن أصابته مصيبة **(ضناً بغضارة عيشه)** أي لأجل بخله بسعة عيشه وطيبه **(وشحاحة)** وبخالة **(بلهوه ولعبه)** حتى لا يشوب لهما ما يكدّرهما.

(فبينا هو يضحك إلى الدنيا) ابتهاجاً بها وشغفاً بحبها لجريانها على وفق مراده وتهيئتها لمقدمات عيشه ونشاطه **(وتضحك الدنيا إليه)** ابتهاجاً به لكونه من أبنائها والراغبين إليها وفرط محبتها إياه، وحاصله تضاحك كل منهما واشتياقه إلى الآخر لمزيد المحابة والمعافاة بينهما **(في ظلّ عيش غفول)** أي في دعة وراحة وسعة عيش متّصف بكثرة الغفلة.

والمراد: غفلة صاحبه به كما في عيشة راضية. وقال الشارح المعتزلي: عيش غفول قد غفل عن صاحبه، فهو مستغرق في العيش لم يتنبّه له الدهر فيكدر عليه وقته، قال الشاعر:

كأنّ المرء في غفلات عيش كأنّ الدهر عنها في وثاق

انتهى[١].

ولعل ما قلته أولى ودلالة الشعر عليه أظهر **(إذ وطىء الدهر به حسكه)** أي أوطأه حسكه أي أنشب شوكه فيه، واستعار الحسك لآلام الدهر وأسقامه وحوادثه الموجبة لأذاه كإيجاب الحسك للأذى **(ونقضت الأيام قواه)** نسبة النقض إلى الأيام من التوسع والمراد به انحلال قواه النفسانية وضعف جوارحه **(ونظرت إليه الحتوف من كثب)** أي من قرب، وتخصيصه بالذكر لأن تأثير النظر فيه أشدّ، يعني أن ملاحظة المنية نحوه دانية، وجمع الحتوف باعتبار تعدّد أسباب الموت.

(فخالطه بثّ لا يعرفه) أي مازج قلبه حزن لا يعرف علّته **(ونجيّ هم ما كان يجده)** أي همّ خفي لم يكن معهوداً به **(وتولّدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحته)** قال الشارح المعتزلي: الفترات أوائل المرض، انتهى.

والمراد أنه طرأ عليه وظهر في مزاجه علل موجبة لفتور بدنه وضعف جسمه، والحال أنه في غاية الأنس بصحته وكمال الركون إلى سلامته في لذات ذربه وبدوات أربه لا يحتسب رزيّة ولا يحتمل بليّة.

(فـ)ـلما وجد في نفسه ذلك وأحسّ به استوحش منه و **(فزع إلى ما كان عوده الأطباء)** أي التجأ إلى ما جعلوه معتاداً له من المداواة والمعالجات **(من تسكين الحارّ بالقارّ وتحريك البارد بالحارّ)** تخصيص التسكين بالقارّ والتحريك بالبارد وإن من شأن الحرارة التحريك والتهييج فاستعمل في قهرها بالبارد لفظ التسكين ومن شأن البرودة التخدير والتجميد فاستعمل في قهرها بالحار لفظة التحريك.

(فلم يطفىء) الحار **(ببارد إلا ثوّر)** وهيّج **(حرارة)** زائدة على حرارة الحارّ **(ولا حرّك)** البارد **(بحارّ إلاّ هيّج)** وثوّر **(برودة)** زائدة على برودة البارد.

ومحصله أنه لم ينفعه استعمال المسخّن والمبرّد إلا عكس المطلوب وأنتج له المسخّن برودة والمبرّد حرارة.

(ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلا أمدّ منها كل ذات داء) أي لم يقصد الاعتدال بما يمازج تلك الطبائع الحارّة والباردة المفرطة فيردّها إلى الاعتدال إلا وأمدّ ذلك الممازج أو المريض وأعطى مدداً وقوة وأعان من هذه الطبائع كل طبيعة ذات داء، أي صار مزج الممازج مدداً أو معيناً على الطبيعة التي هي منشأ المرض مع ما له من مضادّة خاصية لخاصيتها.

---

(١) شرح النهج: ١١/١٦٤.

ويوضح ما قاله عليه السلام على وجه البسط ما رواه في **(البحار)** من علل الشرائع بسنده عن وهب بن منبه أنه وجد في التوراة صفة خلقة آدم على نبينا وعليه السلام حين خلقه الله عزّ وجل وابتدعه، قال الله تبارك وتعالى:

«أنّي خلقت وركّبت جسده من أربعة أشياء، ثم جعلتها وراثة في ولده تنمى في أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة، وركّبت جسده حين خلقته من رطب ويابس وسخن وبارد، وذلك أني خلقته من تراب وماء ثم جعلت فيه نفساً وروحاً فيبوسة كل جسد من قبل التراب، ورطوبته من قبل الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح.

ثم خلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع، وهنّ كلام الجسد وقوامه بادناً لا يقوم الجسد إلا بهن ولا تقوم منهن واحدة إلا بالأخرى: منها المرّة السوداء، والمرة الصفراء، والدم، والبلغم، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض، فجعلْ مسكن اليبوسة في المرّة السوداء، ومسكن الرطوبة في المرة الصفراء، ومسكن الحرارة في الدم، ومسكن البرودة في البلغم.

فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الأنواع الأربع التي جعلتها ملاكه وقوامه وكانت كل واحدة منهن أربعاً لا تزيد ولا تنقص كملت صحته واعتدل بنيانه، فإن زاد منهن واحدة عليهن فقهرتهن ومالت بهن دخل على البدن السقم من ناحيتها بقدر ما زادت وإذا كانت ناقصة تقل عنهن حتى تضعف من طاقتهن وتعجز عن مقارنتهن[(١)(٢)].

قال وهب: فالطبيب العالم بالداء والدواء يعلم من حيث يأتي السقم من قبل زيادة تكون في إحدى هذه الفطر الأربع أو نقصان منها، ويعلم الدواء الذي به يعالجهن فيزيد في الناقصة منهن أو ينقص من الزائدة حتى يستقيم الجسد على فطرته ويعتدل الشيء بأقرانه.

إذا عرفت ذلك فنقول: إذا أراد الله أن يشفي المريض ويحصل له البرء من مرضه أصاب المعالج واهتدى إلى معرفة ما به من الداء ونفع الدواء بالخاصية التي فيه، وإذا قضى أجله أخطأ المعالج أو سقط الدواء من التأثير أو أمدّ ضدّ خاصيته المكمونة.

(حتى) اشتدّ مرضه و **(فتر معلله)** أي من يشغله عن التوجه إلى مرضه ويمنيه العافية أو عما يضره من الأطعمة والأشربة بالأدوية النافعة، وفتوره من جهة طول المرض وحصول اليأس، فإن العادة جارية بأن أهل المريض في أول مرضه يواظبون عليه ويجتمعون حوله

---

(١) «مقاومتهن» في نسخة.

(٢) علل الشرائع: ١/ ١١٠، وبحار الأنوار: ٥٨/ ٢٨٧.

ويعللونه حتى إذا طال المرض واشتدّ وظهرت مخائل الموت يقلّ عزمهم ويفتر هممهم ويحصل لهم التواني والكسل.

(وذهل ممرضه) أي من يواظب عليه ويقوم بأمره في دوائه وغذائه وغيره، وذهوله وغفلته من أجل أنه في بداية المرض يكون له جدّ أكيد وجهد جهيد في التعهد والمواظبة بما له من رجاء الصحة والعافية، وبعد اشتداد المرض وظهور أمارات الموت توانى وفتر، وتسرع إليه الغفلة على ما جرت عليه العادة.

(وتعايا أهله بصفة دائه) أي عجزوا بوصف دائه وشرح مرضه على ما هو عليه للطبيب وغيره، وهذه عادة المريض المثقل.

(وخرسوا عن جواب السائلين عنه) هذه الجملة كالتفسير لسابقتها، والمراد أن أهله إذا سئلوا عنه يجمجمون ولا يفصحون عن بيان حاله كالأخرس الذي ينعقد لسانه عن التكلم، وإنما يخرسون عن جوابهم لأنه بعد ظهور أمارات الموت عليه لا يسعهم الجواب بصحته لكونه خلاف الواقع، ولا يسوغهم الجواب بما هو الواقع من إشرافه على الموت لعدم طيب أنفسهم به وانطلاق لسانهم ببيانه.

(وتنازعوا دونه شجى خبر يكتمونه) أي اختلفوا عنده في خبر ذي حزن وغصة يخفونه منه ويجيبون السائلين بالتناجي والمسارّة كي لا يشعر به، وفصل كيفية التنازع والاختلاف بقوله:

(فقائل) منهم **(هو لما به)** أي على الحال الذي كان عليه لا تفاوت في مرضه، وقيل: معناه هو الأمر الذي نزل به، أي قد أشفى على الموت. وما قلناه أظهر وأولى.

(و) آخر **(ممن لهم إياب عافيته)** أي يمنيهم ويطمعهم عود عافيته بقوله: قد رأيت مثل هذا المريض وأشدّ مرضاً منه ثم عوفي.

(و) ثالث **(مصبّر لهم على فقده)** أي يحملهم على الصبر والتحمّل على فقده وفراقه **(يذكرهم أسى الماضي من قبله)** بقوله: تلك الرزية مما لا اختصاص لها بكم ولا الموت مخصوصاً بهذا المريض بل كل حيّ سالك سبيل، وكل نفس ذائقة الموت، وقد مضى قبل هذا المريض عالم من الناس وبقي بعد الأسلاف الأخلاف فتعزّوا بعزاء الله وتسلّوا واصبروا ولم يكن لهم علاج إلا أن قالوا: إنّا لله وإنا إليه راجعون، فينبغي لكم التأسّي بالماضين، فإن لكم فيهم أسوة، وفي هذا المعنى قال الشاعر ولنعم ما قال:

وإن الأولى بالطف من آل هاشم تأسّوا فسنّوا للكرام التأسّيا

وقالت الخنساء:

وما يبكون مثل أخي ولكن أسلّي النفس عنه بالتأسي

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في **المختار** المائتين والواحد الذي قاله عند دفن الصّديقة عليها السلام: قلّ يا رسول الله عن صفيّتك صبري إلا أنّ لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ(١).

(فبينا هو كذلك على جناح) أي على حركة سريعة، فإن الطيران بالجناح سبب سرعة الحركة فتجوز عنها **(من فراق الدنيا وترك الأحبة إذ)** دهمته فجعات المنية و **(عرض له عارض من غصصه)** واعترض في حلقه وأخذ بخناقه.

(فتحيرت نوافذ فطنته) أي تاهت إدراكات جودته وذكائه الثاقبة المتعلقة بمصالح النشأة الدنيوية والأخروية، وفي بعض النسخ: فطنه، بصيغة الجمع، والمراد تبلّد مشاعره وقواه الدرّاكة وقصورها عن الإدراكات النظرية.

(ويبست رطوبة لسانه) وجفّ حيله ـ ريقه ـ وحيل بينه وبين منطقه فصار بين أهله ينظر وجوههم ويسمع رجع كلامهم ويرى حركات ألسنتهم ولا يستطيع التكلم معهم.

(فكم من مهم من جوابه عرفه فعيّ عن ردّه) أي جواب سائل سأله عن أمر مهم من وصيّه ووصيته ودينه ومصارف ماله وقيّم أطفاله ونحو ذلك فعجز عن رده.

(ودعاء مؤلم لقلبه سمعه فتصامّ عنه) أي نداء موجع لقلبه، سمعه فأظهر الصمم لعدم قدرته على إجابة المنادي **(من كبير كان يعظّمه)** كما إذا كان المنادي له والده ووليّ النعمة له **(أو صغير كان يرحمه)** كما إذا كان المنادي ولده الصغير.

(وإن للموت لغمرات) وأهاويل وسكرات **(هي أفظع من أن تستغرق بصفة)** أي تستعاب بوصف وبيان **(أو تعتدل)** وتستقيم **(على قلوب أهل الدنيا)** لكونها خارجة عن حد الإحصاء، متجاوزة عن طور الاستقصاء، وكيف لا وهو هادم اللذّات وقاطع الأمنيات جذبة من جذباته أهون عندها نشر المناشير وقرض المقاريض.

أعاننا الله عليه، وثبتنا بالقول الثابت لديه، ووفقنا الله وأيّدنا وأهدانا الصراط المستقيم بفضله العميم، هذا.

وقد أشار بعض الشعراء إلى إجمال ما قاله عليه السلام في هذا الفصل، وقال:

بينا الفتى مرح الخطا فرحاً بما	يسعى له إذ قيل قد مرض الفتى
إذ قيل بات بليلة ما نامها	إذ قيل أصبح مثقلاً ما يرتجى

(١) الكافي: ١/٤٥٩، ونهج السعادة: ١/٧١.

إذ قيل أمسى شاخصاً وموجهاً إذ قيل فارقهم وحلّ به الرّدى

ولله درّ المؤلف أبي الحسن الرّضي قدّس سره، ما أعجب نظمه في شرح حال الدنيا وأهلها والهالكين منهم ووصف مضجعهم وبرزخهم وسائر حالاتهم، قال:

أنظر إلى هذا الأنام بعبرة لا يعجبنك خلقه ورواؤه
فتراه كالورق النضير تقصّفت أغصانه وتسلّبت شجراته
أنّى محاباهُ المنون وإنما خلقت مراعي للرّدى خضراؤه
أم كيف تأمل فلتة أجساده من ذا الزمان وحشوها أو داؤه
لا تعجبنّ فما العجيبُ فناؤه بيد المنون بل العجيبُ بقاؤه
إنّا لنعجب كيف حُمّ حمامهُ عن صحة ويغيب عنّا داؤه
من طاح في سُبل الرّدى آباؤه فليسلكن طريقهم أبناؤه
ومؤمّر نزلوا به في سُوقة لا شكله فيهم ولا نظراؤه
قد كان يفرق ظلّهُ أقرانه ويغضّ دون جلاله أكفاؤه
ومحجّب ضربت عليه مهابةٌ يغشى العيون بهاؤه وضياؤه
نادتهُ من خلف الحجاب منيّة أمم فكان جوابها حوباؤه
شقّت إليه سيوفهُ ورماحهُ وأُميط عنهُ عبيدهُ وإماؤه
لم يغنه من كان ودّ لو أنه قبل المنون من المنون فداؤه
حرّم عليه الذلّ إلا أنه أبداً ليشهد بالجلال بناؤه
متخشع بعد الأنيس جناؤه متضائل بعد القطين فناؤه
عريان تطردُ كلّ ريحٍ ترابه ويطيعُ أوّل أمرها حصباؤه
ولقد مررتُ ببرزخ فسألته أين الأُولى ضمّمتهم أرجاؤه
مثل المطيّ بواركاً أجداثه يسقى على جنباتها بوغاؤه
ناديته فخفى عليّ جوابهُ بالقول إلاّ ما زقت أصداؤه
من ناظر مطروفة ألحاظهُ أو خاطر مطلوبة سوداؤه
أو واجدٍ مكظومة زفراته أو حاقد منسيّة شحناؤه
ومسندين على الجنوب كأنهم شربٌ تخاذل بالطلى أعضاؤه
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى يوم المعاد يضمهم أحشاؤه
أكلتهم الأرضُ التي ولدتهم أكل الضروس حلّت له أواؤه

الترجمة

فصل سوم از این کلام در اشاره به حالات مرض موت و شداید مرگ است، می فرماید:

چه بسیار خورده زمین از بدن تازه و صاحب آب و رنگ خوش آینده را که بود در دنیا پرورده نعمت و پرورش یافته شرف و عزت، در حالتی که تعلّل میورزید و بهانه می کرد به شادی در حالت حزن و پریشانی و پناه می برد به تسلی خواطر اگر مصیبتی نازل می شد به او از جهت بخل ورزیدن و ضایع نساختن خوش گذرانی خود و از جهت خساست و هدر نکردن لهو و لعب خود.

پس در این اثنا که او خنده می کرد و فرحناك بود بر دنیا و خنده می کرد و فرحناك بود دنیا به او و در سایه خوش گذرانی که باعث زیادت غفلت او بود، ناگاه لگدکوب کرد او را زمانه خار خود را و شکاند روزگار قوّت او را و نگاه کرد به سوی او مرگ ها از نزدیکی، پس آمیخت به او حزن و اندوهی که نمی شناخت او را و غصّه پنهانی که نیافته بود او را و متولّد شده را و سستی های مرض ها در حالت غایت انس او به صحّت خود.

پس ملتجی شد به سوی آن چیزی که عادت داده بودند او را به آن طبیب ها از فرونشاندن مایه حرارت به دواهای بارد و حرکت دادن مایه برودت به دواهای حارّ، پس فرو ننشاند به استعمال دوای بارد مگر این که حرکت داد حرارت را و حرکت نداد به دواء حار مگر به هیجان آورد برودت را و معتدل نساخت به چیزی که مخلوط نمود به آن طبیعت های حاره و بارده مگر این که مدد نمود از این طبیعت ها هر مادّه ای که منشأ درد بود.

تا این که سست شد پرستار او و غافل گردید مواظب مرض او و درمانده گردیدند اهل و عیال او در صفت ناخوشی او و لال گردیدند از جواب پرسندگان احوال او و اختلاف کردند در نزد او در غمناك چیزی که پنهان می کردند آن را، پس از ایشان یکی می گفت او به همین حالت است که هست؛ و یکی دیگر تطمیع

می کرد اهل او را به رجوع کردن صحت او و دیگری تسلّی می داد ایشان را بر مرگ او و در حالتی که یاد آوری ایشان می کرد پیروی گذشتگان پیش از او را.

پس در این اثنا که او بر این حالت بود بر جناح حرکت از دنیا و ترك کردن احبّا، ناگاه عارض شد او را عارضه ای از غصّه های او، پس متحیّر گردید زیرکی های نافذه او و خشك شد رطوبت زبان او، پس چه بسیار مهمّی از جوابش بود که شناخت او را، پس عاجز از ردّ آن شد و چه بسیار از ندا کردن درد آورنده قلب او بود که شنید او را، پس خود را به کری زد به جهت عدم قدرت بر جواب، آن ندا از بزرگی بود که همیشه تعظیم می کرد او را مثل پدر یا از کوچکی بود که همیشه مهربانی می کرد به او مثل اولاد و به درستی که مرگ را است سختی هایی که دشوارتراند از این که استیعاب وصف آنها شود یا این که راست آید شرح آنها به عقل های اهل دنیا.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والعشرون من المختار في باب الخطب

قاله عليه السلام عند تلاوة: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ [النور: ٣٧]:

إنَّ الله سُبْحانَهُ جَعَلَ الذِّكْرَ جلاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الوَقْرَةِ، وتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ العَشْوَةِ، وتَنْقادُ بِهِ بَعْدَ المُعانَدَةِ، وما بَرِحَ لِلَّهِ عَزَّتْ آلائُهُ فِي البُرْهَةِ بَعْدَ البُرْهَةِ، وفِي أَزْمانِ الفَتَراتِ عِبادٌ ناجاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وكَلَّمَهُمْ فِي ذاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الأَسْماعِ، والأَبْصارِ، وَالأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، ويُخَوِّفُونَ مَقامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الأَدِلَّةِ فِي الفَلَواتِ، مَنْ أَخَذَ القَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وبَشَّرُوهُ بِالنَّجاةِ، ومَنْ أَخَذَ يَميناً وشِمالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وحَذَّرُوهُ مِنَ الهَلَكَةِ، فَكانُوا كَذٰلِكَ مَصابِيحَ تِلْكَ الظُّلُماتِ، وأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهاتِ.

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الحَياةِ، ويَهْتِفُونَ بِالزَّواجِرِ عَنْ مَحارِمِ الله في أَسْماعِ الغافِلِينَ، ويَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ، ويَأْتَمِرُونَ بِهِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ، ويَتَناهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّما قَطَعُوا الدُّنْيا إِلىٰ الآخِرَةِ وَهُمْ فِيها فَشاهَدُوا ما وَراءَ ذٰلِكَ، فَكَأَنَّما اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ البَرْزَخِ فِي طُولِ الإِقامَةِ فِيهِ، وحَقَّقَتِ القِيامَةُ عَلَيْهِمْ عِداتِها، فَكَشَفُوا غِطاءَ ذٰلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيا، حَتّىٰ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ ما لا يَرىٰ النَّاسُ، ويَسْمَعُونَ ما لا يَسْمَعُونَ.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ في مَقاوِمِهِمُ المَحْمُودَةِ، ومَجالِسِهِمُ المَشْهُودَةِ، وقَدْ نَشَرُوا دَواوِينَ أَعْمالِهِمْ، وفَرَغُوا لِمُحاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ، عَلىٰ كُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِها فَقَصَّرُوا عَنْها، أَوْ نُهُوا عَنْها فَفَرَّطُوا فِيها، وحَمَّلُوا ثِقْلَ أَوْزارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلالِ بِها، فَنَشَجُوا نَشِيجاً، وتَجاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلىٰ رَبِّهِمْ مِنْ مَقاوِمِ نَدَمٍ واعْتِرافٍ.

لَرَأَيْتَ أَعْلامَ هُدىً، ومَصابِيحَ دُجىً، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ المَلائِكَةُ، وتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ، وأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقاعِدُ الكَراماتِ في مَقامٍ اطَّلَعَ الله عَلَيْكُمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وحَمِدَ مَقامَهُمْ، يَتَنَسَّمُونَ بِدُعائِهِ التَّجاوُزَ، رَهائِنُ فاقَةٍ إِلىٰ فَضْلِهِ، وأَسارىٰ ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الأَسىٰ قُلُوبَهُمْ، وطُولُ البُكاءِ عُيُونَهُمْ، لِكُلِّ بابِ رَغْبَةٍ إِلىٰ الله مِنْهُمْ يَدٌ قارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لا تَضِيقُ لَدَيْهِ المَنادِحُ، ولا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ، فَحاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَها مِنَ الأَنْفُسِ عَلَيْها حَسِيبٌ غَيْرُكَ[1].

(١) ميزان الحكمة: ١/٦١٨ ح ٨٢٧، وبحار الأنوار: ٦٦/٣٢٦.

اللغة

(الوقرة) ثقل في الأذن أو ذهاب السمع كله و **(العشوة)** مرة من العشاء بالفتح والقصر سوء البصر بالليل والنهار أو العمى و **(البرهة)** بالضم الزمان الطويل والأعم و **(الفترة)** ما بين كل النبيين و **(الفلاة)** المفازة لا ماء فيها أو الصحراء الواسعة و **(هتف)** به من باب ضرب هتافاً بالضم صاح به.

و **(المقاوم)** المجالس جمع المقامة وهي مفعلة من المقام، وهما في الأصل اسمان لوضع القيام إلا أنهم اتسعوا فيهما فاستعملوهما استعمال المجلس والمكان، قال تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم: ٧٣] أي مجلساً و **(أقلّ)** فلان بالشيء واستقلّ به إذا حمله، قال تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي حملت الريح سحاباً ثقالاً بالماء و **(النشيج)** الصوت مع بكاء وتوجع كما يرد الصبي بكاءه في صدره و **(النحيب)** رفع الصوت بالبكاء و **(عجّ)** عجاً من باب ضرب رفع صوته بالتلبية ونحوها و **(النسيم)** نفس الريح الضعيف كالنسمة، وتنسّم أي تنفس، وتنسّم النّسيم أي تشممه.

و **(الرّوح)** بالفتح الرحمة والراحة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أي من رحمته، ويقال أيضاً لنسيم الريح الطيب من روّحت الدهن ترويحاً جعلت فيه ريحاً طيباً طابت به ريحه فتروّح أي فاحت رائحته، وقال في **(مجمع البحرين)** في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨ـ ٨٩] أن الروح بفتح أوّله الراحة والاستراحة أو الحياة الدائمة، وبضمه الرحمة لأنها كالروح للمرحوم، وبالوجهين قرأ قوله: فروح.

و **(المنادح)** جمع المندح كقاتل ومقتل أو جمع المندوحة من ندح ندحاً من باب منع اتّسع، قال الفيروزآبادي: النّدح وبضم الكثرة والسعة وما اتسع من الأرض كالندحة والندحة والمندوحة والمنتدح و **(الحسيب)** المحاسب، وفي بعض النسخ: محاسب بدل حسيب.

الإعراب

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٦ـ ٣٧] قرأ ابن عامر وأبو بكر: يسبّح بفتح الباء بالبناء على المفعول والباقون بكسرها، فعلى قولهم يكون رجال فاعله وعلى القول الأول فالساد مسدّ الفاعل أحد الظروف الثلاثة، أعني له فيها بالغدوّ، وعلى هذه القراءة فيكون رجال فاعلاً لفعل محذوف مدلول عليه بالفعل المذكور فكأنه قيل: من يسبّحه؟ فقال: رجال، أي يسبّحه رجال، كما في قول الشاعر:

لبيك يزيد ضارع لخصومه ومختبطٌ مما تطيح الطّوائح

أي يبكيه ضارع، وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف، أي المسبّح رجال، وقيل: التقدير فيها رجال.

وقوله عليه السلام: وما برح لله، برح فعل ناقص بمعنى زال من نواسخ المبتدأ والخبر يدخل عليهما فيرفع المبتدأ تشبيهاً بالفاعل وينصب الخبر تشبيهاً بالمفعول، ولله خبره المقدّم وعباد اسمه المؤخر، وإنما يعمل هذا العمل بشرط تقدم النفي عليه كما هنا، وفي قوله: لن نبرح عليه عاكفين، ومثله زال في الاشتراط به، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، وجملة: عزّت آلاؤه، حال من الله.

وقوله: في البرهة بعد البرهة، إما ظرف لغو متعلق ببرح، أو ظرف مستقرّ حال من عباد قدّمت على ذيلها للظرفية.

وقوله: حمدوا إليه، تعديته بإلى لتضمين معنى الإنهاء كما في قولهم: أحمد إليك الله، أي أحمد منهياً حمده إليك.

وقوله عليه السلام: فكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات، كان فعل ناقص والضمير اسمه وكذلك خبره، والكاف فيه إما للتشبيه أو بمعنى على كما قاله الأخفش والكوفيون مستدلين بأن بعضهم قيل له: كيف أصبحت؟ فقال: كخير، أي على خير، أي كان عباد الله كما وصفناه أو على ما وصفناه، ومصابيح تلك الظلمات في بعض النسخ بالنصب وفي بعضها بالرفع، فعلى النصب يجوز أن تكون بدلاً من كذلك بدل تفصيل كما في قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢ـ ١٣٤] وأن تكون حالاً من اسم كان على القول بجواز عمل الفعل الناقص في الحال، وعلى الرفع فهو بدل من ضمير كانوا كإبدال الذين ظلموا من ضمير أسرّوا في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣].

وقوله: يقطعون به أيام الحياة، الظرف مفعول به لا مفعول فيه مثل: حيث في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] إذ المعنى أنه سبحانه يعلم نفس المكان المستحق للرسالة لا شيئاً في المكان، وناصبها يعلم محذوفاً مدلولاً عليه بأعلم لا بأعلم نفسه لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به، وقوله: لرأيت جواب فلو مثلتهم.

وقوله عليه السلام: رهائن فاقة، خبر لمبتدأ محذوف، وقوله: لكلّ باب رغبة خبر قدّم على مسنده وهو يد قارعة، ومنهم متعلق برغبة ويحتمل أن يكون منهم يد قارعة خبر أو مبتدأ، فيكون لكل باب ظرف لغو متعلق بقارعة وقدم على متعلقه للوسعة في الظروف.

وقوله: لا يخيب عليه الراغبون، تعديته بعلى لتضمين لا يخيب معنى التوكل، أي

متوكلين عليه، وعلى للاستعلاء المجازي كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فإنه تعالى شأنه من استعلاء شيء عليه ولكنه إذا صار الشيء مشهوراً في الاستعمال في شيء لم يراع معناه الأصلي نحو: ما أعظم الله، ومنه: توكلت على فلان كأنك تحمل ثقلك عليه، ومنه توكلت على الله، صرّح بذلك نجم الأئمة الرضي، ويحتمل أن يكون عليه بمعنى فيه كما في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ [القصص: ١٥] فيكون متعلقاً بالراغبون أي لا يخيب الراغبون فيه والأول أظهر.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام الشريف حسبما أشار إليه الرضي قدس سره **(قاله)** عليه السلام **(عند تلاوته)** قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ وقبل الشروع في شرحه ينبغي أن نفسّر الآية باقتضاء المقام، وقد مضى بعض الكلام فيها في شرح الكلام المائة والثامن والتسعين، وأقول هنا:

قال تعالى في سورة النور: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧] أي هذه المشكاة المذكورة في سابق الآية في بيوت أو توقد في بيوت هذه صفتها.

قال ابن عباس: وهي المساجد، ويعضده قول النبي صلى الله عليه وآله: «**المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض**»[1].

وقيل: هي بيوت الأنبياء، قال في **(مجمع البيان)**: وروي ذلك مرفوعاً أنه سئل النبي صلى الله عليه وآله لما قرأ الآية: أيّ بيوت هذه؟ فقال: «**بيوت الأنبياء**»، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها؟ لبيت علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام، قال: «**نعم من أفاضلها**»[2]، ويعضد هذا القول قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

وفي **(الصافي)** من **(الكافي)** و **(الإكمال)** عن الباقر عليه السلام: هي بيوتات الأنبياء والرسل والحكماء وأئمة الهدى[3].

---

(١) المعتبر للحلي: ٢/ ١٧، ومكارم الأخلاق: ٢٩٧.
(٢) الصراط المستقيم: ١/ ٢٩٣، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٣٣٣.
(٣) شرح أصول الكافي: ١٢/ ٦٥، والتفسير الصافي: ٣/ ٤٣٦.

والقمي عنه عليه السلام: هي بيوت الأنبياء وبيوت علي عليه السلام منها.

وقد مضى في شرح الكلام المائة والثامن والتسعين حديث من **(غاية المرام)** عن موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام في هذه الآية أنه قال: بيوت آل محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين بيت عليّ وفاطمة والحسن والحسين وحمزة وجعفر عليه السلام[(١)].

وفيه أيضاً من**(الكافي)** بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: كنت جالساً في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله إذ أقبل رجل فسلّم فقال: من أنت يا عبد الله؟ فقلت: رجل من أهل الكوفة فما حاجتك؟ فقال لي: أتعرف أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام؟ فقلت: نعم، فما حاجتك إليه؟ قال: هيّأت له أربعين مسألة أسأله عنها فما كان من حق أخذته وما كان من باطل تركته، فقلت له: هل تعرف ما بين الحق والباطل؟ قال: نعم، قلت: فما حاجتك إليه إذا كنت تعرف ما بين الحق والباطل؟ فقال لي: يا أهل الكوفة أنتم قوم ما تطاقون إذا رأيت أبا جعفر عليه السلام فأخبرني، فما انقطع كلامه حتى أقبل أبو جعفر عليه السلام وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج، فمضى حتى جلس مجلسه وجلس الرجل قريباً منه، قال أبو حمزة: فجلست حتى أسمع الكلام وحوله العالم من الناس، فلما قضى حوائجهم وانصرفوا التفت عليه السلام إلى الرجل فقال له: من أنت؟ قال: أنا قتادة بن دعامة البصري، فقال أبو جعفر عليه السلام: أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: نعم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إن الله عزّ وجل خلق خلقاً من خلقه فجعلهم حججاً على خلقه فهم أوتاد الأرض قوام بأمره، نجباء في علمه، إصطفاهم قبل خلقه، أظلّة عن يمين العرش، قال: فسكت قتادة طويلاً ثم قال: أصلحك الله والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك، فقال أبو جعفر عليه السلام: ما تدري أين أنت، أنت بين يدي ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦ـ ٣٧] ونحن أولئك، فقال له قتادة: صدقت والله جعلني الله فداك، والله ما هي بيوت حجارة ولا طين، الحديث[(٢)].

والمراد بالرفع في قوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾، التعظيم ورفع القدر، وقيل: رفع الحوائج فيها إلى الله تعالى ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي يتلى فيها كتابه، وقيل: يذكر فيها أسماؤه الحسنى، وقيل: عام فيما يتضمن ذكره حتى المذكورة في أفعاله والمباحثة في أحكامه ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي يصلّي فيها بالبكر والعشايا. قال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/٣٢٦ ح ٤، وتأويل الآيات: ١/٣٦٢ ح ١٠.

(٢) الكافي: ٦/٢٥٧، ومدينة المعاجز: ٥/٥٩.

صلاة، وقيل: المراد بالتسبيح تنزيهه عما لا يجوز عليه ووصفه بصفات الكمال التي يستحقها لذاته وأفعاله.

ثم بيّن المسبِّح فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ أي لا تشغلهم ولا تصرفهم ﴿تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وستعرف الفرق بين التجارة والبيع في شرح المتن، وأما ذكر الله فهو يعمّ جميع الأذكار وقد مر تفصيلاً في التنبيه الثاني من تنبيهات الفصل السادس من فصول الخطبة الثانية والثمانين.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى شرح كلامه عليه السلام فأقول: إن مدار هذا الكلام على فصول ثلاثة:

الأول: في التنبيه على فضيلة الذكر نفسه.

الثاني: في وصف حال المذكّرين وكيفية تذكيرهم.

والثالث: في بيان أوصاف الذاكرين والإشارة إلى مقاماتهم الجليلة ومقاومهم المحمودة.

أما الفصل الأول

فهو قوله عليه السلام: **(إن الله سبحانه جعل الذّكر جلاء للقلوب)** المراد بالذكر هنا مطلق الذكر من التسبيح والتهليل والتحميد والدعاء والمناجاة وتلاوة الكتاب الكريم ونحوها، فإن المداومة عليها باللسان مع حضور القلب وتوجهه إليها توجب صفاء القلب ونوره وجلائه وطهارته ونقائه من ظلمة الذنوب ورين المعاصي والغواشي كالمرآة المجلوّة التي ليس عليها شيء من الكدر.

وذلك لما عرفت في شرح الكلام المائتين والسادس عشر أن الاستغراق في الذكر والمداومة عليه يصرف القلب عما سوى الله إلى الله عزّ وجل، فلا يبقى فيه مجال للتوجه إلى الدواعي النفسانية ولا محل لطرد الوساوس الشيطانية التي هي منشأ الذنوب ومبدأ ظلمات القلوب.

وقد تقدم في التنبيه الثاني من شرح الفصل السادس من فصول الخطبة الثانية والثمانين كيفية مطاردة جنود الملائكة والشياطين في القلب وغلبتهم على الشياطين وإبعادهم لهم عن القلب بالمداومة على الذكر والطاعة، ومضى هناك مطالب نفيسة نافعة في المقام.

وقوله عليه السلام **(تسمع به بعد الوقرة)** يعني يكون الذكر سبباً لكون القلب سميعة بعد صممها أي مستعدة لاستماع كلام الله وكلام الأنبياء والدعاة إلى الله واستفادة الكمالات والقربات منها بعدما كانت قاصرة عنها.

(وتبصر به بعد العشوة) أي يكون سبباً لكونها بصيرة بعد عشاها وضعف بصرها، أي

قابلة للانتفاع بما في الكون من عجائب التدبير مدركة لما في الآفاق والأنفس من الآيات والعبر بعدما كانت غافلة عن إدراكها.

(وتنقاد به بعد المعاندة) أي تنقاد للحق بعد العناد والإلحاد، وذلك لأنه يحصل بدوام الذكر والفكر حالة المراقبة واستشعار عظمة الله تعالى وجلاله وكبريائه فيحصل بذلك ذلّ وانكسار ومهانة للقلب ويكون داخراً ذليلاً منقاداً لقبول أمر الربّ ونهيه، سالكاً لسبيله بعدما كانت منحرفة عنه وتجلو الذكر قلبه وتقرّ عين باطنه فتبصر بما لا يبصر به قبل المداومة بالذكر، اللهم آنسنا به بلطفك الخفيّ.

وأما الفصل الثاني

فهو قوله:

(وما برح) أي ما زال **(لله)** بمقتضى لطفه ورحمته **(عزّت آلاؤه)** وجلّت نعماؤه **(في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات)** من الرسل وطول الهجعة من الأمم **(عباد)** صالحون كاملون في معرفته تامون في عبوديته قائمون بأمره في أنفسهم مبشّرون ومنذرون لغيرهم **(ناجاهم في فكرهم)** أي ألهمهم معرفته وأفاض على قلوبهم كيفية سلوك سبيله وهداية الناس إليه **(وكلّمهم في ذات عقولهم)** أي خاطبهم في باطنهم سراً وتجوّز به كالمناجاة عن الإلهام والإفاضة التي أشرنا إليها **(فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة)** أي استيقظوا بشمول الألطاف الغيبية والإفاضات الإلٰهية من نوم الغفلة ورقد الجهالة، واستضاؤوا بنور حاصل في الأسماع بسبب استماعها إلى ما فيه صلاح الدين من المواعظ والحكم والفضائل وآيات الكتاب المبين.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤] فإن الاستماع إلى ذلك بقصد الفهم والقبول محصّل لأنوار الكمالات النفسانية، ولذلك مدح الله تعالى المؤمنين بكون استماعهم على هذا الوجه، وقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] أي إذا قرأ على المؤمنين القرآن واستمعوه زادتهم آياته تبصرة ويقيناً على يقين.

وأما الاستماع لا بقصد الفهم والقبول فقد ذمّ المستمعين كذلك في قوله عزّ وجل: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢] أي لم يستمعوه استماع نظر وتدبّر وقبول وتفكّر وإنما استمعوه استماع لعب واستهزاء، وفي قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: ٤٢] أي من جملة هؤلاء الكفار من يطلبون السمع إلى كلامك للرد والتعنّت لا للفهم والقبول، فلما كان استماعهم على هذا الوجه كانوا كأنهم صمّ لا يستمعوه حيث لم ينتفعوا به فاستحقوا الطعن والتعريض من الله عزّ وجل بذلك.

واستضاؤا أيضاً بنور حاصل في الأبصار بسبب نظرها إلى ما هو محصّل لنور المعرفة من آيات الكبرياء والعظمة وعجائب الصنع والقدرة كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤].

هذا إذا كان النظر إليها للاستبصار والاعتبار وإلا فلا خير فيه ولا منفعة ولا يزيد إلا الغفلة، ولذلك ذمّ الله تعالى شأنه الكفار بكون نظرهم على هذا الوجه في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: ٤٣] أي ينظر إلى أفعالك وأقوالك لا نظر الحقيقة والعبرة بل نظر العادة فلا ينتفع بنظره ولا يزيدهم النظر إلا عمى وجهالة.

وأما الاستضاءة بنور يقظة الأفئدة فيقظتها عبارة عن فطانتها وجودتها وتوجهها إلى ما ينبغي لها من الكمالات العقلية وتفكّرها في آثار القدرة والجلال والجبروت وآيات العظمة والكمال والملك والملكوت، وتدبّرها في بدائع المصنوعات ومعاني الآيات المحكمات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [صٓ: ٢٩].

والمراد بنور يقظتها هو نور العلم والمعارف الحقة والعقائد اليقينية الحاصلة من التدبّر والتفكّر.

واستعارة النور للعلم شائع كاستعارة الظلمة للجهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. قال في التفسير: أي كافراً فأحييناه بأن هديناه إلى الإيمان. وإنما سمّى الله تعالى الكافر: ميّتاً، لأنه لا ينتفع بحياته ولا ينتفع غيره به، وسمّى المؤمن حيّاً لأن له ولغيره المصلحة والمنفعة في حياته، وجعلنا له نوراً، أراد بالنور العلم والحكمة، قال أمين الإسلام الطبرسي: سمّى سبحانه ذلك نوراً والجهل ظلمة لأن العلم يهتدى به إلى الرشاد كما يهتدى به في الطرقات. وقال ابن عباس: المراد بالنور الإيمان، وقيل: المراد به القرآن كمن مثله في الظلمات أي ظلمات الكفر. قال الطبرسي: سميّ الإيمان والقرآن والعلم نوراً لأن الناس يبصرون بذلك ويهتدون من ظلمات الكفر وحيرة الضلالة كما يهتدى بسائر الأنوار، وسميّ الكفر ظلمة لأن الكافر لا يهتدي بهداه ولا يبصر أمر رشده، ومن هذا القبيل استعارة البصير والأعمى للمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ [فاطر: ١٩].

والحاصل أنه تعالى لم يخل الأزمان من عبّاد استضاؤا واستصبحوا بنور المعرفة

واليقين الحاصل من طريق السمع بالإصغاء، ومن طريق البصر بالنظر، والأفئدة بالفكر والتدبّر، هذا حالهم في ذات أنفسهم.

وأما بالنسبة إلى الخلق فإنهم يهدون بالحق ويحكمون بالقسط ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و **(يذكرون بأيام الله)** أي يذكرون الناس بوقائعه وقوارعه وعقوباته الواقعة بالأمم الماضية في القرون الخالية على ما عرفته في شرح الفصل السابع من الخطبة المائة والحادية والتسعين.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فذكرهم بأيام الله﴾ أنه يريد بأيام الله: سنّته وأفعاله في عباده من إنعام وانتقام.

وحاصله تذكير المحسنين بالإنعام تبشيراً لهم، والمسيئين بالانتقام إنذاراً وتحذيراً، كما ذكر الله تعالى أيضاً كفار قريش بذلك في كتابه العزيز في سورة القمر حيث قال فيهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ [٤]، وكرر قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧] عقيب التذكير بقصة قوم نوح وإهلاكهم بماء منهمر، وبقصة عاد وإهلاكهم بريح صرصر في يوم نحس مستمر، وبقصة ثمود وإهلاكهم بصيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر، وبقصة قوم لوط ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر، فختم بقصة آل فرعون وأخذه عزّ وجل لهم أخذ عزيز مقتدر، ثم اتبع ذلك كله بقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر: ٤٣] إلى أن قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾ [القمر: ٥١].

قال أمين الإسلام الطبرسي: خوّف سبحانه كفار مكة فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ﴾ وأشدّ وأقوى ﴿مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الذين ذكرناهم وقد أهلكناهم، وهذا استفهام إنكار أي لستم أفضل من قوم نوح وعاد وثمود لا في القوة ولا في الثروة ولا في كثرة العدد والعدّة، والمعنى أنه إذا هلك أولئك الكفار فما الذي يؤمنكم أن ينزل بكم ما نزل بهم ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي لكم براءة من العذاب في الكتب السالفة أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية[1].

وقال في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم الماضية ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من متذكر لما يوجبه هذا الوعظ من الانزجار عن مثل ما سلف من أعمال الكفار لئلا يقع فيه ما وقع بهم من الإهلاك.

(ويخوّفون مقامه) أي يخوّفونهم من مقام الربوبية المتصفة بالعظمة والجلال والكبرياء والقدرة، ومن كونه قائماً على كل نفس بما كسبت، فإن التخويف بذلك مستلزم للخوف

(١) تفسير مجمع البيان: ٩/ ٣٢٣.

والهيبة أو من مقامهم بين يدي الربّ للحساب وذلك يوم يقوم الناس لربّ العالمين ويقوم الأشهاد ويقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن وقال صواباً.

ثم وصفهم بأنهم **(بمنزلة الأدلة)** والهداة **(في)** البوادي و **(الفلوات)** فكما أن الأدلة يدلّون على الطريق ويهتدون إليه و **(من أخذ القصد)** أي قصد السبيل وهو الطريق المستقيم المحفوظ من الإفراط المبلّغ قاصده وسالكه إلى ما يريد **(حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة)** من الهلكات **(ومن)** انحرف عنه و **(أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق وحذّروه من الهلكة)** فكذلك هؤلاء يهدون السائرين إلى الآخرة إلى الصراط المستقيم ويبشّرون الآخذين به بالسعادة الأبدية والنجاة من المهالك، ويحذّرون المنحرفين عنه إلى اليمين والشمال من الشقاوة الأبدية والوقوع في المتاعب.

(فكانوا كذلك) أي على ما وصفناه من التذكير والتخويف والتبشير والتحذير **(مصابيح تلك الظلمات وأدلة تلك الشبهات)** وأشار بها إلى ظلمات أزمنة الفترة المذكورة سابقاً وشبهاتها، وأراد بالظلمات ظلمات الجهل والحيرة التي تغشى الناس فيها، وبالشبهات الأمور الباطلة الشبيهة بالحق، وشبههم بالمصابيح لأنه يهتدى بهم ويقتبس من أنوار علومهم في تلك الظلمات كما يستضاء بالمصباح في ظلمة ذلك الليل.

وبهذا الوجه شبّه الأئمة عليهم السلام بالعلامات ورسول الله صلى الله عليه وآله بالنجم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ قال أبو عبد الله عليه السلام: نحن العلامات والنجم رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

وشبّههم عليهم السلام بالأدلة لتميزهم بين الحق والباطل وإرشادهم إلى الحق كما يفرّق الدليل بين القصد وغيره ويدل على القصد.

وقد مر نظير ذلك في كلامه عليه السلام في الخطبة الثامنة والثلاثين حيث قال عليه السلام هناك: وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى.

وأما الفصل الثالث

فهو قوله عليه السلام **(وإنّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلا)** أراد بهم إما خصوص نفسه والطيبين من أولاده لأنهم أهله حقيقة يسبحون الليل والنهار ولا يفترون ويذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً.

---

(١) الكافي: ١/٢٠٧، والبحار: ١٦/٩١.

وهم أيضاً أهل الذّكر الذي هو القرآن كما يشهد به ما في **(الكافي)** عن الفضيل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤] قال عليه السلام: الذكر القرآن ونحن قومه ونحن المسؤولون[١].

وأهل الذكر الذي هو الرسول صلى الله عليه وآله كما يدل عليه ما فيه عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر عليه الصلاة والسلام في قول الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الذكر أنا، والأئمة عليهم السلام أهل الذّكر**»[٢].

ويؤيد إرادته عليه السلام خصوص نفسه وأولاده عليهم السلام ما يفصّله عليه السلام من صفات أهل الذكر، فإن تلك الصفات الآتية هم المتّصفون بها حق الاتصاف وحقيقته.

ويؤيده أيضاً أكثر ما رويناه من الأخبار في تفسير ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ الآية.

وإن أراد به مطلق أهل الذكر فهم عليهم السلام أكثر كمل مصاديقه وأفراده.

وكيف كان فقد أخذ الذّكر أهله بدلاً من الدنيا وعوضاً منها علماً منهم بأن من أكثر ذكر الله أحبه الله كما رواه الصادق عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وروى عنه أيضاً: «**من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله**»[٣].

ولذلك **(فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه)** ذكر البيع بعد التجارة من قبيل ذكر الخاص بعد العام لمزيد الاهتمام كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فإن التجارة تشمل جميع أنواع المكاسب والبيع أظهرها، وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ لا تشغلهم معاملة رابحة ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مبالغة بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعاوضة، أو بأفراد ما هو أهم من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويتوقع بالشراء، وقيل: المراد بالتجارة الشّرى فإنه أصلها ومبدؤها.

(يقطعون به أيام الحياة) أي أيام حياتهم، ويحتمل أن يكون المعنى: أنهم يقطعون بالاشتغال به عن العلائق الدنيوية في تمام عمرهم؛ فتكون أيام الحياة مفعولاً فيه لا مفعولاً به والأول أظهر.

(ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين) عن ذكر الله أي يصيحون بالمواعظ

---

(١) الكافي: ١/ ٢١١ ح ٥، والتفسير الصافي: ٤/ ٣٩٣.

(٢) شرح أصول الكافي: ٥/ ٢٧٠ ح ١.

(٣) تفسير مجمع البيان: ٨/ ٤٢٢ ح ٤٠، والتفسير الصافي: ١/ ٤٠٨.

البالغة والنصائح الزاجرة في أسماع أهل اللهو والغفلة زجراً لهم أي إزجاعاً وإبعاداً عن المحارم **(يأمرون)** غيرهم **(بالقسط)** والعدل **(ويأتمرون)** أي ينقادون **(به)** في أنفسهم **(وينهون عن)** الفحشاء و **(المنكر ويتناهون)** أي يكفّون **(عنه)** في ذاتهم لما عرفت في شرح الخطبة المائة والرابعة أن النهي عن المنكر إنما هو بعد التناهي عنه.

(فكأنما قطعوا الدنيا) وانتهوا **(إلى الآخرة وهم فيها)** أي والحال أنهم في الدنيا فكأنهم قطعوها ومضوا إلى الدار الأخرى **(فشاهدوا)** بعين اليقين **(ما وراء ذلك)** العالم.

(فكأنما) هم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وعلى الأرائك متكؤن وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون ومن هولها مصطرخون وكأنما **(اطلعوا عيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه)** أي علموا فظائع البرزخ وشدائد أهله الغائبة عن نظر أهل الدنيا في مدة الإقامة المتمادية الطويلة لهم فيه.

(و) كأنما **(حققت القيامة عليهم عداتها)** في إسناد التحقيق إلى القيامة وكذا إضافة العدات إلى ضميرها تجوز، والمراد كأن القيامة قد قامت عليهم وحقق الله تعالى مواعيده التي تكون فيها من تكوير الشمس وطمس النجوم وتسيير الجبال وحشر الوحوش وكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش وفرار المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة إلى غير، هذه مما أخبر به الكتاب العزيز ونطقت به الأخبار.

(فكشفوا) ببياناتهم الفصيحة وكلماتهم النصيحة **(غطاء ذلك)** أي ما رأوه بعين اليقين من محجوبات الغيوب ومستورات الغيب المحجوب **(لأهل الدنيا)** تنفيراً لهم عنها وترغيباً إلى دار الآخرة **(حتى كأنهم)** من شدة اليقين وقوة إبصار البصائر وأذان العقول **(يرون)** من أحوال النشأة الأخروية **(ما لا يرى)** سائر **(الناس ويسمعون ما لا يسمعون)** وهذا المقام مقام قوله عليه السلام: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

قال الشارح البحراني: لما كان السبب في قصور النفوس عن إدراك أحوال الآخرة وهو تعلّقها بهذه الأبدان واشتغالها بتدبيرها والانغماس في الهيئات الدنيوية المكتسبة عنها، وكان هؤلاء الموصوفون قد غسلوا درن تلك الهيئات من ألواح نفوسهم بمداومة ذكر الله وملازمة الرياضة التامة، حتى صارت نفوسهم كمرايا مجلوة حوذي بها سطر الحقائق الإلٰهية فجلت وانتقشت بها، لا جرم شاهدوا بعين اليقين سبيل النجاة وسبيل الهلاك وما بينهما فسلكوا على بصيرة وهدوا الناس على يقين وأخبروا عن أمور شاهدوها بأعين بصائرهم وسمعوا بآذان عقولهم، فكأنهم في وضوح ذلك لهم وظهوره وأخبارهم عنه قد شاهدوا ما شاهده الناس بحواسهم ما لم يشاهده الناس وسمعوا ما لم يسمعوه.

(فلو مثلتهم بعقلك) أي تصوّرت مثالهم وصورهم **(في مقاومهم المحمودة)** أي مقامات عبوديتهم وتذللهم التي يحمدهم الله رب العالمين بالقيام في تلك المقامات **(ومجالسهم المشهودة)** أي مجالس عبادتهم وتضرّعهم التي تشهدها الملائكة المقرّبون كما قال عزّ من قائل: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. قال المفسرون: معناه إن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

وقوله عليه السلام: **(وقد نشروا دواوين أعمالهم وفرغوا لمحاسبة أنفسهم)** من الاستعارة التمثيلية حيث شبههم عليه السلام في تتبعهم لنفوسهم وملاحظتهم لألواح ضمائرهم وتفكّرهم في ما ثبت في تلك الألواح من صور أعمالهم التي عملوها من خير أو شرّ وتدبيرهم في جبران الخاسرة منها ومطالبتهم أنفسهم بتدارك ما فاتت وفرّطت فيها بالتاجر الذي يفتح دفتر تجارته، وينشر ديوان حسابه وينظر ما كتب فيه من صورة مكاسبه ويلاحظ ربحه وخسرانه، ويدبّر تدارك خسارته.

وقد قال عليه السلام في الخطبة التاسعة والثمانين: عباد الله زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا، وقد مرّ في شرحه ما ينفع في هذا المقام.

وحقيقة محاسبة النفس على ما نبّه عليه الغزالي أن يكون للعبد ساعة في آخر النهار يطالب النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً من فوات منافعها.

فإن التاجر إذا جلس مجلس المحاسبة مع شريكه ينظر أولاً في رأس المال، ثم في الربح والخسران ليتبين له الزيادة والنقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران ضمنه وكلّفه جبرانه في المستقبل.

وكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم تلك التجارة تمام النهار، والنفس بمنزلة الشريك فليحاسبها أولاً على الفرائض فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى على ذلك، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلّفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بمؤاخذتها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرّط كما يصنع التاجر بشريكه.

وكما أنه يفتّش في حساب الدنيا عن الحبّة والقيراط ويبالغ في المداقّة ويلاحظ مداخل الزيادة والنقصان، فينبغي له أن يبالغ في المداقة في حساب نفسه عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه وتكلمه بل عن جميع حركاته وسكناته، وينبغي أيضاً أن يحاسب النفس على جميع عمره يوماً فيوماً وساعة فساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة.

وقد نقل عن بعض العرفاء وكان محاسباً لنفسه، أنه حسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب، ثم خرّ مغشياً عليه فإذا هو ميت.

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لكان في مدّة قليلة تلا صغيراً ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه.

وأما أولياء الله الكاملون في مقام العبودية والطاعة فلهم المداقّة في محاسبة أنفسهم ومعاتبتها (**على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصروا عنها أو نهوا عنها ففرّطوا فيها**) لعدم إخراجهم أنفسهم من حد التقصير فإنه عزّ وجل لا يمكن أن ينال مدى عبادته، وكيف يمكن البلوغ إلى مدى عبادة من لا مدى له، ومن ذلك أن المعصومين عليهم السلام كانوا يعدّون أنفسهم في عداد المذنبين المقصّرين لكون حسنات الأبرار سيئات المقرّبين حسبما عرفت تفصيلاً في شرح الخطبة الأولى عند تحقيق عصمة الأنبياء عليهم السلام.

(**وحملوا ثقل أوزارهم**) وآثامهم (**ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها**) أي عن حمل الأوزار (**فنشجوا نشيجاً**) أي بكوا بكاء متوجّع (**وتجاوبوا نحيباً**) أي جاوب بعضهم بعضاً بالنحيب والبكاء الشديد، ولفظ التجاوب مجاز فإنهم لما كانوا في مقام محاسبة النفس رافعين أصواتهم بالبكاء صاروا بمنزلة المتجاوبين كأن كلاً منهم يجاوب الآخر ببكائه ونحيبه.

(**يعجّون إلى ربهم من مقام ندم واعتراف**) أي يرفعون أصواتهم إليه عزّ وجل بالتضرع والابتهال في مقامات التوبة والابتهال والاعتراف بالتفريط والتقصير.

وقوله (**لرأيت**) جواب لو مثّلتهم حسبما أشرنا إليه أي لو تصورت حالاتهم في مقاماتهم المحمودة ومجالسهم المشهودة وشاهدت من شؤونهم كيت وكيت لرأيت (**أعلام هدى**) يهتدى بآثارهم في ظلم الضلالة (**ومصابيح دجى**) يقتبس من أنوارهم في غياهب الجهالة (**قد حفّت بهم الملائكة**) أي أحاطت بهم الملائكة تشريفاً وإكراماً وعناية من الله تعالى في حقهم (**وتنزّلت عليهم السكينة**) وهي هيئة جسمانية تنشأ من استقرار الأعضاء وطمأنينتها مع اعتدال حركاتها، ولعل المراد بها برد اليقين الذي أشرنا إليه في شرح الكلام الذي قبل هذا الكلام له عليه السلام.

(**وفتحت لهم أبواب السماء**) بالعنايات الإلهية والإفاضات الملكوتية والألطاف الغيبية (**وأعدّت لهم مقاعد الكرامات**) المشار إليها في قوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

قال أمين الإسلام الطبرسي: أي أنهار من الخمر والماء والعسل، وضع نهر في موضع أنهار لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير، والأولى أن يكون إنما وحدّ لوفاق الفواصل في ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم. وقيل: وصفه بالصدق لكونه رفيعاً مرضياً، وقيل: لدوام النعيم به، وقيل: لأن الله صدق وعد أوليائه فيه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي عند الله سبحانه فهو المالك القادر الذي لا يعجزه شيء، وليس المراد قرب المكان تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً بل المراد أنهم في كنفه وجواره وكفايته حيث تنالهم غواشي رحمته وفضله[1].

والحاصل أنها هيأت لهم تلك المقاعد **(في مقام اطلع الله عليكم فيه)** وفي نسخة الشارح المعتزلي: عليهم بدل عليكم وهو أنسب، وعلى هذه النسخ فلعله من تغليب المخاطبين على الغائبين، ويمكن أن يكون النكتة في العدول من الغيبة على الخطاب تهييج المخاطبين وإلهابهم بالتنبيه على أن الله تعالى مطلع عليكم وعليهم جميعاً ولكن مقاعد كراماته صارت مخصوصة بهم لتكميلهم للعبودية فينبغي أن تكونوا مثلهم حتى تكون معدّة لكم أيضاً كما أُعدّت لهم.

(فرضى سعيهم) أي جدّهم وجهدهم في العبادة **(وحمد مقامهم)** أي مقام عبوديتهم وهو فوق مرتبة مقام العبادة لأن العبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص من السالكين والعبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين. فإن حقيقة العبودية هي الأسر والتذلل في قيد الرقية وأن لا يبقى فيه أثر من آثار هواه، وأن تكون أوقاته مستغرقة في خدمة مولاه مصروفة إلى تحصيل رضاه.

ولذلك وصف الله نبيه صلى الله عليه وآله بهذا الوصف في غاية غايات مقام الرب والزّلفى حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ٨ ـ ١٠] فعبر بلفظ العبد إشارة إلى أنه صلى الله عليه وآله في ذلك المقام كان فانياً في الله لم يكن له همّ أصلاً فيما سواه منقطعاً عن جميع ما عداه.

(يتنسمون بدعائه روح التجاوز) أي يشمون بدعائه ومناجاته تعالى النسيم الطيب والهواء الذي تستلذّه النفس ويزيل عنها الهمّ لما حصل من تجاوزه عزّ وجل من تقصيرهم وصفحه عنهم **(رهائن فاقة إلى فضله)** قال الشارح البحراني: استعار لهم لفظ الرهائن لكونهم في محلّ الحاجة إلى فضله لا معدل ولا ملجأ لهم عنه كالرهائن في يد المسترهن.

وكذلك الأسارى في قوله عليه السلام **(وأسارى ذلة لعظمته)** ووجه المشابهة كونهم في مقام

---

(١) بحار الأنوار: ٨/١٠٣، وتفسير مجمع البيان: ٩/ ٣٢٥.

الذّلة تحت عظمته كالأسير بالنسبة إلى عظمة من أسره.

(جرح طول الأسى قلوبهم وطول البكاء عيونهم) أي صارت قلوبهم وعيونهم مجروحة من طول الحزن والبكاء لما فيهم من مزيد الخوف والخشية الملازم لكمال المعرفة التي لهم بعظمة الرب تعالى وعزّته **(لكل باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة)** أراد بأبواب الرغبة أنواع العبادات والقربات، وبقرعهم لتلك الأبواب جدّهم في إقامتها وعدم غفلتهم عنها.

وقال البحراني: أشار بقرعهم لكل باب من أبواب الرغبة إلى الله إلى توجيه أسرارهم وعقولهم إلى القبلة الحقيقية استشراقاً لأنوار الله واستماماً لجوده.

(يسألون من لا تضيق لديه المنادح) الإتيان بالموصول لزيادة التقرير، أي تقرير الغرض المسوق له الكلام، فإن المقصود به الحثّ على سؤاله والترغيب إليه تعالى بالتنبيه على سعة بحر كرمه وجوده وعدم ضيقه عن سؤال السائلين وآمال الراغبين، فهو أدل على هذا الغرض من أن يقول: يسألون الله أو يسألون الرب تعالى.

ومحصّله أنه عزّ وجل لا يفقره المنع والجمود ولا يكديه الإعطاء والجود، بل لو وهب ما تنفسّت عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلزّ اللّجين والعقيان ونثارة الدرّ وحصيد المرجان ما أثّر ذلك في جوده ولا أنفد سعة ما عنده ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لا تنفده مطالب الأنام لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخّله إلحاح الملحين.

(ولا يخيب عليه الراغبون) ولا ييأس من فضله وكرمه إلا الكافرون.

(فحاسب نفسك لنفسك) أي حاسب نفسك التي هي أعزّ الأنفس عليك وأحبها إليك لأجل منفعة نفسك، أي تولى أنت بنفسك بمحاسبة نفسك قبل أن تحاسب بها **(فإن غيرها من الأنفس عليها حسيب)** أي محاسب **(غيرك)** يعني سائر الأنفس التي لم يتول صاحبها محاسبتها فإن لها حسيباً يحاسبها، وهو الله ربّ العالمين مالك يوم الدين أسرع الحاسبين كما قال عز شأنه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ـ ٢٦]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦١ـ ٦٢].

الترجمة

از جمله کلام آن امام مبین است که گفته در نزد خواندن آیه شریفه "رجال لا تلهیم تجارة و لا بیع عن ذکر الله"، یعنی "تسبیح می کنند خدای تعالی را مردانی که مشغول نسازد ایشان را تکسب و نه مبایعه از ذکر پروردگار"؛ آن بزرگوار در حین خواندن این آیه فرموده:

به تحقیق خدای منزه از نقص، گردانید ذکر خود را صیقل از برای قلب ها در حالتی که می شنوند به سبب آن بعد از سنگینی و کری و می بینند به سبب آن بعد از کوری و مطیع می باشند به جهت آن بعد از نافرمانی و همیشه بوده از برای خدا در حالتی که عزیز است نعمت های او در زمانی بعد از زمانی و در اوقات فترت پیغمبران بندگانی که راز گوید و نجوی می کند حقتعالی با ایشان در پرده قلب های ایشان و سخن می گوید با ایشان در باطن عقل های ایشان، پس کسب روشنی کردند به نور آگاهی در گوش ها و چشم ها و قلب ها، به یاد مردم می آورند ایام انعام و انتقام خدا را در امّتان گذشته و می ترسانند مردمان را به شناساندن مقام عظمت و اقتدار او.

و ایشان به منزله راه نمایندگان اند در بیابان ها، هرکسی که راه راست را پیش بگیرد مدح می کنند به سوی او راه او را و بشارت می دهند او را به خلاصی از هلاکت و هرکس که کج شود از راه راست و پیش بگیرد یمین و یسار را مذمت می کنند به سوی او راه او را و می ترسانند او را از هلاکت.

پس باشند ایشان به این وصف ها چراغان این تاریکی ها و دلیلان این شبهه ها و به درستی که از برای ذکر خدا اهلی است که فرا گرفته اند آن را عوض از متاع دنیا، پس مشغول نساخت ایشان را نه کسب و نه مبایعه از آن ذکر، می برند و می گذرانند با ذکر اوقات زندگانی دنیا را و صدا می کنند با مواعظ مانعه از محرّمات الهی در گوش های غافلان و امر می کنند به عدالت و گردن می نهند خودشان به آن و نهی می کنند از قبیح و بازدارند خودشان را از آن.

پس گویا که قطع کرده اند دنیا را و رسیده اند به آخرت و حال آن که در دنیا

باشند، پس مشاهده كرده اند پشت سر دنيا را، پس گويا كه مطلع گشته اند بر پنهانى هاى اهل برزخ در درازى اقامت و توقف ايشان در آن و محقّق ساخته قيامت بر ايشان وعده هاى خودش را، پس برداشتند پرده هاى حالات اهل برزخ و قيامت را از براى اهل دنيا به اندازه اى كه گويامى بينند ايشان چيزى را كه نمى بينند مردمان و مى شنوند چيزى را كه نمى شنوند مردمان.

پس مصور سازى ايشان را به عقل خودت در مقام هاى پسنديده ايشان و مجلس هاى برگزيده ايشان كه شهادتگاه ملائكه مقربين اند در حالتى كه ايشان گشوده باشند دفترهاى عمل هاى خودشان را و فارع شده باشند از براى محاسبه نفس هاى خودشان بر هر عملى از عمل هاى كوچك و بزرگ كه مأمور شده باشند به آن، پس تقصير كرده باشند در آن يا نهى شده باشند از آن، پس مساحله كرده باشند در آن و بار كرده باشند گرانى گناهان خودشان را بر پشت هاى خودشان، پس ناتوان باشند از بلند كردن و برداشتن آن، پس گريه كنند به آواز بلند غمناك و جواب يكديگر را مى دهند با گريه و زارى، ناله مى كنند به سوى پروردگار خود در مقام هاى توبه و پشيمانى و اقرار به تقصير.

هرآينه مى بينى علامت هاى هدايت و چراغهاى تاريكى و ظلمت، در حالتى كه احاطه كرده باشند به ايشان ملائكه ها و نزول كرده باشد به ايشان تمكين و وقار و گشوده باشد از براى ايشان درهاى رحمت آسمان و مهيّا شده باشد از براى ايشان مجلس هاى كرامت و شرافت در مقامى كه مطلع شده خداى تعالى بر شما در آن مقام، پس خشنود شده خدا از سعى و كوشش ايشان و پسنديده مقام بندگى ايشان را، در حالتى كه استشمام مى كنند به سبب دعاى او نسيم عفو و تجاوز را.

ايشان گروه هاى فقر و فاقه اند به سوى فضل و كرم او و اسيرهاى ذلت اند مربزرگوارى و عزت او را، مجروح و زخم دار نموده درازى حزن و اندوه دل هاى ايشان را و درازى گريه چشم هاى ايشان را، از براى هر در رغبت كردن به سوى خدا از ايشان است دست كوبنده، سؤال مى كنند از كسى تنگ نمى شود در نزد او وسعت هاى كرم وجود و نااميد نمى گردد بر درگاه نوال او رغبت كنندگان، پس محاسب باش نفس خودت را از براى نفس خود، پس به تحقيق كه از براى غير نفس تو از نفس ها، محاسبى هست غير از تو كه اسرع الحاسبين است.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والحادي والعشرون
من المختار في باب الخطب

قال عليه السلام عند تلاوته: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الإنفطار: ٦]:

أَدْحَضُ مَسْؤُولٍ حُجَّةً، وأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهالَةً بِنَفْسِهِ، يا أَيُّها الإِنْسانُ ما جَرَّأَكَ عَلىٰ ذَنْبِكَ، وما غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وما آنَسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ، أَما مِنْ دائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقْظَةٌ، أَما تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ ما تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ، فَرُبَّما تَرَى الضّاحِي مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى المُبْتَلىٰ بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ، فَما صَبَّرَكَ عَلىٰ دائِكَ، وجَلَّدَكَ بِمُصابِكَ، وعَزّاكَ عَنِ البُكاءِ عَلىٰ نَفْسِكَ، وهِيَ أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْكَ، وكَيْفَ لا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَياتِ نِقْمَةٍ وقَد تَوَرَّطْتَ بِمَعاصِيهِ مَدارِجَ سَطَواتِهِ، فَتَداوَ مِنْ داءِ الفَتْرَةِ في قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، ومِنْ كَسْرَى الغَفْلَةِ في ناظِرِكَ بِيَقْظَةٍ، وكُنْ لِلَّهِ مُطيعاً، وبِذِكْرِهِ آنِساً، وتَمَثَّلْ في حالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلىٰ عَفْوِهِ، ويَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ وأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلىٰ غَيْرِهِ.

فَتَعالىٰ مِنْ قَوِيٍّ ما أَكْرَمَهُ، وتَواضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ ما أَجْرَأَكَ عَلىٰ مَعْصِيَتِهِ وأَنْتَ في كَنَفِ سَتْرِهِ مُقِيمٌ، وفي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، ولَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ في نِعْمَةٍ يُحْدِثُها لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُها عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُها عَنْكَ، فَما ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ، وأَيْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ كانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ في القُوَّةِ، مُتَوازِنَيْنِ في القُدْرَةِ لَكُنْتَ أَوَّلَ حاكِمٍ عَلىٰ نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الأَخْلاقِ، ومَساوِيءِ الأَعْمالِ.

وحَقّاً أَقُولُ ما الدُّنْيا غَرَّتْكَ، ولٰكِنْ بِها اغْتَرَرْتَ، وقَدْ كاشَفَتْكَ العِظاتُ، وآذَنَتْكَ عَلىٰ سَواءٍ، ولَهِيَ بِما تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ البَلاءِ بِجِسْمِكَ والنَّقْصِ في قُوَّتِكَ أَصْدَقُ وأَوْفىٰ مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ، ولَرُبَّ ناصِحٍ لها عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وصادِقٍ مِنْ خَبَرِها مُكَذَّبٌ، ولَئِنْ تَعَرَّفْتَها في الدِّيارِ الخاوِيَةِ والرُّبُوعِ الخالِيَةِ لَتَجِدَنَّها مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ وبَلاغِ مَوْعِظَتِكَ بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، والشَّحِيحِ بِكَ، ولَنِعْمَ دارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِها داراً، ومَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْها مَحَلاً.

وإِنَّ السُّعَداءَ بِالدُّنْيا غَداً هُمُ الهارِبُونَ مِنْها اليَوْمَ، إِذ رَجَفَتِ الرّاجِفَةُ، وحَقَّتْ بِجَلائِلِها القِيامَةُ، ولَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وبِكُلِّ مُطاعٍ أَهْلُ طاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ في عَدْلِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الهَواءِ، ولا هَمْسُ قَدَمٍ في الأَرْضِ إِلاّ بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذاكَ داحِضَةٍ، وعَلائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٍ، فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ ما يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ، وخُذْ ما

يَبْقىٰ لَكَ مِمّا لا تَبْقىٰ لَهُ، وتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ، وشِمْ بَرْقَ النَّجاةِ، وَارْحَلْ مَطايَا التَّشْمِيرِ(١).

اللغة

(دحضت) الحجة دحضاً من باب منع، بطلت ويتعدى بالهمزة فيقال: أدحضها الله ودحض الرجل زلق و **(برح)** به الضرب اشتد وعظم، وهذا أبرح من ذاك أي أشد ويقال: لقد أبرح فلان جهالة وأبرح لوماً وأبرح شجاعة، وقتلوه أبرح قتل أي أشده **(وما آنسك)** من باب ضرب بلأً وبللاً وبلولاً كقعود برء وحسنت حاله بعد الهزال.

و **(الضاحي)** لحر الشمس البارز، يقال: ضحى فلان مثل دعى أي برز للشمس ومثل رضى وسعى أي أصابته الشمس و **(مضضت)** الشيء مضضاً من باب تعب تألمت ويتعدى بالحركة والهمزة فيقال: مضه الحرج مضّاً وأمضه إمضاضاً أي آلمه.

و **(الجلادة)** القوة والشدة والصلابة، وجلدك بمصابك أي جعلك جلداً، وروي: وجلدك على مصائبك بلفظة على وصيغة الجمع و **(بيات نقمة)** طروقها والنقمة وزان كلمة، ونعمة وفرحة المكافأة بالعقوبة والجمع نقم ككلم وعنب و **(التورّط)** الوقوع في الورطة بسكون الراء وهي المهلكة وكل أرض مطمئنة لا طريق فيها و **(عزم)** على الشيء وعزمه عزماً من باب ضرب عقد ضميره على فعله وعزم عزيمة اجتهد وجد في أمره و **(الكرى)** وزان عصا النعاس.

و **(الكنف)** محركة الجانب والظل، وفلان في كنف الله أي في حرزه و **(الستر)** بالكسر الساتر وبالفتح المصدر و **(طرف)** البصر طرفاً من باب ضرب تحرك، وطرف العين نظرها والطرفة المرة منه ومطرف العين يحتمل المصدر والزمان و **(العظات)** جمع العظة كالعذاب وهي الموعظة أي ما يلين القلب من ذكر الثواب والعقاب والوعد والوعيد وفي هذا **(بلاغ)** وبلغة وتبلّغ أي كفاية.

و **(حقّت)** بجلائلها أي ثبتت من حق الشيء يحق، أي ثبت. وقال الفيومي: حقّت القيامة يحق من باب قتل أي أحاطت بالخلائق فهي حاقة، وقال ابن الأنباري: الحاقة الواجبة حق أي وجب يحق حقاً وحقوقاً فهو حاق. وقال أمين الإسلام الطبرسي: سمّيت القيامة الحاقة لأنها ذات الحواق من الأمور وهي الصادقة الواجبة الصدق لأن جميع أحكام القيامة واجبة الوقوع صادقة الوجود.

و **(نسك)** الله من باب قتل تطوّع بقربة والنسك بضمتين اسم منه والمنسك بفتح السين

---

(١) بحار الأنوار: ٧/١١٦، وميزان الحكمة: ٤/٣٢٦٢.

وكسرها يكون زماناً ومصدراً ومكاناً تذبح فيه النسيكة وهي الذبيحة ومناسك الحج عباداته، وقيل: مواضع العبادات و **(العبدة)** جمع عابد كمردة ومارد.

(فلم يجز في عدله) قال الشارح المعتزلي: قد اختلفت الرواة في هذه اللفظة فرواها قوم فلم يجر وهو مضارع جرى تقول: ما جرى اليوم، فيقول من سألته: قدم الأمير من السفر، ورواها قوم فلم يجز مضارع جاز يجوز، ورواها قوم فلم يجر من جار أي عدل عن الطريق.

و **(الهمس)** الصوت الخفي وقوله **(فتحرّ من أمرك)** أمر من تحرّيت الشيء قصدته وتحريت في الأمر طلبت أحرى الأمرين وهو أولاهما و **(شام)** البرق يشيمه نظر إليه أين يقصد وأين يمطر و **(رحلت)** مطيتي شددت على ظهرها الرّحل و**(شمّر)** تشميراً أي جاداً، وشمّر الثوب دفعه وفي الأمر خف.

الإعراب

قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ الاستفهام للإنكار على سبيل التوبيخ والتقريع، ويجوز أن يكون للتقرير أي حمل المخاطب على الاعتراف والإقرار بما يعرفه من جهة الاغترار وعلّته، وقوله عليه السلام: أدحض مسؤول حجّة خبر لمبتدأ محذوف أي هو أدحض مسؤول، والضمير راجع إلى الإنسان المغرور، وحجة منصوب على التميز، وكذلك معذرة وجهالة منصوبتان عليه أيضاً.

وقوله: فلربما ترى، اللام للتوكيد، وما كافة لربّ عن عمل الخبر، ولذلك دخلت على الفعل كما في قول الشاعر:

ربما أوفيتُ في علم ترفعن ثوبي شمالات

وقوله: الضاحي من حرّ الشمس، في نسخة الشارحين المعتزلي والبحراني لحرّ الشمس باللام بدل من، ولعل الأول بناء على كون الضاحي بمعنى المصيب، والثاني على كونه بمعنى البارز. وقوله: وهي أعزّ الأنفس، الجملة في محلّ النصب على الحال وكذلك جملة وقد تورّطت، وانتصاب مدارج سطواته إما على المفعول به أو على المفعول فيه، وحذف الخافض أي في مدارج سطواته، ومطرف عين منصوب على الظرفية.

وقوله: يدعوك إلى فضله، استئناف بياني، وليس حالاً كما زعمه الشارح البحراني، وجملة: وأنت متول، في موضع النصب على الحال، وقوله: حقاً: أقول: صفة لمصدر محذوف مقدّم على فعله أي أقول قولاً حقاً، وقوله: كاشفتك العظات بنصب العظات على أنها مفعول به، وكاشفت بمعنى كشف أي كشفت لك المواعظ أو مفعول بالواسطة أي

كاشفتك بالعظات وتروى بالرفع على أنها فاعل كاشفت ومتّهم صفة لناصح ومكذب صفة لصادق.

وقوله: ولنعم داره المخصوص بالمدح محذوف وهو الضمير الراجع إلى الدنيا السابق ذكرها على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [صٓ: ٤٤] أي هو والضمير لأيوب على نبينا وعليه السلام السابق ذكره في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [صٓ: ٤١] وإضافة فاعل نعم إلى غير المعرّف باللام على حدّ قول الشاعر: فنعم صاحب قوم لا سلاح لهم.

وداراً ومحلاً منصوبان على التمييز، والباء في قوله: بجلائلها تحتمل تعدّيه والمصاحبة والضمير فيه راجع إلى القيامة لتقدمها رتبة وإن تأخرت لفظاً، وقوله: خرق بصر، بالرفع فاعل يجر إن كان الفعل بصيغة المعلوم كما في نسخة الشارح المعتزلي ونائب عن الفاعل إن كان بصيغة المجهول كما حكي عن القطب الراوندي.

وقوله: فكم حجّة يوم ذاك داحضة، كم خبريّة بمعنى كثير أضيفت إلى تمييزها وهي في محل الرفع على الابتداء، ويوم ذاك خبرها وداحضة بالجرّ على ما في النسخ التي عندنا صفة لحجة ولو كانت داحضة بالرفع كفاتت «كذا» هي الخبر ويكون يوم ذاك ظرف لغو متعلقاً بها متقدماً عليها وهذا أنسب لكن النسخ لا تساعد عليه ومن في قوله: مما لا تبقى له، يحتمل البدل كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] ويحتمل التسوية أيضاً.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام كما نبّه الرضي قدّس سره **(قاله)** عليه السلام **(عند تلاوته)** الآية الشريفة في سورة الانفطار **(يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم)** وقبل الشروع في شرح كلامه عليه السلام ينبغي أن نذكر ما قاله المفسرون في تفسير الآية فأقول:

لهم في تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، قولان:

أحدهما: أنه الكافر لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾ قال عطا عن ابن عباس: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة.

والثاني: أنه عام لجميع العصاة وهو الأقرب، وقوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ أي أي شيء خدعك وسوّل لك الباطل حتى تركت الواجبات وأتيت بالمحرمات وعصيت خالقك وخالفته، والمراد ما الذي آمنك من عقابه، يقال: غرّه بفلان إذا آمنه المحذور من جهة مع أنه غير مأمون وهو كقوله: **﴿لا يغرنكم بالله الغرور﴾**.

واختلف في معنى الكريم، فقيل: هو المنعم الذي كل أفعاله إحسان وإنعام لا يجرّ به نفعاً ولا يدفع به ضرراً، وقيل: هو الذي يعطي ما عليه وما ليس عليه ولا يطلب ماله، وقيل: هو الذي يقبل اليسير ويعطي الكثير، وقيل: إن من كرمه سبحانه أنه لم يرض بالعفو عن السيئات حتى بدّلها بالحسنات.

واختلفوا في جهة تخصيص كريمتيه بالذكر دون سائر أسمائه وصفاته فقيل: لأنه كأنه لقّنه الإجابة حتى يقول: غرّني كرم الكريم، وقيل: للمنع عن المبالغة في الاغترار والإشعار بما به يغرّه الشيطان، فإنه يقول له: افعل ما شئت فإن ربك الكريم لا يعذّب أحداً ولا يعاجل بالعقوبة، وقيل: للدلالة على أن كثرة كرمه مستدعي الجد في طاعته لا الإنهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه.

وقال في (**الكشاف**): فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به وإنما يغترّ بالكريم.

قلت: معناه أن حق الإنسان أن لا يغترّ لكرم الله عليه حيث خلقه حيّاً لنفعه وبتفضّله عليه بذلك حتى ينفع ويطمع بعدما مكّنه وكلّفه فعصى وكفر النعمة المتفضّل بها أن يتفضّل عليه بالثواب وطرح العقاب اغتراراً ما لتفضل الأول فإنه منكر خارج من حدّ الحكمة، ولذا قال رسول الله ﷺ لما تلاها: غرّه جهله، وقال الحسن: غرّه والله شيطانه الخبيث، أي زيّن له المعاصي وقال له: افعل ما شئت فربّك الكريم الذي تفضّل عليك بما تفضّل به أولاً وهو متفضل عليك آخراً حتى ورّطه، وقيل للفضيل بن عياض: إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك: ما غرّك بربك الكريم ماذا تقول؟ قال: أقول: غرّني ستورك المرخاة، وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاغترار بالستر وليس باعتذار كما يظنه الطماع وتظن قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم أنه إنما قال: بربك الكريم دون سائر صفاته ليلقّن عبده الجواب حتى يقول: غرّني كرم الكريم، انتهى.

وقال الشارح المعتزلي: لقائل أن يقول: لو قال: ما غرّك بربك العزيز أو المنتقم أو نحو ذلك كان أولى لأن للإنسان المعاتب أن يقول له: غرّني كرمك أو ما وصفت به نفسك.

وجواب هذا أن يقال: إن مجموع الصفات كشيء واحد وهو الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركّبك، والمعنى ما غرّك برب هذه صفته وهذا شأنه وهو قادر على أن يجعلك في أي صورة شاء، فما الذي يؤمنك من أن يمسخك في صورة القرد أو الخنازير ونحوها من الحيوانات العجم، ومعنى الكريم هٰهنا: الفيّاض على المواد بالصور، ومن هذه صفته ينبغي أن يخاف منه تبديل الصورة.

إذا عرفت ذلك فلنشرع في شرح كلامه عليه السلام، فأقول: قوله **(أدحض مسؤول حجّة)** أي الإنسان المخاطب بخطاب: يا أيها الإنسان والمسؤول المعاتب بعتاب ما غرّك إن أراد الجواب عن ذلك الخطاب والاحتجاج والاستدلال في قبال ذلك السؤال والاعتراض فحجّته أبطل الحجج وأزيفها.

وذلك لأنه إن قال في مقام الجواب: غرّني كرمك، فهو جواب سقيم لأن كثرة الكرم والتفضّل والإحسان تقتضي الجدّ والاجتهاد في العبودية والعبادة والشكر والطاعة لا الإغترار والكفران والتواني والخلاف والعصيان.

وإن قال: غرّني الشيطان، فيقال له: ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم؟.

وإن قال: غرّني جهلي، فيقال له: أفلم أرسل إليكم المرسلين مبشّرين ومنذرين وعلّمتكم الأحكام والتكاليف بما أنزلت في صحف الأولين وزبر الآخرين كي لا تقولوا: إنّا كنا عن هذا غافلين؟.

(و) بذلك ظهر أيضاً أنه **(أقطع مغتر معذرة)** يعني أنه إن اعتذر عن اغتراره بعذر من المعاذير السابقة وما ضاهاها فعذره أقطع الأعذار وأسقطها عن درجة الاعتبار كما قال عزّ من قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٥٧].

(لقد أبرح جهالة بنفسه) أي اشتد بنفسه من حيث الجهالة، قيل: الجهالة اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية، وقيل: اجتمعت الصحابة على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة، وكل من عصى الله فهو جاهل **(يا أيها الإنسان ما جرأك على ذنبك وما غرّك بربك وما آنسك بهلكة نفسك)** هذه الاستفهامات الثلاثة واردة في معرض التوبيخ والإنكار على أسباب الجرأة والاغترار والأنس بإلقاء النفس في الهلكات وتوريطها في الموبقات. قال الشارح البحراني: ويحتمل أن يكون قوله: ما آنسك، تعجباً.

(أما من دائك بلول أم ليس من نومتك يقظة أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك) هذه الاستفهامات كسابقتها أيضاً واردة في مقام الإنكار والتقريع لكنهم لدخولها على النفي تفيد العرض والطلب، أي طلب البراءة من داء الذنوب وأسقام الآثام والانتباه من نومة الغفلة والجهالة، والترحم والعطوفة للنفس مثل الترحم والعطف للغير. وحاصله أنه لا ينبغي لك عدم البراءة واليقظة والرحمة.

وأوضح ترحمه للغير بقوله **(فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله)** أي ترى من أصابته حرارتها وتأذى بها فتظله بالظلال ترحماً وتلطفاً ودفعاً للأذى عنه **(أو ترى المبتلي بألم**

يمض جسده) أي يؤلمه **(فتبكي رحمة له)** وإذا كان هذا شأنك مع الغير فما بالك في نفسك حيث تركت نصحها وملاحظتها.

(فما صبرك على دائك) الدّوي **(وجلدك بمصابك)** العظيم **(وعزاك)** أي سلاك **(عن البكاء على نفسك وهي أعزّ الأنفس عليك)** وأحبها إليك **(وكيف لا يوقظك)** من نومك **(خوف بيات نقمة)** ومفاجآت عقوبة، وأصل البيات أن يقصد بالعدوّ في الليل من غير أن يشعر فيأخذه بغتة فاستعير لنزول العذاب فيها، قال تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف: ٩٧].

وقوله **(وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته)** أي وقعت باكتساب آثامه في ورطات الهلكات وصعدن مدارج السطوات والسخطات والتعبير بالمدارج نظراً إلى اختلاف المعاصي وكون بعضها فوق بعض من حيث الصغر والكبر الموجب لتفاوت مراتب السطوة ودرجات السخطة من حيث الضعف والشدة.

ويحتمل أن يكون المراد بالمدارج الطرق نحو ما في الحديث: إياكم والتعريس في بطون الأودية فإنها مدارج السباع تأوي إليها، قال الطريحي: هي جمع مدرج بفتح الميم الطريق، والمعنى الأول ألطف.

(فتداوى من داء الفترة في قلبك بعزيمة) أي عالج من مرض الفتور والضعف والانكسار الذي في قلبك بدواء الجد والعزم على العبودية والطاعة **(ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة)** أي من نوم الغفلة في ناظر بصيرتك عن الذكر والفكر بالتنبيه واليقظة.

(وكن لله مطيعاً) وهي ـ أعني الطاعة ـ نتيجة العزيمة **(وبذكره آنساً)** وهو ـ أعني الذكر ـ ثمرة اليقظة **(وتمثل في حال توليك عنه إقباله عليك)** أي تصوّر إقباله تعالى عليك بالفضل والإحسان والكرم والامتنان في حال إعراضك عنه والمقابلة لذلك بالكفران والمخالفة والعصيان كما أوضحه بقوله **(يدعوك إلى عفوه)** بما أنزله في كتابه من قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ونحوه **(ويتغمدك بفضله)** وكرمه **(وأنت متولّ)** ومعرض **(عنه إلى غيره)** تعالى ومقبل إلى الدنيا، وراكن إليها، ومنهمك في لذّاتها وشهواتها.

(فتعالى من قويّ) وقادر على مؤاخذتك **(ما أكرمه)** وأجزل إحسانه. وفي بعض النسخ: ما أحلمه، أي أصفحه عنك **(وتواضعت من ضعيف)** وحقير **(ما أجرأك)** وأعظم كفرانك وجار لك **(على معصيته)** ومخالفته **(وأنت في كنف ستره مقيم)** حيث ستر من شنائع أعمالك وقبائح ذنوبك ما لو كشف عن أدناها لافتضحت **(وفي سعة فضله متقلّب)** حيث أسبغ عليك من نعمه الجسام وآلائه العظام ما لو شكرت على أقلّ قليلها لعجزت.

(فلم يمنعك فضله) بكفرانك **(ولم يهتك عنك ستره)** بطغيانك **(بل لم تخل من لطفه)** وبرّه **(مطرف عين)** أي مقدار حركة البصر **(في نعمة يحدثها لك أو سيئة يسترها عليك أو بلية يصرفها عنك)** وهذا تفصيل ضروب ألطافه تعالى الخفيّة والجليّة.

والغرض من قوله عليه السلام: فتمثل إلى هنا، تذكير المخاطبين بعوائد نعمه وموائد كرمه وجميل آلائه وجزيل نعمائه وعموم نواله في حقهم، مع ما هم عليه من الغفلة والإعراض حثّاً لهم بذلك على المداومة بالذكر والطاعة، والتنبه من نوم الغفلة والجهالة، والمواظبة على دعائه ومناجاته بنحو ما في دعاء الافتتاح:

فكم يا إلٰهي من كربة قد فرّجتها، وهموم قد كشفتها، وعثرة قد أقلتها، وحلقة بلاء قد فككتها، اللهم إنّ عفوك عن ذنبي وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي، وسترك على قبيح عملي، وحلمك عن كثير جرمي عندما كان من خطأي وعمدي أطمعني في أن أسألك ما لا أستوجبه منك، فلم أر مولىً كريماً أصبر على عبد لئيم منك عليّ يا رب، إنك تدعوني فأولّي عنك، وتتحبّب إليّ فأتبغض إليك، وتتودّد إليّ فلا أقبل منك، كأن لي التطوّل عليك فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي والإحسان إليّ والتفضّل عليّ بجودك وكرمك[١].

هذا كله فضله ولطفه وإحسانه عليك مع عصيانك وطغيانك **(فما ظنك به لو أطعته)** وكيف يؤيسك من كرمه مع طاعتك وقد قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] أم كيف يحرمك من نعمه مع توكّلك عليه وقد قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]، أم كيف ينقص عطاؤه وحباؤه مع شكرك وذكرك وقد قال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثم أكد جذبهم إلى التّعبد والطاعة بأبلغ بيان وأحسن تقرير وعبارة فقال **(وأيم الله لو أن هذه الصفة)** التي ذكرت من إقبال الله عليك وتوليّك عنه **(كانت في)** متماثلين من الناس **(متفقين في القوة متوازنين في القدرة)** متساويين في الدرجة والرتبة وكنت أنت أحدهما **(لكنت)** لو أنصفت **(أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق ومساوىء الأعمال)** حيث إنه أقبل وتوليّت، وتحبّب وتعاديت، ووصلك فقطعت، وتدانى فتباعدت، فكيف إذا كان الطرف المقابل هو الله القاهر القادر، مالك الملوك، ربك وربّ العالمين كلهم، فحكومتك على نفسك وتعزيرك عليها حينئذ أولى وأحجى.

ثم لما كان منشأ اغترار الغافلين العصاة المخاطبين المسؤولين بخطاب: ما غرّك بربك الكريم، وعلّة إعراضهم عنه تعالى وتوليهم عن ذكره عزّ وجل هو الاغترار بالدنيا والافتتان

(١) تهذيب الأحكام: ٣/ ٨٩، وإقبال الأعمال: ١/ ١٣٦.

بشهواتها ولذّاتها وأمنياتها حسبما يشهد به التجربة والوجدان ونطق به القرآن في قوله: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]، وقوله: ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥] وغيره من الآيات الكريمة.

نبّه على وهن هذه العلة وضعفها بقوله **(وحقاً أقول ما الدنيا غرتك)** يعني أنها ليست علّة تامة قوية للاغترار **(ولكن)** علّة مادية ضعيفة سخيفة بنقصان عقلك **(بها اغتررت)** كما اغترّ بها كل ناقص العقل فاتّصافك بالاغترار بها حقيقة واتصافها بالغرور لك مجاز وإسناد الأول إليك أصدق وأجدر من إسناد الثاني إليها.

وأوضح عدم كونها سبباً تاماً للغرور بالتنبيه على اتصافها بضده من النصح والموعظة فقال **(و)** لـ **(قد كاشفتك العظات)** أي وعظتك جهاراً بالمواعظ البالغة والنصائح الكاملة من تقلّباتها وتصاريفها بأهلها وفنائها وزوالها وغيرها فلم يكن أحد منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرّائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً، وإن جانب منها اعذوذب وأحلى أمرّ منها جانب فأوبى لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلا أرهقته من نوائبها تعباً، ولا يمسي منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف.

وحسبك من عظاتها النظر في السلف الماضين من الإخوان والأقربين الذين أرهقتهم المنايا دون الآمال، وشذبهم عنها تخرّم الآجال، حملوا إلى وهدة القبور بعد سكنى القصور، وجعل من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرّفات جيران، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون، إلى غير تلك مما لا حاجة إلى ذكرها.

(وآذنتك على سواء) أي أعلمتك مساوئها ومعايبها ومآل أمرها على عدل وصدق وصواب من دون حيف وميل وزيغ عن مستقيم طريق الصدق.

(و) أقسم بالله تعالى حقاً **(لهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك)** وبسرعة الآفة إلى جسدك **(والنقص في قوتك)** والضعف والانحلال في قواك **(أصدق وأوفى)** بوعدها **(من أن تكذبك أو تغرّك)** وتخلف الميعاد **(ولربّ ناصح لها عندك متهم وصادق من خبرها مكذّب)** أي كم من ناصح واعظ من عبرتها وعظاتها هو متّهم عندك في نصحه فلا تقبل قوله ولا تلتفت إلى نصحه لكونه خلاف هوى نفسك، وكم من صادق من إخباراتها الصادقة هو مكذّب لديك أي تكذبه لكون خبره منافياً لرأيك مكروهاً لطبعك.

وحاصله أن العبر الدنيوية ترشدك إلى الخير والصلاح وحسن العاقبة وأنت في غفلة

منها أو متوجه إليها، ولكنك معرض عنها لاستكراه نفسك لها ومضادتها لشهواتك وأمنياتك الحاضرة.

ونبّه عليه السلام على خطأ المخاطب في الاتهام والتكذيب، وأن خبرها على وجه الصدق والصواب ونصحها عن وجه الشفقة والصداقة بقوله **(ولئن تعرفتها)** أي طلبت معرفة حالها في الصدق والكذب واستخبرت نصحها وغشها **(في الديار الخاوية)** أي الساقطة أو الخالية من إسكانها **(والربوع الخالية)** أي المنازل الخالية من أهلها **(لتجدنها من حسن تذكيرك وبلاغ موعظتك)** أي موعظتها الكافية **(بمحلة الشفيق عليك)** العطوف الرؤوف بك حيث لم تألوك نصحاً ولم تكذب في تذكيرها ولم تغش في نصحها **(و)** بمنزلة **(الشحيح بك)** أي البخيل بأن تصيبك ما يسوؤك ويكون مآل أمرك مآل أمر الغافلين الهالكين من عذاب النار وسخط الجبار.

(ولنعم دار من لم يرض بها داراً) بل جعلها ممراً لمقرّه **(ومحلّ من لم يوطنها محلاً)** بل جعلها مجازاً إلى مأواه.

وهؤلاء هم السّعداء المتّقون المنتفعون بما فيها من العبر المشار إليهم بقوله **(وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم)** قال الشارح البحراني: وجه سعادتهم بها استثمارهم للكمالات المعدة في الآخرة منها ولن يحصل ذلك إلا بالهرب منها اليوم، وكنّى بالهرب منها عن الإعراض الحقيقي عن لذاتها والتباعد من اقتنائها لذاتها لاستلزام الهرب عن الشيء، التباعد عنه والزهد فيه، وظاهر أن التباعد منها بالقلوب إلا ما دعت الضرورة إليه واتخاذها مع ذلك سبباً إلى الآخرة من أسباب السعادة ومستلزماتها.

كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله من حاله فيها بقوله: ما أنا والدنيا إنما مثلي فيها كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقعد في ظلها ساعة ثم راح فتركها[1]، هذا.

ولما نبّه عليه السلام على أن أهل السعادة غداً هم الهاربون منها اليوم فسرّ مراده بالغد بقوله: **(إذ رجفت الراجفة)** أي تحركت بترديد واضطراب، والرجفة الزلزلة العظيمة الشديدة وهو اقتباس من الآية الشريفة: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات: ٦ـ ٧]. قال بعض المفسرين: معناها يوم تضطرب الأرض اضطراباً شديداً، وتحرك تحركاً عظيماً، يعني يوم القيامة تتبعها الرادفة أي اضطرابة أخرى كائنة بعد الأولى في موضع الردف من الراكب.

(وحقت بجلائلها القيامة) أي أهاويلها الجليلة ودواهيها العظيمة الشديدة **(ولحق بكل منسك أهله وبكل معبود عبدته وبكل مطاع أهل طاعته)** أشار إلى لحوق كل نفس يوم القيامة بما

---

(١) مجمع الزوائد: ١٠/ ٣٢٦، والمعجم الكبير: ١٠/ ١٦٢.

ومن تحبه وتهواه من عمل الصالح والسيء ومعبوده الحق والباطل.

وإليه الإشارة في (النبوي): يحشر المرء مع من أحب ولو أحب أحدكم حجراً لحشر معه، وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥ـ ٨٦].

فإن كان عمل المرء في الدنيا لله ومعبوده هو الله وهواه في الله فحشره يوم القيامة مع أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وإن كان عمله لغير الله ومعبوده سوى الله ومحبّته لأعداء الله فحشره معهم ومع الشياطين كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ [الرحمن: ٣٦ـ ٣٨].

فإن قيل: إذا كان يلتحق بكل معبود عبدته وبكل مطاع أهل طاعته فالتحاق النصارى إذاً بعيسى والغلاة بأمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك عبدة الملائكة، فما تقول في ذلك؟

قيل: معنى الالتحاق أن يؤمر الاتباع في الموقف بالتميز إلى الجهة التي فيها الرؤساء، ثم يقال للرؤساء: أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم؟ فحينئذ يتبرؤن منهم فينجوا الرؤساء وتهلك الأتباع كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠ـ ٤١].

أقول: وأوضح دلالة من هذه الآية قوله سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان: ١٧ـ ١٩].

قال أمين الإسلام الطبرسي في تفسيرها: أي يجمعهم وما يعبدون ـ يعني عيسى وعزير والملائكة «فيقول» لهؤلاء المعبودين: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي طريق الجنة والنجاة ﴿قَالُوا۟﴾ يعني المعبودين ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني تنزيهاً لك عن الشريك وعن أن يكون معبوداً سواك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ﴾ بضم النون وفتح الخاء في رواية الصادق عليه السلام وزيد بن علي وأكثر القراء: بفتح النون وكسر الخاء ﴿مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ليس لنا أن نوالي أعداءك بل أنت وليّنا من دونهم، وقيل: معناه ما كان يجوز لنا وللعابدين وما كان يحق لنا أن نأمر أحداً بأن يعبدنا ولا يعبدك فإنا لو أمرناهم بذلك لكنا واليناهم ونحن لا نوالي من يكفر بك، ومن قرأ: نتخذ، فمعناه ما كان يحق لنا أن نعبد **﴿ولكن متعتهم وأبائهم حتى نسوا**

الذكر﴾ معناه: ولكن طوّلت أعمارهم وأعمار آبائهم ومتّعتهم بالأموال والأولاد بعد موت الرسل حتى نسوا الذكر المنزل على الأنبياء وتركوه ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكى فاسدين.

هذا تمام الحكاية عن قول المعبودين من دون الله سبحانه، فيقول الله سبحانه عند تبرؤ المعبودين من عبدتهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ أي كذّبكم المعبودون أيها المشركون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي بقولكم إنهم آلهة شركاء لله ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي فما يستطيع المعبودون صرف العذاب عنكم ولا نصراً لكم بدفع العذاب عنكم، هذا.

وقوله **(فلم يجر في عدله يومئذ خرق بصر في الهواء ولا همس قدم في الأرض إلا بحقه)** قد عرفت اختلاف الروايات في قوله فلم يجر.

فعلى كونه مضارع جرى، فمعناه: فلم يكن ولم يتحدد في ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلا بالحق والإنصاف، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨].

وعلى كونه مضارع جاز فالمعنى: أنه لم يسغ ولا يرخّص ذلك اليوم لأحد من المكلفين في حركة من الحركات المحقرات المستصغرات إلا إذا كان قد فعلها بحق.

وعلى كونه مضارع جار بالراء المهملة فالمعنى أنه لم يذهب عنه سبحانه ولم يضلّ ولم يشذّ عن حسابه شيء من محقرات الأمور إلا بحقه، أي إلا ما لا فائدة في إثباته والمحاسبة عليه ونحو الحركات المباحة، هكذا في شرح المعتزلي.

ويظهر من بعض الشروح رواية رابعة وهو كونه مضارع جزى بالزاء المعجمة بصيغة المجهول حيث قال: قوله فلم يجز في عدله، أي لا يجزى أحد يومئذ ولا يكافأ إلا بما يستحقه من الثواب والعقاب.

وعلى هذه الرواية فيكون مساقه مساق قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥٤] وعلى أي تقدير فالغرض الإخبار عن عموم عدله تعالى في مظالم الناس على أنفسهم وعلى غيرهم، وقد مضى في شرح الخطبة المائة والخامسة والسبعين ما ينفعك ذكراه في هذا المقام.

(فكم حجة يوم ذاك داحضة) أي لم يبق للناس على الله حجّة بعد الرسل وإنما هلك من هلك عن بيّنة وحيّ من حيّ عن بيّنة **(وعلائق عذر منقطعة)** فلا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون.

(فتحرّ من أمرك ما يقوم به عذرك وتثبت به حجتك) أي اطلب واعتمد من أمورك

وأفعالك في الدنيا ما به قوام أعذارك المقبولة يوم القيامة وما به ثبات حججك الصحيحة يومئذ وهو أمر بتحصيل الكمالات النفسانية ومواظبة التكاليف الشرعية وملازمة سنن الشريعة، إذ الأعذار الشرعية مقبولة البتة وكذلك الحجج البرهانية الموافقة لأساس الشريعة.

(وخذ ما يبقى لك) وهو الآخرة ونعيمها الباقي **(مما لا تبقى له)** وهو الدنيا ونعيمها الفاني كما قال عليه الصلاة والسلام في الديوان:

فلا الدنيا بباقية لحيّ ولا حيّ على الدنيا بباق

والمراد أخذ الآخرة عوضاً من الدنيا أو تحصيلها فيها فإن الفوز بالسعادة الدائمة إنما يحصل بالقيام على التكاليف في دار الدنيا لأنها دار التكليف والآخرة دار الجزاء، وهذه الفقرة نظير قوله عليه السلام في الكلام المائتين والثاني: فخذوا من ممركم لمقركم.

وفي الإتيان بالموصول من دون أن يقول: وخذ الآخرة من الدنيا تأكيد للغرض المسوق له الكلام وحثّ على شدّة الأخذ **(وتيسّر لسفرك)** وهو أمر بتهيئة الزاد لسفر الآخرة والاستعداد للمعاد وخير الزاد الزهد والتقوى **(وشم برق النجاة)** أي انظر إلى لوامع الأنوار الإلهية وبوارق النجاة التي تنجيك من الظلمات ومهاوي الهلكات **(وارحل مطايا التشمير)** والجدّ إلى الجهة التي أنت متوجه إليها، وهو أمر بالاجتهاد في العمل لما بعد الموت، قال البحراني: استعار لفظ المطايا لآلات العمل ولفظ الإرحال لأعمالها.

الترجمة

از جمله کلام نصایح انجام آن امام است که فرموده آن را در وقت تلاوت کردن آیه شریفه "یا ایها الانسان ما غرك بربك الكريم" یعنی "ای فرزند آدم چه چیز مغرور ساخته تو را به پروردگار تو که موصوف است به جود و کرم" ؛ آن حضرت، بعد از تلاوت آیه که انسان مخاطب به خطاب این آیه است فرمود:

باطل ترین سؤال شدگان است از حیثیت حجت و دلیل و بریده ترین فریفته شدگان است از حیثیت عذر خواهی، هرآینه شدّت نموده به نفس خود از حیثیت نادانی. ای انسان چه چیز جری و جسور نمود تو را بر گناه خودت؟ و چه چیز مغرور ساخت تو را به پرودگار خودت؟ و چه چیز انس داد تو رابه هلاکت نفس خودت؟ آیا نیست از درد گناه تو بهبودی؟ آیا نیست از خواب غفلت تو بیداری؟ آیا رحم نمی کنی به نفس خود به قراری که رحم می کنی بر غیر خود؟(۱)

هر آینه بسیار است که می بینی شخصی را در آفتاب، پس بر او از رحمت سایه کنی یا می بینی شخصی به الم مبتلا شده مثل زخمی و بثره ای که در می آورد و می سوزاند تن او را، پس از ترحم بر او گریه کنی، پس چه چیز صابر ساخته است تو را بر درد و مرض تو و قوی کرده است تو را بر مصیبت های تو و خرسند کرده است تو را از گریستن بر نفس خود که به چنین بلایی گرفتار است و آن عزیزترین جان هاست بر تو و چگونه بیدار نمی کند تو را ترس شبیخون خشم های خدا و حال آن که در آمده ای به سبب معاصی در ورطه مسالك سطوات او تعالی.

پس دوا پذیر از این درد سستی که در دل مرده داری به جد و جهد و قوّت عزمی و از خواب غفلت که در چشم گران خواب داری به بیداری و هشیاری و باش خدای را فرمان برنده و به یاد او انس گیرنده و ممثل گردان پیش نظر خویش در حالی که روی گردانیده ای از خداوند تعالی اقبال او را بر تو، می خواند تو را به عفو خود و می پوشاند تو را به فضل خود و تو روی گردانیده ای از او به سوی غیر او و اقبال نمی کنی بر او.

پس بلند است خدای توانا چه حلیم است و پستی بنده ضعیف چه دلیری بر معصیت خدا و حال آن که در پناه عفو او اقامت کننده ای و در فراخی فضل او گردنده ای و رونده ای، پس منع نکرد تو را با این حال از فضل خود و ندرید از تو پرده عفو خود را، بلکه خالی نبودی از آثار لطف او یك چشم زدن در نعمتی که احداث می کند برای تو، یا بدی که می پوشد بر تو، یا بلایی که بازمی گرداند از تو - با نافرمانی - پس چه گمان داری به او تعالی اگر اطاعت کنی او را.

و به خدا قسم اگر آن که این صفت در دو شخص موافق در قوت یکسان در قدرت می بود و این معامله با مثل خود بشری می کردی، هرآینه بودی تو اول حکم کننده بر خود به اخلاق نکوهیده و اعمال ناپسندیده و حق می گویم نه دنیا تو را فریب داد، بلکه تو به او فریفته گشتی و او هرآینه روشن کرد برای تو پندها و اعتبارها و اعلام نمود به راستی بی خلاف و جفا.

و این دنیا به این وعده ها که تو را می دهد به نزول بلا بر جسمت و نقصان قوتت و شکستنی بنیان جانب، راستگوتر و وفاکننده تر است از آن که دروغ گوید با تو یا غدر کند و بفریبد تو را و بسا ناصح مر دنیا را که نزد تو متهم است و نصیحت او باور نداری و خبر راست از او که دروغ شماری.

و اگر خبر بگیری از دنیا در دیار او که خراب مانده است و منازل او که از اهل آن خالی مانده است، هرآینه می یابی او را از راه موعظت نیکو و پند بلیغ که تو را داده است به منزلت پدر مهربان است و بخیل است به تو و خوب سرایی است دنیا برای کسی که راضی نشود به آن که سرای خود داند و خوب محلی است برای کسی که آن را محل وطن نسازد.

و به درستی نیك بختان به دنیا فردا، ایشان اند که می گریزند امروز از دنیا، روزی که بلرزد زمین و ثابت گردد به وقایع جلیله قیامت و ملحق شود به هر عبادت و دینی اهل آن و به هر معبودی عابدان آن؛ عابدان اصنام به اصنام و عابدان انام به انام و عابدان حق به معبود خویش و ملحق شود به هر طاعت برده شده بر آن او.

پس جزا داده نشود یا نگذرد یا جاری نگردد در عدل و داد خداوند عباد آن روز نفوذ نظری در هوا و نه نرم گذاشتن قدمی در زمین مگر به حق آن، پس بسا

حجت ها كه آن روز باطل گردد و عذرها كه شخص به آن در آويخته بود منقطع گردد.

پس طلب كن از كار خود براى مصلحت آن روز آنچه قائم شود به آن عذر تو و ثابت گردد حجت تو و فرا گير آنچه باقى مى ماند براى تو از آنچه باقى نمى مانى تو براى آن و مهيا شو براى سفر خود و نظر كن برق نجات از كجا مى زند و به كجا مى رود و بر كجا مى بارد و بار برنه شتران چالاك شدن و راه پيمودن را.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والثاني والعشرون من المختار في باب الخطب

ملتقط من كلام طويل رواه المحدّث العلامة المجلسي قدّس سره في (**البحار**) من (**الأمالي**) بتفصيل واختلاف كثير تطلع عليه إن شاء الله تعالى في التكملة الآتية بعد الفراغ من شرح ما رواه الرّضي قدّس سره، وهو قوله عليه الصلاة والسلام:

وَاللَّهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلىٰ حَسَكِ السَّعْدانِ مُسَهَّداً، وَأُجَرَّ فِي الأَغْلالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَىٰ الله ورَسُولَهُ صلى الله عليه وآله يَوْمَ القِيٰمَةِ ظالِماً لِبَعْضِ العِبادِ، وغاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الحُطامِ، وكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَىٰ البِلىٰ قُفُولُها، ويَطُولُ فِي الثَّرىٰ حُلُولُها.

وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقيلاً وقَدْ أَمْلَقَ، حَتَّى اسْتَماحَني مِنْ بُرِّكُمْ صاعاً، ورَأَيْتُ صِبْيانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الأَلْوانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّما سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالعِظْلَم، وعاوَدَني مُؤَكِّداً وكَرَّرَ عَلَيَّ القَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعي، فَظَنَّ أَنّي أَبِيعُهُ ديني، وَأَتَّبِعُ قِيادَهُ مُفارِقاً طَريقَتي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَديدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُها مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِها، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِها، وكادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِها، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّواكِلُ يا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْماها إِنْسانُها لِلَعِبِهِ، وتَجُرُّني إِلىٰ نارٍ سَجَّرَها جَبّارُها لِغَضَبِهِ، أَتَئِنُّ مِنَ الأَذىٰ، ولا أَئِنُّ مِنْ لَظىٰ.

وأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ طارِقٌ طَرَقَنا بِمَلْفُوفَةٍ في وِعائِها، ومَعْجُونَةٍ شَنِئْتُها، كَأَنَّما عُجِنَتْ بِريقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِها، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ أَمْ زَكاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ، فَذٰلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنا أَهْلَ البَيْتِ، فَقالَ: لا ذا ولا ذاكَ ولٰكِنَّها هَدِيَّةٌ، فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الهَبُولُ أَعَنْ دِينِ الله أَتَيْتَني لِتَخْدَعَني، أَمُخْتَبِطٌ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ.

وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقالِيمَ السَّبْعَةَ بِما تَحْتَ أَفْلاكِهَا عَلى أَنْ أَعْصَى الله في نَمْلَةٍ أَسْلُبُها جِلْبَ شَعِيرَةٍ ما فَعَلْتُهُ، وإِنَّ دُنْياكُمْ عِنْدي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ في فَمِ جَرادَةٍ تَقْضِمُها، ما لِعَلِيٍّ ولِنَعِيمٍ يَفْنىٰ، ولَذَّةٍ لا تَبْقىٰ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُباتِ العَقْلِ وقُبْحِ الزَّلَلِ، وبِهِ نَسْتَعِينُ[١].

اللغة

(**بات**) فلان يفعل كذا يبيت بيتاً وبياتاً ومبيتاً وبيتوتة، أي يفعله ليلاً وليس من النوم،

(١) نهج السعادة: ٣/ ٩٠، وبحار الأنوار: ٤١/ ١٦٣.

وقال الزجاج: كل من أدركه الليل فقد بات نام أم لم ينم.

و (**السّعدان**) بفتح السين، نبت ذو شوك يقال له: حسك السعدان، يشبّه به حلمة الثدي وهو من أفضل مراعي الإبل ومنه قولهم: مرعى ولا كالسعدان. وبتفسير أوضح: نبت ذو حسك له ثلاث شعب محدّدة على أي وجه وقعت على الأرض كانت له شعبتان قائمتان.

و (**السهد**) بالضم الأرق، وبضمتين: القليل النوم، وقد سهد سهداً من باب فرح وسهدته أي منعته من النوم فهو مسهّد و (**أُجرّ**) بالبناء على المفعول و (**صفده**) يصفده من باب ضرب، شدّه وأوثقه كأصفد، والصفاد وزن كتاب ما يوثق به الأسير من قيد أو قد.

و (**الحطام**) بالضم فتات التبن والحشيش وما يتكسّر من شيء يابس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ [الزمر: ٢١] أي رفاتاً منكسراً متفتتاً و (**قفل**) من باب نصر وضرب قفولاً رجع فهو قافل، والقافلة الجماعة الراجعة من السفر و (**الإملاق**) الافتقار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] و (**الاستماحة**) طلب المنح هو كالامتياح الإعطاء و (**البرّ**) الحنطة.

و (**الصاع**) أربعة أمداد كل مد رطل وثلث، والرطل اثنتا عشرة أوقية، والأوقية إستار وثلثا إستار، والإستار أربعة مثاقيل ونصف، والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم، وفي (**مجمع البحرين**) في الحديث: كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمدّ قال بعض شرّاح الحديث: الصاع ألف ومائة وسبعون درهماً وثمانمائة وتسعة عشر مثقالاً.

و (**العظلم**) وزن زبرج شيء يصبغ به، قيل: هو النيل، وقيل: الوسمة وربما يقال: الليل المظلم و (**القياد**) بالكسر ما يقاد به، و (**الميسم**) بكسر الميم وفتح السين آلة الوسم و (**الثكل**) بالضم وبالتحريك أيضاً فقدان الحبيب أو الولد وثكله من باب فرح، فهي ثاكل وثكلانة القليلة، والثواكل النساء الفاقدات لأولادها.

و (**أنّ**) يأنّ أنّاً وأنيناً تأوّه و (**الطارق**) هو الآتي بالليل، وسميّ طارقاً لاحتياجه إلى طرق الباب بالمطرقة و (**شناه**) من باب منع وسمع شنئاً بتثليث الأول وشنأته أبغضته و (**هبلته**) أمه من باب فرح ثكلته و (**الهبول**) بفتح الهاء التي لا يبقى لها ولد من النساء.

و (**خبط**) الشيطان فلاناً مسّه بأذى كتخبطه وخبط زيداً واختبطه سأله المعروف من غير أصرة أي قرابة ورحم وسابقة بينهما و (**الهجر**) الهذيان و (**الجلب**) والجلبة بالضم القشرة التي تعلو الجرح عند البرء و (**قضم**) قضماً من باب سمع أكل بأطراف أسنانه أو أكل يابساً و (**السبات**) وزن غراب النوم أو خفيّه أو ابتداؤه في الرأس حتى يبلغ القلب.

الإعراب

لفظة **(أن)** في قوله عليه السلام: **(والله لأن أبيت)** مصدرية ناصبة للفعل المضارع المتكلم وهي منصوبة في تأويل المصدر ومحل الرفع بالابتداء وخبر المبتدأ قوله: أحبّ إليّ، وقوله عليه السلام: مسهّداً حال مؤكدة لعاملها وهو أبيت إن كان السهر مأخوذاً في معنى البيات، وإلا كما هو قول الزجاج وغيره حسبما عرفت فتكون حالاً مؤسسة.

وقوله عليه السلام: **(وكيف أظلم)**، استفهام إنكاري على حد قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠] فيكون ما بعد الاستفهام غير واقع ومدّعيه كاذباً ومؤكّداً ومردّداً أيضاً حالاً يكون مؤكدتان على حد قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [النمل: ١٠]، وقوله عليه السلام: **(أتئنّ من حديدة؟)** استفهام للتقرير أو التقريع وكذلك قوله: **(أمختبط أم ذو جنة؟)**.

المعنى

اعلم أن المقصود بهذا الكلام التنبيه على نزاهة نفسه من محبة الدنيا والرغبة إلى حطامها الموجبة للظلم على الناس والعدول عن سنن العدل في حقوقهم فدل على ذلك المقصود بنفي إقدامه على الظلم لينتقل بذلك إلى نفي ملزومه الذي هو حب الدنيا وافتتح الكلام بالقسم البار.

فقال **(والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً)** أي ممنوعاً من النوم **(وأجرّ في الأغلال مصفداً)** أي مشدداً موثقاً بالسلاسل **(أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله صلى الله عليه وآله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد)** في حقه مالياً أو غير مالي **(وغاصباً لشيء من الحطام)** أي للحق المالي فيكون عطف الثاني على الأول من عطف الخاص على العام على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] واستعار لفظ الحطام لمتاع الدنيا وزبرجها والجامع الحقارة.

ونظير ذلك وجه الشبه في قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وحلفه عليه السلام على كون البيات على الحسك والجرّ في الأغلال أحب إليه من لقاء الله ورسوله متصفاً بالظلم والغصب مما لا غبار عليه، وعلّة أحبيّتها إليه عليه السلام أنهما وإن كان فيهما ألم شديد إلا أن ذلك الألم بالنسبة إلى ما يترتب على الظلم من العذاب الشديد الأُخروي أسهل وأهون.

وهذا في حق عموم العقلاء الملاحظين لعاقبة الأمور، وأما في حقه عليه السلام وحق سائر أولياء الله المقربين فلو لم يترتب على الظلم من العقوبات الأُخروية سوى سوء لقاء الله ورسوله والاستحياء منهما والحجب عن مقام الزّلفى فقط لكفى ذلك في ترجيح البيات على الأشواك والجرّ في الإغلال عليه.

وبما ذكرته علم أن لفظ أحب في كلامه عليه السلام لم يرد به التفضيل الذي صيغة أفعل حقيقة فيه وإنما أراد به المعنى الوصلي نظير صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

ويومىء إليه أيضاً تشديده النكير على إقدامه على الظلم في قوله عليه السلام **(وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها)** أي رجوعها من الشباب إلى الشيّب الذي معدّ للبلى والاندراس وضعف القوى كما أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤] أو رجوعها إلى الآخرة فإنها المكان الأصلي وفيها تبلى الأجساد كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥] وعلى الاحتمال الأخير فنسبة البلى إلى نفسه عليه السلام بالنظر إلى زعم الناس لما قد عرفت في شرح الخطبة السادسة والثمانين عدم سرعة البلى إلى أبدان الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

قال العلامة المجلسي قدّس سره: ويحتمل أن يكون قفول جمع قفل بالضم فإنه يجمع على أقفال وقفول فاستعير هنا لمفاصل الجسد، وعلى أي تقدير فالمراد بالنفس في كلامه عليه السلام هو الجسد لا الروح كما هو ظاهر[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام **(ويطول في الثرى حلولها)** إشارة إلى طول لبثها في القبر إلى يوم البعث.

ثم أكد عليه السلام براءة ساحته من الظلم باقتصاص قصته مع أخيه عقيل فقال مؤكداً بالقسم البار **(والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق)** أي افتقر وصار ملقاً ضعيفاً **(حتى استماحني)** أي طلب مني السماحة والجود وأن أعطيه **(من برّكم صاعاً)** وقد مضى مقداره في بيان اللغة **(ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان)** أي مغبّر الرؤوس متغيّر الألوان **(من)** شدة **(فقرهم)** وضرّهم **(كأنما سوّدت وجوههم بالعظلم)** فإن من نحل جسمه من الجوع يضرب لونه إلى السواد كما أن البادن بعكس ذلك.

---

(١) بحار الأنوار: ٤٠/ ٣٥١.

(وعاودني) أي العقيل **(مؤكداً)** للاستماحة **(وكرر عليّ القول مردداً)** وبعدما أصرّ على سؤاله **(فأصغيت إليه سمعي)** أي أملتها نحوه **(فظنّ أني أبيعه ديني)** وأخون في بيت مال المسلمين **(وأتبع قياده)** أي أطيعه وأنقاد له. قال الشارح البحراني: قياده ما يقوده به من الاستعطاف والرحم، وفي بعض النسخ: اتبع بصيغة الغيبة، قال العلامة المحدّث المجلسي: فلعله إشارة إلى ذهابه إلى معاوية، انتهى. والأول أولى وأنسب بالسياق.

وقوله عليه السلام **(مفارقاً طريقتي)** أي العدل والأسوة **(فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها)** وينزجر ويذكر نار الآخرة **(فـ)**ـلما مسّته حرارة الحديدة **(ضجّ ضجيج ذي دنف)** أي مرض مؤلم **(من ألمها وكاد أن يحترق من ميسمها)** أي من أثرها في يده **(فقلت له ثكلتك الثواكل)** أي النساء النادبات **(يا عقيل أتئنّ)** وتضجّ **(من حديدة أحماها إنسانها للعبه)**.

قال الشارح المعتزلي: لم يقل إنسان لأنه يريد أن يقابل هذه اللفظة بقوله: جبارها[1]، والمراد باللعب خلاف الجد في الإحماء الناشىء من الغضب ولذلك قابله بالغضب في قوله عليه السلام **(وتجرّني إلى نار سجّرها)** أي أوقدها **(جبارها لغضبه أتئن من الأذى)** أذى نار الدنيا **(ولا أئنّ من لظى)** نزاعة للشوى أي إذا كنت تئن من أذى نار الدنيا وألمها على ضعفها وحقارتها فكيف لا أئنّ من نار الآخرة التي وقودها الناس والحجارة على شدّتها وقوتها.

ومحصّل غرضه من ذكر قصة عقيل التنبيه على غاية مراعاته للعدل وتجنبه عن الظلم ومحافظته على بيت مال المسلمين، فإن من منع أخاه على شدة فاقته وفاقة عياله مع قرابتهم القريبة والرحم الماسّة وكونهم من جملة ذوي الحقوق في بيت المال من أن يعطيه منه شيئاً يسيراً من الطعام وهو الصاع من البر لمحض الاحتياط في الدين وملاحظة حقوق المسلمين، وخوفاً من شبهة الظلم، فأبعد من أن يحوم حوم الظلم ثم أبعد.

قال الشارح المعتزلي: سأل معاوية عقيلاً عن قصة الحديدة المحماة المذكورة قال: أصابتني مخمصة شديدة فسألته عليه السلام فلم تند صفاته، فجمعت صبياني فجئت بهم إليه والبؤس والضر ظاهران عليهم، فقال عليه السلام: ائتني عشية لأدفع إليك شيئاً، فجئته يقودني أحد ولدي، فأمره بالتنحي ثم قال عليه السلام: ألا فدونك، فأهويت حريصاً قد غلبني الجشع، أظنها صرة فوضعت يدي على حديدة تلتهب ناراً، فلما قبضتها نبذتها وخرّت كما يخور الثور تحت يد جازره فقال: ثكلتك أمك هذا من حديدة أوقدت لها نار الدنيا، فكيف بك وبي غداً إن سلكنا في سلاسل جهنم ثم قرأ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: ٧١] ثم قال عليه السلام: ليس عندي فوق حقك الذي فرضه الله لك إلا ما ترى فانصرف إلى أهلك،

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٤٧/١١.

فجعل معاوية يتعجب ويقول: هيهات هيهات النساء أن يلدن بمثله[1].

وفي (البحار) من مناقب ابن شهرآشوب من جمل أنساب الأشراف قال: وقدم عليه عليه السلام عقيل فقال للحسن: اكس عمك، فكساه قميصاً من قمصه ورداءة من أرديته، فلما حضر العشاء فإذا هو خبز وملح، فقال عقيل: ليس إلا ما أرى، فقال عليه السلام: أو ليس هذا من نعمة الله وله الحمد كثيراً، فقال: أعطني ما أقضي به ديني وعجّل سراحي حتى أرحل عنك، قال عليه السلام: فكم دينك يا أبا يزيد؟ قال: مائة ألف درهم، قال عليه السلام: لا والله ما هي عندي ولا أملكها ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فأواسيكه ولولا أنه لا بد للعيال من شيء لأعطيتك كله، فقال عقيل: بيت المال في يدك وأنت تسوّفني إلى عطائك وكم عطاؤك، وما عساه يكون ولو أعطيتنيه كله فقال عليه السلام: ما أنا وأنت فيه إلا بمنزلة رجل من المسلمين وكانا يتكلمان فوق قصر الإمارة مشرفين على صناديق أهل السوق، فقال علي عليه السلام: إن أبيت يا أبا يزيد ما أقول فانزل إلى بعض هذه الصناديق فاكسر أقفاله وخذ ما فيه، قال: وما في هذه الصناديق؟ قال عليه السلام: فيها أموال التجار، قال: أتأمرني أن أكسر صناديق قوم قد توكلوا على الله وجعلوا فيها أموالهم؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أتأمرني أن أفتح بيت مال المسلمين فأعطيك أموالهم وقد توكّلوا على الله وأقفلوا عليها وإن شئت أخذت سيفك وأخذت سيفي وخرجنا جميعاً إلى الحيرة فإن بها تجاراً مياسير فدخلنا على بعضهم فأخذنا ماله، فقال: أو سارقاً جئت؟ قال عليه السلام: نسرق من واحد خير من أن نسرق من المسلمين جميعاً، قال له: أو تأذن لي أن أخرج إلى معاوية؟ فقال عليه الصلاة والسلام له: قد أذنت لك، قال: فأعنّي على سفري هذا، فقال عليه السلام: يا حسن أعط عمك أربعمائة درهم، فخرج عقيل وهو يقول:

سيغنيني الذي أغناك عني ... ويقضي ديننا ربّ قريب[2]

وذكر عمرو بن العلاء أن عقيلاً لما سأل عطاءه من بيت المال قال له أمير المؤمنين عليه السلام: تقيم إلى يوم الجمعة فأقام، فلما صلّى أمير المؤمنين عليه السلام الجمعة قال لعقيل: ما تقول فيمن خان هؤلاء أجمعين؟ قال: بئس الرجل ذاك، قال عليه السلام: فأنت تأمرني أن أخون هؤلاء وأعطيك[3].

وفيه من (المناقب) أيضاً قال: سمعت مذاكرة من الشيوخ أنه دخل عليه عمرو بن العاص ليلة وهو في بيت المال فطفى السراج وجلس في ضوء القمر ولم يستحلّ أن يجلس في الضوء

(١) بحار الأنوار: ٤٢/ ١١٨.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٧٦، وبحار الأنوار: ٤١/ ١١٤.
(٣) الغارات: ٢/ ٥٥٠، وبحار الأنوار: ٤١/ ١١٤.

بغير استحقاق[١]، هذا.

(وأعجب من ذلك) أي مما ذكرته من قصة عقيل قصة الأشعث بن قيس الكندي وتقرّبه إليّ بالهدية التي كانت رشوة في الحقيقة استمالة لي وتخديعاً إياي، فإنه كما قال الشارح المعتزلي: كان أهدى له نوعاً من الحلواء تأنق فيه وكان يبغض الأشعث لأن الأشعث كان يبغضه، وظن الأشعث أنه يستميله بالمهاداة لغرض دنيوي كان في نفس الأشعث وكان عليه السلام يتفطن لذلك ويعلمه، ولذلك ردّ هديته ولولا ذلك لقبلها كما نبّه عليه السلام على ذلك بقوله:

(طارق طرقنا) أي أتى إلينا ليلاً **(بملفوفة)** أي بهدية على زعم الطارق بها لفّها وغطاها **(في وعائها ومعجونة شنئتها)** أي أبغضتها ونفرت عنها لما علمت من الطارق بها **(كأنما عجنت بريق حيّة أو قيئها)** أي بالسم القاتل الموجب لغاية البخل والنفرة **(فقلت أصلة أم زكاة أم صدقة فذلك)** أي كل منها **(محرّم علينا أهل البيت)**.

قال الشارح المعتزلي: الصلة العطية لا يراد بها الآخرة بل يراد بها وصلة إلى الموصول وأكثر ما تفعل للذكر والصّيت والزكاة هي ما تجب في النصاب من المال، والصدقة هٰهنا هي صدقة التطوع[٢].

فإن قلت: كيف قال فذلك محرّم علينا أهل البيت وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة ولا يحرم عليهم صدقة التطوع ولا قبول الصلات.

قلت: أراد بقوله: أهل البيت، الأشخاص الخمسة وهم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فهؤلاء خاصة دون غيرهم من بني هاشم يحرم عليهم قبول الصدقة والصِلاَت، انتهى ملخصاً.

أقول: أما الصِلات فلم يقل أحد بحرمتها عليهم عليهم السلام ولا على غيرهم من الهاشميين، وأما الصدقة المندوبة فكذلك على مذهب المشهور من أصحابنا، فلا بد في رفع الإشكال من جعل المشار إليه بقوله فذلك أحد الأخيرين ـ أعني الزكاة والصدقة ـ أو الصدقة المستحبة مع البناء على مذهب بعض الأصحاب من تحريمها عليهم أيضاً وجعل المراد بالصدقة الكفارات الواجبة.

ويؤيد ذلك أعني كون الإشارة إلى أحد الأخيرين فقط جواب الأشعث بقوله: لا ذا ولا ذاك، حيث نفى الاثنين من الثلاث دون الثلاث جميعاً، فيكون قوله: ولكنها هدية،

---

(١) بحار الأنوار: ٤١/١١٦، والإمام علي: ٦٦٧ ح ٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١١/٢٤٨.

بمعنى أنها صلة.

وعلى كون المشار إليه جميع الثلاث فاللازم حمل الصلة على ما كان على وجه المصانعة والرشوة، وعلى كون المراد بالصدقة صدقة التطوع والبناء على مذهب المشهور فلا بد من ارتكاب المجاز في التحريم، وحمل قوله عليه السلام: محرم على ما يعمّ الكراهة والحرمة المصطلحة، فافهم جيداً.

(فقال لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية) وإنما قال ذلك لكونه عارفاً بأنه عليه السلام كان يقبل الهدايا ولا يشمئز منها إلا أنه عليه السلام لما عرف فساد غرضه فيها اعترض عليه وأجابه بقوله: **(فقلت هبلتك الهبول)** أي ثكلتك أمك **(أعن دين الله أتيتني لتخدعني أمختبط)** أنت **(أم ذو جنّة أم تهجر)** الاستفهام إنكاري والغرض منه توبيخ الأشعث وتقريعه على ما أتى به من الهدية والتعريض عليه بأن إتيانه بها مع ما أضمر من سوء النية يشبه فعل صاحب الخبط والجنون والهذيان.

قال الشارح المعتزلي: المختبط المصروع من غلبة الأخلاط السوداء أو غيرها عليه، وذو الجنة من به مسّ من الشيطان، والذي يهجر هو الذي يهذي في مرض ليس بصرع كالمبرسم ونحوه، انتهى.

أقول: إن أراد أن المختبط قسيم ذي الجنّة يعني خصوص المصروع من غير مسّ الشيطان، فيردّه قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وإن أراد كونه أعمّ منه فلا بأس به.

لكن الأظهر أن يكون مراده عليه السلام به كونه ذا خبط أي طالب معروف من غير سابقة ولا قرابة أو أنه ذو خبط أي حركة على غير النحو الطبيعي كخبط العشواء.

ثم شدد النكير على الطارق وأبطل ما كان في خلده من إمكان إقدامه عليه السلام على الظلم والمعصية بوسيلة الهدية ودق عليه السلام خيشومه بقارعة الخيبة فقال **(والله)** الكريم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم **(لو أعطيت الأقاليم السبعة)** وبقاع الأرضين **(بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله)** طرفة عين وأقدم على الظلم ولو **(في)** حق **(نملة)** هي أضعف مخلوق **(أسلبها جلب شعيرة)** وقشرها **(ما فعلته)** وهذا دليل على كمال عدله عليه السلام وبلوغه فيه الغاية القصوى التي لا يتصور ما فوقها.

ولما نبّه على نزاهته من الظلم وكان منشأ الظلم كسائر المعاصي هو حبها لكونها رأس كل خطيئة أردفه بالتنبيه على غاية زهده فيها وطهارة لوح نفسه من دنس حبها فقال: **(وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها)** وتكسرها **(ما لعليّ ولنعيم يفنى ولذة لا**

تبقى) إنكار لميل نفسه إلى نعيم الدنيا ولذاتها الفانية، يعني أن حال عليّ ينافي رغبته إلى تلك اللذات.

(نعوذ بالله من سبات العقل) أي نومه وغفلته عن إدراك مفاسد تلك اللذات وما يترتب عليها من المخازي والهلكات **(وقبح الزلل)** والضلال عن الصراط المستقيم الناشيء من الركون إلى الدنيا والرغبة إلى نعيمها **(وبه نستعين)** في النجاة من تلك الورطات وفي جميع الحالات.

قال كاشف الغمة ولنعم ما قال:

واعلم أن أنواع العبادة كثيرة، وهي متوقفة على قوة اليقين بالله تعالى وما عنده وما أعدّه لأوليائه في دار الجزاء، وعلى شدة الخوف من الله تعالى وأليم عقابه، وعليّ عليه السلام القائل: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، فشدّة يقينه دالة على قوة دينه ورجاحة موازينه، وقد تظاهرت الروايات أنه لم يكن نوع من أنواع العبادة والزهد والورع إلا وحظه عليه السلام منه وافر الأقسام، ونصيبه منه تامّ بل زائد على التمام، وما اجتمع الأصحاب على خير إلا كانت له رتبة الإمام، ولا ارتقوا قبّة مجد إلا وله ذروة الغارب وقلّة السنام، ولا احتكموا في قضية شرف إلا وألقوا إليه أزمة الأحكام[١].

وروى الحافظ أبو نعيم بسنده في حليته أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «يا علي إن الله قد زيّنك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إلى الله منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى: الزهد في الدنيا فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ولا ترزأ منك الدنيا شيئاً» أي لا تنقص منها ولا تنقص منك[٢].

وقد أورده صاحب **(كفاية الطالب)** أبسط من هذا قال: سمعت أبا مريم السلولي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يا علي إن الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحب إلى الله منها: الزهد في الدنيا، فجعلك لا تنال[٣] من الدنيا شيئاً ولا تنال الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين فرضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذّب عليك، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك، فهم جيرانك في دارك ورفقاؤك في قصرك وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة»، وذكره ابن مردويه في مناقبه[٤].

---

(١) كشف الغمة: ١/ ١٦٩.

(٢) محاسن البرقي: ١/ ٢٩١ ح ٤٤٣، وأمالي الطوسي: ١٨١ ح ٣٠٣.

(٣) في بعض المصادر: لا ترزه.

(٤) روضة الواعظين: ٤٣٧، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٦٤.

فقد ثبت لعليّ عليه السلام الزهد بشهادة النبي صلى الله عليه وآله له بذلك[1]، ولا يصح الزهد في الشيء إلا بعد معرفته والعلم به، وعلي عليه السلام عرف الدنيا بعينها وتبرّجت له فلم يحفل بزينتها لشينها وتحقق زوالها، فعاف وصالها وتبين انتقالها، فصرم حبالها واستبان قبح عواقبها وكدر مشاربها فألقى حبلها على غاربها وتركها لطالبها وتيقّن بؤسها وضررها فطلّقها ثلاثاً وهجرها، وعصاها إذ أمرته فعصته إذ أمرها وعلمت أنه ليس من رجالها ولا من ذوي الرغبة في جاهها ومالها ولا ممن تقوده في حبالها وتورده موارد وبالها، فصاحبته هدنة على دخن، وابتلته بأنواع المحن وجرت في معاداته على سنن، وغالته بعده في ابنيه الحسين والحسن؛ وهو صلى الله عليه لا يزداد على شدة اللأواء إلا صبراً، ولا على تظاهر الأعداء إلا حمداً لله تعالى وشكراً، آخذاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله لا يحول عنها مقتفياً لآثاره لا يفارقها، واطئاً لعقبه صلى الله عليه وآله لا يجاوزها، حتى نقله الله تعالى إلى جواره واختار له داراً خيراً من داره فمضى محمود الأثر، مشكور الورد والصدر، مستبدلاً بدار الصفاء من دار الكدر، قد لقي محمداً صلى الله عليه وآله بوجه لم يشوهه التبديل، وقلب لم تزدهه الأباطيل.

تكملة

هذا الكلام له عليه السلام رواه المحدث العلامة المجلسي قدّس سره في المجلّد التاسع والمجلد السابع عشر من (**البحار من الأمالي**) عن علي بن أحمد الدقاق عن محمد بن الحسن الطاري عن محمد بن الحسين الخشاب عن محمد بن محسن عن المفضّل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن أبيه عليهم السلام قال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: والله ما دنياكم عندي إلا كسفر على منهل حلوّ إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا ولا لذاذتها في عيني إلا كحميم أشربه غساقاً وعلقم أتجرعه زعاقاً وسمّ أفعى أسقاه دهاقاً وقلادة من نار أوهقها خناقاً، ولقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها وقال لي: اقذف بها قذف الأتن لا يرتضيها ليراقعها، فقلت له: أعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى وينجلي عنا غيابات الكرى، ولو شئت لتسربلت بالعبقري المنقوش من ديباجكم ولأكلت لباب البرّ بصدور دجاجكم ولشربت الماء الزلال برقيق زجاجكم، ولكني أصدق الله جلّت عظمته حيث يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

---

(١) بل هو أزهد الناس كما جاءت بذلك الأخبار، قال عمر بن عبد العزيز: ما علمنا أحداً كان في هذه الأمة أزهد من علي بن أبي طالب بعد النبي (ص)، راجع مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٦٤، وقال سفيان بن عيينة: لم يكن أحد من الصحابة أزهد من علي، راجع الصراط المستقيم: ١/ ١٦٣، هذا وقال رسول الله لفاطمة (ع): من كرامة الله إياك أن زوجك خير أمتي وأزهدهم في الدنيا، كتاب سليم: ٧٠، ولابن أبي الحديد كلام حول كونه أزهد الصحابة فليراجع: شرح النهج: ١/ ٢٧ .

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ـ ١٦].

فكيف أستطيع المصير على نار لو قذفت بشررة إلى الأرض لأحرقت نبتها، ولو اعتصمت نفس بقلّة لأنضجها وهج النار في قلّتها، وأيما خير لعليّ أن يكون عند ذي العرش مقرباً أو يكون في لظى خسيئاً مبعداً مسخوطاً عليه بجرمه مكذّباً.

والله لأن أبيت على حسك السعدان مرقداً وتحتى أطمار على سفاها ممدّداً، أو أجرّ في أغلالي مصفداً، أحب إليّ من أن ألقى في القيامة محمداً ﷺ خائناً في ذي يتمة أظلمه بفلسه متعمداً ولم أظلم اليتيم وغير اليتيم لنفس تسرع إلى البلى قفولها، ويمتد في أطباق الثرى حلولها، وإن عاشت رويداً فبذي العرش نزولها.

معاشر شيعتي احذروا، فقد عضّتكم الدنيا بأنيابها، تختطف منكم نفساً بعد نفس كذئابها، وهذه مطايا الرحيل قد أُنيخت لركابها، إلا أن الحديث ذو شجون فلا يقولن قائلكم: إن كلام علي متناقض، لأن الكلام عارض.

ولقد بلغني أن رجلاً من قطّان المدائن تبع بعد الحنيفية علوجه، ولبس من نالة دهقانة منسوجة، وتضمخ بمسك هذه النوافج صباحه، وتبخّر عود الهند رواحه، وحوله ريحان حديقة يشم تفّاحه، وقد مدّ له مفروشات الروم على سرره، تعساً له بعدما ناهز السبعين من عمره وحوله شيخ يدبّ على أرضه من هرمه وذا يتيمة تضوّر من ضرّه ومن قرمه، فما واساهم بفاضلات من علقمه لئن أمكنني الله منه لأخضمنّه خضم البر، ولأُقيمنّ عليه حدّ المرتد، ولأضربنه الثمانين بعد حد، ولأسدن من جهله كل مسدّ، تعساً له أفلا شعر أفلا صوف أفلا وبر أفلا رغيف قفار الليل إفطار معدم أفلا عبرة على خدّ في ظلمة ليالي تنحدر ولو كان مؤمناً لاتّسقت له الحجة إذا ضيّع ما لا يملك.

والله لقد رأيت عقيلاً أخي وقد أملق حتى استماحني من برّكم صاعه، وعاودني في عُشر وسق من شعيركم يطعمه جياعه، ويكاد يلوي ثالث أيامه خامصاً ما استطاعه، ورأيت أطفاله شعث الألوان من ضرهم كأنما اشمأزت وجوههم من قرّهم، فلما عاودني في قوله وكرره أصغيت إليه سمعي فغرّه، وظنني أوتغ ديني فأتبع ما سره، أحميت له حديدة ينزجر إذ لا يستطيع منها دنوّاً ولا يصبر، ثم أدنيتها من جسمه فضجّ من ألمه ضجيج ذي دنف يئن من سقمه، وكاد يسبّني سفهاً من كظمه، ولحرقة في لظى أضنا له من عدمه، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئنّ من حديدة أحماها إنسانها لمدعبه، وتجرّني إلى نار سجّرها جبارها من غضبه، أتئنّ من الأذى ولا أئن من لظى؟.

والله لو سقطت المكافأة عن الأمم وتركت في مضاجعها باليات الرمم لاستحييت من مقت رقيب يكشف فاضحات من الأوزار تنسخ، فصبراً على دنيا تمر بلأوائها، كليلة بأحلامها تنسلخ، كم بين نفس في خيامها ناعمة وبين أثيم في جحيم يصطرخ، فلا تعجب من هذا.

وأعجب بلا صنع منا من طارق طرقنا بملفوفات زملها في وعائها، ومعجونة بسطها في إنائها، فقلت له: أصدقة أم نذر أم زكاة؟ وكل ذلك يحرم علينا أهل بيت النبوّة وعوضنا منه خمس ذي القربى في الكتاب والسنّة، فقال لي: لا ذاك ولا ذاك، ولكنه هدية، فقلت له: ثكلتك الثواكل أفعن دين الله تخدعني بمعجونة عرقتموها بقندكم، وخبيصة صفراء أتيتموني بها بعصير تمركم، أمختبط أم ذو جنّة أم تهجر أليست النفوس عن مثقال حبة من خردل مسؤولة، فماذا أقول في معجونة أتزقمها معمولة؟ والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، واسترق لي قطانها مذعنة بأملاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها شعيرة فألوكها ما قبلت ولا أردت، ولدنياكم أهون عندي من ورقة في فم جرادة تقضمها وأقذر عندي من عراقة خنزير يقذف بها أجذمها، وأمرّ على فؤادي من حنظلة يلوكها ذو سقم فيشتمها[1] فكيف أقبل ملفوفات عكمتها في طيّها ومعجونة كأنها عجنت بريق حية أو قيئها؟.

اللهم إني نفرت عنها نفار المهرة من كيّها أريه السها ويريني القمر، ءأمتنع من وبرة من قلوصها ساقطة، وأبتلع إبلاً في مبركها رابطة، أدبيب العقارب من وكرها ألتقط، أم قواتل الرقش في مبيتي أرتبط؟ فدعوني أكتفي من دنياكم بملحي وأقراصي، فبتقوى الله أرجو خلاصي ما لعلي ونعيم يفنى ولذة تنحتها المعاصي، سألقى وشيعتي ربنا بعيون ساهرة وبطون خماص ليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، ونعوذ بالله من سيئات الأعمال، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين[2][3].

بيان

ما يحتاج إلى التوضيح والبيان من غريب ألفاظ هذه الرواية التي لم تتقدم في رواية الرضي فنقول وبالله التوفيق:

«الحميم» الماء الحار الشديد الحرارة يسقى منه أهل النار، وعن ابن عباس: لو

---

(١) «فيبشمها» في نسخة.

(٢) أقول: حيث كانت النسخة مغلوطة جداً وبعضها لا يكاد يقرأ، صححت هذا الكلام الشريف عن نسخة البحار المطبوعة أخيراً ج ٤٠ ص ٣٤٥ وهكذا من البيان ما كان موجوداً في البحار المصحح.

(٣) المحاسن: ١/ ٧٢ ح ١٥٢، وبصائر الدرجات: ١٩.

سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها، و «الغسّاق» بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد أهل النار وغسالتهم أو ما يسيل من دموعهم و «العلقم» شجر مرّ ويقال للحنظل ولكل شيء مرّ: علقم.

والسم «الزّعاق» وزن غراب هو الذي يقتل سريعاً، والماء الزعاق الملح الغليظ لا يطاق شربه و «الدهاق» وزن كتاب الممتلىء و «الوهق» بالتحريك ويسكن الحبل يرى به في أنشوطة فيؤخذ به الدابة والإنسان و «المدرعة» القميص.

وقوله: «قذف الأُتنّ» هو بضمتين جمع الأتان وهي الحمارة، والتشبيه بقذفها لكونها أشد امتناعاً للحمل من غيرها أو لكونها أكثر قذفاً لجلّها و «غيابات الكرى» بالضم جمع غيابة وغيابة كل شيء ما سترك منه ومنه غيابات الجب، وقال الجوهري: الغيابة كل شيء تظلّ الإنسان فوق رأسه مثل السحابة والغبرة والظلمة ونحو ذلك، وفي بعض النسخ: علالات الكرى بالضم أيضاً جمع علالة بقية كل شيء والكرى النعاس والنوم أي من يسري بالليل يعرضه في اليوم النعاس لكنه ينجلي منه بعد النوم فكذلك يذهب مشقة الطاعات بعد الموت، هكذا قال العلامة المجلسي قدس سره. وقال الميداني: عند الصباح يحمد القوم السرى يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة و «العبقري» الديباج وقيل: البسط الوشية.

وقوله: «ولو اعتصمت نفس بقلة» أي بعد قذف الشررة لو التجأت نفس إلى رأس جبل لأنضج تلك النفس، «وهج النار» بسكون الهاء أي اتقادها وحرها والضمير «في قلتها» راجع إلى النفس والإضافة للملابسة «والخسيء» الصاغر والمبعد و «الإطمار» جمع طمر بالكسر وهو الثوب الخلق البالي و «السّفا» التراب الذي تسفيه الريح وكل شجر له شوك. وضمير سفاها راجع إلى الأرض بقرينة المقام.

وقوله: «رويداً» أي قليلاً و «الذئاب» جمع الذئب والضمير راجع إلى الدنيا أي كما تختطف الذئاب في الدنيا و «الشجون» الطرق. ويقال: الحديث ذو شجون أي يدخل بعضه في بعض. قال العلامة المجلسي قدس سره: والمراد بالتناقض هنا عدم التناسب.

وقوله (أن رجلاً من قطان المدائن) قال المجلسي: يحتمل أن يكون مراده به معاوية بل هو الظاهر، فالمدائن جمع المدينة لا الناحية الموسومة بذلك، والمراد بعلوجه آباؤه الكفرة شبههم في كفرهم بالعلوج وهو جمع علج بالكسر الرجل من كفّار العجم هكذا في **(القاموس)**. و «النّالة» جمع النائل وهو العطاء كالقادة والقائد و «الدهقان» بالضم والكسر القوي على التصرف مع عدّة ورئيس الإقليم معرّب، والضمير في «منسوجه» راجع إلى الدهقان. قال المجلسي قدس سره: أو راجع إلى النالة بتأويل أي ليس من عطايا دهقانة أو مما أصاب وأخذ منه ما نسجه الدهقان أو ما كان منسوجاً من عطاياه.

و «تضمّخ» بالطيب تلطخ به و «النوافج» جمع نافجة معرّب نافة و «دبّ» الشيخ دبيباً مشى مشياً رويداً والضمير في «أرضه» إما راجع إلى الشيخ أو إلى الرجل و «تضوّر» فلان من شدة الحمى أي تلوى وصاح وتقلب ظهراً لبطن و «الضرّ» بالضم سوء الحال و «القرم» شدة شهوة اللحم و «العلقم» الحنظل وكل شيء مر، وإنما شبّه ما يأكله من الحرام بالعلقم لسوء عاقبته وكثيراً ما يشبه الحرام في العرف بسمّ الحية والحنظل.

و «الخضم» الأكل بأقصى الأضراس «وإقامة الحد المرتد عليه» لإنكاره بعض الضروريات كما يشعر به ما تقدم من قوله: وتبع بعد الحنيفية علوجه، أو استحلاله دماء المسلمين إن كان المراد بالرجل معاوية حسبما أشرنا إليه و «ضرب الثمانين» لشرب الخمر أو قذف المحصنة.

وقوله «ولأسدّن من جهله كل مسدّ» قال المجلسي قدّس سره: كناية عن إتمام الحجة وقطع أعذاره أو تضييق الأمر عليه، وقوله «أفلا رغيف» بالرفع ويجوز في مثله الرفع والنصب والبناء على الفتح و «القفار» بالفتح ما لا أدام معه من الخبز وأضيف إلى الليل وهو صفة للرغيف و «إفطار معدم» بدل من رغيف، وفي بعض النسخ: قفاراً بالنصب على الحال لليل إفطار معدم باللام الجارة وإضافة ليل إلى الإفطار المضاف إلى المعدم أي الفقير.

و «الاتساق» الانتظام و «الوسق» ستون صاعاً، وقوله: «يكاد يلوي ثالث أيامه» لعله من لويت الحبل فتلته أي يلتف إحدى رجليه بالأخرى من شدة جوعه وقوله «خامساً ما استطاعه» أي جائعاً ما كان قادراً على الجوع و «القر» بالضم البرد و «عاوده» في مسألة مرّة بعد أخرى و «أوتغ» بالتاء المثناة والغين المعجمة من الوتغ بالتحريك وهو الهلاك و «السفه» الجهل وخفة الحلم.

وقوله «من كظمه» أي من قلة كظمه للغيظ، وقوله «الحرقة» عطف على قوله سفها، ولما لم يكن الحرقة مثل السفه من فعل الساب أتى باللام للتعليل و «أضنا» افعل من أضناه المرض أثقله من ضنى ضناً من باب رضي أي مرض مرضاً ملازماً حتى أشرف على الموت أي كاد يسبّني لحرقة كانت أمرض له من فقره الذي كان به، ويحتمل أن يكون الواو في: ولحرقة للقسم واللام فيها بالفتح أي والله لحرقة في نار جهنم أو في هذه الحديدة المحماة أمرض له من عدمه.

وقوله «من مقت رقيب» الظاهر أن المراد بالرقيب هنا هو الله تعالى لأنه من جملة أسمائه الحسنى وفي الكتاب العزيز ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وجملة «تنسخ» صفة أو حال من فاضحات أو من الأوزار، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، أي نثبت ما كنتم تعملون أو نأخذ نسخته،

وقوله «فصبراً» الفاء للتفريع أي فاصبروا صبراً على دنيا تمر مع شدتها مثل ليلة تنسلخ وتمضي مع أضغاث أحلامها، وقوله «كم بين نفس» الاستفهام للتعجب والضمير في «خيامها» راجع إلى الجنة المعلومة بقرينة المقام و «الاصطراخ» الصياح الشديد.

وقوله «بلا صنع منا» قال العلامة المجلسي قدس سره: حال من مفعول أعجب أي أعجب مما صدر من طارق منا من غير أن يكون منا فيما فعله مدخل و «زملها» أي لفها وقوله «أم نذر» لعل المراد كفارة النذر و «الزّقم» اللقم الشديد والشرب المفرط، والضمير في «إملاكها» راجع إلى القطان أي معتقدة بأني أملكها، ويحتمل رجوعه إلى الأقاليم أي مذعنة بأني أملك الأقاليم وليس لهم فيها حق.

و «اللّوك» العلك وهو دون المضغ، قال العلامة المجلسي قدّس سره: وقبحه يدل على قبح العلك بطريق أولى وعلى قبح السلب أيضاً بغير انتفاع بطريق أولى لأن النفس قد تنازع السلب في صورة الانتفاع بخلاف غيرها كما قيل.

و «العراقة» بالضم العظم إذا أكل لحمه والضمير في «بها» راجع إلى العراقة وفي «أجذمها» إلى الدنيا أو العراقة بأدنى الملابسة، وفي هذه الفقرة من المبالغات في التنفر والنكير ما لا يتصور فوقها، وكذا في الحنظلة التي مضغها ذو السقم فيشتمها أي يسبها نفرة عنها. وقال المجلسي: أي لفظها بغضاً وعداوة لها فلفظه مع اختلال ذائقته يدل على كمال مرارته وملفوظه أقذر من ملفوظ غيره لمرارة فيه ولتوهم سراية مرضه أيضاً، انتهى.

أقول: لا دلالة في شتمها على لفظها كما في نسخة (**البحار**)، ويحتمل أن يكون يشتمها من تحريف النساخ ويكون الأصل يسمها أي يأكلها على مرارتها مأخوذاً من المسمّ وزن مسنّ وهو الذي يأكل ما قدر عليه كما في (**القاموس**) ولعل قوله: على فؤادي يؤيد ذلك فإن ذا السقم إذا ابتلع الحنظلة يؤثر مرارتها في باطنه ويفسد معدته وأمعاءه، والتخصيص بذي السقم لأن صحيح المزاج لا يلوك الحنظلة ولا يلقمها.

و «عكمت» المتاع شددته بثوب، والمراد بالطي ما يطوى فيه الشيء، أي المطوي على الشيء و «المهر» ولد الفرس.

وقوله «أريه السها ويريني القمر» قال المجلسي: أي أني في وفور العلم ودقة النظر أرى الناس خفايا الأمور وهم يعاملون معي معاملة من يخفى عليه أوضح الأمور عند إرادة مخادعتي. قال الزمخشري في (**مستقصى الأمثال**): أريها السّها وتريني القمر، السها كوكب صغير خفي في بنات النعش وأصله: أن رجلاً كان يكلم امرأة بالخفي الغامض من الكلام وهي تكلمه بالواضح البين، فضرب السها والقمر مثلاً لكلامه وكلامها يضرب لمن اقترح على

صاحبه شيئاً فأجابه بخلاف مراده. قال الكميت:

شكونا إليه خراب السواد فحرّم علينا لحوم البقر
فكنا كما كان من قبلنا أريها السها وتريني القمر

الضمير في إليه راجع إلى الحجاج بن يوسف شكى إليه أهل السواد خراب السواد وثقل الخراج فقال: حرمت عليكم ذبح الثيران، أراد بذلك أنها إذا لم تذبح كثرت وإذا كثرت كثرت العمارة وخف الخراج، انتهى.

وقوله «ءإمتنع» الاستفهام للتعجب أو الإنكار، أي أني لكمال زهدي أمتنع من أخذ وبرة ساقطة من ناقة فكيف أبتلع إبلاً رابطة في مربطها لملاكها و «القلوص» الشابة من النوق، وقيل: القلوص بفتح القاف من الإبل الباقية من السير خصها بالذكر لأن الوبر الساقط من الإبل حين السير أهون عند صاحبها من الساقط من الرابطة ومنه يظهر فائدة قيد الربط في الأخير.

وقوله «أدبيب العقارب من وكرها ألتقط» قال الجوهري: كلما مشى على وجه الأرض دابة ودبيب أي ألتقط العقارب الكبيرة التي تدب من وكرها أي جحرها مجازاً فإنها إذا أُريد أخذها من جحرها كان أشد لذعاً شبه عليه السلام بها الأموال المحرّمة المنتزعة من محالها لما يترتب على أخذها من الهلكات الأخروية.

وقال بعض الأفاضل: الدبيب مصدر دبّ من باب ضرب إذا مشى، وهو مفعول التقط. وفي الكلام مجاز، يقال: دب عقارب فلان علينا، أي طعن في عرضنا، فالمقصود: أأجعل عرضي في عرضة طعن الناس صادقاً لا افتراء فيه وكان طعنهم صدقاً وناشئاً عن وكره ومحله لأن أخذ الرشوة الملفوفات إذا صدر عن التارك لجميع الدنيا للاحتراز عن معصيته في نملة من السفاهة بحيث لا يخفى، انتهى.

و «الرّقش» بالضم جمع الرقشاء وهي الأفعى، سميت بذلك لترقيش في ظهرها وهي خطوط ونقط و «الارتباط» شد الفرس ونحوه للانتفاع به، وقوله «تنحتها المعاصي» هو من النحت بري النبل ونحوه استعارة، وفي بعض النسخ: تنتجها أي تفيدها وتثمرها، وبالله التوفيق.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت فرجام آن حضرت است در تنزيه نفس قدسى خود از ظلم كردن انام، مى فرمايد:

سوگند به خدا كه شب به روز آوردن من بر بالاى خار سعدان در حالتى كه بيدار باشم وكشيده شدن من در زنجيرها در حالتى كه دست و گردن بسته در بند باشم، دوست تر است به من از اين كه ملاقات نمايم خدا و رسول او را در روز قيامت در حالتى كه ظلم نماينده بعض بندگان باشم و غصب كننده چيزى از متاع اين جهان و چگونه ظلم كنم احدى را از براى نفسى كه سرعت مى نمايد به سوى پوسيدن بازگشتن او و دراز مى شود در خاك نزول كردن آن.

قسم به خدا كه ديدم برادرم عقيل را در حالتى كه فقير و بى چيز شده بود تا حدى كه خواهش نمود از من از گندم شما يك صاع و ديدم كودكان او را پريشان موى ها و غبارآلودرنگ ها از غايت فقر، گويا سياه رنگ شده بود رخسارهاى ايشان با رنگ نيل و آمد و رفت نمود نزد من در حالتى كه تأكيدكننده بود در خواهش خود و مكرر كرد بر من سخن را در حالتى كه اعاده نماينده بود، پس برگرداندم به طرف او گوش خود را، پس گمان نمود كه مى فروشم به او دين خود را و متابعت مى كنم افسار او را در حالتى كه مفارقت كننده باشم از طريق عدالت خود. چون اصرار از اندازه گذرانيد، پس گرم كردم از براى او آهنى را، بعد از آن نزديك كردم آن آهن گرم را از بدن او تا عبرت بر دارد به آن، پس ناله كرد مثل ناله كردن صاحب مرض از درد آن و نزديك بود كه بسوزد از اثر آن آهن، پس گفتم او را كه بنشينند در ماتم تو زنانى كه بچه مردگان باشند. اى عقيل، آيا ناله مى كنى از آهنى كه گرم كرده باشد آن را آدمى براى شوخى و بازيچه گى خود؟ و مى كشى مرا با آتشى كه افروزنده است آن را خداوند قهار آن براى غضب و خشم خود؟ آيا ناله مى كنى از اذيّت اين آهن و ناله نكنم من از آتش سوزان جهنم؟

و عجب تر از اين قصه عقيل اين است كه آينده اى وقت شب آمد نزد ما با هديه پيچيده شده در ظرفش و با معجونى كه دشمن داشتم آن را به اندازه اى كه

گويا سرشته شده آن با آب دهن مار يا باقى آن، پس گفتم به او آيا اين عطيه است يا زكات است يا صدقه؟ پس اين حرام است بر ما اهل بيت رسالت، پس گفت نه اين است و نه آن وليكن هديه است كه آورده ام، پس گفتم گريان باد به تو چشم مادر بى پسر تو، آيا از دين خدا آمده اى نزد من تا فريب دهى مرا؟ آيا مرض خبط دارى يا صاحب جنون هستى يا هذيان مى گوئى؟ قسم به خدا اگر عطا كرده شوم من اقليم هاى هفتگانه را با آنچه كه در زير افلاك آنها است بر آنكه معصيت نمايم خدا را در حق مورچه كه بربايم از او پوست جوى را نمى كنم اين كار را و به درستى كه دنياى شما نزد من هرآينه خوارتر است از برگى كه در دهن ملخ باشد بخورد آن را، چيست على را با نعمت فانى و لذت غير باقى، پناه مى برم به خدا از غفلت عقل و قباحت لغزش و به او استعانت مى كنم در امور دنيا و آخرت .

ومن دعاء له عليه السلام وهو المائتان والثالث والعشرون من المختار في باب الخطب

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهي بِاليَسارِ، ولا تَبْذُلْ جَاهِي بالإقْتارِ، فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلىٰ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطاني، وأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَني، وأَنْتَ مِنْ وَراءِ ذٰلِكَ كُلِّه وَلِيُّ الإِعْطاءِ والمَنْعِ، إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1].

اللغة

(صانه) صوناً وصياناً وصيانة حفظه فهو مصون و **(الوجه)** هنا بمعنى الجاه ومنه كان لعلي عليه السلام وجه من الناس حياة فاطمة أي جاه وعزّ، قاله ابن الأثير. و **(البذل)** كالابتذال ضد الصيانة، والمبتذل بالكسر لابس البذلة وهو الثوب الخلق وما لا يصان من الثياب و **(القتر)** والتقتير الرّمقة من العيش وقلّة النفقة، وأقتر على عياله: ضيّق في النفقة.

الإعراب

قوله عليه السلام: فأسترزق، منصوب بأن مضمرة وجوباً لوقوعه في جواب الدعاء. وقوله: وأنت، الجملة في محل النصب على الحال وأنت مبتدأ والظرف خبره، ووليّ خبر بعد خبر ويجوز كون وليّ خبره والظرف متعلقاً به متقدماً عليه للتوسع فيكون ظرف لغو.

المعنى

اعلم أن مقصوده بهذا الدعاء طلب الغنى وعدم الابتلاء بالفقر ولوازمه، فقوله **(اللهم صنّ وجهي باليسار)** أي اجعل جاهي محفوظاً بالغنى والسعة حتى أستغني عن مسألة المخلوقين، ومراده عليه السلام به الكفاف وهو ما يكفّ عن المسألة ويستغنى به فيكون مساوقاً لما ورد في الدعاء النبوي صلى الله عليه وآله المرويّ في **(الكافي)**: «**اللهم ارزق محمداً وآل محمد الكفاف**»[2]، وهو بالفتح ما لا يحتاج معه ولا يفضل عن الحاجة فهو متوسط بين الفقر والغنى وخير الأمور أوسطها، وإنما سمي بذلك لأنه يكفّ عن الناس ويغني عنهم.

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ٣/ ٣٠٠، وميزان الحكمة: ٢/ ١٠٧٧.

(٢) الكافي: ١٠/ ١٤١، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٣٩٩، ح ٤.

وفي **(الكافي)** أيضاً عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«اللهم ارزق محمداً وآل محمد ومن أحب محمداً وآل محمد العفاف والكفاف، وارزق من أبغض محمداً وآل محمد المال والولد»**(١).

قال بعض شرّاح الحديث: العفاف بالفتح عفّة البطن والفرج عن الطغيان أو العفة من السؤال عن الإنسان أو الجميع، وقال: لما كان شيء من المال ضرورياً في البقاء والعبادة وهو الكفاف الواقع بين الطرفين، طرف الفقر الذي فيه رائحة الكفر والعصيان، وطرف الغنى الذي فيه شائبة التكبّر والطغيان، طلبه صلى الله عليه وآله لنفسه ولمحبيه، وطلب لمن أبغضهم طرف الغنى والكثرة لأن مفاسده أكثر وأعظم وفتنته أشد وأفحم من مفاسد الفقر وفتنته، كما قال عزّ وجل: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ـ ٧].

وبالجملة، لما كان حصول الكفاف مانعاً من دواعي طرفي التفريط والإفراط وكان العبد معه مستقيم الأحوال على سواء الصراط طلبه لنفسه ولمحبّيه.

قال الشارح: واعلم أن الأحاديث مختلفة، ففي بعضها طلب الغنى واليسار وفي بعضها طلب الكفاف، وفي بعضها طلب الفقر، وفي بعضها الاستعاذة من الفقر، ووجه الجمع بينها أن يقال: المراد بطلب الغنى طلب الكفاف لأن الكفاف هو المطلوب عند أهل العصمة، وليس المراد به ما هو المتعارف عن أبناء الدنيا من جمع المال وادخاره والاتساع به فوق الحاجة، فإن ذلك مناف لما هو المعهود من حالهم من طلاق الدنيا والزهد فيها.

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:

علل النفس بالكفاف وإلاّ	طلبت منك فوق ما يكفيها
ما لما قد مضى ولا للذي لم	يأت من لذّة لمستحليها
إنما أنت طول مدّة ما	عمرت كالسّاعة التي أنت فيها

ورواه في **(البحار)** من كتاب مطالب السؤال لمحمد بن طلحة، وقال أيضاً من نظمه عليه السلام:

دليلك أن الفقر خير من الغنى	وأن قليل المال خير من المثري
لقاؤك مخلوقاً عصى الله بالغنى	ولم تر مخلوقاً عصى الله بالفقر

وهذا هو الذي أراد النبي صلى الله عليه وآله بقوله: **«نِعم المال الصالح للعبد الصالح»** والمراد بطلب

(١) الكافي: ٢/١٤٠ ح ٣، وشرح أصول الكافي: ٨/٣٩٨ ح ٣.

الفقر طلب قدر الحاجة والكفاف لأن الكفاف فقر عند أهل الدنيا وإن كان يساراً عندهم عليهم السلام. والمراد بالاستعاذة من الفقر الاستعاذة مما دون الكفاف وهو الفقر عندهم عليهم السلام وأقوى أفراده عند أهل الدنيا، هذا.

وقال المحدث العلامة المجلسي قدّس سره: سؤال الفقر لم يرو في الأدعية بل ورد في أكثرها الاستعاذة من الفقر الذي يشقى به، وعن الغنى الذي يصير سبباً لطغيانه، انتهى.

وكيف كان فقد ظهر بذلك كله أن غرضه عليه السلام بالسؤال صون جاهه وعزّه باليسار لاستلزام الغنى احترام صاحبه عند عامة الناس كاستلزام الفقر لمهانة المبتلى به عندهم.

ولذلك عقّبه بقوله: **(ولا تبذل جاهي بالإقتار)** أي لا تجعل مروءتي وحرمتي ساقطة عند الناس بضيق المعيشة وقلّة النفقة، فإن الإقتار يوجب الاستهانة والاحتقار واستخفاف الناس بالمتصف به.

ومن هنا قال الصادق عليه السلام: لا تدعوا التجارة فتهونوا[1].

وفي بعض الآثار: أحسنوا تعهد المال فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقّة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب من مروءته، والرابعة هي العظمى وهي استخفاف الناس به.

وفي **(وصايا لقمان)**: يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم يكن أمرّ من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدث الناس كي لا ينتقصوك[2].

وترك ابن المبارك دنانير وقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجمعها إلا لأصون بها حسبي وديني.

وقالت الحكماء: المال يرفع صاحبه وإن كان وضيع النسب قليل الأدب، وينصره وإن كان جباناً، وينبسط لسانه وإن كان عيابة، يظهر المروءة ويتم الرئاسة، يصلك إذا قطعك الناس، وينصرك إذا خذلك الأقربون، ولولاه ما مدح كريم ولا صين حريم.

وكان بعضهم يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، ومن الذنب للمصر، ومن الحكم للمقرّ، وهو عندهم أرفع من السماء وأعذب من الماء وأحلى من الشهد وأزكى من الورد، خطأه صواب، وسيئته حسنة وقوله مقبول، وحديثه مغسول، يغشى مجلسه

---

(١) وسائل الشيعة: ١٢/ ٧ ح ٦، والكافي: ٥/ ١٤٩ ح ٨.

(٢) بتفاوت في الكافي: ٤/ ٢٢ ح ٨، ووسائل الشيعة: ٩/ ٤٤٥ ح ١٢٤٥٩.

ولا يمل صحبته، والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، ومن سحاب تموز لا يسأل منه إن تخلّف، ولا يسلم عليه إن قدم، إذا غاب شتموه وإن حضر طردوه، وإذا غضب ضعفوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة أثقل من الأمانة وأبغض من المبرم الملحف.

وقد أكثر الشعراء في نظمهم من هذا المعنى، قال بعضهم:

فصاحة سحبان وخطّ ابن مقلة ... وحكمة لقمان وزهد ابن أدهم
إذا اجتمعت للمرء والمرء مفلس ... فليس له قدر بمقدار درهم

وقال آخر:

وزيني للغني أسعى فإني ... رأيت الناس شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير
ويكرهه الندى وتزدريه ... خليلته وينهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جمّ ... ولكن الغني ربّ غفور

وقال آخر:

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى ... ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

وقال الزمخشري:

لا تلمني إذا رقيت الأواقي ... فالأواقي لماء وجهي أراقي

ثم المراد بالجاه أيضاً الذي سأل عليه السلام صونه باليسار وعدم ابتذاله بالإقتار ليس ما يقصد به الفخر والترأس كما هو شأن أهل الدنيا بل ما يستعان به على القيام بطاعة الله وعبادته وأداء حقوقه اللازمة والذي منّ الله سبحانه به على الأنبياء وأشير إليه في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وفي الحديث النبوي صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده فيتوقف بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله»(١).

وقوله عليه السلام **(فاسترزق طالبي رزقك)** الفاء للسببية أي فيسبب ابتذال جاهي بالإقتار أن

(١) مجمع الزوائد: ١٠/٣٤٦، وكنز العمال: ٣/٤٥٩ ح ٧٤٣٠.

أسترزق طالبي رزقك الذين من شأنهم أن يطلبوا منك الرزق لا أن يطلب منهم.

(وأستعطف شرار خلقك) أي أطلب العاطفة والأفضال من شرار خلقك الذين ليسوا بأهل الاستعطاف، وفي بيانه لهذين السببين تأكيد للالتجاء بالله تعالى في صيانته من الفقر وإعاذته من الابتذال إذ في استرزاق الخلق واستعطافهم من الذل والخضوع والتملق والمهانة للمسؤول منه ما يجب أن يتضرع إلى الله عز وجل في الوقاية منه.

وقد تواترت الأخبار والآثار وتطابقت الأشعار على ذم السؤال وكراهة بذل الوجه في الطلب من الخلق خصوصاً ممن لم يكن معروفاً بالمعروف.

فمن ذلك ما في **(الكافي)** عن عبد الأعلى بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: طلب الحوائج إلى الناس استلاب للعزّ مذهبة للحياء واليأس مما في أيدي الناس عزّ للمؤمن في دينه والطمع هو الفقر الحاضر(١).

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله تبارك وتعالى أحب شيئاً لنفسه وأبغضه لخلقه، أبغض لخلقه المسألة وأحب لنفسه أن يسأل وليس شيء أحب إلى الله عزّ وجل من أن يسأل فلا يستحي أحدكم أن يسأل الله عزّ وجل من فضله ولو شسع نعله»(٢).

وروي عنه عليه السلام: إياكم وسؤال الناس فإنه ذلّ في الدنيا وفقر تعجّلونه وحساب طويل يوم القيامة(٣).

وعن أبي جعفر عليه السلام: لو يعلم السائل ما في المسألة ما سأل أحدٌ أحداً، ولو يعلم المعطي ما في العطيّة ما ردّ أحد أحداً(٤).

وفي **(البحار)** عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «قال الله عزّ وجل: ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السماوات وأسباب الأرض من دونه فإن سألني لم أعطه وإن دعاني لم أجبه، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السماوات والأرض رزقه فإن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وإن استغفرني غفرت له»(٥).

وقال بعض السلف: من سأل حاجة فقد عرض نفسه على الرثّ، فإن قضاها المسؤول

---

(١) الكافي: ٢/١٤٩، وشرح أصول الكافي: ٩/٤ ح ٤.
(٢) التفسير الصافي: ١/٤٤٧، وتفسير كنز الدقائق: ٢/٤٣٦.
(٣) الكافي: ٤/٢٠ ح ١، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/٧٠ ح ١٧٥٦.
(٤) شرح أصول الكافي: ١١/٣٥١، ووسائل الشيعة: ٩/٤١٧ ح ١٢٣٧٢.
(٥) الأمالي: ٥٨٥ ح ١٢١٠، وبحار الأنوار: ٦٨/١٥٥.

استعبده بها، وإن ردّه عنها رجع حراً وهما ذليلان هذا بذلّ اللؤم وذلك بذلّ الرّد، ومن الشعر المنسوب إلى الحسين عليه السلام:

أغن عن الخلق بالخالق تغن عن الكاذب بالصادق
واسترزق الرحمة من فضله فليس غير الله من رازق

وقال محمود الوراق:

ساو الملوك قصورهم وتحصّنوا من كل طالب حاجة أو راغب
فارغب إلى تلك الملوك ولا تكن بادي الضراعة طالباً من طالب

وقال آخر:

لموت الفتى خير من البخل للفتى وللبخل خير من سؤال فقير
لعمرك ما شيء لوجهك قيمة فلا تلق إنساناً بوجه ذليل

ثم الظاهر أن مراده عليه السلام بشرار الخلق في قوله: وأستعطف شرار خلقك من لم يكن أهلاً للمعروف ومن هو باللوم موصوف، فإن طلب العاطفة والبرّ منهم أمرّ على ذوي الوجوه من طعم الحنظل والعلقم وأدهى وأضرّ من إدخال اليد في فم الأرقم.

قال شارح (**الصحيفة السجادية**): قد روي أن في زبور داود عليه السلام: إن كنت تسأل عبادي فاسأل معادن الخير ترجع مغبوطاً مسروراً، ولا تسأل معادن الشر ترجع ملوماً محسوراً[١].

وروى المحدث الجزائري عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قلت: اللهم لا تحوجني إلى أحد من خلقك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تقولن هكذا فليس من أحد إلا وهو محتاج إلى الناس»، قال: فكيف أقول يا رسول الله؟ قال: «قل: اللهم لا تحوجني إلى شرار خلقك»، قال: قلت: يا رسول الله ومن شرار خلقه؟ قال: «الذين إذا أعطوا منّوا وإذا منعوا عابوا»[٢].

وفي الأثر: أن الله تعالى أوحى إلى موسى على نبينا وعليه السلام لأن تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق خير من أن تبسطها إلى غني نشأ في الفقر.

وفي كلامهم: لا شيء أوجع للأحرار من الرجوع إلى الأشرار.

وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم.

---

(١) فيض القدير: ٣/ ٤٦، وهو من كلام الله في الزبور.

(٢) ميزان الحكمة: ١/ ٧٠٤ ح ٩٧٣، وذكر أخبار أصبهان: ٢/ ٧٠.

وأوصى بعضهم ابنه فقال: لا تدنّس عرضك ولا تبذلنّ وجهك بالطلب إلى من ردك كان ردّه عليك عيباً وإن قضى حاجتك جعلها عليك منّاً، واحتمل الفقر بالتنزّه عما في أيدي الناس والزم القناعة بما قد قسم لك.

وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه.

رأى الأصمعي كنّاساً يكنّس كنيفاً وهو ينشد:

وأكرم نفسي أنني إن أهنتها ... وحقك لم تكرم على أحد بعدي

وقال: فقلت له: يا هذا إنك والله لم تترك من الهوان شيئاً إلا وقد فعلته بنفسك مع هذه الحرفة، فقال: بلى والله إنني صنتها عما هو أعظم من هذا من الهوان، فقلت: وأي شيء هو؟ قال: سؤال مثلك، قال: فانصرفت عنه وأنا من أخزى الناس. وقال عمر بن أحمد الباهلي:

من يطلب المعروف من غير أهله ... يجد مطلب المعروف غير يسير

إذا أنت لم تجعل لعرضك جنة ... من الذلّ سار الذلّ كل مسير

وقال آخر:

وإذا بليت ببذل ماء وجهك سائلاً ... فابذله للمتكرّم المفضال

إن الجواد إذا حباك بموعد ... أعطاكه سلساً بغير مطال

ما اعتاض باذل وجهه بمطاله ... عوضاً ولو نال المنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال قرنته ... رجح السؤال وخفّ كل نوال

وقال آخر:

اسأل العرف إن سألت جواداً ... لم يزل يعرف الغنى واليسارا

فإذا لم تجد من الذل بدّاً ... فالق بالذل إن لقيت الكبارا

ليس إجلالك الكبير بذلّ ... إنما الذل أن تجلّ الصغارا

وقال آخر:

إن الغنى عن لئام الناس مكرمة ... وعن كرامهم أدنى إلى الكرم

وفي **(البحار من الكافي)** عن بكر الأرقط أو ابن شبيب عن أبي عبد الله عليه السلام أنه دخل عليه واحد فقال له: أصلحك الله إني رجل منقطع إليكم بمودّتي وقد أصابتني حاجة شديدة وقد تقرّبت بذلك إلى أهل بيتي وقومي فلم يزدني بذلك منهم إلا بعداً، قال عليه السلام: فما أتاك الله خير مما أخذ منك، قال: جعلت فداك ادع الله أن يغنيني من خلقه، قال عليه السلام: إن الله

تعالى قسّم رزق من شاء على يدي من شاء، ولكن اسأل الله أن يغنيك عن الحاجة التي تضطرك إلى لئام خلقه[١].

قال العلامة المجلسي قدس سره: اللئام جمع اللئيم، يقال للشحيح الدنيّ النفس والمهين ونحوهم، لأن اللؤم ضد الكرم، ويومىء الحديث إلى أن الفقر المذموم ما يصير سبباً كذلك وغير ممدوح وذمّه لأن اللئيم لا يقضي حاجة وربما يلومه في رفع الحاجة إليه وإذا قضاه لا يخلو من منّه، ويمكن أن يشمل الظالم والفاسق المعلن بفسقه[٢].

وفي كثير من الأدعية: اللهم لا تجعل لظالم ولا فاسق عليّ يداً ولا منّة. وذلك لأن القلب مجبول بحب من أحسن إليه وفي حب الظالم معاصي كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] هذا.

وفي عطف قوله عليه السلام: **(وابتلى بحمد من أعطاني وافتتن بذمّ من منعني)** على ما سبق تأكيد آخر للإعاذة من الإقتار الموجب لاسترزاق طالبي الرزق واستعطاف شرار الخلق المستلزمين للابتلاء بثناء المعطي والافتتان بإزراء المانع أي الميل إلى تعييبه دونه والطعن عليه لكون النفوس مجبولة مفتونة بذلك شهادة العيان والتجربة.

ويشير إليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨].

وإنما أكد عليه السلام التجاءه إلى الله تعالى بذكر هذين اللازمين لأن ابتلاء العبد وافتتانه بحمد المخلوق وذمّه معطياً ومانعاً يوجبان انصرافه عن الخالق وعنايته بالمخلوق وهما خلاف وظيفة العبودية.

وقوله عليه السلام: **(وأنت من وراء ذلك كله وليّ الإعطاء والمنع)** قد قلنا: إن الجملة حالية أي لا تبذل جاهي بالإقتار فيلحقني بسببه ما يلحقني من المكاره المعدودة والحال أنك من وراء ذلك الخلق كله القيّم بالإعطاء والمنع والقاهر القادر على التيسير والتقتير، لأن أزمة الأمور كلها بيد قدرتك.

والمراد بكونه من وراء الخلق سلطانه عليهم وإحاطته بهم كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ١٩ـ ٢٠]. قال أمين الإسلام قدّس سره: معناه أنهم في قبضة الله وسلطانه لا يفوتونه كالمحاصر المحاط به من جوانبه لا يمكنه

(١) الكافي: ٢/ ٢٦٦، ووسائل الشيعة: ٧/ ١٣٩ ح ٦١.
(٢) بحار الأنوار: ٦٩/ ٥ ح ٢، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٢٣١.

الفوات والهرب وهذا من بلاغة القرآن.

وقوله عليه السلام: **(إنك على كل شيء قدير)** مسوق في معرض التعليل لكونه عزّ وجل وليّ الإعطاء والمنع، أي أنت وليهما بمقتضى عموم قدرتك على جميع الأشياء.

تبصرة

هذا الدعاء الذي نسبه الرضي قدس سره إلى أمير المؤمنين عليه السلام قد روي عن علي بن الحسين عليهما السلام في ضمن أدعية الصحيفة الكاملة في فقرات دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق باختلاف يسير وهو قوله عليه السلام: اللهم صل على محمد وآل محمد وصن وجهي باليسار ولا تبتذل جاهي بالإقتار فأسترزق أهل رزقك وأستعطي شرار خلقك، فأفتتن بحمد من أعطاني وأبتلي بذمّ من منعني وأنت من دونهم وليّ الإعطاء والمنع، هكذا وجدته[١].

تذييل

قد تقدم في شرح الكلام السادس والأربعين فصل مبسوط في فضل الدعاء والترغيب عليه ومطلوبيته من طريق العقل والنقل ومطالب نفيسة ينفعك مراجعتها في هذا المقام، وأحببت أن أورد هنا بعض الأدعية الواردة في طلب الرزق فأقول وبالله التوفيق:

روي في **(البحار من العيون)** عن الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أنعم الله عزّ وجل عليه نعمة فليحمد الله، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله»[٢].

وفيه من الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: الاستغفار يزيد في الرزق[٣].

وفيه من **(الكتاب العتيق الغروي)**: دعاء اللهم كما صنت وجهي عن السجود إلا لك فصنه عن طلب الرزق إلا منك، اللهم قوّني على ما خلقتني له ولا تشغلني بما تكلّفت[٤] لي به، واعصمني مما تعاقبني عليه[٥].

ومنه أيضاً دعاء في سجدة الشكر لطلب الرزق: اللهم يا من لا يزيد ملكه حسناتي،

---

(١) ميزان الحكمة: ٢/ ١٠٧٧.

(٢) كفاية الأثر: ٢٩٩، وبحار الأنوار: ٧٥/ ٢٠١.

(٣) بحار الأنوار: ٩٠/ ٢٧٧ ح ٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٢٧٧ ح ٣٠٨٦.

(٤) «تكفّلت» في نسخة.

(٥) بحار الأنوار: ٩٢/ ٢٩٧ ح ١٤.

ولا تشينه سيئاتي، ولا ينقص خزائنه غناي ولا يزيد فيها فقري، صلّ على محمد وآل محمد واثبت رجاءك في قلبي، واقطع رجائي عمن سواك حتى لا أرجو إلا إياك ولا أخاف إلا منك ولا أثق إلا بك ولا أتكل إلا عليك، وآجرني من تحويل ما أنعمت به عليّ في الدّين والدنيا والآخرة أيام الدنيا برحمتك يا أرحم الراحمين[١].

وفيه من **(علل الشرائع)** عن سليمان بن مقبل قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: لأي علة يستحب للإنسان إذا سمع الأذان أن يقول كما يقول المؤذن وإن كان على البول والغائط؟ قال عليه السلام: إن ذلك يزيد في الرزق[٢].

ومن **(الأمالي)** عن أحمد بن عامر عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من قال في كل يوم مائة مرة: لا إله إلا الله الحق المبين، استجلب به الغنى واستدفع به الفقر وسدّ عنه باب النار واستفتح له باب الجنة»[٣].

ومن ثواب الأعمال عن محمد بن عمر رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: من كتب على خاتمه: ما شاء الله لا قوة إلا بالله أستغفر الله، أمِنَ من الفقر المدقع[٤].

ومن **(المحاسن)** عن النوفليّ عن السكوني عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ألحّ عليه الفقر فليكثر لا حول ولا قوّة إلا بالله ينفي الله عنه الفقر»[٥].

ومن **(تفسير العياشي)** عن النوفلي عن السكوني عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: إن النبي صلى الله عليه وآله: فقد رجلاً فقال: «**ما بطّأ بك عنا؟**» فقال: السقم والعيال، فقال صلى الله عليه وآله: «ألا أعلمك بكلمات تدعو بهن يذهب الله عنك السقم وينفي عنك الفقر، لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم توكلت على الحيّ الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ وكبّره تكبيراً»[٦].

ورواه في **(الكافي)** عن أبي عبد الله عليه السلام نحوه وزاد في آخره فقال الرجل: فوالله ما قلته إلا ثلاثة أيام حتى ذهب عني الفقر والسقم، وقد تقدم تمامه بهذا الطريق في شرح الخطبة المائتين والثالثة عشر[٧].

---

(١) بحار الأنوار: ٨٣/٢١٦ ح ٣٠.
(٢) وسائل الشيعة: ١/٣١٥ ح ٨.
(٣) بحار الأنوار: ٩٢/٢٩٤ ح ٢.
(٤) وسائل الشيعة: ٥/١٠٣ ح ٦٢.
(٥) المحاسن: ١/٤٣، ووسائل الشيعة: ٧/٢١٨.
(٦) الكافي: ٢/٥٥١ ح ٣، ومن لا يحضره الفقيه: ١/٢٢٥ ح ٦٧٥.
(٧) الكافي: ٨/٩٣ ح ٦٥، مستدرك الوسائل: ٥/٣٨٤.

وفي (**البحار**) أيضاً من عدّة الداعي عن الصادق عليه السلام لطلب الرزق: يا الله يا الله يا الله أسألك بحق من حقّه عليك عظيم أن تصلي على محمد وآل محمد وأن ترزقني العمل بما علّمتني من معرفة حقك وأن تبسط عليّ ما خطرت من رزقك[١].

ومن (**الاختصاص**) عن القسم بن بريد عن أبيه قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك قد كان الحال حسناً وأن الأشياء اليوم متغيرة، فقال عليه السلام: إذا قدمت الكوفة فاطلب عشرة دراهم فإن لم تصبها فبع وسادة من وسائدك بعشرة دراهم ثم ادع عشرة من أصحابك واصنع لهم طعاماً فإذا أكلوا فاسألهم فيدعوا الله لك، قال: فقدمت الكوفة فطلبت عشرة دراهم فلم أقدر عليها حتى بعت وسادةً لي بعشرة دراهم كما قال عليه الصلاة والسلام وجعلت لهم طعاماً ودعوت أصحابي عشرة فلما أكلوا سألتهم أن يدعوا الله تعالى فما مكثت حتى مالت عليّ الدنيا، هذا[٢].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة مرويّة في كتب أصحابنا منقولة عن أئمتنا عليهم صلوات الله الملك المنّان المبين، ولنقتصر على ما أوردنا والله الموفق وهو الرزاق ذو القوة المتين.

(١) الكافي: ٢/٥٥٣ ح ١١، وبحار الأنوار: ٨٧/ ٣٢.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٣/ ٢٨٧ ح ١٥٣٧٤، والاختصاص: ٢٤.

الترجمة

از جمله دعای آن امام است:

بار الها، حفظ بفرما قدر و منزلت مرا با غنا و وسعت معیشت و مبتذل مکن جاه و و مرتبه مرا با فقر و تنگی روزی تا این که محتاج شوم به طلب کردن روزی از طالبان روزی تو و طلب کردن عاطفت و احسان از شریران خلق تو و مبتلا شوم به تعریف و توصیف کسی که به من ریزش نماید و مایل شوم به مذمت آن کسی که از من مضایقه کند و حال آن که تو از پشت همه این خلق متوالی اعطا و منع هستی، به درستی که تو بر همه چیز قادر و قاهری.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائتان والرابعة والعشرون من المختار في باب الخطب

وهي مروية في (**البحار**) من كتاب (**عيون الحكمة والمواعظ**) باختلاف وزيادة كثيرة تقف عليها إن شاء الله بعد الفراغ من شرح ما أورده السيد في المتن، وهو قوله عليه السلام:

دارٌ بِالبَلاَءِ مَحْفُوفَةٌ، وبِالغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لا تَدُومُ أَحْوالُها، ولا تَسْلَمُ نُزّالُها، أَحْوالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وتاراتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، العَيْشُ فِيها مَذْمُومٌ، والأَمانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وإنَّما أَهْلُها فيها أَغْراضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهامِها، وتُفْنِيهِمْ بِحِمامِها.

وَاعْلَمُوا عِبادَ الله أَنَّكُمْ وما أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هٰذِهِ الدُّنيا عَلىٰ سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضىٰ قَبْلَكُمْ مِمَّنْ كانَ أَطْولَ مِنْكُمْ أَعْماراً، وأَعْمَرَ دِياراً، وأَبْعَدَ آثاراً، أَصْبَحَتْ أَصْواتُهُمْ هامِدَةً، ورِياحُهُمْ راكِدَةً، وأَجْسادُهُمْ بالِيَةً، ودِيارُهُمْ خالِيَةً، وآثارُهُمْ عافِيَةً، فَاسْتَبْدَلُوا بِالقُصُورِ المُشَيَّدَةِ، والنَّمارِقِ المُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ والأَحْجارَ المُسَنَّدَةَ، والقُبُورَ اللاطِئَةَ المُلْحَدَةَ، الَّتي قَدْ بُنِيَ بِالخَرَابِ فِناؤها، وشُيِّدَ بِالتّرابِ بِناؤها، فَمَحَلُّها مُقْتَرِبٌ، وساكِنُها مُغْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحَشِينَ، وأَهْلِ فَراغٍ مُتَشاغِلِينَ، لا يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطانِ، ولا يَتَواصَلُونَ تَواصُلَ الجِيرانِ، عَلىٰ ما بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الجِوارِ، ودُنُوِّ الدّارِ.

وكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزاوُرٌ وقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ البِلىٰ، وأَكَلَتْهُمُ الجَنادِلُ والثَّرىٰ، وكَأَن قَدْ صِرْتُمْ إِلىٰ ما صارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذٰلِكَ المَضْجَعُ، وضَمَّكُمْ ذٰلِكَ المُسْتَوْدَعُ، فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَناهَتْ بِكُمُ الأُمُورُ، وبُعْثِرَتِ القُبُورُ، هُنالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ ورُدُّوا إِلىٰ الله مَوْلِيهُمُ الحَقِّ وضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ[1].

اللغة

(**سلم**) المسافر يسلم من باب تعب نجا وخلص من الآفات و (**تارات**) جمع تارة وهي مرة واحدة و (**الأغراض**) جمع الغرض وهي الهدف الذي يرمى إليه السهام و (**المستهدفة**) بصيغة الفاعل أي منتصبة للرمي إليها، وفي بعض النسخ بصيغة المفعول أي جعلت هدفاً و (**همد**) النار همودا من باب قعد ذهب حرّها ولم يبق منها شيء وهمدت الريح سكنت.

(١) اليقين: ٨٨، وبحار الأنوار: ٥/ ١٩٧ ح ١٤.

و (**المشيدة**) بضم الميم وتشديد الياء وفتحها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] أي قصور مصونة، وقيل: مجصّصة، وقيل: مزينة، وفي بعض النسخ: المشيدة بفتح الميم وتخفيف الياء كما في قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] أي المعمول بالشّيد والجصّ، يقال: شدت البيت من باب باع أي بنيته بالجصّ وشاده شيداً أي جصّصه.

و (**النّمرق**) والنمرقة بتثليث النون وضم الراء الوسادة وهي المتكأ، والجمع نمارق، قال تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝﴾ [الغاشية: ١٥] و (**المسندة**) بتشديد النون وتخفيفها من سدّ إلى الشيء من باب قعد وتعب اعتمد عليه كاستند إليه ويعدّى بالهمزة والتضعيف يقال: أسندته إلى الشيء وسندته فسند هو و (**اللّطأ**) بالأرض من باب منع وفرح لصق و (**لحد**) القبر وألحده عمل به لحداً و (**فناء**) البيت بالكسر ما امتد من جوانبه.

و (**موحشين**) في بعض النسخ بصيغة الفاعل من أوحش المكان وتوحش خلا من الأنس وأوحش الناس أي انقطع وبعد قلوبهم عن المودة والألفة وفي بعضها بصيغة المفعول من أوحش الأرض وجدها وحشة خالية من الأنس كلها مأخوذة من الوحش وهو ما لا يستأنس من دواب البرّ ويقال: إذا أقبل الليل: استأنس كل وحشيّ واستوحش كل أنسيّ.

و (**الكلكل**) وزن جعفر الصدر و (**الجندل**) وزن جعفر أيضاً ما يقلّه الرجل من الحجارة وقد تكسر الدال و (**بعثرت القبور**) أي قلّبت ترابها وأخرج موتاها من بعثرت الشيء وبعثرته إذا استخرجته وكشفته.

الإعراب

قوله عليه السلام: دار، خبر لمبتدأ محذوف أي الدنيا دار، وقوله: أحوال مختلفة أيضاً خبر محذوف المبتدأ أي أحوالها أحوال مختلفة، وقوله: الأمان منها معدوم، في نسخة الشارح المعتزلي وكذا (**البحراني**) بدل منها فيها، وقوله: ترميهم بسهامها، الباء للتعدية إلى المفعول الثاني، أي ترمي إليهم سهامها، وقوله: تفنيهم بحمامها الباء للآلة، وقوله: إنكم وما أنتم فيه، الواو بمعنى مع، وقوله: فاستبدلوا بالقصور، الباء للمقابلة، وقوله: قد بني بالخراب، الباء بمعنى على، ويؤيّده ما في بعض النسخ على الخراب بدله وهي للاستعلاء المجازي.

وقوله: بين أهل، متعلق بقوله: مغترب، وعلى في قوله: على ما بينهم، بمعنى مع كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقوله: وقد طحنهم، الجملة في محل النصب على الحال، والبلى فاعل طحن، وقوله: كأن قد صرتم، مخفف كأن المشبّهة والاسم محذوف، أي كأنكم، ويحتمل

أن يكون ضمير شأن أي كأنه قد صرتم وعلى التقديرين فكأن هنا مفيدة للتقريب لأن شباهة الأحوال بعضها ببعض تفيد قرب بعضها من بعض، وقوله: فكيف بكم، الفاء فصيحة وكيف اسم استفهام في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف أي فكيف الحال بكم.

المعنى

اعلم أن الغرض من هذه الخطبة الشريفة التنفير عن الدنيا والتحذير منها والتنبيه على مساويها ومخازيها الموجبة للنفرة والحذر، قال عليه السلام: **(دار بالبلاء محفوفة)** أي حفّت بالمكاره والبليّات وأحاطت بها من كل جانب الآلام والآفات وفي نسبة محفوفة إلى الدار توسع، والمراد كون أهلها محفوفة بها.

(وبالغدر معروفة) قال الشارح البحراني: استعار لفظ الغدر عما يتوهم الإنسان دوامها عليها من أحوالها المعجبة له كالمال والصحة والشباب فكأنه في مدة بقاء تلك الأحوال قد أخذ منها عهداً فكأن التغيّر العارض لها المستلزم لزوال تلك الأحوال أشبه شيء بالغدر، انتهى.

أقول: مراده عليه السلام أنها مشهورة بالغدر والخداع، معروفة بالمكر والغرور غير مختفية حيلتها ومكيدتها على أهل البصيرة، لأنها بكونها حلوة خضرة محفوفة بالشهوات ومهيأة للآمال والأمنيات، أعجبت الناس بشهواتها العاجلة وتحببت إليهم بلذّاتها الحاضرة، وتزينت بالغرور، فاغترّ بها كل من كان غافلاً عن مكيدتها وافتتن بحبها كل من كان جاهلاً بحقيقتها، حتى إذا أوقعتهم في حبائل محبتها أبدت ما كان مضمراً في باطنها من مكرها وحيلتها، فلم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرّائها بطناً إلا منحته من ضرّائها ظهراً، ولم ينل أحد من غضارتها رغباً إلا أرهقته من نوائبها تعباً، فكم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته، وذي أبهة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردّته ذليلاً.

وكفى في إيضاح غدرها ما قاله بعض قدماء أهل الحقيقة والبصيرة من أنها الآخذة ما تعطي والمورثة بعد ذلك التبعة، السالبة لمن تكسو والمورثة بعد ذلك العرى، الواضعة لمن ترفع والمورثة بعد ذلك الجزع، التاركة لمن يعشقها والمورثة بعد ذلك الشقوة، المغوية لمن أطاعها الغدارة بمن ائتمنها، هي المحبوبة التي لا تحب أحداً، الملزومة التي لا تلزم أحداً يوف لها وتغدر، ويصدق لها وتكذب، وينجز لها فتخلف، هي المعوّجة لمن استقام بها، والمتلاعبة بمن استمكنت منه.

بينا هي تطعمه إذ حولته مأكولاً، وبينا هي تخدمه إذ جعلته خادماً، وبينا هي تضحكه إذ ضحكت منه، وبينا هي تشتمه إذ شتمت منه، وبينا هي تبكيه إذ بكت عليه، وبينا هي قد بسطت يده بالعطية إذ بسطتها بالمسألة، وبينا هو فيها عزيز إذ أذلته، وبينا هو فيها مكرّم إذ

أهانته، وبينا هو فيها معظم إذ حقرته، وبينا هو فيها رفيع إذ وضعته، وبينا هي له مطيعة إذ عصته، وبينا هو فيها مسرور إذ أحزنته، وبينا هو فيها شبعان إذ أجاعته، وبينا هو فيها حي إذ أماتته.

فأُفّ لها من دار هذه صفتها، تضع التاج على رأسه غدوة وتعفّر خدّه بالتراب عشية، وتحلي الأيدي بالأسورة عشية، وتجعلها في الأغلال غدوة، وتقعد الرجل على السرير غدوة، وترمي به في السجن عشية، تفرش له الديباج عشية، وتفرش له التراب غدوة، وتجمع له الملاهي والمعازف غدوة، وتجمع عليه النوائح والنوادب عشية، تحبب إلى أهله قربه عشية، وتحبب إليهم بعده غدوة، تطيب ريحه غدوة، وتنتن ريحه عشية.

فهو في كل ساعة متوقع لسطوتها غير آمن غدرها وخديعتها، غير ناج من بلائها وفتنها، تمتع نفسه من أحاديثها، وعينه من أعاجيبها، ويده من جمعها، ثم يصبح باكي العينين، صفر اليدين، في أودية الندامة والحسرة والخذلان حيران.

ومع ذلك كله علم أنها **(لا تدوم أحوالها)** بل يصير حياتها موتاً وغناؤها فقراً وفرحها ترحاً، وصحتها سقماً، وقوّتها ضعفاً، وعزّها ذلاً، إلى غير هذه من حالاتها المتبدلة المتغيرة.

(ولا تسلم نزالها) أي لا تسلم النازل في تلك الدار من آلامها وآفاتها وصدماتها بل هو في كل آن مترقب لإصابة مكروه، وجل من كل بلاء.

فإن كل ذي جسد فيها لا ينفك جسده من أن الحر يذيبه، والبرد يجمده والسموم يتخلله، والماء يغرقه، والشمس تحرقه، والهواء يسقمه، والسباع تفترسه، والطير تنقره، والحديد يقطعه، والصدم يحطمه.

ثم هو معجون بطينة من ألوان الأسقام والأوجاع والأمراض، فهو مرتهن بها مترصد لها دائماً، لكونه مخلوقاً من الأخلاط الأربعة التي لو غلب أحدها على الآخر أحدث أنواعاً من المرض ألا ترى إن أصح الأخلاط وأقربها إلى الحياة هو الدم، فإذا خرج عن حد الاعتدال يموت صاحبه بموت الفجأة والطاعون والأكلة والسرسام.

هذا كله مع ما له من مقارنة الآفات السبع التي لا يتخلص منها ذو جسد، وهي: الجوع، والظمأ، والحرّ، والبرد، والخوف، والجوع والمرض والموت.

أحوالها **(أحوال مختلفة)** إن جانب منها اعذوذب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى، لم تطل على أحد فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف.

(وتارات متصرّفة) يعني أن حالاتها تتغير بأهلها تارة بعد أخرى، ومرة بعد مرة، فإنها تنقل أقواماً من الجدب إلى الخصب ومن الرّجلة إلى الركب، ومن البؤس إلى النعمة، ومن الشدة إلى الرخاء، ومن الشقاء إلى الراحة، ثم تنقلب بهم فتسلبهم الخصب وتنزع منهم النعمة والراحة.

ومحصّله أنها دار تصرّف وانتقال، وتقلّب من حال إلى حال، صحتها تتبدل بالسقم، وشبابها بالهرم، وغناها بالفقر، وفرحها بالترح، وسرورها بالحزن، وعزها بالذل، وأمنها بالخوف.

بينا ترى المرء فيها مغتبطاً محبوراً وملكاً مسروراً في خفض ودعة ونعمة ولذّة وأمن وسعة، في بهجة من شبابه وحداثة من سنّه، وبهاء من سلطانه، وصحة من بدنه إذا انقلبت به الدنيا أسرّ ما كان فيها قلباً، وأطيب ما كان فيها نفساً، وأقرّ ما كان فيها عيناً، وألذّ ما كان فيها عيشاً، فأخرجته من ملكها وغبطتها وخفضها ودعتها وبهجتها، فأبدلته بالعزّ ذلاً، وبالسرور حزناً، وبالنعمة نقمة، وبالغنى فقراً، وبالسعة ضيقاً، وبالشباب هرماً، وبالشرف ضعة وبالحياة موتاً.

ففارق الأحبة وفارقوه، وخذله إخوانه وتركوه، وصار ما جمع فيها مفرقاً وما عمل فيها متبراً، وما شيد فيها خراباً وصار اسمه مجهولاً، وذكره منسيّاً، وحسبه خاملاً، وجسده بالياً، وشرفه وضيعاً، ونعمته وبالاً، وكسبه خساراً، وورث أعداؤه سلطانه، واستذلّوا عقبه، واستباحوا حريمه، وتملّكوا أمواله، ونقضوا عهده وملكوا جنوده، فأفّ وتفّ لدار حالها هذا، وشأن ساكنها ذلك، وفقّنا الله تعالى للزهد فيها والإعراض عنها.

وبما ذكرنا ظهر أن **(العيش فيها مذموم)** وأراد بالعيش الترفّه فيها والتنعم بلذاتها والالتذاذ بشهواتها وإنما كان مذموماً لكونه شاغلاً عن التوجّه إلى الحق، وعن الالتفات إلى الآخرة، ومعقباً للندم والحسرة الطويلة والعذاب الشديد يوم القيامة.

وقد وقع ذمّه في كتاب الله وعلى ألسنة الأنبياء والرسل متجاوزاً عن حد الإحصاء، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال أيضاً: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ـ ١٦].

وقد وقع تشبيه المتنعم باللذات الدنيوية والمتلذذ بشهواتها الملهية له عن التوجه إلى

عاقبة أمره والالتفات إلى مآل حاله في كلام الحكماء برجل حمل عليه فيل مغتلم، فانطلق مولّياً هارباً، فاتّبعه الفيل فغشيه حتى اضطره إلى بئر فتدلى فيها وتعلّق بغصنين نابتين على شفير البئر، فإذا في أصلهما جرذان يقرضان الغصنين أحدهما أبيض والآخر أسود، فلما نظر إلى تحت قدميه فإذا رؤوس أربع أفاع قد طلعن من جحرهن، فلما نظر إلى قعر البئر إذا تنين فاغر فاه نحوه يريد التقامه، فلما رفع رأسه إلى أعلى الغصنين إذا عليهما شيء من عسل النحل فألهاه ما طعم منه وما نال من لذّة العسل وحلاوته عن الفكر في أمر الأفاعي اللواتي لا يدري متى يبادرنه، وألهاه عن التنين الذي لا يدري كيف مصيره بعد وقوعه في لهواته.

أما الفيل فهو الأجل، وأما البئر فالدنيا المملوءة من الآفات والبلايا والشرور، وأما الغصنان فالعمر، وأما الجرذان فالليل والنهار يسرعان في قطع العمر، وأما الأفاعي الأربعة فالأخلاط الأربعة التي هي السموم القاتلة من المرّة والبلغم والريح والدم التي لا يدري صاحبها متى تهيج به، وأما التنين الفاغر فاه ليلتقمه فالموت الراصد الطالب، وأما العسل الذي اغترّ بأكله فما ينال الناس من عيش الدنيا ولذتها وشهوتها ونعيمها ودعتها من لذّة الطعام والشراب واللباس والشمّ واللمس والبصر، هذا هو العيش المذموم.

وبقبال العيش الممدوح وهو العيش الهنيء الذي أُشير إليه في الحديث القدسي المروي في **(البحار)** من **(إرشاد القلوب)** للديلمي عن أمير المؤمنين عليه السلام إن الله تعالى شأنه قال للنبي صلى الله عليه وآله ليلة المعراج في جملة مخاطباته: يا أحمد هل تدري أي عيش أهنأ وأي حياة أبقى؟ قال: اللهم لا، قال: أما العيش الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقي، يطلب رضائي في ليله ونهاره، وأما الحياة الباقية فهي التي تعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه وتعظم الآخرة عنده ويؤثر هواي على هواه، ويبتغي مرضاتي، ويعظّم حق عظمتي، ويذكر عملي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كل سيئة أو معصية، وينقي قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً ولا سبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً حتى أجعل قلبه لي وفراغه واشتغاله وهمّه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأضيق عليه الدنيا وأبغض إليه ما فيها من اللذات، وأحذره من الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي على غنمه مراتع الهلكة فإذا كان هكذا يفرّ من الناس فراراً، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمٰن، يا أحمد لأزيننّه بالهيبة والعظمة، فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين، الحديث[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/٢٨، وتفسير الميزان: ١/٣٠٧.

(والأمان فيها معدوم) لأنها إذا كانت بالبلاء محفوفة وبالخديعة موصوفة مختلفة الحالات متصرفة التارات حسبما عرفت تفصيلاً وتوضيحاً فكيف يؤمن من بوائقها ويطمئن من طوارقها، وكيف يسلم من فجعتها ويستراح من خدعتها، ويتخلص من غيلتها؟!.

فهي غرّارة ضرّارة، حائلة زائلة، نافذة بائدة، أكّالة غوّالة، حيها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم، ملكها مسلوب، ومالها منهوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، كيف لا وقد رأيتها تنكرها لمن أمن بها ودان لها واطمئن إليها حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد هل زوّدتهم إلا السغب، أو أحلّتهم إلا الضنك، أو نوّرت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الحسرة والندامة، فبئست الدار لمن لم يتهمها ولم يكن فيها على وجل.

(وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها) قال الشارح البحراني: استعار لفظ الأغراض ورشح بذكر الاستهداف وكذلك استعار لفظ الرمي لإيقاع المصائب بهم ورشح بذكر السهام.

أقول: بل هو استعارة مكنية تخييلية ترشيحية فإنه عليه الصلاة والسلام شبّه الدنيا بنبال ينصب غرضاً ويتخذ هدفاً يرمي إليه بسهامه، فطوى عن ذكر المشبه به وذكر المشبه كما هو شأن الاستعارة المكنية، وأثبت له ما هو من لوازم المشبه به تخييلاً وهو الأغراض والسهام، ورشح بذكر ما هو من ملائمات المشبه به وهو الرمي والاستهداف.

ومحصل المراد أن الناس في الدنيا بمنزلة أغراض منصوبة للهدفية ترمي الدنيا إليهم بسهامها أي مصائبها ومحنها وآلامها، قال الشاعر:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

وقوله عليه السلام: **(وتفنيهم بحمامها)** ترشح آخر، أي تهلكهم بموتها.

ثم ذكرهم بالاعتبار بأحوال السلف الماضين وما جرت عليهم من تقلبات الدنيا وتصاريفها وتنكر حالاتها واغتيالها لهم وما صار إليه عاقبة أمورهم إيضاحاً بذلك لما قدمه سابقاً من غدر الدنيا وعدم دوام أحوالها وسلامة نزالها وانتفاء الأمان فيها وإفنائها بحمامها وتنبيهاً به على أن الباقين فيها سيلحقون بالماضين ويحذون حذوهم وينقلون من القصور إلى القبور، ويبدلون السرور بالويل والثبور.

فقال عليه السلام: **(واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا)** من متاعها وحطامها وزبرجها وزخارفها **(على سبيل من قد مضى قبلكم)** من أهل الديار الخالية والربوع الخاوية **(ممن كان أطول منكم أعماراً)**.

منهم عوج بن عناق كان جباراً عدواً لله وللإسلام، وله بسطة في الجسم والخلق وكان يضرب يده فيأخذ الحوت من أسفل البحر ثم يرفعه إلى السماء فيشويه في حر الشمس وكان عمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة.

ومنهم عاد قوم هود فقد كانت بلادهم في البادية وكان لهم زرع ونخل كثير ولهم أعمار طويلة فعبدوا الأصنام وبعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام وخلع الأنداد فأبوا.

ومنهم شداد بن عاد الذي بنى إرم ذات العماد في عدة ثلاثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة، قال في **(إكمال الدين)**: وجدت في كتب معمر أنه ذكر عن هشام بن سعيد الرحال، قال: أنّا وجدنا حجراً بالإسكندرية مكتوباً فيه: أنا شداد بن عاد، أنا شيّدت إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وجنّدت الأجناد وشددت بساعدي الواد.

ومنهم لقمان بن عاد وكان من بقية عاد الأولى فقد روي أنه عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة.

ومنهم فرعون ذو الأوتاد قال في **(مجمع البيان)**: قال الضحاك: أنه عاش أربعمائة سنة وكان قصيراً ذميماً وهو أول من خضب بالسواد[1].

ومنهم عمرو بن عامر الملقّب بمزيقيا وماء السماء ملك أرض سبأ. فقد عاش ثمانمائة سنة، سوقة في حياة أبيه وأربعمائة سنة ملكاً، وكان يلبس كل يوم حليتين في سنيّ ملكه فإذا كان بالعشيّ مزق الحليتين حتى لا يلبسهما أحد غيره، سمي مزيقياً وسمي بماء السماء أيضاً لأنه كان حياة أينما نزل كمثل ماء السماء.

ومنهم أبو هبل بن عبد الله بن كنانة عاش ستمائة سنة.

ومنهم جلهمة بن أود، ويقال له: طيّ، وإليه تنسب قبيلة طي كلها، وكان له ابن أخ يقال له جابر بن ملك بن أود، وقد عاش كل منهما خمسمائة سنة.

ومنهم عبيد بن الأبرص، عاش ثلاثمائة سنة فقال:

فنيت وأفناني الزمان وأصبحت لديّ بنو العشرون هنّ الفواقد

ومنهم عزيز مصر الذي كان في زمن يوسف وأبوه وجده وهم الوليد بن الريان بن ذوسع وكان عمر العزيز سبعمائة سنة وعمر الريان ألف وسبعمائة سنة، وعمر ذوسع ثلاثة آلاف سنة.

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ١٥، والتبيان: ٨/ ١٣٠.

ومنهم الضحاك صاحب الحيتّين عاش ألفاً ومائتي سنة.

ومنهم أفريدون العادل عاش فوق ألف سنة.

ومنهم الملك الذي أحدث المهرجان فقد زعمت الفرس أنه عاش ألفيّ سنة وخمسمائة.

إلى غير هؤلاء المعمّرين الذين لا نطول بذكرهم، وإنما ذكرنا هؤلاء تأييداً لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام وإيضاحاً له، لأن هؤلاء مع كونهم أطول أعماراً قد كانوا (**أعمر دياراً وأبعد آثاراً**) أيضاً حسبما أشرنا إليه.

والمراد ببعد الآثار بعدها عن أن يقتدر على مثلها المخاطبون الذين خاطبهم عليه السلام بهذه الخطبة، وكفى بذلك شاهداً بناء الهرمين بمصر، وهما إلى الآن باقيان وقد بناهما عزيز مصر وليد بن الريان كما نقله تفصيلاً الصدوق في كتاب (**إكمال الدين**).

وقد أشير إلى بعد آثار بعض من تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٣].

قال أمين الإسلام الطبرسي: الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وتنبيه للكفّار على ما فعله سبحانه بالأمم السالفة لما كفرت بالله وبأنبيائه وكانت أطول أعماراً وأشدّ قوة، وعاد قوم هود.

واختلفوا في إرم على أقوال:

أحدها: أنه اسم قبيلة، وقيل: أنه جدّ عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

وثانيها: أنه اسم بلد وهو دمشق، وقيل: هو مدينة الإسكندرية، وقيل: مدينة شداد بن عاد، فلما أتمها وأراد أن يدخلها أهلكه الله بصيحة نزلت من السماء.

وثالثها: أنه لقب عاد.

وقوله: «ذات العماد» معناه ذات الطول والشدّة، وقيل: ذات الأبنية العظام المرتفعة، وقال ابن زيد: ذات العماد في (**أحكام البنيان**): «التي لم يخلق مثلها» أي مثل أبنيتها «في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد» أي قطعوا الصخر ونقبوها بالوادي الذين كانوا ينزلونه وهو وادي القرى.

قال ابن عباس: كانوا ينحتون الجبال فيجعلون منها بيوتاً كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٤٩].

«وفرعون ذي الأوتاد»، قال علي بن إبراهيم القمي: عمل الأوتاد التي أراد أن يصعد بها إلى السماء.

وقال الطبرسي: قيل في معناه أقوال:

أحدها: أنه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها.

والثاني: أنه كان يعذب بالأوتاد وذلك أنه إذا غضب على أحد وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض.

والثالث: أن معناه: ذو البنيان، والبنيان أوتاد.

والرابع: أنه ذو الجموع والجنود الكثيرة، بمعنى أنهم يشددون ملكه ويقوّون أمره كما يقوّي الوتد الشيء.

والخامس: أنه سمي ذو الأوتاد لكثرة جيوشه السائرة في الأرض وكثرة أوتاد خيامهم فعبر بكثرة الأوتاد عن كثرة الأجناد.

وكيف كان فقد ظهر بذلك كله أن السلف الماضين كانوا طويلة الأعمار غامرة الديار، بعيدة الآثار من أن يصفها الواصفون أو يقوى على إتيان مثلها الغابرون، ومع اتصافهم بهذه الأبهة والعظمة والقوة والجلال:

(أصبحت أصواتهم هامدة) وهذه الجملة استئنافية بيانية فإنه لما نبّه المخاطبين على أنهم على سبيل من قد مضى قبلهم فكان لقائل أن يستفهم ويقول: كيف كان حال الماضين ومآل أمرهم؟ أجاب عليه السلام: بأن أصواتهم العالية الجهورية بالأمر والنهي والحكم والإلزام صارت ساكتة ذاهبة الأثر بالمرة.

(ورياحهم راكدة) قال الشارح البحراني: ركود رياحهم كناية عن سكون أحوالهم وخمول ذكرهم بعد العظمة في الصدور، انتهى.

والأظهر أن يراد أن أعاصيرهم العاصفة الشديدة الهبوب التي كانت تهب بالرّتق والفتق والسياسات صارت ساكنة.

(وأجسادهم بالية) بعد بضاضتها ونضارتها **(وديارهم خالية)** من أهلها بعد عمارتها **(وآثارهم عافية)** مندرسة بعد عظمتها وجلالتها.

(فاستبدلوا بالقصور المشيدة) المجصّصة الرفيعة البنيان المحكمة القواعد والأركان **(والنمارق الممهدة)** أي الوسائد المهيأة للمتكئين **(الصخور والأحجار المسندة)** أي المستندة بعضها إلى بعض، أو أنها كانت لهم سناداً **(والقبور اللاطئة الملحدة)** أي اللاصقة بالأرض

المعمول لها اللحد **(التي قد بنى بالخراب فناؤها)** أي على الخراب، والمراد خراب نفس القبور وتسرّع انهدامها، وإنما نسب البناء إلى الفناء ولم يقل: قد بنيت بالخراب، لأنه من باب الكناية باقتضاء البلاغة. وقد عرفت في ديباجة الشرح في مبحث الكناية أنهم يقصدون إثبات شيء لشيء فيتركون التصريح بإثباته له ويثبتونه لمتعلّقه، كما في قول الشاعر:

إن المروّة والسماحة والندى ... في قبّة ضربت على ابن الحشرج

جعل الأوصاف الثلاثة في قبّة الممدوح وكنى به عن ثبوتها له، وقول الآخر في وصف الخمر:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسّها حجر مسّته سرّاء

كنى عن نفي الحزن عنها بنفيها عن ساحتها وهو أبلغ من التصريح به.

ويحتمل أن يكون المراد: خراب الأبدان المدفونة فيها وفناؤها بالبلى **(وشيد بالتراب بناؤها)** وفي وصفها بذلك أي بكون شيدها التراب دون الجصّ إيماء إلى هوانها وهوان من دُفن فيها.

(فمحلّها مقترب وساكنها مغترب) يحتمل أن يكون المراد أن محل القبور ومكانها قريب من الأحياء ولكن ساكنها غريب عنهم، وأن يكون المراد أن محل كل منها قريب من الآخر ولكن ساكنوها غرباء، يعني أنهم تدانوا في خططهم وقربوا في مزارهم وبعدوا في لقائهم.

(بين أهل محلة موحشين) أي ذوي وحشة ليس بينهم مودة ولا إلفة وعلى كون موحشين بصيغة المفعول، فالمعنى استيحاش الأحياء منهم، وحاصله أنهم لا يستأنسون بأحد ولا يستأنس بهم أحد لا من الأحياء ولا من الأموات.

(وأهل فراغ متشاغلين) أي فراغ من الأمور الدنيوية متشاغلين بالأمور البرزخية من السؤال والجواب والثواب والعقاب.

(لا يستأنسون بالأوطان) كاستئناس الأحياء بأوطانهم.

(ولا يتواصلون تواصل الجيران) كتواصل أهل الدنيا بجيرانهم **(على ما بينهم من قرب الجوار ودنوّ الدار)** وحاصله أنهم جيران لا يتأنسون وأحياء لا يتزاورون، بليت بينهم عرى التعارف، وانقطعت منهم أسباب التواصل، فكلهم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجران وهم جيران.

(وكيف يكون بينهم تزاور) وتأنس **(وقد طحنهم بكلكله البلى)** استعارة بالكناية شبه البلى بالجمل الضّروس الذي يرضّ ويدقّ ما يركب عليه بكلكله أي صدره، فأثبت له الكلكل

تخييلاً، والطحن ترشيحاً، والجامع أن البلى يجعل الأجساد أجزاء دقاقاً مثل الدقيق والطحين، وكذلك يجعل الضّروس بكلكله ما برك عليه عند الصّيال، ومحصله استبعاد تزاورهم مع اضمحلال أجسامهم وانحلالها بالبلى وكونهم ممزقين كل ممزق.

(وأكلتهم الجنادل والثرى) استعارة تبعية كما في قولهم: نطقت الحال، والمراد إفناؤها لهم، فاستعار لفظ الأكل للإفناء أي كيف يكون بينهم تزاور وقد أفنتهم الجنادل والتراب، هذا.

ولا يخفى عليك أن إنكار التزاور والتأنس إما مخصوص بغير المؤمنين أو محمول على التزاور بالأجساد، وهو الأظهر، لأن المستفاد من الأخبار الكثيرة ثبوت التزاور بين أرواحهم، وقد مضت عدة منها في أواخر التذييل الثالث من شرح الفصل السابع من فصول الخطبة الثانية والثمانين فليراجع ثمة.

ورويت هنا مضافاً إلى ما سبق من **(البحار من المحاسن)** عن ابن محبوب عن إبراهيم بن إسحاق الجازي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أين أرواح المؤمنين؟ فقال: أرواح المؤمنين في حجرات الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويتزاورون فيها ويقولون: ربنا أقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا، قال: قلت: فأين أرواح الكفار؟ فقال: في حجرات النار يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويتزاورون فيها ويقولون: ربنا لا تقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا[١].

ومن **(المحاسن)** أيضاً عن ابن فضّال عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكر الأرواح أرواح المؤمنين، فقال: يلتقون، قلت: يلتقون؟ قال: نعم يتساءلون ويتعارفون حتى إذا رأيته قلت: فلان[٢].

وفيه من **(الكافي)** بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: إن الأرواح في صفة الأجساد في شجر الجنة تعارف وتسائل، فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها فإنها قد أقبلت من هول عظيم، ثم يسألونها: ما فعل وما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: تركته حياً ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك، قالوا: قد هوى هوى[٣].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة ولا حاجة إلى الإطالة.

---

(١) المحاسن: ١/ ١٧٨ ح ٤٠، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٣٤ ح ٤٩.

(٢) المحاسن: ١/ ١٧٨ ح ١٦٤، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٣٤ ح ٤٨.

(٣) الكافي: ٣/ ٢٤٤ ح ٤٧٣٨، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٦٩ ح ١٢١.

ثم أنه عليه السلام لما ذكر المخاطبين بشرح أحوال الماضين وعظم ما حل بهم من أحوال القبر ودواهيه عقّب عليه السلام ذلك بالتنبيه على قرب لحاقهم بهم فقال: **(وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه)** أي انتقلتم من ذروة القصور إلى وهدة القبور وبدّلتم النمارق الممهدة بالأحجار المشيدة، ودار الأنس والعيش والسعة ببيت الوحدة والوحشة والضيق والغربة **(وارتهنكم ذلك المضجع)** أي أخذكم أخذ المرتهن لرهنه **(وضمّكم ذلك المستودع)** أي ضغطكم القبر الذي هو محلّ الاستيداع.

قال الشارح البحراني: وأطلق عليه لفظ المستودع باعتبار كونهم سيخرجون منه يوم القيامة، انتهى.

وقد تقدم بيان ضغطة القبر تفصيلاً وتحقيقاً مع الأخبار الواردة فيها في التذييل الثالث من شرح الفصل السابع من الخطبة الثانية والثمانين ولا حاجة إلى الإعادة.

ثم ذكرهم عليه السلام بدواهي القيامة وأفزاعها فقال: **(فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور)** أي الأمور البرزخية **(وبعثرت القبور)** أي قلب ترابها وبعث الموتى الذين فيها وجدّدوا بعد إخلاقهم وجمعوا بعد افتراقهم لنقاش الحساب ومعاينة الجزاء.

وهذه اللفظة من ألفاظ الكتاب العزيز، قال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ [الانفطار: ١ـ ٥]، وقال أيضاً: ﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ۝١١﴾ [العاديات: ٩ـ ١١] أي بحث عن الموتى فأخرجوا عنها، يعني عند البعث.

(هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت، وردوا إلى الله موليهم الحق وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) اقتباس من الآية الشريفة في (سورة يونس) أي في ذلك المقام يعني مقام البعث تختبر كل نفس ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضره، وقرأ بعضهم تتلو أي تقرأ من التلاوة أو تتبع من التّلو، وردوا إلى الله موليهم الحق، أي إلى ربهم الصادق ربوبيته المتوليّ لأمرهم على الحقيقة لا ما اتخذوه مولى وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، أي ضاع عنهم ما كانوا يدّعونه أنهم شركاء الله وأنها تشفع لهم.

روي في **(البحار)** من كتاب **(مطالب المسؤول)** عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها فإنها والله عن قليل تشقي المترف، وتحرك الساكن، وتزيل الثاوي، صفوها مشوب بالكدر، وسرورها منسوج بالحزن، وآخر حياتها مقترن بالضعف، فلا يعجبنّكم ما يغرّنكم منها، فعن كثب تنقلون عنها، وكل ما هو آتٍ قريب، وهنالك تبلو

كل نفس ما أسلفت، وردّوا إلى الله موليهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون[١].

تكملة

هذه الخطبة رواها المحدّث العلامة المجلسي قدّس سره في المجلد السابع عشر من **(البحار)** من كتاب **(عيون الحكمة والمواعظ)** لعلي بن محمد الواسطي، قال:

ومن كلام له عليه السلام: أنكم مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، ومضمّنون أجداثاً، وكائنون رفاتاً، ومبعوثون أفراداً، ومدينون جزاء، ومميزون حساباً، فرحم الله عبداً اقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وعبّر فاعتبر، وحذّر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى، فأسرع طلباً، ونجا هرباً، فأفاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وتأهب للمعاد، واستظهر بالزاد ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، تقدم أمامه لدار مقامه فمّهدوا لأنفسكم في سلامة الأبدان، فهل ينتظر أهل غضارة الشباب إلا حواني الهرم، وأهل بضاضة الصحة إلا نوازل السقم، وأهل مدة البقاء إلا مفاجأة الفناء، واقتراب الفوت ودنوّ الموت، وأزوف الانتقال، وإشفاء الزوال، وحفي الأنين، ورشح الجبين، وامتداد العرنين، وعلز القلق، وفيض الرّمق، وألم المضض، وغصص الجرض.

واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعماراً، وأشدّ بطشاً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، فأصبحت أصواتهم هامدة جامدة من بعد طول تقلبها، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، واستبدلوا بالقصور المشيدة، والسرر والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، في القبور اللاطئة الملحدة التي قد بيِّن الخراب فناءها، وشيّد التراب بناءها، فمحلها مقترب وساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين، وأهل محلّة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون مع الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار.

وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلى، فأكلهم الجنادل والثرى، فأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد غضارة العيش رفاتاً، فجع بهم الأحباب وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب، هيهات هيهات ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة في دار الموت، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمّكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو قد تناهت الأمور، وبعثرت القبور،

(١) بحار الأنوار: ٧/١٣٣، ونهج السعادة: ٣/١٨٣.

وحصّل ما في الصدور، ووقعتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل، فطارت القلوب لإشفاقها من سلف الذنوب، هتكت منكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار هنالك ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]، إن الله يقول: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

اغتنموا أيام الصحة قبل السقم، وأيام الشيبة قبل الهرم، وبادروا بالتوبة قبل الندم، ولا يحملنكم المهلة على طول الغفلة، فإن الأجل يهدم الأمل، والأيام موكلة بنقص المدة، وتفريق الأحبة.

فبادروا رحمكم الله بالتوبة قبل حضور النوبة، وبروز اللعبة التي لا ينتظر معه الأوبة، واستعينوا على بعد المسافة بطول المخافة.

فكم من غافل وثق لغفلته، وتعلل بمهلته، فأمل بعيداً، وبنى مشيداً؛ فنقص بقرب أجله بعد أمله، فأجابه منيّته، فصار بعد العزّ والمنعة والشرف والرفعة مرتهناً بموبقات عمله؛ قد غاب فما رجع، وندم فما انتفع، وشقي بما جمع في يومه وسعد به غيره في غده، وبقي مرتهناً بكسب يده، ذاهلاً عن أهله وولده، لا يغني عنه ما ترك فتيلاً، ولا يجد إلى مناص سبيلاً، فعلهم عباد الله التعرّج والدّلج وإلى أين المفرّ والمهرب وهذا الموت في الطلب يخترم الأول فالأول، لا يتحنّن على ضعيف، ولا يعرّج على شريف، والجديدان يحثان الأجل تحثيثاً، ويسوقانه سوقاً حثيثاً، وكل ما هو آت فقريب، ومن وراء ذلك العجب العجب، فأعدّوا الجواب يوم الحساب، وأكثروا الزاد ليوم المعاد، عصمنا الله وإياكم بطاعته، وأعاننا وإياكم على ما يقرّب إليه ويزلف لديه، فإنما نحن به وله.

إن الله وقّت لكم الآجال، وضرب لكم الأمثال، وألبسكم الرياش، وأرفع لكم المعاش، وآثركم بالنعم السوابغ، وتقدم إليكم بالحجج البوالغ، وأوسع لكم في الرفد الرافع، فتنهزوا فقد أحاط بكم الإحصاء، وارتهن لكم الجزاء، القلوب قاسية عن حظها؛ لاهية عن رشدها، اتقوا الله تقية من شمّر تجريداً، وجدّ تشميراً، وانكمش في مهل، وأشفق في وجل، ونظر في كرّة الموئل، وعاقبة الصبر، ومعية المرجع، وكفى بالله منتقماً ونصيراً، وكفى بكتاب الله حجيجاً وخصيماً.

رحم الله عبداً استشعر الحزن، وتجلبب الخوف وأضمر اليقين، وعرى من الشك في توهم الزوال، فهو منه على وبال، فزهر مصباح الهدى في قلبه، وقرّب على نفسه البعيد، وهوّن الشديد فخرج من صفة العمى، ومشاركة الموتى واجتاز من مفاتيح الهدى، ومغاليق أبواب الردى، واستفتح بما فتح العالم به أبوابه، وخاض بحاره، وقطع غماره، وضحت له سبيله ومناره، واستمسك من العرى بأوثقها، واستعصم من الحبال بأمتنها، خواض غمرات،

فتاح مبهمات، دافع معضلات، لا أمة ولا مطية إلا قصدها[١].

تنبيه

قد تقدم أوائل فقرات هذا الكلام بهذه الرواية إلى قوله: وغصص الجرض في ضمن فقرات الخطبة الثانية والثمانين باختلاف أيضاً، فانظر ماذا ترى وبما ذكرناه في شرح هذه الخطبة المتقدمة يتضح لك قريب[٢] ما في هذه الرواية ولا حاجة إلى الإعادة، هذا.

ويستفاد من بعض الروايات كون هذه الخطبة مع الكلام الثاني والأربعين ملتقطين من خطبة طويلة، وهو ما رواه أيضاً في المجلد السابع عشر من **(البحار)** في موضع آخر من مناقب ابن الجوزي قال: خطبة، ويعرف بالبالغة.

روى ابن أبي ذئب عن أبي صالح العجلي قال: شهدت أمير المؤمنين كرّم الله وجهه وهو يخطب، فقال بعد أن حمد الله تعالى وصلى على محمد رسوله ﷺ:

أيها الناس، إن الله أرسل إليكم رسولاً ليربح به عليكم، ويوقظ به غفلتكم، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصدّكم عن الحق، وأما طول الأمل فينسيكم الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ترحّلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحّلت مقبلة، ولكل واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل.

واعلموا أنكم ميّتون ومبعوثون من بعد الموت ومحاسبون على أعمالكم ومجازون بها، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور.

فإنها دار بالبلاء محفوفة، وبالعناء والغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نزالها، بينا أهلها في رخاء وسرور، إذا هم في بلاء وغرور، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، أهلها فيها أغراض مستهدفة، كل حتفه فيها مقدور، وحظه من نوائبها موفور.

وأنتم عباد الله على محجّة من قد مضى، وسبيل من كان ثم انقضى، ممن كان أطول منكم أعماراً وأشدّ بطشاً، وأعمر دياراً، أصبحت أجسادهم بالية، وديارهم خالية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنمارق الموسّدة بطون اللحود ومجاورة الدود، في دار ساكنها مغترب،

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٤٢.

(٢) «غريب» في نسخة.

ومحلها مقترب، بين قوم مستوحشين، متجاورين غير متزاورين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودنوّ الدار.

وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنتهم البلى، وأظلّتهم الجنادل والثرى، فأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد غضارة العيش رفاتاً، قد فجع بهم الأحباب، وأسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب، وتمنّوا الرجوع فحيل بينهم وبين ما يشتهون، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون[١].

قال: وقد أخرج أبو نعيم طرفاً من هذه الخطبة في كتابه المعروف بـ **(الحلية)**[٢].

(١) الفضائل: ٨٩، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٠٢.

(٢) بحار الأنوار: ٧٤/٢٩٧ ح ٤.

الترجمة

از جمله خطب شريفه آن حضرت است در تنفير از دنيا و تنبيه به سرعت زوال آن، مى فرمايد:

دنيا خانه اى است به بلا احاطه كرده شده و با مكر و حيله اشتهار يافته، ثبات ندارد حالات آن و سلامت نمى ماند نازل شوندگان آن، حالت هاى آن حالت هاى مختلف است و مرّات متغيّر و متبدّل تعيّش و التذاذ در آن مذموم است و ايمنى در آن معدوم است و جز اين نيست كه اهل دنيا در دنيا نشانگاهانى هستند كه نصب شده اند به نشانگى، مى اندازد دنيا به ايشان با تيرهاى خود و فانى مى سازد ايشان را با مرگ خود.

و بدانيد اى بندگان خدا، به درستى كه شما با چيزى كه هستيد در آن از متاع اين دنيا بر طريقه و روش كسانى هستيد كه گذشته اند پيش از شما از اشخاصى كه درازتر بودند از شما از حيثيت عمرها و معمورتر بودند از حيثيت خان ها و دورتر بودند از حيثيت اثرها، گرديد آوازهاى ايشان خاموش و بادهاى غرور ايشان ساكن و بدن هاى ايشان پوسيده، خانه هاى ايشان خالى و اثرهاى ايشان مندرس.

پس عوض كردند به قصرهاى محكم شده با گچ و متكّاهاى مهيا شده سنگ ها و حجرهاى تكيه كرده به هم، قبرهاى هموار شده به زمين صاحب لحد را، چنان قبرهايى كه بنا كرده شده بر خرابى اطراف آنها و به خاك محكم كرده شد بناى آنها، پس مكان آن قبرها نزديك است و ساكن آنها غريب است در ميان اهل محله كه صاحبان وحشت اند و در ميان اهل فراغتى كه مشغول اند به هول هاى برزخ، انس نمى گيرند ايشان به وطن ها و وصلت نمى كنند مثل وصلت كردن همسايه ها، با وجود اين كه در ميان ايشان است از قرب همسايگى و نزديكى خانه.

و چگونه مى شود در ميان ايشان زيارت كردن يكديگر و حال آنكه مثل آرد كرده بدن هاى ايشان را پوسيدگى به سينه خود و خورده است ايشان را خاك ها و سنگ ها و گويا گرديديد شما به سوى آنچه كه گرديدند ايشان به سوى آن و به گرو

گرفت شما را آن خوابگاه قبر و فشار داد شما را آن امانت گاه.

پس چگونه باشد حال شما اگر به پایان برسد به شما کارها و بیرون آورده شود مرده های قبرها، در آن زمان امتحان می کند هر نفس آن چیزی را که پیش فرستاده و رد کرده شوند به سوی خدا که مولای به حق ایشان است و گم شود از ایشان آن چیزی که افترا می گفتند، یعنی شریکی که قرار می دانند برای خدا.

ومن دعاء له عليه السلام وهو المائتان والخامس والعشرون من المختار في باب الخطب

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسينَ لأَوْلِيَاءِكَ، وأَحْضَرُهُمْ بِالكِفايَةِ لِلْمُتَوَكِّلينَ عَلَيْكَ، تُشاهِدُهُمْ في سَرائِرِهِمْ، وتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ في ضَمائِرِهِمْ، وتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصائِرِهِمْ، فَأَسْرارُهُم لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الغُرْبَةَ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ المَصائِبُ لَجَأُوا إِلىٰ الإسْتِجارَةِ بِكَ، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدِكَ، ومَصادِرَها عَنْ قَضائِكَ.

اللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتي، أَوْ عَمَهْتُ عَنْ طَلِبَتي، فَدُلَّني عَلىٰ مَصالِحي، وَخُذْ بِقَلْبي إِلىٰ مَراشِدي، فَلَيْسَ ذٰلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِداياتِكَ، وَلا بِبِدْعٍ مِنْ كِفاياتِكَ، اللَّهُمَّ احْمِلْني عَلىٰ عَفْوِكَ وَلا تَحْمِلْني عَلىٰ عَدْلِكَ(١).

اللغة

(**الأُنس**) بالضم وبالتحريك، ضد الوحشة، اسم من آنست بالشيء أنساً من باب علم، وفي لغة: من باب ضرب، وفي القاموس: من باب شرف أيضاً، والأنيس المؤنس وكل ما يؤنس به، والإيناس ضد الإيحاش وهو وجدان الشيء الذي يؤنس به، قال تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] أي أبصره وأحسّ به، واستأنست به وتأنّست به، أي ذهب التوحش عني وسكن القلب ولم ينفر.

إذا عرفت ذلك فأقول: قوله عليه السلام: إنك آنس الآنسين، آنس بفتح النون على وزن افعل اسم تفضيل من الأنس، وآنسين بكسر النون جمع أنس اسم فاعل من أنس بالشيء، وأما ما قاله الشارح المعتزلي من أنه كان القياس أن يقول: إنك آنس المؤنسين، لأن الماضي أفعل، وإنما الآنسون جمع آنس وهو الفاعل عن آنست بكذا، فالرواية الصحيحة إذاً بأوليائك أي أنت أكثرهم أنساً بأوليائك، فلا يكاد يفهم له معنى محصّل.

و (**لهف**) لهفاً من باب فرح حزن كتلهّف عليه وهو لهيف القلب ولاهفه وملهوفه أي محترقه و (**الفهة**) والفهاهة العيّ، وقد فهه عيي، وفهه الشيء نسيه و (**العمه**) الحيرة والتردد مصدر عمه يعمه من باب فرح ومنع، وفي بعض النسخ بدل عمهت: عميت و (**الطلب**) بكسر اللام ما تطلبه و (**النكر**) بالضم وبضمتين المنكر.

---

(١) نهج السعادة: ٦/ ٢٥٢، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٠١٨ ح ٢٧٦٨.

و (البدع) بالكسر الأمر الذي كان أولاً، يقال: فلان بدع في هذا الأمر أي هو أول من فعله فيكون اسم فاعل بمعنى المبتدع والبديع فعيل منه وفيه معنى التعجب، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] أي ما أنا بأول من جاء بالوحي من عند الله ونشر الشرائع والأحكام.

الإعراب

قوله عليه السلام: لأوليائك، متعلق بآنس، واللام هنا بمعنى الباء تفيد كون الأولياء مأنوساً بهم، وتسمى هذه اللام: لام التبين لتبيينه المفعول من الفاعل، وضابطها أن تقع بعد فعل تعجّب أو اسم تفضيل مفهمين حباً أو بغضاً تقول: ما أحبني وما أبغضني، فإن قلت لفلان: فأنت فاعل الحب والبغض وهو أعني فلان مفعولهما، وإن قلت: إلى فلان الأمر بالعكس لأن (إلى) تفيد فاعلية مجرورها بعد فعل التعجب أو اسم التفضيل المفيدين للحب والبغض نحو ربّ السجن أحبّ إليّ، وفلان أمقت إليّ.

وبما ذكرناه علم أن ما قدمنا نقله من الشارح المعتزلي من قوله: فالرواية الصحيحة إذاً: بأوليائك، وَهْمٌ، هذا.

وإنما عدل عليه السلام عن الباء إلى اللام مع كون الباء أصرح وأقيس تضميناً للأنس معنى الحب، فإن الأنس بمعناه الحقيقي كالوحشة من صفات الأجسام لا يمكن اتصافه تعالى به، فيراد ما يلازمه وهو الحب وستعرف الملازمة بينهما في بيان المعنى.

وقوله عليه السلام: آنسهم ذكرك، من إضافة المصدر إلى المفعول، أي ذكرهم إياك، وقوله: علماً مفعول لأجله لقوله: لجأوا.

المعنى

اعلم أنه لما كان من جملة آداب الدعاء تقديم المدحة لله عزّ وجل والثناء عليه قبل المسألة كما قال الصادق عليه السلام: إذا طلب أحدكم الحاجة فليثن على ربه وليمدحه، فإن الرجل منكم إذا طلب الحاجة من سلطان هيّأ له من الكلام أحسن ما يقدر عليه، فإذا طلبتم الحاجة فمجّدوا الله العزيز الجبار وامدحوه واثنوا عليه، الحديث[١].

لا جرم قدّم عليه السلام قبل مسألته بقوله: اللهم إن فههت، وقوله: اللهم احملني على عفوك، تمجيد الله تعالى وتعظيمه، ووصفه بجملة من أوصاف كماله، فقال:

---

(١) وسائل الشيعة: ٧/ ٨٠، وعدة الداعي: ١٤٩.

(اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك) قد عرفت في شرح الفصل السادس من الخطبة الأولى استحالة الاستئناس والاستيحاش على الله سبحانه، فلا بد من أن يراد بالأنس المحبة أي أنت أشد حباً لأوليائك من جميع المحبين.

أما أولياؤه فهم الحائزون قصب السبق في مضمار العرفان واليقين، والبالغون إلى الغاية القصوى في حماية حمى الدين، وسلوك مسالك الشرع المبين، وهم عباد الله المخلصون المتّصفون بالأوصاف المتقدمة الذكر في الخطبة السادسة والثمانين والخطبة المائة والثانية والتسعين، والكلام المائتين والثامن عشر وغيرها.

وأما اتصافه بالمحبة لأوليائه المقرّبين فشواهده من النقل متجاوزة عن حد الإحصاء، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] إلى غير هذه مما لا حاجة إلى ذكرها.

وفي الحديث القدسيّ: ما تحبّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته إليه، وإن عبدي ليتحبب إليّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، الحديث[١].

وأما محبة الله لعبده فليس بالمعنى الذي يتصور في المخلوق إذا الحب في الاصطلاح عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق الملائم، وهذا من صفات ذوي النفوس الناقصة المستفيدة بنيل المحبوب كمالاً فتلتذّ به، وهذا محال على الله سبحانه إذ ليس له تعالى وتقدس نفس فضلاً عن كونه ناقصاً.

وقد عرفت في تضاعيف الشرح في غير موضع أن ذات الله تعالى شأنه تام فوق التمام، وجميع صفات الجلال والجمال والكمال حاصلة له بالفعل وواجب الحصول أزلاً وأبداً، ومن هذا شأنه فكيف يتصور أن يكون ناقصاً بذاته مستكملاً بغيره؟ فلا بد أن يراد بحبه عزّ شأنه لعبده معنى آخر.

وقد اختلفوا في تقريره وبيانه بوجوه يقرب بعضها من بعض.

فقال صدر المتألهين: إن المحبة تابعة لإدراك الوجود لأنه خير محض فكل ما وجوده أتم كانت خيريته أعظم والإدراك به أقوى والابتهاج به أشد، فأجلّ مبتهج بذاته هو الحق الأول، لأنه أشد إدراكاً لأعظم مدرك له الشرف الأكمل والنور الأنور والجلال الأرفع، فمحبة الله لعباده راجعة إلى محبته لذاته، لأنه لما ثبت أن ذاته أحب الأشياء إليه تعالى وهو

(١) محاسن البرقي: ١/ ٢٩١، والبحار: ٦٧/ ٢٢.

أشد مبتهج به وكل من أحب شيئاً أحب جميع أفعاله وحركاته وآثاره لذلك المحبوب، وكل ما هو أقرب إليه فهو أحب إليه، وجميع الممكنات آثار الحق وأفعاله فالله يحبها لأجل ذاته، وأقرب المجعولات إليه تعالى الروح المحمدي صلّى الله عليه وآله، فكان ﷺ حبيب الله وأحب الخلق إليه، انتهى.

وقال الغزالي بعدما ذكر: أن المحبة عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق، ما لفظه:

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً، بل الأسماء كلها إذا أُطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً حتى أن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد، بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم، فكان استعمال الأسماء في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل، والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم.

وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة، فإنها تستفيد بنيل ما يوافقها كمالاً فتلتذ بنيله، وهذا محال على الله تعالى، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلٰهية، فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أزلاً وأبداً، ولا يتصور تجدده ولا زواله، فلا يكون له نظر إلى غيره من حيث أنه غيره، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله، فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو إذاً لا يحب إلا نفسه.

وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أُضيف إلى الإرادة الأزلية اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب، وإذا أُضيفت إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى: «لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه»[1].

فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب من قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى قربه وهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريباً ثم صار قريباً فقد تغير، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً إذ صار قريباً بعد أن لم يكن، وهو محال في حق الله تعالى،

(١) شرح أصول الكافي: ١/ ٨٩، والغدير: ١/ ٤٠٨ ح ١٣.

إذ التغير عليه محال، بل لا يزال في نعوت الجلال على ما كان عليه في أزل الآزال ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص.

فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعاً، وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر، بل القرب في الصفات أيضاً كذلك، فإن التلميذ يطلب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله، والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه، والتلميذ متحرك مُتَرَقٍ من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم، فلا يزال دائماً في التغير والترقي إلى أن يقرب من الأستاذ، والأستاذ ثابت غير متغير.

فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب، فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله بقدر كماله.

نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته، وذلك في حق الله تعالى محال، فإنه لا نهاية لكماله وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا إلى حد محدود، فلا مطمع له في المساواة.

ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً، لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال، فإذا محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه من كدورات الدنيا ورفع الحجاب من قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك ذلك الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق إلى ما فاته وإذا أدرك منه شيئاً يلتذّ به، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله، انتهى كلامه ملخصاً.

ومحصله ما قاله بعض المحققين: من أن محبة الله للعبد كشف الحجاب عن قلبه وتمكينه من أن يطأ على بساط قربه، فإنما يوصف به سبحانه باعتبار الغايات لا المبادىء، وعلامة حبه للعبد توفيقه للتجافي عن دار الغرور والترقي إلى عالم النور والأنس بالله والوحشة ممن سواه وصيرورة جميع الهموم همّاً واحداً.

وقال بعض الشارحين للحديث القدسي: إذا أحببت عبدي كنت سمعه الذي يسمع به، إن هذا مبالغة للقرب وبيان لاستيلاء سلطان المحبة على ظاهر العبد وباطنه وسره وعلانيته، فالمراد: إني إذا أحببت عبدي جذبته إلى محل الأنس وصرفته إلى عالم القدس، فصيرته مستغرقاً في عالم الملكوت، وحواسه مقصورة على اجتذاب أنوار الجبروت، فتثبت حينئذ

في مقام القرب وقدمه، ويمتزج بالمحبة لحمه ودمه إلى أن يغيب عن نفسه ويذهل عن حبه حتى أكون بمنزلة سمعه وبصره، انتهى.

وقيل: محبة الله صفة من صفات فعله، فهي إحسان مخصوص يليق بالعبد وأما محبة العبد لله فحالة يجدها في قلبه يحصل منها التعظيم وإيثار رضاه والاستئناس بذكره، هذا.

وأنت بعد الخبرة بما ذكرناه فلا يخفى عليك معنى التفضيل في قوله عليه السلام: آنس الآنسين، فإنه إن كان المراد بالمحبة المرادة بالأنس على ما حققناه إدراك الكمال على ما حكيناه عن صدر المتألهين كان معنى آنس: أنه عزّ وجل أكمل إدراكاً لكمال أوليائه المقرّبين إليه وأشد ابتهاجاً بعباده المخلصين، لما لهم من مزيد القرب والكمال.

وإن كان المراد بها تقريب العبد وتوفيقه المترّقي إلى معارج الملكوت ومدارج الجبروت وجذبه إلى حظائر القدس ومحافل الأنس، كان معناه أنه أعظم قدرة على التوفيق والتأييد وأكثر عناية ولطفاً في حق أوليائه.

قال أبو الدرداء لكعب الأحبار: أخبرني عن أخص آية يعني في التوراة، فقال: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم لأشدّ شوقاً.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى قال: يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن آنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي، وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وآنسوا بي أؤانسكم وأسار إلى محبتكم فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجيّي ومحمد صفيّي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي، هذا[١].

وما ذكرناه كله ظهر لك أن المراد بقوله عليه السلام: آنس الآنسين لأوليائك آنس الله تعالى بأوليائه لا آنس أولياءه به، كما زعمه الشارح البحراني، وفصل الكلام في كيفية أنسهم به.

(وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك) يحتمل رجوع ضمير الجمع إلى الآنسين وإلى الأولياء، والأول أنسب إلى سياق العبارة، والثاني أقرب معنى، والمراد واحد، أي أنت أكمل حضوراً بالكفاية للمتوكلين عليك منهم، أي أبلغ إحضاراً لكفايتهم، وإنما كان كذلك لأنه عزّ

(١) مسكن الفؤاد: ٢٧، والجواهر السنية: ٩٤.

وجل الغني المطلق الذي لا تنقص خزائنه بالكرم والجود، والعالم الذي لا يعزب عن علمه شيء، والقادر الذي لا يعجزه شيء، والجواد الذي لا بخل من جهته ولا رادع من أفضاله.

ومع اتصافه بهذه الأوصاف فهو أقدر على بذل حوائج عباده؛ والقيام بكفاية المتكلين عليه بعدما علم من حالهم حسن اتكالهم واعتمادهم في جميع أمورهم عليه، وانقطاعهم عمن سواه؛ واستعدادهم بالهم من التوكل لقبول إفاضاته وعناياته؛ فيفيض كلاً منهم مقدار كفايته من دون رادع ولا مانع ولا إبطاء ولا تأخير؛ فكان أسرع إحضاراً لكفاية من استكفاه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] وهو وارد في معرض التقريع على منكر كفايته.

ثم لما كان من لوازم كونه تعالى أحضر كفاية علمه بأحوال المتوكلين ومكنونات قلوبهم فيما يخافون ويرجون حسبما أشرنا إليه، أردفه عليه السلام بقوله: (**تشاهدهم في سرائرهم وتطلع عليهم في ضمائرهم وتعلم مبلغ بصائرهم**) أي أنت بصير بما يسرّونه، وخبير بما يضمرونه، محيط بهم علماً لا يعزب عنك شيء من مكنونات قلوبهم ومخفيات صدورهم.

(**فأسرارهم**) المخفية (**لك مكشوفة**) كما قال عزّ من قائل: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧] السر ما أكننته في نفسك وأخفى ما خطر ببالك ثم نسيته.

(**وقلوبهم إليك ملهوفة**) أي محترقة مشتعلة، وهو إشارة إلى احتراق قلوبهم بنار الاشتياق والمحبة للوصول إليه والحضور بين يديه والرغبة بما لديه، وإليه أشار الشاعر بقوله:

وقالوا قريب قلت ما أنا صانع ... بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري
فما لي منه غير ذكر بخاطري ... يهيّج نار الحب والشوق في صدري

وقال آخر:

لا تخدعنّ فللمحب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمرّ بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل

والشوق من لوازم المحبة، والمحبّ لله تعالى مضطر إلى الشوق إليه.

توضيح ذلك أن كل محبوب فهو يشتاق إليه في غيبته لا محالة، فأما الحاضر الحاصل فلا يشتاق إليه، لأن الشوق طلب وتشوّف إلى أمر، والموجود لا يطلب، وذلك لأن الشوق إنما يتصور بالنسبة إلى شيء يكون مدركاً من وجه غير مدرك من وجه، فأما ما لا يكون مدركاً أصلاً فلا يشتاق إليه، فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصور اشتياقه إليه كما أن ما يكون مدركاً بكماله وبمرأىً من المحب ومشهد منه لا يتصور له أن يشتاق إليه

أيضاً، فالشوق لا يتعلق إلا بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه.

ومثاله في عالم الظاهر أن من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فهو يشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه كما أنه لو رآه لم يتصور أيضاً أن يشتاق إليه في وقت رؤيته، فمعنى شوقه تشوّف نفسه إلى استكمال خياله.

وقد يكون الاشتياق بأن يرى وجه محبوبه ولكنه لم ير سائر محاسنه فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره من تلك المحاسن ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن رؤيتها ولكنه علم إجمالاً بأن له أعضاء جميلة مستورة فيكون مشتاقاً إلى إدراكها تفصيلاً بالرؤية والمشاهدة.

والوجهان جميعاً متصوران في حق المشتاقين إلى الله.

فإن ما اتضح للعارفين من المعارف الإلهية مشوب بشوائب التخيلات وكدورات الأوهام، فهم مشتاقون دائماً إلى استكمال ذلك الوضوح ودفع مكدّرات المعارف ومنقصاتها عن ألواح ضمائرهم حتى يحصل لهم الترقي من درجة علم اليقين إلى عين اليقين، وهذا أحد وجهي الشوق إليه تعالى.

والوجه الثاني أن الكمالات الإلهية لا نهاية لها، وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها على حسب قابليته واستعداده، ويبقى وراءه ما لا ينتهي إلى غاية. والعارف يعرف وجودها ويعرف أن ما غاب له منها أكثر مما حصل له، فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له من المعارف، ولم يعرفه أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غير واضحة.

والحاصل أن أولياء الله المحبّين له والآنسين به قلوبهم إليه تعالى ملهوفة، وبنار الشوق والمحبة محترقة. ولعل إلى هذا نظر من قال:

إليك إشاراتي وأنت مرادي	وإيّاك أعني عند ذكر سعاد
وأنت مثير الوجد بين جوانحي	إذا قال حاد أو ترنّم شاد
وحبك ألقى النار بين جوانحي	بقدح وداد لا بقدح زناد

قال المحدّث الجزائري في الحديث عنه صلى الله عليه وآله: أنه بكى شعيب عليه السلام من حب الله عزّ وجل حتى عميّ، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمى فردّ الله عزّ وجل عليه بصره، ثم بكى حتى عمى فردّ الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك. قال: إلهي وسيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك ولكن

عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جل جلاله إليه: أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران[1].

وقوله عليه السلام: (إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك) يعني إن استوحشوا من غربتهم وغيبتهم عن أوطانهم الأصلية وعن كونهم مسجونين في سجن الدنيا استأنسوا بذكرك بلسانهم وجنانهم وبالتفكّر في ذاتك وصفاتك وجلالك وجمالك.

وهو إشارة إلى أنسهم بالله كما أن ما تقدم من قوله عليه الصلاة والسلام: إنك آنس الآنسين لأوليائك، إشارة إلى أنس الله تعالى بهم حسبما عرفت تفصيلاً وتحقيقاً، والأنس به تبارك وتعالى من صفات الأولياء المقربين والكملين في محبته عزّ وجل كما قال الشاعر:

الأنس بالله لا يحويه بطّال ... وليس يدركه بالحول محتال

والآنسون رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة لله عمّال

وقالت رابعة العدوية:

أحبك حبّين حبّ الهوى ... وحبّاً لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وينبغي أن يعلم أن الأنس بالله أيضاً من آثار المحبة له تعالى كالشوق إليه عزّ وجل حسبما عرفت قريباً لكن هذين الأمرين يختلفان على المحب بحسب اختلاف حالاته.

فإنه إذا غلب عليه التطلّع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الكمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب وانزعج له وهاج إليه وتسمّى هذه الحالة في الإنزعاج شوقاً.

وإذا غلب عليه الفرح في القرب وكان نظره مقصوراً على مطالعة ما أدركه من الجمال غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشر القلب بملاحظة الجمال المدرك فيسمى استبشاره أنساً.

فمعنى الأنس استبشار القلب وفرحه بمطالعه جمال الحق حتى أنه إذا تجرّد عن ملاحظة ما غاب عنه عظم انبساطه ولذّته، ومن غلب عليه الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة والاعتزال عن الخلق كما قال بعضهم:

---

(١) علل الشرائع: ١/٥٧ ح ١، وبحار الأنوار: ١٢/٣٨١.

تركت للناس دنياهم ودينهم   شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش عن غير الله، قال الله عزّ وجل لداود عليه السلام: «كن لي مشتاقاً وبي مستأنساً وعن سواي مستوحشاً».

قال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له: يا راهب لقد أعجبتك الوحدة، فقال: يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة، فقلت: يا راهب ما أقلّ ما تجده في الوحدة؟ قال: الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرّهم، قلت: يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الذوق بالله؟ قال: إذا صفا الودّ وخلص المعاملة، قلت: متى يصفو الودّ؟ فقال؛ إذا اجتمع الهمّ فصار همّاً واحداً في الطاعة.

وقال بعض الحكماء: عجباً للخلائق كيف أرادوا بك بدلاً، عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك.

وبالجملة، الأنس من آثار المحبة، والمحبة مستلزمة لكمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال الالتذاذ بالخلوة به، والاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة.

وقد ورد في الحديث القدسي: «كذب من زعم أنه يحبّني وهو ينام طول ليله، أليس كل حبيب يحبّ الخلوة مع حبيبه، يا ابن عمران لو رأيت الذين يصلّون في الدّجى وقد مثّلت نفسي بين أعينهم يخاطبوني وقد جللت عن المشاهدة، ويكلموني وقد عززت عن الحضور، يا ابن عمران هب لي من عينك الدموع ومن قلبك الخشوع ثم ادع لي في ظلم الليالي تجدني قريباً مجيباً»[١].

فقد ظهر بذلك أنه إذا غلب عليه الأنس والحب صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه، وألذّ الأشياء عنده، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه، بل ربما يستغرق الأنس والمحبة قلبه حتى لا يشعر من أمور الدنيا شيئاً ما لم يتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان، فإنه يكلم الناس بلسانه وأنه في الباطن يذكر حبيبه، فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه، ولا يسكن إلا إليه كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

(وإن صبّت عليهم المصائب لجأوا إلى الإستجارة بك) أي إن نزلت عليهم مصائب الدهر ومكائده من الآلام والأسقام ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وغيرها اعتصموا بك واستندوا إلى طلب الأمان منك في دفعها ورفعها والوقاية عنها.

---

(١) عدة الداعي: ١٩٣، والبحار: ٣٦١/١٣.

وإنما يلجأون إليه تعالى لما لهم من وصف التوكل عليه والانقطاع عمن سواه **(علماً)** منهم **(بأن أزمة الأمور)** الحادثة في الملك والملكوت كلها ومن جملتها المصائب المصوبة عليهم **(بيد)** قدرتـ **(ـك)** وقبضة مشيئتك **(ومصادرها عن قضائك)** كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١] فالخزائن عبارة عما كتبه القلم الأعلى أولاً على الوجه الكلي في لوح القضاء المحفوظ عن التبديل الذي منه يجري ثانياً على الوجه الجزئي في لوح القدر الذي فيه المحو والإثبات مندرجاً على التنزيل.

فإلى الأولى أُشير بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ وبقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] وإلى الثاني بقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] ومنه ينزل ويظهر في عالم الشهادة كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٤]، هذا.

ولما فرغ عليه السلام من مقدمات الدعاء والمسألة شرع في أصل غرضه منها فقال: **(اللهم إن فههت)** أي عجزت وعييت **(عن مسألتي أو عمهت)** أي ترددت وتحيّرت **(عن طلبتي)** أي مطلوبي ومرادي وهو كناية عن عدم اهتدائه إلى وجوه المصالح **(فدلّني على مصالحي)** أي اهدني إلى ما هو صلاح لي في دنياي وآخرتي مما يقرّبني من رضاك ويجنّبني من سخطك **(وخذ بقلبي إلى مراشدي)** أي مل به واصرفه إلى محال الرشاد وموارد الصلاح والسداد في المبدأ والمعاد.

وهو في معنى ما قاله السجّاد عليه السلام في دعائه: «اللهم صلِّ على محمد وآله واجعل همسات قلوبنا وحركات أعضائنا ولمحات أعيننا ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك حتى لا تفوتنا حسنة نستحق بها جزاءك ولا تبقى لنا سيئة نستوجب بها عذابك»(١).

(فليس ذلك بنكر من هداياتك ولا ببدع من كفاياتك) أي دلالتي على مصالحي وأخذ قلبي إلى مراشدي ليس بمنكر أي غير معروف من هداياتك ولا ببدع أي أول ما تكفيني من كفاياتك، بل عاداتك التوفيق والهداية، وسجيتك الكرم والكفاية.

قال الشارح البحراني: هذا الكلام استعطاف بما في العادة أن يستعطف به أهل العواطف والرحمة من الكلام، أي أن هداياتك لخلقك إلى وجوه مصالحهم وكفاياتك لهم ما يحتاجون إليه أمور متعارفة جرت عادتك بها وألفها منك عبادك.

---

(١) ميزان الحكمة: ٤/٣٤١٩، والصحيفة السجادية: ٧٣.

(اللهم احملني على عفوك ولا تحملني على عدلك) قال الشارح البحراني: قد سأل عليه السلام أن يحمله على عفوه فيما عساه صدر عنه من ذنب ولا يحمله على عدله فيجزيه بما فعل حرماناً أو عقوبة، وهو من لطيف ما تعدّه النفس لاستنزال الرحمة الإلٰهية، انتهى.

ومحصله أن منتهى العفو الكرم والثواب ومقتضى العدل الإلٰهي المؤاخذة والعقاب، فسأل عنه تعالى أن يعامله بعفوه ولا يعامله بعدله نظير ما ورد في دعاء آخر: اللهم عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك.

وقال سيد الساجدين عليه السلام في دعائه في اللجوء إلى الله تعالى من أدعية الصحيفة الكاملة: اللهم إن تشأ تعف عنا فبفضلك وإن تشأ تعذبنا فبعدلك، فسهل لنا عفوك بمنّك وآجرنا من عذابك بتجاوزك، فإنه لا طاقة لنا بفضلك، ولا نجاة لأحد منا دون عفوك[١].

تذييل

أحببت أن أورد بمناسبة المقام عدة من الأدعية النفيسة استطرفتها لجلالة قدرها وعظم خطرها وعموم نفعها ضنّاً مني بتركها وشحاحة بخلوّ الشرح منها.

فمنها ما في **(زهر الربيع)** للمحدث الجزائري قال: دعاء منقول عن النبي صلى الله عليه وآله من أراد أن لا يوقفه الله على قبيح أعماله ولا ينشر له ديواناً فليدع بهذا الدعاء في دبر كل صلاة:

اللهم إن مغفرتك لي أرجى من عملي، وإن رحمتك أوسع من ذنبي، اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغني لأنها وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين.

ومنها ما في **(البحار من المكارم)** عن الحسين بن خالد قال: لزمني دين ببغداد ثلاثمائة ألف وكان لي دين أربعمائة ألف فلم يدعني غرمائي أقتضي ديني وأعطيهم قال: وحضر الموسم فخرجت مستتراً وأردت الوصول إلى أبي الحسن عليه السلام فلم أقدر فكتبت إليه أصف له حالي وما عليّ وما لي فكتب عليه السلام إليّ في عرض كتابي: قل في دبر كل صلاة:

اللهم إني أسألك يا لا إلٰه إلا أنت بحق لا إلٰه إلا أنت أن ترحمني بلا إلٰه إلا أنت، اللهم إني أسألك يا لا إلٰه إلا أنت بحق لا إلٰه إلا أنت أن تغفر لي بلا إلٰه إلا أنت[٢].

أعد ذلك ثلاث مرات في دبر كل صلاة فريضة فإن حاجتك تقضى إن شاء الله تعالى. قال الحسين: فأدمتها فوالله ما مضت بي إلا أربعة أشهر حتى اقتضت ديني وقضيت ما عليّ

---

(١) الصحيفة السجادية: ٦١.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٣/٢٨٨ ح ١٥٣٧٧، ومكارم الأخلاق: ٣٤٧.

واقتضت مائة ألف درهم.

ومنها ما في **(عدّة الداعي)** عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: أن جبرائيل نزل عليه بهذا الدعاء من السماء ونزل عليه ضاحكاً مستبشراً، فقال: السلام عليك يا محمد، قال: **«وعليك السلام يا جبرائيل»**، فقال: إن الله عزّ وجل بعث إليك بهدية، فقال: **«وما تلك الهدية يا جبرائيل؟»** قال: كلمات من كنوز العرش أكرمك الله بها، فقال: **«وما هنّ يا جبرائيل؟»** قال: قل: يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر، يا عظيم العفو، يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، يا كريم الصفح، يا عظيم المنّ، يا مبتدءاً بالنعم قبل استحقاقها، يا سيدنا، يا ربنا، يا مولانا، يا غاية رغبتنا، أسألك يا الله أن لا تشوّه خلقي بالنار.

فقال رسول الله ﷺ لجبرائيل: **«ما ثواب هذه الكلمات؟»** قال: هيهات هيهات انقطع العمل لو اجتمع ملائكة سبع سماوات وسبع أرضين على أن يصفوا ذلك ما وصفوا إلى يوم القيامة ما وصفوا من كل ألف ألف جزء جزءاً واحداً.

إذا قال العبد: يا من أظهر الجميل وستر القبيح، ستره الله ورحمه في الدنيا وجمّله في الآخرة وستر الله عليه ستراً في الدنيا والآخرة.

وإذا قال: يا عظيم العفو، غفر الله له ذنوبه ولو كانت خطيئته مثل زبد البحر.

وإذا قال: يا حسن التجاوز، تجاوز الله عنه حتى السرقة وشرب الخمر وأهاويل الدنيا وغير ذلك من الكبائر.

وإذا قال: يا واسع المغفرة، فتح الله له سبعين باباً من الرحمة فهو يخوض في رحمة الله عزّ وجل حتى يخرج من الدنيا.

وإذا قال: يا باسط اليدين بالرحمة، بسط الله يده عليه بالرحمة.

وإذا قال: يا صاحب كل نجوى ويا منتهى كل شكوى، أعطاه الله من الأجر ثواب كل مصاب وكل سالم وكل مريض وكل ضرير وكل مسكين وكل فقير وكل صاحب مصيبة إلى يوم القيامة.

وإذا قال: يا كريم الصفح، أكرمه الله تعالى كرامة الأنبياء.

وإذا قال: يا عظيم المنّ، أعطاه الله يوم القيامة أمنيته وأمنيّة الخلائق.

وإذا قال: يا مبتدءاً بالنعم قبل استحقاقها، أعطاه الله من الأجر بعدد من شكر نعماءه.

وإذا قال: يا ربنا ويا سيدنا، قال الله تبارك وتعالى: ملائكتي إني قد غفرت له وأعطيته من الأجر بعدد من خلقته في الجنة والنار والسماوات السبع والأرضين السبع والشمس والقمر والنجوم وقطر الأمطار وأنواع الخلائق والجبال والحصى والثرى وغير ذلك والعرش والكرسي.

وإذا قال: يا مولانا، أملأ الله قلبه من الإيمان.

وإذا قال: يا غاية رغبتنا، أعطاه الله يوم القيامة رغبة مثل رغبة الخلائق.

وإذا قال: أسألك يا الله أن لا تشوّه خلقي بالنار، قال الجبار جلّ جلاله: استعتقني عبدي من النار، اشهدوا يا ملائكتي أني قد أعتقته من النار وأعتقت أبويه وإخوته وأخواته وأهله وولده وجيرانه وشفعته في ألف رجل ممن وجبت لهم النار وأجرته من النار، فعلّمهن يا محمد المتقين ولا تعلّمه المنافقين فإنها دعوة مستجابة لقائلهن إن شاء الله تعالى وهو دعاء أهل البيت المعمور حوله إذا كانوا يطوفون به[1].

ومنها ما في (**البحار عن المكارم**) عن معاذ بن جبل قال: أرسلني رسول الله ﷺ ذات يوم إلى عبد الله بن سلام وعنده جماعة من أصحابه فحضر.

فقال النبي ﷺ: «**يا عبد الله أخبرني عن عشر كلمات علّمهن الله عز وجل إبراهيم يوم قذف في النار أتجدهن في التوراة مكتوباً؟**»

فقال عبد الله: يا نبي الله بأبي وأمي، هل أنزل عليك فيهن شيء فإني أجد ثوابها في التوراة ولا أجد الكلمات، وهي عشر دعوات فيهن اسم الله الأعظم.

فقال رسول الله ﷺ: «**هل علّمهن الله تعالى موسى؟**»

فقال: ما علّمهن الله تعالى موسى غير إبراهيم الخليل.

فقال النبي ﷺ: «**وما تجد ثوابها في التوراة؟**».

فقال عبد الله: يا رسول الله ومن يستطيع أن يبلغ ثوابها؟ غير أني أجد في التوراة مكتوباً: ما من عبد منّ الله عليه وجعل هؤلاء الكلمات في قلبه إلا جعل النور في بصره، واليقين في قلبه، وشرح صدره للإيمان، وجعل له نوراً من مجلسه إلى العرش يتلألأ ويباهي به ملائكته في كل يوم مرتين، ويجعل الحكمة في لسانه ويرزقه حفظ كتابه، وإن لم يكن حريصاً عليه، ويفقّهه في الدين، ويقذف له المحبة في قلوب عباده، ويؤمنه من عذاب القبر،

(١) التوحيد: ٢٢٣، وعدة الداعي: ٣١٦.

وفتنة الدجال، ويؤمنه من الفزع الأكبر يوم القيامة ويحشره في زمرة الشهداء، ويكرمه الله ويعطيه ما يعطي الأنبياء بكرامته، ولا يخاف إذا خاف الناس، ولا يحزن إذا حزن الناس، ويكتب عند الله من الصديقين ويحشر يوم القيامة وقلبه ساكن مطمئن وهو ممن يكسى مع إبراهيم يوم القيامة، ولا يسأل بتلك الدعوات شيئاً إلا أعطاه الله، ولو أقسم على الله لأبرّ قسمه ويجاور الرحمٰن في دار الجلال، وله أجر كل شهيد استشهد منذ يوم خلقت الدنيا.

قال النبي ﷺ: «وما دار الجلال؟».

قال: جنة عدن وهو موضع عرش الرحمٰن ربّ العزّة وهو في جوار الله.

قال ابن سلام: فعلمنا يا رسول الله ومنّ علينا كما منّ الله عليك، قال النبي ﷺ: «خرّوا سجّداً لله»، قال: فخرّوا سجداً فلما رفعوا رؤوسهم قال النبي ﷺ: «قولوا: يا الله، يا الله، يا الله، أنت المرهوب منك جميع خلقك، يا نور النور أنت الذي احتجبت دون خلقك فلا يدرك نورك نور، يا الله يا الله يا الله أنت الرفيع الذي ارتفعت فوق عرشك من فوق سمائك فلا يصف عظمتك أحد من خلقك، يا نور النور قد استنار بنورك أهل سمائك واستضاء بضوئك أهل أرضك، يا الله يا الله يا الله أنت الذي لا إلٰه غيرك تعاليت عن أن يكون لك شريك، وتعظّمت عن أن يكون لك ولد وتكرّمت عن أن يكون لك شبيه وتجبّرت عن أن يكون لك ضدّ، فأنت الله المحمود بكل لسان، وأنت المعبود في كل مكان، وأنت المذكور في كل أوان وزمان، يا نور النور كل نور خامد لنورك، يا مليك كل مليك يفنى غيرك، يا دائم كل حيّ يموت غيرك، يا الله يا الله يا الله الرحمٰن الرحيم ارحمني رحمة تطفي بها غضبك، وتكفّ بها عذابك، وترزقني بها سعادة من عندك، وتحلّني بها دارك التي تسكنها خيرتك من خلقك يا أرحم الراحمين. يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر، يا عظيم العفو، يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، يا كريم الصفح، يا عظيم المنّ، يا مبتدءاً بالنعم قبل استحقاقها، يا رباه يا رباه ويا سيداه ويا أملاه ويا غاية رغبتاه أسألك يا الله يا الله يا الله أن لا تشوّه خلقي بالنار».

قال: يا رسول الله وما ثواب من قال هذه الكلمات؟ قال ﷺ: «هيهات هيهات، انقطع القلم لو اجتمع ملائكة سبع سموات وسبع أرضين على أن يصفوا ذلك إلى يوم القيامة لما وصفوا من ألف جزء جزءاً واحداً»[1].

وذكر عليه السلام لهذه الكلمات ثواباً وفضائل كثيرة لا يحتمل ذكرها ها هنا اقتصرنا على ذكر

(١) التوحيد: ٢٢، وعدة الداعي: ٣١٥.

المقصود مخافة التطويل.

ومنها ما في **(البحار من مهج الدعوات)** قال: روينا بإسنادنا إلى سعد بن عبد الله قال: حدثنا أحمد بن محمد عن الحسن بن علي بن فضّال عن الحسن بن الجهم عمن حدّثه عن الحسن بن محبوب أو غيره عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن عندنا ما نكتمه ولا يعلمه غيرنا، أشهد على أبي أنه حدثني عن أبيه عن جده قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

يا بني إنه لا بد أن تمضي مقادير الله وأحكامه على ما أحب وقضى، وسينفذ الله قضاءه وقدره وحكمه فيك فعاهدني أن لا تلفظ بكلام أسرّه إليك حتى أموت وبعد موتي باثني عشر شهراً، وأخبرك بخبر أصله عن الله تقول غدوة وعشية فتشغل به ألف ألف ملك يعطى كل مستغفر قوّة ألف ألف متكلم في سرعة الكلام، ويبنى لك في دار السلام ألف بيت في مائة قصر يكون لك جار جدك ويبنى لك في جنات عدن ألف ألف مدينة ويحشر معك في قبرك كتابك هذا لا سبيل عليك للفزع ولا للخوف ولا الزلازل ولا زلأت الصراط ولا لعذاب النار ولا تدعو بدعوة فتحب أن يجاب في يومك فيمسي عليك يومك إلا أتتك كائنة ما كان «نت» بالغة ما بلغت في أي نحو كانت ولا تموت إلا شهيداً وتحيى ما حييت وأنت سعيد لا يصبك فقر أبداً ولا جنون ولا بلوى ويكتب لك في كل يوم بعدد الثقلين كل نفس ألف ألف حسنة، ويمحى عنك ألف ألف سيئة، ويرفع لك ألف ألف درجة، ويستغفر لك العرش والكرسي حتى تقف بين يدي الله عزّ وجل، ولا تطلب لأحد حاجة إلا قضاها، ولا تطلب إلى الله حاجة لك ولا لغيرك إلى آخر الدهر في دنياك وآخرتك إلا قضاها، فعاهدني كما أذكر لك.

فقال له الحسين عليه السلام: عاهدني يا أبي على ما أحببت.

قال: أعاهدك على أن تكتم عليّ فإذا بلغت منيتك فلا تعلمه أحداً سوانا أهل البيت أو شيعتنا وأولياءنا وموالينا، فإنك إن فعلت ذلك طلب الناس إلى ربهم الحوائج في كل نحو فقضاها فأنا أحب أن يتم الله بكم أهل البيت بما علّمني مما أعلمك ما أنتم فيه فتحشرون لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فعاهد الحسين علياً صلوات الله عليهما على ذلك ثم قال عليه السلام:

إذا أردت ذلك فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، سبحان الله في آناء الليل وأطراف النهار، سبحان الله بالغدوّ والآصال، سبحان الله بالعشي والأبكار، سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد

موتها وكذلك تخرجون، سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحان الله ذي الملك والملكوت، سبحان الله ذي العزّة والعظمة والجبروت، سبحان الله الملك الحق القدوس، سبحان الله الملك الحي الذي لا يموت، سبحان القائم الدائم، سبحان الحي القيوم، سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى، سبوح قدوس ربّ الملائكة والروح، اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية فأتمم عليّ نعمتك وعافيتك لي بالنجاة من النار، وارزقني شكرك وعافيتك أبداً ما أبقيتني، اللهم بنورك اهتديت، وبنعمتك أصبحت وأمسيت، أصبحت أشهدك وكفى بك شهيداً وأشهد ملائكتك وحملة عرشك وأنبياءك ورسلك وجميع خلقك وسماواتك وأرضك إنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً صلواتك عليه وآله عبدك ورسولك، وأنت على كل شيء قدير، تحيي وتميت وتميت وتحيي، وأشهد أن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وأشهد أن علي بن أبي طالب عليه السلام والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والإمام من ولد الحسن بن علي الأئمة الهداة المهديون غير الضّالين والمضلين، وأنهم أولياؤك المصطفون، وحزبك الغالبون، وصفوتك وخيرتك من خلقك ونجباؤك الذين انتجبتهم بولايتك واختصصتهم من خلقك واصطفيتهم على عبادك وجعلتهم حجّة على خلقك، صلواتك عليهم والسلام. اللهم أكتب هذه الشهادة حتى تلقينها وأنت عني راض يوم القيامة، وقد رضيت عني إنك على كل شيء قدير، اللهم لك الحمد حمداً تضع لك السماء أكنافها وتسبّح لك الأرض ومن عليها، ولك الحمد حمداً يصعد ولا ينفد، وحمداً يزيد ولا يبيد سرمداً مدداً لا انقطاع له ولا نفاد أبداً، حمداً يصعد أوله ولا ينفد آخره، ولك الحمد عليّ ومعي وفيّ وقبلي وبعدي وأمامي ولدي فإذا مت وفنيت وبقيت يا مولاي فلك الحمد إذا نشرت وبعثت، ولك الحمد والشكر بجميع محامدك كلها على جميع نعمائك كلها، ولك الحمد على كل عرق ساكن وعلى كل أكلة وشربة وبطشة وحركة ونومة ويقظة ولحظة وطرفة ونفس وعلى كل موضع شعرة، اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، علانيته وسرّه، وأنت منتهى الشأن كله، اللهم لك الحمد على حلمك بعد علمك، ولك الحمد على عفوك بعد قدرتك، اللهم لك الحمد باعث الحمد، ووارث الحمد، وبديع الحمد، ومبتدع الحمد، ووافي العهد، وصادق الوعد، عزيز الجند، قديم المجد، اللهم لك الحمد مجيب الدعوات، رفيع الدرجات، منزّل الآيات من فوق سبع سماوات، مخرج النور من الظلمات، مبدّل السيئات الحسنات، وجاعل الحسنات درجات، اللهم لك الحمد غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطّول لا إله إلا أنت، إليك

المصير، اللهم لك الحمد في الليل إذا يغشى، ولك الحمد في النهار إذا تجلّى، لك الحمد عدد كل نجم وملك في السماء، ولك الحمد عدد كل قطرة نزلت من السماء إلى الأرض، ولك الحمد عدد كل قطرة في البحار والعيون والأودية والأنهار، ولك الحمد عدد الشجر والورق والحصى والثّرى والجنّ والأنس والبهائم والطير والوحوش والأنعام والسباع والهوام، ولك الحمد عدد ما أحصى كتابك وأحاط به علمك حمداً كثيراً دائماً مباركاً فيه أبداً، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، ويميت ويحيي وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، عشر مرات. أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه، عشر مرات. يا الله يا الله يا الله، عشر مرات. يا رحمٰن يا رحيم، عشر مرات. يا رحيم يا رحيم، عشر مرات. يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، عشراً. يا حنّان يا منّان، عشراً. يا حيّ يا قيوم، عشراً. يا لا إلٰه إلا أنت، عشراً. اللهم صل على محمد وآل محمد، عشراً. بسم الله الرحمٰن الرحيم، عشراً. آمين آمين افعل بي كذا وكذا[١].

وتقول هذا بعد الصبح مرة وبعد العصر أخرى ثم تدعو بما شئت.

ومنها ما في (**البحار من مهج الدعوات**) أيضاً قال: روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**نزل جبرائيل وكنت أصلي خلف المقام قال: فلما فرغت استغفرت الله عز وجل لأمتي فقال لي جبرائيل: يا محمد أراك حريصاً على أمتك والله تعالى رحيم بعباده، فقال النبي** صلى الله عليه وآله لجبرائيل: يا أخي أنت حبيبي وحبيب أمّتي علّمني دعاء تكون أمتي يذكروني من بعدي، فقال لي جبرائيل: أوصيك أن تأمر أمّتك أن تصوموا ثلاثة أيام البيض من كل شهر: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وأوصيك يا محمد أن تأمر أمّتك أن تدعو بهذا الدعاء الشريف وأن حملة العرش يحملون العرش ببركة هذا الدعاء وببركته أنزل إلى الأرض وأصعد إلى السماء، وهذا الدعاء مكتوب على أبواب الجنة وعلى حجراتها وعلى شرفاتها وعلى منازلها، وبه تُفتح أبواب الجنة، وبهذا يحشر الخلق يوم القيامة بأمر الله عزّ وجل، ومن قرأه ينجيه من عذاب النار»[٢].

ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وآله جبريل عن ثواب هذا الدعاء.

قال جبرائيل: يا محمد قد سألتني عن شيء لا أقدر على وصفه ولا يعلم قدره إلاّ الله.

---

(١) بحار الأنوار: ٩٢/ ٤١٢.

(٢) بحار الأنوار: ٩٢/ ٣٦٤.

يا محمد لو صارت أشجار الدنيا أقلاماً والبحار مداداً والخلائق كتاباً لم يقدروا على ثواب قارىء هذا الدعاء، ولا يقرأ هذا عبد وأراد عتقه إلا أعتقه الله تبارك وتعالى وخلصه من رقّ العبودية، ولا يقرأه مغموم إلا فرّج الله همه وغمه، ولا يدعو به طالب حاجة إلا قضاها الله عزّ وجل له في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى، ويقيه الله تعالى موت الفجأة وهول القبر وفقر الدنيا، ويعطيه الله تبارك وتعالى الشفاعة يوم القيامة ووجهه يضحك، ويدخله الله ببركة هذا الدعاء دار السلام، ويسكنه الله في غرف الجنان، ويلبسه من حلل الجنة التي لا تبلى، ومن صام وقرأ هذا الدعاء كتب الله عزّ وجل له مثل ثواب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وإبراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى ومحمد صلّى الله عليهم أجمعين.

قال النبي ﷺ: «**عجبت من كثرة ما ذكر جبرائيل** عليه السلام في فضل هذا الدعاء وشرفه وتعظيمه وما ذكر فيه من الثواب لقارىء هذا».

ثم قال جبرائيل: يا محمد ليس أحد من أمّتك يدعو بهذا الدعاء في عمره مرة واحدة إلا حشره الله يوم القيامة ووجهه يتلألأ مثل القمر ليلة تمه، فيقول الناس: من هذا أنبي هذا؟ فتخبرهم الملائكة بأن ليس هذا نبي ولا ملك بل هذا عبد من عبيد الله من ولد آدم قرأ في عمره مرة واحدة هذا الدعاء فأكرمه الله عزّ وجل بهذا.

ثم قال جبرائيل للنبي ﷺ: من قرأ هذا الدعاء خمس مرات حشر يوم القيامة وأنا واقف على قبره ومعي براق من الجنة ولا أبرح واقفاً حتى يركب على ذلك البراق ولا ينزل عنه إلا في دار النعيم خالد مخلّد ولا حساب عليه في جوار إبراهيم وفي جوار محمد وأنا أضمن لقارىء هذا الدعاء من ذكر أو أنثى أن الله تعالى لا يعذّبه ولو كان عليه ذنوب أكثر من زبد البحر وقطر المطر وورق الشجر وعدد الخلائق من أهل الجنة وأهل النار، وأن الله عزّ وجل يأمر أن يكتب بهذا الذي يدعو بهذا الدعاء حجة مبرورة وعمرة مقبولة.

يا محمد ومن قرأ هذا الدعاء وقت النوم خمسة عشر مرة على طهارة فإنه يراك في منامه وتبشّره الجنة، ومن كان جائعاً أو عطشاناً ولا يجد ما يأكل ولا ما يشرب أو كان مريضاً فيقرأ هذا الدعاء فإن الله عز وجل يفرّج عنه ما هو فيه ببركته ويطعمه ويسقيه ويقضي له حوائج الدنيا والآخرة، ومن سرق له شيء أو أبق له عبد فيقوم ويتطهّر ويصلي ركعتين أو أربع ركعات ويقرأ كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وسورة الإخلاص وهي قل هو الله أحد مرتين فإذا سلّم يقرأ هذا الدعاء ويجعل الصحيفة بين يديه أو تحت رأسه فإن الله تعالى يجمع المشرق والمغرب ويردّ العبد الآبق ببركة هذا الدعاء إن شاء الله تعالى، وإن كان يخاف من عدوّ فيقرأ هذا الدعاء على نفسه فيجعله الله في حرز حريز ولا يقدر عليه أعداؤه، وما من عبد قرأه

وعليه دين إلا قضاه الله عزّ وجل وسهّل له من يقضيه عنه إن شاء الله تعالى، ومن قرأه على مريض شفاه الله تعالى ببركته، فإن قرأه عبد مؤمن مخلص لله عز وجل على جبل يتحرك الجبل بإذن الله تعالى، ومن قرأه بنيّة خالصة على الماء لجمد الماء، ولا تعجب من هذا الفضل الذي ذكرته في هذا الدعاء فإن فيه اسم الله تعالى الأعظم وأنه إذا قرأه القارىء وسمعه الملائكة والجن والأنس فيدعون لقارئه وأن الله يستجيب منهم دعاءهم وكل ذلك ببركة الله عزّ وجل وببركة هذا الدعاء، وأن من آمن بالله وبرسوله وبهذا الدعاء فيجب أن لا يغاش قلبه بما ذكر في هذا الدعاء، وأن الله تعالى يرزق من يشاء بغير حساب، ومن حفظه وقرأه أو نسخه فلا يبخل به على أحد من المسلمين[١].

وقال رسول الله ﷺ: «ما قرأت هذا الدعاء في غزوة إلا ظفرت ببركة هذا الدعاء على أعدائي».

وقال ﷺ: «من قرأ هذا الدعاء أعطي نور الأولياء في وجهه وسهّل له كل عسير ويسير ويسّر له كل يسير»[٢].

وقال الحسن البصري: لقد سمعت في فضل هذا الدعاء أشياء ما لا أقدر أن أصفه ولو أن من يقرأه ضرب برجله على الأرض تحركت الأرض.

وقال سفيان الثوري: ويل لمن لا يعرف حق هذا الدعاء، فإن من عرف حقه وحرمته كفاه الله عزّ وجل كل شدة وسهّل له جميع الأمور ووقاه كل محذور ودفع عنه كل سوء ونجاه من كل مرض وعرض وأزاح الهمّ والغمّ عنه فتعلّموه وعلّموه فإن فيه الخير الكثير وهو هذا الدعاء الموصوف:

سبحان الله العظيم وبحمده من إله ما أقدره، وسبحانه من قدير ما أعظمه، وسبحانه من عظيم ما أجلّه، وسبحانه من جليل ما أمجده، وسبحانه من ماجد ما أرأفه، وسبحانه من رؤوف ما أعزّه، وسبحانه من عزيز ما أكبره، وسبحانه من كبير ما أقدمه، وسبحانه من قديم ما أعلاه، وسبحانه من عال ما أسناه، وسبحانه من سنيّ ما أبهاه، وسبحانه من بهيّ ما أنوره، وسبحانه من منير ما أظهره، وسبحانه من ظاهر ما أخفاه، وسبحانه من خفيّ ما أعلمه، وسبحانه من عليم ما أخبره، وسبحانه من خبير ما أكرمه، وسبحانه من كريم ما ألطفه، وسبحانه من لطيف ما أبصره، وسبحانه من بصير ما أسمعه، وسبحانه من سميع ما أحفظه، وسبحانه من حفيظ ما أملاه، وسبحانه من مليّ ما أهداه، وسبحانه من هادّ ما

(١) بحار الأنوار: ٩٢/ ٣٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ٩٢/ ٣٦٧.

أصدقه، وسبحانه من صادق ما أحمده، وسبحانه من حميد ما أذكره، وسبحانه من ذاكر ما أشكره، وسبحانه من شاكر ما أوفاه، وسبحانه من وفيّ ما أغناه، وسبحانه من غني ما أعطاه، وسبحانه من معطٍ ما أوسعه، وسبحانه من واسع ما أجوده، وسبحانه من جوّاد ما أفضله، وسبحانه من مفضل ما أنعمه، وسبحانه من مُنعم ما أسيده، وسبحانه من سيّد ما أرحمه، وسبحانه من رحيم ما أرشده، وسبحانه من رشيد ما أقواه، وسبحانه من قويّ ما أحكمه، وسبحانه من حكيم ما أبطشه، وسبحانه من باطش ما أقومه، وسبحانه من قيّوم ما أحمده، وسبحانه من حميد ما أدومه، وسبحانه من دائم ما أبقاه، وسبحانه من باق ما أفرده، وسبحانه من فرد ما أوحده، وسبحانه من واحد ما أصمده، وسبحانه من صمد ما أملكه، وسبحانه من مالك ما أولاه، وسبحانه من وليّ ما أعظمه، وسبحانه من عظيم ما أكمله، وسبحانه من كامل ما أتمّه، وسبحانه من تامّ ما أعجبه، وسبحانه من عجيب ما أفخره، وسبحانه من فاخر ما أبعده، وسبحانه من بعيد ما أقربه، وسبحانه من قريب ما أمنعه، وسبحانه من مانع ما أغلبه، وسبحانه من غالب ما أعفاه، وسبحانه من عفوّ ما أحسنه، وسبحانه من محسن ما أجمله، وسبحانه من جميل ما أقبله، وسبحانه من قابل ما أشكره، وسبحانه من شكور ما أغفره، وسبحانه من غفور ما أكبره، وسبحانه من كبير ما أجبره، وسبحانه من جبير ما أدينه، وسبحانه من ديّان ما أقضاه، وسبحانه من قاض ما أمضاه، وسبحانه من ماض ما أنفذه، وسبحانه من نافذ ما أرحمه، وسبحانه من رحيم ما أخلقه، وسبحانه من خالق ما أقهره، وسبحانه من قاهر ما أملكه، وسبحانه من مالك ما أقدره، وسبحانه من قادر ما أرفعه، وسبحانه من رفيع ما أشرفه، وسبحانه من شريف ما أرزقه، وسبحانه من رازق ما أقبضه، وسبحانه من قابض ما أبدأه، وسبحانه من بادىء ما أقدسه، وسبحانه من قدّوس ما أطهره، وسبحانه من طاهر ما أزكاه، وسبحانه من زكيّ ما أبقاه، وسبحانه من باق ما أعوده، وسبحانه من عوّاد ما أفطره، وسبحانه من فاطر ما أوهبه، وسبحانه من وهّاب ما توّبه، وسبحانه من توّاب ما أسخاه، وسبحانه من سخيّ ما أبصره، وسبحانه من بصير ما أسلمه، وسبحانه من سلام ما أشفاه، وسبحانه من شاف ما أنجاه، وسبحانه من منجي ما أبرّه، وسبحانه من بارّ ما أطلبه، وسبحانه من طالب ما أدركه، وسبحانه من مدرك ما أشدّه، وسبحانه من شديد ما أعطفه، وسبحانه من متعطّف ما أعدله، وسبحانه من عادل ما أتقنه، وسبحانه من متقن ما أحكمه، وسبحانه من حكيم ما أكفله، وسبحانه من كفيل ما أشهده، وسبحانه وهو الله العظيم وبحمده الحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم دافع كل بلية وهو حسبي ونعم الوكيل.

قال سفيان الثوري: ويل لمن لا يعرف حرمة هذا الدعاء، فإن من عرف حق هذا

الدعاء وحرمته كفاه الله عز وجل كل شدة وصعوبة وآفة ومرض وغم، فتعلموه وعلّموه ففيه البركة والخير الكثير في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى[١].

ومنها ما في (**البحار**) أيضاً من (**مهج الدعوات**) عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: من دعا بهذا الدعاء مرة واحدة في دهره كتب في رقّ العبودية ورفع في ديوان القائم عليه السلام، فإذا قام قائمنا نادى باسمه واسم أبيه ثم يدفع إليه هذا الكتاب ويقال له: خذ هذا الكتاب العهد الذي عاهدتنا في الدنيا وذلك قوله عزّ وجل: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٨٧]، وادع به وأنت طاهر، تقول:

يا إلٰه الآلهة، يا واحد، يا أحد، يا آخر الآخرين، يا قاهر القاهرين، يا علي، يا عظيم أنت العلي الأعلى، علوت فوق كل علوّ، هذا يا سيدي عهدي وأنت منجز وعدي فصل يا مولاي وعدي وأنجز وعدي، آمنت بك وأسألك بحجابك العربي وبحجابك العجمي وبحجابك العبراني وبحجابك السرياني وبحجابك الرومي وبحجابك الهندي وأثبت معرفتك بالعناية الأولى فإنك أنت الله لا ترى وأنت بالمنظر الأعلى وأتقرّب إليك برسولك المنذر صلى الله عليه وآله وبعليّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه الهادي، وبالحسن السيد، وبالحسين الشهيد سبطي نبيك، وبفاطمة البتول، وبعلي بن الحسين زين الثفنات، ومحمد بن علي الباقر عن علمك، وبجعفر بن محمد الصادق الذي صدّق بميثاقك وميعادك، وبموسى بن جعفر الحصور القائم بعهدك وبعلي بن موسى الرضا الراضي بحكمك، وبمحمد بن علي الحبر الفاضل المرتضى في المؤمنين، وبعلي بن محمد الأمين المؤتمن هادي المسترشدين، وبالحسن بن علي الطاهر الزكي خزانة الوصيين، وأتقرّب إليك بالإمام القائم العدل المنتظر المهدي إمامنا وابن إمامنا صلوات الله عليهم أجمعين، يا من جلّ فعظم، وأهل ذلك فعفى ورحم، يا من قدر فلطف أشكو إليك ضعفي وما قصر عنه عملي من توحيدك وكنه معرفتك، وأتوجه إليك بالتسمية البيضاء وبالواحدانية الكبرى التي قصر عنها من أدبر وتولّى وآمنت بحجابك الأعظم وبكلماتك التامة العليا التي خلقت منها دار البلاء وأحللت من أحببت جنة المأوى، آمنت بالسابقين والصديقين أصحاب اليمين من المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ألا تولّيني غيرهم، ولا تفرّق بيني وبينهم غداً إذا قدمت الرضا بفضل القضاء آمنت بسرهم وعلانيتهم وخواتيم أعمالهم فإنك تختم عليها إذا شئت يا من أتحفني بالإقرار بالوحدانية، وحباني بمعرفة الربوبية، وخلّصني من الشك والعمى، رضيت بك ربّاً، وبالأصفياء حججاً وبالمحجوبين أنبياء، وبالرسل أدلاّء، وبالمتقين أمراء، وسامعاً لك مطيعاً[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٦٧/٩٢.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣٨/٩٢.

هذا آخر العهد المذكور كتب الله تعالى لنا في زمرة المعاهدين المخلصين، وجعلنا من مواليّ أوليائه المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، واللعنة على أعدائهم وظالميهم والشّاكين فيهم إلى يوم الدّين.

الترجمة

از دعاهای آن بزرگوار است:

بار پروردگارا، به درستی که تو مونس ترین انس گیرندگانی از برای دوستان خود و حاضرترین ایشان هستی با کفایت کردن حاجت ها از برای توکل کنندگان بر تو، مشاهده می فرمایی ایشان را در بواطن ایشان و مطلع می باشی برایشان در ضمایر ایشان و می دانی اندازه های بصیرت ایشان را، پس اسرار ایشان از برای تو هویدا و آشکار است و قلب های ایشان به سوی تو بی قرار، اگر مستوحش کند ایشان را غربت از وصل تو، مونس ایشان گردد ذکر تو و اگر ریخته شود بر ایشان مصائب روزگار، ملتجی باشند به طلب امان از تو به جهت علم ایشان به این که زمام جمیع کارها به ید قدرت تو است و صدور آنها از قضا و قدر تو است.

بار خدایا، پس اگر عجز برسانم از سؤال خودم یا متحیّر باشم از طلب حاجت خودم، پس دلالت فرما مرا به مصالح من و فراگیر قلب مرا به سوی موارد رشد و صلاح من، پس نیست این امر غیر معروف از هدایت های تو و نه عجب از کفایت های تو. بارالها، معامله کن با من با عفو و بخشش خودت و معامله مفرما با من با عدل و داد خود.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والسادس والعشرون من المختار في باب الخطب

لِلَّهِ بِلادُ فُلانٍ فَقَدْ قَوَّمَ الأَوْدَ، وَدَاوَى العَمَدَ، خَلَّفَ الفِتْنَةَ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ العَيْبِ أصابَ خَيْرَها، وَسَبَقَ شَرَّها، أَدّىٰ إِلَىٰ الله طاعَتَهُ، وَاتَّقاهُ بِحَقِّهِ، رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لا يَهْتَدي فِيها الضَّالُّ، وَلا يَسْتَيْقِنُ المُهْتَدِي[1].

اللغة

قوله: **(لله بلاد فلان)** اللام للاختصاص وهو كلام يقال في معرض المدح مثل قولهم: لله درّه، ولله أبوه، ولله ناديه، أي البلاد التي تولّد فيها مثله جديرة بالانتساب إليه تعالى وتكون مخصوصة به عزّ وجلّ، وكذلك الثّدي الذي ارتضع منه، والأب الذي خرج من صلبه، والمجلس الذي ربّي فيه. وروي لله بلاء فلان، أي عمل حسن.

و **(أود)** الشيء أوداً من باب فرح أعوج و **(عمد)** البعير عمداً من باب فرح أيضاً انفضح داخل سنامه من ركوب وحمل مع سلامة ظاهره، وقوله: **(اتقاه بحقّه)** قال الطريحي: أي استقبله به فكأنه جعل دفع حقه إليه وقاية له من المطالبة، وقوله: **(وتركهم)** في نسخة الشارح المعتزلي: وتركتم، بدله بصيغة الخطاب، والبناء على المفعول.

الإعراب

قوله: لله بلاد فلان، تقديم الخبر على المبتدأ مبالغة في الحصر والتخصيص، و**(الباء)** في قوله: اتقاه بحقه، للآلة كما يوضحه ما نقلناه عن الطريحي آنفاً، أي أخذ الوقاية منه لنفسه بأداء حقه واستعانته، وأما ما قاله الشارح المعتزلي من أن المراد: أنه اتقى الله ودلّنا على أنه اتقاه بأداء حقه فأداء الحق علة في علمنا بأنه قد اتقى الله سبحانه، فتكلف بارد، و**(الواو)** في جملة: **(وتركهم)**، تحتمل العطف والحال، وجملة **(لا يهتدي)** مجرورة المحل على أنها نعت لطرق.

---

(١) تاريخ المدينة: ٣/ ٩٤٢، والإيضاح: ٥٤٠.

المعنى

إعلم أنه قد اختلف الشارحون في المشار إليه بهذا الكلام والمكنى به عنه.

قال الشارح المعتزلي: المكنّى عنه عمر بن الخطاب، وقد وجدت النسخة التي بخط الرّضي جامع (**نهج البلاغة**) وتحت فلان: عمر، حدثني بذلك فخار بن معد الموسوي.

وسألت عن النقيب أبا[1] جعفر يحيى بن أبي زيد العلوي فقال لي: هو عمر، فقلت له: أثنى عليه أمير المؤمنين هذا الثناء؟ فقال: نعم، أما الإمامية فيقولون: إن ذلك من التقية واستصلاح أصحابه، وأما الصالحيون من الزيدية فيقولون: إنه أثنى عليه حق الثناء ولم يضع المدح إلا في موضعه ونصابه، وأما الجارودية من الزيدية فيقولون: إنه كلام قاله في أمر عثمان أخرجه مخرج الذمّ والتنقص لأعماله كما يمدح الآن الأمير الميّت في أيام الأمير الحيّ بعده، فيكون ذلك تعريضاً به، فقلت له: إلا أنه لا يجوز التعريض للحاضر بمدح الماضي إلا إذا كان ذلك المدح صدقاً لا يخالطه ريب ولا شبهة فإذا اعترف أمير المؤمنين بأنه أقام السنّة وذهب نقيّ الثوب، قليل العيب، وأنه أدّى إلى الله طاعته واتّقاه بحقه، فهذا غاية ما يكون من المدح، فلم يجبني بشيء وقال: هو ما قلت لك، قال:

وقال الراوندي: إنه عليه السلام مدح بعض أصحابه بحسن السيرة وأن الفتنة هي التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الاختيار والإثرة، وهذا بعيد، لأن لفظ أمير المؤمنين يشعر إشعاراً ظاهراً بأنه يمدح والياً ذا رعية وسيرة.

ثم ذكر الشارح مؤيدات أخرى لكون المراد به عمر، إلى أن قال في آخر كلامه:

وهذه الصفات إذا تأملها المنصف وأماط عن نفسه الهوى، علم أن أمير المؤمنين لم يعن بها إلا عمر لو لم يكن قد روى لنا توفيقاً ونقلاً أن المعني بها عمر فكيف وقد رويناه عمن لا يتهم في هذا الباب، انتهى[2].

وقال الشارح البحراني: إرادته لأبي بكر أشبه لإرادته لعمر، لما ذكر عليه السلام في خلافة عمر وذمها به في الخطبة المعروفة بالشقشقية، انتهى.

وأقول: أما ما قاله القطب الراوندي فاستبعاد الشارح المعتزلي له بموقعه، وكذلك ما زعمه الشارح البحراني فإنه أيضاً بعيد، وتقريبه له بأنه ذم خلافة عمر في خطبة الشقشقية، فيه أنه عليه السلام ذمّ هناك خلافة أبي بكر أيضاً حسبما عرفت أيضاً ولو لم يكن فيها إلا قوله عليه السلام: فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً، لكان كافياً في الطعن والإزراء

(١) «أبي» في نسخة.
(٢) شرح النهج: ٦/١٢.

المنافي للمدح والثناء فضلاً عن المطاعن والمذام الواردة عنه عليه السلام في مقامات أخر في حق الأول كالثاني المتجاوزة عن حد الإحصاء وطور الاستقصاء.

وأما ما زعمه الشارح المعتزلي من أن المراد به عمر ومبالغته فيه واستظهاره له بما فصله في كلامه، ففيه: أنه إن كان هذا الرجل الجلف هو المراد به وأبقينا الكلام على ظاهره على ما توهمه الظاهر من كون عمر أهلاً للأوصاف المذكورة لا غير، كان هذا الكلام مناقضاً صريحاً لما تقدم عنه في الخطبة الشقشقية من مثالب عمر ومعايب خلافته، فلاحظ المقام وانظر ماذا ترى.

بل كان منافياً لأصول مذهب الإمامية رضوان الله عليهم المتلقى عن أئمتهم سلام الله عليهم ولأخبارهم المتواترة المأثورة عن أهل بيت العصمة والطهارة المفصحة عن كفر الأول والثاني كليهما وكونهما منشأ جميع الشرور والمفاسد والبدعات الجارية في الأمة المرحومة إلى يوم القيامة.

قال كميت بن زيد الأسدي فيما رواه عنه في **(البحار)** من **(الكافي)**: دخلت على أبي جعفر عليه السلام قلت: خبّرني عن الرجلين، قال: فأخذ الوسادة وكسرها في صدره ثم قال: والله يا كميت ما أُهرق محجمة من دم وما أُخذ مال من غير حلّه وما قلب حجر من حجر إلا ذاك في أعناقهما[١]، ونحوه أخبار كثيرة.

بل المستفاد من بعض الأخبار أن جميع الشرور والمفاسد الواقعة في الدنيا من ثمرات تلك الشجرة الخبيثة، وقد مرت طائفة منها في شرح الخطبة المائة والخمسين.

فبعد اللّتيا واللّتي فاللازم على جعل المكنّي عنه عمر كما زعمه الشارح هو صرف الجملات الآتية عن ظواهرها المفيدة للمدح والثناء، لتطابق أصول الإمامية وقواعدهم المبنيّة على الذم والإزراء، وعلى إبقائها على ظواهرها فلا بد من جعل المكنّى عنه شخصاً آخر له أهلية الإتّصاف بهذه الأوصاف.

وعليه فلا يبعد أن يكون مراده عليه السلام هو مالك بن الحرث الأشتر، فلقد بالغ في مدحه وثنائه في غير واحد من كلماته.

مثل ما كتبه إلى أهل مصر حين ولىّ عليهم مالك حسبما يأتي ذكره في باب الكتب تفصيلاً إن شاء الله.

ومثل قوله عليه السلام فيه لما بلغ إليه خبر موته: مالك وما مالك؟ لو كان من جبل لكان

---

(١) الكافي: ٨/ ١٠٣ ح ٧٥، وبحار الأنوار: ٣٠/ ٢٦٦ ح ١٣٢.

فنداً، ولو كان من حجر لكان صلداً، عقمت النساء أن يأتين بمثل مالك.

بل صرّح في بعض كلماته بأنه كان له كما كان هو لرسول الله ﷺ، ومن هذا شأنه فالبتة يكون أهل لأن يتّصف بالأوصاف الآتية بل بما فوقها.

والحاصل أنه على كون المكنّى عنه عمر لا بد من تأويل كلامه وجعله من باب الإيهام والتورية على ما جرت عليها عادة أهل البيت عليهم السلام في أغلب المقامات، فإنهم لما رأوا من الناس جمهورهم إلا النادر من خواص أصحابهم الإفتتان بمحبة صنمي قريش، وأنهم أشربوا قلوبهم حب العجلين، وولعوا بعبادة الجبت والطاغوت سلكوا في كلماتهم كثيراً مسلك التورية والتقيّة حقناً لدمائهم ودماء شيعتهم، حيث لم يتمكنوا من إظهار حقيقة الأمر.

ويشهد بذلك ما رواه في **(البحار)** من **(الكافي)** بإسناده عن فروة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ذاكرته شيئاً من أمرهما فقال: ضربوكم على دم عثمان ثمانين سنة وهم يعلمون أنه كان ظالماً فكيف يا فروة إذا ذكرتم صنميهم؟[1].

وفيه من **(تقريب المعارف)** لأبي الصلاح في جملة كلام له قال: ورووا عن بشير بن دراكة النبّال قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن أبي بكر وعمر فقال: كهيئة المستهزىء به ما تريد من صنمي العرب أنتم تقتلون على دم عثمان بن عفان فكيف لو أظهرتم البراءة منهما لما ناظروكم طرفة عين[2].

قال: ورووا عن أبي الجارود قال: سئل محمد بن عمر بن الحسن بن علي بن أبي طالب عن أبي بكر وعمر فقال: قتلتم منذ ستين سنة في أن ذكرتم عثمان، فوالله لو ذكرتم أبا بكر وعمر لكان دماؤكم أحلّ عندهم من دماء السنانير[3].

بل كثيراً ما كانوا يتكلمون عليهم السلام بكلمات موهمة للمدح والثناء مماشاةً للناس ومداراةً لهم.

مثل ما روي من كتاب **(المثالب)** لابن شهرآشوب: أن الصادق عليه السلام سئل عن أبي بكر وعمر، فقال: كانا إمامين قاسطين عادلين كانا على الحق، وماتا عليه، فرحمة الله عليهما يوم القيامة، فلما خلا المجلس قال له بعض أصحابه: كيف قلت يا ابن رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم أما قولي: كانا إمامين فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

---

(١) الكافي: ٨/١٨٩ ح ٢١٥، وشرح أصول الكافي: ١٢/٢٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ٣٠/٣٨٣.

(٣) بحار الأنوار: ٣٠/٣٨٨.

﴿ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وأما قولي: قاسطين، فهو من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥]، وأما قولي: عادلين، فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وأما قولي: كانا على الحق، فالحق عليّ عليه السلام، وقولي: ماتا عليه، المراد أنه لم يتوبا عن تظاهرهما عليه، بل ماتا على ظلمهما إياه، وأما قولي: فرحمة الله عليهما يوم القيامة، فالمراد أن رسول الله صلى الله عليه وآله ينتصف له منهما أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧][1].

وإذا عرفت ذلك فاستمع لما يتلى عليك من وجوه التورية والتأويل في فقرات كلامه فأقول وبالله التوفيق والعصمة:

قوله عليه السلام: **(لله بلاد فلان)** وإن كان بظاهره مفيداً للمدح حسبما بيّناه في بيان اللغة إلا أنه ليس بذلك، فإن اللام فيه كاللام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

والكناية عن عمر بلفظة فلان مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨] فقد فسّر السبيل في أخبار أهل البيت عليهم السلام بأمير المؤمنين والظالم بأبي بكر وفلاناً بعمر.

قال علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قال: الأول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ قال أبو جعفر عليه السلام يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول علياً ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني الثاني ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ يعني الولاية ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهو الثاني كان ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[2].

وروي مثله عن حماد عن حريز عن رجل عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ الآية، يقول الأول للثاني.

وروي عن الرضا عليه السلام أيضاً تفسير الآيتين بالأول والثاني.

وقوله **(فقد قوّم الأود)** وإن كان ظاهره يدل على أنه أصلح وعدل ما خرج من أمور المسلمين عن حد الاعتدال وانحرف عن السداد، لكن المقصود به ترويجه للإعوجاج من قولهم: قامت السوق أي نفقت وراجت، فإن عمر لعدوله عن الصراط المستقيم الذي هو صراط أمير المؤمنين وغصبه للخلافة قد روّج العوج عن الدين والانحراف عن نهج الشرع المبين.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٠/ ٢٨٦، ومجمع النورين: ١٠٥.

(٢) شرح أصول الكافي: ١١/ ٢٣٤.

ويوضح ذلك ما رواه في **(الطرائف)** عن قتادة عن الحسن البصري قال: كان يقرأ هذا الحرف صراط عليّ مستقيم، فقلت للحسن: ما معناه؟ قال: يقول: هذا طريق علي بن أبي طالب ودينه طريق مستقيم فاتّبعوه وتمسكوا به فإنه واضح لا عوج فيه[١].

وعلى إبقاء تقويم الأود على ظاهره فلا ملازمة له لمدح عمر أيضاً لأن تقويم اعوجاج الناس ونظم أمر الرعية إنما يكون ممدوحاً شرعاً إذا كان جارياً على وفق القوانين الشرعية، وأما إذا لم يجر عليها كما هو رسم الجبابرة وسلاطين الجور فلا.

كما يشير إلى ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام في الكلام الثامن والستين مخاطباً لأهل الكوفة، وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي.

ولقد كان عمدة نظر عمر في أحكامه وسياساته إلى نظم أمر خلافته واستحكام أركان رئاسته وإن كان مخالفاً لقانون الشرع.

كما يشهد بذلك ما روته الخاصة والعامة من تسوره حائط بيت الرجل الذي اتهمه بشرب الخمر حتى اعترض عليه صاحب البيت بقوله: إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت في ثلاث، قال الله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وقد تجسّست، وقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وقد تسوّرت، وقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا﴾ [النور: ٦١] وما سلّمت، على ما تقدم تفصيلاً في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثالثة وغير ذلك مما رووا من سيرته المخالفة للشريعة، وقد ذكر الشارح المعتزلي شطراً منها في شرح هذا الكلام.

وقوله **(وداوى العمد)** ظاهره أنه أصلح ما فسد من الأمور وخرج عن الصحة والسداد بمعالجات تدابيره، وباطنه أنه عالج مرضه القلبي الذي كان عليه، فقد استعير العمد الذي هو عبارة عن انشداخ سنام البعير لمرض القلب كما يستعار لمرض العشق يقال: فلان عميد القلب ومعمود، قال قيس العامري في قصيدة عشقية مشحونة بأبيات العشق والمحبة:

يلومونني في حبّ ليلى عواذل ولكنني من حبها لعميد

والجامع بين المستعار منه والمستعار له كون كل منهما موجباً للألم والأذى والمرض الذي كان في قلب عمر هو المرض المزمن والداء الدوي أعني مرض الشك والنفاق ومعاداة النبي والوصي عليهما السلام فإن قيح عداوتهما لا سيما عداوة أمير المؤمنين عليه السلام وبغضه كان يغلي في صدره كغلي القيح في سنام البعير لا يكاد يندمل حتى مضى النبي صلى الله عليه وآله إلى لقاء ربه، فعالج مرضه وداوى عمده بما مهده في نفسه من صرف الخلافة عن أهل بيته وتغيير وصيته وإحراق

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٩١، والصراط المستقيم: ١/ ٢٨٤.

بيت ابنته، وتبديل قوانين شريعته، فنال ما أبطن في قلبه وبلغ غاية المراد ومنتهى المرام.

وإلى هذا المرض أشير في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ٨ ـ ١٠].

قال أمين الإسلام الطبرسي: المراد بالمرض في الآية الشك والنفاق بلا خلاف، وإنما سمي الشك في الدين مرضاً لأن المرض هو الخروج عن حدّ الاعتدال، فالبدن ما لم تصبه آفة يكون صحيحاً سويّاً وكذلك القلب ما لم يصبه آفة من الشك يكون صحيحاً، وقيل: أصل المرض الفتور، فهو في القلب فتوره عن الحق كما أنه في البدن فتور الأعضاء[1].

وقال في (**الصافي**): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ الآية أقول: كابن أُبي وأصحابه وكالأول والثاني وأضرابهما من المنافقين الذين زادوا على الكفر الموجب للختم، والغشاوة النفاق ولا سيما عند نصب أمير المؤمنين عليه السلام للخلافة والإمامة[2].

وقال أيضاً: قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق وشك وذلك لأن قلوبهم كانت تغلي على النبي والوصي والمؤمنين حقداً وحسداً، وفي تنكير المرض وإيراد الجملة ظرفية إشارة إلى استقراره ورسوخه وإلا لقال: مرض قلوبهم.

وقوله عليه السلام (**أقام السنة**) ظاهره إقامته لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وطريقته قولاً وفعلاً وتقريراً ولكنه تورية عن السنن العمرية وهي بدعاته وأحداثه التي سنّها قبال سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله بمقتضى أهوائه الفاسدة.

مثل تحريم المتعتين، والعول في الفرائض، وصلاة الضحى وصلاة التراويح، وهي فعل نوافل شهر رمضان بالجماعة، ووضع الخراج على سواد العراق، وترتيب الجزية، وإسقاط الحيّ على خير العمل من الأذان بإيهامه أن هذه الكلمة تدعو الناس إلى ترك الجهاد لأنهم يزعمون إن الصلاة أفضل من سائر الأعمال ولكن الداعي الحقيقي له إلى الإسقاط غير ذلك.

وهو ما ورد في رواية الصادق عليه السلام من أن عمر سمع من النبي صلى الله عليه وآله: «**أن خير العمل هو ولاية علي بن أبي طالب**»[3]، فموّه على الناس في تركه حتى يترك، إلى غير هذه مما مر في

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١/١٠٢.

(٢) شرح أصول الكافي: ١١/٢٠٨، والتفسير الصافي: ١/٩٤.

(٣) شجرة الطوبى: ١/٧٠.

رواية **(الروضة)** المتقدمة في شرح الخطبة الخمسين فليراجع هناك، وذكر شطراً منها الشارح المعتزلي في شرح هذا الكلام.

وقوله عليه السلام **(وخلّف الفتنة)** قال الشارح البحراني: تخليفه للفتنة موته قبلها ووجه كون ذلك مدحاً له هو اعتبار عدم وقوعها بسببه وفي زمنه لحسن تدبيره.

وأقول: هذا ظاهره وباطنه من أمض الذم فإنه تورية عن توريثه الفتنة العظيمة التي انشعبت منها جميع الفتن، وهي فتنة الشورى كما صرّح به الشارح المعتزلي أيضاً في شرح الكلام المائتين والرابع حسبما حكينا عنه هناك حيث قال: إن ما فعله عمر من أمر الشورى سبب كل فتنة وقع ويقع إلى أن تنقضي الدنيا.

وتوضيحه أن عمر لو لم يجعل الخلافة شورى بين الستة لما أفضى الأمر إلى عثمان ولم تقع فتنة قتله حتى يكون الطلب بدمه عنواناً لوقعة صفّين وفتن بني أمية الشوهاء المظلمة ولوقعة البصرة وخروج الخاطئة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، وفي قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

ثم من التحكيم في صفّين نشأت فتنة المارقين وخروجهم إلى أن انجرّ إلى شهادة أمير المؤمنين واستيلاء معاوية على البلاد وإهراقه للدماء واستحلاله للأموال، وفشت المعاداة بين بني هاشم وبني أميّة حتى انتهت إلى الرّزء الجليل والمصيبة العظمى والداهية الدّهياء المحرقة قلوب الشيعة إلى يوم القيامة وهي وقعة الطّف وشهادة الحسين عليه السلام وأصحابه، بل النار الموقدة في الطّف لإحراق خيام آل الرسول من قبسات النار التي أوقدها عمر لإحراق باب فاطمة سلام الله عليها.

وبالجملة فجميع هذه الفتن من ثمرات الشجرة الخبيثة التي غرسها عمر.

قال العلامة الحلي في كتاب **(نهج الحق)**: روى البلاذري قال: لما قتل الحسين كتب عبد الله بن عمر إلى يزيد بن معاوية لعنة الله عليهما وعلى أبيهما: أما بعد، فقد عظمت الرزية وجلّت المصيبة وحدث في الإسلام حدث عظيم ولا يوم كيوم الحسين.

فكتب إليه يزيد: أما بعد، يا أحمق، فإننا جئنا إلى بيوت مجدّدة وفرش ممهّدة ووسائد منضدة فقاتلنا عنها، فإن يكن الحق لنا فعن حقنا قاتلنا، وإن كان الحق لغيرنا فأبوك أول من سنّ وابتزّ واستأثر بالحق على أهله.

وقوله عليه السلام: **(ذهب نقيّ الثوب)** قال الشارح البحراني: استعار الثوب لعرضه ونقاه

لسلامته عن دنس المذام.

وأقول: ربما يفرق بين النقي والتقي بأن التقي بالتاء من حسن ظاهره والنقي من حسن باطنه، فيكون في إضافة النقي إلى الثوب تورية لطيفة عن أن إتصافه بالنقاوة والنزاهة إنما كان بحسب ظاهره فقط، وأما في الباطن فقد كان مدنساً بأدناس الجاهلية وأقذار الشك والنفاق والحقد والحسد والسخيمة لكونه رئيس المنافقين الذين يظهرون بأفعالهم ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون وقد وصفهم عليه السلام في الخطبة المائة والثالثة والتسعين بهذا الوصف أي بحسن الظاهر وخبث الباطن حيث قال في تعداد صفاتهم: قلوبهم ردِيّة وصفاحهم نقيّة.

وقوله عليه السلام **(قليل العيب)** أراد به قلّة عيوبه الظاهرة بالإضافة إلى العيوب الكثيرة التي في عثمان لأخذه بظاهر أحكام الشريعة تخديعاً للناس وللتزوير والحيلة، وأما في الباطن فقد كان غريقاً في بحر العيوب مغموراً في تيار الآثام والذنوب حسبما أشرنا ونشير إليه.

وقوله عليه السلام **(أصاب خيرها وسبق شرّها)** قال البحراني: أصاب ما في الخلافة من الخير المطلوب، وهو العدل وإقامة دين الله الذي به يكون الثواب الجزيل في الآخرة والشرف الجزيل في الدنيا، وسبق شرّها أي مات قبل وقوع الفتنة فيها وسفكَ الدماء لأجلها.

وأقول: بل المراد به أنه نال خير الخلافة ولذّة الرئاسة بما مهده له أبو بكر من بساطها وصيّرها له من دون معارض ومصادم، فانقاد له الكل وأسلم له الجميع طوعاً وكرهاً وحصلت له الرئاسة العامة وفتح الأمصار ونفاذ الأحكام في الأصقاع والبلدان كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرّاً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد.

والمراد بسبقه الشر الشرور والمفاسد والفتن التي ظهرت في زمن عثمان عليه اللعنة، والنيران من حملة بني أمية ومروان على رقاب الناس وخضمهم مال الله خضم الإبل نبتة الربيع حسبما عرفت تفصيلاً في الخطبة الشقشقية وشرحها إلى أن انجرّ الأمر إلى قتله وهلاكه، وظهرت في خلافة أمير المؤمنين سلام الله عليه وآله أجمعين من الناكثين والقاسطين والمارقين لعنة الله عليهم ملء السماوات والأرضين وقد عرفت في شرح قوله: وخلف الفتنة، أن جميع هذه الشرور والمفاسد من بركة البرامكة وثمرات الشجرة الخبيثة التي غرسها عمر.

وقوله عليه السلام **(أدّى إلى الله طاعته واتقاه بحقه)** أراد به مواظبته على مراسم الطاعة والتقوى وسلوكه مسالك الزهد والعبادة، ولقد كان مجدّاً فيها ظاهراً لما نذكره من النكتة، وأما في الباطن فلم يرفع يده كصاحبه عن الكفر وعبادة الصنم إلى أن مضى إلى سبيله.

ويشهد به ما رواه في (**البحار**) من كتاب سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه شجاعته ونصرته لرسول الله صلى الله عليه وآله وجبن الثلاثة ورعبهم عند الكريهة والقتال، وساق الحديث إلى أن قال:

ولقد ناداه ابن عبدود باسمه يوم الخندق، فحاد عنه ولاذ بأصحابه حتى تبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله لما رأى به من الرعب وقال: «**أين حبيبي عليّ، تقدّم يا حبيبي يا علي**»، ولقد قال لأصحابه الأربعة أصحاب الكتاب: الرأي والله أن ندفع محمداً بزمته ونسلم من ذلك حين جاء العدو من فوقنا ومن تحتنا كما قال الله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١١ـ ١٢]، فقال صاحبه: لا، ولكن نتخذ صنماً عظيماً نعبده لأنّا لا نأمن أن يظفر ابن أبي كبشة فيكون هلاكنا، ولكن يكون هذا الصنم لنا ذخراً، فإن ظهرت قريش أظهرنا عبادة هذا الصنم وأعلمناهم أنّا لن نفارق ديننا، وإن رجعت دولة ابن أبي كبشة كنا مقيمين على عبادة هذا الصنم وأعلمناهم أنّا لن نفارق سرّاً. فنزل جبرائيل فأخبر النبي صلى الله عليه وآله بذلك، ثم خبّرني به رسول الله صلى الله عليه وآله بعد عمرو بن عبدود، فدعاهما فقال: «**كم صنم عبدتما في الجاهلية؟**»، فقالا: يا محمد تعيّرنا بما مضى في الجاهلية؟ فقال: «**فكم صنم تعبدا وقتكما هذا؟**» فقالا: والذي بعثك بالحق نبياً ما نعبد إلا الله منذ أظهرنا لك من دينك ما أظهرنا، فقال: «**يا علي، خذ هذا السيف فانطلق إلى موضع كذا وكذا فاستخرج الصنم الذي يعبدانه فاهشمه فإن حال بينك وبينه أحد فاضرب عنقه**»، فانكبا على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالا: أسترنا سترك الله، فقلت أنا لهما: أصمنا لله ولرسوله ألا تعبدا إلا الله ولا تشركا به شيئاً، فعاهدا رسول الله صلى الله عليه وآله على هذا. وانطلقت حتى استخرجت الصنم من موضعه وكسرت وجهه ويديه وجزمت رجليه ثم انصرفت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فوالله لقد عرفت ذلك في وجههما حتى ماتا[١].

ويشعر بما قلناه ما رواه العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] إنه قال: فأعداء علي أمير المؤمنين هم الخالدون في النار وإن كانوا في أديانهم على غاية الورع والزهد والعبادة.

إلى غير هذه من الروايات التي لا نطيل بذكرها المفيدة لكون عبادة هذا الرجل لله وزهده ورياضته تزويراً ورياء وسمعة، بل الدلالة على أنه أبطن الكفر وأظهر الإسلام وصلة بذلك إلى رئاسة المسلمين والسلطنة عليهم وإلى ما أضمره في قلبه من هدم أساس الدين وتخريب سواري اليقين ضمناً بقدر الإمكان والتمكن وإلى صرف الناس وإضلالهم عن

(١) مجمع النورين: ٢٣٠، وكتاب سليم بن قيس: ٢٥٠.

الصراط المستقيم والمنهج القويم.

فإنه لو لم يسلك مسلك العبادة والرياضة والزهد والقشف والضيق على نفسه والتوسعة على غيره وترك اللذات والشهوات رأساً لم يتمكن من ذلك كما لم يتمكن عثمان منه لعدم سلوكه هذا المسلك.

وقد صرّح نفسه بهذه النكتة وأظهر هذا السر إلى بطانته المشارك له في الكفر والإلحاد اللعين بن اللعين معاوية بن أبي سفيان في العهد الطويل الذي رواه أصحابنا في مؤلفاتهم.

وهو العهد الذي أخرجه يزيد الملعون من خزانته وأبرزه لعبد الله بن عمر الملعونين لما جاء إلى الشام مستصرخاً في دم الحسين عليه السلام وثائراً فيه، فسكّته بذلك العهد الذي كان بخط أبيه عمر.

فإنه بعدما كتب فيه: إلى معاوية صريحاً كفره وإلحاده وبقاءه على عبادة اللاّت والعزّى وتكذيبه للرسول صلى الله عليه وآله ولما جاء به ونسبته إلى السحر وأبرز عداوته المكنونة له صلى الله عليه وآله وآله، وشرح صرفه الخلافة بتدبيراته وحيله عن وصيه كتب فيه ما عين لفظه:

فبطل سحره - يعني سحر محمد صلى الله عليه وآله -، وخاب سعيه، وعلاها أبو بكر وعلوتها بعده وأرجو أن تكونوا معاشر بني أمية عيدان أطنابها، فمن ذلك قد ولّيتك وقلّدتك إباحة ملكها، وعرّفتك فيها وخالفت قوله فيكم، وما أبالي من تعريف شعره ونثره أنه قال: يوحى إليّ منزّل من ربي في قوله: والشجرة الملعونة في القرآن، فزعم أنها أنتم يا بني أمية، فبيّن عداوته حيث ملك كما لم يزل هاشم وبنوه أعداء بني عبد شمس، وأنا مع تذكيري إياك يا معاوية وشرحي لك ما قد شرحته ناصح لك ومشفق عليك من ضيق عطفك وحرج صدرك وقلّة حلمك أن تعجل فيما وصيتك به ومكنتك منه من شريعة محمد وأمته أن تبدي لهم مطالبته بطعن أو شماتة بموت أو رداً عليه فيما أتى به أو استصغاراً لما أتى به فتكون من الهالكين، فتخفض ما رفعت وتهدم ما بنيت، واحذر كل الحذر حيث دخلت على محمد مسجده ومنبره وصدّق محمداً في كل ما أتى به وأورده ظاهراً، وأظهر التحرّز والواقعة في رعيتك وأوسعهم حلماً وأعمهم بروائح العطايا، وعليك بإقامة الحدود فيهم وتصفيف الجناية منهم، لسبى محمد من مالك ورزقك ولا ترهم أنك تدع لله حقاً ولا تنقص فرضاً ولا تغير لمحمد سنّة فتفسد علينا الأمة بل خذهم من مأمنهم واقتلهم بأيديهم وأبِدْهم بسيوفهم وتطاولهم ولا تناجزهم، ولِنْ لهم ولا تبخس عليهم، وافسح لهم في مجلسك وشرّفهم في مقعدك، وتوصّل إلى قتلهم برئيسهم وأظهر البشر والبشاشة، بل اكظم غيظك، واعف عنهم يحبوك ويطيعوك، فما آمن علينا وعليك شورة عليّ وشبليه الحسن والحسين، فإن أمكنك في عدة من الأمة فبادر ولا تقنع بصغار الأمور، واقصد بعظيمها واحفظ وصيتي إليك وعهدي واخفه ولا تبده،

وامتثل أمري ونهيي، وانهض بطاعتي وإياك والخلاف عليّ واسلك طريق أسلافك، واطلب بثأرك واقتصّ آثارهم فقد أخرجت إليك بسري وجهري، وشفّعت هذا بقولي:

معاوي إنّ القوم جلت أمورهم بدعوة من عم البرية بالوتر
صبوت إلى دين لهم فأرابني فأبعد يدين قد قصمت من ظهري

إلى أن قال:

توسل إلى التخليط في الملّة التي أتانا به الماضي والمموه بالسحر
وطالب بأحقاد مضت لك مظهراً لعله دين عم كل بني النفر
فلست تنال النار الأبد منهم فتقتل بسيف القوم جند بني عمر

فقد تحصل بما ذكرنا كله أن طاعة الرجل ورياضته وتضييقه على نفسه وتوفيره الفيء والغنائم على غيره لم يكن إلا خديعة ومكيدة وإطفاء لنور الله وهدماً لأساس الإسلام وإغواءً للمسلمين.

كالشيطان الذي أراد إضلال عابد بني إسرائيل وإغواءه، فتقرّب إليه من جهة البرّ والعبادة لما يئس من سائر العبادات، فانطلق إلى منزله فأقام حذاءه يصلي وكان العابد ينام والشيطان لا ينام، وهو يستريح والشيطان لا يستريح، فتحول إليه العابد وقد تقاصرت إليه نفسه واستصغر عمله، فقال: يا عبد الله بأي شيء قويت على هذه الصلاة؟ فلم يجبه، ثم عاد إليه فلم يجبه، ثم عاد إليه فقال: إني أذنبت ذنباً وأنا تائب منه فإذا ذكرت الذنب قويت عليها، فاغترّ العابد المسكين بما أتى به من الصلاة على أن يأتي بفاحشة ويتوب منها فتوصل بكثر صلاته إلى إضلاله.

وهكذا كان حال الأعرابي الجلف فمثله كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ـ إلى قوله ـ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ٨ ـ ١٥] هذا.

وقوله: **(رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي)** قال الشارح البحراني: إن المراد رحيله إلى الآخرة تاركاً للناس بعده في طرق متشعبة من الجهات لا يهتدي فيها من ضلّ عن سبيل الله، ولا يستيقن المهتدي في سبيل الله أنه على سبيله، لاختلاف طرق الضلال وكثرة المخالف له إليها.

أقول: هذا ظاهر معنى الكلام، وأما باطنه فهو: أن الأعرابي الجلف رحل عن الدنيا وترك الناس حيارى وأوقعهم بما أبدعه من سننه وسيره وبدعاته وحيله ومكائده وتمويهاته في

الفتنة والضلال والخزي والنكال، لا سيما ما قرره من الشورى وجعلها بين الستة أوجب تفرّق الناس عن الصراط المستقيم أيادي سبأ وأيدي سبأ.

فمنهم من قد كان أشرب قلبه حب الشيخين واستحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه فضلّ عن السبيل المقيم وهوى أسفل درك الجحيم.

ومنهم من كان طالباً للهداية إلا أنه نظر إلى اختلاف طرق الضلال والهدى وكثرة السالكين إلى الأولى وقلتها إلى الأخرى، فبقي تائهاً متحيّراً بين السبيلين فلم يتمكن من تحصيل السبيل ورفع الشك والتحير من البين، كما أشار إلى ذلك في الخطبة الخمسين بقوله:

إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين الله، فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

والحاصل، أن عمر بتلبيسه الحق بالباطل والباطل بالحق وخلطه الصالح بالسيء وإيقاعه الاشتباه بينهما أوقع الناس في الشك والضلال خصوصاً جعله أمير المؤمنين عليه السلام وباب علم النبيين قريناً للخمسة الألواد، وترشيحه كلاً منهم بأهلية الخلافة، ألقى التفرقة بين الأمة وشقّ عصا الجماعة، واختلفت بذلك الآراء وتشتت الأهواء وتشعبت الطرق وتفرقت السبل.

ويدل على ذلك صريحاً ما نقله العلامة الحلّي في كتاب **(نهج الحق)** من كتاب **(العقد)** لابن عبد ربه: أن معاوية قال لابن أبي الحصين: أخبرني ما الذي شتّت أمر المسلمين وجماعتهم وفرّق ملأهم وخالف بينهم؟ فقال: قتل عثمان، قال: ما صنعت شيئاً؟ قال: فسير عليّ عليه السلام إليك، قال: فما صنعت شيئاً؟ قال: ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين، فقال: فأنا أخبرك أنه لم يشتّت بين المسلمين ولا فرّق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر في ستة.

ثم فسر معاوية ذلك في آخر الحديث فقال: لم يكن من الستة رجل إلا رجاها لنفسه ورجاها لقومه وتطلّعت إلى ذلك أنفسهم ولو أن عمر استخلف كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف، انتهى[1].

---

(١) الطرائف: ٤٨٣، والبحار: ٣١/ ٥٤.

فقد تحصل بما ذكرنا كله أن المراد بتركه لهم في طرق متشعبة إثارته الفتنة العامة بين المسلمين والضلالة العمياء التي لم ينج منها أحد إلا المخلصين، فإن عباد الله المخلصين ليس له سلطان عليهم كأخيه الشيطان اللعين، وإنما سلطانه على الذين يتولونه وهم به مقتدون، وهو الهادي وأنهم المهتدون، لعنه الله ومن تبعه من الملعونين المردودين.

تنبيهان: الأول

إعلم أن الشارح المعتزلي قد أطال الكلام في شرح هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام وذكر من مناقب عمر على زعمه ومثالبه ومطاعنه والأخبار العامية الواردة في شأنه من سيره وأخلاقه وكلماته فصلاً طويلاً أورث الإطناب الممل للناظرين حتى صار شرح هذا الكلام مجلداً منفرداً شرحه للنهج وهو المجلد الثاني عشر منه.

ولما رأيت أن نقل ما أتى به وجرحه والاعتراض عليه حسبما جرت عليه عادتنا في الشرح يحتاج إلى مجلد مستقل وبسط بسيط تشمئز منه الطباع وتملّ الأذهان، طوينا عن التعرض له كشحاً ولكني أقول إجمالاً:

أما سير عمر وأخلاقه وأطواره فالعمر أعزّ وأنفس من أن يُصرف إلى ذكرها ويضيع في بيان مثلها.

وأما مطاعنه ومثالبه فهي صحيحة لا ريب فيها وأجوبة قاضي القضاة عنها مندفعة بما اعترض به المرتضى عليها في **(الشافي)** حسبما حكاه تفصيلاً.

وأما مناقشة الشارح في بعض تلك الاعتراضات فقد رواها العلامة المجلسي «ره» في مجلّد الفتن من **(البحار)** ولا حاجة لنا إلى نقلها ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع إلى محاله التي نبهنا عليها.

وأما الأحاديث التي رواها في فضل عمر موضوعة مجهولة ومجعولة، وآثار الوضع عليها ظاهرة واضحة وقد مر الإشارة إلى بعضها في شرح الكلام المائتين والتاسع.

نعم قد ذكر الشارح في تضاعيف كلامه في المقام أخباراً عامية صريحة في أحقية خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وبطلان خلافة غيره، وأتبعها بكلام طويل جرى بينه وبين النقيب أبي جعفر وهو كلام لطيف كاشف عن سوءات عمر وفضائحه وعن كفره ونفاقه وكونه في مقام الاعتراض على ما يقوله رسول الله صلى الله عليه وآله والمعارضة له وعن أن عمدة نظره فيما أسسه وأتى به إنما كانت إلى حبّ السلطنة والرئاسة لا الإشفاق على الإسلام والأمة كما يزعمه العامة، فأحببت نقل هذا الكلام على طوله لأنه من لسان من هواه مع عمر أثبت وأقوى وألذّ وأحلى، فأقول:

قال الشارح بعدما ذكر طائفة من الأخبار الدالة على خلافة أمير المؤمنين ما هذا لفظه:

سألت النقيب أبي[(١)] جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد وقد قرأت عليه هذه الأخبار فقلت له: ما أراها إلا تكاد تكون دالة على النص ولكني أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نص رسول الله على شخص بعينه كما استبعدنا من الصحابة على ردّ نصه على الكعبة وشهر رمضان وغيرهما من معالم الدين.

فقال: أبيت إلا ميلاً إلى المعتزلة.

ثم قال: إن القوم لم يكونوا يذهبون إلى أنها من معالم الدين وأنها جارية مجرى العبادات الشرعية كالصلاة والصوم ولكنهم كانوا يجرونها مجرى الأمور الدنيوية مثل تأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرعية وما كانوا بهذا الأمر وأمثال هذا من مخالفة نصوصه ﷺ إذا رأوا المصلحة في غيرها ألا تراه كيف نص على إخراج أبي بكر وعمر في جيش أسامة ولم يخرجا لما رأيا أن في مقامهما مصلحة لله وله ﷺ وللملة وحفظاً للبيضة ودفعاً للفتنة.

وقد كان رسول الله ﷺ يخالف وهو حيّ في أمثال ذلك فلا ينكره ولا يرى به بأساً.

ألست تعلم أنه نزل في غزوة بدر منزلاً على أن يحارب قريشاً فيه فخالفته الأنصار وقالت له: ليس الرأي في نزولك هذا المنزل فاتركه وانزل في منزل كذا، فرجع إلى آرائهم.

وهو الذي قال للأنصار عام قدم إلى المدينة: لا توبروا النخل، فعملوا على قوله فخاست نخلهم في تلك السنة ولم تثمر حتى قال لهم: أنتم أعرف بأمر دنياكم وأنا أعرف بأمر دينكم.

وهو الذي أخذ الفداء من أسارى بدر فخالفه عمر فرجع إلى تصويب رأيه بعد أن فات الأمر وخلص الأسارى ورجعوا إلى مكة.

وهو الذي أراد أن يصالح الأحزاب على ثلث تمر المدينة فرجعوا عنه، فأتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وخالفاه فرجع إلى قولهما.

وقد كان قال ﷺ لأبي هريرة: أخرج فناد في الناس: من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة، فأخبر أبو هريرة عمر بذلك فدفعه في صدره حتى وقع على الأرض فقال: لا تقلها فإنك إن تقلها يتكلوا عليها ويدعوا العمل، فأخبر أبو هريرة رسول الله ﷺ بذلك

(١) «أبا» في نسخة.

فقال: **«لا تقلها وخلّهم يعملون»**، فرجع إلى قول عمر.

وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك كإسقاطهم سهم ذوي القربى وإسقاطهم سهم المؤلفة قلوبهم وهذان الأمران أدخلا في باب الدّين ما في باب الدنيا.

وقد عملوا بآرائهم أموراً لم يكن لها ذكر في السنة، كحد الخمر فإنهم عملوه اجتهاداً ولم يحد رسول الله ﷺ شاربي الخمر وقد شربها الجمّ الغفير في زمانه بعد نزول آية التحريم، ولقد كان أوصاهم في مرضه: **«أن أخرجوا نصارى نجران من جزيرة العرب»**، فلم يخرجوهم حتى مضى صده من خلافة عمر وعملوا في أيام أبي بكر برأيهم في ذلك واستصلاحهم، وهم الذين هدموا المسجد بالمدينة وحوّلوا المقام بمكة وعملوا بمقتضى ما يغلب في ظنونهم من المصلحة ولم يقفوا مع موارد النص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد، فرجّح كثير منهم القياس على النص حتى استحالت الشريعة وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة.

قال النقيب: وأكثر ما كانوا يعملون بآرائهم فيما يجري مجرى الولايات والتأمير والتدمير وتقرير قواعد الدولة وما كانوا يقفون مع نصوص رسول الله ﷺ وتدبيراته إذا رأوا المصلحة في خلافها، كأنهم يقيدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظاً ولأنهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله وتقدير ذلك القيد: افعلوا كذا، إن رأيتموه مصلحة.

فأما مخالفتهم فيما هو محض الشرع والدين وليس بمتعلق بأمور الدنيا، فإنه يقل جداً نحو أن يقول: الوضوء شرط في الصلاة، فيجمعوا على ردّ ذلك ويجيزوا الصلاة من غير وضوء، أو يقول: صوم شهر رمضان واجب، فيطبقوا على مخالفة ذلك ويجعلوه شوالاً عوضاً عنه، فإنه بعيد إذ لا غرض لهم فيه ولا يقدرون على إظهار مصلحة عثروا عليها خفيت عنه ﷺ.

والقوم الذين كانوا قد غلب على ظنونهم أن العرب لا تطيع علياً، فبعضها للحسد، وبعضها للوتر والثأر، وبعضها لاستحداثهم سنه ﷺ، وبعضها لاستطالته عليهم ورفعه عنهم، وبعضها كراهية اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد، وبعضها للخوف من شدة وطئه وشدته في دين الله، وبعضها لرجاء تداول قبائل العرب الخلافة إذا لم يقتصر بها على بيت مخصوص عليه فيكون رجاء كل حيّ لوصولهم إليها ثابتاً مستمراً، وبعضها يبغضه لبغضهم من قرابته لرسول الله ﷺ وهم المنافقون من الناس ومن في قلبه زيغ من أمر النبوة.

فأصفق الكل إصفاقاً واحداً على صرف الأمر لغيره، فقال رؤساؤهم: بأنّا خفنا الفتنة

وعلمنا أن العرب لا تطيعه وتتركه وتأوّلوا عند أنفسهم النص وقالوا: إنه النص ولكن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب والغائب قد يترك لأجل المصلحة الكلية.

وأعانهم إلى ذلك مسارعة الأنصار إلى ادعائهم الأمر وإخراجهم سعد بن عبادة من بيته وهو مريض لينصبوه خليفة فيما زعموا، واختلط الناس وكثر الخبط وكادت الفتنة أن يضطرم نارها فوثب رؤساء المهاجرين وبايعوا أبا بكر وكانت فلتة كما قال قائلهم، وزعموا أنهم أطفأوا ثائرة الأبصار.

فمن سكت من المسلمين وأغض ولم يتعرض فقد كفاهم أمر نفسه، ومن قال سراً أو جهراً أو فلاناً قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ذكره أو نص عليه أو أشار إليه أسكتوه في الجواب بأنّا بادرنا إلى عقد البيعة مخافة الفتنة.

واعتذروا عنده ببعض ما تقدم، إما أنه حديث السن، أو تبغّضه للعرب لأنه وترها وسفك دماءها، أو لأنه صاحب زهو وتيه، أو كيف يجتمع الخلافة والنبوة في غرس واحد.

بل قد قالوا في العذر ما هو أقوى منها وآكد، قالوا: أبو بكر أقوى على هذا الأمر منه لا سيما وعمر يعضده ويساعده، والعرب تحب أبا بكر ويعجبها لينه ورفقه وهو شيخ مجرّب للأمور لا يحسده أحد ولا يحقد عليه أحد ولا يبغضه أحد، وليس بذي شرف في النسب فيشمخ على الناس بشرفه، ولا ذي قربى من رسول الله صلى الله عليه وآله فيدلّ بقربه ودع ذا كله فإنه فضل مستغنى عنه.

قالوا: لو نصبنا عليّاً ارتدّ الناس عن الإسلام وعادت الجاهلية كما كانت فأيما أصلح في الدين الوقوف مع النص المفضي إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهلية؟ أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدين وإن كان فيه مخالفة النص؟.

قال: وسكت الناس عن الإنكار لأنهم كانوا متفرقين.

فمنهم من هو مبغض شانىء لعليّ فالذي ثمّ من صرف الأمر عنه قرّة عينه وبرد فؤاده.

ومنهم ذو الدّين وصحة اليقين إلا أنه لما رأى كبراء الصحابة قد اتفقوا على صرف الأمر عنه ظن أنهم إنما فعلوا ذلك خلاف النص من رسول الله بنسخ ما قد كان سمعه من النص على أمير المؤمنين لا سيما ما رواه أبو بكر من قول النبي صلى الله عليه وآله «الأئمة من قريش»، فإن كثيراً من الناس توهموا أنه ما ينسخ النص الخاص وأن معنى الخبر أنكم مجازون في نصب إمام من قريش من أي بطون قريش كان فإنه يكون إماماً.

وأكد أيضاً في نفوسهم رفض النص الخاص ما سمعوه من قول رسول الله ﷺ ما رواه[١] المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وقوله: سألت الله أن لا يجمع أمتي على ضلال فأعطانيها فأحسنوا الظن بعاقدي البيعة وقالوا: هؤلاء أعرف بأغراض رسول الله ﷺ من كل أحد فأمسكوا وكفوا عن الإنكار.

ومنهم فرقة أخرى وهم أكثرية الأعراب وجفاة طغام أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، فهؤلاء مقلّدون لا يسألون ولا ينكرون ولا يبحثون وهم مع أمرائهم وولاتهم لو أسقطوا عنهم الصلاة الواجبة لتركوها.

فلذلك محق النص وخفي ودرس وقويت كلمة العاقدين لبيعة أبي بكر.

وقواها زيادة على ذلك اشتغال علي وبني هاشم برسول الله ﷺ وإغلاق بابهم عليهم وتخليتهم الناس يعملون ما شاؤا وأحبوا من غير مشاركة لهم فيما هم فيه، لكنهم أرادوا استدراك ذلك بعد ما فات، وهيهات الفائت لا رجعة له.

وأراد علي بعد ذلك نقض البيعة فلم يتم له ذلك، وكانت العرب لا ترى الغدر ولا ينقض البيعة صواباً كانت أو خطأ، وقد قالت له الأنصار وغيرها: أيها الرجل لو دعوتنا إلى نفسك قبل البيعة لما عدلنا بك أحداً ولكنا قد بايعنا فكيف السبيل إلى نقض البيعة بعد وقوعها؟.

قال النقيب: ومما جرّأ عمر على بيعة أبي بكر والعدول عن علي عليه السلام مع ما كان يسمعه من الرسول ﷺ في أمره أنه أنكر مراراً على رسول الله ﷺ أموراً اعتمدها فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ إنكاره بل رجع في كثير منها إليه، أشار عليه بأمور كثيرة نزل القرآن فيها بموافقته فأطمعه ذلك في الإقدام على اعتماد كثير من الأمور التي كان يرى فيها المصلحة مما هي خلاف النص.

وذلك نحو إنكاره الصلاة على عبد الله بن أُبيّ المنافق، وإنكاره فداء أسارى بدر، وإنكاره عليه تبرّج نسائه للناس، وإنكاره قضية الحديبية، وإنكاره أمان العباس لأبي سفيان بن حرب، وإنكاره واقعة أبي حذيفة بن عتبة، وإنكاره أمره ﷺ بالنداء من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، وإنكاره أمره ﷺ بذبح النواضح، وإنكاره على النساء هيبتهن له دون رسول الله إلى غير ذلك من أمور كثيرة تشتمل عليها كتب الحديث.

ولو لم يكن إلا إنكاره قول رسول الله ﷺ في مرضه: «ائتوني بدواة وكتف أكتب لكم

---

(١) «رآه» في نسخة.

ما لا تضلّون بعدي»(١)، وقوله: ما قال وسكوت رسول الله ﷺ عنه وأعجب الأشياء أنه قال ذلك اليوم: حسبنا كتاب الله، فافترق الحاضرون من المسلمين في الدار فبعضهم يقول: القول ما قال عمر، فقال رسول الله ﷺ وقد كثر اللغط وعلت الأصوات: **«قوموا عني فما ينبغي لنبي أن يكون عنده هذا التنازع»**(٢).

فهل بقي للنبوة مزيّة أو فضل إذا كان الاختلاف قد وقع بين القولين وميل المسلمين بينهما فرجح قوم هذا وقوم هذا؟ أفليس ذلك دالاً على أن القوم سوّوا بينه وبين عمر وجعلوا القولين مسألة خلاف ذهب كل فريق منهم إلى نصرة واحد منهما كما يختلف اثنان من عرض المسلمين في بعض الأحكام فينصر قوم هذا وينصر ذاك آخرون، فمن بلغت قوته وهمّته إلى هذا كيف ينكر منه أن يبايع أبا بكر لمصلحة رآها ويعدل عن النص ومن الذي ينكر عليه ذلك وهو في القول الذي قاله للرسول ﷺ في وجهه غير خائف من الأنصار ولا أنكر عليه رسول الله ولا غيره وهو أشدّ من مخالفة النص في الخلافة وأفظع وأشنع.

قال النقيب: على أن الرجل ما أهمل أمر نفسه بل أعدّ أعذاراً وأجوبة.

وذلك لأنه قال لقوم عرضوا له الحديث النص: أن رسول الله رجع عن ذلك بإقامته أبا بكر في الصلاة مقامه وأوهمهم أن ذلك جار مجرى النص عليه بالخلافة، وقال يوم السقيفة: أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدّمهما رسول الله ﷺ في الصلاة.

ثم أكد ذلك بأن قال لأبي بكر وقد عرض عليه البيعة: أنت صاحب رسول الله ﷺ في المواطن كلها شدّتها ورخاتها، رضيك لديننا أفلا نرضاك لدنيانا.

ثم عاب علياً بخطبة بنت أبي جهل فأوهم أن رسول الله ﷺ كرهه لذلك ووجد عليه وأرضاه عمرو بن العاص فروى حديثاً افتعله واختلقه على رسول الله ﷺ قال: سمعته يقول: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليّي الله وصالح المؤمنين، فجعلوا ذلك كالناسخ لقوله ﷺ: **«من كنت مولاه فهذا مولاه»**.

قلت للنقيب: أيصحّ النسخ في مثل هذا؟ أليس هذا نسخاً للشيء قبل تقضي وقته؟.

فقال: سبحان الله من أين تعرف العرب هذا وأنى لها أن يتصوره فضلاً عن أن تحكم بعدم جوازه فهل يفهم حذاق الأصولين هذه المسألة فضلاً عن حمقى العرب؟ هؤلاء قوم ينخدعون بأدنى شبهة ويستمالون بأضعف سبب ويبني الأمور معهم على ظواهر النصوص

(١) نهج السعادة: ٥/٢٦٩، وبحار الأنوار: ٢٢/٤٧٢ ح ٢١.
(٢) كتاب الأربعين: ٢٥٣، ومكاتيب الرسول: ٣/٧٢٥.

وأوائل الأدلة وهم أصحاب جمل وتقليد لا أصحاب تفصيل ونظر.

قال: ثم أكد حسن ظن الناس بهم إن خلعوا أنفسهم عن الأموال وزهدوا في متاع الدنيا وزخرفها وسلكوا مسالك الرفض لزينتها والرغبة والقناعة بالتطفيف النزر منها وأكلوا الخشن ولبسوا الكرابيس.

ولما ألقت إليهم أفلاذ كبدها وفرّوا الأموال على الناس وقسموها بينهم ولم يتدنّسوا منها بقليل ولا كثير فمالت إليهم القلوب وأحبتهم النفوس، وحسنت فيهم الظنون، وقال من كانت في نفسه شبهة منهم أو وقفة في أمرهم: لو كان هؤلاء قد خالفوا النص لهوى أنفسهم لكانوا أهل الدنيا ويسط عليهم الميل إليها والرغبة فيها والاستئثار بها، وكيف يجمعون على أنفسهم بين مخالفة النص وترك لذّات الدنيا ومآربها، فيخسروا الدنيا والآخرة، وهذا لا يفعله عاقل وذو لباب وآراء صحيحة.

فلم يبق عند أحد شك في أمرهم ولا ارتياب لفعلهم وثبت العقائد على ولائهم وتصويب أفعالهم ونسوا لذة الرئاسة وإن أصحاب الهمم العالية لا يلتفتون إلى المأكل والمشرب والمنكح وإنما يريدون الحكم والرئاسة ونفوذ الأمر، كما قال الشاعر:

وقد رغبت عن لذة المال أنفس وما رغبت عن لذة الأمر والنهي

قال: والفرق بين الرجلين وبين الثالث ما أصاب الثالث وقتل تلك القتلة وخلعه الناس وحصروه وضيّقوا عليه بعد أن توالى إنكارهم أفعاله في وجهه وفسّقوه وذلك لأنه استأثر هو وأهله بالأموال وانغمسوا فيها واستبدّوا بها فكانت طريقته وطريقتهم مخالفة لطريقي الأولين، فلم تصبر العرب على ذلك.

ولو كان عثمان سلك مسلك عمر في الزهد وجمع الناس، وردع الأمراء والولاة عن الأموال، وتجنب استعمال أهل بيته، ووفّر أعراض الدنيا وملاذها وشهواتها على الناس زاهداً فيها تاركاً لها معرضاً عنها لما ضرّه شيء قط ولا أنكر عليه أحد قط ولو حوّل الصلاة من الكعبة إلى بيت المقدس بل لو أسقط عن الناس إحدى الصلوات الخمس واقتنع منهم بأربع.

وذلك لأن همم الناس مصروفة إلى الدنيا والأموال فإذا وجدوها سكتوا وإذا نفدوها هاجوا واضطربوا.

ألست ترى رسول الله ﷺ كيف قسّم قسائم هوازن على المنافقين وعلى أعدائه الذين يتمنون قتله وموته وزوال دولته فلما أعطوه أحبّوه أما كلهم أو أكثرهم، ومن لم يحبه منهم بقلبه جاهله وداره وكفّ عن إظهار عداوته والإجلاب عليه.

ولو أن أمير المؤمنين عليه السلام صانع أصحابه بالمال وإعطاء الوجوه والرؤساء لكان أمره إلى الإنتظام أقرب، ولكنه رفض جانب التدبير الذي بنوا وآثر لزوم الدين وتمسك بأحكام الشريعة، والملك أمر آخر غير الدين فاضطرب عليه أصحابه وهرب كثير منهم إلى عدوّه.

قال الشارح المعتزلي: وقد ذكرت في هذا الفصل خلاصة ما حفظته عن النقيب أبي جعفر ولم يكن إمامي المذهب ولا كان يبرأ من السلف ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني وبينه على أن العلوي لو كان كرامياً لا بد أن يكون عنده نوع من تعصب وميل على الصحابة وإن قلّ، انتهى.

وأقول: لله درّ النقيب فلقد أجاد فيما أفاد وجانب العصبية والعناد وأبان عن مخّ ما يقوله الفرقة الحقة الإمامية وتذهب إليه وتدين به ببيان ليس فوقه بيان، وقد اتضح بما ذكره كل الوضوح أن عمر كان دائماً في مقام المعارضة لرسول الله صلى الله عليه وآله والطعن والإزراء عليه والرد لأقواله وأفعاله في حياته صلى الله عليه وآله وبعد موته، وأنه أنكر النص على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وأوّله بتأويلات سخيفة بأحاديثه المختلفة المجعولة ومعاذيره الباطلة، كما اتضح أن نكتة زهده في الدنيا إنما كانت حب الملك والرئاسة ونفوذ الأمر لا الزهد الحقيقي الذي أوهمه للناس وظنه في حقه الهمج الرعاء، فويل له ثم ويل له من ديّان يوم الدين، ولعنة الله على جميع الظالمين والغاصبين لحق آل محمد سلام الله عليهم أجمعين.

التنبيه الثاني

قد ظهر لك بما حققناه واتضح لك كل الوضوح أن هذا الكلام الذي نحن في شرحه إن كان نظره عليه السلام فيه إلى عمر فليس هوناً له كما توهمه الشارح المعتزلي وغيره، وإن كان إشارة إلى أبي بكر كما زعمه الشارح البحراني فلا يكون ثناء له أيضاً.

وأقول تأكيداً لهذا المعنى: كيف يمكن أن يمدحهما أمير المؤمنين مع ما صدر عنهما من الإلحاد والإرتداد والشّقاق والنفاق والمحادّة لله عزّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وآله ولأوليائه عليهم السلام وإتيانه من الكبائر والجرائر العظيمة التي لا تحصيها الألسنة والأفواه ولا يحيط بها الدفاتر والأقلام وقد أفصح عنها أئمتنا الأطهار في أخبارهم وصرّح بها علماؤنا الأبرار في زبرهم وآثارهم.

وأول من أبدى سوآتهما بعد الله وبعد رسوله هو أمير المؤمنين عليه السلام فاحتذى حذوه ذريته البررة وشيعته الطيبة وسلكوا مسلكه وكلماته المتضمنة للعنهما والطعن والقدح والإزراء عليهما والتظلم والشكوى منهما في النهج وغيره كثيرة جداً.

وأكثرها احتواء لذلك دعاؤه المعروف بدعاء صنمي قريش الذي كان يواظب عليه السلام عليه

في قنوته وسائر أوقاته، وقد رواه غير واحد من أصحابنا قدس الله أرواحهم في مؤلفاتهم، وأحببت نقله هنا لكونه أنقض لظهر الناصبين وأرغم أنف المعاندين وأبطل لزعم من توهم ثناء أمير المؤمنين لهذين الذين لا حريجة لهما في الدين.

فأقول وبالله التوفيق:

في كتاب **البلد الأمين، وجنة الأمان الواقية** المشتهر بالمصباح للشيخ العالم الفاضل الكامل إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمد الكفعمي رضي الله عنه إن هذا الدعاء رفيع الشأن عظيم المنزلة، ورواه عبد الله بن عباس عن علي عليه السلام أنه كان يقنت به وقال: إن الداعي به كالرامي مع النبي صلى الله عليه وآله في بدر وأحد وحنين بألف ألف سهم وهو:

اللهم صلّ على محمد وآل محمد والعن صنمي قريش وجبتيها وطاغوتيها وإفكيها وابنتيها اللذين خالفا أمرك، وأنكرا وحيك، وجحدا أنعامك، وعصيا رسولك، وقلّبا دينك، وحرّفا كتابك، وعطلا أحكامك، وأبطلا فرائضك، وألحدا في آياتك وعاديا أولياءك، ووإليا أعداءك، وخرّبا بلادك، وأفسدا عبادك.

اللهم العنهما وأتباعهما وأولياءهما وأشياعهما ومحبيهما فقد أخربا بيت النبوة وردما بابه ونقضا سقفه، وألحقا سماءه بأرضه وعاليه بسافله، وظاهره بباطنه، واستأصلا أهله، وأبادا أنصاره، وقتلا أطفاله، وأخليا منبره من وصيّه، ودإريا علمه، وجحدا إمامته، وأشركا بربهما، فعظم ذنبهما، وخلّدهما في سقر، وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر.

اللهم العنهم بعدد كل منكر أتوه، وحق أخفوه، ومنبر علوه، ومؤمن أرجوه، ومنافق ولوه، ووليّ آذوه، وطريد آووه، وصادق طردوه، وكافر نصروه، وإمام قهروه، وفرض غيّروه، وأثر أنكروه، وشر آثروه، ودم أراقوه، وخبر بدّلوه، وكفر نصبوه، وإرث غصبوه، وفيء اقتطعوه، وسحت أكلوه، وخمس استحلّوه، وباطل أسسوه، وجور بسطوه، ونفاق أسرّوه، وغدر أضمروه، وظلم نشروه، ووعد أخلفوه، وأمان خانوه، وعهد نقضوه، وحلال حرّموه، وحرام أحلّوه، وبطن فتقوه، وجنين أسقطوه، وضلع دّقوه، وصكّ مزقوه، وشمل بدّدوه، وعزيز أذلّوه، وذليل أعزّوه، وحق منعوه، وكذب دلّسوه، وحكم قلّبوه، وإمام خالفوه.

اللهم العنهم بكل آية حرفوها، وفريضة تركوها، وسنّة غيّروها، ورسوم منعوها، وأحكام عطّلوها، وبيعة نكثوها، ودعوى أبطلوها، وبينة أنكروها، وحيلة أحدثوها، وخيانة أوردوها، وعقبة ارتقوها، ودباب دحرجوها، وأزياف لزموها، وشهادات كتموها، ووصيّة ضيعوها.

اللهم العنهما في كمون السر وظاهر العلانية لعناً كثيراً أبداً دائماً دائباً سرمداً لا انقطاع لأمده، ولا نفاد لعدده، لعناً يغدو أوّله ولا يروح آخره، لهم ولأعوانهم وأنصارهم ومحبّيهم ومواليهم والمسلمين لهم والمائلين إليهم والناهضين باحتجاجهم والمتقدين بكلامهم والمصدّقين بأحكامهم.

ثم قل أربع مرات:

اللهم عذّبهم عذاباً يستغيث منه أهل النار آمين ربّ العالمين[1].

بيان

قال الشيخ عند نقله هذا الدعاء من غوامض الأسرار وكرائم الأذكار: وكان أمير المؤمنين عليه السلام مواظباً عليه في ليله ونهاره وأوقات أسحاره.

قال شارح هذا الدعاء الشيخ العالم أبو السعادات أسعد بن عبد القادر في كتابه (**رشح البلاء في شرح هذا الدعاء**): «الصنمان» الملعونان هما الفحشاء والمنكر وإنما شبّههما بالجبت والطاغوت لوجهين: إما لكون المنافقين يتبعونهما في الأوامر والنواهي الغير المشروعة كما اتّبع الكفار هذين الصنمين، وإما لكون البراءة منهما واجبة لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقوله: الذين خالفا أمرك، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فخالفا الله ورسوله في وصيّه بعدما سمعا من النص عليه ما لا يحتمله هذا المكان، ومنعاه من حقه فضلّوا وأضلّوا وهلكوا وأهلكوا.

و «إنكارهما الوحي» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

و «جحودهما الأنعام» إشارة إلى أنه تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين ليتبعوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، فإذا أبوا أحكامه وردّوا كلمته فقد جحدوا نعمته وكانوا كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وأما «عصيانهما الرسول صلى الله عليه وآله» فلقوله صلى الله عليه وآله: «**يا علي من أطاعك فقد أطاعني ومن عصاك فقد عصاني**»[2]، وأما «قلبهما الدين» فهو إشارة إلى ما غيّراه من دين الله كتحريم عمر المتعتين وغير ذلك مما لا يحتمله هذا المكان.

وقوله: «وحرّفا كتابك» يريد به حمل الكتاب على خلاف مراد الشرع وترك أوامره

(١) بحار الأنوار: ٨٢/ ٢٦١، والمحتضر: ٦٢. (٢) الكافي: ١/ ٤٤٠، والأمالي: ٧٠١ ح ٩٥٧.

ونواهيه، و «محبتهما الأعداء» إشارة إلى الشجرة الملعونة بني أميّة ومحبتهما لهم حتى عهدا لهم أمر الخلافة من بعدهما، وجحدهما الآلاء كجحدهما النعماء وقد مر ذكره، و «تعطيلهما الأحكام» يعلم مما تقدم ويأتي وكذا إبطال الفرائض.

و «الإلحاد في الدين» الميل عنه و «معاداتهما الأولياء» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية، و «تخريبهما البلاد وإفسادهما العباد» بما هدموا من قواعد الدين وتغييرهم أحكام الشريعة وأحكام القرآن وتقديم المفضول على الأفضل.

وقوله: «فقد أخربا بيت النبوة» إشارة إلى ما فعله الأول والثاني مع علي وفاطمة من الإيذاء وأرادا إحراق بيت عليّ بالنار وقادوه قهراً كالجمل المخشوش وضغطا فاطمة في بابها حتى أسقطت بمحسن وأمرت أن تدفن ليلاً لئلا يحضر الأول والثاني جنازتها وغير ذلك من المناكير.

وعن الباقر عليه السلام: ما أهرقت محجمة دم إلا وكان وزرها في أعناقهما إلى يوم القيامة من غير أن ينتقص من وزر العالمين شيء[1].

وسئل زيد بن علي بن الحسين عليه السلام وقد أصابه سهم في جبينه: من رماك به؟ قال: هما رمياني هما ضلاني.

وأما «المنكرات التي أتوها» فكثيرة جداً وغير محصورة عدّاً حتى روي أن عمر قضى في الجدّة بسبعين قضية غير مشروعة، وقد ذكر العلامة قدّس الله سره في كتاب (**كشف الحق ونهج الصدق**) فمن أراد الاطلاع على جملة من مناكرهم وما صدر من الموبقات من أولهم إلى آخرهم فعليه بالكتاب المذكور وكذا كتاب (**الإستغاثة في بدع الثلاثة**)، وكذا كتاب (**مطالب العواصب في مثالب النواصب**)، وكتاب (**الفاضح**) وكتاب (**صراط المستقيم**) وغير ذلك مما لا يحتمل المكان ذكر الكتب فضلاً عما فيها.

و «الحق المخفي» إشارة إلى فضائل علي عليه السلام وما نص عليه النبي صلى الله عليه وآله في الغدير وكحديث الطائر وقوله صلى الله عليه وآله: «**لأعطين الراية غداً**» الحديث، وحديث السّطل والمنديل وهوى النجم في داره ونزول (هل أتى) فيه وغير ذلك مما لا يتسع لذكره هذا الكتاب.

و «إرجاؤهم المؤمن» إشارة إلى أصحاب علي عليه السلام كسلمان ومقداد وعمار وأبي ذرّ، والإرجاء التأخير ومنه قوله تعالى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] مع أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقدم هؤلاء وأشباههم على غيرهم.

و «توليتهم المنافق» إشارة إلى معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والوليد بن

---

(١) البحار: ٨٢/ ٢٦٤.

عقبة وعبد الله بن أبي سرح والنعمان بن بشير، و «إيذاؤهم الولي» يعني علياً عليه السلام، و «إيواؤهم الطريد» هو الحكم بن أبي العاص طرده النبي صلى الله عليه وآله فلما تولى عثمان آواه، و «طردهم الصادق» إشارة إلى أبي ذر وطرده عثمان إلى الرّبذة وقد قال النبي صلى الله عليه وآله في حقه: **«ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء»** الحديث.

و «نصرهم الكافر» إشارة إلى كل من خذل علياً عليه السلام وحادّ الله سبحانه ورسوله وهو سبحانه يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية، و «الإمام المقهور» منهم يعني نفسه عليه السلام.

قوله عليه السلام: «وفرض غيّروه» تغييرهم الفرض إشارة إلى ما روي عنه صلى الله عليه وآله أنه رأى ليلة الإسراء مكتوباً على ورقة من آس: أني افترضت محبة علي على أمتك فغيّروا فرضه ومهّدوا لمن بغضه وسبّه حتى سبّوه على منابرهم ألف شهر.

و «الأثر الذي أنكروه» إشارة إلى استئثار النبي علياً من بين أفاضل أقاربه وجعله أخاً ووصياً، وقال له: **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى»** أو غير ذلك، ثم بعد ذلك كله أنكروه.

و «الشرّ الذي آثروه» هو إيثارهم الغير عليهم وهو إيثار شر مجهول متروك على خير مأخوذ ومعلوم هذا مثل قوله صلى الله عليه وآله: **«عليّ خير البشر من أبى فقد كفر»**.

و «الدم المهراق» هو جميع ما قتل من العلويين لأنهم أسسوا ذلك كما ذكرنا من قبل من كلام الباقر عليه السلام: ما أهرقت محجمة دم (آه) حتى قيل: أريتكم إن الحسين أُصيب في يوم السقيفة.

و «الخبر المبدّل» منهم عن النبي صلى الله عليه وآله كثير كقولهم: أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة وغير ذلك مما هو مذكور في مظانه، و «الكفر المنصوب» هو أن النبي صلى الله عليه وآله نصب علياً علماً للناس وهادياً فنصبوا كافراً وفاجراً، و «الإرث المغصوب» هو فدك فاطمة وإرثها من أبيها، وكذا «الفيء المقتطع» هو فدك و «السّحت المأكول» هي التصرفات الفاسدة في بيت مال المسلمين، وكذا ما حصلوه من ارتفاع فدك من التمر والشعير فإنها كانت سحتاً محضاً.

و «الخمس المستحلّ» هو الذي جعله سبحانه لآل محمد فمنعهم إياه واستحلوه حتى أعطى عثمان مروان بن الحكم خمس أفريقية وكان خمسمائة ألف دينار بغياً وجوراً، و«الباطل المؤسس» هي الأحكام الباطلة التي أسسوها وجعلوها قدوة لمن بعدهم و «الجور المبسوط» هو بعض جورهم الذي مرّ ذكره.

و «النفاق الذي أسرّوه» هو قولهم في أنفسهم لما نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً علماً للخلافة قالوا: والله لا نرضى أن يكون النبوة والخلافة في بيت واحد، فلما توفي النبي صلى الله عليه وآله أظهروا

ما أسرّوه من النفاق، ولهذا قال علي عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا، أسرّوا الكفر فلما رأوا أعواناً عليه أظهروه.

وأما «الغدر المضمر» فهو ما ذكرناه من إسرارهم النفاق، و «الظلم المنشور» كثير أوله أخذهم الخلافة منه عليه السلام بعد فوت النبي صلى الله عليه وآله، و «الوعد المخلف» هو ما وعدوا النبي صلى الله عليه وآله من قبولهم ولاية علي والإئتمام به فنكثوه و «الأمان الذي خانوه» هو ولاية علي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية، والإنسان فيها هم لعنهم الله، و «العهد المنقوض» هو ما عاهدهم به النبي صلى الله عليه وآله يوم الغدير على محبة علي وولايته فنقضوا ذلك و «الحلال المحرّم» كتحريم المتعتين، وعكسه كتحليل الفقاع وغير ذلك.

و «البطن المفتوق» بطن عمار بن ياسر ضربه عثمان على بطنه فأصابه الفتق و «الجنين المسقط» هو محسن و «الضلع المدقوق والصكّ الممزوق» إشارة إلى ما فعلاه مع فاطمة عليها السلام من مزق صكها ودق ضلعها، و «الشمل المبدّد» هو تشتيت شمل أهل البيت وكذا شتتوا بين التأويل والتنزيل وبين الثقلين الأكبر والأصغر.

و «إعزاز الذليل» وعكسه معاوية وكذا الحق الممنوع قد تقدم ما يدل عليه و «الكذب المدلّس» مر معناه في قوله: وخبر بدّلوه و «الحكم المقلّب» مرّ معناه في أول الدعاء في قوله عليه السلام: وقلّبا دينك.

و «الآية المحرفة» مر معناه في قوله: وحرّفا كتابك و «الفريضة المتروكة» هي موالاة أهل البيت لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، و «السنّة المغيرة» كثيرة لا تحصى و «الرسوم الممنوعة» هي الفيء والخمس ونحو ذلك و «تعطيل الأحكام» يعلم مما تقدم و «البيعة المنكوثة» هي نكثهم بيعته كما فعل طلحة والزبير و «الدعوى المبطلة» إشارة إلى دعوى الخلافة وفدك، و «البينة المنكرة» هي شهادة علي والحسنين عليهم السلام وأمّ أيمن لفاطمة فلم يقبلوها.

و «الحيلة المحدثة» هي اتفاقهم أن يشهدوا على عليّ بكبيرة توجب الحدّ إن لم يبايع.

قوله: «وخيانة أوردوها» إشارة إلى يوم السقيفة لما احتجّ الأنصار على أبي بكر بفضائل علي عليه السلام وأنه أولى بالخلافة فقال أبو بكر: صدقتم ذلك، ولكنه نسخ بغيره لأني سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «**إنا أهل بيت أكرمنا الله بالنبوة ولم يرض لنا الدنيا وإن الله تعالى لا يجمع لنا بين النبوّة والخلافة**»[١]، وصدّقه عمر وأبو عبيدة وسالم مولى حذيفة على ذلك وزعموا أنهم

(١) الكافي: ٨/١٠٧، وبحار الأنوار: ٨٢/٢٦٤.

سمعوا هذا الحديث من النبي صلى الله عليه وآله كذباً وزوراً فشبهوا على الأنصار والأمة والنبي صلى الله عليه وآله قال: «**من كذّب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار**»[١].

وقوله: «وعقبة ارتقوها» إشارة إلى أصحاب العقبة وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وأبو سفيان وعتبة بن أبي سفيان وأبو الأعور السلمي والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص وأبو قتادة وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري لعنهم الله جميعاً اجتمعوا في غزوة تبوك على كؤد لا يمكن أن يجتاز عليها إلا فرد رجل أو فرد جمل، وكان تحتها هوّة على مقدار ألف رمح من تعدى عن المجرى هلك من وقوعه فيها، وتلك الغزوة كانت في أيام الصيف والعسكر تقطع المسافة ليلاً فراراً من الحر فلما وصلوا إلى تلك العقبة أخذوا دباباً كانوا هيأوها من جلد حمار ووضعوا فيها حصى وطرحوها بين يدي ناقة النبي صلى الله عليه وآله لينفروها به فتلقيه في تلك الهوّة فيهلك فنزل جبرائيل على النبي صلى الله عليه وآله بهذه الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤] الآية، وأخبره صلى الله عليه وآله بمكيدة القوم فأظهر الله تعالى برقاً مستطيلاً دائماً حتى نظر النبي صلى الله عليه وآله إلى القوم فعرفهم.

وإلى هذه الدّباب التي ذكرناها أشار بقوله: «ودباب دحرجوها» وسبب فعلهم هذا مع النبي صلى الله عليه وآله كثرة نصه على علي عليه السلام بالولاية والإمامة والخلافة وكانوا من قبل نصه أيضاً يسبّونه لأن النبي صلى الله عليه وآله سلّطه على كل من عصاه من طوائف العرب فقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم فما من بيت إلا وفي قلبه [بغض له][٢]، فانتهزوا في هذه الغزوة الفرصة وقالوا: إذا هلك محمد رجعنا إلى المدينة ونرى رأينا في هذا الأمر من بعده، وكتبوا بينهم كتاباً فعصم الله نبيه منهم وكان من فضيحتهم ما ذكرناه.

وقوله «وأزياف لزموها» الأزياف جمع زيف وهو الدرهم الرديء غير المسكوك الذي لا ينتفع به أحد شبّه أفعالهم الردية بالدرهم الزيف الذي لا يظهر في البقاع ولا يشترى به متاع فلأفعالهم الفظيعة وأقوالهم الشنيعة ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] الآية.

و «الشهادات المكتومة» هي ما كتموا من فضائله ومناقبه التي ذكرها النبي صلى الله عليه وآله وهي كثيرة جداً وغير محصورة عدّاً و «الوصية المضيعة» هي قول النبي صلى الله عليه وآله: «**أوصيكم بأهل بيتي خيراً**»[٣] وأمرهم بالتمسك بالثقلين وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، وأمثال ذلك،

---

(١) بحار الأنوار: ٨٢/ ٢٦٧، وكتاب سليم بن قيس: ٢٤١.

(٢) المحاسن: ١/ ١١٨ ح ١٢٧، والكافي: ١/ ٤٧ ح ٦.

(٣) الإرشاد: ١/ ١٨٤، واليقين: ٤٤٨.

انتهى كلامه رفع الله مقامه.

أقول: وقد كان الشارح ذكر شرح فقرات الدعاء بلا مراعاة الترتيب بينها فأوردته على ترتيب تسهيلاً للأمر بلا تغيير وتبديل فيما أتاه، هذا.

وقال المحدث العلامة المجلسي في قوله: وأزياف لزموها، في بعض النسخ بالراء المهملة جمع ريف بالكسر وهي أرض فيها زرع وخصب والسعة في المأكل والمشرب وما قارب الماء من أرض العرب أو حيث الماء والخضر والزرع ولا يخفى مناسبة الكلّ[1].

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است، مى فرمايد:

خدا را است شهرهاى فلان شخص - به قول بعض شارحين مراد از اين عمر بن الخطاب است و به قول بعضى غير او است - پس به تحقيق كه راست گردانيد كجى را و مداوا نمود مرض را و برپا داشت سنت را و باز پس انداخت فتنه را، رفت به زير خاك در حالتى كه پاك لباس بود و كم عيب، رسيد به خير خلافت و سبقت نمود به شرّ خلافت، ادا كرد به سوى خداى تعالى طاعت و عبادت او را و پرهيز كرد از او با ادا كردن حقّ او و رحلت نمود از دنيا و واگذشت مردمان را در طرق مختلفه و راه هاى متفرقه كه هدايت نمى يابد در آنها شخص گمراه و يقين تحصيل نمى تواند بكند شخص طالب هدايت.

شارح گويد: اگر نظر امام (عليه السلام) در اين كلام به عمر باشد و لفظ فلان كنايه از او باشد چنانچه بعض شراح همچنين فهميده اند، بايد به توريه حمل نمود چنانچه عادت ائمه(عليهم السلام) در كلماتى كه در حق خلفاى جور وارد شده بر اين جارى است.

(١) نهج السعادة: ٣٠٨/٨، وبحار الأنوار: ٢٦٨/٨٢.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والسابع والعشرون من المختار في باب الخطب

في وصف بيعته عليه السلام بالخلافة، وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة:

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُها، ومَدَدْتُمُوها فَقَبَضْتُها، ثُمَّ تَداكَكْتُمْ عَلَيَّ تَداكَّ الإِبِلِ الهِيمِ عَلىٰ حِياضِها يَوْمَ وِرْدِها، حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وسَقَطَتِ الرِّداءُ، وَوُطِىءَ الضَّعِيفُ، وبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وهَدَجَ إِلَيْهَا الكَبِيرُ، وتَحامَلَ نَحْوَهَا العَلِيلُ، وحَسَرَتْ إِلَيْهَا الكَعابُ[1].

اللغة

(**التداكّ**) الإزدحام الشديد، مأخوذ من الدكّ وهو الدّق و (**الهيم**) بالكسر العطاش و (**الورد**) بالكسر الشرب أو الإشراف على الماء دخله أو لم يدخله. وفي بعض النسخ: يوم ورودها و (**هدج**) يهدج من باب ضرب، مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً. قال الفيروزأبادي: الهدجان محركة وكغراب مشية الشيخ و (**تحامل**) في الأمر تكلّفه على مشقّة و (**حسرت**) أي كشفت عن وجهها، وفي نسخة الشارح البحراني: وحسرت عن ساقها الكعاب و (**كعب**) الجارية تكعب من باب ضرب، وقعد كعوباً نهد ثديها، وجارية كعاب وزن سحاب الناهدة الثدي والجمع كواعب، قال تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣﴾ [النبأ: ٣٣].

الإعراب

فاعل يلغ محذوف، وقوله: أن ابتهج (**أن**) مصدرية ومدخولها في تأويل المصدر ومحل النصب بنزع الخافض، ومفعول حسرت محذوف بقرينة الكلام وقوله: (**إليها**) متعلق بقوله حسرت على تضمين معنى الشوق والرغبة.

المعنى

اعلم أن هذا الكلام كما قال الرضي وارد في وصف بيعته عليه السلام بالخلافة وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة، الظاهر أن مراده بما تقدم ما مر في الكلام المائة والسابع والثلاثين من قوله:

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٥١ ح ٣٥، وحياة الإمام الحسين «ع»: ١/٤٠٢.

قبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها، ويحتمل أن يكون مراده به ما مر في الخطبة الثالثة والخمسين من قوله: فتداكّوا عليّ تداك الإبل الهيم يوم ورودها، ولم يتقدم في الكتاب ما يشبه ألفاظ هذا الكلام غير هذين.

نعم تقدم منا في شرح الخطبة السادسة والعشرين رواية طويلة عن كتاب **(الغارات)** لإبراهيم الثقفي والأشبه أن يكون هذا الكلام ملتقطاً منها لكنها مختلفة الألفاظ جداً كما يظهر بالرجوع إلى ما تقدم.

وكيف كان فهذا الكلام منه عليه السلام وارد مورد الاحتجاج على الناكثين لبيعته. ومحصله أنكم قد كنتم على غاية الحرص والميل إلى بيعتي مع إباء مني فمن كان هذا حاله فكيف ينكث وأشار إلى مزيد حرصهم عليها بقوله: **(وبسطتم يدي فكففتها)** شوقاً منكم إلى البيعة وتمانعاً مني **(ومددتموها فقبضتها)** رغبة منكم إليها واستنكافاً مني **(ثم تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم وردها)** وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس، أي ازدحمتم ازدحاماً شديداً يدكّ بعضكم بعضاً كما يدكّ الإبل العطاش بعضها لبعض على الحياض عند شربها ووجه الشبه مزيد الازدحام.

قال الشارح البحراني: ويمكن أن يلاحظ في وجه الشبه كون ما عنده من الفضائل الجمّة العلمية والعملية تشبه الماء وكون المزدحمين عليه في حاجتهم وتعطشهم إلى استفادة تلك الفضائل النافعة لعلّتهم كالعطاش من الإبل يوم ورودها. انتهى، والأول أظهر وأشبه.

أقول: وفي تخصيص الصغير والكبير والعليل بالذكر زيادة تأكيد وتقرير للغرض المسوق له الكلام، فإن من شأن الصغير على ماله من عدم التميز عدم الإلتفات والتوجه إلى كثير من الأمور، ومن شأن الكبير على ما به من ضعف الكبر عدم المشي إليها، وكذلك المريض على ما فيه من ثقل المرض ومن شأن الكعاب الإستحياء عن كشف وجهها لا سيما في منتدى الرجال وبين ملأ الناس، فسرور الأول بالبيعة وسعي الثانيين إليها بالتكلف والمشقة، وحسر الرابعة إليها كاشف عن فرط رغبة العامة وحرصهم عليها، فالبيعة الواقعة على هذا الوجه ليس لأحد أن يتخلّف أو ينكث عنه.

كما أشار عليه السلام إلى ذلك في كلامه الذي رواه في **(الإرشاد)** عن الشعبي قال: لما اعتزل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن سلمة وحسان بن ثابت وأسامة بن زيد أمير المؤمنين عليه السلام وتوقفوا عن بيعته حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس إنكم بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي، وإنما الخيار للناس قبل أن يبايعوا، فإذا بايعوا فلا خيار لهم، وإن على الإمام الاستقامة وعلى الرعيّة التسليم، وهذه

بيعة عامة من رغب عنها رغب عن دين الإسلام واتبع غير سبيل أهله ولم تكن بيعتكم إيايّ فلتة، الحديث[1]، هذا.

وقد تقدّم تفصيل كيفية بيعته عليه السلام في شرح الكلام الواحد والتسعين فليراجع ثمة.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن حضرت است در تعريف بيعت كردن خلق به او به خلافت، مى فرمايد:

و گشاديد دست مرا به جهت بيعت، پس نگاه داشتم من آن را و كشانديد آن را به سوى خودتان، پس برچيدم من آن را، بعد از آن ازدحام كرديد بر من مثل ازدحام نمودن شتران عطشان بر سر حوض هاى خود وقت آب خوردن آنها تا اين كه گسيخت بند كفش هاى من و از دوش افتاد عباى من و زير پا ماند ضعيفان و رسيد كار از شدت شادى مردمان به بيعت من به مقامى كه خشنود شد با آن بيعت بچه ها و مشى مرتعشانه نمود به سوى آن پيرها و مشى نمود با مشقت و زحمت به طرف آن مريض ها و نقاب از رو برداشت به جهت زيادت ميل و رغبت با آن دختران نارپستان؛ والله اعلم بالصواب.

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٤٩ ح ٣٣، والإرشاد: ١/٢٤٣.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائتان والثامنة والعشرون من المختار في باب الخطب

فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ مِفْتاحُ سَدادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِ مَلَكَةٍ، وَنجاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ، بِها يَنْجَحُ الطّالِبُ، وَيَنْجُو الهارِبُ، وتُنالُ الرَّغائِبُ، فَاعْمَلُوا والعَمَلُ يُرْفَعُ، والتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، والدُّعاءُ يُسْمَعُ، والحالُ هادِئَةٌ، والأقلامُ جارِيَةٌ، وبادِرُوا بِالأعْمالِ عُمْراً ناكِساً ومَرَضاً حابِساً، أوْ مَوْتاً خالِساً، فَإِنَّ المَوْتَ هادِمُ لَذّاتِكُمْ، ومُكَدِّرُ شَهَواتِكُمْ، وَمُباعِدُ طِيّاتِكُمْ، زائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَواتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ.

قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوائِلُهُ، وأَقْصَدَتْكُمْ مَعابِلُهُ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ، وتَتابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ، وقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ، فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشِيَكُمْ دَواجِي ظُلَلِهِ، وَاحْتِدامُ عِلَلِهِ، وَحَنادِسُ غَمَراتِهِ، وَغَواشِيَ سَكَراتِهِ، وَأَلِيمُ إِرْهاقِهِ، وَدُجُوُّ أَطْباقِهِ، وجُشُوبَةُ مَذاقِهِ، فَكَأَنْ قَدْ أَتاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ، وعَفّى آثارَكُمْ، وعَطَّلَ دِيارَكُمْ، وَبَعَثَ ورّاثَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تِراثَكُم بَيْنَ حَمِيمٍ خاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ، وقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ، وآخرَ شامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ.

فَعَلَيْكُمْ بِالجِدِّ والاجْتِهادِ والتَّأَهُّبِ والاسْتِعْدادِ والتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزّادِ، وَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنْيا كَما غَرَّتْ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ الماضِيَةِ والقُرُونِ الخالِيَةِ الَّذِينَ احْتَلَبُوا دِرَّتَها، وأصابُوا غِرَّتَها، وَأَفْنَوْا عِدَّتَها وأَخْلَقُوا جِدَّتَها، أَصْبَحَتْ مَساكِنُهُمْ أَجْداثاً، وأَمْوالُهُمْ مِيراثاً، لا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتاهُمْ، وَلا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكاهُمْ، وَلا يُجِيبُونَ مَنْ دَعاهُمْ، فَاحْذَرُوا الدُّنْيا فَإِنَّها غَدّارَةٌ غَرّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لا يَدُومُ رَخاؤها، ولا يَنْقَضِي عَناؤها، ولا يَرْكُدُ بَلاؤها.

منها في صفة الزهاد: كانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا ولَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكانُوا فِيها كَمَنْ لَيْس مِنْها، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وبَادَرُوا فيها ما يُبْصِرُونَ، وبادَرُوا فِيها ما يَحْذَرُونَ، تَقَلُّبُوا أَبْدانُهُم بَيْنَ ظَهْراني أَهْلِ الآخِرَةِ، يَرَوْنَ أَهلَ الدُّنيا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيائِهِمْ[1].

اللغة

(السداد) بالفتح الصواب من القول والعمل و **(ملكه)** يملكه من باب ضرب ملكاً مثلثة

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٧٥.

وملكة بالتحريك احتواه قادراً على الاستبداد به و **(النجح)** بالضم الظفر بالمطلوب وأنجحه الله أي أظفربه و **(الرّغائب)** جمع الرّغيبة وهو الأمر المرغوب فيه والعطاء الكثير و **(هدء)** هدءاً من باب منع سكن و **(نكسه)** قلّبه على رأسه كنكسه بالتشديد والنكس بضمتين المدرهمون من الشيوخ بعد الهرم أي الساقطون كثيراً، قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾ [يس: ٦٨].

و **(خلست)** الشيء اختطفته و **(الطية)** بالكسر كالنية لفظاً ومعنى، وقال الشارح المعتزلي: هي منزل السفر و **(القرن)** بالكسر كفوك في الشجاعة.

و **(الواتر)** القاتل، والموتور القتيل الذي لم يدرك دمه مأخوذان من الوتر بالكسر والفتح وهي الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي وقد وتره يتره وتراً ووتراً وترة أفزعه وأدركه بمكروه، ووتره ماله نقصه إياه.

و **(أعانتكم)** في بعض النسخ بغير همزة و **(المعابل)** جمع معبلة وزان مكنسة وهو النصل العريض الطويل و **(العدوة)** التعدي و **(نبا)** السيف عن الضريبة نبواً ونبوة كلّ ولم يؤثر و **(يوشك)** الأمر أن يكون وأن يكون الأمر بكسر الشين أي يقرب ولا تفتح شينه إلا في لغة رديّة و **(الظّلل)** جمع ظلّة وهي السحاب و **(احتدم)** النار التهبت واشتدّ حرّها و **(الحنادس)** جمع حندس وزان زبرج الظلمة.

و **(إرهاقه)** بالراء المهملة مصدر أرهقته أي أعجلته، ويقال: أرهقه طغياناً أغشاه إياه وألحق ذلك به، وفي بعض النسخ بالزاء المعجمة من زهق الشيء بطل و **(أطباقه)** بالفتح جمع الطبق بالتحريك غطاء كل شيء، وفي بعض النسخ بالكسر مصدر أطبقه أي غطاه.

و **(جشب)** الطعام من باب ضرب جشوبة صار جشيباً وهو السيء المأكل والخشن الغليظ البشع من كل شيء، والجشب بالضم قشور الرمان، وفي بعض النسخ: وخشونة مذاقه بالخاء المعجمة والنون و **(الدرة)** بالكسر كالدّر بالفتح اللبن وكثرته و **(الجدّة)** بكسر الجيم كالجد الرّزق والعظمة و **(حفل)** القوم حفلاً اجتمعوا، والمحفل وزان مجلس، ومقعد محل الاجتماع، والاحتفال بالشيء الإعتناء به والمبالغة فيه.

و **(تقلب)** في بعض النسخ على البناء على الفاعل من باب التفعل وحذف إحدى التائين وفي بعضها على البناء على المفعول وفلان بين ظهري القوم و **(ظهرانيهم)** بفتح النون وبين أظهرهم أي في وسطهم وفي معظمهم.

الإعراب

قوله: مفتاح سداد، وقوله: بها، متعلق بقوله: ينجح، وتقديمه عليه لقصد الحصر

و(**الفاء**) في قوله: فاعملوا فصيحة، وجملة والعمل يرفع في محل النصب على الحال و(**الباء**) في قوله: بالأعمال للمصاحبة، و(**الفاء**) في قوله: فإن الموت للتعليل، وقوله: (**زائر**) خبر رابع لأن ترك العاطف لحسن الوصف الذي هو من صناعة البلاغة.

وجملة: قد أعلقتكم، في محل الإنتصاب على الحال، وقوله: فكأن قد أتاكم، مخففة من المثقلة مفيدة للتقريب واسمها ضمير شأن مستتر، وقوله: بين حميم، متعلق بقوله: يقتسمون لا بقوله: أتاكم بغتة، كما توهمه الشارح البحراني وقوله: فعليكم بالجدّ، اسم فعل أي خذوه والزموه.

قال نجم الأئمة الرّضي: يقال: عليك زيداً أي خذه كان الأصل عليك أخذه وقوله: أصبحت مساكنهم، فعل ناقص بمعنى صارت والجملة استئنافية بيانية ومثلها جملة: لا يعرفون من أتاهم.

المعنى

اعلم أن هذه الخطبة الشريفة من محاسن خطبه عليه السلام وفيها من نكات البلاغة وفنون البديع ما لا يخفى على المصقع البارع، ومدارها على فصلين:

الفصل الأول منها

في الحثّ على البرّ والتقوى وأخذ الزاد ليوم المعاد بالتذكير بالموت الذي هو هادم اللذات وقاطع الأمنيات والتحذير من الدنيا التي هي دار الغرور والمكاره والآفات وهو قوله:

(**فإن تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة معاد**) وقد تقدم تحقيق معنى التقوى وما يترتب عليها من الثمرات الدنيوية والأخروية في شرح الخطبة الرابعة والعشرين وغيرها فليراجع هناك.

وأقول هنا توضيحاً لكلامه عليه السلام: إن التقوى لما كانت عبارة عن اتخاذ الوقاية من العقوبات والحذر من الموبقات الأخروية وبها يحصل التجنب من المعاصي والإتيان بالواجبات المتّصفة بالصلاح والسداد لا جرم استعار لها المفتاح الذي يوصل به إلى ما في البيت، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ـ ٧١].

قال أمين الإسلام الطبرسي: أمر الله سبحانه أهل الإيمان والتوحيد بالتقوى والقول السديد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوا عقاب الله باجتناب معاصيه وفعل واجباته ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي ثواباً بريّاً من الفساد خالصاً من شائب الكذب واللغو، موافق

الظاهر للباطن، وقال الحسن وعكرمة: صادقاً، يعني كلمة التوحيد لا إله إلا الله ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ معناه: إن فعلتم ذلك يصلح لكم أعمالكم بأن يلطف لكم فيها حتى تستقيموا على الطريقة المستقيمة السليمة من الفساد ويوفقكم لما فيه الصلاح والرشاد ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فقد أفلح إفلاحاً عظيماً، وقيل: فقد ظفر برضوان الله وكرامته.

وأما أنها ذخيرة معاد فواضح لأنها أنفس ذخيرة معدّة لفاقة الآخرة وبها ينجي من أليم العذاب ويفاز عظيم الزلفى والثواب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦٠ـ ٦١] وقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

(وعتق من كل ملكة) قال الشارح البحراني: استعار لفظ العتق لخلاص النفس العاقلة من استيلاء حكم شياطينها المطبقة بها كخلوص القلب من استيلاء سيّده ثم جعل التقوى نفسها عتقاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، انتهى.

ومحصله: أن التقوى سبب الخلاص من قيد رقيّة النفس الأمارة وعبودية الهوى ومملوكية الشيطان فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

(ونجاة من كل هلكة) أي سبب للنجاة من الهلكات الدنيوية والأخروية فأطلق عليها النجاة مبالغة من قبيل زيد عدل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ـ ٣] أي مخرجاً من كل كرب في الدنيا والآخرة[1].

وفي **(مجمع البيان)** عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قرأها وقال: «**مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت وشدائد الآخرة**».

وفي **(البحار)** من الدعوات للراوندي: قال النبي صلى الله عليه وآله: «**من اتقى الله عاش قوياً وصار في بلاد عدوّه آمناً**»[2].

(بها ينجح الطالب) للآخرة أي يفوز بمطلبه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ

(١) بحار الأنوار: ٥٧/ ٢٨٤، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٢٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٨٣ ح ٥، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٦٢٧.

عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: ٤٩ـ ٥٠]. وقال رسول الله ﷺ: «**خصلة من لزمها أطاعته الدنيا والآخرة وربح الفوز بالجنة**»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**التقوى من أراد أن يكون أعزّ الناس فليتق الله عزّ وجل**» ثم تلا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية.

(**وينجو الهارب**) الهارب من سخط الله وعقابه، فإن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظّم له أجراً.

(**وتنال الرّغائب**) أي العطايا الكثيرة والخيرات الدنيوية والأخروية التي ترغب إليها النفوس.

أما الدنيوية فقد قال الصادق عليه السلام: من أخرجه الله تعالى من ذلّ المعصية إلى عزّ التقوى أغناه الله بلا مال، وأعزّه بلا عشيرة، وآنسه بلا بشر أي من غير أنيس من البشر بل الله مؤنسه(١).

وأما الأخروية فقد قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال عزّ وجل: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٧٠ـ ٧١]، هذا.

ولما نبّه على ثمرات التقوى وكانت التقوى ملازمة للعمل رتب عليه الحثّ على العمل، فقال: (**فاعملوا والعمل يرفع**) أي اعملوا صالحاً فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنان لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير، ومعنى قوله: والعمل يرفع، إن العمل الصالح يرفعه الله إليه ويقبله من فاعله.

وقد أشير إلى ذلك في قوله عزّ وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. قال أمين الإسلام الطبرسي: معنى الصعود القبول من صاحبه والإثابة عليه، وكلما يتقبله الله سبحانه من الطاعات يوصف بالرفع والصعود لأن الملائكة يكتبون أعمال بني آدم ويرفعونها إلى حيث شاء الله، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] والكلم الطيب الكلمات الحسنة من التعظيم والتقديس وأحسن الكلم: لا إله إلا الله والعمل الصالح يرفعه، قيل: فيه وجوه: أحدها: أن الكلم الطيب يرفعه العمل الصالح، فالضمير

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٨٢ ح ١، والأمالي: ١٤٠ ح ٢٢٨.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٨/ ٢٣٥.

يعود إلى الكلم، والثاني: أنه على القلب من الأول[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلاة على رسوله وآله يقول العبد المحتاج إلى رحمة ربه أبو الحسن المدعوّ بالعشراني عفى عنه: أني لما وقفت على هذا الشرح النفيس الجامع لشتات اللطائف، الحاوي لطرائف الظرائف ورأيت أن صاحبه لم يتمكن من إتمامه وتوقف على شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام: والعمل يرفع، علمت أن عاقبته إلى رفع العمل والقبول كما أن ختم كلامه إليه، وهذا وإن كان فألاً حسناً للشارح لكن الناظرين يرون عمله أبتراً إذ لم يكمل شرح الكتاب بل الخطبة التي شرع في شرحها فرأيت أن أعلق عليه شيئاً يتم به شرح الخطبة الأخيرة وأضمّ عملي إلى عمله المقبول وأنطلق في تحصيل الثواب الحاصل له وسلكت فيه مسلكه من الاقتصار على ما يسهل تناوله بعون الله وحسن توفيقه وأقول: **(والعمل يرفع)** في كلام أمير المؤمنين عليه السلام جملة حالية في محل النصب وكذلك ما يتلوها إلى قوله عليه السلام: والأقلام جارية.

أي اعملوا في هذا الوقت الذي يرفع العمل وأنتم أحياء في دار الدنيا.

وأما بعد ذلك فلا يرفع العمل إذ لا عمل بعد الموت حتى يرفع، وهذا طريقة العرب في كلامهم يقول شاعرهم: على لاحب لا يهتدي بمناره، يعني على طريق لا منار فيها حتى يهتدي به.

قوله **(والتوبة تنفع)** أي اعملوا في هذه الحال التي تنفع التوبة قبل الموت فإذا مات ابن آدم انقطع عمله ولم يقبل منه التوبة إذ لا تقع منه حتى تقبل **(والدعاء يسمع)** في حال الحياة يسمع الدعاء، وأما بعد الموت فلا يسمع والمقصود الدعاء الذي يصير سبباً للنجاح والسعادة وغفران الذنوب ورفع الدرجات.

وأما الدعاء بمعنى آخر فقد يقع في الآخرة ويسمع، وقد ورد في القرآن الكريم **(والحال هادئة)** في الحياة الدنيا وسكون الحال كناية عن السلامة والقدرة والاختيار بحيث يتمكن من فعل الخيرات **(والأقلام جارية)** والملائكة تكتب أعمال العباد في الحياة الدنيا، أي اغتنموا الحياة واعملوا فيها ثم أكد عليه السلام ذلك بقوله: **(وبادروا بالأعمال عمراً ناكساً)** يعني لا يتمكن أحد من العمل في الحياة إذا هرم وشاخ وضعف فبادروا بالعمل قبل أن يمنعكم منه الهرم **(ومرضاً حابساً)** يسلبكم النشاط **(أو موتاً خالساً)** يعرض بغتة فلا يبقى لكم فرصة التوبة

والاستغفار **(فإن الموت هادم لذاتكم ومكدّر شهواتكم)** الدنيوية **(ومباعد طياتكم)** والطية ما يطويه الإنسان في ضميره من العزائم والنيّات، يعني عليه السلام: يباعد الموت عنكم نياتكم وعزائمكم فكم عزم للإنسان يريد نفاذه وحال بينه وبين عزمه الموت وإن فسر الطيات بمنازل السفر فالمعنى يرجع إلى ما ذكر أيضاً.

(زائر غير محبوب وقرن غير مغلوب وواتر غير مطلوب) أي قاتل لا يطلبه أحد حتى يقتصّ منه **(قد أعلقتكم حبائله)** شبه الإنسان وعدم قدرته على التخلص من الموت بطير وقع في حبالة الصياد وقد علق برجله وعنقه الحبل **(وتكنفتكم غوائله)** أحاطت بكم مصائبه **(وأقصدتكم معابله)** أصابتكم نصال الموت ومعبلة بالفارسية: پيكان ـ **(وعظمت فيكم سطوته)** واضح **(وتتابعت عليكم عدوته)** أي تراكمت عليكم الظلمة فوق الظلمة وهو كناية عن شدة الهول والمصيبة أو تكرر منه التعدي والمجاوزة على أحبابكم وأصدقائكم وأقاربكم والمعنى الأول أنسب وأولى **(وقلّت عنكم نبوته)** قل أن يتفق لأحدكم أن يعرض له الموت ويبدو عليه آثاره ثم يفلت عنه فإن انفلت فسوف يعترض ثانية.

(فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلله) الموت قريب منكم كاد أن يحيط بكم ظلمات من ظلل الموت والظلة هي السحاب **(واحتدام علله)** ويحيط بكم التهاب أمور لا بد للموت أن ينزل معها **(وحنادس غمراته)** ظلمات تكتنفكم من غمرات الموت **(وغواشي سكراته)** السكرة حالة كالغشي تعرض عند الاحتضار **(وأليم إرهاقه)** مجيؤه عاجلاً أليم **(ودجوّ طباقه)** الدجوّ الدجى والظلمة والمعنى تراكم الظلمات طبقاً بعد طبق **(وجشوبة مذاقه)** طعم الموت غير مطبوع لو فرض كونه مذوقاً.

(فكأن قد أتاكم بغتةً فأسكت نجيكم) أسكت متكلمكم فبينما هو يتكلم إذ سكت **(وفرّق نديكم)** أي محفلكم **(وعفّى آثاركم)** العفا في الأصل التراب، وهنا كناية عن الاندراس والمحو لأن المنزل إذا رحل عنه سكانه عملت الرياح والتراب في محو آثارهم **(وعطل دياركم)** الديار جمع الدار وتعطيلها خلوها عن أهلها.

(وبعث وراثكم) نسبة البعث إلى الموت مجاز لأنه سبب لبعث الوراث نظير بنى الأمير المدينة **(يقتسمون تراثكم بين حميم خاص لم ينفع)** الوراث على ثلاثة أقسام: بعضهم حميم قريب من أقربائكم يحبكم ويريد دفع الموت عنكم ولا يقدر عليه كالأب والأم (و) الثاني **(قريب محزون لم يمنع)** يهمه أمركم ويحزنه موتكم لكن لا مثل الأول كالأخ والأخت والعم ولا يقدر أن يمنع عنكم الموت، والثالث قوله: **(وآخر شامت لم يجزع)** يفرح لموتكم ولا يجزع عليكم كالولد العاق ينتظر موت أبيه الهرم حتى يفوز بميراثه ويتخلص من القيام بخدمته خصوصاً إذا طال مرضه ولو لم يكن هذا تقسيماً للوارث فقط بل لجميع من يعرفك وتعرفه كان

المعنى أنهم على ثلاثة: الصديق والقريب والعدوّ.

(فعليكم بالجد والاجتهاد) ولعل الفرق بين الجد والاجتهاد أن الأول صفة للعزم والنية والثاني للعمل **(والتأهب والاستعداد)** الفرق بينهما نظير الفرق بين الجد والاجتهاد، فالتأهب للعزم والاستعداد للعمل **(والتزوّد في منزل الزاد ولا تغرنكم الدنيا كما غرت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية)** معناه ظاهر **(الذين احتلبوا درتها)** الدرة اللبن، استعارة للمنافع، والإحتلاب إخراج اللبن من الضرع والثدي استعارة للفوز والإنتفاع **(وأصابوا غرّتها)** أي اغتنموا فرصة غفلة الدنيا عنهم فاستمتعوا بمنافعها ولو لم تكن غافلة عنهم لاختطفتهم، شبههم بسارق ينتظر غفلة صاحب المتاع عن متاعه فيختلسه حين غفلته كذلك هؤلاء انتظروا غفلة الدنيا وأصابوا وقت غفلتها فانتفعوا بها **(وأفنوا عدّتها)** الإفناء عبارة عن الانتفاع إذ لا ينتفع غالباً بما في الدنيا إلا بإفنائه فأفنوا عدّة منافعها **(وأخلقوا جدّتها)** وهذا أيضاً عبارة عن الانتفاع ببعض متاع الدنيا كاللباس الجديد يخلق بالاستعمال.

(أصبحت مساكنهم أجداثاً) أي قبوراً **(وأموالهم ميراثاً)** وهو ظاهر **(لا يعرفون من أتاهم ولا يحفلون من بكاهم ولا يجيبون من دعاهم)** معناه واضح.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذا الكلام وما روي في التلقين وزيارة القبور؟ فقد قال أبو عبد الله عليه السلام على ما روي في **(الكافي)** و **(التهذيب)** و **(الفقيه)**: «إذا أفرد الميت فليتخلف عنده أولى الناس به فيضع فمه عند رأسه ثم ينادي بأعلى صوته: يا فلان بن فلان أو يا فلانة بنت فلان هل أنت على العهد الذي فارقتنا عليه من شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله سيد النبيين وأن علياً أمير المؤمنين وسيّد الوصيين وأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله حق وأن الموت حق وأن البعث حق وأن الله يبعث من في القبور فيقول منكر لنكير: انصرف بنا عن هذا فقد لقن حجته. انتهى[1]، وفي معناه أخبار أخر.

ولو لم يكن إلا هذا لسهل الجمع لكن ورد في زيارة القبور في **(الكافي)** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أنهم يأنسون بكم فإذا غبتم عنهم استوحشوا وهذا ينافي بظاهره قول أمير المؤمنين عليه السلام: لا يعرفون من أتاهم[2].

وروي في **(الفقيه)** عن محمد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الموتى نزورهم؟ فقال: نعم، فقلت: فيعلمون بنا إذا أتيناهم؟ فقال: أي والله إنهم يعلمون بكم ويفرحون بكم

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٠١ ح ١١، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٠١.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠/ ٨٣ ح ٤٦.

ويستأنسون إليكم، قال: قلت: فأيّ شيء نقول[١].

وفي **(الكافي)** عن إسحاق بن عمار عن أبي الحسن عليه السلام قال: قلت: المؤمن يعلم من يزور قبره؟ قال: نعم لا يزال مستأنساً به ما دام عند قبره فإذا قام وانصرف عن قبره دخله من انصرافه عن قبره وحشة[٢].

وفي **(الفقيه)** قال الصادق عليه السلام: إذا قُبضت الروح فهي مظلة في الجسد روح المؤمن وغيره ينظر إلى كل شيء يصنع به فإذا كفن ووضع على السرير وحمل على أعناق الرجال عادت الروح ودخلت فيه فيمدّ له في بصره فينظر إلى موضعه من الجنة أو من النار فينادي بأعلى صوته إن كان من أهل الجنة: عجّلوني عجّلوني، وإن كان من أهل النار: ردّوني ردّوني، وهو يعلم كل شيء يصنع به ويسمع الكلام، انتهى[٣].

وردّ الروح إلى الجسد المحمول على الجنازة نظير ردّ الروح إليه في القبر لسؤال منكر ونكير ولا ينبغي أن يتعجب من خفاء ذلك عن الأحياء كالمشيّعين.

كما روي في **(الكافي)** في حديث عن علي بن الحسين عليه السلام بعد أن نقل تكلّم الميت لحملته، قال ضمرة، وهو أحد الحاضرين: يا أبا الحسن إن كان هذا ـ يعني الميت يتكلم بهذا الكلام ـ يوشك أن يثب على أعناق الذين يحملونه، قال: فقال علي بن الحسين عليه السلام: اللهم إن كان ضمرة هزأ من حديث رسولك صلى الله عليه وآله فخذه أخذة آسف، قال: فمكث أربعين يوماً ثم مات فحضره مولى له فلما دُفن أتى علي بن الحسين عليه السلام فجلس إليه فقال له: من أين جئت يا فلان؟ قال: جئت من عند قبر ضمرة فوضعت وجهي عليه حين سوّى عليه فسمعت صوته والله أعرفه كما كنت أعرفه وهو حي، يقول: ويلك يا ضمرة بن معبد، اليوم خذلك كل خليل وصار مصيرك إلى الجحيم فيها مسكنك ومبيتك والمقيل، قال: فقال علي بن الحسين عليه السلام: اسأل الله العافية، هذا جزاء من يهزأ من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله[٤] ومثل ذلك كثير في الروايات. فما وجه كلام أمير المؤمنين عليه السلام؟

والجواب أن كلامه عليه السلام لأهل الدنيا المغترين بها، وغرضه عليه السلام قطع طمعهم عن الدنيا وبيان انقطاع لذاتها وانصرام شهواتها ومفارقة الخلاّن فيها، ولا ريب أن الموت يهدم اللذات ويُفرّق بين الجماعات، ولا يحسّ الأموات بسمعهم الدنيوي وأبصارهم الجسمانية شيئاً من

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٨١، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٢٢ ح ٣٤٦٣.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٢٨ ح ٤، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٢٣.

(٣) بحار الأنوار: ٥٨/ ٥٠ ح ٢٨، ومن لا يحضره الفقيه: ١/ ١٩٣ ح ٥٩٢.

(٤) الكافي: ٣/ ٢٣٥، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٦٠.

هذا العالم المادي، بل الميت جماد مثل سنّك إذا قلعت وشعر رأسك إذا حلق، وأظافيرك إذا قصّت، وبهذا الاعتبار قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يعرفون من أتاهم ولا يحفلون من بكاهم.

وأما بالنظر إلى أن للإنسان حساً برزخياً يسمع ويبصر ويتلذذ ويتألم به من غير وساطة عصب ودماغ وجارحة لا يمنعه حجاب اللحد وظلمة القبر وبعد المنازل شرّع التلقين وورد ما ورد من الروايات ذكرناها أو لم نذكرها.

وبالجملة فكلام أمير المؤمنين عليه السلام ناظر إلى الحس الدنيوي وما ورد في تلك الروايات ناظر إلى الإدراك الأخروي ولا منافاة بينهما ولا يريدون أن الميت لم يمت ولا أنه إذا مات فات والروح مدرك بذاته والبدن مدرك بالروح والمدرك بالذات أقوى وأشدّ في الإدراك من المدرك بالغير كما في كل صفة.

والطبيعيون يزعمون أن الإدراك عبارة عن تأثر العصب من المحسوس الخارجي كتأثر عصب البصر عن النور، فإذا لم يكن عصب لم يكن إدراك ولذلك إذا خدر الأعصاب بالأدوية المخدّرة زال البصر وكلّ حس آخر.

والجواب أنه لو كان الأمر كذلك لم يكن الله تعالى والملائكة المقرّبون مدركين عالمين بشيء إذ لا عصب لهم ولا انفعال، والعصب لا يستطيع أن يدرك إلا بواسطة الروح إذا تقطعت العلاقة بين العصب والروح زال الإدراك عن العصب لا عن الروح كالشمس إذا غابت عن الجدران زال الضوء عن الجدران لا عن الشمس، فلم يزل الإدراك عن الميت مطلقاً بل بمقدار أن لا يكون دفنه في التراب أو إلقائه في البحر ظلماً وإجحافاً عليه وتعذيباً له كإلقاء الأحياء في البحر.

(فاحذروا الدنيا فإنها غدّارة غرّارة خدوع معطية منوع ملبسة نزوع) وزن فعول إذا كان بمعنى الفاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث ولذلك وصف به الدنيا **(لا يدوم رخاؤها ولا ينقضي عناؤها ولا يركد بلاؤها)** وهذا الكلام بالغ في البلاغة غايتها في وصف الدنيا والتزهيد عنها والوصف بعينه مما يعرفه أصحاب الهوى والقائلون بالطبائع وأمثالهم ويجعلونه عذراً في لزوم اللّذات ومتابعة الشهوات ويقولون إذا كانت الدنيا منقلبة غير ثابتة لا تدوم أحوالها وجب اغتنام الفرصة مهما أمكن في الاستمتاع باللذات والمبادرة إلى الشهوات لئلا يفوت الفرصة ويحرم الإنسان منها فما دام حياً شاباً ذا قدرة ومقدرة يسرع إلى ما لا يتمكن منه بعد ذلك، وأما أمير المؤمنين عليه السلام جعل هذه الصفة بعينها موجباً لتنفير الناس وسبباً لتزهيدهم. قال طرفة:

ألا أي هذا اللائمي احضر الوغى ... وإن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

يعني: إذا لم يكن الإنسان خالداً في الدنيا فعليه أن يشهد اللذات لئلا يفوته وأن يحضر الوغى لينتقم عن أعدائه ويظفر بالمال بالإغارة، ومثله كثير في أشعارهم بالعربية والفارسية خصوصاً في أشعار الخيام، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنها غرارة خدوع ولذاتها ليست لذة بل عذاب أليم ويخدع بها الجهال وليس شيء منها دائماً فلا ينبغي أن يعرج العاقل عليه.

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يفيد أرباب العقول وأصحاب الأديان القائلين بالآخرة والحياة الدائمة فيها يستبدلون اللذة الخالصة الباقية باللذة المكدّرة الفانية وأما أصحاب الطبائع الذين لا يعترفون بالآخرة يقولون: اللذة الفانية غير الدائمة أولى من عدم اللذة مطلقاً.

ومما يناسب ذلك في أن خصلة واحدة يجعلها كل أحد دليلاً على شيء يقتضيه طباعه الحديث المروي عن الحسن بن علي عليه السلام: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً[1]، حمله أهل الدين على الأمر بالمسامحة والتعلل وعدم الحرص في الدنيا، لأن من يزعم أنه يعيش أبداً لا يتعجل في الأمور، وحمله أهل النفاق والمجحدون على الأمر بالحرص في الدنيا لأن الذي يعلم أنه يعيش أبداً يسعى في جمع المال وعمارة مسكنه وتدبير ماله وإجادة معاشه أكثر ممن يعلم أنه سيرحل عن منزله.

الفصل الثاني

(منها في صفة الزهاد: كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها فكانوا فيها كمن ليس منها) ومنه أخذ أبو علي بن سينا كلامه في وصف العارفين: فكأنهم وهم في جلابيب أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها. وقال السعدي:

هرگز وجود حاضر وغائب شنيده‌ء من درميان جمع ودلم جاي ديگراست

(عملوا فيها بما يبصرون) الفرق بين أهل الدنيا وأهل الآخرة أن بناء الأولين على الشك وبناء الآخرين على اليقين كما قال تعالى في صفة الدهرية: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤] فإنهم يشكّون في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار ويعملون عمل المستيقن بالعدم والشاك في شيء حقه أن يحتاط كمن يشك في وجود سبع في الطريق أو بئر في ظلمة إذ لا يجوز له العقل الاقتحام في المهلكة وأصحاب الدهر ما لهم علم بالعدم إن هم إلا يظنون، ودليلهم: أنا لا نؤمن بما لا نحس مع أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود وهذا بخلاف أهل

---

(١) الوسائل: ١٢/ ٥٢.

الآخرة فإنهم آمنوا بالدليل اليقيني والبرهان العلمي فعملوا بما يبصرون.

(وبادروا فيها ما يحذرون) سبقوا الموت إلى فعل الخيرات أي خافوا أن يفجأهم الموت فبادروا **(تقلب أبدانهم بين ظهراني أهل الآخرة)** لا يجالسون غيرهم ولا يخالطون أحداً سواهم **(يرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم)** يعدون موتهم عظيماً شديداً إذ يسلبهم مشتهياتهم ويمنعهم التمتع بلذاتهم **(وهم)** أهل الآخرة **(أشد عظاماً لموت قلوب أحيائهم)** إذ يسلبهم مشتهياتهم الحقيقية ويمنعهم التمتع باللذات الدائمة.

واعلم أن أهل الدنيا يظنون أن لا موجود وراء الجسم ولا دليل على شيء غير الحس ويكدون كل كدّهم ويجدّون جدّهم لعمارتها والتمتع بها، والعقلاء عرفوا بعقولهم وبما أخبرهم أصحاب الوحي أن وراء هذا العالم المحسوس عالماً آخر بل عوالم أخرى لا يحصي عددها إلا الله.

ونظير ذلك أن جماعة زعموا أن الشمس واحدة، وقد ورد في الأخبار وأثبتت الأرصاد أن وراء هذه الشمس شموساً لا يحصي عددها إلا الله تعالى.

وقد فتح الله على عقول المتوسطين باباً إلى بعض تلك العوالم غير المحسوسة وهي باب الرؤيا الصادقة فإن الإنسان في منامه قد يطلع على أمور غائبة لا يمكن أن يطلع عليها أحد بحواسه وعقله لعدم وجودها بعد، كموت زيد بعد سنة مثلاً وليس العلم به وانتقاش ذهن أحد بمثله ممكناً في زمان الرؤيا إلا أن يكون صوراً ونقوشاً مسطورة في ذهن عال من موجود عالم بالغيب غيرنا وغير من في عالمنا، فيدرك الإنسان بعقله أن في الوجود عالماً غير عالمنا وفي ذلك العلم علماء بما لم يوجد بعد وليس ما رآه النائم في منامه إلا مأخوذاً من ذلك العالم وليست الرؤيا أوهاماً وخيالات باطلة لا أصل لها دائماً إذ لو كان كذلك لم يكن ينطبق على الحقيقة ولم يكن للرؤيا تعبير أصلاً، وبالجملة أدرك الإنسان بحسه المشترك عالماً آخر غير هذا العالم الجسماني، وعرف أن نفسه تناسب ذلك العالم في الجملة حيث يرتبط به ويأخذ منه، وهذا باب واسع حققه الحكماء خصوصاً الشيخ أبو علي بن سينا في **(الإشارات)**.

ثم بعد الاعتقاد بوجود عالم ما غير هذا العالم المادي المحسوس زال الاستعجاب من كل ما أخبرنا به الأنبياء وأصحاب النواميس الإلهية من بقايا الروح ودخولها في عالم آخر وتمتعها باللذات وانتفاعها بالمشتهيات هناك ولا يتصور أن يكون سعادة الموجود الكامل الروحاني أدنى وأقل من الإنسان المخلوط من الروح والجسم كما أن سعادة الإنسان المخلوط ليس أقل من سعادة الجمادات، فإن عرف الإنسان أنه مستعد لإدراك تلك السعادة العظمى اشتدت حسرته من فواته وخاف من موت قلبه المانع من النيل بتلك السعادة أشد من

خوف أهل الدنيا من الموت الطبيعي، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه‌السلام عليهم: وهم أشد إعظاماً لموت قلوب أحيائهم.

وإذا انتهينا إلى ذلك حق لنا أن نختم الكلام بالدعاء لجميع من تصدّى لترويج الدين وتعليم المؤمنين بالتوفيق والسداد، ولم نذكر مما اختلج في الذهن حين قراءة الخطبة من نكتة علمية ودقة عقلية لئلا نخرج من سياق الكتاب، فإن الشارح رحمه الله اكتفى بما هو سهل الوصول قريب المأخذ من رواية تاريخية رحكاية أدبية أو حديث في الأخلاق وتفسير يتعلق بظواهر الألفاظ وغير ذلك مما يفيد أكثر الناس. وأما التحقيق العميق والبحث الدقيق فمما ينفر الطباع.

الترجمة

به درستی كه پرهيزكارى كليد صلاح است و توشه آخرت و آزادى از بند بندگى و رهايى از دام هلاكت، آن كه خواهنده خير است، به تقوى به مقصود نائل آيد و آن كه از شر گريزان است، به تقوى از آن رهايى جويد. مقاصد مردمان به تقوى حاصل گردد، پس اكنون كه عمل صالح به درگاه الهى بالا مى رود و گناهان را توبه سود دارد، آرامش حال برقرار و قلم فرشتگان به نوشتن اعمال بندگان روان است، بكوشيد و بشتابيد پيش از آن كه عمر از شما روى بگرداند و پشت كند و بيمارى مانع عمل شود و مرگ ناگهان فرود آيد.

مرگ لذات شما را تباه سازد و شهوات شما را مكدر كند و شما را از مقاصد خود باز دارد، به ديدن آيد آن كه دوستش نداريد وبا شما بكشتى در آويزد آن كه هرگز پشتش به زمين نيايد، خون ريزد و كسى به كين او برنخيزد، دام هاى او در شما آويخته و مصائب او شما را احاطه كرده است، پيكان او به نشانه رسيده و حمله او بر شما گران است و تاختن او پى درپى، كم افتد كه ضربت او نافذ نشود، به زودى ابرهاى تيره مرگ شما را فرا گيرد و بيمارى ها از جوانب درآيند و امواج تاريك آن بر گرد شما احاطه كند و سكرات موت شما را از خود بازگيرد و به شتاب ببرد و به حسرت براند در ميان طبقات تاريك و طعم آن بسيار ناگوار است، گويى اينك شما را دريافته گوينده شما را خاموش كرد و انجمن شما را

پراکنده ساخت و آثار شما را محو کرد و سراهای شما را خالی گذاشت، وارثان را برانگیخت تا میراث شما را تقسیم کردند، یکی دوست نزدیك شما است اما سود به حال شما ندارد، دیگری خویش است و از مرگ شما اندوهناك اما دفع مرگ نمی تواند کرد و سومی از مرگ شما شاد است و جزع نمی کند.

بر شما است که به جان بکوشید و آماده گردید و در جایی که باید توشه گرفت توشه گیرید و زندگی دنیا شما را فریب ندهد، چنان که پیش از شما بسیار فریب داد، از پستان او شیر خوردند و در غفلت او فرصت جستند و آنچه آماده کرده بود تباه ساختند و جامه های نو آن را کهنه و فرسوده کردند، آخر مسکن آنها گور شد و مال آنها را به میراث بردند.

بیوفا است و مکار و فریبنده، می دهد و می ستاند، می پوشاند و برهنه می سازد، آسایش او پیوسته نماند و سختی آن نگذرد و بلای آن ثابت نماند.

و در صفت زاهدان فرمود:

گروهی بودند از اهل دنیا اما اهل دنیا نبودند، در دنیا بودند مانند کسی که در دنیا نبود، به آنچه دیدند و دانستند عمل کردند و از آنچه می ترسیدند درگذشتند، تن آنها میان اهل آخرت می گردد، چون دیدند مردم این جهان از مرگ تن می ترسند آنها از مرگ دل در حال زندگی ترسان گشتند.

محتوى الجزء الرابع عشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

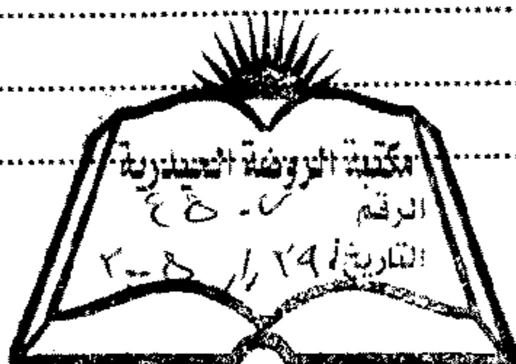

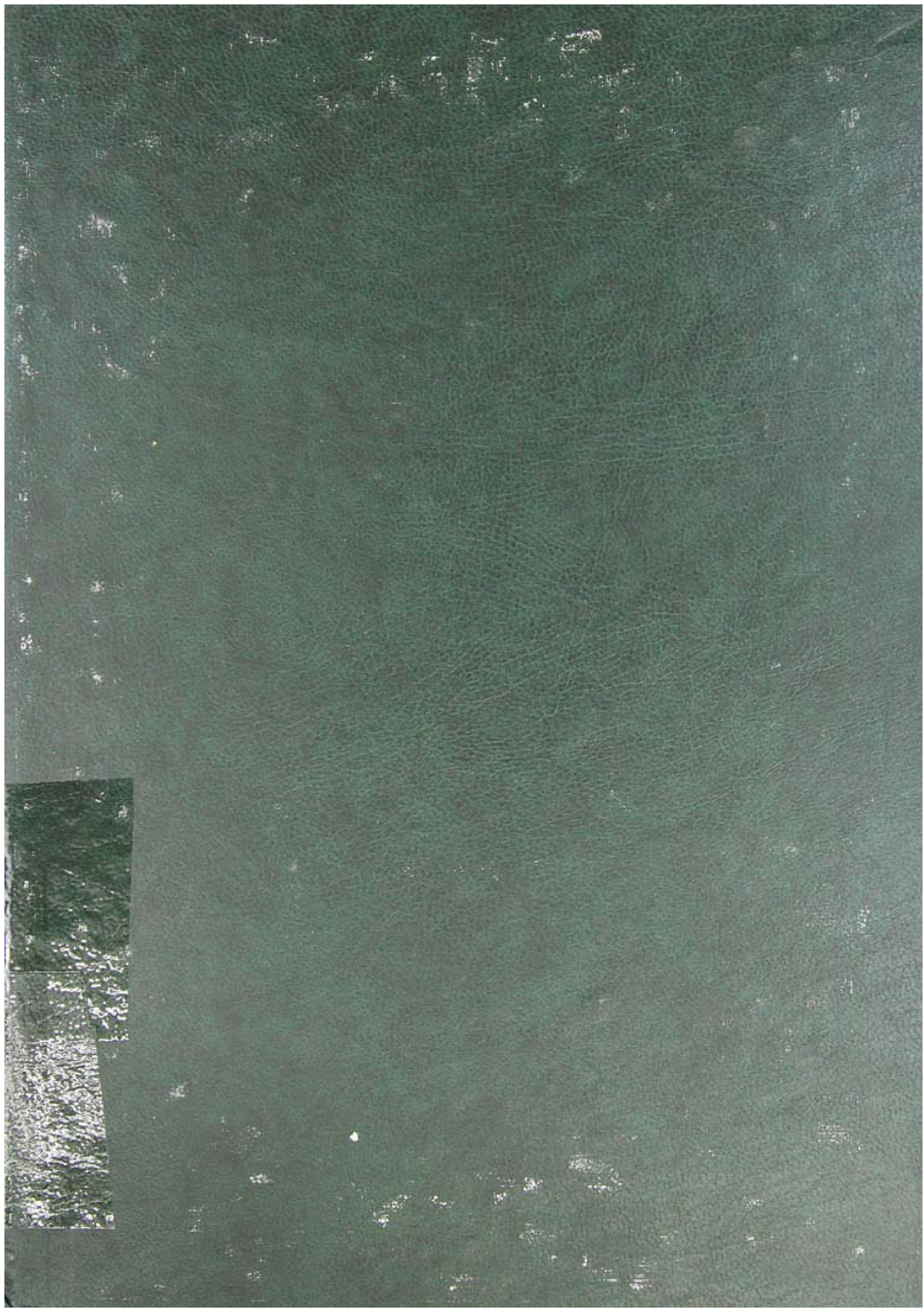

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملی

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق
علي عاشور

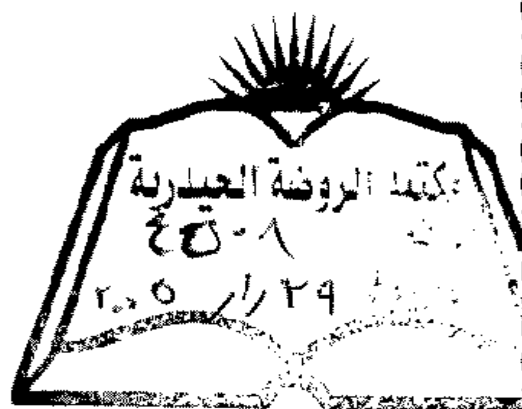

المجلد الخامس عشر

دار احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

مقدمة وتقريظ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بعد الحمد والصلوة يقول العبد أقل خدمة أهل العلم أبو الحسن بن محمد المدعو بالشعراني عفى عنه:

قد عنيت العرب خاصة والمسلمون عامة بكلام أمير المؤمنين عليه السلام سواء في ذلك خطبه وكتبه وكلماته القصار، منذ صدر منه عليه السلام إلى يومنا هذا لما اشتمل عليه من علم غزير ومواعظ حسنة واحتجاجات مقنعة، وتعليم محاسن الآداب ومكارم الأخلاق وتحريك الهمم وتشحيذ العزائم ودقائق المعرفة، وغير ذلك ما يقصر عن إدراكه ذهننا ومن إحصائه وسعنا مع عبارة بليغة لا يدانيها غيرها وقد أحسن من قال: هو فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق. ويعني غير كلام رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: إن أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد وقد اعتنى المؤلفون بجمع خطبه أو كتبه، وذكرنا شيئاً من ذلك في مقدمة شرح المولى صالح القزويني على نهج البلاغة بالفارسية وقلنا هناك: إن أول من جمع خطب أمير المؤمنين عليه السلام على ما ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست زيد بن وهب الجهني، قال: له كتاب خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد وزيد بن وهب كان ممن أدرك الجاهلية والإسلام وقد أسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وقصد التشرف بخدمته، لكن لم يوفق واختار الله لرسوله صلى الله عليه وآله دار كرامته قبل وصوله إليه ولذلك لم يعد في الصحابة بل من التابعين من كبارهم ونزل الكوفة وتوفي سنة - ٩٦هـ -. وكان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وكان كتابه موجوداً في زمان الشيخ الطوسي رحمه الله، إذ رواه بإسناده عن أبي مخنف لوط بن يحيى عن أبي منصور الجهني عن زيد بن وهب قال: خطب أمير المؤمنين إلى آخر الكتاب.

وممن جمع خطب أمير المؤمنين عليه السلام: إبراهيم بن حكم بن ظهير الفزاري كان في حدود سنة ثمانين ومائة.

ومنهم: أصبغ بن نباتة روى عهد أمير المؤمنين عليه السلام للأشتر ووصيته لمحمد بن الحنفية.

وممن جمع خطبه عليه السلام: أيضاً إسماعيل بن مهران بن محمد بن زيد السكوني من أصحاب الرضا عليه السلام.

ومنهم: صالح بن أبي حماد الرازي كان من رأى الإمام أبا الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام.

ومنهم: السيد الشريف الصالح الكريم عبد العظيم بن عبد الله الحسني رضي الله عنه النزيل بالريّ والمدفون بها، وقبره هنا ملجأنا ونفتخر بوجوده في جوارنا وهو ممن جمع خطب جده أمير المؤمنين عليه السلام على ما قاله النجاشي.

ومنهم: إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي جمع خطبه ورسائله وسائر أخباره وتوفي سنة ٢٨٣هـ.

ومنهم: عبد العزيز بن يحيى الجلودي البصري من مشاهير المؤرخين وأصحاب الأخبار، ألف كتاباً في خطبه عليه السلام، وكتاباً في رسائله، وكتاباً في أشعاره، وكتاباً في أدعيته وكتاباً في مواعظه وسائر كلامه.

ومنهم: هشام بن محمد بن سائب الكلبي وكان قد أدرك الصادق عليه السلام، وكان أبوه صاحب تفسير، روى أهل السنّة أيضاً قوله في تفاسيرهم مع كونه رافضياً في اصطلاحهم.

ومنهم: محمد بن خالد الباقي والد أحمد صاحب المحاسن.

ومنهم: محمد بن عيسى الأشعري والد أحمد بن محمد بن عيسى صاحب النوادر.

ومنهم: محمد بن أحمد بن إبراهيم الجعفي الصابوني الفقيه.

ومنهم: المدائني أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ـ ٢٢٥هـ ـ، له كتب منها كتاب خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلى عماله.

ثم إن كثيراً من المؤرخين والمحدثين نقلوا في سياق ما نقلوا من الحوادث والوقائع كلامه وخطبه عليه السلام كاليعقوبي، والطبري، وأصحاب أخبار الجمل، وصفين، ونهروان وكتاب الكافي وغيره، ولما وصلت نوبة الأمر إلى السيد الرضي «قدس سره» إختار من جملة ما تقدم وغيره جملاً ضمنها كتاب نهج البلاغة وشرحه العلماء شروحاً كثيرة لا حاجة إلى ذكرها، ومن جملتها هذا الشرح المسمى بمنهاج البراعة فإنه أطول شرح رأيناه، لم يترك شارحه شيئاً يليق أن يذكر من شرح لغة وإعراب وتوضيح معنى وقصة تناسب مورد الكلام ورواية يقوى بها المرام إلا أتى به، لكنه لم يوفق لإتمامه وبقيت كتبه عليه السلام ووصاياه وكلماته القصار بل بعض خطبه عليه السلام غير مشروحة وتاقت نفوس الطالبين إلى تمامه، واستشرفت أنظارهم على

إكماله وتمنت رجال أن لو كان شارحه حياً إلى أن يقضي الوطر من تكملة الشرح، لكن لم يكن قيض له ذلك فتوفاه الله واختار له الآخرة على الدنيا وختم عمله بقوله عليه السلام: والعمل يرفع وتفألت من ذلك قبول عمله كما ذكرت ذلك في آخر المجلد الرابع عشر، ولما كانت الخطبة التي شرع فيها غير مشروحة بتمامها إلى آخرها أردت أن أضم شيئاً من كلامي إلى كلامه، فأشترك معه في رفع العمل فشرحت تمام الخطبة وترجمتها بالفارسية على منواله وألحقتها به، حتى يكمل الخطبة التي أخذ في شرحها واطلع عليه بعض الأصدقاء، وكان ذا ظن حسن بي فاستحسن عملي وترجمتي فوق ما أنا لائق به، وزعم أن ترجمتي غير قاصرة عن بيان المراد مع حفظ السلاسة وبعده عن السماجة التي تعرض عند نقل لغة إلى أخرى، واقترح عليّ إتمام الشرح إلى آخر كتاب نهج البلاغة وكان ذلك دون طوقي مع كمال شوقي، وبينت له: إن هذا قد قضى وقته وفات أوانه، لأن كلام أمير المؤمنين عليه السلام مشتمل على فنون شتى من العلم، تقصر عن إدراكه الهمم وتقف دون نيله الفطن، كيف وهذا الشرح مع طوله واشتماله على ما يحتاج إليه في حل ظاهر الكتاب عادم أسرار، وفاقد نكت وتارك حقائق تستفاد من خطبه عليه السلام في التوحيد والمعارف وأمثالها، وقد مضت أكثرها في المجلدات السابقة وفات أوان استدراكها، وقد يلتزم الشارح في الإمامة بأشياء لم يذكرها علماؤنا قدس الله أسرارهم في عقائد الطائفة الحقة أيدهم الله تعالى، أو ردوها ونفوا أن يكون الشيعة قائلة به وربما عدل عن الحجج القوية مثل ما أورده السيد المرتضى والشيخ الطوسي، ونصير الدين والعلامة رحمهم الله إلى نقول غير متواترة ولا متفق على نقلها مع أن الغرض من بيان الأصول إما أن يكون إعتقاد الإنسان بها في نفسه فيجب أن يكون دليله موجباً لليقين وليس إلا الخبر المتواتر، وإما أن يكون الغرض تبكيت الخصم، في مقام المجادلة، فيجب أن يكون الخبر المحتج به مما يعترف به الخصم وأما الروايات غير المتواترة ولا متفق عليها فتناسب كتب الحاضرة والطرايف واللطائف وأمثال ذلك، ولا يناسب شرح نهج البلاغة إلا ذكر الحقائق وقد فاتت وحل محل الحقائق أمور لترويح الخاطر وإعجاب الناظر لا لبيان معضل وإيضاح مشكل وتأييد حق وإزهاق باطل، وما أردت بذكر ذلك الإزراء والتنقيص لأن فوائت الكتاب بالنسبة إلى فوائده قليلة جداً بل لا يعتد بها، بل أردت بيان عذري في الإمساك عن قبول الاقتراح إذ لا بد لمكمل هذا الشرح من تتبع طريقته، وإني أرى إبداء الخفي وما لو سكت عنه بقي على إبهامه أولى وأوجب من نقل أمور موجودة في كتاب مشهور إلى موضع آخر ومع ذلك فإني أستصوب عمل من يتصدى لتكميل هذا الشرح نيلاً لفوائده العظيمة ولما اطلعت على اهتمام حضرة الفاضل الأديب البارع العالم الجامع الحائز لقصبات السبق في مضمار إكتناه الحقائق والفائز بالقدح المعلى في استهام العلوم والدقائق، ذو الفكرة النقادة والفطنة الوقادة اللوذعي الألمعي الحبر المؤتمن ـ الحاج شيخ نجم الدين حسن الآملي

الطبري ـ ضاعف الله قدره، إستبشرت به لما كنت أعرف من حذاقته وتتبعه وتبحره في العلم وأناته في مقاساة العمل، وقد جربته سنين وعرفت دخلة أمره فقد قرأ عليّ فنوناً ما يهتم به غيره من المشتغلين وما لا يهتم به لغموضه ولم يكن يقصر على أصول الفقه كغيره فإن أبناء زماننا قاصروا الهمة يقنعون من العلم بأقل شيء منه كالمقتصر على قدر الضرورة في أكل الميتة، وترى كثيراً منهم لا يقتنون من العلوم التي ينسب إلى الشرع إلا مسائل محدودة في الأصول كالفرق بين المعنى الحرفي والأسمى والصحيح والأعم والترتب واجتماع الأمر والنهي ومقدمة الواجب والفرق بين التعارض والحكومة والأصل المثبت وغيرها، مما لا يجاوز عقد العشرة ومن الفقه مسألة بيع المعاطاة والفضولي والخيارات أما شيخنا المنوه بذكره فلم يضن بوقته ولم يبخل بعمره، بل صرفه في العلوم الدينية وأتقنها فهو أستاذ في الأدب واللغة عارف بالقرآن وقراءاته وتفسيره متقن لعلم الكلام وسائر العلوم العقلية، ناظر في الحديث والرجال وسائر ما يعده غيره فضلاً ولا يعتدون به مع أن احتياج الدين إليه أشد، وأكثر مما يحتاجون إليه في كسب الشهرة وتحصيل عنوان الإجتهاد وزاد على جميع ذلك فقرأ عليّ مع العلوم الشرعية كثيراً من الكتب الرياضية كالمجسطي وإقليدس وشرح التذكرة والأكر وغيرها وأتقن العمل بالزيجات الجديدة واستخراج تقويم الكواكب وسيرها وما يتعلق بها بالبراهين، وبالجملة فهو حرى بأن يتصدى معالي الأمور ونرجو منه أن يكمل هذا الشرح بأحسن وجه وأجود طريق، وقد أصلح قبل ذلك بعض الكتب وشرحها فأثبت مهارته وفقه الله لترويج العلم والدين بمحمد وآله الطاهرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي عَلّمَ بالقَلَم، عَلَّمَ الإنسان ما لَم يعلم، وجعله خليفةً له ومظهره الأكمل الأتم، وأنزل القرآن ليكون نبراساً للظلم، وهادياً للأمم وللحق والباطل فرقاناً، وللمعروف والمنكر ميزاناً، ولذوي العقول والعلوم برهاناً وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، قرآناً عربياً غير ذي عوج لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وكلفنا بما هو مقرون بالخير والشر، فأوجب الأول وحرم الآخر، وأمرنا بالعدل والإحسان، نهانا عن الظلم والعدوان، فتعالى أن يرجح الآخر على الأول، أو يقدم المفضول على الفاضل فضلاً على الأفضل، أعاذنا الله من الخبل والحول. والصلاة والسلام على من أرسل شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، محمدٍ المصطفى

خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وخلفائه الحجج الهادين المهديين، المنصوبين من عند علّام الغيوب، والمعصومين من الرجس والذنوب، والمنزّهين عن الدّنس والعيوب، الأئمة الإثني عشر، سيما على أبيهم خير البشر، باب مدينة العلم، يعسوب الدين، أمير المؤمنين، ولي كل مؤمن ومؤمنة، سيد المسلمين، إمام المتقين، قائد الغر المحجلين، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين.

وبعد فيقول الراجي إلى رحمة ربه العليّ، المتمسك بولاية مولاه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ـ الحسن بن عبد الله الطبري الآملي ـ عاملهما الله بلطفه الخفي والجليّ: إن كلام مولى الموحدين لمنهج البلاغة ومسلك الفصاحة، كلت ألسن الخطباء عن أن يأتوا بمثل أوامره وخطبه، وزلت أقدام أقلام الأمراء دون مبارزة رسائله وكتبه، وحارت عقول العقلاء في بيداء مواعظه وحكمه، كيف لا والقائل مقتبس بالأنوار الإلهية، ومستضيء بالمشكاة المحمدية، والكلام مستفاض من الصقع الربوبي، ومستفاد من الحضرة النبوية، فهو تالي القرآن وثاني الفرقان، صدق ولي الله حيث قال: «إنا لأمراء الكلام، وفينا تنشبت عُرُوقه وعلينا تهدلت غصونه»[١].

ثم إن العلماء قد خاضوا قديماً وحديثاً في هذا القاموس العظيم لاقتناء درره، واجتهدوا حق الإجتهاد بما تيسر لهم في بيانه وتفسيره، وسلك كل واحد مسلكاً في شرحه وتقريره، والكل ميسر لما خلق له، قل كل يعمل على شاكلته، وألفوا فيها رسائل وكتباً قيمة منها: ـ كتاب منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ـ لمؤلفه العالم الجليل والحبر النبيل الميرزا حبيب الله الخوئي رضوان الله عليه، ويكفي في جودة هذا السفر النفيس إقبال الفضلاء إليه، حتى طبع في أمد قليل غير مرة فلله در مصنفه.

ولكن لما بلغ رحمه الله إلى الخطبة المائتين والتاسعة والعشرين إنقطع مهله وانقضى أجله وقضى نحبه وجف قلمه فبقي هذا الأثر القويم أبتر فعزمت متوكلاً على الله المتعال ومستعيناً به لإتمامه على النهج المذكور لكي يكون تكملة له وتماماً، فكتابنا هذا «تكملة منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة» وأسأل الله التوفيق في إكماله وإتقانه إنه ولي التوفيق في إكماله وإتقانه إنه ولي التوفيق والهادي إلى خير طريق.

ثم أسأله أن يوفق ناشر الآثار الجعفرية، مروج الأسفار الإمامية، مدير المكتبة الإسلامية، الوجيه المؤيد: ـ الحاج السيد إسماعيل الموسوي الكتابچي وإخوانه ـ أطال الله بقاءهم إخلاف المغفور المبرور مؤسس المكتبة الإسلامية خادم الشريعة النبوية والآثار

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٢٩٢، وميزان الحكمة: ١/ ٢٩١.

الجعفرية الحاج السيد أحمد الموسوي الكتابچي رضوان الله عليه، وقد أقدموا إلى طبع هذه التكملة على نفقتهم ناوين في ذلك ترويج شعائر الدين ونشر آثار سيد المرسلين، فجزاهم الله وإيانا عن الإسلام والمسلمين خير جزاء آمين رب العالمين، ونشرع الآن في شرح الكتاب بعون الله الملك الوهاب.

رب إشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

ومن خطبة له عليه السلام وهي المائتان والتاسعة والعشرون من المختار في باب الخطب

خطبها بذي قارٍ وهو متوجه إلى البصرة، ذكرها الواقدي في كتاب الجمل.

«فَصَدَعَ بِما أُمِرَ وَبَلَّغَ رِسالَةَ رَبِّه فَلَمَّ اللّهُ بِهِ الصَّدْعَ، ورَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ، وأَلَّفَ بِهِ بَينَ ذَوِي الْأَرْحامِ بَعْدَ الْعَداوَةِ الْواغِرَةِ فِي الصُّدُورِ وَالضَّغائِنِ الْقادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ»[١].

اللغة

(ذوقار) موضع بين الكوفة وواسط، وفيه كانت وقعة العرب قبل إسلامهم مع الفرس وسنشير إليه، و **(الصدع)**: الشق في شيء صُلبٍ، وفي المجمع في تفسير قوله تعالى في آخر سورة الحجر ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[٢]: الصدع والفرق والفصل نظائر وصدع بالحق إذا تكلم به جهاراً وفي السيرة الهشامية: أصدع أفرق بين الحق والباطل قال أبو ذؤيب الهذلي وإسمه خويلد بن خالد يصف إتن وحش وفحلها:

وكأنهن ربابة وكأنه　　　يسر يُفيض على القداح ويصدعُ[٣]

أي يفرق على القداح ويبين أنصباءها وهذا البيت في قصيدة له، وقال رؤبة ابن العجاج:

أنت الحليمُ والأميرُ المنتقم　　　تصدع بالحقّ وتنفى من ظلم

وفي القاموس قوله تعالى: فاصدع بما تؤمر أي شق جماعاتهم بالتوحيد أو إجهر بالقرآن أو أظهر أو أحكم بالحق وافصل بالأمر أو أقصد بما تؤمر أو أفرق به بين الحق والباطل، و **(لم)** أي جمع لم الصدع أي جمع المتفرق بعد الشق. و **(الفتق)** في الثوب نقض خياطته حتى انفصل بعضه من بعض والفتق أيضاً شق عصا الجماعة ووقوع الحرب بينهم. و **(الرتق)** ضد الفتق والمراد بلم الصدع ورتق الفتق رفع ما كان بين العرب من تشتت الأهواء وتفرق الكلمة بالعداوة والحقد و **(الواغرة)** ذات الوغرة وهي شدة توقد الحر والوغر، والوغر بالتحريك الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ و **(الضغائن)** جمع الضغينة وهي الحقد كالضغن.

(قدح) بالزند رام الإيراء به والضغائن القادحة هي التي تثير الفتن والشرور وتوقد نار الغضب في القلوب كما تواري النار بالمقدح.

---

(١) بحار الأنوار: ١٨/٢٢٦، وتفسير نور الثقلين: ٢/١٦٦، ح ١٤٩.

(٢) نهج البلاغة: ١/٢٧٩، وشرح نهج البلاغة: ١٣/٩.

(٣) سيرة النبي: ١/١٦٩ ح ٨٩، والصحاح: ٢/٨٥٨.

الإعراب

كلمة ما في قوله عليه السلام: فصدع بما أمر، يمكن أن تجعل موصولة بمعنى الذي وأن تكون مصدرية فعلى الأول يكون العائد من الصلة إلى الموصول محذوفاً والتقدير «فصدع بما أمر بالصدع به» ثم حذفت الباء التي في به فصارت الجملة «فصدع بما أُمر بالصدعة» ولما لم تجز الإضافة مع اللام أعني إضافة الصدع إلى الضمير فحذفت لام المعرفة توصلاً بحذفه إلى الإضافة فصارت الجملة «فصدع بما أمر بصدعه» ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فبقيت الجملة «فصدع بما أُمر به» ثم حذف حرف الجر على حد قولك أمرتك الخير، في أمرتك بالخير فصارت الجملة «فصدع بما أُمره» ثم حذف العائد المنصوب من الصلة، وحذف العائد المنصوب في كلام العرب كثير ففي الألفية لابن مالك: والحذف عندهم كثير منجلي في عائد متصب إن انتصب بفعل أو وصف كمن ترجو يهب.

وأما على الثاني فالتقدير فصدع بالأمر كما تقول عجبت مما فعلت والتقدير عجبت من فعلك ولا يحتاج ههنا إلى عائد يعود إلى ما لأنه حرف. ذكره الطبرسي في المجمع في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾.

والباء في به وأخويه للسبب.

قوله عليه السلام (بعد العداوة) متعلق بكل واحد من الأفعال الثلاثة أعني: لم ورتق وألف.

(والواغرة) صفة للعداوة. (وفي الصدور) متعلقة بالواغرة. وكذا الضغائن موصوفة بالقادحة وفي القلوب متعلق بالقادحة.

المعنى

أشار عليه السلام في هذه الخطبة إلى شرذمة من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله: أنه أظهر وصرح بما أمر به جهاراً غير خائف من أحد، وشق بما جاء به الرسالة عصا الكفر وكلمة أهله وحجب الغفلة التي رانت على قلوبهم. وأنه بلغ رسالة ربه فيه مدح عظيم لأنه أداء أمانة عظم قدرها وتبليغها. وأنه لم الله به الصدع ورتق به الفتق أي رفع به تشتت الأهواء واختلاف الكلمة بين العرب. وبأنه ألف بين ذوي الأرحام إلخ أي رفع الله به الأحقاد والضغائن والعداوات التي بها يقتل الرجل إبنه وأباه وذوي رحمه.

قال شيخ الطائفة رحمه الله في التهذيب: وصدع صلى الله عليه وآله بالرسالة في يوم السابع والعشرين من رجب وله أربعون سنة[١].

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٨١، وتهذيب الأحكام: ٦/ ٢.

لا ريب أنه صلى الله عليه وآله بعث وأهل الأرض يومئذٍ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطرائق متشتتة، بين مشبه الله بخلقه أو ملحد في إسمه كما أشار إليه عليّ عليه السلام في بعض خطبه الماضية، لا سيما العرب كانوا أصنافاً شتى فمنهم من أنكر الخالق والبعث والإعادة وقالوا ما قال الله في القرآن الكريم عنهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ومنهم من اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ومنهم من أقر بالخالق ونوع من الإعادة وأنكر الرسل وعبد الأصنام، وطائفة منهم زعموا أن الأصنام شفعاء عند الله في الآخرة وحجوا لها ونحروا لها الهدى وقربوا لها القربان، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٨]، إلى غير ذلك من المذاهب المشتتة والطرق المتبددة والأهواء السخيفة والآراء الردية، فكانوا بمعزل عن الحق والصراط المستقيم والنهج القويم، بحيث تشمئز النفوس السليمة عن استماعها وكيف لا وبنو الحنظلة وهم طائفة من العرب كانوا يصنعون بالرطب أصناماً ويعبدونها أياماً، ولما انصرم أوان الرطب أخذوا في أكلها حتى لا يبقى من آلهتهم شيء. فبعث الله رسوله الخاتم فهداهم به من الضلالة وأنقذهم بمكانه من الجهالة، فدعاهم الرسول صلى الله عليه وآله إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وأنار نفوسهم بنور العلم والمعرفة، وأثار ما فطروا به فطرة الله التي فطر الناس عليها. وأوقد مصباح عقولهم بإذن الله تعالى وأمره ووحيه وإنزاله الروح المقدس عليه فهداهم للتي هي أقوم حتى انتبهوا وتيقظوا من رقد الغفلة والجهالة وصدقوا كلمته وأجابوا دعوته بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، فرزقوا السعادة في الدارين وبلغوا إلى ما بلغوا فلم الله به الصدع، ورتق به الفتق وأجمعهم على كلمة واحدة هي كلمة الإخلاص أعني الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، وهي كلمة التوحيد الجامعة لجميع الكمالات والفضائل والخيرات الدنيوية والأخروية قد أفلح القائل بها.

ومما يليق أن نذكر في المقام أنموذجاً من تنبههم كما في السيرة الهشامية والحلبية: أن الأنصار لما قدموا المدينة أظهروا الإسلام وتجاهروا به كان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة «بكسر اللام» وأشرافهم ولم يكن أسلم وكان ممن أسلم ولده معاذ بن عمرو وكان لعمرو بن الجموح في داره صنم من خشب يقال له المناة لأن الدماء كانت تمنى أي تصب عنده تقرباً إليه، وكان يعظمه فكان فتيان قومه من أسلم كمعاذ بن جبل وولده عمرو بن معاذ ومعاذ بن عمرو يدلجون بالليل على ذلك الصنم، فيخرجونه من داره ويطرحونه في بعض الحفر التي فيها خرء الناس منكساً، فإذا أصبح عمرو قال ويحكم من عدا على إلهنا هذه الليلة ثم يعود يلتمسه حتى إذا وجده غسله، فإذا أمسى عدوا عليه وفعلوا به مثل ذلك إلى أن غسله وطيبه وحماه بسيف علقه في عنقه، ثم قال له: ما أعلم من يصنع بك فإن كان فيك

خير فامتنع فهذا السيف معك، فلما أمسى عدواً عليه وأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها خرء الناس، فلما أصبح عمرو غدا إليه فلم يجده ثم تطلبه إلى أن وجده في تلك البئر فلما رآه كذلك رجع إلى عقله، وكلمه من أسلم من قومه فأسلم وحسن إسلامه وأنشد أبياتاً في ما جرى عليه وعلى صنمه:

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت كلب وسط بئر في قرن
أف لملقاك إلهاً مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلي ذي المنن الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبر مرتهن
بأحمد المهدي النبي المؤتمن

ثم إن هذا الرجل بلغ في جلالة شأنه مبلغاً إستشهد في غزوة أُحد وروي عن رسول الله ﷺ فيه ما فيه:

ففي السيرة الهشامية: قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن أشياخ من بني سلمة أن عمرو بن الجموح كان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له: إن الله عزّ وجلّ قد عذرك فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة فقال رسول الله ﷺ: أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك، وقال لبنيه: ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة فخرج معه فقتل يوم أُحد[1].

وفي مادة «عمر» من سفينة البحار نقلاً عن الواقدي: كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج فلما كان يوم أُحد وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبي ﷺ المشاهد أمثال الأسد أراد قومه أن يحبسوه، وقالوا أنت رجل أعرج ولا حرج عليك وقد ذهب بنوك مع النبي ﷺ. قال: بخ يذهبون إلى الجنة وأجلس عندكم؟ فقالت هند بنت عمرو بن حزام إمرأته كأني أنظر إليه مولياً قد أخذ درقته وهو يقول: اللهم لا تردني إلى أهلي فخرج ولحقه بعض قومه يكلمونه في القعود فأبى، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ قومي يريدون أن يحبسوني هذا الوجه والخروج معك والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له: أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك فأبى. فقال النبي ﷺ لقومه وبنيه: لا عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة فخلوا عنه فقتل يومئذٍ شهيداً.

---

(١) البداية والنهاية: ٤/ ٤٢، وسيرة النبي: ٣/ ٦٠٧.

قال: فحملته هند بعد شهادته وابنها خلاد وأخاها عبد الله على بعير فلما بلغت منقطع الحرة برك البعير، فكان كلما توجه إلى المدينة برك وإذا وجهته إلى أحد أسرع فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك. فقال ﷺ: إن الجمل لمأمور هل قال عمرو شيئاً؟ قالت: نعم، إنه لما توجه إلى أحد إستقبل القبلة ثم قال: اللهم لا تردني إلى أهلي وارزقني الشهادة، فقال ﷺ: فلذلك الجمل لا يمضي. إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبرّه منهم عمرو بن الجموح، يا هذه ما زالت الملائكة مظلة على أخيك «وهو عبد الله بن عمرو بن حزام» من لدن قتل إلى الساعة فينظرون أين يدفن.

ثم مكث رسول الله ﷺ في قبرهم ثم قال: يا هند قد ترافقوا في الجنة جميعاً بعلك وابنك وأخوك. فقالت هند: يا رسول الله فادع الله لي عسى أن يجعلني معهم.

قال: وكان جابر يقول: لما استشهد أبي جعلت عمتي تبكي فقال النبي ﷺ: ما يبكيها ما زالت الملائكة تظل عليه بأجنحتها حتى دفن. وقال رسول الله ﷺ يوم أحد: أدفنوا عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد(١).

فانظر أيها الطالب نهج الصواب والسداد والسائل سبيل المعرفة والرشاد، كيف تصنع الآيات الإلهية والحكم السماوية والمواعظ القرآنية بأهلها؟ حتى الرجل المتوغل في الأجسام والمتصلب في عبادة الأصنام بلغ إلى مرتبة كأنه يرى الله بعين المعرفة ويعبده ويشتاقه ويقول: بخ بخ يذهبون إلى الجنة وأجلس عندكم؟

ثم إن الرجل منهم يقتل أولاده خوفاً من الفقر فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. والرجل الآخر يئِدُ بنته وفي المجمع في التفسير للطبرسي رحمه الله: كانت المرأة إذا حان وقت ولادتها حفرت حفرة وقعدت على رأسها فإن ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وإن ولدت غلاماً حبسته.

وفيه أيضاً قال قتادة: جاء قيس بن عاصم التميمي إلى النبي ﷺ فقال: إني وأدت ثماني بنات في الجاهلية، فقال ﷺ: فأعتق عن كل واحدة رقبة قال: إني صاحب إبل، قال: فاهد إليّ من شئت عن كل واحدة بدنة. فأنزل الله تعالى توبيخا وتبكيتاً لوائدها: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩] وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩] الآية وكانوا يفعلون ذلك مخافة الفقر عليهن

(١) بحار الأنوار: ٢٠/١٣١، وعيون الأثر: ١/٤٢٧.

فيطمع غير الأكفاء فيهن[1].

والأخبار والقصص في قتلهم أولادهم كثيرة ولا نطيل الكلام بذكرها فهداهم الله تعالى بإرسال الرسول لطفاً منه على العباد فأنقذهم من هذه الورطة الهالكة المضلة ولقنهم كلمة الحكمة وأرشدهم إلى رحمته بقوله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۚ﴾. ولنعم ما نظمه العارف السعدي:

يكي طفل دندان بر آورده بود	پدر سر بفكرت فرو برده بود
كه من نان وبرگ ازكجا آرمش	مروت نباشد كه بگذار مش
چوبيچاره گفت اينسخن نزدجفت	نگر تا زن اوچه مردانه گفت
مخور هول إبليس تا جان دهد	هم آنكس كه دندان دهدنان دهد

وأيضاً ما كان حيّان من العرب إلا وبينهما المعاداة والقتال، وأشدهما عداوة الأوس والخزرج، فببركة نبينا ﷺ صاروا متوادين متحابين، وجمع الله بمقدمه ﷺ أشتاتهم وألف بين قلوبهم، وقال عزّ من قائل، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢] في المجمع قال الزجاج وهذا من الآيات العظام وذلك أن النبي ﷺ بث إلى قوم أنفتهم شديدة بحيث لو لطم رجل من قبيلة لطمة قاتل عنه قبيلته فألف الإيمان بين قلوبهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وابنه فأعلم الله سبحانه أن هذا ما تولاه منهم إلا هو.

ومن تأمل في سيرته ﷺ يجد أن ديدنه وشيمته كان تأليف القلوب وإصلاح ذات البين، وإيجاد العلقة والأخوة والمحبة في الناس ورفع تشتت الآراء واختلاف الكلمة قبل بعثه أيضاً، وكفاكم شاهداً ما جاء في السيرة الهشامية والسيرة الحلبية وغيرهما، من الكتب المعتبرة المعتمدة عند المسلمين وغيرهم أنه لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة جاء سيل حتى أتى من فوق الردم الذي صنعوه لمنعه السيل فأخربه ودخلها وصدع جدرانها بعد ترهينها من الحريق الذي أصابها، واجتمعت القبائل من قريش وأعدوا لبناء البيت نفقة طيبة ليس فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود إختصموا كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى أعدوا القتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوؤة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدى أن تحالفوا على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ومكث النزاع بينهم أربع أو خمس ليالٍ ثم إجتمعوا في المسجد الحرام وكان أبو أمية بن المغيرة واسمه حذيفة أسن قريش كلها فقال: يا معشر

(١) تفسير مجمع البيان: ٦/١٦٨، والتفسير الصافي: ٣/١٤١، ح ١.

قريش إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم أي وهو باب بني شيبة وكان يقال له في الجاهلية باب بني عبد الشمس الذي يقال له الآن باب السلام، فكان أول داخل منه رسول الله صلى الله عليه وآله فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد وأنهم كانوا يتحاكمون إليه في الجاهلية لأنه كان لا يداري ولا يماري فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال: هلم إليّ ثوباً فأُتى به، وفي رواية فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله إزاره وبسطه في الأرض فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده الشريفة ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو صلى الله عليه وآله في مكانه حيث هو الآن. ولا يخفى على ذي دراية حسن تدبيره وشيمته في رفع ذلك الإختلاف والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وأما ما وعدنا من الإشارة إلى وقعة العرب مع الفرس في ذي قار، فجملة الأمر فيه أن كسرى أبرويز ملك العجم خطب بنت نعمان بن المنذر ملك العرب وأبى المنذر عن الإجابة فوقع بينها خصومة وانجر إلى الجدال والقتال إلى أن استولى أبرويز عليه وسجنه في الساباط حتى مات المنذر في السجن وفي ذلك يقول الأعشى:

فذاك وما أنجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محرزق

وقتله المنذر صار سبباً لإثارة الحرب بين العجم والعرب في ذي قار، وكانت تلك الواقعة في ذي قار بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المدينة وانهزم العجم من العرب باسمه صلى الله عليه وآله مع أنهم لم يكونوا بمسلمين بعدُ، وذلك أن الهاني والحنظلة كانا من رؤساء العسكر من العرب وقالوا لجندهم: سمعنا أن رجلاً منا يسمى محمداً أتى بشريعة ودين مدعياً النبوة من الله ويدعو الناس إليه وسمعنا من نطق باسمه في كل واقعة فقد فاز ومن كان له حوائج فنطق باسمه فقد قضت، وإن ضل عن الطريق فقد هدي ففي حربنا غداً نجعل شعارنا:

«محمد معنا والنصر لنا» فلما أصبحوا واستقروا قبال عسكر العجم فأهلوا باسمه: «محمد معنا والنصر لنا». فظفروا عليهم، فهبط جبرائيل إليه صلى الله عليه وآله وسلم عليه وقال: يا رسول الله قد غلبت العرب على العجم في ذي قار باسمك فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث تكبيرات وقال: هذا أول يوم إنتصفت العرب منه ومن العجم وباسمي نصروا. ثم أخبره جبرائيل القصة فلما أخبروا بها وجدوها كما سمعوا(١).

ثم إن ذا قار هذا كان محل نزول عليّ عليه السلام لما خرج من المدينة متوجهاً إلى البصرة في واقعة الجمل. وجملة القول فيه أنه عليه السلام بويع في المدينة يوم الجمعة لخمس بقين من ذي

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢١٥، وتاريخ الطبري: ١/ ٦٠٠.

الحجة، وهو اليوم الذي قتل فيه عثمان فاجتمع المهاجرون والأنصار فيهم طلحة والزبير فأتوا علياً عليه السلام.

فقالوا: والله ما نختار غيرك ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله فبايعه الناس إلا نُفيراً يسيراً كانوا عثمانية وكان طلحة أول من صعد المنبر وبايع علياً عليه السلام. ثم اتصلت بيعة علي عليه السلام بالكوفة وغيرها من الأمصار، وكان أهل الكوفة أسرع إجابة إلى بيعته وأخذ لها البيعة على أهلها أبو موسى الأشعري حتى تكثر الناس عليه وكان عليها عاملاً لعثمان، وانتزع علي عليه السلام أملاكاً كان عثمان أقطعها جماعة من أتباعه وأقاربه، وقسم علي عليه السلام ما في بيت المال على الناس ولم يفضل أحداً على أحدٍ، ثم إن طلحة، والزبير نكثا العهد والبيعة وخرجا إلى مكة بعد أشهر وكانت حينئذٍ عائشة بمكة وغراها، فأغراها طلباً بدم عثمان وصنعوا ما صنعوا حتى خرجوا فيمن تبعهم إلى البصرة قد خلعوا طاعة علي عليه السلام وبغوا عليه، ثم سمع علي عليه السلام مكرهم وخدعتهم ونكثهم فخرج من المدينة إلى الكوفة وكان أحد منازله ذا قار، وفيه خطب تلك الخطبة مخاطباً لأعوانه من أهل الكوفة وغيرهم. وبعث علي عليه السلام من ذي قار ابنه الحسن المجتبى عليه السلام وعمار بن ياسر رضوان الله عليه ليستنفرا له أهل الكوفة حتى أقبلت وقعة الجمل وانهزم الناكثون.

وكان مسيره عليه السلام من المدينة إلى البصرة في سنة ست وثلاثين وفيها كانت وقعة الجمل، وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها وكانت وقعة واحدة في يوم واحد. وقال الطبري في تاريخه: كان قتالهم من إرتفاع النهار إلى قريب من العصر، ويقال: إلى أن زالت الشمس.

وقد تنازع الناس في مقدار ما قتل من الفريقين في وقعة الجمل، فمن مقلل ومكثر فالمقلل يقول قتل منهم سبعة آلاف. والمكثر يقول قتل منهم ثلاثة عشر ألفاً، وقال الطبري: كان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي عليه السلام ونصفهم من أصحاب عائشة، وكانت عائشة راكبة على الجمل المسمى عسكراً في هودج وعرقب الجمل في ذلك اليوم ووقع الهودج. وقيل: إنه كان بين خلافة علي عليه السلام إلى وقعة الجمل وبين أول الهجرة خمس وثلاثون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، وأما تفصيله فيأتي في باب المختار من كتبه ورسائله عليه السلام إن شاء الله تعالى[1].

ثم الظاهر إن هذه الخطبة لجزء خطبة وإن لم نجدها مع الفحص الكثير بعد، ولم يحضرني جمل الواقدي ولا جمل نصر، ومضت خطبة أخرى خطبها عليه السلام في ذي قار وهي

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٤٣.

الخطبة الثالثة والثلاثون، أولها في النهج: ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة: «يعني في واقعة الجمل» قال عبد الله بن عباس دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل، إلى آخرها.

أقول: أتى ثقة الإسلام الكليني رضوان الله عليه في الكافي بخطبة عنه عليه السلام خطبها بذي قار، ونقلها الفيض قدّس سره في الوافي «ص ٢٢ م ١٤» ولم تذكر في النهج فلا بأس بذكرها لكثرة فوائدها وعظم مطالبها ومناسبتها للمقام:

أحمد عن سعيد بن المنذر بن محمد عن أبيه عن جده عن محمد بن الحسين عن أبيه عن جده عن أبيه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورواها غيره بغير هذا الإسناد، وذكر أنه خطب بذي قار: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق ليخرج عباده من عبادة عباده، إلى عبادته ومن عهود عباده إلى عهوده ومن طاعة عباده إلى طاعته ومن ولاية عباده إلى ولايته، بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً عوداً وبدواً عذراً ونذراً بحكم قد فصله وتفصيل قد أحكمه وفرقان قد فرقه وقرآن قد بينه، ليعلم العباد من ربهم إذ جهلوه وليقرّوا به إذ جحدوه وليثبتوه بعد أن أنكروه فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه فأراهم حلمه كيف حلم وأراهم عفوه كيف عفا وأراهم قدرته كيف قدر، وخوفهم من سطوته وكيف خلق ما خلق من الآيات وكيف محق من محق من العصات بالمثلات، واحتصد من احتصد بالنقمات وكيف رزق وهدى وأعطى وأراهم حكمه كيف حكم وصبر حتى يسمع ما يسمع ويرى فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله بذلك.

ثم إنه سيأتي عليك من بعدي زمان ليس في ذلك الزمان شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وآله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب، إذا تلي حق تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلا ثمناً من الكتاب إذا حرف عن مواضعه، وليس في العباد ولا في البلاد شيء هو أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر وليس فيها فاحشة أنكر ولا عقوبة أنكا من الهدى عند الضلال، في ذلك الزمان فقد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته حتى تمالت بهم الأهواء وتوارثوا ذلك من الآباء وعملوا بتحريف الكتاب كذباً وتكذيباً فباعوه بالبخس وكانوا فيه من الزاهدين، فالكتاب وأهل الكتاب في ذلك الزمان طريدان منفيان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد ولا يؤويهما مؤوٍ، فحبذا ذانك الصاحبان وأهالهما ولما يعملان له، فالكتاب وأهل الكتاب في ذلك الزمان في الناس وليسوا فيهم ومعهم وليسوا معهم، وذلك لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا.

وقد اجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة قد ولوا أمرهم وأمر دينهم من يعمل فيهم بالمنكر والمنكر والرشا والقتل لم يعظمهم على تحريف الكتاب تصديقاً لما يفعل وتزكية لفضله، ولم يولوا أمرهم من يعلم الكتاب ويعمل بالكتاب ولكن وليهم من يعمل بعمل أهل

النار، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب أمامهم، لم يبق عندهم من الحق إلا إسمه ولم يعرفوا من الكتاب إلا خطه وزبره، يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالساً حتى يخرج من الدين ينتقل من دين ملك إلى دين ملك ومن ولاية ملك إلى ولاية ملك ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك ومن عهود ملك إلى عهود ملك فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون، وإن كيده متين بالأمل والرجاء حتى توالدوا في المعصية ودانوا بالجور، والكتاب لم يضرب عن شيء منه صفحاً ضلالاً تائهين قد دانوا بغير دين الله تعالى وأدانوا لغير الله مساجدهم في ذلك الزمان عامرة من الضلالة خربة من الهدى قد بدل ما فيها من الهدى، فقرّاؤها وعمارُها أخائب خلق الله وخليقته من عندهم جرت الضلالة وإليهم تعود، فحضورهم مساجدهم والمشي إليها كفر بالله العظيم إلا من مشى إليها وهو عارف بضلالهم فصارت مساجدهم من فعالهم على ذلك النحو خربة من الهدى عامرة من الضلالة، قد بدلت سنة الله وتعدت حدوده لا يدعون إلى الهدى ولا يقسمون الفيء ولا يوفون بذمة، يدعون القتيل منهم على ذلك شهيداً، فدانوا الله بالإفتراء والجحود واستغنوا بالجهل عن العلم، ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة وسموا صدقهم على الله فرية وجعلوا في الحسنة العقوبة السيئة.

وقد بعث الله تعالى إليكم رسولاً من أنفُسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﷺ وأنزل عليه كتاباً عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد قرآناً غير ذي عوج لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فلا يلهينكم الأمل ولا يطولن عليكم الأجل فإنما أهلك من كان قبلكم إمتداد أملهم وتغطية الآجال عنهم حتى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة وترفع عنه التوبة وتحل معه القارعة والنقمة، وقد أبلغ الله تعالى إليكم بالوعيد وفصل لكم القول وعلمكم السنّة، وشرع لكم المناهج ليزيح العلة وحث على الذكر ودل على النجاة، وأنه من انتصح الله واتخذ قوله دليلاً هداة للتي هي أقوم ووفقه للرشاد وسدده ويسره للحسنى، فإن جار الله آمن محفوظ وعدوه خائف مغرور، فاحترسوا من الله بكثرة الذكر واخشوا منه بالتقوى وتقربوا إليه بالطاعة فإنه قريب مجيب قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

فاستجيبوا لله وآمنوا به، عظموا الله الذي لا ينبغي لمن عرف عظمة الله تعالى أن يتعظم، فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمة الله أن يتواضعوا له، وعز الذين يعلمون ما جلال الله أن يذلوا له، وسلامة الذين يعلمون ما قدرة الله أن يستسلموا له، فلا ينكرون أنفسهم بعد حد المعرفة ولا يضلون بعد الهدى فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب والباري من ذي السقم.

واعلموا علماً يقيناً أنكم لن تعرفوا الذي تركه لن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرفه، ولن تعرفوا الضلالة حتى تعرفوا الهدى ولن تعرفوا التقوى حتى تعرفوا الذي تعدى، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف ورأيتم الفرية على الله وعلى رسوله والتحريف لكتابه، ورأيتم كيف هدى الله من هدى، فلا يجهلنكم الذين لا يعلون فإن علم القرآن ليس يعلم ما هو إلا من ذاق طعمه فعلم بالعلم جهله وأبصر عماه وسمع به صممه وأدرك به علم ما فات وحيى به بعد إذ مات وأثبت عند الله تعالى ذكره به الحسنات ومحى به السيئات وأدرك به رضواناً من الله تعالى، فاطلبوا ذلك من عند أهله خاصة فإنهم خاصة نور يستضاء به وأئمة يهتدى بهم، وهم عيش العلم وموت الجهل هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن منطقهم وظاهرهم عن باطنهم لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق، فهو من شأنهم شهداء بالحق ومخبر صادق لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه قد خلت لهم من الله سابقة ومضى فيهم من الله تعالى حكم صادق وفي ذلك ذكرى للذاكرين، فاعقلوا الحق إذا سمعتموه عقل رعاية ولا تعقلوه عقل رواية فإن رواة الكتاب كثير ورعاته قليل والله المستهان[1].

الترجمة

از خطبه آن حضرت است که آن را در ذی قار در حالی که از مکّه متوجّه به سوی بصره بود (که در این سفر جنگ جمل پیش آمده) فرموده است و این خطبه را واقدی در کتاب جمل ذکر کرده است:

پس رسول اکرم بدان چه از جانب حق متعال مأمور بود آشکار کرده است و رسالت پروردگار خود را برسانید، پس خدای تعالی به ارسال آن حضرت تفریق و پراکندگی مردمان را به هم آورد و شکاف جمعیت ها را التیام و پیوستگی داد و میان خویشان و ارحام - پس از آن که عداوت در سینه ها جا کرده بوده و آتش کینه در دلها شعله میزد - الفت داد.

(١) الكافي: ٨/ ٣٩١، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٥٥٦.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والثلاثون من المختار في باب الخطب

كلم به عبد الله بن زمعة وهو من شيعته، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً فقال عليه السلام:

«إنْ هٰذَا الْمالَ لَيْسَ لي ولا لَكَ، وإنَّما هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمينَ وجَلَبُ أَسْيافِهِمْ، فَإنْ شَرِكْتَهُمْ في حَرْبِهِمْ كانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وإلّا فَجَناةُ أَيْدِيهِمْ لا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْواهِهِمْ»[1].

اللغة

(الجلب)، المال المجلوب. و **(الجناة)** ما يقتطف من الثمر عن الشجر، وهي إستعارة لما اكتسبوه بأيديهم من ذلك المال **(الفيء)** ما كان شمساً فينسخه الظل والغنيمة والخراج والرجوع.

قال المرزوقي في عدة مواضع من شرح الحماسة: الفيء الغنيمة والرجوع وقال في شرحه على الحماسة ٥٦٧: الظل ما يكون للشجرة وغيرها بالغداة والفيء بالعشي، وتمسك بقول حميد بن ثور:

فلا الظلّ من برد الضحى نستطيعه ولا الفيء من برد العشي نذوق

وكذا الطبرسي في المجمع في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ من سورة النحل. وإليه يفيء ما في القاموس من أن الفيء ما كان شمساً فينسخه الظل. يعني إن كان المحل شمساً فمحاه الظل فذلك الظل فيء ولذا يقال إن الفيء من زوال الشمس إلى غروبها، ولا بعد أن يقال إن الفيء بحسب أصل اللغة الرجوع، ولذا سمى في الكتب الفقهية الظل الحادث بعد الزوال فيئاً لأنه رجع وعاد بعد ما كان ضياء الشمس نسخه، ومنه فيء المسلمين لما يعود عليهم وقتاً بعد وقت من الخراج والغنائم، كما في المجمع في تلك السورة المذكورة، وقال في سورة الحشر: الفيء رد ما كان للمشركين على المسلمين بتمليك الله إياهم ذلك على ما شرط، وكذا في الصافي ﴿مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ الآية أي رده عليه فإن جميع ما بين السماء والأرض لله عزّ وجلّ ولرسوله ولأتباعه من المؤمنين، فما كان منه في أيدي المشركين والكفار والظلمة والفجار وهو حقهم أفاء الله عليهم ورده إليهم كذا عن الصادق عليه السلام في حيث رواه في الكافي[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ١١٥، والغدير: ٨/ ٢٣٩.

(٢) مكاتيب الرسول: ٣/ ٥٣٠، تفسير مجمع البيان: ٦/ ١٦١.

ويعدي فاء بالتضعيف كما يعدي بزيادة الهمزة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ الآية، وقال قيس بن الخطيم الأوسي (حماسة ٣٦):

وساعدني فيها ابنُ عمرو بن عامرٍ زُهير فأدّى نعمةً وأفاءها

وجمع الفيء أفياءٌ وفيوء كشيخ وأشياخ وشيوخ.

الإعراب

قوله عليه السلام (ليس لي خبر إن)، وقوله (ولا لك عطف عليه)، وجلب أسيافهم عطف على فيء أي هو جلب أسيافهم، وقوله عليه السلام (كان لك) جواب أن الشرطية، والفاء في (فإن) فصيحة، ومثل إسم كان آخر على خبره أعني لك توسعة للظرف وقوله: (وإلا فجناة أيديهم)، تقديره وإن لأشركتهم فجناة أيديهم إلخ.

ثم اختلف في الفرق بين الفيء والغنيمة، في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية: الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال وهي هبة من الله تعالى للمسلمين والفيء ما أخذ بغير قتال، وهو قول عطا ومذهب الشافعي وسفيان وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام، وقال قوم: الغنيمة والفيء واحد وادعوا أن هذه الآية ناسخة للتي في الحشر من قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الحشر: ٧] «إلخ» وكذا قال الشهيد الثاني رحمه الله في كتاب الخمس من شرح اللمعة: الغنيمة ما يحوزه المسلمون بإذن النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام من أموال أهل الحرب بغير سرقة ولا غيلة من منقول وغيره، ومن مال البغاة إذا حواها العسكر عند الأكثر، ومن الغنيمة فداء المشركين وما صولحوا عليه، وقال في كتاب الجهاد: الغنيمة أصلها المال المكتسب، والمراد هنا ما أخذته الفئة المجاهدة على سبيل الغلبة لا باختلاس وسرقة فإنه لآخذه، ولا بإنجلاءِ أهله عنه بغير قتال فإنه للإمام عليه السلام.

المستفاد من قوله: ولا بانجلاءِ أهله «إلخ» أنه يشير إلى الفيء بأن الفيء ما يؤخذ بغير قتال كما هو المستفاد من قول الله عزّ وجلّ في سورة الحشر: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ إلى آخر الآيتين حيث نزلت في أموال كفار أهل القرى وهم قريظة وبني النضير، وهما بالمدينة وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال، وخيبر وقرى عرينة وينبع جعلها الله لرسوله، يحكم فيه ما أراد وأخبر أنها كلها له، فقال أناس فهلا قسمها فنزلت الآيتان ردًّا عليهم بأن ما أفاء الله على رسوله من اليهود، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب أي لم تسيروا إليها على خيل ولا إبل، وإنما كانت ناحية من نواحي المدينة مشيتم إليها مشياً كما في المجمع وغيره، فيستفاد من الآيتين: إن الفيء ما أخذ بغير قتال كما لا يخفى. وفي المجمع أيضاً في سورة الأنفال: وصحت الرواية عن أبي جعفر وأبي

عبد الله عليه السلام أنهما قالا: إن الأنفال كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتال وكل أرض إنجلى أهلها عنها بغير قتال ويسميها الفقهاء فيئاً، وفي التهذيب عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في الغنيمة قال: «يخرج منه الخمس ويقسم ما بقي بين من قاتل عليه وولي ذلك فأما الفيء والأنفال فهو خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله»[1].

وفيه عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سمع يقول: «أن الأنفال ما كان من أرض لم يكن فيها هراقة دم أو قوم صولحوا وأعطوا بأيديهم فما كان من أرض خربة أو بطون أو دية فهذا كله من الفيء والأنفال لله وللرسول»[2]. الخبر.

وفيه أيضاً عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام الفيء ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل[3]. والأنفال مثل ذلك هو بمنزلته، وغير ذلك من الأخبار المروية عن أئمتنا عليهم السلام ما أشار إليه في المجمع مما هو مصرح بأن الفيء، ما يؤخذ بغير قتال ولم يكن فيه هراقة دم بخلاف الغنيمة، ولكن لا يخفى أن في هذه الخطبة أطلق عليه السلام الفيء على الغنيمة كما هو الظاهر من قوله عليه السلام جلب أسيافهم فجناة أيديهم فتفيد أنهما بمعنى واحد فتأمل.

ثم إن المستفاد من الأخبار الإمامية وعبارات الفقهاء والمفسرين من الإمامية رضوان الله عليهم أن الأنفال أعم شمولاً من الفيء، والأنفال يشمل الفيء وغيره لأن الفيء كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتال وكل أرض إنجلى عنها أهلها، والأنفال يشملها والأرضين الموات وتركات من لا وارث له من الأهل والقربات والآجام والمفاوز والمعادن وقطايع الملوك وصفاياهم إذا فتحت دار الحرب وبطون الأودية ورؤوس الجبال وسيف البحار وما يغنمه الغانمون بقتال بغير إذن الإمام عليه السلام وغيرها مما هي مذكورة في مواضعها مع شرائطها، وإن كان حكم كل واحد من الفيء والأنفال في الحكم مساوياً كما يستفاد من ظاهر بعض الأخبار والتعاريف تساويهما في الشمول أيضاً بل في بعض التعابير أن الأنفال مطلق الغنائم.

ثم إن إستعمال الغنيمة بمعناها اللغوي أعني المال المكتسب في الروايات وعبارات الفقهاء كثير، وفي التهذيب عن حكم مؤذن بني عبس عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية قال عليه السلام: «هي والله الإفادة يوماً بيوم».

وقال الشيخ في المقنعة: الخمس واجب في كل مغنم، ثم قال: والغنائم كل ما استفيد

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٣٩٠، وسائل الشيعة: ٩/ ٥١٧، ح ١٢٦١٣.

(٢) شرح أصول الكافي: ٧/ ٣٩٠، ووسائل الشيعة: ٦/ ٣٦٧، ح ١٠.

(٣) تهذيب الأحكام: ٤/ ١٣٣، ح ٣٧١، ووسائل الشيعة: ٩/ ٥٢٧، ح ١٢٦٣٥.

بالحرب من الأموال والسلاح والأثواب والرقيق وما استفيد من المعادن والغوص والكنوز والعنبر، وكل ما فضل من أرباح التجارات والزراعات والصناعات من المؤنة والكفاية في طول السنة على الاقتصاد. انتهى[١].

ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية فإن في عرف اللغة يطلق على جميع ذلك إسم الغنم والغنيمة إلا ما استثنى بالأدلة الخاصة مما لا خمس فيه.

عبد الله بن زمعة من هو؟

عبد الله بن زمعة بفتح الميم كان من أصحاب علي أمير المؤمنين عليه السلام وشيعته، كما صرح به الرضي رضوان الله عليه، وقال ابن الأثير في أُسد الغابة في معرفة الصحابة: عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي أمه قريبة بنت أبي أُمية بن المغيرة أُخت أم سلمة أُم المؤمنين، كان من أشراف قريش وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وآله، وأبو زمعة هو الأسود بن المطلب وقتل زمعة يوم بدر كافراً وكان الأسود من المستهزئين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥] وقتل عبد الله مع عثمان يوم الدار. قاله أبو أحمد العسكري عن أبي حسان الزيادي وكان لعبد الله ابن إسمه يزيد قتل يوم الحرة صبراً قتله مسلم بن عقبة المري. انتهى[٢].

وكذا قال ابن الحجر في التقريب أن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد القرشي الأسدي صحابي مشهور إستشهد يوم الدار مع عثان.

ولا يخفى أن ما ذكر من أن عبد الله قتل مع عثمان يوم الدار لا يوافق ما في هذه الخطبة من أنه قدم عليه عليه السلام في خلافته.

المعنى

قدم عبد الله بن زمعة على علي عليه السلام في خلافته واستماحه مالاً فاعتذر إليه، وأجابه بأن ذلك المال ليس له عليه السلام لم يجمعه لنفسه بل ولم يجمع مالاً لنفسه يخصه حتى يعطيه منه، وأنى له أن يخون مال الغير إبتغاء مرضاة رجل من شيعته وهو عليه السلام خليفة الله وأمينه والفائز بالخواص النبوية والمتصف بالأوصاف الإلهية وبها صار رباً إنسانياً.

وقد مر في الخطب الماضية من كلامه عليه السلام: «والله لأن أبيت على حسك السعدان

(١) تهذيب الأحكام: ٤/ ١٢١، ح ٣٥، وتفسير مجمع البيان: ٤/ ٤٦٩.

(٢) أسد الغابة: ٣/ ١٦٤.

مسهداً أو أجر في الأغلال مصفداً أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغصباً لشيء من الحطام، وفي تلك الخطبة يقول عليه السلام: «إن أخاه عقيلاً إفتقر حتى استماحه من بيت المال للمسلمين صاعاً من بر، فأحمى له حديدة على ما ذكر فيها بل نعلم أنه عليه السلام فعل بأحب الناس إليه وأقربهم منه ولده الحسين عليه السلام ما توجل به القلوب وتقشعر به النفوس، وذلك أن معاوية سأل يوماً عقيلاً عن قصة الحديدة المحماة المذكورة فبكى وقال: أنا أحدثك يا معاوية عنه ثم أحدثك عما سألت، نزل بالحسين إبنه ضيف فاستسلف درهماً إشترى به خبزاً واحتاج إلى الأدام فطلب من قنبر خادمهم أن يفتح له زقاق عسل جاءتهم من اليمن فأخذ منه رطلاً، فلما طلبها عليه السلام ليقسمها قال: يا قنبر أظن أنه أخذت؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين وأخبره، فغضب عليه السلام وقال علي بحسين الدرة فقال: بحق عمي جعفر وكان إذا سئل بحق جعفر سكن فقال له: ما حملك أن أخذت منه قبل القسمة قال: أن لنا فيه حقاً فإذا أُعطيناه رددناه قال: فداك أبوك وإن كان لك فيه حق فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم، أما لولا إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبل ثنيتك لأوجعتك ضرباً ثم دفع إلى قنبر درهاً كان مصروراً في ردائه وقال: إشتر به خير عسل تقدر عليه، قال عقيل: والله لكأني أنظر إلى يدي عليٍّ وهي على فم الزق وقنبر يقلب العسل فيه ثم شده وجعل يبكي ويقول: اللهم إغفر لحسين فإنه لم يعلم، فقال: معاوية ذكرت من لا ينكر فضله رحم الله أبا حسن فلقد سبق من كان قبله وأعجز من يأتي بعده، هلم حديث الحديدة، فذكر له حديثها وهذا ما ذكره الشارح المعتزلي ابن أبي الحديد في ضمن كلامه في الحديدة المحماة وأمثاله ونظائره، من ولي الله الأعظم أرواحنا له الفداء عند المؤالف والمخالف كثير، بحيث لا يرتاب فيه فمن كان هذا ديدنه مع أخيه وبنيه فكيف يصفح عن الحق في شيعته ومواليه.

ثم قال خطاباً لعبد الله: وهذا المال ليس لك أيضاً وإنما هو غنيمة المسلمين إقترفوه بسيوفهم مجاهدين في الله ومباشري القتال مع أعداء الله، وإن شركتهم في حربهم وجهادهم فلك مثل حظهم وإلا فما اكتسبوه بأيديهم من مال الكفار وأتعبوا أنفسهم في الجهاد في سبيل الله فاغتنموا فليس لغيرهم فيه نصيب، وعبرة، بأحسن العبارات وأفصح الإستعارات وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم.

وذلك لأنه إذا اغتنم المسلمون شيئاً من أهل الكفر بالسيف قسمه الإمام علي خمسة أسهم، فجعل أربعة منها بين من قاتل عليه ومن حضر القتال على الشرط الذي ذكر في الكتب الفقهية في الجهاد، وجعل السهم الخامس ثلاثة منها له خاصة سهمان وراثة وسهم له وثلاثة أسهم الأخر لأيتامهم ومساكينهم وأبناءِ سبيلهم لا شركهم في ذلك غيرهم، لأن الله سبحانه حرم عليهم الصدقات لكونها أوساخ الناس وعوضهم من ذلك الخمس، هذا عند أصحابنا الإمامية المستفاد من قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ

لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] لأن الأخبار المروية عن أئمتنا عليهم السلام أما السهمان الموروثان فهو سهم الله وسهم رسوله وأما السهم له فهو سهم ذي القربى، والمراد بذي القربى في الكتاب والسنّة هو الإمام عليه السلام بلا خلاف معتد به عندنا.

وروى عن الحسن وقتادة أن سهم الله وسهم الرسول وسهم ذي القربى للإمام القائم من بعده، ينفقه على نفسه وعياله ومصالح المسلمين وهو مثل ما ذهب إليه الإمامية، وأما غيرهم فالمروي عن ابن عباس، وإبراهيم، وقتادة، وعطا أن الخمس يقسم على أربعة أسهم سهم ذي القربى لقرابة النبي والأسهم الثلاثة لمن ذكروا بعد ذلك من سائر المسلمين وذهَبَ أبو حنيفة إلى أنه يقسم على ثلاثة أسهم لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته عندهم لأن الأنبياء لا يورثون فيما يزعمون، وسهم ذي القربى قد سقط لأن أبا بكر، وعمر لم يعطيا سهم ذي القربى ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما[1].

وأما كيفية تقسيم ما عدا الخمس من الأقسام الأربعة الباقية: فعند علمائنا الإمامية أن النبي والإمام القائم مقامه بعده يصطفى من الغنيمة ما يختاره من فرس جواد أو ثوب مرتفع أو جارية حسناً وغير ذلك، ثم يقسم الباقي بين الغانمين مما ينقل ويحول بين الغانمين للراجل سهم واحد وللفارس سهمان ومن كان له فرسان فصاعداً كان له سهم ولأفراسه وإن تعددت سهمان، ولا سهم للإبل والبغال والحمير، وذهب ابن الجنيد إلى أن للفارس ثلاثة أسهم إتكالاً على خبر لنا أن علياً عليه السلام كان يجعل للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً، وهو مذهب الشافعي أيضاً وحمل شيخ الطائفة في التهذيب ذلك الخبر على أنه عليه السلام كان يجعل للفرس ثلاثة أسهم إذا كان معه فرسان فصاعداً فلا ينافي الأخبر الأُخر وأما ما لا ينقل ولا يحول من الأرضين والعقارات فهي للمسلمين قاطبة، وذهب أبو حنيفة أيضاً أن للراجل سهماً وللفارس سهمين كالإمامية.

فتقول: إن الظاهر من كلامه عليه السلام إن هذا المال ليس لي ولا لك إنما هو فيء المسلمين، أن الخمس كان قد قسم وأن عبد الله بن زمعة طلب من الأقسام الأربعة الباقية من مال المقاتلة أعني الغانمين فمنعه عليه السلام عنه لأنه لم يكن منهم، وقال: «فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم» ومع الفرض على عدم القسمة أنه لم يك ممن يستحقه لأنه إن كان من الطوائف الثلاثة أعني اليتامى، والمساكين، وابن السبيل فيعتبر إنتسابهم إلى عبد المطلب بالأبوة ويعتبر إنتسابهم إلى هاشم أبي عبد المطلب بالأبوة وهذا أيضاً صحيح،

(١) تفسير مجمع البيان: ٤/٤٦٨.

والخلاف لفظي لأن ذرية هاشم محصورة في ولده عبد المطلب.

وعبد الله ليس منتسباً إليه نعم هو من بني المطلب أخي هاشم ولكن في استحقاق بني المطلب الخمس خلاف وتردد ومع المماشاة أنه لم يكن من المساكين وهم أهل الفاقة والفقر ولا ابن السبيل وهو المنقطع في سفره وظاهر أنه ليس من اليتامى وأولى القربى، فما بقي إلا سهم الله ورسوله وذي القربى أعني سهم الإمام عليه السلام والظاهر بل المصرح من كلامه عليه السلام أن هذا المال فيء المسلمين، وليس منه مع بقائه أنه لم يك مستحقه وبالجملة إن هذا الرجل مع أنه كان من شيعته عليه السلام لم يبلغ بعد إلى مقامات العارفين به عليه السلام فلما رأى أنه توسدت له الوسادة وحاز منصب الخلافة وأخذ أزمة الأمور جاء طالباً لشيء من الحطام، كما هو دأب عبيد الدنيا فأجابه عليه السلام بما فيه تعليم وعبرة لمن كان له قلب ودراية.

الترجمة

از كلام آن حضرت است كه بدان با عبدالله بن زمعه سخن گفت و اين مرد بيوقوف اگرچه از پيروان آن حضرت بود، ولى به مقام شامخ آن ولى الله أعظم و قبله نماى طالبان كعبه حق و مجسمه عدل و مظهر اتم اله كمال معرفت حاصل نكرده بود، در ايام خلافتش از حضرتش بى جهت استحقاق مالى طلب كرد، پس آن كلام الله ناطق و فيصل حق و باطل در جوابش فرمود كه:

اين مال نه از آن من است و نه از ان تو، اين غنيمت مسلمانان و اندوخته شمشير ايشان است، پس اگر در كارزار با ايشان انباز بوده اى در بهره از آن نيز انبازى و گرنه حاصل دست رنج آنان طعمه ديگران نخواهد شد.

هر كو عمل نكرد و عنايت اميد داشت — دانه نكشت ابله و دخل انتظار كرد

نابرده رنج گنج ميسّر نمى شود — مزد آن گرفت جان برادر كه كار كرد

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والواحد والثلاثون من المختار في باب الخطب

«ألا إنَّ اللِّسانَ بَضْعةٌ مِنَ الإنْسانِ فَلا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إذَا امْتَنَعَ، وَلا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إذَا اتَّسَعَ، وإنّا لَأُمَراءُ الْكَلام، وفينا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وعَلَيْنا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ، وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللّهُ أنَّكُمْ في زَمانٍ الْقائِلُ فيهِ بِالْحَقِّ قَليلٌ، وَاللِّسانُ عَنِ الصِّدْقِ كَليلٌ، وَاللاّزِمُ لِلْحَقِّ ذَليلٌ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيان، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الإدْهان، فَتاهُمْ عارِمٌ، وشائِبُهُمْ آثِمٌ، وعالِمُهُمْ مُنافِقٌ، وقارِئُهُمْ مُماذِقٌ، لا يُعَظِّم صَغِيرُهُمْ كَبيرَهُمْ، ولا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقيرَهُمْ»(١).

اللغة

(البضعة) بالفتح وقد يكسر: القطعة من اللحم **(فلا يسعده)** أي لا يعينه **(تنشبت)**: تعلقت وفي نسخة إنتشبت أي اعتلقت، والأولى أولى لمكان تهدلت كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام **(تهدلت غصونه)**: أي تدلت فروعه **(عكفت)** بالمكان أي أقمت به ملازماً له واعتكف أي احتبس وتوقف ولبث والمعتكف على العصيان أي الملازم المداوم عليه والإعتكاف في الشرع اللبث في مكان مخصوص للعبادة على ما بين في محله من الشروط يقال: **(إصطلحوا)** على ذلك أي اتفقوا عليه.

(الأدهان): الغش، والنفاق، والمداراة، والكفر، والركون، وإظهار خلاف ما تضمر كالمداهنة والمصانعة قال الله تعالى في القلم: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩] ومعنى الأخير هنا أشبه وأنسب. **(والفتى)** الشاب الحدث.

و **(العارم)** الشرس الأشر سيء الأخلاق المؤذي البطر وجمعه عرمة كطالب وطلبة والفعل من كرم والأصول الثلاثة و **(الشائب)** من الشيب وهو بياض الشعر مقابل الفتى.

(القاري): الناسك المتعبد وقارىء القرآن الكريم وغيره من الصحف ولكن المراد ههنا هو الأول أعني الزاهد المتعبد لأنه في قبال العالم في قوله عليه السلام: «عالمهم منافق».

(مذق) الود لم يخلصه وهو مذاق، وماذقه مذاقاً وماذقة في الود لم يخلص له فهو مماذق أي غير مخلص، والضمير في يسعده ويمهله يعود إلى اللسان وفي امتنع واتسع يؤل إلى الإنسان.

---

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٢٣ ح ١١٢، وميزان الحكمة: ٢/ ٩٢٣.

الإعراب

كلمة (من) للتبعيض، والفاء رابطة للجواب بالشرط المقدر، والتقدير إذا كان اللسان بضعة من الإنسان فلا يسعده القول إذا امتنع.

جواب (إذا امتنع) قدم عليه وهو لا يسعده القول أي إذا كان اللسان بضعة من الإنسان فإذا امتنع اللسان لا يسعد الإنسان القول، وكذا الجملة التالية.

واللام في (لأُمراء) لام ابتداءٍ تصحب خبر (إن) المكسورة للتأكيد في الجملة المثبتة دون المنفية إلّا نادراً وإنما أخرت إلى الخبر لأن القصد بها التأكيد، وأن للتأكيد أيضاً فكرهوا الجمع بينهما وفي ألفية ابن مالك:

وبعد ذات الكسر تصحب الخبر   لام ابتداء نحو أني لوزر

(وفينا) متعلق بقوله (تنشبت) قدم توسعة للظرف وكذا القياس في (علينا تهدلت غصونه).

جملة (رحمكم الله) معترضة وقع في البين، وجملة (انكم) (اه) في محل النصب مفعول اعلموا، وجملة (القائل فيه بالحق قليل) في محل الجر تكون صفة لزمان والظرفان أعني فيه وبالحق متعلقان بالقائل والجملات العشر الآتية معطوفة على مصطلحون خبر بعد الخبر لأهله.

المعنى

هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في وقعة اقتضت ذلك وهي أنه أمر ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي أن يخطب الناس يوماً، فصعد المنبر فحصر ولم يستطع الكلام فقام عليه السلام فتنسم ذروة المنبر وخطب خطبةً ذكر الرضى رضوان الله عليه منها هذه الكلمات.

وفي أسد الغابة: جعدة بن هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي ولي خراسان لعلي عليه السلام، وهو ابن أُخته أُمُّه أُم هاني بنت أبي طلب، ولدت أُم هاني بنت أبي طالب من هبيرة ثلاث بنين جعدة وهاني ويوسف وقيل أربعة، وقيل إن جعدة هو القائل:

أبي من بني مخزوم إن كنت سائلاً   ومن هاشم أُمي لخير قبيل
فمن ذا الذي يأتي عليّ بخاله   كخالي علي ذي الندى وعقيل[1]

وفي مجالس المؤمنين للقاضي نور الله نوّر الله مرقده: قال عبيدة بن أبي سفيان ذات

(١) الدرجات الرفيعة: ٤١٢، وشرح الأخبار: ٣/ ٢٤٤.

يوم من أيام حرب صفين لعدة بن هبيرة: إن هذه الشجاعة والجرأة التي تبرز منك في الحرب إنما كانت من جانب خالك، فأجابه لو كان خالك كخالي لنسيت أباك.

فنقول: لا يخفى أن المدرك بجميع الإدراكات المنسوبة إلى القوى الإنسانية هو القلب أعني النفس الناطقة وهي أيضاً المحركة لجميع التحريكات الصادرة عن القوى المحركة الحيوانية والنباتية والطبيعية وأن الحواس، الظاهرة والباطنة كلها آلات وعمال وجنود لها بعضها يرى بالإبصار وهي الأعضاء والجوارح، وبعضها لا يرى إلا بالبصائر وهي القوى والحواس وجميع تلك القوى مجبولة على طاعة القلب ومسخرة له وهو المتصرف فيها لا تستطيع له خلافاً وعليه تمرداً، فإذا أمر العين للإنفتاح إنفتحت وإذا أمر الرجل للحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الأعضاء.

وقال بعض أهل العرفان كما في أسفار صدر المتألهين: وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فأنهم جبلوا على الطاعة لا يستطيعون له خلافاً ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وقال صاحب إخوان الصفا في هذا المعنى: أي أن نسبة القوى إلى النفس كنسبة الملائكة إلى الرب: قال الملك لحكيم من الجن كيف طاعة الملائكة لرب العالمين؟ قال: كطاعة الحواس الخمس للنفس الناطقة، قال: زدني بياناً، قال: ألا ترى أيها الملك إن الحواس الخمس في إدراك محسوساتها وإيرادها أخبار مدركاتها إلى النفس الناطقة لا يحتاج إلى أمر ونهي ولا وعد ولا وعيد، بل كلما همت به النفس الناطقة بأمر محسوس إمتثلت الحاسة لما همت به وأدركتها وأوردتها إليها بلا زمان ولا تأخر ولا إبطاء، وهكذا طاعة الملائكة لرب العالمين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لأنه أحكم الحاكمين.

وقال ذلك العارف: وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق، وهذا السفر إلى الله وقطع المنازل إلى لقائه فلأجله جبلت القلوب. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] وإنما مركبه البدن وزاده العلم وإنما الأسباب الموصلة التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التردد العمل الصالح فافتقر أولاً إلى تعهد البدن وحفظه من الآفات بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره وبأن يدفع عنه ما ينافيه ويهلكه من أسباب الهلاك، فافتقر لأجل طلب الغذاء إلى جندين: باطن هو قوة الشهوة وظاهر هو البدن، والأعضاء الجالبة للغذاء فخلق في القلب جنود كثيرة من باب الشهوات كلها تحت قوة الشهوة وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوة، وافتقر لأجل دفع المؤذيات والمهلكات إلى جندين باطن وهو قوة الغضب الذي به

يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء وظاهر وهو اليد والرجل الذي يعمل به بمقتضى الغضب وكل ذلك بأمور خارجة من البدن كالأسلحة وغيرها.

ثم المحتاج إلى الغذاء إذا لم يعرف الغذاء الموافق لا ينفعه شهوة الغذاء وآلته، فافتقر في المعرفة إلى جندين: باطن وهو إدراك البصر، والسمع، والذوق، والشم، واللمس، وظاهر وهو العين والأذن، والأنف وغيرها وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها مما يطول شرحه.

فجملة جنود القلب يحصرها ثلاثة أصناف:

أحدها: باعث مستحث إما: إلى جلب المنافع النافع كالشهوة، وإما: إلى دفع المضار المنافي كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة.

والثاني: هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة وهي جنود مبثوثة في ساير الأعضاء لا سيما بالعضلات منها والأوتار.

والثالث: وهو المدرك المتصرف لأشياء كالجواسيس وهي مبثوثة في أعضاء معينة فمع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة هي الأعضاء التي أعدت آلات لهذه الجنود فإن قوة البطش إنما يبطش بالأصابع وقوة البصر إنما تدرك بالعين وكذا سائر القوى إنتهى.

وبالجملة أن قوى البدن كلها جنود للنفس وأن نسبة النفس إلى البدن كنسبة الربان إلى السفينة والملك إلى المدينة بل ألطف وأدق وأجل وأشمخ من ذلك بمراحل لا يعلمه إلا الراسخون في العلم، أعرضنا عن بيانه خوفاً للإطالة وهو محقق ومبرهن في الحكمة العالية، فإذا كانت حال النفس مع البدن كذلك فمتى عرض النفس شاغل من جبن وخوف وخشية ونحوها، لا يقدر الإنسان على التكلم، والمشي، والحركة، ولا يسع ولا يعقل، وكثيراً ما يعرض الإنسان أن عينه وأذنه سليمة مفتوحة ويمر عنده رجل أو يتكلم معه لكنه لا يسمع ولا يرى لصارف عارض نفسه، وعرض جعدة على المنبر جبن من ازدحام الناس أو أمر آخر فحصر ومنع فلم يستطع الكلام، كما عرض لغير واحد من الخطباء فقام علي عليه السلام وارتقى المنبر فقال: ألا وإن اللسان «إلخ» أي إن اللسان آلة للإنسان يتصرف بتصريفه إياه فإذا امتنع الإنسان عن الكلام لعروض عارض وطار لا يسعد ولا يعين القول إياه كما أن الإنسان إذا اتسع عقله بالمعارف الحقة الإلهية والعلوم الربانية والكمالات الإنسانية، وصار أمير الكلام لا يمهل النطق اللسان بل يسارع إليه ويحدر عنه إنحدار السيل عن قلة جبل شامخ.

ثم أن اللسان لما كان بضعة من الإنسان فيكون ما يصدر عنه بضعة وأنموزجاً لما هو مستجن في ضميره فإذا تكلم فيكون كلامه حاكياً عن سريرته لأنه فاض منه والظاهر عنوان

الباطن والمعلول يحكى عن العلة بوجه ما على حد وجوده، وقال بعض الأدباء كما أن الأواني تختبر بضرب الأصابع عليها وتصويتها كذا يعرف مقدار الرجال بكلامه، والمرء مخبوء تحت لسانه ولا يخفى أن لسان الإنسان وكتابه ورسوله وسائر عمله كل واحد منها كأنه جزؤه نشأ منه وانفصل عنه كالثمر عن الشجر والولد عن الوالد والولد سر أبيه، فإن كان أصله طيباً فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، وإن كان خبيثاً فالذي خبث لا يخرج إلا نكداً، ونعم ما قال الشاعر:

وكل إناء بالذي فيه يرشح ويُنبى الفتى عما عليه انطواؤه

وفي الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

من لم يكن عنصره طيبا لم يخرج الطيب من فيه
أصل الفتى يخفى ولكنه من فعله يعرف ما فيه

ونعم ما قال ابن الرومي «أو القاضي التنوخي»:

تخير إذا ما كنت في الأمر مُرسلاً فمبلغ آراء الرجال رسولُها

ونعم ما قاله العارف الرومي في المثنوي أيضاً:

گفت إنسان پاره ز انسان بود پاره از نان يقين كه نان بود

وهذه الدقيقة الأنيقة الفائضة من عالم القدس باب ينفتح منه أبواب أخر يعقلها من كان له قلب، ولولا خوف الأطناب لفصلنا تلك الأبواب.

ثم إن ههنا دقيقة عرشية أخرى لا بأس أن نشير إليها وهي المستفادة من قوله عليه السلام **(إذا اتسع)** ولا يخفى أن هذا الإتساع ليس بجسماني كإتساع المكان، والزمان، والدار، والفضاء، وأشباهها بل هو السعة الكلية المجردة النورية الوجودية الحاصلة للنفس الناطقة بالعلوم القدسية السماوية والحقائق، العرشية والفضائل المكتسبة من عالم المفارقات وحضرة المجردات، وهذا التعبير من مدينة العلم يفيد أن الروح مجرد عن أوصاف الجسم وأحوال المادة ولا تنال إليه يدأين؟ ومتى ولا أي وكيف وأخواتها وليس له جزء خارجي ولا حملي، ولا يحوم حوله مطلب هل المركبة وأمثاله، وأن العلم ليس بعرض لذات النفس كعروض اللون على الجدار كما ذهب إليه المشاؤون وعدوا العلم من الكيفيات النفسانية وذلك لأن الكيف عارض على المحل والعرض لا يكون مؤثراً في حقيقة شيء وجوهره وذاته، كيف أنه كيف مع أنه يخرج النفس من الضعف إلى القوة، ومن الظلمة إلى النور، والعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء فيكون العلم كما لا للنفس في جوهرها وقوامها وذاتها وأنى للعرض هذه الشأنية العظمى؟

بل العلم كما ذهب إليه المحققون من الحكماء المتألهين وأتباعهم وجل العرفاء الشامخين وأشياعهم خارج عن المقولات لأن العلم وجود وليس الوجود جوهراً ولا عرضاً

ووجود العلم يجعل النفس قوياً ويخرجها من الضيق إلى السعة بحيث يتحد العاقل مع المعقول.

نيست انسان جز خبر در آزمون هر كه اوعلمش فزون جانش فزون

نعم مفهوم العلم كيف نفساني بلا كلام ويعد من الأعراض من هذه الجهة وليس كما لا للنفس ولا يخرجها من القوة إلى الفعل.

قوله عليه السلام: (وإنا لأمراء الكلام وفينا تنشبت عروقه وعلينا تهدلت غصونه) أي نحن أهل البيت والحجج الإلهية تتصرف الكلام كيف نشاء تصرف الأمراء في ممالكهم لا يعرضنا عي وحصر، كيف وأصول الكلام فينا تعلقت وفروعه علينا تدلت، أي نحن منبت الكلام ومَنْشَؤُهْ، وغيرنا يتناول غصونه التي علينا تدلت ويستفيد منها ويجتنى ثمارها.

ونعم ما قال صدر المتألهين في شرح أصول الكافي من أن الفصحاء جميعهم بمنزلة عياله عليه السلام في الفصاحة من حيث يملؤون أوعية أذهانهم من ألفاظهم ويضمنونها خطبهم ورسائلهم فيكون بمنزلة درر العقود، ولا يخفى أن قوله عليه السلام وفينا تنشبت عروقه وعلينا تهدلت غصونه في الجودة والفصاحة واللطافة فوق ما يحوم حوله العبارة وكلامهم عليهم السلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، وهو في ذاته حجة قاطعة وشاهد صادق على أنهم أمراء الكلام وفيهم تنشبت عروقه وعليهم تدلت غصونه فلا يخفى لطفه.

ثم إنا نرى أن من ربيت في حجره ونشأت في بيته واستضاءت من مصباح وجوده واستروت من عين جوده بلغت في تنضيد العاني والحكم وتنسيق العارف والكلم إلى مرتبة يعترف الخصم الألد بجودة لفظها وعذوبة مغزاها، مع أنها كانت محفوفة بداهية دهياء ما سمعت أذن شبهها وما رأت عين مثلها وهي عقيلة بني هاشم زينب بنت علي أمير المؤمنين عليه السلام فانظر بعين العلم، والعرفان إلى خطبتها التي خطبت في الكوفان وما أجابت به عبيد الله بن زياد ويزيد بما فوق أن يحوم حوله البيان ففي تاريخ الطبري وإرشاد المفيد وكثير من الكتب المعتمدة:

لما أدخل عيال الحسين عليه السلام على ابن زياد في الكوفة دخلت زينب أُخت الحسين عليه السلام في جملتهم متنكرة وعليها أرذل ثيابها فمضت حتى جلست ناحية من القصر وحفت بها إماؤها فقال ابن زياد من هذه التي انحازت فجلست ناحية ومعها نساؤها؟ فلم تجبه زينب، فأعاد ثانية يسأل عنها، فقال بعض إمائها هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فأقبل عليها ابن زياد فقال لها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم، فقالت زينب عليها السلام: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وطهرنا من الرجس تطهيراً إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمد لله».

فقال ابن زياد كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ قالت: كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتختصمون عنده، فغضب ابن زياد واستشاط فقال عمرو بن حريث أيها الأمير أنها إمرأة والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها ولا تذم على خطائها، فقال لها ابن زياد: قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك، فرقت زينب عليها السلام وبكت وقالت: لعمري لقد قتلت كهلي وأبرت أهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي فإن يشفك هذا فقد شفيت، فقال لها ابن زياد: هذه سجاعة ولعمري لقد كان أبوها سجاعاً شاعراً، فقالت: ما للمرأة والسجاعة إن لي عن السجاعة لشغلاً ولكن صدري نفث لما قلت[1].

قوله عليه السلام: (واعلموا ـ رحمكم الله ـ أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل) الشيطان إذا استحوذ على أهل زمان يكون القائل فيه بالحق قليل قال عزّ من قائل ـ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال تعالى ـ: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] ولا يخفى أنه إذا اتصف أهل زمان بالصفات الإلهية وتأدبوا بالآداب الملكوتية لا يعد واحد عن مسيره الأوسط، ولا يميل إلى اليمين والشمال لأن اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادة ومن كان قائده العقل يكون قوله صواباً ومنطقه حقاً ولا يبيع الحق بالباطل، فإذا استحوذ الشيطان على أهل زمان لا بد أن يكون القائل فيه بالحق إلا قليل من عباد الله المخلصين لا تلهيهم الدنيا عن الله قليلاً لأنهم عبدة الشيطان والدنيا وخدمة النفس والهوى فإذا أقبلت الدنيا بأي نحو من الأنحاء يصرفون عن الحق ويعرضون عن الصواب.

قوله عليه السلام: (واللسان عن الصدق كليل) يمكن أن يفسر بوجهين:

الأول: على ما بينا من أن الأعمال والأقوال حاكيات عن الضمائر والسرائر فإذا صار الإنسان تابع النفس والهوى، فلا جرم إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى فما يصدر عن الإنسان حينئذٍ يكون من جنس ما هو مستكن فيه والعقل يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وهو ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، فمتى صارت شمس العقل مكسوفة بظل الهوى؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال فما يصدر عن ذلك الإنسان إلا الضلال.

الوجه الثاني: أن يقال إذا كان الأكثر من الناس في زمان بمعزل من الحق، لا سيما عند استيلاء الجهل والظلم على المترفين والزعماء والأكابر فحينئذٍ لا يقدر الرجل العابد الورع العاقل أن يكون صادقاً في أموره وشؤونه خوفاً من شرار الناس لكثرتهم وإيذائهم أهل الحق والرشاد، فلسان أهل الحق في زمان كذا عن الصدق كليل.

قوله عليه السلام: (واللازم للحق ذليل) لقلتهم وضعفهم بالنسبة إلى الباقين.

---

(١) الإرشاد: ٢/١١٦، وبحار الأنوار: ٤٥/١١٦.

قوله ﷺ: (أهله معتكفون على العصيان) أي لا زال أنهم ملازمون عليه لبعدهم عن الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال.

قوله ﷺ: (مصطلحون على الإدهان) أي متفقون على الغش والنفاق والمصانعة والمداهنة لا يصدق قولهم فعلهم وظاهرهم باطنهم.

قوله ﷺ(فتام عارم) لأن أهل الزمان إذا كانوا بغير قسط وعدل وكانت ظلمات الجهل غالبة والفواحش والمناكر شائعة، فالحياء يخفق من أرض اجتماعهم فحينئذٍ يصير فتيانهم شرسي الأخلاق عارين عن الحياء، لأن رسوخ الفواحش فيهم أمكن وأسرع لأن القوى الحيوانية الشهوانية فيهم أشد وأقوى فإذا ذهب الحياء عن الناس لا يبالون أي ما فعلوا لأن الحياء ملكة للنفس توجب انقباضها عن القبيح وانزجارها عن خلاف الآداب خوفاً من اللوم، وروى عن الرضا عن آبائه ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبق من أمثال الأنبياء إلا قول الناس: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»[1].

قوله: (وشائبهم آثم) لكونه متوغلاً في الجهل والغفلة بحيث لا يرى أن أجله إنصرم مهله انقطع حتى يتنبه من نوم الغفلة ويتدارك ما فات منه، نعوذ بالله من سبات العقل، قال النبي ﷺ: «أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده، أبناء الخمسين ماذا قدمتم وماذا أخرتم، أبناء الستين هلموا إلى الحساب لا عذر لكم، أبناء السبعين عدوا أنفسكم من الموتى»[2].

وروي: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح إبليس وجهه وقال: بأبي وجه لا يفلح[3].

وفي «شيب» من سفينة البحار: عن إبراهيم بن محمد الحسني قال: بعث المأمون إلى أبي الحسن الرضا ﷺ جارية فلما أدخلت إليه إشمأزت من الشيب فلما رأى كراهتها ردها إلى المأمون وكتب إليه بهذه الأبيات:

نعى نفسي إلى نفسي المشيب	وعند الشيب يتعظ اللبيب
فقد ولىّ الشباب إلى مداه	فلست أرى مواضعه تؤب
سأبكيه وأندبه طويلاً	وأدعوه إليّ عسى يجيب
وهيهات الذي قد فات منه	تمنيني به النفس الكذوب
أرى البيض الحسان يحدن عني	وفي هجرانهن لنا نصيب

(١) الأمالي: الشيخ الصدوق. ص ٦٠٠، وبحار الأنوار: ٦٨ ص: ٣٣٣ ح٣.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٢ ص ١٥٧ وبحار الأنوار: ٦/١٣٦.

(٣) مشكاة الأنوار: ٢٩٥ بتفاوت ومستدرك سفينة البحار: ٤/٦٤ ح٦.

فإن يكن الشباب مضى حبيباً ... فإن الشيب أيضاً لي حبيب
سأصحبه بتقوى الله حتى ... يفرق بيننا الأجل القريب(١)

وقال الشيخ العارف السعدي بالفارسية:

چو دوران عمر از چهل در گذشت ... مزن دست وپا كآبت از سر گذشت
چو شيبت در آمد بروى شباب ... شبت روز شد ديده بركن زخواب
چو باد صبا بر گلستان وزد ... چميدن درخت جوان را سزد
نزيبد تو را با جوانان چميد ... كه بر عارضت صبح پيرى دميد
دريغا كه فصل جوانى گذشت ... بلهو ولعب زند گانى گذشت
ذريغا چنان رح پرور زمان ... كه بگذشت برما چو برق يمان
دريغا كه مشغول باطل شديم ... حق دور مانديم وعاطل شديم
چه خوش گفت باكودك آموز گار ... كه كارى نكردى وشد روز گار

قوله عليه السلام: (وعالمهم منافق) أي يتخذ علمه وسيلة لدنياه وفطنته ذريعة لهواه، لا لإرجاع الناس من الطرق المعوجة إلى الحدة الوسطى والصراط المستقيم وإرشادهم من النقوش الباطلة إلى كتاب الله، وصفه دواء وقوله شفاء وفعله الداء العياء ويقول ما لا يفعل وما يظهر يضاد ما يضمر، ونعم ما قاله الشاعر:

يا أيها الرجل المعلِّم غيره ... إلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام والضَّنى ... كيما يصح وأنت به سقيم

قال الله عزّ من قائل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

قوله عليه السلام: (وقارئهم مماذق) أي عبادهم الناسك المتعبد غير مخلص في عبادته لوجه الله بل هو مشوب بالرياء وهو بظاهره وجهه إلى الله ولكن قلبه إلى الناس:

آنكه چون پسته دبديش همه مغز ... پوست برپوست بود همچوپياز
پارسين روى بر مخلوق ... پشت بر قبله ميكنند نماز

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل

(١) بحار الأنوار: ٤٩/ ١٦٤، ح ٤، ومستدرك سفينة البحار: ٦/ ١٠٧.

عملك وحبط أجرك إذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له»[١].

وقال ﷺ: «سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربهم يكون دينهم رياء لا يخالطهم خوف يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم»[٢].

وفي ذم الرياء آيات وروايات كثيرة يستفاد منها مطالب دقيقة أنيقة لعلنا نبحث فيها في مباحثنا الآتية.

قوله عليه السلام: (لا يعظم صغيرهم كبيرهم) لقلة اعتداد صغيرهم بالآداب الشرعية وعدم التفاتهم إليها ولو كانوا متأدبين بها ليعظمونهم ويوقرونهم ويخفضون لهم جناح الذل، لقد مضى منه عليه السلام في الخطب السالفة: ليتأس صغيركم بكبيركم وليرؤوف كبيركم بصغيركم ولا تكونوا كجفاة الجاهلية لا في الدين يتفقهون ولا عن الله يعقلون كقيض بيض في أداح يكون كسرها وزراً ويخرج حضانها شراً.

قوله عليه السلام: (ولا يعول غنيهم فقيرهم) لبخلهم بمعروفهم وسيأتي عنه عليه السلام: «إن قوام الدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه وجاهل لا يستنكف أن يتعلم وغني لا يبخل بمعروفه وفقير لا يبيع آخرته بدنياه» إلى أن قال عليه السلام: «وإذا بخل الغني بمعروفه يبيع الفقير آخرته بدنياه»[٣]، وسيأتي بياناً في سر الأخبار والآيات في ذلك وما يستفاد منها من النكات الأخلاقية والمصالح الاجتماعية في تشريع الحقوق المالية في الأموال، وليعلم الغني البخيل القسيّ أن ماله يكون وبالاً عليه لو لم يؤد حق الفقير من ماله كما يأتي بيانه وأن المال إذا أدى حقوقه ينمو ويكثر، قال عزّ من قائل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة، ٢٦٥] وفي الكافي عن أبي الحسن عليه السلام ـ وهو الكاظم ـ: «إن الله تعالى وضع الزكاة قوتاً للفقراء وتوفيراً لأموالكم»[٤]، وقال العارف السعدي بالفارسية:

زكاة مال بدر كن كه فضله رز را — چو باغبان ببرد بيشتر دهد انگور

ثم إنه عليه السلام كأنما ينظر بنا ويحكي عن زماننا حيث أصبحنا الحق مهتضم والدين مخترم، وكاد معالم الدين يؤذن بالمحو والطمس، ولا يتكلم فيه إلا بالرمز والهمس.

(١) بحار الأنوار: ٦٩/٣٠٣، ح ٥٠، وميزان الحكمة: ٢/١٠١٧.

(٢) الكافي: ٢/٢٩٦، ح ١٤، ووسائل الشيعة: ١/٦٥، ح ١٤١.

(٣) بحار الأنوار: ٧١/٤١٧، ح ٣٩، وميزان الحكمة: ٣/٢٤٢٠.

(٤) مختلف الشيعة: ٣/٢٦٢ بتفاوت.

وأحاطت الظلمات بعضها فوق بعض وما يرى سبيل الخروج، كيف لا وأزمة الأمور بأيدي ذوات الفروج، وحماة الدين بعضهم معتكف في قعر السجون وبعضهم يفيض منه ماء الشجون، وأشباح الرجال في زي الرجال، ولنفوس الكرم في صف النعال، والناس عن الطريق القويم والصراط المستقيم لناكبون وفي إعلاء راية العدل لناكسون كأنما على رؤوسهم الطير، وفي إحياء كلة الحق لناكثون كأنما جبلوا على إماتة الخير، ولعمري لولا أنهم قلقوا الوضين لما جعل كتاب الله عضين، ولو كانوا يقاتلون في سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، لما تسلط عليهم اللصوص، ولو قتلوا في سبيل الله فالفوز بالشهادة، ولو سجنوا فالشغل بالعبادة، ولو نفوا فالنيل بالسياحة.

ونعم ما قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ويا سوء ما فعلوا فجعلوا القرآن عدل ما نسجت بالبطلان، وحسبوا وحي الرحمن عكم ما اختلقه الشيطان. وارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن فأين الفلاح وهو أبعد من بيض الأنوق، ورجعوا إلى الجاهلية الأولى بالجد والعلن فأين النجاح وهو أبعد من مناط العيوق، وكم غدرة واضحة في الدين وكم، وفظت الأخلاق والرسوم والشيم، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فاتخذوا كتاب الله وراء ظهورهم سخرياً وبدين الله يلعبون ويستهزؤن، الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، فإذا رأيت أن الزمان دار بنا والحال كما ترى تذكرت ما أجاد أبو العلاء وتمنى:

إذا عيَّر الطائيَّ بالبخل مادر وقرع قُسّاً بالفهاهة باقل

وقال السّها للشمس أنت خفيّة وقال الدّجى يا صبح لونك حامل

وفاخرت الأرضُ السّماء سفاهةً وكاثرت الشهب الحصا والجنادل

فياموتُ زُر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدّي إنّ دهرك هازل

ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وقال عزّ من قائل تبشيراً للمؤمنين وتبكيتاً للمعاندين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] ولا أدري ألا سمع الخصم الألدّ قول قاصم الجبارين: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨] وقوله قهر وعلا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: ٢١].

الترجمة

بدان که زبان پاره ای است از آدمی، هرگاه آدمی از گفتار سر باز زند زبان او را در گفتار یاری نمی کند - یعنی زبان مانند سایر اعضاء فرمان بردار روح می باشد تا از وی فرمان صادر نشود زبان سخن نگوید، چنان که سایر اعضاء - و هرگاه انسان مایه گفتار داشته باشد که جان او به فرا گرفتن علوم وسعت و بزرگی یافت و به نور معارف حقه منور شد گفتار، زبان را مهلت نمی دهد و انسان به سخن زبان گشاید.

به درستی که ما امیران کلامیم - یعنی عنان سخن در دست ما است و بر آن مسلّطیم، هرگونه بخواهیم تصرف می کنیم، چون تصرّف امراء در ممالك خودشان که در هنگام سخن گفتن شاغلی مانند ترس و بیم ما را از آن باز نمی دار - و درخت کلام در ما ریشه دوانیده است و شاخه های آن بر ما آویخته است، بدانید - خدا شما را رحمت کناد - که در زمانی به سر می برید که گوینده حق در آن کم است و زبان از راستی کند است و ملازم حق، خوار است، اهل آن زمان بر معصیت مقیمند و بر مداهنت و مصانعت متفق، جوان ایشان بدخو و بی شرم و پیر ایشان گناهکار، عالم ایشان منافق و عابد ایشان در دوستی به حق مرائی و غیر خالص، کوچك ایشان بزرگ را تعظیم نمی کند و توانگر، تهی دست را نفقه نمی دهد.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والإثنان والثلاثون من المختار في باب الخطب

روى اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية قال: كنّا عند أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكر عنده اختلاف الناس فقال:

«إنَّما فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبادي طينِهِمْ، وذلِكَ أَنَّهُمْ كانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وعَذْبِها، وحَزْنِ تُرْبَةٍ وسَهْلِها، فَهُمْ عَلى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقارَبُونَ، وعَلى قَدْرِ إخْتِلافِها يَتَفاوَتُونَ، فَتامُّ الرُّواءِ نَقِصُ العَقْلِ، وَمادُّ الْقامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ، وَزاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، ومَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ، وَتائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ، وطَلِيقُ اللِّسانِ حَدِيدُ الْجَنانِ»[1].

اللغة

(الطين): التراب، والطِّينة: القطعة منه، في لسان العرب الطين معروف الوحل واحدته طينة، والطينة أيضاً الخلقة والجبلة وفي بعض النسخ طينتهم، **(الفلقة)**: القطعة والشق من الشيء ومعه فلق كعنب، و **(السبخة)** محركة ومسكنة: أرض ذات ملح لا تستعد للنبات والزرع، قابل العذب، و **(العذب)** ما طاب منها واستعد للنبات، **(الحزن)** على وزن فلس: ما غلظ من الأرض كالحزنة، و **(السهل)** من الأرض ضدّ الحزن، **(الرواء)** بالضم والهمز كغلام مشتق من روى: حُسنُ المنظر. قال المتنبي:

فارم بي ما أردت مني فإني ... أسد القلب آدمي الرواء

(الهمة) بالكسر وبالفتح: ما هم به من أمر ليفعل وهممت بالشيء أهم همًّا إذا أردته. **(الزاكي)**: الطيب الخالص الحسن والزكاة صفوة الشيء، **(السبر)**: إمتحان غور الجرح وغيره كالإستبار يقل سبرت الرجل أسبره أي اختبرت باطنه وغوره والسبر في الأصل إدخال الميل في الجراحة لمعرفة غورها ويطلق على مطلق الإختبار قال الحريري: فولجت غابة الجمع لا سبر مجلبة الدمع، وقال المرزوقي في شرح الحماسة «٨٧٣» وتوسع في استعماله: «يعني سبرت» حتى وضع موضع جربت، ولذا سمي الململول الذي يقدر به الجرح وغوره مسباراً، والمسبار مفعال من أبنية الآلات كالفتاح ومن أبيات تلك الحماسة:

فلقد سمتني بوجهك والوصـ ... ـل قُرُوحاً أعيت على المسبار

(الضريبة): الطبيعة والخليقة ومعها الضرائب، قال القتّال الكلابي «حماسة ٢١٧»:

---

(١) بحار الأنوار: ٦٤/ ٩٤، وميزان الحكمة: ٢/ ١٧٦٢، ح ٢٤٣٨.

جليد كريم خيمه وطباعه   على خير ما تبنى عليه الضرائب

(الجليبة): ما يجلبه الإنسان ويتكلفه، المجلوبة وجمعها كالضريبة والمراد بها الخلق الذي يتكلفه الإنسان ويستجلبه مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلف الشجاعة، أو شحيحاً بالطبع فيتكلف الجود، **(التائه)** فاعل من التيه بمعنى الحيرة والضلالة لسان طلق و **(طليق)** فصيح ذو حدة، **(الجنان)** بفتح أوله: القلب.

اليماني هو أبو محمد ذعلب وهو من شيعته عليه السلام في الكافي للكليني قدس سره في باب جوامع التوحيد، وفي الوافي للفيض ص ٩٥ ج ١: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة إذ قام إليه رجل يقال له ذعلب ذو لسان بليغ في الخطب شجاع القلب فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك فقال: «ويلك يا ذعلب ما كنت أعبد رباً لم أرَ، فقال: يا أمير المؤمنين كيف رأيته قال: ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذعلب إن ربي لطيف اللطافة لا يوصف باللطف» الحديث.

وذعلب بالذال المعجمة والعين المهملة كزبرج معناه في الأصل الناقة السريعة ثم صار علماً للإنسان كما أن بكراً في الأصل فتى الإبل ثم صار علماً لبكر بن وائل.

الإعراب

إضافة المبادي إلى الطين بيانية ويمكن أن تكون بعنى اللام أي المبادي لطينهم.

كملة من بيانية للفلقة ويمكن أن تكون للتبعيض وإن كان الأول أظهر.

جملة هم يتقاربون مبتدأ وخبر وعليّ تتعلق بالخبر قدمت عليه للتوسع في الظروف وكذا الجملة التالية المعطوفة عليها.

الفاءان سببيتان فتفيدان التفريع.

وقوله عليه السلام: (فتام الرواء) إلى آخره من الجملات السبع تفسير وتفصيل لقوله: يتفاوتون.

المعنى

نقدم عدة مباحث تبييناً للمراد وتبليغاً إلى الرشاد مستعيناً من الله الواهب الفياض:

الأول

إن الإنسان كسائر المركبات مركب من العناصر إلا أن بعض المركبات ذو صورة لا

نفس له كالمعدنيات، وبعضها ذو صورة له نفس غاذية ونامية ومولدة للمثل لا حس ولا حركة إرادية له كالنبات، وبعضها ذو صورة له نفس غاذية ونامية ومولدة للمثل وحساسة ومتحركة بالإرادة كالإنسان وسائر الحيوانات المتكونة في حيز الأرض.

وإن العناصر لكل واحد منها صورة مضادة للآخر منها ينبعث كيفياته المحسوسة وتلك الكيفيات هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة الناشئة من أسطقس النار، والماء، والهواء، والأرض، فإن النار حارة يابسة والهواء حار رطب والأرض باردة يابسة والماء بارد رطب وتلك الأسطقسات تسمى الأركان والعناصر أيضاً ـ وهذا القول لا ينافي ما ذهب إليه علماء هذه الأعصار من أن هذه الأركان ليست ببسيطة بل كل واحد منها مركب من أجزاء آخر ـ وهذه الأركان إذا تصغرت أجزاؤها وتماست وفعل بعضها في بعض بقواها المتضادة وكسر كل واحد منها سورة كيفية الآخر فإذا انتهى الفعل والإنفعال بيننا إلى حد ما حدثت لذلك المركب الممتزج كيفية متشابهة في أجزائه وهي المزاج.

وبعبارة أخرى إن العناصر إذا اختلطت وامتزجت تفعل كل واحدة منها بصورته في الأخرى وينفعل في كيفيتها عنها وتحصل من تفاعل كيفيات متضادة موجودة في عناصر وانكسارها كيفية متوسطة وحدانية توسطاً ما في حد ما تشابه في أجزائها، وهي تسمى مزاجاً فالأرض تفيد الكائن تماسكاً وحفظاً لما يفاده من التشكيل والتخليق، والماء يفيد الكائن سهولة قبول التخليق والتشكيل ويستمسك جوهر الماء بعد سيلانه بمخالطة الأرض ويستمسك جوهر الأرض عن تشتته بمخالطة الماء، والهواء والنار ينكسر أن عنصرية هذين ويفيد أنهما اعتدال المزاج، والهواء يخلخل ويفيد وجود المنافذ والمسام، والنار تنضج وتطبخ.

الثاني

المزاج الذي يحصل باختلاط الأركان لا يجوز أن يكون معتدلاً حقيقياً سواء كان معدنياً أو نباتياً أو حيوانياً، لأن الإعتدال الحقيقي هو أن يكون المقادير من الكيفيات المتضادة في الممتزج متساوية وهو مما لا يمكن أن يوجد أصلاً لأنه إذا حصل شيء من الأركان متساوي المقادير لا بد أن يكون في الخارج مكان وذلك المكان إن كان لأحد من الأركان فيلزم الترجيح بلا مرجح فنقول أي سبب اقتضى أن يكون ذلك المركب في هذا المكان دون ذلك، وأما أن يكون خارجاً من أمكنتها، مع إنا نرى بالعيان والبرهان أيضاً أنه ليس كذلك، فلا بد أن يكون في ذلك المركب واحد من الأركان غالب على غيره، حتى يميل المركب إلى المكان اللائق للغالب فإن كان التراب مثلاً غالباً فهو يميل إلى مكانه الحريّ به وهكذا.

قال الشيخ في النمط الثاني من الإشارات: وأنت إذا تعقبت جميع الأجسام التي عندنا وجدتها منتسبة بحسب الغلبة إلى واحد من هذه التي عددناها يعني بها الأركان، وقال المحقق الطوسي في شرحه: وفيه تعريض بأن المركب من الأجزاء المتساوية من الأركان غير موجود.

فإن قلت: أليس يمكن أن يكون مزاج إنسان معتدلاً بحيث لا يعتريه أحوال وأسباب منافية له ممرضة له من جهة الأخلاط ويجري أفعال البدن دائماً على أفعاله الطبيعي لا يخرج عنه، بأن يكون إنسان عالماً بما يصلح للبدن وما يفسده من الأغذية، والأشربة، والأمكنة، والأهوية غيرها فيجتنب عن كل ما ينافيه ويمرضه ويؤذيه ويؤدي بدل ما يتحلل غذاءً للبدن على وفق المزاج المتوسط عن حدي التفريط والإفراط؟

قلت: هذا ممكن بل ثابت محقق وبه يبين سر قول المجتبي والصادق عليهما السلام: «ما منا إلا مقتول أو مسموم»[1] وبه يجاب الخصم الألد في بقاء حجة الله في العالمين بقية الله في الأرضين حجة بن الحسن العسكري روحي لروحه الفداء ونفسي لنفسه الوقاء وهو أحد البراهين العقلية على ذلك وإن كانت البراهين العقلية والنقلية فيه كثيرة، وبالجملة موت إنسان يحتاج إلى دليل ويسأل عن السبب الذي مات به لإبقائه، ولكن هذا الإعتدال طور آخر من الإعتدال غير ما ذكرناه آنفاً والفرق بينها أن الأول يبحث في الطبيعيات من الكتب الحكمية والإعتدال بذلك المعنى مما لا يجوز أن يوجد أصلاً كما دريت، والإعتدال الممكن المحقق هو الذي يبحث الطبيب عنه وهو بمعنى آخر.

ولا بأس أن ننقل كلام الشيخ في القانون حتى يتضح المراد أتم إيضاح: .

قال في أول القانون: يجب أن يتسلم الطبيب من الطبيعي أن المعتدل على هذا المعنى «أي ما قلنا من حصول الشيء وتركيبه من الأركان متساوي المقادير» مما لا يجوز أن يوجد أصلاً فضلاً عن أن يكون مزاج إنسان أو عضو إنسان وإن تعلم أن المعتدل الذي يستعمله الأطباء في مبحثهم ليس هو مشتقاً من التعادل الذي هو التوازن بالسوية بل من العدل في القسمة، وهو أن يكون قد توفر فيه على الممتزج بدناً كان بتمامه أو عضواً من العناصر بكمياتها وكيفياتها القسط الذي ينبغي له في المزاج الإنساني على أعدل قسمة ونسبة، لكنه قد يعرض أن يكون هذه القسمة التي تتوفر على الإنسان قريبة جداً من المعتدل الحقيقي الأول.

(١) بحار الأنوار: ٢٧/٢١٧، ح ١٨، ومستدرك سفينة البحار: ١/ ٢٠٠.

الثالث

إن كل نوع من أنواع المركبات يشتمل على أصناف، وكل صنف على أشخاص لا حصر لها، بحيث نرى لا يتشابه إثنان من الأنواع بل من الأشخاص لوناً، وخلقاً، ومنطقاً وقال عزّ من قائل في سورة الروم ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وهذا الإختلاف لا بد أن يكون من سبب وذلك السبب لا محالة مادي لأن المادة هي منشأ الإختلاف ومثار الكثرة ولذا صار المجرد نوعه منحصراً في فرده لعدم وجود المادة هناك.

وذلك السبب ماذا؟ قال العلّامة الطوسي في شرحه على الإشارات: وليس هذا الإختلاف بسبب الهيولي الأولى ولا بسبب الجسمية فأنهما مشتركان يعني أنهما مشتركان في جميع الأشخاص، فلو كان الهيولي أو الجسمية سبباً للزم أن يكون كل شخص من أي نوع من الأنواع يتشابه الآخر لاتحاد السبب، ولا بسبب المبدأ المفارق فإنه موجود أحدي الذات متساوي النسبة إلى جميع الماديات فهو إذن بسبب أمور مختلفة والأمور المختلفة في الهيولي بعد الصورة الجسمية هي هذه الصور الأربع النوعية التي أجسامها مواد المركبات والإختلاف ليس بسبب هذه الصور أنفسها، لأن الإختلاف الذي يكون بسببها لا يزيد على أربعة فهو إذن بحسب أحوالها في التركيب وفيما يعرض بعد التركيب، والتركيب يختلف باختلاف مقادير الأسطقسات في القلة والكثرة بقياس بعضها إلى بعض إختلافاً لا نهاية له، ويختلف ما يعرض بعد التركيب باختلاف ذلك لا محالة فتلك الإختلاف الغير المتناهية هي أسباب إختلاف المركبات.

أقول: ومن تلك الأحوال المؤثرة في اختلاف الأشخاص إختلاف البقاع والأقاليم والأمكنة، لأن مقادير الأسطقسات في المركبات يختلف باختلاف عروض البلاد أي قربها من خط الإستواء وبعدها عنه، فهو يصير سبباً لاختلاف مدار الشمس بحسب الآفاق كما أن في الآفاق الإستوائية تتحرك الشمس دولابياً وفي القطبين رحوياً وما بينهما جمالياً، والآفاق التي عرضها أكثر من الميل الكلي شمالياً كان أو جنوبياً لاتسامت الشمس رؤوس أهلها قط، والآفاق التي عرضها بقدر الميل الكلي تسامتها في الدورة مرة والتي عرضها أقل والتي عديم العرض تسامتها في الدورة مرتين حين كون ميل الشمس أعني بعده من معدل النهار مساوياً لعرض تلك الآفاق، وفي عديم العرض حين كونها على نقطتي الإعتدال وقرب الشمس وبعدها مؤثر في أحوال أشخاص تلك الآفاق كما في ترابها، هوائها، ونباتها وعامة ما يوجد فيها وهذا مما لا يليق أن يرتاب فيه فلذلك يكون عامة أهل الإقليم الأول: السود، وعامة أهل الإقليم الثاني: بين السواد والسمرة، وعامة أهل الثالث: السمر، وعامة أهل الرابع:

بين السمرة والبيض، وعامة أهل الخامس: البيض وفي الإقليم السادس: الغالب على أهله الشقرة، وأهل السابع: لونهم مبين الشقرة والبياض.

وكما يكون صفاتهم الظاهرية وألوانهم مختلفة كذلك أمزجتهم متفاوتة متغيرة فلا محالة إختلاف اللون والمزاج حاك عن إختلاف من جهة تركيب الأخلاط فإن غلبة الدم سبب لحمرة لون البدن وغلبة البلغم سبب لبياضه وغلبة الصفراء لصفرته وغلبة السوداء لسواده وما بينها متوسطات مسميات بأسامي الألوان الأخر كل ذلك مبرهنة بالبراهين القاطعة في الكتب المفصلة الطبية لا سيما في قانون الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا وشروحها.

ثم اختلفوا في أن أهل أي الإقليم أعدل مزاجاً، والصواب أن أهل الإقليم الرابع أعدل من غيرهم، فأنهم لا محترقون بدوام مسامتة الشمس رؤوسهم حيناً بعد تباعدها عنهم كسكان أكثر الثاني، والثالث ولا هم فجّون نيّون بدوام بعد الشمس عن رؤوسهم كسكان آخر الخامس وما هو أبعد منه عرضاً.

وصرح كثير من علماء الهيئة والجغرافيا بأن سكان عرض ٦٦ درجة وما هو أبعد منه شبيهة بالوحوش وصرح غير واحد منهم أيضاً بأن سكان الآفاق الإستوائية بسبب قرب الشمس منهم مسامتتها إياهم سود مجعد الشعر خارج عن الإعتدال خلقاً وخلقاً. ولكن الشيخ الرئيس ذهب في القانون إلى خلافه وقال:

فقد صح عندنا أنه إذا كان في الموضع الموازي لمعدل النهار عمارة ولم يعرض من الأسباب الأرضية أمر مضاد أعين من الجبال والبحار فيجب أن يكون سكانها أقرب الأصناف من الإعتدال الحقيقي وإن الظن الذي يقع أن هناك خروجاً عن الإعتدال بسبب قرب الشمس ظن فاسد، فإن مسامتة الشمس هناك أقل نكاية وتغيير الهواء من مقاربتها ها هنا أو الأكثر عرضاً مما ها هنا وإن لم تسامت، ثم سائر أحوالهم فاصلة متشابهة ولا يتضاد عليهم الهواء تضاداً محسوساً بل يشابه مزاجهم دائماً ثم من بعد هؤلاء فأعدل الأصناف سكان الإقليم الرابع إلى آخر ما قال فتأمل.

الرابع

كما أن إختلاف مقادير الأسطقسات في القلة والكثرة وشدتها وضعفها واختلاف البقاع، والأقاليم وغيرها من الأحوالات المشار إليها يكون سبباً لاختلاف الأمزجة والألوان والصور من الأحوالات الجسمانية والمادية، كذلك يكون سبباً لاختلاف الصفات الباطنية المعنوية وذلك لارتباط واتصال كامل بين النفس والبدن بحيث يتأثر كل واحد منهم عن الآخر كما نرى أن النفس يكل بكلال القوى البدنية وبالعكس يظهر أحوال النفس في

الأعضاء الظاهرية، وفي النمط الثالث من الإشارات والتنبيهات ما هو كافٍ في أداء مقصودنا.

قال الشيخ: وله «أي لجوهر النفس» فروع من قوى منبثة في أعضائك فإذا أحست بشيء من أعضائك شيئاً أو تخيلت أو اشتهيت أو غضبت ألقت العلاقة التي بينها وبين هذه الفروع هيئة فيك حتى تفعل بالتكرار إذعاناً ما، بل عادة وخلقاً يمكنان من هذا الجوهر المدبر تمكن الملكات كما يقع بالعكس، فإنه كثيراً ما يبتدىء فيعرض فيه هيئة ما عقلية فتنقل العلاقة من تلك الهيئة أثراً إلى الفروع ثم إلى الأعضاء، أنظر إذا استشعرت جانب الله عزّ وجلّ وفكرت في جبروته كيف يقشعر جلدك ويقف شعرك، وهذه الإنفعالات والملكات قد تكون أقوى وقد تكون أضعف، ولولا هذه الهيئات لما كان نفس بعض الناس بحسب العادة أسرع إلى التهتك والإستشاطة غضباً من نفس بعض.

وقوله: «فإذا أحست إلى تمكن الملكات» بيان كيفية تأثر النفس عن البدن وقوله: «كما يقع بالعكس إلى شعرك» بيان كيفية أثر البدن عن النفس وقوله: «وهذه الإنفعالات» إلى آخره إشارة كما في شرحه للعلّامة الطوسي إلى أن هذه الكيفيات المذكورة في الجانبين قابلة للشدة والضعف ويختلف الناس بحسبها في هذه الإنفعالات والملكات، وذلك إختلاف أحوال نفوسهم وأمزجتهم وبحسب تلك الشدة والضعف يتفاوتون في أخلاقهم الفاضلة والرذلة فيكون بعضهم أشد وأضعف إستعداداً للغضب وبعضهم للشهوة وكذلك في سائرها.

ثم نقول: ومن هنا يمكن أن يستنبط أن السر في تفاوت الخلايق في الخيرات والشرور واختلافهم في السعادة والشقاوة هو اختلاف استعداداتهم وتنوع حقائقهم، لتباين المواد السفلية في اللطافة والكثافة واختلاف أمزجتهم في القرب والبعد من الاعتدال الحقيقي، إختلاف الأرواح التي بإزائها في الصفاء والكدورة، والقوة، والضعف وترتب درجاتهم في القرب من الله سبحانه والبعد عنه كما أشير إليه في الحديث: الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، كما نبه إليه بعض الأعلام.

فنقول بعدما أخذت الفطانة بيدك واستحضرت معاني المباحث الأربعة المذكورة في ذهنك يظهر معاني كلامه عليه السلام بأنه كيف صار مبادي طينهم سبباً لاختلاف أمزجتهم وصورهم وأخلاقهم وفرق بعضهم عن بعض.

وإن قلت: إنه علم في المباحث المذكورة إن السبب في تفرق الناس في أخلاقهم وخلقهم إنما هو اختلاف مبادي خلقتهم من التراب، والماء، والهواء، والنار ويرها مما مر ولكن الظاهر في كلامه عليه السلام هو الأرض فقط فكيف التوفيق؟

قلت: **أولاً**: إنها أكثر ما يوجد في المركبات ولذلك تكون في حيز الأرض.

وثانياً: إن للتراب أثراً عظيماً في اختلاف أخلاقهم وخلقهم والأركان الآخر في الطيب والخبث تابعة لها ولذا خصها بالذكر دونها وذلك لأنه ما يري بالعيان أن الأرض العذبة التي طيبة ترابها ماؤها عذب طيب، وأيضاً وكذا هواؤها والأرض السبخة ماؤها مالح وهواؤها تابع لها لا محالة وكذا في أوصافها الأخر مما هو أكثر من أن يحصى فلذلك من نشأ وتولد في الأرض العذبة تكون في الخلق، والخلق أحسن وأعدل من غيره، والذي تولد في الأرض السبخة يكون ذا مزاج حار يابس وتكون صفاته تابعة لمزاجه وخلقه كما دريت في المبحث الرابع وكفاك في ذلك قول الله جل جلاله في الأعراف ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ الآية.

قوله ﷺ (فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر اختلافها يتفاوتون) نحن نرى الأشخاص بالحس، والعيان إن أهل الآفاق الإستوائية وأهل الآفاق كثيرة العرض مثلاً أهل عرض ستين درجة وما بعدها بينهما في الخلق، والخلق بون بعيد بحيث لو رأى هذا ذلك ليستوحش منه ويتنفر عنه، ولم يكن بين أهل الإقليم الثالث، والرابع ذلك البعد فيهما، وكذلك نرى أن بين أهل مبدأ الإقليم الرابع مثلاً وبين من كان في آخره تشابه وتناسب وتقارب فيهما وهكذا الأقرب، فالأقرب، والأبعد فالأبعد وذلك لما حققناه في المبحث الثالث فهم حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر إختلافها يتفاوتون.

قوله ﷺ (فتام الرواء ناقص العقل) من قوله ﷺ هذا إلى آخره بيان لقوله يتفاوتون فذكر تفاوت سبع طوائف من الناس خلقاً وخُلقاً فهذه الأقسام السبعة بعضها يضاد خلقها لأخلاقها وبعضها يلائم ويناسب، فبدأ بالتي تضاد وهي خمسة:

الأولى: إن منهم من يكون تام الرواء أي حسن المنظر ولكنه ناقص في عقله.

كما ثبت في فن القيافة أن من يكون لمقدم رأسه نتواً وكذا لمؤخر رأسه فهو داهٍ حازم وله زيادة عقل وخبرة وفهم وجودة فكر، لأن هيئة الدماغ شبيهة بمثلث قاعدته من جانب مقدم الرأس وزاويته التي يحيط بها الساقان من جانب المؤخر وهو مبدأ القوة النفسانية، وبه يكون الحس والحركة، أما الحس فبواسطة العصب اللين وأما الحركة فبواسطة العصب الصلب، وعند القائفين إذا كان في الرأس نتو كما ذكر يكون البطن المقدم من الدماغ على وجه الكمال والأعصاب المنشعبة الناشئة منه على أحسن الحال، فإذاً يستلزم ذكاء صاحبه والرأس إذا كان بتلك الصفة تصير العين غائرة لا محالة، فليس له منظر جميل فهو ليس بتام الرواء مع أنه كامل العقل.

فتام الرواء ناقص العقل وهذا القسم قليل جداً، لأن حسن الجمال واعتدال الخلقة دال على استواء التركيب واعتدال المزاج، ومن اعتدل مزاجه فتصرف الروح وتعلقه فيه أشد وأتم

وتدبير النفس الناطقة وعملها فيه أكمل وأقوم وذكاؤه ورويته أكثر وأسلم.

وكفاك شاهداً في ذلك خلق الأنبياء والسفراء الإلهية وخلفائهم المنصوبين من عند الله، حيث خلقوا على أعدل الأمزجة والخلقة فكانوا في كمال العقل والذكاء وقوة الرأي والفطنة، وبالجملة في كمال الإتصاف بالصفات الإلهية ومكارم الأخلاق ومحسن الأفعال والتنزه عن الأمور النفرة للطباع عنهم خلقاً وخُلقاً.

وجاء في شمائل رسولنا خاتم النبيين صلى الله عليه وآله أنه كان فخماً مُفَّخماً، يتلألأ وجههُ كالقمر ليلة البدر، أعلَى الهامة، رَجِلَ الشعر، واسع الجبهة، أزجَّ الحواجب أقنى الأنف، كث اللحية، سهل الخدَّين، ضليع الفم، مُفلَّج الأسنان، كان في وجهه تدوير، أسمَر اللون، أبيض مُشرب، أهدب الأشفار، أدعج العينين، سواء البطن والصَّدر، طويل اليدين، أسود العينين، أقصر من المشذَّب رحب الراحة، أطول القامَة، عريض الصَّدر، ليس شعر في بدنه إلّا كالخط من الصَّدر إلى السرَّة[١].

ونظمها ابن الحاج في رسالته المنظومة الموسومة بنظم المحاسن الغرر، ومنها:

وبعدُ فاعلم أن من تام	إيماننا معاشر الإسلام
إيقاننا بأنَّ أبهى بدن	جثمانُ أحمد النبي المَدني
ففيه حسن مدهشُ الأبصار	تشبيهه يحتاج لاستغفار
كان كما صحَّ عن البراءِ	أكمل خلق الله في البهاءِ
وعن علي لم يكن مطهَّماً	مُنتفخ الوجه ولا مكلثما
وعن أبي هُريرةٍ ذي الجد	كان نبينا أسيل الخد
ماذا يقالُ مطنباً أو مُختصر	في عينه من بعد ما زاغ البصر
عن ابن عباس يرى في الداج	كما يرى في الضوء والسراج
وسمعه أسمع كل سامع	يسمع غيباً من سواه لم يع
حسبك فيه ما رواه الترمذي	ومثلهُ أبو نعيم يحتذي
إني أرى ما لم تروا ولم تعوا	وإن ما لا تسمعون أسمع
أفصحُ خلق الله إذ تلفظا	أو ضحهم أحلاهم إذ وعظا
أتاه ربهُ جوامع الكلم	كأنها في عقدها دُرّ نظم
وصحَّ كان واضح الجبين	مزججاً أقرن حاجبين

(١) الشمائل المحمدية: ٣٦.

وفي حديث البيهقي العلامة صحَّحهُ كان عظيم الهامة
ضخم الكراديس عنوا رؤوسا من العظام أحفظ حميت البؤسا
تلك العظمُ مثل ركبتيه والمرفقين ثم منكبيه
وقد رووا أن كان أقنى الأنف رقيق عرنين هما كالردف
إذ القنا في الأنف رقة القصب وطوله وكان في الوسط حدب
مع ضيق منخرين والعرنين بالكسر أنف خذهُ ياقمين
وعنقهُ إبريق فضةٍ روى ذاك مُقاتل حديثه حوى.

وصف علي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله

قال ابن هشام في السيرة النبوية: وكانت صفة رسول الله صلى الله عليه وآله - فيما ذكر عمر مولى غفرة، عن إبراهيم بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا نعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال -: «لم يكن بالطويل الممغط، ولا القصير المتردد. وكان ربعة من القوم ولم يكن بالجعد القصط لا السبط، كان جدعاً رجلاً، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم، وكان أبيض مشرباً أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، دقيق المسربة، أجرد شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب، وإذا التفت التفت معاً، بين كتفيه خاتم النبوة وهو صلى الله عليه وآله خاتم النبيين، أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة من رآه بديهة هابه، من خالطه أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وآله»[1].

بيان: الممغط والممعط بالعين المعمة والمهملة: الممتد. القصط: الشديد جعودة الشعر. رجلاً: مسرح الشعر. المطهم: العظيم الجسم. المكلثم: المستدير الوجه في صغر. الأدعج: الأسود العينين. أهدب الأشفار: طويلها. الشاش عظام رؤوس المفاصل. الكتد: ما بين الكتفين. المسربة: الشعر الذي يمتد من الصدر إلى السرة. الأجرد: القليل شعر الجسم. الشثن: الغليظ. تقلع: لم يثبت قدميه. الصبب: ما انحدر من الأرض. أصل اللهجة: طرف اللسان، ويكنى بصدق اللهجة عن الصدق. الذمة: العهد. العريكة «في الأصل»: لحم ظهر البعير، فإذا لانت سهل ركوبه، يريد أنه أحسنهم معاشرة.

وفي الكافي لثقة الإسلام الكليني في باب ما جاء في رسول الله صلى الله عليه وآله: عن جابر قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام صف لي نبي الله صلى الله عليه وآله قال: «كان نبي الله صلى الله عليه وآله أبيض مشرب بالحمرة

(١) الغارات: ١/١٦٨، ح ٢، والأمالي: ٣٤١.

أدعج العينين مقرون الحاجبين شثن الأطراف كان الذهب أفرغ على براثنه عظيم مشاشة المنكبين إذا التفت يلتفت جميعاً من شدة استرساله سربة سابلة من لبته إلى سرته كأنها وسط الفضة المصفاة وكان عنقه إلى كاهله إبريق فضة يكاد أنفه إذا شرب أن يرد الماء وإذا مشى تكفأ كأنه ينزل في صبب لم ير مثل نبي الله صلى الله عليه وآله قبله لا بعده»[1]، كذا عدة أخبار آخر فيه فراجع.

فإن قلت: ما نفقه كثيراً ما تقول مع أنه وردت روايات على أن بعض الأنبياء إبتلاهم الله بقبح الصورة والخلقة كما في أيوب عليه السلام بحيث تنتن له رائحة وتدود جسده بل في رواية أصابه الجذام حتى تساقطت أعضاؤه فكيف التوفيق؟

قلت: قضاء العقل في هذه الأمور أولى وأقدم ولا ريب إن الله تعالى بعث الأنبياء لطفاً منه على العباد ليقوم الناس بالقسط وليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حي عن بينة ولأمور أخر ذكرها التكلمون في الكتب الكلامية مفصلةً فلو كان في الأنبياء ما يوجب النفرة عنهم لا يرغب الناس إليهم فيكون منافياً للغرض من البعثة، فالله ليس بمتم نوره ولطفه وحجته في هذه الصورة على عباده، والحكم في أصول الدين ما يتبعها هو العقل وحده وصريح العقل يقضي بذلك ومن لم يكن أحول وأعور لا يرتاب فيه.

قال أفضل المتأخرين العلّامة الطوسي قدس الله نفسه القدسي في التجريد: ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق فيحصل الغرض ولوجوب متابعته، وضدها والإنكار عليه وكمال العقل والذكاء والفطنة وقوة الرأي وعدم السهو، وكلما ينفر عنه من دناءة الآباء وعهر الأمهات والفظاظة والإبنة وشبهها والأكل على الطريق وشبهه. إنتهى فإن كان فيما يقضي به صريح العقل رواية يعاضدها وإلا فإن كانت الرواية قابلة لأن يحمل على ذلك المقضى به وإلا فلا نعبأ بها ونعرض عنها.

مع أنا نعلم أن هذه الروايات القائلة في الأنبياء بهذه الصفات التي تنفر عنها الطباع إسرائيليات وذلك كما نبه عليه ابن خلدون في مقدمة تاريخه: إن كعب الأحبار وهب بن منبه لما أسلموا وذكروا تلك الروايات للمسلمين قبلها عوام المسلمين منهم حسن الظن فيهم بأنهم مسلمون وأن هذه الروايات مما جاء بها الوحي على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله والحق الصريح في ذلك والكلام المبين فيه ما قاله عزّ من قائل في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية وهذا إمضاء في حكم العقل ومعاضدة له، وهو إحدى فوائد البعثة وقال الطبرسي رحمه الله في المجمع: وفيها «أي في

---

(١) تفسير الميزان: ١٠/ ٣٣٥، والكافي: ١/ ٤٤٣، ح ١٥.

هذه الآية» أيضاً دلالة على ما نقوله في اللطف لأنه سبحانه نبه على أنه لولا رحمته لم يقع اللين والتواضع ولو لم يكن كذلك لما أجابوه فبين أن الأمور المنفرة منفية عنه وعن سائر الأنبياء ومن يجري مجراهم في أنه حجة على الخلق إلى آخر ما قال[1].

وأيضاً جاءت رواية رواها الصدوق رضوان الله عليه في الخصال ونقلها المجلسي رحمة الله عليه في كتاب النبوة من البحار «ص ٢٠٤ طبع كمباني» خلاف ما جاءت في تلك الروايات في أيوب عليه السلام ولا بأس بذكرها لأنها رواية الصادقة الموافقة للعقل والآية قال الصدوق رحمه الله: القطان عن السكري عن الجوهري عن ابن عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: إن أيوب عليه السلام إبتلى سبع سنين من غير ذنب وأن الأنبياء لا يذنبون لأنهم معصومون مطهرون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً، وقال عليه السلام أن أيوب من جميع ما ابتلى به لم تنتن له رائحة ولا قبحت له صور ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ولا استقذره أحد رآه ولا استوحش منه أحد شاهده لا تدود شيء من جسده، وهكذا يصنع الله عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه، وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بماله عند وبه تعالى ذكره من التأييد والفرج[2].

وقال علم الهدى سيد المرتضى قدس سره في كتاب تنزيه الأنبياء في أيوب عليه السلام:

فإن قيل: أفتصححون ما روى من أن الجذام أصابه «يعني أيوب عليه السلام» حتى تساقطت أعضاؤه؟

قلنا أما العلل المستقذرة التي تنفر من رآها وتوحشه كالبرص والجذام فلا يجوز شيء منها على الأنبياء عليهم السلام، لأن النفور ليس بواقف على الأمور القبيحة بل قد يكون من الحسن والقبيح معاً، وليس ينكر أن يكون أمراض أيوب عليه السلام وأوجاعه ومحنته في جسمه ثم في أهله وماله بلغت مبلغاً عظيماً تزيد في الغم والألم على ما ينال المجذوم وليس ننكر تزايد الألم فيه عليه السلام وإنما ننكر ما اقتضى التنفير.

إن قلت: فلم قال عليه السلام: فتام الرواء ناقص العقل مع أن على ما حققته يقتضي أن يكون تام الرواء كامل العقل.

قلت: إن قوله عليه السلام ليس بقضية كلية حاكمة بأن كل من كان تام الرواء فهو ناقص العقل البتة، بل هي قضية مهملة في قوة الجزئية يعني أن بعض تام الرواء ناقص العقل كما لا يخفى

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٢/ ٤٢٩، وبحار الأنوار: ٣/ ٤، ح ٧.

(٢) الخصال: ٤٠٠، وبحار الأنوار: ١٢/ ٣٤٨.

على الأديب العارف بأساليب العبارات، وكذلك الستة الباقية ومن يكن له منظر جميل وعقل ناقص إعترته آفة لا محالة وإن خفيت علينا وكما أشرنا إليه أنه قليل والأكثر بخلافه[١].

قوله عليه السلام: (وماد القامة قصير الهمة) الطائفة الثانية من يكون طويل القامة لكنه ناقص في همته وهذا القسم يشترك الأول في مخالفة ظاهره لباطنه ويتفاوت عنه في الإستعداد الباطن وسببه بعد الدماغ عن القلب لأن القلب مبدأ الحرارة الغريزية والأعراض النفسانية من الفطنة والذكاء وعلو الهمة وقلة الإنفعال عن الأشياء وجودة الرأي وحسن الظن والنشاط والرجاء وغيرها دالة على فرط الحرارة الغريزية وضد هذه الأوصاف تدل على برودتها فقرب الدماغ من القلب يوجب وصول كثرة الحرارة إليه فيكون الإنسان متصفاً بتلك الفضائل كالقصار من الناس فبعد الدماغ عنه يوجب قلة الحرارة الغريزية في الدماغ فيتصف بخلافها من الرذائل، فماد القامة يكون في الأغلب نقص العقل وهو يستلزم قصور الهمة وفتور العزم حتى قيل: كل طويل أحمق وفي باب الأسد والثور من الكليلة الأحمق من طال وطالت عنقه، وسيجيء في الطائفة الرابعة الكلام في القصار.

قوله عليه السلام: (وزاكي العمل قبيح المنظر) وهي الطائفة الثالثة أي بعض الناس من يكون مزاج ذهنه معتدلاً فيصدر عنه الأعمال الزاكية الحسنة الطيبة، ولكن صورته الظاهرة قبيحة لأن مزاجه اقتضى ذلك واستعد له وهذا أيضاً قليل لما بيناه في الطائفة الأولى من أن ذا المزاج المستعد لحسن الصورة وجمالها يكون فطناً غالباً ويصدر عنه الأفعال الزاكية، والمستعد لقبح الصورة على خلاف ذلك ومن زكى عمله وإن قبح منظره فهو فائز، لأن العمل هو الملاك للفلاح والبدن كالغمد والنفس كالسيف والله تعالى لا ينظر إلى الأبدان بل إلى الأعمال والقلوب ونعم ما قاله أبو العلاء في سقط الزند:

ولو كان في لبس الفتى شرف له   فما السيف إلا غمده والحمائل

وقوله عليه السلام: (وقريب القعر بعيد السبر) وهذه الطائفة الرابعة من الطوائف السبع المذكورة وهذا القسم أيضاً يضاد خلقه لخلقه وقريب القعر كناية عن قصير القامة، والمراد من القعر هو البطن وقريب القعر من لم يكن من رأسه إلى بطنه وكذا من قدميه إليه مسافة كثيرة، فهو كناية عن قصير القامة، وبعيد السبر كناية عن دهائه وفطانته يعني أن قصير القامة لبيب داهية فطن حازم بحيث يصعب للغير الوقوف على أسراره واختيار باطنه وذلك كما هو المشاهد لنا في القصار ونجدهم غالباً ذوي لب وحزم لا يطلع الغير على ضمائرهم على مرور الأيام بل الشهور والأعوام.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٤/ ٩٤، وميزان الحكمة: ٢/ ١٧٦٢.

وحكي أن رجلاً قصيراً أتى كسرى أنوشروان العادل وتظلم عنده من رجل فقال الملك: إن القصير لا يظلمه أحد، فقال الرجل: أيها الملك من ظلمني كان أقصر مني فضحك الملك فأنصفه، والسبب في ذلك هو كما قال بعض الحكماء حين سئل: ما بال القصار من الناس أدهى وأحذق؟ قال: لقرب قلوبهم من أدمغتهم ومراده كما أشرنا إليه أن القلب مبدأ الحرارة الغريزية والأعراض النفسانية كلها دالة على الحرارة وتوفرها وأضداد تلك الأعراض على برودتها، فالقصير لقرب قلبه من دماغه يوجب توفر الحرارة في الدماغ ويؤدي إلى تلك الفضائل النفسانية، وفي الطوال من الناس على عكس ذلك.

قوله عليه السلام: (ومعروف الضريبة منكر الجليبة) هذه الطائفة الخامسة منها وهي أيضاً يضاد ظاهرها باطنها وينافي خلقها أخلاقها، والمعنى الصحيح لهذه الجملة أن بعضاً من الناس يكون ذا خلقة حسنة وطبيعة طيبة يحب مكارم الخصال ومحاسن الأفعال بحسب ضريبته المعروفة ويتنفر عن الفحشاء والصفات الرذيلة، ومع ذلك يستجلب إليه رذائل الأخلاق ومقابح الأعمال لدواع نفسانية وتسويلات شيطانية وعوارض وحوادث بها يعرض عن مقتضى طبيعته السليمة وفطرته الكريمة فيرتكب الفواحش والمعاصي والرذائل وإليه يرجع ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أن الله يحب العبد ويبغض عمله وذلك كما ترى رجلاً يحب السخاء والجود ويكون جواداً سخياً بالطبع ولكن قد يعرضه إملاق فيسلك مسلك البخلاء، وآخر يتنفر بطبعه عن المعاصي ولكن قرينه السوء مثلاً يجره إليها، وهكذا ولا يخفى أن معروف الضريبة يلتذ عن الأعمال الحسنة والصفات الحميدة وإن عرضته أحياناً أضدادها زالت عنه بسرعة، لأن إتصافه بها واقتحامه فيها يكون قسراً بعائق ومتى زال العائق يعود إلى أصله المعروف والقسري لا يدوم بل هو سريع الزوال فالمؤمن الموحد الذي ليس من أهل المعاصي والفجور ويستبشعها طبعاً ويستقبحها إذا ابتلى بها وارتكبها آثماً خائفاً من الله جّل جلاله في إتيانها فلا جرم يندم على ارتكابها إذا رجع إلى عقله وأناب إلى ربه وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وبذلك التحقيق فسر قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وورد فيه حديث تأبى نفسي إلا إيراده في هذا المقام لتضمنه هذه الدقيقة:

روى الصدوق رحمه الله في التوحيد بإسناده عن زيد بن وهب عن أبي ذر قال: خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشي وحده ليس معه إنسان فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد قال رحمه الله فجعلت أمشي في ظل القمر فالتفت فرآني فقال: من هذا؟ فقلت: أبو ذر جعلني الله فداك، فقال: يا أبا ذر تعال فمشيت معه ساعة فقال: إن المكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ منه بيمينه وشماله وبين يديه وورائه وعمل فيه خيراً. قال: فمشيت ساعة فقال صلى الله عليه وآله: أجلس ههنا وأجلسني في قاع حوله حجارة فقال لي: إجلس أرجع

إليك، قال: وانطلق في الحرة حتى لم أره وتوارى عني، وأطال اللبث ثم إني سمعته وهو مقبل يقول: وإن زنى وإن سرق قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلت له: يا نبي الله جعلني الله فداك من تكلمه في جانب الحرة فإني ما سمعت أحداً يرد عليك شيئاً فقال صلى الله عليه وآله ذاك جبرائيل عرض لي في جانب الحرة فقال: أبشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله عزّ وجلّ شيئاً دخل الجنة قال: قلت يا جبرائيل وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر قال: نعم، وإن شرب الخمر إنتهى[١].

ومن ذلك الحديث يستفاد ما ذكرنا من أن ارتكاب المعاصي للمؤمن قسري ويعرض عنها لا محالة فيتوب إلى الله، والله هو التواب الرحيم، فالعاصي لما تاب دخل الجنة كما قال الصدوق رحمه الله أيضاً بعد ذكر هذا الخبر: يعني بذلك أنه يوفق للتوبة حتى يدخل الجنة.

ثم أن ابن ميثم رحمه الله لم يسلك في تمثيل هذه الحملة وتشبيهه وتعليله طريق الصواب لأنه قال قوله عليه السلام: «معروف الضريبة منكر الجليبة» أي يكون له خلق معروف يتكلف ضده فيستنكر منه ويظهر عليه تكليفه كأن يكون مستعداً للجبن فيتكلف الشجاعة أو بخيلاً فيتكلف السخاوة، فيستنكر منه ما لم يكن معروفاً منه وهو أكثري وذلك لمحبة النفوس للكمالات، فترى البخيل يحب أن يعد كريماً فيتكلف الكرم والجبان يحب أن يعد شجاعاً فيتكلف الشجاعة إنتهى. وكذا المترجم القاساني رحمه الله مشى حذوه ولا يخفى أن ما ذهب إليه اختاره وعلله يقتضي أن تكون الجملة هكذا: «ومنكر الضريبة معروف الجليبة» كما يظهر بأدنى تأمل والصواب أن يقول كان يكون مستعداً للشجاعة فيتكلف الجبن أو سخياً فيتكلف البخل، وكذلك تعليله بقوله وذلك لمحبة النفوس آه ليس بصحيح وظني أن عبارة الشارح المعتزلي أوقعتهما فيه حيث قال قوله عليه السلام: «ومعروف الضريبة منكر الجليبة» الجليبة هي الخلق الذي يتكلفه الإنسان ويستجلبه مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلف الشجاعة أو شحيحاً بالطبع فيتكلف الجود، وحسباً أن قوله مثل أن يكون آه بيان لقوله عليه السلام: معروف الضريبة منكر الجليبة وغفلاً عن أنه يكون بياناً للجليبة.

قوله عليه السلام: (وتائه القلب متفرق اللب، وطليق اللسان، حديد الجنان) هذان القسمان يتشاركان في مناسبة ظاهرهما لباطنهما فهما يخالفان الأقسام الخمسة السالفة كما يفارق القسم الأول منهما تأليه، بأنه ذم وذلك مدح لأن الطائفة الأولى منهما همج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم لم يلجئوا إلى ركن وثيق، ولو رقوا نور العلم واستمسكوا بالعروة الوثقى لم يكونوا تائهي القلب متفرقي اللب في كل سانحة وعارضة أقبلت أو أدبرت، وكانوا كالجبل الرسخ لا تحركه العواصف، ولا يخفى حسن صنيعته عليه السلام

---

(١) التوحيد: ص: ٢٦، ومشكاة الأنوار: ٣٨ ح ٧.

مع بين التام والناقص، والماد، والقصير، والزاكي، والقبيح، والقريب، والبعيد، والمعروف، والمنكر وما روعي من السجع المتوازي بين قرينتي الأخيرين.

ثم أعلم أن في هذا المقام أخباراً مروية عن أهل بيت العصمة والطهارة منقولة شرذمة منها في كتاب الإيمان والكفر من الكافي لرئيس المحدثين ثقة الإسلام الكليني رحمه الله وما ذكر فيه من أبواب الطينات وبدء الخلائق وبيانها ينجر إلى بحث طويل الذيل لأنها صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن إمتحن الله قلبه للإيمان، وكذا في المقام لعرفائنا الشامخين كلاماً كأنه سر ما في تلك الأخبار وهو على سبيل الإجمال، إن سر اختلاف الإستعدادات وتنوع الحقائق فهو تقابل صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى التي من أوصاف الكمال ونعوت الجلال، وضرورة تباين مظاهرها التي بها يظهر أثر تلك الأسماء، فكل من الأسماء يوجب تعلق إرادته سبحانه وقدرته إلى إيجاد مخلوق يدل عليه من حيث إتصافه بتلك الصفة فلا بد من إيجاد المخلوقات كلها إختلافها وتباين أنواعها لتكون مظاهر لأسمائه الحسنى جميعاً، ومجالي لصفاته العليا قاطبة فلكل إسم من أسمائه الحسنى وصفة من صفاته العليا مظهر في الوجود العلمي، والعيني.

قال القيصري في شرح الفصوص: وكل واحد من الأقسام الأسمائية يستدعي مظهراً به يظهر أحكامها وهو الأعيان، فإن كانت قابلة لظهور الأحكام الأسمائية كلها كالأعيان الإنسانية كانت في كل آنٍ مظهراً لشأنٍ من شؤونها، وإن لم يكن قابلة لظهور أحكامها كلها كانت مختصة ببعض الأسماء دون البعض كالأعيان الملائكة ودوام الأعيان في الخارج وعدم دوامها فيها دنيا وآخرة يراجع إلى دوام الأسماء وعدم دوامها.

ولنعم ما قال العارف الرومي في المثنوي:

آدم اسطرلاب گردون علوست	وصف آدم مظهر آيات اوست
هرچه دروى مينما يدعكس اوست	همچوعكس ماه اندر آب جوست
خلق راچون آب دان صاف وزلال	اندر او تابان صفات ذو الجلال
علمشن عدلشان ولطفشان	چون ستاره چرخ بر آب روان
پادشاهان مظهر شاهى حق	عارفان مرآت آگاهى حق
خوبرويان آينه خوبى ار	عشق ايشان عكس مطلوبى او
جمله تصويرات عكس آب جوست	چون بمالي چشم خود خود جمله اوست

الترجمة

از کلام آن حضرت (عليه السلام) است که یمانی از احمد بن قتیبه، از عبدالله بن یزید، از مالك دحیه که او گفت: در نزد امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) بودیم که در حضرت او سخن از اختلاف مردمان در خلق و خُلق به میان آمد، فرمود:

به درستی که جدایی انداخته است و فرق نهاده است میان مردم از مبادی طینت و سرشت ایشان؛ یعنی از جهت صفات و حالات عناصر که از آن خلق شده اند، بدین احوال گوناگون در خلق و خلق متصف شده اند، چه ایشان پاره ای از زمین شوره و شیرین و خاك درشت و نرم بودند، پس به حسب نزدیکی خاکشان، به یکدیگر قرب پیدا می کنند و به قدر اختلاف آن متفاوت می گردند، پس یکی نیکومنظر کم عقل است و یکی کشیده قامت کوتاه همت و یکی پاکیزه کردار زشت روی و یکی نزدیك تك دوراندیش است (قریب القعر کنایه از این که قامت او کوتاه است و بعیدالسبر کنایه از این که دوراندیش و زیرك است که به آسانی کسی نمی تواند از نهاد او و اسرار وی آگاه شود) و یکی نیکوخوی و بد به سوی خود کشنده است (یعنی اصل طبیعت و سرشت او خوب است و دوستدار اخلاق و اعمال نیکو است ولکن جهت غرضی و پیش آمدی خصال بد را به تکلف به سوی خود می کشاند، مثل این که اصلا شخص صادق است و به غرضی دروغ می گوید و یا طبیعت مردی بخشنده است و از جهتی در جایی زفتی می کند و هکذا) و یکی سرگشته دل پراکنده عقل است و یکی گشاده زبان تیزدل.

ومن كلام له عليه السلام وهو المائتان والثالث والثلاثون من المختار في باب الخطب

قاله عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه:

بِأَبي وأُمّي لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ ما لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْباءِ وأَخْبارِ السَّماءِ، خَصَصْتَ حَتّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِواكَ، وعَمَمْتَ حَتّى صارَ النّاسُ فِيكَ سَواءً، ولَوْلا أَنّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، ونَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنفَدْنا عَلَيْكَ ماءَ الشُّؤُونِ، ولَكانَ الدّاءُ مُماطِلاً، وَالْكَمَدُ مُحالِفاً، وقَلّا لَكَ، وَلكِنَّهُ ما لا يُمْلَكُ رَدُّهُ، ولا يُسْتَطاعُ دَفْعُهُ بِأَبي أَنْتَ وأُمّي أُذْكُرْنا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنا مِنْ بالِكَ[1].

اللغة

(**النبوة**) أصله النبُوءَة فأبدلت الهمزة واواً فأدغمت لثقل التلفظ بها عندهم ولذا يبدلون الهمزة تارةً واواً متى كان ما قبله مضموماً وتارة ألفاً إن كان مفتوحاً كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وتارة تقلبونه ياء إن كان ما قبله مكسوراً كنبي لأن أصله النبي على مذهب من يهمز والإيمان وغيرهما قال ابن زيابة التميمي «حماسة ٢٢»:

نبيت عمراً غارزاً رأسه   في سنةٍ يوعد أخواله

وقالوا: لولا نزل القرآن بالهمز لما تكلموا به لأن التلفظ به يشبه التهوع عندهم كما قيل، وتصغيرها نبية تقول العرب كانت نبية مسيلمة نبية سوءٍ، وأصلها النبأ وهو الخبر، وقال الطبرسي في المجمع في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: ٩] في سورة إبراهيم: النبأ الخبر عما يعظم شأنه يقال لهذا الأمر نبأ عظيم أي شأن وكذا في سورة النبأ.

(**الأنباء**) أفعال من النبأ يقال: أنباه أي أخبره، وفي بعض النسخ (الأنباء) بالفتح وهو جمع النبأ، وفي نسخة أخرى (الأنبياء) وهو جمع نبي ولكنه لا يناسب أسلوب الكلام كما لا يخفى، وهذا وَهْمٌ من النساخ لأنه إن كان الأنباء لزم أن تكون كلمة الجار أعني من بياناً لما في قوله ما لم ينقطع كما في أخويه أعني النبوة وأخبار السماء، ويكون الكلام على أسلوب واحد، ولو كان الأنبياء لزم أن يكون من في النبوة وأخبار السماء بياناً لما، وفي الأنبياء بياناً لكلمة الغير في قوله غيرك، فيخرج الكلام عن النظم والإتساق.

(١) نهج السعادة: ١/ ٣٤، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٢٠٦.

(السماء) مأخوذ من السمو وهو العلو والإرتفاع قال الجوهري: السماء كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت سماء، ولفظ السماء هنا مستعار لعالم الغيب ومقامات الملأ الأعلى لعلوه وارتفاعه معنًى من عالم الشهادة.

(المسلّى) من التسلية يقال: سلّاني من همي تسليةً أي كشفه عني.

(والجزع) بالتحريك: إنزعاج النفس بورود ما يغم فهو نقيض الصبر، قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

(نفد) الشيء من باب ضرب نفاداً إذا فني، قال الله تعالى في آخر الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٨] والإنفاد: الإفناء يقال: أنفدت الشيء أي أفنيته وقريء بالوجهين قول الشاعر «حماسة ٨٤٢»:

فجاءوا بشيخ كدّح الشر وجهه جهولٍ متى ما ينفد السبّ يلطم

(ماء الشؤون): الدمع، والشؤون، والأشؤون جمع الشأن كفلس وأفلس وفلوس وقال الجوهري في الصحاح: الشؤون هي مواصل قبائل الرأس وملتقاها ومنها تجيء الدموع، قال ابن السكيت: الشانان عرقان ينحدران من الرأس إلى الحاجبين ثم إلى العينين، فالشؤون هي منابع الدمع ومجاريها كما فسرها بها المرزوقي في قول ابن هرمة «حماسة ٤٧٠»:

إستبق دمعك لا يود البكاء به واكفف مدامع من عينيك تستبق

ليس الشؤون وإن جادت بباقية ولا الجفون على هذا ولا الحدق

(الداء): المرض والعلة والمراد به هنا ألم الحزن وأصله دواء، لأن جمعه أدواء والجمع كالتصغير والنسبة يرد الشيء إلى أصله كدار وأدوار ودويرة ودورى.

(مماطلاً) قال الجوهري: مطلت الحديدة أمطلها مطلاً إذا ضربتها ومددتها لتطول، وكل ممدود ممطول ومنه إشتقاق المطل بالدين وهو اللیان به يقال: مطله وماطله بحقه فالمراد إن الداء لازمني ولا يزول عني فكني به أنه يماطل ويسوف بالزوال والذهاب والبرء.

(الكمد) بفتحتين: الحزن المكتوم، وقال المرزوقي في شرح الحماسة «حماسة ٢٦٧» في قول الشاعر:

لو كان يشكى إلى الأموات ما لقي الـ ـأحياء من شدّة الكمد

الكمد: حزن وهم لا يستطاع إمضاؤه وقال الدريدي: هو مرض القلب من الحزن، يقال كمد يكمد كمداً من باب علم، ورأيته كامد الوجه وكمد الوجه إذا بان به أثر الكمد وأكمده الحزنُ إكماداً.

(محالفاً) المحالف الحليف الملازم، يقال حالفه أي عاهده ولازمه.

(لا يستطاع) الإستطاعة: الإطاقة، لا يستطاع دفعه أي لا يطاق ولا يقدر عليه وفي الصحاح وربما قالوا: أسطاع يسطيع يحذفون التاء إستثقالاً لها مع الطاء ويكرهون إدغام التاء فيها وربما يتحرك السين وهي لا تحرك أبداً، وقرأ حمزة: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] بالإدغام فجمع بين الساكنين «وهما السين الساكنة والتاء المدغمة»، وذكر الأخفش أن بعض العرب يقول إتساع يستيع فيحذف التاء إستثقالاً وهو يريد إستطاع يستطيع قال: وبعض يقول أسطاع يسطيع بقطع الألف، وهو يريد أن يقول أطاع يطيع ويجعل السين عوضاً من ذهاب حركة عين الفعل.

(البال): القلب وأصله أجوف واوي، والبال والخلد يستعملان على طريقة واحدة يقولون وقع في خلدي كذا وسقط على بالي وخطر ببالي يقال هذا من بال فلان أي مما يباليه ويهتم به.

الإعراب

(بأبي أنت وأُمّي) أمّي معطوف على أبي أي وبأُمّي والباء للتفدية والطرفان كلاهما يتعلقان بمحذوف والتقدير أنت مفدي بأبي وأُمّي، وهذا التقدير أولى من أفديك بأبي وأُمّي لبقاء الجملة على هيئتها وعدم التصرف فيها، يقال فداه من باب ضرب وفاداه إذا أعطى فداءه فأنقذه من الأسر ونحوه وفداه بنفسه وفداه تفدية إذا قال له جعلت فداك فقوله عليه السلام: بأبي أنت وأُمّي أي جعل أبواي فداءك والفداء والفَدى، والفدى، والفدية ما يعطى من مال ونحوه عوض المفدي **(بموتك)** الباء في كليها للسببية **(من النبوة)** كلمة من للتبيين يبين ما في ما لم ينقطع **(والأنباء وأخبار السماء)** معطوفان على النبوة.

(خصصت) أي خصصت الناس بمصيبتك أو خصصت في مصيبتك أو خصت مصيبتك.

(عمن سواك) أي مصيبة عمن سواك، وكذا قوله عليه السلام عممت أي عممت الناس بمصيبتك أو عمت مصيبتك الناس حتى صار الناس في مصيبتك سواء، وأضاف الخصوص والعموم إليه صلى الله عليه وآله مع أنهما للمصيبة لكونها بسببه وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

(لولا أنك) لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره أعني إمتناع جوابها بوجود شرطها وتختص بالإسم وأن مع ما بعدها في تأويل مصدر والتقدير لولا أمرك بالصبر ونهيك عن الجزع لأنفدنا واللام في لأنفدنا جواب شرط وكذا ولكان الداءُ معطوفاً على أنفدنا.

(وقلّا لك) الضمير في قلّا يعود إلى الداء المماطل والكمد المحلف لأنَّ الضمير يرجع

إلى أقرب المراجع مع عدم القرينة، ويحتمل أن يرجع إلى إنفاد ماء الشؤون المستفاد من أنفدنا وإلى الداء المماطل والكمد المحالف بجعلهما واحداً من حيث قربها معنًى.

(ولكنه) الضمير فيه وفي رده ودفعه يرجع إلى الموت في قوله عليه السلام لقد انقطع بموتك ويمكن أن يرجع إلى البكاء والحزن المستفاد من الجمل السالفة على ما يأتي بيانه في المعنى.

المعنى

قوله: (بأبي أنت وأُمي) أي جعل أبواي فداك والتفدية هي كلمة معتادة للعرب تقال لمن يعز عليهم حتى أنه أعز وأرجح عنده من أبويه بحيث يجعلهما فداءً له ولو تخييلاً، فلا يشترط فيها إمكان التفدية إذ ليس الغرض من إطلاقها تحقيق الفدية وثبوتها فلا يرد ههنا أن يقال أن التفدية بعد موت من يفدي له غير ممكنة فكيف قال عليه السلام بأبي أنت وأُمّي.

ثم أن ههنا كلاماً يناسب المقام وهو:

أن المستفاد من بعض أخبارنا المروية عدم جواز قول إنسان أن يقول لغيره بأبي أنت وأمي إذا كانا مؤمنين حيين، كما روى في الوسال والخصال على طريقين عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام حيث سئل عن الرجل يقول لابنه أو لابنته بأبي أنت وأُمي أو بأبوي أنت أترى بذلك بأساً؟ فقال عليه السلام: (إن كان أبواه مؤمنين حيين فأرى ذلك عقوقاً وإن كانا قد ماتا فلا بأس)[1].

وظاهر الخبر يدل على عدم جواز القول بالتفدية بالأبوين إذا كانا مؤمنين حيين في قبال الولد، لأن المفدى يكون أحب من الفدية حيث يجعلها فداءه فيلزم أن يكون الأولاد أحب وأعز من الوالدين وهذا عقوق لهما وخروج عن الأوامر بالبر بالوالدين والنواهي عن العقوق لهما مع شدة تأكيد برهما بحيث جعل في القرآن الكريم الإحسان بالوالدين قرين عبادة الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وغير ذلك من الآيات والأخبار وأما إذا كانا قد ماتا فلا بأس بذلك لعدم تحقق التفدية، كما إذا كانا حيين غير مؤمنين أيضاً لا بأس به لعدم حرمة لهما حينئذٍ فمتى كان في الولد لا يجوز ذلك وفي غيره عدم جواز القول بها أولى، والنبي صلى الله عليه وآله أولى بالمؤمنين من أنفسهم فضلاً عن آبائهم وأولادهم وأموالهم.

قوله عليه السلام: (لقد إنقطع) أي: إنقطع بسبب موتك النبوة والأخبار والوحي ولم ينقطع بموت غيرك من الأنبياء، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله خاتم النبيين وآخرهم، ختمت النبوة به فشريعته باقية

(١) الخصال: ٢٦ ح ٩٤، ووسائل الشيعة: ٢/ ٤٤٠، ح ٢٥٨٨.

إلى يوم القيامة، فبموته ﷺ إنقطع الوحي والنبوة نص بذلك عزّ من قائل في الأحزاب: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠] قرأ عاصم بفتح التاء والباقون من القراء بكسر تاء وعلى كلا القراءتين يحصل المقصود لأن من كسر التاء من خاتم فإنه ختمهم فهو خاتمهم، ومن فتح التاء فمعناه آخر النبيين لا نبي بعده وفي الصحاح الخاتم ـ بفتح التاء ـ والخاتم بكسر التاء والخيتام والخاتام كله بمعنى.

وفي المجمع وصح الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: إنما مثلي في الأنبياء مثل رجل بنى داراً فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخل فيها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة قال ﷺ فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء، وأورده البخاري، مسلم في صحيحهما.

أقول: أتى بهذه الرواية العارف المتأله ابن أبي جمهور الإحسائي في المجلي ص ٣٦٩، والبراهين القاطعة والمعجزات القاهرة عقلاً ونقلاً في أنه ﷺ خاتم النبين كثيرة لا يعتريه ريب لا يشوبه عيب ولا يرتاب فيه إلا من كان في عقله خبل وفي عينه حول، ولا يدعى النبوة بعده ﷺ إلا الكذاب الأشر المفتري الذي غرته الدنيا وباع حظه بالأرذل الأدنى وتغطرس تردى في هواه، ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء وأولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

وفي السيرة الحلبية: إن جبرائيل جاء رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه «إلى أن قال»: وجاء أن جبرائيل عليه السلام قال: هذا آخر وطئي بالأرض، وفي لفظ آخر: عهدي بالأرض بعدك ولن أهبط إلى الأرض لأحد بعدك.

قال الحافظ السيوطي: وهو حديث ضعيف جداً ولو صح لم يكن فيه عارضة، أي لما ورد أنه ينزل ليلة القدر مع الملائكة يصلون على كل قائم وقاعد يذكر الله لأنه يحمل على أنه آخر نزوله بالوحي.

ثم اعترض على السيوطي بأن حديث يوحي الله إلى عيسى عليه السلام أي بعد قتله الدجال صريح: في أنه يوحي إليه بعد النزول والظاهر أن الجائي بالوحي هو جبرائيل عليه السلام لأنه السفير بين الله ورسوله. إنتهى[1].

أقول: معلوم عند العقلاء بأن الوحي بعد النبي ﷺ لا يكون وحي نبوة قطعاً، والقطع بأن الجائي بالوحي إلى عيسى عليه السلام هو جبرائيل غير معلوم.

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٢١٥، وفتح الباري: ١٢/ ٣٥٧ بتفاوت.

وفي الكافي لثقة الإسلام الكليني (قده) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن فاطمة عليها السلام مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً وكان دخلها حزن شديد على أبيها، كان يأتيها جبرائيل عليه السلام فيحسن عزاءها على أبيها ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها وكان علي عليه السلام يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة عليها السلام[١].

وكذا في الكافي باب مشتمل على الأخبار الحاكية على أن الملائكة تدخل بيوتهم، وتطأ بسطهم وتأتيهم بالأخبار وهم عليهم السلام مختلف الملائكة «ص ١٤٦ م ٢ من الوافي».

ثم أن الأنباء وأخبار السماء وإن كانا متقاربي المعنى لكنه لا يبعد أن يقال: أن المراد من أخبار السماء هو الوحي الذي أوحى إليه صلى الله عليه وآله من الله تعالى والمراد من الأنباء ما أخبر هو صلى الله عليه وآله الناس وأنبأهم به.

قوله عليه السلام: (خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك) أي خصصت في مصيبة من حيث أنها مصيبة خاصة عظيمة وداهية دهياء لا يصاب الناس بمثلها، فلذلك صارت مسلية عن غيرها من المصائب وكل مصيبة دونها وإن كانت كبيرة لصغيرة، بل لا يعبأ بها وكيف لا وهو خاتم النبيين وأشرف المخلوقين وكان نبي الرحمة وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ فأي مصيبة أعظم من تلك المصيبة للعالمين.

فأشار عليه السلام بأنه ليس لنا مصيبة غيرها لأنها مسلية عن غيرها كما قال عليه السلام في الخطبة المائتين عند دفن فاطمة عليها السلام، كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وآله عند قبره: «إلا أن في التأسي لي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز»[٢].

في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن أصيبت بمصيبة في نفسك أو في مالك أو في ولدك فاذكر مصابك برسول الله صلى الله عليه وآله فإن الخلائق لم يصابوا بمثله قط»[٣].

وفيه أيضاً سليمان عمرو النخعي عنه عليه السلام قال: «من أصيب بمصيبة فليذكر مصابه بالنبي صلى الله عليه وآله فأنها أعظم المصائب».

وفيه أيضاً عبد الله بن الوليد الجعفي عن رجل عن أبيه قال: لما أصيب أمير المؤمنين عليه السلام نعى الحسن إلى الحسين عليه السلام وهو بالمدائن فلما قرأ الكتاب قال: يا لها من مصيبة ما أعظمها مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أصيب منكم بمصيبة فيذكر مصابه بي فإنه

---

(١) بصائر الدرجات: ١٧٤، والكافي: ١/٢٤١، ح ٥.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/٥٤٢، ح ٥٤، والأنوار البهية: ٦٤.

(٣) قرب الإسناد: ٩٤، ح ٤١٩، والكافي: ٣/٢٢٠، ح ١.

لم يصاب بمصيبة أعظم منها وصدق رسول الله ﷺ»[١].

وفي الوسائل الحسين بن علوان عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ «من أصيب بمصيبة فليذكر مصيبته في فإنه أعظم المصائب»[٢].

وروى الشيخ زين الدين في كتاب مسكن الفؤاد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم بصيبة فليذكر مصيبته بي فأنها ستهون عليه»[٣].

وعنه ﷺ أنه قال في مرض موته: «أيها الناس أيما عبد من أُمتي أصيب بمصيبة من بعدي فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بعدي، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي» وغير ذلك من الأخبار المروية في الباب من كتب علمائنا الأقدمين رضون الله عليهم أجمعين[٤].

وفسر الشارح المعتزلي كلامه عليه السلام بوجه آخر حيث قال: قوله عليه السلام خصصت، أي خصت مصيبتك أهل بيتك حتى أنهم لا يكترثون بما يصيبهم بعدك من المصائب ولا بما أصابهم من قبل. إنتهى.

ومختارنا أن تلك المصيبة لها خصوصية ومرتبة بحيث صارت مسليةً عن غيرها من المصائب الواردة على المسلمين، سواء كان من أهل بيته ﷺ أو لا ولا يخفى رجحانه إن لم نقل بتعيينه وعدم صحة غيره، والأخبار المذكورة آنفاً أصدق شاهد في ذلك والعلّامة المجلسي رحمه الله في البحار وابن ميثم وغيره في شرح النهج إختاروا ما اخترناه.

قوله عليه السلام: «وعممت حتى صار الناس فيك سواء» أي: عممت الناس بمصيبتك يعني أن مصيبتك شملت جمع المسلمين بحيث لا يكون أحد فارغاً عنها.

قوله عليه السلام: (ولولا أنك أمرت) أي: لولا أمرك بالصبر في قبال المصائب وحدثان الدهر ونهيك عن الجزع في إزاء نوائب الأيام لبكينا، حتى لا يبقى من الدموع في مجاريها ومنابعها شيء، وهذا كناية عن كثرة البكاء، ولكان الألم، والحزن، في مصيبتك وفراقك ملازماً غير مفارق، على أن إنفاد الدمع ومماطلة الداء وملازمة الحزن قلالك بل ينبغي أن

---

(١) الكافي: ٣/ ٢٢٠، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٦٧، ح ٣٦٠٧.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٢١، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٦٧، ح ٣٦٠٩.

(٣) قرب الإسناد: ٩٤، ح ٣١٩، وبحار الأنوار: ٧٩/ ٧٣، ح ٣، الفؤاد: ١٠.

(٤) وسائل الشيعة؛ ٣/ ٢٦٨، ح ٣٦١٣، والبداية والنهاية: ٥/ ٢٩٧.

(٥) وسائل الشيعة؛ ٣/ ٢٦٨، ح ٣٦١٤، والبداية والنهاية: ٥/ ٢٩٧.

يكون البكاء والحزن في مصيبتك أشد وأكثر من ذلك.

ثم إنه عليه السلام أشار من قوله هذا: (ولولا أنك)، إلى العذر في ترك البكاء والحزن، بأن أمره صلى الله عليه وآله بالصبر ونهيه عن الجزع ألزمني على ذلك ومنعني على البكاء والألم.

الأمر والنهي في كلامه عليه السلام ليسا محمولين على الوجوب والحرمة، لأن النوح في المصيبة إذا لم يكن بالباطل ولم يكن ما يسخط الرب تعالى ليس بمحرم، بل يستحب البكاء لموت المؤمن لا سيما لموت المؤمن الفقيه.

وفي الفقيه أن النبي صلى الله عليه وآله حين جاءته وفاة جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة كان إذا دخل بيته كثر بكاؤه عليهما جداً ويقول كانا يحدثاني ويؤنساني فذهبا جميعاً.

وفيه أيضاً لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من وقعة أُحد إلى المدينة، سمع من كل دار قتل من أهلها قتيل نوحاً وبكاءً ولم يسمع من دار حمزة عمه، فقال صلى الله عليه وآله: لكن حمزة لا بواكي عليه. فآلى أهل المدينة أن لا ينوحوا على ميت ولا يبكوه حتى يبدأوا بحمزة فينوحوا عليه ويبكوه فهم إلى اليوم على ذلك[١].

وفي الكافي: لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله قال النبي صلى الله عليه وآله: «حزناً عليك يا إبراهيم وإنا لصابرون يحزن القلب وتدمع العين ولا نقول ما يسخط الرب»[٢].

وغيرها من الأخبار في كتبنا القيمة الدالة على بكاء فاطمة على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وبكاء علي عليه السلام عليهما وبكاء سيد الساجدين على سيد الشهداء عليه السلام.

بل يستفاد من جملة تلك الأخبار جواز شق الثوب على الأب، والأخ والقرابة كما روى أنه لما قبض علي بن محمد العسكري عليه السلام رؤى الحسن بن علي عليه السلام وقد خرج من الدار وقد شق قميصه من خلف وقدام.

نعم مضمون بعض تلك الأخبار النهي عن الصراخ بالويل، والعويل، ولطم الوجه، والصدر وجز الشعر من النواصي وثبوت الكفارة في بعض الصور.

ثم إن الروايات كثيرة في التعزي، والتسلي، واستحباب احتساب البلاء، والصبر في المصائب، وترك الجزع مما لا يعد ولا يحصى على أن الله جلّ جلاله قال: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٨٣، ٥٥٣، ووسائل الشيعة: ٣/ ٣٨٤، ح ٣٦٦٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٧٧، ح ٥٢٦، ووسائل الشيعة: ٢/ ٩٢١، ح ٣٦٥٠.

وفي الفقيه قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان في نور الله عزّ وجلّ الأعظم: من كان عصمة أمره شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ومن إذا أصاب خيراً قال الحمد لله رب العالمين ومن إذا أصاب خطيئة قال: أستغفر الله وأتوب إليه»[١].

وفي الكافي: قال فضيل بن ميسر كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فجاءه رجل فشكى إليه مصيبة أصيب بها، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «أما أنك أن تصبر توجر وإن لم تصبر مضى عليك قدر الله الذي قدر عليك وأنت مأزور»[٢]، وغيرهما من الأخبار الواردة في المقام.

ولا يخفى أن الصبر في المصائب حسن جميل جداً لأن الغم، والحزن والاضطراب تورث أمراضاً كثيرة: من خلل في الدماغ، والصداع، والسهر، والفالج، واللقوة، والرعشة، والهزال في الجسم، وكلال في البصر. وبالخلل في الدماغ تحدث الآفة في الأفعال الدماغية من الفكر، والتخيل، والتذكر، والحركات الإرادية وغيرها لأن مقدم البطن المقدم من الدماغ موضع الحس المشترك وهو المدرك للصور الجزئية المحسوسة بإدراك الحواس الظاهرة، ومؤخر البطن المقدم لخزانة الحس المشترك المسماة بالخيال، وفي الخيال تحفظ الصور المرتسمة إذا غابت عن الحواس الظاهرة، والبطن الأوسط من الدماغ موضع الوهم وهو القوة المدركة للمعاني الجزئية القائمة بتلك الصور وخزانتها الحافظة وهي قوة تحفظ ما يدركه الوهم من المعاني الجزئية، وموضعها البطن المؤخر من الدماغ. ومن المدركات المتصرفة وهي قوة تارة تركب بعض الصور مع بعض كتخيل إنسان ذي جناحين أو بعض الصور كتخيل صداقة جزئية لزيد، وتارة تفصل بعض الصور عن بعض كتخيل إنسان بلا رأس، وهكذا، وهذه القوة موضعها الدماغ كلها لعموم تصرفها إن سلطنتها في الوسط على ما برهن وبين مفصلاً ومشروحاً في محله، وكذلك الأفعال الصادرة عن القوى كلها تكون بالأعصاب وهي تتصل بالدماغ ومتى صار مأوفاً تحدث الآفة في أفعالها.

وفي مادة «جذم» من سفينة البحار أن كثرة الهموم تولد المواد السوداوية المولدة للجذام.

وفي شرح النفيس: الغم كيفية نفسانية تتبعها حركة الروح، والحرارة الغريزية إلى داخل البدن خوفاً من الموذي الواقع وهي لتكاثف الروح بالبرد الحادث عند انتفاء الحرارة الغريزية لشدة الإنقباض، والإختناق يتبعها ضعف القوى الطبيعية ويلزمه قلة توليد، بدل ما يتحلل من

---

(١) المحاسن: ١/ ٨، ومن لا يحضره الفقيه: ١/ ١٧٥، ح ٥١٤.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٢٥، ح ١٠، وتحف العقول: ٢٠٩.

الدم والروح البخاري وكثرة التحلل منهما لعجز القوة عن حفظها عن التحلل فيحدث الجفاف فيتبعها الهزال، والصداع وأمراض أخر وكذا السهر فإنه يجفف لكثرة تحلل الرطوبات بالحرارة الحادثة عن حركة الأرواح إلى جهة الظاهر، وعن حركة الحواس في إدراكاتها عن الحركات الإرادية لكن تأثيرها في الدماغ يكون أكثر وأقوى لأنه مبدأ الحواس الحركات فيتولد منها علل ردية.

وبالجملة الأمراض التابعة للحزن والغم أكثر أن تحصى، فبالحري أن يصبر الإنسان في نوائب الدهر ولا يلقي بيده إلى التهلكة، مع أن الجزع لا فائدة فيه يكون مورثاً لتلك الأمراض المزمنة ولذلك كله أمر في الشرع بالصبر ونهى عن الجزع.

قوله عليه السلام: (ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه) إستدرك عليه السلام تسلية لنفسه ولغيره بقوله: ولكن الموت الذي لأجله البكاء والحزن مما لا يملك ولا يقدر رده ولا يطاق دفعه فلا فائدة في الجزع والبكاء والحزن فصبر جميل، والإحتساب حسن وما أحسن السعدي بقوله:

خبر داری ای استخوان قفس   که جان تومر غی است نامش نفس

چو مرغ از قفس رفت وبگسست قید   ذگرره نگردد بدام تو صید

ويمكن أن يعود الضمير في لكنه ورده ودفعه إلى الأمر الذي هو البكاء والحزن ويكون تمهيداً للعذر على البكاء، والحزن مع أنه صلى الله عليه وآله أمر بالصبر ونهى عن الجزع فقال عليه السلام: إن البكاء والحزن بهذا المقدار الذي صدر منا مما لا نملك على رده ولسنا بقادر على دفعه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات ابنه إبراهيم وهملت عينه بالدموع: «يحزن القلب وتدمع العين ولا نقول ما يسخط الرب».

قوله عليه السلام: (بأبي أنت وأمي أذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك) أعاد التفدية إعزازاً وتعظيماً له صلى الله عليه وآله وإبرازاً لما في الضمير كرة بعد كرة، توكيداً من أنه صلى الله عليه وآله أحب الناس إليه بحيث يجعل أبويه فداءه، ثم سأله والتمس منه أن يذكره عند ربه وأن يجعله من باله، يعني أن يكون في قلبه صلى الله عليه وآله بمنزلة ومكانة بحيث يهتم به لا ينساه عند ربه.

ويؤيده ما في الرواية المنقولة في البحار: واجعلنا من همك، كان من بالك وفي أخرى من بالك وهمك بجمع كليهما وسنذكرهما بأسرهما، وغاية مأموله عليه السلام أن يذكر بلسان خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله عند الله تبارك وتعالى، ومن رزق نور المعرفة يدرك علو شأنه وجلالة قدره من أمله هذا نعم، إن العبد يلتذ أن يذكر عند الله ولا يرجو سواه، والحبيب يحب أن يذكر إسمه عند الحبيب ويذكر الحبيب عنده ويلهج لسانه بذكره ويقول يا رب أذقني حلاوة ذكرك.

وفاة رسول الله ﷺ والأقوال في يوم وفاته مبلغ سنّه حينئذٍ ومن يلي غسله وتجهيزه

قال الطبرسي في المجمع والزمخشري في الكشاف: قال مقاتل: لما نزلت سورة الفتح قرأها ﷺ على أصحابه ففرحوا واستبشروا وسمعها العباس فبكى فقال ﷺ: ما يبكيك يا عم؟ فقال: أظن أنه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله، فقال: إنه لكما تقول فعاش بعدها سنتين ما رؤى فيهما ضاحكاً مستبشراً قال: وهذه السورة تسمى سورة التوديع[(١)].

وفي المجمع قال ابن عباس: لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال: نعيت إلى نفسي بأنها مقبوضة في هذه السنة. إختلف في أنهم من أي وجه علموا ذلك وليس في ظاهره نعي؟ فقيل: لأن التقدير فسبح بحمد ربك فإنك حينئذٍ لاحق بالله وذائق الموت كما ذاق من قبلك من الرسل وعند الكمال يرقب الزوال كما قيل:

إذا تمّ أمر بدا نقصه توقّع زوالاً إذا قيل تم

وقيل: لأنه سبحانه أمره بتجديد التوحيد وإستدراك الفائت بالإستغفار وذلك مما يلزم عند الإنتقال من هذه الدار إلى دار الأبرار، وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت السورة كان النبي ﷺ يقول كثيراً: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم أغفر لي إنك أنت التواب الرحيم، وعن أم سلمة قالت كان رسول الله ﷺ بالآخرة لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فسألناه عن ذلك فقال ﷺ: إني أمرت بها ثم قرأ: إذا جاء نصر الله والفتح، وفي رواية عائشة أنه كان يقول سبحانك اللهم وبحمدك إستغفرت وأتوب إليك.

وفي الكشاف في هذه السورة: وعن النبي ﷺ أنه دعا فاطمة ؏ فقال: يا بنتاه إنه نعيت إليّ نفسي فبكت. فقال: لا تبكي، فإنك أول أهلي لحوقاً بي[(٢)].

وقال أبو جعفر الطبري في تاريخه بإسناده عن أبي مُويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال لي: يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي؛ فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم أهل المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها الآخرة شر من الأولى، ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن

(١) بحار الأنوار: ٢١/ ١٠٠، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/ ٦٨.

(٢) حياة الإمام الحسين ؏: ١/ ٢١٩، ومستدرك سفينة البحار: ٨/ ٢٣٣.

الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة خيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة فاخترت لقاء ربي والجنة قال: قلت بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. فقال: لا الله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة ثم أستغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدأ رسول الله صلى الله عليه وآله بوجعه الذي قبض فيه[١].

وفيه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله قالت: رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه، قال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه، ثم قال: ما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليتُ عليك ودفنتك، فقلت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك رجعت إلى بيتي فأعرست ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وتنام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استعز به وهو في بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن أن يُمرَّض في بيتي فأذنَّ له فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتي[٢].

ثم قال الطبري بعد نقل هذا الخبر عن عائشة: قال عبيد الله فحدثتُ هذا الحديث عنها عبد الله بن عباس فقال: هل تدري مَنِ الرجل ـ يعني به الرجل الآخر الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله بينها في حديث عائشة ـ قلت: لا. قال علي بن أبي طالب: ولكنها ـ أي عائشة ـ كانت لا تقدر على أن تذكره ـ أي علياً عليه السلام ـ بخير وهي تستطيع، إنتهى[٣].

وقال أبو جعفر الطبري بإسناده إلى الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله صلى الله عليه وآله فخرجت إليه فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه فقال: خذ بيدي يا فضل فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ثم قال: ناد في الناس، فاجتمعوا إليه فقال:

أما بعد أيها الناس فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأنه قد دنى مني خفوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقدمنه ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقدمنه وأن الشحناء ليست من طبعي لا من شأني، ألا وأن أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له أو حللني فلقيتُ الله وأنا أطيبُ النفس وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عني حتى أقوم فيكم مراراً.

قال الفضل: ثم نزل فصلى الظهر ثم رجع فجلس على المنبر، فعاد لمقالته الأولى في

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٢، وبحار الأنوار: ٢١/ ٤١٠.

(٢) المسترشد: ١٢٧، ومناقب أهل البيت: ٤٧٢.

(٣) المسترشد: ١٢٧.

الشحناء وغيرها، فقام رجل فقال: يا رسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم قال: أعطه يا فضل، فأمرته فجلس.

ثم قال: يا أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا، ألا وأن فضوح الدنيا أيسر من فضح الآخرة، فقام رجل فقال: يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله. قال: ولم غللتها؟ قال: كنت إليها محتاجاً. قال: خذها منه يا فضل.

ثم قال: يا أيها الناس من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدع له، فقام رجل فقال: يا رسول الله إني لكذاب، إني لفاحش، وإني لنؤوم. فقال: اللهم أرزقه صدقاً، وإيماناً، وأذهب عنه النوم إذا أراد، ثم قام رجل فقال: والله يا رسول الله إني لكذاب، وإني لمنافق، وما شيء أو أن شيء إلا قد جنيته، فقام عمر بن الخطاب فقال: فضحت نفسك أيها الرجل. فقال النبي ﷺ يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم أرزقه صدقاً وإيماناً، الحديث[1].

وقال أبو جعفر الطبري في تاريخه أيضاً: بإسناده إلى عبد الله بن مسعود أنه قال: نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر، فلما دنى الفراق معنا في بيت أُمنا عائشة فنظر إلينا وشدد فدمعت عينه وقال: «مرحباً بكم رحمكم الله رحمكم الله، آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، نصركم الله، سلمكم الله، رحمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم وأستخلفه عليكم وأؤديكم إليه إني لكم نذير وبشير لا تعلوا على الله في عباده وبلاده فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]. وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾» [العنكبوت: ٦٨].

فقلنا: متى أجلك؟ قال: دنا الفراق والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى. قلنا: فمن يغسلك يا نبي الله؟ قال: أهلي الأدنى فالأدنى، قلنا: ففيم نكفنك يا نبي الله؟ قال: في ثيابي هذه إن شئتم أو في بياض مصر أو حلة يمانية، قلنا: فمن يصلي عليك يا نبي الله؟ قال: مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً فبكينا وبكى النبي ﷺ وقال: إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم أخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي عليّ جليسي وخليلي جبرائيل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنودٍ كثيرة من الملائكة بأجمعها، ثم أدخلوا عليّ فوجاً فوجاً فصلوا عليّ وسلموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكية ولا برنة ولا صيحة وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم ثم أنتم بعدُ

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٤، والبداية والنهاية: ٥/ ٢٥٢.

إقرؤا أنفسكم مني السلام، فإني أشهدكم أني قد سلمت على من بايعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة، قلنا: فمن يُدخلك في قبرك يا نبي الله؟ قال: أهلي مع ملائكة كثيرين يرونكم حيث لا ترونهم[١].

أقول: نقل المجلسي في البحار من كتاب إسحاق الثعلبي خبراً قريباً مما نقله الطبري إلا أن فيه كان أبو بكر سائلاً النبي صلى الله عليه وآله عمن يغسله ويكفنه وغير ذلك.

قال الشارح المعتزلي بعد نقل هذا الخبر من الطبري: قلت: العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك الساعة فمن يلي أمورنا بعدك؟ لأن ولاية الأمر أهم من السؤال عن الدفن وعن كيفية الصلاة عليه وما أعلم ما أقول في هذا المقام، إنتهى[٢].

أقول: وأني أعمل ما أقول بحق في هذا المقام عائذاً من الله تعالى عن الوساوس النفسانية والتسويلات الشيطانية وتنزهاً عن التعصب الذي هو ديدن العوام، ودأب من يكون في طريق الحق ألد الخصام، والسلام على من اتبع الهدى ونهى النفس عن الهوى.

فنقول: **أولاً**: من أين ثبت أنهم لم يقولوا ذلك ولم يسقطه الآخرون.

وثانياً: كان في الخبر أنهم سألوا عمن يغسله ويصليه وكأنهم سألوا عمن يليق بهذا الأمر العظيم فأجاب صلى الله عليه وآله أهلي الأدنى فالأدنى وقال صلى الله عليه وآله رجال أهل بيتي فأين لم يصرح بعلي عليه السلام فأبدلوه بالأهل وبالرجل من أهل البيت كما دريت في الخبر المروي آنفاً عن عائشة إنها لم تذكر علياً ولا تقدر أن تذكره بخير وهي تستطيع.

فإن أبيت عن قولنا هذا وقلت: إنه أشبه بالخطابي ولم يكن برهانياً فنقول:

لا شبهة أن رسول الله صلى الله عليه وآله بيّن أموراً مما هو ليس بأهم من أمر الولاية جداً، مثل آداب الأكل والمشي، والجلوس، والدخول في الحمام والمبرز وأدب النورة والحلق ولبس الثياب وقص الأظفار وآداب المعاشرة وفوائد بعض الفواكه والأغذية وغيرها مما هي أكثر من أن تحصى ومذكورة في كتب الفريقين، ومن هذه حاله وسيرته ويبين هذه الأمور التي بين شأنها ومنزلتها كيف يهمل أمته بلا ولي معصوم منصوب من قبل الله تعالى؟

ونعم ما قاله العلّامة الحلي قدس سره في كشف المراد: إن النبي صلى الله عليه وآله كان أشفق على الناس من الوالد على ولده حتى أنه عليه وآله السلام أرشدهم إلى أشياء لا نسبة لها إلى الخليفة بعده، كما أرشدهم في قضاء الحاجة إلى أمور كثيرة مندوبة وغيرها من الوقائع، وكان صلى الله عليه وآله إذا سافر عن المدينة يوماً أو يومين إستخلف فيها من يقوم بأمر المسلمين، ومن

---

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة: ٢/٢٠١، والطرائف: ٢٩٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٠.

هذه حاله كيف ينسب إليه إهمال أمته وعدم إرشادهم في أجل الأشياء وأسناها وأعظمها قدراً وأكثرها فائدة وأشد حاجة إليها وهو المتولى لأمورهم بعده،؟ فوجب من سيرته ﷺ نصب إمام بعده والنص عليه وتعريفهم إياه وهذا برهان لمي، إنتهى.

وبالجملة من لم يكن عينه أحول ولم يعدل عن الحق ولم يضل يرى أن نصب الإمام واجب على الله تعالى باللطف لم يترك الله عباده سدى، وأن الله ليس بظلام للعبيد.

ثم نقول للشارح المعتزلي: إن الأخبار المتواترة من الفريقين في حق علي عليه السلام من أحاديث غدير خم واستخلافه ﷺ علياً عليه السلام في المدينة، وحديث المنزلة المتواتر عند الفريقين، وما قاله ﷺ في حقه لما نزل وأنذر عشيرتك الأقربين، سلموا عليه بإمرة المؤمنين وأنت الخليفة بعدي وقوله ﷺ في حقه أنت أخي ووصيي، وخليفتي من بعدي وقاضي ديني - بكسر الدال - وغيرها مما هي متواترة معنى ونص في إمامته وولايته على الناس وخلافته بلا فصل عن خاتم الأنبياء ﷺ والمطاعن المقبولة المسلمة المتواترة عند الفريقين في أبي بكر، وعمر، وعثمان ومثالبهم وتسليم جميع المسلمين أفضليته عليه السلام من كل جهة من العلم، والتقوى، والشجاعة وغيرها من الفضائل بعد النبي ﷺ على كافة الأنام، حتى أنه لم يكن بينه وبين النبي فرق إلا رتبة النبوة كما شهد بها المؤالف والمخالف، لم تبق لهؤلاء شكاً وريباً في الإمامة حتى يسألوا النبي ﷺ عمن يلي أمورهم بعده.

على أن النبي ﷺ مع ذلك كله أراد أن يكتب ويصرح بذلك أيضاً حين وفاته ومنع عمر عن ذلك كما هو متواتر بالمعنى[١].

الكلام في أن عمر آذى رسول الله ﷺ والمسلمين بقوله أنه ﷺ يهجر

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: بإسناده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ قال: ثم نظرت إلى دموعه تسيل على خديه كأنها نظام اللؤلؤ قال: قال رسول الله ﷺ: إيتوني باللوح والدواة أو بالكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده قال: فقالوا: إن رسول الله ﷺ يهجر[٢].

وفيه أيضاً: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ قال: إشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: إيتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي أبداً فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع، فقالوا: ما شأنه أهجر أهجر إستفهموه فذهبوا يعيدون عليه. فقال: دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه وأوصي بثلاث. قال: أخرجوا المشركين من

---

(١) عيون أخبار الرضا: ١/٩ ح ١٤ وخصائص الأئمة: ٤٩.

(٢) النص والإجتهاد: ١٥٢، والمراجعات: ٣٥٥.

جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم وسكت عن الثالثة عمداً أو قال فنسيتها[١].

أقول: القائل بهجر رسول الله ﷺ عمر لا غير، وحرفوا هذين الحديثين وهما حديث واحد في الحقيقة عن أصلهما وعدلوا عن لفظ المفرد إلى الجمع لبعض شأنهم، ونقل هذا الحديث نقلتهم في كتبهم المعتبرة عندهم، وصرحوا بأن ذلك القائل كان عمر، ومن تفحص كتب الأخبار ما ذكره نقلة الآثار منا ومنهم دري أن خبر طلب رسول الله ﷺ الدواة والكتف، ومنع عمر ذلك وإن كان ألفاظه مختلفة متواتر بالمعنى.

قال الشهرستاني في المقدمة الرابعة من الملل والنحل: أول تنازع وقع في مرضه ﷺ فيما رواه محمد بن إسماعيل البخاري بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: لما اشتد بالنبي ﷺ مرضه الذي مات فيه قال: إيتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي. فقال عمر أن النبي ﷺ قد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله وكثر اللفظ: «اللغط ظ» فقال ﷺ: قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع قال ابن عباس: الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ، إنتهى[٢].

في البحار: البخاري، ومسلم في خبر: أنه قال عمر: النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل ذلك البيت واختصموا منهم: من يقول قربوا يكتب لكم رسول الله كتاباً لن تضلوا بعده، ومنه من يقول القول ما قال العمر. فلما كثر اللغط والإختلاف عند النبي ﷺ قال: قوموا فكان ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتبهم ذلك الكتاب من إختلافهم ولغطهم[٣].

وفي صحيح البخاري وإذا اشتد مرض النبي ﷺ قال: إئتوني بقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي. فقال الرجل أي عمر بن الخطاب: تهجر يكفينا. وفي الملل والنحل: كتاب الله عندنا، قال أحدهم: إئتوا، حتى جال التنازع ولا ينبغي عند النبي التنازع فقال النبي ﷺ: قوموا عني[٤].

أقول: لله در ابن عباس نعم ما فهم وتفطن حدوث الرزية، كل الرزية نمنع الرجل عن

---

(١) نيل النجاة في تتمة المراجعات: ٢٦٥، وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٦.

(٢) نهج السعادة: ٥/ ٢٧٠، ودراسات في الحديث والمحدثين: ٢٣٦.

(٣) الإيضاح: ١٧٢، والمسترشد: ١٣٢.

(٤) راجع صحيح البخاري: ١/ ٣٧، و ٤/ ٣١ـ ٦٦ـ ١٣٧ـ و ٧/ ٩، و ٨/ ١٦١ ط. دار الفكر، بيروت، وصحيح مسلم: ٥/ ٧٥ـ ٧٦ ط. دار الفكر، بيروت.

إتيان الدواة والكتف ولولا منعه وهجره لما قام التشاجر والتنازع بين الناس بعد رسول الله ﷺ، وما كان لهم في ذلك سبيل ولصانت الملة البيضاء المحمدية عن هذا التفرق والتشتت والشقاق والإختلاف في المذاهب، واستنبط ابن عباس قوله هذا الرزية كل الرزية من كلامه ﷺ لن تضلوا بعدي.

الكلام في لدود رسول الله ﷺ وما فيه

ثم أن أبا جعفر الطبري وغيره أتوا بأخبار أن رسول الله ﷺ لُدَّ في مرضه الذي توفي، لا يخلو بعضها عن دغدغة واضطراب وبعضها عن فائدة في ما ذهب إليه المتكلمون في أنبياء الله وحججه، ولا بأس بذكرها وذكر بعض التنبيهات والإشارات فيها.

قال: بإسناده عن عبد الله بن عتبة عن عائشة قالت: لددنا رسول الله ﷺ في مرضه، فقال: لا تلدوني فقلنا: كراهية المريض الدواء فلما أفاق قال: لا يبقى منكم أحد إلا لُدّ غير العباس فإنه لم يشهدكم[١].

عن عبيدالله بن عبد الله عنها أيضاً قالت: ثم نزل رسول الله ﷺ ـ تعني من المنبر ـ فدخل بيته وتنام به وجعه حتى غُمر واجتمع عنده نساء من نسائه أُم سلمة، وميمونة، ونساء من نساء المؤمنين منهن أسماء بنت عميس وعنده عمه العباس بن عبد المطلب وأجمعوا على أن يلدوهُ فقال العباس: لألدنه، قال: فلد فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: من صنع بي هذا؟ قالوا: يا رسول الله عمك العباس قال: هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض، وأشار نحو أرض الحبشة قال: ولم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك وجع ذات الجنب فقال ﷺ: إن ذلك لداء ما كان الله ليعذبني به، لا يبقى في البيت أحد إلا لدَّ إلا عمي. قال: فلقد لدت ميمونة وأنها لصائمة لقسم رسول الله ﷺ عقوبة لهم بما صنعوا، وكذا في السيرة الهشامية.

وقال أبو جعفر الطبري بإسناده عن عروة: أن عائشة حدثته أن رسول الله ﷺ حين قالوا: خشينا أن يكون بك ذات الجنب قال: إنها من الشيطان ولم يكن الله ليسلطها عليّ[٢].

وفيه أيضاً بإسناده عن الصَّقعب بن زهير عن فقهاء أهل الحجاز: أن رسول الله ﷺ ثقل في وجعه الذي توفي فيه حتى أغمي عليه، فاجتمع إليه نساؤه وإبنته وأهل بيته والعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وجميعهم وأن أسماء بنت عميس قالت: ما وجعه هذا إلا

---

(١) السنن الكبرى: ٤/ ٢٥٥، ح ٧٠٨٥، وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٨، والشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٢/ ١٢٠.

ذات الجنب فلدوه، فَلَدَناهُ، فلما أفاق قال: من فعل بي هذا؟ قالوا: لدَّتك أسماء بنت عميس ظنت أن بك ذات الجنب قال: أعوذ بالله أن يبليني بذات الجنب أنا أكرم على الله من ذلك[(١)].

وفي السيرة الحلبية وفي رواية أنه لما اشتد عليه ﷺ المرض دخل عليه عمه العباس وقد أغمي عليه، فقال: لأزواج النبي ﷺ لو لددتنه، قلن: إنا نجترىء «إنا لا نجترىء، أو أني نجترىء» على ذلك فأخذ العباس يلدده فأفاق رسول الله ﷺ فقال: من لدني؟ فقد أقسمت ليلددن إلا أن يكون العباس فأنكم لددتموني فأنا صائم.

فهذه شرذمة من الأخبار الواردة في اللدود نقلها الطبري وغيره وكانت العرب تداوي باللدود من به ذات الجنب، قال ابن أثير في النهاية: وفيه «يعني في الحديث» خير ما تداويتم به اللدود. وهو بالفتح من الأدوية ما يسقاه المريض في أحد شقي الفم ولديد الفم جانباه ومنه الحديث أنه لد في مرضه فلما أفاق قال: لا يبقى في البيت أحد إلا لد، فعل ذلك عقوبة لهم لأنهم لدوه بغير إذنه، إنتهى.

وفي السيرة الحلبية: وجاء أنهم لددوه ﷺ في هذا المرض أي سقوه لدوداً من أحد جانبي فمه جعل ﷺ يشير إليهم وهو مغمى عليه أن لا يفعلوا به، وهم يظنون إن الحامل له على ذلك كراهة المريض للدواء فلما أفاق... الحديث.

أقول: وأما الدغدغة فيها فلانة لا يخفى تناقضها، ففي الأولى تصريح بأن العباس عم النبي ﷺ لم يشهده، وفي الثانية: أنه كان شاهداً وهو لد النبي ظاهراً ومع ذلك في ذيل الحديث أنه ﷺ قال: لا يبقى في البيت أحد إلا لد إلا عمي، وفي الثالثة: أن أسماء بنت عميس لدته، وفي الرابعة: صريح بأن أزواجه ﷺ قلن: إنا لا نجترىء فأخذ العباس يلدده.

ولولا الرواية الرابعة يمكن أن يقال في رفع التناقض فيها: الصواب في الرواية الثانية أن العباس قال: لا ألده أو لا ألدنه قال: فلدوه. فلما أفاق الخ. كما نقله الشارح المعتزلي هكذا «فقال العباس لا ألده فلدوه فلما أفاق» فحرف «لا ألده فلدوه، أو لا ألدنه فلدوه» إلى «لألدَّنَّهُ فلدَّ» كما نقلناها عن الطبري.

فإن قلت: فعلى هذا كيف قالوا في جواب رسول الله ﷺ: عمك العباس؟

قلت: إنما قالوا ذلك كما في السيرة الحلبية تعللاً وخوفاً منه ﷺ، وردهم النبي ﷺ بقوله غير العباس: فإنه لم يشهدكم. وأن لا يناسب هذا الجمع ظاهر صدر الحديث وعنده

(١) تاريخ الطبري: ٢/٤٣٨.

عمه العباس كذا ذيله فقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك وجع ذات الجنب على أنه لا يدل على أن العباس لد النبي ﷺ والله أعلم.

وكيف كان قال الشارح المعتزلي: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد البصري عن حديث اللدود فقلت: ألد علي بن أبي طالب ذلك اليوم، فقال معاذ الله: لو كان لد لذكرت عائشة ذلك فيما تذكره وتنعاه عليه، وقال: وقد كانت فاطمة عليها السلام حاضرة في الدار وإبناها معها أفتراها لدت أيضاً ولد الحسن، والحسين كلا هذا أمر لم تكن، وإنما هو حديث ولده من ولده تقرباً إلى بعض الناس والذي كان أن أسماء بنت عميس أشارت بأن تلد وقالت: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبي طالب وكان بعلها وساعدتها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث فلد رسول الله ﷺ فلما أفاق أنكره وسأل عنه فذكر له كلام أسماء وموافقة ميمونة لها فأمر أن تلد الأمرأتان لا غير فلدتا ولم يجر غير ذلك[1].

وأما الفائدة الكلامية فيها فإنه ﷺ لما قيل له: إنما فعلنا ذلك ظننا أن بك يا رسول الله ذات الجنب، فقال لها: إن ذلك لداء ما كان الله ليعذبني به، وفي رواية أنا أكرم على الله من أن يعذبني بها، وفي أخرى أنها من الشيطان وما كان الله ليسلطها عليّ، وفي السيرة الحلبية قال بعضهم: وهذا يدل على أنها من سيء الأسقام التي استعاذ ﷺ منها بقوله: اللهم إني أعوذ بك من الجنون والجذام وسيء الأسقام.

أقول: وهذا كله يدل على ما بيناه في المختار المائتين والإثنين والثلاثين من أن الأنبياء منزهون عن كل ما ينفر عنه، فيكون منافياً للغرض من البعثة، وذات الجنب داء يوجب نفرة الناس وتبريهم عمن ابتلى به، وذلك لأن ذات الجنب كما قال علي بن أبي الحزم القرشي المتطبب نفيس بن عوض المتطبب في شرحه: الورم في الغشاء المستبطن للأضلاع أي أضلاع الصدر الملبس عليها من داخل، فإن الصدر مركب من أربعة عشر ضلعاً من كل جانب سبعة وبين كل إثنين منها عضل به يكون إنبساط الصدر وانقباضه ويحيط بهذه الأضلاع والعضلات كما يدور وينحني من داخل غشاء واحد فإذا عرض في هذا الغشاء ورم سماه قوم ذات الجنب الخالص والصحيح وسماه بعض شوصة صحيحة.

أو هو ـ أي ذات الجنب ـ الورم في الحجاب الحاز أي الفاصل بين آلات الغذاء وآلات النَّفس المسمى ديافر غما عند الجمهور فمتى عرض هذا الداء أياً منهما كان يوجب للعليل أموراً منها ضيق النفس لضغط الورم مجاري النفس ولأن الحجاب من جملة آلات النفس فإذا ورم عجز

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٢ وأضواء على الصحيحين: ٢٦٥.

عن الإنبساط التام وكذلك الغشاء المستبطن فإنه أيضاً يعين على التنفس.

ومنها السعال لتأذي الرية بالمجاورة وترشح مادة المرض إليها فإن كانت غليظة كان مع السعال نفث وإن كانت رقيقة هيجت السعال من غير نفث.

وقال الشيخ الرئيس في القانون: وذات الجنب قد يعرض معه أعراض السرسام المنكرة مثل إختلاط الذهن والهذيان وتواتر النفس والخفقان والغشي وغيرها.

ومن كان ذا عقل سليم وروية غير ردية ولم ينفث الشيطان في روعه، يحكم بأن صريح العقل يأبي عن اكتساء الأنبياء بتلك الأمور المنفرة للطباع ولا يسند إختلاط الذهن والهذيان وأشباههما إليهم عليهم السلام على كل حال.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه بإسناده عن الأرقم بن شُرحبيل قال: سألتُ ابن عباس أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا. قلت: فكيف كان ذلك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إبعثوا إلى علي عليه السلام فأدعوه فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبي بكر وقالت: حفصة: لو بعثت إلى عمر، فاجتمعوا عنده جميعاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنصرفوا فإن تك لي حاجة أبعث إليكم فانصرفوا وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة فقال: مروا أبا بكر أن يصلي بالناس فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق فمر عمر فقال: مروا عمر فقال عمر: ما كنت لأتقدم وأبو بكر شاهد، فتقدم أبو بكر فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله خفة فخرج فلما سمع أبو بكر حركته تأخر فجذب رسول الله صلى الله عليه وآله ثوبه فأقاه مكانه وقعد رسول الله صلى الله عليه وآله فقرأ من حيث انتهى أبو بكر[1].

أقول: أرادت بقولها: إن أبا بكر رجل رقيق، أنه لا يطيق أن يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله لرقة قلبه، قال الشارح المعتزلي بعد نقل هذا الخبر:

فإن قلت: لم قلت في صدر كلامك هذا أنه أراد أن يبعث إلى علي ليوصي إليه ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة؟

قلت: لأن مخرج كلام ابن عباس هذا المخرج ألا ترى أن الأرقم بن شرحبيل الراوي لهذا الخبر قال: سألت ابن عباس هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: لا، فقلت: فكيف كان؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في مرضه إبعثوا لي علي فأدعوه فسألته المرأة أن يبعث إلى أبيها وسألته الأخرى أن يبعث إلى أبيها فلولا أن ابن عباس فهم من قوله صلى الله عليه وآله: إبعثوا إلى علي فأدعوه أنه يريد الوصية إليه لما كان لإخبار الأرقم بذلك متصلاً سؤاله عن الوصية معنًى، إنتهى.

أقول: لقد أنصف الشارح المعتزلي هناك، ونقلنا هذه الأخبار والأقوال منهم حتى

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ١٦١، ومناقب أهل البيت عليهم السلام: ٣٩٨.

يزداد اللبيب بصيرة من عمل القائل بالهجر وهاتين المرأتين، لا سيما الأولى منهما ولقائل أن يقول فإذا صرح الرسول ﷺ وسمى عليا عليه السلام بالإسم وقال: إبعثوا إلى علي فادعوه، فلم أعرضت المرأتان عن أمره ﷺ فبعثنا إلى أبيهما وضجر الرسول ﷺ من ذلك وغضب حيث قال: إنصرفوا فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم فانصرفوا ولو كان راضياً بذلك لم أمرهم بالإنصراف؟ ويقول أيضاً لو كان صلاة أبي بكر عن أمره ﷺ ورضاه لما قطع ﷺ صلاته ولم يقرأها من أولها ولم يبن على ما مضى من فعال أبي بكر ولم يبال بها كما جاء في عدة من أخبار أخر، أنه ﷺ إبتدأ الصلاة التي كان ابتدأها أبو بكر لا أنه قرأ من حيث انتهى أبو بكر.

وأنصف الشارح المعتزلي في ذلك وقال بعد نقل هذا الخبر:

قلت: عندي في هذه الواقعة كلام ويعترضني فيها شكوك واشتباه، إذا كان قد أراد ﷺ أن يبعث إلى علي ليوصي إليه فنفست عائشة، فسألت أن يحضر أبوها، ونفست حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها، ثم حضرا ولم يطلبا فلا شبهة أن إبنتيهما طلبتاهما هذا هو الظاهر، وقول رسول الله ﷺ وقد اجتمعوا كلهم عنده: إنصرفوا فإن تكن لي حاجة بعثت إليكم قول من عنده ضجر وغضب باطن لحضورهما، تهمة للنساء في استدعائها فكيف يطابق هذا الفعل وهذا القول ما روي من أن عائشة قالت: لما عين عليها في الصلاة إن أبى رجل رقيق فمر عمر وأين ذلك الحرص من هذا الإستعفاء والإستقالة وهذا يوهم صحة ما تقوله الشيعة من أن صلاة أبي بكر كانت عن أمر عائشة(١).

ثم أرضى نفسه بقوله فعل الخبر غير صحيح مع أن المتدرب في كتب الأخبار لا يشك في أن طلب النبي ﷺ علياً ودعوته إياه وما فعلت المرأتان لأبيهما وأمر الرسول بإنصرافهم وذهابه إلى المسجد ورده أبي بكر من صلاته مما هو مسلم عند الكل ومتواتر، وليس في ذلك خبر واحد وكتاب منفرد.

في البحار وغيره من كتب الأخبار: وكان علي عليه السلام لا يفارقه ﷺ في مرضه إلا لضرورة، فقام في بعض شؤونه فأفاق رسول الله ﷺ إفاقة فافتقد علياً فقال: وأزواجه حوله أدعوا لي أخي وصاحبي، وعاوده الضعف فأصمت، فقالت عائشة: أدعوا له أبا بكر فدعي ودخل عليه وقعد عند رأسه فلما فتح عينه نظر إليه فأعرض عنه بوجهه، فقام أبو بكر فقال: لو كان له إليّ حاجة لأفضى بها إليّ، فلما خرج أعاد رسول الله ﷺ القول ثانية وقال أدعو لي أخي وصاحبي. فقالت حفصة: أدعوا له عمر فدعي فلما حضر ورآه رسول الله ﷺ

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ١٦١.

أعرض عنه، ثم قال: أدعو لي أخي وصاحبي. فقالت أم سلمة: رضي الله عنها أدعو له عليا عليه السلام فإنه لا يريد غيره، فدعي أمير المؤمنين عليه السلام فلما دنا منه أومأ إليه فأكب عليه فناجاه رسول الله صلى الله عليه وآله طويلاً ثم قام فجلس ناحية حتى أغفى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما أغفى خرج فقال له الناس: ما الذي أوعز إليك يا أبا الحسن؟ فقال: علمني ألف باب من العلم فتح لي كل باب ألف باب وأوصاني بما أنا قائم به إن شاء الله تعالى[(١)].

في الكافي: في باب الإشارة والنص على علي أمير المؤمنين عليه السلام: يحيى الحلبي عن بشير الكناسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفي فيه أدعوا لي خليلي فأرسلنا إلى أبويهما فلما نظر إليها رسول الله صلى الله عليه وآله أعرض عنهما ثم قال: أدعوا لي خليلي فأرسل إلى علي فلما نظر إليه أكب عليه يحدثه فلما خرج لقياه فقالا له: ما حدثك خليلك فقال: حدثني ألف باب يفتح كل باب ألف باب[(٢)].

بيان: أبويهما يعني أبوي عائشة وحفصة، أبا بكر، وعمر، أكب بمعنى أقبل وفيه عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: علم رسول الله صلى الله عليه وآله عليا عليه السلام ألف حرف كل حرف يفتح ألف حرف.

وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام في آخر حديث طويل: فأوصى إليه بالإسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة، وأوصى إليه بألف كلمة وألف باب يفتح كل كلمة وكل باب ألف كلمة وألف باب[(٣)].

بيان: قال الفيض قدس سره في الوافي: قوله عليه السلام بألف كلمة وألف باب يفتح كل كلمة وكل باب ألف كلمة وألف باب: يعني بقواعد كلية أصولية وقوانين مضبوطة جميلة أمكنه أن يستنبط منها أحكاماً جزئية ومسائل فرعية تفصيلية.

مثال ذلك ما رواه الصفار رحمه الله في بصائر الدرجات، بإسناده عن موسى بن بكر قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام الرجل يغمى عليه اليوم واليومين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك كم يقضي من صلاته فقال: ألا أخبرك بما ينتظم به هذا وأشباهه فقال: كلما غلب الله عليه من أمر فالله أعذر لعبده وزاد فيه غيره وهذا من الأبواب التي يفتح كل باب منها ألف باب[(٤)].

---

(١) مناقب آل طالب: ١/ ٢٠٤، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٤٧٠.
(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٥٥٦، ح ٨٢٩، وتهذيب المقال: ٤/ ٣٦٢.
(٣) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٥٥٦، وينابيع المودة لذوي القربى: ١/ ٢٣٢.
(٤) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٥٦٣، وبحار الأنوار: ٥/ ٣٠٠، ح ٣.

وفي الكافي: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان في ذؤابة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله صحيفة صغيرة فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي شيء كان في تلك الصحيفة قال: هي الأحرف التي يفتح كل حرف ألف حرف قال أبو بصير: قال أبو عبد الله عليه السلام فأخرج منها حرفان حتى الساعة[١].

وفيه عن يونس بن رباط قال: دخلت أنا وكامل التمار على أبي عبد الله عليه السلام فقال له كامل: جعلت فداك حديث رواه فلان. فقال: أذكره؟ فقال: حدثني أن النبي صلى الله عليه وآله حدث علياً عليه السلام بألف باب يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وآله؛ كل باب يفتح ألف باب فذلك ألف، ألف باب. فقال: لقد كان ذلك قلت: جعلت فداك فظهر ذلك لشيعتكم ومواليكم فقال: يا كامل باب أو بابان. فقلت له: جعلت فداك فما يروى من فضلكم من ألف ألف باب إلا باب أو بابان؟ قال: فقال: وما عسيتم أن ترووُا من فضلنا ما ترْوُون من فضلنا إلا ألفاً غير معطوفة[٢].

بيان: قال الفيض رحمه الله في الوافي: من فضلك، أي: من علمكم ألفاً غير معطوفة يعني إلا حرفاً واحداً ناقصاً أي: أقل من حرف واحد وإنما اختار الألف لأنه أقل الحروف وأبسطها وأخفها مؤونة وعدم عطفها كناية عن نقصانها فإنها تكتب في رسم الخط الكوفي كذا «ا» فإذا كان طرفها غير مائل كان ناقصاً.

وفي السيرة الحلبية: أعتق رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه هذا أربعين نفساً، وكانت عنده صلى الله عليه وآله سبعة دنانير أو ستة فأمر عائشة أن تتصدق بها بعد أن وضعها صلى الله عليه وآله في كفه وقال: ما ظن محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده فتصدقت بها، وقال: وفي رواية أمرها بإرسالها إلى علي عليه السلام ليتصدق بها فبعث إليه فتصدق بها بعد وضعها في كفه.

ثم قال: وقد كان العباس رضي الله عنه قبل ذلك بيسير رأى أن القمر قد رفع من الأرض إلى السماء فقصها على النبي صلى الله عليه وآله فقال له: هو ابن أخيك، ونعم ما قاله الحافظ:

ستاره اى بدر خشيد وماه مجلس شد دل رميده ما را أنيس ومونس شد

قال المجلسي رحمه الله في البحار وغيره من نقلة الآثار: أنه ما أكد النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين علي عليه السلام من الفضل وتخصيصه منه بجليل رتبته، ما تلا حجة الوداع من الأمور المجددة لرسول الله صلى الله عليه وآله والأحدث التي اتفقت بقضاء الله وقدره.

وذلك أنه صلى الله عليه وآله تحقق من دنو أجله، ما كان قدم الذكر به لأمته، فجعل صلى الله عليه وآله يقوم مقاماً

(١) ينابيع المعاجز: ١٤٣، وبحار الأنوار: ٥٦/٢٦.

(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ٥٥٨/١، ح ٨٣٣، وينابيع المعاجز: ١٤٦.

بعد مقام في المسلمين يحذرهم الفتنة بعده والخلاف عليه، ويؤكد وصايتهم بالتمسك بسنّته والإجماع عليها والوفاق، ويحثهم على الإقتداء بعترته والطاعة لهم والنصرة والحراسة والإعتصام بهم في الدين، ويزجرهم عن الإختلاف والإرتداد.

وكان فيما ذكره من ذلك ما جاءت به الرواية على إتفاق واجتماع: قوله ﷺ: «يا أيها الناس إني فرطكم وأنتم واردون على الحوض ألا وإني سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياني، وسألت ربي ذلك فأعطانيه ألا وإني قد تركتهما فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي فلا تسبقوهم فتفرقوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم، أيها الناس لا ألفينكم بعدي ترجعون كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كبحر السيل الجرار، ألا وإن علي بن أبي طالب أخي ووصيي يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله.

وقال أبو جعفر الطبري في تاريخه: ثم ضرب ﷺ في المحرم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثا إلى الشام، وأمر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين فتهجز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون، فبينا الناس على ذلك ابتدىء ﷺ شكواه التي قبضه الله عزّ وجلّ فيها إلى ما أراد به من رحمته كرامته في ليالٍ بقين من صفر أو في أول شهر ربيع الأول.

وقال الطبري بإسناده عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ما قضى حجة التمام فتحلل به السير، وضرب على الناس بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد وأمره أن يوطىء من آبل الزيت من مشرف الشام الأرض بالأردن، فقال المنافقون في ذلك، ورد عليهم النبي ﷺ أنه لخليق لها أي حقيق بالإمارة وإن قلتم فيه لقد قلتم في أبيه من قبل، وإن كان لخليقاً لها، فطار الأخبار بتحلل السير بالنبي ﷺ أن النبي ﷺ قد اشتكى، فوثب الأسود باليمن ومسيلمة باليمامة وجاء الخبر عنهما للنبي ﷺ، ثم وثب طليحة في بلاد أسد بعد ما أفاق النبي ﷺ، ثم اشتكى في المحرم وجعه الذي قبضه الله تعالى فيه.

وقال: بإسناده عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد ضرب بعث أسامة، فلم يستتب لوجع رسول الله ﷺ ولخلع مسيلمة والأسود «وهو ذو الخمار عبهلة بن كعب» وقد أكثر المنافقون في تأمير أسامة حتى بلغه، فخرج النبي ﷺ على الناس عاصباً رأسه من الصداع، لذلك من الشأن وانتشاره لرؤيا رآها في بيت عائشة فقال: إني رأيت البارحة فيما يرى النائم أن في عضديَّ سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فأولتهما هذين الكذابين صاحب اليمامة وصاحب اليمن، وقد بلغني أن أقواماً يقولون في إمارة أسامة، ولعمري لأن قالوا في

أمارته لقد قالوا في أمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه لخليقاً للإمارة وأنه لخليق لها، فأنفذوا بعث أسامة، وقال: لعن الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، فخرج أسامة فضرب بالجرف وأنشأ الناس في العسكر ونجم طليحة وتمهل الناس وثقل رسول الله ﷺ فلم يستتم الأمر ينظرون أولهم آخرهم حتى توفى الله عزّ وجلّ نبيه ﷺ[1].

وقال المجلسي في البحار: ثم أنه عقد لأسامة بن زيد بن حارثة الإمرة وأمره، وندبه أن يخرج بجمهور الأمة إلى حيث أصيب أبوه من بلاد الروم، واجتمع رأيه عليه السلام على إخراج جماعة من مقدمي المهاجرين والأنصار في معسكره حتى لا يبقى في المدينة عند وفاته من يختلف في الرياسة ويطمع في التقدم على الناس بالإمارة، ويستتب الأمر لمن استخلفه من بعده ولا ينازعه في حقه منازع، فعقد له الإمرة على ما ذكرناه وجد في إخراجهم وأمر أسامة بالبروز عن المدينة بمعسكره إلى الجرف وحث الناس على الخروج معه والمسير إليه وحذرهم من التلوم والإبطاء عنه.

فبينا هو في ذلك إذ عرضت له الشكاة التي توفي فيها، فلما أحس بالمرض الذي عراه أخذ بيد علي بن أبي طالب وأتبعه جماعة من الناس وتوجه إلى البقيع فقال للذي اتبعه: إنني قد أمرت بالإستغفار لأهل البقيع، فانطلقوا معه حتى وقف بين أظهرهم وقال: السلام عليكم أهل القبور ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، ثم إستغفر لأهل البقيع طويلاً، وأقبل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إن جبرائيل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن كل سنة مرة وقد عرضه عليّ العام مرتين ولا أراه إلا لحضور أجلي، ثم قال: يا علي إني خيرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها والجنة فاخترت لقاء ربي والجنة، وإذا أنا مت فاغسلني فاستر عورتي فإنه لا يراها أحد إلا أكمه، ثم عاد إلى منزله فمكث ثلاثة أيام موعوكاً.

ثم خرج إلى المسجد معصوب الرأس، معتمداً على أمير المؤمنين عليه السلام بيمنى يديه وعلى الفضل بن عباس باليد الأخرى حتى صعد المنبر فجلس عليه ثم قال: يا معشر الناس وقد حان مني خفوق من بين أظهركم، من كان له عندي عدة فليأتني أعطه إياها ومن كان له عليّ دين فليخبرني به، معاشر الناس ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل أيها الناس لا يدعى مدع لا يتمنى متمنٍ والذي بعثني بالحق نبياً لا ينجي إلا عمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت، اللهم هل بلغت. ثم نزل فصلى بالناس صلاة خفيفة ثم دخل بيته.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣١.

وكان إذ ذاك في بيت أم سلمة رضي الله عنها، فأقام به يوماً أو يومين فجاءت عائشة إليها تسألها أن تنقله إلى بيتها لتتولى تعليله، وسألت أزواج النبي ﷺ في ذلك فأذن لها، فانتقل إلى البيت الذي أسكنه عائشة واستمر به المرض فيه أيام وثقل، فجاء بلال عند صلاة الصبح ورسول الله ﷺ مغمور بالمرض فنادى: الصلاة يرحمكم الله، فأذن رسول الله ﷺ بندائه فقال: يصلي بالناس بعضهم فإني مشغول بنفسي فقالت عائشة: مروا أبا بكر. وقالت حفصة: مروا عمر. فقال رسول الله ﷺ حين سمع كلامهما ورأى حرص كل واحد منهما على التنويه بأبيهما وافتتانهما بذلك ورسول الله ﷺ حيّ: أكففن فأنكن صُويحبات يوسف، ثم قام مبادراً خوفاً من تقدم أحد الرجلين وقد كان ﷺ أمرهما بالخروج مع أسامة ولم يك عنده أنهما قد تخلفا، فلما سمع من عائشة وحفصة ما سمع علم أنهما متأخران عن أمره فبدر لكف الفتنة وإزالة الشبهة فقام ﷺ وأنه لا يستقل على الأرض من الضعف، فأخذ بيده علي بن أبي طالب والفضل بن العباس فاعتمد عليهما ورجلاه يخطان الأرض من الضعف، فلما خرج إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب، فأومأ إليه بيده إن تأخر عنه، فتأخر أبو بكر وقام رسول الله ﷺ مقامه، فكبر وابتدأ الصلاة التي كان ابتدأها أبو بكر ولم يبن على ما مضى من فعاله، فلما سلم إنصرف إلى منزله واستدعى أبا بكر، وعمر وجماعة من حضر المسجد من المسلمين ثم قال: ألم آمر أن تنفذوا جيش أسامة؟ فقالوا: بلى يا رسول الله، قال: فلم تأخرتم عن أمري؟ قال أبو بكر: إني خرجت ثم رجعت لأجدد بك عهداً، وقال: يا رسول الله إني لم أخرج لأنني لم أحب أسأل عنك الركب فقال النبي ﷺ نفذوا جيش أسامة نفذوا جيش أسامة يكررها ثلاث مرات إلى آخره[١].

قال الشارح المعتزلي: بعد ما خطب الناس دخل بيت أم سلمة، ثم انتقل إلى بيت عائشة يعلله النساء والرجال أما النساء فأزواجه وبنته وأما الرجال فعلي عليه السلام والعباس، والحسن، والحسين عليهما السلام وكانا غلامين يومئذٍ وكان الفضل بن العباس يدخل أحياناً إليهم، ثم حدث الإختلاف بين المسلمين أيام مرضه، فأول ذلك التنازع الواقع يوم قال ﷺ إيتوني بدواة وقرطاس وتلا ذلك حديث التخلف عن جيش أسامة.

أقول: لا خلاف بين المسلمين أن النبي ﷺ ولى أسامة على جماعة منهم أبو بكر، وعمر، وعثمان وخالفوا الرسول ﷺ في تنفيذ جيش أسامة، وكان قصد النبي ﷺ بعدهم عن المدينة لئلا يدعوا الإمامة بعد موته ﷺ، ولذلك لم يجعل أمير المؤمنين علياً عليه السلام في جيش أسامة وهم تخلفوا عن أمر النبي ﷺ على أن إمارة أسامة عليهم تدل على أنه أفضل منهم،

(١) بحار الأنوار: ٢٢/٤٦٨، والإرشاد: ١/ ١٨٤.

ولم يرو ولم يقل أحد أن رسول الله ﷺ أمر أحداً على علي عليه السلام فعلي أفضل من غيرهم فمن كان أسامة أفضل عليه لا يليق بالإمارة مع أن فيهم من يكون أفضل من أسامة وغيره، مع أنهم عصوا النبي ﷺ وتخلفوا عن أمره، وقبح تقديم المفضول على الأفضل معلوم وإمامة، المفضول قبيحة عقلاً ولا يرتاب فيه إلا الطغام قال عزّ من قائل: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

وبذلك تعلم أن قول الشارح المعتزلي في خطبة شرحه: ـ وقدم المفضول على الأفضل لمصلحة إقتضاها التكليف ـ إختلاق محض وافتراء صرف، ولا يعلم أية مصلحة إقتضت ذلك أو لا يكون هذا الفعل نفسه قبيحاً وظلماً وزوراً؟ تعالى الله عن ذلك.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه بإسناده عن عبد الله بن كعب بن ملك: أن ابن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفى فيه، فقال الناس: يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله قال: أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال: ألا ترى أنك بعد ثلث عبد العصا وإني أرى رسول الله ﷺ سيتوفى في وجعه هذا وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب إلى رسول الله ﷺ فسله فيمن يكون هذا الأمر فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا، قال علي عليه السلام: والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً الله لا أسألها رسول الله ﷺ أبداً(١).

أقول: لما انجر كلامنا إلى هذا صادفنا عيد الله الأكبر يوم غدير خُم يوم الأحد الثامن عشر من ذي الحجة من السنة ١٣٨٢ من الهجرة النبوية، على هاجرها السلام، فتذكرنا أن واقعة غدير خم حيث أمر رسول الله ﷺ من عند الله تبارك وتعالى أن ينصب علياً عليه السلام للناس ويخبرهم بولايته فنزلت آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] في ذلك فأعلم رسول الله ﷺ كل أبيض، وأسود بقوله من كنت مولاه فهذا علي مولاه على التفصيل الذي جاء في أخبار الفريقين، ومسلم عند المسلمين وأشعار حسان في ذلك المسطورة في ديوانه وكتب الأخبار ونقلة الآثار مما لا ينكره أحد ولا يأبى عنه إلا الخصم الألد: جاء حسان بن ثابت إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أتأذن لي أن أقول في هذا المقام ما يرضاه الله؟ فقال له: قل يا حسان على إسم فوقف على نشز من الأرض وتطاول المسلمون لسماع كلامه فأنشأ يقول:

يناديهم يوم الغدير نبيهم   بخم واسمع بالنبي مناديا

---

(١) الغدير: ٥/٣٤٣، وتاريخ الطبري: ٢/٤٣٧.

وقال فمن مولاكم ووليكم فقالوا: ولم يبدوا هناك التعاديا
إلهك مولانا وأنت ولينا ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا
فقال له: قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
فخص بها دون البرية كلها علياً وسماه الوزير المواخيا
فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونا له أتباع صدق مواليا
هناك دعى اللهم وال وليه وكن للذي عادى علياً معاديا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك وإنما اشترط رسول الله صلى الله عليه وآله في الدعاء له لعلمه بعاقبة أمره في الخلاف، ولو علم سلامته في مستقبل الأحوال لدعا له على الإطلاق كما في الإرشاد للمفيد رحمه الله[1].

وتلك الواقعة كانت في السنة التي توفي رسول الله صلى الله عليه وآله فيها أعني في حجة الوداع ولم يمضِ من تلك الواقعة إلى رحلة رسول الله صلى الله عليه وآله إلا شهران وبضعة أيام فكيف ذهل عباس بن عبد المطلب عن ذلك حتى سأل علياً عن أن يسأل الرسول صلى الله عليه وآله عن ذلك مع أن حديث المنزلة وغيرهما في حق علي عليه السلام متواتر عند الفريقين، ولذلك إن في قلبي في صحة هذا الخبر شيئاً على أني أرى على تقدير الصحة حرف قوله «فمنعناها» عن أصله وكان الأصل «فمنحناها» بقرينة لا يعطيناها فليتأمل.

وفي السيرة الحلبية: جاء رسول الله صلى الله عليه وآله جبرائيل صحبة ملك الموت. وقال له: يا أحمد إن الله قد إشتاق إليك قال: فإقبض يا ملك الموت كما أمرت فتوفى رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

وفي لفظ أتاه جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله أرسلني إليك تكريماً لك وتشريفاً يسألك عما هو أعلم به منك يقول لك: كيف تجدك؟ قال: أجدني يا جبرائيل مغموماً وأجدني يا جبرائيل مكروباً ثم جاءه اليوم الثاني، والثالث فقال له: ذلك فرد عليه صلى الله عليه وآله بمثل ذلك وجاء معه في اليوم الثالث، ملك الموت. فقال له جبرائيل عليه السلام: هذا ملك الموت يستأذن عليك ما أستأذن على أحد قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك أتأذن له فدخل فسلم عليه ثم قال: يا محمد إن الله أرسلني إليك فإن أمرتني أن أقبض روحك قبضت وإن أمرتني أن أترك تركت. قال: أو تفعل قال: نعم. وبذلك أمرت فنظر النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد إن الله يقرؤك السلام ويقول لك: إن شئت شفيتك وكفيتك، وإن شئت توفيتك وغفرت لك قال

---

(١) الإرشاد: ١/١٧٧، وبحار الأنوار: ٢١/٣٨٨.

(٢) بتفاوت في كنز العمال: ٧/٢٥١، ح ١٨٧٨٥، وروضة الواعظين: ٧٢.

ذلك إلى ربي يصنع بي ما يشاء(١).

وفي رواية: الخلد في الدنيا ثم في الجنة أحب إليك أم لقاء ربك ثم الجنة فقال رسول الله ﷺ: لقاء ربي ثم الجنة.

وفي الوافي (م ١٤ ص ٤٦): عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما حضرت النبي ﷺ الوفاة نزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا رسول الله هل لك في الرجوع إلى الدنيا فقال: لا قد بلغت رسالات ربي، فأعادها عليه فقال: لا، بل الرفيق الأعلى. ثم قال النبي ﷺ: والمسلمون حوله مجتمعون: أيها الناس أنه لا نبي بعدي ولا سنّة بعد سنّتي فمن ادعى ذلك فدعواه ومدعيه في النار فاقتلوه ومن اتبعه فإنه في النار أيها الناس أحيوا القصاص وأحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرقوا، أسلموا وسلموا تسلموا ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

في البحار: ثم ثقل ﷺ وحضره الموت وأمير المؤمنين عليه السلام حاضر عنده فلما قرب خروج نفسه قال له: ضع يا علي رأسي في حجرك فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك ثم وجهني إلى القبلة، وتول أمري وصلِ عليّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي واستعن بالله تعالى، فأخذ علي عليه السلام رأسه فوضعه في حجره فأغمي عليه فأكبت فاطمة عليها السلام تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ففتح رسول الله ﷺ عينه وقال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمك أبي طالب لا تقوليه، ولكن قولي: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم» فبكت طويلاً وأومأ إليها بالدنو منه فدنت منه فأسر إلينا شيئاً تهلل وجهها، له ثم قبض ﷺ ويد أمير المؤمنين اليمنى تحت حنكه، ففاضت نفسه ﷺ فيها فرفعها إلى وجهه فمسحه بها ثم وجهه وغمضه ومد عليه إزاره واشتغل بالنظر في أمره ﷺ(٢).

وجاءت الرواية أنه قيل لفاطمة عليها السلام: ما الذي أسره إليك رسول الله ﷺ فسرى عليك به ما كنت عليه من الحزن والقلق بوفاته؟ قالت: إنه أخبرني أنني أول أهل بيته لحوقاً به وأنه لن يطول المدة بي بعده حتى أدركه فسرى ذلك عني(٣).

---

(١) سبل الهدى والرشاد: ١٢/ ٢٦٤.

(٢) الإرشاد: ١/ ١٨٧، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ١/ ٢٦٨.

(٣) بحار الأنوار: ٢٢/ ٤٧٠، والأنوار البهية: ٤٠.

وفي البحار أنه صلى الله عليه وآله دعا الحسن، والحسين عليهما السلام فقبلهما وشممهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان.

وجاءت الرواية المنقولة عن الفريقين أنه كان عنده صلى الله عليه وآله قدح فيه ماء وفي لفظ بدل قدح علباء وفي آخر ركوة فيها ماء فلما اشتد عليه صلى الله عليه وآله الأمر صار يدخل يده الشريفة في القدح ثم يمسح وجهه الشريف بالماء ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت وكذا في تاريخ الطبري، وبشارة المصطفى لشيعة المرتضى وفي غيرها من كتب الأخبار.

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله قالت فاطمة عليها السلام: واأبتاه أجاب داع دعاه يا أبتاه الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبرائيل ننعاه، وفي السيرة الحلبية قال ابن كثير: هذا لا يعد نياحة بل هو من ذكر فضائل الحق عليه عليه أفضل الصلاة والسلام. قال: وإنما قلنا ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن النياحة إنتهى، أقول: ومضى الكلام منا آنفاً في ذلك(١).

في البحار ناقلاً عن المناقب لابن شهرآشوب، والطبرسي في المجمع في ضمن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] عن ابن عباس، والسدي لما نزل قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] قال رسول الله صلى الله عليه وآله ليتني أعلم متى يكون ذلك فنزل سورة النصر فكان يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزل هذه السورة فيقول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقيل له أنك لم تكن تقوله قبل هذا فقال: أما نفسي نعيت إليّ ثم بكى بكاءً شديداً، فقيل: يا رسول الله أو تبكي من الموت وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ما تأخر؟ قال: فأين هو المطلع وأين ضيقة القبر وظلمة اللحد وأين القيامة والأهوال، فعاش بعد نزول هذه السورة عاماً. إنتهى(٢).

«آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله»

أقول: آخر آية نزلت من السماء على خاتم النبيين صلى الله عليه وآله بلا خلاف عند قاطبة المسلمين قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾(٣)، ولا خلاف أيضاً في أن جبرائيل عليه السلام قال له صلى الله عليه وآله ضعها في رأس الثمانين والمائتين من البقرة كما في المجمع، والبيضاوي، الكشاف وغيرها عن ابن عباس، والسدي.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٤/٥٤٣.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/٢٠١، وبحار الأنوار: ٢٢/٤٧١، ح ٢٠.
(٣) المجموع للنووي: ٥/٣٠٨، والبداية والنهاية: ٥/٢٩٤.

وإنما الخلاف في أنه ﷺ كم عاش من الأيام بعد نزولها، والأكثر على أنه ﷺ عاش بعدها أحداً وعشرين يوماً وقال: ابن جريح: تسع ليالٍ، وقال سعيد بن جبير ومقاتل: سبع ليالٍ، وفي الكشاف، والبيضاوي وقيل أحداً وثمانين يوماً، وفي الكشاف وقيل ثلاث ساعات.

أقول: قول جبرائيل عليه السلام له ﷺ ضع هذه الآية في رأس الثمانين والمائتين من البقرة يدل على أن تركيب السور وترتيب الآيات القرآنية كما هو الآن بين أيدينا كان بأمر الله تعالى وبأمر رسوله ﷺ وما نقص منه شيء ولا زيد فيه شيء، ومن تفحص في كتب الأخبار للمسلمين يجد أن السور كانت عند ارتحال رسول الله ﷺ مرتبة منظمة بإذن الله تعالى وبأمر رسوله ﷺ موسومة بأساميها، ولنا في ذلك من الأخبار والآيات وأقوال أهل الخبرة شواهد وبراهين، لعلنا نبحث في ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى في محله.

ثم نقول إن هذا القول أعني آخر آية نزلت على الرسول ﷺ هي تلك الآية المذكورة لا ينافي ما في العدة الفهدية وغيرها أول ما نزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وآخره ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١] لأن كلامنا في آخر آية نزلت وهذا القول من ابن الفهد وغيره في آخر سورة نزلت.

قال المسعودي في مروج الذهب: وقد قيل: أنه أنزل عليه ﷺ بالمدينة من القرآن إثنتان وثلاثون سورة.

أقول: وسيأتي إن شاء الله تعالى بحثنا في ذلك على التفصيل والتحقيق.

الأقوال في مدة شكواه ﷺ

كانت مدة شكواه ﷺ ثلاث عشرة ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل إثنتي عشرة ليلة وقيل عشراً وقيل ثمانية.

الأخبار في مبلغ سنه ﷺ يوم وفاته

الأكثر من الفريقين ذهبوا إلى أنه ﷺ كان حين قبض ابن ثلاث وستين سنة وهو الحق في ذلك، قال أبو جعفر الطبري في تاريخه بإسناده عن ابن عباس قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه وبالمدينة عشراً ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وفيه عنه أيضاً: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة وأقام بمكة ثلاث عشرة يوحى إليه وبالمدينة عشراً ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكذا نقل عدة أخبار أُخر في أنه ﷺ كان

يومئذٍ ابن ثلاث وستين سنة[1].

وفي البحار للمجلسي «قد» عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن ثلاث وستين سنة في سنة عشر من الهجرة فكان مقامه بمكة أربعين سنة، ثم نزل عليه الوحي في تمام الأربعين وكان بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فأقام بالمدينة عشر سنين الحديث[2]، وكذا غيره من الأخبار المروية من أصحابنا رضوان الله عليهم وكبار علماء العامة.

ونقل الطبري عن بعض أنه صلى الله عليه وآله كان حينئذٍ ابن خمس وستين سنة، وعن بعض آخر هو ابن ستين، ولكن الصواب ما ذهب إليه الأكثر ولا يعبأ بهذه الأقوال الشاذة النادرة.

ذكر الأقوال عن اليوم والشهر الذين توفي فيهما صلى الله عليه وآله

قال أبو جعفر الطبري في حديث عن ابن عباس أنه قال: ولد النبي صلى الله عليه وآله يوم الإثنين، واستنبىء يوم الإثنين، ورفع الحجر يوم الإثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، وقدم المدينة يوم الإثنين، وقبض يوم الإثنين[3].

وفي المصباح للكفعمي قال الشيخ المفيد رحمه الله في مزاره إتق السفر يوم الإثنين فإنه يوم الذي قبض فيه النبي صلى الله عليه وآله وانقطع الوحي فيه وابتز أهل بيته الأمر، وقتل فيه الحسين عليه السلام وهو يوم نحس وكذا المنقول عن أبي جعفر الباقر عليه السلام من كشف الغمة كما في البحار أنه قبض صلى الله عليه وآله في شهر ربيع الأول يوم الإثنين لليلتين خلتا منه[4].

وقال شيخ الطائفة قدس سره في التهذيب: قبض صلى الله عليه وآله بالمدينة مسموماً يوم الإثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة عشر من الهجرة، وولد بمكة يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول في عام الفيل[5].

أقول: وإنما قال رحمه الله: قبض صلى الله عليه وآله مسموماً لأنه روى في البحار نقلاً عن بصائر الدرجات عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمت اليهودية النبي في ذراع قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحب الذراع والكتف ويكره الورك لقربها من المبال قال لما أتى بالشواء أكل من الذراع

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ١٠٨ـ ٤٥٣.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٠٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ١١٤، والبداية والنهاية: ٢/ ٣١٩.

(٤) تاريخ الأئمة: ٤، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٥٠٣، ح ١.

(٥) نقد الرجال: ٥/ ٣١٨، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ١/ ٤٢.

وكان يحبها فأكل ما شاء الله وما زال ينتفض به سمه حتى مات. الخبر.

وقال ثقة الإسلام الكليني رضوان الله عليه: أنه قبض ﷺ لإثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول يوم الإثنين وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقال المسعودي في مروج الذهب: قبضه الله يوم الإثنين لإثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة عشر في الساعة التي دخل فيها المدينة «يعني مهاجراً من مكة إلى المدينة زاد الله لهما شرفاً» في منزل عائشة وكان علته إثني عشرة يوماً.

وفي تفسير الثعلبي: يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول حين زاغت الشمس.

وقال أبو جعفر الطبري: أما اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ فلا خلاف بين أهل العلم بالأخبار فيه أنه كان يوم الإثنين من شهر ربيع الأول غير أنه إختلف في أي الإثنين كان موته ﷺ ففقهاء أهل الحجاز قالوا: قبض رسول الله ﷺ نصف النهار يوم الإثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول.

وقال الواقدي: توفي يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ودفن من الغد نصف النهار حين زاغت الشمس وذلك يوم الثلاثاء.

وقال أبو جعفر الطبري في تاريخه: ثم ضرب ﷺ في المحرم من سنة - ١١- على الناس بعثاً إلى الشام وأمر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وأوعب مع أسامة، المهاجرون الأولون فبينا الناس على ذلك إبتدى ﷺ شكواه التي قبضه الله عزّ وجلّ فيها إلى ما أراد به من رحمته وكرامته في ليالٍ بقين من صفر أو في أول شهر ربيع الأول[(١)].

وفيه في الخبر الآخر عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ - إلى أن قال -: ثم اشتكى في المحرم وجعه الذي قبضه الله تعالى فيه.

وفيه بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: أشتكى رسول الله ﷺ وجعه الذي توفاه الله به في عقب المحرم.

وقال الواقدي: بدأ رسول الله ﷺ وجعه لليلتين بقيتاً من صفر.

وقال الطبرسي في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] ثم مات ﷺ يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول حين بزغت الشمس، قال: وروى

(١) تاريخ الطبري: ٢/٤٢٩.

أصحابنا لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة، ولسنة واحدة من ملك أردشير بن شيرويه بن أبرويز بن هرمز بن أنوشيرون[١].

وقال المفيد رحمه الله في الإرشاد: وكان ذلك في يوم الإثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة عشر من هجرته صلى الله عليه وآله وهو ابن ثلاث وستين سنة وقال الخوارزمي توفي أول شهر ربيع الأول[٢].

وفي السيرة الحلبية: قال السهيلي: لا يصح أن يكون وفاته يوم الإثنين إلا في ثالث عشرة أو رابع عشرة لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة كانت يوم الجمعة وهو تاسع ذي الحجة، وكان المحرم أما بالجمعة وإما بالسبت، فإن كان السبت فيكون أول صفر إما الأحد أو الإثنين فعلى هذا لا يكون الثاني عشر من شهر ربيع الأول بوجه[٣].

هذه طائفة من الأقوال في يوم وفاته صلى الله عليه وآله وشهره، وجملة القول فيهما: أنه مما لا ينبغي أن يشك أن وفاته صلى الله عليه وآله كان يوم الإثنين وهذا إتفاقي والمخالف فيه مكابر نفسه، والمشهور عند الجمهور أنه كان في شهر ربيع الأول لإثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وعند أصحابنا الإمامية لليلتين بقيتا من صفر إلا الكليني، والمسعودي فأنها وافقا العامة في ذلك.

قال العلّامة المجلسي في البحار: لعل قول سنة عشر مبني على اعتبار سنة الهجرة من أول ربيع الأول حيث وقعت الهجرة فيه والذين قالوا سنة إحدى عشرة بنوه على المحرم وهو أشهر[٤].

أقول: وبذلك يرتفع الإختلاف كما هو واضح، ويأتي في المباحث الآتية التحقيق في مبدأ تاريخ الهجرة.

وخلاصة القول فيه: أن ما بنى عليه المسلمون هو من أول المحرم وقول الآخر أعني أول ربيع الأول شاذ لم يعمل به وإن ذهب إليه شرذمة من الناس ومنهم محمد بن إسحاق المطلبي كما في السيرة النبوية لابن هشام التي أصلها لابن إسحاق وانتخبها ابن هشام قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة يوم الإثنين حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول وهو التاريخ.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٢/ ٢١٤.
(٢) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥١٩، والإرشاد: ١/ ١٨٩.
(٣) سبل الهدى والرشاد: ١٢/ ٣٠٦.
(٤) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٣٠، ح ٣٥، وقصص الأنبياء: ٣٥٧، ح ٢.

ولكن هذا القول غير مقبول عند الجمهور والمبدأ المعمول به عند المسلمين هو المحرم.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: قام رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: أرخوا فقال عمر: ما أرخوا؟ قال: شيء تفعله الأعاجم يكتبون في شهر كذا من سنة كذا فقال عمر: حسن فأرخوا، فقال: من أي السنين نبدأ قالوا: من مبعثه ﷺ. وقالوا: من وفاته ﷺ ثم أجمعوا على الهجرة ثم قالوا: فأي الشهور نبدأ؟ فقالوا: رمضان. ثم قالوا: المحرم فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام فأجمعوا على المحرم[١].

ثم أقول: ولا غرابة أن يقال أنه اشتبه الأمر على القائل بوفاته ﷺ في شهر ربيع الأول وكذا على راوي هذا الخبر لأن ولادته ﷺ كان في ذلك الشهر فأخذ الوفاة مكان الولادة.

«الكلام في أن عمر أنكر موت رسول الله ﷺ ولم يكن عارفاً بالقرآن»

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه عن أبي هريرة: لما توفي رسول الله ﷺ كان أبو بكر بالسنح وعمر حاضراً فقام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي وأن رسول الله ﷺ والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات والله ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله ﷺ مات.

قال: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجّى في ناحية البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبله ثم قال بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: على رسلك يا عمر فأنصت فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/١١١، والبداية والنهاية: ٣/٢٥٢.

أبو بكر يومئذٍ قال: وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي أفواههم. قال أبو هريرة قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرتُ حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات[1].

وكذا روي أبو جعفر الطبري عن أبي أيوب عن إبراهيم خبراً آخر قريباً من الأول.

وكذا في آخر عن عبد الرحمن الحميري قال: توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر في المدينة فجاء فكشف الثوب عن وجهه فقبله وقال: فداك أبي وأمي ما أطيبك حياً وميتاً مات محمد ورب الكعبة قال: ثم انطلق إلى المنبر فوجد عمر بن الخطاب قائماً يُوعدُ الناس ويقول: أن رسول الله صلى الله عليه وآله حي لم يمت وأنه خارج إلى من أرجف به وقاطع أيديهم وضارب أعناقهم وصالبهم قال: فتكلم أبو بكر وقال: إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ الآية حتى ختم الآية فمن كان يعبد الله لا شريك له فإن الله حي لا يموت الخبر.

قال الشهرستاني في المقدمة الرابعة من الملل والنحل: الخلاف الثالث في موته صلى الله عليه وآله قال عمر: من قال أن محمداً قد مات قتلته بسيفي هذا وإنما رفع إلى السماء كما رفع عيسى بن مريم عليه السلام، وقال أبو بكر: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد إله محمد فإنه حي لا يموت وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ إلخ.

أقول: والأخبار في ذلك المضمون أعني إنكار عمر موته صلى الله عليه وآله في كتبهم المعتبرة عندهم بلغت إلى مبلغ التواتر معنى ولا سبيل إلى إنكاره، وإن كانت عباراتهم مختلفة، ولنا في هذا المقام كلام وهو:

إن من لم يكن عارفاً للآيات القرآنية ومتدبراً له وحافظاً للكتاب العزيز كما اعترف به نفسه، كيف يليق للإمامة على الأمة والخلافة عن الله ورسوله؟ وهل هذا إلا تهافت واختلاق؟ جل جناب الرب عن أن ينال عهده الجاهلين.

الكلام في أن علياً عليه السلام هو الذي ولي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وهو الأصل في ذلك

وقال أبو جعفر الطبري عن عبد الله بن عباس: أن علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن عباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشقران مولى

(١) سبل الهدى والرشاد: ١٢/ ٣٠١، وعبد الله سبأ: ١/ ١٠٥.

رسول الله ﷺ هم الذين ولوا غسله وأن أوس بن خولى أحد بني عوف بن الخزرج قال لعلي بن أبي طالب أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ وكان أوس من أصحاب بدر وقال أدخل فدخل فحضر غسل رسول الله ﷺ، فأسنده علي بن بي طالب إلى صدره وكان العباس، والفضل، وقثم هم الذين يقلبونه معه وكان أسامة بن زيد، وشقران مولياه هما اللذان يصبان الماء، وعلي يغسله، قد أسنده إلى صدره وعليه قميصه يدلك من ورائه لا يفضي بيده إلى رسول الله ﷺ وعلي يقول: «بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً ولم ير من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت»[١].

وقال الشارح المعتزلي: وروي محمد بن حبيب في أماليه قال: تولى غسل النبي ﷺ علي عليه السلام والعباس رضي الله عنه وكان علي عليه السلام يقول: «بعد ذلك ما شممت أطيب من ريحه ولا رأيت أضوأ من وجهه حينئذٍ لم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى»[٢].

أقول: وقد مضى الخبر الآخر من أبي جعفر الطبري عن عبد الله بن مسعود حيث سأل رسول الله ﷺ من يغسله فقال ﷺ: أهلي الأدنى فالأدنى الخبر.

فحيث ضم ذلك الخبر إلى هذا الذي نقله الطبري عن عبد الله بن عباس، ومحمد بن حبيب في أماليه وغيرهما ينتج أن علي بن أبي طالب كان أقرب الناس منه ﷺ.

ثم أنه يعلم من خطاب أوس علياً عليه السلام أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ أن أمير المؤمنين علي عليه السلام كان هو الذي تولى غسله وهو الأصل في ذلك والعباس، والفضل، وقثم، وأسامة، وشقران كانوا أعوانه في ذلك كما يدل عليه أيضاً قوله: وكان العباس، والفضل، وقثم هم الذين يقلبونه معه وكان أسامة، وشقران مولياه هما اللذان يصبان الماء وقوله وعلي عليه السلام يغسله صريح في ذلك.

في الكافي الكليني (قده) عن عبد الله بن مسعود قال: قلت للنبي ﷺ: يا رسول الله من يغسلك إذا مت؟ فقال: يغسل كل نبي وصيه، قلت: فمن وصيك يا رسول الله؟ قال: علي بن أبي طالب، فقلت: كم يعيش بعدك يا رسول الله؟ قال ثلاثين سنة، فإن يوشع بن نون وصي موسى عاش من بعده ثلاثين سنة وخرجت عليه صفراء بنت شعيب زوج موسى فقالت: أنا أحق بالأمر منك فقاتلها فقتل مقاتليها وأسرها فأحسن أسرها، وأن إبنة أبي بكر ستخرج على علي عليه السلام في كذا، وكذا ألفاً من أمتي فيقتل مقاتليها ويأسرها فيحسن أسرها وفيها أنزل

(١) تاريخ الطبري: ٢/٤٥١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٣/٤٢.

الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] يعني صفراء بنت شعيب(١).

في التهذيب بإسناده عن يعلى بن مرة عن أبيه عن جده قال: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله فستر بثوب ورسول الله صلى الله عليه وآله خلف الثوب وعلي عليه السلام عند طرف ثوبه وقد وضع خده على راحتيه يضرب طرف الثوب على وجه علي عليه السلام قال: والناس على الباب وفي المسجد ينتحبون ويبكون وإذا سمعنا صوتاً في البيت أن نبيكم طاهر مطهر فادفنوه ولا تغسلوه، قال: فرأيت علياً عليه السلام حين رفع رأسه فزعاً فقال: إخسأ عدو الله فإنه أمرني بغسله وكفنه وذاك سنّة قال: ثم نادى منادٍ آخر غير تلك النغمة يا علي بن أبي طالب إستر عورة نبيك ولا تنزع القميص(٢).

وروايات أخر قريبة منها أتى بها في كتب العامة أيضاً.

قال في البحار: في الإحن، والمحن بإسناده عن إسماعيل بن عبد الله عن أبيه عن علي عليه السلام قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أن مت فاغسلني بسبع قرب من بئري بئر غرس(٣).

وفي السيرة الحلبية: وعند ابن ماجه أنه صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام إذا أنا مت فاغسلني بسبع قرب من بئري بئر غرس.

في الكافي، والتهذيب عن فضيل سكرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك هل للماء الذي يغسل به الميت حد محدود؟ قال: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: إذا أن مت فاستق ست قرب من ماء بئر غرس «غرس بئر بالمدينة» فغسلني، كفني، وحنطني فإذا فرغت من غسلي وكفني فخذ بجوامع كفني وأجلسني ثم سلني عما شئت فوالله لا تسألني عن شيء إلا أجبتك فيه(٤).

وفي البحار: أبان بن بطة قال يزيد بن بلال: قال علي عليه السلام: أوصى النبي صلى الله عليه وآله الا يغسله أحد غيري فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه قال: فما تناولت عضواً إلا كأنما كان يقلبه معي ثلاثون رجلاً حتى فرغت من غسله، وكذا في خبر قريب منه في السيرة الحلبية(٥).

---

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ٣٦٨، وكمال الدين وتمام النعمة: ٢٧.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٨٨، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٥٤٢.
(٣) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٢٤، وكنز العمال: ٧/ ٢٤٩، ح ١٨٧٨١.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣١٦، وبحار الأنوار: ٤/ ١٥٢.
(٥) المسترشد: ٣٣٧، ح ٩، مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٠٥.

أقول: والمراد من هذا الخبر أن علياً عليه السلام لو رأى عورته لا تطمس عينه كان على فرض الوقوع لا أن يجوز له ذلك.

وفيه أيضاً: وروى أنه لما أراد علي عليه السلام غسله إستدعى الفضل بن عباس ليعينه كان مشدود العينين وقد أمره علي عليه السلام بذلك إشفاقاً عليه من العمى.

وفيه نقلاً عن تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله سمعوا صوتاً من جانب البيت ولم يروا شخصاً يقول: «كل نفس ذائقة الموت» إلى قوله: «فقد فاز» ثم قال: في الله خلف وعزاء من كل مصيبة ودرك لما فات، فبالله فثقوا وإياه فأرجوا إنما المحروم من حرم الثواب واستروا عورة نبيكم، فلما وضعه على السرير نودي يا علي لا تخلع القميص قال: فغسله علي عليه السلام في قميصه[1].

وروى أبو جعفر الطبري في تاريخه بإسناده عن عائشة قالت: لما أرادوا أن يغسلوا النبي صلى الله عليه وآله إختلفوا فيه فقالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله صلى الله عليه وآله من ثيابه كما نجرد موتانا أو نغسله وعليه ثيابه، فلما اختلفوا ألقى عليهم السنّة حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يدري من هو أن أغسلوا النبي وعليه ثيابه، قالت: فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: فغسلوه وعليه قميصه يصبون عليه الماء فوق القميص ويدلكونه والقميص دون أيديهم، وكذا مر منه آنفاً نقلاً عن عبد الله بن عباس أن علياً عليه السلام يغسله صلى الله عليه وآله وعليه قميصه يدلك من ورائه لا يفضي بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر[2].

وقال المفيد رحمه الله في الإرشاد: لما أراد أمير المؤمنين عليه السلام غسل الرسول صلى الله عليه وآله إستدعى الفضل بن العباس فأمره أن يناوله الماء لغسله بعد أن عصب عينيه، ثم شق قميصه من قبل جيبه حتى بلغ إلى سرته وتولى غسله وتحنيطه وتكفينه والفضل يعاطيه الماء ويعينه عليه[3].

وفي التهذيب لشيخ الطائفة الإمامية قدس سره عن يعلى بن مرة عن أبيه عن جده قال: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله فستر بثوب ورسول الله صلى الله عليه وآله خلف الثوب وعلي عليه السلام عند طرف ثوبه قد وضع خديه على راحته قال: والريح يضرب طرف الثوب على وجه علي عليه السلام قال: والناس على الباب وفي المسجد ينتحبون ويبكون وإذا سمعنا صوتاً في البيت أن نبيكم طاهر مطهر فادفنوه ولا تغسلوه. قال: فرأيت علياً عليه السلام حين رفع رأسه فزعاً فقال: إخسأ عدو الله فإنه

---

(١) الأمالي: ٦٦٠، ح ١٣٦٥، وبحار الأنوار: ٢٢/٥٢٦، ح ٣١.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/٤٥١، وسيرة النبي صلى الله عليه وآله: ٤/١٠٧٦.

(٣) الإرشاد: ١/١٨٧، وبحار الأنوار: ٢٢/٥١٨، ح ٢٧.

أمرني بغسله وكفنه ودفنه وذاك سنّة قال: ثم نادى منادٍ آخر غير تلك النغمة يا علي بن أبي طالب إستر عورة نبيك ولا تنزع القميص[1].

أقول: ما يستفاد من جملة تلك الأخبار أن علياً عليه السلام تولى غسله بيده بلا كلام فيه وأنه غسله صلى الله عليه وآله في قميصه ولا تنافي لها مع ما في الإرشاد، وأما المروية عن عائشة من إختلافهم وأخذهم السنّة ويدلك من ورائه لا يفضي بيده فلا يخلو عن إختلاق وإفتعال والبصير الناقد في الأحاديث المروية عنها في ذلك الباب من الطبري وغيره يرى ما لا يخفى عليه وكانت تقولها لبعض شأنها ولا جرم أنهم جردوه عاقبة الأمر وكفنوه.

فالحق فيها ما أنصف الشارح المعتزلي في المقام حيث بعد نقل شرذمة من تلك الأحاديث المروية عنها ونقله، فكانت عائشة تقول لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه كما رواها الطبري وغيره أيضاً، قال: قلت: حضرت عند محمد بن معد العلوي في داره ببغداد وعنده حسن بن معالي الحلي المعروف بابن الباقلاوي وهما يقرآن هذا الخبر يعني خبر عائشة عن إختلافهم وأخذهم السنّة وقولها لو استقبلت من أمري إلخ» وهذه الأحاديث من تاريخ الطبري فقال محمد بن معد لحسن بن معالي: ما تراها قصدت بهذا القول قال: حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غسل رسول الله صلى الله عليه وآله فضحك محمد وقال: هبها إستطاعت أن تزاحمه في الغسل هل تستطيع أن تزاحمه في غيره من خصائصه إنتهى.

ثم قال أبو جعفر الطبري: قال ابن إسحاق وحدثني الزهري عن علي بن الحسين قال: فلما فرغ من غسل رسول الله صلى الله عليه وآله كفن في ثلاثة أثواب ثوبين صُحاريين وبُرد حبرةٍ أدرج فيها إدراجاً[2].

وكذا في الكافي، للكليني (قده) عن زيد الشحام قال سئل أبو عبد الله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله بم كفن؟ قال: في ثلاثة أثواب ثوبين صحاريين وبرد حبرة.

وفي السيرة الحلبية ذكر أقوالاً أخر تنتهي إلى سبعة.

«بيان» قال ابن أثير في النهاية: في الحديث كفن رسول الله في ثوبين صحاريين صحار قرية باليمن نسب الثوب إليها وقيل: هو من الصحرة وهي حمرة خفية كالغبرة يقال: ثوب أصحر وصحارى.

---

(١) مناقب آل أبي طلب: ٢/٨٨، وبحار الأنوار: ٢٢/٥٤٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢/٥٣٨، ح ٤٠، والمنتقى من السنن المسندة: ١٣٧.

في البحار: نقلاً عن مجالس الصدوق بإسناده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ تولى غسله علي بن أبي طالب، والعباس معه فلما فرغ علي عليه السلام من غسله كشف الإزار عن وجهه ثم قال: «بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً إنقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممن سواك من النبوة والأنباء خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك وعممت حتى صار الناس فيك سواء ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك الشؤون ولكن ما لا يدفع كمد وغصص مخالفان وهما داء الأجل وقلالك بأبي أنت وأمي أذكرنا عند ربك واجعلنا من همك» ثم أكب عليه فقبل وجهه ومد الإزار عليه[1].

ونقل هذه الخطبة الشارح المعتزلي على صورة أخرى قال:

قال محمد بن حبيب: فلما كشف الإزار عن وجهه بعد غسله إنحنى عليه فقبله مراراً وبكى طويلاً. وقال: «بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً إنقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد سواك من النبوة والأنبياء (والأنباء ـ) وأخبار السماء خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك وعممت حتى صارت المصيبة فيك سواء ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤون ولكن أتى ما لا يدفع أشكو إليك كمداً وإدباراً مخالفين وداء الفتنة فإنها قد استعرت نارها وداءها الداء الأعظم بأبي أنت وأمي أذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك وهمك»[2].

ثم نظر إلى قذاة في عينه فلفظها بلسانه ثم رد الإزار على وجهه.

أقول: لا يخفى أن هذه الرواية تخالف ما في النهج في بعض ألفاظه ولا بُعد أن يقال متى دار الأمر بين ما في النهج وبين ما في غيره يكون ما في النهج أضبط وأصح.

الكلام في من صلى عليه ﷺ

ولما فرغ علي عليه السلام من غسله وتجهيزه تقدم فصلى عليه وحده ولم يشركه معه في الصلاة عليه، وكان المسلمون في المسجد يخوضون فيمن يؤمهم في الصلاة عليه وأين يدفن فخرج إليهم أمير المؤمنين وقال لهم: أن رسول الله ﷺ أمامنا حياً وميتاً فيدخل عليه فوج بعد فوج منكم فيصلون عليه بغير إمام وينصرفون وأن الله تعالى لم يقبض نبياً في مكان إلا وقد ارتضاه لرمسه فيه وإني لدافنه في حجرته التي قبض فيها فسلم القوم لذلك ورضوا به كما في الإرشاد للمفيد وفي غيره.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٢٧، ح ٣٣، ونهج السعادة: ١/ ٣٥.

(٢) نهج السعادة: ١/ ٣٤، والأمالي/١٠٣.

وروى ثقة الإسلام الكليني في الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أتى العباس أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا علي إن الناس قد اجتمعوا أن يدفنوا رسول الله صلى الله عليه وآله في بقيع المصلى وأن يؤمهم رجل منهم، فخرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى الناس فقال: يا أيها الناس أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمامنا حياً وميتاً وقال: إني أدفن في البقعة التي أقبض فيها ثم قام على الباب فصلى عليه ثم أمر الناس عشرة عشرة يصلون عليه ثم يخرجون[1].

وفي الكافي أيضاً بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما قبض النبي صلى الله عليه وآله صلت عليه الملائكة والمهاجرون والأنصار فوجاً فوجاً وقال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في صحته وسلامته إنما أنزلت هذه الآية عليّ في الصلاة بعد قبض الله لي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾»[2].

في رواية الأمالي أن أول من يصلي عليه هو الله سبحانه ثم الملائكة ثم المسلمون.

قال الطبري: ودخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وآله يصلون عليه أرسالاً حتى إذا فرغ الرجال أدخل النساء حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان ثم أدخل العبيد ولم يؤم الناس على رسول الله صلى الله عليه وآله أحد.

وفي البحار: ولما أراد علي عليه السلام غسله، إستدعى الفضل بن العباس فأمره أن يناوله الماء بعد أن عصب عينيه فشق قميصه من قبل جيبه حتى بلغ به إلى سرته، وتولى غسله وتحنيطه وتكفينه والفضل يناوله الماء فلما فرغ من غسله وتجهيزه تقدم فصلى عليه.

في البحار: سئل الباقر عليه السلام كيف كانت الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله فقال: لما غسله أمير المؤمنين وكفنه سجاه وأدخل عليه عشرة فداروا حوله ثم وقف أمير المؤمنين عليه السلام في وسطهم فقال: «إنَّ الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً» فيقول القوم مثل ما يقول حتى صلى عليه أهل المدينة وأهل العوالي[3].

إن قلت: نقل في البحار رواية عن سليم بن قيس نقلاً عن سلمان الفارسي رحمه الله أنه قال أتيت علياً عليه السلام وهو يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله وقد كان أوصى أن لا يغسله غير علي: «إلى أن قال»: فلما غسله وكفنه أدخلني وأدخل أبا ذر، والمقداد، فاطمة، وحسناً، وحسيناً عليهم السلام

---

(١) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥١٧، وبحار الأنوار: ٧٨/ ٣٠٢.

(٢) التفسير الصافي: ٤/ ٢٠٢، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٥٤٠، ح ٤٨.

(٣) كتاب سليم بن قيس/ ١٤٤، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٥٢٥.

فتقدم وصففنا خلفه وصلى عليه وعائشة في الحجرة لا تعلم قد أخذ جبرائيل ببصرها ثم أدخل عشرة عشرة من المهاجرين والأنصار فيصلون ويخرجون حتى لم يبق أحد من المهاجين والأنصار إلا صلى عليه الخبر. فكيف يوافق هذا الخبر ما ذكر من قبل أن علياً صلى عليه ﷺ وحده ولم يشركه معه أحد في الصلاة؟

قلت: يمكن الجمع بينها أنه لم يشركه أحد في أن يؤم الناس فلم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد إلا علي عليه السلام على أن في سليم بن قيس كلاماً.

وبالجملة لا يخفى على المتدرب البصير في الأخبار المروية عن الفريقين أن الصلاة الحقيقية هي التي صلاها علي عليه السلام على النبي ﷺ أولاً وإن صلى عليه بعده غيره من الرجال والنساء فوجاً بعد فوج.

الكلام في دفنه ﷺ

واختلف الأقوال في موضع دفنه فذهب قوم إلى أن يدفنوه ﷺ بمكة لأنها مسقط رأسه، وقال الآخرون: في المدينة فمنهم من رأى أن يدفن في البقيع عند شهداء أحد ومنهم من قال أن يدفنوه في صحن المسجد، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: إن الله لم يقبض نبياً إلا في أطهر البقاع فينبغي أن يدفن في البقعة التي قبض فيها فأخذوا بقوله.

قال الطبري نقلاً عن عبد الله بن عباس: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرحُ كحفر أهل مكة وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة وكان يلحد فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما: إذهب إلى أبي عبيدة وللآخر إذهب إلى أبي طلحة اللهم خر لرسولك.

وقال الطبري: قال ابن إسحاق: وكان الذي نزل قبر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ وقد قال أوس بن خولى: أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ فقال له: إنزل فنزل مع القوم وقد كان شقران مولى رسول الله ﷺ حين وضع رسول الله ﷺ في حفرته وبنى عليه قد أخذ قطيفة كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها فقذفها في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً قال: فدفنت مع رسول الله ﷺ[١].

في التهذيب لشيخ الطائفة الإمامية في رواية عن أبي جعفر عليه السلام: «إلى أن قال»: ثم دخل علي عليه السلام القبر فوضعه على يديه وأدخل معه الفضل بن العباس فقال رجل من الأنصار

(١) تاريخ الطبري: ٤٥٢/٢، سيرة النبي ﷺ: ١٠٧٨/٤.

من بني الخيلاء يقال له أوس بن الخولي: أنشدكم الله أن تقطعوا حقنا فقال له علي عليه السلام أدخل فدخل معهم الخبر[١].

وفيه عن جعفر عن أبيه عليه السلام إن قبر رسول الله صلى الله عليه وآله رفع شبراً من الأرض.

وفي الكافي للكليني رضوان الله عليه عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جعل علي عليه السلام على قبر النبي لبناً.

وفيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: يا علي إدفني في هذا المكان وارفع قبري من الأرض أربع أصابع ورش عليه من الماء[٢].

أقول: جاءت الروايات من الفريقين في تعيين رسول الله صلى الله عليه وآله مدفنه كما في الرواية المروية عن أبي جعفر الطبري المذكورة آنفاً، ومن كتب الإمامية أيضاً ومع ذلك إختلافهم في مدفنه صلى الله عليه وآله غريب جداً.

وفيه أيضاً عن يحيى بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ألقى شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وآله في قبره القطيفة.

وفي الإرشاد للمفيد رحمه الله بعد ما قال: صلى علي عليه السلام وحده على النبي ولم يشركه معه أحد ثم صلى المسلمون قال:

ولما صلى المسلمون عليه أنفذ العباس بن عبد المطلب برجل إلى أبي عبيدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكة ويضرح، وكان ذلك عادة أهل مكة وأنفذ إلى زيد بن سهل وكان يحفر لأهل المدينة ويلحد فاستدعاهما وقال: اللهم خر لنبيك فوجد أبو طلحة زيد بن سهل وقيل له: أحفر لرسول الله صلى الله عليه وآله فحفر له لحداً، ودخل أمير المؤمنين والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد ليتولوا دفن رسول الله صلى الله عليه وآله فنادت الأنصار من وراء البيت: يا علي إنا نذكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يذهب أدخل منا رجلاً يكون لنا به حظ من مواراة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال ليدخل أوس بن خولى وكان بدرياً فاضلاً من بني عوف من الخزرج فلما دخل قال له علي عليه السلام: إنزل القبر فنزل ووضع أمير المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وآله على يديه وولاه في حفرته فلما حصل في الأرض قال له: أخرج فخرج، ونزل علي عليه السلام القبر فكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ووضع خده على الأرض موجهاً إلى القبلة على يمينه، ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب وكان ذلك في

---

(١) منتقى الجمعان: ١/ ٢٥٩، وبحار الأنوار: ٥٤١٢٢، ح ٥١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٣٩، ح ٤٦، الأنوار البهية: ٤٩.

يوم الإثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة عشر من هجرته ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة ولم يحضر دفن رسول الله ﷺ أكثر الناس لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة، وفات أكثرهم الصلاة عليه لذلك، وأصبحت فاطمة عليها السلام تنادي: واسوء صباحاه، فسمعها أبو بكر فقال لها: إن صباحك لصباح سوء واغتنم القوم الفرصة لشغل علي بن أبي طالب عليه السلام برسول الله ﷺ وانقطاع بني هاشم عنهم بمصابهم برسول الله ﷺ فتبادروا إلى ولاية الأمر، واتفق لأبي بكر ما اتفق لإختلاف الأنصار فيما بينهم وكراهية الطلقاء والمؤلفة قلوبهم من تأخر الأمر حتى يفرغ بنو هاشم فيستقر الأمر مقره. فبايعوا أبا بكر لحضوره المكان وكانت أسباب معروفة تيسر للقوم منها[1].

ثم قال المفيد رحمه الله: وقد جاءت الرواية أنه لما تم لأبي بكر ما تم وبايعه من بايع، جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يسوي قبر رسول الله ﷺ بمسحاة في يده فقال له: إن القوم قد بايعوا أبا بكر وقعت الخذلة للأنصار لاختلافهم وبدر الطلقاء بالعقد للرجل، خوفاً من إدراككم الأمر فوضع طرف المسحاة على الأرض ويده عليها ثم قال عليه السلام: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ③ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ④﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٤].

ولقد مضى الكلام منه عليه السلام في الخطبة المائتين عند دفن سيدة نساء العالمين مخاطباً لرسول الله ﷺ عند قبره: ولقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك.

وقال عليه السلام في الخطبة السادسة والتسعين والمائة: ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد ﷺ إني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعةً قط، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال تتأخر الأقدام نجدة أكرمني الله بها، ولقد قبض رسول الله ﷺ وأن رأسه على صدري ولقد سالت نفسه في كفي فأمررته على وجهي، ولقد وليت غسله ﷺ والملائكة أعواني فضجت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلون عليه حتى واريناه في ضريحه فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً.

قال الشارح المعتزلي بعد نقل شرذمة من تلك الأخبار عن أبي جعفر الطبري: من تأمل هذه الأخبار علم أن علياً عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل في أمر رسول الله ﷺ وجهازه، ألا ترى أن أوس بن خولى لا يخاطب أحداً من الجماعة غيره في حضور الغسل أو

(١) بحار الأنوار: ٢٢/٥١٩، وبيت الأحزان: ٦١.

النزول في القبر. ثم أنظر إلى كرم علي عليه السلام وسجاحة أخلاقه وطهارة شيمته، كيف لم يضن بمثل هذه المقامات الشريفة عن أوس هو رجل غريب من الأنصار فعرف له حقه واطلبه بما طلبه فكم بين هذه السجية الشريفة وبين قول من قال: «يعني بها عائشة كما مضى الخبر في ذلك» لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله صلى الله عليه وآله إلا نساؤه، ولو كان في ذلك المقام غيره من أولى الطباع الخشنة وأرباب الفظاظة والغلظة، وقد سأل أوس لزجر وانتهر ورجع خائباً إنتهى[1].

الكلام في تجهيزه صلى الله عليه وآله في أنه أي يوم كان والحق في ذلك

مضى الكلام في يوم وفاته صلى الله عليه وآله أنه عند الأكثر الأشهر بل مما اتفقوا عليه كان يوم الإثنين.

ثم قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وآله وبويع أبو بكر يوم الإثنين في اليوم الذي قبض فيه النبي صلى الله عليه وآله، وقال بعضهم: كان ذلك من فعلهم يوم الثلاثاء وذلك الغد من وفاته صلى الله عليه وآله.

أقول: وذلك البعض هو الواقدي حيث قال: ودفن صلى الله عليه وآله من الغد نصف النهار حين زاغت الشمس وذلك يوم الثلاثاء.

قال بعضهم: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام ثم دفن رسول الله صلى الله عليه وآله من وسط الليل ليلة الأربعاء، وروى: في دفنه صلى الله عليه وآله ليلة الأربعاء عدة روايات من عائشة وغيرها، وقال بعضهم دفن يوم الأربعاء.

وروى الطبري عن زياد بن كليب عن إبراهيم النخعي: أنه لما قبض النبي صلى الله عليه وآله كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجترىء أحد أن يكشف عن وجهه وقد أربد بطنه فكشف عن وجهه وقبل عينيه وقال: بأبي أنت وأُمي طبت حياً وطبت ميتاً ثم خرج إلى الناس. فقال: من يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. الحديث[2].

وكذا أقوال الإمامية وأخباره مختلفة في ذلك ففي بعضها أن الناس دخلوا عليه عشرة عشرة فصلوا عليه يوم الإثنين وليلة الثلاثاء وفي آخر أنهم صلوا عليه يوم الإثنين وليلة الثلاثاء حتى الصباح ويوم الثلاثاء.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٤١.

(٢) كنز العمال: ٥/ ٦٣٩، ح ١٤١٢٧، تاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٣.

والصواب أنه ﷺ دفن في اليوم الذي قبض، وهو رأى المحققين من علمائنا الإمامية كما صرح به عماد الدين الطبري في كامل البهائي، وتولى تجهيزه في ذلك اليوم أمير المؤمنين علي عليه السلام على ما مضى الكلام فيه مفصلاً والقوم قد اشتغلوا عن رسول الله ﷺ بأمر البيعة.

وإذا انضم قول أبي جعفر الطبري وبويع أبو بكر يوم الإثنين في اليوم الذي قبض فيه النبي ﷺ إلى قول المفيد في الإرشاد وقد جاءت الرواية أنه لما تم لأبي بكر ما تمَّ وبايعه من بايع جاء رجل إلى أمير المؤمنين وهو يسوي قبر رسول الله ﷺ بمسحاة في يده الحديث[١]، ينتج أن النبي ﷺ دفن في اليوم الذي قبض.

على أنه نهى أن يترك الميت وأمر بتعجيل الدفن إلا لضرورة اقتضت خلافه، حتى يحصل العلم الذي تطمئن به النفس، ولا أقل أن يكون الأمر بالتعجيل للإستحباب إن لم نقل بوجوبه والنهي للكراهة لا للحرمة، ففي الوافي للفيض نقلاً عن الكافي والتهذيب والفقيه عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: يا معشر الناس لا ألفين رجلاً مات له ميت ليلاً فانتظر به الصبح لا رجلاً مات له ميت نهاراً فانتظر به الليل لا تنتظروا بموتكم طلوع الشمس ولا غروبها عجلوا بهم إلى مضاجعهم رحمكم الله. قال الناس وأنت يا رسول الله يرحمك الله.

وفيه نقلاً عن الأولين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إذا مات الميت أول النهار فلا يقيل إلا في قبره[٢].

وفيه نقلاً عن الثالث قال رسول الله ﷺ: كرامة الميت تعجيله[٣].

ولم يكن موته ﷺ مشتبهاً حتى يتربص في تجهيزه ثلاثة أيام لحصول العلم به ولا يقبل العقل السليم أن يبقى رسول الله ﷺ ميتاً يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء وأمير المؤمنين علي عليه السلام حاضر لا يقوم بتجهيزه ويتركه حتى أربد بطنه ﷺ، والعجب من تلك الرواية المنقولة عن الطبري أنه لا يجترىء أحد أن يكشف عن وجهه هل يقبله عاقل ويتسلم لبيب: أن علياً عليه السلام لا يجترىء في ذلك، وأنصف الشارح المعتزلي في المقام وقال:

وكيف يبقى طريحاً بين أهله ثلاثة أيام لا يجترىء أحد منهم أن كشف عن وجهه وفيهم علي بن أبي طالب وهو روحه بين جنبيه والعباس عمه القائم مقام أبيه وابنا فاطمة وهما كولديه وفيهم فاطمة بضعة منه، أفما كان في هؤلاء من يكشف عن وجهه ولا من يفكر في

(١) الإرشاد: ١/١٨٩، وبحار الأنوار: ٢٢/٥١٩.
(٢) الكافي: ٣/١٣٨ ح٢، ووسائل الشيعة: ٢/٤٧٣ ح٥.
(٣) وسائل الشيعة: ٢/٤٧٤ ح ٢٦٨٣، ومن لا يحضره الفقيه: ١/١٤٠ ح٣٨٥.

جهازه. ولا من يأنف له من إنتفاخ بطنه واخضرارها وينتظر بذلك حضور أبي بكر ليكشف عن وجهه أنا لا أصدق ذلك ولا يسكن قلبي إليه[١].

ثم قال ذلك الشارح: وبقي الإشكال في قعود علي عليه السلام عن تجهيزه وإذا كان أولئك مشتغلين بالبيعة فما الذي شغله هو، فأقول يغلب على ظني إن صح ذلك أن يكون قد فعله شناعة على أبي بكر وأصحابه حيث فاته الأمر واستوثر عليه به، فأراد أن يتركه صلى الله عليه وآله بحاله لا يحدث في جهازه أمراً ليثبت عند الناس أن الدنيا شغلتهم عن نبيهم ثلاثة أيام حتى آل أمره إلى ما ترون وقد كان عليه السلام يتطلب الحيلة في تهجين أمر أبي بكر حيث وقع في السقيفة ما وقع بكل طريق ويتعلق بأدنى سبب من أمور كان يعتمدها وأقوال كان يقولها، فلعل هذا من جملة ذلك، أو لعله إن صح ذلك فإنما تركه صلى الله عليه وآله بوصيته منه إليه وسر كانا يعلمانه في ذلك.

فإن قلت: فلم لا يجوز أن يقال إن صح ذلك أنه أخر جهازه ليجتمع رأيه ورأى المهاجرين على كيفية غسله وكفنه ونحو ذلك من أموره؟

قلت: لأن الرواية الأولى يبطل هذا الإحتمال وهي قوله صلى الله عليه وآله لهم قبل موته: يغسلني أهلي الأدنى منهم فالأدنى واكفن في ثيابي أو في بياض مصر أو في حلة يمنية إنتهى.

أقول: كيف اجترىء هذا الرجل أن يتفوه بذلك وكان له شيطان يعتريه: وإلا فكيف نطق بأن علياً عليه السلام تركه صلى الله عليه وآله ثلاثة أيام لذلك الغرض الذي بمراحل عنه عليه السلام وهو شارح أقواله وعارف بأحواله في الجملة ولا يخالف أحد في أنه عليه السلام أزهد الناس وأعلمهم وأفضلهم وأتقاهم، وأنه طلّق الدنيا ثلاثاً ولا يعد مكارم أعماله ومحاسن أخلاقه وفضائل أوصافه، ومناقب آدابه كلت ألسن الفصحاء عن توصيف مقامه الشاهق، وحارت أفهام العقلاء فيه وكيف لا وهو كتاب الله الناطق، وبالجملة لما كانت سخافة قول الرجل وخرافته أظهر من الشمس في رائعة النهار، فلا يهمنا إطالة الكلام في الرد والإنكار، ونستجير بالله من الهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية.

قال ابن قتيبة الدينوري ـ وهو من أكابر علماء العامة المتعصب جداً في مذهبه، كما هو الظاهر لأهل التتبع والتفحص في حال الرجال ـ في كتابه الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء «المتوفى سنة ٢٧٦» في إباية علي عليه السلام بيعة أبي بكر:

ثم إن علياً عليه السلام أتي به إلى أبي بكر وهو يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، فقيل له: بايع أبا بكر، فقال عليه السلام: أن أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٣/ ٣٧.

هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليه بالقرابة من النبي ﷺ وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد ﷺ منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار. نحن أولى الله برسول الله حياً وميتاً فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبوؤوا بالظلم وأنتم تعلمون «إلى أن قال»:

فقال عليه السلام: الله الله يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعداً.

فقال بشير بن سعد الأنصاري: لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر، ما اختلف عليك إثنان[1].

قال: وخرج عليه السلام يحمل فاطمة بنت رسول الله ﷺ على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول علي عليه السلام: أفكنت أدع رسول الله ﷺ في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فقالت فاطمة عليها السلام: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له ولقد صنعوا ماالله حسيبهم وطالبهم[2].

وفي الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام في مرثية سيد المرسلين:

نفسي على زفراتها محبوسة   يا ليتها خرجت مع الزفرات
لا خير بعدك في الحياة وإنما   أبكي مخافة أن تطول حياتي

وأسند إلى فاطمة عليها السلام في مرثية أبيها رسول الله ﷺ:

إذا اشتد شوقي زرت قبرك باكياً   أنوح وأشكو لا أراك مجاوبي
فيا ساكن الصحراء علمتني البكا   وذكرك أنساني جميع المصائب
فإن كنت عني في التراب مغيبا   فما كنت عن قلب الحزين بغائب

(١) السقيفة وفدك: ٦٣، وكتاب الأربعين: ١٥٤.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ٢٩.

وقالت عليها السلام في رثاه صلى الله عليه وآله وندبته بقولها يوم موته وبعده بألفاظ منها: «يا أبتاه جنة الخلد مثواه، يا أبتاه عند ذي العرش مأواه، يا أبتاه كان جبريل يغشاه يا أبتاه لست بعد اليوم أراه»(١).

في الكافي للكليني رحمه الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله جاءهم جبرائيل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله مسجى وفي البيت عليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام فقال: «السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور * إن في الله تعالى عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً مما فات فبالله فثقوا وإياه فأرجوا فإن المصاب من حرم الثواب هذا آخر وطيء من الدنيا قالوا: سمعنا الصوت ولم نر الشخص(٢).

(١) بحار الأنوار: ٤٣/ ٤١٣، وشرح النهج للمعتزلي: ١٣/ ٤٣.

(٢) تفسير نور الثقلين: ١/ ٤١٨، ح ٤٦٧، وتفسير كنز الدقائق: ٢/ ٣٠٨.

الترجمة

از كلام آن بزرگوار است، در حالى كه مباشر غسل رسول الله (ﷺ) و تكفين و تدفين او بود، فرموده است:

پدر و مادرم فداى تو باد، هرآينه به موت تو، نبوّت و خبر دادن به حقايق و وحى آسمانى قطع شد كه به موت ديگر پيغمبران قطع نشده بود (زيرا آن حضرت خاتم انبياء است و تا قيام قيامت شريعت او منسوخ نمى شود و ديگر بركسى كتاب آسمانى وحى نمى شود)، مصيبت تو مصيبت مخصوص و ممتازى است كه ديگر مصيبت ها را تسلّى دهنده است و عام است كه همه آدميان را فراگرفت و هيچ كس از آن فارغ نيست و اگر امر به شكيبايى و نهى از بى تابى نمى فرمودى، هرآينه آب چشم را (كه از درزهاى كاسه سر فرود مى آيد و از مجراى عين خارج مى شود) در مصيبت تو تمام مى كرديم و هرآينه درد و غم پيوسته همدم بود (و در برطرف شدن، مماطله و امروز و فردا مى كرد) و اندوه و الم هم قسم و ملازم بود و اين درد پيوسته و اندوه هميشه براى تو اندك است (يا آن گونه گريستن و همدم اندوه و ماتم بودن براى تو اندك است) و براى بيش از اين سزاوار و در خورى.

ولكن مرگ تو چيزى است كه ردّ آن مقدور كسى نيست و دفع آن در استطاعت احدى نه، (و يا اين كه: آن مقدار كه گريستيم و با غم و اندوه همدم بوديم دفع آن ميسور نبود، به بيانى كه در شرح گفته ايم).

ومن كلامه عليه السلام اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثم لحاقه به:

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرْج «في كلام طويل»[1].

«قال الرضى رحمه الله»: «قوله عليه السلام: (فأطأ ذكره) من الكلام الذي رمى به إلى غايتي الإيجاز والفصاحة، وأراد أنني كنت أعطي خبره صلى الله عليه وآله من بدء خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع فكنى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة.

اللغة

(جعلت) أي أخذت وشرعت **(مأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله)** أي الصوب الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وآله في هجرته من مكة إلى المدينة.

(أطأ) من وطئت الشيء برجلي وطأ، سقطت الواو فيه وفي أخواته، قال الجوهري في الصحاح سقطت الواو من يطأ كما سقطت مع يسع لتعديهما لأن فعل يفعل مما اعتل فاؤه لا يكون إلا لازماً فلما جاءه من بين أخواتهما متعديين خولف بهما نظائرهما.

وفي بعض النسخ «قاطاً» مكان «فأطأ» وكأنه تصحيف لأن القط كما قال الخليل: فصل الشيء عرضا، يقل: قططت الشيء أقطه إذا قطعته عرضاً ومنه قط القلم، كما قيل في علي عليه السلام كان يقط الهام قطّ الأقلام، لكنه لا يناسب المقام وإن تكلف وتعسف بعض في تفسيره.

(العرج) بفتح أوله وسكون ثانيه وهو كما قال الجوهري في الصحاح وغيره منزل بطريق مكة وإليه ينسب العرجي الشاعر وهو عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان وهو أحد الأمكنة التي وقع في طريقه صلى الله عليه وآله في هجرته، وهو قريب من المدينة كما يأتي ذكر طريقه صلى الله عليه وآله في هجرته ولذا قال عليه السلام: حتى انتهيت إلى العرج وفي النسخ المطبوعة من النهج أعرب العرج بفتح الراء والصواب سكونها كما ذكرنا، قال زراح بن ربيعة في قصيدة له:

وجاوزن بالركن من ورقان   وجوزن بالعرج حياً حلولا

الإعراب

الظاهر أن كلمة (حتى) متعلقة بكل واحد من اتبع وأطأ ولا تختص بالأخير.

---

(١) بحار الأنوار: ١٩/٨٩، ح ٤٢، وشرح نهج البلاغة: ١٣/٣٠٣.

المعنى

يقتص ويروى في هذا الفصل حاله في خرجه من مكة إلى المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ وكان قد تخلف عنه ﷺ بمكة لقضاء دينه ورد ودائعه وما أمره به، ثم لحق به في قباء راجلاً وقد تورمت قدماه وقد نزل على كلثوم بن هدم حيث نزل رسول الله ﷺ عليه ثم جاء معه ﷺ المدينة ونزلوا على أبي أيوب الأنصاري كما يأتي شرحه.

(فجعلت أتبع مأخذ رسول الله ﷺ) يعني به خرجت من مكة زادها الله شرفاً مهاجراً إلى المدينة فأخذت أتبع الطريقة والجهة التي سلكها رسول الله ﷺ، ويأتي في طريقه أنه ﷺ أتى العرج وقال علي عليه السلام: حتى انتهيت إلى العرج فسلك تلك الجهة وخرج على ذلك الطريق وايتسى به في ذلك أيضاً.

(فأطأ ذكره) أغنانا بشرحه كلام الرضى رحمه الله في بيانه ولا حاجة إلى التطويل.

(حتى انتهيت إلى العرج) أي إنني كنت أعطي خبره من بدء خروجي من مكة ثم أطأ الطريق على النحو الذي أخبرت في سيره وجهته يعني أني لازمت ذلك الطريق الذي سلكه ﷺ على حذوه غير مفارق إياه حتى انتهيت على ذلك المسير إلى العرج، والظاهر أنه عليه السلام لما وصل إليه اطمأن قلبه على أنه ورد المدينة سالماً لأن ذلك المكان كان قريباً منه ولذا قال: حتى انتهيت إلى العرج.

الكلام في هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة وما جرى في ذلك على الإيجاز «بدء إسلام الأنصار»

في السيرة الهشامية وفي تاريخ الطبري: لما أراد الله عزّ وجلّ إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج؛ قال: أمِن موالي يهود؟ قالوا: نعم؛ قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل الشرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: لهم إن نبينا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله أنه للنبي الذي وعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا وهم ستة نفر من الخزرج.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ[١].

«أمر العقبة الأولى»

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار إثني عشر رجلاً فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب.

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سُترتُم عليه يوم القيامة فأمركم إلى الله عزّ وجلّ إن شاء عذب وإن شاء غفر.

فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف وأمره أن يقرأهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين فكان يسمى المقرىء بالمدينة مصعب.

«أمر العقبة الثانية»

ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه ﷺ وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله.

---

(١) سيرة النبي: ٢/ ٣١١، وأسد الغابة: ٢/ ١٥٧.

واجتمع في الشعب عند العقبة ثلاثة وسبعون رجلاً في الليلة التي كانوا واعدوا رسول الله ﷺ فيها فبعد ما توثق العباس بن عبد المطلب وهو يومئذٍ على دين قومه للنبي ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن واللهأبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيِّهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أُحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم.

فبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر، والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة[1].

«بيان» قال رسول الله ﷺ: بعثت إلى الأسود، والأحمر وهي من الألفاظ التي جاءت عن رسول الله ﷺ من باب الكنايات يريد بعثت إلى العرب والعجم فكنى عن العرب بالسود وعن العجم بالحمر، والعرب تسمى العجمى أحمر لأن الشقرة تغلب عليه وقال جرير حيث يذكر العجم:

يسمونـنـا الأعراب العرب إسمنا وأسماهم فينا رقاب المزاود

إنما يسمونهم رقاب المزاود لأنها حمرة.

نزول الأمر لرسول الله ﷺ في القتال

وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم فهم بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة وفي كل وجه.

فلما عتت قريش على الله عزّ وجلّ وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة وكذبوا نبيه ﷺ وعذبوا ونفوا من عبده وحده وصدق نبيه واعتصم بدينه أذن الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في القتال والإنتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب

(١) بحار الأنوار: ١٩/ ٢٣، والبداية والنهاية: ٣/ ١٨٣.

وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وآوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق من الأنصار، وقال: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها، فخرجوا إرسالاً وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فتن إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأبو بكر بن أبي قحافة وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له رسول الله ﷺ: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً فيطمع أبو بكر أن يكونه.

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ وعرفوا أنهم قد أجمع لحربهم فاجتمعوا له في دار الندوة ـ وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها ـ يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه[1].

وعن عبد الله بن عباس: لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بتلة فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونُصحاً، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش وغيرهم ممن لا يعد من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً قال: فتشاوروا.

ثم قال قائل منه: أحبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبلهُ زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي والله لئن حبستموه كما تقولون

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٩٨، وسيرة النبي ﷺ: ٢/ ٣٣١.

ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم ـ وهو أبو الأسود ربيعة بن عامر: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وأخلفتنا كما كانت، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم فيأخذكم أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا.

قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجلٍ واحدٍ فيقتلوه فنستريح منه فأنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم، قال: فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل هذا الرأي الذي لا رأي غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له[1].

«خروج النبي ﷺ واستخلافه علياً عليه السلام على فراشه»

فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه قال: فلما كانت عتمة من الليل إجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرده ذلك إذا نام.

ولما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بُعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردُن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: أنا أقول ذلك أنت

(١) شرح الأخبار: ١/٢٥٩، وتاريخ الطبري: ٢/٩٩.

أحدهم وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يَس: ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩] حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً قال: خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته أفما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش مستجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وآله فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عليه السلام عن الفراش فقالوا: الله لقد كان صدقنا الذي حدثنا[1].

أقول: فإن قلت: إذاً أعلم رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام لن يصيبه المكروه في منامه على الفراش حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله له عليه السلام: فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه وكان علياً عليه السلام على يقين من صدق قول رسول الله صلى الله عليه وآله فهل لعلي في ذلك فضيلة ومنقبة وكيف يكون كذلك مع أنهما كانا عالمين بعدم إصابة مكروه لها وكيف يصح أن يقال أن علياً بذل نفسه دون النبي صلى الله عليه وآله ووقاه بنفسه؟

على أنه ورد في أخبار الإمامية أن الأئمة الإثني عشر يعلمون علم ما كان وما يكون ولا يخفى عليهم شيء كما جاء في ذلك باب في الكافي لثقة الإسلام الكليني وباب آخر: إن الله تعالى لم يعلم نبيه صلى الله عليه وآله علماً إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين عليه السلام وأنه كان شريكه في العلم ثم انتهى إليهم صلوات الله عليهم.

وفي هذا الباب عن الصادق عليه السلام أن جبرائيل أتى رسول الله صلى الله عليه وآله برُمانتين فأكل رسول الله صلى الله عليه وآله إحداهما وكسر الأخرى بنصفين فأكل نصفاً وأطعم علياً نصفاً ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أخي هل تدري ما هاتان الرمانتان؟ قال لا، قال: أما الأولى فالنبوة ليس لك فيها نصيب وأما الأخرى فالعلم أنت شريكي فيه فقلت: أصلحك الله كيف كان يكون شريكه فيه قال: لم يعلم الله محمداً صلى الله عليه وآله علماً إلا وأمره أن يعلمه علياً وغير ذلك من الأبواب المشتملة على الأخبار التي جيئت في علمهم بما كان وما يكون[2].

قلت: إن الأخبار الواردة في تلك الأبواب لا يدل على أن الأئمة الإثني عشر كانوا عالمين بجميع بما يعلمه الإمام الحي الذي كان قبله ما دام ذلك الإمام حياً، فلا يستفاد منها

---

(١) الجوهرة في نسب الإمام علي وآله: ١٢، وتاريخ الطبري: ٢/ ١٠٠.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٥/٤٤٣، ح ٥٦، وبحار الأنوار: ٤٠/ ٢١٠ ح ٦.

أن علياً عليه السلام كان عالماً بجميع ما علمه الرسول صلى الله عليه وآله ما دام رسول الله صلى الله عليه وآله حياً كما ورد في ذلك بابان آخران في الكافي أولهما: باب وقت ما يعلم الإمام جميع علم الإمام الذي قبله، وثانيهما: باب أن الإمام متى يعلم أن الأمر قد صار إليه، والأخبار في هذين البابين مبينة ومخصصة لتلك الأخبار في البابين الأولين، كما روى عن أبي عبد الله عليه السلام متى يعرف الأخير ما عند الأول قال في آخر دقيقة تبقى من روحه.

عن صفوان قال: قلت للرضا عليه السلام أخبرني عن الإمام متى يعلم أنه إمام حين يبلغه أن صاحبه قد مضى أو حين يمضي مثل أبي الحسن قبض ببغداد وأنت ههنا قال: يعلم ذلك حين يمضي صاحبه قلت: بأي شيء؟ قال: يلهمهُ الله[(١)].

ومن الأخبار الدالة على ذلك رواية أخرى في الكافي في: باب الإشارة والنص على علي أمير المؤمنين عليه السلام: يحيى الحلبي عن بشير الكناسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفي فيه: أدعوا لي خليلي، فأرسلنا إلى أبويهما «يعني أبوي عائشة، وحفصة، أبا بكر، وعمر» فلما نظر إليهما رسول الله صلى الله عليه وآله أعرض عنهما قال قال: أدعو لي خليلي فأرسل إلى علي عليه السلام فلما نظر إليه أكب عليه يحدثه فلما خرج لقياه فقالا له: ما حدثك خليلك؟ فقال: حدثني ألف باب يفتح كل باب ألف باب.

فبما ذكرنا دريت أن ليس بمعلوم قطعاً أن علياً عليه السلام كان في ليلة المبيت عالماً بتاً على أن المشركين لا يقتلونه حيث نام على فراشه صلى الله عليه وآله.

على أن أنبياء الله وأولياءه لا يعلمون من عندهم شيئاً ولا يقدرون بذاتهم على شيء، ولا يطلعون على الغيب بل الله تعالى يظهرهم على غيبه عند المصلحة كظهور المعجزات في أيديهم كما نرى في كثير من الأخبار أن أُناساً لما أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسألوه عن أشياء وأمور استمهلهم وانتظر الوحي في ذلك ولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي.

وفي المجمع للطبرسي: قيل إن أهل مكة قالوا: يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فنشتريه فنربح فيه والأرض التي تريد أن تجدب فنرتحل منها إلى أرض قد أخصبت فأنزل الله هذه الآية:

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وفي سورة الجن: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٥ ـ ٢٧] الآية.

---

(١) مدينة المعاجز: ٧/٣٣، ح: ٢٩، وبحار الأنوار: ٢٧/٢٩١، ح: ١.

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩] الآية.

وفي الكافي في باب أنهم لا يعلمون الغيب إلا أنهم متى شاؤوا أن يعلموا أُعلموا، وفي الوافي ص ١٣٧ م ٢، عن أبي عبيدة المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله عزّ وجلّ ذلك»[١].

وعن معمر بن خلاد قال سأل أبا الحسن عليه السلام رجل من أهل فارس فقال له: أتعلمون الغيب؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «يبسط لنا العلم فنعلم ويقبض عنا فلا نعلم» وقال: «سر الله أسره إلى جبرائيل عليه السلام وأسره جبرائيل إلى محمد صلى الله عليه وآله وأسره محمد صلى الله عليه وآله إلى من شاء الله»[٢][٣].

وَنِعْمَ ما نظمه العارف السعدي في هذا المعنى:

يكى پر سيداز آن گم گشته فرزند	كه اى روشن روان پير خردمند
ز مصرش بوى پيراهن شنيدى	چرا در چاه كنعانش نديدى
بگفت أحوال ما برق جهان است	دمى پيدا وديگر دم نهان است
گى بر طارم أعلى نشينيم	گهى تا پشت پاى خود نبينيم

وأما ما نقلناه عن السيرة الهشامية من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «نم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه» فنقول فيه أولاً أنه ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في ضمن بعض الخطب الماضية عن شيخه أبي جعفر النقيب: هذا هو الكذب الصراح والتحريف والإدخال في الرواية ما ليس منها والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وآله قال له إذهب فاضطجع وتغش ببردي الحضرمي فإن القوم سيفقدونني ولا يشهدون مضجعي فلعلهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا فإذا أصبحت فاغد في أداء أماناتي وما قبل إنه صلى الله عليه وآله قال له: نم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه كلام مولد لا أصل له.

ولو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه وقد وقع الإتفاق على أنه ضرب ورمى بالحجارة قبل أن يعلموا من هو حتى تضور وأنهم قالوا له: رأينا تضورك فإنا كنا نرمي محمداً ولا يتضور.

ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتل فهب أنه أمن القتل كيف يأمن من

(١) ينابيع المعاجز: ٤٣.
(٢) مدينة المعاجز: ٥/ ٤٥، ح ١٤٦١، وبحار الأنوار: ٢/ ٨٠، ح ٧٧.
(٣) قد فصّلنا علم آل محمد وكيفيته وسعته في كتابنا: آل محمد بين قوسي النزول والصعود.

الضرب والهوان ومن أن ينقطع ببعض أعضائه وبأن سلمت نفسه أليس الله تعالى قال لنبيه: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ومع ذلك فقد كسرت رباعيته وشج وجهه وأدميت ساقه وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة وكذلك المكروه الذي أؤمن علي عليه السلام منه إن كان صح ذلك في الحديث.

وقال ابن أبي الحديد: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد الحسني فقلت: إذا كانت قريش قد محضت رأيها وألقى إليها إبليس كما روى ذلك الرأي وهو أن يضربه بأسياف من أيدي جمعة من بطون مختلفة ليضيع دمه في بطون قريش فلا تطلبه بنو عبد مناف فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصبح فإن الرواية جاءت بأنهم تسوروا الدار فعاينوا فيها شخصاً مسجى بالبرد الحضرمي الأخضر فلم يشكوا أنه هو فرصدوه إلى أن أصبحوا فوجدوه علياً وهذا طريف لأنهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك الليلة فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشخص المسجى وانتظارهم به النهار دليل على أنهم لم يكونوا أرادوا قتله تلك الليلة.

فقال في الجواب: لقد كانوا هموا من النهار بقتله تلك الليلة وكان إجماعهم على ذلك وعزمهم في حقنه من بني عبد مناف لأن الذين محضوا هذا الرأي واتفقوا عليه النضر بن الحارث من بني عبد الدار وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام وزمعة بن الأسود بن المطلب هؤلاء الثلاثة من بني سهم، وأمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف هذان من بني جمح فنما هذا الخبر من الليل إلى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فلقي منهم قوماً فنهاهم عنه وقال إن بني عبد مناف لا تمسك عن دمه ولكن صفدوه في الحديد واحبسوه في دار من دوركم وتربصوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشعراء، وكان عتبة بن ربيعة سيد بني عبد شمس ورئيسهم وهم من بني عبد مناف وبنو عم الرجل ورهطه، فأحجم أبو جهل وأصحابه تلك الليلة عن قتله إحجاماً ثم تسوروا عليه وهم يظنونه في الدار فلما رأوا إنساناً مسجى بالبرد الحضرمي الأخضر لم يشكوا أنه هو وائتمروا في قتله فكان أبو جهل يذمرهم عليه فيهمون ثم يحجمون ثم قال بعضهم لبعض: ارموه بالحجارة فرموه فجعل علي يتضور منها ويتقلب ويتأوه تأوهاً خفيفاً فلم يزالوا كذلك في إقدام عليه وإحجام عنه لما يريده الله تعالى من سلامته ونجاته حتى أصبح وهو وقيذ من رمى الحجارة ولو لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة وأقام بينهم بمكة ولم يقتلوه تلك الليلة لقتلوه في الليلة التي تليها وإن شبت الحرب بينهم وبين عبد مناف فإن أبا جهل لم يكن بالذي ليمسك عن قتله وكان فاقد البصيرة شديد العزم على الولوع في دمه.

ثم قال: قلت للنقيب: أفعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام بما كان من نهى عتبة لهم؟

قال: لا إنهما لم يعلما ذلك تلك الليلة وإنما عرفاه من بعد ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله

يوم بدر لما رأى عتبة ودعا له ما كان منه أن يكن في القوم خير ففي صاحب الجمل الأحمر ولو قدرنا أن علياً علم ما قال لهم عتبة لم يسقط ذلك فضيلة في المبيت لأنه لم يكن على ثقة من أنهم يقبلون قول عتبة بل كان ظن الهلاك والقتل أغلب[١].

وكان مما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور: ٣٠، ٣١].

وأذن الله تعالى لنبيه ﷺ عند ذلك في الهجرة وكان أبو بكر رجلاً ذا مال ولما قال له رسول الله ﷺ قد أذن لي في الخروج والهجرة وصحبته إياه أعد راحلتين كان احتبسها في داره ثم استأجرا عبد الله بن أرقط يدلهما على الطريق فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمد إلى غار بثور ـ جبل بأسفل مكة والغار هو الذي سماه الله في القرآن ـ فدخلاه وأمر أبو بكر إبنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فُهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يُريحها عليها يأتيهما إذا أمسى في الغار، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرى في رُعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليها غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس وهدأت عنهما الأصوات أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريها وبعير له.

فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما ثم قال: إركب فداك أبي وأُمي، فقال رسول الله ﷺ: إني لا أركب بعيراً ليس لي قال: فهي لك يا رسول الله، قال: لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به قال: كذا، وكذا قال: قد أخذتها به، قال: هي لك

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/٣٠٥.

يا رسول الله فركبا وانطلقا وأردف أبو بكر عامر بن فُهيرة مولاه خلفه ليخدمها في الطريق، فكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعامر بن فهيرة مولا أبي بكر، وعبد الله بن أرقط دليلهما، واحتمل أبو بكر معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، كل ذلك نقلناه عن السيرة لابن هشام وتاريخ الطبري[١].

وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] قال المفسرون: إنها نزلت في قصة دار الندوة «إلى أن قال»: وجاء جبرائيل فأخبر رسول الله ﷺ فخرج إلى الغار وأمر علياً عليه السلام فبات على فراشه، فلما أصبحوا وفتشوا عن الفراش وجدوا علياً عليه السلام وقد رد الله مكرهم فقالوا: أين محمد؟ فقال: لا أدري فاقتصوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الجبل ومروا بالغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو كان ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثاً ثم قدم المدينة[٢].

وقال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: ٤٠] قال الزهري لما دخل رسول الله ﷺ، وأبو بكر الغار أرسل الله زوجاً من حمام حتى بأضافي أسفل الثقب والعنكبوت حتى تنسج بيتاً فلما جاء سراقة بن مالك في طلبهما فرأى بيض الحمام وبيت العنكبوت قال: لو دخله أحد لانكسر البيض وتفسخ بيت العنكبوت فانصرف، وقال النبي ﷺ اللهم أعم أبصارهم، فعميت أبصارهم عن دخوله وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار، وقال أبو بكر: لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا.

وروى علي بن إبراهيم بن هاشم قال: كان رجل من خزاعة فيهم يقال له أبو كرز فما زال يقفو أثر رسول الله ﷺ حتى وقف بهم على باب الغار فقال لهم: هذا قدم محمد هي والله أخت القدم التي في المقام، وقال هذه قدم أبي قحافة أو ابنه قال: ما جازوا هذا المكان أما أن يكونوا قد صعدوا في السماء أو دخلوا في الأرض وجاء فرس من الملائكة في صورة الإنس فوقف على باب الغار وهو يقول لهم: أطلبوه في هذه الشعاب وليس ها هنا وكانت العنكبوت نسجت على باب الغار ونزل رجل من قريش فبال على باب الغار فقال أبو بكر: قد أبصرونا يا رسول الله، فقال ﷺ لو أبصرونا ما استقبلونا بعوراتهم.

---

(١) سيرة النبي: ٢/ ٣٣٧، والسيرة النبوية: ٢/ ٢٥٤.

(٢) بحار الأنوار: ١٩/ ٣١، وتفسير مجمع البيان: ٤/ ٤٥٨.

ثم قال: وقال بعضهم؛ يجوز أن تكن الهاء التي في «عليه» راجعة إلى أبي بكر وهذا بعيد، لأن الضمائر قبل هذا أو بعده تعود إلى النبي ﷺ بلا خلاف، وذلك في قوله: «إلا تنصروه فقد نصره الله» وفي قوله: «إذ أخرجه» وقوله: «لصاحبه» وقوله فيما بعده «وايده» فكيف يتخللها ضمير عائد إلى غيره هذا وقد قال سبحانه في هذه السورة ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال في سورة الفتح: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكرت الشيعة في تخصيص النبي ﷺ في هذه الآية بالسكينة كلاماً رأينا الإضراب عن ذكره أحرى لئلا ينسبنا ناسب إلى شيء. إنتهى[1].

أقول: وسيأتي طائفة من ذلك الكلام بعد ذا.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧].

روى السدي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في علي، بن أبي طالب حين هرب النبي ﷺ عن المشركين إلى الغار ونام علي عليه السلام على فراش النبي ﷺ ونزلت هذه الآية بين مكة والمدينة، وروي أنه لما نام على فراشه قام جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرائيل ينادي بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة[2].

قال المفيد رحمه الله في الإرشاد في اختصاص أمير المؤمنين عليه السلام بمناقب كثيرة:

ومن ذلك أن النبي ﷺ لما أُمر بالهجرة عند اجتماع الملاء من قريش على قتله فلم يتمكن ﷺ من مظاهرتهم بالخروج عن مكة وأراد ﷺ الإستسرار بذلك وتعمية خبره عنهم ليتم الخروج على السلامة منهم ألقى خبره إلى أمير المؤمنين عليه السلام واستكتمه إياه وكلفه الدفاع عنه بالمبيت على فراشه من حيث لا يعلمون أنه هو البائت على الفراش ويظنون أنه النبي ﷺ بائتاً على حالته التي كان يكون عليها فيما سلف من الليل، فوهب أمير المؤمنين عليه السلام نفسه لله تعالى وشراها من الله تعالى في طاعته وبذلها دون نبيه صلوات الله وسلامه عليه وآله، لينجو به من كيد الأعداء ويتم له بذلك السلامة والبقاء وينتظم له به الغرض في الدعاء إلى الملة وإقامة الدين وإظهار الشريعة.

فبات عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ متستراً بإزاره، وجاءه القوم الذين تمالؤوا على قتل النبي ﷺ فأحدقوا به وعليهم السلاح يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه ظاهراً فيذهب دمه

(١) بحار الأنوار: ١٩/ ٣٤، وتفسير مجمع البيان: ٥/ ٥٨.
(٢) تفسير مجمع البيان: ٢/ ٥٧، وتفسير كنز الدقائق: ١/ ٥٠١.

فرغاً بمشاهدة بني هاشم قاتليه من جميع القبائل ولا يتم لهم الأخذ بثأره منهم لاشتراك الجماعة في دمه وقعود كل قبيل عن قتال رهطه ومباينة أهله، فكان ذلك سبب نجاة النبي ﷺ وحفظ دمه وبقائه حتى صدع بأمر ربه ﷺ.

ولولا أمير المؤمنين عليه السلام وما فعله من ذلك لما تم لرسول الله ﷺ التبليغ والأداء ولا استدام له العمر والبقاء، ولظفر به الحسدة والأعداء، فلما أصبح القوم وأرادوا الفتك به عليه السلام ثار إليهم وتفرقوا حين عرفوه وانصرفوا وقد ضلت حيلهم في النبي ﷺ وانتقض ما بنوه من التدبير في قتله، وخابت ظنونهم وبطلت آمالهم.

وكان بذلك إنتظام الإيمان، وإرغام الشيطان، وخذلان أهل الكفر والعدوان ولم يشرك أمير المؤمنين عليه السلام في هذه المنقبة أحد من أهل الإسلام، ولا أحيط بنظير لها على حال ولا مقارب لها في الفضل بصحيح الإعتبار، وفي أمير المؤمنين عليه السلام ومبيته على الفرش أنزل الله سبحانه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٠٧] الآية[١].

ثم قال المفيد في الإرشاد أيضاً في الفصل الآخر: ومن ذلك أن النبي ﷺ كان أمين قريش على ودائعهم فلما فجأه من الكفار ما أحوجه إلى الهرب من مكة بغتة لم يجد في قومه وأهله من يأتمنه على ما كان مؤتمناً عليه سوى أمير المؤمنين عليه السلام فاستخلفه في رد الودائع إلى أربابها وقضاء ما كان عليه من دين لمستحقيه وجمع بناته ونساء أهله وأزواجه والهجرة بهم إليه ولم ير أن أحداً يقوم مقامه في ذلك من كافة الناس، فوثق بأمانته وعول على نجدته وشجاعته واعتمد في الدفاع عن أهله وحامته على بأسه وقدرته واطمأن إلى ثقته على أهله وحرمه وعرف من ورعه وعصمته ما تسكن النفس معه إلى أمانته على ذلك، فقام علي عليه السلام به أحسن القيام ورد كل وديعة إلى أهلها وأعطى كل ذي حق حقه وحفظ بنات نبيه ﷺ وحرمه وهاجر بهم ماشياً على قدميه يحوطهم من الأعداء ويكلؤهم من الخصماء ويرفق بهم في المسير حتى أوردهم عليه ﷺ المدينة على أتم صيانة وحراسة ورفق ورأفة وحسن تدبير فأنزله النبي ﷺ عند وروده المدينة داره وأحله قراره وخلطه بحرمه وأولاده ولم يميزه من خاصة نفسه ولا أحتشمه في باطن أمره وسره وهذه منقبة توحد بها عليه السلام من كافة أهل بيته وأصحابه ولم يشركه فيها أحد من أتباعه وأشياعه ولم يحصل لغيره من الخلق فضل سواها يعادلها عند السير ولا يقاربها على الامتحان[٢].

وروى الثعلبي في تفسيره والغزالي في الإحياء في بيان الإيثار وفضله وغيرهما من

(١) كنز الفوائد: ٢٠٧، والأمالي: ٢٥٣.

(٢) الإرشاد: ١/ ٥٤، والمستجاد من الإرشاد: ٥٤.

أعاظم الفريقين: أنه لما بات علي عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله أوحى الله سبحانه إلى جبرائيل وميكائيل أني قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيكما يؤثر أحدكما بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحي الله إليهما ألا كنتما مثل علي بن أبي طالب عليه السلام آخيت بينه وبين محمد نبيي صلى الله عليه وآله فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة أهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فهبطا إليه فجلس جبرائيل عند رأسه ومكيائيل عند رجليه فقال جبرائيل بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ الآية[1].

والعجب ما في إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبية تأليف علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي نقلاً من ابن تيمية من أن هذا الحديث أعني ما أوحى الله إلى الملكين، كذب باتفاق أهل العلم بالحديث.

أقول: ولعل وجه تكذيبه الحديث أنه ينافي نص الكتاب العزيز حيث قال عزّ من قائل في سورة التحريم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وفي عبس: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٥ ـ ١٦] وكذا ينفي الأخبار الآخر القائلة بأنهم لا يعصون الله طرفة عين ولا يغشاهم سهو العقول ونحوها. فتأمل والله أعلم.

وفي الكافي للكليني قدس سره عن سعيد بن المسيب سأل علي بن الحسين عليه السلام عن علي عليه السلام إلى أن قال عليه السلام: وخلف علياً في أمور لم يكن يقوم بها أحد غيره وكان خروج رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة في أول يوم من شهر ربيع الأول وذلك يوم الخميس من سنة ثلاث عشرة من المبعث وقدم صلى الله عليه وآله المدينة لإثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول مع زوال الشمس، فنزل بقبا فصلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين ثم لم يزل مقيماً ينتظر علياً عليه السلام يصلي الخمس صلوات ركعتين ركعتين وكان نازلاً على عمرو بن عوف فأقام عندهم بضعة عشر يوماً يقولون له أتقيم عندنا فنتخذ لك منزلاً ومسجداً فيقول لا إني أنتظر علي بن أبي طالب وقد أمرته أن يلحقني ولست مستوطناً منزلاً حتى يقدم علي.

إلى أن قال: قال سعيد بن المسيب لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت فداك كان أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وآله حين أقبل المدينة فأين فارقه؟ فقال: إن أبا بكر لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قبا فنزل بهم أنتظر قدوم علي عليه السلام فقال له أبو بكر أنهض بنا إلى المدينة فإن القوم قد فرحوا بقدومك وهم يستريثون إقبالك إليهم فانطلق بنا ولا تقم ههنا تنتظر علياً فما أظنه يقدم عليك إلى شهر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كلا ما أسرعه ولست أريم حتى يقدم ابن عمي وأخي في

(١) المسترشد: ٣٦١، ح ٥٤، والإحتجاج: ١/ ١٦٠.

الله تعالى وأحب أهل بيتي إليّ فقد وقاني بنفسه من المشركين قال: فغضب عند ذلك أبو بكر واشمأز وداخله من ذلك حسد لعلي عليه السلام وكان ذلك أول عداوة بدت منه لرسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام وأول خلاف على رسول الله صلى الله عليه وآله، فانطلق حتى دخل المدينة وتخلف رسول الله صلى الله عليه وآله بقبا حتى ينتظر علياً عليه السلام الحديث[1].

وفي الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

رسول إله الخلق إذ مكروا به ... فنجاه ذو الطول الكريم من المكر

وبت أراعيهم متى ينشرونني ... وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

وبات رسول الله في الغار آمنا ... موقى وفي حفظ الإله وفي ستر

أقام ثلاثاً ثم زمت قلائص ... قلائص يفرين الحصى أينما يفرى

أردت به نصر الإله تبتلاً ... وأضمرته حتى أوسد في قبري

«طريقة صلى الله عليه وآله في هجرته من مكة إلى المدينة»

في السيرة النبوية لابن هشام وفي التاريخ للطبري: فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط سلك بهما أسفل مكة.

ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخراز، ثم سلك بهما ثنية المرة، ثم سلك بها لقفا، ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة محاج، ثم سلك بهما مرجح محاج، ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين، ثم بطن ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم، ثم على العبابيد، ثم أجاز بها الفاجة، ثم هبط بهما العرج ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية العائر حتى هبط بهما بطن رئم ثم قدم بها قباء لإثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الإثنين حين اشتد الضحاء، وكادت الشمس تعتدل ونزل على كلثوم بن هدم فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الإثنين ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس وأسس مسجده ثم خرج من قبا إلى المدينة ونزل على أبي أيوب الأنصاري ولا يسع المقام ذكره على التفصيل وأقام علي بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليالٍ وأيامها حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع التي كانت عنده للناس حتى إذا فرغ

(١) بحار الأنوار: ١٩/ ١١٦.

منها لحق برسول الله صلى الله عليه وآله فنزل معه صلى الله عليه وآله على كلثوم بن هدم في قباء[١].

قال المسعودي في مروج الذهب: فخرج النبي صلى الله عليه وآله من مكة ومعه أبو بكر، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أرقط الدئلي دليل بهم على الطريق ولم يكن مسلماً، وكان مقام علي بن أبي طالب بعده بمكة ثلاثة أيام إلى أن أدى ما أمر بأدائه ثم لحق بالرسول صلى الله عليه وآله وكان دخوله عليه السلام إلى المدينة يوم الإثنين لإثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، فأقام بها عشر سنين كوامل وكان نزوله عليه السلام في حال موافاته المدينة بقبا على سعد بن خيثمة وكان مقامه بقباء يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس وسار يوم الجمعة إرتفاع النهار وأتته الأنصار حياً حياً يسأله كل فريق النزول عليه ويتعلقون بزمام راحلته وهي تجذبه فيقول صلى الله عليه وآله خلوا عنها فإنها مأمورة حتى أدركته الصلاة في بني سالم فصلى بهم يوم الجمعة وكانت تلك أول جمعة صليت في الإسلام وهذا موضع تنازع الفقهاء في العدد الذي بهم تتم صلاة الجمعة فذهب الشافعي في آخرين معه إلى أن الجمعة لا تجب إقامتها حتى يكون عدد المصلين أربعين فصاعداً وأقل من ذلك لا يجزي وخالفه غيره من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم وكان في بطن الوادي المعروف بوادي رائوناء إلى هذه الغاية.

أقول: في كتاب إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبية تأليف علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي: وعند مسيره صلى الله عليه وآله إلى المدينة أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي بمن معه من المسلمين وهم مائة وصلاها بعد ذلك في المدينة وكانوا به صلى الله عليه وآله أربعين فعن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وآله جمع بالمدينة وكانوا أربعين رجلاً أي: ولم يحفظ أنه صلاها مع النقص عن هذا العدد ومن حينئذٍ صلى الجمعة في ذلك المسجد سمي هذا المسجد بمسجد الجمعة وهو على يمين السالك نحو قباء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة «إلى أن قال»: وكان هو صلى الله عليه وآله بالمدينة يخطب الجمعة بعد أن يصلي مثل العيدين فبينما هو يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير دحية الكلبي وكان إذا قدم يخرج أهله للقائه بالطبل واللهو ويخرج الناس للشراء من طعام تلك العير فانقض الناس ولم يبق معه صلى الله عليه وآله إلا نحو إثني عشرة رجلاً.

وفي كنز العرفان للفاضل المقداد: فخرج الناس فلم يبق في المسجد إلا إثني عشر رجلاً، وعن ابن عباس لم يبق إلا ثمانية، وعن ابن كيسان أحد عشر.

وفي السيرة الهشامية لم يذكر عددهم.

وقال الجصاص الحنفي في أحكام القرآن: واختلفوا في عدد من تصح به الجمعة من

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٦٠، والغدير: ٧/ ٢٦٧.

المأمومين: أبو حنيفة، وزفر، ومحمد، والليث ثلاثة سوى الإمام، وروى عن أبي يوسف إثنان سوى الإمام وبه قال الثوري، وقال الحسن بن صالح إن لم يحضر الإمام إلا رجل واحد فخطب عليه وصلى به أجزأهما، وأما مالك فلم يجد فيه شيئاً واعتبر الشافعي أربعين رجلاً(١).

ثم قال: روى جابر أن النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة فقدم عير فنفر الناس وبقي معه إثنا عشر رجلاً فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] ومعلوم أن النبي ﷺ لم يترك الجمعة منذ قدم المدينة ولم يذكر رجع القوم فوجب أن يكون قد صلى بإثني عشر رجلاً.

ونقل أهل السير إن أول جمعة كانت بالمدينة صلاها مصعب بن عمير بأمر النبي ﷺ بإثني عشر رجلاً وذلك قبل الهجرة فبطل بذلك إعتبار الأربعين، وأيضاً الثلاثة جمع صحيح فهي كالأربعين لاتفاقهما في كونهما جمعاً صحيحاً وما دون الثلاثة مختلف في كونه جمعاً صحيحاً فوجب الإقتصار على الثلاثة وإسقاط إعتبار ما زاد، انتهى.

وفي كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: المالكية قالوا: أقل الجماعة التي تنعقد بها الجمعة إثنا عشرة رجلاً غير الإمام.

والحنفية قالوا: يشترط في الجماعة التي تصح بها الجمعة أن تكون بثلاثة غير الإمام.

الشافعية قالوا: أن يكونوا أربعين ولو بالإمام فلا تنعقد الجمعة بأقل من ذلك.

والحنابلة قالوا: أن لا يقل عددهم عن أربعين ولو بالإمام انتهى. وقوله المالكية قالوا: تنعقد الجمعة بإثني عشرة رجلاً لا ينافي ما ذهب عن الجصاص وما قاله الشيخ الطوسي رحمه الله في الخلاف ولم يقدر مالك في هذا شيئاً كما لا يخفى.

وهذه مذهب العامة في عدد من تصح به الجمعة، وعند أصحابنا الإمامية لا تنعقد الجمعة بأقل من خمسة والإمام أحدهم، وتجب عليهم بسبعة والإمام أحدهم قطعاً وإنما الكلام في بلوغ العدد مع الإمام خمسة هل تجب تخييراً وجوازاً أو تجب عيناً، وذلك لأن من أهل البيت عليهم السلام في العدد روايتين:

ففي التهذيب بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: تجب الجمعة على

(١) راجع المجموع للنووي: ٤/ ٢٥٦، وأحكام القرآن الجصاص: ٣/ ٥٩٩.

سبعة نفر من المسلمين ولا تجب على أقل منهم الإمام وقاضيه والمدعى حقاً والمدعى عليه والشاهدان والذي يضرب الحدود بين يدي الإمام(١).

وفيه عن البقباق عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أدنى ما يجزي في الجمعة سبعة أو خمسة أدناه.

وفي الكافي والتهذيب عن زرارة كان أبو جعفر عليه السلام يقول: لا تكون الخطبة والجمعة وصلاة ركعتين على أقل من خمسة رهط الإمام وأربعة(٢).

وفي الفقيه على زرارة: قلت له عليه السلام: على من تجب الجمعة؟ قال: تجب على سبعة نفر من المسلمين ولا جمعة لأقل من خمسة من المسلمين أحدهم الإمام فإذا اجتمع سبعة ولم يخافوا أمهم بعضهم وخطبهم(٣).

وفي التهذيب عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يجمع القوم يوم الجمعة إذا كانوا خمسة فما زاد فإن كانوا أقل من خمسة فلا جمعة لهم الحديث(٤).

وكذا أخبار أخر بعضها يفيد أن الجمعة لا تنعقد بأقل من خمسة، وبعضها يفيد أنها تنعقد من سبعة، لا تنافي بينها لأن الخبر الذي يتضمن إعتبار سبعة أنفس فهو على طريق الفرض والوجوب، والخبر لأخير على طريق الندب والإستحباب وعلى جهة الأولى والأفضل كما في التهذيبين والخلاف، وغيرها من أسفار الإمامية من غير واحد من علمائنا، وبالجملة هؤلاء قالوا بأن السبعة شرط للوجوب العيني والخمسة للتخييري، وهذا لا يخلو عندي من قوة.

وقال آخرون: إذا كانوا خمسة تجب عيناً لا تخييراً وفي الرياض أنه قول الأكثر، واعلم أن هذا الشرط يختص بالإبتداء دون الإستدامة بلا خلاف فيه بيننا الإمامية.

ثم إن الإمامية إختلفوا في إقامة الجمعة في زمن الغيبة فبعضهم أسقطوها لأن صلاة الجمعة عند حصول شرائطها لا تجب إلا عند حضور السلطان العادل أو من نصبه السلطان للصلاة ويعنون بالسلطان العادل الإمام عليه السلام، وبعضهم أوجبوها عند الغيبة أيضاً وهذا لا يخلو عندي من قوة ويكون مجزياً عن الظهر والإختلاف بين الفقهاء في مسائل الجمعة كثير

---

(١) عوالي اللئالي: ٣/ ٩٧، وبحار الأنوار: ٨٦، ١٧٦ ح ١٦.

(٢) الفصول المهمة: ٢/ ١٠٤، ح ١٣٨٨.

(٣) بحار الأنوار: ٨٦/ ٢٦٠، ح ٧٢، ومنتقى الجمان: ٢/ ١٠٨.

(٤) تهذيب الأحكام: / ، وعوالي اللئالي: ٣/ ٩٧، ح ١١٥، وبحار الأنوار: ٨٦/ ٢٥٥.

وليطلب في الكتب الفقهية.

«المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار»

ثم آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال: تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب عليه السلام أخوين، وكان حمزة بن عبد الطلب عم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، وجعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين، كذا غير واحد من المهاجرين والأنصار أخوين على التفصيل المذكور فيهما[١].

«كلام بن أبي جمهور الإحسائي في المجلي»

قال السالك الموحد الفقيه المتكلم المتأله المرتاض الراوي للأحاديث المروية عن الأئمة الهداة المعروف بابن أبي جمهور الإحسائي في كتابه الجامع للأصول اليقينية والمنازل العرفانية بالبراهين العقلية والنقلية المعروف بالمجلي، في أدلة إثبات الخلافة لعلي بن أبي طالب عليه السلام:

ويوم المؤاخاة يوم مشهور وموقف معلوم مبناه على تمييز الأشباه والنظائر والإطلاع على الخصائص والضمائر ولم تكن المؤاخاة يومئذٍ عن الهوى بل إنما هو وحي يوحي، فواخى بين أصحابه فقرن كل شبه إلى شبهه، وجعل كل نظير مع نظيره، ولم يقرن بين علي عليه السلام وبين أحد من الصحابة، بل عدل به عن جميعهم ثم اختاره لنفسه وقرن بينه وبينه وميزه من بينهم بإخوته، وشرفه عليهم بقربه، إظهاراً لشأنه واحتجاجاً عليهم ببيان حاله وكان ذلك بوحي من الله ونصه فكان ذلك موجباً له إستحقاق الولاية والقيام فيهم مقامه، إذ كل أخ قائم مقام أخيه فيما له من المزايا، فإن الأخوة مشاكلة ومشابهة في الصفات، فيقال للشيء أخو الشيء إذ كان بينه وبينه مشابهة كلية في جميع صفاته، ولما كانت الولاية من أجل الصفات التي كان ﷺ متصفاً بها وجب أن يكون أخوه مماثله ومشاكله موصوفاً بها، وإلا لما تحققت الأخوة ولا ثبت معناها ولم يكن للمماثلة والمشاكلة حينئذٍ معنى، فتضيع الفائدة من ذلك الفعل الصادر عن الحكيم بنص أحكم الحاكمين.

فإن قلت: يلزم على ما قررتموه إدخال النبوة لأنها من جملة الصفات وهو خلاف الإجماع.

---

(١) بحار الأنوار: ١٣٢/١٩، والغدير: ١١٦/٣.

قلت: النبوة معلومة الإستثناء بالأصل لما ثبت عند الكل من عدم جواز المشاركة فيها لتحقق معنى الختم به فانحجب ما سواه عن بلوغ مرتبتها فلا تصح المشاركة والمماثلة فيها ويبقى ما عداها داخلاً في عموم الأخوة هذا هذا.

مع أن الولاية المطلقة الثابتة له صلى الله عليه وآله كما عرفت أعلى وأجل وأعظم من مرتبة النبوة ما عرفت أن مقام الأولى مقام الوحدة وأن مقام الثانية مقام الكثرة والوحدة أجل وأعلى من الكثرة، فإذا ثبت أن الولاية له فقد ثبت له مقام الوحدة الذي هو مبدأ الكثرة.

ثم إن الولاية التي هي مقام الوحدة الثابت له باعتبار الأخوة يستلزم ثبت مقام الكثرة بواسطة الرد إلى الخلق بعد المرور على مقام الوحدة الثابت له بقوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: يا علي إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي.

فمقام النبوة الخاص بعد الولاية المطلقة إستثنى ولم يستثن مقتضاه أعني الرد إليّ الخلق لأنه إذا كان له مقام الولاية الخاصة كانت السياسة بيده وهي مقتضى الكثرة بواسطة إهداء الخلق والقيام عليهم بما يكلمهم ويصلح معاشهم ومعادهم فلا يكون مقتضى مقام الكثرة مسلوباً عنه، وذلك هو مقتضي مقام النبوة ولازمه لا هو، فالواجب للولي هو مقتضى مقام النبوة ولازمه هو فما فاته عليه السلام شيء من معاني الأخوة ولا خصائص كمال الأخ سواء الإسم المحجوب عنه وعن كل ما سواه للمصلحة المقتضية لسلبه، إنتهى ما أردنا نقله من المجلي.

قال العلاّمة الحلي قدس سره في شرح تجريد الإعتقاد لنصير الحق والملة والدين الخواجة الطوسي قدس الله روحه القدسي عند قوله: وعلي عليه السلام أفضل:

إختلف الناس ها هنا فقال عمر، وعثمان، وابن عمر، وأبو هريرة من الصحابة: إن أبا بكر أفضل من علي عليه السلام، وبه قال من التابعين الحسن البصري، وعمرو بن عبيد وهو اختيار النظام وأبي عثمان الجاحظ، وقال الزبير، والمقداد، وسلمان، وجابر بن عبد الله، وعمار، وأبو ذر، وحذيفة من الصحابة إن علياً عليه السلام أفضل، وبه قال من التابعين عطاء، ومجاهد، وسلمة بن كهيل، وهو اختيار البغداديين كافة والشيعة بأجمعهم وأبي عبد الله البصري، وتوقف الجبائيان، وقاضي القضاة، قال أبو علي الجبائي إن صح خبر الطائر فعلي أفضل.

ونحن نقول: إن الفضائل إما نفسانية أو بدنية، وعلي عليه السلام كان أكمل، وأفضل من باقي الصحابة فيها، والدليل على ذلك وجوه ذكرها المصنف رحمه الله «إلى أن قال في وجه الثامن عشر».

أن النبي صلى الله عليه وآله لما واخى بين الصحابة وقرن كل شخص إلى مماثله في الشرف والفضيلة

رأى علياً عليه السلام متكدراً[١] فسأله عن سبب ذلك فقال: إنك آخيت بين الصحابة وجعلتني متفرداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا ترضى أن تكون أخي ووصيي وخليفتي من بعدي؟ فقال: بلى يا رسول الله، فواخاه من دون الصحابة فيكون أفضل منهم.

وقال الشاعر العارف الحكيم مجدود بن آدم النسائي في الحديقة بالفارسية:

مرتضائى كه كرد يزدانش ... همره جان مصطفى جانش
هر دو يكقبله وخردشان دو ... هردو يكروح وكالبدشان دو
دو رونده چو أختر گردون ... دو برادر چو موسى وهارون
هردويكدر زيك صدف بودند ... هر دو پيرايه شرف بودند
تا نه بگشاد علم حيدر در ... ندهد سنت پيمبر بر

وقال في ديوانه:

آنكه اورا برسر حيدر همى خوانى أمير ... كافرم گر ميتواند كفش قنبر داشتن
تا سليمان وار باشد حيدر اندر صدر ملك ... زشت باشد ديو را بر تارك أفسر داشتن
چون هميدانى كه شهر علم را حيدر دراست ... خوب نبود جز كه حيدر مير ومهتر داشتن
كى روا باشد بناموس وحيل درراه دين ... ديو را بر مسند قاضى أكبر داشتن

روى عمرو بن القناد عن محمد بن فضيل عن أشعث بن سوار قال: سب عدي بن أرطأة علياً عليه السلام على المنبر فبكى الحسن البصري وقال: لقد سب هذا اليوم رجل أنه لأخو رسول الله صلى الله عليه وآله في الدنيا والآخرة[٢].

وروى عبد السلم بن صالح عن إسحاق الأزرق عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما زوج فاطمة دخل النساء عليها فقلن يا بنت رسول الله خطبك فلان، وفلان فردهم عنك وزوجك فقيراً لا مال له، فلما دخل عليها أبوها صلى الله عليه وآله رأى ذلك في وجهها فسألها فذكرت له ذلك، فقال: يا فاطمة إن الله أمرني فأنكحتك أقدمهم سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً، وما زوجتك إلا بأمر من السماء أما علمت أنه أخي في الدنيا والآخرة[٣]؟

(١) في نسخة: متفكراً.
(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ١/٣٢٦، ح ٢٤٧، وشرح نهج البلاغة: ١٣/٢٢١.
(٣) الصحيح من السيرة: ٥/٢٨١.

«الكلام في أن مبيت علي عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله منقبة لم يحصل لغيره من الخلق فضل يعاد لها»

لا يخفى على ذي دراية أن مبيته عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله حيث وهب نفسه لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله فضيلة لا يقاس إليها بذل المال ونعم ما قيل:

جادوا بأنفسهم في حب سيدهم والجود بالنفس أقصى غاية الجود

والله در قائله:

مبيت علي بالفراش فضيلة كبدر له كلُّ الكواكب تخضع

ومن أعرض عن ذلك واعترض فيه فهو مكابر نفسه، وليلة المبيت متواتر لا يريبه عاقل وبذل علي عليه السلام نفسه دون نبيه صلى الله عليه وآله في الليلة مسلم عند الكل وبلغ مبلغ الضرورة.

وللمغفلين في بذل أبي بكر طائفة من ماله ومصاحبته رسول الله صلى الله عليه وآله تعسفات استدلوا على ذلك من آية الغار واستنبطوا منها صوراً مشوهات واستمسكوا بتلك العرى الواهية على تفضيل من قال: أقيلوني فلست بخيركم وعلي فيكم، على من كلت فيه ألسن العالمين.

وآية الغار عندهم من أشهر الدلائل على فضل أبي بكر بستة أوجه:

الأول: أن الله تعالى جعله ثاني رسوله بقوله: «ثاني إثنين».

الثاني: وصف إجتماعهما في مكان واحد بقوله: «إذ هما في الغار».

الثالث: جعله مصاحباً له صلى الله عليه وآله بقوله: «لصاحبه».

الرابع: قول رسول الله صلى الله عليه وآله له رحمة ومحبة بقوله: «لا تحزن».

الخامس: إن الله كان لهما في التصرف والإعانة على نسبة واحدة بقوله: «إن الله معنا».

السادس: نزول السكينة عليه بإرجاع الضمير إليه دون الرسول صلى الله عليه وآله.

وللإمامية رضوان الله عليهم في رد هذه الوجوه الستة عليهم بل إستدلالهم على نقيض ما ذهبوا إليه مباحث رأينا الإعراض عنها ها هنا أجدر ولكن نكتفي بذكر بعض ما أورده الشارح المعتزلي في المقام في ضمن بعض الخطب الماضي ناقلاً عن الجاحظ ما تشمئز منها النفوس ويأبى عنها الفطرة السليمة، وعن شيخه أبي جعفر في جوابها ما لا يخلو عن الإنصاف والإعتدال ونذكر بعض ما خطر ببالي في المقام والله ولي التوفيق والهادي إلى خير السبيل.

قال الشارح المعتزلي: قال الجاحظ: فإن احتج محتج لعلي عليه السلام بالمبيت على الفراش فبين الغار والفراش فرق واضح، لأن الغار وصحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وآله قد نطق به القرآن فصار كالصلاة والزكاة وغيرهما مما نطق به الكتاب وأمر علي عليه السلام ونومه على الفراش وإن كان ثابتاً صحيحاً إلا أنه لم يذكر في القرآن وإنما جاء مجيء الروايات والسير وهذا لا يوازن هذا ولا يكائله.

ثم قال: قال شيخنا أبو جعفر: هذا فرق غير مؤثر لأنه قد ثبت بالتواتر حديث الفراش فلا فرق بينه وبين ما ذكر في نص الكتاب ولا يجحده إلا مجنون أو غير مخالط لأهل الملة، أرأيت كون الصلوات خمساً وكون زكاة الذهب ربع العشر وكون خروج الريح ناقضاً للطهارة وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتر حكمه هل هو مخالف لما نص في الكتاب عليه من الأحكام؟ هذا مما لا يقوله رشيد ولا عاقل.

على أن الله تعالى لم يذكر إسم أبي بكر في الكتاب وإنما قال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾ [التوبة: ٤٠] وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد في السيرة وقد قال أهل التفسير إن قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] كناية عن علي عليه السلام لأنه مكر بهم وأول الآيـــة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠] أنزلت في ليلة الهجرة ومكرهم كان توزيع السيوف على بطون قريش ومكر الله تعالى هو منام علي عليه السلام على الفراش فلا فرق بين الموضعين في أنهما مذكوران كناية لا تصريحاً، وقد روى المفسرون كلهم إن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أنزلت في علي عليه السلام ليلة المبيت على الفراش فهذه مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾ لا فرق بينهما.

وقال: وقال الجاحظ: وفرق آخر وهو أنه لو كان مبيت علي عليه السلام على الفراش جاء مجيء كون أبي بكر في الغار لم يكن له في ذلك كبير طاعة الناقلين نقلوا أنه صلى الله عليه وآله قال له: نم فلن يخلص إليك شيء تكرهه. ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في صحبته إياه وكونه معه في الغار مثل ذلك ولا قال له أنفق وأعتق فإنك لن تفتقر ولن يصل إليك مكروه.

ثم قال: وقال شيخنا أبو جعفر: هذا هو الكذب الصراح والتحريف والإدخال في الرواية ما ليس منها والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وآله قال له: إذهب فاضطجع في مضجعي وتغش ببردى الحضرمي فإن القوم سيفقدونني ولا يشهدون مضجعي فلعلهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا فإذا أصبحت فاغد في أداء أمانتي. ولم ينقل ما ذكره الجاحظ وإنما ولده أبو بكرالأصم وأخذه الجاحظ ولا أصل له.

لو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه وقد وقع الإتفاق على أنه ضرب ورمي

بالحجارة قبل أن يعلموا من هو حتى تضور، وأنهم قالوا له: رأينا تضورك فإنا كنا نرمي محمداً ولا يتضور، ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتل فهب أنه أمن القتل كيف يأمن من الضرب والهوان ومن أن ينقطع بعض أعضائه وبأن سلمت نفسه أليس الله تعالى قال لنبيه: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ومع ذلك فقد كسرت رباعيته وشج وجهه وأدميت ساقه وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة، وكذلك المكروه الذي أومن علي عليه السلام منه إن كان صح ذلك في الحديث إنما هو مكروه القتل.

ثم يقال له: وأبو بكر لا فضيلة له أيضاً في كونه في الغار لأن النبي صلى الله عليه وآله قال له: «لا تحزن إن الله معنا» ومن يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كل سوء فكيف قلت: ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في الغار مثل ذلك، فكل ما يجب به عن هذا فهو جوابنا عما أورده فنقول له: هذا ينقلب عليك في النبي صلى الله عليه وآله لأن الله تعالى وعده بظهور دينه وعاقبة أمره فيجب على قولك أن لا يكون مثاباً عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه ولا ما يصيبه من الأذى إذ كان قد أيقن بالسلامة والفتح في عدته.

وقال: قال الحاحظ: ومن جحد كون أبي بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كفر، لأنه جحد نص الكتاب ثم أنظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ من الفضيلة لأبي بكر لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله في كون الله تعالى معه، وأنزل السكينة قال كثير من الناس أنه في الآية مخصوص بأبي بكر لأنه كان محتاجاً إلى السكينة لما تداخله من رقة الطبع البشري والنبي صلى الله عليه وآله كان غير محتاج إليها لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى فلا معنى لنزول السكينة عليه وهذه فضيلة ثالثة لأبي بكر.

ثم قال: قال شيخنا أبو جعفر: إن أبا عثمان يجر على نفسه ما لا طاقة له به من مطاعن الشيعة ولقد كان في غنية عن التعلق بما تعلق به لأن الشيعة تزعم أن هذه الآية بأن تكون طعناً وعيباً على أبي بكر أولى من أن تكون فضيلة ومنقبة له لأنه لما قال له: «لا تحزن» دل على أنه قد كان حزن وقنط وأشفق على نفسه وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين ولا يجوز أن يكون حزنه طاعة، لأن الله تعالى لا ينهي عن الطاعة فلو لم يكن ذنباً لم ينه عنه[1].

وقوله: «إن الله معنا» أي إن الله عالم بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشك كما يقول الرجل لصاحبه لا تضمرن سوءاً ولا تنوين قبيحاً فإن الله يعلم ما نسره وما نعلنه، وهذا مثل

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٦٤.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] أي هو عالم بهم.

وأما السكينة فكيف يقول إنها ليست راجعة إلى النبي ﷺ وبعدها قوله: «وأيده بجنود لم تروها» أترى المؤيد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله ﷺ؟

وقوله: إنه مستغنٍ عنها ليس بصحيح ولا يستغنى أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأييده وتثبيت قلبه وقد قال الله تعالى في قصة حنين: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٦].

وأما الصحبة فلا تدل إلا على المرافقة والإصطحاب لا غير، وقد يكون حيث لا إيمان كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ [الكهف: ٣٧].

أقول: وقد مضى من قبل أن القول بجوز رجوع الضمير في عليه «فأنزل الله سكينته عليه» إلى أبي بكر بعيد جداً، بل ليس بصحيح قطعاً، لأن الضمائر قبله وبعده كلها راجعة إلى النبي ﷺ بلا خلاف فيه فكيف يتخلل تلك الضمائر ضمير عائد إلى غيره في البين وهل هذا إلا الخروج عن أسلوب الفصاحة والبلاغة؟ فذلك القول تهافت بتاً ولا يجنح إليه إلا من ليس بعارف في أساليب الكلام أو يحرفه لتحصيل المرام وإن أفضى إلى الطعن في النبوة والإسلام وقد تقدم فيه الكلام، ونسأل الله نور الإيمان والعرفان، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نوره.

«مبدأ تاريخ السسلمين والفرق بين الهجري القمري والهجري الشمسي»

كلمة التاريخ ـ كما قال الفاضل البرجندي رضوان الله عليه في شرحيه على زيج الغ بيك وعلى التذكرة في الهيئة لبطليموس الثاني المحقق الطوسي قدس سره ـ: في اللغة تعريف الوقت، وقيل هو قلب التأخير وقيل التاريخ مشتق من أرخ وهو في اللغة ولد البقر الوحش والتفعيل قد يأتي للإزالة والتاريخ بمعنى إزالة الجهالة في مبدأ شيء ووقت صدوره.

ونقل المطرزي عن بعض أهل اللغة: التاريخ بمعنى الغاية يقال: فلان تاريخ قومه أي ينتهي إليه شرفهم فمعنى قولهم فعلت في تاريخ كذا فعلت في وقت الشيء الذي ينتهي إليه.

وقيل: هو ليس بعربي فإنه مصدر المؤرخ وهو معرب ماه روز وذلك أنه كتب أبو موسى الأشعري وكان من قبل عمر حاكماً في اليمن أنه تأتينا منك صكوك محلها في شعبان وما ندري أي الشعبانين هو الماضي أو الآتي؟ فجمع عمر الناس للمشورة وكان فيهم ملك أهواز إسمه الهرمزان وقد أسلم على يده حين أسر فقال: إن لنا حساباً نسميه ماه روز أي حساب الشهور والأعوام وشرح لهم كيفية استعماله فصوبوه وعربوا ماه روز بقولهم مؤرخ.

وأما في الاصطلاح فهو تعيين يوم ظهر فيه أمر شائع من ملة أو دولة أو حدث فيه هائل كزلزلة وطوفان لينسب إليه ما يراد تعيين وقته في مستأنف الزمان أو في مستقدمه.

ولما كان أشهر الأجرام السماوية النيرين أعتبر الأمم في وضع الشهور والسنين دورهما، وأكثرهم اعتبروا في وضع الشهور دور القمر وفي وضع السنين دور الشمس المقتضي لعود حال السنة بحسب الفصول لكنهم لم يعتبروا عودة القمر في نفسه بل عودته إلى الشمس القريبة من عودته في نفسه ليكون إستنارة القمر في أوائل الشهور الشهور وأواسطه وأواخره بل في جميع أجزائها على نسق واحد، ثم لما كان عودة الشمس في إثني عشر شهراً قمرياً تقريباً قسموا السنة إثني عشر قسماً وسموا كلاً منها شهراً مجازاً وركبوا إثني عشر شهرٌ قمرياً وسموها سنة على التشبيه.

ولم يكن للمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله تاريخ في حوادثهم وأمورهم وكان قبل الإسلام بين الأعراب عدة تواريخ كتاريخ بناء الكعبة وتاريخ رياسة عمرو بن ربيعة وهو الذي وضع عبادة الأصنام في العرب وكان هذا التاريخ متداولاً به إلى عام الفيل ثم صار عام الفيل مبدءاً، فلما حدث التباس بعض الأمور في زمان عمر كما دريت أمر بوضع التاريخ.

فأشار بعض اليهود إلى تاريخ الروم فلم يقبله لما فيه من الطول، وبعضهم إلى تاريخ الفرس فرده لعدم استناده إلى مبدأ معين فأنهم كانوا يجددونه كلما قام ملك وطرحوا ما قبله.

فاستقر رأيهم على تعيين يوم من أيامه عليه الصلاة والسلام لذلك ولم يصلح وقت للمبعث لكونه غير معلوم، ولا وقت الولادة لاختلاف فيه فقيل: إنه ولد ليلة الثاني، أو الثامن، أو الثالث عشر من شهر الربيع الأول سنة أربعين، أو اثنتين وأربعين، أو ثلاث وأربعين من ملك أنوشروان إلى غير ذلك من الأقوال، ولا وقت الوفاة لتنفر الطبع عنه.

فجعل مبدأه الهجرة من مكة إلى المدينة بإشارة علي عليه السلام إلى ذلك كما سيأتي نقل الأخبار فيه إذ بها ظهرت دولة الإسلام فأجمعوا عليه.

ثم قالوا: فأي الشهور نبدأ؟ فقالوا: رمضان، ثم قالوا: المحرم فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام فأجمعوا على المحرم.

واعلم أن أول تلك السنة أعني أول المحرم كان يوم الخميس بحسب الأمر الأوسط بالاتفاق لأنه مما لا يعتريه خلاف ولو بسطنا الكلام فيه لانجر إلى بحث طويل الذيل.

وأما بحسب الرؤية ففي بعض الأحاديث أنه كان يوم الخميس وهذا ممكن لأنه قد يتفق أول الشهر بحسب الأمر الأوسط والرؤية معاً، وفي بعض الروايات أنه كان يوم الجمعة وهذا أيضاً ممكن لأنه قد يختلف بين يوم الأمر الأوسط ويوم الرؤية في يوم بأن يكون أول الشهر

الوسطى خميساً والحقيقي المبني على الرؤية جمعة مثلاً أو يومين بأن يكون أول الحقيقي سبتاً.

وفي بعض الروايات أنه كان أول المحرم من تلك السنة يوم الإثنين وهذا مجال لأنه لا يمكن إختلافهما في أكثر من يومين على ما برهن وحقق في محله.

ولم يتفق لي طول ست سنوات إستخراجي إلى الآن أن يقدم أول الشهر الحقيقي على الوسطى ولو بيوم بل قد يتفقان في أول الشهر أو يقدم الوسطى على الحقيقي أما يوماً أو يومين.

«الفرق بين الشهر القمري الحقيقي والوسطي»

واعلم أن الشهر القمري مأخوذ من تشكلات القمر النورية بحسب أوضاعه من الشمس، ودريت أنه لما كان أشهر الأجرام السماوية النيرين اعتبر الناس في وضع الشهور والأعوام دورهما.

فمستعملوا الشهر القمري بعضهم وهم الترك أخذوا مبدأه من اجتماع حقيقي فالشهر عندهم من اجتماع حقيقي بين النيرين إلى اجتماع حقيقي بعده، فإن وقع الاجتماع قبل نصف النهار فذلك اليوم هو أول الشهر، وإن كان بعده فاليوم الذي بعده، ولكن فيه تعذراً لتوقفه على استخراج التقويمين في رأس كل شهر وأعمال كثيرة آخر حتى يعلم أن الاجتماع في أي يوم وأي ساعة، هذا لا يتيسر إلا للأوحدي من الناس ممن رزقهم الله التفكر في خلق السموات والأرض.

والمسلمون وأهل البادية من الأعراب أخذوه من ليلة رؤية الهلال إلى ليلتها لأن أقرب أوضاع القمر من الشمس إلى الإدراك هو الهلال، فالأوضاع الأخرى من المقابلة والتربيع وغير ذلك لا يدرك إلا بحسب التخمين، فإن القمر يبقى على النور التام قبل المقابلة وبعدها زماناً كثيرة وكذلك غيره من الأوضاع وأما وضعه منها عند وصوله في تحت الشعاع وإن كان يشبه وضع الهلال في ذلك لكنه في وضع الهلال يشبه الموجود بعد العدم والمولود الخارج من الظلم فجعله مبدأ أولى.

قال الله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] الآية، وكان إتفاق المسلمين إن أول شهر الصيام ليلة رؤية الهلال إلى ليلة رؤيتها ويكون الصوم للرؤية والفطر للرؤية وهذا الشهر لا يزيد عن ثلاثين يوماً ولا ينقص على تسعة وعشرين يوماً.

وليعلم أنه على هذا الوجه أعني أخذ الشهر القمري من ليلة رؤية الهلال إلى ليلتها كما

ذهب إليه المسلمون يمكن أن تكون أربعة أشهر متواليات ثلاثين يوماً، ولا يزيد على ذلك قط كما يمكن أن تكون ثلاثة أشهر متواليات تسعة وعشرين يوماً ولا يزيد على هذا المقدار أيضاً قط، على ما حقق في محله، وذكر الدليل ينجر إلى بحث طويل. وهذا هو الشهر القمري الحقيقي المبتني على وضع القمر مع الشمس.

وأما الوسطي فهو مصطلح أهل الحساب فيأخذون مبدأ الشهر من الإجتماع الوسطي ويجعلون المحرم ثلاثين يوماً والصفر تسعة وعشرين يوماً، وهكذا كل فرد ثلاثين يوماً وكل زوج تسعة وعشرين يوماً، وفي طول ثلاثين سنة يأخذون ذا الحجة إحدى عشر مرة ثلاثين يوماً ويسمونها كبائس، وبرهانه مذكور في الكتب المبرهنة في الفن، وهذا الشهر الوسطي هو مبني الجداول في كتب الأعمال أعني الزيجات.

ومقدار الشهر الوسطي ما حوسب واستخرج في الزيج البهادري وهو أدق الزيجات: يكون تسعة وعشرين يوماً وإحدى وثلاثين دقيقة وخمسين ثانية وثماني ثوالث على أن كل يوم ستون دقيقة وكل دقيقة ستون ثانية.

«فائدتان»

الأولى: إنك دريت أن وضع الجداول في الزيجات على الأمر الأوسط ولا مساس له في الرؤية أعني أن المنجمين يرتبون حركات الكواكب في الجداول على ذلك النهج الأوسط، فإذا أرادوا أن يعلموا رؤية هلال أو تقويم كوكب أو خسوف وكسوف أو مقدار الأيام والليالي وغير ذلك من الأمور، احتاجوا إلى محاسبة ثانية من تلك الجداول بأعمال التعديلات على الطرق المعلومة عند العالمين بها فليس مبني الجداول أولاً على السير الحقيقي والتقويم الواقعي للكواكب.

ويعبر الزيج في تعابير الفقهاء بالجدول وما في كتب الفقهية ـ كاللمعة للشهيد الأول رحمه الله في كتاب الصوم في رؤية الهلال ـ لا عبرة بالجدول، حق لأن مبني الجداول أعني الزيجات على عد شهر تاماً وشهر ناقصاً حتى يمكن ضبطها ووضعها في الجداول فالجدول في تعابير الفقهاء كان بهذا المعنى ولا اعتبار به قبل المحاسبة ثانية لكل أمر لا أنه ليس على مبني صحيح ومعتبر وذلك كما ترى أن محاسباً يخبر أن في يوم كذا وساعة كذا ينكسف الشمس مثلاً في مقدار كذا ومدة كذا فترى ما أخبر مطابقاً للواقع وإن ظهر خلافه فغلط هو في عمله.

الفائدة الثانية: إن شهر رمضان كسائر الشهور تارة يكون ثلاثين يوماً وتارة تسعة وعشرين يوماً لأن الشهر القمري كما دريت يكون من ليلة رؤية الهلال إلى ليلة رؤية الهلال،

والقمر قد يخرج تحت شعاع الشمس في اليوم التاسع والعشرين فيرى الهلال عند مغيب الشمس وقد لا يخرج في ذلك اليوم فيصير الشهر ثلاثين يوماً وليس للنيرين في شهر رمضان وضع خاص حتى يكون دائماً ثلاثين يوماً وليس لشهر رمضان تأثير خاص في ذلك.

وفي التهذيب عن محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن اليوم الذي يشك فيه لا يدري أهو من شهر رمضان أو من شعبان، فقال: شهر رمضان شهر يصيبه ما يصيب الشهور من الزيادة والنقصان فصوموا للرؤية وافطروا للرؤية الحديث[١].

وذهب رئيس المحدثين الصدوق رضوان الله عليه إلى أن شهر رمضان لا ينقص عن ثلاثين يوماً أبداً، وروى في الخصال بإسناده عن إسماعيل بن مهران قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: والله ما كلف الله العباد إلا دون ما يطيقون إنما كلفهم في اليوم والليلة خمس صلوات، وكلفهم في كل ألف درهم خمسة وعشرين درهماً، وكلفهم في السنة صيام ثلاثين يوماً وكلفهم حجة واحدة وهم يطيقون أكثر من ذلك[٢].

ثم قال رحمه الله: مذهب خواص الشيعة وأهل الإستبصار منهم في شهر رمضان أنه لا ينقص عن ثلاثين يوماً أبداً والأخبار في ذلك موافقة للكتاب ومخالفة العامة، فمن ذهب من ضعفة الشيعة إلى الأخبار التي وردت للتقية في أنه ينقص ويصيبه ما يصيب الشهور من النقصان والتمام أتقي كما يتقي العامة ولم يكلم إلا بما يكلم به العامة. وقريب من قوله هذا ما في الفقيه.

أقول: وهذا الكلام منه قدس سره مع جلالة شأنه غريب جداً والأخبار الناطقة في ذلك إما يشير إلى صوم يوم الشك حيث تغيمت السماء أو إلى أمور أخر ذكرها شراح الأحاديث على أن شيخ الطائفة قدس سره رد تلك الأخبار في التهذيب بوجوه فمن شاء فليرجع إليه أو إلى الوافي وغيره من الكتب المبسوطة.

ثم إن شراح الأحاديث وفقهاء الإمامية لا سيما الشيخ الطوسي في التهذيبين وإن ذكروا في رد تلك الأخبار القائلة بأن شهر رمضان لا ينقص عن ثلاثين أبداً وتوجيهها وجوهاً كثيرة ولكن ها هنا دقيقة تبصر بها وذكرها في حاشية الوافي شيخنا الأجل وأستاذنا الأعظم الجامع للعلوم النقلية والعقلية والمتبحر في الفنون الغريبة الحاج الميرزا أبو الحسن الشعراني متعنا الله بطول بقائه يعجبني أن أذكرها تيمناً بما قال وتمثلاً له في البال، قال مد ظله:

(١) مسند الإمام الرضا عليه السلام: ٢/١٨٨، ح ٨.

(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ٢/١٧٣، ح ١٥٥٩، وبحار الأنوار: ٥/٤١، ح ٦٦.

أقول: عادة المنجمين أن يحاسبوا الشهور الهلالية أولاً على الأمر الأوسط ويرتبون الأيام ويستخرجون مواضع الكواكب في تلك الأيام ثم يرجعون ويستخرجون رؤية الأهلة ويرتبون الشهور ويعينون غرة كل شهر على حسب الرؤية فإذا بنوا على الأمر الأوسط حاسبوا شهر محرم تاماً وصفر ناقصاً فهكذا فيكون شعبان ناقصاً ورمضان تاماً وهذا بحسب الأمر الأوسط وهو عادتهم من قديم الدهر إلا أن هذا عمل يبتدؤن به في الحساب قبل أن يستخرج الأهلة فإذا استخرج الهلال بنوا على الرؤية وكان بعض الرواة سمع ذلك من عمل المنجمين فاستحسنه لأن نسبة النقصان إلى شهر رمضان وهو شهر رمضان وهو شهر الله الأعظم يوجب التنفير وإساءة الأدب فنسبه إلى بعض الأئمة عليهم السلام سهواً وزادوا فيه والعجب أن الصدوق رحمه الله روى الأحاديث في الصوم للرؤية والإفطار لها وروى أحاديث الشهادة على الهلال وروى أحكام يوم الشك ولو كان شعبان ناقصاً أبداً وشهر رمضان تاماً أبداً لا تنفي جميع هذه الأحكام وبطلت جميع تلك الروايات ولا يبقى يوم الشك ولم يحتج إلى الرؤية.

وأما الفرق بين السنة الهجرية القمرية، والهجرية الشمسية فنقول: مبدأهما الأول واحد وهو مهاجرة نبينا خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة كما مر بيانه مفصلاً إلا أنهم في صدر الإسلام جعلوا مبدأ القمرية من المحرم وجعل في قرب عصرنا مبدأ الشمسية من تحويل الشمس إلى الحمل وما كان الأصل في ذلك هو السنة الهجرية القمرية لما دريت أن العرب أعتبروا الشهور والأعوام من دور القمر فالشهر من ليلة رؤية الهلال إلى ليلتها ثم ركبوا إثني عشرة شهراً قمرياً وسموها سنة ومضى من هجرة نبينا صلى الله عليه وآله إلى هذا اليوم الذي نحرر ذلك المطلب وهو يوم الإثنين ثامن ربيع الأول يوم وفاة إمامنا أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام، إثنان وثمانون وثلاثمائة وألف سنة وشهران وثمانية أيام.

وأما الهجرية الشمسية وإن كان مبدأهما الأول هجرة الرسول صلى الله عليه وآله إلا أنه تاريخ حديث وضعهن في طهران عاصمة إيرن وكان مبداه السنة ١٣٠٤ الشمسية وهو مبني على إثني عشرة شهراً شمسياً كتاريخ الجلالي وأسامي الشهور بعينها أسامي اليزدجردي وهي: فروردين، أرديبهشت، خوردا، تير، مرداد، شهريور، مهر، آبان، آذر، دي، بهمن، إسفند وجعلوا الشهور الست الأول إحدى وثلاثين يوماً والست الآخر ثلاثين يوماً إلا أن شهر إسفند يكون في الكبيسة ثلاثين يوماً وفي غيره تسعة وعشرين يوماً وبهذه الحيلة نشروا الخمس المسترقة في الشهور تسهيلاً للأمر ومبدأ السنة يكون من يوم تحويل الشمس إلى أول الحمل إن كان تحويلها قبل نصف النهار وإلا فاليوم الذي بعده ومضى من تلك السنة إلى اليوم إحدى وأربعون وثلاثمائة وألف سنة.

والتفاوت بينهما شيء من حيث إن الأول مبتن على حركة القمر وتكون السنة مركبة من

إثني عشر شهراً قمرياً والثاني على حركة الشمس فالسنة مركبة من أثني عشر شهراً شمسياً.

والشهر القمري الحقيقي على الزيج البهادري هو تسعة وعشرون يوماً واثنتي عشر ساعة وأربع وأربعون دقيقة وثلاث ثواني وثلاث ثوالث وتسع روابع وست وثلاثون خامسة.

فلا جرم أن السنة القمرية الحقيقية أربع وخمسون وثلاثمائة يوم وثماني ساعات وثماني وأربعون دقيقة وست وثلاثون ثانية وسبع وثلاثون ثالثة وخمس وخمسون رابعة وإثنتا عشر خامسة الحاصلة من ضرب عدد الشهر القمري في إثني عشرة.

والسنة الشمسية الحقيقية على ما رصد في الزيج البهادري وصرح به في الصفحة الثامنة والثلاثين منه:

خمسة وستون وثلاثمائة يوماً وخمس ساعات وثماني وأربعون دقيقة وست وأربعون ثانية وست ثوالث وعشر روابع.

فالتفاوت بين السنة الشمسية الحقيقية والقمرية الحقيقية هو عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعة وتسع ثواني وثماني وعشرون ثالثة وأربع عشرة رابعة وثماني وأربعون خامسة. وهذا هو التحقيق في ذلك المقام بما لا مرية فيه ولا كلام وبالجملة مبدأ تاريخ المسلمين المعمول به عند جمهورهم هو أول شهر المحرم من سنة هجرة رسول الله ﷺ من مكة زادها الله شرفاً إلى المدينة الطيبة.

وذهب محمد بن إسحاق المطلبي كما في السيرة النبوية لابن هشام التي هي منتخبة مما ألفه ابن إسحاق وغيره إلى أن مبدأه يكون شهر ربيع الأول حيث قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الإثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل لثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول وهو التاريخ وهذا متروك عند المسلمين. ويمكن أن يكون الضمير أعني (هو) في قوله (وهو التاريخ) راجعاً إلى قدومه وهجرته من مكة إلى المدينة فلا تنافي.

«ذكر الأخبار في ذلك»

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه المعروف: قال عبيد الله بن أبي رافع قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: جمع عمر بن الخطاب الناس فسألهم فقال: من أي يوم نكتب؟ فقال علي عليه السلام: من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك ففعله عمر[١].

وفيه بإسناده عن الشعبي، قال: كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر أنه تأتينا منك كتب

(١) ميزان الحكمة: ١/ ٧٠، ح ٨٤، وكنز العمال: ١٠/ ٣١٠، ح ٢٩٥٥٣.

ليس لها تاريخ. قال: فجمع عمر الناس للمشورة فقال بعضهم: أرخ لمبعث رسول الله ﷺ وقال بعضهم لمهاجر رسول الله ﷺ فقال عمر: لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله ﷺ فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل.

وفيه عن ميمون بن مهران قال رفع إلى عمر صك محله في شعبان فقال عمر: أي شعبان الذي هو آتٍ أو الذي نحن فهي؟ قال: ثم قال لأصحاب رسول الله ﷺ ضعوا للناس شيئاً يعرفونه فقال بعضهم: أكتبوا على تاريخ الروم. فقيل إن الفرس كلما قام ملك طرح من كان قبله فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة فوجدوه عشر سنين فكتب التاريخ من هجرة رسول الله ﷺ.

وفيه قام رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: أرخوا. فقال عمر: ما أرخوا؟ قال: شيء تفعله الأعاجم يكتبون في شهر كذا من سنة كذا فقال عمر: حسن فأرخوا، فقالوا: من أي السنين نبدأ؟ قالوا: من مبعثه، وقالوا: من وفاته ثم أجمعوا على الهجرة، ثم قالوا: فأي الشهور نبدأ؟ فقالوا: رمضان، ثم قالوا: المحرم فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام فأجمعوا على المحرم[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/١١١.

الترجمة

از کلام آن حضرت است که رفتن خود را در پی پیغمبر (ﷺ) و رسیدن به آن جناب بعد از مهاجرت حضرتش از مکه به سوی مدینه حکایت می کند:

پس شروع کردم، پیروی می کردم آن راهی را که پیمبر خدا رفته بود، پس به یاد او گام می نهادم تا به عرج رسیدم (کنایه از این که از ابتدای خروج از مكّه تا این موضع، پیوسته از آن جناب خبر می گرفتم و بر اثر نشان او قدم می زدم. عرج بر وزن خرج موضعی است بین مکه و مدینه و به مدینه نزدیك تر است).

سید رضی (رحمه الله) در مدح کلام مولی می گوید: این جمله گفتار آن حضرت "فاطأ ذکره"، کلامی است که در نهایت اعجاز و غایت فصاحت از آن جناب صادر شد. اراده کرده است از آن که من از ابتدای بیرون آمدن از مکه تا رسیدن بدین موضع، همواره از آن حضرت خبر می گرفتم، این مطلب را به این کنایه عجیب اداء فرموده است.

هجرت پیغمبر (ﷺ) از مکه به مدینه و جانشین شدن علی (عليه السلام)

آن بزرگوار را و در فراش او خفتن به اختصار

کفار مکه از هر قبیله ای تنی چند بر گزیدند که پیغمبر اکرم (ﷺ) را شبانه در بستر خوابش به قتل رسانند و چون بنو عبد مناف قوه مقابله و مقاتله با جمیع قبایل ندارند به دیت راضی شوند، جبرئیل رسول خدا (ﷺ) را از سوءنیت آن گروه اعلام فرمود و حضرتش را به مهاجرت اشارت کرد.

پیغمبر اکرم (ﷺ) علی (عليه السلام) را از آن اخبار فرمود و وی را جانشین خود قرار داد و زن و فرزندان و ودائعی را که مردم از جهت اطمینان و اعتمادی که به پیغمبر داشتند در نزد وی به امانت نهاده بودند، به دست علی (عليه السلام) سپرد، امیرالمؤمنین امر آن جناب را بی دریغ امتثال کرد و در جای رسول خدا (ﷺ) بخفت و درحقیقت جانش را وقایه و فدای پیغمبر اکرم (ﷺ) گردانید که رسول الله شبانه با ابوبکر به غار ثور رفته و سه شب در غار به سر برد تا جان به سلامت به

در برد و سپس به سوی مدینه مهاجرت فرمود و آیه کریمه "و من الناس من یشری نفسه ابتغاء مرضات الله و الله رؤوف باالعباد" در شأن علی (عليه السلام) در این موضوع نازل شد.

کفار چون گرد خانه پیغمبر (صلى الله عليه وآله) را گرفتند و علی (عليه السلام) را به جای پیغبر دیدند، ناامید شدند. امیرالمؤمنین (عليه السلام) سه روز در مکه بود و ودائع را به صاحبانش برگردانید و سپس با زن و فرزندان پیغمبر به سوی مدینه بدان راهی که رسول خدا (صلى الله عليه وآله) گام نهاد رهسپار شد. و مبدأ تاریخ هجری، چه قمری چه شمسی، از این جا آغاز می گردد.

بر مسلمان خردمند پوشیده نیست که این عمل امیرالمؤمنین (عليه السلام) موجب انتظام دین و ایمان و سبب خذلان اهل کفر و عدوان شد. علی (عليه السلام) جان خویش را در طاعت خدا و حفظ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بخشیده و در فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله) بخفت تا حضرتش را از کید اعداء برهانید و امر ملّت و دین و سلامت و بقاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) و کتاب الله بدان انتظام یافت و حافظ و حامی شریعت سیدالمرسلین (صلى الله عليه وآله) گردید، چه خداوند فرمود: "إنّا نحن نزّلنا الذکر و انا له لحافظون" و بر خردمند هوشیار معلوم است که بذل مال و کالا در ازاء بذل نفس بی مقدار است؛ • والجود بالنفس اقصی غایة الجود.

المختار المائتان والخامس والثلاثون

ومن خطبة له عليه السلام: فَاعْمَلُوا وأَنْتُمْ في نَفَسِ الْبَقاءِ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعى، وَالْمُسيءُ يُرْجَى قَبْلَ أَنْ يَخْمَدَ الْعَمَلُ ويَنْقَطِعَ الْمَهَلُ، ويَنْقَضِيَ الأَجَلُ، ويُسَدَّ بابُ التَّوْبَةِ، وتَصْعَدَ الْمَلائِكَةُ فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، ومِنْ فانٍ لِباقٍ، ومِنْ ذاهِبٍ لِدائمٍ، امْرُؤٌ خافَ اللّهَ وهُوَ مُعَمَّرٌ إلى أَجَلِهِ، ومَنْظُورٌ إلى عَمَلِهِ امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجامِها، وزَمَّها بِزِمامِها، فَأَمْسَكَها بِلِجامِها عَنْ مَعاصِي اللّهِ، وقادَها بِزِمامِها إلى طاعَةِ اللّهِ[1].

اللغة

(في نفس البقاء) أي في سعته. والنفس بالتحريك كالسبب السعة والفرج والمهلة والفسحة في الصحاح للجوهري: والنفس بالتحريك، يقال أنت في نفس من أمرك أي في سعة.

(الصحف) جمع الصحيفة أي: الكتاب وتجمع على الصحائف أيضاً والمراد به هنا صحائف أعمال الإنسان **(التوبة)** أصلها الرجع عما سلف ولذا فسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧] أي: فرجع عليه بالرحمة والقبول وفي الإصطلاح الندم على الذنب لقبحه عند العدلية ولذا عرفوها على التفصيل بقولهم: هي الندم على المعصية لكونها معصية مع العزم على ترك المعاودة في المستقبل، وبعبارة أخرى الندم على القبيح مع العزم أن لا يعود إلى مثله في القبح كما يأتي شرحها وتفسيرها والتوبة إذا أسند إلى الله تعالى تكون صلته على كقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ﴾ [البقرة: ١٢٨] وإذا أسند إلى العبد تكون صلته إلى كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] في صحاح الجوهري: وتاب إلى الله توبة ومتاباً وقد تاب الله عليه وفقه لها.

وقال الطبرسي في المجمع: **(التوبة)** والإقلاع والإنابة في اللغة نظائر وضد التوبة الإصرار والله تعالى يوصف بالتواب ومعناه أنه يقبل التوبة عن عباده وأصل التوبة الرجوع عما سلف والندم على ما فرط فالله تعالى تائب على العبد بقبول توبته، والعبد تائب إلى الله تعالى بندمه على معصيته **(يدعى ويرجى)** كل واحد منهم ناقص واوي من دعو ورجو. ويحتمل أن يكون يرجى من الأرجاء أي التأخير والإمهال وقلب الهمزة ياء لغة فيه فقلب الهمزة ياء ثم

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/١٩١، وشرح نهج البلاغة: ١٣/٣٠٧.

أبدل ألفاً ومنه قوله تعالى في الأعراف، والشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] قال الجوهري في صحاح اللغة: أرجأت الأمر: أخرته، بالهمز وبعض العرب يقول أرجيت، ولا يهمز.

(يخمد) في الصحاح: خمدت النار تخمد خموداً إذا سكن لهبها ولم يطفأ جمرها وخمدت الحمى سكن فورانها، وجاء من بأبي نصر وعلم قال يزيد بن حمان السكوني في الحماسة الثالثة والتسعين:

إني حمدتُ بني شيبان إذ خمدت نيرانُ قومي وفيهم شُبّت النارُ

وروى **(يحمد العمل)** بالهاء المهملة والأول أولى وأنسب بقرينة ينقطع.

(المهل) بالتحريك كالأجل: التؤدة وقال المرزوقي في شرحه على الحماسة المهْل والمهَل والمهلة تتقارب في إداء معنى الرفق والسكون والمراد به ها هنا العمر لذي أمهل الناس فيه.

(الأجل)بالتحريك: مدة الشيء، وقت الموت، غاية الوقت.

(فأخذ) أمر في صورة الخبر أي: فليأخذ.

(ميت) فعل من الوت وأصله ميوت كسيد سيود من السؤدد، قال نظام الدين النيشابوري في شرحه على الشافية لابن الحاجب: نحو سيد ليس مكرر العين إذ لم يوجد فعل بكسر العين في الأسماء الصحيحة ولا فعل بفتحها وفيعل بالكسر وإن لم يوجد في الصحيح إلا أنهم وجدوا فيعلاً بالفتح نحو صيرف وضيغ فكأنهم خصوا الأجوف بالكسر لمناسبة الياء
(اللجام) معرب لگام كما في الصحاح اللجام فارسي معرب.

(قادها) قدت الفرس وغيره أقود قوداً إذا مشيت أمامه آخذاً بمقوده عكس ساق يقال: ساق الدابة سوقاً من باب قال كقاد إذا حثها على السير من خلف.

الإعراب

كلمة الفاء في قوله ﷺ (فاعملوا) لمجرد الترتيب والتقدير أنتم في نفس البقاء وفاعملوا قبل أن يخمد العمل.

الواو في **(وأنتم في نفس البقاء)** للحال والجملة مبتدأ وخبر، والجمل الأربع بعدها معطوفة عليها أي والحال أنتم في نفس البقاء والحال الصحف منشورة وهكذا.

(قبل أن يخمد العمل) الظرف متعلق بقوله فاعملوا، والجمل الأربع بعدها معطوفة عليها أي: فاعملوا قبل أن ينقطع المهل فاعملوا قبل أن يتقضي الأجل وهكذا.

(فأخذ أمرؤ من نفسه لنفسه) أخذ فعل ماضٍ أقيم مقام الأمر أعني أنه أمر في صورة الخبر أي: فليأخذ وكلمة **(فا)** رابطة للجواب بالشرط والتقدير إذا كان كذلك فليأخذ، وكلمتا من واللام الجارتين متعلقان بأخذ واللام للتعليل وكذا الجمل الثلاث التالية.

(أمرؤ خاف) بدل لامرؤ في قوله فأخذ أمرؤ وكذا قوله أمرؤ ألجم نفسه.

(والواو) في وهو معمر للحال ومنظور عطف على معمر.

وقوله: **(فأمسكها بلجامها)** إلى قوله: **(طاعة الله)** مفصلة مبينة لقوله ألجم نفسه بلجامها وزمها بزمامها فالفاء فيها للترتيب لأن تلك الفاء تكون في عطف مفصل على مجمل كما في مغني اللبيب، وهذا المقام كذلك كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] ونحو قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [التحريم: ١٠] الآية.

والباءات الأربع للإستعانة نحو كتبت بالقلم نجرت بالقدوم. والأولى: متعلقة بألجم. والثانية: بزم. والثالثة: والجارة تاليها بأمسك. والرابعة: وتاليها بقاد.

المعنى

في هذه الخطبة يحرض عليه السلام الناس ويحثهم على طاعة الله والمتاب إليه تعالى، ونهي النفس عن الهوى وسوقها إلى الكمالات الإنسانية، ويحذرهم عن القنوط من رحمة الله وسوء الظن به تعالى، واليأس من روح الله بأن باب التوبة مفتوح ووقت العمل باقٍ فقال عليه السلام:

(فاعملوا وأنتم في نفس البقاء) أي: فاعملوا لآخرتكم وخذوا من ممركم لمقركم والحال أنتم في سعة من البقاء والحياة فلم يتصرم وقت العمل فاغتنموا الفرص وكونوا أبناء الوقت.

قوله عليه السلام: (والصحف منشورة) أي الصحائف التي كتب فيها أعمال الخلائق منشورة لم يطو بعد وإنما يطوى بانقضاء لأجل أي: فاعملوا وأنتم أحياء بعد لما علمت أن صحيفة أعمال الإنسان لا يطوى إلا إذا مات، فالإنسان متى لم يجيء أجله فهو في سعة أن يعمل الصالحات.

قوله عليه السلام: (والتوبة مبسوطة) أي: أن التوبة ليست مردودة عليكم ولا مقبوضة عنكم إن فعلتموها فهي مبسوطة وبابها مفتوح للإنسان إلى قبيل موته.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في آخر خطبة خطبها كما في من لا يحضره الفقيه للصدوق قدس سره: «من تاب قبل موته بسنّة تاب الله عليه ثم قال: وأن السنّة لكثيرة من تاب قبل موته بشهر

تاب الله عليه، ثم قال: وأن الشهر لكثير من تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه، ثم قال: وأن اليوم لكثير من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه. ثم قال: الساعة لكثيرة من تاب وقد بلغت نفسه هذه وأهوى بيده إلى حلقه تاب الله عليه»[١].

وفي مجمع البيان بعد نقل هذه الرواية عن الفقيه قال: وروى الثعلبي بإسناده عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ هذا الخبر بعينه إلا أنه قال في آخره: والساعة لكثيرة من تاب قبل أن يغرغر بها تاب الله عليه[٢].

وفي الكافي لثقة الإسلام الكليني قدس سره في باب وقت التوبة: عن بكير عن أبي عبد الله عليه السلام أو عن أبي جعفر عليه السلام: قال إن آدم قال: يا رب سلطت عليّ الشيطان وأجريته مجرى الدم مني فاجعل لي شيئاً. فقال: يا آدم جعلت لك أن من هم من ذريتك بسيئة، لم يكتب عليه شيء فإن عملها كتبت عليه سيئة ومن هم منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشراً. قال: يا رب زدني. قال: جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له. قال: يا رب زدني. قال: جعلت لهم التوبة وبسطت له التوبة حتى يبلغ النفس هذه قال: يا رب حسبي[٣].

وفيه أيضاً في ذلك الباب عن ابن وهب: قال خرجنا إلى مكة ومعنا شيخ متعبد متأله لا يعرف هذا الأمر يتم الصلاة في الطريق ومعه ابن أخ له مسلم فمرض الشيخ، فقلت لابن أخيه: لو عرضت هذا الأمر على عمك لعل الله تعالى أن يخلصه فقال: كلهم دعوا الشيخ حتى يموت على حاله فإنه حسن الهيئة فلم يصبر ابن أخيه حتى قال له: يا عم إن الناس ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفراً يسيراً وكان لعلي بن أبي طالب من الطاعة ما كانت لرسول الله ﷺ وكان بعد رسول الله ﷺ الحق والطاعة له قال: فتنفس الشيخ وشهق. وقال: أنا على هذا وخرجت نفسه فدخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فعرض علي بن السري هذا الكلام على أبي عبد الله عليه السلام فقال: هو رجل من أهل الجنة. فقال له علي بن السري: إنه لم يعرف شيئاً من ذلك غير ساعته تلك قال: فتريدون منه ماذا قد دخل والله الجنة[٤].

وفي الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا بلغت النفس هذه ـ وأومى بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالم توبة وكانت للجاهل توبة[٥].

---

(١) الفقيه: من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٣٣ ح ٣٥١، ووسائل الشيعة: ٢/ ٤٥٦ ح ٢٥٣٦.
(٢) بحار الأنوار: ٦/ ١٦، وتفسير مجمع البيان: ٣/ ٤٣.
(٣) كتاب الزهد: ٧٥، ح ٢٠١، والجواهر السنية: ١٢.
(٤) الشيعة في أحاديث الفريقين: ٤٩٨، وبحار الأنوار: ٢٨/ ٢٨٢.
(٥) الكافي: ٢/ ٤٤٠ ح ٣، وشرح أصول الكافي: ٢/ ١٦٧ ح ٣، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٨٧ ح ٢١٠٥٦.

وفي رياض السالكين في شرح الصحيفة لسيد الساجدين عليه السلام في الدعاء الحادي والثلاثين: قال بعض المفسرين: ومن لطف الله تعالى بالعباد إن أمر قابض الأرواح بالإبتداء في نزعها من أصابع الرجلين ثم تصعد شيئاً، فشيئاً إلى أن تصل إلى الصدر ثم تنتهي إلى الحلق ليتمكن في هذه المهلة من الإقبال على الله تعالى والوصية والتوبة، ما لم يعاين والإستحلال وذكر الله سبحانه فتخرج روحه وذكر الله على لسانه فيرجى بذلك حسن خاتمته(١).

وها هنا مباحث:

الأول: كما في المجلى وغيره أن التعلق بالجسمانيات موجب لبعد النفس عن المعقولات واشتغالها بالمجردات لشدة تعلقها وعظم إنغماسها في عالم الطبيعة فيحصل البعد الموجب للحرمان عن الوصول إلى الكمال.

وفي الكافي للكليني رحمه الله في غوائل الذنوب وتبعاتها: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أبي يقول ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله(٢).

وقال الفيض رحمه الله في الوافي في بيانه: يعني فما تزال تفعل تلك الخطيئة بالقلب وتؤثر فيه بحلاوتها حتى يجعل وجهه الذي إلى جانب الحق والآخرة إلى جانب الباطل والدنيا فحقيقة التوبة الإقلاع عن ذلك التعلق ونفي العلاقة وجذب النفس عن عالم الأجسام حتى يصير ذلك ملكة لها ليتعلق بعلم التطهير والحصول مع القديسين وبذلك ينجو عن ورطة الحجاب والبعد بسبب الإلتفات إلى المعقولات والتعلق بالمجردات، فإن البعد عن أحد الجانبين مقرب إلى الآخر ومن هذا قوله صلى الله عليه وآله: «الدنيا، والآخرة ككفتي ميزان أيهما رجحت نقصت الأخرى» وقال بعض أهل الحكة: أنهما كالضرتين الأنس بأحدها يوجب الوحشة من الأخرى.

وبالجملة الأمور الدنيوية والتعلق بها توجب الحرمان ومنع التعلق بالأمور الأخروية وبقدر ما يبعد عن أحدهما يقرب من الأخرى وعبر صلى الله عليه وآله عن هذه الجملة بقوله: الدنيا رأس كل خطيئة فلا يتحقق التوبة المعتبرة عند أهل الله إلا بالإعراض عن الأحوال الدنيوية بالكلية بحيث لا يلتفت إليها ويبعدها عن مطمح نظره كما جاء في الحديث: الدنيا محرمة على أهل الآخرة والآخرة محرمة على أهل الدنيا وهما معاً محرمتان على أهل الله ولهذا قيل: إن التوبة

(١) بحار الأنوار: ٦/١٧، وتفسير العياشي: ١/٢٢٨.

(٢) الأمالي: ٤٣٨، ح ٩٧٩، ومشكاة الأنوار: ٤٤٦.

على ثلاثة أنواع عام للعبيد كلهم وهي التوبة عن ترك الطاعة وفعل القبيح. وخاص بأهل الورع وهي التوبة عن فعل المكروه وترك المندوب، وأخص من الخاص وهي التوبة عن الإلتفات إلى غير الله وهي لأهل الولاية الذين هم في مرتبة الحضور في أغلب الأوقات، وتوبة نبينا ﷺ وأوليائه من هذا القبيل ومنه قوله ﷺ: إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة، وأهل هذه الطبقة هم أهل المراقبة.

الثاني: إن التوبة عن المعاصي واجبة على العباد وهو مبتن على مقدمة وهي: إن الحسن والقبح أمران عقليان وهذا حكم متفق عليه بين العدلية من الإمامية والمعتزلة وذهبت الأشاعرة إلى أن الحسن والقبيح إنما يستفادان من الشرع فكلما أمر الشرع، به فهو حسن وكلما نهى عنه فهو قبيح ولولا الشرع لم يكن حسن ولا قبيح ولو أمر الله تعالى بما نهى عنه لانقلب القبيح إلى الحسن والقول بثبوت الحسن والقبح عقلاً ما يدعى فيه أهل التحقيق والضرورة ومع ذلك نقول كما في المجلي:

لا ريب إن الحُسن والقبيح قد استعملا لما يلائم الطبع ولما ينافيه فيقال للأول: حسن. وللثاني: قبيح ويقالان باعتبار النقص والكمال فما هو كمال يقال له الحسن وما هو نقص يقال له قبيح، فمن الأول قولهم هذا طعم حسن وطعم قبيح وصورة حسنة وصورة قبيحة، باعتبار ملائمة الطبع ومنافرته، ومن الثاني قولهم العلم حسن والجهل قبيح، ومدرك هذا الحسن والقبيح في الموضعين هو العقل عند الكل بلا مرية وريب.

وأما باعتبار استحقاق المدح والذم بأن يقال: الحسن ما يستحق فاعله المدح والقبيح ما استحق فاعله الذم فهل هو مدرك بالعقل، ذلك موضع نزاع وأكثر العقلاء على ثبوتهما به بذلك المعنى وخالف الأشاعرة فيه وقالوا: لا حكم للعقل في ثبوتهما به بذلك المعنى بل إنما الحاكم بذلك الشرع فما مدح فاعله الشرع فحسن وما ذمه فقبيح وهذا الأصل هو مبني قواعد العدلية ومخالفوهم إذ مع تحقق ثبوت الحسن والقبح عقلاً يمكن للعقل المجال في البحث عن إثباتها ونفيهما باعتبار حسن المدح والذم عنده على تقدير وقوعهما من الفاعل المختار ولذا أسندوا القبائح إلى مباشرها القريب ونفوا جميع القبائح عن الحكيم تعالى نظراً إلى حكمته باعتبار أن وقوع القبيح مستلزم للذم عند العقل المنزه جناب الحق تعالى عنه المقدس عن النقائص وأثبتوا بذلك جميع الواجبات العقلية على الله تعالى وعلى غيره، نظراً إلى أن العقل يقسم الحسن عنده إلى ما ينتهي إلى الرجحان في جانب العقل إلى أن ينتهي إلى المنع من الترك، فقالوا: بوجوب التكليف وجميع فروعه على الله تعالى وأوجبوا على العاقل شكر المنعم والنظر في الأمور العقلية، وقالوا: إنه مكلف بهما وإن لم يرد الشرع بذلك ولهذا سموهم العدلية.

وأما الأشعري فلما لم يقل بثبوتها عقلاً لم يثبت شيئاً من ذلك عنده، بل قالوا: إن الله تعالى أخبر في الشرع بجميع ذلك فكل قبيح حسن إنما يعلم بإعلامه ولولاه لما كان للعقل علم بشيء منهما، فلا يقبح من الله شيء ولا يجب عليه شيء وكل ما سواه صادر عنه بناءً على ما أصلوه وهذا تحقيق أصل مذهب الفريقين في باب الأفعال ولكل من الفريقين دلائل مذكورة في مواضعها.

وقال العلّامة الحلي قدس سره في شرحه على تجريد الإعتقاد: وقد شنع أبو الحسين على الأشاعرة بأشياء ردية وما شنع به فهو حق إذ لا تتمشى قواعد الإسلام بارتكاب ما ذهب إليه الأشعرية من تجويز القبائح عليه تعالى، وتجويز إخلاله بالواجب وما أدري كيف يمكنهم الجمع بين المذهبين وأعلم أنه لا يشك عاقل إن الصدق المشتمل على النفع حسن في نفسه والكذب المشتمل على الضرر قبيح في نفسه سواء لاحظ الشرع أولاً فإن العاقل متى عرض ذلك على نفسه وفرض نفسه خالياً عن الشرع جزم به من غير أن يخالجه شك فيه ولا يعبأ بمن أنكر الضرورة إذ هو مكابر بمقتضى عقله فلا يلتفت إليه، ولهذا إن العاقل متى خير بين الصدق والكذب عند اختيار ما استوت منفعته ومضرته باعتبار وقوع أيهما منه يميل إلى الصدق ويختاره وما ذلك إلا لعلمه با فيه من الحسن الذاتي وبما في الكذب من القبح الذاتي، وإنما يتغيران بعوارض تعوق العقل عن أتباعهما لاعن العلم بهما فقد يختار الكذب ويترك الصدق إما لاشتمال الأول على مصلحة أو منفعة عاجلة، واشتمال الثاني عليّ مضرة عاجلة أو حصول منفعة، فيميل بحسب الطبيعة إلى مخالفة العقل طلباً لتلك الفائدة وترجيحاً لها لا لتغير في الصدق والكذب عن الحسن والقبح الذاتيين لها، وذلك بين تشهد به العقول السليمة عن آفة الإلفة والمحبة والتقليد.

وبوجه آخر: لو كان مدرك الحسن والقبح هوالشرع وحده لزم أن لا يتحققا بدونه لكن اللازم بطل فالملزوم مثله بيان الملازمة إنه على ذلك التقدير يكون الشرع علة في ثبوتهما أو شرطاً في تحققهما ويستحيل وجود المعلول بدون وجود العلة وثبوت المشروط بدون الشرط فعلى تقدير أنهما شرعيان يجب أن لا يحصلا إلا به وبيان بطلان اللازم أن من لا يعتقد الشرع من أصناف الكفر كأهل الهند والبراهمة والملاحدة يجزمون بحسن الصدق وقبح الكذب ووجوب شكر المنعم ويذمون فاعل الكذب وتارك الشكر ويمدحون فاعله وفاعل الحسن من غير أن يتوقفون في ذلك على الشرع لأنهم لا يعتقدون به.

فإن قلت: جاز أن يكون المدرك لذلك طباعهم.

قلت: الطباع مختلفة فلو كان المدرك لذلك طباعهم لما تحقق إتفاقهم فيه لكن الأمر ليس كذلك فلا يكون إلا عقلياً.

إن قلت: جاز أن يكون ذلك ثابتاً عندهم بشريعة سابقة نسختها هذه الشريعة.

قلت: إنما تجد هذا الحكم عند من ينفي الشرائع البتة بل ويقبح النبوات فلا يكون ذلك الوهم حاصلاً بالنسبة إليه مع أن هذا المعتقد في هذا الوقت لا يعرف تلك الشريعة ولا النبي الذي جاءها حتى يكون حكمه باعتبار الشرع.

فإن قلت: إن الله تعالى أجرى عادته بخلق هذه العلوم عند تصوراتهم.

قلت: لا يجدي ذلك نفعاً إذ لا يسمى ذلك شرعاً إتفاقاً فلا يكون إلا حكماً عقلياً.

ثم نقول: إنّ كل ما حكم به العقل حكم به الشرع ويعاضد العقل فيما حكم به كوحدة الصانع، وحسن الإحسان، وشكر النعم، ووفاء العهد، وأداء الأمانة، وقبح الكذب، والظلم، ونقض العهد، والخيانة، وكفر النعمة وغيرها من الأمور المدركة عند العقل وأما كل ما حكم به الشرع من الأحكام الخمسة المتعلقة على أفعال العباد فيحكم به العقل إن وصل إليه وأدركه. مثلاً إن الشارع تعالى أحل أكل الغنم بشرط أن يذبح على شرائط الذبح وإن مات هذا الغنم حتف أنفه أو لم يراع بعض تلك الشروط للذبح فهو ميتة فحرمها لمفسدة كامنة فيها، فإن أدرك العقل ما في الميتة من المفسدة يقضي على وجوب اجتنابها ويذم آكلها ويقبح عمله، وكذا إن الشارع تعالى أوجب صوم شهر رمضان ولا ريب أنه حسن في نفس الأمر وحرم صيام يوم الفطر وهو قبيح في نفس الأمر فلو أدركها العقل حق الإدراك لحكم بحسن الأول ووجوبه وقبح الثاني وحرمته.

ولذا قال المتكلمون إن البعثة حسنة لاشتمالها على فوائد وعدوا من تلك الفوائد هذين: معاضدة العقل فيما يدل عليه، واستفادة الحكم فيما لا يدل. والأحكام الخمسة مبتنية على مصالح ومفاسد كامنة في الأفعال والأشياء، خلافاً للأشاعرة قائلين بأن الحسن والقبح يستفادان من الشرع فكلما أمر الشرع به فهو حسن وكلما نهى عنه فهو قبيح ولولا الشرع لم يكن حسن ولا قبيح كما دريت.

وبالجملة العدلية أعني الإمامية والمعتزلة وجمهور الحكماء ذهبوا إلى أن الأحكام معللة بالمصالح والمفاسد الذاتية الكامنة في الأشياء، وأن أفعال العباد متصفة في نفس الأمر بالحسن، والقبح أدركهما العقل أم لا، لأنه لو كان جميع الأفعال في الحسن والقبح، والنفع، والضر على السواء ومع ذلك كان بعضها مأموراً به وفعله مطلوباً وبعضها الآخر منهياً عنه وتركه مطلوباً، للزم الترجيح بلا مرجح والتخصيص بلا مخصص وهو في نفسه محال وصدوره من الحكيم العليم القدير قبيح وممتنع وللحكماء المتكلمين من العدلية في إبرام هذا المعنى ورد أدلة الأشاعرة أدلة آخر أعرضنا عنها خوفاً للإطالة.

وقد حصرت على سبيل الإجمال في الضروريات الخمس الكلية التي عللت بها الأحكام الشرعية الكلية، فإن كل واحد منها حرم لحفظ شيء من تلك الكليات التي هي الضروريات التي لا يستقيم النوع إلا بحفظها، ففي من لا يحضره الفقيه لرئيس المحدثين الصدوق رضوان الله عليه وفي باب علل تحريم الكبائر من الوافي للفيض قدس سره نقلاً عنه:

كتب علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله: «حرم الله قتل النفس لعلة فساد الخلق في تحليله لو أحل وفنائهم وفساد التدبير»[١].

وحرم الله تعالى عقوق الوالدين لما فيه من الخروج من التوقير لله تعالى والتوقير للوالدين وكفر النعمة وإبطال الشكر، وما يدعو من ذلك إلى قلة النسل وانقطاعه لما في العقوق من قلة توقير الوالدين والعرفان بحقهما وقطع الأرحام والزهد من الوالدين في الولد وترك التربية لعلة ترك الولد برهما.

وحرم الله الزنا لما فيه من الفساد من قتل الأنفس وذهاب الأنساب وترك التربية للأطفال وفساد المواريث وما أشبه ذلك من وجوه الفساد.

وحرم الله عزّ وجلّ قذف المحصنات لما فيه من فساد الأنساب ونفي الولد وإبطال المواريث وترك التربية وذهاب المعارف وما فيه من الكبائر والعلل التي تؤدي إلى فساد الخلق.

وحرم الله أكل مال اليتيم ظلماً لعلل كثيرة من وجوه الفساد: أول ذلك إذا أكل الإنسان مال اليتيم ظلماً فقد أعان على قتله إذ اليتيم غير مستغنٍ ولا متحمل لنفسه ولا قائم بشأنه ولا له من يقوم عليه ويكفيه كقيام والديه فإذا أكل ماله فكأنه قد قتله وصيره إلى الفقر والفاقة مع ما حرم الله عليه، وجعل له من العقوبة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩] ولقول أبي جعفر عليه السلام: إن الله تعالى أوعد في أكل مال اليتيم عقوبتين عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة ففي تحريم مال اليتيم إستبقاء اليتيم واستقلاله لنفسه والسلامة للعقب أن يصيبهم ما أصابه، لما أوعد الله عزّ وجلّ فيه من العقوبة مع ما في ذلك من طلب اليتيم بثأره إذا أدرك ووقوع الشحناء والعداوة والبغضاء حتى يتفانوا.

وحرم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين والإستخفاف بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم والأئمة العادلة عليهم السلام وترك نصرتهم على الأعداء والعقوبة لهم على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل وترك الجور وإماتته والفساد ولما في ذلك من

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ٩٧، ومسند الإمام الرضا عليه السلام: ٢/ ٣٨٥، ح ٤.

جرأة العدو على المسلمين وما يكون في ذلك من السبي، والقتل، وإبطال حق الله تعالى وغيره من الفساد.

وحرم الله تعالى التعرب بعد الهجرة للرجوع عن الدين وترك الموازرة للأنبياء والحجج عليهم أفضل الصلوات وما في ذلك من الفساد وإبطال حق كل ذي حق حقه لا لعلة سكنى البدو ولذلك لو عرف الرجل الدين كاملاً لم يجز له مساكنة أهل الجهل والخوف عليه لأنه لا يؤمن إن وقع منه ترك العلم والدخول مع أهل الجهل والتمادي في ذلك.

وعلة تحريم الربا لما نهى الله تعالى ولما فيه من فساد الأموال لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً فبيع الربا وشراؤه وكس على كل حال على المشتري وعلى البائع فحظر الله تعالى على العباد الربا لعله فساد الأموال كما حظر على السفيه أن يدفع إليه ماله لما يتخوف عليه من إفساده حتى يونس منه رشده فلهذه العلة حرم الله تعالى الربا وبيع الربا بيع الدرهم بالدرهمين.

وعلة تحريم الربا بعد البينة لما فيه من الإستخفاف بالحرام المحرم وهي كبيرة بعد البيان وتحريم الله تعالى لها لم يكن ذلك منه إلا إستخفافاً بالمحرم الحرام والإستخفاف بذلك دخول في الكفر.

وعلة تحريم الربا بالنسبة لعلة ذهاب المعروف وتلف الأموال ورغبة الناس في الربح تركهم للقرض والقرض صنائع المعروف ولما في ذلك من الفساد، والظلم، وفناء الأموال[1].

وفي الفقيه أيضاً عن جابر عن زينب بنت علي عليها السلام قالت: قالت فاطمة عليها السلام في خطبتها في معنى فدك: لله بينكم عهد قدمه إليكم وبقية إستخلفها عليكم كتاب الله، بينة بصائره وآي منكشفة سرائره، وبرهان منجلية ظواهره، مديم للبرية إستماعه، وقائد إلى الرضوان إتباعه، مؤدياً إلى النجاة أشياعه، فيه تبيان حجج الله المنورة، ومحارمه المحذورة، وفضائله المندوبة، وجمله الكافية ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة وبيناته الجلية، ففرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر والزكاة زيادة في الرزق والصيام تبييناً للإلخلاص، والحج تسنيةً للدين والعدل تسكيناً للقلوب، والطاعة نظاماً للملة والإمامة لماً من الفرقة، والجهاد عزّ الإسلام والصبر معونة على الإستيجاب، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام وبر الوالدين وقاية عن السخط وصلة الأحارم منماة للعدد والقصص حقناً للدماء والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تعبيراً للحنيفية «تعييراً

(١) شرح اللمعة: ٣/ ٣٠١، وعيون أخبار الرضا (ع): ١/ ١٠١.

للبخسة» وقذف المحصنات حجباً عن اللعنة والسرقة إيجاباً للعفة وأكل أموال اليتامى إجارة من الظلم والعدل في الأحكام إيناساً للرعية، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية فاتقوا الله حق تقاته فيما أمركم الله به وانتهوا عما نهاكم[(١)].

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام: إنما حرم الربا كيلاً يمتنعوا من صنائع المعروف.

وفيه عن أبي جعفر عليه السلام: إنما حرم الله عزّ وجلّ الربا لئلا يذهب المعروف.

وفيه أيضاً: سأل هشام بن الحكم أبا عبد الله عليه السلام عن علة تحريم الربا فقال: إنه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه فحرم الله الربا ليفر الناس من الحرام إلى الحلال والتجارات وإلى البيع، والشرى فيبقى ذلك بينهم في القرض[(٢)].

وقال الفيض قدس سره في الوافي: ولتحريم الربا علة أخرى ذكرها بعض أهل المعرفة حيث قال: آكل الربا أسوأ حالاً من جميع مرتكبي الكبائر، فإن كل مكتسب له توكل ما في كسبه قليلاً كان أو كثيرً كالتاجر والزارع والمحترف لم يعينوا أرزاقهم بعقولهم ولم يتعين لهم قبل الإكتساب فهم على غير علوم في الحقيقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يعلم وأما آكل الربا فقد عين مكسبه ورزقه وهو محجوب عن ربه بنفسه وعن رزقه بتعيينه لا توكل له أصلاً فوكله الله تعالى إلى نفسه وعقله وأخرجه من حفظه وكلاءته فاختطفته الجن وخبلته، فيقوم يوم القيامة ولا رابطة بينه وبين الله عزّ وجلّ كسائر الناس المرتبطين به بالتوكل، فيكون كالمصروع الذي مسه الشيطان فيخبطه لا يهتدي إلى مقصد.

فإذا دريت إن أفعال العباد متصفة في نفس الأمر بالحسن، والقبح، العقليين فنقول: إن الأحكام المتعلقة بها تكون على خمسة أقسام، لأن الحسن ينقسم إلى الأحكام الأربعة الواجب والمندوب والمباح والمكروه والقبيح حرام فتصير أحكام الحسنة مع القبيح خمسة ووجه الحصر كما في المجلي وشرح التجريد للعلّامة.

إن العقل عند حدوث الفعل إما أن يصفه بوصف زائد على حدوثه أو لا يصفه بغير الحدوث والثاني حركات غير القاصد كالساهي والنائم، والأول لا يخلو ذلك الوصف إما جزم العقل بالنفرة منه وهو القبح وإلا فهو الحسن ثم الحسن إن رجح جانب الفعل إلى حد يمنع العقل من تركه، فهو الواجب وإلا فندب وإن كان راجح الترك رجحاناً لا يصل إلى المنع من فعله حتى ينفر العقل منه فمكروه، وإن تساوى طرفي الفعل والترك فمباح، فالقبيح

(١) بحار الأنوار: ٦/١٠٨، والتبيان: ٣/٤١٧.

(٢) ميزان الحكمة: ٢/١٠٣٢، ح ١٤٣٤، وبحار الأنوار: ١٠٠/١١٩، ح ٢٤.

ما كان على حد ينفر العقل منه بحيث يذم فاعله والحسن ما ليس كذلك.

فالواجب منه ما يحكم العقل بوجوب المدح لفاعله والذم لتاركه، والمكروه ما لا يستحق الذم بفعله ويستحق المدح بتركه، والندب ما يستحق المدح بفعله ولا ذم في تركه، والمباح ما لا يستحق بفعله ولا بتركه مدحاً ولا ذماً.

ليعلم أن هذا التقسيم منطبق على تقسيم القضايا الثلاث العقلية أعني الوجوب والإمكان، والإمتناع فإن الواجب لما كان راجح الفعل ممنوع من تركه كان نظير الواجب لذاته الذي هو راجح الوجود غير جائز العدم.

والحرام لما كان راجح الترك غير جائز فعله كان كالممتنع الذي هو راجح العدم ولا يصح وجوده.

والمندوب لما كان راجح الفعل مع جواز الترك كان كالممكن الواجب بعلته مع جواز العدم عليه باعتبار ذاته.

والمكروه لما كان راجح الترك مع جوز الفعل كان كالممتنع بغيره فإنه راجح العدم مع جواز الوجود باعتبار ذاته.

والمباح لما كان متساوي طرفي الفعل والترك من غير ترجيح لأحدهما كان كالممكن الصرف الذي لم يلاحظ معه علة الوجود ولا علة العدم.

فإذا علمت في هذه المقدمة أن الأحكام الخمسة مبتنية على المصالح والمفاسد الكائنة في الأشياء وأفعال العباد، وحرم هذه لمفسدة وضرر وأحل ذلك لمصلحة ونفع، وما حرم فهو قبيح في نفس الأمر وأن ارتكاب القبائح والمعاصي يبعد الإنسان عن الله تعالى ويوجب الحرمان وعن كماله اللائق له وكذا الإخلال بالواجب ولا ريب إن إزالة المضار واجبة في العقول لأن الذنوب سموم مهلكة فيجب عليه عقلاً وشرعاً أن يتوب إلى الله أي يندم على ترك الواجب وفي القبيح في الماضي لقبحه وأن يعزم على ترك المعاودة إليه فالتوبة واجبة لدفعها الضرر ولوجوب الندم على كل قبيح لقبحه أو إخلال بالواجب وعلى هذا التحقيق يستفاد فورية وجوب التوبة أيضاً كما لا يخفى.

وإنما قلنا: ولوجوب الندم على كل قبيح ليشمل الدليل الصغائر لو اعترض معترض أن قولنا لدفعها الضرر لا يشمل الصغائر.

وقال العلّامة الشيخ البهائي قدس سره كما في رياض السالكين: لا ريب في وجوب التوبة على الفور فإن الذنوب بمنزلة السموم المضرة بالبدن، وكما يجب على شارب السم المبادرة إلى الإستفراغ تلافياً لبدنه المشرف على الهلاك كذلك يجب على صاحب الذنوب

المبادرة إلى تركها والتوبة منها تلافياً لدينه المشرف على الإضمحلال، قال: ولا خلاف في أصل وجوبها سمعاً للأمر الصريح بها في القرآن والوعيد والحتم على تركها فيه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] وإنما الخلاف في وجوبها عقلاً فأثبته المعتزلة لدفعها ضرر العقاب(١).

وهذا كما لا يخفى لا يدل على وجوب التوبة عن الصغائر من يجتنب الكبائر، لأنها تكفره حينئذٍ ولذا ذهب البهشمية إلى وجوبها عن الصغائر سمعاً لا عقلاً نعم الإستدلال بأن الندم على القبيح من مقتضيات العقل الصحيح يعم القسمين.

وأما فورية الوجوب فقد صرح به المعتزلة وقالوا: يلزم بتأخيرها ساعة إثم آخر، تجب التوبة منه أيضاً حتى أن من أخر التوبة عن الكبيرة ساعة واحدة فقد فعل كبيرتين وساعتين أربع كبائر، الأوليان وترك التوبة عن كل منهما وثلاث ساعات ثمانِ كبائر وهكذا وأصحابنا يوافقونهم على وجوب الفورية لكنهم لم يذكروا هذا التفصيل فيما رأيته من كتبهم الكلامية.

ثم إن التوبة عن الذنوب تكون على صور تختلف بحسب إختلاف المعاصي، وذلك كما في شرح التجريد للعلّامة والمجلي لابن أبي جمهور الإحسائي وإحياء العلوم للغزالي وغيرها من الكتب الكلامية وغيرها: أن التوبة أما أن تكون من ذنب يتعلق به حقه تعالى خاصة أو يتعلق به حق الآدمي، والأول إما أن تكون من فعل قبيح كشرب الخمر، والزنا، أو إخلال بواجب كترك الزكاة والصلاة فالأول يكفي في التوبة منه الندم عليه والعزم على ترك العود إليه.

وأما الثاني: فيختلف أحكامه بحسب القوانين الشرعية فإن الذنب إذا لم يكن مستتبعاً لأمر آخر يلزم الإتيان به شرعاً كلبس الحرير وشرب الخمر وسماع الغناء كفى الندم عليه والعزم على عدم العود إليه، ولا يجب سوى ذلك وإن كان مستتبعاً لأمر آخر من حقوق الله أو من حقوق الناس مالياً أو غير مالي، وجبمع التوبة الإتيان به فمنه ما لا بد مع التوبة منه أداءه كالزكاة ومنه ما يجب معه القضاء كالصلاة ومنه ما يسقطان عنه كالعيدين وهذا الأخير يكفي فيه الندم والعزم على ترك المعاودة، كما في فعل القبيح وإما يتعلق به حق الآدمي فيجب فيه الخروج إليهم منه، فإن كان أخذ مال وجب رده على مالكه أو على ورثته إن مات، ولو لم يتمكن من ذلك وجب العزم عليه وكذا إن كان حد قذف وإن كان قصاصاً وجب الخروج إليهم منه، بأن يسلم نفسه إلى أولياء المقتول فإما أن يقتلوه أو يعفوا عنه بالدية

(١) بحار الأنوار: ٦/ ٤٨.

أو بدونها وإن كان في بعض الأعضاء وجب تسليم نفسه ليقتص منه في ذلك العضو إلى المستحق من الجني عليه أو الورثة.

بل في حقوق الناس غير المالية إن كانت غير حد كقضاء الفوات وصوم الكفارة ونحوهما يجب الإتيان بها مع القدرة الكمالية وإن كان حداً فالمكلف مخير بين الإتيان بذلك الأمر وبين الإكتفاء بالتوبة من الذنب المستتبع له، فالمكلف مخير في الحدود إن شاء أقر بالذنوب عند الحاكم ليقام عليه وإن شاء ستره واكتفي بالتوبة فلا حد حينئذٍ عليه إن تاب قبل قيام البينة به عند الحاكم.

وإن جني عليه في دينه بأن يكون قد أضله بشبهة إستنزله بها وجب إرشاده من الضلال وإرجاعه عما اعتقده بسببه من الباطل إن أمكن ذلك فإن مات قبل التمكن أو تمكن منه واجتهد في حل الشبهة فلم تنحل من نفس ذلك الضال فلا عقاب عليه لأنه قد استفرغ جهده.

وإن اغتاب أحداً فإن بلغ المغتاب إغتيابه يلزم عليه الإعتذار عنه إليه والإستحلال منه، لأنه أوصل إليه مضرة الغم فوجب عليه إزالة ذلك بالإعتذار منه والندم عليه وإن لم يبلغه لا يلزم عليه الإعتذار ولا الإستحلال منه لأنه لم يفعل به ألماً وفي كلا القسمين يجب الندم لله تعالى لمخالفته النهي والعزم على ترك المعاودة. وكذلك الكلام أن يسمع غيبته، كذا قال غير واحد من الإمامية وغيرهم في الغيبة.

وقال ابن أبي جمهور الإحسائي في المجلى: وروى وجوب الإستغفار له، يعني يجب على المغتاب «على الفاعل» الإستغفار للمغتاب «على المفعول».

وفي الكافي، والفقيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال سئل النبي صلى الله عليه وآله ما كفارة الإغتياب؛ قال: تستغفر الله لمن اغتبته كلما ذكرته[1].

وفي مجمع البيان في سورة الحجرات في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا» ثم قال: «إن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه» وسيأتي الكلام في الغيبة في محله إن شاء الله تعالى على التفصيل والبسط ونقل الأقوال والأخبار وجمعها[2].

وليعلم أن الإتيان بما يستتبعه الذنوب من قضاء الفوائت وأداء حقوق الله والناس

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٢٤١، ح ٤، ومستدرك سفينة البحار: ٨/ ٩١.

(٢) عولي اللئالي: ١/ ٣٧٤، ح ١٠٠، ومنية المريد: ٣٢٧.

وغيرها ليس شرطاً وشطراً في صحة التوبة.

ولذا قال المحقق الطوسي في التجريد بعد ذكر أداء الحقوق مطلقاً: وليس ذلك إجزاء، يعني ليس تلك الأمور إجزاء التوبة حتى لا يصح التوبة بدونها لإنتفاء الكل بدون الجزء.

وهذا رد على المعتزلة لأنهم ذهبوا كما في رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام إلى أن رد المظالم شرط في صحة التوبة فقالوا: لا تصح التوبة عن مظلمة دون الخروج عن تلك المظلمة كرد المال والإستبراء منه أو الإعتذار إلى المغتاب واسترضائه أن بلغه الغيبة ونحو ذلك.

وذهب أصحابنا الإمامية ووافقهم الأشعرية إلى أن ذلك واجب برأسه لا مدخل له في الندم على ذنب آخر.

قال الآمدي: إذا أتى بالمظلمة كالقتل، والضرب مثلاً وجب عليه أمران: التوبة، والخروج عن المظلمة، وهو تسليم نفسه مع الإمكان ليقتص منه، ومن أتى بالتوبة فقد أتى بأحد الواجبين ومن أتى بأحد الواجبين فلا تكون صحة ما أتى به متوقفة على الإتيان بالواجب الآخر كما لو وجب عليه صلاتان فأتى بإحداهما دون الأخرى.

وقال شيخنا البهائي قدس سره: واعلم أن الإتيان بما يستتبعه الذنوب من قضاء الفوائت وأداء الحقوق والتمكين من القصاص والحد ونحو ذلك، ليس شرطاً في صحة التوبة بل هذه واجبات برأسها والتوبة صحيحة بدونها وبها تصير أكمل وأتم.

قال بعض العلماء: التوبة تنتظم من أمور ثلاثة: علم، وحال، وعمل أما العلم فهو اليقين بأن الذنوب سموم مهلكة وحجاب بين العبد ومحبوبه، وهذا اليقين يثمر حالة ثانية هي التألم لفوات المطلوب والتأسف عن فعل الذنوب، ويعبر عن هذه الحالة بالندم وهي تثمر حالة ثالثة هي ترك الذنوب في الحال والعزم على عدم العود إليها في الإستقبال وتدارك في الماضي من حقوق الله تعالى وحقوق الناس، ولو لم يمكنه ذلك أي تدارك حقوق الناس كان عليه أن يكثر من العبادة ليبقى له قدر الكفاية في القيامة بعد أخذ حقوقهم منها.

وهذه الأمور مرتبة في الحصول ويطلق إسم التوبة تارة على مجموعها وتارة على الندم وحده ويجعل العلم كالمقدمة والترك كالثمرة فيكون الندم محفوفاً بالطرفين الطرف الأول مثمر الندم والطرف الآخر ثمرته كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الندم على الشر يدعو إلى تركه».

وترتب هذه الأمور غير مختص بالتوبة بل إنتظام الصبر والشكر والتوكل والرضا وغير ذلك من المقامات الدينية ينتظم من علم، وحال، وعمل.

وهذه الأمور الثلاثة إذا قيس بعضها إلى بعض لاح للناظرين إلى الظواهر: إن العلوم مطلقاً إنما تراد للأحوال والأحوال إنما تراد للأعمال، وأما أهل البصائر وأولو الألباب فالأمر عندهم بالعكس فإن الأعمال عندهم تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم، فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره يكون ذلك الغير لا محالة أفضل منه.

الثالث: إختلفوا في أن التوبة المبعضة أي التوبة من قبيح دون قبيح تصح أم لا فذهب أبو هاشم المعتزلي وجماعة إلى عدم صحتها وذهب أبو علي وجماعة إلى جواز ذلك وصحتها.

واحتج القائلون بعدم الجواز: على أن التوبة والندم عن القبيح إنما هو لقبحه وإلا لم يكن توبة حقيقة والقبح عام متحقق في الكل وحاصل في الجميع فلو تاب من بعضها دون بعض كشف ذلك عن كونه غير تائب عن القبيح لعلة القبح لأن الإشتراك في العلة يوجب الإشتراك في المعلول، وعند التبعيض تنتفي التوبة لأنها لم تحصل لعلة القبح بل لأمر آخر يوجد في هذا دون ذاك، كمن يتوب من المعصية حفظاً لسلامة بدنه أو لعرضه بحيث لا يثلم عند الناس أو لأمر آخر، فإن مثل هذا لا يعد توبة لانتفاء الندم على القبيح لقبحه فلو كان لكان عاماً في الجميع حتى قالوا: إن تاب خوفاً من النار فإن كان الخوف هو الغاية في توبته بحيث لولا خوفها لم يتب من الذنوب فلا تصح توبته، لأنه لم يتب منها ولم يندم عنها لقبحها وإن لم يكن خوف النار هو الغاية للتوبة بل يندم ويتوب لأنها قبيح ومع ذلك فيها عذاب النار بحيث لو لم يكن القبح لما ندم عليها وإن كان فيها عذاب النار صحت توبته.

وكذلك الحكم في الإخلال بالواجب بمعنى أنه: إن ندم عليه لأنه أخل بالواجب وأجمع على فعل الواجب فالتوبة صحيحة، وإن تاب خوفاً من النار أو من فوات الجنة فإن كان ذلك الخوف هو الغاية لم تصح توبته أيضاً، وإلا لكانت صحيحة ولذا لو اعتذر المسيء إلى المظلم لا لأجل إساءته بل لخوفه من عقوبة لم يقبل العقلاء عذره كما في شرح التجريد للعلّامة رحمه الله والمجلي وغيرهما.

واحتج المثبتون على جوازه قياساً على جواز الإتيان بواجب دون واجب يعنون بذلك أنه لو لم يصح التوبة عن قبيح دون قبيح لم يصح الإتيان بواجب دون واجب والتالي باطل فالمقدم مثله بيان الشرطية إذ كما يجب على التائب ترك القبيح لقبحه كذا يجب عليه فعل الواجب لوجوبه فلو لزم من اشتراك القبائح في القبح عدم صحة التوبة من بعضها دون بعض لزم من إشتراك الواجبات في الوجوب عدم صحة الإتيان بواجب دون واجب آخر وأما بطلان التالي فبالإجماع إذ لا خلاف في صحة صلاة من أخل بالصوم.

وأجابهم القائلون بعدم الجواز بالفرق بين ترك القبيح لقبحه وفعل الواجب لوجوبه، بأن

التعميم في الترك واجب دون الفعل فإن من قال لا آكل الرمان لحموضته يجب عليه الإمتناع من مجموعه لعلة الحموضة التي هي سبب لجهة الإتحاد في الترك والمنع بخلاف من قال أنا آكله لحموضته فإنه لا يجب أن يأكل جميعه بل يحصل الفعل بأكل رمانة واحدة فافترقا.

قال في المجلى: مع أن القياس لا يكون حجة في أمثال هذه المباحث فقال: أقول تحقيق حصول الفرق في هذا القياس أن التعليل المذكور كان قياساً لترك القبيح على فعل الواجب، لاشتراكهما في العلة وهي وجوب فعل الواجب لوجوبه ووجوب ترك القبيح لقبحه، وهذا القياس لا يتم لحصول الفرق بين الأصل والفرع فيه لأن أحدهما في باب الفعل والآخر في باب الترك فلا يتحدان في العلة، لأن الإختلاف في الأصل والفرع موجب لاختلافهما في العلة فيوجب الإختلاف في الحكم فلا يتم القياس مع وجود الفارق فلا يتم التعليل به.

أقول: والصواب صحة التوبة المعبضة كما ذهب إليه المحقق الطوسي والعلّامة الحلي والشيخ البهائي في شرح الأربعين والجمهور من الفريقين، وذلك لأن الأفعال تقع بحسب الدواعي وتنتفي بحسب الصوارف فإذا ترجح الداعي وقع الفعل فجاز أن يرجح فاعل القبائح داعيه إلى الندم عليها، وذلك بأن يقترن بعض القبائح بأمر زائد كعظم الذنب وكثرة الزواجر عنه أو الشناعة عند العقلاء فعله، فإن الأفعال الكثيرة قد تشترك في الداعي ثم يؤثر صاحب الدواعي بعض تلك الأفعال على بعض، بأن يرجح دواعيه إلى ذلك الفعل بما يقترن به من زيادة الدواعي فلا استبعاد في كون قبح الفعل داعياً إلى الندم على ذلك البعض، ولو اشتركت القبائح في قوة الدواعي إشتركت في وقوع الندم ولم يصح الندم على بعض دون آخر.

وقال العلّامة الشيخ البهائي في شرح الأربعين: والأصح صحة المبعضة وإلا لما صحت عن الكفر مع الإصرار على صغيرة، وقال العلّامة الحلي ولأن اليهودي لو سرق درهماً ثم تاب عن اليهودية دون السرقة فإنه يكون مسلماً بالإجماع.

والمحقق الطوسي ﷺ في التجرد بعد ما اختار هذا المذهب أعني صحة التوبة المبعضة قال: وبه يتأول كلام أمير المؤمنين وأولاده عليهم السلام وهو أن التوبة لا تصح عن بعض دون بعض وإلا لزم الحكم ببقاء الكفر على التائب منه المقيم على صغيرة.

وقال العلّامة في شرحه بعد تفسير مختاره: وعلى هذا ينبغي أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام أولاده كالرضا وغيره عليهم السلام حيث نقل عنهم: نفي تصحيح التوبة عن بعض القبائح دون بعض لأنه لولا ذلك لزم خرق الإجماع والتالي باطل فالمقدم مثله بيان الملازمة أن الكافر إذا تاب عن كفره وأسلم وهو مقيم على الكذب فأما أن يحكم بإسلامه

ويقبل توبته عن الكفر أولاً والثاني: خرق للإجماع لإتفاق المسلمين على إجراء أحكام المسلمين عليه فالأول هو المطلوب، وقد التزم أبو هاشم إستحقاقه عقاب الكفر وعدم قبول توبته وإسلامه لكن لا يمتنع إطلاق إسم الإسلام عليه(١).

نقل ابن أبي جمهور الإحسائي في المجلي عن بعض المشايخ أن القبيحين إذا اشتركا في علة القبيح لم يصح التوبة من أحدهما دون الآخر ولو اختلفا في العلة بأن يكون علة القبح في أحدهما غير علة قبح الآخر، صح التوبة من أحدهما دون الآخر، مثال الأول الزنا واللواط فإن العلة في قبحهما لحفظ النسب فاتحدا في علة القبح ومثال الثاني الزنا والشرب فإن العلة في الثاني لحفظ العقل والأول لحفظ النسب ولا تعلق لأحدهما بالآخر.

ثم قال ابن أبي جمهور: وهذا القول عن ذلك البعض قريب من الصواب بل هو التحقيق، وحمل كلام أئمة الهدى عليهم السلام على هذا الوجه أنسب مما ذكر في الأول يعني على ما ذهب إليه المحقق الطوسي وغيره في حمل كلامهم عليهم السلام عليه فتأمل.

فإن قلت: يأتي عن أمير المؤمنين عليه السلام في حكمه ومواعظه قال عليه السلام لقائل قال بحضرته: «أستغفر الله»: ثكلتك أمك أتدري ما الإستغفار؟ إن الإستغفار درجة العليين وهو إسم واقع على ستة معانٍ:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينها لحم جيد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر الله(٢).

وكلامه عليه السلام هذا دليل على عدم جواز التوبة عن قبيح دون قبيح، وأن تلك الشرائط الستة كلها شروط في حصول حقيقة التوبة والإنتفاع بالإستغفار، وأنه بدون اجتماعها غير نافع فكيف التوفيق؟

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ٤٥.

(٢) مكارم الأخلاق: ٣١٤، وبحار الأنوار: ٦/ ٣٧.

قلت: هذا إشارة إلى حقيقة التوبة الكاملة لا مطلق التوبة كما دريت إجماع المسلمين على قبول توبة يهودي لو سرق درهماً حيث تاب عن اليهودية دون السرقة ونظائرها.

الرابع: إختلف في التوبة المؤقتة مثل أن لا يذنب إلى سنة فذهب بعضهم إلى بطلانها لأنها إذا ندم على ذنب في وقت ولم يندم عليه في وقت آخر ظهر أنه لم يندم عليه لقبحه، ولا ندم عليه في جميع الأوقات وإذ لم يكن ندمه لقبحه لم يكن توبة، وذهب آخرون إلى صحتها كما في الواجبات فإنه قد يأتي المأمور ببعضها في بعض الأوقات دون بعضها ويكون المؤتى به صحيحاً في نفسه بلا توقف على غيره مع أن العلة المقتضية للإتيان بالواجب هي كون الفعل حسناً واجباً غايته أنه إذا عصى بعد ذلك جدد ذلك الذنب وجوب توبة أخرى عليه.

وتحقيق الحق في ذلك يبتني على تمهيد مقدمة، وهي: أن الإمامية والمعتزلة وبالجملة العدلية اشترطوا في صحة التوبة ترك المعاودة لذلك الذنب الذي تاب منه أي ذنب كان ومنعه الأشاعرة لأن الشخص قد يندم على الأمر زماناً ثم يبدو له، والله مقلب القلوب، قال الآمدي: التوبة مأمور بها فتكون عبادة، وليس من شرط صحة العبادة المؤتى بها في وقت عدم المعصية في وقت آخر بل غايته إذا ارتكب ذلك الذنب مرة ثانية وجب عليه توبة أخرى وإذا دريت هذه المقدمة فنقول:

الحق في ذلك عند أصحابنا الإمامية رضي الله عنهم والمعتزلة: الأول أي بطلان التوبة المؤقتة لأنهم قالوا: التوبة هي الندم على المعصية لكونها معصية، والعزم على ترك المعاودة في المستقبل، كما علمت فهم اشترطوا العزم على عدم العود أبداً وهذا الشرط يقتضي بطلانها، وأما الأشاعرة فحيث لم يشترطوا ذلك قالوا بالصحة لكن صرح بعضهم إن النادم على المعصية لا يخلو من ذلك العزم البتة على تقدير الخطور والإقتدار.

في الكافي للكليني (قده) عن الكناني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] قال: يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه.

قال محمد بن الفضيل: سألت عنها أبا الحسن عليه السلام فقال: يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه وأحب العباد إلى الله تعالى المنيبون التوابون.

وفيه أبو بصير سأل أبا عبد الله عليه السلام عنها فقال: هو الذنب الذي لا يعود إليه أبداً قال: قلت وأينا لم يعد؟ فقال: يأبا محمد إن الله تعالى يحب من عباده المفتن التواب[١].

«المفتن» من الإفتنان أو التفتين بمعنى الإيقاع في الفتنة أي الذنب. فتأمل.

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٣٢ ح٤، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٧٢ ح ٢١٠١١.

الخامس: ذهب جماعة من المعتزلة إلى أن التوبة إنما تجب من الكبائر المعلوم كونها كبائر والمظنون فيها ذلك، ولا تجب من الصغائر المعلوم كونها صغائر، لأن التوبة إنما تجب رفعاً للضرر وهو غير حاصل في الصغيرة. وقال آخرون إنها لا تجب من ذنوب تاب عنها من قبل.

والحق عندنا الإمامية أنها تجب من جميع الكبائر، والصغائر، والإخلال بالواجب سواء تاب عنها قبل أو لم يتب، لأن ترك التوبة من المعصية صغيرة كانت أو كبيرة إصرار عليها، وهو قبيح لا خلاص منه إلا بالتوبة فهي واجبة في جميع المعاصي، ولأن التوبة عن القبيح إنما تجب لكونه قبيحاً وهو عام، ولأن وجه الوجوب هو اشتمال الصغيرة على القبح سواء اشتمل على ضرر أم لا.

السادس: ذهب قاضي القضاة المعتزلي: إلى أن التائب إن كان عالماً بذنوبه على التفصيل وجب عليه التوبة عن كل واحد منها مفصلاً وإن علم بعضها مفصلاً وبعضها مجملاً وجب عليه التفصيل فيما علم مفصلاً والإجمال فيما علم مجملاً.

وقال العلّامة البهائي قدس سره: أما التوبة المجملة كأن يتوب عن الذنوب على الإجمال من دون تفصيلها وهو ذاكر للتفصيل، فقد توقف فيها المحقق الطوسي والقول بصحتها غير بعيد، إذ لا دليل على اشتراط التفصيل.

أقول: ولعله قدس سره إستفاد توقف المحقق الطوسي فيها من قوله في التجريد: وفي إيجاب التفصيل مع الذكر إشكال، حيث إنه لم ينجز في ذلك بل عبر بلفظة إشكال، وقال العلّامة الحلي في شرحه بعد ما نقل مذهب قاضي القضاة على ما مر آنفاً: واستشكل المصنف ـ يعني به المحقق الطوسي ـ إيجاب التفصيل مع الذكر لإمكان الإجراء بالندم على كل قبيح وقع منه وإن لم يذكره مفصلاً. إنتهى[1].

والصواب صحة التوبة المجملة والقول باشتراط التفصيل موهون جداً نظير قصد الصوم إذ يكفي فيه نية الكف عن المفطرات وإن لم يحضرها بباله على التفصيل، على أنه لا دليل على اشتراط التفصيل وإنّى لذلك البعض المعتزلي إثبات ذلك.

السابع: إختلف في أن المكلف إذا تاب عن معصية ثم ذكرها هل يجب عليه تجديد التوبة أم لا؟ قال المحقق الطوسي وفي وجوب التجديد أيضاً إشكال. وقال العلّامة ﷺ في

---

(١) راجع البحار: ٦/ ٤٧.

الشرح، قال أبو علي: نعم ـ أي يشترط تجديد التوبة عند تذكر الذنب ـ بناءً على أن المكلف القادر بقدرة لا ينفك عن الضدين إما الفعل أو الترك فعند ذكر المعصية إما أن يكون نادماً عليها أو مصراً عليها والثاني قبيح فيجب الأول.

وقال أبو هاشم: لا يجب لجواز خلو القادر بقدرة عنها فجاز أنه إذا ذكرها لم يندم عليها ولا يشتهي إليها ولا يبتهج بها.

وقال في رياض السالكين في الروضة الحادية والثلاثين عند قوله عليه السلام: «فاجعل توبتي هذه توبة لا أحتاج بعدها إلى توبة»: قد يستفاد من قوله عليه السلام فاجعل توبتي «الخ» عدم وجوب تجديد التوبة عند تذكر الذنب خلافاً لمن ذهب إلى أن المتذكر للذنب كالمقارف له فيجب عليه تجديد التوبة[1].

قال الآمدي: يدل على بطلان ذلك أنا نعلم بالضرورة أن الصحابة ومن أسلم بعد كفره، كانوا يتذكرون ما كانوا عليه في الجاهلية من الكفر ولم يجب عليهم تجديد الإسلام ولا أُمروا بذلك وكذلك في كل ذنب وقعت التوبة عنه.

أقول: ولا كلام أن التوبة إنما تكون عن ذنب فمن عمل ذنباً فتاب عنه ثم تذكر ذلك الذنب لا يكون صرف تذكره ذنباً بالإتفاق، فلم يفعل عملاً قبيحاً ولم يرتكب ذنباً حتى يتوب عنه، فما قال أبو علي كان بمعزل عن التحقيق وما توسل به الآمدي مؤيد سديد لما اخترناه وحققناه.

الثامن: قال في رياض السالكين: قال شيخنا البهائي في شرح الأربعين العزم على عدم العود إلى الذنب فيما بقي من الأمر لا بد منه في التوبة وهل إمكان صدوره منه في بقية العمر شرط حتى لو زنا ثم جب وعزم على أن لا يعود إلى الزنا على تقدير قدرته عليه لم تصح توبته أم ليس بشرط فتصح؟ الأكثر على الثاني بل نقل بعض المتكلمين إجماع السلف عليه، وأولى من هذا بصحة التوبة من تاب في مرض مخوف غلب على ظنه الموت فيه.

أما التوبة عند حضور الموت وتيقن الفوت وهو المعبر عنه بالمعاينة، فقد انعقد الإجماع على عدم صحتها ونطق بذلك القرآن العزيز، قال سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

---

(١) المصدر السابق.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1]، والغرغرة تردد الماء وغيره من الأجسام المائعة في الحلق، والمراد تردد الروح وقت النزع وقد روى محدثوا الإمامية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أحديث كثيرة في أنه لا تقبل التوبة عند حضور الموت، وظهور علاماته ومشاهدة أهواله.

وكذا قوله تعالى في سورة يونس في غرق فرعون وتوبته: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ صريح في أن التوبة حين الإيقان بالهلاك والموت، واليأس من الحياة ليست بمقبولة، لأنه يكون العبد هناك ملجئاً إلى فعل الحسنات وترك القبائح فيكون خارجاً عن حد التكليف، إذ لا يستحق على فعله المدح ولا الذم وإذا زال عنه التكليف لم تصح منه التوبة، فعند ظهور علامات الموت ومشاهدة أهواله تصير الأمر عياناً فيسقط التكليف كما أن أهل الآخرة لما صارت معارفهم ضرورية سقطت التكليف عنهم.

وفي الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ قال ذلك إذا عاين أمر الآخرة.

وفي الحديث: من تاب قبل أن يعاين، قبل الله توبته، وفسر قوله عليه السلام: قبل أن يعاين بمعاينة ملك الموت، وهو المروي عن ابن عباس[2].

ويمكن أن يراد بالمعاينة علمه بحلول الموت وقطعه الطمع من الحياة وتيقنه ذلك، كأنه يعاينه، وأن يرد معاينة النبي ﷺ والوصي عليه السلام فقد روي أنهما يحضران عند كل محتضر ويبشران بما يؤل إليه من خير وشر، ومعاينة منزلته في الآخرة كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار.

وبالجملة تصريح الآيات والأخبار وبرهان العقل والإجماع على أن التوبة عند المعاينة ليست بمقبولة، ولو كان في ذلك خبر ظاهره يوهم خلافه، فمأول إلى ذلك المعنى المبرهن الصحيح على العقل والنقل.

ثم الظاهر أن المرض المهلك ليس من باب المعاينة لأن الموت منه ليس بمتحقق قطعاً فيمكن إنصراف بعض الأخبار المخالف ظاهرها الكتاب والعقل، والإجماع على تلك الحال.

---

(١) الإيضاح: ٣٦١، ح ٢، وميزان الحكمة: ١/ ٣٤٠.

(٢) الكافي: ٢/ ٤٤٠ ح٢، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٨٧ ح ٢١٠٥٧

وما في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا بلغت النفس هذه ـ وأومى بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالم توبة وكانت للجاهل توبة، فتشديد للعالم دون الجاهل للفرق البين بينهما.

التاسع: المراد بقبول التوبة إسقاط العقاب المترتب على الذنب الذي تاب منه وسقوط العقاب بالتوبة مما أجمع عليه أهل الإسلام، ولكن اختلفوا في أن التوبة تسقط العقاب بذاتها لا على معني أنها لذاتها تؤثر في أسقاط العقاب، بل على معنى أنها إذا وقعت على شروطها والصفة التي بها تؤثر في إسقاط العقاب من غير اعتبار أمر زائد، وقال آخرون إنها تسقط العقاب لكثرة ثوابها وذهب المحقق الطوسي إلى الأول واستدل عليه كما في التجريد وشرحه للعلّامة بوجوه:

الأول: إن التوبة قد تقع محبطة بغير ثواب كتوبة الخارجي من الزنا فإنه يسقط بها عقابه من الزنا ولا ثواب لها.

الثاني: أنه لو أسقطت العقاب بكثرة ثوابها لم يبق فرق بين تقدم التوبة على المعصية وتأخرها عنها كغيرها من الطاعات التي يسقط العقاب بكثرة ثوابها، ولو صح ذلك لكان التائب عن المعاصي إذا كفر أو فسق أسقط عنه العقاب.

الثالث: لو أسقطت العقاب لعظم ثوابها لما اختص بها بعض الذنوب عن بعض، فلم يكن إسقاطها لما هي توبة عنه بأولى من غيره لأن الثواب لا اختصاص له ببعض العقاب دون بعض.

والمحقق الطوسي أجاب عن حجة المخالف تقرير تلك الحجة أن التوبة لو أسقطت العقاب لذاتها وسقطته في حال المعاينة وفي الدار الآخرة. والجواب عنها أنها تؤثر في الإسقاط إذا وقعت على وجهها وهي أن تقع ندماً على القبيح لقبحه وفي الآخرة يقع الإلجاء فلا يكون الندم للقبيح.

وبالجملة لا خلاف في سقوط العقاب بالتوبة، وإنما الخلاف في أنه هل يجب على الله تعالى حتى لو عاقب بعد التوبة كان ظلماً أو هو تفضل يفعله سبحانه كرماً منه ورحمة بعباده؟ المعتزلة على الأول والأشاعرة على الثاني، وإليه ذهب الشيخ أبو جعفر الطوسي قدس الله روحه في كتاب الاقتصاد والعلّامة في بعض كتب الكلامية، وتوقف المحقق الطوسي في التجريد ومختار الشيخين هو الظاهر ودليل الوجوب مدخول.

قال ابن أبي جمهور الإحسائي في المجلى: والمعتزلة بنوه على أصلهم من منع العفو عن الفاسق فلو لم يجب سقوط العقاب بها قبح تكليف العاصي فإن حسنه للتوصل به إلى

حصول الثواب وهو لا يجتمع مع استحقاق العقاب عندهم فلا خلاص من العقاب حينئذ فيقبح التكليف هذا خلف.

وأيضاً فإن سقوط الذنب عقيب التوبة واجب فكذا العقاب لأنهما معلولاً علة واحدة هو فعل القبيح، وسقوط أحد المعلولين يستلزم سقوط المعلول الآخر، لارتفاع العلة بارتفاع، أحدهما فيرتفع الآخر بارتفاعها ولهذا أنه متى اعتذر إلى من أساء إليه وعرف صحة نيته وخلوص اعتذاره وندمه وجب أن يسقط ذمه على تلك الإساءة، ولهذا أن العقلاء يذمون من يذمه عقيب ذلك.

والاعتراض عليه أما أولاً فلابتنائه على منع العفو وهو ممنوع مع جواز أن بعض القبائح يقتضي الذم ولا يقتضي العقاب كما في حقه تعالى مع العفو. وعلم من هذا أن الذم والعقاب لا تلازم بينهما في الوقوع ومع عدم التلازم جاز ارتفاع أحدهما دون الآخر نعم هما متلازمان في الإستحقاق فيتم الكلام على تقديره. وقريب من ما في المجلي في كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد.

فإن قلت: لو لم يجب قبولها وجب قبول الإسلام من الكافر فلا يصح تكليفه وذلك مخالف للإجماع؟

قلت: الفرق ثابت فإنه لما ثبت دوام عقاب الكافر وعدم جواز انقطاعه بالأدلة النقلية لم يكن ثم طريق إلى حسن تكليفه إلا بوجوب قبول إسلامه، ولا كذلك العاصي لوجوب انقطاع عقابه بل جواز العفو عنه فلا يقبح تكليفه حينئذٍ لثبوت استحقاق الثواب له، وإن لم تجب قبول توبته فمع هذا الفرق لا يتحقق الإيراد.

والحق عندنا أن سقوط العقاب بالتوبة تفضل من الله تعالى فإنه لو وجب لكان:

إما لوجوب قبوله والقول بالوجوب ممنوع فإن من عصا أمر غيره وأساء إليه بأعظم الإساءات ثم اعتذر إليه لا يجب عقلاً على ذلك الغير قبول عذره والإغماض عنه، وإن لم يعف عنه لا يذمه العقلاء بل قديرون حسن رده المسيء وعدم العفو عنه.

أو لكثرة ثوابها فهو أيضاً ممنوع لابتنائه على التحابط وهو باطل كما حقق في محله.

العاشر: قال في رياض السالكين: صرح أكثر علمائنا باستحباب الغسل للتوبة بعدها سواء كان عن كفر أو فسق وسواء كان الفسق عن صغيرة أو كبيرة، بل صرح الشهيد الثاني رحمه الله في شرح اللمعة باستحبابه للتوبة عن مطلق الذنب وإن لم يوجب الفسق كالصغيرة النادرة، وخصه المفيد بالتوبة عن الكبائر قيل ولعل ملحوظه إن الذنوب كلها كبائر لاشتراكها في الخروج عن طاعة الله، وإنما يطلق الكبر والصغر على الذنب بالإضافة إلى ما تحته وما

فوقه، فالقبلة صغيرة بالنسبة إلى الزنا وكبيرة بالنسبة إلى النظر، وقد نسب الشيخ أبو علي الطبرسي رضوان الله عليه القول بذلك إلى أصحابنا رضي الله عنهم.

الحادي عشر: في رياض السالكين أيضاً: قال بعض الناصحين إذا أردت توبة فبرىء نفسك من التبعات وقلبك من الذنوب ووجه وجهك إلى علام الغيوب بعزم صادق ورجاء واثق، وعد أنك عبد آبق من مولى كريم رحيم حليم يحب عودك إلى بابه واستجارتك به من عذابه، وقد طلب منك العود مراراً عديدة وأنت معرض عن الرجوع إليه مدة مديدة مع أنه وعدك إن رجعت إليه وأقلعت عما أنت عليه بالعفو عن جميع ما صدر عنك والصفح عن كل ما وقع منك، وقم واغتسل إحتياطاً وطهر ثوبك وصل بعض الفرائض واتبعها بشيء من النوافل ولتكن تلك الصلاة على الأرض بخشوع وخضوع واستحياء وانكسار وبكاء وفاقة وافتقار في مكان لا يراك فيه ولا يسمع صوتك إلا الله سبحانه، فإذا سلمت فعقب صلاتكم وأنت حزين مستحي رجل راج ثم إقرأ الدعاء المأثور عن زين العابدين عليه السلام الذي أوله «يا من برحمته يستغيث المذنبون»[١].

ثم ضع وجهك على الأرض واجعل التراب على رأسك ومرغ وجهك الذي هو أكرم أعضائك في التراب بدمع جار وقلب حزين وصوت عالٍ، وأنت تقول: عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك، تكرر ذلك وتعدد ما تذكره من ذنوبك لائماً نفسك موبخاً لها نائحاً عليها نادماً على ما صدر منها، وابق على ذلك ساعة طويلة ثم قم وارفع يديك إلى التواب الرحيم، وقل: إلهي عبدك الآبق رجع إلى بابك عبدك العاصي رجع إلى الصلح عبدك المذنب أتاك بالعذر وأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، ثم تدعو ودموعك تنهمل بالدعاء المأثور عن زين العابدين عليه السلام وهو الذي أوله «اللهم يا من لا يصفه نعت الواصفين».

واجهد في توجه قلبك إليه وإقبالك بكليتك عليه مشعراً نفسك سعة الجود الرحمة، ثم اسجد سجدة تكثر فيها البكاء والعويل والإنتحات بصوت عالٍ لا يسمعه إلا الله تعالى، ثم إرفع رأسك واثقاً بالقبول فرحاً ببلوغ المأمول والله ولي التوفيق.

الثاني عشر: وفيه أيضاً: قال بعض أرباب القلوب: الناس في التوبة على أحوال: رجل مسوف بالتوبة مدافع بها إغتر بطول الأمل ونسي هجوم الأجل، فهذا متى أدركه الموت أدركه على الإصرار فهو هالك، وآخر تائب ما لم يجد شهوة فإذا وجد ركب هواه وأضاع المحاسبة لنفسه، فهذا مستوجب للعقوبة من الله، ورجل تائب بقلبه إلا أن نفسه تدعوه إلى الشيء مما يكره، فهذا يحتاج إلى الأدب لنفسه، وفائدته على قدر مجاهدته، ورجل مديم

(١) فضل الكوفة ومساجدها: ٦٩، والمزار: ١٥٦.

للحساب قد قام على ساق مقام الخصم فهذا مستوجب للعصمة من الله، **ورجل قد هام به** خوفه من ذنوبه ولم تبق فيه باقية فهذا المتوحد بولاية الله.

وقال العلّامة الشيخ البهائي قدس سره: من أهمل المبادرة إلى التوبة وسوفها من وقت إلى وقت فهو بين خطرين عظيمين إن سلم من واحد فلعله لا يسلم من الآخر:

أحدهما: أن يعاجله الأجل فلا يتنبه من غفلته إلا وقد حضره الموت وفات وقت التدارك وانسدت أبواب التلافي وجاء الوقت الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وصار يطلب المهلة يوماً أو ساعة فلا يجاب إليها كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

قال بعض المفسرين في تفسيره هذه الآية: إن المحتضر يقول عند كشف الغطاء يا ملك الموت أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب إليه وأتزود صالحاً، فيقول فنيت الأيام فيقول أخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات، فيغلق عنه باب التوبة ويغرغر بروحه إلى النار ويتجرع غصة اليأس وحسرة الندامة على تضييع العمر وربما اضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال.

وثانيهما: أن يتراكم ظلم المعاصي على قلبه إلى أن تصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو، فإن كل معصية يفعلها الإنسان تحصل منها ظلمة في قلبه كما تحصل من نفس الإنسان ظلمة في المرآة، فإذا تراكمت ظلمة الذنوب صارت ريناً كما يصير بخار النفس عند تراكمه على المرآة صدأً، وإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم بعضه فوق بعض وطال مكثه وغاض في جرمها وأفسدها، فصارت لا تقبل الصيقل أبداً.

وقد يعبر عن هذا بالقلب المنكوس والقلب الأسود كما روي عن الباقر عليه السلام: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة إن القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله.

وعنه عليه السلام: ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطي البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

فقوله عليه السلام: لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، يدل على أن صاحب هذا القلب لا يرجع

(١) الإختصاص: ٢٤٣، وبحار الأنوار: ٧٠/ ٣٣٢، ح ١٧.

عن المعاصي ولا يتوب منها أبداً، ولو قال بلسانه تبت إلى الله يكون هذا القول منه مجرد تحريك اللسان من دون موافقة القلب فلا أثر له أصلاً كما أن قول الغسال غسلت الثوب لا يصير الثوب نقياً من الأوساخ.

وربما يؤول صاحب هذا القلب إلى عدم المبالاة بأوامر الشريعة ونواهيها فيسهل أمر الدين في نظره ويزول وقع الأحكام الإلهية من قلبه وينفر عن قبولها طبعه، وينجر ذلك إلى اختلال عقيدته وزوال إيمانه، فيموت على غير الملة وهو المعبر عنه بسوء الخاتمة، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ومن كلام بعضهم: إغتنموا التوبة قبل أن يصير القريب تائباً والمقيم ماضياً وقبل أن يكون المحصول ندماً والموجود عدماً وقبل أن يضرب الأدبار على المصرين سرادق الخسار فلا إقالة عثار ولا توفيق إنابة واعتذار.

وفي آخر كشكول الشيخ البهائي قدس سره: في الحديث: إذا تاب الشيخ الهرم قالت الملائكة الآن وقد خمدت حواسك وبردت أنفاسك.

ذكر العطبي أنه قيل لرجل عند الوفاة: قل لا له إلا الله، فقال: آه، ويلي على الشباب وفي أي زمان فقدت شرخ الشباب حين مات الغيور وارتخص المهر وغاب الحجاب عن كل باب.

وقيل لآخر وقد قرب خروج نفسه وانقطاع نفسه قل: لا إله إلا الله، فقال لهف نفسي على الزمان وفي أي زمان دهتني الأزمان حين ولي الشتاء واستقبل الصيف وطاب المدام والريحان.

واحتضر آخر فقيل له قل: لا إله إلا الله، فقال: برد الليل وطاب الماء والتذ الشراب ومضى عنا حزيران، وتموز، وآب ثم قضى لوقته.

وقالت إمرأة لرجل كان منزله قريباً من حمام منجاب ببغداد: يا رجل أين الطريق إلى حمام منجاب؟ أومى إليها وأرشدها إلى طريق غيره في سكة خراب لا منفذ لها وتبعها إليها ففجر بها فلما حضرته الوفاة قيل له قل: لا إله إلا الله فقال:

يا رب قائلة يوماً وقد لقيت أين الطريق إلى حمام منجاب

ومات لوقته. هكذا يدرك سوء الخاتمة وتهوى بالمخذولين مدرجة العاقبة نعوذ بالله من ذلك.

قال بعض أرباب القلوب: التائبون المنيبون على أنواع: تائب يتوب من الذنوب

والسيئات، وتائب يتوب من الزلل، والغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات ومشاهدة الطاعات وعلى هذا سئل بعضهم أي الأعمال أرفع ثواباً فأنشد:

إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

قوله: أدل بها، من الدلال أي التغنج وبالفارسية ناز كردن وكأنه يشير إلى الحديث المشهور حسنات الأبرار سيئات المقربين.

الثالث عشر: في ذكر بعض الآيات والأخبار في الحث على التوبة.

قال عزّ من قائل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال تعالى شأنه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].

في الكافي عن ابن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله تعالى فستر عليه فقلت: وكيف يستر عليه قال: ينسى ملكيه ما كانا يكتبان عليه ثم يوحي الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتيم عليه ذنوبه فيلقى الله تعالى حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب[1].

وفيه عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة أما والله أنها ليست إلا لأهل الإيمان، قلت: فإن عاد بعد التوبة والإستغفار في الذنوب عاد في التوبة، فقال: يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر الله تعالى منه ويتوب ثم لا يقبل الله تعالى توبته؟ قلت: فإنه فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر فقال: كلما عاد المؤمن بالإستغفار والتوبة عاد الله تعالى عليه بالمغفرة وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن

(١) مشكاة الأنوار: ٢٠٢، وبحار الأنوار: ٦/٢٨، ح ٣١.

السيئات قال: فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله تعالى[(١)].

وفيه عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء. إلى غير ذلك من الآيات والأخبار وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله تعالى[(٢)].

قوله عليه السلام: (والمدبر يدعى) أي من أسرف على نفسه فأدبر عن طاعة الله وأعرض عن جانب جنابه يدعى إليه وينادي يا فلان أقبل إلى طاعة الله وارجع إلى رحمة الله وإلى ما يصلحك من الكمالات اللائقة لك وخلص نفسك من سجن الدنيا وقيد الهوى:

بال بگشا وصفير ازشجر طوبى زن　　حيف باشد چو تومر غي كه اسير قفسى

قوله عليه السلام: (والمسيء يرجى) أي من أساء يرجى عوده عن الإساءة وإقلاعه عن المعصية فإنه جلّ جلاله أرحم الراحمين ويحب التوابين، هذا إن أخذ يرجى من رجو وإن كان من الأرجاء بمعنى التأخير والإمهال كما مر بيانه في اللغة، فمعناه إن من عصى فأساء يؤخر عقابه فلعله يتوب كما هو مضمون عدة الأخبار في ذلك ومضى بعضها من قبل وهذا كله تحضيض وحث على الرجوع عن المعصية والتوبة إليه تعالى، والله برحمته الواسعة يعفو عن السيئات وسبقت رحمته غضبه ويقبل التوبة عن عباده وهو أرأف من الوالد بولده ونعم ما نظمه العارف السعدي:

خداوند بخشنده دستگير　　كريم خطا بخش پوزش پيذير
نه گرد نكشا نرا بگيرد بفور　　نه عذر آوران را براند بجور
وگر خشم گيردز كردر زشت　　چو باز آمدى ما جرى در نوشت
وگربا پدرجنگ جويد كسى　　پدر بيگمان خشم گيرد بسى
وگر بنده چابك نيايد بكار　　عزيزش ندارد خداوند گار
وگربر رفيقن نباشى شفيق　　بفرسنگ بگريزد ازتو رفيق
وگر ترك خدمت كندلشكرى　　شودشاه فشكر كش ازوى برى
وليكن خداوند بالا وپست　　بعصيان دررزق بر كس نبست

وفي مجمع البيان للطبرسي رضوان الله عليه في ضمن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ٤٠، ح ٧١، وتفسير الميزان: ٤/ ٢٥٢.

(٢) مكارم الأخلاق: ٣١٣، وبحار الأنوار: ٦/ ٤١، ح ٧٥.

﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] قال: وفي الحديث أن النبي ﷺ قام في الصلاة فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم رسول الله ﷺ قال للإعرابي: لقد تحجرت واسعاً يريد رحمة الله عزّ وجلّ أورده البخاري في الصحيح إنتهى.

وجاء في بعض الأخبار ـ كما في باب العقل والجهل من الوافي ـ: لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم.

أقول: وذلك لأن أسماء الله الحسنى وصفاته العليا يقتضي مظاهر حتى تظهر آثارها وبعض تلك الصفات العفو والغفور والتواب ونعم ما قاله الشيخ العارف فريد الدين العطار في هذا المعنى:

بود عين عفو تو عاصى طلب	عرصه عصيان گرفتم زا نسبب
چون بستاريت ديدم پرده ساز	هم بدست خود دريدم پرده باز
رحمتت را تشنه ديدم آبخواه	آبروى خويش بردم از گناه

وفي المقام كلام لا يدركها إلا أهل الشهود العارفين بأسرار الأخبار، والأولى أن نعرض عن بيانه ونطويه طياً خوفاً من أن يزل بعض الأقدام وما مرت من الإشارة إليه إيجازاً كفاية لمن أخذت الفطانة بيده.

قوله عليه السلام: (قبل أن يخمد العمل) الظرف متعلق بقوله عليه السلام فاعملوا أي فاعملوا قبل أن يخمد العمل، أي فاغتنموا العمل وبادروا إليه قبل أن يطفأ مصباح العمل ويأتي الأجل، فأنكم تنتقلون إلى دار ليست بدار العمل بل دار الجزاء.

وفي مادة ولد من سفينة البحار عن الصادق عليه السلام قال: ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجرى بعد موته، وسنّة هدى سنها فهي تعمل بها بعد موته، وولد صالح يستغفر له[1].

وفي أمالي الصدوق عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ست خصال ينتفع بها المؤمن من بعد موته: ولد صالح يستغفر له، ومصحف يقرأ منه، وقليب يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنّة حسنة يؤخذ بها بعده[2].

ولعل ما في الرواية الأولى من قوله عليه السلام صدقة أجراها، يشمل بعض ما في الرواية الثانية كان الأولى إجمال. والثاني: تفصيل له فتأمل.

---

(١) عوالي اللئالي: ٣/ ٢٦٠، وبحار الأنوار: ٦/ ٢٩٤، ح ٤.

(٢) بحار الأنوار: ٦/ ٢٩٣، ح ٢، ودرر الأخبار: ٧١٦.

ويتنبه النبيه من قوله عليه السلام قبل أن يخمد العمل بأن الدنيا متجر أولياء الله ومكسب أولى الألباب فطوبى لمن أخذها متجره واغتنم حياته قبل موته، وخسرت صفقة من باع حظه بالأرذل الأدنى وشرى آخرته بالثمن الأوكس.

والشارح المعتزلي قرأ يحمد بالحاء المهملة وعلمه أولى من المعجمة وقال: قبل أن يحمد العمل إستعارة مليحة لأن الميت يحمد عمله ويقف، ويروى يخمد بالخاء، من خمدت النار والأول أحسن. ومضى الكلام منا أن المعجمة أولى من المهملة بقرينة ينقطع.

قوله عليه السلام: (وينقطع المهل) أي قبل أن ينقطع عمركم الذي أمهلتم فيه كأنما شبه عليه السلام العمر بالسبب أي قبل أن ينقطع سبب عمركم قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر: كن على عمرك أشح منك على درهمك، ودينارك.

قوله عليه السلام: (وينقضي الأجل) أي اعملوا قبل أن يفنى وينصرم أجلكم المضروب وإذا انصرم لا يستأخرون ساعة.

قوله عليه السلام: (ويسد باب التوبة) أي اعملوا قبل أن يسد باب التوبة وذلك لما مر من أن التوبة حين المعاينة وإشراف الموت ليست بمقبولة قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

قوله عليه السلام: (وتصعد الملائكة) أي اعملوا قبل أن يصعد الملائكة الذين هم حفظة أعمالكم من الطاعات والمعاصي إلى السماء لأنه إذا مات الإنسان لم يبق لكتبة أفعاله وأقواله في الأرض شغل.

أقول: لا ريب إن الإنسان لم يترك سدى ووكل بكل فرد منه ملائكة يكتبون أعماله وهم موكلون لذلك الأمر نطق بذلك الفرقان العظيم والأخبار من الرسول الكريم وآله الطاهرين عليهم السلام قال عزّ من قائل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الإنفطار: ١٠ ـ ١٢] وقال جلّ جلاله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨].

وفي مجمع البيان في التفسير للطبرسي رحمه الله في ضمن هذه الآية: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تعالى وكل بعبده ملكين يكتبان عليه فإذا مات قالا: يا رب قد قبضت عبدك فلاناً فإلى أين؟ قال: سمائي مملوءة بملائكتي يعبدونني وأرضي مملوءة من خلقي يطيعونني إذهبا إلى قبر عبدي فسبحاني وكبراني وهللاني فاكتبا ذلك في حسنات عبدي إلى يوم القيامة[1].

(١) كنز العمال: ١٥/٧٤٨، وتفسير مجمع البيان: ٩/٢٤٠.

وفيه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطيء أو المسيء فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتب واحدة. وفي رواية أخرى قال صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئةً فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه سبع ساعات فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء وإن لم يستغفر الله كتب له سيئة واحدة[١].

وفي الكافي عن زرارة عن أحدهما عليه السلام قال: إن الله تعالى جعل لآدم في ذريته من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عشراً ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه ومن عمل بها كتبت عليه سيئة[٢].

وقال في الوافي في بيان كون الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها ـ والله در قائله ـ: لعل السر في كون الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها إن الجوهر الإنساني بطبعه مائل إلى العالم العلوي لأنه مقتبس منه وهبوطه إلى القالب الجسماني غريب من طبيعته، والحسنة إنما يرتقى إلى ما يوافق طبيعة ذلك الجوهر لأنها من جنسه، والقوة التي تحرك الحجر مثلاً إلى ما فوق ذراعاً واحداً هي بعينها إن استعملت في تحريكه إلى أسفل حركته عشرة أذرع وزيادة، فلذلك كانت الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ومنها ما يوفي أجرها بغير حساب، والحسنة التي لا يدفع تأثيرها سمعة أو رياء أو عجب كالحجر الذي يدحرج من شاهق لا يصادفه دافع فإنه لا يتقدر مقدار هويه بحساب حتى يبلغ الغاية.

وفي الكافي عن عبد الله بن موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: وسألته عن الملكين هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يعمله أو الحسنة؟ فقال: ريح الكنيف وريح الطيب سواء فقلت: لا، قال: إن العبد إذا هم بالحسنة خرج نفسه طيب الريح فقال: صاحب اليمين لصاحب الشمال قف فإنه قدهم بالحسنة فإذا هو عملها كان لسانه قلمه وريقه مداده فأثبتها له، وإذا هم بالسيئة خرج نفسه منتن الريح فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين قف فإنه قدهم بالسيئة فإذا هو عملها كان ريقه مداده ولسانه قلمه فأثبته عليه[٣].

وفي الوافي في بيانه: إنما جعل الريق واللسان آلة لإثبات الحسنة والسيئة لأن بناء الأعمال إنما هو على ما عقد في القلب من التكلم بها وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ

---

(١) بحار الأنوار: ٥/ ٣٢١، ودرر الأخبار: ٧٤.

(٢) الإحتجاج: ١/ ٣٢٩، وبحار الأنوار: ٦/ ١٩.

(٣) التفسير الصافي: ٥/ ٢٩٦، وبحار الأنوار: ٥/ ٣٢٥، ح ١٦.

يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وهذا الريق واللسان الظاهر صورة لذلك المعنى كما قيل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وفي الكافي أيضاً عن الفضيل بن عثمان المرادي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أربع من كن فيه لم يهلك على الله عزّ وجلّ بعد هن إلا هالك: يهم العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيته وإن هو عملها كتب الله عزّ وجلّ له عشراً، ويهم بالسيئة أن يعملها فإن لم يعملها لم يكتب عليه وإن هو عملها أجل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيئات وهو صاحب الشمال: لا تعجل عسى أن يتبعها بحسنة تمحوها فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] أو الإستغفار فإن هو قال: أستغفر الله الذي لا إله هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم الغفور الرحيم ذو الجلال والإكرام وأتوب إليه لم يكتب عليه شيء وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة وإستغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات أكتب على الشقي المحروم[1].

وفيه أيضاً عن أبي النعمان قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا أبا النعمان لا يغرنك الناس من نفسك فإن الأمر يصل إليك دونهم ولا تقطع نهارك بكذا وكذا، فإن معك من يحفظ عليك عملك فأحسن فإني لم أرَ شيئاً أحسن دركاً ولا أسرع طلباً من حسنة محدثة لذنب قديم[2].

قوله عليه السلام: (فأخذ امرؤ نفسه لنفسه) هذا تحضيض منه عليه السلام إلى طاعة الله والتوجه إلى جناب الرب والتزود للدار الآخرة. أي إذا كان كذلك فليأخذ امرؤ من نفسه لنفسه أي يتعب نفسه في الطاعات وترك الشهوات وعمل الخيرات والمبرات وينفق ماله في سبيل الله لأنه بمنزلة نفسه ذخيرة لنفسه يوم المعاد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤]

ولما كان الإنسان في عباداته ورياضاته يأخذ من قوى نفسه أي ينقص ويضعف تلك القوى حيث أنفقها في سبيل الله ذخرة له يوم المعاد فحق أنه أخذ نفسه لنفسه ولا يخفى لطف كلامه عليه السلام وحسن إفادته لفظاً ومعنى.

في الكافي (في الوافي ص ٦٣ م ٣) عن الشحام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: خذ

---

(١) بحار الأنوار: ٥/٣٢٦، ح ١٧، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٢٧٧.

(٢) الأمالي: ٦٨، ومشكاة الأنوار: ١٣٩.

لنفسك من نفسك خذ منها في الصحة قبل السقم وفي القوة قبل الضعف وفي الحياة قبل الممات(١).

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام أحمل نفسك لنفسك فإن لم تفعل لم يحمل غيرك.

قوله عليه السلام: (وأخذ من حي لميت) المراد بالحي والميت هو المرء نفسه أي يأخذ في حال حياته لحال مماته كما مر الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام وفي الحياة قبل الممات وكقول رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر رضي الله عنه إغتنم خمساً قبل خمس إلى إن قال صلى الله عليه وآله حياتك قبل موتك.

قوله عليه السلام: (ومن فانٍ لباقٍ ومن ذاهب لدائم) المراد بالفاني والذاهب هذه الدار الدنيا وبالأخيرين الآخرة وللدنيا والآخرة أسام عديدة باعتبارات شتى أي فليأخذ من دنياه لآخرته. فالدنيا ممدوحة من حيث أنها متجر ومكسب لمن أخذها كذلك وسيأتي البحث في الدنيا المذمومة والممدوحة إن شاء الله تعالى في قوله عليه السلام: وقد سمع رجلاً يذم الدنيا؛ أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها أو المراد من الفاني والذاهب البدن ومن الأخيرين الروح فيكون إشارة إلى بقاء الروح وتجرده.

قوله عليه السلام: (امرؤ خاف الله وهو معمر إلى أجله ومنظور إلى عمله) بدل امرؤ في قوله عليه السلام فأخذ امرؤ أي: فليأخذ امرؤ خاف الله أي يأخذ من نفس، لنفسه ومن دنياه لآخرته رجل يخاف الله وهو أمهل إلى أجله وفي الغد ينظر إلى عمله لأن كل نفس بما كسبت رهينة فإن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى، وإن طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى.

قوله عليه السلام: (امرؤ ألجم نفسه) إلى آخره شبه عليه السلام النفس بالدابة الحرون فإن ألجمتها وأمسكتها عن معاصي الله وقدتها إلى طاعته وإلا فهي تذهب بك إلى حيث شاءت ولنعم ما نظم العارف الرومي في المثنوي حيث شبه الروح بعيسى روح الله عليه السلام والنفس بالحمار الحرون فقال:

ترك عيسى كرده خر پرورده	لاجرم چون خر برون پرده
طالع عيسى است علم ومعرفت	طالع خر نيست اى تو خرصفت
نالـه خر بشنوى رحم آيدت	پس ندانى خرخرى فرمايدت
رحم بر عيسى كن وبر خر مكن	طبع را بر عقل خود سرور مكن
طبع را هل تا بريد زار زار	تو ازو بستان و وام جان گذار

(١) ميزان الحكمة: ٣/١٩٧٦، ح ٢٧٢٥.

سالها خر بنده بودى بس بود زا نكه خر بنده ز خر واپس بود
هم مزاج خر شدت أين عقل پست فركش اينكه چون علف آردبدست
گردن خر گيرو سوى راه كش سوى رهبانان ورهدانان خوش
هين مهل خررا ودست ا زوى مدار زانكه عشق او است سوى سبزه زار
گر يكى دم تو بغفلت واهليش او رود فرسنگها سوى حشيش
دشمن راهست خر مست علف اى بساخر بنده كز وى شد تلف
گر ندانى وه هر آنچه خر بخواست عكس آنراكن كه هست آن راه راست

نقل نفيس بن عوض الطبيب في شرح الأسباب في الطب لعلاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي المتطبب في مبحث العشق، عن الحكماء: النفس إن لم تشتغلها شغلتك وذلك لأنها لا يكاد تفتر ساعة من تدبير فإن شغلتها بالأمور النافعة إشتغلت بها وإلا اشتغلت بالأمور الفاسدة الهلكة، والنفس خصم ألد وأمارة بالسوء وقطاع الطريق للسالك إلى الله فلو تركها الإنسان بحالها ولم يمسكها عن معاصي الله وعن ما تشتهيه لذهبت به إلى المهالك فالحرى بالعاقل اليقظان أن يجاهد أولاً هذا العدو الفظ الذي كن جاره في داره:

تو با دشمن نفس همخانه چه دربند پيكار بيگانه

وروى عن أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب الأربعين للعلّامة بهاء الدين العاملي رحمه الله: إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سرية فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس، ثم قال عليه السلام: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه[1].

ومما قلته في ذم متابعة النفس على صنعة التعريب:

من كرَّدَ نفسَهُ پيرويّا فليقعُدن في الدُّوزخ جثيا
من افكند بدستها زمامه فماله الخوشيُ والسَّلامة
لأنها لحيئة لدغاءُ أن بگزَد ليس لها دواءُ
إن جاوزت عن صدّها بموئى فإنها أمارةٌ بالسوء
رب پنهتُ بك من هواها بدبختُ من لا يترُسُ عُقباها

(١) مشكاة الأنوار: ٤٣١، وبحار الأنوار: ٦٧/ ٦٥، ح ٧.

الترجمة

یکی از خطبه های آن حضرت است:

اکنون که در فراخی بقا هستید (کنایه از این که زنده اید) و نامه های اعمال گسترده است و پیچیده نشده و توبه پهن است و در آن بسته نشد (کنایه از این که هنوز اجل شما فرا نرسیده) و آن که از حق تعالی و فرمان او پشت کرده، خوانده می شود که برگرد و به سوی ما بیا و آن که بد کرده است امیدواری به او داده شد که اگر دست از بدی بردارد و به خوبی گراید و تدارك کند، از او پذیرفته است و عاقبت به خیر خواهد بود، پس کار کنید و تلافی گذشته نمایید پیش از آن که مرگ گریبان شما را بگیرد و چراغ عمل خاموش گردد و طناب عمر بریده شود و وقت به سرآید و فرصت از دست رود و در توبه بسته شود و فرشتگان اعمال دست از کار بکشند و به آسمان برشوند (کنایه از این که تن به کار دهید پیش از آن که عمر به سرآید و مرگ به درآید)، پس باید بگیرد هرکسی از خود برای خود (یعنی خویشتن را رنج دهد و کار کند تا در آخرت او را به کار آید) و باید بگیرد از زنده برای مرده (یعنی تا زنده است کاری کند که چون بمیرد او را به کار آید) و از دنیای فانی برای سرای جاودانی یا از بدن فانی برای روح باقی و از رونده و گذرنده برای دائم همیشگی (یعنی از دنیا برای عقبی یا از تن برای جان).

مردی که از خدا بترسد و حال آن که تا هنگام اجل فرصت دارد و عمل او مورد نظر است (یعنی تا زنده است به عمل کوشد و برای روز تنگدستی خویش کاری کند)، مردی که چارپای سرکش نفس را لگام زده و مهار کرده، پس به لگامش وی را از معاصی باز می دارد و به مهارش به سوی طاعت خدا می کشاند.

الخطبة السادسة والثلاثون والمائتان ومن خطبة له عليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام

جُفاةٌ طَغامٌ، عَبيدٌ قِزامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغي أنْ يُفَقَّهَ ويُؤَدَّبَ، ويُعَلَّم ويُدَرَّبَ، ويُولّى عَلَيْهِ ويُؤْخَذَ على يَدَيْهِ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهاجِرينَ وَالْأَنْصارِ، ولا مِن الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدّارَ، ألا وإنَّ الْقَوْمَ اخْتارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمّا يُحِبُّونَ، وإِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمّا تَكْرَهُونَ، وإِنَّما عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللّهِ بْن قَيْس بِالْأَمْسِ يَقُولُ: «إنها فِتْنَة فَقَطِّعُوا أَوْتارَكُمْ وشِيمُوا سُيُوفَكُمْ» فَإِنْ كانَ صادِقاً فَقَدْ أَخطأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وإِنْ كانَ كاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ، فَادْفَعُوا في صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعاصِ بِعَبْدِ اللّهِ بْنِ الْعَبّاسِ، وخُذُوا مَهَلَ الْأَيّامِ، وحُوطُوا قَواصِيَ الْإِسْلامِ، أَلا تَرَوْنَ إِلى بِلادِكُمْ تُغْزى، وإِلى صَفاتِكُمْ تُرْمى[١].

اللغة

(جفاة) جمع جاف كقضاة جمع قاض وطغاة جمع طاغ من قولك جفت الرجل أجفوه جفاءً وقيل أصله من جفا الثوب يجفو إذا غلظ فهو جاف ومنه جفاء البدو وهو غلظتهم وفظاظتهم.

أقول: ويمكن أن يكون الجفاء مهموز اللام وهو ما يعلو السيل ويحتمله من سقط الأرض قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾ [الرعد: ١٧] وقال الشاعر (الحماسة ٧٥):

حميت على العهار أطهار أمه … وبعض الرجال المدَّعين جفاء

فيكون المراد أنهم رذال الناس وسفلتهم.

(طغام) بالطاء المثالة المهملة المفتوحة كطَعام، قال في الصحاح الطغام أوغاد الناس «الأوغاد جمع الوغد بسكون الغين كوفد وأوفاد، والوغد الرجل الدني الذي يخدم بطعام بطنه» وأنشد أبو العباس: فما فضل اللبيب على الطَّغام الواحد والجمع سواء، والطغام أيضاً رذال الطير الواحدة طغامة للذكر، والأنثى مثل نعامة ونعام ولا ينطق منه بفعل ولا يعرف له اشتقاق، فالطغام: أراذل الناس ودنيهم وخسيسهم.

(عبيد) جمع العبد ككلب وكليب يقال: عبد، وأعبد، وعباد، وعبيد، وعبدى، وعبداء، وعبدان، وعُبدان، ومعبوداء، ومعبدة، وعبد، فبعض هذه الأسماء مما صيغ للجمع

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٢٤، وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٠٩.

وبعضها جمع في الحقيقة.

والعبد في أصل اللغة خلاف الحر وهم يكنون كثيراً عن اللئام وإن كانوا أحراراً بالعبيد، والعبدان، وبالقزم والقزمان كم صرح به المرزوقي في شرح الحماسة قال معدان بن عبيد (الحماسة ٦١٣):

عجبت لعبدان هجوني سفاهةً أن اصطحبوا من شأنهم وتقيلوا

بجاد وريسان وفهر وغالب وعون وهدم وابن صفوة أخيل

فسمى هؤلاء ألست عبداناً مع أنهم أحرار تخضيعاً وتشنيعاً لهم.

(قزام) في الصحاح: القزم محركة رذال الناس وسفلتهم قال زياد بن منقذ:

وهم إذا الخيل جالوا في كواثبها فوارس الخيل لا ميل ولا قزم

يقال: رجل قزم والذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء لأنه في الأصل مصدر، والقزام: اللئام، وفي أكثر النسخ المتداولة «عبيد أقزام» ولكن لم يذكر المعاجم المتداولة هذا الجمع ولذا اخترنا رواية قزام ورجحناه على أقزام، لأن القزام قد ذكرت في المعاجم قال الشاعر:

أحصنوا أمهم من عبدهم تلك أفعال القزام الوكعة

على أن في الجمع بين الطغام والقزام موازنة بديعة أولى من الطغام والأقزام وذكر المرزوقي في شرحه على الحماسة كما مر آنفاً القزم والقزمان كسبحان على هيئة الجمع، وقال بعض المحشين لم تذكر المعاجم المتداولة هذا الجمع والمعروف أقزام وقزامي وقزم بضمتين.

(أوب) يقال جاؤوا من كل أوب أي من كل ناحية.

(تلقطوا) في الصحاح تلقط فلان التمر أي التقطه من ها هنا وها هنا.

(شوب) الشوب: الخلط، يقال شبت الشيء أشوبه فهو مشوب أي مخلوط، وفي المثل هو يشوب ويروب يضرب لمن يخلط في القول أو العمل.

(يدرب) أي يؤدب ويعود بالعادات الجميلة ويمرن بمحاسن الأفعال، يقال دربته الشدائد حتى قوي ومرن عليها ودربت البازي على الصيد أي ضريته وروى كان يدرب، يذرب بالذال المعجمة من ذريت معدته إذا فسدت والتذريب.

(تبوأت) منزلاً أي اتخذته والمباءة المنزل.

و (**العهد**): اللقاء والمعرفة، وعهدته بمكان كذا أي لقيته، وعهدي به قريب أي لقائي وهو قريب العهد بكذا أي قريب العلم والحال، وعهدت إلى فلان أي أوصيته.

(**أوتار**)جع الوتر بالتحريك وهو شرعة القوس ويقال بالفارسي «زه» فالمراد من أوتاركم أوتار قسيكم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

(**شيموا سيوفكم**) تقول شمت السيف كبعت إذا أغمدته ومنه المشيمة أي الغرس والشيام أي الكناس لانشيامه فيه ودخوله وأيضاً تقول شمت السيف إذا سللته وهو من الإضداد.

(**مهل الأيام**) المهل بالتحريك: التؤودة، ومهل الأيام: فسحتها، يقال أمهله إذا أنظره.

(**قواصي**) جمع قاصية كنواحي جمع ناحية لفظاً ومعنًى يقال: كنت منه في قاصيته أي في ناحيته.

(**تغزى**) من الغزو أي الحرب، تغزي بلادكم أي تقاتل لها ويمكن أن يكون بمعنى القصد يقال: عرفت ما يغزي من هذا الكلام أي: يراد ومغزى الكلام مقصده فالمعنى تراد وتقصد بلادكم أي يطمع العدو فيها.

(**صفاتكم**) الصفاة: الصخرة الملساء لا يؤثر فيها السهام ولا يرميها الرامي إلا بعد أن مهل غيرها يقال قد رمى فلان صفاة فلان إذا دهاه بداهية قال الشاعر:

والدهر موتر قوسه ... يرمي صفاتك بالمعابل

الإعراب

(**جفاة طغام عبيد قزام**) أخيار لمبتدأ محذوف أي: هم جفاة والعرب يأتون لمبتدأ واحد بأخبار كثيرة قال ابن مالك:

وأخبروا بإثنين أو بأكثرا ... لواحد كهم سراة شعرا

جملتا جمعوا وتلقطوا في محل رفع صفة له، وكلمة من في ممن ينبغي، للتبيين ومن موصولة أي هم هؤلاء والظرف مستقر صفة لهم ولا يجوز أن تكون حالاً لهم لأنها محفوفة بالجمل التي كلها صفات لهم أعني جمل جمعوا وتلقطوا وليسوا من المهاجرين الخ.

وقال المعربون الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال فالجمل ها هنا صفات فلو كان ذلك الظرف غير الوصف للزم خروج الكلام عن أسلوبه المنساق له.

و (**يفقه**) والأفعال الخمسة الأخر منصوبة بأن الناصبة تأولها إلى مصادرها فاعلاً لينبغي

ومن المهاجرين ظرف مستقر منصوب محله خبر لليس، وقوله عليه السلام ولا من الذين عطف عليه والجار للتبعيض لا مكان سد بعض مسده.

كلمة الجار في مما يحبون ومما تكرهون متعلقة بقرب لأن صلته تكون من قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وكلمة ما في الموضعين موصوفة أو موصولة والعائد محذوف أي ما يحبونه وتكرهونه، وقوله عليه السلام لأنفسكم في كلام الموضعين متعلق بيحبون وتكرهون أي يحبون لأنفسكم وتكرهون لأنفسكم قدم الظرف على عامله توسعاً للظروف ويمكن أن يكونا صلة لاخترتم (بالأمس) متعلق بقوله عليه السلام عهدكم والجار للظرف بمعنى في، والجار في إلى بلادكم وصفاتكم متعلق بقوله ترون لا بقوله عليه السلام تغزى وترمى.

المعنى

الحكمان هما عمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري المسمى بعبد الله بن عباس ونذكر ترجمتهما بعد المعني.

قال الطبري في في تاريخه: بايع عمرو بن العاص معاوية في سنة ست وثلاثين ووافقه على محاربة علي.

وكان السبب في ذلك أنه لما أحيط بعثمان خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام وقال: والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عزّ وجلّ بذل ومن لم يستطع نصره فليهرب، فسار وسار معه إبنا عبد الله، ومحمد وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع على ذلك ما شاء الله.

فبينا عمرو بن العاص جالس بعجلان ومعه إبناه إذ مر بهم راكب فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. فقال عمرو: ما اسمك؟ قال: حصيرة. قال عمرو: حصر الرجل قال: فما الخبر؟ قال: تركت الرجل محصوراً. قال عمرو: يقتل.

ثم مكثوا أياماً فمر بهم راكب فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. قال عمرو: ما اسمك؟ قال: قتال. قال عمرو: قتل الرجل. فما الخبر؟ قال: قتل الرجل. ثم لم يكن إلا ذلك إلى أن خرجت.

ثم مكثوا أياماً فمر بهم راكب، فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. قال عمرو: ما اسمك؟ قال: حرب. قال عمرو: يكون حرب. فما الخبر؟ قال: قتل عثمان بن عفان، وبويع لعلي بن أبي طالب. قال عمرو: أنا أبو عبد الله يكون حرب من حكّ فيها قرحة نكأها رحم الله عثمان ورضي الله عنه وغفر له فقال سلامة بن زنباع الجذامي: يا معشر قريش أنه والله قد

كان بينكم وبين العرب باب فاتخذوا باباً إذاً كسرب الباب. فقال عمرو: وذاك الذي نريد ولا يصلح الباب إلا أشاف تخرج الحق من حافرة البأس ويكون الناس في العدل سواء ثم تمثل عمرو في بعض ذلك:

يا لهفَ نفسي على مالكٍ وهل يصرفُ اللّهفُ حفظ القدر

أنزع من الحرِّ أودى بهم فاعذرُهم أم بقومي سكر

ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة ويقول واعثماناه أنعى الحياء والدين حتى قدم دمشق وقد كان سقط إليه من الذي يكون علم فعمل عليه.

ثم نقل عن الواقدي: لما بلغ عمراً قتل عثمن قال: أنا عبد الله (أنا أبو عبد الله) قتلته وأنا بوادي السباع من يلي هذا الأمر من بعده إن يَلِهِ طلحة فهو فتى العرب سيباً، وإن يَلِه ابن أبي طالب فلا أراه إلا سيستنطق الحق وهو أكره من يليه إليّ.

قال: فبلغه أن علياً قد بويع له فاشتد عليه وتربص أياماً ينظر ما يصنع الناس فبلغه مسير طلحة، والزبير، وعائشة وقال: استأني وأنظرها ما يصنعون فأتاه الخبر أن طلحة، والزبير قد قتلا فارتج عليه أمره.

فقال له: قائل أن معاوية بالشام لا يريد يبايع لعلي فلو قارنت معاوية فكانت معاوية أحب إليه من علي بن أبي طالب وقيل له: أن معاوية يعظم شأن قتل عثمان بن عفان ويحرض على الطلب بدمه فقال عمرو: أدعوا لي محمداً وعبد الله فدُعيا له فقال: قد كان ما قد بلغكما من قتل عثمان وبيعة الناس لعلي وما يرصد معاوية من مخالفة علي وقال ما تريان أما عليٌّ فلا خير عنده وهو رجل يدل بسابقته وهو غير مشركي في شيء من أمره.

فقال عبد الله بن عمرو: توفي النبي ﷺ وهو عنك راضٍ وتوفي أبو بكر وهو عنك راضٍ وتوفي عمر وهو عنك راضٍ أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه. وقال محمد بن عمرو أنت ناب من أنياب العرب فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر.

قال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي وأسلم في ديني. وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي أنبه لي في دنياي وأشر لي في آخرتي.

ثم خرج عمرو بن العاص ومعه أبناه حتى قدم على معاوية فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان فقال عمرو بن العاص أنتم على الحق أطلبوا بدم الخليفة المظلوم ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو فقال: إبنا عمرو لعمرو ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إلى قولك إنصرف إلى غيره فدخل عمرو على معاوية فقال: والله لعجب لك إني أرفدك

بما أرفدك وأنت معرض عني أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس من ذلك ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا فصالحه معاوية وعطف عليه(١).

ويأتي في ذلك كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص في باب المختار من كتبه عليه السلام وهو الكتاب التاسع والثلاثون حيث يقول عليه السلام:

فإنك جعلت دينك تبعاً لدنيا أمرأ ظاهر غيه مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته فاتبعت أثره وطلبت فضله أتباع الكلب للضرغام يلوذ إلى مخالبه وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته، إلى آخر ما قال عليه السلام.

«حكم الحكمين واجتماعهما وما جرى في ذلك»

واعلم أن التحكيم كان برأي عمرو بن العاص حين رأى أن دلائل الفتح والنصر لأهل العراق أعني عسكر علي عليه السلام ظهرت ودلائل الخذلان والأدبار على أهل الشام وهم عسكر معاوية قد وضحت وكان ذلك عقيب ليلة الهرير وهي ليلة عظيمة يضرب بها المثل فرفع أهل الشام برأي عمرو مصاحف إعتصاماً من سيوف أهل العراق حين رأوا أن عسكر العراق غلبوا عليهم.

فلا بد لنا إلا أن نذكر ما جرى بينهما في الصفين لأن عدة من كتبه عليه السلام يأتي في ذلك من بعد كما مضت عدة من الخطب في ذلك من قبل وسنشير إلى مواضعها ومداركها إن شاء الله تعالى ونحن نذكر ما أورده في ذلك أبو جعفر الطبري في تاريخه ونصر بن مزاحم في كتاب الصفين، والمسعودي في مروج الذهب حتى يتبين شأن الحكمين وخديعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري وغير ذلك ما تسمعه.

في تاريخ أبي جعفر محمد بن الجرير الطبري: وفي هذه السنة يعني السنة السادسة والثلاثين وجه علي عليه السلام عند منصرفه من البصرة إلى الكوفة وفراغه من الجمل جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، وكان جرير حين خرج علي إلى البصرة لقتال من قاتله بها بهمدان عاملاً عليها كان عثمان استعمله عليها فلما قدم علي الكوفة منصرفاً إليها من البصرة كتب إليهما يأمرها بأخذ البيعة له على من قبلهما من الناس والإنصراف إليه ففعلا ذلك وانصرفا إليه.

فلما أراد علي توجيه الرسول إلى معاوية قال جرير بن عبد الله إبعثني إليه فأنه لي ود

(١) الغدير: ٢/ ١٥٤، ونهج السعادة: ٢/ ٧٠.

حتى آتيه فأدعوه إلى الدخول في طاعتك فقال الأشتر لعلي: لا تبعثه فوالله إني وظن هواه معه فقال علي: دعه حتى ننظر ما الذي يرجع به إلينا بعثه إليه وكتب معه كتاباً يعلمه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة، والزبير وما كان من حربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون، والأنصار من طاعته.

فشخص إليه جرير فلما قدم عليه ماطله واستنظره ودعا عمراً فاستشاره فيما كتب به إليه فأشار عليه أن يرسل إلى وجه الشام ويلزم علياً دم عثمان ويقاتله بهم ففعل ذلك معاوية وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان الذي قتل فيه مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم إصبعان منها وشيء من الكف وأصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام، وضع معاوية القميص على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد وثاب إليه الناس وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه.

وآلى الرجال من أهل الشام ألا يأتوا النساء ولا يمسهم الماء للغسل إلا من احتلام ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم فمكثوا حول القميص سنة والقميص يوضع كل يوم على المنبر ويجلله أحياناً فيلبسه وعلق في أردانه أصبع نائلة.

فلما قدم جرير بن عبد الله على علي فأخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه على قتاله وأنهم يبكون على عثمان ويقولون أن علياً قتله وآوى قتلته وأنهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه.

فقال الأشتر لعلي: قد كنت نهيتك أن تبعث جريراً وأخبرتك بعداوته وغشه ولو كنت بعثتني كان خيراً من هذا الذي أقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلا فتحه لا باباً يخاف منه إلا أغلقه.

فقال جرير: لو كنت ثم لقتلوك لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان. فقال الأشتر: لو أتيتهم والله يا جرير لم يعيني جوابهم ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور فخرج جرير بن عبد الله إلى قرقيساء وكتب إلى معاوية فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه وخرج أمير المؤمنين علي عليه السلام فعسكر بالنخيلة وقدم عليه عبد الله بن عباس بمن نهض معه من أهل البصرة.

واستخلف عبد الله بن عباس على البصرة ثم سار منها إلى الكوفة فتهيأ فيها إلى صفين فاستشار الناس في ذلك فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم وأشار آخرون بالمسير فأبى

إلّا المباشرة فجهز الناس[1].

وقال المسعودي في مروج الذهب: وكان سير علي عليه السلام من الكوفة إلى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري.

فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فاستشاره فقال: أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك. قال أما إذاً يا أبا عبد الله فجهز الناس فجاء عمرو فحضض الناس وضعف علياً وأصحابه وقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا حدهم ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلي قد وترهم وقللهم وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل وإنما سار في شرذمة قليلة منهم من قد قتل خليفتكم فالله الله في حقكم أن تضيعوه وفي دمكم أن تبطلوه وكتب في أجناد أهل الشام وعقد لواءه لعمرو فعقد لوردان غلامه فيمن عقد ولابنيه عبد الله، ومحمد وعقد علي لغلامه قنبر ثم قال عمرو:

هل يغنين وردان عنى قنبرا ... وتغني السكون عني حميراً

إذا الكُماة لبسوا السَّنوّرا

فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال:

لأصبحن العاصي بن العاصي ... سبعين ألفاً عاقدي النواصي

مجنبين الخيل بالقلاص ... مستحقبين حلق الدِّلاص

فلما سمع ذلك معاوية قال: ما أرى ابن أبي طالب إلا قد وفى لك فجاء معاوية يتأنى في مسيره وكتب إلى كل من كان يرى أنه يخاف علياً أو طعن عليه ومن أعظم دم عثمان واستغواهم إليه[2].

فبعث علي زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف وبعث معه شريح بن هاني في أربعة آلاف وخرج علي من النخيلة بمن معه فلما دخل المدائن شخص معه من فيها من المقاتلة وولى على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد ووجه علي من المدائن معقل بن قيس في ثلاثة آلاف وأمره أن يأخذ على الموصل حتى يوافيه[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٥٦٢.

(٢) تاريخ دمشق: ٢٢/٤٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/٥٦٣.

قال المسعودي في مروج الذهب: وقد تنوزع في مقدار ما كان مع علي عليه السلام من الجيش فمكثر ومقلل والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً وقال رجل من أصحاب علي عليه السلام لما استقروا مما يلي الشام من أبيات كتب بها إلى معاوية:

أثبت معاوي قد أتاك الحافل تسعون ألفاً كلهم مقاتل

عما قليل يضمحل الباطل

وسار معاوية من الشام، وقد تنوزع في مقدار من كان معه فمكثر ومقلل والمتفق عليه من قول الجميع خمس وثمانون ألفاً.

«ما أمر به علي بن أبي طالب من عمل الجسر على الفرات»

فلما انتهى علي عليه السلام إلى الرقة قال لأهل الرقة أجسروا لي جسراً حتى أعبر من هذا المكان إلى الشام فأبوا وقد كانوا ضموا إليهم السفن فنهض من عندهم ليعبر من جسر منبج وخلف عليهم الأشتر وذهب ليمضي بالناس كيما يعبر بهم على جسر منبج فناداهم الأشتر فقال: يا أهل هذا الحصن ألا أني أقسم لكم بالله عزّ وجلّ لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم جسراً حتى يعبر لأجردن فيكم السيف ثم لأقتلن الرجال ولأخربن الأرض ولآخذن الأموال فلقي بعضهم بعضاً فقالوا: أليس الأشتر يفي بما حلف عليه ويأتي بشر منه قالوا: نعم، فبعثوا إليه إنا ناصبون لكم جسراً فأقبلوا وجاء علي فنصبوا له الجسر فعبر عليه بالأثقال والرجال ثم أمر علي الأشتر فوقف في ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر ثم أنه عبر آخر الناس رجلاً.

قال أبو جعفر الطبري: قال أبو مخنف فحدثني خالد بن قطن الحارثي: أن علياً لما قطع الفرات دعا زياد بن النضر، وشريح بن هاني فسرحهما أمامه نحو معاوية على حالهما التي كانا خرجا عليه من الكوفة قال: وقد كانا حيث شرحهما من الكوفة أخذا على شاطىء الفرات من قبل البر مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات فبلغهما أخذ علي على طريق الجزيرة وبلغهما أن معاوية قد أقبل من دمشق في جنود أهل الشام لاستقبال علي عليه السلام فقالا: لا والله ما هذا لنا برأي أن نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر وما لنا خير في أن نلقي جنود أهل الشام بقلة من معنا منقطعين من العدد والمدد فذهبوا ليعبروا من عانات فمنعهم أهل عانات وحبسوا عنهم السفن فأقبلوا راجعين حتى عبروا من هيت ثم لحقوا علياً بقرية دون قرقيسياء وقد أرادوا أهل عانات فتحصنوا وفروا ولما لحقت المقدمة علياً قال مقدمتي تأتيني من ورائي.

فتقدم إليه زياد بن النضر الحارثي وشريح بن هاني فأخبراه بالذي رأيا حين بلغهما من

الأمر ما بلغهما فقال: سددتما.

ثم مضى علي عليه السلام فلما عبر الفرات قدمهما أمامه نحو معاوية فلما انتهيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان في جند من أهل الشام فأرسلا إلى علي عليه السلام أنا قد لقينا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام وقد دعوناهم فلم يجبنا منهم أحد فمرنا بأمرك.

فأرسل علي عليه السلام إلى الأشتر فقال: «يا مالك إن زياداً وشريحاً أرسلا إليّ يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلمي في جمع من أهل الشام وأنبأني الرسول أنه تركهم متوافقين فالنجاء إلى أصحابك النجاء فإذا قدمت عليهم فأنت عليهم وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدأوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ولا يجر منكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والأعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً ولا تدنو منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم بعد من يهاب الناس حتى أقدم عليك فإني حثيث السير في أثرك إن شاء الله».

قال: وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفي فكتب علي عليه السلام إلى زياد، وشريح:

أما بعد فإني قد أمرت عليكما مالكاً فاسمعا له وأطيعا فأنه مما لا يخاف رهقه ولا سقاطه ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ولا الإسراع إلى ما البطاء عنه أمثل وقد أمرته بمثل الذي كنت أمرتكما به ألا يبدأ القوم حتى يلقاهم فيدعوهم ويعذر إليهم[١].

أقول: قال نصر في كتاب صفين بإسناده عن عبد الله بن جندب عن أبيه، وكذا الطبري في تاريخه بإسناده عن عبد الرحمن بن جندب الأزدي عن أبيه: أن علياً عليه السلام كان يأمرنا في كل موطن لقينا معه عدوه يقول:

«لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم فأنكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أرى لكم عليهم فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح لا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ولا تهيجوا إمرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وتناولن أُمراءكم وصلحاءكم فأنهن ضعاف القوى والأنفس ولقد كنا وإنا لنؤمر بالكف عنهن وأنهن لمشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعير بها عقبه من بعده»[٢].

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ٢٣٩، ح ٨٧، وتاريخ الطبري: ٣/ ٥٦٥.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٥٨، ح ٦٧٤، ونهج السعادة: ٨/ ٣٣.

أقول: يأتي شرح كلامه عليه السلام هذا في باب المختار من كتبه ورسائله بعون الملك الوهاب. وقال الرضي رضي الله عنه قاله عليه السلام لعسكره قبل العدو بصفين.

قال نصر بإسناده عن الحضرمي: قال: سمعت علياً عليه السلام عرض في الناس في ثلاثة مواطن: في يوم الجمل، ويوم صفين، ويوم النهرواني فقال: «عباد الله إتقوا الله عزّ وجلّ وغضوا الأبصار وافضوا الأصوات وأقلوا الكلام ووطنوا أنفسكم على المنازلة، والمجاولة، والمبارزة، والمعانقة، والمكارمة وأثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر». ولنعد إلى قول الطبري.

وخرج الأشتر حتى قدم على القوم فاتبع ما أمره علي عليه السلام وكف عن القتال فلم يزالوا متواقفين حتى إذا كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور السلمي فثبتوا له واضطربوا ساعة ثم إن أهل الشام انصرفوا ثم خرج إليهم من الغد هاشم بن عتبة الزهري في خيل ورجال حسن عددها وعدتها وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال وصبر القوم بعضهم لبعض ثم انصرفوا وحمل عليهم الأشتر فقتل عبد الله بن المنذر التنوخي قتله يومئذٍ ظبيان بن عمار التميمي وما هو إلا فتى حدث وإن كان التنوخي لفارس أهل الشام.

وأخذ الأشتر يقول: ويحكم أروني أبا الأعور. ثم أن أبا الأعور دعا الناس فرجوا نحوه.

فوقف من وراء المكان الذي كان فيه أول مرة وجاء الأشتر حتى صف أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي: إنطلق إلى أبي الأعور فأدعه إلى المبارزة، فقال: إلى مبارزتي أو مبارزتك فقال له الأشتر: لو أمرتك بمبارزته فعلت؟ قال: نعم، والله لو أمرتني أن اعترض صفهم بسيفي ما رجعت أبداً حتى أضرب بسيفي في صفهم، قال له الأشتر: يا ابن أخي أطال الله بقاءك قد والله ازددت رغبة فيك لا أمرتك بمبارزته إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي إنه لا يبرز إن كان ذلك من شأنه إلا لذوي الأسنان والكفاءة والشرف وأنت لربك الحمد من أهل الكفاءة والشرف غير أنك فتى حدث السن فليس بمبارز الأحداث ولكن أدعه إلى مبارزتي، فأتاه فنادى آمنوني فإني رسول فأومن فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور[1].

قال أبو مخنف: فحدثني النضر بن صالح أبو زهير العبسي قال: حدثني سنان. قال:

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٥٦٦.

فدنوت منه فقلت: إن الأشتر يدعوك إلى مبارزته قال: فسكت عني طويلاً ثم قال: إن خفة الأشتر وسوء رأيه هو حمله على إجلاء عمال ابن عفان من العراق وانتزائه عليه بقبح محاسنه، ومن خفة الأشتر وسوء رأيه أن سار إلى ابن عفان في داره وقراره حتى قتله فيمن قتله فأصبح متبعاً بدمه ألا لا حاجة لي في مبارزته.

قال: قلت إنك قد تكلمت فاسمع حتى أجيبك فقال: لا لا حاجة لي في الإستماع منك ولا في جوابك إذهب عني فصاح بي أصحابه فانصرفت عنه ولو سمع إليّ لأخبرته بعذر صاحبي ولحجته.

فرجعت إلى الأشتر فأخبرته أنه قد أبى المبارزة فقال: لنفسه نظر. فوافقناهم حتى حجز الليل بيننا وبينهم وبتنا متحارسين فلما أصبحنا نظرنا فإذا القوم قد انصرفوا من تحت ليلتهم ويصبحنا علي بن أبي طالب غدوة فقدم الأشتر فيمن كان معه في تلك المقدمة حتى انتهى إلى معاوية فواقفه وجاء علي في أثره فلحق بالأشتر سريعاً فوقف وتواقفوا طويلاً.

ثم أن علياً عليه السلام طلب موضعاً لعسكره فلما وجده أمر الناس فوضعوا الأثقال فلما فعلوا ذهب شباب الناس وغلمتهم يستقون فمنعهم أهل الشام فاقتتل الناس على الماء وقد كان الأشتر قال له: قبل ذلك إن القوم قد سبقوا إلى الشريعة وإلى سهولة الأرض وسعة المنزل فإن رأيت سرنا نجوزهم إلى القرية التي خرجوا منها فأنهم يشخصون في أثرنا فإذا هم لحقونا نزلنا فكنا نحن وهم على السواء فكره ذلك علي عليه السلام وقال: ليس كل الناس يقوى على المسير فنزل بهم[1].

«القتال على الماء»

قال الطبري قال: أبو مخنف وحدثني تميم بن الحارث الأزدي عن جندب بن عبد الله قال: إنا لما انتهينا إلى معاوية وجدناه قد عسكر في موضع سهل أفيح قد اختاره قبل قدومنا إلى جانب شريعة في الفرات ليس في ذلك الصقع شريعة غيرها وجعلها في حيزة وبعث عليها أبا الأعور يمنعها ويحميها فارتفعنا على الفرات رجاء أن نجد شريعة غيرها نستغني بها عن شريعتهم فلم نجدها فأتينا علياً عليه السلام فأخبرناه بعطش الناس وأنا لا نجد غير شريعة القوم قال: فقاتلوهم عليها فجاءه الأشعث بن قيس الكندي فقال: أنا أسير إليهم، فقال له علي عليه السلام: فسر إليهم فسار وسرنا معه حتى إذا دنونا من الماء ثاروا في وجوهنا ينضحوننا بالنبل ورشقناهم والله بالنبل ساعة ثم أطعنا الله بالرماح طويلاً ثم صرنا آخر ذلك نحن والقوم

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦٦.

إلى السيوف فاجتلدنا بها ساعة.

ثم إن القوم أتاهم يزيد بن أسد البجلي ممداً في الخيل والرجال فأقبلوا نحونا فقلت في نفسي: فأمير المؤمنين لا يبعث إلينا بمن يغني عنا هؤلاء فذهبت والتفت فإذا عدة القوم أو أكثر قد سرحهم إلينا ليغنوا عنا يزيد بن أسد وأصحابه عليهم شبث بن ربعي الرياحي فوالله ما ازداد القتال إلا شدة وخرج إلينا عمرو بن العاص من عسكر معاوية في جند كثير فأخذ يمد أبا الأعور ويزيد بن أسد وخرج الأشتر من قبل علي عليه السلام في جمع عظيم فلما رأى الأشتر عمرو بن العاص يمد أبا الأعور ويزيد بن أسد أمد الأشعث بن قيس وشبث بن ربعي فاشتد قتالنا وقتالهم فما أنسى قول عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي:

خلوا لنا ماء الفرات الجاري ... أو أثبتوا لجحفل جرار
لكل قرم مستميت شاري ... مطاعن برمحه كرار
ضراب هامات العدى مغوار

قال أبو مخنف: وحدثني رجل من آل خارجة بن التميمي أن ظبيان بن عمارة جعل يومئذٍ يقاتل وهو يقول:

هل لك يا ظبيان من بقاء ... في ساكن الأرض بغير ماء
لا وإله الأرض والسماء ... فاضرب وجوه الغدر الأعداء
بالسيف عند حمس الوغاء ... حتى يُجيبوك إلى السَّواء

قال ظبيان: فضربناهم والله حتى خلونا وإياه، وقال محمد بن محنف بن سليم: فقاتلناهم فما أمسينا حتى رأينا سقاتنا وسقاتهم يزدحمون على الشريعة وما يؤذي إنسان إنساناً، وقال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي في مروج الذهب: وعلي عليه السلام يدور في عسكره بالليل فسمع قائلاً وهو يقول:

أيمنعنا القوم ماء الفرات ... وفينا الرماح وفينا الحجف
وفينا علي عليه السلام له صولة ... إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير ... وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا الأمس أسد العرين ... وما بالنا اليوم شاه النجف

قال أبو مخنف: وحدثني يوسف بن يزيد عن عبد الله بن عوف بن الأحمر قال: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلاً إختاروه مستوياً بساطاً واسعاً أخذا الشريعة فهي في أيديهم.

وقال المسعودي في مروج الذهب: وعسكر معاوية في موضع سهل أفيح إختاره قبل

قدوم علي عليه‌السلام على شريعة لم يكن على الفرات في ذلك الموضع أسهل منها للوارد إلى الماء وما عداها أخراق عالية ومواضع إلى الماء وعرة ووكل أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفاً وكان على مقدمته.

وقال أبو مخنف: وقد صف أبو الأعور السلمي عليها الخيل والرجال وقد قدم المرامية أمام من معه وصف صفاً معهم من الرماح والدرق وعلى رؤوسهم البيض وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك، فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: إئت معاوية وقل له: إنا سرنا مسيرنا هذا إليك ونحن نكره قتالك قبل الأعذار إليك، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالقتال ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها قد حلتم بين الناس وبين الماء والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلو بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له وإن كان أعجب إليك أن نترك ما جئنا له ونترك الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة أمنعهم الماء كما منعوه عثمان بن عفان حصروه أربعين صباحاً يمنعونه برد الماء ولين الطعام، اقتلهم عطشاً قتلهم الله عطشاً، فقال له عمرو بن العاص: خل بينهم وبين الماء فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريان ولكن بغير الماء فانظر ما بينك وبينهم، فأعاد الوليد بن عقبة مقالته.

وقال المسعودي: ووكل معاوية أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفاً وكان على مقدمته، وبات علي عليه‌السلام وجيشه في البر عطاشاً قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أن علياً لا يموت عطشاً هو تسعون ألفاً من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم ولكن دعهم يشربون ونشرب فقال معاوية: لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان.

وقال عبد الله بن أبي سرح: أمنعهم الماء إلى الليل فأنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ولو قد رجعوا كان رجوعهم فلا أمنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة.

فقال صعصعة: إنما يمنعه الله عزّ وجلّ يوم القيامة الكفرة الفسقة وشربة الخمر ضربك وضرب هذا الفاسق، يعني الوليد بن عقبة قال: فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهددونه فقال معاوية: كفوا عن الرجل فإنه رسول.

قال أبو مخنف: وحدثني يوسف بن يزيد عن عبد الله بن عوف بن الأحمر أن صعصعة رجع إلينا فحدثنا عما قال لمعاوية وما كان منه وما رد، فقلنا: فما رد عليك فقال: لما أردت

الإنصراف من عنده قلت: ما ترد عليّ؟ قال معاوية: سيأتيكم رأيي فوالله ما راعنا إلا تسريته الخيل إلى أبي الأعور ليكفهم عن الماء قال: فأبرزنا علي عليه السلام إليهم فارتمينا ثم أطّعنا ثم اضطربنا بالسيوف فنصرنا عليهم فصار الماء في أيدينا فقلنا: لا، والله لا نسقيهم فأرسل إلينا علي أن خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم فإن الله عزّ وجلّ قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم.

وقال المسعودي في مروج الذهب: قال معاوية لعمرو بن العاص يا أبا عبد الله ما ظنك بالرجل (يعني بالرجل علياً عليه السلام) أتراه يمنعنا الماء لمنعنا إياه وقد انحاز بأهل الشام إلى ناحية في البر نائياً عن الماء، فقال له عمرو: لا أن الرجل جاء لغير هذا وأنه لا يرضى حتى تدخل في طاعته أو يقطع حبال عاتقك فأرسل إليه معاوية يستأذنه في وروده مشرعته واستقاء الناس من طريقه، ودخل رسله عسكره فأباحه على كل ما سأل وطلب منه.

أقول: أنظر إلى سيرة ولي الله الأعظم أمير المؤمنين علي عليه السلام مع الناس حتى مع الأعداء بعين المعرفة والبصيرة، وإلى دأب معاوية أيضاً، حتى يتبين لك الفرق بين رجل إلهي وبين الذي استحوذ عليه الشيطان وتردى في هواه، حيث ترى أن معاوية قدم أولاً واختار منزلاً مستوياً بساطاً واسعاً وأخذ الشريعة ومنع علياً عليه السلام وأصحابه الماء، مع أن النبي صلى الله عليه وآله جعل الناس في الماء والكلأ والنار شرعاً سواء.

ولما غلب علي عليه السلام وعسكره عليهم، خلوا بينهم وبين الماء ثم وعظ علي عسكره بأن الظالم والباغي منكوب ومغلوب لا محالة وإن كان له جولان في برهة من الزمان، حيث قال عليه السلام: «فإن الله عزّ وجلّ قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم».

وأما منع الناس عثمان من الطعام والشراب وحصرهم إياه أربعين صباحاً أو أكثر، فيأتي كلامنا فيه في المباحث الآتية، مع أن أمير المؤمنين علي عليه السلام قد أنكر منع الماء والطعام على عثمان وأنفذ من مكن من حمل ذلك، لأنه كان في الدار من الحرم والنسوان والصبيان من لا يحل منعه من الطعام، والشراب.

وقال ابن قتيبة الدينوري في كتابه الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء: وبعث عثمان إلى علي عليه السلام يخبره أنه منع الماء ويستغيث به، فبعث إليه علي عليه السلام ثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل إليه، فقال طلحة: ما أنت وهذا؟

والعجب من هؤلاء الطغام[1] كيف تمسكوا بالأباطيل والأضاليل فخدعوا أتباعهم،

---

(١) الطغام: الضعيف العقل.

ومن تتبع في الآثار الأخبار يرى بعين اليقين أن معاوية لم يلف شيئاً يستضل ويستغوى به الناس إلا أن يتمسك بتلك الأقوال كما استمسك بها سخلته يزيد لما أراد أن يحرض الناس في قتل حسين بن علي عليه السلام والعجب أن معاوية منع أمير المؤمنين علياً عليه السلام وأصحابه من الماء، ولما استولى عليه السلام عليهم خلى بينهم وبين الماء، ويزيد بن معاوية منع حسين بن علي وأشياعه من الماء وهم سقوا قومه وأرووهم من الماء حتى رشفوا خيلهم حذو النعل بالنعل.

قال الطبري في حديث إقبال الحسين بن علي عليه السلام إلى كربلاء ومجيء الحر مع قومه إليه في أثناء الطريق بإسناده عن عبد الله بن سليم والمذري المشمعل الأسديين: قالا: أقبل الحسين عليه السلام حتى نزل شراف فلما كان في السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء فأكثروا ثم ساروا منها فرسموا صدر يومهم حتى انتصف النهار ثم إن رجلاً قال: الله أكبر. فقال الحسين عليه السلام: الله أكبر ما كبرت؟ قال: رأيت النخل فقال له الأسديان: إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط. قالا: فقال لنا الحسين عليه السلام فما تريانه رأى؟ قلنا: نراه رأى هوادى الخيل. فقال: وأنا والله أرى ذلك، فقال الحسين عليه السلام أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟ فقلنا له: بلى، هذا ذو حسم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد.

قال: فأخذ إليه ذات اليسار. قال: وملنا معه فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هوادى الخيل فتبيناها وعدلنا فلما رأونا وقد عدلنا عن الطريق عدلوا إلينا كأن أسنتهم اليعاسيب وكأن راياتهم أجنحة الطير. قال: فاستبقنا إلى ذي حُسُم فسبقناهم إليه فنزل الحسين عليه السلام فأمر بأبنيته فضربت وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي اليربوعي حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين عليه السلام في حر الظهيرة، والحسين وأصحابه معتمون متقلدوا أسيافهم. فقال الحسين عليه السلام لفتيانه أسقوا القوم وارووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً فقام فتيانه فرشفوا الخيل ترشيفاً فقام فتية وسقوا القوم من الماء حتى أرووهم، وأقبلوا يملؤون القصاع والأتوار والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس فإذا عب فيه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقوا آخر حتى سقوا الخيل كلها.

ثم قال: قال علي بن الطعان المحاربي: كنت مع الحر بن يزيد فجئت في آخر من جاء من أصحابه فلما رأى الحسين عليه السلام ما بي وبفرسي من العطش قال: أنخ الراوية والراوية عندي السقاء ثم قال: يا ابن أخي أنخ الجمل فأنخته فقال: إشرب فجعلت كلما شربت سال الماء من السقاء فقال الحسين عليه السلام أخنث السقاء أي أعطفه قال: فجعلت لا أدري كيف أفعل قال: فقام الحسين عليه السلام فخنثه فشربت وسقيت فرسي. إلى أن قال الطبري بإسناده عن حميد بن مسلم الأزدي قال:

جاء من عبيد الله بن زياد كتاب إلى عمر بن سعد: أما بعد فحُل بين الحسين وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان. قال: فبعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة وذلك قبل قتل الحسين بثلاث. قال: ونازله عبد الله بن أبي حصين الأزدي وعداده في بجيلة فقال: يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً، فقال حسين عليه السلام اللهم اقتله عطشاً ولا تغفر له أبداً. قال حميد بن مسلم والله لعُدته بعد ذلك في مرضه فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته يشرب حتى بغر ثم يقيء ثم يعود فيشرب حتى يبغر فما يروى فما زال ذلك دأبه حتى لفظ غُصّتَهُ يعني نفسه[١].

وأقول: لا يخفى على الباحث في السير والآثار، أن دأب بني هاشم كان على تأليف قلوب الناس والأخذ بأيديهم وإيصال الخير إليهم وإفشاء المعروف فيهم، وكانوا من بيت علم، وحلم، وكرم وسخاوة بحيث يؤثرون الناس في شدائد الأحوال على أنفسهم، وخصال صفاتهم لا يحصى وأن شيمة بني أُميّة كانت على ضدّ ما كان في بني هاشم وكانوا عبيد الدنيا وأسرة الهوى. ولنعد إلى القصة.

«دعاء علي عليه السلام معاوية إلى الطاعة والجماعة»

قال الطبري: قال أبو مخنف: حدثني عبد الملك بن أبي حرة الحنفي أن علياً قال: هذا يوم نصرتم فيه بالحمية وجاء الناس حتى أتوا عسكرهم فمكث علي عليه السلام يومين لا يرسل إلى معاوية أحداً ولا يرسل إليه معاوية.

ثم إن علياً عليه السلام دعا بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي فقال: ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة فقال له شبث بن ربعي: يا أمير المؤمنين ألا تطمعه في سلطان توليه إياه ومنزلة يكون له بها أثرة عندك إن هو بايعك؟ فقال علي عليه السلام: إئتوه فألقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه؟ وهذا في أول ذي الحجة فأتوه ودخلوا عليه، فحمد الله، وأثنى عليه أبو عمرة بشير بن عمرو وقال: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله عزّ وجلّ محاسبك بعملك وجازيكم بما قدمت يداك وإني أنشدك الله عزّ وجلّ أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها، فقطع عليه الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال أبو عمرة: إن صاحبي ليس مثلك إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في

(١) الإرشاد: ٢/٨٧، وبحار الأنوار: ٤٤/٣٨٩.

الإسلام والقرابة من الرسول ﷺ قال: فيقول ماذا؟ قال: يأمرك بتقوى الله عزّ وجلّ وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك.

قال معاوية: ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً. فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شبث بن ربعي فتكلم فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا معاوية إني قد فهمت ما رددت على ابن محصن أنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهوائهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه، فاستجاب له سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ورب متمني أمر وطالبه، الله عزّ وجلّ يحول دونه بقدرته وربما أوتى المتمني أمنيته وفوق أمنيته ووالله مالك في واحدة منهما خير، لئن أخطأت ما ترجو أنك لشر العرب حالاً في ذلك ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صليّ النار فاتقِ الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله.

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن أول ما عرفت فيه سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه ثم عنيت بعد فيما لا علم لك به فقد كذبت ولو مت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت إنصرفوا من عندي فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف وغضب.

وخرج القوم وشبث يقول أفعلينا تهول بالسيف أقسم بالله ليعجلن بها إليك فأتوا علياً وأخبروه بالذي كان من قوله وذلك في ذي الحجة.

فأخذ علي عليه السلام يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة فيقتتلان في خيلهما ورجالهما ثم ينصرفان، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام لما يتخوفون أن يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك، فكان علي عليه السلام يخرج مرة الأشتر، ومرة حجر بن عدي الكندي، ومرة شبث بن ربعي، ومرة خالد بن المعمر، ومرة زياد بن النضر الحارثي، ومرة زياد بن خصفة التيمي، ومرة سعيد بن قيس، ومرة معقل بن قيس الرياحي، ومرة قيس بن سعد وكان أكثر القوم خروجاً إليهم الأشتر.

وكان معاوية يخرج إليهم عبد الرحمن بن خالد المخزومي وأبا الأعور السلمي، ومرة حبيب بن مسلمة الفهري، ومرة ابن ذي الكلاع الحميري، ومرة عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ومرة شرحبيل بن السمط الكندي، ومرة حمزة بن مالك الهمداني فاقتتلوا من ذي الحجة كلها وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين أوله وآخره.

قال أبو مخنف: حدثني عبد الله بن عامر الفائشي قال: حدثني رجل من قومي أن الأشتر خرج يوماً يقاتل بصفين في رجال من القراء ورجال من فرسان العرب فاشتد قتالهم، فخرج علينا رجل والله لقل ما رأيت رجلاً قط هو أطول ولا أعظم منه فدعا إلى المبارزة فلم يخرج إليه أحد إلا الأشتر فاختلفا ضربتين فضربه الأشتر فقتله وأيم الله لقد كنا أشفقنا عليه وسألناه ألا يخرج إليه فلما قتله الأشتر نادى منادٍ من أصحابه:

يا سهمُ سهم ابن أبي العيزار يا خير من نعلمه من زار

وزاره حي من الأزد وقال: أقسم بالله لأقتلن قاتلك أو ليقتلني فخرج فحمل على الأشتر وعطف عليه الأشتر فضربه فإذا هو بين يدي فرسه وحمل عليه أصحابه فاستنقذوه جريحاً فقال: أبو رفيقة الفهمي هذا كان ناراً فصادف إعصاراً.

واقتتل الناس ذا الحجة كلها فلما انقضى ذو الحجة تداعى الناس إلى أن يكف بعضهم عن بعض المحرم، لعل الله أن يجري صلحاً أو إجتماعاً فكف بعضهم عن بعض. وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بأمر علي عليه السلام إياه بذلك.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين فكان في أول شهر منها وهو المحرم موادعة الحرب بين علي عليه السلام ومعاوية قد توادعا على ترك الحرب فيه إلى انقضائه طمعاً في الصلح.

قال المسعودي في مروج الذهب: ولما كان أول يوم من ذي الحجة بعد نزول علي عليه السلام هذا الموضع بيومين بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم في سنة سبع وثلاثين، وامتنع المسلمون عن الغزو في البحر، والبر لشغلهم بالحروب وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه لشغله بعلي عليه السلام ولم يتم بين علي، ومعاوية صلح على غير ما اتفقا عليه من الموادعة في المحرم وعزم القوم على الحرب بعد انقضاء المحرم، ففي ذلك يقول حابس بن سعد الطائي صاحب راية معاوية:

فما دون المنايا غير سبع بقين من المحرم أو ثمان

وقال أبو جعفر الطبري: فذكر هشام بن محمد عن أبي مخنف الأزدي قال: حدثني سعد أبو المجاهد الطائي عن المُحل بن خليفة الطائي قال: لما توادع علي عليه السلام، ومعاوية يوم صفين إختلف فيما بينهما الرسل رجاء الصلح، فبعث علي عليه السلام عدي بن حاتم، ويزيد بن قيس الأرحبي، وشبث بن ربعي، وزياد بن خصفة إلى معاوية فلما دخلوا حمد الله عدي بن حاتم ثم قال: أما بعد فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عزّ وجلّ به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويأمن به السبل ويصلح به ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة

وأحسنها في الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله عزّ وجلّ بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل.

فقال معاوية: كأنك إنما جئت متهدداً لم تأت مصلحاً، هيهات يا عدي كلا والله إني لابَن حرب ما يقعقع لي بالشنان، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عزّ وجلّ به هيهات يا عدي بن حاتم قد حلبت بالساعد الأشد.

فقال له شبث بن ربعي، وزياد بن خصفة وتنازعا جواباً واحداً أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع ما لا ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه.

وتكلم يزيد بن قيس فقال: إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك، ولنؤدي عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لم ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك حجة وأنك راجع به إلى الإلفة والجماعة إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله، ولا أظنه يخفى عليك إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي عليه السلام ولن يميلوا بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً عليه السلام فإنا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فأنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

فقال له شبث: أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله؟ فقال معاوية: وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بناتل مولى عثمان[1].

أقول: عمار هذا هو أبو اليقظان عمار بن ياسر رضي الله عنه وهو من خيار أصحاب النبي صلى الله عليه وآله الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيه: أن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه. وجلالة قدره وكثرة ثباته واستقامته في الدين مما لا يخفى على أحد.

وسمية «على التصغير» رضي الله عنها كانت أمه وهي من عذب في الله، بل ذكر نقلة

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٥٤، وخلاصة عبقات الأنوار: ٣/ ٣٨.

الآثار إن أول شهيد استشهد في الإسلام أم عمار سمية طعنها أبو جهل بطعنة في قبلها أو قلبها. وإنما قال شبث لمعاوية: أيسرك أنك أمكنت من عمار تقتله، لأن النبي ﷺ قال فيه: إنما تقتلك الفئة الباغية. وهذا هو المنقول عن الفريقين بلا كلام فكأنما شبث قال لمعاوية: أنت تعلم أن رسول الله ﷺ قال فيه كذا، أفترضى أن تكون أنت وقومك الفئة الباغية وتحب أن تكونوا منهم وقاتل عمار بنص رسول الله ﷺ الفئة الباغية.

فأجابه معاوية بقوله لو أمكنت من ابن سمية يعني عماراً ما قتلته بدل عثمان بل كنت قاتله بدل ناتل مولى عثمان يعني أن عماراً لا يليق أن يقتل بدل عثمان بل بدل مولاه.

فانظر أيها البصير في الأمور في قساوة معاوية وتجريه وهتكه وفظاظته، كيف يعترف ببغيه وعناده على رسول الله ﷺ ومع ذلك ينسبه إلى الدين ويعرفه خليفة المسلمين وأمير المؤمنين.

والبصير في السير يعلم أن علياً عليه السلام لم يكن في قتل عثمان شريكاً بل كان ناهياً عن ذلك، وقال غير واحد من نقلة الآثار من الفريقين إنه عليه السلام كان ينهي الناس عن قتله، وسيجيء الكلام فيه في محله وإنما معاوية لم يجد شيئاً يستغوي به الناس ويستميل به إهوائهم وتستخلص به طاعتهم إلا قوله: قتل إمامكم عثمان مظلوماً فنحن نطلب بدمه.

وسيأتي من عمار رحمه الله كما في تاريخ الطبري حيث يقول عمار لقوم معاوية في صفين: ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم أن قالوا إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان.

ويأتي ترجمة عمار وأبوه ياسر وأمه سمية ونسبه وقتله في سبيل الله عن قريب فلنعد إلى القصة.

فقال له شبث: وإله الأرض وإله السماء أما عدلت معتدلاً لا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها.

فقال له معاوية: أنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق. وتفرق القوم عن معاوية، فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد بن خصفة التيمي فخلا به فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد يا أخا ربيعة فإن علياً قطع أرحامنا وآوى قتلة صاحبنا «يعني بالصاحب عثمان وإني أسألك النصر عليه بأسرتك وعشيرتك ثم لك عهد الله جلّ وعزّ ميثاقه أن أُوليك إذا ظهرت «أي غلبت» أي المصرين أحببت.

قال الطبري: قال أبو مخنف فحدثني سعد أبو المجاهد عن المحل بن خليفة قال:

سمعت زياد بن خصفة يحدث بهذا الحديث قال: فلما قضى معاوية كلامه حمدت الله عزّ وجلّ وأثنيت عليه ثم قلت: أما بعد فإني على بينة من ربي وبما أنعم عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ثم قمت.

فقال معاوية لعمرو بن العاص وكان إلى جنبه جالساً يكلم رجل منا رجلاً منهم فيجيب إلى خير ما لهم عضبهم الله بشر ما قلوبهم إلا كقلب رجل واحد.

قال الطبري: قال أبو مخنف فحدثني سليمان بن راشد الأزدي عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود: أن معاوية بعث إلى علي عليه السلام حبيب بن مسلة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس فدخلوا عليه وأنا عنده، فحمد الله حبيب وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عزّ وجلّ وينيب إلى أمر الله تعالى فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم.

فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام: وما أنت لا أُم لك والعزل وهذا الأمر أسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له.

فقام وقال له: والله لتريني بحيث تكره.

فقال علي عليه السلام: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت علّي أحقُرة وسوءاً أذهب فصوِّب وصعد ما بدا لك.

وقال شرحبيل بن السمط: إني إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل، فهل عندك جواب غير الذي أجبته به؟

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق فأنقذ به من الضلالة وانتاش به من الهلكة وجمع به من الفرقة ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه صلى الله عليه وآله ثم استخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله صلى الله عليه وآله فغفرنا ذلك لهما وولي عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي: بايع فأبيت عليهم. فقالوا لي: بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عزّ وجلّ له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق حزب من هذه الأحزاب لم يزل الله عزّ وجلّ ولرسوله صلى الله عليه وآله وللمسلمين عدو هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام

كارهين، فلا غرو إلا خلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم ﷺ الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً ألا، أني أدعوكم إلى كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيه ﷺ وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولكل مؤمن، ومؤمنة، ومسلم، ومسلمة».

أقول: كلامه عليه السلام هذا ليس في نهج البلاغة وكم له عليه السلام من كلام لم يأتي به الرضي رضوان الله عليه في النهج ولم يعثر عليه وهو رحمه الله معترف بذلك حيث يقول في مقدمته على النهج: فضلاً فيه أوراقاً لتكون مقدمة لاستدراك عساه يشذ عني عاجلاً ويقع إليّ آجلاً. ولنعد إلى القصة:

فقال شرحبيل أتشهد أن عثمان قتل مظلوماً؟ فقال عليه السلام لهما لا أقول أنه قتل مظلوماً ولا أنه قتل ظالماً قالا: فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه برآء ثم قاما فانصرفا، فقال علي عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٨٠ - ٨١].

ثم أقبل علي عليه السلام على أصحابه فقال: لا يكون هؤلاء أولى بالجد في ضلالهم منكم بالجد في حقكم وطاعة ربكم.

«تكتيب الكتائب وتعبية الناس للقتال»

ومكث الناس حتى إذا دنا انسلاخ المحرم، أمر علي عليه السلام مرثد بن الحارث الجشمي فنادى أهل الشام عند غروب الشمس ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه واحتججت عليكم بكتاب الله عزّ وجلّ فدعوتكم إليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا إلى حق، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم وخرج معاوية، وعمرو بن العاص في الناس يكتبان الكتائب ويعبيان الناس وأرقدوا النيران وبات علي عليه السلام ليلته كلها يعبى الناس ويكتب الكتائب ويدور في الناس يحرضهم.

قال الطبري: قال أبو مخنف: وحدثني إسماعيل بن يزيد عن أبي صادق عن الحضرمي قال: سمعت علياً يحرض الناس في ثلاثة مواطن يحرض الناس يوم صفين، ويوم الجمل، ويوم النهر، يقول: عباد الله إتقوا الله وغضوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلوا الكلام ووطنوا أنفسكم على المنازلة، والمجاولة، والمبارزة، والمناضلة، والمبالدة، والمعانقة، والمكارمة، الملازمة فأثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين، اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم

الأجر فأصبح علي عليه السلام من الغد فبعث على الميمنة والميسرة والرجالة والخيل.

قال أبو مخنف: فحدثني فضيل بن خديج الكندي أن علياً بعث على خيل أهل الكوفة الأشتر، وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجالة أهل الكوفة عمار بن ياسر، وعلى رجالة أهل البصرة قيس بن سعد وهاشم بن عتبة معه رايته، ومسعر بن فدكي التميمي على قراء أهل البصرة وصار أهل الكوفة إلى عبد الله بن بديل وعمار بن ياسر.

قال أبو مخنف: وحدثني عبد الله بن يزيد بن جابر الأزدي عن القاسم مولى يزيد بن معاوية: أن معاوية بعث على ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى مقدمته يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السلمي وكان على خيل أهل دمشق، وعمرو بن العاص على خيول أهل الشام كلها، ومسلم بن عقبة المري على رجالة أهل دمشق، والضحاك بن قيس على رجالة الناس كلها، وبايع رجال من أهل الشام على الموت فعقلوا أنفسهم بالعمائم فكان المعقلون خمسة صفوف وكانوا يخرجون ويصفون عشرة صفوف ويخرج أهل العراق أحد عشر صفاً، فخرجوا أول يوم من صفر فاقتتلوا وعلى من خرج يومئذٍ من أهل الكوفة الأشتر وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة الفهري، وذلك يوم الأربعاء فاقتتلوا قتالاً شديداً جل النهار ثم تراجعوا وقد إنتصف بعضهم من بعض.

«اليوم الثاني»

فلما كان يوم الخميس وهو اليوم الثاني من صفر، أخرج علي عليه السلام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري المرقال في خيل ورجال حسن عددها، وعدتها وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص وإنما سمي المرقال لأنه كان يرقل في الحرب وكان أعور ذهبت عينه يوم اليرموك وكان من شيعة علي عليه السلام، فأخرج إليه معاوية أبا الأعور السلمي وهو سفيان بن عوف وكان من شيعة معاوية والمنحرفين عن علي عليه السلام وكان بينهم الحرب سجالاً يحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال وانصرفوا في آخر يومهم عن قتلي كثير.

«اليوم الثالث»

وأخرج علي عليه السلام في اليوم الثالث من صفر وهو يوم الجمعة أبا اليقظان عمار بن ياسر رضوان الله عليه في عدة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار فيمن شرع معهم من الناس، وأخرج إليه معاوية عمرو بن العاص في تنوخ ونهر وغيرها من أهل الشام فاقتتل الناس كأشد القتال وأخذ عمار يقول: يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين، فلما رأى الله عزّ وجلّ عز دينه ويظهر رسوله أتى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم هو فيما نرى راهب غير راغب، ثم قبض الله عزّ وجلّ

رسوله ﷺ فوالله إن زال بعده معروفاً بعداوة المسلم وهوادة المجرم فأثبتوا له وقاتلوه فإنه يطفىء نور الله ويظاهر أعداء الله عزّ وجلّ.

أقول: الظاهر أن كلمه إن في قوله إن زال نافية أي ما زال، ثم نقول قد مضى الكلام منا عن رسول الله ﷺ في حق عمار أنه مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه الحديث. فهو صادق مصدق في قوله أن معاوية كان كذا، وكذا وأن إسلامه لم يكن عن رغبة بل عن رهبة لأنه لما رأى الله عزّ وجلّ يعز دينه ويظهر رسوله أتى النبي ﷺ فأسلم ولما آخى رسول الله ﷺ بين نفر من أصحابه من المهاجرين آخى بين معاوية بن أبي سفيان، والحتات بن يزيد المجاشعي فمات الحتات عند معاوية في جلافته فأخذ معاوية ما ترك وارثة بهذه الأخوة فقال الفرزدق لمعاوية:

أبوك وممي يا معاوي أورثا تراثا فيحتا زالتراث أقاربه
فما بال ميراث الحتات أكلته وميراث حرب جامد لك ذائبه

وكذا كان إسلام أبيه أبي سفيان عن رهبه من المسلمين ولم يؤمن واقعاً، وما نقلنا من عمار في معاوية نقله أبو جعفر الطبري في تاريخه وغير واحد من حملة الأخبار ونقلة الآثار.

فالعجب من شرذمة من المسلمين قائلين: بأنا نتوقف في معاوية ولا نقول فيه شيئاً بل نرى عن قوم بله في تصانيفهم يترحمون له ويذكرونه بالخير والرحمة، نعم من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور، وسيأتي من عمار رحمه الله في هؤلاء السفهاء كلام آخر، فلنعد إلى القصة.

فكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل فأمره أن يحمل في الخيل، فحمل وقاتله الناس وصبروا له، وشد عمار في الرجال فأزال عمرو بن العاص عن موقفه وبارز يومئذٍ زياد بن النضر أخاً له لأمه يقال له: عمرو بن معاوية المنتفق بن عامر بن عقيل وكانت أمهما إمرأة من بني يزيد فلما التقيا تعارفا فتوافقا ثم انصرف كل واحد منهما عن صاحبه وتراجع الناس[١].

«اليوم الرابع»

وأخرج علي عليه السلام في اليوم الرابع من صفر وهو يوم السبت، إبنه محمد ابن الحنفية في همدان وغيرها ممن خف معه من الناس فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في حمير، ولخم، وجذام فاقتتلوا كأشد القتال.

---

(١) تاريخ الطبري: ٨/٤.

أقول: إنما اشتهر محمد بن علي عليه السلام بابن الحنفية لأن أمه كانت خولة الحنفية وحنيفة كان جدها الأعلى، وهي خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل.

وقال الشارح المعتزلي في الجزء الأول من شرحه: واختلف في أمر خولة فقال قوم: أنها سبية من سبايا الردة قوتل أهلها على يد خالد بن الوليد في أيام أبي بكر لما منع كثير من العرب الزكاة، وارتدت بنو حنيفة وادعت نبوة مسيلمة وأن أبا بكر دفعها إلى علي عليه السلام من سهمه في المغنم.

وقال قوم منهم: أبو الحسن علي بن محمد بن سيف المدائني هي سبية في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام إلى اليمن فأصاب خولة في بني زبيد وقد ارتدوا مع عمر بن معدي كرب وكانت زبيد سبتها من بني حنيفة في غارة لهم عليهم، فصارت في سهم علي عليه السلام فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إن ولدت منك غلاماً فسمه باسمي وكنّه بكنّيتي فولدت له بعد موت فاطمة عليها السلام محمداً فكناه أبا القاسم.

وقال قوم وهم المحققون وقولهم الأظهر: أن بني أسد أغارت على بني حنيفة في خلافة أبي بكر فسبوا خولة بنت جعفر وقدموا بها المدينة فباعوها من علي عليه السلام وبلغ قومها خبرها فقدموا المدينة على علي عليه السلام فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم فأعتقها ومهرها وتزوجها فولدت له محمد فكناه أبا القاسم وهذا القول هو اختيار أحمد بن يحيى البلاذري في كتابه المعروف بتاريخ الأشراف.

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلى ابنه محمد ابن الحنفية، وقد استوت الصفوف وقال له إحمل فتوقف قليلاً، فقال له إحمل. فقال يا أمير المؤمنين أما ترى السهام كأنها شابيب المطر فدفع في صدره فقال: أدركك عرق من أمك ثم أخذ الراية فهزها ثم قال:

أطعن بها طعن أبيك تحمد لا خير في الحرب إذا لم توقد

بالمشرفي والقنا المسدد

وفي مادة «حنف» من سفينة البحار: وقريب منه ما في المجلي لابن أبي جمهور الإحسائي لما حضرت السبي وقد أدخلت الحنفية فيمن أدخل عدلت إلى تربة رسول الله صلى الله عليه وآله فرنت رنة وزفرت زفرة وأعلنت بالبكاء والنحيب تشكو إليها ذل الأسر. وقالت يا رسول الله نشكو إليك أفعال هؤلاء القوم سبونا من غير ذنب ونحن مسلمون.

ثم قالت: أيها الناس لم سبيتمونا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟

فقال أبو بكر: منعتم الزكاة فقالت: ليس الأمر على ما زعمت وهب الرجال منعوكم الزكاة فما بال النساء المسلمات تسبين؟

ثم ذهب إليها طلحة وخالد يرميان بالتزويج إليها ثوبين فقالت: لست بعريانة فتكسوني، قيل أنهما يريدان أن يتزايدا عليك فأيهما زاد على صاحبه أخذك من السبي قالت: هيهات والله لا يكون ذلك أبداً، ولا يملكني ولا يكون لي ببعل إلا من يخبرني بالكلام الذي قلته ساعة خرجت من بطن أمي، فسكت الناس ينظر بعضهم إلى بعض وأخذ طلحة، وخالد ثوبيهما وجلست الحنفية ناحية من القوم فدخل علي بن أبي طالب عليه السلام فذكروا له حالها، فقال: هي صادقة فيما قالت وكان حالها وقصتها كيت، وكيت في حال ولادتها وكل ذلك مكتوب على لوح معها فرمت باللوح إليهم لما سمعت كلامه عليه السلام فقرأوها على ما حكى أمير المؤمنين عليه السلام لا يزيد حرفاً ولا ينقص، فقال أبو بكر: خذها يا أبا الحسن بارك الله لك فيها فبعث علي عليه السلام خولة إلى أسماء بنت عميس قال لها خذي هذه المرأة واكرمي مثواها فلم تزل خولة عندها إلى أن قدم أخوها فتزوجها أمير المؤمنين عليه السلام. إنتهى[1].

والقصة بالتفصيل مذكورة في المجلى فراجع.

ولا يخفى أن في صحة هذا النقل الأخير كلاماً ولو سلمنا ولا يبعدان يقال: أن فيه بعض زيادات كتكلمها حين ولادتها ويمكن أن يكون فيها علامات ذكرها علي عليه السلام فحرف إلى هذه الصورة والله تعالى أعلم.

فائدة أدبية: تكتب ألف الوصل من «ابن» خَطّاً في سبعة مواضع:

الأول: إذا أُضيف إلى مضمر كقولك هذا إبنك.

الثاني: إذا نسب إلى الأب الأعلى كقولك محمد ابن شهاب التابعي فشهاب جد جده.

الثالث: إذا أُضيف إلى غير أبيه كقولك المقداد ابن الأسود، أبوه الحقيقي عمرو، والأسود جده وكقولك محمد ابن الحنفية فعلي عليه السلام أبوه والحنفية أمه على البيان الذي دريت.

الرابع: إذا عدل به عن الصفة إلى الخبر كقولك أظن زيداً ابن عمرو.

الخامس: إذا عدل به عن الصفة إلى نحو الإستفهام كقولك هل تميم ابن عمر.

السادس: إذا ثنى كقولك زيد، وعمر وابنا محمد.

---

(١) مدينة المعاجز: ٥/١٧٩، وبحار الأنوار: ٤٢/٨٧.

السابع: إذا ذكرته دون إسم قبله كقولك جاءني ابن عبد الله.

وفي ما عداها تسقط الألف بين العلمين خطاً كما تسقط لفظاً مطلقاً، إلا ما اصطلح في المطابع من أنه إذا وقعت كلمة ابن أول السطر تكتب ألفها مطلقاً، فلنعد إلى القصة.

ثم إن عبيد الله بن عمر أرسل إلى ابن الحنفية أن أخرج إليّ فقال: نعم، ثم خرج يمشي فبصر به أمير المؤمنين عليه السلام فقال: من هذان المبارزان؟ فقيل: ابن الحنفية وعبيد الله بن عمر فحرك دابته ثم نادى محمداً فوقف له فقال: إمسك دابتي فأمسكها ثم مشي إليه علي عليه السلام. فقال: أبرز لك هلم إليّ فقال: ليست لي في مبارزتك حاجة. فقال: بلى، فقال: لا فرجع ابن عمر فأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه: يا أبت لم منعتني من مبارزته فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله. فقال: لو بارزته لرجوت أن تقتله وما كنت آمن أن يقتلك. فقال: يا أبت أو تبرز لهذا الفاسق والله لو أبوه سألك المبارزة لرغبت بك عنه، فقال علي عليه السلام: يا بني لا تقل فيه إلا خيراً.

ثم إن الناس تحاجزوا وتراجعوا قال المسعودي: فاقتتلوا في ذلك اليوم وكانت على أهل الشام ونجا ابن عمر في آخر النهار هرباً.

أقول: إنما لحق عبيد الله بن عمر بمعاوية خوفاً من علي عليه السلام أن يقيده بالهرمزان وذلك أن أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قتل عمر كان في أرض العجم غلاماً للهرمزان فلما قتل عمر شد عبيد الله على الهرمزان فقتله، وكذلك قتل جفينة وابنة أبي لؤلؤة وقال: لا أترك بالمدينة فارسياً ولا في غيرها إلا قتلته وكان الهرمزان عليلاً في الوقت الذي قتل فيه عمر فلما صارت الخلافة إلى علي عليه السلام أراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظلماً من غير سبب إستحقه، فلجأ إلى معاوية.

وفي تاريخ الطبري: لما بويع لعثمان بالخلافة دعا عبيد الله بن عمر وكان محبوساً في دار سعد بن أبي وقاص وهو الذي نزع السيف من يده بعد قتله جفينة والهرمزان وابنة أبي لؤلؤة، وكان يقول والله لأقتلن رجالاً ممن شرك في دم أبي يعرض بالمهاجرين والأنصار. فقام إليه سعد فنزع السيف من يده وجذب شعره حتى أضجعه إلى الأرض وحبسه في داره حتى أخرجه عثمان إليه فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق «يعني به عبيد الله بن عمر» فقال علي عليه السلام: أرى أن تقتله، فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس ويقال إبنه اليوم فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذ الحدث ولا سلطان لك. قال عثمان: وأنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي.

وقال الطبري: بإسناده. إن عبد الرحمن بن أبي بكر. قال: غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فانظروا بأي شيء قتل وقد تخلل أهل المسجد خرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميمي وقد كان ألظ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه فقتله، وجاء بالخنجر الذي وصف عبد الرحمن بن أبي بكر فسمع بذلك عبيد الله بن عمر فأمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله فلما عضه السيف قال: لا إله إلا الله ثم مضى حتى أتى جفينة وكان نصرانياً من أهل الحيرة ظئراً لسعد بن مالك أقدمه إلى المدينة للصلح الذي بينه وبينهم وليعلم بالمدينة الكتابة فلما علاه بالسيف صلب بين عينيه وبلغ ذلك صهيباً فبعث إليه عمرو بن العاص فلم يزل به وعنه ويقول السيف بأبي وأمي حتى ناوله إياه وثاوره سعد فأخذ بشعره وجاؤوا إلى صهيب.

وقال: كتب إليّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي منصور قال: سمعت القماذبان يحدث عن قتل أبيه الهرمزان قال: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض فمر فيروز: «وهو أبو لؤلؤة» بأبي ومعه خنجر له رأسان فتناوله منه وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: أبس به فرآه رجل فلما أُصيب عمر قال: رأيت هذا مع الهرمزان دفعه إلى فيروز فأقبل عبيد الله فقتله فلما ولى عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بني هذا قاتل أبيك وأنت أولى به منا فاذهب فاقتله فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي إلا أنهم يطلبون إلى فيه فقلت لهم: ألي قتله؟ قالوا: نعم وسبوا عبيد الله فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا وسبوه فتركته لله ولهم فاحتملوني فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم[1].

وفي البحار كما في السفينة: عبيد الله بن عمر قتل هرمزان مولى علي عليه السلام فأراد علي عليه السلام قتله فامتنع عثمان من تسليمه، فلما صارت الخلافة لعلي عليه السلام لحق عبيد الله بمعاوية وقتل بصفين.

وفيه أيضاً قال ابن الأثير في الكامل وابن عبد البر في الإستيعاب وصاحب روضة الأحباب وكثير من أرباب السير: قتل عبيد الله بن عمر بأبيه ابنة أبي لؤلؤة وقتل جفينة والهرمزان وأشار علي على عثمان بقتله بهم فأبى[2].

وقال بن أبي جمهور الإحسائي في المجلى: ومن قوادح عثمان قصة قتل الهرمزان

(١) الغدير: ٨/١٣٩، وعبد الله بن سبأ: ١/٢٨٣.

(٢) مستدرك سفينة البحار: ٩/٢١٥، وبحار الأنوار: ٣١/٢٢٦.

وذلك أن الهرمزان كان من عظماء فارس وكان قد أسر في بعض الغزوات وجيء به إلى المدينة فأخذه علي عليه السلام فأسلم على يديه فأعتقه علي عليه السلام وكان عمر قد منعه من قسمة الفيء فلم يعطه منه شيء بسبب ميله إلى علي عليه السلام فلما ضرب عمر في غلس الصبح واشتبه الأمر في ضربه سمع إبنه عبيد الله قوم يقولون قتله العلج فظن أنهم يعنون الهرمزان فبادر عبيد الله إليه فقتله قبل أن يموت عمر فسمع عمر بما فعله إبنه فقال: قد أخطأ عبيد الله إن الذي ضربني أبو لؤلؤة وإن عشت لأقيدنه به فإن علياً عليه السلام لا يقبل منه الدية وهو موليه.

فلما مات عمر وتولى عثمان طالبه علي عليه السلام بقود عبيد الله وقال إنه قتل مولاي ظلماً وأنا وليه فقال عثمان: قتل بالأمس عمر واليوم تقتل إبنه حسب آل عمر مصابهم به وامتنع من تسليمه إلى علي عليه السلام ومنع علياً حقه ظلماً وعدواناً، ولهذا قال علي عليه السلام لئن أمكنني الدهر نه يوماً لأقتلنه به.

فلما ولى علي عليه السلام هرب عبيد الله منه إلى الشام والتجأ إلى معاوية، وخرج معه إلى حرب صفين فقتله علي عليه السلام في حرب صفين.

فانظر إلى عثمان كيف عطل حق علي عليه السلام وخالف الكتاب والسنّة برأيه والله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ إنتهى كلامه.

ولا يخفى على البصير في أحكام خاتم النبيين والعارف بشريعة سيد المرسلين أن القصاص يجب أن يكون بمثل ما عمل من الجنس والمقدار والصفة لأنه دين عدل ليقوم الناس بالقسط فلا يجوز معاقبة أحد على وجه المجازاة بأكثر ما جنى. قال عز من قائل: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

قال ابن هشام في السيرة في قتلى أحد وتمثيل هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بحمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله رضوان الله عليه:

إن هنداً والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يجدعن الآذان والأنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنفهم خدماً وقلائد وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً غلام جبير بن مطعم قاتل حمزة رضوان الله عليه وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، إلى أن قال:

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله يلتمس حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به فجدع أنفه وأذناه، إلى أن قال:

قال رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى: ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثله أحدٌ من العرب، إلى أن قال:

إن الله عزّ وجلّ أنزل في ذلك من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٧] فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة.

وفي مجمع البيان: قال المسلمون لئن أمكننا الله منهم لنمثلن بالأحياء فضلاً عن الأموات، فنزلت الآية. وقيل: إن الآية عامة في كل ظلم كغصب أو نحوه فإنما يجازى بمثل ما عمل[١].

وفي تفسير الصافي للفيض رحمه الله وعن النبي ﷺ أنه قال يوم أُحد: من له علم بعمي حمزة؟ فقال الحرث: الصمت أنا أعرف موضعه، فجاء حتى وقف على حمزة فكره أن يرجع إلى رسول الله ﷺ فيخبره، فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام يا علي أطلب عمك فجاء علي عليه السلام فوقف على حمزة فكره أن يرجع إليه، فجاء رسول الله ﷺ حتى وقف عليه فلما رأى ما فعل به بكى ثم قال: ما وقفت موقفاً قط أغيظ عليّ من هذا المكان لئن أمكنني الله من قريش لأمثلن سبعين رجلاً منهم فنزل عليه جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآية[٢].

والعياشي عن الصادق عليه السلام لما رأى رسول الله ﷺ ما صنع بحمزة بن عبد المطلب قال: اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وإنك المستعان على ما نرى ثم قال: لئن ظفرت لأمثلن وأمثلن. قال: فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآية[٣].

وبالجملة وعبيد الله عمر لم يكن في قتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة بمصاب وما عمله إلا التجاوز عن النهج القويم والمخالف عن الكتاب الكريم، وعليه أن يعاقب أبا لؤلؤة بمثل ما عوقب به فقط، مع أن فيروز أبا لؤلؤة لما طعن عمر نحر نفسه وقتئذٍ أيضاً كما قال المسعودي في مروج الذهب: أخذ خنجراً فاشتمل عليه ثم قعد لعمر في زاوية من زوايا

---

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٢٩٧، والتبيان: ٦/ ٤٤١.

(٢) التفسير الصافي: ٣/ ١٦٥، وتفسير نور الثقلين: ٣/ ٩٦، ح ٢٦٨.

(٣) موسوعة التاريخ: ٢/ ٣٢٨، وبحار الأنوار: ٢٠/ ٩٣، ح ٢٧.

المسجد في الغلس وكان عمر يخرج في السحر فيوقظ الناس، فمر به فثار إليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت سرته وهي التي قتلته وطعن إثني عشر رجلاً من أهل المسجد فمات منهم ستة وبقي ستة ونحر نفسه بخنجره فمات فأنى لابن عمر أن يقتل غير واحد من الناس.

قال الطبري: وكان رجل من الأنصار يقال له: زياد بن لبيد البياضي إذا رأى عبيد الله بن عمر قال:

ألا يا عبيد الله مالك مهرب ... ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دماً والله في غير حلّه ... حراماً وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيء غير أن قال قائل ... أتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمة ... نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد في جوب بيته ... يقلبها والأمر بالأمر يعتبر

فشكا عبيد الله بن عمر إلى عثمان زياد بن لبيد وشعره فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه فأنشأ زياد يقول في عثمان:

أبا عمرو عبيد الله رهن ... فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنه ... وأسباب الخطا فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغير حق ... فمالك بالذي تحكى يدان

فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه وشذبه.

ثم إن الهرمزان كان لك فارس وفي تاريخ الطبري كان الهرمزان أحد البيوتات السبعة في أهل فارس وكانت أمته مهرجان قذق وكور الأهواز فهؤلاء بيوتات دون سائر أهل فارس، والهرمزان إنهزم في خلافة عمر من المسلمين غير مرة ونقض العهد كل مرة وحارب المسلمين إلى أن حاصره وجنده المسلمون في قلعة بتستر فأخذوه وشدوه وثاقاً على التفصيل الذي ذكر في السير والتواريخ فأتوا به في المدينة عند عمر وقال له عمر: ما عذرك وحجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك. قال: لا تخف ذلك واستسقى ماءً فأُتي به في قدح غليظ فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا فأُتي به في إناء يرضاه فجعلت يده ترجف وقال: إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء. فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال: لا حجة لي في الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر: إني قاتلك قد آمنتني. قال: خدعتني إن للمخدوع في الحرب حكمه لا والله لا أؤمنك حتى تسلم فأيقن أنه القتل أو الإسلام فأسلم ففرض له على ألفين وأنزله المدينة.

وفي البحار نقلاً عن المناقب كما في سفينة البحار: أن عمر أراد قتل الهرمزان فاستسقى فأُتي بقدح فجعل ترعديده فقال له في ذلك فقال: إني خائف أن تقتلني قبل أن أشربه فقال: إشرب ولا بأس عليك فرمى القدح من يده فكسره فقال: ما كنت لأشربه أبداً وقد أمنتني. فقال: قاتلك الله لقد أخذت أمناً ولم أشعر به.

ثم قال: وفي روايتنا أنه شكى ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام فدعا الله تعالى فصار القدح صحيحاً مملوءاً من الماء فلما رأى الهرمزان المعجز أسلم.

وأبو لؤلؤة كان إسمه فيروز ولقبه بابا شجاع الدين وكان النهاوندي الأصل والمولد وتنوزع في مذهبه.

قال المسعودي في مروج الذهب: وكان عمر لا يترك أحداً من العجم يدخل المدينة فكتب إليه المغيرة بن شعبة أن عندي غلاماً نقاشاً نجاراً حداداً فيه منافع لأهل المدينة فإن رأيت أن تأذن لي في الإرسال به فعلت فأذن له وقد كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهمين وكان يدعى أبا لؤلؤة وكان مجوسياً من أهل نهاوند فلبث ما شاء الله ثم أتى عمر يشكو إليه ثقل خراجه فقال له عمر: وما تحسن من الأعمال؟ قال نقاش: نجار حداد فقال له عمر: ما خراجك بكثير في كنه ما تحسن من الأعمال فمضى عنه وهو مدبر قال: ثم مر بعمر يوماً آخر وهو قاعد فقال له عمر: ألم أحدث عنك أنك تقول لو شئت أن أصنع رحا تطحن بالريح لفعلت؟ فقال: أبو لؤلؤة لأصنعن لك رحا يتحدث الناس به ومضى أبو لؤلؤة. فقال: أما العلج فقد توعدني آنفاً فلما أزمع بالذي أوعد به أخذ خنجراً فاشتمل عليه ثم قعد لعمر في زاوية من زوايا المسجد إلى آخر ما نقلناه عنه آنفاً[1].

وفي سفينة البحار: الذي رأيت في بعض الكتب أن أبا لؤلؤة كان غلام المغيرة بن شعبة إسمه الفيروز الفارسي أصله من نهاوند فأسرته الروم وأسره المسلمون من الروم ولذلك لما قدم سبى نهاوند إلى المدينة في السنة الحادية والعشرين كان أبو لؤلؤة لا يلى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال له: أكل رمع كبدي وذلك لأن الرجل «يعني به عمر وضع عليه من الخراج كل يوم درهمين فثقل عليه الأمر فأتى إليه فقال له الرجل: «أي عمر» ليس بكثير في حقك فإني سمعت عنك أنك لو أردت أن تدير الرحى بالريح لقدرت على ذلك فقال أبو لؤلؤة: لأديرن لك رحى لا تسكن إلى يوم القيامة، فقال: إن العبد قد أوعد ولو كنت أقتل أحداً بالتهمة لقتلت.

وفي خبر آخر قال له أبو لؤلؤة: لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالمشرق والمغرب

---

(١) المصنف: ٥/٤٧٥، ح ٩٧٧٥، وحياة الإمام لحسين: ١/٣٠٢.

ثم أنه قتله بعد ذلك.

ثم نقل عن بعض الأعلام: أن فيروز هذا قد كان من أكابر المسلمين والمجاهدين بل من خلص أتباع أمير المؤمنين عليه السلام وكان أخاً لذكوان وهو أبو أبي الزناد عبد الله بن ذكوان عالم أهل المدينة بالحساب، والفرائض، والنحو، والشعر، والحديث، والفقه فراجع الإستيعاب.

وقل الذهبي في كتابه المختصر في الرجال: عبد الله بن ذكوان أبو عبد الرحمن هو الإمام أبو الزناد المدني مولى بني أمية وذكوان هو أخو أبي لؤلؤة قاتل عمر ثقة ثبت روى عنه مالك، والسفيانان مات فجأة في شهر رمضان في السنة الحادية والثلاثين بعد المائة. ثم قال: قال صاحب الرياض وهذا أجلي دليل على كون فيروز المذكور من الشيعة، وحينئذٍ فلا اعتماد بما قاله الذهبي من أن أبا لؤلؤة كان عبداً نصرانياً لمغيرة بن شعبة وكذا لا اعتداد بما قاله السيوطي في تاريخ الخلفاء من أن أبا لؤلؤة كان عبداً لمغيرة ويصنع الأرحاء، ثم روى عن ابن عباس أن أبا لؤلؤة كان مجوسياً[1].

ثم إن في المقام كلام آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وآله قد أمر بإخراج مطلق الكفار من مكة والمدينة فضلاً عن مسجدهما والعامة قد نقلوا ذلك وأذعنوا بصحة الخبر الوارد في ذلك الباب، فإذا كان أبو لؤلؤة نصرانياً مجوسياً كيف رخصه عمر في أيام خلافته أن يدخل مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله من غير مضايقة ولا نكير فضلاً عن مسجده، وهذا منه إما يدل على عدم مبالاته في الدين أو على عدم صحة ما نسبوه إليه، ولو تنزلنا عن ذلك نقول كان أول أمره من الكفار ومن مجوس بلاد نهاوند ثم تشرف بعد بدين الإسلام. إنتهى ما أردنا نقله من السفينة.

وهذا جملة الأقوال في قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان ومذهب أبي لؤلؤة وسبب قتله عمر وعلة لحوق عبيد الله بمعاوية.

وسيأتي[2] أن علياً عليه السلام في الصّفين نادى عبيد الله بن عمر وقال له: ويحك يا ابن عمر علام تقتلني والله لو كان أبوك حياً ما قاتلني. قال: أطلب بدم عثمان، قال عليه السلام أنت تطلب بدم عثمان والله يطلب بدم الهرمزان، ولنعد إلى القصة.

«اليوم الخامس»

وأخرج علي عليه السلام في اليوم الخامس من صفر وهو يوم الأحد عبد الله بن عباس فأخرج

(١) مستدرك سفينة البحار: ٩/٢١٥.

(٢) تقدم ذلك.

إليه معاوية الوليد بن عقبة بن أبي معيط فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودنا ابن عباس من الوليد بن عقبة فأخذ الوليد يسب بني عبد المطلب وأخذ يقول يا ابن عباس قطعتم أرحامكم وقتلتم إمامكم «يعني به عثمان بن عفان» فكيف رأيتم الله صنع بكم لم تعطوا ما طلبتم ولم تدركوا ما أملتم، والله إن شاء الله مهلككم وناصر عليكم، فأرسل إليه ابن عباس أن أبرز لي يا صفوان وكان صفون لقب الوليد فأبى وقاتل ابن عباس يومئذٍ قتالاً شديداً وغشى الناس بنفسه وكانت الغلبة لابن عباس وكان يوماً صعباً.

«اليوم السادس»

وأخرج علي عليه السلام في اليوم السادس من صفر وهو يوم الإثنين سعيد بن قيس الهمداني وهو سيد همدان يومئذٍ فأخرج إليه معاوية ذا الكلاع، فاقتتلا قتالاً شديداً وكانت بينهما إلى آخر النهار وأسفرت عن قتلى وانصرف الفريقان جميعاً.

«اليوم السابع»

وأخرج علي عليه السلام في اليوم السابع وهو يوم الثلاثاء الأشتر رضوان الله عليه في النخع وغيرهم فأخرج إليه معاوية حبيب بن مسلمة الفهري فكانت بينهم سجالاً وصبر كلا الفريقين وتكاثروا وتوافقوا للحرب وأسفرت عن قتلى منهما والجراح في أهل الشام أعم وقال الطبري: إنصرفا عند الظهر وكل غير غالب.

قال الطبري: قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعين الجهني عن زيد بن وهب أن علياً عليه السلام قال: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا فقام في الناس عشية الثلاثاء ليلة الأربعاء بعد العصر فقال: الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض وما أبرم لا ينقضه الناقضون لو شاء ما اختلف إثنان من خلقه ولا تنازعت الأمة في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار، فلفت بيننا في هذا المكان فنحن من ربنا بمرأى ومسمع ولو شاء عجل النقمة وكان منه التغيير حتى يكذب الله الظالم ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال وجعل الآخرة عنده هي دار القرار ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ألا إنكم لاقوا القوم غداً فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن وسلوا الله عزّ وجلّ النصر والصبر والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين.

ثم انصرف ووثب الناس إلى سيوفهم، ورماحهم، ونبالهم، يصلحونها ومر بهم كعب بن جعيل التغلبي وهو يقول:

أصبحت الأمة في أمر عجب والمُلك مجموع غدا لمن غلب

فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلامُ العرب

أقول: لما بلغت إلى قول ولي الله الأعظم ومظهره الأكمل الأتم أمير المؤمنين علي عليه السلام روحي له الفداء ونفسي له الوقاء: «فأطيلوا القيام وأكثروا تلاوة القرآن» أذكرني قول من ربي في حجره ونشأ من عنده والولد سر أبيه مولانا أبي عبد الله الحسين بن علي سلام الله عليه وعلى أعوانه وأنصاره والأرواح التي حلت بفنائه: وهو كما ذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه والشيخ الجليل محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالمفيد رحمه الله في إرشاده وغيرهما من علماء الفريقين في كتبهم مع إختلاف يسير في بعض الألفاظ:

إن عشية الخميس لتسع مضين من المحرم ٦١ من الهجرة نادى عمر بن عمر بن سعد: يا خيل الله إركبي وابشري فركب في الناس ثم زحف نحوهم بعد صلاة العصر وحسين جالس أمام بيته محتبياً بسيفه إذ خفق برأسه على ركبتيه وسمعت أخته زينب الصيحة فدنت من أخيها فقالت: يا أخي أما تسمع الأصوات قد اقتربت فرفع الحسين عليه السلام رأسه فقال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله الساعة في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا قال: فلطمت أخته وجهها. وقالت: يا ويلتا فقال: ليس لك الويل يا أخيتي إسكني رحمك الرحمن، ثم قال له العباس بن علي عليه السلام: يا أخي أتاك القوم فنهض ثم قال: يا عباس إركب بنفسي أنت يا أخي حتى تلقاهم فتقول لهم مالكم وما بدا لكم وتسألهم عما جاء بهم؟ فأتاهم العباس فاستقبلهم في نحو من عشرين فارساً فيهم زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر فقال لهم العباس: ما بدا لكم وما تريدون قالوا: قد جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله عليه السلام فأعرض عليه ما ذكرتم، فوقفوا، ثم قالوا: ألقه فأعلمه ذلك ثم ألقنا بما يقول، فانصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسين عليه السلام يخبره بالخبر ووقف أصحابه يخاطبون القوم ويعظونهم ويكفونهم عن قتال الحسين عليه السلام فجاء العباس إلى الحسين عليه السلام فأخبره بما قال القوم، فقال عليه السلام إرجع إليهم فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا العشية لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم أني قد كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والإستغفار.

وانظر أيها الأخ الكريم إلى سيرة أولياء الله كيف يلجأون إلى الله ويفزعون إليه ويدعونه ويسجدون له ويعبدونه ويستغفرونه حتى في هزائز الأمور وشدائد الأحوال، ألا بذكر الله تطمئن القلوب فهؤلاء الموحدون المتألهون الفانون في الله شأنهم أجل وقدرهم أعظم عن أن يقاتلوا في غير الله، أو أن يعملوا عملاً لغير رضا الله، وبذلك فليعمل العاملون ويقظ النائمون، ولنعد إلى القصة:

فلما كان من الليل خرج علي عليه السلام فعبى الناس ليلته كلها حتى إذا أصبح زحف بالناس وخرج إليه معاوية في أهل الشام، فأخذ علي عليه السلام يقول من هذه القبيلة ومن هذه القبيلة؟ فنسبت له قبائل أهل الشام حتى إذا عرفهم ورأى مراكزهم، قال للأزد: أكفوني الأزد وقال لخثعم: أكفوني خثعم وأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى تكون بالشام ليس منهم بالعراق واحد مثل بجيلة لم يكن منهم بالشام إلا عدد قليل صرفهم إلى لخم ثم تناهض الناس يوم الأربعاء وهو اليوم الثامن من صفر فاقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب.

«اليوم الثامن»

في مروج الذهب للمسعودي: وخرج في اليوم الثامن وهو يوم الأربعاء علي عليه السلام بنفسه في الصحابة من البدريين وغيرهم من المهاجرين، والأنصار، وربيعة، وهمدان، وقال ابن عباس رأيت في هذا اليوم علياً وعليه عمامة بيضاء وكان عينيه سراجاً سليط وهو يقف على طوائف الناس في مراتبهم يحثهم ويحرضهم حتى انتهى إليّ وأنا في كثيف من الناس، فقال عليه السلام: «يا معشر المسلمين عموا الأصوات واكملوا اللامة واستشعروا الخشية واقلقوا السيوف في الأجفان قبل السلة والحظو الشزر واطعنوا الهبر ونافحوا الصبا وصلوا السيف بالخطاء والنبال بالرماح وطيبوا عن أنفسكم أنفسنا فإنكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله، عاودوا الكر واستقبحوا الفر فإنه عار في الأحقاب ونار يوم الحساب ودونكم هذا السواد الأعظم والرواق المطنب فاضربوا نهجه فإن الشيطان راكب صعيده معترض ذراعيه، قد قدم للوثبة يداً وأخر للنكوص رجلاً فصبراً جميلاً حتى تنجلي عن وجه الحق وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم»، وتقدم علي عليه السلام للحرب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء وخرج معاوية في عدد أهل الشام فانصرفوا عند المساء وكل غير ظافر[1].

أقول: كلامه عليه السلام هذا مذكور في نهج البلاغة في باب الخطب مع اختلاف في بعض العبارات والجمل وأوله في نهج البلاغة: معاشر المسلمين أستشعروا الخشية وتجلببوا السكينة وعضوا على النواجذ، إلى آخره ولنعد إلى القصة:

وفي تاريخ الطبري قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعين عن زيد بن وهب الجهني أن عليا عليه السلام خرج إليهم غداة الأربعاء فاستقبلهم فقال:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٠ ط. مؤسسة الأعلمي.

«اللهم رب السقف المرفوع المحفوظ المكفوف الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم وجعلت سكانه سبطاً من الملائكة لا يسأمون العبادة ورب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام، وما لا يحصى مما لا يرى ومما يرى من خلقك العظيم ورب الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، ورب السحاب المسخر بين السماء والأرض ورب البحر المسجور المحيط بالعالم، ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق متاعاً إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا للحق وإن أظهرتهم علينا فارزقني الشهادة واعصم بقية أصحابي من الفتنة»[١].

وازدلف الناس يوم الأربعاء فاقتتلوا كأشد القتال يومهم حتى الليل لا ينصرف بعضهم عن بعض إلا للصلاة وكثرت القتلى بينهم وتحاجزوا عند الليل وكل غير غالب.

أقول: كلامه عليه السلام هذا مذكور أيضاً في نهج البلاغة في باب الخطب مع تفاوت يسير أوله: اللهم رب السقف المرفوع والجو المكفوف الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار ومجرى للشمس والقمر إلى آخره، ولنعد إلى القصة:

«اليوم التاسع»

قال الطبري: فأصبحوا من الغد غداة الخميس وهو اليوم التاسع، فصلى بهم علي عليه السلام غداة الخميس فغلس بالصلاة أشد التغليس، وقال أبو مخنف حدثني عبد الرحمن بن جندب الأزدي عن أبيه قال ما رأيت علياً عليه السلام غلس بالصلاة أشد من تغليسه يومئذ.

أقول: الغلس محركة كفرس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح وفي النهاية الأثيرية أنه صلى الله عليه وآله كان يصلي الصبح بغلس والتغليس: السير بغلس يقال: غلسنا الماء أي: وردناه بغلس ومنه حديث الإفاضة كنا نغلس من جمع إلى منى أي نسير إليها ذلك الوقت كما في النهاية وغلسنا الصلاة إذا فعلناها بغلس فالمراد أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام صلى بهم صلاة الصبح في ذلك اليوم في وقت كان أقدم من سائر أيامه الماضية، فلنعد إلى القصة.

ثم بدأ أهل الشام بالخروج، فلما رأى علي عليه السلام وجنوده أنهم أقبلوا إليهم، خرجوا إليهم بوجوههم وعلى ميمنتهم عبد الله بن بديل وعلى ميسرتهم عبد الله بن عباس وقراء أهل العراق مع ثلاثة نفر مع عمار بن ياسر مع قيس بن سعد ومع عبد الله بن بديل، والناس على راياتهم ومراكزهم وعلي عليه السلام في القلب في أهل المدينة بين أهل الكوفة، وأهل البصرة

(١) نهج السعادة: ٦/٣١٧، وتاريخ الطبري: ٤/١٠.

وعظم من معه من أهل المدينة، الأنصار معه من خزاعة عدد حسن ومن كنانة وغيرهم من أهل المدينة ثم زحف إليهم بالناس.

ورفع معاوية قبة عظيمة قد ألقى عليها الكرابيس وبايعه عظم الناس من أهل الشام على الموت، وبعث خيل أهل دمشق فاحتاطت بقبته وزحف عبد الله بن بيل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة فلم يزل يحوزه ويكشف خيله من الميسرة حتى اضطرهم إلى قبة معاوية عند الظهر.

قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعين عن زيد بن وهب الجهني أن ابن بديل قام في أصحابه فقال: ألا إن معاوية ادعى ما ليس أهله ونزع هذا الأمر من ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، قد زين لهم الضلالة وزرع في قلوبهم حب الفتنة ولبس عليهم الأمر وزادهم رجساً إلى رجسهم وأنتم على نور من ربكم وبرهان مبين فقاتلوا الطغاة الجفاة ولا تخشوهم فكيف تخشونه وفي أيديكم كتاب الله عزّ وجلّ طاهراً مبروراً ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ وقد قاتلناهم مع النبي ﷺ مرة وهذه ثانية والله ما هم في هذه بأتقى ولا أزكى ولا أرشد، قوموا إلى عدوكم بارك الله عليكم فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه.

قال أبو مخنف: حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري عن أبيه ومولى له: أن علياً عليه السلام حرض الناس يوم صفين فقال: «إن الله عزّ وجلّ قد دلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تشفي بكم على الخير الإيمان بالله عزّ وجلّ وبرسوله ﷺ والجهاد في سبيل الله تعالى ذكره، وجعل ثوابه مغفرة الذنب ومساكن طيبة في جنات عدن، ثم أخبركم أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص فسووا صفوفكم كالبيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس فإنه أبنا للسيوف عن الهام والتووا في أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار، راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، فإن المانع للذمار والصابر عند نزول الحقائق هم أهل الحفاظ الذين يحفون براياتهم ويكنفونها، يضربون حفافيها خلفها وأمامها ولا يضعونها أجزأ أمرؤ وقد قرنه رحمكم الله وآسى أخاه بنفسه ولم يكل قرنه إلى أخيه فيكسب بذلك لأمة ويأتي به دناءة، وأنى لا يكون هذا هكذا وهذا يقاتل إثنين وهذا ممسك بيده يدخل قرنه على أخيه هارباً منه أو قائماً ينظر إليه من يفعل هذا يمقته الله، عزّ وجلّ فلا تعرضوا لمقت الله سبحانه فإنما مردكم إلى الله قال الله عزّ من قائل لقوم: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ

﴿ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] وأيم الله لئن سئلتم[١] من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة أستعينوا بالصدق والصبر فإن بعد الصبر ينزل الله النصر»[٢].

أقول: كلامه عليه السلام هذا مذكور في نهج البلاغة في باب الخطب مع إختلاف في الكم وبعض الألفاظ والجمل، وأوله: فقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فإنه ابنا للسيوف إلى آخره: ولنعد إلى القصة:

قال المسعودي في مروج الذهب: وخرج في اليوم التاسع علي وهوم يوم الخميس وخرج معاوية فاقتتلوا إلى ضحوة من النهار وبرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من الحضرية معممين بشق الحرير الأخضر متقدمين للموت يطلبون بدم عثمان وابن عمر يقدمهم وهو يقول:

أنا عبيد الله ينميني عمر ... خير قريش من مضي ومن غبر

غير نبي الله والشيخ الأغر ... قد أبطأت في نصر عثمان مضر

والربعيون فلا أسقوا المطر

فناداه علي: ويحك يا ابن عمر علام تقاتلني والله لو كان أبوك حياً ما قاتلني. قال: أطلب بدم عثمان. قال عليه السلام أنت تطلب بدم عثمان والله يطلبك بدم الهرمزان. وأمر علي عليه السلام الأشتر النخعي بالخروح إليه فخرج الأشتر إليه وهو يقول:

إني أنا الأشتر معروف السير ... إني أنا الأفعى العراقي الذكر

لست من الحي ربيع أو مضر ... لكنني من مذحج البيض الغرر

فانصرف عنه عبيد الله ولم يبارزه وكثرت القتلى يومئذٍ.

قال الطبري: قال أبو مخنف: حدثني أبو روق الهمداني: أن يزيد بن قيس الأرحبي حرض الناس فقال: إن المسلم السليم من سلم دينه ورأيه وإن هؤلاء القوم والله إن يقاتلوننا على إقامة دين رأونا ضيعناه وإحياء حق رأونا أمتناه وإن يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ليكونوا جبابرة فيها ملوكاً، فلو ظهروا عليكم لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً لزموكم بمثل سعيد والوليد وعبد الله بن عامر السفيه الضال، يجيز أحدهم في مجلسه بمثل دبته ودية أبيه وجده يقول هذا لي ولا إثم عليَّ، كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه وإنما هو مال الله عزّ وجلّ أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين الحاكمين بغير ما أنزل الله ولا يأخذكم

(١) في نسخة: سلمنم.

(٢) الإرشاد: ١/٢٦٦، وبحار الأنوار: ٣٢/٥٦٧.

في جهادهم لوم لائم فإنهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم وهم من قد عرفتم وخبرتم وأيم الله ما ازدادوا إلى يومهم هذا إلا شراً.

وقاتلهم عبد الله بن بديل في الميمنة قتالاً شديداً حتى انتهى إلى قبة معاوية. ثم إن الذين تبايعوا معاوية على الموت أقبلوا إلى معاوية فأمرهم أن يصمدوا لابن بديل في الميمنة وبعث معاوية إلى حبيب بن مسلمة الفهري في الميسرة فحمل بهم وبمن كان معه على ميمنة الناس فهزمهم وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء قد أسند بعضهم ظهره إلى بعض وانجفل الناس فأمر علي عليه السلام سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة فاستقبهلم جموع لأهل الشام عظيمة فاحتملتهم حتى ألحقتهم بالميمنة وكان في الميمنة إلى موقف علي عليه السلام في القلب أهل اليمن فلما كشفوا انتهت الهزيمة إلى علي عليه السلام فانصرف يتمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر من الميسرة وثبتت ربيعة.

قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعين الجهني عن زيد بن وهب الجهني قال مر علي عليه السلام معه بنوه نحو الميسرة، وإني لأرى النبل يمر بين عاتقه ومنكبه وما من بنيه أحد إلا يقيه بنفسه فيتقدم فيحول بين أهل الشام وبينه فيأخذه بيده إذا فعل ذلك فيلقيه بين يديه ومن ورائه فبصر به أحمر مولى أبي سفيان أو عثمان أو بعض بني أمية فقال: ورب الكعبة قتلني الله إن لم أقتلك أو تقتلني فأقبل نحوه فخر إليه كيسان مولى علي عليه السلام فاختلفا ضربتين فقتله مولى بني أمية، وينتهزه علي عليه السلام فيقع بيده في جيب درعه فيجذبه ثم حمله على عاتقه فكأني أنظر إلى رجيلتيه تختلفان على عنق علي عليه السلام ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضديه وشدا إبنا علي عليه السلام عليه حسين عليه السلام ومحمد فضرباه بأسيافهما فكأني أنظر إلى علي عليه السلام قائماً وإلى شبليه يضربان الرجل حتى إذا قتلاه وأقبلا إلى أبيهما والحسن عليه السلام قائماً، قل له يا بُني ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك؟ قال: كفياني يا أمير المؤمنين.

ثم إن أهل الشام دنوا منه ووالله ما يزيده قربهم منه سرعة في مشيه، فقال له الحسن عليه السلام: ما ضرك لو سعيت حتى تنتهي إلى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوك من أصحابك؟ فقال: يا بني إن لأبيك يوماً لن يعدوه ولا يبطيء به عنه السعي ولا يعجل به إليه المشي إن أباك والله ما يبالي أوقع على الموت أو وقع الموت عليه.

قال أبو مخنف: حدثني فضيل بن خديج السكندي عن مولى للأشتر قال: لما إنهزمت ميمنة العراق وأقبل علي عليه السلام نحو الميسرة مر به الأشتر يركض نحو الفزع قبل الميمنة. فقال له علي عليه السلام يا مالك قال: لبيك قال: إئت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لن تبقي لكم، فمضى فاستقبل الناس منهزمين فقال لهم هذه

الكلمات التي قالها له علي عليه السلام.

وقال: إليّ أيها الناس أنا مالك بن الحارث أنا مالك بن الحارث، ثم ظن أنه بالأشتر أعرف في الناس فقال: أنا الأشتر إليّ أيها الناس فأقبلت إليه طائفة وذهبت عنه طائفة فنادى أيها الناس عضضتم بهن آباءكم ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم، أيها الناس أخلصوا إليّ مذحجاً فأقبلت إليه مذحج فقال: عضضتم بصم الجندل ما أرضيتم ربكم ولا نصحتم له في عدوكم، وكيف بذلك وأنتم بناء الحروب وأصحاب الغارات وفتيان الصباح وفرسان الطراد وحتوف الأقران ومذحج الطعان الذين لم يكونوا يسبقون بثأرهم ولا تطل دماؤهم ولا يعرفون في موطن بخس وأنتم حد أهل مصركم وأعد حي في قومكم، وما تفعلوا في هذا اليوم فإنه مأثور بعد اليوم فاتقوا مأثور بعد اليوم فاتقوا مأثور الأحاديث في غد وأصدقوا عدوكم اللقاء فإن الله مع الصادقين والذي نفس مالك بيده ما من هؤلاء ـ وأشار بيده إلىٰ أهل الشام ـ رجل على مثل جناح بعوضة من محمد ﷺ أنتم ما أحسنتم القراع أجلوا سواد وجهي يرجع في وجهي دمي عليكم بهذا السواد الأعظم فإن الله عزّ وجلّ لو قد فضه تبعه من بجانبيه كما يتبع مؤخر السيل مقدمه.

قالوا: خذ بنا حيث أحببت وصمد نحو عظمهم فيما يلي الميمنة فأخذ يزحف إليهم ويردهم ويستقبله شباب من همدان وكانوا ثمانمائة مقاتل يومئذٍ وقد انهزموا آخر الناس وكانوا قد صبروا في الميمنة حتى أصيب منهم ثمانون ومائة رجل وقتل منهم أحد عشر رئيساً، كلما قتل منهم رجل أخذ الراية آخر فكان الأول كريب بن شريح ثم شرحبيل بن شريح ثم مرثد بن شريح، ثم هبيرة بن شريح ثم يريم بن شريح ثم سمير بن شريح فقتل هؤلاء الأخوة الستة جميعاً، ثم أخذ الراية سفيان بن زيد، ثم عبد بن زيد، ثم كريم بن زيد فقتل هؤلاء الأخوة الثلاثة جميعاً.ثم أخذ الراية عمير بن بشير، ثم الحارث بن بشير فقتلا ثم أخذ الراية وهب بن كريب أخو القلوص فأراد أن يستقبل فقال له رجل من قومه: إنصرف بهذه الراية رحمك الله فقد قتل أشراف قومك حولها فلا تقتل نفسك ولا من بقي من قومك فانصرفوا وهم يقولون ليت لنا عدتنا من العرب يحالفوننا على الموت، ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نقتل أو نظفر فمروا بالأشتر وهم يقولون هذا القول فقال لهم الأشتر: إليّ أنا أحالفكم وأعاقدكم على أن لا نرجع أبداً حتى نظفر أو نهلك فأتوه فوقفوا معه.

وزحف الأشتر نحو الميمنة وثاب إليه ناس تراجعوا من أهل الصبر والحياء والوفاء فأخذ لا يصمد لكتيبة إلا كشفها ولا لجمع إلا حازه ورده فإنه لكذلك إذ مر بزياد بن النضر يحمل إلى العسكر فقال: من هذا؟ فقيل: زياد بن النضر إستلحم عبد الله بن بديل وأصحابه في الميمنة فتقدم زياد فرفع لأهل الميمنة رايته فصبروا وقاتل حتى صرع، ثم لم يمكثوا إلا

كلا شيء حتى مر بيزيد بن قيس الأرحبي محمولاً نحو العسكر فقال: الأشتر من هذا؟ فقالوا: يزيد بن قيس لما صرع زياد بن النضر رفع لأهل الميمنة رايته فقاتل حتى صرع فقال الأشتر: هذا والله الصبر الجميل والفعل الكريم ألا يستحي الرجل أن ينصرف لا يقتل ولا يقتل أو يشفي به على القتل.

قال أبو مخنف: حدثني أبو جناب الكلبي عن الحر بن الصياح النخعي: أن الأشتر يومئذٍ كان يقاتل على فرس له في يده صفيحة يمانية إذا طأطأها خلت فيها ماءً منصباً وإذا رفعها كاد يغشى البصر شعاعها وجعل يضرب بسيفه ويقول: الغمرات ثم ينجلينا. قال: بصر به الحارث بن جمهان الجعفي والأشتر متقنع في الحديد فلم يعرفه فدنا منه فقال له: جزاك الله خيراً منذ اليوم عن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين فعرفه الأشتر فقال ابن جمهان: فعرفه فكان من أعظم الرجال وأطوله وكان في لحيته حفها قليلاً فقال: جعلت فداك لا والله ما علمت بمكانك إلا الساعة ولا أفارقك حتى أموت. قال ورآه منقذ وحمير إبنا قيس الناعطيان فقال منقذ: لحمير ما في العرب مثل هذا إن كان ما أرى من قتاله فقال له حمير: وهل النية إلا ما تراه يصنع قال: إني أخاف أن يكون يحاول ملكاً.

قال أبو مخنف: حدثني فضيل بن خديج عن مولى للأشتر أنه لما اجتمع إليه عظم من كان انهزم عن الميمنة حرضهم ثم قال عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين ثأراً بآبائهم وإخوانهم حناقاً على عدوهم قد وطنوا على الموت أنفسهم كيلا يسبقوا بوتر ولا يلحقوا في الدنيا عاراً، وأيم الله ما وتر قوم قط بشيء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم، وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة ويحيوا البدعة ويعيدوكم في ضلالة، قد أخرجكم الله عزّ وجلّ منها بحسن البصيرة فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم فإن ثوابكم على الله، والله عنده جنات النعيم وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفيء وذل المحيا والممات وعار الدنيا والآخرة وحمل عليهم حتى كشفهم فألحقهم بصفوف معاوية بين صلاة العصر، والمغرب وانتهى. إلى عبد الله بن بديل وهو في عصبة من القراء بين المائتين والثلاثمائة وقد لصقوا بالأرض كأنهم جثا، فكشف عنهم أهل الشام فأبصروا إخوانهم قد دنو منهم فقالوا: ما فعل أمير المؤمنين؟ قالوا: حي صالح في الميسرة يقاتل الناس أمامه؛ فقالوا: الحمد لله قد كنا ظننا أن قد هلك وهلكتم[1].

وقال عبد الله بن بديل لأصحابه إستقدموا بنا فأرسل الأشتر إليه أن لا تفعل، أثبت مع

(١) تاريخ الطبري: ٤/١٦.

الناس فقاتل فإنه خير لهم وأبقى لك ولأصحابك فأبى، فمضى كما هو نحو معاوية وحوله كأمثال الجبال وفي يده سيفان وقد خرج فهو أمام أصحابه فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله حتى قتل، سبعة ودنا من معاوية فنهض إليه الناس من كل جانب وأحيط به وبطائفة من أصحابه فقاتل حتى قتل وقتل ناس من أصحابه ورجعت طائفة قد خرجوا منهزمين، فبعث الأشتر ابن جمهان الجعفي فحمل على أهل الشام الذين يتبعون من نجا من أصحاب ابن بديل حتى نفسوا عنهم وانتهوا إلى الأشتر فقال لهم: ألم يكن رأيي لكم خير من رأيكم لأنفسكم، ألم آمركم أن تثبتوا مع الناس؟ وكان معاوية قال لابن بديل وهو يضرب قدماً: أترونه كبش القوم فلما قتل أرسل إليه فقال: أنظروا من هو فنظر إليه ناس من أهل الشام فقالوا: لا نعرفه فأقبل إليه حتى وقف عليه فقال: بلى، هذا عبد الله بن بديل، والله لو استطاعت نساء خزاعة أن تقاتلنا فضلاً على رجالها لفعلت مدوه فمدوه فقال: هذا والله كما قل الشاعر:

أخو الحرب إن عضَّت به الحربُ عضها وإن شمرت يوماً به الحرب شمرا

والبيت لحاتم طيء، وأن الأشتر زحف إليهم فاستقبله معاوية بعك والأشعريين فقال الأشتر لمذحج: أكفونا عكاً ووقف في همدان وقال لكندة: أكفونا الأشعرين فاقتتلوا قتالاً شديداً وأخذ يخرج إلى قومه فيقول: إنما هم عك فاحملوا عليهم فيجثون على الركب ويرتجزون:

يا ويل أم مذحج من عك هاتيك أم مذحج تبكي

فقاتلوهم حتى المساء ثم إنه قاتلهم في همدان وناس من طوائف الناس فحمل عليهم فأزالهم عن مواقفهم حتى لحقهم بالصفوف الخمسة المعقلة بالعمائم حول معاوية، ثم شد عليهم شدة أخرى فصرع الصفوف الأربعة وكانوا معقلين بالعمائم حتى انتهوا إلى الخامس الذي حول معاوية ودعا معاوية بفرس فركب وكان يقول أردت أن أنهزم فذكرت قول ابن الأطنابة من الأنصار كان جاهلياً والأطنابة إمرأة من بلقين:

أبت لي عفتي وحياء نفسي وإقدامي على البطل المشيح

وإعطائي على المكره مالي وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار.

قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعين الجهني عن زيد بن وهب أن علياً عليه السلام لما رأى ميمنته قد عادت إلى مواقفهم ومراكزهم أقبل حتى انتهى إليهم. فقال إني قد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم يحوزكم الطغاة الجفاة وأعراب أهل الشام وأنتم لها ميم العرب

والسنام الأعظم وعمار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون، فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكركم بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحف دبره وكنتم من الهالكين، ولكن هون وجدي وشفي بعض أحاح نفسي أني رأيتكم بأخرة حزتموهم كما حازوكم وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالواكم تحسونهم بالسيوف تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطردة فالآن فاصبروا نزلت عليكم السكينة وثبتكم الله عزّ وجلّ باليقين ليعلم المنهزم أنه مسخط ربه وموبق نفسه إن في الفرار موجدة الله عزّ وجلّ عليه والذل اللازم والعار الباقي واعتصار الفيء من يده وفساد العيش عليه، وأن الفار منه لا يزيد في عمره ولا يرضي ربه فموت المرء محقاً قبل إتيان هذه الخصال خير من الرضا بالتأنيس لها والإقرار عليها[١].

قال الطبري: قال أبو مخنف: حدثنا عبد السلام بن عبد الله بن جابر الأحمسي أن راية بجيلة بصفين كانت في أحمس بن الغوث بن أنمار مع أبي شداد وهو قيس بن مكشوح بن هلال بن الحارث بن عمرو بن جابر بن علي بن أسلم بن أحمس بن الغوث وقال له بجيلة: خذ رايتنا فقال: غيري لكم مني قالوا: ما نريد غيرك. قال: والله لئن أعطيتونيها لا أنتهي بكم دون صاحب الترس المذهب، قالوا: إصنع ما شئت فأخذها ثم زحف حتى انتهى بهم إلى صاحب الترس المذهب وكان في جماعة عظيمة من أصحاب معاوية وذكروا أنه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي فاقتتل الناس هنالك قتالاً شديداً فشد بسيفه نحو صاحب الترس فتعرض له رومي مولى لمعاوية فيضرب قدم أبي شداد فيقطعها ويضربه أبو شداد فيقتله وأشرعت إليه الأسنة فقتل وأخذ الراية عبد الله[٢] بن قلع الأحمسي وهو يقول:

لا يبعد الله أبا شداد ... حيث أجاب دعوة المنادي

وشد بالسيف على الأعادي ... نعم الفتى كان لدى الطراد

وفي طعان الرجل والجلاد

فقاتل حتى قتل فأخذ الراية أخوه عبد الرحمن بن قلع فقاتل حتى قتل، ثم أخذها عفيف بن إياس فلم تزل في يده حتى تحاجز الناس وقتل حازم بن أبي حازم الأحمسي أخو قيس بن أبي حازم يومئذٍ وقتل نعيم بن صهيب بن العلية البجلي يومئذٍ فأتى ابن عمه وسميه نعيم بن الحارث ابن العلية معاوية وكان معه، فقال إن هذا القتيل ابن عمي فهبه لي أدفنه فقال: لا تدفنه فليسوا لذلك أهلاً والله ما قدرنا على دفن ابن عفان إلا سراً. قال: والله

(١) بحار الأنوار: ٤٧٣/٣٢، ح ٤١٢، وتاريخ الطبري: ١٧/٤.

(٢) تاريخ الطبري: ١٨/٤، ووقعة صفين: ٢٥٨.

لتأذنن في دفنه أو لألحقن بهم ولأدعنك. قال معاوية: أترى أشياخ العرب قد أحالتهم أمورهم فأنت تسألني في دفن ابن عمك أدفنه إن شئت أو دع فدفنه.

قال أبو مخنف: حدثني الحارث بن حصيرة الأزدي عن أشياخ من النمر من الأزد أن مخنف بن سليم لما ندبت الأزد للأزد حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن من الخطأ الجليل والبلاء العظيم أنا صرفنا إلى قومنا وصرفوا إلينا، والله ما هي إلا أيدينا نقطعها بأيدينا وما هي إلا أجنحتنا نجدها بأسيافنا فإن نحن لم نواس جماعتنا ولم نناصح صاحبنا كفرنا وإن نحن فعلنا فعزنا أبحنا ونارنا أخمدنا، فقال له جندب بن زهير والله لو كنا آباءهم وولدناه أو كنا أبناءهم وولدونا ثم خرجوا من جماعتنا، وطعنوا على إمامنا وإذا هم الحاكمون بالجور على أهل ملتنا وذمتنا ما افترقنا بعد أن اجتمعنا، حتى يرجعوا عما هم عليه ويدخلوا فيما ندعوهم أو تكثر القتلى بيننا وبينهم.

قال أبو مخنف: وكان ابن خالته عز الله بك النية أما والله ما عملت صغيراً وكبيراً إلا مشؤوماً والله ما ميلنا الرأي قط أيهما نأتي أو أيهما ندع في الجاهلية ولا بعد أن أسلمنا إلا اخترت أعسرهما وأنكدهما، اللهم إن تعافى أحب إلينا من أن تبتلى فاعط كل امرىء منا ما يسألك، وقال أبو بريدة بن عوف اللهم أحكم بيننا بما هو أرضى لك يا قوم إنكم تبصرون بما يصنع الناس وإن لنا الأسوة بما عليه الجماعة إن كنا على حق وإن يكونوا صادقين فإن أسوة في الشر والله ما علمنا ضرر في المحيا والممات.

وتقدم جندب بن زهير فبارز رأس أزد الشام فقتله الشامي، وقتل من رهطه عجل وسعد إبنا عبد الله من بني ثعلبة وقتل مع مخنف من رهطه عبد الله وخالد إبنا ناجد وعمرو، وعامر إبنا عويف وعبد الله بن الحجاج وجندب بن زهير وأبو زينب بن عوف بن الحارث وخرج عبد الله بن أبي الحصين الأزدي في القراء الذين مع عمار بن ياسر فأصيب.

قال أبو مخنف: وحدثني الحارث بن حصيرة عن أشياخ النمر أن عقبة بن حديد النمري قال يوم صفين ألا إن مرعي الدنيا أصبح هشيماً وأصبح شجرها خضيداً وجديدها سملاً، وحلوها مر المذاق ألا وإني أنبئكم نبأ امرىء صادق إني قد سئمت الدنيا وعزفت نفسي عنها وقد كنت أتمنى الشهادة وأتعرض لها في كل جيش وغارة فأبى الله عزّ وجلّ إلا أن يبلغني هذا اليوم، ألا وإني متعرض لها من ساعتي هذه قد طمعت ألا أحرمها فما تنتظرون عباد الله بجهاد من عادى الله خوفاً من الموت القادم عليكم الذاهب بأنفسكم لا محالة، أو من ضربة كف بالسيف تستبدلون الدنيا بالنظر في وجه الله عزّ وجلّ وموافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دار القرار ما هذا بالرأي السديد.

ثم مضي، فقال: يا إخوتي قد بعت هذه الدار بالتي أمامها وهذا وجهي إليها لا تبرح

وجوهكم ولا يقطع الله عزّ وجلّ رجاءكم فتبعه إخوته عبيد الله، وعوف، ومالك وقالوا: لا نطلب رزق الدنيا بعدك فقبح الله العيش بعدك، اللهم إنا نحتسب أنفسنا عندك فاستقدموا فقاتلوا حتى قتلوا.

قال أبو مخنف: حدثني ملة بن زهير النهدي عن أبي مسلم بن عبد الله الضبابي قال: شهدت صفين مع الحي ومعنا شمر بن ذي الجوشن الضبابي فبارزه أدهم بن محرز الباهلي فضرب أدهم وجه الشمر بالسيف وضربه شمر ضربة لم تضرره فرجع شمر إلى رحله فشرب شربة وكان قد ظمىء ثم أخذ الرمح فأقبل وهو يقول:

إنـي زعـيـم لأخـي بـأهـلـه	بـطـعـنـة إن لـم أصـب عـاجـلـه
أو ضـربـة تـحـت الـقـنـا والـوغـى	شـبـيـهـة بـالـقـتـل أو قـاتـلـه

ثم حمل على أدهم فصرعه ثم قال: هذه بتلك.

قال أبو مخنف: حدثني عمرو بن عوف بن مالك الجشمي: أن بشر بن عصمة المزني كان لحق بمعاوية فلما اقتتل الناس بصفين بصر بشر بن عصمة بمالك العقدية وهو مالك بن الجلاح الجشمي ولكن العقدية غلبت عليه فرآه بشر وهو يفري في أهل الشام فرياً عجيباً وكان رجلاً مسلماً شجاعاً فغاظ بشر ما رأى منه، فحمل عليه فطعنه فصرعه ثم انصرف فندم لطعنته إياه جباراً فقال:

وإنـي لأرجـو مـن مـلـيـكـي تـجـاوزاً	ومن صاحب الموسوم في الصدر هاجس
دلـفـت لـه تـحـت الـغـبـار بـطـعـنـة	عـلـى ساعة فـيـهـا الـطـعـان تـخـالـس

فبلغت مقالته ابن العقدية فقال:

ألا بـلـغـا بـشـر بـن عـصـمـة أنـنـي	شـغـلـت وألـهـانـي الـذيـن أمـارس
فـصـادفـت مـنـي غـرة وأصـبـتـهـا	كـذلـك والأبـطـال مـاض وخـالـس

ثم حمل عبد الله بن الطفيل البكائي على جمع لأهل الشام، فلما انصرف حمل عليه رجل من بني تميم يقال له قيس بن قرة ممن لحق بمعاوية من أهل العراق فيضع الرمح بين كتفي عبد الله بن الطفيل ويعترضه يزيد بن معاوية ابن عم عبد الله الطفيل فيضع الرمح بين كتفي التميمي فقال: والله لئن طعنته لأطعننك فقال: عليك عهد الله وميثاقه لئن رفعت السنان عن ظهر صاحبك لترفعن سنانك عني فقال له: نعم، لك بذلك عهد الله فرفع السنان عن ابن الطفيل ورفع يزيد السنان عن التميمي فقال ممن أنت؟ قال: من بني عامر. فقال له: جعلني الله فداكم أبتما إلفكم إلفكم كراماً وإني لحادي عشر رجلاً من أهل بيتي ورهطي قتلتموهم اليوم وأنا كنت آخرهم فلما رجع الناس إلى الكوفة عتب على يزيد بن الطفيل في

بعض ما يعتب فيه الرجل على ابن عمه فقال:

ألم ترني حاميت عنك مناصحاً بصفين إذ خلاك كل حميم
ونهنت عنك الحنظلي وقد أتي على سبح ذي ميعة وهزيم

قال أبو مخنف: حدثني فضيل بن خديج قال: خرج رجل من أهل الشام يدعو إلى المبارزة فخرج إليه عبد الرحمن بن محرز الكندي ثم الطحمي فتجاولا ساعة ثم إن عبد الرحمن حمل على الشامي فطعنه في ثغرة نحره فصرعه ثم نزل إليه فسلبه درعه وسلاحه فإذا هو حبشي. فقال: إنا لله لمن أخطرت نفسي لعبد أسود وخرج رجل من عك يسأل المبارزة فخرج إليه قيس بن فهدان الكناني ثم البدني فحمل عليه العكي فضربه واحتمله أصحابه فقال قيس بن فهدان:

لقد علمت عك بصفين أننا إذا التقت الخيلان نطعنها شزراً
ونحمل رايات الطعان بحقها فنوردها بيضاً ونصدرها حمراً

قال أبو مخنف: وحدثني فضيل بن خديج أن قيس بن فهدان كان يحرض أصحابه فيقول: شدوا إذا شددتم جميعاً وإذا انصرفتم فاقبلوا معاً وغضوا الأبصار وأقلوا اللفظ واعتوروا الأقران ولا يؤتين من قبلكم العرب، قال: وقتل نهيك بن عزير من بني الحارث بن عدي، وعمرو بن يزيد من بني ذهل، وسعيد بن عمرو وخرج قيس بن يزيد وهو ممن فر إلى معاوية من علي فدعا إلى المبارزة فخرج إليه أخوه أبو العمرصة بن يزيد فتعارفا فتواقفا وانصرفا إلى الناس فأخبر كل واحد منهما أنه لقي أخاه.

قال أبو مخنف: حدثني جعفر بن حذيفة من آل عامر بن جوين الطائي أن طيئاً يوم صفين قاتلت قتالاً شديداً فعبيت لهم جموع كثيرة فجاءهم حمزة بن مالك الهمداني فقال: ممن أنتم لله أنتم؟ فقال عبد الله بن خليفة البولاني وكان شيعياً شاعراً خطيباً نحن طيء السهل وطيء الرمل وطيء الجبل الممنوع ذي النخل، نحن حماة الجبلين إلى ما بين العذيب والعين نحن طيء الرماح وطيء النطاح وفرسان الصباح.

فقال حمزة بن مالك: بخ بخ إنك لحسن الثناء على قومك فقال:

إن كنت لم تشعر بنجدة معشر فأقدم علينا ويب غيرك تشعر

ثم اقتتل الناس أشد القتال فأخذ يناديهم ويقول يا معشر طيء فدى لكم طار في وتالدي قاتلوا على الأحساب وأخذ يقول:

أنا الذي كنت إذ الداعي دعا مصمماً بالسيف ندباً أروعا
فأنزل المستلئم المقنعا وأقتل المبالط السميدعا

وقال بشر بن العسوس الطائي ثم الملقطي:

يا طيء السهول والأجبال

ألا انهدوا بالبيض والموالي وبالكماة منكم الأبطال

فقارعوا أئمة الجهال السالكين سبل الضلال

ففقئت يومئذٍ عين أبي العسوس فقال في ذلك:

ألا ليت عيني هذه مثل هذه فلم أمش في الآناس إلا بقائد

ويا ليتني لم أبق بعد مطرف وسعد وبعد المستنيرين خالد

فوارس لم تغذ الحواضن مثلهم إذا الحرب أبدت عن خدام الخرائد

ويا ليت رجلي ثم طنت بنصفها ويا ليت كفي ثم طاحت بساعدي

قال أبو مخنف: حدثني أبو الصلت التيمي قال: حدثني أشياخ محارب أنه كان منهم رجل يقال له: خنثر بن عبيدة بن خالد وكان من أشجع الناس فلما اقتتل الناس يوم صفين جعل يرى أصحابه منهزمين فأخذ ينادي يا معشر قيس أطاعة الشيطان آثر عندكم من طاعة الرحمن، الفرار فيه معصية الله سبحانه وسخطه والصبر فيه طاعة الله عزّ وجلّ ورضوانه فتختارون سخط الله تعالى على رضوانه، معصيته على طاعته فإنما الراحة بعد الموت لمن مات محاسباً لنفسه قال:

لا وألت نفس امرىء ولى الدبر أنا الذي لا ينثني ولا يفر

ولا يرى مع المعازيل الغدر

فقاتل حتى ارتث ثم إنه خرج مع الخمسمائة الذين كانوا اعتزلوا مع فروة بن نوفل الأشجعي فنزلوا بالدسكرة والبندنيجين فقاتلت النخع، يومئذٍ قتالاً شديدً فأصيب منهم يومئذٍ بكر بن هوذة، وحيان بن هوذة، وشعيب بن نعيم من بني بكر النخع وربيعة بن مالك بن وهبيل وأبي بن قيس أخو علقة بن قيس الفقيه وقطعت رجل علقمة يومئذٍ فكان يقول ما أحب أن رجلي أصح ما كانت وإنها لمما أرجو به حسن الثواب من ربي عزّ وجلّ وقال: لقد كنت أحب أن أرى في نومي أخي أو بعض إخواني فرأيت أخي في النوم. فقلت: يا أخي ماذا قدمتم عليه؟ فقال لي: إنا التقينا نحن والقوم فاحتججنا فما سررت منذ علقت سروري بتلك الرؤيا.

قال أبو مخنف: حدثني سويد بن حية الأسدي عن الحضين بن المنذر أن أناساً كانوا أتوا علياً عليه السلام قبل الوقعة فقالوا له: إنا لا نرى خالد بن المعمر إلا قد كاتب معاوية وقد خشينا أن يتابعه، فبعث إليه علي عليه السلام وإلى رجال من أشرافنا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد يا معشر ربيعة فأنتم أنصاري ومجيبو دعوتي ومن أوثق حي في العرب في نفسي، وقد بلغني أن معاوية قد كاتب صاحبكم خالد بن المعمر وقد أتيت به وجمعتكم لأشهدكم عليه ولتسمعوا أيضاً ما أقوله».

ثم أقبل عليه فقال عليه السلام: «يا خالد بن المعمر إن كان ما بلغني حقاً فإني أشهد الله ومن حضرني من المسلمين أنك آمن حتى تلحق بأرض العراق أو الحجاز أو أرض لا سلطان لمعاوية فيها، وإن كنت مكذوباً عليك فإن صدورنا تطمئن إليك فحلف بالله ما فعل وقال رجال منا كثير لو كنا نعلم أنه فعل أمثلناه.

فقال شقيق بن ثور السدوسي: ما وفق خالد بن المعمر إن نصر معاوية وأهل الشام على علي عليه السلام وربيعة، فقال زياد بن خصفة التيمي: يا أمير المؤمنين إستوثق من ابن المعمر بالإيمان لا يغدرنك فاستوثق منه ثم انصرفنا.

فلما كان يوم الخميس «وهو اليوم التاسع من صفر» إنهزم الناس من قبل الميمنة فجاءنا علي عليه السلام حتى انتهى إلينا ومعه بنوه فنادى بصوت عالٍ جهير كغير المكترث لما فيه الناس: لمن هذه الرايات؟ قلنا: رايات ربيعة فقال: بل هي رايات الله عزّ وجلّ عصم الله أهلها، فصبرهم وثبت أقدامهم، ثم قال لي: يا فتى ألا تدني رايتك هذه ذراعاً؟ قلت: نعم، والله وعشر أذرع، فقمت بها فأدنيتها حتى قال: إن حسبك مكانك فثبت حيث أمرني واجتمع أصحابي.

قال أبو مخنف: حدثنا أبو الصلت التيمي قال: سمعت أشياخ الحي من تيم الله ابن ثعلبة يقولون: إن راية ربيعة أهل كوفتها وبصرتها كانت مع خالد بن المعمر من أهل البصرة قال: وسمعتهم يقولون: إن خالد بن المعمر وسفيان بن ثور اصطلحا على أن ولياً راية بكر بن وائل من أهل البصرة الحصين بن المنذر الذهلي وتنافسا في الراية وقالا: هذا فتى مناله حسب نجعلها له حتى نرى من رأينا.

ثم إن علياً ولى خالد بن المعمر بعد راية ربيعة كلها وضرب معاوية لحمير بسهمهم على ثلاث قبائل لم تكن لأهل العراق قبائل أكثر عدداً منها يومئذٍ ربيعة، وهمدان، ومذحج فوقع سهم حمير على ربيعة فقال ذو الكلاع: قبحك الله من سهم كرهت الضراب، فقبل ذو الكلاع، في حمير ومن تعلقها ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من قراء أهل الشام وعلى ميمنتهم ذو الكلاع فحملوا على ربيعة وهم ميسرة أهل العراق وفيهم ابن عباس وهو على الميسرة فحمل عليهم ذو الكلاع وعبيد الله بن عمر حملة شديدة بخيلهم ورجلهم فتضعضعت رايات ربيعة إلا قليلاً من الأخيار والأبدال.

ثم إن أهل الشام إنصرفوا فلم يمكثوا إلا قليلاً حتى كروا، وعبيد الله بن عمر يقول: يا أهل الشام إن هذا الحي من أهل العراق قتلة عثمان بن عفان، وأنصار علي بن أبي طالب وإن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان وهلك علي بن أبي طالب وأهل العراق فشدوا على الناس شدة فثبتت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً، إلا قليلاً من الضعفاء والفشلة وثبت أهل الرايات وأهل الصبر منهم والحفاظ فلم يزولوا وقاتلوا قتالاً شديداً.

فلما رأى خالد بن المعمر ناساً من قومه إنصرفوا إنصرف فلما رأى أصحاب الرايات قد ثبتوا ورأى قومه قد صبروا رجع وصاح بمن انهزم وأمرهم بالرجوع فقال: من أراد من قومه أن يتهمه أراد الإنصراف، فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا وقال: هو لما رأيت رجالاً منا إنهزموا رأيت أن أستقبلهم وأردهم إليكم وأقبلت إليكم فيمن أطاعني منهم فجاء بأمر مشبه.

قال أبو مخنف: حدثني رجل من بكر بن وائل عن محرز بن عبد الرحمن العجلي أن خالداً قال يومئذٍ: يا معشر ربيعة إن الله عزّ وجلّ قد أتى بكل رجل منكم من منبته ومسقط رأسه فجمعكم في هذا المكان جمعاً لم يجمعكم مثله منذ نشركم في الأرض فإن تمسكوا بأيديكم وتنكلوا عن عدوكم وتزولوا عن مصافكم لا يرضى الله فعلكم ولا تقدموا من الناس صغيراً أو كبيراً ألا يقول: فضحت ربيعة الذمار، وصاحت عن القتال وأتيت من قبلها العرب فإياكم أن تتشأم بكم العرب والمسلمون اليوم وأنكم إن تمضوا مقبلين مقدمين وتصيروا محتسبين فإن الإقدام لكم عادة والصبر منكم سجية، واصبروا ونيتكم أن توجروا فإن ثواب من نوى ما عند الله شرف الدنيا وكرامة الآخرة ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

فقام رجل فقال: ضاع والله أمر ربيعة حين جعلت إليك أمورها تأمرنا ألا نزول ولا نحول حتى تقتل أنفسنا وتسفك دماءنا ألا ترى الناس قد انصرف جلهم.

فقام إليه رجال من قومه فنهروه وتناولوه بألسنتهم فقال لهم: خالد أخرجوا هذا من بينكم فإن هذا إن بقي فيكم ضركم وإن خرج منكم لم ينقصكم هذا الذي لا ينقص العدد ولا يملأ البلد برحك الله من خطيب قوم كرام كيف جنبت السداد.

واشتد قتال ربيعة، وحمير، وعبيد الله بن عمر حتى كثرت بينهم القتلى فقتل سمير بن الريان بن الحارث العجلي وكان من أشد الناس بأساً.

قال أبو مخنف: حدثني جعفر بن أبي القاسم العبيد عن يزيد بن علقمة عن زيد بن بدر العبدي أن زياد بن خصفة أتى عبد القيس يوم صفين وقد عبيت قبائل حمير مع ذي الكلاع وفيهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب لبكر بن وائل فقوتلوا شديداً خافوا فيه الهلاك، فقال زياد بن خصفة يا عبد القيس لا بكر بعد اليوم فركبنا الخيول ثم مضينا فواقفنا.

فما لبثنا إلا قليلاً حتى أصيب ذو الكلاع وقتل عبيد الله بن عمر فقالت همدان: قتله هانيء بن خطاب الأرحبي وقالت: حضرموت قتله مالك بن عمر، والتنعي وقالت: بكر بن وائل قتله محرز بن الصحصح من بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة وأخذ سيفه ذا الوشاح فأخذ به معاوية بالكوفة بكر بن وائل فقالوا: إنما قتله رجل منا من أهل البصرة يقال له: محرز بن الصحصح فبعث إليه بالبصرة فأخذ منه السيف وكان رأس النمر بن قاسط عبد الله بن عمرو من بني تميم.

قال هشام بن محمد الذي قتل عبيد الله بن عمر محرز بن الصحصح وأخذ سيفه ذا الوشاح سيف عمرو في ذلك قول كعب بن جعيل التغلبي:

ألا إنما تبكي العيون لفارس ... بصفين أجلت خيله وهو واقف
يبدل من أسماء أسياف وائل ... وكان فتى لو أخطأته المتالف
تركن عبيد الله بالقاع مسنداً ... تمج دم الخرق العروق الذوارف

أقول: إن إسماء في البيت الثاني هي زوجة عبيد الله بن عمر كما سيأتي عن قريب ولنعد إلى القصة.

وقتل منهم يومئذٍ بشر بن مرة بن شرحبيل والحارث بن شرحبيل وكانت أسماء إبنة عطارد بن حاجب التميمي تحت عبيد الله بن عمر ثم خلف عليها الحسن بن علي عليه السلام.

قال أبو مخنف: حدثني ابن أخي غياث بن لفيط البكري أن علياً عليه السلام حيث انتهى إلى ربيعة تبارت ربيعة بينها فقالوا: إن أصيب علي فيكم وقد لجأ إلى رايتكم أفتضحتم وقال لهم شقيق بن ثور: يا معشر ربيعة لا عذر لكم في العرب إن وصل إلى علي عليه السلام فيكم وفيكم رجل حي وإن منعتموه فمجد الحياة اكتسبتموه، فقاتلوا قتالاً شديداً حين جاءهم علي عليه السلام لم يكونوا قاتلوا مثله ففي ذلك قال علي عليه السلام:

لمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حضين تقدما
يقدمها في الموت حتى يزيرها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما
أذقنا ابن حرب طعننا وضرابنا ... أسيافنا حتى تولى وأحجما
جزى الله قوماً صابروا في لقائهم ... لدا الموت قوماً ما أعف وأكرما
وأطيب أخباراً وأكرم شيمة ... إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أعني أنهم أهل نجدة ... وبأس إذا لاقوا جشيما عرمرما[1]

(١) الغارات: ٢/ ٧٩٢، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٤٩٩.

مقتل أبي اليقظان عمار بن ياسر رضوان الله عليه ونسبه وإسلامه وطائفة ما جاء فيه من الأخبار الأحوال

هو رحمه الله من كبار الفقهاء وعظام العلماء، صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ منه ومن علي عليه السلام معالم الدين ومعارف اليقين وكان من شيعة أمير المؤمنين وقتله الفئة الباغية في صفين مجاهداً في سبيل الله ناصراً لوليه خير خلقه بعد رسوله علي عليه السلام.

وسيتضح لك جلالة شأنه وعلو مقامه وثبت قدمه في الدين وخلوصه في حب علي أمير المؤمنين عليه السلام بما نذكر من الأخبار المأثورة عن الفريقين، وفي الدر المنثور: وكان أبو هريرة يقول إن عمار بن ياسر أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه صلى الله عليه وآله.

وقال ابن هشام في السيرة: أسلم قبل الهجرة في مكة بدعوة أبي بكر وقال في موضعين من كتابه السيرة النبوية: عمار بن ياسر عنسي من مذحج، حليف بني مخزوم بن يقظة.

وقال المسعودي في مروج الذهب: وقد تنوزع في نسبه فمن الناس من ألحقه ببني مخزوم ومنهم من رأى أنه من حلفائهم ومنهم من رأى غير ذلك.

وعمار، والحويرث «مصغر حارث» وعبود: بنو ياسر، ومن ولد عمار عبد الله بن سعد وهو المقتول بالأندلس قتله عبد الرحمن بن معاوية، ويكنى عمار رحمه الله بأبي اليقظان.

قال الواقدي وابن الأثير في أسد الغابة وطائفة من أهل العلم بالنسب والخبر: إن ياسراً والد عمار عرني قحطاني مذحج من عنس في مذحج إلا أن ابنه عماراً مولى لبني مخزوم لأن أباه ياسراً تزوج أمة لبعض بني مخزوم فولدت له عماراً وذلك أن ياسراً والد عمار قدم مكة مع أخوين له، أحدهما يقال له: الحارث، والثاني مالك فرجع الحارث ومالك إلى اليمن وأقام ياسر بمكة فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فزوجه أبو حذيفة أمة له يقال لها سمية «على التصغير» بنت خيط فولدت له عمار فأعتقه أبو حذيفة، فمن هذا هو عمار مولى لبني مخزوم، وللحلف والولاء الذي بين بني مخزوم وابن عمار وأبيه ياسر كان اجتماع بني مخزوم، إلى عثمان حين نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا بالضرب حتى انفتق له فتق في بطنه فاجتمعت بنو مخزوم وقالوا والله لئن مات ما قتلنا به أحداً غير عثمان[1].

وكان إسم أبي حذيفة مولى سمية: مهشم، وهو عم أبي جهل وقال بعض أهل التحقيق: قد غلط ابن قتيبة فيها فزعم أن الأزرق مولى الحارث بن كلدة خلف عليها بعد

---

(١) الغدير: ٩/١٦، ح ٢، وشرح نهج البلاغة: ١٠/١٠٢.

ياسر فولدت له سلمة بن الأزرق، والصحيح أن أم سلمة بن الأزرق سمية أخرى وهي أم زياد بن أبي سفيان لا أم عمار.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه (ص ٤٢٨ ج ٣ طبع ١٣٥٧هـ): كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن عبد الله بن سعيد بن ثابت ويحيى بن سعيد قالا: سأل سائل سعيد بن المسيب عن عمار بن ياسر ما دعاه إلى الخروج على عثمان؟ قال: كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب كلام فضربهما عثمان، فأورث ذاك بين آل عمار، وآل عتبة شراً حتى اليوم وكنا عما ضربا عليه وفيه.

وقال الشارح المعتزلي في الجزء الثاني من شرحه: فضربهما عثمان فأورث ذلك تعاديا بين عمار، وعثمان وقد كانا تقاذفا قبل ذلك.

أقول: وفي كثير من أسفار الفريقين أن عثمان بن عفان ضربه حتى غشي عليه وأنه أمر غلمانه فمدوا بيديه ورجليه، ثم ضربه برجليه وهما في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق وكسر ضلعاً من أضلاعه، وهذا هو غير مختلف فيه بين رواة الفريقين، وإنما اختلفوا في سببه ولعلنا نأتي بها في مباحثنا الآتية إن شاء الله تعالى وهذا أحد المطاعن الواردة على عثمان بلا كلام، ومن أعذره فيه فقد تعصب فيه وتعسف وما له في قوله بسلطان.

وقال غير واحد من المفسرين ومنهم الطبرسي في مجمع البيان أن قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] نزل في جماعة أكرهوا وهم عمار، وياسر أبوه، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، وخباب عذبوا وقتل أبو عمار، ياسر وأمه سمية، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه، ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله ﷺ فقال قوم كفر عمار فقال ﷺ: كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، وجاء عمار إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال: وما ورائك فقال: شر يا رسول الله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول إن عادوا لك فعد لهم بما قلت، فنزلت الآية عن ابن عباس، وقتادة، وكذا في أسد الغابة بإسناده إلى علي بن أحمد بن متويه.

وفي كتاب نصر بن مزاحم بإسناده عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] قال نزلت في رجل وهو صهيب بن سنان مولى عبد الله بن جذعان أخذه المشركون في رهط من المسلمين فيهم خير مولى قريش لبني الحضرمي وخباب بن الأرت مولى ثابت بن أم أنمار، وبلال مولى أبي بكر، وعايش مولى حويطب بن عبد العزى، وعمار بن ياسر، وأبي عمار، وسمية أم عمار فقتل أبو عمار، وأم عمار وهما

أول قتيلين قتلا من المسلمين وعذب الآخرون بعد ما خرج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فأرادوهم على الكفر.

فأما صهيب فكان شيخاً كبيراً ذا متاع فقال للمشركين: هل لكم إلى خير؟ فقالوا: ما هو؟ قال: أنا شيخ كبير ضعيف لا يضركم منكم كنت أؤمن عدوكم وقد تكلمت بكلام أكره أن أنزل عنه فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني، ففعلوا فنزلت هذه الآية، فلقاه أبو بكر حين دخل المدينة فقال: ربح البيع يا صهيب، وقال: وبيعك لا يخسر وقرأ هذه الآية ففرح بها.

وأما بلال، وخباب، وعايش، وعمار وأصحابهم فعذبوا حتى قالوا بعض ما أراد المشركون ثم أرسلوا، ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

أقول: أكثر المفسرين ذهبوا إلى أن الآية الأولى نزلت في علي عليه السلام ليلة المبيت، وإن ما نزل في عمار وأصحابه آية النحل الماضية ولا يبعد أن يقال أن الراوي سهى في ذلك وأخذ آية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي﴾ مكان آية ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ والله تعالى يعلم.

وفي السيرة الهشامية (ص ٣١٩ ج ١ طبع مصر ١٣٧٥هـ) في تعذيب قريش لعمار بن ياسر وتصبير رسول الله ﷺ له، قال ابن إسحاق: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت إسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول فيما بلغني: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة فأما أمه فقتلوها وهي تأبي إلا الإسلام.

وروى غيره أن عماراً قال لرسول الله ﷺ: قد بلغ منا العذاب كل مبلغ فقال له النبي ﷺ: صبراً أبا اليقطان، ثم ﷺ اللهم لا تعذب أحداً من آل عمار بالنار.

وروى الفريقان أن ياسراً وسمية أبوي عمار رضوان الله عليهم أول شهيدين في الإسلام بل قيل أول شهيد إستشهد في الإسلام أم عمار سمية طعنها أبو جهل بطعنة في قبلها أو في قلبها على إختلاف النسخ.

وفي أسد الغابة: وكان إسلام عمار بعد بضعة وثلاثين رجلاً وهو وأبوه وأمه من السابقين وأسلم عمار، ورسول الله ﷺ في دار الأرقم هو وصهيب بن سنان في وقت واحد.

وفيه: قال عمار لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله ﷺ فيها فقلت: ما تريد؟ فقال: وما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد وأسمع كلامه

فقال: وأنا أريد ذلك فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا[١].

أقول: أرقم هذا هو أرقم بن أبي الأرقم واسم أبي الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام قيل كان ثاني عشر.

وفي مجالس المؤمنين للقاضي نور الله الشهيد رحمه الله نقلاً عن الإستيعاب أسلم أرقم بعد سبعة أو عشرة.

وكان من المهاجرين الأولين وهو الذي استخفى رسول الله ﷺ في داره وهي في أصل الصفا والمسلمون معه بمكة لما خافوا المشركين فلم يزالوا بها حتى كملوا أربعين رجلاً، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب، فلما كملوا به أربعين خرجوا وتوفي الأرقم سنة ثلاث وخمسين وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، ولنعد إلى القصة:

وفي أسد الغابة بإسناده إلى علقمة عن خالد بن الوليد قال: كان بيني وبين عمار كلام فأغلظت له في القول فانطلق عمار يشكوني إلى النبي ﷺ فجاء خالد وهو يشكوه إلى النبي ﷺ قال: فجعل يغلظ له ولا يزيده إلا غلظة والنبي ﷺ ساكت لا يتكلم فبكى عمار وقال يا رسول الله: ألا تراه، فرفع رسول الله ﷺ رأسه وقال: من عادى عماراً عاداه الله ومن أبغض عماراً أبغضه الله، قال خالد: فخرجت فما كان شيء أحب إليّ من رضى عمار لقيته فرضي.

وفيه بإسناده عن عطاء بن يسار عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما[٢].

وفي كتاب نصر بن مزاح بإسناده عن هاني بن هاني عن علي عليه السلام قال: جاء عمار بن ياسر يستأذن على النبي ﷺ قال: إئذنوا له مرحباً بالطيب ابن الطيب، وفي أسد الغابة: مرحباً بالطيب المطيب[٣].

وفي كتاب نصر: قال النبي ﷺ: لقد ملئ عمار إيماناً إلى مشاشه وقال ﷺ إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علي، وعمار، وسلمان[٤].

شهد عمار قتال مسيلمة الكذاب وأصيبت أذنه يوم اليمامة فقطعت وتدلت على كتفه،

---

(١) أسد الغابة: ٤/ ٤٤، والطبقات الكبرى: ٣/ ٢٢٧.

(٢) الغدير: ٩/ ٢٥٩، وكنز العمال: ١١/ ٧٢١، ح ٣٣٥٢٧.

(٣) الإحتجاج: ١/ ٢٦٧، وكتاب الأربعين: ٢٣٦.

(٤) كتاب الأربعين: ٢٣٦، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٢٥.

ففي مجالس المؤمنين للقاضي نور الله وفي أسد الغابة لابن الأثير بإسناده عن ابن عمر قال: رأيت عمار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة قد أشرف يصيح يا معشر المسلمين ـ وكانوا قد هربوا من الحرب ـ أمن الجنة تفرون إليّ، إليّ أنا عمار ابن ياسر هلموا إليّ قال: وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تذبذب وهو يقاتل أشد القتال(١).

أقول: أما أن ما عنون في الكتب الرجالية في كنيته رضوان الله عليه بأبي اليقظان، فما وجدت في كتاب أن يكون له ولد كان اسمه يقظان حتى يكنى بأبي اليقظان وجاء في كتب الأدب واللغة أن أبا اليقظان يكون كنية للديك وظني أن عمار رضوان الله عليه لما كان رجلاً نبيهاً يقظان عارفاً بدين الله كنى به، وكان أيضاً في الحروب بطلاً فحلاً وشجاعاً يهابه الناس وكمياً لم يرَ في معسكر علي عليه السلام بعد الأشتر مثله، بل هو ممن قاتل في سبيل الله من بدء ظهور الإسلام إلى يوم صفين، في المشاهد مما يتحير فيه العقول في ثباته في الدين وخلوصه وكان يتقيه ويحذره الأبطال في المعارك والمهالك، كنى بأبي اليقظان كما نقول نحن في الفارسية بالرجل الشجاع المصارع، خروس جنگی، وهذا مما تفردت به ولم أجده في كتاب وما سمعت من أحد والله هو العالم.

وهاجر عمار إلى أرض الحبشة وقال ابن هشام في السيرة: فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة كانت في الإسلام «إلى أن قال» في (ص ٣٣٠ ج ١ طبع ١٣٧٥هـ) بعد عد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة: فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من السملمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهمم معهم صغاراً وولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان عمار بن ياسر فيهم وهو يشك فيه.

وكذا قال في ذكر من عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة، بعد عد عدة منهم: ومن حلفاء بني مخزوم: عمار بن ياسر، يشك فيه أكان خرج إلى الحبشة أم لا؟

ولقد شهد عمار رحمه الله تعالى بدراً والمشاهد كلها وأبلى ببدر بلاءً حسناً وقتل في بدر كما في السيرة الهشامية عامر ابن الحضرمي ورجلاً شجاعاً آخر أحد بني عمرو بن تميم، وعلي بن أمية بن خلف.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/١٠٣، والفوائد الرجالية: ٣/ ١٧٢.

قال ابن هشام: ويقال إن زيد بن حارثة وعمار بن ياسر قتلا معاوية بن المغيرة بعد حمراء الأسد، كان لجأ إلى عثمان بن عفان، فاستأمن له رسول الله ﷺ على أنه إن وجد بعد ثلاث قتل فأقام بعد ثلاث وتوارى فبعثهما النبي ﷺ وقال: إنكما ستجد إنه بموضع كذا وكذا فوجداه فقتلاه.

وفي غزوة ذات الرقاع كان عمار بن ياسر وعباد بن بشر قاما على حراسة جيش الرسول ﷺ وأصيبا في ذلك من الألم والأذى.

في السيرة الهشامية: قال ابن إسحاق وحدثني عمي صدقة بن ياسر عن عقيل بن جابر عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصاب رجل إمرأة رجل من المشركين فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً أتى زوجها وكان غائباً، فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد ﷺ دماً فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ فنزل رسول الله ﷺ منزلاً فقال: من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟ قال: فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا في فم الشعب، قال: وكان رسول الله ﷺ قد نزلوا إلى شعب من الوادي وهما عمار بن ياسر وعباد بن بشر فيما قال ابن هشام.

قال ابن إسحاق: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري: «يعني قال عباد بن بشر لعمار بن ياسر» أي الليل تحب أن أكفيكه: أوله أم آخره؟ قال: بل أكفني أوله قال: فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي قال: وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم «أي الطليعة الذي يحرس القوم قال فرمى بسهم فوضعه فيه، قال: فنزعه ووضعه، فثبت قائماً، قال: ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، قال فنزعه فوضعه، وثبت قائماً، ثم عاد له بالثالث، فوضعه فيه، قال: فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد، ثم أهب صاحبه «يعني أيقظ عماراً فقال: إجلس فقد أثبت «يعني جرحت جرحاً لا يمكن التحرك معه» قال: فوثب فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا به «أي علما به» فهرب.

ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله أفلا أهببتني أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها فلما تابع على الرمي ركعت فأذنتك وأيم الله لولا أن أضيع ثغراً، أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفدها[1].

وفي السيرة الهشامية أيضاً في تكنية الرسول ﷺ لعلي ﷺ بأبي تراب في غزوة

---

(١) صحيح ابن خزيمة: ١/ ٢٥، وموارد الظمآن: ٨٦.

العشيرة:

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن محمد بن خيثم المحاربي عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن خيثم أبي يزيد عن عمار بن ياسر، قال:

كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأقام بها رأينا أناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم وفي نخل، فقال لي علي بن أبي طالب: يا أبا اليقظان هل لك في أن تأتي هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون؟ قال: قلت إن شئت؛ قال: فجئناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة ثم غشينا النوم فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في صور من النخل وفي دقعاقعاء من التراب فنمنا فوالله ما أهبنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء التي ننام فيها فيومئذٍ قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب مالك يا أبا تراب لما يرى عليه من التراب، ثم قال: ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟ قلنا: بلى، يا رسول الله ﷺ قال: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضر بك يا علي على هذه ووضع يده على قرنه حتى يبل منها هذه وأخذ بلحيته. «أحيمر ثمود هو الذي عقر ناقة صالح واسمه قدار بن سالف»[١].

وفي السيرة الهشامية (ص ٣٩٢ / ١ طبع ١٣٧٥هـ) قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث، وصهيب وأشباههم من المسلمين هزأت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمد ﷺ خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ولما آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، كان عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان أخوين، ويقال عمار، وثابت بن قيس كانا أخوين، وفي الدر المنثور كما في مادة «عمر» من سفينة البحار: وكان أبو هريرة يقول إن عمار بن ياسر أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أمر ﷺ أن يبني في المدينة مسجداً، وفي السيرة الهشامية (ص ٤٩٦ ج ١) ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين في العمل فيه فعمل فيه المهاجرون والأنصار

(١) كتاب سليم بن قيس: ٤٣٩، وبحار الأنوار: ١١/ ٣٧٦.

ودأبوا فيه، «إلى أن قال»: فدخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول الله قتلوني، يحملون عليّ ما لا يحملون. قالت أم سلمة: زوج النبي ﷺ فأين رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده وكان رجلاً جعداً وهو ﷺ يقول: «ويح ابن سمية، ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية».

وفي تاريخ الطبري: الناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة في الأجر، وسيأتي تفصيله ثم قال ابن هشام وارتجز علي بن أبي طالب يومئذٍ:

لا يستوي من يعمر المسجدا يدأب فيه قائماً وقاعداً

ومن يُرى عن الغبار حائداً

فأخذها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها فلما أكثر ظن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ إنما يعرض به، فقال له الرجل: سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية والله إني لأراني أعرض هذه العصا لأنفك، وفي يده عصا، فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، وإن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه[1].

أقول: ذلك الرجل هو عثمان بن عفان كما صرح به غير واحد من الفريقين، وقال السهيلي وقد سمي ابن إسحاق الرجل وكره ابن هشام أن يسميه كي لا يذكر أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ بمكروه، وقال أبو ذر: وقد سمي ابن إسحاق الرجل، فقال إن هذا الرجل هو عثمان بن عفان. وفي المواهب اللدنية أن الرجل هو عثمان بن مظعون وهو خطأ جداً، وظن محض لا يساعده خبر ولا أثر وعدل إليه لبعض شأنه.

قال ابن هشام في السيرة: وذكر سفيان بن عيينة عن زكريا عن الشعبي قال: إن أول من بنى مسجداً عمار بن ياسر.

أقول: يعني بهذا الحديث مسجد قبا، لأن عماراً هو الذي أشار على النبي ﷺ ببنيانه وهو جمع الحجارة له فلما أسسه رسول الله ﷺ إستتم بنيانه عمار، كما في روض الأنف، وقال في أسد الغابة؛ ومن مناقبه أنه أول من بنى مسجداً في الإسلام، وقال بإسناده عن الحكم بن عيينة قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة أول ما قدمها ضحى. فقال عمار: ما لرسول الله ﷺ بد من أن نجعل له مكاناً إذا استظل من قائلته ليستظل فيه، ويصلي فيه، فجمع حجارة فبنى مسجد قبا فهو أول مسجد بني وعمار بناه.

(١) المسترشد: ٦٥٨، ح ٣٢٨، وبحار الأنوار: ١٩/ ١٢٤.

وفي مادة «عمر» من سفينة البحار: عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه عن جده عمار قال: كنت مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته وقتل علي عليه السلام أصحاب الألوية وفرق جمعهم، وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي وقتل شيبة بن نافع أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن علياً عليه السلام قد جاهد في الله حق جهده فقال ﷺ: لأنه مني وأنا منه وارث علمي وقاضي ديني ومنجز وعدي والخليفة بعدي ولولاه لم يعرف المؤمن المحض بعدي، حربه حربي وحربي حرب الله وسلمه سلمي وسلمي سلم الله، إلا أنه أبو سبطي والأئمة بعدي من صلبه يخرج الله تعالى الأئمة الراشدين ومنهم مهدي هذه الأمة.

فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا المهدي؟

قال ﷺ: يا عمار إن الله تبارك وتعالى عهد إليّ أنه يخرج من صلب الحسين عليه السلام أئمة تسعة والتاسع من ولده يغيب عنهم وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] يكون لن غيبة طويلة يرجع عنها قوم ويثبت عليها آخرون، فإذا كان في آخر الزمان يخرج فيملأ الدنيا قسطاً وعدلاً ويقاتل على التأويل كما قاتلت على التنزيل، وهو سمي وأشبه الناس بي، يا عمار ستكون بعدي فتنة فإذا كان كذلك فاتبع علياً وحزبه فإنه مع الحق الحق معه يا عمار، إنك ستقاتل مع علي عليه السلام صنفين: الناكثين والقاسطين، ثم تقتلك الفئة الباغية.

قلت: يا رسول الله أليس ذلك على رضا الله ورضاك؟ قال: نعم، على رضا الله ورضاي ويكون آخر زادك شربة من لبن تشربه.

فلما كان يوم صفين خرج عمار بن ياسر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أخا رسول الله أتأذن لي في القتال؟ قال: مهلاً رحمك الله فلما كان بعد ساعة أعاد عليه الكلام فأجابه بمثله، فأعاده ثالثاً فبكى أمير المؤمنين عليه السلام، فنظر إليه عمار فقال: يا أمير المؤمنين أنه اليوم الذي وصف لي رسول الله ﷺ.

فنزل أمير المؤمنين علي بغلته وعانق عماراً وودعه ثم قال: يا أبا اليقظان جزاك الله عن الله وعن نبيك خيراً، فنعم الأخ كنت ونعم الصاحب كنت ثم بكى عليه السلام وبكى عمار، ثم برز إلى القتال وذكر قتاله إلى أن قتل رضي الله عنه فلما كان الليل طاف أمير المؤمنين عليه السلام في القتلى فوجد عماراً ملقى فجعل رأسه على فخذه ثم بكى وأنشأ:

أيا موت كم هذا التفرق عنوة ... فلست تبقى لي خليل خليل
ألا يا أيها الموت الذي ليس تاركي ... أرحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيراً بالذين أحبهم ... كأنك تمضي نحوهم بدليل

وفي رواية ابن أعثم: فأتاه علي عليه السلام وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون إن امرءاً لم يدخل عليه مصيبة من قتل عمار فما هو في الإسلام من شيء، ثم صلى عليه وقرأ هاتين البيتين.

ونقل أنه لما قتل يوم صفين إحتمله أمير المؤمنين عليه السلام إلى خيمته، وجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول:

وما ظبية تسبي الظباء بطرفها ... إذا انبعثت خلنا بأجفانها سحراً
بأحسن ممن خضب السيف وجهه ... دماً في سبيل الله حتى قضى صبراً

وقتل رحمه الله في صفين في اليوم التاسع من صفر عند المساء سنة سبع وثلاثين وسنة إذ ذاك تزيد على التسعين فقال بعض: وهو يومئذٍ ابن أربع وتسعين سنة وقال آخر: وله ثلاث وتسعون سنة والظاهر أن الثاني أخذ السنين تامة دون الأول ونقل ابن الأثير في أسد الغابة قولاً آخر بعد القولين: وقيل إحدى وتسعون.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: قال أبو مخنف: حدثني عبد الملك بن أبي حر الحنفي أن عمار بن ياسر خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته.

ثم قال: قال أبو مخنف: وحدثني الصقعب بن زهير الأزدي قال: سمعت عماراً يقول والله إني لأرى قوماً ليضربنكم ضرباً يرتاب منه المبطلون، وأيم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل[١].

وفي مروج الذهب قال عمار بن ياسر: إني لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل.

أقول: هجر محركة بلد باليمن مذكر مصروف وقد يؤنث ويمنع من الصرف، وهجر هذه معروفة بكثرة التمر والنخيل ومنه المثل المعروف: كناقل التمر إلى هجر، وفي النهاية الأثيرية هجر إسم بلد معروف بالبحرين وهو مذكر مصروف، والظاهر إنما صحف من النساخ اليمن بالبحرين ولا بعد فيه وكم له من نظير، وهجر أيضاً قرية من قرى المدينة تنسب إليها

(١) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام: ٢/ ٣٥٢. والإختصاص: ١٤.

القلال، والمراد هنا هجر الأولى بقرينة السعفات كما هو ظاهر كلام ابن الأثير في مادة «سعف» من النهاية قال: وفي حديث عمار لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، السعفات جمع سعفة بالتحريك وهي أغصان النخيل وقيل: إذا يبست سميت سعفة وإذا كانت رطبة فهي شطب وإنما خص هجر للمباعدة في المسافة ولأنها موصوفة بكثرة النخيل.

وفي أسد الغابة: «حتى يبلغوا بنا شعاب هجر» ولكن في كتاب نصر بن مزاحم، ونهاية ابن الأثير، وتاريخ الطبري، وبحار المجلسي وغيرها «سعفات هجر» وهذه أولى من الأولى لمكان النخيل، ويشبه أن تكون الأولى مصحفة ويؤيد قولنا ترجمة القاضي نور الله الشهيد الحديث بالفارسية حيث قال في مجالس المؤمنين: والله أكر شما برماچنان غالب ميشديدكه تانخلستان هجر مارا ميگريزانيد بيقين خواهيم دانست كه ما برحقيم وشما بر باطل.

ومعنى قوله رضوان الله عليه: «حتى يرتاب المبطلون» أن هؤلاء الفئة الباغية أعني جنود معاوية لما ضربوا وقتلوا من كان ناصراً وممداً لأهل الحق، أعني أحزاب علي عليه السلام فعند ذلك يقول: من لم يكن على النهج القويم والصراط المستقيم لو لم يكن معاوية وأتباعه على حق لما ظهروا على علي عليه السلام وأشياعه، وهذا ريب يعتريه كما نرى كثيراً من رذلة الناس وسفلتهم عند منازعة أهل الحق من عمله وإنفاذ أمره، يقولون لو كانوا على حق لما ظهر هؤلاء عليهم وأما من كان على بصيرة في دينه فيقول: والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل. ولنعد إلى القصة:

قال الطبري بإسناده عن زيد بن وهب الجهني: أن عمار بن ياسر رحمه الله قال: يومئذٍ أين من يبتغي رضوان الله عليه ولا يؤب إلى مال ولا؟ ولد فأتته عصابة من الناس فقال: أيها الناس أقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم ابن عفان ويزعمون أنه قتل مظلوماً، والله ما طلبتم بدمه ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرؤها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان، اللهم إن تنصرنا فطال ما نصرت وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم، ثم مضى ومضت تلك العصابة التي أجابته حتى دنا من عمرو فقال: يا عمرو بعت دينك بمصر تباً لك تباً طالما بغيت في الإسلام عوجاً.

وقال الطبري ونصر بن مزاحم: ثم قال عمار لعبيد الله بن عمر بن الخطاب: صرعك الله بعت دينك من عدو الإسلام وابن عدوه.

قال: كلا. ولكن أطلب بدم عثمان بن عفان الشهيد المظلوم قال له: أشهد على علمي

فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله عزّ وجلّ، وأنك إن لم تقتل اليوم فستموت غداً فانظر إذا أعطى الله العباد على قدر نياتهم ما نيتك.

وقال الطبري في تاريخه بإسناده عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت عمار بن ياسر بصفين وهو يقول لعمرو بن العاص لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله ﷺ وهذه الرابعة ما هي بأبر ولا أتقى[١].

أقول: كان عمرو بن العاص عامل عمر بن الخطاب على مصر إلى السنة التي قتل فيها، فلما ولى عثمان أقره سنتين من إمارته ثم عزل عمراً واستعمل عبد الله بن سعد بن بي السرح وكان عثمان لا يعزل أحداً إلا عن شكاة، أو إستعفاء من غير شكاة ولم يكن عزله عمراً عن إستعفائه، وكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان يقول: إن عمراً كسر الخراج فكتب عثمان إلى عمرو انصرف وولى عبد الله بن السعد الخراج والجند فقدم عمرو مغضباً فدخل عمرو على عثمان وعليه جبة يمانية محشوة قطناً فقال له عثمان: ما حشو جبتك؟ قال: عمرو. قال عثمان: قد علمت أن حشوها عمرو ولم أرد هذا إنما سألت أقطن هو أم غيره. قال الطبري في تاريخه: بعث عبد الله بن سعد إلى عثمان بمال من مصر قد حشد فيه، فدخل عمرو على عثمان فقال عثمان: يا عمرو هل تعلم أن تلك اللقاح درت بعدك؟ فقال: عمرو إن فصالها هلكت.

ثم شايع عمرو معاوية في حرب علي عليه السلام طمعاً أن يجعل عاملاً على مصر ثانياً، ويتولى أمرها فمراد عمار رحمه الله من قوله: «يا عمرو بعت دينك بمصر» أن عمراً باع دينه بإزاء إمارة مصر، كقولك بعت هذا الثوب بهذا الدرهم وأصدق شاهد لنا على ذلك ما نص به نصر بن مزاحم في كتابه صفين والنصر هذا من رجال أصحاب الحديث الأقدمين، وكان من معاصري محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام باقر علوم الأولين والآخرين، وكتابه سند لمن جاء بعده من المؤرخين وتعرض لترجمته وتوثيقه غير واحد من العلماء الشامخين كالشيخ الطوسي رحمه الله في الفهرست والعلّامة في الخلاصة والنجاشي في رجاله وابن النديم في الفهرست، وقال ابن أبي الحديد في شرحه على النهج: نصر بن مزاحم في نفسه ثبت صحيح النقل غير منسوب إلى هوى ولا أدغال وهو من رجال أصحاب الحديث.

وبالجملة قال نصر في ذلك الكتاب (ص ٢٢ الطبع الناصري) بإسناده قال: قال معاوية لعمرو: يا عبد الله إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى ربه وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم، قال عمرو: إلى من؟ قال: إلى جهاد علي، قال: فقال

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ١٤، وكشف الغمة: ١/ ٢٦٢.

عمرو والله يا معاوية ما أنت وعلي بعكمي بعير مالك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهادته ولا فقهه ولا علمه والله إن له مع ذلك حداً وحدوداً وحظاً وحظوة وبلاء من الله حسناً، فما تجعل لي إن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر وقال حلمك قال: مصر طعمة فتلكأ عليه معاوية.

ومضى من تاريخ الطبري أيضاً أن عمراً قال لمعاوية: أن في النفس من ذلك ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وقرابته، ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا فصالحه معاوية وعطف عليه.

ويأتي في ذلك كتابه عليه السلام إلى عمرو حيث يقول: فإنك جعلت دينك تبعاً لدنيا أمرىء ظاهر غيه إلى آخر ما قال عليه السلام، نعوذ بالله من الوساوس النفسانية والتسويلات الشيطانية، فانظر كيف أستحوذ الشيطان على ابن العاصي الداهي المارد فباع حظه بالأرذل الأدنى وشرى آخرته بالثمن الأوكس وتغطرس وتردى في هواه.

قال المسعودي في مروج الذهب: وقد كان عمرو بن العاص إنحرف عن عثمان لانحرافه وتوليه مصر غيره، فنزل الشام فلما اتصل به أمر عثمان وما كان من بيعة على كتب إلى معاوية يهزه ويشير إليه بالمطالبة بدم عثمان وكان فيما كتب به إليه: ما كنت صانعاً إذا قشرت من كل شيء تملكه فاصنع ما أنت صانع، فبعث إليه معاوية فسر إليه فقال له معاوية: بايعني. قال: والله لا أعينك من ديني حتى أنل من دنياك، قال: سل، قال: مصر طعمة فأجابه إلى ذلك وكتب له به كتاباً وقال عمرو بن العاص في ذلك:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصراً فاربح صفقة ... أخذت بها شيخاً يضر وينفع[1]

ومراد عمار رحمه الله من قوله: «عدو الإسلام وابن عدوه»: معاوية، وأبوه أبو سفيان ومراده من قوله: «لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثاً» المواطن الثلاثة: بدر واحد وحنين. كما في كتاب نصر بن مزاحم حيث قال: بإسناده عن زيد بن أبي رجاء عن أسماء بن الحكم الفزاري قال: كنا بصفين مع علي بن أبي طالب تحت راية عمار بن ياسر إرتفاع الضحى إستظللنا ببرد أحر، إذ أقبل رجل يستقري الصف حتى انتهى إلينا فقال: أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار بن ياسر؟ هذا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إن لي حاجة إليك فأنطق بها علانية أو سراً؟ قال: إختر لنفسك أي ذلك شئت قال: لا بل علانية. قال: فانطق، قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وإنهم على الباطل فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى كان ليلتي هذه صباح يومنا

(١) الغدير: ٢/ ١٤٠، ونهج السعادة: ٢/ ٦٥.

هذا، فتقدم منادينا فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة ودعونا دعوة واحدة وتلونا كتاباً واحداً ورسولنا واحد، فأدركني الشك في ليلتي فبت بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا، قال: فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه. فجئتك لذلك قال له عمار: هل تعرف صاحب الراية السوداء لمقابلتي؟ فإنها راية عمرو بن العاص قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة ما هي بخيرهن ولا أبرهن بل هي شرهن وأفجرهن أشهدت بدراً وأُحداً وحنيناً أو شهدها لك أب فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر، ويوم أُحد، ويوم حنين وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب هل ترى هذا العسكر ومن فيه فوالله لوددت أن جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا مفارقاً للذي نحن عليه كانوا خلقاً واحداً فقطعته وذبحته والله لدماؤهم جميعاً أحل من دم عصفور أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا، بل حلال. قال: فأنهم كذلك حلال دماؤهم، أتراني قد بينت لك؟ قال: قد بينت لي، قال: فاختر أي ذلك أحببت قال: فانصرف الرجل ثم دعاه عمار بن ياسر فقال: أما إنهم سيضربوننا بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون لو لم يكونوا على حق ما ظهروا علينا والله ما هم من الحق على ما يقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعرفت أنا على حق وهم على باطل وأيم الله لا يكون سلماً سلماً أبداً حتى يبوء أحد الفريقين (كذا) على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق وأن قتلاهم في الجنة وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار وكان أحياؤهم على الباطل.

وقال نصر بن مزاحم بإسناده عن عبد خير الهمداني قال: نظرت إلى عمار بن ياسر يوماً من أيام صفين رمى رمية فأغمي عليه ولم يصلِ الظهر، والعصر، والمغرب، ولا العشاء، ولا الفجر ثم أفاق فقضاهن جميعاً يبدأ بأول شيء فاته ثم التي يليها.

أقول: إن عماراً متى ضربه عثمان غشي عليه وأدركته هذه الحالة أيضاً، كما في الشافي للشريف المرتضى علم الهدى، كما نقله الشارح المعتزلي في الجزء الثالث من شرح النهج في مطاعن عثمان.

قال علم الهدى: وهذا الفعل أعني ضرب عمار لم تختلف الرواة فيه، وإنما اختلفوا في سببه، فروى عباس بن هشام الكلبي عن أبي مخنف في إسناده: أنه كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله: فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك فكلموه فيه بكل كلام شديد حتى غضبوه: فخطب فقال لنأخذن حاجتنا من هذا

الفيء وإن رغمت به أنوف أقوام فقال له: إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه فقال عمار: شهد الله أن أنفي أول راقم من ذلك فقال عثمان: أعليّ يا ابن ياسر تجري؟ خذوه فأخذ ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه، ثم أخرج فحمل حتى أتي به منزل أم سلمة فلم يصلِ الظهر، والعصر، والمغرب فلما أفاق توضأ وصلى وقال الحمد لله ليس هذا أول يوم أوذينا، إنتهى[1].

وفي البحار كما في السفينة نقلاً عن رجال الكشي عن قيس بن أبي حازم قال: قال عمار أدفنوني في ثيابي فإني مخاصم، وكذا في أسد الغابة وعن أبي البختري قال: أتى عمار يومئذٍ بلبن فضحك. ، ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ آخر شراب تشربه من الدنيا مذقة من لبن حتى تموت[2].

وفيه وفي خبر آخر أنه قال: آخر زادك من الدنيا ضياح لبن، وفي كشف الغمة عن حبة العرني قال: شهدته يوم قتل يقول: إيتوني بآخر رزق لي من الدنيا فأتي بضياح من لبن في قدح أروح بحلقة حمراء فقال اليوم: ألقى الأحبة محمداً وحزبه، وقال والله لو ضربونا حتى بلغونا سعفات هجر لعلمت أننا على الحق وأنهم على الباطل، ثم قتل رضي الله عنه قتله أبو العادية واحتز رأسه أبو جوى السكسكي.

وفيه وكان الذي قتل عماراً أبو عادية المري، طعنه برمح فسقط وكان يومئذٍ قاتل وهو ابن أربع وتسعين سنة فلما وقع أكب عليه رجل فاحتز رأسه فأقبلا يختصمان كلاهما يقول: أنا قتلته. فقال عمرو بن العاص: والله أن يختصمان إلا في النار[3].

وفي تاريخ الطبري بإسناده عن حبة بن جوين العرني قال: إنطلقت أنا وأبو مسعود إلى حذيفة بالمدائن فدخلنا عليه فقال: مرحباً بكما ما خلفتما من قبائل العرب أحداً أحب إليّ منكما، فأسندته إلى أبي مسعود فقلنا: يا أبا عبد الله حدثنا فإنا نخاف الفتن. فقال: عليكما بالفتنة التي فيها ابن سمية إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الطريق وإن آخر رزقه ضياح من لبن، قال حبة: فشهدته يوم صفين وهو يقول: إئتوني بآخر رزق لي من الدنيا فأتى بضياح من لبن في قدح أروح له حلقة حمراء فما أخطأ حذيفة مقياس شعرة فقال: اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر

---

(١) الغدير: ٩/ ١، ح ١، وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٩.

(٢) الإحتجاج: ١/ ٢٦٨، وبحار الأنوار: ٣٣/ ١١، ح ٣/ ٣١.

(٣) بحار الأنوار: ٣٣/ ١٥، وأحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ١٣٢.

لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل، وجعل يقول الموت تحت الأسل والجنة تحت البارقة[١].

وفيه بإسناده عن الأعمش قال: قال أبو عبد الرحمن السلمي كنا مع علي عليه السلام بصفين فكنا قد وكلنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من أن يحمل فكان إذا حانت منهما غفلة يحمل فلا يرجع حتى يخضب سيفه وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه فألقاه إليهم، وقال لولا أنه انثنى ما رجعت فقال الأعمش: هذا والله ضرب غير مرتاب فقال أبو عبد الرحمن سمع القوم شيئاً فأدوه وما كانوا بكذا بين، قال: ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صفين إلا تبعه من كان هناك من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ورأيته جاء إلى المرقال هاشم بن عتبة وهو صاحب راية علي عليه السلام فقال: يا هاشم أعوراً وجبناً لا خير في أعور لا يغشى البأس فإذا رجل بين الصفين قال: هذا والله ليخلفن إمامه وليخذلن جنده وليصرن جهده أركب يا هاشم فركب ومضى هاشم يقول:

أعور يبغى أهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفل أو يفلا

وعمار يقول: تقدم يا هاشم الجنة تحت ظلال السيوف والموت في أطراف الأسل وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه فلم يرجعا وقتلا، يفيد لك عليهما من كان هناك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أنهما كانا علماً فلما كان الليل قلت: لأدخلن إليهم حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا، وكنا إذا توادعنا من القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم فركبت فرسي وقد هدأت الرجل ثم دخلت، فإذا أنا بأربعة يتسايرون: معاوية وأبو الأعور السلمي وعمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو هو خير الأربعة فأدخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقول أحد الشقين فقال عبد الله لأبيه يا أبت قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ما قال، قال: وما قال؟ قال: ألم تكن معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين فغشي عليه فأتاهن فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول ويحك يا ابن سمية الناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية، فدفع عمر وصدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال: يا معاوية أما تسمع ما يقول عبد الله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره الخبر، فقال معاوية: إنك شيخ أخرق ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض في بولك أو نحن قتلنا عماراً إنما

(١) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام: ٢/ ٣٥٢، ونهج السعادة: ٨/ ٨٩.

قتل عماراً من جاء به، فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون إنما قتل عماراً من جاء به فلا أدري من كان أعجب هو أو هم[1].

وفي كتاب نصر بن مزاحم بإسناده عن حبيب بن أبي ثابت قال: لما بنى المسجد جعل عمار يحمل حجرين، فقال له رسول الله ﷺ: يا أبا اليقظان لا تشقق على نفسك قال: يا رسول الله إني أحب أن أعمل في هذا المسجد. قال: ثم مسح ظهره ثم قال: إنك من أهل الجنة تقتلك الفئة الباغية.

قال نصر بإسناده عن ابن أبي مليكة قال: قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لولا أن رسول الله ﷺ أمر بطواعيتك ما سرت معك هذا المسير أما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: يقتلك الفئة الباغية.

أقول: الطواعية مثل الثمانية: الطاعة، يقال: فلان حسن الطواعية أي حسن الطاعة.

وروى أن رسول الله ﷺ قال له: أطع أباك، كما في أسد الغابة حيث قال: وشهد عبد الله بن عمرو مع أبيه فتح الشام وكانت معه راية أبيه يوم اليرموك وشهد معه أيضاً صفين، وكان على الميمنة، قال له أبوه: يا عبد الله أخرج فقاتل. فقال: يا أبتاه أتأمرني أن أخرج فأقاتل وقد سمعت رسول الله ﷺ يعهد إليك ما عهد؟ قال: أنشدك بالله يا عبد الله ألم يكن آخر ما عهد إليك رسول الله ﷺ أن أخذ بيدك فوضعها في يدي وقال: أطع أباك، قال: اللهم بلى، قال: فإني أعزم عليك أن تخرج فتقاتل، فخرج فقاتل وتقلد بسيفين وندم بعد ذلك فكان يقول: ما لي ولصفين ما لي ولقتال المسلمين لوددت أني مت قبله بعشرين سنة.

وفيه أيضاً بإسناده عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه قال: كنت في مسجد الرسول ﷺ في حلقة فيها أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمرو، فمر بنا حسين بن علي عليه السلام فسلم فرد القوم السلام فسكت عبد الله حتى فرغوا رفع صوته وقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

ثم أقبل على القوم فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء قالوا: بلى. قال: هو هذا الماشي ما كلمني كلمة منذ ليالي صفين ولأن يرضى عني، أحب إليّ من أن يكون لي حمر النعم.

فقال أبو سعيد: ألا تعتذر إليه؟ قال: بلى، قال: فتواعد أن يغدوا إليه. قال: فغدوت معهما فاستأذن أبو سعيد فأذن له فدخل ثم استأذن لعبد الله فلم يزل به حتى أذن له فلما دخل قال أبو سعيد: يا ابن رسول الله إنك لما مررت بنا أمس ـ فأخبره بالذي كان من قول

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٩، والبداية والنهاية: ٧/ ٢٩٩.

عبد الله بن عمرو ـ فقال حسين عليه السلام: أعلمت يا عبد الله أني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قال: أي ورب الكعبة، قال: فما حملك على أن قاتلتني وأبي يوم صفين فوالله لأبي كان خيراً مني، قال: أجل ولكن عمرو ـ يعني أباه ـ شكاني إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إن عبد الله يقوم الليل ويصوم النهار، فقال: لي رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عبد الله صلّ ونم وصم وافطر وأطع عمراً، قال: فلما كان يوم صفين أقسم عليّ فخرجت أما والله ما اخترطت سيفاً ولا طعنت برمح ولا رميت بسهم[1].

ولا يخفى سوء استدلاله وقبحه على ما ذهب إليه، مع اعترافه بأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية، وكيف يجوز عليه أن ينهض لقتل عمار أما علم هذا الرجل أن رسول الله صلى الله عليه وآله حين أمره بطواعية أبيه لم يأمره بما يخالف الحق الصريح مع أن محاربي علي كفرة لقوله صلى الله عليه وآله: يا علي حربك حربي[2]، وغيره من الأخبار، التي سمعوها من رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام مما لا يعد ولا يحصى، على أن الله تعالى كما أوجب إطاعة الأبوين وقال: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ كذا حرم على الولد إطاعتهما فيما يخالف الدين وقال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ وأما علم الرجل إنما أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بطواعية أبيه فيما يجب أو يجوز أو رأيت أن عمراً لو أمر عبد الله أن يقتله هل كان يقتل أباه لامتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وآله إياه بطواعية أبيه، وليس هذا إلا لما طبع الله على قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب أليم ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ثم إن قوله: «ما اخترطت سيفاً ولا طعنت برمح لا رميت بسهم» كذب محض اختلقه ليخرجن نفسه من الفئة الباغية ومن سب الناس وتعييرهم، كيف وقد نقل غير واحد من حملة الآثار ونقلة الأخبار أن معه سيفين كان متقلداً بأحدهما ويضرب بالآخر، ومنهم نصر بن مزاحم في كتاب صفين وهو الأصل في ذلك وكفي به شهيداً، قال بإسناده عن عمرو بن شمر عن جابر قال: سمعت الشعبي يقول.. قال الأحنف بن قيس:.. والله إني لإلىٰ جانب عمار بن ياسر بيني وبينه رجل من بني السفير فتقدمنا حتى إذا دنونا من هاشم بن عتبة قال له عمار: إحمل فداك أبي وأمي ونظر عمار إلى رقة في الميمنة فقال له هاشم: رحمك الله يا عمار إنك رجل تأخذك خفة في الحرب وإني إنما أزحف باللواء زحفاً وأرجو أن أنال بذلك حاجتي وإني إن خففت لم آمن الهلكة. وقد كان قال معاوية لعمرو: ويحك أن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة وقد كان من قبل يرقل به إرقالاً، وأنه إن زحف به اليوم زحف إنه لليوم الأطول لأهل الشام وإن زحف في عنق من أصحابه إني لأطمع أن تقتطع، فلم يزل به عمار

---

(١) مكاتيب الرسول: ١/ ٤٧٤، والمعجم الأوسط: ٤/ ١٨١.

(٢) أمالي الصدوق: ١٥٦، والصراط المستقيم: ١/ ٢٢٠گ

حتى حمل، فبصر به معاوية فوجه إليه حماة أصحابه ومن يزن بالناس منهم في ناحيته، وكان في ذلك الجمع عبدالله بن عمرو بن العاص ومعه سيفان قد تقلد واحداً وهو يضرب بالآخر وأطافت به خيل علي عليه السلام، فقال عمرو: يا الله يا رحمن إبني إبني، قال: ويقول معاوية أصبر، أصبر فإنه لا بأس عليه، قال عمرو: لو كان يزيد بن معاوية إذاً لصبرت، ولم يزل حماة أهل الشام يذبون عنه حتى نجا هارباً على فرسه.

وقال نصر: حمل عمار بن ياسر اليوم فضربوا أهل الشام حتى اضطروهم إلى الفرات ومشى عبد الله بن سويد سيد جرش إلى ذي الكلاع فقال له: لم جمعت بين الرجلين؟ قال: لحديث سمعته من عمرو ذكر أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول لعمار بن ياسر: يقتلك الفئة الباغية، فخرج عبد الله بن عمر العنسي وكان من عباد أهل زمانه ليلاً فأصبح في عسكر علي عليه السلام فحدث الناس بقول عمرو في عمار، فلما سمع معاوية بهذا القول بعث إلى عمرو فقال: أفسدت عليّ أهل الشام أكل ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله تقوله، فقال عمرو: قلتها ولست والله أعلم الغيب ولا أدري أن صفين تكون قلتها وعمار يومئذٍ لك ولي، وقد رويت أنت فيه مثل الذي رويت فيه فاسأل أهل الشام فغضب معاوية وتنمر لعمرو ومنعه خيره، فقال عمرو: لا خير لي في جوار معاوية إن تجلت هذه الحرب عنا.

ثم قال نصر بن مزاحم: وقريب مما أتى به ذكره المسعودي في مروج الذهب: وخرج عمار إلى القتال وصفت الخيول بعضها لبعض وزحف الناس، وعلى عمار درع وهو يقول: أيها الناس الرواح إلى الجنة، فاقتتل الناس قتالاً شديداً لم يسمع الناس بمثله، وكثرت القتلى حتى أن كان الرجل ليشد طنب فسطاطه بيد الرجل أو برجله، فقال الأشعث: لقد رأيت أخبية صفين وأروقتهم وما منها خباء ولا رواق ولا بناء ولا فسطاط إلا مربوطاً بيد رجل أو رجله، وجعل أبو سماك الأسدي يأخذ أداوة من ماء ونشتره حديد فيطوف في القتلى فإذا رأى رجلاً جريحاً وبه رمق أقعده، فيقول مَنْ أمير المؤمنين؟ فإن قال علي عليه السلام غسل عنه الدم وسقاه من الماء، وإن سكت وجاه بسكين حتى يموت فكان يسمى المخضخض.

وحين نظر عمار إلى راية عمرو بن العاص قال: والله إن هذه الراية قد قاتلتها ثلاثة عركات وما هذه بأشدهن ثم قال عمار:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى وقد اشتد ظمأه فأتته إمرأة طويلة اليدين قال الرازي: ما أدري عس معها أو أداوة فيها ضياح من لبن فقال حين شرب: الجنة تحت الأسنة اليوم ألقى الأحبة محمداً صلى الله عليه وآله

وحبه والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وهم على الباطل، ثم حمل عليه ابن جون (أبو حواء.) السكسكي وأبو العادية الفزاري فأما أبو العادية فطعنه وأما ابن جون فإنه اجتز رأسه.

قال المسعودي: واختلفا في سلبه فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فقال لهما: أخرجا عني، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول أو قال رسول الله ﷺ وبغت قريش بعمار: ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، وكان قتله عند المساء وقبره بصفين وصلى عليه أمير المؤمنين علي عليه السلام ولم يغسله وكان يغير شيبه، وقال القاضي نور الله ودفنه علي عليه السلام بيده.

أقول: يعني بقوله: «وكان يغير شيبه» أن عمار رضوان الله عليه كان يخضب لما ورد في فضيلة الخضاب، وروى عن رسول الله ﷺ: غيروا الشيب ولا تتشبهوا باليهود. ولكن قال ابن الأثير في أسد الغابة في معرفة الصحابة: أن عمار كان آدم طويلاً مضطرباً أشهل العينين بعيد ما بين المنكبين، وكان لا يغير شيبه وقيل: كان أصلع في مقدم رأسه شعرات. والله أعلم.

قال القاضي نور الله الشهيد نَوَّرَ الله مرقده في مجالس المؤمنين: ومن اللطائف المناسبة للمقام أنه لما قتل عمار رحمه الله، أقبل ابن عباس إلى عسكر معاوية حتى قرب منهم وقرأ عليهم حديث رسول الله ﷺ في عمار ستقتلك الفئة الباغية، وأنذرهم وخوفهم من بغيهم، ولما كان هذا الحديث في غاية الشهرة بل من الأحاديث المتواترة ولم يمكن لمعاوية إنكاره فأجابه بمقتضى الغريق، يتشبث بكل حشيش بأن من أتى بعمار في هذه المعركة فهو قاتله «يعني به أمير المؤمنين علي عليه السلام»، فقال له ابن عباس، فعلى هذا ترى أن رسول الله ﷺ كان قاتل حمزة رضي الله عنه لأنه أتى به في أحد لقتال الكفار حتى قتل، فبهت الذي كفر وكأنه التقم الحجر[1].

وفي كامل البهائي للحسن بن علي عماد الدين الطبري نقلاً عن كتاب المحيط للقاضي عبد الجبار المعتزلي: أن علياً عليه السلام لم يبدأ بقتال أهل البغي قط، ولما قتل عمار رضوان الله عليه كان يجري حكم الكفار عليهم ويبتدأ بالقتال، حتى قتل منهم في ليلة خمسمائة وثلاثين رجلاً ويكبر في قتل كل واحد منهم كما يكبرون في قتال الكفار ويقول: من أصابه سيفي فهو في النار.

قال المسعودي في مروج الذهب: وفي قتل عمار يقول الحجاج بن عربة الأنصاري

(١) اصوارم المهرقة: ٢، وترجمة القاضي نوالله: ٢١.

أبياتاً رثاه بها:

يا للرجال لعين دمعها جاري	قد هاج حزني أبو اليقظان عمار
أهوى إليه أبو حوا فوارسه	يدعو السكون وللجيشين إعصار
فاختل صدر أبي اليقظان معترضاً	للرمح قد وجبت فينا له نار
الله عن جمع هم لا شك كن عفا	أتت بذلك آيات وآثار
من ينزع الله غلاً من صدورهم	على الأسرة لم تمسسهم النار
قال النبي له تقتلك شرذمة	سيطت لحومهم بالبغى فجار
فاليوم يعرف أهل الشام أنهم	أصحاب تلك وفيها النار والعار

ومناقب عمار المروية كثيرة اقتصرنا منها، ولو نأتي بها لينجر إلى كتاب ضخم ويليق أن يؤلف كتاب بحياله فيه.

ثم نقول إن حديث تقتلك الفئة الباغية مما لا ينال يد الإنكار إليه ورواه البخاري، والمسلم في صحيحهما وغيرهما من أكابر نقلة الأحاديث، وقال الحافظ السيوطي: أنه من الأخبار المتواترة ونقله أكثر من عشرة من الصحابة ومع ذلك كله في عمار فالعجب كل العجب من العامة، يذكرون معاوية وأتباعه وأمثاله بالخير ويعتذرون عنهم في مقاتلتهم أهل الحق والرشاد، على أنهم كانوا مجتهدين في تلك الوقائع، غاية ما في الباب كانوا مخطين في اجتهادهم وللمجتهد المصيب ثوابان وللمخطي ثواب واحد، ولما لم يكن لأصحاب البصيرة والإيقان وأرباب الخبرة والعرفان وهن ما تمسكوا به مخفياً بل يعلمون أن مقاتلتهم كان من غاية المكابرة والعناد وفرط المخاصمة واللداد، فالأعراض عن ما ذكره الغزالي في الإحياء والميبدي في مقدمة شرح ديوان المولى عليه السلام وأمثالهما ممن يسلك طريقة عمياء ويرى بعين حولاء أجدر وأولى ولنعد إلى القصة:

وقال المسعودي في مروج الذهب: ولما صرع عمار تقدم سعيد بن قيس الهمداني في همدان، وتقدم سعد بن عبادة الأنصاري في الأنصار وربيعة وعدي بن حاتم في طي وسعيد بن قيس الهمداني في أول الناس، فخلطوا الجمع بالجمع واشتد القتال وحطمت همدان أهل الشام حتى قذفتهم إلى معاوية، وقد كان معاوية صمد فيمن كان معه لسعيد بن قيس ومن معه من همدان وأمر علي عليه السلام الأشتر أن يتقدم باللواء إلى أهل حمص وغيرهم من أهل قنسرين فأكثر القتل في أهل حمص، وقنسرين بمن معه من القراء وأتى المرقل يومئذ بمن معه فلا يقوم له شيء، وجعل يرقل كما يرقل الفحل في قيده وعلي وراءه يقول يا أعور لا تكن جباناً تقدم والمرقال يقول:

قـد أكـثـر الـقـوم ومـا أقـلا　　أعـور يـبـغـي أهـلـه مـحـلا
قـد عـالـج الـحـيـة حـتـى مـلا　　لا بـد أن يـفـل أو يـفـلا
أسـلـهـم بـذي الـكـعـوب سـلا

«كلام هاشم بن عتبة المرقال»

قال نصر بن مزاحم في كتاب الصفين وأبو جعفر الطبري في التاريخ: أن هاشم بن عتبة دعا في الناس عند المساء «يعني مساء اليوم التاسع، ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل، فأقبل إليه ناس فشد في عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً، فليس من وجه يحمل عليهم إلا صبروا له وقوتل فيه قتالاً شديداً فقال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم فالله ما ترون منهم إلا حمية العرب، وصبر ما تحت راياتها وعند مراكزها وأنهم لعلى الضلال وأنكم على الحق، يا قوم أصبروا وصابروا واجتمعوا وامشوا بنا إلى عدونا على تؤدة رويداً ثم تأسوا وتصابروا، اذكروا الله ولا يسلم رجل أخاه ولا تكثروا الإلتفات واصمد واصمدهم وجالدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، ثم مضى في عصابة معه من القراء فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه حتى رأى بعض ما يسرون به إذ خرج عليهم فتى شاب يقول:

أنـا ابـن أربـاب الـمـلـوك غـسـان　　والـدائـن الـيـوم بـديـن عـثـمـان
إنـي أتـانـي خـبـر فـأشـجـان　　أن عـلـيـاً قـتـل ابـن عـفـان

ثم شد فلا ينثني يضرب بسيفه ثم يلعن ويشتم ويكثر الكلام، فقال له هاشم بن عتبة: إن هذا الكلام بعده الخصام وإن هذا القتال بعده الحساب فاتق الله، فإنك راكع إلى ربك فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به.

قال فإني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي وأنكم لا تصلون وأقاتلكم أن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم وازرتموه على قتله.

فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان إنما قتله أصحاب محمد ﷺ وقراء الناس حين أحدث أحداثاً وخالف حكم الكتاب، وأصحاب محمد ﷺ هم أصحاب الدين وأولى بالنظر في أمور المسلمين وما أظن أن أمر هذه الأمة ولا أمر هذا الدين عناك طرفة عين قط.

قال الفتى: أجل أجل والله لا أكذب فإن الكذب يضر ولا ينفع ويشين ولا يزين، فقال له هاشم: إن هذا الأمر لا علم لك به فخله وأهل العلم به، قال: أظنك والله قد نصحتني وقال له هاشم: وأما قولك إن صاحبنا لا يصلي فهو أول من صلى الله مع رسول الله ﷺ وأفقهه في دين الله، وأولاه برسول الله وأما من ترى معه كلهم قارىء الكتاب لا ينامون الليل

تهجداً، فلا يغررك عن دينك الأشقياء المغرورون.

قال الفتى: يا عبد الله إني لأظنك أمرءاً صالحاً أخبرني هل تجد لي من توبة؟ قال: نعم، تب إلى الله يتب عليك فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويحب التوابين ويحب المتطهرين، فذهب الفتى بين الناس راجعاً فقال له رجل من أهل الشام: خدعك العراقي، قال: لا، ولكن نصحني العراقي[(١)].

أقول: كان أهل الدنيا المغرورون بزخارفها الردية والأشقياء المسجونون بقيود الأهواء المردية كمعاوية بن أبي سفيان وأشياعه، يغوون الناس عن الصراط السوي بزي أهل الله المخلصين له الدين حيث يميلون قلوب الناس عن عنصر التوحيد وهيكل الحق وكلمته التامة، بأنه وأصحابه لا يصلون كما تفوه به الفتى الشاب بقوله: لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي، ونبهه هاشم بن عتبة بذلك حيث قال: فلا يغررك. وفي تاريخ الطبري فلا يغويك عن دينك الأشقياء المغرورون، ولعمري من لم يك شقياً مغروراً مغوياً لا يحرض الناس على قتل من قال فيه خاتم الأنبياء ﷺ: الحق معه حيث دار.

وفي كتاب الصفين لنصر بن مزاحم وكذا في تاريخ الطبري: أن علياً مر على جماعة من أهل الشام فيه الوليد بن عقبة وهم يشتمونه فخبر بذلك فوقف فيمن يليهم من أصحابه فقال: إنهدوا إليهم عليكم السكينة والوقار وقار الإسلام، وسيما الصالحين فوالله لأقرب قوم من الجهل بالله قائدهم ومؤدبهم معاوية ابن النابغة، وأبو الأعور السلمي، وابن أبي معيط شارب الخمر المجلود حداً في الإسلام، وهم أولى من يقومون فيقصبونني ويشتمونني وقبل اليوم ما قاتلوني وشتموني وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، الحمد لله قديماً عاداني الفاسقون فعبدهم الله ألم يفتحوا إن هذا لهو الخطب الجليل أن فُساقاً كانوا عندنا غير مرضيين وعلى الإسلام وأهله متخوفين، حتى خدعوا شطر هذه الأمة واشربوا قلوبهم حب الفتنة فاستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عزّ وجلّ والله متم نوره ولو كره الكافرون، اللهم فافضض جمعهم وشتت كلمتهم وابسلهم بخطاياهم فإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت.

وكذلك نرى يزيد بن معاوية وأتباعه لقنوا الناس في ابن علي أمير المؤمنين أبي عبد الله الحسين عليه السلام ما لقنه معاوية وأتباعه في أمير المؤمنين علي عليه السلام وأصحابه، قال غير واحد من حملة الأثر منهم الطبري في تاريخه: أنه لما دخل وقت صلاة الظهر من يوم العاشوراء قال أبو ثمامة الصيداوي رضي الله عنه: للحسين عليه السلام يا أبا عبد الله نفسي لنفسك الفداء هؤلاء إقتربوا

---

(١) الغدير: ١٠/ ٢٩١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٧.

منك لا والله لا تقتل حتى أقتل دونك وأحب أن ألقى الله ربي وقد صليت هذه الصلاة، فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء وقال: ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين نعم هذا أول وقتها ثم قال: سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي، فقال الحصين بن نمير: أنها لا تقبل فقال له حبيب بن مظاهر زعمت الصلاة من ابن رسول الله لا تقبل وتقبل منك ياختار. وفي تاريخ الطبري: يا حمار، مكان ياختار[1].

والحصين هذا كان ممن انقاد إلى ملك يزيد وأطاع وهمه المردي وهواه الضال المضل، ويزيد يرى الناس بأنه جلس مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ويحذو حذوه.

وفي مروج الذهب أن يزيد كان صاحب طرب، وجوارح، وكلاب، وقرود، وفهود ومنادمة على الشراب وجلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين عليه السلام فأقبل على ساقيه فقال:

إسقني شربة تروي مشاشي ... ثم صل فاسق مثلها ابن زياد

صاحب السر والأمانة عندي ... ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته، ويطرح له متكأ وكان قرداً خبيثاً وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام، ويسابق بها الخيل وعلى أبي قيس قباء من الحرير الأحمر، والأصفر مشهر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من ألوان فقال في ذلك بعض شعراء الشام في ذلك اليوم:

تمسك أبا قيس بفضل عنانها ... فليس عليها إن سقطت ضمان

ألا من رأى القرد الذي سبقت به ... جياد أمير المؤمنين أتان

وكان أبوه معاوية في الختل أروغ منه، ولعب بالدين بالنكراء والشيطنة وبلغ إلى الإلحاد، والكفر، والعناد إلى مبلغ لم يكن بينه وبين فرعون إلا درجة، وما أسلم في الحقيقة ولكن استسلم وأسر الكفر، حتى يجد لأغراضه النفسانية وأهوائه الشيطانية أعواناً كما هو دأب أشباهه وأمثاله من الزعماء المرائين والأمراء المنافقين، وسيأتي أخبار من الفريقين في استسلام معاوية وأبيه سنذكرها في محلها إن شاء الله فلنعد إلى القصة فإن الرويغات التي

(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ٢١، ومعالم المدرستين: ٣/ ١١١.

تمسك بها الأمراء الرواغون قديماً وحديثاً أكثر من أن تحصى.

وليعلم أن ما نقلنا من كلامه عليه السلام من الطبري ونصر: أنهدوا إليهم عليكم السكينة والوقار - إلى آخره - غير مذكور في النهج وبين نسختي نصر، والطبري يوجد إختلاف في شرذمة من العبارات والكلمات.

ثم قصد هاشم بن عتبة المرقال لذي الكلاع وهو من حمير، فحمل عليه صاحب لواء ذي الكلاع وكان رجلاً من عذرة وهو يقول:

أثبت فإني لست من فزعي مضر ... نحن اليمانيون ما فينا ضجر

كيف ترى وقع غلام من عذر ... ينعي ابن عفان ويلحى من غدر

يا أعور العين رمي فيها العور ... سيان عني من سعى ومن أمر

فاختلفا طعنتين فطعنه هاشم المرقال فقتله وقتل بعده سبعة عشر رجلاً وحمل هاشم المرقال وحمل ذو الكلاع ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا أن لا يرجعوا أو يفتحوا أو يقتلوا فاجتلد الناس فقتل هاشم المرقال وقتل ذو الكلاع جميعاً.

وقال نصر بن مزاحم في كتاب الصفين، وأبو جعفر الطبري في تاريخه: وقاتل هاشم هو وأصحابه قتالاً شديداً حتى أقبلت إليهم عند المغرب كتيبة لتنوخ فشدوا على الناس، فقاتلهم حتى قتل تسعة نفر وعشرة، وحمل عليه الحرث بن المنذر التنوخي فطعنه فسقط وبعث إليه علي عليه السلام: إن قدم لواءك فقال لرسوله: أنظر إلى بطني فإذا هو قد انشق فأخذ الراية رجل من بكر بن وائل ورفع هاشم رأسه فإذا هو بعبيد الله بن عمر بن الخطاب قتيلاً إلى جانبه فجثا حتى دنا منه، فعض على ثديه حتى تبينت فيه أنيابه ثم مات هاشم وهو على صدر عبيد الله بن عمر، وضرب البكري فوقع فرفع رأسه فأبصر عبيد الله بن عمر قريباً منه، فجثا إليه حتى عض على ثديه الآخر حتى تبينت أنيابه ومات أيضاً فوجدا جميعاً على صدر عبيد الله بن عمر، هاشم والبكري قد ماتا جميعاً[1].

«تسليم هاشم على علي عليه السلام بعد صرعه»

قال نصر بإسناده عن السدي عن عبد الخير الهمداني قال: قال هاشم بن عتبة: أيها الناس إني رجل ضخم فلا يهولنكم مسقطي إن أنا سقطت فإنه لا يفزع مني أقل من نحر جزور حتى يفرغ الجزر من جزرها ثم حمل فصرع فمر عليه رجل وهو صريع بين القتلي فقال له: إقرأ أمير المؤمنين السلام ورحمة الله، وقل له: أنشدك بالله إلا أصبحت وقد ربطت

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٧، والدرجات الرفيعة: ٣٨١.

مقاوذ خيلك بأرجل القتلى، فإن الدبرة تصبح عندك لمن غلب على القتلى فأخبر الرجل علياً عليه السلام بذلك فسر علي عليه السلام في بعض الليل حتى جعل القتلى خلف ظهره وكانت الدبرة له عليهم.

«قتل ذي الكلاع وحمل جثته»

وأما ذو الكلاع فقتله خندف البكري، وقال نصر: حدثنا عمرو بن شمر عن جابر قال: حمل ذو الكلاع ذلك اليوم بالفيلق العظيم من حمير على صفوف أهل العراق، فناداهم أبو شجاع الحميري وكان من ذوي البصائر مع علي عليه السلام فقال: يا معشر حمير تبت أيديكم أترون معاوية خيراً من علي عليه السلام، أضل الله سعيكم ثم أنت يا ذا الكلاع فوالله إنا كنا نرى أن لك نية في الدين، فقال ذو الكلاع: إيها يا باشجاع والله لأعلم ما معاوية بأفضل من علي عليه السلام ولكني أقاتل على دم عثمان، قال: فأصيب ذو الكلاع حينئذٍ قتله خندف بن بكر البكري في المعركة.

قال نصر: فحدثنا عمرو، قال: حدثنا الحرث بن حصيرة أن ابن ذي الكلاع أرسل إلى الأشعث بن قيس رسولاً يسأله أن يسلم إليه جثة أبيه، فقال الأشعث: إني أخاف أن يتهمني أمير المؤمنين في أمره، فاطلبه من سعيد بن قيس فهو في الميمنة فذهب إلى معاوية فاستأذنه أن يدخل إلى عسكر علي عليه السلام يطلب أباه بين القتلى وقال له أن علياً عليه السلام: قد منع أن يدخل أحد منا إلى معسكره يخاف أن يفسد عليه جنده فخرج ابن ذي الكلاع، فأرسل إلى سعيد بن قيس الهمداني يستأذنه على ذلك، فقال سعيد: إنا لا نمنعك من دخول العسكر إن أمير المؤمنين لا يبالي من دخل منكم إلى معسكره فأدخل، فدخل من قبل الميمنة فطاف في العسكر فلم يجده ثم أتى الميسرة فطاف في العسكر فوجده قد ربطت رجله بطنب من أطناب بعض فساطيط العسكر، فوقف على باب الفسطاط فقال: السلام عليكم يا أهل البيت فقيل له: وعليك السلام فقال: أتأذنون لنا في طنب من أطناب فسطاطكم ومعه عبد له أسود لم يكن معه غيره، فقالوا: قد آذنا لكم قالوا: له معذرة إلى الله وإليكم أما أنه لولا بغيه علينا ما صنعنا به ما ترون فنزل إبنه إليه فوجده قد انتفخ وكان من أعظم الناس خلقاً فلم يستطيعا إحتماله فقال إبنه: هل من فتى معوان فخرج إليه خندف البكري فقال: تنحوا عنه فقال له ابن ذي الكلاع: ومن يحمله إذا تنحينا؟ قال: يحمله قاتله، فاحتمله خندف حتى رمى به على ظهر بغل، ثم شده بالحبال فانطلقوا به.

قال نصر: وقال معاوية لما قتل ذو الكلاع: لأنا أشد فرحاً بقتل ذي الكلاع مني بفتح مصر لو فتحتها قال: لأن ذا الكلاع كان يحجر على معاوية في أشياء كان يأمر بها[1].

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٨١، وشرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٣٨.

«أخذ ابن المرقال اللواء حين قتل أبوه رحمه الله وما قال في ذلك»

قال نصر بن مزاحم: ولما قتل هاشم جزع الناس عليه جزعاً شديداً وأصيب معه عصابة من أسلم من القراء فمر عليهم علي عليه السلام وهم قتلى حوله أصحابه الذين قتلوا معه فقال عليه السلام:

جزى الله خيارٌ عصبةً أسلمية صباح الوجوه صرعوا حول هاشم
يزيد وعبد الله بشر ومعبد وسفيان وابنا هشام ذي المكارم
وعروة لا ينفد ثناه وذكره إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم

ثم قام عبد الله بن هاشم وأخذ الراية، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذين قدر أرزاقهم وكتب آثارهم وأحصى أعمالهم وقضى آجالهم، فدعه الله ربه الذي لا يعصى، فأجابه وسلم لأمر الله وجاهد في طاعة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وأول من آمن به وأفقههم في دين الله المخالف لأعداء الله المستحلين ما حرم الله، الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد، واستحوذ عليهم الشيطان فزين لهم الإثم والعدوان فحق عليكم جهد من خالف سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وعطل حدود الله وخالف أولياء الله، فجودوا بمهج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا تصيبوا الآخر والمنزل الأعلى والملك الذي لا يبلى، فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار لكان القتال مع علي أفضل من القتال مع معاوية ابن آكالة الأكباد فكيف وأنتم ترجون.

أقول: جاءت الأبيات الثلاثة في الديوان المنسوب إليه عليه السلام على اختلاف في بعض الألفاظ وزيد في آخرها:

إذا اختلف الأبطال واشتبك القنا وكان حديث القوم ضرب الجماجم

والأبيات الثلاثة تكون هكذا:

جزى الله خير عصبة أي عصبة حسان وجوه صرعوا حول هاشم
شقيق وعبد الله منهم ومعبد ونبهان وابنا هاشم ذي المكارم
وعروة لا ينأى فقد كان فارساً إذا الحرب هاجت بالقنا والصوارم

وقال الشارح الميبدي في شرحها: هاشم بن عتبة بن أبي الوقاص المشهور بالمرقال. وشقيق بن ثور العبدي، وعبد الله بن بديل الورقاء الخزاعي ثم نقل عن ابن أعثم أن علياً عليه السلام أعطى يوماً في الصفين الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وقاتل قتالاً شديداً وقتل حمزة بن ملك الهمداني ثم قتل، وبعده تناول الراية شقيق بن ثور العبدي فقاتل حتى قتل، وبعده أخذ الراية عتبة بن هاشم فقاتل حتى قتل ثم أخذها بعده أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني فقاتل ورجع، وبعده أخذها عبد الله بن بديل بن الورقاء الخزاعي فقاتل قتالاً عظيماً حتى قتل وبعده

أقبل عمرو بن حمق الخزاعي إلى المعركة وأنشأ الأبيات الأربعة، إنتهى ما ذكره مترجماً.

فعلى ما ذكره الميبدي ليست الأبيات للمولى عليه السلام.

وليعلم أن الأبيات المجموعة في الديوان يوجد كثيراً منسوبة إلى غيره عليه السلام مثلاً أن الأبيات المذكورة في أول الديوان:

الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهم آدم والأم حواء

إلى آخر الأبيات منسوبة إلى علي القيرواني.

وأن الأبيات الست:

ثلاث عصى صففت بعد خاتم على رأسها مثل السنان المقوم

إلى آخرها، صرح محمد حسن النائيني في كتابه المسمى بگوهرشب چراغ: أن الأبيات نن ابن عباس وأسند إلى المولى أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وأن الأبيات السبع:

يا حار همدان من يمت يرني من مؤمن أو منافق قبلاً

إلى آخرها قالها الحميري كما نص به الشيخ المفيد رحمه الله في المجلس الأول من أماليه، وهذه الأبيات تتضمن بعض ما جاء فيه الخبر من أمير المؤمنين علي عليه السلام، قاله الحارث الهمداني كما نقله المفيد رحمه الله بطوله في ذلك الكتاب وبعد نقل الخبر قال: قال جميل بن صالح وأنشدني أبو هاشم السيد الحميري رحمه الله فيما تضمنه هذا الخبر:

قول علي لحارث عجب كم ثم أعجوبة له حملا

يا حار همدان من يمت يرني من مؤمن أو منافق قبلا

إلى آخرها والبيت الأول ليس في الديوان المنسوب إليه عليه السلام، ولما كان هذه الأبيات متضمنة ما تضمنه هذا الخبر أسند الأبيات إليه عليه السلام.

وما في ذلك الديوان:

لا يستوي من يعمر المساجدا ومن يبيت راجعاً وساجداً

يدأب فيها قائماً وقاعداً ومن يكر هكذا معاندا

ومن يرى عن الغبار حائداً

قال ابن هشام في السيرة (ص ٤٩٧ طبع مصر ١٣٧٥هـ): سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا: بلغنا أن علي بن أبي طالب إرتجز به فلا يدري أهو قائله

أم غيره.

وما في ذلك الديوان المنسوب إليه عليه السلام:

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب

إلى آخر الأبيات الخمس، ففي كشكول الشيخ البهائي قدس سره (ص ٢٧٩ طبع نجم الدولة) وكذا في خزائن النراقي رحمه الله أنها لأبي تمام وفي نامه دانشوران في ضمن ترجمة يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت (ص ٢٥٧ ج ٢ طبع قم) أنها لابن السكيت.

وما في ذلك الديوان المنسوب إليه عليه السلام:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك وهن منك في الدين

إلى آخر الأبيات الست ففي مجاني الأدب (الباب الأول من ج ٢ ص ٩ طبع بيروت) وما أورده الأصيهاني عن أبي محمد التيمي قوله:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذاك مضر منك بالدين
وارغب الله مما في خزائنه فإنما هو بين الكاف والنون
أما ترى كل من ترجو وتأمله من الخلائق مسكين بن مسكين

وهذه الأبيات الثلاثة الآتية:

عطارد أيم الله طال ترقبي صباحاً مساءً كي أراك فاغنما
فها أنا فامنحني قوى أبلغ المنى ودرك العلوم الغامضات تكرما
وإن تكفني المحذور والشر كله بأمر مليك خالق الأرض والسماء

قال النراقي رحمه الله في الخزائن (ص ١١٤ طبع طهرن ١٣٧٨هـ) إنها منسوبة إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وكذا قال المولى المظفر رحمه الله في آخر التنبيهات: وقيل إنها من أشعاره عليه السلام ولكن الميبدي شارح الديوان المنسوب إلى المولى عليه السلام (ص ٣٧٠ طبع إيران ١٢٨٥هـ) في ضمن هذه القطعة:

خوفني منجم أخو خبل تراجع المريخ في بيت الحمل

إلى آخرها، قال: ويعلم من هذه القطعة إن نسبة الأبيات المذكورة (عطارد أيم..) إليه عليه السلام ليست بصحيحة على أن هذه الأبيات ليست في الديوان.

وما في الديوان في اختيارات أيام الأسبوع:

لنعم اليوم يوم السبت حقاً لصيد إن أردت بلا امتراء

إلى آخر الأبيات ففي بعض رسائل مؤلف لسان العرب أنها من منشآته لا من المولى عليه السلام.

والمناجاة المنظومة:

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلى تباركت تعطي من تشاء وتمنع

إلى آخرها فمما نسبت إلى الخاقاني وتوجد في ديوانه هذا البيت منها:

إلهي بحق المصطفى وابن عمه وحرمة أبرار هم لك خشع

ظاهر في أنها ليست من أشعاره عليه السلام.

وهذا البيت المعروف:

كل علم ليس في القرطاس ضاع كل سر جاوز الإثنين شاع

مما أسند إليه عليه السلام وفيه مع أنه ليس في ديوانه عليه السلام قال المولى محمد باقر الشريف في كتابه الشريف المسمى بجامع الشواهد بعد ذكر البيت لم يسم قائله مع أن اهتمامه فيه ذكر لقائل وهو رحمه الله متضلع رحب الباع في فنه.

وما في ديوانه عليه السلام:

فإن تكن الدينا تعد نفيسة فدار ثواب الله أعلى وأنبل

إلى آخر الأبيات ففي شرح الشافية لأبي فراس (ص ١٤٦ طبع إيران ١٢٩٦هـ) نقل عن قتل الخوارزمي أنها ما أنشأها أبو عبد الله الحسين بن علي رحمه الله وليس لأحد مثلها.

وقال المجلسي رحمه الله في المجلد العاشر من بحار الأنوار (ص ٢٠٣ طبع كمپاني): قال محمد بن أبي طالب وذكر أبو علي السلامي في تاريخه أن هذه الأبيات للحسين عليه السلام من إنشائه وقال: ليس لأحد مثلها، إنتهى.

ومع ذلك قال بعض أهل الفضل والأدب في بعض مكتوباته: قال العلّامة النيسابوري في كتاب خلق الإنسان أن هذه الأبيات ليس للحسين عليه السلام ولكنه يتمثل بها كثيراً ولذا ظن أنها من منشآته.

وينسب إليه عليه السلام هذا البيت:

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمة قلت: لا يعنيني

وفيه مع أنه ليس في ديوانه عليه السلام قال في جامع الشواهد في باب الواو مع اللام: هو لرجل من بني سلول وكان يتمثل به علي بن أبي طالب عليه السلام كثيراً.

وما في ديوانه عليه السلام:

إذ المرء لم يرض ما أمكنه ولم يأت من أمره أزينه

إلى آخرها، فقال الميداني: في مجمع الأمثال في ضمن مثال دع امرءاً وما اختار (ص ٢٣٥ طبع طهران): كما قيل إذا المرء لم يرض ما أمكنه وبعيدٌ من أن يكون الشعر منه عليه السلام ويقول الميداني كما قيل.

في شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي (ج ٤ ص ٤٠٦ طبع مصر ١٣٥٧هـ) قال أبو العباس ثعلب لم تختلف الرواة في أن هذه الأبيات:

أن الذي سمتني أمي حيدرة كليث غابات غليظ القصرة

أكيلكم بالسيف كيل السندرة

لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه إنتهى. وفيه مع أن في البيتين إختلافاً كثيراً لأن نصر بن مزاحم نقل في كتاب صفين (ص ٢٠٧ طبع طهران) هكذا:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة رئبال آجام كريه المنظرة

عبد الذراعين شديد القسورة أكيلكم بالسيف كيل السندرة

وفي ديوانه عليه السلام نقل كذا:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة ضرغام آجام وليث قسورة

عبل الذراعين شديد القصرة كليث غابات كريه المنظرة

يناقض ما ذهب إليه المازني، والزمخشري، وذلك لأن عبد الرحيم بن عبد الكريم صفي بوري في مادة ودق من منتهى الأرب في لغة العرب، قال: قال المازني لم يصح أي علياً عليه السلام تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين وصوبه الزمخشري وهما:

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما بزوا لا ظفروا

فإن هلكت فرهن ذمتي لهم بذات ودقين لا يعفو لها أثر

مع أن هذا القول ينقض أيضاً قول المسعودي في مروج الذهب حيث قال (ص ٤٥ ج ٢ طبع مصر ١٣٤٦هـ) في ذكر مقتل أمير المؤمنين علي عليه السلام ما هذا لفظه: وكان علي عليه السلام كثيراً ما يتمثل: تلكم قريش تمناني إلى آخر البيتين، فالمسعودي يرى البيتين لغيره عليه السلام كان يتمثل بهما.

وما في ديوانه عليه السلام:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني صبور على ريب الزمان صليب

عز عليّ أن ترى بي كآبة فيشمت عاد أو يساء حبيب

فهما مما نص عليه بأنهما مما قال أخو بني سليم، كما في باب المختار من كتبه عليه ورسائله من النهج في الكتاب السادس والعشرين المعنون بقول الرضى رضوان الله عليه: ومن كتاب له عليه إلى عقيل بن أبي طالب في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء، وهو جواب كتاب كتبه إليه أخوه. وقال الفاضل الشارح المعتزلي: والشعر ينسب إلى العباس بن مرداس السلمي. ولا يخفى أنه عليه تمثل بأشعار الشعراء في عدة مواضع من خطبه وكتبه.

وما في ديوانه عليه:

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم وأنا رهين جنادل وتراب

إلى آخر الأبيات الثلاثة فقال الميبدي في الشرح: وذهب بعض إلى أن هذه الأبيات كانت من هاتف غيبي.

وما في ديوانه عليه:

أضربكم ولا أرى معاوية الأخزر العين العظيم الحاوية

هوت به في النار أم هاوية جاوره فيها كلاب عاوية

فقال المسعودي في مروج الذهب (ص ٢٥ ج ٢ طبع مصر ١٣٤٦هـ): وقيل إن هذا الشعر لبديل بن ورقاء قاله في اليوم التاسع من حرب صفين.

وفي كتاب صفين لنصر: أسند البيتين إلى محرز بن ثور ونقل الأول على اختلاف حيث قال: قال محرز بن ثور:

أضربهم ولا أرى معاوية الأبرح العين العظيم الحاوية

وكذا في شرح الشارح المعتزلي (ص ٢٧٩ ج ١ طبع طهران). في شرح الديوان المنسوب إليه عليه للميبدي: قال ابن أعثم أن هذين البيتين لعبد الله بن بديل بن ورقاء، قالهما في يوم قتله ثم قال: قال معاوية في شأنه: لله دره ودر أبيه أما والله لو استطاعت نساء خزاعة أن يقاتلنا فضلاً عن رجالها لفعلت[١].

وما في ديوانه عليه:

قال المنجم والطبيب كلاهما لن يحشر الأجساد قلت إليكما

إن صح قولكم فلست بخاسر إن صح قولي فالخسار عليكما

فقال الغزالي في إحياء العلوم كما في شرح الميبدي أيضاً: أنهما منسوبان إلى أبي

---

(١) الغدير: ٢/ ٣٦٥، وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٩٧.

العلي المعرّي. وفي بعض الرسائل العصرية أنهما للمغربي وفي بعض النسخ الحكيم مكان الطبيب.

وما في ديوانه عليه السلام تعريضاً بعبد الرحمن بن ملجم المرادي:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فقال الزمخشري في الأساس أن البيت منسوب إلى عمرو بن معديكرب وكذا في شرح الديوان للميبدي.

وما في ديوانه عليه السلام:

حياز يمك للموت فإن الموت لاقيك
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك
فإن الدرع والبيضة يوم الروع يكفيك
كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيك

فنص الشيخ المفيد رضوان الله عليه في الأرشاد في أخباره عليه السلام بشهادته: أنه عليه السلام قالها متمثلاً.

ثم أنه جاء في النسخ الكثيرة التي رأيناها المصراع الأول هكذا:

أشدد حياز يمك للموت،

والصواب عدم كلمة أشدد لأنه محذوف، ولو كان مذكوراً في العبارة لزاد المصرع الأول عن الثاني فتوجد في العبارة حزازة، كما نص به أيضاً المرزوقي في شرح الحماسة (ص ٣٣١ ج ١ طبع مصر) حيث قال: روى عنه عليه السلام حياز يمك للموت فإن الموت لاقيك يريد أشدد حياز يمك، وهذه الزيادة كانت من ناسخ فانتقل الحاشية إلى المتن.

وما في ديوانه عليه السلام:

وحي ذوي الأضغان تشف قلوبهم تحيتك العظمى وقد يدبغ النغل

إلى آخر الأبيات الثلاثة، ففي شرح الميبدي: قال الشيخ محيي الدين في وصايا الفتوحات: أتى إعرابي مشرك من فصحاء العرب النبي صلى الله عليه وآله وقال له: هل فيما أنزل عليك ربك مثل ما قلته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما قلت؟ فقال الإعرابي: هذه الأبيات الثلاثة فأنزل الله تعالى آيات: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ - إلى قوله - ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥] فقال الإعرابي: هذا والله هو السحر الحلال فأسلم.

وما في ديوانه عليه السلام:

أسـد عـلـى أسـد يـصـول بـصـارم عـضـب يـمـان فـي يـمـيـن يـمـان

فقال الشارح الميبدي: كلمة في يمين يمان مشعر بأن البيت ليس له عليه السلام لأنه لم يكن يمنياً ثم ذكر وجوهاً في تصحيحه لا تخلو من تكلف فليرجع.

وهذه الأبيات الثلاثة:

هـون الأمـر تـعـش فـي الـراحـة قـل مـا هـو نـت إلا سـيـهـون

لـيـس أمـر الـمـرء سـهـلاً كـلـه إنـمـا الأمـر سـهـول وحـزون

تـطـلـب الـراحـة فـي دار الـعـنـاء خـاب مـن يـطـلـب شـيـئـاً لا يـكـون

مما أسندها النراقي رحمه الله في الخزائن (ص ١٤٥ طبع طهران ١٣٨٠هـ) إليه عليه السلام ويوجد أيضاً في ديوانه وأتى به الشارح الميبدي إلا أن البيت الأخير لا يوجد في بعض النسخ من ديوانه، وأسند إلى غيره عليه السلام.

«الكلام في جامع أشعار أمير المؤمنين علي عليه السلام»

ولما انجر الكلام إلى هنا فلا بأس أن نذكر جامع أشعاره عليه السلام لأنه لا يخلو من فائدة، فقال الشيخ الجليل أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي تغمده الله برحمته في رجاله: عبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي الأزدي البصري أبو أحمد شيخ البصرة وأخباريها وجلود قرية في البحر وقال: قوم أن جلود بطن من الأزد ولا يعرف النسابون ذلك وله كتب منها كتاب شعر علي عليه السلام.

وفي روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات لمؤلفه محمد باقر الموسوي الخوانساري قي ذيل ترجمة حسين بن معين الدين الميبدي شارح ديوان أمير المؤمنين علي عليه السلام بالفارسي: والظاهر أن الديوان المبارك من جمع الفاضل الإمام أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الضجكردي الأديب النيسابوري وسماه كتاب تاج الأشعار وسلوة الشيعة، وقد كان مقارباً لعصر سيدنا الرضى صاحب كتاب نهج البلاغة، وله أيضاً في نعت الكتاب المذكور أبيات رائقة كما أفيد.

وقال المجلسي في مقدمات بحاره: وكتاب الديوان إنتسابه إليه عليه السلام مشهور، وكثير من الأشعار المذكورة فيه مروية في سائر الكتب ويشكل الحكم بصحة جميعها ويستفاد من معالم ابن شهرآشوب أنه تأليف علي بن أحمد الأديب النيسابوري من علمائنا، والنجاشى عد من كتب عبد العزيز بن يحيى الجلودي كتاب شعر علي عليه السلام إنتهى[1].

(١) بحار الأنوار: ١/ ٤٢.

وقال الخوانساري المذكور في باب المحمدين من الروضات: أبو الحسن محمد بن الحسين بن الحسن البيهقي النيسابوري المشتهر بقطب الدين الكيدري له كتب منها: كتاب جمع أشعار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، سماه أنوار العقول، ولا يبعد كونه بعينه هو الديوان المرتضوي الموجود في هذا الزمان المنسوب إليه عليه السلام.

أقول: ولا يبعد صحة جمع الأشعار إليهم كلهم، كما أن جامع خطبه وكتبه ورسائله ومواعظه وحكمه يكون غير واحد من العلماء، والكل صحيح والمجموع المشتهر الآن في الأيدي هو ما جمعها الشريف الرضى رضي الله عنه وسماه نهج البلاغة.

ثم لا يخفى أن ما قاله عبد الله بن مرقال رضوان الله عليه: فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار لكان القتال مع علي أفضل من القتال مع معاوية؛ كلام خرج عن قلب يقظان وفطرة سليمة ورجل نبيه، ولعمري من لم يكن عميان القلب أن تدبر في ما صدر من أمير المؤمنين علي عليه السلام يجده عليه السلام في كل أمر إماماً وقدوة وخطبه ومواعظه وكتبه ورسائله وحكمه في شؤون المعاش، والاجتماع وتنظيم أمور الملك والمملكة وتعليم التدبير والسياسة وتعبية العسكر، وآداب المعاشرة، قوام المدينة الفاضلة والدستور القويم فيها، والبد اللازم لمن يطلب الدرجة العليا والحياة الراقية ولو في هذه الحياة الدنيا، فلو دار الأمر بين القتال مع علي عليه السلام وبينه مع معاوية لكان القتال مع علي عليه السلام فضل ولنعد إلى القصة.

قال المسعودي في مروج الذهب: واستشهد في ذلك اليوم صفوان وسعد إبنا حذيفة بن اليمان، وقد كان حذيفة عليلاً بالكوفة في سنة ست وثلاثين، فبلغه قتل عثمان وبيعة الناس لعلي عليه السلام فقال: أخرجوني وادعوا الصلاة جامعة فوضع على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وعلى آله ثم قال: أيها الناس إن الناس قد بايعوا علياً فعليكم بتقوى الله وانصروا علياً ووازروه، فوالله أنه لعلى الحق آخراً وأولاً وأنه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقي إلى يوم القيامة، ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم أشهد أني قد بايعت علياً وقال: الحمد لله الذي أبقاني إلى هذا اليوم وقال لإبنيه صفوان، وسعد إحملاني وكونا معه فسيكون له حروب كثيرة فيهلك فيه خلق من الناس فاجتهدا أن تستشهدا معه فإنه والله على الحق ومن خالفه على الباطل. ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام وقيل بأربعين يوماً. واستشهد فيه عبد الله بن الحرث النخعي أخو الأشتر. واستشهد فيه عبد الله، والرحمن إبنا بديل بن ورقاء الخزاعي في خلق من خزاعة وكان عبد الله في ميسرة علي عليه السلام وهو يرتجز ويقول:

لم يبق إلا الصبر والتوكل وأخذك الترس وسيف مصقل

ثم التمشي في الرعيل الأول

فقتل ثم قتل عبد الرحمن أخوه بعده[١].

قال نصر بعد قتل ذي الكلاع: ثم تمادى الناس في القتال فاضطربوا بالسيوف حتى تقطعت وصارت كالمناجل وتطاعنوا بالرماح حتى تكسرت، ثم جثوا على الركبات فتحاثوا بالتراب يحث بعضهم في وجوه بعض التراب، ثم تعانقوا وتكادموا وتراموا بالصخر والحجارة ثم تحاجزوا، فجعل الرجل من أهل العراق يمر على أهل الشام فيقول من أين آخذ إلى رايات بني فلان فيقولون ها هنا لا هداك الله، ويمر الرجل من أهل الشام على أهل العراق فيقول كيف آخذ إلى رايات بني فلان فيقولون ها هنا لا حفظك الله ولا عافاك.

قال المسعودي: ولما قتل عمار ومن ذكرنا في هذا اليوم حرض علي عليه السلام الناس، وقال لربيعة: أنتم درعي ورمحي فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى أكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم قد جادوا بأنفسهم لله عزّ وجلّ وعلي عليه السلام أمام على البغلة الشهباء وهو يقول:

أي يومي من الموت أفر   يوم لم يقدر أم يوم قدر

وحمل وحملوا معه حملة رجل واحد فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض واهمدوا كل ما أتوا عليه حتى أتوا إلى قبة معاوية، وعلي عليه السلام لا يمر بفارس إلا قده وهو يقول:

أضربهم ولا أرى معاوية   الأخزر العين العظيم الهاوية

تهوى به في النار أم هاوية

وقيل إن هذا الشعر لبديل بن ورقاء قاله في ذلك اليوم.

ثم نادى علي عليه السلام: يا معاوية علام يقتل الناس بيني وبينك هلم أحاكمك إلى الله فأيّنا قتل صاحبه إستقامت له الأمور؟ فقال له عمرو: قد أنصفك الرجل، قال له معاوية: ما أنصفت وأنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره، فقال له عمرو: وما تجمل بك إلا مبارزته. فقال له معاوية: طمعت فيها بعدي، وحقدها عليه[٢].

أقول: لا يخفى أن قوله عليه السلام هذا ثم نادى علي عليه السلام يا معاوية علام يقتل الناس، غاية الكرم والشجاعة والإنصاف والمروءة كما اعترف به الخصم العنود ويناسب المقام قول المتنبي:

كل يريد رجاله لحياته   يا من يريد حياته لرجاله

وقال عبد الرحمن البرقوقي في شرح ديوان المتنبي (ص ٢٣٤ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ): وقد بنى المتنبي هذا البيت على حكاية وقعت لسيف الدولة مع الإخشيد، وذلك

(١) راجع الغدير: ٢/٣٦٤، ووقعة صفين: ٢٤٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٩، والإمامة والسياسة: ١/١٢٦.

أنه جمع جيشاً وزحف به على بلاد سيف الدولة فبعث إليه سيف الدولة يقول: لا تقتل الناس بيني وبينك ولكن أبرز إليّ فأينا قتل صاحبه ملك البلاد فامتنع الإخشيد ووجه إليه يقول: ما رأيت أعجب منك أأجمع مثل هذا الجيش العظيم لأقي به نفسي ثم أبارزك؟ والله لا فعلت ذلك أبداً.

ثم قال المسعودي: قد قيل في بعض الروايات: أن معاوية أقسم على عمرو لما أشار عليه بهذا أن يبرز إلى علي فلم يجد عمرو من ذلك بداً، فبرز فلما التقيا عرفه علي عليه السلام وشال السيف ليضربه به فكشف عمرو عن عورته وقال: مكره أخوك لا بطل، فحول علي عليه السلام وجهه وقال قبحت ورجع عمرو إلى مصافه[1].

وقد ذكر نصر بن مزاحم في كتاب الصفين: ثم أن معاوية لما أسرع أهل العراق في أهل الشام، قال: هذا يوم تمحيص إن القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيكم أصبروا يومكم هذا وخلاكم ذم، وحضض علي عليه السلام أصحابه فقام إليه الأصبغ بن نباتة التميمي فقال: يا أمير المؤمنين إنك جعلتني على شرطة الخميس وقدمتني في الثقة دون الناس، وأنك اليوم لا تفقد لي صبراً ولا نصراً أما أهل الشام فقد هدهم ما أصبنا منهم ونحن ففينا بعض البقية فاطلب بنا أمرك، وإئذن لي في التقدم فقال له علي عليه السلام تقدم بسم الله.

وأقبل الأحنف بن قيس السعدي فقال: يا أهل العراق والله لا تصيبون هذا الأمر أذل عنقاً منه اليوم، قد كشف القوم عنكم قناع الحيا، وما يقاتلون على دين وما يصبرون الأحياء، فتقدموا فقالوا: إنا أن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس فما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: تقدموا في موضع التقدم وتأخروا في موضع التأخر تقدموا من قبل أن يتقدموا إليكم، وحمل أهل العراق وتلقاهم أهل الشام فاجتلدوا وحمل عمرو بن العاص معلماً وهو يقول:

شدوا علي شكتي لا تنكشف ... بعد طليح والزبير فاتلف
يوم لهمدان ويوم للصدف ... وفي تميم نحوه لا تنحرف
أضربها بالسيف حتى تنصرف ... إذا مشيت مشية العود الصلف
ومثلها لحمير أو شنحرف ... والربعيون لهم يوم عصف

فاعترضه علي عليه السلام وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل ... والحصر والأنامل الطفول
إني بنصل لسيف خنشليل ... أحمي وأرمي أول الرعيل

---

(١) الغدير: ٢/١٥٩، وكشف الغمة: ٢/٦٩.

بـــصـــارم ليس بـــذي فـــلـــول

ثم طعنه فصرعه وأتقاه عمرو برجله فبدت عورته، فصرف علي عليه السلام وجهه عنه وارتث، فقال القوم: أفلت الرجل يا أمير المؤمنين قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا، قال: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه، ورجع عمرو إلى معاوية فقال له: ما صنعت يا عمرو؟ قال: لقاني علي فصرعني، قال: أحمد الله وعورتك أم والله أن لو عرفته ما اقتحمت عليه. وقال معاوية في ذلك شعر:

ألا لله مـــن هـــفـــوات عـــمـــرو — يـعـاتـبـنـي عـلـى تـركـي بـرازي
فـقـد لاقـى أبـا حـسـن عـلـيـاً — فـآب الـوائـلـي مـآب خـازي
فـلـو لـم يـبـد عـورتـه لـلاقـى — بـه لـيـثـاً يـذلـل كـل نـازي
لـه كـف كـان بـراحـتـيـهـا — منـايـا الـقـوم يـخـطـف خـطـف بـازي
فـإن تـكـن الـمـنـيـة أخـطـأتـه — فـقـد غـنـي بـهـا أهـل الـحـجـاز

فغضب عمرو وقال: ما أشد تعظيمك علياً في كسرى هذا، هل هو إلا رجل لقاه ابن عمه فصرعه أفترى السماء فاطرة لذلك دماً؟ قال: ولكنها تعقبك جبناً.

أقول: كان عمرو بن العاص في المكر والخديعة أروغ من الثعلب، وبه يضرب المثل في الحيلة والشيطنة ولما رأى أن لا محيص له في يد أسد الله، أحتال حيلة شنيعة غير لائقة للإبطال والرجال:

أي رويهك چرا ننشستى بجاى خويش — باشير پنجه دادى وديدى سزاى خويش

قال أبو الفضل نصر بن مزاحم في كتاب الصفين: أن عمرو بن العاص مر بالحرث بن نصر الجشمي وكان عدواً لعمرو وكان عمرو قل ما يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحرث فقال الحرث، في ذلك:

لـيـس عـمـرو بـتـارك ذكـره الـحـرب — مـدى الـدهـر أو يـلاقـي عـلـيـاً
واضـع الـسـيـف فـوق مـنـكـبـه — الأيـمـن لا يـحـسـب الـفـوارس شـيـئـاً
لـيس عـمـرو يـلـقـاه في حـمـس الـنـقـع — وقـد صـارت الـسـيـوف عـصـيـاً
حـيـث يـدعـو الـبـراز حـامـيـة الـقـوم — إذا كـان بـالـبـراز مـلـيـا
فـوق شـهـب مـثـل الـسـحـوق مـن — الـنـخـل يـنـادي الـمـبـارزيـن إلـيـا
ثـم يـا عـمـرو تـسـتـريـح مـن الـفـخـر — وتـلـقـى بـه فـتـى هـاشـمـيـا
فـألـقـه إن أردت مـكـرمـة الـدهـر — أو الـمـوت كـل ذاك عـلـيـا

فلما سمع عمرو شعره قال: والله لو علمت أني أموت ألف موتة، لبارزت علياً في أول

ما ألقاه، فلما بارزه طعنه علي عليه السلام فصرعه، وأتقاه عمرو بعورته، فانصرف علي عليه السلام عنه وقال علي حين بدت له عورة عمرو فصرف وجهه عنه:

ضرب ثبا الأبطال في المشاغب ضرب الغلام البطل الملاعب
أين الضراب في العجاج الثائب حين احمرار الحدق الثواقب
بالسيف في تهتهة الكتائب والصبر فيه الحمد للعواقب

قال المسعودي: وقد ذكر هشام بن محمد الكلبي عن الشرقي بن القطامي أن معاوية قال لعمرو بعد انقضاء الحرب هل غششتني منذ نصحتني؟ قال: لا، قال: بلى، والله يوم أشرت عليّ بمبارزة علي، وأنت تعلم من هو قال: دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته علي إحدى الحسنيين، إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفاً إلى شرفك وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. فقال معاوية: يا عمرو الثانية أشر من الأولى.

وبالجملة كان في هذا اليوم من القتال ما لم يكن قبل. وليعلم أنه مضت منه عليه السلام الخطبة التاسعة والستين معنوناً من الشريف الرضى رضوان الله عليه: ومن كلام له عليه السلام يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين: معاشر المسلمين إستشعروا الخشية وتجلببوا السكينة وعضوا النواجذ، آه:

وأجمل الرضى رحمه الله ذلك اليوم، وقال الشارح المعتزلي: هذا الكلام خطب به أمير المؤمنين عليه السلام في اليوم الذي كان عشيته ليلة الهرير في كثير من الروايات. إنتهى يعني به اليوم التاسع. ومضى الكلام منا عن مروج الذهب وغيره خطب به عليه السلام في اليوم الثامن وهو يوم الأربعاء. وقال نصر في كتاب صفين أنه عليه السلام خطب به في أول أيام اللقاء والحرب بصفين، وذلك في صفر من سنة سبع وثلاثين والإختلاف في ألفاظ الخطبة كثير أيضاً والله أعلم.

«اليوم العاشر وليلتها: ليلة الهرير ويومها»

وهي الليلة العظيمة التي يضرب بها المثل وكانت ليلة الجمعة ويومها وقال المسعودي: فكان جملة من قتل علي عليه السلام بكفه في يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلاً أكثرهم في اليوم وذلك أنه كان إذا قتل رجلاً كبر إذا ضرب، ولم يكن يضرب إلا قتل ذكر ذلك عنه من كان يليه في حربه ولا يفارقه من ولده وغيرهم.

وقال الطبري: ثم اقتتل الناس بعد المغرب قتالاً شديداً، فما صلى أكثر الناس إلا إيماءً. وقال نصر حدثنا عمرو بن شمر. قال: حدثني أبو ضرار. قال: حدثني عمار بن

ربيعة. قال غلس: علي عليه السلام بالناس صلاة الغداة يوم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وقيل: عاشر شهر صفر ثم زحف إلى أهل الشام بعكسر العراق والناس على راياتهم، زحف إليهم أهل الشام وقد كانت الحرب أكلت الفريقين ولكنها في أهل الشام أشد نكاية وأعظم وقعاً فقد ملوا الحرب وكرهوا القتال تضعضعت أركانهم.

قال: فخرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذنوب، عليه السلاح لا يرى منه إلا عيناه وبيده الرمح فجعل يضرب رؤوس أصحاب علي بالقناة ويقول: سووا صفوفكم حتى إذا عدل الصفوف والرايات إستقبلهم بوجهه وولى أهل الشام ظهره، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: الحمد لله الذي جعل فيكم ابن عم نبيكم أقدمهم هجرة وأولهم إسلاماً سيف من سيوف الله صبه الله على أعدائه فانظروا إذا حمى الوطيس وثار القتام وتكسران المران وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلا غمغمة أو همهمة قال: ثم حمل على أهل الشام وكسر فيهم رمحه ثم رجع فإذاً هو الأشتر[1].

أقول: شجاعة الأشتر رضوان الله عليه بلغ مبلغ التواتر، ولا يتأتى لأحد إنكاره، ويسميه المؤرخون كبش العراق، وذكرنا شمة من شجاعته يوم أخذ الماء وقتله أبطل أهل الشام وفوارس قائد أهل الكفر والنفاق، وشجعان رائد قوم البغي والشقاق وكان هو رحمه الله شديد البأس فارساً شجاعاً ومن تتبع وبحث عن وقائع الجمل والصفين وغيرهما علم أن الأشتر كان بعد أمير المؤمنين عليه السلام أشجع الناس، فقد قال علي عليه السلام بعد موته: رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هذا التشبيه والمقايسة يعلم جلالة شأنه رحمه الله وعلو قدره إلى حد فوق أن يحوم حوله العبارة، وقال الشارح المعتزلي ابن أبي الحديد في شرح النهج: لو أن إنساناً يقسم أن الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه «يعني من الأشتر» إلا أستاذه عليه السلام لم خشيت عليه الإثم. ولله در القائل، وقد سئل عن الأشتر: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام وهزم موته أهل العراق وبحق ما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذا هو الأشتر مجاهداً في الله قبال الفئة الباغية ولينظر إلى تخلقه بأخلاق الله وإتصافه بأوصافه، كيف ارتقى في المدرسة الإلهية العلوية إلى الدرجات العلى والمراتب القصوى، ففي مجموعة ورام حكى أن مالكاً الأشتر رضي الله عنه كان مجتازاً بسوق الكوفة وعليه قميص خام وعمامة منه، فرآه بعض أهل السوق فازدرى بزيه فرماه ببندقة تهاونا به فمضى ولم يلتفت فقيل له: ويلك أتدري بمن رميت؟ فقال: لا، فقيل له: هذا مالك صاحب أمير

(١) الإمام علي عليه السلام: ٧٢٠، ووقعة صفين: ٤٧٤.

المؤمنين عليه السلام فارتعد الرجل ومضى إليه ليعتذر منه فرآه وقد دخل المسجد وقائم يصلي، فلما انفتل أكب الرجل على قدميه ليقبلهما فقال: ما هذا الأمر؟ فقال: أعتذر إليك مما صنعت. فقال: لا بأس، عليك فوالله ما دخلت المسجد إلا لأستغفرن لك. إنتهى وسيأتي ترجمته مستوفاة إن شاء الله تعالى في محله ولنعد إلى القصة:

قال نصر بإسناده السابق: وخرج رجل من أهل الشام ينادي بين الصفين: يا أبا حسن يا علي أبرز لي فخرج إليه حتى إذا اختلف أعناق دابتيهما بين الصفين فقال: يا علي أن لك قدماً في الإسلام وهجرة فهل لك في الأمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء وتأخير هذه الحروب، حتى ترى من رأيك؟ فقال له علي عليه السلام: وما ذاك؟ قال: ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين العراق ونرجع إلى شامنا فتخلي بيننا وبين شامنا، فقال له علي عليه السلام: لقد عرفت إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة الأغلال في جهنم، فرجع الشامي وهو يسترجع.

أقول: فانظر أيها القارىء الكريم نظر التأمل والتدبر في كلامه عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه حتى تقف على سر بعثة الأنبياء وأوليائه، فهم بعثوا لينقذوا الناس من الوسواس والكفر والشقاق والنفاق، وليعالجوا نفوسهم من داء الجهل وينوروا عقولهم بنور العلم والمعارف والحكم، ويهدوهم إلى الصراط المستقيم ويوصلوهم إلى النهج القويم لطفاً من الله على العباد ليفوزوا فوزاً عظيماً وليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة، ويتم الحجة عليهم ولم يخلق الله الناس عبثاً، ولم يتركهم سدى ولم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت، والعلماء بعدهم قائمون مقامهم فلم يرض الله منهم أن يعصى في الأرض وهم سكوت، لأنهم حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها فإذا ظهرت البدع فعليهم أن يظهروا علمهم ويحثوا الناس إلى الطاعة ويزجروهم عن المعصية وإذا ظهرت البدع كانت الظلمات غالبة.

وفي الكافي لثقة الإسلام الكليني رحمه الله بإسناده عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[1].

وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل

---

(١) الكافي: ١/٥٦، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/١٣٧.

فعليه لعنة الله»[١].

وفيه بإسناده عن داود بن سرحان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم أهل البدع والريب من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعة وباهتوهم حتى لا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذر الناس ولا يتعلمون من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات»[٢].

وفي البحار عن أبي محمد العسكري عليه السلام قال: قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: علماء شيعتنا مرابطون بالثغر الذي يلي إبليس وعفاريته يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا، وعن أن يتسلط عليهم إبليس وشيعته النواصب، ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر ألف ألف مرة لأنه يدفع عن أديان محبينا وذلك يدفع عن أبدانهم[٣].

وسيأتي الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبحث عنهما وشرائطهما إن شاء الله تعالى ولنعد إلى القصة:

قال نصر: وزحف الناس بعضهم إلى بعض، فارتموا بالنبل حتى فنيت ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيف وعمد الحديد، فلم يسمع السامع إلا وقع الحديد بعضه على بعض لهو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق، ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً، وانكسفت الشمس وثار القتام وضلت الألوية والرايات، والأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل لم يصلوا لله صلاة فلم يزل يفعل ذلك الأشتر بالناس حتى أصبح والمعركة خلف ظهره وافترقوا على سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة وهي ليلة الهرير والأشتر في ميمنة الناس وابن عباس في الميسرة وعلي في القلب والناس يقتتلون، ثم استمر القتال من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضحى، والأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام إزحفوا قيد رُمحي، هذا وإذا فعلوا قال: إزحفوا قاب هذا القوس فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس من الإقدام فلما رأى ذلك قال: أعيذكم بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم، ثم دعا بفرسه وركز رايته وكانت مع حيان بن هودة النخعي، وخرج يسير في الكتائب ويقول:

---

(١) شرح الأخبار: ١/٥١، ح ١٢، واليقين: ١٠.

(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ٢/٢٣٢، ح ١٧٢٣، وبحار الأنوار: ٧١/٢٠٢، ح ٤١.

(٣) عوالي اللئالي: ١/١٨، ومنية المريد: ١١٧.

ألا من يشرى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر، حتى يظهر أو يلحق بالله فلا يزال الرجل من الناس يخرج إليه ويقاتل معه.

قال نصر بإسناده عن عمار بن ربيعة قال: مر بي والله الأشتر وأقبلت معه حتى رجع إلى المكان الذي كان به، فقام في أصحابه فقال: شدوا فدا لكم عمي وخالي شدة ترضون بها الله، وتعزون بها الدين فإذا شددت فشدوا، ثم نزل وضرب وجه دابته ثم قال لصاحب رايته أقدم، فأقدم بها ثم شد على القوم وشد معه أصحابه، يضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم، ثم أنهم قاتلوا عند المعسكر قتالاً شديداً فقتل صاحب رايتهم وأخذ علي عليه السلام لما رأى الظفر قد جاء من قبله يمده بالرجال، وأن علياً عليه السلام قال خطيباً فحمد الله وأثنى عليهم ثم قال:

أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وأن الأمور إذا أقبلت أعتبر آخرها بأولها وقد صبر لكم القوم على غير دين حق، بلغنا منهم ما بلغنا وأنا غار عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عزّ وجلّ[1].

«رأى عمرو بن العاص في رجع الناس إلى كتاب الله لما ظهرت هزيمة أهل الشام»

فبلغ ذلك معاوية، فدعا عمرو بن العاص فقال: يا عمرو إنما هي الليلة حتى يغدو علي عليه السلام علينا بالفيصل فما ترى؟ قال: أرى أن رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم، ولكن ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه إختلفوا، أدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك في القوم، فإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لحاجتك إليه فعرف ذلك معاوية فقال: صدقت.

أقول: كلامه عليه السلام المذكور آنفاً: أيها الناس قد بلغ بكم الأمراء، غير مذكور في نهج البلاغة.

«حملة الجعفي على أهل الشام»

قال نصر: وفي حديث عمر بن سعد قال: ثم إن علياً صلى الغداة ثم زحف إليهم،

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٥٢٨، ح ٤٤٤، ونهج السعادة: ٢/٢٤١.

فلما أبصروه قد خرج إستقبلوه بزحوفهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن خيل أهل الشام حملت على خيل أهل العراق فاقتطعوا من أصحاب علي عليه السلام ألف رجل أو أكثر فأحاطوا بهم وحالوا بينهم وبينه أصحابه فلم يروهم فنادى علي عليه السلام يومئذٍ ألا رجل يشرى نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته؟ فأتاه رجل من جعف يقال له عبد العزيز بن الحارث على فرس أدهم كأنه غراب مقنعاً في الحديد لا يرى منه إلا عيناه فقال: يا أمير المؤمنين مرني بأمرك فوالله ما تراني بشيء إلا صنعته فقال علي عليه السلام:

سمحت بأمر لا يطاق حفيظة وصدقاً وأخوان الحفاظ قليل

جزاك إله الناس خيراً فقد وفت يداك بفضل ما هناك جزيل

أبا الحارث شد الله ركنك أحمل على أهل الشام، حتى تأتي أصحابك فتقول لهم: أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم هللوا وكبروا من ناحيتكم، ونهلل نحن ونكبر من ها هنا، واحملوا من جانبكم ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام، فضرب الجعفي فرسه حتى إذ قام على السنابك حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب علي عليه السلام فطاعنهم ساعة وقاتلهم، فانفرجوا له حتى أتى أصحابه فلما رأوه إستبشروا به وفرحوا وقالوا: ما فعل أمير المؤمنين؟ قال صالح يقرئكم السلام ويقول لكم هللوا وكبروا وهلل علي وأصحابه من ذلك الجانب ونهلل ونحن من جانبنا، ونكبر ونحمل من خلفكم فهللوا وكبروا وهلل علي وأصحابه، من ذلك الجانب وحملوا على أهل الشام، من ثم وحمل علي من ها هنا في أصحابه فانفرج أهل الشام عنهم فخرجوا وما أصيب منهم رجل واحد، ولقد قتل من فرسان أهل الشام يومئذٍ زهاء سبع مائة رجل. قال: وقال علي من أعظم الناس عناءً؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: كلا ولكنه الجعفي.

«ضرب علي عليه السلام وقتله الناس في يوم واحد»

قال نصر: عن عمرو بن شمر عن جابر بن نمير الأنصاري قال: والله لكأني أسمع علياً يوم الهرير حين سار أهل الشام، وذلك بعدما طحنت رحى مذحج فيما بيننا وبين عك ولخم وجذام والأشعريين بأمر عظيم تشيب منه النواصي، من حين استقبلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة. ثم أن علياً قال: حتى متى نخلي بين هذين الحيين قد فنيا وأنت موقوف تنظرون إليهم أما تخافون مقت الله ثم انفتل إلى القبلة ورفع يديه إلى الله ثم نادى:

«يا الله يا رحمن يا واحد يا صمد يا الله يا إله محمد اللهم إليك ثقلت الأقدام وأفضت القلوب ورفعت الأيدي وامتدت الأعناق وشخصت الأبصار وطلبت الحوائج، إنا نشكو إليك غيبة نبينا صلى الله عليه وآله وكثرة عدونا وتشت أهوائنا ربنا إفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير

الفاتحين، سيروا على بركة الله ثم نادى لا إله إلا الله والله أكبر كلمة التقوى».

ثم قال: لا والله الذي بعث محمداً ﷺ بالحق نبياً ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب، أنه قتل فيما ذكر العادون زيادة على خمسة مائة من أعلام العرب، يخرج بسيفه منحنياً فيقول معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليكم من هذا، لقد هممت أن أفلقه ولكن حجزني عنه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول كثيراً: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي وأنا أقاتل به دونه. قال: فكنا نأخذه ثم يتناوله من أيدينا فيتقحم به في عرض الصف فلا والله ما ليث بأشد نكاية في دعوة منه رحمة الله عليه رحمة واسعة.

أقول: أتى بكلامه عليه السلام المذكور آنفاً: يا الله يا رحمن، آه في باب الكتب والرسائل من نهج البلاغة وهو الكلام الخامس عشر منه.

«رفع أهل الشام المصاحف على الرماح ودعائهم إلى الحكومة لما ظهرت هزيمتهم واستبان ذلهم»

قال نصر: عن عمرو بن شمر عن جابر قال: سمعت تميم بن حذيم يقول: لما أصبحنا من ليلة الهرير نظرنا فإذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام وسط الفيلق من حيال موقف معاوية، فلما أن أسفرنا فإذا هي المصاحف قد ربطت على أطراف الرماح وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة رماح جميعاً وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشرة رهط وقال أبو جعفر وأبو الطفيل استقبلوا علياً بمائة مصحف، ووضعوا في كل مجنبة مائتي مصحف وكان جميعها خمس مائة مصحف، قال أبو جعفر ثم قام الطفيل بن أدهم حيال علي وقام أبو شريح الجذامي من حيال الميمنة وقام ورقاء بن المعمر حيال الميسرة ثم نادوا: يا معشر العرب الله، الله في نسائكم وبناتكم فمن للروم، والأتراك، وأهل فارس غداً إذا فنيتم الله، الله في دينكم هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فقال علي عليه السلام: اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكيم الحق المبين، فاختلف أصحاب علي في الرأي طائفة قالت: القتال وطائفة قالت: المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب، فعند ذلك بطلت الحروب ووضعت أوزارها فقال محمد بن علي: فعند ذلك حكم الحكمان.

قال نصر: وفي حديث عمرو بن شمر بإسناده قال: فلما أن كان اليوم الأعظم قال أصحاب معاوية: والله ما نحن لنبرح اليوم العرصة حتى يفتح الله لنا أو نموت، وقال أصحاب علي عليه السلام: والله ما نحن بتاركي العرصة اليوم إن شاء الله حتى يفتح لنا أو نموت،

فباكروا القتال غداً يوماً من أيام الشعري طويلاً شديد الحر فتراموا حتى فنيت النبل ثم تطاعنوا حتى تقصفت رماحهم، ثم نزل القوم عن خيولهم فمشي بعضهم إلى بعض بالسيوف حتى كسرت جفونها، وقامت الفرسان في الركب ثم اضطربوا بالسيوف وبعمد الحديد، فلم يسمع السامع إلا تغمغم القوم وصليل الحديد في الهام وتكادم الأفواه، وكسفت الشمس وثار القتام وضلت الألوية في الرايات، ومرت مواقيت أربع صلوات لم يسجد لله فيهن إلا تكبيراً ونادت المشيخة في تلك الغمرات: يا معشر العرب الله الله في الحرمات من النساء والبنات.

قال جابر: فبكى أبو جعفر وهو يحدثني بهذا الحديث قال: وأقبل الأشتر على فرس كميت محذوف قد وضع مغفرة على قربوس السرج، وهو يقول: أصبروا يا معشر المؤمنين فقد حمي الوطيس ورجعت الشمس من الكسوف، واشتد القتال وأخذت السباع بعضها بعضاً، فأنتم كما قال الشاعر:

مضت واستأخر الفرعاء عنها وخلي بينهم إلا الوزيع

قال: يقول واحد في تلك الحال أي رجل هذا، لو كانت له نية فيقول له صاحبه وأي نية أعظم من هذه، ثكلتك أمك وهبلتك أن رجلاً فيما قد ترى قد سبح في الدماء وما أضجرته الحرب، وقد غلت هام الكماة من الحر وبلغت قلوب الحناجر، وهو كما ترى جذعاً يقول هذه المقالة اللهم لا تبقنا بعد هذا.

أقول: قوله: يوماً من أيام الشعرى طويلاً شديد الحر. بيانه: أن الشعرى إسم لكوكبين إحداهما أكبر من الأخرى وهي الشعرى اليمانية، من كواكب الكلب الأكبر الواقعة عقيب الجبار ولذا يسمى الكلب الأكبر بكلب الجبار أيضاً كما أن الشعرى اليمانية وحدها قد تسمى بكلب الجبار. وهي من كواكب القدر الأول وأحد كوكبي ذراع الأسد وفم المرزم وإنما وصف باليماني لأن مغيبها يكون إلى جانب اليمن وكواكب الكلب الأكبر ثمانية عشر كوكباً والشعرى واقعة في فيها وهذا الكوكب هو الذي قال فيه عزّ من قائل في سورة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم: ٤٩] وقال المفسرون: كانوا يعبدونها في الجاهلية وأن خزاعة كانت تعبدها وأول من عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من قبل أمهاته وكان المشركون يسمونه ﷺ ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في الدين كما خالف أبو كبشة غيره في عبادة الشعرى فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ أي: خالق الشعرى ومخترعها ومالكها فلا تتخذوا المربوب المملوك إلهاً.

أقول: لا يبعد أن يكون القرآن الكريم ناظراً أيضاً إلى عظمة قدرته عزّ وجلّ بأنه هو رب الشعرى، وذلك لأن الشعرى من أكبر الثوابت المرصودة وفي رصد معاصرينا أنها أعظم من الشمس ١٥٠٠ مرة مع أن الشمس أعظم من الأرض بكثير فالخط جناباً تبهرك عجائبه

ويناسب ما ذهبنا إليه أسلوب الآي الأخرى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وظاهر أنها مسوقة لبيان لطائف صنعه وعظم قدرته في خلقه.

والأخرى هي الشعرى الشامية.

وهي من صورة كواكب الكلب الأصغر ويسمى الكلب المتقدم أيضاً وهي واقعة على جهة جنوب الجوزاء مشتملة على أربعة عشر كوكباً أحدها من القدر الأول وهو الشعرى الشامية لأن مغيبها من جانب الشام وتسمى غميصاً أيضاً كما أن اليمانية تسمى عبوراً أيضاً، لأن من الأسمر المنقولة من العرب أن الشعريين كانتا أختين لسهيل وتزوج أخوهما سهيل جوزاء فوقع بين سهيل وزوجته جوزاء نزاع فضربها سهيل فكسر ظهرها ففر من الشمال إلى الجنوب ثم أن أخته الشعرى اليمانية ذهبت في أثرها فعبرت من المجرة حتى قربت منه ولذا سميت عبوراً وأن أخته الأخرى الشعرى الشامية بكت من فراقه حتى عميت عينها ولذا سميت غميصاً.

والمراد من الشعرى هو الأول وإنما كان أيام الشعرى طويلاً شديد الحر لأن الشعرى اليمانية واقعة في أواخر برج الجوزاء فإذا بلغت الشمس إليها كان اليوم قريباً من أطول أيام السنة للآفاق الشمالية لأن الجوزاء من البروج الشمالية.

ثم إن الكواكب الثابتة تتحرك بحركتها الخاصة نحو المغرب، فأسرعها حركة كما في (ص ٥٦٥ من الزيج البهادري) في ثمانية أيام وثمانية أشهر وإحدى وستين سنة وسطية يقطع درجة واحدة، وأبطأها في سبعة عشر يوماً وثلاثة أشهر واثنتين وثمانين سنة يقطع درجة واحدة، ولذا تنتقل الصور عن مواضعها من البروج فيأتي الفرق بين البرج والصورة ولم يحضرني الآن ذلك الزيج ولا سائر أزياجي أحاسب تقويم الشعرى دقيقاً في سنة غزوة الصفين.

ثم إن تثنية الشعرى شعريان فإذا ثنيت فالمراد بهما الشعرى اليمانية والشامية وفي ديوان المنوچهري الدامغاني:

چو پاسی ازشب دیر نده بگذشت بر آمد شعریان از کوه موصل

فلنعد إلى القصة:

«خطبة شعث بن قيس»

نصر عن عمرو بن شمر عن جابر عن الشعبي عن صعصعة قال: قام الأشعث بن قيس الكندي ليلة الهرير في أصحابه من كندة فقال:

الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأستنصره وأستغفره وأستخيره وأستهديه، فإنه من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ثم قال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قذفني فيه من العرب فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا نحن توافقنا غداً أنه لفناء العرب وضيعة الحرمان، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف ولكني رجل مسن أخاف على النساء وعلى الذراري غداً، إذا فنينا اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والرأي يخطي ويصيب وإذ قضى الله أمراً أمضاه ما أحب العباد أو كرهوا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قال: قال صعصعة: فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث فقال: أصاب ورب الكعبة لئن نحن إلتقينا غداً لنمكن الروم على ذرارينا ونسائنا، ولنمكن أهل الفارس على نساء أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهي أربط المصاحف على رؤوس الرماح وقلدوها الخيل، والناس على الرايات قد اشتهوا ما دعوا إليه، ورفع مصحف دمشق الأعظم تحمله عشرة رجال على رؤوس الرماح ونادوا يا أهل العراق بيننا وبينكم.

وأقبل أبو الأعور السلمي على برذون أبيض، وقد وضع المصحف على رأسه ينادي يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم.

وأقبل عدي بن خاتم فقال: يا أمير المؤمنين إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق، فإنه لم يصب عصبة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم، وكل مقروح ولكنا أمثل بقية منهم، وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب فناجز القوم.

فقام الأشتر النخعي فقال: يا أمير المؤمنين إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولك بحمد الله الخلف ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك، فأقرع الحديد بالحديد واستعن بالله الحميد.

ثم قام عمرو بن الحمق فقال: يا أمير المؤمنين إنا والله ما اخترناك ولا نصرناك عصبية على الباطل، ولا أجبنا إلا الله عزّ وجلّ ولا طلبنا إلا الحق ولو دعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لكان فيه اللجاج، وطالت فيه النجوى وقد بلغ الحق مقطعه وليس لنا معك رأي.

فقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس وليس آخر أمرنا كأوله، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني، فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال، فقال علي عليه السلام: إن هذا أمر ينظر فيه.

«جزع أهل الشام من أهل العراق وكلام عبد الله بن عمرو»

قال نصر: وذكروا أن أهل الشام جزعوا فقالوا: يا معاوية ما نرى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه، فأعدها جذعة فإنك قد غمرت بدعائك القوم وأطمعتهم فيك، فدعا معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص وأمره أين يكلم أهل العراق، فأقبل حتى إذا كان بين الصفين نادى يا أهل العراق أنا عبد الله بن عمرو بن العاص إنها قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا، فإن تكن للدين فقد والله أعذرنا وأعذرتم وإن تكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه أجبناكم فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذلك من الله، فاغتنموا هذه الفرجة لعله أن يعيش فيها المحترف وينسى فيها القتيل فإن بقاء المهلك بعد الهالك قليل.

«جواب سعيد بن قيس عبد الله بن عمرو بأمر أمير المؤمنين عليه السلام»

فخرج سعيد بن قيس الهمداني فأتى علياً عليه السلام فأخبره بقول عبد الله بن عمرو فقال علي عليه السلام: أجب الرجل. فتقدم سعيد بن قيس فقال: يا أهل الشام أنه قد كان بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا سميتموها غدراً وسرفاً، وقد دعوتمونا الوم إلى ما قاتلناكم عليه بالأمس، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل من أن يحكم بما أنزل الله فالأمر في أيدينا دونكم وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم.

وقام الناس إلى علي عليه السلام فقالوا: أجب القوم إلى ما دعوك إليه، فإنا قد فنينا ونادى إنسان من أهل الشام في سواد، الليل بشعر سمعه الناس وهو:

رؤوس العراق أجيبوا الدعاء ... فقد بلغت غاية الشدة

وقد أودت الحرب بالعالمين ... وأهل الحفائظ والنجدة

فلسنا ولستم من المشركين ... ولا المجمعين على الردة

ولكن أناس لقا مثلهم ... لنا عدة ولهم عدة

فقاتل كل على وجهه ... تقحمه الجد والجدة

فإن تقبلوها ففيها البقاء ... وأمن الفريقين والبلدة

وأن تدفعوها ففيها الفناء ... وكل بلاء إلى مدة
وحتى متى مخض هذا السقاء ... ولا بد أن يخرج الزبدة
ثلاثة رهط هم أهلها ... وإن يسكتوا تخمد الوقدة
سعيد بن قيس وكبش العراق ... وذاك المسود من كندة

فحمد هؤلاء النفر المسمون في الصلح قال: فأما السود من كندة وهو الأشعث فإنه لم يرض بالسكوت، بل كان من أعظم الناس قولاً في إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة. وأما كبش العراق وهو الأشتر فلم يكن يرى إلا الحرب ولكنه سكت على مضض، وأما سعيد بن قيس فتارة هكذا وتارة هكذا.

قال نصر: ذكروا أن الناس قالوا: أكلنا الحرب وقتلت الرجال وقال: قوم نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس ولم يقل هذا إلا قليل من الناس، ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة وثارت الجماعة بالموادعة فقام علي أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

«إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب إليّ إن أخذت منكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم، وأنها فيهم أنكى وأنهك، ألا إني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون» ثم قعد.

أقول كلامه عليه السلام المذكور آنفاً ليس في النهج.

«كلام رؤساء القبائل»

قال نصر: ثم تكلم رؤساء القبائل فأما من ربيعة وهي الجبهة العظمى فقام كردوس بن هاني البكري فقال: أيها الناس إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرئنا منه ولا تبرئنا من علي منذ تولیناه، وإن قتلانا لشهداء وأن أحياءنا لأبرار وإن علياً لعلى بينة من ربه، وما أحدث إلا الإنصاف وكل محق منصف فمن سلم له نجا ومن خالفه هلك.

ثم قام شقيق بن الثور البكري فقال: أيها الناس إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه، علينا فقاتلناهم عليه، وأنهم دعونا إلى كتاب الله وإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ولا رسوله وأن علياً ليس بالراجع الناكص ولا الشاك الواقف، وهو اليوم على ما كان عليه أمس وقد أكلتنا هذه الحرب ولا نرى البقاء إلا في الموادعة.

ثم قام حريث بن جابر البكري فقال: أيها الناس إن علياً لو كان خلفاً من هذا الأمر

لكان المفزع عليه، فكيف وهو قائده وسائقه وأنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا ما دعاهم إليه أمس، ولو رده عليهم كنتم له أعنت ولا يلحد في هذا الأمر إلا راجع على عقبيه، أو مستدرج بغرور فما بيننا وبين من طغى علينا إلا السيف.

ثم قام خالد بن المعمر فقال: يا أمير المؤمنين إنا والله ما اخترنا هذا المقام، أن يكون أحد هو أولى به منا غير أنا جعلناه ذخراً وقلنا أحب الأمور إلينا ما كفينا مؤنته، فأما إذ سبقنا في المقام فإنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك فإن لم تره فرأيك أفضل.

ثم إن الحصين الربعي وهو من أصغر القوم سنا، قام فقال: أيها الناس إنما بني هذا الدين على التسليم فلا توفروه بالقياس، ولا تهموه بالشفقة فإنا والله لولا إنا لا نقبل إلا ما نعرف، لأصبح الحق في أيدينا قليلاً ولو تركنا وما نهوى لكن الباطل في أيدينا كثيراً، وأن لنا داعياً وهو المصدق على ما قال المأمون على ما فعل فإن قال: لا، قلنا لا، وإن قال: نعم، قلنا: نعم. فبلغ ذلك معاوية فبعث إلى مصقلة بن هبيرة فقال: يا مصقلة ما لقيت من أحدٍ ما لقيت من ربيعة، قال: ما هم منك بأبعد من غيرهم وأنا باعث إليهم فيما صنعوا فبعث المصقلة إلى الربعيين فقال:

لن يهلك القوم أن تُبدي نصيحتهم ... إلا شقيق أخو ذهل وكردوس
وابن المعمر لا تنفك خطبته ... فيها البيان وأمر القوم ملبوس
أما حريث فإن الله ضلله ... إذ قام معترضاً والمرء كردوس
طاطا حصين هنا في فتنة جمحت ... إن ابن وعلة فيها كان محسوس
منوا علياً ومناهم وقال لهم ... قولاً يهيج له البزل القناعيس
كل القبائل قد أدى نصيحته ... إلا ربيعة رغم القوم محبوس

وقال النجاشي:

أن إلا راقام لا يغشاهم بؤس ... ما دافع الله من حوباء كردوس
نمته من ثعلب العليا فوارسها ... تلك الرؤوس وأبناء المرائيس
ما بال كل أمير يستراب به ... دين صحيح ورأي غير ملبوس
والى علياً بغدر بذ منه إذا ... ما صرح العذر عن رد الضغاييس
نعم النصير لأهل الحق قد علمت ... عليا معد على أبصار إبليس
قل للذين تزفوا في تعنته ... إن البكارة ليست كالقناعيس
لن تدركوا الدهر كردوساً وأسرته ... بني ثعلبة الحادي وذو العيس

«كلام علي ﷺ لما رفع المصاحف»

قال نصر: وفي حديث عمر بن سعد قال: لما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح يدعون إلى حكم القرآن، قال علي ﷺ: عباد الله أنا أحق من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاوية، وعمرو بن العاص، وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال إنها كلمة حق يراد بها باطل، أنهم والله ما رفعوها إنهم يعرفونها ولا يعلمون بها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ومكيدة أعيروني ساعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا.

فجاءه ﷺ زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم وقد سودت جباههم من السجود يقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بأمرة المؤمنين يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم.

فقال ﷺ لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعا إلى كتاب الله فلا أقبله إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن، فأنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون.

قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتينك وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله.

أقول: كلامه ﷺ المذكور آنفاً: عباد الله أنا أحق من أجاب، وكذا قوله ﷺ: ويحكم أنا أول من دعا آه، ليسا في النهج.

قال نصر: فحدثني فضيل بن خديج عن رجل من النخع قال: رأيت إبراهيم بن الأشتر دخل على مصعب بن الزبير فسأله عن الحال كيف كانت؟ فقال: كنت عند علي ﷺ حين بعث إلى الأشتر أن يأتيه، وقد أشرف على عسكر معاوية ليدخله، فأرسل علي يزيد بن هاني أن ايتني فأتاه فبلغه فقال الأشتر: آيته، فقال له: ليس هذه الساعة ينبغي لك أن تزيلني فيها من موقفي أني قد رجوت أن يفتح الله لي فلا تعجلني، فرجع يزيد بن هاني إلى علي ﷺ فأخبره فما هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخذلان والأدبار على أهل الشام، فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم قال: رأيتموني ساررت رسولي، أليس إنما كلمته

على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون، قالوا: فابعث إليه فليأتك وإلا فوالله اعتزلناك قال: ويحك يا يزيد قل له أقبل إليّ فإن الفتنة قد وقعت، فأتاه فأخبره فقال له الأشتر: الرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم، قال: أما والله لقد ظننت أنه حين رفعت ستوقع إختلافاً، وفرقة إنه لمشورة ابن النابغة يعني عمرو بن العاص.

قال: ثم قال ليزيد: ألا ترى إلى الفتح ألا ترى إلى ما يلقون، ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟ فقال له يزيد أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به، يفرج عنه ويسلم إلى عدوه؟ قال: سبحان الله، والله ما أحب ذلك. قال: فأنهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتك أو لنقتلنك كما قتلنا عثمان أو لنسلمنك إلى عدوك.

«خطاب الأشتر إلى أهل الشام وجوابهم عنه»

قال: فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم فصاح. فقال: يا أهل الذل والوهن أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم ظاهرون، ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وقد والله تركوا، ما أمر الله فيها، وسنّة من أنزلت عليه فلا تجيبوهم أمهلوني فواقاً، فإني قد أحسب بالفتح قالوا: لا. قال: فأمهلوني عدو الفرس فإني قد طمعت في النصر قالوا: إذاً ندخل معك في خطيئتك قال: فحدثوني عنكم وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم، متى كنتم محقين حيث كنتم تقتلون أهل الشام فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون، أم الآن محقون فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيراً فيكم في النار.

قالوا: دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله، إنا لسنا نطيع فاجتنبنا قال: عدتم والله فانخدعتم ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود كنا نظن أن صلاتكم زهادة إلى الدنيا وشوق إلى لقاء الله فلا أرى قراركم إلا إلى الدنيا من الموت، ألا فقبحتا يا أشباه النيب الجلالة، ما أنتم برائين بعده عزا أبداً، فأبعدوا كما بعد القوم الظالمين فسبوه وسبهم وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم فصاح بهم علي عليه السلام فكفوا.

وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين أحمل الصف على الصف يصرع القوم فقالوا له: إن علياً أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن ولم يسعه إلا ذلك.

قال الأشتر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي بحكم القرآن فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين. فأقبل الناس يقولون قد رضي أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين وهو ساكت لا يفيض بكلمة مطرق إلى الأرض.

أقول: قال القوم يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان. آه إعتراف منهم بأنهم قد قتلوا عثمان بن عفان ولم يكن له عليه السلام يد في قتل عثمان، بل تمسك به ابن آكلة الأكباد وأتباعه من الثعالب الرواغة لتهييج الفتنة وتفريق الكلمة وهدم أساس الدين، وتشتيت شمل المسلمين، كما مر قول أبي اليقظان عمار بن ياسر رضوان الله عليه في ذلك.

نصر بإسناده عن إبراهيم بن الأشتر قال: قال الناس قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً، وبعث معاوية أبا الأعور السلمي على برذون أبيض، فسار بين الصفين صف أهل العراق وصف أهل الشام ويقول: كتاب الله بيننا وبينكم.

«كتاب معاوية إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام»

فأرسل معاوية إلى علي عليه السلام أن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك، وكل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه، ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر وقد قتل فيما بيننا بشر كثير وأنا أتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى، وأنا نسأل عن ذلك الموطن ولا يحاسب به غيري وغيرك فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة وصلاح للأمة وحقن للدماء وإلفة للدين وذهاب للضغائن والفتن أن يحكم بيننا، فإنه خير لي ولك وأقطع لهذه الفتن فاتق الله فيما دعيت له وأرض بحكم القرآن إن كنت من أهله والسلام.

«جواب أمير المؤمنين علي عليه السلام إياه»

فكتب إليه علي بن أبي طالب عليه السلام: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان أما بعد، فإن أفضل ما شغل به المرء نفسه أتباع ما حسن به فعله، ويستوجب فضله ويسلم من عيبه وأن البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه، ويبديان من خلله عند من يعنيه ما استرعاه الله ما لا يغني عنه تدبيره، فاحذر الدنيا فإنه لا فرح في شيء وصلت إليه منها ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته وقد رام قوم أمراً بغير الحق، فتأولوا على الله تعالى فأكذبهم ومتعهم قليلاً ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ، فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله ويندم من أمكن الشيطان من قياده، ولم يحاده فغرته الدنيا واطمأن إليها، ثم إنك قد دعوتني إلى حكم القرآن ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن إلى حكمه، ولسنا إياك أجبنا من لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيداً[1].

أقول: كتابه عليه السلام هذا مذكور في النهج في باب كتبه ورسائله الكتاب الثماني والأربعين

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٥٣٨، وشجرة طوبى: ٢/٣٤٣.

إلا أنما في النهج بعض ما ذكرنا ها هنا عن نصر.

«الكلام في الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص»

قال نصر: جاءت عصابة من القراء قد سلوا سيوفهم واضعيها على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تنتظر بهؤلاء القوم أن نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم بالحق، فقال لهم علي عليه السلام قد جعلنا حكم القرآن بيننا وبينهم ولا يحل قتالهم حتى ننظر بما يحكم القرآن.

«كتاب معاوية إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام»

قال: وكتب معاوية إلى علي أما بعد عافانا الله وإياك، فقد آن لك أن تجيب إلى ما فيه صلاحنا وإلفة بيننا، وقد فعلت الذي فعلت وأنا أعرف حقي ولكن اشتريت بالعفو صلاح الأمة ولا أكثر فرحاً بشيء جاء ولا ذهب وإنما دخلني في هذا الأمر القيام بالحق فيما بين الباغي والمبغي عليه، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فدعوت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك، فإنه لا يجمعنا وإياك إلا هو، نحيي ما أحيى القرآن ونميت ما أمات القرآن السلام.

«كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى عمرو بن العاص»

كتب علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص: أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً يزيده فيها رغبة، ولن يستغنى صاحبها بما نال عالم يبلغه ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من وعظ بغيره فلا تخبط أبا عبد الله أجرك ولا تجار معاوية في باطله.

«جواب عمرو بن العاص علياً عليه السلام»

فأجابه عمرو بن العاص: أما بعد فإن ما فيه صلاحنا وألفتنا الإنابة إلى الحق، وقد جعلنا القرآن حكماً بيننا فأجبنا إليه وصبر الرجل منا نفسه على ما حكم عليه القرآن، وعذره الناس بعد المحاجزة.

«جواب أمير المؤمنين عليه السلام عمرو بن العاص»

فكتب إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام: أما بعد فإن الذي أعجبك من الدنيا ما نازعتك إليه نفسك، ووثقت به منها لمنقلب عنك ومفارق لك، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقي وانتفعت بما وعظت به والسلام.

«جواب عمرو بن العاص علياً عليه السلام ثانياً»

فأجابه عمرو: أما بعد فقد أنصف من جعل القرآن إماماً ودعا الناس إلى أحكامه، فاصبر أبا حسن وأنا غير منيليك إلا ما أنا لك القرآن.

أقول: كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص: أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها، آه يأتي في باب الكتب والرسائل الكتاب التاسع والأربعين وأما جوابه عليه السلام عمراً: أما بعد فإن الذي أعجبكم آه غير مذكور في النهج.

ثم جاء الأشعث بن قيس إلى علي عليه السلام فقال: ما أرى الناس إلا وقد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ونظرت ما الذي يسأل؟ قال عليه السلام أيته إن شئت، فأتاه فسأله فقال: يا معاوية لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه فابعثوا منكم رجلاً ترضون به ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدو أنه ثم نتبع ما اتفقا عليه.

«الإتفاق على الصلح واختلاف أهل العراق في الحكمين»

فقال الأشعث: هذا هو الحق فانصرف إلى علي عليه السلام فأخبره بالذي قال: وقال الناس قد رضينا وقبلنا، فبعث علي عليه السلام قراء من أهل العراق وبعث معاوية قراء من أمل الشام فاجتمعوا بين الصفين ومعهم المصحف فنظروا فيه وتدارسوه، وأجمعوا على أن يحيوا ما أحيى القرآن وأن يميتوا ما أمات القرآن.

ثم رجع كل فريق إلى أصحابه وقال الناس: قد رضينا بحكم القرآن، فقال أهل الشام فأنا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص.

وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: فإنا قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعري، فقال له علي عليه السلام إني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه، فقال الأشعث، ويزيد بن حصين، ومسعر بن فدكي في عصابة من القراء إنا لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه، قال علي عليه السلام فإنه ليس لي برضا وقد فارقني وخذل الناس عني، ثم هرب حتى أمنته بعد أشهر ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك قالوا: والله ما نبالي أنت كنت أو ابن عباس لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر، قال علي عليه السلام: فإني أجعل الأشتر، قال الأشعث: وهل سعر الأرض علينا غير الأشتر، وهل نحن إلا في حكم الأشتر، قال له علي عليه السلام: وما حكمه؟ قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكونن ما أردت وما أراد.

نصر عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: لما أراد الناس علياً أن يضع حكمين قال لهم علي إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وأنه لا يصلح للقرشي إلا مثله فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به، فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ولا يحل عقدة إلا عقدها ولا يبرم أمراً إلا نقضه ولا ينقض أمراً إلا أبرمه، فقال الأشعث لا والله لا نحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة ولكن إجعله رجلاً من أهل اليمن، إذا جعلوا رجلاً من مضر، فقال علي عليه السلام: إني أخاف أن يخدع يمنيكم فإن عمراً ليس من الله في شيء حتى إذا كان له في أمر هواه، فقال الأشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكره واحدهما من أهل اليمن أحب إلينا من أن يكون ما نحب في حكمهما وهما مضريان.

قال: قال علي عليه السلام: قد أبيتم إلا أبا موسى؟ قالوا: نعم، قال: فاصنعوا ما أردتم فبعثوا إلى أبي موسى وقد اعتزل بأرض من أرض الشام يقال لها: عرض واعتزل القتال فأتاه مولى له. فقال: إن الناس قد اصطلحوا، قال: الحمد لله رب العالمين، قال: وقد جعلوك حكماً، قال: إن الله وإنا إليه راجعون.

فجاء أبو موسى حتى دخل عسكر علي، وجاء الأشتر حتى أتى علياً فقال له: يا أمير المؤمنين ألزني بعمرو بن العاص فوالله الذي لا إله إلا هو غيره لئن ملأت عيني منه لأقتلنه، وجاء الأحنف بن قيس التميمي فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض ومن حارب الله ورسوله أنف الإسلام، وإني قد عجمت هذا الرجل يعني أبا موسى وحلبت أشطره فوجدته كليل الشفرة قريب القعر وأنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم ويتباعد منهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم، فإن شئت أن تجعلني حكماً فاجعلني فإن شئت أن تجعلني ثانياً أو ثالثاً فإنه لا يعقد عقدة إلا حللتها، ولن يحل عقدة إلا عقدتها وعقدت لك أخرى أشد منها، فعرض علي عليه السلام ذلك على الناس فأبوه وقالوا: لا يكون إلا أبا موسى.

«صورة صحيفة الصلح واختلاف الناس في كتابتها»

قال نصر: فلما رضي أهل الشام بعمرو بن العاص ورضي أهل العراق بأبي موسى، أخذوا في كتاب الموادعة ورضوا بالحكم حكم القرآن.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه ونصر بن مزاحم في كتاب الصفين: فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضي عليه علي أمير المؤمنين فقال معاوية: بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته، وقال عمرو: أكتب إسمه واسم أبيه إنما هو أميركم وأما

أميرنا فلا، فلما أعيد إليه الكتاب أمر بمحوه فقال الأحنف: لا تمح إسم أمرة المؤمنين عنك فإني أتخوف إن محوتها لا ترجع إليك أبداً لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً فأبى ملياً من النهار أن يمحوها.

ثم إن الأشعث بن قيس جاء فقال: إمح هذا الإسم فقال علي عليه السلام: لا إله إلا الله والله أكبر سنة بسنة، إنا والله لعلى يدي راد هذا الأمر يوم الحديبية، حين كتبت الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو فقال سهيل: لا أجيبك إلى كتاب تسمى رسول الله ولو علم أنك رسول الله لم أقاتلك إني إذا ظلمتك إن منعتك أن تطوف ببيت الله وأنت رسول الله ولكن أكتب محمد بن عبد الله أجيبك، فقال محمد صلى الله عليه وآله: يا علي إني لرسول الله وإني لمحمد بن عبد الله ولن يمحو عن الرسالة كتابي إليهم من محمد بن عبد الله فاكتب محمد بن عبد الله فراجعني المشركون في عهد إلى مدة فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى آبائهم سنة ومثلاً.

فقال عمرو بن العاص: سبحان الله ومثل هذا أتشبهنا بالكفار ونحن مؤمنون، فقال له علي: يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً، وهل تشبه إلا أمك التي وضعت بك؟ فقام عمرو فقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم، فقال علي عليه السلام: والله إني لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك، ثم جاءت عصابة قد وضعوا سيوفهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين مرنا بما شئت فقال لهم ابن حنيف: أيها الناس اتهموا رأيكم فوالله لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي صالح عليه النبي صلى الله عليه وآله.

نصر بإسناده عن علقمة بن قيس النخعي قال: لما كتب علي عليه السلام الصلح يوم صالح معاوية فدعا الأشتر ليكتب فقال قائل أكتب بينك وبين معاوية، فقال: إني والله لأنا كتبت الكتاب بيدي يوم الحديبية وكتبت بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: لا أرضى أكتب باسمك اللهم فكتبت هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال: لو شهدت أنك لرسول الله وأن رغم أنفك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أكتب ما يأمرك إن لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد[1].

وفي الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري قال: في الاختلاف في كتابة صحيفة الصلح: وكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضي عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان. فقال أبو الأعور: أو معاوية، وعلي، فقال الأشعث: لا لعمر الله ولكن نبدأ

(١) المسترشد: ٣٩١، وبحار الأنوار: ٣٢/٥٤٢.

بأولهما إيماناً وهجرة وأدناه ما من الغلبة فقال معاوية: قدموا أو أخروا[1].

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: فكتب كتاب القضية بين علي، ومعاوية فيما قيل يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ٣٧ من الهجرة وقال نصر يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين، أما صورة تلك الصحيفة فقال نصر بن مزاحم المنقري في كتاب الصفين فكتبوا:

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ قضية علي على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب إنا رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم وأن نقف عند أمره فيما أمر، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيى ونميت ما أمات على ذلك تقاضياً وبه تراضياً وأن علياً وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظراً ومحاكماً على أنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه، ليتخذا الكتاب إماماً فيما بعث له لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنّة رسول الله ﷺ الجامعة لا يتعمدان لها خلافاً ولا يتبعان في ذلك لهما هوى، ولا يدخلان في شبهة وأخذ عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص على علي عليه السلام، ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به من كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره، وأنهما آمنان في حكومتها على دمائهما وأموالهما وأهلهما ما لم يعدوا الحق رضي بذلك راضٍ أو أنكره منكر، وأن الأمة أنصار لهما على ما قضيا به من العدل، فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة فأمير شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجلاً لا يألون عن أهل المعدلة والأقساط على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وله مثل شرط صاحبه وإن مات أحد الأميرين قبل القضاء فلشيعته أن يولوا مكانه رجلاً يرضون عدله، وقد وضعت القضية ومعها الأمن والتفاوض ووضع السلاح والسلام والموادعة وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه أن لا يألوا اجتهاداً ولا يتعمدا جواباً ولا يدخلا في شبهة ولا يعدوا حكم الكتاب وسنّة رسول الله ﷺ، فإن لم يفعلا برأت الأمة من حكمهما ولا عهد لهما لا ذمة وقد وجبت القضية على ما قد سمي في هذا الكتاب مع مواقع الشروط عى الأميرين والحكيمن والفريقين والله أقرب شهيداً وأدنى حفيظاً، والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل والسلاح موضوع والسبل مخلاة والغائب والشاهد

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٥٢.

من الفريقين سواء في الأمن، وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً بين أهل العراق وأهل الشام ولا يحضرهما فيه إلا من أحبا عن ملا منهما وتراضٍ وأن المسلمين قد أجلوا القاضيين إلى انسلاخ رمضان فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجها له عجلاها، وأن أرادا تأخيره بعد رمضان إلى انقضاء الموسم فإن ذلك إليهما، فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب، وهم يدٌ على من أراد فيه إلحاداً وظلماً أو حاول له نقضاً.

فكتب أهل العراق كتاباً لأهل الشام وكتب أهل الشام كتاباً بهذا لأهل العراق، وشهد شهود أهل الشام على أهل العراق وشهد شهود أهل العراق على أهل الشام[١].

وقال ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة: إن الكتاب كان بخط عمرو بن عبادة كاتب معاوية.

نصر عن عمر بن سعد قال: حدثني أبو إسحاق الشيباني قال: قرأت كتاب الصلح عند سعيد بن أبي بردة في صحيفة صفراء عليها خاتمان خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها؛ في خاتم علي عليه السلام محمد رسول الله وفي خاتم معاوية محمد رسول الله فقيل لعلي عليه السلام حين أراد أن يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام: أتقر أنهم مؤمنون مسلمون؟ فقال علي عليه السلام: ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون ولكن يكتب معاوية ما شاء ويقر بما شاء لنفسه وأصحابه ويسمي نفسه وأصحابه ما شاء.

«كلام علي عليه السلام حين أقر الناس بالصلح»

نصر عن عمر بن سعد عن إسحاق بن يزيد عن الشعبي: أن علياً عليه السلام قال يوم صفين حين أقر الناس بالصلح: إن هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا (لينيبوا ـ خ ل) إلى الحق ولا ليجيبوا إلى كلمة السواء حتى يرموا بالمناسر تتبعها العساكر، وحتى يرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب، وحتى يجر ببلادهم الخميس يتلوه الخميس حتى تدعق الخيول في نواحي أرضهم وبإحناء مساربهم ومسارحهم، وحتى تشن عليهم الغارات من كل فج وحتى تلقاهم قوم صدق صبر لا يزيدهم هلاك من هلك من قتلاهم، وموتاهم في سبيل الله إلا جداً في طاعة الله وحرصاً على لقاء الله ولقد كنا مع رسول الله ﷺ نقتل[٢] آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٥٣.

(٢) في نسخة: فقتل.

يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على أمض الألم وجداً على جهاد العدو والإستقلال بمبارزة الأقران، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا، فلما رآنا الله صبراً صدقاً أنزل الله بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر ولعمري لو كنا نأتي مثل الذي أتيتم ما قام الدين ولا عز الإسلام وأيم الله لتجلبنها دماً فاحفظوا ما أقول لكم يعني الخوارج.

أقول: بعض كلامه عليه السلام هذا مذكور في النهج في باب الخطب الخطبة الإثنتين والعشرين والمائة وأتى بفصل من كلامه عليه السلام حين رجع أصحابه عن القتال بصفين لما اغترهم معاوية برفع المصاحف، فانصرفوا عن الحرب الشيخ المفيد قدس سره في الإرشاد وهو:

لقد فعلتم فعلة ضعضعت من الإسلام قواه وسقطت منته وأورثت وهنا وذلة، لما كنتم الأعلين وخاف عدوكم الإجتياح واستخر بهم القتل ووجدوا ألم الجراح رفعوا المصاحف، ودعوكم إلى ما فيها ليفيؤوكم عنهم ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم، ويتربصوا بكم ريب المنون خديعة ومكيدة فما أنتم إن جامعتموهم على ما أحبوا وأعطيتموهم الذين سألوا إلا المغرورين وأيم الله ما أظنكم بعد موافقي رشد ولا مصيب حزم.

«كلام الأشتر لما دعى للصحيفة»

قال نصر بإسناده عن عمار بن ربيعة الجرمي: لما كتبت الصحيفة دعى لها الأشتر فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشمال إن كتب لي في هذه الصحيفة إسم على صلح ولا موادعة، أو لست على بينة من ربي ويقين من ضلالة عدوي، أو لستم قد رأيتم الظفران لم تجمعوا على الخور؟ فقال له رجل من الناس: إنك والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً هلم فأشهد على نفسك وأقرر بما كتب في هذه الصحيفة فإنه لا رغبة بك عن الناس فقال: بلى، والله إن بي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة، ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي ولا أحرم دماً، فقال عمار بن ربيعة: فنظرت إلى ذلك الرجل وكأنما قصع على أنفه الحمم وهو الأشعث بن قيس، ثم قال: ولكن قد رضيت بما صنع علي أمير المؤمنين عليه السلام ودخلت فيما دخل فيه وخرجت ما خرج منه، فإنه لا يدخل إلا في هدى وصواب.

«كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في الأشتر رضوان الله عليه»

نصر عن عمر عن فضيل بن خديج قال: قيل لعلي عليه السلام: لم اكتب الصحيفة إن الأشتر لم يرض بما في هذه الصحيفة ولا يرى إلا قتال القوم، فقال علي عليه السلام بلى، إن الأشتر

ليرضى إذا رضيت، وقد رضيت ورضيتم ولا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى الله ويتعدى ما في كتابه، وأما الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك وليس أتخوفه، على ذلك وليت مثله إثنان بل ليت فيكم مثله واحد يرى في عدوه مثل رأيه إذاً لخفت على مؤتتكم، ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم، وقد نهيتكم عما أتيتم فعصيتموني، وكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فقالت طائفة ممن معه: ونحن ما فعلنا يا أمير المؤمنين إلا ما فعلت. قال: نعم فلم كانت إجابتكم إياهم إلى وضع الحرب عنا، وأما القضية فقد استوثقنا لكم فيها وقد طمعت ألا تضلوا إن شاء الله رب العالمين.

ثم قالا: وكان الكتاب في صفر والأجل في شهر رمضان لثمانية أشهر يلتقي الحكمان ثم أن الناس أقبلوا على قتلاهم يدفنونهم.

أقول: أتى بكلامه عليه السلام هذا، الشيخ المفيد رضوان الله عليه في الإرشاد مع اختلاف يسير في بعض العبائر.

قال المسعودي: ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعاً يتبرأ الأخ من أخيه الابن من أبيه، وأمر علي عليه السلام بالرحيل لعلمه باختلاف الكلمة وتفاوت الرأي وعدم النظام لأمورهم، ما لحقه من الخلاف منهم وكثرة التحكيم في جيش أهل العراق، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف، وتسابوا ولام كل فريق منهم الآخر في رأيه وسار علي يؤم الكوفة، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام وفرق عسكره فلحق كل جند منهم ببلده.

وبالجملة لما اختار أهل العراق أبا موسى الأشعري واختار أهل الشام عمرو بن العاص، تفرق أهل صفين حين حكم الحكمان واشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن وأن يختارا لأمة محمد صلى الله عليه وآله وأنهما مجتمعان بدومة الجندل وهي على عشرة أميال من دمشق فإن لم يجتمعا لذلك إجتمعا من العام المقبل بأذرح.

«إجتماع الفريقين والحكمين بدومة الجندل»

قال نصر: إن علياً عليه السلام بعث أربعمائة رجل وبعث عليهم شريح بن هاني الحارثي، وبعث عبد الله بن عباس يصلي بهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة رجل ـ إلى أن قال ـ: ثم إنهم خلوا بين الحكمين فكان رأى عبد الله بن قيس أبي موسى في عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان يقول: والله إن استطعت لأحيين سنة عمر.

«وما وصى به شريح بن هاني أبا موسى»

قال نصر: وفي حديث محمد بن عبيد الله عن الجرجاني قال: لما أراد أبو موسى السير قام شريح بن هاني فأخذ بيد أبي موسى فقال: يا أبا موسى إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ولا يستقل فتقه، ومهما تقل شيئاً لك أو عليك ثبت حقه ويزول باطله، وأنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكه معاوية، ولا بأس على أهل الشام إن ملكها علي، وقد كان منك تثبيطة أيام قدمت الكوفة فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً والرجاء منك يأساً. ثم قال شريح في ذلك شعراً:

أبا موسى رميت بشر خصم ... فلا تضع العراق فدتك نفسي
واعط الحق شامهم وخذه ... فإن اليوم في مهل كأمس
وإن غداً يجيء بما عليه ... يدور الأمر من سعد ونحس
ولا يخدعك عمرو إن عمراً ... عدو الله مطلع كل شمس
له خدع يحار العقل فيها ... مموهة مزخرفة بلبس
فلا تجعل معاوية بن حرب ... كشيخ في الحوادث غير نكس
هداه الله للإسلام فرداً ... سوى بنت النبي وأي عرس

قال نصر: في غير كتاب ابن عقبة: سوى عرس النبي وأي عرس.

«ما قال أبو موسى في جوابه»

فقال أبو موسى: ما ينبغي لقوم إتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً أو أجر إليهم حقاً.

«ما وصى به الأحنف بن قيس أبا موسى»

قال نصر: وكان آخر من ودع أبا موسى الأحنف بن قيس أخذ بيده ثم قال له: يا أبا موسى أعرف خطب هذا الأمر واعلم أن له ما بعده وأنك إن ضيعت العراق فلا عراق، فاتق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك وإذا لقيت عمراً غداً فلا تبدأه بالسلام فإنها وإن كانت سنّة إلا أنه ليس من أهلها، ولا تعطه بيدك فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش، فإنها خدعة وتلقه وحده واحذره أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود، ثم أراد أن يبور ما في نفسه لعلي فقال له: فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي فخيره أن يختار أهل العراق من قريش الشام من شاؤوا فأنهم يولونا الخير فنختار من نريد وإن أبوا فليخير أهل الشام من قريش العراق من شاؤوا فإن فعلوا كان الأمر فينا.

قال أبو موسى: قد سمعت ما قلت ولم يتحاش لقول الأحنف. فرجع الأحنف فأتى علياً عليه السلام فقال يا أمير المؤمنين أخرج والله أبو موسى زبدة سقائه في أول مخضه لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعك. فقال علي عليه السلام يا أحنف إن الله غالب على أمره.

«بعث الصلتان أشعاراً من الكوفة إلى دومة الجندل»

قال نصر: وفشا أمر الأحنف وأبي موسى في الناس ـ إلى أن قال ـ: وبعث الصلتان العبدي وهو بالكوفة بأبيات إلى دومة الجندل:

لعمرك لا ألقى مدى الدهر خالعاً	علياً بقول الأشعري ولا عمرو
فإن يحكما بالحق نقبله منهما	وإلا أثرناها كراغية البكر
ولسنا نقول الدهر ذاك إليهما	وفي ذاك لو قلناه قاصمة الظهر
ولكن نقول الأمر بالحق كله	إليه في كفيه عاقبة الأمر
وما اليوم إلا مثل أمس وإننا	لفي رهق الضحضاح أو لجة الأمر

فلما سمع الناس قول الصلتان شحذهم ذلك على أبي موسى واستبطائه القوم وظنوا به الظنون، وأطبق الرجلان بدومة الجندل لا يقولان شيئاً.

«قصة سعد بن أبي وقاص وابنه عمر»

قال نصر: وكان سعد بن أبي وقاص قد اعتزل علياً عليه السلام ومعاوية، فنزل على ماء لبني سليم بأرض البادية يتشوف الأخبار وكان رجلاً له بأس ورأي في قريش ولم يكن له في علي ولا معاوية هوىً، فأقبل راكب يوضع من بعيد فإذا هو يابنه عمر بن سعد فقال: يا أبي إلتقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا ثم حكموا الحكمين عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص وقد حضر ناس من قريش عندها وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أهل الشورى، ومن قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إتقوا دعواته ولم تدخل في شيء مما تكن هذه الأمة فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غداً، فقال: مهلاً يا عمر إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يكون من بعدي فتنة خير الناس فيها الخفي التقي، وهذا الأمر لم أشهد أوله ولن أشهد آخره ولو كنت غامساً يدي في هذا الأمر غمستها مع علي. قد رأيت القوم حملوني على حد السيف فاخترته على النار، فأقم عند أبيك ليلتك هذه، فراجعه عمر حتى طمع في الشيخ فلما جنه الليل رفع صوته ليسمع أبوه فقال:

دعوت أباك اليوم والله للذي	دعاني إليه القوم والأمر مقبل
فقلت لهم للموت أهون جرعة	من النار فاستبقوا أخاكم أو اقتلوا

فكفوا وقالوا إن سعد بن مالك مزخرف جهل والمجهل أجهل
فلما رأيت الأمر قد جد جده وكاشفنا يوم أغر مخجل
هربت بديني والحوادث جمة وفي الأرض أمن واسع ومعول
فقلت معاذ الله من شر فتنة لها آخر لا يستقال وأول
ولو كنت يوماً لا محالة وافداً تبعت علياً والهوى حيث يجعل
ولكنني زاولت نفساً شحيحة على دينها تأبى علي وتبخل
فأما ابن هند فالتراب بوجهه وإن هواي عن هواه لأميل
فيا عمر إرجع بالنصيحة إنني سأصبر هذا العام والصبر أجمل

فارتحل عمر وقد استبان له أمر أبيه[١].

أقول: عمر بن سعد هذا هو الذي أطاع أهل الشقاق والنفاق وحملة الأوزار المستوجبين النار، وتوازر على الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء، وقد أخبر بذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام كما ورد في غير واحد من الأخبار.

في الإرشاد للمفيد والإحتجاج للطبرسي رضوان الله عليهما عن زكريا بن يحيى القطان عن فضل بن زبير عن أبي الحكم قال: سمعت مشيختنا وعلماءنا يقولون خطب علي بن أبي طالب عليه السلام فقال في خطبة: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلا نبأتكم بناعقها وسايقها إلى يوم القيامة، فقام إليه رجل فقال: أخبرني كم في رأسي ولحيتي من طاقة شعر فقال أمير المؤمنين عليه السلام والله لقد حدثني خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله بما سئلت عنه وأن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وعلى كل طقة شعر من لحيتك شيطاناً يستفزك وأن في بيتك لسخلا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وآية ذلك مصداق ما أخبرتك به ولولا أن الذي سئلت عنه يعسر برهانه لأخبرتك به، ولكن آية ذلك ما نبأت به من لعنتك وسخلك الملعون.

ثم قالا: وكان ابنه في ذلك الوقت صبياً صغيراً يحبو فلما كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان تولي قتله وكان الأمر كما قال أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

ذلك الرجل السائل هو سعد بن أبي وقاص وذلك السخل هو ابنه عمر كما صرح بهما في كثير من الأخبار.

---

(١) وقعة صفين: ٥٣٩.

(٢) الإحتجاج: ١/ ٣٨٩، والإرشاد: ١/ ٣٣١.

«إرسال معاوية المغيرة بن شعبة إلى دومة الجندل»

قال نصر: وقد كانت الأخبار أبطأت على معاوية فبعث إلى رجال من قريش من الذين كرهوا أن يعينوه في حربه: إن الحرب قد وضعت أوزارها والتقى هذان الرجلان بدومة الجندل فأقدموا عليّ فأتاه عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأبو الجهم بن حذيفة، وعبد الرحمن بن الأسود بن يغوث الزهري، وعبد الله بن صفوان الجمحي ورجل من قريش وأتاه المغيرة بن شعبة وكان مقيماً بالطائف لم يشهد صفين، فقال: يا مغيرة ما ترى؟ قال: يا معاوية لو وسعني أن أنصرك لنصرتك ولكن عليّ أن آتيك بأمر الرجلين فركب حتى أتى دومة الجندل فدخل على أبي موسى كأنه زائر له. فقال: يا أبا موسى ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء؟ قال: أولئك خير الناس خفت ظهورهم من دمائهم وخمصت بطونهم من أموالهم.

ثم أتى عمرا فقال: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء؟ قال: أولئك شر الناس لم يعرفوا حقاً ولم ينكروا باطلاً، فرجع المغيرة إلى معاوية فقال له: قد ذقت الرجلين أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه وجاعلها الرجل لم يشهد هذا الأمر وهواه في عبد الله بن عمر، وأما عمرو فهو صاحبك الذي تعرف وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه وأنه لا يرى أنك أحق بهذا منه.

«إبتداء المكالمة والمشاجرة بين أبي موسى وعمرو بن العاص»

قال نصر: أقبل أبو موسى إلى عمرو فقال: يا عمر وهل لك في أمر هو للأمة صلاح ولصلحاء الناس رضا، يتولى هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ولا هذه الفرقة؟ وعبد الله بن عمرو بن العاص،، وعبد الله بن الزبير قريبان يسمعان هذا الكلام، فقال عمرو: فأين أنت عن معاوية؟ فأبى عليه أبو موسى وشهدهم عبد الله بن هشام، وعبد الرحمن بن يغوث، وأبو الجهم بن حذيفة العدوي، والمغيرة بن شعبة. فقال عمرو: ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً؟ قال: بلى. قال: أشهدوا فما يمنعك يا أبا موسى من معاوية ولي عثمان وبيته في قريش ما قد علمت فإن خشيت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة، فإن لك بذلك حجة تقول إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم الطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير، وهو أخو أم حبيبة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، وقد صحبه وهو أحد الصحابة ثم عرض له بالسلطان فقال: إن هو ولي الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط.

فقال أبو موسى: إتق الله يا عمرو أما ذكرك شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس على

الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف كان أحق الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصباح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع إني لو كنت أعطيته أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب، وأما قولك أن معاوية ولي عثمان فوله هذا الأمر فإني لم أكن أوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين، وأما تعريضك بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته ولا كنت لأرتشي في الله، ولكنك إن شئت أحيينا سنّة عمر بن الخطاب وفي رواية أخرى: إنه قال: والله إن استطعت لأحيين إسم عمر بن الخطاب.

فقال عمرو بن العاص: إن كنت تريد أن تبايع ابن عمر فما يمنعك من إبني وأنت تعرف فضله وصلاحه؟ قال: إن إبنك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة.

قال أبو موسى لعمرو: إن شئت ولينا هذا الأمر الطيب بن الطيب عبد الله بن عمر، فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجل ضرس يأكل ويطعم، وأن عبد الله ليس هناك وكانت في أبي موسى غفلة. فقال ابن الزبير لابن عمر: إذهب إلى عمرو بن العاص فأرشه. فقال عبد الله بن عمر: لا والله ما أرشو عليها أبداً ما عشت ولكنه قال له ويلك يا ابن العاص، إن العرب قد أسدت إليك أمرها بعد «ما ظ» تقارعت بالسيوف وتشاجرت بالرماح فلا تردهم في فتنة واتق الله.

«ما أوصى به أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص»

نصر قال: عمر عن أبي زهير العبسي عن النضر بن صالح قال: كنت مع شريح بن هاني في غزوة سجستان فحدثني أن علياً عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص قال له: قل لعمرو إن أنت لقيته إن علياً يقول لك:

إن أفضل الخلق عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه، وإن أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه وإن زاده، والله يا عمرو إنك لتعلم أين موضع الحق فلم تتجاهل أبأن أوتيت طمعاً يسيراً؟ فكنت لله ولأوليائه عدواً فكان والله ما أوتيت قد زال عنك فلا تكن للخائنين خصيماً ولا للظالمين ظهيراً، أما إني أعلم أن يومك الذي أنت فيه نادم هو يوم وفاتك، وسوف تتمنى أنك لم تظهر لمسلم عداوة ولم تأخذ على حكم رشوة.

قال شريح: فأبلغته ذلك فتعمر وجه عمرو وقال: ومتى كنت أقبل مشورة علي أو أنيب إلى أمره أو أعتد برأيه، فقلت: وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم صلى الله عليه وآله مشورته، لقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه، فقال: إن مثلي لا يكلم إلا مثلك فقلت: بأي أبويك ترغب عن كلامي بأبيك الوسيط أم بأمك النابغة؟ فقام من مكانه وقمت.

«روغان عمرو بن العاص ومكره في خلع أمير المؤمنين علي عليه السلام ونصب معاوية واغترار أبي موسى»

قال نصر: قال عمر بن سعد قال: حدثني أبو خباب الكلبي إن عمراً، وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل أخذ عمر ويقدم عبد الله بن قيس في الكلام، ويقول إنك قد صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله قبلي وأنت أكبر مني فتكلم ثم أتكلم، وكان عمر وقد أعد أبا موسى يقدمه في كل شيء وإنما اغتره بذلك ليقدمه فيبدأ بخلع علي عليه السلام، فنظرا في أمرهما وما اجتمعا عليه فأراده عمرو على معاوية فأبى، وأراده على ابنه فأبى، وأراده أبو موسى على عبد الله بن عمر فأبى عليه عمر، قال: فأخبرني ما رأيك يا أبا موسى؟ قال: رأيي أن أخلع هذين الرجلين علياً، ومعاوية ثم نجعل هذا الأمر شورى بين المسلمين يختارونه لأنفسهم من شاؤوا ومن أحبوا، فقال له عمرو: الرأي ما رأيت. وقال عمرو: يا أبا موسى إنه ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام لغضبك لعثمان، وبغضك للفرقة وقد عرفت حال معاوية في قريش وشرفه في عبد مناف وهو ابن هند وابن أبي سفيان فما ترى؟ قال: أرى خيراً أما ثقة أهل الشام بي فكيف يكون ذلك وقد سرت إليهم مع علي، وأما غضبي لعثمان فلو شهدته لنصرته وأما بغضي للفتن فقبح الله الفتن، وأما معاوية فليس بأشرف من علي وباعده أبو موسى فرجع عمرو مغموماً فخرج عمرو ومع ابن عم له غلام شاب وهو يقول:

يا عمرو إنك للأمور مجرب	فارفق ولا تقذف برأيك أجمع
واستبق منه ما استطعت فإنه	لا خير في رأي إذا لم ينفع
واخلع معاوية بن حرب خدعة	يخلع علياً ساعة وتصنع
واجعله قبلك ثم قل من بعده	إذهب فمالك في ابن هند مطمع
تلك الخديعة إن أردت خداعه	والراقصات إلى منى خذ أودع

فافترضها عمرو وقال: يا أبا موسى ما رأيك؟ قال: رأيي أن أخلع هذين الرجلين ثم يختار الناس لأنفسهم من أحبوا، فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة، قال عمرو: صدق، ثم قال: يا أبا موسى فتكلم فتقدم أبو موسى ليتكلم، فدعاه ابن عباس فقال: ويحك والله إني لأظنه قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدمه قبلك فيتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده، فإن عمراً رجل غدار ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت به في الناس خالفك، وكان أبو موسى رجلا مغفلاً فقال: إنا قد اتفقنا فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نرَ شيئاً هو أصلح لأمر هؤلاء وألم لشعثها أن لا أمورها «كذا» وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي عمر وعلي خلع علي ومعاوية ونستقبل هذا الأمر، فيكون شورى بين المسلمين فيولون أمورهم من أحبوا، وأني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتم له أهلاً ثم تنحى فقعد.

وقام عمرو بن العاص مقامه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هذا قال قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فقال له أبو موسى: مالك لا وفقك الله قد غدرت **﴿وفجرت وإنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾** إلى آخر الآية فقال له عمرو: **﴿إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفارا﴾** إلى آخر الآية، وحمل شريح بن هاني على عمرو فقنعه بالسوط، وحمل على شريح ابن لعمرو فقر به بالسوط وقام الناس فحجزوا بينهم، فكان شريح يقول بعد ذلك ما ندمت على شيء ندامتي أن لا ضربته بالسيف بدل السوط أتى الدهر بما أتى به، والتمس أصحاب علي أبا موسى فركب ناقته فلحق بمكة، فكان ابن عباس يقول: قبح الله أبا موسى حذرته وأمرته بالرأي فما عقل، وكان أبو موسى يقول: قد حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكن اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية، فسلموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس، وشريح بن هاني إلى علي عليه السلام، وقال أصحاب علي عليه السلام وإنا اليوم لعلي عليه السلام ما كنا عليه أمس[1].

وفي الإمامة والسياسة للدينوري بعد نقل طائفة مما قال عمرو لأبي موسى: قال عمرو له: فهل لك أن تخلعهما جميعاً وتجعل الأمر لعبد الله بن عمر، فقد صحب رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً، وقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه؟

فقال أبو موسى: جزاك الله بنصيحتك خيراً وكان أبو موسى لا يعدل بعبد الله بن عمر أحداً، لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومكانه من أبيه لفضل عبد الله في نفسه، وافترقا على هذا واجتمع رأيهما على ذلك.

ثم إن عمراً غدا على أبي موسى بالغد وجماعة الشهود فقال: يا أبا موسى ناشدتك الله تعالى من أحق بهذا الأمر من أوفى أو من غدر؟ قال أبو موسى: من أوفى قال عمرو: يا أبا موسى ناشدتك الله تعالى ما تقول في عثمان؟ قال أبو موسى: قتل مظلوماً، قال عمرو: فما الحكم فيمن قتل؟ قال أبو موسى: يقتل بكتاب الله تعالى. قال فمن يقتله؟ قال: أولياء عثمان. قال: فإن الله يقول في كتابه العزيز ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ قال:

(١) شرح الأخبار: ٢/٨، وبحار الأنوار: ٣٣/٣٠٢.

فهل تعلم أن معاوية من أولياء عثمان؟ قال: نعم. قال عمرو للقوم: أشهدوا. قال أبو موسى للقوم: أشهدوا على ما يقول عمرو.

ثم قال أبو موسى لعمرو: قم يا عمرو فقل وصرح بما اجتمع عليه رأيي ورأيك وما اتفقنا عليه فقال عمرو: سبحان الله أقوم قبلك وقد قدمك الله قبلي في الإيمان والهجرة وأنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله، ووافد رسول الله إليهم وبك هداهم الله وعرفهم شرائع دينه وسنّة نبيه، وصاحب مغانم أبي بكر وعمر ولكن قم أنت فقل ثم أقول فأقول، فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن خير الناس للناس خيرهم لنفسه وإني لا أهلك ديني بصلاح غيري، وإن هذه الفتنة قد أكلت العرب وإني رأيت وعمراً أن نخلع علياً ومعاوية ونجعلهما لعبد الله بن عمر فإنه لم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً.

ثم قام عمرو فقال: أيها الناس هذا أبو موسى شيخ المسلمين وحكم أهل العراق، من لا يبيع الدين بالدنيا وقد خلع علياً وأثبت معاوية. فقال أبو موسى: مالك؟ عليك لعنة الله ما أنت إلا كمثل الكلب تلهث فقال عمرو: لكنك مثل الحمار يحمل أسفاراً، واختلط الناس فقالوا: والله لو اجتمعنا على هذا ما حولتمانا عما نحن عليه، وما صلحكما بلازمنا وإنا اليوم على ما كنا عليه أمس ولقد كنا ننظر إلى هذا قبل أن يقع وما أمات قولكما حقاً ولا أحيى باطلاً.

ثم تشاتم أبو موسى، وعمرو ثم انصرف عمرو إلى معاوية ولحق أبو موسى بمكة وانصرف القوم إلى علي فقال عدي: أما والله يا أمير المؤمنين لقد قدمت القرآن وأخرت الرجال، وجعلت الحكم لله فقال علي: أما إني قد أخبرتكم أن هذا يكون بالأمس وجهدت أن تبعثوا غير أبي موسى فأبيتم عليّ، ولا سبيل إلى حرب القوم حتى تنقضي المدة.

ثم إن قضية أبي موسى، وعمرو في ذلك نقلت بوجوه أخرى أيضاً منها ما في مروج الذهب للمسعودي ـ إلى أن قال: ـ فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولم الشعث، وحقن الدماء وجمع الإلفة خلعنا علياً ومعاوية وقد خلعت علياً كما خلعت عما متى هذه وأهوى إلى عمته فخلعها واستخلفا رجلاً قد صحب رسول الله ﷺ بنفسه وصحب أبوه النبي فبرز في سابقته وهو عبد الله بن عمر، وأطراه ورغب الناس فيه ونزل، فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس أن أبا موسى عبد الله بن قيس خلع علياً وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب وهو أعلم به، ألا وإني خلعت علياً معه وأثبت معاوية عليّ وعليكم، وأن أبا موسى قد كتب في الصحيفة أن عثمان قد قتل مظلوماً شهيداً وأن لوليه أن يطلب بدمه حيث كان وقد صحب معاوية رسول الله ﷺ بنفسه وصحب أبوه

النبي ﷺ وأطراه ورغب الناس فيه وقال: هو الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان، فقال أبو موسى: كذب عمرو لم نستخلف معاوية ولكنا خلعنا معاوية وعلياً معاً فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس قد خلع علياً ولم يخلع معاوية.

ومنها ما أتى به الميبدي في شرح الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام عند قوله:

لقد عجزت عجز من لا يقتدر سوف أكيس بعدها وأستمر

أرفع من ذيلي ما كان يجر قد يجمع الأمر الشتيت المنتشر

فقام أبو موسى وقال: وقد خلعت علياً كما خلعت خاتمي هذا من يدي، ثم قام عمرو وقد خلع خاتمه من يده قبل فقال: أيها الناس إني أثبت معاوية عليّ وعليكم كما وضعت خاتمي هذا في يدي، ثم تشاتم أبو موسى، وعمرو ولحق أبو موسى بمكة ولم يعد إلى الكوفة، وقد كانت خطته وأهله وولده بها وآلى أن لا ينظر إلى وجه علي عليه السلام ما بقي.

قال نصر: فتشاتم عمرو، وأبو موسى من ليلته فإذا ابن عم لأبي موسى يقول:

أبا موسى بليت فكنت شيخاً قريب القعر مدهوش الجنان

رمى عمر وصفاتك يا ابن قيس بأمر لا تنوء به اليدان

وقد كنا نحمجم عن ظنون فصرحت الظنون عن العيان

فعض الكف من ندم وماذا يرد عليك عضك بالبنان

وشمت أهل الشام بأهل العراق وقال أبو موسى: إنما كان غدراً من عمرو.

قال نصر: وكان علي عليه السلام إذا صلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة يقول: اللهم ألعن معاوية، وعمراً، وأبا موسى، وحبيب بن مسلمة، والضحاك بن قيس، والوليد بن عقبة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت لعن علياً، وابن عباس، وقيس بن سعد، والحسن، والحسين، وفي نقل آخر لما أقنت علي عليه السلام على خمسة ولعنهم وهم معاوية، وعمرو بن العاص، وأبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وبسر بن أرطأة، أقنت معاوية على خمسة وهم علي، والحسن، والحسين، وعبد الله بن العباس والأشتر ولعنهم[١].

أقول: بسر بن أرطأة هو الذي بعثه معاوية إلى اليمن في جيش كثيف، وأمره أن يقتل كل من كان في طاعة علي عليه السلام فقتل خلقاً كثيراً وقتل فيمن قتل إبني عبد الله بن العباس بن

(١) وقعة صفين للمنقري: ٥٤٨ ط. المؤسسة العربية الحديثة (١٣٨٢هـ).

عبد المطلب وكانا غلامين صغيرين، وفعل بسر في الحجاز واليمن بأمر معاوية ما فعل، وبسر هذا تفوه به أمير المؤمنين علي عليه السلام في الخطبة الخامسة والعشرين حيث قال عليه السلام: أنبئت بسراً قد أطلع اليمن، إلى آخرها.

ودعا أمير المؤمنين علي عليه السلام على بسر هذا فقال عليه السلام: اللهم إن بسرا باع دينه بالدنيا وانتهك محارمك، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك، فلا تمته حتى تسلبه عقله ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار، اللهم العن بسراً وعمراً، ومعاوية وليحل عليهم غضبك ولتنزل بهم نقمتك، وليصبهم بأسك وزجرك الذي لا ترده عن القوم المجرمين.

فلم يلبث بسر بعد ذلك إلا يسيراً حتى وسوس وذهب عقله فكان يهدى بالسيف ويقول: أعطوني سيفاً أقتل به، لا يزال يردد ذلك حتى اتخذ له سيف من خشب وكانوا يدنون منه المرفقة فلا يزال يضربها حتى يغشى عليه فلبث كذلك إلى أن مات، رواه أبو الحسن المدائني كما في الجزء الثاني من شرح الشارح المعتزلي[1].

وقريب من ذلك رواه أبو جعفر الطبري في تاريخه وغيره من نقلة الأخبار والآثار، عن حسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام من أنه بعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقى منه قطرة وذلك قبل قتل الحسين بثلاث قال: ونازله عبد الله بن أبي حصين الأزدي وعداده في بجيلة فقال: يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً، فقال حسين عليه السلام اللهم اقتله عطشاً ولا تغفر له أبداً، قال: قال حميد بن مسلم: والله لعدته بعد ذلك في مرضه فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته يشرب حتى بغر، ثم يقيء ثم يعود فيشرب حتى يبغر فما يروى فما زال ذلك دأبه حتى لفظ غصته يعني نفسه.

وروى أيضاً في تاريخه: أن رجلاً من بني تميم يقال له عبد الله بن حوزة، جاء حتى وقف أمام الحسين عليه السلام فقال يا حسين يا حسين فقال حسين عليه السلام ما تشاء؟ قال أبشر بالنار قال: كلا إني أقدم على رب رحيم وشفيع ومطاع، من هذا؟ قال له أصحابه: هذا ابن حوزة قال: رب حزه إلى النار. قال: فاضطرب به فرسه في جدول فوقع فيه وتعلقت رجله بالركاب ووقع رأسه في الأرض، ونفر الفرس، فأخذه يمر به فيضرب برأسه كل حجر وكل شجرة حتى مات.

روى أيضاً في تاريخه: ومكث الحسين طويلاً من النهار كلما انتهى إليه رجلاً من كندة يقال له: مالك بن النسير من بني بداء أتاه فضربه على رأسه بالسيف وعليه برنس له فقطع البرنس وأصاب السيف رأسه فأدمى رأسه فامتلأ البرنس دماً، فقال له الحسين عليه السلام: لا

---

(١) الغارات: ٢/ ٢/ ٦٤٢ ح٢، والغدير: ١١/ ٢٨.

أكلت بها لا شربت وحشرك الله مع الظالمين ـ إلى أن قال ـ فذكر أصحاب الكندي أنه لم يزل فقيراً بشر حتى مات.

ونظائر هذه مما صدر من حجج الله ورسله سيما من خاتم النبيين وآله الطاهرين من خوارق العادات كثيرة جداً، نقلت في كتب الفريقين بعضها بلغ إلى حد التواتر وبعضها إلى حد الشهرة.

وليعلم أن أهل الله لو تفوهوا بالدعاء لقوم أو عليهم لأثر ذلك عاجلاً، لأنهم بلغوا في إتصافهم بالصفات الملكوتية وتخلقهم بالأخلاق الإلهية وتقربهم إلى المبادىء العالية سيما إلى مبدأ المبادىء وعلة العلل الله عزّ وجلّ إلى مرتبة منيعة ودرجة رفيعة حيث لا فرق بينهم وبين حبيبهم في صدور كثير من الأفعال عنهم، كما ورد في الحديث القدسي: عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي، وفي الحديث النبوي العبودية جوهرة كنهها الربوبية، وتأثير القوى النفسانية يصير إلى حد معجب لمن كان بمعزل عن العلم بأسرار النفس، ونعم ما قال العارف السعدي:

حكايت كنند از بزر گان دين — حقيقت شناسان عين اليقين

كه صاحبدلى بر پلنگى نشست — همى راند هموار ومارى بدست

يكى گفتش اى مرد راه خداى — بدين ره كه ر فتى مرا ره نماى

چه كردى كه در نده رم توشد — نگين سعادت بنم تو شد

بگفت ار پلنگم زبو نست ومار — وگرفيل وكركس شگفتى مدار

توم گردن ازحكم داور بود — خدايش نگهبان وياور بود

محالست چون دوست دارد ترا — كه در دست دشمن گذا رد ترا

يكى ديدم از عرصه رود بار — كه پيش آمدم بر پلنگى سوار

چنان هول ازاين حال بر من نشست — كه ترسيدنم پاى رفتن ببست

تبسم كنان دست برلب گرفت — كه سعدى مدار آنچه ديدى شگفت

ره اينست رو از حقيقت متاب — بنه گام وكامى كه دارى بياب

ثم أن ظهور الآثار الغريبة أثر تكويني لهذه الجوهرة النفيسة القدسية فيعم الكل وكلما كانت أقوى كان فعلها أشد سيما إذا كان حجة الله على عباده من نبي أو وصي، فأنهم بسبب شدة إنسلاخهم عن النواسيت الإنسانية تدوم عليهم الإشراقات العلوية، بسبب الإستضاءة بضوء القدس والألف بسناء المجد، فتطيعهم مادة الكائنات القابلة للصور المفارقة بإذن الله تعالى، فيتأثر المواد عن أنفسهم كما يتأثر أبدانهم عنها فلهذا يكون دعاؤهم مسموعاً في العالم الأعلى والقضاء السابق، ويتمكن في أنفسهم نور خلاق به يقدرون على الأشياء التي

يعجز عنها غيرهم قال عز من قائل في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه خطاباً لعيسى بن مريم، عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال الشيخ الرئيس في النمط العاشر من الإشارات: إذا بلغك أن عارفاً أطلق بقوته فعلاً أو تحريكاً أو حركة تخرج عن وسع مثله فلا تتلقه بكل ذلك الإستنكار، فقد جد إلى سببه سبيلاً في اعتبارك مذاهب الطبيعة.

وقال المحقق الطوسي في شرحه: ثم لما كان فرح العارف ببهجة الحق أعظم من فرح غيره بغيرها، وكانت الحالة التي يعرض لها وتحركه إعترازاً بالحق أو حمية إلهية أشد مما يكون لغيره كان اقتداره على حركة لا يقدر غيره عليها أمراً ممكناً، ومن ذلك تبين معنى الكلام المنسوب إلى علي عليه الصلاة والسلام: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن قلعته بقوة ربانية[1].

وقال القوشجي في شرح التجريد: وعجز عن إعادته سبعون رجلاً من الأقوياء.

وأيضاً قال الفاضل القوشجي في شرح التجريد لمصنفه نصير الدين الطوسي في المقصد الخامس من كتابه في الإمامة، عند قوله في عد فضائل أمير المؤمنين علي عليه السلام ورفع الصخرة العظيمة عن القليب: روي أنه لما توجه إلى صفين مع أصحابه أصابهم عطش عظيم فأمرهم أن يحفروا بقرب دير فوجدوا صخرة عظيمة عجزوا عن نقلها، فنزل علي عليه السلام فأقلعها ورمى بها مسافة بعيدة فظهر قليب فيه ماء فشربوا عنها ثم أعادها ولما رأى ذلك صاحب الدير أسلم[2].

وقال العلّامة الحلي في شرحه المسمى بكشف المراد بعد قوله: فنزل صاحب الدير وأسلم: فسئل عنه ذلك، فقال: بني هذا الدير على قالع هذه الصخرة ومضى من قبلي ولم يدركوه.

وقل الشيخ المقتول في التلويحات: قد يحركون أجساماً يعجز عن تحريكها النوع ونعلم أننا إذا كنا على طرب وهزة، نعمل ما نتقاصر عن عشرة حتى زالت عنا، فما ظنك بنفس طربت باهتزاز علوي واستضاءت بنور ربه، فحركت ما عجز عنه النوع وقد اتصلت على الأفق المبين بذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم آمين.

---

(١) شرح مئة كلمة: ٢٥٧، وكتاب الأربعين: ٤١٠.

(٢) المسترشد: ٦٦٦.

ثم إن سفراء الله وحججه على خلقه لصفاء جوهر نفوسهم القدسية وشدة صقالتها ونورانيتها، الموصل لها إلى المبادىء العالية وشدة الإلتصاق بها من غير كسب وتعلم، قدروا على الإطلاع على الأمور الغائبة من غير كسب وفكر.

قال الشيخ الرئيس في النمط العاشر من الإشارات: إذا بلغك أن عارفاً حدث عن غيب فأصاب متقدماً ببشرى أو نذير فصدّق، ولا يتعسرن عليك الإيمان به فإن لذلك في مذاهب الطبيعة أسباباً معلومة.

وما يناسب المقام من الحديث عن غيب عن أمير المؤمنين، ورئيس الموحدين وقدوة العارفين علي بن أبي طالب عليه السلام، ما أتى به نصر بن المزاحم المنقري في كتاب صفين قال: حدثني مصعب بن سلم قال: أبو حيان التميمي عن أبي عبيدة عن هرثمة بن سليم قال: غزونا مع علي بن أبي طالب غزوة صفين فلما نزلنا بكربلاء صلى بنا صلاة فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال: واهاً لك أيتها التربة ليحشرنك قوم يدخلون الجنة بغير حساب. فلما رجع هرثمة من غزوته إلى إمرأته وهي جرداء بنت سمير وكانت شيعة لعلي فقال لها زوجها هرثمة ألا أعجبك من صديقك أبي الحسن لما نزلنا بكربلاء رفع إليه من تربتها فشمها وقال: واهاً لك يا تربة ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب وما علمه بالغيب. فقالت له: دعنا منك أيها الرجل فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل إلا حقاً، فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين بن علي وأصحابه قال: كنت فيهم في الخيل التي بعث إليهم فلما انتهيت إلى القوم وحسين وأصحابه، عرفت المنزل الذي نزل بنا علي عليه السلام فيه والبقعة التي رفع إليه من ترابها والقول الذي قاله، فكرهت مسيري فأقبلت على فرسي حتى وقفت على الحسين، فسلمت عليه وحدثته بالذي سمعت من أبيه في هذا المنزل فقال الحسين عليه السلام معنا أنت أو علينا؟ فقلت: يا ابن رسول الله لا معك ولا عليك تركت أهلي وولدي أخاف عليهم من ابن زياد، فقال الحسين عليه السلام فول هرباً حتى لا ترى لنا مقتلاً والذي نفس حسين بيده لا يرى مقتلنا اليوم رجل ولا يغيثنا إلا أدخله الله النار قال: فأقبلت في الأرض هارباً حتى خفي عليّ مقتله.

نصر عن مصعب بن سلام قال: حدثنا الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي جحيفة قال: جاء عروة البارقي إلى سعيد بن وهب فسأله وأنا أسمع فقال: حديث حدثنيه عن علي بن أبي طالب قال: نعم. بعثني مخنف بن سليم إلى علي فأتيته بكربلاء، فوجدته يشير بيده ويقول ها هنا، ها هنا فقال له رجل: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: ثقل لأن محمد ينزل ها هنا (كذا) فويل لهم منكم وويل لكم منهم. فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم إلى النار.

ثم قال: وقد روى هذا الكلام على وجه آخر أنه عليه السلام قال: فويل لكم عليهم قال الرجل: أما ويل لنا منهم فقد، عرفت وويل لنا عليهم ما هو؟ قال: ترونهم يقتلون ولا تستطيعون نصرهم.

نصر عن سعيد بن حكيم العبسي عن الحسن بن كثير عن أبيه أن علياً أتى كربلاء فوقف بها، فقيل يا أمير المؤمنين هذه كربلاء. قال: ذات كرب وبلاء ثم أومأ بيده إلى مكان قال: ها هنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم، وأومأ بيده إلى موضع آخر فقال: ها هنا مهراق دمائهم[1].

وكذا ذكره المفيد في الإرشاد وقال: ومن أخباره عليه السلام عن الغيب ما رواه عثمان بن عيسى العامري عن جابر بن الحر، عن جويرية بن مسهر الفهدي قال: لما توجهنا مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفين، فبلغنا طفوف كربلاء وقف ناحية من المعسكر ثم نظر يميناً وشمالاً واستعبر ثم قال: هذا والله مناخ ركابهم وموضع منيتهم فقيل له: يا أمير المؤمنين ما هذا الموضع؟ فقال: هذا كربلاء يقتل فيه قوم يدخلون الجنة بغير حساب ثم سار، وكان الناس لا يعرفون تأويل ما قال حتى كان من أمر الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه بالطف ما كان فعرف حينئذٍ من سمع كلامه مصداق الخبر فيما أنبأهم به[2].

والأحاديث في أخبارهم عن الغيب مستفيضة بل بلغ كثير منها إلى حد التواتر، ومن ذلك أخبار رسول الله صلى الله عليه وآله عن قتل عمار رضوان الله عليه، ونظائره كثيرة جداً، وإن وفقنا الله تعالى لنورد البحث عن ذلك مفصلاً في المقام المناسب له، فلنعد الآن إلى ما كنا فيه.

وفي شرح الشارح المعتزلي: ذكر أبو أحمد العسكري في كتاب الأمالي: أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية عام الجماعة، فلم يسلم عليه بأمرة المؤمنين فقال له معاوية: لو شئت أن تقول في سلامك غير هذا لقلت. فقال سعد: نحن المؤمنون ولم نؤمرك كأنك قد بهجت بما أنت فيه يا معاوية، والله ما يسرني ما أنت فيه وإني هرقت محجمة دم، قال: لكني وابن عمك علياً يا أبا إسحاق قد هرقنا أكثر من محجمة ومحجمتين، هلم فاجلس معي على السرير فجلس معه، فذكر له معاوية إعتزاله الحرب يعاتبه فقال سعد: إنما كان مثلي ومثل الناس كقوم أصابتهم ظلمة، فقال واحد منهم لبعيره: إخ فأناخ حتى أضاء له الطريق فقال معاوية: والله يا أبا إسحاق ما في كتاب الله إخ وإنما فيه ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا

---

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ٣٣٩، ومناقب أهل البيت: ٢٠٤.

(٢) الإرشاد: ١/ ٣٣٢، وبحار الأنوار: ٤١/ ٢٨٦، ح ٦.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[1] فوالله ما قاتلت الباغية ولا المبغى عليها فأفحمه. قال: وزاد ابن ديزيل في هذا الخبر زيادة ذكرها في كتاب صفين قال: فقال سعد: أتأمرني أن أقاتل رجلاً قال له رسول الله ﷺ: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟**» فقال معاوية: من سمع هذا معك؟ قال: فلان، وفلان وأم سلمة. فقال معاوية: لو كنت سمعت هذا لما قاتلته[2].

«ذكر المقتولين في صفين»

قال المسعودي في مروج الذهب: قتل بصفين سبعون ألفاً من أهل الشام، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام وقتل بها من الصحابة ممن كان مع علي خمسة وعشرون رجلاً، منهم عمار بن ياسر أبو اليقظان المعروف بابن سمية.

وقال في موضع آخر من كتابه: وقد تنوزع في مقدار من قتل من أهل الشام والعراق بصفين، فذكر أحمد بن الدورقي عن يحيى بن معين أن عدة من قتل بها من الفريقين في مائة يوم وعشرة أيام، مائة ألف وعشرة آلاف من الناس، من أهل الشام تسعون ألفاً ومن أهل العراق عشرون ألفاً.

ثم قال: ونحن نذهب إلى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين أكثر مما قيل في هذا الباب، هو خمسون ومائة ألف مقاتل سوى الخدم والأتباع، وعلى هذا يجب أن يكون مقدار القوم جميعاً من مقاتل منهم ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ثلاثمائة ألف بل أكثر من ذلك، لأن أقل من فيهم معه واحد يخدمه وفيهم من معه الخمسة والعشرة من الخدم والأتباع وأكثر من ذلك. وأهل العراق كانوا في عشرين ومائة ألف مقاتل دون الأتباع والخدم.

وأما الهيثم بن عدي الطائي وغيره، مثل الشرقي ابن القطامي وأبي مخنف لوط بن يحيى فذكروا ما قدمنا، وهو أن جملة من قتل من الفريقين جميعاً سبعون ألفاً، من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، فيهم خمسة وعشرون بدرياً، وأن العدد كان يقع بالقضيب والإحصاء للقتلى في كل وقعة، وتحصيل هذا يتفاوت لأن في قتلى الفريقين من يعرف ومن لا يعرف وفيهم من غرق وفيهم من قتل في البر فأكلته

(١) الكافي: ٥/ ١١، ووسائل الشيعة: ١١/ ١٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٦٤، والغدير: ٣/ ٢٠١.

السباع فلم يدركهم الإحصاء وغير ذلك مما يعسر ما وصفنا. إنتهى ما أردنا ذكره من مروج الذهب.

وقال نصر: في كتاب صفين: وأصيب من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، وأصيب به من أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً.

أقول: لا خلاف في أن تلك الوقعة في صفين كانت وقعة عظمى، وقد أكلت الحرب الفريقين ولا يخفى أن ضبط عدد المقتولين وإحصائهم في مثل تلك الواقعة صعب جداً، فيتطرق فيه إختلاف لا محالة كما ترى تنازع الناس في مقدار ما قتل من الفريقين، فمن مقلل ومكثر. ففي كتاب صفين لنصر بن مزحم المنقري عن عمر قال: حدثني عبد الله بن عاصم الفايشي قال: لما رجع علي عليه السلام من صفين إلى الكوفة مر بالثورين يعني ثور همدان سمع البكاء فقال: ما هذه الأصوات قيل: هذا البكاء على من قتل بصفين قال: أما إني شهيد لمن قتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة، ثم مر بالفايشين فسمع الأصوات. فقال مثل ذلك، ثم مر بالشباميين فسمع رنة شديدة وصوتاً مرتفعاً عالياً فخرج إليه حارب بن الشرحبيل الشامي فقال علي عليه السلام: أيغلبكم نساؤكم ألا تنهونهن عن هذا الصياح والرنين؟ قال: يا أمير المؤمنين لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدرنا على ذلك، ولكن من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل فليس من دار إلا وفيها بكاء، أما نحن معاشر الرجال فإنا لا نبكي ولكن نفرح لهم بالشهادة فقال علي عليه السلام: رحم الله قتلاكم وموتاكم.

«بحث كلامي»

الحق أن محاربي علي عليه السلام ومنهم أصحاب صفين والجمل بغاة كفرة، وإليه ذهب جل أصحابنا الإمامية رضوان الله عليهم وخالفهم في ذلك المعتزلة وسائر فرق العامة.

لنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله المروي من فرق المسلمين عنه صلى الله عليه وآله: «حربك حربي يا علي»[1] ولا شك أن محارب رسول الله صلى الله عليه وآله كافر.

قال المفيد رضوان الله عليه في كتابه الموسوم بالإفصاح: ويدل أيضاً على ذلك ما تواترت به الأخبار من قول النبي صلى الله عليه وآله: حربك يا علي حربي وسلمك سلمي، وقد ثبت أنه لم يرد بذلك الخبر عن كون حرب أمير المؤمنين عليه السلام حربه على الحقيقة وإنما أراد التشبيه في الحكم دون ما عداه، وإلا لكان الكلام لغواً ظاهر الفساد وإذا كان حكم حربه عليه السلام كحكم حرب الرسول صلى الله عليه وآله، وجب إكفار محاربيه كما يجب بالإجماع إكفار محاربي رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) أمالي الصدوق: ١٥٦، ح ١٥٠، وتهذيب الأحكام: ١/ ١٠.

وروى ابن مسعود: «علي عليه السلام خير البشر من أبي فقد كفر»[١].

وعن أبي الزبير المكي كما في منتهى المقال في علم الرجال لمحمد بن إسماعيل المدعو بأبي علي وغيره قال: رأيت جابراً يتوكأ على عصاه وهو يدور على سكك المدينة ومجالسهم ويقول: على خير البشر من أبى فقد كفر، معاشر الأنصار أدبوا أولادكم على حب علي فمن أبى فلينظر في شأن أمه[٢].

وفي مناقب ابن المغازلي عن أبي ذر الغفاري رضوان الله عليه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ناصب علياً على الخلافة بعدي فهو كافر وقد حارب الله ورسوله ومن شك في علي فهو كافر»[٣].

وفي خصائص وحي المبين في مناقب أمير المؤمنين، لمصنفه يحيى بن الحسن بن البطريق نقلاً من كتب العامة بإسناده عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن عباية الربعي قال: بينا عبد الله بن عباس رضي الله عنه جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذ أقبل رجل معتم بعمامة فجعل ابن عباس رضي الله عنه لا يقول، قال رسول الله: إلا وقال الرجل قال رسول الله فقال له ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ قال: فكشف العمامة عن وجهه. وقال: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله بهاتين وإلا فصمتا ورأيته بهاتين وإلا فعميتا. يقول: علي قائد البررة وقاتل الكفرة، الحديث[٤].

وأيضاً أن مودته عليه السلام مودة الله تعالى ورسوله، ونطق بذلك قوله عزّ من قائل: ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ففي الخصائص نقلاً من مسند ابن حنبل بإسناده عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزل: ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قالوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجب علينا مودتهم؟ قال: علي، وفاطمة، وإبناهما، وكذا في غير واحد من الأخبار بهذا المعنى بالأسانيد الكثيرة، ولا شك أن حب الله ورسوله من ضروريات الدين، وكذا بغضه عليه السلام وعداوته عداوة الله تعالى ورسوله فبغضه وحربه كفر، كبغض الله ورسوله وحربهما سواء كان باجتهاد أم لا، فإن تحريم ذلك ضروري ومنصوص فلا يجوز الإجتهاد فيه.

---

(١) الإفصاح: ١٢٨، وأوائل المقالات: ٢٨٥.

(٢) الصراط المستقيم: ٢/ ٦٨، واختيار معرفة الرجال: ١/ ٢٣٧.

(٣) الروضة في المعجزات والفضائل: ١٢٩، والطرائف: ٢٣ ح ١٨.

(٤) العمدة: ١٢٠، ح ١٥٧، والطرائف: ٤٧، ح ٤٠.

وبذلك دريت وهن ما ذهب إليه شمس الدين محمود بن أبي القاسم أحمد الأصفهاني، والفاضل القوشجي في شرحهما على تجريد المحقق الطوسي: من أن الحق محارب علي عليه السلام يكون مخطئاً ظاهراً فيكون من الفئة الباغية إن كانت محاربته عن شبهة، والأخبار الواردة المتواترة فيما ذهبنا إليه حتى من العامة كثيرة غاية الكثرة، ولو خوف الإطالة لذكرناها وفي هذا القدر كفاية لمن لا يكون عميان القلب.

قال شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي قدس سره في كتاب الباغي من الخلاف: الباغي من خرج على إمام عادل وقاتله، منع تسليم الحق إليه، وهو إسم ذم، وفي أصحابنا من يقول إنه كافر، ووافقنا على أنه إسم ذم جماعة من علماء المعتزلة بأسرهم ويسمونهم فساقاً، وكذلك جماعة من أصحاب أبي حنيفة، والشافعي وقال أبو حنيفة: هم فساق على وجه التدين، وقال أصحاب الشافعي: ليس باسم ذم عند الشافعي بل هو إسم من اجتهد فأخطأ بمنزلة من خالف من الفقهاء في بعض مسائل الإجتهاد[1].

ثم قال الشيخ رضوان الله عليه: دليلنا إجماع الفرقة وأخبارهم، وأيضاً قوله صلى الله عليه وآله: «اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله»، صريح بذلك، لأن المعاداة من الله لا تكون إلا للكفر دون المؤمنين، وأيضاً قوله صلى الله عليه وآله: «حربك يا علي حربي وسلمك سلمي، وحرب النبي صلى الله عليه وآله كفر فيجب أن يكون حرب علي عليه السلام مثل ذلك.

ثم قال: من سب الإمام العادل وجب قتله، وقال الشافعي: يجب تعزيره، وبه قال جميع الفقهاء، دليلنا إجماع الفرقة وإخبارهم أيضاً قول النبي صلى الله عليه وآله من سب علياً فقد سبني ومن سبني فقد سب الله ومن سب الله وسب نبيه فقد كفر ويجب قتله، إنتهى[2].

وقد مضت عدة الأخبار في ذلك من نصر بن مزاحم وغيره: أن معاوية إذا قنت لعن علياً، والحسن، والحسين، وابن عباس، ومالكاً، وقيس بن سعد، وهذه المسألة مع أنها من المسائل الكلامية تتعلق بأصول الدين أتى به الشيخ في الخلاف من العلّامة في كتاب الجهاد من المختلف لتفرع كثير من المسائل، الفقهية من ذلك الباب عليها، على أن فيها تبكيتاً للخصم وتحقيقاً للحق.

فإن قلت: يمكن أن يكون أصحاب الجمل وصفين جاهلين بمنزلة علي عليه السلام ومقامه، ولم تبلغ إليهم تلك الأخبار، وإلا لما حاربوه فلم يكونوا كافرين بل هما طائفتان من

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٢٧.

(٢) الخلاف للطوسي: ٥/ ٣٤٠، والإعتقادات: ١٠٧، ومستدرك الحاكم: ٣/ ١٢١.

المؤمنين أقتتلوا، وقال الله عز من قائل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

قلت: من جانب التعصب واللجاج واللداد، لا يشك إن هذا الإيراد بمراحل من الإنصاف كيف لا، والأخبار المتواترة في الباب والآثار المنقولة من الأصحاب في علي عليه السلام لا ينكرها إلا ألد الخصام والعنود الطغام، ولو سلمنا إن بعضهم المستضعفين كانوا غافلين غير عالمين بذلك، فلا ريب أن معاوية وشيطانه عمرو بن العاص وأشياعهما فمن لا شبهة في عرفانهم بحق علي عليه السلام، فلا ريب في كفرهم ومن تأمل ونظر بعين العلم والإنصاف، لا يرتاب أن معاوية كان في الختل والروغان أروغ من الثعلب ولعب بالدين بالنكراء والشيطنة وبلغ إلى الإلحاد والكفر والعناد إلى مبلغ لم يكن بينه وبين فرعون إلا درجة، وفي الحقيقة ما أسلم ولكن إستسلم وأسر الكفر حتى يجد أعواناً لأغراضه النفسانية.

ولنذكر فيه ما أورده أبو الفضل نصر بن مزاحم المنقري الكوفي، في كتاب الصفين وذلك الكتاب معروف بين الفرق ونصر في نفسه ثقة ثبت صحيح النقل، وكان من معاصري الإمام محمد الباقر بن علي بن الحسين عليهم السلام وأثنى عليه الفريقان، وقال فيه الشارح المعتزلي فهو ثقة ثبت صحيح النقل غير منسوب إلى هوى ولا إدغال وهو من رجال أصحاب الحديث.

قال نصر: أخبرني عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت قال: لما كان قتال صفين قال رجل لعمار: يا أبا اليقظان ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله قاتلوا الناس حتى يسلموا، فإذا أسلموا عصموا مني دمائهم وأموالهم؟ قال: بلى. ولكن والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأسروا الكفر، حتى وجدوا عليه أعواناً. وروى عن قطر بن خليفة عن منذر الثوري عن عمار بن ياسر مثله[1].

وروى عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل عن الحسن، والحكم عن عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبري فاضربوا عنقه»[2]. قال الحسن: فما فعلوا ولا أفلحوا.

وروى عن عمرو بن ثابت عن إسماعيل عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إذا رأيتم

(١) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ٢/٣٥٦، ح ٨٣٣، وشرح الأخبار: ٢/١٥٥، ح ٤٧٥.

(٢) المسترشد: ٥٣٤، وبحار الأنوار: ٣٣/١٨٦.

معاوية يخطب على منبري فاقتلوه»[١]، قال: فحدثني بعضهم قال: قال أبو سعيد الخدري فلم نفعل ولم نفلح.

وروى عن يحيى بن يعلى عن الأعمش عن خيثمة قال: قال عبد الله بن عمرو أن معاوية في تابوت في الدرك الأسفل من النار، ولولا كلمة فرعون أنار بكم الأعلى ما كان أحد أسفل من معاوية[٢].

وروى عن يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي حرب بن أبي الأسود عن رجل من أهل الشام عن أبيه قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: شر خلق الله خسمة: إبليس، وابن آدم الذي قتل أخاه، وفرعون ذو الأوتاد، ورجل من بني إسرائيل ردهم عن دينهم، ورجل من هذه الأمة يبايع على كفره عند باب لد، قال الرجل إني لما رأيت معاوية بايع عند باب لد ذكرت قول رسول الله ﷺ فلحقت بعلي عليه السلام فكنت معه[٣].

وروى عن جعفر الأحمر عن ليث عن مجاهد عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يموت معاوية على غير الإسلام[٤].

وروى عن جعفر الأحمر عن ليث عن محارب بن زياد عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: يموت معاوية على غير ملتي[٥].

وروى عن عبد الغفار بن القاسم عن عدي بن ثابت عن البراء بن عاذب قال: أقبل أبو سفيان ومعه معاوية فقال رسول الله ﷺ: اللهم ألعن التابع والمتبوع اللهم عليك بالأقيعس، فقال ابن البراء لأبيه عن الأقيعس؟ قال معاوية[٦].

بيان الأقيعس مصغر أقعس وهو نعت من القعس بالتحريك بمعنى خروج الصدر ودخول الظهر وهو ضد الحدب وكان معاوية أقعس ورسول الله ﷺ قاله أقيعس تخفيفاً وتحقيراً له.

---

(١) مناقب أمير المؤمنين: ٢/ ٣٠١، والمسترشد: ٥٣٣، ح ٢١٠.
(٢) شرح الأخبار: ٢/ ٥٣٦، ووقعة صفين: ٢١٧.
(٣) بحار الأنوار: ٣٣/ ١٦٧، ح ٤٣٧.
(٤) مكاتيب الرسول: ١/ ٦٥١.
(٥) المسترشد: ٥٣٤، ح ٢١٧، وشرح الأخبار: ٢/ ١٥٣، ح ٤٦٦.
(٦) شرح الأخبار: ٢/ ٥٢٧، ح ٤٤٦، والغدير: ١٠/ ١٣٩.

وقال نصر: حدثني يحيى بن يعلى بن عبد الجبار بن عباس عن عمار الدهني، عن أبي المثنى عن عبد الله بن عمر قال: ما بين تابوت معاوية وتابوت فرعون إلا درجة وما انخفضت تلك الدرجة إلا أنه قال أنار بكم الأعلى[١].

نصر أبو عبد الرحمن المسعودي حدثني يونس بن الأرقم بن عوف عن شيخ من بكر بن وائل قال: كنا مع علي عليه السلام بصفين فرفع عمرو بن العاص شقة خميصة سوداء في رأس رمح فقال علي عليه السلام هل تدرون ما أمر هذا اللواء؟ أن عدو الله عمرو بن العاص أخرج له رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الشقة فقال: من يأخذها بما فيها؟ عمرو: وما فيه يا رسول الله؟ قال: فيها أن لا تقاتل به مسلماً تقربه من كافر فأخذها، فقد والله قربه من المشركين وقاتل به اليوم المسلمين والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر، فلما وجدوا أعواناً رجعوا إلى عداوتهم منا إلا أنهم لم يدعوا الصلاة[٢].

نصر عن أبي عبد الرحمن قال: حدثني العلاء بن يزيد القرشي عن جعفر بن محمد قال دخل زيد بن أرقم على معاوية، فإذا عمرو بن العاص جالس معه على السرير فلما رأى ذلك زيد جاء حتى رمى بنفسه بينهما فقال له عمرو بن العاص أما وجدت لك مجلساً إلا أن تقطع بيني وبين أمير المؤمنين؟ فقال زيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله غزا غزوة وأنتما معه فرآكما مجتمعين، فنظر إليكما نظراً شديداً ثم رآكما اليوم الثاني، واليوم الثالث كل ذلك يديم النظر إليكما فقال في اليوم الثالث: إذا رأيتم معاوية وعمرو بن العاص مجتمعين ففرقوا بينهما فإنهما لن يجتمعا على خير[٣].

نصر عن محمد بن فضيل عن يزيد بن أبي زياد عن سليمان بن عمرو بن الأحرص الأزدي قال: أخبرني أبو هلال أنه سمع أبا برزة الأسلمي أنهم كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فسمعوا غناء فتشرفوا، له فقام رجل فاستمع له وذاك قبل أن يحرم الخمر فأتاهم ثم رجع، فقال هذا معاوية وعمرو بن العاص يجيب أحدهما الآخر وهو يقول:

يزال حواري تلوح عظامه روى الحرب عنه أن يحس فيقبرا

فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله يديه فقال: اللهم أركسهم في الفتنة ركساً اللهم دعهم إلى النار دعاً[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ١٨٨، ووقعة صفين: ٢١٨.

(٢) شرح الأخبار: ٢/ ١٥٥، ح ٤٧٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ١٨٦.

(٣) شرح الأخبار: ٢/ ٥٣٧، ح ٥٠٨، وبحار الأنوار: ٣٣/ ١٨٨.

(٤) شرح الأخبار: ٢/ ٥٣٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ١٨٩.

بيان قوله يزال حواري أصله لا يزال حواري حذف عنه لا كما حذف في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥] أي لا تفتؤ والحواري القريب والحميم ويقال لأنصار الأنبياء الحواريون قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِيَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وزوى الحرب عنه أي ستره موجبات الحرب ومنعه عن أن يحس ويقبر، فكان عظامه بمرأى من الناس تلوح.

نصر عن محمد بن فضيل عن أبي حمزة الثمالي، عن سالم بن أبي الجعد عن عبد الله بن عمر قال إن تابوت معاوية في النار فوق تابوت فرعون، وذلك بأن فرعون قال أنا ربكم الأعلى[١].

نصر شريك عن ليث عن طاوس عن عبد الله بن عمر قال: أتيت النبي ﷺ فسمعته يقول: يطلع عليكم من هذا الفج رجل يموت حين يموت، وهو على غير سنّتي فشق عليّ ذلك وتركت أبي يلبس ثيابه ويجيء فطلع معاوية[٢].

نصر عن بليد بن سليمان حدثني الأعمش عن علي بن الأقمر قال: وفدنا على معاوية وقضينا حوائجنا، ثم قلنا لو مررنا برجل قد شهد رسول الله ﷺ وعاينه فأتينا عبد الله بن عمر فقلنا: يا صاحب رسول الله ﷺ حدثنا ما شهدت ورأيت قال: إن هذا أرسل إليّ يعني معاوية فقال: لئن بلغني أنك تحدث، لأضربن عنقك فجثوت على ركبتي بين يديه ثم قلت: وددت أن أحد سيف في جسدك على عنقي فقال: والله ما كنت لأقاتلك ولا أقتلك، وأيم الله ما يمنعني أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: فيه رأيت رسول الله ﷺ أرسل إليه يدعوه وكان يكتب بين يديه فجاء الرسول فقال: هو يأكل فأعاد عليه الرسول الثانية فقال: هو يأكل فأعاد عليه الرسول الثالثة. فقال: هو يأكل فقال: لا أشبع الله بطنه فهل ترونه يشبع؟ قال: وخرج من فج فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان وهو راكب ومعاوية وأخوه أحدهما قائد والآخر سائق، فلما نظر إليهم رسول الله ﷺ قال: اللهم ألعن القائد والسائق والراكب قلنا: أنت سمعت رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وإلا فصمتا أذناي كما عميتا عيناي[٣].

نصر عن عبد العزيز بن الخطاب عن صالح بن أبي الأسود عن إسماعيل عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم معاوية على منبري يخطب فاقتلوه[٤].

---

(١) المسترشد: ٥٣٤، ج، وبحار الأنوار: ٣٣/١٨٩.
(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ١٩٠، ووقعة صفين: ٢٢٠.
(٣) بحار الأنوار: ٣٣/ ١٩٠، والغدير: ١٠/ ١٣٩، ح ١.
(٤) بحار الأنوار: ٣٣/ ١٩١.

ثم قال الشيخ المفيد قدس سره، في كتابه الموسوم بالإفصاح في إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام: ومما يدل على كفر محاربي أمير المؤمنين عليه السلام علمنا بإظهارهم التدين بحربه، والإستحلال لدمه ودماء المؤمنين من ولده وعترته وأصحابه، وقد ثبت أن إستحلال دماء المؤمنين أعظم عند الله من إستحلال جرعة خمر، لتعاظم المستحق عليه من العقاب بالإتفاق، وإذا كانت الأمة مجمعة على إكفار مستحل الخمر وإن شهد الشهادتين وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فوجب القطع على كفر مستحلي دماء المؤمنين لأنه أكبر من ذلك وأعظم في العصيان بما ذكرناه، وإذا ثبت ذلك صح الحكم بإكفار محاربي أمير المؤمنين عليه السلام على ما وصفناه.

«دليل آخر»

ثم قال رضوان الله عليه: ويدل أيضاً على ذلك ما اجتمع عليه نقلة الآثار من قول الرسول صلى الله عليه وآله: من آذى علياً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله تعالى، ولا خلاف بين أهل الإسلام أن المؤذي للنبي صلى الله عليه وآله بالحرب السب والقصد له بالأذى والتعمد لذلك، كافر خارج عن ملة الإسلام، فإذا ثبت ذلك وجب الحكم بإكفار محاربي أمير المؤمنين عليه السلام بما أوجبه النبي صلى الله عليه وآله من ذلك بما بيناه.

«دليل آخر»

وقال رحمه الله: ويدل أيضاً على ذلك ما انتشرت به الأخبار وتلقاه العلماء بالقبول عن رواة الآثار، من قول النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وقد ثبت أن من عادى الله تعالى وعصاه على وجه المعاداة فهو كافر خارج عن الإيمان، فإذا ثبت أن الله تعالى لا يعادي أولياءه وإنما يعادي أعداءه، وصح أنه معادٍ لمحاربي أمير المؤمنين عليه السلام لعداوتهم له، بما ذكرناه من حصول العلم بتدينهم بحربه بما ثبت به عداوة محاربي رسول الله صلى الله عليه وآله ويزول معه الإرتياب، وجب إكفارهم على ما قدمناه. إنتهى ما أردنا نقله منه رحمه الله[1].

«إشكال وحل»

فإن قلت: إذا كان محاربوا علي عليه السلام كفرة، فلم لم يجر عليهم أحكام الكفر، لما غلب عليهم من نهب أموالهم وسبي نسائهم وغير ذلك؟

(١) الإفصاح: ١٢٩.

قلت: كما أن للإيمان مراتب ودرجات كذلك للكفر، والنهب والسبي وأمثالهما من الأحكام يختص بمحاريب المشركين دون غيرهم من الكفار، كما نرى من غزوات رسول الله ﷺ المشركين.

قال الشيخ الطوسي رحمه الله في كتاب الباغي من الخلاف: إذا وقع أسير من أهل البغي في المقاتلة كان للإمام حبسه ولم يكن قتله، وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة: له قتله.

ثم قال: دليلنا إجماع الفرقة وأيضاً روى عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا ابن أم عبد ما حكم من بغى من أمتي؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم فقال ﷺ: لا يتبع ولا يحاز[١] على جريحهم ولا يقتل أسيرهم ولا يقسم فيئهم، وهذا نص وروى أن رجلاً أسيراً جيء به إلى علي عليه الصلاة والسلام يوم صفين فقال: لا. أقتلك صبراً إني أخاف الله رب العالمين[٢].

وقال العلّامة قدس سره في كتاب الجهاد من المختلف: المشهور بين علمائنا تحريم سبي نساء البغاة، وقال: إختلف علماؤنا في قسمة ما حواه العسكر من أموال البغاة، فذهب السيد المرتضى في المسائل الناصرية إلى أنها لا تقسم ولا تغنم، قال: ومرجع الناس في ذلك كله إلى ما قضى به أمير المؤمنين عليه السلام في محاربي أهل البصرة، فإنه منع من غنيمة أموالهم وقسمتها كما تقسم أموال الحرب، ولا أعلم خلافاً من الفقهاء في ذلك. ولما رجع أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك قال: أيكم تأخذ عائشة في سهمه ولا امتناع في مخالفة حكم قتال أهل البغي لقتال أهل الحرب، كما خالفه في أنه لا يتبع موليهم، وإن كان أتباع المولى من باقي المحاربين جائر، وإنما اختلف الفقهاء في الإنتفاع بدواب أهل البغي وسلاحهم في دار الحرب ـ إلى أن قال: ـ وروى أن علياً عليه السلام لما هزم الناس يوم الجمل قالوا له: يا أمير المؤمنين ألا تأخذ أموالهم؟ قال: لا، لأنهم تحرموا بحرمة الإسلام فلا يحل أموالهم في دار الهجرة[٣].

وبالجملة للبغاة الخارجين على الإمام العادل أحكام تخص بهم، وإن كانوا كافرين وللمشركين المحاربين أحكام تخص بهم، وعنون الشيخ المفيد قدس سره في ذلك فصلاً، في كتابه الموسوم بالإفصاح، وكذا الشيخ الطوسي في تلخيص الشافي، ولا بأس بنقل كلام المفيد لأنه رحمه الله أوجز وأفاد قال:

---

(١) في نسخة: ولا يجهز.

(٢) إرواء الغليل: ٨/ ١١٤، ح ٢٤٦٢، وبحار الأنوار: ٨٠/ ١٥٨.

(٣) المبسوط للطوسي: ٧/ ٢٦٦، وجواهر الكلام: ٢١/ ٣٤٠.

فإن قالوا: فإذا كان محاربو أمير المؤمنين عليه السلام كفاراً عندكم بحربه مرتكبي العناد في خلافه، فما باله عليه السلام لم يسر فيهم بسيرة الكفار فيجهز على جرحهم ويتبع مدبرهم ويغنم جميع أموالهم ويسبي نسائهم وذراريهم، وما أنكرتم أن يكون عدوله عن ذلك يمنع من صحة القول عليهم بالإكفار؟

قيل لهم: إن الذي وصفتموه في حكم الكفر، إنما هو شيء يختص بمحاربي المشركين لم يوجد في حكم الإجماع والسنة فيمن سواهم في سائر الكفار، فلا يجب أن يتعدى منهم إلى غيرهم بالقياس ألا ترون إن أحكام الكافرين تختلف، فمنهم من يجب قتله على كل حال، ومنهم من يجب قتله بعد الإمهال، ومنهم من تؤخذ منه الجزية ويحقن دمه بها ولا يستباح، ومنهم من لا يحل دمه ولا يؤخذ منه الجزية على حال، ومنهم من يحل نكاحه، ومنهم من يحرم بالإجماع فكيف يجب إتفاق الأحكام من الكافرين على ما أوجبتموه فيمن سميناه إذا كانوا كفاراً، وهي على ما بيناه في دين الإسلام من الإختلاف. ثم قال رحمه الله:

ثم يقال لهم: خبرونا هل تجدون في السنّة أو الكتاب أو الإجماع في طائفة من الفساق بقتل المقبلين منهم وترك المدبرين، وحظر الإجهاز على جرحى المقاتلين وغنيمة ما حوى عسكرهم دون ما سواه من أمتعتهم وأموالهم أجمعين، فإن ادعوا معرفة ذلك ووجوده طولبوا بتعيينه، فيمن عدا البغاة من محاربي أمير المؤمنين عليه السلام، فإنهم يعجزون عن ذلك ولا يستطيعون إلى إثباته سبيلاً، وإن قالوا: إن ذلك وإن كان غير موجود في طائفة من الفاسقين فحكم أمير المؤمنين عليه السلام به في البغاة دليل على أنه في السنّة أو الكتاب وإن لم يعرف وجه التعيين، قيل لهم ما أنكرتم أن يكن حكم أمير المؤمنين عليه السلام في البغاة ممن سميتموه دليلاً بعد دليل أنه حكم الله في طائفة من الكافرين موجود في السنّة والكتاب، وإن لم يعرف الجمهور الوجه في ذلك على التعيين فلا يجب أن يخرج القوم من الكفر، لتخصيصهم من الحكم بخلاف ما حكم الله تعالى فيمن سواهم من الفاسقين وهذا ما لا فصل فيه. إنتهى[(١)].

«إعتراض ورد»

أتى بهذا الإعتراض ورده الشيخ المفيد في الإفصاح أيضاً فقال:

فإن قالوا: كيف يصح لكم إكفار أهل البصرة والشام، وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام عنهم فقال: إخواننا بغوا علينا، لم ينف عنهم الإيمان ولا حكم عليهم بالشرك والإكفار؟

قيل لهم: هذا خبر شاذ لم يأت به التواتر من الأخبار ولا أجمع على صحته رواة

(١) الإفصاح: ١٢٣.

الآثار، وقد قابله ما هو أشهر منه عن أمير المؤمنين عليه السلام، وأكثر نقلة وأوضح طريقاً من الإسناد، وهو أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة والناس مصطفون للحرب، فقال له: على مَ نقاتل هؤلاء القوم يا أمير المؤمنين ونستحل دمائهم وهم يشهدون شهادتنا ويصلون إلى قبلتنا؟

فتلى عليه السلام هذه الآية رافعاً بها صوته: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[1] [التوبة: ١٢].

فقال الرجل حين سمع ذلك: كفر ورب الكعبة وكسر جفن سيفه ولم يزل يقاتل حتى قتل، وتظاهر الخبر عنه عليه السلام أنه قال يوم البصرة: والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] [المائدة: ٥٤] وجاء مثل ذلك عن عمار وحذيفة رحمه الله عليهما ـ إلى أن قال: ـ

على أنا لو سلمنا لهم الحديث في وصفهم بالأخوة له عليه السلام لما منع من كفرهم كما لم يمنع من بغيهم، ولم يضاد ضلالهم باتفاق مخالفينا ولا فسقهم عن الدين واستحقاقهم اللعنة والإستخفاف والإهانة، وسلب إسم الإيمان عنهم والإسلام والقطع عليهم بالخلود في الجحيم قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ فأضافه إليهم بالأخوة وهو نبي الله وهم كفار بالله عزّ وجلّ، وقال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥] ولم ينافِ ذلك كفرهم ولا يضاد ضلالهم وشركهم، فأحرى أن لا يضاد تسمية أمير المؤمنين عليه السلام محاربيه بالإخوة مع كفرهم بحربه وضلالهم عن الدين بخلافه وهذا بين لا إشكال فيه، إنتهى.

«إعتراض آخر ورده»

إن قلت: قد مضى قوله عليه السلام في الخطبة الثالثة والثلاثين عند خروجه لقتال أهل البصرة: مالي ولقريش والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم.

حيث إن قوله عليه السلام (لأقاتلنهم مفتونين) يدل على عدم كفرهم في تلك الحال كما استفاد منه الشارح المعتزلي وقال: لأن الباغي على الإمام مفتون فاسق ثم قال: وهذا الكلام يؤكد

---

(١) المسترشد: ٥٨٩، ودلائل الإمامة: ١٢١.

(٢) المزار: ٧٧، والإيضاح: ١٩٩.

قول أصحابنا أن أصحاب صفين، والجمل ليسوا بكفار خلافاً للإمامية فأنهم يزعمون أنهم كفار[١].

قلت: رد هذا الإعتراض في بهجة الحدائق بأن المفتون من أصابته الفتنة وهي تطلق على الإمتحان، والضلال، والكفر، والإثم، والفضيحة، والعذاب وغير ذلك والمراد بالمفتون ما يقابل الكافر الأصلي الذي لم يدخل في الإسلام أصلاً ولم يظهره، إذ لا شك في أن من حاربه عليه السلام كافر لقوله صلى الله عليه وآله حربك حربي وغير ذلك من الأخبار والأدلة.

إن قلت: لو أنهم كانوا كافرين فكيف خالطهم الأئمة عليهم السلام والمؤمنون ولم يجتنبوا من ذبائحهم، وأسآرهم ويعاملون معهم معاملة المسلم في سائر الأمور على أنه لزم الحكم بعد قبول توبتهم، وبقسمة أموالهم وباعتداد زوجاتهم عدة الوفاة وغير ذلك من الأحكام؟.

قلت: بعد ما دريت أن فرق الكفار مختلفة فأحكم بذلك، إن أحكام الكفر أيضاً مختلفة، فحكم أهل الكتاب خلاف حكم من لا كتاب له من عبدة الأصنام، وإن كان الفريقان كافرين. مثلاً إن أهل الكتاب يؤخذ منهم الجزية ويقرون على أديانهم ولا يفعل ذلك بعبدة الأصنام، وكذا حكم الحربي خلاف حكم الذمي وكذا حكم المرتد خلاف حكم الجميع، مع إتفاقهم في الكفر ولذا أفتى الشيخ في الخلاف أن الباغي إذا قتل غسل وصلى عليه.

وذهب غير واحد من علمائنا بأن البغاة محكوم بكفرهم باطناً، إلا أنه يعامل معهم في هذا الزمان المسمى بزمان الهدنة معاملة المسلم الحقيقي، حتى يظهر الدولة الحقة عجل الله تعالى ظهورها، فيجري عليهم حينئذٍ حكم الكفار الحربيين.

ويشهد بما ذكر عدة روايات، منها كما في الوسائل بإسناده عن أبي بكر الحضرمي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لسيرة عليّ في أهل البصرة كانت خيراً لشيعته مما طلعت عليه الشمس، إنه علم أن للقوم دولة فلو سباهم لسبيت شيعته قلت: فأخبرني عن القائم يسير بسيرته؟ قال: لا. إن علياً عليه السلام سار فيهم بالمن لما علم من دولتهم، وإن القائم يسير فيهم بخلاف تلك السيرة لأنه لا دولة لهم[٢].

والمروي عن الدعائم عن علي عليه السلام أنه سئل عن الذين قاتلهم من أهل القبلة أكافرون هم؟ قال عليه السلام: كفروا بالإحكام وكفروا بالنعم، ليس كفر المشركين الذين دفعوا النبوة، ولم

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٨٧.
(٢) كتاب الغيبة: ٢٣٢، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٣٥.

يقروا بالإسلام ولو كانوا كذلك ما حلت لنا مناكحهم ولا ذبائحهم ولا مواريثهم[١]، وغيرهما من الأخبار الواردة في الباب مما يطول ذكرها.

«ترجمة الحكمين وبعض آخر»

قد حضر في صفين رجال مجاهدون في الله حق جهاده.

منهم أبو اليقظان عمار بن ياسر رضوان الله عليه قتلته الفئة الباغية، وقد مضى نبذة من الكلام في ترجمته بما يليق ويسع المقام.

ومنها عضد أسد الله مالك الأشتر ﷺ وقد مضى بعض الأقوال في جلالة شأنه ونبالة قدره حسب ما يقتضى المقام، وسيأتي ترجمته تفصيلاً في باب المختار من كتبه ورسائله ﷺ إن شاء الله تعالى، ومنهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال، وابنه رضوان الله عليهما وقد علم جلالة شأنهما، وثبات أمرهما وعزمهما في نصرة الدين والحماية عن الحق المبين بما ذكرنا من الآثار والأخبار في شهادتهما رضي الله عنها، وكذا غيرهم من حماة الحق وأعوان الدين الذين قالوا: ربنا الله ثم إستقاموا ولزموا الصراط المستقيم والنهج القويم على حقيقة البصيرة، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتيهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين.

وأبو وقاص جد هاشم المرقال إسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وعم هاشم سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة، وأبوه عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية رسول الله ﷺ يوم أُحد، وكلم شفتيه وشج وجهه فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وقال حسن بن ثابت في ذلك اليوم:

إذا الله حيا معشراً بفعالهم	ونصرهم الرحمن رب المشرق
فهدك ربي يا عتيب بن مالك	ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق
بسطت يميناً للنبي محمد	فدميت فاه قطعت بالبوارق
فهلا ذكرت الله والمنزل الذي	تصير إليه عند إحدى الصفائق

(١) دعائم الإسلام للنعمان: ٣٨٨/١، ومستدرك الوسائل: ٦٦/١١، ح ١٢٤٤٠.

فمن عاذري من عبد عذرة بعد ما هوى في دجوجي شديد المضائق
وأورث عاراً في الحياة لأهله وفي النار يوم البعث أم البوائق

وإنما قال (عبد عذرة)، لأن عتبة بن أبي وقاص وأخوته وأقاربه في نسبهم كلام، ذكر قوم من أهل النسب، أنهم من عذرة وأنهم أدعياء في قريش، ولهم خبر معروف وقصة مذكورة في كتب النسب، وتنازع عبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص في أيام عثمان في أمر، فاختصما فقال سعد لعبد الله: أسكت يا عبد هذيل فقال له عبد الله: أسكت يا عبد عذرة، هذا ما نقلنا من الفاضل الشارح المعتزلي.

وفي الإستيعاب: أن هاشم المرقال كان من أصحاب رسول الله ﷺ نزل الكوفة وكان من الفضلاء الخيار، وكان من الأبطال وفقئت عينه يوم اليرموك، وكان خيراً فاضلاً شهد مع علي عليه السلام الجمل وشهد صفين، وأبلا بلاءً حسناً وبيده كانت راية علي عليه السلام على الرجالة يوم صفين، ويومئذٍ قتل[1].

وكفى في فضل هاشم رضوان الله عليه ما قال فيه يعسوب الدين أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة السادسة والستين: وقد أردت تولية مصر هاشم بن عتبة ولو وليته إياها لما خلى لهم العرصة ولا أنهزهم الفرصة.

وممن شهد بصفين من حواري أمير المؤمنين عليه السلام واستشهد بها وقتله الفئة الباغية أويس القرني رضوان الله عليه.

والمروي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «تفوح روائح الجنة من قبل قرن، واشوقاه إليك يا أويس القرني ألا ومن لقيه فليقرأه مني السلام»، فقيل يا رسول الله ومن أويس القرني؟

قال: «إن غاب عنكم لم تفتقدوه، وإن ظهر لكم لم تكثروا به يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر يؤمن بي ولا يراني، ويقتل بين يدي خليفتي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صفين»[2]، والروايات من الخاصة والعامة في مدحه أكثر من أن يذكر.

وممن استشهد بصفين من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام: عبد الله بن بديل بن ورقاء وخزيمة بن ثابت، وجندب بن زهير وابن التيهان وغير ذلك رضوان الله عليهم أجمعين، وقال المسعودي في مروج الذهب: وقتل بصفين من الصحابة ممن كان مع علي عليه السلام خمسة

(١) الدرجات الرفيعة: ٣٧٦.

(٢) الروضة في المعجزت والفضائل: ١٢٣، وحلية الأبرار: ٢/ ٣٣١.

وعشرون رجلاً.

وممن شهد مع علي صفين شبث بن ربعي، كما مر قبل وهذا الرجل كان مضطرب الحال مشوش البال غير ثابت على طريق نافقاً متلوناً سفاكاً متجرياً تابع كل ناعق ومثير كل فتنة، عاش طويلاً حتى بلغ إلى أرذل العمر وحضر كربلاء مع عمر بن سعد فقاتل الحسين بن علي عليه السلام نستعيذ بالله من سوء الخاتمة، ومسجد شبث أحد المساجد الأربعة التي جددت فرحاً لقتل الحسين عليه السلام وتخلف هو وعمرو بن حريث، والأشعث، وجرير بن عبد الله عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في مسيره إلى النهروان، وأخبر عليه السلام بأنهم يريدون تثبيط الناس عنه وبيعتهم للضب، وقال عليه السلام: أما والله يا شبث ويا ابن حريث لتقاتلان إبني الحسين عليه السلام، كما في البحار للمجلسي رحمه الله تعالى(١).

قال أبو زهير العبسي: فأنا سمعت شبث في أمارة مصعب يقول: لا يعطى الله أهل هذا المصر خيراً أبداً ولا يسددهم لرشد، ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب عليه السلام ومع إبنه من بعده آل أبي سفيان خمس سنين، ثم عدونا على ابنه، وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية، وابن سمية الزانية ضلال يا لك من ضلال.

وقال ابن حجر في التقريب: شبث بفتح أوله والموحدة ثم مثلثة ابن ربعي التميمي اليربوعي، أبو عبد القدوس الكوفي مخضرم كان مؤذن سجاح ثم أسلم، ثم كان ممن أعان على عثمان، ثم صحب علياً ثم صار من الخوارج عليه ثم تاب فحضر قتل الحسين عليه السلام ثم كان ممن طلب بدم الحسين عليه السلام مع المختار، ثم ولى شرطة الكوفة ثم حضر قتل المختار، ومات بالكوفة في حدود الثمانين إنتهي(٢).

بيان: مخضرم بضم الميم وفتح الراء من أدرك الجاهلية والإسلام وسجاح بفتح أولها كسحاب إسم إمرأة أدعت النبوة وتنبى المسيلمة الكذاب أيضاً في زمانها.

قال أبو جعفر الطبري في ذكر أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة من تاريخه: وكانت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان هي وبنو أبيها عقفان في بني تغلب، فتنبت بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله بالجزيرة في بني تغلب فاستجاب لها الهذيل - إلى أن قال -: إن مسيلمة الكذاب لما نزلت به سجاح أغلق الحصن دونها فقالت له سجاح أنزل قال: فنحى عنك أصحابك ففعلت، فقال مسيلمة: أضربوا لها قبة وجمروها لعلها تذكر الباه ففعلوا فلما

---

(١) الخرائج والجرائح: ١/ ٢٢٦، والبحار: ٣٣/ ٣٨٤.

(٢) الغارات: ٢/ ٣٦٥، ح ٥.

دخلت القبة نزل مسيلمة فقال: ليقف ها هنا عشرة وها هنا عشرة ثم دارسها فقال: ما أوحى إليك؟ وقالت: هل تكون النساء يبتدئن ولكن أنت ما أوحى إليك؟ قال: ألم ترَ إلى ربك كيف فعل بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشي.

قالت: وماذا أيضاً؟ قال: أوحى إليّ أن الله خلق النساء أفراجاً وجعل الرجال لهن أزواجاً فنولج فيهن قعساً إيلاجاً ثم نخرجها إذا نشاء إخراجاً فينتجن لنا سخالاً إنتاجاً، قالت: أشهد أنك نبي، قال: هل لك أن أتزوجك فآكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم. قال:

ألا قومي إلى النيك فقد هيىء لك المضجع
وإن شئت ففي البيت وإن شئت ففي المخدع
وإن شئت سلقناك وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

قالت: بل به أجمع، قال: بذلك أوحى إليّ، فأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت إلى قومها فقالوا: ما عندك؟ قالت: كان على الحق فاتبعته فتزوجته، قالوا: فهل أصدقك شيئاً؟ قالت: لا، قالوا: إرجعي إليه فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق[1] فرجعت فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال مالك؟ قالت: أصدقني صداقاً، قال: من مؤذنك؟ قالت: شبث بن ربعي الرياحي، قال علي: به فجاء فقال: ناد في أصحابك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم محمد، صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر، فانصرفت ومعها أصحابها فيهم الزبرقان وعطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان بن خرشة وشبث بن ربعي فقال عطارد بن حاجب:

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا[2]

ثم إن ولد شبث عبد القدوس المعروف بأبي الهندي الشاعر كان زنديقاً سكيراً، وكذا سبطاه صالح بن عبد القدوس وغالب بن عبد القدوس فالصالح كان زنديقاً طالحاً قتله المهدي على الزندقة، وصلبه على جسر بغداد، وغالب كان غالب أمره في شرب الخمر وإدمانه، وعاقبه أمره أنه سقط عن السطح في حال سكره، فوجد ميتاً وحكي أنه كان مكتوباً على قبره:

---

(١) في نسخة: أن تزوج بغير صداق.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/٥٠٠، والتنبيه والأشراف: ٢٤٨.

إجعلوا إن مت يوماً كفني ورق الكرم وقبري معصره
إنني أرجو من الله غداً بعد شرب الراح حسن المغفرة

كان الفتيان يجيئون إلى قبره فيشربون ويصبون القدح على قبره.

ونظير البيتين المذكورين ما قاله أبو محجن في أيام جاهليته كما في الجزء الثالث من تاريخ أبي جعفر الطبري من وقايع السنة الرابعة عشرة:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها
وتروي بخمر الحص لحدي فإنني أسير لها من بعد ما قد أسوقها

ثم إن أمير المؤمنين علي عليه السلام كان يرسله إلى أمور خطيرة لجرأته، كما نقلنا من قبل أن علياً عليه السلام بعثه مع قشر بن عمرو، وسعيد بن قيس إلى معاوية ليدعوه إلى الطاعة والجماعة، وأتباع أمر الله، فلما وردوا على معاوية وذهب سعيد بن قيس ليتكلم بدره شبث بن ربعي وقال لمعاوية: أنه لا يخفى علينا ما تطلب أنك لا تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم، إلا أن قلت لهم قتل إمامكم مظلوماً فهلموا نطلب بدمه، فاستجاب لك سفلة طغام رذال، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر وأجبت له القتل لهذه المنزلة التي تطلب.

وأما ترجمة أبي موسى الأشعري فنحن نذكر نقلاً عن الشارح المعتزلي، من كتاب الإستيعاب لابن عبد البر المحدث وغيره ثم نتبع ذلك بما نقلناه من غيره.

قال ابن عبد البر: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حصار بن حرب بن عامر بن عمر بن بكر بن عمر بن عذر بن وابل بن ناجية بن الجاهر بن الأشعر، واختلف في أنه هل هو من مهاجرة الحبشة أم لا والصحيح أنه ليس منهم، ولكنه أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه، فلم يزل به حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله صلى الله عليه وآله فوافق قدومهم قدوم أهل السفينتين جعفر بن أبي طالب وأصحابه من أرض حبشة، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وآله بخيبر، فظن قوم أن أبا موسى قدم من الحبشة مع جعفر وقيل: أنه لم يهاجر إلى الحبشة وإنما أقبل في سفينة مع قوم من الأشعريين فرمت الريح سفينتهم إلى أرض الحبشة وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه فكان قدومهم معاً فظن قوم أنه كان من مهاجرة الحبشة.

قال: وولاه رسول الله صلى الله عليه وآله من محاليف اليمن زبيد، وولاه عمر البصرة لما عزل المغيرة عنها، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها وولاها عبد الله بن عامر بن كريز، فنزل أبا موسى الكوفة حينئذٍ وسكنها، فلما كره سعيد بن العاص ودفعوه عنها ولوا أبا موسى، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يوليه فأقره على الكوفة، فلما قتل عثمان عزله

علي عليه السلام عنها فلم يزل واجداً لذلك على علي عليه السلام حتى جاء منه ما قال حذيفة فيه[١].

قال الشارح المعتزلي: والكلام الذي قال فيه وقد ذكر عنده بالدين: أما أنتم فتقولون ذلك وأما أنا فأشهد: أنه عدو الله ولرسوله وحرب لهما في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين أسر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم وأعلمهم أسماءهم[٢].

وروي أن عماراً سئل عن أبي موسى فقال: لقد سمعت فيه من حذيفة قولاً عظيماً سمعته يقول: صاحب البرنس الأسود ثم كلح كلوحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط[٣].

وروي عن سويد بن غفلة قال: كنت مع أبي موسى على شاطىء الفرات في خلافة عثمان، فروى لي خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سمعته يقول: إن بني إسرائيل إختلفوا فلم يزل الإختلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالين، ضلاً وأضلا من أتبعهما ولا ينفك أمر أمتي حتى يبعثوا حكمين يضلان ويضلان من تبعهما، فقلت له: أحذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما قال: فخلع قميصه وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصي هذا[٤].

وكان علي عليه السلام يقنت عليه وعلى غيره فيقول: اللهم ألعن معاوية أولاً، وعمراً ثانياً، وأبا الأعور السلمي ثالثاً، وأبا موسى الأشعري رابعاً[٥].

وقال نصر في كتاب صفين: قال علي عليه السلام إن عبد الله بن قيس رجل قد حلبت أشطره فوجدته قريب القعر كليل المدية. ونقل أيضاً أبياتاً عن بعض بعضها:

لو كان للقوم رأى يعظمون به ... بعد الخطار رموكم بابن عباس
لله در أبيه أيما رجل ... ما مثله لفصال الخطب في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
أن يخل عمرو به يقذفه في لجج ... يهوى به النجم تيساً بين أتياس

وفي السياسة والإمامة للدينوري: ذكروا أن معاوية كتب إلى أبي موسى بعد الحكومة وهو بمكة: أما بعد فأكره من أهل العراق ما كرهوا منك، وأقبل إلى الشام فإني خير لك من

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ٣٢١، ح ٥٢، ومكاتيب الرسول: ١/ ٦٠٣.
(٢) بحار الأنوار: ٢٨/ ٣٢١، وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣١٥.
(٣) بحار الأنوار: ٢٨/ ٣٢١، والدرجات الرفيعة: ٢٨٦.
(٤) المسترشد: ١٥٩، ح ٢٨، وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣١٥.
(٥) الإيضاح: ٦٤، وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣١٥.

علي والسلام.

فكتب إليه أبو موسى: أما بعد فإنه لم يكن مني في علي إلا ما كان من عمرو فيك، غير أني أردت بما صنعت وجه الله وأراد عمرو بما صنع ما عندك، وقد كان بيني وبينه شروط عن تراضٍ فلما رجع عمرو رجعت، وأما قولك: إن الحكمين إذا حكما على أمر فليس للمحكوم عليه أن يكون بالخيار إنما ذاك في الشاة والبعير، وأما في أمر هذه الأمة فليست تساق إلى ما تكره، ولن تذهب بين عجز عاجز ولا كيد كائد ولا خديعة فاجر، وأما دعاؤك إياي إلى الشام فليس لي بدل ولا إيثار عن قبر ابن إبراهيم أبي الأنبياء[١].

ثم إن الفاضل الشارح المعتزلي بعد ذكره ما تعتقده المعتزلة في أبي موسى نقلاً من كتاب الكفاية لابن متويه، أنه قال: أما أبا موسى فإنه عظم جرمه بما فعله وأدى ذلك إلى الضرر الذي لم يخف حاله، وكان علي عليه السلام يقنت عليه وعلى غيره ـ كما دريت ـ وروى عنه عليه السلام أنه كان يقول في أبي موسى: صبغ بالعلم صبغاً وسلخ منه سلخاً كذا بعد ما ذكر رواية الحكمين الضالين المضلين في بني إسرائيل، وفي هذه الأمة من أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذا بعد ما ذكر أنه لم يثبت في توبته ما ثبت في توبة غيره، قال: وذكرته لك لتعلم أنه عند المعتزلة من أرباب الكبائر، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها. إنتهى[٢].

أقول: وذكرنا طائفة من البراهين والأدلة في كفر الخارجين على الإمام العادل عليه السلام فليرجع.

قال ابن عبد البر واختلف في تاريخ موته، فقيل: سنة اثنتين وأربعين، وقيل: سنة إثنتين وخمسين، وقيل: سنة أربع وأربعين، واختلف في قبره فقيل: مات بمكة ودفن بها وقيل: مات بالكوفة ودفن بها.

وأما عمرو بن العاص فلا يخفى على أحد أنه كان فاجراً غادراً ختالاً، وفي الروغان والخديعة والمكر يضرب به المثل، وقد مضى شرذمة منها من قبل وسيأتي في باب المختار من الكتب والرسائل كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إليه وهو الكتاب التاسع والثلاثون قوله عليه السلام: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى الأبترين: الأبتر عمرو بن العاص بن وائل شانىء محمد وآل محمد في الجاهلية والإسلام، ـ إلى آخر ما قال ـ ونحن نذكر في شرح ذلك الكتاب بعون الملك الوهاب ما قيل في عمرو بن العاص، فلنعد إلى بيان جمل الخطبة.

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣١٦.

محتوى الجزء الخامس عشر من كتاب منهاج البراعة

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

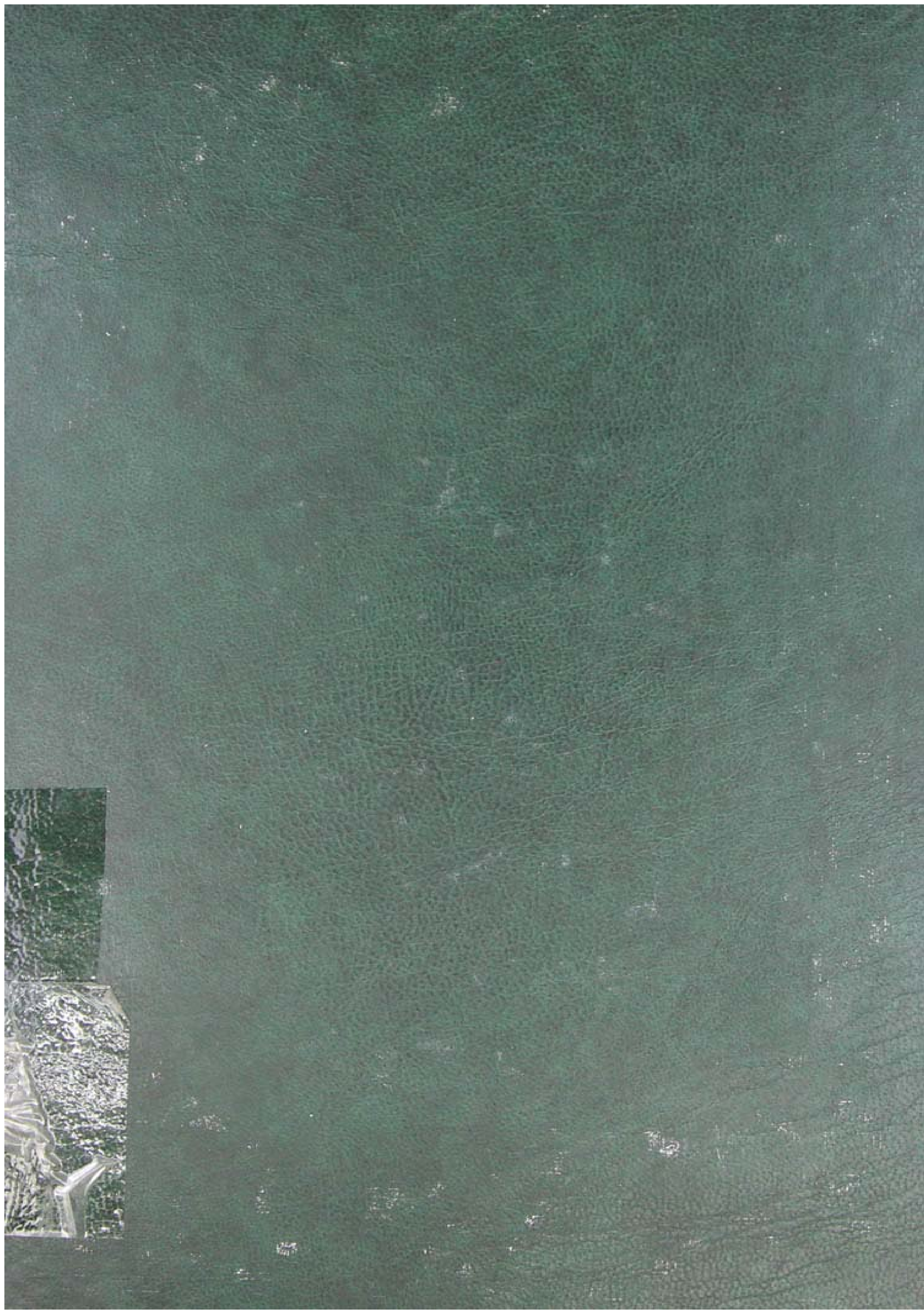

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملي

مؤسسة التاريخ العربي

منهاج البراعة

شرح

نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد السادس عشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ملهم الصواب، والصلاة على حججه الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب، سيما على سيّد الأنبياء محمّد المصطفى، وأفضل الأوصياء عليّ المرتضى.

وبعد فهذا هو المجلد الثاني من «**تكملة منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**» فهو المجلد السادس عشر من المنهاج، ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد والهداية إلى الخير والرشاد.

قوله عليه السلام: (**جفاة طغام عبيد اقزام**) صدّر كلامه بمذام أهل الشام تنفيراً عنهم أي هم قوم غلاظ الطبع قساة القلب افظاظ، وطغام أي هم اوغاد الناس وأراذلهم والطغام كالطّعام خلاف الهمام، وعبيد إنما لم يذكر متعلّق العبيد ليفيد التعميم ويذهب السامع إلى كلّ مذهب ممكن، أي هم عبيد الدينار وعبيد الدنيا وعبيد النفس والهوى.

وقيل: أو لأن بعضهم لم يكونوا أحراراً وكانوا عبيداً حقيقةً، وحيث إن اللفظ مهمل يصدق بالبعض.

اقزام أي هم أراذل النّاس وأدانيهم.

قوله عليه السلام: (**جمعوا من كلّ أوب وتلقطوا من كل شوب**) هاتان الجملتان كأنما تدلاّن على معنى واحد ومطلب فارد أي هم جمعوا من كلّ ناحية وتلقطوا من فرق مختطلة، يعني أنّهم ليسوا بقوم أصيل بل تلقط بعضهم من ههنا وبعضهم من ههنا، وفي الجملة الأَخيرة إشارة لطيفة أيضاً إلى أنهم أوباش النّاس وأسقاطهم.

قوله عليه السلام: (**ممّن ينبغي أن يفقه ويؤدّب ويعلّم ويدرّب**) يعني أنهم قوم جهّال بمعزل عن الكتاب والدين فينبغي أن يفقهوا، وغير متأدبين بآداب الحقّ وغير متعادين بالعادات الجميلة من محاسن الأفعال ومكارم الأخلاق، فينبغي أن يؤدّبوا أي يعلّموا الأَدب ويدرّبوا أي يعوّدوا بتلك العادات الحسنة.

وقرىء يذرّب بالذال المعجمة أيضاً، يقال ذرّب المرأة طفلها تذريباً إذا حملته حتّى يقضي حاجته، وهذه القراءة تناسب الجملة التالية الآتية: أي أنّهم صبيان صغار وأطفال لا يقدرون على شيء، وينبغي أن يربوا في حجر مربّ ويعيشوا في حضانة حاضن. والمراد أن القوم الّذين لم يتفقهوا في الدّين ولا يعلمون شيئاً ينبغي أن يعلّموا ويدرّبوا، بل صبيان ينبغي

أن يذربوا، فأنى لهم أن يقوموا مقام الصديقين ويجلسوا مجلس النبيين، ويعرّفوا أنفسهم بأنّهم خليفة الله ورسوله ويأخذوا أزمة أمور النّاس ويلوا أمورهم، ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]؟.

وقد قال عمار في خطبة خطب بها أهل الكوفة يستنفر النّاس إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام: أيّها النّاس عليكم بإمام لا يؤدب وفقيه لا يعلم وصاحب بأس لا ينكل وذي سابقة في الإسلام ليست لأحد، إلخ. وقد برهن في محلّه أن من أوصاف الإمام أنّه يجب أن يكون أفضل من جميع الرعايا في جميع الصفات الكمالية، فهو لا يؤدب ولا يعلم وسيأتي تحقيقه في شرح الخطبة التالية إن شاء الله.

قوله عليه السلام: **(ويولى عليه ويؤخذ على يديه)** قرىء يولى بالتشديد والتخفيف، وعلى الأوّل يقال: ولاّه الأمر تولية إذا جعله والياً عليه، وعلى الثاني يقال: أولى فلاناً على اليتيم إذا أوصاه عليه، وأولاه الأمر ايلاءً إذا جعله والياً عليه. وهذا كناية عن كونهم سفهاء لا يستحقون أن يلوا أمراً، ويفوض إليهم فإن العقل والنقل معاضدان على قبح تولية الأمور بأيدي السفهاء وولايتهم عليها، قال عزّ من قائل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[1] فكيف الأحكام الإلهيّة والأمور الشرعيّة وما فيها مصالح العامّة وحقوق الرعية، بل ينبغي أن يمنعوا من التصرّف ويحجر عليهم كما يحجر على الصبّي والسفيه لعدم رشدهم، يقال: أخذ على يد فلان إذا منعه عما يريد أن يفعله فمن بلغ في الغباوة والسفاهة إلى هذا الحدّ فكيف يرضى العقل ويمضي أن يقتدى به، وهل هذا إلا ظلم عظيم، ألا وإن الرعيّة الفاجرة تهلك بالإمام الفاجر.

قوله عليه السلام: **(ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تبوّأوا الدار)** أي سكنوها وهي إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحشر ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، ولذا جاء في بعض نسخ الخطبة: ولا من الذين تبوؤا الدار والإيمان وأجمع المفسرون بأن الدار هي المدينة وهي دار الهجرة تبوّأها الأنصار قبل المهاجرين، وكانوا من أهل المدينة أسلموا بها قبل هجرة الرسول بسنتين وبنوا بها المساجد، وأثنى عليهم بقوله عزّ من قائل ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩] فالذين تبوّأوا الدار هم طائفة من الأنصار فكررّ ذكرهم تأكيداً.

وقال الفاضل الشارح المعتزلي بقوله: وأيضاً فإن لفظة الأنصار واقعة على كلّ من كان

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٢٣١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٢٣ ح ٥٦٨.

من الأوس والخزرج، الذين أسلموا على عهد رسول الله ﷺ والذين تبوّأوا الدار والإيمان في الآية قوم مخصوصون منهم، وهم أهل الإخلاص والإيمان التام، فصار ذكر الخاص بعد العام كذكره تعالى جبريل وميكال ثمّ قال: والملائكة بعد ذلك ظهيراً وهما من الملائكة.

وأقول: أمّا المهاجرون فهم الذين هجروا بلادهم أي تركوها وصاروا إلى رسول الله ﷺ، وأمّا الذين أسلموا من أهل مدينة الرسول قبل هجرته أو بعد هجرته فيسمّون أنصاراً، وقد شبعنا الكلام فيه قبل، والذين تبوّأوا الدار والإيمان قوم مخصوص منهم وهم الذين أسلموا قبل هجرته ﷺ، ولذا قيدنا كلامنا بقولنا هم طائفة من الأنصار فصار ذكر الخاص بعد العام بهذا المعنى.

ثمّ على نسخة والإيمان يكون الإيمان متبوءاً على الاستعارة، وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: الإيمان بعضه من بعض وهو دار[1]. وكذلك الإسلام دار والكفر دار، ولما أنّهم ثبتوا على الإيمان واطمأنت قلوبهم به سمّاه متبوءاً ومنزلاً لهم. وقدّر غير واحد من المفسرين في الآية: لازموا ونظائره أي تبوّأوا الدار ولازموا الإيمان مثل قوله:

ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً

أي معتقلاً رمحاً لأن الرمح لا يتقلد به بل يعتقل به يقال: فلان تقلّد سيفه واعتقل رمحه.

وكقول الشاعر:

علّفتها تبناً وماءً بارداً حتّى شنت همّالة عيناها

أي علفتها تبناً وسقيتها ماءاً بارداً.

وإنّما كان قوله هذا ذمّاً لهم لأن عدم اتصافهم بها نقصان لهم بالقياس إلى المتصفين بها، ومن تتبع آثار السلف يجد أن السابقة في الإسلام والهجرة تعدّ من الفضائل والمفاخر والمدائح، ومن كان أسبق إسلاماً وأقدم هجرة من الآخر يفضل عليه.

قوله عليه السلام: **(إلا وأن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبون، وأنكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون)**.

يعني بالقوم الأوّل أهل الشام وبالأخيرين النّاس وما كانوا يحبّونه الغلبة على أهل العراق والظفر بهم وأقرب النّاس لهم من غرضهم ذلك هو عمرو بن العاض، وإنّما كان

(١) مستدرك سفينة البحار: ٣/ ٣٨٦، والتفسير الصافي: ٥/ ١٥٧.

أقرب النّاس إلى وصول غرضهم بمكره وحيله وخدائعه وميله إلى معاوية واتّباعه أثره، اتباع الكلب للضرغام يلوذ إلى مخالبه وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته.

والخطاب في أنكم وأخواته إلى أهل العراق وما يكرهه أهل العراق هو بعينه ما يحبّه أهل الشام وهو صيرورة الأمر إلى معاوية، بخذلان أهل العراق وإنكسارهم، وأقرب الناس منه أبو موسى الأشعري إمّا لغباوته وسفاهته وفساد رأيه، لأنّه كان رجلاً كليل الشفرة قريب القعر مدهوش الجنان، وهو كما عرّفه عمرو بن العاص حين تشاجرا: وإنّما مثله مثل الحمار يحمل أسفار، الآية أو لبغضه عليّاً عليه السلام وانحرافه عنه لأنه عليه السلام عزله عن الكوفة لما قتل عثمان، لما دريت من ترجمة الرجل من قبل وما قال حذيفة فيه وغير ذلك مما قدمنا ذكره.

قوله عليه السلام: **(وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول: إنّها فتنة فقطعوا أوتاركم وشيموا سيوفكم، فإن كان صادقاً فقد اخطأ بمسيره غير مستكره وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة)** عبد الله بن قيس هو أبو موسى الأشعري كما دريت من ترجمته، والمراد بالأمس واقعة الجمل فإنّها كانت قبل واقعة صفين والتعبير بالأمس كناية عن عدم مضيّ زمان طويل منها وعن أنهم قريب العهد بها، فلا يتأتى لهم انكار ما سمعوا من أبي موسى في الأمس وادعاء الغفلة والنسيان عنه، وكان أبو موسى ينهى أهل العراق عن نصرته عليه السلام عند مسيره إلى أهل البصرة ويأمرهم بالاعتزال عن الحرب، وكان يرى أن قتال أهل القبلة فتنة يجب الاعتزال عنها، ويقول: أنها فتنة فقطّعوا أوتاركم يعني أوتار قسيّكم وشيموا سيوفكم أي اغمدوها، كناية عن ترك القتال والاجتناب عنه.

«كلام أبي موسى الأشعري لأهل الكوفة ونهيه إياهم عن نصرة أمير المؤمنين علي عليه السلام بعدما استنفر الناس إليه عليه السلام الحسن بن علي وعمار بن ياسر عند مسيره عليه السلام إلى أهل البصرة»

قال أبو مخنف: أن أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام لما توجه من المدينة إلى البصرة، خطب الحسن بن عليّ عليه السلام وعمّار بن ياسر أهل الكوفة يستنفران إلى عليّ عليه السلام، وبعدما نقل خطبتهما قال: حدّثنا الكلبي عن أبي صالح أن أبا موسى الأشعري لمّا سمع خطبة الحسن وعمّار، قام فصعد المنبر وقال:

الحمد لله الذي أكرمنا بمحمّد فجمعنا بعد الفرقة وجعلنا إخواناً متحابين بعد العداوة وحرّم علينا دماءنا وأموالنا قال الله سبحانه: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] فاتقوا الله عباد الله وضعوا أسلحتكم وكفّوا عن قتال إخوانكم، أمّا بعد يا أهل الكوفة إن

تطيعوا الله بادياً وتطيعوني ثانياً تكونوا جرثومة من جراثيم العرب، يأوي إليكم المضطرّ ويأمن فيكم الخائف، إن علياً إنّما يستنفر عليكم لجهاد أمّكم عائشة وطلحة والزّبير حواريّ رسول الله ﷺ ومن معهم من المسلمين وأنا أعلم بهذه الفتن، أنّها إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت أسفرت. إنّي أخاف عليكم أن يلتقي غاران منكم فيقتتلا ثمّ يتركا كالأحلاس الملقاة بنجوة من الأرض، ثمّ يبقى رجرجة من النّاس لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن منكر، إنها قد جاءتكم فتنة كافرة لا يدري من أين تؤتى، تترك حيران كأني أسمع رسول الله ﷺ بالأمس يذكر الفتن فيقول: أنت فيها نائماً خير منك قاعداً وأنت فيها جالساً خير منك قائماً، وأنت فيها قائماً خير منك ساعياً، فشيموا سيوفكم وقصفوا رماحكم، وانصلوا سهامكم وقطعوا أوتاركم وخلّوا قريشاً ترتق فتقها وترأب صدعها، فإن فعلت فلأنفسها ما فعلت وإن أبت فعلى أنفسها ما جنت، سمها في أديمها استنصحوني ولا تستغشوني وأطيعوني ولا تعصوني، يتبين لكم رشدكم وتصلى هذه الفتنة من جناها.

قال: فقام إليه عمار بن ياسر فقال: أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك؟ قال: نعم، هذه يدي بما قلت: فقال: إن كنت صادقاً فإنّما عناك بذلك وحدك واتخذ عليك الحجة فالزم بيتك ولا تدخلن في الفتنة أما أنّي أشهد أن رسول الله ﷺ أمر علياً بقتال الناكثين وسمّى لي فيهم من سمّى وأمره بقتال القاسطين وإن شئت لأقيمنّ لك شهوداً يشهدون أن رسول الله ﷺ إنّما نهاك وحدك، وحذرك من الدخول في الفتنة ثمّ قال له: أعطني يدك على ما سمعت فمدّ إليه يده فقال له عمّار: غلب الله من غالبه وجاحده ثمّ جذبه فنزل عن المنبر(١).

أقول: وسيأتي تمام الكلام في شرح الكتاب الأوّل من باب المختار من كتبه عليه الصلاة والسلام.

ثمّ إن كلامه عليه السلام هذا احتجاج عليهم في اختيارهم أبا موسى للحكومة وصورة الإحتجاج: أنكم يا أهل العراق قريبوا العهد بقول أبي موسى يقول لكم عند مسيري إلى أهل البصرة: هذه هي الفتنة التي وعدنا بها وأمرنا بالاعتزال عنها، فقطعوا أوتاركم وشيموا سيوفكم، فإن كان أبو موسى في قوله هذا صادقاً فقد أخطأ بمسيره إلينا وحضوره معنا في صفين، وتكثيره سواد أهل العراق حال كونه غير مستكره في ذلك، أي لم يكرهه ولم يجبره أحد في ذلك حتّى يقال أنّه حضره مستكرهاً، وإن لم يحارب ولم يسلّ السيف، وإن كان كاذباً ومختلقاً فيه فقد لزمته التهمة أي الكذب، والاختلاق فهو فاسق بكذبه، فعلى التقديرين

(١) الدرجات الرفيعة: ٢٦٦، والغارات: ٢/ ٩٢٢.

صدق أم كذب قبح جعله حكماً، ولا ينبغي حكومته في هذا الأمر الخطير الجليل والإعتماد عليه فيه.

وقال الشارح الفاضل المعتزلي: هذا الكلام منه عليه السلام يؤكّد صحّة إحدى الروايتين في أمر أبي موسى، فإنّه قد اختلف الرواية هل حضر حرب صفين مع أهل العراق أم لا؟ فمن قال: حضر قال: حضر ولم يحارب وما طلبه يمانيّون من أصحاب عليّ عليه السلام ليجعلوه حكماً كالأشعث بن قيس وغيره إلاّ وهو حاضر معهم في الصف ولم يكن منهم على مسافة، ولو كان منهم على مسافة لما طلبوه، ولكان لهم فيمن حضر غناء عنه، ولو كان على مسافة لما وافق عليّ عليه السلام على تحكيمه، ولا كان عليّ عليه السلام ممّن يحكم من لم يحضر معه، وقال الأكثرون: إنّه كان معتزلاً للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام.

ثمّ قال: فإن قلت: فلم لا يحمل قوله عليه السلام فإن كان صادقاً فقد أخطأ بسيره غير مستكره، على مسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل العراق حيث طلبوه ليفوّضوا إليه أمر الحكومة؟

قلت: لو حملنا كلامه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبي موسى، وكان الجواب عنه هيّنا، وذلك لأن أبا موسى يقول: إنّما أنكرت الحرب وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب ولا لأغري بالحرب، وإنّما سرت للاصلاح بين النّاس واطفاء نائرة الفتنة، فليس يناقض ما رويته عن الرسول من خبر الفتنة ولا ما قلته في الكوفة في واقعة الجمل فقطعوا أوتار قسيكم. انتهى ما أردنا من نقل كلامه(١).

أقول: إن أبا موسى حضر صفين ولم يحارب ولم يسلّ السيف كما نقلنا من قبل، عن كتاب صفين لنصر بن مزاحم وتاريخ أبي جعفر الطبري، أن القوم لمّا صفحوا عن رأي أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وعصوه وأبوا إلا أبا موسى حكماً لأهل العراق، بعثوا إلى أبي موسى وقد اعتزل بأرض من أرض الشام يقال لها: عرض، واعتزل القتال فأتاه مولى له فقال: إن النّاس قد اصطلحوا، فقال: الحمد لله ربّ العالمين، قال: وقد جعلوك حكماً قال: إنا لله وإنا إليه راجعون فجاء أبو موسى حتّى دخل عسكر عليّ عليه السلام.

ثمّ إنّ قول القائل: وما طلبه يمانيّون إلا من كان حاضراً معهم، ولو كان على مسافة لما طلبوه، ولكان لهم فيمن حضر غناء عنه، بديهي البطلان ويظهر وهنه بأدنى تأمّل، على أن ما سمعت من أهل النقل وحملة الآثار، من أن أهل الشام لما رأوا إنكسارهم وخذلانهم رفعوا المصاحف بالرماح خديعة ودهاء ومكيدة، حتّى أن أجمع الفريقان على أن يحييا ما

(١) شرح نهج البلاغة: ٣١٢/١٣.

أحيى القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن، ثمّ رجع كلّ فريق إلى أصحابه وقال النّاس: قد رضينا بحكم القرآن فقال أهل الشام: فإنا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: فإنا قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعري، فقال لهم عليّ عليه السلام: إنّي لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أُوليه، فقال الأشعث ويزيد بن حصين الطائي ومسعر بن فدكي في عصابة من القراء: إنا لا نرضى إلا به فإنّه قد حذرنا ما وقعنا فيه، فعمدة ما استمسكوا بها في اختيارهم أبا موسى أنّه حذرهم عن الحرب وغير ذلك مما مرّ ولا فائدة في الإعادة والإطالة، ولا يخفى أن حضوره عندهم وغيابه عنهم سيّان في غرضهم ذلك، فالاحتمالات التّي ذكرها القائل واهية موهونة جدّاً.

وأوهن منها ما قال: لو كان على مسافة لما وافق عليّ عليه السلام على تحكيمه، ولا كان عليّ ممّن يحكم من لم يحضر معه، لأنّه عليه السلام كان كارهاً ومستكرهاً وغير موافق في أبي موسى، وحكينا من نصر وأبي جعفر الطبري وغيرهما آنفاً أنّه عليه السلام قال: أبا موسى ليس لي برضا وقد فارقني وخذل النّاس عنّي ثمّ هرب حتّى أمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عبّاس أوليه ذلك قالوا: والله ما نبالي أنت كنت أو ابن عبّاس لا نريد إلاّ رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر قال عليّ: فإني أجعل الأشتر قال الأشعث: وهل سعّر الأرض علينا غير الأشتر، وهل نحن إلاّ في حكم الأشتر قال له عليّ عليه السلام: وما حكمه؟ قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسّيوف حتّى يكونن ما أردت وما أراد إلى آخر ما نقلنا. ويقول عليه السلام في هذه الخطبة أيضاً: «فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العبّاس».

ومع الاغماض والصفح عن ذلك كلّه، ولو قيل: إن أبا موسى لم يحضر صفين قطّ وما شهد حرباً، قلنا: فقد أخطأ أيضاً بمسيره إلى القوم ليفوضوا إليه أمر الحكومة ولزمته التهمة، لأنّه روى كما نقلنا من قبل عن ابن عبد البر في **«الاستيعاب»** والمسعودي في **«مروج الذهب»** ونصر بن مزاحم في كتاب **«صفين»** وأبي محمّد بن متويه المعتزلي وغيرهم عن سويد بن غفلة حيث قال: كنت مع أبي موسى على شاطي الفرات في خلافة عثمان فروى لي خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سمعته يقول: إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم حتّى بعثوا حكمين ضالين، ضلاّ وأضلاّ من اتبعهما ولا ينفك أمر أُمتي حتّى يبعثوا حكمين يضلاّن ويُضلاّن من تبعهما فقلت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما فخلع قميصه وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصي هذا[1].

(١) المسترشد: ١٥٩ ح ٢، وشرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٣/٣١٥.

فنقول: إمّا أن يكون في نقل الخبر صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً فهو الضالّ المضلّ، وقد أخطأ بمسيره إليهم ودخوله في الحكومة فكيف يجوز أن يقول: إنّما سرت للاصلاح بين النّاس وإطفاء نائرة الفتنة من شهد على نفسه بالضلال والإضلال وكيف لا يناقض بعض قوله بعضاً وهل هذا إلاّ التهافت.

وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة فهو فاسق فلا ينبغي الإعتماد عليه في هذا الخطب الخطير، وقد كان في القوم من لم يكن فيه تلك التهمة وسوء الظن مع قوة العقل وصحة النظر وظهور النصح، مع جواز أن يكون رضاه لحب الحكومة فإن الملك عقيم أو للانتقام من عليّ عليه السلام لما قد نقلنا من ابن عبد البر وغيره بعد ذكر عزله عليه السلام إيّاه عن الكوفة، فلم يزل واجداً على عليّ عليه السلام حتّى جاء فيه ما قال حذيفة: - إلى آخر ما نقلنا في ترجمة أبي موسى.

وسيأتي تمام الكلام فيه في كتابه عليه السلام الثالث والستين إليه قوله عليه السلام من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس أمّا بعد فقد بلغني إلخ فارتقب.

بيان

في «**مروج الذهب**» للمسعودي: نقلت الرواية عن سويد بن علقمة وفي غيره عن سويد بن غفلة والأخير صواب، وما في «**مروج الذهب**» تصحيف من النساخ قال العلامة الحلّي قدس سره في «**الخلاصة**»: قال البرقي إنه من أولياء أمير المؤمنين عليه السلام وهو سويد بن غفلة الجعفي، وفي «**منتهى المقال في أحوال الرجال**» لأبي علي نقلاً عن «**مختصر تذكرة**» الذهبي: ولد عام الفيل أو بعده بعامين وأسلم وقد شاخ فقدم المدينة وقد فرغوا من دفن المصطفى صلى الله عليه وآله - إلى أن قال: وكان ثقة نبيلاً عابداً زاهداً قانعاً باليسير كبير الشأن يكنى أبا أمية، وقيل: الجعفي بالغين المعجمة[١].

قوله عليه السلام: (**فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس**) يعني نحّوه بابن العبّاس واضربوا صدره به، أي اجعلوا عبد الله بن العبّاس حكماً مقابلاً لعمرو بن العاص حتّى يدفعه عما يريد، وقد نقلنا قبل من كتاب «**صفين**» (**ص ٢٧٠ طبع إيران الناصري**) لنصر بن مزاحم، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام قال: لما أراد النّاس عليّاً عليه السلام على أن يضع حكمين قال لهم علي: إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وأنّه لا يصلح للقرشي إلاّ مثله فعليكم بعبد الله بن العباس فارموه به فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلّها عبد الله ولا يحلّ عقدة إلاّ عقدها

---

(١) الغارات: ٢/٧٠٤، والمسترشد: ٥٦ ح ٢٨.

ولا يبرم أمراً إلا نقضه ولا ينقض أمراً إلاّ أبرمه، فقال الأشعث: لا والله لا يحكم فينا مضريان حتّى تقوم الساعة ولكن اجعله رجلاً من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر فقال عليّ عليه السلام: إنّي أخاف أن يخدع يمنيّكم، فإن عمراً ليس من الله في شيء حتى إذا كان له في أمر هواه فقال الأشعث: والله لأن يحكما بعض ما نكره واحدهما من أهل اليمن أحبّ إلينا من أن يكون ما نحبّ في حكمهما وهما مضريان، قال علي عليه السلام: قد أبيتم إلاّ أبا موسى قالوا: نعم، قال: فاصنعوا ما أردتم، وفي رواية أخرى فاصنعوا ما شئتم اللّهم إنّي أبرأ إليك من صنيعهم[1].

قوله عليه السلام: **(وخذوا مهل الأيام)** أي لا تهملوا المهلة فاغتنموا سعة الأيام وفسحتها، قبل أن تضيق وتفوت عنكم فاعملوا فيها ما ينبغي لكم.

قوله عليه السلام: **(وحوطوا قواصي الإسلام)** أي احفظوا نواحي بلاد الإسلام وحدودها وأطرافها.

أقول: لمّا بلغ شرحنا إلى هنا كتب إليّ صديق لي كتاباً أظهر فيه شكوى إليّ وأبرز حاجة، وطلب الإفتاء في رؤياء، والرّجل وإن كان ذا فضل لكنه لم يكن عارفاً بالعلوم العربية حتّى النحو، ولغة العرب فذهبت إليه فأشكيته ثمّ انجرّ الكلام إلى مكتوبه فقال: أما الشكوى فإن بي شكاة مدة شهرين ولم تعدني، فأعذرته بعدم العلم به، فقال: أمّا الحاجة فإلى مجلد من ناسخ التواريخ في ترجمة عيسى روح الله عليه السلام، وأمّا الرؤياء فرأيت في المنام أني أسافر معك حتّى انتهينا إلى ثقب جبل فجاوزناه فآوينا إلى ناحية فأذن أن بي حيرة في أمري أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى ولكنك جالس فرحاً مبتهجاً وحولك كتب كثيرة وأمعنت في الكتابة كأنك شاغل بتأليف كتاب، فاسترقت البصر فرأيت أنك كتبت «حوطو».

فلمّا أخبرته بشرحنا هذا وأنّه بلغ إلى قوله عليه السلام: «حوطوا قواصي الإسلام» عجب، وعجبت أيضاً ولعمري أن الرّجل لم يكن مطلّعاً على أمري، وكنت غائباً عنه منذ سنة وبذلك تفألت بالخير في إقبالي إلى هذا الشرح المنيف وإقدامي عليه وأرجو من الله أن يوفّقني للاتمام فإنه ولي التوفيق وأن يجعل نفعه أعم وفائدته أتم. اللّهم آمين، ويرحم الله عبداً قال آمينا.

قوله عليه السلام: **(ألا ترون إلى بلادكم تغزى وإلى صفاتكم ترمى)** قد مرّ أنّ الصفاة في الأصل الحجر الصلد الضخم لا ينبت ولا تنفذ فيها السهام، وهذه الكلمة كما يستفاد من مواضع كثيرة من استعمالهم، يكنّى بها عن عرض الرّجل وحيطته وحوزته ونظائرهما مما لها شأن، ويقال:

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣١٣، والإمامة والسياسة: ١/ ١٠٥.

فلان رمي صفاة فلان إذا دهاه بداهية قال ابن عمّ لأبي موسى مخاطباً إياه كما في كتاب «صفين» لنصر (ص ٣٠٠ الطبع الناصري):

أبا موسى بليت فكنت شيخاً قريب القعر مدهوش الجنان

رمى عمرو صفاتك يا ابن قيس بأمر لا تنوء به اليدان

وفلان لا تقرع له صفاة أي لا يناله أحد بسوء ولا يطمع فيه فقوله عليه السلام (ألا ترون إلى) آخره ترغيب لهم في حفظ حوزة الإسلام وصيصيته، وحياطة قواصي بلاده وتهييج لهم في دفع أيدي الأجانب عن بيضة الإسلام وأهله.

فاستثار عليه السلام نفوسهم بأن العدو طمع فيهم وقصد بلادهم ورمي صفاتهم حتّى تفرق كلمتهم ولا تشتت وحدتهم فتذهب ريحهم والعدو هو معاوية الطغام وأتباعه الفجرة اللئام من أهل الشام.

ثمّ قال الشارح الفاضل المعتزلي: قوله عليه السلام ألا ترون إلى آخره، يدلّ على أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمر التحكيم، لأن معاوية بعد أن تمّ، على أبي موسى من الخديعة ما تمّ استعجل أمره وبعث السرايا إلى أعمال عليّ عليه السلام، يقول: قد بلغت غارات أهل الشام حدود الكوفة التي هي دار الملك وسرير الخلافة، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان في غيرها من الأطراف.

أقول: كلامه عليه السلام فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العبّاس يدلّ على أن هذه الخطبة صدرت منه عليه السلام في أثناء تشاجر القوم في اختيار الحكمين كما نقلنا قولاً آخر نظيره منه عليه السلام: فعليكم بعبد الله بن العبّاس فارموه به فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلّها عبد الله، إلى آخر ما مر آنفاً، ولو كان بعد انقضاء التحكيم لما كان لكلامه عليه السلام ذلك مجال.

بل الظاهر من صورة احتجاجه عليه السلام عليهم يدلّ على أن الخطبة قبل انقضاء أمر التحكيم، وإنما قالها عليه السلام توبيخاً لهم بسوء رأيهم وقبح اختيارهم في أبي موسى، وتنبيهاً لهم بأنّ ابن العبّاس ينبغي أن يجعل قبال ابن العاص، ولا ينافي هذا قوله عليه السلام: ألا ترون إلى بلادكم تغزى وإلى صفاتكم ترمى، لأن أهل الشام قبل انقضاء أمر التحكيم أيضاً كانوا يغزون بلادهم ويرمون صفاتهم وطمعوا فيهم حتّى فعلوا ما فعلوا، على أنه يمكن أن يكون على صورة الأخبار حثّا لهم على اغتنام الفرصة وحياطة بيضة الإسلام، وإيقاظاً لهم بأن الأعداء قد أشرفوا عليهم لو ذهبوا إلى رأيهم الفاسد ونظرهم الكاسد.

«بحث كلامي»
«نقل مسألتين من تنزيه الانبياء للشريف المرتضى علم الهدي»
«في ايراد شبهات وأجوبتها في المقام»

ذكر علم الهدى رضوان الله عليه في قسم تنزيه الأئمة، من كتابه الموسوم بتنزيه الأنبياء عدّة شبهات، ربّما تورد في المقام ثمّ تصدّى للجواب عنها، ونحن نكتفي بمجرد نقلها عنه من غير بسط وزيادة منّا قال رحمه الله:

«المسألة الأولى»

فإن قيل: فما الوجه في تحكيمه عليه السلام أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وما العذر في أن حكّم في الدين الرّجال؟ وهذا يدلّ على شكّه في إمامته وحاجته إلى علم[١] بصحة طريقته.

ثمّ ما الوجه في تحكيمه فاسقين عنده عدوّين له؟ أو ليس قد تعرض بذلك لأن يخلعا إمامته ويشكّكا النّاس فيه، وقد مكنهما من ذلك بأن حكّمهما وكانا غير متمكنين منه، ولا أقوالهما حجة في مثله؟

ثمّ ما العذر في تأخيره جهاد المرقة الفسقة، وتأجيله ذلك مع إمكان استظهاره وحضور ناصره؟

ثمّ ما الوجه في محو اسمه من الكتاب بالإمامة وتنظره بمعاوية، في ذكر نفسه بمجرد الاسم المضاف إلى الأب كما فعل ذلك به، وأنتم تعلمون أن بهذه الأمور ضلّت الخوارج مع شدّة تخشنها في الدين وتمسكها بعلائقه ووثائقه؟

«الجواب عن الشبهة الأولى»

قلنا: كلّ أمر ثبت بدليل قاطع غير محتمل فليس يجوز أن نرجع عنه ونتشكك فيه لأجل أمر محتمل، وقد ثبتت إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وعصمته وطهارته من الخطأ وبراءته من الذنوب والعيوب بأدلة عقلية وسمعيّة، فليس يجوز أن نرجع عن ذلك أجمع ولا عن شيء منه لما وقع من التحكم المحتمل للصواب بظاهره، وقبل النظر فيه كاحتماله للخطأ ولو كان ظاهره أقرب إلى الخطأ وأدنى إلى مخالفة الصواب، بل الواجب في ذلك القطع على مطابقة

---

(١) في نسخة: علمه.

ما ظهر من المحتمل لما ثبت بالدليل وصرف ماله ظاهر عن ظاهره والعدول به إلى موافقة مدلول الدلالة التي لا يختلف مدلولها، ولا يتطرق عليها التأويل وهذا فعلنا فيما ورد من آي القرآن التي تخالف بظاهرها الأدلّة العقليّة مما يتعلق به الملحدون أو المجبرة أو المشبهة، وهذه جملة قد كرّرنا ذكرها في كتابنا هذا الجلالة موقعها من الحجة ولو اقتصرنا في حل هذه الشبهة عليها لكانت مغنية كافية، كما أنها كذلك فيما ذكرناه من الأُصول لكنّا نزيد وضوحاً في تفصيلها ولا نقتصر عليها كما لم تفعل ذلك فيما صدّرنا به هذا الكتاب من الكلام في تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن المعاصي.

فنقول: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما حكّم مختاراً بل أُحوج إلى التحكيم، وأُلجىء إليه لأن أصحابه عليه السلام كانوا من التخاذل والتقاعد والتواكل إلا القليل منهم على ما هو معروف مشهور، ولمّا طالت الحرب وكثر القتل وجلّ الخطب ملّوا ذلك وطلبوا مخرجاً من مقارعة السيوف، واتفق من رفع أهل الشام المصاحف والتماسهم الرجوع إليها واظهارهم الرضا بما فيها ما اتفق بالحيلة التي نصبها عدو الله عمرو بن العاص، والمكيدة التي كاد بها لمّا أحسّ بالبوار وعلوّ كلمة أهل الحق، وأن معاوية وجنده مأخوذون قد علتهم السيوف ودنت منهم الحتوف، فعند ذلك وجد هؤلاء الأغنام طريقاً إلى الفرار وسبيلاً إلى وقوف أمر المناجزة ولعلّ منهم من دخل عليه الشبهة لبعده عن الحق وغلظ فهمه وظن أن الذي دعى إليه أهل الشام من التحكيم والخديعة، فطالبوه عليه السلام بكفّ الحرب والرّضا بما بذله القوم فامتنع عليه السلام من ذلك امتناع عالم بالمكيدة ظاهر على الحيلة، وصرّح لهم بأن ذلك مكرٌ وخداع فأبوا ولجّوا، فأشفق عليه السلام في الامتناع عليهم والخلاف لهم، وهم جمة عسكره وأصحابه من فتنة صمّاء هي أقرب إليه من حرب عدوّه، ولم يأمن أن يتعدّى ما بينه وبينهم إلى أن يسلموه إلى عدوّه أو يسفكوا دمه. فأجاب إلى التحكيم على مضض وودّ من كان قد أخذ بخناق معاوية وقارب تناوله وأشرف على التمكن منه حتّى أنّهم قالوا للأشتر رحمه الله تعالى وقد امتنع من أن يكف عن القتال وقد أحسّ بالظفر وأيقن بالنصر: أتحبّ أنّك ظفرت ههنا وأمير المؤمنين عليه السلام عند رفعهم المصاحف اتقوا الله وامضوا على حقّكم فإن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً ورجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال، أنّهم والله ما رفعوا المصاحف ليعملوا بها وإنّما رفعوها خديعة ودهاء ومكيدة، فأجاب عليه السلام إلى التحكيم دفعاً للشرّ القويّ بالشرّ الضعيف وتلافيا للضرر الأعظم بتحمل الضرر الأيسر.

وأراد أن يحكّم من جهته عبد الله بن العبّاس رحمة الله عليه، فأبوا عليه ولجّوا كما لجّوا في أصل التحكيم وقالوا: لا بدّ من يمانيّ مع مصريّ فقال عليه السلام: فضمّوا الأشتر وهو يماني إلى عمرو، فقال الأشعث بن قيس: الاشتر هو الذي طرحنا فيما نحن فيه، واختاروا

أبا موسى مقترحين له عليه السلام ملزمين له تحكيمه فحكّمهم فحكّمهما بشرط أن يحكما بكتاب الله تعالى ولا يتجاوزاه، وأنهما متى تعدّياه فلا حكم لهما، وهذا غاية التحرز ونهاية التيقظ، لأنا نعلم أنهما لو حكما بما في الكتاب لأصابا الحق وعلما أن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام أولى بالأمر، وأنّه لا حظّ لمعاوية وذويه في شيء منه، ولمّا عدلا إلى طلب الدّنيا ومكر أحدهما بصاحبه ونبذا الكتاب وحكمه وراء ظهورهما خرجا من التحكيم وبطل قولهما وحكمهما، وهذا بعينه موجود في كلام أمير المؤمنين عليه السلام لمّا ناظر الخوارج واحتجّوا عليه في التحكيم وكلّ ما ذكرناه في هذا الفصل من ذكر الأعذار في التحكيم، والوجوه المحسنة له مأخوذ من كلامه عليه السلام وقد روى عنه عليه السلام مفصّلاً مشروحاً.

«الجواب عن الشبهة الثانية»

فأمّا تحكيمهما مع علمه بفسقهما فلا سؤال فيه إذ كنّا قد بينا أن الإكراه وقع على أصل الإختيار وفرعه، وأنه عليه السلام ألجىء إليه جملة ثمّ إلى تفصيله ولو خلّي عليه السلام واختياره ما أجاب إلى التحكيم أصلا ولا رفع السيف(١) عن أعناق القوم لكنّه أجاب إليه ملجئاً كما أجاب إلى من اختاره وبعينه كذلك وقد صرّح عليه السلام بذلك في كلامه حيث يقول: لقد أمسيت أميراً أصبحت مأموراً وكنت أمس ناهياً وأصحبت اليوم منهياً(٢)، وكيف يكون التحكيم منه عليه السلام دالاً على الشك وهو عليه السلام ناهٍ عنه وغير راضٍ به ومصرّح بما فيه من الخديعة وإنّما يدلّ ذلك على شكّ من حمله عليه وقاده إليه.

وإنّما يقال: إنّ التحكيم يدلّ على الشك إذا كنّا لا نعرف سببه والحامل عليه، أو كان لا وجه له إلاّ ما يقتضي الشك، فأمّا إذا كنا قد عرفنا ما اقتضاه وأدخل فيه وعلمنا أنّه عليه السلام ما أجاب إليه إلاّ لدفع الضرر العظيم، ولأن يزول الشبهة عن قلب من ظنّ به عليه السلام أنه لا يرضى بالكتاب ولا يجيب إلى تحكيمه، فلا وجه لما ذكروه، وقد أجاب عليه السلام عن هذه الشبهة بعينها في مناظرتهم لما قالوا له: أشككت؟ فقال عليه السلام: أنا أولى بأن لا أشك في ديني أم النبيّ صلى الله عليه وآله أو ما قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

وأمّا قول السائل فإنّه عليه السلام تعرض لخلع إمامته ومكّن الفاسقين من أن يحكما عليه بالباطل، فمعاذ الله أن يكون كذلك لأنا قد بيّنا أنّه عليه السلام إنما حكّمهما بشرط لو وفيا به وعملا عليه لأقرّا إمامته وأوجبا طاعته، لكنهما عدلا عنه فبطل حكمهما، فما مكّنهما مع خلع إمامته

(١) في نسخة: السيوف.

(٢) تنزيه الأنبياء: ١٩٧.

ولا تعرض منهما لذلك، ونحن نعلم أن من قلّد حاكماً أو ولى أميراً ليحكم بالحق ويعمل بالواجب فعدل عمّا شرطه وخالفه لا يسوغ القول بأن من ولآه عرضه للباطل ومكّنه من العدول عن الواجب، ولم يلحقه شيء من اللّوم بذلك بل كان اللّوم عائداً على من خالف ما شرط عليه.

«الجواب عن الشبهة الثالثة»

فأمّا تأخيره جهاد الظالمين وتأجيل ما يأتي من استيصالهم، فقد بينا العذر فيه وأن أصحابه عليه السلام تخاذلوا وتواكلوا واختلفوا، وأن الحرب بلا أنصار وبغير أعوان لا يمكن، والمتعرض لها مغرر بنفسه وأصحابه.

«الجواب عن الشبهة الرابعة»

فأمّا عدوله عن التسمية بأمير المؤمنين واقتصاره على التسمية المجردة، فضرورة الحال دعت إليها، وقد سبقه إلى مثل ذلك سيّد الأوّلين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وآله في عام الحديبية وقصته مع سهل بن عمرو وأنذره عليه السلام بأنّه سيدعى إلى مثل ذلك ويجب على مضض فكان كما أنذر وخبّر رسول الله صلى الله عليه وآله واللّوم بلا إشكال زائل عما اقتدى فيه بالرسول صلى الله عليه وآله وهذه جملة تفصيلها يطول وفيها لمن أنصف من نفسه بلاغ وكفاية.

«المسألة الثانية»

فإن قيل: فإذا كان عليه السلام من أمر التحكيم على ثقة ويقين فلم روي عنه عليه السلام أنّه كان يقول بعد التحكيم في مقام بعد آخر: لقد عثرت عثرة لا أنجبر سوف أكيس بعدها واستمرّ، وأجمع الرأي[1] الشتيت المنتشر أو ليس هذا إذعاناً بأن التحكيم جرى على خلاف الصواب؟

«الجواب»

قلنا قد علم كلُّ عاقل قد سمع الأخبار ضرورة أن أمير المؤمنين عليه السلام وأهله وخلصاء شيعته وأصحابه كانوا من أشدّ النّاس إظهاراً لوقوع التحكيم، من الصواب والسداد موقعه وأن الذي دعى إليه حسن والتدبير أوجبه، وأنّه عليه السلام ما اعترف قطّ بخطأ فيه ولا أغضي عن الإحتجاج فيمن شك فيه وضعّفه كيف؟ والخوارج إنّما ضلّت عنه وعصته[2] وخرجت عليه

(١) في نسخة: الشمل.

(٢) في نسخة: عاصته.

لأجل أنها أرادته على الإعتراف بالزلل في التحكيم فامتنع كلّ امتناع وأبى أشدّ إباءٍ وقد كانوا يقنعون منه ويعاودون طاعته ونصرته بدون هذا الذي أضافوه إليه عليه السلام من الإقرار بالخطأ وإظهار التّندم، وكيف يمتنع من شيء ويعترف بأكثر منه ويغضب من جزء ويجيب إلى كلّ هذا ممّا لا يظنه عليه السلام أحد ممّن يعرفه حقّ معرفته.

وهذا الخبر شاذّ ضعيف فإمّا أن يكون باطلاً موضوعاً أو يكون الغرض فيه غير ما ظنّه القوم من الإعتراف بالخطأ في التحكيم. فقد روى عنه عليه السلام معنى هذا الخبر وتفسير مراده منه، ونقل من طرق معروفة موجودة في كتب أهل السير أنّه عليه السلام لما سئل عن مراده بهذا الكلام قال: كتب إليّ محمّد بن أبي بكر بأن أكتب له كتاباً في القضاء يعمل عليه فكتبت له ذلك وأنفذته إليه فاعترضه معاوية فأخذه فتأسف[1] عليه السلام على ظفر عدوّه بذلك وأشفق من أن يعمل بما فيه من الأحكام، ويوهم ضعفة أصحابه أن ذلك من علمه ومن عنده فتقوى الشبهة به عليهم، وهذا وجه صحيح يقتضي التأسف والتّندم، وليس في الخبر المتضمن للشعر ما يقتضى أنّ تندّمه كان على التحكيم دون غيره وإذا جاءت رواية بتفسير ذلك عنه عليه السلام كان الأخذ بها أولى. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

هداية وإرشاد

قد ذكرنا بعضاً من الأشعار القديمة ممّن شهد صفّين مع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وصفوه عليه السلام بأنّه وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وعرّفوه بذلك وقائلوها سنام المسلمين من الصحابة وغيرهم، وكبارهم في صدر الإسلام وعليهم تثنّى الخناصر، وكذا نرى كثيراً من الأشعار يجلّ عن الأحصاء المقولة في وقعة الجمل وغيرها المتضمنة كونه عليه السلام وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن نظر فيها بعين الدراية والإنصاف رأى أن الحقّ ما ذهبت إليه الطائفة الحقّة المحقّة الإماميّة الاثنا عشرية وقاطبة الشيعة في خلافته وإمامته عليه السلام، لأن هذه الكلمة الصادرة من هؤلاء العظام مع قربهم بزمان رسول الله صلى الله عليه وآله بل أدرك كثير منهم إيّاه، ممّا يعتني بها ويبجّلها من يطلب الحقّ ويبحث عنه ونحن نذكر شرذمة منها ههنا تذكرة وتنبيهاً لأولى الدراية والنهي ونذكر الأشعار وندع ذكر الوقائع التي قيل الشعر فيها، ففي كتاب «صفّين» لنصر بن مزاحم المنقري وهو من قدماء رجال الحديث مدحه الفريقان بالتوثيق **(ص ١٢ الطبع الناصري)** قال جرير أبياتاً منها:

أتانا كتاب عليّ فلم	نردّ الكتاب بأرض العجم
رسول المليك ومن بعده	خليفتنا القائم المدّعم

(١) في نسخة: فأسف.

عليّاً عنيت وصيّ النبيّ يجالد عنه غواة الأمم
له الفضل والسبق والمكرمات وبيت النبوة لا يهتضم

وفيه (ص ١٥): ومما قيل على لسان الأشعث:

أتانا الرسول رسول عليّ فسرّ بمقدمه المسلمونا
رسول الوصيّ وصيّ النبي له الفضل والسبق في المؤمنينا

ثمّ قال: ومما قيل على لسان الأشعث أيضاً:

أتانا الرسول رسول الوصي عليّ المهذب من هاشم
رسول الوصيّ وصيّ النبيّ وخير البريّة من قائم
وزير النبي وذي صهره وخير البرية في العالم
له الفضل والسبق بالصالحات وخير البريّة في العالم

وفيه (ص ٢٨) كتب جرير إلى شرحبيل أبياتاً منها:

وما لعليّ في ابن عفّان سقطة بأمر ولا جلب عليه ولا قتل
وصيّ رسول اللّه من دون أهله وفارسه الأُولى به يضرب المثل

وفي بعض النسخ: وفارسه الحامي به يضرب المثل.

وفيه (ص ٧٣) قال النجاشي:

رضينا بما يرضى عليّ لنا به وإن كان فيما يأت جدع المناخر
وصيّ رسول اللّه من دون أهله ووارثه بعد العموم الأكَابر

وفيه (ص ٢٠٤) قال المغيرة بن الحارث بن عبد المطّلب:

وأيقنوا أن من أضحى يخالفكم أضحى شقيا وأضحى نفسه خسرا
فيكم وصيّ رسول اللّه قائدكم وأهله وكتاب اللّه قد نشرا
ولا تخافوا ضلالاً لا أبا لكم سيحفظ الدين والتقوى لمن صبرا

وفيه (ص ٢٢٢) قال الفضل بن عباس:

وقلت له لو بايعوك تبعتهم فهذا عليّ خير حافٍ وناعلِ
وصيّ رسول اللّه من دون أهله وفارسه إن قيل هل من مُنازل

وفيه (ص ٢٥) قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أبياتاً منها:

يا عجبا لقد سمعت منكراً كذباً على اللّه يشيب الشعرا

يسترق السمع ويغشى البصرا ... ما كان يرضى أحمد لو خبرا
إن يقرنوا وصيّه والأبترا ... شاني الرسول واللعين الأخزرا

وفيه (ص ١٩١) قال النضر بن عجلان الأنصاري أبياتاً منها:

كيف التفرق والوصيّ إمامنا ... لا كيف إلا حيرة وتخاذلا
لا تعتبُنّ عقولكم لا خير في ... من لم يكن عند البلابل عاقلا
وذروا معاوية الغويّ وتابعوا ... دين الوصيّ لتحمدوه آجلاً

وفيه (ص ٢٠٢) قال عبد الرحمٰن بن ذويب الأسلمي أبياتاً منها:

يقودهم الوصيّ إليك حتّى ... يردك عن غواتك وارتياب

ومن الأشعار التي تتضمّن هذه اللفظة وقيل في حرب الجمل ما قال غلام من بني ضبّة شاب معلّم من عسكر عائشة، خرج يوم الجمل وهو يقول:

نحن بنو ضبّة أعداء عليّ ... ذاك الذي يعرف قدماً بالوصيّ
وفارس الخيل على عهد النبي ... ما أنا عن فضل عليّ بالعمي
لكنني أنعي بن عفّان التقي ... أنّ الولي طالب ثار الولي

وقال حجر بن عديّ الكندي في يوم الجمل:

يا ربّنا سلّم لنا عليّاً ... سلّم لنا المبارك الرضيّا
المؤمن الموحّد النقيّا ... لا خطل الرأي ولا غويّاً
بل هادياً موفقاً مهدياً ... واحفظه ربّي واحفظ النبيّا
فيه فقد كان له وليّاً ... ثمّ ارتضاه بعده وصيّاً

وما قال خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين وكان بدريّاً في يوم الجمل يخاطب عائشة من أبيات بعضها:

أعايشُ خلّي عن عليٍّ وعيبه ... بما ليس فيه إنّما أنت والده
وصيّ رسول الله من دون أهله ... وأنت على ما كان من ذاك شاهده

وما قال خزيمة أيضاً:

ليس بين الأنصار في جحمة الحرب ... وبين العداة إلا الطعان
وقراع الكماة بالقصب البيض ... إذا ما تحطم المران
فادعها تستجب من الخزرج ... والأوس يا علي جبان

يا وصيّ النبيّ قد اجلت الحرب الاعادي وسارت الاظعان
واستقامت لك الأمور سوى الشام وفي الشام تظهر الأذعان
حسبهم ما رأوا وحسبك منا هكذا نحن حيث كنا وكانوا

وما قال عمرو بن أجنحة يوم الجمل خطاباً للحسن بن عليّ عليه السلام:

حسن الخير يا شبيه أبيه قمت فينا مقام خير خطيب

إلى أن قال:

وأبى اللّه أن يقوم بما قام به ابن الوصيّ وابن النجيب
أن شخصاً بين النّبيّ لك الخير وبين الوصيّ غير مشوب

وما قال زجر بن قيس الجعفي في يوم الجمل:

أضربكم حتّى تقرّوا لعليّ خير قريش كلّها بعد النبيّ
من زانه اللّه وسمّاه الوصيّ أن الوليّ حافظ ظهر الوليّ
كما الغويّ تابع أمر الغويّ

وقال الفضل بن عباس **(كما في تاريخ الطبري ص ٤٤٩ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ)** في أبيات له:

ألا إنّ خير النّاس بعد محمّد وصي النبي المصطفى عند ذي الذكر
وأوّل من صلّى وصنو نبيّه وأوّل من أردى الغوات لدى بدر

وقال عمّار بن ياسر في الخطبة التي استنفر أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال في أبيات له كما نقله الشيخ الأجل المفيد في الجمل ص ١١٧ طبع النجف:

رضينا بقسم اللّه إذ كان قسمنا عليّاً وأبناء الرسول محمّد
أتاكم سليل المصطفى ووصيّه وأنتم بحمد اللّه عارضه الندى

وما قال زياد بن لبيد الأنصاري كان من أصحاب عليّ عليه السلام يوم الجمل من أبيات بعضها:

إنا أناس لا نبالي من عطب ولا نبالي في الوصيّ من غضب

وما قال عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي يوم الجمل:

يا قوم للخطة العظمى التي حدثت حرب الوصيّ وما للحرب من آسى

الفاصل الحكم بالتقوى إذا ضربت تلك القبائل أخماساً لأسداس

وما قال عبد الله بن أبي سفيان بن الحرب بن عبد المطلب:

ومنا عليّ ذاك صاحب خيبر وصاحب بدر يوم سالت كتائبه
وصيّ النبيّ المصطفى وابن عمه فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه

وما قال عبد الرحمٰن بن جعيل:

لعمري لقد بايعتم ذا حفيظة على الدين معروف العفاف موفقا
عليّا وصيّ المصطفى وابن عمّه وأوّل من صلّى أخا الدين والتقى

وما قال أبو الهيثم التيهان وكان بدرياً من أبيات بعضها:

إن الوصيّ إمامنا ولينا برح الخفا وباحث الأسرار

وما قال عمر بن حارثة الأنصاري في محمّد ابن الحنفية يوم الجمل من أبيات بعضها:

سميّ النبي وشبه الوصيّ ورايته لونها العندم

وما قال رجل من الأزد يوم الجمل:

هذا عليّ وهو الوصيّ أخاه يوم النجوة النبي
وقال هذا بعدي الوليّ وعاه واع ونسي الشقي

وقال آخر:

إنّي أدين بما دان الوصيّ به يوم الخريبة من قتل المحلّينا
وبالذي دان يوم النهردنت به وشاركت كفه كفّي بصفينا
تلك الدماء معا يا ربّ في عنقي ثمّ اسقني مثلها آمين آمينا

وقال أبو الأسود كما في **الأغاني** (**ص ١٠ ج ٧ طبع ساسي**):

أُحبّ محمّداً حبّاً شديداً وعبّاساً وحمزة والوصيّا

وأتى بكثير من هذه الأبيات الشارح المعتزلي في ذيل شرح الخطبة الثانية من «**النهج**» أيضاً ونقلها عنه المجلسي الثاني في المجلد التاسع من «**بحار الأنوار**» (**ص ٣٦٤ الطبع الكمپاني**) والسيّد عبد الحسين شرف الدين الموسوي في كتاب «**المراجعات**» (**المراجعة ١٠٨**).

وكذا نرى كثيراً من الأخبار والروايات المنقولة من الفريقين، أنّه عليه السلام الذي لا يصدر إلاّ من نبيّ أو وصيّ وكفى في ذلك حديث الراهب، الذي بلغ في الشهرة حدّ الشمس في وسط السماء وأتى به علماء الكلام في كتبهم الكلاميّة، ومنهم نصير الملة والدّين المحقق

الطوسي في «**التجريد**»، وذكره في الشرح شراح الفريقين كالعلامة الحلّي وشمس الدين محمود بن أحمد الأصبهاني والفاضل القوشجي وغيرهم وقد أومأنا من قبل فذلكة ذلك الحديث من القوشجي ولا بأس بذكرها تفصيلاً لاشتماله على ضروب من المعجز، ظهرت من وصيّ خاتم الأنبياء فأسلم الراهب فاهتدى، هكذا يصنع الحقّ بأهله وأتى به نصر المتقدّم ذكره في كتاب «**صفين**» والمجلسي في «**البحار**» والشارح المعتزلي في «**شرح النهج**» والشيخ السديد الملقب بالمفيد في «**الإرشاد**» وغيرهم مما يطول الكلام بعدّها وإحصائها فقال الشيخ المفيد:

ومن ذلك ما رواه أهل السير واشتهر الخبر به في العامة والخاصة، حتّى نظمه الشعراء وخطب به البلغاء ورواه الفهماء والعلماء، من حديث الراهب بأرض كربلاء والصخرة وشهرته، يغني عن تكلف إيراد الإسناد له، وذلك أن الجماعة روت أن أمير المؤمنين عليه السلام لما توجّه إلى صفّين لحق أصحابه عطش شديد ونفد ما كان عندهم من الماء، فأخذوا يمينا وشمالاً يلتمسون الماء فلم يجدوا له أثراً فعدل بهم أمير المؤمنين عليه السلام عن الجادّة وسار قليلاً فلاح لهم دير في وسط البريّة فسار بهم نحوه، حتّى إذا صار في فنائه أمر من نادى ساكنه بالإطلاع إليهم فنادوه فاطلع، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: هل قرب قائمك هذا من ماء يتغوث به هؤلاء القوم؟ فقال: هيهات بيني وبين الماء أكثر من فرسخين، وما بالقرب منّي شيء من الماء ولولا إنني أوتى بماء يكفيني كلّ شهر على التقتير لتلفت عطشاً. فقال أمير المؤمنين عليه السلام أسمعتم ما قال الراهب؟ قالوا: نعم، أفتأمرنا بالمسير إلى حيث أومأ إليه لعلّنا ندرك الماء وبنا قوّة؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: لا حاجة لكم إلى ذلك، ولوّى عنق بغلته نحو القبلة وأشار بهم إلى مكان يقرب من الدير فقال لهم: اكشفوا الأرض في هذا المكان فعدل منهم جماعة إلى الموضع فكشفوه بالمساحى فظهرت لهم صخرة عظيمة تلمع، فقالوا: يا أمير المؤمنين ههنا صخرة لا تعمل فيها المساحى. فقال لهم: إنّ هذه الصخرة على الماء فإن زالت عن موضعها وجدتم الماء، فاجتهدوا في قلعها فاجتمع القوم وراموا تحريكها، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً واستصعب عليهم فلمّا رآهم عليه السلام قد اجتمعوا وبذلوا الجهد في قلع الصخرة واستصعب عليهم، لوّى رجله عن سرجه حتّى صار على الأرض ثمّ حسر عن ذراعيه ووضع أصابعه تحت جانب الصخرة فحرّكها ثمّ قلعها بيده ودحى بها أذرعاً كثيرة، فلمّا زالت من مكانها ظهر لهم بياض الماء فبادروا إليه فشربوا منه فكان أعذب ماء شربوا منه في سفرهم وأبرده وأصفاه فقال لهم: تزوّدوا وارتووا ففعلوا ذلك.

ثمّ جاء عليه السلام إلى الصخرة فتناولها بيده ووضعها حيث كانت فأمر أن يعفي أثرها بالتراب والراهب ينظر من فوق ديره فلمّا استوفي، علم ما جرى نادى أيّها النّاس أنزلوني أنزلوني فاحتالوا في إنزاله، فوقف بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا هذا أنت نبيّ مرسل؟ قال: لا. قال: فملك مقرب؟ قال: لا قال: فمن أنت؟ قال: أنا وصيّ رسول الله

محمّد بن عبد الله خاتم النبيّين ﷺ قال: ابسط يدك أسلم لله تبارك وتعالى على يديك فبسط أمير المؤمنين عليه السلام يده وقال له: اشهد الشهادتين فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّد عبده ورسوله أشهد أنّك وصيّ رسول الله وأحق النّاس بالأمر من بعده، فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام عليه شرائط الإسلام.

ثمّ قال عليه السلام له: ما الذي دعاك الآن إلى الإسلام بعد طول مقامك في هذا الدير على الخلاف؟ قال: أخبرك يا أمير المؤمنين إنّ هذا الدير بنى على طلب قالع هذه الصخرة ومخرج الماء من تحتها وقد مضى عالم قبلي فلم يدركوا ذلك، وقد رزقنيه الله عزّ وجلّ، إنا نجد في كتاب من كتبنا وناثر من علمائنا أن في هذا الصقع عينا عليها صخرة لا يعرف مكانها إلاّ نبيّ أو وصيّ نبيّ وأنّه لا بدّ من وليّ لله يدعو إلى الحقّ آيته معرفة مكان هذه الصخرة وقدرته على قلعها وإنّي لمّا رأيتك قد فعلت ذلك تحققت ما كنا ننتظره وبلغت الأمنيّة منه، فأنا اليوم مسلم على يديك ومؤمن بحقّك ومولاك فلمّا سمع ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بكى حتّى اخضلّت لحيته من الدموع وقال: الحمد لله الذي لم أكن عنده منسيّاً الحمد لله الذي كنت في كتبه مذكوراً.

ثمّ دعى عليه السلام النّاس فقال لهم: اسمعوا ما يقول أخوكم المسلم، فسمعوا مقاله وكثر حمدهم لله وشكرهم على النعمة التي أنعم بها عليهم في معرفتهم بحقّ أمير المؤمنين عليه السلام. ثمّ ساروا والراهب بين يديه في جملة أصحابه، حتى لقي أهل الشام وكان الراهب في جملة من استشهد معه فتولى عليه السلام الصلاة عليه ودفنه وأكثر من الاستغفار له وكان إذا ذكره يقول: ذاك مولاي[1].

ثمّ قال المفيد رحمه الله تعالى: وفي هذا الخبر ضروب من المعجز أحدها علم الغيب والثاني القوة، التي خرق العادة بها وتميز بخصوصيّتها من الأنام مع ما فيه من ثبوت البشارة به في كتب الله الأولى وذلك مصداق قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ وفي مثل ذلك يقول السيّد إسماعيل بن محمد الحميري رحمه الله في قصيدته البائية المذهبّة:

ولقد سرى فيما يسير بليلة	بعد العشاء بكربلا في موكب
حتّى أتى متبتّلاً في قائم	ألقى قواعده بقاعٍ مُجدب
يأتيه ليس بحيث يلقي عامراً	غير الوحوش وغير أصلع أشيب
فدنى فصاح به فأشرف مائلاً	كالنصر فوق شظية من مرقب

(١) الإرشاد: ١/ ٣٣٧، والمستجاد من الإرشاد: ١٣٣.

هل قرب قائمك الذي بوئته ماء يصاب فقال ما من مشرب
إلاّ بغاية فرسخين ومن لنا بالماء بين نقي وقي سبسب
فثنى الأعنّة نحو عث فاجتلى ملساء تلمع كاللجين المذهب
قال اقلبوها أنكم إن تقلبوا ترووا ولا تروون إن لم تقلب
فاعصو صبوا في قلعها فتمنّعت منهم تمنّع صعبة لم تركب
حتى إذا أعيتهم أهوى لها كفًا متى ترد المغالب تغلب
فكأنها كُرة بكفّ خزوّرٍ عبل الذراع دحى بها في ملعب
فسقاهم من تحتها متسلسلاً عذباً يزيد على الألذّ الأعرب
حتّى إذا شربوا جميعاً ردّها ومضى فخلت مكانها لم يقرب

وزاد فيها ابن ميمونة قوله:

وايات راهبها سريرة معجز فيها وآمن بالوصيّ المنجب
ومضى شهيداً صادقاً في نصره أكرم به من راهبٍ مترهبِ
أعني ابن فاطمة الوصيّ ومن يقل في فضله وفعاله لا يكذب
رجلاً كلا طرفيه من سامٍ وما حامٌ له بابٍ ولا باب أبِ
من لا يفرّ ولا يرى في معرك إلاّ وصارمه الخضيب المضرب

ثمّ الظاهر من كتاب «صفين» لنصر أن هذه الرواية التي نقلناها من الشيخ المفيد قدّس سرّه ملفقّة من روايتين، وكذا الظاهر أن إحداهما ما نظمها الحميري والأخرى ما نظمها ابن ميمونة، وذلك لأن نصر بن مزاحم روى أوّلاً رواية الراهب والصّخرة، ولم يذكر إن هذا الراهب استشهد معه عليه السلام بصفّين.

ثمّ روى رواية أُخرى من راهب آخر في مكان آخر لم يكن فيه ذكر صخرة وماء أصلاً بل الراهب أتى بكتاب فقرأه عنده عليه السلام.

وبعض ما ذكرنا من المفيد في ذيل تلك الرواية أتى به نصر في ذيل هذه الرواية، ولا بُعد في تعدد تلك الواقعة لأنه كانت في نواحي الجزيرة، وبلادها الواقعة في مسيره عليه السلام ديورة كثيرة وفيها رهبان كما صرّحت ونصّت بذلك الكتب الجغرافيّة القديمة، ومنها ـ كتاب حدود العالم من المشرق إلى المغرب المؤلف في ٣٧٢ من الهجرة (**ص ٩١ طبع الطهران ١٣٥٢ هـ**) مع أن إحداهما وقعت في ظهر الكوفة من العراق والأخرى في الرقة من بلاد الجزيرة.

ولا بأس بنقل ما في كتاب نصر **(ص ٧٧ الطبع الناصري)** لأن كتاب الراهب يليق أن يقرأ على ظهر القلب: نصر عبد العزيز بن سباء عن حبيب بن أبي ثابت قال أبو سعيد التميمي المعروف بعقيصا: قال: كنا مع عليّ في مسيره إلى الشام حتّى إذا كنا بظهر الكوفة من جانب هذا السواد قال: عطش الناس واحتاجوا إلى الماء فانطلق بنا عليّ عليه السلام حتّى أتانا على صخرة ضرس من الأرض كأنّها ربضة عنز ثمّ أمرنا فأكفاناها عليه وسار النّاس حتّى إذا مضينا قليلاً، قال عليّ عليه السلام منكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين فانطلقوا إليه فانطلق منا رجال ركبانا ومشاة فاقتصصنا الطريق حتّى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنّه فيه قال: فطلبناها فلم نقدر على شيء حتى إذا عيل علينا انطلقنا إلى دير قريب منّا فسألناهم أين الماء الذي هو عندكم؟ قالوا: ما قربنا ماء قالوا: بلى إنا شربنا منه، قالوا: أنتم شربتم منه؟ قلنا: نعم. قال: ما بنى هذا الدير إلاّ لذلك الماء وما استخرجه إلاّ نبيّ أو وصيّ نبيّ.

قال نصر: ثمّ مضى أمير المؤمنين عليه السلام حتّى نزل بأرض الجزيرة فاستقبله بنو تغلب والنمر بن قاسط بالجزيرة، ثمّ سار أمير المؤمنين عليه السلام حتّى أتى الرقة وجلّ أهلها عثمانية ـ إلى أن قال: قال عمر بن سعد: حدّثني مسلم الملائي عن حبة عن عليّ عليه السلام قال: لما نزل على الرّقة بمكان يقال له: بليخ على جانب الفرات فنزل راهب من صومعة فقال لعليّ: أن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا كتبه عيسى ابن مريم أعرضه عليك؟ قال عليّ عليه السلام: نعم فما هو؟ قال الراهب:

بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم الذي قضى فيما قضى وسطر فيما سطر، أنه باعث في الأميّين رسولاً منهم يعلّمهم الكتاب والحكمة ويدلّهم على سبيل الله، لا فظّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيّئة السيّئة ولكن يعفو ويصفح أمّته الحمّادون الذين يحمدون الله في كلّ نشز، وفي كلّ صعود وهبوط، تذل ألسنتهم بالتهليل والتكبير وينصره الله على كلّ من ناواه، فإذا توفاه الله اختلفت أُمّته ثمّ اجتمعت فلبثت بذل ما شاء الله ثمّ اختلفت فيمر رجل من أمّته بشاطيء هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقضي بالحق، ولا يرتشي في الحكم. الدنيا أهون عليه من الرماد في يوم عصفت الريح والموت أهون عليه من شرب الماء على الظماء، يخاف الله في السرّ وينصح له في العلانية، ولا يخاف في الله لومة لائم، من أدرك ذلك النّبي من أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنّة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادة.

ثم قال الراهب: فأنا مصاحبك غير مفارقك حتّى يصيبني ما أصابك، قال حبّة: فبكى عليّ عليه السلام ثمّ قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عنده منسيّاً الحمد الله الذي ذكرني في كتب

الأبرار. ومضى الراهب معه وكان فيما ذكروا يتغدّى مع عليّ ويتعشى حتّى أُصيب يوم صفّين، فلمّا خرج النّاس يدفنون قتلاهم قال عليّ عليه السلام: اطلبوه فلمّا وجدوه صلّى عليه ودفن وقال: هذا منّا أهل البيت واستغفر له مراراً[١].

«خاتمة في كلمة صفين»

(صفّين) بكسر الصاد وتشديد الفاء كسجّين موضع على الفرات من الجانب الغربي بطرف الشام، كما في مجمع البحرين للطريحي وفي كتاب حدود العالم السابق ذكره قال: الرقة والرائقة بلدتان عظيمتان مخضرّتان متصلتان على شاطىء الفرات، ووقعت حرب صفّين في حدودهما من الجانب الآخر من الفرات. وهي اسم غير منصرف للتأنيث والتعريف ولا تقبل حرف التعريف اعني كلمة أل والشواهد في ذلك ما قال عمرو بن الحمق الخزاعي:

يقول عرسي لما أن رأت أرقى ... ماذا يهيجك من أصحاب صفينا
ألست في عصبة يهدي الإله بهم ... أهل الكتاب ولا بغيا يريدونا

وما قال النعمان بن عجلان الأنصاري:

سائل بصفّين عنّا عند وقعتنا ... وكيف كان غداة المحك نبتدر

وما قال آخر كما مر آنفاً:

وبالذي دان يوم النهر دنت به ... وشاركت كفه كفّي بصفّينا

لا يقال: تأنيثها غير لازم لجواز أن تعبّر بالمكان والموضع ونظائرهما لأنا نقول: إنّهم لما وجدوها غير منصرف، وفحصوا عن العلتين المانعتين عن الصرف ولم يجدوا غير العلمية سبباً آخر عبّروها بالأرض والبقعة ونظائرها حتّى يتمّ السببان كما فعلوا بعمر وزفر. واختلفوا في نونها أهي أصلية أم زائدة فمال الجوهري في **«الصحاح»** والفيروزآباذي في **«القاموس»** والأكثر إلى الأوّل حيث ذكروها في باب النون من كتبهم اللغويّة والأدبيّة فعلى هذا وزنها فعّيل كضلّيل، من صفين الفرس صفوناً من باب ضرب إذا قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة، أو من صفن القوم إذا صفوا لأقدامهم لا يخرج بعضها من بعض ومن صفن الرّجل إذا صفّ قدميه، والآخرون إلى أنها زائدة فهي فعلين من الصفّ كالغسلين من الغسل حيث ذكروها في باب الفاء. فعلى الأول صيغت للمبالغة كنظائرها من سكّيت وخرّيت وظلّيم وضلّيل، لكثرة الخيل والرّجال في تلك الوقعة الدالة بالكناية على كثرة الفارس والراجل.

---

(١) المسترشد: ٦٦٨ ح ٣٣٨، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٤٢٧.

وعلى الثاني أيضاً يمكن أن يقال إن الياء والنون زيدتا فيها مبالغة لكثرة الصفوف في تلك الوقعة على ضابطة كثرة المباني تدلّ على كثرة المعاني، فعلى التقديرين التسمية بها تكون بعد وقوع تلك الوقعة العظيمة فيها، وكم لها من نظير وإنّما الكلام في أنّ قبل هذه التّسمية بماذا كانت سمّيت؟ هل كان لها اسم فترك أو لم تسمّ باسم خاص رأساً؟ فحصنا ولم نجد في ذلك شيئاً، وكلما وجدنا في تسميتها بصفّين إنّما كان متأخراً عن تلك الوقعة، على أنّه لا يهمّنا والعلم عند الله تعالى.

وإنّما أطنبنا الكلام في شرح هذه الخطبة لاشتمال تلك الوقعة على مطالب أنيقة مفيدة، من اخلاقية واجتماعيّة وحكميّة وكلاميّة ينتفع الكل بذي الموائد، ولأنّ كثيراً من كتبه عليه السلام ورسائله الآتية ككثير من خطبه الماضية تتعلق بصفّين، وبذلك سهل الخطب لنا في تفسير ما يأتي إن شاء الله المعين الوهاب، مع أنا فيما قدمنا أتينا بكثير من خطبه وكلماته لم يأت بها الشريف الرضي رضوان الله عليه في «النهج». وكم من خطبة وكتاب وكلمة حكمة منه عليه السلام جمعنا مع الأسانيد والمصادر، وكذا وجدنا مصادر كثير ممّا في «النهج» والسند فيها يكون ببالي أن ألحقها في آخر شرحنا على «النهج»، بعنوان مستدرك النهج ومصادرها. إن أخذ التوفيق بيدي وساعدني الدهر بعون ربّي.

الترجمة

از جمله خطبه بلاغت نظام آن قدوه انام (عليه السلام) در شأن حكمين ابوموسى اشعرى و عمروعاص و در مذمت اهل شام است.

(شاميان از پيروان معاوية بن ابى سفيان بودند و به قتال با امير مؤمنان على (عليه السلام) برخاستند و در صفين مدّتى مديد كارزارى شديد كردند و از دو سپاه بسيار كشته شدند و بيست و پنج تن از صحابه پيغمبر (صلى الله عليه و آله) كه عمار ياسر از آن جمله بود و در ركاب ظفرانتساب اميرالمؤمنين در اعلاى كلمه حق و نصرت دين جهاد مى كردند به درجه رفيعه شهادت رسيدند و رسول اكرم به اتفاق شيعه و سنّى به عمّار فرمود: "إنّما تقتلك الفئة الباغية"؛ يعنى "اى عمّار، تو را گروه ستمكار مى كشند" كه در جنگ صفين لشكر معاويه وى را بكشتند. سرانجام لشكر معاويه شكست خوردند و چون آثار ذلّ و انكسار در خود مشاهده كردند به حيلت و خدعت عمروعاص عيّار قرآن ها بر سر نيزه ها برافراشتند و فرياد زدند: "كتاب الله بيننا و بينكم"، اهل عراق كه لشكر على (عليه السلام) بودند، جز تنى چند آن پيشنهاد را پذيرفتند و هرچه اميرالمؤمنين ايشان را نصيحت كرد كه اين خدعت است و فريب نخوريد فايده نكرد. عاقبت در حباله حيلت عمرو درافتادند و اتفاق كردند كه هر يك از فريقين حكمى انتخاب كنند و به حكم آن دو تسليم شوند، اهل شام عمروعاص را برگزيدند و اهل عراق ابوموسى را. اميرالمؤمنين (عليه السلام) از اين رأى روى درهم كشيد و موافق رأى بلندش نيامد و گفت: "فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبدالله بن عبّاس"، ولى سربازان گول از رأى امير سرباز زدند تا ديدند آن چه كه ديدند).

خطبه:

اهل شام ستمكارانى ناكس و بندگانى پست اند، گردآمده از هرسوى و برچيده از هر آميخته اند. گروهى كه بايد آنان را دين و ادب و دانش آموخت و به كارهاى ستوده واداشت و بر آنان ولى گمارد و دستشان را گرفت تا خودسرى و خودكامى نكنند (يعنى كودكان و سفيهان اند، كجا آنان را رسد كه زمام امور امّت در دست

گیرند و در کار دین و ملت پای پیش نهند). نه از مهاجراند و نه از انصار و نه از آن نصاری که پیش از هجرت پیغمبر (ﷺ) در مدینه بودند و اسلام آوردند.

آگاه باشید که این قوم، یعنی اهل شام، حکم برای خودشان عمروعاص را برگزیدند که نزدیك ترین مردم است بدانچه که دوست دارند و شما ای مردم عراق، حکم برای خودتان ابوموسی را اختیار کردید که نزدیکترین مردم است بدانچه ناخوش دارید (اهل شام دوست داشتند که بر مردم عراق مستولی گردند و عمروعاص در وصول به این غرض از همه بهتر و نزدیکتر برای آنان بود و مردم عراق از همان که شامیان می خواستند کراهت داشتند و ابوموسی نزدیك ترین افراد بود به آنچه که اینان ناخوش می داشتند، یعنی ابوموسی به پیروزی اهل شام و شکست اهل عراق از همه مایل تر و نزدیك تر بود یا از بلاهت غریزی او که بالاخره در دام مکر و حیله عمروعاص افتاد و یا از عداوتی که با امیرالمؤمنین علی (علیه السلام) داشت در کمین انتقام بود، چنانکه در تفسیر خطبه شرح داده ایم).

سپس حضرت در مقام احتجاج برآمده و فرمود:

یادداری که عبدالله قیس (ابوموسی اشعری عبدالله بن قیس است) دیروز (یعنی در جنگ جمل) می گفت: این فتنه ای است، پس زه های کمان را ببرید و شمشیرها را در غلاف کنید (کنایه از این که از جنگ حذر کنید و دست بدارید، در این باره از پیغمبر روایتی نقل کرده که در شرح تذکر داده ایم). اگر راست گفت، پس اینکه بدون اکراه آمد و در فتنه افتاد و به لشکر عراق پیوست به خطا رفت و اگر دروغ گفت، فاسق است. (در هر حال چنین کسی را در امر دین و ملت حکم قرار دادن و به او اعتماد کردن قبیح است) پس دفع کنید (بزنید و دور سازید) سینه عمروعاص را به عبدالله عباس (یعنی عبدالله بن عباس را حکم قرار دهید که او می تواند با عمروبن عاص برابری کند و با او برآید و از اغراض شومش جلوگیری کند) و فرصت را از دست مدهید و مرزهای کشورهای اسلامی را حفظ کنید. آیا نمی بینید که دشمنان به شهرهای شما روی آوردند و سنگ شما را هدف گرفته اند؟(یعنی در شما طمع کرده اند که آهنگ جنگ و قصد اضمحلال استقلال شما دارند).

ومن خطبة له عليه السلام وهي الخطبة السابعة والثلاثون والمأتان يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله

هُمْ عَيْشُ الْعِلْم ومَوْتُ الْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ وصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ (أو ـ حُكْمِ) مَنْطِقِهِمْ لا يُخالِفُونَ الْحَقَّ وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فيهِ. هُمْ دَعائِمُ الإِسْلامِ ووَلائِجُ الإِعْتِصامِ. بِهِمْ عادَ الْحَقُّ في نِصابه، وانْزاحَ الْباطِلُ عَنْ مَقامِه، وانْقَطَعَ لِسانُهُ عَنْ مَنْبَتِه. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وعاءٍ ورِعايَةٍ، لا عَقْلَ سَماعٍ وَرِوايَةٍ. فَإِنَّ رُواةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعاتَهُ قَليلٌ[1].

اللغة

(دعائم) جمع الدعامة بكسر الدال وهي عماد البيت، يقال دعم الشيء دعماً، من باب منع إذا أسنده عند ميله أو لئلا يميل، و(الاعتصام) التمسك. قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ أي تمسّكوا به. (ولائج) جمع وليجة وهي بطانة الرجل وخاصّته وصاحب سرّه الذي يتّخذه معتمداً، عليه من غير أهله يكاشفه بأسراره ثقةً بمودّته ويقال بالفارسية: دوست همراز، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ (نصاب) الشيء: أصله وحدّه ومرجعه ومستقره. (انزاح) من الزوح أي زال وذهب. (وعاء) بكسر أوّله وقد يضم ناقص يائيّ بمعنى الظرف يوعي فيه الشيء سمّي بذلك لأنّه يجمع ما فيه من المتاع يقال: وعي الشيء يعيه وعياً إذا حواه وجمعه ووعي الحديث إذا حفظه وتدبّره. وقد يبدل واو وعاء بالهمزة فيقال إعاء.

ثمّ إن عبارة المتن في عدّة من نسخ النهج من المطبوعات المصريّة والإيرانيّة وشروحها المتداولة هكذا: عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية. ولكن الصواب ما ضبطناه في المتن أعني كون كلمة «وعاء» مكان «وعاية» ووعاية تحريف وتصحيف من النساخ، ولما رأوا كلمة رعاية بعدها غيّروا الوعاء بالوعاية ظنّا منهم أنّ الكلام يزيد به حسناً، وأن الأصل كان كما ظنّوا وكم من نظير لمّا ذكرنا من خطأ النسّاخ وتحريفهم، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، وما علموا أن من المحسنات البديعيّة في كلامه عليه السلام مشابهة قوله «وعاءٍ ورعاية» بقوله «سماع ورواية»، فإن الجمع بين وعاء وسماع ممّا يسمى في علم البديع جناس مضارع لتقارب الهمزة والعين في المخرج نحو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ

(١) مشكاة الأنوار: ٤٣٧، ومنية المريد: ٣٧.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الانعام: ٢٦] وكقوله ﷺ: الخيل معقود بنواصيها الخير[1]. والجمع بين رعاية ورواية يسمى طباقاً. على أن اللغة لا تساعد ما في النسخ، وكم فحصنا في كثير من كتب الأدب والمعاجم المتداولة فما وجدنا من وعي أن يأتي وعاية مصدراً أو غير مصدر.

الإعراب

الضميران في مقامه ومنبته يرجعان إلى الباطل، ويمكن أن يرجعا إلى الحق وسيعلم الوجه فيها عند الشرح إن شاء الله تعالى.

الفاء في قوله عليه السلام: **(فإن رواة العلم كثير)** فصيحة تنبيء عن محذوف يدلّ عليه ما قبلها، وكأنّ الجملة جواب عن سؤال مقدّر والتقدير: إنّما وصفهم بأنّهم عقلوا الدين هكذا، فاجيب بقوله عليه السلام: لأن رواة العلم كثير ورعاته قليل.

وجاء في بعض النسخ: كلمة الواو مكان الفاء، أي وإن رواة العلم كثير ولكن الصواب ما اخترناه.

المعنى

قد ذكر عليه السلام قريباً من هذه الخطبة في ذيل الخطبة الخامسة والأربعين والمائة وهو قوله عليه السلام: «واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتّى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتّى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتّى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن منطقهم وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدّين ولا يختلفون فيه فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق».

«عدة مواضع من النهج في أوصاف آل محمد ﷺ»

اعلم أنه عليه السلام ذكر أوصاف آل محمد ﷺ في عدّة مواضع من النهج:

(١) في آخر الخطبة الثانية: هم موضع سرّه ولجاء أمره وعيبة علمه وموئل حكمه، وكهوف كتبه وجبال دينه بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائضه.

(٢) منها في ذيل تلك الخطبة أيضاً: لا يقاس بآل محمّد ﷺ من هذه الأمّة أحد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدّين وعماد اليقين إليهم يفيء الغالي

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٨٣ ح ٢٤٥٩، ووسائل الشيعة: ١١/ ٤٧٠ ح ١٥٢٨٥.

وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصيّة والوراثة الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله ونقل إلى منتقله.

(٣) الخطبة الرّابعة: بنا اهتديتم في الظلماء وتسنمتم العلياء وبنا انفجرتم عن السرار وقر سمع لم يفقه الواعية ـ إلى أن قال في آخرها: ما شككت في الحق مذاريته لم يوجس موسى خيفة على نفسه اشفق من غلبة الجهّال ودول الضّلاّل، اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل من وثق بماء لم يظمأ.

(٤) في ذيل الخطبة الخامسة والتسعين: وإنّي لعلى بيّنة من ربّي ومنهاج من نبيّي وإنّي لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً، انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا وإن نهضوا فانهضوا ولا تسبقوهم فتضلّوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا. لقد رأيت أصحاب محمّد ﷺ فما أرى أحداً منكم يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً قد باتوا سجّداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر، من ذكر معادهم كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتّى تبلّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفاً من العقاب ورجاء للثواب.

(٥) في ذيل الخطبة الثامنة والتسعين: ألا إن مثل آل محمّد ﷺ كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم، فكأنكم من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون.

(٦) في الخطبة الثانية والأربعين والمئة: أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطي الهدى ويستجلي العمى إنّ الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم.

(٧) في ذيل الخطبة الخمسين والمئة: قد طلع طالع ولمع لامع ولاح لائح واعتدل مائل واستبدل الله بقوم قوماً وبيوم يوماً وانتظرنا الغير انتظار المجدب المطر، وإنّما الأئمة قوّام الله على خلقه وعُرفاءه على عباده لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النّار إلاّ من أنكرهم وأنكروه، إن الله تعالى خصّكم بالإسلام واستخلصكم له وذلك لأنّه اسم سلامة وجماع كرامة، اصطفى الله تعالى منهجه وبيّن حججه من ظاهر علم وباطن حكم، لا تفني غرائبه ولا تنقضي عجائبه فيه مرابيع النعم ومصابيح الظلم، لا تفتح الخيرات إلاّ بمفاتحه ولا تكشف الظلمات إلاّ بمصابيحه، قد أحمى حماه وارعى مرعاه فيه شفاء المشتفى وكفاية المكتفي.

(٨) في ذيل الخطبة ١٥٢: نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً.

(٩) في ذيل هذه الخطبة أيضاً في فصل على حدة: فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرّحمٰن، أن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يُسبقوا ـ إلى آخرها.

(١٠) في الخطبة ٩٢: حتّى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمّد ﷺ فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الارومات مغرساً من الشجر التي صدع منها أنبياءه وانتجب منها امناءه، عترته خير العتر وأسرته خير الأسر وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم وبسقت في كرم لها فروع طوال وثمرة لا تنال ـ إلى آخر الخطبة.

(١١) في الخطبة ١٨٧: لا يقع اسم الهجرة على أحد إلاّ بمعرفة الحجة في الأرض فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر، ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه للإيمان، إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلاّ صدور أمينة وأحلام رزينة، أيّها النّاس سلوني قبل أن تفقدوني فلأني بطرق السّماء أعلم منّي بطريق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها وتذهب بأحلام قومها.

(١٢) في ذيل الخطبة ١٨٨: فإنّه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حقّ ربّه، وحقّ رسوله وأهل بيته مات شهيداً ووقع أجره على الله. إلى آخرها.

(١٣) في الحكمة ١٤٧: اللّهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته وكم ذا وأين أولئك، أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتّى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه آه آه شوقاً إلى رؤيتهم.

فنقول: ذكر عليه السلام في هذه الخطبة آل محمّد ﷺ بأوصاف ينبغي القاري العالم البصير الطالب للحق أن ينظر فيها نظر دقة وتأمل وفكرة، حتّى يزداده بصيرة وإيماناً ويهديه سبيل الحقّ ويُهديه فرقاناً. والمقام يناسب البحث والتحقيق في الإمامة واختيار القول الصدق والمذهب الحق.

«البحث العقلي والتحقيق العلمي في الإمامة»

واعلم أن هذه المسألة من أعظم المسائل الخلافيّة بين المسلمين بل لا يبعد أن يقال:

إن جميع الاختلافات الدينيّة متفرع عليها، وقال محمّد الشهرستاني الأشعري المتوفي - ٥٤٨ هـ - في أوائل «الملل والنحل»: أوّل شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس لعنه الله، ومصدرها استبدادها بالرأي في مقابلة النص واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النّار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين - إلى أن قال: فأوّل تنازع في مرضه (يعني رسول الله صلى الله عليه وآله) فيما رواه محمّد بن إسماعيل البخاري بإسناده عن عبد الله بن عبّاس قال: لمّا اشتدّ بالنّبيّ صلى الله عليه وآله مرضه الذي مات فيه قال: ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي فقال: عمر إن رسول الله قد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله، وكثر اللغط فقال النّبي صلى الله عليه وآله: قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع. قال ابن عبّاس: الرزية كلّ الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله - إلى أن قال الشهرستاني: وأعظم خلاف بين الأُمّة خلاف الإمامة، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينيّة مثل ما سلّ على الإمامة في كلّ زمان.

لا يخفى أن المسلمين بل سائر الأمم أيضاً متفقون في افتقار النّاس إلى إمام للعلم الضروري، من أن حال النّاس عند وجود الرؤساء المطاعين، وانبساط أيديهم ونفوذ أوامرهم ونواهيهم وتمكنهم من الحلّ والعقد والقبض والبسط والإحسان والإساءة وغيرها، مما ينتظر به أُمور معاشهم ومصالح معادهم، لا يجوز أن يكون حالهم إذا لم يكونوا في الصلاح والفساد، وهذا مما جبل عليه النّاس واستقر في عقولهم وقلوبهم، ولا يصل إليه يد انكار ولا يكابر فيه أحد، ولذا تر أن العقلاء من كلّ قوم يلتجئون إلى نصب الرؤساء دفعاً للمفاسد الناشئة على فرض عدمهم، وإنّما الكلام في الرؤساء وصفاتهم مما يدلّ عليه العقل الناصع، سواء كان في ذلك سمع أو لم يكن فالمسألة تحتاج إلى تجريد للعقل وتصفية للفكر وتدقيق للنظر، ومجانبة المراء وتقليد الآباء فإن التقليد الداء العيّاء، والحذر عن التعصب والخيلاء والانقطاع عن الوساوس والهواجس العاميّة، وحقّ التأمّل في المسألة حتّى يتضح الحق حقّ الوضوح. ونعم ما قال الشاعر:

وتعلم قد خسرنا أو ربحنا إذا فكرت في أصل الحساب

فنقول: إن العقل حاكم بحسن البعثة لاشتمالها على فوايد كثيرة، وسنذكر طائفة منها من ذي قبل إن شاء الله، وبوجوبها على الله تعالى لاشتمالها على اللطف واللطف واجب. وبأن النّبي يجب أن يكون منصوصاً عليه من الله تعالى ومبعوثاً من عنده بالبيّنات، ومعصوماً من العصيان والسهو والنسيان ومنزهاً عن كلّ ما ينفر الطبع عنه، وأفضل من سائر النّاس في جميع الصفات الكماليّة من النفسانية والبدنيّة حتّى تحنّ القلوب إليه ويتمّ الحجة على النّاس.

ثمّ نعلم أن النبوة ختمت بخاتم النّبيّين محمّد صلى الله عليه وآله وشريعته نسخت سائر الشرائع، ودينه هو الحقّ وحلاله حلال إلى قيام الساعة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل

من حكيم حميد بمعانيه وحقائقه والفاظه، ولئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإذا جرّنا العقل إلى هنا فنقول: أولاً لا بد للدين من حافظ في كل عصر، وثانياً على ما علم قبل أنّ المستقر في العقول، إذا كان للنّاس إمام مرشد مطاع في كل عصر يخافون سطوته ينتصف للمظلوم من الظالم ويردع الظالم عن ظلمه، ويحفظ الدين ويمنع الناس عن التهاوش والتحارب، وما تتسارع إليه الطباع من المراء والنزاع، ويحرضهم على التناصف والتعادل والقواعد العقلية والوظائف الدينية، ويدرء المفاسد الموجبة لاختلال النظام في أمورهم عنهم ويحفظ المصالح ويلمّ شعث الاجتماع ويدعوهم إلى وحدة الكلمة ويقوم بحماية الحوزة ورعاية البيضة، وانتظام أمور المعاش والمعاد ويكون لهم في كل واقعة دينية ودنيويّة حصن حصين وحافظ أمين، ويتوعّدهم على المعاصي ويحملهم على الطاعات ويعدهم عليها، ويصدع بالحق إذا تشاجر الناس في حكم من أحكام الله، لكانوا إلى الصلاح أقرب ومن الفساد أبعد، حتى قيل: إن ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن، وما يلتئم بالسنان لا ينتظم بالبرهان، وبالجملة في وجوده استجلاب منافع لا تحصى واستدفاع مضار لا تخفى.

وبعد ذلك فنقول: إن العقل يدلّ على أنّ الله تعالى مريد للطاعة وكاره للمعصية، وأنّ الله ليس بظلام للعبيد، وعلمنا مع وجود ذلك الرئيس الإمام المطاع أنه كان النّاس إلى فعل الطاعة أقرب ومن فعل المعصية أبعد، ولنسمّ ما يقرب العبد إلى الطاعة ويبعّده عن المعصية من غير الجاء باللطف، وهل هو واجب عقلاً على الله أم لا؟ إن قلنا لا يجب عليه تعالى مع أن إيقاع الطاعة وارتفاع المعصية يتوقفان على اللطف كما علمت، ومع أنه تعالى يريد الأولى ويكره الثانية، ويعلم أن المكلف لا يطيعه إلاّ باللّطف، فكان ناقضاً لغرضه ونقض الغرض قبيح عقلاً، والعقلاء يذمون من أراد من غيره فعلاً، وهو يعلم أن ذلك الغير لا يفعل مطلوبه إلا مع إعلامه أو إرسال إليه، وأمثال ذلك، ممّا يتوقف حصول المطلوب عليه ولا يعمل ما يعلم بتوقف المطلوب عليه، فلا محيص إلا القول بوجوبه عليه تعالى عقلاً، ولذلك إن العقل يحكم بأن البعثة لطف، فواجبة على الله تعالى على أن كل ما يعلمه الله تعالى من خير وصلاح في نظام العالم وانتظام أمور بني آدم يجب منه تعالى صدوره، لأن علمه بوجوه الخير والنظام سبب للايجاب، فيجب نصب الإمام من الله سبحانه في كلّ زمان.

فلو قلنا أنّ النّبوة رئاسة إلهيّة في أمور الدّين والدّنيا، وكذلك لمن يقوم مقامه نيابة عنه بعده، رئاسة عامة إلهيّة فيهما، لما قلنا شططاً فكل ما دلّ على وجوب النّبوة ونصب النبي وتعيينه على الله فهو دال كذلك على القائم مقامه بعده، إلاّ في تلقي الوحي الإلهي، ولنسمّ القائم مقام النبيّ بالإمام، وإن كان النبي إماماً أيضاً بذلك المعنى الذي اشير إليه، وسيأتي البحث في تحقيق معنى الإمامة والنّبوّة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ

﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] الآية إن شاء الله تعالى.

وإن شئنا ثنينا عنان البيان إلى التفصيل والتبيين، فإن من تيسّر له الإستبصار في هذا الأمر الخطير فقد فاز فوزاً عظيماً وإلا فقد خسر خسراناً مبيناً فنقول: إن العقل لما دل على أن وجود الإمام لطف للنّاس في ارتفاع القبيح وفعل الواجب وحفظ الدين، وحمل الرعيّة على ما فيه مصالحهم وردعهم عما فيه مفاسدهم، فهل يجوّزه العقل أن يكون عالماً ببعض الأحكام دون بعض، وإن كان في النّاس من هو أعلم وأفضل منه في الصفات الكماليّة، وهل يأمر الله بالطاعة المطلقة لمن يجوز عليه الخطأ ويصدر عنه الذنوب، ويسهو وينسى، ويرتكب ما ينفر الطبع عنه، ومن يكون نقص في خلقته وعيوب في بدنه ينزجر وينفر النفس عن مصاحبته ومجالسته ومكالمته ومن يكون غير منصوص عليه منه تعالى أو من نبيّه؟ فهذه أمور في المقام يليق أن يبحث فيها من حيث اقتضاء العقل وحكمه، فإن العقل هو المتبع في أمثال تلك الأمور.

فنقول: بعدما استقرت الشريعة وثبتت العبادة بالأحكام، وأن الإمام إمام في جميع الأمور وهو الحاكم الحاسم لموادّ النزاع، ومتولي الحكم في سائر الدّين، والقائم مقام النّبيّ وفرعه وخليفته، وحجة في الشرع فلا بدّ من أن يكون موصوفاً بصفات النّبيّ وشبيها له في الصفات الكمالية وعالماً بجميع الأحكام، حتّى يصّح كونه خليفةً له ويحسم به النزاع في حكم من الأحكام، وفي سائر الأمور وإلاّ فيقبح عند العقلاء خلافة من ليس بصفات المستخلف، لأن غرضه لا يتمّ به، وذلك كما أن ملكاً من الملوك إن استوزر من ليس بعارف بأمر السياسة، التي بها تنتظم أمور مملكته وجيوشه ورعاياه وغيرها ذمّة العقلاء بل عدّوه من السفهاء، بل كما أن أحدنا لو يفوض صنعة إلى رجل لا يعرفها استحق اللوم والازراء من العقلاء، فكذا في المقام مع أنّ المقام أهمّ بمراتب منهما كما لا يخفى على البصير العاقل وهذا ممّا مجرد العقل كاف في إيجابه.

وأيضاً أن أحد ما احتيج فيه إلى الإمام، كونه مبينا للشرع وكاشفاً عن ملتبس الدين وغامضه، فلا بد من أن يكون في ضروب العلم كاملاً غير مفتقر إلى غيره، فولاة أمر الله خزنة علمه وعيبة وحيه، وإلا يتطرّق التغيير والتبديل في دين الله، ولذا صرّح الشيخ الرئيس في آخر «الشفاء» في الفصل في الخليفة والإمام: أنّ الإمام مستقل بالسياسة وأنّه أصيل العقل، حاصل عنده الأخلاق الشريفة من الشجاعة والعفة وحسن التدبير، وأنّه عارف بالشريعة حتّى لا أعرف منه.

ثمّ إنّ الإمامة رئاسة عامّة فلو لم يكن الإمام متصفاً بجميع الكمالات والفضائل وأكمل وأفضل من كلّ واحد من أهل زمانه، وكان في الرعيّة من هو أفضل منه للزم تقديم المفضول

على الأفضل، وهل يرتضي العقل بذلك؟ أرأيت أنّ العقلاء لا يذمّون من رجّح المفضول على الفاضل؟ وهل تقدّم أنت مبتدءاً في فنّ على من مارسه وتبحّر فيه؟ وهل يجوّز عقلك ويرضي بأن الله الحكيم يقدّم المفضول المحتاج إلى التكميل على الفاضل المكمّل؟ جرّد نفسك عن العصبيّة والمراء وتقليد الأمهات والآباء، فانظر بنور البصيرة والحجى في كلامه تعالى ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] ولما كان المطلوب من إرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الحجج تعليم النّاس الحكمة، وتزكيتهم من الأرجاس وإقبالهم إلى عالم القدس، فأيّ مصلحة يقتضيها التكليف في تقديم المفضول على الأفضل، أليس هذا العمل نفسه بقبيح، وهل القبيح إلاّ ما فيه مفسدة؟ أرأيت هل قدّم رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والكاملين وأولي النهي والملوك والأمراء مفضولاً على فاضل في واقعة قطّ، ولو فعل واحد ذلك أما يلومه العقلاء؟ هل تجد خبراً ورواية أن رسول الله ﷺ قدّم على أمير المؤمنين عليه السلام غيره، وهل قدّم على سلمان سلام الله عليه عثمان بن مظعون مثلاً، ونعلم أن رسول الله ﷺ لمّا نعيت إليه نفسه أمر أسامة على أبي بكر وعمر وحث على خروج الكلّ من المدينة ولعن المتخلف عن جيش أسامة، فكان أسامة في أمر الحرب وسياسة الجند وتدبير العسكر أفضل منهما وإلاّ لما قدّمه عليهما، ولو كان بالفرض عليّ عليه السلام معهم هل يقدّم رسول الله ﷺ أسامة على عليّ عليه السلام؟ ما أرى مسلماً بصيراً في عليّ عليه السلام وأسامة أن يرضى بذلك بل يعده قبيحاً جداً، فإنّه لا يشك ذو بصيرة ودراية في أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان بين الصحابة كالمعقول بين المحسوس، ونسبته إليه كنسبة النور إلى الظلمات ونسبة الحياة إلى الممات، فتشهد الفطرة السليمة على قبح تقديم المفضول على الفاضل.

ثمّ لو كان الإمام عاصياً عن أمر الله تعالى ومذنباً سواء كانت الذنوب صغيرة أو كبيرة فنقول أوّلاً: أنّه لما كانت العلة المحوجة إلى الإمام هي ردّ الظالم عن ظلمه والانتصاف للمظلوم منه، وحمل الرعيّة على ما فيه مصالحهم وردعهم عما فيه مفاسدهم ونظم الشمل وجمع الكلمة، فلو كان مخطئاً مذنباً لاحتاج إلى آخر يردعه عن ظلمه، فإن الذنب ظلم ونقل الكلام إلى ذلك الآخر فإن كان معصوماً من الذنوب وإلاّ لزم عدم تناهي الأئمة.

وأيضاً إنّ الله تعالى لعن الظالم ونهى عن الظلم، وحذّر عن الركون إلى الظلمة بقوله ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣] وكذا أمر بالطاعة المطلقة للإمام، فلو كان الإمام مذنباً لكان ظالماً فيلزم التناقض في قوله تعالى عن ذلك.

وأيضاً إنّ الإمام لما كان قدوة في الدّين والدُّنيا مفترض الطاعة من الله، ولو ارتكب المعصية تتضاد التكاليف على الأمة، فإن اتبعته الأمة في المعصية فعصوا الله وإن خالفوه فيها فعاصية أيضاً.

وأيضاً لو صدرت المعصية عنه هل يجب الإنكار عليه أم لا؟ فعلى الأوّل يلزم أن يكون مأموراً ومنهياً عنه مع أنّه إمام آمر وناه، فليزم إذاً سقوط محله من القلوب فلا تتقاده النفوس في أمره ونهيه فتنتفي الفائدة المطلوبة من نصبه، وعلى الثاني يلزم القول بعدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع أنّهما واجبان عقلاً وسمعاً وأجمع الكلّ بوجوبهما، ومعلوم بالضرورة أن فعل القبيح وترك الواجب لا يصدر إلا ممن لا يكون معصوماً، فإن العصمة هي القوّة القدسيّة النوريّة العلمية اللائحة من صبح أزل العناية الموجبة للإعتدال الخلقي والخلقي والمزاجي المتعلقة بمثالب العصيان في الدارين، الحاصلة بشدة الاتصال وكمال الارتباط بمبدء العالم وعالم الأرواح فمن بلغ إلى تلك الغاية ورزق تلك القوّة لا يحوم حول العصيان، ولا يتطرق إلى حريم وجوده السهو والنسيان، فإن تلك القوّة رادعة إياه عن العصيان وذلك العلم الحضوري والانكشاف التام يمنعه عن السهو والنسيان، فلو لم يكن الإمام ذا عصمة ليصدر منه القبيح قولاً وفعلاً، فإذن لا بد أن يكون معصوماً.

ونعم ما استدّل المتكلم النحرير هشام بن الحكم على عصمة الإمام، فلنذكره لعظم فائدته في المقام.

«كلام هشام بن الحكم في عصمة الإمام»

روى الشيخ الجليل محمّد بن علي بن بابويه المشتهر بالصدوق في باب الأربعة من كتابه المسمى بـ«**الخصال**» عن محمّد بن أبي عمير قال: ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في صحبتي له شيئاً، أحسن من هذا الكلام في عصمة الإمام، فإني سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم؟ فقال: نعم، فقلت: فما صفة العصمة فيه وبأي شيء يعرف؟ فقال: إن جميع الذنوب أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة فهذه منفية عنه. ولا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدُّنيا وهي تحت خاتمه لأنّه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص؟

ولا يجوز أن يكون حسوداً لأن الإنسان إنّما يحسد من فوقه وليس فوقه أحد فكيف يحسد من هو دونه؟

ولا يجوز أن يغضب لشيء من أُمور الدُّنيا إلاّ أن يكون غضبه لله عزّ وجلّ، فإن الله عزّ وجلّ قد فرض عليه إقامة الحدود، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم ولا رأفة في دينه حتّى يقيم حدود الله عزّ وجلّ.

ولا يجوز أن يحبّ أُمور الدُّنيا لأن الله حبّب إليه الآخرة كما حبّب إلينا الدُّنيا، وهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدُّنيا، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح، وطعاماً

طيّباً لطعام مرّ، وثوباً ليّناً لثوب حسن ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية؟ انتهى كلامه رفع مقامه ولله درّه[١].

أقول: ولا يخفى أن هذا الدليل جار في عصمة النّبي ﷺ أيضاً بل بطريق أولى.

ثمّ إنّ الشيخ الرئيس كأنّما أخذ من هذا ما قال في النمط التاسع من الإشارات في مقامات العارفين حيث قال في آخره: العارف هشّ بشّ بسام يبجّل الصغير من تواضعه، كما يبجّل الكبير وينبسط من الخامل مثل ما ينبسط من النّبيه، وكيف لا يهشّ وهو فرحان بالحقّ وبكلّ شيء، فإنّه يرى فيه الحقّ وكيف لا يستوى والجميع عنده سواسية، أهل الرحمة قد شغلوا بالباطل ـ إلى أن قال: العارف شجاع وكيف لا وهو بمعزل عن تقيّة الموت، وجوّاد وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل، وصفاح وكيف لا ونفسه أكبر من أن تخرجها زلّة بشر، ونسّاء للأحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحقّ ـ إلى آخر ما قال.

ثمّ إذا ثبت أنّ الإمام حجة في الشرع وبقاء الدين والشريعة موقوف على وجوده وجب عقلاً، لا ينفي عنه ما يقدح في ذلك وينفر عنه منه السهو والنسيان، وإلاّ فإذا حكم في واقعة وبيّن حكم الله لا تطمئن به القلوب لإمكان السهو والنسيان فيه، فإذا كان حافظاً للشرع ولم يكن معصوماً منهما لما آمن في الشرع من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل. ولم يحصل الوثوق بقوله وفعله وذلك ينافي الغرض من التكليف، وكذلك إذا لم يكن منزهاً من سائر ما تنفر الطباع عنها، لا تميل النفوس إليها ولا تشتاق إلى حضرته لنيل السعادة ودرك الحقائق، فلا يتم حجة الله على خلقه بل الفطرة السليمة والرويّة المستقيمة والنفوس الكريمة تأبى عن طاعة من ارتكب ما تنفر عنه، من أنواع المعاصي والفواحش والكبائر ولو في سالف عمره وتاب بعد ذلك.

وأيضاً لا خلاف بين المسلمين إن الإمام هو المقتدى به في جميع الشريعة، وإنّما الخلاف في كيفيته فإذا كان هو المقتدا به في جميع الشريعة وواجب علينا الإقتداء به، فلو لم يكن مأموناً منه فعل القبيح لم نأمن في جميع أفعاله ولا أقل في بعضها ممّا يأمرنا به، ويدعونا إليه في الحدود والديات والقصاص وسائر أحكام العبادات والمعاملات أن يكون قبيحاً، ومن هو مأمون منه فعل القبيح هو المعصوم لا غير فيجب أن يكون الإمام معصوماً.

ثمّ إذا علم معنى العصمة فلا بد من أن يكون الإمام منصوباً من عند الله أو من رسول الله ﷺ أو من إمام قبله لأن العصمة أمر خفي باطني، تمييزه خارج عن طوق البشر ولا إطلاع لأحدهم عليها ولا يعلمها إلاّ الله تعالى، على أنّه لا خلاف ولا نزاع بين الأمة في

---

(١) بحار الأنوار: ٢٥/١٩٢، ومواقف الشيعة: ٢/١٠٨.

أن الإمامة دافعة للضرر وأنّها واجبة، وإنّما النزاع في تفويض ذلك إلى الخلق، لما في ذلك من الاختلاف الواقع في تعيين الأئمة، فيؤدّي إلى الضرر المطلوب زواله ولذا قال الشيخ الرئيس في آخر الٰهيات الشفاء في الفصل الخامس من المقالة العاشرة في الخليفة والإمام: والاستخلاف بالنص أصوب فإن ذلك لا يؤدّي إلى التشعب والتشاغب والاختلاف.

مسلك عقلي آخر في أمر الإمامة أيضاً

ولما كانت هذه المسألة من أهم المسائل واكتفى بعض الناس فيها بالإقناعيات والخطابيات بل بالوهميات التي لا اعتداد بها في نصب الإمام، واطفأوا نور العقل وعطلوه عن الحكم والقضاء ومالوا عن الجادة الوسطى، وجانبوا الأدلّة القطعية العلمية والأُصول اليقينية البرهانية، ألهمت أن أسلك طريقة أُخرى عقلية في تقريرها وتحريرها عسى أن يذكّر من تيسّر لليسرى فنقول: وبالله التوفيق وبيده أزمة التحقيق: العقول حاكمة بأنّ أحوال العالم كلّها إنما قامت على العدالة، وبأن الأنبياء بعثوا ليقوم النّاس بالقسط، وبالعدل قامت السماوات والأرض، وبه ينتظم جميع أمور النّاس، وبه يصير المدينة مدينة فاضلة وبالعدالة المطلقة يعطى كلّ ذي حق حقّه، وبه تحصل الكمالات العلميّة والعمليّة المستلزمة لنيل السعادة الأبدية، والقرب إلى عالم القدس والإيصال إلى المعبود الحق، وهو سبب الفوز والنجاة في الدُّنيا والآخرة، ولولا العدل لاختل نظام العالم ونظم اجتماع بني آدم، وتعطل الحدود والحقوق واستولى الهرج والمرج وفسد أمر المعاش والمعاد، ولزم غيرها من المفاسد التي لا تعدّ ولا تحصى، فالناس يحتاجون في كلّ زمان إلى إمام خيّر مطاع، حافظ للدين عن التغيير والتبديل والزيادة والنقصان ويكون هادي الأُمة إلى ما فيه الفلاح والنجاح ورادعهم عن العدول عن الصراط المستقيم والإنحراف عن النهج القويم وعن الميل إلى الأهواء المردية والآراء المغوية، وسائقهم إلى طريق الاستقامة التي لا ميل فيها، إلى جانبي الإفراط والتفريط فإن اليمين والشمال مضلّة والوسطى هي الجادّة، ومعطي كلّ ذي حقّ حقّه ومقيم الحدود، ومؤدي الحقوق والعدل في كلّ شيء هو وضع ذلك الشيء في موضعه، أي إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه بحسب استعداده واستحقاقه، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه يحتاج إلى العلم بحقائقهم وقدر استحقاقهم، واستعدادهم والإطلاع على الكلّيات والجزئيات وإحاطتها على ما هي عليه وهي غير متناهية، فهي غير معلومة إلا لله تعالى ولخلفائه الذين اصطفاهم، فالإمام الذي بيده أزمّة العدل والحكم والكتاب يجب أن يكون خليفته في الأرض وخليفته منصوب من عنده ومعصوم من العيوب مطلقاً.

وكذا مستكن في القلوب ومتقرر في الحكمة المتعالية أن النفس بالطبع منجذبة إلى محبة مشاهدة النور الأكمل والعلم الأتمّ، وكلما كان الكمال أعلى والنور أسنى والعلم أتمّ

والنفس أطهر كانت النفوس إليه أطوع وميلها إليه أشدّ وأكثر، ولما كانت العصمة هي العدالة المطلقة الرادعة عن الانحراف والظلم، وكان الغرض الأقصى من الخلافة هو تكميل النفوس بانقيادها للإمام، فيجب أن يكون الإمام معصوماً حتّى يتحقق الغرض المطلوب منه وغير المعصوم ناقص بالضرورة عن كمال الإعتدال في القوى الثلاث أي الحكمة والشجاعة والعفة المستلزمة للعدالة المطلقة، فإذا كان ناقصاً عنه يضلّ عن صراط الله المستقيم ولو في حكم جزئي، والناقص المشتمل على الإنحراف عن الصراط المستقيم لا يليق أن يكون واسطة الخلق إلى الحقّ وقائماً بهدايتهم، وبالجملة إن الإمام منصب إلهي يتوقف على كمال عقله النظري والعملي والسلامة عن العيوب والعصمة عن الذنوب، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة، وإلى ما حققناه وحرّرناه أشار طائفة من المتألهين من الحكماء في أسفارهم بأن الأرض لا يخلو من حجة إلهيّة قط.

قال الشيخ الرئيس في آخر الفصل الخامس من المقالة العاشرة من إلٰهيات **«الشفاء»** في الخليفة والإمام ووجوب طاعتهما، بعد البحث عن الفضائل: ورؤوس هذه الفضائل عفة وحكمة وشجاعة، ومجموعها العدالة، وهي خارجة عن الفضيلة النظرية، ومن اجتمعت له معها الحكمة النظريّة فقد سعد، ومن فاز مع ذلك بالخواص النبويّة كاد أن يصير ربّاً إنسانياً، وكاد أن يحل عبادته بعد الله تعالى وهو سلطان العالم الأرضي وخليفة الله فيه.

بيان: إنّما عبر الإمام بقوله (ربّا إنسانياً) لأن حجة الله على خلقه لما كان بشراً واسطة بين الله وعباده، لا بد من أن يكون مؤيداً من عند الحكيم العليم بالحكمة العملية والنظريّة، غير مشارك للناس على مشاركته لهم في الخلق بكرامات إلهيّة وأمور قدسيّه وصفات ملكوتية، فعبّر الشيخ عن الجهتين أعني الجهة البشريّة والجهة الألوهيّة بقوله: ربّاً إنسانياً.

قال الشيخ شهاب الدين السهروردي: لا يخلوا العالم من الخليفة الذي سماه أرباب المكاشفة، وأرباب المشاهدة القطب، فله الرياسة وإن كان في غاية الخمول، وإن كانت السياسة بيده كان الزمان نورانيا، وإذا خلي الزمان عن تدبير مدّبر إلهي كانت الظلمات غالبة.

وقال في شرح **«النصوص»**: لا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل أن الخليفة ظاهرة بصورة مستخلفه في خزائنه، والله يحفظ صورة خلقه في العالم فإنّه طلسم الحفظ، من حيث مظهريّته لأسمائه واسطة تدبيره بظهور تأثيرات أسمائه فيها.

وسيأتي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد: اللّهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلاً تبطل حجج الله وبيّناته، وكم ذا وأين أولئك، أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيّناته حتّى يودعوها نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا

روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدّنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدّعاة إلى دينه[١].

«عدم تأثير السحر والشعبذة وأمثالهما في الحجج الإلٰهية»

تنبيه: قد علم مما قدمنا في الحجج الإلٰهية أن العقل لا يجوز تأثير السحر فيهم، وغاية ما يستفاد من الأخبار المذكورة في جوامع الفريقين، أن بعض الناس كلبيد بن أعصم اليهود مثلاً إنّما سحر رسول الله ﷺ وأمّا أن سحره أثر فيه أثراً فممنوع، فإن الأصل المتبع في تلك الأُمور هو العقل، فما وافقه وإلاّ يعرض عنه. وما ورد من تأثير السحر فيهم كما في نقل: أن رسول الله ﷺ مرض من سحر لبيد بن أعصم، وفي آخر: كان النّبيّ ﷺ يرى أنّه يجامع وليس يجامع وكان يريد الباب ولا يبصره حتّى يلمسه بيده، من زيادات النقلة والرواة، فإن دأب النّاس في أمثال هذه الواقعة على زيادة ما يستغرب ويتعجب منه.

قال الطبرسي في «**المجمع**»: وهذا (**يعني تأثير السّحر فيه ﷺ**) لا يجوز لأن من وصف بأنه مسحور، فكأنه قد خبل عقله، وقد أبى الله سبحانه ذلك في قوله ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟﴾ [الاسراء: ٤٧ ـ ٤٨] ولكن يمكن أن يكون اليهودي أو بناته على ما روي اجتهدوا في ذلك فلم يقدروا عليه، وأطلع الله نبيّه ﷺ على ما فعلوه من التمويه حتّى استخرج (**يعني استخرج سحر لبيد من بئر ذروان**) وكان ذلك دلالة على صدقه، وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم ولو قدروا على ذلك لقتلوه، وقتلوا كثيراً من المؤمنين مع شدّة عداوتهم لهم[٢].

ومن تدّبر وتأمل فيما حرّرنا من وجود الإمام وأوصافه عقلاً، درى أنّه يجب أن يكون عالماً بالسياسة وبجميع أحكام الشريعة، وكلّ ما يحتاج إليه الناس في تكميل نفوسهم ونظام أمورهم، وأفضل من كلّ واحد من رعيّة عصره، وأن وجوده لطف فيجب أن يكون منصوصاً عليه ومنصوصاً من عند الله تعالى ومعصوماً عن الذنوب ومنزهاً عن العيوب، وعن كلّ ما يتنفر عنه الطبع السليم. فمن أخذت الفطانة بيده سعد وإلاّ فمن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

«التمسك بآيتين وخمسة أخبار في الإمام وصفاته»

واعلم إنّما حداني على الإتيان بتلك الأخبار والبحث فيها، ما رأيت فيها من

---

(١) الغارات: ١/ ١٥٤، ومناقب أمير المؤمنين: ٢/ ٩٦.

(٢) مجمع البيان: ١٠/ ٤٩٢، وتفسير نو الثقلين: ٥/ ٧٢٠ ح ٢٠.

احتجاجات أنيقة، مشتملة على براهين كلية عقلية في إثبات المطلوب، لا من حيث أنّها أخبار أردنا إيرادها في المقام والتمسك بها تعبداً، كما أن الآيتين وافيتان للرشاد والسّداد، لوتدبّرنا فيهما بالعقل والاجتهاد، والمرجوّ أن ينظر فيها القارى الكريم الطالب للرشاد حق النظر وتدبّر فيها حق التدبر، لعله يوفق بالوصول إلى الدين الحق، فإن الدين الحقّ واحد، قال عز من قائل: ﴿وماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ [يونس: ٣٢] - ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الانعام: ١٥٣]. ثمّ ليعلم أن الآيات والأخبار في الدلالة على ذلك أكثر منها ولكنّا اكتفينا بها روماً للاختصار.

أمّا الآيتان **فأوليهما**: قوله عز وجلّ (**البقرة الآية ١٢٤**): ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّٰلِمِينَ﴾.

أقول: الإمام هو المقتدى به كما يقال إمام الصلاة لأنّه يقتدى به، ويأتم به، وكذلك يقال للخشبة التي يعمل عليها الاسكاف إمام، من حيث يحذر عليها، وللشاقول الذي في يد البناء إمام من حيث إنّه يبنى عليه ويقدر به، ولا كلام في أن الإمام الذي نصبه الله تعالى لعباده مقتدى به في جميع الشريعة وبه يهتدون، والإمام هادي النّاس بأمر الله تعالى وكفى في ذلك شاهداً قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] حيث قرن الإمامة بالهداية التي هي بأمر الله تعالى، أي الإمام يهدي الناس إلى سواء السبيل بأمره تعالى وسنوضح ذلك مزيد إيضاح.

ثمّ أنّه ذكر غير واحد من المفسرين كالنيسابوري وصاحب المنار وغيرهما، أن المراد بالإمامة الرسالة والنّبوة، وقال الأوّل: الأكثرون على أن الإمام ههنا النّبي لأنّه جعله إماماً لكلّ النّاس، فلو لم يكن مستقلاً بشرع كان تابعاً لرسول ويبطل العموم، ولأن إطلاق الإمام يدلّ على أنّه إمام في كلّ شيء، والذي يكون كذلك لا بدّ أن يكون نبيّاً، ولأن الله تعالى سمّاه بهذا الاسم في معرض الإمتنان فينبغي أن يحمل على أجل مراتب الإمام كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الانبياء: ٧٣] لا على من هو أدون ممن يستحق الإقتداء به في الدين كالخليفة والقاضي والفقيه وإمام الصلاة، ولقد أنجز الله تعالى هذا الوعد فعظّمه في عيون أهل الأديان كلّها، وقد اقتدى به من بعده من الأنبياء في أصول مللهم، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وكفى به فضلاً أن جميع أمة محمّد ﷺ يقولون في صلاتهم: اللّهم صل على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم. (**انتهى**).

أقول: الصواب أن إبراهيم عليه السلام فاز بالإمامة بعد ما كان نبيّاً، والإمامة في الآية غير النّبوة، وذلك لوجهين: الأوّل: أن جاعل عمل في قوله تعالى **(إماماً)** أعني أن إماماً مفعول ثان لقوله **(جاعلك)** واسم الفاعل إنّما يعمل عمل الفعل وينصب مفعوله، ولا يضاف إليه، إذا كان بمعنى الحال أو الإستقبال، وأما إذا كان بمعنى الماضي فلا يعمل عمل الفعل، كذلك ولا يقال زيد ضارب عمراً أمس، نعم إذا كان صلة لألَ فيعمل مطلقاً كما حقق في محلّه.

حكي أنّه اجتمع الكسائي وأبو يوسف القاضي عند الرشيد فقال الكسائي: أبا يوسف لو قتل غلامك فقال رجل أنا قاتل غلامك بالإضافة، وقال آخر: أنا قاتل غلامك بالتنوين، فأيهما كنت تأخذ به؟ فقال القاضي كنت أخذتهما جميعاً. فقال الكسائي: أخطأت إنّما يؤخذ بالقتل الذي جرّ دون النصب، والوجه فيه أن اسم الفاعل المضاف بمعنى الماضي، فيكون إقراراً، وغير المضاف يحتمل الحال والإستقبال أيضاً فلا يكون إقراراً. وما نحن فيه من قبيل الثاني كما لا يخفى.

وبالجملة إذا كان اسم الفاعل يعمل عمل فعله إذا لم يكن بمعنى الماضي، فالآية تدل على أنّه تعالى جعل إبراهيم إماماً إما في الحال أو الاستقبال، وعلى أي حال كانت النّبوة حاصلة له قبل الإمامة فلا يكون المراد أو الإستقبال وعلى أي حال كانت النّبوة حاصلة له قبل الإمامة، فلا يكون المراد بالإمامة في الآية النبوة.

وفي «**الكافي**» عن الصادق عليه السلام وفي (**الوافي ص ١٧ م ٢**) قال: إنّ الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيّاً وإن الله اتخذه نبيّاً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يتخذه[١] إماماً، فلما جمع له الأشياء قال إنّي جاعلك للناس إماماً، فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين، قال لا يكون السفيه إمام التقى. انتهى[٢].

فرتب هذه الخصال بعضها على بعض لاشتمال كلّ لاحق منها على سابقه مع زيادة، حتى انتهى إلى الإمامة المشتملة على جميعها فهي أشرف المقامات وأفضلها.

وفيه أيضاً قال أبو عبد الله عليه السلام: الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات: فنبيّ منبأ في نفسه لا يعد وغيرها، ونبيّ يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم يبعث إلى أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط، ونبيّ يرى في منامه ويسمع الصوت

---

(١) في نسخة: أن يجعله.

(٢) الاختصاص: ٢٢، والاحتجاج: ١/ ٣٧٣.

ويعاين الملك وقد أرسل إلى طائفة قلّوا أو كثروا كيونس قال الله تعالى ليونس: **﴿وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون﴾** [الصافات: ١٤٧] وقال: يزيدون ثلاثين ألفاً وعليه إمام، والذي يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل أولى العزم، وقد كان إبراهيم عليه السلام نبيّاً وليس بإمام، حتّى قال الله: إنّي جاعلك للناس إماماً قال: ومن ذريّتي فقال الله: لا ينال عهدي الظالمين من عبد صنماً أو وثنا لا يكون إماماً[1].

الوجه الثاني أن الآية تدلّ على أن الله تعالى لما ابتلاه واختبره بأنواع البلاء جعله إماماً، ومن أبين البلاء له ذبح ولده إسماعيل كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ - إلى أن قال - إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠١ - ١٠٦] ووهبه الله إسماعيل في كبره كما قال في السورة المسماة باسمه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩] فكان عليه السلام نبيّاً قبل أن كان إماماً.

وكذلك نقول: إن مما ابتلاه الله تعالى به قضيّة ابتلائه بالأصنام وقال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ - إلى أن قال: فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤١ - ٤٩] فنصّ الله تعالى بأنّه كان حين يخاطب أباه صديقاً نبيّا وقال في الآية الأولى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فلم يكن حين ابتلائه بالأصنام إماماً بل كان نبيّاً، ورزق الإمامة بعد ذلك.

فإذا ساقنا الدليل إلى أن الإمامة في الآية غير النبوة، فنقول كما في المجمع: أن المستفاد من لفظ الإمام أمران: أحدهما أنّه المقتدى به في أفعاله وأقواله، والثاني أنّه الذي يقوم بتبدير الأمة وسياستها، والقيام بأمورها وتأديب جناتها وتولية ولاتها وإقامة الحدود على مستحقيها، ومحاربة من يكيدها ويعاديها، فعلى الوجه الأوّل لا يكون نبيّ من الأنبياء إلاّ وهو إمام، وعلى الوجه الثاني لا يجب في كلّ نبيّ أن يكون إماماً، إذ يجوز أن يكون مأموراً بتأديب الجناة، ومحاربة العداة والدفاع عن حوزة الدين ومجاهدة الكافرين.

ثمّ إنّ معنى الإمامة في الآية ليس مجرد مفهوم اللفظ منها، بل هي الموهبة الإلهية يهب لمن يشاء من عباده الصابرين الموقنين كما قال عز من قائل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] وإنّما أطلق الصبر ولم يذكر متعلقه بأنّهم صبروا فبماذا؟ ليعمّ صبرهم في أنواع البلاء. فالإمامة هي الولاية من الله تعالى لهداية النّاس

---

(١) الكافي: ١/ ١٧٥، والتفسير الصافي: ١/ ١٨٧.

بأمر الله تعالى، التي توجب لصاحبها التصرف في العالم العنصري وتدبيره بإصلاح فساده، وإظهار الكمالات فيه لاختصاص صاحبها بعناية إلهية، توجب له قوة في نفسه لا يمنعها الإشتغال بالبدن عن الإتصال بالعالم العلوي واكتساب العلم الغيبي منه، فبذلك التحقيق وبما بيناه في أبحاثنا الماضية يظهر جواب ما استدلّ النيسابوري وغيره على أن المراد بالإمام هو النبيّ.

ثمّ إن الآية تدلّ على أن الإمام الهادي للناس بأمره تعالى يجب أن يكون منصوصاً من عند الله تعالى، حيث قال تعالى: إنّي جاعلك للناس إماماً كما لا يخفى على من له أدنى دراية في أساليب الكلام. والعجب من النيسابوري حيث قال في تفسيره: ثم القائلون بأن الإمام لا يصير إماماً إلاّ بالنصّ، تمسكوا بهذه الآية وأمثالها من نحو: إنّي جاعل في الأرض خليفة - يا داود إنا جعلناك خليفة، ومنع بأن الإمام يراد به ههنا النّبي سلمنا أن المراد به مطلق الإمام، لكن الآية تدلّ على أن النصّ طريق الإمامة وذلك لا نزاع فيه إنّما النزاع في أنّه لا طريق للإمام سوى النصّ ولا دلالة في الآية على ذلك انتهى. وبما حققناه وبيّناه في المقام يظهر لك أن كلامه هذا في غاية السقوط. نعم أنّه أنصف في المقام وقال:

وفي الآية دليل على أنّه عليه السلام كان معصوماً عن جميع الذنوب، لأنّه لو صدرت عنه معصية لوجب علينا الاقتداء به، وذلك يؤدّي إلى كون الفعل الواحد ممنوعاً منه مندوباً إليه وذلك محال.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. عطف على الكاف من جاعلك وإن شئت قلت: ومن ذريتي تتعلق بمحذوف تدل عليه كلمة جاعلك ومن للتبعيض، أي أجل بعض ذريتي إماماً، كما يقال سأكرمك فتقول وزيداً، وإنّما طلب الإمام لبعض ذريته لعلمه بأن كلّهم لا يليق بها، لأن ناساً غير محصورين لا يخلو فيهم من ظالم غالباً قال الله تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١٣].

وأفاد بعض المفسرين أنه قد جرى إبراهيم على سنة الفطرة في دعائه هذا، فإن الإنسان لما يعلم من أن بقاء ولده بقاء له، يحبّ أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها، ليكون له حظ من البقاء جسداً وروحاً. ومن دعاء إبراهيم الذي حكاه الله عنه في السورة المسماة باسمه ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقد راعى الأدب في طلبه فلم يطلب الإمام لجميع ذرّيته بل لبعضها لأنه الممكن، وفي هذا مراعاة لسنن الفطرة أيضاً، وذلك من شروط الدعاء وآدابه فمن خالف في دعائه سنن الله في خليقته أو في شريعته فهو

شريعته، فهو غير جدير بالإجابة بل هو سيىء الأدب مع الله تعالى لأنه يدعوه لأن يبطل لأجله سنته التي لا تتبدّل ولا تتحوّل أو ينسخ شريعته بعد ختم النّبوة وإتمام الدين.

والعهد في الآية الإمامة التي اعطاها الله تعالى إبراهيم وإنّما سميت تلك الرياسة الإلْهية عهد الله لاشتمالها على كلّ عهد، عهد به الله تعالى إلى بني آدم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ [الاحزاب: ٧].

ومن عظمها وشرافتها في عين إبراهيم سأل الإمامة لبعض ذريته، فأجابه الله تعالى بأن الإمامة عهده ولا يناله الظالمون، يقال: نال خيراً ينال نيلاً أي أصاب وبلغ منه. وبين الله تعالى أنّ عهده ذو مقام منيع ودرجة رفيعة لا يصل إليه يد الظالم القاصرة.

وأيضاً دلّت الآية على أن بعض ذريته الظالم، لا ينال عهد الله، لأن الظالم ليس بأهل لأن يقتدى به، فلم ينف الله تعالى الإمامة عن ذريته مطلقاً وإلا لكان يقول: لا ينال عهدي ذرّيتك مثلاً بل ذكر المانع من النيل إلى ذلك المنصب الإلْهي مطلقاً وهو الظلم، وذلك كما ترى أن الله جعل الإمامة في بعض أولاده وأحفاده كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيّوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ثمّ أفضلهم وأشرفهم محمّد ﷺ والله تعالى أثنى عليهم في الكتاب بثناء مستطاب. فالآية تدلّ على أن الإمامة التي جعلها لإبراهيم عليه السلام لا ينالها من كان ظالماً من ذرّيته فعلم من الآية أمران: أحدهما أن الإمامة لا يكون إلاّ في ذرّيته، والثاني أنّه لا ينالها من عند الله من هو موصوف بالظلم منهم. فعلم أن كلّ ظالم من ذرّية إبراهيم لا يصلح أن ينال الإمامة والولاية من قبل الله ولا يكون ممّن رضي الله بإمامته وولايته، وإلا لزم الكذب في خبره هذا خلف فكلّ ظالم تولى أمور المسلمين باستيلائه وقهره وكثرة أعوانه وأنصاره لا يكون إماماً من الله ولا ممن رضي الله بإمامته وإلا لكان قد جعله إماماً، وكذا لا تكون مجعولاً من رسله ولا من خواص أوليائه لنصّ الآية الدالّ على أنّ الله تعالى لا يجعل الإمامة ولا ينالها منه من كان ظالماً.

ثمّ إنّ أصحابنا الإمامية استدلوا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلاّ معصوماً عن القبائح، لأن الله سبحانه نفى أن ينال عهده الذي هو الإمامة ظالم، فمن ليس بمعصوم فهو ظالم إمّا لنفسه وإمّا لغيره، ومن لم يتصف بالعصمة لا يتصف بالاستقامة والإعتدال المتصفين بهما أهل الولاية عن الله فيتحقق الميل عن الوسط والخروج عن الصراط المستقيم، فيكون من أحد الجانبين إمّا من المغضوب عليهم أو الضالين.

فإن قيل: إنّما نفي أن يناله ظالم في حال ظلمه فإذا تاب لا يسمى ظالماً فيصح أن يناله. فالجواب أن الظالم وإن تاب فلا يخرج من أن تكون الآية قد تناولته، في حال كونه

ظالماً فإذا نفي أن يناله فقد حكم عليه بأنه لا ينالها، والآية مطلقة غير مقيّدة بوقت دون وقت، فيجب أن تكون محمولة على الأوقات كلّها فلا ينالها الظالم وإن تاب فيما بعد **(قاله في المجمع)**[١].

وبالجملة أن عموم ظاهر الآية يقتضي أن الظالم في حال من الأحوال لا ينال الإمامة، ومن تاب بعد كفر أو فسق وإن كان بعد التوبة لا يوصف بأنّه ظالم، فقد كان ممن تناوله الاسم ودخل تحت الآية، وإذا حملناها على أن المراد بها من دام على ظلمه واستمر عليه كان هذا تخصيصاً بغير دليل.

أقول: فالآية تدلّ على إبطال إمامة غير عليّ عليه السلام لأنهم كانوا مشركين قبل الإسلام وعبدوا الأصنام بالإتفاق وكلّ مشرك ظالم، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فكلّ ظالم لا ينال عهد الإمامة. ولذا قال الصادق عليه السلام: من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً[٢]، ونعم ما نظم الحسين بن عليّ الكاشفي حيث قال في قصيدة فارسية له:

ذريتي سؤال خليل خدا بخوان　　وز لا ينال عهد جوابش بكن أدا

گرددتر اعيان كه امامت نه لائق است　　آنرا كه بوده بيشتر عمر در خطا

وقال الزمخشري في «**الكشاف**» في بيان قوله تعالى: و ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي من كان ظالماً من ذرّيتك لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنّما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم، وقالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقدم للصلاة، وكان أبو حنيفة يفتي سرّاً بوجوب نصرة زيد بن عليّ رضوان الله عليهما وحمل المال إليه والخروج معه على اللّص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة كالدوانيقي وأشباهه، وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمّد ابني عبد الله بن الحسن حتّى قتل فقال: ليتني مكان ابنك، وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عد آجره لما فعلت[٣].

وعن ابن عيينة وعن ابن عباس لا يكون الظالم إماماً قط وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنّما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم. انتهى[٤].

(١) مجمع البيان: ١/٣٧٨، وبحار الانوار: ٢٥/١٩١.
(٢) بحار الأنوار: ١١/٥٥ ح ٥٤، والتفسير الصافي: ١/١٨٧.
(٣) كتاب الأربعين: ٥٤.
(٤) كتاب الأربعين: ٥٤، وكنز العمال: ١٢/٥٧١.

إن قلت: إن يونس صلوات الله عليه نال عهد الله الذي هو الإمامة مع أن الله تعالى حكى عنه أنّه قال: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

أقول: إن الظلم فيه محمول على ترك الأولى، كما في حق آدم صلوات الله عليه حيث قال: ربّنا ظلمنا أنفسنا، وبالجملة ما ورد في القرآن والأخبار ممّا يوهم صدور الذنب عن الأنبياء، وخلفائهم الحق محمول على ترك الأولى جمعاً، بين ما دلّ العقل عليه وبين صحة النقل لأن المتبع في أصول العقائد هو العقل وهو الأصل فيها، وكلّ ما ثبت بدليل قاطع فلا يجوز الرجوع عنه على أن لتلك الآيات والأخبار ذكرت وجوه ومحامل أتى بها العلماء في مواضعه وعليك في ذلك بكتاب «**تنزيه الأنبياء**» للسيد المرتضى علم الهدى فإنه شفاء العليل.

ومن أحسن ما قيل في المقام: أن تلك الظواهر دالّة على عظم شأنهم وعلو مرتبتهم، إذ معاتبة الحكيم لهم على تلك الأفعال التي هي في الحقيقة لا توجب العصيان، والمخالفة دليل على أنّهم في محلّ يقتضي تلك المعاتبة تنزيها لهم وتفخيماً لأمرهم وتعظيماً لشأنهم عن ملابسة ما لا يليق بمراتبهم، إذ هم دائماً في مرتبة الحضور الموجبة لعدم التفاتهم إلى غير الحقّ، وكان وقوع ذلك منهم في بعض الحالات أو مع شيء من الإشتغالات البدنية والإنجذاب في بعض الأحيان إلى الأمور الطبيعية والماديّة موجباً لتلك المعاتبة.

وبالجملة أن الحجج الإلهيّة لما كانوا في نهاية القرب من الله تعالى وكمال الإتصال بجنابه وتمام الحضور إلى حضرته، وكانوا أيضاً مع تلك المرتبة الشامخة في العوائق والعلائق البدنيّة اللازمة للبشرية، رين مع الرعية للإرشاد والتبليغ، قد يعرض لهم في تلك الأطوار والشؤونات البشريّة أمور يعدونه سيئات، وإن لم تكن في الحقيقة بقبائح وسيئات فيتضرعون إلى الله تعالى بقولهم ربّنا ظلمنا أنفسنا، أو سبحانك إنّي كنت من الظالمين. فإن المخلصين على خطر عظيم.

وبذلك ظهر سرّ الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**»(١).

ثمّ اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما طلب الإمامة لبعض ذريته، فكان يكفي في جوابه أن يقال: نعم، مثلاً لكنّه لما لم يكن نصاً في أن الظالم لا ينال الإمامة، لأنه كان يشمل حينئذ الظالم وغيره، وكذا لو قال ينال عهدي المؤمنين مثلاً، لما كان أيضاً نصّاً في خروج الظالم، غاية ما يقال حينئذ خروجه بالمفهوم فنصّ بالظالم لخروجه عن نيل عهد الله تعالى، أعني

(١) كشف الخفاء: ١/٣٥٧ ح ١١٣٧، والتفسير الصافي: ١/٤٤٦.

الإمامة بقوله لا ينال عهدي الظالمين. كما نصّ أيضاً بأن أمر الظالم ليس برشيد، ومن اتبعه فجزاءه جهنم، في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٦ - ٩٩].

ثمّ إنّ الله تعالى ذكر في كتابه العزيز كثيراً من صفات من جعله إماماً للنّاس بقوله:

١ - ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فرتبة الإمامة ودرجة الولاية أعلى وأرفع من أن ينالها الظالم، وبهذه الآية بين أيضاً أن الإمام منصوب من عنده كما دريت.

٢ - ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢] فمن صفات الإمام أن يكون ممن اجتباه الله، فهو نصّ في أن الإمام يجب أن يكون منصوباً من الله تعالى، وأن يكون مهدياً بهدى الله تعالى إلى صراط مستقيم، وأن لا يكون من المشركين. فافهم وتدبّر حق التدبر.

٣ - ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].

٤ - ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١].

٥ - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣] فالإمام يهدي بأمره تعالى ويوحى إليه فعل الخيرات.

٦ - ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

٧ - ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

فمن اتصف بهذه الأوصاف الملكوتية وأيّد بهذه التأييدات السماوية فهو إمام، فطوبى لمن عقل الدين عقل رعاية ودراية.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

والآية تدلّ على أمور: **الأول** أن إطاعة الرسول ﷺ فيما أمر به ونهى عنه واجبة، كما أن إطاعة الله تعالى واجبة، فليس لأحد أن يقول: حسبنا كتاب الله فلا حاجة لنا إلى الأخبار المرويّة عن الرسول والعمل بها، وذلك لأن هذا القول نفسه ردّ الكتاب، ولو كان كتاب الله وحده كافيا لما أفرد بطاعة الرسول ﷺ بقوله عزّ من قائل: **(أطيعوا الرسول)** بعد قوله: **(أطيعوا الله)**. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ فقد أخطأ من قال: حسبنا كتاب الله، وأعرض عن قول رسول الله ﷺ.

الأمر الثاني: أن الله تعالى أوجب على النّاس إطاعة أولي الأمر كما أوجب إطاعته وإطاعة رسوله، فالحري بالطالب نهج القويم أن يرى بعين العلم والمعرفة رأيه في معنى أولي الأمر، ومراده عزّ وجل منهم فنقول: قد فسر بعضهم أولي الأمر بالأمراء، وبعض آخر ومنهم الفخر الرازي في تفسيره بالعلماء، ولا يخفى أن المعنى الثاني عدول عن الصواب جدّاً، فإن أولى الأمر، هم مالكوا الأمر ومالك الأمر من بيده الحلّ والعقد والأمر والنهي والتدبير والسياسة، وما فيه تنظيم أُمور الناس، دينيّة كان أو دنيويّة، فكيف يجوز تفسير أولي الأمر بالعلماء، سيّما في كلام الله الذي هو في غاية الفصاحة ونهاية البلاغة ومعجزة النبوة الباقية وهل هذا إلاّ الخروج عن مجرى الفصاحة والورود في مورد السخافة.

أمّا مراده عزّ وجلّ من أولي الأمر فنقول: إنا نعلم بتّاً أن كثيراً من الخلفاء والأُمراء، كمعاوية ويزيد والوليد والحجّاج وآل أُميّة وبني مروان والخلفاء العبّاسيّين وأمثالهم قديماً وحديثاً لعبوا بالدّين، واتخذوا كتاب الله سخريا وفعلوا من الفواحش والمنكرات وفنون الظلم والمنهيّات من سفك الدماء وأخذ أموال الرعية ظلماً وشرب الخمر ونحوها. ما يتعذر عدّها وتشمئز النفوس المطمئنة السليمة عن استماعها وتستقبح ذكرها، ولو نذكر معشاراً من ظلمهم وسائر فواحشهم ومقابحهم مما نقل في كتاب القوم ومصنفاتهم لبلغ مبلغاً عظيماً، وهذا هو الوليد بن يزيد نذكر فعلاً من أفعاله يكون انموذجاً لسائر آثاره، وإن بلغ في الفسق والفجور إلى حد لا يناله يد إنكار ولا يرتاب فيه أحد، ولعمري أني أستحي من نقل هذه القضيّة الصادرة منه ولكني أقول: أن من جانب المراء واللداد وتقليد الآباء والأجداد وأعرض عن الأغراض النفسانية والعصبيّة، ونظر بعين العلم والبصيرة وتفكر ساعة في معاني الآيات والأخبار وتأمل في غرض البعثة، وتكليف العباد وأراد أن يسلك مسلك السداد والرشاد هل يرضى بأمارة من يرتكب من المعاصي والفواحش ما يستحيي بذكره الإنسان، وهلا يقضي عقله بأنّه لو كان الوليد وأشياعه مالكي أزمة الأُمور، والقائمين مقام الرسول، لما كان إرسال الرسل وإنزال الكتب إلاّ اللهو والعبث واللعب.

قال أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني» (ص ١٧٤ ج ٩ طبع ساسي) في ترجمة عمار ذي كناز بإسناد عن العمري أنه قال: استقدمني الوليد بن يزيد بعد هشام بن عبد الملك ثمّ قال لي: هل عندك شيء من شعر عمار ذي كناز؟ فقلت: نعم، أنا أحفظ قصيدة له ولكن لكثرة عبثي به قد حفظتها فانشدته قصيدته التي يقول فيها:

حبذا أنت يا سلا مة الفين حبذا

إلى آخر القصيدة.

وأنا أعرضت عن الاتيان بها لشناعتها وقباحتها، وأُجلّ صحيفتي المكرّمة عن أن تملأ بتلك القصائد المنسية عن ذكر الله وهي شرح كتاب علوى عجز الدهر أن يأتي بمثله.

وبالجملة قال العمري بعد ذكر القصيدة: فضحك الوليد حتّى سقط على قفاه وصفق بيديه ورجليه وأمر بالشراب فاحضر، وأمرني بالإنشاد فجعلت أنشده هذه الأبيات واكررها عليه، وهو يشرب ويصفق حتّى سكر وأمر لي بحلتين وثلاثين ألف درهم فقبضتها، ثمّ قال: ما فعل عمّار؟ فقلت: حي كميت قد غشي بصره وضعف جسمه لا حراك به، فأمر له بعشرة آلاف درهم فقلت له: ألا أخبر أمير المؤمنين بشيء يفعله لا ضرر عليه فيه وهو أحبّ إلى عمّار من الدنيا بحذافيرها لو سبقت إليه؟ فقال: وما ذاك؟ قلت: إنّه لا يزال ينصرف من الحانات وهو سكران فترفعه الشرط فيضرب الحد، فقد قطع بالسياط ولا يدع الشراب ولا يكف عنه، فتكتب بأن لا يعرض له فكتب إلى عامله بالعراق أن لا يرفع إليه أحد من الحرس عماراً في سكره ولا غيره إلاّ ضرب الرافع له حدّين وأطلق عمّاراً. إلى آخر ما قال:

وفي المجلس التاسع من أمالي الشريف المرتضى: أن وليد بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان كان مشهوراً بالإلحاد متظاهراً بالعناد، غير محتشم في اطراح الدين أحداً، ولا مراقب فيه بشراً، وقد عزم على أن يبنى فوق البيت الحرام قبة يشرب عليها الخمور ويشرف على الطواف ونشر يوماً المصحف وكان خطه كأنّه إصبع وجعل يرميه بالسهام وهو يقول:

تذكرني الحساب ولست أدري أحقاً ما تقول من الحساب

فقل لله يمنعني طعامي وقل لله يمنعني شرابي

وفتح المصحف يوماً فرأى فيه ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: ١٥] فاتخذ المصحف غرضاً ورماه بالنبل حتّى مزّقه وهو يقول:

أتوعد كلّ جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

فإن لاقيت ربك يوم حشر فقل يا ربّ مزّقني وليد[١]

---

(١) الأمالي، المرتضى: ١/ ٩٠، وبحار الأنوار: ٣٨/ ١٩٣.

وهذا هو الحجّاج هدم الكعبة وقتل من المؤمنين والمتّقين وأولياء الله وعباده ممّا لا يحصى، وفعل في إمارته ما فعل من أنواع الظلم بلغت إلى حدّ التواتر، ويضرب بها المثل السائر فلو كان مراده عزّ وجلّ من أولي الأمر مطلق من تولى أمر المسلمين، للزم التناقض في حكمه تعالى، وذلك لأنّه تعالى جعل مثلا الكعبة البيت الحرام قياماً للنّاس، فلو أمر النّاس بإطاعة الحجاج في أفعاله فأمرهم بهدم الكعبة فيجب عليهم هدم الكعبة، مع أنّ الله حرّم عليهم هتك حرمتها، وهل هذا إلا التناقض وكذا في أفعال الوليد، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ونعلم قطعاً أنّ الله تعالى عادل في حكمه وفعله وقوله، وليس بظلام للعبيد فتعالى عن أن يوجب إطاعة الأمراء الظلمة، وهو تعالى يقول ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ـ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] ـ ﴿لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الاعراف: ٤٤] وغيرها من الآيات بهذا المضمون. فالعقل الناصح يحكم بأن مراده تعالى من الآية ليس مطلق أولي الأمر، ولا تشمل الظالمين منهم قضاءً لحق البرهان العقلي، جلّ جناب الرب أن يوجب على النّاس اتّباع هؤلاء الظلمة واتباعهم وما أحل قول الشاعر:

إذا كان الغراب دليل قوم فمأواهم محلّ الهالكينا

وما أجاد قول العنصري بالفارسي:

هركه رار هبرى كلاغ كند بى گمان دل بدخمه داغ كند

ثمّ نقول: أن غير المعصوم ظالم، والظالم لا يصلح لأن يكون من أولى الأمر، فإن الظالم واضع للشيء في غير موضعه، وغير المعصوم كذلك فلا يؤمن في الشرع من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل فلا بدّ من أن يكون أولوا الأمر معصومين.

ثمّ نقول: العصمة ملكة تمنع عن الفجور مع القدرة عليها، وتحصل بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات، وتتأكد بتتابع الوحي بالأوامر والنواهي، فعلى الله تعالى أن يعرّف أولى الأمر، لأنّه خارج عن طوق البشر ووسعهم، فإن العصمة أمر باطني لا يعلمها إلاّ الله، على أنا نقول كما أن الملوك مثلاً إذا امروا الناس بإطاعة الأمراء والقضاة، فمعلوم بالضرورة ومستقر في النفوس أن مرادهم بذلك وجوب إطاعة الأمراء والقضاة الذين نصبهم وعيّنهم على النّاس لا غير، وكذا في المقام نقول أن الله لا يأمر بإطاعة كل من صار أو جعل أمير المسلمين ولو ظلماً وزوراً، بل بإطاعة الأمراء الذين عيّنهم الله تعالى ونصبهم لذلك.

الأمر الثالث أن الزّمان لا يخلو من إمام معصوم منصوب من عند الله تبارك وتعالى، لأنّه

عزّ وجل أوجب إطاعة أُولي الأمر، ونعلم بالضرورة أن أمره تعالى في ذلك ليس مقصوراً في زمن النبيّ ﷺ لأن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة وهو خاتم النّبيّين، فكما أنّ إطاعة الله ورسوله لا يختص بزمانه ﷺ بل هما واجبتان إلى قيام الساعة، فكذا إطاعة أولي الأمر المقرونة بإطاعاتهما، وحيث أن الأمر بإطاعة المعدوم قبيح، ففي كلّ عصر لا بد من صاحب أمر، حتّى يصلح الأمر بإطاعته، وهذا لا يصدق إلاّ على الأئمّة من آل محمّد أوجب الله طاعتهم بالإطلاق بالبرهان الذي قدمنا.

وفي المجمع: بعدما نقل القولين في معنى أولي الأمر أحدهما الأمراء والآخر العلماء، قال: وأمّا أصحابنا فإنّهم رووا عن الباقر والصّادق عليهما السلام أن أولي الأمر هم الأئمة من آل محمّد ﷺ أوجب الله طاعتهم بالإطلاق، كما أوجب طاعته وطاعة رسوله، ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا من ثبتت عصمته، وعلم أن باطنه كظاهره وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح، وليس ذلك بحاصل في الأُمراء ولا العلماء سواهم، جلّ الله أن يأمر بطاعة من يعصيه أو بالانقياد للمختلفين في القول والفعل، لأنّه محال أن يطاع المختلفون، كما أنّه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه. وممّا يدلّ على ذلك أيضاً أنّ الله تعالى لم يقرن طاعة أولي الأمر بطاعة رسوله، كما قرن طاعة رسوله بطاعته، إلا وأولوا الأمر فوق الخلق جميعاً، كما أن الرّسول ﷺ فوق أولي الأمر وفوق سائر الخلق، وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمّد الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم، واتفقت الأمة على علوّ رتبتهم وعدالتهم[١].

ثمّ نقول: لما علم أن الأئمة الهدى من آل محمّد عليهم السلام قائمون مقام الرّسول وحجج في الشرع فكما في زمن الرّسول ﷺ أن تنازع النّاس في شيء من أمور الدين يجب عليهم الرد إلى الله والرّسول، وكذلك بعد وفاته يجب عليهم الرّد إلى المعصومين القائمين مقامه والذين هم الخلفاء في أمته، والحافظون لشريعته بأمره، فالرد إليهم مثل الرد إلى الرسول ﷺ، وأكّد سبحانه ذلك وعظمّه بقوله عز من قائل ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] أي الرّد إلى الله والرّسول والقائمين مقام الرسول خير لكم وأحسن من تأويلكم.

وإن قلت: كما أن الأُمراء المنصوبين من الرسول ﷺ في زمنه كمعاذ بن جبل أرسله والياً إلى اليمن، وغيره من الولاة الذين كانت إطاعتهم واجبة على الناس بأمر رسول الله ﷺ، لم يكونوا معصومين من الذنوب والخطأ والسهو النسيان وغيرها، كذلك الحكم في أولي الأمر بعده فما أوجب عصمة أولي الأمر الذين بعده ﷺ؟

(١) تفسير مجمع البيان: ٣/ ١١٤، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٢٨٥.

أقول: هذا قياس مع الفارق جدّا وبينهما بون بعيد وأمد مديد، وذلك لأن في عهد رسول الله ﷺ لو تنازع الناس في شيء من أُمور الدّين وأقبل أمر مشتبه، للحكام والقضاء والولاة المنصوبين منه ﷺ في أحكام الله، لكان رسول الله ﷺ يكشف عنه ويزيل الشبهة ويقضي بالفصل ويصدع بالحق، كما أمرهم الله بردّ التنازع إلى الله والرسول في الآية، وأمّا بعد وفاته ﷺ لو لم يكن صاحب الأمر القائم مقامه في كل عصر معصوماً ومنصوباً من الله ورسوله، لو أقبل تنازع في الدّين فمن يزيد الشبهة ويبيد الغائلة؟ وكذا الكلام في الأمراء والحكام من قبل الإمام فإنّ الإمام عالم بجميع الأحكام، فبوجوده يرتفع التشاجر ويقلع التنازع.

«رواية جابر بن عبد الله في نزول الآية»

عن جابر بن عبد الله قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قلت: يا رسول الله عرفنا الله ورسوله فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتكم؟ فقال: «**هم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين بعدي، أوّلهم علي بن أبي طالب ثمّ الحسن ثمّ الحسين ثمّ عدّ تسعة من ولد الحسين**»[1].

الحديث الأول

روى ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكلينيّ رضوان الله عليه في باب أنّ الأرض لا تخلو من حجّة، من «**الكافي**» بإسناده عن جعفر بن محمّد عن كرام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لو كان النّاس رجلين لكان أحدهما الإمام، وقال: إنّ آخر من يموت الإمام، لئلا يحتج أحد على الله تعالى أنه تركه بغير حجة لله عليه[2].

أقول: أتى أيضاً بعدّة روايات أخر عنه عليه السلام تقرب من الحديث المذكور مفاداً كقوله عليه السلام: لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجّة[3].

وقوله عليه السلام: لو لم يكن في الأرض إلا اثنان لكان الإمام أحدهما[4]، وغيرهما.

والغرض منها أن العناية الإلٰهية كما اقتضت وجود هذا العالم، وخلقة بني آدم فهي

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ١٨٩ ح ١٦، وتفسير الصافي: ١/ ٤٦٤.

(٢) كتاب الغيبة: ١٤٠ ح ٣، وبحار الأنوار: ٥٣/ ١١٤.

(٣) كتاب الغيبة: ٣١، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٢٢ ح ٢٤.

(٤) الكافي: ١/ ١٨٠ ح ٥، وبصائر الدرجات: ٥٠٧.

يقتضى صلاحه، والصّلاح إنّما يتم ويدوم بوجود إنسان ربّاني مؤيّد بروح القدس ومسدّد بنور الله ومعصوم من كلّ ما يقدح في الغرض من وجوده، يقوم بحجج الله ويؤديها إلى أهلها عند الإحتياج إليها ويعرّفهم الطريق إلى الله ومعالم الدّين، وبه يتصل فيض الباري على الخلق، إذ هو الواسطة بين الله وعباده ولو لم يبق في الأرض إلا رجلان لكان أحدهما ذلك الإمام يجب على الآخر الإقتداء به في استكمال نفسه والإهتداء إلى جناب ربّه حتّى يتمّ الحجّة عليه ولا يحتج على الله أنه تركه بغير حجة لله عليه إنّ الله تعالى أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل، وقال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤] وقال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فتأبى العناية الإلهيّة الأزلية عن أن يترك عباده بلا هاد ومرشد فإن الله ليس بظلام للعبيد.

ثمّ قال عليه السلام: إن آخر من يموت الإمام، وذلك لما علم أن الله تعالى عن أن يظلم أحداً فلو بقي في الأرض رجل واحد بلا حجّة إلٰهيّة لزم الظلم في حقّه، فالحكمة الكاملة الإلهيّة ورحمته الواسعة تقتضي بقاء وجود الحجّة بعد الخلق حتّى لا يبقى واحد بلا إمام والإمام أخر من يموت، كما اقتضت وجود الحجّة قبل ايجاد الخلق، ولذا خلق الخليفة أوّلاً ثمّ خلق الخليقة كما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قبل الخلق ومع الخلق وبعد خلق، فارجع البصر كرّتين أيّها الطالب للرشاد والباغي للسّداد في هذا الحديث الذي كأنّه عقل تمثل بالألفاظ وأقم واستقم.

الحديث الثاني

في الكافي أيضاً بإسناده عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ الأرض لا تخلو إلاّ وفيها إمام كي ما إن زاد المؤمنون شيئاً ردّهم، وأن نقصوا شيئاً أتمّه لهم(١).

أقول: وكذا جاءت روايات أخر فيه أيضاً تقرب منه مضموناً، منها ما روى عبد الله بن سليمان العامري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما زالت الأرض إلا ولله فيها الحجّة يعرّف الحلال والحرام، ويدعو النّاس إلى سبيل الله(٢).

ومنها عن أبي بصير عن أحدهما عليه السلام قال: إنّ الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل(٣).

---

(١) الكافي: ١/ ١٧٨ ح ٢، وميزان الحكمة: ١/ ١١٧ ح ١٣٨.
(٢) كتاب الغيبة: ١٣٨ ح ٤، وبحار الأنوار: ٢٣/ ٥٦.
(٣) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٥ ح ٣٣، وميزان الحكمة: ١/ ١١٧ ح ١٣٨.

والغرض أن الإمام يجب أن يكون عالماً بجميع الأحكام الإلهيّة وعارفاً بالحلال والحرام، بحيث لا يشذ عنه حكم جزئي منها، فإنّه لو لم يكن متصفاً بهذه الصفة لما يقدر أن يرد شيئاً أن زاده المؤمنون أو أتمّه إن نقصوه، فيلزم التغيير والتبديل والزيادة والنقصان في دين الله، فلا يكمل نظام النوع الإنساني به بل يلزم الهرج والمرج المهلكان، فالإمام مستجمع للغاية القصوى من الصدق والأمانة وبالغاً في العلوم الربانية والمعارف الإلهية وتمهيد المصالح الدينيّة والدّنيوية مرتبة النهاية، على أن العقل حاكم بقبح استكفاء الأمر وتوليته من لا يعلمه، وتعالى الله عن ذلك، فالإمام لكونه حافظاً للدين ومقتداً الناس في جميع الأحكام الظاهرية والباطنية والكلّية والجزئية والدّنيويّة والأخرويّة والعباديّة وغيرها، يجب أن يكون عالماً بجميعها كما هو الحكم الصريح للعقل السليم، وليس لأحد أن يقول: إنّه إمام فيما يعلم دون ما يعلم، لظهور قبح هذا القول وشناعتها والمفاسد التالية عليه، ممّا يدركها من كان له أدنى بصيرة في معنى الإمام وغرض وجوده في الأنام، فإذا علم بحكم العقل أن الإمام يجب أن يكون مقتداً به في جميع الشريعة وجب أن يكون معصوماً، لأنه لو لم يكن معصوماً لم نأمن في بعض أفعاله أن يكون قبيحاً، والفرض أن الإقتداء به واجب علينا والله تعالى الحكيم لا يوجب علينا الإقتداء بما هو قبيح، على أن الإمام إذا كان داعي النّاس إلى سبيل الله والمبين الحلال والحرام وحافظ الدّين عن الزيادة والنقصان يستلزم العلم بإعطاء كلّ ذي حق حقه بحسب استحقاقه وهو كما حققناه قبل يستلزم الإطلاع على الكليات والجزئيات مما يحتاج إليها النّاس وهي غير متناهية فهي غير معلومة إلا لله تعالى ولخلفائه المعصومين من عنده.

الحديث الثالث

قال الشريف المرتضى علم الهدى في المجلس الثاني عشر من أماليه: روى أن هشام بن الحكم قدم البصرة فأتى حلقة عمرو بن عبيد فجلس فيها، وعمرو لا يعرفه فقال لعمرو: أليس قد جعل الله لك عينين؟ قال: بلى. قال: ولم؟ قال: لأنظر بهما في ملكوت السماوات والأرض فاعتبره قال: وجعل لك فماً؟ قال: نعم، قال: ولم؟ قال: لأذوق الطعام وأجيب الداعي. ثمّ عدّد عليه الحواس كلّها، ثمّ قال: وجعل لك قلباً؟ قال: نعم، قال: ولم؟ قال: لتؤدي إليه الحواس ما أدركته فيميّز بينها. قال: فأنت لم يرض لك ربّك تعالى إذ خلق لك خمس حواس حتّى جعل لها إماماً ترجع إليه، أترضى لهذا الخلق الذين جشأ بهم العالم ألاّ يجعل لهم إماماً يرجعون إليه؟ فقال له عمرو: ارتفع حتى ننظر في مسألتك، وعرفه ثمّ دار هشام في حلق البصرة فما أمسى حتّى اختلفوا[1].

(١) الأمالي، المرتضى: ١/١٢٣، وتهذيب المقال: ٥/١٧٩ ح ٣٥٢.

أقول: ورواه الكليني قدس سرّه مفصلاً في **«الكافي» بإسناده عن يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد الله** عليه السلام جماعة من أصحابه، منهم حمران بن أعين ومحمّد بن النعمان وهشام بن سالم والطيار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شابّ فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا هشام ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ قال هشام: يا ابن رسول الله إنّي أجلّك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك. فقال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أمرتكم بشيء فافعلوا قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة فعظم ذلك عليّ فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة عظيمة وفيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متزر بها من صوف، وشملة مرتد بها والنّاس يسألونه فاستفرجت النّاس فأفرجوا إلي، ثمّ قعدت في آخر القوم على ركبتي ثمّ قلت: أيّها العالم إنّي رجل غريب تأذن لي في مسألة؟ فقال لي: نعم، فقلت له: ألك عين؟ فقال: يا بُنيّ أي شيء هذا من السؤال وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت: هكذا مسألتي. فقال: يا بنيّ سل وإن كان مسألتك حمقاء. قلت: أجبني فيها؟ قال لي: سل. قلت: ألك عين؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص. قلت: فلك أنف؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة. قلت: ألك فم؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم. قلت: فلك أُذن؟ قال: نعم، قلت فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الصوت. قلت: ألك قلب؟ قال نعم: قلت: فما تصنع به؟ قال: أُميز به كلّ ما ورد على هذه الجوارح والحواس. قلت: أوليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟ قال: يا بنيّ إن الجوارح إذا شكت في شيء شمّتة أو رأته أو ذاقته أو سمعته ردّته إلى القلب فتستيقن اليقين وتبطل الشكّ، قال هشام: فقلت له: فإنّما أقام الله القلب لشكّ الجوارح؟ قال: نعم، قلت: لا بد من القلب وإلاّ لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلت له: يا أبا مروان فالله تعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح ويتيقن ما شكت فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكّك؟ قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً ثمّ التفت إليّ فقال: أنت هشام بن الحكم؟ فقلت: لا، فقال: أمن جلسائه؟ قلت: لا، قال: فمن أين أنت؟ قال: قلت: من أهل الكوفة. قال: فإذن أنت هو ثمّ ضمني إليه وأقعدني في مجلسه، وزال عن مجلسه وما نطق حتّى قمت. قال: فضحك أبو عبد الله عليه السلام وقال: يا هشام من علّمك هذا؟ قلت: شيء أخذته منك فقال: هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/٨، والكليني والكافي: ٣٨١.

بيان

الغرض من احتجاج هشام بن الحكم على عمرو بن عبيد وجوب اللطف على الله تعالى، فإنّه كما اقتضى لطفه خلق القلب إماماً لقوى الجوارح والأعضاء ترجع إليه وليست في غنى عنه، فكذلك اقتضى جعل إمام النّاس يرجعون إليه في كلّ ما يحتاجون إليه. ووصف المسألة بالحمقاء تجوّز كقولهم نهاره صائم والتصغير للتحقير.

ثمّ إنّ المراد بالقلب في الآيات والأخبار هو اللطيفة الربّانيّة القدسيّة، يعبّر بالقوّة العقليّة وبالعقل وبالروح وبالنفس الناطقة أيضاً، وفي الفارسيّة بروان وقد ذكر الشيخ ـ كما في الفصل الآخر من الباب الخامس من السفر الرّابع من الأسفار ـ في بعض رسائله بلغة الفرس بهذه العبارة: روح بخارى راجان گويند ونفس ناطقه را روان، لا الجسم اللحمي الصنوبري الذي في الحيوانات العجم أيضاً. وإنّما قال عليه السلام: **(هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى)** لأنّ الحكم العقلي لا يتغيّر بمضي الدهور ولا يتبدّل بتبدّل الزمان ولا يختلف باختلاف الامم، فهذا الحكم الكلي العقلي الإلهي مكتوب في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى ومستكن في عقول النّاس والخلق، جبلوا عليه أزلاً وأبداً.

ثمّ إن ما تدركه هذه القوى صور صرفة وتصوّرات محضة، لا توصل إلى معرفة الغائبات فلا بدّ للتصديق واليقين والإيصال إلى معرفة الغائبات، من أن تكون قوّة أخرى حاكمة عليها، وتلك القوّة الحاكمة هو العقل، وتلك القوى من شؤونه في الحقيقة تنشأ منه، بل هي تفاصيل ذاته وشروح هويته، وهو أصلها ومتنها، ولولاه لفسدت القوى وانهدم البدن، وكذا: لولا الحجة لساخت الأرض بأهله.

وقول هشام: شيء أخذته منك، كان هشام من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام واقتبس من مشكاة وجودهما علوماً جمة وألف كتباً كثيرة قيمة، وكان ثقة في الروايات حسن التحقيق بهذا الأمر، وكان ممن فتق الكلام في الإمامة وهذب المذهب بالنظر، وكان حاذقاً بصناعة الكلام وكان في مبدأ أمره من الجهميّة ثمّ لقى الصّادق عليه السلام فاستبصر بهديه ولحق به.

وقد أشار إلى هذا الإحتجاج أبو عبد الله عليه السلام في ذيل احتجاجه على أبي شاكر الديصاني في حدوث العالم، ونقله الشيخ المفيد في **«الإرشاد»** قال: روى أن أبا شاكر الديصاني وقف ذات يوم في مجلس أبي عبد الله عليه السلام فقال له: إنّك لأحد النجوم الزواهر وكان آباؤك بدوراً بواهر، وأمهاتك عقيلات عباهر وعنصرك من أكرم العناصر، وإذا ذكر العلماء فعليك تثني الخناصر، خبرنا أيّها البحر الزاخر ما الدليل على حدوث العالم ـ إلى أن قال: فقال أبو شاكر: دلّلت يا أبا عبد الله فأوضحت وقلت فأحسنت وذكرت فأوجزت، وقد علمت أنا لا نقبل إلا ما أدركناه بأبصارنا أو سمعناه بآذاننا أو ذقناه بأفواهنا أو شممناه بأنوفنا

أو لمسناه ببشرتنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ذكرت الحواس الخمس وهي لا تنفع في الاستنباط إلاّ بدليل كما لا تقطع الظلمة بغير مصباح[١].

الحديث الرابع

في «الكافي» بإسناد إلى هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال للزنديق، الذي سأله من أين أثبتّ الأنبياء والرسل؟ قال: أنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم فثبت الآمرون والنّاهون عن الحكيم العليم في خلقه، والمعبّرون عنه جلّ وعزّ وهم الأنبياء وصفوته، من خلقه حكماء مؤدبين في الحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للنّاس على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم[٢] مؤيدون عند الحكيم العليم بالحكمة، ثمّ ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان ممّا أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكيلا تخلو أرض الله من حجّة يكون معه علم، يدلّ على صدق مقالته وجواز عدالته[٣].

أقول: الغرض من هذا الحديث العقلي البرهاني المشتمل على مسائل عظيمة وفوائد مهمّة أن الأرض ما دامت باقية لا تخلو من حجّة يهدى النّاس إلى سبيل الرّشاد والسّداد، ويستنقذ عباد الله من الجهالة وحيرة الضلالة، مبتنياً على مقدمات عقلية وليس الغرض من الإتيان بهذه الأحاديث كما أشرنا إليه آنفاً التمسك بها تعبداً، حتى يلزم الدور بل لما رأينا من أنها احتجاجات على أساس عقلي برهاني أردنا ذكره لانجاز المقصود والإيصال إلى المطلوب، وبالفرض لو لم تكن أمثال هذا الحديث صادرة عنهم عليهم السلام لكان استدلالات تامّة واحتجاجات وافية في المقصود، وهذه الأحاديث وأمثالها معاضدات للعقل في حكمه وإرشادات له في قضائه، ونحن بعون الله نأتي في بيان الحديث بطائفة من المطالب المختارة الحكيمة العقلية ليزداد الطالب بصيرة إلى الفلاح وهداية إلى النجاة والنجاح.

قوله عليه السلام: إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً. فيه إشارة إلى معرفة الله تعالى بالعقل والنظر والبرهان، لا بتقليد الآباء والأمّهات والعلماء والأساتيذ وغيرهم.

قوله عليه السلام: متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق. فإنّ ما سواه تعالى مخلوقه ومعلوله ممكن

(١) الإرشاد، المفيد: ٢/ ٢٠٢، وبحار الأنوار: ٣/ ٣٩ ح ١٣.

(٢) في نسخة: وأفعالهم.

(٣) الكافي: ١/ ١٦٨ ح ١، وبحار الأنوار: ١١/ ٣٠ ح ٢١، وميزان الحكمة: ١/ ١١٧ ح ١٣٨.

في ذاته، ومحتاج في وجوده وبقائه إلى جنابه، فإنّ الممكن في اتصافه بالوجود يحتاج إلى جاعل مرجح يخرجه من العدم ويجعله متصفاً بالوجود، فإن كلّ عرضي معلّل ولما كانت العلة المحوجة إليه تعالى هو الإمكان، وإن الإمكان لا يزول عن الممكن الموجود أيضاً، فمفتقر إلى علته في بقائه وجود العلة فوق وجود المعلول في وجوده وجميع صفاته، ومتعال عن التّجسّم والتعلّق بالمواد والأجسام، المعلول في وجوده وجميع صفاته ومتعال عن التّجسّم والتعلّق بالمواد والأجسام، وعن كلّ حد وصمة يتطرق في معلولاته.

قوله ﷺ: وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً، فإنّ إتقان صنعه في مخلوقه على قدر لائق لكل شيء، والنظام الأكل الأتمّ المشهور في الكون المحير للعقول، والأمور الغريبة الحاصلة في خلق السماوات والأرض والعجائب المودعة في بنية الإنسان والحيوان والنبات، تدلّ على كمال حكمة بارئه، فإنّ الحكمة هو العدل والحق والصواب، والحكيم هو العالم الذي يضع الأشياء مواضعها، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ـ٤]، وبالعدل قامت السماوات والأرض. ثم إن الصانع الحكيم لا يترك النّاس سدى ولا يهملهم فلا بدّ من أن يكون له سفراء في خلقه.

قوله ﷺ: لم يجز أن يشاهده خلقه اه: فإن ما تدركه الأبصار ويباشره الإنسان بالحواس الجسم والجسمانيات أو المتجسم والمتجسد، والمتمثل من المجرّدات وما يقرب منها كالأجنّة وهو عز وجل متعال عن ذلك علواً كبيراً.

قوله ﷺ: ثبت أن له سفراء في خلقه ـ إلى آخره. دليل على وجوب بعثة الأنبياء، وهذا الطريق هو الذي أتى به الحكماء في أسفارهم، في وجوب إرسال الرسل على الله تعالى بل هو أمتن وأدق وأكمل منه.

واعلم أنه ذهب أرباب الملل وأكثر الفلاسفة إلى حسن بعثة الأنبياء خلافاً للبراهمة من الهند، ومن يحذو حذوهم فإنّهم منعوا من حسنها، وقالوا: إنّ ما يجيء به الرّسول إن خالف العقل فهو مردود وإن وافق ففي العقل غنية عنه فلا وجه لحسنها.

وهذا القول باطل، لأنّ العقل لا يدرك جميع ما يصلح له وينفعه ويضره، على البسط والتفصيل بل كثيراً منها على الإجمال والإبهام أيضاً، على أن الفوائد التي ذكرها المتكلّمون والحكماء في حسن بعثة الأنبياء تردّ ما ذهب إليه البراهمة قال المحقق الطوسي في **«تجريد الاعتقاد»**:

البعثة حسنة لاشتمالها على فوائد كمعاضدة العقل فيما يدلّ عليه، واستفادة الحكم فيما لا يدلّ وازاحة الخوف واستفادة الحسن والقبح والمنافع والمضار، وحفظ النوع الإنساني وتكميل أشخاصه بحسب استعداداتهم المختلفة، وتعليمهم الصنائع الخفيّة والأخلاق والسّياسات والأخبار بالعقاب والثّواب فيحصل اللّطف للمكلف.

ثمّ على تقدير حسنها هل هي واجبة في الحكمة، قال العدلية أعني الإماميّة والمعتزلة: نعم، ومنعت الأشاعرة من وجوبها بناء على أصلها الفاسد.

ثمّ تقرير الطريق الذي أتى به الحكماء على الإجمال، هو أن نقول كلما كان صلاح النوع مطلوباً لله تعالى كانت الشريعة واجبة، وكلما كانت الشريعة واجبة، كانت البعثة واجبة فكلما كان صلاح النوع مطلوباً فالبعثة واجبة، وعلى التفصيل ما ذكره زينون الكبير تلميذ ارسطاطاليس في رسالته في المبدأ والمعاد، وما ذكره الشيخ في المقالة العاشرة من إلهيات الشفاء، من الفصل الثّاني إلى الخامس وفي الإشارة الأولى من النمط التّاسع من الإرشادات والتنبيهات، وغيرهم من الحكماء الشامخين في مؤلفاتهم الحكمية، ونأتي بما في الإشارات وشرحه للعلامة الطوسي فإنهما وافيان في المقصود مع جزالة اللّفظ ورزانة النظم قال الشّيخ:

لما لم يكن الإنسان بحيث يستقلّ وحده بأمر نفسه إلا بمشاركة آخر من بني جنسه، وبمعاوضة ومعارضة تجريان بينهما، يفرغ كلّ واحد منهما لصاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لازدحم على الواحد كثير، وكان ممّا يتعسر إن أمكن، وجب أن يكون بين النّاس معاملة وعدل، يحفظه شرع يفرضه شارع متميز باستحقاق الطاعة، لاختصاصه بآيات تدلّ على أنّها من عند ربّه، ووجب أن يكون للمحسن والمسيء جزاء من عنده القدير الخبير فوجب معرفة المجازي، والشارع ومع المعرفة سبب حافظ للمعرفة ففرضت عليهم العبادة المذكورة للمعبود، وكرّرت عليهم ليستحفظ التذكير بالتكرير حتّى استمرت الدعوة إلى العدل المقيم لحياة النوع، ثمّ لمستعمليها بعد النفع العظيم في الدّنيا الأجر الجزيل في الأُخر، ثمّ زيد للعارفين من مستعمليها المنفعة التي خصّوا بها فيما هم مولّون وجوههم شطره، فانظر إلى الحكمة ثمّ إلى الرّحمة والنعمة تلحظ جناباً تبهرك عجائبه ثمّ أقم واستقم.

وقال المحقق الطوسي في شرحه: أثبت النبوّة والشريعة وما يتعلّق بهما على طريقة الحكماء وذلك مبني على قواعد، وتقريرها أن نقول: الإنسان لا يستقل وحده بأمور معاشه، لأنّه يحتاج إلى غذاء ومسكن وسلاح لنفسه ولمن يعوله من أولاده الصغار وغيرهم، وكلّها صناعيّة لا يمكن أن يرتبها صانع واحد، إلا في مدّة لا يمكن أن يعيش تلك المدة فاقداً إياها، أو يتعسر إن أمكن لكنّها تتيسّر لجماعة يتعاونون ويتشاركون في تحصيلها، يفزع كل واحد منهم لصاحبه عن ذلك فيتم بمعارضة وهي أن يعمل كلّ واحد مثل ما يعمله الآخر،

ومعاوضة وهي أن يعطى كلّ واحد صاحبه من عمله بازاء ما يأخذه منه من عمله، فإذن الإنسان بالطبع محتاج في تعيشه إلى الاجتماع مؤدٍ إلى صلاح حاله وهو المراد من قولهم الإنسان مدني بالطبع، والتمدن في اصطلاحهم هو هذا الاجتماع فهذه قاعدة.

ثمّ نقول: واجتماع النّاس على التعاون لا ينتظم إلا إذا كان بينهم معاملة وعدل، لأنّ كلّ واحد يشتهي ما يحتاج إليه ويغضب على من يزاحمه في ذلك، وتدعوه شهوته وغضبه إلى الجور على غيره، فيقع من ذلك الهرج ويختل أمر الاجتماع، أما إذا كان معاملة وعدل متفق عليهما لم يكن كذلك، فإذن لا بد منهما والمعاملة والعدل لا يتناولان الجزئيات الغير المحصورة، إلا إذا كانت لها قوانين كلّية، وهي الشرع فإذن لا بدّ من شريعة، والشريعة في اللّغة مورد الشاربة، وإنّما سمى المعنى المذكور بها لاستواء الجماعة في الإنتفاع منه وهذه قاعدة ثانية.

ثمّ نقول: والشرع لا بدّ له من واضع يقنّن تلك القوانين ويقرّرها على الوجه الذي ينبغي وهو الشّارع، ثمّ إنّ النّاس لو تنازعوا في وضع الشرع لوقع الهرج المحذور منه، فإذن يجب أن يمتاز الشارع منهم باستحقاق الطاعة ليطيعه الباقون في قبول الشريعة. واستحقاق الطاعة إنّما يتقرر بآيات تدلّ على كون تلك الشريعة من عند ربّه، وتلك الآيات هي معجزاته وهي إمّا قولية وإمّا فعلية، والخواصّ للقوليّة أطوع، والعوام للفعلية أطوع. ولا يتم الفعلية مجرّدة عن القوليّة لأنّ النبوّة والإعجاز لا يحصلان من غير دعوة إلى خير، فإذن لا بدّ من شارع هو نبيّ معجزة وهذه قاعدة ثالثة.

ثمّ إنّ العوام وضعفاء العقول يستحقرون اختلال عدل النّافع، في أمور معاشهم بحسب النّوع عند استيلاء الشوق عليهم إلى ما يحتاجون إليه، بحسب الشخص فيقدمون على مخالفة الشرع، وإذا كان للمطيع والعاصي ثواب وعقاب أُخرويان يحملهم الرجاء والخوف على الطاعة وترك المعصية، فالشريعة لا تنتظم بدون ذلك انتظامها به، فإذن وجب أن يكون للمحسن وللمسيء جزاء من عند الإلٰه القدير على مجازاتهم، الخبير بما يبدونه أو يخفونه من أفكارهم وأقوالهم وأفعالهم، ووجب أن يكون معرفة المُجازي والشارع واجبة على الممتثلين للشريعة في الشريعة، والمعرفة العامية قلما تكون يقينيّة، فلا تكون ثابتة فوجب أن يكون معها سبب حافظ لها وهو التذكار المقرون بالتكرار، والمشتمل عليهما إنما تكون عبادة مذكرة للمعبود، مكررة في أوقات متتالية كالصلوات وما يجري مجراها، فإذن يجب أن يكون النبي داعياً إلى التصديق بوجود خالق مدبر خبير، وإلى الإيمان بشارع مبعوث من قبله صادق، وإلى الإعتراف بوعد ووعيد أخرويين، وإلى القيام بعبادات يذكر فيها الخالق بنعوت جلاله، وإلى الإنقياد لقوانين شرعيّة يحتاج إليها النّاس في معاملاتهم، حتى يستمرّ بذلك الدّعوة إلى

العدل المقيم لحياة النّوع وهذه قاعدة رابعة.

ثمّ إنّ جميع ذلك مقدر في العناية الأولى لاحتياج الخلق إليه، فهو موجود في جميع الأوقات والأزمنة، وهو المطلوب وهو نفع لا يتصور نفع أعمّ منه. وقد أُضيف لممثلي الشرع إلى هذا النفع العظيم الدنياوي الأجر الجزيل الأخروي، حسب ما وعده وأُضيف للعارفين منهم إلى النفع العاجل والأجر الآجل، الكمال الحقيقي المذكور، فانظر إلى الحكمة وهي تبقية النظام على هذا الوجه، ثمّ إلى الرّحمة وهو إيفاء الأجر الجزيل بعد النفع العظيم، وإلى النعمة وهي الإبتهاج الحقيقي المضاف إليهما، تلحظ جناب مفيض هذه الخيرات جناباً تبهرك عجائبه، أي تغلبك وتدهشك. ثمّ أقم أي أقم الشرع، واستقم أي في التوجه إلى ذلك الجناب المقدس.

وإذا علم ذلك فلنرجع إلى بيان سائر فقرات الحديث، قوله عليه السلام: يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده. قال الجوهري في «**الصّحاح**»: عبّرت عن فلان إذا تكلمت عنه[(١)]، والمراد أن الأصل الأوّل فيما يسنّه هذا السانّ المعدّل الإلٰهي هو إيقاظ فطرة النّاس، من نوم الغفلة عن مبدء العالم عزّ وجلّ وإنارة عقولهم من أنوار المعرفة به تعالى، وإثارة نفوسهم إلى الوصول ببابه والحضور إلى جنابه، فإن الإيمان بالله أصل شجرة الدّين، وأساس بنيان السنة والشريعة، وسائر الأصول والفروع متفرع عليه، فمن عرف الله حقّ معرفته عرف أن له صفات علياً وأسماء حسنى لائقة بذاته، وأنّه تعالى واجب الوجود لا يشارك شيئاً من الأشياء في ماهيته، وقيوم بريء عن جميع أنحاء التعلق بالغير وأنّه تعالى لم يخلق العالم وآدم عبثاً، فإنّ العبث قبيح لا يتعاطاه المبدأ الحكيم، والمبدأ الحكيم تعالى عن أن يترك النّاس حيارى، ولا يهديهم سبيل الخير والهدى وما يوجب لهم عنده الزلفى، فلا بد من وجوب التكليف في الحكمة وإلاّ فكان مغرياً بالقبيح، تعالى عن ذلك لأنّه خلق في العبد الشهوة والميل إلى القبائح والنفرة والتأبي عن الحسن، فلو لم يقرر عبده عقله ولم يكلّفه بوجوب الواجب وقبح القبيح ويعده ويتوعد، لكان مغرياً له بالقبيح والاغراء بالقبيح قبيح، والتكليف لا يتم إلاّ بالإعلام، وهو لا يتم إلا بإرسال الرّسل المؤدبين بآدابه المؤيدين من عنده، بأمور قدسيّة وكرامات إلهية ومعجزات وخوارق عادات.

وبالجملة من هدى عقله إلى جناب الرّب، هدي إلى ما يتفرع عليه، فقد أفلح وسعد وفاز، ولذا ترى من سنة الأنبياء أن أوّل ما لقنوا عباد الله كلمة لا إلٰه إلاّ الله، والمروي عن خاتمهم صلى الله عليه وآله قولوا: لا إلٰه إلاّ الله تفلحوا[(٢)].

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ٣٠ ح ٢١، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٠٠٥ ح ١.

(٢) ميزان الحكمة: ٤/ ٣٢٢٨، والبداية والنهاية: ٥/ ١٠٠.

نعم لا يجب على السانّ تلقين جميع النّاس معرفته تعالى، على الوجه الذي لا يفهمه إلاّ الأوحدى من النّاس، الحكيم المتأله المرتاض في الفنون والعلوم، فإن معاشر الأنبياء بعثوا ليكلموا النّاس على قدر عقولهم، ولا ريب أن الادراكات والنيل إلى المعارف والعلوم يتفاوت بحسب مراتب النّاس في صفاء نفوسهم وصقالتها قال الشيخ في إلهيات **«الشفاء»**:

ويكون الأصل الأوّل فيما يسنه تعريفه إيّاهم أن لهم صانعاً واحداً قادراً وأنّه عالم بالسرّ والعلانية، وأنّه من حقّه أن يطاع أمره فإنّه يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق، وأنه قد أعدّ لمن أطاعه المعاد المسعد ولمن عصاه المعاد المشقي، حتّى يتلقى الجمهور رسمه المنزل على لسانه من الإله والملائكة بالسمع والطاعة، ولا ينبغي له أن يشغلهم بشيء من معرفة الله فوق معرفة أنّه واحد حق لا شبيه له. فأمّا أن يعدي بهم إلى أن يكلفهم أن يصدّقوا بوجوده وهو غير مشار إليه في مكان، ولا منقسم بالقول ولا خارج العالم ولا داخله ولا شيء من هذا الجنس، فقد عظم عليهم الشغل وشوش فيما بين أيديهم الدّين وأوقعهم فيما لا تخلص عنه، إلاّ لمن كان المعان الموفق الذي يشذ وجوده ويندر كونه، فإنّه لا يمكنهم أن يتصوروا هذه الأحوال على وجهها إلاّ بكدّ، وإنّما يمكن القليل منهم أن يتصوروا حقيقة هذا التوحيد والتنزيه، فلا يلبثوا أن يكذبوا بمثل هذا الموجود ويقعوا في تنازع، وينصرفوا إلى المباحثات والمقايسات بمثل التي تصدّهم عن أعمالهم المدنية، وربما أوقعهم في آراء مخالفة لصلاح المدنية ومنافية لواجب الحق، وكثرت فيهم الشكوك والشبه وصعب الأمر على السانّ في ضبطهم، فما كل بميسّر له في الحكمة الإلهيّة ولا السانّ يصلح له أن يظهر أن عنده حقيقة يكتمها عن العامّة، بل يجب أن لا يرخص في تعرض شيء من ذلك. بل يجب أن يعرفهم جلال الله تعالى وعظمته برموز وأمثلة من الأشياء التي هي عندهم جليلة وعظيمة، ويلقى إليهم مع هذا هذا القدر أعني أنّه لا نظير له ولا شريك له ولا شبيه.

وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد، على وجه يتصورون كيفيته، ويسكن إليه نفوسهم، ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالاً ممّا يفهمونه ويتصورونه. وأمّا الحق في ذلك فلم يلوح لهم منه إلا أمراً مجملاً، وهو أن ذلك شيء لا عين رأت ولا أذن سمعته، وأن هناك من اللّذة ما هو ملك عظيم ومن الألم ما هو عذاب مقيم.

وكذا قال زينون الكبير تلميذ أرسطاطاليس في رسالته في المبدأ والمعاد: النبيّ يضع السنن والشرائع ويأخذ الأمة بالترغيب والترهيب، يعرّفهم أن لهم إلهاً مجازياً لهم على أفعالهم يثيب الخير ويعاقب على الشر، ولا يكلّفهم بعلم ما لا يحتملونه، فإن هذه الرتبة هي رتبة العلم أعلى من أن يصل إليها كلّ أحد. ثمّ قال: قال معلمي ارسطاطاليس حكاية عن معلمه افلاطن: إن شاهق المعرفة أشمخ من أن يطير إليه كلّ طائر، وسرادق البصيرة أحجب

من أن يحوم حوله كلّ سائر.

أقول: وكأن الشيخ الرّئيس قد لاحظ عبارة زينون فيما قاله في آخر النمط التاسع من الإشارات: جل جناب الحقّ عن أن يكون شريعة لكل وارد أو يطّلع عليه إلاّ واحداً بعد واحد.

قوله عليه السلام: ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم ذلك لما مرّ آنفاً من أن الإنسان مدنيّ بالطبع محتاج في تعيشه وبقائه إلى اجتماع، فلا بد لهم من سانّ معدّل يدبّر أمورهم ويعلّمهم طريق المعيشة في الدّنيا والنجاة من العذاب في العقبى، ولولا هذا السانّ لوقع الهرج واختل أمر الاجتماع ولزم مفاسد كثيرة أُخرى. ذكر بعضها من قبل، ونعم ما قال الشيخ في «**الشفاء**»: فالحاجة إلى هذا الإنسان في أن يبقي نوع الناس، ويتحصّل وجوده أشدّ من الحاجة إلى انبات الشعر على الأشفار على الحاجبين، وتقعير الأخمص من القدمين وأشياء أُخرى من المنافع التي لا ضرورة فيها في البقاء، بل أكثر ما لها أنّها ينفع في البقاء، ووجود الإنسان الصالح لأن يسنّ ويعدل ممكن، فلا يجوز أن تكون العناية الأُولى تقتضي تلك المنافع، ولا تقتضي هذه التي هي أُسّها، ولا أن يكون المبدأ الأوّل والملائكة بعده يعلم ذلك ولا يعلم هذا، ولا أن يكون ما يعلمه في نظام الخير الممكن وجوده الضروري حصوله، لتمهيد نظام الخير ولا يوجد بل كيف يجوز أن يوجد، وما هو متعلق بوجوده مبني على وجوده موجود فواجب إذن أن يوجد نبيّ.

ثمّ إنّ في قوله عليه السلام: يدلونهم على مصالحهم، إشارة إلى ما ذهب إليه العدلية من أنّ الأحكام الإلٰهية متفرعة على مصالح ومفاسد لا كما مال إليه الأشعري.

قوله عليه السلام: فثبتت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبّرون عنه جلّ وعزّ. هذه نتيجة ما قدّم عليه السلام من المقدمات البرهانية العقلية المستحكمة المباني: الأُولى أن لنا صانعاً، والثّانية أنّه متعال عن أوصاف مخلوقه. فلم يجز أن يشاهده خلقه ويباشروه فلا بد من وسائط، الثالثة أنّه حكيم عالم بوجوه الخير والمنفعة في النّظام وسبيل المصلحة للخلائق في المعيشة والقوام والبقاء والدوام والحكيم لا يخلّ بالواجب، الرابعة أن الإنسان مدني بالطبع فلا بدّ له من سانّ معدل.

قوله عليه السلام: هم الأنبياء وصفوته من خلقه إلى قوله: ثمّ ثبت. بيّن عليه السلام في هذه الفقرات أمرين: الأوّل أنّ النبيّ لا بد أن يكون بشراً حيث قال: على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب. الثّاني أنه مع البشريّة يجب أن يكون متميزاً من سائر النّاس بأوصاف قدسية خلقاً وخلقاً حيث قال: غير مشاركين للنّاس في شيء من أحوالهم.

أمّا الأوّل أعني كونه من جنس البشر فلوجوه: الأوّل أنس النّاس به فإن الجنس إلى الجنس يميل، ولنعم ما نظم العارف الرومي في المقام:

يك زنى آمد به پيش مرتضى — گفت شد بر نا ودان طفلى مرا
گرش ميخوانم نمى آيد بدست — ورهلم ترسم كه او افتد به پست
نيست عاقل تاكه دريابد چوما — گر بگويم كزخطر پيش من آ
هم اشارات را نميداند بدست — وربداند نشنود اين هم بدا ست
بس نمودم شير پستان را بدو — او همى گرداند ازمن چشم ورو
از براى حق شمايد اي مهان — دستگير اين جهان وآن جهان
زود درمان كن كه ميلرزد دلم — كه بدرد از ميوه دل بگسلم
گفت طفلى را برآور هم ببام — تا به بيند جنس خودرا آن غلام
سوى جنس آيدسبك زان ناودان — جنس برجنس است عاشق جاودان
زن چنان كردو چوديد آنطفل او — جنس خود خوش خوش بدو آوردرو
سوى بام آمد زمتن ناودان — جاذب هر جنس را همجنس دان
غژغژان آمد بسوى طفل طفل — وارهيد از او فتادن سوى سفل
زان شد ستند از بشر پيغمبران — تا بجنسيّت رهند از ناودان
پس بشر فرمود خودرا مثلكم — تا بجنس آيند وكم گردندگم
زانكه جنسيت بغايت جاذبست — جاذبش جنس است هرجاطا لبس

والوجه الثاني: النّاس في حالتهم العادية لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته التي خلق عليها، لأنه روحاني الذات والقوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك، بل الجن ما لم يتجسما ويتمثلا بالأجسام الكثيفة والأمثال المرئية وإن كانا يرانا، كما قال تعالى في الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الاعراف: ٢٧] بل أبصارنا لا تقوى على رؤية بعض الأجسام من عالمنا هذا أيضاً كالهواء، والعناصر البسيطة التي يتألف منها الهواء فكيف تقدر على رؤية ما هو ألطف من الهواء كالجنّ، وما هو ألطف من الجن كالملك وما هو ألطف منه.

ثمّ لو فرض أن يتمثل الملك أو يتجسد أو يتجسّم بحيث عاينه النّاس لكان في صورة البشر أيضاً للوجهين المتقدّمين قال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الانعام: ٩]. ولذلك كان جبرئيل عليه السلام يأتي النّبي صلى الله عليه وآله في صورة دحية الكلبي. والملائكة الذين دخلوا على إبراهيم في صورة الضيفان حتى قدم إليه عجلاً

جسداً، وكذلك الذين أتوا لوطاً، وكذلك لما تسوّر المحراب على داود الملكان كانا في صورة رجلين يختصمان إليه، وجبرئيل تمثل لمريم بشراً سوياً، نعم يمكن للأنبياء أن يروا بقوتهم القدسيّة الملائكة وأشباههم على صورتهم الأصلية، كما جاءت عدّة روايات أن خاتمهم ﷺ رأى جبرئيل على صورته الأصليّة مرّتين وسيأتي الكلام في ذلك في خواص الأنبياء.

والوجه الثالث: النبي لو كان ملكاً وإن تجسم بشراً لما يتم الحجة على النّاس، ولا يسلمه العقول ولاتنقاده النفوس، لأنه إن ظهرت أية معجزة منه لقالوا: لو كان لنا مثل ما كان لك من القدرة والقوة والعلم، وغيرها من الصفات القاهرة على صفات البشر لفعلنا مثل فعلك، فتقوى الشبهات من هذه الجهة، وبذلك علم ضعف ما تخيّل ضعفاء العقول من النّاس، أنّ الأنبياء إذا كانوا من طائفة الملائكة من حيث إن علومهم أكثر وقدرتهم أشدّ ومهابتهم أعظم، وامتيازهم عن الخلق أكمل والشبهات والشكوك في نبوّتهم ورسالتهم أقل، والحكيم إذا أراد تحصيل مهم فكلّ شيء كان أشدّ إفضاءً إلى تحصيل ذلك المطلوب كان أولى.

وهذه الوجوه الثلاثة ما أجاب بها رسول الله ﷺ مشركي قريش، لمّا جادلوه واحتجوا عليه بقولهم: لو كنت نبيّاً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده، ولو أراد الله أن يبعث إلينا نبيّاً لكان إنّما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا، كما هو المروي في «**الإحتجاج**» للطبرسي رضوان الله عليه «**والبحار**» وكثير من كتب الحديث: إنّ رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بمكّة بفناء الكعبة، إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش منهم الوليد بن المغيرة المخزومي وأبو البختري بن هشام وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل السهمي، وعبد الله بن أبي أميّة المخزومي، وكان معهم جمع ممّن يليهم كثير ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه يقرأ عليهم كتاب الله ويؤدي إليهم عن الله أمره ونهيه، فقال: المشركون بعضهم لبعض: لقد استفحل أمر محمّد وعظم خطبه فتعالوا نبدأ بتقريعه وتبكيته وتوبيخه والإحتجاج عليه وإبطال ما جاء به، ليهون خطبه على أصحابه ويصغر قدره عندهم، فلعلّه ينزع عمّا هو فيه من غيّه وباطله وتمرّده وطغيانه، فإن انتهى وإلاّ عاملنا بالسيف الباتر.

قال أبو جهل: فمن الذي يلي كلامه ومجادلته؟ قال عبد الله بن أبي أميّة المخزومي: أنا إلى ذلك، أفما ترضاني له قرنا حسيباً ومجادلاً كفيّاً؟ قال أبو جهل: بلى. فأتوه بأجمعهم فابتدأ عبد الله بن أبي أميّة المخزومي فقال:

يا محمد لقد ادعيت دعوى عظيمة وقلت مقالا هائلاً، زعمت أنّك رسول الله ربّ العالمين، وما ينبغي لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين، أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا،

تأكل ممّا نأكل وتمشي في الأسواق كما نمشي ـ وساق الحديث إلى أن قال ـ قال المخزومي: ولو كنت نبيّاً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبيّاً لكان إنّما يبعث إلينا ملكاً، لا بشراً مثلنا ما أنت يا محمّد إلاّ مسحوراً ولست نبيّاً ـ وساق الحديث إلى أن قال:

ثمّ قال رسول الله ﷺ: وأمّا قولك: «ولو كنت نبيّاً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده، بل لو أراد أن يبعث إلينا لكان إنّما يبعث لنا ملكاً لا بشراً مثلنا» والملك لا تشاهده حواسكم، لأنه من جنس هذا الهواء لاعيان منه ولو شاهدتموه، بأن يزاد في قوى أبصاركم لقلتم ليس هذا ملكاً بل هذا بشر، لأنه إنّما كان يظهر لكم بصورة البشر الذي قد ألفتموه، لتفهموا عنه مقالته وتعرفوا خطابه ومراده، فكيف كنتم تعلمون صدق الملك وأنّ ما يقوله حق؟ بل إنّما بعث الله بشراً وأظهر على يده المعجزات، التي ليست في طبائع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم، فتعلمون بعجزكم عما جاء به أنّه معجزة، وأن ذلك شهادة من الله بالصدق له، ولو ظهر لكم ملك وظهر على يده ما تعجز عنه البشر، لم يكن في ذلك ما يدلكم أن ذلك لكم، ليس في طبائع سائر أجناس الملائكة حتّى يصير ذلك معجزاً، ألا ترون أنّ الطيور التي تطير ليس ذلك منها بمعجزة، لأن لها أجناساً تقع منها مثل طيرانها ولو أنّ آدميّاً طار كطيرانها كان ذلك معجزاً، فالله عزّ وجلّ سهّل عليكم الأمر وجعله بحيث يقوم عليكم حجّته وأنتم تقترحون عمل الصّعب الذي لا حجّة فيه.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: وأمّا قولك: «ما أنت إلاّ رجل مسحور» فكيف أكون كذلك وقد تعلمون أنّه في صحة التميز والعقل فوقكم، فهل جرّبتم عليّ منذ نشأت إلى أن استكملت أربعين سنة خزية أو زلّة أو كذبة أو خيانة أو خطأً من القول أو سفهاً من الرأي، أتظنّون أن رجلاً يعتصم طول هذه المدّة بحول نفسه وقوّتها أو بحول الله وقوّته ـ إلى آخر الحديث بطوله[1].

أمّا الأمر الثّاني أعني أنّ النبيّ مع البشريّة، يجب أن يكون متميزاً عن سائر النّاس، بأوصاف قدسيّة، فأشار ﷺ إليها بقوله: أنّ الأنبياء صفوته من خلقه أوّلاً، وأنّهم حكماء مؤدّبين في الحكمة ثانياً، ومبعوثين بها ثالثاً، وغير مشاركين للنّاس على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم رابعاً، مؤيدون عند الحكيم العليم بالحكمة خامساً. وهذه أُمور لا بدّ للنّاظر من البحث عنها والنيل إلى حقيقة مغزاها.

واعلم أنّ الأنبياء لكونهم سفراء له تعالى إلى خلقه، وأمناؤه على وحيه وخلفاؤه لا بدّ

(١) الاحتجاج: ١/٣١، وبحار الأنوار: ٩/٢٧٣.

من أن يكونوا متصفين بالأوصاف القدسيّة الإلٰهيّة، ومتخلّقين بالأخلاق الرّبوبيّة، فإنّ الخليفة لا بدّ وأن يكون موصوفاً بصفات المستخلف، حتّى يتحقق له اسم الخلافة، والعناية الأزليّة تأبى بعث من لم يكن كذلك، لبعده عن الإتصاف بصفات الحق والإتصال بحضرة القدس. وقد قال الحكماء ومنهم الشيّخ في «الشفاء»، أنّ النّفس النّاطقة كمالها الخاصّ بها أن يصير عالماً عقلياً مرتسماً فيها صور الكلّ والنّظام المعقول، في الكلّ، والخير الفائض في الكل، وأفضل النّاس من استكملت نفسه عقلاً بالفعل محصلاً وللأخلاق التي تكون فضائل عمليّة، وأفضل هؤلاء هو المستعدّ لمرتبة النبوّة، وهو الذي في قواه النّفسانيّة خصائل ثلاث: أن يعلم جميع المعلومات أو أكثرها من عند الله، وأن يطيعه مادة الكائنات بإذن الله، وأن يسمع كلام الله ويرى ملائكة الله.

أمّا العلم بجميع المعلومات والإطلاع على الأمور الغائبة من غير كسب وفكر، فيحصل من صفاء جوهر النفس وشدّة صقالتها ونورانيتها الموصل لها إلى المبادىء العالية وشدة الإتّصال بها.

وأمّا إطاعة مادّة الكائنات فبسبب شدّة انسلاخهم عن النواسيت الإنسانيّة، تدوم عليهم الإشراقات العلويّة بسبب الاستضاءة بضوء القدس والإلف بسنا المجد فتطيعهم المادة العنصريّة القابلة للصور المفارقة فيتأثر المواد عن أنفسهم كما يتأثر أبدانهم عنها، فلهذا يكون دعاؤهم مسموعاً في العالم الأعلى، والقضاء السابق ويتمكن في أنفسهم نور خلاّق به يقدرون على بعض الأشياء التي يعجز عنها غيرهم. قال الله تعالى في عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأما الخصلة الثالثة فلأنّ الأنبياء لهم نفوس مقدسّة، قلّت شواغلها عن الحواس الظاهرة، فتخلّصت بذلك عن المادّة الجسمانيّة، فلم يكن بينها وبين الأنوار حجب ولا شواغل لأنّها من لوازم المادّة، فإذا تخلّصت النّفس عن تعلقاتها كانت مشاهدة للأنوار والمفارقات البريئة عن الشوائب الماديّة واللّواحق الغريبة، ولذا يكونوا مشاهدين للملائكة على صورهم بقوتهم القدسية، سامعين لكلامهم، قابلين لكلام الله تعالى بطريق الوحي، ومعلوم أنّ المادّة التي تقبل هذه الخصائل والكمالات تقع في قليل من الأمزجة، ولذا قال عليه السلام: إنّ الأنبياء وصفوته من خلقه، فمزاجهم أعدل الأمزجة الإنسانية، ونفسهم الفائضة من الأوّل تعالى ألطف وأشدّ وأقوى وأوسع وجوداً من غيرها، فهم غير مشاركين للنّاس على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم، وقوله عليه السلام: في شيء من

أحوالهم، تتعلّق بقوله غير مشاركين للنّاس.

واعلم أنّ الله جعل المزاج الإنساني أعدل الأمزجة، لتستوكره نفسه الناطقة التي هي أشرف النّفوس، ولا بدّ أن يكون وكرها لائقاً لها، وقال المعلّم الثّاني أو نصر الفارابي في المختصر الموسوم بعيون المسائل كما نقله عنه المحقّق الطوسي في آخر النّمط الثاني من شرحه على الإشارات: حكمة الباري تعالى في الغاية، لأنّه خلق الأصول **(يعني بها العناصر)** وأظهر منها الأمزجة المختلفة، وخص كل مزاج بنوع من الأنواع، وجعل كلّ مزاج كان أبعد عن الإعتدال سبب كلّ نوع، كان أبعد عن الكمال، وجعل النّوع الأقرب من الإعتدال مزاج البشر حتّى يصلح لقبول النّفس النّاطقة انتهى.

وكما أنّ النفس الناطقة مميّزة عن سائر النفوس بآثار وأفعال تخصّ بها، ولا بد أن يكون مزاجها المتعلق بها أعدل من غيره كذلك الأنبياء الذين غير مشاركين للنّاس، على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم وأفعالهم، لا بدّ من أن يكون مزاجهم أعدل الأمزجة الإنسانيّة اللائق بنفوسهم القدسية.

ولمّا كان الأنبياء عليهم السلام بعضهم أفضل من بعض كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فلا بدّ من أن يكونوا متفاوتين في اعتدال المزاج وصفاء النّفس النّاطقة القدسية وسعتها الوجوديّة، وكذا الكلام في خاتمهم الذي هو أكمل موجود في النّوع الإنساني وأوتي جوامع الكلم التي هي أمّهات الحقائق الإلٰهيّة والكونيّة، ولذا كان الرّوح المحمّدي ﷺ أوّل دليل على ربّه، لأنّ الربّ لا يظهر إلاّ بمربوه ومظهره وكمالات الذات بأجمعها إنّما تظهر بوجوده الأكمل. والمروي عنه ﷺ: والله لو كان موسى حيّاً بين أظهركم ما حلّ له إلاّ أن يتبعني[1].

قوله عليه السلام: حكماء مؤدّبين في الحكمة، أي أدّبهم الله تعالى في الحكمة، يقال: أدّبه إذا هذّبه وراض أخلاقه، وأدّبه في أمر إذا علّمه وراضه حتّى تأدّب فيه، وفي **«الجامع الصّغير»** في أحاديث البشير النذير نقلاً عن ابن عدي في **«الكامل»** عن ابن مسعود أنّه ﷺ قال: أدبني ربّي فأحسن تأديبي[2].

ومن حيث أنّهم عليهم السلام حكماء مؤدّبين في الحكمة والحكمة هو العدل والوسط في كلّ أمر، فهم على الجادة الوسطى، التي ليست النّجاة إلاّ بالاستقامة فيها، فمن اقتدى بهم واقتفى آثارهم فقد هدى إلى الصّراط المستقيم، فإنّ الحجج الإلٰهيّة في الحقيقة موازين للنّاس

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٨٦، وفتح القدير: ٤/ ٢٠٦.

(٢) بحار الانوار: ١٦/ ٢١٠، وسنن النبي: ١١.

ونبيّ كلّ أمّة هو ميزان تلك الأُمة لأن ميزان كلّ شيء بحسبه هو المعيار الذي يعرف به قدره، وحدّه وصحته وسقمه وزيادته ونقصانه واستواؤه، فقد يكون ذلك الشيء من الأجسام، فميزانه ما وضع من جنسه من الأحجار وغيرها، كالمّد والمنّ والمكاييل والزرع وغيرها لتعيين وزن ذلك الشيء وتقديره، وقد يكون ذلك الشيء من الكلمات فيوزن صحتها واعتلالها بميزانه الذي هو الفاء والعين واللام، كما بيّن في علم الصرف. وعلم المنطق يكون ميزاناً لتمييز النتيجة الصحيحة من السقيمة، وعلم العروض ميزاناً للأشعار، وميزان النّاس ما يوزن به قدر كل امرء وقيمته على حسب أعماله، وأخلاقه وعقائده وصفاته، وحيث أنّ الأنبياء بعثوا على الحق ولا يميلون عن العدل مقدار قطمير، ولا يصدر منهم سهو ولا نسيان، فهم معيار الحق وميزان الصّدق وفيصل الأُمور، فمن تأسّى بهم وحذا حذوهم فقد فاز فوزاً عظيماً وإلاّ فقد خسر خسراناً مبيناً.

وبما ذكرنا علم ما في «**الكافي**» عن الإمام الصادق عليه السلام من أنّه سئل عن قول الله ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؟ قال: هم الأنبياء والأوصياء.

وكذا في رواية أُخرى عنه عليه السلام: نحن الموازين القسط[1].

قوله عليه السلام: مؤيدون عند الحكيم العليم بالحكمة، أي كما أنّهم مؤدّبون في الحكمة كذلك مؤيّدون بالحكمة من عنده تعالى، تدلّ على صدق مقالته وجواز عدالته، ليميز الخبيث من الطيب والحق من الباطل فلو لم يكونوا مؤيّدين بها من عنده تعالى بالحكمة أعني بالبينات والمعجزات القولية والفعلية لما يفصل بين النبيّ والمتنبّي، قال عزّ من قائل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قوله عليه السلام: ثمّ ثبت ذلك ـ إلى آخره لما هدينا العقل بتلك المقدمات إلى هذا المطلب الأسنى، فدلّ أن الأرض لا تخلو في كلّ دهر وزمان من لدن خلق البشر إلى قيام القيامة، من حجّة الهيّة، ودريت أن الخليفة في الأوّل قبل الخليقة، وفي الأخر بعدها لئلا يحتجّ أحد على الله تعالى أنّه تركه بغير حجّة لله عليه.

الحديث الخامس

في «**الكافي**» بإسناده إلى منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الله أجلّ وأكرم من أن يعرف بخلقه بل الخلق يعرفون بالله قال: صدقت قلت: إنّ من عرف أن له ربّاً فقد ينبغي له أن يعرف أن لذلك الربّ رضاً وسخطاً، وأنّه لا يعرف رضاه وسخطه إلاّ بوحي

(١) بحار الأنوار: ٧/ ٢٤٣، والتفسير الصافي: ٢/ ١٨٢.

أو رسول، فمن لم يأته الوحي فينبغي له أن يطلب الرسل فإذا لقيهم عرف أنّهم الحجّة وأنّ لهم الطاعة المفترضة، فقلت للنّاس: أليس تعلمون أن رسول الله ﷺ كان هو الحجة من الله على خلقه؟ قالوا: بلى، قلت: فحين مضى ﷺ من كان الحجة؟ قالوا: القرآن فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجىء والقدري والزنديق الذي لا يؤمن به حتّى يغلب الرّجال بخصومته، فعرفت أن القرآن لا يكون حجّة إلا بقيم، فما قال فيه من شيء كان حقّا فقلت لهم: من قيّم القرآن؟ فقالوا: ابن مسعود قد كان يعلم وعمر يعلم وحذيفة يعلم، قلت: كلّه؟ قالوا: لا، فلم أجد أحداً يقال: أنّه يعرف القرآن كلّه إلاّ علياً ﷺ وإذا كان الشيء بين القوم فقال هذا: لا أدري وقال هذا: لا أدري وقال هذا: لا أدري وقال هذا: أنا أدري فأشهد أن علياً كان قيّم القرآن، وكانت طاعته مفروضة وكان الحجّة على النّاس بعد رسول الله، وأنّ ما قال في القرآن وكانت طاعته مفروضة وكان الحجّة على النّاس بعد رسول الله، وأنّ ما قال في القرآن فهو حق فقال: رحمك الله ـ إلى آخر الحديث[1].

بيان

هذا الحديث مشتمل على مطالب عقليّة مهّدت للزوم الحجّة على النّاس، ما دامت الأرض باقية، يأمرهم بالخير والصلاح ويهديهم إلى سبيل الرشاد، ولا بد أن يكون معه علم بالله وآياته. وتلك المطالب رتبت على أسلوب بديع وأساس متين: الأوّل أن الله أجل وأكرم من أن يعرف بخلقه بل الخلق يعرفون بالله وما أحسن هذا القول وأحلاه ويعلم منه أن منصور بن حازم كان حازماً حاذقاً في أصول العقائد.

وغرضه من ذلك إما أن معرفة الله تعالى فطري غريزي فطرة الله التي فطر الناس عليها، والعقل وحده كاف في معرفته عزّ وجل وهو القائد إلى جنابه وأُصول صفاته، فلا يحتاج الإنسان في معرفته تعالى إلى خلقه بما أعطاه من العقل يسلكه إلى الصراط المستقيم، قال عزّ من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ فهو تعالى أجل وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل يعرف بالعقل الذي أعطاه خلقه.

وإمّا أنّ الله جل جلاله هو الغني القائم بالذات واجب الوجود في ذاته وصفاته وما سواه ممكن مفتقر إليه ومستند به تعالى، ظاهر بظهوره وموجود بوجوده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وهو تعالى لارتفاع مكانه وجلال كبريائه وشدّة وجوده وبساطته أجل من أن يعرف بخلقه، على أنّه تعالى لا حدّ عليه ولا ضدّ ولا ندّ حتّى يعرف بها، بل هو سبب كلّ شيء وعلته فهو الأوّل عند أولي الأبصار، فإن أوّل ما

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ١٧ ح ١٣، والوافية: ١٤٣.

يعرف من عرفان كلّ شيء هو الله تعالى، قال سيد الموحدين عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: ما عرفت شيئاً إلاّ وقد عرفت الله قبله وقال عليه السلام: اعرفوا الله بالله.

ومن كلام مولانا سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك.

وقال أيضاً: تعرفت لكلّ شيء فما جهلك شيء، وقال: تعرفت إليّ في كلّ شيء فرأيتك ظاهراً في كلّ شيء فأنت الظاهر لكلّ شيء[1].

فهو تعالى أجل وأكرم من أن يعرف ذاته من جهة خلقه، بل لا يعرف غيره على الحقيقة إلاّ به.

وإما أنّه تعالى أجل وأكرم من أن يدرك عامة النّاس لطائف صنعه ودقائق حكمته ومصلحته في فعله وقوله، بل الخلق يعرفونها بالله تعالى أي بإرساله الرسل وإنزاله الكتب، والظاهر أن خير الوجوه أوسطها.

والمطلب الثاني: أن من عرف أن له ربّا عرف أن لذلك الربّ صفات قدوسية متعالية لائقة بجنابه، فلمّا عرف ذلك بنور العقل السليم والعقل السّليم يشتاق التقرب إلى جنابه، ويطلب ما يوصله ببابه، لأنّ الإنسان جبّل على النيل إلى السعادة والميل عن الشقاوة، سيّما السعادة الدائمة الأبديّة التي لا تحصل إلاّ بالتخلّق بأخلاق الله والاتّصاف بصفاته العليا، وليس كل طريق وفعل وقول بمقرب النّاس إليه تعالى بالضرورة، فيحتاج إلى هاد يهديه سبل الخير وما فيه رضوانه تعالى وما فيه سخطه، ولا يتأتى ذلك إلاّ بالوحي، ولا يوحى إلى كل واحد من آحاد النّاس لعدم قابلية كلّ واحد لذلك، فإنّ للنبوّة صفات خاصّة لا يتحملها إلاّ الأوحدي من النّاس، المؤيد من عند الله تبارك وتعالى كما حقق في محلّه، فالعقل السليم يطلب من الله تعالى إرسال الرسل، فلولا البعثة لكان الله تعالى ظالماً لعباده، فإذا أوحى الله تعالى ما فيه خير البرية وسعادته وما يوجب رضوانه تعالى وسخطه إلى رسول بالبراهين والمعجزات والبيّنات فيأخذ النّاس معالم دينه ومعارف شريعته من الرسول، قال عزّ من قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

المطلب الثالث: أنّ الحجّة على النّاس بعد خاتم النبيّين من هو؟ وهذا المطلب في

---

(١) بحار الأنوار: ٦٤/١٤٢، وميزان الحكمة: ٣/١٩٠٧.
(٢) بحار الأنوار: ٦٤/١٤٢، وميزان الحكمة: ٣/١٩٠٧.

المقام هو الأهمّ لأنّ المسلمين اتفقوا في وجود من يكون حافظاً للشرع من الزيادة والنقصان وللأمة من الظلم والطغيان، كما علم على ما بيّناه في المباحث السالفة وإنّما الكلام في ذلك الحجّة بعد النّبيّ ﷺ وهو إما الكتاب أو السنّة المتواترة أو الخبر الواحد أو الإجماع أو القياس أو البراءة الأصليّة أو الاستصحاب أو العالم القائم مقام النّبيّ، والأخير أيضاً على وجهين: إما العالم مطلقاً أو العالم المعصوم من الذنوب، المنزه من العيوب، المنصوب من عند علام الغيوب، المؤيد بتأييدات سماوية، المهدي بهداية إلهيّة، وهذه وجوه محتملة في المقام لا بدّ للبصير الناقد أن ينظر فيها ويبحث عنها.

فنقول: أمّا الكتاب فهو كما قال منصور بن حازم يخاصم به المرجىء والقدري والزنديق الذي لا يؤمن به، حتّى يغلب الرجال بخصومته فالقرآن لا يكون حجّة إلاّ بقيّم.

ونزيدك بياناً في المقام حتّى يتبيّن الحق فنقول: لا ريب أن الله تعالى في كل واقعة وفي كلّ ما يحتاج إليه النّاس في معاشهم ومعادهم حكماً، وهي أمور غير متناهية وكذا لا ريب أنّ الله تعالى نزل القرآن تبياناً لكلّ شيء كما نص به عزّ من قائل في سورة النحل آية ٨٩: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وفي الأنعام آية ٣٨: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾. وفي ذلك روى ثقة الإسلام الكلينيّ قدّس سرّه، في أصول **«الكافي»** بإسناده عن مرازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله تعالى أنزل في القرآن تبيان كلّ شيء، حتّى والله ما نزل الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتّى لا يستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل في القرآن إلاّ وقد أنزله الله فيه»[1].

وفيه أيضاً بإسناده إلى عمرو بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «أنّ الله تعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمّة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله ﷺ وجعل لكلّ شيء حدّاً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه وجعل على من تعدّى ذلك الحدّ حدّاً»[2]. وكذا غيرهما من الأخبار الأخرى في ذلك الباب.

وكذا لا ريب أنّ القرآن لم يبيّن تلك الفروع والأحكام الجزئية وكلّ ما يحتاج إليه النّاس في أمورهم الدينية والدّنيوية على التفصيل والبسط، وهذا لا ينافي قوله عزّ وجلّ في الآيتين المذكورتين لأنّ الكتاب مشتمل على أصول كلّية، يستنبط منها الأحكام الجزئيّة والقوانين الإلٰهيّة من كان عارفاً بها حقّ المعرفة، فلنقدّم لك مثالاً في ذلك توضيحاً للمراد.

---

(١) المعالم الجديدة للأصول: ٤٠ ح ١، وبحار الأنوار: ٦٥/ ٢٣٧.

(٢) ميزان الحكمة: ١/ ٥٥٤ ح ٧٣٥، وعوالي اللآلي: ٣/ ٥٩٩.

قال المفيد في إرشاده: وروى عن يونس عن الحسن: أن عمر أتى بامرأة قد ولدت لستّة أشهر فهمّ برجمها فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الاحقاف: ١٥] ويقول جلّ قائلاً: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [الاحقاف: ٢٣٣]، فإذا تممت المرأة الرّضاعة سنتين وكان حمله وفصاله ثلاثين شهراً، كان الحمل منها ستّة أشهر فخلى عمر سبيل المرأة وثبت الحكم بذلك، فعمل الصحابة والتابعون ومن أخذ عنه إلى يومنا هذا انتهى[١].

وكذا غيره من الوقائع التي قضى فيها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بكتاب الله مما يحير العقول، فهذا الحكم كان ثابتاً في الكتاب المجيد ولكن لا تبلغه عقول الرّجال إلا الكمّل منهم الذين هداهم الله إليه وعلّمهم معالم دينه، وجاءت الرّواية في ذلك في **«الكافي»** بإسناده عن المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من أمر يختلف فيه إثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله، ولكن لا تبلغه عقول الرّجال[٢].

ونظير ما نقله المفيد جاء في **«الكافي»** للكليني بإسناده عن عليّ بن يقطين قال: سأل المهدي أبا الحسن عليه السلام عن الخمر هل هي محرمة في كتاب الله تعالى، فإنّ النّاس إنّما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها.

فقال له أبو الحسن عليه السلام: بل هي محرمة في كتاب الله تعالى يا أمير المؤمنين فقال له: في أيّ موضع هي محرّمة في كتاب الله يا أبا الحسن؟ فقال: قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فأما قوله: ما ظهر منها، يعني زنا المعلن ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواجر للفواحش في الجاهلية. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، يعني ما نكح من الآباء لأنّ النّاس كانوا قبل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وآله إذا كان للرجل زوجة ومات عنها، يزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمه فحرّم الله تعالى ذلك. وأما الإثم، فإنها الخمر بعينها وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فأمّا الإثم في كتاب الله فهي الخمر والميسر وإثمهما أكبر كما قال تعالى. فقال المهدي: يا عليّ بن يقطين فهذه فتوى هاشمية. قال: قلت له: صدقت والله يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت قال: فوالله ما صبر المهدي أن قال لي: صدقت يا رافضي[٣].

(١) الارشاد: ١/ ٢٠٦، وبحار الأنوار: ٨٧/ ١١٥، والإيضاح: ١٩١ ح ٥.
(٢) الكافي: ١/ ٦٠ ح ٦، والبحار: ٤٠/ ٢٥٣.
(٣) بحار الأنوار: ٤٨/ ١٤٩ ح ٢٤، والتفسير الصافي: ١/ ٢٤٩.

تنبيه

واعلم أن نظائرهما المروية عن أئمتنا ﷺ المستنبطة من ضم الآيات القرآنية بعضها من بعض غير عزيز، واستبصر من هذا أنما يعرف القرآن من خوطب به، وأن القرآن يفسّر بعضه بعضاً. قال عزّ من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. ومعلوم أن من الأشياء القرآن نفسه فهو تبيان لنفسه أيضاً ولكن لا تبلغه عقول الرّجال كما دريت. وإنّ للاستنباط من الكتاب رجالاً عينهم الله لنا في كتابه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

على أنا نقول: إن في الكتاب محكماً ومتشابها وناسخاً منسوخاً وعامّاً وخاصّاً ومبينا ومجملاً، تمييزها واستنباط الفروع الجزئية والأحكام الإلٰهيّة منها صعب مستصعب جدّاً، بل خارج عن طوق البشر إلاّ من اختاره الله وعلّمه فقه القرآن، وملأ قلبه علماً وفهماً وحكماً ونوراً، ومن المجمل في الكتاب قوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] فإنّ اليد يطلق على العضو المعروف إلى الأشاجع وإلى الزند وإلى المرفق وإلى المنكب، فيقال أدخلت يدي في الماء إلى الأشاجع وإلى الزند وإلى المرفق وإلى المنكب، وأعطيت بيدي وإنّما اعطاه بأنامله وكتبت بيدي وإنّما كتبه بأصابعه، والاستعمال ظاهر في الحقيقة فيحصل الاشتراك ويأتي الإجمال في حدّ القطع، كما أنها مجملة في أنّ المراد قطع يدي السارق كلتيهما أو إحداهما، وعلى الثاني اليد اليمنى أو اليسرى وكذا في المقدار المسروق الذي تقطع فيه أيديهما، وفي من تكررت منه السرقة بعد القطع أو قبل القطع وغيرها من أحكام السرقة المدوّنة في كتب الحديث والفقه، وكذا غيره من الأحكام والفرائض مثل فرض الصّلاة والزّكاة والصوم والحجّ والجهاد وحدّ الزنا ونظائرها، ممّا نزل في الكتاب مجملاً فلا بدّ لها من مفسّر ومبيّن.

ثمّ أنّه لو كان كتاب الله وحده بلا قيّم ومفسّر ومبّين كافياً لما أمر الله تعالى بإطاعة الرّسول، وفي عدّة مواضع من كتابه الكريم، كما حرّرناه من قبيل ودريت أن القائل حسبنا كتاب الله خبط خبط عشواء.

«الكلام في أن السنة وحدها لا تكون حجة إلا بقيم»

وأمّا السنة فالكلام فيها الكلام في الكتاب، فإن كلام حجج الله تعالى دون كلام خالق وفوق كلام مخلوق، ولكثير من الرّوايات أن لم نقل لجميعها وجوه محتملة، وقد يعارض بعضها، ولبعضها بطون علمية كالآيات القرآنيّة، فقد روى الصّدوق في المجلس الأوّل من أماليه بإسناده عن عمرو بن اليسع عن شعيب الحدّاد قال: سمعت الصّادق جعفر بن

محمّد عليه السلام يقول: أنّ حديثنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلاّ ملك مقرب أو نبيّ مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان أو مدينة حصينة، قال عمرو: فقلت لشعيب: يا أبا الحسن وأي شيء المدينة الحصينة؟ قال: فقال: سألت الصّادق عليه السلام عنها فقال لي: القلب المجتمع.
على أن الروايات ليست بوافية في جميع الأحكام، على سبيل التنصيص في الجزئيات بل كلّيات أيضاً، يستنبط منها تلك الفروع الجزئية، مع أن الروايات أكثرها منقولة بالمعنى، ولم يثبت بقاؤها على هيئتها التي صدرت عن المعصوم عليه السلام، أعني أنها لم تتواتر لفظاً وإن تواتر مدلول كثير منها، حتّى ذهب الشهيد الثّاني في الدراية، إلى أن رواية واحدة يمكن ادعاء تواتره لفظاً، حيث قال: والتواتر يتحقق في أصول الشرائع كثيراً، وقليل في الأحاديث الخاصّة وإن تواتر مدلولها، حتّى قال أبو الصّلاح من سئل عن إبراز مثال لذلك أعياه طلبه، نعم حديث من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّء مقعده من النّار يمكن ادعاء تواتره، فقد نقل نقله عن النّبي صلى الله عليه وآله من الصحابة الجم الغفير. انتهى[١].

قال المجلسي رحمه الله في «مرآة العقول»: من المعلوم أن الصّحابة وأصحاب الأئمّة عليهم السلام لم يكونوا يكتبون الأحاديث عند سماعها، ويبعد بل يستحيل عادة حفظهم جميع الألفاظ على ما هي عليه، وقد سمعوها مرّة واحدة خصوصاً في الأحاديث الطويلة، مع تطاول الأزمنة، ولهذا كثيراً ما يروى عنهم المعنى الواحد بألفاظ مختلفة، انتهى ما اردنا من نقل كلامه.

أمّا القرآن الكريم فإنّه المنزّل من الله تعالى المحفوظ على هيئته التي نزلت بلا تغيير وتبديل في ألفاظه بلا خلاف، بل اتفق الكلّ من المسلمين وغيرهم على أن القرآن بين الكتب المنزلة هو الكتاب الذي لم يتطرق إليه تحريف أو تصحيف أو زيادة أو نقصان مطلقاً.

فإذا كان الأحاديث على ذلك المنوال، فيأتي البحث في الأخبار على أطوار كثيرة مضبوطة في كتب الدّراية والرّجال وغيرهما، مثلاً ينظر في الرّاوي هل كان أهلاً للنقل أم لا، كما روى الكلينيّ في الصحيح عن محمّد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسمع الحديث منك فأزيد وأنقص. قال: إن كنت تريد معناه[٢] فلا بأس[٣].

وبالجملة الكلام في القرآن والحديث، هو ما ذكره مولى الموحدين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام نقله الرّضي في «النهج»، كما مضى في الخطبة الثمانية والمأتين وكذا نقله الكلينيّ في «الكافي» وفي «الوافي» (ص ٦٢ م١).

روى الكلينيّ بإسناده عن أبان بن عيّاش عن سليم بن قيس الهلالي قال: قلت لأمير

(١) الايضاح: ٢٠١.
(٢) في نسخة: معانيه.
(٣) بحار الأنوار: ٢/ ١٦٤، وميزان الحكمة: ١/ ٥٥٠ ح ٧٢٨.

المؤمنين عليه السلام: إنّي سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله غير ما في أيدي النّاس، ثمّ سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي النّاس أشياء كثيرة من تفسير القرآن، ومن الأحاديث عن نبي الله ﷺ أنتم تخالفونهم فيها، وتزعمون أن ذلك كلّه باطل، أفترى النّاس يكذبون على رسول الله ﷺ متعمّدين ويفسّرون القرآن بآرائهم قال: فأقبل عليه السلام عليّ فقال: قد سألت فافهم الجواب:

«إنّ في أيدي النّاس حقاً وباطلاً وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً وعامّاً وخاصّاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً، وقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتّى قام خطيباً فقال: أيّها النّاس قد كثرت عليّ الكذابة، فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوء مقعده من النّار، ثمّ كذب عليه من بعده».

«وإنّما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس: رجل منافق يظهر الإيمان متصنّع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله متعمداً، فلو علم النّاس أنّه منافق كذاب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوه، ولكنهم قالوا هذا قد صحب رسول الله ورآه وسمع منه، فيأخذون عنه وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبر الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمّة الضلالة والدعاة إلى النّار بالزور والكذب والبهتان، فولوهم الأعمال وحملوهم على رقاب النّاس، وأكلوا بهم الدّنيا وإنّما النّاس مع الملوك والدّنيا إلا من عصم الله فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحمله على وجهه ووهم فيه، ولم يتعمّد كذباً فهو في يده يقول ويعمل به ويرويه، ويقول أنا سمعته من رسول الله ﷺ فلو علم المسلمون أنّه وهم لم يقبلوه ولو علم هو أنه وهم لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً أمر به ثمّ نهى عنه، وهو لا يعلم أو سمعه ينهى عن شيء ثمّ أمر به، وهو لا يعلم فحفظ منسوخه ولم يحفظ النّاسخ، فلو علم أنّه منسوخ لرفضه ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنّه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على رسول الله ﷺ مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسوله، لم ينسه بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به كما سمع لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلم الناسخ والمنسوخ وعمل بالنّاسخ ورفض المنسوخ، فإن أمر النّبيّ ﷺ مثل القرآن ناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومحكم ومتشابه، قد كان يكون من رسول الله ﷺ: الكلام له وجهان كلام عام وكلام خاصّ مثل القرآن، وقال الله تعالى في كتابه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ما عنى الله به ورسوله ﷺ. وليس كلّ أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأل من الشيء يفهم، وكان منهم من يسأل ولا يستفهمه، حتّى أن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأل رسول الله ﷺ حتّى يسمعوا[١].

أقول: إنّه عليه السلام يذكر بعد قوله حتّى يسمعوا: منزلته عند النّبي ﷺ وسنذكر هذا الذيل أيضاً في محلّه، فبما حررناه دريت أنّ الكتاب والسنّة غير وافيين بكل الأحكام، مع أنّ الله تعالى في كلّ واقعة حكماً يجب تحصيله فهما يحتاجان إلى قيّم.

في **«الكافي»** بإسناده عن أبي البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ العلماء ورثة الأنبياء وذاك أنّ الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنّما ورثوا من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظّا وافراً، فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه، فإن فينا أهل البيت في كلّ خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين[٢].

وحيث علم معنى العدل فيما تقدم، وعلم أنّ الإمام المنصوب الإلهي على العدل المحض، ويهدون بأمر الله تعالى إلى طريق الحق، علم أنّ المراد بالعدول هم الأئمة الهادين المهديين لا غير، وجاء خبر آخر في **«الكافي»** كأنه مفسر له حيث روى بإسناده عن ابن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ عند كلّ بدعة تكون من بعدي يكاد بها الإيمان ولياً من أهل بيتي موكّلا به يذب عنه، ينطق بإلهام من الله ويعلن الحق وينوره ويرد كيد الكائدين، يعبّر عن الضعفاء فاعتبروا يا أولي الأبصار وتوكلوا على الله[٣].

ونعم ما قال الفيض في الحديث بياناً: المراد من ورثة الأنبياء ورثتهم من غذاء الرّوح، لأنّهم أولادهم الروحانيون الذين ينتسبون إليهم من جهة أرواحهم المتغذية بالعلم المستفاد منهم عليهم السلام كما أنّ من كان من نسلهم ورثتهم من غذاء الجسم، لأنّهم أولادهم الجسمانيّون **(الذين ينتسبون إليهم من جهة أجسادهم المتغذية بالغذاء الجسماني)** حظّاً وافراً كثيراً لأنّ قليل العلم خير ممّا طلعت عليه الشّمس.

فانظروا يعني لمّا ثبت أنّ العلم ميراث الأنبياء، فلا بدّ أن يكون مأخوذاً عن الأنبياء عليهم السلام وعن أهل بيت النّبوّة، الذين هم مستودع اسرارهم، وفيهم أصل شجرة علمهم دون غيرهم، فإن المجاوزين عن الوسط الحقّ يحرّفون الكلم عن مواضعه بحسب أهوائهم. والمبطلون يدعون لأنفسهم العلم ويلبسون الحقّ بالباطل لفساد أغراضهم. والجاهلون

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٣٩٥، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٣٠.
(٢) الكافي: ١/ ٥٤ ح ٥، وبحار الأنوار: ٢/ ٩٢ ح ٢١، ونهج السعادة: ٧/ ٣٩ ح ٢٢.
(٣) الكافي: ١/ ٥٤.

يؤولون المتشابهات على غير معانيها المقصودة منها لزيغ قلوبهم، فيشتبه بسبب ذلك طريق التعلّم على طلبة العلم.

وفي أهل بيت النّبي صلوات الله عليه وعليهم في كلّ خلف بعد سلف أمة وسط، لهم الاستقامة في طريق الحق من غير غلو ولا تقصير ولا زيغ ولا تحريف، يعني الإمام المعصوم وخواصّ شيعته الأمناء على أسراره الحافظين لعلمه الضابطين لأحاديثه، فإنّ الأرض لا تخلو منهم أبداً وهم لا يزالون ينفون عن العلم تحريف الغالين وتلبيس المبطلين وتأويل الجاهلين، فخذوا علمكم عنهم دون غيرهم لتكونوا ورثة الأنبياء.

وهذا الحديث ناظر إلى ما روى عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «يحمل هذا العلم من كلّ خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين» وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وتفسير للعدول الوارد فيه»[1].

والخلف بالتحريك والسكون كلّ ما يجيء بعد من مضى، إلاّ أنّه بالتحريك في الخير وبالتسكين في الشرّ يقال: خلَف صدق وخلْف شر.

وأمّا القياس فقد حققنا في المباحث السالفة أنّ الله تعالى في كلّ واقعة حكماً، وأن الأحكام مبتنية على مصالح ومفاسد في الأشياء لا تبلغها العقول ولا يعلمها إلاّ علام الغيوب، ولو تأمّلنا حقّ التأمل في الدّين لرأينا أن دين الله لم يبن على القياس، فإن المراد بالقياس في المقام القياس الفقهي، الذي يسمّى في علم الميزان بالتمثيل، ومبني الشرع على اختلاف المتفقات كوجوب الصّوم آخر شهر رمضان وتحريمه أوّل شوّال، واتفاق المختلفات كوجوب الوضوء من البول والغائط واتفاق القتل خطأ والظهار في الكفارة. مع أنّ الشارع قطع يد سارق القليل دون غاصب الكثير، وجلد بقذف الزنا وأوجب فيه أربع شهادات دون الكفر، وذلك كلّه ينافي القياس وقد قال رسول الله ﷺ: تعمل هذه الأمّة برهة بالكتاب، وبرهة بالسنة، وبرهة بالقياس، فإذا فعلوا ذلك فقد ضلّوا وأضلّوا.

وليس القياس إلاّ اتباع الهوى وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ولو تطرق في الشريعة العمل بالقياس لمحق الدّين، لأنّ لكلّ أحد أن يرى برأيه ونظره مناسبة بين الحكمين، وغالباً لا يخلو الشيئان عن مناسبة ما، فيلزم عندئذ تحليل الحرام وتحريم الحلال، وآراء كثيرة مردية في موضع واحد، مع أنّ حكم الله واحد لا يتغير، وقد

(١) بحار الأنوار: ٩٧/ ٢٧٩، ونهج السعادة: ٧/ ٤٣ ح ١١.

روى شيخ الطّائفة في «التهذيب» بإسناده عن أبي مريم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال صلوات الله عليه: لو قضيت بين رجلين بقضية ثمّ عادا إليّ من قابل لم أزدهما على القول الأوّل لأنّ الحق لا يتغير[1].

وقد دريت آنفاً أنّه ليس شيء ممّا يحتاج إليه النّاس إلاّ وقد جاء فيه كتاب أو سنة، وأن الله تعالى نص في كتابه العزيز، أنزل في القرآن تبيان كل شيء قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وغيرهما من الآيات الأخرى، فإذا بين القرآن كلّ شيء وكذا السنة، وإن كان لا تبلغها عقول الرّجال، فعلينا أن نطلب من عنده علم الكتاب، وليس لنا أن نختار بالقياس والاستحسان وأمثالهما حكماً نفتي به أو نعمل، فإنّ الله حذرنا عن ذلك في كتابه بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وقال عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. وقال عزّ وجلّ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾. وقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ وغيرها من الآيات القرآنيّة.

فهذه الآيات القرآنية تذمّ من رغب عن اختيار الله واختيار رسوله إلى اختياره، وتنهيه عن ذلك أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها، أم طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون، أم قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون.

«الأخبار المروية عن أهل بيت العصمة عليهم السلام»
«في النهي عن العمل بالقياس»

قد رويت عن الأئمّة الهداة المهديين روايات في النهي عن العمل بالقياس، واحتجاجات على القوم في ذلك نورد ههنا شطراً منها تبصرة للمستبصرين فإن من كان له قلب استهدى بها:

١ ـ في «الكافي» بإسناده إلى أبي شيبة الخراساني قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

---

(١) تهذيب: الأحكام: ٢٩٦/٦ ح ٣٢، والأصول الأصيلة: ١١١.

إنّ أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدهم المقاييس من الحق إلاّ بعداً، وأن دين الله لا يصاب بالمقاييس[1].

أقول: إنّ القياس في جميع العلوم النقليّة لا يزاد القائس من الحقّ والواقع إلاّ بعداً، فكما أنّ اللّغة والنحو والقراءة والسير وأمثالها لا يستقيم بالقياس والتخمين، فكذلك الأحكام فإنّ لله تعالى في كلّ واقعة حكماً لا يصاب بالظنّ والتخمين والقياس. على أنّ في الشرع يوجد كثيراً جمع الأحكام المختلفة في الصفات الظاهرة وتفريق الأحكام المتشاركة في الآثار الواضحة.

٢ ـ وفيه بإسناده إلى أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ السنة لا تقاس، ألا ترى أنّ المرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها، يا أبان أنّ السنة إذا قيست محق الدين[2].

أقول: قال الفيض في بيانه: المحق ذهاب الشيء كله حتّى لا يرى منه أثر، وإنّما يمحق الدين بالقياس، لأن لكلّ أحد أن يرى بعقله أو هواه مناسبة بين الشيء وما أراد أن يقيسه عليه، فيحكم عليه بحكمه، وما من شيء إلاّ وبينه وبين شيء آخر مجانسة أو مشاركة، في كم أو كيف أو نسبة، فإذا قيس بعض الأشياء على بعض في الأحكام، صار الحلال حراماً والحرام حلالاً حتّى لم يبق شيء من الدين.

٣ ـ وفيه بإسناده إلى أبان عن أبي شيبة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ضلّ علم ابن شبرمة عند الجامعة، إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ عليّ عليه السلام بيده أنّ الجامعة لم تدع لأحد كلاماً، فيها علم الحلال والحرام أنّ أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحقّ إلاّ بعداً، إن دين الله لا يصاب بالقياس[3].

أقول: سيأتي الكلام في الجامعة عند ترجمة الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام وابن شبرمة هو عبد الله بن شبرمة القاضي كان يعمل بالقياس.

٤ ـ وفيه عن الحسين بن ميّاح عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ إبليس قاس نفسه بآدم، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فلو قاس الجوهر الذي خلق الله منه آدم بالنّار كان ذلك أكثر نوراً وضياءً[4].

٥ ـ وفيه بإسناده عن عيسى بن عبد الله القرشي قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد

(١) شرح أصول الكافي: ٢/ ٢٥٤ ح ٧، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ٥٣١ ح ٧٨١.
(٢) بحار الأنوار: ٧٨/ ١٠٧ ح ٢٦، والنص والاجتهاد: ١٧.
(٣) مكاتيب الرسول: ٢/ ١٦٢ ح ٣، وعلوم القرآن: ٣٢٣.
(٤) بحار الأنوار: ١١/ ١٤٧ ح ١٧، التفسير الصافي: ١/ ٣٦٢.

الله عليه السلام فقال له: يا أبا حنيفة بلغني أنّك تقيس قال: نعم، قال: لا تقس فإن أوّل من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقاس ما بين النّار والطين، ولو قاس نوريّة آدم بنورية النّار عرف فضل ما بين النّورين وصفاء أحدهما على الآخر[1].

أقول: إنّ هذين الخبرين من الأخبار الأنيقة والعلوم الدقيقة التي صدرت من بيت أهل العصمة، وتجلّت من مشكاة الإمامة وبدت من فروع شجرة النبوّة، لاحتوائهما على لطيفة قدسيّة عرشيّة، لم يعهد صدور مثلها عن غير بيت الآل في ذلك العصر، ولعمري لو لم تكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وآله الطاهرين معجزات فعليّة أصلاً، لكفى أمثال هذه الأخبار الصادرة عنهم عليهم السلام في صدق مقالتهم بأنّهم سفراء الله لخلقه ووسائط فيضه. وبالجملة قال عليه السلام في الأوّل منهما فلو قاس الجوهر الذي خلق الله منه آدم بالنّار كان ذلك أكثر نوراً وضياءً، وفي الثاني ولو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فضل ما بين النورين وصفاء أحدهما على الآخر وذلك الجوهر النّوري هو النفس الناطقة المجردة، والرّوح المقدّسة، التي من عالم الأمر لا سيّما روحه القدسيّة النّبويّة التي بها صار مسجود الملائكة، ومعلوم أن هذا النور المعنوي لا نسبة له إلى الأنوار الحسّية، كنور النّار والسراج والشمس والقمر والنّجوم وأمثالها لأنه لا يكون منغمراً في الزّمان والمكان والأجسام، بل هو فوق الزمان والزمانيّات، ولذا به ما لا يظهر بالأنوار الحسيّة، فإنّ الحسيّة يظهر المحسوسات بخلاف النور العقلي، فإنّه يظهر المعقولات وفوق المحسوسات، فلا يقاس أحدهما بالآخر، فإنّ العقلاني بمراحل عن الجسماني، ولذا قال وليّ الله الأعظم فلو قاس الجوهر الذي خلق الله منه آدم بالنّار كان ذلك أكثر نوراً وضياءً.

وأيضاً أنّ كلامه عليه السلام يدل على تجرد الروح وتنزهه عن الجسم والجسمانيات كما أنه يدلّ أن شيئية الشيء بصورته لا بمادته، وقياس إبليس وهم، حيث توهم أن الفضل والشرف بمادّة البدن، وأنّ شيئية الأشياء بمادّتها، ولم يعلم أنّ الإنسان إنسان بجوهره المجرد النوري العقلاني، وإنّما الشيئيّة بالصّورة، لأنّه لم يكن له نصيب من هذا النور القدسي النبوي، حتّى يرى نسبة سائر الأنوار بالقياس إليه ويعرفه حق المعرفة.

واعلم أنّ الوجود الكامل من مادّة ناقصة، أفضل من موجود ناقص من مادّة كاملة، وذلك لما تحقّق في الحكمة العالية: أنّ الصّورة هي الأصل والمادّة فرعها، وشيئية الموجودات بصورها لا بالمادة.

٦ ـ في **«الكافي»**: أنّ عليّاً عليه السلام قال: من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس،

---

(١) الكافي: ١/ ٥٨ ح ٢٠، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٨٨ ح ٥، والتفسير الصافي: ٢/ ١٨٣.

ومن دان الله بالرأي لم يزل دهره في ارتماس[١].

٧ ـ وفيه أيضاً قال أبو جعفر عليه السلام: من أفتى النّاس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضادّ الله حيث أحلّ وحرّم فيما لا يعلم[٢].

٨ ـ وفي كتاب القضاء من الوسائل: إنّ ابن شبرمة قال دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمّد فقال لأبي حنيفة: اتق الله ولا تقس في الدّين برأيك فإن أوّل من قاس إبليس، إلى أن قال: ويحك أيّهما أعظم قتل النّفس أو الزّنا؟ قال: قتل النفس. قال: فإن الله عزّ وجلّ قد قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة. ثمّ أيّهما أعظم الصّلاة أم الصّوم؟ قال: الصّلاة. قال: فما بال الحائض تقضي الصّيام ولا تقضي الصلاة، فكيف يقوم لك القياس فاتق الله ولا تقس. قال: فأيّهما أكبر البول أو المني؟ قلت: البول، قال: فلم أمر الله تعالى في البول بالوضوء وفي المني بالغسل. قال: فأيّما أضعف المرأة أو الرّجل؟ قلت: المرأة، قال: فلم جعل الله تعالى في الميراث للرجل سهمين وللمرأة سهم أفيقاس لك هذا؟ قلت: لا. قال: فبم حكم الله فيمن سرق عشر دراهم القطع وإذا قطع الرّجل يد رجل فعليه ديتها خمسة آلاف درهم أفيقاس لك هذا؟ قلت: لا. الحديث.

وفي «**الوافي**» (ص ٥٩ م١) روي عن أبي حنيفة أنّه قال: جئت إلى حجّام ليحلق رأسي فقال لي: أدن ميامنك واستقبل القبلة وسم الله فتعلّمت منه ستّ خصال لم تكن عندي فقلت له: مملوك أنت أم حرّ؟ فقال: مملوك؟ قلت: لمن؟ قال لجعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام قلت: أشاهد أم غائب؟ قال: شاهد فصرت إلى بابه واستأذنت عليه فحجبني وجاء قوم من أهل الكوفة فاستأذنوا فأذن لهم فدخلت معهم فلمّا صرت عنده قلت له: يا ابن رسول الله لو أرسلت إلى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب محمّد فإني تركت بها أكثر من عشرة ألف يشتمونهم، فقال: لا يقبلون مني فقلت: ومن لا يقبل منك وأنت ابن رسول الله فقال: أنت أوّل من لا يقبل مني دخلت داري بغير إذني وجلست بغير أمري وتكلمت بغير رأيي وقد بلغني أنّك تقول بالقياس قلت: نعم قال: ويحك يا نعمان أوّل من قاس الله إبليس[٣] ـ ثمّ ذكر قريب ما نقلناه عن الوسائل وكذا هذا الخبر مذكور في مجلس يوم الجمعة التاسع من رجب سنة سبع وخمسين وأربعمائة فراجع.

والأخبار في النّهي عن القياس في الدّين، والسرّ في نهيه كثيرة في كتب الرّواية، فعليك بكتاب القضاء من «**الوسائل**» والمجلّد الأوّل من «**البحار**»، و«**الكافي**» وباب البدع

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٢٩٩ ح ٢٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٦٤٦ ح ٣٤٣٠.
(٢) بحار الأنوار: ٢/ ٢٩٩ ح ٢٥، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٣٧٢ ح ٣١٦٥.
(٣) شرح الأخبار: ٣/ ٣٠٠ ح ١٢٠٦، وبحار الأنوار: ١٠/ ٢٢٠ ح ٢٠.

والرأي والمقاييس من «**الوافي**» (ص ٥٦ م ١).

المنقول من الزمخشري في «**ربيع الأبرار**» قال يوسف بن أسباط: ردّ أبو حنيفة على رسول الله ﷺ للفرس سهمان وللرّجل سهم، قال أبو حنيفة: لا أجعل سهم بهيمة أكثر من سهم المؤمن. وأشعر رسول الله ﷺ وأصحابه البدن وقال أبو حنيفة: الأشعار مثلة. وقال ﷺ: البيعان بالخيار ما لم يتفرّقا، وقال أبو حنيفة: إذا وجب البيع فلا خيار. وكان ﷺ يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً وأقرع أصحابه، وقال أبو حنيفة: القرعة قمار[1].

وأمّا الإجماع فبعد الفراغ عن حجيّته والبحث عن أقسامه، فنقول: إنّ من المعلوم عدم قيام إجماع في كلّ واقعة واقعة.

وأمّا البراءة الأصليّة فلأنه يلزم منها ارتفاع أكثر الأحكام الشرعية، إذ يقال الأصل براءة الذمة من وجوب أو حرمة.

أمّا الاستصحاب فعدم صلاحيّته للمحافظة بديهيّ، فلأنّه يستلزم اليقين السابق والشكّ اللاحق، حتّى يجري وأنّى يكون كلّ حكم من الأحكام في كلّ موضع مع عدم تناهيها كذلك، على أن الاستصحاب والقياس والخبر الواحد لا تفيد إلاّ ظنّاً، والظن لا يغنى من الحق شيئاً. فإذا اتضح عدم صلاحيّة هذه الأقسام لحفظ الدّين وحجّة على النّاس بحياتها، بلا قيم مبين ومفسر بعد خاتم النبيين، فلم يبق أن يكون الحافظ للشرع إلاّ العالم والعالم مطلقاً، فقد دريت أنّه لم يكن حافظاً فبقي العالم المعصوم المنصوب من الله، أعني الإمام بالحق وذلك هو المطلوب، وقد اشار الباري تعالى إليه بقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ثمّ إنّ لأئمتنا صلوات الله عليهم احتجاجات على من ذهب إلى أنّ الكتاب وحده بلا قيّم كاف للعباد، كلّ واحد منها حجّة بالغة وبرهان تام أبان الفصل وأفحم الخصم، تركنا الإتيان بها روماً للإختصار، فعليك بكتاب الإحتجاج للطبرسي وأصول «**الكافي**» للكليني و«**الإرشاد**» للمفيد والمجلّد الرّابع من «**البحار**» للمجلسي.

ثمّ مضى في الخطبة الثّالثة والعشرين والمائة قوله عليه السلام: وهذا القرآن إنّما هو مسطور بين الدفتين، لا ينطق بلسان ولا بدّ له من ترجمان ـ إلى آخر ما قال. فراجع فتبصّر.

«احتجاج ثامن الأئمة عليه السلام على المخالفين في أمر الإمامة»

روى الشيخ الجليل الصّدوق رضوان الله عليه في المجلس السابع والتسعين من أماليه،

---

(١) الجمل: ١٠٤، وبحار الأنوار: ١٦٢/٣٢.

وكذا الشيخ الجليل الطبرسي في **«الإحتجاج»** وثقة الإسلام الكليني في **«الكافي»** **(الوافي ص ١١٥ م٢)** رواية جامعة كافية في أمر الإمامة عن الرّضا عليّ بن موسى ثامن الأئمة الهداة المهديين تهدي بغاة الرشد للتي هو أقوم جعلناها خاتمة بحثنا ليختم بالخير ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وفي **«الأمالي»**.

حدثنا الشيخ الجليل أبو جعفر محمّد بن عليّ بن المتوكّل قال: حدّثنا محمّد بن يعقوب قال: حدّثنا أبو محمّد القاسم بن العلي عن عبد العزيز بن مسلم قال: كنا في أيّام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام بمرو فاجتمعنا في مسجد جامعها في يوم جمعة في يدي مقدمنا فأدار النّاس أمر الإمامة، وذكروا كثرة اختلاف النّاس فدخلت على سيّدي ومولاي الرّضا عليه السلام فأعلمته ما خاض النّاس فيه فتبسّم عليه السلام ثمّ قال:

«يا عبد العزيز جهل القوم وخدعوا عن أديانهم، إنّ الله عزّ وجلّ لم يقبض نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى أكمل له الدّين، وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كلّ شيء بيّن فيه الحلال والحرام، والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج النّاس إليه، كملاً فقال عزّ وجلّ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الانعام: ٣٨] وأنزل فيه في حجّة الوداع وهي آخر عمره صلى الله عليه وآله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وأمر الإمامة من تمام الدّين ولم يمض صلى الله عليه وآله حتّى بين لأمته معالم دينهم وأوضح لهم سبيله، وتركهم على قصد الحقّ وأقام لهم عليّاً عليه السلام علماً، وما ترك شيئاً يحتاج إليه الأمّة إلاّ بيّنه، فمن زعم أنّ الله عزّ وجلّ لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر، فهل تعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم؟

إنّ الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها النّاس بعقولهم، أو ينالوها برأيهم أو يقيموا إماماً باختيارهم. إنّ الإمامة خصّ الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النّبوة والخلّة مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه الله بها فأشار بها ذكره فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال الخليل سروراً بها «ومن ذريتي» قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فابطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة.

ثمّ أكرمه الله أن جعلها في ذريته أهل الصفوة والطهارة فقال عزّ وجلّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الانبياء: ٧٣] فلم يزل في ذريته يرثها بعض عن بعض، قرناً فقرناً حتّى ورثها النّبيّ صلى الله عليه وآله فقال جلّ جلاله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨] فكانت

له الخاصّة فقلّدها النّبي ﷺ عليّاً عليه السلام بأمر ربّه عزّ وجلّ على رسم ما فرض الله، فصارت في ذرّيته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] وهي في ولد عليّ عليه السلام خاصّة إلى يوم القيامة إذ لا نبيّ بعد محمّد ﷺ فمن أين يختار هؤلاءِ الجهّال؟

إنّ الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة الله عزّ وجلّ وخلافة الرّسول، ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين. إنّ الإمامة زمام الدّين ونظام المسلمين وصلاح الدّنيا وعزّ المؤمنين. إنّ الإمامة اسّ الإسلام النامي وفرعه النامي.

بالإمام تمام الصّلاة والزّكاة والصّيام والحجّ والجهاد، وتوفير الفيء والصّدقات وإمضاء الحدود والأحكام ومنع الثغور والأطراف.

الإمام يحلّ حلال الله ويحرّم حرام الله ويقيم حدود الله، ويذبّ عن دين الله ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجّة البالغة.

الإمام كالشمس الطالعة للعالم، وهي في الأُفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار.

الإمام البدر المنير والسراج الظاهر والنّور السّاطع، والنجم الهادي في غياهب الدّجى والبلد القفار ولجج البحار.

الإمام الماء العذب على الظماء والدّال على الهدى والمنجي من الرّدى.

الإمام النّار على اليفاع الحار لمن اصطلى، والدّليل على الملك من فارقه فهالك.

الإمام السحاب الماطر والغيث الهاطل والشمس المضيئة، والأرض البسيطة والعين الغزيرة والغدير والروضة.

الإمام الأمين الرفيق والوالد الرّقيق، والأخ الشفيق ومفزع العباد في الداهية.

الإمام أمين الله في أرضه وحجّته على عباده، وخليفته في بلاده والدّاعي إلى الله والذابّ عن حرم الله.

الإمام المطهّر من الذنوب المبرّأ من العيوب، مخصوص بالعلم موسوم بالحلم نظام الدّين وعزّ المسلمين وغيظ المنافقين وبوار الكافرين.

الإمام واحد دهره لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم ولا يوجد به بدل، ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كلّه، من غير طلب منزلة ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهاب فمن ذا الذي يبلغ بمعرفة الإمام أو يمكنه اختياره؟

هيهات هيهات ضلّت العقول وتاهت الحلوم، وحارت الألباب وحسرت العيون وتصاغرت العظماء وتحيّرت الحكماء، وتقاصرت الحلماء وحصرت الخطباء، وجهلت الألباب وكلّت الشعراء، وعجزت الأدباء وعيّت البلغاء عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله فأقرّت بالعجز والتقصير. وكيف يوصف أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من أمره أو يوجد من يقوم مقامه ويغني غناه لا، كيف وأين وهو بحيث النجم من أيدي المتناولين ووصف الواصفين، فأين الاختيار من هذا وأين العقول عن هذا وأين يوجد مثل هذا؟

أظنوا أن ذلك يوجد في غير آل الرّسول ﷺ؟، كذبتهم والله أنفسهم ومنّتهم الأباطيل، وارتقوا مرتقى صعبا رحضا تزل عنه إلى الحضيض أقدامهم، راموا إقامة الإمام بعقول حائرة بائرة ناقصة وآراء مضلّة فلم يزدادوا منه إلاّ بعد، قاتلهم الله أنّى يؤفكون؟ لقد راموا صعباً وقالوا إفكاً وضلّوا ضلالاً بعيداً، ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصيرة وزين لهم الشيطان أعمالهم وصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين، رغبوا عن اختيار الله واختيار رسوله إلى اختيارهم، والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وقال عزّ وجلّ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ وقال عزّ وجلّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، أم طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون، أم قالوا سمعناوهم لا يسمعون، إن شرّ الدوابّ عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون، وقالوا سمعنا وعصينا، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فكيف لهم باختيار الإمام والإمام عالم لا يجهل، راع لا ينكل معدن القدس والطهارة، والنسك والزهادة والعلم العبادة، مخصوص بدعوة الرسول وهو نسل المطهرة البتول لا مغمز فيه في نسب ولا يدانيه ذو حسب، في البيت من قريش والذروة من هاشم، والعترة من الرسول والرضا من الله شرف الأشراف والفرع من عبد مناف نامي العلم، كامل اللحم مضطلع بالإمامة عالم للسياسة مفروض الطاعة قائم بأمر الله ناصح لعباد الله حافظ لدين الله.

إنّ الأنبياء والأئمة يوفقهم الله عزّ وجلّ، ويؤتيهم من مخزون علمه وحلمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون عليهم «علمهم ظ» فوق كلّ أهل زمانهم في قوله جلّ وعزّ: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وقوله جل وعز: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ وقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ:

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. وقال عزّ وجلّ في الأئمة من أهل بيته وعترته وذرّيته: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٥].

وأنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ لأُمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم الهاماً فلم يعِ بعده بجواب ولا يحيّر فيه عن الصّواب، وهو معصوم مؤيد موفق مسدّد، قد أمن الخطايا والزلل والعثار، وخصّه الله بذلك ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فهل يقدرون على مثل هذا فيختاروه أو يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدّموه، تعدّوا وبيت الله الحقّ ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون وفي كتاب الله الهدى والشفاء فنبذوه، واتبعوا أهوائهم فذمهم الله ومقتهم أنفسهم فقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] وقال: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وقال عزّ وجلّ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]. انتهى الحديث الشريف[(١)].

«الأئمة بعد الرسول ﷺ هم آله عليهم السلام لا غير»

الإمام بعد رسول الله ﷺ بلا فصل هو عليّ بن أبي طالب، وبعده ابنه الحسن بن عليّ ابن أبي طالب المجتبى، وبعده أخوه الحسين بن عليّ سيّد الشّهداء، ثمّ ابنه عليّ بن الحسين زين العابدين ثمّ ابنه محمّد بن عليّ باقر علوم النبيّين، ثمّ ابنه جعفر بن محمّد الصّادق، ثمّ ابنه موسى بن جعفر الكاظم، ثمّ ابنه عليّ بن موسى الرّضا، ثمّ ابنه محمّد بن علي الجواد التقي، ثمّ ابنه عليّ بن محمّد النقي الهادي، ثم ابنه الحسن بن عليّ العسكري، ثمّ ابنه الإمام القائم المنتظر الحجّة بن الحسن عليه السلام.

ويدلّ عليه وجوه من الأدلّة العقليّة والنقليّة، أما العقليّة فقد قدّمنا البحث عنها ولا تنطبق إلاّ عليهم سلام الله عليهم، وأمّا النقليّة فكثير من الآيات والأخبار المتواترة عن النبيّ ﷺ، وظهور معجزات كثيرة عنهم عليهم السلام عقيب ادعائهم الإمامة، ممّا أتى بها متكلموا الشيعة في كتبهم الكلاميّة ورواها فرق المسلمين في آثارهم وأسفارهم القيمة، والتعرض بذكر كلّ واحد منها والنقل عن مآخذها وتقرير دلالتها على التفصيل، والبسط يؤدي إلى تأليف مجلّدات عديدة ونحن بعون الله تعالى نحررها موجزةً في ابحاثنا الآتية، وإنّما الأهمّ من

---

(١) الكافي: ١/٢٠٣، والاحتجاج: ٢/٢٣٠، وبحار الأنوار: ٥/١٦٦.

غرضنا في المقام إقامة البراهين العقليّة في وجود الإمام، وقد أتينا بطائفة منها في ضمن هذه الخطبة التي في أوصاف آل محمّد ﷺ، ليزداد الطالب للحقّ بصيرة.

ولكن لما كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وصف آل محمّد ﷺ بأنّهم عيش العلم وموت الجهل، وأنّهم دعائم الإسلام وغيرها من الأوصاف المذكورة في الخطب السابقة فلنذكر نبذة من أحوالهم وشرذمة من آثارهم، كي يكون انموذجاً للطالب في أنوار علومهم وعظم مقامهم، وإن كانت عقولنا قاصرة عن اكتناه ما جبل في نفوسهم القدسيّة والإرتقاء إلى مرتبتهم العرشيّة. ونعم ما أشار إليه العارف الرومي بالفارسيّة.

در نيا بد حال پخته هيچ خام　　　پس سخن كوتاه بايد والسّلام

وفي الحقيقة مدحنا إيّاهم عليهم السلام راجع إلينا اعني أنا إذا مدحناهم مدحنا أنفسنا لأنا نخبر عن حسن سريرتنا وطيب سجيّتنا وسلامة عين بصيرتنا، كالذي يمدح الشمس يخبر عن شدّة نور بصره وسلامة عينه وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يحبّنا إلاّ مؤمن تقيّ ولا يبغضنا إلاّ منافق شقيّ»(١). ونعم ما قال العارف المذكور أيضاً:

مادح خورشيد مدّاح خود است　　　كه دوچشمم روشن ونا مرمد است
ذمّ خورشيد جهان ذمّ خود است　　　كه دوچشمم كور وتاريك وبداست
توبيخشا بر كسي كاندر جهان　　　شد حسود آفتاب كامران
تا ندش پوشيد هيچ از ديده ها　　　وز دراوت دادن پوسيده ها
يا ز نور بى حدش تانند كاست　　　يا بدفع جاه أو تانند خاست
نور مردان مشرق ومغرب گرفت　　　آسمانها سجده كردند از شگفت
هر كسى كو حاسد كيهان بود　　　آن حسد خود مرگ جاويدان بود
شمع حق رايف كنى تواى عجوز　　　هم توسوزى سرت اى گنده پوز
كي شود دريا ز پوز سگ نجس　　　كى شود خورشيد از پف منطمس
مه فشاند نور وسگ عوعو كند　　　هر كسى بر خلقت خود مى تند
اى بريده آب لب وحلق ودهان　　　كه كند تف سوى ماه آسمان
سوى گردون تف نيابد مسلكى　　　تف برويش باز گردد بى شكى
تا قيامت تف براو بارد ز ربّ　　　همچو تبّت بر روان بو لهب

---
(١) الصراط المستقيم: ١١٦/٢، وفضل آل البيت: ٩٩.

وكذا قال العارف الجامي في الدفتر الأوّل من سلسلة الذهب.

مادح أهل بيت در معنى — مدحت خويشتن كند يعنى
مؤمنم موقنم خداى شناس — وز خدايم بود اميد وهراس
از كجيها در اعتقادم پاك — نيست از طعن كج نهادم باك
دوستدار رسول وآل ويم — دشمن خصم بد سگال ويم
جوهر من ز كان ايشانست — رخت من ازد كان ايشانست

إلى أن قال:

اين نه رفض است محض إيمان است — رسم معروف أهل عرفا نست
رفض اگر هست حبّ آل نبيّ — رفض فرض است بر ذكى وغبي

«الإمام الأول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»

واعلم أنّ تلك الأوصاف المذكورة في الخطب لا تصدق حقيقة، إلاّ على آل محمّد صلى الله عليه وآله والمراد بآله ليس مطلق من صحبه أو عاصره أو عاش معه، لأنّ الضرورة قاضية على خلافه، فإنا لو نظرنا في صحابة الرّسول صلى الله عليه وآله وسبرناهم لوجدنا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله من كان وجوده حياة العلم وحياته دعامة الإسلام، ومن أزاح الباطل وأبطل المناكير وأعاد الحقّ إلى حدّه ومستقرّه، هو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لا غير فإنّ الكلّ متفق على أنّه عليه السلام كان أفضل الصّحابة في جميع الكمالات النفسانيّة والبدنيّة، وما طعن أحد في حكمه وفعله وقوله وعلمه، وصدرت من غيره عليه السلام ما لولا عليّ عليه السلام لمحق الدّين وهلك النّاس، كما أذعن الجميع بها ونقلها رواة السنة في جوامعهم، وكان المسلمون عند حدوث معضل يضربون به المثل بقولهم: قضيّة لا أبا حسن لها.

قال القاضي العضد الايجي الشافعي في مبحث الإمام من المواقف: عليّ أعلم الصحابة لأنّه كان في غاية الذّكاء والحرص على التعليم، ومحمّد صلى الله عليه وآله اعلم النّاس وأحرصهم على إرشاده، وكان في صغره في حجره وفي كبره ختناً له، يدخل عليه كل وقت، وذلك يقتضي بلوغه في العلم كلّ مبلغ، وأمّا أبو بكر فاتّصل بخدمته في كبره وكان يصل إليه في اليوم مرّة أو مرّتين ولقوله صلى الله عليه وآله: أقضاكم عليّ، والقضاء يحتاج إلى جميع العلوم ولقوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ وأكثر المفسرين على أنه عليّ، ولأنّه نهى عمر عن رجم من ولدت لستة أشهر وعن رجم الحاملة، فقال عمر: لولا عليّ لهلك عمر، ولقول عليّ عليه السلام لو كسرت لي الوسادة ثمّ جلست عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بانجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم، وقوله عليه السلام والله ما من آية نزلت في بر أو بحر أو سهل أو جبل أو سماء أو أرض أو ليل أو نهار إلاّ أنا أعلم فيمن نزلت وفي أي

شيء نزلت، ولأن عليّاً ﷺ ذكر في خطبه من أسرار التوحيد والعدل والنبوة والقضاء والقدر، ما لم يقع مثله في كلام الصحابة، ولأنّ جميع الفرق ينتسبون إليه في الأصول والفروع وكذا المتصوفة في علم تصفية الباطن، وابن عبّاس رئيس المفسرين تلميذه وكان في الفقه والفصاحة في الدرجة القصوى، وعلم النحو إنما ظهر منه وهو الذي أمر أبا الأسود الدؤلي بتدوينه وكذا علم الشجاعة وممارسة الأسلحة وكذا علم الفتوّة والأخلاق. إلى آخر ما قال فراجع.

وفي «**الكافي**» بإسناده إلى أبان بن أبي عيّاش، عن سليم بن قيس الهلالي في ذيل خطبة، نقل صدرها الرّضي رضوان الله عليه في «**نهج البلاغة**» (**الخطبة ٢٠٨**) ووعدنا نقل الذيل قبيل هذا، عنه ﷺ: وقد كنت أدخل على رسول الله ﷺ كلّ يوم دخلة وكل ليلة دخلة فيخليني فيها، أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنّه لم يصنع ذلك بأحد من النّاس غيري، فربّما كان في بيتي يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني، وأقام عني نساءه، فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم يقم عني فاطمة ولا أحداً من بني، وكنت إذا سألته أجابني وإذا سكتّ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلاّ أقرأنيها أو أملاها عليّ فكتبتها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامّها، ودعى الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله تعالى ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي، كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلاّ علّمنيه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً، ثمّ وضع يده على صدري ودعى الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً، فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمّي منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيئاً لم أكتبه. أفتتخوف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال: لا لست أتخوف عليك النسيان والجهل[1].

وأيضاً كتبه ورسائله وخطبه وحكمه من أوضح البراهين على ذلك، وقد تحيّرت في بعضها العقول وخضعت له أفكار الفحول لاشتمالها على اللطائف الحكميّة والمباحث العقليّة، والمسائل الإلهيّة في توحيد الله وصفاته عزّ اسمه، ولم ينقل لأحد من كبار الصحابة وفصحائهم، ولا من العرفاء الشامخين والحكماء المتألهين نحو خطبة واحدة منها لا لفظاً ولا معنى، بل كلّهم عيال له وكفى ببطل العلم فخراً أن يتناول من مأدبته ويرتوى من مشرع فصاحته.

(١) الكافي: ١/ ٦٤ ح ٢، ونهج السعادة: ٧/ ١٤٥، وحياة أمير المؤمنين: ١/ ٢١١.

وهذا هو عبد الحميد الذي قال فيه ابن خلّكان في **«وفيات الأعيان»**: أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الكاتب البليغ المشهور، كان كاتب مروان بن الحكم الأموي آخر ملوك بني أميّة وبه يضرب المثل في البلاغة، حتّى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد، وكان في الكتابة وفي كلّ فنّ من العلم والأدب إماماً، وعنه أخذ المترسّلون ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسّل، ومجموع رسائله مقدار ألف ورقة وهو أوّل من أطال الرّسائل، واستعمل التحميدات في فصول الكتاب فاستعمل النّاس ذلك بعده ـ قال: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثمّ فاضت، ويعني بالأصلع أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام[1].

وهذا هو ابن نباتة قائل الخطبة المناميّة ـ الذي قال فيه ابن خلّكان: أبو يحيى عبد الرّحيم بن محمّد بن إسماعيل بن نباتة صاحب الخطب المشهورة، كان إماماً في علوم الأدب ورزق السعادة في خطبه، التي وقع الإجماع على أنّه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ـ قال: حفظت من الخطبة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلاّ سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ عليّ بن أبي طالب[2].

وهذا هو الحكيم البارع الإلٰهي المولى صدراً قدّس سرّه، تمسّك في الفصل الثالث من الموقف الثاني من المجلّد الثالث من الأسفار الأربعة، المعنون بقوله: في تحقيق القول بعينيّة الصفات الكماليّة للذّات الأحديّة ـ بقوله عليه السلام في نفي المعاني والصفّات الزائدة عن ذاته تعالى، فقال:

وقد وقع في كلام مولانا وإمامنا مولى العارفين وإمام الموحدين، ما يدلّ على نفي زيادة صفات الله تعالى بأبلغ وجه وآكد، حيث قال عليه السلام في خطبة من خطبه المشهورة: أوّل الدّين معرفته، وكمال المعرفة التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال التوحيد الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، بشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصفه سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدّه **(ومن حدّه)** فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمّنه، ومن قال على م فقد أخلى عنه. انتهى كلامه المقدّس على نبيّنا وعليه وآله السّلام والإكرام، وهذا الكلام الشريف مع وجازته متضمن لأكثر المسائل الإلٰهيّة ببراهينها، ولنشر إلى نبذ من بيان أسراره وانموذج من كنوز أنواره. ثمّ نشرحه في ذلك الفصل بما تيسّر له من فهم أسرار كلماته عليه السلام.

---

(١) كتاب الأربعين: ٤١٩، ومستدرك سفينة، البحار: ٣/ ١٣٠.

(٢) الكنية والألقاب: ١/ ٤٣٦.

ولله درّ من قال: إنّ كلامه عليه السلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين[١]، وكأنّ روح القدس نفث في روع الشريف الرّضي رضي الله عنه، أن سمّى ما جمعه من كلامه عليه السلام بنهج البلاغة.

وهذا هو خصمه النّاصب وحاربه المعاند الجاحد وعدوّه ومبغضه الذي يجتهد في وصمه ويلعنه على المنابر، وأمر الناس بلعنه أمام الفئة الباغية معاوية بن أبي سفيان، قال لعبد الله بن أبي محجن الثقفي، لما قال له: أنّي أتيتك من عند الغبيّ الجبان البخيل ابن أبي طالب، فقال معاوية: لله أنت! أتدري ما قلت؟ أمّا قولك: الغبيّ، فوالله لو أن ألسن النّاس جمعت فجعلت لساناً واحداً لكفاها لسان عليّ؛ وأمّا قولك: إنّه جبان، فثكلتك أمّك، هل رأيت أحداً قطّ بارزه إلاّ قتله؟ وأمّا قولك: إنّه بخيل فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبن لأنفد تبره قبل تبنه. فقال الثقفي فعلام تقاتله إذاً؟ قال: على دم عثمان، وعلى هذا الخاتم الذي من جعله في يده جازت طينته وأطعم عياله وادّخر لأهله. فضحك الثقفي ثمّ لحق بعليّ فقال: يا أمير المؤمنين هب لي يدي بجرمي لا دنيا أصبت ولا آخرة. فضحك عليّ عليه السلام ثمّ قال: أنت منها على رأس أمرك، وإنّما يأخذ الله العباد بأحد الأمرين «نقله ابن قتيبة الدينوري في **«الإمامة والسياسة»**[٢].

وقال ابن حجر في صواعقه: أخرج أحمد أن رجلاً سأل معاوية عن مسألة فقال: سل عنها علياً فهو أعلم، قال: جوابك فيها أحب إليّ من جواب عليّ قال: بئس ما قلت، لقد كرهت رجلاً كان رسول الله يغره بالعلم غرّا، ولقد قال له: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي وكان عمر إذا أشكل عليه شيء أخذ منه - إلى آخر ما قال[٣].

ثمّ إن قولنا: وما طعن فيه أحد ممّا شهد له المخالف والموالف، وإن كان الخصم ربما يشتمه ويسبّه كشتم الوطواط الشمس. ومن الشواهد في ذلك ما كتبه المؤرخون والرواة والمحدثون خلفاً عن سلف: أن أناساً لما اجتمعوا وتبادروا إلى ولاية الأمر واتفق لأبي بكر ما اتفق وبدر الطلقاء بالعقد للرجل، خوفاً من إدراك عليّ عليه السلام الأمر لم يجدوا فيه عليه السلام مطعناً ولا مغمزاً إلاّ عابوه بالدّعابة، فاستمسكوا بها في منعه عليه السلام عن الخلافة، وممّن أتى بما قلنا الفاضل الشّارح ابن أبي الحديد المعتزلي في الموضعين من مقدمة شرحه على **«نهج البلاغة»** حيث قال في سجاحة اخلاقه عليه السلام **(ص ٦ ج ١ طبع الطهران ١٣٠٤)**: وأمّا سجاحة

---

(١) البيان: في تفسير القرآن: ٧٧، وشرح النهج: ١/ ٢٤.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٣٥.

(٣) حلية الأبرار: ٢/ ٤٢٤ ح ١١، وبحار الأنوار: : ٣٧/ ٢٦٦ ح ٤٠.

الأخلاق وبشر الوجه وطلاقة المحيّا والتّبسم فهو المضروب به المثل فيه، حتّى عابه بذلك أعداؤه، قال عمرو بن العاص لأهل الشام: أنه ذو دعابة وقال عليّ عليه السلام في ذاك: عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن فيّ دعابة وأني امرؤ تلعابة أعافس وأمارس، وعمرو بن العاص إنّما أخذها عن عمر بن الخطاب لقوله لما عزم لاستخلافه: لله أبوك لولا دعابة فيك، إلاّ أن عمر اقتصر عليها وعمراً زاد فيها وسمجها.

ثمّ قال (ص ١١ منه): وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشجع النّاس وأعظمهم إراقة للدم وأزهدهم، وأبعد النّاس عن ملاذ الدّنيا وأكثرهم وعظاً وتذكيراً بأيام الله ومثلاته، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة، وأدأباً لنفسه في المعاملة، وكان مع ذلك ألطف العالم أخلاقاً، وأسفرهم وجهاً وأكثرهم بشراً وأوفاهم هشاشة وبشاشة، وأبعدهم عن انقباض موحش أو خلق نافر، أو تجهّم مباعد أو غلظة وفظاظة تنفر معهما نفس أو يتكدّر معهما قلب حتّى عيب بالدعابة، ولما لم يجدوا فيه مغمزاً ولا مطعنا تعلقوا بها واعتمدوا في التنفير عليها. مصراع: وتلك شكاة طاهر عنك عارها. انتهى ما أردنا من نقل كلامه[١].

الأحاديث والآيات في علي عليه السلام

بعد الصفح عن الآثار الباقية عن عليّ عليه السلام الدالة على علوّ رتبته ورفعة منزلته، بحيث لم يسبقه الأوّلون ولا يدركه الآخرون علماً وحكمة وزهداً ومعرفة بالله، نجد روايات متواترة متظافرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله منقولة من جوامع الفريقين ما لا تحصى كثرة، وكذا آيات كثيرة قرآنية في أنّه عليه السلام خليفة رسول الله بلا فصل ووصيّه وأخوه، وأنه أفضل من غيره وأعلم الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وباب مدينة العلم وأنّه من رسول الله بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعده، وأنّه قاضي دينه صلى الله عليه وآله وأنه وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة من بعده صلى الله عليه وآله، وأنّه نفس رسول الله وأن الله أذهب عنه الرجس وطهره تطهيراً وغيرها مما دونت لها ولضبط طرقها وأسانيدها كتب مفصلة على حدة ملأت الآفاق فهو عليه السلام عيش العلم ودعامة الإسلام[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ٤/ ٨٩، وشرح نهج البلاغة: ١/ ٥١.

(٢) **نصوص النبي على أمير المؤمنين عليهما السلام**

أ ـ أخرج الطبراني وعبد الرزاق بسند في المصنف رجاله ثقات عن أبيه عن ميناء عن عبدالله بن مسعود قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وآله ليلة وفد الجن، قال: فتنفّس فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟

قال: «**نعيت إليّ نفسي يا ابن مسعود!**».

قال: قلت: فاستخلف.

قال: «**مَن؟**» قلت: أبو بكر، قال: فسكت، ثم مضى ساعة ثم تنفّس، قال: فقلت: ما شأنك؟

قال: «**نعيت إليّ نفسي يا ابن مسعود**».

«الإمام الثاني والثالث»

سبطا رسول الله ﷺ وريحانتاه وسيّدا شباب أهل الجنّة الحسن والحسين سلام الله

قال: قلت: فاستخلف. قال: «مَنْ؟»
قلت: عمر، قال: فسكت ثم مضى ساعة ثم تنفّس.
قال: فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إليّ نفسي يا ابن مسعود!».
قال: قلت: فاستخلف. قال: «مَنْ؟»
قلت: علي بن أبي طالب.
قال: «أما والذي نفسي بيده لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين اكتعين» (المصنف لعبد الرزاق: ١١/٣١٧ ـ ٣١٨ ح٢٠٦٤٦ باب في ذكر علي بن أبي طالب، و فرائد السمطين: ١/٢٦٧ ح٢٠٩، ومناقب الخوارزمي: ١١٤ ح١٢٤ فصل ٩. والمعجم الكبير: ١٠/٦٧ ح٩٩٧٠ ترجمة ابن مسعود ـ ذكر ليلة الجن، ومجمع الزوائد عن أحمد وقال: رجاله ثقات وميناء وثّقه ابن حبان: ٩/٢٢ ط. مصر و٨/٥٩٠ ح١٤٢٣٩ من بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد).
ب ـ وأخرجه الطبراني بسند آخر قال: «وما أظن أجلي إلاّ قد اقترب».
قلت: يا رسول الله ألا تستخلف أبا بكر؟
فأعرض عنّي فرأيت انّه لم يوافقه.
فقلت: يا رسول الله ألا تستخلف عمر؟
فأعرض عنّي فرأيت أنه لم يوافقه.
فقلت: يا رسول الله ألا تستخلف عليّاً؟
قال: «ذاك والذي لا إله غيره لو بايعتموه وأطعتموه أدخلكم الجنّة أجمعين» (المعجم الكبير: ١/٦٧ ح٩٩٦٩ ترجمة ابن مسعود ليلة الجن، ومجمع الزوائد: ٨/٣١٥ ط. مصر).
ج ـ وأخرج أبو جعفر الاسكافي وابن أبي الحديد عن أبي مخنف لوط بن يحيى واللفظ له:
جاءت عائشة إلى أمّ سلمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان ـ وساق الحديث إلى أن قال ـ قالت ـ أمّ سلمة ـ: واذكرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ في سفر له وكان علي يتعاهد نَعْلَيْ رسول الله ﷺ فيخصفها، ويتعاهد أثوابه فيغسلها، فنقبت له نعل فأخذها يومئذ يخصفها وقعد في ظلّ شجرة، وجاء أبوك ومعه عمر، فاستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب ودخلا يحادثانه فيما أراد، ثم قالا: يا رسول الله انّا لا ندري قد ما تصحبنا، فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعاً؟
فقال لهما: «اما إني قد أرى مكانه ولو فعلت لتفرّقتم عنه كما تفرّقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران» فسكتا ثم خرجا. فلما خرجنا إلى رسول الله ﷺ قلتِ له ـ وكنت أجرأ عليه منّا: مَنْ كنت يا رسول الله مستخلفاً عليهم؟
فقال: «خاصف النعل». فنظرنا فلم نرَ أحداً إلاّ عليّاً، فقلت: يا رسول الله ما أرى إلاّ عليّاً.
فقال: «هو ذاك».
فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك.
فقالت أم سلمة: أي خروج تخرجين بعد هذا؟ (شرح النهج لابن أبي الحديد: ٦/٢١٧ ـ ٢١٨ شرح المختار ٧٩ قوله: معاشر الناس ان النساء.. ط. دار احياء الكتب العربية بمصر للحلبي و٢/٧٧ ط. مصر القديمة، والمعيار والموازنة للاسكافي: ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩).

عليهما. قال ابن الأثير في «**أسد الغابة في معرفة الصحابة**»، وكذا في كثير من كتب جوامع

د ـ وأخرج الخطيب عن وهب بن كعب عن سلمان انّه قال: يا رسول الله انّه ليس من نبي إلاّ وله وصيّ وشيطان فمن وصيّك وشيطانك؟

فسكت رسول الله ﷺ، ولم يرجع إليه شيئاً.

فلمّا صلّى رسول الله الظهر قال: «**إدن يا سلمان سألتني عن شيء لم يأتني فيه أمر، وقد أتاني: ان الله تعالى بعث أربعة آلاف نبي وكان لهم أربعة آلاف وصي وثمانية آلاف شيطان، فوالذي نفسي بيده لأنا خير النبيين ووصيي خير الوصيين، وشيطاني خير الشياطين**» (اللالئ المصنوعة: ١/ ٣٦٠ مناقب الخلفاء الأربعة، والكامل لابن عدي: ١/ ١٣٠ رقم الترجمة ١٦١).

هـ ـ وأخرج العقيلي عن أبي هريرة عن سلمان بلفظ قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله ان الله لم يبعث نبيّاً إلاّ بيّن له من يلي بعده فهل بيّن لك؟

قال: «**لا**».

ثم سألته بعد ذلك.

فقال: «**نعم علي بن أبي طالب**» (اللآلئ المصنوعة: ١/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧).

و ـ وأخرج ابن اسحاق والخطيب البغدادي في تلخيص المتشابه عن سلمان انّه سأل رسول الله فقال: يا رسول الله انّه ليس من نبي إلاّ وله وصي وسبطان فمن وصيّك ومن سبطانك (وسبطاك)؟

فسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع شيئاً، فانصرف سلمان يقول: يا ويله كلّما لقيه ناس من المسلمين، قالوا: مالكَ سلمان الخير؟

فيقول: سألت رسول الله ﷺ عن شيء فلم يرد عليّ، فخفت أن يكون من غضب.

فلمّا صلّى رسول الله ﷺ الظهر، قال: «**ادن يا سلمان**».

فجعل يدنو ويقول: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسول الله.

فقال: «**سألتني عن شيء لم يأتني فيه أمر وقد أتاني. ان الله تعالى عزّوجلّ قد بعث أربعة آلاف نبي، وكان لهم أربعة آلاف وصي وثمانية آلاف سبط، فوالذي نفسي بيده لأنا خير النبيين ووصيي خير الوصيين، وسبطي (سبطاي) خير الأسباط**» (تلخيص المتشابه في الرسم: ١/ ٥٤٤ رقم ٩١٥ الفصل الثاني باب الخلاف في ثلاثة أحرف، وسيرة ابن إسحاق: ١٢٤ ـ ١٢٥ ذيل حديث بنيان الكعبة وما بين المعقودين منه).

ز ـ وعن ابن عمر قال: مرّ سلمان الفارسي وهو يريد أن يعود رجلاً ونحن جلوس في حلقة وفينا رجل يقول: «**لو شئت لأنبأتكم بأفضل هذه الأمّة بعد نبيها، وأفضل من هذين الرجلين أبي بكر وعمر**».

فسئل سلمان فقال: «**أما والله لو شئت لأنبأتكم بأفضل هذه الأمّة بعد نبيها، وأفضل من هذين الرجلين أبي بكر وعمر**» ثم مضى سلمان.

فقيل له: يا أبا عبد الله ما قلت؟

قال: دخلت على رسول الله ﷺ في غمرات الموت فقلت: يا رسول الله هل أوصيت؟

قال: «**يا سلمان أتدري من الأوصياء؟**».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «**آدم وكان وصيه شيث وكان أفضل من تركه بعده من ولده، وكان وصي نوح سام، وكان أفضل من تركه بعده، وكان وصي موسى يوشع وكان أفضل من تركه بعده، وكان وصي عيسى شمعون وكان أفضل من تركه بعده، واني أوصيت إلى علي وهو أفضل من أتركه من بعدي**» (ينابيع المودة: ١/ ٢٥٣ ط. تركيا و٣٠١ ط. النجف ذيل الباب ٥٦).

الفريقين، والتفاسير العديدة بالأسانيد الكثيرة والطرق المتظافرة: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بيت أم سلمة فدعا النبي ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساء وعليّ خلف ظهره ثمّ قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً قالت أمّ سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: أنت على مكانك أنت إلى خير[(١)].

ثمّ قال ابن الأثير: بإسناده عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتّى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[(٢)].

وفيه عن البراء قال: رأيت رسول الله ﷺ واضعاً الحسن بن عليّ على عاتقه وهو يقول: «اللّهم إنّي أحبّه فأحبّه»[(٣)].

وفيه عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً حسين سبط من الأسباط»[(٤)].

وفيه أن رسول الله ﷺ سمّى الحسن والحسين والمحسن بأسماء ولد هارون شبر وشبير ومشبر.

أقول: هذا الحديث إشارة إلى قوله ﷺ فيه عليه السلام: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى.

وروى الشيعة عنه ﷺ متواتراً: أنه قال للحسين عليه السلام: هذا ابني إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم»[(٥)].

ح ـ وأخرج الإمام زيد في مسنده وعلي بن حميد عن مجموع الفقه بسنده إلى علي عن النبي ﷺ انّه قال: قال لي ربّي عزّوجلّ ليلة أسري بي: «من خلفت على أمّتك يا محمّد؟».
قلت: «أنت يا ربّ أعلم».
قال: «يا محمّد انني اجتبيتك برسالتي واصطفيتك بنفسي وأنت نبيي وخيرتي من خلقي، ثمّ الصديق الأكبر الطاهر المطهر الذي خلقته من طينتك وجعلته وزيرك وأبا سبطيك السيّدين الشهيدين الطاهرين سيدي شباب أهل الجنّة، وزوجته خير نساء العالمين» مسند شمس الأخبار: ٨٩ باب ٥ عن البقال البغدادي في المجموع الفقهي، ومسند الإمام زيد: ٣٦٢ باب فضل العلماء.

(١) مناقب أمير المؤمنين (ع): ١/١٥٧ ح ٩٢، وذخائر العقبى: ٢١.
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/١٢٣، ومسند الرضا (ع): ٢٠٤، ومناقب أمير المؤمنين (ع): ٢/٩٨ ح ٥٨٤.
(٣) بحار الأنوار: ٤٣/٢٩٨ ح ٦٢، وصحيح ابن حبان: ١٥/٤١٦.
(٤) شرح الأخبار: ٣/١١٢ ح ١٠٥٠، والإرشاد: ٢/١٢٧.
(٥) الصراط المستقيم: ٢/١١٨، وبحار الأنوار: ٣٦/٣٧٢.

والأحاديث المنقولة عن النبي ﷺ من الفريقين مشتركة فيهما، ومنفردة في كلّ واحد منهما الدالّة على إمامتهما وفضلهما على غيرهما، وأنّهما على الحقّ حيث دارا ودار مما لا تحصى كثرة.

«الإمام الرابع»

هو سيّد الساجدين وزين العابدين وقدوة السالكين والزاهدين، إمام الثقلين ذو الثّفنات أبو الحسن عليّ بن الحسين صلوات الله عليهما، خلف عليه السلام كتاباً جذب عقول الحكماء المتألهين إلى دقائق حقائقه، وشحذ أفكار العلماء الشامخين في درك أسرار لطائفه، فغاصوا في بحار معانيه لاقتناء درره، وشمّروا عن ساق الهمة لاجتناء ثمره، فنالتهم العائدة من تلك المائدة الإلٰهية بقدر الوسع والقابليّة، ألا وهو زبور آل محمّد وإنجيل أهل البيت الصحيفة الكاملة السجاديّة. أرأيت هل تيسّر لأحد من العلماء المتبحرين في الفنون العديدة أن يحذو حذوه عليه السلام في أداء تلك المعاني الجزيلة، بتلك العبارات الوجيزة الجميلة وهل تجد لأسلافنا الماضين، من غير بيت الآل من نسج المعاني بالألفاظ على ذلك المنوال؟ ولعمري وما عمري عليّ بهيّن لو أعيد عبد الحميد وعوضد بابن العميد على أن يأتي بمثل دعاء منها، لرأيت أنه لا يلوم إلاّ نفسه ولا يروم إلاّ رمسه.

ولله درّ الحكيم البارع والعالم الجامع المتضلّع في الفنون العلمية، صاحب الكتب القيمة صدر الدين المدني عليّ بن أحمد نظام الدين الحسيني الحسني، حيث قال في مقدمة شرحه على صحيفة سيّد الساجدين الموسوم برياض السالكين: واعلم أن هذه الصحيفة الشريفة عليها مسحة من العلم الإلٰهي، وفيها عبقة من الكلام النبوي، كيف لا وهي قبس من نور مشكاة الرسالة، ونفحة من شميم رياض الإمامة حتّى قال بعض العارفين: إنّها تجري مجرى التنزيلات السماوية وتسير مسير الصحف اللوحيّة والعرشيّة لما اشتملت عليه من أنوار حقائق المعرفة، وثمار حدائق الحكمة، وكان أخيار العلماء وجهابذ القدماء من السلف الصالح يلقبونها بزبور آل محمّد وإنجيل أهل البيت قال الشيخ محمّد بن علي بن شهر آشوب في معالم العلماء، في ترجمة المتوكل بن عمير: روى عن يحيى بن زيد بن عليّ عليه السلام دعاء الصحيفة وتلقب بزبور آل محمّد. ثمّ قال: وأمّا بلاغة بيانها فعندها تسجد سحرة الكلام، وتذعن بالعجز عنها مدارة الأعلام وتعترف بأن النّبوة غير الكهانة، ولا يستوى الحقّ والباطل في المكانة، ومن حام حول سمائها بغاسق فكره الواقب، رمي من رجوم الخذلان بشهاب ثاقب، حكى ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب عليه السلام: أن بعض البلغاء بالبصرة ذكرت عنده الصحيفة الكاملة فقال: خذوا عنّي حتّى أملي عليكم مثلها، فأخذ القلم وأطرق رأسه فما رفع حتّى مات، ولعمري لقد رام شططاً فنال سخطاً. انتهى ما أردنا من نقل كلامه.

«كلام طنطاوي صاحب التفسير في الصحيفة السجادية»

قال بعض علمائنا المعاصرين في مقدمته على صحيفة سيّد الساجدين، **(ص كح طبع طهران عاصمة إيران ١٣٦١ هـ)**: وإنّي في سنة ١٣٥٣ هـ بعثت نسخة من الصحيفة الشريفة إلى العلامة المعاصر الشيخ جوهري طنطاوي صاحب التفسير المعروف، مفتي الاسكندرية ليطالعها فكتب إليّ من القاهرة وصول الصحيفة وشكر لي على هذه الهدية السنيّة، وأطرى في مدحها والثناء عليها ـ إلى أن قال: ومن الشقاء أنا إلى الآن لم نقف على هذا الأثر القيّم الخالد من مواريث النبّوة، وأهل البيت، وإنّي كلّما تأملتها رأيتها فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق ـ إلى آخر ما قال: ثمّ سأل عني هل شرحها أحد من علماء الإسلام فكتبت إليه أسامي من شرحه، ممن كنت أعلم به وقدمت لسماحته «**رياض السالكين**» للسيّد علي خان وكتب في جواب وصوله إنّي مصمّم ومشمّر الذيل على أن أكتب شرحاً على هذه الصحيفة العزيزة. انتهى[1].

«كلام محيي الدين الأعرابي (أو المغربي) فيه عليه السلام»

قال في المناقب: صلوات الله وملائكته وحملة عرشه وجميع خلقه من أرضه وسمائه على آدم أهل البيت، المنزّه عن كيت وما كيت، روح جسد الإمامة، شمس الشهامة، مضمون كتاب الإبداع، حلّ تعمية الاختراع سرّ الله في الوجود، إنسان عين الشهود، خازن كنوز الغيب مطل نور الإيمان كاشف مستور العرفان، الحجة القاطعة، والدرة اللامعة، ثمرة شجرة طوبى القدسيّة، أزل الغيب وأبد الشهادة، السرّ الكلّ في سرّ العبادة، وتد الأوتاد وزين العبّاد، إمام العالمين، ومجمع البحرين، زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام.

«كلام محمد بن طلحة الشافعي فيه عليه السلام»

هذا زين العابدين وقدوة الزاهدين، وسيّد المتقين وإمام المؤمنين، شمته يشهد له أنّه من سلالة رسول الله، وسمته يثبت مقام قربة من الله زلفى، وثفناته يسجل بكثرة صلاته وتهجده. وإعراضه عن متاع الدّنيا ينطق بزهده، درت له أخلاق التقوى فيعوقها، وأشرقت لربه أنوار التأييد فاهتدى بها، وألفته أوراد العبادة فأنس بصحبتها، وخالفته وظائف الطاعة فتحلى بحليتها، طالما اتخذ الليل مطيّة ركبها لقطع طريق الآخرة، وظماء هواء حرّ دليلاً استرشد به في مفازة المسافرة، وله من الكرامات وخوارق العادات ما شوهد بالأعين الباصرة، وثبت بالآثار المتواترة، وشهد له أنّه من ملوك الآخرة.

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٤/ ٢١٠.

قال أحمد بن خلّكان في «**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**» في ترجمته عليه السلام: أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام المعروف بزين العابدين ويقال له: عليّ الأصغر وليس للحسين عقب إلاّ من ولد زين العابدين، هذا وهو أحد الأئمة الاثنا عشر ومن سادات التابعين، قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه، وكان يقال لزين العابدين عليه السلام ابن الخيرتين لقوله عليه السلام: لله تعالى من عباده خيرتان فخيرته من العرب قريش ومن العجم فارس[1].

وذكر أبو القاسم الزمخشري في كتاب «**ربيع الأبرار**» أن الصحابة لمّا أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر بن الخطاب، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد أيضاً فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد، فقال له عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أن بنات الملوك لا يعاملن معاملة كغيرهنّ من بنات السوقة، فقال: كيف الطريق إلى العمل معهن؟ قال: يقوّمن ومهما بلغ من ثمنهنّ قام به من يختارهنّ، فقوّمن فأخذهنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر، والأُخرى لولده الحسين، والأخرى لمحمّد بن أبي بكر، فأولد عبد الله أمته ولده سالماً، وأولد الحسين أمته زين العابدين عليه السلام، وأولد محمّد أمته القاسم فهؤلاء الثلاثة بنو خالة وأُمهاتهم بنات يزدجرد.

ثمّ قال: وحكى المبرّد في كتاب «**الكامل**» ما مثاله، يروى عن رجل من قريش لم يسمّ لنا قال: كنت اجالس سعيد بن المسيّب فقال لي يوماً: من أخوالك؟ فقلت: أمي فتاغة، فكأنّي نقصت في عينه، فأمهلت حتّى دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فلمّا خرج من عنده قلت: يا عم من هذا؟ فقال: يا سبحان الله العظيم أتجهل مثل هذا، هذا من قومك هذا سالم بن عبد الله بن عمر، قلت: فمن أُمّه؟ فقال: فتاة، قال: ثمّ أتاه القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصديق، فجلس عنده ثمّ نهض، قلت: يا عمّ من هذا؟ قال: أتجهل من أهلك مثله ما أعجب هذا، هذا القاسم بن محمّد ابن أبي بكر، قلت: فمن أُمّه قال: فتاة فأمهلت شيئاً حتّى جاءه عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام فسلم عليه ثمّ نهض قلت: يا عمّ من هذا فقال: هذا الذي لا يسع مسلماً أن يجهله، هذا عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقلت: من أمّه؟ فقال: فتاة فقلت: يا عم رأيتني نقصت من عينك حين قلت لك: أمّي فتاة أفما بالي بهؤلاء أسوة، قال: فجلّلت في عينه جدًّا.

ثمّ قال: وكان زين العابدين كثير البرّ بأمّه، حتى قيل له: إنّك من أبرّ النّاس بأُمّك ولسنا نراك تأكل معها في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها فأكون

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٠٤، ومناقب أهل البيت للشيرواني: ٢٥٦، وتاج العروس: ٩/ ١٥٦.

قد عققتها. إلى أن قال: وفضائل زين العابدين ومناقبه أكثر من أن تحصر. وكانت ولادته يوم الجمعة في بعض شهور سنة ٣٨ للهجرة وتوفي سنة ٩٤ وقيل ٩٩ وقيل ٩٢ للهجرة بالمدينة ودفن في البقيع في قبر عمه الحسن بن عليّ عليه السلام في القبة التي فيها قبر العبّاس رضي الله عنه[1].

ثمّ إنّ لفارس ميدان الشعر سحبان عصره، أبي فراس همام بن غالب بن الصعصعة الملقب بالفرزدق التميمي المجاشعي رحمة الله عليه، في مدحه عليه السلام قصيدة غرّاء بلغت في جودة ألفاظها وعذوبة معانيها غاية تستشهد بأبياتها الأدباء، والحريّ فيها أن يقال: إن من الشعر لحكمة، وأن من الكلام لسحراً، أشار فيها إلى طائفة من علوّ رتبته عليه السلام وسموّ درجته وشرذمة من منزلة شأنه، ومكانة أمره، في واقعة اقتضت ذلك، كما نشير إليها، وأتى ببعض أبياتها أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في كتابه المعروف بالحماسة (**الحماسة ٧٠٨**) التي دلّت على غزارة فضله واتقان معرفته بحسن اختياره، معنوناً بقوله: وقال الفرزدق يمدح عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليهم، مبتدئاً بقول الفرزدق: إذا رأته قريش قال قائلها، وبعده: هذا الذي تعرف البطحاء، وبعده: يكاد يمسكه، وبعده: أي القبائل ليست، وبعده: بكفه خيزران، وبعده يغضي حياء، وختم به. وكذا أتى بعشرين بيتاً منها أبو الفرج الأصبهاني في «**الأغاني**» في ترجمة الفرزدق (**الجزء التاسع عشر ص ٤٠ طبع ساس**) وكذا أتى بعدة أبيات منها الشريف المرتضى علم الهدى في أماليه، المعروف «**بغرر الفوائد ودرر القلائد**»، وكذا ذكر سبعاً وعشرين منها أحمد بن خلّكان في «**وفيات الأعيان**»، عند ترجمة الفرزدق، وكذا غيرهم من كبار المؤلفين وأعاظم المؤرخين، ولا حاجة إلى ذكرهم لأنّ القضية بلغت في وضوحها كالشمس في رائعة النّهار ويعدّ من متواترات الأخبار والآثار.

وأمّا تلك الواقعة الموعودة فقال أبو الفرج الأصبهاني في «**الأغاني**»: أخبرني عبد الله بن عليّ بن الحسن الهاشمي، عن حيّان بن عليّ العنزي عن مجالد عن الشعبي قال: حجّ الفرزدق بعدما كبر وقد أتت له سبعون سنة وكان هشام بن عبد الملك قد حجّ في ذلك العام، فرأى عليّ بن الحسين في غمار النّاس في الطواف فقال: من هذا الشاب الذي تبرق أسرة وجهه كأنّه صينيّة تتراءى فيها عذارى الحيّ وجوهها؟ فقالوا: هذا عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليهم، فقال الفرزدق: هذا الذي تعرف البطحاء وطأته: إلى آخر من أتى بها، وقال بعد نقل القصيدة: فغضب هشام فحبسه بين مكّة والمدينة فقال:

أتحبسني بين المدينة والتي ... إليها قلوب النّاس يهوى منيبها

(١) بحار الأنوار: ٤٦/ ١٥١ ح ١٠، والأنوار البهية: ١٢٧.

تقلّب رأساً لم يكن رأس سيد وعيناً له حولاء باد عيوبها

فبلغ شعره هشاماً فوجّه فأطلقه. وقال في ينابيع المودّة: وكان هشام أحول[1].

وقال ابن خلّكان في **«وفيات الأعيان»** في ترجمة الفرزدق: وتنسب إليه مكرمة يرجى له بها الجنّة، وهي أنّه لما حجّ هشام بن عبد الملك في أيّام أبيه فطاف وجهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه فلم يقدر لكثرة الزحام، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى النّاس، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، وكان من أحسن النّاس وجهاً وأطيبهم أرجاً، فطاف بالبيت فلما انتهى إلى الحجر تنحى له النّاس حتّى استلم، فقال رجل من أهل الشام: من هذا الذي هابه النّاس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، فيملكون، وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه، فقال الشامي: من هو يا أبا فراس؟ فقال: هذا الذي تعرف البطحاء ـ إلى آخر ما ذكر من أبيات تلك القصيدة.

ونحن نذكر القصيدة بتمامها تيمّنا بها ونشرح بعض ما يحتاج إليه بالتفسير والسؤال:

يا سائلي أين حلّ الجود والكرم عندي بيان إذا طلا به قدموا

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلّهم هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا الذي أحمد المختار والده صلّى عليه إلهي ما جرى القلم

لو يعلم الركن من ذا جاء يلثمه لخرّ يلثم منه ما وطى القدم

هذا عليّ رسول اللّه والده أمست بنور هداه تهتدى الأُمم

هذا الذي عمّه الطيار جعفر والـ ـمقتول حمزة ليث حبّه قسم

هذا ابن سيّدة النسوان فاطمة وابن الوصي الذي في سيفه سقم

إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

ينمى إلى ذروة العزّ التي قصر ت عن نيلها عرب الإسلام والعجم

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

وليس قولك: من هذا؟ بضائره العرب تعرف من انكرت والعجم

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلّم إلاّ حين يبتسم

(١) الاختصاص: ١٩٤، وأمالي المرتضى: ٤٩، وينابيع المودة: ٣/١٠٩ ـ ١٥٨.

في كفّه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع في عرينه شمم

ينشقّ ثوب الدجى عن نور غرّته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم

ما قال لا قطّ إلاّ في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم

مشتقة من رسول اللّه نبعته ... طابت مغارسه والخيم والشيم

حمّال أثقال أقوام إذا فدحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعم

إن قال قال بما تهوى جميعهم ... وإن تكلم يوماً زانه الكلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجدّه أنبياء اللّه قد ختموا

اللّه شرّفه قدماً وعظّمه ... جرى بذاك له في لوحه القلم

من جدّه دان فضل الأنبياء له ... وفضل أُمّته دانت له الأُمم

عمّ البريّة بالإحسان وانقشعت ... عنها العماية والإملاق والظلم

كلتا يديه غياث عمّ نفعهما ... يستو كفان ولا يعروهما عدم

سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه خصلتان الحلم والكرم

لا يخلف الوعد ميمون نقيبته ... رحب الفناء أريب حين يعترم

من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم

يستدفع السوء والبلوى بحبّهم ... ويستزاد به الإحسان والنعم

مقدم بعد ذكر اللّه ذكرهم ... في كل بدء ومختوم به الكلم

إن عدّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض؟ قيل هم

لا يستطيع جواد بعد جودهم ... ولا يدانيهم قوم وإن كرموا

هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والبأس محتدم

يأبى لهم أن يحلّ الذم ساحتهم ... خيم كريم وأيد بالندى ديم

لا يقبض العسر بسطاً من أكفّهم ... سيّان ذلك إن أثروا وإن عدموا

أيّ القبائل ليست في رقابهم ... لأوّليّة هذا أوله نعم

من يعرف اللّه يعرف أوّليّته ... فالدّين من بيت هذا ناله الأمم

بيوتهم في قريش يستضاء بها ... في النائبات وعند الحكم إن حكموا

فجدّه من قريش في أرومتها ... محمّد وعليّ بعده علم

بدر له شاهد والشعب من أُحد ... والخندقان ويوم الفتح قد علموا

وخيبر وحنين يشهدان له ... وفي قريظة يوم صيلم قتم

مواطن قد علت في كلّ نائبة على الصحابة لم أكتم كما كتموا

وقال ابن خلّكان: لمّا سمع هشام هذه القصيدة غضب، وحبس الفرزذق، وأنفذ له زين العابدين عليه السلام اثنى عشر ألف درهما فردّها وقال: مدحته لله تعالى لا للعطاء فقال: إنا أهل البيت وهبنا شيئاً لا نستعيده فقبلها(١).

وفي «البحار» نقلاً عن «الاختصاص» بإسناده: عليّ بن الحسين بن يوسف عن محمّد بن جعفر العلوي، عن الحسن بن محمّد بن جمهور، عن أبي عثمان المازني، عن كيسان، عن جويرية بن أسماء عن هشام بن عبد الأعلى، عن فرعان وكان من رواة الفرزدق قال: حججت سنة مع عبد الملك بن مروان فنظر إلى عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام فأراد أن يصغر منه فقال: من هو؟ فقال الفرزدق: فقلت على البديهة القصيدة المعروفة: هذا ابن خير عباد الله كلّهم، هذا التقي النقي الطاهر العلم، حتّى أتمها وكان عبد الملك يصله في كلّ سنة بألف دينار، فحرمه تلك السنة، فشكى ذلك إلى عليّ بن الحسين عليه السلام وسأله أن يكلمه فقال: أنا أصلك من مالي بمثل الذي كان يصلك به عبد الملك، وصنّي عن كلامه، فقال: والله يا ابن رسول الله لارزأتك شيئاً، وثواب الله عزّ وجل في الآجل، أحبّ إليّ من ثواب الدّنيا في العاجل، فاتصل ذلك بمعاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار، وكان أحد سمحاء بني هاشم لفضل عنصره وأحد أدبائها وظرفائها فقال له: يا أبا فراس كم تقدر الذي بقي من عمرك؟ قال: قدر عشرين سنة قال: فهذه عشرون ألف دينار أعطيتكها من مالي، واعف أبا محمّد أعزّه الله عن المسألة في أمرك فقال: لقد لقيت أبا محمّد وبذل لي ماله، فأعلمته أني أخرت ثواب ذلك الأجر الآخرة. انتهى(٢).

بيان

كان عليّ بن الحسين عليه السلام يكنى بأبي محمّد أيضاً. ثمّ إن البقر تشابه على الراوي حيث أخذ عبد الملك بن مروان مكان هشام بن عبد الملك.

«الإمام الخامس»

أبو جعفر محمّد بن زين العابدين الملقب بالباقر. قال ابن خلّكان في تاريخه كان الباقر عالماً سيّداً كبيراً، وإنّما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم أي توسع والتبقر التوسع وفيه يقول الشاعر:

---

(١) ينابيع المودة لذوي القربى: ٣/١٥٧، وفيات الأئمة: ١٥٦.

(٢) الاختصاص: ١٩٥، وبحار الأنوار: ٤٦/١٣١ ح ٢٠.

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبى على الأجبل

أقول: ذلك الشاعر القرظي.

وقال ابن حجر في «**الصواعق المحرقة**»: أبو جعفر محمّد الباقر سمي بذلك من بقر الأرض أي شقها، وأثار مخبئاتها ومكامنها، فلذلك هو أظهر من مخبئات كنوز المعارف وحقائق الأحكام واللّطائف، ما لا يخفى إلاّ على منطمس البصيرة، أو فساد الطوية والسريرة، ومن ثم قيل: هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه، صفا قلبه وزكى علمه وعمله، وطهرت نفسه وشرفت خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة الله، وله من الرسوخ في مقامات العارفين ما يكلّ عنه ألسنة الواصفين، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحتملها هذه العجالة.

قال المفيد في «**الإرشاد**»: ولم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدّين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيرة وفنون الآداب، ما ظهر عن أبي جعفر عليه السلام. وروى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين، وصار بالفضل به علماً لأهله تضرب به الأمثال، وتسير بوصفه الآثار والأشعار، وفيه يقول القرظي: يا باقر العلم، البيت[1].

وقال مالك بن أعين الجهني يمدحه عليه السلام.

إذا طلب الناس علم القرآن كانت قريش عليه عيالا

وإن قيل أين ابن بنت النبيّ نلت بذاك فروعاً طوالاً

نجوم تهلّل للمدلجين جبال تورث علماً جبالاً

وروى بإسناده عن الشريف أبي محمّد الحسن بن محمّد قال: حدّثني جدّي، قال: حدّثنا محمّد بن القاسم الشيباني قال: حدّثنا عبد الرحمٰن صالح الأزدي عن أبي مالك الجهني عن عبد الله بن عطاء المكي قال: ما رأيت العلماء عند أحد قطّ أصغر منهم عند أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام، ولقد رأيت الحكم بن عتيبة مع جلالته في القوم بين يديه، كأنّه صبيّ بين يدي معلّمه، وكان جابر بن يزيد الجعفي إذا روى عن محمّد بن عليّ عليه السلام شيئاً قال: حدثني وصيّ الأوصياء ووارث علوم الأنبياء محمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام[2].

قال فيه: وروى مخول بن إبراهيم عن قيس بن الرّبيع قال: سألت أبا إسحاق السبيعي عن المسح على الخفين فقال: أدركت النّاس يمسحون، حتّى لقيت رجلاً من بني هاشم لم

---

(١) الأنوار البهية: ١٣٥، وكشف الغمة: ٢/ ٣٣٥.

(٢) الأنوار البهية: ١٣٤، والكافئة: ٤١ ح ٤٧.

أر مثله قطّ، محمّد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام فسألته عن المسح فنهاني عنه، وقال: لم يكن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام يمسح وكان يقول: سبق الكتاب المسح على الخفين[١].

قال أبو إسحاق: فما مسحت منذ نهاني عنه، قال قيس بن الربيع: وما مسحت أنا منذ سمعت أبا إسحاق[٢].

إلى أن قال: وكان مع ما وصفناه من الفضل في العلم والسودد والرّياسة والإمامة، ظاهر الجود في الخاصة والعامة، مشهور الكرم في الكافة معروفاً بالفضل والإحسان، مع كثرة عياله وتوسط حاله.

وقد روى أبو جعفر عليه السلام أخبار المبتدأ وأخبار الأنبياء وكتب عنه المغازي: وأثروا عنه السنن واعتمدوا عليه في مناسك الحج، التي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وكتبوا عنه تفسير القرآن، وروت عنه الخاصة والعامّة الأخبار، وناظر من كان يرد عليه من أهل الآراء، وحفظ عنه النّاس كثيراً من علم الكلام، وألّف عليه السلام كتاباً في تفسير القرآن رواه عنه أبو الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية الزيديّة كذا نقل ابن النديم في «**الفهرست**».

وبالجملة مناقبه ومعجزاته ومكارم أخلاقه والروايات المنقولة عنه، والروات الآخذون منه من الصحابة والتابعين وتلامذته، ومعالي أموره وغرائب شأنه وأحوال أصحابه ومناظراته، والقصائد في مدحه عليه السلام أكثر وأشهر من أن يخفى على أحد، نقلها الفريقان في تصانيفهم ولو أثبتناها ههنا لكثر الخطب.

«الإمام السادس»

كشاف أسرار العلوم وبحر الحقائق أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق صلوات الله عليه. قد تحيرت العقول دونه وأخرست الألسن فيه، كيف لا وهو شمس سماء العلم والمعرفة والتوحيد، قد استنار الكلّ من نور وجوده، واستفادوا من رشحات فيضه واستمطروا سحاب علمه، واستدروا سماء جوده واغترفوا من بحر معارفه، واستضاءوا من مشكاة حقائقه، أشرقت أضواء علومه عالم الإنسانية، وأثمرت شجرة عنصره الطيبة ما ملأت الآفاق من الأصول الكليّة الحكميّة، والعلوم الغريبة المكنونة القيمة والقواعد الرصينة الفقهية، والمطالب النورية لتزكية الباطن وتهذيب النّفس، والمسائل الجامعة الاجتماعية لحفظ نظام الحوزة البشرية، حتّى بلغ عدد الآخذين عنه عليه السلام والمتعلمين من حضرته إلى أربعة آلاف رجل من أهل الحجاز والشام والعراق والخراسان والفارس وغيرها، ودوّنت في مجلسه

---

(١) الإرشاد: ٢/١٦١، وبحار الأنوار: ٧٧/٢٩٧ ح ٥٢.

(٢) الإرشاد: ٢/١٦١، ومعجم رجال الحديث: ١٥/٩٥، ح ٩٦٧١.

الشريف أربعمائة مصنف في العلوم، هي المسماة بالأصول الأربعمائة، فراجع **«أصول الكافي»** وكتاب **«التوحيد»** للصدوق، و**«الاحتجاج»** الطبرسي وغيرها من الكتب الحاوية للحقائق الصادرة عنه عليه السلام حتّى يتضح لك أنه عليه السلام كيف أسّس قواعد التوحيد، وشيّد أركانه وقلع الشبهات الناشئة من الآراء السخيفة المعوجّة، وأظهر أسرار الآيات القرآنية وبطونها، مما كلّت عندها الألسن والهت لديها الأحلام فهو عليه السلام عيش العلم وموت الجهل ودعامة الإسلام.

هربوى كه ازمشك وقرنفل شنوى　　از دولت آن زلف چوسنبل شنوى

«كلام المفيد فيه عليه السلام»

قال رحمه الله في **«الإرشاد»**: وكان الصادق جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام من بين أخوته، خليفة أبيه محمّد بن عليّ عليه السلام ووصيّه القائم بالإمامة من بعده وبرّز على جماعتهم بالفضل، وكان أنبههم ذكراً وأعظمهم قدراً وأجلهم في العامّة والخاصّة، ونقل النّاس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر ذكره في البلدان، ولم ينقل عن أحد من أهل بيته العلماء ما نقل عنه، ولا لقي أحد منهم من أهل الآثار ونقلة الأخبار ولا نقلوا عنهم كما نقلوا عن أبي عبد الله عليه السلام فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل وكان له عليه السلام من الدلائل الواضحة في إمامته ما بهرت القلوب، وأخرست المخالف عن الطعن فيها بالشبهات. إلى أن قال: والأخبار فيما حفظ عنه عليه السلام من العلم والحكمة والبيان، والحجة والزهد والموعظة وفنون العلم كله أكثر من أن تحصى بالخطاب أو تحوى بالكتاب[1].

«كلام كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي»
«فيه عليه السلام»

قال في كتابه: جعفر بن محمّد الصادق ابن أبي محمّد عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب هو من عظماء أهل البيت وساداتهم عليهم السلام، ذو علوم جمّة وعبادة موقورة وأوراد مواصلة، وزهادة بيّنة وتلاوة كثيرة تتبع معاني القرآن الكريم، واستخرج من بحر جواهره واستنتج عجائبه، وقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليه أنفسه، رؤيته تذكرة الآخرة، واستماع كلامه تزهد في الدنيا، والإقتداء بهديه يورث الجنّة، نور قسماته شاهد أنّه من سلالة النّبوّة، وطهارة أفعاله تصدع بأنه من ذرية الرسالة، نقل الحديث واستفاد منه العلم

(١) الإرشاد: ٢/ ٢٠٦، وكشف الغمة: ٢/ ٣٩٣.

جماعة من أعيان الأئمة، وأعلامهم مثل يحيى بن سعيد الأنصار، وابن جريج، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عيينة، وأبي حنيفة، وشعبة، وأيّوب السجستاني وغيرهم وعدوا أخذهم عنه عليه السلام منقبة شرّفوا بها، وفضيلة اكتسبوها[١].

«كلام القاضي عبد الرحمٰن بن أحمد العضد الأيجي» «الشافعي فيه عليه السلام»

قال في مبحث الإمامة من المواقف: الثامن اختصاصه (**يعني علياً** عليه السلام) بصاحبه كفاطمة وولدين كالحسن والحسين وهما سيّدا شباب أهل الجنّة، ثمّ أولاد أولاده ممن اتفق الأنام على فضلهم على العالمين، حتّى كان أبو يزيد سقاء في دار جعفر الصادق عليه السلام ومعروف الكرخي بوّاب دار عليّ بن موسى الرضا[٢].

«كلام الشيخ العارف محيي الدين الأعرابي أو المغربي» «فيه عليه السلام»

قال في المناقب: صلوات الله وملائكته وحملة عرشه، وجميع خلقه من أرضه وسمائه على أستاذ العالم وسند الوجود، مرتقى المعارج ومنتهى الصعود، البحر الموّاج الأزلي، والسرّاج الوقاج الأبدي ناقد خزائن المعارف والعلوم، محتد العقول نهاية الفهوم، عالم الأسماء، دليل طرق السماء، الكون الجامع الحقيقي، والعروة الوثقى الوثيقي، برزخ البرازخ، وجامع الأضداد، نور الله بالهداية والإرشاد، المستمع القرآن من قائله، الكاشف لأسراره ومسائله، مطلع شمس الأبد جعفر بن محمّد عليه صلوات الله الملك الأحد.

«كلام أبي يزيد البسطامي فيه عليه السلام»

قال القاضي الشهيد نور الله نورّ الله مرقده، في المجلس السادس من مجالس المؤمنين: قال المولى نور الدين جعفر البدخشي رحمه الله في كتاب الأحباب: إنّ السلطان طيفور المعروف بأبي يزيد البسطامي قدس سره قد صحب كثيراً من المشائخ ثم جاء إلى حضرة إمام الصادق وصحبه مستفيضاً من الصادق فقال: لو لم أصل إلى الصادق لمتُّ كافراً مع أنه كان بين الأولياء كجبرئيل بين الملائكة، وكانت هدايته نهاية السالكين.

---

(١) كشف الغمة: ٢/٣٦٨.

(٢) الطرائف: ٥٢٠.

«ما قال مؤلف تعقيب التقريب»

قال الأمير عليّ من علماء العامة، صاحب تعقيب التقريب أي **«تقريب التهذيب»** لابن حجر العسقلاني: روى عن جعفر الصادق الأئمة وخلق لا يحصون.

«ما قال فيه عليه السلام القاضي أحمد بن خلكان»
«الأربلي الشافعي الأشعري»

قال في **«وفيات الأعيان»** المعروف بتاريخ ابن خلّكان: أبو عبد الله جعفر الصادق ابن محمّد الباقر، أحد الأئمة الاثنى عشر على مذهب الإماميّة، كان من سادات أهل البيت ولقّب بالصّادق لصدقه في مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر، وله كلام في صنعة الكيميا والزجر والفال، وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيّان الصوفي الطرطوسي، قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة[١].

ثمّ بعد نبذة من ذكر كرامته عليه السلام لما أراد المنصور إشخاصه إلى العراق معه، عند مسيره إلى المدينة قال: وحكى كشاجم في كتاب **«المصائد والمطارد»** أنه عليه السلام سأل أبا حنيفة فقال عليه السلام: ما تقول في محرم كسر رباعيّة ظبي؟ فقال: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ما أعلم ما فيه. فقال عليه السلام له: أنت تتداهي ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعيّة وهو ثني أبداً انتهى.

أقول: أنّه عليه السلام وإن كان صادقاً في مقالته، لكن المرويّ عن أئمّتنا والمسلم عندنا الإماميّة أن النبيّ صلى الله عليه وآله سمّاه الصّادق، ليتميز من المدّعي للإمامة بغير حقّها جعفر الكذاب.

«كلام ابن قتيبة في علمه عليه السلام بالجفر»

قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفّى ٢٧٢ هـ صاحب التصانيف الكثيرة كما في **«الفهرست»** لابن النديم، في كتاب **«أدب الكاتب»**: وكتاب **«الجفر»** كتبه الإمام جعفر الصّادق ابن محمّد الباقر فيه كل ما يحتاجون إلى علمه إلى يوم القيامة.

قال الشّيخ العلامة البهائي في شرح الأربعين: قد تظافرت الأخبار بأنّ النّبي صلى الله عليه وآله أملى على أمير المؤمنين عليه السلام كتابي الجفر والجامعة، وأن فيهما علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

وقد مرّ في البحث عن القياس الخبر المروي من **«الكافي»** عن أبيه أبي شيبة قال:

---

(١) راجع معجم المطبوعات العربية: ١/ ٧٠.

سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ضلّ علم ابن شبرمة عند الجامعة، إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط عليّ عليه السلام بيده أن الجامعة لم تدع لأحد كلاماً، فيها علم الحلال والحرام الحديث **(ص ٥٨ م١ من الوافي)**.

وفي **«الكافي»** و**«الإرشاد»** و**«ينابيع المودة»** للشيخ سليمان **(ص ١٦٢ الطبع الناصري)** عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يقول: علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الأسماع، وأن عندنا الجفر الأحمر والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة عليها السلام وأن عندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج[1].

فسأل عن تفسير هذا الكلام فقال: أمّا الغابر فالعلم بما يكون، وأمّا المزبور فالعلم بما كان، وأمّا النكت في القلوب فهو الإلهام، والنقر في الأسماع حديث الملائكة نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم، وأمّا الجفر الأحمر فوعاء فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله ولن يخرج حتّى يقوم قائمنا أهل البيت، وأمّا الجفر الأبيض فوعاء فيه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وكتب الله الأُولى، وأمّا مصحف فاطمة عليها السلام ففيه ما يكون من حادث وأسماء كلّ من يملك إلى أن تقوم الساعة، وأما الجامعة فهي كتاب طوله سبعون ذراعاً املاء رسول الله صلى الله عليه وآله من فلق فيه وخط عليّ بن أبي طالب عليه السلام بيده، فيه والله جميع ما يحتاج النّاس إليه إلى يوم القيامة حتّى أن فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة[2].

وقد عنون جعفر الصّادق عليه السلام الشيخ أحمد عليّ البوني في كتابه الموسوم بشمس المعارف الكبرى من ص ٣٠٦ إلى ص ٣١٦ طبع مصر وسيأتي طائفة من قوله وقول المحقق الشريف في شرح المواقف وشعر أبي العلاء المعري فيه في الإمام الثامن عليه السلام.

«ذكر عدة ممن أخذوا عنه عليه السلام»

قد ذكرنا أن المستضيئين من نبراس وجوده والمغترفين من بحر جوده بلغوا إلى أربعة آلاف رجل، وصنف ابن عقدة كتاب الرّجال لأبي عبد الله عليه السلام عددهم فيه. ونحن نذكر ههنا عدّة من الأعلام الذين أخذوا عنه وندع ترجمتهم خوفاً للإطلالة.

فمنهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت أحد أئمة المذاهب الأربعة عند أهل السنة، وفي المناقب عن مسند أبي حنيفة قال الحسن بن زياد سمعت أبا حنيفة وقد سئل من أفقه من رأيت؟ قال: جعفر بن محمّد، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إنّ النّاس قد

---

(١) الارشاد، المفيد: ٢/ ١٨٦، وبحار الأنوار: ٤٧/ ٢٦.

(٢) روضة الواعظين: ٢١١، والارشاد: ٢/ ١٨٦.

فتنوا بجعفر بن محمّد فهيّئ له من مسائلك الشداد، فهيّأت له أربعين مسألة، ثمّ بعث إليّ أبو جعفر (**يعني المنصور**) وهو بالحيرة، فأتيته فدخلت عليه وجعفر ﵇ جالس عن يمينه، فلمّا بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر ﵇ ما لم يدخلني لأبي جعفر فسلّمت عليه فأومى إليّ، فجلست ثمّ التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة قال: نعم أعرفه ثمّ التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك فجعلت ألقي عليه فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربّما تابعنا وربّما تابعهم وربّما خالفنا جميعاً، حتّى أتيت على الأربعين مسألة فما أخلّ منها بشيء ثمّ قال أبو حنيفة: أليس أن أعلم النّاس أعلمهم باختلاف النّاس[1]؟

قال السيّد الشبلنجي الشافعي في نور الأبصار في أحوال الصّادق ﵇: ومناقبهم كثيرة تكاد تفوت عند الحاسب، ويحار في أنواعها فهم اليقظ الكاتب، روى عنه جماعة من أعيان الأئمة، وأعلامهم كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالك بن أنس، والثوري وابن عيينة وأبي حنيفة وأبي أيّوب السجستاني وغيرهم.

وفي الخصال للشيخ الصدوق (**العدد ١٩٠ من الخصال الثلاث**) مالك بن أنس فقيه المدينة يقول: كنت أدخل على الصّادق جعفر بن محمّد ﵇ فيقدم لي مخدة ويعرف لي قدراً ويقول: يا مالك إنّي أحبك فكنت أسرّ بذلك وأحمد الله عليه، وكان ﵇ لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إمّا صائماً وإمّا قائماً وإمّا ذاكراً، وكان من عظماء العبّاد وأكابر الزهّاد الذين يخشون الله عزّ وجلّ، وكان كثير الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد فإذا قال: قال رسول الله اخضرّ مرة واصفرّ أخرى، حتّى ينكره من يعرفه، ولقد حججت معه سنة فلمّا استوت راحلته عند الاحرام، كان كلّما همّ بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكاد يخرّ من راحلته فقلت: قل يا ابن رسول الله فلا بدّ لك أن تقول فقال: يا ابن أبي عامر كيف أجسر أن أقول لبيك اللّهم لبيك، وأخشى أن يقول عزّ وجلّ لا لبّيك ولا سعديك[2].

وقال مالك بن أنس: ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصّادق ﵇، فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً. وكان مالك كثيراً ما يدعي سماعه وربّما قال: حدثني الثقة يعنيه ﵇.

ومنهم: شعبة بن الحجّاج، وعبد الله بن عمرو وروح بن القاسم وسليمان بن بلال وإسماعيل بن جعفر وحاتم بن إسماعيل وعبد العزيز بن المختار ووهيب بن خالد وإبراهيم بن

---

(١) بحار الأنوار: ٤٧/ ٢١٨، والأنوار البهية: ١٥٤.
(٢) بحار الأنوار: ٤٧/ ١٦ ح ١، وميزان الحكمة: ٥٣٨ ح ٧٠٤.

طهمان، والحسن الصالح وعمر بن دينار وأحمد بن حنبل ومحمّد بن الحسن. وكان أبو يزيد البسطامي طيفور السقاء، خدمه وسقاء ثلاث عشرة سنة، وقال أبو جعفر الطوسي: كان إبراهيم بن أدهم ومالك بن دينار من غلمانه.

قال أبو حاتم: جعفر الصّادق ثقة لا يسأل عن مثله، ودخل إليه عليه السلام سفيان الثوري يوماً فسمع منه كلاماً أعجبه فقال: هذا والله يا ابن رسول الله الجوهر، فقال له: بل هذا خير من الجوهر، وهل الجوهر إلاّ الحجر[1].

ومنهم أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان ومحمّد بن إسحاق صاحب المغازي والسير وغيرهم، المذكور في كتب الفريقين كـ«**فهرست**» الشيخ الطوسي و«**نور الأبصار**» للشبلنجي و«**الصواعق**» لابن حجر و«**ينابيع المودة**» للشيخ سليمان و«**الخلاصة**» للعلامة وغيرها.

ومنهم ممن كان من أصحابه عليه السلام وأخذ عنه، وفاز فوزاً عظيماً وأفاد غيره أيضاً كأبان بن تغلب وإسحاق بن عمار الصيرفي وبريد بن معاوية العجلي وأبي حمزة الثّمالي وحريز بن عبد الله السجستاني، وحمران بن أعين الشيباني وأخيه زرارة وصفوان بن مهران الجمّال وعبد الله بن أبي يعفور، وعمران بن عبد الله القمي وفضيل بن يسار البصري وفيض ابن المختار الكوفي وليث بن البختري ومحمّد بن مسلم ومعاذ بن كثير، ومعلّى بن خنيس وأبي المنذر هشام بن محمّد السائب الكلبي ويونس الظبيان الكوفي ومؤمن الطاق.

في «**الفهرست**» لابن النديم: أبو جعفر محمّد بن النعمان الأحول هو من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام وكان حسن الإعتقاد والهدى حاذقاً في صناعة الكلام، سريع الحاضر والجواب وله مع أبي حنيفة مناظرات.

منها لما مات جعفر الصّادق عليه السلام قال أبو حنيفة لمؤمن الطاق: قد مات إمامك. قال: لكن إمامك لا يموت إلى يوم القيامة.

(وفي بعض النسخ: قال لكن إمامك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) يعني إبليس[2].

وقال له أبو حنيفة: ما تقول في المتعة؟ قال حلال. قال: أفيسرّك أن تكون أخواتك وبناتك يمتّع بهنّ؟ قال: شيء قد أحلّه الله تعالى أن كرهته مما خبلني، ولكن ما تقول أنت في النبيذ؟ قال: حلال. قال: أفيسرّك أن تكون أخواتك وبناتك نباذات هن؟

(١) الأنوار البهية: ١٥٣، وشرح الأخبار: ٢٩٩/٣ ح ١٢٠٤.

(٢) الاحتجاج: ١٤٩/٢، والفضائل: ١٥٥.

وقال له أبو حنيفة يوماً: ألسنا صديقين؟ قال: بلى، قال: وأنت تقول بالرجعة؟ قال: إي أيم الله. قال: فإني شديد الحاجة وأنت متمكّن فلو أنّك أقرضتني خمسمائة درهم أتسع بها وأردّها عليك في الرجعة كنت قد قضيت حقي ووصلت إلى غفل، قال: أنا أقول إنّ النّاس[١] يرجعون[٢].

وفي «البحار» عن كتاب «مقتضب الأثر» لابن عيّاش بن عبد الله بن محمّد المسعودي عن الحسن بن محمّد الوهبي، عن عليّ بن قادم عن عيسى بن داب قال: لمّا حمل أبو عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام عن سريره وأخرج إلى البقيع ليدفن قال أبو هريرة الشاعر العجلي:

أقول وقد راحوا به يحملونه ... على كاهل من حامليه وعاتق
أتدرون ماذا تحملون إلى الثرى ... ثبيراً ثوى من رأس علياء شاهق
غداة حثا الحاثون فوق ضريحه ... تراباً وأولى كان فوق المفارق
أيا صادق بن الصادقين الية ... بآبائك الأطهار حلفة صادق
لحقاً بكم ذو العرش أقسم في الورى ... فقال تعالى ربّ المشارق
نجوم هي اثنا عشرة كن سبقا ... إلى الله في علم من الله سابق

«الإمام السابع»

أبو إبراهيم موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، كلّت الألسنة دون كلماته القاهرة، وحارت العقول لدى معجزاته الباهرة. أدعيته تذيب الصمّ الصلاب، ومناظراته حجة لأُولي الألباب، وجوده اكسير فلزّات العرفاء ومعيار نقود الأصفياء. قد علم الخافقان أنّه باب الحوائج إلى الله، وأذعن الفرقتان أنّه كاشف أسرار كتابه تعالى.

«ما قال الخطيب في تاريخ بغداد فيه عليه السلام»

في تاريخ ابن خلّكان: قال الخطيب في «تاريخ بغداد»: كان موسى يدعي العبد الصالح من عبادته واجتهاده. روي أنّه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فسجد سجدة في أوّل الليل، وسمع وهو يقول في سجوده: عظم الذنب عندي فليحسن العفو من عندك، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة فجعل يردّدها حتّى أصبح، وكان سخياً كريماً وكان يبلغه عن الرجل أنّه يؤذيه فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار ـ إلى أن قال: وذكر أيضاً أن هارون الرشيد حجّ فأتى قبر النّبي صلى الله عليه وآله

---

(١) ومراده عليه السلام: أنك لست معدوداً من الناس.
(٢) فهرست ابن النديم: ٢٢٤، وفي رجال النجاشي (٣٢٦) قال عليه السلام له: أُريد ضامناً يضمن لي أنك تعود إنساناً فإني أخاف أن تعود قرداً فلا أتمكن من استرجاع ما أخذت مني.

زائراً، وحوله قريش وأفناء القبائل ومعه موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمّ افتخاراً على من حوله، فقال موسى: السلام عليك يا أبت، فتغير وجه هارون الرشيد وقال: هذا هو الفخر يا أبا الحسن حقاً[1]. إلى آخر ما قال وذكر بعض معجزاته عليه السلام فراجع.

«ما قال كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة الشافعي »
«فيه عليه السلام»

قال: أبو الحسن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو الإمام الكبير القدر، العظيم الشأن، الكثير التهجد، الجادّ في الإجتهاد، المشهود له بالكرامات، المشهور بالعبادات وظهر خوارق العادات، المواظب على الطاعات، يبيت الليل ساجداً وقائماً، ويقطع النهار متصدقاً وصائماً، ولفرط علمه وتجاوزه عن المعتدّين عليه دعى كاظماً، كان يجازي المسيء العبد الصالح، ويعرف في العراق باب الحوائج إلى الله لإنجاح مطالب المتوسلين به إلى الله. وكراماته تحار فيها العقول، وتقضي بأنّ له عند الله قدم صدق لا يزول.

«ما قال علي بن عيسى الأربلي صاحب كشف الغمة»
«فيه عليه السلام»

مناقب الكاظم وفضائله ومعجزاته الظاهرة، ودلائله وصفاته الباهرة ومكارمه، تشهد أنه بلغ قمة الشرف وعلاها، وسمي إلى أوج المزايا فبلغ أعلاها، طالت أُصوله فسمت إلى أعلى رتب الجلال، وطابت فروعه فعلت إلى حيث لا تنال، يأتيه المجد من كلّ أطرافه ويكاد الشرف يقطر من أعطافه، السحاب الماطر قطرة من كرمه، والعباب الزاخر نعمة من نعمه، واللّباب الفاخر عبد من عبيده وخدمه، الآباء عظام، والأبناء كرام عنصره من أكرم العناصر، وآباؤه بدور بواهر، وأُمهاته عقيلات عباهر، وهو أحد النجوم الزواهر، كم له من فضيلة جليلة ومنقبة بعلوّ شأنه كفيلة، إليه ينسب العلماء وعنه يأخذ العظماء ومنه يتعلم الكرماء، هم الهداة إلى الله وهم الأُمناء على اسرار الغيب، وهم المطهّرون من الرجس والعيب، هم النجوم الزواهر في الظلام وهم الشموس المشرقة في الأيام، هم الذين أوضحوا شعائر الإسلام، وعرفوا الحلال والحرام، فلهم كرام الأُبوّة والبنوّة، وهم معادن الفتوة والمروة، السماح في طبائعهم غريزة، الأقوال وإن طالت في مدائحهم وجيزة قليلة، بحور علم لا ينزف، وأقمار عزّ لا يخسف، وشموس مجد لا يكسف.

---

(١) تاريخ بغداد: ٢٩/١٣، والبداية والنهاية: ١٩٧/١٠، وحياة الإمام الرضا: ٧٨/١.

يـــا آل طـــه إن وذي لـــكـــم   بـــاق عـــلـــى حـــبـــكـــم الـــلازم[1]

«كلام المحقق العلامة الخواجه نصير الدين الطوسي»
«فيه عليه السلام»

قيل له رحمه الله في مرض موته في بغداد **(كما في مجالس المؤمنين للقاضي وروضات الجنات للخوانساري)**: ألا توصي على حمل جسدك إلى مشهد النجف الأشرف الأطهر؟ فقال: لا بل استحيى من وجه سيدي الإمام الهمام موسى بن جعفر عليه السلام أن آمر بنقل جسدي من أرضه المقدسة إلى موضع آخر، وقد نقلوا نظير هذه الواقعة للشيخ المفيد أيضاً.

وبالجملة الروايات العلميّة الحكميّة والفقهيّة والأخلاقيّة والإجتماعية، والكرامات العالية الأقدار الخارقة العوائد، من هذا الوليّ الأعظم بلغت إلى حدّ لا يعدّ ولا يحصى، ونعم ما قال ابن طلحة الشافعي المقدم ذكره فيه عليه السلام أيضاً: ولا يؤتوها إلاّ من أفاضت عليه العناية الربّانية أنوار التأييد، ودرّت له أخلاف التوفيق، وأزلفته من مقام التقديس والتطهير، وما يلقّيها إلا الذين صبروا وما يلقّيها إلاّ ذو حظّ عظيم.

«الإمام الثامن»

أبو الحسن عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام قال ابن خلّكان الشافعي الأشعري في تاريخه: وكان المأمون زوّجه ابنته أم حبيب في سنة اثنتين ومأتين، وجعله وليّ عهده، وضرب اسمه على الدينار والدرهم، وكان السبب في ذلك أنّه استحضر أولاد العبّاس الرجال منهم والنساء، وهو بمدينة مرو فكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين الكبار والصغار واستدعى عليّاً المذكور، فأنزله أحسن منزلة وجمع له خواصّ الأولياء وأخبرهم أنّه نظر في أولاد العبّاس وأولاد عليّ بن أبي طالب عليه السلام فلم يجد في وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من عليّ الرضا، فبايع له بولاية عهده وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام ولبس الخضرة - إلى أن قال: وفيه يقول أبو نواس:

قـيـل لـي أنـت أحـسـن الـنـاس طـرّاً   فـي فـنـون مـن الـمـقـال الـنـبـيـه
لـك مـن جـيّـد الـقـريـض مـديـح   يـثـمـر الـدرّ فـي يـدي مـجـتـنـيـه
فـعـلـى مـا تـركـت مـدح ابـن مـوسـى   والـخـصـال الـتـي تـجـمّـعـن فـيـه
قـلـت لا أسـتـطـيـع مـدح إمـام   كـان جـبـريـل خـادمـاً لأبـيـه

وكان سبب قوله هذه الأبيات أن بعض أصحابه قال له: ما رأيت أوقح منك ما تركت

(١) كشف الغمة: ٣/٥١.

خمراً ولا طرداً ولا معني إلاّ قلت فيه شيئاً، وهذا عليّ بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئاً، فقال: والله ما تركت ذلك إلاّ إعظاماً له، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله، ثمّ أنشد بعد ساعة هذه الأبيات:

ثمّ قال ابن خلّكان: وفيه يقول أبو نواس أيضاً وله ذكر في شذوذ العقود في سنة إحدى ومائتين أو سنة اثنتين ومائتين:

مطهّرون نقيات جيوبهم	تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
من لم يكن علوياً حين تنسبه	فما له في قديم الدهر مفتخر
اللّه لما برا خلقاً فأتقنهم	صفاكم واصطفاكم أيّها البشر
فأنتم الملأُ الأعلى وعندكم	علم الكتاب وما جاءت به السور[1]

وقال الفخر الرازي: إن أبا يزيد البسطامي كان يفتخر بأنّه يستقي الماء لدار جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام وكان معروف الكرخي أسلم على يد أبي الحسن الرّضا عليّ بن موسى، وكان بوّاب داره إلى أن مات.

روى المفيد في «**الإرشاد**» بإسناده إلى معاوية بن حكيم عن نعيم القابوسي عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: إنّ ابني عليّ أكبر ولدي وآثرهم عندي وأحبّهم إليّ، وهو ينظر معي في الجفر ولم ينظر فيه إلاّ نبيّ أو وصيّ نبيّ[2].

وقال المحقق الشريف في «**شرح المواقف**» في مبحث تعلق العلم الواحد بمعلومين: إنّ الجفر والجامعة كتابان لعليّ كرّم الله وجهه، وقد ذكر فيهما على طريق علم الحروف، الحوادث التي تحدث إلى انقراض العالم، وكان الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونهما ويحكمون بهما.

وفي كتاب «**قبول العهد**» الذي كتبه عليّ بن موسى الرّضا إلى المأمون: أنّك قد عرفت من حقوقنا ما لم يعرف آباؤك، فقبلت منك عهدك إلاّ أن الجفر والجامعة يدلاّن على أنه لا يتمّ. ولمشايخ المغاربة نصيب من علم الحروف ينتسبون فيها إلى أهل البيت، ورأيت بالشام نظماً أشير إليه بالرموز إلى أحوال ملوك مصر وسمعت أنّه مستخرج من ذينك الكتابين. انتهى[3].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٤٧٥، وبحار الأنوار: ٤٩/ ١٤٨.

(٢) الغيبة: ٣٦ ح ١٢، والخرائج والجرائح: ٢/ ٨٩٧.

(٣) الإيضاح: ٤٦٦، وتدوين القرآن: ٣٦٢.

وروى ثقة الإسلام الكليني في «**الكافي**» والمفيد في «**الإرشاد**» وكثير من أعاظم المحدثين عن الإمام الصادق عليه السلام، أحاديث كثيرة في أن الجفر والجامعة كانا عنده عليه السلام وأنّهما لا يزالان عند الأئمة يتوارثونهما واحداً بعد واحد.

وقال العلامة التفتازاني الشافعي في «**شرح المقاصد**» في مبحث الإمامة، بعدما قال في المحقق العلامة الخواجه نصير الدين الطوسي ما قال، قال: والعظماء من عترة النبيّ وأولاد الوصيّ الموسومون بالدراية المعصومون في الرواية، لم يكن معهم هذه الأحقاد والتعصبّات، ولم يذكروا من الصحابة إلاّ الكمالات، ولم يسلكوا مع رؤساء المذهب من علماء الإسلام إلاّ طريق الإجلال والإعظام، وها هو الإمام عليّ بن موسى الرّضا مع جلالة قدره ونباهة ذكره وكمال علمه، وهداه وورعه وتقواه قد كتب على ظهر كتاب عهد المأمون له ما ينبيء عن وفور حمده وقبول عهده والتزام ما شرط عليه وأن كتب في آخره: والجامعة والجفر يدّلان على ضدّ ذلك ـ إلى أن قال: وهذا العهد بخطهما موجود الآن في المشهدي الرضوي بخراسان.

«أشعار أبي العلاء المعري في جفر أهل البيت»

قال ابن خلّكان في تاريخه في ذيل ترجمة عبد المؤمن بن عليّ القيسي:

قال ابن قتيبة: هو جلد جفر ادّعوا أنّه كتب لهم فيه الإمام كلّما يحتاجون إلى علمه، وكلما يكون إلى يوم القيامة، ثمّ قال ابن خلّكان: قلت وقولهم: الإمام يريدون به جعفر الصادق عليه السلام وإلى هذا الجفر أشار أبو العلاء المعري بقوله:

لقد عجبوا لأهل البيت لمّا ... أتاهم علمهم في مسك جفر
ومرآة المنجم وهي صغرى ... أرته كلّ عامرة وقفر

وقوله في مسك جفر، المسك بفتح الميم وسكون السين المهملة الجلد. والجفر بفتح الجيم وسكون الفاء وبعدها راء من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر، وجفر جنباه وفصل عن أمه والأنثى جفرة. وكانت عادتهم أنّهم في ذلك الزمان يكتبون في الجلود والعظام والخزف، وما شاكل ذلك والله سبحانه وتعالى يعلم. انتهى كلام ابن خلّكان.

أقول: المراد من قوله «مرآة المنجم» هو الإسطرلاب، وهو اسم لآلة مشتملة على حجرة وعضادة وصفحة عنكبوت، وصفائح مرسوم فيها خطوط مستقيمة ومستديرة، تامة وناقصة متوازية وغير متوازية، يعرف بها كثير من أحوال الفلكيات والأرضيات والزمانيات، حتّى أن العلامة الفلكي عبد الرحمٰن بن عمر الصوفي المتوفي سنة ٣٧٦ هـ صنف كتاباً في العمل بالإسطرلاب أنهاه إلى ٣٨٦ أبواب كلّ باب في معرفة شيء من الأحوال المذكورة.

وكلمة إسطرلاب على ما ذهب إليه حمزة الأصبهاني **(كما نقل العلامة أبو ريحان البيروني في رسالته الموسومة بافراد المقال وكذا في كتابه الموسوم بالتفهيم)** معربة استاره ياب، أي مدرك النجوم.

وقال البيروني: وممكن أن يكون معرباً من اليونانيّة فان اسمه باليونانيّة اسطرلبون واسطر هو النجم بدليل أن علم الهيئة يسمى عندهم اسطرونوميا **(افراد المقال ص ٦٩ طبع حيدرآباد الدكن ١٣٦٧ هـ)**.

وقال في التفهيم: اسطرلاب چيست؟ أين التي است يونانيان را، نامش اسطرلابون أي آينۀ نجوم وحمزة اسپاهانى اورا ازپارسى بيرون آورده كه نامش ستاره ياب است.

والصواب ما ذهب إليه البيروني كما اختاره المعري في البيت حيث قال: مرآة المنجم، ويوافقه ما في اللغة الفرنسية أن كلمة الاسطرلاب باليونانيّة مركبة من Astre أي الكوكب وLambanein أي المرآة أو الميزان، ولذا فسره كوشيار بميزان الشمس كما نقل عنه الفاضل البيرجندي في شرحه على رسالة الاسطرلاب للخواجه نصير الدين الطوسي. وكان الصحيح أن يفسره بميزان الكوكب لأن كلمة Astre لا تفيد معنى الشمس ولم يذكر في المعاجم أن الشمس أحد معانيها.

ثمّ إنّ في أحاديثنا فسر الجفر بأنّه جلد ثور لا أنّه من جلد أولاد المعز كما فسره ابن خلّكان ففي **«الكافي»** لثقة الإسلام الكليني **(الوافي ص ١٣٥ م ٢)** بإسناده إلى ابن رئاب عن الحذاء قال: سأل أبا عبد الله عليه السلام بعض أصحابنا عن الجفر؟ فقال عليه السلام: هو جلد ثور مملوّ علماً. الحديث[١].

«الإمام التاسع»

أبو جعفر محمّد بن عليّ بن موسى الملقب بالجواد والتقى، صلوات الله وسلامه عليه، قال ابن خلّكان في ترجمته عليه السلام: وكان يروى مسنداً عن آبائه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن، فقال لي وهو يوصيني: يا عليّ ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار. يا عليّ عليك بالدّلجة فإن الأرض تطوى باللّيل ما لا تطوى بالنهار، يا عليّ أغد باسم الله فإن الله بارك لأُمتي في بكورها وكان يقول: من استفاد أخاً في الله فقد استفاد بيتاً في الجنّة. وقال جعفر بن محمّد بن مزيد: كنت ببغداد فقال لي محمّد بن منده بن مهر يزد: هل لك أدخلك على محمّد بن عليّ الرضا؟ فقلت: نعم، قال: فأدخلني عليه

(١) بحار الانوار: ٤١/٢٦ ح ٧٢، ومكاتب الرسول: ١٤/٢.

فسلمنا وجلسنا فقال: حديث رسول الله ﷺ إنّ فاطمة ﷺ أحصنت فرجها فحرّم الله ذرّيّتها على النّار، قال: ذلك خاص بالحسن والحسين ﷺ وله حكايات وأخبار كثيرة. انتهى ما أردنا من نقل كلام ابن خلّكان[١].

أقول: ومن تلك الأخبار والحكايات الدّالّة على وفور علمه، وتبريزه على كافة أهل الفضل والعلم، مع صغر سنه إحتجاجه على يحيى بن أكثم قاضي زمانه في مجلس المأمون عند جمّ غفير من أهل العلم والفضل، رواه الشيخ المفيد في **«الإرشاد»** والشيخ الجليل الطبرسي في **«الإحتجاج»** وأتى به المجلسي في المجلد الرابع من **«البحار»** وغيرهم من أعاظم العلماء الأخيار في جوامعهم المحتوية من أخبار الأئمة الأطهار. قال في **«الإرشاد»**: وكان المأمون قد شغف بأبي جعفر ﷺ لما رأى من فضله مع صغر سنه، وبلوغه في العلم والحكمة والأدب وكمال العقل، ما لم يساره فيه أحد من مشايخ أهل الزمان، فزوّجه ابنته أم الفضل وحملها معه إلى المدينة وكان متوفراً على إكرامه وتعظيمه وإجلال قدره[٢].

قال: وروى الحسن بن محمّد بن سليمان عن عليّ بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه، عن الريّان بن شبيب قال: لمّا أراد المأمون أن يزوّج ابنته أُم الفضل أبا جعفر محمّد بن عليّ ﷺ بلغ ذلك العبّاسيين فغلظ عليهم واستكبروه، وخافوا أن ينتهي الأمر معه إلى ما انتهى إليه مع الرّضا ﷺ، فخاضوا في ذلك واجتمع منهم أهل بيته الأدنون منه فقالوا: ننشدك الله يا أمير المؤمنين أن تقيم على هذا الأمر الذي قد عزمت عليه من تزويج ابن الرضا، فإنا نخاف أن تخرج به عنّا أمراً قد ملّكناه الله، وتنزع منّا عزًّا قد ألبسناه، فقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلك من تبعيدهم والتصغير بهم، وقد كنّا في وهلة من عملك مع الرضا ما عملت حتى كفانا الله المهمّ من ذلك، فالله الله أن تردّنا إلى غمّ قد انحسر عنّا، واصرف رأيك عن ابن الرّضا ﷺ واعدل إلى من تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيره.

فقال له المأمون: أمّا ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السبب فيه، ولو أنصفتم القوم لكانوا أولى بكم، وأمّا ما كان يفعله من قبلي بهم فقد كان به قاطعاً للرحم، وأعوذ بالله من ذلك، ووالله ما ندمت على ما كان منّي من استخلاف الرضا، ولقد سألته أن يقوم بالأمر وأنزعه عن نفسي، فأبى وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وأمّا أبو جعفر محمّد بن عليّ قد اخترته لتبريزه على كافة أهل الفضل في العلم والفضل، مع صغر سنّه والأعجوبة فيه بذلك، وأنا

(١) موسوعة الإمام الجواد (ع): ١/ ٥٤٦، وذكر أخبار أصبهان: ١/ ٢٤٢.

(٢) الإرشاد: ٢/ ٢٨١، ومناقب آل أبي طالب: ٣/ ٤٨٩.

أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفته منه فيعلمون أن الرأي ما رأيت فيه.

فقالوا: إنّ هذا الفتى وإن راقك منه هديه فإنّه صبيّ لا معرفة له ولا فقه، فأمهله ليتأدّب ويتفقّه في الدين ثمّ اصنع ما تراه بعد ذلك.

فقال لهم: ويحكم إنّي أعرف بهذا الفتى منكم، وأن هذا من أهل بيت علمهم من الله، وموادّه وإلهامه لم يزل آباؤه أغنياء في علم الدّين والأدب، عن الرعايا الناقصة، عن حدّ الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يتبيّن لكم به ما وصفت من حاله.

قالوا له: قد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه، فخلّ بيننا وبينه ننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة، فإن أصاب الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في أمره، وظهر للخاصة والعامّة سديد رأي أمير المؤمنين، وإن عجز عن ذلك فقد كفينا الخطب في معناه.

فقال لهم المأمون: شأنكم وذاك متى أردتم: فخرجوا من عنده واجتمع رأيهم على مسألة يحيى بن أكثم، وهو يومئذ قاضي الزمان، على أن يسأله مسألة لا يعرف الجواب فيها، ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك، وعادوا إلى المأمون فسألوه أن يختار لهم يوماً للإجتماع، فأجابهم إلى ذلك فاجتمعوا في اليوم الذي اتفقوا عليه، وحضر معهم يحيى بن أكثم، فأمر المأمون أن يفرش لأبي جعفر عليه السلام دست ويجعل له فيه مسورتان ففعل ذلك، وخرج أبو جعفر عليه السلام وهو يومئذ ابن تسع سنين وأشهر فجلس بين المستورتين وجلس يحيى بن أكثم بين يديه، وقام الناس في مراتبهم والمأمون جالس في دست متصل بدست أبي جعفر عليه السلام.

فقال يحيى بن أكثم للمأمون: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر؟

فقال له المأمون: استأذنه في ذلك. فأقبل عليه يحيى بن أكثم فقال: أتأذن لي جعلت فداك في مسألة؟ قال له أبو جعفر عليه السلام: سل إن شئت.

قال يحيى: ما تقول جعلني الله فداك في محرم قتل صيداً؟

فقال له أبو جعفر عليه السلام: قتله في حلّ أو حرم، عالماً كان المحرم أم جاهلاً، قتله عمداً أو خطأً، حرًّا كان المحرم أم عبداً، صغيراً كان أو كبيراً، مبتدئاً بالقتل أم معيداً، من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها، من صغار الصيد كان أم من كباره، مصرًّا على ما فعل أو نادماً، في الليل كان قتله للصيد أم نهاراً، محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحجّ كان محرماً؟

فتحير يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والإنقطاع ولجلج حتّى عرف جماعة أهل

المجلس أمره. فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي. ثمّ نظر إلى أهل بيته وقال لهم: أعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه؟ ثمّ أقبل على أبي جعفر عليه السلام فقال له: أتخطب يا أبا جعفر؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. فقال له المأمون: اخطب جعلت فداك لنفسك، فقد رضيتك لنفسي وأنا مزوّجك أمّ الفضل ابنتي وإن رغم قوم لذلك.

فقال أبو جعفر عليه السلام: الحمد لله إقراراً بنعمته، لا إله إلا الله إخلاصاً لوحدانيّته، وصلى الله على محمّد سيّد بريّته والأصفياء من عترته، أما بعد فقد كان من فضل الله على الأنام أن أغناهم بالحلال عن الحرام، فقال سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ ثمّ إنّ محمّد بن عليّ بن موسى يخطب أمّ الفضل بنت عبد الله المأمون وقد بذل لها من الصداق مهر جدّته فاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله وهو خمسمائة درهم جياداً، فهل زوّجته يا أمير المؤمنين بها على هذا الصّداق المذكور؟ قال المأمون: نعم، قد زوّجتك يا أبا جعفر أمّ الفضل ابنتي على الصداق المذكور، فهل قبلت النكاح؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: قد قبلت ذلك ورضيت به.

فأمر المأمون: أن يقعد النّاس على مراتبهم في الخاصّة والعامّة.

قال الريّان: ولم نلبث أن سمعنا أصواتاً تشبه أصوات الملاّحين في محاوراتهم، فإذا الخدم يجرّون سفينةً مصنوعة من الفضة، مشدودة بالحبال من الأبريسم على عجل مملؤة من الغالية فأمر المأمون أن يخضب لحاء الخاصة من تلك الغالية، ثمّ مدّت إلى دار العامّة فطيبوا منها ووضعت الموائد فأكل الناس وخرجت الجوائز إلى كلّ قوم على قدرهم.

فلمّا تفرق النّاس وبقي من الخاصّة من بقي، قال المأمون لأبي جعفر عليه السلام: إن رأيت جعلت فداك أن تذكر الفقه فيما فصّلته من وجوه قتل المحرم الصيد لنعلمه ونستفيده؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: نعم إنّ المحرم إذا قتل صيداً في الحلّ وكان الصيد من ذوات الطير وكان من كبارها فعليه شاة، فإن أصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً، فإذا قتل فرخاً في الحلّ فعليه حمل قد فطم من اللبن، وإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ، وإن كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة، وإن كان نعامة فعليه بدنة، وإن كان ظبياً فعليه شاة، فإن قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هدياً بالغ الكعبة، وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدى فيه وكان إحرامه بالحجّ نحره بمنى، وإن كان إحرامه بالعمرة نحره بمكة، وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء، وفي العمد له المأثم وهو موضوع عنه في الخطأ، والكفارة على الحرّ في نفسه، وعلى السيّد في عبده، والصغير لا كفارة عليه، وهي على الكبير واجبة، والنادم يسقط بندمه عنه عقاب الآخرة، والمصرّ يجب عليه العقاب في الآخرة.

فقال له المأمون: أحسنت يا أبا جعفر أحسن الله إليك، فإن رأيت أن تسأل يحيى عن مسألة كما سألك؟ فقال أبو جعفر عليه السلام ليحيى: أسألك؟ قال: ذلك إليك جعلت فداك، فإن عرفت جواب ما تسألني عنه وإلاّ استفدته منك.

فقال أبو جعفر عليه السلام: أخبرني عن رجل نظر إلى امرأة في أوّل النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا ارتفع النهار حلّت له، فلمّا زالت الشمس حرمت عليه، فلمّا كان وقت العصر حلّت له؛ فلمّا غربت الشمس حرمت عليه، فلمّا دخلت عليه وقت عشاء الآخرة حلّت له، فلمّا كان انتصاف الليل حرمت عليه، فلمّا طلع الفجر حلّت له، ما حال هذه المرأة وبماذا حلّت له، حرمت عليه.

فقال له يحيى بن أكثم: والله ما اهتدى لي جواب هذا السؤال، ولا أعرف الوجه فيه، فإن رأيت أن تفيدناه؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: هذه أمة لرجل من النّاس نظر إليها أجنبيّ في أوّل النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا ارتفع النهار ابتاعها من مولاها فحلّت له، فلمّا كان عند الظهر أعتقها فحرمت عليه، فلمّا كان وقت العصر تزوّجها فحلّت له، فلمّا كان وقت المغرب ظاهر منها فحرمت عليه، فلمّا كان وقت العشاء الآخرة كفر عن الظهار فحلّت له، فلمّا كان في نصف الليل طلّقها واحدة فحرمت عليه، فلمّا كان عند الفجر راجعها فحلّت له.

قال: فأقبل المأمون على من حضره من أهل بيته فقال لهم: هل فيكم أحد يجيب عن هذه المسألة بمثل هذا الجواب، أو يطرف القول فيما تقدّم من السؤال؟ قالوا: لا والله إنّ أمير المؤمنين أعلم بما رأى.

فقال لهم: ويحكم إنّ أهل هذا البيت خصّوا من الخلق بما ترون من الفضل، وإنّ صغر السنّ فيهم لا يمنعهم من الكمال، أما علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله افتتح دعوته بدعاء أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو ابن عشر سنين وقبل منه الإسلام، وحكم له به ولم يدع أحداً في سنّه غيره، وبايع الحسن والحسين عليهما السلام وهما ابنا دون ست سنين ولم يبايع صبيّاً غيرهما؟ أفلا تعلمون الآن ما اختص الله به هؤلاء القوم، وأنّهم ذرّيّة بعضها من بعض، يجري لآخرهم ما يجري لأوّلهم؟ قالوا: صدقت يا أمير المؤمنين.

ثمّ نهض القوم فلمّا كان من الغد حضر النّاس، وحضر أبو جعفر عليه السلام وصار القوّاد والحجاب والخاصّة والعامّة لتهنئة المأمون وأبي جعفر عليه السلام، فأخرجت ثلاثة أطباق من الفضّة فيها بنادق مسك، وزعفران معجون في أجواف تلك البنادق رقاع مكتوبة بأموال جزيلة وعطايا سنيّة، وأقطاعات فأمر المأمون بنثرها على القوم في خاصّته، فكان كلّ من وقع في

يده بندقة أخرج الرقعة التي فيها والتمسه، فاطلق له ووضعت البدر فنثر ما فيها على القواد وغيرهم، وانصرف النّاس وهم أغنياء بالجوائز والعطايا، وتقدّم المأمون بالصدقة على كافة المساكين، ولم يزل مكرماً لأبي جعفر عليه السلام معظّماً لقدره مدّة حياته يؤثره على ولده وجماعة أهل بيته[1].

بيان: المراد بابن الرّضا هو أبو جعفر محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام، **(راقك منه)** أي عجبه وسرّه، **(الهدى)** بالفتح ثمّ السكون: السيرة والهيئة والطريقة وهو فاعل لقولهم راقك، **(على مسألة يحيى بن أكثم)**، أي أن يستدعوا منه. و**(الدست)** بالفتح ثمّ السكون: الوسادة ويقال بالفارسيّة تُشك. **(المسورة)** كمكنسة المتكأ من أدم. **(لجلج)** أي تردّد. **(اخطب جعلت فداك لنفسك)**: جعلت فداك معترضة رقعت في البين ولنفسك متعلق بقوله: اخطب **(جياداً)** جمع الجيّد، وهو ضدّ الرّديّ. و**(الأبريسم)** معرّب أبريشم. **(العجل)** كالأجل: الآلة التي تحمل عليها الأثقال ويقال بالفارسية: گارى. **(الغالية)**: الطيب. **(ظاهر منها)**: أي قال لها: ظهرك عليّ كظهر أُمي كما بين في الفقه.

«الإمام العاشر»

أبو الحسن عليّ الهادي النقي ابن محمّد الجواد، بن عليّ الرّضا عليه السلام ويعرف بالعسكري أيضاً، كما أن ابنه الإمام الحادي عشر معروف بهذا اللقب، وسيأتي وجهه. قال ابن خلّكان في تاريخه في ترجمته عليه السلام والمسعودي في **«مروج الذهب»** في ذكر خلافة المتوكل، بإسناده إلى محمّد بن يزيد المبرد قالا: وقد كان سعى به إلى المتوكل، وقيل إنّ في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته وأوهموه أنّه يطلب الأمر لنفسه، فوجّه إليه بعدة من الأتراك ليلاً فهجموا عليه في منزله على غفلة، فوجدوه وحده في بيت مغلق وعليه مدرعة من شعر، وعلى رأسه ملحفة من صوف، وهو مستقبل القبلة يترنّم بآيات من القرآن الكريم في الوعد والوعيد، وليس بينه وبين الأرض بساط إلاّ الرمل والحصا، فأُخذ على الصورة التي وجد عليها، وحمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثّل بين يديه والمتوكل يستعمل الشراب وفي يده كأس، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جانبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل عنه ولا حجة يتعلّل عليه بها، فناوله المتوكل الكأس الذي كان بيده فقال: يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط فاعفني منه فأعفاه. وقال: أنشدني شعراً أستحسنه فقال: إنّي لقليل الرواية في الشعر، فقال: لا بدّ أن تنشدني شيئاً فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل

(١) الإرشاد: ٢/ ٢٨٨، ومدينة المعاجز: ٧/ ٣٥٦.

واستنزلوا بعد عز من منازلهم[١] فاؤدعوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعدما قبروا[٢] أين الأسرة والتيجان والحلل؟
أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود تنتقل (تقتتل - خ)
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد اكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادّخروا فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطّلة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

قال: فأشفق من حضر على عليّ عليه السلام وظنوا أن بادرة تبدر منه إليه قال: والله لقد بكى المتوكل بكاء طويلاً حتّى بلت دموعه لحيته، وبكى من حضره ثمّ أمر برفع الشراب ثمّ قال له: يا أبا الحسن أعليك دين؟ قال: نعم، أربعة آلاف دينار فأمر بدفعها إليه، وردّه إلى منزله من ساعته مكرماً[٣].

ونقل القصة ثقة الإسلام الكليني في «**الكافي**» والفيض رحمه الله في الوافي (**ص ١٩٥ م٢**) والشيخ الجليل المفيد في «**الإرشاد**»، أعجب ما نقله ابن خلّكان، قال المفيد: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمّد، عن محمّد بن يعقوب، عن عليّ بن إبراهيم، عن بن النعيم بن محمّد الطاهري قال: مرض المتوكل من خراج خرج به، فأشرف منه على الموت، فلم يجسر أحد أن يمسّه بحديدة، فنذرت أُمّه إن عوفي أن تحمل إلى أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام مالاً جليلاً من مالها وقال له الفتح بن خاقان: لو بعثت إلى هذا الرّجل يعني أبا الحسن عليه السلام فسألته فإنّه ربّما كان عنده صفة شيء يفرج الله به عنك فقال: ابعثوا إليه فمضى الرسول ورجع فقال: خذوا كسب الغنم فديفوه بماء الورد وضعوه على الخراج فإنّه نافع بإذن الله، فجعل من يحضر المتوكل يهزأ من قوله، فقال لهم الفتح: وما يضرّ من تجربة ما قال فوالله إنّي لأرجو الصلاح به، فأحضر الكسب وديف بماء الورد ووضع على الخراج فانفتح وخرج ما كان فيه وبشّرت أمّ المتوكل بعافية فحملت إلى أبي الحسن عليه السلام عشرة آلاف دينار تحت ختمها واستقل المتوكل، فلمّا كان بعد أيام سعى البطحائي بأبي الحسن عليه السلام إلى المتوكل وقال: عنده أموال وسلاح، فتقدم المتوكل إلى سعيد الحاجب، أن يهجم عليه ليلاً، ويأخذ ما يجده

(١) في نسخة: معاقلهم.
(٢) في البحار: دفنوا.
(٣) الأنوار البهية: ٢٩٦، وينابيع المودة لذوي القربى: ٣/ ١٧٠.

عنده من الأموال، والسلاح ويحمل إليه، قال إبراهيم بن محمّد: قال لي سعيد الحاجب: صرت إلى دار أبي الحسن عليه السلام بالليل ومعي سلّم، فصعدت منه إلى السطح ونزلت من الدرجة إلى بعضها في الظلمة، فلم أدر كيف أصل إلى الدار فناداني أبو الحسن عليه السلام من الدار يا سعيد مكانك، حتّى يأتوك بشمعة فلم ألبث أن أتوني بشمعة، فنزلت فوجدت عليه جبّة صوف وقلنسوة منها وسجادته على حصير بين يديه، وهو مقبل على القبلة فقال لي: دونك البيوت فدخلتها وفتّشتها، فلم أجد فيها شيئاً ووجدت البدرة مختومة بخاتم أمّ المتوكل وكيساً مختوماً معها. فقال لي أبو الحسن عليه السلام: دونك المصلّي فرفعته فوجدت سيفاً في جفن ملبوس فأخذت ذلك وصرت إليه، فلمّا نظر إلى خاتم أمّه على البدرة بعث إليها فخرجت إليه فسألها عن البدرة، فأخبر بعض خدم الخاصّة أنها قالت: كنت نذرت في علّتك إن عوفيت أن أحمل إليه من مالي عشرة آلاف دينار فحملتها إليه وهذا خاتمي على الكيس ما حرّكه فتح الكيس الآخر فإذا فيه أربعمائة دينار فأمر أن يضم إلى البدرة بدرة أُخرى وقال لي: احمل ذلك إلى أبي الحسن عليه السلام واردد عليه السيف والكيس بما فيه، فحملت ذلك إليه واستحييت منه فقال له: يا سيدي عزّ عليّ دخولي دارك بغير إذنك، ولكنّي مأمور فقال لي: وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون[1].

بيان

الخراج بالضم ما يخرج في البدن من القروح كالدمل وشبهه. وفي **«الصحاح»**: الكسب بالضم عصارة الدهن وقال بعض أهل اللغة: هو ما تلبّد من أبعار الشاة، ولهذا اضيف الكسب إلى الغنم وجاء في **«الكافي»** كسب الشاة مكان كسب الغنم. دافه بالشيء أي خلطه. ضعوه فعل أمر. استقل المتوكل أي رفع علته وبرأ. عزّ عليّ أي اشتدّ وصعب علي دخولي دارك بغير إذنك. وفي **«الكافي»**: سعى إليه البطحائي العلوي.

أقول: تلك الأبيات مذكورة في الديوان المنسوب إلى جدّه وسميّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتنتهي إلى خمسة وعشرين بيتاً، وفضائله ومناقبه ومعجزاته واحتجاجاته في التوحيد، وسائر العلوم الدينيّة والدنياوية على المخالف والمؤالف حجة قاطعة، على أولي الدراية والنهي في سمّو مقامه وتكامل فضله ووفور علمه وإمامته وخلافته.

في **«الإحتجاج»**: سئل أبو الحسن عليه السلام عن التوحيد فقيل له: لم يزل الله وحده لا شيء معه ثمّ خلق الأسماء بديعاً واختار لنفسه الأسماء ولم تزل الأسماء والحروف معه قديمة. فكتب عليه السلام: لم يزل الله موجوداً ثمّ كوّن ما أراد لا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه، تاهت

(١) كشف الغمة: ٣/ ١٧٢، والإرشاد: ٢/ ٣٠٤.

أوهام المتوهمين وقصر طرف الطارفين، وتلاشت أوصاف الواصفين، واضمحلّت أقاويل المبطلين عن الدرك لعجيب[١] شأنه، أو الوقوع بالبلوغ على علوّ مكانه، فهو بالموضع الذي لا يتناهى وبالمكان الذي لم تقع عليه فيه عيون بإشارة ولا عبارة هيهات هيهات[٢].

وفيه أيضاً: قدم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم الحد عليه فأسلم فقال يحيى بن أكثم: قد هدم إيمانه شركه وفعله، وقال بعضهم يضرب ثلاثة حدود وقال: بعضهم: يفعل به كذا وكذا فأمر المتوكل بالكتاب إلى أبي الحسن العسكري عليه السلام وسؤاله عن ذلك، فلمّا قرأ الكتاب كتب: يضرب حتّى يموت، فأنكر يحيى وأنكر فقهاء العسكر ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين سل عن هذا فإنّه شيء لم ينطق به كتاب ولم تجيء به سنة، فكتب إليه: إن فقهاء المسلمين قد أنكروا هذا، وقالوا: لم تجيء به سنة ولم ينطق به كتاب، فبيّن لنا لم أوجبت عليه الضرب حتّى يموت؟ فكتب: بسم الله الرحمٰن الرّحيم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآية. فأمر به المتوكل فضرب حتّى مات[٣].

وكذا غيرها من الإحتجاجات الأنيقة العلميّة رواها ثقات المحدثين. وبالجملة وقد اجتمعت فيه خصال الإمامة، وتكامل علومه وفضله وجميع خصال الخير فيه، وكانت أخلاقه كلّها خارقة للعادة كاخلاق آبائه عليهم السلام ولو ذكرنا جميع محاسنه الكريمة وآثاره العلميّة لطال الكتاب بها.

«الإمام الحادي عشر»

أبو محمّد الحسن العسكري ابن عليّ الهادي عليه السلام قال ابن خلّكان في تاريخه: هو أحد الأئمة الاثني عشر على اعتقاد الإماميّة، وهو والد المنتظر صاحب السرداب، ويعرف بالعسكري، وأبوه عليّ يعرف بهذه النسبة - إلى أن قال: والعسكري بفتح العين المهملة وسكون السين المهملة وفتح الكاف وبعدها راء هذه النسبة إلى سرّ من رأى، ولمّا بناها المعتصم وانتقل إليها بعسكره، قيل لها العسكر وإنما نسب الحسن المذكور إليها، لأنّ المتوكّل أشخص أباه عليّاً إليها وأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر فنسب هو وولده هذا إليها. انتهى كلامه.

وفي الخرائج والجرائح للراوندي: كانت أخلاقه كأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان رجلاً

---

(١) في نسخة: لعظيم.
(٢) الاحتجاج: ٢/ ٢٥٠، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ١٥١ ح ٦٦.
(٣) الاحتجاج: ٢/ ٢٥٨.

أسمر حسن القامة جميل الوجه جيد البدن، حدث السن له جلالة وهيبة وهيئة حسنة تعظمه العامّة والخاصّة، اضطراراً يعظمونه لفضله ويفدونه لعفافه وصيانته وزهده وعبادته وصلاحه وإصلاحه، وكان جليلاً نبيلاً فاضلاً كريماً يحمل الأثقال، ولا يتضعضع للنواكب أخلاقه خارقة للعادة على طريقة واحدة[1].

وفي «الإحتجاج» للطبرسي بإسناده إلى أبي يعقوب يوسف بن محمّد بن زياد وأبي الحسن عليّ بن محمّد بن سيّار أنهما قالا: قلنا للحسن أبي القائم: إنّ قوماً عندنا يزعمون أن هاروت وماروت ملكان، اختارتهما الملائكة لما كثر عصيان بني آدم وأنزلهما الله مع ثالث لهما إلى الدّنيا، وأنهما افتتنا بالزهرة وأرادا الزنا بها وشربا الخمر وقتلا النفس المحرمة، وأنّ الله يعذبهما ببابل وأنّ السحرة منهما يتعلّمون السحر، وأن الله مسخ تلك المرأة هذا الكوكب الذي هو الزهرة؟

فقال الإمام عليه السلام: معاذ الله من ذلك إن ملائكة الله معصومون محفوظون من الكفر والقبائح بألطاف الله، فقال عزّ وجل لهم: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ - يعني الملائكة - لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الانبياء: ١٩ - ٢٠] وقال في الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ - إلى قوله - مُشْفِقُونَ﴾ [الانبياء: ٢٨] كان الله قد جعل هؤلاء الملائكة خلفاءه في الأرض، وكانوا كالأنبياء في الدّنيا وكالأئمة أفيكون من الأئمة قتل النفّس والزنا؟!

ثمّ قال عليه السلام: أولست تعلم أنّ الله لم يخل الدّنيا من نبيّ أو إمام من البشر؟ أو ليس الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ - يعني إلى الخلق - إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] فأخبر أنّه لم يبعث الملائكة إلى الأرض ليكونوا أئمّة وحكاماً، وإنّما أرسلوا إلى أنبياء الله.

قالا: قلنا له عليه السلام: فعلى هذا لم يكن إبليس أيضاً ملكاً. فقال عليه السلام: لا بل كان من الجنّ أما تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] فأخبر أنّه كان من الجن وهو الذي قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٧].

وقال الإمام عليه السلام: حدّثني أبي عن جدّي عن الرّضا عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله اختارنا معاشر آل محمّد، واختار النبيين واختار الملائكة المقربين

(١) الأنوار البهية: ٣٠٤.

وما اختارهم إلاّ على علم منه بهم، أنّهم لا يواقعون ما يخرجون به عن ولايته، وينقطعون به عن عصمته وينضمون به إلى المستحقين لعذابه ونقمته.

قالا: قلنا: فقد روى لنا إنّ عليّاً صلوات الله عليه، لما نصّ عليه رسول الله ﷺ بالإمامة عرض الله ولايته على فئام وفئام من الملائكة فأبوها فمسخهم الله ضفادع، فقال عليه السلام: معاذ الله هؤلاء المتكذبون علينا، الملائكة هم رسل الله كسائر أنبياء الله إلى الخلق، أفيكون منهم الكفر بالله؟ قلنا: لا. قال: فكذلك الملائكة، إنّ شأن الملائكة عظيم وإنّ خطبهم لجليل. انتهى[1].

وبالجملة: إن فضائله ومناقبه ومعجزاته واحتجاجاته، وشيمه وعلومه وزهده وكمال عقله، وعصمته وشجاعته وكرمه وكثرة اعماله المقربة إلى الله تعالى، واجتماع خلال الفضل فيه تنادي بأعلى صوته تقدمه على كافة أهل عصره، وإمامته الرياسة الإلٰهيّة على جميع من سواه، وأعرضنا عن تفصيلها روماً للاختصار.

«كلام محيي الدين الأعرابي أو المغربي فيه عليه السلام»

قال في المناقب: صلوات الله وملائكته وحملة عرشه وجميع خلقه من أرضه وسمائه على البحر الزاخر، زين المفاخر، الشاهد لأرباب الشهود، الحجّة على ذوي الجحود، معرّف حدود حقائق الربانية، منّوع أجناس العالم السبحانية، عنقاءِ قاف القدم، العالي عن مرقاة الهمم، وعاءِ الأمانة، محيط الإمامة، مطلع الأنوار المطصفوي، الحسن بن عليّ العسكري عليه صلوات الله الملك الأكبر.

«الإمام الثاني عشر»

المسمّى باسم رسول الله ﷺ والمكنّى بكنيته الذي بيمنه رزق الورى، وببقائه بقيت الدنيا، خاتم الأوصياء وشرف الأرض والسماء، بقية الله في أرضه والمنتقم من أعدائه الحجّة من آل محمّد، صاحب الزمان وخليفة الرّحمٰن، إمامنا ومولانا ابن الحسن العسكري عجّل الله تعالى فرجه، كان سنّه عند وفاة أبيه خمس سنين آتاه الله فيها الحكمة وفصل الخطاب، وجعله آية للعالمين، وآتاه الحكمة كما آتاها يحيى صبياً وجعله إماماً في حال طفولته، كما جعل عيسى في المهد نبياً، هو المعصوم من الزلات والمقوم للعصاة، سيرته سيرة آبائه عليه وعليه السلام خارقة للعادة، وكان الخبر بغيبته ثابتاً قبل وجوده وبدولته، مستفيضاً قبل غيبته، وهو صاحب السيف من أئمة الهدى عليهم السلام، والقائم بالحق المنتظر لدولة الإيمان، الذي يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

(١) الاحتجاج: ٢/٢٦٦، ومسند الإمام الرضا: ١/٣٢٢.

والأخبار من رسول الله ﷺ بأسانيد كثيرة وطرق عديدة من الفريقين، في أن المهدي عليه السلام من ولده ﷺ يواطي اسمه اسمه ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب ويملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً، بلغت إلى حدّ التواتر، حتّى أن الشيخ الحافظ أبا عبد الله محمّد بن يوسف بن محمّد الكنجي الشافعي المتوفى سنة ٦٥٨ هـ، صاحب كتاب **«كفاية الطالب»** صنع كتاباً على خمسة وعشرين باباً، كلّه من طرق علماء السنة ورواتهم، عاريا عن أحاديث الشيعة، في أخبار صاحب الزمان عليه السلام سماه كتاب **«البيان في أخبار صاحب الزمان»**، وهذا الكتاب طبع بإيران سنة ١٣٢٤ هـ، في ذيل كتاب **«الغيبة»** لشيخ الطائفة الإمامية الشيخ محمّد بن حسن الطوسي. وقال في مقدمة الكتاب:

وسميته بالبيان في أخبار صاحب الزّمان، وعرّيته عن طرق الشيعة تعرية، تركيب الحجّة إذ كل ما تلقته الشيعة بالقبول، وإن كان صحيح النقل فإنّما هو خرّيت منارهم وخدارية زمارهم فكان الإحتجاج بغيره آكد وفيه أبواب:

الباب الأوّل: في ذكر خروجه عليه السلام في آخر الزمان.

الباب الثاني: في قوله ﷺ المهدي من عترتي من ولد فاطمة.

الباب الثالث: في ذكر المهدي من سادات أهل الجنّة.

الباب الرّابع: في أمر النبيّ ﷺ بمبايعة المهدي عليه السلام.

الباب الخامس: في ذكر نصرة أهل المشرق للمهدي عليه السلام.

الباب السادس: في مقدار ملكه بعد ظهوره عليه السلام.

الباب السابع: في بيان أنه يصلّي بعيسى عليه السلام.

الباب الثّامن: في تحلية النبيّ ﷺ المهدي عليه السلام.

الباب التاسع: في تصريح النبيّ ﷺ بأنّ المهدي من ولد الحسين عليه السلام.

الباب العاشر: في ذكر كرم المهدي عليه السلام.

الباب الحادي عشر: في الرد على من زعم أنّ المهدي عليه السلام هو المسيح ابن مريم.

الباب الثاني عشر: في قوله ﷺ لن تهلك أمة أنا في أوّلها وعيسى في آخرها، والمهدي في وسطها.

الباب الثالث عشر: في ذكر كنيته وأنّه يشبه النبيّ ﷺ في خلقه.

الباب الرّابع عشر: في ذكر اسم القرية التي يكون فيها خروج المهدي عليه السلام.

الباب الخامس عشر: في ذكر الغمامة التي تظلّ المهدي عليه السلام.

الباب السابع عشر: في ذكر صفة المهدي عليه السلام ولونه وجسمه.

الباب التاسع عشر: في ذكر كيفية أسنان المهدي عليه السلام.

الباب العشرون: في ذكر فتح المهدي عليه السلام القسطنطنية.

الباب الحادي والعشرون: في ذكر خروج المهدي عليه السلام بعد ملك الجبابرة.

الباب الثاني والعشرون: في قوله صلى الله عليه وآله المهدي عليه السلام إمام صالح.

الباب الثالث والعشرون: في ذكر تنعّم الأُمّة زمن المهدي عليه السلام.

الباب الرابع والعشرون: في أخبار رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ المهدي خليفة الله.

الباب الخامس والعشرون: في الدلالة على جواز كون المهدي عليه السلام حياً باقياً مذ غيبته. ثمّ أخذ في نقل الأحاديث المنقولة، من كتب الصحاح الستّة، وغيرها من كتب العامة لكل باب.

وإن ساعدنا التوفيق نأتي بطائفة من المطالب العلمية الأخرى، قمعاً لبعض الشبهات الموهومة الموهونة، في المقام في ضمن كلامه عليه السلام لكميل بن زياد النخعي: **(اللّهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ـ إلخ)** ونسأل الله ونرجو من رحمة الله الواسعة أن يوفقنا لذلك فإنّه ولي التوفيق.

واعلم أنّ ما حرّرنا ونقلناه في المقام قطرة من بحار علمهم، ورشحة من سماء فيضهم، وكفى لطالب الحق العالم البصير شاهداً، أنّ المستضيئين من أنوار علومهم لا يعدون ولا يحصون كثرة، وما تفوّه أحد بأنّهم عليهم السلام أخذوا تلك المعارف الإلٰهيّة من غيرهم، واشتغلوا بالدراسة لدى عالم بل اتفق محققو الأُمة ومنصفوها بأنّ كل واحد منهم عليهم السلام أفضل عصره، في جميع الكمالات والفضائل والمحامد والخصائل، فتنبّه وتيقن بأن علومهم لدنية وأنهم حجج الله تعالى المنصوبون من عنده والمعصومون مما لا يليق لهم.

قال المؤلف الشارح الفقير المفتاق إلى رحمة ربّه، والمشتاق إلى حضرة جنابه نجم الدين الحسن بن عبد الله الطبري الآملي: أشهد أن هؤلاء أئمتي وسادتي وقادتي أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وينابيع الحسنى من فاضل طينتهم خلقت، وبحبّهم ولدت، وبحبّهم أعيش وبحبّهم أموت وبحبّهم أبعث حيّاً إن شاء الله تعالى، وبهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ. قد أفلح من استمسك بذيل ولايتهم، وفاز من دخل في حصن أمنهم وشرفهم، واغترف من قاموس علمهم، وارتوى من بحر جودهم ومن أعرض عنهم فإن له معيشة ضنكاً وهو في الآخرة من الخاسرين. لأنّهم عليهم السلام شهداء الله على خلقه وخلفاؤه في أرضه، وأبواب رحمته، وأنّهم نور الله وولاة أمره وخزنة علمه وعيبة وحيه، وبهم عرف الصواب وعلم الكتاب، فمن أطاعهم

فقد أطاع الله ومن عصاهم فقد عصاه، هم العروة الوثقى والوسيلة إلى الله جلّ وعلا. صدق ولي الله الأعظم أبو عبد الله الصّادق عليه السلام حيث قال لخيثمة **(الكافي. وفي الوافي ص ١٢٨ م٢)**: يا خيثمة نحن شجرة النّبوة وبيت الرحمة ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، وموضع سر الله ونحن وديعة الله في عباده، ونحن حرم الله الأكبر، ونحن ذمة الله ونحن عهد الله، فمن وفى بعهدنا فقد وفى بعهد الله، ومن خفرها فقد خفر ذمة الله وعهده[١].

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله. فلنعد إلى شرح جمل الخطبة الشريفة بعون الله تعالى فنقول:

أنّه عليه السلام ذكر فيها لآل محمّد عليهم السلام أوصافاً، وهذه الأوصاف على الكمال والتمام، لا يليق إلاّ بهم ولا يصدق إلاّ عليهم، فإنّه لا يتصف بمجموعها إلاّ من كان مؤيّداً من الله، ومنصوباً من عنده، وبالجملة على من جعله الله تعالى خليفة له وإماماً للناس.

قوله عليه السلام: **(هم عيش العلم)** أي هم حياة العلم، ونفسه يدور معهم حيث داروا، ومتى كان الإمام كان العلم، وسائر الصفات الكمالية الإنسانية، وبالجملة أن العلم حيّ بهم، فكأنّما العلم ذو جسد روحه آل محمّد عليهم السلام، ومن تتبع الكتب العلميّة يجد أن أنوار علوم الأئمّة أشرقت الأرض، وأنارت القلوب وأضاءت النفوس، فعليك بـ«**نهج البلاغة**» و«**الصحيفة الكاملة**»، ومجلّدات «**الكافي**» و«**التهذيب**» و«**الاستبصار**»، و«**من لا يحضره الفقيه**» وروايات مجلّدات «**البحار**» وتفاسير علماء الإماميّة، وغيرها ممّا لا تحصى كثرة بل في تآليف العامة أيضاً، حتى ترى بعين اليقين أنّ الكل عيالهم عليهم السلام في حقائق الأصول ودقائق الفروع.

«كلام ابن الجوزي في علم أمير المؤمنين وعلي» «زين العابدين عليه السلام»

المنقول عن ابن الجوزي في «**خصائص الأئمّة**»، فإنه قال: لولا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لما كمل توحيد المسلمين وعقائدهم، إذ النّبي صلى الله عليه وآله لم تحصل له الفرصة إلاّ بقدر أداء أمهات العقائد والفروع، وأما دقائقها من كون الصفات مثلاً، قسمين: ذاتية وفعلية، وأن أيها عين ذاته تعالى، وأيها ليست بعينها، وغيرها من دقائق المطالب ورقائقها، فإنّ المسلمين عيال على أمير المؤمنين متعلمون منه. إلى أن قال في حق مولانا سيد الساجدين ما محصله: أن عليّ بن الحسين زين العابدين له حق التعليم في الإملاء والإنشاء، وكيفية المكالمة

(١) المحتضر: ١٢٩، وبحار الأنوار: ٢٤/٨٨ ح ٢.

والمخاطبة، وعرض الحوائج إلى الله تعالى، فإنه لولاه لم يعلم المسلمون كيف يتكلمون ويتفوّهون، سبحانه في حوائجهم، فإن هذا الإمام عليه السلام علّمهم بأنّه متى ما استغفرت فقل كذا، ومتى ما استسقيت فقل كذا، ومتى ما خفت من عدوّ فقل كذا - إلخ -.

وقد روى عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام فقهاء العامة من العلوم ما لا تحصى كثرة، وحفظ عنه من المواعظ والأدعية، وفضائل القرآن والحلال والحرام، والمغازي والأيّام ما هو مشهور بين العلماء[1].

---

(1) **كون علمهم لدني**

ويدل عليه آيات وروايات:

الآيات الدالة على العلم اللدني

* الآية الاولى قوله تعالى: ﴿**وعلّمك ما لم تكن تعلم**﴾ - النساء: ١١٣. قال الإمام الغزالي: (اعلم ان العلم يحصل من طريقين: أحدهما التعلم الإنساني، والثاني التعلّم الربّاني.

الطريق الثاني: إلقاء الوحي، وهو ان النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل الفانية، وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها، وتتمسك بجود مبدعها وتعتمد على إفادته وفيض نوره، والله تعالى بحسن عنايته يُقبل على تلك النفس إقبالاً كلياً، وينظر إليها نظراً إلهياً ويتخذ منها لوحاً، ومن النفس الكلي قلماً وينقش فيها جميع علومه، ويصير العقل الكلّي كالمعلّم والنفس القدسية كالمتعلّم، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس، وينتقش فيها جميع الصور، من غير تعلّم وتفكّر، ومصداق هذا قوله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿**وعلّمك ما لم تكن تعلم**﴾ - مجموعة رسائل الغزالي - الرسالة اللدنية: ٣/ ٦٩.

إلى آخر كلامه، ويأتي بعضه في الفرق بين العلم اللدني والحصولي.

وروي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿**وعلّمك ما لم تكن تعلم**﴾ قال: «**علّمه الله بيان الدنيا والآخرة**» - تفسير الدر المنثور: ٢/ ٢٢٠ مورد الآية.

وعن الضحاك قال: «**علّمه الخير والشرّ**» - تفسير الدر المنثور: ٢/ ٢٢٠ مورد الآية.

وقال العلاّمة الطباطبائي: ﴿**وعلّمك ما لم تكن تعلم**﴾ ليس هو الذي علّمه بوحي الكتاب والحكمة فقط، فإنّ مورد الآية قضاء النبي صلى الله عليه وآله في الحوادث الواقعة والدعاوي التي ترفع إليه برأيه الخاص، وليس ذلك من الكتاب والحكمة بشيء، وان كان متوقفاً عليهما، بل رأيه ونظره الخاص به.

ومن هنا ان المراد بالإنزال والتعليم في قوله: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم**﴾: نوعان اثنان من العلم: احدهما التعليم بالوحي ونزول الروح الأمين على النبي صلى الله عليه وآله.

والآخر: التعليم بنوع من الإلقاء في القلب والإلهام الخفي الإلهي، من غير إنزال الملك.

وهذا هو الذي تؤيّده الروايات الواردة في علم النبي صلى الله عليه وآله.

وعلى هذا، فالمراد بقوله: (وعلّمك ما لم تكن تعلم) اتاك نوعاً من العلم لو لم يؤتك إيّاه من لدنه لم يكفك في إتيانه الأسباب العادية، التي تُعلّم الإنسان ما يكتسبه من العلوم) انتهى - تفسير الميزان: ٥/ ٧٩ - ٨٠ مورد الآية.

* أقول: ظاهر كلامه ان إيتاء الكتاب والحكمة بواسطة الوحي الخاص (جبرائيل) إيتاءٌ كسبيٌ غير لدني، وان علم النبي صلى الله عليه وآله مصدره شيئان:

١ - الوحي بالكتاب والحكمة.

وهذا هو الصادق جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين استضاء من مشكاة وجوده،

---

٢ ـ الإلهام أو القذف بالقلب.
* والذي يقوى في النظر أن إيتاء الكتاب والحكمة لرسول الله ﷺ إن كان المراد به تذكير جبرائيل رسول الله ﷺ بالآيات القرآنية والحِكم الإلهية، فهو كما قال علمٌ كسبيٌ، ولكنّه لا يُنبىء عن حقيقة علم رسول الله ﷺ بالكتاب والحكمة.
وإن كان المراد به نزول القرآن جملة واحدة على قلب رسول الله ﷺ، فممنوع لأنه نزولٌ غير كسبي، وكيف يكون كسبياً وهو من الله تعالى بالمباشرة كما يأتي.
إن قيل: نزوله تدريجاً كان بواسطة جبرائيل، ونزوله جملة واحدة كان أيضاً بواسطته، قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ ـ الشعراء: ١٩٣.
قلنا: أوّلاً: هذا مبنيّ على تفسير هذه الآية بنزوله جملة واحدة، وإلاّ فقد يكون المعنى: ان الروح الأمين نزل به تدريجاً على قلبك، ولا تفسر الآية أصلاً بالنزول جملة واحدة.
والخلاصة: لا نسلم ان نزول القرآن جملة واحدة على قلب الرسول ﷺ، كان بواسطة جبرائيل؛ امّا لعدم الدليل عليه، وامّا لعدم الحاجة إليه، وامّا لما يأتي من ان زمن علم رسول الله ﷺ بالقرآن وغيره، هو عرش الرحمن وقبل خلق جبرائيل وغيره من الخلق، واما لما يأتي من الدليل على معرفة النبي ﷺ للقرآن قبل خلق جبرائيل.
ثانياً: لو سلمنا ان الآية تشير إلى نزوله جملة واحدة بواسطة جبرائيل كما استدل بها العلامة، فإنّا لا نسلّم أن هذا النزول كسبيٌّ، فصحيح ان جبرائيل يكون الواسطة في انتقال القرآن إلى قلب رسول الله ﷺ، ولكن ليس هو المعلم له ولتفاصيله وآياته، انّما الله هو المعلم الحقيقي وعلم الله لنبيه ﷺ غير كسبي، حيث أن العلوم الكسبية غير ثابة ومتغيرة كما يأتي.
أمّا قوله أن مصدر علم رسول الله ﷺ هو الكتاب والحكمة، إضافة إلى الإلهام والقذف.
فبغضّ النظر عن ما يأتي في مصدر علم آل محمّد (عليهم السلام)، فانّا نقول: هذا التفصيل حول العلم يتنافى مع حقيقة العلم الذي هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء.
على انّه يتنافى أيضاً مع حقيقة علم رسول الله ﷺ وزمان حصوله وكيفية ذلك.
فإنّ الحكمة والقرآن هي قسم من العلوم الإلهية التي علّمها الله لنبيّه بقوله: ﴿وعلّمك ما لم تكن تعلم﴾، أو حتى قوله ﴿فأوحى الى عبده ما أوحى﴾.
فليس المراد أن العلم قسمان: قسم لأحكام القرآن والحكمة الإلهية، وقسم لبقيّة الأمور.
لأنه:
أوّلاً: الآية مطلقة ﴿ما لم تكن تعلم﴾ فكل ما لا يعلمه رسول الله ﷺ قام الله عزّوجلّ بتعليمه إيّاه مباشرة، وبلا توسط مخلوق، فكان لدنياً، وهو شامل لأحكام القرآن من حلال وحرام وقصص ومواعظ، وحكم ومعارف إلهية، وأمور غيبية، وما شابه ذلك.
قال الشيخ الطبرسي في الآية: ﴿ما لم تعلمه من الشرائع وأنباء الرسل الأوّلين، وغير ذلك من العلوم﴾ - مجمع البيان: ٣/١٦٨ مورد الآية.
ثانياً: هذا ينافي صريح القرآن الكريم وانّه فيه تبيان كل شيء ـ قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء﴾ النحل: ٨٩. كما في كثير من الروايات.
والخلاصة: علم رسول الله ﷺ علم واحد لا يتجزأ، وهو علم لدني بكل شيء، الشامل للقرآن والحكمة والأمور الغيبية ونحوهم.

وارتوى من بحر جوده أربعة آلاف رجل، مما تلوناه عليك وبعض آثارهم وأقوالهم في حق

ولا يلزم لغوية نزول القرآن على رسول الله ﷺ ، لما قلنا ان المراد بالنزول هو التدريجي، إما لمؤانسة النبي الأعظم ﷺ - نظير نزوله على فاطمة (عليها السلام) -، واما لتذكيره ﷺ بالآيات، لا لتعليم رسول الله ﷺ المستتبع لجهله، وأعلمية جبرائيل عليه، ولو بالواسطة.
ومرادنا بالتذكير ليس ان رسول الله ﷺ قد نسي آيات القرآن والحكمة، انّما كما قدّمنا سابقاً أنه لإبراز حقيقة الوحي التي كانت عند الأنبياء السابقين، والتي اعتاد الناس عليها في الأنبياء وصحّة دعوتهم، خاصة في المجتمع الجاهلي الذي لم يصدق بنبوّة الرسول الأعظم ﷺ ، فلم يستطع النبي ﷺ إلاّ أن يبرز لهم الوحي وصفاته وأسمائه وآثاره كما تقدّم ويأتي.
وامّا النزول الدفعي للقرآن، فهو أيضاً ليس معناه ان رسول الله ﷺ كان يجهل أحكامه وابرامه وآياته، وذلك كما قدّمناه من ان علم رسول الله ﷺ الواحد من الواحد لا يتجزأ، وزمانه قبل زمان جبرائيل كما يأتي. والذي من ضمنه أحكام القرآن الكريم والحكم الإلهية، فلا تغفل.
هذا وروي عن رسول الله ﷺ قوله: **«في قاب قوسين علّمني الله القرآن وعلّمني الله علم الأولين»** - لوامع أنوار الكوكب الدري: ١/ ١١٧ - ١١٨.
* الآية الثانية قوله تعالى:
﴿الم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت
وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها ويضرب الله
الأمثال للناس لعلّهم يتذكّرون﴾ - إبراهيم: ٢٤.
والشجرة الطيبة كما تواتر في الأحاديث هي آل محمّد والأئمة منهم عليهم صلوات المصلين راجع بحار الانوار: ٢٤/ ١٣٨ إلى ١٤٣ ح٢ وما بعده باب انّهم الشجرة الطيبة، والفردوس بماثور الخطاب: ١/ ٥٢ ح١٣٥، وتلخيص المتشابه: ١/ ٣٠٩ رقم الترجمة ٤٨٥.
وقوله تعالى: **﴿تؤتي أكلها كل حين﴾** فسرت بعلم الإمام وما يفتي به من الحلال والحرام.
قال الإمام الصادق ؈ : **﴿تؤتي أكلها كل حين﴾** فقال: **«ما يخرج إلى الناس من علم الإمام في كل حين يسأل عنه»** - بحار الانوار: ٢٤/ ١٤٠ - ١٣٩ ح٤ و٦.
وعن الإمام الباقر ؈ : **«هو ما يخرج من الإمام من الحلال والحرام في كل سنة إلى شيعته»** - المصدر السابق.
* الآية الثالثة قوله تعالى: **﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً﴾** - الكهف: ٦٥.
فعن الإمام الصادق ؈ : **«قال علينا عين؟»**
فالتفتنا يمنة ويسرة فلم نرَ أحداً، فقلنا: ليس علينا عين.
فقال: **«وربّ الكعبة وربّ البنية - ثلاث مرّات - لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما اني أعلم منهما ولأنبئهما بما ليس في أيديهما»** - الكافي: ١/ ٢٦١ ح١ باب انهم يعلمون ما كان ويكون، وبصائر الدرجات: ١٢٩.
ومن المعلوم ان علم الخضر لدني بقوله تعالى: **﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً﴾** ولا يصح كون آل محمد (عليهم السلام) علمهم كسبياً في حال كونهم أعلم من الخضر وأفضل.
* الآية الرابعة قوله تعالى: **﴿علمه شديد القوى فأوحى . . . إلى عبده ما أوحى﴾** - النجم: ٥ - ٨.
وهي الآية من آيات عديدة تصف عروج رسول الله ﷺ إلى ربّه حتى كان قاب قوسين أو أدنى.
والروايات كثيرة ان النبي هو الذي دنا فتدلّى وكان قاب قوسين أو أدنى رواها الفريقان من طرق - راجع

استاذهم الصادق عليه السلام.

تفسير الدر المنثور: ٦/ ١٢٣ ـ ١٢٤ مورد الآية، وتفسير الميزان: ١٩/ ٣٣ ـ ٣٦ مورد الآية، ونور الثقلين: ٥/ ١٤٥ إلى ١٥٨ موردها، والشفا ١/ ٣٤ ـ ٣٧ إلى ٣٩ الفصل الخامس و١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، وارشاد القلوب: ٢/ ٤٠٩ ـ ٤١١، ولوامع أنوار الكوكب الدريّ: ١/ ١١٧ ـ ١١٨، ومناقب آل أبي طالب: ٤/ ٣١٥، وتاريخ الخميس: ١/ ٣١١ ذكر المعراج.

منها: ما روي عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: «**أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدرة المنتهى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى**» ـ تفسير الميزان: ١٩/ ٣٣ ـ ٣٥، مورد الآية، ونور الثقلين: ٥/ ١٥١ مورد الآية.

ومنها: ما عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**وذلك انّه يعني النبي** صلى الله عليه وآله أقرب الخلق إلى الله تعالى، وكان بالمكان الذي قال له جبرائيل لما أسري به إلى السماء: تقدّم يا محمّد فقد وطأت موطئاً لم يطأه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، ولولا ان روحه ونفسه كان من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، وكان من الله عزوجل كما قال الله عزوجل **﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** أي: بل أدنى» ـ تفسير الميزان: ١٩/ ٣٣ مورد الآية.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى**» ـ تفسير الميزان: ١٩/ ٣٣ ـ ٣٥ مورد الآية، ونور الثقلين: ٥/ ١٥١ مورد الآية.

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** قال: «**وحي مشافهة**» ـ تفسير القمي: ٢/ ٣٣٤ مورد الآية، وتفسير الميزان: ١٩/ ٣٤، ونور الثقلين: ٥/ ١٥٢.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**ان هذه الآية مشافهة الله لنبيه لمّا أسرى به إلى السماء، قال النبي** صلى الله عليه وآله: انتهيت إلى سدرة المنتهى» ـ الدر المنثور: ٥/ ١٤٨، ١٤٩ مورد الآية.

ومنها الحديث المستفيض: قول جبرائيل للنبي محمّد صلى الله عليه وآله: تقدّم.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**في هذا الموضع تفارقني**».

فقال جبرائيل: لو دنوت أنملة لاحترقت ـ راجع تفسير الميزان: ١٩/ ٣٥، وتفسير نور الثقلين: ٥/ ١٥٥، وعيون الأخبار: ١/ ٢٠٥ باب ٢٦ ح٢٢، وينابيع المودة: ٢/ ٥٨٣، وكمال الدين: ١/ ٢٥٥ وبحار الانوار: ٢٦/ ٣٣٧، وتاريخ الخميس: ١/ ٣١١ ذكر المعراج.

وفي رواية: «**يا جبرائيل لما تخلفت عني؟**

قال: وما منا إلاّ له مقام معلوم، لو دنوت انملة لاحترقت، وفي هذه الليلة بسبب احترامك وصلت الى هذا المقام، وإلاّ فمقامي المعهود عند السدرة» ـ تاريخ الخميس: ١/ ٣١١ ذكر قصة المعراج.

وفي رواية أخرى قال له: «**تقدّم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك**» ـ تفسير الميزان: ١٩/ ٣٣، ٣٥، مورد الآية، ونور الثقلين: ٥/ ١٥١ مورد الآية.

وعن ابن عبّاس في قوله: **﴿ثم دنا﴾** قال: «**هو محمد دنا إلى ربّه**» ـ الدر المنثور: ٦/ ١٢٣ مورد الآية.

ونحوه عن محمد بن كعب والإمام جعفر الصادق عليه السلام وأنس ـ الشفا: ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥ فصل في قوله: فأوحى إلى عبده.

وعن أبي سعيد قال: «**لما اسرى بالنبي اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى**» ـ الدر المنثور للسيوطي: ٦/ ١٢٣ مورد الآية.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام في قوله تعالى **﴿دنا فتدلّى﴾** قال: «**ذاك رسول الله دنى من حجب النور**» ـ الدر المنثور: ٥/ ١٤٨، ١٤٩ مورد الآية.

ومن العجيب ما روى ان القصة في جبرائيل، وانّه هو الذي دنا فتدلى، والعجب فيه ان الله تعالى إذا يريد

قوله عليه السلام: (وموت الجهل) أي هم موت الجهل يعني أنّ الجهل يموت بوجودهم عليهم السلام،

أن يدني جبرائيل منه لماذا يحضر النبي الأعظم صلى الله عليه وآله؟
وهل يراد بالإسراء والآيات مدح النبي صلى الله عليه وآله وتبيين فضله أم مدح جبرائيل وتبيين فضله؟!
مع أن البعض منع ونفى ركوب جبرائيل مع النبي صلى الله عليه وآله على البراق لاختصاصه بشرف الاسراء - تاريخ الخميس: ١/ ٣١٠ ذكر قصة المعراج.
هذا إضافة إلى ان الآيات كلّها في سياق واحد: **﴿ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى علمه شديد القوى﴾** إلى آخر الآيات.
امّا قوله تعالى: **﴿علمه شديد القوى﴾** فقيل ان الذي علم النبي صلى الله عليه وآله هو جبرائيل، وقيل ان معلّمه هو الله تعالى - راجع تفسير الميزان: ١٩/ ٢٧ مورد الآية.
ولكن بقرينة قوله تعالى: **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** والتي فيها أن الله هو الموحي لعبده بالمباشرة والمشافهة؛ يتعيّن كون المعلّم هو الله تعالى، وعلم الله لا يكون إلاّ لدنياً، اذ الكسبي زائلٌ متغيرٌ كما يأتي، وهو المطلوب.
ويؤيّده، إضافة لما مرّ من روايات خاصة، وروايات تخلف جبرائيل الدالة على ان جبرائيل لم يكن موجوداً معهما عند تعليم الله ذلك العلم الشديد القوي:
ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **﴿ثم دنا فتدلّى... فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** قال: «**فدفع إليه كتاب أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فأخذ كتاب أصحاب اليمين بيمينه وفتحه فنظر إليه فإذا فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم، ثم طوى الصحيفة فأمسكها بيمينه وفتح صحيفة أصحاب الشمال فإذا فيها أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم نزل معه الصحيفتان فدفعهما الى علي**» - نور الثقلين: ٥/ ١٥٠ ح ٢٥ مورد الآية.
وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**حتى انتهى إلى ساق العرش فدنى بالعلم فتدلّى**» - تفسير نور الثقلين: ٥/ ١٥٠ - ١٥١ مورد الآية.
وعن الحسن قال: «**دنا من عبده محمّد صلى الله عليه وآله فتدلّى فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته**» - الشفا: ١/ ٢٠٤.
فهذا يدل على ان الله تعالى أوحى له وحي مشافهة، كما تقدّم في لسان الرواية السابقة، بغير توسّط جبرائيل؛ لأنّه لم يتقدّم معه وإلاّ لاحترق - كما تقدّم أيضاً وان ما أوحي إليه هو من العلوم والمعارف.
قال جعفر بن محمّد عليه السلام: «**انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حجب جبريل عن دنوه ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والايمان، فتدلّى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب**» - الشفا: ١/ ٢٠٥ فصل من قوله: فأوحى إلى عبده.
وعنه عليه السلام انّه قال: «**أوحى الله إليه بلا واسطة**» - الشفا: ١/ ٢٠٥ فصل من قوله: فأوحى إلى عبده.
ونحوه عن الواسطي - الشفا: ١/ ٢٠٥ فصل من قوله: فأوحى إلى عبده، وتاريخ الخميس: ١/ ٣١٢ قصة المعراج.
وقال القاضي عياض: اعلم ان ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله أو إلى الله، فليس بدنو مكان ولا قرب مدى، بل كما ذكرنا عن جعفر بن محمّد الصادق ليس بدنو حدٍّ، وانّما دنو النبي صلى الله عليه وآله من ربّه وقربه منه، أبانه عظيم منزلته وتشريف رتبته، واشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى مَبَرّةٌ وتأنيسٌ وبسطٌ وإكرامٌ - تاريخ الخميس: ١/ ٣١٣، والشفا: ١/ ٢٠٢.
وفي رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**فسمع النداء يقول: ادن يا محمّد فدنا، فقطرت عليه من العرش قطرة ما**

وذلك كما باشراق النور الحسي كنور الشمس مثلاً تزول الظلمة وتموت، ولا يجتمعان كذلك

أخطأت فمه، فوقعت على لسانه فكانت أحلى من كل شيء، فأراه الله بها علم الأولين والآخرين» ـ تاريخ الخميس: ١/٣١٣ قصة المعراج.

ويشير اليه ما روي عن ابن عباس ضمن حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال ﷺ: «... ﴿ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ قال: وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه فوضع يده بين كتفي بلا تكييف ولا تحديد فوجدت بردها بين ثديي فأورثني علم الاولين والاخرين وعلمني علوماً شتى... وعلمني القرآن فكان جبرائيل ﷺ يذكرني به» ـ المواهب اللدنية: ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢ بحث الاسراء والمعراج ـ الربع الاخير منه، وسوف يأتي الحديث بتمامه، ولوامع انوار الكوكب الدري: ١/ ١١٨.

وتقدم الحديث الشريف «في قاب قوسين علمني الله القرآن وعلمني الله علم الأولين» ـ لوامع أنوار الكوكب الدري: ١/ ١١٧ ـ ١١٨.

فيتبين أن الوحي الى النبي الاعظم ﷺ كان وحياً من قبل الله مباشرة، ووحي الله لا يكون إلاّ لدنياً.

* الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن علمه البيان﴾ ـ الرحمن: ١.

وهي أصرح في الدلالة من الآية السابقة، في كون النبي الاعظم ﷺ قد تعلم القرآن من الله تعالى لا بتوسط أحد، ومما لا شك فيه أن تعليم الله لا يكون إلاّ لدنياً.

* الآية السادسة قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة ؛ وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ ـ الأنبياء: ٧٣.

فقد ورد انّهم المرادون بهذه الآية، كما تقدّم في أدلّة الولاية التكوينية من القرآن ـ راجع بحار الانوار: ٢٤/ ١٥٧ ـ ١٥٨ باب انّهم خير أمّة أخرجت للناس ح ١٦ ـ ١٧ ـ ١٩ ـ ٢٠.

منها: ما روي عن أبي جعفر ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ قال أبو جعفر ﷺ: «يعني الأئمة من ولد فاطمة يوحى إليهم بالروح في صدورهم» بحار الانوار: ٢٤/ ١٥٨ ح٢١.

وهي واضحة الدلالة أن الله تعالى هو الذي يوحي اليهم.

* الآية السابعة قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان﴾.

فعن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن العلم أهو علم يتعلّمه العالم من أفواه الرجال أم في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه؟

قال ﷺ: «الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان...﴾ بلى قد كان في حالا لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم» ـ الكافي: ١/ ٢٧٣ ح٥ باب الروح التي يسدد الله بها الأئمة.

وسوف يأتي عدة روايات حول الروح الامرية.

* الآية الثامنة قوله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ ـ الاعراف: ١٥٦.

قال الإمام الباقر ﷺ في تفسيرها: «علم الإمام وَوَسِع علمَه الذي هو من علمِه كل شيء» ـ تفسير نور الثقلين: ٢/ ٧٨١ ح ٢٨٨ عن الكافي.

وهذا أيضاً صريح في أن علم الإمام ﷺ من الله تعالى المتعين كونه لدنياً.

* الآية التاسعة قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ ـ النمل: ١٥.

قال بعض المفسرين: ذلك هو الاسم الاعظم تركب من الحروف الواردة في فواتح السور، وكان مكتوباً على خاتم سليمان بن داود، وبه لانّ الحديد لداود، وسخر الجن لسليمان، وطوى الارض للخضر وبه تعلم العلم اللدني، وبه أوتي عرش بلقيس، وبه يحيي عيسى الطير ـ ينابيع المودة: ٤٠٢ ط. اسلامبول، و٤٨٣

بنور العلم تموت ظلمة الجهل، فلمّا كان آل محمّد ﷺ شموس سماء العلم والمعرفة،

ط. النجف وقم.
وعن علي أمير المؤمنين ﷺ في قصته مع وعمار في تحويل الحجر الى ذهب فقال ﷺ: «**ادع الله بي حتى تلين، فانه اسمي ألانَ الله الحديد لداود**» - مشارق أنوار اليقين: ١٧٣.
الاحاديث الدالة على العلم اللدني
منها: ما تقدّم في الطائفة السابعة من القسم الثاني من أدلّة الولاية التكوينية، أعني روايات اعطاؤهم علم الكتاب وتفضيلهم على الذين عندهم علم من الكتاب.
ومنها ما تقدم ضمن تفسير الآيات المتقدمة على العلم اللدني.
وقال الإمام الرضا ﷺ: «**اعلمت كل لسان وكل كتاب وما كان وما سيكون بغير تعلّم، وهذا سرّ الأنبياء أودعه الله فيهم، والأنبياء أودعوه إلى أوصيائهم، ومن لم يعرف ذلك ويتحققه فليس هو على شيء، ولا قوّة إلاّ بالله**» - الخرايج والجرايح: ٣١٦ الباب التاسع.
ومن الروايات أيضاً: روايات اعطاء الإمام العلم بواسطة النور، كالمروي عن أبي جعفر ﷺ قال: «**ان الإمام يسمع الكلام في بطن أمّه... حتى إذا شبّ رفع الله له عموداً من نور يرى فيه الدنيا وما فيها، لا يستر عنه منها شيء**» - بصائر الدرجات: ٤٣٥ ح٣ باب انه يرى ما بين المشرق والمغرب.
وفي رواية: «**إذا أراد عِلْمَ شيء نظر في ذلك النور فعرفه**» - بصائر الدرجات: ٤٤٠ ح٢.
ونحو ذلك من روايات عامود النور الآتية - بصائر الدرجات: ٤٣١ إلى ٤٤٣ عدّة أبواب في عرض الأعمال بواسطة العامود.
وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «**ليس العلم بكثرة التعلّم انّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد الله أن يهديه**» - المحجة البيضاء: ٥/ ٤٥ كتاب شرح عجائب القلب.
وفي الأثر: «**العلم نور وضياء يقذفه الله في قلوب أوليائه وأنطق به على لسانهم**» - المصدر السابق.
وفي آخر: «**ما من عبد إلاّ ولقلبه عينان وهما غيب يدرك بهما الغيب**». المصدر نفسه.
وفي ثالث: «**فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه، فيرى ما هو غائب عن بصره**» - المصدر نفسه.
وفي الحديث القدسي في وصف الأولياء: «**أقبل عليهم بوجهي؛ أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه، ثم قال عزوجل: أوّل ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عنّي كما أخبر عنهم**» - المحجة البيضاء: ٥/ ٣٩ كتاب شرح عجاب القلب.
ومن روايات العلم اللدني روايات كونهم معدن العلم وورثته - الكافي: ١/ ٢٢١ - ٢٢٢ باب انّهم معدن العلم وورثته.
ومنها روايات كون عندهم جميع العلوم - الكافي: ١/ ٢٥٥ - ٢٥٦ باب انّهم يعلمون جميع العلوم.
ومنها ما يأتي في الجهة السادسة من علمهم بالكتاب والقرآن، وهو فيه تبيان كلّ شيء.
وكذلك روايات علمهم بما كان ويكون، وما شابه من هذه الروايات.
ومنها ما يأتي من علمهم للغيب.
ومنها: ما يأتي في الجهة الرابعة من ان علمهم بإيحاء من الله مباشرة، أو انّه قذف ونقر في القلوب، أو انّه تحديث.
فانّ هذا كلّه يدلّ على كون علمهم لدنياً ويأتي توضيح الإستدلال بها في الترجيح بين الإحتمالات.
الدليل العقلي على العلم اللدني
هذا إضافة إلى الدليل العقلي الدال على علمهم اللدني وذلك بعدة تقاريب:

وأرواح أجساد العلوم والحقائق وعيش العلم فلا محالة تعدم ظلمة الجهل بهم.

---

* التقريب الاول:
العلم الحضوري للإمام أكمل في اللطف
ان ارسال الرسل والأئمّة لطف من الله تعالى كما هو مبيّن في العقائد.
واللطف هو كل ما يبعد العبد عن المعصية، وإن شئت قلت هو ما دعا إلى فعل الطاعة ـ الذخيرة: ١٨٦ باب الكلام في اللطف.
وعليه؛ فأوّلاً: أنّه من حسن الظن بالله أن يجعل حججه على أكمل وجه وأصبغ نعمة، وهذا هو الأنسب مع حكمة الله.
ومعلوم ان العلم اللدني أكمل من الكسبي.
ثانياً: علم الناس بأن علم الإمام لدني حاضراً في كل حال ولكل شيء؛ رادعٌ لهم عن ارتكاب المعصية والبعد عنها ومقربٌ لهم الى فعل الطاعة، لخوفهم من تأنيب الإمام لهم على المعصية، ولفرحهم من مدحه لهم على الطاعات.
وفي الروايات ما يؤكد ذلك.
* التقريب الثاني:
العلم اللدني أنفع للأمّة
فإنّ الإمام كلّما كان علمه محيطاً بكل الأشياء، وعلى أكمل وجه من العلم والإحاطة، وكأن يعلم بما مضى وما سوف يأتي، وعلمه بخلفيات وأسرار الكلام؛ فان كل ذلك يكون أنفع للأمّة ولمصالحها الدينية والسياسية والاجتماعية، الفردية والنوعية.
لأنّ الإمام ﷺ بعلمه اللدني لا ينخدع، ولا تحصل عليه المنقصة لاحتياجه إلى السؤال فيما لو فرض ان علمه غير لدني، ولما علم المنافقين والمخادعين وحيلهم.
وفي التاريخ شواهد جمّة ان الإمام أو الخليفة إذا لا يعلم ما في الصدور كيف ينخدع ويصبح سخرية للرعية. بينما لو كان عالماً بخفايا الأمور كيف تجده يبرم الأمور إبراماً.
* التقريب الثالث:
العلم اللدني أكمل للإمام
والعلم اللدني أكمل وأفضل للامام ﷺ وعدمه منقصة، اذ لو لم يكن علمه لدنيا لوجد من هو أعلم منه، والأعلم أفضل، والإمام يجب أن يكون أعلم الموجودين وأفضلهم.
على أن العرف والعقل يحكمان بأن الإمام والخليفة يجب أن يكونا أكمل المخلوقات، ويحكمان أيضاً أن العلم اللدني أكمل من الكسبي الحصولي التدريجي.
* التقريب الرابع:
العلم الحصولي علم متغير لا يفيد اليقين
العلم اللدني كما يأتي قريباً علم شريف من الله تعالى يؤدي الى اليقين بالمعلوم، أما العلم الحصولي الكسبي فإنه لا يفيد اليقين الجازم بالقضية.
ومعلوم أن العقل يحكم بوجوب كون الاخبار الصادرة عن الإمام ﷺ اخباراً يقينية، وإلاّ لما أفاد الاطمئنان عند الناس، ولما وجب التصديق به.
الفرق بين العلم اللدني الحضوري والكسبي الحصولي
للعلم بالأشياء طريقان: أن يتوصل إلى الشيء بواسطة الخواص والعوارض أو الشبح والظل وآثار الأشياء

قوله عليه‌السلام: (يخبركم حلمهم عن علمهم). الحلم هو طمأنينة النفس، بحيث لا يحركها

ولوازمها، وهذا يسمّى بالعلم الحصولي.
وهناك طريق آخر وهو أن يتوصل للشيء من خلال معرفة مبادئه وأسبابه، وهذا ما يسمّى بالعلم الحضوري أو اللدني، والذي من آثاره هو الاطّلاع على أسرار وغيب العالم، كما حصل مع الخضر وموسى (عليهما السلام).
قال المتأله السبزواري في اللآلي: العلم حصولي وحضوري، والحصولي هو الصورة الحاصلة من الشيء عند العقل.
والحضوري هو العلم الذي هو عين المعلوم لا صورته ونقشه، كعلم المجرّد بذاته، أو بمعلوله كعلم الحق تعالى بمعلولاته عند المحققين، وليس بتصور ولا بتصديق لأن مقسمهما العلم الحصولي) - عيون مسائل النفس: ٥١٩.
وقال العلاّمة الطباطبائي: (وللرواية «من عرف نفسه عرف ربّه» معنى آخر أدق مستخرج من نتائج الأبحاث الحقيقية في علم النفس، وهو ان النظر في الآيات الآفاقية والمعرفة الحاصلة من ذلك نظر فكري وعلم حصولي، بخلاف النظر في النفس وقواها وأطوار وجودها والمعرفة المنجلية منها فانّه نظر شهودي وعلم حضوري.
والتصديق الفكري يحتاج في تحققه إلى نظم الأقيسة واستعمال البرهان، وهو باق ما دام الإنسان متوجّهاً إلى مقدّماته غير ذاهل عنها ولا مشتغل بغيرها، ولذلك يزول العلم بزوال الاشراف على دليله وتكثر فيه الشبهات ويثور فيه الاختلاف.
وهذا بخلاف العلم النفساني بالنفس وقواها وأطوار وجودها فانّه من العيان، فاذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه وشاهد فقرها إلى ربّها وحاجتها في جميع أطوار وجودها؛ وجد أمراً عجيباً، وجد نفسه متعلّقة بالعظمة والكبرياء متصلة في وجودها وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعها وبصرها وإرادتها وحبّها وسائر صفاتها وأفعالها، بما لا يناهى بهاءً وسناءً وجمالاً وجلالاً وكمالاً من الوجود والحياة والعلم والقدرة وغيرها من كل كمال) - تفسير الميزان: ٦/ ١٧١ - ١٧٢ مورد آية ١٠٥ من المائدة - البحث الروائي.
وقال صدر المتألهين في شرح أصول الكافي (شرح الحديث العاشر):
(اعلم ان العلم بالأشياء الجزئية على وجهين:
أحدهما: ان يعلم الأشياء من الأشياء، بحسّ أو تجربة أو سماع خبر أو شهادة أو اجتهاد، ومثل هذا العلم لا يكون إلاّ متغيّراً فاسداً محصوراً متناهياً غير محيط، فانّه يلزم ان يعلم في زمان وجودها علماً، وقبل وجودها علماً آخر، ثم بعده علماً آخر.
فإذا سئل العالم بهذا العلم عن حادث ما، كالكسوف مثلاً حين وجوده يجيب بجواب فيقول مثلا: انكسفت الشمس، وإذا سُئل عنه قبل حدوثه يجيب بجواب آخر فيقول: سيكون الكسوف، ثم إذا سئل بعده فيقول: قد كان الكسوف. فعلمه بشيء واحد تارة كان وتارة كائن وتارة سيكون، فيتغيّر علمه.
ومثل هذا العلم الانفعالي متغيّر فاسد ليس بيقين إذ العلم اليقيني ما لا يتغيّر أصلاً.
وثانيهما: ان لا يعلم الأشياء من الأشياء؛ بل يعلم بمباديها وأسبابها، فيعلم أوائل الوجود وثوانيها، وهكذا إلى أن ينتهي إلى الجزئيات، علماً واحداً وعقلاً بسيطاً محيطاً بكليات الأشياء، وجزئياتها على وجه عقلي غير متغيّر، فمن عرف المبدأ الأوّل بصفاته اللاّزمة وعرف انّه مبدأ كل وجود وفاعل كل فيض وجود عرف أوائل الموجودات عنه، وما يتولّد عنها على الترتيب السببي والمسببي، كما يتولد مراتب العدد من الواحد على الترتيب، وما من شيء من الأشياء يوجد إلاّ وقد صار من جهة ما يكون واجباً بسببه وسبب

الغضب بسهولة، ولا يزعجه المكروه بسرعة فهو ضد الغضب، والحلم من أشراف الكمالات النفسية بعد العلم، ولذا ترى كلما يسأل عن العلم أو يمدح يقارن بالحلم، قال رسول الله ﷺ: اللهم أغنني بالعلم وزيّني بالحلم.

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام «كما يأتي في باب المختار من حكمه»: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك[1].

وفي باب صفة العلماء من «الكافي» عن أبي عبد الله عليه السلام: اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ـ الحديث[2].

سببه إلى أن ينتهي إليه تعالى. فيكون هذه الأسباب بمصادماتها تتأدى إلى أن يوجد عنها الأمور الجزئية) ـ شرح أصول الكافي: ٢٠٦ ط. الرحلي.

فتحصل: ان العلم الحصولي الكسبي علمٌ بظواهر الأشياء وجزئياتها من طريق نفس الأشياء يتغير ولا يفيد اليقين، وهذا العلم يتنزّه عنه الأولياء فضلاً عن آل محمّد (عليهم السلام).

وان العلم الشهودي الحضوري علمٌ بواقع الأشياء وأسبابها ـ والذي يغني عن العلم بجزئياتها ـ وانّه هو علم الأولياء فضلاً عن أولي الأمر من آل محمّد (عليهم السلام).

وآثار هذا العلم إضافة إلى انّها شهودية لعين الواقع وصقع الأمر، أنّه يؤهّل العالم به أن يطّلع على أسرار الكون والملكوت، ويعطيه الأهلية لقدرة التصرّف فيه، منتظراً منح القدرة من الله العزيز المتعال.

قال الإمام الغزالي بعد تعريف الوحي والإلهام والعلم الحاصل منهما: (والعلم الحاصل عن الوحي يسمّى علماً نبوياً، والذي يحصل عن الإلهام يسمّى علماً لدنياً، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري، وانّما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف، وذلك ان العلوم كلّها حاصلة معلومة في جوهر النفس الكلية الأولى، الذي هو في الجواهر المفارقة الأوّلية المحضة بالنسبة إلى العقل الأوّل كنسبة حواء إلى آدم عليه السلام.

وقد بيّن ان العقل الكلي أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى الباري تعالى من النفس الكلية، والنفس الكليّة أعزّ وألطف وأشرف من سائر المخلوقات، فمن افاضة العقل الكلّي يتولّد الإلهام (كذا ـ والصحيح الوحي) ومن اشراق النفس الكلية يتولّد الإلهام، فالوحي حلية الأنبياء، والإلهام زينة الأولياء ـ رسائل الإمام الغزالي ـ الرسالة اللدنية: ٣/ ٧٠ ط دار الكتب العلمية، وراجع جامع الأسرار: ٤٤٩ ح ٩٠٥.

وقال القسطلاني: والعلم اللدني الرحماني هو ثمرة العبودية والمتابعة لهذا النبي الكريم عليه أزكى الصلاة وأتمّ التسليم، وبه يحصل الفهم في الكتاب والسنّة بأمر يختص به صاحبه، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام وقد سُئل: هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟

فقال: **«لا، إلاّ فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه»** ـ المواهب اللدنية: ٢/ ٤٩٣ في وجوب محبته واتباع سنّته ـ الفصل الأول، والحديث في المحجّة البيضاء: ٥/ ٤٣.

وقال الفيض الكاشاني: وليعلم ان علوم الأئمّة (عليهم السلام) ليست اجتهادية ولا سمعية أخذوها من جهة الحواس، بل لدنية أخذوها من الله سبحانه ببركة متابعة النبي ﷺ ـ الاصول الأصيلة: ٣٠ ـ ٣١ الأصل الثاني ـ وصل..

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤١١، وبحار الأنوار: ١/ ١٨٣ ح ٨٠.

(٢) منية المريد: ١٦٢، ووصول الأخيار إلى أصول الأخبار: ١٢٨.

وفيه عن حمّاد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم وزير الإيمان العلم ونعم وزير العلم الحلم ونعم وزير الحلم الرّفق ونعم وزير الرفق الصبر[١].

وإنما كان حلمهم عليه السلام يخبركم عن علمهم، لأن الحلم يلازم العلم بمواقع الحلم.

وفي «**الإرشاد**» للمفيد: روى إسحاق بن منصور السلولي قال: سمعت الحسن بن صالح يقول: سمعت أبا جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام يقول: ما شيب شيء بشيء أحسن من حلم بعلم[٢].

وفي «**البحار**» وغيره من كتب الأخبار: لمّا مات الحسن بن عليّ عليه السلام وأخرجوا جنازته حمل مروان سريره فقال له الحسين عليه السلام: أتحمل سريره؟ أما والله لقد كنت تجرعه الغيظ فقال مروان: إنّي كنت أفعل ذلك بمن يوازي حلمه الجبال[٣].

ثمّ جاء في بعض النسخ كما في شرح المعتزلي وينابيع المودّة بعد قوله هذا قوله: **(وظاهرهم عن باطنهم)** فإنّ الظاهر عنوان الباطن، فالأفعال الحسنة الصادرة عنهم والأخلاق الكريمة البارزة منهم، تدلّ على حسن سريرتهم وإخلاصهم، لأن بدن الإنسان بمنزلة مدينة مدبّره، وسلطانه هو القلب أعني العقل، وسائر القوى عمّاله وجنوده، فإذا سلم القلب لا يصدر منه إلاّ الخير، فإن القوى حينئذ كانت بأسرها تحت إشارة العقل وتدبيرها، ووقعت مصالحة ومسالمة بينها والعقل، تستعملها في المواضع اللائقة بها، على ما ينبغي لها قال عزّ من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾. كما أن العقل إذا صار مغلوب القوى غلبت على الإنسان الشرور، ولا يبرز منه إلاّ الأفعال الحيوانية والآثار الشيطانية، فيسقط في مهاوي المهلكة، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: في الإنسان مضغة إذا هي سلمت وصحّت سلم بها سائر الجسد، فإذا سقمت سقم بها سائر الجسد وفسد، وهي القلب. ونعم ما قال العارف المعروف مجدود بن آدم السنائي في الحديقه:

دل آنكس كه گشت برتن شاه	بود آسوده ملك از او وسپاه
بد بون تن چه دل تباه بود	ظلم لشگر ز ضعف شاه بود
اين چنين پر خلل دلى كه ترا است	دد وديوند با تو زين دل راست
پارهٔ گوشت نام دل كردى	دل تحقيق را بحل كردى

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٤٥، ومستدرك سفينة البحار: ٦/ ٣٨٣.

(٢) شرح الأخبار: ٣/ ٢٨٣، والإرشاد: ٢/ ١٦٧.

(٣) مستدرك سفينة البحار: ٢/ ٣٨٢، ووفيات الأئمة: ١٢٠.

اینـکـه دل نـام کـرده ای بـمـجـاز رو بـه پـیـش سـگـان کـوی انـداز
ازتـن ونـفـس وعـقـل وجـان بـگـذر ده ره او دلـی بـدسـت آور
لآنـچـنـان دل کـه وقـت پـیـچـا پـیـچ انـدر او جـز خـدا نـیـابـی هـیـچ
دل یـکـی مـنـظـری اسـت ربّـانـی خـانـه دیـو راچـه دل خـونـی
از در نـفـس تـا بـکـعـبـه دل عـاشـقـا نـرا هـزار ویـک مـنـزل

ولقد تكلّمنا في ذلك وأتينا ببعض الأشعار والأمثال في شرح الخطبة ٢٣١ عند قوله عليه السلام: ألا إنّ اللسان بضعة من الإنسان، فراجع.

قوله عليه السلام: **(وصمتهم عن حكم منطقهم)** لا يخفى أنّ الصمت في موقع الكلام قبيح، كالكلام في موقع الصمت، وسيأتي في باب المختار من حكمه عليه السلام، الحكمة ٢٨٢ قوله عليه السلام: لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل. وما اجاد كلام الشيخ السعدي:

دوچـیـز طـیـره عـقـلـسـت دم فـرو بـسـتـن بـوقـت گـفـتـن وگـفـتـن بـوقـت خـامـوشـی

والعارف بمواقع السكوت يكون عارفاً بمواقع الكلام أيضاً، فصمته في موقعه يدلّ على أن منطقه يكون على حكمة وصواب، فمن لم يعلم مواقع السكوت يتكلّم بما لا يعنيه، ويسكت عن ما يعنيه. فصمتهم عليهم السلام عن ما لا يعنيهم، يخبركم على أن منطقهم يكون على حكمة، وواقعاً في محلّه.

ثمّ إنّه سئل السّجاد عليّ بن الحسين عليه السلام عن الكلام والسكوت أيهما أفضل، فقال: لكل واحد منهما آفات، فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت قيل: كيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: لأن الله عزّ وجلّ ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت إنما بعثهم بالكلام، ولا استحقت الجنّة بالسكوت، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت، ولا توقيت النّار بالسكوت، وما كنت لأعدل العمر بالشمس أنك تصف فضل السكوت بالكلام، ولست تصف فضل الكلام بالسكوت[١].

ثم إن في بعض النسخ جاءت العبارة هكذا: **(وصمتهم عن منطقهم)** وفي بعض النسخ كما اخترناه، وعلى هذا يمكن أن يقرأ الحكم بضم الحاء وسكون الثاني أي صمتهم، يخبركم عن حكم منطقهم، يعني أن حكم منطقهم صواب وحقيقة، كما تقول: ذاك الشيء يكون حكمه كذا، ويمكن أن يقرأ بكسر الحاء وفتح الثاني جمع الحكمة كما علم.

قوله عليه السلام: **(لا يخالفون الحق)** فإن الحق في كلّ شيء هو العدل المحض، الذي وسط

(١) بحار الانوار: ٦٨/ ٢٧٤ ح ١، ومستدرك سفينة البحار: ٩/ ١٧٨.

الأفراط والتفريط، وآل محمّد صلوات الله عليهم هم الأئمة المهديون من الله، يهدون بأمر الله وينظرون بنور الله، وقد دريت مما قدّمنا أن الحجج الإلٰهيّة لمكان عصمتهم لا يعدلون عن الحقّ طرفة عين أبداً، وهم الموازين القسط والمعايير الحقّ والمناهج الصدق وعلى بيّنة من ربّهم. قال الله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وقال رسول الله ﷺ: عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لا يفترقان حتى يردا على الحوض. فعليّ عليه السلام يكون مع الحق إلى يوم القيامة، كما نصّ به رسول الله ﷺ: الحق مع عليّ حيث دار، والأخبار في ذلك المعنى من طرق الفريقين لا تحصى كثرة. وكذا الكلام في باقي الأئمة الأحد عشر، الحق معهم حيث داروا لعصمتهم. وفي «**الكافي**» بإسناده عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وفصل ما بينكم ونحن نعلمه[١].

قوله عليه السلام: (**ولا يختلفون فيه**) فإن كثرة الأقوال من واحد في مسألة واحدة، أو اختلاف الاثنين أو أكثر فيها، إنّما يكون بجهلهم عن الحق، لأنّ الحقّ لا يكون إلاّ واحداً ولا يتكثر ولا يتغيّر.

ففي «**التهذيب**» لشيخ الطائفة قدس سرّه، بإسناده عن أبي مريم عن أبي جعفر عليه السلام (**ص ٦٠ م١ من الوافي**) قال: قال عليّ صلوات الله عليه: لو قضيت بين رجلين بقضيّة ثمّ عادا إليّ من قابل لم أزدهما على القول الأوّل لأنّ الحقّ لا يتغير[٢].

وحيث إن الحقّ مع آل محمّد حيث دار، فلا يتطرق الإختلاف في أقوالهم وآرائهم، لأن علومهم من معدن واحد وعين واحدة، وذواتهم عليهم السلام من نور واحد، كما صرّحوا به في كثير من الأخبار وفي بعضها: خلقنا واحد، وعلمنا واحد وفضلنا واحد وكلّنا واحد عند الله[٣].

وفي رواية: ونحن شيء واحد.

وفي «**الكافي**» بإسناده إلى حمّاد بن عيسى وغيره، قالوا سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن، حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين، حديث رسول الله ﷺ وحديث رسول الله ﷺ، قول الله تعالى[٤].

---

(١) بصائر الدرجات: ٢١٦، وشرح أصول الكافي: ٢/٣٠٢ ح ٩.

(٢) التهذيب: ٦/٢٩٦ ح ٢٣، والأصول الأصلية: ١٢١.

(٣) كتاب الغيبة: ٨٦ ح ١٦، وبحار الأنوار: ٢٥/٣٦٣ ح٢٣.

(٤) الإرشاد المفيد: ٢/١٨٦، وبحار الأنوار: ٢/١٧٩.

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الحديث أسمعه منك، أرويه عن أبيك أو أسمعه من أبيك أرويه عنك؟ قال: سواء إلاّ أنك ترويه عن أبي أحبّ إليّ، وقال أبو عبد الله عليه السلام لجميل: ما سمعت منّي فاروه عن أبي[١].

وفي «**الكافي**» أيضاً في حديث طويل (**الوافي ص ١٤ م٢**) عن أبي جعفر عليه السلام، فقد مكن ولاة الأمر بعد محمّد صلى الله عليه وآله بالعلم، ونحن هم، فاسألونا، فإن صدقناكم فأقرّوا وما أنتم بفاعلين، أمّا علمنا فظاهر، أما أبان أجلنا الذي يظهر فيه الدّين منا حتى لا يكون بين النّاس اختلاف فإن له أجلاً، من ممرّ اللّيالي والأيام إذا أتى ظهر وكان الأمر واحداً، وأيم الله لقد قضى الأمر أن لا يكون بين المؤمنين اختلاف، ولذلك جعلهم شهداء على النّاس، ليشهد محمّد علينا ولنشهد على شيعتنا وليشهد شيعتنا، على النّاس، أبى الله تعالى أن يكون في حكمه اختلاف أو بين أهل علمه تناقض، الحديث[٢].

قوله عليه السلام: (**هم دعائم الإسلام**) شبّه الدين بالبيت أو الفسطاط مثلاً وآل محمد صلى الله عليه وآله بدعائمه، وكما أن البيت قائم بالدعائم والأركان كذلك الإسلام بآل محمّد، وذلك لما دريت آنفاً أنّ الله تعالى أنزل القرآن تبياناً لكلّ شيء، وما فرط في الكتاب من شيء، وكذا علمت أنه ما من أمر يختلف فيه إثنان إلا وله أصل في كتاب الله، ولكن لا تبلغه عقول الرّجال، فلا بدّ للقرآن من قيّم مؤيد بتأييدات سماويّة حافظ للدين، ومبيّن للكتاب المبين وذلك القيم المبين، في كلّ عصر لا بدّ أن يكون خازن علم الله وعيبة وحيه، وأن تكون أفعاله معهودة من الله حتّى يحفظ الدّين به، وآل محمّد صلى الله عليه وآله ولاة أمر الله وخزنة علمه.

في «**الكافي**» بإسناده عن الحسن بن موسى عن عليّ عن عمه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة وحي الله[٣].

وفيه عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: نحن خزّان علم الله ونحن تراجمة وحي الله، نحن الحجّة البالغة على من دون السّماء ومن فوق الأرض[٤].

قوله عليه السلام: (**وولائج الإعتصام**) أي هم أهل أن يعتمد الورى عليهم، ويتّخذوهم ولائج ويتمسكوا بهم، فإنّهم منار الهدى واعتصام الورى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلّف عنها هوى.

---

(١) معالم المدرستين: ٢/٣٤٧، وتهذيب المقال: ٤/١٧ ح٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٥/٧٤، وتأويل الآيات: ٢/٨٢٦.

(٣) بحار الأنوار: ٢٦/١٠٦ ح ٩.

(٤) بحار الأنوار: ٢٥/٢٩٨ ح ٦٢، والتفسير الصافي: ٢/١٦٩.

وفي المجلس السادس والتسعين من أمالي الصّدوق بإسناده إلى الحكم بن الصلت عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خذوا بحجرة هذا الأنزع يعني علياً عليه السلام فإنه الصديق الأكبر، وهو الفاروق يفرق بين الحقّ والباطل، من أحبّه هداه الله ومن أبغضه أبغضه الله، ومن تخلّف عنه محقه الله، ومنه سبطا أُمتي الحسن والحسين وهما ابناي، ومن الحسين أئمة الهدى أعطاهم الله علمي وفهمي، فتولّوهم ولا تتخذوا وليجة من دونهم، فيحلّ عليكم غضب من ربكم ومن يحلل عليه غضب من ربّه فقد هوى، وما الحياة الدّنيا إلا متاع الغرور[1].

قوله عليه السلام: **(بهم عاد الحقّ في نصابه)** أي بوجودهم، أو بتصرّفهم وولايتهم، رجع الحق إلى حدّه ومستقره وأصله، وقد علم ممّا قدمنا في هذه الخطبة: أنّ الحجج الإلهيّة هم الموازين القسط، وأنهم يهدون بأمر الله ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنّ الرياسة إذا كانت بيدهم كان الزمان نورانياً، لأنهم يحكمون بالعدل وينطقون بالقسط ويعملون بالحقّ، وبعد الحقّ ليس إلاّ الضلال، فلو كانت الرّياسة بيد غيرهم كانت الظلمات غالبة والأباطيل رائجة وأحكام الله معطّلة، ويسدّ الباطل مسدّ الحق، فانظر إلى الذين تولوا أُمور المسلمين ممّن لم يكونوا من بيت آل العصمة، كالأُمويين والعباسيّين وغيرهم كيف شوّهوا الدّين، ولعبوا به وروّجوا الباطل وعنوا به وردّو الأُمة على أدبارهم القهقرى، وأخذوا مال المسلمين طعمة لهم، ولولا سبل الهدى آل محمّد صلوات الله عليهم في قبالهم، لانمحت أعلام الهدى، فانظر إلى سيرة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بعد من تقمصوا الخلافة، كيف خلص الدين من المهالك، وبيّن الحق على أوضح المسالك، ولله در محمّد بن الحبيب الضبّي قائلاً:

لولا الأئمة واحداً عن واحد ... درس الهدى واستسلم الإسلام

كل يقوم مقام صاحبه إلى ... أن ينتهي بالقائم الأيام

قوله عليه السلام: **(وانزاح الباطل عن مقامه)** أي بهم زال الباطل وذهب عن مقام الحقّ، فإن زمن ولاية أُمراء الجور أقيم الباطل مقام الحق، هذا إن أرجعنا الضمير إلى الحقّ وإن أرجعناه إلى الباطل، فالمعنى أن الباطل لما عمل به صار في قبال الحقّ ذا محلّ ومقام، فبآل محمّد صلى الله عليه وآله زهق الباطل واجتثّت شجرته الخبيثة من أصله.

قوله عليه السلام: **(وانقطع لسانه عن منبته)** استعار الباطل لساناً، والضمير في منبته كمقامه، يحتمل الوجهين، فالمعنى على الأوّل أنّ الباطل في منبت الحقّ كشوك نبت في ترعة، أو كبقل مرّ نبت في زرع مزرعة، فآل محمّد جثّوا نبات الباطل من روضة الحقّ، وانقطاع لسان الباطل

(١) شرح الأخبار: ٢/٢٢٢ ح ٧، ونهج السعادة: ١/ ٢٠.

كناية عن اضمحلاله، أو عن سكوته لأنّ قطع اللسان كثيراً ما يجعل كناية عن السكوت.

وفي كلمتي لولا ولو ما من باب الحروف من شرح أنموذج الزمخشري قيل: إن سائلاً دخل على النبيّ ﷺ وأنشد بيتاً فقال النبيّ ﷺ لبعض الصحابة: أقطع لسانه، فأذهبه ذلك البعض ليقطع لسانه، فلقاه عليّ عليه السلام فقال له: ما تريد بهذا الرّجل؟ فقال: أقطع لسانه، فقال عليّ عليه السلام: أحسن إليه فإن الإحسان يقطع اللّسان فرجعا إلى النبيّ ﷺ فقالا له: أي شيء تعني بالقطع يا رسول الله: فقال: الإحسان[1].

وأمّا على الوجه الثاني فظاهر معناه، ولا يبعد أن يجعل كلمة «لسانه» كناية عن النبات، كما أن لسان الحمل ولسان الثور ولسان الكلب ولسان العصافير وغيرها، مما هي مذكورة في الكتب الطبيّة كالتحفة وغيره أسام لنباتات، كما يحتمل أن يكون المراد من لسان الباطل، لسان من ينطق به وينصره.

قوله عليه السلام: **(إعقلوا الدّين عقل وعاء ورعاية لا عقل سماع ورواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل)** يأتي منه عليه السلام في باب المختار من حكمه **(كلمة الحكمة ٩٨)** قوله: اعقلوا الخير إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواة فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل.

وفي أُصول **«الكافي» (ص ٤٥ م١ من الوافي)** بإسناده إلى طلحة بن زيد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رواة الكتاب كثير وإن رعاته قليل، وكم من مستنصح للحديث مستغش للكتاب، فالعلماء يحزنهم ترك الرعاية والجهلاء يحزنهم حفظ الرواية، فراع يرعى حياته وراع يرعى هلكته، فعند ذلك اختلف الراعيان وتغاير الفريقان[2].

وفي الروضة منه **(ص ٢٤ م١٤)** من قول أبي جعفر عليه السلام في رسالته إلى سعد الخير: بسم الله الرحمٰن الرّحيم أمّا بعد، فإني أوصيك بتقوى الله - إلى أن قال: وكل أمة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبذوه، وولاّهم عدوّهم حين تولوه وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه، وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية. الحديث بطوله.

وفي أُصول **«الكافي»** بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام **(في آخر الحديث)**: ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكر[3].

---

(١) راجع شرح أصول الكافي للمازندراني: ١٠/ ٢٨٠.

(٢) الكافي: ١/ ٤٩ ح ٦.

(٣) منية المريد: ١٦٢، وبحار الأنوار: ٢/ ٤٩ ح ٩.

واعلم أن النيل إلى درك حقائق ما في الكتاب والسنّة والفوز إلى فهم أسرارهما، والتعقل والتدبّر في معانيهما، إنّما يتأتي للأوحدى من الناس الذي تنزّه عن الهواجس النفسانيّة، وتخلص عن الوساوس النفسانيّة فرزق القوة العقلية الوقادة، وقدس القلب وتلطيف السرّ، لأن الوصول إلى العلوم اليقينيّة ثمرة التقوى، والتوجه التام إلى الله تعالى وبالتقوى يتقرب العبد إلى عالم النور، ويصير من سنخه، فإذاً تحصل له ملكة صالحة واستعداد تامّ وسعة وجودية فيتيسر له استكشاف حقائق ما أوحى إلى سفراء الله، واستعلام ما أريد به واستنباط الأحكام الإلهية منه قال عزّ من قائل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ [الجن: ١٦] وقال في «المجمع»: وفي تفسير أهل البيت عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] قال: هو والله ما أنتم عليه ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۝١٦﴾.

وعن بريد العجلي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: معناه لأفدناهم علماً كثيراً يتعلّمونه من الأئمة[1] انتهى ما في «**المجمع**» من تفسير الآية.

والمروي عن جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام، كما في «**أمالي الصدوق**»: قال عليه السلام: أن حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ ملك مقرب أو نبيّ مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، أو مدينة حصينة[2] والمدينة الحصينة، هي القلب المجتمع، كما مرّ آنفاً.

وفي «**نهج البلاغة**» (**الخطبة ١٨٧**) قال عليه السلام: إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ عبد مؤمن، امتحن الله قلبه للإيمان ولا يعي حديثنا إلاّ صدور أمينة وأحلام رزينة. (ونعم ما قال محمّد بن محمود الآملي صاحب نفائس الفنون بالفارسية:

بهوس راست نبايد بتمنّي نشود اندراين راه بسى خون جگربا يد خورد

ولا ريب أنّ الفائز بهذه النعمة العظمى والنائل بهذه السعادة الكبرى، لا يكون إلاّ قليلاً من المخلصين ونعم ما قال افلاطن الحكيم (**ص ٨ رسالة زينون الكبير اليوناني طبع حيدرآباد الدكن ١٣٤٩ هـ**): إنّ شاهق المعرفة أشمخ من أن يطير إليه كلّ طائر، وسرادق البصيرة أحجب من أن يحوم حوله كل سائر، وكأن الشيخ الرئيس أخذ منه حيث قال في آخر النمط التاسع من الإشارات: جلّ جناب الحقّ عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلاّ واحداً بعد واحد، ولذا يكون رعاة العلم قليل. وأمّا حفظ ألفاظ الكتاب والسنة ونقلهما

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/١٥١، والتفسير الأصفى: ٢/١٣٦٣.
(٢) بحار الأنوار: ٢/٧١ ح ٣٠، ودرر الأخبار: ٢١٦.

وتصحيحهما وتجويد قراءتهما وضبط اصطلاحات العلوم ونحوها، فلا يحتاج إلى كثير تجشم وتحمل مشقّة وعناء، ولذا يكون رواتها كثير.

ثمّ إنّ أسلوب الكلام يقتضي أن يقال: فإن رواة الدين كثير ورعاته قليل، وإنما عدل من الدّين إلى العلم إشارة إلى أن الدّين هو العلم، وما يحتويه الكتاب والسنّة علم ليس إلاّ، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ - إلى قوله: فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى «كذا»: العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩] فما أنزل معه علم ليخرج النّاس من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

وفي **«الكافي»** عن أبي البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وذاك إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً - الحديث[1]. والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٦٧/ ٢٠ ح ٢٨٣٨.

الترجمة

این یکی از خطبه های ولی الله الاعظم است که در آن آل محمد(علیهم السلام) را به اوصافی نام می برد:

آل محمد زندگی دانش و مرگ نادانی اند (به وجودشان دانش زنده است و نادانی مرده)، بردباری شان از دانش شان آگاهی می دهد و خاموشی شان از حکمت (یا از حکم) گفتارشان. (بردباری به جا حاکی از پختگی عقل و علم است و خاموشی به جا دلیل بر صواب گفتار که آن گفتار نیز به جا و صواب است). نه با حق مخالفت کنند و نه در آن اختلاف. ایشان ستون خانه اسلام اند و معتمد و رازدار کسی که چنگ به ذیل عنایت شان در زند، بهوجود ایشان حق به جای خود آمد و باطل از جایش برکنده و زبانش از رستنگاهش بریده شد. دین را در دل نگاشته و حرمت آن را نگه داشته اند، نه چون کسی که فقط آن را شنیده و روایت کرده (که به حقیقت آن نرسیده و واقع آن را نیافته است)، چه راویان علم بسیاراند و پاس داران آن کم.

ومن كلامه عليه السلام وهو المائتان والثامن والثلاثون من المختار في باب الخطب

قاله لعبد الله بن العبّاس وقد جاءه برسالة من عثمان وهو محصور، يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع، ليقلّ هتف النّاس باسمه للخلافة، من بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل فقال له عليه السلام:

يَا ابْنَ عَبّاسٍ ما يُريدُ عُثْمانُ أَنْ يَجْعَلَني إلاّ جَمَلاً ناضِحاً بِالْغَرْبِ أُقْبِلُ وَأُدْبِرُ بَعَثَ إِلَيَّ أَنِ أُخْرُجْ ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنِ اقْدمْ، ثُمَّ هُوَ الآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنِ اُخْرُجْ وَاللّٰهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتّى خَشيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً[١].

اللغة

قال ياقوت الحموي في مراصد الإطلاع: (ينبع) بالفتح ثمّ السكون والباء موحدة مضمومة وعين مهملة «على وزن ينصر» مضارع نبع: حصن وقرية عناء على يمين رضوى، لمن كان منحدراً من أهل المدينة إلى البحر على ليلة من رضوى. وهي لبني حسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وفيها عيون عذاب وواديها يليل يصب في عنقها قيل: أقطعها عمر عليّاً عليه السلام. انتهى كلامه. وفي «**النهاية**» أيضاً أنها قرية كبيرة، بها حصن على سبع مراحل من المدينة من جهة البحر. وقيل على أربع مراحل. وفي أخبارنا أنه من أوقاف عليّ أمير المؤمنين عليه السلام أجرى عينه. وأن صحّ الأول فلا منافاة بينهما كما لا يخفى. والله تعالى يعلم.

قال الجوهري في «**الصحاح**»: (**الهتف**): الصوت، يقال: هتفت الحمامة تهتف هتفاً وهتف به هتافاً أي صاح به. وقوس هتافة وهتفى أي ذات صوت. والمراد هنا أن النّاس كانوا ينادون باسمه عليه السلام للخلافة.

(**الناضح**) بالحاء المهملة: البعير الذي يستقى عليه الماء من النضح بمعنى الرش والشرب دون الريّ، كالنضخ بالخاء المعجمة وقيل: النضخ بالمعجمة أبلغ منه، وقيل: دونه، ويؤيد الأوّل قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ أي فوّارتان غزيرتان، ولكن لا يقال للبعير الذي يستقى عليه الناضخ بالمعجمة. وأنثى الناضح: الناضحة وجمعها نواضح، قال قسام بن

---

(١) الغدير: ٦٩/٩، وشرح نهج البلاغة: ٢٩٦/١٣.

رواحة السنبسيّ (**الحماسة ٣٣٠**)

لبئس نصيب القوم من أخويهم طراد الحواشي واستراق النواضح

وإنّما سمى الذي يستقى عليه الماء ناضحاً أو التي يستقى عليها الماء ناضحة أو نواضح، لأنه جعل الفعل لها كأنها هي التي تنضح الزراعات والنخيل. وهم يسمّون الأكّار النضّاح، أي الذي ينضح على البعير، أي يسوق الناضحة يستقى نخلا. ويقال لانثى الناضح السانية أيضاً.

قال المرزوقي في «**شرح الحماسة**» ٧٤٧: النضح كالنضخ إلاّ أن النضح له أثر والعين تنضح بالماء. وكذلك الكوز. والنضيح العرق لأن جرم اللّسان ينضح به، وسمّى أبو ذؤيب الهذلي ساقي النخل نضّاحاً، كما سمّى البعير الذي يستقى عليه الماء الناضح. فعلى ذلك قال الهذلي:

هبطن بطن رهاطٍ واعتصبن كما يسقى الجذوع خلال الدور نضّاح

(**الغرب**) بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة: الدلو العظيمة. سميت الدلو غرباً لتصورّ بعدها في البئر.

ثمّ تكلم بهذه الجملة العبّاس بن مرداس، بن أبي عامر السلمي الصحابي قبل أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال في أبيات له:

أراك إذا قد صرت للقوم ناضحاً يقال له بالغرب أدبر وأقبل

وأتى بسبعة أبيات منها أبو تمام في الحماسة ١٤٩ الآتي نقلها.

الإعراب

كلمة (**ما**) نافية. وكلمة أن بالفتح والسكون حرف مصدري ناصب ليجعلني، فتكون في موضع نصب على المفعوليّة ليريد، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وكذا قوله عليه السلام: حتّى خشيت أن أكون آثماً. وكلمة أن إذا كانت مصدريّة نقع في موضعين أحدهما في الإبتداء فتكون في موضع رفع على الإبتداء في نحو قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [القرة: ١٨٤] والثاني بعد لفظ دال على معنى غير اليقين، فتكون في موضع رفع على الفاعلية نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] الآية. وفي موضع نصب على المفعولية كما علم. وفي موضع جر في نحو قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] الآية. واستثناء مفرغ كقوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢] فقوله عليه السلام جملاً ناضحاً معمول يجعلني وناضحاً صفة للجمل، وبالغرب متعلّق بكلّ واحد

من أقبل وأدبر لا بالناضح، والشاهد بيت العباس بن مرداس المقدم آنفاً، ويمكن أن يقرأ «أقبل» على صيغة الأمر وكذا «أدبر» أي يقول لي عثمان: أقبل وأدبر كما يقول النضّاح للجمل الناضح، والظاهر أن صيغة التكلم فيهما كما اخترناها انسب بأسلوب العبارة. بعث إليّ. إلخ بيان لقوله المقدم كان سائلاً سأله عن قوله: كيف جعلك جملاً ناضحاً إلخ؟ فأجاب بعث إليّ إلخ وقوله: والله لقد دفعت، إخبار عن نفسه أنه دفع عنه غير مرّة كما يأتي في الشرح، وكلمة أن في المواضع الثلاثة دون الأولى والآخرة مفسرة بمنزلة أي. والشرط في المفسرة أن تكون مسبوقة بجملة فيها معنى القول دون حروفه نحو قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص: ٦] ويصح أن يقرأن «أخرج» بالموضعين و«أقدم» على هيئتي التكلّم والأمر، واللام في لقد دفعت لام جواب القسم كقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] وقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الانبياء: ٥٧].

المعنى

سيأتي ذكر ما فعل عثمان بن عفان في أوان رئاسته وأيام أمارته، وما فعل الناس به عند قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، وجبهة الأنصار وسنام العرب ـ إلخ في أوّل باب المختار من كتبه ورسائله.

قول الرضي رضي الله عنه: **(وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع اه)** أنّ الصحابة بأجمعهم أجمعوا على حربه لما رأوا منه أشياء منكره تقرع سمعك، وكانوا يومئذ بين خاذل وقاتل، حتى حصروه في داره ومنعوه من الماء أيّاماً، وآخر الأمر قتلوه في بيته وبين ولده ونسائه، في المدينة، ودار الهجرة وهو بين ظهراني المسلمين، حتّى قيل إنّ المجمعين على قتل عثمان كانوا أكثر من المجمعين على بيعته لأجل أحداثه التي نقموها منه.

وإنّما سأله الخروج إلى ينبع ليقلّ هتف النّاس باسمه للخلافة، وذلك لما رأى أن ميل النّاس إلى عليّ عليه السلام وكانوا يذكرونه عليه السلام على رؤوس الأشهاد، ويهتفون أي ينادون باسمه للخلافة.

قال الطبري في تاريخه **(ص ٤٠٩ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ)** قالوا لعثمان: إنك قد أحدثت أحداثاً عظاماً، فاستحققت بها الخلع، وما كان لنا أن نرجع حتّى نخلعك، ونستبدل بك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من لم يحدث مثل ما جربنا منك، ولم يقع عليه من التهمة ما وقع عليك، فاردد خلافتنا واعتزل أمرنا فإن ذلك اسلم لنا منك وأسلم لك منا.

أقول: وهم يعنون بذلك الصحابي الذي لم يحدث مثل ما أحدث عثمان، أمير المؤمنين علياً عليه السلام لما سنبيّن أن قلوب الجماعة كانت معه عليه السلام ولذا خاف عثمان من ذلك

كل الخوف، حتّى رأى أن لو يخرج عليّ عليه السلام من بينهم كان الأمر عليه أهون.

قال الشّارح كمال الدّين ابن ميثم البحراني: وقد كان قصده بتلك الرسالة من بين سائر الصحابة لأحد أمرين: أحدهما: ما اخترناه، والثاني: أنه كان يعتقد أنّ له شركة من النّاس في فعلهم به، وكانت بينهما هناة، فكان بعثه له من بين الجماعة متعيناً، لأنّهم أن رجعوا بواسطته، فهو الغرض وأن لم يرجعوا حصلت بعض المقاصد، وهو تأكد ما نسبه إليه من المشاركة في أمره، وبقاء ذلك حجة عليه لمن بعده ممّن يطلب بدمه، حتّى كان بسبب هذا الغرض الثاني ما كان من الوقايع بالبصرة وصفين وغيرهما. انتهى.

أقول: هذا الأمر الثّاني ينافي ما صرّح به الرضي رضوان الله عليه حيث علل سؤال عثمان خروجه عليه السلام إلى ينبع بقوله: ليقلّ هتف الناس باسمه للخلافة، ولا شك أن الرضي كان أعرف بذلك منه، على أنه ينافي أيضاً قوله عليه السلام: والله لقد دفعت عنه حتّى خشيت أن أكون آثماً. وقوله عليه السلام المنقول من الطبري كما يأتي: والله ما زلت أذبّ عنه حتّى أنّي لأستحي. ومع ذلك ينافي قوله عليه السلام: ثمّ بعث إليّ أن أقدم أيضاً. لأن عثمان لو رأى أنّ له عليه السلام شركة معهم في قتله ما سأله الإقدام من ينبع إليه، وهذا بعيد جدّاً إلاّ أن يقال إنما غرضه ذلك الغرض بعد قدومه المدينة من ينبع، فسأله الخروج إليه ثانياً ولكنه ينافي الأوّلين كما دريت، فالصواب هو الأمر الأوّل المختار.

قوله عليه السلام: **(يا ابن عبّاس ما يريد عثمان أن يجعلني إلاّ جملاً ناضحاً بالغرب أقبل وأدبر)** هذا يقال لمن كان مسخراً لغيره وينقاد فعله وقوله، كأنّه لا رأي له ولا اعتبار ولا تدبّر ولا اختيار، متى قال الغير له أدبر عن كذا يدبر وإذ قال له أقبل إلى كذا يقبل. كالبعير الناضح يقال له أدبر وأقبل بالغرب وهو ينقاد ويلتزم. قال العبّاس بن مرداس السلمي الصّحابي كما في الحماسة لأبي تمام (**الحماسة ١٤٩**).

أبلغ أبا سلمة رسولاً يروعه ... ولو حلّ ذا سدرٍ وأهلي بعسجل
رسول امرىءٍ يهدى إليك نصيحة ... فإن معشر جادوا بعرضك فابخل
وإن بوّأوك مبركاً غير طائلٍ ... غليظاً فلا تنزل به وتحوّل
ولا تطمعن ما يعلفونك إنّهم ... أتوك على قرباهم بالممثّل
أبعد الإزار مجسداً لك شاهداً ... أُتيت به في الدار لم يتزيّل
أراك إذا قد صرت للقوم ناضحاً ... يقال له بالغرب أدبر وأقبل
فخذها فليست للعزيز بخطّة ... وفيها مقال لامرىءٍ متذلّل

قوله عليه السلام: **(بعث إليّ أن أخرج، ثمّ بعث إليّ أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرج)**:

هذا شرح وتفسير لقوله المقدم أن عثمان أراد أن يعامل معه معاملة النضّاح للناضح، فقال عليه السلام: بعث إليّ أن أخرج من المدينة إلى ينبع ثمّ بعث إليّ أن أقدم من ينبع، إليها ثمّ هو الآن بعث ابن عبّاس ويطلب خروجه إلى ينبع ثانياً.

قوله عليه السلام **(والله لقد دفعت عنه حتّى خشيت أن أكون آثماً)**.

وكان عثمان قد قسم المال والأرض في بني أميّة فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف واعطى بني عثمان مثل ذلك وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب ولانت حاشية عثمان لاولئك الطوائف وأبى المسلمون إلا قتلهم وأبى إلاّ تركهم قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: فلما نزل القوم ذا خشب جاء الخبر أن القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع فلما رأى عثمان ما رأى جاء عليّاً فدخل عليه بيته فقال يا ابن عمّ إنّه ليس لي مترك وإن قرابتي قريبة ولي حقّ عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي وأنا أعلم أن لك عند النّاس قدراً وأنّهم يسمعون منك فأنا أُحبّ أن تركب إليهم فتردّهم عنّي - إلى أن قال: فركب عليّ وركب معه نفر من المهاجرين وكلّمهم علي ومحمّد بن مسلمة وهما اللذّان قدما فسمعوا مقالتهما ورجعوا.

وقال (ص ٤٣٣) بإسناد عن عكرمة عن ابن عبّاس لما حصر عثمان الحصر الآخر، قال عكرمة: فقلت لابن عبّاس أو كانا حصرين؟ فقال ابن عبّاس الحصر الأوّل حصر اثنتي عشرة وقدم المصريون فلقيهم عليّ عليه السلام بذي خشب فردّهم عنه وقد كان والله عليّ له صاحب صدق. إلى آخر ما قال[1].

ثمّ قال الطبري والمسعودي: ولما انصرفوا فصاروا إلى الموضع المعروف بحمّس إذا هم بغلام على بعير وهو مقبل من المدينة فتأملوه فإذا هو ورش غلام عثمان فقرروه فأقرّ وأظهر كتاباً إلى ابن أبي سرح من صاحب مصر: إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان واقتل فلاناً وافعل بفلان كذا وأحصى أكثر من في الجيش وأمر فيهم بما أمر فرجعوا إلى المدينة وحصروا عثمان في داره ومنعوه الماء فأشرف على النّاس وقال: ألا أحد يسقينا؟ - إلى أن قالا: فبلغ علياً طلبه الماء فبعث إليه بثلاث قرب ماء. قال المسعودي: فلما بلغ عليّا أنهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته وأمرهم أن يمنعوه منهم.

قال الطبري: (ص ٤١٠) وكان عثمان يسترجع ممّا يرى على الباب فقال مروان: إن كنت تريد أن تذبّ عنه فعليك بابن أبي طالب فإنه متستر وهو لا يجبه فخرج سعد حتّى أتى

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٣٣.

عليّا وهو بين القبر والمنبر فقال: يا أبا حسن قم فداك أبي وأمي جئتك والله بخير ما جاء به أحد قط إلى أحد تصل رحم ابن عمّك وتأخذ بالفضل عليه وتحقن دمه ويرجع الأمر على ما نحبّ قد أعطى خليفتك من نفسه الرّضى فقال عليّ عليه السلام: تقبل الله منه يا أبا إسحاق والله ما زلت أذب عنه حتّى أني لأستحي - إلى آخر ما قال.

وقال أيضاً: لمّا حصروا عثمان جاء قوم علياً عليه السلام فكلّموه في عثمان فأقبل عليّ عليه فجعل يخبره ما وجدوا في كتابهم - إلى أن قال: ثمّ أقبل عثمان على عليّ عليه السلام فقال: إن لي قرابة ورحماً والله لو كنت في هذه الحلقة لحللتها منك فاخرج إليهم فكلّمهم فإنّهم يسمعون منك إلى آخر ما قال وسيأتي تفصيله(١).

أقول: لولا تصريح الرضي بقوله: يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع، لأمكن أن يفسّر قوله عليه السلام أن اخرج وأن أقدم بما قدمنا من الطبري والمسعودي أي أخرج إلى النّاس فردّهم عني، وكذا أن أقدم أي إليّ كما دريت أنّه مرة استغله بالنصرة ومرة استسقاه فقال: ألا أحد يسقينا. ومرّة دخل عليه بيته عليه السلام وسأله أن يردّ النّاس عنه.

ثمّ إنّ قوله عليه السلام: حتّى خشيت أن أكون آثماً. يحتمل وجوها.

الأوّل ما يتبادر إليه الذهن ويلوح له بدواً أنّ أمير المؤمنين عليّا عليه السلام نهى عثمان غير مرّة عن الأحداث التي كان يرتكبها وبالغ في النهي فلم ينته منها ـ كما سنتلو طائفة منها عن قريب في أوّل باب المختار من كتبه ورسائله عليه السلام إن شاء الله تعالى ـ وكذا قد دفع عنه غير مرة كما دريت ومع ذلك كلّه يتنبّه ولم ينته فكان عثمان آثماً في أفعاله المخالفة للدين ومصراً عليها ولا كلام أن معاونة الإثم إثم أيضاً فلو تظاهر عليه بالإثم كان عليه السلام آثماً قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] وذمّ تعالى قوماً أيضاً في الكتاب بقوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ الآية [المائدة: ٦٢].

الثّاني أنه عليه السلام أراد منه: أنّي والله لقد دفعت عنه كرّة بعد كرّة حتّى خشيت أن ألقى نفسي في الهلكة ويقتلني النّاس وقتل النّفس حرام فمن ارتكبه آثم.

الثّالث أن يكون المراد أني خشيت الإثم بما نلت منهم لما جاهدتهم في الدفع عنه من الضرب والشتم وغلظ القول وأمثالها.

(١) الغدير: ٩/ ١٨٢، وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٠٧.

تنبيه

لا شبهة أن الآيات والأخبار التي جاءت في فضيلة الجهاد لا ينالها يد إنكار بل هي من ضروريات الدّين فلو كان عثمان إماماً عدلاً مستحقاً للدفاع عنه لرأى عليّ عليه السلام الجهاد دونه واجباً سواء كان قتل أو قتل وما يتفوّه بقوله: ما يريد إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً، أو بقوله: لقد خشيت أن أكون آثماً. فتبصّر.

الترجمة

اين يكى از كلام اميرالمؤمنين (عليه السلام) است كه به عبدالله بن عباس فرمود.

ابن عباس از جانب عثمان هنگامى كه محصور بود و مردم گرد خانه او را در مدينه محاصره كرده بودند، نزد آن حضرت آمد كه آن بزرگوار از مدينه بيرون رود و به ينبع كه از آن حضرتش بود به سر برد تا مردم نامش را براى خلافت كمتر ياد كنند و بدان شعار ندهند و فرياد نزنند و مثل اين خواهش را پيش از اين باره نيز از آن جناب كرده بود؛ اميرالمؤمنين (عليه السلام) در جواب ابن عباس فرمود:

اى پسر عباس! عثمان جز اين نمى خواهد كه مرا چون شتر آبكش گرداند، بيايم و بروم (مسخّر او باشم)، يك بار به من فرستاد كه (از مدينه) بيرون رو (و در ينبع باش)، باز فرستاد كه (از ينبع بيا)، اكنون باز مى گويد كه از مدينه بيرون رو و در ينبع به سر ببر، سوگند به خدا، بس كه (در حق او دفاع كردم و مرگ و دشمن را) از او دفع كردم، بيم آن دارم كه گناهكار باشم.

ومن كلام له عليه السلام وهو الماءتان والتاسع والثلاثون من المختار في باب الخطب، يحث فيه أصحابه على الجهاد

وَاللَّهُ مُسْتَأْديكُمْ شُكْرَهُ، وَمُوَرِّثُكُمْ (أَو - مُورِثُكُمْ) أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ في مِضْمارٍ مَمْدُودٍ[1] لِتَتَنازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، واطْوُوا فُضُولَ الْخَواصِرِ، لا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. ما أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزائِمِ الْيَوْمِ وأَمْحى الظُّلَمَ لِتَذاكيرِ الْهِمَمِ.

اللغة

يقال: استأدى فلاناً مالاً إذا صادره وأخذه منه. واستأديت ديني عند فلان أي طلبته وفي «**كنز اللّغة**» إستئداء طلب أداى چيزى كردن فقوله عليه السلام (**مستأديكم شكره**) أي طالب منكم أدائه على نعمه، (**ممهلكم**) أي معطيكم مهلة، يقال أمهله إذا أنظره وأجّله، (**مضمار**) الموضع الذي تضمر فيه الخيل للسباق أي تحضر له لتنازعوا وتتنافسوا في سبقه المضمار أيضاً مدة تضمير الخيل، أي اسم للمكان والزمان وجاء بمعنى غاية الفرس في السباق أيضاً. (**سبق**) في الصحاح: السبق بالتحريك: الخطر الذي يوضع بين أهل السباق. يعني هو الخطر الذي يتراهن عليه المسابقون ويأخذه السابق منهم. وفي «**منتهى الأرب**»: سبق محركة: آنچه گروبندند بر آن براست دوانيدن وتيرانداختن وجزآن، أسباق جمع، (**العقد**) جمع العقدة كالغرف جمع الغرفة أي ما يمسك الشيء ويوثقه. (**المآزر**) جمع المئزر والمئزرة أي الإزار كاللّحاف والملحف والملحفة جمعها ملاحف. (**اطووا**) من الطيّ وأصل الطيّ: الثّني والقبض وضدّ النشر. قال الشعر:

طوتك خطوب دهرك بعد نشر

(**الخواصر**) جمع الخاصرة أي الشاكلة وفي «**منتهى الأرب**» خاصرة كصاحبة قال الحسين بن مطير في أبيات له (**الحماسة ٤٦٠**).

مخصّرة الأوساط زانت عقودها ... بأحسن ممّا زيّنتها عقودها

يريد أنها دقيقة الخصور غير واسعة الجنوب. وقال آخر:

فتى لا يرى قدّ القميص بخصره ... ولكنّما تفرى الفرىّ مناكبه

---

(١) في نسخة: محدود.

(الوليمة) طعام العرس وقيل كلّ طعام صنع لدعوة أو غيرها وقيل كلّ طعام يتخذ لجمع الجمع ولائم لكنها ههنا كناية عن لذّات الدنيا وخفض العيش والدعة.

و(الظلم) كالغرف جمع الظلمة كالغرفة والمراد بها اللّيل و(التذاكير) جمع تذكار لأن التذكرة جمعها تذاكر.

الإعراب

اللام من (لتتنازعوا) جارة للتعليل متعلقة بالممهل والفعل منصوب بأن الناصبة المصدرية المقدرة أي لأن تتنازعوا. والفاء في (فشدّوا) فصيحة تنبىء عن محذوف يدلّ عليه ما قبلها أي إذا أمهلكم الله في مضمار لتتنازعوا سبقه فشدّوا عقد المآزر. و(ما أنقض) (وأمحى) صيغتا تعجب أي وما أمحى الظلم.

المعنى

كلامه عليه السلام في التحريص على القتال والحثّ على الجهاد وفضل المجاهدين وفي ذم القاعدين عنه ذكر في عدة مواضع من النهج كلّها كاف شاف لفظاً ومعنى على حدّ لا يتأتى لأحد أن ينسج المعاني بالألفاظ بذلك المنوال ومن تأمّلها حق التأمّل درى أنها فوق كلام المخلوق.

على أنّها كما تدلّ على قدرة بيانه كذلك يدلّ على كمال شجاعته وقدرته الروحيّة ومما بلغ إلى حدّ التواتر أنّ صولته وسطوته وشجاعته أعجزت الأبطال وقد أقرّ أعداؤه بذلك ما ولىّ عليه السلام عن أحد قط مع طول ملاقاته الحروب وكثرة من لاقاه من صناديد الأعداء ومن تأمل الأخبار في الغزوات علم أن قواعد الإسلام ثبتت بجهاده عليه السلام وأن هذه القوة ما كانت بقوة جسدانية بل بتأييدات إلهيّة كما قال عليه السلام: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية بل بقوة إلهيّة[١] ونعم ما أشار إليه العارف الرومي:

ايــن چــراغ شــمــس كــوروشــن بــود	نــز فــتــيــلــه پــنــبــه وروغــن بــود
سـقـف گـردون كـانـچـنـيـن دائـم بـود	نــز طــنــاب واســتــنــى قــائــم بـود
قــوّت جـبـريـل از مـطـبـخ نـبـود	بــود از ديــدار خــلاّق ودود
هــمــچــنــيــن ايــن قــوّت ابــدال حــق	هــم زحــق دان نــز طــعــام واز طــبــق
جــســمــشــان راهــم زنــور اســرشــتــه انــد	تــا ز روح واز مــلــك بــگــذشــتــه انــد

(١) شرح أصول الكافي: ٣/٢٠٧ ح ١.

على أنه عليه السلام في بعضها يعلّم فنون الحرب وفي بعضها قانون تعبية العسكر وفي بعضها وظيفة المجاهد قبال الخصم من الأفعال والأقوال لإرشاده وهدايته وفي بعضها وظيفته قباله للحراب والقتال كقوله عليه السلام: أنه تعالى يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنّهم بنيان مرصوص فقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبا للسيوف على الهام والتووا في أطراف الرماح فإنّه أمور للأسنة وغضوا الأبصار فإنّه أربط للجاش وأسكن للقلوب وأميتوا الأصوات فإنّه أطرد للفشل وأولى بالوقار. ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلّوها ولا تجعلوها إلاّ في أيدي شجعانكم فإنّ المانعين للذمار والصّابرين على نزول الحقائق أهل الحفاظ الذين يحفّون براياتهم ويكشفونها رحم الله امرءً منكم آسا أخاه بنفسه ولم يكل قرنه إلى أخيه فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه فيكتسب بذلك لائمة ويأتي به دناءة، ولا تعرضوا لمقت الله ولا تفروا من الموت فإنّ الله سبحانه تعالى يقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: ١٦] وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة فاستعينوا بالصبر والصّلاة والصدق في النية فإن الله تعالى بعد الصبر ينزل النصر.

ولو تعرضنا لكلماته عليه السلام في الجهاد والمجاهد لكثر بنا الخطب فالأولى بنا الآن أن يثني القلم إلى تفسير جمل كلامه هذا عليه السلام.

قوله عليه السلام: **(والله مستأديكم شكره)** أي إن الله تعالى طالب منكم أداء شكره على نعمه والقيام به كما أمر به في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤] وغيرها من الآيات.

ثمّ إنّ ههنا كلاماً وهو أن كلامه عليه السلام يكون في حثّ أصحابه على الجهاد وأي ارتباط لقوله عليه السلام «والله مستأديكم شكره» بالجهاد؟ الجواب أنّ أداء الشكر بازاء نعمته إنما هو باختلاف النعم وموارده فكما أنّ التوبة عن المعاصي مثلاً ليست التكلّم بالاستغفار أو تبت وأمثالهما بل التوبة على الغصب إنّما هي ردّ مال الغير إليه والعزم على تركه في الاستقبال والتوبة على ترك الصّلاة قضاؤها كذلك وهكذا في كلّ معصية كانت التوبة بحسبها، كذلك شكر النعمة إنما يكون بحسبها فقد يكفى التكلم بالحمد لله مثلاً في أداء الشكر بإزاء نعمة ولما كان دين الله وكتابه الحاوي لسعادة الدارين والداعي إلى الخير والهدى من أعظم نعمه فمن كفر بهذه النعمة العظمى فقد خسر خسراناً مبيناً وعدم الكفران بها وأداء الشكر لها أن يتنعّم بها ويحفظها ويمنعها من كيد الأجانب وسبيله الجهاد فالله يطالب أداء شكره بإزاء هذه النعمة الكبرى أي الجهاد في سبيله لحفظ الدين ورفع كيد المعاندين. والحمد لله ربّ العالمين.

قوله عليه السلام: (**وموّرثكم أمره**) أمره تعالى هو سلطانه ودولته الحقة في الأرض يورثه عباده الصالحين والمحافظين على رعاية أمره ونهيه من إقامة الصّلاة وأداء الزكاة والقيام بالجهاد وغيرها من الفرائض والانتهاء مما نهى وحرّم قال: عزّ من قائل: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٥].

ثمّ إنّ كلامه عليه السلام هذا يشير أيضاً إلى أن أمر الدولة سيرجع إليكم ويزول أمر بني أميّة كما أفاد الفاضل الشارح المعتزلي.

قوله عليه السلام: (**وممهلكم في مضمار ممدود لتتنازعوا سبقه**) وفي بعض النسخ في مضمار محدود وكلاهما حق فإن المضمار الممدود أي العمر محدود لا محالة: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

شبّه عليه السلام الآجال المقدّرة التي ضربت للناس أعني مدّة حياتهم بالمضمار للخيل لغاية السبق فإن الدّنيا متجر أولياء الله ومكسب الصلحاء ليس للإنسان إلا أن يسارع إلى مغفرة من ربّه ويسابق غيره في الإتصاف بالأوصاف الإلهيّة والتخلق بالأخلاق الربّانيّة حتّى يتقرب إلى حضرته جلّ وعلا، فإن تلك الغاية القصوى هي سبق السالكين ومنتهى رغبة الراغبين.

ثمّ لما كان كلامه عليه السلام في الحثّ على الجهاد فلا بد أن يكون دالاً على فضل المجاهدين خاصّة فيحرصهم بالمنافسة في سبق مضمار القتال وهو الجنّة والرضوان والغفران والحياة الطيبة والعيش الرغد، وقال عليه السلام في بعض خطبه الماضية في تحضيضه على القتال: معاشر المسلمين إن الله قد دلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم وتشفى بكم على الخير العظيم: الإيمان بالله وبرسوله والجهاد في سبيله وجعل ثوابه مغفرة الذنب ومساكن طيبة في جنات عدن. إلى آخر ما قال.

وكذا قال عليه السلام في (**الخطبة ٢٧**): أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصّة أوليائه إلى آخرها.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

قوله عليه السلام: **(فشدوا عقد المآزر)** عقد الإزار كناية عن الجدّ والتشمير يقال: فلان شدّ عقد إزاره أو كشف عن ساقيه أو شمّر عن ساقيه أو شمّر ذيله إذا تهيأ لأمر هائل وخطب عظيم وفظيع لأنّ من عادة النّاس أن يشدّوا عقد إزارهم أو يشمّروا عن سوقهم وذيولهم ويقلصوا أكمامهم عند الأمور الصعبة لأن الشدّو والتشمير عندها أمكن للقراع والدفاع فإنّ من شدّ عقد الإزار أمن من انحلاله ولا يشغله عما هو بصدده فيمضي في عمله غير خائف على أنه كان أسرع للمشي وأبعد عن العثار كما إذا شد وضين الإبل والخيل ونحوهما أمن القتب أو الهودج أو السرج وأمثالها ومن عليها من الإضطراب بخلاف إذا كان قلقاً. وقالت العوراء ابنة سبيع **(الحماسة ٣٩٥)**.

طيّان طاوى الكشح لا يرخى لمظلمة إزاره

تريد أنه عقد الإزار شديداً إذا نابته النوائب لا يرخى إزاره، وكذا من شمّر ذيله قال قيس بن زهير بن جذيمة العبسي:

وإذا شمّرت لك عن ساقها فويها ربيع فلا تسأم

وقال الآخر:

قد شمرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

وكذا يقال لأمر هائل اشتدّ أنه شمّر أو شمّر عن ساقيه. قال الشّاعر **(الحماسة ٦٤٠)**.

ومستعجل بالحرب والسلم حظه فلمّا استثيرت كلّ عنها محافره

وحارب فيها بامرىءٍ حين شمّرت من القوم معجازٍ لئيم مكاسره

أي حين شمّرت وكشفت الحرب عن ساقيها. وفي **«الإتقان في علوم القرآن»** للسيوطي **(ص ١٢٩ طبع مصر ١٣١٨ هـ)** ممّا سأل نافع بن الأرزق ابن عباس أنه قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن شدّة الآخرة أما سمعت قول الشاعر:

قد قامت الحرب بنا عن ساق

قوله عليه السلام: **(واطووا فضول الخواصر)** الظاهر والأنسب في المقام أن مراده عليه السلام من هذه الجملة كالتي سبقتها إرشاد إلى الجدّ والتهيأ للقتال فإن لثياب العرب سعة فاضلة فإذا طووا فضول الخواصر عليها وقلّصوا الذيول كان القتال والمشي لهم أهون وأمكن فإن الفضول تمنع عن الجلد والإسراع وتعوق عن السبق والحراك.

بربسته ميان ودر زده ناوك بگشاده عنان ودرچيده دامن

أو أنّ مراده عليه السلام أن ما طال من الثياب التفّوه واطووه على الخاصرة وذلك لأنّ من شرع بجدّ واجتهاد في عمل يطوي ما فضل من إزاره طولاً ويلتف بقدميه على خاصرته

ويجعله محكما فيها لئلا يمنعها عن المشي والجد والسراع، وكأنّما أراد هذا المعنى من قال: قوله عليه السلام واطووا فضول الخواصر أي ما فضل من مآزركم يلتفّ على أقدامكم فاطووه حتّى تخفوا في العمل ولا يعوقكم شيء عن الإسراع في عملكم.

وبالجملة على الوجه الأوّل طيّ ما فضل وزاد من الثياب عرضاً وسعة على الخاصرة وعلى الثاني طيّ ما فضل وزاد طولاً عليها.

ويمكن أن يجعل الأمر بطيّ فضول الخواصر كناية عن النهي عن كثرة الأكل لأنّ الكثير الأكل لا يطوى فضول خواصره لامتلائها بل يملئها، والقليل الأكل يأكل في بعضها ويطوى بعضها على أن البطنة تذهب الفطنة وتمنع عن الحملة على الفتنة وكانت العرب عند الحب تمسك عن الأكل والشبع لذلك وكثيراً ما يوجد في أشعارهم وأمثالهم مدح خميص البطن، يابس الجنبين، منضم الضلوع، متقارب الجنبين، أهضم، طاوى الكشح، مطويّ الكشح والجنب، طيّان، صغير البطن، مهضوم الجنبين. قليل الطعم، طيّ البطن، ضامر البطن ونظائرها الكثيرة المتقاربة المعنى كما يوجد في أمثال الفرس وأشعارهم مما لا يحصى كثرة قال السعدي:

اسب لاغر ميان بكار آيد روز ميدان نه چاو پرواري

وذهب إلى هذا المعنى الشارح الفاضل المعتزلي وأتى بثلاثة أبيات شاهداً حيث قال: قال الشاعر:

كلوا في بعض بطنكم وعفّوا فإن زمانكم زمن خميص

وقال أعشى باهلة:

طاوى المصير على العزا متصلت بالقوم ليلة لا ماء ولا شجر

وقال الشنقري:

واطوى على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطة ما ريّ تغار وتفتل

وذهب الشارح الفاضل البحراني إلى أنّ طيّ فضول الخواصر كناية عن الأمر بترك ما يفضل من متاع الدنيا على قدر الحاجة من ألوان الطعوم والملابس وسائر قينات الدنيا وأصله أن للخواصر والبطون احتمال أن يتسع لما فوق قدر الحاجة من المأكول فذلك القدر المتسع لما فوق الحاجة هو فضول الخواصر وكنّى بطيّها عمّا ذكرناه من لوازم ذلك الطيّ ترك تلك الفضول. انتهى.

أقول: بيان البحراني رحمه الله: وإن كان له مناسبة مّا بالجهاد فإنّ المجاهد يعرض عن نفسه والدّنيا وما فيها، لكن إرادة هذا المعنى من قوله عليه السلام لا يخلو من تكلف بل يعيد جدّاً

غاية البعد وإلاّ فإن من كلام إلاّ وله مناسبات بعيدة وملازمات غريبة والصواب أن يفسّر قوله عليه السلام الآتي: «لا تجتمع عزيمة ووليمة» بهذا المعنى أو قريب منه. ولو قيل: فليكن هذه الجملة التالية قرينة على إرادة ذلك المعنى من الأولى ردّ بلزومه التكرار والتأسيس خير منه ولو كان تأكيداً. فتأمّل.

قوله عليه السلام: **(لا تجتمع عزيمة ووليمة)** أي من أهتمّ بأمر وأراد إرادة جازمة على تحصيله واقتنائه لا بدّ أن يغضى عينه عن اللّذات والدّعة وخفض العيش فكنى بالوليمة عنها كما مضى ولا تقتنى الفضائل النفيسة إلاّ بالكفّ عن اللّذائذ النفسيّة ولا تنال درجات الكمال إلاّ بمقاساة الشدائد وركوب الأهوال ونعم ما قال المتنبيّ:

لولا المشقة ساد النّاس كلّهم　　　فالجود يفقر والإقدام قتّال

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

قوله عليه السلام: **(ما أنقض النوم لعزائم اليوم)**: هذه الجملة والتي تليها بصيغة التعجب وهما تؤكّدان الأُولى والمراد واحد أي أن الاشتغال بالمشتبهات الدنيّة البدنيّة يثبط الإنسان على الوصول إلى المقامات العالية. فإن من عزم على أمر في اليوم فنام لم ينجح بالمراد فيكون نوم يومه ناقض روم يومه. أو إذا عزم في اليوم على أمر يفعله في اللّيل أو في الغد باكراً ونام في اللّيل لم يظفر بالحاجة كالمسافر مثلاً إذا أراد في اليوم أن يسير مسافة طويلة تلازم الأقدام بها بكرة حتّى ينال المطلوب فنام ولم يباكر لم يفز به وما اجاد قول السعدي بالفارسية:

خواب نوشين بامداد رحيل　　　باز دارد پياده را ز سبيل

قوله عليه السلام: **(وأمحى الظلم لتذاكير الهمم)**. لأن من اهتم في اليوم مثلاً بعمل في اللّيل وإذا جاء اللّيل غلبه النوم تمحو الظلمة أي يمحو نوم الليل ذلك التذكار. قال المتنبي:

بقدر الكدّ تكتسب المعالي　　　ومن طلب العلى سهر اللّيالي
تروم العزّ ثم تنام ليلاً　　　يغوص البحر من طلب اللّئالي

الترجمة

از جمله كلمات بلاغت نظام اسدالله الغالب كرّار غير فرار على بن ابي طالب(عليه السلام) است كه ياران خود را بر جهاد برمى انگيزاند:

خداوند اداى شكرش را از شما خواهان است و امرش را به شما ارث دهنده (يعنى دولت حق و سلطان و حكومت الهى به دست دوستان خدا و صالحان خواهد آمد؛ "وَعَد اللهُ الّذين آمنوا مِنكم وَ عَمِلوا الصّالحاتِ لَيَستخلِفَنَّهم في الأرض"؛ نور/ ٥٥) و شما را در ميدان محدود عمر مهلت داده است تا با يكديگر مسابقت كنيد و گوى سبقت را بربابييد. پس بند ميان را استوار كنيد و دامن درچينيد كه آهنگ كار با تن پرورى درست نيايد. خواب، عزيمت روز را چه خوب شكننده و بستر شب ياد همّت ها را چه نيك نابودكننده است.

باب المختار من كتب مولينا أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأمراء بلاده، ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده عليه السلام إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه

من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره إليهم من المدينة إلى البصرة وهو الكتاب الأول من المختار من كتبه عليه السلام

مِنْ عَبْدِ اللّهِ عَلِيّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إلى الْكُوفَةِ جَبْهَةَ الأَنْصارِ وَسَنام الْعَرَبِ أمّا بَعْدُ فَإنِّي أُخبِرُكُمْ عَنْ أمْرِ عُثْمانَ حَتى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيانِه: إنَّ النّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ فَكُنْتُ رَجُلاً مِن الْمُهاجِرِينَ أَكْثِرُ اسْتِعْتابَهُ وَأُقِلُّ عِتابَهُ وكانَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ أَهوَنُ سَيْرِهِما فيه الوَجِيفُ، وأَرْفَقُ حِدائِهِمَا العَنِيفُ، وكانَ مِنْ عَائِشَةَ فيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَني النّاسُ غَيرَ مُسْتَكْرِهِينَ وَلاَ مُجْبَرِينَ، بَلْ طائِعِينَ مُخَيَّرِينَ. واعْلَمُوا أنَّ دارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِها وَقَلَعُوا بِها، وجاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إلى أَمِيرِكُمْ وبادِرُوا جِهادَ عَدُوِّكُمْ إنْشاءَ اللّهُ[١].

اللغة

قول الرضي رضوان الله عليه: عهوده إلى عمّاله يقال: عهد إلى فلان أوصاه وشرط عليه، قال الجوهري في الصحاح: العهد: الأمان، واليمين، والموثق، والذمة، والحفاظ، والوصيّة وقد عهدت إليه أي أوصيته ومنه اشتق العهد الذي يكتب للولاة. وفي المنجد: العهد ما يكتبه وليّ الأمر للولاة يأمرهم فيه باجراء العدالة وكان يعرف بالفرمان والجمع عهود. والوصايا جمع الوصية كغنية بمعنى النصيحة ويقال بالفارسية: أندرز، وهو اسم من الإيصاء: وبمعنى ما يعهده الإنسان بعد وفاته من وصي يصى إذا وصل الشيء بغيره لأن الموصي يوصل تصرفه بعد الموت بما قبله والأخير هو المقرر في كتب الفقه وفي هذا الباب يذكر وصاياه عليه السلام على كلّ واحد من المعنيين.

قوله عليه السلام: (جبهة) الجبهة للناس وغيره معروفة وهي ما بين الحاجبين إلى قصاص مقدم الرأس أي موضع السجود من الرأس ولذا سمّي المنزل العاشر من منازل القمر جبهة لأن كواكبها الأربع كالجبهة للكواكب الموسومة بالأسد ويقال: جبهة الأسد لذلك. في الصحاح واللّسان، الجبهة من الناس بالفتح: الجماعة يقال جاءتنا جبهة من الناس أي جماعة منهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/١٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٨٤ ح ٥٦.

وعلى الأول يقال لأعيان النّاس وأشرافهم وسادتهم ورؤسائهم جبهة من حيث إنّ الجبهة أعلا الأعضاء وأسناها وتسميتهم بذلك كتسميتهم بالوجوه. والمراد بالأنصار ههنا الأعوان وليس يريد بهم بني قبيلة والأنصار جمع نصير كشريف وأشراف لا جمع ناصر لأنّه يجمع على النّصر كصاحب وصَحب.

(السنام) بفتح أوّله كالسحاب: حدبة في ظهر البعير. الجمع: أسمنة. ويقال بالفارسيّة: كوهان شتر. ومن حيث إن السنام أعلا أعضاء البعير يقال لأعلا كلّ شيء سنامه قال حسّان بن ثابت:

وإنّ سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وكذا يقال السنام لمعظم كلّ شيء ومنه الحديث: الجهاد سنام الدين ولذا يقال لكبير القوم ورفيعهم سنامهم كما هو المراد من قوله عليه السلام سنام العرم. والصواب أن يكون السنام قرينة على أن المراد بالجبهة هو معناها الأوّل. **(العيان)** بالكسر كالضراب مصدر عاين يقال عاينه معاينة وعياناً إذا شاهده ورآه بعينه لم يشك في رؤيته إياه. **(طعن)** فيه وعليه بالقول طعناً وطعناناً من بابي نصر ومنع: قدحه وعابه. وهو في الأصل كما في المفردات للراغب: الضرب بالرمح وبالقرن وما يجرى مجراهما ثمّ استعير للوقيعة قال الله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢].

(الإستعتاب) من الأضداد يقال استعتبه إذا أعطاه العتبي وكذا إذا طلب منه العتبى، والعتبى هي الرضا. يقال: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤] فالمعنى على الوجه الثاني أني طلبت منه العتبى والرضا بمعنى أن يرجع عمّا أحدث ممّا صار سبب سخط القوم وطعنهم عليه حتّى يرضوا عنه. وهذا هو الأنسب بالمقام أو طلبت القوم العتبى له على ما سيتضح في الشرح إنشاء الله تعالى وفي الكنز: استعتاب خوشنودى خواستن وآشتى خواستن وبازگشتن خواستن ازبدى وغير آن.

«بحث لغوي»

في قوله عليه السلام: **(أقل عتابه)** لطيفة لغوية لم يتعرضه الشرّاح والمترجمون بل في تفسيره عدلوا عن الصواب وذلك لأن كلمة أقلّ ليس بمعنى أقلّ الشيء إذا جعله قليلاً أو أتى بقليل وبالجملة أن معنى أقل ليس قبال أكثر وإن جعل قباله في اللّفظ كما ذهب إليه القوم على ما هو ظاهر كلام الشارحين المعتزلي والبحراني وصريح ترجمة المولى فتح الله القاساني حيث قال: وكم ميگردانيدم سرزنش اورا والمولى الصالح القزويني حيث قال: وكتمر وقت عتاب

مينمودم، وكذا غيرهما من المترجمين بل الصواب أنّ المراد من أقل هنا النفي أي ما عاتبت عليه وهذا اللفظ يستعمل كثيراً في نفي أصل الشيء قال الفاضل الأديب ابن الأثير في مادة ـ ق ل ل ـ من النهاية: وفي الحديث أنه كان يقلّ اللغو أي لا يلغو أصلاً وهذا اللفظ يستعمل في نفي أصل الشيء كقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ انتهى قوله.

والشيخ الإمام أبو علي أحمد بن محمّد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني في شرحه على الإختيار المنسوب إلى أبي تمام الطائي المعروف بكتاب الحماسة (**طبع القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥١ م**) في شرح الحماسة ١٣ لتأبط شراً (**ص ٩٥**) قوله:

قليل التشكّي للمهمّ يصيبه   كثير الهوى شتّى النوى والمسالك

قال: واستعمل لفظ القليل، والقصد إلى نفي الكلّ، وهذا كما يقال فلان قليل الإكتراث بوعيد فلانٍ، والمعنى لا يكترت، وعلى ذلك قولهم: قلّ رجلٌ يقول كذا، وأقلّ رجل يقول كذا، والمعنى معنى النفي، وليس يراد به إثبات قليل من كثير.

ثمّ قال: فإن قيل: من أين ساغ أن يستعمل لفظ القليل وهو للإثبات في النفي؟

قلت: إنّ القليل من الشيء في الأكثر يكون في حكم ما لا يعتدّ به ولا يعرّج عليه لدخوله بخفة قدره في ملكة الفناء والدروس والإمّحاء، فلمّا كان كذلك استعمل لفظه في النفي على ما في ظاهره من الإثبات محترزين من الردّ ومجملين في القول، وليكون كالتعريض الذي أثره أبلغ وأنكى من التصريح، وقوله: «كثير الهوى» طابق القليل بقوله كثير من حيث اللّفظ لا أنّه أثبت بالأول شيئاً نزراً فقابله بكثير.

وفي شرح الحماسة ١٠٥ (**ص ٣٢٢**) قول الشاعر:

فقلت لها لا تنكريني فقلّ ما   يسود الفتى حتّى يشيب ويصلعا

قال: وقوله «قلّ ما» يفيد النفي هنا وما تكون كافةً لقلّ عن طلب الفاعل وناقلةً له عن الإسم إلى الفعل، فإذا قلت: قلّ ما يقوم زيد فكأنك قلت ما يقومُ زيد، يدلّ على ذلك أنّهم قالوا: قلّ رجل يقول ذاك إلا زيد، وأجرى مجرى ما يقول ذاك إلاّ زيد.

وفي شرح الحماسة ١٦٥ لتأبط شرا أيضاً (**ص ٤٩٢**) قوله:

قليل غرار النوم أكبر همّه   دم الثار أو يلقى كميّاً مسفّعاً

قال: فإن قيل ما معنى قليل غرار النوم؟ وإذا كان الغرار القليل من النّوم بدلالة قولهم ما نومه إلاّ غراراً فكيف جاز أن تقول: قليل غرار النّوم وأنت لا تقول هو قليل قليل النوم؟ قلت: يجوز أن يراد بالقليل النفي لا إثبات شيء منه والمعنى: لا ينام الغرار فكيف ما فوقه؟

وفي شرح الحماسة ٢٧١ لدريد بن الصّمة (ص ٨١٩) قوله:

قليل التشكّى للمصيبات حافظ   من اليوم أعقاب الأحاديث في غد

قال: يريد بقوله «قليل» نفي أنواع التشكّي كلّها عنه؛ على هذا قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وقولهم: قلّ رجلٌ يقول كذا وأقلّ رجل يقول ذاك. والمعنى أنّه لا يتألم للنوائب تنزل بساحته والمصائب تتجدد عليه في ذويه وعشيرته وأنه يحفظ من يومه ما يتعقب أفعاله من أحاديث النّاس في غده إلخ.

وفي شرح الحماسة ٤٤٧ لمحمّد بن أبي شحاذ (ص ١٢٠١) قوله:

وقلّ غناء عنك مال جمعته   إذا كان ميراثاً وواراك لاحد

قال: المراد بذكر القلّة هاهنا النفي لا إثبات شيء قليل فيقول: لا يغنى عنك مال تجمعه إذا ذهبت عنه وتركته لورثتك إلخ.

وفي مفردات الراغب: وقليل يعبّر به عن النفي نحو قلّما يفعل كذا إلاّ قاعداً أو قائماً ومايجري مجراه وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾.

وإنّما فسّروا قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بنفي الإيمان عنهم لأن ظاهر الآية تدلّ على ذلك قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٧، ٨٨] وإن كان يمكن أن تجعل الآية المتقدّمة عليها وهي قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] قرين على إرادة القلّة في قبال الكثرة فيها أو يؤوّل بوجوه أخرى على استفادة ذلك المعنى كما ذكر في التفاسير ولكن إفادة القليل معنى النفي في كلام العرب كثير، ففي مجمع البيان في تفسير هذه الآية قال: والذي يليق بمذهبنا أن يكون المراد به لا إيمان لهم أصلا وإنما وصفهم بالقليل كما يقال قلّ رأيت هذا قطّ أي ما رأيت هذا قطّ.

وإنما اخترنا النفي من قوله عليه السلام: أقل عتابه، وأعرضنا عن حمله على ظاهره لدقيقة نأتي بها في الشرح.

وليعلم أن هذه اللّفظة قد يستعمل في الكثرة على ما صرّح به المرزوقي في شرح الحماسة أيضاً حيث قال: وقالوا أيضاً أقلّ رجلٍ يقول ذاك إلاّ زيد وأنّهم أجروا خلافه مجراه فيقول: كثير ما يقول زيد وعلى ذلك هذا البيت.

صددت فأطولت الصدود وقلّما   وصال على طول الصدود يدوم

انتهى **(ص ٣٢٢ شرح الحماسة ١٠٥)**.

ولا يخفى أن هذا الاستعمال نزر جدّاً بخلاف الأول.

واعلم أنه يمكن أن يكون قوله عليه السلام: «أقل عتابه» من أقل فلان الشيء إذا أطاقه وحمله ورفعه. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧] أي حملت الرماح سحاباً بأثقالا، ومنه قوله صلى الله عليه وآله في أبي ذر رضي الله عنه: «ما أظلت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق من أبي ذر». ووجه التفسير على هذا الوجه يعلم في الشرح إن شاء الله تعالى.

ففي الجمع بين أقل بهذا المعنى بل بالمعنى الأوّل أيضاً تحسين بديع وهو مراعاة النظير من وجوه تحسين الكلام المقرر في فنّ البديع ومراعاة النظير أن يجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان وإن لم يكونا مقصودين ههنا نحو قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ وبالفارسية نحو قول الشاعر:

هرچه آن خسرو كند شيرين بود

(عتاب) بالكسر مصدر ثان من باب المفاعلة كضراب يقال عاتبه عليه معاتبة وعتاباً إذا لامه وواصفه الموجدة وخاطبه الإدلال. (الوجيف) وجف الشيء بمعنى اضطرب، قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ والوجيف ضرب من سير الإبل والخيل فيه سرعة واضطراب، أو جفت البعير: أسرعته. وفي أقرب الموارد: وجف الفرس والبعير: عدا وسار العنق، وفي حديث علي: أهون سيرهما في الوجيف (حداء) بكسر أوله وضمّه أيضاً ككتاب وذباب واوي من حدو: سوق الإبل والغناء لها. يقال حدا الإبل يحدو حدواً وحُداءاً وحِداءً من باب نصر ساقها وغنّى لها فهو حادٍ. يقال حدت الريح السحاب أي ساقتها. (العنيف) الشديد من القول والسير. والذي ليس له رفق بركوب الخيل. عنف به وعليه من باب كرم لم يرفق به وعامله بشدّة. (الفلتة) بالفتح، في الصحاح: يقال: كان ذاك الأمر فلتة أي فجأة إذا لم يكن عن تردّد ولا تدبّر. وفي أقرب الموارد: حدث الأمر فلتة أي فجأة من غير تردّد ولا تدبّر حتّى كأنك افتلت سريعاً، قال: يقال: كانت بيعة أبي بكر فلتة.

(أُتيح) تاح له الشيء يتوح توحاً من باب نصر وأُتيح له الشيء قدّر له وتهيّىء وأتاح الله له الشيء أي قدّره له، قاله في الصحاح. قال أُنيف بن حكيم النّبهاني:

وتحت نُحور الخيل حرشف رجلة تتاح لغرّات القلوب نبالها

وهو من أبيات الحماسة (**الحماسة ٣٣ و٢٠٩**) وصفهم بأن نبالهم تقدّر للقلوب الغارّة.

(مستكرهين) قال الفاضل الشارح المعتزلي: وقد ذكر أن خط الرضي رضوان الله عليه مستكرهين بكسر الرّاء والفتح أحسن وأصوب وإن كان قد جاء استكرهت الشيء بمعنى كرهته. انتهى.

أقول: الاستكراه قد جاء بمعنى الإكراه كما جاء بمعنى عدّ الشيء ووجدانه كريهاً ومن الأوّل حديث رفع عن أمتي الخطاء وما استكرهوا عليه. أي ما أكرهوا عليه فلو قرىء المستكرهين بفتح الراء لكان بمعنى المكرهين والإكراه والإجبار واحد. وقالوا في المعاجم: أكرهه على الأمر: حمله عليه قهراً، وكذا قالوا أجبره على الأمر أكرهه عليه. فلو قرىء بالفتح للزم التكرار لأنه والمجبرين حينئذ بمعنى واحد فالكسر متعين كما اختاره الرضي. والمستكره بالكسر بمعنى الكاره أي ناخوش وناپسندداد نده يقال: استكرهت الشيء أي كرهته كما أشار إليه الفاضل الشارح، وفي منتهى الأرب في لغة العرب: استكراه: بنا خواست وستم بر كارى داشتن. وناخوش شمردن.

والمراد بدار الهجرة مدينة الرسول صلى الله عليه وآله والمنقول من الراوندي رحمه الله أن المراد بدار الهجرة ههنا الكوفة التي هاجر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إليها.

أقول: وهذا عجيب جدّاً وإنما هو من طغيان قلمه رحمه الله لأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام حين كتب الكتاب إليهم كان نازلاً في ذي قار بعيداً عن الكوفة ولم يصل إلى الكوفة ولم يقم فيها بعد فكيف يكتب إليهم يخبرهم عن أنفسهم وهذا ظاهر لا عائدة في الإطالة.

وقيل: يحتمل أن يريد بدار الهجرة دار الإسلام وبلادها.

أقول: ولا يخفى ضعف هذا الاحتمال وتكلّفه وسيتضح في الشرح أن المراد من المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ليست إلاّ.

(قلعت بأهلها) يقال قلع المنزل بأهله إذا لم يصلح لاستيطانهم ومنه قولهم كما في الصحاح، هذا منزل قلعة بالضمّ أي ليس بمستوطن.

ويمكن أن يقرء الفعلان مجهولين وتكون الباء في الموضعين بمعنى مع فيكون آكد للمراد كما لا يخفى؛ أو يقال: الباء زائدة للتأكيد والفعل معلوم في كلا الموضعين كقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] لأن القلع متعد بنفسه يقال قلعه إذا انتزعه من أصله أو حوّله عن موضعه والمراد أن المدينة فارقت أهلها وأخرجتهم منه وكذا قلعوا بها أي أنهم فارقوها وخرجوا منها ولم يستقروا فيه.

(المرجل): القدر اسم آلة على وزن مفعل. **(بادروا)** أي سارعوا أمر من المبادرة.

الإعراب

يمكن أن يكون جبهة الأنصار وسنام العرب صفتين لأهل الكوفة كما يمكن أن يكونا بدلين بدل البعض من الكل أو الكلّ من الكلّ.

«إنّ النّاس طعنوا» بيان للاخبار. «من المهاجرين» ظرف مستقر منصوب محلاً صفة للرجل، ويمكن أن تكون جملتا أكثر استعتابه وأقلّ عتابه صفتين له أيضاً لأن الجملة نكرة، ولكن الظاهر أن الجملتين حالان لضمير كنت. لا يقال: فلم لم يأتي بالواو الحالية؟ لأنا نقول: المضارع المثبت المجرد من قد لا يقترن بالوان لأنّه يشبه اسم الفاعل في الزنة والمعنى والواو لا تدخل اسم الفاعل وكذلك ما أشبهه ويكون قوله عليه السلام على وزن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾ [المدثر: ٦] فجملة تستكثر حال من فاعل تمنن المستتر فيه ولا تكون مقترنة بالواو وفي الألفية لابن مالك.

وذات بدء بمضارع ثبت حوت ضميراً ومن الواو خلت

قال بعض: أهون سيرهما بدل من طلحة والزبير والوجيف خبر كان وكذا الكلام في أرفق حدائهما العنيف لأنها عطف على الأولى. قلت: الصواب أن ما ذهب إليه ذلك البعض وهم لأنّ الوجيف خبر أهون وجملة أهون سيرهما في الوجيف خبر كان وكذا الحكم في الجملة الثانية وذلك لأنّ الوجيف لو كان خبر كان لصحّ حمله على الزبير وطلحة أن يقال طلحة وجيف مثلاً وليس كذلك لأن السير وجيف لما دريت أن الوجيف نوع من سير الإبل، على أن فيه معائب أُخرى لا تخفى على العارف بأحكام البدل وتركيب الجمل.

«من عائشة» يتعلق بفلتة قدم لسعة الظروف. وفلتة اسم كان ولم يقل كانت لأن تأنيث اسمه مجازي، وفيه خبر كان قدم على الاسم لأنّه ظرف. «فأُتيح» الفاء للتسبيب لأن من قوله عليه السلام: إنّ النّاس إلى هنا بيان مبدأ سبب قتل القوم عثمان؛ أي أنّ النّاس لما طعنوا عليه و... فقدر له قوم فقتلوه على وزان قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]. والفاء في «فقتلوه» للترتيب الذكرى لأن أكثر وقوعه في عطف المفصل على المجمل نحو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] والمقام كذلك أيضاً. ويمكن أن تكون للتعقيب نحو قوله: ﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١]. والفاء في «فأسرعوا» فصيحة والتقدير: إذا كان الأمر انجرّ إلى كذا فأسرعوا. اه.

«نقل الكتاب على صورة أخرى»

قد نقل ذلك الكتاب الذي كتبه عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره إليهم من المدينة إلى البصرة على صورة أخرى قريبة مما في النهج في بعض الجمل الشّيخ الأجل المفيد قدّس سرّه في كتابه المترجم بالجمل، أو النصرة في حرب البصرة **(ص ١١٦ طبع النجف)** وهذه صورته.

بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم من عليّ بن أبي طالب إلى أهل الكوفة.

أما بعد فإنّي أخبركم من أمر عثمان حتى يكون أمره كالعيان لكم: إنّ النّاس طعنوا عليه فكنت رجلاً من المهاجرين أظهر معه عتبه وأكره وأشقى به وكان طلحة والزبير أهون سيرهما الرّجيف وقد كان من أمر عائشة وقتله ما عرفتم فلما قتله النّاس بايعاني غير مستنكيرين طائعين مختارين وكان طلحة والزبير أوّل من بايعني على ما بايعا به من كان قبلي ثم استأذناني في العمرة ولم يكونا يريدان العمرة فنقضا العهد وأذنا في الحرب أخرجا عائشة من بيتها يتخذانها فتنة فسار إلى البصرة واخترت السير إليهم معكم ولعمري إياي تجيبون إنما تجيبون الله ورسوله والله ما قاتلتهم وفي نفسي شك وقد بعثت إليكم ولدي الحسن وعماراً وقيساً مستفزين لكم فكونوا عند ظنّي بكم والسّلام[1].

أقول: ونقل الكتاب الدينوري في الإمامة والسياسة أيضاً **(ص ٦٦ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧ هـ)**.

المعنى

إنّما الحرّي في المقام أن نذكر الأحداث التي أحدثها عثمان مما نقمها النّاس منه وطعنوا عليه وصارت سبب قتله ثمّ تتبعه علة وقوع فتنة الجمل.

أمّا أحداثه فنذكر طائفة منها ههنا عن الطبري والمسعودي وغيرهما.

قال المسعودي في مروج الذهب:

١ ـ ذكر عبد الله بن عتبة: أن عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف خيلاً كثيراً وإبلاً.

٢ ـ إقتنى في أيامه جماعة من أصحابه الضياع والدور منهم: الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية وما ذكر من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخططا بحيث ذكرنا من الأمصار.

٣ ـ وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره بالكوفة المعروفة بالكناس بدار الطلحتين وكانت غلته من العراق كلّ يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية سراة أكثر مما ذكرنا. وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجصّ والساج.

---

(١) نهج السعادة: ٤/٥٧، والجمل: ١٣٢.

٤ ـ وكذلك عبد الرّحمن بن عوف الزهري ابتني داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً.

٥ ـ وابتني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات.

٦ ـ وقد ذكر سعيد بن المسيّب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضّة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار.

٧ ـ وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات وجعلها مجصّصة الظاهر والباطن.

٨ ـ ومات يعلى بن أُميّة وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على النّاس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار.

ثمّ قال المسعودي: وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب بل كانت جادة واضحة وطريقة بيّنة وحجّ عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله: لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا. ولقد شكا النّاس أميرهم سعد بن أبي وقاص وذلك في سنة إحدى وعشرين فبعث عمر محمّد بن مسلمة الأنصاري حليف بني عبد الأشهل فخرق عليه باب قصر الكوفة وجمعهم في مساجد الكوفة يسألهم عنه فحمده بعضهم وساءه بعض فعزله وبعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر وعثمان ابن حنيف على الخراج وعبد الله بن مسعود على بيت المال وأمره أن يعلّم الناس القرآن ويفقههم في الدين وفرض لهم في كلّ يوم شاة فجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف فأين عمر ممن ذكرنا وأين هو عمن وصفنا؟

وفي الشافي للشريف المرتضى علم الهدى: ومن ذلك أنّه كان يؤثر أهل بيته بالأموال العظيمة التي هي عدّة للمسلمين نحو ما روى أنّه دفع إلى أربعة أنفس من قريش زوّجهم بناته أربعمائة ألف دينار وأعطى مروان مائة ألف على فتح افريقيّة ويروى خمس افريقية وغير ذلك وهذا بخلاف سيرة من تقدم في القسمة على النّاس بقدر الإستحقاق وايثار الأباعد على الأقارب(١).

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢١٨، وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٣.

«جواب القاضي عبد الجبار في المغني عن ذلك واعتذاره منه»

قال ـ كما نقل عنه علم الهدى في الشافي ـ: وأمّا ما ذكروه من إيثاره أهل بيته بالأموال فقد كان عظيم اليسار كثير الأموال فلا يمتنع أن يكون إنّما أعطاهم من ماله وإذا احتمل ذلك وجب حمله على الصحة وحكى عن أبي علي أنّ الذي روي من دفعه إلى ثلاثة نفر من قريش زوّجهم بناته مائة ألف دينار لكلّ واحد إنّما هو من ماله ولا رواية تصحّ في أنّه أعطاهم ذلك من بيت المال ولو صحّ ذلك لكان لا يمتنع أن يكون أعطى من بيت المال ليردّ عوضه من ماله لأنّ للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك كما له أن يقرض غيره.

قال: ثمّ حكى القاضي عن أبي عليّ أن ما روى من دفعه خمس إفريقيّة لما فتحت إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول على وجه يوجب قبوله وإنّما يرويه من يقصد التشنيع على عثمان. وحكي، عن أبي الحسين الخيّاط: أن ابن أبي سرح لمّا غزا البحر ومعه مروان في الجيش ففتح الله عليه وغنموا غنيمة اشتروى مروان الخمس من أبي سرح بمائة ألف وأعطاه أكثرها ثمّ قدم على عثمان بشيراً بالفتح وقد كانت قلوب المسلمين تعلقت بأمر ذلك الجيش فرأى عثمان أن يهب له ما بقي عليه من المال وللإمام فعل ذلك ترغيباً في مثل ذلك الأمور.

قال: قال وهذا الصنيع منه كان في السنة الأولى من إمامته ولم يتبرأ أحد منه فيها فلا وجه للتعلق به وذكر فيما أعطاه لأقاربه أنّه وصلهم لحاجتهم ولا يمتنع مثله في الإمام إذا رآه صلاحاً. وذكر في إقطاعه بني أميّة القطائع: أن الأئمة قد تحصل في أيديهم الضياع لا مالك لها من جهات ويعلمون أنّه لا بدّ فيها ممن يقوم بإصلاحها وعمارتها فيؤدّي عنها ما يجب من الحقّ وله أن يصرف ذلك إلى من يقوم به وله أيضاً أن يزيد بعضاً على بعض بحسب ما يعلم من الصلاح والتألف وطريق ذلك الاجتهاد[1].

«اعتراض الشريف علم الهدى على القاضي»

قال في الشافي: فأمّا قوله في جواب ما يسأل عنه من ايثاره أهل بيته بالأموال: أنه لا يمتنع أن يكون إنّما أعطاهم من ماله، فالرواية بخلاف ذلك وقد صرّح الرّجل أنّه كان يعطي من بيت المال صلة لرحمه ولما وقف على ذلك لم يعتذر منه بهذا الضرب من العذر ولا قال إنّ هذا العطايا من مالي ولا اعتراض لأحد فيه.

وقد روى الواقدي بإسناده عن الميسور بن عتبة أنّه قال: سمعت عثمان يقول: إن أبا

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٤.

بكر وعمر كانا يتناولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوى أرحامهما وإنّي ناولت فيه صلة رحمي[١].

وروى عنه: أنّه كان بحضرته زياد بن عبيد الله الحارثي مولى الحارث بن كلدة الثقفي وقد بعث أبو موسى بمال عظيم من البصرة فجعل عثمان يقسمه بين أهله وولده بالصحاف ففاضت عينا زياد دموعاً لمّا رأى من صنيعه بالمال فقال: لاتبك فإن عمر كان يمنع أهله وذوي أرحامه ابتغاء وجه الله وأنا أعطي أهلي وقرابتي ابتغاء وجه الله. وقد روى هذا المعنى عنه من عدّة طرق بألفاظ مختلفة.

وروى الواقدي بإسناده قال: قدمت إبل من أهل الصدقة على عثمان فوهبها للحرث بن الحكم بن أبي العاص[٢].

أقول: كان الحرث هذا ابن عم عثمان فقد قدمنا أن الحكم بن أبي العاص كان عمّه.

قال: وروى أيضاً: أنّه ولي الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف فوهبها له حين أتاه بها.

وروى أبو مخنف والواقدي جميعاً: أنّ النّاس أنكروا على عثمان إعطائه سعيد ابن أبي العاص مائة ألف فكلّمه عليّ عليه السلام والزبير وطلحة وسعد وعبد الرّحمٰن في ذلك فقال: إن لي قرابة ورحماً، فقالوا: أما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذوو رحم؟ فقال: إنّ أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما وأنا أحتسب في عطاء قرابتي. قالوا: فهديهما والله أحبّ إلينا من هديك.

وقد روى أبو مخنف: أنّه لمّا قدم على عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص من مكة وناس معه أمر لعبد الله بثلاثمائة ألف ولكلّ واحد من القوم مائة ألف فصكّ بذلك على عبد الله بن الأرقم، وكان خازن بيت المال فاستكثره وردّ الصكّ به ويقال: إنّه سأل عثمان أن يكتب بذلك كتاب دين فأبى ذلك وامتنع ابن الأرقم أن يدفع المال إلى القوم، فقال له عثمان: إنّما أنت خازن لنا فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن الأرقم: كنت أراني خازناً للمسلمين وإنّما خازنك غلامك والله لا ألي لك بيت المال أبداً فجاء بالمفاتيح فعلّقها على المنبر ويقال: بل ألقاها إلى عثمان فدفعها عثمان إلى نائل مولاه[٣].

(١) الطبقات الكبرى: ٣/ ٦٤، وكنز العمال: ٥/ ٦٢٧ ح ١٤١٠٦.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/ ٢١٨، والغدير: ٨/ ٢٦٧.

(٣) كتاب الأربعين: ٥٨٤، وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٦.

وروى الواقدي: أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت المال إلى عبد الله بن الأرقم في عقيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم فلمّا دخل بها عليه قال له: يا با محمّد إنّ أمير المؤمنين أرسل إليك يقول إنا قد شغلناك عن التجارة ولك ذو رحم ذات حاجة ففرّق هذا المال فيهم واستعن به على عيالك، فقال عبد الله بن الأرقم: ما لي إليه حاجة وما عملت لأن يثيبني عثمان والله لئن كان هذا من مال المسلمين ما بلغ قدر عملي أن أعطى ثلاثمائة ألف درهم، ولئن كان من مال عثمان ما أُحبّ أن أرزاه من ماله شيئاً وما في هذه الأمور أوضح من أن يشار إليه وينبّه عليه(١).

وأمّا قوله «لو صحّ أنّه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكون ذلك على طريق القرض» فليس بشيء لأن الروايات أوّلاً يخالف ما ذكروه وقد كان يحبّ «يجب ظ» لما نقم عليه وجوه الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال أن يقول لهم: هذا على سبيل القرض وأنا أردّ عوضه ولا يقول ما تقدم ذكره من أنني أصل به رحمي.

على أنّه ليس للإمام أن يقترض من بيت المال إلاّ ما ينصرف في مصلحة للمسلمين مهمة يعود عليهم نفعها أو في سدّ خلّة وفاقة لا يتمكّنون من القيام بالأمر معها فأمّا أن يقترض المال ليتدح ويمرح فيه مترفي بني أميّة وفسّاقهم فلا أحد يجيز ذلك.

فأمّا قوله حاكياً عن أبي عليّ «أن دفعه خمس أفريقيّة إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول» فتعلل منه بالباطل لأنّ العلم بذلك يجري مجرى الضروري ومجري ما تقدّم بسائره، ومن قرأ الأخبار علم ذلك على وجه لا يعترض فيه شكّ كما يعلم نظائره.

وقد روى الواقدي: عن أسامة بن زيد عن نافع مولى الزبير عن عبد الله بن الزبير قال: أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين افريقيّة فأصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح غنائم جليلة فأعطى عثمان مروان بن الحكم تلك الغنائم وهذا كما ترى يتضمن الزيادة على الخمس ويتجاوز إلى إعطاء الكل(٢).

وروي الواقدي عن عبد الله بن جعفر، عن أُم بكر بنت الميسور قالت: لمّا بنى مروان داره بالمدينة دعى النّاس إلى طعامه وكان الميسور ممن دعاه فقال مروان وهو يحدّثهم: والله ما انفقت في داري هذه من مال المسلمين درهماً فما فوقه، فقال الميسور: لو أكلت طعامك وسكتّ كان خيراً لك لقد غزوت معنا افريقيّة وأنّك لأقلّنا مالاً ورقيقاً وأعواناً وأخفّنا ثقلاً

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/٣٦، وبحار الأنوار: ٣١/٢٢١.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/٢٢١، والغدير: ٨/٢٥٨.

فأعطاك ابن عمّك خمس افريقيّة وعملت على الصدقات فأخذت أموال المسلمين[١].

ورُوي الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف أنّ مروان ابتاع خمس افريقيّة بمأتي ألف أو بمائة ألف دينار وكلّم عثمان فوهبها له فأنكر النّاس ذلك على عثمان، وهذا بعينه هو الذي اعترف به أبو الحسين الخيّاط واعتذر بأن قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش فرأي عثمان أن يهب لمروان ثمن ما ابتاعه من الخمس لمّا جاءه بشيراً بالفتح على سبيل الترغيب، وهذا الاعتذار ليس بشيء لأنَّ الذي رويناه من الأخبار في هذا الباب خال من البشارة وإنّما يقتضي أنّه سأله ترك ذلك عليه فتركه أو ابتدأ هو بصلته ولو أتى بشيراً بالفتح كما ادّعوا لما جاز أن يترك عليه خمس الغنيمة العائدة على المسلمين وتلك البشارة لا يستحق أن يبلغ البشير بها ماتي ألف دينار ولا اجتهاد في مثل هذا ولا فرق بين من جوّز أن يؤدي الإجتهاد إلى مثله ومن جوّز أن يؤدي الإجتهاد إلى دفع أصل الغنيمة إلى البشير بها، ومن ارتكب ذلك الزم جواز أن يؤدي الإجتهاد إلى جواز إعطاء هذا البشير جميع أموال المسلمين في الشرق والغرب[٢].

وأما قوله: «أنّه فعل ذلك في السنة الأُولى من أيامه ولم يتبرّء أحد منه» فقد مضي الكلام فيه مستقصي.

فأمّا قوله: «إنّه وصل بني عمّه لحاجتهم ورأى في ذلك صلاحاً» فقد بيّنا أن صلاته لهم كانت أكثر ممّا يقتضيه الحاجة والخلّة وأنّه كان يصل منهم المياسير وذوي الأحوال الواسعة والضيّاع الكثيرة، ثمّ الصلاح الذي زعم أنّه رآه لا يخلو من أن يكون عائداً على المسلمين أو على أقاربه، فإن كان على المسلمين: فمعلوم ضرورة أنّه لا صلاح لأحد من المسلمين في إعطاء مروان مأتى ألف دينار والحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف دينار وابن أسيد ثلاثمائة ألف درهم إلى غير ذلك ممن هو مذكور، بل على المسلمين في ذلك غاية الضرر، وإن أراد الصلاح العائد على الأقارب فليس له أن يصلح أمر أقاربه بفساد أمر المسلمين وينفعهم بما يضرّ به المسلمين.

فأمّا قوله: «إن القطائع التي أقطعها بني أُمية إنّما أقطعهم إياها لمصلحة يعود على المسلمين لأنّه كانت خراباً لا عامر لها فسلّمها إلى من يعمرها ويؤدي الحقّ فيها» فأوّل ما فيه: أنّه لو كان الأمر على ما ذكره ولم يكن هذه القطائع على سبيل الصلة والمعونة لأقار به لما خفي ذلك على الحاضرين ولكانوا لا يعدّون ذلك من مثالبه ولا يواقفونه عليه في جملة

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٢١، والغدير: ٨/ ٢٥٩، وشرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٣/ ٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٨.

ما واقفوه عليه من أحداثه. ثمّ كان يجب لو فعلوا ذلك أن يكون جوابه لهم بخلاف ما روى من جوابه، لأنه كان يجب أن يقول لهم: وأي منفعة في هذه القطائع عائدة على قرابتي حتّى يعدّوا ذلك من جملة صلاتي لهم وإيصال المنافع إليهم؟ وإنما جعلتهم فيها بمنزلة الأكرة الذين ينتفع بهم أكثر من انتفاعهم وما كان يجب أن يقول ما تقدمت روايته من أنى محتسب في إعطاء قرابتي وأن ذلك على سبيل الصلة لرحمي إلى غير ذلك ممّا هو خال من المعنى الذي ذكروه. انتهى.

أقول: ومن قوادحه ما فعل بعبد الله بن سعد قبل خلافته بعدما هدر رسول الله ﷺ دمه. تفصيله أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكنى أبا يحيى وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة أرضعت أُمه عثمان أسلم قبل الفتح وهاجر إلى رسول الله ﷺ وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثمّ ارتدّ مشركاً وصار إلى قريش بمكة فقال لهم: إنّي كنت أُصرّف محمّداً حيث أُريد كان يملي عليّ عزيز حكيم فأقول أو عليم حكيم فيقول: نعم كلّ صواب فلما كان يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بقتله وقتل عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ففرّ عبد الله بن سعد إلى عثمان بن عفان فغيبه عثمان حتّى أتى به إلى رسول الله ﷺ بعدما اطمأن أهل مكّة فاستأمنه له فصمت رسول الله ﷺ طويلاً ثمّ قال: نعم فلمّا انصرف عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله: ما صمتّ إلاّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إليّ يا رسول الله؟ فقال: إنّ النبيّ لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين؛ قاله في أسد الغابة[1].

وفي الصّافي للفيض في تفسير القرآن في ضمن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] في الكافي والعيّاشي عن أحدهما عليهما السلام: نزلت الآية في ابن أبي سرح الذي كان عثمان استعمله على مصر وهو ممّن كان رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة هدر دمه وكان يكتب لرسول الله ﷺ فإذا أنزل الله عزّ وجلّ إنّ الله عزيز حكيم كتب إنّ الله عليم حكيم فيقول له رسول الله ﷺ: دعها فإن الله عليم حكيم وكان ابن أبي سرح يقول للمنافقين: إنّي لأقول من نفسي مثل ما يجيء به فما يغيّر عليّ فأنزل الله تبارك وتعالى فيه الذي أنزل[2].

والقمي عن الصّادق عليه السلام قال: إنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو عثمان من الرضاعة أسلم وقدم المدينة وكان له خطّ حسن وكان إذا أنزل الوحي على رسول الله ﷺ

(١) الغدير: ٨/ ٢٨٠، وأحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ١٣٦.
(٢) التفسير الصافي: ٢/ ١٣٩، والتفسير الأصفى: ١/ ٣٣٤.

دعاه فكتب ما يمليه عليه رسول الله ﷺ فكان إذا قال رسول الله ﷺ: سميع بصير يكتب سميع عليم وإذا قال: والله بما يعملون خبير يكتب بصير، ويفرق بين التاء والباء وكان رسول الله ﷺ يقول: هو واحد فارتدّ كافراً ورجع إلى مكّة وقال لقريش: والله ما يدري محمّد ما يقول: أنا أقول مثل ما يقول فلا ينكر عليّ ذلك فأنا أُنزل مثل ما ينزل فأنزل الله على نبيّه في ذلك: ـ ومن أظلم ممن افترى ـ إلى قوله: مثل ما أنزل الله ـ فلما فتح رسول الله مكة أمر بقتله فجاء به عثمان قد أخذ بيده ورسول الله ﷺ في المسجد فقال يا رسول الله اعف عنه فسكت رسول الله ﷺ ثمّ أعاد فسكت ثمّ أعاد فقال هو لك فلمّا مرّ قال رسول الله ﷺ لأصحابه: ألم أقل من رآه فليقتله؟ فقال رجل كانت عيني إليك يا رسول الله أن تشير إليّ فأقتله فقال رسول الله ﷺ: إن الأنبياء لا يقتلون بالإشارة فكان من الطلقاء(1).

وقال ابن هشام في السيرة النبوية: قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أُمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة، أن لا يقتلوا إلاّ من قاتلهم، إلاّ أنّه قد عهد في نفر سمّاهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد أخو بني عامر بن لؤي.

قال: وإنّما أمر رسول الله ﷺ بقتله لأنّه قد كان أسلم وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي فارتدّ مشركاً راجعاً إلى قريش ففرّ إلى عثمان بن عفان وكان أخاه للرضاعة فغيّبه حتّى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن النّاس وأهل مكّة فاستأمن له، فزعموا أن رسول الله ﷺ صمت طويلاً، ثمّ قال: نعم فلمّا انصرف عنه عثمان، قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه: لقد صمتّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إليّ يا رسول الله قال: إنّ النّبي لا يقتل بالإشارة.

قال ابن هشام: ثمّ أسلم بعد فولاّه عمر بن الخطاب بعض أعماله ثمّ ولاه عثمان بن عفان بعد عمر(2).

وقال الطبرسي في مجمع البيان في تفسير القرآن ضمن الآية المذكورة: وقيل: المراد به عبد الله بن سعد بن أبي سرح أملى عليه رسول الله ﷺ ذات يوم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ ـ إلى قوله تعالى ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فجرى على لسان ابن أبي سرح فتبارك الله أحسن الخالقين فأملاه عليه وقال هكذا أنزل فارتدّ عدو الله وقال: لئن كان محمّد صادقاً فلقد أوحى إليّ كما أوحى إليه ولئن كان كاذباً فلقد قلت كما قال وارتدّ عن الإسلام

(1) بحار الأنوار: ٨٩/٣٦ ح ١، وتفسير القمي: ١/ ٢١١.
(2) سيرة النبي (ص): ٤/ ٨٦٧.

وهدر رسول الله ﷺ دمه فلما كان يوم الفتح جاء به عثمان وقد أخذ بيده رسول الله ﷺ في المسجد فقال: يا رسول الله أعف عنه فسكت رسول الله ﷺ ثمّ اعاد فسكت فقال هو لك فلما مر رسول الله ﷺ لأصحابه: ألم أقل من رآه فليقتله؟ فقال عباد بن بشر: كانت عيني إليك يا رسول الله أن تشير إليّ فأقتله، فقال ﷺ: الأنبياء لا يقتلون بالإشارة(1).

أقول: لا كلام في ارتداد ابن أبي سرح وإنّما الاختلاف في سبب ارتداده وجملته أنه نبذ كتاب الله وراء ظهره واتخذه سخرياً.

ولكن ما أتى به الفيض في الصافي من الرواية: «في أن رسول الله ﷺ إذا قال: سميع بصير يكتب ابن أبي سرح سميع عليم وإذا قال: والله بما يعملون خبير يكتب بصير ويفرق بين التاء والياء وكان رسول الله ﷺ يقول هو واحد» ليست بصحيحة جداً لأنّ شدّة عناية رسول الله ﷺ واهتمامه بحفظ القرآن وحراسته عن التحريف والتغيير يمنعنا عن قبول ذلك وسيأتي التحقيق الأنيق بعيد هذا في أن هذا المصحف المكتوب بين الدّفتين المتداول الآن بين الناس جميع ما نزل عليه ﷺ في نيف وعشرين سنة من غير زيادة ونقصان وتصحيف وتحريف وأنّ تركيب السور من الآيات وترتيب السور على ما هو في المصحف توقيفي كان بأمر الله تعالى وأمر أمين الوحي ﷺ وأمر رسول الله ﷺ.

على أنّ صدر كل آية يدل على أنه يناسب ويقتضي كلمات خاصّة في ختامها ولا يوافق غيرها كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام وفنون الأدب سيما كتاب الله الذي أعجز العالمين عن أن يتفوّهوا بإتيان مثله وإن كانت سورة منها نحو الكوثر ثلاث آيات.

مثلاً أن قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٣، ١٤] لا يناسب إنّه حكيم بذات الصدور، أو وهو السميع الخبير مثلاً فإن في الجمع بين يعلم وبين اللّطيف لطيفة حكميّة يدركها ذوق التألّه بخلاف الجمع بين يعلم والسميع.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور: ٤، ٥] يناسب التوبة الغفور الرحيم دون أنّه عزيز ذو انتقام، أو حكيم عليم وأمثالها وكذا في الآيات الآخر فتدبّر فيها بعين العلم والمعرفة.

على أنا نرى الحجج الإلهيّة يمنعون النّاس عن التّصرف في الأدعيّة وتحريفها.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١١٢/٤، وبحوث في تاريخ القرآن: ١١٤.

روى محمّد بن بابويه عليه الرحمة في كتاب الغيبة بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: سيصيبكم شبهة فتبقون بلا علم ولا إمام هدى ولا ينجو فيها إلاّ من دعا بدعاء الغريق؛ قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال عليه السلام: تقول: يا الله يا رحمٰن يا رحيم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك؛ فقلت: يا مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك، فقال عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ مقلّب القلوب والأبصار ولكن قل كما أقول: ثبت قلبي على دينك[1].

فإذا كان الدعاء توقيفياً ويردع الإمام عليه السلام عن التحريف فكيف ظنك بالنبيّ صلى الله عليه وآله مع القرآن.

٩ ـ وقدم على عثمان عمّه الحكم بن أبي العاص وابن عمّه مروان وغيرهما من بني أُميّة ومروان هو طريد رسول الله صلى الله عليه وآله الذي غربه عن المدينة ونفاه عن جواره.

أقول: إنّ الحكم وابنه مروان كليهما كانا طريدي رسول الله صلى الله عليه وآله والصواب أن يقال: أن الحكم هو طريد رسول الله صلى الله عليه وآله فإن ابنه مروان كان طفلاً حين طرده رسول الله صلى الله عليه وآله والسبب في ذلك أنّ الحكم بن أبي العاص عمّ عثمان كان يحاكي مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وينقصه وكان يفعل ذلك استهزاءً به وسخرية فرآه النبيّ صلى الله عليه وآله يوماً وهو يفعل ذلك فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله وقد غضب لذلك: أتحكيني؟ أخرج من المدينة فلا جاورتني فيها حيّا ولا ميّتاً فطرده وابنه مروان ونفاهما إلى بلاد اليمن ونفيا بهما مطرودين مدّة حياة النبيّ صلى الله عليه وآله فلمّا مات وولي أبو بكر طمع عثمان أن يردّهما فكلم أبا بكر في ذلك فزبره وأغلظ عليه وقال: أتريدني يا عثمان أن آوي طريد رسول الله صلى الله عليه وآله كلا لا يكون ذلك، فسكت عثمان حتّى ولي عمر فكلّمه أيضاً في ردّهما فأبا عليه وقال: لا يكون منّي أن آوي طريد رسول الله وطريد أبي بكر اعزب عن هذا الكلام فسكت عثمان فلمّا ولي واستتمّ له الأمر كتب إليهما: بأن أقدما المدينة فأقدمهما المدينة على رؤوس الأشهاد مكرمين.

وقال ابن الأثير الجزري في أسد الغابة: الحكم بن أبي العاص بن أميّة الأُموي أبو مروان بن الحكم يعدّ في أهل الحجاز عمّ عثمان بن عفّان أسلم يوم الفتح، وروي بإسناده إلى نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: كنا مع النّبي صلى الله عليه وآله فمرّ الحكم بن أبي العاص فقال النبيّ صلى الله عليه وآله ويل لأمّتي مما في صلب هذا وهو طريد رسول الله صلى الله عليه وآله نفاه من المدينة إلى الطائف وخرج معه ابنه مروان[2].

---

(١) غنائم الأيام: ٢/ ٤٢١.

(٢) الغدير: ٨/ ٢٦٠، وتاريخ مدينة دمشق: ٥٧/ ٢٦٧.

وقد اختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله ﷺ إياه فقيل: كان يتسمع سرّ رسول الله ﷺ ويطلع عليه من باب بيته وأنّه الذي أراد رسول الله ﷺ أن يفقأ عينه بمدري في يده لما اطلع عليه من الباب. وقيل: كان يحكي رسول الله ﷺ في مشيته فالتفت يوماً فرآه وهو يتخلج في مشيته فقال: كن كذلك، فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ، فذكره عبد الرّحمان بن حسان بن ثابت في هجائه لعبد الرّحمٰن بن الحكم:

إن اللعين أبوك فارم عظامه إن ترم ترم مخلجا مجنونا
يمسي خميص البطن من عمل التقى ويظل من عمل الخبيث بطينا

ومعنى قول عبد الرّحمٰن إن اللعين أبوك فروي عن عائشة من طرق ذكرها ابن أبي خيثمة أنّها قالت لمروان بن الحكم حين قال لأخيها عبد الرحمٰن بن أبي بكر لمّا امتنع من البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد ما قال والقصّة مشهورة: أمّا أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله ﷺ لعن أباك وأنت في صلبه وقد روي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها إلاّ أن الأمر المقطوع به أن النبيّ ﷺ مع حلمه وإغضائه على ما يكره ما فعل به ذلك إلاّ لأمر عظيم ولم يزل منفيّاً حياة النبيّ ﷺ فلمّا ولّي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليردّه إلى المدينة فقال: ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ وكذلك عمر فلمّا ولّي عثمان الخلافة ردّه وقال: كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله ﷺ فوعدني بردّه وتوفي في خلافة عثمان.

وفيه أيضاً: مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة الأموي ابن عمّ عثمان ابن عفّان بن أبي العاص ولم ير النبي ﷺ لأنّه خرج إلى الطائف طفلا لا يعقل لما نفي النبي ﷺ أباه الحكم وكان مع أبيه بالطائف حتّى استخلف عثمان فردّهما واسكتب عثمان مروان وضمّه إليه ونظر إليه عليّ يوماً فقال: ويلك وويل أمّة محمّد منك ومن بنيك. وكان يقال لمروان: خيط باطل وضرب يوم الدار على قفاه فقطع أحد علياويه فعاش بعد ذلك أوقص والأوقص الذي قصرت عنقه، ولمّا بويع مروان بالخلافة بالشام قال أخوه عبد الرّحمٰن بن الحكم وكان ماجناً حسن الشعر لا يرى رأي مروان:

فوالله ما أدري وإنّي لسائل حليلة مضروب القفا كيف تصنع
لحا الله قوماً أمّروا خيط باطل على الناس يعطي ما يشاء ويمنع

أقول: قول عليّ عليه السلام لمروان: ويلك وويل أمّة محمّد منك ومن بنيك، إشارة إلى ما قاله رسول الله ﷺ في أبيه الحكم: ويل لأمّتي ممّا في صلب هذا.

«جواب القاضي عبد الجبار عن ذلك واعتذاره منه»

نقل الشريف المرتضى علم الهدى في الشافي جوابه عن ذلك عن كتابه المغني: إنّه

قال: فأمّا ردّه الحكم بن أبي العاص فقد روي عنه: إنّه لمّا عوتب في ذلك ذكر أنّه كان استأذن رسول الله ﷺ وإنّما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنّه شاهد واحد وكذلك روي عنهما فكأنّما جعلا ذلك بمنزلة الحقوق التي تخص فلم يقبلا فيه خبر الواحد وأجرياه مجري الشهادة فلمّا صار الأمر إلى عثمان حكم بعلمه لأنّ للحاكم أن يحكم بعلمه في هذا الباب وفي غيره عند شيخينا ولا يفصلان بين حدّ وحقّ ولا أن يكون العلم قبل الولاية أو حال الولاية ويقولون إنّه أقوى في الحكم من البينة والإقرار[١].

ثمّ ذكر عن أبي علي أنّه يقطع به على كذب روايته في إذن الرسول ﷺ في ردّه، فلا بد من تجويز كونه معذوراً.

ثمّ سأل نفسه في أن الحاكم إنّما يحكم بعلمه مع زوال التهمة وأن التهمة كانت في ردّ الحكم قوية لقرابته، وأجاب بأن الواجب على غيره أن لا يتّهمه إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه لأنّه قد نصب منصباً يقتضى زوال التهمة عنه وحمل أفعاله على الصحة ولو جوّزنا امتناعه للتهمة لأدّى إلى بطلان كثير من الأحكام.

وحكى عن أبي الحسن الخيّاط أنّه لو لم يكن في ردّه إذن من رسول الله ﷺ لجاز أن يكون طريقه الإجتهاد لأنّ النفي إذا كان صلاحاً في الحال لا يمتنع أن يتغيّر حكمه باختلاف الأوقات وتغير حال المنفي وإذا جاز لأبي بكر أن يستردّ عمر من جيش أسامة للحاجة إليه وإن كان قد أمر رسول الله ﷺ بنفوذه من حيث تغيرت الحال فغير ممتنع مثله في الحكم.

«اعتراض علم الهدى عليه وإبطاله جوابه»

اعترض عليه في الشافي فقال: يقال له: أمّا ما ادعيته وبنيت الأمر في قصّة الحكم من أن عثمان لما عوتب في ردّه ادّعى أن الرسول ﷺ أذن له في ذلك. فهو شيء ما سمع إلا منك ولا يدري من أين نقلته وفي أي كتاب وجدته وما رواه النّاس كلّهم بخلاف ذلك.

وقد روي الواقدي من طرق مختلفة وغيره: أن الحكم بن أبي العاص لما قدم المدينة بعد الفتح أخرجه النبيّ ﷺ إلى الطائف وقال: لا تساكنني في بلد أبداً فجاء عثمان فكلّمه فأبى، ثمّ كان من بي بكر مثل ذلك، ثمّ كان من عمر مثل ذلك فلمّا قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه فمشى في ذلك عليّ عليه السلام والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمٰن بن عوف وعمار بن ياسر حتّى دخلوا على عثمان فقالوا له: إنّك قد أدخلت هؤلاء القوم يعنون الحكم ومن معه وقد كان النبيّ ﷺ أخرجه وأبو بكر وعمر، وإنا نذكرك الله والإسلام ومعادك فإن لك معاداً

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٩.

ومنقلباً وقد أبت ذلك الولاة من قبلك ولم يطمع أحد أن يكلّمهم فيه وهذا سبب نخاف الله تعالى عليك فيه.

فقال: إن قرابتهم مني حيث تعلمون وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله حيث كلمته أطمعني في أن يأذن له وإنّما أخرجهم لكلمة بلغته عن الحكم ولن يضرّكم مكانهم شيئاً وفي النّاس من هو شرّ منهم.

فقال عليّ عليه السلام: لا أحد شراً منه ولا منهم. ثمّ قال عليّ عليه السلام: هل تعلم أن عمر قال: والله ليحملن بني أبي معيط على رقاب النّاس والله لئن فعل ليقتلنّه؟ قال: فقال عثمان: ما كان منكم أحد يكون بينه وبينه من القرابة ما بيني وبينه وينال من المقدرة ما أنال إلاّ أدخله وفي النّاس من هو شرّ منه. قال: فغضب عليّ عليه السلام قال: والله لتأتينا بشرّ من هذا إن سلمت وسترى يا عثمان غبّ ما تفعل، ثمّ خرجوا من عنده[1].

وهذا كما ترى خلاف ما ادّعاه صاحب الكتاب لأنّ الرجل لمّا احتفل ادّعى أن الرسول صلى الله عليه وآله كان أطمعه في ردّه، ثمّ صرّح بأن رعايته فيه من القرابة هي الموجبة لردّه ومخالفة الرسول صلى الله عليه وآله.

وقد روى من طرق مختلفة أن عثمان لمّا كلم أبا بكر وعمر في ردّ الحكم أغلظا له وزبراه وقال له عمر: يخرجه رسول الله صلى الله عليه وآله وتأمرني أن أدخله والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل غيّر عهد رسول الله صلى الله عليه وآله والله لئن اشق باثنين كما تنشق الأبلمة أحبّ إليّ من أن أخالف لرسول الله صلى الله عليه وآله أمراً، وإياك يا ابن عفّان أن تعاودني فيه بعد اليوم[2]، وما رأينا عثمان قال في جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبي بكر وعمر: إن عندي عهداً من الرسول صلى الله عليه وآله فيه لا استحق معه عتاباً ولا تهجيناً وكيف تطيب نفس مسلم موقر لرسول الله صلى الله عليه وآله معظم له بأن يأتي إلى عدوّ لرسول الله صلى الله عليه وآله مصرّح بعداوته والوقيعة فيه حتّى بلغ به الأمر إلى أن كان يحكى مشيته فطرده رسول الله صلى الله عليه وآله وأبعده ولعنه حتّى صار مشهوراً بأنّه طريد رسول الله صلى الله عليه وآله فيؤويه ويكرمه ويردّه إلى حيث أُخرج منه ويصله بالمال العظيم ويصله إما من مال المسلمين أو ماله أن هذا العظيم كبير قبل التصفح والتأمل والتعلل بالتأويل الباطل.

فأمّا قول صاحب الكتاب: «إن أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنّه شاهد واحد وجعلا ذلك بمنزلة الحقوق التي تخصّ» فأوّل ما فيه أنّه لم يشهد عندهما بشيء في باب الحكم على

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ١٧١، وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٣١.

(٢) جواهر الكلام: ٣٠/ ١٤٣، والصراط المستقيم: ٣/ ٣١.

ما رواه جميع النّاس. ثمّ ليس هذا من الباب الذي يحتاج فيه إلى الشاهدين بل هو بمنزلة كلّ ما يقبل فيه أخبار الآحاد وكيف يجوز أن يجري أبو بكر وعمر مجرى الحقوق ما ليس فيها.

وقوله: لا بدّ من تجويز كونه صادقاً في روايته لأن القطع على كذب روايته لا سبيل إليه، ليس بشيء لأنا قد بيّنا أنّه لم يرو عن الرسول ﷺ إذناً وإنّما ادّعى أنّه، اطمعه في ذلك وإذا جوزّنا كونه صادقاً في هذه الرواية بل قطعنا على صدقه لم يكن معذوراً.

فأمّا قوله: «الواجب على غيره أن لا يتّهمه إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه لانتصابه منصباً يفضي إلى زوال التهمة» فأوّل ما فيه أن الحاكم لا يجوز أن يحكم بعلمه مع التهمة والتهمة قد يكون لها أمارات وعلامات فما وقع فيها عن أمارات وأسباب تتهم في العادة كان مؤثراً وما لم يكن كذلك وكان مبتدءً فلا تأثير له، والحكم هو عمّ عثمان وقريبه ونسيبه ومن قد تكلم فيه وفي ردّه مرّة بعد أُخرى ولوالٍ بعد والٍ وهذه كلّها أسباب التهمة فقد كان يجب أن يتجنّب الحكم بعلمه في هذا الباب خاصّة لتطرق التهمة فيه.

فأمّا ما حكاه عن الخيّاط من «أن الرّسول ﷺ لو لم يأذن في ردّه لجاز أن يردّه إذا أراه اجتهاده إلى ذلك لأن الأحوال قد تتغيّر» فظاهر البطلان لأن الرسول إذا حظر شيئاً أو أباحه لم يكن لاحد أن يجتهد في إباحة المحظور أو حظر المباح ومن جوّز الإجتهاد في الشريعة لا يقدم على مثل هذا لأنّه إنّما يجوز عندهم فيما لا نصّ فيه ولو جوّزنا الإجتهاد في مخالفة ما تناوله النصّ لم نأمن أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى تحليل الخمر واسقاط الصلاة بأن تتغير الحال وهذا هدم للشريعة. فأما استشهاده باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام في الأمرين واحد وقد مضى ما فيه.

١٠ ـ ثمّ قال المسعودي: وكان عمّا له جماعة منهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط على الكوفة وهو ممن أخبر النبيّ ﷺ أنّه من أهل النّار. وعبد الله بن أبي سرح على مصر ومعاوية ابن أبي سفيان على الشام وعبد الله بن عامر على البصرة، وصرف عن الكوفة الوليد بن عقبة وولاها سعيد بن العاص وكان السبب في صرف الوليد وولاية سعيد على ما روي أن الوليد ابن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنّيه من أول الليل إلى الصباح فلمّا آذنه المؤذنون بالصلاة خرج منفصلاً في غلائله فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح فصلّي بهم أربعاً وقال: تريدون أن أزيدكم وقيل: أنه قال في سجوده وقد أطال: اشرب واسقني، فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأوّل: ما تريد؟ لازادك الله مزيد الخير والله لا أعجب إلاّ ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً وكان هذا القائل: عتاب بن غيلان الثقفي.

قال: وخطب النّاس الوليد فحصبه النّاس بحصباء المسجد فدخل قصره يترنح ويتمثل بأبيات لتأبط شراً:

ولست بعيداً عن مدام وقينة ... ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكنني أروي من الخمر هامتي ... وأمشي الملا بالساحب المتسلسل

وفي ذلك يقول الحطيئة كما في الشافي والمروج:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربّه ... إن الوليد أحقّ بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم ثملا وما يدرى
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا ... منه لزادهم على عشر
فأبوا أبا وهب ولو فعلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو ... خلّوا عنانك لم تزل تجري

وأشاعوا بالكوفة فعله وظهر فسقه ومداومته شرب الخمر فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدي وأبو جندب بن زهير الأزدي وغيرهما فوجدوه سكران مضطجعاً على سريره لا يعقل فأيقظوه من رقدته فلم يستيقظ ثمّ تقايا عليهم ما شرب من الخمر فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة فأتوا عثمان بن عفّان فشهدوا عنده على الوليد أنّه شرب الخمر فقال عثمان: وما يدريكما أنّه شرب الخمرأ؟ فقالا: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه فرزأهما ودفع في صدرهما وقال: تنحّيا عنّي فخرجا وأتيا عليّ بن أبي طالب ﷺ وأخبراه بالقصّة فأتى عثمان وهو يقول: دفعت الشهود وأبطلت الحدود فقال له عثمان: فما تري؟ قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدل بحجّة أقمت عليه الحدّ فلمّا حضر الوليد دعاهما عثمان فاقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجّة فألقى عثمان السوط إلى عليّ فقال عليّ لابنه الحسن قم يا بنيّ فأقم عليه ما أوجب الله عليه فقال: يكفيه بعض ما ترى فلمّا نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحدّ عليه توقيا لغضب عثمان لقرابته منه أخذ عليّ السوط ودنا منه فلما أقبل نحوه سبّه الوليد وقال يا صاحب مكس، فقال عقيل بن أبي طالب وكان ممن حضر: إنّك لتتكلّم يا ابن أبي معيط كأنّك لا تدري من أنت وأنت علج من أهل صفورية - هي قرية بين عكا واللجون من أعمال الأردن من بلاد طبرية كان ذكر أن أباه كان يهودياً منها - فأقبل الوليد يزوغ من عليّ فاجتذبه فضرب به الأرض وعلاه بالسوط فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا قال: بلى وشرّ من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه[1].

أقول: أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان أخا عثمان لأُمه.

(1) أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/١٢٨، وبحار الأنوار: ٣١/١٥٧.

١١ ـ وولى عثمان الكوفة بعد الوليد بن عقبة سعيد بن العاص فلمّا دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن يصعد المنبر حتّى يغسل وأمر بغسله وقال: إنّ الوليد كان نجساً رجساً فلمّا اتّصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة واشتبه بالأموال قال في بعض الأيّام وكتب به إلى عثمان إنما هذا السواد فطير لقريش فقال له الأشتر وهو مالك الحرث النخعي: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك ثمّ خرج إلى عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة فذكروا سوء سيرة سعيد بن العاص وسألوا عزله عنهم فمكث الأشتر وأصحابه أياماً لا يخرج لهم من عثمان في سعيد شيء وامتدت أيّامهم بالمدينة وقدم على عثمان أمراؤه من الأمصار، منهم عبد الله بن سعيد بن أبي سرح من مصر ومعاوية من الشام وعبد الله بن عامر من البصرة وسعيد بن العاص من الكوفة فأقاموا بالمدينة أيّاماً لا يردهم إلى أمصارهم كراهة أن يرد سعيداً إلى الكوفة وكره أن يعزله حتّى كتب إليه من بأمصارهم يشكون كثرة الخراج وتعطيل الثغور فجمعهم عثمان وقال: ما ترون؟

فقال معاوية: أمّا أنا فراض بي جندي. وقال عبد الله بن عامر بن كريز: ليكفك امرؤ ما قبله أكفك ما قبلي وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ليس بكثير عزل عامل للعامة وتولية غيره. وقال سعيد بن العاص: إنّك إن فعلت هذا كان أهل الكوفة هم الذين يولّون ويعزلون وقد صاروا حلقاً في المسجد ليس لهم غير الأحاديث والخوض فجهزهم في البعوث حتّى يكون همّ أحدهم أن يموت على ظهر دابته فسمع مقالته عمرو بن العاص فخرج إلى المسجد فإذا طلحة والزبير جالسان في ناحية منه فقالا له: إلينا فصار إليهما فقالا: فما وراءك؟ قال ابشر ما ترك شيئاً من المنكر إلا أتى به وأمر به، وجاء الأشتر فقالا له إن عاملكم الذي قمتم فيه خطباء قد ردّ عليكم وأمر بتجهيزكم في البعوث وبكذا وكذا.

فقال الأشتر: والله قد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا به خطباء فكيف وقد قمنا وايم الله على ذلك لولا أني انفذت النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتّى أمنعه دخولها.

فقالا له: فعندنا حاجتك التي تفوتك في سفرك. قال: فاسلفاني إذاً مائة ألف درهم فأسلفه كلّ واحد منهما خمسين ألف درهم فقسمها بين أصحابه وخرج إلى الكوفة فسبق سعيد وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد. ثمّ قال: أمّا بعد فإن عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد ردّ علكيم وأمر بتجهيزكم في البعوث فبايعوني على أن يدخلها فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة وخرج راكباً متخفيّاً يريد المدينة أو مكّة فلقي سعيداً بواقصة فأخبره بالخبر فانصرف إلى المدينة وكتب الأشتر إلى عثمان أنا والله ما منعنا عاملك إلاّ ليفسد عليك عملك ولّ من أحببت فكتب إليهم انظروا من كان عاملكم أيّام عمر بن الخطّاب فولّوه فنظروا فإذا هو أبو موسى الأشعري فولّوه.

أقول: هذا ما نقله المسعودي في مروج الذّهب وغيره من المؤرخين بلا خلاف ومن تأمل فيه يجد أن عثمان اضطر حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى ولم يصرف سعيداً مختاراً بل ما صرفه جملة وإنما صرفه أهل الكوفة عنهم.

وكان سعيد هذا أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفّان ولمّا قتل عثمان لزم بيته فلم يشهد الجمل ولا صفين فلما استقر الأمر لمعاوية أتاه وعاتبه معاوية على تخلفه عنه في حروبه فاعتذر هو فقبل معاوية عذره ثمّ ولاّه المدينة فكان يوليه إذا عزل مروان عن المدينة ويولى مروان إذا عزله. وقتل أبو العاص يوم بدر كافراً قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وفي أسد الغابة: استعمله عثمان على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط وغزا طبرستان فافتتحها وغزا جرجان فافتتحها سنة تسع وعشرين أو سنة ثلاثين وانتقضت آذربيجان فغزاها فافتتحها في قوله[1].

في الشافي للشريف المرتضى علم الهدى: ومن أحداث عثمان أنّه ولى أمور المسلمين من لا يصلح لذلك ولا يؤتمن عليه ومن ظهر منه الفسق والفساد ومن لا علم له مراعاة لحرمة القرابة وعدولاً عن مراعاة حرمة الدّين والنظر للمسلمين حتّى ظهر ذلك منه وتكرّر وقد كان عمر حذّر من ذلك فيه من حيث وصفه بأنه كلّف باقاربه وقال له إذا ولّيت هذا الأمر لا تسلّط بني أبي معيط على رقاب النّاس فوجد منه ما حذّره وعوتب في ذلك فلم ينفع العتب فيه وذلك نحو استعماله الوليد ابن عقبة وتقليده إياه حتى ظهر منه شرب الخمر واستعماله سعيد بن العاص حتى ظهرت منه الأُمور التي عندها أخرجه أهل الكوفة، وتوليته عبد الله بن سعد بن أبي سرح وعبد الله ابن عامر بن كريز حتّى يروى عنه في أمر ابن أبي سرح أنّه لما تظلّم منه أهل مصر وصرفه عنهم لمحمّد بن أبي بكر وغيره ممّن يرد عليه وظفر بذلك الكتاب ولذلك عظم التظلم من بعد وكثر الجمع وكان سبب الحصار والقتل وحتّى كان من أمر مروان وتسلّطه عليه وعلى أُموره ما قتل بسببه وذلك ظاهر لا يمكن دفعه.

«اعتذار القاضي عبد الجبار من ذلك وجوابه عنه في المغني»

نقل عنه علم الهدى في الشافي أنّه قال: أمّا ما ذكروه من توليته من لا يجوز أن يستعمل، فقد علمنا أنّه لا يمكن أن يدّعي أنّه حين استعملهم علم من أحوالهم خلاف الستر والصلاح لأنّ الذي ثبت عنهم من الأمور حدث من بعد ولا يمتنع كونهم في الأول مستورين في الحقيقة أو مستورين عنده وإنّما يجب تخطئته لو استعملهم وهم في الحال لا يصلحون

(١) أسد الغابة: ٢/ ٣١٠، وتدوين القرآن: ٣٢٧.

لذلك. فإن قيل لما علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم، قيل له: كذلك فعل لأنّه استعمل الوليد بن عقبة قبل ظهور شرب الخمر منه فلما شهدوا بذلك جلده الحدّ وصرفه وقد روى مثله عن عمر لأنه ولى قدامة بن مظعون بعض أعماله فشهدوا عليه بشرب الخمر فأشخصه وجلده الحد فإذا عدّ ذلك في فضائل عمر لم يجز أن يعدّ ما ذكروه في الوليد من معائب عثمان؛ ويقال: إنّه لمّا أشخصه أُقيم عليه الحدّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام واعتذر من عزله سعد بن أبي وقاص بالوليد بأن سعداً شكاه أهل الكوفة فأدّاه اجتهاده إلى عزله بالوليد.

ثمّ قال: فأمّا سعيد بن العاص فإنّه عزله عن الكوفة وولي مكانه أبا موسى الأشعري، وكذلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح عزله وولّى مكانه محمّد بن أبي بكر ولم يظهر له في باب مروان ما يوجب أن يصرفه عمّا كان مستعملاً فيه ولو كان ذلك طعنا لوجب مثله في كلّ من ولّي وقد علمنا أنّه عليه السلام ولي الوليد بن عقبة فحدث منه ما حدث وحدث من بعض امراءِ المؤمنين الخيانة كالقعقاع بن شور فإنّه ولاه على ميسان[1] فأخذ مالها ولحق بمعاوية وكذلك فعل الأشعث ابن قيس بمال آذربايجان. وولى أبا موسى الحكم وكان منه ما كان. ولا يجب أن يعاب أحد بفعل غيره.

فأمّا إذا لم يلحقه عيب في ابتداء الولاية فقد زال العيب فيما عداه. فقولهم: أنّه قسم الولايات في أقاربه وزال عن طريقة الإحتياط للمسلمين وقد كان عمر حذّر من ذلك فليس بعيب لأنّ تولية الأقارب كتولية الأباعد وأنّه يحسن إذا كانوا على صفات مخصوصة.

ولو قيل: إن تقديمهم أولى لم يمتنع ذلك إذ كان المولى لهم أشد تمكّنا من عزلهم والاستبدال بهم لمكان أقرب؛ وقد ولّى أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عبّاس البصرة وعبيد الله بن عبّاس وقثم بن العباس مكّة حتّى قال الأشتر عند ذلك: على ما ذا قتلنا الشّيخ أمس فيما يروى ولم يكن ذلك بعيب إذا أدّى ما وجب عليه في اجتهاده.

«اعتراض علم الهدى عليه وإبطاله جوابه»

اعترض عليه الشريف المرتضى علم الهدى في الشافي أنّه يقال له: أمّا اعتذاره في ولاية عثمان من ولاّه من الفسقة بأنه لم يكن عالماً بذلك من حالهم قبل الولاية وإنّما تجدّد منهم ما تجدّد فعزلهم فليس بشيء يعول على مثله لأنه لم يولّ هؤلاء النفر إلا وحالهم مشهورة في الخلاعة والمجانة والتحريم والتهتك ولم يختلف اثنان في أن الوليد بن عقبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدين على استقبال ولايته الكوفة بل هذه كانت

(١) في نسخة: خراسان.

سنته والعادة المعروفة منه وكيف يخفى على عثمان وهو قريبه ولصيقه وأخوه لأمّه من حاله ما لا يخفى على الأجانب الأباعد فلهذا قال له سعد بن أبي وقاص في رواية الواقدي وقد دخل الكوفة: يا با وهب أميراً أم زائراً؟ قال: بل أميراً، فقال سعد: ما أدري أحمقت بعدك أم كسست بعدي؟ قال: ما حمقت بعدي ولا بعدك، ولكن القوم ملكوا فاستأثروا فقال سعد: ما أراك إلاّ صادقاً.

وفي رواية أبي مخنف لوط بن يحيى: أنّ الوليد لما دخل الكوفة مرّ على مجلس عمرو بن زرارة النخعي فوقف فقال عمرو: يا معشر بني أسد بئس ما استقبلنا به أخوكم ابن عفان من عدله أن ينزع عنا ابن أبي وقاص الهين اللين السهل القريب ويبعث علينا أخاه الوليد الأحمق الماجن الفاجر قديماً وحديثاً واستعظم النّاس مقدمه وعزل سعد به وقالوا: أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمّة محمّد صلى الله عليه وآله[1].

وهذا تحقيق ما ذكرناه من أن حاله كانت مشهورة قبل الولاية لا ريب فيها على أحد فكيف يقال إنه كان مستوراً حتّى ظهر منه ما ظهر.

وفي الوليد نزل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨] فالمؤمن ههنا عليّ بن أبي طالب عليه السلام والفاسق الوليد على ما ذكره أهل التأويل.

وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦] والسبب في ذلك أنه كذب على بني المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وآله وادّعى أنّهم منعوه الصدقة، ولو قصصنا مخازيه المتقدمة ومساويه لطال الشرح.

وأمّا شربه الخمر بالكوفة وسكره حتّى دخل عليه من دخل وأخذ خاتمه من إصبعه وهو لا يعلم فظاهر قد سارت به الركبان وكذلك كلامه في الصلاة والتفاته إلى من يقتدى به فيها وهو سكران وقوله أزيدكم فقالوا لا قد قضينا صلاتنا حتّى قال الحطيئة في ذلك شعراً: شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ـ الأبيات المذكورة آنفاً وقال أيضاً فيه:

تكلم في الصلاة وزاد فيها ... علانية وجاهر بالنفاق
ومج الخمر في سنن المصلّى ... ونادى والجميع إلى افتراق
أأزيدكم على أن تحمدوني ... فما لكم وما لي من خلاق

فأما قوله: «إنّه جلده وعزله» فبعد أي شيء كان ذلك؟ ولم يعزله إلاّ بعد أن دافع ومانع

(١) كتاب الأربعين: ٥٨٠، وبحار الأنوار: ٣١/١٥١.

واحتج عنه وناضل، فلو لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قهره على رأيه لما عزله ولا مكّن من جلده.

وقد روي الواقدي أن عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بشرب الخمر أوعدهم وتهدّدهم. قال الراوي: ويقال: إنّه ضرب بعض الشهود أسواطاً فأتوا أمير المؤمنين عليه السلام فشكوا فأتى عثمان فقال: عطلت الحدود وضربت قوماً شهوداً على أخيك فقلبت الحكم وقد قال عمر: لا تحمل بني أمية وآل أبي معيط على رقاب النّاس، قال: فما ترى؟ قال: أرى أن تعزله ولا تولّيه شيئاً من أمور المسلمين، وأن تسأل عن الشهود فإن لم يكونوا أهل ظنّه ولا عداوة أقمت على صاحبك الحدّ. وتكلم في مثل ذلك طلحة والزبير وعائشة وقالوا أقوالاً شديدة وأخذته الألسن من كلّ جانب فحينئذ عزله ومكّن من إقامة الحدّ عليه.

وروي الواقدي: أن الشهود لمّا شهدوا عليه في وجهه وأراد عثمان أين يحدّه ألبسه جبّة خزّ وأدخله بيتاً فجعل إذا بعث إليه رجلاً من قريش ليضربه قاله له الوليد انشدك الله أن تقطع رحمي وتغضب أمير المؤمنين فيكفّ، فلمّا رأى أمير المؤمنين عليه السلام ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلّده به فأيّ عذر له في عزله وجلده بعد هذا الممانعة الطويلة والمدافعة التامة.

وقصّة الوليد مع الساحر الذي يلعب بين يديه ويغرّ النّاس بمكره وخديعته وأن جندب بن عبد الله الأزدي امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله وقال له: أحي نفسك إن كنت صادقاً وأن الوليد أراد أن يقتل جندباً بالسحر حتى أنكر الأزد ذلك عليه فحبسه وطال حبسه حتّى هرب من السجن معروفة مشهورة. أقول: وسيأتي نقل القصة.

قال: فإن قيل: قد ولّى رسول الله صلى الله عليه وآله الوليد بن عقبة صدقة بني المصطلق وولّى عمر الوليد أيضاً صدقة بني تغلب فكيف يدعون أنّ حاله في أنّه لا يصلح للولاية ظاهرة؟

قلنا: لا جرم أنّه غر رسول الله صلى الله عليه وآله وكذب على القوم حتّى نزلت الآية التي قدمنا ذكرها فعزله وليس خطب ولاية الصدقة خطب ولاية الكوفة. فأمّا عمر لمّا بلغه قوله:

إذا ما شددت الرأس منّي بمشور فويلك منّي تغلب ابنة وائل

عزله. وأمّا عزل أمير المؤمنين عليه السلام بعض أمرائه لمّا ظهر منه الحدث كالقعقاع ابن شور وغيره وكذلك عزل عمر قدامة بن مظعون لما شهدوا عليه بشرب الخمر وجلده له، فإنّه لا يشبه ما تقدّم لأن كلّ واحدٍ ممن ذكرناه لم يولّ الأمر إلاّ من هو حسن الظن عند توليته فيه حسن الظاهر عنده وعند النّاس غير معروف باللعب (باللّعنة ـ خ ل) ولا مشهور بالفساد، ثمّ لمّا ظهر منه ما ظهر لم يحام عنه ولا كذّب الشهود عليه وكابقرهم بل عزله مختاراً غير مضطرّ

وكلّ هذا لم يجر في أُمراء عثمان، ولأنّا قد بيّنا كيف كان عزل الوليد وإقامة الحدّ عليه.

فأمّا أبو موسى فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يولّه الحكم مختاراً لكنّه غلب على رأيه وقهر على أمره ولا رأى لمقهور.

فأمّا قوله «إن ولاية الأقارب كولاية الأباعد بل الأباعد أجدر وأولى أن يقدم الأقارب عليهم من حيث كان التمكن من عزلهم أشدّ وذكر تولية أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله وعبيد الله وقثما بني العبّاس وغيرهم» فليس بشيء لأن عثمان لم تنقم عليه تولية الأقارب من حيث كانوا أقارب بل من حيث كانوا أهل بيت الظنّة والتهمة ولهذا حذّره عمر منهم وأشعر بأنّه يحملهم على رقاب النّاس، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يولّ من أقاربه متهماً ولا ظنيناً وحين أحسّ من ابن عبّاس بعض الريبة لم يمهله ولا احتمله وكاتبه بما هو مشهور سائر ظاهر، ولو لم يجب على عثمان أن يعدل عن ولاية أقاربه إلاّ من حيث جعل عمر ذلك سبب عدوله عن النصّ عليه وشرط عليه يوم الشورى أن لا يحمل أقاربه على النّاس ولا يؤثرهم لمكان القرابة بما لا يؤثر به غيرهم لكان صادقاً قويّاً فضلاً عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خصالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة.

فأمّا سعيد بن العاص فإنّه قال في الكوفة: إنّما السواد بستان لقريش تأخذ منه ما شاءت وتترك حتّى قالوا له أتجعل ما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك ونابذوه وأفضى ذلك الأمر إلى تسييره من سير من الكوفة والقصّة مشهورة ثمّ انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيداً من دخولها وتكلموا فيه وفي عثمان كلاماً ظاهراً حتّى كادوا يخلعون عثمان فاضطرّ حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى فلم يصرف سعيداً مختاراً بل ما صرفة جملة وإنّما أهل الكوفة عنهم.

١٢ ـ قال المسعودي: وفي سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان وظهر عليه النكير لأشياء ذكروها من فعله منها ما كان بينه وبين عبد الله بن مسعود وانحراف هذيل عن عثمان من أجله.

وفي أسد الغابة: عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي كان إسلامه قديماً أوّل الإسلام سادس ستة في الإسلام وكان أوّل من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهاجر الهجرتين جميعاً إلى الحبشة وإلى المدينة وصلّي القبلتين وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمّ عبد الله بن مسعود أمّ عبد بنت عبدود بن سوداء من هذيل أيضاً[1].

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠/٣٧، والدرجات الرفيعة: ٢٥٦.

وفيه بإسناده إلى عبد الرّحمٰن بن يزيف قال: أتينا حذيفة فقلنا حدّثنا بأقرب النّاس من رسول الله ﷺ هديا ودلا فنأخذ عنه ونسمع منه قال: كان أقرب النّاس هديا ودلا وسمتا برسول الله ﷺ ابن مسعود ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمّد أن ابن أمّ عبد هو من أقربهم إلى الله زلفى.

وفيه عن عليّ عليه السلام قال: أمر النبي ﷺ ابن مسعود فصعد على شجرة يأتيه منها بشيء فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله فضحكوا من حموشة ساقيه فقال رسول الله ﷺ: ما تضحكون لرجلُ عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد.

وفيه عن حبة بن جوين عن عليّ عليه السلام قال: كنا عنده جلوساً فقالوا: ما رأينا رجلاً أحسن خلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة ولا أشدّ ورعاً من ابن مسعود. قال عليّ عليه السلام: انشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، قال: اللّهم اشهد أني أقول مثل ما قالوا وأفضل[١].

وفيه في سبب إسلامه بإسناده إلى عبد الله بن مسعود قال: كنت غلاماً يافعاً في غنم لعقبة بن أبي معيط أرعاها فأتى النبيّ ﷺ ومعه أبو بكر فقال: يا غلام هل معك من لبن؟ فقلت: نعم، ولكني مؤتمن فقال: ائتني بشاة لم ينز عليها الفحل فأتيته بعناق أو جذعة فاعتقلها رسول الله ﷺ فجعل يمسح الضرع ويدعو حتّى أنزلت فأتاه أبو بكر بصحوة فاحتلب فيها ثمّ قال لأبي بكر: اشرب فشرب أبو بكر ثمّ شرب النبيّ ﷺ بعده ثمّ قال للضرع: اقلص فقلص فعاد كما كان. ثمّ أتيت فقلت: يا رسول الله ﷺ علّمني من هذا الكلام أو من هذا القرآن فمسح رأسي وقال: إنّك غلام معلم فلقد أخذت منه سبعين سورة ما نازعني فيها بشر.

وفيه: وقال أبو طيبة مرض عبد الله فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: يكون لبناتك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كلّ ليلة سورة الواقعة إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قرأ الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً. قال: وإنما قال له عثمان ألا آمر لك بعطائك لأنه كان قد حبسه عنه سنتين[٢].

توفي ابن مسعود بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة ودفن ليلاً أوصى بذلك ولم

(١) المصنف: ٧/٥٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/١٩١، والغدير: ٩/٥.

يعلم عثمان بدفنه فعاتب الزبير على ذلك وصلى عليه عمّار وقيل صلى عليه الزبير.

وفي الشافي لعلم الهدى الشريف المرتضى: وقد روى كلّ من روى سيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طرقهم أن ابن مسعود كان يقول: ليتني وعثمان برمل عالج يحثى عليّ واحثى عليه حتى يموت الأعجز مني ومنه.

وفيه: ورووا أنه كان يطعن عليه فيقال له ألا خرجت إليه لنخرج معك؟ فيقول: والله لئن ازاول جبلاً راسياً أحبّ إليّ من أن ازاول ملكاً مؤجلاً. وكان يقول في كلّ يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلناً: إنّ أصدق القول كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمّد ﷺ وشرّ الأمور محدثاتها وكلّ محدث بدعة وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النّار، وإنما يقول ذلك معرضاً بعثمان حتّى غضب الوليد من استمرار تعرّضه ونهاه عن خطبته هذه فكتب إلى عثمان فيه فكتب عثمان يستقدمه عليه.

وفيه: وروى أنه لما خرج عبد الله بن مسعود إلى المدينة مزعجاً عن الكوفة خرج النّاس معه يشيّعونه وقالوا: يا أبا عبد الرّحمٰن ارجع فوالله لا يوصل إليك أبداً فأنا لا نأمنه عليك، فقال: أمر سيكون ولا أحب أن أكون أوّل من فتحه[1].

أقول: الظاهر أنه يريد من قوله أمر سيكون قيام النّاس على عثمان وقتلهم إيّاه لمّا رأى الأُمور المحدثة المنكرة منه وكلام النّاس وسخطهم في عثمان وأفعاله.

وفي الشّافي: وقد روى عنه من طرق لا تحصى كثرة أنه كان يقول: ما يزن عثمان عند الله جناح ذباب. وتعاطي شرح ما روى عنه في هذا الباب يطول وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه. وأنه بلغ من إصرار عبد الله على مظاهرته بالعداوة أن قال لما حضره الموت: من يتقبل منّي وصيّة أوصيه بها على ما فيها؟ فسكت القوم وعرفوا الذي يريد فأعادها فقال عمار بن ياسر: فأنا أقبلها. فقال ابن مسعود: لا يصلّي عليّ عثمان. فقال: ذلك لك. فيقال: أنه لما دفن جاء عثمان منكراً لذلك فقال له قائل: إن عماراً ولّى هذا الأمر. فقال لعمار: ما حملك على أن لم توذني؟ فقال له: إنه عهد إليّ ألا أوذنك فوقف على قبره وأثنى عليه ثمّ انصرف وهو يقول رفعتم والله بايديكم عن خير من بقي فتمثل الزبير بقول الشّاعر:

لأعرفنك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زوّدتني زادي

وفيه: لما مرض ابن مسعود مرضه الذي مات فيه فأتاه عثمان عائداً فقال: ما تشتكي؟

(١) أضواء على الصحيحين: ١٢٣ ح ٥، وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٢.

قال: ذونبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: فلا آمر لك بعطائك؟ قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطينيه وأنا مستغن عنه. قال: يكون لولدك، قال: رزقهم على الله. قال: استغفر لي يا أبا عبد الرحمٰن، فقال: أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي.

وفيه: أن كل من قرأ الأخبار علم أن عثمان أمر بإخراجه من المسجد على أعنف الوجوه وبأمره جرى ما جرى عليه ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كسره لضلعه ويعتذر إلى من عاتبه على فعله بأن يقول: أنني لم آمر بذلك ولا رضيته من فاعله وقد انكرت على من فعله وفي علمنا بأن ذلك لم يكن دليل على ما قلناه. وقد روى الواقدي بإسناده وغيره أن عثمان لما استقدمه المدينة دخلها ليلة جمعة فلمّا علم عثمان بدخوله قال: أيها النّاس أنّه قد طرقكم الليلة دويبة من تمشى على طعامه يقي ويسلح. فقال ابن مسعود: لست كذلك ولكنني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر وصاحبه يوم بيعة الرضوان وصاحبه يوم الخندق وصاحبه يوم حنين، قال: فصاحت عائشة أيا عثمان أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ؟ فقال عثمان: اسكتي(١).

ثمّ قال لعبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي ابن قصي: أخرجه إخراجاً عنيفاً فأخذه ابن زمعة فاحتمله حتّى جاء به باب المسجد فضرب به الأرض فكسر ضلعاً من أضلاعه. فقال ابن مسعود: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان.

وفي رواية أخرى أن ابن زمعة مولى لعثمان أسود كان مسدماً طوالاً.

وفي رواية أخرى أن فاعل ذلك يحموم مولى عثمان.

وفي رواية أنه لما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبد الله: أنشدك الله أن تخرجني من مسجد خليلي رسول الله ﷺ وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: لساقا ابن أمّ عبد أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد.

١٣ ـ قال المسعودي في مروج الذهب وغيره: ومن ذلك ما نال عمار بن ياسر من الفتن والضرب وانحراف بني مخزوم عن عثمان من أجله.

وفي تلخيص الشافي للشيخ الطوسي: ومن ذلك إقدامه على عمّار حتى روى أنّه صار به فتق وكان أحد من ظاهر المتظلمين على قتله وكان يقول: قتلناه كافراً.

أقول: قد ذكرنا في المجلّد الخامس عشر في شرح الخطبة ٣٦ طائفة من الأقوال

(١) الغدير: ٩/ ٤، وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٣.

والأخبار في ترجمة عمّار ومناقبه وفضائله فلا حاجة إلى الإعادة فراجع.

قال ابن جمهور الإحسائي في المجلى: ومن قوادح عثمان ضربه لعمار بن ياسر حتّى أخذه الفتق على ما رواه الثقات من أهل السيرة أن عمّار بن ياسر قام في المسجد يوماً وعثمان يخطب على المنبر فوبّخه بأحداثه وأفعاله فنزل عثمان فركضه برجله حتّى ألقاه على قفاه وداس في بطنه برجله وأمر أعوانه من بني أميّة فضربوه حتى غشي عليه وهو مع ذلك يشتم عماراً ويسبه وتركه ومضى إلى منزله فاحتمل عمّار إلى منزله وهو لما به فلما أفاق من غشوته دخل عليه النّاس فلامه بعض وقال: وما لك والتعرض لعثمان وقد علمت أفعاله وأحداثه؟ فقال: إنما حملني على ذلك كلام سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه قال: أفضل الأعمال كلمة حق تقولها بين يدي إمام جائر فأردت أن أنال هذه الدرجة وأن لي ولعثمان موقفاً عند الله يوم القيامة.

«جواب القاضي عبد الجبار وشيخه أبي علي عن ذلك»

قال علم الهدى في الشافي: قال صاحب الكتاب «يعني القاضي عبد الجبار صاحب الكتاب المعروف بالمغني من الحجاج في الإمامة»: فأما ما طعنوا به من ضربه عمّاراً حتى صار به فتق فقد قال شيخنا أبو علي إن ذلك غير ثابت ولو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً لأن للإمام تأديب من يستحق ذلك وممّا يبعّد صحة ذلك أن عماراً لا يجوز أن يكفره ولما يقع منه ما يستوجف الكفر لأن الذي يكفر به الكافر معلوم ولأنّه لو كان قد وقع ذلك لكان غيره من الصحابة أولى بذلك ولوجب أن يجتمعوا على خلعه ولوجب أن لا يكون قتله لهم مباحاً بل كان يجب أن يقيموا إماماً يقتله على ما قدمنا القول فيه وليس أحد أن يقول إنما كفره من حيث وثب على الخلافة ولم يكن لها أهلاً لأنا قد بيّنا القول في ذلك، لأنه كان مصوباً لأبي بكر وعمر على ما قدمنا من قبل، وقد بيّنا أن صحة إمامتهما يقتضي صحة إمامة عثمان.

وروى إنّ عمّاراً نازع الحسن عليه السلام في أمره فقال عمّار: قتل عثمان كافراً وقال الحسن عليه السلام: قتل مؤمناً وتعلق بعضها ببعض فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: ماذا تريد من ابن أخيك؟ فقال: إنّي قلت كذا وقال الحسن عليه السلام كذا، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أتكفر بربّ كان يؤمن به عثمان؟ فسكت عمّار[1].

وحكى عن الخياط أن عثمان لما نقم عليه ضربه لعمار احتجّ لنفسه فقال: جاءني سعد

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٨.

وعمّار فارسلا إليّ أن ائتنا فإنا نريد أن نذاكرك أشياء فعلتها فأرسلت إليهما أني مشغول فانصرفا فموعد كما يوم كذا فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف فأعدت الرّسول إليه فأبى أن ينصرف فتناوله بعض غلماني بغير أمري ووالله ما أمرت به ولا رضيت وها أنا فليقتصّ منّي قال: وهذا من أنصف قول وأعدله[١].

«اعتراض الشريف المرتضى علم الهدى عليه»

قال علم الهدى في جوابه: أنّه يقال له: قد وجدناك في قصة عثمان وعمّار بين أمرين مختلفين: بين دفع لما روى من ضربه وبين اعتراف بذلك وتأول له واعتذار منه بأن التأديب المستحق لا حرج فيه ونحن نتكلّم على الأمرين:

أمّا الدّفع لضرب عمّار فهو كالإنكار لوجود أحد يسمى عمّاراً أو لطلوع الشمس ظهوراً وانتشاراً وكلّ من قرأ الأخبار وتصفح السير يعلم من هذا الأمر ما لا تثنية عنه مكابرة ولا مدافعة وهذا الفعل يعني ضرب عمّار لم يختلف الرواة فيه وإنّما اختلفوا في سببه:

فروى عبّاس عن هشام الكلبي عن أبي مخنف في إسناده قال: كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حليّ وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلي به بعض أهله فأظهر النّاس الطعن عليه في ذلك وكلّموه فيه بكلّ كلام شديد حتّى أغضبوه فخطب فقال: لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام فقال عليّ عليه السلام إذا تمنع ذلك ويحال بينك وبينه فقال عمّار: اشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك؛ فقال عثمان أعليّ يا ابن ياسر وسمية تجترىء؟ خذوه فأخذوه فدخل عثمان فدعا به فضربه حتّى غشي عليه ثمّ أخرج فحمل إلى منزل أُمّ سلمة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله رحمة الله عليها فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب فلمّا أفاق توضّأ وصلّى وقال: الحمد لله ليس هذا أوّل يوم أُوذينا فيه في الله فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي وكان عمّار حليفاً لبني مخزوم، يا عثمان أمّا عليّ فاتّقيته وأمّا نحن فاجترأت علينا وضربت أخانا حتّى أشفيت به على التلف أما والله لئن مات لأقتلن به رجلاً من بني أمّية عظيم السيرة وإنّك لها أنا ابن القسرية، قال: فإنهّما قسريتان وكانت أُمّه وجدّته قسريتين من بجيلة فشتمه عثمان وأمر به فأُخرج فأتي به أمّ سلمة فإذا هي قد غضبت بعمّار وبلغ عائشة ما صنع بعمّار فغضبت وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وآله ونعلاً من نعاله وثوباً من ثيابه وقالت: ما أسرع ما تركتم سنة رسولكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد.

وروى آخرون أن السبب في ذلك أن عثمان مرّ بقبر جديد فسأل عنه فقيل: عبد الله بن

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/٤٨.

مسعود فغضب على عمّار لكتمانه إياه موته إذ كان المتولى للصلاة عليه والقيام بشأنه فعندها وطيء عثمان عماراً حتّى أصابه الفتق.

وروى آخرون أن المقداد وطلحة والزبير وعماراً وعدّة من أصحاب رسول الله ﷺ كتبوا كتاباً عدّدوا فيه أحداث عثمان وخوّفوه ربّه وأعلموه أنّهم مواثبوه إن لم يقلع. فأخذ عمّار الكتاب فأتاه به فقرأه منه صدراً. فقال عثمان: أعليّ تقدم من بينهم؟ فقال: لأنّي أنصحهم لك. فقال: كذبت يا ابن سميّة. فقال: أنا والله ابن سميّة وأنا ابن ياسر فأمر غلمانه فمدّوا بيديه ورجليه فضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق وكان ضعيفاً كبيراً فغشي عليه.

فضرب عمّار على ما ترى غير مختلف فيه بين الرواة وإنّما اختلفوا في سببه، والخبر الذي رواه صاحب الكتاب وحكاه عن الخيّاط ما نعرفه وكتب السير المعروفة خالية منه ومن نظيره وقد كان يجب أن يضيفه إلى الموضع الذي أخذه منه، فإنّ قوله وقول من أسند إليه ليسا بحجة. ولو كان صحيحاً لكان يجب أن يقول بدل قوله ها أنا فليقتصّ منّي وإذا كان ما أمر بذلك ولا رضيه وإنّما ضربه الغلام: هذا الغلام الجاني فليقتصّ منه فإنّه أولى وأعدل وبعد فلا تنافي بين الروايتين لو كان ما رواه معروفاً لأنّه يجوز أن يكون غلامه ضربه في حال أُخرى والروايات إذا لم تتعارض لم يجز إسقاط شيء منها[1].

فأمّا قوله: إن عماراً لا يجوز أن يكفره ولم يقع منه ما يوجب الكفر، فإن تكفير عمّار له معروف قد جاءت به الروايات.

وقد روي من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة أن عماراً كان يقول: ثلاثة يشهدون على عثمان بالكفر وأنا الرابع وأنا شرّ الأربعة ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وأنا أشهد أنّه قد حكم بغير ما أنزل الله[2].

وروي عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنّه قيل: بأي شيء أكفرتم عثمان؟ قال: بثلاث: جعل المال دولة بين الأغنياء، وجعل المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ بمنزلة من حارب الله ورسوله، وعمل بغير كتاب الله[3].

وروي عن حذيفة أنّه كان يقول: ما في عثمان بحمد الله أشك لكنّني أشكّ في قاتله

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٠.

(٢) كشف الخفاء: ١/ ١٩، ووضوء النبي: ١/ ١٠٩.

(٣) وضوء النبي: ١/ ١٠٩.

أكافر قتل كافراً أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتّى قتله وهو أفضل المؤمنين إيماناً[١].

فأمّا ما رواه من منازعة الحسن عليه السلام عماراً في ذلك وترافعهما فهو أولا غير رافع لكون عمّار مكفراً له بل هو شاهد من قوله بذلك. وإن كان الخبر صحيحاً فالوجه فيه أن عماراً علم من لحن كلام أمير المؤمنين عليه السلام وعدوله عن أن يقضي بينهما بصريح القول: أنّه متمسك بالتقيّة فأمسك عمّار لما فهم من غرضه.

فأمّا قوله: لا يجوز أن يكفره من حيث وثب على الخلافة لأنّه كان مصوباً لأبي بكر وعمر ولما تقدّم من كلامه في ذلك فلا بد إذاً حملنا تكفير عمّار للرجل على الصحة من هذا الوجه أن يكون عمّار غير مصوب للرجلين على ما ادّعى.

فأمّا قوله عن أبي علي أنّه لو ثبت أنّه ضربه للقول العظيم الذي كان يقول فيه لم يكن طعناً لأن للإمام تأديب من يستحق ذلك، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب الكتاب أو من حكى كلامه من أبي علي وغيره من أن يعتذر من ضرب عمار وقذه حتّى لحقه من الغشي وترك له الصلاة ووطيه بالأقدام امتهاناً واستخفافاً بشيء من العذر فلا عذر يسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن روى أن النبي صلى الله عليه وآله قال فيه: عمّار جلدة ما بين العين والأنف ومتى تنك الجلد تدم الأنف.

وروي أنه صلى الله عليه وآله قال: مالهم ولعمار يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النار[٢].

وروى العوام بن حوشب عن سلمة بن كهيل عن علقمة عن خالد بن الوليد: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من عاد عماراً عاداه الله ومن أبغض عماراً أبغضه الله[٣].

وأيّ كلام غليظ سمعه من عمّار يستحق به ذلك المكروه العظيم الذي يتجاوز المقدار الذي فرضه الله تعالى في الحدود وإنّما كان عمّار وغيره ينثوا عليه أحداثه ومعايبه أحياناً على ما يظهر من سيىء أفعاله وقد كان يجب عليه أحد الأمرين إما أن ينزع عما يواقف عليه من تلك الأفعال أو أن يبين عذره فيها أو براءته منها ما يظهر وينتشر ويشتهر فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجره عن ذلك بوعظ أو غيره ولا يقدم على ما تفعله الجبابرة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحكم به.

وفي **«الإمامة والسياسة»** لابن قتيبة الدينوري: ذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب

---

(١) شرح النهج: ٣/٥١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٨/٢٨١، والدرجات الرفيعة: ٢٦٠.

(٣) وضوء النبي: ٢/١٤.

النّبي ﷺ فكتبوا كتاباً وذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ﷺ وسنة صاحبيه ـ وبعد ما أتى بكثير من أحداثه قال: ثم تعاهد القوم ليدفعنّ الكتاب في يد عثمان وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة فلمّا خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان، والكتاب في يد عمّار جعلوا يتسلّلون عن عمّار حتّى بقي وحده فمضي حتّى جاء دار عثمان فاستأذن عليه فأذن له في يوم شات فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية فدفع عليه الكتاب فقرأه فقال له: أنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: نعم، قال: ومن كان معك؟ قال: كان معي نفر تفرقوا فرقا منك، قال: من هم؟ قال: لا أُخبرك بهم، قال: فلم اجترأت عليّ من بينهم؟ فقال مروان: يا أمير المؤمنين إنّ هذا العبد الأسود **(يعني عماراً)** قد جرّأ عليك النّاس وإنّك إن قتلته نكلت به من وراءه، قال عثمان: اضربوه فضربوه وضربه عثمان معهم حتّى فتقوا بطنه فغشي عليه فجرّوه حتّى طرحوه على باب الدار ـ إلى آخر ما قال[1].

١٤ ـ قال المسعودي في مروج الذهب: ومن ذلك فعل الوليد بن عقبة في مسجد الكوفة وذلك أنّه بلغه عن رجل من اليهود من ساكني قرية من قرى الكوفة مما يلي جسر بابل يقال له: زرارة يعمل أنواعاً من الشعبذة والسحر يعرف بمطروي فاحضر فأراه في المسجد ضرباً من التخاييل وهو أن أظهر له في الليل فيلاً عظيماً على فرس في صحن المسجد ثمّ صار اليهودي ناقة يمشي على جبل ثمّ أراه صورة حمار دخل من فيه ثمّ خرج من دبره ثمّ ضرب عنق رجل ففرق بين جسده ورأسه ثمّ أمرّ السيف عليه فقام الرّجل وكان جماعة من أهل الكوفة حضوراً منهم جندب بن كعب الأزدي فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان ومن عمل يبعد من الرحمٰن وعلم أن ذلك هو ضرب من التخييل والسحر فاخترط سيفه وضرب به اليهودي ضربة أدار رأسه ناحية من بدنه وقال: جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً.

وقد قيل أن ذلك كان نهاراً وأن جندبا خرج إلى السوق ودنا من بعض الصياقلة وأخذ سيفاً ودخل فضرب به عنق اليهودي وقال: إن كنت صادقاً فأحي نفسك فأنكر عليه الوليد ذلك وأراد أن يقيده به فمنعه الأزد فحبسه وأراد قتله غيلة ونظر السجّان إلى قيامه ليله إلى الصبح فقال له: انج بنفسك فقال له جندب: تقتل بي. قال: ليس ذلك بكثير في مرضاة الله والدفع عن وليّ من أولياء الله، فلما أصبح الوليد دعا به وقد استعدّ لقتله فلم يجده فسأل السجّان فأخبره بهربه فضرب عنق السجان وصلبه بالكناس.

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٥١، ومواقف الشيعة: ٢/ ٣٧٠، والغدير: ٩/ ١٨، ومواقف الشيعة: ٢/ ٣٧١.

قال ابن الأثير الجزري في «**أسد الغابة**»: جندب بن كعب بن عبد الله الأزدي أحد جناب الأزد وهو قاتل الساحر عند الأكثر وممن قاله الكلبي والبخاري روى عنه الحسن[(١)].

قال: أخبرنا إبراهيم بن محمّد بن مهران الفقيه وغيره قالوا بإسنادهم عن محمّد بن عيسى أخبرنا أحمد بن منيع أخبرنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: حدّ الساحر ضربة بالسيف. قد اختلف في رفع هذا الحديث فمنهم من رفعه بهذا الإسناد ومنهم من وقفه على جندب.

وكان سبب قتله الساحر أن الوليد بن عقبة أبي معيط لما كان أميراً على الكوفة حضر عنده ساحر فكان يلعب بين يدي الوليد يريد أنّه يقتل رجلاً ثم يحييه ويدخل في فم ناقة ثمّ يخرج من حيائها فأخذ سيفاً من صيقل واشتمل عليه وجاء إلى الساحر فضربه ضربة فقتله ثمّ قال له: أحي نفسك ثمّ قرأ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣] فرفع إلى الوليد فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: حدّ الساحر ضربة بالسيف فحبسه الوليد فلمّا رأى السجّان صلاته وصومه خلّى سبيله[(٢)].

وفي الشّافي وتلخيصه: أنّ الوليد أراد أن يقتل جندبا بالساحر حتّى أنكر الأزد ذلك فحبسه وأطال حبسه حتّى هرب من السجن.

وقال في «**أسد الغابة**»: فأخذ الوليد السجّان فقتله، وقيل: بل سجنه فأتاه كتاب عثمان باطلاقه، وقيل: بل حبس الوليد جندباً فأتى ابن أخيه إلى السجّان فقتله وأخرج جندباً فذلك قوله:

أفي مضرب السحّار يحبس جندب ... ويقتل أصحاب النبيّ الأوائل
فإن يك ظني بابن سلمى ورهطه ... هو الحق يطلق جندب ويقاتل

وانطلق إلى أرض الروم فلم يزل يقاتل بها المشركين حتى مات لعشر سنوات مضين من خلافة معاوية.

١٥ ـ ومن ذلك قصّة قتل الهرمزان وقد قدّمنا الكلام فيه في شرح الخطبة ٢٣٦ وجملته أن عثمان عطّل الحدّ الواجب في عبيد الله بن عمر فإنه قتل الهرمزان بعد إسلامه فلم يقده به وقد كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يطلبه لذلك. وتلك القصّة على الإجمال أنّ الهرمزان كان من عظماء فارس وكان قد أسر في بعض الغزوات وجيء به إلى المدينة فأخذه عليّ عليه السلام فأسلم على يديه فأعتقه عليّ عليه السلام فلما ضرب عمر في غلس الصبح واشتبه الأمر في ضاربه

---

(١) أسد الغابة: ١/ ٣٠٥.

(٢) أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ١٢٠، والمصنف: ١٠/ ١٨٤ ح ١٨٧٥٢.

سمع ابنه عبيد الله قوم يقولون: قتله العلج فظن أنهم يعنون الهرمزان فبادر عبيد الله إليه فقتله قبل أن يموت عمر فسمع عمر بما فعله ابنه فقال: قد أخطأ عبيد الله أنّ الذي ضربني أبو لؤلؤة وإن عشت لأقيدنّه به فإن علياً لا يقبل منه الدية وهو مولاه فلما مات عمر وتولى عثمان طالب عليّ عليه السلام بقود عبيد الله وقال: إنّه قتل مولاه ظلماً وأنا وليّه فقال عثمان: قتل بالأمس عمر واليوم يقتل ابنه حسب آل عمر مصابهم به وامتنع من تسليمه إلى عليّ عليه السلام ومنع علياً حقّه ولهذا قال عليّ عليه السلام: لأن أمكنني الدهر منه يوماً لأقتلنّه به فلما ولّي عليّ عليه السلام هرب عبيد الله منه إلى الشّام والتجأ إلى معاوية وخرج معه إلى حرب صفين فقتله عليّ عليه السلام في حرب صفين قال الأحسائي في المجلى: فانظر إلى عثمان كيف عطل حقّ عليّ عليه السلام وخالف الكتاب والسنة برأيه والله تعالى يقول ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الاسراء: ٣٣].

وقال أبو جعفر الطبري في التاريخ: بعدما بايع النّاس عثمان جلس في جانب المسجد ودعا عبيد الله بن عمر وكان محبوساً في دار سعد بن أبي وقاص وهو الذي نزع السيف من يده بعد قتله جفينة والهرمزان وابنة أبي لؤلؤة وكان يقول: والله لأقتلنّ رجالاً ممّن شرك في دم أبي يعرض بالمهاجرين والأنصار فقام إليه سعد فنزع السيف من يده وجذب شعره حتّى أضجعه إلى الأرض وحبسه في داره حتّى أخرجه عثمان إليه فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق، فقال عليّ أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إنّ الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان إنّما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان: أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي[1].

قال: وكان رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد البياضي إذا رأى عبيد الله بن عمر قال:

ألا يا عبيد اللّه ما لك مهرب	ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دما واللّه في غير حلّه	حراما وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيء غير أن قال قائل	أتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمة	نعم اتّهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد في جوف بيته	يقلّبها والأمر بالأمر يعتبر

فشكى عبيد الله بن عمر إلى عثمان زياد بن لبيد وشعره، فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه قال: فأنشأ زياد يقول في عثمان:

(١) الغدير: ٨/ ١٣٥، وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٠٢.

أبا عمرو عبيد الله رهن فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنه فأسباب الخطا فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغير حق فما لك بالذي تحكى يدان

فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه وشذبه.

«اعتذار القاضي عبد الجبار من تعطيل عثمان الحد الواجب»
«في عبيد الله بن عمر»

نقل علم الهدى في الشافي عن عبد الجبار بقوله: ثمّ ذكر ما نسب إليه من تعطيل الحدّ في الهرمزان وحكى عن أبي علي أنه لم يكن للهرمزان وليّ يطلب بدمه والإمام وليّ من لا وليّ له وللوليّ أن يعفو كما له أن يقتل. وقد روى أنه سأل المسلمين أن يعفوا عنه فأجابوا إلى ذلك.

قال القاضي: وإنما أراد عثمان بالعفو عنه ما يعود إلى عزّ الدّين لأنه خاف أن يبلغ العدوّ قتله فيقال: قتلوا إمامهم وقتلوا ولده ولا يعرفون الحال في ذلك فيكون شماتة.

وحكى عن الخياط أن عامة المهاجرين أجمعوا على الإيقاع بالهرمزان وقالوا: هو دم سفك في غير ولايتك فليس له وليّ يطلب به وأمره إلى الإمام فأقبل منه الدّية فذلك صلاح المسلمين.

قال: ولم يثبت أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يطلبه ليقتله بالهرمزان لأنّه لا يجوز قتل من عفى عنه وليّ المقتول وإنّما كان يطلبه ليضع من قدره ويصغر من شأنه.

قال: ويجوز أن يكون ما روى عن عليّ عليه السلام أنه قال: لو كان بدل عثمان لقتلته، يعني أنّه كان يرى ذلك أقوى في الإجتهاد وأقرب إلى التشدّد في دين الله.

«اعتراض علم الهدى على القاضي»

اعترض عليه الشريف المرتضى علم الهدى في الشافي بقوله: فأمّا الكلام في قتل الهرمزان وفي العدول عن قتل قاتله واعتذاره من ذلك بما اعتذر به من أنه لم يكن له وليّ لأنّ الإمام وليّ من لا وليّ له وله أن يعفو كما له أن يستوفي القود، فليس بشيء لأنّ الهرمزان رجل من أهل فارس ولم يكن له وليّ حاضر يطالب بدمه وقد كان يجب أن يبذل الإنصاف لأوليائه ويؤمنوا متى حضروا حتّى أن كان له وليّ يطالب وحضر وطالب.

ثمّ لو لم يكن له وليّ لم يكن عثمان وليّ دمه لأنه قتل في أيّام عمر فصار عمر وليّ دمه

وقد أوصى عمر على ما جاءت به الروايات الظاهرة بقتل ابنه عبيد الله إن لم يقم البينة العادلة على الهرمزان وجفينة أنهما أمرا أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة بقتله وكانت وصيته بذلك إلى أهل الشورى فقال: أيكم وليّ هذا الأمر فليفعل كذا وكذا ممّا ذكرناه، فلما مات عمر طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء الوصيّة في عبيد الله بن عمر فدافع عنها وعلّلهم فلو كان هو وليّ الدّم على ما ذكره لم يكن له أن يعفو وأن يبطل حدّاً من حدود الله تعالى وأيّ شماتة للعدوّ في إقامة حدود الله تعالى؟ وإنّما الشماتة كلّها من أعداء الإسلام في تعطيل الحدود؛ وأيُّ حرج في الجمع بين قتل الأب والابن حتّى يقال كره أن ينتشر الخبر بأنّ الإمام وابنه قتلا وإنما قتل أحدهما ظلماً بغير أمر الله والآخر بأمر الله تعالى.

وقد روى زياد بن عبد الله البكائي عن محمّد بن إسحاق عن أبان بن صالح أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أتى عثمان بعدما استخلف فكلّمه في عبيد الله ولم يكلّمه أحد غيره فقال: أقتل هذا الفاسق الخبيث الذي قتل امرءاً مسلماً؛ فقال عثمان: قتلوا أباه بالأمس وأقتله اليوم وإنّما هو رجل من أهل الأرض فلما أبى عليه مرّ عبيد الله على عليّ عليه السلام فقال له: يا فاسق ايه أما والله لئن ظفرت بك يوماً من الدّهر لأضربنّ عنقك فلذلك خرج مع معاوية على أمير المؤمنين عليه السلام[1].

وروى النقاد عن الحسن بن عيسى بن زيد عن أبيه أنّ المسلمين لما قال عثمان إنّي قد عفوت عن عبيد الله بن عمر قالوا: ليس لك أن تعفو عنه. قال: بلى إنّه ليس لجفينة والهرمزان قرابة من أهل الإسلام وأنا أولى بهما لأني وليّ أمر المسلمين وقد عفوت فقال عليّ عليه السلام إنه ليس كما تقول إنما أنت في أمرهما بمنزلة أقصى المسلمين وإنما قتلهما في إمرة غيرك وقد حكم الوالي الذي قبلك الذي قتلا في إمارته بقتله ولو كان قتلهما في إمارتك لم يكن لك العفو عنه فاتق الله فإن الله سائلك عن هذا. فلمّا رأى عثمان أنّ المسلمين قد أبوا إلاّ قتل عبيد الله أمره فارتحل إلى الكوفة وابتنى وأقطعه بها داراً وأرضاً وهي التي يقال لها كويفة ابن عمر فعظم ذلك عند المسلمين واكبروه وكثر كلامهم فيه.

وروى عن عبيد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: ما أمسى عثمان يوم ولي حتّى نقموا عليه في أمر عبيد الله بن عمر حيث لم يقتله بالهرمزان.

فأمّا قوله: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتله بل ليضع من قدره فهو بخلاف ما صرّح به عليه السلام من أنّه لم يكن إلاّ لضرب عنقه.

وبعد فإنّ وليّ الدّم إذا عفى عنه على ما ادّعوا لم يكن لأحد أن يستخف به ويضع من

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٤٤، ومجمع النورين: ٢٣٥.

قدره كما ليس له أن يقتله.

وقوله: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوز أن يتوعّده مع عفو الإمام عنه فإنما يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثراً وقد بينا أنه غير مؤثر.

وقوله: يجوز أن يكون عليه السلام ممّن يرى قتله أقوى في الإجتهاد وأقرب إلى التشدّد في دين الله فلا شك أنه كذلك وهذا بناء منه على أن كلّ مجتهد مصيب وقد بيّنا أن الأمر بخلاف ذلك، وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي قتله فهو الذي لا يسوغ خلافه.

١٦ ـ في المجلي: ومن قوادحه عمله بالتكبّر واظهاره لاعماله الجبابرة وتزيينه بزيّ الجاهليّة والملوك خلافاً لما كان عليه النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه من التواضع والزهد وطريقة الصلحاء فاستعمل الحجاب والغلمان ولبس الحرير والتزين بالمذهب وضرب البوقات على بابه وكلّ هذه أعمال مخالفة للشريعة الأحمديّة وما كان عليه الصحابة والخلفاء المتقدمين عليه ولهذا نقموا عليه وظهر بين المهاجرين والأنصار فسقه وطلبوا منه الإعتزال عن أمرتهم فأبى فقتلوه لعلمهم باستحقاقه لذلك وأن الخلافة لا يجوز لمن هو معلن بالفسق.

١٧ ـ وفيه ومن قوادحه عيبهم إياه بأنّه لم يحضر غزاة بدر التي كانت أوّل حرب امتحن به المؤمنون فجلس في بيته وتعلّل بمرض زوجته وكذلك بيعة الرضوان لم يحضرها وتخلف عنها متعلّلاً بموت زوجته مع أنّ الله تعالى يقول في أهلها ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾ [الفتح: ١٨] فكان محروماً من ذلك الرضا ويوم أحد انهزم وفرّ من الزحف أقبح فرار حتّى أنّه بقي في هزيمته مدّة ثلاثة أيّام لا يلتفت إلى وراه حتّى وصل إلى قرية قريب مكة يقال لها: السوارقية ولما رجع إلى المدينة بعد أن علم بسلامة النبي صلى الله عليه وآله قال له النّبي صلى الله عليه وآله: لقد ذهبت فيها عريضة يا عثمان ولم يرد جواباً خجلاً مما فعله.

١٨ ـ وفيه: ومن قوادحه أن الصّحابة بأجمعهم أجمعوا على حربه لأجل أحداثه التي نقموها عليه وكانوا يومئذ بين خاذل وقاتل حتّى قتلوه في بيته بين ولده ونسائه في المدينة ودار الهجرة ومنعوه من الماء ثلاثة أيام وهو بين ظهراني المسلمين مع أنّه خليفتهم وإمامهم لم يحم عنه منهم محام ولا له منهم قائم وذلك دليل على إجماعهم على قتله واستحلالهم لدمه كما أجمعوا على خلافته حتّى قال بعض العلماء: إن المجمعين على قتل عثمان كانوا أكثر من المجمعين على بيعته وما ذاك إلاّ لعظم أحداثه حتّى بقي ثلاثة أيّام مرمياً على الكناسة بعد قتله لم يجسر أحد أن يدفنه حتّى قام ثلاثة نفر من بني أمية فأخذوه بالليل بعد انتصافه سرقة ودفنوه لكيلا يعلم بهم أحد وذلك دليل على عظم أحداثه وكبر معاصيه في الإسلام وأهله فلولا أنّه كان مستحقاً لما فعلوه به، إلى أخر ما قال. وسنذكر تفصيل الكلام في قتله وما ذكروا في المقام.

١٩ ـ وفيه: ومن قوادحه قصته المشهورة مع أهل مصر وذلك أنّه لما كثرت أحداثه وظهرت بين المسلمين كثرت الشكايات منه ومن عماله فورد إلى المدينة جماعة من أهل مصر يشكون من عامله عليهم عبد الله بن أبي سرح ـ إلى أن قال: وعزل عثمان عن أهل مصر عامله وقال: يختارون لأنفسهم من شاؤوا فقالوا: نريد محمّد بن أبي بكر فاستعمله على مصر عامله وقال: تختاروا لأنفسهم من شاؤوا فقالوا: نريد محمّد بن أبي بكر فاستعمله على مصر وكتب له بها عهداً بحضرة الكل. ثمّ إنّ أهل مصر مع عاملهم محمّد بن أبي بكر لمّا خرجوا من المدينة كتب عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح كتاباً إنّك متى قدم عليك محمّد بن أبي بكر وأصحابه المصريين فاقتلهم وأصلبهم وابق على عملك ـ إلى آخر ما قال وسيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

٢٠ ـ ومنها ـ كما في **«الإمامة والسياسة»** لابن قتيبة الدينوري ـ: تركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم[1].

٢١ ـ وفيه أيضاً: إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه السلام ثمّ لا يغزون ولا يذبون.

٢٢ ـ وفيه أيضاً: وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط وأنّه أوّل من ضرب بالسياط ظهور النّاس وإنّما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرّة والخيزران. وفي الشافي وتلخيصه: أنّه جلّد بالسوط ومن كان قبله يضرب بالدرّة.

٢٣ ـ في المجلى: ومن قوادحه إحراقه المصاحف التي هي كلام الله العزيز الواجب على أهل الإسلام تعظيمه والقيام بحرمته وأنّهم أجمعوا على أنّ من استخف بحرمته كان مرتداً خارجاً من الإسلام ولا شيء في الاستخفاف أبلغ من الحرق بالنّار، فقد نقل أهل السيرة أنّه لمّا أراد اجتماع النّاس على مصحفه طلب المصاحف التي كانت في أيدي النّاس حتّى جمعها كلّها ثمّ أنّه أحرقها. وفي رواية أخرى أنّه وضعها في قدر وطبخها بالنّار حتّى تمزّقت وتفرّقت ولم يبق منها غير مصحف عبد الله بن مسعود فإنّه طلبه منه فمنعه ولم يسلمه إليه فضربه على ذلك حتّى كسر بعض أضلاعه ومنعه عطاءه وبقي عبد الله مريضاً حتّى مات ودخل عليه عثمان في مرضه وطلب منه أن يحلّه فلم يرض أن يحلّه، وكيف صحّ له التهجم على الكتاب العزيز بهذه الأفعال الشنيعة وكيف صحّ له أن يضرب رجلاً من أكابر الصحابة وفضلائهم وعلمائهم على منعه ملكه لا يسلمه إليه حتّى مات بسبب ذلك الضرب، ومن المعلوم للكل أن كلّ ذلك الفعل مخالف للشريعة محرّم بالكتاب والسنة.

(١) الإمامة: والسياسة: ١/ ٥٠، ومواقف الشيعة: ٢/ ٣٧٠.

وفي الشافي: ثمّ من عظيم ما أقدم عليه جمعه النّاس على قراءة زيد وإحراقه المصاحف وإبطاله ما شك أنّه منزل من القرآن وأنّه مأخوذ عن الرسول ﷺ ولو كان ذلك مما يسوغ لسبق إليه الرسول ﷺ ولفعله أبو بكر وعمر[١].

«اعتذار القاضي عبد الجبار في المغني من ذلك»

قال الشريف علم الهدى في الشافي نقلاً عن القاضي أنّه حكى عن أبي عليّ في قصّة ابن مسعود وضربه أنّه قال: لم يثبت عندنا ضربه إياه ولا صحّ عندنا طعن عبد الله عليه ولا إكفاره له والذي يصحّ في ذلك أنه كره منع جمع النّاس على قراءة زيد وإحراقه المصاحف وثقل ذلك عليه كما يثقل على الواحد منا تقديم غيره عليه وذكر أن الوجه في جميع النّاس على قراءة واحدة تحصين القرآن وضبطه وقطع المنازعة فيه والاختلاف. قال القاضي: وليس لأحد أن يقول لو كان واجباً لفعله رسول الله ﷺ وذلك أن الإمام إذا فعله صار كأنه فعله ولأن الأحوال في ذلك يختلف. وقد روى عن عمرانه كان قد عزم على ذلك فمات دونه، وليس لأحد أن يقول إنّ إحراقه المصاحف إنّما كان استخفافاً بالدين وذلك لأنه إذا جاز من الرّسول صلوات الله عليه أن يخرب المسجد الذي بنى ضراراً وكفراً فغير ممتنع إحراق المصاحف[٢].

«اعتراض الشريف المرتضى في الشافي على القاضي»

قال بعدما أثبت ضرب عثمان ابن مسعود وطعنه عثمان ـ فأمّا قوله: إن ابن مسعود سخط جمعه الناس على قراءة زيد وإحراقه المصاحف واعتذاره من جمع النّاس على قراءة واحدة بأن فيه تحصين القرآن وقطع المنازعة والاختلاف فيه، ليس بصحيح ولا شك في أن ابن مسعود كره إحراق المصاحف كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وتكلموا فيه وذكر الرواة كلام كلّ واحد منهم في ذلك مفصّلا وما كره عبد الله من تحريم قراءته وقصر النّاس على قراءة غيره إلاّ مكروها وهو الذي يقول النبيّ ﷺ: من سرّه أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد[٣].

وروى عن ابن عبّاس أنّه قال: قراءة ابن أُم عبد هي القراءة الأخيرة إن رسول الله ﷺ كان يعرض عليه القرآن في كلّ سنة في شهر رمضان فلمّا كان العام الذي توفي فيه ﷺ عرض

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٦.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٦.
(٣) الإيضاح: ٢٢٥، والمصنف: ٧/ ١٨٤.

عليه دفعتين وشهد عبد الله ما نسخ منه وما صحّ فهي القراءة الأخيرة[١].

وروى شريك عن الأعمش قال: قال ابن مسعود: لقد أخذت من فيّ رسول الله ﷺ سبعين سورة وأن زيد بن ثابت لغلام يهودي في الكتاب له ذوابة.

أقول: قال في «**أسد الغابة**»: قال أبو وائل: لما شق عثمان المصاحف بلغ ذلك عبد الله فقال: لقد علم أصحاب محمّد أني أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم ولو إنّي أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغنيه الإبل لأتيته، فقال أبو وائل: فقمت إلى الخلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحداً من أصحاب محمّد ينكر ذلك عليه. انتهى[٢].

قال الشريف علم الهدى: فأمّا اختلاف النّاس في القراءة والأحرف فليس بموجب لما صنعه عثمان لأنّهم يروون أن النبيّ ﷺ نزل القرآن على سبعة أحرف كلّها شاف كاف فهذا الإختلاف عندهم في القرآن مباح مسند عن الرّسول ﷺ فكيف يحظر عليهم عثمان من التوسع في الحروف ما هو مباح فلو كان في القراءة الواحدة تحصين القرآن كما ادعى لما أباح النبيّ ﷺ في الأصل إلاّ القراءة الواحدة لأنّه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته من حيث كان مؤيداً بالوحي موفقاً في كلّ ما يأتي ويذر وليس له أن يقول: حدث من الاختلاف في أيّامه ما لم يكن في أيّام الرّسول ﷺ ولا من جملة ما أباحه وذلك أن الأمر لو كان على هذا لوجب أن ينهى عن القراءة الحادثة والأمر المبتدع ولا يحمله ما حدث من القراءة على تحريم المتقدم المباح بلا شبهة[٣].

وقول صاحب الكتاب: إن الإمام إذا فعل ذلك فكأنّ الرسول ﷺ فعله. فتعلّل بالباطل منه وكيف يكون ما ادّعى وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً في أيّام الرسول ﷺ ما نهى عنه فلو كان سبباً لانتشار الزيادة في القرآن وفي قطعه تحصين له لكان ﷺ بالنهي عن هذا الاختلاف أولى من غيره، اللهم إلاّ أن يقال: أنّه حدث اختلاف لم يكن فقد قلنا أن الأمر لو كان على هذا ـ إلخ.

وأما قوله: إن عمر كان قد عزم على ذلك فمات دونه، فما سمعناه إلا منه فلو فعل ذلك أيّ فاعل كان لكان منكراً.

فأمّا اعتذاره من أن إحراق المصاحف لا يكون استخفافاً بالدين بحمله إياه على

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٣٣/ ١٣٥

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٧.

تخريب مسجد الضرار والكفر، فبين الأمرين بون بعيد لأن البنيان إنّما يكون مسجداً وبيتاً لله تعالى بنيّة الباني وقصده ولولا ذلك لم يكن بعض البنيان بأن يكون مسجداً أولى من بعض ولما كان قصده في الموضع الذي ذكره غير القربة والعبادة بل خلافها وضدّها من الفساد والمكيدة لم يكن في الحقيقة مسجداً وإن سمى بذلك مجازاً وعلى ظاهر الأمر، فهدمه لا حرج فيه وليس كذلك ما بين الدّفتين لأنه كلام الله تعالى الموقر المعظم الذي يجب صيانته عن البذلة والاستخفاف فأيّ نسبة بين الأمرين.

ثمّ قال علم الهدى: قال صاحب الكتاب «يعني القاضي عبد الجبار صاحب المغني» فأمّا جمعه النّاس على قراءة واحدة فقد بينّا أن ذلك من عظيم ما حصّن به القرآن لأنه مع هذا الصنيع قد وقع فيه من الاختلاف ما وقع فكيف لو لم يفعل ذلك ولو لم يكن فيه إلا إطباق الجميع على ما أتاه من أيّام الصحابة إلى وقتنا هذا لكان كافياً.

واعترض عليه علم الهدى حيث قال: أمّا ما اعتذر به من جمع النّاس على قراءة واحدة فقد مضى الكلام عليه مستقصى وبيّنا أن ذلك ليس تحصينا للقرآن ولو كان تحصينا لما كان رسول الله ﷺ يبيح القراءات المختلفة. وقوله: لو لم يكن فيه إلاّ إطباق الجميع على ما أتاه من أيام الصحابة إلى وقتنا هذا، ليس بشيء لأنا نجد الاختلاف في القراءات الرجوع فيها إلى الحروف مستمراً في جميع الأوقات التي ذكرها إلى وقتنا هذا وليس نجد المسلمين يوجبون على أحد التمسك بحرف واحد؛ فكيف يدّعى إجماع الجميع على ما أتاه عثمان؟

فإن قال: لم أعن بجمعه النّاس على قراءة واحدة إلاّ أنّه جمعهم على مصحف زيد لأن ما عداه من المصاحف كان يتضمن من الزيادة والنقصان مما عداه ما هو منكر.

قيل له: هذا بخلاف ما تضمنه ظاهر كلامك أولا ولا تخلو تلك المصاحف التي تعدّ مصاحف زيد من أن تتضمن من الخلاف في الألفاظ والكلم ما أقرّ رسول الله ﷺ عليه وأباح قراءته فإن كان كذلك فالكلام في الزيادة والنقصان يجري مجرى الكلام في الحروف المختلفة وأن الخلاف إذا كان مباحاً ومروياً عن الرسول ﷺ ومنقولاً فليس لأحد أن يحظره. وإن كانت هذه الزيادة والنقصان بخلاف ما أنزل الله تعالى وما لم يبح الرسول ﷺ تلاوته فهو أسوء ثناء على القوم الذين يقرون بهذه المصاحف كابن مسعود وغيره وقد علمنا أنه لم يكن منهم إلاّ من كان علماً في القراءة والثقة والأمانة والنزاهة عن أن يقرأ بخلاف ما أنزله الله وقد كان يجب أن يتقدم هذا الإنكار منه من غيره لأنّ إنكار الزيادة في القرآن والنقصان لا يجوز تأخيره عن ولي الأمر قبله.

أقول: زيد بن ثابت هو أحد كتّاب الوحي كان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي وغيره. قال في «أسد الغابة» وكانت ترد على رسول الله ﷺ كتب بالسريانيّة فأمر زيداً فتعلّمها. قال:

وكان زيد عثمانياً ولم يشهد مع عليّ شيئاً من حروبه وكان يظهر فضل عليّ وتعظيمه[١]. وهو الذي كتب القرآن في عهد أبي بكر وعثمان كما في «**الفهرست**» لابن النديم أيضاً.

وهو الذي ذكر المسعودي في «**مروج الذهب**» عن سعيد بن المسيّب: أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار اقتناها من عثمان لأنه كان عثمانياً. وفي الشافي لعلم الهدى أنه: روى الواقدي: أن زيد بن ثابت اجتمع عليه عصابة من الأنصار وهو يدعوهم إلى نصر عثمان فوقف عليه جبلة بن عمرو بن حيّة المازني فقال له جبلة: ما يمنعك يا زيد أن تذب عنه أعطاك عشرة آلاف دينار وأعطاك حدائق من نخل ما لم ترث من أبيك مثل حديقة منها.

انظر أيها القارىء الكريم في أمر رسول الله ﷺ زيداً بتعلّم السريانيّة نظر دقّة أنّه ﷺ كان في نشر العلوم وتوسعة المعارف على ذلك الحدّ من الاهتمام ولم يكن دأبه العصبيّة والجمود على لسان واحد ولغة واحدة ولا ريب أن لسان كلّ قوم سلّم للوصول إلى معارفهم ونيل علومهم ودرك فنونه. ولم يمنع الناس نبيّ عن الإرتقاء ولم يحرم عليهم ما فيه سعادتهم بل الأنبياء بعثوا لترويج العلوم وتهذيب النفوس وتشحيذ العقول قال عزّ من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] إلاّ أنّ الأوباش وعبيد الدنيا المأسورين في قيود الوساوس الشيطانية والمحرومين من اللّذات الروحانية والمحجوبين عن جناب الرّب جلّ جلاله والمغفلين عن معنى التمدّن والتكامل لمّا تعوّدوا بما لا يزدادهم من الحق إلا بعداً وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون اشمأزّوا عمّا جاء من الشارع الحكيم فيما لم يوافق غرضاً من أغراضهم الدنية.

«التبيان في عدم تحريف القرآن»

لما انجرّ البحث إلى إحراق عثمان مصاحف فلا بأس أن نشير إلى عدم تحريف القرآن الكريم في المقام فإنّه كثيراً ما يتوهم بل كثيراً ما يسأل عن تحريفه وزيادته ونقصانه، ويختلج في بعض الأذهان أن ما بين الدفتين الذي بأيدي المسلمين الآن ليس هو جميع ما أُنزل على الرّسول الخاتم ﷺ.

واعلم أنّ الحق المحقق المبرهن بالبراهين القطعية من العقلية والنقلية أن ما في أيدي النّاس من القرآن الكريم هو جميع ما أنزل الله تعالى على رسوله خاتم النّبيين محمّد بن عبد الله ﷺ وما تطرّق إليه زيادة ونقصان أصلاً؛ ومبلغ سوره مائة وأربع عشرة سورة من لدن

(١) أسد الغابة: ٢/ ٢٢٢، والصحيح من السيرة: ٦/ ٣٢٦.

رسول الله ﷺ إلى الآن بلا ريب وأنّ ترتيب الآيات في السور توقيفي إنّما كان بأمر النبيّ ﷺ كما أخبر به الأمين جبرائيل عن أمر ربّه، وأنّ النّاس كانوا في عهد رسول الله ﷺ قبل رحلته يعرفون السور بأساميها، وأنّ رسم الخط في القرآن المجيد هو الرسم المكتوب من كتّاب الوحي في زمن الرسول ﷺ، وأن آية بسم الله الرّحمٰن الرحيم لم تكتب في أوّل البراءة لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور ١١٣ مرة وأنها جزء من كل سورة كما أنها جزء آية النمل بل أنها آيتان فيه. وأن ما جاء من الأخبار والآثار في جمع جم غفير من الصحابة القرآن في عهد الرسول ﷺ أو بعد رحلته كما ورد أن جمع القرآن وقع على عهد أبي بكر فليس المراد أنهم رتّبوا الآيات في السور وسيأتي الكلام في تحقيق ترتيب السور أيضاً.

وكلّ ما ذكرنا هو مذهب المحققين من علمائنا الإماميّة رضوان الله عليهم وغيرهم من علماء العامّة هداهم الله إلى الصواب ومن ذهب إلى خلاف ذلك فقد خبط خبط عشواء وسلك طريقة عمياء.

ثمّ إنّا لو نأتي بالبراهين في كلّ واحد مما أشرنا إليها ونبين بطلان قول المخالف على التفصيل لطال بها الكتاب وانتشر الخطاب وكثر بنا الخطب لكنا نورد جملة منها فإن فيها كفاية إن شاء الله تعالى لمن كان له قلب.

واعلم أن ما جاء به النبيّ ﷺ من الأخبار المتواترة في فضائل السور بأساميها بل في فضائل بعض آيات القرآن وفي وضع الآيات في كلّ موضع خاص بأمر أمين الوحي، وأن بعض السور افتتح ببعض من الحروف المقطعة دون بعض مثلا أن البقرة افتتحت بالم، ويونس بالر، والرّعد بالمر، والأعراف بالمص، ومريم بكهيعص، والشعراء بطسم، والنمل بطس، والمؤمن بحم، والشورى بحمعسق، وهكذا في السور الأخرى، وأن بعضها لم يفتتح بها وأن سورة البراءة ليست مبدوّة ببسم الله الرحمٰن الرحيم، وقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: ١] وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣] وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ٨٦] وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣] أدلة قطعية على أن تركيب السورة من الآيات كان بأمر النبيّ ﷺ وأنّها كانت مرتّبة موسومة بأساميها في عهده ﷺ قبل ارتحاله يعرفها الناس بها.

نقل أمين الإسلام في تفسيره **«مجمع البيان»** والزمخشري في **«الكشاف»** والسيوطي في **«الاتقان»** وغيرهم من أجلاء العلماء عن ابن عبّاس والسدي: أنّ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١] آخر آية نزلت من الفرقان على رسول الله ﷺ وأن جبرئيل عليه السلام قال له ﷺ ضعها في رأس الثمانين والمائتين من البقرة، وهذا القول كأنما إجماعي وإنّما الإختلاف في مدّة حياة رسول الله ﷺ بعد نزولها، فعن ابن عبّاس أنه ﷺ عاش بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقال ابن جريج: تسع ليال وقال سعيد بن جبير ومقاتل: سبع ليال وفي «**الكشاف**»: قيل ثلاث ساعات.

أقول: وضع جميع الآيات في مواضعها كان بأمر الله تعالى وإن لم يذكر في الجوامع لكلّ واحدة منها رواية على حدة ولا ضير أن تكون الآية المتقدمة على آية في السورة متأخرة عنها نزولاً.

قال الزمخشري: في أوّل التوبة من الكشاف: فإن قلت: هلاّ صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟ قال: قلت: سأل عن ذلك ابن عثمان عنهما فقال: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا انزلت عليه السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا وتوفي رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أين نضعها ـ إلخ[1].

أقول: فالرواية دالة صريحة على أن تركيب السور بآيات كان بأمره ﷺ وأن آية البسملة لم ينزل مع البراءة وإلاّ لجعلها في أوّلها وأن البسملة نزلت مائة وثلاث عشرة مرة مع كلّ سورة مفتتحة بها وهذه الرواية مروية في «**المجمع**» و«**الإتقان**» أيضاً.

روى الطبرسي في «**المجمع**» وغيره في التفاسير والجوامع والسير عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ تعلموا سورة البقرة وسورة آل عمران فإنهما الزهراوان وأنّهما تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف[2].

أقول: فالحديث يدلّ صريحاً أن هاتين السورتين كانتا في عهد رسول الله ﷺ مرتّبتين متداولتين يعرفهما الناس.

وروى السيوطي في «**الإتقان**» والمفسرون منهم الطبرسي في أوّل سورة هود: روى الثعلبي بإسناده عن إسحاق عن أبي جحيفة قال: قيل: يا رسول الله قد أسرع إليك الشيب قال ﷺ: شيبتي هود وأخواتها[3].

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك عن أبي بكر قال: قلت يا رسول الله: عجل إليك

---

(١) غريب الحديث: ٣/ ١٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ٧/ ٢٩٢ ح ٥، وتفسير مجمع البيان: ٢/ ٢٣٢.

(٣) فتح القدير: ٢/ ٤٧٩، والخصال: ١٩٩ ح ١٠.

الشيب قال ﷺ: شيبتني هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتيك حديث الغاشية.

قال الطبرسي في الفن الرابع من مقدمة «**مجمع البيان**»: وقد شاع في الخبر عن النبيّ ﷺ أنه قال: أعطيت مكان التوراة السبع الطول ومكان الإنجيل المثاني ومكان الزبور المثين وفضلت بالمفصّل. ورواها السيوطي في «**الإتقان**» وغيره أيضاً في جوامعهم.

بيان

كلمة: (**الطول**) مكتوبة في النسخ المطبوعة وغيرها غالباً بالألف أعني الطوال ولكنه تصحيف والصواب الطول كصرد جمع الطولى مؤنث الأطول قال ابن الأثير في «**النهاية**»: وقد تكرر في الحديث: أوتيت السبع الطول والطول بالضم جمع الطولى مثل الكبرى في الكبرى وهذا البناء يلزمه الألف واللام أو الإضافة قال: ومنه حديث أم سلمة كان يقرأ في المغرب بطولي الطوليين ثنيّة الطولى ومذكّرها الأطول أي أنه كان يقرأ فيها بأطول السورتين الطويلتين يعني الأنعام والأعراف ـ انتهى وكذا في «**القاموس**» و«**مجمع البحرين**».

أقول: إنّ هذه الأحاديث وأمثالها المروية من الفريقين عن رسول الله ﷺ ممّا لا تعدّ كثرة تدلّ على أن السور كانت مرتبة قبل رحلة الرسول ﷺ وكان النّاس يعرفونها بأساميها فلا حاجة إلى نقل جميع الأخبار الواردة في فضائل السور.

نعم إن ترتيب سور القرآن ليس على ترتيب النزول بل إن ترتيب آيات السور أيضاً ليس على ترتيب النزول سواء كانت السورة نزلت جملة واحدة كسورة الأنعام كما في «**مجمع البيان**» وكثير من الفصل أو لم تكن.

ثمّ إن مما ألهمت على أن ترتيب الآيات في السور كان من أمر رسول الله ﷺ أن بعض السور كالأنعام مثلا نزلت جملة واحدة، وأن أكثر آيات السّور نزلت نجوماً ولا كلام في أن بعضها مقدم على البعض نزولاً وتركيب السور منها ليس بترتيب نزولها ظاهراً ومع ذلك ركبت على نحو كانت بين الآيات المتّسقة في السور كمال البلاغة والفصاحة على حدّ تحدّى الله تعالى عباده بالإتيان بعشر سور أو بسورة من القرآن وقال: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وأنى للبشر أن يؤلف جملاً شتى نزلت في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة تبلغ إلى ذلك الحدّ من الإعجاز؟ فهل يسع أحداً أن يقول إن ترتيبها كذلك في السور لم يكن بأمر الله تعالى وأمر رسوله؟ فانتبهوا يا أولي الألباب ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

على أنّ الآيات لو لم تكن في عهد رسول الله ﷺ مرتبة وأن الصحابة رتّبوها بعده ﷺ كما توهّم شرذمة قليل من غير تدبّر وتعمّق لم يكن لقوله تعالى: فأتوا بسورة ـ أو بعشر سور، وأمثالهما معنى. قال السيوطي في الفصل الأول من النوع ١٨ من «**الإتقان**»: الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك فنقله غير واحد منهم الزركشي في «**البرهان**» وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين.

ثمّ كثيراً ما يقرع سمعك في التفاسير والشروح أن هذه الآية مرتبطة بتلك الآية وتلك بهاته، مثلا قال الطبرسي في «**المجمع**» قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣] متصلة بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] فمرادهم أن تلك الآيات متصل بعضها ببعض معنى وذلك لأن القرآن يفسّر بعضه بعضاً كالمبين للمجمل والمقيد للمطلق والخاص للعام قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في النهج الخطبة ١٣١: كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله ـ إلخ. والمراد من قوله عليه السلام: يشهد بعضه على بعض يصدق بعضاً ولا يضادّه كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦] وليس مرادهم أن تلك الآيات متصلة بالأخرى لفظاً لما دريت من أن الآيات رتّبت على عهد رسول الله ﷺ بأمره وعليه جمهور العلماء المحققين.

أقول: ومن جهة ارتباط المعنى عدّت سورتا والضحى والإنشراح واحدة وجوزت قراءتهما في السورتين بل لم تجز قراءة واحدة منهما في الفريضة مع أنه ورد النهي عن القران بين السورتين في ركعة فريضة ويجب أن يقرأ بين السورتين بسم الله الرحمٰن الرحيم لأنها جزء السورة وقول الشيخ الطوسي قدس الله سرّه بترك البسملة بين السورتين عليل لا يوافقه دليل، وكذا الفيل وقريش، قال السيد بحر العلوم قدّس سره في الدرة.

والضحى والإنشراح واحدة	بالإتفاق والمعاني شاهدة
كذلك الفيل مع الإيلاف	وفصل بسم الله لا ينافي

وإنما قيدنا الركعة بالفريضة لأنه يجوز الجمع بين سور كثيرة في النوافل فإذا جمعها وجب أن يقرأ البسملة مع كلّ سورة وفي النوع ١٩ من «**الإتقان**» قال: وفي كامل الهذلي عن بعضهم أنه قال: الضحى والم نشرح سورة واحدة نقله الإمام الرازي في تفسير تفسيره عن طاووس وغيره من المفسرين.

وأعلم: أن بسم الله الرحمٰن الرحيم جزء آية من سورة النمل بل إنها آيتان فيها وأنها آية من كلّ سورة ولذا من تركها في الصلاة سواء كانت الصلاة فرضاً أو ندباً بطلت صلاته ويجب الجهر بها فيما يجهر فيه بالقراءة ويستحب الجهر بها فيما يخافت بالقراءة وهو مذهب أصحاب الإماميّة وبين فقهاء الأمّة فيها خلاف وإن وافقنا فيه أكثرهم بل هو مذهب جلّ علماء السلف لولا الكلّ.

قال في «**تفسير المنار**»: اجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن وأنها جزء آية من سورة النمل. واختلفوا في مكانها من سائر السور فذهب إلى أنها آية من كلّ سورة علماء السلف من أهل مكّة فقهائهم وقرّائهم ومنهم ابن كثير وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي من القراء وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة والشافعي في الجديد وأتباعه والثوري وأحمد في أحد قوليه والإمامية، ومن المروي عنهم ذلك من علماء الصحابة عليّ عليه السلام وابن عبّاس وابن عمر وأبو هريرة ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك. وأقوى حججهم في ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أوّل كلّ سورة سوى سورة براءة مع الأمر بتجريد القرآن عن كلّ ما ليس منه. ولذلك لم يكتبوا آمين في آخر الفاتحة، وأحاديث منها ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: انزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ بسم اللّه الرحمٰن الرحيم[١].

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يعرف فصل السورة وفي رواية انقضاء السورة ـ حتّى ينزل عليه بسم اللّه الرحمٰن الرحيم، وأخرجه الحاكم في «**المستدرك**»، وقال: صحيح على شرط الشيخين[٢]. وروى الدارقطني من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا قرأتم الحمد لله فاقرؤوا بسم الله الرحمٰنّ الرّحيم فإنّها أمّ القرآن والسّبع المثاني، وبسم الله الرحمٰن الرّحيم إحدى آياتها[٣].

وذهب مالك وغيره من علماء المدينة، والأوزاعي وغيره من علماء الشام وأبو عمرو ويعقوب من قراء البصرة إلى أنها آي مفردة أُنزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها، وعليه الحنفية، وقال حمزة من قراء الكوفة وروى عن أحمد أنّها آية من الفاتحة دون غيرها وثمة أقوال أُخر شاذّة (**قاله في سورة الفاتحة**).

أقول: لم يكن لهؤلاء الشرذمة القائلين بأن البسملة آية واحدة نزلت مرّة واحدة فقط

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ١٢، وسنن أبي داود ١/ ١٨٢ ح ٧٨٤.

(٢) فتح القدير: ١/ ١٧.

(٣) الاقناع: ١/ ١٢٢، وأحكام القرآن: ١/ ١١.

حجّة قاطعة يعتدّ بها ولو أتوا بحجّة فهي داحضة بلا مريّة وارتياب، وكيف؟ وأن كثيراً من الآيات كرّرت في القرآن نحو آية فبأي آلاءِ ربّكما تكذّبان إحدى وثلاثين مرّة في الرّحمٰن، وآية ويل يومئذ للمكذبين عشر مرات في المرسلات، وآية إنّا كذلك نجزي المحسنين أربع مرّات في الصّافات، وآية الم ستّ مرّات: في مفتتح البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، وآية الر خمس مرّات: في مفتتح يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، وآية حم ستّ مرّات: مفتتح المؤمن، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف ومع سورة الشورى «حم عسق» تصير سبع مرّات، وآية طسم مرّتين: مفتتح الشعراء والقصص. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ مرّتين [النمل: ٨١] [الروم: ٥٣] إلاّ أن كلمة «هادي» في الثانية مكتوبة بلاياء أعني «بهاد العمى» اتباعاً للمصاحف التي كتبت على عهد النبيّ ﷺ كما سيأتي تحقيقه. وكذا طائفة من آيات أخر كررت في القرآن فأنى يجوز لهؤلاء أن يقولوا إنّها نزلت مرّة واحدة وما دليلهم على ذلك فلم لم يكن البسملة نازلة كأخواتها غير مرّة؟ على أن مذهبهم يضادّ صريح كثير من الأخبار المصرّحة في أن البسملة نزلت بعددها في القرآن، مع أن اهتمام رسول الله ﷺ والمسلمين ودأبهم وسيرتهم تجريد القرآن عن كلّ ما ليس منه؛ وفي النوع ١٨ من **«الإتقان»** عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: لا تكتبوا عنّي شيئاً غير القرآن[١].

وقال في أوّل التوبة من **«تفسير المنار»**: ولم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة في أولها لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور قال: هذا هو المعتمد المختار في تعليله وقيل رعاية لمن كان يقول إنّها مع الأنفال سورة واحدة والمشهور أنه لنزولها بالسيف ونبذ العهود وقيل غير ذلك ممّا في جعله سبباً وعلة نظر، وقد يقال: إنه حكمة لا علّة وممّا قاله بعض العلماء في هذه الحكمة أنها تدل على أنّ البسملة آية من كلّ سورة أي لأن الاستثناء بالفعل كالاستثناء بالقول معيار العموم انتهى.

وقال في **«الإتقان» (أوّل النوع ١٩ منه)**: أخرج القشيري في الصحيح أنّ التسمية لم تكن في البراءة لأن جبرائيل ﷺ لم ينزل بها فيها[٢].

وفي الشاطبية:

وبسمل بين السورتين [بـ]سنّة ... [ر] جال [نـ]ـموها [د] رية وتحمّلا

قال ابن القاصح في الشرح: أخبر أن رجالاً بسملوا بين السورتين آخذين في ذلك

(١) مكاتيب الرسول: ١/ ٥١٢، وفتح الباري: ١/ ١٨٥.

(٢) تحفة الأحوذي: ٨/ ٣٨١.

بسنّة، نموها أي رفعوها ونقلوها وهم قالون والكسائي وعاصم وابن كثير وأشار إليهم بالباء والراء والنون والدال من قوله بسنة رجال نموها دربة. وأراد بالسنة التي نموها كتابة الصّحابة لها في المصحف وقول عائشة ﷺ لا يعلم انقضاء السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرّحمٰن الرحيم ففيه دليل على تكرير نزولها مع كلّ سورة.

أقول: وروى عن أئمتنا عليهم السلام نحو الرواية المروية عنها كما في تفسير العياشي عن صفوان الجمّال قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ما أنزل الله من السماء كتاباً إلا وفاتحته بسم الله الرّحمن الرحيم وإنّما كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم الله الرّحمٰن الرحيم إبتداء للأخرى[1].

وكذا في «**الكافي**» عن يحيى بن عمير الهذلي قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام جعلت فداك تقول في رجل ابتدأ ببسم الله الرحمٰن الرحيم في صلاة واحدة في أم الكتاب فلمّا صار إلى غير أم الكتاب من السورة تركها فقال العياشي: ليس بذلك بأس فكتب عليه السلام بخطّه: يعيدها مرّتين على رغم أنفه يعني العياشي[2].

وصحيحة محمّد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم في الفاتحة قال: نعم قلت: بسم الله الرّحمٰن الرحيم من السبع قال: نعم هي أفضلهنّ وغيرها من الرّوايات والأخيرة تختصّ بأم الكتاب[3].

ومهما تصلها أو بدأت براءة لتنزيلها بالسيف لست مبسملا

قال الشارح: تصلها الضمير فيه لبراءة أضمر قبل الذكر على شريطة التفسير يعني أنّ سورة براءة لا بسملة في أولها وصلها القاري بالأنفال أو ابتدأ بها؛ ثمّ ذكر الحكمة في ترك البسملة في أوّلها فقال لتنزيلها بالسيف يعني أن براءة نزلت على سخط ووعيد وتهديد وفيها السيف. قال ابن عباس سألت علياً عليه السلام لم لم تكتب في براءة بسم الله الرحمٰن الرحيم؟ فقال: لأن بسم الله أمان وبراءة ليس فيها أمان نزلت بالسيف.

أقول: لا كلام في أنّ المختار المعتمد في تعليل ترك البسملة أول البراءة هو عدم نزولها معها كما مضى غير مرّة واختاره العالم [محمد] عبده في تفسيره ولو تؤمّل في الأقوال الأخر حيث تصدّوا لتركها في براءة لعلم أن دليلهم عليل ومن قال: القول «بأن ترك البسملة في براءة لنزولها بالسيف ونبذ العهود والبسملة آية رحمة» حكمة لا علة، فنعم القول هو لأن

---

(١) الحدائق الناضرة: ٨/ ١٠٦، وغنائم الامام: ٢/ ٥٠٠.
(٢) جواهر الكلام: ٩/ ٣٣٤، والكافي: ٣/ ٣١٣ ح ٢.
(٣) وسائل الشيعة: ٦/ ٥٧ ح ٧٣٣٧، وتهذيب الأحكام: ٢/ ٢٨٩.

البسملة مذكورة في أوّل كثير من السور بدئت بالعذاب نحو: هل أتيك حديث الغاشية وسأل سائل بعذاب واقع ونحوهما وعلى هذا القول يحمل قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كما أتى به في **«المجمع» (أول سورة براءة)** وشرح الشاطبية أنه لم ينزل بسم الله الرحمٰن الرحيم على رأس سورة براءة لأن بسم الله للأمان والرحمة ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف. وبالجملة العمدة في ذلك هي السماع والتعبد، والأخبار الواردة في ذلك نحو قوله عليه السلام لا تنافيها فإنّه عليه السلام يبين عدم نزولها في براءة بتلك الحكمة فهي ما نزلت معها كما صرح القشيري وغيره أن جبرئيل عليه السلام لم ينزل بها فيها[١].

فإذا علمت أنّ البسملة جزء من السور آية على حيالها فاعلم أنّه يترتب عليه كثير من المسائل الفقهيّة: مثلاً من ابتدأ بقراءة الفاتحة ولو نوى البسملة جزءاً من الإخلاص مثلاً لم تصح صلاته وكذا لو نوى في الإخلاص بسملة الفاتحة أو السور الأخرى، ومن كان جنباً وقلنا يحرم عليه قراءة سورة العزائم لا قراءة آيات السجدة فقط فلو قرأ البسملة ناوياً على أنها جزء من أحديها فعل حراماً. ومن يصلي الظهرين يجب إخفاتها عليه كما أن من يصلّي العشائين والصبح يجب جهره عليه؛ نظائرها ومن جمع الفيل والقريش والضحى والإنشراح يجب أن يبسمل بين السورتين.

«البيان في ترتيب سور القرآن»

لا شك أن تركيب السور من الآيات توقيفي أعني أن وضع كلّ آية في موضع معين من السور التي لم تنزل جملة واحدة كان بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر به جبرئيل عن أمر ربّه وهو اجماع المسلمين قاطبة كما حققناه وإنّما قلنا في السور التي لم تنزل جملة واحدة لأنّ السّور التي نزلت جملة واحدة أعني دفعة واحدة فالأمر فيها أوضح لأنها نزلت مترتبة الآيات أولاً كسورة الفاتحة والأنعام وكثير من المفصّل.

وإنما الكلام في أن ترتيب سور القرآن في الدفتين على تلك الهيئة المشهودة لنا الآن أولها الفاتحة وآخرها الناس هل وقع في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وبأمره أيضاً أم لا؟ وبالجملة أن ترتيب السور أيضاً كترتيب الآيات توقيفي أم لا؟ والحقّ هو الأول كالأوّل وذلك لأنّ القرآن كان على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله مجموعاً مدوّنا جمعه غير واحد من الصحابة وقرأوه على النبيّ صلى الله عليه وآله وكان ترتيب السور كما هو في المصحف الآن كترتيب الآيات بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وهو مذهب المحققين من علماء المسلمين قديماً وحديثاً ومن عدل عنه تمسّك ببعض الأخبار الشاذ الواحد أو الموضوع أو لم يصل إلى فهم مراد الخبر ونحن في غنى عن نقل أقوالهم وردّها

(١) مجمع البيان: ٥/ ٦.

إبطالها لأنها لا يزيد إلاّ تطويل كلام لا طائل فيه فإن الأمر بيّن.

قال ابن النديم في «**الفهرست**» (**ص ٤١ طبع مصر، الفن الثالث من المقالة الأولى**): الجمّاع للقرآن على عهد النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، سعد بن عبيد بن النعمان بن عمرو بن زيد ﷺ، أبو الدرداء عويمر بن زيد ﷺ، معاذ بن جبل بن أوس ﷺ، أبو زيد ثابت بن زيد بن النعمان، أُبي بن كعب بن قيس بن مالك بن امرىء القيس، عبيد بن معاوية، زيد بن ثابت بن الضحاك.

وأتى السيوطي في النوع العشرين وغيره من «**الإتقان**» بعدة من جمع القرآن على عهد النبيّ ﷺ بطرق مختلفة من كبار المؤلفين قال: روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب.

وقال: أخرج النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر قال: جمعت القرآن فقرأت به كلّ ليلة فبلغ النبيّ ﷺ فقال اقرأه في شهر ـ الحديث[١].

قال: وأخرجه ابن أبي داود بسند حسن عن محمّد بن كعب القرظي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيّوب الأنصاري. وغيرها من الأخبار الواردة في أن القرآن جمع على عهد النبيّ ﷺ وكم من روايات دالة على أنّ عدة من الصحابة قرأ القرآن عليه مراراً منهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وغيرهم.

هؤلاء ممّن جمعوا القرآن على عهد النبيّ ﷺ وقرأوه عليه وختموه عليه عدّة ختمات فكيف لم يكن القرآن على عهده مجموعاً مرتّباً واحتمال أنّهم قرأوه وختموه عليه ﷺ مبثوثاً مبتوراً متبور جدّاً ومن تأمل أدنى تأمل في نظم السور وشدة اهتمام رسول الله ﷺ في حراسة القرآن وتوقّيه عن اجتهاد أحد وإعمال ذوق وسليقة فيه وعنايته بحفظه وقوله ﷺ إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي إلخ المروي من المسلمين بطرق كثيرة وفي الرواية الواردة من فرق المسلمين في معارضة جبرئيل القرآن عليه ﷺ في كلّ سنة مرة وفي السنة التي توفي ﷺ فيها مرتين وغيرهما من الأخبار في هذا المعنى علم أنه كان مجموعاً مرتّباً آياته وسوره على ما هو في المصحف الآن بلا تغيير وتبديل وزيادة ونقصان.

---

(١) كنز العمال: ٢/٣٢٢ ح ٤١٣٥، وتغير الميزان: ١٢/١٢٠.

بيان

في مادة ـ ع ر ض ـ من النهاية الأثيرية: أن جبرئيل عليه السلام كان يعرضه صلى الله عليه وآله وسلم القرآن في كلّ سنة مرّة وأنّه عارضه العام مرّتين؛ أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن من المعارضة بمعنى المقابلة ومنه عارضت الكتاب بالكتاب أي قابلته به[1].

وفي الفصل الثّامن النوع الثّامن عشر من «**الإتقان**»: قال أبو بكر بن الأنباري: أنزل الله القرآن كلّه إلى سماء الدّنيا ثمّ فرّقه في بضع وعشرين فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر يوقف جبرئيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على موضع الآية والسورة فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كلّه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فمن قدّم سورة أو أخّرها فقد أفسد نظم القرآن.

وقال الكرماني في «**البرهان**»: ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللّوح المحفوظ على هذا الترتيب وعليه كان صلى الله عليه وآله وسلم يعرض على جبرئيل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه وعرضه عليه في السنة التي توفّي فيها مرتين وكان آخر الآيات نزولاً: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ فأمره جبرائيل أن يضعها بين آيتي الربا والدين.

وقال الطيّبي: انزل القرآن أوّلاً جملة واحدةٍ من اللّوح المحفوظ إلى السماء الدّنيا ثمّ نزل مفرقاً على حسب المصالح ثمّ اثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللّوح المحفوظ.

وقال البيهقي في المدخل: كان القرآن على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مرتّباً سوره وآياته على هذا الترتيب ـ إلخ.

وقال أبو جعفر النحّاس: المختار أنّ تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحديث واثلة اعطيت مكان التّوراة السبع الطول، قال: فهذا الحديث يدلّ على أنّ تأليف القرآن مأخوذ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه من ذلك الوقت ـ إلخ.

وقال ابن الحصار: ترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنّما كان بالوحي.

ثمّ السيوطي بعد نقل أقوال أخر من الأعاظم في أنّ ترتيب السور كترتيب الآيات توقيفي قال: قلت: وممّا يدلّ على أنّ ترتيب السور توقيفي كون الحواميم رتّبت ولاء وكذا الطواسين ولم ترتب المسبحات ولاء بل فصّل بين سورها وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطس مع أنّها أقصر منهما ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء وأخرت طس عن القصص وكذا نقل عدّة أقوال في النوع ٦٢ منه في مناسبة الآيات والسور

(١) مجمع البحرين: ٣/ ١٥٥.

وترتيب كلّ واحد منهما على هذا النهج بأمره تعالى[١].

أقول: الأمر أبلج من الصبح وأبين من الشمس في رائعة النهار في أنّ تركيب سور هذا السّفر القيم الإلهي وترتيبها على هذا الأسلوب البديع لم يكن إلاّ بأمره تعالى ومن قال في القرآن غير ما حققنا افترى على الله واختلق على كتابه ورسوله.

وذهب شرذمة إلى أن ترتيب السور لم يكن على عهد رسول الله ﷺ وإنّما رتبت على عهد أبي بكر.

أقول: لو سلمنا بعد الإغماض عن ما تمسّكوا بها استدلّوا عليها واغتروا بظاهرها، أن سور القرآن رتّبت بعد رسول الله ﷺ فإن أوّل من جمع القرآن بعده ﷺ هو أمير المؤمنين وهو عليه السلام كان عالماً فيما نزلت الآيات وأين نزلت وعلى من نزلت وكبار الصحابة تعلموا القرآن منه عليه السلام وأخذوه عنه عليه السلام ولا ريب أنّه عليه السلام كان أعرف بالقرآن من غيره وأجمعت الأمّة على أنّه كان حافظاً القرآن على عهد رسول الله ﷺ وقرأه عليه مراراً فلا ريب أن جمعه وترتيبه حجة على أنّه عليه السلام معصوم كما بينّا في شرح الخطبة ٢٣٧ وكلّ ما جاء به المعصوم مصون من الخلل وحجة على بني آدم وهذا الترتيب المشهود الآن في المصاحف وقراءته هو ترتيبه وقراءته عليه السلام.

قال الفاضل الشارح المعتزلي في مقدمة شرحه على النهج في فضائله عليه السلام **(ص ٦ طبع إيران ١٣٠٤ هـ)**: أما قراءة القرآن والإشتغال به فهو المنظور إليه في هذا الباب اتفق الكل على أنه عليه السلام كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن غيره يحفظه ثمّ هو أوّل من جمعه، نقلوا كلّهم أنّه تأخر عن بيعة أبي بكر فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنّه تأخر مخالفته للبيعة بل يقولون تشاغل بجمع القرآن فهذا يدلّ على أنّه أوّل من جمع القرآن لأنّه لو كان مجموعاً في حياة رسول الله ﷺ لما احتاج إلى أن تشاغل بجمعه بعد وفاته ﷺ وإذا رجعت إلى كتب القرآن وجدت أئمة القراء كلّهم يرجعون إليه كأبي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود وغيرهما لأنّهم يرجعون إلى أبي عبد الرّحمٰن بن السلمي القاري وأبو عبد الرّحمٰن كان تلميذه وعنه أخذ القرآن فقد صار هذا الفن من الفنون التي تنتهي إليه أيضاً مثل كثير مما سبق. انتهى قوله[٢].

أقول: قد وردت أخبار كما أتى بها السيوطي في **«الإتقان»** وغيره في جوامعهم: أن أمير المؤمنين عليه السلام وغيره جمعوا القرآن فذهب قوم إلى أن السور رتبت في الدفتين باجتهاد

(١) الغدير: ١/٢٢٦.
(٢) شرح النهج: ١/٢٧، وبحار الأنوار: ٤١/١٤٩.

الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله جموداً على ظاهرها وقد غفلوا أن ظاهرها لا تنافي أن يكون ترتيب السور ووضع كلّ واحدة منها في موضع خاص كما في المصحف الآن بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله كما هو الحقّ فإياك أن تعني من قول الفاضل المذكور وغيره: أن القرآن جمع بعد النبي أن ترتيب السور كان بعده صلى الله عليه وآله وسنزيدك بياناً إن شاء الله تعالى.

قال ابن النديم في **«الفهرست»** (**٤١ طبع مصر من الفن الثالث من المقالة الأولى**): قال ابن المنادى حدّثني الحسن العبّاس قال: أخبرت عن عبد الرحمٰن بن أبي حماد عن الحكم بن ظهير السدوسي عن عبد خير عن عليّ عليه السلام: أنّه رأى من النّاس طيرة عند وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله فأقسم أنه لا يضع عن ظهره ردائه حتّى يجمع القرآن فجلس في بيته ثلاثة أيام حتّى جمع القرآن فهو أوّل مصحف جمع فيه القرآن من قلبه. ثمّ قال: وكان المصحف عند أهل جعفر ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط عليّ بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن على مرّ الزمان.

وقد روي السيوطي في النوع الثامن عشر من **«الإتقان»** بسند حسن عن عبد خير قال: قال عليّ عليه السلام: لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله آليت أن لا آخذ عليّ ردائي إلاّ لصلاة جمعة حتّى أجمع القرآن فجمعته[1].

وروي أيضاً بطريق آخر عن محمّد بن سيرين عن عكرمة قال: لما كان بعد بيعة أبي بكر قعد عليّ بن أبي طالب في بيته فقيل لأبي بكر قد كره بيعتك فأرسل إليه ـ إلى أن قال: قال أبو بكر: ما أقعدك عنّي؟ قال: رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلاّ لصلاة حتّى أجمعه، قال له أبو بكر: فإنّك نعم ما رأيت، قال محمد: فقلت لعكرمة: ألفوه كما أنزل الأوّل فالأول؟ قال: لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا.

قال: ابن الحجر في **«الصواعق المحرقة»** (**ص ٧٦ طبع مصر**) بإسناده عن سعيد بن مسيب قال: لم يكن أحد من الصحابة يقول سلوني إلاّ عليّ عليه السلام وقال واحد من جمع القرآن وعرضه على رسول الله صلى الله عليه وآله. وقال أيضاً أخرج ابن سعد عن عليّ عليه السلام قال: والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت إن ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً. وقال: أخرج ابن سعد قال عليّ عليه السلام: سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلاّ وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل. قال: وأخرج الطبراني في الأوسط عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوص[2].

---

(١) فتح الباري: ٩/٩، وتحفة الأحوذي: ٤٠٧/٨.

(٢) فدك والتاريخ: ٩٧.

وفي «**الإتقان**» (**طبع مصر ١٣١٨ ص ٧٤ ج ١**) قال ابن حجر: وقد ورد عن علي أنّه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي ﷺ أخرجه ابن أبي داود.

أقول: ابن حجر هذا هو الحافظ أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني صاحب كتاب «**الإصابة في معرفة الصحابة**» و«**تقريب التهذيب**» وغيرهما توفي سنة ٨٥٢ هـ وصاحب «**الصواعق المحرقة**» سميّه أحمد بن محمد بن عليّ الهيتمي مات سنة ٩٧٣ هـ وجلال الدين السيوطي مات سنة ٩١٠ هـ. ثمّ يستفاد ممّا روى ابن حجر: أن القرآن الذي جمع عليّ عليه السلام غير القرآن المرتبة سوره على ما هو المصحف الآن فهو عليه السلام أراد أن يبين في هذا الجمع ترتيب نزول السور والآيات كما أن عالماً يفسر القرآن ويبين فيه وجوه القراءات وآخر يبين في تفسيره لغات القرآن وآخر غريبه وآخر يجمع الأخبار الواردة المناسبة لكلّ آية في تفسيره وغيرها من التفاسير المختلفة أغراضاً فإن الكلّ ميسّر لما خلق له ويؤيّد ما ذهبنا إلى قوله عليه السلام نقله ثقة الإسلام الكليني في باب اختلاف الحديث من أصول «**الكافي**» بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي - في حديث طويل إلى أن قال عليه السلام: فما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلاّ أقرأنيها وأملأها عليّ فكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصّها وعامّها ودعى الله أن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملأه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلاّ علّمنيه وحفظته فلم أنس حرفاً واحداً ثمّ وضع يده على صدري ودعى الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً فقلت يا نبي الله: بأبي أنت وأُمي منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفُتني شيء لم أكتبه أفتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال: لا لست أتخوّف عليك النسيان والجهل[1].

وقوله عليه السلام: كما في «**البحار**» (**ج ١٩ ص ١٢٦**): ولقد جئتهم بكتاب كملا مشتملاً على التأويل والتنزيل والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ إلخ - فعلى هذا لا يسع أحداً أن يقول بتاً أنه عليه السلام جمع السور ورتّبها ولم تكن السور مرتبة على عهد النبيّ ﷺ، والأخبار الأُخر أيضاً الدّالة على أن أبا بكر وغيره جمعوه من هذا القبيل لا يدلّ على أن ترتيب سور القرآن لم يكن بأمر النبيّ ﷺ فمن تمسك بها لذلك الغرض فقد أخطأ.

قال الطبرسي في «**المجمع**» قوله تعالى: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]: قرأ الكسائي وحده عرف بالتخفيف والباقون عرّف بالتشديد واختار التخفيف أبو

(١) الكافي: ١/ ٦٤ ح ١، وبحار الأنوار: ٣٦/ ٢٥٧.

بكر بن عياش وهو من الحروف العشر التي قال: إنّي أدخلتها في قراءة عاصم من قراءة عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى استخلصت قراءته يعني قراءة عليّ عليه السلام وهي قراءة الحسن وأبي عبد الرحمٰن السلمي وكان أبو عبد الرحمٰن إذا قرأ إنسان بالتشديد حصبه ـ انتهى[1].

أقول: أبو بكر بن عيّاش وحفص بن سليمان البزاز روايان لعاصم بن أبي النجود بهدلة وعاصم من القراء السبعة الذين تواترت قراءاتهم ولكن إعراب القرآن المتداول الآن إنّما هو بقراءة حفص عن عاصم ويستفاد مما نقل الطبرسي عن ابن عياش أن قراءة عاصم هي قراءة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب روحي له الفداء إلاّ في عشر كلمات أدخلها أبو بكر في قراءة عاصم حتّى استخلصت قراءة عليّ عليه السلام فالقراءة المتداولة هي قراءته عليه السلام وكذا قال الطبرسي في الفن الثاني من مقدمة تفسيره في ذكر أسامي القراء: فأمّا عاصم فإنّه قرأ على أبي عبد الرحمٰن السلمي وهو قرأ على عليّ بن أبي طالب عليه السلام[2].

فإنّما اختير في المصحف الكريم قراءة عاصم لسهولتها وجودتها ولأنّها أضبط من القراءات الأُخرى والسرّ في ذلك إن قراءته قراءة أمير المؤمنين عليه السلام وإن كان قراءة كلّ واحدة من القراءات السبع متواترة وجائزة.

قال العلامة الحليّ قدّس سره في المنتهى ما هذا نصّه: أضبط هذه القراءات السبع عند أرباب البصيرة هو قراءة عاصم المذكور برواية أبي بكر بن عياش وقال رحمه الله في «**التذكرة**»: إنّ هذا المصحف الموجود الآن هو مصحف عليّ عليه السلام.

قال المحقق الطوسي قدّس سرّه في «**التجريد**»: وعليّ أفضل الصحابة لكثرة جهاده و..... وكان أحفظهم لكتاب الله تعالى العزيز. وقال الفاضل القوشجي في شرحه: فإن أكثر أئمة القراءة كأبي عمرو وعاصم وغيرهما يسندون قراءتهم إليه فإنّهم تلامذة أبي عبد الرحمٰن السلمي وهو تلميذ عليّ رضي الله عنه.

وبالجملة أنا نقول أولاً: إن ترتيب السور كالآيات توقيفي وعليه جلّ المحققين من علماء الفريقين والشواهد والبراهين عليه كثيرة وأن بعد النبيّ صلى الله عليه وآله لم يجمع القرآن مرتباً سوره على اجتهاد الصحابة لما دريت أن الأخبار التي تمسكوا بها غير دالة على ذلك وبعد الإغماض نقول: إن الفريقين اتّفقا في أن أمير المؤمنين عليه السلام كان حافظاً للقرآن على عهده صلى الله عليه وآله وقرأ عليه غير مرة وكان أعرف به منه وقال عليه السلام (**الخطبة ٢٠٨ من «النهج» وكذا في «الوافي» ص ٦٢ ج ١ نقلاً من «الكافي»**) وقد سأله سائل عما في أيدي النّاس: إنّ في أيدي النّاس حقّاً

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٥٣.

(٢) تفسير مجمع البيان: ١/ ٣٧،

وباطلاً ـ إلى أن قال: وليس كلّ أصحاب رسول الله ﷺ من يسأله ويستفهمه حتّى أن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي أو الطاري فيسأله عليه السلام حتّى يسمعوا وكان لا يمرّ بي من ذلك شيء إلاّ سألت عنه وحفظته، وقال هؤلاء العظام من العلماء: إن القراءة المتداولة الآن قراءته عليه السلام وأنّه أوّل من جمع القرآن بعد النبيّ ﷺ وهو عليه السلام كان معتمد الصحابة في العلوم وبه يراجعون في القرآن والأحكام سيما عند أصحابنا الإمامية القائلين بعصمته عليه السلام وباتفاق الأمّة قال رسول الله ﷺ فيه عليه السلام: «أقضاكم عليّ» «وعليّ مع القرآن والقرآن معه» «والحقّ معه حيث دار»[1] و. . . . . فترتيب سور القرآن وقع على النهج الذي أراده الله تعالى ورسوله.

ثمّ نقول: هب أن ترتيب السور في الدفتين كان بعد النبيّ ﷺ وإنّما كان على عهد أبي بكر وبأمره كما هو ظاهر طائفة من الأقوال ولا كلام في أن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قرره ورضي به وإلا لبدّله في خلافته لو قيل أنّه عليه السلام لم يتمكن في عهد أبي بكر بذلك وهو عليه السلام معصوم وتقريره وإمضاؤه حجة، على أن تركيب السور من الآيات إجماعي لا خلاف فيه كما دريت فلو لم يكن ترتيب السور بالفرض بأمر المعصوم فما نزل على النبيّ ﷺ هو ما بين الدفتين الآن وعلى كلّ حال ما زيد فيه وما نقص منه شيء فبذلك ظهر أن قول الفقيه البحراني في الحدائق وأضرابه: أن جمع القرآن في المصحف الآن ليس من جمع المعصوم فلا حجة فيه، بعيد عن الصواب غاية البعد.

«البرهان على أن عثمان ما نقص من القرآن شيئاً وما زاد فيه» «شيئاً بل إنما جمع الناس على قراءة واحدة»

اعلم أن عناية الصحابة وغيرهم من المسلمين كانت شديدة في حفظ القرآن وحراسته الغاية وتوفرت الدواعي على نقله وحمايته النهاية وتوجه آلاف من النفوس إليه، ودريت أن عدّة من أصحاب الرسول ﷺ كانوا حفّاظ القرآن على ظهر القلب كملاً وأمّا من حفظ بعضه فلا يعدّ ولا يحصى فمن تأمل أدنى تأمل في سيرة الصحابة مع القرآن وشدّة عنايتهم في ضبطه وأخذه علم أن احتمال تطرق الزيادة والنقصان فيه واهٍ جداً ولم يدّع أحد أن عثمان زاد في القرآن شيئاً أو نقص منه شيئاً لعدم تجويز العقل ذلك مع تلك العناية من المسلمين في حفظه وكان النّاس في أقطار الأرض عارفين بالقرآن وعدد سوره وآياته فأنّى كان لعثمان مجال ذلك بل أنّه جمع النّاس على قراءة واحدة ولفظ بسائر القراءات ظنّا منه أن القرآن يصون بذلك من الزيادة والنقصان وأن كثرة القراءات توجب إدخال ما ليس من القرآن في القرآن، ودونك

(١) راجع الغدير: ١/١١، والمسائل الصاغانية للمفيد: ١٠٩، والجامع الصغير للسيوطي: ٢/١٧٧.

الأقوال والآراء من جم غفير من المشايخ في ذلك.

قال ابن التين وغيره (**النوع الثامن عشر من «الإتقان» طبع مصر ١٣١٨هـ ص ٥٨ إلى ٦٤**): لمّا كثر الإختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض فخشي عثمان من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبا لسوره واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيره رفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر فرأي أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة.

وفيه أيضاً: قال القاضي أبو بكر في الإنتصار إنّما قصد عثمان جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبيّ ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على ما يأتي بعد.

قال: وقال الحارث المحاسبي: المشهور عند النّاس أن جامع القرآن عثمان وليس كذلك إنّما حمل عثمان النّاس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن.

وفيه أيضاً نقلاً عن المحاسبي المذكور: وقد قال عليّ عليه السلام: «لو وليت لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان».

قال: وأخرج ابن أبي داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال: قال عليّ عليه السلام: لا تقولوا في عثمان إلاّ خيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلاّ عن ملاء منّا قال: ما تقولون في هذه القراءة فقد بلغني أن بعضهم يقول إن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفراً قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع النّاس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف قلنا: فنعم ما رأيت[1].

قال: قال القاضي أبو بكر في الإنتصار: الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه

(١) تحفة الأحوذي: ٨/ ٤١١، وتاريخ دمشق: ٣٩/ ٢٤٨.

الله ورتّبه عليه رسوله ﷺ من آي السور لم يقدم من ذلك مؤخر ولا أخر منه مقدم وأن الأمة ضبطت عن النبيّ ﷺ ترتيب آي كلّ سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة وأنه يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد رتّب سوره وأن يكون قد وكّل ذلك إلى الأُمة بعده ولم يتولّ ذلك بنفسه قال: وهذا الثاني أقرب.

أقول: بل الأوّل متعيّن ولا نشك في أنّه ﷺ تولى ترتيب السور أيضاً بنفسه كما مرّ.

وفيه أيضاً، قال البغوي في شرح السنة: الصحابة جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يلقّن أصحابه ويعلّمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كلّ آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه فإنّ القرآن مكتوب في اللّوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله الله جملة إلى السماء الدّنيا ثمّ كان ينزله مفرقاً عند الحاجة وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة.

قال: وأخرج ابن أبي داود من طريق محمّد بن سيرين عن كثير بن أفلح قال: لمّا أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له أثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها وكان عثمان يتعاهدهم فكانوا إذا تدارؤوا في شيء أخروه - إلخ[١].

قال: وأخرج عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبيّ ﷺ.

وقال في «**مناهل العرفان**»: أخرج البخاري عن ابن زبير قال: قلت لعثمان ابن عفان ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ نسختها الآية الأُخرى فلم تكتبها أو تدعها والمعنى لماذا تكتبها أو قال لماذا تتركها مكتوبة مع أنها منسوخة؟ قال: يا ابن أخي لا اغيّر شيئاً من مكانه[٢].

وغيرها من الأقوال وإنّما نقلناها تأييداً فإنّ الأمر أوضح من ذلك ولا حاجة فيه إلى نقلها وإنما طعنوا عثمان في عمله لوجهين: الأول أن احراقه المصاحف كان استخفافاً بالدين

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١٢/١٢٣.

(٢) كنز العمال: ٢/٣٥٧ ح ٤٢٣٣، وتفسير ابن كثير: ١/٣٠٤.

والثاني أن ذلك ليس تحصيناً للقرآن ولو كان تحصيناً لما كان رسول الله ﷺ يبيح القراءات المختلفة فقد مضى الكلام عليه مستقصى وأراد عثمان أن يجمع النّاس على قراءة واحدة ومع ذلك تكثرت حتّى بلغ متواترها إلى السبع.

«الكلام في رسم خط القرآن»

ومن شدة عناية المسلمين واهتمامهم بضبط القرآن المبين حفظهم كتابة القرآن ورسمه على الهجاء الذي كتبه كتّاب الوحي على الكتبة الأولى على عهد النبيّ ﷺ وإن كان بعض المواضع من الرسم مخالفاً لأدب الرّسم فلا يجوز لأحد أن يكتب القرآن إلاّ على ذلك الرّسم المضبوط من السلف بالتواتر بقاءً للقرآن على ما كان وحذراً من تطرق التحريف فيه وإن كان من الرسم بل نقول مخالفة رسم القرآن حرام بيّن لأنّ رسم القرآن من شعائر الدين ويجب حفظ الشعائر لتبقى مصونة عن الشبهات وتحريف المعاندين إلى القيامة وتكون حجّة على النّاس يحتجوا به مطمئنين إلى آخر الدهر كما يجب حفظ حدود منى ومشعر والبيت والروضة النبوية وغيرها ونأتي بعدة مواضع من القرآن حتّى يتبيّن لك أشدّ تبيين أن القرآن صين من جميع الوجوه عن التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف والزيادة والنقصان مثلا أن كلمة «مرضات» مكتوبة بالتاء المدودة في المصاحف: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١].

وكلمة «نعمت» مكتوبة بالتاء المدودة أيضاً في المصاحف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١] وكذا في عدة مواضع أخرى ولسنا في مقام الحصر.

وكلمة «رحمت» مكتوبة بالتاء المدودة في المصاحف كلها: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠] وكذا مواضع أخرى.

كلمة «امرأت» مكتوبة بالتاء المدودة في المصاحف كلّها: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٥] ومواضع أخرى.

كلمة «بيّنت» مكتوبة بالتاء المدودة: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

كلمة «يدع» في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١] مكتوبة بلا واو مع عدم الجازم.

كلمة «يؤت» مكتوبة في قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:

١٤٦] بلا ياء مع عدم الجازم.

كلمة «يعفوا» في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥] مكتوبة بالألف مع أنها بصيغة الإفراد.

وفي جميع بسم الله الرّحمٰن الرحيم في القرآن أسقط ألف الاسم وقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ مكتوب ألفه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ۝٨١﴾ [النمل: ٨١] مكتوبة كلمة بهادي بالياء مع أن هذه الآية في سورة الروم الآية ٥٤ مكتوبة بلا ياء.

وكذا كم من كلمات في القرآن يخالف رسمه قواعد النحو فكم من فعل ماض مثلا على صيغة الجمع لم يكتب في آخره ألف، وكم من فعل مفرد مكتوب آخره بالألف، وكم من كلمة زيد في وسطه ألف مع عدم الإحتياج إليها وغيرها ممّا هي مذكورة في الشاطبية والاتحاف وغيرهما وكثير من المشايخ ألفوا في رسم الخط رسائل على حدة ولسنا في ذلك المقام وإنما المراد أن يعلم القارىء الكريم أن هذا القرآن المكتوب بين الدفتين هو الكتاب الذي، نزل على خاتم النّبيّين ﷺ حتّى أنّ الصحابة لم يعتنوا في رسم خطّه بقواعد النحو ورسوم خط العرب اتباعاً للمصاحف التي كتبت على عهد النّبيّ ﷺ حتّى لا يتغير خط القرآن وحروفه ولا يتوهم أحد فيه التصحيف.

قال السيوطي في «**الإتقان**» (**النوع ٧٦ منه ص ١٦٦ ج ٢ طبع مصر ١٣١٨هـ**) في مرسوم الخط وآداب كتابته أفرده بالتصنيف خلائق من المتقدمين والمتأخرين - إلى أن قال: القاعدة العربية أنّ اللفظ يكتب بحروف هجائية مع مراعاة الإبتداء به والوقف عليه، وقد مهد النحاة له أصولاً وقواعد وقد خالفها في بعض الحروف خط المصحف الإمام. وقال أشهب: سئل مالك هل يكتب المصحف على ما أحدثه النّاس من الهجاء؟ فقال: لا إلا على الكتبة الأولى رواه الداني في المقنع ثمّ قال: ولا مخالف له من علماء الأمة وقال الداني في موضع آخر: سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال: لا، قال أبو عمرو: يعني الواو والألف المزيدتين في الرسم المعدومتين في اللفظ نحو أولوا، قال: وقال الإمام أحمد: يحرم مخالفة خطّ مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك[١].

(١) تاريخ القرآن الكريم: ١٠٧.

أقول: ما قال أحمد في حرمة المخالفة حقّ كما بيّناه آنفاً ولا حاجة في حرمته إلى رواية خاصّة لو لم تكن.

وفيه أيضاً قال البيهقي في «**شعب الإيمان**»: من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير ممّا كتبوه شيئاً فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منا فلا ينبغي أن نظنّ بأنفسنا إستدراكاً عليهم(١).

«لماذا يخالف رسم تلك الحروف القرانية أصول رسم الخط»؟

علة ذلك هو ما ذكر العلامة ابن خلدون في الفصل الثلاثين من الباب الخامس من «**المقدمة**» ص ٦١٩ طبع مصر، قال: كان الخطّ العربيّ لأوّل الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الأحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عن أهلها ثمّ اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرّكاً بما رسمه أصحاب الرسول ﷺ وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفي لهذا العهد خطّ ولي أو عالم تبرّكاً ويتبع رسمه خطأ أو صواباً وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسماً ونبّه العلماء بالرسوم على مواضعه ولا تلتفتنّ في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنّهم كانوا محكمين لصناعة الخطّ وأنّ ما يتخيّل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيّل بل لكلّها وجه يقولون في مثل زيادة الألف في «لا أذبحنّه» إنّه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في «بأييد» إنّه تنبيه على كمال القدرة الربّانيّة وأمثال ذلك ممّا لا أصل له إلاّ التحكّم المحض وما حملهم على ذلك إلاّ اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهّم النقص في قلة إجادة الخطّ وحسبوا أنّ الخطّ كمال فنزّهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح، واعلم أنّ الخطّ ليس بكمال في حقّهم إذ الخطّ من جملة الصنائع المدنيّة المعاشية كما رأيته فيما مرّ والكمال في الصنائع إضافي بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدّين ولا في الخلال وإنّما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس وقد كان ﷺ أميّاً وكان ذلك كمالاً في حقّه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العمليّة التي هي أسباب المعاش والعمران كلّها وليست الأميّة كمالاً في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربّه ونحن متعاونون على الحياة الدّنيا شأن الصنائع كلّها حتى العلوم

(١) البرهان: ١/ ٣٧٩، وتاريخ القرآن الكريم: ١٠٦.

الاصطلاحيّة فإن الكمال في حقّه هو تنزّهه عنها جملةً بخلافنا - انتهى.

أقول: وممّا ذكرنا: ظهر أن ما ذهب إليه بعض المغفلين لم يكن له خبرة في علوم القرآن من أن أمثال هذه الأمور المخالفة لرسم الخطّ من عدم حذاقة الكاتب فلا يجب اتباعها غلط جدّاً.

«يقرأ القرآن على القراءات السبع المتواترة دون الشواذ»

وممّا ينادى بأعلى صوته عناية المسلمين بحفظ القرآن الكريم وحراسته عن كلّ ما يتوهّم فيه التحريف قراءتهم القرآن بالقراءات المتواترة السبع دون الشواذ ولو كان الرواية الشاذة مرويّاً عن النبيّ ﷺ لأنّ اعتمادهم في القراءة ورسم الخطّ وترتيب السور والآيات كلّها كان على السماع دون الإجتهاد. بل نقول: إن كلّ ما ينتسب إلى القرّاء السبعة من القراءات السبع ولم يثبت تواتره لا يجوز متابعته وإن كان موافقاً لقياس العربيّة لأنّ المناط في اتباع القراءة هو التواتر فما يروى عن السبعة من الشواذ فحكمه حكم سائر القراءات الشاذة مثلاً أن أمين الإسلام الطبرسي في المجمع قال: قرأ كلّ القراء - معايش - في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠] بغير همز وروى بعضهم عن نافع - معائش -، ممدوداً مهموزاً انتهى. فهذه الرواية عن النافع غير متواتر وإن كان النافع من السبعة، ولا يجوز القراءة بتلك القراءة الشاذة.

فإن قلت: هل يوجد عكس ذلك في القراءات بأن يكون القاري من غير السبع كيعقوب ابن إسحاق الحضرمي وأبو حاتم سهل بن محمّد السجستاني ويحيى بن وثاب والأعمش وأبان بن تغلب وأضرابهم ويكون بعض قراءتهم متواتراً؟

أقول: وكم له من نظير ولكن من حيث أن تلك القراءة متوافقة للقراءات السبع المتواترة فما وافقتها وإلاّ لا يجوز الإتكال عليها وقراءة القرآن بها.

وإنّما اجتمع النّاس على قراءة هؤلاء واقتدوا بهم فيها لسببين: أحدهما أنّهم تجرّدوا لقراءة القرآن واشتدّت بذلك عنايتهم مع كثرة علمهم ومن كان قبلهم أو في أزمنتهم ممن نسب إليه القراءة من العلماء وعدّت قراءتهم في الشواذ لم يتجرّد لذلك تجرّدهم وكان الغالب على أولئك الفقه أو الحديث أو غير ذلك من العلوم.

والآخر أن قراءتهم وجدت مسندة لفظاً أو سماعاً حرفاً حرفاً من أوّل القرآن إلى آخره مع ما عرف من فضائلهم وكثرة علمهم بوجوه القرآن (**قالهما الطبرسي في مقدمة تفسيره مجمع البيان**).

أقول: على أن أئمتنا سلام الله عليهم قرروا تلك القراءات لأنّها كانت متداولة في

عصرهم ﷺ وكان الناس يأخذونها من القراء ولم يردّوهم ولم يمنعوهم عن أخذها عنهم بل نقول: إن قراءة أهل البيت ﷺ يوافق قراءة أحد السبعة وقلّما يتفق أن تروى قراءة منهم عليهم خارجة عن المتواترات كما يظهر بالتتبع للخبير المتضلع في علوم القرآن.

فإن قلت: القرآن نزل على قراءة واحدة فكيف جاز قراءته بأكثر من واحدة فهل القراءات العديدة إلاّ التحريف؟

قلت: أوّلاً إن اختلاف القراءات لا يوجب تحريف الكتاب وتغييره وباختلافها لا تزاد كلمة في القرآن ولا تنقص منه فإن اختلافها في الإعراب وارجاع الضمير كيفية التلفظ والخطاب والغيبة والإفراد والجمع وأمثالها في كلمات تصلح لذلك وفي الجميع الآيات والكلمات القرآنية بذاتها محفوظة مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] قرأ أبو بكر عن عاصم يوحى بضم الياء وفتح الحاء على صيغة المجهول وقرأ حفص عن عاصم بضم النون وكسر الحاء على صيغة المتكلم والمعنى على كلا الوجهين صحيح واللفظ محفوظ ومصون. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣] قرأ أبو بكر عن عاصم بإمالة الهمزة في نئا وحفص عن عاصم بفتحها ومعلوم أنّه لا يوجب التحريف والتغيير، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] قرأ أبو بكر عن عاصم بتشديد الذال وحفص بتخفيفها وهو لا يوجب تبديل ذات الكلمة، وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ [الفرقان: ٧٤] قرأ أبو بكر ذريتنا بالتوحيد وحفص بالجمع وأمثالها مما هي مذكورة في كتب الفن والتفاسير ولكلّ وجه متقن وحجّة متّبعة أجمع المسلمون على تلقيها بالقبول مع أنّها تنتهي إلى رسول الله ﷺ ولا يخفى على البصير المتتبع والمتضلّع في القراءات أنّها لا توجب التحريف بل يبيّن وجوه صحة التلفظ ـ مثلاً أن قوله ﷺ: «[حب] الدُّنيا رأس كلّ خطيئة»[1] بضم الهمزة والجملة بذاتها محفوظة، أو ما أنشده القطب الشيرازي في مجلس كان فيه الشيعة والسني **(أتي به الشيخ في «الكشكول» ص ١٣٥ طبع نجم الدولة)**:

خير الورى بعد النّبي من بنته في بيته   من في دجى ليل العمى ضوء الهدى في زيته

يمكن أن يكون المراد من كلمة «من» رسول الله ﷺ والضمير الأوّل يرجع إليه والثاني إلى أمير المؤمنين عليّ ﷺ، أو يكون المراد منها أبو بكر والضمير الأوّل يرجع إليه والثاني إلى رسول الله ﷺ وهكذا في البيت الثاني ولا يوجب تغييراً في البيت:

وثانياً نقول: إن رسول الله ﷺ والأئمة الهدى أجازوا ذلك وهذا كما أن أحدنا نجوز

---

(١) بحار الأنوار: ٥١/٢٥٨، والخصال: ٢٥ ح ٨٧.

أن يقرأ كلامه على وجهين مثلاً أن الحكيم السبزواري قال في اللئالي المنتظمة:

فالمنطقي الكلّي بحمل أوّلي   وغيره لشايع الحمل كلي

ثمّ أجاز في الشرح قراءة كلّي على وجهين وقال: كلي إما بضم الكاف مخفف كلّي وإما بكسرها أمر من وكل يكل والياء للإطلاق واللام (لشائع) على الأوّل للتعليل وعلى الثاني للاختصاص. انتهى. وهكذا الكلام في القرآن الكريم.

والعجب من صاحب «الجواهر» رحمه الله مال في صلاة الجواهر إلى عدم تواتر القراءات السبع وقال في ذيل بحث طويل في ذلك: فإن من مارس كلماتهم علم أن ليس قراءتهم إلاّ باجتهادهم وما يستحسنونه بأنظارهم كما يؤمي إليه ما في كتب القراءة من عدّهم قراءة النّبي صلى الله عليه وآله وعليّ وأهل البيت عليهم السلام في مقابلة قراءتهم ومن هنا سموهم المتبحرين ومن ذاك (**كذا ـ الظاهر: وما ذاك**) إلاّ لأن أحدهم كان إذا برع وتمهر شرع للنّاس طريقاً في القراءة لا يعرف إلاّ من قبله ولم يرد على طريقة مسلوكة ومذهب متواتر محدود وإلاّ لم يختصّ به بل كان من الواجب بمقتضى العادة أن يعلم المعاصر له بما تواتر إليه لاتحاد الفن وعدم البعد عن المأخذ ومن المستبعد جداً أنا نطلع على التواتر وبعضهم لا يطلع على المتواتر إلى الآخر كما أنّه من المستبعد أيضاً تواتر الحركات والسكنات مثلاً في الفاتحة وغيرها من سور القرآن. انتهى كلامه[1].

أقول: قد بيّنا أن القراءات السبع كان متواتراً من عصر الأئمة إلى الآن بل النّبي صلى الله عليه وآله جوز اختلاف القراءة أيضاً إلاّ أن مالم يوافق السبع المتواترة لا يفيد إلاّ الظنّ بخلاف السبع فإنّها إجماع المسلمين قاطبة من صدر الإسلام إلى الآن وإجماع أهل الخبرة في كلّ فن حجة ولو خالف إجماعهم الخارج من فنّهم لا يضرّ الإجماع ومن مارس كتب التفسير والقراءات حقّ الممارسة علم إجماع المسلمين جيلاً بعد جيل في كلّ عصر حتّى في زمن الأئمة المعصومين في القراءات بالسماع والحقّ في ذلك ما هو المنقول من العلامة قدّس سرّه في النهاية حيث قال: ومخالفة الجاهلين بالقراءة لا يقدح في إجماع المسلمين إذ المعتبر في الاجماع والخلاف قول أهل الخبرة فلو خالف غير النحوى في رفع الفاعل وغير المتكلم في حدوث العالم أو وجوب اللطف على الله لم يقدح في إجماع المسلمين أو الشيعة أو النحاة.

على أن القراءات المتواترة ينتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بالأخرة كما ذكرنا آنفاً أن القراء كلّهم يرجعون إلى أبي عبد الرحٰن بن السلمي القاري وهو أخذ عن أمير المؤمنين عليه السلام وهو أخذ عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال ابن النديم في «الفهرست» (**ص ٤٩ من الفن الثالث من المقالة الأُولى ط**

(١) جواهر الكلام: ٩/ ٢٩٦.

مصر): قرأ عاصم على أبي عبد الرحمٰن السلمي وقرأ السلمي على عليّ عليه السلام وقرأ عليّ عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال أيضاً **(ص ٤٥)**: عليّ بن حمزة الكسائي قرأ على عبد الرحمٰن بن أبي ليلى وكان ابن أبي ليلى يقرأ بحرف عليّ عليه السلام وكذا سائر القراء فعليك بالإتقان والفن الثاني من مقدمة تفسير الطبرسي **«مجمع البيان»** وسائر الكتب المؤلفة في القراء وقراءات القرآن فلا مجال للوسوسة بعد ظهور البيان وتمام البرهان. وقد قال العلامة الحليّ قدسّ سرّه في **«التذكرة»**: «مسألة» يجب أن يقرأ بالمتواتر من القراءات وهي سبعة ولا يجوز أن يقرأ بالشواذ ويجب أن يقرأ بالمتواتر من الآيات وهو ما تضمّنه مصحف عليّ عليه السلام لأنّ أكثر الصحابة اتفقوا عليه وحرق عثمان ما عداه.

«عدد آي القرآن وحروفه»

ومما يعلن بشدّة عناية المسلمين بضبط القرآن وحفظه عن التحريف عدّهم كلماته وآيه وحروفه حتّى فتحاته وكسراته وضماته وتشديداته ومدّاته وأفرد السيوطي في **«الإتقان»** فصلاً في ذلك. وفي **«الوافي»** للفيض قدّس سرّه (٢٧٤ م ٥ **طبع إيران ١٣٢٤ هـ**): قال السيد حيدر بن عليّ بن حيدر العلوي الحسيني طاب ثراه في تفسيره الموسوم بـ**«المحيط الأعظم»**: إن أكثر القراء ذهبوا إلى أن سور القرآن بأسرها مائة وأربع عشرة سورة وأنّ آياته ستة آلاف وستمائة وست وستون آية وإلى أن كلماته سبعة وسبعون ألفاً وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة وإلى أن حروفه ثلاثمائة آلاف واثنان وعشرون ألفاً وستمائة وسبعون حرفاً وإلى أن فتحاته ثلاثة وتسعون ألفاً ومائتان وثلاثة وأربعون فتحة ـ إلخ.

روى الطبرسي في تفسير سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ من المجمع رواية مستندة عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أنّه عليه السلام قال: سألت النبيّ صلى الله عليه وآله عن ثواب القرآن فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء ـ إلى أن قال عليه السلام: ثمّ قال النّبي صلى الله عليه وآله: جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وجميع آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية، وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً لا يرغب في تعلم القرآن إلاّ السعداء ولا يتعهد قراءته إلاّ أولياء الرحمٰن. انتهى[1]. وذكر ابن النديم في **«الفهرست»** **(ص ٤١ من المقالة الأولى)** اختلاف النّاس في آي القرآن.

أقول: قد عدّ خلق كثير حروف القرآن وآخرون نقلوا منهم وذكروا في تأليفاتهم ومنهم المولى أحمد النراقي في **«الخزائن»** **(ص ٢٧٥ طبع طهران ١٣٨٠هـ)** ثمّ اختلف العادّون في مقدارها عدداً ولا ريب أن تحديد أمثال هذه الأمور لا يخلو من اختلاف والاختلاف ليس إلاّ

(١) زبدة البيان: ٤٢٣، وبحار الأنوار: ٢٥٦/٣٥ ح ١٥.

منهم لا من المصاحف فإنّه واحد نزل من عند واحد وما بدّل منه شيء وما زيد فيه حرف وما نقص منه كما علمت وإنما غرضنا في ذلك التوجه إلى اهتمام المسلمين قاطبة عصراً بعد عصر في ضبط كلام الله تعالى عن تحريف مّا وإن كان الاشتغال باستيعاب ذلك ممّا لا طائل تحته ولنعم ما قال السخاوي (**الاتقان ص ٧٢ ج ١**): لا أعلم لعدّ الكلمات والحروف من فائدة لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان والقرآن لا يمكن فيه ذلك.

وأمّا اختلاف الآي وسببه فهو ما قال السيوطي في «**الإتقان**»: أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ثمّ اختلفوا فيما زاد على ذلك - إلى أن قال وسبب اختلاف السبب في عدد الآي أن النبيّ ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف فإذا علم محلها وصلها للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة.

قال الطبرسي في الفنّ الأوّل من مقدمة التفسير في تعداد آي القرآن والفائدة في معرفتها: إعلم أن عدد أهل الكوفة أصح الأعداد وأعلاها إسناداً لأنه مأخوذ عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى أن قال: والفائدة في معرفة آي القرآن أن القارىء إذا عدّها بأصابعه كان أكثر ثواباً لأنه قد شغل يده بالقرآن مع قلبه ولسانه وبالحريّ أن تشهد له يوم القيامة فإنّها مسؤلة ولأنّ ذلك أقرب إلى التحفظ فإن القاري لا يأمن من السهو وقد روى عبدالله بن مسعود عن النبيّ ﷺ أنه قال: تعاهدوا القرآن فإنّه وحشي وقال عليه الصلاة والسلام لبعض النساء اعقدن بالأنامل فإنهنّ مسؤولات ومستنطقات، قال حمزة بن حبيب وهو أحد القراء السبعة العدد مسامير القرآن[1].

وبالجملة أن عدّ أمثال تلك الأمور وتحديدها قلما يتفق أن يتحد الاثنان من العادّين ولا يغترّ القاري الكريم بتلك الاختلافات أن المصاحف كانت مختلفة. والعجب من الفيض رحمه الله تعالى قال في «**الوافي**» (**ص ٢٧٤ م ٥**): قد اشتهر اليوم بين النّاس أن القرآن ستة آلاف وستمائة وستّ وستون آية ثمّ روى رواية الطبرسي المذكورة آنفاً في المجمع عن النبيّ ﷺ ثمّ جعل أحد الاحتمالات في اختلاف الرّواية والشهرة اختلاف المصاحف حيث قال: فلعل البواقي تكون مخزونة عند أهل البيت عليهم السلام وتكون فيما جمعه أمير المؤمنين عليه السلام - إلخ.

لكنه رحمه الله عدل عنه واستبصر وقال في المقدمة السادسة من تفسيره «**الصافي**» بعد نقل عدّة روايات في تحريف الكتاب: أقول: ويرد على هذا كلّه إشكال وهو أنّه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شيء من القرآن إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرّفاً ومغيّراً

(١) تفسير مجمع البيان: ١/ ٣٦.

ويكون على خلاف ما أنزل الله فلم يبق لنا في القرآن حجّة أصلاً فتنتفي فائدة الأمر باتّباعه والوصيّة بالتمسك به إلى غير ذلك، وأيضاً قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ فكيف يتطرق إليه التحريف والتغيير - إلخ[(١)].

رسم النحو في القرآن»

وممّا يفحص عن شدة عناية المسلمين بضبط القرآن ويؤيده رسم النحو فيه قال ابن النديم في أوّل المقالة الثانية من «**الفهرست**»: زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود وهو أخذ عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ - إلى أن قال: وقد اختلف النّاس في السبب الذي دعا أبا الأسود إلى ما رسمه من النحو فقال أبو عبيدة أخذ: النحو عن عليّ بن أبي طالب أبو الأسود وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن عليّ كرم الله وجهه إلى أحد حتّى بعث إليه زياد أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله فاستعفاه من ذلك حتّى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ بالكسر فقال: ما ظننت أمر النّاس آل إلى هذا فرجع إلى زياد فقال: أفعل ما أمر به الأمير فليبغني كاتباً لقناً يفعل ما أقول فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر قال أبو العبّاس المبرّد أحسبه منهم فقال أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف فهذا نقط أبي الأسود. انتهى.

بيان

المراد من النقط ههنا هو الإعراب فنقطة الفوق بمعنى الفتحة ونقطة التحت أي الكسرة ونقطة بين يدي الحرف هي الضمّة.

«رجم الأوهام والأباطيل»

وإن قيل: قد توجد عدة من السور في بعض الكتب وما ذكرت في القرآن كسورة النورين نقلها صاحب كتاب دبستان المذاهب وأتى بها المحدث النوري في «**فصل الخطاب**» والآشتياني في «**بحر الفوائد في شرح الفرائد**» (**ص ١٠١ طبع طهران**) وسورة الحفد، وسورة الخلع، وسورة الحفظ، أتى بها المحدث النوري في «**فصل الخطاب**» أيضاً ونقل الأوليين السيوطي في أوّل النوع التاسع عشر من «**الإتقان**»، وسورة الولاية المنقولة في كتاب داورى

(١) تفسير الصافي: ١/ ٥١.

للكسروي، فلم قلت إن القرآن ١١٤ سورة وما نقص منه شيء؟

قلت: أوّلاً عدم كونها في القرآن دليل على عدم كونها من القرآن.

وثانياً لو كانت أمثال هذه الكلمات تضحك بها الثكلى وتبكي بها العروس مما تحدّى الله تعالى عباده بقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] [ويونس: ٣٨] وقوله ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية لكان أعراب البادية وأصاغر الطلبة جميعاً أنبياء يوحى إليهم فضلاً عن أكابر العلماء، وقياس هذه السورة المجعولة بالمقامات للحريري مثلاً كقياس التبن بالتبر فضلاً بالقرآن الكريم أعجز الحريري ومن فوقه عن أن تفوهوا بالإتيان بسورة منه ولو كانت نحو الكوثر ثلاث آيات.

وهذا هو أبو العلاء المعرّي الخرّيت في فنون الأدب وشؤون الكلام والمشار إليه بالبنان في جودة الشعر وعذوبة النثر يضرب به المثل في العلوم العربية وكفى في فضله شاهداً كتابه: «**لزوم ما لا يلزم**»، و«**سقط الزند**»، و«**شرح الحماسة**»، وغيرها تصدّى للمعارضة بالقرآن على ما نقل ياقوت الحموي في «**معجم الأدباء**» في ترجمته فنأتي بما قال للمعارضة ثمّ انظر فيها بعين العلم والمعرفة حتّى يتبين لك أن نسبته إلى القرآن كيراعة إلى الشمس؛ قال ياقوت: قرأت بخط عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجيّ في كتاب له ألّفه في الصرفة زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتّى صار معجزة للنبيّ ﷺ وأنّ كلّ فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله إلاّ أنّهم صرفوا عن ذلك لا أن يكون القرآن في نفسه معجز الفصاحة وهو مذهب لجماعة من المتكلمين والرافضة منهم بشر المريسي والمرتضى أبو القاسم قال في تضاعيفه: وقد حمل جماعة من الأدباء قول أصحاب هذا الرأي على أنّه لا يمكن أحد من المعارضة بعد زمان التحدّي على أن ينظموا على أسلوب القرآن وأظهر ذلك قوم وأخفاه آخرون: وممّا ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه:

أقسم بخالق الخيل، والريح الهابّة بليل، ما بين الأشراط ومطالع سهيل، إن الكافر لطويل الذيل، وإن العمر لمكفوف الذيل، اتق مدارج السيل، وطالع التوبة من قبيل، تنج وما أخالك بناج.

وقوله: أذلت العائذة أباها، وأصاب الوحدة وربّاها، والله بكرمه اجتباها أولاها الشرف بما حباها، أرسل الشمال وصباها، ولا يخاف عقباها.

بيان

قوله: (**ألفه في الصرفة**): زعم قومٌ أن الله تعالى صرف القوى البشريّة عن المعارضة ولذلك عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن ولولا صرفه تعالى لهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله،

وذهب الآخرون إلى أنّه تعالى لم يصرفهم عنها ولكنهم ليسوا بقادرين على الإتيان بمثله، ونتيجة كلا القولين واحدا لاتفاقهما على عجز البشر إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثله ولو بسورة سواء كان بصرف القوى أو لم يكن. والمراد من المرتضى أبي القاسم هو الشريف علم الهدى أخو الشريف الرّضي رضوان الله عليهما.

ولا يخفى على أولي الفضل والدراية أن أمثال هذه الكلمات الملفقة من الرطب واليابس لو تعارض القرآن الكريم لما تحدّي الله عباده به فإنّ الناس يستطيعون أن يأتوا بما هو أفضل منها لفظاً ومعنى.

ثمّ إنّ السور المنقولة من دبستان المذاهب وفصل الخطاب المذكورة آنفاً، كلمات لا يناسب ذيلها صدرها بل ليست جملها على أسلوب النحو ولا تفيد معنى فننقل شرذمة من سورة النورين حتّى يظهر لك سخافة ألفاظها وركاكة تأليفها فمن آي تلك السورة المشوّهة: إنّ الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه يفعل الله ما يشاء لا إله إلاّ هو الرّحمٰن الرحيم؛ ومنها: مثل الذين يوفون بعهدك إني جزيتهم جنات النعيم، ومنها: ولقد أرسلنا موسى وهارون بما استخلف فبغوا هرون فصبر جميل فجعلنا منهم القردة والخنازير ولعناهم إلى يوم يبعثون، ومنها: ولقد آتينا بك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصياً لعلّهم يرجعون.

فانظر أنّ ذلك اللّص المعاند الوضاع كيف لفّق بعد الجمل القرآنية بترّهاته تلبيساً على الضعفاء وخلّط الحقّ بالباطل تفتيناً بين المسلمين، ولما رأى ضعفاء العقول كلمات شتى فيها نحو صبر جميل، نور السموات، إلى يوم يبعثون، لعلّهم يرجعون، المتخذة من القرآن تلقوها بالقبول حتّى رأيت مصحفاً مطبوعاً كتبت هذه السور في هامشه وليس هذا إلا عمل الجهال من النسّاك والصبيان من القراء الذين علموا مخارج حروف الحلق وأيقنوا أن ليس وراء ما علموا علم أصلاً، وكأنما العارف شمس الدين محمّد الحافظ أخبر عنهم حيث قال:

آه آه ازدست صرّا فان گوهر ناشناس هرزمان خر مهره را بادرّ برابر ميكنند

في تفسير آلاءِ الرّحمٰن للبلاغي طاب ثراه: وممّا ألصقوه بالقرآن المجيد ما نقله في «**فصل الخطاب**» من كتاب دبستان المذاهب أنه نسب إلى الشيعة أنهم يقولون إن إحراق المصاحف سبب إتلاف سور من القرآن نزلت في فضل عليّ وأهل بيته ﷺ منها هذه السورة (**النورين**) وذكر كلاماً يضاهي خمسا وعشرين آية في الفواصل قد لفق من فقرات القرآن الكريم على أسلوب آياته فاسمع ما في ذلك من الغلط فضلاً عن ركاكة أسلوبه الملفق: فمن الغلط (**واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه**) ماذا اصطفى من الملائكة وماذا جعل من المؤمنين وما معنى أولئك في خلقه؟ ومنه: (**مثل الذين يوفون بعهدك إني جزيته

جنات النعيم) ليت شعري ما هو مثلهم؟ ومنه: **(ولقد أرسلنا موسى وهارون، بما استخلف فبغوا هارون فصبر جميل)** ما معنى هذه الدمدمة، وما معنى بما استخلف وما معنى فبغوا هارون ولمن يعود الضمير في بغوا ولمن الأمر بالصبر الجميل؟ ومن ذلك **(ولقد آتينا بك الحكم كالذي من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصياً لعلّهم يرجعون)** ما معنى آتينا بك الحكم ولمن يرجع الضمير الذي في منهم ولعلّهم وهل المرجع الضمير هو في قلب الشاعر وما هو وجه المناسبة في لعلّهم يرجعون؟ ومن ذلك ـ إلى أن قال: هذا بعض الكلام في هذه المهزلة وأن صاحب فصل الخطاب من المحدثين المكثرين المجدين في التتبع للشواذ وأنه ليعدّ أمثال هذا المنقول في دبستان المذاهب ضالة منشودة ومع ذلك قال أنّه لم يجد لهذا المنقول أثر في كتب الشيعة، فيا للعجب من صاحب دبستان المذاهب من أين جاء نسبة هذه الدعوى إلى الشيعة وفي أيّ كتاب لهم وجدها أفهكذا يكون في الكتب ولكن لا عجب شنشنة أعرفها من أخزم فكم نقلوا عن الشيعة مثل هذا النقل الكاذب كما في كتاب «**الملل**» للشهرستاني ومقدمة ابن خلدون وغير ذلك ممّا كتبه بعض النّاس في هذه السنين والله المستعان ـ انتهى.

«تحير الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن»

(اجتماعه بنفر من قريش ليبيتوا ضدّ النبيّ ﷺ، واتفاق قريش أن يصفوا الرسول ﷺ بالساحر وما أنزل الله فيهم).

كيف يحكم عاقل عارف بأنحاء الكلام أن تلك الأباطيل والأضاليل وحي أُوحي إلى رسول الله ﷺ وتحدى عباد الله بالإتيان بمثله، وقد بهت العرب العرباء في نظم القرآن الكريم وتحيّر فصحاء العرب في بيداء فصاحته وكلت ألسنة بلغائهم دون علوّ بلاغته وعجز العالمون عن أن يتدرجوا أدرج معانيه أو أن يتغوّصوا في بحر حقائقه، وهذا هو الخصم المبين الوليد بن المغيرة مع أنّه نشأ في حجر العرب العرباء تحير فيما يصف به القرآن، قال ابن هشام في السيرة **(ص ٢٧٠ ج ١ طبع مصر ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥م)**:

إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سنّ فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش إنّه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ـ يعني به رسول الله ﷺ ـ فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به قال: بل أنتم فقولوا أسمع قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالّجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كلّه: رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو

الشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عرف أنّه باطل وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحرٌ جاء بقولٍ هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته. فتفرّقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل النّاس حين قدم الموسم لا يمرّ بهم أحد إلاّ حذّروه إياه وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٥] وأنزل الله تعالى في النفر الذين كانوا معه يصنفون القول في رسول الله ﷺ وفيما جاء به من الله تعالى: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٠ ـ ٩٣].

وإن قيل: قد وردت أخبار دالّة على أن هذا القرآن المكتوب بين الدفتين المتداول الآن أسقط منه آيات وكلمات فكيف ادّعيت أن ما أنزل على رسول الله ﷺ ما نقص منه حرف وما تطرق إليه تحريف؟

أقول: إن بعض تلك الروايات مجعول بلا كلام كرواية نقلها في الإحتجاج وأتى بها الفيض في «**تفسير الصافي**» أن المنافقين أسقطوا في الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] بين اليتامى وبين فانكحوا ما الخطاب والقصص أكثر من ثلث القرآن.

وبعضها يبين مصداقاً من مصاديق الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢] وردت رواية: لا يزيد ظالمي آل محمّد حقّهم إلاّ خساراً.

وبعضها يشير إلى بعض التأويلات كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤] وردت رواية ماذا أنزل ربكم في عليّ عليه السلام.

وبعضها يفسر الآيات فجعل قوم هذه الأخبار دليلاً على تحريف القرآن وحكموا بظاهرها أن القرآن نقص منه شيء وجمعها المحدث النوري في «**فصل الخطاب**» وجعلها دليلاً على تحريف الكتاب واتبعه الآخرون ولولا خوف الإطالة لنقلت كلّ واحد من أخبار فصل الخطاب وبيّنت عدم دلالتها على تحريف الكتاب فإن أخباره بعضها مجعول بلا ريب وبعضها

مشوب سنده بالعيب وبعضها الآخر يبين التأويل وبعضها يفسّر التنزيل ويضاد طائفة منها أخرى وبعضها منقول من كتاب «**دبستان المذاهب**» لم ينقل في كتب الحديث أصلاً كما أن المحدث النوري صرّح به أيضاً. وبالجملة أن تلك الأخبار المنقولة في «**فصل الخطاب**» وغيره الواردة في ذلك الباب آحاد لا يعارض القرآن المتواتر المصون من عهد النبيّ ﷺ إلى الآن فإن وجد لها وجه لا ينافي القرآن وإلا فتضرب على الجدار.

«جرى على المحدث النوري ما جرى على ابن شنبوذ»

ثمّ إنّ هذا المحدّث الجليل والحبر النبيل صاحب «**مستدرك الوسائل**» ومؤلف كثير من الرسائل جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير جزاء عدل عن مذهب التحريف السخيف ولا يخفى أن الجواد قد يكبو والسيف قد ينبو وجرى عليه رحمه الله ما جرى على ابن شنبوذ. قال ابن النديم في الفن الثالث من المقالة الأولى من «**الفهرست**»: محمّد بن أحمد بن أيوب بن شنبوذ كان يناوىء أبا بكر ولا يفسده وقرأ: إذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله، وقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كلّ سفينة صالحة غصباً، وقرأ: اليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وقرأ فلمّا خرّ تبيّنت النّاس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين - إلى أن قال بعد نقل عدّة قراءاته: ويقال: إنه اعترف بذلك كلّه ثمّ استتيب وأخذ خطّه بالتوبة فكتب: يقول محمّد بن أحمد بن أيوب: قد كنت أقرأ حرفاً تخالف عثمان المجمع عليه والذي اتفق أصحاب رسول الله ﷺ على قراءته ثمّ بان لي أن ذلك خطأ وأنا منه تائب وعنه مقلع وإلى الله جلّ اسمه منه بريء إذ كان مصحف عثمان هو الحقّ الذي لا يجوز خلافه ولا يقرأ غيره.

«الله حافظ كتابه ومتم نوره»

وممّا تطمئن به القلوب ويزيدها إيماناً في عدم تحريف القرآن هو أن الله تعالى ضمن حفاظة كتابه وتعهّد إعلاء ذكره ووعد إتمام نوره ومن أصدق من الله حديثاً ووعداً ودونك الآي القرآنية في ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] ففي الآية تأكيدات عديدة من الجملة الإسمية والضمائر الأربعة الراجعة إليه تعالى وتكرار إنّ المؤكدة ولام التأكيد في خبر إنّ الثانية واسمية خبرهما وتقديم الجار والمجرور على متعلقه. والمراد بالذكر هو القرآن الكريم لأنه تعالى قال: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ فلا يكون المراد من الذكر إلاّ القرآن فكيف لم

يحفظ القرآن من التحريف زيادةً ونقصاناً.

وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ [الصف: ٨] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ [التوبة: ٣٢] والمراد من النور القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝﴾ [النساء: ١٧٤] وكما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩].

ثمّ إنّ القرآن هو المعجزة الباقية من رسول الله ﷺ بل في الحقيقة كلّ سورة منه معجزة على حيالها فهو مائة وأربع عشر معجزة وأنزله الله تعالى هداية لكافة العباد إلى يوم التناد فكيف لا يصونه من تحريف أهل العناد قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] وغيرها.

«من نسب إلى الإمامية القول بتحريف القرآن أنه»
«كان أكثر أو أقل مما بين الدفتين فهو كاذب»

ومن تتبع أسفار المحققين من العلماء الإمامية يعلم أن من عزى إليهم القول بتغيير القرآن زيادةً ونقصاً فقد افترى عليهم قال العالم الخبير الإمامي القاضي نور الله التستري نوّر الله مرقده في مصائب النواصب: ما نسب إلى الشيعة الإمامية بوقوع التغيير في القرآن ليس مما قال به جمهور الإمامية إنما قال به شرذمة قليلة منهم لا اعتداد بهم في ما بينهم.

والشيخ الأجل أبو جعفر ابن بابويه الصدوق رحمه الله المتوفى ٣٨١ هـ قال في الاعتقادات: باب الاعتقاد في مبلغ القرآن: اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيّه محمّد ﷺ هو ما بين الدفتين وهو ما في أيدي النّاس ليس بأكثر من ذلك ومبلغ سوره عند النّاس مائة وأربع عشر سورة ومن نسب إلينا أنا نقول إنّه أكثر من ذلك فهو كاذب[1].

(١) الاعتقادات: ٨٤، والتفسير الصافي: ١/ ٥٤.

وشيخ الطائفة الإمامية أبو جعفر الطوسي المتوفي ٤٦٠ هـ قال في أوّل تفسيره التبيان: إعلم أن القرآن معجزة عظيمة على صدق النبي ﷺ بل هو أكبر المعجزات وأمّا الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به لأنّ الزيادة فيه مجمع على بطلانه والنقصان منه فالظاهر من مذاهب المسلمين خلافه وهو أليق بالصحيح من مذهبنا ـ إلخ[١].

وأمين الإسلام المفسّر العظيم الشأن أبو عليّ الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي المتوفي ٥٤٨ هـ قال في الفن الخامس من مقدمة تفسيره «**مجمع البيان**»: ومن ذلك الكلام في زيادته ونقصانه فإنّه لا يليق بالتفسير فأمّا الزيادة فيه فجمع على بطلانه وأمّا النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييراً ونقصاناً والصحيح من مذهبنا خلافه[٢].

والعلامة حسن بن يوسف بن المطهر الحلي المتوفى ٧٢٦ هـ قال في «**النهاية**»: إنّ النبيّ ﷺ كان مكلفاً بإشاعة ما نزل عليه من القرآن إلى عدد التواتر ليحصل القطع بنبوّته في أنّه المعجزة له وحينئذ لا يمكن التوافق على نقل ما سمعوه منه ـ إلى أن قال: فإنّه المعجزة الدالّة على صدقه فلو لم يبلغه إلى حدّ التواتر انقطعت معجزته فلا يبقى هناك حجّة على نبوّته ـ إلخ.

والعالم الجليل بهاء الدّين العاملي المتوفي ١٠٣١ هـ قال: في الزبدة، القرآن متواتر لتوفر الدواعي على نقله، والمنقول عنه في تفسير آلاء الرّحمن أنّه رحمه الله قال: اختلف الأصحاب في ترتيب سور القرآن العظيم وآياتها على ما هو عليه الآن فزعم جمع منهم أن ذلك وقع من الصحابة بعد النبيّ ﷺ وكانت الآيات غير مرتبة على ما هي عليه الآن في زمانه ولم يكن السورة متحققة في ذلك الوقت وكذا لم يكن ترتيب السور على النهج الذي كانت عليه الآن في ذلك الزمان، وهذا الزعم سخيف والحق ترتيب الآيات وحصول السور كان في زمانه إلى أن قال: واختلفوا في وقوع الزيادة والنقصان فيه والصحيح أن القرآن العظيم محفوظ عن ذلك الوقوع زيادة كان أو نقصاناً ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ وما اشتهر بين النّاس من إسقاط اسم أمير المؤمنين عليه السلام منه في بعض المواضع مثل قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في علي ـ وغير ذلك فهو غير معتبر عند العلماء.

---

(١) التبيان: ١/٣، وتدوين القرآن: ٤٢.

(٢) مجمع البيان: ١/٤٣، وحقائق الأصول: ٢/٨٧، والاحتجاج: ١/٣٧٨.

«كلام السيد الأجل ذي المجدين محيى آثار الأئمة علي بن الحسين»
«علم الهدى قدس سره المتوفى ٣٣٦هـ في عدم تغيير القرآن»
«من الزيادة والنقصان»

نقل عنه الطبرسي في الفنّ الخامس من تفسيره «**مجمع البيان**» قال الطبرسي: فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييراً ونقصاناً والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه واستوفى الكلام فيه غاية الإستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات وذكر في مواضع أن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدّت والدواعي توفّرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حدّ لم يبلغه فيما ذكرناه لأنّ القرآن معجزة النّبوة ومأخذ العلوم الشرعيّة والأحكام الدينيّة، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتّى عرفوا كلّ شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته فكيف يجوز أن يكون مغيراً أو منقوصاً مع العناية الصّادقة والضبط الشّديد؛ قال: وقال أيضاً:

إنّ العلم بتفصيل القرآن وأبعاضه في صحة نقله كالعلم بجملته وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنّفة ككتاب سيبويه والمزني فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما حتى لو أنّ مدخلاً أدخل في كتاب سيبويه باباً في النحو ليس من الكتاب لعرف وميّز وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب وكذلك القول في كتاب المزني، ومعلوم أنّ العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء؛ قال: وذكر أيضاً رضي الله عنه:

أنّ القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن واستدلّ على ذلك بأنّ القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتّى عين على جماعة من الصحابة في حفظهم له وأنه كان يعرض على النبي صلى الله عليه وآله ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبيّ صلى الله عليه وآله عدّة ختمات وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً غير مبتور ولا مبثوث؛ قال: وذكر:

أنّ من خالف في ذلك من الإماميّة والحشويّة لا يعتدّ بخلافهم فإنّ الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحّتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته. انتهى ما أردنا من نقل كلامه أعلى الله مقامه[1].

---

(١) نور البراهين: ١/ ٥٢٥، وتفسير مجمع البيان: ١/ ٤٣.

وكذا صرّح غير واحد من سائر علمائنا الإماميّة كالمحقق الكركي، وكاشف الغطاء، والشّيخ الحرّ الآملي، والشيخ بهاء الدين، والفاضل التوني صاحب الوافية، والسيّد المجاهد والمحقق القمّي قال وجمهور المجتهدين على عدم التحريف، والمحققين من علمائنا المعاصرين متع الله المسلمين بطول بقائهم على عدم التحريف والتغيير زيادة ونقصاناً.

«فذلكة البحث»

فحصل من جميع ما قدمناه أن تركيب السور من الآيات وترتيب السور أيضاً كان بأمر النبيّ ﷺ وأن بسم الله الرحمٰن الرحيم نزلت مع كلّ سورة ما عدا توبة؛ وأنه جزء كلّ سورة وآية من آيها كما أنها جزء من سورة النّمل: وأنّ القرآن المكتوب بين الدفتين هو الذي نزله الله على رسوله الخاتم ﷺ ما زيد فيه حرف ولا نقص منه شيء؛ وأن عثمان ما حرف القرآن ولا أخذ منه ولا زاد فيه شيئاً بل غرضه من ذلك جمع النّاس على قراءة واحدة وإياك أن تظن أنه أحرق المصحف الصحيح وابقى الباطل والمحرف والمغير نعوذ بالله؛ وأن اعتراض علم الهدى وغيره عليه ليس إلاّ من جهة منعه القراءات الأخر لا إحراقه المصحف الصحيح وتبديله كلام الله المجيد؛ وأن القراءات السبع متواتر لا يقرأ القرآن بغيرها من الشواذ؛ وأن رسم خط القرآن سماعيّ لا يقاس بالنحو ورسم الخط المتداول فيجب إبقاء رسمه على ما كتبت على الكتبة الأُولى. وأن من عزى إلى الإماميّة تحريفه فهو كاذب؛ وأن الله حافظ كتابه ومتمّم نوره.

وما أجاد وأحسن وأحلى نظم العارف الرّومي في المقام قال في المجلّد الثالث من كتابه المثنوى:

مصطفى را وعده كرد ألطاف حق	گر بميرى تو-نميرد اين سبق
من كتاب ومعجز ترا خافضم	بيش وكم كن راز قرآن رافضم
من تورا اندر دو عالم رافعم	طاغيان را از حديثت دافعم
كس نتاند بيش وكم كردن دراو	تو به از من حافظى ديگر مجو
رونقت را روز روز افزون كنم	نام تو بر زرّ وبر نقره ونم
منبر ومحراب سازم بهر تو	در محبّت قهر من شد قهر تو
نام تو از ترس پنهاس ميبرند	چون نماز آزند پنهان بگذرند
خفيه ميگويند نامت راكنون	خفيه هم بانگ نماز اي ذو فنون
از هراس وترس كفار لعين	دينت پنهان ميشود زيرزمين
من مناره بر كنم آفاق را	كور گردانم دو چشم عاق را

چا كرانت شهرها گيرند وجاه | دين تو گيردز ما هى تا بماه
تا قيامت باقيش داريم ما | تو مترس از نسخ دين اى مصطفى
اى رسول ماتو جادو نيستى | صادقى هم خرقه اژدها
گر جهان فرعون گيرد شرق وغرب | سرنگون آيد خدارا گاه حرب
تواگر درزير خاكى خفته اى | چون عصايش دان تو آنچه گفته اى
گرچه باشى خفته تودرزير خاك | چون عصا آگه بودآن گفت پاك
قاصد انرا بر عصايت دست نى | تو بخسب اى شه مبارك خفتنى
تن بخفته نور جان در آسمان | بهر پيكار توزه كرده كمان
فلسفى وآنچه پوزش ميكند | قوس نورت تير دوزش ميكند
چونكه چوپانش خدا است | گرگ را آنجا اميدوره كجا است

وإنّما اتسع نطاق الكلام في هذا البحث لما رأينا شدّة عناية النّاس به وكثرة حاجتهم إلى إيراد البرهان وإيضاح الحقّ في ذلك على أنا نرى كثيراً من الوعاظ على المنابر رفي المجالس يتمسّكون من غير روية وطويّة بطائفة من الأخبار على تحريف الكتاب ويقولون كيت وكيت والنّاس يتلقونه منهم على القبول فأحببت أن أقدم تلك المباحث الشريفة في هذا المقام المناسب لها فلعلّها تنفع من أراد أن يتذكر ويسلك سبيل الهدى ومع ذلك لولا خوف الإطناب لأحببت أن أذكر جميع الأخبار والأقوال الواردة ممّا تمسكوا بها على تحريف الكتاب وإن كان ما ذكرناه كاف لمن أخذت الفطانة بيده ولعلّنا نؤلف في ذلك رسالة على حدة تكون أعمّ فائدة والله تعالى ولي التوفيق فقد آن أن نرجع إلى ما كنّا فيه.

٢٤ ـ ومن ذلك أنه حمى الحمى عن المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلهم سواء في الماء والكلاء.

قال القاضي عبد الجبار في «**المغني**»: وأما ما ذكروه من أنه حمى الحمى عن المسلمين فجوابه أنه لم يحم الكلاء لنفسه ولا استأثر به لكنه حماه لإبل الصدقة التي منفعتها تعود على المسلمين وقد روى عنه هذا الكلام بعينه، وأنه قال: إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة وقد أطلقته الآن وأنا أستغفر الله وليس في الإعتذار ما يزيد على ذلك.

«اعتراض الشريف المرتضى عليه»

اعترض عليه علم الهدى في «**الشافي**» فقال: فأما اعتذاره في الحمى بأنه حماه لإبل الصدقة التي منفعتها تعود على المسلمين وأنه استغفر منه واعتذر، فالمروي أوّلاً بخلاف ما

ذكره لأن الواقدي روى بإسناده قال: كان عثمان يحمى الربذة والشرف والنقيع فكان لا يدخل في الحمى بعير له ولا فرس ولا لبني أمية حتّى كان آخر الزمان فكان يحمي الشرف لإبل وكانت ألف بعير ولإبل الحكم؛ وكان يحمى الربذة لإبل الصدقة ويحمى النقيع لخيل المسلمين وخيله وخيل بني أمّية، على أنّه لو كان حماه لإبل الصدقة لم يكن بذلك مصيباً لأن الله تعالى ورسوله ﷺ أحلاّ الكلاء وأباحاه وجعلاه مشتركاً فليس لأحد أن يغيّر هذه الإباحة، ولو كان في هذا الفعل مصيباً وإنّما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أن يستغفر منه ويعتذر لأنّ الاعتذار إنما يكون من الخطاء دون الصواب.

٢٥ ـ ومن ذلك أنّه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها وذلك ممّا لا يحلّ في الدين.

واعتذر القاضي في «**المغني**» بقوله: فأمّا ما ذكروه من إعطائه من بيت مال الصدقة المقاتلة فلو صحّ فإنّما فعل ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة إليه واستغناء أهل الصدقات على طريق الإقتراض، وقد روى عن رسول الله ﷺ أنّه كان يفعل مثل ذلك سراً وللإمام في مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرى هذا المجرى لأن عند الحاجة ربما يجوز له أن يقترض من النّاس فبأن يجوز أن يتناول من مال في يده ليردّه من المال الآخر أولى.

واعترض عليه علم الهدى في «**الشّافي**» بقوله: فأمّا اعتذاره من اعطائه المقاتلة من بيت مال الصدقة بأنّ ذلك إنما جاز لعلمه بحاجة المقاتلة إليه واستغناء أهل الصدقة عنه وأنّ الرّسول ﷺ فعل مثله، فليس بشيء لأنّ المال الذي جعل الله له جهة مخصوصة لا يجوز أن يعدل عن جهته بالاجتهاد ولو كانت المصلحة في ذلك موقوفة على الحاجة لشرطها الله تعالى في هذا الحكم لأنّه تعالى أعلم بالمصالح واختلافها منّا ولكان لا يجعل لأهل الصدقة منها القسط مطلقاً[1].

فأمّا قوله: إنّ الرّسول ﷺ فعله فهو دعوى مجرّدة من غير برهان وقد كان يجب أن يروى ما ذكر في ذلك.

فأمّا ما ذكره من الإقتراض فأين كان عثمان عن هذا العذر لما وقف عليه.

٢٦ ـ ومن ذلك ما فعل بأبي ذر رحمه الله تعالى واعلم أنّ جلالة شأن أبي ذر وفخامة أمره وعلوّ درجته ومكانته في الإسلام فوق أن يحوم حوله العبارة أو أن يحتاج إلى بيان وكلام، فقد روى الفريقان في سموّ رتبته وحسن إسلامه ما لا يسع هذه العجالة.

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٠.

قال في «**أسد الغابة**»: اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً وقول الأكثر وهو أصح ما قيل فيه: جندب بالجيم المضمومة والنون الساكنة والدال المهملة المفتوحة ابن جنادة بضمّ الجيم أيضاً. كان من كبار الصحابة وفضلائهم قديم الإسلام يقال: أسلم بعد أربعة وكان خامساً وهو أوّل من حيّى رسول الله ﷺ بتحية الإسلام وقال رسول الله ﷺ فيه: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي ذر. وفي عبارة أخرى: على ذي لهجة أصدق من أبي ذر وسئل جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام عن هذا الخبر فصدّقه[١].

وفي «**أسد الغابة**» أنّ النبيّ ﷺ قال: أبو ذر في أمّتي على زهد عيسى ابن مريم. وأنّ عليّاً عليه السلام قال: وعى أبو ذر علماً عجز النّاس عنه ثمّ أوكأ عليه فلم يخرج منه شيئاً. وكان آدم طويلاً عظيماً أبيض الرّأس واللّحية[٢].

«نفي عثمان أبا ذر من المدينة إلى الربذة ووفاته فيها» «وذكر السبب في ذلك»

في «**الشافي**» للشريف المرتضى علم الهدى: قد روى جميع أهل السيرة على اختلاف طرقهم وأسانيدهم أن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم ما أعطاه وأعطى الحرث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم؛ جعل أبو ذر يقول: بشّر الكافرين بعذاب أليم ويتلو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فرفع ذلك مروان إلى عثمان فأرسل إلى أبي ذر نائلاً مولاه أن انتهِ عمّا يبلغني عنك فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى وعيب من ترك أمر الله فوالله لأن أرضى الله بسخط عثمان أحبّ إليّ وخير من أن أرضى عثمان بسخط الله؛ فاغضب عثمان ذلك واحفظه وتصابر[٣].

وفيه وفي «**مروج الذهب**»: أنّ أبا ذر حضر مجلس عثمان ذات يوم فقال عثمان: أرأيتم من زكّى ماله هل فيه حق لغيره؟ فقال كعب الأحبار: لا يا أمير المؤمنين فدفع أبو ذر في صدر كعب وقال له: كذبت يا ابن اليهودي ثمّ تلا ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الآية. فقال عثمان: أيجوز للإمام أن يأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فينفقه فيما ينوبه من أموره فإذا أيسر قضاه؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك فرفع أبو ذر العصا فدفع بها في صدر كعب وقال: يا ابن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا فقال له عثمان: ما أكثر أذاك

---

(١) أسد الغابة: ١/ ٣٠١، وبحار الأنوار: ٦/ ٤.
(٢) الغدير: ٨/ ٣١٤، وتفسير جوامع الجامع: ١/ ٥١٠ ح ٥٥٩.
(٣) بحار الأنوار: ٣١/ ١٧٥، والغدير: ٨/ ٢٩٣ ح ٢٠.

لي وتولعك بأصحابي غيّب وجهك عنّي فقد آذيتني؛ الحق بالشام فأخرجه إليها. وكان معاوية يومئذ عامل عثمان بالشام وكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها فبعث إليه معاوية ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذر: إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها وردّها عليه.

وبنى معاوية الخضراء بدمشق فقال أبو ذر: يا معاوية إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها وإن كان من مالك فهي الإسراف.

وكان أبو ذر رَحَمَهُ اللهُ يقول: والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيّه والله إنّي لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيى وصادقاً مكذباً وأثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه. فقال حبيب بن مسلمة الفهرى لمعاوية: إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام فتدارك أهله إن كانت لكم فيه حاجة فكتب معاوية إلى عثمان أنّ أبا ذر تجتمع إليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم عليك فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك.

فكتب إليه عثمان: أما بعد فاحمل جندباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره.

فوجّه به مع من سار به اللّيل والنهار وحمل على شارف ليس عليها إلا قتب حتّى قدم المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد. وقال المسعودي: فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به حتّى أتوا به المدينة قد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف فقيل له: إنّك تموت من ذلك، فقال: هيهات لن أموت حتّى أنفى وذكر جوامع ما ينزل به بعد ومن يتولى دفنه[1].

وفي «الشافي»: فلمّا قدم أبو ذر المدينة بعث إليه عثمان بأن الحق بأيّ أرض شئت فقال: بمكّة قال: لا؛ قال: فبيت المقدس؛ قال: لا، قال: فبأحد المصرين، قال: لا ولكني مسيرك إلى الرّبذة فسيره إليها: فلم يزل بها حتّى مات رحمه الله تعالى.

وفي رواية الواقدي أنّ أبا ذر لما دخل على عثمان فقال له: لا أنعم الله علينا يا جنيدب فقال أبو ذر: أنا جندب وسمّاني رسول الله ﷺ عبد الله فاخترت اسم رسول الله الذي سمّاني به على اسمي، فقال له عثمان: أنت الذي تزعم أنا نقول إنّ يد الله مغلولة إنّ الله فقير ونحن أغنياء؟ فقال أبو ذر: ولو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مال الله على عباده ولكني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً وعباد الله خولا ودين الله دخلاً ثمّ يريح الله العباد منهم. فقال عثمان لمن حضره:

(١) الغدير: ٨/ ٢٩٦، ومواقف الشيعة: ٢/ ٧.

أسمعتموها من نبي الله؟ فقالوا: ما سمعناه؛ فقال عثمان: ويلك يا أبا ذر أتكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال أبو ذر لمن حضره: أما تظنون أني صدقت؟ فقال عثمان: ادعوا لي علياً عليه السلام؛ فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: أقصص عليه حديثك في بني أبي العاص فحدّثه، فقال عثمان لعليّ عليه السلام: هل سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عليّ عليه السلام لا، وقد صدق أبو ذر؛ فقال عثمان: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر فقال من حضر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله جميعاً: صدق أبو ذر. فقال أبو ذر: أحدثكم أني سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ تتهموني ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله[(١)].

وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده عن صهبان مولى الأسلميين قال: رأيت أبا ذر يوم دخل به على عثمان فقال له: أنت الذي فعلت وفعلت. قال أبو ذر: إنّي نصحتك فاستغششتني ونصحت صاحبك فاستغشني. فقال عثمان: كذبت ولكنك تريد الفتنة وتحبّها قد قلبت الشام علينا. فقال أبو ذر: اتبع سنة صاحبيك لا يكون لأحد عليك كلام فقال له عثمان: مالك ولذلك لا أُم لك؟ فقال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلاّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فغضب عثمان فقال: أشيروا عليّ في هذا الشيخ الكذاب: إمّا أن أضربه أو أحبسه أو أقتله فإنّه قد فرّق جماعة المسلمين أو أنفيه من الأرض، فتكلم عليّ عليه السلام وكان حاضراً فقال: أُشير عليه بما قال مؤمن آل فرعون ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨] فأجابه عثمان بجواب غليظ لم أُحبّ أن أذكره وأجابه عليّ عليه السلام بمثله.

ثمّ أمر أن يؤتى به فلما أتى به وقف بين يديه قال: ويحك يا عثمان أما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله ورأيت أبا بكر وعمر هل رأيت هذا هديهم (**هل هديك كهديهم؟ خ ل**) إنّك تبطش بي بطش جبّار فقال: اخرج عنا من بلادنا فقال أبو ذر: فما أبغض إليّ جوارك قال: فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئت. قال: أفأخرج إلى الشام أرض الجهاد؟ فقال: إنما جلبتك من الشام لما قد أفسدتها؛ أفأردك إليها؟ قال: أفأخرج إلى العراق؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: تقدم على قوم أهل شبهة وطعن على الأئمة. قال: أفأخرج إلى مصر؟ قال: لا. قال: أين أخرج؟ قال: حيث شئت. فقال أبو ذر هو أيضاً التعرب بعد الهجرة أخرج إلى نجد؟ فقال عثمان: الشرف الشرف الأبعد أقصى فأقصى. فقال أبو ذر: قد أبيت ذلك عليّ. قال: إمض على وجهك هذا ولا تعدون الربذة فخرج إليها[(٢)].

(١) كتاب الأربعين: ٦٠٨، وبحار الأنوار: ٢٢/٤١٧.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/١٧٩، ومواقف الشيعة: ٢/١٦.

قال المسعودي ـ بعد ذكر جلوسه لدى عثمان وذكر الخبر في ولد أبي العاص إذا بلغوا ثلاثين؛ الخبر ـ قال: وكان في ذلك اليوم قد أتى عثمان بتركة عبد الرحمٰن عوف الزهري من المال فنضت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الرّحمٰن خيراً لأنّه كان يتصدق ويقرى الضيف وترك ما ترون؛ فقال كعب الأخبار: صدقت يا أمير المؤمنين؛ فشال أبو ذر العصا فضرب بها رأس كعب ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال: يا ابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال إنّ الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة وتقطع على الله بذلك؟ وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما يسرّني أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً، فقال له عثمان: وار عنّي وجهك؛ فقال: أسير إلى مكة. قال: لا والله. قال: فتمنعني من بيت ربّي أعبده فيه حتّى أموت؟ قال: إي والله قال: فإلى الشام. قال: لا والله، قال: البصرة قال: لا والله؛ فاختر غير هذه البلدان؛ قال: لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك ولو تركتني في دار هجرتي ما أردت شيئاً من البلدان فسيّرني حيث شئت من البلاد. قال: فإنّي مسيّرك إلى الرّبذة. قال: الله أكبر صدق رسول الله ﷺ قد أخبرني بكلّ ما أنا لاق. قال عثمان: وما قال لك؟ قال: أخبرني بأني أُمنع عن مكة والمدينة وأموت بالربذة ويتولّى مواراتي نفر ممّن يردون من العراق نحو الحجاز.

وبعث أبو ذر إلى جمل له فحمل عليه امرأته وقيل ابنته وأمر عثمان أن يتجافاه النّاس حتى يسير إلى الرّبذة.

«كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام والحسنين وعقيل لأبي ذر رحمه الله» «لما أخرجه عثمان إلى الربذة وكلام أبي ذر رحمه الله

قد مضى كلامه عليه السلام لأبي ذرّ رحمه الله تعالى لما أُخرج إلى الرّبذة «الرقم ـ ١٣٠ ـ من باب المختار من الخطب» وهو: «يا أبا ذر إنّك غضبت لله فارج من غضبت له إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك». إلى آخره.

قال الشارح المعتزلي في شرح كلامه عليه السلام هذا وقريباً منه المسعودي في **«مروج الذهب»**: واقعة أبي ذر وإخراجه إلى الربذة أحد الأحداث التي نقمت على عثمان.

وقد روى هذا الكلام أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة عن عبد الرزاق عن أبيه عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: لمّا أخرج أبو ذر إلى الرّبذة أمر عثمان فنودي في النّاس أن لا يكلم أحداً أبا ذر ولا يشيّعه وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به فخرج به وتحاماه النّاس إلاّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعقيلاً أخاه وحسناً وحسيناً وعمّاراً فإنهم خرجوا معه يشيّعونه، فجعل الحسن عليه السلام يكلّم أبا ذر فقال له مروان: إيهاً يا حسن! ألا تعلم أن أمير

المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرّجل فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل عليّ عليه السلام على مروان فضرب بالسوط بين أذني راحلته وقال: تنحّ نحاك الله إلى النّار فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر فتلظى على عليّ عليه السلام ووقف أبو ذر فودّعه القوم ومع ذكوان مولى أمّ هاني بنت أبي طالب.

قال ذكوان: فحفظت كلام القوم وكان حافظاً فقال عليّ عليه السلام.

«يا باذر! إنّك غضبت لله إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فامتحنوك بالقلى ونفوك إلى الفلا والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقا ثمّ اتقى الله لجعل له منها مخرجاً؛ يا أبا ذر! لا يونسنّك إلاّ الحقّ ولا يوحشنّك إلاّ الباطل.

ثمّ قال عليه السلام لأصحابه: ودّعوا عمّكم؛ وقال لعقيل: ودّع أخاك فتكلّم عقيل فقال: ما عسى أن نقول يا أبا ذر أنت تعلم أنا نحبّك وأنت تحبّنا فاتق الله فإنّ التقوى نجاة واصبر فإنّ الصبر كرم واعلم أن استثقالك الصبر من الجزع واستبطائك العافية من اليأس فدع اليأس والجذع.

ثمّ تكلّم الحسن عليه السلام فقال: يا عمّاه لولا أنّه لا ينبغي للمودّع أن يسكت وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الأسف وقد أتى القوم إليك ما ترى فضع عنك الدنيا بتذكر فراقها وشدة ما اشتدّ منها برجاء ما بعدها واصبر حتّى تلقى نبيّك صلى الله عليه وآله وهو عنك راض.

ثمّ تكلّم الحسين عليه السلام فقال: يا عمّاه إنّ الله تعالى قادر أن يغيّر ما قد ترى والله كلّ يوم هو في شأن وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك فما أغناك عمّا منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم فاسأل الله الصبر والنصر واستعذ به من الجشع والجزع فإن الصبر من الدّين والكرم وإن الجشع لا يقدم رزقاً والجزع لا يؤخر أجلاً.

ثم تكّلم عمار رحمه الله مغضباً فقال: لا آنس الله من أوحشك ولا آمن من أخافك أما والله لو أردت دنياهم لآمنوك ولو رضيت أعمالهم لأحبّوك وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا والجزع من الموت ومالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم ومنحهم القوم دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة ألا ذلك هو الخسران المبين. فبكى أبو ذر رحمه الله وكان شيخاً كبيراً وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم إنّي ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين فافسد الناس عليهما فسيّرني إلى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلاّ الله، والله ما أريد إلاّ الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة.

فشكى مروان إلى عثمان ما فعل به عليّ بن أبي طالب فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرني من عليّ ردّ رسولي عما وجهته له وفعل كذا والله لنعطينّه حقّه.

فلمّا رجع عليّ عليه السلام استقبله النّاس فقالوا: إنّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر. فقال عليّ: غضب الخيل على اللجم؛ ثمّ جاء فلما كان بالعشيّ جاء إلى عثمان فقال له: ما حملك على ما صنعت بمروان واجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري؟ قال: أما مروان فإنّه استقبلني يردّني فرددته عن ردّي وأما أمرك فلم أصغره.

قال: أوما بلغك نهيي عن كلام أبي ذر؟ قال: أو ما كلّما أمرت بأمر معصية أطعناك فيه؟ قال عثمان: أقد مروان من نفسك؛ قال: وما أقيده؟ قال: ضربت بين أذني راحلته؛ قال علي: أما راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل، وأمّا شتمه إياي فوالله لا يشتمني شتمة إلاّ شتمتك مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلاّ حقاً، فغضب عثمان وقال: ولـم لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما أنت عندي بأفضل منه. فغضب عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقال: ألي تقول هذا القول وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك وأبي أفضل من أبيك وأمي أفضل من أمّك وهذه نبلي قد نثلتها وهلم فأقبل بنبلك فغضب عثمان واحمرّ وجهه فقام ودخل داره وانصرف عليّ عليه السلام فاجتمع إليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والأنصار.

فلمّا كان الغد أرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين والأنصار وإلى بني أمية يشكو إليهم علياً عليه السلام وقال: إنه يعيبني ويظاهر من يعيبني - يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما - فقال القوم: أنت الوالي عليه وإصلاحه أجمل؛ قال: وددت ذاك. فأتوا عليّاً عليه السلام فقالوا: لو اعتذرت إلى مروان وأتيته؛ فقال: كلاّ أما مروان فلا آتيه ولا أعتذر منه ولكن إن أحبّ عثمان آتيته. فرجعوا إلى عثمان فأخبروه فأرسل عثمان إليه فأتاه ومعه بنو هاشم فتكلّم عليّ عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا ما وجدت علي فيه من كلام أبي ذر ووداعه فوالله ما أردت مساءتك ولا الخلاف عليك ولكن أردت به قضاء حقّه؛ وأما مروان فإنّه اعترض يريد ردّي عن قضاء حقّ الله عزّ وجلّ فرددته ردّ مثلي مثله؛ وأما ما كان منّي إليك فإنك أغضبتني فأخرج الغضب منّي ما لم أرده.

فتكلّم عثمان فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا ما كان منك إليّ فقد وهبته لك، وأما ما كان منك إلى مروان فقد عفى الله عنك، وأما ما حلفت عليه فأنت البر الصادق فادن يدك فأخذ يده فضمّها إلى صدره. فلمّا نهض قالت قريش وبنو أمية لمروان: أأنت رجل جبهك عليّ وضرب راحلتك وقد تفانت وائل في ضرع ناقة وذبيان وعبس في لطمة فرس والأوس والخزرج في نسعة؟ أفتحمل لعليّ ما أتاه إليك؟ فقال مروان: والله لو أردت ذلك لما قدرت عليه.

ثمّ قال الشارح المعتزلي: واعلم أن الذي عليه أكثر أرباب السيرة وعلماء الأخبار والنقل أن عثمان نفا أبا ذر أوّلاً إلى الشام ثمّ استقدمه إلى المدينة لما شكى منه معاوية ثمّ نفاه من المدينة إلى الربذة لما عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام وأصل هذه الواقعة أن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوت الأموال واختص زيد بن ثابت بشيء منها جعل أبو ذر يقول بين النّاس والطرقات والشوارع بشّر الكافرين بعذاب أليم ويرفع بذلك صوته ـ فأتى بما نقلنا من «**الشافي**» بحذافيرها[1].

وروى الواقدي ـ كما في «**الشافي**» ـ عن مالك بن أبي الرجال عن موسى بن ميسرة أن أبا الأسود الدّؤلي قال: كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب خروجه فنزلت به الرّبذة فقلت له: ألا تخبرني خرجت من المدينة طائعاً أو أُخرجت؟

قال: أمّا إنّي كنت في ثغر من الثغور أغنى عنهم فاخرجت إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله فقلت دار هجرتي وأصحابي فأخرجت منها إلى ما ترى، ثمّ قال: بينا أنا ذات ليلة نائم في المسجد إذ مرّ بي رسول الله صلى الله عليه وآله فضربني برجليه فقال: لا أراك نائماً؛ فقلت: بأبي أنت وأُمّي غلبتني عيني فنمت فيه؛ فقال: كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟ فقلت: إذاً ألحق بالشام فإنها أرض مقدسة وأرض بقيّة الإسلام وأرض الجهاد؛ فقال: كيف بك إذا أخرجوك منها؟ قال: فقلت: أرجع إلى المسجد؛ قال: كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟ قلت: آخذ سيفي فاضرب به؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أدلّك على خير من ذلك انسق معهم حيث ساقوك وتسمع وتطيع فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع والله ليلقينّ الله عثمان وهو آثم في جنبي. وكان يقول بالرّبذة: ما ترك الحقّ لي صديقاً وكان يقول فيها: ردّني عثمان بعد الهجرة أعرابياً[2].

أقول: في «**الصّحاح**» للجوهري: تعرّب بعد هجرته أي صار أعرابيّاً. وفي «**النهاية**» الآثيرية: التعرّب بعد الهجرة هو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً وكان من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من غير عذر يعدّونه كالمرتدّ.

وفي باب علل تحريم الكبائر من «**الوافي**» للفيض رحمه الله (**م ٣ ص ١٧٦**) نقلاً عن «**من لا يحضره الفقيه**»: كتب عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام إلى محمّد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله ـ إلى أن قال عليه السلام: وحرّم الله التعرب بعد الهجرة للرجوع عن الدين وترك الموازرة للأنبياء والحجج عليهم أفضل الصلوات وما في ذلك من الفساد وإبطال حقّ كلّ ذي حق لا

(١) كتاب الأربعين: ٦٠٤، والغدير: ٨/ ٣٠٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/ ١٨٠، والغدير: ٨/ ٢٩٤.

لعلّة سكنى البدو ولذلك لو عرف الرجل الدين كاملاً لم يجز له مساكنة أهل الجهل، والخوف عليه لأنه لا يؤمن أن وقع منه ترك العلم والدّخول مع أهل الجهل والتمادي في ذلك(١).

قال الفيض في بيانه: وفي بعض النسخ: لعلة سكنى البدو وبدون لا وهو أوضح وأوثق بما بعده؛ والخوف عليه عطف على الفساد والإبطال. انتهى، فتأمّل.

«اعتذار القاضي عبد الجبار وشيخه أبي علي على نفي أبي ذر» «إلى الربذة»

قال في «**الشافي**»: حكى القاضي عن شيخه أبي علي في نفي أبي ذر إلى الربذة أنّ الناس اختلفوا في أمره فروى عنه أنّه قيل لأبي ذر: أعثمان أنزلك الربذة؟ فقال: لا، بل اخترت لنفسي ذلك وروى أن معاوية كتب يشكوه وهو بالشام فكتب إليه عثمان أن صيّره إلى المدينة فلما صار إليه قال: ما أخرجك إلى الشام؟ قال: لأنّي سمعت الرّسول ﷺ يقول: إذا بلغت عمارة المدينة موضع كذا فأخرج عنه فلذلك خرجت؛ قال: فأي البلاد أحب إليك بعد الشام؟ فقال: الرّبذة؛ فقال: صر إليها وإذا تكافأت الأخبار لم يكن في ذلك لهم حجّة ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يخرج إلى الربذة لصلاح يرجع إلى الدّين فلا يكون ظلماً لأبي ذر بل ربما يكون إشفاقاً عليه وخوفاً من أن يناله من بعض أهل المدينة مكروه(٢).

فقد روى أنه كان يغلظ في القول ويخشن في الكلام ويقول: لم يبق أصحاب رسول الله ﷺ على عهد وينفر بهذا القول فرأى إخراجه أصلح لما يرجع إليهم وإليه من المصلحة وإلى الدين. وقد روى أن عمر أخرج عن المدينة نصر بن حجاج لما خاف ناحيته. قال: وندب الله تعالى إلى خفض الجناح للمؤمنين وإلى القول اللين للكافرين وبين للرسول ﷺ أنّه لو استعمل الفظاظة لانفضّوا من حولك فلمّا رأى عثمان من خشونة كلام أبي ذر وما كان يورده مما يخشى منه التنفير فعل ما فعل.

وقد روى عن زيد بن وهب قال: قلت لأبي ذر وهو بالربذة: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: أخبرك أنّي كنت بالشام في أيام معاوية وقد ذكرت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] فقال معاوية هذه في أصل الكتاب فيهم وفينا فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك فكتب إليّ أن أقدم عليّ فقدمت

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/٥٦٦ ح ٤٩٣٤، وعلل الشرائع: ٢/٤٨١ ح ١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/٥٣.

عليه فانثال الناس إليّ كأنهم لم يعرفوني فشكوت ذلك إلى عثمان فخيّرني وقال: إن أحببت أنزل حيث شئت فنزلت الرّبذة وحكى عن الخياط قريباً مما تقدم من أنّ خروج أبي ذر إلى الربذة كان باختياره قال: وأقلّ ما في ذلك أن يختلق الأخبار فتطرح ونرجع إلى الأمر الأوّل في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله.

«جواب الشريف المرتضى علم الهدى واعتراضه»

اعترض في «**الشافي**» عليه وردّ كلامه بقوله: فأمّا قوله «إن الأخبار مكافئة في أمر أبي ذر وإخراجه إلى الرّبذة وهل كان ذلك باختياره أو بغير اختياره» فمعاذ الله أن يتكافىء في ذلك بل المعروف الظاهر أنه نفاه من المدينة إلى الرّبذة، ثمّ أتى بالروايات الثلاث عن الواقدي. وقوله: قد روى جميع أهل السيرة على اختلاف الطرق إلى آخر ما نقلناه عنه من «**الشافي**» المذكورة آنفاً ثمّ قال: والأخبار في هذا الباب أكثر من أن نحصرها وأوسع من أن نذكرها أو ما تحمل نفسه على ادّعا إن أبا ذر خرج مختاراً إلى الربذة.

قال: ولسنا ننكر أن يكون ما أورده صاحب الكتاب من أنّه خرج مختاراً قد روى إلاّ أنّه في الشاذّ النادر وبإزاء هذه الرواية الفذة كلّ الروايات التي تتضمن خلافها ومن تصفّح الأخبار علم أنها غير متكافئة على ما ظن صاحب الكتاب ـ يعني به القاضي صاحب كتاب «**المغني**» ـ وكيف يجوز خروجه عن تخيير وإنما اشخص من الشام على الوجه الذي اشخص عليه من خشونة المركب وقبح السير به للموجدة عليه. ثمّ لما قدم منع الناس من كلامه وأغلظ له في القول وكلّ هذا لا يشبه أن يكون أخرجه إلى الرّبذة باختياره. وكيف يظن عاقل أن أبا ذر يحبّ أن يختار الرّبذة منزلاً مع جدبها وقحطها وبعدها عن الخيرات ولم يكن بمنزل مثله.

فأمّا قوله «إنّه اشفق عليه من أن يناله بعض أهل المدينة بمكروه من حيث كان يغلظ له القول» فليس بشيء يعوّل عليه لأنه لم يكن في أهل المدينة إلاّ من كان راضياً بقوله عاتباً بمثل عتبه إلا أنهم كانوا بين مجاهر بما في نفسه ومخف ما عنده وما في أهل المدينة إلاّ من رثى مما حدث على أبي ذر واستفظعه ومن رجع إلى كتب السير عرف ما ذكرناه.

فأما قوله «إن عمر أخرج من المدينة نصر بن حجاج» فيا بعد ما بين الأمرين وما كنا نظن أن أحداً يسوّى بين أبي ذر وهو وجه الصحابة وعينهم ومن أجمع المسلمون على توقيره وتعظيمه وأن رسول الله ﷺ مدحه من صدق اللهجة بما لم يمدح به أحداً وبين نصر بن الحجاج الحدث الذي كان خاف عمر من افتتان النساء به وبشبابه ولا حظ له في فضل ولا دين. على أن عمر قد ذم بإخراجه نصر بن الحجاج من غير ذنب كان منه وإذا كان من أخرج نصر بن الحجّاج مذموماً فكيف بمن أخرج مثل أبي ذر رحمه الله؟

فأمّا قوله «إنّ الله تعالى والرّسول ﷺ ندبا إلى خفض الجناح ولين القول للمؤمن والكافر» فهو كما قال إلاّ أن هذا أدب كان ينبغي أن يتأدب به عثمان في أبي ذر ولا يقابله بالتكذيب وقد قطع الرسول ﷺ على صدقه ولا يسمعه مكروه الكلام وهو إنما نصح له وأهدى عليه عيوبه وعاتبه على ما لو نوزع عنه لكان خيراً له في الدنيا والآخرة وهذه جملة كافية.

في تاريخ أبي جعفر الطبري: لما حضرت الوفاة أبا ذر في الربذة وذلك في سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة في سنة ثمان في ذي الحجة من إمارة عثمان قال لابنته: استشرفي يا بنيّه فانظري هل ترين أحداً؟ قالت: لا؛ قال: فما جاءت ساعتي بعد، ثمّ أمرها فذبحت شاة ثمّ طبختها. ثمّ قال: إذا جاءك الذين يدفنوني فقولي لهم: إن أبا ذر يقسم عليكم أن لا تركبوا حتّى تأكلوا فلمّا نضجت قدرها قال لها: انظري هل ترين أحداً؟ قالت: نعم؛ هؤلاء ركب مقبلون، قال: استقبلي بي الكعبة؛ ففعلت وقال: بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله ﷺ. ثمّ خرجت ابنته فتلقتهم وقالت رحمكم الله اشهدوا أبا ذر. قالوا: أين هو؟ فأشارت لهم إليه وقد مات فادفنوه قالوا: نعم ونعمة عين لقد أكرمنا الله بذلك وإذا ركب من أهل الكوفة فيهم ابن مسعود فمالوا إليه وابن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ يموت وحده ويبعث وحده فغسلوه وكفنوه وصلّوا عليه ودفنوه فلما أرادوا يرتحلوا قالت لهم: إنّ أبا ذر يقرأ عليكم السلام وأقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا ففعلوا.

وفيه في رواية أخرى بإسناده عن الحلحال بن ذرى قال: خرجنا مع ابن مسعود سنة ـ ٣١ ـ ونحن أربعة عشر راكباً حتّى أتينا على الرّبذة فإذا امرأة قد تلقتنا فقالت: اشهدوا أبا ذر وما شعرنا بأمره ولا بلغنا فقال وأين أبو ذر؟ فأشارت إلى خباء فمال ابن مسعود إليه وهو يبكي فغسلناه وكفناه وإذا خباؤه خباء منضوح بمسك فقلنا للمرأة ما هذا؟ فقالت كانت مسكة فلما حضر قال: إنّ الميت يحضره شهود يجدون الريح ولا يأكلون فدوفى تلك المسكة بماء ثمّ رشى بها الخباء فاقريهم ريحها واطبخي هذا اللحم فإنه سيشهدني قوم صالحون يلون دفني فاقريهم فلما دفنّا دعتنا إلى الطعام فأكلنا. والأحاديث في فضائل أبي ذر وإسلامه وترجمته ومقامه في الرّبذة وموته وصلاة عبد الله بن مسعود عليه ومن كان معه في موته كثيرة لا نطول بذكرها[1].

«الكلام في اجتماع الناس وتذاكرهم أعمال عثمان»

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: ذكر محمّد بن عمر أنّ عبد الله بن جعفر حدثه عن أمّ

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٥٤، وأسد الغابة: ٥/ ١٨٨، وتاريخ مدينة دمشق: ٦٦/ ٢١٨.

بكر بنت المسور بن مخرمة عن أبيها قال: قدمت إبل من إبل الصدقة على عثمان فوهبها لبعض بني الحكم فبلغ ذلك عبد الرحمٰن بن عوف فأرسل إلى المسور بن مخرمة وإلى عبد الرحمٰن بن الأسود بن عبد يغوث فأخذاها فقسمها عبد الرحمٰن في النّاس وعثمان في الدار.

قال: قال محمّد بن عمرو حدثني محمّد بن صالح عن عبيد الله بن رافع بن نقاحة عن عثمان بن الشريد قال: مرّ عثمان على جبلة بن عمرو الساعدي وهو بفناء داره ومعه جامعة فقال: يا نعثل والله لأقتلنّك ولأحملنك على قلوص جرباء ولأُخرجنّك إلى حرة النّار، ثمّ جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزله عنه.

قال: كان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السيىء جبلة بن عمرو الساعدي مرّ به عثمان وهو جالس في ندى قومه وفي يد جبلة بن عمرو جامعة فلمّا مرّ عثمان سلّم فردّ القوم فقال جبلة: لم تردّون على رجل فعل كذا وكذ؟ ثمّ أقبل على عثمان فقال: والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه. قال عثمان: أيّ بطانة؟ فوالله إني لأتخيّر النّاس فقال: مروان تخيّرته، ومعاوية تخيّرته، وعبد الله بن عامر بن كريز تخيّرته، وعبد الله بن سعد تخيّرته، منهم من نزل القرآن بدمه وأباح رسول الله ﷺ دمه. قال: فانصرف عثمان فما زال النّاس مجترئين عليه.

قال: وخطب في بعض أيامه فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إنّك قد ركبت نهابير وركبناها معك فتب نتب ـ إلى أن قال: ثم لما كان بعد ذلك خطب عثمان الناس فقام إليه جهجاه الغفاري فصاح: يا عثمان ألا إن هذه شارف قد جئنا بها عليها عباءة وجامعة قم يا نعثل فانزل عن هذا المنبر فلندرعك العباءة ولنطرحك في الجامعة ولنحملك على الشارف ثمّ نطرحك في جبل الدخان، فقال عثمان: قبحك الله وقبح ما جئت به، قال: ولم يكن ذلك إلاّ عن ملإ من النّاس وقام إلى عثمان خيرته وشيعته من بني أمية فحملوه وأدخلوه الدار.

قال: بعدما غزا المسلمون غزوة الصواري ونصرهم الله على الأعداء فقتلوا منهم مقتلة عظيماً وهزم القوم جعل محمّد بن أبي حذيفة يقول: أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقّاً، فقيل له: وأيّ جهاد؟ فيقول: عثمان بن عفان فعل كذا وكذا وفعل كذا وكذا حتّى أفسد النّاس فقدموا بلدهم وقد أفسدهم وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به.

قال: بإسناده عن الزهري قال: خرج محمّد بن أبي حذيفة ومحمّد بن أبي بكر عام خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح ـ يعني عام ٣١ خرج عبد الله بن سعد بأمر عثمان لغزوة الرّوم التي يقال لها غزوة الصواري ـ فأظهرا عيب عثمان وما غير وما خالف به أبا بكر وعمر وأنّ دم عثمان حلال، ويقولان: استعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله ﷺ أباح دمه

ونزل القرآن بكفره وأخرج رسول الله ﷺ قوماً وأدخلهم - يعني حكم بن العاص وابنه مروان الطريدين وغيرهما - ونزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين - إلى أن قال: وعابا عثمان أشدّ العيب.

وروى بإسناده عن عبد الرحمٰن بن يسار أنّه قال: لما رأى النّاس ما صنع عثمان كتب من بالمدينة من أصحاب النبيّ ﷺ إلى من بالآفاق منهم وكانوا قد تفرقوا في الثغور: إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عزّ وجلّ تطلبون دين محمّد ﷺ فإنّ دين محمّد قد أفسد من خلفكم وترك فهلموا فأقيموا دين محمّد ﷺ فأقبلوا من كلّ أفق حتى قتلوه[1].

«نصح أمير المؤمنين علي عليه السلام عثمان»

قال: وأما الواقدي فإنّه زعم أن عبد الله بن محمّد حدّثه عن أبيه قال: لمّا كانت سنة - ٣٤ - كتب أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم إلى بعض أن أقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد وأصحاب رسول الله ﷺ يرون ويسمعون ليس فيهم أحد ينهى ولا يذبّ إلاّ نفير زيد بن ثابت وأبو أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فاجتمع النّاس وكلّموا عليّ بن أبي طالب عليه السلام فدخل على عثمان فقال: النّاس ورائي وقد كلّموني فيك والله ما أدري ما أقول لك وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه إنّك لتعلم ما نعلم ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك، وأنّك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحماً ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا ولا سبقاك إلى شيء فالله الله في نفسك فإنّك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وإنّ الطريق لواضح بيّن وإن أعلام الدّين لقائمة تعلم يا عثمان أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهَدى فأقام سنّة معلومة وأمات بدعة متروكة فوالله إن كلا لبيّن وإن السنن لقائمة لها اعلام وأنّ البدع لقائمة لها اعلام وأنّ شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ وُضلّ به فأمات سنة معلومة واحيا بدعة متروكة وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنّم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثمّ يرتطم في غمرة جهنم وإنّي أحذّرك الله واحذّرك سطواته ونقماته فإن عذابه شديد أليم واحذّرك أن

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٠١، والغدير: ٩/ ١٦١، وأحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ١٤١، وبحار الأنوار: ٣١/ ١٦٣، والغدير: ٩/ ١٦١ ح٨.

تكون إمام هذه الأمّة المقتول فإنّه يقال: يقتل في هذه الأمّة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة وتلبس أمورها عليها ويتركها شيعاً فلا يبصرون الحقّ لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً.

فقال عثمان: قد والله علمت ليقولن الذي قلت أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلّة وآويت ضائعاً ووليت شبيها بمن كان عمر يولي؛ انشدك الله يا علي هل تعلم أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم؛ قال: فتعلم أنّ عمر ولآه؟ قال: نعم؛ قال: فلم تلومونني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟

قال عليّ عليه السلام: سأخبرك أنّ عمر بن الخطّاب كان كل من ولّي فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنه حرف جبله ثمّ بلغ به أقصى الغاية وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقربائك.

قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً، فقال عليّ عليه السلام: لعمري إن رحمهم مني لقريبة ولكنّ الفضل في غيرهم.

قال عثمان: هل تعلم أنّ عمر ولّى معاوية خلافته كلّها فقد وليته؟

فقال عليّ عليه السلام: انشدك الله هل تعلم أنّ معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟ قال: نعم، قال علي عليه السلام: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول النّاس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية. ثمّ خرج عليّ عليه السلام من عنده.

وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر فاستمال قلوب النّاس إليه بما قال واعتذر من أفعاله واشتكى من الناس بما قالوا في مطاعته وقوادحه فلما انتهى من كلامه قام مروان بن الحكم فقال مخاطباً للناس: إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنت كما قال الشاعر:

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم   معارسكم تبنون في دمن الثرى

فقال عثمان: اسكت لاسكتّ دعني وأصحابي ما منطقك في هذا ألم أتقدم إليك ألاّ تنطق؟! فسكت مروان ونزل عثمان[1].

أقول: أتى بما رواه الطبري من نصح أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عثمان الشيخ الأجل المفيد قدس سره في كتاب «**الجمل**» أيضاً ـ ص ٨٤ طبع النجف ـ وكذا نقله الشريف الرضي رضوان الله عليه في «**النهج**» وهو الكلام ـ ١٦٣ ـ من المختار من باب الخطب معنوناً بقول

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٦٥، وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٨.

الرضي: ومن كلام له عليه السلام لما اجتمع النّاس عليه وشكوه مما نقموه على عثمان وسألوه مخاطبته عنهم واستعتابه لهم فدخل عليه السلام عليه فقال: إنّ النّاس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم ووالله ما أدري ما أقول لك ـ إلخ وبين النسخ الثلاث اختلاف يسير.

وروى الطبري بإسناده عن عبد الله بن زيد العنبري أنه قال: اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلّمه ويخبره بأحداثه فأرسلوا إليه عامر بن عبد الله التميمي فأتاه فدخل عليه فقال له: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أُموراً عظاماً فاتق الله عزّ وجلّ وتب إليه وانزع عنها.

قال له عثمان: انظر إلى هذا فإن النّاس يزعمون أنّه قارىء ثمّ هو يجيء فيكلّمني في المحقرات فوالله ما يدري أين الله.

قال عامر: إنا لا ندري أين الله، قال: نعم والله ما تدري أين الله، قال عامر: بلى والله إنّي لأدري أنّ الله بالمرصاد لك.

فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى سعيد بن العاص وإلى عمرو بن العاص بن وائل السهمي وإلى عبد الله بن عامر فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه وما بلغه عنهم فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكلّ امرىء وزراء ونصحاء وإنّكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع النّاس ما قد رأيتم وطلبوا إليّ أن أعزل عمّالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبّون فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ.

فقال له عبد الله بن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمّرهم في المغازي حتّى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلاّ نفسه وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه.

ثمّ أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له: ما رأيك؟ قال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف واعمل برأي تصب، قال: وما هو؟ قال: إن لكلّ قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر، فقال عثمان: إن هذا الرأي لولا ما فيه.

ثمّ أقبل على معاوية فقال: ما رأيك؟ قال: أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلي.

ثمّ أقبل على عبد الله بن سعد فقال: ما رأيك؟ قال: أرى يا أمير المؤمنين أن النّاس

أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم.

ثمّ أقبل على عمرو بن العاص، فقال له: ما رأيك؟ قال: أرى أنك قد ركبت النّاس بما يكرهون فاعتزم أن تعتدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً.

فقال عثمان: ما لك قمل فروك أهذا الجدّ منك فاسكت عنه دهراً حتّى إذا تفرّق القوم قال عمرو: لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أعزّ عليّ من ذلك ولكن قد علمت أن سيبلغ النّاس قول كلّ رجل منا فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شرّاً. فردّ عثمان عماله على أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم وأمرهم بتجمير النّاس في البعوث وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه، وردّ سعيد بن العاص أميراً على الكوفة فخرج أهل الكوفة عليه بالسلاح فتلقوه فردّوه وقالوا: لا والله لا يلي علينا حكماً ما حملنا سيوفنا(١).

قال المسعودي والواقدي والطبري وغيرهما من أصحاب السير: لما كان سنة خمس ثلاثين سار مالك بن الحارث النخعي من الكوفة في مائتي رجل وحكيم بن جبلة العبدي في مائة رجل من أهل البصرة، ومن أهل مصر ستمائة رجل على أربعة ألوية لها رؤوس أربعة مع كلّ رجل منهم لواء وفيهم محمّد بن أبي بكر وكان جماع أمرهم جميعاً إلى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وكان من أصحاب النبيّ ﷺ وإلى عبد الرحمٰن بن عديس التجيبي فكان فيما كتبوا إليه:

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم أما بعد فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم فالله الله ثمّ الله الله فإنّك على دنيا فاستتم إليها معها آخرة ولا تنس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدّنيا واعلم أنا والله لله نغضب وفي الله نرضى وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتّى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مجلحة مبلجة فهذه مقالتنا لك وقضيتنا إليك والله عذيرنا منك والسلام.

وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتّى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله.

فلمّا خاف القتل شاور نصحائه وأهل بيته فقال لهم: قد صنع القوم ما قد رأيتم فما المخرج؟ فأشاروا عليه أن يرسل إلى عليّ بن أبي طالب فيطلب إليه أن يردّهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتّى يأتيه أمداد.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٤، والغدير: ٩/ ٥٤.

فقال عثمان: إن القوم لن يقبلوا التعليل وهي محملي عهداً وقد كان منّي في قدمتهم الأولى ما كان فمتى أعطهم ذلك يسألونك الوفاء به.

فقال مروان بن الحكم: يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتّى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب فأعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فإنّما هم بغوا عليك فلا عهد لهم.

فأرسل إلى عليّ عليه السلام فدعاه فلمّا جاءه قال: يا أبا حسن إنّه قد كان من النّاس ما قد رأيت وكان منّي ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عنّي فإنّ لهم الله عزّ وجلّ أن أعتبهم من كلّ ما يكرهون وأن أعطيهم الحقّ من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي.

فقال له عليّ عليه السلام: النّاس إلى عدلك أحوج منك إلى قتلك وإنّي لأرى قوماً لا يرضون إلاّ بالرضي وقد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ثمّ لم تف لهم بشيء من ذلك فلا تغرّني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحقّ.

قال: نعم، فاعطهم فوالله لأفينّ لهم. فخرج عليّ عليه السلام إلى النّاس فقال: أيّها النّاس إنّكم إنّما طلبتم الحقّ فقد أعطيتموه إن عثمان قد زعم أنّه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ما تكرهون فاقبلوا منه ووكدوا عليه.

قال النّاس: قد قبلنا فاستوثق منه لنا فإنا والله ما نرضى بقول دون فعل. فقال لهم عليّ عليه السلام: ذلك لكم. ثمّ دخل عليه فأخبره الخبر فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة فإني لا أقدر على ردّ ما كرهوا في يوم واحد.

قال له عليّ عليه السلام: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك. قال: نعم، ولكن أجّلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام. قال عليّ عليه السلام: نعم، فخرج إلى النّاس فأخبرهم بذلك وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجّله فيه ثلاثاً على أن يردّ كلّ مظلمة ويعزل كلّ عامل كرهوه. ثمّ أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار. فكفّ المسلمون عنه ورجعوا إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه.

فجعل عثمان يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وقد كان اتخذ جنداً عظيماً من رقيق الحمس فمضت الأيّام الثلاثة وهو على حاله ولم يغير شيئاً مما كرهوه ولم يعزل عاملاً[1].

(١) الغدير: ٩/١٧٧، وأحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/١٥٤.

«تولية عثمان محمد بن أبي بكر على مصر وارساله»
«كتاباً لابن أبي سرح في قتله»

فلمّا أن أهل مصر جاءوا وشكوا ابن أبي سرح عاملهم فنزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله ﷺ في مواقيت الصّلاة ما صنع بهم ابن أبي سرح فقام طلحة فتكلم بكلام شديد وأرسلت عائشة إلى عثمان فقالت له: قد تقدّم إليك أصحاب رسول الله ﷺ وسألوك عزل هذا الرّجل وكذا دخل عليه عليّ عليه السلام فقال له: إنّما يسألونك رجلاً مكان رجل وقد ادعوا قبله دماً فاعزله عنه واقض بينهم فإن وجب لهم عليه حق فأنصفهم منه.

فقال: اختاروا رجلاً أُوليه عليهم. فقالوا: استعمل محمّد بن أبي بكر فكتب عثمان عهده وولآه وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر.

فخرج محمّد ومن معه حتّى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة في الموضع المعروف بخمس إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير كأنه طالب أو هارب يتعرّض لهم ثمّ يفارقهم ثمّ يرجع إليهم ثمّ يفارقهم ويسيئهم وهو مقبل من المدينة، فتأملوه فإذا هو ورش غلام عثمان على جمل عثمان فقال له أصحاب محمّد بن أبي بكر: ما قصتك وما شأنك إن لك لأمراً؟

فقال: أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر. فقال له رجل: هذا عامل مصر معنا، قال: ليس هذا أريد. فأُخبر محمّد بأمره فبعث في طلبه رجلاً فجاء به إليه فقال له: غلام من أنت؟ فأقبل مرة يقول: أنا غلام مروان، ومرة يقول: أنا غلام عثمان حتّى عرفه رجل أنّه لعثمان فقال له محمّد: إلى من أرسلك؟ قال: إلى عامل مصر، قال: بماذا؟ قال: برسالة. قال: أما معك كتاب؟ قال: لا، ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً وكانت معه إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل فحركوه ليخرج فلم يخرج فشقوا إداوته فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح عامل مصر فجمع محمّد من كان معه من المهاجرين والأنصار ثمّ فكّ الكتاب بمحضر منهم فقرأه فإذا فيه: إذا أتاك محمّد بن أبي بكر وفلان وفلان أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأبطل كتابهم وقرّ على عملك حتّى يأتيك رأيي.

فلما رأوا الكتاب فزعوا منه ورجعوا إلى المدينة وختم محمّد الكتاب بخواتم النفر الذين كانوا معه ودفعه إلى رجل منهم ثمّ قدموا المدينة فجمعوا علياً عليه السلام وطلحة والزبير وسعداً ومن كان من أصحاب رسول الله ﷺ ثمّ فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبرهم بقصة الغلام وأقرأهم الكتاب فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان وقام أصحاب

النّبيّ ﷺ فلحقوا بمنازلهم وحصر الناس عثمان وأحاطوا به ومنعوه الماء والخروج ومن كان معه واجلب عليه محمّد بن أبي بكر(١).

وفي تاريخ أبي جعفر الطبري: لما قدموا المدينة أتوا عليّاً عليه السلام فقالوا: ألم ترد إلى عدوّ الله عثمان إنه كتب فينا بكذا وكذا وإن الله قد أحلّ دمه قم معنا إليه قال: والله لا أقوم معكم إلى أن قالوا: فلم كتبت إلينا؟ فقال: والله ما كتبت إليكم كتاباً قطّ فنظر بعضهم إلى بعض ثمّ قال بعضهم لبعض: ألهذا تقاتلون أو لهذا تغضبون؟ فانطلق عليّ عليه السلام فخرج من المدينة إلى قرية ثمّ إنهم انطلقوا حتّى دخلوا على عثمان فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا.

فقال عثمان: إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا إله إلاّ هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرّجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم. فقالوا: فقد والله أحلّ دمك ونقضت العهد والميثاق فحاصروه.

وفيه أيضاً: لما قدموا المدينة أرسلوا إلى عثمان ألم نفارقك على أنك زعمت أنك تائب من أحداثك وراجع عما كرهنا منك وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه؟ قال: بلى أنا على ذلك. قالوا: فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك وكتبت به إلى عاملك؟ قال: ما فعلت ولا لي علم بما تقولون. قالوا: بريدك على جملك وكتاب كاتبك عليه خاتمك قال: أمّا الجمل فمسروق، وقد يشبه الخط الخط، وأما الخاتم فانتقش عليه. قالوا: فإنا لا نعجل عليك وإن كنّا قد اتهمناك أعزل عنّا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتّهم على دمائنا وأموالنا وأردد علينا مظالمنا قال عثمان: ما أراني إذاً في شيء إن كنت أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم الأمر إذاً أمركم. قالوا: والله لتفعلنّ أو لتعزلنّ أو لتقتلنّ فانظر لنفسك أودع، فأبى عثمان عليهم وقال: لم أكن لأخلع سربلنيه الله فحصروه أربعين(٢).

«حصار أهل مصر والكوفة وغيرهم عثمان»

وفي «**الإمامة والسياسة**» للدينوري: ذكروا أن أهل مصر أقبلوا إلى عليّ عليه السلام فقالوا: ألم تر عدوّ الله ماذا كتب فينا؟ قم معنا إليه فقد أحلّ الله دمه، فقال عليّ عليه السلام لا والله لا أقوم معكم قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال علي عليه السلام: لا والله ما كتبت إليكم كتاباً قطّ فنظر بعضهم إلى بعض. ثمّ أقبل الاشتر النخعي من الكوفة في ألف رجل وأقبل ابن أبي حذيفة من مصر

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٥٦، والغدير: ٩/ ١٨٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٠٤، وأحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ١٥٤.

في أربعمائة رجل فأقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلاً ونهاراً وطلحة يحرّض الفريقين جميعاً على عثمان ثمّ إنّ طلحة قال لهم: إن عثمان لا يبالي ما حصرتموه وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوه الماء أن يدخل عليه[1].

وفي تاريخ الطبري: لما أنكر عثمان أن يكون كتب الكتاب وقال هذا مفتعل قالوا: فالكتاب كتاب كاتبك، قال: أجل ولكنه كتبه بغير أمري؛ قالوا: فإنّ الرسول الذي وجدنا معه الكتاب غلامك. قال: أجل ولكنه خرج بغير إذني؛ قالوا فالجمل جملك. قال: أجل ولكنّه أخذ بغير علمي؛ قالوا: ما أنت إلاّ صادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك لأنه لا ينبغي لنا أن نترك على رقابنا من يقتطع مثل هذا الأمر دونه لضعفه وغفلته.

وقالوا له: إنك ضربت رجالاً من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وغيرهم حين يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحقّ عند من يستنكرون من أعمالك فأقد من نفسك من ضربته وأنت له ظالم.

فقال: الإمام يخطىء ويصيب فلا أقيد من نفسي لأني لو أقدت كلّ من أصبته بخطأ أتى على نفسي.

قالوا: إنّك قد أحدثت أحداثا عظاماً فاستحققت بها الخلع فإذا كلمت فيها اعطيت التوبة ثمّ عدت إليها وإلى مثلها ثمّ قدمنا عليك فاعطيتنا التوبة والرجوع إلى الحق ولا منافيك محمّد بن مسلمة وضمن لنا ما حدث من أمر فأخفرته فتبرأ منك وقال: لا أدخل في أمره فرجعنا أوّل مرّة لنقطع حجتك ونبلغ أقصى الأعذار إليك نستظهر بالله عزّ وجلّ عليك فلحقنا كتاب منك إلى عاملك علينا تأمره فينا بالقتل والقطع والصلب وزعمت أنّه كتب بغير علمك وهو مع غلامك وعلى جملك وبخط كاتبك وعليه خاتمك فقد وقعت عليك بذلك التهمة القبيحة مع ما بلونا منك قبل ذلك من الجور في الحكم والأثرة في القسم والعقوبة للأمر بالتبسط من النّاس والإظهار للتوبة ثمّ الرّجوع إلى الخطيئة ولقد رجعنا عنك وما كان لنا أن نرجع حتى نخلعك ونستبدل بك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من لم يحدث مثل ما جربنا منك ولم يقع عليه من التهمة ما وقع عليك فاردد خلافتنا واعتزل أمرنا فإن ذلك أسلم لنا منك وأسلم لك منّا.

فقال عثمان: فرغتم من جميع ما تريدون؟ قالوا: نعم، قال: أما بعد فإنّكم لم تعدلوا في المنطق ولم تنصفوا في القضاء أمّا قولكم تخلع نفسك فلا أنزع قميصاً قمصنيه الله ولكني

---

(١) الغدير: ٩/ ٩٥ ح ١١، والإمامة والسياسة: ١/ ٥٧.

أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون فإنّي والله الفقير إلى الله الخائف منه.

قالوا: إنّ هذا لو كان أوّل حدث أحدثته ثم تبت منه ولم تقم عليه لكان علينا أن نقبل منك وأن ننصرف عنك، ولكنه قد كان منك من الأحداث قبل هذا ما قد علمت ولقد انصرفنا عنك في المرّة الأولى وما نخشى أن تكتب فينا ولا من اعتللت به بما وجدنا في كتابك مع غلامك وكيف نقبل توبتك وقد بلونا منك أن لا تعطى من نفسك التوبة من ذنب إلاّ عدت عليه فلسنا منصرفين حتى نعزلك ونستبدل بك فإن حال من معك من قومك وذوي رحمك وأهل الإنقطاع إليك دونك بقتال قاتلناهم حتّى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق أرواحنا بالله. إلى أن قال: ثمّ انصرفوا عن عثمان وآذنوه بالحرب؛ وأرسل عثمان إلى محمّد بن مسلمة فكلّمه أن يردّهم فقال: والله لا أكذب الله في سنة مرتين.

قال الطبري: إنّ عليّاً جاء عثمان بعد انصراف المصريين فقال له: تكلم كلاماً يسمعه النّاس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول يا عليّ اركب إليهم ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول يا عليّ اركب إليهم فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستحققت «استخففت ظ» بحقّك.

فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها وأعطى النّاس من نفسه التوبة فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثمّ قال: أمّا بعد أيّها النّاس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله وما جئت شيئاً إلاّ وأنا أعرفه ولكني منّتني نفسي وكذّبتني وضلّ عن رشدي ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: من زل فليتب ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة إن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق فأنا أوّل من اتعظ أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه فمثلي نزع وتاب فإذا نزلت فليأتني اشرافكم فليروني رأيهم فوالله لئن ردّني الحق عبداً لأستننّ بسنة العبد ولأذلنّ ذل العبد ولأكوننّ كالمرقوق إن ملك وإن عتق شكر وما على الله مذهب إلاّ إليه فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنو إليّ أبت يميني لتتابعني شمالي.

فلما نزل عثمان وجد في منزله مروان وسعيداً ونفراً من بني أميّة ولم يكونوا شهدوا الخطبة فلما جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين أتكلّم أم أصمت؟ فقالت نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان الكلبيّة: لا بل اصمت فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه إنّه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها؛ فأقبل عليها مروان فقال: ما أنت وذاك فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضّأ؛ فقالت له: مهلا يا مروان عن ذكر الآباء تخبر عن أبي وهو غائب تكذب عليه وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عنه أما والله لولا أنّه عمّه وأنه يناله غمّه أخبرتك عنه ما لن أكذب عليه؛ فأعرض عنها مروان ثمّ قال: يا أمير المؤمنين أتكلّم أم أصمت؟ قال: بل تكلّم.

فقال مروان: بأبي أنت وأمّي والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أوّل من رضي بها وأعان عليها ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطّبيين وخلف السيل الزبى وحين أعطى الخطّة الذليلة الذليل والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقرب بالخطيئة وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس.

فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلّمهم فإنّي استحيي أن أكلمهم.

فخرج مروان إلى الباب والنّاس يركب بعضهم بعضاً فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم؟ كأنّكم قد جئتم لنهب شاهت الوجوه كلّ إنسان آخذ بإذن صاحبه إلا من اريد جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ أخرجوا عنا أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غبّ رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا.

فرجع النّاس وخرج بعضهم حتّى أتى عليّاً عليه السلام فأخبره الخبر فجاء عليّ عليه السلام مغضباً حتى دخل على عثمان فقال: أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلاّ بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه وايم الله إنّي لأراه سيوردك ثمّ لا يصدرك وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك أذهلت شرفك وغلبت على أمرك.

فلما خرج عليّ عليه السلام دخلت عليه نائلة ابنة الفرافصة امرأته فقالت: قد سمعت قول عليّ لك وإنّه ليس يعاودك وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء.

قال عثمان: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وحده لا شريك له وتتبع سنة صاحبيك من قبلك فإنك متى أطعت مروان قتلك ومروان ليس له عند النّاس قدر ولا هيبة ولا محبة وإنما تركك النّاس لمكان مروان فأرسل إلى عليّ عليه السلام فاستصلحه فإنّ له قرابة منك وهو لا يعصى، فأرسل عثمان إلى عليّ عليه السلام فأبى أن يأتيه وقال: قد أعلمته له أني لست بعائد. فبلغ مروان مقالة نائلة فيه فجاء إلى عثمان فجلس بين يديه فقال: أتكلم أو أسكت؟ فقال: تكلّم، فقال: إن بنت الفرافصة، فقال عثمان: لا تذكرنها بحرف فاسوّي لك وجهك فهي والله أنصح لي منك فكفّ مروان.

فلما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من النّاس كتب إلى معاوية ابن أبي سفيان وهو بالشام: بسم الله الرّحمٰن الرحيم أمّا بعد فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كلّ صعب وذلول، ثمّ كتب إلى يزيد بن أسد بن كرز وإلى أهل الشام: إن كان عندكم غياث فالعجل العجل فإنّ

القوم معاجليّ[١].

«مخاطبة عثمان من أعلى القصر طلحة»

في **«الإمامة والسياسة»**: إنّ عثمان لما منع الماء صعد على القصر واستوى في أعلاه ثمّ نادى أين طلحة؟ فأتاه فقال: يا طلحة أما تعلم أن بئر رومة كانت لفلان اليهودي لا يسقي أحداً من الناس منها قطرة إلاّ بثمن فاشتريتها بأربعين ألفاً فجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين، لم أستأثر عليهم؟ قال: نعم، قال: فهل تعلم أن أحداً يمنع أن يشرب منها اليوم غيري؟ لم ذلك؟

قال: لأنّك بدّلت وغيّرت.

قال: فهل تعلم: أنّ رسول الله قال: من اشترى هذا البيت وزاده في المسجد فله به الجنّة، فاشتريته بعشرين ألفاً وأدخلته المسجد. قال طلحة: نعم. قال: فهل تعلم اليوم أحداً يمنع فيه من الصّلاة غيري؟ قال: لا. قال: لم؟

قال: لأنّك غيّرت وبدّلت[٢].

«كلام عثمان في طلحة»

روى الطبري ص ٤١١ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ بإسناده عن عبد الله بن عبّاس بن ربيعة قال: دخلت على عثمان فتحدثت عنده ساعة، فقال: يا ابن عباس تعال فأخذ بيدي فأسمعني كلام من على باب عثمان فسمعنا كلاماً منهم من يقول: ما تنتظرون به، ومنهم من يقول: انظروا عسى أن يراجع فبينا أنا وهو واقفان إذ مر طلحة بن عبيد الله فوقف فقال أين ابن عديس؟ فقيل: ها هوذا. فجاءه ابن عديس فناجاه بشيء ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرّجل ولا يخرج من عنده، قال: فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله؛ ثمّ قال عثمان: اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنّه حمل على هؤلاء وألبّهم والله إني لأرجو أن يكون منها صفر أو أن يسفك دمه إنّه انتهك منّي ما لا يحلّ له.

«انكار طلحة والزبير على عثمان»

في **«الجمل»** للمفيد: لما أبى عثمان أن يخلع نفسه تولّى طلحة والزبير حصاره والنّاس

(١) الغدير: ٩/ ١٩٠، وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٠٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ٤١.

معهما على ذلك فحصروه حصراً شديداً ومنعوه الماء وأنفذ إلى عليّ عليه السلام يقول: إنّ طلحة والزبير قد قتلاني من العطش والموت بالسلاح أحسن؛ فخرج عليه السلام معتمداً على يد المسود بن مخرمة الزهري حتّى دخل على طلحة بن عبيد الله وهو جالس في داره يسوى نبلاً وعليه قميص هندي فلما رآه طلحة رحب به ووسع له على الوسادة؛ فقال له عليّ عليه السلام إنّ عثمان قد أرسل إليّ أنكم قد هلكتموه عطشاً وأن ذلك ليس بالحسن والقتل بالسلاح أحسن وكنت قد آليت على نفسي أن لا أردّ عنه أحداً بعد أهل مصر وأنا أحب أن تدخلوا عليه الماء حتّى تروا رأيكم فيه، فقال طلحة: لا والله لا ننعمنه عيناً ولا نتركه يأكل ولا يشرب؛ فقال عليّ عليه السلام: ما كنت أظن أن أكلم أحداً من قريش فيردّني، دع ما كنت فيه يا طلحة، فقال طلحة: ما كنت أنت يا عليّ في ذلك من شيء فقام عليّ عليه السلام مغضباً وقال: ستعلم يا ابن الحضرمية أكون في ذلك من شيء أم لا، ثمّ انصرف.

قال: وروى أبو حذيفة بن إسحاق بن بشير القرشي أيضاً قال: حدثني يزيد ابن أبي زياد عن عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى قال: والله إنّي لأنظر إلى طلحة وعثمان محصور وهو على فرس أدهم وبيده الرمح يجول حول الدار وكأنّي انظر إلى بياض ما وراء الدرع.

قال: وروى أبو إسحاق قال: لما اشتدّ الحصار بعثمان عمد بنو أميّة على إخراجه ليلاً إلى مكّة وعرف النّاس فجعلوا عليه حرساً وكان على الحرس طلحة بن عبيد الله وهو أوّل من رمى بسهم في دار عثمان.

قال: قال: واطلع عثمان وقد اشتدّ به الحصار وظمأ من العطش فنادى: أيّها النّاس اسقونا شربة من الماء وأطعمونا ممّا رزقكم الله، فناداه الزبير بن العوّام يا نعثل لا والله لا تذوقه.

قال: وروى أبو حذيفة القرشي عن الأعمش عن حبيب بن ثابت عن تغلبة بن يزيد الحماني قال: أتيت الزبير وهو عند أحجار الزيت فقلت له: يا أبا عبد الله قد حيل بين أهل الدار وبين الماء فنظر نحوهم وقال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبا: ٥٤] فهذه الأحاديث من جملة كثيرة في هذا المعنى[١].

«كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان»

روى أبو جعفر الطبري في التاريخ ـ ص ٣٩٥ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ ـ أنّ عمرو بن العاص كان ممّن يحرض على عثمان ويغرى به ولقد خطب عثمان يوماً في أواخر خلافته

---

(١) الجمل: ٧٥.

فصاح به عمرو بن العاص اتق الله يا عثمان فإنّك قد ركبت نهابير وركبناها معك فتب إلى الله نتب، فناداه عثمان وإنّك ههنا يا ابن النابغة قملت والله جبّتك منذ تركتك من العمل، فنودي من ناحية أخرى تب إلى الله ونودي من أخرى مثل ذلك وأظهر التوبة يكف النّاس عنك، قال: فرفع عثمان يديه مداً واستقبل القبلة فقال: اللهم إني أول تائب إليك ورجع منزله، وخرج عمرو بن العاص حتى نزل منزله بفلسطين فكان يقول: والله إن كنت لألقى الراعى فأُحرّضه عليه. وكذا نقل تأليبه على عثمان على التفصيل والتطويل في ص ٣٩٢ فراجع.

وفي ص ٣٩٢ منه: كان عمرو بن العاص على مصر عاملاً لعثمان فعزله عن الخراج واستعمله على الصّلاة واستعمل عبد الله بن سعد على الخراج ثمّ جمعهما لعبد الله بن سعد فلما قدم عمرو بن العاص المدينة جعل يطعن على عثمان فأرسل إليه يوماً عثمان خالياً به فقال: يا ابن النابغة ما أسرع ما قمل جرّبان جبّتك إنّما عهدك بالعمل عاماً أوّل أتطعن عليّ؟ وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر والله لولا أكلة ما فعلت ذلك.

فقال عمرو: إنّ كثيراً ممّا يقول النّاس وينقلون إلى ولاتهم باطل فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك؛ فقال عثمان: والله لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك؛ فقال عمرو: قد كنت عاملاً لعمر بن الخطّاب ففارقني وهو عني راض فقال عثمان: وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستصمت ولكنّي لنت عليك فاجترأت عليّ أما والله لأنا أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان فقال عمرو: دع عنك هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمّد ﷺ وهدانا به قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان فوالله للعاص كان أشرف من أبيك، فانكسر عثمان وقال: ما لنا ولذكر الجاهلية؛ وخرج عمرو ودخل مروان فقال: يا أمير المؤمنين وقد بلغت مبلغاً يذكر عمرو بن العاص أباك؟ فقال عثمان: دع هذا عنك من ذكر آباء الرجال ذكروا أباه.

فخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقد عليه يأتي عليّاً مرة فيؤلّبه على عثمان ويأتي الزّبير مرة فيؤلبه على عثمان ويأتي طلحة مرة فيؤلّبه على عثمان ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان، فلمّا كان حصر عثمان الأوّل خرج من المدينة حتّى انتهى إلى أرض له بفلسطين يقال لها السبع فنزل في قصر له يقال له العجلان وهو يقول العجب ما يأتينا عن ابن عفان فبينا هو جالس في قصره ذلك ومعه ابناه محمد وعبد الله وسلامة بن روح الجذامي إذ مرّ بهم راكب فناداه عمرو من أين قدم الرّجل؟ فقال: من المدينة قال: ما فعل الرّجل؟ يعني عثمان؛ قال: تركته محصوراً شديد الحصار، قال عمرو: أنا أبو عبد الله قد يضرط العير والمكواة في النّار فلم يبرح مجلسه ذلك حتّى مرّ به راكب آخر فناداه عمر وما فعل الرجل؟ يعني عثمان، قال: قتل، قال: أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها أن كنت لأحرّض عليه

حتّى أني لأحرّض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل.

فقال سلامة بن روح: يا معشر قريش إنّه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه فما حملكم على ذلك؟ فقال: أردنا أن نخرج الحق من حافرة الباطل وأن يكون النّاس في الحق شرعاً سواء.

وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمّه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ففارقها حين عزله.

بيان

جربان: بضم الأوّلين وتشديد الباء ويكسرهما أيضاً: جيب الجبّة والقميص ونحوهما ويقال بالفارسيّة گريبان جامه ويشبه أن يكون معربه. وقوله: قد يضرط العير والمكواة في النار، مثل يضرب للرجل يخوف الأمر فيجزع قبل وقوعه فيه وأوّل من قال ذلك عرفطة بن عرفجة الهزائي ذكر تفصيله أبو هلال العسكري في الباب الحادي والعشرين من «**جمهرة الأمثال**» والميداني في الباب الحادي والعشرين من «**مجمع الأمثال**» فراجع.

«كلام الآخر المخالف للأول الصريح في أنه كان عبيد الدنيا»

قال المسعودي في «**مروج الذهب**» ـ ص ٤ ج ٢ طبع مصر ١٣٤٦ هـ: وقد كان عمرو بن العاص انحرف عن عثمان لانحرافه وتولية مصر غيره فنزل الشام فلما اتصل به أمر عثمان وما كان من بيعة عليّ كتب إلى معاوية يهزّه ويشير عليه بالمطالبة بدم عثمان وكان فيما كتب به إليه: ما كنت صانعاً إذا قشرت من كلّ شيء تملكه فاصنع ما أنت صانع، فبعث إليه معاوية فسارّ إليه فقال له معاوية: بايعني قال: والله لا أعينك من ديني حتّى أنال من دنياك، قال: سل، قال: مصر طعمة فأجابه إلى ذلك وكتب له به كتاباً وقال عمرو بن العاص في ذلك:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطني مصراً فأربح صفقة ... أخذت بها شيخاً يضرّ وينفع

روى الطبري أيضاً (ص ٥٦٠ ج ٣) أنه لما أحيط بعثمان خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام ومعه ابناه عبد الله ومحمّد ـ إلى أن قال في كلام طويل ـ حتّى قدم على معاوية فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان فقال عمرو بن العاص: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم، ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو فقال ابنا عمرو لعمرو: ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إلى قولك؟ انصرف إلى غيره، فدخل عمرو على معاوية فقال: والله لعجب لك إنّي أرفد ممّا أرفدك وأنت معرض عني أما والله إن قاتلنا معك نطلب

بدم الخليفة إن في النفس من ذلك ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنّا إنّما أردنا هذه الدنيا، فصالحه معاوية وعطف عليه. انتهى.

أقول: لا يخفى على أُولي الدراية والفطانة أن عمرو بن العاص كان بمعزل عن الحقّ والصدق وما كان همّه إلاّ الدنيا والتقرب إلى أهلها وأنّه كأضرابه ممن سمعت أسامي بعضهم لعبوا بالدين واتخذوا كتاب الله سخريّاً وكانوا أهل الختل والغدر وقاموا إلى حرب وليّ الله الأعظم سيّد الموحّدين عليّ أمير المؤمنين بالعداوة الواغرة في صدورهم والضغائن الكامنة في قلوبهم حبّاً للدنيا الدنيّة وبغضاً لأهل الله وهذا هو عمرو بن العاص قال مرّة لعثمان: فإنّك قد ركبت نهابير وركبناها معك وقال تارة لشيعة عثمان: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم، وأخرى أظهر خبث سريرته فقال لمعاوية: نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته (**يعني علياً** عليه السلام) ولكنّا إنّما أردنا هذه الدنيا.

«كلام عائشة في عثمان وانكارها عليه»

في «**الإمامة والسياسة**» وغيره من كتب السير: أن عائشة كانت أوّل من طعن على عثمان واطمع النّاس فيه وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً فقد فجر[1]. وتعني من نعثل عثمان. وقال عبيد بن أمّ كلاب مخاطباً إيّاها في أبيات له:

وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا إنّه قد فجر

وتجهّزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة واستتبعت أخاها.

في «**الجمل**» للمفيد رحمه الله: وأمّا تأليب عائشة على عثمان فهي أظهر ممّا وردت به الأخبار من تأليب طلحة والزبير عليه فمن ذلك ما رواه محمّد بن إسحاق صاحب السيرة عن مشائخه عن حكيم بن عبد الله قال: دخلت يوماً بالمدينة إلى المسجد فإذا كفّ مرتفعة وصاحب الكفّ يقول: أيّها النّاس العهد قريب هذان نعلا رسول الله صلى الله عليه وآله وقميصه وكأنّي أرى ذلك القميص يلوح وأن فيكم فرعون هذه الأمّة فإذا هي عائشة، وعثمان يقول لها: اسكتي ثمّ يقول للناس: أنها امرأة وعقلها عقل النساء فلا تصغوا إلى قولها.

قال: وروى الحسن بن سعد قال: رفعت عائشة ورقة من المصحف بين عودتين من وراء حجلها وعثمان قائم ثمّ قالت: يا عثمان قم ما في هذا الكتاب، فقال: لتنتهينّ عمّا أنت عليه أو لأدخلن عليك حمر النّار، فقالت له عائشة: أما والله لأن فعلت ذلك بنساء النبيّ يلعنك الله ورسوله وهذا قميص رسول الله لم يتغيّر وقد غيّرت سنّته.

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٧٢.

قال: وروى اللّيث بن أبي سليمان عن ثابت الأنصاري عن ابن أبي عامر مولى الأنصار قال: كنت في المسجد فمرّ عثمان فنادته عائشة يا غدر يا فجر أحقرت أمانتك وضيعت رعيتك ولولا الصلوات الخمس لمشى إليك الرّجال حتى يذبحوك ذبح الشاة، فقال عثمان: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

قال: وروى محمّد بن إسحاق المدائني وحذيفة قال: لما عرفت عائشة أنّ الرّجل مقتول تجهّزت إلى مكّة جاءها مروان بن الحكم وسعيد بن العاص فقالا لها: إنّا لنظن أنّ الرّجل مقتول وأنت قادرة على الدفع عنه وإن تقيمي يدفع الله بك عنه؛ قالت: ما أنا بقاعدة وقد قدمت ركابي وغريت غرائري وأوجبت الحج على نفسي، فخرج من عندها مروان يقول: زخرف قيس على البلاد حتّى إذا اضطربت فسمعت عائشة فقالت: أيّها المتمثل هلمّ قد سمعت ما تقول أتراني في شك من صاحبك والله لوددت أنّه في غرارة من غرائري حتّى إذا مررت بالبحر قذفته فيه. فقال مروان: قد والله تبنّيت قد والله تبنّيت.

قال: قال فسارت عائشة فاستقبلها ابن عبّاس بمنزل يقال له الصلعاء وابن عبّاس يريد المدينة فقالت: يا ابن عبّاس إنّك قد أوتيت عقلاً وبياناً وإيّاك أن تردّ النّاس عن قتل الطاغية[1].

وسيأتي طائفة من الأخبار في أقوالها له وما فعلت بعد ذلك.

«قتل عثمان»

لما حصر النّاس عثمان في داره منعوه الماء فأشرف على النّاس وقال: ألا أحد يسقينا؟ قال المسعودي: فبلغ عليّاً طلبه للماء فبعث إليه بثلاث قرب ماء فما وصل إليه ذلك حتّى خرج جماعة من موالي بني هاشم وبني أمّية وارتفع الصوت وكثر الضجيج وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان فأبى أن يخلي عنه وفي النّاس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنّه كان من أحلافها. وهذيل لأنّه كان منها وبنو مخزوم وأحلافها لعمار، وغفار وأحلافها لأجل أبي ذر، وتيم بن مرّة مع محمّد بن أبي بكر وغير هؤلاء من خلق كثير.

قال الطبري: كان الحصر أربعين ليلة والنزول سبعين فلمّا مضت من الأربعين ثمان عشرة قدم ركبان من الوجوه فأخبروا خبر من تهيأ إليهم من الآفاق: حبيب من الشام ومعاوية من مصر والقعقاع من الكوفة ومجاشع من البصرة فعندها حالوا بين النّاس وبين عثمان

(١) الجمل للشيخ المفيد: ٧٧ ط. قم الداوري.

ومنعوه كلّ شيء حتّى الماء وقد كان يدخل عليّ عليه السلام بالشيء ممّا يريد وطلبوا العلل فلم تطلع عليهم علّة فعثروا في داره بالحجارة ليرموا فيقولوا قوتلنا وذلك ليلاً.

فناداهم عثمان: ألا تتقون الله ألا تعلمون أنّ في الدار غيري؟ قالوا: لا والله ما رميناك قال: فمن رمانا؟ قالوا: الله؛ قال: كذبتم إنّ الله عزّ وجلّ لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا، وأشرف عثمان على آل حزم وهم جيرانه فسرح ابناً لعمرو إلى عليّ بأنّهم قد منعونا الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا وإلى طلحة والزبير وإلى عائشة وأزواج النبيّ؛ فكان أوّلهم إنجاداً له عليّ وأمّ حبيبة جاء عليّ عليه السلام في الغلس فقال: يا أيّها النّاس إنّ الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين لا تقطعوا عن هذا الرّجل المادّة فإن الرّوم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي[1].

قال الدينوري في «**الإمامة والسياسة**» والمسعودي والطبري: بعث عثمان إلى عليّ عليه السلام يخبره أنّه منع من الماء ويستغيث به فبعث إليه عليّ عليه السلام ثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل إليه فقال طلحة: ما أنت وهذا؟ وكان بينهما في ذلك كلام شديد فبينا هم كذلك إذا أتاهم آت فقال لهم: إنّ معاوية قد بعث من الشام يزيد بن أسيد ممدّاً لعثمان في أربعة آلاف من خيل الشام فاصنعوا ما أنتم صانعون وإلاّ فانصرفوا.

قال المسعودي: فلمّا بلغ عليّاً أنّهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته وأمرهم أن يمنعوه منهم وبعث الزبير ابنه عبد الله على كره وبعث طلحة ابنه محمّداً كذا وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم اقتداءً بهم فصدوهم عن الدار فاشتبك القوم وجرح الحسن وشجّ قنبر وجرح محمّد بن طلحة فخشى القوم أن يتعصب بنو هاشم وبنو أميّة فتركوا القوم في القتال على الباب ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوروا عليها وكان ممّن وصل إليه محمّد بن أبي بكر ورجلان آخران وعند عثمان زوجته نائلة وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال فصرعه محمّد وقعد على صدره وأخذ بلحيته وقال: يا نعثل ما أغنى عنك معاوية وما أغنى عنك ابن عامر وابن أبي سرح.

فقال له عثمان: يا ابن أخي دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه فقال محمّد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك وما أريد بك أشد من قبضي على لحيتك وخرج عنه إلى الدار وتركه، فدعا عثمان بوضوء فتوضأ وأخذ مصحفاً فوضعه في حجره ليحترم به ودخل الرجلان فوجداه فقتلاه يقال لأحدهما الموت الأسود خنق عثمان ثمّ خفقه ثمّ خرج فقال والله ما رأيت شيئاً قط ألين من حلقه والله لقد خنقته حتّى رأيت نفسه تردّد في جسده كنفس الجان.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤١٧.

قال الطبري: فدخل عليه كنانة بن بشر التجيبي فأشعره مشقصاً فانتضح الدم على هذه الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

قال الدّينوري: لمّا أخذ مصحفاً فوضعه في حجره ليحترم به دخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص في يده فوجأ به منكبه ممّا يلي الترقوة فأدماه ونضح الدّم على ذلك المصحف وجاء آخر فضربه برجله وجاء آخر فوجأه بقائم سيفه فغشي عليه ومحمّد بن أبي بكر وقد أفاق فقال له: أي نعثل غيّرت وبدّلت وفعلت ثم دخل رجل من أهل مصر فأخذ بلحيته فنتف منها خصلة وسلّ سيفه وقال: افرجوا لي فعلاه بالسيف فتلقاه عثمان بيده فقطعها ثمّ دخل رجل آخر وهو كنانة بن بشر ابن عتاب التجيبي ومعه جرز آخر من حديد فمشى إليه فقال: على أي ملّة أنت يا نعثل؟ فقال: لست بنعثل ولكني عثمان بن عفان وأنا على ملّة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين؛ قال: كذبت وضربه بالجرز على صدغه الأيسر فغسله الدّم وخرّ على وجهه وقد قيل: أن عمرو بن الحمق طعنه بسهام تسع طعنات وكان فيمن مال عليه عمير بن ضابىء البرجمي التميمي وخضخض بسيفه بطنه.

وقال الطبريّ: رفع كنانة مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتّى دخلت في حلقه ثمّ علاه بالسيف حتى قتله، وروى رواية أخرى أن كنانة ضرب جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد فخرّ لجبينه فضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خرّ لجبينه فقتله.

فصرخت امرأته وقالت: قد قتل أمير المؤمنين فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية فوجدوه قد فاضت نفسه؛ قال المسعودي: فبلغ ذلك عليّاً وطلحة والزبير وسعداً وغيرهم من المهاجرين والأنصار فاسترجع القوم ودخل عليّ ﷺ الدار وهو كالواله الحزين فقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ولطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمّد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير.

وقال عليّ ﷺ لزوجته نائلة بنت الفرافصة: من قتله وأنت كنت معه؟ فقالت دخل إليه رجلان وقصت خبر محمّد بن أبي بكر فلم ينكر ما قالت وقال: والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله فلما خاطبني بما قال خرجت ولا أعلم بتخلّف الرّجلين عنّي، والله ما كان لي في قتله سبب ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله، وكان مدّة ما حوصر عثمان في داره تسعاً وأربعين يوماً وقيل أكثر من ذلك[1].

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٣، والغدير: ٩/ ٢٣٨.

«الموضع الذي دفن فيه عثمان»

قال أبو جعفر الطبري في التاريخ: لبث عثمان بعد ما قتل ثلاثة أيام لا يستطيعون دفنه ولم يشهد جنازته إلا مروان وثلاثة من مواليه وابنته الخامسة فناحت ابنته وأخذ النّاس الحجارة وقالوا: نعثل نعثل وكادت ترجم. وقال ابن قتيبة: احتملوه على باب وانطلقوا مسرعين ويسمع وقع رأسه على اللّوح وأن رأسه ليقول: طه طه.

فلما وضع ليصلى عليه جاء نفر من الأنصار يمنعونهم الصلاة عليه ومنعوهم أن يدفن بالبقيع فقال بعض من حمل جنازته: ادفنوه فقد صلى الله عليه وملائكته، فقالوا: لا والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبداً فدفنوه في حائط يقال له: حش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان على النّاس أمر بهدم ذلك الحائط حتّى أفضى به إلى البقيع فأمر النّاس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتّى اتصل بمقابر المسلمين، ولم يغسل عثمان وكفن في ثيابه ودمائه ودفنوه ليلاً لأنهم لا يقدرون أن يخرجوا به نهاراً.

وقال في نقل آخر: إن نائلة تبعتهم بسراج استسرجته بالبقيع وصلّى عليه جبير بن مطعم، وفي نقل آخر صلّى عليه مروان وأرادت نائلة أن تتكلم فزبرها القوم وقالوا: إنا نخاف عليه من هؤلاء الغوغاء أن ينبشوه، فرجعت نائلة إلى منزلها[١].

وقال ابن قتيبة في «**الإمامة والسياسة**»: ثمّ دلوه في حفرته فدفنوه ولم يلحدوه بلبن، وحثوا عليه التراب حثواً[٢].

في تاريخ أبي جعفر الطبري أن حكيم بن حزام القرشي وجبير بن مطعم كلّما عليّاً في دفنه وطلبا إليه أن يأذن لأهله في ذلك ففعل وأذن لهم عليّ عليه السلام فلما سمع بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة وخرج به ناس من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يقال له: حش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم فلما خرج على النّاس رجموا سريره وهموا بطرحه فبلغ ذلك عليّاً فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفن عنه ففعلوا فانطلق حتّى دفن في حش كوكب. وفي نقل آخر منه: وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه فأرسل عليّ عليه السلام فمنع من رجم سريره وكف الذين راموا منع الصّلاة عليه.

وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخا عثمان لأُمّه فسمع اللّيلة الثانية من مقتل عثمان يندبه وهو يقول:

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٣٩.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ٤٦.

بني هاشم إيه فما كان بيننا وسيف ابن أروى عندكم وحرائبه
بني هاشم ردّوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ما تحلّ مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه

وهي أبيات، فأجابه عن هذا الشعر وفيما رمى به بني هاشم ونسب إليهم الفضل بن العباس بن أبي لهب فقال:

فلا تسألونا سيفكم إنّ سيفكم أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن اختنا فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان ولي العهد بعد محمد علي وفي كل المواطن صاحبه
عليّ وليّ الله أظهر دينه وأنت مع الأشقين فيما تحاربه
وأنت امرؤ من أهل صيفور مارح فمالك فينا من حميم تعاتبه
وقد أنزل الرّحمٰن أنك فاسق فما لك في الإسلام سهم تطالبه

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط المذكور أيضاً يحرض أخاه عمارة بن عقبة:

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة قتيل التجيبي الذي جاء من مصر
فإن يك ظني بابن أمّي صادقاً عمارة لا يطلب بذحل ولا وتر
يبيت وأوتار ابن عفان عنده مخيّمه بين الخورنق والقصر

فأجابه الفضل بن عباس أيضاً:

أتطلب ثاراً لست منه ولا له وأين ابن ذكوان الصفوريّ من عمرو
كما اتصلت بنت الحمار بأمها وتنسى أباها إذ تسامي أُولى الفخر
ألا إنّ خير النّاس بعد محمّد وصيّ النبيّ المصطفى عند ذي الذكر
وأوّل من صلّى وصنو نبيّه وأوّل من أردى الغواة لدى بدر
فلو رأت الأنصار ظلم ابن عمّكم لكانوا له من ظلمه حاضري النصر
كفى ذاك عيباً أن يشيروا بقتله وأن يسلموه للأحابيش من مصر

«تذكرة»

قد مضت طائفة من الأقوال في حصر عثمان وهتف النّاس باسم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام للخلافة وقوله عليه السلام: ما زلت أذبّ عن عثمان حتّى أني لأستحي، غيرها في المختار ٢٣٨ من كلامه عليه السلام في باب الخطب فراجع.

أقول: ولو لم يكن كلّما نقلنا من أحداث عثمان أو بعضه ممّا يوجب خلعه والبراءة منه لوجب أن يكون الصّحابة ينكر على من قصدوه من البلاد متظلّماً ممّا فعلوه وقدموا عليه، وقد علمنا أن بالمدينة المهاجرين والأنصار وكبار الصحابة لم ينكروا ذلك وصدقوا عليه ما نسب إليه من الأحداث ولم يقبلوا من جعله عذراً بل أسلموه ولم يدفعوا عنه بل أعانوا قاتليه ولم يمنعوا من قتله وحصره ومنع الماء منه مع أنّهم متمكنون من خلاف ذلك وذلك أقوى الدليل على ما قلناه.

«جواب القاضي عبد الجبار عن بعض ما قدمناه واعتذاره منه»

وقد تكلف القاضي عبد الجبّار في الجواب عن بعض هذه الأُمور على أن إمامه قتل مظلوماً بما لا يخفى وهنها عن من كان له أدنى بصيرة في سيرة عثمان وأحداثه المخالفة لسيرة الرسول وحكم القرآن، ولكنّا نذكر ما قال ثمّ نتبعه باعتراض علم الهدى له زيادةً للبصيرة. قال القاضي: فأمّا قولهم إنّه كتب إلى ابن أبي سرح حيث ولى محمّد بن أبي بكر بأن يقتله ويقتل أصحابه فقد أنكر أشدّ التنكير حتّى حلف عليه وبين أن الكتاب الذي ظهر ليس كتابه ولا الغلام غلامه ولا الراحلة راحلته وكان في جملة من خاطبه في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فقبل عذره وذلك بين لأنّ قول كلّ أحد مقبول في مثل ذلك وقد علم أنّ الكتاب قد يجوز فيه التزوير فهو بمنزلة الخبر الذي يجوز فيه الكذب.

ثمّ اعتذر عن قول من يقول قد علم أن مروان هو الذي زوّر الكتاب لأنّه الذي كان يكتب عنه فهلا أقام الواجب فيه؟ بأن قال: ليس يجب بهذا القدر أن يقطع على أنّ مروان هو الذي فعل ذلك لأنّه وإن غلب ذلك في الظن فلا يجوز أن يحكم به وقد كان القوم يسومونه تسليم مروان إليهم وذلك ظلم لأنّ الواجب على الإمام أن يقيم الحدّ على من يستحقه أو التأديب ولا يحلّ له تسليمه من غيره فقد كان الواجب أن يثبتوا عنده ما يوجب في مروان الحدّ ليفعله به وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحق التعنيف.

ثمّ ذكر أنّ الفقهاء ذكروا في كتبهم أن الأمر بالقتل لا يوجب قوداً ولا دية ولا حدّاً فلو ثبت في مروان ما ذكروه لم يستحقّ القتل وإن استحقّ التعزير لكنّه عدل على تعزيره لأنّه لم يثبت قال: وقد يجوز أن يكون عثمان ظنّ أن هذا الفعل فعل بعض من يعادي مروان تقبيحاً لأمره لأن ذلك يجوز كما يجوز أن يكون من فعله ولا يعلم كيف كان اجتهاده وظنه وبعد فإن هذا الحديث من أجل ما نقموا عليه فإن كان شيء من ذلك يوجب خلع عثمان وقتله فليس إلاّ ذلك وقد علمنا أن هذا الأمر لو ثبت ما كان يوجب القتل لأن الأمر بالقتل لا يوجب القتل لا سيما قبل وقوع القتل المأمور به.

قال: فيقال لهم لو ثبت ذلك على عثمان أكان يجب قتله؟ فلا يمكنهم إدّعاء ذلك لأنّه بخلاف الدين ولا بدّ أن يقولوا: إن قتله ظلم فكذلك في حبسه في الدار ومنعه من الماء فقد كان يجب أن يدفع القوم عن كل ذلك وأن يقال إن من لم يدفعهم وينكر عليهم يكون مخطئاً وفي ذلك تخطئة أصحاب الرسول.

ثمّ ذكر أن مستحق القتل والخلع لا يحل أن يمنع الطعام والشراب وأن أمير المؤمنين علياً عليه السلام لم يمنع أهل الشام من الماء في صفين وقد تمكن من منعهم وأطنب في ذلك إلى أن قال: وكلّ ذلك يدلّ على كونه مظلوماً وأن ذلك كان من صنيع الجهّال وأعيان الصحابة كارهون لذلك. ثمّ ذكر أن قتله لو وجب لم يجز أن يتولاّه العوام من الناس وأنّ الذين أقدموا على قتله كانوا بهذه الصفة وإذا صحّ أن قتله لم يكن لهم فمنعهم والنكير عليهم واجب.

ثمّ ذكر أنّه لم يكن منه ما يستحق القتل من ردّة أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس وأنه لو كان منعه ما يوجب القتل لكان الواجب أن يتولاّه الإمام فقتله على كلّ حال منكر وإنكار المنكر واجب؛ قال: وليس أحد أن يقول إنه أباح قتل نفسه من حيث امتنع من دفع الظلم عنهم لأنه لم يمتنع من ذلك بل أنصفهم ونظر في حالهم ولأنّه لو لم يفعل ذلك لم يحلّ لهم قتله لأنه إنّما يحلّ قتل الظالم إذا كان على وجه الدفع.

قال: والمروي أنّهم أحرقوا بابه وهجموا عليه في منزله وبعجوه بالسيف والمشاقص فضربوا يد زوجته لما وقعت عليه وانتهبوا متاع داره ومثل هذه القتلة لا يحلّ في الكافر والمرتد فكيف يظن أنّ الصحابة لم ينكر ذلك ولم يعدّه ظلماً حتّى يقال أنّه مستحق من حيث لم يدفع القوم عنه ثمّ قص شيئاً من قصته في تجمع القوم عليه وتوسط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم وأنه بذل لهم ما أرادوه وأعتبهم وأشهد على نفسه بذلك حرفه ولم يأت به على وجهه وذكر قصّة الكتاب الذي وجدوه بعد ذلك المتضمن لقتل القوم وذكر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام واقفه على الكتاب فحلف أنه ما كتبه ولا أمر به فقال له: فمن تتّهم؟ قال: ما أتّهم أحداً وأنّ للنّاس لحيلاً وذكر أنّ الرواية ظاهرة بقوله إن كنت أخطأت أو تعمّدت فإني تائب مستغفر قال: فكيف يجوز والحال هذه أن تهتك فيه حرمة الإسلام وحرمة البلد الحرام.

قال: ولا شبهة أنّ القتل على وجه الغيلة حرام لا يحلّ فيمن يستحق القتل فكيف فيمن لا يستحقه ولولا أن كان يمنع من محاربة القوم ظنّاً منه بأن ذلك يؤدي إلى القتل الذريع لكثرة نصّاره وحكى أنّ الأنصار بذلت معونته ونصرته؛ وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام بعث إليه الحسن عليه السلام فقال له: قل لأبيك فليأتني وأراد أمير المؤمنين عليه السلام المصير إليه فمنعه من ذلك ابنه محمّد واستغاث بالنساء عليه حتى جاء الصريخ بقتل عثمان فمدّ يده إلى القبلة وقال: اللهمّ إنّي أبرأ إليك من دم عثمان.

ثمّ قال: فإن قالوا إنّهم اعتقدوا أنه من المفسدين في الأرض وأنه داخل تحت آية المحاربين، قيل لهم فقد كان يجب أن يتولى الإمام هذا الفعل لأن ذلك يجري مجرى الحدّ؛ قال: وكيف يدعي ذلك والمشهور أنّه كان يمنع من مقاتلتهم حتّى روى أنّه قال لعبيده ومواليه وقد همّوا بالقتال: من أغمد سيفه فهو حرّ وقد كان مؤثراً للنكير لذلك الأمر إلاّ أنّه بما لا يؤدي إلى إراقة الدّماء والفتنة فلذلك لم يستعن بأصحاب رسول الله ﷺ وإن كان لما اشتد الأمر أعانه من أعانه لأن عند ذلك تجب النّصرة والمعونة لا بأمره فحيث وقفت النصرة على أمره امتنعوا وتوقفوا، وحيث اشتدّ الأمر كانت إعانته ممّن أدركه دون من لم يقدر ويغلب ذلك في ظنّه[١].

«اعتراض الشريف المرتضى علم الهدى على»
«القاضي وجوابه عما تشبث به»

قال علم الهدى في **«الشافعي»** بعدما نقل قول القاضي من **«المغني»**: أمّا قوله «إنّه أنكر الكتاب المتضمن لقتل محمّد بن أبي بكر وأصحابه وحلف أنّ الكتاب ليس كتابه ولا الغلام غلامه ولا الراحلة راحلته وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قبل عذره» فأوّل ما فيه أنّه حكى القصة بخلاف ما جرت عليه لأنّ جميع من روى هذه القصة ذكر أنّه اعترف بالخاتم والغلام والراحلة وإنّما أنكر أن يكون أمر بالكتاب لأنّه روى أنّ القوم لما ظفروا بالكتاب قدموا المدينة فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعداً وجماعة الأصحاب ثمّ فكّوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أهذا الغلام غلامك؟ قال: نعم؛ قال: والبعير بعيرك؟ قال: نعم؛ قال: أفأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا وحلف بالله أنّه ما كتب الكتاب ولا أمر به؛ فقال له: فالخاتم خاتمك؟ فقال: نعم؛ قال: كيف يخرج غلامك ببعيرك بكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به؟

وفي رواية أخرى أنّه لما واقفه قال له عثمان أمّا الخط فخط كاتبي وأما الخاتم فعلى خاتمي، قال: فمن تتّهم؟ قال: أتّهمك وأتّهم كاتبي؛ فخرج أمير المؤمنين عليه السلام مغضباً وهو يقول: بل هو أمرك، ولزم داره وقعد عن توسط أمره حتى جرى ما جرى في أمره، واعجب الأمور قوله لأمير المؤمنين عليه السلام إنّي أتهمك وتظاهره بذلك وتلقيه إياه في وجهه بهذا القول مع بعد أمير المؤمنين عليه السلام عن التّهمة والظنّة في كلّ شيء ثمّ في أمره خاصة فإنّ القوم في الدفعة الأولى أرادوا أن يعجلوا له ما أخروه حتّى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسطه وأصلحه وأشار إليه بأن يقاربهم ويعتبهم حتى انصرفوا عنه، وهذا فعل النصيح المشفق

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/١٦.

الحدب المتحنن ولو كان ﷺ وحوشى من ذلك متهماً عليه لما كان للتهمة مجال عليه في أمر الكتاب خاصّة لأنّ الكتاب بخطّ عدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ أمير المؤمنين ﷺ مروان وفي يد غلام عثمان ومختوم بخاتمه ومحمول على بعيره فأي ظنّ تعلق بأمير المؤمنين ﷺ في هذا المكان لولا العداوة وقلة الشكر للنعمة.

ولقد قال له المصريون لما جحد أن يكون الكتاب كتابه شيئاً لا زيادة عليه في باب الحجّة لأنّهم قالوا: إذا كنت ما كتبته ولا أمرت به فأنت ضعيف من حيث تم عليك أن يكتب كاتبك بما يختمه بخاتمك وينفذه بيد غلامك على بعيرك بغير أمرك ومن تمّ عليه مثل ذلك لا يصلح أن يكون والياً على أُمور المسلمين فاختلع عن الخلافة على كلّ حال وقد كان يجب على صاحب الكتاب أن يستحيي من قوله: إنّ أمير المؤمنين ﷺ قبل عذره وكيف يقبل عذر من يتّهمه ويشنعه وهو له ناصح وما قاله أمير المؤمنين بعد سماع هذا القول منه معروف.

وقوله: إنّ الكتاب يجوز فيه التزوير ليس بشيء لأنّه لا يجوز التزوير في الكتاب والغلام والبعير وهذه الأمور إذا انضاف بعضها إلى بعض بعد فيها التزوير وقد كان يجب على كلّ حال أن يبحث عن القصّة وعمّن زوّر الكتاب وأنفذ الرسول ولا ينام على ذلك ولا يقيم حتّى يعرف من أين دهي وكيف تمت الحيلة عليه فيحترز من مثلها ولا يغضى عن ذلك إغضاء خائف له ساتر عليه مشفق من بحثه وكشفه.

فأمّا قوله: «أنه وإن غلب في الظن أن مروان كتب الكتاب فإنّ الحكم بالظن لا يجوز وتسليمه إلى القوم على ما ساموه إيّاه ظلم لأنّ الحدّ والتأديب إذا وجب عليه فالإمام يقيمه دونهم» فتعلل منه بالباطل لأنّا لا نعمل إلاّ على قول في أنّه لم يعلم أنّ مروان هو الذي كتب الكتاب وإنّما غلب في ظنّه أما كان يستحقّ بهذا الظنّ بعض التعنيف والزجر والتهديد أو ما كان يجب مع وقوع التهمة وقوة الأمارات في أنّه جالب للفتنة وسبب الفرقة أن يبعده عنه ويطرده عن داره ويسلبه نعمته وما كان يخصّه به من إكرامه وما في هذه الأمور أظهر من أن ينبّه عليه.

فأمّا قوله: «إنّ الأمر بالقتل لا يوجب قوداً ولا دية لا سيما قبل وقوع القتل المأمور به» فهب أن ذلك على ما قال أما يوجب على الآمر بالقتل تأديباً ولا تعزيراً ولا طرداً ولا إبعاداً؛ وقوله: لم يثبت ذلك، فقد مضى ما فيه وبيّنا أنّه لم يستعمل فيه ما يجب استعماله من البحث والكشف وتهديد المتهم وطرده وإبعاده والتبرء من التهمة بما يتبرأ به من مثلها.

فأمّا قوله: «إنّ قتله ظلم وكذلك حبسه في الدار ومنعه من الماء وإن استحقّ القتل أو الخلع لا يحلّ أن يمنع الطعام والشراب واطنابه في ذلك، وقوله إنّ من لم يدفع عن ذلك من الصحابة يجب أن يكون مخطئاً، وقوله إن قتله أيضاً لو وجب لم يجز أن يتولاه العوام من

النّاس» فباطل لأنّ الذين قتلوه لا ينكر أن يكونوا ما تعمدوا قتله وإنّما طالبوه بأن يخلع نفسه لما ظهر من أحداثه ويعتزل الأمر اعتزالاً يتمكنون معه من إقامة غيره فلج وصمم على الامتناع وأقام على أمر واحد فقصد القوم بحصره إلى أن يلجئوه إلى خلع نفسه فاعتصم بداره واجتمع إليه نفر من أوباش بني أميّة يدفعون عنه ثمّ يرمون من دنى من الدار فانتهى الأمر إلى القتال بتدريج ثمّ إلى القتل ولم يكن القتال ولا القتل مقصوداً في الأصل وإنّما أفضى الأمر إليهما بتدريج وترتيب وجرى ذلك مجرى ظالم غلب إنساناً على رحله ومتاعه فالواجب على المغلوب أن يمانعه ويدافعه ليخلص ماله من يده ولا يقصد إلى إتلافه ولا قتله فإن أفضى الأمر إلى ذلك بلا قصد كان معذوراً وإنما خاف القوم في التأني به والصبر عليه إلى أن يخلع نفسه من كتبه التي طارت في الآفاق يستنصر عليهم ويستقدم الجيوش إليه ولم يأمنوا أن يرد بعض من يدفع عنه فيؤدي ذلك إلى الفتنة الكبرى والبلية العظمى.

وأمّا منع الماء والطعام فما فعل ذلك إلاّ تضيّقاً عليه ليخرج ويحوج إلى الخلع الواجب عليه وقد يستعمل في الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرم من ذوي الجنايات فتعذر إقامة الحدّ عليه لمكان الحرم؛ على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكر منع الماء والطعام وأنفذ من مكن من حمل ذلك لأنه قد كان في الدّار من النساء والحرم والصبيان من لا يحلّ منعه الطعام والشراب ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمع عليه والتظاهر فيه حكم منع الطعام والشراب في القبح والمنكر لأنكره أمير المؤمنين عليه السلام ومنع منه كما منع من غيره فقد روى عنه عليه السلام أنّه لما بلغه أنّ القوم قد منعوا من في الدار من الماء قال عليه السلام لا أرى ذلك في الدّار صبيان وعيال لا أرى أن يقتل هؤلاء عطشاً بجرم عثمان فصرّح بالمعنى الذي ذكرناه ومعلوم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلع بل كان مساعداً على ذلك مشاوراً فيه.

فأمّا قوله «إنّ قتل الظالم إنّما يحلّ على سبيل الدفع» فقد بيّنا أنّه لا ننكر أن يكون قتله على هذا الوجه لأنّ في تمسكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها في حكم الظالم لهم فمدافعته واجبة.

فأمّا من قصّة من قصّة الكتاب الموجودة فقد حرّفها لأنّا قد ذكرنا شرحها الذي وردت به الرواية وهو بخلاف ما ذكروه.

وأمّا قوله: «إنّه قال: إن كنت أخطأت أو تعمدت فإنّي تائب إلى الله أستغفر» فقد أجابه القوم عن هذا فقالوا: هكذا قلت في المرّة الأولى وخطبت على المنبر بالتوبة والإستغفار ثمّ وجدنا كتابك بما يقتضي الإصرار على أقبح ما عتبنا منه فكيف نثق بتوبتك واستغفارك.

فأمّا قوله «إنّ القتل على وجه الغيلة لا تحلّ فيمن يستحق القتل فكيف فيمن لا يستحقه» فقد بيّنا أنّه لم يكن على سبيل الغيلة وأنّه لا يمتنع أن يكون إنّما وقع على سبيل المدافعة.

فأمّا ادّعائه أنّه منع من نصرته واقسم على عبيده في ترك القتال فقد كان ذلك لعمري في ابتداء الأمر طلباً للسّلامة وظنّا منه بأنّ الأمر يصلح والقوم يرجعون عما هم عليه وما همّوا به؛ فلمّا اشتدّ الأمر ووقع اليأس من الرجوع والنزوع لم يمنع أحداً من نصرته والمحاربة عنه وكيف يمنع من ذلك وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصره ويستصرخه والذي يدلّ على ذلك أنّه لم يمنع في الابتداء من محاربتهم إلاّ للوجه الذي ذكرناه دون غيره أنّه لا خلاف بين أهل الرواية في أن كتبه تفرّقت في الآفاق يستنفر ويستدعي الجيوش فكيف يرغب عن نصرة الحاضر من يستدعي نصرة الغائب.

فأمّا قوله: «إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتيه حتّى منعه ابنه محمّد» فقول بعيد مما جاءت به الرّواية جدّاً لأنّه لا اشكال في أمير المؤمنين عليه السلام لما واجهه عثمان بأنّه يتهمه ويستغشه انصرف مغضبا عاملاً على أنّ لا يأتيه أبداً قائلاً فيه ما يستحقه من الأقوال.

فأمّا قوله في جواب سؤال من قال إنّهم اعتقدوا فيه أنّه من المفسدين في الأرض وآية المحاربين تتناوله «وقد كان يجب أن يتولّى الإمام ذلك الفعل بنفسه لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ» فطريف لأنّ الإمام يتولى ما يجرى هذا المجرى إذا كان منصوباً ثابتاً ولم يكن على مذهب أكثر القوم هناك إمام يقوم بالدفع عن الدين والذبّ عن الأمة جاز أن يتولّى ذلك بنفوسها، وما رأيت أعجب ما ادعاه مخالفينا أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا كارهين لما جرى عليه وأنّهم كانوا يعتقدونه منكراً وظلماً وهذا يجرى عند من تأمله مجرى دفع الضرورة قبل النظر في الأخبار وسماع ما ورد من شرح هذه القصة، لأنّه معلوم أن ما يكرهه جميع الصحابة أو أكثرهم في دار عزّهم وبحيث ينفذ أمرهم ونهيهم لا يجوز أن يتم ومعلوم أن نفراً من أهل مصر لا يجوز أن يتمّ، ومعلوم أن نفراً من أهل مصر لا يجوز أن يقدموا المدينة وأن يغلبوا جميع المسلمين على آرائهم ويفعلوا ما يكرهونه بإمامهم بمرأى منهم ومسمع وهذا معلوم بطلانه بالبداهة والضرورات قبل مجيء الآثار وتصفح الأخبار وتأملها.

وقد روى الواقدي عن ابن أبي الزناد عن أبي جعفر القاري مولى بني مخزوم قال: كان المصريون الذين حصروا عثمان ستمائة عليهم عبد الرحمٰن بن عديس البلوي وكنانة بن بشير الكندي وعمرو بن الحمق الخزاعي؛ والذين قدموا من الكوفة مائتين عليهم مالك بن الحارث الأشتر النخعي والذين قدموا من البصرة مائة رجل رئيسهم حكيم بن جبلة العبدي وكان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله الذين خذلوه لا يرون أن الأمر يبلغ بهم إلى القتل ولعمري لو قام بعضهم فحثا التراب في وجوه أولئك لانصرفوا وهذه الرّواية تضمنت من عدد القوم الوافدين في هذا الباب أكثر ممّا تضمّنه غيرها[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/٣٧، والطبقات الكبرى: ٣/٧١.

وروى شعبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن قال: قلت له: كيف لم يمنع أصحاب رسول الله ﷺ عن عثمان؟ قال: إنما قتله أصحاب رسول الله ﷺ. وروى عن أبي سعيد الخدري أنّه سئل عن مقتل عثمان هل شهده واحد من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم شهده ثمانمائة؛ وكيف يقال: إن القوم كانوا كارهين وهؤلاء المصريون كانوا يغدون إلى كلّ واحد منهم ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه؛ وهذا عبد الرحمٰن بن عوف وهو عاقد الأمر لعثمان وجالبه إليه ومصيره في يده يقول على ما رواه الواقدي وقد ذكر له عثمان في مرضه الذي مات فيه عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه فبلغ عثمان ذلك فبعث إلى بئر كان يسقي منها نعم عبد الرّحمٰن فمنع منها ووصى عبد الرحمٰن أن لا يصلّى عليه عثمان فصلّى عليه الزبير أو سعد بن أبي وقاص وقد كان حلف لما تتابعت أحداثه ألاّ يكلم عثمان أبداً.

وروى الواقدي قال: لما توفي أبو ذر بالرّبذة تذاكر أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الرّحمٰن فعل عثمان فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: هذا عملك فقال له عبد الرحمٰن فإذا شئت فخذ سيفك وآخذ سيفي أنه خالف ما أعطاني.

فأمّا محمّد بن مسلمة فإنه أرسل إليه عثمان يقول له عند قدوم المصريين في الدفعة الثانية: أردد عنّي فقال: لا والله لا أكذب الله في سنة مرّتين؛ وإنّما عني بذلك أنّه كان أحد من كلّم المصريين في الدّفعة الأُولى وضمن لهم عن عثمان الرضا.

وفي رواية الواقدي أن محمّد بن مسلمة كان يؤتى وعثمان محصور، فيقال له: عثمان مقتول فيقول: هو قتل نفسه فأمّا كلام أمير المؤمنين عليه السلام طلحة والزّبير وعائشة وجميع الصحابة واحداً واحداً فلو تعاطينا ذكره لطال به الشرح ومن أراد أن يقف على أقوالهم مفصّلة وما صرحوا به من خلعه والإجلاب عليه فعليه بكتاب الواقدي فقد ذكر هو وغيره من ذلك ما لا زيادة عليه في هذا الباب[١].

«اعتراض القاضي عبد الجبار في المغني على الطاعنين» «على عثمان بأحداثه»

نقل عنه الشريف المرتضى علم الهدى في «الشافي» أنه قال: ونحن نقدم قبل الجواب عن هذه المطاعن مقدمات تبين بطلانها على الجملة ثمّ نتكلم على تفصيلها، حكى عن أبي عليّ أن ذلك لو كان صحيحاً لوجب من الوقت الذي ظهر ذلك من حاله أن يطلبوا رجلاً

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٩.

ينصب للإمامة وأن يكون ظهور ذلك كموته لأنه لا خلاف أنه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه أنّ الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه فلمّا علمنا أن طلبهم لإقامة إمام كان بعد قتله ولم يكن من قبل والتمكن قائم فذلك من أدلّ الدلالة على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث.

قال: وليس لأحد أن يقول لم يتمكّنوا من ذلك لأن المتعالم من حالهم وقد حصروه ومنعوه التمكن من ذلك خصوصاً وهم يدّعون أن الجميع كانوا على حول واحد في خلعه والبراءة منه. قال: ومعلوم من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع في الأيام التي حوصر فيها وقتل بل كانت تحصل من قبل حالاً بعد حال فلو كان ذلك يوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الإنكار عليه ولكان كبار الصحابة المقيمين بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد لأنّ أهل العلم والفضل بالنكير في ذلك أحقّ من غيرهم. قال: فقد كان يجب على طريقتهم أن تحصل البراءة والخلع من أوّل يوم حدث فيه منه ما حدث ولا ينتظر حصول غيره من الأحداث لأنّه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حد إلاّ وينتظر غيره. ثمّ ذكر أن أمساكهم عن ذلك إذا تيقنوا الأحداث منه يوجب نسبة الخطأ إلى جميعهم والضلال فلا يجوز ذلك. وقال: ولا يمكنهم أن يقولوا إن علمهم بذلك حصل في الوقت الذي منع لأنّ في جملة الأحداث التي يذكرونها ما تقدّم هذه الحال بل كلّها أو جلّها تقدم هذا الوقت وإنما يمكنهم أن يتعلقوا فيما حدث في الوقت بما يذكرون من حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبي سرح بالقتل وما أوجب كون ذلك حدثا يوجب كون غيره حدثاً فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل واحتمال المتقدّم للتأويل كاحتمال المتأخر وبعد فليس يخلو من أن يدّعوا أن طلب الخلع وقع من كلّ الأمة أو من بعضهم فإن ادّعوا ذلك في بعض الأمّة فقد علمنا أنّ الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجز إبطالها بالخلاف لأنّ الخطأ جائز على بعض الأمّة وإن ادّعوا في ذلك الإجماع لم يصحّ لأن من جملة الإجماع عثمان ومن كان ينصره ولا يمكن إخراجه من الإجماع بأنه يقال إنّه كان على باطل لأنّ بالإجماع يتوصّل إلى ذلك ولما يثبت. قال: على أنّ الظاهر من حال الصحابة أنّها كانت بين فريقين أمّا من ينصره فقد روى عن زيد بن ثابت أنّه قال لعثمان ومن معه الأنصار ائذن لنا ننصرك. وروى مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة والباقون يمتنعون انتظار الزوال العارض لا لأنّه لو ضيق عليهم الأمر في الدفع ما فعلوا بل المتعالم من حالهم ذلك.

ثمّ ذكر ما روى من انفاذ أمير المؤمنين الحسن والحسين إليه وأنه لما قتل لامهما على وصول القول إليه ظنّاً منه بأنّهما قصرا. وذكر أن أصحاب الحديث يروون عن النبيّ ﷺ أنه قال: ستكون فتنة واختلاف وأن عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى. وما روى عن عائشة من قولها: قتل والله مظلوماً. قال: ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار آحاد في ذلك لأنه ليس هناك أمر ظاهر يدفعه نحو دعواهم أن جميع الصحابة كانوا عليه لأن ذلك دعوى منهم وإن كان فيه

رواية فمن الآحاد وإذا تعارضت الروايات سقطت ووجب الرجوع إلى أمر ثابت وهو ما ثبت من أحواله السليمة ووجوب تولّيه.

قال: وليس يجوز أن يعدل عن تعظيمه وصحة إمامته بأمور محتملة فلا شيء مما ذكروه إلاّ ويحتمل الوجه الذي هو صحيح.

ثمّ ذكر أن للإمام أن يجتهد رأيه في الأمور المنوطة به ويعمل فيها على غالب ظنّه وقد يكون مصيباً وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة وأكّد ذلك وأطنب فيه.

«اعتراض علم الهدى على هذه الكلمات»

اعترض عليه في «الشافي» بقوله: فأما ما حكاه عن أبي علي من قوله: «لو كان ما ذكروه من الأحداث قادحاً لوجب من الوقت الذي ظهرت فيه أن يطلبوا رجلاً ينصبونه في الإمامة لأن ظهور الحدث كموته قال فلما رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دلّ على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث» فليس ذلك بشيء معتمد لأن تلك الأحداث وإن كانت مزيلة عندكم لإمامته وفاسخة لها ومقتضية لأن يعقدوا لغيره الإمامة فإنهم لم يقدموا على نصب غيره مع تشبثه خوفاً من الفتنة والتنازع والتجاذب وأرادوا أن يخلع نفسه حتّى تزول الشبهة وينشط من يصلح للإمامة لقبول العقد والتكفل بالأمر وليس يجري ذلك مجرى موته لأن موته يحسم الطمع في استمرار ولايته ولا يبقى شبهة في خلو الزمان من إمام، وليس كذلك حدثه الذي يسوغ فيه التأويل على بعده ويبقى معه الشبهة في استمرار أمره وليس نقول: إنهم لم يتمكّنوا من ذلك كما سأل نفسه بل الوجه في عدو لهم ما ذكرناه من إرادتهم لحسم المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة.

فأمّا قوله «إنه معلوم من هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع في الأيام التي حصر فيها وقتل بل كانت تقع حالاً بعد حال فلو كانت توجب الخلع والبراءة لما تأخّر من المسلمين الإنكار عليه ولكان المقيمون بالمدينة من الصحابة أولى بذلك من الواردين من البلاد» فلا شك أن الأحداث لم تحصل في وقت واحد إلاّ أنّه غير منكر أن يكون نكيرهم إنما تأخّر لأنهم تأولوا ما ورد عليهم من أفعاله على أجمل الوجوه حتى زاد الأمر وتفاقم وبعد التأويل وتعذر التخريج لم يبق للظن الجميل طريق فحينئذ أنكروا وهذا مستمر على ما قدمنا ذكره من أن العدالة والطريقة الجميلة تتأول في الفعل والأفعال القليلة بحسب ما تقدم من حسن الظنّ به ثمّ ينتهي الأمر بعد ذلك إلى بعد التأويل والعمل على الظاهر القبيح.

على أن الوجه الصحيح في هذا الباب أن أهل الحقّ كانوا معتقدين لخلعه من أوّل حدث بل معتقدين لأن إمامته لم تثبت وقتاً من الأوقات وإنما منعهم من إظهار ما في نفوسهم ما قدمناه من أسباب الخوف والتقيّة ولأنّ الاغترار بالرّجل كان عامّاً فلما تبيّن أمره حالاً بعد

حال وأعرضت الوجوه عنه وقل العاذلة قويت الكلمة في عزله وهذا إنّما كان في آخر الأمر دون أوّله فليس يقتضي الإمساك إلى الوقت الذي وقع الكلام فيه نسبة الخطأ إلى الجميع على ما ظنّه.

فأمّا دفعه أن يكون الأمة أجمعت على خلعه بإخراجه نفسه وخروج من كان في حيّزه عن القوم فليس بشيء لأنّه إذا ثبت أن من عداه وعدا عبيده والرهط من فجّار أهله وفسّاقهم كمروان ومن جرى مجراه كانوا مجمعين على خلعه فلا شبهة أن الحق في غير حيّزه، لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب وجميع الأُمّة مبطل وإنما يدعى أنه على الحق من تنازع في إجماع من عداه، فأما مع تسليم ذلك فليس يبقى شبهة وما نجد مخالفينا يعتبرون في باب الإجماع الشذاذ عنه والنفر القليل الخارجين منه ألا ترى أنهم لا يحلفون بخلاف سعد وولده وأهله في بيعة أبي بكر لقلتهم وكثرة ما بإزائهم، وكذلك لا يعتدون بخلاف من امتنع بخلاف من امتنع من بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ويجعلونه شاذاً لا تأثير له فكيف فارقوا هذه الطريقة في خلع عثمان وهل هذا إلاّ تقلّب وتلوّن.

فأمّا قوله «إنّ الصحابة بين فريقين أما من ينصره كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان والباقون ممتنعون انتظار الزوال العارض ولأنه ما ضيق عليهم الأمر في الدفع عنه» فعجيب لأن الظاهر أن أنصاره هم الذين كانوا معه في الدار يقاتلون عنه ويدفعون الهاجمين عليه فقط؛ فأمّا من كان في منزله ما أغنى عنه فتيلاً لا يعدّ ناصراً وكيف يجوز ممن أراد نصرته وكان معتقداً لصوابه وخطاء الطالبين لخلعه أن يتوقف عن النصرة طلباً لزوال العارض وهل يراد النصرة إلاّ لدفع العارض وبعد زواله لا حاجة إليها وليس يحتاج في نصرته إلى أن يضيق هو عليهم الأمر فيها بل من كان معتقداً لها لا يحتاج حمله إلى إذنه فيها ولا يحفل بنهيه عنها لأنّ المنكر ممّا قد تقدّم أمر الله تعالى فيه بالنهي عنه فليس يحتاج في إنكاره إلى أمر غيره.

فأمّا زيد بن ثابت فقد روى ميله إلى عثمان فما نعنى ذلك وبإزائه جميع الأنصار والمهاجرين ولميله إليه سبب معروف قد روته الرواة فإنّ الواقدي قد روى في كتاب الدار أن مروان بن الحكم لما حصر عثمان الحصر الأخير جاء إلى زيد بن ثابت فاستصحبه إلى عائشة ليكلّمها في هذا الأمر فمضيا إليها وهي عازمة إلى الحجّ فكلّماها في أن تقيم وتذبّ عنه فأقبلت علي زيد بن ثابت فقالت: وما منعك يا ابن ثابت ولك الأساويف قد قطعها لك عثمان ولك كذا وكذا وأعطاك من بيت المال زها عشرة ألف دينار؟ قال زيد: فلم أرجع عليها حرفاً واحداً.

قال: وأشارت إلى مروان بالقيام فقام مروان وهو يقول متمثلاً حرق قيس على البلاد حتى إذا اضطرمت أجد ما؛ فنادته عائشة وقد خرج من العتبة: يا ابن الحكم أعليّ تمثل

الأشعار؟ قد والله سمعت ما قلت، أتراني في شك من صاحبك؟ والذي نفسي بيده لوددت أنه الآن في غرارة من غرائري مخيطة عليها فألقيها في البحر الأخضر، قال زيد: فخرجنا من عندها على النّاس.

وروى الواقدي: أنّ زيد بن ثابت اجتمع عليه من الأنصار وهو يدعوهم إلى نصر عثمان فوقف عليه جبلة بن عمرو بن حية المازني فقال له جبلة: ما يمنعك يا زيد أن تذبّ عنه أعطاك عشرة ألف دينار وأعطاك حدائق من نخل ما لم ترث من أبيك مثل حديقة منها.

فأمّا ابن عمر فإنّ الواقدي أيضاً روى عن ابن عمر أنّه قال: والله ما كان منا إلاّ خاذل أو قاتل[1] والأمر في هذا أوضح من أن يخفى.

فأمّا ذكره إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين» فإنما أنفذهما إن كان أنفذهما ليمنعان من انتهاك حريمه وتعمد قتله ومنع حرمه ونسائه من الطعام والشراب ولم ينفذهما ليمنعا من مطالبته بالخلع كيف وهو مصرح بأنه بأحداثه مستحق للخلع والقوم الذين سعوا في ذلك إليه كانوا يغدون ويروحون إليه ومعلوم منه ضرورة أنّه كان مساعداً على خلعه ونقض أمره لا سيّما في المرّة الأخيرة.

فأمّا ادّعائه أنّه لعن قتلته فهو يعلم ما في هذا من الرّوايات المختلفة التي هي أظهر من هذه الرواية وإن صحّت فيجوز أن يكون محمولة على لعن من قتله متعمداً لقتله قاصداً إليه فإن ذلك لم يكن لهم.

فأمّا ادّعائه أن طلحة رجع لما ناشده عثمان يوم الدار فظاهر البطلان وغير معروف في الرواية والظاهر المعروف أنّه لم يكن على عثمان أشدّ من طلحة يوم الدار ولا أغلظ ولو حكينا من كلامه فيه ما قد روى لافنينا قطعة كبيرة من هذا الكتاب.

وقد روى: أنّ عثمان كان يقول يوم الدار: اللهم اكفني طلحة ويكرر ذلك علماً منه بأنه أشدّ القوم عليه.

وروى أن طلحة كان عليه يوم الدار درع وهو يرامي النّاس ولم ينزع عن القتال حتّى قتل الرجل.

فأمّا ادعائه من الرواية «عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه ستكون فتنة وأن عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى» فهو يعلم أن هذه الرواية الشاذة لا يكون في مقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمّة على خلعه وخذله وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه وبإزاء هذه الرواية ما يملأ الطروس

(١) شرح النهج: ٣/٨.

عن النبيّ ﷺ وغيره ممّا يتضمن ضدّ ما تضمنته ولو كانت هذه الرواية معروفة لكان عثمان أولى الناس بالاحتجاج بها يوم الدّار وقد احتجّ عليهم بكلّ غث وسمين؛ وقبل ذلك لما خوصم وطولب بأن يخلع نفسه؛ ولاحتجّ عنه بعض أصحابه وأنصاره وفي علمنا بأن شيئاً من ذلك لم يكن دلالة على أنّها مصنوعة.

فأما ما رواه عن عائشة من قولها: «قتل والله مظلوماً» فأقوال عائشة فيه معروفة معلومة وإخراجها قميص رسول الله ﷺ وهي تقول: هذا قميصه لم يبل وقد بليت سنته وغير ذلك ممّا لا يحصى كثرة.

فأما مدحها وثناؤها عليه فإنما كان عقيب علمها بانتقال الأمر إلى أمير المؤمنين ﷺ والسبب فيه معروف وقد وقفت عليه وقوبل بين كلامها فيه متقدّماً ومتأخراً.

فأمّا قوله: «لا يمتنع أن يتعلّق بأخبار الآحاد في ذلك لأنها في مقابلة ما يدّعونه ممّا طريقه أيضاً الآحاد» فواضح البطلان لأنّ إطباق الصحابة وأهل المدينة إلاّ من كان في الدّار معه على خلافه وأنهم كانوا بين مجاهد ومقاتل مبارز وبين خاذل متقاعد معلوم ضرورة لكل من سمع الأخبار وكيف يدّعى أنها من جملة الآحاد حتّى يعارض بأخبار شاذّة نادرة وهل هذا إلا مكابرة ظاهرة؟

فأما قوله: «إنا لا نعدل عن ولايته بأُمور محتملة» فقد مضى الكلام في هذا المعنى وقلنا أن المحتمل هو ما لا ظاهر له والذي يتجاذبه الأُمور المختلفة فأما ماله ظاهر فلا يسمى محتملاً وإن سماه بهذه التسمية فقد بينا أنّه ممّا يعدل من أجله عن الولاية وفصلنا ذلك تفصيلاً بيناً.

فأمّا قوله «إن للإمام أن يجتهد رأيه في الأُمور المنوطة به ويكون مصيباً وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة» فأوّل ما فيه أنّه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد في الأحكام ولا يجوز العمل فيها إلاّ على النصوص. ثمّ إذا سلمنا الاجتهاد فلا شك أن ههنا أموراً لا يسوغ فيها الاجتهاد حتّى يكون من خبرنا عنه بأنّه اجتهد فيها غير مصدق وتفصيل هذه الجملة يبين عند الكلام ما تعاطاه من الأعذار في أحداثه.

أقول: من نظر في فعل كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار بعثمان أنهم حصروه أربعين ليلة ومنعوه من الماء وخذلوه حتّى قتل وقد كان يمكنهم الدفع عنه على أنّهم أعانوا قاتليه بل شهد قتله ثمانمائة من أصحاب رسول الله ﷺ وتركوه بعد القتل ثلاثة أيام ولم يدفنوه حتّى قام ثلاثة نفر من بني أمية فأخذوه بالليل سرقة ودفنوه لكيلا يعلم بهم أحد ودفنوه في حش كوكب مقبر يهود يدلّ على عظم أحداثه وكبر معاصيه والحق كما قال محمّد بن

مسلمة برواية الواقدي المتقدمة إن عثمان قتل نفسه، على أن خاذليه كانوا خيراً من ناصريه لأن الذين نصره كان أكثرهم فساقاً كمروان بن الحكم وأضرابه وخذله المهاجرون والأنصار، وكفى في المقام إعراض أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن نصرته آخر الأمر مع قدرته على ذلك وقوله عليه السلام الله قتله. على أنه عليه السلام نصحه ونصره غير مرة وما أراد عثمان منه عليه السلام نصحاً وإلاّ لتاب من قوادحه حقيقة ولما خدع النّاس مرة بعد مرة، ومن تتبع كتب السير والتواريخ وسمع مقالات كبار الصحابة وعظماء القوم في عثمان وتوبته ظاهراً من أحداثه دفعة ثمّ نقضه التوبة وفعله ما فعل دفعة أخرى درى أنّ عثمان اتخذ دين الله لعباً وبيت المال طعماً له ولبني أميّة وأتباعه وذوي رحمه ممّن سمعت شناعة حالهم وبشاعة أمرهم، وأنّ أجوبة القاضي عبد الجبار وأشياعه الواهية ناشئة من التّعصب، وأنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان معتزلاً للفتنة بقتل عثمان وأنّه بعد عن منزله في المدينة لأن لا تتطرق عليه الظنون برغبته في البيعة بالأمر على النّاس وأنّ الصحابة لما كان من أمر عثمان ما كان التمسوه وبحثوا عن مكانه حتّى وجدوه فصاروا إليه وسألوه القيام بالأُمّة.

ونص أبو جعفر الطبري في التاريخ أنه لما حصر عثمان كان عليّ عليه السلام بخيبر وأن معاوية وأهل البصرة اتهموا عليّاً عليه السلام بدم عثمان اتباعاً لتسويلات شيطانية وأن إسناد دم عثمان إليه عليه السلام تهمة وبهتان ليس إلاّ وهذه التهمة كفران النعمة وقلّة الشكر لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام نصر عثمان من بدو الأمر لما استنصره غير مرة ولقد مضى قوله عليه السلام في الكلام ٢٣٨ من المختار في باب الخطب: والله لقد دفعت عنه **(يعني عن عثمان)** حتّى خشيت أن أكون آثماً؛ ولعمري أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ولو قبلها لم يحدث عليه ما حدث فلما رأى عليه السلام أفعاله وأقواله كما سمعت خرج من عنده مغضباً تركه مخذولاً حتّى ذاق ما ذاق.

ثمّ ليعلم أن طلحة والزبير وعائشة فيما صنعوه في أيام عثمان من أوكد أسباب ما تمّ عليه من الخلع والحصر وسفك الدّم والفساد وذلك ظاهر بيّن لذوي العقول السليمة من آفة التعصب والتقليد وسيتضح أشد إيضاح في شرح الكتب الآتية.

واعلم أنّه ليس غرضنا من ذكر أحداث عثمان وما نقم النّاس منه إبطالاً لإمامته بعد ظهورها منه فإن هذا البحث إنما يختص بمن قال بإمامته قبل أحداثه ورجع عنها عند وقوع أحداثه وهم الخوارج ومن وافقهم وأما عندنا معاشر الإماميّة لم يثبت إمامة الرّجل وأشباهه وقتاً من الأوقات لما قدمنا في شرح الخطبة ٢٣٧ أن الإمامة عندنا رئاسة إلٰهية والله تعالى أعلم حيث يجعلها وأنّ الإمام يجب أن يكون منصوباً ومنصوصاً من الله تعالى ومعصوماً من جميع الذنوب ومنزها من العيوب مطلقاً وأنها عهد الله لا ينال الظالمين فالحريّ بنا أن نعود إلى الشرح:

قول الرّضي رضي الله عنه: «ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره إليهم من المدينة إلى البصرة» أقول: إنّما كان مسيره عليه السلام إلى البصرة لقتال أصحاب الجمل فيليق أن نذكر ما كان سبب ذلك القتال وعلّة وقوعه في البصرة على الإجمال ليكون القاري على بصيرة. واعلم أن النّاس بعد قتل عثمان أتوا أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام منزله فقالوا إنّ هذا الرّجل قد قتل ولا بدّ للنّاس من إمام ولا يصلح لإمامة المسلمين سواك ولا نجد اليوم أحداً أحقّ بهذا الأمر منك لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام: لا حاجة لي في أمركم أنا معكم فيم اخترتم فقد رضيت به فإنّي أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً، فاختاروا فقالوا: والله ما نختار غيرك. فلمّا انصرفوا عنه عليه السلام كلّم بعضهم بعضاً فقالوا: يمضي قتل عثمان في البلاد فيسمعون بقتله ولا يسمعون أنه بويع لأحد بعده فيثور كل رجل منهم في ناحية فلا نأمن أن يكون في ذلك الفساد فلنرجع إلى علي عليه السلام فلا نتركه حتّى يبايع فيطمئنّ النّاس ويسكنون.

فاختلفوا إليه عليه السلام مراراً ثمّ أتوه في آخر ذلك فقالوا له: إنّه لا يصلح النّاس إلاّ بأمرة وقد طال الأمر فوالله ما نحن بفاعلين حتّى نبايعك فقال عليه السلام: ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفيّة ولا تكون إلاّ عن رضا المسلمين، قال عبد الله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يشغب عليه وأبى هو إلاّ المسجد فلمّا دخل دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه.

أقول: ولقد مضى في الخطبة الواحدة والتسعين قوله عليه السلام للنّاس - لما أُريد على البيعة بعد قتل عثمان -: «دعوني والتمسوا غيري» فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وإنّ الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أُصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً». ورواه أبو جعفر الطبري في التاريخ أيضاً مسنداً (**ص ٢٥٦ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ**).

«بيعة طلحة والزبير علياً عليه السلام وأنهما أول من بايعه عليه السلام»

قال الشيخ المفيد في «**الجمل**»: روى أبو إسحاق بن إبراهيم بن محمّد الثقفي عن عثمان بن أبي شيبة عن أدريس عن محمّد بن عجلان عن زيد بن أسلم قال: جاء طلحة والزبير إلى عليّ عليه السلام وهو متعوذ بحيطان المدينة فدخلا عليه وقالا: ابسط يدك نبايعك فإنّ النّاس لا يرضون إلاّ بك. فقال لهما: لا حاجة لي في ذلك وأن أكون لكما وزيراً خير من أن أكون لكما أميراً فليبسط قرشي منكما يده أبايعه. فقالا إنّ النّاس لا يؤثرون غيرك ولا يعدلون عنك إلى سواك فابسط يدك نبايعك أوّل النّاس فقال: إنّ بيعتي لا تكون سراً فامهلا حتّى أخرج إلى المسجد فقالا: بل نبايعك ههنا ثمّ نبايعك في المسجد فبايعاه أوّل النّاس ثمّ بايعه النّاس على المنبر أوّلهم طلحة بن عبيد الله وكانت يده شلاّء فصعد المنبر إليه فصفق على يده ورجل

من بني أسد يزجر الطير قائم ينظر إليه فلما رأى أوّل يد صفقت على يد أمير المؤمنين عليه السلام يد طلحة وهي شلاّء قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون أوّل يد صفقت على يده شلاّء يوشك أن لا يتمّ هذا الأمر ثمّ نزل طلحة والزبير وبايعه النّاس بعدهما[١].

قال أبو جعفر الطبري في التاريخ: لما قتل عثمان خرج عليّ عليه السلام إلى السوق وذلك يوم السبت لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة فاتبعه النّاس وبهشوا في وجهه فدخل حائط بني عمرو بن مبذول وقال لأبي عمرة بن عمرو بن محصن: أغلق الباب فجاء النّاس فقرعوا الباب فدخلوا فيهم طلحة والزبير فقالا: يا عليّ ابسط يدك فبايعه طلحة والزبير فنظر حبيب ابن ذؤيب إلى طلحة حين بايع فقال: أوّل من بدأ بالبيعة يد شلاّء لا يتمّ هذا الأمر، وخرج عليّ إلى المسجد فصعد المنبر وعليه إزار وطاق وعمامة خز ونعلاه في يده متوكئاً على قوس فبايعه النّاس[٢].

وقال الطبري في نقل آخر: لما اختلف النّاس إليه عليه السلام مراراً للبيعة فقال عليه السلام لهم: إنكم قد اختلفتم إليّ وأتيتم وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت أمركم وإلاّ فلا حاجة لي فيه؟ قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله فجاء فصعد المنبر فاجتمع النّاس إليه فقال: إنّي كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم ألا وإنّه ليس لي أمر دونكم إلاّ أن مفاتيح مالكم معي ألا وإنّه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم ثمّ بايعهم على ذلك إلاّ نفيراً يسيراً كانوا عثمانيّة منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمّد بن مسلمة والنّعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة. قال: فقال رجل لعبد الله بن حسن كيف أبى هؤلاء بيعة عليّ عليه السلام وكانوا عثمانية؟ قال: أمّا حسان فكان شاعراً لا يبالي ما يصنع وأمّا زيد بن ثابت فولاّه عثمان الديوان وبيت المال فلما حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين فقال أبو أيّوب: ما تنصره إلاّ أنّه أكثر لك من العضدان؛ فأمّا كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزنية وترك ما أخذ منهم له.

وفي نقل آخر فيه: بايع النّاس عليّاً عليه السلام بالمدينة وتربص سبعة نفر فلم يبايعوه منهم: سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمّد بن مسلمة وسلمة بن وقش وأسامة بن زيد ولم يتخلف أحد من الأنصار إلاّ بايع.

وفي «**الإمامة والسياسة**» أنّ عمّار بن ياسر استأذن عليّاً عليه السلام أن يكلم عبد الله بن عمر

(١) الجمل: ٦٥، والفصول المختارة: ٢٢٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٥١.

ومحمّد بن مسلمة وسعد بن أبي وقاص في بيعتهم علياً عليه السلام فأبوا ـ وبعد نقل مكالمة عمّار لكلّ واحد منهم قال ـ: فانصرف عمار إلى عليّ عليه السلام فقال له عليّ عليه السلام: دع هؤلاء الرهط أمّا ابن عمر فضعيف، وأمّا سعد فحسود، وذنبي إلى محمّد بن مسلمة أنّي قتلت أخاه يوم خيبر: مرحب اليهودي(١).

«كلامه عليه السلام لما تخلف هؤلاء عن بيعته»

في **«الإرشاد»** للمفيد قدّس سره: ومن كلامه عليه السلام حين تخلّف عن بيعته عبد الله بن عمر بن الخطّاب وسعد بن أبي وقاص ومحمّد بن مسلمة وحسان بن ثابت وأسامة بن زيد؛ ما رواه الشعبي قال: لما اعتزل سعد ومن سمّيناه أمير المؤمنين عليه السلام وتوقفوا على بيعته حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس إنكم بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي وإنّما الخيار للنّاس قبل أن يبايعوا فإذا بايعوا فلا خيار لهم وإنّ على الإمام الاستقامة وعلى الرعية التسليم وهذه بيعة عامّة من رغب عنها رغب عن دين الإسلام واتبع غير سبيل أهله ولم تكن بيعتكم إياي فلتة وليس أمري وأمركم واحد وإني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم وأيم الله لأنصحن للخصم ولأنصفنّ للمظلوم وقد بلغني عن سعد وابن مسلمة وأسامة وعبد الله وحسان بن ثابت أمور كرهتها الحق بيني وبينهم.

أقول: أتى بكلامه هذا الشريف الرضي في **«النهج»**. ولكن لم يفسر هو ولا أحد من الشرّاح الذين نعرفهم سببه كما فسره المفيد على أن بينهما تفاوتاً في الكيف والكم فإنّه نقل هكذا: ومن كلامه عليه السلام: لم تكن بيعتكم إياي فلتة وليس أمري وأمركم واحداً إنّي أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم أيها النّاس أعينوني على أنفسكم وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودنّ الظالم بخزامته حتّى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً (**الكلام ١٣٦ من باب الخطب**).

وفي كتاب **«الجمل»** للشيخ الأجل المفيد قدّس سرّه: أنه روى أبو مخنف لوط بن يحيى عن محمّد بن عبد الله بن سوادة وطلحة بن الأعلم وأبي عثمان اجمع قالوا: بقيت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيّام وأميرها الواقض بن حرب والنّاس يلتمسون من يجيبهم لهذا الأمر فلا يجدون فيأتون المصريون علياً عليه السلام فيختبيء عنهم ويلوذ بحيطان المدينة فإذا لقوه يأبى عليهم.

قال: وروى إسحاق بن راشد عن الحميد بن عبد الرحمٰن عن ابن أثري قال: ألا أحدثك بما رأت عيناي وسمعت أذناي لما التقى النّاس عند بيت المال قال عليّ عليه السلام لطلحة: ابسط يدك أبايعك فقال طلحة: أنت أحق بهذا الأمر مني وقد اجتمع لك من هؤلاء

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٥٣، وخلاصة طبقات الأنوار: ٣/ ٢٧.

النّاس ما لم يجتمع لي، فقال عليّ عليه السلام: ما خشيناك غيرك فقال طلحة: لا تخش فوالله لا تؤتي من قبلي، وقام عمّار بن ياسر والهيثم بن التيهان ورفاعة بن أبي رافع ومالك بن عجلان وأبو أيّوب خالد بن زيد فقالوا لعليّ عليه السلام إنّ هذا الأمر قد فسد وقد رأيت ما صنع عثمان وما أتاه من خلاف الكتاب والسنّة فابسط يدك لنبايعك لتصلح من أمر الأمة ما قد فسد؛ فاستقال عليّ عليه السلام وقال: قد رأيتم ما صنع بي وعرفتم رأي القوم فلا حاجة لي فيهم فاقبلوا على الأنصار وقالوا يا معشر الأنصار أنتم أنصار الله وأنصار رسوله وبرسوله أكرمكم الله وقد علمتم فضل عليّ وسابقته في الإسلام وقرابته ومكانته من النبيّ صلى الله عليه وآله وإن ولي ينالكم خيراً.

فقال القوم: نحن أرضى النّاس به ما نريد به بدلاً ثمّ اجتمعوا عليه وما يزالوا به حتّى بايعوه.

وبإسناده عن ابن أبي الهيثم بن التيهان قال: يا معشر الأنصار وقد عرفتم رأيي ونصيحتي ومكاني من رسول الله صلى الله عليه وآله واختياره إيّاي فردّوا هذا الأمر إلى أقدمكم إسلاماً وأولاكم برسول الله صلى الله عليه وآله لعلّ الله أن يجمع به الفتكم ويحقن به دماءكم فأجابه القوم بالسمع والطاعة.

وروى سيف عن رجاله قال: اجتمع النّاس إلى عليّ عليه السلام وسألوه أن ينظر في أمورهم ويذلوا له البيعة فقال لهم: التمسوا غيري؛ فقالوا له: ننشدك الله أما ترى الفتنة ألا تخاف الله في ضياع هذه الأمة فلما ألحوا عليه قال لهم: إنّي لو أجبتكم حملتكم على ما أعلم وإن تركتموني كنت لأحدكم[1].

قالوا: قد رضينا بحلمك «بحملك ط» وما فينا مخالف لك فاحملنا على ما تراه ثمّ بايعه الجماعة[2].

أقول: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كره إجابة القوم على الفور والبدار لعلمه بعاقبة الأمور وإقدام القوم على الخلاف عليه وللظاهر له والشنآن والقوم ألحّوا فيما دعوه إليه ولم يمنعهم إبائه عليه السلام من الإجابة عن الإلحاح فيما أرادوا واذكروه بالله عزّ وجلّ وقالوا له إنّه لا يصلح لإمامة المسلمين سواك ولا نجد أحداً يقوم بهذا الأمر غيرك يصلح أمور الدّين ويقوم لحياطة الإسلام والمسلمين فبايعوه عليه السلام على السمع والطاعة.

---

(١) في نسخة: كأحدكم.

(٢) الجمل: ٦٤.

«أول خطبة خطبها أمير المؤمنين عليه السلام بعدما بويع له بالخلافة» «واختلاف الأقوال فيه والتوفيق بينها على التحقيق»

قال أبو جعفر الطبري في التاريخ (ص ٤٥٧ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ): بويع عليّ عليه السلام يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجّة فأوّل خطبة خطبها عليّ عليه السلام حين استخلف فيما كتب به إليّ السري عن شعيب عن سيف عن سليمان بن أبي المغيرة عن عليّ بن الحسين: حمد الله وأثنى عليه فقال: إنّ الله عزّ وجلّ أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشرّ، الفرائض أدّوها إلى الله سبحانه يؤدّكم إلى الجنّة، إنّ الله حرم حرماً غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلّها وشدّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم النّاس من لسانه ويده إلاّ بالحقّ لا يحل أذى المسلم إلاّ بما يجب بادروا أمر العامة وخاصّة أحدكم الموت فإنّ النّاس أمامكم وإن ما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنّما ينتظر النّاس اخريهم اتقوا الله عباده في عباده وبلاده إنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم أطيعوا الله عزّ وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض.

أقول: أتى بهذه الخطبة الرضي رضي الله عنه في «**النهج**» وبين النسختين تفاوت في بعض العبارات فارجع إلى الخطبة ١٦٦ من النهج أولها: إنّ الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سمت الشرّ تقصدوا ـ إلى آخرها.

ثمّ الظاهر أن الخطبة ٢١ من «**النهج**» وهي قوله عليه السلام «فإنّ الغاية أمامكم وإنّ ورائكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم» التي جعلها الرضي خطبة بحيالها جزء من تلك الخطبة والاختلاف بين الخطبتين في النهج في كلمة واحدة فقط لأنها في الخطبة ٢١ تكون «فإن الغاية أمامكم» وفي الخطبة ١٦٦ فإن الناس أمامكم» وإنما افرد ذلك الجزء بالذكر لأنه جمع وجازة الالفاظ وجزالة المعنى على حدّ كلّت ألسن النّاس عن أن تأتي بمثله وتتفوّه بشبهه وهو كما قال الرضي: لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً، قال: فأمّا قوله عليه السلام تخففوا تلحقوا فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً؛ إلى آخر ما قال.

ثمّ إنّ ابن قتيبة الدينوري قال في «**الإمامة والسياسة**»: وذكروا أنّ البيعة لما تمت بالمدينة خرج عليّ عليه السلام إلى المسجد الريف فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعد النّاس من نفسه خيراً وتألفهم جهده ثمّ قال عليه السلام: لا يستغنى الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم هم أعظم النّاس حيطة من وراءه وإليهم سعيه وأعطفهم عليه إن أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الأمور ومن يقبض يده عن عشيرته فإنّه يقبض عنهم

يداً واحدة وتقبض عنه أيد كثيرة ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له في آخرته، واعلموا أن لسان صدق يجعله الله للمرء في النّاس خير له من المال فلا يزدادنّ أحدكم كبرياء ولا عظمة في نفسه ولا يغفل أحدكم عن القرابة أن يصلها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه، واعلموا أنّ الدنيا قد أدبرت والآخرة قد أقبلت ألا وإن المضمار اليوم والسبق غداً ألا وإن السبقة الجنّة والغاية النار ألا إنّ الأمل يسهى القلب ويكذب الوعد ويأتي بغفلة ويورث حسرة فهو غرور وصاحبه في عناء فافزعوا إلى قوام دينكم وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم والنّصيحة لإمامكم وتعلّموا كتاب الله واصدقوا الحديث عن رسول الله ﷺ وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم وأدّوا الأمانات إذا ائتمنتم وارغبوا في ثواب الله وارهبوا عذابه واعملوا الخير تجزوا خيراً يوم يفوز بالخير من قدم الخير[1].

أقول: هذه الخطبة المنقولة من الدينوري مذكورة في **«النهج» (الخطبة ٢٨)** ونقلها المفيد في **«الإرشاد»** مبتدأة من قوله عليه السلام واعلموا أنّ الدنيا قد أدبرت ولم يبيّنا بأنّ الخطبة خطبها عليه السلام لما تمت البيعة له عليه السلام كما صرّح به الدينوري مع أنّ بين النسخ اختلافاً سيما بين ما في **«الإمامة والسياسة»** وبين ما في **«النهج»** و**«الإرشاد»**. ولا يخفى أنّ ظاهر كلام الدينوري أنّ ما نقله هو أوّل خطبة خطبها بعد تمام البيعة وإن كان يمكن بالدقة أن يستفاد منه عدم كونه أوّل خطبة خطبها في خلافته عليه السلام لكنه خلاف الظاهر من عبارته.

ثمّ إنّ المفيد قدّس سرّه قال في **«الجمل» (ص ٧٧ طبع النجف)**: قوله عليه السلام في أوّل خطبة خطبها بعد قتل عثمان وبيعة النّاس له: قد مضت أمور كنتم فيها غير محمودي الرأي أما لو أشاء لقلت ولكن عفى الله عما سلف سبق الرجلان وقام الثالث كالغراب همته بطنه وفرجه يا ويله لو قصّ جناحه وقطع رأسه لكان خيراً له. حتّى انتهى إلى قوله ـ وقد أهلك الله فرعون وهامان وقارون، فما يتصل بهذه الخطبة إلى آخرها.

أقول: ما نقله المفيد رحمه الله مذكور بعضها في الخطبة ١٧٧ من **«النهج»** أولها: لا يشغله شأن ولا يغيّره زمان ولا يحويه مكان ولا يصفه لسان لا يعزب عنه عدد قطر الماء ـ إلى آخرها ـ وصرّح الشارح المحقق ابن ميثم البحراني رحمه الله في شرح النهج **(ص ٣٥٤ طبع ١٢٧٦ المطبوعة بالحجر)** بأنّ هذه الخطبة أعني الخطبة ١٧٧ من **«النهج»** خطب بها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بعد مقتل عثمان في أوّل خلافته كما أنّه والشارح الفاضل المعتزلي والشريف الرضي والطبري وغيرهم صرّحوا بأنّ الخطبة ١٦٦ من **«النهج»** المذكورة آنفاً أوّل خطبة خطبها في أول خلافته.

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٧٠.

«التوفيق بين تلك الأقوال ووجه الجمع فيها»

فبعد الفحص والتتبع والغور في الأخبار والسير والأقوال والتأمّل في فحوى الخطب الموسومة من **«النهج»** حصل لنا أنّ الخطبة ٢١ من **«النهج»** والخطبة ٢٨ والخطبة ١٦٦ والخطبة ١٧٧ كانت جميعاً خطبة واحدة خطبها عليه السلام في أوّل خلافته وذكر المؤلفون في كلّ موضع جزء منها فتشتت في **«النهج»** فجعل كل جزء خطبة على حدة. فلنرجع إلى ما كنّا فيه.

«الناكثان طلحة والزبير وعلة نكثهما بيعة أمير المؤمنين عليه السلام»

واعلم أنّ ظاهر الفتنة بالبصرة إنما أحدثه طلحة والزبير من نكث البيعة التي بذلاها لأمير المؤمنين عليه السلام طوعاً واختياراً وايثاراً وخروجهما عن المدينة إلى مكة على إظهار منهما ابتغاء العمرة فلما وصلاها اجتمعا مع عائشة وعمّال عثمان الهاربين بأموال المسلمين إلى مكّة طمعاً فيما احتجبوه منها وخوفاً من أمير المؤمنين عليه السلام واتفاق رأيهم على الطلب بدم عثمان والتعلّق عليه في ذلك بانحياز قتلة عثمان وحاصريه وخاذليه من المهاجرين والأنصار وأهل مصر والعراق وكونهم جنداً له وأنصاراً واختصاصهم به في حربهم منه ومظاهرته لهم بالجميل وقوله فيهم الحسن من الكلام وترك إنكار ما منعوه بعثمان والإعراض عنهم في ذلك، وشبهوا بذلك على الضعفاء واغتروا به السفهاء وأوهموهم بذلك لظلم عثمان والبراءة من شيء يستحق به ما صنع به القوم من احصاره وخلعه والمنازعة إلى دمه فأجابهم إلى مرادهم من الفتنة من استغووه بما وصفناه وقصدوا البصرة لعلهم أن جمهور أهلها من شيعة عثمان وأصحاب عامله ابن عمه كان بها وهو عبد الله بن كريز بن عامر وكان ذلك منهم ظاهراً وباطناً بخلافه كما تدلّ عليه الأخبار ويوضح عن صحة الحكم به الاعتبار، ألا ترى أن طلحة والزبير وعائشة باجماع العلماء بالسير والآثار هم الذين كانوا أوكد السبب لخلع عثمان وحصره وقتله وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يزل يدفعهم عن ذلك ويلطف في منعهم عنه ويبذل الجهد في إصلاح حاله مع المنكرين عليه العائبين له بأفعاله والمحتجّين عليه بأقواله فلنذكر طائفة من الأخبار في سبب نكث طلحة والزبير البيعة وإثارتهما فتنة الجمل.

في **«الإمامة والسياسة»** للدينوري: ذكروا أنّ الزبير وطلحة أتيا عليّاً عليه السلام بعد فراغ البيعة فقالا: هل تدري على ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟ قال عليّ عليه السلام: نعم على السمع والطاعة وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان؛ فقالا: لا ولكنّا بايعناك على أنا شريكان في الأمر. قال عليّ عليه السلام: لا، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأولاد. قال: وكان الزبير لا يشكّ في ولاية العراق وطلحة في اليمن فلما استبان لهما أنّ عليّاً غير مولّيهما شيئاً أظهرا الشكاة فتكلم الزبير في ملاء من قريش، فقال: هذا جزاؤنا من عليّ، قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل وهو جالس في بيته وكفى

الأمر فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا، فقال طلحة: ما اللوم إلاّ أنا كنّا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا. قال: فانتهى قولهما إلى عليّ عليه السلام فدعا عبد الله بن عبّاس وكان استوزره، فقال له: بلغك قول هذين الرجلين؟ قال: نعم، بلغني قولهما. قال: فما ترى؟ قال: أرى أنّهما أحبّا الولاية فولّ البصرة الزبير وولّ طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان؛ فضحك عليّ عليه السلام ثمّ قال: ويحك إنّ العراقين بهما الرجال والأموال ومتى تملكا رقاب النّاس يستميلا السفيه بالطمع ويضربا الضعيف بالبلاء ويقويا على القوى بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضرّه ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي. قال: ثمّ أتى طلحة والزبير إلى عليّ عليه السلام فقالا: يا أمير المؤمنين ائذن لنا إلى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك وإن تسر نتبعك؛ فنظر إليهما عليّ عليه السلام وقال: نعم، والله ما العمرة تريدان وإنّما تريدان أن تمضيا إلى شأنكما فمضيا[1].

وقال المسعودي في **«مروج الذهب»**: أنهما استأذنا عليّاً عليه السلام في العمرة فقال عليه السلام: لعلّكما تريدان البصرة والشام فأقسما أنّهما لا يريدان غير مكّة.

أقول: وسيأتي طائفة من الأقوال والأخبار فيهما بعيد هذا. وإنّ ما يستفيد المتتبع الخبير من سبب نكث الرجلين البيعة هو يأسهما ممّا كانا يرجوان به من قتل عثمان بن عفان من البيعة لأحدهما بالإمامة واتّساق الأمر في البيعة لعليّ بن أبي طالب ثمّ أنّه عليه السلام ما وليهما شيئاً لأنّهما لم يكونا أهلاً لذلك لما قد سمعت وتأكد سبب النكث بذلك.

في **«الجمل»** للمفيد: لما أيس الرجلان من نيل ما طمعا فيه من التأمر على الناس والتملّك لأمرهم وبسط اليد عليهم ووجدا الأمة لا تعدل بأمير المؤمنين عليه السلام أحداً وعرفا رأي المهاجرين والأنصار ومن ذلك أراد الحظوة عنده بالبدار إلى بيعته وظنا بذلك شركائه في أمره وتحققا أنهما لا يليان معه أمراً واستقر الأمر على أمير المؤمنين عليه السلام ببيعة المهاجرين والأنصار وبني هاشم وكافة النّاس إلاّ من شذّ من بطانة عثمان وكانوا على خفاء لاشخاصهم مخافة على دمائهم من أهل الإيمان، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فطلب منه طلحة ولاية العراق وطلب منه الزبير ولاية الشام فأمسك عليّ عليه السلام عن إجابتهما في شيء من ذلك فانصرفا وهما ساخطان وقد عرفا ما كان غلب في ظنهما قبل من رأيه فتركاه يومين أو ثلاثة أيّام ثمّ صارا إليه واستأذنا عليه فأذن لهما وكان علية داره فصعدا إليه وجلسا عنده بين يديه

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٧١، والمعيار والموازنة: ٩٨.

وقالا يا أمير المؤمنين قد عرفت حال هذه الأزمنة وما نحن فيه من الشدّة وقد جئناك لتدفع إلينا شيئاً نصلح به أحوالنا ونقضي به حقوقاً علينا.

فقال عليه السلام: قد عرفتما ما لي بينبع فإن شئتما كتبت لكما منه ما تيسّر، فقالا: لا حاجة لنا في مالك بينبع فقال عليه السلام لهما: ما أصنع؟ فقالا له: أعطنا من بيت المال شيئاً لنا فيه كفاية. فقال عليه السلام: سبحان الله وأيّ يد لي في بيت المال وذلك للمسلمين وأنا خازنهم وأمين لهم؛ فإن شئتما رقيتما المنبر وسألتما ذلك ما شئتما فإن أذنوا فيه فعلت، وأنّى لي بذلك وهو لكافة المسلمين شاهدهم وغائبهم لكني أبدي لكما عذراً، فقالا: ما كنّا بالذي نكلفك ذلك ولو كلفناك لما أجابك المسلمون.

فقال لهما: فما أصنع؟ قالا: قد سمعنا ما عندك ثمّ نزلا من العليّة وكان في أرض الدار خادمة لأمير المؤمنين عليه السلام سمعتهما يقولان: والله ما بايعنا بقلوبنا وإن كنّا بايعنا بألسنتنا؛ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠] فتركاه يومين آخرين وقد جاءهما الخبر بإظهار عائشة بمكّة ما أظهرته من كراهة أمره وكراهة من قتل عثمان والدعاء إلى نصره والطلب بدمه وأنّ عمّال عثمان قد هربوا من الأمصار إلى مكة بما احتجبوه من أموال المسلمين ولخوفهم من أمير المؤمنين عليه السلام ومن معه من المهاجرين والأنصار وأنّ مروان بن الحكم ابن عم عثمان ويعلى بن منبه خليفته وعامله كان باليمن وعبد الله بن عامر بن كريز ابن عمه وعامله كان على البصرة وقد اجتمعوا مع عائشة وهم يدبرون الأمر في الفتنة فصار إلى أمير المؤمنين عليه السلام وتيمّما وقت خلوته فلما دخلا عليه قالا يا أمير المؤمنين قد جئناك نستأذنك للخروج في العمرة لأنا بعيد العهد بها ائذن لنا فيها.

فقال عليه السلام: والله ما تريدان العمرة ولكنّكما تريدان الغدرة، وإنّما تريدان البصرة. فقالا: اللهم غفراً ما نريد إلاّ العمرة. فقال عليه السلام إحلفا لي بالله العظيم أنكما لا تفسدان عليّ أمر المسلمين ولا تنكثان لي بيعة ولا تسعيان في فتنة فبذلا ألسنتهما بالأيمان المؤكّدة فيما استحلفهما عليه من ذلك.

فلما خرجا من عنده عليه السلام لقيهما ابن عباس فقال لهما: أذن لكما أمير المؤمنين؟ فقالا: نعم. فدخل على أمير المؤمنين فابتدأه عليه السلام فقال: يا ابن عبّاس! أعندك الخبر؟ قال: قد رأيت طلحة والزبير فقال عليه السلام أنهما استأذناني في العمرة فأذنت لهما بعد أن استوثقت منهما بالأيمان أن لا يغدرا ولا ينكثا ولا يحدثا فساداً والله يا ابن عبّاس وإنّي أعلم أنّهما ما قصدا إلاّ الفتنة فكأني بهما وقد صارا إلى مكة ليسعيا إلى حربي فإنّ يعلى بن منبه الخائن الفاجر قد حمل أموال العراق وفارس لينفق ذلك وسيفسدان هذان الرجلان عليّ أمري ويسفكان دماء شيعتي وأنصاري.

قال عبد الله بن عبّاس: إذا كان ذلك عندك يا أمير المؤمنين معلوم فلم أذنت لهما وهلاّ حبستهما وأوثقتهما بالحديد وكفيت المسلمين شرّهما؟

فقال عليه السلام: يا ابن عباس أتأمرني بالظلم بدءاً وبالسيئة قبل الحسنة وأُعاقب على الظنة والتهمة وأُؤاخذ بالفعل قبل كونه؟ كلا والله لا عدلت عما أخذ الله عليّ من الحكم والعدل ولا ابتدأ بالفصل يا ابن عبّاس إنني أذنت لهما وأعرف ما يكون منهما ولكني استظهرت بالله عليهما والله لأقتلنهما ولأخيبنّ ظنّهما ولا يلقيان من الأمر مناهما وأنّ الله يأخذهما بظلمهما لي ونكثهما بيعتي وبغيهما عليّ[١].

أقول: قد علمت سابقاً ممّا نقلنا من الفريقين أنّ طلحة كان أوّل من رمى بسهم في دار عثمان وقال: لا ننعمنّه عيناً ولا نتركه يأكل ولا يشرب، ولما حيل بين أهل دار عثمان وبين الماء فنظر الزبير نحوهم وقال وحيل بينهم وبين ما يشتهون ـ الآية، وغير ذلك ممّا قالوا لعثمان وفعلوا به ممّا لا حاجة إلى إعادته ثمّ دريت أنهما أوّل من بايع علياً عليه السلام على ما قد فصّلنا وبيّنا ثمّ نكثا بيعته بالسبب الذي ذكرناه والعجب أنهما مع ما فعلا بعثمان جعلا دم عثمان مستمسكا ونهضا إلى طلب دمه فحاربا أمير المؤمنين عليه السلام وشيعته الموحدين المسلمين ومن تأمّل حقّ التأمل في جميع ما قدمنا علم أنّهما وأضرابهما لم يكونوا فيما صنعوا على جميل طوية في الدّين ولا نصيحة للمسلمين وأنّ الذي أظهروه من الطلب بدم عثمان إنّما كان تشبيهاً وتلبيساً على العامّة والمستضعفين. نعوذ بالله من همزات الشياطين ونسأله أن لا يجعل الدّنيا أكبر همّنا فإنها رأس كلّ خطيئة واسّها.

«خلافة عائشة على علي عليه السلام وأطوار أحوالها وأقوالها فيه عليه السلام وفي عثمان»

قد علمت ممّا سبق أن عائشة كانت أوّل من طعن على عثمان وأطمع النّاس فيه وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً وصرّحت بأنه طاغية وأمرت بقتل عثمان ونادته بقولها يا غدر يا فجر وأراءته قميص رسول الله صلى الله عليه وآله ونعليه وقالت له أنها لم يتغير وأنت غيرت سنته، ونهت ابن عباس عن أن يرد النّاس عن قتل الطاغية تعني بالطاغية عثمان وغيرها ممّا نقلناها من الفريقين. هذا هو طور.

ثمّ لما قتل عثمان بن عفان خرج البغاة إلى الآفاق فلمّا وصل بعضهم إلى مكّة سمعت بذلك عائشة فاستبشرت بقتله وقالت قتلته عماله إنّه أحرق كتاب الله وأمات سنة رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) الجمل: ٨٩.

فقتله الله، فقالت للناعي: ومن بايع النّاس؟ فقال لها الناعي: لم أبرح من المدينة حتّى أخذ طلحة بن عبد الله نعاجاً لعثمان وعمل مفاتيح لأبواب بيت المال ولا شك أنّ النّاس قد بايعوه فقالت أي هذا لأصيبع وجدوك لها محسناً وبها كافياً، ثمّ قالت شدّوا رحلي فقد قضيت عمرتي لأتوجّه إلى منزلي.

فلما شدوا رحالها واستوت علي مركبها سارت حتّى بلغت شرقاء (**موضع معروف بهذا الاسم**) لقيها إبراهيم بن عبيد الله بن أمّ كلاب فقالت: ما الخبر؟ فقال: قتل عثمان، قالت: قتل نعثل، فقالت: أخبرني عن قصّته وكيف كان أمره؟ فقال لها: لمّا أحاط النّاس بالدار رأيت طلحة بن عبد الله قد غلب على الأمر واتخذ مفاتيح على بيوت الأموال والخزائن وتهيأ ليبايع له فلمّا قتل عثمان مال النّاس إلى عليّ بن أبي طالب ولم يعدلوا به طلحة ولا غيره وخرجوا في طلب عليّ يقدمهم الأشتر ومحمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر حتّى أتوا عليّاً وهو في بيت سكن فيه فقالوا له بايعنا على الطاعة لك فتفكر ساعة فقال الأشتر: يا عليّ إنّ النّاس لا يعدلون بك غيرك فبايع قبل أن يختلف النّاس، قال وكان في الجماعة طلحة والزبير فظننت أن سيكون بين طلحة والزبير وعليّ كلام قبل ذلك، فقال الأشتر لطلحة: قم يا طلحة فبايع ثمّ قم يا زبير فبايع فما تنتظران فقاما فبايعا وأنا أرى أيديهما على يد عليّ يصفقانهما ببيعته ثمّ صعد عليّ بن أبي طالب المنبر فتكلّم بكلام لا أحفظ إلاّ أنّ النّاس بايعوه يومئذ على المنبر وبايعوه من الغد فلمّا كان اليوم الثالث خرجت ولا أعلم ما جرى بعدي.

فقالت: يا أخا بني بكر رأيت طلحة بايع عليّا؟ فقلت: أي والله رأيته بايعه وما قلت إلاّ رأيت طلحة والزبير أوّل من بايعه فقالت: إنّا لله أكره والله الرّجل وغصب عليّ بن أبي طالب أمرهم وقتل خليفة الله مظلوماً، ردّوا بغالي فرجعت إلى مكة، قال: وسرت معها فجعلت تسألني في المسير وجعلت أخبرها ما كان فقالت لي هذا بعهدي وما كنت أظن أنّ النّاس يعدلون عن طلحة مع بلائه يوم أحد؛ قلت فإن كان بالبلاء فصاحبه الذي بويع ذو بلاء وعناء، فقالت: يا أخا بني بكر لا نسألك هذا غير حتّى إذا دخلت مكّة فسألك النّاس ما ردّ أمّ المؤمنين فقل: القيام بدم عثمان والطلب به.

وجاءها يعلى بن منبه فقال لها: قد قتل خليفتك الذي تحرضين على قتله فقالت: برأت إلى الله ممّن قتله، قال: الآن، ثمّ قال لها: أظهري البراءة ثانياً من قاتله.

فخرجت عائشة إلى المسجد فابتدأت بالحجر فتسترت فيه ونادى مناديها باجتماع النّاس إليها فلمّا اجتمعوا تكلمت من وراء الستر وجعلت تتبرأ ممّن قتل عثمان وتدعو إلى نصرة عثمان وتنعاه إلى النّاس وتبكيه وتشهد أنّه قتل مظلوماً.

وجاءها عبد الله بن الحضرمي عامل عثمان على مكّة فقال: قرّت عينك قتل عثمان

وبلغت ما أردت من أمره؛ فقالت: سبحان الله أنا طلبت قتله إنّما كنت عاتبة عليه من شيء أرضاني فيه قتل والله من خير من عثمان بن عفان وأرضى عند الله وعند المسلمين والله ما زال قاتله (تعني أمير المؤمنين علياً عليه السلام) مؤخراً منذ بعث محمّد صلى الله عليه وآله وبعد أن توفي عدل عنه النّاس على خيرة من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله ولا يرونه أهلاً للأمر ولكنه رجل يحب الإمرة والله لا تجتمع عليه ولا على أحد من ولده إلى قيام الساعة. ثمّ قالت: معاشر المسلمين أنّ عثمان قتل مظلوماً ولقد قتل عثمان من أصبع عثمان خير منه وجعلت تحرّض النّاس على خلاف أمير المؤمنين وتحثّهم على نقض عهده[(١)].

قال أبو جعفر الطبري في التاريخ: إنّ عائشة لما انتهت إلى سرف راجعة في طريقها إلى مكة لقيها عبد بن أمّ كلاب وهو عبد بن أبي سلمة ينسب إلى أمّه فقالت له: مهيم؟ قال: قتلوا عثمان فمكثوا ثمانياً؛ قالت: ثمّ صنعوا ماذا؟ قال: أخذها أهل المدينة بالإجتماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز اجتمعوا على عليّ بن أبي طالب فقالت: والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ردّوني ردّوني فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه، فقال لها ابن أمّ كلاب؟ ولم؟ فوالله إنّ أوّل من أمال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر قالت: إنّهم استتابوه ثمّ قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول فقال لها ابن أمّ كلاب:

منك البداء ومنك الغِيَر ... ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا إنّه قد كفر

فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر

ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم ينكسف شمسنا والقمر

وقد بايع النّاس ذا تدرَإ ... يزيل الشبا ويقيم الصعر

ويلبس للحرب أثوابها ... وما من وفى مثل من قد غدر

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت للحجر فسترت واجتمع إليها النّاس فقالت: يا أيها الناس إنّ عثمان قتل مظلوماً ووالله لأطلبن بدمه[(٢)].

بيان

(مهيم) على وزان جعفر كلمة استفهام يستفهم بها معناها ما حالك، وما شأنك وما

---

(١) الجمل: ١٢١.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٧٧/٣، والغدير: ٨١/٩، الجمل: ٢٤، والنصر والاجتهاد: ٤٢٧.

حدث، وما الخبر، وأمثالها المناسبة للمقام. قولها: ليت أن هذه انطبقت على هذه. تعني أنّ السماء انطبقت على الأرض.

ثمّ لما تجهز القوم وعبوا العسكر وخرجوا إلى البصرة لاثارة الفتنة وإثارة الحرب وكانت عائشة معهم على الجمل الأدبّ انتهوا في الليل إلى ماء لبني كلاب يعرف بالجوأب عليه ناس من بني كلاب فعوت كلابهم على الركب حتّى نفرت صعاب إبلها فقالت: ما اسم هذا الموضع؟ فقال لها السائق لجملها: الحوأب فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك فأمسكت زمام بعيرها فقالت وإنها لكلاب الحوأب ردّوني ردّوني إلى حرم رسول الله لا حاجة لي في المسير فإنّي سمعت رسول الله يقول: ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب التي تنبحها كلاب الحوأب فيقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة.

فقال ابن الزبير: بالله ما هذا الحوأب ولقد غلط فيما أخبرك به وكان طلحة في ساقة النّاس فلحقها فأقسم أن ذلك ليس بالحوأب فلفقوا لها خمسين أعرابياً جعلوا لهم جعلا فحلفوا لها أن هذا ليس بماء الحوأب فسارت لوجهها. قال المسعودي في «**مروج الذهب**»: شهد مع ابن الزبير وطلحة خمسون رجلاً ممّن كان معهم فكان ذلك أوّل شهادة زور أُقيمت في البصرة. انتهى كلامه.

وقال الدّينوري في «**الإمامة والسياسة**»: فقال لها محمّد بن طلحة: تقدّمي رحمك الله ودعي هذا القول. وأتى عبد الله بن الزبير فحلف لها بالله لقد خلفته أوّل الليل وأتاها ببيّنة زور من الأعراب فشهدوا بذلك فزعموا أنّها أوّل شهادة زور شهد بها في الإسلام[١].

وروى أبو جعفر الطبري في التاريخ بإسناده عن الزهري (**ص ٤٨٥ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ**) قال: بلغني أنّه لما بلغ طلحة والزبير منزل عليّ بذي قار انصرفوا إلى البصرة فأخذوا على المنكدر فسمعت عائشة نباح الكلاب فقالت أيّ ماء هذا؟ فقالوا: الحوأب فقالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون إنّي لهيه قد سمعت رسول الله يقول وعنده نساؤه ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب فأرادت الرّجوع فأتاها عبد الله بن الزبير فزعم أنّه قال كذب من قال: إنّ هذا الحوأب ولم يزل حتّى مضت.

أقول: حديث الحوأب ممّا اتفق به الفريقان وروته الخاصّة والعامّة بطرق عديدة وأسانيد كثيرة[٢].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٧/ ٢٥٨، والإمامة والسياسة: ١/ ٨٢، وراجع مروج الذهب: ٢/ ٣٩٥.

(٢) راجع من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٧٤ ح ٣٣٦٥، والخصال: ٣٧٧، والغدير: ٣/ ١٨٨، ومسند أحمد: ٦/ ٥٢ - ٩٧، ومصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٠٨، وكنز العمال: ١١/ ١٩٧ ح ٣١٢٠٨.

بيان

قال ابن الأثير في «النهاية»: وفي الحديث أنه ﷺ قال لنسائه: ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب[1]، أراد الأدبّ فأظهر الإدغام لأجل الحوأب، والأدبب: الكثير وبر الوجه. والمنقول من السيوطي في بعض تصانيفه أنه قد يفك ما استحق الإدغام لاتباع كلمة أخرى كحديث ايتكن صاحبة الجمل - إلخ. قولها: إني لهيه، اللام لام الابتداء تدخل بعد أنّ المكسورة وتسمى اللام المزحلفة بالقاف والفاء وبنو تميم يقولون زحلوقة بالقاف وأهل العالية زحلوفة بالفاء سميت بذلك لأنّ أصل إن زيداً لقائم مثلاً لأنّ زيداً قائم فكرهوا افتتاح الكلام بحرفين مؤكدين فزحلفوا اللام دون أن لئلا يتقدّم معمولها عليها. وهي ضمير راجعة إلى المرأة والها في آخره للسكت نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠﴾ [القارعة: ١٠]. ونقل الحديث في «**الإمامة والسياسة**» للدّينوري هكذا: قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: كأني باحداكنّ قد نبحها كلاب الحوأب وإياك أن تكوني أنت يا حميراء[2] (ص ٦٣ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧ هـ).

ثمّ قال أبو جعفر الطبري في التّاريخ: إنّ عائشة في فتنة الجمل ركبت جملها وكان جملها يدعى عسكراً والبسوا هودجها الأدراع وقتل يومئذ سبعون رجلاً كلهم يأخذ بخطام الجمل فلمّا عقر الجمل وهزم النّاس احتمل محمّد بن أبي بكر عائشة فضرب عليها فسطاط فوقف عليّ عليه السلام عليها فقال: استفززت النّاس وقد فزوا فألبت بينهم حتّى قتل بعضهم بعضاً في كلام كثير فقالت عائشة: يا ابن أبي طالب ملكت فأسجع نعم ما أبليت قومك اليوم، فسرّحها عليّ عليه السلام وأرسل معها جماعة من رجال ونساء وجهّزها وأمر لها باثني عشر ألفاً - إلى آخر ما قال[3].

ثمّ قال الفاضل الشارح المعتزلي (**ص ١٥٩ ج ٢ طبع طهران ١٣٠٢ هـ**): قد توارت الرّواية عنها بإظهار الندم أنّه كانت تقول: ليته كان لي من رسول الله ﷺ بنون عشرة كلّهم مثل عبد الرحمٰن بن عبد الحارث بن هشام وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل؛ وأنّها كانت تقول: ليتني مت قبل يوم الجمل، أنّها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتّى تبلّ خمارها.

أقول: وممّا ذكرنا من الفريقين من اختلاف أقوالها وأطوار أحوالها دريت أن المرأة كالرجلين طلحة والزبير ما أظهرت من الطلب بدم عثمان إنّما كان تشبيهاً وتلبيساً على العامّة

---

(١) النهاية: ٢/٩٦، والسرائر: ٣/٦٢٧، ومعاني الأخبار: ٣٠٥.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/٨٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/٥٢٠.

والمستضعفين وأنّ القوم لم يكونوا فيما صنعوا على جميل طوية في الدّين ولا نصيحة للمسلمين وعلمت من فعل عائشة أنّها كانت عمدت على التوجّه إلى المدينة قبل أن تعرف ما كان من أمر المسلمين راجية بتمام الأمر بعد عثمان لطلحة والزبير زوج أختها فلمّا صارت ببعض الطرق لقيت الناعي لعثمان فاستبشرت بنعيه له فلمّا أخبرت أنّ البيعة تمت لأمير المؤمنين ساءها ذلك وأحزنها وأظهرت الندم على ما كان منها في التأليب على عثمان فأسرعت راجعة إلى مكة حتى فعلت ما فعلت على أن عائشة كانت تبغض علياً عليه السلام وإنّما أثارت الفتنة وحثت القوم عليه عليه السلام بالعداوة والشنآن ومن ذلك ما رواه كافة العلماء عنها أنها كانت تقول لم يزل بيني وبين عليّ من التباعد ما يكون بين بنت الأحماء ومنهم أبو جعفر الطبري رواه في التاريخ ج ٣ ص ٥٤٧ طبع مصر ١٣٥٧ هـ.

ومن ذلك أيضاً ما رواه كافة العلماء ومنهم الطبري في التاريخ ص ٤٣٣ ج ٢ روى بإسناده عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما مرض في مرضه الذي توفي فيه ـ إلى أن قالت ـ وهو صلى الله عليه وآله في بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهنّ أن يمرّض في بيتي فأذنّ له فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخطّ قدماه صلى الله عليه وآله الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتي، قال أبو جعفر الطبري: قال عبيد الله: فحدثت هذا الحديث عنها عبد الله بن عبّاس فقال هل تدري من الرّجل؟ قلت لا، قال: عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ولكنّها كانت لا تقدر على أن تذكره بخير وهي تستطيع.

ومن ذلك ما رواه الشيخ الأجل المفيد قدّس سرّه في «**الجمل**» ص ٦٨ طبع النجف: لما قتل أمير المؤمنين عليه السلام جاء الناعي فنعى أهل المدينة فلما سمعت عائشة بنعيه استبشرت وقالت متمثلة:

فإن يك ناعياً فلقد نعاه … بناع ليس في فيه التراب

فقالت لها زينب بنت أبي سلمى: ألعلي تقولين؟ فتضاحكت ثم قالت أنسي فإذا نسيت فذكروني ثمّ خرّت ساجدة شكراً على ما بلغها من قتله ورفعت رأسها وهي تقول:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى … كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وقال رحمه الله هذا من الأخبار التي لا ريب فيها ولا مرية في صحتها لاتفاق الرواة عليها.

ومن ذلك ما في «**الجمل**» أيضاً وقد روى عن مسروق أنه قال: ادخلت عليها فاستدعت غلاماً باسم عبد الرحمٰن قالت: عبدي، قلت لها: فكيف سمّيته عبد الرحمٰن؟ قالت حباً لعبد الرحمٰن بن ملجم قاتل عليّ.

ومن ذلك الخبر المشهور الذي رواه نقلة الآثار: أنّه لمّا بعث إليها أمير المؤمنين عليه السلام

بالبصرة أن ارتحلي عن هذه البلدة قالت لا أريتم مكاني هذا فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: أم والله لترتحلين أو لأنفذن إليك نسوة من بكر بن وائل يأخذنك بشقاق حداد فقالت لرسوله: ارتحل فبالله احلف ما كان مكان أبغض إليّ من مكان يكون هو فيه. وغيرها من الأخبار الواردة في بغضها أمير المؤمنين عليه السلام.

«خروج عائشة وطلحة والزبير واتباعهم وأشياعهم» «من مكة إلى البصرة»

لمّا تمّ أمر البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام وأيس طلحة والزبير ممّا كانا يرجوان به من قتل عثمان من البيعة لأحدهما بالإمامة وتحققت عائشة تمام الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام وعرف عمال عثمان أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لا يقرّهم على ولاياتهم وأنهم إن ثبتوا في أماكنهم أو صاروا إليه طالبهم الخروج ممّا في أيديهم من أموال الله تعالى وحذروا من عقابه على تورطهم في خيانة المسلمين عمل كلّ فريق منهم على التحرز منه واحتال في الكيد له واجتهد في تفريق النّاس عنه فسار القوم من كلّ مكان إلى مكّة استعاذة بها وسكنوا إلى ذلك المكان وعائشة بها وطمعوا في تمام كيدهم لأمير المؤمنين للتحيز إليها والتمويه على الناس بها وجعلت عائشة تحرّض النّاس على خلاف أمير المؤمنين وتحثهم على نقض عهده ولحق إلى مكّة جماعة من منافقي قريش وصار إليها عمّال عثمان الذين هربوا من أمير المؤمنين عليه السلام ولحق بها عبد الله بن عمر بن الخطّاب وأخوه عبيد الله ومروان بن الحكم وأولاد عثمان وعبيده وخاصته من بني أميّة وانحازوا إليها وجعلوها الملجأ لهم فيما دبّروه من كيد أمير المؤمنين عليه السلام.

ولمّا عرف طلحة والزبير حال القوم عمدا على اللحاق بها والتعاضد على شقاق أمير المؤمنين فاستأذنا أمير المؤمنين في العمرة كما نقلنا آنفاً وسارا إلى مكة خالعين الطاعة وناكثين البيعة وكان ظهورهما إلى مكّة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر فلمّا وردا إليها فيمن تبعهما من أولادهما وخاصتهما طافا بالبيت طواف العمرة وسعيا بين الصفا والمروة وبعثا إلى عائشة عبد الله بن الزّبير بالخروج على أمير المؤمنين عليه السلام.

وجعل عبد الله بن أبي ربيعة يحرّض النّاس على الخروج وكان قد صحب مالاً جزيلاً فانفقه في جهاز النّاس إلى البصرة، وكان يعلى بن منبه التميمي عاملاً لعثمان على الجند فوافى الحج ذلك العام فلمّا بلغه قول ابن أبي ربيعة خرج من داره وقال: أيّها النّاس من خرج لطلب دم عثمان فعليّ جهازه وحمل معه عشرة آلاف دينار فجعل يعطيها النّاس واشترى أربعمائة بعير وأناخها بالبطحاء وحمل عليها الرّجال.

ولما اتصل أمير المؤمنين عليه السلام خبر ابن أبي ربيعة وابن منبه وما بذلاه من المال في

شقاقه والإفساد عليه قال: والله إن ظفرت بابن منبه وابن أبي ربيعة لأجعلن أموالهما في سبيل الله، ثمّ قال: بلغني أن ابن منبّه بذل عشرة آلاف دينار في حربي من أين له عشرة آلاف دينار سرقها من اليمن ثمّ جاء بها لئن وجدته لأخذته بما أقرّ به.

ولمّا رأت عائشة اجتماعهم بمكّة من مخالفة أمير المؤمنين عليه السلام تأهبت للخروج ومناديها يقول: من كان يريد المسير فليسر فإنّ أُم المؤمنين سائرة إلى البصرة تطلب بدم عثمان فلمّا تحقق عزم القوم على المسير إلى البصرة اجتمع طلحة والزبير وعائشة وخواصّهم وقالوا: نحب أن نسرع النهضة إلى البصرة فإن بها شيعة عثمان وعامله عبد الله بن عامر، وقد عمل على استمداد الجنود من فارس وبلاد المشرق لمعونته على الطلب بدم عثمان، وقد كاتبنا معاوية بن أبي سفيان أن ينفذ لنا الجنود من الشام فإن أبطينا من الخروج خفنا من أن يدهمنا علي بمكّة أو في بعض الطريق فيمن يرى رأيه خوفاً من أن يفرّق كلمتنا وإذا أسرعنا المسير إلى البصرة وأخرجنا عامله منها وقتلنا شيعته بها واستعنا بأمواله منها كنّا على الثقة من الظفر بابن أبي طالب وإن أقام بالمدينة سيرنا إليه جنوداً حتّى نحصره فيخلع نفسه أو نقتله كما قتل عثمان وإن سار فهو كالىء ونحن حامون وهو على ظاهر البصرة ونحن بها متحصنون فلا بد له إلاّ أن يريح المسلمين من فتنته.

«تحذير أم سلمة عائشة من الخروج ونصحها له طوراً بعد»
«طور وإباء عائشة عن القبول»

قال المفيد في «**الجمل**»: روى الواقدي عن أفلح بن سعيد عن يزيد بن زياد عن عبد الله بن أبي رافع عن أمّ سلمة زوجة النّبي صلى الله عليه وآله قالت: كنت مقيمة بمكّة تلك السنة حتّى دخل المحرم فلم أر إلاّ برسول طلحة والزبير جاءني عنهما يقول: إنّ أمّ المؤمنين عائشة تريد أن تخرج للطلب بدم عثمان فلو خرجت معها رجونا أن يصلح بكما فتق هذه الأمّة فأرسلت إليهما والله ما بهذا أُمرت ولا عائشة لقد أمرنا الله أن نقرّ في بيوتنا لا نخرج للحرب أو للقتال مع أن أولياء عثمان غيرنا والله لا يجوز لنا عفو ولا صلح ولا قصاص وما ذاك إلاّ لولد عثمان، وأخرى نقاتل عليّ ابن أبي طالب أمير المؤمنين ذا البلاء بهذا الأمر والعناء وأولى الناس بهذا الأمر والله ما أنصفتما رسول الله صلى الله عليه وآله في نساءه حيث تخرجوهنّ إلى العراق وتتركوا نساءكم في بيوتكم.

ثمّ قال فيه: وبلغ أمّ سلمة اجتماع القوم وما خاضوه فيه فبكت حتّى اخضل خمارها ثمّ أدنت ثيابها فلبستها وتخفرت ومشت إلى عائشة لتعظها وتصدّها عن رأيها في مظاهرة أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة وتقعدها عن الخروج مع القوم فلمّا صارت إليها قالت: إنّك عدت

رسول الله ﷺ وبين أمته وحجابك مضروب على حرمته وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه وملك خفرك فلا تضحيها الله الله من وراء هذه الأمة قد علم رسول الله ﷺ مكانك لو أراد أن يعهد إليك فعل بل نهاك عن الفرط في البلاء وأنّ عمود الدين لا يقام بالنساء إن انثلم ولا يشعب بهنّ إن انصدع فصدع النساء غض الأطراف وحف الأعطاف وقصر الوهادة وضم الذيول وما كنت قائلة لو أن رسول الله ﷺ عارضك ببعض الفلاة ناضه قلوصاً من منهل إلى آخر أن قد هتكت صداقته وتركت عهدته أن يغير الله بك لهواك على رسول الله ﷺ تردين والله لو سرت سيرك هذا ثمّ قيل لي ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكة حجاباً قد ستره عليّ إجعلي حصنك بيتك وقاعة البيت قبرك حتّى تلقينه وأنت على ذلك أطوع ما تكوني له ما لزمتيه وانظري نبوع الدّين ما حلّت عنه.

فقالت لها عائشة: ما أعرفني بوعظك واقبلني لنصحك ولنعم المسير مسير فزعت إليه وأنا بين سائرة ومتأخرة فإن أعد فمن غير حرج وإن أسير فإلى ما لا بدّ من الإزياد منه.

فلمّا رأت أُمّ سلمة أن عائشة لا تقنع عن الخروج عادت إلى مكانها وبعثت إلى رهط من المهاجرين والأنصار قالت لهم لقد قتل عثمان بحضرتكم وكانا هذان الرّجلان - أعني طلحة والزبير - يشيعان عليه كما رأيتم فلمّا قضى أمره بايعا عليّاً عليه السلام وقد خرجا الآن عليه زعماً أن يطلبا بدم عثمان ويريدان أن يخرجا حبيسة رسول الله ﷺ معهم وقد عهد إلى جميع نسائه عهداً واحداً أن يقرن في بيوتهنّ فإن كان مع عائشة عهد سوى ذلك تظهره وتخرجه إلينا نعرفه فاتقوا الله عباد الله فإنا نأمركم بتقوى الله والاعتصام بحبله والله ولي لنا ولكم، فشق كثير على طلحة والزبير عند سماع هذا القول من أُمّ سلمة.

ثمّ أنفذت أُم سلمة إلى عائشة فقالت لها: قد وعظتك فلم تتعظي وقد كنت أعرف رأيك في عثمان وأنه لو طلب منك شربة ماء لمنعتيه ثمّ أنت اليوم تقولين إنّه قتل مظلوماً وتريدين أن تثيري لقتال أولى النّاس بهذا الأمر قديماً وحديثاً فاتقي الله حقّ تقاته ولا تعرّضي لسخطه.

فأرسلت إليها عائشة أمّا ما كنت تعرفيه من رأيي في عثمان فقد كان ولا أجد مخرجاً منه إلاّ الطلب بدمه وأما علي فإني آمره بردّ هذا الأمر شورى بين النّاس.

فأنفذت إليها أُمّ سلمة أما أنا فغير واعظة لك من بعد ولا مكلمة جهدي وطاقتي والله إنّي لخائفة عليك البوار ثمّ النار والله ليخيبن ظنك ولينصرن الله ابن أبي طالب على من بغى عليه وستعرفين عاقبة ما أقول والسلام(١).

(١) الجمل: ١٠٢.

أقول: وقد أتى بما ذكرنا من تحذير أمّ سلمة عائشة ابن قتيبة الدّينوري في **«الإمامة والسياسة» (ص ٥٦ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧ هـ)** والفاضل الشارح المعتزلي ابن أبي الحديد في الجزء الثاني من شرحه على **«نهج البلاغة»**، وبين النسخ اختلاف في بعض الجمل في الجملة ففي الأوّل: وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ولا يراب بهنّ إن انصدع، حماديات النساء غض الأبصار وضمّ الذيول.

«خروج علي عليه السلام إلى الربذة»

لما تأهب القوم للمسير إلى البصرة جاء عليّاً عليه السلام الخبر عن أمرهم قد توجهوا نحو العراق فدعا ابن عبّاس ومحمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر وسهل بن حنيف وأخبرهم بذلك فقال أشيروا عليّ بما اسمع منكم القول فيه، فقال عمّار: الرأي أن نسير إلى الكوفة فإن أهلها لنا شيعة وقد انطلق هؤلاء القوم إلى البصرة، وقال ابن عبّاس: الرأي عندي يا أمير المؤمنين أن تقدم رجالاً إلى الكوفة فيبايعوا لك وتكتب إلى الأشعري **(يعني أبا موسى الأشعري وكان عاملاً لعثمان على الكوفة)** أن يبايع لك ثمّ بعده المسير حتّى نلحق بالكوفة فنعاجل القوم قبل أن يدخلوا البصرة وتكتب إلى أم سلمة فتخرج معك فإنها لك قوة.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام بل أنهض بنفسي ومن معي في اتباع الطريق وراء القوم فإن أدركتهم بالطريق أخذتهم وإن فاتوني كتبت إلى الكوفة واستمددت الجنود إلى الأمصار وسرت إليهم. وأمّا أُمّ سلمة فإني لا أرى إخراجها من بيتها كما رأى الرجلان إخراج عائشة.

ثمّ نادى أمير المؤمنين عليه السلام في النّاس: تجهزوا للمسير فإن طلحة والزبير قد نكثا البيعة ونقضا العهد وأخرجا عائشة من بيتها يريدان البصرة لاثارة الفتنة وسفك دماء أهل القبلة، ثمّ رفع يديه إلى السماء فقال:

اللهم إن هذين الرجلين قد بغيا عليّ ونكثا عهدي ونقضا عهدي وشقياني بغير حقّ سومها ذلك اللهم خذهما بظلمهما واظفرني بهما وانصرني عليهما ثمّ خرج في سبعمائة رجل من المهاجرين والأنصار واستخلف على المدينة تمام بن عبّاس وبعث قثم بن عبّاس إلى مكّة ولما رأى عليه السلام التوجه إلى القوم ركب جملاً أحمر وهو يقول:

سيروا مبلّين وحثّوا السيرا ... في طلحة التميمي والزبيرا

إذ جلبا شراً وعافا خيرا ... يا رب أدخلهم غداً سعيراً

وسار مجداً في السير حتّى بلغ الربذة بين الكوفة ومكة من طريق الجادّة فوجد القوم قد فاتوا فنزل بها فأقام بها أياماً فكتب إلى أهل الكوفة:

«كتاب علي عليه السلام إلى أهل الكوفة من الربذة»
«وخطبته التي خطب بها الناس في الربذة»

قال أبو جعفر الطبري في التاريخ (ص ٤٩٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ): حدّثني عمر قال: حدثنا أبو الحسن عن بشير بن عاصم، عن محمّد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن أبيه قال: كتب عليّ عليه السلام إلى أهل الكوفة: «بسم الله الرحمٰن الرحيم أمّا بعد فإنّي اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبّكم لله عزّ وجلّ ولرسوله صلى الله عليه وآله فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحقّ وقضى الذي عليه».

أقول: كتابه هذا ليس بمذكور في النهج ونقله الطبري على وجه آخر أيضاً قال (ص ٣٩٤ ج ٣): كتب إلى الري، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة قال: لما قدم عليّ عليه السلام الربذة أقام بها وسرح منها إلى الكوفة محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن جعفر وكتب إليهم: إنّي اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمّة إخوانا ومن أحبّ ذلك وآثره فقد أحبّ الحقّ وآثره ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحقّ وغمصه.

قال: فمضى الرجلان وبقي عليّ عليه السلام بالربذة يتهيأ وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمر أمره وقام في النّاس فخطبهم وقال:

«إن الله عزّ وجلّ أعزّنا بالإسلام ورفعنا به وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد فجرى النّاس على ذلك ما شاء الله الإسلام دينهم والحقّ فيهم والكتاب إمامهم حتّى أُصيب هذا الرّجل بأيدي هؤلاء القوم الذي نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمّة ألا إنّ هذه الأُمّة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ الله من شرّ ما هو كائن ثمّ عاد ثانية فقال: إنّه لا بدّ ممّا كائن أن يكون ألا وإن هذه الأُمّة ستفترق على ثلاثة وسبعين فرقة شرّها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهدوا بهدى نبيّكم صلى الله عليه وآله واتبعوا سنته وأعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردّوه وارضوا بالله جلّ وعزّ ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد صلى الله عليه وآله نبيّاً وبالقرآن حكماً وإماماً.

أقول: ذلك الكتاب وهذه الخطبة أيضاً ليسا بمذكورين في النهج - ثمّ لا يخفى على المتضلّع في الآيات القرآنيّة أن هذه الخطبة يبين لنا بطنا من بطون القرآن بل يظهر لنا سراً من أسرار القدر بأن هذه الأُمّة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فلعلّ هذا ما يشير إليه بعض الآي القرآني يأتي هذه الأمّة مثل الذين خلوا من قبلها.

ثمّ قال الطبري: إنّه عليه السلام بعث محمّد بن أبي بكر إلى الكوفة ومحمّد بن عون فجاء

النّاس إلى أبي موسى يستشيرونه في الخروج فقال أبو موسى: أمّا سبيل الآخرة فأن تقيموا، وأمّا سبيل الدنيا فأن تخرجوا وأنتم أعلم، وبلغ المحمّدين قول أبي موسى فبايناه وأغلظا له فقال: أما والله إنّ بيعة عثمان في عنقي وعنق صاحبكما الذي أرسلكما إن أردنا أن نقاتل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلاّ قتل حيث كان.

فانطلقا إلى عليّ عليه السلام فوافياه بذي قار وأخبراه الخبر وقد خرج مع الأشتر وقد كان يعجل إلى الكوفة فقال عليّ عليه السلام: يا أشتر أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كلّ شيء اذهب أنت وعبد الله بن عبّاس فاصلح ما أفسدت فخرج عبد الله بن عبّاس ومعه الأشتر فقدما الكوفة وكلّما أبا موسى واستعانا عليه بأناس من الكوفة فقال للكوفيين: أنا صاحبكم يوم الجرعة وأنا صاحبكم اليوم فجمع الناس وخطبهم واستنفرهم إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

«نزول أمير المؤمنين عليه السلام ذاقار وكتابه إلى» «أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري»

ثمّ سار عليّ عليه السلام بمن معه حتّى نزل بذي قار ثمّ دعا عليه السلام هاشم بن عتبة المر قال وكتب معه كتاباً إلى أبي موسى الأشعري وكان بالكوفة من قبل عثمان أن يوصل الكتاب إليه ليستفز الناس منها إلى الجهاد معه وكان مضمون الكتاب:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم من عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس أمّا بعد فإني أرسلت إليك هاشم بن عتبة المر قال لتشخص معه من قبلك من المسلمين ليتوجهوا إلى قوم نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي وأحدثوا في هذه الأمّة الحدث العظيم فاشخص النّاس إليّ معه حين يقدم بالكتاب عليك فلا تحبسه فإني لم أقرك في المصر الذي أنت فيه إلاّ أن تكون من أعواني وأنصاري على هذا الأمر والسلام».

فقدم هاشم بالكتاب على أبي موسى فدعى أبو موسى السائب بن مالك الأشعري فأقرأه الكتاب، وقال له: ما ترى؟ فقال له السائب: اتبع ما كتب به إليك، فأبى أبو موسى ذلك وكسر الكتاب ومحاه وبعث إلى هاشم بن عتبة يخوفه ويتوعده بالسجن فقال السائب بن مالك: فأتيت هاشماً فأخبرته بأمر أبي موسى.

فكتب هاشم إلى أمير المؤمنين عليه السلام أمّا بعد يا أمير المؤمنين فإني قدمت بكتابك على امرئ شاق عاق بعيد الرحم ظاهر الغل والشقاق وقد بعثت إليك بهذا الكتاب مع المغل بن خليفة أخي ظني وهو من شيعتك وأنصارك وعنده علم ما قبلنا فاسأله عما بدالك واكتب إليّ برأيك أتبعه والسلام.

فلمّا قدم الكتاب إليّ عليّ عليه السلام وقرأه دعا الحسن ابنه وعمّار بن ياسر وقيس بن سعد وبعثهم إلى أبي موسى وكتب معهم.

«كتاب علي عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري ثانياً»

«من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس أما بعد يا ابن الحائك والله إنّي كنت لا أرى بعدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلاً ولا جعل لك فيه نصيباً وقد بعثت لك الحسن وعماراً وقيساً خلّ لهم المصر وأهله واعتزل عملنا منسوباً مدحوراً فإن فعلت وإلاّ أمرتهم أن ينابذوك على سوى إن الله لا يحبّ الخائنين فإن أظهروا عليك قطعوك إرباً إرباً والسلام على من شكر النعم ورضي البيعة وعمل لله رجاء العاقبة.

فقدم الحسن عليه السلام وعمّار وقيس الكوفة مستنفرين لأهلها وكان أمير المؤمنين عليه السلام كتب إلى أهل الكوفة كتاباً كان معهم وهو الكتاب الأوّل من باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام أي ذلك الكتاب المعنون للشرح وأتينا به في صدر هذا الباب وقد ذكرنا النسختين منه إحداهما ما في «**النهج**» والأخرى ما في «**الجمل**» للمفيد.

واعلم أن هذين الكتابين منه عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري ليسا بمذكورين في «**النهج**» وقد نقلناهما من «**الجمل**» للمفيد (**ص ١١٥ طبع النجف**) وتاريخ أبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (**ص ٥١٢ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ**) وبين النسختين اختلاف في بعض العبارات وسيأتي الكتاب الثالث والستين منه عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري وقد بلغه عنه تثبيطه النّاس عن الخروج إليه لمّا ندبهم لحرب أصحاب الجمل: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس أمّا بعد فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك - إلخ. فقد حان أن نتصدى جمل الكتاب بعون الله الملك الوهاب ونذكر تتمة واقعة الجمل في شرح الكتاب التالي إن شاء الله تعالى.

قوله عليه السلام: **(من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسنام العرب)** قد قدمنا في تفسير لغات الكتاب أن الجبهة لها معنيان: الجماعة وموضع السجود من الرأس وقد يكنى على الثاني أعيان النّاس وسادتهم وأشرافهم من حيث أن للجبهة حرمة وشرفاً في الوجه ولذا توضع على الأرض في السجدة وهذا هو المراد في المقام بقرينة السنام فصدّر عليه السلام كتابه بمدحهم بقول جبهة الأنصار وسنام العرب لأنهم كانوا بين أعوانه عليه السلام كالجبهة والسنام في العزة والرفعة وصار أهل الكوفة آخر الأمر أنصاره عليه السلام والكوفة دار هجرته كما أنّ أهل المدينة صاروا أنصار رسول الله صلى الله عليه وآله والمدينة دار هجرته. ثمّ لا يخفى أنّ مثل هذا المقام يقتضي تصدير الكتاب بالألفاظ الدالّة على التحبيب وتأليف القلوب والترغيب فيما يراد فصدّره بالمدح اجتذاباً لهم إلى ما يريد من نصرته على الناكثين.

قوله عليه السلام: **(أمّا بعد فإنّي أخبركم عن أمر عثمان حتّى يكون سمعه كعيانه)** قد أثبتنا وحقّقنا أن النّاس لما رأوا أن عثمان أحدث ما أحدث وفعل ما فعل نقموها منه وطعنوا عليه وحصروه أربعين ليلة ومنعوه من الماء أياماً للأعراض التي قدمناها وعلل بيّناها وشهد قتله ثمانمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى قيل إنّ المجمعين على قتل عثمان كانوا أكثر من المجمعين على بيعته، وأن أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام لقد دفع عنه غير مرّة حتّى قال: والله لقد دفعت عنه حتّى خشيت أن أكون آثماً وغير ذلك مما لا حاجة إلى إعادتها وأن طلحة والزبير وعائشة فيما صنعوه في عثمان كانت من أوكد أسباب ما تمّ على عثمان من الخلع والحصر وسفك دمه والفساد، وسمعت أقوال الفريقين في طلحة أنّه كان أوّل من رمى بسهم في دار عثمان وفي الزبير ما قال لعثمان وفي انكار عائشة عليه وأنّها كانت أوّل من طعن على عثمان وأطمع النّاس فيه.

ودريت أنَّ طلحة والزّبير كانا أوّل من بايع أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ أنّهم لما رأوا خيبتهم من الآمال الدنيويّة ويأسهم من الأغراض الشهوانية والشيطانية نكثوا البيعة واستمسكوا بطلب دم عثمان تشبيهاً وتلبيساً على العامة والمستضعفين واتهموا أمير المؤمنين عليه السلام بقتله وعزوا دمه إليه ومن نظر فيما قدمنا في تفسير هذا الكتاب علم أن الناكثين وأضرابهم وأتباعهم قد لعبوا بالدين وأنّما كان قصدهم التملك للأمر والتأمر على المسلمين. ثمّ لما كانت شبهة قتل عثمان مبدأ كلّ فتنة نشأت في الإسلام من فتنة الجمل وصفين ونهروان حتّى أنّ بني أُميّة تمسكوا بها في منع الماء من ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله سيّد شباب أهل الجنّة الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام وقتله فأخبر عليّ عليه السلام أهل الكوفة عن أمر عثمان والأحوال التي جرت عليه مما نقمها النّاس منه وطعنوا فيه على حدّ إيضاح يكون سمعه لمن لم يشهده كعيانه أي كأنه شهد تلك الواقعة ورآها بعينه ليعلم تنزيهه عليه السلام عن إسناد قتل عثمان إليه وأن إسناد دمه إليه عليه السلام تهمة وبهتاناً ليس إلاّ وأنّه عليه السلام أبرأ النّاس من دم عثمان[1].

قوله عليه السلام: **(إنّ النّاس طعنوا عليه)** هذا شروع في الإخبار عن أمر عثمان، وإنّما صرّح عليه السلام بأن النّاس طعنوا عليه ليعلم أهل الكوفة أنّ النّاس نقموا من عثمان بالقوادح التي ارتكبها وطعنوا عليه بالأحداث التي أحدثها مما سمعتها من كتب الفريقين وفيه إشارة إلى مبدأ قتله.

قوله عليه السلام: **(فكنت رجلاً من المهاجرين)** قال الفاضل الشارح المعتزلي: ومن لطيف الكلام قوله عليه السلام: فكنت رجلاً من المهاجرين فإن في ذلك من التخلص والتبرّي ما لا يخفى

(١) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ٢/ ١٢٩.

على المتأمل ألا ترى أنّه لم تبق عليه في ذلك حجة لطاعن من حيث كان قد جعل نفسه كواحد من عرض المهاجرين الذين بنفر يسير منهم انعقدت خلافة أبي بكر وهم أهل الحلّ والعقد وإنّما كان الإجماع حجّة لدخولهم فيه. انتهى قوله.

أقول: إنّ الشارح خلط الحقّ بالباطل وذلك لأنّ من هاجر مع رسول الله ومن هاجر الهجرتين كان له ربتة ورفعة وشرف بين سائر الصحابة وكان المهاجرون يباهون بالمهاجرة كما ترى في كثير من الجوامع التي دونت لمعرفة الصحابة وهذا ممّا لامرية فيه مثلاً أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: في الكلام ٥٦ من باب الخطب: وأمّا البراءة فلا تتبرّأ وأمنّي فإنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة. وأمّا أنّ جميع ما قاله المهاجر وفعله إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيّه على أمير المؤمنين سواء كان واحداً أو أكثر فلم يثبت صوابه بل تحقق خطؤهم في بعض الموارد لأنّ هؤلاء المهاجرين لم يكونوا معصومين عن الخطأ ولم يثبت عصمتهم ولم يدّع أحد العصمة فيهم سيما في الواقعة التي أشارت إليه من انعقاد خلافة أبي بكر بنفر يسير منهم، وكون الإجماع حجّة لدخولهم فيه ففيه ما فيه وكيف يكون ذلك الإجماع حجّة ولم يكن فيه أفضل المهاجرين وأقدم المسلمين وسيّد الموحدين ومن كان من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة هارون من موسى، على أنّه قد طعن ذلك الإجماع الحاصل من هؤلاء النفر غير واحد من كبار رسول الله صلى الله عليه وآله ممن تثني عليهم الخناصر وهذا هو خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين طعن إجماعهم وأنكر عليهم فعلهم وقال:

ما كنت أحسب هذا الأمر منصرفاً ... عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن
أليس أوّل من صلّي بقبلتهم ... وأعرف النّاس بالآثار والسنن
وآخر النّاس عهداً بالنبيّ ومن ... جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما فيهم لا يمترون به ... وليس في القوم ما فيه من الحسن
ما ذا الذي ردّكم عنه فنعلمه ... ها إنّ بيعتكم من أغبن الغبن

وفي نسخة: ها إنّ بيعتكم من أوّل الفتن.

وهذا هو العبّاس بن عبد المطّلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعا أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: امدد يدك يا ابن أخي أبايعك ليقول النّاس عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله بايع ابن عمّ رسول الله فلا يختلف عليك اثنان.

وهؤلاء أهل اليمامة لما عرفوا تقلد أبي بكر أنكروا أمره وامتنعوا من حمل الزكاة حتّى أنفذ إليهم الجيوش فقتلهم وحكم عليهم بالردة عن الإسلام.

ولو أطنبنا الكلام في ذلك لكثر بنا الخطب ولخرجنا عن أسلوب الكلام وموضوع الكتاب.

قوله عليه السلام: **(أكثر استعتابه وأقلّ عتابه)** لا يخفى دلالة كلامه عليه السلام هذا على حسن طويّته ولطف رويّته بالنّاس وذلك لأن الناصح الكريم إذا رأى غيره في صوب غير صواب لا يلومه بألفاظ خشنة ولا ينهى عنه بعنف ولا يشمت به ولا يفرح ببليّته ولا يوبّخه بفعله لأنّها من ديدن الجهّال ودأب من لم يطلع بسرّ الله في القدر، بل يعظه بالرفق واللين فإن الرفق يمن والحزق شوم ولذا قال عليه السلام: أكثر استعتابه وأقل عتابه أي أكثر استرضاءه ونصحه ليرجع عمّا صارت سبب سخط القوم عليه ونقموها منه، أو أكثر استرضاء القوم عنه كما دريت أن أمير المؤمنين دفع عنه غير مرة حتّى قال عليه السلام: والله لقد دفعت عنه حتّى خشيت أن أكون آثماً **(الخطبة ٢٣٨ من النهج)**.

وقال عليه السلام أيضاً: والله ما زلت أذبّ عنه حتّى أنّي لأستحي **(تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤١٠ طبع مصر ١٣٥٧ هـ)** ومما حقّقناه في شرح هذا الكتاب وفي شرح الخطبة ٢٣٨ دريت أن عثمان لو قبل ما أشار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عليه من أُمور كان صلاحه فيها لم يحدث عليه ما حدث وإنّما ذاق ما ذاق بإبائه عن مواعظ أمير المؤمنين عليه السلام وإعراضه عن نصحه. ولقد أتى الرضي رحمه الله بطائفة من نصحه عليه السلام له في باب الخطب **(الكلام ١٦٣)** قوله عليه السلام: إنّ النّاس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم إلخ ـ ونقله أبو جعفر الطبري في التاريخ ص ٣٧٦ ج ٣ والشيخ المفيد في **«الجمل»** ص ٨٤.

قوله عليه السلام: وأقل عتابه، أي ما عاتبت عليه وما كلمته باللوم والتوبيخ لما حققنا في البحث اللغوي أن المراد من أقل هنا النفي وذلك لما سمعت أن من دأب كرام الناس: الرفق واللين واللطف وترك الخشونة والعنف مع النّاس حتّى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونعم ما أشار إليه الشيخ الرئيس في آخر النمط التاسع من الإشارات: العارف لا يعنيه التجسس والتحسّس ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما يعتريه الرحمة فإنّه مستبصر لسرّ الله في القدر وأما إذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معيرّ. وقال المحقق الطوسي في الشرح: إذا أمر العارف بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معير أمر الوالد ولده وذلك لشفقته على جميع خلق الله على أنّه لم ينقل أنّه وبّخه ولامه على أفعاله بل كان يعظه.

هذا إذا كان المراد من لفظة أقل عتابه نفي العتاب وإذا كان المراد منها حمل العتاب فالمعنى أنّي حملت عتابه ومع ذلك كنت أكثر استعتابه ونصحه وما منعني عتابه عن نصحه وذلك لما علمت من الأخبار السالفة أن عثمان قد عدله عليه السلام بمروان بن الحكم وقال له عليه السلام: فوالله ما أنت عندي بأفضل من مروان، ولمّا شيّع عليه السلام أبا ذر قال عثمان: من يعذرني من

عليّ ردّ رسولي إلى أن قال: والله لنعطينّه حقّه وغير ذلك ممّا نقلناها من الفريقين وهو عليه السلام مع ذلك كان يكثر استعتابه لكن عثمان أبى منه عليه السلام النصح كما دريت.

قوله عليه السلام: **(وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف وأرفق حدائهما العنف)** كنى عليه السلام بالجملتين عن شدة سعيهما في قتل عثمان حتّى أن السير الوجيف كان أهون ما يسيران في قتله، والحداء العنيف كان أرفق فعلهما فيه. وقد ذهب بعض إلى أن سيرهما عثمان وحداءهما إياه كان أهونه الوجيف وأرفقه العنيف أعني أن ذلك البعض شبّه طلحة والزبير بالسائق والحادي وعثمان بالإبلا مثلاً ولكنه لأن السير وإن جاء لكلّ واحد من اللزوم والتعدي لكن كلامه عليه السلام ينادي بأعلى صوته على خطأ ما ذهب إليه ذلك البعض وصواب ما فسرناه من أنهما سارا أشدّ سرعة من السير الوجيف حتّى أن السير الوجيف كان أهون سيرهما في قتله وكذا الجملة التالية. وهذا ظاهر لا غبار عليه.

ثمّ أنك قد علمت مما قدمنا من أخبار الفريقين عمل طلحة والزبير وأقوالهما في عثمان ونذكر نبذة منها ههنا على الإختصار: لمّا حضر عثمان صعد على القصر ونادى طلحة ثمّ سأله عن علّة حصره ومنعه من الماء فأجابه مرتين: لأنّك بدّلت وغيرت ـ **«الإمامة والسياسة»** للدينوري ص ٣٨ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧ هـ.

وروى أبو جعفر الطبري ـ ص ٤١١ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧ هـ ـ قال طلحة لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرّجل ولا يخرج من عنده، فقال عثمان: اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنّه حمل على هؤلاء وألّبهم إنّي لأرجو أن يكون منها صفراً أو أن يسفك دمه إنّه انتهك منّي ما لا يحلّ له.

وفي **«الجمل»** للمفيد ـ ص ٦٠ طبع النجف ـ: روى أبو إسحاق أنّه لما اشتدّ الحصار بعثمان وظمأ من العطش فنادى: يا أيّها الناس اسقونا شربة من الماء وأطعمونا ممّا رزقكم الله، فناداه الزبير بن العوّام يا نعثل لا والله لا تذوقه.

ثمّ قال: لما اشتد الحصار بعثمان عمد بنو أميّة على إخراجه ليلاً إلى مكة وعرف النّاس فجعلوا عليه حرساً وكان على الحرس طلحة بن عبيد الله وهو أول من رمى بسهم في دار عثمان.

قوله عليه السلام: **(وكان من عائشة فيه فلتة غضب)** السبب في فلتة غضبها عليه هو ما قدمنا أن عثمان جعل مال المسلمين طعمة له ولبني أمية وأتباعه وذويه وعشيرته وآثر أهل بيته بالأموال العظيمة التي هي عدّة للمسلمين نحو ما نقلنا من الفريقين أنّه دفع إلى أربعة أنفس من قريش زوجهم بناته أربعمائة ألف دينار وأعطى مروان مائة ألف على فتح إفريقية ويروى خمس

إفريقيّة، ونحو ما رووا أن أبا موسى بعث بمال عظيم من البصرة فجعل عثمان يقسمه بين أهله وولده بالصحاف وغير ذلك ممّا مرّ من قوادحه ومطاعنه وما نقمها النّاس منه.

وقال الدينوري في **«الإمامة والسياسة»**: إنّ عائشة كانت أوّل من طعن على عثمان وأطمع النّاس فيه، وكانت عائشة تقول اقتلوا نعثلاً فقد فجر، وفي رواية أخرى كانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً[1].

وروى الشيخ الأجل المفيد في **«الجمل»** ـ ص ٦١ طبع النجف ـ عن محمّد بن إسحاق صاحب السيرة عن مشائخه عن حكيم بن عبد الله قال: دخلت يوماً بالمدينة إلى المسجد فإذا كفّ مرتفعة وصاحب الكف يقول: أيّها النّاس العهد قريب هذان نعلا رسول الله وقميصه وكأني أرى ذلك القميص يلوح وأن فيكم فرعون هذه الأمة فإذا هي عائشة وعثمان يقول لها: اسكتي ثمّ يقول للنّاس إنها امرأة وعقلها عقل النساء فلا تصغوا إلى قولها، وفي رواية أخرى كما قدمناها أنها قالت له: هذا قميص رسول الله صلى الله عليه وآله لم يتغير وقد غيرت سنته يا نعثل، وأخرى أنها قالت لابن عباس إياك أن ترد النّاس عن قتل الطاغية وتعني بالطاغية ونعثل عثمان وغير ذلك من الأخبار التي جاءت في إنكار عائشة وتأليبها على عثمان وإغرائها النّاس بقتل عثمان قد قدمنا طائفة منها وكان نعثل اسم يهودي طويل اللحية وشبّهت عائشة عثمان به.

قوله عليه السلام: **(فأُتيح له قوم فقتلوه)** قد يحذف الفاعل للجهل به أو لغرض لفظي أو معنوي أو للإبهام أو للعلم به أو لغيرها مما قرر في محله ويمكن أن يكون حذفه في المقام للعلم به نحو قوله تعالى: «غيض الماء وقضي الأمر» أي غاض الله الماء وقضى الله الأمر فحذف الفاعل للعلم به وكذا في المقام فالمعنى أن قتله كان بتقدير إلٰهي أي قدّر الله وهيأ قوماً له فقتلوه ولقائل أن يقول: إن كلامه عليه السلام في طلحة والزّبير وعائشة يدلّ على أن الفاعل المحذوف هؤلاء الثلاثة أي هيأ وسبب طلحة والزبير وعائشة له قوماً فقتلوه والأخبار المتقدمة تؤيد هذا الإحتمال لأنهم قد حثوا وحرّضوا وأغروا الناس على قتله كما دريت فحذف الفاعل للعلم به وللايجاز في اللّفظ، ويمكن أن يكون للإبهام كما أفاد القطب الراوندي: أنّه عليه السلام إنّما بنى الفعل للمفعول ولم يقل أتاح الله أو أتاح الشيطان ليرضى بذلك الفريقان وبالجملة لا يخفى لطف كلامه عليه السلام حيث أتى بالفعل المجهول.

قوله عليه السلام: **(وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيّرين)** قد حققنا وبرهنا أن المتعين في المستكره بكسر الراء أي غير كارهين وقوله عليه السلام ولا مجبرين أي غير

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٧٢، شرح النهج: ٦/ ٢١٥.

مكرهين. وقد مضى في الخطبة ٢٣٨ أن عثمان لما كان محصوراً كان الناس يذكرون أمير المؤمنين علياً عليه السلام على رؤوس الأشهاد وكانوا يهتفون باسمه عليه السلام للخلافة وقالوا لعثمان إنك قد أحدثت أحداثاً عظاماً فاستحققت بها الخلع وما كان لنا أن نرجع حتى نخلعك ونستبدل بك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من لم يحدث مثل ما جربنا منك ولم يقع عليه من التهمة ما وقع عليك فاردد خلافتنا واعتزل أمرنا فإن ذلك أسلم لنا منك ويعنون بذلك الصحابي أمير المؤمنين علياً عليه السلام فلمّا رأى عثمان أن قلوب الجماعة مائلة إليه سأله الخروج إلى ينبع ليقلّ هتف النّاس باسمه للخلافة.

وقد بيّنا آنفاً أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يمتنع من بيعة النّاس له فيختبيء عنه ويلوذ بحيطان المدينة، ولما اجتمع النّاس إليه وسألوه أن ينظر في أمورهم ويذلوا له البيعة قال لهم: التمسوا غيري، ولمّا جاء طلحة والزبير إليه عليه السلام وهو متعوّذ بحيطان المدينة فدخلا عليه وقالا له: ابسط يدك نبايعك فإنّ النّاس لا يرضون إلا بك، قال عليه السلام لهما: لا حاجة لي في ذلك وأن أكون لكما وزيراً خير من أن أكون أميراً فقالا: إن الناس لا يؤثرون غيرك ولا يعدلون عنك إلى سواك فابسط يدك نبايعك أوّل النّاس، ثم ألحّ الناس في ذلك عليه فقالوا: نحن أرضى النّاس به ما نريد به بدلاً وقالوا له: ننشدك الله أما ترى الفتنة ألا تخاف الله في ضياع هذه الأمة وقالوا: إن تجبنا إلى ما دعوناك إليه من تقليد الأمر وقبول البيعة وإلا انفتق في الإسلام ما لا يمكن رتقه وانصدع في الدين ما لا يستطاع شعبه فلما ألحّوا عليه قال لهم إني لو أجبتكم حملتكم على ما أعلم وإن تركتموني كنت لأحدكم، قالوا قد رضينا بحلمك وما فينا مخالف لك فاحملنا على ما تراه ثمّ بايعه الجماعة فتداكّوا عليه تداكّ الإبل على حياضها يوم ورودها حتّى شقوا أعطافه ووطؤوا ابنيه الحسن والحسين لشدّة أزدحامهم عليه وحرصهم على البيعة له. ولقد مضى كلامه عليه السلام في ذلك لما اريد على البيعة بعد قتل عثمان: دعوني والتمسوا غيري - إلى قوله: وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً (**الخطبة ٩١**).

ثمّ المراد من قوله عليه السلام هذا أنّ النّاس بايعوه غير كارهين ولا مكرهين بل طائعين مخيّرين ولم يحدث عليه السلام ما يغاير كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله فلا يجوز لهم أن ينكثوا بيعته عليه السلام فضلاً عن أن يحاربوه قال عزّ من قائل ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ الآية وذكر أصحاب السير ومنهم المسعودي في «**مروج الذهب**» - ص ١١ ج ٢ طبع مصر ١٣٤٦ هـ - ثمّ نادى عليّ عليه السلام طلحة حين رجع الزبير يا أبا محمّد - أبو محمّد كنية الزبير - ما الذي أخرجك؟ قال: الطلب بدم عثمان قال عليّ عليه السلام قتل الله أولانا بدم عثمان أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه؟ وأنت أول من بايعني ثمّ نكثت وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فقال استغفر الله ثمّ رجع.

وفي «الإمامة والسياسة»: قال له عليّ عليه السلام أولم تبايعني يا أبا محمّد طائعاً غير مكره؟ فما كنت لأترك بيعتي: قال طلحة: بايعتك والسيف على عنقي؛ قال: ألم تعلم أني ما أكرهت أحداً على البيعة؟ ولو كنت مكرهاً أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمّد بن مسلمة أبوا البيعة واعتزلوا فتركتهم؛ قال طلحة: كنّا في الشورى ستة فمات اثنان وقد كرهناك ونحن ثلاثة: قال عليّ عليه السلام إنّما كان لكما ألا ترضيا قبل الرضا وقبل البيعة وأمّا الآن فليس لكما غير ما رضيتما به إلاّ أن تخرجا ممّا بويعت عليه بحدث فإن كنت أحدثت حدثاً فسمّوه لي[1].

بيان

أراد طلحة بقوله: والسيف على عنقي أنّه بايعه بالإجبار والإكراه وأن سيف الأشتر على عنقه.

ثمّ إنّا نرى كثيراً من النّاكثين اعترفوا بظلمهم علياً عليه السلام بنقضهم ونكثهم عهده وبيعته عليه السلام ففي «الجمل» للمفيد ـ ص ٢٠٧ طبع النجف ـ: روى أبو مخنف عن العدوي عن أبي هاشم عن البريد عن عبد الله بن المخارق عن هاشم بن مساحق القرشي قال: حدثنا أبي أنه لما انهزم النّاس يوم الجمل اجتمع معه طائفة من قريش فيهم مروان بن الحكم فقال بعضهم لبعض: والله لقد ظلمنا هذا الرّجل ـ يعنون أمير المؤمنين علياً عليه السلام ـ ونكثنا بيعته من غير حدث والله لقد ظهر علينا فما رأينا قط أكرم سيرة منه ولا أحسن عفواً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله تعالوا حتّى ندخل عليه ونعتذر إليه فيما صنعناه، قال فصرنا إلى بابه فاستأذنّاه فأذن لنا فلما مثلنا بين يديه جعل متكلمنا يتكلّم فقال عليه السلام انصتوا أكفكم إنّما أنا بشر مثلكم فإن قلت حقاً فصدقوني وإن قلت باطلاً فردّوا عليّ أنشدكم الله أتعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وأنا أوّل النّاس به وبالنّاس من بعده؟ قلنا اللهم نعم، قال فعدلتم عنّي وبايعتم أبا بكر فأمسكت ولم أحبّ أشق عصا المسلمين وأُفرق بين جماعتهم، ثمّ إنّ أبا بكر جعلها لعمر من بعده فكففت ولم أُهيج النّاس وقد علمت أني كنت أولى النّاس بالله وبرسوله وبمقامه فصبرت حتّى قتل وجعلني سادس ستة فكففت ولم أُحب أن أُفرق بين المسلمين، ثمّ بايعتم عثمان فطغيتم عليه وقتلتموه وأنا جالس في بيتي وأتيتموني وبايعتموني كما بايعتم أبا بكر وعمر فما بالكم وفيتم لهما ولم تفوا لي وما الذي منعكم من نكث بيعتهما ودعاكم إلى نكث بيعتي؟

فقلنا له: كن يا أمير المؤمنين كالعبد الصالح يوسف إذا قال «لا تثريب عليكم اليوم

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٩٥، والجمل: ١٣٠.

يغفر الله لكم وهو أرحم الرّاحمين» فقال عليه السلام: لا تثريب عليكم اليوم وأنّ فيكم رجلاً لو بايعني بيده لنكث بإسته، يعني مروان بن الحكم.

وقد تكلّم عليه السلام في الموضعين من باب الخطب في وصف بيعته بالخلافة أحدهما الخطبة ٥٣ قوله عليه السلام فتداكّوا عليّ تداكّ الإبل الهيم يوم ورودها ـ إلخ. وثانيهما القريب من الأوّل في بعض الكلم والجمل، الكلام ٢٢٧ من باب الخطب قوله عليه السلام: وبسطتم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها ثمّ تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ـ إلخ. ومال الشارح البحراني إلى أن كلامه الأوّل أعني الخطبة ٥٣ أشار إلى صفة أصحابه بصفين ولكنه وهم والصواب ما أشرنا إليه.

وقال الشارح المعتزلي في شرح تلك الخطبة: اختلف الناس في بيعة أمير المؤمنين عليه السلام فالذي عليه أكثر النّاس وجمهور أرباب السير: أنّ طلحة والزبير بايعاه طائعين غير مكرهين ثمّ تغيّرت عزائمهما وفسدت نياتهما وغدرا به، وقال الزبيريون منهم عبد الله بن مصعب والزبير بن بكار وشيعتهم ومن وافق قولهم من بني تميم بن مرّة أرباب العصبيّة لطلحة: إنّهما بايعا مكرهين، وإنّ الزبير كان يقول: بايعت واللج على قفي، واللج سيف الأشتر وقفي لغة هذليّة إذا أضافوا المنقوص إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء وأدغموا إحدى اليائين في الأخرى فيقولون: قد وافق ذلك هوى أي هواي وهذه عصى أي عصاي[1].

(١) شرح نهج البلاغة: ٤/٧.

انتهى المجلد السادس عشر من هذه الطبعة الجديدة القيمة
في اليوم الثاني عشر من شهر شعبان المعظم سنة ـ ١٣٨٣ ـ
بتصحيح وتهذيب من العبد ـ السيد إبراهيم
الميانجي ـ عفى عنه وعن والديه في المطبعة
المباركة الإسلامية بطهران. ويليه
إن شاء الله: المجلد السابع عشر
والحمد لله رب العالمين

محتوى الجزء السادس عشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

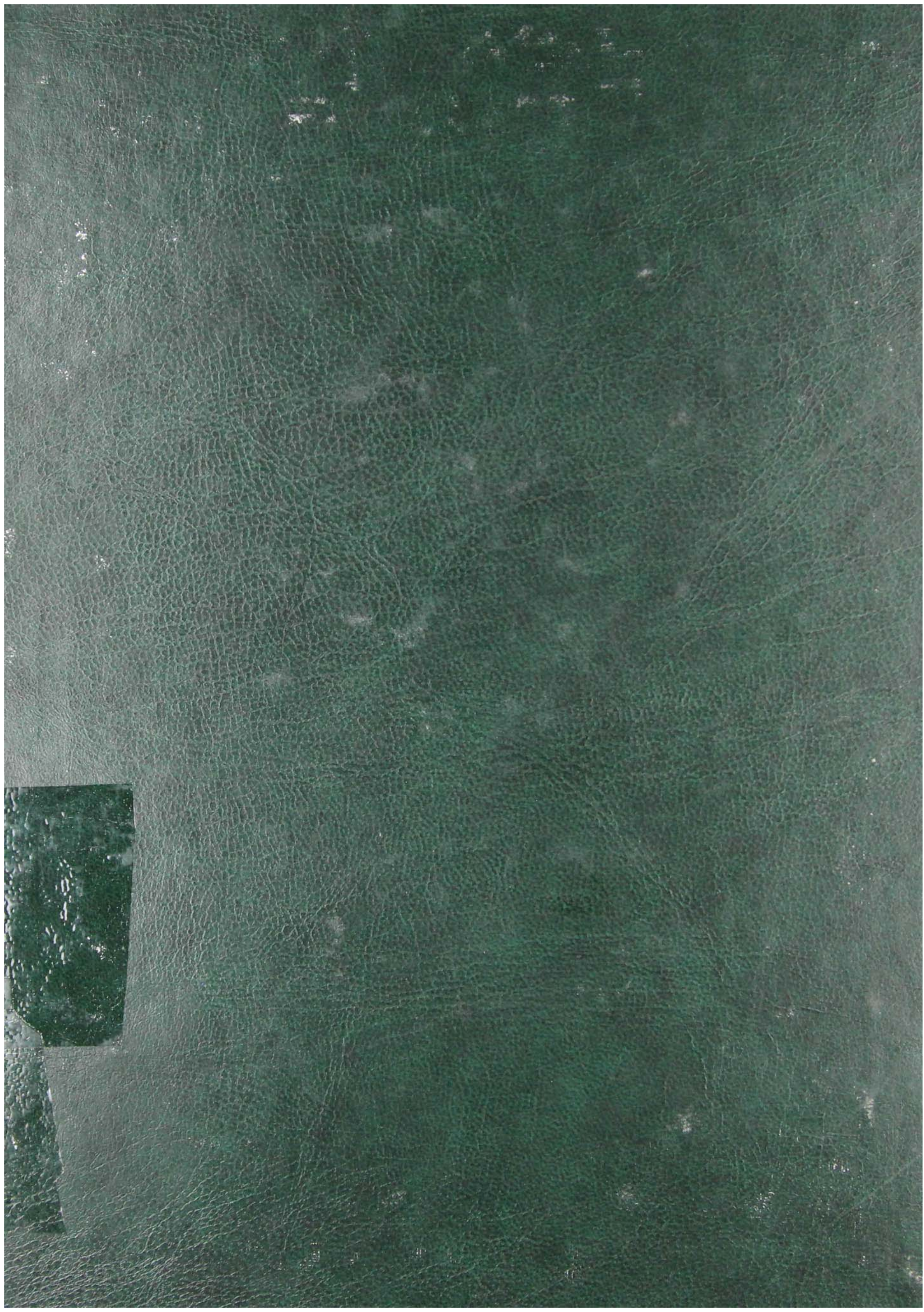

مِنهاجُ البَراعَة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملي

مؤسسة التاريخ العربي

منهاج البراعة

شرح

نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد السابع عشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box, 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الّذي خلق الإنسان، وعلّمه البيان، وأكرمه بنور العقل والعرفان والصّلاة والسّلام على أفصح من نطق بالضّاد، وعلى آله مناهج الرّشاد.

أمّا بعد فيقول المفتاق إلى رحمة ربّه نجم الدّين الحسن بن عبد الله الطبري الآملي أوتيا كتابهما يميناً وحوسبا حساباً يسيراً: قال الله عزَّ من قائل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، وقال تعالى: **﴿وجعانا من الماء كلّ شيء حيّ﴾** [الأنبياء: ٣٠].

أما إنَّ كلمات مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ممّا فاض من سماء العلم، وهي للأرواح ماء الحياة، وإنَّ هذه الأسفار أودية سالت بقدر ما وسع لنا أن نستفيض ممّا أفاضه المرتضى، فكم أودع فيها من حقائق متقنة كليَّة حكميّة، ونفائس مبرمة دقيقة عقليّة، ومباحث رصينة أخلاقيّة واجتماعيّة، ومطالب أصلية قيمة في أصول العقائد الحقّة الإلٰهية وغيرها ممّا تلوح لمن أمعن النّظر في الكتاب، ونسأل الله أن يزيد ما أنعم كما نرجوه لأن ينفعنا وجميع بغاة العلم بها فإنّه قريب مجيب لا يردُّ من سأله، ولا يخيّب من أمله.

وهذا هو السفر الثالث من «**تكملة منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**» يرتقي المنهاج به إلى سابع عشر فنقول مستعيناً بالله الوهّاب:

[تتمة المختار الأول من كتبه عليه السلام ورسائله]

قوله عليه السلام: **(واعلموا أنّ دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها)** أي أنّ مدينة الرّسول صلى الله عليه وآله فارقت أهلها وخلت منهم وكذا أهلها فارقوها على ما بيّنا في تفسير لغات الكتاب. وأمّا مراده عليه السلام منه فقال بعضهم: إنّه عليه السلام يخبرهم من قوله **(واعلموا ـ إلى ـ على القطب)**، عن سبب حركته وخروجه من المدينة أنّ المدينة قامت فيها رحى الفتنة واضطربت أحوال ساكنيها وأمورهم وجاشت جيش المرجل من الهرج والمرج، وانقلبت أحوال البلد وتبدّلت بحيث ليس المقام فيها للنّاس سيّما للمؤمنين والخواص بميسور، ولذا خرج منها وجعل الكوفة مهاجره ومقرّ خلافته.

أقول: لا يخفى على أنّ هذا التفسير لا يناسب المقام ولا يوافق قوله عليه السلام: **(فأسرعوا إلى أميركم وبادروا جهاد عدوّكم)**، فإنّه عليه السلام كتب إليهم الكتاب ليستنفرهم إلى الجهاد كما صرّح به في ذيل الكتاب ونفر من المدينة نحو البصرة لجهاد الناكثين؛ لأنّه يخبرهم عن صرف سبب خروجه منها، وهذا ظاهر لا كلام فيه.

ويقرب من هذا التّفسير ما قيل: إنّه عليه السلام كنّى بقلعها بأهلها وقلعهم بها عن اضطراب أمورهم بها وعدم استقرار قلوبهم من ثوران هذه الفتنة.

أقول: الظّاهر أنّه عليه السلام لمّا أخبر أهل الكوفة عن أمر عثمان وعن سيرته معه وعمّا جرى عليه من طلحة والزّبير وعائشة وعن بيعة النّاس أعلمهم أنّ منهم من نكثوا البيعة وأثاروا الفتنة ونشّطوا أقواماً على الحرب وهيّجوا بين النّاس الشرّ والعداوة والشحناء حتّى أقاموا الحرب، فنهض أهل المدينة مجاهدين في سبيل الله أعداء الله لإطفاء هذه النّائرة وإزالة الفتنة نهضةً خلت المدينة من أهلها وفارقها ساكنوها، سيّما أنّهم كانوا من أفعال عثمان وشيعته متألّمين، فلمّا رأوا أنّ آل عثمان تمسّكوا بدم عثمان تفتيناً لم يلبثوا في المدينة خوفاً من أن تشيع الفتنة ويفسد المبطلون، فبادروا إلى جهاد عدوّهم فقلعوا بالمدينة مسرعين.

فهو عليه السلام أراد إعلام أهل الكوفة بنهوض أهل المدينة على ذلك الحدّ ليرغبوا في الجهاد، وينصروا دين الله وينهضوا لقتال أصحاب الجمل معهم ويهتموا همّتهم في إماتة الباطل وإزاحة أهله، ولذا أمرهم عليه السلام بالسّرعة إليه والمبادرة بالجهاد.

قوله عليه السلام: **(وجاشت جيش المرجل)** أي غلت كغليان الماء في القدر. والمراد إخبار أهل الكوفة باضطراب أهل المدينة وولعهم بالجهاد لما علموا بمسير الناكثين وأتباعهم إلى

البصرة لإثارة الفتنة. وهذا أيضاً تحريض أهل الكوفة على النهضة والجهاد..

قوله عليه السلام: **(وقامت الفتنة على القطب)** أي الفتنة التي أثارها النّاكثون وأتباعهم قامت على القطب، شبّه الفتنة بالرحى بقرينة القطب، أي أنَّ رحى الفتنة دائرة والمراد أنَّ الفتنة قائمة ونارها مشتعلة فأسرعوا إلى إطفائها، ففيها أيضاً تحريض أهل الكوفة على الجهاد.

وقد قدَّر بعض الشّارحين الجملة بقوله: قامت الفتنة في المدينة على القطب حيث فسّرها بأنَّ رحى الفتنة في المدينة دائرة؛ ولا يخفى أنَّ ذلك التقدير غير مناسب للمقام لأنَّ فتنة الحرب حين إرساله عليه السلام الكتاب إلى أهل الكوفة كانت في البصرة بين أصحاب الجمل وعامله عليه السلام عثمان بن حنيف قائمة كما سيتّضح في شرح الكتاب الثاني إن شاء الله تعالى.

وهو عليه السلام كان ساعتئذٍ في ذي قار كما دريت ممّا حقّقنا آنفاً؛ وبالجملة فكأنَّما اغترَّ ذلك البعض من الجمل المتقدّمة.

ثمَّ يمكن أن يقال: إنّه عليه السلام أراد بالقطب نفسه، فإنّه عليه السلام قطب الإسلام والمسلمين يقال: فلان قطب بني فلان أي سيّدهم الّذي يدور عليه أمرهم، وكذا يقال لصاحب الجيش: قطب رحى الحرب، تشبيهاً بالنقطة الّتي يدور عليها الفلك ويسمّونها قطب الفلك، فيكون المعنى أنّ تلك الفتنة أقبلت إليه وقامت وهجمت عليه، فتكون كلمة **(على)** على هذا الوجه للضّرر وعلى الوجه الأوَّل للاستعلاء ويمكن أن يكون على الوجهين للاستعلاء، فإذا كانت الفتنة قائمة على القطب بهذا المعنى فللرّعيّة أن تعاونه بإطفائها ونجاته منها لأنَّهم في الحقيقة ينجون أنفسهم منها وينصرون دين الله، ويطلبون بذلك رفعتهم ومنزلتهم، ونعم ما قال الشاعر:

لك العزُّ إن مولاك عزَّ وإن يهن ... فأنت لدى بحبوحة الهون كاهن!

ويمكن أن يجعل كلمة الأمير في قوله الآتي قرينة على إرادة هذا المعنى من القطب.

وبعدما بادر ذهننا إلى هذا المعنى فرأينا أنَّ المولى فتح القاساني فسّر القطب في شرحه الفارسي على النهج بهذا الوجه، فالحمد لله على الوفاق.

قوله عليه السلام: **(فأسرعوا إلى أميركم وبادروا جهاد عدوّكم إن شاء الله تعالى)** أي إذا سمعتم ما قلنا من عمل النّاكثين وما فعل أهل المدينة لإزهاق الباطل ونصرة الدّين، فأسرعوا إلى أميركم يعني بالأمير نفسه عليه السلام وبادروا جهاد عدوّكم يعني بالعدوّ أصحاب الجمل.

الترجمة

باب دوم از باب های سه گانه نهج البلاغه در نامه ها و رساله های برگزیده امیرالمؤمنین علی (علیه السلام) که به دشمنان و امیران شهرهایش نوشته است و در این باب نیز فرمان های برگزیده ای که به عمّال خویش فرستاد و وصیّت ها و اندرزها که به دودمان و یارانش فرمود، نگاشته آمد.

این یکی از نامه های آن قطب اسلام و مسلمین است که هنگامی که از مدینه به سوی بصره، برای خاموش کردن آتش فتنه اصحاب جمل رهسپار شد، در جایی به نام ذی قار رسید، آن را به مردم کوفه نوشت و از ایشان یاری خواست و فرزندش امام حسن مجتبی و عمّاربن یاسر و قیس را به سوی کوفه گسیل داشت که نامه را به کوفیان رسانند و ایشان را به مدد و نصرت خوانند و این نخستین کتاب این باب است:

این نامه ای است از بنده خدا علی امیرالمؤمنین به مردم کوفه که پیشانی یاری کنندگان دین و کوهان عرب اند (کنایه از این که آنان در شرف نسبت به انصار دین، چون پیشانی نسبت به پیکراند و به رفعت در میان عرب، همچون کوهان نسبت به اشتر). شما را از امر عثمان خبر دهم، چنان که شنیدن آن همچون دیدن آن باشد. همانا که مردم عثمان را به افعال او عیب کردند و بر او طعن و انکار نمودند، من مردی از مهاجرین بودم که بسیار ار او درخواست می کردم که مردم را خشنود سازد و همواره او را نصیحت می کردم و به راه رستگاری دلالت می نمودم و از سرزنش او خودداری می نمودم و هیچ او را سرزنش نمی کردم (چه معنی "اقل عتابه" در این جا به معنی نفی عتاب است، نه این که کمتر او را سرزنش می کردم، چنان که مترجمین به اشتباه رفته اند و در شرح بیان کرده ایم که مردان خدا به رفق و مدارا نهی از منکر می کنند و از درشتی سرباز زنند و ممکن است که معنی جمله چنین باشد که من همواره عثمان را نصیحت و دلالت می کردم و سرزنش او را بر خویشتن تحمیل می کردم و به توبیخ او از ارشاد و هدایتش دریغ نداشتم، چه عثمان از اندرزهای امیرالمؤمنین (علیه السلام) می رنجید و می گفت که

ابوالحسن نمی خواهد دودمان مرا در نعمت آسایش ببیند و این بنا بر وجهی است که "اقل" را به معنی برمی دارم و حمل می کنم، بگیریم، چنان که در بحث لغوی این کتاب تحقیق کرده ایم که "اقل" هم برای نفی و هم برای حمل استعمال می شود) و سست ترین رفتن شان در کشتن او رفتن به شتاب و اضطراب بود، و نرم ترین راندن شان راندن سخت (یعنی آن دو در کشتن عثمان شتاب بسیار می کردند و مردم را بر آن برمی انداختند؛ هنگامی که عثمان در حصر بود و آب را به رویش بستند از طلحه سبب خواست، طلحه در جواب گفت: چون تو دین خدا را تبدیل کردی و تغییر دادی؛ و آنگاه که تشنگی بر او چیره شد و ندا در داد که ای مردم ما را آب دهید و از آن چه خدا بر شما روزی کرد ما را بخورانید، زبیر به عثمان خطاب کرد و گفت: ای نعثل، والله هرگز آب نخواهی چشید و طلحه اول کسی بود که تیر به خانه عثمان رها کرد و گفتار طلحه و زبیر در قتل عثمان و تحریض و ترغیب آن دو مردم را بر آن بسیار است).

و از عایشه درباره او خشمی ناگهانی بود (سبب خشم وی بر عثمان این بود که می گفت: عثمان اموال مسلمانان را طعمه خویش و خویشاوندانش گردانید و دودمان و پیروانش را بدان برگزید و دین خدا را تغییر داد و از سنت رسول اعراض کرد. گاهی عثمان بر منبر بود که عایشه نعلین و پیراهن پیغمبر را در میان مجلس به مردم می نمود و می گفت: این نعلین و پیراهن رسول خدا هنوز کهنه نشده که فرعون این امت، عثمان، دین خدا را تبدیل کرده است. و می گفت: بکشید نعثل را که او فاجر است و نیز می گفت: بکشید نعثل را، خدا نعثل را بکشد. و نعثل مردی یهودی بود دراز ریش که عایشه عثمان را بدان تشبیه می کرده است و عایشه اول کسی بود که بر عثمان طعن کرده است و کارهای او را عیب گرفته و مردم را بر کشتن او برانگیخت).

پس برایش گروهی مقدّر شد که او را کشتند و مردم با من بیعت کردند بی آنکه بیعت با مرا ناخوش و ناپسند داشته باشند و کاره باشند و بی آنکه اجبار شده باشند، بلکه به میل و رغبت و اختیار بیعت کردند. بدانید که مدینه از اهلش خالی شد و مردم از آن برکنده شدند (یا اینکه مدینه با اهلش برکنده شد و اهل آن با مدینه، که در دلالت مقصود آکد است و خلاصه اینکه مردم مدینه از آنجا بیرون

آمدند به قصد یاری دین خدا و جهاد فی سبیل الله در رکاب امیرالمؤمنین (عليه السلام) برای خاموش کردن آتش فتنه اصحاب جمل؛ این گفتار حضرت برای ترغیب و تهییج اهل کوفه است که در جهاد و نصرت دین تاسّی به اهل مدینه کنند).

و مدینه چون دیگ به جوش آمده است (مراد این است که وقتی مردم دیدند گروهی به بهانه خون عثمان بیعت را شکستند و نقض عهد کردند و قصد تفتین دارند به خصوص که از افعال عثمان سخت رنج دیدند و دل آزرده بودند برای دفع آنان چنان نهضت و قیام کردند که از اضطراب و هیجان گویا چون دیگ به جوش آمدند) فتنه بر قطب ایستاده است (کنایه از این که آسیای فتنه دور می زند؛ یعنی آتش فتنه مشتعل است یا این که مراد امیرالمؤمنین (عليه السلام) از قطب خود آن حضرت باشد، چه آن بزرگوار قطب اسلام و مسلمین و مدار ایمان و اهل آن است؛ یعنی فتنه اصحاب جمل بر آن بزرگوار روی آورده است و بر آن قطب عالم امکان دور می زند)، پس بشتابید به سوی امیر خود و پیشی گیرید به جهاد دشمن خود اگر خدا خواهد.

ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة
وهو الكتاب الثاني من باب المختار
من كتب أمير المؤمنين عليه السلام

وَجَزَاكُمُ اللّٰهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ[١].

اللغة

(جزاكم) الجزاء يأتي وهو ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، قال الله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الانسان: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] يقال: جزاه كذا وبكذا وعلى كذا يجزيه جزاءً من باب ضرب.

(أهل) قال الخليل: أهل الرّجل أخصّ النّاس به، أهل البلد والبيت سكّانه، وأهل كلّ نبيّ أمّته، وأهل الأمر وُلاته، وأهل الإسلام من يدين به.

وقوله عليه السلام: **(أهل بيت نبيّكم)** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فالمراد من قوله: أهل بيت نبيّكم، هو أهل البيت في الآية.

الإعراب

(من أهل مصر) تميز لضمير المفعول أعني «كم» في «جزاكم» لأنه يجوز جرُّ التميز بمن إذا لم يكن تميزاً لعدد وما كان فاعلاً في المعنى والتميز المحول عن المفعول كقولهم: رطل من زيت ونعم من رجل، قال أبو بكر بن الأسود:

تخيّره فلم تعدل سواه ... فنعم المرء من رجل تهامى

وقال آخر:

يا سيّداً ما أنت من سيّد ... موطأ الأكتاف رحب الذراع

واستثنى ابن مالك الأولين في الألفيّة وقال:

---

(١) الكافئة: ٢٨، ح ٢٧، والبحار: ٣٢/ ٨٤ ح ٥٧.

واجرر بمن شئت غير ذي العدد والفاعل المعنى كطب نفساً تفد

(عن أهل بيت نبيكم) تتعلّق بقوله جزاكم.

(أحسن ما يجزي) مفعول مطلق نوعي فناب أحسن عن المصدر المحذوف في الانتصاب على المفعول المطلق ويدلُّ عليه وهو صفة له أي جزاكم الله الجزاء أحسن ما يجزي العاملين بطاعته كقولهم: سرت أحسن السير، أي سرت السير أحسن السير.

والظّاهر أنَّ كلمة ما مصدريّة أي أحسن جزاء العاملين بطاعته، ويجوز أن تكون من الموصولات وحذف العائد إليها، والتقدير: أحسن الّذي يجزي به العاملين بطاعته.

(بطاعته) متعلّق للعاملين، ولنعمته للشاكرين يقال عمل بطاعته وشكر لنعمته.

المعنى

ضمير **(إليهم)** في قول الرّضي رضوان الله عليه يرجع إلى أهل الكوفة في الكتاب السّابق، فقوله صريح بأنّه عليه السلام كتب إلى أهل الكوفة هذا الكتاب بعد فتح البصرة، والعجب من الفاضل الشّارح البحراني حيث قال في شرحه على النّهج: يشبه أن يكون الخطاب لأهل الكوفة مع أنّه نقل في عنوانه قول الرّضي ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة.

ثمَّ إنّ هذا الكتاب لجزء الكتاب الّذي كتب عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة ولم يذكره الرَّضي رضي الله عنه بتمامه إمّا لعدم عثوره عليه، أو لاختياره منه هذا القدر لبلاغته، وهذا ليس بعزيز في النهج كما بيّنا في المباحث السّالفة أنَّ خطبة واحدة قطّعت وجزّئت في أربع مواضع من النّهج وذكر في كلِّ موضع جزءً منها، أو أتى ببعض ما في الخطب والكتب وترك بعضهما الآخر وستقف على أكثر ما قدّمنا في المباحث الآتية أيضاً.

ثمَّ نقل هذا الكتاب والذّي قبله في المجلّد الثّامن من **«البحار»** ص ٤٠٩ الطّبع الكمباني، ودونك الكتاب بالسّند والتمام.

سند الكتاب ونقله بتمامه ونسخ أخرى منه

إنَّ ما يهمّنا في ذلك الشّرح تحصيل سند ما في النّهج ونقله من الجوامع والمجاميع الّتي أُلّفت قبل الرَّضيِّ رضوان الله عليه كـ **«الجامع الكافي»** لثقة الإسلام الكلينيّ المتوفّى سنة ٣٢٨هـ، و**«البيان والتّبيين»** لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفّى سنة ٢٥٥هـ، و**«الكامل»** لأبي العبّاس محمّد بن يزيد المعروف بالمبرّد المتوفّى سنة ٢٨٥هـ، والكتاب المعروف بـ**«التّاريخ اليعقوبي»** لأحمد بن أبي يعقوب الكاتب المتوفّى حدود سنة ٢٩٢هـ، وفي **«الكنى والألقاب»** للمحدّث القمّي رحمه الله أنّه توفّي سنة ٢٤٦هـ، و**«تاريخ الأُمم والملوك»** المعروف بـ**«التّاريخ الطبري»** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري الآملي المتوفّى سنة ٣١٠هـ،

وكتاب «**صفّين**» للشيخ أبي الفضل نصر بن مزاحم المنقري التّميمي الكوفي من جملة الرّواة المتقدّمين بل الواقعة في درجة التّابعين، كان من معاصري محمّد بن عليّ بن الحسين عليه السلام باقر العلوم وكأنّه كان من رجاله عليه السلام وأدرك عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام كما في «**الخرائج**» للرّاوندي، وكتب الشيخ الأجلّ المفيد قدّس سرُّه المتوفّى سنة ٤١٣هـ، لا سيّما ما نقل في كتبه بإسناده عن المؤرّخ المشهور محمّد بن عمر بن واقد الواقدي المدني المتوفّى سنة ٢٠٧هـ، وكتاب «**الإمامة والسّياسة**» المعروف بـ«**تاريخ الخلفاء**» من مؤلّفات عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري المتوفّى سنة ٢٧٦هـ، و«**مروج الذهب ومعادن الجوهر**» في التّاريخ لأبي الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ المسعوديّ المتوفّى سنة ٣٤٦هـ، وكتب أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي المشتهر بالشيخ الصّدوق المتوفّى سنة ٣٨١هـ، وغيرها من الكتب المشهورة للعلماء الأقدمين الّذين كانوا قبل الرّضي جامع النّهج ببضع سنين إلى فوق مئين وهو توفّي سنة ٤٠٦ من هجرة خاتم النّبيّين.

وإنّما حدانا على ذلك طعن بعض المخالفين من السّابقين واللاّحقين بل بعض المعاصرين على النّهج بأنّه ليس من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بل ممّا وضعه الرّضي أو من جمعه ونسبه إليه عليه السلام.

وقد نقل القاضي نور الله رحمه الله في «**مجالس المؤمنين**» عند ترجمة الشريف المرتضى علم الهدى أخ الرّضي من «**تاريخ اليافعي**» أنّه قال: وقد اختلف النّاس في كتاب «**نهج البلاغة**» المجموع من كلام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، هل هو جمعه أو أخوه الرَّضي، وقد قيل: إنّه ليس من كلام عليّ بن أبي طالب، وإنّما أحدهما هو الّذي وضعه ونسبه إليه، انتهى ما أردنا من نقل القاضي كلام اليافعي.

أقول: الظّاهر أنّ اليافعي أخذ هذا الطّعن من القاضي ابن خلكان في «**وفيات الأعيان**» ونقله بألفاظه في تاريخه والقائل واحد، وقد قاله القاضي عند ترجمة علم الهدى، وهو مات سنة ٦٨١هـ، واليافعي سنة ٧٦٨هـ، إلاّ أنّ ابن خلّكان قال بعد قوله في اختلاف النّاس: أنّه ليس من كلامه عليه السلام وإنّما الّذي جمعه ونسبه إليه هو الّذي وضعه. والفرق بينهما أنّ القائل بالوضع على عبارة اليافعي هو علم الهدى أو أخوه الرَّضي، وأمّا على ما في «**الوفيات**» فيمكن أن يكون غيرهما.

ثمّ إنّ تلك الشّبهة الواهية إنّما صدرت من معاند جاهل هتّاك لم يتفحّص في الكتب ولم يكن عارفاً بأنحاء الكلام، وإلاّ فكيف يجتري العالم المتتبّع الباحث عن فنون الكلام أن ينحل الكلام الذي هو فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق إلى من نسبة منشآته وأشعاره وسائر كلماته إلى ما في النّهج كنسبة السّهاء إلى الشّمس. على أنّ الألسن قد كلّت عن أن

يتفوّه بإتيان خطبة من خطبه لفظاً أو معنى، والخطباء الّذين تشار إليهم بالبنان وتثنى عليهم الخناصر عياله عليه السلام وكلٌّ أخذوا منه، وقد قدّمنا بعض ما أشرنا إليه في شرح المختار ٢٣٧.

وقد افترى بعض المخالفين على الرّضي بأنَّ الخطبة الشقشقيّة التي تدلُّ على إثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله بلا فصل من مجعولاته نسبها إليه، وأقول: إنّها من الخطب الّتي أعجزت العقلاء عن فهم معناها، وأعيت الخطباء البلغاء عن أن يأتوا بمثلها فأنّى للرّضي ولغير الرّضي هذا النّفس وهذا الأسلوب وما جرى بين مصدّق ابن شبيب وشيخه ابن الخشاب مشهور معروف قد نقله الشّارحان المعتزلي والبحراني الأول في آخر شرحه عليها، والآخر في أوّله ونقلها ابن أبي جمهور الأحسائي في «**المجلي**» أيضاً (**ص ٣٩٣ طبع طهران ١٣٢٩هـ**) وهي رويت على طرق كثيرة روتها الخاصّة والعامّة أتى بها المجلسيُّ قدّس سرّه في المجلّد الثامن من «**البحار**» (**ص ١٦٠ من الطّبع الكمباني**) فلا حاجة إلى نقلها.

وأمّا ما في «**الوفيات**» فيدفعه ما قاله جامع النّهج في مقدّمته عليه: فإنّي كنت في عنفوان السنّ وغضاضة الغصن ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمّة عليهم السلام «إلخ»، ولا كلام في أنّ خصائص الأئمّة من كتب الرّضي رحمه الله، على أنّ جلَّ المؤرّخين والمحدّثين من الشّيعة بل كلّهم وكذلك من العامّة قالوا: إنّه ممّا جمعه الرّضي، وارتياب من لا خبرة له في ذلك لا يعبأ به.

على أنَّ كثيراً من المؤلّفين حتّى من كبار الصّحابة والتّابعين اعتنوا بجمع خطبه عليه السلام وكتبه وسائر كلماته، وقد ذكر عدّة منها الأستاذ الشعراني في مقالته المفيدة القيّمة على شرحنا هذا في أوّل المجلّد الأول من «**تكملة المنهاج**»، وعلى شرح المولى صالح القزويني على نهج البلاغة بالفارسيّة، وكذا عدَّ عدّة كثيرة منها عليُّ بن عبد العظيم التبريزي الخياباني في ص ٣٤٩ من كتابه الموسوم بـ«**وقائع الأيّام في أحوال شهر الصيام**» طبع إيران.

وقد التمس منّي غير واحد من أصدقائي الاهتمام كلّ الاهتمام بذكر مدارك ما في النهج من الكتب الأقدمين الذين جمع الرّضيُّ كلماته عليه السلام منها وأوصاني بذلك مكرّراً، وأرجو من الله أن أجيب التماسهم بقدر الوسع بل الطّاقة فإنّي لم آل جهداً إلى الآن في ما لا بدَّ منه في تفسير كلماته عليه السلام وما يحتاج إليها من أراد أن يغوص في بحار معانيها لاقتناء دُررها من السند واللغة والإعراب ونقد المعاني ونضد الحقائق في كلِّ باب، ونقل الآيات والأخبار المناسبة في كلِّ مقام بعون الله الفيّاض الوهّاب.

وأمّا سند الكتب المعنون ونقله بتمامه ونسخ أُخرى منه:

فقال الشّيخ الأجلّ أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النّعمان المعروف بالمفيد المتوفّى

٤١٣هـ، في كتاب «**الجمل**» (**ص ٢٠١ طبع النجف**) في رواية عمر بن سعد عن يزيد بن الصلب، عن عامر الأسدي قال: إنَّ عليّاً عليه السلام كتب بعد فتح البصرة مع عمر بن سلمة الأرحبي إلى أهل الكوفة: من عبد الله عليّ بن أبي طالب إلى قرضة بن كعب ومن قبله من المسلمين، سلام عليكم، فإنّي أحمد الله إليكم الّذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد فإنّا لقينا القوم النّاكثين لبيعتنا المفرّقين لجماعتنا الباغين علينا من أمتنا فحاججناهم إلى الله فنصرنا الله عليهم وقتل طلحة والزُّبير وقد تقدَّمت إليهما بالنذر، وأشهدت عليهما صلحاء الأمّة ومكّنتهما في البيعة فما أطاعا المرشدين ولا أجابا النّاصحين، ولاذ أهل البغي بعائشة فقتل حولها جمٌّ لا يحصى عددهم إلاّ الله، ثمَّ ضرب الله وجه بقيّتهم فأدبروا، فما كانت ناقة الحجر بأشأم منها على أهل ذلك المصر مع ما جاءت به من الحوب الكبير في معصيتها لربّها ونبيّها من الحرب واغترار من اغترَّ بها وما صنعته من التفرقة بين المؤمنين وسفك دماء المسلمين لا بيّنة ولا معذرة ولا حجّة لها، فلمّا هزمهم الله أمرت أن لا يقتل مدبر، ولا يجهز على جريح، ولا يهتك ستر، ولا يدخل دار إلاّ بإذن أهلها، وقد آمنت النّاس واستشهد منّا رجال صالحون، ضاعف الله لهم الحسنات ورفع درجاتهم، وأثابهم ثواب الصّابرين، وجزاهم من أهل مصر عن أهل بيت نبيّهم أحسن ما يجزي العاملين بطاعته والشاكرين لنعمته، فقد سمعتم وأطعتم ودعيتم فأجبتم فنعم الاخوان والأعوان على الحقّ أنتم، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ كتب عبد الله بن أبي رافع في رجب سنة ستّ وثلاثين. انتهى.

بيان: عبد الله بن أبي رافع كان كاتبه عليه السلام.

ثمَّ إنّ كتابه عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة روي بوجه آخر أيضاً رواها علم الهدى الشّريف المرتضى في «**الشافي**» (**ص ٢٨٧، الطبع الناصري ١٣٠٢**) والشيخ الطّوسي في «**تلخيصه**»، والشيخ المفيد في «**الجمل**» (ص ١٩٨) وفي «**الإرشاد**» (ص ١٢٣ طبع طهران ١٣٧٧هـ).

رووا عن الواقدي أنّه عليه السلام كتب إلى أهل الكوفة بعد فتح البصرة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من عليّ أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، سلام عليكم فإنّي أحمد الله إليكم الّذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد فإنّ الله حَكَمٌ عَدْلٌ لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال، وإنّي أخبركم عنّا وعمّن سرنا إليه من جموع أهل البصرة، ومن سار إليه من قريش وغيرهم مع طلحة والزُّبير بعد نكثهما صفقة أيمانهما، فنهضت من المدينة حين انتهى إليَّ خبرهم وما صنعوه بعاملي عثمان بن حنيف حتّى قدمت ذا

قار فبعثت ابني الحسن وعمّاراً وقيساً، فاستنفرتهم لحقّ الله وحقّ رسوله وحقّنا فأجابني أخوانكم سرعاً حتّى قدموا عليّ فسرت بهم وبالمسارعة إلى طاعة الله حتّى نزلت ظهر البصرة فأعذرت بالدُّعاء وأقمت الحجّة وأقلت العثرة والزلّة من أهل الرِّدَّة من قريش وغيرهم، واستتبتهم عن نكثهم بيعتي وعهد الله لي عليهم فأبوا إلاّ قتالي وقتال من معي والتّمادي في الغيّ، فناهضتهم بالجهاد، وقتل من قتل منهم وولّى من ولّى إلى مصرهم، فسألوني ما دعوتهم إليه من كفّ القتال فقبلت منهم وأغمدت السّيوف عنهم وأخذت بالعفو فيهم وأجريت الحقّ والسنّة بينهم واستعملت عليهم عبد الله بن العبّاس على البصرة، وأنا سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى، وقد بعثت إليكم زجر بن قيس الجعفي لتسألوه يخبركم عنّا وعنهم وردّهم الحق علينا وردّهم الله وهم كارهون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وكتب عبد الله بن أبي رافع في جمادى الأولى سنة ستّ وثلاثين[١].

ففي «**الإرشاد**»: ثمّ كتب عليه السلام بالفتح إلى أهل الكوفة ـ إلى أن قال: من جموع أهل البصرة ومن تأشّب إليهم من قريش (**مكان ومن سار إليه من قريش ـ كما في «الجمل»**) ـ ثمّ نقل إلى قوله عليه السلام: وولّى من ولّى إلى مصرهم، مع اختلاف يسير في بعض العبارات، وبعده: وقتل طلحة والزُّبير على نكثهما وشقاقهما وكانت المرأة عليهم أشأم من ناقة الحجر فخذلوا وأدبروا وتقطّعت بهم الأسباب، فلمّا رأوا ما حلّ بهم سألوني العفو عنهم فقبلت منهم وغمدت ـ إلى آخره مع اختلاف قليل في بعض الألفاظ والجمل[٢].

ونقل الكتاب أبو جعفر الطّبريُّ في التاريخ (**٥٤٥ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ**) بالإجمال والاختصار قال: ما كتب به عليُّ بن أبي طالب من الفتح إلى عامله بالكوفة: كتب إلى السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة قالا: وكتب عليّ بالفتح إلى عامله بالكوفة حين كتب في أمرها وهو يومئذٍ بمكّة:

من عبد الله أمير المؤمنين: أمّا بعد فإنّا التقينا في النصف من جمادى الآخرة بالخريبة ـ فناء من أفنية البصرة ـ فأعطاهم الله عزّ وجلّ سنة المسلمين وقتل منّا ومنهم قتلى كثيرة وأُصيب ممّن أُصيب منّا ثمامة بن المثنى، وهند بن عمرو وعلباء بن الهيثم وسيحان وزيد ابنا صوحان ومحدوج، وكتب عبد الله بن أبي رافع وكان الرّسول زفر بن قيس إلى الكوفة بالبشارة في جمادى الآخرة.

أقول: الظاهر أنَّ الكتاب واحد وإنما روي بطرق مختلفة بعضه نقل في طريق وبعضه

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٢٣١، والجمل: ٢١٣، ونهج السعادة: ٤/ ٧٤.

(٢) الإرشاد: ١/ ٢٥٨، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٢٣١.

الآخر في طريق آخر، وروايته كذلك لا تدلُّ على تعدُّد الكتاب إليهم بعد الفتح وما وجدنا في كتب الآثار بعد الفحص والتتبّع ما يدلّ على تعدُّده.

ثمّ إنّ محاسن هذا الكتاب كثيرة بل كلّه حسن، واختيار بعضه وترك الباقي كما فعله السيّد الرَّضي ليس بصواب والقول بعدم عثوره على الكتاب بتمامه لا يخلو من دغدغة.

(كتابان آخران له عليه السلام)

هذان الكتابان غير مذكورين في النهج وإنّما نقلهما المفيد قدّس سرّه في **«الجمل»** (ص ١٩٧) عن الواقدي أحدهما كتبه إلى أهل المدينة بعد فتح البصرة وثانيهما إلى أمّ هاني بنت أبي طالب بعد الفتح أيضاً.

أمّا الأوّل فاستدعى كاتبه عبد الله بن أبي رافع وقال: اكتب إلى أهل المدينة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله عليٍّ بن أبي طالب: سلام عليكم، فإنّي أحمد الله إليكم الّذي لا إله إلاّ هو فإنّ الله بمنّه وفضله وحسن بلائه عندي وعندكم حكم عدل، وقد قال سبحانه في كتابه وقوله الحقّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ وإنّي مخبركم عنّا وعمّن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ومن سار إليهم من قريش وغيرهم مع طلحة والزُّبير ونكثهما على ما قد علمتم من بيعتي وهما طائعان غير مكرهين فخرجت من عندكم بمن خرجت ممّن سارع إلى بيعتي وإلى الحقِّ حتّى نزلت ذا قار فنفر معي نفر من أهل الكوفة وقدم طلحة والزُّبير البصرة وصنعا بعاملي عثمان بن حنيف ما صنعا، فقدَّمت إليهم الرُّسل وأعذرت كلَّ الأعذار، ثمّ نزلت ظهر البصرة فأعذرت بالدُّعاء وقدَّمت الحجّة وأقلت العثرة والزلّة واستتبتهما ومن معهما من نكثهم بيعتي ونقضهما عهدي فأبوا إلاّ قتالي وقتال من معي والتّمادي في الغيّ، فلم أجد بداً في مناصفتهم لي فناصفتهم بالجهاد، فقتل الله من قتل منهم ناكثاً، وولّى من ولّى منهم، وأغمدت السُّيوف عنهم وأخذت بالعفو فيهم وأجريت الحقّ والسنّة في حكمهم واخترت لهم عاملاً استعملته عليهم وهو عبد الله بن عباس، وإنّي سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى، وكتب عبد الله بن أبي رافع في جمادى الأولى سنة ستّ وثلاثين من الهجرة[1].

وقال علم الهدى في **«الشافي»**: وروى الواقديُّ أيضاً كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل المدينة يتضمّن مثل معاني كتابه إلى أهل الكوفة وقريباً من ألفاظه.

أقول: ولعلَّ الوجه في عدم ذكر الرَّضي كتابه عليه السلام إلى أهل المدينة في النهج كان ذلك، أعني أنَّ كتابه إلى أهل المدينة كان قريباً من كتابه إلى أهل الكوفة في ألفاظه ومعانيه.

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ٧٠، والجمل: ٢١٢.

أمّا الكتاب الثّاني: فكتب عليه السلام إلى أمّ هاني بنت أبي طالب:

سلام عليك أحمد إليك الله الّذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد فإنّا التقينا مع البغاة والظلمة في البصرة فأعطانا الله تعالى النصر عليهم بحوله وقوّته، وأعطاهم سنة الظّالمين فقتل كلّ من طلحة والزُّبير وعبد الرّحمٰن بن عتاب وجمع لا يحصى وقتل منّا بنو مخدوع وابنا صوحان وعلباء وهند وثمامة فيمن يعدّ من المسلمين رحمهم الله ـ والسّلام.

ولقد حان أن نرجع إلى تتميم واقعة الجمل وفاءً بالعهد الّذي عهدناه في الكتاب المتقدّم. وليعلم أوّلاً أنّ غرضنا كلّه أن نأتي بالكتب والخطب والأشعار والحكم الّتي صدرت منه عليه السلام على الترتيب الواقع في بدء واقعة الجمل إلى آخرها حتى نذكر سند ما في النهج على ما وجدنا طائفة منه في سالف الأيّام، وأُخرى حين شرح الكتاب بالتّتبّع والفحص على قدر الوسع والطّاقة، وكذا نذكر في ذكر نحو هذه الوقائع ما لم يأت به في النّهج من كلماته عليه السلام كما فعلنا في نقل واقعة صفين على أسلوب بديع بين فيه كثير ما في النهج، وذكر طائفة من كلماته ـ عليه السلام ـ لم تذكر فيه مع فوائد غزيرة جليلة قدّمناها في ذكر واقعة صفّين، فنقول:

لمّا أتى أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام الخبر وهو بالمدينة بأمر عائشة وطلحة والزُّبير أنّهم قد توجّهوا نحو العراق. خرج يبادر وهو يرجو أن يدركهم ويردّهم فلمّا انتهى إلى الرّبذة أتاه عنهم أنّهم قد أمعنوا، فأقام بالرَّبذة أيّاماً وأتاه عن القوم أنّهم يريدون البصرة فسرّى بذلك عنه، وقال: إنّ أهل الكوفة أشدّ إليّ حبّاً وفيهم رؤوس العرب وأعلامهم، ثمّ دعا هاشم بن عتبة المرقال وكتب معه كتاباً إلى أبي موسى الأشعري، وكان بالكوفة من قبل عثمان أن يوصل الكتاب إليه ليستنفر النّاس منها إلى الجهاد معه.

روى أبو مخنف، قال: حدّثني الصعقب، قال: سمعت عبد الله بن جنادة يحدّث أنّ عليّاً عليه السلام لمّا نزل الرّبذة بعث هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص إلى أبي موسى الأشعري وهو الأمير يومئذٍ على الكوفة لينفر إليه النّاس، وكتب إليه معه: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ـ هو أبو موسى الأشعري ـ أمّا بعد فإنّي قد بعثت إليك هاشم بن عتبة لتشخص إليّ من قبلك من المسلمين ليتوجّهوا إلى قوم نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي وأحدثوا في الإسلام هذا الحدث العظيم، فأشخص بالنّاس إليّ معه حين يقدم عليك فإنّي لم أولك المصر الّذي أنت فيه ولم أقرّك عليه إلاّ لتكون من أعواني على الحقّ وأنصاري على هذا الأمر، والسّلام[1].

نقل هذا الكتاب أيضاً في «**جمل المفيد**» (**ص ١١٥ طبع النجف**)، وتاريخ أبي جعفر

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٨٥، ح ٦١، ونهج السعادة: ٤/ ٤٦ ح ١٨.

الطبري (ص ٥١٢ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ)، إلاّ أن المفيد ذهب إلى أنه عليه السلام أرسل هاشم بالكتاب إلى أبي موسى من ذي قار، فإنّه رحمه الله قال: لمّا بلغ الرّبذة وجد القوم قد فاتوا فنزل بها قليلاً، ثمّ توجّه نحو البصرة حتّى نزل بذي قار فأقام بها، ثمّ أرسل ذلك الكتاب مع هاشم، الخ.

ولكن على رواية أبي مخنف وابن إسحاق والطبري وغيرهم ما نقلناه ورتّبناه.

فقدم هاشم بالكتاب على أبي موسى الأشعري، فدعا أبو موسى السائب بن مالك الأشعري، فأقرأه الكتاب، وقال له: ما ترى؟ فقال له أبو السائب: اتّبع ما كتب به إليك، فأبى ذلك وحبس الكتاب وبعث إلى هاشم يتوعّده ويخوّفه.

(كتاب هاشم بن عتبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام من الكوفة)

فقال السائب: فأتيت هاشم بن عتبة فأخبرته برأي أبي موسى فكتب هاشم إلى أمير المؤمنين عليه السلام: لعبد الله عليّ أمير المؤمنين من هاشم بن عتبة: أمّا بعد يا أمير المؤمنين وإنّي قدمت بكتابك على امرءٍ مُشاقّ عاق بعيد الرَّحم ظاهر الغلّ والشنآن فتهدّدني بالسجن وخوّفني بالقتل، وقد كتبت إليك هذا الكتاب مع المحلّ بن خليفة أخي طيّ وهو من شيعتك وأنصارك وعنده علم ما قبلنا فاسأله عمّا بدا لك واكتب إليّ برأيك، والسلام.

فلمّا قدم المحلُّ بكتاب هاشم على عليّ عليه السلام سلّم عليه ثمّ قال: الحمد لله الّذي أدّى الحقَّ إلى أهله ووضعه موضعه، فكره ذلك قوم قد والله كرهوا نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ثمَّ بارزوه وجاهدوه، فردَّ الله عليهم كيدهم في نحورهم، وجعل دائرة السّوء عليهم، والله يا أمير المؤمنين لنجاهدنّهم معك في كلِّ موطن حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وآله في أهل بيته إذ صاروا أعداءً لهم بعده. فرحّب به عليٌّ عليه السلام وقال له خيراً، ثمّ أجلسه إلى جانبه وقرأ كتاب هاشم وسأله عن الناس وعن أبي موسى الأشعريّ؛ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أثق به ولا آمنه على خلافك إن وجد من يساعده على ذلك. فقال عليٌّ عليه السلام: والله ما كان عندي بمؤتمن ولا ناصح، ولقد أردت عزله فأتاني الأشتر فسألني أن أُقرّه وذكر أنّ أهل الكوفة به راضون فأقررته[1].

(كتاب علي عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري)

ثمّ دعا عليه السلام عبد الله بن عباس ومحمّد بن أبي بكر وبعثهما إلى أبي موسى وكتب معهما:

---

(١) بحار الأنوار: ٨٦/٣٢، وكلمات الإمام الحسين: ١٣٧، ح ٣٣.

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى عبد الله بن قيس: أمّا بعد يا ابن الحائك يا عاضّ أير أبيه. فوالله إنّي كنت لأرى أنّ بعدك من هذا الأمر الّذي لم يجعلك الله له أهلاً ولا جعل لك فيه نصيباً سيمنعك من ردّ أمري والانتزاء عليّ، وقد بعثت إليك ابن عباس وابن أبي بكر فخلّهما والمصر وأهله واعتزل عملنا مذؤماً مدحوراً، فإن فعلت، وإلاّ فإنّي قد أمرتهما أن ينابذاك على سواء إنّ الله لا يهدي كيد الخائنين، فإذا ظهرا عليك قطّعاك إرباً إرباً، والسلام على من شكر النعمة ووفى البيعة وعمل برجاء العاقبة[1].

أقول: هذا الكتاب غير مذكور في النهج وإنّما ذكر فيه كتاب آخر منه عليه السلام إليه وهو الكتاب ٦٣ منه وهو قوله عليه السلام: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، أمّا بعد فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك، إلخ.

قال أبو مخنف: فلمّا أبطأ ابن عباس وابن أبي بكر عن عليّ عليه السلام ولم يدر ما صنعا رحل عن الرَّبذة إلى ذي قار فنزلها، فلمّا نزل ذا قار بعث إلى الكوفة الحسن ابنه عليه السلام وعمّار بن ياسر وزيد بن صوحان، وقيس بن سعد بن عبادة ومعهم كتاب إلى الكوفة، فأقبلوا حتّى كانوا بالقادسيّة، فتلقّاهم النّاس، فلمّا دخلوا الكوفة قرأوا كتاب عليّ عليه السلام وهو:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين: أمّا بعد فإنّي خرجت مخرجي هذا إمّا ظالماً، وإمّا مظلوماً، وإمّا باغياً، وإمّا مبغيّاً عليّ، فأنشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلاّ نفر إليّ، فإن كنت مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً استعتبني، والسلام[2].

أقول: أتى بهذا الكتاب الشريف الرّضي في النّهج مع اختلاف يسير وهو الكتاب ٥٧ منه قوله: ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة، أمّا بعد فإنّي خرجت من حيّي هذا، إلخ.

وكذا نقل هذا الكتاب أبو جعفر الطبريُّ في التاريخ (**ص ٥١٢ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ**) وبين النسخ اختلاف في الجملة ونذكرها في شرح الكتاب بعون الله الملك الوهّاب.

فلمّا دخل الحسن بن عليّ عليه السلام وعمّار الكوفة اجتمع إليهما الناس، فقام الحسن عليه السلام، فاستنفر الناس وخطب خطبة رواها أبو مخنف على صورتين فإحداهما ما قال: حدّثني جابر بن يزيد قال: حدّثني تميم بن حذيم الناجي قال: قدم علينا الحسن بن عليّ عليه السلام وعمّار بن

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٨٧، وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/ ٨٧، ونهج السعادة: ٤/ ٦١، ح ٢٦.

ياسر يستنفر الناس إلى عليّ عليه السلام ومعهما كتابه، فلمّا فرغا من قراءة كتابه قام الحسن عليه السلام وهو فتى حدث والله إني لأرثي له من حداثة سنّه وصعوبة مقامه، فرماه الناس بأبصارهم وهم يقولون: اللّهمّ سدّد منطق ابن بنت نبيّنا، فوضع يده على عمود يتساند إليه وكان عليلاً من شكوى به فقال:

(خطبة الحسن بن علي عليه السلام في الكوفة يستنفر الناس إلى أبيه عليه السلام)

الحمد لله العزيز الجبّار، الواحد القهّار، الكبير المتعال، سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف باللّيل وسارب بالنهار، أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدَّة ورخاء، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله امتنّ علينا بنبوّته، واختصّه برسالته، وأنزل عليه وحيه، واصطفاه على جميع خلقه، وأرسله إلى الإنس والجنّ حين عبدت الأوثان، وأُطيع الشيطان، وجحد الرَّحمٰن، فصلّى الله عليه وعلى آله، وجزاه أفضل ما جزى المسلمين!

أمّا بعد؛ فإنّي لا أقول لكم إلاّ ما تعرفون أنَّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أرشد الله أمره، وأعزَّ نصره، بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب، وإلى العمل بالكتاب، والجهاد في سبيل الله، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون، فإنَّ في آجله ما تحبّون إن شاء الله، ولقد علمتم أنّ عليّاً صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وحده وأنّه يوم صدق به لفي عاشرة من سنّه، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله جميع مشاهده وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله راضياً عنه حتّى غمضه بيده، وغسله وحده والملائكة أعوانه والفضل ابن عمّه ينقل إليه الماء، ثمّ أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دينه وعداته وغير ذلك من أموره، كلّ ذلك مِن منّ الله عليه، ثمَّ والله ما دعا إلى نفسه، ولقد تداكَّ الناس عليه تداكَّ الإبل الهيم العطاش ورودها، فبايعوه طائعين، ثمّ نكث منهم ناكثون بلا حدث أحدثه، ولا خلاف أتاه، حسداً له وبغياً عليه فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته، والجدّ والصبر والاستعانة بالله، والخفوف إلى ما دعاكم إليه أمير المؤمنين عليه السلام وإيّاكم بما عصم به أولياءه وأهل طاعته، وألهمنا وإيّاكم تقواه، وأعاننا وإيّاكم على جهاد أعدائه، وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

ثمّ مضى إلى الرهبة فهيأ منزلاً لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

قال جابر: فقلت لتميم: كيف أطاق هذا الغلام ما قد قصصته من كلامه؟ فقال: ولما سقط عنّي من قوله أكثر ولقد حفظت بعض ما سمعت.

وأمّا صورتها الأُخرى فروي عن موسى بن عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى، عن أبيه أنّه لما دخل الحسن عليه السلام وعمّار الكوفة اجتمع إليهما الناس فقام الحسن عليه السلام فاستنفر الناس، فحمد

الله وصلّى على رسوله ثمّ قال:

أيّها الناس إنّا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنّة رسوله وإلى أفقه من تفقّه من المسلمين، وأعدل من تعدّلون، وأفضل من تفضّلون، وأوفى من تبايعون، من لم يعيه القرآن، ولم تجهله السنّة، ولم تقعد به السابقة، إلى من قرّبه الله تعالى ورسوله قرابتين: قرابة الدّين وقرابة الرّحم، إلى من سبق الناس إلى كلّ مأثرة، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون، فقرّب منهم وهم متباعدون، وصلى معه وهم مشركون، وقاتل معه وهم منهزمون، وبارز معه وهم محجمون وصدّقه وهم يكذّبون؛ إلى من لم تردَّ له راية، ولا تكافأ له سابقة، وهو يسألكم النصر، ويدعوكم إلى الحقّ، ويأمركم بالمسير إليه لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه، ومثّلوا بعمّاله، وانتهبوا بيت ماله، فاشخصوا إليه، رحمكم الله، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واحضروا بما يحضر به الصّالحون.

ونقل ابن قتيبة الدّينوري في **«الإمامة والسياسة» خطبته** عليه السلام بوجه آخر قال: **(ص ٦٧ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م)** ثمّ قام الحسن بن عليّ عليه السلام فقال: أيّها الناس إنّه قد كان من مسير أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ما قد بلغكم، وقد أتيناكم مستنفرين، لأنّكم جبهة الأنصار، ورؤوس العرب، وقد كان من نقض طلحة والزّبير بعد بيعتهما وخروجهما بعائشة ما بلغكم، وتعلمون أنّ وهن النساء وضعف رأيهنَّ إلى التلاشي، ومن أجل ذلك جعل الله الرّجال قوّامين على النساء وأيم الله لو لم ينصره منكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية.

ونقل الخطبة في **(«جمل المفيد» ص ١١٧ طبع نجف)** أيضاً ونسخته قريبة من نسخة **«الإمامة والسياسة»**.

وأقول: الظاهر أنّ تلك النسخ كلّها كانت خطبة واحدة منه عليه السلام وهي كما قال تميم بن حذيم الناجي: حفظ بعضها فريق، وحفظ طائفة منها فريق آخر فنقلوا ما حفظوا، أو اختار بعضهم بعضها اختصاراً وترك الآخر الآخر كذلك.

ولمّا فرغ الحسن بن عليّ عليه السلام من خطبته قام بعده عمّار فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثمّ قال:

يا أيّها الناس أخو نبيّكم وابن عمّه يستنفركم لنصر دين الله، وقد بلاكم الله بحقّ دينكم وحرمة أمّكم، فحقُّ دينكم أوجب، وحرمته أعظم، أيها الناس عليكم بإمام لا يؤدَّب، وفقيه لا يعلّم، وصاحب بأس لا ينكل، وذي سابقة في الإسلام ليست لأحد، وإنّكم لو قد حضرتموه بيّن لكم أمركم إن شاء الله.

أقول: لقد مضى وجه قول عمّار فيه عليه السلام عليكم بإمام لا يؤدَّب في شرح الخطبة ٢٣٦ ص٢ ج١٦ من «**تكملة المنهاج**».

ثمَّ إنَّ المفيد قدّس سرُّه نقل خطبة عمّار بن ياسر في «**الجمل**» (**ص ١١٧ طبع النجف**) تغاير الأولى، ونقلها ابن قتيبة في «**الإمامة والسياسة**» على وجه تغايرهما، ولا بعد أن تكون خطبته أيضاً قطّعت وفرّقت، وذكرت في كتاب طائفة منها وفي آخر أُخرى منها.

ثمَّ قام بعدهما قيس بن سعد فقال:

أيّها الناس إنَّ هذا الأمر لو استقبلنا به الشورى لكان عليٌّ أحقّ الناس به لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله وكان قتال من أبى ذلك حلالاً فكيف بالحجّة على طلحة والزُّبير وقد بايعاه طوعاً ثمّ خلعا حسداً وبغياً، وقد جاءكم عليٌّ في المهاجرين والأنصار، ثمَّ أنشأ يقول:

رضينا بقسم الله إذ كان قسمنا ... عليّاً وأبناء الرّسول محمّد
وقلنا لهم أهلاً وسهلاً ومرحباً ... نمدُّ يدينا من هدى وتودُّد
فما للزبير الناقض العهد حرمة ... ولا لأخيه طلحة فيه من يد
أتاكم سليل المصطفى ووصيّه ... وأنتم بحمد الله عارضه الندى
فمن قائم يرجى بخيل إلى الوغى ... وضمّ العوالي والصفيح المهنّد
يسود من أدناه فغير مدلع ... وإن كان ما نفضيه غير مسوّد
فإن يك ما نهوى فذاك نريده ... وإن تخط ما نهوى فغير تعمّد

تذكرة: قد ذكرنا في المجلّد ١٦ من «**تكملة المنهاج**» من ص ١٩ إلى ص ٢٣ طائفة من أشعار الصحابة والتابعين في مدح أمير المؤمنين وتعريفه بأنه وصيُّ رسول الله صلى الله عليه وآله ومنها بيتان من قيس بن سعد هذا وقد قدَّمنا هنالك أنَّ هذه الكلمة الصادرة من هؤلاء العظام من قربهم بزمان رسول الله صلى الله عليه وآله بل إدراك كثير منهم إيّاه مما يعتنى بها ويبجّلها من يطلب الحقَّ ويبحث عنه، فراجع.

فلمّا فرغ القوم من كلامهم وسمع أبو موسى خطبتهم قام فصعد المنبر وقال: الحمد لله الّذي أكرمنا بمحمّد فجمعنا ـ إلى آخر ما نقلنا كلامه لأهل الكوفة وتثبيطه إيّاهم عن نصرة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام في شرح الخطبة ٢٣٦ في ص ٦ من المجلّد السادس عشر من «**تكملة المنهاج**»، وكذا احتجاج عمّار بن ياسر رحمة الله عليهما عليه من كلامه، فلا حاجة إلى الإعادة ـ فراجع.

ثمّ قام زيد بن صوحان، وبعده عبد الله بن عبد خير، وبعده عبد خير، ثمّ رجل آخر وخاصموا أبا موسى واحتجّوا عليه ووبّخوه بفعاله ولاموه بمقاله ونهوه عن تثبيطه الناس عن

نصرة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، نقل كلام كلٍّ واحد منهم المفيد رحمه الله في **«الجمل»**، ثمّ قال: وبلغ أمير المؤمنين ما كان من أمر أبي موسى وتخذيله الناس عن نصرته، فقام إليه مالك الأشتر «رحمه الله» فقال: يا أمير المؤمنين إنّك قد بعثت إلى الكوفة رجلاً قبل من العنت الآن فلم أره حكم شيئاً وهؤلاء أخلف من بعثت أن يستنيب لك الناس على ما تحبُّ، ولست أدري ما يكون، فإن رأيت جعلت فداك أن تبعثني في إثرهم فإنّ أهل الكوفة أحسن لي طاعة، وإن قدمت عليهم رجوت أن لا يخالفني أحد منهم.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: الحق بهم على اسم الله.

فأقبل الأشتر حتّى دخل الكوفة وقد اجتمع الناس بالمسجد الأعظم، فأخذ لا يمرُّ بقبيلة فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلاّ دعاهم وقال لهم: اتّبعوني إلى القصر، فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس فاقتحم وأبو موسى قائم في المسجد الأعظم يخطب الناس ويثبطهم عن نصرة عليّ عليه السلام والحسن عليه السلام وعمّار وقيس يقولون له: اعتزل عملنا لا أمَّ لك، وتنحَّ عن منبرنا.

فبينا هم في الكلام والمشاجرة إذ دخل غلمان أبي موسى ينادون يا أبا موسى هذا الأشتر اخرج من في المسجد، ودخل عليه أصحاب الأشتر فقالوا له: اخرج من المسجد يا ويلك أخرج الله روحك إنّك والله لمن المنافقين، فخرج أبو موسى وأنفد إلى الأشتر أن أجّلني هذه العشيّة، قال: قد أجّلتك وتبيت في القصر هذه الليلة واعتزل ناحية عنه، ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى فأتبعهم الأشتر بمن أخرجهم من القصر وقال لهم: إني أجّلته، فكفّ الناس عنه.

قال أبو جعفر الطبري في التاريخ: وأتت الأخبار عليّاً عليه السلام باختلاف الناس بالكوفة، فقال للأشتر: أنت شفعت في أبي موسى أن أُقرَّه على الكوفة، فاذهب فاصلح ما أفسدت؛ فقام الأشتر فشخص نحو الكوفة، فأقبل حتّى دخلها والناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمرُّ بقبيلة إلاّ دعاهم، وقال: اتبعوني إلى القصر حتّى وصل القصر فاقتحمه وأبو موسى يومئذٍ يخطب الناس على المنبر ويثبّطهم وعمار يخاطبه والحسن عليه السلام يقول: اعتزل عملنا وتنحَّ عن منبرنا لا أمّ لك.

ثمّ صعد الحسن بن عليّ عليه السلام ثانياً وبعده عمّار بن ياسر (رحمه الله) وخطبا خطبة ثمّ صعد المنبر الأشتر رضوان الله عليه وخطب خطبة، ثمّ قام حجر بن عديٍّ الكندي رحمه الله تعالى وخطب خطبة، نقل خطبهم الشيخ الأجلُّ المفيد (رحمه الله) في **«الجمل»** استنفر كلُّ واحد منهم الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام والجهاد في سبيل الله، فأجابهم الناس بالسمع والطاعة.

قال المفيد في «**الجمل**» نقلاً عن الواقدي: وكان أمير المؤمنين عليه السلام كتب مع ابن عبّاس كتاباً إلى أبي موسى وغلّظه فقال ابن عباس: قلت في نفسي أقدم على رجل وهو أمير بمثل هذا الكتاب أن لا ينظر في كتابي، ونظرت أن أشقَّ كتاب أمير المؤمنين عليه السلام وكتبت من عندي كتاباً عنه لأبي موسى: أمّا بعد فقد عرفت مودتك إيّانا أهل البيت وانقطاعك إلينا، وإنّما نرغب إليك لما نعرف من حسن رأيك فينا، فإذا أتاك كتابي فبايع لنا النّاس والسلام، فدفعه إليه، فلمّا قرأه أبو موسى قال لي: أنا الأمير بل وأنت قلت الأمير فدعا النّاس إلى بيعة عليّ عليه السلام فلمّا بايع قمت وصعدت المنبر فرام إنزالي منه فقلت: أنت تنزلني عن المنبر وأخذت بقائم سيفي فقلت: اثبت مكانك والله لأن نزلت إليك هذبتك به، فلم يبرح فبايعت النّاس لعليّ عليه السلام وخلعت أبا موسى في الحال واستعملت مكانه قرضة بن عبد الله الأنصاري، ولم أبرح من الكوفة حتّى سيرت لعلي عليه السلام في البرّ والبحر من أهلها سبعة آلاف رجل، ولحقته بذي قار قال: وقد سار معه من جبال طيّ وغيرها ألفا رجل(1).

(ظهور معجزة من أمير المؤمنين عليه السلام بإخباره بالغيب)

قد تظافرت الأخبار وتناصرت الآثار من الفريقين أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أخبر النّاس في ذي قار بأنّ رجالاً من قبل الكوفة يأتونه لنصرته ويبايعونه على الموت، وإنّما اختلفت تلك الرّوايات في العدد الّذي أخبر عليه السلام به.

ففي «**الإرشاد**» للمفيد قدّس سرّه (**ص ١٤٩ طبع طهران ١٣٧٧هـ**): قال عليه السلام بذي قار وهو جالس لأخذ البيعة: يأتيكم من قبل الكوفة ألف رجل لا يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً يبايعونني على الموت؛ قال ابن عبّاس: فجزعت لذلك وخفت أن ينقص القوم عن العدد أو يزيدون عليه فيفسد الأمر علينا، ولم أزل مهموماً دأبي إحصاء القوم حتّى ورد أوائلهم فجعلت أحصيهم فاستوفيت عددهم تسعمائة وتسعة وتسعون رجلاً، ثمّ انقطع مجيء القوم فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ماذا حمله على ما قال، فبينما أنا مفكّر في ذلك إذ رأيت شخصاً قد أقبل حتّى إذا دنى وإذا هو رجل عليه قباء صوف معه سيفه وترسه وأدواته، فقرب من أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: امدد يدك أبايعك، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: على مَ تبايعني؟ قال: على السمع والطاعة والقتال بين يديك حتّى أموت أو يفتح الله عليك؛ فقال عليه السلام: ما اسمك؟ قال: أويس، قال: أنت أُويس القرني؟ قال: نعم، قال: الله أكبر أخبرني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أنّي أدرك رجلاً من أُمّته يقال له: أويس القرني يكون من حزب الله ورسوله يموت على الشهادة يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر قال ابن عبّاس: فسرّى والله عنّي.

(1) الجمل: ١٤٢.

وقال في «**الجمل**»: روى نصر بن عمرو بن سعد عن الأحلج، عن زيد بن عليّ قال: لمّا أبطأ على عليّ عليه السلام خبر أهل البصرة ونحن في فلاة قال عبد الله بن عباس: فأخبرت عليّاً بذلك فقال لي: اسكت يا ابن عباس، فوالله لتأتينا في هذين اليومين من الكوفة ستّة آلاف وستّمائة رجل وليغلبنّ أهل البصرة وليقتلنّ طلحة والزّبير. فوالله إنّني أستشرف الأخبار وأستقبلها حتّى إذا أتى راكب فاستقبلته واستخبرته فأخبرني العدّة الّتي سمعتها من علي عليه السلام لم تنقص رجلاً واحداً.

وقال أبو جعفر الطبريُّ في التاريخ (**ص ٥١٣ ج٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ**): حدَّثني عمر قال: حدَّثنا أبو الحسن قال: حدَّثنا أبو مخنف، عن جابر، عن الشعبي عن أبي الطفيل قال: قال عليٌّ عليه السلام. يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل. فقعدت على نجفة ذي قار فأحصيتهم، فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً.

ثمّ قال: حدَّثني عمر قال: حدَّثنا أبو الحسن، عن بشير بن عاصم، عن ابن أبي ليلى، عن أبيه قال: خرج إلى عليّ عليه السلام اثنا عشر ألف رجل وهم أسباع على قريش وكنانة وأسد الخ[1].

وروى أبو مخنف كما في شرح الفاضل الشارح المعتزلي (**ص ١٠٢ ج١ طبع طهران ١٣٠٤هـ الخطبة ٣٣**) عن الكلبي، عن أبي صالح، عن زيد بن عليٍّ بن عباس قال: لمّا نزلنا مع علي عليه السلام ذا قار قلت: يا أمير المؤمنين ما أقلَّ ما يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنُّ؟ فقال: والله ليأتينّي منهم ستّة آلاف وخمسة وستّون رجلاً لا يزيدون ولا ينقصون، قال ابن عبّاس: فدخلني والله من ذلك شكٌّ شديد في قوله وقلت في نفسي: والله إن قدموا لأعدَّنّهم.

قال أبو مخنف: فحدّث ابن إسحاق عن عمّه عبد الرّحمٰن بن يسار قال: نفر إلى عليّ عليه السلام إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبرِّ ستّة آلاف وخمسمائة وستّون رجلاً. أقام عليٌّ عليه السلام بذي قار خمسة عشر يوماً حتّى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله، فلمّا سار بهم منقلة قال ابن عباس: والله لأعدَّنّهم فإن كانوا كما قال وإلاّ أتممتهم من غيرهم فإنَّ النّاس قد كانوا سمعوا قوله، فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً، فقلت: الله أكبر صدق الله ورسوله، ثمّ سرنا.

وقال المسعوديُّ في «**مروج الذهب**»: أتاه عليه السلام من أهل الكوفة نحو من سبعة آلاف وقيل ستّة آلاف وخمسمائة وستّون رجلاً، وقال: قتل من أصحاب عليّ عليه السلام في وقعة الجمل خمسة آلاف.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٠/٢١٧، وتفسير نور الثقلين: ٤/٢٤٤.

والأخبار الواردة في العدّة الّتي خرجوا مع عليّ عليه السلام من المدينة وفي أنّه عليه السلام سار من ذي قار قاصداً البصرة في اثني عشر ألف، وفي عدد القتلى من أصحابه عليه السلام وغيرها لا يناسب العدد الّذي ذكره المفيد في «الإرشاد»، ولم نر مع كثرة فحصنا في الآثار من يوافقه في نقل ذلك المقدار.

(عدة خطب خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام في ذي قار وتحقيق أنيق في سند عدة خطب مذكورة في النهج وبيان أصلها ولمّ شعثها)

(١) قال المفيد في «الإرشاد» (ص ١١٩ طبع طهران ١٣٧٧هـ): ولمّا نزل بذي قار أخذ البيعة على من حضره ثمّ تكلّم فأكثر من الحمد لله، والثّناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ قال:

قد جرت أُمور صبرنا عليها وفي أعيننا القذى تسليماً لأمر الله تعالى فيما امتحننا به، ورجاء الثواب على ذلك، وكان الصبر عليها أمثل من أن يتفرَّق المسلمون وتسفك دماؤهم، نحن أهل بيت النّبوّة وعترة الرَّسول وأحقُّ الخلق بسلطان الرّسالة ومعدن الكرامة الّتي ابتدأ الله بها هذه الأمّة، وهذا طلحة والزُّبير ليسا من أهل النبوّة ولا من ذرّيّة الرّسول حين رأيا أنَّ الله قد ردَّ علينا حقّنا بعد أعصر، فلم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً، حتّى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقّي ويفرّقا جماعة المسلمين عنّي. ثمّ دعا عليهما..

(٢) قال أبو جعفر الطبريّ في «التاريخ» (ص ٥٠١ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ): كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ قال: لمّا التقوا بذي قار تلقاهم عليٌّ في أُناس فيهم ابن عباس فرحّب بهم وقال:

يا أهل الكوفة أنتم ولّيتم شوكة العجم وملوكهم وفضضتم جموعهم حتّى صارت إليكم مواريثهم، فأغنيتم حوزتكم وأعنتم الناس على عدوِّهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وأن يلجوا داريناهم بالرِّفق، وبايئّاهم حتّى يبدأونا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلاّ آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله، ولا قوّة إلاّ بالله[١].

أقول: هذه الخطبة والّتي قبلها ما ذكرنا في «النهج» ويمكن أن يكون جميعها خطبة واحدة فتفرّقت باختلاف الروايات.

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٤، والفتنة ووقعة الجمل: ١٤٤.

(٣) وقال الواقدي كما في «**جمل المفيد**»: لمّا صار أهل الكوفة إلى ذي قار ولقوا عليّاً عليه السلام بها رحّبوا به وقالوا: الحمد لله الّذي خصّنا بمودّتنا وأكرمنا بنصرتك، فجزاهم خيراً، ثمّ قام عليه السلام وخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبيّ صلى الله عليه وآله فصلّى عليه ثمّ قال:

يا أهل الكوفة إنّكم من أكرم المسلمين وأعدلهم سنّة، وأفضلهم في الإسلام سهماً، وأجودهم في العرب مركباً ونصاباً، حربكم بيوتات العرب وفرسانهم ومواليهم، أنتم أشدّ العرب ودّاً للنبيّ صلى الله عليه وآله، وإنّما اخترتكم ثقة بعد الله لما بذلتم لي أنفسكم عند نقض طلحة والزّبير بيعتي وعهدي، وخلافهما طاعتي وإقبالهما بعائشة لمخالفتي ومبارزتي، وإخراجهما لها من بيتها حتّى أقدماها البصرة، وقد بلغني أنّ أهل البصرة فرقتان: فرقة الخير والفضل والدّين قد اعتزلوا وكرهوا ما فعل طلحة والزّبير، ثمّ سكت عليه السلام فأجابه أهل الكوفة: نحن أنصارك وأعوانك على عدوّك ولو دعوتنا إلى أضعافهم من الناس احتسبنا في ذلك الخير ورجوناه. فردّ عليهم خيراً.

أقول: هذه الخطبة ليست بمذكورة في «**النهج**» وقد رواها المفيد قدّس سرّه في «**الإرشاد**» أيضاً (**ص ١١٩ طبع طهران ١٣٧٧هـ**) وبين النسختين اختلاف في الجملة وكأنّ ما في «**الإرشاد**» أحكم وأقوم.

قال رحمه الله: وقد روى عبد الحميد بن عمران العجلي، عن سلمة بن كهيل قال: لما التقى أهل الكوفة أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار رحّبوا به ثمّ قالوا: الحمد الله الّذي خصّنا بجوارك وأكرمنا بنصرتك، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال:

يا أهل الكوفة إنّكم من أكرم المسلمين، وأقصدهم تقويماً، وأعدلهم سنّة وأفضلهم سهماً في الإسلام، وأجودهم في العرب مركباً ونصاباً، وأنتم أشدُّ العرب ودّاً للنبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته، وإنّما جئتكم ثقة بعد الله بكم للّذي بذلتم من أنفسكم عند نقض طلحة والزّبير وخلعهما طاعتي، وإقبالهما بعائشة للفتنة وإخراجهما إيّاها من بيتها حتّى أقدماها البصرة فاستغووا طغامها وغوغاها، مع أنّه قد بلغني أنّ أهل الفضل منهم وخيارهم في الدّين قد اعتزلوا وكرهوا ما صنع طلحة والزُّبير ثمّ سكت عليه السلام، فقال أهل الكوفة: نحن أنصارك وأعوانك على عدوّك، ولو دعوتنا إلى أضعافهم من الناس احتسبنا في ذلك الخير ورجوناه، فدعا لهم أمير المؤمنين عليه السلام وأثنى عليهم ثمّ قال:

لقد علمتم معاشر المسلمين أنّ طلحة والزُّبير بايعاني طائعين غير مكرهين راغبين ثمّ استأذنا في العمرة فأذنت لهما فسارا إلى البصرة فقتلا المسلمين وفعلا المنكر، اللّهمَّ إنّهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألبّا الناس عليّ، فاحلل ما عقدا، ولا تحكم ما أبرما، وأرهما المساءة فيما عملا.

(٤) قال المفيد رحمه الله في «**الجمل**» (**ص ١٢٨ طبع النجف**) نقلاً عن الواقدي أيضاً: لمّا أراد عليه السلام المسير من ذي قار تكلّم فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

إنَّ الله عزّ وجلّ بعث محمّداً صلى الله عليه وآله للناس كافّة ورحمة للعالمين فصدع بما أمر به، وبلّغ رسالات ربّه، فلمّا ألَمّ به الصدع، ورتق به الفتق، وآمن به السبيل وحقن به الدّماء، وألّف بين ذوي الأحقاد والعداوة الواغرة في الصدور، والضغائن الكامنة في القلوب فقبضه الله عزّ وجلّ إليه حميداً، وقد أدّى الرسالة، ونصح للأُمّة، فلمّا مضى صلى الله عليه وآله لسبيله دفعنا عن حقّنا من دفعنا، وولوا من ولوا سوانا ثمّ وليها عثمان بن عفّان فنال منكم ونلتم منه حتّى إذا كان من أمره ما كان أتيتموني فقلتم: بايعنا، فقلت لكم: لا أفعل، فقلتم: بلى لا بدّ من ذلك، فقبضتم يدي فبسطتموها، وتداككتم عليَّ تداكَّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتّى لقد خفت أنّكم قاتلي أو بعضكم قاتل بعض، فبايعتموني وأنا غير مسرور بذلك ولا جذل، وقد علم الله سبحانه أنّي كنت كارهاً للحكومة بين أمّة محمّد، ولقد سمعته يقول: «ما من والٍ يلي شيئاً من أمر أمّتي إلاّ أتى الله يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق، ثمّ ينشر كتابه: فإن كان عادلاً نجا، وإن كان جائراً هوى».

ثمّ اجتمع عليَّ ملأكم وبايعني طلحة والزُّبير وأنا أعرف الغدر في وجههما والنكث في عينيهما ثمّ استأذناني في العمرة فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان، فسارا إلى مكّة واستخفا عائشة وخدعاها، وشخص معهما أبناء الطلقاء، فقدموا البصرة هتكوا بها المسلمين وفعلوا المنكر، ويا عجباً لاستقامتهما لأبي بكر وعمرو وبغيهما عليَّ وهما يعلمان أنّي لست دون أحدهما، ولو شئت أن أقول لقلت، ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدعهما فيه، فكتماه عنّي وخرجا يوهمان الطغام أنّهما يطلبان بدم عثمان، والله ما أنكرا عليَّ منكراً، ولا جعلا بيني وبينهما نصفاً، وأنّ دم عثمان لمعصوب بهما ومطلوب فيهما، يا خيبة الدّاعي إلى ما دعي، وبما ذا أجيب والله إنّهما لفي ضلالة صمّاء، وجهالة عمياء، وإنَّ الشيطان قد دير لهما حزبه واستجلب منهما خيله ورجله، ليعيد الجور إلى أوطانه ويردَّ الباطل إلى نصابه.

ثمّ رفع يديه وقال: اللّهمَّ إنّ طلحة والزُّبير قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي فاحلل ما عقدا، وانكث ما أبرما، ولا تغفر لهما أبداً، وأرهما المساءة فيهما عملاً وأملاً[١].

وقد نقل هذه الخطبة المفيد رحمه الله في «**الإرشاد**» أيضاً، والطبرسي رحمه الله في «**الاحتجاج**» وبين النسخ اختلاف في الجملة وما في «**الإرشاد**» أمتن وأتقن.

قال (**رحمه**) الله (**١١٧ طبع طهران ١٣٧٧هـ**): ومن كلامه عليه السلام عند نكث طلحة والزُّبير

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٦٤، ونهج السعادة: ١/ ٢٨٦.

بيعته وتوجّهما إلى مكّة للاجتماع مع عائشة في التأليب عليه والتأليف على خلافه ما حفظه العلماء عنه عليه السلام أنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال:

أمّا بعد فإنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله للناس كافة، وجعله رحمة للعالمين، فصدع بما أمر به، وبلّغ رسالات ربه، فلمَّ به الصدع، ورتق به الفتق، وآمن به السبيل وحقن به الدّماء، وألّف به بين ذوي الأحن والعداوة والوغر في الصدور، والضغائن الراسخة في القلوب، ثمّ قبضه الله إليه حميداً لم يقصّر في الغاية الّتي إليها أدّى الرسالة، ولا بلّغ شيئاً كان في التقصير عنه القصد، وكان من بعده ما كان من التنازع في الإمرة، فتولّى أبو بكر وبعده عمر، ثمّ تولّى عثمان، فلما كان من أمره ما عرفتموه أتيتموني فقلتم: بايعنا، فقلت: لا أفعل، فقلتم: بلى، فقلت: لا، وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم فجذبتموه، وتداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتّى ظننت أنكم قاتلي، وأنّ بعضكم قاتل بعضاً لديّ فبسطت يدي فبايعتموني مختارين وبايعني في أوّلكم طلحة والزُّبير طائعين غير مكرهين، ثمّ لم يلبثا أن استأذناني في العمرة، والله يعلم أنّهما أرادا الغدرة، فجدّدت عليهما العهد في الطاعة، وأن لا يبغيا الأُمّة الغوائل، فعاهداني ثمّ لم يفيا لي، ونكثا بيعتي ونقضا عهدي، فعجباً لهما من انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما لي، ولست بدون أحد الرّجلين! ولو شئت أن أقول لقلت اللّهمّ احكم عليهما بما صنعا في حقّي وصغّرا من أمري وظفّرني بهما[1].

أقول: الخطبة ٢٢٧ من «**النهج**» كأنّها جزء هذه الخطبة حيث قال عليه السلام: وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثمَّ تداككتم عليَّ تداكَّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها. الخ. وإنما تغايرها في قليل من العبارات. نعم الخطبة ٥٤ منه وهي قوله عليه السلام: فتداكّوا عليَّ تداكَّ الإبل الهيم يوم ورودها قد أرسلها راعيها وخلعت مثانيها ـ الخ. يشبه أن تكون جزء خطبة أُخرى وإن كانت تشابهها في بعض العبارات والجمل، كما أنَّ ذيل كلامه عليه السلام وهو الكلام ١٣٥ من باب الخطب أوّله: ما أنكروا عليّ منكراً ـ الخ تشابه كثيراً من فقرات هذه الخطبة ولا يبعد أن تكونا جزئين من هذه الخطبة.

وليعلم أنا قد قدّمنا في شرح الخطبة ٢٢٩ وهي قوله عليه السلام: (**فصدع بما أمر وبلّغ رسالة ربه فلمّ الله به الصدع ورتق به الفتق ـ الخ**) أنها لجزء خطبة وحكمنا بذلك بالحدس والفراسة لما قلنا هنالك (**ص ١٩ ج ١٥ تكملة المنهاج**) أنا وإن فحصنا وتتبّعنا في مظانّها لم نظفر بها وبحمد الله تعالى أصاب حدسنا حيث أصبناها في «**جمل المفيد**» وإرشاده واحتجاج الطبرسي، ولا يخفى أنها لجزء من هذه الخطبة المنقولة عن الواقدي في «**جمل المفيد**» و«**الإرشاد**» وقد

(١) الإرشاد: ١/ ٢٤٥، والاحتجاج: ١/ ٢٣٦.

قال الرضيُّ رحمه الله ثمّة: إنه عليه السلام خطبها بذي قار وهو متوجّه إلى البصرة ذكرها الواقدي في «**كتاب الجمل**» ولم يتعرّض أحد من الشراح لذلك مع أنَّ من أهمّ ما يجب عليهم في شرح كلامه عليه السلام تحقيق أمثال هذه الأمور، فتحصّل مما ذكرنا أنَّ الخطبة ٢٢٧ من النهج والخطبة ٢٢٩ منه جميعاً بعض هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام في ذي قار، وأنَّ الخطبة ٥٤ و١٣٥ أيضاً يمكن أن تكونا جزئين منها.

ثمَّ أعلم أنَّ ذيل الخطبة المذكورة نقله الطبريُّ في «**التاريخ**» (**ص ٤٩٥ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ**) عنه عليه السلام قاله لعثمان بن حنيف في الرَّبذة، وقد أتاه عثمان من البصرة لمّا صنع الناكثون به ما صنعوا كما سنذكره بالاختصار.

قال الطبري: حدَّثني عمر قال: حدَّثنا أبو الحسن عن أبي محمد عن عبد الله بن عمير عن محمّد بن الحنفية قال: قدم عثمان بن حنيف على عليّ عليه السلام بالرَّبذة وقد نتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وجئتك أمرد قال: أصبت أجراً وخيراً إنَّ النّاس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب، ثمَّ وليهم ثالث فقالوا وفعلوا، ثمَّ بايعوني وبايعني طلحة والزُّبير ثمَّ نكثا بيعتي وألّبا الناس عليَّ، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليَّ، والله إنهما ليعلمان أني لست بدون رجل ممن قد مضى، اللّهمَّ فاحلل ما عقدا ولا تبرم ما قد أحكما في أنفسهما وأرهما المساءة فيما عملا[1].

(٥) الخطبة الّتي نقلناها في ذيل شرح الخطبة ٢٢٩ من النهج عن «**الكافي**» (**ص ١٩ ج١٥ تكملة المنهاج**) وهي لم تذكر بتمامها في النهج كما قلنا ثمَّ وهي الخطبة ١٤٥ من النهج أوّلها: فبعث محمّد صلى الله عليه وآله بالحقِّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ـ الخ. وإن كان بين نسخة النهج وبين نسخة «**الكافي**» اختلاف في الجملة في بعض الكلمات والجمل، ولكنهما خطبة واحدة بلا ارتياب كما يعلم بأدنى تأمّل ونظر متى قوبلت النسختان.

وكذا الخطبة ٢٣٧ من النهج يذكر عليه السلام فيها آل محمّد صلى الله عليه وآله بقوله: هم عيش العلم وموت الجهل يخبركم حلمهم عن علمهم ـ الخ. هي ذيل الخطبة ١٤٥ من النهج أعني ذيل تلك الخطبة المنقولة عن «**الكافي**» بلا كلام.

فتحصّل أنّ الخطبة ١٤٥ من النهج والخطبة ٢٣٧ منه واحدة والخطبة بتمامها وسندها هو الّذي نقلناها عن «**الكافي**» ورواها غير الكليني بسند آخر أيضاً خطب بها عليه السلام في ذي قار كما قدّمنا.

---

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/١٩٧، وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٥.

ثمَّ إنَّ الرَّضيّ رضوان الله عليه لم يتعرَّض في كلا الموضعين من النهج لبيان الخطبة بأنه عليه السلام أين خطبها أوّلاً، وجعل الخطبة في موضع ثمَّ ذيّلها في موضع آخر ثانياً.

(٦) الخطبة ٣٣ الّتي ذكرها الرضيُّ في «**النهج**» قال رحمه الله: ومن خطبة له عند خروجه لقتال أهل البصرة، قال عبد الله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله ـ الخ.

وهذه الخطبة نقلها المفيد رحمه الله في «**الإرشاد**» **(ص ١١٨ طبع طهران ١٣٧٧هـ)** وقال: إنّه عليه السلام خطب القوم بها في الرَّبذة لا في ذي قار كما في النهج، على أنَّ بين النسختين اختلاف في الجملة، أمّا في «**النهج**» فلا حاجة إلى تسويده، وأمّا ما في «**الإرشاد**» فقال:

ولمّا توجَّه أمير المؤمنين عليه السلام إلى البصرة نزل الرَّبذة فلقيه بها آخر الحاج فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه وهو في خبائه، قال ابن عباس رضي الله عنه: فأتيته فوجدته يخصف نعلاً فقلت له: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منا إلى ما تصنع، فلم يكلّمني حتّى فرغ من نعله ثمّ ضمّها إلى صاحبتها وقال لي: قوِّمهما، فقلت: ليس لهما قيمة، قال: على ذاك. قلت: كسر درهم قال: الله لهما أحبّ إليَّ من أمركم هذا إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً، قلت: إنّ الحاج قد اجتمعوا ليسمعوا من كلامك فتأذن لي أن أتكلم فإن كان حسناً كان منك وإن كان غير ذلك كان منّي؟ قال: لا، أنا أتكلّم. ثمّ وضع يده على صدري وكان شثن الكفّين فآلمني، ثمّ قام فأخذت بثوبه وقلت: نشدتك الله والرّحم قال: لا تنشدني، ثمّ خرج فاجتمعوا عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أمّا بعد، فإنّ الله تعالى بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وليس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدّعي نبوّة، فساق الناس إلى منجاتهم، أم والله ما زلت في ساقتها ما غيَّرت ولا بدّلت، ولا خنت حتى تولّت بحذافيرها، ما لي ولقريش، أم والله لقد قاتلتهم كافرين ولأُقاتلنّهم مفتونين، وأنّ مسيري هذا عن عهد إليّ فيه، أم والله لأبقرنَّ الباطل حتى يخرج الحقُّ من خاصرته، ما تنقم منا قريش إلاّ أنّ الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا وأنشد:

ذنب لعمري شربك المحض خالصاً وأكلك بالزّبد المقشّرة التّمرا
ونحنُ وهبناك العلاء ولم تكن عليّاً وحطنا حولك الجرد والسمرا

انتهى ما في «**الإرشاد**».

ثمّ إنّ الخطبة ١٠٢ من النهج لقريبة منها، أوّلها: فإنّ الله سبحانه بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ا.هـ، وقال الرّضيُّ رضي الله عنه: وقد تقدّم مختارها بخلاف هذه الرواية.

أقول: وأراد ما تقدّم مختارها هو الخطبة ٣٣ الّتي نقلناها عنه وعن المفيد فتحصّل أنّ الخطبة ٣٣ والخطبة ١٠٢ من النهج واحدة وإنما الاختلاف في الرواية وهي الّتي أتى بها المفيد في «**الإرشاد**»، والحمد لله على إنعامه وإفضاله.

وبالجملة لمّا فرغ عليه السلام من الخطبة قام الأشتر رضي الله عنه فقال: خفّض عليك يا أمير المؤمنين، فوالله ما أمر طلحة والزبير علينا بمحيل، لقد دخلا في هذا الأمر اختياراً ثمّ فارقانا على غير جور عملناه، ولا حدث في الإسلام أحدثناه ثمّ أقبلا يثيران الفتنة علينا تائهين جائرين ليس معهما حجّة ترى، ولا أثر يعرف لقد لبسا العار، وتوجّها نحو الدِّيار، فإن زعما أنّ عثمان قتل مظلوماً فليستقد آل عثمان منهما، فأشهد أنهما قتلاه، وأشهد الله يا أمير المؤمنين لئن لم يدخلا فيما خرجا منه ولم يرجعا إلى طاعتك وما كانا عليه لنلتحقهما بابن عفان.

وقام أبو الهيثم بن التّيهان وكذا عديٌّ بن حاتم وقالا قريباً ممّا قال الأشتر، نقل قولهما المفيد في «**الجمل**».

وقال أبو زينب الأزدي فقال: والله إن كنّا على الحق إنك لأهدانا سبيلاً وأعظمنا في الخير نصيباً، وإن كنّا على الضلالة ـ العياذ بالله أن نكون عليه ـ لأنك أعظمنا وزراً وأثقلنا ظهراً، وقد أردنا المسير إلى هؤلاء القوم، وقطعنا منهم الولاية وأظهرنا منهم البراءة وظاهرناهم بالعداوة، ونريد بذلك ما يعلمه الله عزّ وجلّ، وأنا ننشدك الله الّذي علّمك ما لم نكن نعلم، ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الضلال؟ فقال عليه السلام: أشهد لئن خرجت لدينك ناصراً صحيح النية قد قطعت منهم الولاية، وأظهرت منهم البراءة كما قلت إنك لفي رضوان الله، فابشر يا أبا زينب فإنك والله على الحقّ فلا تشك، فإنّك إنما تقاتل الأحزاب. فأنشأ أبو زينب يقول:

سيروا إلى الأحزاب أعداء النّبيّ ... فإنّ خير الناس أتباع عليّ
هذا أوان طاب سلّ المشرفيّ ... وقودنا الخيل وهزّ السمهر

وفي «**جمل المفيد**»: لمّا استقرّ أمر أهل الكوفة على النهوض لأمير المؤمنين عليه السلام وخفّ بعضهم لذلك، بادر ابن عبّاس ومن معه من الرسل فيمن اتبعهم من أهل الكوفة إلى ذي قار للالتحاق بأمير المؤمنين عليه السلام وإخباره بما عليه القوم من الجدّ والاجتهاد في طاعته، وأنّهم لاحقون به غير متأخّرين عنه، وإنّما تقدّمهم ليستعدّ للسفر وللحرب، وقد كان استخلف قرضة ابن كعب الأنصاري على الكوفة، ويحثّ الناس على اللّحاق به..[1]

(١) تاريخ ابن خلدون: ٣/ ٧٨، والجمل: ١٤٦.

فورد على أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً قد كتب إليه من البصرة ما صنعه القوم بعامله عثمان ابن حنيف رحمه الله وما استحلّوه من الدّماء ونهب الأموال وقتل من قتلوه من شيعته وأنصاره وما أثاروه من الفتنة فيها فوجده ابن عباس وقد أحزنه ذلك وغمّه وأزعجه وأقلقه، فأخبروه بطاعة أهل الكوفة، ووعده منهم بالنصرة، فسرَّ عند ذلك وأقام ينتظر أهل الكوفة والمدد الّذي ينتصر بهم على عدوِّه.

«دخول الناكثين البصرة والحرب بينهم وبين عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين عليه السلام»

قال الدينوريُّ في «**الإمامة والسياسة**»: لمّا نزل طلحة والزبير وعائشة البصرة اصطفّ لها الناس في الطريق - إلى أن قال: أتاهم رجل من أشراف البصرة بكتاب كان كتبه طلحة في التأليب على قتل عثمان، فقال لطلحة: هل تعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم. قال: فما ردّك على ما كنت عليه؟ وكنت أمس تكتب إلينا تؤلّبنا على قتل عثمان وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه، وقد زعمتما أنَّ علياً دعاكما إلى أن تكون البيعة لكما قبله إذ كنتما أسنَّ منه، فأبيتما إلاّ أن تقدّماه لقرابته وسابقته، فبايعتماه فكيف تنكثان بيعتكما بعد الّذي عرض عليكما؟.

قال طلحة: دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس، فعلمنا حين عرض علينا أنّه غير فاعل، ولو فعل أبى ذلك المهاجرون والأنصار، وخفنا أن نردَّ بيعته فنقتل، فبايعناه كارهين.

قال: فما بدا لكما في عثمان؟ قال: ذكرنا ما كان من طعننا عليه وخذلاننا إيّاه فلم نجد من ذلك مخرجاً إلاّ الطلب بدمه. قال: ما تأمرانني به؟ قال: بايعنا على قتال عليّ ونقض بيعته. قال: أرأيتما إن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعوان إليه ما نصنع؟ قالا: لا تبايعه، قال: ما أنصفتما، أتأمرانني أن أقاتل علياً وأنقض بيعته وهي في أعناقكما وتنهياني عن بيعة من لا بيعة له عليكما؟ أما إنّا قد بايعنا عليّاً فإن شئتما بايعناكما بيسار أيدينا[1].

ونذكر ما صنع القوم بعثمان بن حنيف وغيره من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام عن تاريخ أبي جعفر الطبري و«**جمل المفيد**» و«**مروج الذّهب**» للمسعوديّ وغيرها من كتب نقلة السير والآثار على الاختصار بما اتّفق عليه حاملو الأخبار.

قال المفيد في «**الجمل**»: روى الواقدي وأبو مخنف عن أصحابهما والمدائني وابن دأب

(١) الامامة والسياسة: ١/٨٨، ومواقف الشيعة: ٣/٣١.

عن مشايخهما بالأسانيد الّتي اختصرنا القول بإسقاطها، واعتمدنا فيها على ثبوتها في مصنفات القوم وكتبهم فقالوا: إنَّ عائشة وطلحة والزبير لمّا ساروا من مكّة إلى البصرة أعدوا السير مع من اتّبعهم من بني أُميّة وعمّال عثمان وغيرهم من قريش، حتّى صاروا إلى البصرة، فنزلوا حفر أبي موسى.

فبلغ عثمان بن حنيف وهو عامل البصرة يومئذٍ وخليفة أمير المؤمنين عليه السلام وكان عنده حكيم بن جبلة، فقال له حكيم: ما الّذي بلغك؟ فقال: خبّرت أنَّ القوم قد نزلوا حفر أبي موسى، فقال له حكيم: ائذن لي أن أسير إليهم فإني رجل في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فقال له عثمان: توقّف عن ذلك حتّى أراسلهم.

فأرسل إلى عمران بن حصين وأبي الأسود الدؤلي فذكر لهما قدوم القوم وسألهما المسير إليهم وخطابهم على ما قصدوا به وكفّهم عن الفتنة فخرجا حتّى دخلا على عائشة فقالا لها: يا أمَّ المؤمنين ما حملك على المسير؟ فقالت: غضبت لكما من سوط عثمان وعصاه ولا أغضب أن يقتل، فقالا لها: وما أنت من سوط عثمان وعصاه إنّما أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنا نذكرك الله أن يهراق الدّماء في سبيلك، فقالت: وهل من أحد يقاتلني؟ فقال لها أبو الأسود الدؤليُّ: نعم والله قتالاً أهونه شديد.

ثمَّ خرجا من عندها فدخلا على الزبير وبعده على طلحة وجعلا يعدّدان لهما مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وفضائله، فقالا لهما: ننشدكما الله أن يهراق الدُماء في سبيلكما، فأبيا النصح والإعراض عن الفتنة، فأيسا منهما فخرجا من عندهما حتّى صارا إلى عثمان بن حنيف فأخبراه الخبر فأذن عثمان للنّاس بالحرب.

ولما بلغ عائشة رأي ابن حنيف في القتال ركبت الجمل وأحاطتها القوم وسارت حتّى وقفت بالمربد واجتمع إليها الناس حتى امتلأ المربد بهم فتكلّمت وكانت جهوريّة يعلو صوتها كثرة كأنّه صوت امرأة جليلة فحمدت الله عزَّ وجلّ وأثنت عليه وقالت:

أمّا بعد فإنَّ عثمان بن عفان قد كان غيّر وبدّل فلم يزل يغسّله بالتوبة حتى صار كالذّهب المصفّى، فعدوا عليه وقتلوه في داره وقتل ناس معه في داره ظلماً وعدواناً، ثمَّ آثروا عليّاً فبايعوه من غير ملاء من الناس ولا شورى ولا اختيار فابتزّ والله أمرهم وكان المبايعون له يقولون: خذها إليك واحذرن أبا حسن إنا غضبنا لكم على عثمان من السوط فكيف لا نغضب لعثمان من السيف إنَّ الأمر لا يصحُّ حتّى يرد الأمر إلى ما صنع عمر من الشورى فلا يدخل فيه أحد سفك دم عثمان.

فقال بعض النّاس: صدقت، وقال بعضهم: كذبت، واضطربوا بالفعال وتركتهم وسارت حتّى أتت الدباغين، وقد تحيز الناس بعضهم مع طلحة والزبير وعائشة، وبعضهم

متمسّك ببيعة أمير المؤمنين عليه السلام والرضا به.

فسارت من موضعها ومن معها واتّبعها على رأيها ومعها طلحة والزبير ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير حتّى أتوا دار الإمارة، فسألوا عثمان بن حنيف الخروج عنها، فأبى عليهم ذلك، واجتمع إليه أنصاره وزمرة من أهل البصرة فاقتتلوا قتالاً شديداً حتّى زالت الشمس، وأُصيب يومئذ من عبد القيس خاصّة خمسمائة شيخ مخضوب من أصحاب عثمان بن حنيف وشيعة أمير المؤمنين عليه السلام سوى من أصيب من سائر الناس، وبلغ الحرب بينهم التزاحف إلى مقبرة بني مازن ثمَّ خرجوا على مسناة البصرة حتى انتهوا إلى الرابوقة وهي سلعة دار الرزق، فاقتتلوا قتالاً شديداً كثر فيه القتلى والجرحى من الفريقين.

ثمَّ إنّهم تداعوا إلى الصلح ودخل بينهم الناس لما رأوا من عظيم ما ابتلوا به فتصالحوا على أنَّ لعثمان بن حنيف دار الإمارة والمسجد وبيت المال، وطلحة والزبير وعائشة ما شاؤوا من البصرة ولا يحاجّوا حتّى يقدم أمير المؤمنين عليه السلام فإن أحبّوا فعند ذلك الدخول في طاعته، وإن أحبّوا أن يقاتلوا، وكتبوا بذلك كتاباً بينهم وأوثقوا فيه العهود وأكّدوها وأشهدوا الناس على ذلك ووضع السلاح وأمن عثمان بن حنيف على نفسه وتفرّق الناس عنه، ونقل الكتاب في «**تاريخ الطبري**» بتمامه.

ثمّ طلب طلحة والزبير أصحابهما في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى حتّى أتوا دار الإمارة وعثمان بن حنيف غافل عنهم، وعلى باب الدّار السبابجة يحرسون بيوت الأموال، وكانوا قوماً من الزّط من أربع جوانبهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوا أربعين رجلاً منم صبراً، يتولّى منهم ذلك الزبير خاصّة.

ثمّ هجموا على عثمان فأوثقوه رباطاً وعمدوا إلى لحيته وكان شيخاً كثّ اللّحية فنتفوها حتّى لم يبق منها شيء ولا شعرة واحدة وقال طلحة: عذّبوا الفاسق وانتفوا شعر حاجبيه وأشفار عينيه وأوثقوه بالحديد[١].

وفي «**الإمامة والسياسة**» للدينوري: أنَّ طلحة والزبير ومروان بن الحكم أتوه نصف اللّيل في جماعة معهم في ليلة مظلمة سوداء مطيرة، وعثمان نائم، فقتلوا أربعين رجلاً من الحرس، فخرج عثمان فشدَّ عليه مروان فأسره وقتل أصحابه فأخذه مروان فنتف لحيته ورأسه وحاجبيه، فنظر عثمان بن حنيف إلى مروان فقال: إن فتني بها في الدُّنيا لم تفتني بها في الآخرة[٢].

(١) الجمل: ٤٠. (٢) الإمامة والسّياسة: ١/ ٨٩.

«تنازع طلحة والزبير لإمامتهما الناس في الصلاة»

فلمّا أصبحوا اجتمع الناس إليهم وأذّن مؤذّن المسجد لصلاة الغداة، فرام طلحة أن يتقدّم للصلاة بهم، فدفعه الزبير وأراد أن يصلّي بهم، فمنعه طلحة، فما زالا يتدافعان حتّى كادت الشمس أن تطلع، فنادى أهل البصرة: الله الله يا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله في الصلاة نخاف فوتها، ثمّ اتّفقوا على أن يصلّي بالناس عبد الله بن الزبير يوماً ومحمّد بن طلحة يوماً.

ثمّ بلغ حكيم بن جبلة العبدي رحمه الله ما صنع القوم بعثمان بن حنيف وشيعة أمير المؤمنين عليه السلام، فنادى في قومه: يا قوم انفروا إلى هؤلاء الضّالين الظّالمين الّذين سفكوا الدّم الحرام، وفعلوا بالعبد الصالح واستحلّوا ما حرَّم الله عزّ وجلّ، فأجابه سبعمائة رجل من عبد قيس، وأقبل عليهم طلحة والزبير ومن معهما واقتتلوا قتالاً شديداً حتّى كثرت بينهم الجرحى والقتلى.

ثمّ إنَّ القوم غلبوا على بيت المال فمانعهم الخزّان والموكّلون وهم السبابجة به، فقتل القوم سبعين رجلاً منهم، وضربوا رقاب خمسين من السبعين صبراً من بعد الأسر وممّن قتلوه حكيم بن جبلة العبدي رحمه الله وكان من سادات عبد القيس وزهّاد ربيعة ونسّاكها ومن شيعة أمير المؤمنين عليه السلام[١].

وقال المسعودي في «**مروج الذهب**»: وهؤلاء أوّل من قتلوا ظلماً في الإسلام.

«تعجب أبي الأسود الدؤلي من طلحة والزبير لما دخلا بيت مال البصرة ومن أمير المؤمنين عليه السلام لما دخله»

لمّا دخل طلحة والزبير بيت المال تأمّلا إلى ما فيه من الذّهب والفضّة قالا: هذه الغنائم الّتي وعدنا الله بها، وأخبرنا أنّه يعجّلها لنا، قال أبو الأسود الدؤلي: وقد سمعت هذا منهما ورأيت عليّاً عليه السلام بعد ذلك، وقد دخل بيت مال البصرة فلمّا رأى ما فيه قال: صفراء بيضاء غرّي غيري المال يعسوب الظلمة، وأنا يعسوب المؤمنين، فلا والله ما التفت إلى ما فيه ولا أفكر فيما رآه منه، وما وجدته عنده إلاّ كالتراب هواناً فتعجّبت من القوم ومنه عليه السلام[٢].

أقول: سيأتي كلامه عليه السلام في باب المختار من حكمه: أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجار (**الحكمة ٣١٦**).

ثمّ الظاهر من مراد المسعودي بقوله: وهؤلاء أوّل من قتلوا ظلماً في الإسلام، أنّهم أوّل من قتلهم المسلمون ظلماً، وإلاّ فقد قدّمنا في تكملة المنهاج (**ص ٢٧٥ ج ١، ١٥ من**

(١) الجمل: ١١٠. (٢) الجمل: ١٥٤.

المنهاج) أنَّ ياسراً أبا عمار رحمه الله وسميّة أُمّه هما أوّل قتيلين في الإسلام قتلهما الكفّار.

ثمَّ لمّا أخذ القوم عثمان بن حنيف قال طلحة والزبير لعائشة: ما تأمرين في عثمان؟ فقالت: اقتلوه قتله الله، وكانت عندها امرأة من أهل البصرة فقالت لها: يا أمّاه أين يذهب بك؟ أتأمرين بقتل عثمان بن حنيف، وأخوه سهل خليفة على المدينة وله مكانة من الأوس والخزرج ما قد علمت، والله لئن فعلت ذلك ليكونن له صولة بالمدينة يقتل فيها ذراري قريش، فآب إلى عائشة رأيها وقالت: لا تقتلوه ولكن احبسوه وضيّقوا عليه حتّى أرى رأيي.

فحبس أيّاماً ثمَّ بدا لهم في حبسه وخافوا من أخيه أن يحبس مشائخهم بالمدينة ويوقع بهم، فتركوا حبسه فخرج حتّى جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو بذي قار فلمّا نظر إليه أمير المؤمنين عليه السلام وقد نكل به القوم بكى، وقال: يا عثمان بعثتك شيخاً ملتحياً فرددت أمرد إليّ، اللّهمَّ إنّك تعلم أنّهم اجترأوا عليك واستحلّوا حرماتك، اللّهمّ اقتلهم بمن قتلوا من شيعتي وعجّل لهم النقمة بما صنعوا بخليفتي.

أقول: هذا ما نقلنا على ما ذكره المفيد في **«الجمل»** عن الواقدي وأبي مخنف والمدائني وغيرهما، وأمّا على ما قاله أبو جعفر **«الطبري في التاريخ»** كما قدّمناه آنفاً بإسناده عن محمّد ابن الحنفيّة أنَّ عثمان بن حنيف قدم على عليّ عليه السلام بالرّبذة وقد نتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وجئتك أمرد، قال عليه السلام: أصبت أجراً وخيراً ـ الخ.

ثمَّ أنَّ قوله عليه السلام: اللّهم إنّك تعلم أنّهم اجترؤا ا هـ. ليس بمذكور في **«النهج»**.

ولمّا بلغ أمير المؤمنين عليه السلام قبيح ما ارتكب القوم من قتل من قتلوا من المسلمين صبراً وما صنعوا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان بن حنيف وتعبئتهم للقتال، عبّىء عليه السلام الناس للقتال وسار من ذي قار وقدم صعصعة بن صوحان بكتاب إلى طلحة والزبير وعائشة يعظّم عليهم حرمة الإسلام ويخوّفهم فيما صنعوه وقبيح ما ارتكبوه.

قال صعصعة رحمه الله: فقدمت عليهم فبدأت بطلحة وأعطيته الكتاب وأدّيت الرسالة فقال: الآن حين غضب ابن أبي طالب الحرب ترفق لنا، ثمَّ جئت إلى الزبير فوجدته ألين من طلحة، ثمَّ جئت إلى عائشة فوجدتها أسرع الناس إلى الشرّ، فقالت: نعم، قد خرجت للطلب بدم عثمان والله لأفعلنَّ وأفعلنَّ.

فعدت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فلقيته قبل أن يدخل البصرة فقال عليه السلام: ما وراءك يا صعصعة؟ قلت: يا أمير المؤمنين رأيت قوماً ما يريدون إلاّ قتالك، فقال عليه السلام: الله المستعان.

«كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى طلحة والزبير وعائشة»

أقول: ما نقلناه ههنا ذكره المفيد في «**الجمل**» ولم ينقل الكتاب الّذي كتبه إلى طلحة والزبير وعائشة وأدّاه صعصعة إليهم والظاهر أنّ هذا الكتاب هو الّذي نقله الدينوري في «**الإمامة السياسة**» (**ص ١٠٧ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧هـ**) فإنَّ الدينوري وإن لم يتعرّض بأنَّ الكتاب الّذي كتبه إليهم كان صعصعة حامله، ولكن يلوح للمتتبّع في الأخبار أنّ الكتاب هو ما في «**الإمامة والسياسة**»، قال الدّينوري:

لمّا بلغ عليّاً عليه السلام تعبئة القوم عبّيء الناس للقتال ثمّ كتب إلى طلحة والزبير.

أمّا بعد فقد علمتما أنّي لم أرد الناس حتّى أرادوني، ولم أُبايعهم حتّى بايعوني وإنكما لممّن أراد وبايع، وإنَّ العامّة لم تبايعني لسلطان خاصّ، فإن كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية، وإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا إلى الله من قريب، إنك يا زبير لفارس رسول الله صلى الله عليه وآله وحواريه، وإنك يا طلحة لشيخ المهاجرين وإنَّ دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه [بعد] إقراركما به وقد زعمتما أنّي قتلت عثمان فبيني وبينكما فيه بعض من تخلّف عنّي وعنكما من أهل المدينة، وزعمتما أنّي آويت قتلة عثمان فهؤلاء بنو عثمان فليدخلوا في طاعتي ثمّ يخاصموا إليَّ قتلة أبيهم، وما أنتما وعثمان إن كان قتل ظالماً أو مظلوماً وقد بايعتماني وأنتما بين خصلتين قبيحتين: نكث بيعتكما، وإخراجكما أمّكما.

وكتب إلى عائشة:

أمّا بعد فإنّك خرجت غاضبة لله ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً، ما بال النساء والحرب والإصلاح بين الناس، تطلبين بدم عثمان ولعمري لمن عرّضك للبلاء وحملك على المعصية أعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان، وما غضبت حتى أغضبت وما هجت حتى هيجت، فاتّقي الله وارجعي إلى بيتك.

فأجابه طلحة والزبير: إنّك سرت مسيراً له ما بعده ولست راجعاً وفي نفسك منه حاجة، فامض لأمرك، أما أنت فلست راضياً دون دخولنا في طاعتك، ولسنا بداخلين فيها أبداً، فاقض ما أنت قاض.

وكتبت عائشة: جلّ الأمر عن العتاب، والسلام[1].

أقول: هذان الكتابان منه عليه السلام إلى طلحة والزبير، وعائشة غير مذكورين في «**النهج**».

---

(١) الامامة والسياسة: ١/٩١.

ثمَّ دعا عليه السلام عبد الله بن عباس فقال له: انطلق إليهم فناشدهم وذكّرهم العهد الّذي لي في رقابهم، فجاءهم ابن عباس فبدأ بطلحة فوقع بينهما كلام كثير فأبى طلحة إلاّ إثارة الفتنة، قال ابن عباس: فخرجت إلى عليّ عليه السلام وقد دخل البيوت بالبصرة، فقال: ما وراءك؟ فأخبرته الخبر فقال عليه السلام: اللّهمّ افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين[١].

أقول: كذا نقله المفيد في **«الجمل»** والظاهر أنه عليه السلام بعث ابن عباس إلى الزبير وأمره أن لا يلقى طلحة وذلك لما مرّ في باب الخطب **(الكلام ٣١ منه)** قوله عليه السلام لابن عبّاس لما أنفذه إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل: لا تلقينَّ طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعب ويقول هو الذَّلول، ولكن ألق الزبير فإنه ألين عريكة فقل له يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عدا ممّا بدا.

ولما نقله المفيد في **«الجمل»** أيضاً ويوافق ما في **«النهج»** من أنّ ابن عباس قال: وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام أوصاني أن ألقى الزبير **(ص ١٥٣ طبع النجف)** كما سنذكره؛ فعلى هذا مع فرض صحة الأُولى وعدم سهو الراوي بإتيان طلحة مكان الزبير يمكن أن يقال: إنه عليه السلام بعثه إليهم غير مرَّة.

قال ابن عباس: قد كان أمير المؤمنين عليه السلام أوصاني أن ألقى الزبير وإن قدرت أن أكلّمه وابنه ليس بحاضر، فجئت مرة أو مرّتين كلّ ذلك أجده عنده ثمَّ جئت مرّة أُخرى فلم أجده عنده فدخلت عليه وأمر الزبير مولاه شرحساً أن يجلس على الباب ويحبس عنّا النّاس، فجعلت أُكلّمه فقال: عصيتم أن خولفتم والله لتعلمنَّ عاقبة ابن عمّك، فعلمت أنَّ الرجل مغضب، فجعلت أُلاينه فيلين مرّة ويشتدُّ أُخرى، فلمّا سمع شرحساً ذلك أنفذ إلى عبد الله بن الزبير وكان عند طلحة فدعاه، فأقبل سريعاً حتّى دخل علينا، ثمَّ جرى بينه وبين ابن الزبير كلام كثير فأبى ابن الزبير إلاّ القتال والجدال.

أقول: إنَّ عبد الله بن الزبير كان أشدّ عداوةً من أبيه بأمير المؤمنين عليه السلام وقال عليه السلام: ما زال الزبير رجلاً منّا أهل البيت حتّى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله. نقله الشارح المعتزلي في شرحه على النهج **(ص ٤٧٤ ج ٢ طبع طهران ١٣٠٢هـ)** وذكر هذا الكلام ابن عبد البرّ في **«الإستيعاب»** عن أمير المؤمنين عليه السلام في عبد الله بن الزبير إلاّ أنّه لم يذكر لفظة المشؤوم.

وبالجملة أنه عليه السلام أكثر إليهم الرسل فعادوا منهم إليه عليه السلام بإصرارهم على خلافه واستحلال دمه ودم شيعته، فلمّا رأى عليه السلام أنّهم لا يتّعظون بوعظ ولا ينتهون عن الفساد وعبّوا للقتال كتب الكتائب ورتّب العساكر فنفر من ذي قار متوجّهاً إلى البصرة.

---

(١) بحار الأنوار: ١٢/ ٣٧٤، ومستدرك سفينة البحار: ٨/ ٦١٢.

«من كلامه (عليه السلام) لما نفر من ذي قار متوجهاً إلى البصرة»

في الإرشاد للمفيد قدّس سرُّه: ومن كلامه عليه السلام وقد نفر من ذي قار متوجّهاً إلى البصرة بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله.

أمّا بعد فإنَّ الله تعالى فرض الجهاد وعظّمه وجعله نصرة له، والله ما صلحت دنيا قط ولا دين إلاّ به، وإنّ الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله وشبّه في ذلك وخدع، وقد بانت الأمور وتمحّصت، والله ما أنكروا عليَّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينكم نصفاً، وأنّهم ليطلبون حقاً تركوه، ودماً سفكوه، ولئن كنت شركتهم فيه إنّ لهم لنصيبهم منه، وإن كانوا ولّوه دوني فما تبعته إلاّ قبلهم، وإنَّ أعظم حجّتهم لعلى أنفسهم، وإنّي لعلى بصيرتي ما لبست عليَّ، وإنّها للفئة الباغية فيه اللّحم «الحم خ» واللّحمة «الحمة خ» قد طالت جلبتها، وأمكنت درّتها، يرضعون ما فطمت، ويحيون بيعة تركت، ليعود الضلال إلى نصابه، ما أعتذر مما فعلت، ولا أتبرّأ مما صنعت، فيا خيبة للدّاعي ومن دعى لو قيل له إلى من دعوتك، وإلى من أجبت ومن إمامك وما سننه إذاً لزاح الباطل عن مقامه، ولصمت لسانه فيما نطق، وأيم الله لأفرطنَّ لهم حوضاً أنا ماتحه، لا يصدرون عنه، ولا يلقون بعده ريّاً أبداً، وإنّي لراض بحجّة الله عليهم، وعذره فيهم، إذ أنا داعيهم فمعذّر إليهم، فإن تابوا وأقبلوا فالتوبة مبذولة، والحقُّ مقبول، وليس على الله كفران، وإن أبوا أعطيتهم حدَّ السيف وكفى به شافياً من باطل. وناصراً لمؤمن[1].

أقول: كلامه هذا مذكور في «النهج» أيضاً إلاّ أنه قطّعت في ثلاثة مواضع منه، وذكر في كل موضع قطعة منه بل كرّر بعض جمله فيها:

الموضع الأوّل هو الخطبة العاشرة منه قال الرضيّ: ومن خطبة له عليه السلام: ألا وإنَّ الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ا هـ.

الموضع الثاني هو الخطبة الثانية والعشرون منه قوله: ومن خطبة له عليه السلام: ألا وإنَّ الشيطان قد ذمّر حزبه واستحلب حلبه ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه ا هـ.

الموضع الثالث هو الخطبة الخامسة والثلاثون والمائة منه قوله: ومن كلامه عليه السلام في معنى طلحة والزبير: والله ما أنكروا عليَّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً إلى قوله عليه السلام: وأيم الله لأفرطنَّ لهم حوضاً أنا ماتحه لا يصدرون عنه بريّ، ولا يعبون بعده في حسي. وأمّا

(١) الإرشاد: ١/ ٢٥٢، والجمل: ١١٨.

بعده إلى آخرها وقد مرَّ بيانه قبيل هذا.

واعلم أنَّ ثقة الإسلام الكليني قدِّس سرُّه روى في «**الكافي**» خطبة منه عليه السلام خطبها يوم الجمل، ونقلها الفيض قدِّس سرُّه «**الوافي**» (**ص ٢٧ ج ٩ من كتاب الجهاد**) تشترك فيها الخطبة الثانية والعشرون المذكورة والخطبة الواحدة والعشرون والمائة.

أوّلها: وأيّ امرىء منكم أحسّ من نفسه رباطة جأش ـ الخ. فالظاهر أيضاً أنها خطبة واحدة تشتتت في الجوامع فما وجدها الرضيُّ فيها أتى بها في «**النهج**» فدونك ما في «**الكافي**» على ما في «**الوافي**»:

عليٌّ عن أبيه، عن السرّاد رفعه أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب يوم الجمل فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيّها النّاس إنّي أتيت هؤلاء القوم ودعوتهم واحتججت عليهم فدعوني إلى أن أصبر للجلاد، وأبرز للطعان، فلأمّهم الهبل قد كنت وما أُهدَّد بالحرب، ولا أُرهّب بالضّرب، أنصف القادة ممن راماها، فلغيري فليبرقوا وليرعدوا، فأنا أبو الحسن الذي فللت حدَّهم، وفرَّقت جماعتهم، وبذلك القلب ألقى عدوّي، وأنا على ما وعدني ربّي من النصر والتأييد والظفر، وإنّي لعلى يقين من ربّي وغير شبهة من أمري. أيّها الناس إنَّ الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيص، ومن لم يمت يقتل، وإنَّ أفضل الموت القتل، والّذي نفسي بيده لألف ضربة بالسّيف أهون عليَّ من ميتة على فراش. واعجباً لطلحة ألّب الناس على ابن عفّان حتّى إذا قتل أعطاني صفقة بيمينه طائعاً، ثمَّ نكث بيعتي، اللّهمّ خذه ولا تمهله وأنَّ الزبير نكث بيعتي وقطع رحمي وظاهر عليَّ عدوّي فاكفنيه اليوم بما شئت. انتهى ما في «**الكافي**»[(١)].

ونقل بعض هذه الخطبة المفيد رحمه الله في «**الإرشاد**» (**ص ١١٤ طبع طهران ١٣٧٧هـ**) ورواه في كتاب «**الجمل**» (**النصرة في حرب البصرة**) مسنداً عن الواقديّ ص ١٧٤ طبع النجف.

وبما حقّقنا علمت أنَّ خطبة واحدة تفرَّقت في عدَّة مواضع من «**النهج**» وكم لها من نظير، وديدن الرّضي رحمه الله في النهج كان اختيار محاسن كلامه عليه السلام فقط لا ذكر طرق الرّوايات واختلافها كما نصَّ بذلك في خطبته في صدر الكتاب حيث قال:

وربّما جاء في أثناء هذا الاختيار اللّفظ المردَّد والمعنى المكرّر، والعذر في ذلك أنَّ روايات كلامه عليه السلام تختلف اختلافاً شديداً فربّما اتّفق الكلام المختار في رواية فنقل على

(١) الكافي: ٥/ ٥٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ١٩٤.

وجهه ثمّ وجد بعد ذلك في رواية أُخرى موضوعاً غير وضعه الأوّل إمّا بزيادة مختارٍ أو بلفظ أحسن عبارة فتقتضي الحال أن يعاد استظهاراً للإختيار وغيره على عقائل الكلام، وربّما بعد العهد أيضاً بما اختير أوّلاً فأُعيد بعضه سهواً ونسياناً لا قصداً واعتماداً. إلى آخر ما قال:

ثمّ انتهى عليه السلام إلى البصرة وراسل القوم، وناشدهم الله فأبوا إلاّ قتاله، وقال المسعوديُّ في **«مروج الذهب»**: ذكر عن المنذر بن الجارود فيما حدث به أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي عن ابن عائشة عن معن بن عيسى عن المنذر بن جارود قال:

لما قدم عليٌّ عليه السلام البصرة دخل مما يلي الطفُّ، فأتى الزاوية فخرجت أنظر إليه فورد موكب نحو ألف فارس يقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلّد سيفاً معه راية، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مدجّجين في الحديد والسلاح فقلت: من هذا؟ فقيل: أبو أيّوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وهؤلاء الأنصار وغيرهم.

ثمّ تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلّد سيفاً متنكّب قوساً معه راية على فرس أشقر في نحو ألف فارس فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين.

ثمّ مرّ بنا فارس آخر على فرس كميت معتم بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض وعمامة سوداء قد سد لها بين يديه ومن خلفه شديد الأدمة عليه سكينة ووقار رافع صوته بقراءة القرآن متقلّد سيفاً متنكّب قوساً معه راية بيضاء في ألف من النّاس مختلفي التيجان حوله مشيخة وكهول وشباب كان قد أوقفوا للحساب، أثر السجود قد أثر في جباههم، فقلت: من هذا؟ فقيل: عمّار بن ياسر في عدّة من الصحابة المهاجرين والأنصار وأبنائهم.

ثمّ مرَّ بنا فارس على فرس أشقر عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء متنكّب قوساً متقلّد سيفاً تخطّ رجلاه في الأرض في ألف من الناس الغالب على تيجانهم الصّفرة والبياض معه راية صفراء قلت: من هذا؟ قيل: هذا قيس بن سعد بن عبادة في الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان.

ثمّ مرَّ بنا فارس على فرس أشهل ما رأينا أحسن منه عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه بلواء قلت: من هذا؟ قيل: هو عبد الله بن العباس في عدّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثمّ تلا موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين قلت: من هذا؟ قيل: قثم بن العباس أو سعيد بن العاص.

ثمَّ أقبلت المواكب والرّايات يقدم بعضها بعضاً واشتبكت الرماح.

ثمَّ ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات في أولّه راية كبيرة يقدمهم رجل كأنما كسر وجبر ـ قال ابن عائشة: وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق، كذلك تخبر العرب في وصفها إذا أخبرت عن الرجل أنه كسر وجبر ـ كأنما على رؤوسهم الطير وعن ميسرتهم شابٌّ حسن الوجه قلت: من هؤلاء؟ قيل: هذا عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله، وهذا محمّد ابن الحنفيّة بين يديه معه الراية العظمى، وهذا الّذي خلفه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيان بني هاشم وهؤلاء المشايخ أهل بدر من المهاجرين والأنصار.

فساروا حتّى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية، فصلّى عليه السلام أربع ركعات وعفَّر خدَّيه على التربة وقد خالط ذلك دموعه، ثمَّ رفع يديه يدعو:

اللّهمَّ ربَّ السماوات وما أظلّت، والأرضين وما أقلّت، وربَّ العرش العظيم هذه البصرة أسألك من خيرها وأعوذ بك من شرّها، اللّهمَّ أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين، اللّهمَّ هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي وبغوا عليَّ ونكثوا بيعتي اللّهمَّ احقن دماء المسلمين[1].

أقول: كلامه هذا ليس بمذكور في «**النهج**» ولعلّ السرّ فيه أنه لم يكن منه عليه السلام حقيقة بل هو من رسول الله صلى الله عليه وآله فقاله اقتباساً منه وتأسّياً به صلى الله عليه وآله قال ابن هشام في «**السيرة النبوية**» **(ص ٣٢٩ ج٢ طبع مصر ١٣٧٥هـ و١٩٥٥ م)** في ذكر مسيره صلى الله عليه وآله إلى خيبر: قال ابن إسحاق: حدَّثني من لا أتّهم، عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه، عن أبي معتّب بن عمرو: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أشرف على خيبر، قال لأصحابه وأنا فيهم: قفوا، ثمَّ قال:

اللّهمَّ ربَّ السماوات وما أظللن، وربَّ الأرضين وما أقللن، وربَّ الشياطين وما أضللن، وربَّ الرّياح وما أذرين، فإنّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها، أقدموا باسم الله: قال: وكان يقولها صلى الله عليه وآله لكلِّ قرية دخلها.

ولما تقرَّر أمر الكتائب في الفريقين فخرج كلُّ فريق بقومه وقام خطباؤهم بالتحريض على القتال، فقام عبد الله بن الزبير في معسكرهم وحرَّض الناس على القتال ومن جملة ما قال:

(١) نهج السعادة: ٦/ ٢٩٣، والأنوار العلوية: ٢١١.

أيّها الناس إنَّ هذا الرعث والوعث قتل عثمان بالمدينة ثمَّ جاءكم بنشر أموركم بالبصرة أترضون أن يتوردكم أهل الكوفة في بلادكم اغضبوا فقد غضبتم وقاتلوا فقد قوتلتم إنَّ عليّاً لا يرى أنَّ معه في هذا الأمر أحد سواه، والله لئن أظفر بكم ليهلكنَّ دينكم ودنياكم.

وأكثر من نحو هذا القول وشبهه، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام فقال لولده الحسن عليه السلام: قم يا بنيّ فاخطب، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أيّها الناس قد بلغتنا مقالة ابن الزبير وقد كان والله يتجنّى على عثمان الذنوب، وقد ضيّق عليه البلاد حتى قتل، وأنَّ طلحة راكز رايته على بيت ماله وهو حيّ، وأما قوله: إنَّ عليّاً ابتزّ النّاس أمرهم فإنَّ أعظم الناس حجّة لأبيه زعم أنّه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه، فقد أقرَّ بالبيعة وادَّعى الوليجة، فليأت على ما ادَّعاه ببرهان وأنّى له ذلك، وأمّا تعجّبه من تورد أهل الكوفة على أهل البصرة فما عجبه من أهل حقّ توردوا على أهل الباطل، ولعمري والله ليعلمنَّ أهل البصرة وميعاد ما بيننا وبينهم، اليوم نحاكمهم إلى الله تعالى، فيقضي الله بالحقّ وهو خير الفاصلين.

فلمّا فرغ الحسن عليه السلام من كلامه قام رجل يقال له عمر بن محمود وأنشد شعراً يمدح الحسن عليه السلام.

فلمّا بلغ طلحة والزبير خطبة الحسن عليه السلام ومدح المادح له قام طلحة خطيباً في أصحابه وحرّض الناس على إثارة الفتنة وألّب وأجلب على أمير المؤمنين عليه السلام النّاس.

فقام إليه رجل يقال له جبران بن عبد الله من أهل الحجاز كان قدم البصرة وهو غلام واعترض على طلحة واحتجَّ عليه بنكث البيعة فهمَّ القوم به فخرج منهم إشفاقاً على دمه، ثمَّ كثر اللغط والتنازع[1].

ولمّا بلغ أمير المؤمنين عليه السلام لغط القوم واجتماعهم على حربه قام في الناس خطيباً.

---

(١) الجمل: ١٧٦.

«خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في البصرة لما بلغه لغط القوم واجتماعهم على حربه»

فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النّبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ قال:

أيّها الناس إنَّ طلحة والزبير قدما البصرة وقد اجتمع أهلها على طاعة الله وبيعتي، فدعواهم إلى معصية الله تعالى وخلافي، فمن أطاعهما منهم فتنوه ومن عصاهما قتلوه، وقد كان من قتلهما حكيم بن جبلة ما بلغكم، وقتلهم السبابجة وفعلهما بعثمان بن حنيف ما لم يخف عليكم. وقد كشفوا الآن القناع وأذنوا بالحرب، وقام طلحة بالشتم في أديانكم، وقد أرعد وصاحبه وأبرقا وهذان أمران معهما الفشل، ولسنا نريد منكم أن تلقونهم بظنون[1] ما في نفوسكم عليهم، ولا ترون ما في أنفسكم لنا، ولسنا نرعد حتّى نوقع، ولا نسيل حتّى نمطر، وقد خرجوا من هدى إلى ضلال، ودعوناكم إلى الرِّضا، ودعونا إلى السخط فحلَّ لنا ولكم ردُّهم إلى الحقِّ، وحلَّ لهم بقصاصهم القتل، وقد والله مشوا إليكم ضراراً، وأذاقوكم أمس من الجمر، فإذا لقيتم القوم غداً فاعذروا في الدعاء وأحسنوا في التقيّة، واستعينوا بالله واصبروا إنَّ الله مع الصابرين[2].

أقول: نقلها المفيد قدّس سرُّه في «**الجمل**» (**ص ١٦١ طبع النجف**) وهي بتمامها ليست بمذكورة في «**النهج**» وأتى ببعضها فيه وهو: ومن كلام له عليه السلام: وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل، ولسنا نرعد حتى نوقع، ولا نسيل حتى نمطر، وهو الكلام التاسع من باب الخطب من «**النهج**».

قال المفيد رحمه الله في الجمل نقلاً عن الواقدي: ثمَّ إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أنظرهم وأنذرهم ثلاثة أيّام ليكفّوا ويرعوا، فلما علم إصرارهم على الخلاف قام في أصحابه وقال:

«خطبة أخرى له عليه السلام في ذلك المقام يحرض أصحابه على الجهاد»

عباد الله انهدوا إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم، فإنهم نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي، ونكلوا بعاملي، وأخرجوه من البصرة بعد أن آلموه بالضرب المبرح والعقوبة الشديدة، وهو شيخ من وجوه الأنصار والفضلاء، ولم يرعوا له حرمة وقتلوا السبابجة رجالاً صالحين، وقتلوا حكيم بن جبلة ظلماً وعدواناً لغضبه لله تعالى ثمَّ تتّبعوا شيعتي بعد أن ضربوهم وأخذوهم في كلِّ غابية وتحت كلِّ رابية يضربون أعناقهم صبراً، ما لهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون، فانهدوا إليهم عباد الله وكونوا أسوداً عليهم فإنّهم شرار، ومساعدهم على الباطل

(١) في المصدر: تلقوهم ليظنوا.

(٢) الجمل: ١٧٧.

شرار، فالقوهم صابرين محتسبين موطنين أنفسكم أنكم منازلون ومقاتلون، وقد وطّنتم أنفسكم على الضرب والطعن ومنازلة الأقران، فأيُّ امرءٍ أحسَّ من نفسه رباطة جأش عند الفزع وشجاعة عند اللّقاء ورأى من أخيه فشلاً أو وهناً فليذبَّ عنه كما يذبُّ عن نفسه فلو شاء الله لجعله مثله[1].

أقول: بعض هذه الخطبة مذكور في «**النهج**» الكلام ١٢١ من باب الخطب أوله: وأيُّ أمرىء منكم أحسّ من نفسه ـ الخ، ونقلها المفيد رحمه الله في «**الإرشاد**» **(ص ١١٥ طبع طهران ١٣٧٧هـ)** أيضاً وبين النسخ يسير في بعض من الكلمات والجمل.

وفي «**جمل المفيد**»: ثمَّ إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام رحل بالناس إلى القوم غداة الخميس لعشر مضين من جمادى الأولى، وعلى ميمنته الأشتر، وعلى ميسرته عمّار بن ياسر، وأعطى الراية محمّد بن الحنفيّة ابنه، وسار حتّى وقف موقفاً، ثمَّ نادى في الناس: لا تعجلوا حتى أعذر إلى القوم.

أقول: مضى كلامه عليه السلام لابنه محمّد بن الحنفيّة لمّا أعطاه الراية يوم الجمل: تزول الجبال ولا تزل، عضّ على ناجذك أعر الله جمجمتك، تدفي الأرض قدمك إرم ببصرك أقصى القوم، وغضَّ بصرك، واعلم أنَّ النصر من عند الله سبحانه **(الكلام الحادي عشر من باب الخطب من النهج)**.

وقد مضى في ص ٢٤١ من المجلّد الأوّل من تكملة المنهاج أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام دفع يوم الجمل رايته إلى ابنه محمّد بن الحنفية وقد استوت الصفوف وقال له: احمل. فتوقّف قليلاً، فقال له: احمل، فقال: يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر، فدفع في صدره فقال: أدركك عرق من أُمّك ـ الخ، نقله المسعودي في «**مروج الذهب**».

فدعا عليه السلام عبد الله بن عباس فأعطاه المصحف وقال: امض بهذا المصحف إلى طلحة والزبير وعائشة وادعهم إلى ما فيه وقل لطلحة والزبير: ألم تبايعاني مختارين؟ فما الذي دعاكما إلى نكث بيعتي وهذا كتاب الله بيني وبينكما.

فذهب إليهم ابن عباس فبدأ بالزبير ثمَّ انصرف عنه إلى طلحة، ثمَّ انصرف عنه إلى عائشة، وجرى بينه وبينهم كلام كثير فأبوا إلاّ طغياناً وبغياً والقتال وسفك الدّماء وإثارة الفتنة وإنارة الحرب، فرجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبره الخبر وقال له عليه السلام: ما تنتظر؟ والله لا يعطيك القوم إلاّ السيف فاحمل عليهم قبل أن يحملوا عليك؛ فقال عليه السلام: نستظهر بالله

(١) الجمل للمفيد: ١٧٨.

عليهم؛ قال ابن عباس: فوالله ما رمت من مكاني حتى طلع عليّ نشابهم كأنه جراد منتشر فقلت: ما ترى يا أمير المؤمنين إلى ما يصنع القوم مرنا ندفعهم، فقال عليه السلام: حتّى أعذر إليهم ثانية.

فأخذ عليه السلام مصحفاً كما نقله الطبري مسنداً في «**التاريخ**» والمفيد في الجمل عن الواقدي، فطاف به في أصحابه وقال: من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إليه وهو مقتول وأنا ضامن له على الله الجنّة؟ فقام فتى من أهل الكوفة حدث السنّ من عبد القيس يقال له: مسلم بن عبد الله، عليه قباء أبيض محشو فقال: أنا أعرضه يا أمير المؤمنين عليهم وقد احتسبت نفسي عند الله، فأعرض عليه السلام عنه إشفاقاً.

ونادى ثانية: من يأخذ هذا المصحف ويعرضه على القوم وليعلّم أنّه مقتول وله الجنّة؟ فقال الفتى: أنا أعرضه.

ونادى ثالثة: من يأخذ المصحف ويدعوهم إلى ما فيه؟ فقال الفتى: أنا. فدفع المصحف إليه وقال: امض إليهم واعرضه عليهم وادعهم إلى ما فيه.

فأقبل الفتى حتى وقف بإزاء الصفوف ونشر المصحف وقال: هذا كتاب الله وأمير المؤمنين يدعوكم إلى ما فيه، فقالت عائشة: اشجروه بالرّماح فقبّحه الله، فتبادروا إليه بالرّماح فطعنوه من كلّ جانب فقطعوا يده اليمنى، فأخذه بيده اليسرى فدعاهم فقطعوا يده اليسرى، فأخذه بصدره والدّماء تسيل على قبائه، فقتل رضوان الله عليه، وكانت أمّه حاضرة فصاحت وطرحت نفسها عليه وجرّته من موضعه ولحقها جماعة من عسكر أمير المؤمنين عليه السلام أعانوها على حمله حتّى طرحته بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام وهي تبكي وتقول:

لا هـمّ إنّ مسلماً دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضّبوا من دمه قناهم وأُمّه قائمة تراهم
تأمرهم بالقتل لا تنهاهم

فلمّا رأى أمير المؤمنين عليه السلام ما قدم عليه القوم من العناد واستحلّوه من سفك الدّم الحرام رفع يديه إلى السماء وقال:

اللّهمّ إليك شخصت الأبصار وبسطت الأيدي وأقضت القلوب وتقرّبت إليك بالأعمال، ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين[1].

أقول: قوله عليه السلام هذا نقلناه من «**جمل المفيد**» ونقله نصر بن مزاحم المنقري في

(١) بحار الأنوار: ١٢/ ٣٧٤، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٨/ ٤١.

«**صفين**» (**ص ٢٥٦ طبع الطهران ١٣٠١هـ**) مع زيادة وأتى به الرّضيُّ رحمه الله في «**النهج**» وهو الخامس عشر من باب الكتب والرسائل، وقد مضى في ص ٣٢٦ من المجلّد الأوّل من «**تكملة المنهاج**» كلامنا فيه وسيأتي طائفة أُخرى في شرحه إن شاء الله تعالى.

قال الطبريُّ بعد نقل شهادة الفتى: فقال عليٌّ عليه السلام: الآن حلَّ قتالهم.

وفي «**الإمامة والسياسة**» للدينوري: فلمّا توافقوا للقتال أمر عليٌّ عليه السلام منادياً ينادي من أصحابه: لا يرمينَّ أحد سهماً ولا حجراً ولا يطعن برمح حتّى أعذر إلى القوم فأتّخذ عليهم الحجة البالغة.

فكلّم عليه السلام طلحة والزبير قبل القتال فقال لهما: استحلفا عائشة بحقِّ الله وبحقِّ رسوله على أربع خصال أن تصدق فيها: هل تعلم رجلاً من قريش أولى منّي بالله ورسوله، وإسلامي قبل كافة الناس أجمعين، وكفايتي رسول الله صلى الله عليه وآله كفّار العرب بسيفي ورمحي، وعلى براءتي من دم عثمان، وعلى أنّي لم أستكره أحداً على بيعة، وعلى أنّي لم أكن أحسن قولاً في عثمان منكما؟ فأجابه طلحة جواباً غليظاً، ورقَّ له الزبير.

ثمَّ رجع عليٌّ عليه السلام إلى أصحابه فقالوا: يا أمير المؤمنين بم كلّمت الرَّجلين؟ فقال عليٌّ عليه السلام: إنَّ شأنهما لمختلف أمّا الزبير فقاده اللّجاج ولن يقاتلكم، وأمّا طلحة فسألته عن الحقِّ فأجابني بالباطل، ولقيته باليقين ولقيني بالشكِّ، فوالله ما نفعه حقّي ولا ضرَّني باطله، وهو مقتول غداً في الرَّعيل الأوَّل[١].

أقول: ما نقله الدينوري من كلامه عليه السلام ليس بمذكور في «**النهج**».

وفي احتجاج الطبرسي عن الأصبغ بن نباتة قال: كنت واقفاً مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل فجاء رجل حتّى وقف بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين كبّر القوم وكبّرنا، وهلّل القوم وهلّلنا، وصلّى القوم وصلّينا، فعلى ما نقاتلهم؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: على ما أنزل الله في كتابه، فقال: يا أمير المؤمنين ليس كلُّ ما أنزل الله في كتابه أعلمه فعلّمنيه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أنزل الله في سورة البقرة؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس كلّما أنزل الله في سورة البقرة أعلمه فعلّمنيه، فقال عليه السلام: هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فنحن الّذين آمنّا، وهم

(١) الإمامة والسّياسة: ١/٦٨.

الّذين كفروا، فقال الرَّجل: كفر القوم وربِّ الكعبة، ثمَّ حمل وقاتل حتّى قتل رحمه الله. انتهى[(١)].

وفي «**تاريخ الطبري**» (**ص ٧ ج ٤ طبع مصر ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م**) قال أبو مخنف: وحدّثني إسماعيل بن يزيد، عن أبي صادق، عن الحضرميّ قال: سمعت علياً عليه السلام يحرّض الناس في ثلاثة مواطن: يحرّض الناس يوم الجمل، ويوم صفين، ويوم النهر، يقول: عباد الله اتّقوا الله ـ إلى آخر ما نقلناه في ص ٢٣٨ من المجلد الأول من «**تكملة المنهاج**». ونقله المفيد رحمه الله في «**الإرشاد**» أيضاً (**ص ١٠٧ طبع طهران ١٣٧٧هـ**) إلاّ أنّه ذكر في عنوانه يوم صفين فقط ولكنّه لا يفيد الاختصاص به وبين النّسختين اختلاف يسير، والظاهر أنَّ الرضيَّ رضوان الله عليه لم يعثر عليه وإلاّ لذكره في «**النهج**» لأنَّ الكلام بليغ جدّاً وكان اهتمام الرضي اختيار البليغ من كلامه عليه السلام ودونك قوله هذا على ما في «**الإرشاد**»: قال:

ومن كلامه عليه السلام في تحضيضه على القتال يوم صفين بعد حمد الله والثناء عليه.

عباد الله اتّقوا الله وغضّوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقلّوا الكلام، ووطّنوا أنفسكم على المنازلة، والمجادلة، والمبارزة، المبالطة، والمبالدة، والمعانقة والمكادمة، واثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنَّ الله مع الصابرين، اللّهمَّ ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر، وأعظم لهم الأجر.

وقد تظافرت الأخبار أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أمر جنده أن لا يبدأوا القوم الناكثين بقتال، ولا يرموهم بسهم، ولا يضربوهم ولا يطعنوهم برمح، حتّى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي من الميمنة بأخ له مقتول، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمي بسهم فقتل، فقال عليٌّ عليه السلام: اللّهم اشهد.

وفي «**جمل المفيد**»: ثمَّ دعا عليه السلام ابنه محمّد بن الحنفيّة فأعطاه الراية وهي راية رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا بنيَّ هذه راية لا تردُّ قط ولا تردُّ أبداً، قال محمّد: فأخذتها والريح تهبُّ عليها فلمّا تمكّنت من حملها صارت الريح على طلحة والزبير وأصحاب الجمل، فأردت أن أمشي بها فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قف يا بنيَّ حتّى آمرك.

ثمَّ نادى: أيّها النّاس لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تهيجوا امرأة، ولا تمثّلوا بقتيل.

(١) الكافي: ٢/ ٤١، ودعائم الإسلام: ١/ ١٠.

فبينا هو يوصي أصحابه إذ ظلّنا نبل القوم فقتل رجل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فلمّا رآه قتيلاً قال: اللّهمَّ اشهد، ثمَّ رمي ابن عبد الله بن بديل فقتل، فحمل أبوه عبد الله ومعه عبد الله بن العباس حتّى وضعاه بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام، فقال عبد الله بن بديل: حتّى متى يا أمير المؤمنين ندلي نحورنا للقوم يقتلوننا رجلاً رجلاً قد والله أعذرت إن كنت تريد الاعتذار[1].

أقول: قال **«اليعقوبي في تاريخه»**: ثمَّ رمى رجل آخر فأصاب عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقتله فأتى به أخوه عبد الرحمٰن يحمله فقال عليٌّ عليه السلام: اللّهمّ اشهد. والله العالم.

وفي **«مروج الذهب»** للمسعودي: ثمّ قام عمّار بن ياسر بين الصفين فقال: أيها الناس ما أنصفتم نبيّكم حيث كففتم عتقاء تلك الخدور، وأبرزتم عقيلته للسيوف، وعائشة على الجمل المسمى عسكراً في هودج من دفوف الخشب، قد ألبسوه المسوح وجلود البقر، وجعلوا دونه اللّبود قد غشي على ذلك بالدُّروع، فدنا عمّار من موضعها، فنادى: إلى ماذا تدعينني؟ قالت: إلى الطلب بدم عثمان، فقال: قتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحقّ، ثمّ قال: أيّها الناس إنكم لتعلمون أيّنا الممالي في قتل عثمان، ثمّ أنشأ يقول وقد رشقوه بالنبل:

فمنك البكاء ومنك العويل ومنك الرِّياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقاتله عندنا من أمر

وتواتر عليه الرَّمي واتّصل فحرَّك فرسه وزال عن موضعه فقال: ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين وليس لك عند القوم إلاّ الحرب. فقال عليٌّ عليه السلام: أيّها الناس إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتّبعوا مولّياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثّلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً، ولا تقربوا من أموالهم إلاّ ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله[2].

أقول: وقد مضى في ص ٢٢٢ من المجلّد الأول من **«تكملة المنهاج»** عن نصر في كتاب صفين بإسناده عن عبد الرحمٰن بن جندب الأزدي عن أبيه أنَّ عليّاً عليه السلام كان يأمرنا في كلِّ موطن لقينا معه عدوَّه يقول: لا تقاتلوا القوم حتّى يبدأوكم - إلى آخره وسيأتي شرحه ونقل أقواله الأُخر في الكتاب الخامس عشر إن شاء الله تعالى.

ثمَّ قد ذكرنا في شرح الكتاب الأوَّل البيتين المذكورين وقائلهما فراجع.

---

(١) الجمل المفيد: ١٨٢.
(٢) الجمل للمدني: ١٢١، ونهج السعادة: ١/ ٣١٤، ح ١٠٠.

وقال المفيد في «**الجمل**»: روى عبد الله بن رباح مولى الأنصاري عن عبد الله بن زياد مولى عثمان بن عفان قال: خرج عمّار بن ياسر يوم الجمل إلينا فقال: يا هؤلاء على أيِّ شيء تقاتلونا؟ فقلنا: على أنَّ عثمان قتل مؤمناً، فقال عمّار: نحن نقاتلكم على أنّه قتل كافراً؟ قال: وسمعت عمّاراً يقول: والله لو ضربتمونا حتى نبلغ سعفات هجر لعلمنا أنا على الحقّ وأنّكم على الباطل، قال: وسمعته والله يقول: ما نزل تأويل هذه الآية إلاّ اليوم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٩].

وفي «**احتجاج الطبرسي**»: روى الواقدي أنَّ عمّار بن ياسر لما دخل على عائشة ـ بعد أن ظفر عليٌّ عليه السلام وأصحابه على أصحاب الجمل ـ فقال لها: كيف رأيت ضرب بنيك على الحقِّ؟ فقالت: استبصرت من أجل أنك غلبت، فقال عمّار: أنا أشدُّ استبصاراً من ذلك، والله لو ضربتمونا حتى تبلغونا سعيفات هجر لعلمنا أنّا على الحقِّ وأنّكم على الباطل، فقالت عائشة: هكذا يخيّل إليك، اتّق الله يا عمّار أذهبت دينك لابن أبي طالب[١].

أقول: قد قال عمّار في صفين أيضاً: إنّي لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتّى يرتاب المبطلون، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنّا على الحقِّ وكانوا على الباطل. وقد مرَّ بيانه في ص ٢٨٥ من المجلّد الأوَّل من «**تكملة المنهاج**» واختلاف النسخ فيه فراجع.

روى الواقديُّ قال: حدَّثني عبد الله بن الفضيل عن أبيه عن محمّد بن الحنفيّة قال: لمّا نزلنا البصرة وعسكرنا بها وصففنا صفوفنا دفع أبي عليٌّ عليه السلام إليَّ باللّواء وقال: لا تحدّثنّ شيئاً. ثمَّ نام فنالنا نبل القوم فأفزعته ففزع وهو يمسح عينيه من النوم وأصحاب الجمل يصيحون: يا لثارات عثمان فبرز عليه السلام وليس عليه إلاّ قميص واحد، ثمَّ قال: تقدَّم باللّواء، فتقدَّمت وقلت: يا أبة في مثل هذا اليوم بقميص واحد، قال: أحرز أمرء أجله والله قاتلت مع النّبيِّ صلى الله عليه وآله وأنا حاسر أكثر ممّا قاتلت وأنا دارع، ثمَّ دنا كل من طلحة والزبير فكلّمهما ورجع وهو يقول: يأبى القوم إلاّ القتال، فقاتلوهم فقد بغوا، ودعا بدرعه البتراء ولم يلبسها بعد النبيِّ صلى الله عليه وآله إلاّ يومئذ فكان بين كتفيه منها متوهياً.

قال: وجاء أمير المؤمنين عليه السلام وفي يده شسع نعل فقال له ابن عباس: ما تريد بهذا الشّسع يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أربط بها ما قد توهى من هذا الدِّرع من خلفي، فقال له ابن عبّاس: أفي مثل هذا اليوم تلبس مثل هذا؟ فقال عليه السلام: لم؟ قال: أخاف عليك، قال عليه السلام: لا تخف أو أوتي من ورائي والله يا ابن عبّاس ما ولّيت في زحف قطّ ثمَّ قال له: البس يا ابن عباس، فلبس درعاً سعدياً ثمَّ تقدَّم إلى الميمنة وقال: احملوا، ثمَّ إلى الميسرة

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٤٠، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٢٦٦ ح ٢٠٣.

وقال: احملوا، وجعل يدفع في ظهري ويقول: تقدَّم يا بنيَّ فجعلت أتقدَّم حتى انهزموا من كلِّ وجه[1].

وروى الواقديُّ عن هشام بن سعد عن شيخ من مشايخ أهل البصرة قال: لمّا صفَّ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام صفوفه أطال الوقوف والناس ينتظرون أمره، فاشتدَّ عليهم ذلك، فصاحوا: حتّى متّى، فصفق بإحدى يديه على الأُخرى ثمَّ قال: عباد الله لا تعجلوا فإني كنت أرى رسول الله صلى الله عليه وآله يستحبُّ أن يحمل إذا هبت الريح. قال: فأمهل حتّى زالت الشّمس وصلّى ركعتين ثمَّ قال: ادعوا ابني محمّداً، فدعي له محمّد بن الحنفيّة فجاء وهو يومئذ ابن تسع عشر سنة، فوقف بين يديه ودعا بالراية فنصبت فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما هذه الراية لم تردُّ قطُّ ولا تردُّ أبداً وإني واضعها اليوم في أهلها، ودفعها إلى ولده محمّد وقال: تقدَّم يا بنيَّ فلمّا رآه القوم قد أقبل والراية بين يديه فتضعضعوا فما هو إلاّ أنَّ الناس التقوا ونظروا إلى غرة أمير المؤمنين عليه السلام ووجدوا مسَّ السلاح حتى انهزموا.

وروى محمد بن عبد الله بن عمر بن دينار قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمّد: خذ الراية وامض، وعليٌّ عليه السلام خلفه فناداه: يا أبا القاسم! فقال: لبَّيك يا أبة، فقال: يا بنيَّ لا يستنفزَّنك ما ترى قد حملت الراية وأنا أصغر منك فما استنفزني عدوّي وذلك أنني لم أُبارز أحداً إلاّ حدَّثتني نفسي بقتله، فحدِّث نفسك بعون الله تعالى بظهورك عليهم ولا يخذلك ضعف النفس من اليقين فإنَّ ذلك أشدّ الخذلان، قال: قلت يا أبة أرجو أن أكون كما تحبُّ إن شاء الله، قال: فالزم رايتك فإن اختلفت الصفوف قف في مكانك وبين أصحابك فإن لم تبين من أصحابك فاعلم أنهم سيرونك.

قال: والله رني لفي وسط أصحابي فصاروا كلّهم خلفي وما بيني وبين القوم أحد يردُّهم عنّي وأنا أُريد أن أتقدَّم في وجوه القوم فما شعرت إلاّ بأبي خلفي قد جرَّد بسيفه وهو يقول: لا تقدَّم حتّى أكون أمامك، فتقدَّم بين يدي يهرول ومعه طائفة من أصحابه، فضرب الّذين في وجهه حتّى نهضوهم ولحقتهم بالراية فوقفوا وقفة واختلط الناس وركدت السيوف ساعة فنظرت إلى أبي يفرِّج الناس يميناً وشمالاً ويسوقهم أمامه فأردت أن أجول فكرهت خلافه ووصيّته لي - لا تفارق الراية - حتّى انتهى إلى الجمل وحوله أربعة آلاف مقاتل من بني ضبّة والأزد وتميم وغيرهم وصاح: اقطعوا البطان.

فأسرع محمّد بن أبي بكر فقطعه وأطلع الهودج، فقالت عائشة: من أنت؟ قال: أبغض أهلك إليك، قالت: ابن الخثعمية؟ قال: نعم ولم تكن دون أمّهاتك قالت: لعمري بل هي شريفة دع عنك هذا الحمد لله الّذي سلمك. قال: قد كان ذلك ما تكرهين؛ قالت: يا أخي

---

(1) الجمل المفيد: ١٨٩.

لو كرهته ما قلت ما قلت، قال: كنت تحبّين الظفر وإنّي قتلت، قالت: قد كنت أُحبُّ ذلك لكنه ما صرنا إلى ما صرنا أحببت سلامتك لقرابتي منك فاكفف ولا تعقّب الأُمور وخذ الظاهر ولا تكن لومة ولا عذلة فإنَّ أباك لم يكن لومة ولا عذلة.

قال: وجاء عليٌّ عليه السلام فقرع الهودج برمحه وقال: يا شقيراء بهذا وصّاك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالت: يا ابن أبي طالب قد ملكت فاسمح، وفي **«تاريخ الطبري»**: فاسجح.

ثمَّ أمر عليه السلام ابنه محمّد أن يتولّى أمرها ويحملها إلى دار ابن خلف حتّى ينظر عليه السلام في أمرها، فحملها إلى الموضع وأنَّ لسانها لا يفتر من السبِّ له ولعليّ عليه السلام والترحّم على أصحاب الجمل.

وروي عن ابن الزبير قال: خرجت عائشة يوم البصرة وهي على جملها عسكر قد اتّخذت عليه خدراً ودقّته بالدّقوق خشية أن يخلص إليها النبل، وسار إليهم عليُّ بن أبي طالب عليه السلام حتى التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً وأخذ بخطام الجمل يومئذٍ سبعون رجلاً من قريش كلّهم قتل، وخرج مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير ورأيتهما جريحين، فلمّا قتلت تلك العصابة من قريش أخذ رجال كثير من بني ضبّة بخطام الجمل فقتلوا عن آخرهم، ولم يأخذ بخطامه أحد إلاّ قتل حتى غرق الجمل بدماء القتلى، وتقدَّم محمّد بن أبي بكر فقطع بطان الجمل واحتمل الخدر ومعه أصحاب له وفيه عائشة حتّى أنزلوها بعض دور البصرة، وولّى الزبير منهزماً فأدركه ابن جرموز فقتله، ولمّا رأى مروان توجّه الأمر على أصحاب الجمل نظر إلى طلحة وهو يريد الهرب فقال: والله لا يفوتني ثأري من عثمان، فرماه بسهم، فقطع أكحله فسقط بدمه وحمل من موضعه وهو يقول: إنّا لله هذا ووالله سهم لم يأتني من بعد ما أراه إلاّ من معسكرنا، والله ما رأيت مصرع شيخ أضيع من مصرعي ثمَّ لم يلبث أن هلك[١].

روى **«الطبريُّ في التاريخ»** بإسناده عن أبي البختري الطائيِّ قال: أطافت ضبّة والأزد بعائشة يوم الجمل، وإذا رجال من الأزد يأخذون بعر الجمل فيفتّونه ويشمّونه ويقولون: بعر جمل أُمّنا ريحه ريح المسك، ورجل من أصحاب عليّ عليه السلام يقاتل ويقول:

جرّدت سيفي في رجال الأزد — أضرب في كهولهم والمرد

كلّ طويل الساعدين نهد

وماج الناس بعضهم في بعض، فصرخ صارخ: اعقروا الجمل، فضربه بجير بن دلجة الضّبي فقيل له: لِمَ عقرته؟ فقال: رأيت قومي يقتلون فخفت أن يفنوا ورجوت إن عقرته أن يبقى لهم بقيّة[٢].

---

(١) شرح النهج: ٩/ ١١٣. (٢) بغية الباحث: ١٨٥، ح ١، وكنز العمال: ١٢/ ٦٧٩.

وروى بإسناده عن الصعب بن عطيّة عن أبيه قال: لمّا أمسى الناس وتقدّم عليٌّ عليه السلام وأُحيط بالجمل ومن حوله وعقره بجير بن دلجة وقال: إنكم آمنون فكفَّ بعض الناس عن بعض، وقال في ذلك حين أمسى وانخنس عنهم القتال:

إليك أشكو عجري وبجري ومعشراً غشوا عليَّ بصري

قتلت منهم مضراً بمضري شفيت نفسي وقتلت معشري

أقول: قد ذكر البيتان في الديوان المنسوب إليه عليه السلام أيضاً وفيه «أعشوا» مكان «غشّوا»، و«إني قتلت مضري بمصري» مكان المصراع الثالث: «وجذعت أنفي» مكان «شفيت نفسي». ولكنَّ الصريح من كلام أبي العباس محمّد بن يزيد المعروف بالمبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ في «**الكامل**» ص ١٢٦ ج ١ طبع مصر أنه عليه السلام لم يقل كلامه على هيئة الشعر حيث قال:

حدَّثني التّوزيُّ قال: حدَّثني محمّد بن عباد بن حبيب المهلّب أحسبه عن أبيه قال: لمّا انقضى يوم الجمل خرج عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه في ليلة ذلك اليوم ومعه قنبر وفي يده مشعلة من نار يتصفّح القتلى حتّى وقف على رجل، قال التوزي: فقلت: أهو طلحة؟ قال: نعم، فلمّا وقف عليه قال: عزَّ عليَّ أبا محمّد أن أراك معفّراً تحت نخوم السماء وفي بطون الأودية، شفيت نفسي وقتلتُ معشري إلى الله أشكو عُجري وبُجري. انتهى قوله.

أقول: الظاهر أنَّ غيره أخذ كلامه هذا وأدرجه في الشعر، وقد نقلنا في المجلّد الأوّل من تكملة «**المنهاج**» (**من ص ٣٠٦ ـ إلى ٣١٤**) أبياتاً عديدة من ذلك الديوان أنها مما قالها غيره عليه السلام كما بيّناها بالشواهد والمآخذ، وقد عثرنا على عدّة أخرى منها بعد ذلك فخذها:

ما في ذلك الدّيوان من ثلاثة عشر بيتاً قالها في صفين:

لنا الراية السوداء يخفق ظلّها إذا قيل قدّمها حصين تقدما

إلى آخرها، فأتى بتمامها نصر بن مزاحم المنقري في كتاب «**صفّين**» (**ص ١٤٥ الطبع الناصري**) وأسندها بإسناده عن الحصين بن المنذر إليه عليه السلام، وقال الفاضل الشارح المعتزلي ابن أبي الحديد في شرحه على «**النهج**»: هكذا روى نصر بن مزاحم، وسائر الرواة رووا له عليه السلام الأبيات الستة الأولى ورووا باقي الأبيات من قوله: «وقد صبرت عك ولخم» إلخ ـ للحصين بن المنذر صاحب الراية.

واعلم أنَّ البيت الثامن منه على ما في الديوان هو البيت الرابع في كتاب «**صفين**». على أنَّ بين نسختي «**صفين**» والديوان اختلافاً يسيراً في بعض عبارات الأبيات.

وما في ذلك الدّيوان:

قد كنت ميتاً فصرت حيّاً وعن قليل تصير ميّتاً
عزّ بدار الفناء بيت فأين دار البقاء بيتاً

ففي مادّة خضر من «**سفينة البحار**» نقل عن المناقب لابن شهر آشوب أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام رأى الخضر في المنام فسأله نصيحة قال: فأراني كفّه فإذا فيها مكتوب بالخضرة:

قد كنت ميتاً فصرت حيّاً وعن قليل تعود ميتاً
فابن لدار البقاء بيتاً ودع لدار الفناء بيتاً

وما في «**السيرة الهشامية**» (**ص ٢٢٥ ج ٢ طبع مصر ١٣٧٥هـ**) فنقل عن ابن إسحاق أنه لما قتل أمير المؤمنين عليه السلام عمرو بن عبد ود في غزوة الخندق قال عليه السلام في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرت ربَّ محمّد بصوابي
فصددت حين تركته متجدّلاً كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه لو إنني كنت المقطر بزّني أثوابي
لا تحسُبنَّ الله خاذل دينه ونبيّه يا معشر الأحزاب

ثمَّ قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر يشكُّ فيها لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام وما في الدِّيوان المنسوب إليه:

لكلِّ اجتماع من خليلين فرقة وكلُّ الّذي دون الفراق قليل
وإنَّ افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

فقال أبو العباس محمّد بن يزيد المعروف بالمبرد في (**ص ٢٦٨ ج ٢ من كتابه الكامل طبع مصر**): ويروى أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضوان الله عليه تمثّل عند قبر فاطمة عليها السلام، ثمَّ ذكر البيتين والمصراع الثاني من الأوّل فيه: «وإن الّذي دون الفراق قليل» والأوّل من الثاني: «وإنّ افتقادي واحداً بعد واحدِ».

وفي «**البيان والتبيين**» للجاحظ (**ص ١٨١ ج ٣ طبع مصر ١٣٨٠هـ ١٩٦٠ بتحقيق وشرح عبد السلام محمّد هارون**): وقال الآخر:

ذكرت أبا أروى فبتُّ كأنني بردُّ أُمور ماضيات وكيل
لكلِّ اجتماع من خليلين فرقة وكلُّ الّذي قبل الفراق قليل
وأنَّ افتقادي واحداً بعد واحد دليل على أن لا يدوم خليل

وهو كما ترى لم يسمّ قائل الأبيات:

وقال عبد السلام محمّد هارون في الهامش: ذكر ابن الأنباري أنَّ هذه الأبيات لعليِّ بن

أبي طالب كرَّم الله وجهه حين دفن فاطمة رضي الله عنها. وقال ابن الأعرابي: إنها لشقران السلاماني. وفي **«الكامل»** ٧٢٤: أن الشعر تمثّل به عليّ بن أبي طالب عند قبر فاطمة. وقد روى البحتريّ في حماسة ٢٣٣ البيتين الأخيرين. انتهى كلامه.

وما في ذلك الديوان:

الناس من جهة التمثال أكفاء　　　أبوهم آدم والأمُّ حوّاء

إلى آخر الأبيات فأسندها عبد القاهر الجرجاني في **«أسرار البلاغة» (ص ٢١٤ طبع مصر ١٣١٩هـ)** إلى محمد بن الرّبيع الموصلي، وقيل: إنّها منسوبة إلى عليّ القيرواني كما في ذيل ص ٣٠٧ من كتاب **«أخلاق محتشمي»** المنسوب إلى المحقق الطوسي قدّس سرّه **(طبع إيران، الطبع الأوّل)** وذكرناه في المجلّد الأوّل من **«تكملة المنهاج»** ص ٣٠٦. ولنعد إلى ما كنا بصدده:

ورؤيَ ذلك اليوم من الجمل الّذي ركبته عائشة كلُّ العجب، وذلك كما في إثبات الوصيّة للمسعودي واحتجاج الطبرسي وغيرها وأنّه كلّما ابتزّ منه قائمة من قوائمه ثبت على الأخرى حتّى نادى أمير المؤمنين عليه السلام: اقتلوا الجمل فإنّه شيطان، وتولّى محمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر عقره بعد طول دمائه[1].

وقال المفيد في **«الجمل»**: روى إبراهيم بن نافع عن سعيد بن أبي هند قال: أخبرنا أصحابنا ممّن حضر القتال يوم البصرة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قاتل يومئذٍ أشدَّ القتال وسمعوه وهو يقول: تبارك الّذي أذن لهذه السيوف تصنع ما تصنع.

وقال فيه: روى الواقديُّ قال: حدَّثني عبد الله بن عمر بن عليّ بن أبي طالب قال: سمع أبي أصوات الناس يوم الجمل وقد ارتفعت فقال لابنه محمّد: ما يقولون؟ قال: يقولون: يا ثارات عثمان، قال: فشدّ عليهم وأصحابه يهشون في وجهه يقولون: ارتفعت الشمس وهو يقول: الصبر أبلغ حجة، ثمَّ قام خطيباً يتوكأ على قوس عربية فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبيَّ فصلّى عليه وقال:

«خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في أثناء حرب الجمل»

أمّا بعد فإنَّ الموت طالب حثيث لا يفوته الهارب ولا يعجزه، فأقدموا ولا تنكلوا، وهذه الأصوات الّتي تسمعوها من عدّوكم فشل واختلاف، إنّا كنّا نؤمر في الحرب بالصّمت، فعضّوا على الناجذ، واصبروا لوقع السيوف، فوالّذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٤٠.

عليّ من موتة على فراشي، فقاتلوهم صابروا محتسبين فإنَّ الكتاب معكم والسنّة معكم، ومن كانا معه فهو القويُّ، اصدقوهم بالضرب فأيَّ امرىءٍ أحسَّ من نفسه شجاعة وإقداماً وصبراً عند اللّقاء فلا يبطرنّه، ولا يرى أنَّ له فضلاً على من هو دونه، وإن رأى من أخيه فشلاً وضعفاً فليذبَّ عنه كما يذبُّ عن نفسه، فإنَّ الله لو شاء لجعله مثله[1].

أقول: أتى الرضيُّ رضوان الله عليه ببعض هذه الخطبة في النهج، قوله: ومن كلام له عليه السلام قاله للأصحاب في ساعة الحرب: وأيَّ امرىءٍ منكم أحسَّ من نفسه إلخ **(الكلام ١٢٢ من باب الخطب من النهج)**، ونقله المفيد في **«الإرشاد»** ص ١١٤ طبع طهران ١٣٧٧هـ وبين النسخ اختلاف في الجملة.

ثمَّ لمّا حمل أمير المؤمنين عليه السلام الناكثين وحمل أعوانه معه فما كان القوم إلاّ كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف، ولمّا رأت عائشة هزيمة القوم نادت يا بنيَّ الكرَّة الكرَّة اصبروا فإنّي ضامنة لكم الجنّة، فحفّوا بها من كلِّ جانب، واستقدموا حتّى دنوا من عسكر أمير المؤمنين عليه السلام، ولفّت عائشة نفسها ببردة كانت معها وقلبت يمينها على منكبها الأيمن إلى الأيسر والأيسر إلى الأيمن كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفعل عند الاستسقاء، ثمَّ قالت: ناولوني كفّاً من تراب، فناولوها فحثت به وجوه أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وقالت: شاهت الوجوه كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله بأهل بدر، ولمّا فعلت عائشة من السبِّ المبرح وحصب أصحاب أمير المؤمنين قال عليه السلام: وما رميت إذ رميت ولكنَّ الشيطان رمى وليعودنَّ وبالك عليك إن شاء الله تعالى.

قال المفيد في **«الجمل»**: روى محمّد بن موسى عن محمّد بن إبراهيم عن أبيه قال: سمعت معاذ بن عبد الله التميمي وكان قد حضر الجمل يقول: لمّا التقينا واصطففنا نادى منادي عليِّ بن أبي طالب عليه السلام: يا معشر قريش اتّقوا الله على أنفسكم فإنّي أعلم أنكم قد خرجتم وظننتم أنَّ الأمر لا يبلغ إلى هذا، فالله الله في أنفسكم فإنَّ السيف ليس له بقياً، فإن أحببتم فانصرفوا حتّى نحاكم هؤلاء القوم، وإن أحببتم فإليَّ فإنّكم آمنون بأمان الله، قال: فاستحيينا أشدَّ الحياء وأبصرنا ما نحن فيه ولكنَّ الحفاظ حملنا على الصبر مع عائشة حتّى قتل من قتل منّا فوالله لقد رأيت أصحاب عليّ عليه السلام وقد وصلوا إلى الجمل وصاح منهم صائح: اعقروه، فعقروه ونادى عليٌّ عليه السلام: من طرح السلاح فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، فوالله ما رأيت أكرم عفواً منه.

وفي **«الإمامة والسياسة»** للدينوري. قال حية بين جهين: نظرت إلى عليّ عليه السلام وهو يخفق

---

(١) الجمل، المفيد: ١٩١.

نعاساً فقلت له: تالله ما رأيت كاليوم قطُّ، إنَّ بإزائنا مائة ألف سيف وقد هزمت ميمنتك وميسرتك وأنت تخفق نعاساً؟ فانتبه ورفع يديه وقال: اللّهم إنك تعلم ما كتبت في عثمان سواداً في بياض وأنَّ الزبير وطلحة ألّبا وأجلبا عليَّ الناس اللّهمَّ أولانا بدم عثمان فخذه اليوم(١).

وفي «**مروج الذهب**»: قد كان أصحاب الجمل حملوا على ميمنة عليّ عليه السلام وميسرته فكشفوها فأتاه بعض ولد عقيل وعليٌّ عليه السلام يخفق نعاساً على قربوس سرجه فقال له: يا عمّ قد بلغت ميمنتك وميسرتك حيث ترى وأنك تخفق نعاساً؟ قال: اسكت يا ابن أخي فإنَّ لعمّك يوماً لا يعدوه، والله لا يبالي عمّك وقع على الموت أو وقع الموت عليه(٢).

ثمَّ بعث إلى ولده محمّد ابن الحنفيّة، وكان صاحب رايته: احمل على القوم فأبطأ محمد عليه وكان بإزائه قوم من الرُّماة ينتظر نفاد سهامهم، فأتاه عليٌّ عليه السلام فقال: هلاّ حملت؟ فقال: لا أجد متقدّماً إلاّ على سهم أو سنان وإني لمنتظر نفاد سهامهم وأحمل، فقال: احمل بين الأسنة فإنَّ للموت عليك جنّة، فحمل محمد فسكن بين الرماح والنشاب فوقف فأتاه عليٌّ فضربه بقائم سيفه وقال: أدركك عرق أمّك، وأخذ الراية وحمل وحمل الناس معه فما كان القوم إلاّ كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف وطافت بنو أُميّة بالجمل وقطع على خطام الجمل سبعون يداً من بني ضبّة، ورمي الهودج بالنشاب والنبل وعرقب الجمل، ووقع الهودج والناس مفترقون يقتتلون.

ولمّا سقط الجمل ووقع الهودج جاء محمّد بن أبي بكر فأدخل يده فقالت: من أنت؟ قال: أقرب الناس قرابة وأبغضهم إليك أنا محمد أخوك يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شيء؟ قالت: ما أصابني إلاّ سهم لم يضرّني.

فجاء عليٌّ عليه السلام حتّى وقف عليها فضرب الهودج بقضيب وقال: يا حميراء رسول الله أمرك بهذا؟ ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك، والله ما أنصفك الّذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك، وأمر أخاها محمّد فأنزلها في دار صفيّة بنت الحارث بن أبي طلحة العبدي وهي أُمّ طلحة الطلحات، ووقع الهودج والناس مفترقون يقتتلون، والتقى الأشتر بن مالك بن الحارث النخعيُّ وعبد الله بن الزبير فاعتركا وسقطا إلى الأرض عن فرسيهما والناس حولهم يجولون وابن الزبير ينادي: اقتلوني ومالكاً، واقتلوا مالكاً معي؛ فلا يسمعهما أحد لشدّة الجلاد ووقع الحديد ولا يراهما راء لظلمة النقع وترادف العجاج، وجاء ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت إلى

---

(١) الإمامة والسّياسة: ١/ ٩٦.

(٢) نهج السعادة: ١/ ٣١٧، ح ١٠٢، والإمامة والسّياسة: ١/ ٧١.

عليّ فقال: يا أمير المؤمنين لا تنكس اليوم رأس محمد واردد إليه الراية فدعا به وردَّ عليه الراية وقال:

اطعنهم طعن أبيك تحمد لا خير في حرب إذا لم توقد
بالمشرفيّ والقنا المشرَّد

ثمَّ استسقى فأُتي بعسل وماء فحسا منه حسوة وقال: هذا الطائفيُّ وهو غريب البلد فقال له عبد الله بن جعفر: ما شغلك ما نحن فيه عن علم هذا؟ قال: إنه والله يا بنيَّ ما ملأ بصدر عمّك شيء قطُّ من أمر الدنيا، ثمَّ دخل عليه السلام البصرة وكانت الواقعة في الموضع المعروف بالخريبة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ستّ وثلاثين.

وقال الدينوريُّ: فشقّ عليٌّ في عسكر القوم يطعن ويقتل ثمَّ خرج وهو يقول الماء الماء، فأتاه رجلٌ بأداوة فيها عسل فقال له: يا أمير المؤمنين أمّا الماء فإنّه لا يصلح لك في هذا المقام، ولكن أذوقك هذا العسل فقال: هات، فحسا منه حسوة ثمَّ قال: إنّ عسلك لطائفيٌّ، قال الرَّجل: لعجباً منك والله يا أمير المؤمنين لمعرفتك الطائفيَّ من غيره في هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر، فقال له عليٌّ عليه السلام: إنه والله يا ابن أخي ما ملأ صدر عمّك شيء قطُّ ولا هابه شيء، ثمَّ أعطى الراية لابنه محمّد وقال: هكذا فاصنع فاقتتل الناس ذلك اليوم قتالاً شديداً وكانوا كذلك يروحون ويغدون على القتال سبعة أيّام، وإنَّ عليّاً خرج إليهم بعد سبعة أيّام فهزمهم[1].

«قتل الزبير بن العوام»

كان الزُّبير ممّن ولّى يوم الجمل مدبراً وعدَّه الطبريُّ في «**التاريخ**» ممّن انهزم يوم الجمل فاختفى ومضى في البلاد قال: كتب إليَّ السريُّ عن شعيب عن سيف عن محمّد وطلحة قالا: ومضى الزبير في صدر يوم الهزيمة راجلاً نحو المدينة فقتله ابن جرموز، وممّن ولّى مدبراً مروان بن الحكم وأوى إلى أهل بيت من عنزة وعدَّ نفراً كثيراً منهم في تاريخه.

وقد تظافرت الأخبار عن الفريقين أنَّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام خرج بنفسه حاسراً على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء بين الصفين، فنادى يا زبير اخرج إليَّ فخرج شاكاً في سلاحه فدنا إليه حتى اختلفت أعناق دابّتيهما فقال له عليٌّ: ويحك يا زبير ما الذي أخرجك قال: دم عثمان، قال: قتل الله أولانا بدم عثمان أما تذكر يوماً لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله في بني بياضة وهو راكب حماره فضحك إليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وضحكت أنت معه فقلت أنت: يا رسول الله

(١) شرح أصول الكافي: ١٠/ ٧٠، وبحار الأنوار: ٢٠/ ١٩٢.

ما يدع عليٌّ زهوه فقال لك: ليس به زهو، أتحبّه يا زبير؟ فقلت: إني والله لأُحبّه فقال لك: إنّك والله ستقاتله وأنت له ظالم.

فقال الزبير: أستغفر الله لو ذكرتها ما خرجت، فقال عليه السلام: يا زبير ارجع فقال: وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان، وهذا والله العار الّذي لا يغسّل فقال: يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار، فانصرف الزبير ودخل على عائشة فقال: يا أُمّاه ما شهدت موطناً قطُّ في الشرك ولا في الإسلام إلاّ ولي فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن، فإنّه لا رأي لي فيه ولا بصيرة، وعلى نقل الدينوري في «**الإمامة والسياسة**» قال: وإني لعلى باطل، قالت له عائشة: يا أبا عبد الله خفت سيوف بني عبد المطلب، فقال: أما والله إنَّ سيوف بني عبد المطلب طوال حداد يحملها فتية أنجاد[1].

وقال المسعوديُّ في «**مروج الذهب**»: ولما رجع الزبير عن الحرب قال ابنه عبد الله: أين تدعنا؟ فقال: يا بنيّ أذكرني أبو حسن بأمر كنت قد أنسيته قال: بل خفت سيوف بني عبد المطلب فإنها طوال حداد يحملها فتية أنجاد فقال: لا والله ولكني ذكرت ما أنسانيه الدَّهر فاخترت العار على النار أبالجبن تعيّرني لا أبا لك؟ ثمّ أمال سنانه وشدَّ في الميمنة فقال عليٌّ عليه السلام: افرجوا له فقد هاجوه ثمَّ رجع فشدَّ في الميسرة، ثمَّ رجع فشدَّ في القلب، ثمَّ عاد إلى ابنه فقال: أيفعل هذا جبان.

وقال الدينوري: إنَّ الزبير قال لابنه عبد الله حينئذٍ: عليك بحربك، أمّا أنا فراجع إلى بيتي، فقال له ابنه عبد الله: الآن حين التقت حلقتا البطان واجتمعت الفئتان، والله لانغسل رؤوسنا منها، فقال الزبير لابنه: لا تعد هذا منّي جبناً، فوالله ما فارقت أحداً في جاهلية ولا إسلام، قال: فما يردُّك؟ قال: يردُّني ما إن علمته كسرك.

ثمَّ انصرف الزبير راجعاً إلى المدينة حتى أتى وادي السباع والأحنف بن قيس معتزل في قومه من بني تميم، فأتاه فقال له: هذا الزُّبير مارٌّ، فقال: ما أصنع بالزُّبير؟ وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً وهو مارٌّ إلى منزله سالماً.

فلحقه نفر من بني تميم فسبقهم إليه عمرو بن جرموز التميمي فقال للزبير: يا أبا عبد الله أحييت حرباً ظالماً أو مظلوماً ثمَّ تنصرف؟ أتائب أنت أم عاجز؟ فسكت عنه، ثمَّ عاوده فقال له: يا أبا عبد الله حدِّثني عن خصال خمس أسألك عنها: فقال: هات. قال: خذلك عثمان، وبيعتك علياً، وإخراجك أُمَّ المؤمنين، وصلاتك خلف ابنك، ورجوعك عن الحرب.

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٩٣ ح ٤٠١، والجمل للمدني: ١٣١، أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ٢٢٥.

فقال الزبير: نعم أخبرك أمّا خذلي عثمان فأمر قدّر الله فيه الخطيئة وأخّر التوبة، وأمّا بيعتي عليّاً فوالله ما وجدت من ذلك بدّاً حيث بايعه المهاجرن والأنصار وخشيت القتل، وأمّا إخراجنا أُمّنا عائشة فأردنا أمراً وأراد الله غيره، وأمّا صلاتي خلف ابني فإنما قدّمته عائشة أُمّ المؤمنين ولم يكن لي دون صاحبي أمر، وأمّا رجوعي عن هذه الحرب فظنّ بي ما شئت غير الجبن.

فقال ابن جرموز: والهفا على ابن صفيّة أضرم ناراً ثمّ أراد أن يلحق بأهله قتلني الله إن لم أقتله وسار معه ابن جرموز وقد كفر على الدّرع، فلمّا انتهى إلى وادي السباع استغفله فطعنه[١].

وقال المسعوديُّ في **مروج الذهب**. وقد نزل الزبير إلى الصلاة فقال لابن جرموز: أتؤمّني أو أؤمّك؟ فأمّه الزّبير فقتله عمرو في الصلاة، وأتى عمرو عليّاً بسيف الزبير وخاتمه ورأسه وقيل: إنه لم يأت برأسه فقال عليٌّ عليه السلام: سيف طال ما جلا به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن الحين ومصارع السوء، وقاتل ابن صفيّة في النار، ففي ذلك يقول ابن جرموز:

أتيت عليّاً برأس الزبير	وكنت أُرجّي به الزلفة
فبشّر بالنّار قبل العيان	وبئس بشارة ذي التحفة
فقلت إنّ قتل الزبير	لولا رضاك من الكلفة
فإن ترض ذلك فمنك الرضا	وإلاّ فدونك لي حلفة
وربِّ المحلّين والمحرمين	وربّ الجماعة والأُلفة
لسيّان عندي قتل الزبير	وضرطة عنز بذي الجحفة

«قتل طلحة»

في «**الكافي**»: قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته يوم الجمل: واعجباً لطلحة ألّب الناس على ابن عفان حتّى إذا قتل أعطاني صفقته بيمينه طائعاً، ثمّ نكث بيعتي اللّهمّ خذه ولا تمهله، وإنّ الزبير نكث بيعتي وقطع رحمي وظاهر على عدوّي فاكفنيه اليوم بما شئت[٢].

وقال الدينوري في «**الإمامة والسياسة**»: إنّ القوم اقتتلوا حول الجمل حتّى حال بينهم اللّيل وكانوا كذلك يروحون ويغدون على القتال سبعة أيّام وأنّ عليّاً خرج إليهم بعد سبعة أيّام

---

(١) الإمامة والسياسة: ٦٩/١. (٢) الكافي: ٥/ ٥٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ١٩٤.

فهزمهم، فلمّا رأى طلحة ذلك رفع يديه إلى السماء وقال: إن كنّا قد داهنّا في أمر عثمان وظلمناه فخذ له اليوم منّا حتى ترضى، فما مضى كلامه حتّى ضربه مروان ضربة أتى منها على نفسه فخرّ[١].

قال الطبري في «**التاريخ**» (**ص ٥٣٤ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ**) كتب إليّ السري عن شعيب عن سيف عن إسماعيل بن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال: قال طلحة يومئذٍ ـ أي يوم حرب الجمل ـ اللّهمّ أعط عثمان منّي حتّى يرضى، فجاء سهم غرب وهو واقف فخل ركبته بالسرج وثبت حتى امتلأ موزجه دماً، فلمّا ثقل قال لمولاه: اردفني وابغني مكاناً لا أُعرف فيه، فلم أر كاليوم شيخاً أضيع دماً، فركب مولاه وأمسكه وجعل يقول: قد لحقنا القوم حتى انتهى به إلى دار من دور البصرة خربة وأنزله في فيئها، فمات في تلك الخربة ودفن في بني سعد. انتهى[٢].

وقال المفيد في «**الجمل**»: روى إسماعيل بن عبد الملك عن يحيى بن شبل عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليه السلام قال: حدَّثني أبو عليٍّ زين العابدين عليه السلام قال: قال لي مروان بن الحكم: لمّا رأيت الناس يوم الجمل قد كشفوا قلت: والله لأدركنَّ ثأري ولأفزنَّ منه الآن، فرميتُ طلحة فأصبت نساه. فجعل الدَّم ينزف، فرميته ثانية فجاءت به فأخذوه حتّى وضعوه تحت شجرة فبقي تحتها ينزف منه الدَّم حتى مات.

وفي «**مروج الذهب**» للمسعودي بعدما رجع الزبير عن الحرب نادى عليٌّ عليه السلام طلحة حين رجع الزُّبير: يا أبا محمّد ما الّذي أخرجك؟ قال: الطلب بدم عثمان. قال عليٌّ عليه السلام: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: اللّهمَّ والِ من والاه وعاد من عاداه؟ وأنت أوَّل من بايعني ثمَّ نكث، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**من نكث فإنما ينكث على نفسه**﴾ [الفتح: ١٠] فقال: أستغفر الله ثمَّ رجع، فقال مروان بن الحكم: رجع الزبير ويرجع طلحة ما أبالي رميت ههنا أم ههنا فرماه في أكحله فقتله، فمرّ به عليٌّ عليه السلام بعد الوقعة في موضعه في قنطرة قرة فوقف عليه فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون والله لكنت كارهاً لهذا أنت والله كما قال القائل:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
كأنّ الثريا علّقت في يمينه ... وفي خدّه الشعرى وفي الآخر البدر

وذكر أنّ طلحة لما ولّى سمع وهو يقول:

ندمت ندامة وضلّ حلمي ... ولهفي ثمّ لهف أبي وأمّي

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٩٧.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٣٤، والفتنة ووقعة الجمل: ١٦٦.

ندمت ندامة الكسعي لمّا طلبت رضا بني حزم بزعمي

وهو يمسح عن جبينه الغبار وهو يقول: وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وقيل: إنه سمع يقول هذا الشعر وقد جرحه في جبهته عبد الملك ورماه مروان في أكحله وقد وقع صريعاً يجود بنفسه.

ونقل الطبرسي في **«الاحتجاج»** عن نصر بن مزاحم أنّ قتل طلحة كان قبل قتل الزُّبير فإنه قال: روى نصر بن مزاحم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام حين وقع القتال وقتل طلحة تقدّم على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء بين الصفين فدعا الزبير فدنا إليه إلخ[1].

قال: وروي أيضاً أنّ مروان بن الحكم يوم الجمل كان يرمي بسهامه في العسكرين معاً ويقول: أصبت أيّاً منهما فهو فتح لقلة دينه وتهمته للجميع.

بيان: الكسع بالضم فالفتح حيّ من اليمن ومنه قولهم ندامة الكسعي. قال الميداني في **«مجمع الأمثال»** في بيان مثلهم: أندم من الكسعي ما هذا لفظه: قال حمزة: هو رجل من كسعة واسمه محارب بن قيس، وقال غيره: هو من بني كسع ثمّ من بني محارب واسمه غامد بن الحارث ومن حديثه أنه كان يرعى إبلاً له بوادٍ معشب فبينا هو كذلك إذا أبصر بنبعة في صخرة فأعجبته فقال: ينبغي أن يكون هذه قوساً، فجعل يتعهّدها ويرقبها حتى أدركت قطعها وجفّفها فلمّا جفّت اتخذت منها قوساً وأنشأ يقول:

يا ربّ وفقني لنحت قوسي فإنها من لذّتي لنفسي
وانفع بقوسي ولدي وعرسي أنحتها صفراء مثل الورس
صفراء ليست كقسيّ النكس

ثمّ دهنها وخطمها بوتر ثمّ عمد إلى مكان من برايتها فجعل منه خمسة أسهم وجعل يقلّبها في كفّه ويقول:

هنّ وربّي أسهم حسان تلذُّ للرامي بها البنان
كأنّما قوّمها ميزان فأبشروا بالخصب يا صبيان
إن لم يعقني الشؤم والحرمان

ثمّ خرج حتّى أتى قترة على موارد حمر فكمن فيها، فمرَّ قطيع منها فرمى عيراً منها فأمخطه السهم أي أنفذه فيه وجازه وأصاب الجبل فأورى ناراً فظنَّ أنّه أخطأ فأنشأ يقول:

أعوذ بالله العزيز الرحمٰن من نكد الجدّ معاً والحرمان

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ١٩٨، ح ١٤٨، الاحتجاج: ١/ ٢٢٧.

ما لي رأيت السهم بين الصّوان يوري شراراً مثل لون العقيان

فأخلف اليوم رجاء الضبيان

ثمَّ مكث على حاله فمرَّ قطيع آخر فرمى عيراً منها فأمخطه السهم وصنع صنيع الأوَّل فأنشأ يقول:

لا بارك الرّحمٰن في رمي القُتر أعوذ بالخالق من سوء القدر

أأمخط السهم لإزهاق الضرر أم ذاك من سوء احتيال ونظر

ثمَّ مكث على حاله فمرَّ قطيع آخر فرمى عيراً منها فأمخطه السهم وصنع صنيع الثاني فأنشأ يقول:

ما بال سهمي يوقد الحبا حبا قد كنت أرجو أن يكون صائباً

وأمكن العير وولّى جانباً فصار رأيي فيه رأياً خائباً

ثمَّ مكث مكانه فمرَّ به قطيع آخر فرمى عيراً منها فصنع صنيع الثالث فأنشأ يقول:

يا أسفاً للشؤم والجدّ النكد أخلف ما أرجو لأهل وولد

ثمَّ مرَّ به قطيع آخر فرمى عيراً منها فصنع صنيع الرابع فأنشأ يقول:

أبعد خمس قد حفظت عدَّها أحمل قوسي وأريد ردَّها

أخزى الإله لينها وشدَّها والله لا تسلم عندي بعدها

ولا أرجّي ما حييت رفدها

ثمَّ عمد إلى قوسه فضرب بها حجراً فكسّرها، ثمَّ بات فلمّا أصبح نظر فإذاً الحمر مطّرحة حوله مصرعة وأسهمه بالدّم مضرَّجة فندم على كسر القوس فشدَّ على إبهامه فقطعها وأنشأ يقول:

ندمت ندامة لو أنَّ نفسي تطاوعني إذا لقطعت خمسي

تبيَّن لي سفاء الرأي منّي لعمر أبيك حين كسرت قوسي

قال الفرزدق:

ندمت ندامة الكُسعي لمّا غدت منّي مطلّقة نوار

وكانت جنّتي فخرجت منها كآدم حين لجَّ به الضرار

وكنت كفاقيء عينيه عمداً فأصبح ما يضيء له النهار

ولو إنّي ملكت يدي وقلبي لكان عليَّ للقدر الخيار

وقال آخر:

ندمت ندامة الكسعي لمّا رأت عيناه ما صنعت يداه

وقال علم الهدى في «**الشافي**»: إنَّ طلحة تمثّل بهذا البيت، وروى المفيد في آخر «**الجمل**» مسنداً أنَّ طلحة لمّا قدم مكّة بعد قتل عثمان وبيعته علياً عليه السلام وقبل حرب الجمل جاء إلى عائشة فلمّا رأته قالت: يا أبا محمّد قتلت عثمان وبايعت عليّاً فقال لها: يا أمّاه مثلي كما قال الشاعر:

ندمت ندامة الكسعي لمّا رأت عيناه ما صنعت يداه

«بحث كلامي»

قد بيّن في المجلد الأول من «**تكملة المنهاج**» (ص ٣٦٧ ـ ٣٧٩) أنّ محاربي عليّ ومنهم أصحاب صفين والجمل كفرة، وأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يسر فيهم بسيرة الكفار، لأنَّ التساوي في الكفر لا يوجب التساوي في جميع أحكامه، لأنَّ أحكام الكفر مختلفة، فحكم الحربي خلاف حكم الذّمي، وحكم أهل الكتاب خلاف حكم من لا كتاب له، من عبّاد الأصنام، فإنّ أهل الكتاب يؤخذ منهم الجزية ويقرُّون على أديانهم، ولا يفعل ذلك بعبّاد الأصنام، وحكم المرتدّ بخلاف حكم الجميع، وإذا كانت أحكام الكفر مختلفة مع الاتفاق في كونه كفراً لا يمتنع أن يكون من حاربه عليه السلام كافراً وإن سار فيهم بخلاف أحكام سائر الكفار كما ستتلو عليك طائفة من سيرته عليه السلام في أصحاب الجمل، وفعله عليه السلام حجّة في الشرع بما ثبت من إمامته وعصمته فيجب أن يكون سيرته فيهم هو الّذي يجب العمل به.

فإن قلت: فما الوجه فيما نقل من الفريقين أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: قاتل ابن صفيّة في النّار، ثمَّ إنّ رجوعه عن الحرب يدلُّ على توبته فلا يشمله أحكام المحاربين، على أنّ الزبير كان من العشرة المبشّرين بالجنة، وكذلك الكلام في طلحة أنَّ قوله: ندمت ندامة الكسعي، يدلُّ على أنّه تاب وكان من العشرة أيضاً؟

قلت: قد أورد كثيراً من هذه الاعتراضات القاضي عبد الجبّار في «**المغني**» وأجابها علم الهدى الشريف المرتضى في الفصل الأخير من «**الشافي**» بما لا مزيد عليه ومن نظر في تلك الأجوبة نظر دقّة وتأمّل لرأى أنّها شافية كافية، وذكر بعض تلك الأسئلة وأجوبتها في الزبير خاصة في كتابه الموسوم بـ«**تنزيه الأنبياء**»، وكأنَّ ما أتى به فيه هو خلاصة ما فصّله في «**الشافي**» وقد صنف الشافي قبله، قال:

فإن قيل: فما الوجه فيما ذكره النظام من أنّ ابن جرموز لمّا أتى أمير المؤمنين عليه السلام برأس الزبير وقد قتله بواد السباع قال أمير المؤمنين عليه السلام: والله ما كان ابن صفيّة بجبان ولا لئيم ولكنّ الحين ومصارع السوء، فقال ابن جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام:

سمعت النّبيّ ﷺ يقول: بشر قاتل ابن صفيّة بالنّار، فخرج ابن جرموز وهو يقول شعراً: أتيت علياً برأس الزبير - إلى آخر الأبيات، وقد كان يجب على عليّ عليه السلام أن يقيده بالزُّبير وكان يجب على الزبير إن بان له أنه على خطأ أن يلحق بعليّ عليه السلام فيجاهد معه؟

الجواب: أنّه لا شبهة في أنَّ الواجب على الزبير أن يعدل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وينحاز إليه ويبذل نصرته لا سيما إذا كان رجوعه على طريق التوبة والإنابة، ومن أظهر ما أظهر من المباينة والمحاربة إذا تاب وتبين خطأه يجب عليه أن يظهر ضدَّ ما كان أظهره لا سيّما وأمير المؤمنين عليه السلام في تلك الحال مصاف لعدوِّه ومحتاج إلى نصرة من هو دون الزبير في الشجاعة والنجدة، قال: وليس هذا موضع استقصاء ما هو يتصل بهذا المعنى، وقد ذكرناه في كتابنا «**الشافي**».

فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فإنّما عدل أن يقيد ابن جرموز بالزبير لأحد أمرين إن كان ابن جرموز قتله غدراً وبعد أن آمنه، أو أقتله بعد أن ولّى مدبراً وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام أمر أصحابه أن لا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، فلمّا قتل ابن جرموز الزبير مدبراً كان بذلك عاصياً مخالفاً لأمر إمامه عليه السلام، فالسبب في أنه عليه السلام لم يقده به أنَّ أولياء الدّم الّذين هم أولاد الزبير لم يطالبوا بذلك ولا حكموا فيه، وكان أكبرهم والمنظور إليه عبد الله محارباً لأمير المؤمنين عليه السلام مجاهراً له بالعداوة والمشاقة فقد أبطل بذلك حقه، لأنّه لو أراد أن يطالب به لرجع عن الحرب وبايع وسلم ثمّ طالب بعد ذلك فانتصف له منه.

وإن كان الأمر الآخر وهو أن يكون ابن جرموز ما قتل الزبير إلاّ مبارزة بغير غدر ولا أمان تقدّم على ما ذهب إليه قوم، فلا يستحقُّ بذلك قوداً ولا مسألة ههنا في القود.

فإن قيل: على هذا الوجه ما معنى بشارته بالنار؟

قلنا: المعنى فيها الخبر عن عاقبة أمره لأنَّ الثواب والعقاب إنما يحصلان على عواقب الأعمال وخواتيمها، وابن جرموز هذا خرج مع أهل النهر على أمير المؤمنين عليه السلام فقتل هناك، فكان بذلك الخروج من أهل النار لا بقتل الزبير.

فإن قيل: فأيُّ فائدة لإضافة البشارة بالنار إلى قتل الزبير وقتله طاعة وقربة، وإنما يجب أن يضاف البشارة بالنار إلى ما يستحقُّ به النار؟.

أحدهما أنّه ﷺ أراد التعريف والتنبيه وإنما يعرف الإنسان بالمشهور من أفعاله والظاهر من أوصافه، وابن جرموز كان غفلاً خاملاً وكان فعله بالزبير من أشهر ما يعرف به مثله، وهذا وجه في التعريف صحيح.

والجواب الثاني أنَّ قتل الزبير إذا كان باستحقاق على وجه الصواب من أعظم

الطاعات وأكبر القربات، ومن جرى على يده يظنُّ به الفوز بالجنّة، فأراد عليه السلام أن يعلّم الناس أنَّ هذه الطاعة العظيمة الّتي يكثر ثوابها إذا لم تعقّب بما يفسده غير نافعة لهذا القاتل، وأنه سيأتي من فعله في المستقبل ما يستحقُّ به النار، فلا تظنُّوا به لما اتّفق على يده من هذه الطاعة خيراً.

وهذا يجري مجرى أن يكون لأحدنا صاحب خصيص به خفيف في طاعته مشهور بنصيحته فيقول هذا المصحوب بعد برهة من الزّمان لمن يريد إطرافه وتعجيبه: أوليس صاحبي فلان الّذي كانت له من الحقوق كذا وكذا وبلغ من الاختصاص بي إلى منزلة كذا قتلته وأبحت حريمه وسلبت ماله وإن كان ذلك إنما استحقّه بما تجدّد منه في المستقبل، وإنما عرف بالحسن من أعماله على سبيل التعجب وهذا واضح، انتهى.

وقال في «الشافي»: وأمّا الكلام في توبة طلحة فهو على المخالف أضيق وأحرج من الكلام في توبة الزبير، لأنَّ طلحة قتل بين الصفين وهو مباشر للحرب مجتهد فيها ولم يرجع عنها حتّى أصابه السهم فأتى على نفسه، وادّعاء توبة مثل هذا مكابرة.

فأمّا قوله أنه لمّا أصابه السهم أنشد البيت الّذي ذكره وأنّه يدلُّ على توبته فبعيد من الصواب، بل البيت المرويُّ بأنه يدلُّ على خلاف التوبة أولى، لأنّه جعل ندمه مثل ندامة الكسعي، وخبر الكسعي معروف لأنه ندم حيث لا ينفعه الندامة وحيث فات الأمر وخرج عن يده، ولو كان ندم طلحة واقعاً على وجه التوبة الصحيحة لم يكن مثل ندامة الكسعي، بل كان شبيهاً لندامة من تلافي ما فرّط على وجه ينتفع به.

ثمَّ أخذ بردِّ ما تمسّك بها القاضي عبد الجبار في توبته وتصحيح عمله فراجع فإنه رحمه الله أفاد بما هو فوق المراد.

أقول: لا يخفى أنَّ طلحة قال البيت في حال كان يجود فيها بنفسه ولا يقبل التوبة في مثل تلك الحال كما حققناه في المجلّد الأول من التكملة.

وأمّا كونهما من العشرة المبشّرين بالجنّة ففي «الاحتجاج» نقلاً عن سليم بن قيس الهلالي: لما التقى أمير المؤمنين عليه السلام أهل البصرة يوم الجمل نادى الزبير يا أبا عبد الله اخرج إليَّ، فخرج الزُّبير ومعه طلحة، قال: والله إنكما لتعلمان وأولوا العلم من آل محمّد وعائشة بنت أبي بكر أنَّ كلَّ أصحاب الجمل ملعونون على لسان محمّد صلى الله عليه وآله وقد خاب من افترى، قال الزبير: كيف نكون ملعونين ونحن أهل الجنّة؟ فقال عليٌّ عليه السلام: لو علمت أنكم من أهل الجنّة لما استحللت قتالكم: فقال له الزبير: أما سمعت حديث سعيد بن عمرو بن نفيل وهو يروي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: عشرة من قريش في الجنّة؟ قال عليٌّ عليه السلام: سمعته يحدّث بذلك عثمان في خلافته، فقال الزبير: أفتراه كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال له

عليٌّ عليه السلام: لست أُخبرك بشيء حتّى تسمّيهم، قال الزبير: أبو بكر وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن عمرو بن نفيل، فقال له عليٌّ عليه السلام: عددت تسعة فمن العاشر؟ قال له: أنت؛ قال له عليٌّ عليه السلام: أمّا أنت فقد أقررت أنّي من أهل الجنّة، وأمّا ما ادّعيت لنفسك وأصحابك فأنا به من الجاحدين الكافرين، قال له الزبير: أفتراه كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: ما أراه كذب ولكنّه والله اليقين، فقال عليٌّ عليه السلام: والله إنَّ بعض من سميّته لفي تابوت في شعب في جبّ في أسفل درك من جهنّم على ذلك الجبّ صخرة إذا أراد الله أن يسعّر جهنّم رفع تلك الصخرة سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلاّ أظفرك الله بي وسفك دمي على يديك، وإلاّ أظفرني الله عليك وعلى أصحابك وعجّل أرواحكم إلى النار، فرجع الزبير إلى أصحابه وهو يبكي[1].

وروى حسين الأشقر، عن أبي يعقوب يوسف البزاز، عن جابر، عن أبي جعفر محمّد ابن عليّ عليه السلام أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لما مرَّ على طلحة بين القتلى قال: أقعدوه فأُقعد فقال عليه السلام: إنه كانت لك سابقة ولكنَّ الشيطان دخل في منخريك فأوردك النّار[2].

وروى المفيد في «**الجمل**» مثل كلامه ذلك في الزُّبير أيضاً أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لما رأى رأس الزُّبير وسيفه قال للأحنف الّذي جاء برأسه إليه عليه السلام: ناولني السيف، فناوله فهزَّه وقال: سيف طالما قاتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن الحين ومصارع السوء، ثمَّ تفرَّس في وجه الزُّبير وقال: لقد كان لك برسول الله صلى الله عليه وآله صحبة ومنه قرابة، ولكن دخل الشيطان منخرك فأوردك هذا المورد. ومن أراد أكثر من ذلك فعليه بـ«**الشافي**».

«كلامه عليه السلام حين قتل طلحة وتفرق الناس»

قال الشيخ المفيد قدِّس سرُّه في «**الإرشاد**»: ومن كلامه عليه السلام حين قتل طلحة وانفضَّ أهل البصرة: بنا تسنّمتم الشرف، وبنا انفجرتم. إلخ (**ص ١٢١ طبع طهران ١٣٧٧هـ**).

وذكر كلامه هذا في النهج أيضاً وهو الخطبة الرابعة منه وبين النسختين اختلاف في الجملة إلاّ أنَّ في ذيلهما بوناً بعيداً.

فما في النهج: غرب رأي امرىءٍ تخلّف عنّي، ما شككت في الحقّ مذ أُريته لم يوجس موسى خيفة على نفسه، أشفق من غلبة الجهّال ودول الضّلال، اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل، من وثق بماء لم يظمأ.

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ٢٧٩، والأنوار العلوية: ٢٩٠.

(٢) الاحتجاج: ١/ ٢٣٩، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٢٣٨.

وما في «الإرشاد» غرب فهم امرىء تخلّف عنّي، ما شككت في الحقّ منذ أُريته كان بنو يعقوب على المحجّة العظمى حتى عقّوا أباهم وباعوا أخاهم، وبعد الإقرار كانت توبتهم باستغفار أبيهم وأخيهم غفر لهم.

«كلام أمير المؤمنين عليه السلام عند تطوفه على القتلى وتكليمه إياهم»

نقل كلامه عليه السلام عند تطوّفه على القتلى الشيخ الأجلّ المفيد في «الجمل» و«الإرشاد» وبعضه العالم الجليل الطبرسي في «الاحتجاج» وذكر طائفة منه غيرهما من الجوامع:

ففي «الجمل» لمّا انجلت الحرب بالبصرة وقتل طلحة والزبير وحملت عائشة إلى قصر بني خلف ركب أمير المؤمنين عليه السلام وتبعه أصحابه وعمّار بن ياسر رحمه الله يمشي مع ركابه حتّى خرج إلى القتلى يطوف عليهم، فمرَّ بعبد الله بن خلف الخزاعي وعليه ثياب حسان مشهرة فقال الناس: هذا والله رأس الناس، فقال عليه السلام: ليس برأس الناس ولكنّه شريف منيع النفس.

ثمَّ مرَّ بعبد الرَّحمٰن بن عتاب بن أسيد فقال: هذا يعسوب القوم ورأسهم كما تروه، ثمَّ جعل يستعرض القتلى رجلاً رجلاً، فلمّا رأى أشراف قريش صرعى في جملة القتلى قال:

جدعت أنفي أما والله إن كان مصرعكم لبغيضاً إليَّ، ولقد تقدَّمت إليكم وحذَّرتكم عضَّ السيوف وكنتم أحداثاً لا علم لكم بما ترون، ولكن الحين ومصارع السوء ونعوذ بالله من سوء المصرع.

وفي «مروج الذهب»: ووقف عليه السلام على عبد الرَّحمٰن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أُميّة وهو قتيل يوم الجمل فقال:

لهفي عليك يعسوب قريش قتلت الغطاريف من بني عبد مناف شفيت نفسي وجدعت أنفي، فقال له الأشتر: ما أشدَّ جزعك عليهم يا أمير المؤمنين، وقد أرادوا بك ما نزل بهم؟ فقال لي: إنه قامت عني وعنهم نسوة لم يقمن عنك.

قال: وأُصيب كفُّ ابن عتاب بمنى ألقاها عقاب وفيها خاتم نقشه: عبد الرَّحمٰن بن عتاب، وكان اليوم الّذي وجد فيه الكفُّ بعد يوم الجمل بثلاثة أيام[1].

أقول: الظاهر أنَّ قصة الكفّ لا تخلو من اختلاق وفرية وإن نقلها أبو جعفر الطبري أيضاً.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١١/١٢٣.

ثمَّ سار حتّى وقف على كعب بن سور القاضي وهو مجدَّل بين القتلى وفي عنقه المصحف فقال: نحّوا المصحف وضعوه في موضع الطهارة، ثمَّ قال: أجلسوا لي كعباً فأُجلس ورأيته ينخفض إلى الأرض فقال: يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدني ربّي حقاً فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثمَّ قال: اضجعوا كعباً.

وقال في «**الإرشاد**»: ثمَّ مرَّ بكعب بن سور فقال: هذا الّذي خرج علينا في عنقه المصحف يزعم أنّه ناصر أُمّه يدعو الناس إلى ما فيه وهو لا يعلم ما فيه، ثمَّ استفتح فخاب كلّ جبّار عنيد أما إنه دعا الله أن يقتلني فقتله الله، أجلسوا كعب بن سور فأُجلس فقال له: يا كعب لقد وجدت. إلخ[١].

وقال الطبريُّ في «**التاريخ**»: قد كان كعب بن سور أخذ مصحف عائشة فبدر بين الصفين يناشدهم الله عزَّ وجلَّ في دمائهم وأعطى درعه فرمى بها تحته وأُتي بترسه فتنكّبه فرشقوه رشقاً واحداً فقتلوه فكان أوّل مقتول بين يدي أمير المؤمنين وعائشة من أهل الكوفة ثمَّ روي عن مخلَّد بن كثير عن أبيه قال: أرسلنا مسلم بن عبد الله يدعو بني أبينا فرشقه أصحاب الجمل رشقاً واحداً كما صنع بكعب فقتلوه فكان أوّل من قتل بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

ثمَّ مرَّ عليه السلام بطلحة بن عبيد الله فقال: هذا الناكث بيعتي والمنشيء الفتنة في الأُمّة والمجلب عليَّ والدّاعي إلى قتلي وقتل عترتي أجلسوا طلحة بن عبيد الله فأُجلس فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يا طلحة قد وجدت ما وعدني ربّي حقاً فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً، ثمَّ قال: أضجعوا طلحة وسار فقال له بعض من كان معه: يا أمير المؤمنين أتكلّم كعباً وطلحة بعد قتلهما؟ فقال: أما والله لقد سمعا كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر، ولو أذن لهما في الجواب لرأيت عجباً، ويعني بالقليب بئر بدر.

وقد مضى كلامه عليه السلام لما مرَّ بطلحة وعبد الرحمٰن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل: لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً أما والله لقد كنت ـ إلخ. (**الكلام ٢١٧ من باب الخطب**).

ومرَّ عليه السلام بمعبد بن المقداد بن عمر وهو في الصرعى فقال عليه السلام: رحم الله أبا هذا إنما كان رأيه فينا أحسن من رأي هذا، فقال عمّار: الحمد لله الّذي أوقعه وجعل خدَّه الأسفل إنّا والله يا أمير المؤمنين لا نبالي عمّن عنِد عن الحقِّ من ولد ووالد، فقال عليه السلام رحمك الله يا عمّار وجزاك الله عن الحقِّ خيراً.

---

(١) الإرشاد: ١/٢٥٦، والجمل للمدني: ١٥٦.

(٢) الفتنة ووقعة الجمل: ١٦٨، وتاريخ الطبري: ٣/ ٥٣٥.

ومرَّ بعبد الله بن ربيعة بن درّاج وهو في القتلى فقال: هذا البائس ما كان أخرجه؟ أدين أخرجه أم نصر لعثمان؟ والله ما كان رأي عثمان فيه ولا في أبيه بحسن.

ثمَّ مرَّ بمعيد بن زهير بن أبي أُمية فقال: لو كانت الفتنة برأس الثريّا لتناولها هذا الغلام، والله ما كان فيها بذي نحيزة ولقد أخبرني من أدركه وأنه ليولول فرقاً من السّيف[1].

بيان: قيل: النخيرة صوت في الأنف، يريد عَلَيَّلا أنّه كان يخاف من الحرب ولم يكن فيها صوت. وأقول: كذا مذكورة في «**إرشاد المفيد**» ولكنه تصحيف وأصله كما في جملة: والله ما كان فيها بذي مخبرة، والمخبر والمخبرة بفتح الأوّل والثالث وبضمّ الثالث في الثاني أيضاً العلم بالشيء والوقوف عليه، فالمراد أنه كان غلاماً حدثا غمراً لا علم له بعواقب الأُمور وآداب الحرب والقتال ونحوها، فلا حاجة إلى ذلك التكلف الناشيء من التحريف.

ثمَّ مرَّ بمسلم بن قرظة فقال: البرُّ أخرج هذا والله لقد كلّمني أن أكلّم عثمان في شيء كان يدّعيه قِبَله بمكّة، فلم أزل به حتّى أعطاه وقال لي: لولا أنت ما أعطيته، إن هذا ما علمت، بئس أخو العشيرة ثمَّ جاء المشؤوم للحين ينصر عثمان.

ثمَّ مرَّ بعبد الله بن حميد بن زهير فقال: هذا أيضاً ممّن أوضع في قتالنا زعم يطلب الله بذلك، ولقد كتب إليَّ كتاباً يؤذي عثمان فيها فأعطاه شيئاً فرضي عنه وفي «**الجمل**» ثمّ مرَّ بعبد الله بن عمير بن زهير قال: هذا أيضاً ممّن أوضع في قتلانا يطلب بزعمه دم عثمان ولقد كتب ـ إلخ.

ثمَّ مرَّ بعبد الله بن حكيم بن حزام فقال: هذا خالف أباه في الخروج وأبوه حين لم ينصرنا قد أحسن في بيعته لنا، وإن كان قد كفَّ وجلس حين شكَّ في القتال ما ألوم اليوم من كفَّ عنّا وعن غيرنا ولكنَّ المليم الّذي يقاتلنا.

ثمَّ مرَّ بعبد الله بن المغيرة بن الأخنس فقال: أمّا هذا فقتل أبوه يوم قتل عثمان في الدّار فخرج مغضباً لقتل أبيه وهو غلام حدث جبن لقتله، وفي «**الجمل**» فخرج غضباً لمقتل أبيه وهو غلام لا علم له بعواقب الأُمور.

ثمَّ مرَّ بعد الله بن أبي عثمان بن الأخنس بن شريق فقال: أما هذا فكأني أنظر إليه وقد أخذ القوم السيوف هارباً يعدو من الصفّ فنهنهت عنه فلم يسمع من نهفت حتى قتله وكان هذا ممّا خفي على فتيان قريش أغمار لا علم لهم بالحرب خدعوا واستزلّوا فلمّا وقفوا لحجوا فقتلوا.

---

(١) الإرشاد: ١/ ٢٥٥، والجمل للمدني: ١٥٤.

ثمَّ أمر عليه السلام مناديه فنادى: من أحبَّ أن يواري قتيله فليواره، وقال عليه السلام واروا قتلانا في ثيابهم الّتي قتلوا فيها فإنّهم يحشرون على الشهادة، وإنّي لشاهد لهم بالوفاء.

ثمَّ رجع إلى خيمته واستدعى عبد الله بن أبي رافع وكتب كتاباً إلى أهل المدينة، وآخر إلى أهل الكوفة أخبرهم بالفتح وعمّا جرى عليهم من فعل القوم ونكثهم ومقاتلتهم وغيرها ممّا وقعت في وقعة الجمل وقد نقلنا الكتب في صدر شرح هذا الكتاب فلا عائدة إلى الإعادة[١].

«خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في البصرة بعدما كتب إلى المدينة والكوفة بالفتح»

قال المفيد في «**الجمل**»: لمّا كتب أمير المؤمنين عليه السلام بالفتح قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمّد وآله ثم قال:

أمّا بعد فإنَّ الله غفور رحيم عزيز ذو انتقام جعل عفوه ومغفرته لأهل طاعته وجعل عذابه وعقابه لمن عصاه وخالف أمره، وابتدع في دينه ما ليس منه، وبرحمته نال الصالحون، وقد أمكنني الله منكم يا أهل البصرة وأسلمكم بأعمالكم، فإيّاكم أن تعودوا لمثلها، فإنّكم أوّل من شرع القتال والشقاق، وترك الحق والإنصاف[٢].

أقول: هذه الخطبة وما كلّم عليه السلام به القتلى ليست في النهج إلاّ كلامه الّذي كلّم به طلحة وعبد الرَّحمٰن لمّا مرَّ بهما كما مضى آنفاً.

«عدل علي عليه السلام وزهده»

ثمَّ نزل عليه السلام ودخل على بيت مال الكوفة[٣] في جماعة من المهاجرين والأنصار فنظر إلى ما فيه من العين والورق فجعل يقول: يا صفراء غرِّي غيري، وأدام النظر إلى المال مفكّراً، فلمّا رأى كثرة ما فيها فقال: هذا جنياي، ثمَّ قال: أقسموه بين أصحابي ومن معي خمسمائة خمسمائة، ففعلوا فما نقص درهم واحد وعدد الرِّجال اثنا عشر ألفاً، وقبض ما كان في عسكرهم من سلاح ودابة ومتاع وآلة وغير ذلك، فباعه وقسّمه بين أصحابه وأخذ لنفسه ما أخذ لكلِّ واحد ممن معه من أصحابه وأهله خمسمائة درهم، فأتاه رجل من أصحابه

(١) الإرشاد: ١/٢٥٥، والجمل: ١٥٥.

(٢) الجمل، المفيد: ٢١٤، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٣٨٠.

(٣) في نسخة: البصرة.

فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ اسمي سقط من كتابك أو قال وخلفني عن حضور كذا وأدلى بعذر فدفع الخمسمائة الّتي كانت سهمه عليه السلام إلى ذلك الرَّجل[1].

وروى أبو مخنف لوط بن يحيى عن رجاله قال: لمّا أراد أمير المؤمنين عليه السلام التوجه إلى الكوفة قام في أهل البصرة فقال: ما تنقمون عليّ يا أهل البصرة؟ وأشار إلى قميصه وردائه فقال: والله إنهما لمن غزل أهلي، ما تنقمون منّي يا أهل البصرة وأشار إلى صرَّة في يده فيها نفقته فقال: والله ما هي إلاّ من غلّتي بالمدينة، فإن أنا خرجت من عندكم بأكثر مما ترون فأنا عند الله من الخائنين[2].

وروى الثوري عن داود بن أبي هند عن أبي حرز الأسود قال: لقد رأيت بالبصرة لمّا قدم طلحة والزبير أرسلا إلى أناس من أهل البصرة أنا فيهم، فدخلنا بيت المال معهما فلمّا رأيا ما فيه من الأموال قالا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، ثمَّ تليا هذه الآية: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠] إلى آخر الآية وقالا: نحن أحقُّ بهذا المال من كلِّ أحد، ولمّا كان من أمر القوم ما كان دعانا عليُّ بن أبي طالب عليه السلام فدخلنا معه بيت المال، فلمّا رأى ما فيه ضرب إحدى يديه على الأخرى وقال: غرِّي غيري، وقسّمه بين أصحابه بالسّويّة حتى لم يبق إلاّ خمسمائة درهم عزلها لنفسه، فجاءه رجل فقال: إنّ اسمي سقط من كتابك فقال عليه السلام: ردّوها ردّوها عليه، ثمَّ قال: الحمد لله الّذي لم يصل إليَّ من هذا المال شيءٌ ووفّره على المسلمين[3].

أقول: وقد مضى نحوها المروي عن أبي الأسود الدؤلي آنفاً. ويا ليت كلامه عليه السلام بلغ إلى أمراء هذه الأعصار وقرع أسماعهم الموقورة لعلّهم يعقلون ومن نوم الغفلة عن الحقِّ ينتبهون، ومن فحص عن سيرتهم شاهت وجوههم رأى أن ليس شأنهم إلا تزويق الباطل وتزيين العاطل، وليس مقالهم إلاّ أن لا يصل إلى غيرهم شيء من حطام الدنيا ولعمري قد أصبحنا في دهر عنود وزمان كنود يظلم على عباد الله فوق العدِّ والإحصاء ولم يبق من العدل إلاّ اسمه كالعنقاء والكيمياء ولو تفوّه زعيم ربّانيٌّ وهاد إلهيٌّ أين العدل والإنصاف؟ ولم غلب على الناس الفقر والإفلاس؟ أُجيب بالسجن والنفي والقتل، فالحريُّ بنا أن نثني القلم على ما كنّا بصدده لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً.

---

(١) الجمل: ٢١٤، وشرح نهج البلاغة: ١/٢٤٩.

(٢) نهج السعادة: ١/٤١٣، ح ١٢٧، والجمل: ٢٢٤.

(٣) الجمل: ٢١٥.

«خطبته عليه السلام بعد قسمة المال، وخطبة أخرى له عليه السلام لما خرج من البصرة»

روى الواقدي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا فرغ من قسمة المال قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أيّها النّاس إني أحمد الله على نعمه، قتل طلحة والزبير وهربت عائشة، وأيم الله لو كانت طلبت حقاً وهانت باطلاً لكان لها في بيتها مأوى، وما فرض الله عليها الجهاد وإنَّ خطأها في نفسها وما كانت والله على القوم أشأم من ناقة الصخرة وما ازداد عدوُّكم بما صنع الله إلاّ حقداً، وما زادهم الشيطان إلاّ طغياناً، ولقد جاؤوا مبطلين، وأدبروا ظالمين، إنَّ إخوتكم المؤمنين جاهدوا في سبيل الله وآمنوا يرجون مغفرة الله، وإننا لعلى الحقِّ، وإنّهم لعلى الباطل، ويجمعنا الله وإيّاهم يوم الفصل، وأستغفر الله لي ولكم (**كتاب الجمل للمفيد ص ٢٠٠ طبع النجف**).

أقول: هذه الخطبة ليست بمذكورة في «**النهج**».

وروى نصر بن عمر بن سعد عن أبي خالد عن عبد الله بن عاصم عن محمّد بن بشير الهمداني عن الحارث بن السريع قال: لمّا ظهر أمير المؤمنين عليه السلام على أهل البصرة وقسّم ما حواه العسكر قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال:

أيّها النّاس إنَّ الله عزّ وجلّ ذو رحمة واسعة، ومغفرة دائمة، لأهل طاعته وقضى أنَّ نقمته وعقابه على أهل معصيته، يا أهل البصرة يا أهل المؤتفكة ويا جند المرأة وأتباع البهيمة، رغا فرجفتم، وعقر فانهزمتم، أحلامكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وأنتم فسقة مراق، أنتم شرُّ خلق الله، أرضكم قريبة من الماء، بعيدة من السماء، خفت عقولكم، وسفهت أحلامكم، شهرتم سيوفكم علينا وسفكتم دماءكم، وخالفتم إمامكم، فأنتم أكلة الآكل وفريسة الظافر، والنار لكم مدّخر، والعار لكم مفخر، يا أهل البصرة نكثتم بيعتي، وظاهرتم عليَّ ذوي عداوتي فما ظنكم يا أهل البصرة الآن؟

فقام إليه رجل منهم فقال: نظنُّ خيراً يا أمير المؤمنين ونرى أنك ظفرت وقدرت فإن عاقبت فقد أجرمنا، وإن عفوت فالعفو أحبّ إلى ربِّ العالمين؛ فقال عليه السّلام: قد عفوت عنكم فإيّاكم والفتنة، فإنكم أوّل من نكث البيعة وشقَّ عصا الأمّة، فارجعوا عن الحوبة وأخلصوا فيما بينكم وبين الله بالتوبة. (**كتاب الجمل للمفيد ص ٢٠٣ طبع النجف**).

أقول: وقد روى هذه الخطبة في «**الإرشاد**» أيضاً (**ص ١٢٣ طبع طهران ١٣٧٧هـ**) وبين الروايتين اختلاف في الجملة، قال: ومن كلامه عليه السلام بالبصرة حين ظهر على القوم بعد حمد الله تعالى والثناء عليه.

أمّا بعد فإنَّ الله ذو رحمة واسعة ومغفرة دائمة وعفو جمّ وعقاب أليم، قضى أنَّ رحمته ومغفرته وعفوه لأهل طاعته من خلقه، وبرحمته اهتدى المهتدون وقضى أنَّ نقمته وسطوته وعقابه على أهل معصيته من خلقه، وبعد الهدى والبينات ما ضلَّ الضّالون، فما ظنكم يا أهل البصرة وقد نكثتم بيعتي وظاهرتم عليَّ عدوّي.

فقام إليه رجل فقال: نظنُّ خيراً ونراك قد ظهرت، وقدرت، فإن عاقبت فقد اجترمنا ذلك، وإن عفوت فالعفو أحبّ إلى الله تعالى، فقال: قد عفوت عنكم فإيّاكم والفتنة إنكم أوّل الرعية نكث البيعة وشقَّ عصا هذه الأمَّة، ثمَّ جلس للناس فبايعوه.

ونقل المسعودي طائفة من هذه الخطبة في **«مروج الذهب»**. وأتى ببعضها الشريف الرضي رضوان الله عليه في الموضعين من **«النهج»** أحدهما قوله: ومن كلامه عليه السلام فيذمّ أهل البصرة: كنتم جند المرأة وأتباع البهيمة إلخ **(الكلام الثالث عشر من باب الخطب)**. والموضع الآخر قوله: ومن كلامه عليه السلام في مثل ذلك: أرضكم قريبة من الماء بعيدة من السماء إلخ **(الكلام الرابع عشر من باب الخطب)**.

وذيل الكلام الثالث عشر ملتقطة من خطبة أُخرى رواها المفيد في **«الجمل»** عن الواقدي **(ص ٢١٠ طبع النجف)** أنه عليه السلام لمّا خرج من البصرة وصار على علوة استقبل الكوفة بوجهه وهو راكب بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وقال:

الحمد لله الّذي أخرجني من أخبث البلاد وأخشنها تراباً، وأسرعها خراباً وأقربها من الماء، وأبعدها من السماء، بها مغيض الماء، وبها تسعة أعشار الشرّ وهي مسكن الجنّ، الخارج منها برحمة، والدّاخل إليها بذنب، أما أنها لا تذهب الدُّنيا حتّى يجيء إليها كلُّ فاجر، ويخرج منها كلُّ مؤمن، وحتّى يكون مسجدها كأنه جؤجؤ سفينة[1].

ورواها الطبرسي في **«الاحتجاج»** أيضاً عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: لمّا فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من قتال أهل البصرة وضع قتباً على قتب، ثمَّ صعد عليه فخطب فحمد الله وأثنى عليه فقال:

يا أهل البصرة يا أهل المؤتفكة يا أهل الدّاء العضال، يا أتباع البهيمة، يا جند المرأة، رغا فأجبتم، وعقر فهربتم، ماؤكم زعاق، ودينكم نفاق، وأحلامكم دقاق.

ثمَّ نزل يمشي بعد فراغه من خطبته، فمشينا معه فمرَّ بالحسن البصري وهو يتوضّأ فقال: يا حسن أسبغ الوضوء فقال: يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس أناساً يشهدون أن لا

---

(١) نهج السعادة: ١/ ٤١٤، والجمل: ٢٢٥.

إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمّداً عبده ورسوله ويصلّون الخمس، ويسبغون الوضوء. قال له أمير المؤمنين عليه السلام: لقد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدوَّنا؟ فقال: والله لأصدقنّك يا أمير المؤمنين لقد خرجت في أوَّل يوم فاغتسلت وتحنّطت وصببت عليَّ سلاحي وأنا لا أشكُّ في أنَّ التخلّف عن أمِّ المؤمنين عائشة كفر، فلما انتهيت إلى موضع من الخريبة نادى منادٍ: يا حسن إلى أين؟ ارجع فإنَّ القاتل والمقتول في النّار، فرجعت ذعراً وجلست في بيتي، فلمّا كان في اليوم الثاني لم أشك أنَّ التخلّف عن أمِّ المؤمنين هو الكفر فتحنّطت وصببت عليَّ سلاحي وخرجت أُريد القتال حتّى انتهيت إلى موضع من الخريبة فنادى منادٍ من خلفي: يا حسن إلى أين مرَّة أخرى فإنَّ القاتل والمقتول في النّار، قال عليٌّ عليه السلام: صدقت أفتدري من ذلك المنادي؟ قال: لا؛ قال عليه السلام: أخوك إبليس وصدقك أنَّ القاتل والمقتول منهم في النّار، فقال الحسن البصري: الآن عرفت يا أمير المؤمنين أنَّ القوم هلكى[1].

ثمَّ قال الطبرسي في **«الاحتجاج»** بعد عدَّة فصول: روي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: في أثناء خطبة خطبها بعد فتح البصرة بأيّام حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: يا عليّ إنك باق بعدي ومبتلى بأُمّتي ومخاصم بين يدي الله، فأعدَّ للخصومة جواباً فقلت: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله بيّن لي ما هذه الفتنة الّتي ابتلى بها؟ وعلى ما أجاهد بعدك؟ فقال لي: إنك ستقاتل بعدي الناكثة والقاسطة والمارقة ـ وحلاّهم وسماهم رجلاً رجلاً ـ وتجاهد من أُمّتي كلَّ من خالف القرآن وسنّتي ممّن يعمل في الدّين بالرأي ولا رأي في الدّين إنما هو أمر الربِّ ونهيه؛ فقلت: يا رسول الله فأرشدني إلى الفلج عند الخصومة يوم القيامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم، إذا كان ذلك كذلك فاقتصر على الهدى إذا قومك عطفوا الهدى على الهوى، وعطفوا القرآن على الرأي، فتأوَّلوه برأيهم بتتبّع الحجج من القرآن لمشتبهات الأشياءِ الطارئة عند الطمأنينة إلى الدُّنيا، فاعطف أنت الرأي على القرآن، وإذا قومك حرَّفوا الكلم عن مواضعه عند الأهواءِ الساهية والآراء الطامحة والقادة الناكثة والفرقة القاسطة والأُخرى المارقة أهل الإفك المردي والهوى المطغي والشبهة الخالقة، فلا تنكلنَّ عن فضل العاقبة فإنَّ العاقبة للمتقين[2].

بيان: الناكثة أتباع الجمل، والقاسطة أتباع معاوية والمارقة الخوارج فالطائفة الأُولى أثاروا فتنة الجمل، والثانية أقاموا غزوة صفين، والثالثة حرب نهروان.

وروى في **«الاحتجاج»** عن أبي يحيى الواسطي قال: لمّا فتح أمير المؤمنين عليه السلام البصرة

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٥٠.
(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٤٢٣، ونهج السعادة: ١/ ٣٨٥.

اجتمع الناس عليه وفيهم الحسن البصري ومعه الألواح، فكان كلّما لفظ أمير المؤمنين عليه السلام بكلمة كتبها، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام بأعلى صوته: ما تصنع؟ فقال: نكتب آثارهم لنحدّث بها بعدكم؛ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أما إنّ لكل قوم سامريّاً وهذا سامريٌّ هذه الأمّة أما أنه لا يقول: لا مساس، ولكنه يقول: لا قتال[١].

بيان: قوله عليه السلام أنه لا يقول لا مساس إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ۝٩٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٥ - ٩٧].

وفي **«الاحتجاج»** عن المبارك فضالة عن رجل ذكره قال: أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام بعد الجمل فقال له: يا أمير المؤمنين رأيت في هذه الواقعة أمراً هالني من روحٍ قد بانت، وجنّة قد زالت، ونفس قد فاتت، لا أعرف فيهم مشركاً بالله فالله الله ممّا يجلّلني من هذا إن يك شرّاً فهذا نتلقى بالتوبة، وإن يك خيراً ازددنا منه، أخبرني عن أمرك هذا الّذي أنت عليه أفتنة عرضت لك فأنت تنفح الناس بسيفك أم شيء خصّك به رسول الله صلى الله عليه وآله؟.

فقال عليه السلام: إذن أُخبرك إذن أُنبئك إذن أُحدّثك إنَّ ناساً من المشركين أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وأسلموا ثمَّ قالوا لأبي بكر: استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى نأتي قومنا فنأخذ أموالنا ثمَّ نرجع، فدخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وآله فاستأذن لهم فقال عمر: يا رسول الله أترجع تلك الجماعة من الإسلام إلى الكفر؟ فقال: وما علمك يا عمر أن ينطلقوا فيأتوا بمثلهم معهم من قومهم؟ ثمَّ إنهم أتوا أبا بكر في العام المقبل فسألوه أن يستأذن لهم على رسول الله صلى الله عليه وآله، فاستأذن لهم وعنده عمر فقال مثل قوله، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله ثمَّ قال: والله ما أراكم تنتهون حتّى يبعث الله عليكم رجلاً من قريش يدعوكم إلى الله فتختلفون عنه اختلاف الغنم الشرد.

فقال أبو بكر: فداك أبي وأمّي يا رسول الله أنا هو؟ فقال: لا؛ فقال عمر: أنا هو؟ قال: لا، فقال: عمر: فمن هو يا رسول الله؟ فأومأ إليّ وأنا أخصف نعل رسول الله وقال «هو خاصف النعل عندكما ابن عمّي وأخي وصاحبي ومبرىء ذمّتي والمؤدّي عنّي ديني وعداتي والمبلّغ عنّي رسالاتي، ومعلّم الناس من بعدي ومبيّنهم من تأويل القرآن ما لا يعلمون»، فقال الرجل: أكتفي منك بهذا يا أمير المؤمنين ما بقيت، فكان ذلك الرّجل أشدَّ أصحاب عليّ عليه السلام فيما بعد من خالفه[٢].

وفيه أيضاً: روى يحيى بن عبد الله بن الحسن عن أبيه عبد الله بن الحسن قال: كان

---

(١) الخصال: ٤٥٨، والإيضاح: ٦٢.

(٢) الاحتجاج: ١/ ٢٥٠.

أمير المؤمنين عليه السلام يخطب بالبصرة بعد دخولها بأيّام، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني من أهل الجماعة؟ ومن أهل الفرقة؟ ومن أهل البدعة؟ ومن أهل السنة؟.

فقال عليه السلام: ويحك أما إذا سألتني فافهم عنّي ولا عليك أن لا تسأل عنها أحداً بعدي. أمّا أهل الجماعة فأنا ومن اتّبعني وإن قلّوا وذلك الحقُّ عن أمر الله عزَّ وجلَّ وعن أمر رسوله. وأمّا أهل الفرقة المخالفون لي ولمن اتّبعني وإن كثروا فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ولرسوله العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا، وقد مضى منهم الفوج الأوّل وبقيت أفواج، فعلى الله قبضها واستئصالها عن جدد الأرض.

فقام إليه عمّار وقال: يا أمير المؤمنين إنَّ الناس يذكرون الفيء ويزعمون أنَّ من قاتلنا فهو وماله وولده فيء لنا.

فقام إليه رجل من بكر بن وائل يدعى عباد بن قيس وكان ذا عارضة ولسان شديد فقال: يا أمير المؤمنين والله ما قسّمت بالسويّة ولا عدلت في الرعيّة. قال عليه السلام ولم؟ ويحك، قال: لأنك قسّمت ما في العسكر وتركت الأموال والنساء والذُّريّة، فقال: أيّها النّاس من كانت له جراحة فليداوها بالسمن فقال عباد: جئنا نطلب غنائمنا فجاءنا بالتّرهات، فقال له أمير المؤمنين: إن كنت كاذباً فلا أماتك الله حتّى يدركك غلام ثقيف، فقيل: ومن غلام ثقيف، فقال: رجل لا يدع لله حرمة إلا انتهكها، فقيل: أفيموت أو يقتل؟ قال: يقصمه قاصم الجبارين بموت فاحش يحترق منه دبره لكثرة ما يجري من بطنه.

يا أخا بكر أنت امرؤ ضعيف الرأي أو ما علمت أنّا لا نأخذ الصغير بذنب الكبير وأنَّ الأموال كانت لهم قبل الفرقة وتزوَّجوا على رشدة وولدُوا على فطرة وإنما لكم ما حوى عسكرهم، وما كان في دورهم فهو ميراث فإن عدا أحد منهم أخذنا بذنبه، وإن كفّ عنّا لم نحمل عليه ذنب غيره.

يا أخا بكر لقد حكمت فيهم بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل مكّة فقسّم ما حوى العسكر ولم يتعرّض لما سوى ذلك، وإنما اتبعت أثره حذو النعل بالنعل.

يا أخا بكر أما علمت أنّ دار الحرب يحلُّ ما فيها، وأنّ دار الهجرة يحرم ما فيها إلاّ بحقّ فمهلاً مهلاً رحمكم الله فإن لم تصدّقوني وأكثرتم عليّ ـ وذلك أنه تكلّم في هذا غير واحد ـ فأيّكم يأخذ عائشة بسهمه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين أصبت وأخطأنا وعلمت وجهلنا فنحن نستغفر الله، ونادى النّاس من كلِّ جانب: أصبت يا أمير المؤمنين أصاب الله بك الرشاد والسداد.

فقام عبّاد فقال: أيّها الناس إنكم والله إن اتّبعتموه وأطعتموه لن يضلَّ بكم عن منهل

نبيّكم ﷺ حتّى قيس شعرة وكيف لا يكون ذلك وقد استودعه رسول الله ﷺ علم المنايا والقضايا وفصل الخطاب على منهاج هارون عليه السلام وقال له: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي فضلاً خصّه الله به وإكراماً منه لنبيّه حيث أعطاه ما لم يعط أحداً من خلقه.

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: انظروا رحمكم الله ما تؤمرون به فامضوا له فإنَّ العالم أعلم بما يأتي به من الجاهل الخسيس الأخسّ، فإنّي حاملكم إن شاء الله إن أطعتموني على سبيل النجاة، وإن كان فيه مشقّة شديدة ومرارة عتيدة، والدُّنيا خلوة الحلاوة لمن اغترَّ بها من الشقوة والندامة عمّا قليل. ثمَّ إني أُخبركم أنَّ جيلاً من بني إسرائيل أمرهم نبيّهم أن لا يشربوا من النهر فلجُّوا في ترك أمره فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم، فكونوا رحمكم الله من أُولئك الّذين أطاعوا نبيّهم ولم يعصوا ربّهم، وأمّا عائشة فأدركها رأي النساء ولها بعد ذلك حرمتها الأُولى والحساب على الله، يعفو عمّن يشاء ويعذّب من يشاء[1].

بيان: فلان ذو عارضة أي ذو جلد وصراحة وقدرة على الكلام. وذلك أنّه تكلّم في هذا غير واحد، جملة معترضة من كلام الراوي، قيس شعرة أي قدرها. العتيد: الحاضر المهيّأ. ثمّ إنَّ ما نقلنا من كلامه عليه السلام في الرّوايتين الأخيرتين عن **«الاحتجاج»** ليس بمذكور في **«النّهج»**.

«سيرة علي عليه السلام في أهل البصرة»

فقد تظافرت الأخبار أنه لمّا انهزم الناس يوم الجمل أمر أمير المؤمنين عليه السلام منادياً ينادي أن لا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا ستراً، ولا تأخذوا أموالاً، ولا تهيجوا امرأة، ولا تمثّلوا بقتيل، وقال عمّار له عليه السلام: ما ترى في سبي الذُّرية؟ قال: ما أرى عليهم من سبيل إنّما قاتلنا من قاتلنا. وقال له بعض القراء من أصحابه: اقسم من ذراريهم لنا وأموالهم وإلاّ فما الّذي أحلَّ دماءهم ولم يحلَّ أموالهم؟ فقال عليه السلام: هذه الذُّريّة لا سبيل عليها وهم في دار هجرة، وإنما قتلنا من حاربنا وبغى علينا. وأمّا أموالهم فهي ميراث لمستحقيها من أرحامهم، فقال عمّار رحمه الله تعالى: لا نتبع مدبرهم، ولا نجهز على جريحهم؟ فقال: لا، لأني آمنتهم وقال عليه السلام: مروا نساء هؤلاء المقتولين من أهل البصرة أن يعتددن منهم، وإذا أُتي بأسير منهم فإن كان قد قاتل قتله، وإن لم تقم عليه بيّنة بالقتل أطلقه.

---

(١) الاحتجاج: ١/٢٤٨، ونهج السعادة: ١/٣٦٥.

«تجهيز علي عليه السلام عائشة من البصرة إلى المدينة»

قال الدينوري في «**الإمامة والسياسة**» (**ص ٨٧ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧هـ**): أتى محمّد بن أبي بكر فدخل على أخته عائشة قال لها: أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: عليٌّ مع الحقّ والحقُّ مع عليّ ثمَّ خرجت تقاتلينه بدم عثمان؟ ثمَّ دخل عليها عليٌّ عليه السلام فسلّم وقال: يا صاحبة الهودج قد أمرك الله أن تقعدي في بيتك ثمَّ خرجت تقاتلين. أترتحلين؟ قالت: أرتحل؛ فبعث معها عليٌّ عليه السلام أربعين امرأة وأمرهنَّ أن يلبسن العمائم ويتقلَّدن السيوف وأن يكنَّ من الّذين يلينها ولا تطلع على أنهنَّ نساء، فجعلت عائشة تقول في الطريق: فعل الله في ابن أبي طالب وفعل، بعث معي الرِّجال، فلمّا قدمن المدينة وضعن العمائم والسيوف ودخلن عليها فقالت: جزى الله ابن أبي طالب الجنة[1].

وذكر قريباً من هذه الرواية المفيد في كتاب «**الجمل**» (**ص ٢٠٧ طبع النجف**) وصرَّح فيه أنه عليه السلام أنفذ معها أربعين امرأة على الوصف المذكور. ثمَّ قال: فجعلت عائشة تقول في الطريق: اللّهم افعل بعليٍّ بن أبي طالب وافعل، بعث معي الرجال ولم يحفظ بي حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا قدمن المدينة معها ألقين العمائم والسيوف ودخلن معها، فلمّا رأتهنَّ ندمت على ما فرطت بذمِّ أمير المؤمنين عليه السلام وسبّه وقالت: جزى الله ابن أبي طالب خيراً فلقد حفظ فيَّ حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقال المسعودي في «**مروج الذهب**»: وخرجت عائشة من البصرة وقد بعث معها عليٌّ عليه السلام أخاها عبد الرَّحمٰن بن أبي بكر وثلاثين رجلاً وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما ثمَّ ذكر النساء على الوصف المذكور (**ص ١٤ ج ٢ طبع مصر ١٣٤٦هـ**).

أقول: الظاهر أنَّ إرسال النساء معها على الوصف المذكور لا يخلو من دغدغة ولا يعقل له وجه يعتنى به، لأنَّ هذه الروايات كلّها متّفقة في أنَّ الأمر التبس على عائشة في أثناء الطريق من البصرة إلى المدينة وما فهمت أنهنَّ نساء، وهذا لا يستقيمم مع دهائها وفطانتها، ولأنَّ هذا العمل منه عليه السلام لو كان لحفظ حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله يدفعه أنَّ أخاها عبد الرَّحمٰن كان معها، على أنَّ العلم البتّي حاصل بأنه لو لم يكن معها أخوها لما كان أنفذ أمير المؤمنين معها إلاّ رجالاً يثق بهم، والصواب في ذلك ما في تاريخ أبي جعفر الطبري بأنه عليه السلام سرَّحها وأرسل معها جماعة من رجال ونساء، وجهّزها من غير أن يتعرَّض بلبسهنَّ

(١) الإمامة والسّياسة: ١/ ٩٨.

العمائم وتقلّدهنَّ السيوف ولم ينقل ما رواه القوم أصلاً، صرَّح بذلك في الموضعين: ص ٥٢٠، وص ٥٤٧ من المجلّد الثالث طبع مصر ١٣٥٧هـ.

«تأمير عليه السلام ابن العباس على البصرة ووصيته له وخطبته الناس»

قال المفيد في «**الجمل**»: وممّا رواه الواقديُّ عن رجاله قال: لمّا أراد أمير المؤمنين عليه السلام الخروج من البصرة استخلف عليها عبد الله بن عباس ووصّاه وكان في وصيّته له أن قال:

يا ابن عباس عليك بتقوى الله والعدل بمن وليت عليه، وأن تبسط للناس وجهك، وتوسّع عليهم مجلسك، وتسعهم بحلمك، وإيّاك والغضب فإنه طيرة الشيطان وإيّاك والهوى فإنه يصدُّك عن سبيل الله، واعلم أنَّ ما قرَّبك من الله فهو مباعدك من النار، وما باعدك من الله فمقرِّبك من النار، واذكر الله كثيراً ولا تكن من الغافلين[1].

أقول: أتى ببعض هذه الوصيّة في آخر باب الكتب والرّسائل من «**النهج**» قوله: ومن وصية له عليه السلام بعبد الله بن العباس عند استخلافه إيّاه على البصرة: سع الناس بوجهك ومجلسك ـ إلخ.

وروى أبو مخنف لوط بن يحيى قال: لمّا استعمل أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن العباس على البصرة خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيِّ ثمَّ قال:

معاشر الناس قد استخلفت عليكم عبد الله بن العباس فاسمعوا له وأطيعوا أمره ما أطاع الله ورسوله، فإن أحدث فيكم أو زاغ عن الحقِّ فاعلموا أنّي أعزله عنكم فإني أرجو أن أجده عفيفاً تقيّاً ورعاً، وإني لم أوله عليكم إلاّ وأنا أظنُّ ذلك به غفر الله لنا ولكم.

قال: فأقام عبد الله بالبصرة حتّى عمد أمير المؤمنين عليه السلام إلى التوجّه إلى الشام، فاستخلف عليها زياد بن أبيه وضمَّ إليه أبا الأسود الدؤلي ولحق بأمير المؤمنين عليه السلام حتّى صار إلى صفين.

أقول: خطبته هذه ما ذكرت في «**النهج**»، وقال أبو جعفر الطبري في «**التاريخ**»: أمّر عليٌّ عليه السلام ابن عباس على البصرة وولى زياداً الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع منه فكان ابن عباس يقول: استشرته عند هنة كانت من الناس، فقال: إن كنت تعلم أنك على الحقِّ وأنَّ من خالفك على الباطل أشرت عليك بما ينبغي وإن كنت لا تدري أشرت عليك بما ينبغي كذلك، فقلت: إنّي على الحقِّ وإنّهم على الباطل، فقال: اضرب بمن أطاعك من

(١) نهج السعادة: ١/ ٤١٠، ح ١٢٥، والجمل: ٢٢٤.

عصاك ومن ترك أمرك، فإن كان أعزَّ للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه، فاستكتبه(١).

وروى ثقة الإسلام الكليني رضوان الله عليه في «**الكافي**» خطبة أُخرى له عليه السلام خطب الناس في البصرة بعد انقضاء الحرب نقلها الفيض قدّس سرُّه في «**الوافي**» أيضاً **(ص ١٧ ج ١٤)** قال: محمّد بن عيسى عن السّراد عن مؤمن الطاق عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لما انقضت القصّة فيما بينه وبين طلحة والزبير وعائشة بالبصرة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله ثمَّ قال:

أيها الناس إنَّ الدُّنيا حلوة خضرة تفتّن الناس بالشهوات وتزيّن لهم بعاجلها وأيم الله إنّها لتغرّ من أملها، وتخلف من رجاها وستورث غداً أقواماً الندامة والحسرة بإقبالهم عليها وتنافسهم فيها وحسدهم وبغيهم على أهل الدين والفضل فيها ظلماً وعدواناً وبغياً وأشراً وبطراً وبالله أنه ما عاش قوم قطُّ في غضارة من كرامة نعم الله في معاش دنيا ولا دائم تقوى في طاعة الله والشكر لنعمه فأزال ذلك عنهم إلاّ من بعد تغيير من أنفسهم، وتحويل عن طاعة الله والحادث من ذنوبهم وقلّة محافظته وترك مراقبة الله وتهاون بشكر نعمة الله، لأنَّ الله تعالى يقول في محكم كتابه: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال**﴾ [الرعد: ١١].

ولو أنَّ أهل المعاصي وكسبة الذُّنوب إذا هم حذروا زوال نعمة الله وحلول نقمته وتحويل عافيته أيقنوا أنَّ ذلك من الله تعالى بما كسبت أيديهم فأقلعوا وتابوا وفزعوا إلى الله تعالى بصدق من نيّاتهم وإقرار منهم له بذنوبهم وإساءتهم لصفح لهم عن كلِّ ذنب، وإذاً لأقالهم كل عثرة ولردَّ عليهم كل كرامة نعمة ثمَّ أعاد لهم من صلاح أمرهم وممّا كان أنعم به عليهم كلَّ ما زال عنهم وفسد عليهم، فاتقوا الله أيّها الناس حقَّ تقاته، واستشعروا خوف الله تعالى، وأخلصوا اليقين، وتوبوا إليه من قبيح ما استنفركم الشيطان من قتال وليِّ الأمر وأهل العلم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وما تعاونتم عليه من تفريق الجماعة، وتشتيت الأمر، وفاسد صلاح ذات البين، إنَّ الله يقبل التوبة ويعفو عن السيئة ويعلم ما تفعلون(٢).

أقول: وهذه الخطبة ما ذكرت في «**النهج**» أيضاً.

«إشارة إجمالية إلى ما عند الأئمة من سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وغيرها»

في «**الكافي**» للكليني قدّس سرُّه وفي الوافي ص ١٣٤ ج ٢ من الطبع المظفري في باب

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٤٦. (٢) الكافي: ٨/ ٢٥٧، ونهج السعادة: ١/ ٣٥١.

ما عندهم من سلاح رسول الله ﷺ ومتاعه: أبان، عن يحيى بن أبي العلاء قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: درع رسول الله ﷺ ذات الفضول لها حلقتان من ورق من مقدَّمها، وحلقتان من ورق في مؤخّرها، وقال: لبسها عليٌّ عليه السلام يوم الجمل[١].

وفي «**الكافي**»: أبان، عن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: شدَّ عليّ عليه السلام بطنه يوم الجمل بعقال أبرق نزل به جبرائيل عليه السلام من السماء، وكان رسول الله ﷺ يشدُّ به على بطنه إذا لبس الدِّرع[٢].

وفي الفقيه: كان ﷺ يلبس من القلانس اليمنيّة والبيضاء والمصريّة ذات الأُذنين في الحرب، وكانت له عنزة يتكّيء عليها ويخرجها في العيدين فيخطب بها وكان له قضيب يقال له الممشوق، وكان له فسطاط يسمّى الكنّ، وكانت له قصعة تسمّى السعة، وكان له قعب يسمّى الرّي، وكان له فرسان يقال لأحدهما المرتجز وللآخر السكب، وكان له بغلتان يقال لإحداهما الدُّلدل وللأُخرى الشهباء وكان له ناقتان يقال لإحداهما العضباء وللأُخرى الجدعاء، وكان له سيفان يقال لأحدهما ذو الفقار وللآخر العون، وكان له سيفان آخران يقال لأحدهما: المخذم وللآخر الرسوم، وكان له حمار يسمّى اليعفور، وكانت له عمامة تسمّى السحاب وكان له درع تسمّى ذات الفضول لها ثلاث حلقات فضّة: حلقة بين يديها، وحلقتان خلفها، وكانت له راية تسمّى العقاب، وكان له بعير يحمل عليه يقال له الدِّيباج. وكان له لواء يسمّى العلوم، وكان له مغفر يقال له الأسعد، فسلّم ذلك كلّه إلى عليّ عليه السلام عند موته وأخرج خاتمه وجعله في أصبعه فذكر عليٌّ عليه السلام أنه وجد في قائم سيف من سيوفه صحيفة فيها ثلاثة أحرف: صل من قطعك، وقل الحقَّ ولو على نفسك، وأحسن إلى من أساء إليك[٣].

«**الكافي**»: محمّد، عن ابن عيسى، عن الحسين، عن النضر، عن يحيى الحلبي، عن ابن مسكان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: ترك رسول الله ﷺ في المتاع سيفاً، ودرعاً، وعنزة، ورحلاً، وبغلته الشهباء فورث ذلك كلّه عليّ بن أبي طالب[٤].

«**الكافي**»: محمّد، عن أحمد، عن الحسين، عن فضالة، عن عمران بن أبان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عمّا يتحدّث الناس أنّه دفع إلى أُمّ سلمة صحيفة مختومة فقال: إنّ

---

(١) الكافي: ٨/ ٣٣١، ح ٥١٢، وبحار الأنوار: ١٦/ ١٢٤، ح ٦١.
(٢) الكافي: ٨/ ٣٣١، ح ٥١٢، وبحار الأنوار: ٤٢/ ٦٤، ح ٤.
(٣) الكافي: ٢/ ١٠٧، ح ١، والأمالي: ١٣٠.
(٤) الكافي: ١/ ٢٣٤، ح ٣، وبحار الأنوار: ٢٦/ ٢١١، ح ٢١.

رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبض ورث عليٌّ عليه السلام علمه وسلاحه وما هناك، ثمَّ صار إلى الحسن، ثمَّ صار إلى الحسين، قال: قلت: ثمَّ صار إلى عليِّ بن الحسين، ثمَّ صار إلى ابنه، ثمَّ انتهى إليك؟ فقال: نعم[١].

«الكافي»: الاثنان عن الوشاء، عن أبان، عن الفضيل بن يسار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لبس أبي درع رسول الله صلى الله عليه وآله ذات الفضول فخطت ولبستها أنا ففضّلت[٢].

«الكافي»: الاثنان، عن الوشاء، عن حماد بن عثمان، عن عبد الأعلى بن أعين، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عندي سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله لا أُنازع فيه، ثمَّ قال: إنَّ السلاح مدفوع عنه لو وضع عند شرِّ خلق الله لكل خيرهم، ثمَّ قال: إنَّ هذا الأمر يصير إلى من يلوى له الحنك فإذا كانت من الله فيه المشيئة خرج فيقول الناس ما هذا الّذي كان ويضع الله له يداً على رأس رعيّته[٣].

أقول: قد مضى في (**ص ٢٥٤ ج ١ من تكملة المنهاج**) أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام تقدَّم في صفين للحرب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء نقلاً عن المسعودي في **«مروج الذهب»** والأخبار في ذلك المعنى متظافرة جداً ونقلها وبيانها ينجرّان إلى بحث طويل الذيل ولسنا في ذلك المقام إلاّ أنه لمّا قادنا شرح الخطبة إلى الإشارة إلى وقعة الجمل مجملةً وقد تظافرت الأخبار بأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لبس درع رسول الله صلى الله عليه وآله ذات الفضول يوم الجمل أحببت أن أشير إلى ما عند الأئمة من سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وغيرها.

ثمَّ المراد من قوله عليه السلام في الخبر الأخير إنَّ هذا الأمر يصير إلى من يلوى له الحنك، هو قائم آل محمّد صلى الله عليه وآله وليُّ العصر الحجة بن الحسن العسكري عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

فقد آن أن نشرع في شرح جمل الكتاب فإنَّ غرضنا من شرح هذا الكتاب والّذي قبله أن نورد واقعة الجمل على الإيجاز والاختصار وأن نبين مدارك الخطب والخطب الواردة منه عليه السلام في النهج وطرق إسنادها ممّا تتعلّق بالجمل، فقد أتعبنا لذلك أنفسنا، وأسهرنا أعيننا، وبذلنا جهدنا على ما أمكننا حتّى استقام الأمر على النهج الّذي قدّمناه، فللّه الحمد على ما هدانا، وله الشكر بما أولانا.

قوله عليه السلام: (**وجزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيّكم**) لما أنَّ أهل الكوفة أجابوا

---

(١) الكافي: ١/٢٥٣، ح ٧، والإرشاد: ٢/١٨٩.
(٢) الكافي: ١/٢٣٤، ح ٤، وشرح أصول الكافي: ٥/٣٢٧، ح ٤.
(٣) الكافي: ١/٢٣٤، ح ٢، والإرشاد: ٢/١٨٩.

دعوته عليه السلام مخلصين وقاموا بنصرته مرتاحين، وهو عليه السلام من أهل بيت نبيّهم خاطب أهل الكوفة في الكتاب، ودعا لهم بدعاء مستطاب مستجاب، بقوله: جزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيّكم.

قوله عليه السلام: **(أحسن ما يجزي العاملين بطاعته، والشاكرين لنعمته)** العمل بطاعته تعالى فعلِ أوامره وترك نواهيه، والنعمة تعمُّ جميع ما أنعم الله به على عباده ومنه نعمة وجود الأنبياء والأوصياءِ.

ثمَّ إنَّ الشكر بإزاء كل نعمة بحسبها كالتوبة عن الذَّنب مثلاً، ففي بعضها يتمُّ الشكر بالقول فقط مثلاً أن يقول: الحمد لله ربِّ العالمين، وفي بعضها لا يتمُّ إلاّ بالفعل وهو على أنحاء أيضاً ومنه الجهاد في سبيل الله تعالى فمن الشكر بإزاء نعمة وجود النبيِّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته أن يبذل الأموال والأنفس دونهم كما فعل أهل الكوفة فكأنّما هو عليه السلام أشار في كلامه إلى أنهم عملوا بطاعة الله وشكروا لنعمته ويمكن أن يقال: ومن ثمَّ أتى بهيئة الجمع دون الإفراد أي لم يقل العامل بطاعته والشاكر لنعمته ليوميء إلى أنهم كانوا العاملين والشاكرين، كما يمكن أن يقال إنَّ لفظ الجمع تنبيء عن كثرة ثوابهم وجزائهم أيضاً.

ثمَّ إنَّ فيه إيماء أيضاً إلى جزاء العاملين بطاعته والشاكرين لنعمته حيث خصّهما بالذِّكر دون غيرهما.

قوله عليه السلام: **(فقد سمعتم ـ إلخ)** أي إنما كان لكم جزاء العاملين بطاعته لأنكم أيضاً سمعتم أمر الله وأطعتموه، لأنَّ أمر حجة الله هو أمره تعالى، ودعيتم إلى نصرة أهل بيت نبيّكم وهي نصرة دين الله في الحقيقة فأجبتم الدّاعي وإنما لم يذكر متعلّقات الأفعال لأنّها ظاهرة من سياق الكلام ومن معاني الكلمات، أو لأنَّ الغرض كما قيل ذكر الأفعال دون نسبتها إليها.

الترجمة

اين يكى از نامه هاى آن بزرگوار است كه بعد از فتح بصره به مردم كوفه نوشت:

اى مردم كوفه، خداوند شما را از جانب اهل بيت پيغمبرتان نيكوترين جزايى كه به اطاعت كنندگان و سپاسگزارانش مى دهد پاداش دهد كه فرمان ولى خدا را شنيديد و اطاعت كرديد، به يارى دين خدا دعوت شديد و اجابت كرديد.

ومن كتاب له عليه السلام كتبه لشريح بن الحارث قاضيه وهو الكتاب الثالث من باب المختار من كتبه ورسائله عليه السلام

رُوِيَ أَنَّ شُرَيْحَ بْنَ الْحارِثِ قاضِيَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام اشْتَرَى عَلَى عَهْدِهِ داراً بِثَمانِينَ دِيناراً، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَاسْتَدْعَى شُرَيْحاً وَقالَ لَهُ:

بَلَغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ داراً بِثَمانِينَ دِيناراً، وَكَتَبْتَ لَها كِتاباً، وأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً؛ فَقالَ شُرَيْحٌ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ مُغْضَبٍ ثُمَّ قالَ لَهُ: يا شُرَيْحُ أَما إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لا يَنْظُرُ في كِتابِكَ، وَلاَ يَسْئَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْها شاخِصاً ويُسَلِّمَكَ إِلى قَبْرِكَ خالِصاً، فَانْظُرْ يا شُرَيْحُ لا تَكُونُ ابْتَعْتَ هذِهِ الدّارَ مِنْ غَيْرِ مالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلالِكَ، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دارَ الدُّنْيا ودارَ الآخِرَةِ، أَما لَوْ إِنَّكَ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرائِكَ ما شَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتاباً عَلى هذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ في شِراءِ هذِهِ الدّارِ بِدِرْهَمٍ فَما فَوْقَهُ؛ وَالنُّسْخَةُ هذِهِ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

هذا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَى مِنْهُ داراً مِنْ دارِ الْغُرُورِ مِنْ جانِبِ الفانِينَ، وخِطَّةِ الْهالِكِينَ، وتَجْمَعُ هذِهِ الدّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: فَالْحَدُّ الأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلى دَواعِي الآفاتِ، وَالْحَدُّ الثّاني يَنْتَهِي إِلى دَواعِي الْمُصِيباتِ، وَالْحَدُّ الثّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالحَدُّ الرّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطانِ الْمُغْوِي، وَفِيهِ يُشْرَعُ بابُ هذِهِ الدّارِ؛ اشْتَرَى هذَا الْمُغْتَرُّ بالأَمَلِ مِنْ هذَا الْمُزْعَجِ بالأَجَلِ هذِهِ الدّارَ بَالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَناعَةِ وَالدُّخُولِ في ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّراعَةِ، فَما أَدْرَكَ هذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْ دَرَكٍ.

فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ وَسالِبِ نُفُوسِ الْجَبابِرَةِ، ومُزِيلِ مُلْكِ الْفَراعِنَةِ، مِثْلِ كِسْرَى وقَيْصَرَ وتُبَّعٍ وحِمْيَرَ، ومَنْ جَمَعَ المالَ عَلَى الْمالِ فَأَكْثَرَ، ومَنْ بَنَى وشَيَّدَ، وزَخْرَفَ ونَجَّدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ ونَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ إِشْخاصُهُمْ جَمِيعاً إِلى مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِسابِ، ومَواضِعِ الثَّوابِ وَالْعِقابِ إِذا وَقَعَ الأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضاءِ وخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ.

شَهِدَ عَلى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى وَسَلِمَ مِنْ عَلائِقِ الدُّنْيا[١].

أقول: نقل الكتاب في **«البحار» (ص ٦٣٢ ج ٨ وص ٥٤٥ ج ٩ من طبع الكمباني)**. ونقله أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء، والعلامة الشيخ البهائي في الأربعين على ما نتلو عليك وسيأتي من ذي قبل بعض كلماته عليه السلام لشريح في بحثنا المعنون بالقضاء والقاضي في الإسلام ذيل شرح هذا الكتاب.

«وهم ورجم»

إنَّ ما يهمّنا ولا بدَّ منه ههنا قبل بيان لغة الكتاب وإعرابه تقديم مطلب لم يتعرَّضه أحد من شرَّاح **«النهج»**، وهو أنَّ الحافظ أبا نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني المتوفى سنة ٤٢٠هـ أسند هذا الكتاب في كتابه **«حلية الأولياء»** إلى الفضيل بن عياض قاله للفيض بن إسحاق في واقعة اقتضت ذلك، وبين ما في **«النهج»** و**«بين الحلية»** اختلاف يسير في بعض الألفاظ والعبارات ولكنهما واحد بلا ارتياب ودونك ما نقله أبو نعيم:

قال أبو نعيم في ترجمة الفضيل بن عياض من **«حلية الأولياء» (ص ١٠١ و١٠٢ ج ٨ طبع مصر ١٣٥٦هـ ١٩٣٧ م)** ما هذا لفظه:

حدَّثنا سليمان بن أحمد، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا عليُّ بن الحسين بن مخلّد قال: قال الفيض بن إسحاق: اشتريت داراً وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً فبلغ ذلك الفضيل بن عياض فأرسل إليَّ يدعوني فلم أذهب، ثمَّ أرسل إليَّ فسرت إليه فلمّا رآني قال: يا ابن يزيد بلغني أنّك اشتريت داراً وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً؟ قلت: قد كان كذلك، قال: فإنه يأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسأل عن بيّنتك حتّى يخرجك منها شاخصاً يسلّمك إلى قبرك خالصاً، فانظر أن لا تكون اشتريت هذه الدّار من غير مالك، أو ورثت مالاً من غير حلّه، فتكون قد خسرت الدُّنيا والآخرة، ولو كنت حين اشتريت كتبت على هذه النسخة:

هذا ما اشترى عبد ذليل من ميّت قد أُزعج بالرَّحيل، اشترى منه داراً تعرف بدار الغرور، حدّ منها في زقاق الفناء إلى عسكر الهالكين، ويجمع هذه الدّار حدود أربعة: الحدُّ الأوّل ينتهي منها إلى دواعي العاهات، والحدُّ الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحدُّ الثالث ينتهي منها إلى دواعي الآفات، والحدُّ الرَّابع ينتهي إلى الهوى المردي والشيطان المغوي، وفيه يشرع باب هذه الدّار على الخروج من عزِّ الطاعة إلى الدُّخول في ذلِّ الطلب، فما أدركك في هذه الدّار فعلى مبلبل أجسام الملوك، وسالب نفوس الجبابرة، ومزيل ملك

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٨٦، ح ٦٩٠، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٠٥٦.

الفراعنة مثل كسرى وقيصر، وتبّع وحمير، ومن جمع المال فأكثر واتّخذ ونظر بزعمه الولد، ومن بنى وشيّد وزخرف وأشخصهم إلى موقف العرض إذا نصب الله عزَّ وجلَّ كرسيّه لفصل القضاء، وخسر هنالك المبطلون، يشهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى، ونظر بالعينين إلى زوال الدُّنيا، وسمع صارخ الزُّهد عن عرصاتها.

ما أبين الحقُّ لذي عينين إنَّ الرَّحيل أحد اليومين

فبادروا بصالح الأعمال فقد دنا النقلة والزوال. انتهى[1].

أقول: مع فرض صحّة إسناد الرواية إلى الفضيل أوّلاً، وعدم سهو الراوي وعدم الإسقاط والحذف ثانياً، ما كان للفضيل وأضرابه أن يسوقوا الكلام إلى ذلك الحَدُّ من الزُّهد في الدُّنيا والرغبة عنها أو يعبروا تلك المعاني اللَّطيفة بتلك الألفاظ الوجيزة ثالثاً، بل لا نشك في أنَّ سبك العبارات على هذا الأُسلوب البديع، وسوق المعاني على هذا النهج المنيع والتنفير عن الدُّنيا بهذه الغاية والجودة واللّطافة إنما نزل من حضرة القدس العلويّة.

ولا ننكر أنَّ مثل تلك الواقعة وقع للفضيل أيضاً إلاّ أنَّ الفضيل لما رأى أنَّ عمل الفيض بن إسحاق شبيه بعمل شريح ويناسبه انتقل إلى ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام لشريح فخاطب به الفيض تنبيهاً له، وإنما لم ينسب الكلام إليه عليه السلام إمّا لعلمه بأنَّ الفيض أيضاً عالم بذلك الكتاب لاشتهاره بين أهله، أو كان نقله من باب الاقتباس إن لم يتطرّق إليه سقط وحذف من الراوي.

وكم لما قلنا من نظير وشبيه نظماً ونثراً، مثلاً أنَّ العروضي نقل في كتابه المعروف؛ «جهار مقاله» أي أربع مقالات، أنّ نوح بن منصور أمير الخراسان كتب إلى آلبتكين كتاباً توعّده فيه بالعقوبة وأوعده بالقتل والأسر والنهب فلمّا بلغه الكتاب أمر الإسكافيّ الكاتب البليغ المشهور أن يجيبه عن كتابه ويستخفّ به ويستهين، فكتب الإسكافيُّ: «يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين».

فانظر فيه كيف اقتبس كتابه من القرآن الكريم من غير أن يتفوّه بإسناده إليه.

ثمَّ لا ننكر فضل الفضيل وأنَّ له كلمات فاضلة لأنّه كان له شأن وإدراك السعادة العظمى لأنّه كان من سلسلة الرواة وأتى بكثير من رواياته وكلماته الأنيقة العذبة أبو نعيم في الحلية، ولأنّه أدرك أبا عبد الله عليه السلام واغترف من بحر حقائقه بقدر وسعه، واقترف من كنوز معارفه بمبلغ كدّه وجهده، روى عنه عليه السلام نسخة يرويها النجاشيُّ ولكن كلماته موجودة ونقل

(١) نظم الدرر للسيوطي: ١٧١.

كثير منها في الحلية بينها وبين الكتاب بون بعيد ومسافة كثيرة لا تشابهه في سلك ألفاظه ولا تدانيه في سبك معانيه.

ثمّ ممّا يؤيّد كلامنا بأنّ الفضيل اقتبس الكتاب منه عليه السلام ما أسند إليه أبو نعيم في **«الحلية»** أيضاً وهو عن الصادق عليه السلام قال أبو نعيم **(ص ١٠٠ ج ٨ حلية الأولياء الطبع المذكور)**: حدّثنا محمّد بن عليّ، حدثنا المفضل بن محمّد الجندي، حدثنا محمّد بن عبد الله بن يزيد المقري قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول: يغفر للجاهل سبعون ذنباً فيما لم يغفر للعالم ذنب واحد. انتهى[١].

وهذه الرواية مع أنها لا تدلّ على أنّ الفضيل قائلها تنافي ما في **«الكافي»** ونقلها الفيض في **«الوافي» (ص ٥٢ ج١)** في أوّل باب لزوم الحجة على العالم وتشديد الأمر عليه مسنداً عن المنقري عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا حفص يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد.

وإن اختلج ببالك أنّ تنظيم قبالة الأرض والدّار على هذا النظم المتضمّن للحدود لم يعهد مثله في صدر الإسلام، بل صار متعارفاً معهوداً بعد ذلك العصر فكيف يصحُّ إسناد هذا الكتاب إلى الأمير عليه السلام؟.

فاعلم: أنَّ أمثال هذه الأمور الغير المعهودة الصادرة منه عليه السلام ليس بعزيز حتّى يستغرب من إسناد هذا الكتاب إليه عليه السلام.

ومن نظر في كتبه ورسائله حيث إنّه عليه السلام يبيّن في بعضها آداب العامل والوالي، وفي بعضها وظائف الخليفة والأمير، وفي بعضها فنون المجاهدة ورسوم المقاتلة، وفي بعضها تعيين أوقات الفرائض، وفي بعضها ما يتمُّ به صلاح الاجتماع وما به يصير المدينة فاضلة وغيرها من المطالب المتنوّعة في الموضوعات المختلفة الشاخصة الّتي لم تتغيّر بتغيّر الأعصار، ولم تختلف باختلاف الأمصار قطُّ، لأنّها حقائق والحقيقة فوق الزّمان والزّماني وغير متغيّر بتغيّر المادّة والمادّيات، علم أنّ جميع ما فاض من سماء علمه ممّا يتحيّر فيه العقول، ويستغرب، وأنّ بروز نحو هذا الكتاب منه عليه السلام ليس بمستبعد.

على أنّه رويت عنه عليه السلام واقعة أُخرى وقبالة نظير هذه الواقعة والقبالة نقلها حسين بن معين الدّين الميبدي في شرح الدّيوان المناسب إلى الأمير عليه السلام **(ص ٤٤٨ طبع إيران**

---

(١) بحار الأنوار: ٦١/ ٢٤٥.

١٢٨٥هـ): روى أنَّ بعض أهل الكوفة اشترى داراً وناول أمير المؤمنين عليه السلام رقّاً وقال له: اكتب لي قبالة، فكتب عليه السلام: بسم الله الرحمٰن الرَّحيم هذا ما اشترى ميّت عن ميّت داراً في بلدة المذنبين، وسكنة الغافلين.

الحدُّ الأوَّل منها ينتهي إلى الموت، والثاني إلى القبر، والثالث إلى الحساب والرَّابع إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار، ثمَّ كتب في ذيلها هذه الأبيات:

النفس تبكي على الدُّنيا وقد علمت ... أنَّ السلامة منها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلاّ الّتي كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها ... وإن بناها بشرّ خاب ثاويها
أين الملوك الّتي كانت مسلّطة ... حتّى سقاها بكأس الموت ساقيها
لكلّ نفس وإن كانت على وجل ... من المنيّة آمال تقوّيها
فالمرءُ يبسطها والدَّهر يقبضها ... والنفس تنشرها والموت يطويها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدَّهر نُبينها
كم من مدائن في الآفاق قد بُنيت ... أمست خراباً ودون الموت أهليها

وكذا روي عن الصادق عليه السلام نحو هذا الحديث من جهة تحديد الحدود الأربعة كما في **«المناقب»** لمحمّد بن شهر آشوب عن هشام بن الحكم قال: كان رجل من ملوك أهل الجبل يأتي الصادق عليه السلام في حجّة كلِّ سنة، فينزله أبو عبد الله عليه السلام في دار من دوره في المدينة، وطال حجّه ونزوله فأعطى أبا عبد الله عليه السلام عشرة آلاف درهم ليشتري له داراً وخرج إلى الحجّ، فلمّا انصرف قال: جعلت فداك اشتريت لي الدّار؟ قال عليه السلام: نعم، وأتى بصكّ فيه:

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم هذا ما اشترى جعفر بن محمّد لفلان بن فلان الجبلي، اشترى داراً في الفردوس حدُّها الأوَّل رسول الله صلى الله عليه وآله، والحدُّ الثاني أمير المؤمنين عليه السلام، والحدُّ الثالث الحسن بن عليّ عليه السلام، والحدُّ الرابع الحسين بن عليّ عليه السلام.

فلمّا قرأ الرَّجل ذلك قال: قد رضيت جعلني الله فداك قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّي أخذت ذلك المال ففرَّقته في ولد الحسن والحسين عليهما السلام وأرجو أن يتقبّل الله ذلك، ويثيبك به الجنّة.

قال: فانصرف الرّجل إلى منزله وكان الصكُّ معه، ثمَّ اعتلَّ علّة الموت فلمّا حضرته الوفاة جمع أهله وحلّفهم أن يجعلوا الصكَّ معه، ففعلوا ذلك فلمّا أصبح القوم غدوا إلى قبره

فوجدوا الصكَّ على ظهر القبر مكتوب عليه: وفى لي والله جعفر بن محمد عليه السلام بما قال[1].

أقول: وللخدشة في هذا الحديث المنسوب إلى الصادق عليه السلام مجال وإنما ذكرناه تأييداً لما قدّمنا وبالجملة إنما يستفاد من واقعة الأمير عليه السلام مع شريح ومع بعض أهل الكوفة أنّ القبالة المتداولة في زماننا تكتب في ابتياع الأملاك حيث يتعيّن فيه الحدود ويذكر فيه الشروط والشهود إنما كانت متعارفة في زمن الصحابة أيضاً، هب أنّها بتلك الكيفيّة لم تكن معهودة في صدر الإسلام، فلا بأس أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام مبتكرة فيه، فإنّه عليه السلام كان سباقاً إلى العجائب والغرائب دائماً فلا مجال لتوهّم إسناد الكتاب إلى غيره عليه السلام بمجرّد الاستبعاد بل استناده إلى مثل الفضيل مستبعد جدّاً، بل عدم صحة الإسناد إليه معلوم قطعاً.

«سند الكتاب»

نحن بعون الله تعالى وجدنا أسانيد جلّ ما في **«نهج البلاغة»** ونرجو من الله الهادي تحصيل أسانيد ما لم يحصل بعد، وببالي إن أخذ التوفيق بيدي أن أذكر أسانيد ما في النهج وما لم يأت به الرَّضيُّ رضوان الله عليه من كلامه عليه السلام في آخر الشرح.

فنقول: يا ليت الرَّضيُّ ذكر أسانيد ما نقل في النهج ومداركه لئلاّ يتقوّل عليه بعض الأقاويل، ولكنَّ الإنصاف أن يقال: كفى في سنده أنَّ مثل الرَّضيّ أسنده إليه عليه السلام. ثمَّ نقول في المقام: أوّلاً إنَّ الشريف الرَّضيّ مع جلالة شأنه وفخامة أمره وتتبّعه في الآثار وعرفانه بالأخبار وتبحّره في فنون الكلام وتضلّعه في جلّ ما أتى به الشرع أسند الكتاب أعني ذلك الكتاب الّذي كتبه عليه السلام لشريح، إليه عليه السلام.

وثانياً: أنَّ العلاّمة الشيخ بهاء الدّين العاملي قدّس سرُّه رواه مسنداً في كتابه المعروف بـ**«الأربعين»** وهو الحديث الرابع عشر منه وسلسلة سنده من المشايخ العظام والرواة الأجلاّء، فبعد اللّتيا والّتي فلا مجال لأحد أن يناقش في إسناد الكتاب إليه عليه السلام، وفي اقتباس الفضيل منه عليه السلام ودونك الكتاب وسنده على ما في **«الأربعين»**.

روى الشيخ رحمه الله بسنده المتصل إلى الشيخ الجليل محمّد بن بابويه ـ وقد ذكر سنده إلى ابن بابويه في الحديث الأوّل من **«الأربعين»** ـ عن صالح بن عيسى بن أحمد، عن محمّد بن محمّد بن عليّ، عن محمّد بن الفرج الرخجي ـ **(بالراء المهملة المضمومة والخاء المعجمة المفتوحة والجيم)** ثقة من أصحاب الرّضا عليه السلام ـ عن عبد الله بن محمّد العجلي، عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني ـ **(المعروف بشاه عبد العظيم المدفون بالري)** ـ عن أبيه، عن

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٣٧٤، وبحار الأنوار: ٤٧/ ١٣٤، ح ١٨٣.

أبان مولى زيد بن عليّ، عن عاصم بن بهدلة قال:

قال لي شريح القاضي: اشتريت داراً وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً، فبلغ أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب ﷺ فبعث إليَّ مولاه قنبر، فأتيته فلمّا دخلت عليه قال: يا شريح اتّق الله فإنّه سيأتيك من لا ينظر في كتابك، ولا يسأل عن بيّنتك حتّى يخرجك من دارك شاخصاً، ويسلّمك إلى قبرك خالصاً، فانظر أن لا تكون اشتريت هذه الدّار من غير مالكها، ووزنت مالاً من غير حلّه، فإذا قد خسرت الدّارين جميعاً: الدُّنيا والآخرة، ثمَّ قال ﷺ: فلو كنت عندما اشتريت هذه الدّار أتيتني فكتبت لك كتاباً على هذه النسخة إذ لم تشترها بدرهمين، قال: قلت: وما كنت تكتب يا أمير المؤمنين: قال ﷺ: كنت أكتب لك هذا الكتاب:

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم هذا ما اشترى عبد ذليل من ميّت أُزعج بالرَّحيل اشترى داراً في دار الغرور من جانب الفانين إلى عسكر الهالكين وتجمع هذه الدّار حدود أربعة: فالحدُّ الأوَّل منها ينتهي إلى دواعي الآفات، والحدُّ الثاني منها ينتهي إلى دواعي العاهات، والحدُّ الثالث منها ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحدُّ الرابع منها ينتهي إلى الهوى المردّي والشيطان المغوّي، وفيه يشرع باب هذه الدّار.

اشترى هذا المفتون بالأمل، من هذا المزعج بالأجل، جميع هذه الدّار بالخروج من عزِّ القنوع، والدُّخول في ذلِّ الطلب، فما أدرك هذا المشتري من درك فعلى مبلي أجسام الملوك وسالب نفوس الجبابرة مثل كسرى وقيصر، وتبّع وحمير، ومن جمع المال إلى المال فأكثر، وبنى فشيّد، ونجّد فزخرف، وادَّخر بزعمه للولد، إشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض لفصل القضاء، وخسر هنالك المبطلون شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسرى الهوى، ونظر بعين الزوال لأهل الدُّنيا، وسمع منادي الزُّهد ينادي في عرصاتها:

ما أبين الحقُّ لذي عينين ... إنَّ الرَّحيل أحد اليومين

تزوَّدوا من صالح الأعمال، وقرِّبوا الآمال بالآجال[1].

«اللغة»

(على عهده) أي في زمانه فإنَّ كلمة الجارَّة ههنا بمعنى في، وأحد معاني العهد الزَّمان، ففي **«أقرب الموارد»**: كان ذلك في عهد شبابي أي زمانه، ومنه كان ذلك على عهد فلان أي زمانه. انتهى.

---

(١) الأمالي: ٣٨٩، ونهج السعادة: ٢/ ٣٦.

(دينار) الدّينار ضرب من النقود القديمة الذّهبيّة، وفي **«أقرب الموارد»** أنه فارسي معرّب، وأصله دنّار بالتشديد بدليل جمعه على دنانير وتصغيره على دنينير، لأنّهما يرجعان الكلمة إلى أصلها غالباً فأُبدل من أحد حرفي تضعيفه ياءً لئلاّ يلتبس بالمصادر الّتي يجيء على فعّال كقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبا: ٢٨] إلاّ أن يكون بالهاء فيخرج على أصله مثل الصنّارة والدنّامة لأنّه أمن الآن من الالتباس، قاله في **«الصحاح»**.

(استدعاه) أي طلبه **(أشهدت فيه شهوداً)** أي أحضرت فيه شهوداً، أو تكون كلمة في الجارة بمعنى على نحو قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] ويقال: أشهد فلاناً على كذا أي جعله شاهداً عليه، فالمعنى وجعلت قوماً شهوداً عليه، والشهود جاء مصدراً وغير مصدر والمراد هنا الثاني يقال: شهد عند الحاكم لفلان على فلان بكذا شهادةً من بابي علم وكرم إذا أدّى ما عنده من الشهادة، فهو شاهد فيجمع على شهود نحو عادل وعدول، وشهد كصاحبه وصحب، وأشهاد كناصر وأنصار وشاهدين كعالم وعالمين. وفي نسختي **«الأربعين»** و**«حلية الأولياء»**: وأشهدت عدولاً ولكن الشهود أنسب بالمقام من العدول.

(أما) بفتح الأوّل وتخفيف الثاني: حرف تنبيه ههنا.

(سيأتيك من) المراد من إمّا الموت أو ملك الموت، والثاني أولى لأنّ من يستعمل غالباً في ذوي العقول كما أنّ ما يستعمل غالباً في غير ذوي العقول وإنّما قلنا غالباً لأنّ ما قد يستعمل في ذوي العقول كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس: ٥] ومن في غير ذوي العقول كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥] والتفصيل مذكور في الموصولات من كتب النحو.

(لا ينظر في كتابك) يقال: نظره ونظر إليه إذا أبصره بعينه ونظر فيه إذا تدبّره وفكّر فيه، يقدّره ويقيسه ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨ ـ ٨٩] ولذا قال بعضهم: إنّ نظر يتعدّى إلى المبصرات بنفسه ويتعدّى إلى المعاني بفي.

(لا يسألك عن بينتك) السؤال إذا كان بمعنى الاستخبار يتعدّى إلى مفعولين إلى الأوّل بنفسه وإلى الثاني بعن كما في المقام، وقد يتعدّى إلى الثاني بالباء مضمّنة معنى عن نحو: سل به خبيراً، أي سل عنه، وقد تخفف الهمزة من فعله فيقال سال يسال سل ومسول كخاف يخاف خف ومخوف، المستفاد من ظاهر كلام المرزوقي في شرح الحماسة **(الحماسة ٧٥٧ ص ١٧١٥ طبع مصر ١٣٧١هـ)** أنّ التخفيف هو لغة هذيل. قال عبد الله بن الدمينة **(الحماسة ٥١٠)**.

سلي البانة الغنّاء بالأجرع الّذي ... به البانُ هل حيّيتُ أطلال دارك

فقوله: سلي، كان أصله اسألي فحذف الهمزة تخفيفاً وألقيت حركتها على السين فصار

إسلي، ثمّ استغنى عن همزة الوصل لتحرُّك ما بعدها فحذفت فصارت سلي، وعلى هذا القياس قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١].

(البيّنة) الحجّة. وفي نسخة «الأربعين» عن بيتك أي دارك الّتي اشتريتها والأوّل أنسب بالمقام، وما يختلج في البال أنّ الثاني حرِّف من الكتّاب وإلاّ لقال عليه السلام: حتّى يخرجك منه، لا من دارك كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام، والشاهد لذلك ترجمة ابن خاتون العاملي بالفارسية في شرحه على «الأربعين» للشيخ بهاء الدّين قدّس سرّه حيث قال: زود باشدكه برتو وارد شود شخصي كه نكاه بسند تونكند. وازكواهان توجيزي نبرسد، إلخ. على أنّ النسختين متفقتان في الأوّل.

(شاخصاً) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧] قال الراغب في المفردات: قال تعالى: تشخص فيه الأبصار، شاخصة أبصارهم أي أجفانهم لا تطرف، وفي «مجمع البيان» التفسير: شخص المسافر شخوصاً إذا خرج من منزله، وشخص عن بلد إلى بلد وشخص بصره إذا نظر إليه كأنه خرج إليه. ويقال: شخص بصره فهو شاخص إذا فتح عينيه وجعل لا يطوف مع دوران في الشحمة، وشخص الميّت بصره وببصره أي رفعه، وفي «منتهى الأرب»: شخص بصره: واكرد جشم راووا داشت وبرهم نزد آنرا وبلند كرد نكاره را، وشخصت عينه بازماند جشم أو.

ويمكن أن يتّخذ الشاخص من شخص المسافر من بلد إلى بلد شخوصاً بمعنى ذهب وسار وخرج من موضع إلى غيره، ومنه حديث «إقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل».

أو من شخص السهم إذا ارتفع عن الهدف، ومنه الدُّعاء: «اللّهمّ إليك شخصت الأبصار» أي ارتفعت أجفانها ناظرة إلى عفوك ورحمتك، قال الجوهريُّ في «الصحاح»: أشخص الرامي إذا جاز سهمه الغرض من أعلاه، وهو سهم شاخص، فالمراد على هذا الوجه الأخير حتّى يخرجك منها مرفوعاً أي محمولاً على أكتاف الرّجال.

والوجهان الأخيران ممّا احتملهما الشيخ في «الأربعين» أيضاً وجعل العبارة على الأوّل كناية عن الموت، فإنّه ذكر معنى الشاخص على الوجه الّذي أتى به الجوهريُّ في الصّحاح حيث قال: شخص بصره بالفتح فهو شاخص إذا فتح عينيه وصار لا يطرف، وهو كناية عن الموت وكذا الطريحي في «مجمع البحرين».

ولكن في «أقرب الموارد» بعدما في الصحاح أتى بقيد زائد، وهو قوله: مع دوران الشحمة، وهذا المعنى لا يناسب قوله عليه السلام: حتّى يخرجك، فإنّ المرء ما لم يمت لا يخرج من داره، ولا يخفى أنّ المعنى الّذي ذكره في «الصحاح» لا يشير إلى الموت، غاية الأمر إلى

شدّة الأمر وهوله، ولذا فسّر الكلبي كما في مجميع البيان قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقوله: إنَّ أبصار الّذين كفروا تشخص في ذلك اليوم أي لا تكاد تطرف من شدّة ذلك اليوم وهوله، ينظرون إلى تلك الأهوال.

وبالجملة إنَّ شخص بالمعنى الأوّل لا يدلُّ على موت الشاخص إلاّ أن يؤخذ الشاخص من شخص الميت بصره ويبصره إذا رفعه، وكذا شخصت عينه، حتّى يستقيم المعنى الكنائي، أو من شخص المسافر بمعنى ذهب وسار على نوع من التجوُّز.

(**يسلّمك إلى قبرك**) من التسليم أي يعطيك قبرك ويناولك إيّاه يقال: سلّمه إلى فلان أي أعطاه إيّاه فتناوله منه، ويمكن أن يؤخذ من الإسلام لأنَّ أسلم جاء بمعنى سلّم أيضاً يقال: فلان أسلم أمره إلى فلان أي سلّمه إليه.

(**خالصاً**) الخالص هو المحض والمراد هنا العاري من أعراض الدُّنيا وحطامها أي يخرجك عارياً منها.

(**نقدت الثمن من غير حلالك**) يقال: نقدته ونقدته لفلان الثمن أي أعطيته إيّاه نقداً معجّلاً، فالمراد أنك ابتعتها بيعاً نقداً أي بيع الحالّ بالحالّ.

وعلى نسخة الشيخ في «**الأربعين**»: ووزنت مالاً من غير حلّه، أي وزنت للدّار أو لبائعها مالاً يقال: وزنت مالاً ووزنت لفلان كما يقال: كلت زيداً وكلت لزيد قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ [المطففين: ٣].

وعلى نسخة أبي نعيم «**في الحلية**»: أو ورثت مالاً من غير حلّه، ومعناه ظاهر ولكنَّ الصواب أن يقال: إنَّ ورثت محرّف وزنت لعدم مناسبة ورثت في المقام وتفسير العبارة على ورثت لا يخلو من تكلّف وتعسّف، وما في المتن موافق للنسختين.

(**ترغب في شراء**) الأفعال كما تتغيّر معانيها بتغيّر الأبواب سواء كانت الأبواب مجرّدة أو غير مجرّدة كذلك تتغيّر معانيها بتغيّر صلاتها، وكذا الحكم في مصادرها، فالرغبة ومشتقاتها إذا كانت صلتها كلمة في الجارّة تفيد معنى الإرادة والميل إلى الشيء ونحوهما يقال: رغب في الشيء إذا أراده وأحبّه، ومال إليه وطمع فيه وحرص عليه، وإذا كانت صلتها كلمة عن الجارّة تفيد الإعراض والترك يقال: رغب عنه إذا زهد فيه ولم يرده وأعرض عنه وتركه قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

(**الدِّرهم**) بكسر الدّال وفتح الهاء وكسرها: ضرب من النقود القديمة المضروبة من الفضّة للمعاملة، قال في «**الصحاح**» و«**منتهى الأرب**»: إنه فارسيّ معرّب وفي «**أقرب الموارد**» و«**المنجد**»: يونانيّ معرّب، وربّما قالوا درهام أيضاً بكسر الدّال قال الشاعر:

لو أنّ عندي مائتي درهام لجاز في آفاقها خاتامي

وجمع الدِّرهم دراهم؛ وجمع الدِّرهام دراهيم، قال الشاعر:

تنفي يداها في كلّ هاجرة نفي الدّراهيم تنقاد الصياريف

نقل البيتين في الصحاح.

(ميّت) أصله ميوت على وزن فيعل من الموت.

(أُزعج للرّحيل) أزعج بالبناء للمفعول أي شُخص به للرّحيل يقال: أزعجه فانزعج أي أقلقه وقلعه من مكانه فقلق وانقلع، هذا إن كانت اللاّم للتعليل وإن كانت بمعنى إلى فالمعنى سيق إليه يقال: أزعجه إلى المعصية أي ساقه إليها كما في «**لسان العرب**» في مادّة أزز على ما في «**أقرب الموارد**»..

(دار الغرور) الغرور بضمّ الغين المعجمة مصدر يقال غرّه يغرّه غروراً من باب نصر أي خدعه وأطمعه بالباطل ولذا قيل: الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الدُّنيا قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] ولذا توصف الدُّنيا بالغرور بالفتح ويقال: دنيا غرور بل أحد معاني الغرور بالفتح الدُّنيا، قال ابن السكيت كما في صحاح الجوهري: الغرور الشيطان ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

أقول: الصواب أنَّ كلَّ ما يغرُّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وغيرها فهو غرور بالفتح وإنّما فسّر بالشيطان لأنّه الغارّ الحقيقي وتلك الأمور آلات ووسائط. إذ هو أخبث الغارين، وبالدُّنيا لأنّها تغرُّ وتضر وتمرُّ كما قاله عليه السلام وسيأتي في باب المختار من حكمه.

(خطّة) واحدة خطط قال الجوهريّ في «**الصحاح**»: الخطّة بالكسر الأرض يختطّها الرَّجل لنفسه وهو أن يعلم عليها علامة بالخطّ ليعلم أنّه قد اختارها لنفسه ليبنيها داراً، ومنه خطط الكوفة والبصرة، والمراد منها البقعة والناحية والجانب وأمثالها ويقال بالفارسية: سرزمين.

(تجمع هذه الدّار) أي تحويها وتحيط بها. **(دواعي)** جمع الدّاعية بمعنى السبب، قال الحريري: وتاقت نفسي إلى أن أفضّ ختم سرّه وأبطن داعية يسرُّه، أي أعرف باطن سبب يسرُّه نقله في «**أقرب الموارد**»، دواعي الدّهر: صروفه، دواعي الصدر: همومه، ولكن المراد هنا معناها الأوّل أي أسباب الآفات والمصيبات.

وفي «**الحلية**»: والحدُّ الأوّل منها وفي «**الأربعين**» والحدُّ الثاني منها ينتهي إلى دواعي العاهات، وهي جمع العاهة أي الآفة، وأصل العاهة عَوَهة، يقال: عيه الزرع وأيف وأرض معيوهة أي ذات عاهة وطعام ذو معوهَة أي من أكله أصابته عاهة وفي «**النهاية الأثيرية**»: في

الحديث نهى عن بيع الثمار حتّى تذهب العاهة، أي الآفة الّتي تصيبها فتفسدها يقال: عاه القوم وأعوهوا إذا أصابت ثمارهم وماشيتهم العاهة، ومنه الحديث: لا يورد ذو عاهة على مصحّ، أي لا يورد من بإبله آفة من جرب أو غيره على من إبله صحاح لئلاّ ينزل بهذه ما نزل بتلك فيظنّ المصحّ أنّ تلك أعدتها فيأثم.

وفي «**مجمع البحرين**»: في الحديث بظهر الكوفة قبر لا يلوذ به ذو عاهة إلا شفاه الله، أي آفة من الوجع، وفي الحديث: لم يزل الإمام مبرءاً عن العاهات أي هو مستوي الخلقة من غير تشويه.

وقيل: الفرق بين الآفات والعاهات أنّ العاهات تكون الأمراض الظاهرية من قبيل برص أو جذام، والآفات تكون الأمراض الباطنيّة من مثل الحمّى.

(**المردي**) اسم فاعل من الإرداء بمعنى الإهلاك، فالهوى المردي أي الهوى المهلك، والرّدي: الهلاك، والمراد هنا هلاك الدّين، ويقال أيضاً: أرداه في البئر مثلاً أي أسقطه فيها، فالمعنى على هذا الوجه الهوى المسقط إلى هوّة جهنّم ومآل العينين واحد.

(**المغوي**) كالمردي فاعل من الإغواء أي المضلّ، وهو إشارة إلى قوله تعالى حاكياً عن الشيطان: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وفي «**الحلية**» (**زقاق الفناء**) الزقاق بضمّ الأوّل وتخفيف الثاني: السكّة وقيل: الطريق الضيق دون السكة نافذاً كان أو غير نافذ يذكّر ويؤنّث جمعه زقاق بالضمّ فالتشديد وأزقّة.

(**يشرع**) بالبناء للمفعول من الإشراع أي يفتح، وفي «**القاموس**»: أشرع باباً إلى الطريق فتحه. أو من الإشراع بمعنى التهيّؤ أي يتهيّأ للدّخول والخروج نحو قول جعفر بن علبة الحارثي (**الحماسة ٤**):

فقالوا لنا اثنتان لا بدّ منهما صدور رماح أُشرعت أو سلاسل

أي إذا كان الأمر على هذا فلا بدّ من أحدهما إمّا صدور رماح هيّأت للطعن أو سلاسل، أي إمّا القتل أو الأسر ولكن المعنى الأوّل أبين وأنسب.

في «**الأربعين**»: بالخروج من عزّ القنوع، والقنوع بالضمّ: القناعة.

(**الضّراعة**): الذّلة: مصدر من ضرع ضراعة من بابي منع وشرف أي خضع وذلّ وتذلّل.

(**أدرك**) بمعنى لحق يقال: طلب الشيء حتّى أدركه أي حتّى لحقه ووصل إليه.

(**درك**) قال في «**الصحاح**»: الدرك التبعة، تسكن وتحرّك، يعني أنّ الدرك يقرأ على

وجهين بفتح الأوّلين وبفتح الأوّل وسكون الثاني يقال: ما لحقك من درك فعليّ خلاصه، والمراد من الدرك هنا ما يضرُّ بملكية المشتري كأن يدَّعي أحد كان المبيع ملكه وبيع بغير حقّ وكان البائع غاصباً وغير ذلك.

(مبلبل) اسم فاعل من بلبل القوم بلبلة وبلبالاً إذا هيّجهم وأوقعهم في الهمّ ووسواس الصدور، قال باعث بن صريم «على التصغير»:

سائل أسيد هل ثأرت بوائل ... أم هل شفيت النفس من بلبالها

أي من همّها وحزنها **(الحماسة ١٧٥)**.

وقال منصور النمري:

فلمّا رآني كبّر الله وحده ... وبشّر قلباً كان جمّاً بلابله

أي كانت غمومه مجتمعة عليه **(الحماسة ٧٤٩)**.

أو من بلبل الألسنة أي خلّطها أي يخلّط ويمزج أجسامهم بتراب القبر.

أو من بلبل الشيء إذا فرّقه ومزّقه وأفسده بحيث أخرجه عن حدّ الانتفاع به، والمراد هنا المعنى الثاني أو الثالث كما هو ظاهر لا غبار عليه، فلا حاجة إلى ما تكلّف به الشيخ محمّد عبده حيث فسّر مبلبل الأجسام بقوله: مهيّج داءاتها المهلكة لها.

وفي نسخة الشيخ في **«الأربعين»**: فعلى مبلي أجسام الملوك، وقال قدّس سرُه في بيانه: مبلي كمكرم من البلاء بالكسر وهو الدّثور والإندراس، وكذا ابن الخاتون العاملي في شرحه قال: مبلي بوزن مكرم مأخوذ از بلاي بكسر با است كه بمعنى دثور واندراس است يعني ازهم باشيدن وريزه ريزه شدن، ولم ينقلا غير المبلي نسخة أُخرى فعندهما المبلي هو المتعيّن، وفي **«النهج»** و**«الحلية»**: المبلبل مكان المبلي، ومآل الكلّ واحد يقال: أبلى الثوب أي أخلقه وبلبله أي مزّقه وأفسده، فمعنى أحدهما قريب من الآخر.

(سالب نفوس الجبابرة) سلبه يسلبه وسَلَبا من باب نصر أي انتزعه من غيره على القهر، والنفوس جمع النفس وهي هنا بمعنى الرُّوح والجبابرة: الملوك كما في اللّسان فسالب نفوس الجبابرة أي قابض أرواح الملوك أو أنّ الملوك أحد بعض مصاديق الجبابرة.

ثمّ الظاهر أنّه عليه السلام كنّى بالمبلبل والسالب والمزيل عن الله جلّت عظمته ويمكن إرادة ملك الموت منها ولكنّ الشيخ صرّح في **«الأربعين»** بأنّ المراد منها الموت فليتأمّل.

(كسرى) بكسر الكاف وفتحها أيضاً لقب ملوك الفرس، وهو معرّب خسرو أي واسع الملك واحد جموعه: أكاسرة.

(قيصر) لقب ملوك الرُّوم وجمعه: قياصرة.

(تبّع) بضمّ التاء المثناة من فوق وتشديد الباء الموحّدة المفتوحة. لقب ملوك اليمن والجمع: تبابعة.

(حمير) بكسر أوّله وفتح ثالثه أبو قبيلة من اليمن وهو حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ومنهم كانت الملوك في الدّهر الأوّل واسم حمير العرنج، قاله في **«الصحاح»**.

(شيّد) الشيد بكسر الشين ما يطلى به الحائط من جصّ أو بلاط ونحوهما وبالفتح المصدر يقال: شاده يشيده شيداً بالفتح جصّصه، وهو مشيد أي معمول بالشيد قال تعالى: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ ونقل إلى باب التفعيل للمبالغة، أو يكون من شيّد البناء أي رفعه كما في **«أقرب الموارد»** وكذا في **«الصحاح»** حيث قال: والمشيّد بالتّشديد المطوّل، أو من شيّد قواعده أي أحكمها.

قال الكسائيُّ: المشيد للواحد من قوله تعالى: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ والمشيّد بالتّشديد للجمع من قوله تعالى: ﴿فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ نقله في **«الصحاح»**.

أقول: الظاهر أنَّ الكسائي أراد أنَّ المشيد والمشيّد بمعنى واحد إلاّ أنَّ الأوَّل يستعمل في المفرد والثاني في الجمع فلا يقال قصر مشيّد بالتشديد أو بروج مشيدة بالتخفيف فتأمّل.

(زخرف) زخرفه أي زيّنه وحسّنه، والزُّخرف كلُّ ما حسن به الشيء والمزخرف المزيّن قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾[يونس: ٢٤].

قال عنترة بن الأخرس (**الحماسة ٨١٧**):

لعلّك تمنى من أراقم أرضنا ... بأرقم يسقى السمّ من كل منطف

تراه بأجواز الهشيم كأنّما ... على متنه أخلاق بُرد مفوَّف

كأنّ بضاحي جلده وسراته ... ومجمع ليتيه تهاويل زخرف

شبّه بارز جلد الحيّة وظهره ومجمع صفحتي عنقه لاختلاف ألوانها بالتهاويل الّتي تزخرف بها الإبل. وفي المفردات: الزّخرف الزينة المزوّقة ومنه قيل للذهب زخرف.

قال في **«الصحاح»**: الزُّخرف الذّهب ثمّ يشبّه به كلّ مموّه ومزوّر، على هذا قوله عليه السلام زخرف بمعنى زيّنه بالزُّخرف أي ذهّبه.

(نجّد) بالنون والجيم المشدّدة والدّال المهملة يقال: نجد البيت أي زيّنه بالبسط والفرش والوسائد، وفي **«اللّسان»** نجّدت البيت بسطته بثياب موشّية والنجد محرّكة: متاع البيت من

فرش ونمارق وستور، جمعه أنجاد، ونجود البيت: ستوره الّتي تعلّق على حيطانه يزيّن بها.

أو يكون نجّد من النجد بمعنى ما ارتفع من الأرض أي رفع البناء، وهذا المعنى على نسخة الشيخ في **«الأربعين»** حيث قال: «نجّد فزخرف» أنسب إن لم يكن متعيّناً، وعلى نسخة الرّضي المعنى الأوّل أنسب فإنّ زخرف أعني ذهب يستعمل غالباً في تزيين سقف البيت، ونجّد في تزيين أرضه.

(ادّخر) أي اكتسب المال وخبأه لوقت الحاجة إليه، وهو افتعل من الذّخر لكنه أبدل من التاء دالاً فأُدغم الدّال فيه فلك أن تقول: ادّخر، ولك أن تقول: اذّخر، قال منظور بن سحيم «بالتصغير» الحماسة ٤٢٢:

وعِرضي أبقى ما ادّخرت ذخيرة   وبطني أطويه كطيّ ردائيا

(اعتقد) مالاً: جمعه، واعتقد ضيعة: اقتناها، تقول: اعتقد عقدة إذا اشترى ضيعة، والعقدة: الضيعة والعقار الّذي اعتقده صاحبه ملكاً أي اقتناه وغيرهما من الأموال الصامتة فلك أن تقول: اعتقد أي جعل لنفسه عقدةً.

(الولد) بسكون الثاني وحركات الواو وبفتحهما كلُّ ما ولده شيء ويطلق على الذكر والأنثى والمثنى والمجموع؛ وهو مذكر والجمع أولاد وولدة بالكسر فالسكون وإلدة بإبدال الواو همزة وولد بالضمّ فالكسر فالأخير جاء جمعاً ومفرداً كالفلك قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] فالأولى مفرد والثانية جمع.

(نظر بزعمه للولد) يقال: نظر له أي رثاه وأعانه والمراد هنا جمع المال للولد إعانة له ونحنناً عليه.

(إشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض والحساب) أي إرجاعهم إليه قال في **«اللسان»**: أشخص فلاناً إلى قومه: أرجعه إليهم. ويقال أيضاً: أشخصه، أي أزعجه وأحضره.

(العرض) أي عرض أعمالهم عليهم من عرض الشيء عليه وله أي أراه إيّاه قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾[الكهف: ١٠٠]، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

(فصل القضاء) الفصل إبانة أحد الشيئين من الآخر حتّى تكون بينهما فرجة ويوم الفصل أحد أسماء القيامة قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المرسلات: ٣٨] أي اليوم يبيّن الحقُّ من الباطل، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٤٠]

وقال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] فقوله عليه السلام: فصل القضاء أي فصل القضاء بين الحقّ والباطل.

(خسر هنالك المبطلون) اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [المؤمن: ٧٨].

الإعراب

«قاضي» صفة لشريح بالإضافة. «بثمانين» الباء للتعويض والمقابلة وهي الدّاخلة على الأعواض والأثمان. جملة «اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً» خبر إنَّ. «قد كان ذلك» كان تامّة وذلك فاعل لها. «نظر مغضب» مفعول مطلق لفعل نظر.

ثمَّ إنَّ كلمة مغضب فيما رأينا من النسخ المطبوعة من **«النهج»** مشكولة بكسر الضاد لكنها وهم والصواب بفتحها كما في نسخة عتيقة مصحّحة جداً قد رزقنا الله أثناء الشرح ووفّقنا بابتياعها وقد تفاءلت بها التوفيق في إتمام هذا الأثر كيف لا وفي الخبر: إذا أراد الله شيئاً هيّأ أسبابه.

وبعد ذلك تفضّل علينا صديقنا الفاضل السيد مهدي الحسيني اللاّجوردي زاده الله توفيقاً بالاطلاع على نسخة من مكتبته بدار العلم قم قوبلت بنسخة السيّد الإمام الرَّضي رضوان الله عليه، والنسختان موافقتان متناً وصحّة في عدَّة مواضع قوبلتا فيها، والمغضب فيهما مشكولة بالفتح.

«أما» من حروف التنبيه يصدَّر بها الجمل كلّها حتّى لا يغفل المخاطب عن شيء ممّا يلقي المتكلّم إليه، ولذا سمّيت حروف التنبيه، وهي: أما وألا وها، والأخيرة خاصّة من المفردات على أسماء الإشارة حتّى لا يغفل المخاطب عن الإشارة الّتي لا يتعيّن معانيها إلاّ بها نحو: هذا، وهاتا، ونحوهما.

«حتى لا يخرجك» الفعل منصوب بأن المقدَّرة وجوباً ويسلّمك عطف عليه.

«شاخصاً» حال لضمير المفعول في يخرجك. «خالصاً» حال لضمير المفعول في يسلّمك.

«فانظر يا شريح لا تكون» في نسختي **«الأربعين»** و**«حلية الأولياء»**: فانظر أن لا تكون، فإن كان بمعنى تدبّر وتفكر فلا بدَّ من صلته بفي، وإن كان بمعنى أبصر إمّا أن تكون صلته بإلى، وإمّا يتعدّى بنفسه يقال نظره ونظر إليه أي أبصره بعينه كما قدّمنا في اللّغة.

ثمَّ إنَّ الأولى والأنسب أن تكون صلة الفعل كلمة في الجارة المقدَّرة حتّى تفيد معنى

التدبّر والتأمّل والتفكّر أي تأمّل وتدبّر في أن لا تكون اشتريت هذه الدار من غير مالك أو نقدت الثمن من غير حلالك. فعلى هذا يكون المصدر المسبوق بأن الناصبة منصوباً بنزع الخافض، أي تأمّل في عدم كونك شارياً لها من غير مالك وفي أدائك ثمنها من غير حلالك، وأمّا نسخة «**النهج**» فعلى وزن قوله تعالى: ﴿أَنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الإسراء: ٤٨].

ثمَّ اعلم الصواب أن يقرأ ما لك في قوله عليه السلام: ابتعت هذه الدّار من غير مالك بهيئة الفاعل لأنّه لو قرىء بإضافة المال إلى الضمير يلزم التكرار لأنَّ معنى جملتي «ابتعت هذه الدّار من غير مالك» و«أو نقدت الثمن من غير حلالك» واحد حينئذٍ فالمتعين أنه فاعل لا مضاف ومضاف إليه. ونسخة الشيخ في «**الأربعين**» «فانظر أن لا تكون اشتريت هذه الدّار من غير مالكها» شاهد صادق بل حجة قاطعة للمختار وقد ترجم العبارة وفسّرها كثير من المترجمين والمفسّرين بالإضافة ولم يتفطنوا لتلك الدّقيقة.

«فإذا أنت قد خسرت» قال الشيخ في «**الأربعين**»: إذا هذه فجائيّة كالواقعة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] أي فيكون مفاجئاً للخسران.

«فلم ترغب في شراء هذه الدّار بالدِّرهم فما فوقه» وفي نسخة «**الأربعين**» «إذا لم تشترها بدرهمين» وقال الشيخ في إعرابه: (**إذا**) حرف جواب وجزاء والأكثر وقوعها بعد أن ولو: واختلف في رسم كتابتها والجمهور بالألف والمازني بالنون، والفرّاء كالجمهور إن أعملت وكالمازني إن أهملت. انتهى قوله.

أقول: وأمّا على نسخة «**النهج**» فقوله عليه السلام: بالدّرهم فما فوقه. (**الفاء**) للعطف و(**ما**) نكرة موصوفة أو بمعنى (**الّذي**) مجرور محلاً بالباء، ولم تعد لأنَّه عطف على الظاهر والعامل في فوق على الوجهين الاستقرار، والمعطوف عليه الدّرهم وسيأتي توجيه قوله عليه السلام: قال: هذا ما اشترى باعتبار المنزل ونحوه.

«داراً من دار الغرور» كلمة (**من**) بمعنى في إن كان المراد من دار الغرور الدُّنيا كما بيّنا أي داراً في دار الغرور نحو قوله تعالى ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] أي في يوم الجمعة، ويمكن أن تكون (**من**) على هذا الوجه للتبعيض أيضاً كما هو ظاهر أو يكون الظرف مستقراً صفة للدّار. وإن كانت (**من**) لبيان الجنس لا يكون المراد منها الدُّنيا. نحو (**من**) الثانية في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] أي داراً هي دار الغرور.

«تجمع هذه الدّار حدود أربعة» هذه الدّار مفعول قدّم وحدود فاعل تجمع وفي بعض

نسخ **«الأربعين»** جعلت هذه الدّار فاعل الفعل وحدود مفعوله حيث كتب تجمع هذه الدّار حدوداً أربعة، ولكنه من تحريف النساخ وتصرُّفهم.

«فالحدُّ الأوَّل» الفاء هذه للترتيب الذكري لأنَّ أكثر ما يكون ذلك في عطف مفصّل على مجمل نحو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

«بالخروج من عزِّ القناعة» الباء للعوض والمقابلة أي اشترى هذا بهذا كما تقول: اشتريت هذه الدّار بهذه الدّنانير. والدُّخول مجرور ومعطوف على الخروج.

«فما أدرك» كلمة ما إمّا موصولة أو موصوفة وعلى التقديرين مبتدأ وخبره جملة «فعلى مبلبل أجسام الملوك إشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض» لأنَّ إشخاصهم مبتدأ ثان وخبره على مبلبل أجسام الملوك قدّم لتوسعة الظروف، وهذه الجملة الإسميّة خبر لما.

«من درك» من بيانيّة يبيّن ما «فعلى مبلبل» كلمة الفاء جواب لما لأنه على حدِّ: الّذي يأتيني فله درهم، أعني من المواضع الّتي يتضمّن المبتدأ فيها معنى الشرط فتدخل الفاء في خبره نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] وكأنما أراد الشيخ في **«الأربعين»** هذا المعنى حيث قال: **(ما)** في ما درك شرطية؛ سالب عطف على مبلبل، وكذا المزيل.

«ومن جمع» من موصول اسميٌّ معطوف على الفراعنة أي مزيل مالك الّذي جمع المال ـ إلخ، أو على كسرى كقيصر وأخويه وكأنَّ الأخير أظهر وكذا الحكم في من الثاني، ونسخة الشيخ هكذا: ومن جمع المال إلى المال فأكثر وبنى فشيّد ونجّد فزخرف.

ولولا كلمة ـ إلى ـ مكان ـ على ـ لكانت نسخته أولى من **«النهج»** لعدم الاحتياج إلى من الثاني أوّلاً، وعدم تنسيق العبارة على نظام واحد في **«النهج»** ثانياً، وخلوّه عن التعريفات الحسنة الأنيقة ثالثاً.

وأمّا كلمة **(إلى)** وإن كانت تفيد معنى صحيحاً في المقام ولكن على أصحّ وأفصح منها. والفاءات تفيد الترتيب «بزعمه» الباء للسببيّة.

إلى موقف العرض متعلّق بالإشخاص، والظرف لغو، وعلى نسختي الشيخ وأبي نعيم «ما أبين الحق» كلمة ما للتعجّب.

«ما الذي أوجب سخط الأمير عليه السلام على عمل شريح حتى كتب له ذلك الكتاب؟»

قبل الورود في تفسير جمل الكتاب لا بدَّ من ذكر مقدِّمة ليزيد الطالب بصيرة في غرض الكتاب، وهي:

أنَّ سفراء الله تعالى لم يمنعوا النّاس عمّا لا مناص عنها في حياتهم كتعلّم المعارف وتحصيل المأكل والمشرب والملبس والمنكح وبناء الدُّور واتّخاذ الحرف والصنائع ونحوها ممّا هي ضروريّة لحفظ نظام الاجتماع وبقاء بني نوع الإنسان، بل ندبوهم إليها ورغّبوهم فيها وحرَّموا عليهم الرُّهبانيّة بأنَّ الإنسان مدنيّ بالطبع. وكذا لم يدَّع أحد ولم يرو أنَّ حجّة من الحجج الإلهيّة عاتب أحداً في قبال عمله الصحيح العقلاني، بل حذّروهم ونهوهم عما يحكم العقل الناصع بقبحه ويذمُّ من ارتكبه كالسرقة والكذب والافتراء والخيانة والغضب والاقتداء بالنساء ونحوها ممّا هي تضرُّ سعادة الاجتماع، وتمنع الناس عن التكامل والارتقاء، وتورث بينهم العداوة والبغضاء.

وهذا هو أمير المؤمنين عليه السلام يمدح هديّة ويذمُّ أخرى، لأنَّ الأُولى كانت عارية عن الهوى، والثانية كانت مشوبة بها، فإنها كانت رشوة في صورة هديّة أتى بها آتٍ ليلاً وزعم أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام يضلُّ بها عن الحقِّ، ويفسق عن أمر ربّه.

أمّا مدحه عليه السلام الأُولى فبعض من كان يأنس إليه عليه السلام من أصحابه دعاه إلى حلواء عملها يوم نوروز، فأكل وقال عليه السلام: لم عملت هذا؟ فقال: لأنّه يوم نوروز، فضحك عليه السلام وقال: نَورزوا لنا في كلِّ يوم إن استطعتم.

وأمّا ذمُّه الثانية فإنَّ الأشعث بن قيس أهدى له نوعاً من الحلواء تأنّق فيه وظنَّ الأشعث أنه يستميله بالمهاداة لغرض دنيويّ كان في نفس الأشعث، وكان يبغض أمير المؤمنين عليه السلام فردَّ هديّته وقال:

وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها ومعجونة شنئتها كأنّما عجنت بريق حيّة أو قيئها، فقلت: أصلة؟ أم زكاة؟ أم صدقة؟ فذلك كلّه محرَّم علينا أهل البيت، فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنّها هديّة، فقلت: هبلتك الهبول أعن دين الله أتيتني لتخدعني أمختبط أم ذو جنّة أم تهجر؟ والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإنَّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ما لعليّ ونعيم يفنى، ولذّة لا تبقى نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزَّلل وبه نستعين **(ذيل الكلام ٢٢٢ من باب الخطب من النهج)**.

ثمَّ إذا كان المتجر الحلال وتحصيل ما يحتاج إليه الناس ومنه ابتياع الدّار ممدوحاً شرعاً وعقلاً حتّى قال رسول الله ﷺ: «من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع»، وقال أبو جعفر عليه السلام: «من شقاء العيش ضيق المنزل» وغيرهما من الأخبار المرويّة في **«الكافي»** وغيره **(الوافي ص ١٠٧ ج ١١)**.

فلازم للعاقل المستبصر أن ينظر في قول أمير المؤمنين عليه السلام لشريح حتى يظهر له سبب سؤاله شريحاً عن داره هذه فإنَّ شريحاً كان قاضياً من قبله عليه السلام وسيأتي ترجمته في ذيل الشرح، والظاهر أنَّ شريحاً تجاوز عن الحقِّ في أوان قضائه واشترى بالارتشاء أو نحوه بيتاً فصار عمله هذه سبب مؤاخذة أمير المؤمنين عليه السلام إيّاه على ابتياع الدّار سيّما أنَّ القائمين بأمور الدّين كالقاضي والمفتي والمدرّس والمؤذِّن والخطيب والإمام وأمثالهم لا تعظم ثروتهم في الغالب.

ولا ريب أنَّ أزمّة الأمور إذا كانت بيد رجل إلٰهيّ خيّر للاجتماع، ورؤوف بالناس يجتاح شوك الجور والعدوان من أصله ولا يدع أحداً أن يتجاوز عن قانون الفطرة وينحرف عن الحقِّ فلا جرم يدور رحى الاجتماع على محور العدل.

وبالجملة أنَّ ما أوجب سخطه عليه السلام على شريح وعمله كما يلوح من ظاهر كتابه عدول شريح عن الحقِّ وتجاوزه عن حقوق الناس حتّى اشترى داراً بثمانين ديناراً من غير حلال، ولولا ذلك لما سخط عليه وما جعل له أحد الحدود الحدَّ الّذي ينتهي إلى الشيطان المغوي وفيه يشرع باب هذه الدّار.

المعنى

قوله: (**روي أنَّ شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين** عليه السلام) سنذكر في ذيل شرح الكتاب ترجمة شريح ونسبه وخبره ومدّة قضائه وما قيل فيه إن شاء الله تعالى.

قوله: (**اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً**) أي اشترى في زمان حياة أمير المؤمنين عليه السلام داراً في الكوفة كان ثمنها ثمانين ديناراً، وإنّما قلنا اشترى داراً في الكوفة لأنّه كان قاضياً فيها، ويظنُّ ظاهراً أنّه اشتراها في الكوفة أيضاً.

قوله: (**فبلغه ذلك فاستدعى شريحاً**) أي بلغ أمير المؤمنين عليه السلام ابتياع شريح تلك الدّار فطلب عليه السلام شريحاً.

قوله: (**وقال له بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً وكتبت لها كتاباً وأشهدت فيه شهوداً**) أي قال عليه السلام لشريح: بلغني اشتراؤك داراً ثمنها ثمانون ديناراً، وكتبت لها قبالة وأحضرت في ذلك شهوداً، أو جعلت قوماً شهوداً عليه على أن تكون في بمعنى على.

قوله: **(فقال له شريح قد كان ذلك يا أمير المؤمنين)** أي قد ثبت ووقع ذلك لأنَّ كان تامّة.

قوله: **(قال فنظر إليه نظر مغضب)** أي قال الرّاوي وهو عاصم بن بهدلة على رواية الشيخ قدّس سرّه في **«الأربعين»**، ولا يجوز إرجاع الضمير إلى شريح وإلاّ لقال فنظر إليَّ.

ثمَّ إنَّ غضب سفراء الله وأوليائه على غيرهم لا يكون إلاّ لله عزَّ وجلَّ، وإنما كان ذلك من كمال إيمانهم بالله وغاية رأفتهم بالناس، لأنّهم لا يحبّون أن تشيع الفاحشة أو يرتكب أحد منكراً، وشريح قد آسف أمير المؤمنين عليه السلام باعترافه باشتراء الدّار فنظر عليه السلام إليه نظر مغضب وذلك لما قدّمنا أنَّ شريحاً لو لم يظلم أحداً على اشترائها ولم يتجاوز عن الحقِّ لما سخط عليه السلام عليه ولما جعل أحد حدود الدّار الحدَّ الّذي ينتهي إلى الشيطان المغوي.

قوله: **(ثمّ قال يا شريح أما أنه سيأتيك)** وفي نسخة الشيخ في **«الأربعين»** «قال يا شريح اتّق الله فإنه سيأتيك» أي خف الله واحذر ما حرّمه عليك، قال بعضهم: التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. وقيل: المتقي الّذي اتّقى ما حرّم عليه وفعل ما أوجب عليه. وقيل: هو الّذي يتّقي بصالح أعماله عذاب الله. وسأل عمر بن الخطاب كعب الأحبار عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ فقال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمّرت، فقال كعب: ذلك التقوى، ونظمه بعض الناس فقال:

خلِّ الذُّنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التّقى
واصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرة ... إنَّ الجبال من الحصى

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: إنّما سمّي المتّقون لتركهم ما لا بأس به حذراً للوقوع فيما به بأس[1].

وقال عمر بن عبد العزيز: التقيُّ ملجم كالمحرِم في الحرم، أتى بها الطبرسي في المجمع ضمن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

قوله عليه السلام: **(أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسألك عن بينتك)** أما للتنبيه كأنَّ شريحاً كان نائماً استيقظه أمير المؤمنين عليه السلام، لأنَّ الغافل في أعماله كالنائم فنبّهه عليه السلام من نوم الغفلة فقال: انتبه يا شريح سيأتيك ملك الموت أو الموت لا يتأمّل في كتابك ولا يستخبرك عن حجّتك.

---

(١) مجمع البيان: ١/ ٨٣، ومستدرك الوسائل: ١١/ ٢٦٧.

أمّا عدم نظره واستخباره، فإن كان المراد مِن مَن الموت فالأمر واضح وإن كان المراد منه ملك الموت عليه السلام فوجهان:

الأوّل أنه مأمور لقبض الأرواح فقط، وليس تكليفه السؤال عن أعمال الناس قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [السجدة: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝﴾ [الصافات: ١٦٤].

الوجه الثاني أنّه من العقول المجرَّدة المحيطة بما دونهم، وإنما يسأل عن الشيء ويستخبر عنه من لم يكن محيطاً به.

قوله عليه السلام: **(حتى يخرجك منها شاخصاً)** أي حتّى يخرجك الموت أو ملك الموت من تلك الدّار حال كونك مرفوعاً محمولاً على أكتاف الرّجال هذا إن أخذنا الشاخص من شخص السهم إذا ارتفع عن الهدف.

أو والحال أنت خارج من تلك الدّار وسائر إلى دار أُخرى أي أنت مرتحل من هذه الدّار إلى الدّار الآخرة إن أخذناه من شخص المسافر شخوصاً إذا خرج من منزله إلى غيره.

أو حال كونك ميّتاً إن أخذناه من شخص الميّت بصره وشخصت عينه على التحقيق الّذي قدَّمناه في اللغة.

قوله عليه السلام: **(ويسلّمك إلى قبرك خالصاً)** أي يسلّمك إلى قبرك حال كونك عارياً من المال والأهل والعيال ومجرّداً من أعراض الدُّنيا وحطامها، أي لا ينفعك ما تركت من الأهل والعيال وما ادَّخرت من الأموال في وحشة القبر وغربته إلاّ صالح الأعمال يوم لا ينفع مال لا وبنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

قوله عليه السلام: **(فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدّار من غير مالك)** أي إذا كان مآل كلّ أحد أن يخرج من الدُّنيا شاخصاً ويسلّم إلى قبره خالصاً فتأمّل وتدبّر في عدم كونك شارياً لها من غير مالكها بأن تكون الدّار مغصوبة فحينئذٍ لا بدَّ في معنى ابتعت من توسع، لأنّه لم يكن بيعاً صحيحاً جزماً.

قوله عليه السلام: **(أو نقدت الثمن من غير حلالك)** عطف على ابتعت، أي إذا كان كذلك فتدبّر وتأمّل في أداتك ثمنها من غير حلالك بأن اكتسبه من حرام بأخذ رشوة أو نحوها، لأنه كان قاضياً والقضاة في معرض الارتشاء وأكل المال بالباطل، إلاّ من اتّقى الله حقَّ تقاته.

قوله عليه السلام: **(فإذا أنت قد خسرت دار الدُّنيا ودار الآخرة)** إذا فجائيّة أي إن كانت الدّار المبيعة مغصوبة أو ثمنها من الحرام فأنت مفاجأ للخسران في الدّارين.

أمّا خسرانه في دار الدُّنيا لأنَّ مالك الدّار يسلبها من يد غاصبها سيّما في عصر كان فيه هيكل التوحيد وعنصر العدل عليُّ بن أبي طالب عليه السلام أمير الناس رحب الباع فيردّ الدّار إلى

مالكها، فيبقى الخسران على المشتري، فقد تقرّر في الفقه أنَّ أحداً لو اشترى مالاً من غير مالكه فمالكه يأخذه من المشتري والمشتري يرجع في ثمنه إلى البائع الغاصب، وإن تعاقبت أيد عديدة فيه تخيّر المالك في إلزام أيّهم شاء.

وأمّا خسرانه في دار الآخرة فإنَّ التّمتّع من غير الحلال في الدُّنيا تصير وبالاً في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

قوله عليه السلام: **(أما لو أنك كنت - إلى قوله: بدرهم فما فوقه)** أي كتبت لك في قبال قبالتك قبالة في مسافة تلك الدّار وحدودها ومبدئها ومنتهاها وسائر أوصافها لم ترد ولم تحبّ ابتياعها بدرهم فما دونه في الصّغر والقيمة.

والعاقل إذا تأمّل في نسخة القبالة كيف يرغب في بيت أحد حدوده دواعي الآفات، والآخر دواعي المصيبات، والثالث منتهٍ إلى الهوى المردي، والرابع إلى الشيطان المغوي ولو أعطيها مجّاناً.

فإن قلت: إنه عليه السلام قال: بدرهم فما فوقه، كيف فسّرته بدرهم فما دونه؟

قلت: إنّ الدّار الّتي لا يرغب في شرائها بدرهم فبالأولى أن لا يرغب بما فوقه من الدّرهمين في مقدار الثمن، وهذا ظاهر لا غبار عليه، فلا يصحُّ حمل العبارة على ما فوق الدّرهم في مقدار الثمن، بل المراد من قوله فما فوقه، فوق الدّرهم في القلّة والحقارة، نحو قولك لمن يقول: فلان أسفل الناس وأنذلهم: هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة فيؤول فما فوقه إلى فما دونه في الصّغر والقيمة.

وهذا هو أحد الوجهين ذكرهما المفسرون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] ذهب بعضهم كقتادة وابن جريج واتباعهما إلى أنَّ المراد فما فوقها في الصغر والقلّة، وبعض آخر إلى أنَّ المراد فما فوقها أي أكبر منها وما زاد عليها في الحجم.

ويجري الاحتمالان في ما روي في صحيح مسلم عن إبراهيم عن الأسود قال: دخل شباب من قريش على عائشة وهي بمنى وهم يضحكون، فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان خرَّ على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب، فقالت: لا تضحكوا إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلاّ كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة[1].

فيحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلّة، ويحتمل ما هو أشدّ من الشوكة وأوجع.

(١) كشف الخفاء: ٢/ ٣٠٤، ح ٢٧٤٧، وتفسير ابن كثير: ١/ ٦٨.

وقال العكبريُّ في شرحه على ديوان المتنبي عند قوله:

ومن جسدي لم يترك السقم شعرة فما فوقها إلاّ وفيها له فعل

وما فوقها يجوز أن يكون ما هو أعظم منها، ويجوز أن يريد ما دونها في الصغر وقد قال المفسّرون في قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] الوجهان اللّذان ذكرنا. انتهى.

ولكن كلا الوجهين في الآية والخبر لا يتمشّيان في المقام لما علمت أنَّ ما لا يرغب فيه بدرهم فبالأولى أن لا يرغب فيه بما فوقه.

فما أشار إليه بعض في حاشية النهج من أنَّ هذه العبارة في المقام تكون مثل قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ ليس بإطلاقه صحيحاً.

ثمَّ إنَّ لتفسير نحو هذه العبارة وجهاً آخر أدقّ وألطف ممّا قدّمنا لم يتعرَّضه أحد من الشراح والمفسّرين وهي:

أنَّ مفاد عبارة «**النهج**» مثلاً يكون هكذا: لم ترغب فيها بدرهم فكيف ترغب فيها بما فوقه، كأنّه قال: فبأن لا يرغب فيها بما فوق الدّرهم أولى، نظير هذا المضمون يقال في المحاورات الفارسيّة: أين كالا بدرمي نمي ارزذ تاجه رسد كه بيشتراز آن. وهكذا نحوه في كل مقام بحسبه مثلاً ﴿إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة﴾ فبأن لا يستحيي أن يضرب مثلاً فوقها أولى، أو كيف يستحيي أن يضرب مثلاً فوقها، وعلى هذا القياس في الخبر وشعر المتنبي ونحوها.

ثمَّ إنَّ الشارح البحراني قرَّر السؤال والجواب بقوله:

فإن قلت: فكيف قال فما فوقه ومعلوم أنه إذا لم يرغب فيها بدرهم فبالأولى أن لا يرغب فيها بما فوقه؟.

قلت: لما كان الدّرهم أقلّ ما يحسن التملّك به في القلّة وكان الغرض أنّك لو أتيتني عند شرائك هذه الدّار لما اشتريتها بشيء أصلاً لم يحسن أن يذكر وراء الدّرهم إلاّ ما فوقه، ونحوه قول المتنبي: ومن جسدي لم يترك، البيت، وكان قياسه أن يقول: فما دونها. انتهى.

أقول: إذا كان الدّرهم أقلّ ما يحسن التملّك به وكان الغرض ذلك فكيف لم يكتف عليه السلام بدرهم فقط ولماذا ذكر فوقه، ولا يرتبط قوله لم يحسن أن يذكر وراء الدّرهم إلاّ ما فوقه بما قبله معنًى، وبالجملة أنّ ما أتى به من الجواب بعيد عن الصواب، وتأبى عنه عبارة الكتاب.

قوله عليه السلام: (**بسم الله الرحمٰن الرّحيم**) من هنا إلى آخر الكتاب قبالة الدّار على نهج لو

تؤمّل فيها لا يرغب في شرائها بدرهم، ولو نظر فيها العارف بفنون الكلام وأساليب البيان لأيقن أنّ هذه الكلام متميّز عن كلام من سواه عليه السلام كالفضيل وأضرابه.

افتتح الكتاب بالبسملة اقتداءً بالقرآن العظيم وامتثالاً لمثال الرّسول الكريم.

افتتح القرآن ببسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم تعليماً للعباد أن يبدأوا أُمورهم كبيرها وصغيرها بتلك الآية المباركة ليبارك فيها، والافتتاح بتلك الكلمة الطيّبة سنّة الأنبياء والمرسلين، وشعار الأولياء والصّالحين كما جاء في القرآن المبين حكاية كتاب سليمان النبيّ صلوات الله وسلامه عليه: «بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٣١].

وفي «**الكافي**» عن الباقر عليه السلام أوّل كلّ كتاب نزل من السماء بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم، فإذا قرأتها فلا تبال أن لا تستعيذ، وإذا قرأتها سترتك فيما بين السماء والأرض[1].

وفي «**التهذيب**» عن الصادق عليه السلام «إنها أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها»[2].

وفي «**التوحيد**» عن الصادق عليه السلام «من تركها من شيعتنا امتحنه الله بمكروه لينبّهه على الشكر والثناء ويمحق عنه وصمة تقصيره عند تركه»[3].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله حدَّثني عن الله عزَّ وجلَّ أنّه قال: كلُّ أمر ذي بال لم يذكر فيه بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم فهو أبتر»[4].

قوله عليه السلام: **(هذا ما اشترى عبد ذليل)** لم يقل هذه باعتبار المنزل والبيت ونحوهما وإنّما عبّر شريحاً بالعبد الذّليل لئلاّ يتوهّم حيث كان قاضياً أنّ له شأناً ورفعة بل نبّهه بأنّه في أيّة حال كان، وبلغ إلى أيّة رتبة رفيعة ودرجة شامخة تتصوَّر عبد ذليل في يد مولى قاهر لا يقدر من الفرار عن سلطانه وحكومته، ومعلوم أنَّ دأب الإنسان الفخر والعجب والاستكبار إن رآه ذا رياسة واقتدار إلاّ الأَوحدي من الناس، لا يلهيه التكاثر ولا يعتني بالتفاخر قال عزَّ من قائل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

وهذا التوجيه المختار أمتن وأتقن من توجيه الشارح البحراني حيث قال: خصَّ المشتري بصفة العبوديّة والذلّة كسراً لما عساه يعرض لنفسه من العجب والفخر بشراء هذه الدّار.

(١) التفسير الصافي: ١/ ٨٢، وبحار الأنوار: ٨٢/٦.

(٢) وسائل الشيعة: ٦/ ٥٧، ح ٧٣٣٨، والتفسير الصافي: ١/ ٨٢.

(٣) التفسير الصافي: ١/ ٨٣، والتوحيد: ٢٣١.

(٤) وسائل الشيعة: ٧/ ١٧٠، ح ٢، وبحار الأنوار: ٧٣/ ٣٠٥، ح ١.

قوله عليه السلام: **(من ميت قد أزعج للرّحيل)** وفي بعض النسخ من عبد قد أزعج للرّحيل، وعلى الأولى إنما عبّر البائع بالميّت الّذي قد أزعج للرّحيل مع أنّه حيٌّ لعدم استقامة الشراء من الميّت، تنبيهاً على أنّ الموت بالمرصاد بل أنشب أظفاره فإذا حان حينه لا منجى منه ولا مناص، فعدّه ميّتاً لتحقّق وقوعه عن قريب.

وهذا تذكار للنّاس بأنّ الموت قريب وقوعه كلٌّ نفس ذائقته، فلا ينبغي لهم أن يحبّوا العاجلة ويذروا وراءهم يوماً ثقيلاً.

وفي «**الكافي**» عن عليّ بن الحسين عليه السلام: «أنّ الدُّنيا قد ارتحلت مدبرة، وأنّ الآخرة قد ارتحلت مقبلة ولكلٍّ واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدُّنيا»، إلخ[1].

قوله عليه السلام: **(اشترى منه داراً من دار الغرور)** بدل من اشترى الأولى: أي اشترى داراً في بيت الغرور أي الدُّنيا، أو داراً هي دار الغرور، وقد مضى وجه التفسيرين في الإعراب فراجع.

وإنما كانت الدُّنيا دار الغرور لأنّها تغرُّ أهلها بألوانها وزخارفها وحطامها فتلهيهم عن ذكر الله عزَّ وجلَّ قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣].

وفي كتاب «**عيون الحكم**» عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: احذروا هذه الدُّنيا الخدّاعة الغدّارة الّتي قد تزيّنت بحليّها، وافتتنت بغرورها، وغرّت بآمالها وتشوّفت لخطّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة، والعيون إليها ناظرة؛ والنفوس بها مشغوفة، والقلوب إليها تائقة، وهي لأزواجها كلّهم قاتلة، إلخ[2].

قوله عليه السلام: **(من جانب الفانين وخطّة الهالكين)** في نسخة الشيخ في «**الأربعين**»: من جانب الفانين إلى عسكر الهالكين، وفي نسخة أبي نعيم في «**حلية الأولياء**»: حدٌّ منها في زقاق الفناء إلى عسكر الهالكين، وترجم ابن الخاتون العاملي نسخة الشيخ في شرحه الفارسي عليه بقوله: مسافت آن ازجانب فنا وزوال ست تا لشكر هلال وارتحال، ونسخ «**النهج**» متّفقة في العبارة المذكورة.

أقول: الفناء خلاف البقاء والهلاك يستعمل غالباً في من مات ميتة سوء من معصية الله ومخالفة أمره قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧] وقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ [الأعراف: ٤]

---

(١) الكافي: ٢/ ١٣١ ح ١٥، وتحف العقول: ٢٨١.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٠٨ ح ١٠٩، ونهج السعادة: ٣/ ٣٢٩ ح ٩٠.

وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: ٥٩] وقال عزَّ من قائل: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة: ٥ ـ ٦] وغيرها من الآيات.

وإنّما قلنا غالباً لأنّه قد يطلق على الموت على حتف الأنف كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦] وعلى غير الموت أيضاً نحو قوله تعالى حكاية عن أصحاب الشمال ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝﴾ [الحاقة: ٢٩].

وقال في «**أقرب الموارد**»: هلك الرّجل مات، ولا يكون إلاّ في ميتة سوء ولهذا لا يستعمل للأنبياء العظام، انتهى.

أقول: ويردُّه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [المؤمن: ٣٤].

على أنّا لا نفرّق بين الأنبياء في قبح إسناد نحو الميتة السوء ممّا ينفر عنه الطباع إليهم وإن كنّا لا ننكر أنَّ الله تعالى فضّل بعضهم على بعض قال عزَّ قائلاً: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فعلى ما عرفت من معنى دار الغرور والفناء والهلاك فيكون من جانب الفانين أخصّ من دار الغرور وخطّة الهالكين أخصّ من جانب الفانين، وهذا كما قيل على ما جرت العادات به في كتب البيع من الابتداء بالأعمّ والانتهاء في تخصيص المبيع إلى أمور بعينه.

ثمّ على نسختي «**الأربعين**» و«**حلية الأولياء**» عيّن عليه السلام أوّلاً مسافة الدّار بأنها من جانب الفانين أو زقاق الفناء إلى عسكر الهالكين، وبيّن ثانياً حدودها الأربعة ولا يخفى لطفه.

قوله عليه السلام: (**وتجمع هذه الدّار حدود أربعة**) أي تحوي هذه الدّار وتحيط بها حدود أربعة آتية، بيّن حدودها الأربعة كما هو المتعارف في تعيين حدود الأراضي والدُّور وغيرهما، والحدود في تحديد الأملاك بمنزلة الجنس والفصل في الحدود قوله عليه السلام: (**فالحدُّ الأوّل ينتهي إلى دواعي الآفات ـ إلى آخر الحدود**) أخذ يفصّل حدودها المذكورة على الإجمال أوّلاً وفي النسخ الثلاث أعني «**النهج**» و«**الأربعين**» و«**الحلية**» في تعيين الحدود اختلاف في الجملة وقد ذكرنا النسخ فلا حاجة إلى الإعادة.

ثمّ إنّه لا توجد دار في الدُّنيا تكون دار السلام، بل تنتهي لا محالة إلى الآفات والأسقام والمصيبات والآلام، لأنَّ الدُّنيا نفسها دار بالبلاء معروفة وبالتزاحم والتصادم معجونة، فالحدّان الأوّلان تعمُّ جميع الدّار وأمّا الآخران فيختصّان بما بنيت على أساس الجور ومال الزُّور لأنَّ المال الصالح في يد الرجل الصالح لا ينجرُّ إلى الهوى المردي

والشيطان المغوي بل هو نعم المال.

ثمَّ إنه عليه السلام جعل باب هذه الدّار الّذي يشرع أي يفتح للدُّخول فيها في الحدِّ المنتهي إلى الشيطان المغوي تنبيهاً على أنَّ الدّار المبنيّة على الجور والعدوان ليست إلاّ من إغواء الشيطان، وإشارة إلى أنَّ الشيطان كان سبباً لاشترائها، ولو أعرض شريح عن اتّباعه لما أقدم إلى ابتياعها.

قوله عليه السلام: **(اشترى هذه المغترُّ بالأَمل من هذا المزعج بالأَجل هذه الدّار بالخروج من عزِّ القناعة والدُّخول في ذلِّ الطلب والضراعة)** بدل من الأوَّل وأفاد عليه السلام في هذه الفقرة:

أوّلاً: أنَّ اغترار شريح بالأَمل صار سبب شرائه الدّار.

وثانياً: أنّه جعل ثمنها من الخروج من عزِّ القناعة والدُّخول في ذلِّ الطلب والضراعة لما مرَّ في الإعراب من أنَّ الباء للعوض وللمقابلة.

وثالثاً: أنَّ القانع عزيز وللقناعة عزّة.

ورابعاً: أنَّ الخروج من عزِّ القناعة يؤدّي إلى الذُّلة والمسكنة من الطلب والضراعة للخلق.

ثمَّ انظر في لطائف كلامه عليه السلام ودقائق بيانه: ذمَّ الأمل، والطلب والضراعة والخروج من القناعة، مدح القناعة، ووصفها بالعزَّة، وجمع بين الأمل والأجل والخروج والدُّخول، والعزِّ والذلِّ، والقناعة والضراعة، ومحاسن هذا الكتاب فوق أن يحوم حولها العبارة.

«الأنبياء وورثتهم عليهم السلام لا يأمرون بالذل والسؤال بل يحضون على العز والجلال»

زعم الجاهلون والمغفلون عن غرض سفراء الله تعالى وبعثتهم أنّهم يدعون الناس إلى الفقر والكدية، ويأمرونهم بالبطالة والعزلة والرُّهبانيّة، وذلك ظنُّ الّذين اتّبعوا أهواءهم ولم يصلوا إلى درك مقاصد الأنبياء وفهم مطالبهم، ولم يدروا أنّهم نهوا الناس عن الدُّنيا المذمومة أي اقتراف المال وادِّخاره على وجه لم يمضه العقل ولا يرضى به، كأن يقترفه بالسرقة والقيادة والقمار والرِّبا والجور وشهادة الزور وبيع الخمر ونحوها ممّا تضرُّ الاجتماع وتمنعه عن الارتقاء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ⑦ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑧﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

ولا منعوهم عن الدُّنيا المحمودة قال عزَّ من قائل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٢ ـ ٣٣].

ثمَّ إنَّ إسناد الأمر بالرُّهبانيّة إلى الأنبياء وورثتهم كما اجترأ النصارى بذلك وعزوه إلى عيسى نبيّ الله فرية واختلاق، لأنَّهم حرّموا عليهم الرُّهبانيّة وحثّوهم على الكسب وتحصيل العزَّة والكمال وما رضوا بالذِّلَّة والنكبة قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وهذا هو رسول الله ﷺ كيف شدَّد النكير على عثمان بن مظعون لمّا ركن إلى الرُّهبانيّة: روى الشيخ الأجلُّ ابن بابويه الصدوق رضوان الله عليه في أوَّل المجلس السادس عشر بإسناده عن أنس بن مالك قال: توفّي ابن لعثمان بن مظعون رضي الله عنه فاشتدَّ حزنه عليه حتّى اتّخذ من داره مسجداً يتعبّد فيه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال له: «يا عثمان إنَّ الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرُّهبانيّة إنما رهبانيّة أُمّتي الجهاد في سبيل الله»، الحديث[1].

وكيف يدعونهم إليها مع أنَّ كلماتهم في ذمّها لا تحصى كثرة، وينادون الناس جهاراً، بأنَّ كل واحد منهم كعضو من أعضاء جثمان الاجتماع، لأنَّ الإنسان مدنيّ بالطبع فلا بدَّ لكلِّ واحد منهم من مكسب يتمُّ به أمرهم، ولا يختلّ حتّى لا يتطرَّق إليهم النكبة والذلّة قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩].

ولقد روى الفريقان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما المؤمنون في تعاطفهم وتراحمهم بمنزلة جسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسهر»[2].

فمن هذا الحديث يستفاد مطالب أنيقة أخلاقيّة واجتماعيّة منها أنهم بمنزلة جسد، فأخذ هذا المضمون الشيخ الأجلُّ السعدي وقال بالفارسيّة:

بني آدم أعضاي يكديكرند ... كه در آفرينش زيك كوهرند
جو عضوي بدرد آورد روزكار ... دكر عضوها را نماند قرار
تو كزمخت ديكران بي غمي ... نشايد كه نامت نهند آدمي

(١) كنز العمال: ٣/٧٥٨ ح ٨٦٦٩.
(٢) تفسير مجمع البيان: ١/٢٨٨، وجامع البيان: ١/٥٥٦.

وهذا هو أمير المؤمنين عليه السلام كيف آخذ شريحاً في كتابه هذا بخروجه عن عزّ القناعة، ودخوله في ذلّ الطلب والضراعة، باغتراره بالأمل.

وأخبارنا في ذمّ طول الأمل والسؤال من الناس ومدح الكسب وتحصيل الكمال وترغيب الناس إلى ما فيه سعادتهم ورفعتهم وتبرّي الأنبياء من الّذين صاروا بالعطالة والبطالة كلاًّ على الناس كثيرة جدّاً ولولا خوف الإطناب والخروج عن أسلوب الكتاب لذكرناها فعلّنا نأتي بطائفة منها في المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

وبالجملة أنَّ ما جاء به الأنبياء فإنما هو لإحياء النفوس وإيقاظ العقول وسوق الناس إلى ما فيه حياتهم الأبديّة المعنويّة وسعادتهم السرمديّة وخروجهم من حضيض الذلّ إلى أوج العزّ، قال الله جلّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قوله عليه السلام: **(فما أدرك هذا المشتري فيما اشترى من درك فعلى مبلبل أجسام الملوك)** لمّا بيّن عليه السلام مسافة الدّار وحدودها أخذ في بيان ضمان درك ما يلحق المشتري.

فاعلم أنَّ المشتري إن لم يكن عالماً بالغصب فاشترى المال المغصوب ثمّ شهد مالكه ولم يجز بناءً على صحّة الفضولي وأخذه منه يرجع في ثمنه وما لحقه من درك آخر إلى البائع، وإن كان عالماً به وأقدم إلى شراء المغصوب فلا حرمة لماله لأنّه ألقى بيده. إلى التهلكة، لأنّه استولى على مال الغير وتصرّف فيه عدواناً فهو غاصب وضامن العين والمنافع، ولم يكن حينئذٍ ما أدركه من درك على البائع وليس له حقّ الرُّجوع إليه.

ولذا ذهب طائفة من الفقهاء إلى أنّه لا رجوع للمشتري على البائع الغاصب مع علمه حتّى بالثمن مع تلفه، بل في **«المسالك»** أنَّ الأشهر عدم الرُّجوع به مع وجود عينه، بل ادّعى عليه في **«التذكرة»** الإجماع عقوبة له، وخالفهم الآخرون فصرّح بعضهم كالشهيد في **«اللّمعة»** بالرُّجوع به مع بقاء العين سواء كان عالماً أو جاهلاً وبعضهم بالرُّجوع مطلقاً سواء تلف الثمن أو لا كالمحقق في أحد قوليه.

ومن لطائف كلامه عليه السلام في المقام أنّه عليه السلام لم يبيّن حكم ضمان الدَّرك الّذي يلحق المشتري في هذه المعاملة بأنَّ الضامن مَن هو؟ بل أحاله إلى يوم القيامة حيث قال عليه السلام: فعلى مبلبل أجسام الملوك إشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض والحساب ـ إلخ، فلا يخفى لطفه.

ثمَّ إنَّ درك الضمان لا يختصُّ بمال المغصوب بل يجري في المبيع المعيب أيضاً، وكذا في الثمن المعيب على التفصيل المذكور في الفقه.

ثمّ لا يخفى على ذي مسكة أنه عليه السلام لم يعلّق ضمان الدَّرك على أحد. بل صريح كلامه أنَّ على مبلبل أجسام الملوك إشخاصهم إلى موقف العرض والحساب يعني هنالك يحكم بين الحقّ والباطل بفصل القضاء فيعلم أنَّ ضامن الدَّرك من هو والعجب من شارح البحراني ذهب في شرحه على «**النهج**» إلى أنّه عليه السلام علّق الدَّرك والتبعة اللاّزمة في هذا البيع بملك الموت.

وكذلك بما حققنا علم أنَّ ما ذهب إليه المجلسيُّ قدّس سرُّه في شرح الكتاب (**ص ٥٤٥ ج ٩ من البحار الطبع الكمباني**) حيث قال: ثمَّ اعلم أنه يكفي لمناسبته ما يكتب في سجلاّت البيوع لفظ الدَّرك، ولا يلزم مطابقته لما هو المعهود فيها من كون الدَّرك لكون المبيع أو الثمن معيباً أو مستحقاً للغير، فالمراد بالدَّرك التبعة والإثم أي ما يلحق هذا المشتري من وزر وحطّ مرتبة ونقص عن حظوظ الآخرة، فيجزى بها في القيامة، ليس بصحيح، ويأباه قوله عليه السلام إشخاصهم جميعاً وغيره من العبارات فهو تفسير لا يناسبه الكتاب[1].

قوله عليه السلام: (**وسالب نفوس الجبابرة**) عطف على مبلبل وكذا قوله عليه السلام: ومزيل ملك الفراعنة، وإنّما خصَّ الملوك والجبابرة والفراعنة بالذكر كسراً لشريح وأضرابه حتّى لا يغترُّوا بالمنصب والمقام والشهرة والعنوان، وتنبيهاً لهم أنه لمّا كان هؤلاء الملوك والجبابرة والفراعنة مقهورين في يد الله الواحد القهّار فيكف مثل شريح وأشياعه، على وزن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمن: ٢١] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمن: ٨٢].

قوله عليه السلام: (**ومن جمع المال على المال فأكثر**) قد مضى في الإعراب أن الأظهر أن يكونَ معطوفاً على كسرى كالثلاثة قبله أي مثل مَن جمع المال، إلخ.

وقوله عليه السلام: (**ومن بنى وشيّد**) عطف على الأوّل أي مثل من بنى داراً وجصّصها أو رفعها أو أحكم قواعدها على الوجوه الّتي تبنّاها في اللُّغة.

وقوله عليه السلام: (**وزخرف**) أي زيّن سقف البناء وجدرانه بالذّهب.

قوله عليه السلام: (**نجّد**) أي زيّنه بالبسط والفرش والوسائد والنمارق والستور ونحوها، وقد

---

(١) البحار: ١٥٧/٤١.

مضى في اللُّغة أنَّ التذهيب يناسب تزيين سقف البيت، والتنجيد تزيين أرضه وجدرانه.

قوله عليه السلام: **(وادّخر)** أي اكتسب المال وجعله ذخيرة لوقت الحاجة إليه.

قوله عليه السلام: **(واعتقد)** أي جعل لنفسه عقدة أي اقتنى الضياع والعقار وغيرهما من الأموال الصامتة.

قوله عليه السلام: **(ونظر بزعمه للولد)** أي نظر في جمع المال لولده إعانة له وترحّماً عليه ورآه مصلحة له ظنّاً منه أنَّ عمله هذا ينفعه ويعزّه. وسيأتي في أواخر باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لابنه الحسن عليه السلام: يا بنيّ لا تخلفنَّ وراءك شيئاً من الدُّنيا فإنك تخلّفه لأحد رجلين: إمّا رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت، وإمّا رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عوناً له على معصيته، وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك.

فإن قلت: فعلى هذا ترى أنَّ الشارع منع الناس أن ينظروا لأولادهم ويخلّفوا لأخلافهم ما ينفعهم ويمدُّهم في معاشهم؟.

قلت: كلاّ بل الشارع أغراهم بذلك وكره أن يتكفّف أولادهم بعدهم الناس غاية الأمر نهاهم عن الاكتساب بالحرام نظراً للأولاد ونكتفي في ذلك بذكر رواية روماً للاختصار.

روى ابن بابويه الصدوق رضوان الله عليه في من لا يحضره الفقيه ونقلها الفيض في الوافي في أبواب الوصية (ص ١٢ ج ١٣): أنَّ رجلاً من الأنصار توفّي وله صبية صغار وله ستّة من الرّقيق فأعتقهم عند موته وليس له مال غيرهم، فأتي النبيُّ صلى الله عليه وآله فأخبر فقال: ما صنعتم بصاحبكم؟ قالوا: دفنّاه، قال: لو علمت ما دفنّاه من أهل الإسلام، ترك ولده يتكفّفون الناس.

قوله عليه السلام: **(إشخاصهم جميعاً ـ إلى قوله: وخسر هنالك المبطلون)** إشخاصهم أي إزعاجهم وإحضارهم وفي نسخة أبي نعيم: وأشخصهم إلى موقف العرض ولكنّها تصحيف والحقُّ ما في النسختين الأخريين لأنَّ إشخاصهم مبتدأ مؤخّر عن على مبلبل أجسام الملوك قدّم الخبر لتوسع الظروف وما يجري مجراها ولا يمكن حمل تلك النسخة على وجه صحيح.

ثمَّ إنَّ الضمير في إشخاصهم لا يمكن إرجاعه إلى الملوك وما بعده لا لفظاً ولا معنى أمّا الأوَّل فلأنَّ الضمير في المبتدأ لا يرجع إلى جزء لفظ الخبر وهو ظاهر، وأمّا الثاني فلأنَّ المقصود إحالة ضمان الدَّرك على من أوجب الشرع الرجوع به إليه، فلا بدَّ أن يكون ممن كان دخيلاً في البيع فهو يرجع إلى البائع والمبيع وصاحب الدَّرك، فالمراد أنَّ ملك الموت متعهّد ومتكفّل بإحضارهم جميعاً إلى موقف العرض والحساب للفصل والقضاء.

قوله عليه السلام: **(شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى وسلم من علائق الدُّنيا)** لمّا بيّن حكم الدَّرك أردفه بذكر الشهود كما هو السّنة المتعارفة في سائر القبالة وجعل العقل شاهداً على ما قال.

ثمَّ إنَّ ههنا دقيقة أنيقة وهي أنَّ الشاهد لا بدَّ من أن يكون عادلاً، وإنما قيّد عليه السلام شهد على ذلك العقل بقوله: إذا خرج من أسر الهوى وسلم من علائق الدُّنيا، ليفيد هذا المعنى، أعني أن يأتي بالشاهد العادل على ما كتب، وذلك لأنَّ تلك القوَّة القدسيّة الملكوتيّة أعني العقل لمّا تعلّق بشرك البدن وألف مجاورة الخراب البلقع وصار حشره مع الماديّات، قد يتأثّر عن البدن وقواه الحيوانيّة وغيرهما، فيعرض له من غيره ما يشغله من فعل نفسه، لأنَّ تلك العوائق كاللّصوص القطّاع لطريقه تمنعه عن الوصول إلى صريح الحقِّ ومحض الحكم العقلي، فلو لم يجرّد عنها سيّما عن النفس الأمّارة بالسوء وحبُّ الدُّنيا وأسر الهوى وقيد الأوهام كان حكمه مزوقاً مشوباً بالباطل، فلم يكن حينئذٍ شاهداً عادلاً، فلا يخفى لطفه.

فالمراد أنَّ العقل لو خلّي وطبعه بحيث لم يكن مأسوراً في قيد الهوى وعلائق الدُّنيا يشهد على أنَّ لنحو هذا المشتري خسران الدارين، وفي نحو هذا المبيع يلزم تلك الآفات والمصيبات عليه وغيرهما ممّا هي مذكورة في القبالة.

ثمَّ الحقّ أنَّ الرَّضيَّ رضي الله عنه لم يذكر الكتاب بتمامه، لأنَّ غرضه كان جمع المختار من كلامه عليه السلام كما صرَّح في عدَّة مواضع النهج بأنَّ ما أتى به هو بعض تلك الخطبة أو ذلك الكتاب أو نحوهما، والكتاب بتمامه هو ما في النسختين الأُخريين وإن كان بينهما اختلاف ما في بعض العبارات، فنذكر بعض ما في «**الأربعين**» وبيان الشيخ فيه:

قوله عليه السلام: (**في عرصاتها**) أي ساحاتها والضمير إمّا للدار أو للدُّنيا والأوَّل أقرب وإن كان أبعد.

قوله عليه السلام: (**ما أبين الحقُّ لذي عينين**) كلمة تعجبيّة أي ما أظهر الحقّ لصاحب البصيرة.

قوله عليه السلام (**إنَّ الرَّحيل أحد اليومين**) أي كما أنَّ لابن آدم يوم ولادة وهو يوم القدوم إلى هذه الدار، فله يوم رحيل عنها وهو يوم الموت فينبغي أن لا يزول عن خاطره، بل يجعله أبداً نصب عينيه.

قوله عليه السلام: (**وقرّبوا الآمال بالآجال**) أي قصروها بتذكّر الموت الّذي هو هادم اللّذات، وفاضح الآمال.

«إشارة»

فسّر العالم العامل العاملي الشيخ بهاء الدّين قدّس سرُّه في «**الأربعين**» هذا الكتاب بوجه آخر أيضاً يليق أن يذكر في المقام للطافته وعذوبته.

قال: إشارة يمكن أن يكون الدّار في قوله عليه السلام: اشترى منه داراً، رمزاً إلى هذه البنية البدنيّة، والمشتري رمزاً إلى النفس الناطقة الإنسانيّة العاكفة على تلك البنية الظلمانيّة

المشغولة بها عن العوالم المقدَّسة النورانيّة، والبائع رمزاً إلى الأبوين اللّذين منهما حصلت الأجزاء المنويّة المتكوّن منها البنية الّتي مبدؤها من جانب الفانين ومآلها إلى عسكر الهالكين.

ثمّ إنَّ هذه البنية أعني البدن وإن كان مركباً للنفس ووسيلة لها إلى تحصيل كمالاتها، لكن قواه البهيميّة دواعٍ وأسباب لآفات النفس وعاهاتها ومصيباتها واتّباعها للهوى والشيطان، فنزل تلك الدَّواعي منزلة حدود الدار المكتنفة بها من جوانبها.

ولمّا كان الخروج من ولاية الله والدُّخول في ولاية الطاغوت يحصل باتّباع الهوى والشيطان ناسب أن يجعل باب تلك الدّار في هذا الحدّ.

ولمّا كان ذلُّ النفس وخروجها عن استغنائها الّذي كانت عليه في عالمها النوراني ملازماً لعكوفها على هذا البدن الهيولاني ومسبّباً عن تعلّقها به وشرائها له شبّهه عليه السلام بالثمن الّذي هو من لوازم الشراء.

ولمّا كان الموت هو السائق الّذي يسوق الخلق بأجمعهم طوعاً وكرهاً إلى موقف القيامة ليقضي بينهم الحكم العدل وينتصف من المعتدي للمعتدى عليه، شبّهه عليه السّلام بشخص ضمن الدرك فتعهد أن يحضر كلُّ من له دخل في هذه المعاملة إلى دار القضاء ليحكم بينهم ويقضي لمن له الحقُّ بحقّه.

هذا ما خطر بالبال في معنى هذا الكلام ولعلَّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد معنى آخر غير هذا لم يهتد نظري الكليل إليه، وثمّ يعثر فكري العليل عليه، والله أعلم بحقيقة الحال. انتهى كلامه رفع مقامه(١).

وذكر قريباً من هذه الإشارة أو عينها على عبارات أُخر العلاّمة المجلسي في المجلّد التاسع من «**البحار**» (**ص ٥٤٥ الطبع الكمباني**) أيضاً.

أقول: الحقُّ أنَّ هذا التوجيه وجيه في نفسه ولكنه معنى كلامه عليه السلام بل تأويل يناسبه ويستفاد منه كالتأويلات المذكورة في طائفة من التفاسير وشروح الأخبار المناسبة للآيات والأخبار.

مثلاً أنَّ النيشابوري ذكر في تفسيره «**غرائب القرآن**» التأويل الآتي من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ - إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة ٦٧ - ٧٤] ونعلم يقيناً أنَّ هذا التأويل ليس تفسير كلامه

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٣٢٠، ح ٢٥٦٢، وكتاب الأربعين: ١٢٨.

تعالى وإن كان لا يخفى من لطافة من حيث التشبيهات والمناسبات وهو صرَّح بذلك أيضاً حيث قال بعد تفسيره الآيات ما هذا لفظه:

التأويل: ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيميّة فإنَّ في ذبحها حياة القلب الرُّوحاني وهو الجهاد الأكبر، موتوا قبل أن تموتوا.

اقتلوني يا ثقاتي إنَّ في قتلي حياتي وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

مت بالإرادة تحيا بالطبيعة، وقال بعضهم: مت بالطبيعة تحيا بالحقيقة، ما هي أنّه بقرة نفس تصلح للذبح بسيف الصدق، لا فارس في سنِّ الشيخوخة فيعجز عن رضايف سلوك الطريق لضعف القوى البدنيّة كما قيل: الصوفي بعد الأربعين بارد، ولا يكون في سنِّ شرح الشباب يستهويه سكره عوان بين ذلك لقوله تعالى حتّى إذا بلغ أشدَّه وبلغ أربعين سنة، **(صفراء)** إشارة إلى صفرة وجوه أصحاب الرِّياضات، **(فاقع لونها)** يريد أنّها صفرة زين لا صفرة شين فإنّها سيماء الصالحين **(لا ذلول تثير الأرض)**، لا يحتمل ذلّة الطمع ولا تثير بآلة الحرص أرض الدُّنيا لطلب زخارفها ومشتهياتها، **(ولا تسقي)** حرث الدُّنيا بماء وجهه عند الخلق وبماء وجاهته عند الخالق فيذهب ماؤه عند الحقِّ وعند الخلق، **(مسلمة)** من آفات صفاتها ليس فيها علامة طلب غير الله، **(وما كادوا يفعلون)** بمقتضى الطبيعة، **(لولا فضل الله)** وحسن توفيقه **(وإذ قتلتم نفساً)** يعني القلب، **(فادارأتم)**، فاختلفتم أنه كان من الشيطان أم من الدُّنيا أو من النفس الأمّارة، **(فقلنا: اضربوه ببعضها)** ضرب لسان بقرة النفس المذبوحة بسكّين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر فيحيا بإذن الله عزَّ وجلَّ وقال: **﴿إن النفس الأمارة بالسوء﴾** **﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾**، مراتب القلوب في القسوة مختلفة فالّتي يتفجّر منها الأنهار قلوب يظهر عليها الغليان «من» أنوار الرُّوح بترك اللّذات والشهوات، بعض الأشياء المشبهة بخرق العادات كما يكون لبعض الرهبانيّين والهنود، والّتي تشقّق فيخرج منها الماء هي الّتي يظهر عليها في بعض الأوقات عند انخراق الحجب البشريّة من أنوار الرُّوح فيريه بعض الآيات والمعاني المعقولة كما يكون لبعض الحكماء، والّتي تهبط من خشية الله ما يكون لبعض أهل الأديان والملل من قبول عكس أنوار الرُّوح من وراء الحجب فيقع فيها الخوف والخشية، وانتهى.

«القضاء والقاضي في الإسلام»

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

يناسب في المقام تقديم نبذة من الكلام على ما قرَّره الشرع في القضاء والقاضي على سبيل الإجمال والاختصار فنقول:

الغرض من إرسال الرُّسل وإنزال الكتب إحياء مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، وإماتة الصفات المردية، والآداب المغوية، وإيقاظ عقول الناس من نوم الغفلة، وتزكيتهم من رين الهوى، وإنارة أرواحهم بالملكات الملكوتيّة، وإثارة فطرتهم إلى جانب الرَّبِّ جلَّ وعلا، وقيامهم بالعدل، واجتياح الظلم من بينهم ليتّصفوا بالأوصاف الرُّبوبية، ويتخلّقوا بالأخلاق الإلٰهيّة، ولئلاّ يتطرّق إليهم الجور والعدوان والهرج والمرج قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ثمَّ لو تنازع اثنان في أمر فلا بدَّ من حكم عدل يعطي ذي الحقّ حقّه ويذبُّ عنه التصرُّف العدوانيَّ وأكل المال بالباطل بالأمارات والأصول الّتي جعلها الشارح الحكيم ميزاناً له لحسم مادَّة التنازع وقلع شجر التشاجر وفصل القضاء.

قال أمير المؤمنين عليه السلام كما في «**الكافي**» و«**التهذيب**»: أحكام المسلمين على ثلاثة: شهادة عادلة، أو يمين قاطعة، أو سنّة ماضية من أئمة الهدى[(١)].

فلا بدَّ لحفظ اجتماع الناس من حاكم عادل لا يبيع آخرته بدنياه ولا يعقل عقله بهواه.

وكما أنَّ الإنسان يحتاج في سلامة جسمه إلى الطبيب الحاذق الأمين المؤمن، وفي سلامة روحه إلى عالم إلٰهيّ روحانيّ، كذلك يحتاج الاجتماع لحفظ نظامه ورفع المخاصمة والنزاع إلى طبيب آخر هو القاضي العادل وحكومة عادلة ولا مناص للنّاس من هؤلاء الأطبّاء.

قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في هذا المعنى: «لا يستغني أهل كلِّ بلد عن ثلاثة تفزع إليه في أمر دنيا [هم ظ] وآخرتهم فإن عدموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع، وأمير خيّر مطاع، وطبيب بصير ثقة (**نقل في مادّة طبب من السفينة**)»[(٢)].

واعتبر الشارع في القاضي البلوغ وكمال العقل والإيمان وطهارة المولد والعلم والذكورة والعدالة، وإنما اعتبر فيه العدالة حتّى يراعي التسوية بين الخصمين مطلقاً وإن كان أحدهما وضيعاً والآخر شريفاً وفي «**الكافي**» و«**التهذيب**»[(٣)] عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: من ابتلي بالقضاء فليواس بينهم في الإشارة وفي النظر وفي المجلس. فيجب عليه التسوية بينهما في الكلام والسلام والقيام وغيرها من أنواع الإكرام حتّى لا يجوز له خطاب أحد الخصمين بالكنية والآخر بالاسم لأنَّ الأولى تنبىء بالتعظيم دون الثاني، وكذا الإنصات لكلِّ واحد

(١) الكافي: ٧/ ٤٣٢ ح ٢٠، والخصال: ١٥٥ ح ١٩٥.
(٢) تحف العقول: ٣٢١، وبحار الأنوار: ٧٥/ ٢٣٥، ح ٥٩.
(٣) الكافي: ٧/ ٤١٣ ح ٣، وتهذيب الأحكام: ٦/ ٢٢٦ ح ٣.

منهما على التفصيل الّذي بيّن في الكتب الفقهيّة.

ونحن نكتفي ههنا بما قال أمير المؤمنين عليه السلام لشريح أيضاً في آداب الحكم لم يأت به الرَّضيُّ رضوان الله عليه في **«النهج»**، نقله ثقة الإسلام الكليني مسنداً في **«الكافي»**، وشيخ الطائفة في **«التهذيب»** والشيخ الأجلُّ الصدوق في **«من لا يحضره الفقيه»**، والمحقق الفيض في **«الوافي»** (ص ١٣٥ ج ٩) بإسنادهم عن سلمة بن كهيل قال:

سمعت عليّاً عليه السلام يقول لشريح: انظر إلى أهل المعك والمطل ودفع حقوق الناس من أهل المقدرة واليسار ممن يدلي بأموال المسلمين إلى الحكّام، فخذ للنّاس بحقوقهم منهم، وبع فيها العقار والدِّيار، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مطل المسلم الموسر ظلم للمسلم»، ومن لم يكن له عقار ولا دار ولا مال فلا سبيل عليه، واعلم أنّه لا يحمل الناس على الحقِّ إلاّ من وزعهم عن الباطل، ثمَّ واس بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك حتّى لا يطمع قريبك في حيفك، ولا ييأس عدوُّك من عدلك، وردَّ اليمين على المدَّعي مع بيّنته فإنَّ ذلك أجلى للعمى وأثبت في القضاء، واعلم أنَّ المسلمين عدول بعضهم على بعض إلاّ مجلوداً في حدّ لم يتب منه، أو معروفاً بشهادة زور، أو ظنيناً، وإيّاك والتضجّر والتأذّي في مجلس القضاء الّذي أوجب الله فيه الأجر، وأحسن فيه الذّخر لمن قضى بالحقّ، واعلم أنَّ الصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحاً حرَّم حلالاً أو أحلَّ حراماً، واجعل لمن ادَّعى شهوداً غيّباً أمداً بينهما، فإن أحضرهم أخذت له بحقّه، وإن لم يحضرهم أوجبت عليه القضيّة، وإيّاك أن تنفذ قضيّة في قصاص أو حدّ من حدود الله أو حقّ من حقوق المسلمين حتّى تعرض ذلك عليَّ إن شاء الله، ولا تقعدنَّ في مجلس القضاء حتّى تطعم»[1].

وقال عليه السلام: لشريح أيضاً كما في **«الكافي»** و**«التهذيب»** و**«الفقيه»**: «لا تسارّ أحداً في مجلسك، وإن غضبت فقم، ولا تقضينَّ وأنت غضبان»[2].

والأخبار المرويّة في الكتب الأربعة وغيرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمّة الهدى في آداب الحكم والقضاء والقاضي كثيرة جدّاً تركناها خوفاً من الإطناب وفيما قدَّمناه كفاية لمن كان طالباً للصواب.

ثمَّ إنَّ ما قدَّمنا من وجوب مراعاة المساواة بين الخصمين على القاضي يكون على وجه تساويهما في الإسلام أو الكفر، بأن كانا مسلمين أو كافرين، ولو كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً؛ فلا يجب عليه مراعاتها بينهما، بل له أن يرفع المسلم على الكافر، وذلك لما

---

(١) الكافي: ٧/ ٤١٣، ووسائل الشيعة: ١٧/ ٣٠٨، ح ١.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٤، ج ٣٢٣٩، ووسائل الشيعة: ٢٧/ ٢١٣.

يأتي من قول أمير المؤمنين مع الرّجل اليهودي في مجلس شريح.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

وحرّم على الناس رفع الدّعاوي إلى قضاة الجور والتحاكم إليهم كما حرّم عليهم أكل المال بالباطل، وفي «**الصحاح**» للجوهري: أدلى بماله إلى الحاكم: رفعه إليه ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ يعني الرشوة، انتهى.

وقال الفيض في «**الوافي**»: قوله تعالى: تدلوا، أي ولا تدلوا حذف لا اعتماداً على العطف والمعنى لا تعطوا الحكّام أموالكم ليحكموا لكم استعارة من قولهم أدلى دلوه إذا أرسلها، فإنّ الرشوة ترسل إلى الحكّام.

وفي «**الكافي**» و«**التهذيب**» بإسنادهما عن ابن مسكان عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله تعالى في كتابه ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ فقال: «يا أبابصير إنّ الله قد علم أنّ في الأمّة حكّاماً يجورون أما أنّه لم يعن حكّام أهل العدل ولكنّه عنى حكّام أهل الجور، يا أبا محمّد إنّه لو كان لك على رجل حقٌّ فدعوته إلى حكّام أهل العدل فأبى عليك إلاّ أن يرافعك إلى حكّام أهل الجور ليقضوا له، لكان ممّن حاكم إلى الطاغوت وهو قول الله عزَّ وجلَّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]»[1].

وفي «**التهذيب**» بإسناده عن ابن فضال قال: قرأت في كتاب أبي الأسد إلى أبي الحسن الثاني عليه السلام وقرأته بخطه سأله ما تفسير قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾؟ قال: فكتب إليه بخطّه: «الحكّام القضاة» قال: ثمّ كتب تحته: «هو أن يعلم الرّجل أنه ظالم فيحكم له القاضي فهو غير معذور في أخذ ذلك الّذي حكم له إذا كان قد علم أنه ظالم»[2].

وإنما اعتبر فيه العلم أي العلم بجميع الأحكام عن اجتهاده أعني أن يكون مجتهداً في الدّين مستنبطاً أحكامه بالأدلّة الأربعة من العقل والإجماع والكتاب والسّنة فلا يكفيه فتوى العلماء وقد رردت آيات وروايات كثيرة في تشديد ذلك وتأكيده، لو نذكرها لكثر بنا الخطب ونقتصر بذكر شرذمة قليلة منها.

(١) الكافي: ٧/ ٤١١، ح ٢، ودعائم الإسلام: ٢/ ٥٣٠، ح ١٨٨٤.

(٢) تهذيب الأحكام: ٦/ ٢٢٠، ووسائل الشيعة: ٢٧/ ١٥، ح ٣٣٠٨٧.

قال أمير المؤمنين عليه السلام كما في «**الكافي**» و«**الفقيه**» و«**التهذيب**» لشريح: يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلاّ نبيٌّ أو وصيُّ نبيّ أو شقيٌّ[١].

قال الباقر عليه السلام: إنَّ من أفتى النّاس بغير علم ولا هدى من الله لعنته ملائكة الرَّحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه.

وقال عليه السلام: أنهاك عن خصلتين فيهما هلك الرِّجال: أنهاك أن تدين الله بالباطل، وتفتي الناس بما لا تعلم[٢].

وقال الصادق عليه السلام كما في «**الكافي**» و«**التهذيب**»: «القضاة أربعة ثلاثة في النّار وواحد في الجنّة: رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النّار، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم أنّه قضى بجور فهو في النّار، ورجل قضى بالحقِّ وهو لا يعلم فهو في النّار ورجل قضى بالحقِّ وهو يعلم فهو في الجنّة»[٣].

وفي «**دعائم الإسلام**» عن عليّ عليه السلام أنه قال: «القضاة ثلاثة واحد في الجنّة واثنان في النار: رجل جار متعمّداً فذلك في النار، ورجل أخطأ في القضاء فذلك في النّار ورجل عمل بالحقِّ فذلك في الجنّة»[٤].

بيان: ولا تنافي بين الأَخيرين لأَنَّ الوسط من الأَخير يعمُّ الوسطين من الأوّل. والوصيُّ في قوله عليه السلام أو وصيُّ نبي يعمُّ الوصيَّ والعامَّ، جمعاً بين الأدلّة وتفصيل البحث موكول إلى الكتب الفقهيّة.

وأمّا الآيات فقد قدَّمنا بعضها وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

وإنما اعتبر فيه الذُّكورة فلقوله صلى الله عليه وآله: لا يفلح قوم وليتهم امرأة، ووصيّته صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام المرويّة في «**الفقيه**» بإسناده عن حمّاد: «يا علي ليس على المرأة جمعة - إلى أن قال: ولا تولّى القضاء»، على أنَّ ذلك إجماعيٌّ لا خلاف فيه عندنا الإماميّة، فلا يليق لها مجالسة الرِّجال ورفع الصوت بينهم.

---

(١) تهذيب الاحكام: ٦/٢١٧ ح ١، والفصول المهمة: ٣/٤٠٨ ح ١.

(٢) الكافي: ١/٤٢، ح ١، والخصال: ٥٢، ح ٦٥.

(٣) الكافي: ٧/٤٠٧، ح ١، وميزان الحكمة: ٣/٢٥٩٢، ح ٣٣٧٠.

(٤) دعائم الإسلام: ٢/٥٣١، ح ١٨٨٩، وأحكام القرآن: ٣/٥٠١.

وأمّا اعتبار الإيمان فلأنَّ المسلم الفاسق، إذا لم يصلح لهذا المنصب الجليل فكيف الكافر، على أنَّ الكافر ليس أهلاً للأمانة ولم يجعل الله له سبيلاً على المسلم إذ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. وأمّا اعتبار البلوغ والعقل فبيّن، وأما طهارة المولد فالعمدة فيها الإجماع وفحوى ما دلَّ على المنع من إمامته وشهادته، على أنَّ النفوس تنفر عن ولد الزنا.

ثمَّ إنَّ في سيرة رسول الله ﷺ وأهل بيته في دعاوي الناس لعبرة لأولي الألباب يليق لهم أن ينظروا فيها بعين العلم والدِّراية حتّى يتبيّن لهم أنَّ الغرض من بعثهم لم يكن إلاّ تعليم النّاس ما فيه نجاحهم ونجاتهم.

وهذا هو رسول الله ﷺ كيف يراعي حقوق النّاس ويحترمها، روى الشيخ الجليل العلاّمة بهاء الدّين العاملي في «الأربعين» الحديث التاسع عشر بإسناده عن موسى بن إسماعيل، عن أبيه، عن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم، عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنَّ يهوديّاً كان له على رسول الله ﷺ دنانير فتقاضاه، فقال: يا يهودي ما عندي ما أعطيك، قال: فإنّي لا أُفارقك يا محمّد حتى تقضيني، فقال ﷺ: إذا أجلس معك، فجلس رسول الله ﷺ معه حتّى صلّى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهدّدونه ويتوعدونه، فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال: ما الّذي تصنعون به؟ فقالوا: يا رسول الله يهوديٌّ يحبسك، فقال ﷺ: لم يبعثني ربي عزَّ وجلَّ بأن أظلم معاهداً ولا غيره، فلمّا علا النّهار قال اليهوديُّ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله أما والله ما فعلت بك الّذي فعلت إلاّ لأنظر إلى نعتك في التوراة فإنّي قرأت نعتك في التوراة: محمّد بن عبد الله مولده بمكّة، ومهاجره بطيبة وليس بفظّ، ولا غليظ، ولا سخاب، ولا مترنن بالفحش ولا قول الخنا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله وكان اليهوديُّ كثير المال[1].

وهذا هو أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام فانظر إلى فعله وقوله كيف يراعي المواساة والعدل مع يهوديّ ويؤاخذ شريحاً بركونه إلى خلاف العدل حيث قام في مجلس المحاكمة له عليه السلام إكراماً له ولم يقم لليهودي.

قال أبو الفرج في «الأغاني»: ولشريح أخبار في قضايا كثيرة يطول ذكرها وفيها لا يستغنى عن ذكره، منها محاكمة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في الدِّرع قال: حدَّثني به عبد الله بن

(١) الأمالي: ٥٥٢ ح ٦، ومستدرك الوسائل: ١٣/٤٠٨ ح ١.

محمّد بن إسحاق ابن أخت داهر بن نوح بالأهواز، قا: حدَّثنا أبو الأشعث أحمد بن المقدام العجلي، قال: حدَّثني حكيم بن حزام عن الأعمش عن إبراهيم التيمي قال: عرف عليٌّ صلوات الله عليه درعاً مع يهودي فقال: يا يهودي درعي سقطت مني يوم كذا وكذا، فقال اليهوديُّ: ما أدري ما تقول، درعي وفي يدي بيني وبينك قاضي المسلمين، فانطلقا إلى شريح فلمّا رآه شريح قام له عن مجلسه، فقال له عليٌّ: اجلس؛ فجلس شريح ثمَّ قال: إنَّ خصمي لو كان مسلماً لجلست معه بين يديك ولكنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تساووهم في المجلس ولا تعودوا مرضاهم، ولا تشيَّعوا جنائزهم، واضطرّوهم إلى أضيق الطرق، وإن سبّوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم، ثمَّ قال عليه السلام: درعي عرفتها مع هذا اليهودي، فقال شريح لليهودي: ما تقول؟ قال: درعي وفي يدي، قال شريح: صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك كما قلت ولكن لا بدَّ من شاهد، فدعا قنبراً فشهد له، ودعا الحسن بن عليّ فشهد له، فقال: أمّا شهادة مولاك فقد قبلتها وأمّا شهادة ابنك لك فلا، فقال عليٌّ عليه السلام: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنَّ الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»، قال: اللّهمَّ نعم، قال عليه السلام: أفلا تجيز شهادة أحد سيّدي شباب أهل الجنّة، والله لتخرجنَّ إلى بانقيا فلتقضينَّ بين أهلها أربعين يوماً، ثمَّ سلَّم الدِّرع إلى اليهودي فقال اليهوديُّ: أمير المؤمنين مشى معي إلى قاضيه فقضى عليه فرضي به، صدقت إنها لدرعك سقطت منك يوم كذا وكذا عن جمل أورق فالتقطتها وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عليٌّ عليه السلام: هذه الدِّرع لك، وهذه الفرس لك، وفرض له في تسعمائة فلم يزل معه حتّى قتل يوم صفين. انتهى[1].

وقال القاضي ابن خلكان في «التاريخ»: روي أنَّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام دخل مع خصم ذمّي إلى القاضي شريح فقام له، فقال: هذا أوّل جورك ثمَّ أسند ظهره إلى الجدار وقال: أما إنَّ خصمي لو كان مسلماً لجلست بجنبه.

أقول: الظاهر أنهما قضيّة واحدة نقلها أبو الفرج بالتفصيل، وابن خلّكان بالإجمال إلاّ أنَّ أبا الفرج لم ينقل قوله عليه السلام له «هذا أوّل جورك».

وكذا يشير إلى هذه القضيّة ما في «الرُّوضات» وغيره حيث قالوا: روي أنه عليه السلام سخط على شريح مرّة فطرده من الكوفة ولم يعزله عن القضاء وأمره بالقيام ببانقيا، وكانت قرية من الكوفة أكثر سكّانها اليهود، فأقام بها مدّة حتّى رضي عنه وأعاده إلى الكوفة.

وروي قريب هذه المحاكمة في «الكافي» و«التهذيب» و«الفقيه» وجاء بها الفيض في

(١) كنز العمال: ٧/ ٢٦، ح ١٧٧٩٥.

أبواب القضاء والشهادات من «الوافي» (ص ١٤١ ج ٩) عن ابن أبي عمير، عن البجلي قال: دخل الحكم بن عتيبة وسلمة بن كهيل على أبي جعفر عليه السلام، فسألاه عن شاهد ويمين فقال: «قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله وقضى به عليٌّ عليه السلام عندكم بالكوفة» فقالا: هذا خلاف القرآن: قال عليه السلام: «وأين وجدتموه خلاف القرآن»؟ فقالا: إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] فقال لهما أبو جعفر عليه السلام: «وأشهدوا ذوي عدل منكم هو أن لا تقبلوا شهادة واحد ويميناً؟» ثمَّ قال عليه السلام:

إنَّ علياً عليه السلام كان قاعداً في مسجد الكوفة فمرَّ به عبد الله بن قفل التميمي ومعه درع طلحة، فقال له عليٌّ عليه السلام: هذه درع طلحة أخذت غلولاً يوم البصرة، فقال له شريح، هات على ما تقول بيّنة، فأتاه بالحسن عليه السلام، فشهد أنها درع طلحة أخذت غلولاً يوم البصرة، فقال: هذا شاهد ولا أقضي بشهادة شاهد حتّى يكون معه آخر، قال: فدعا قنبراً فشهد أنّها درع طلحة أخذت غلولاً يوم البصرة فقال شريح: هذا مملوك ولا أقضي بشهادة مملوك، قال: فغضب عليٌّ صلوات الله عليه وقال: خذوها فإنَّ هذا قضى بجور ثلاث مرّات.

قال: فتحوَّل شريح عن مجلسه ثمَّ قال: لا أقضي بين اثنين حتّى تخبرني من أين قضيت بجور ثلاث مرّات؟.

فقال له: ويلك أو ويحك إنّي لما أخبرتك أنّها درع طلحة أخذت غلولاً يوم البصرة فقلت هات على ما تقول بيّنة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله حيثما وجد غلول أخذ بغير بيّنة فقلت: رجل لم يسمع الحديث فهذه واحدة، ثم أتيتك بالحسن عليه السلام فشهد، فقلت: هذا واحد ولا أقضي بشهادة واحد حتّى يكون معه آخر وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وآله بشهادة واحد ويمين فهذه اثنتان، ثم أتيتك بقنبر فشهد أنها درع طلحة أخذت غلولاً يوم البصرة فقلت: «هذا مملوك ولا أقضي بشهادة مملوك وما بأس بشهادة مملوك وما بأس بشهادة المملوك إذا كان عدلاً؛ ثمَّ قال: ويلك أو ويحك إمام المسلمين يؤتمن من أمورهم على ما هو أعظم من هذا»(١).

قال الفيض في بيانها: الغلول الخيانة وربما يختصُّ بالغنيمة يقال: غلّ شيء من المغنم إذا أُخذ في خفية، ولعلَّ الوجه في جواز أخذ الغلول بغير بيّنة أنه ممّا يعرفه العسكر ولم يقسم بعد بين أهله ليباع ويوهب، وكفى بهذه القضيّة شاهداً على حماقة شريح، إلى آخر ما قال.

ثمَّ وممّا يليق أن يذكر في المقام تنبيهاً للقضاة وغيرهم من ذوي المناصب أنَّ رسول

(١) الكافي: ٣٨٦/٧، ح ٥، وبحار الأنوار: ٣٠٣/٤٠، ح ٧٨.

(٢) عدة الداعي: ١١٣، بحار الأنوار: ٣٠/٦٩.

الله ﷺ قال: «الفقر فخري»[١]، وهذا الفقر قد فسّر بالفقر إلى الله تعالى قال عزّ من قائل: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] كما هو السائر في ألسنة العرفاء.

ولكن يمكن أن يفسّر بوجه آخر وهو أن يكون الفقر بمعناه المصطلح الدّارج أي الفقر من الدّرهم والدّينار والأرض والدّار وغيرها من حطام الدُّنيا وزخارفها، وأنَّ رسول الله ﷺ يباهي بفقره من حيث إنّه لم يخن النّاس ولم يطمع إلى أموالهم مع أنَّ الدُّنيا كانت مقبلة إليه، ولو شاء أن يكون له بيت من زخرف فما فوقه لتيسّر له وقد قدّمنا في شرح الخطبة ٢٣٣ **(ص ٩٣ ج ١ من تكملة المنهاج)** كانت عنده ﷺ في مرضه الّذي توفي منه سبعة دنانير أو ستّة فأمر أن يتصدّق بها وقال رسول الله ﷺ: ما ظنَّ محمد بربّه أن لو لقي الله وهذه عنده؟.

ولا ريب أنَّ ذا منصب ومقام إذا زاد أمواله على قدر أجرته ونفقته من غير نسبة متناسبة كما نرى في عصرنا هذا أنَّ كثيراً من أشباه الرِّجال ولا رجال إذا تولّوا أمراً من الأمور لم ينصرم عليهم برهة من الزّمان إلاّ بلغت أموالهم من الدُّور والقصور والنقود والكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أُولي القوّة، اتّبع الشيطان لا جرم فعدل عن سواء الطريق، فخان الناس.

ولولا السرقة والخيانة والارتشاء وأكل المال بالباطل فأنّى حصلت له، ولم لم تحصل للآخر الشريف النجيب الأصيل المؤمن الموحّد الرّؤوف بالنّاس وخدومهم فحريٌّ أن يقال لهؤلاء اللّصوص: اجتنبوا عن ظلم العباد فإنَّ ربّكم لبالمرصاد وإن لم يكن لكم دين فكونوا في دنياكم أحراراً؛ ولا تكونوا كالذّين قال الشاعر فيهم:

ليل البراغيث ليل لا نفاد له ... لا بارك الله في ليل البراغيث

كأنهنَّ بجسمي إذ خلون به ... قضاة سوء على مال المواريث

ثمَّ الروايات في ذمِّ أخذ الرشا في الحكم وذمِّ القاضي الجائر في الحكم كثير جدّاً مع أنّها تمضي حكم العقل في ذلك، لأنَّ العقل يحكم بذمِّ الرشا والجور.

روي في **«الكافي»** و**«التهذيب»** عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الرشا في الحكم هو الكفر بالله[٢].

وفيهما عن ابن مسكان عن يزيد بن فرقد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السحت فقال: الرشا في الحكم[٣].

---

(١) الكافي: ٧/ ٤٠٩ ح ٢، وتهذيب الأحكام: ٦/ ٢٢٢ ح ١٨.

(٢) كشف اللثام: ٢/ ٣٢٩، ومستدرك الشيعة: ١٧/ ٧٠.

بيان: مراد السائل من السحت هو قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣] فسأله عليه السلام عن السحت أي ما معناه في القرآن الكريم أكّالون للسحت وأكلهم السحت. ونعم ما قال العارف الرُّومي:

تاتو رشوت نستدي بينندة أي جون طمع كردي ضرير وبنده اي

«ذكر شريح ونسبه وخبره»

قد اختلف الرواة في نسبه اختلافاً كثيراً وأصحُّ الطرق فيه هو: أبو أُميّة شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرائش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتِّع - (**بتشديد التاء المثناة من فوقها وكسرها**) - الكندي، كما في «**الأغاني**» (**ص ٣٥ ج ١٦ طبع ساسي**) و«**أسد الغابة**» و«**تاريخ ابن خلكان**» وغيرها من الكتب المعتبرة.

وفي الروضات للخوانساري: الكندي بكسر الكاف نسبة إلى كندة الّتي لقب بها جدُّه الثامن ثور بن مرتع الكوفي، لأنّه كند أباه نعمته بمعنى كفّرها وكذا في «**تاريخ ابن خلّكان**» أيضاً.

وقال في «**الأغاني**» بعد ذكر نسبه المذكور: وقد اختلف الرُّواة بعد هذا في نسبه فقال بعضهم: شريح بن هانىء، وهذا غلط، ذاك شريح بن هانىء الحارثي، واعتلّ من قال هذا بخبر روي عن مجاهد عن الشعبي أنّه قرأ كتاباً من عمر إلى شريح من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى شريح بن هانىء، وقد يجوز أن يكون كتب عمر هذا الكتاب إلى شريح بن هانىء الحارثي وقرأه الشعبي وكلا هذين الرَّجلين معروف، والفرق بينهما النسب والقضاء، فإنَّ شريح بن هانىء لم يقض وشريح ابن الحارث قد قضى لعمر بن الخطاب وعليِّ بن أبي طالب عليه السلام.

وقيل: شريح بن عبد الله، وشريح بن شراحيل، والصحيح ابن الحارث وابنه أعلم به.

أقول: وإنما قال وابنه أعلم به لأنه روى نسبه المذكور عن هشام بن السائب وعن ابن شريح ميسرة بن شريح.

ثمَّ روي بإسناده عن أبي ليلى أنَّ خاتم شريح كان نقشه: شريح الحارث وقيل: إنه من أولاد الفرس الّذين قدموا اليمن مع سيف بن ذي يزن وعداده في كندة وقد روى عنه شيبة بذلك.

وروي بإسناده عن الشعبي قال: جاء أعرابيٌّ إلى شريح فقال: من أنت؟ قال: أنا من

الّذين أنعم الله عليهم وعدادي في كندة. وروي عن أبي حصين قال: كان شريح إذا قيل له: ممّن أنت؟ قال: ممّن أنعم الله عليه بالإسلام عديد كندة قال وكيع: وقيل: إنه لما خرج إلى المدينة ثمَّ إلى العراق لأنَّ أمّه تزوّجت بعد أبيه، فاستحيا[١].

وفي «**أسد الغابة**»: أنّه أدرك النّبيّ ﷺ ولم يلقه، وقيل لقيه، واستقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فقضى بها أيّام عمر وعثمان وعليّ، ولم يزل على القضاء بها إلى أيّام الحجاج، فأقام قاضياً بها ستّين سنة، وكان أعلم الناس بالقضاء ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل، وكان شاعراً محسناً، له أشعار محفوظة وكان كوسجاً لا شعر في وجهه.

قال: روى عليّ بن عبد الله بن معاوية بن ميسرة بن شريح القاضي، عن أبيه عن جدّ معاوية، عن شريح أنه جاء إلى النبيّ ﷺ فأسلم ثمَّ قال: يا رسول الله إنَّ لي أهل بيت ذو عدد باليمن فقال له: جيء بهم، فجاء بهم والنبيُّ ﷺ قد قبض[٢].

وقال ابن خلكان: كان من كبار التابعين وأدرك الجاهليّة واستقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة، فأقام قاضياً خمساً وستّين سنة لم يتعطّل فيها إلاّ ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير، واستعفى الحجّاج بن يوسف من القضاء فأعفاه ولم يقض بين اثنين حتّى مات.

وقال ابن عبد البر: وكان شاعراً محسناً، وهو أحد السادات الطلس، وهم أربعة: عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عبادة، والأحنف بن قيس الّذي يضرب به المثل في الحلم، والقاضي شريح المذكور.

الطلس: جمع الأطلس أي الّذي لا شعر في وجهه، وقال الخوانساري في «**الروضات**»: وقيل: إنه من الكواسج الأربعة، وفيه مسامحة، لأنَّ الكوسج في اللّغة من كانت لحيته على الذقن دون العارضين أو كان خفيفها جدّاً وكذلك في العرف وعليه قول بعض أهل الحكمة: ما طالت لحية أحد إلاّ تكوسج عقله، بمعنى رقّ وخفّ ـ انتهى.

أقول: الكوسج إن كان معرّب كوسه كما في «**البرهان القاطع**» قال: كوسه بروزن بوسه معروف است يعني شخصي كه اورا درجانه وزنخ زياده برجندي موى نباشد ومعرّب آن كوسج است، فهو كما قاله الخوانساري، وإن كان عربياً من كسج الرّجل أي لم ينبت له لحية فالتعبير بالكوسج صحيح بلا مسامحة وإن كان الأوّل هو الأصحّ والأصوب، قال الجوهريُ: الكوسج

---

(١) المصنف: ٨/ ٧٠، ح ١٤٣٥١.

(٢) كنز العمال: ١٤/ ٢٥، ح ٤٤، ٣٧٨.

الأَنط وهو معرّب، وقال الأزهريُّ: لا أصل له في العربيّة. والأنط هو الّذي لحيته على ذقنه لا على العارضين.

وكان شريح خفيف الرُّوح مزّاحاً دخل عليه عديُّ بن أرطاة[١] فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ فقال: بينك وبين الحائط قال: استمع منّي، قال: قل أسمع، قال: إنّي رجل من أهل الشّام، قال: من مكان سحيق، قال: تزوَّجت عندكم، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، قال: فاحكم الآن بيننا قال: قد فعلت، قال: فعلى من حكمت؟ قال: على ابن أُمّك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أُخت خالتك. نقله الجاحظ في **«البيان والتبيين»** (ص ٩٨ ج ٤ طبع مصر ١٣٨٠هـ) وابن خلكان في **«وفيات الأعيان»** و**«أنباء أبناء الزّمان»**[٢].

وفي **«الوفيات»** أيضاً: حدَّث أبو جعفر المدني عن شيخ من قريش قال: عرض شريح ناقة ليبيعها فقال له المشتري: يا أبا أُميّة كيف لبنها؟ قال: احلب في أيِّ إناء شئت قال: كيف الوطأ؟ قال: افرش ونم، قال: كيف نجاؤها؟ قال: إذا رأيتها في الإبل عرفت مكانها علّق سوطك ونم، قال: كيف قوّتها؟ قال: احمل على الحائط ما شئت، فاشتراها فلم ير شيئاً ممّا وصفها به، قال: ما كذبتك قال: أقلني قال: نعم[٣].

وفيه أيضاً: قيل تقدَّم رجلان إلى شريح فاعترف أحدهما بما ادّعى عليه وهو لا يعلم بذلك فقضى عليه، فقال الرَّجل: تقضي عليَّ من غير بيّنة؟ فقال: قد شهد عندي الثقة، قال: ومن هو؟ قال: ابن أخي عمّك. وقد ألمَّ بهذا المعنى أبو عبد الله الحسين الحجاج:

وإن قدّموا خيلهم للركوب ... خرجت فقدّمت لي ركبتي
وفي جمل النّاس غلمانهم ... وليس سوى أنا في جملتي
ولا لي غلام فأدعي ... سوى من أبوه أخو عمّتي

قال: وقال الأشعث بن قيس لشريح: ما أشدّ ما ارتفعت؟! قال: فهل ضرّك ذلك؟ قال: لا، قال: فأراك تعرف نعمة الله عليك فيحفظها في نفسك.

قال: وحدَّث محمّد بن سعد عن عامر الشعبي أنَّ ابن الشريح قال لأبيه: إنَّ بيني وبين قوم خصومة فانظر فإن كان الحقُّ لي خاصمت وإن لم يكن لي الحقُّ لم أُخاصمهم، فقصّ

---

(١) في نسخة: حاتم.

(٢) الإعلام: ١/٢٢٠، ومعجم العربية: ١/٩٨.

(٣) زاد المسير: ٥/٢٥١.

قصه عليه، فقال: انطلق فخاصمهم، فانطلق إليهم فتخاصموا إليه فقضى على ابنه، فقال لمّا رجع إلى أهله: والله لو لم أتقدَّم إليك لم ألمك فقال: والله يا بنيّ لأنت أحبُّ إليّ من ملء الأرض مثلهم، ولكنَّ الله هو أعزُّ عليَّ منك خشيت أن أخبرك أنَّ القضاء عليك فتصالحهم ببعض حقّهم.

وعن الشعبي أيضاً قال: شهدت شريحاً وجاءته إمرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها، فبكت: فقلت: يا أبا أُميّة ما أظنُّ هذه الباكية إلاّ مظلومة، فقال: يا شعبي إنَّ إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاءً يبكون.

قال: ويروى أنَّ زياد بن أبيه كتب إلى معاوية: يا أمير المؤمنين قد ضبطت لك العراق بشمالي وفرغت يميني لطاعتك فولّني الحجاز، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر وكان مقيماً بمكّة فقال: اللّهمَّ اشغل عنّا يمين زياد، فأصابه الطّاعون في يمينه فجمع الأطبّاء واستشارهم فأشاروا عليه بقطعها، فاستدعى القاضي شريحاً وعرض عليه ما أشار به الأطباء فقال له: لك رزق معلوم وأجل محتوم وإني أكره إن كانت لك مدَّة أن تعيش في الدُّنيا بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليمين، فإذا سألك لم قطعتها؟ قلت: بغضاً في لقائك وفراراً من قضائك فمات زياد من يومه، فلام الناس شريحاً على منعه من القطع لبغضهم له فقال: إنه استشارني والمستشار مؤتمن، ولولا الأمانة في المشورة لوددت أنه قطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر جسده يوماً يوماً[1].

وكان شريح رجلاً داهياً، قال الدميري في «**حيوة الحيوان**»: قيل للشعبي: يقال في المثل: إنَّ شريحاً أدعى من الثعلب وأحيل، فما هذا؟ فقال: خرج شريح أيّام الطاعون إلى النجف فكان إذا قام يصلّي يجيء ثعلب فيقف تجاهه ويحاكيه ويخيّل بين يديه ويشغله عن صلاته، فلمّا طال ذلك عليه نزع قميصه فجعله على قصبة وأخرج كمّيه وجعل قلنسوته عليها، فأقبل الثعلب فوقف بين يديه على عادته فأتاه شريح من خلفه وأخذه بغتة فلذلك يقال: شريح أدهى من الثعلب وأحيل.

وكان شاعراً محسناً وذكر أبياتاً منه أبو الفرج الإصبهاني في «**الأغاني**» والقاضي ابن خلكان في «**وفيات الأعيان**» ففي «**الأغاني**»، بعد ذكر خبر زينب بنت حدير وتزويج شريح إيّاها قال: قال شريح: فما غضبت عليها قطّ إلاّ مرّة كنت لها ظالماً فيها، وذلك إني كنت إمام قومي فسمعت الإقامة وقد ركعت ركعتي الفجر فأبصرت عقرباً فعجّلت عن قتلها فأكفأت عليها الإناء، فلمّا كنت عند الباب قلت: يا زينب لا تحرّكي الإناء حتّى أجيء، فعجّلت فحرّكت

---

(١) تاريخ دمشق: ٢٠٣/١٩، وتاريخ الطبري: ٢١٥/٤.

الإناء فضربتها العقرب فجئت فإذا هي تلوي، فقلت: ما لك؟ قالت: لسعتني العقرب فلو رأيتني يا شعبي وأنا أعرك أصبعها بالماء والملح وأقرأ عليها المعوذتين وفاتحة الكتاب، وكان لي يا شعبي جار يقال له: ميسرة بن عرير من الحيّ، فكان لا يزال يضرب امرأته فقلت:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلّت يميني يوم أضرب زينبا

يا شعبي فوددت أني قاسمتها عيشي، قال: وممّا يغني فيه من الأشعار الّتي قالها شريح في امرأته زينب:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلّت يميني يوم أضرب زينباً

أأضربها في غير جرم أتت به إليَّ فما عذري إذا كنت مذنباً

فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تبد منهنَّ كوكب

فتاة تزين الحلي إن هي حليت كأنَّ بفيها المسك خالط محلباً

أقول: وقال آخر نحو مضمون البيت الأخير:

وإذا الدُرُّ زان حسن وجوه كان للدُرّ حسن وجهك زيناً

وكذا قال بهذا المضمون حسين بن مطير «بالتصغير» في باب النسيب من الحماسة **(الحماسة ٤٦٠)**.

مخصّرة الأوساط زانت عقودها بأحسن ممّا زيّنتها عقودها

وبهذا المضمون للشيخ الأجلُ السعدي بالفارسيّة:

تواز هردركه باز آيي بدين خوبيّ ورعنائي دری باشد که ازرحمت بروی خلق بكشائي

بريورها بيارايند مردم خوبرويان را تو سيمين تن جنان خوبي که زيورها بيارائي

وذكر أبو الفرج في الأغاني أنَّ شريحاً قال هذه الأبيات الآتية في زوجته زينب بنت حدير التيمية أيضاً، ثمَّ قال: وذكر إسحاق في كتاب **«الأغاني»** المنسوب إليه أنه لابن محرز:

إذا زينب زارها أهلها حشدت وأكرمت زوّارها

وإن هي زارتهم زرتهم وإن لم أحد لي هوى دارها

فسلمي لمن سالمت زينب وحربي لمن أشعلت نارها

وما زلت أرعى لها عهدها ولم أتبع ساعة عارها

وفي **«تاريخ ابن خلكان»**: روي أنَّ علياً عليه السلام قال: اجمعوا إليَّ القرّاء فاجتمعوا في رحبة المسجد فقال: إنّي أوشك أن أفارقكم، فجعل يسألهم ما تقولون في كذا؟ ما تقولون في كذا؟، ما تقولون في كذا؟ وشريح ساكت، ثمَّ سأله فلمّا فرغ منهم قال: اذهب فأنت من

أفضل الناس أو من أفضل العرب[١].

وفي «**الروضات**» بعد نقل هذه الرّواية من ابن خلكان قال: وأنت خبير بأنّ من هذه الرواية العاميّة تلوح آثار الوضع إلى آخر ما قال، فراجع وتأمّل.

وقال في «**الأغاني**» بإسناده عن الشعبي: إنّ عمر بن الخطاب أخذ من رجل فرساً على سوم فحمل عليه رجلاً فعطب الفرس، فقال عمر: اجعل بيني وبينك رجلاً، فقال له الرجل: اجعل بيني وبينك شريحاً العراقي، فقال: يا أمير المؤمنين أخذته صحيحاً سليماً على سوم فعليك أن تردّه كما أخذته، قال: فأعجبه ما قال وبعث به قاضياً، ثمّ قال: ما وجدته في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً، وما لم تستبن في كتاب الله فالزم السنّة، فإن لم يكن في السنّة فاجتهد رأيك[٢].

أقول: قد قدّمنا في المباحث السالفة أنّ كلّ ما يحتاج إليه الناس من أُمور الدّين قد جاء به الكتاب والسنّة يستنبط منهما الأحكام الجزئيّة.

وفي «**الأغاني**» قال عمر لشريح حين استقضاه: لا تشار، ولا تضار، ولا تشتر ولا تبع، فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين:

إنّ القضاة إن أرادوا عدلاً — وفصلوا بين الخصوم فصلاً

وزحزحوا بالحكم منهم جهلاً — كانوا كمثل الغيث صاب محلاً

ثمّ قال: وله أخبار في قضايا كثيرة يطول ذكرها، وفيها ما لا يستغنى عن ذكره، منها محاكمة أمير المؤمنين عليه السلام في الدّرع وقد قدّمناها في البحث السابق آنفاً.

وقد روى ثقة الإسلام الكليني في «**الكافي**» و«**الصدوق**» في «**الفقيه**» وشيخ الطائفة في «**التهذيب**» والفيض في أبواب القضاء والشهادات من «**الوافي**» **(ص ١٥٩ ج ٩)** قضيّة قضى بها شريح أوّلاً ثمّ قضى بها أمير المؤمنين عليه السلام بخلافه رادّاً عليه وهي:

أنّ أمير المؤمنين عليه السلام دخل المسجد فاستقبله شابٌّ يبكي وحوله قومٌ يسكّتونه، فقال عليٌّ عليه السلام: ما أبكاك؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنّ شريحاً قضى عليَّ بقضيّة ما أدري ما هي، إنّ هؤلاء النفر خرجوا بأبي معهم في السفر فرجعوا ولم يرجع أبي فسألتهم عنه فقالوا: مات، فسألتهم عن ماله، فقالوا: ما ترك مالاً فقدّمتهم إلى شريح فاستحلفهم، وقد علمت يا أمير المؤمنين أنّ أبي خرج ومعه مال كثير، فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: ارجعوا، فرجعوا والفتى معهم إلى شريح، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يا شريح كيف قضيت بين هؤلاء القوم؟

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٢٣/ ٢٢.

فقال: يا أمير المؤمنين ادّعى هذا الفتى على هؤلاء النفر أنهم خرجوا في سفر وأبوه معهم فرجعوا ولم يرجع أبوه، فسألتهم عنه فقالوا: مات، فسألتهم عن ماله فقالوا: ما خلّف مالاً، فقلت للفتى: هل لك بيّنة على ما تدّعي؟ فقال: لا، فاستحلفتهم فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هيهات يا شريح هكذا تحكم في مثل هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين فكيف؟.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والله لأحكمنَّ فيهم بحكم ما حكم به خلق قبلي إلاّ داود النّبيّ عليه السلام، يا قنبر ادع لي شرطة الخميس، فدعاهم فوكّل بكلّ واحد منهم رجلاً من الشرطة، ثمَّ نظر إلى وجوههم فقال: ماذا تقولون؟ أتقولون إنّي لا أعلم ما صنعتم بأب هذا الفتى؟ إنّي إذاً لجاهل، ثمَّ قال: فرّقوهم غطّوا رؤوسهم ففرّق بينهم وأُقيم كلُّ رجل منهم إلى اسطوانة من أساطين المسجد ورؤوسهم مغطّاة بثيابهم.

ثمَّ دعا عبيد الله بن أبي رافع كاتبه فقال: هات صحيفة ودواة، وجلس أمير المؤمنين عليه السلام في مجلس القضاء واجتمع الناس إليه فقال لهم: إذا أنا كبّرت فكبّروا، ثمَّ قال للنّاس: افرجوا.

ثمَّ دعا بواحد منهم فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه ثمَّ قال لعبيد الله: اكتب إقراره وما يقول، ثمَّ أقبل عليه بالسؤال فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: في أيِّ يوم خرجتم من منازلكم وأبو هذا الفتى معكم؟ فقال الرَّجل: في يوم كذا وكذا، قال عليه السلام في أيِّ شهر؟ قال: في شهر كذا وكذا، قال عليه السلام: في أيِّ سنة؟ قال في سنة كذا وكذا، قال: وإلى أين بلغتم من سفركم حين مات أبو هذا الفتى؟ قال: إلى موضع كذا وكذا، قال عليه السلام: في منزل من مات؟ قال: في منزل فلان بن فلان: قال: وما كان مرضه؟ قال: كذا وكذا، قال عليه السلام فكم يوماً مرض؟ قال: كذا وكذا، قال عليه السلام، فمن كان يمرّضه وفي أيِّ يوم مات ومن غسّله وأين غسّله، ومن كفّنه وبم كفّنتموه، ومن صلّى عليه ومن نزل قبره؟ فلمّا سأله عن جميع ما يريد كبّر أمير المؤمنين عليه السلام وكبّر الناس جميعاً فارتاب أولئك الباقون ولم يشكّوا أنَّ صاحبهم قد أقرَّ عليهم وعلى نفسه، فأمر عليه السلام أن يغطّى رأسه وينطلق به إلى السجن.

ثمَّ دعا بآخر فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه ثمَّ قال عليه السلام: كلاّ زعمتم أنّي لا أعلم بما صنعتم؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما أنا إلاّ واحد من القوم ولقد كنت كارهاً لقتله فأقرَّ.

ثمَّ دعا بواحد بعد واحد كلّهم يقرُّ وأخذ المال ثمَّ ردَّ الّذي كان أمر به إلى السجن فأقرَّ أيضاً فألزمهم المال والدَّم.

فقال شريح: يا أمير المؤمنين وكيف كان حكم داود النبيّ عليه السلام؟

فقال عليه السلام: إنَّ داود النبيّ مرَّ بغلمة يلعبون وينادون بعضهم بيا مات الدّين فيجيب منهم

غلام، فدعاهم داود عليه السلام فقال: يا غلام ما اسمك؟ فقال: مات الدّين فقال له داود: من سمّاك بهذا الاسم؟ فقال: أمّي، قال عليه السلام: فانطلق داود عليه السلام إلى أمّه فقال لها: يا أيّتها المرأة ما اسم ابنك هذا؟ فقالت: مات الدّين، فقال لها: ومن سمّاه بهذا الاسم؟ قالت: أبوه، قال: وكيف كان ذلك؟ قالت: إنَّ أباه خرج في سفر له ومعه قوم وهذا الصبيّ حمل في بطني فانصرف القوم ولم ينصرف زوجي فسألتهم عنه فقالوا: مات، فقلت لهم: فأين ما ترك؟ قالوا: لم يخلّف شيئاً فقلت: هل أوصاكم بوصيّة؟ قالوا: نعم زعم أنك حبلى فما ولدت من ولد جارية أو غلام فسمّيه مات الدّين، فسمّيته.

قال داود: وتعرفين القوم الّذين كانوا خرجوا مع زوجك؟ قالت: نعم قال: فأحياءٌ هم أم أموات؟ قالت: بل أحياء، قال: فانطلقي بي إليهم.

ثمَّ مضى معها فاستخرجهم من منازلهم فحكم بينهم بهذا الحكم بعينه وأثبت عليهم المال والدَّم، ثمَّ قال للمرأة: سمّي ابنك هذا عاش الدّين.

ثمَّ إنَّ الفتى والقوم اختلفوا في مال الفتى كم كان؟ فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام خاتمه وخواتيم من عنده ثمَّ قال: أجيلوا بهذا السهام فأيكم أخرج خاتمي فهو صادق في دعواه، لأنّه سهم الله وسهم الله لا يخيب.

ثمَّ إنَّ الكليني روى تلك القضيّة بإسناده عن الأصبغ بن نباتة أيضاً وقال: إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لما رأى قضاء شريح فيها قال:

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وقال عليه السلام: ما يغني قضاك يا شريح، ثمَّ قال عليه السلام: والله لأحكمنَّ فيهم بحكم ما حكمه قبلي إلاّ داود النبيّ عليه السلام - إلى آخرها[1].

بيان: قال الميداني في باب الألف من **مجمع الأمثال** في بيان مثل «آبل من مالك بن زيد مناة» هو سبط تميم بن مرّة، وكان يحمق إلاّ أنه كان آبل أهل زمانه، ثمّ إنه تزوّج وبنى بامرأته فأورد الإبل أخوه سعد ولم يحسن القيام بها والرفق عليها، فقال مالك: أوردها سعد، البيت. فأجابه سعد وقال:

يظلّ يوم وردها مزعفراً وهي خناطيل تجوش الخضرا

وقال في فصل الواو الساكنة منه في بيان مثل «أوردها سعد وسعد مشتمل» يضرب لمن قصّر في طلب الأمر. انتهى.

فمراده عليه السلام أنَّ شريحاً قصّر في حكم هذه القضيّة ولم يحسن القيام به.

---

(١) المصنف: ٨/٢٢٤، ح ١٤٩٧٩.

وفي المجلّد العاشر من (**البحار ص ٩٠ طبع الكمباني**): ادّعى رجل على الحسن بن عليّ عليه السلام ألف دينار كذباً ولم يكن له عليه فذهبا إلى شريح فقال للحسن عليه السلام: أتحلف؟ قال: إن حلف خصمي أعطيه، فقال شريح للرَّجل: قل بالله الّذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة، فقال الحسن عليه السلام: لا أُريد مثل هذا لكن قل: بالله إنَّ لك عليَّ هذا وخذ الألف، فقال الرَّجل ذلك وأخذ الدّنانير، فلمّا قام خرَّ إلى الأرض ومات، فسئل الحسن عليه السلام عن ذلك فقال: خشيت أنه لو تكلّم بالتوحيد يغفر له يمينه ببركة التوحيد ويحجب عنه عقوبة يمينه[1].

أقول: ونظير ذلك روى الشيخ المفيد في «**الإرشاد**» والكليني في «**الكافي**» والفيض في «**الوافي**» (**ص ٢٤٥ ج ٥**) عن أبي عبد الله عليه السلام وهو أنَّ المنصور أمر الرَّبيع بإحضاره فأحضره فلمّا بصر به المنصور قال له: قتلني الله إن لم أقتلك أتلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: والله ما فعلت ولا أردت وإن كان بلغك فمن كاذب، ولو كنت فعلت فقد ظلم يوسف فغفر، وابتلي أيّوب فصبر، وأعطي سليمان فشكر، فهؤلاء أنبياء الله وإليهم يرجع نسبك.

فقال له المنصور: أجل ارتفع ههنا فارتفع، فقال له: إنَّ فلان بن فلان أخبرني عنك بما ذكرت، فقال: أحضره يا أمير المؤمنين ليوافقني على ذلك، فأُحضر الرَّجل المذكور فقال له المنصور: أنت سمعت ما حكيت عن جعفر عليه السلام؟ قال: نعم، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: فاستحلفه على ذلك.

فقال له المنصور: أتحلف؟ قال: نعم، وابتدأ باليمين، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: دعني يا أمير المؤمنين أُحلّفه أنا، فقال له: افعل فقال أبو عبد الله عليه السلام للساعي: قل: برئت من حول الله وقوّته والتجأت إلى حولي وقوّتي لقد فعل كذا وكذا جعفر وقال كذا وكذا جعفر، فامتنع منها هنيهة ثمّ حلف بها فما برح حتى ضرب برجله فقال أبو جعفر: جرّوا برجله فأخرجوه لعنه الله.

قال الربيع: وكنت رأيت جعفر بن محمّد عليه السلام حين دخل على المنصور يحرّك شفتيه، فكلّما حرّكهما سكن غضب المنصور حتّى أدناه منه وقد رضي عنه، فلمّا خرج أبو عبد الله عليه السلام من عند أبي جعفر اتبعته فقلت له: إنَّ هذا الرَّجل كان من أشدّ النّاس غضباً عليك فلمّا دخلت عليه وأنت تحرّك شفتيك وكلّما حرّكتهما سكن غضبه فبأيِّ شيء كنت تحرّكهما؟.

---

(١) الكافي: ٣٧٣/٧، ح ٩، والمصنف: ٤٣/١٠، ح ١٨٢٩٤.

قال عليه السلام: بدعاء جدّي الحسين بن عليّ عليه السلام قلت: جعلت فداك وما هذا الدُّعاء؟ قال: «يا عدّتي عند شدّتي ويا غوثي عند كربتي احرسني بعينك الّتي لا تنام واكنفني بركنك الّذي لا يرام».

قال الرّبيع: فحفظت هذا الدّعاء فما نزلت بي شدّة قطُّ إلاّ دعوت به ففرّج عني.

قال: وقلت لجعفر بن محمّد عليه السلام: لم منعت الساعي أن يحلف بالله؟.

قال عليه السلام: كرهت أن يراه الله يوحّده ويمجّده فيحلم عنه ويؤخّر عقوبته فاستحلفته بما سمعت، فأخذه الله أخذةً رابيةً[1].

وفي عاشر (**البحار ص ١٧٩ طبع الكمباني**): أنَّ ابن زياد لما ضرب بالقضيب هانئاً رضوان الله عليه في قضيّة مسلم بن عقيل عليه السلام حتّى كسر أنفه وسالت الدّماء على ثيابه ووجهه ولحيته ونثر لحم جبينه وخدّه على لحيته حتى كسر القضيب ثمَّ أمر بإلقائه في بيت من بيوت الدّار وحبسه فيه بلغ عمرو بن الحجّاج أنَّ هانئاً قد قتل فأقبل في مذحج حتّى أحاط بالقصر ومعه جمع عظيم، ثمَّ نادى وقال: أنا عمرو بن الحجاج وهذه فرسان مذحج ووجوهها لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة وقد بلغهم أنَّ صاحبهم قد قتل فأعظموا ذلك.

فقيل لابن زياد: هذه فرسان مذحج بالباب، فقال لشريح القاضي: ادخل على صاحبكم فانظر إليه ثمَّ اخرج وأعلمهم أنه حيٌّ لم يقتل.

فدخل شريح فنظر إليه فقال هانىء لما رأى شريحاً: يا لله يا للمسلمين أهلكت عشيرتي أين أهل الدِّين؟ أين أهل المصر؟ والدِّماء تسيل على لحيته إذ سمع الصيحة على باب القصر فقال: إني لأظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين إنه إن دخل عليَّ عشرة نفر أنقذوني.

فلمّا سمع مقاله شريح خرج إليهم فقال لهم: إنَّ الأمير لمّا بلغه كلامكم ومقالتكم في صاحبكم أمرني بالدُّخول إليه فأتيته فنظرت إليه فأمرني أن ألقيكم وأعرِّفكم أنَّه حيٌّ وأنَّ الّذي بلغكم من قتله باطل، فقال له عمرو بن الحجاج وأصحابه: أما إذا لم يقتل فالحمد لله، ثمَّ انصرفوا[2].

وفي «**روضات الجنّات**» بعد نبذة من ترجمة شريح قال:

وبالجملة فالأخبار في خيانة رأي هذا الرّجل وسوء عاقبته كثيرة، وحسب الدلالة على

---

(١) بحار الأنوار: ٤٣/٣٢٧، ودرر الأخبار: ٣٠٤.

(٢) الإرشاد: ٢/١٨٤، وكشف الغمة: ٢/٣٨٢.

غاية ملعنته وشقاوته كونه من جملة من ترك إغاثة مولانا الحسين عليه السلام بكلمة خير عند بني أُميّة، كانت تمكنه يقيناً بل كونه من جملة من تسبّب ذلك منه ومن أمثاله الّذين كانوا يطأون بساط الظالم عبيد الله بن زياد الملعون في دار الإمارة في الكوفة، كما يشهد بذلك واقعة مسلم بن عقيل المظلوم وولديه الشهيدين وما صدر منه في حقّهم وبدر منه على قتلهم، ويؤيّده أيضاً ما نقل عن أبي مخنف الأزدي صاحب المقتل أنّه ذكره من جملة من قتله المختار في زمن انتقامه من بني أُميّة وأتباعهم الملعونين. فليتأمّل. انتهى قوله.

اختلف في سنّه فقيل: مائة وعشرون سنة، وقيل: مائة وعشر، وقيل: أقلّ من ذلك وأكثر، وكان وفاته سنة سبع وثمانين للهجرة، وقيل غير ذلك.

وفي **«الأَغاني»** عن أبي سعيد الجعفي أنه مات في زمن عبد الملك بن مروان، وفيه بإسناده عن الأَصمعي توفي شريح وهو ابن مائة سنة.

وفي **«الروضات»**، أنّه كان خفيف الرُّوح مزاحاً ويشهد بصحة هذه النسبة إليه طول عمره فإنّ من أشدّ ما ينقص به العمر وينغص به العيش إنما هو زيادة الغيرة والاغتمام، والشفقة على أهل الكروب. انتهى[1].

(١) شرح النهج: ٢٨/١٤.

الترجمة

این کتابی است از امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) که به قاضی خود شریح بن حارث مرقوم فرموده است.

(روایت است که شریح در زمان خلافت امیرالمؤمنین (عليه السلام) که از جانب آن بزرگوار به سمت قضا منصوب بود، خانه ای به هشتاد دینار خرید، این خبر به آن جناب رسید و شریح را طلبید و بدو گفت که شنیدم خانه ای به هشتاد دینار خریده ای و سند و قباله بر آن نوشته ای و جمعی را بر آن گواه گرفته ای؟

شریح گفت: ای امیرالمؤمنین، آری چنین است.

راوی گفت: چون علی این سخن از شریح بشنید، خشمگین در وی نگریست و گفت: ای شریح، آگاه باش که به زودی کسی به سویت آمد (مرگ، یا جان شکر) که در قباله ات ننگرد و از گواهت نپرسد تا از خانه تو را با چشم بی نور و جسم بی روح به در برد و دست از همه چیز شده و جدا مانده به خانه گورت سپارد. پس ای شریح، با دیده بصیرت در نگر که مبادا آن را از کسی که مالك آن نبوده خریده باشی و یا بهای آن را از مال حرام داده باشی که در این سرا و آن سرا زیان کار خواهی بود.

بدان که گاه خرید آن اگر نزد من آمدی، هرآینه این قباله برایت نوشتمی که به درمی آن را نمی خریدی تا چه رسد که به بیشتر).

بسم الله الرّحمن الرحیم

این سرایی است که آن را بنده ای خوار از مرده ای که از این سرا کوچش داده اند خریده است، خانه ای خریده که مسافت آن از جانب فانی شدگان تا سرزمین هالکان است. این سرا محدود به چهار حدّ است، حدّ نخستین آن به اسباب آفت ها پایان می یابد و دوّم آن به علل مصیبت ها، حدّ سوّم به هوای نفس و چهارم آن به دیو گمراه کننده و در آن در این حدّ گشوده می شود.

این شخص فریب آرزو خورده این خانه را از آن که مرگش فرا رسید و کوج داده شد به بهای از عزت قناعت به دررفتن و در ذلّت سؤال به درآمدن، خریده است. پس اگر عوارضی در این معامله از پی پدید آید، برعهده خراب کننده خانه کالبدشاهان. و رباینده جان ستمکاران و نابود کننده سلطنت فرعونان، همچون شاهان پارس و ملوك روم و سلاطین و والیان یمن و آنان که مال را بر مال انباشتند و بنا کردند و برافراشتند و زینتش دادند و بیاراستند و گنج نهفتند و آب و خاك گرد آوردند و به دلسوزی فرزندان و به خیال یاری آنان مال اندوخته اند. می باشد که فروشنده و خریدار و آن که درك به او تعلّق گرفته، همه را در پیشگاه عدل الهی که خلایق را برای پرسش سان دهند و به پاداش و کیفر رسانند، حاضر کند تا آنگاه که فرمان خداوند قهّار به فصل میان حقّ و باطل فرود آید، مهمّ دعوای ایشان فیصل یابد، در آنجا تباه پیشه گان باطل کیش زیانکار شوند.

خرد آزاد از بردگی هوی و سالم از امراض علایق دنیا بر این قباله شاهد عادل و حجّت بالغ است.

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه وهو الكتاب الرابع من باب المختار من كتبه عليه السلام ورسائله:

فَإِنْ عادُوا إِلَى ظِلِّ الطّاعَةِ فَذاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوافَتِ الأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى الشِّقَاقِ وَالْعِصْيانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطاعَكَ إِلَى مَنْ عَصاكَ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ الْمُتَكارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ[١] وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ[٢].

اللغة

(توافت الأُمور) أي تتامّت، (الشقاق) بالكسر: المخالفة والعداوة. (انهد) أي انهض أمر من نهد إلى العدوّ من بابي منع ونصر أي قصد لهم وأسرع في قتالهم ونهض إليهم، والمناهدة المناهضة في الحرب يقال: نهد لعدوّه وإليه نهوداً ونهداً بالفتح والتحريك إذا صمد لهم. و(استغن) بالغين المعجمة أمر من الاستغناء وفي كثير من النسخ جعل بالمهملة من الاستعانة وكذا مال غير واحد من المفسّرين والمترجمين إلى المهملة لكنّه مذهب مهمل وطريقة عمياء كما سيتّضح لك وجهه في تقرير الإعراب وتحرير المعنى إن شاء الله تعالى.

(تقاعس عنك) أي أبطأ وتأخّر عنك وتكاره القتال (المتكاره): المتسخّط من تكارهه إذا تسخّطه ولم يرض به يقال: فعله على تكارهٍ ومتكارهاً. و(المغيب) و(المشهد) مصدران كالغيبة والشهود.

الإعراب

(الفاء) في قوله عليه السلام: فذاك رابطة للجواب، لأنَّ جواب الشرط أعني ذاك الّذي يحبُّ جملة اسميّة فهي من المواضع الستّة الّتي لا تصلح لأن تكون شرطاً فيجب دخول الفاء فيها نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]. وكذا في قوله: فانهد، لأنَّ الفعل هنا إنشائيٌّ فهذه الجملة من تلك المواضع أيضاً نحو قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) الإرشاد: ٢/ ٥١، وبحار الأنوار: ٣٤٨/٤٤.

(٢) في نسخة: شهوده.

(بمن أطاعك) الباء صلة لقوله: فانهد إمّا بمعنى المصاحبة والمعيّة أو الاستعانة.

(إلى من عصاك) صلة لقوله فانهد أيضاً لا أطاعك لما علم في اللّغة أنّه يقال نهد لعدوّه وإليه. **(عمّن تقاعس)** متعلّق بقوله استغن أيضاً ولا يصحّ استعمال عن مع الاستعانة.

(فإنّ المتكاره) الفاء في مقام التعليل لقوله عليه السلام: استغن، فهي فصيحة تنبىء عن محذوف يدلُّ عليه ما قبله، وكأنَّ الجملة جواب عن سؤال مقدَّر، والتقدير: وما علّة الاستغناء بمن انقاد عمّن تقاعس؟ فأجاب بقوله: لأنَّ المتكاره ـ إلخ.

وجملة **(مغيبه خير من مشهده)** خبر لاسم إنَّ أعني المتكاره. وجملة **(قعوده أغنى من نهوضه)** معطوفة على الأولى.

المعنى

هذا الكلام هو جزء من كتاب له عليه السلام كما هو من دأب الشريف الرَّضيّ غير مرَّة وفي شروحنا السّالفة، وهذا هو الظاهر من قوله: **(فإن عادوا إلى ظلّ الطاعة، إلخ)** وهذا لا مرية فيه إلاّ أنا لم نظفر به في الكتب الموجودة عندنا بعد، ولكن قال الشارح البحرانيُّ والمولى فتح الله القاسانيُّ: روي أنَّ الأمير الّذي كتب إليه هو عثمان بن حنيف عامله على البصرة، وذلك حين انتهت أصحاب الجمل إليها وعزموا على الحرب، فكتب عثمان إليه عليه السلام يخبره بحالهم، فكتب عليه السلام إليه كتاباً فيه الفصل المذكور.

قوله عليه السلام: **(فإن عادوا إلى ظلّ الطاعة فذاك الّذي نحبُّ)** الضمير في عادوا يرجع إلى ناكثي بيعته عليه السلام أعني طلحة والزّبير وأتباعهما، وقد قدَّمنا في مباحثنا السالفة أنه لمّا تمَّ أمر البيعة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأيس طلحة والزبير ممّا كانا يرجوان به من قتل عثمان بن عفّان من البيعة لأحدهما بالإمامة نقضوا العهد ونكثوا البيعة وخرجوا إلى مكّة واجتمعوا فيها ورأوا في ذلك أمرهم فتحقّق عزمهم على المسير إلى البصرة، وسارت معهم عائشة بخدعتهم ومكرهم حيث بعث طلحة والزُّبير في مكّة إلى عائشة عبد الله بن الزبير وقالا له: امض إلى خالتك فاهد إليها السلام منّا وقل لها: إنَّ طلحة والزبير يقرءانك السلام ويقولان لك: إن أمير المؤمنين عليه السلام عثمان قتل مظلوماً وأنَّ عليَّ بن أبي طالب ابتزَّ الناس أمرهم وغلبهم عليه بالسفهاء الّذين تولّوا قتل عثمان ونحن نخاف انتشار الأمر به فإن رأيت أن تسيري معنا لعلَّ الله يرتق بك فتق هذه الأمّة، ويشعب بك صدعهم، ويلمَّ بك شعثهم، ويصلح بك أمورهم.

فأتاها عبد الله فبلغها ما أرسلاه به فأظهرت الامتناع أوّلاً ثمَّ أجابتهما غداً إلى الخروج.

فلمّا انتهوا إلى البصرة وعزموا على الحرب كتب عثمان بن حنيف وكان عامل أمير المؤمنين عليه السلام وقتئذٍ في البصرة إلى أمير المؤمنين عليه السلام بحالهم.

فكتب عليه السلام إليه: فإن عادوا إلى ظلّ الطاعة فذاك الّذي نحبّ وإنّما استعار لفظ الظلّ لأنَّ الطاعة كما قيل تستلزم السلامة والرفاهة والراحة عن حرارة الحرب كما يستلزم الظلّ الراحة من حرارة الشمس قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ امتناناً عليهم حيث سخّر لهم السحاب تسير بسيرهم في التيه وتظلّهم من حرارة الشمس.

وفي الحديث، السلطان ظلّ الله في الأرض، استعار الظلّ له لأنه يدفع الأذى عن الناس كما يدفع الظلّ أذى الشمس.

ويمكن بيانه بوجه أدقّ وألطف من هذا وهو أنَّ المراد من السلطان هو السلطان العادل الإلٰهي وإنّما كان ظلّه تعالى بمعنى أنه مظهره الأتمّ ومجلي أسمائه الحسنى، وصفاته العليا يحكي عنه بحيث من رآه كأنما رأى الله كما يحكي الظلّ عن ذي الظلّ وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من رآني فقد رأى الله».

قوله عليه السلام: **(وإن توافت الأمور ـ إلى قوله ـ من عصاك)** أي إن تتامّت الأمور بالقوم وتهيّأت لهم أسباب المخالفة وتوافقت وسلكهم في الشقاق والعصيان فانهض وأسرع مع من انقاد لك إلى من خالفك وخرج عن طاعتك أي الناكثين وأشياعهم.

قوله عليه السلام: **(واستغن بمن انقاد ـ إلخ)** من نظر في كلامه عليه السلام حقّ النظر وتدبّر فيه علم أنَّ قوله عليه السلام: فإنَّ المتكاره مغيبه خير من مشهده (ا هـ) في مقام التعليل لقوله: واستغن كما قدّمناه في الإعراب، وهذا لا يناسب إلاّ أن يكون استغن أمراً من الاستغناء لا بالعين المهملة من الاستعانة، فإنه عليه السلام بيّن وجه الاستغناء بالمنقاد عن المتقاعس أي المتكاره بأنَّ المتكاره عدم حضوره في الحرب خير من حضوره فيه، لأنَّه لا يقاتل على جدّ واهتمام كما يقال بالفارسيّة: سك كه بزورش بشكار برند از أو تك نيايد، وربما انهزم وولّى الدُّبر في أثناء الحرب فساعتئذٍ عمله هذا يوجب التخاذل والوهن والضعف في العسكر فيتّبعونه في الفرار ونعم ما قاله السعديُّ بالفارسيّة:

آنكه جنك آرد بخون خويش بازي ميكند　　　روزميدان، وانكه بكريزد بخون لشكري

فالمتكاره يوجب مغيبه عن الحرب عدم الانتفاع به فقط، وحضوره في الحرب موجب للمفسدة العظيمة الّتي هي تخاذل العسكر ووهنهم، فمغيبه خير من شهوده وكذا قعوده عن الحرب أغنى من نهوضه إليها، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] والعجب من شارح البحراني والمولى فتح الله القاساني ذهباً إلى أنَّ قوله:

استعن، أمر من الاستعانة على أنَّ صلة الاستعانة لا تكون كلمة عن الجارة، وأمّا الشارح المعتزلي فلم يتفوّه بشيء والأمر بيّن، والمخالف مكابر.

الترجمة

یکی از نامه های امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) این کتاب است که آن را به بعضی از سرداران لشکرش نوشته:

(این مقدار که در نهج البلاغه مذکور است، برخی از آن نامه است که آن را مرحوم سید رضی از تمام نامه اختیار کرده است، زیرا آن چه که بیشتر مورد اهتمام سید رضی بود انتخاب کلمات فصیح و جمله های بلیغ آن حضرت است و روایت شده که آن سردار سپه عثمان بن حنیف بود که در شهر بصره عامل آن حضرت بود و ارسال این نامه به عثمان وقتی بود که طلحه و زبیر و اتباع آن دو، پیمانی را که به آن حضرت بستند شکستند و نقض بیعت کردند و با لشکر بسیار از مکّه به جانب بصره روان شدند که فتنه جنگ جمل را برانگیختند و عثمان بن حنیف صورت واقعه را برای امام (عليه السلام) مرقوم داشت، و امام در جوابش فرمود):

پس اگر آن گروه بیعت شکن برگشتند به سایه فرمانبرداری، این خود همان است که ما می خواهیم و دوست می داریم و اگر کارها تمام شود به ایشان یعنی اسباب و علل مخالفت برای آنها مهیّا گردد که ایشان را به مخالفت و نافرمانی کشاند، پس به معاونت کسانی که تو را فرمان برده اند قیام کن به جنگ کسانی که نافرمانی کرده اند و عاصی گشته اند. و بی نیازی جو به کسانی که گردن نهادند از کسانی که از یاری تو و حضور در معرکه کراهت دارند و باز پس می ایستند، زیرا آن که از حضور در عرصه جنگ کاره است نبودش در جنگ بهتر از حضورش است و بازنشستنش از جنگ بی نیازکننده تر و سودمندتر است از نهضتش.

ومن كتاب له ﷺ إلى الأشعث بن قيس وهو عامل آذربيجان، وهو الكتاب الخامس من باب المختار من كتبه ورسائله ﷺ

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ بِطُعْمَةٍ، وَلَكِنَّهُ في عُنُقِكَ أَمانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى لِمَنْ فَوْقَكَ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَئِتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلاَ تُخاطِرَ إلاّ بِوَثِيقَةٍ، وفِي يَدَيْكَ مالٌ مِنْ مالِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْتَ مِنْ خُزّانِي حَتّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَنْ أَكُونَ شَرَّ وُلاَتِكَ لَكَ، وَالسَّلام(١).

اللغة

(الطعمة) بضم الطاء المهملة المشالة: المأكلة ووجه الكسب والجمع طعم كصرد على وزن الغرفة والغرف. (مسترعى) على هيئة المفعول أي من استرعاه آخر فوقه بمعنى أن طلب منه حفظ أمر من الأُمور وجعله راعياً لذلك الأمر فذلك الآخر مسترع، ومنه في زيارة الأئمة ﷺ: واسترعاكم أمر خلقه، أي جعلكم رعاة وولاة وحفظة على خلقه رعيّة لكم تحكمون بهم بما أجزتم وأمرتم. قاله الطريحيُّ في «**مجمع البحرين**».

(تفتئت) مضارع افتأت بالفاء والهمزة من باب الافتعال وأصله فأت وفي القاموس: افتأت برأيه استبدَّ، ويصحُّ أن يقرأ تفتات كتحتاج من الإفتيات وأصله الفوت، والافتيات الاستبداد أي السبق إلى الشيء من دون ائتمار من يؤتمر إليه ويقال بالفارسيّة: خود سري كار كردن، وفلان افتات برأيه أي استبدَّ به كافتأت بالهمزة، وفلان لا يفتات عليه أي لا يعمل شيء دون أمره.

(رعيّة) الرّعية: المرعيّة فعيلة بمعنى مفعولة والجمع رعايا كشظيّة وشظايا **(تخاطر)** المخاطرة: الإقدام في الأُمور العظام والإشراف فيها على الهلاك يقال: خاطر بنفسه مخاطرة، إذا عرّضها للخطر.

(وثيقة) الوثيقة ما يوثق به في الدّين فهي فعيلة بمعنى المفعول أي موثوق به لأجل الدّين، والتاء فيها لنقل اللّفظ من الوصفيّة إلى الاسميّة كالحقيقة، ويقال فلان أخذ في أمره بالوثيقة أي احتاط فيه.

(خزّاني) الخزّان جمع الخازن كطلاّب وطالب وهو الّذي يتولّى حفظ المال المخزون

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٦٧، ح ٤٦، ونهج السعادة: ٥/١٥٨، ح ١٤٠.

والمؤخر. (**ولاتك**) الولاة جمع الوالي كالقضاة والقاضي والوالي والوليّ كما يقال القادر والقدير وهو المتولّي للشيء والفاعل له، قال جوّاس الكلبي (**الحماسة ٦٣٣**):

كنّا ولاة طِعانها وضِرابها حتى تجلّت عنكم غُمّاها

الإعراب

(**لك**) متعلّق بالطعمة وكذلك في عنقك بالأَمانة قدّما توسّعاً للظروف، والباء في طعمة زائدة في خبر ليس للتأكيد. جملة (**أن تفتات في رعيّة**) مأوّلة بالمصدر المرفوع حتّى يكون اسم ليس. وجملة (**ولا تخاطر إلاّ بوثيقة**) معطوفة عليها. والظاهر أنّ كلمة (**حتّى**) بمعنى كما أنّها بهذا المعنى في البيت المقدَّم آنفاً. وجملة (**أن لا أكون ـ إلى قوله ـ والسلام،**) مؤوَّلة بالمصدر المرفوع خبر لعلَّ. والسلام مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير والسلام على من اتّبع الهدى، أو والسلام لأَهله بقرينة كتبه الآتية.

المعنى

هذا الكتاب حزء من كتاب كتبه إلى الأشعث بن قيس بعد انقضاء الجمل والكتاب بتمامه مذكور مسنداً في كتاب «**صفين**» لنصر بن مزاحم المنقريّ الكوفيّ (**ص ١٣ من الطبع الناصري ١٣٠١هـ**) كما ستتلوه عليك.

قال نصر في أوَّل كتاب «**صفين**»: قال عمر بن سعد بن أبي الصيد الأَسدي، عن الحارث بن حصيرة، عن عبد الرَّحمٰن بن عبيد بن أبي الكنود وغيره قالوا: لمّا قدم عليٌّ عليه السلام من البصرة إلى الكوفة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من رجب سنة ثلاث وستّين[1] وقد أعزَّ الله نصره وأظهره على عدوِّه ومعه أشراف الناس من أهل البصرة وعيرهم استقبله أهل الكوفة وفيهم قرّاؤهم وأشرافهم، فدعوا له بالبركة وقالوا: يا أمير المؤمنين أين تنزل؟ أتنزل القصر؟ فقال: لا، ولكنّي أنزل الرَّحبة، فنزلها وأقبل حتّى دخل المسجد الأعظم فصلّى فيه ركعتين ثمَّ صعد المنبر[2].

---

(١) نهج السعادة: ٤/٨٦، وواقعة صفين: ٢١.

(٢) الظاهر ست وثلاثين، وهو الأصح.

«أول خطبة خطبها أمير المؤمنين في الكوفة لما قدم من البصرة إليها وقد أظهره الله على أعدائه الناكثين»

فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله وقال: أمّا بعد يا أهل الكوفة فإنَّ لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدّلوا وتغيّروا، دعوتكم إلى الحقّ فأجبتم، وبدأتم بالمنكر فغيّرتم، ألا إنَّ فضلكم فيما بينكم وبين الله في الأحكام والقسم، فأنتم أسوة من أجابكم، ودخل فيما دخلتم فيه، ألا إنَّ أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدُّ عن الحقِّ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إنَّ الدُّنيا قد ترحّلت مدبرة، والآخرة قد ترحَّلت مقبلة، ولكلٍّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، الحمد لله الّذي نصر وليّه وخذل عدوَّه، وأعزَّ الصادق المحقَّ، وأذلَّ الناكث المبطل.

عليكم بتقوى الله وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيّكم الّذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المنتحلين المدَّعين المقابلين إلينا، يتفضّلون بفضلنا ويجاحدونا أمرنا، وينازعونا حقّنا، ويدافعونا عنه، فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا فسوف يلقون غيّاً، ألا إنّه قد قعد عن نصرتي منكم رجال فأنا عليهم عاتب زارٍ فاهجروهم، وأسمعوهم ما يكرهون حتّى يعتبوا ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة(١).

أقول: قد أتى الرّضيُّ ببعض هذه الخطبة في «النهج» وهي الخطبة الثانية والأربعين من باب الخطب أوّلها: أيّها الناس إنَّ أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل - إلخ وبين النسختين اختلاف في الجملة.

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعي وكان صاحب شرطته، فقال: والله إنّي لأرى الهجر وسماع المكروه لهم قليلاً، والله لئن أمرتنا لنقتلنّهم، فقال عليٌّ: سبحان الله يا مالك، جزت المدى، وعدوت الحدَّ، وأغرقت في النزع، فقال: يا أمير المؤمنين:

لبعض الغشم أبلغ في أمور ... تنوبك من مهادنة الأعادي

فقال عليٌّ عليه السلام: ليس هكذا قضى الله، يا مالك قتل النفس بالنفس، فما بال الغشم، وقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الاسراء: ٣٣] والإسراف في القتل أن تقتل غير قاتلك فقد نهى الله عنه وذلك هو الغشم.

فقام إليه أبو بردة بن عوف الأزديُّ وكان ممّن تخلّف عنه فقال: يا أمير المؤمنين أرأيت

(١) نهج السعادة: ١/ ٤١٨، ووقعة صفين: ٣.

القتلى حول عائشة والزبير وطلحة بم قتلوا؟.

قال عليٌّ عليه السلام: قتلوا شيعتي وعمّاً لي وقتلوا أخا ربيعة العبدي رحمة الله عليه في عصابة من المسلمين قالوا: لا ننكث كما نكثتم، ولا نغدر كما غدرتم فوثبوا عليهم فقتلوهم فسألتهم أن يدفعوا إليَّ قتلة إخواني أقتلهم بهم ثمَّ كتاب الله حكم بيني وبينهم فأبوا عليَّ فقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي فقتلتهم بهم أفي شكّ أنت من ذلك؟

قال: قد كنت في شكّ فأمّا الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم وأنك أنت المهديُّ المصيب، وكان أشياخ الحيِّ يذكرون أنه كان عثمانيّاً، وقد شهد مع عليّ على ذلك صفين لكنّه بعد ما رجع كان يكاتب معاوية، فلمّا ظهر معاوية أقطعه قطيعة بالفلّوجة وكان عليه كريماً.

ثمَّ إنَّ عليّاً عليه السلام تهيّأ لينزل وقام رجال ليتكلّموا، فلمّا رأوه نزل جلسوا وسكتوا..

نصر: أبو عبد الله سيف بن عمر، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة أنَّ عليّاً لمّا دخل الكوفة قيل له: أيَّ القصرين تنزلك؟ قال: قصر الخبال لا تنزلونيه فنزل على جعدة ابن هبيرة المخزومي[1].

أقول: الخبال على وزن السحاب: الفساد والنقصان وأراد منه قصر دار الإمارة وكأنه عليه السلام سمّاه به لما وقع فيه قبله من أمراء الجور وعمّال أهل النفاق والشقاق من الهلكة والفساد والنقصان. وجعدة بن هبيرة كان ابن أخته عليه السلام أمّه أمّ هاني بنت أبي طالب كانت تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومي وقد قدَّمنا الكلام فيه في شرح الخطبة ٢٣١ **(ص ٣٤ ج ١٥)** فراجع.

نصر: عن الفيض بن محمّد، عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: لمّا قدم عليٌّ عليه السلام الكوفة نزل على باب المسجد فدخل وصلّى ثمَّ تحوَّل فجلس إليه الناس فسأل عن رجل من أصحابه كان ينزل الكوفة؟ فقال قائل: استأثر الله به. فقال عليه السلام: إنَّ الله لا يستأثر بأحد من خلقه إنما أراد الله بالموت إعزاز نفسه وإذلال خلقه وقرأ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. قال: فلما لحق الثقل قالوا: أيَّ القصرين تنزل؟ فقال عليه السلام: قصر الخبال لا تنزلونيه.

نصر: عن سيف قال: حدَّثني إسماعيل بن أبي عميرة، عن عبد الرَّحمٰن بن عبيد ابن

---

(١) الإرشاد: ١/ ٢٦٠، والأمالي: ١٢٧.

أبي الكنود أنَّ سليمان بن صرد الخزاعيَّ دخل على عليِّ بن أبي طالب عليه السلام بعد رجعته من البصرة فعاتبه وعذله وقال له: ارتبت وتربّصت وراوغت، وقد كنت من أوثق الناس في نفسي، وأسرعهم فيما أظنّ إلى نصرتي، فما قعد بك عن أهل بيت نبيّك وما زهّدك في نصرهم؟.

فقال: يا أمير المؤمنين لا تردّن الأُمور على أعقابها، ولا تؤنّبني بما مضى منها، واستبق مودّتي يخلص لك نصيحتي وقد بقيت أُمور تعرف فيها وليّك من عدوّك، فسكت عنه، وجلس سليمان قليلاً ثمَّ نهض فخرج إلى الحسن بن عليّ عليه السلام وهو قاعد في المسجد فقال: ألا أُعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ؟ فقال الحسن عليه السلام: إنّما يعاتب من تُرجى مودّته ونصيحته، فقال: إنه بقيت أُمور سيستوسق فيها القنا، وينتضى فيها السيوف ويحتاج فيها إلى أشباهي، فلا تستبشعوا غيبتي، ولا تتّهموا نصيحتي. فقال له الحسن عليه السلام: رحمك الله ما أنت عندنا بالظنين.

نصر: عن عمر يعني ابن سعد عن نمير بن وعلة عن الشعبي، أنَّ سعيد بن قيس دخل على عليِّ بن أبي طالب عليه السلام فسلّم عليه فقال له عليٌّ عليه السلام: وعليك، وإن كنت من المتربّصين، فقال: حاش الله يا أمير المؤمنين لست من أُولئك قال: فعل الله ذلك.

نصر: عن عمر بن سعد عن يحيى بن سعيد، عن محمّد بن مخنف قال: دخلت مع أبي على عليّ عليه السلام حين قدم من البصرة وهو عام بلغت الحلم، فإذا بين يديه رجال يؤنّبهم ويقول لهم: ما بطأ بكم عنّي وأنتم أشراف قومكم؟ والله لئن كان من ضعف النيّة وتقصير البصيرة إنكم لبور، والله لئن كان من شكّ في فضلي ومظاهرة عليّ إنكم لعدوّ.

قالوا: حاش لله يا أمير المؤمنين نحن سلمك وحرب عدوّك، ثمَّ اعتذر القوم فمنهم من ذكر عذره، ومنهم اعتلَّ بمرض، ومنهم من ذكر غيبته فنظرت إليهم فعرفتهم فإذا عبد الله بن المعتم العبسي، وإذا حنظلة بن الرّبيع التميمي، وكلاهما كانت له صحبة، وإذا أبو بردة بن عوف الأزدي، وإذا غريب بن شرحبيل الهمداني.

قال: ونظر عليٌّ عليه السلام إلى أبي فقال: لكن مخنف بن سليم وقومه لم يتخلّفوا ولم يكن مثلهم مثل القوم الّذين قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء: ٧٢ - ٧٣] ثمَّ إنَّ عليّاً عليه السلام مكث بالكوفة[1].

(١) نهج السعادة: ١/ ٤١٨، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٣٥٥.

أقول: كلُّ ما ذكرنا ونقلنا من كلماته عليه السلام عن كتاب «صفين» بعد الخطبة المذكورة آنفاً ما ذكرت في «النهج» مع أنها من محاسن كلامه عليه السلام سيّما قوله عليه السلام لسليمان بن صرد الخزاعي: ارتبت وتربّصت - إلى قوله - وما زهّدك في نصرهم ولعلَّ الرَّضيَّ رضوان الله عليه لم يظفر بها. والله العالم.

«خطبته عليه السلام في الجمعة بالكوفة والإشارة إلى مسألة فقهية في المقام»

نصر: عن أبي عبد الله سيف بن عمر، عن الوليد بن عبد الله، عن أبي طيّبة، عن أبيه قال: أتمَّ عليٌّ عليه السلام الصّلاة يوم دخل الكوفة فلمّا كانت الجمعة وحضرت الصّلاة صلّى بهم وخطب خطبة.

نصر: قال أبو عبد الله عن سليمان بن المغيرة، عن عليِّ بن الحسين خطبة عليٍّ بن أبي طالب في الجمعة بالكوفة والمدينة أن: الحمد لله أحمده وأستعينه وأستهديه وأعوذ بالله من الضلالة، من يهدي الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمّداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله انتجبه لأمره واختصّه بالنبوَّة، أكرم خلقه عليه، وأحبّهم إليه، فبلّغ رسالة ربّه، ونصح لأمّته وأدّى الّذي عليه.

وأُوصيكم بتقوى الله فإنَّ تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله وأقربه لرضوان الله وخيره في عواقب الأمور عند الله، وبتقوى الله أُمرتم، وللإحسان والطاعة خلقتم، فاحذروا من الله ما حذَّركم من نفسه، فإنّه حذّر بأساً شديداً، واخشوا الله خشية ليست بتعذير، واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإنه من عمل لغير الله وكلّه الله إلى ما عمل له، ومن عمل لله مخلصاً تولّى الله أجره، وأشفقوا من عذاب الله فإنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سدىً، قد سمّى آثاركم وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم، فلا تغترّوا بالدُّنيا فإنها غرّارة بأهلها، مغرور من اغترَّ بها، وإلى فناءٍ هي، إنَّ الآخرة هي دار الحيوان لو كانوا يعلمون أسأل الله منازل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، ومعيشة السعداء، فإنّما نحن له وبه[1].

أقول: ذكر بعض هذه الخطبة وهو قوله عليه السلام: واخشوه خشية ليست بتعذير واعملوا من غير رياء ولا سمعة فإنّه من عمل لغير الله وكلّه الله إلى ما عمل له نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء، في «النهج» في ضمن الخطبة ٢٣ أوّلها: أمّا بعد فإنَّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض - إلخ، إلاّ أنَّ في «النهج» ذكر مكان وكله إلى ما عمل له: يكله

(١) وقعة صفين: ٨، وبحار الأنوار: ١٩/ ١٤٢.

الله إلى من عمل له.

وكذا ذكر بعضها وهو قوله عليه السلام: فإنّه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سدى، قد سمّى آثاركم، وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم، في ضمن الخطبة ٨٤ أوّلها: قد علم السرائر وخبر الضمائر - إلخ.

ولكنَّ الخطبة المذكورة بتمامها على تلك الهيئة ليست بمذكورة في «النهج» وشرذمة من صدرها مذكورة في خطبة يوم الجمعة المرويّة في «الكافي» عن أبي جعفر عليه السلام.

ثمَّ اعلم أنّه يجب في صلاة الجمعة الخطبتان قبل الصلاة، لأنَّ الخطبة شرط في صحّة الجمعة، وروى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: ليس تكون جمعة إلاّ بخطبة.

وصورة الخطبتين جاءت في الجوامع على أنحاء، ففي «الكافي» روى عن أبي جعفر عليه السلام على صورة ثمّ عن أمير المؤمنين عليه السلام على صورة أُخرى، وفي الفقيه روى عنه عليه السلام أيضاً على صورة أُخرى غير ما في «الكافي»، وذكر كلّ واحد منها في الوسائل للعاملي، وكذا في «الوافي» من ص ١٧٠ إلى ١٧٤ من المجلّد الخامس فلا حاجة إلى نقلها ههنا.

ثمَّ إنها تغاير الخطبة المنقولة من نصر في «صفين» ولم يعلم من نصر أنّها الخطبة الأُولى أو الثانية، ولكن ما يناسب أحكام الجمعة وسائر الروايات أن تكون هي للأُولى والثانية كليهما، وذلك لأنَّ جمع الروايات يدلُّ على أنهما شاملتين على حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله وقراءة شيء من القرآن سواء كانت سورة خفيفة أو آية تامّة الفائدة، ووعظ الناس، والخطبة المذكورة حائزة لها. وإن كان الأوفق بالاحتياط في الأُولى أن يحمد الله ويثني عليه ويوصي بتقوى الله ويقرأ سورة من القرآن قصيرة، وفي الثانية بعد الحمد والثناء أن يصلّي على محمّد وأئمّة المسلمين ويستغفر للمؤمنين، والبحث عنها على التفصيل موكول إلى الفقه أعرضنا عنه خوفاً من الإطناب والخروج عن موضوع الكتاب.

«صورة كتابه بتمامه إلى الأَشعث بن قيس «نقلاً مسنداً عن نصر في صفين»

قال نصر: ثمّ إنَّ علياً عليه السلام أقام بالكوفة واستعمل العمّال وبعث إلى الأشعث بن قيس الكندي.

نصر: محمّد بن عبيد الله عن الجرجاني قال: لمّا بويع عليٌّ عليه السلام وكتب إلى العمال كتب إلى الأشعث بن قيس مع زياد بن مرحب الهمداني والأشعث على أذربيجان عامل لعثمان وقد كان عمرو بن عثمان تزوّج ابنة الأشعث بن قيس قبل ذلك فكتب إليه عليٌّ عليه السلام:

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى الأشعث بن قيس أمّا بعد فلولا هنات كنّ فيك كنت المقدّم في هذا الأمر قبل النّاس، ولعلّ أمرك يحمل بعضه بعضاً إن اتّقيت الله، ثمّ إنّه كان من بيعة النّاس إيّاي ما قد بلغك، وكان طلحة والزبير ممّن بايعاني ثمّ نقضاً بيعتي على غير حدث، وأخرجا أمّ المؤمنين وسارا إلى البصرة فسرت إليهما فالتقينا فدعوتهم إلى أن يرجعوا فيما خرجوا منه فأبوا، فأبلغت في الدُّعاء وأحسنت في البقيّة، وإنّ عملك ليس لك بطعمة، ولكنّه أمانة وفي يديك مال من مال الله وأنت من خزّان الله عليه حتّى تسلّمه إليّ ولعلّي أن لا أكون شرّ ولاتك لك إن استقمت، ولا قوّة إلاّ بالله[١].

أقول: وقد روى الكتاب الشارح البحراني عن الشعبي وبينهما وبين ما في «**النهج**» اختلاف في بعض الكلمات والجمل في الجملة.

فما نقل عن الشعبي: أمّا بعد فلولا هنات كنّ منك كنت المقدّم في هذا الأمر قبل النّاس، ولعلّ آخر أمرك يحمد أوّله وبعضه بعضاً إن اتّقيت الله، إنه قد كان من بيعة النّاس إيّاي ما قد بلغك، وكان طلحة والزبير أوّل من بايعني ثمّ نقضا بيعتي عن غير حدث، وأخرجا عائشة فساروا بها إلى البصرة فصرت إليهم في المهاجرين والأنصار، فالتقينا فدعوتهم إلى أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه فأبوا فأبلغت في الدُّعاء وأحسنت في البقيّة، واعلم أنّ عملك إلى آخر الفصل على ما في «**النهج**»، وكتب عبد الله بن أبي رافع في شعبان سنة ستّ وثلاثين.

قال نصر: فلمّا قرأ الأشعث الكتاب قام زياد بن مرحب فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها النّاس إنه من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير، إنّ أمر عثمان لا ينفع فيه العيان ولا يشفي منه الخبر، غير أنّ من سمع به ليس كمن عاينه، إنّ الناس بايعوا عليّاً عليه السلام راضين به، وإنّ طلحة والزبير نقضا بيعته على غير حدث ثمّ أذّنا بحرب، فأخرجا أمّ المؤمنين فسار إليهما فلم يقاتلهم وفي نفسه منهم حاجة فأورثه الله الأرض وجعل له عاقبة المتقين.

قال: ثمّ قام الأشعث بن قيس فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها النّاس إنّ أمير المؤمنين عثمان ولاّني أذربيجان فهلك وهي في يدي، وقد بايع النّاس عليّاً وطاعتنا له كطاعة من كان قبله، وقد كان من أمره وأمر طلحة والزبير ما قد بلغكم، وعليٌّ المأمون على ما غاب عنّا وعنكم من ذلك الأمر.

فلمّا أتى منزله دعا أصحابه فقال: إنّ كتاب عليّ قد أوحشني وهو آخذ بمال أذربيجان

---

(١) تحف العقول: ٢٥٢، وشرح أصول الكافي: ٦/ ١٥١.

وأنا لاحق بمعاوية، فقال القوم: الموت خير لك من ذلك أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام؟ فاستحيا فسار حتّى قدم على عليّ عليه السلام[(١)].

وروي أنَّ قوله هذا وتوبيخ الناس إيّاه على ذلك بلغ أهل الكوفة فكتب أمير المؤمنين عليه السلام إليه كتاباً يوبّخه ويأمره بالقدوم عليه، وبعث به حجر بن عديّ الكندي، فلامه حجر على ذلك وناشده الله وقال له: أتدع قومك وأهل مصرك وأمير المؤمنين عليه السلام وتلحق بأهل الشام؟ ولم يزل به حتّى أقدمه إلى الكوفة فعرض عليٌّ عليه السلام ثقلته فوجد فيها مائة ألف درهم وروي أربعمائة ألف فأخذها وكان ذلك بالنخيلة، فاستشفع الأشعث بالحسن والحسين عليهما السلام وبعبد الله بن جعفر فأطلق له منها ثلاثين ألفاً، فقال: لا تكفيني، فقال: لست بزائدك درهماً واحداً وأيم الله لو تركتها لكان خيراً ممّا لك وما أظنّها تحلُّ لك ولو تيقّنت ذلك لما بلغتها عندي فقال الأشعث: خذ من خدعك ما أعطاك. فقال السكوني وقد خاب أن يلحق بمعاوية:

إنـي أُعيـذك بـالّذي هـو مـالـك ... بـمـعـاذة الآبـاء والأجـداد
ممّـا يظـنُّ بـك الـرّجال وإنمـا ... سامـوك خـطّـة مـعشـر أوغـاد
إن أذربيجـان الّـتي مـزّقـتـهـا ... لـيسـت لـجـدّك فاشنـهـا ببلاد
كـانـت بـلاد خـليـفـة ولاّكـهـا ... وقـضـاء ربـك رائـح أو غـاد
فـدع الـبلاد فـليـس فـيـهـا مطـمع ... ضـربـت عـلـيـك الأرض بالأسـداد
فـادفـع بـمـا لـك دون نـفـسـك إنـنـا ... فـسـادوك بـالأمـوال والأولاد
أنـت الّـذي تـثـنـي الـخـنـاصـر دونـه ... وبـكـبـش كـنـدة يـسـتـهـلُّ الـوادي
ومـعـصّـب بـالـتـاج مـفـرق رأسـه ... مـلـك لـعـمـرك راسـخ الأوتـاد
وأطـع زيـاداً إنّـه لـك نـاصـح ... لا شـكّ فـي قـول الـنـصـيـح زيـاد
وانـظـر عـلـيّـاً إنّـه لـك جـنّـة ... يـرشـد ويـهـديـك لـلـسـعـادة هـاد

قال نصر: وممّا قيل على لسان الأشعث:

أتـانـا الـرّسـول رسـول عـلـيّ ... فـسـرّ بـمـقـدمـه الـمـسـلـمـونـا
رسـول الـوصـيّ وصـيّ الـنـبـيّ ... لـه الـفـضـل والـسـبـق فـي الـمـؤمـنـينـا
بـمـا نـصـح الله والـمـصـطـفـى ... رسـول الإلـه الـنـبـيّ الأمـيـنـا

(١) نهج السعادة: ٤/ ٨٦، ووقعة صفين: ٢١.

يجاهد في الله لا ينثني ... جميع الطغاة مع الجاحدينا
وزير النبيّ وذو صهره ... وسيف المنيّة في الظالمينا
وكم بطل ماجد قد أذا ... ق منيّة حتف من الكافرينا
وكم فارس كان سال النزال ... فآب إلى النّار في الآئبينا
فذاك عليٌّ إمام الهدى ... وغيث البريّة والمُفخمينا
وكان إذا ما دعي للنزال ... كليث عرين ابن ليث العرينا
أجاب السؤال بنصح ونصر ... وخالص ودّ على العالمينا
فما زال ذلك من شأنه ... ففاز وربّي مع الفائزينا

قال: وممّا قيل على لسان الأشعث أيضاً:

أتانا الرّسول رسول الوصيّ ... عليٌّ المهذّب من هاشم
رسول الوصيّ وصيّ النبيّ ... وخير البريّة من قائم
وزير النبيّ وذو صهره ... وخير البريّة في العالم
له الفضل والسبق بالصالحات ... لهَدي النبيّ به يأتم
محمّداً أعني رسول الآله ... وغيث البريّة والخاتم
أجبنا عليّاً بفضل له ... وطاعة نصح له دائم
فقيه حليم له صولة ... كليث عرين بها سائم
حليم عفيف وذو نجدة ... بعيد من الغدر والمأثم

تذكرة: قد تقدّم منّا الكلام في الّذين وصفوا عليّاً عليه السلام وعرّفوه بأنّه وصيُّ رسول الله من كبار الصحابة وغيرهم في صدر الإسلام فراجع إلى ص ١٩ من المجلد الأوّل من «**تكملة المنهاج**». وقد مضى في باب الخطب قوله عليه السلام للأشعث: ما يدريك ما عليٌّ ممّا لي عليك لعنه الله ـ إلخ (**الكلام ١٩ من باب الخطب**).

وكان الأشعث في خلافة أمير المؤمنين عليه السلام من المنافقين المعاندين وهو كما قال الشارح المعتزليُّ: كان في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن أبي سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: كلُّ فساد كان في خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وجازماً بأنه عليه السلام لا يبقيه في عمله، وذلك لهنات كنَّ منه كما عرَّضها عليه السلام عليه فهو في الحقيقة كان خائفاً من أعماله السيّئة وكان قد استوحش من كلامه عليه السلام له: فلولا هنات كنَّ منك، حيث علم أنَّ الأمير كان عارفاً بها حتّى دعا من الدِّهشة أصحابه فقال: أنا لاحق بمعاوية.

ثمّ الظّاهر المستفاد من كلامه عليه السلام له: فلولا هنات كنّ فيك «أو منك» كنت المقدّم في هذا الأمر أنّ أمير المؤمنين عزله عن أذربيجان بذلك الكتاب وممّا يظاهره قول المؤرّخ الخبير المسعودي في كتابه **«مروج الذهب»** حيث قال **(ص ١٥ ج ٢ طبع مصر ١٣٤٦هـ)**: وسار [عليٌّ عليه السلام بعد انقضاء الجمل] إلى الكوفة فكان دخوله إليها لاثنتي عشرة ليلة مضت من رجب، وبعث إلى الأشعث بن قيس يعزله عن أذربيجان وأرمينيّة وكان عاملاً لعثمان، فكان في نفس الأشعث على ما ذكرنا من العزل وما خاطبه به حين قدم عليه فيما اقتطع هنالك من الأموال، انتهى.

وممّا يؤيّده أيضاً ما روينا عن نصر وغيره من إرادته اللّحوق بمعاوية وما جرى بينه وبين عليّ عليه السلام فتأمّل.

في **«الكافي»** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ الأشعث بن قيس شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام، وابنته جعدة سمّت الحسن عليه السلام، ومحمّد ابنه شرك في دم الحسين عليه السلام[1].

وروى أبو الفرج أنَّ الأشعث دخل علي عليّ عليه السلام فكلّمه فأغلظ عليٌّ عليه السلام له فعرض له الأشعث أنه سيفتك به، فقال عليٌّ عليه السلام: أبالموت تخوّفني أو تهدّدني فوالله ما أُبالي وقعت على الموت أو وقع الموت عليّ[2].

قوله عليه السلام: **(وإنَّ عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة)** ظاهر كلامه عليه السلام ينبىء أنَّ الأشعث اتّخذ مال الله مأكلته ولم يكن أميناً عليه فنبّهه على أنه ليس له بطعمة أي ما جعلتك عاملاً أن تدّخر أموال المسلمين لنفسك وتأكل ما جنت يداك منها، بل هي أمانة بيده بل ألزمها في عنقه تشديداً عليه وتنبيهاً له على أنّها تعلّقت بذمّته وتكون أوزاراً عليه، وذلك لأنّه كان عاملاً من قبل غيره ومسترعى لمن فوقه، وكان مال المسلمين أمانة بيده فما سوّغ له الشرع التصرّف في بيت مال المسلمين.

قوله عليه السلام: **(وأنت مسترعى ـ إلى قوله: بوثيقة)** يعني أنت رعيّة من هو فوقك وأميرك جعلك راعياً للنّاس وعاملاً لهم وأميناً وحافظاً على أموالهم وأملاكهم وغيرها ممّا جعل ولايتها بيدك فلا يجوز لك أن تسبق إلى أُمور الرّعيّة من غير أن تستأذن من استرعاك وتستأمر من ائتمنك، وكذا لا يسوغ لك أن تقدم في الأُمور الخطيرة ممّا يتعلّق بالمال وغيره من غير احتياط تامّ وثيقة، أي من غير أن يكون للمسلمين وثوق واعتماد في صحّة ذلك العمل وعدم الإضرار

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٦٢، ووقعة صفين: ٢١.

(٢) الكافي: ٨/ ١٦٧: ١٨٧، وتحف العقول: ٢٠٩.

بالرَّعيّة، وبالجملة لا ينبغي لك أن تقدم فيما لا يثق المسلمون بها ولا يعتمدون عليها ممّا هي خلاف العقل والشرع والعرف.

قوله عليه السلام: **(وفي يديك ـ إلى قوله: تسلّمه)** لعلَّ تثنية اليد إشارة إلى تسلّطه التامّ على الأموال حيث كان عاملاً ووالياً، وإنما قال: ما من أموال الله تشديداً عليه بالحفظ والحراسة وترعيباً له بالمخالفة حتّى لا يخون الله تعالى في ماله بأنَّ الزكاة والخمس من مال الله الّذي أفاء على عباده قال تعالى: ﴿فاعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول﴾ الآية، ثمَّ قال له: وأنت من خزّاني أي لا يجوز لك التصرُّف فيما في الخزينة إلاّ بإذني ويجب عليك حفظه ورعايته إلى أن تسلّمها إليَّ.

قوله عليه السلام: **(ولعلّي أن لا أكون ـ إلخ)** لمّا كان كلامه المصدَّر أوّلاً تشديداً ومؤاخذةً عليه وموجباً للوحشة والاضطراب فإنه كان يدلّ على أنه عليه السلام لم يره أميناً على ما ولّى عليه أتى بلفظة لعلَّ المفيد للترجّي حتّى يسكن جأشه ويطعمه إلى عدم المؤاخذة والتشديد لئلاّ يفرَّ إلى العدوّ ويجعله خائفاً راجياً فلا يخفى لطفه على أنَّ الرجاء بعد الخوف ألذُّ في النفوس وأوقع في القلوب.

ومع ذلك كلّه أعلمه بأنّه لو تجاوز عن الحقّ وخالف الذّين يكون هو عليه السلام شرَّ ولاته له، أي يجازيه بما فعل ويؤاخذ عليه بذنبه. وكلامه هذا تعريض لسائر الولاة والعمّال أيضاً إنّهم لو عدلوا عن الحقّ وجعلوا أموال الناس طعمة لهم كان هو عليه السلام شرَّ ولاةٍ لهم أي يكافأهم على ما كان منهم، ويجازيهم به.

الترجمة

این کتابی است که امیرالمؤمنین (عليه السلام) به اشعث بن قیس نگاشت:

(اشعث از جانب عثمان عامل آذربایجان بود و اموال بسیار در دست او بود، چون امیرالمؤمنین (عليه السلام) به مسند خلافت نشست و بعد از فتح بصره به کوفه آمد، این نامه را به وی نوشت و او را تنبیه فرمود به حفظ آن. چون نامه به او رسید سخت مستوحش و مضطرب شد و یاران خود را طلبید و با آنان در این موضوع سخن به میان آورد که نامه علی (عليه السلام) مرا به وحشت انداخت و او از من تمامی اموالی که از آذربایجان به دست آورده ام خواهد ستاند، از این روی به معاویه پناه می برم که علی (عليه السلام) نتواند این اموال را از من اخذ کند، آنان گفتند بهتر آن است که در نزد مرتضی روی و از اندیشه خود سر باززنی. و در روایتی آمده که حجر بن عدی الکندی که فرستاده حضرت به سوی اشعث بود، وی را به اندرز و نرمی به کوفه آورد، علی (عليه السلام) اموال او را تفتیش کرد، چهارصد هزار درهم یافته، همه آن را اخذ کرد. اشعث حسنین(علیهما السلام) و عبدالله بن جعفر را شفیع خود گرفت که امام پول ها را به او رد کند، امام سی هزار درهم را به او رد کرده و هر چه الحاح و ابرام در ردّ بقیه نمود امام فرمود که بیش از این یك درم رد نخواهم کرد که بر خلاف است. و اشعث مردی منافق بود و اکثر مصائب و شدائدی که به امام علی (عليه السلام) روی آورد، اشعث اصل آن فتنه ها و امّ الفساد بود).

ای اشعث عملت طعمه تو نیست (یعنی تو را عامل آن دیار نگردانیدم که هرچه از مال مسلمین به دست تو آید بخوری و برای خود اندوخته کنی) ولکن آن در گردن تو امانت است که باید طریق دیانت را در آن رعایت کنی. کسی که امیر و بزرگ تو است، تو را حافظ و والی امور مردم کرده، لذا نشایدت که در کار رعیّت بی اذن امیرت خودسری پا پیش نهی و در کارهای بزرگ اقدام کنی، مگر این که مورد اعتماد و وثوق مسلمانان باشد و در دست های تو مالی از مال های خداوند ارجمند و بزرگوار است و تو یکی از خزینه داران منی که باید در حفاظت آن بکوشی تا آن را تسلیم من کنی و شاید که من بدترین والیان تو نباشم؛ والسلام.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية وهو الكتاب السادس من باب المختار من كتبه عليه السلام ورسائله

إِنَّهُ بايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلا لِلْغَائِبِ أَنْ يُرَدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمُّوهُ إِماماً كانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًى، فَإِنْ خَرَجَ مِنْ أَمْرِهِمْ خارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلى ما خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ اللَّهُ ما تَوَلَّى. ولَعَمْرِي يا مُعاوِيَةُ لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَواكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ، إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّى، فَتَجَنَّ ما بَدا لَكَ ـ والسَّلام[1].

اللغة

(الشورى) فُعلى من المشاورة وهي المفاوضة في الكلام ليظهر الحقُّ، قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أي لا يتفرَّدون بأمر حتّى يشاوروا غيرهم فيه، قال الفيومي في **«المصباح»**: شاورته في كذا واستشرته: راجعته لأرى رأيه فيه، فأشار عليَّ بكذا أراني ما عنده فيه من المصلحة فكانت إشارته حسنة والاسم: المشورة، وتشاور القوم واشتوروا والشورى اسم منه، وأمرهم شورى بينهم أي لا يستأثر أحد بشيء دون غيره. انتهى.

(العزلة) بالضمّ اسم بمعنى الاعتزال.

«تتجنّى» من الجناية. التجنّي: طلب الجناية وهو أن يدّعي عليك أحد ذنباً لم تفعله، تجنّى عليه أي رماه بإثم لم يفعله.

«فتجنَّ» أمر من تتجنّى بلا كلام فالكلمة بالفتحات. وقد ذهب غير واحد من الشرّاح والمترجمين إلى أنّها بضمّ الجيم والنون فعل مضارع من جنّه إذا ستره كتمدّ من مدَّ أي تستّر وتخفّى ما ظهر لك، ولكنّها وهم بلا ارتياب، وكانت العبارة في نسختنا المصحّحة العتيقة وفي نسخة صديقنا اللاّجوردي قد قوبلت بنسخة الرضي رحمه الله هي الأوّل على أنَّ تتجنّى قرينة قويّة على أنها أمر منها، وأسلوب العبارة ينادي بأعلى صوتها على أنّها أمر وأوّل ما تبادل ذهننا إليه قبل الفحص والاستقراء أنّها أمر من تتجنّى.

(١) بحار الأنوار: ١٣٣/٤٢/٤٢، ونهج السعادة: ٦٥٩/٢.

الإعراب

الضمير في أنّه للشأن، على ما بايعوهم عليه، متعلّقة بقوله. بايعني، اللاّم من لعمري لام الابتداء وعمري مبتدأ وخبر المبتدأ محذوف لا يجوز إظهاره كأنه قال: لعمري قسمي أو لعمري ما أقسم به، والعمروالعمر بالفتح والضمّ لغتان، معناهما البقاء ولا يجيء عمر في اليمين إلاّ مفتوح العين. والباء في بطعن للسببيّة متعلّقة بقوله خرج، واللاّم في لئن موطئة للقسم وجواب لعمري لتجدنّي، وجواب الشرط ما دّل عليه هذا الجواب، والمعنى: وبقائي لئن نظرت بعقلك فقد تجدني أبرأ الناس من دم عثمان، على وزن قول شبيب بن عوانة **(الحماسة ٣٣٧)**.

لعمري لئن سرَّ الأَعادي وأظهروا ... شماتاً لقد مرُّوا بربعك خالياً

أي: وبقائي لئن كان الأعادي مسرورين بموتك شامتين بذويك وعشيرتك لفقدهم لك، فقد وقعت الشماتة في وقتها وحينها ووافاهم السّرور لحادث أمر عظم موقعه، لأنَّهم مرُّوا بربعك خالياً كما أفاده المرزوقي في شرح الحماسة. ولتعلمنَّ عطف على لتجدنّي.

«دون هواك» كلمة دون تكون هنا بمعنى سوى كما جاء في وصفه تعالى: ليس دونه منتهى، أي ليس سواه سبحانه من ينتهي إليه أمل الآملين، فهو تعالى منتهى رغبة الراغبين. وتكون بمعنى القدّام كقول قيس الخُطيم الأوسي **(الحماسة ٣٦)**:

ملكت بها كفّي فأنهرت فتقها ... يرى قائماً من دونها ما ورائها

وتكون بمعنى الظرف نحو هذا دون ذلك أي أقرب منه. أو شيء من دون بالتنوين أي حقير ساقط، وعلى الأوّل قوله **(الحماسة ١٢٧)**:

ألم تريا أنّي حميت حقيقتي ... وباشرت حدَّ الموت والموت دونها

وبهذا المعنى تصغّر ويقال: دُوين على نحو قولهم: قُبيل وبُعيد وفُويق قال خلف بن خليفة **(الحماسة ٢٩٦)**:

وبالدّير أشجاني وكم من شج له ... دوين المصلّى بالبقيع شجون

وتكون بمعنى عند وغير وخذ نحو دونكها أي خذها وبمعنى نقيض فوق وبمعنى الشريف والخسيس والوعيد.

«إلاّ أن تتجنّى» استثناء منقطع. «فتجنَّ ما بدا لك» ما منصوب محلاً بالمفعوليّة.

المعنى

هذا الكتاب بعض ما كتب عليه السلام إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البجلي وروى الكتاب

بتمامه نصر بن مزاحم المنقري الكوفي مسنداً في **«صفين»** (**ص ١٨ الطبع الناصري ١٣٠١هـ**) وهذا الكتاب مرويٌ أيضاً في كتاب الفتن والمحن من (**البحار ص ٤٣٤**) وسنتلوه عليك بحذافيره.

قال نصر في **«صفين»**: إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا قدم من البصرة ودخل الكوفة وأقام بها بعث إلى العمّال في الآفاق «يعني بهم العمّال لعثمان على البلاد» وكان أهمُّ الوجوه إليه الشام.

وروى عن محمّد بن عبيد الله القرشي، عن الجرجانيّ قال: لمّا بويع عليٌّ عليه السلام وكتب إلى العمّال في الآفاق كتب إلى جرير بن عبد الله البجليّ وكان جرير عاملاً لعثمان على ثغر همدان فكتب إليه مع زحر بن قيس الجعفيّ[1].

«كتاب علي عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلي»

أمّا بعد فإنَّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من والٍ، وإنّي أُخبرك عن نبإ من سرنا إليه من جموح طلحة والزبير عند نكثهم بيعتهم وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف، إنّي هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار حتّى إذا كنت بالعذيب بعثت إلى أهل الكوفة بالحسن بن عليّ، وعبد الله بن عبّاس، وعمّار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، فاستقروهم فأجابوا فسرت بهم حتّى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في الدُّعاء، وأقلت العثرة، وناشدتهم عقد بيعتهم، فأبوا إلاّ قتالي، فاستعنت بالله عليهم فقتل من قتل، وولّوا مدبرين إلى مصرهم، فسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللّقاء فقبلت العافية، ورفعت السيف، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس، وسرت إلى الكوفة وقد بعثت إليكم زحر بن قيس فاسأل عما بدا لك[2].

أقول: كتابه هذا إلى جرير ليس بمذكور في النهج وهذا الكتاب مذكور أيضاً في كتاب **«الإمامة والسياسة»** لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢١٣هـ وبين النسختين اختلاف يسير لا يعبأ به.

ثمَّ إنَّ زحر بن قيس هذا هو الّذي كان في خيل عمر بن سعد يوم الطفّ وكان ممّن حمل الأسارى ورؤوس الشهداء من أهل بيت الطهارة والنبوّة إلى الشام وما جرى بينه وبين

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٧٧، والغدير: ١/ ٣٠٠.

(٢) كتاب الأربعين: ٧١، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٣٥٩.

الإمام السجاد عليه السلام وسائر أقواله وأفعاله مذكور في كتب المقاتل، نعوذ بالله تعالى من سوء الخاتمة.

قال نصر: فلمّا قرأ جرير الكتاب قام فقال: أيّها الناس هذا كتاب أمير المؤمنين عليه السلام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو المأمون على الدّين والدّنيا، وقد كان من أمره وأمر عدوّه ما نحمد الله عليه، وقد بايعه السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقّهم بها، ألا وإنّ البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة وعليّ حاملكم على الحقّ ما استقمتم، فإن ملتم أقام ميلكم، فقال الناس: سمعاً وطاعة رضينا رضينا، فأجاب جرير وكتب جواب كتابه بالطاعة.

قال: وكان مع عليّ رجل من طيء ابن أخت لجرير، فحمل زحر بن قيس شعراً له إلى خاله جرير وهو:

جرير بن عبد الله لا تردد الهدى	وبايع عليّاً إنّني لك ناصح
فإنّ عليّاً خير من وطأ الحصى	سوى أحمد والموت غاد ورائح
ودع عنك قول الناكثين فإنّما	أولاك أبا عمرو كلاب نوابح
وبايعه إن بايعته بنصيحة	ولا يك معها في ضميرك فادح
فإنك إن تطلب به الدّين تعطه	وإن تطلب الدُّنيا فبيعك رابح
وإن قلت عثمان بن عفان حقّه	عليّ عظيم والشكور مناصح
فحقّ عليّ إذ وليك كحقّه	وشكرك ما أوليت في الناس صالح
وإن قلت لا نرضى عليّاً إمامنا	فدع عنك بحراً ضلّ فيه السوابح
أبى الله إلاّ أنّه خير دهره	وأفضل من ضمّت عليه الأباطح

قال: ثمّ قام زحر بن قيس خطيباً فكان ممّا حفظ من كلامه أن قال:

الحمد لله الّذي اختار الحمد لنفسه، وتولاّه دون خلقه، لا شريك له في الحمد، ولا نظير له في المجد، ولا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، القائم الدّائم، إله السماء والأرض، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالحقّ الوضح، والحقّ الناطق، داعياً إلى الخير، وقائداً إلى الهدى.

ثمّ قال: أيّها الناس إنّ عليّاً قد كتب إليكم كتاباً لا يقال بعده إلاّ رجيع من القول، ولكن لا بدّ من ردّ الكلام، إنّ الناس بايعوا عليّاً بالمدينة من غير محاباة له ببيعتهم، لعلمه بكتاب الله وسنن الحقّ، وإنّ طلحة والزبير نقضا بيعته على غير حدث، وألّبا عليه الناس ثمّ لم يرضيا حتّى نصبا له الحرب، وأخرجا أمّ المؤمنين، فلقيهما فأعذر في الدّعاء، وأحسن

من البقيّة، وحمل الناس على ما يعرفون، هذا عيان ما غاب عنكم، ولئن سألتم الزيادة زدناكم ولا قوة إلاّ بالله[١].

ونقل كلامه الدينوريُّ في «**الإمامة والسياسة**» وبين النسختين اختلاف في الجملة.

قال نصر: وقال جرير في ذلك:

أتانا كتاب عليّ فلم ... نردّ الكتاب بأرض العجم

ولم نعص ما فيه لمّا أتى ... ولمّا نضام ولمّا نُلم

ونحن وُلاة على ثغرها ... نضيم العزيز ونحمي الذمم

نساقيهم الموت عند اللّقاء ... بكأس المنايا ونشفي القرم

طحناهم طحنةً بالقنا ... وضرب سيوف تطير اللّمم

مضينا يقيناً على ديننا ... ودين النبيّ مجلّي الظلم

أمين الإله وبرهانه ... وعدل البريّة والمعتصم

رسول المليك ومن بعده ... خليفتنا القائم المدّعم

عليّاً عنيت وصيّ النبيّ ... نجالدُ عنه غواة الأُمم

له الفضل والسبق والمكرمات ... وبيت النبوّة لا يهتضم

أقول: قد قدَّمنا في مواضع أنَّ كثيراً من سنام المسلمين في صدر الإسلام وصفوا أمير المؤمنين عليه السلام بأنه وصيُّ النبيّ، وقلنا إنَّ هذه الكلمة الصادرة من هؤلاء الّذين أدرك كثير منهم النبيَّ صلى الله عليه وآله ممّا ينبغي أن يعتنى بها ويبجّلها من يطلب طريق الحقِّ ويبحث عنه. ولعمري أنَّ هذه الدَّقيقة حجّة على من كان له قلب إلاّ أن ختم الله على قلبه ونعم مال قال العارف الروميُّ:

جشم باز وكوش باز واين عمى ... حيرتم از جشم بندي خدا

نصر: عمر بن سعد عن نمير بن وعلة، عن عامر الشعبي أنَّ عليّاً عليه السلام حين قدم من البصرة نزع جريراً عن همدان فجاء حتّى نزل الكوفة فأراد عليٌّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً، فقال له جرير: ابعثني إلى معاوية فإنه لم يزل لي مستنصحاً ووداً نأتيه فأدعوه على أن يسلّم لك هذا الأمر ويجامعك على الحقِّ على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمّالك ما عمل بطاعة الله واتّبع ما في كتاب الله، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك وجلّهم

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٦٠، ونهج السعادة: ٤/ ٨٤.

قومي وأهل بلادي وقد رجوت أن لا يعصوني.

فقال له عليه السلام الأشتر: لا تبعثه ودعه ولا تصدّقه فوالله إنّي لأظنّ هواه هواهم ونيّته نيّتهم.

فقال له عليّ عليه السلام: دعه حتّى ننظر ما يرجع به إلينا، فبعثه عليّ عليه السلام وقال له حين أراد أن يبعثه: إنّ حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل الدين والرأي من قد رأيت، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله صلى الله عليه وآله فيك: إنك من خير ذي يمن، ائت معاوية بكتابي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلاّ فانبذ إليه وأعلمه أنّي لا أرضى به أميراً وأنّ العامة لا ترضى به خليفة.

فانطلق جرير حتّى أتى الشام ونزل بمعاوية فدخل عليه، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أمّا بعد يا معاوية فإنّه قد اجتمع لابن عمّك أهل الحرمين وأهل المصرين وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل مصر، وأهل العروض وعمّان وأهل البحرين واليمامة، فلم يبق إلاّ أهل هذه الحصون الّتي أنت فيها لو سال عليها سيل من أوديته غرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرّجل، ودفع إليه الكتاب كتاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام وفيه:

صورة كتابه عليه السلام الكاملة إلى معاوية على ما في كتاب نصر في صفين (ص ١٨ من الطبع الناصري) وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري (ص ٩٣ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧هـ)

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم أمّا بعد فإنّ بيعتي لزمتك بالمدينة وأنت بالشام لأنّه بايعني القوم الّذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسمّوه إماماً كان ذلك لله رضىً، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتّباعه غير سبيل المؤمنين وولاّه الله ما تولّى ويصليه جهنم وساءت مصيراً، وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثمّ نقضا بيعتي وكان نقضهما كردّهما، فجاهدتهما على ذلك حتّى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الأمور إليّ فيك العافية إلاّ أن تتعرّض للبلاء، فإن تعرّضت له قاتلتك، واستعنت الله عليك وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثمّ حاكم القوم إليّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله، فأمّا تلك الّتي تريدها فخدعة الصبيّ عن اللّبن ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدنّي أبرأ قريش من دم عثمان، واعلم أنّك من الطلقاء الّذين لا تحلّ لهم الخلافة، ولا

تعرض فيهم الشورى وقد أرسلت إليك وإلى من قِبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع ولا قوّة إلاّ بالله[١].

أقول: ولا يخفى عليك أنّ بين نسخة **«النهج»** وبين نسخة **«صفين»** لنصر تفاوتاً في الجملة كما أنَّ بين نسختي نصر والدينوري اختلافاً يسيراً لا يعبأ به.

ثمَّ إنَّ قوله عليه السلام: وقد أكثرت في قتلة عثمان - إلى قوله: فخدعة الصبيّ عن اللّبن، مذكور في ذيل كتابه الآخر إلى معاوية أيضاً، وهو الكتاب الرّابع والستّون أوّله: أمّا بعد فإنّا كنّا نحن وأنتم على ما ذكرت من الأُلفة - إلخ.

قال نصر: فلمّا قرأ معاوية الكتاب قام جرير فقال:

الحمد لله المحمود بالعوائد، المأمول منه الزوائد، المرتجى منه الثواب المستعان على النوائب، أحمده وأستعينه في الأمور الّتي تحيّر دونه الألباب وتضمحلُّ عندها الأرباب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلُّ شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون، وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بعد الفترة وبعد الرُّسل الماضية، والقرون الخالية، والأبدان البالية، والجبلة الطّاغية، فبلّغ الرسالة، ونصح الأمّة، وأدّى الحقَّ الّذي استودعه الله وأمره بأدائه إلى أُمّته، صلى الله عليه وآله وسلّم من مبتعث ومنتجب.

ثمَّ قال: أيّها النّاس إنَّ أمر عثمان قد أعيى من شهده فما ظنّكم بما غاب عنه، وإنَّ الناس بايعوا عليّاً غير واتر ولا موتور. وكان طلحة والزبير ممّن بايعه ثمَّ نكثا بيعته على غير حدث، ألا وإنَّ هذا الدّين لا يحتمل الفتن، ألا وإنَّ العرب لا تحتمل السيف، وقد كانت البصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للنّاس، وقد بايعت العامّة عليّاً ولو ملكنا والله أُمورنا لم نختر لها غيره، ومن خالف هذا استعتب، فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس، فإن قلت: استعملني عثمان ثمَّ لم يعزلني فإنَّ هذا أمر لو جاز لم يقم لِلّهِ دين، وكان لكل امرىء ما في يديه، ولكنَّ الله لم يجعل للآخر من الولاة حقَّ الأوّل، وجعل تلك أُموراً موطّاة، وحقوقاً ينسخ بعضها بعضاً.

فقال معاوية: انظر وننظر وأستطلع رأي أهل الشام[٢].

أقول: الظاهر أنَّ هذا الكتاب هو أوّل كتاب أرسله عليه السلام إلى معاوية ويدعوه إلى بيعته إلاّ أنَّ الرّضيّ رضي الله عنه قال في آخر هذا الباب **(الكتاب ٧٥)** ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية في أوّل ما بويع له، ذكره الواقدي في كتاب **«الجمل»**، من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن

(١) بحار الأنوار: ٣٦١/٣٢، ووقعة صفين: ١٨.

(٢) بحار الأنوار: ٣٦٨/٣٢، ونهج السعادة: ٩١/٤، ح ٩٢.

أبي سفيان فقد علمت إعذاري فيكم وإعراضي عنكم - إلخ.

وقال ابن قتيبة الدِّينوري في كتاب **«الإمامة والسياسة»** المعروف بتاريخ الخلفاء **(ص ٨٢ ج ١ طبع مظر ١٣٧٧هـ)**: وذكروا أنه لمّا فرغ من وقعة الجمل بايع له القوم جميعاً وبايع له أهل العراق واستقام له الأمر بها، فكتب إلى معاوية أمّا بعد فإنَّ القضاء السابق والقدر النافذ ينزل من السماء كقطر المطر فتمضي أحكامه عزَّ وجلَّ وتنفذ مشيئته بغير تحابِّ المخلوقين ولا رضا الآدميّين، وقد بلغك ما كان من قتل عثمان وبيعة الناس عامّة إيّاي ومصارع الناكثين لي، فادخل فيما دخل الناس فيه، وإلاّ فأنا الّذي عرفت وحولي من تعلمه، والسلام.

ويمكن أن يكون هذه الكتب الثلاث كتاباً واحداً فتفرّق كما قدَّمنا كثيراً من نظائره، وممّا يؤيّده أنَّ الدينوري بعد نقل الكتاب قال: ثمَّ إنَّ معاوية انتخب رجلاً من عبس، وكان له لسان، فكتب إلي عليّ عليه السلام كتاباً عنوانه: من معاوية إلى عليّ، وداخله: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم لا غير، فلمّا قدم الرسول دفع الكتاب إلى عليّ فعرف عليٌّ عليه السلام ما فيه وأنَّ معاوية محارب له وأنّه لا يجيبه إلى شيء ممّا يريد.

وقد نقل قريباً من هذا الكلام الشارح المعتزلي في شرح نسخة **«النهج»** وهو: فلمّا جاء معاوية هذا الكتاب «يعني به الكتاب المذكور في النهج» وصل بين طومارين أبيضين ثمّ طواهما وكتب عنوانهما من معاوية بن أبي سفيان إلى عليِّ بن أبي طالب - قال جرير: ودفعهما معاوية إليَّ لا أعلم ما فيهما ولا أظنّهما إلا جواباً وبعث معي رجلاً من بني عبس لا أدري ما معه فخرجنا حتّى قدمنا الكوفة واجتمع الناس في المسجد لا يشكّون أنها بيعة أهل الشام، فلمّا فتح عليٌّ عليه السلام الكتاب لم يجد شيئاً - إلخ، والله تعالى أعلم.

وقد روي أنّه عليه السلام كتب إلى معاوية مع جرير: أنّي قد عزلتك ففوّض الأمر إلى جرير، والسلام.

وقال لجرير: صُن نفسك عن خداعه فإن سلّم إليك الأمر وتوجّه إليَّ فأقم أنت بالشام، وإن تعلّل بشيء فارجع، فلمّا جاءه تعلّل بمشاورة أهل الشام وغير ذلك. فرجع جرير فكتب معاوية في أثره على ظهر كتابه عليه السلام: من ولاّك حتّى تعزلني، والسلام.

قوله عليه السلام: **(إنه بايعني - إلى قوله: على ما بايعوهم عليه)** واعلم أنَّ بيعة الناس أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام وإطباقهم على إمامته كان أشدّ وأوكد بمراحل من إطباقهم على إمامة الثلاثة قبله عليه السلام، كما أشرنا إلى نبذة من شواهده في المباحث الماضية، وكفى في ذلك قوله عليه السلام: فتداكّوا عليَّ تداكَّ الإبل الهيم يوم وردها قد أرسلها راعيها وخلعت مثانيها، حتّى ظننت أنّهم قاتليَّ أو بعضهم قاتل بعض لديَّ **(الخطبة ٥٤ من النهج)**.

وقوله عليه السلام: وبسطتم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها، ثمّ تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتّى انقطعت النعل وسقطت الرداء ووطىء الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إيّاي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب **(الخطبة ٢٢٧ من النهج)**.

ثمّ إنّ ذلك الكلام يدلّ على أنّه عليه السلام أثبت خلافته ببيعة الناس وإجماعهم بل احتجّ على القوم باتفاق الناس وإجماعهم على خلافته على وجه التسليم والمماشاة وحسب مقتضى عقيدتهم بأنّهم لمّا اعتقدوا أنّ مبنى الخلافة ونصب الإمام على البيعة دون النصّ لزمهم قبول خلافته وإمامته والتسليم والانقياد لأمره.

ولو احتجّ عليهم بالنصّ لم يقبلوا منه ولم يسلّموا له وإلاّ فخلافته بلا فصل ثبتت بنصّ الله تعالى ورسوله، وقد أشرنا إلى ذلك في شرح الخطبة السابعة والثلاثين والمائتين من أنّ الإمام يجب أن يكون منصوباً من الله تعالى، لأنّ الإمامة عهده تعالى ولا يناله إلاّ من أجتباه.

ثمّ إنّه عليه السلام لو تمسّك لإمامته بالنصّ لكان هذا طعناً على الّذين سبقوه بالخلافة الظاهريّة، فإذاً تفسد حاله مع الّذين بايعوه من المهاجرين والأنصار في المدينة وكان المقام لا يناسب سوق الاحتجاج على سبيل النصّ، ولولا مراعاة المقام لكان يصرّح بما هو الحقّ الصريح، والشقشقيّة حجّة بالغة على ذلك.

قوله عليه السلام: **(فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ)** هذه نتيجة لما قدّم أي إذا بايعني القوم على الوجه الّذي بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وما اختار أحد من الشاهدين في المدينة غير ما بايعوه وكذا لم يردّ أحد من الغائبين عن المدينة من بايعوه بل الكلّ انقادوا وتسلّموا فكذا لم يكن للشاهد أن يختار غيري ولا للغائب أن يردّني، بل يجب على الشاهد والغائب جميعاً الإطاعة والانقياد.

ثمّ إنّ فيه تعريضاً وطعناً على الناكثين، طلحة والزبير وأتباعهما، وعلى معاوية وأهل الشام من أتباعه لأنّ الشاهدَ أي الناكثين اختاروا غيره عليه السلام والغائب أي معاوية وأهل الشام لم يقبلوا بيعته.

ثمّ يمكن أن يستفاد من قوله عليه السلام **(أن يردّ)** أن لا يكون هذا الكتاب أوّل كتاب كتبه إلى معاوية بأن يكون الأوّل هو الكتاب ٧٥ من هذا الباب أو الّذي نقله الدينوري في **«الإمامة والسياسة»**، ولمّا ردّ معاوية كتابه ولم يقبل البيعة قال عليه السلام: ولا للغائب أن يردّ، فتأمّل.

قوله عليه السلام: **(وإنّما الشورى ـ إلى قوله: وولاّه ما تولّى)** الشورى المشورة وإنّما تفيد

حصر الشورى في المهاجرين والأنصار، وإنّما حصر الشورى فيهما لأنهما أهل الحلّ والعقد أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فمتى اتّفقت كلمتهم على أمر وأجمعوا عليه كان ذلك حقّاً مرضيّاً لله تعالى فيجب على النّاس اتّباعه.

ومن ذلك إطباقهم على إمامة عليّ عليه السلام كما إشار إليه بقوله: فإن اجتمعوا على رجل فسمّوه إماماً فإن خرج من أمرهم أحد بطعن عليهم أو على من بايعوه بالإمامة كمن طعن عليه عليه السلام بدم عثمان، أو ببدعة كنكث الناكثين ومن بايع معاوية بالخلافة بعد ما أجمع المهاجرون والأنصار على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ردُّوه عمّا خرج إليه إلى ما خرج منه.

فإن امتنع ذلك الخارج عن الرُّجوع إلى ما خرج منه قاتلوه، لأنّه اتّبع غير سبيل المؤمنين وحيث أبى واتّبع غير سبيل المؤمنين ولاّه الله ما تولّى أي يخلّي بينه وبين ما اختاره لنفسه ويكله إلى من انتصر به واتّكل عليه.

وهذه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

وإنما تهدَّده بكلامه هذا وتوعّده بالعقوبة لئلاّ يتّبع غير سبيل المؤمنين ونبّهه على أنّه إن خاف سبيلهم بطعن أو بدعة ردُّوه إلى ما خرج منه وقاتلوه على أنَّ الله يولّيه ما تولّى ويصليه جهنّم.

ثمَّ إنَّ كلامه هذا أيضاً على مقتضى عقيدة القوم مداراة ومماشاة معهم بما اعتقدوا من أنّ أمر الخلافة إنما هو بالبيعة من أهل العقد والحلّ لا بالنصّ، وإلاّ فإمامته بلا فصل كانت ثابتة بالبراهين القطعيّة فالقياس جدليٌّ على اصطلاح أهل الميزان، لأنّه اعتبر في مقدّماته التسليم من الخصم أي تبكيت الخصم إلزامه بما سلّم به.

قوله عليه السلام: **(ولعمري ـ إلى قوله: في عزلة عنه)** قد قدّمنا في أبحاثنا السالفة نقل كلام عمّار بن ياسر رضوان الله عليه وشبث وغيرهما من أنّ معاوية لم يجد شيئاً يستغوي به الناس ويستميل به أهواءهم ويستخلص به طاعتهم إلاّ قوله: قتل إمامكم عثمان مظلوماً فنحن نطلب بدمه.

وقد روى أبو جعفر الطبريُّ في «التاريخ» بإسناده عن زيد بن وهب الجهني أنّ عمّار بن ياسر قال في صفين: أيّها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء الّذين ـ يعني بهم معاوية وأتباعهم ـ يبغون دم ابن عفّان ويزعمون أنه قتل مظلوماً، والله ما طلبتم ولكنّ قوم ذاقوا الدُّنيا فاستحبّوها واستمرأوها وعلموا أنّ الحقّ إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرّغون فيه من دنياهم، ولم يكن

للقوم سابقة في الإسلام يستحقُّون بها طاعة الناس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون، ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان. إلخ[1].

وقال عمّار أيضاً: أيّها النّاس والله ما أسلموا ـ يعني معاوية وأتباعه كما مضى من قبل مسنداً ـ ولكنّهم استسلموا وأسرُّوا الكفر فلمّا وجدوا له أعواناً أظهروه. والظاهر أنه أخذ هذا القول منه عليه السلام كما سيأتي في الكلام ١٦ من هذا الباب.

ثمَّ قد مضى في الخطبة ٢٣٨ قوله عليه السلام: والله لقد دفعت عنه ـ يعني عن عثمان ـ حتّى خشيت أن أكون آثماً. وقوله المنقول عن الطبري **(ص ٤١٠ ج ٣ طبع مصر ١٣٥٧هـ)** في عثمان: والله ما زلت أذبُّ عنه حتّى أني لأستحي، وكذا برهنّا في مواضع كثيرة من مباحثنا الماضية على أنه عليه السلام كان أبرأ الناس من دم عثمان.

ثمَّ لما كانت هوى النفس قائدة إلى خلاف الحقِّ، لأنَّها قرين سوء يزيّن كلَّ قبيح ويقبّح كلَّ حسن وكاسفة بيضاء العقل كما قيل: «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى» أقسم عليه السلام بعمره لئن نظر معاوية فيما جرى على عثمان بعقله الناصع من الهوى ليجدنّه أبرأ الناس من دمه، وليعلمنَّ أنّه عليه السلام كان في عزلة عن دم عثمان.

قوله عليه السلام: **(إلاّ أن تتجنى فَتَجنَّ ما بدا لك والسلام)** يعني به أنك لو خالفت هواك لتجدنّي أبرأ الناس من دم عثمان إلاّ أن تعزّيني إلى الجناية افتراء وتدّعي عليَّ ذنباً لم أفعله فافتر على ما ظهر لك من الذُّنوب والجنايات.

ثمَّ إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا كان أبرأ الناس من دم عثمان وكان منزّهاً عن جناية وذنب رأى أنَّ معاوية أراد استغواء الناس بذلك الافتراء. وأنَّ الإنسان المبرّىء عن الشين لا يبالي بأقاويل كاذبة تقال فيه، لأنَّ الباطل يذهب جفاء قال: فتجنَّ ما بدا لك.

وبوجه آخر أنّه عليه السلام قال لمعاوية: إذا كنت تعلم أنّي أبرأ الناس من دم عثمان ومع ذلك تفوّه بما خلافه معلوم لك ولا تستحي بالافتراء فإن شئت أن تدَّعي عليَّ أيّة جناية كانت، وأردت أن تنسب إليَّ أيَّ ذنب كان: فافعل، ولا يخفى أنَّ كلامه عليه السلام ينبىء عن استخفاف أمر معاوية واستحقار تجنّيه عليه.

وأمّا على مختار القوم، أي كون تجنّ مضارع جنَّ فالمعنى أنك لو خالفت هواك لتجدنّي أبرأ الناس من دم عثمان إلاّ أن تعزيني إلى الجناية افتراء وتدَّعي عليَّ ذنباً لم أفعله،

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٧/٤، والبداية والنهاية: ٢٩٦/٧.

ثمَّ تأخذ ذلك الاختلاق وسيلة لأن تستر وتخفي ما ظهر لك من براءتي من دم عثمان، يعني أنَّ براءتي من دم عثمان ظاهرة لك غير خفيَّة إلاّ أنك تريد إخفاءه والافتراء عليَّ بدمه حتّى تجعله ذريعة لك فتستغوي بها النّاس ولكنَّ الصواب هو الوجه الأوَّل لما دريت في بيان اللّغة.

قوله عليه السلام: (والسلام) أي والسلام على من اتّبع الهدى، أو السلام على أهله أو غيرهما ممّا يناسبهما.

قال الفاضل الشارح المعتزلي: واعلم أنَّ هذا الفصل دالٌّ بصريحه على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلّمون، لأنَّه احتجَّ على معاوية ببيعته أهل الحلُّ والعقد له، ولم يراع في ذلك إجماع المسلمين كلّهم وقياسه على بيعة أهل الحلِّ والعقد لأبي بكر، فإنه ما روعي فيها إجماع المسلمين، لأنَّ سعد بن عبادة لم يبايع ولا واحد من أهل بيته وولده، ولأنَّ عليّاً وبني هاشم ومن انضوى إليهم لم يبايعوا في مبدءِ الأمر وامتنعوا، ولم يتوقَّف المسلمون في تصحيح إمامة أبي بكر، وتنفيذ أحكامه على بيعتهم، وهذا دليل على صحّة الاختيار وكونه طريقاً إلى الإمامة، وأنّه لا يقدح في إمامته امتناع معاوية من البيعة وأهل الشام.

فأمّا الإماميّة فتحمل هذا الكتاب منه على التقيّة وتقول إنه ما كان يمكنه أن يصرِّح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال ويقول له: أنا منصوص عليَّ من رسول الله صلى الله عليه وآله ومعهود إلى المسلمين أن أكون خليفة فيهم بلا فصل، فيكون في ذلك طعن على الأئمة المتقدِّمين وتفسد حاله مع الّذين بايعوه من أهل المدينة[١].

وهذا القول من الإماميّة دعوى لو عضدها دليل لوجب أن يقال بها ويصار إليها، ولكن لا دليل لهم على ما يذهبون إليه من الأُصول الّتي تسوقهم إلى حمل هذا الكلام على التقيّة.

ثمَّ قال: فأمّا قوله: وقد أكثرت في قتلة عثمان فأدخل فيما دخل فيه المسلمون ثمَّ حاكم القوم إليَّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله، فيجب أن يذكر في شرحه ما يقول المتكلّمون في هذه الواقعة.

قال أصحابنا المعتزلة: هذا الكلام حقٌّ وصواب لأنَّ أولياء الدَّم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته ثمَّ يرفعوا خصومهم إليه، فإن حكم بالحقِّ استديمت إمامته، وإن حاد عن الحقِّ انتقضت خلافته، وأولياء عثمان الّذين هم بنوه لم يبايعوا عليّاً ولا دخلوا تحت

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٣٦٩، والإمامة والسياسة: ١/١١٥.

طاعته، وكذلك معاوية ابن عمّ عثمان لم يبايع ولا أطاع، فمطالبتهم له بأن يقتصّ لهم من قاتلي عثمان قبل بيعتهم إيّاه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان.

ثمّ قال: فإن قلت: هب أنّ القصاص من قتلة عثمان موقوف على ما ذكره أما كان يجب عليه لا من طريق القصاص أن ينهى عن المنكر وأنتم تذهبون إلى أنّ النهي عن المنكر واجب على من هو سوقه فكيف على الإمام الأعظم؟.

قلت: هذا غير وارد ههنا لأنّ النهي عن المنكر إنّما يجب قبل وقوع المنكر ليكلا يقع، فإذا وقع المنكر فأيّ نهي يكون عنه، وقد نهى عليٌّ عليه السلام أهل مصر وغيرهم عن قتل عثمان قبل قتله مراراً، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغن شيئاً، وتفاقم الأمر حتّى قتل، ولا يجب بعد القتل إلاّ القصاص، فإذا امتنع أولياء الدّم من طاعة الإمام لم يجب عليه أن يقتصّ من القاتلين، لأنّ القصاص حقهم وقد سقط ببغيهم على الإمام وخروجهم عن طاعته، وقد قلنا نحن فيما تقدّم أنّ القصاص إنّما يجب على من باشر القتل، والّذين باشروا قتل عثمان قتلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان، والّذين كان معاوية يطالبه بدم عثمان لم يباشروا القتل وإنما كثّروا السواد وحصروا عثمان في الدار وأجلبوا عليه وشتموه وتوعّدوه ومنهم من تسوّر عليه داره ولم ينزل إليه، ومنهم من نزل فحضر قتله ولم يشرك فيه وكلٌّ هؤلاء لا يجب عليهم القصاص في الشرع.

أقول: أمّا قوله إنّ الاختيار طريق إلى الإمامة فيردُّه ما برهنّا في عدّة مواضع من مباحثنا السالفة من أنّ الإمامة أجلّ قدراً، وأعظم شأناً، وأعلى مكاناً وأمنع جانباً، وأبعد غوراً، من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها برأيهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم، بل إنها رئاسة إلٰهيّة يجب على الله تعالى نصب من اجتباه لها.

وأمّا قوله: وقياسه على بيعة أهل الحلّ والعقد لأبي بكر - إلخ، فيردّه أنّ خلافة أبي بكر لم تكن بحقّ حتّى يقاس بها، وإعراض سعد بن عبادة وأتباعه وعليٌّ عليه السلام وأشياعه عن بيعته كان على بصيرة في أمر الخلافة.

وأمّا قوله عليه السلام: وهذا القول من الإماميّة دعوى لو عضدها دليل لوجب أن يقال بها - إلخ، فقد قلنا آنفاً في شرح هذا الكتاب إنّ كلامه عليه السلام هذا إنّما هو على مقتضى عقيدة القوم حيث ذهبوا إلى أنّ أمر الإمامة والخلافة إنّما هو بالبيعة لا بالنصّ، وأنه سيق على القياس الجدلي أعني إلزام الخصم بما اعتقد وسلّم به فلا حاجة إلى حمل كلامه عليه السلام على التقيّة.

وإسناد هذا القول إلى الإماميّة لا يخلو من دغدغة، ولو مال إليه واحد منهم فقد أخطأ ولا يصحُّ إسناده إلى الجميع وقد سبقنا بهذه الدقيقة المجلسيُّ رحمه الله (**في البحار ص ٤٢٨**

ج ٨ من الطبع الكمباني).

وأمّا الأدلّة على كونه عليه السلام خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله بلا فصل فتجلُّ عن الإحصاء من العقليّة والنقليّة، وقد ألّف بغاة الحقيقة والهداية في ذلك رسائل شتّى وصنّف أهل الفحص والتتبّع من الفريقين جوامع عديدة حاوية للأخبار المأثورة عن النبيُّ صلى الله عليه وآله في خلافته بلا فصل، وكذا في خلافة سائر الأئمّة واحداً بعد واحد ولو ثنينا البيان على تفصيل ذلك لطال بنا الخطب وعظم علينا الأمر.

ولعمري أنَّ الرَّجل يحبُّ أن يتشابه بالجهّال، وإلاّ فالأمر أبلج من الشمس في رابعة النهار، وقد قدَّمنا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أشفق على الناس من الوالد على ولده، حتّى أنّه أرشدهم إلى أُمور كانت دون مرتبة ولاية الأمر بمراحل كتعليمهم تقليم الأظفار، وآداب طلي النورة، وتسريح اللّحى، وأخذ الشوارب ولبس الثياب حتّى أرشدهم في قضاء الحاجة إلى أُمور كثيرة مندوبة وغير مندوبة فكيف يسكن عن أجلِّ الأشياء قدراً وأشدِّها حاجة أعني النّصَّ على الإمام الّذي يتولّى أُمورهم بعده.

وأمّا قوله عليه السلام: وقد أكثرت في قتلة عثمان ـ إلخ، فمذكور في ذلك الكتاب كما نقلنا صورته الكاملة عن كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم.

ثمَّ إنَّ ما نقل الفاضل الشارح من أصحابه من أنَّ أولياء الدَّم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته، ثمَّ يرافعوا خصومهم إليه فإن حكم بالحقِّ استديمت إمامته، وإن حاد عن الحقِّ انتقضت خلافته ـ إلخ. اعتراف منهم بانتقاض خلافة عثمان من أولِّ ما بويع له بالخلافة، لأنّه عطّل الحدَّ الواجب في عبيد الله بن عمر قاتل جفينة والهرمزان وابنة أبي لؤلؤة، وقد قدَّمنا الكلام في ذلك في شرح الخطبة ٢٢٦ والمختار الأوَّل من باب الكتب والرسائل، فراجع.

الترجمة

این یکی از نامه های امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) است که به سوی معاویه ارسال داشت:

همانا گروهی که به وجهی با ابوبکر و عمر و عثمان بیعت کردند بر آن وجه نیز با من بیعت کردند، پس حاضر - در مدینه - را نشاید که دیگری را به امامت برگزیند و غایب را نسزد که از برگزیده قوم به امامت سرباز زند.

(این گفتار تعریض است به عمل طلحه و زبیر و پیروانشان که در مدینه بودند و بیعت کردند و نکث و نقض عهد کردند و به کار معاویه و اتباع او که در مدینه نبودند و از اختیار قوم و اجماع ایشان اعراض کردند) و جز این نیست که مشورت در امر خلافت برای مهاجرین و انصار است که آنان اهل حلّ و عقد از امت محمد و پیشوا و زعمای آنانند، پس اگر آنان اجتماع کردند بر مردی و او را امام خود نامیدند، آن کار مرضیّ خداوند است، پس اگر کسی به سبب طعنی بر آنان یا بر کسی که با او به امامت بیعت کردند یا به سبب بدعتی در آن کار از امرشان به در می رفت او را به سوی آنچه که از او به در رفت برمی گردانیدند و اگر ابا می کرد با او کارزار می کردند، چه او جز راه مؤمنین را پیروی کرده است و خداوند او را به خودش وامی گذارد.

(مراد این است که برخی به آن حضرت بر قتل عثمان طعن می زدند و برخی بدعت نهادند که معاویه را برای منصب خلافت نصب کردند و امام (عليه السلام) در این نامه تعریضاً به معاویه ارائه می دهد که اگر سبیل مؤمنین را اتباع نکند و از اجماع مهاجر و انصار بر امامت آن بزرگوار روی برگرداند، نخست آن قوم او را به قبول آن امر و رجوع از خودکامی و خودسری دعوت کنند و اگر گردن کشد و یاغی شود، با وی به قتال قیام کنند).

هر آینه قسم به زندگانی من ای معاویه! اگر به دیده خرد بنگری، نه به هوای نفس اماره ات، مرا بری ترین مردم از خون عثمان می یابی و خواهی دانست که

من از ریختن خونش برکنار بودم، جز این که خواهی جنایتی به افترا و بهتان به من نسبت دهی تا آن را دست آویز خود گردانی و آنچه را که بر تو هویدا است بپوشانی.

(این معنی بنا بر آن وجه است که تجنّ مضارع جنّ باشد که بسیاری بر آن رفته اند؛ اگرچه صحیح این است تجنّ امر از تتجنّی است، خلاصه بنا بر مضارع بودنش مراد این که بر معاویه معلوم بود که امام (عليه السلام) از قتل عثمان دفاع می کرد و مردم را از آن تحذیر می فرمود و از ریختن خونش برکناره بود، جز اینکه می خواست بهانه ای در دست گیرد تا به دشمنی و کینه توزی، این امر روشن و امثال آن را بپوشاند و انکار کند و حضرتش را به خون عثمان بیالاید).

درود بر آن که راه حق را پیروی کند.

(و بنا بر نسخه صحیح که تجنّ را امر از تتجنّی بگیریم معنی چنین است) پس هرچه از افتراء و بهتان که به خاطرت می رسد و خواهی به من نسبت دهی بده "که گفته اند: دروازه شهر را توان بست و دهن مردم را نتوان بست". و در لغت و شرح این وجه اخیر متعین و صحیح دانسته شد. بدان که امام (عليه السلام) این نامه را بنا بر عقیده قوم و حسب مقتضی مقام که مماشات با آنان است تقریر فرمود که چنانچه خلافت آن سه تن به عقیده قوم به بیعت اهل حلّ و عقد بود و دیگران آن را قبول کردند و نقض بیعت نکردند و بدعت در دین ننهادند، می بایستی درباره آن حضرت نیز که اهل حلّ و عقد از مهاجر و انصار بر امامت او گردن نهادند و اتفاق کردند مخالفت ننمایند، وگرنه خلافت بلافصل آن بزرگوار و امامت حضرتش به نصّ خدا و رسول ثابت و مبرهن است.

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً وهو الكتاب السابع من باب المختار من كتبه عليه السلام ورسائله:

أَمَا بَعْدُ فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقْتَها بِضَلالِكَ، وَأَمْضَيْتَها بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكِتَابُ امْرِءٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيه، وَلا قَائِدٌ [وَلا صالِحٌ ـ خ ل] يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعاهُ الهَوَى فَأَجَابَهُ وَقادَهُ الضَّلالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لاغِطاً، وَضَلَّ خابِطاً.

ومِنْ هذَا الكِتابِ: لأَنَّها بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لا يُثَنَّي فيهَا النَّظَرُ، وَلا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيارُ، الْخارِجُ مِنْها طاعِنٌ، وَالْمُرَوِّي فيها مُداهِنٌ[1].

اللغة

(موصَّلة) بصيغة المفعول من وصل الشيء بالشيء وصلاً ووصّله لأمه أي ربطه به.

(محبَّرة) بصيغة المفعول من تحبير الخطّ والشعر وغيرهما بمعنى تحسينها قال الجوهريُّ في الصحاح: قال الأصمعيُّ وكان يقال لطفيل الغنوي في الجاهليّة مُحبّر لأنّه كان يحسّن الشعر.

قال الشهاب الفيوميُّ في المصباح: حبرت الشيء حبراً من باب قتل؛ زيّنته والحبر بالكسر اسم منه فهو محبور وحبّرته بالتثقيل مبالغة.

(نمّق) الكتاب تنميقاً حسّنه وزيّنه، فقوله عليه السلام: نمّقتها بضلالك أي زيّنتها به.

(أمضيت) الأمر إمضاءً أي أنفذته أو بمعنى إمضاءِ الصكوك والرسائل لتوقيعها.

(البَصَر): العين ونفاذ القلب وحكي أنّ معاوية قال لابن عباس وقد كفّ بصره: ما لكم يا بني هاشم تُصابون بأبصاركم إذا أسننتم؟ فقال: كما تصابون ببصائركم عنده.

(قاد) الرجل الفرس قوداً وقيادةً وقياداً بالكسر: مشى أمامها آخذاً بقيادها نقيض ساقه، قال الخليل ـ كما في مصباح الفيومي: القود أن يكون الرّجل أمام الدّابة آخذاً بقيادها، والسوق أن يكون خلفها، فإن قادها لنفسه قيل: اقتادها لنفسه. وقاد الأمير الجيش قيادة فهو قائد وجمعه قادة وقُوّاد وقُوَّد.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٣٧.

(**الهوى**) مقصورة: إرادة النفس وميلانها إلى ما تستلذ. وممدودة: الهواء المكتنف للأرض. وفي الصحاح: كلّ خال هواء. قال الشاعر:

فكيف أرحل عنها اليوم إذ جمعت ... طيب الهوائين مقصور وممدود

قال المبرِّد في «**الكامل**»: الهوى من هويت مقصور وتقديره فَعل فانقلبت الياء ألفاً فلذلك كان مقصوراً، وإنما كان كذلك لأنك تقول هَوي يهوى، كما تقول فرِق يفرَق وهو هو كما تقول هو فرقٌ كما ترى وكان المصدر على فعل بمنزلة الفرَق والحذَر والبطَر لأنَّ الوزن واحد في الفعل واسم الفاعل، فأمّا الهواء من الجوّ فممدود يدلّك على ذلك جمعه إذا قلت أهويَةٌ، لأنَّ أفعلةَ إنّما تكون جمع فَعالٍ وفِعالٍ وفعيلٍ كما تقول قذال وأقذلة وحمارٌ وأحمرةٌ فهواء كذلك والمقصور جمعه أهواء فاعلم لأنّه على فَعَل وجمع فَعَل أفعال كما تقول جَمَل وأجمال وقَتَب وأقتاب، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٩]. وقوله: هذا هواء يا فتى في صفة الرَّجل إنما هو ذمٌّ، يقول لا قلب له، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [ابراهيم: ٤٣] أي خالية وقال زهير:

كأنَّ الرحل منها فوق صعل ... من الظّلمان جؤجؤه هواء

وهذا من هواء الجوّ قال الهذلي:

هواء مثل بعلك مستميت ... على ما في وعائك كالخيال

(**الهجر**) الهذيان وقد هجر المريضَ يَهجُرُ هجْراً من باب قتل خلط وهذى فهو هاجر والكلام مهجور. قال الجوهريُّ في الصحاح: قال أبو عبيد يروي عن إبراهيم ما يثبت هذا القول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٣] قال: قالوا فيه غير الحقّ، ألم تر إلى المريض إذا هجر قال غير الحقّ، قال: وعن مجاهد نحوه.

(**والهُجر**): اسم من الإهجار وهو الإفحاش في المنطق أي الكلام القبيح المهجور لقبحه. وفي الحديث: (**لا تقولوا هجراً**)، قال عوف بن الخرع:

زعمتم من الهجر المضلّل أنكم ... ستنصركم عمرو علينا ومِنقر

وأهجر فلان إذا أتى بهجر من الكلام عن قصدٍ، قال الشمّاخ بن ضرار:

كماجدة الأعراق قال ابن ضرَّة ... عليها كلاماً جار فيه وأهجرا

(**اللاّغط**): ذو اللّغط، قال في المصباح: لغط لغطاً من باب نفع واللّغط بفتحتين اسم منه وهو كلام فيه جَلبَة واختلاط لا يتبيّن. قال عمرو بن أحمر الباهليُّ (**الحماسة ٧٦٢**):

لها لغط جنح الظلام كأنها ... عجارف غيثٍ رائح متهزِّمِ

قال المرزوقي في الشرح: اللّغط: الصوت يعني هزَّتها ـ أي هزة القدور السود المذكورة في صدر الأشعار ـ في الغليان، وانتصب جنح الظلام على الظرف يريد أنها تغلي إذا جنح الظلام بالعشيّ وذلك وقت الضيافة وكأنَّ لغطه صوت رعد من غيث ذي تعجرف، والعجارف شدَّة وقوع المطر وتتابعه يريد أنه هبّت الريح فيه وصار له هزمة أي صوت، شبّه صوت القدر في غليانها بصوت الرَّعد من سحاب هكذا.

(الخبط): الحركة على غير نظام يقال: خبط اللّيل إذا سار فيه على غير هدى. وفلان خبط خبط عشواء أي تصرّف في الأمور على غير بصيرة. وقال الفيوميُّ: حقيقة الخبط الضرب وخبط البعير الأرض ضربها بيده.

وقد يكنى بالخابط عن السائل كقول زهير بن أبي سلمى في قصيدة يمدح فيها هرم بن سنان:

وليس بمانع ذي قربى ولا رحم يوماً ولا معدماً من خابطٍ ورقاً

استعار الورق فكنّى به عن المال كما استعار الخبط فكنّى به عن طلبه والخابط عن طالبه، وأصله أنَّ العرب تقول إذا ضرب الرجل الشجر ليحتَّ وينفض ورقه فيعلّقه، قد خرج يختبط الشجر، والورق المنفوض يسمّى الخبط بالفتحتين ويقال للرَّجل: إنَّ خابطه ليجد ورقاً أي إن سائله ليجد عطاءً. لكنه ليس بمراد ههنا والمقصود هو المعنى الأوَّل.

(لا يثنى) ثنى الشيء تثنية جعله اثنين، فالمعنى لا يجعل النظر في تلك البيعة اثنين بل هو نظر واحد تحقق من أهل الحلّ والعقد من أمّة محمّد ﷺ فيها بالمدينة، فهي لازمة على غيرهم من الحاضر والغائب.

وجاء في بعض نسخ النهج وغيره «لا يستثنى فيها النظر» مكان لا يثنّى فيها النظر، يقال: استثنى الشيء استثناءً إذا أخرجه من حكم عام، فالمعنى على هذا الوجه لا يستثنى النظر في هذه البيعة مما قبلها أي كما أنّ بيعة أهل العقد والحلّ قبل هذه البيعة في أبي بكر وعمر وعثمان كانت واحدة لازمة على الشاهد والغائب وكان نظرهم في المرَّة الأولى لازماً وثابتاً كما يعترف به الخصم فكذلك ههنا فلا يجوز أن يستثني النظر فيها عمّا قبلها.

ولكن المعنى على الوجه الثاني لا يخلو من تكلّف، وقوله عليه السلام: يستأنف فيها الخيار، قرينة على أنَّ الوجه الأوَّل هو الصواب، على أنَّ العبارة في نسختنا المصحّحة الخطيّة العتيقة وفي نسخة صديقنا اللاجوردي قد قوبلت بنسخة الشريف الرضي رحمه الله هي الوجه الأوَّل.

(المروّي): من روّيت في الأمر تروية أو من روأت بالهمز إذا نظرت فيه، وتفكّرت وأصلها من الرّويّة وهي الفكر والتدبّر. **(المداهن)**: المصانع يقال داهنه وأدهنه إذا خدعه وختله

وأظهر له خلاف ما يضمر قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

الإعراب

الباء من بضلالك سببيّةٌ كأن تقول: زيّنت الدّار بالزخرف، وكذا الباء الثانية، كتاب امرىء عطف على موعظة، جملة ليس له بصر يهديه صفة لقوله امرءٍ وكذلك الجمل التالية، يهديه صفة للبصر، ويرشده للقائد. الفاء في فهجر فصيحة واللتان قبلها للترتيب، **(لاغطاً وخابطاً)** حالان لضمير الفعلين. وضمير لأنّها للقصّة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الانبياء: ٩٧] أو أنّها راجعة إلى البيعة المذكورة في كتابه عليه السلام كما سيجيء نقل كتابه بتمامه.

«إسناد هذا الكتاب ومداركه ونقل صورته الكاملة»
«واختلاف الآراء فيه وتحقيق أنيق في فيصل الأمر في المقام»

قد بيّنا في عدّة مواضع أنَّ الشريف الرَّضيَّ رضوان الله عليه إنّما عنى في النهج اجتباء محاسن كلام أمير المؤمنين عليه السلام واجتباء ما تضمّن عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربيّة من كلامه عليه السلام كما نصَّ عليه في خطبته على النهج بقوله: فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الإبتداء باختيار محاسن الخطب، ثمَّ محاسن الكتب، ثمَّ محاسن الحكم والأدب - الخ.

ولذلك ترى كثيراً في النهج أنّه قدّس سرُّه ينقل من كتاب له عليه السلام شطراً ويدع آخر فدونك الكتاب بتمامه مع ذكر مآخذه القيّمة واختلاف نسخه المرويّة وبيان الحقّ وفصل الأمر في ذلك:

فلمّا فرغ جرير من خطبته - قد مضى نقلها في شرح الكتاب السادس - أمر معاوية منادياً فنادى: الصلاة جامعة، فلمّا اجتمع النّاس صعد المنبر وخطب خطبة واستدعى أهل الشام إلى الطلب بدم عثمان، فأجابوه وبايعوه على ذلك، واستحثّه جرير بالبيعة بخلافة أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا جرير إنّها ليست بخلسة وأنّه أمر له ما بعده فابلعني ريقي حتّى أنظر، ودعا ثقاته واستشارهم في ذلك فأشاروا عليه أن يكتب إلى عمرو بن العاص وكان وقتئذٍ بالبيع من فلسطين، وكتب كتاباً آخر إلى شرحبيل، ودعا أتباعهم وأجمعوا آخر الأمر إلى حرب أهل العراق.

روى نصر بن مزاحم المنقري التميمي الكوفي في كتاب صفين **(ص ٣٠ إلى ص ٣٤ من الطبع الناصري)** عن محمّد بن عبيد الله، عن الجرجاني قال: كان معاوية أتى جريراً في منزله فقال: يا جرير إنّي قد رأيت رأياً، قال: هاته. قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام

ومصر جباية، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي وأُسلّم له هذا الأمر وأكتب إليه بالخلافة.

فقال جرير: اكتب بما أردت وأكتب معك، فكتب معاوية بذلك إلى عليّ فكتب عليّ عليه السلام إلى جرير:

أمّا بعد فإنّما أراد معاوية أن لا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحبَّ، وأراد أن يرثيك حتّى يذوق أهل الشام، وأنَّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليَّ أن أستعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتّخذ المضلّين عضداً، فإن بايعك الرَّجل وإلاّ فاقبل[1].

أقول: كتابه هذا ليس بمذكور في النهج، ويقال: راث على خبرك من باب باع إذا أبطأ.

قال نصر: وفي حديث صالح بن صدقة: أبطأ جرير عند معاوية حتّى اتّهمه الناس وقال عليٌّ: وقّت لرسولي وقتاً لا يقيم بعده إلاّ مخدوعاً أو عاصياً، وأبطأ على عليّ حتّى أيس منه.

قال: وفي حديث محمّد وصالح بن صدقة قالا: وكتب عليٌّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك:

أمّا بعد فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم ثمَّ خيّره بين حرب مجلية أو سلم محظية، فإن اختار الحرب فانبذ له، وإن اختار السلم فخذ بيعته.

أقول: نقل الرَّضيُّ هذا الكتاب في «النهج» وهو الكتاب التالي لهذا الكتاب أعني الكتاب الثامن من باب المختار من كتبه ورسائله، وسيأتي شرحه إن شاء الله تعالى.

فلمّا انتهى الكتاب إلى جرير أتى معاوية فأقرأه الكتاب فقال: يا معاوية إنه لا يطبع على قلب إلاّ بذنب، ولا ينشرح إلاّ بتوبة، ولا أظنُّ قلبك إلاّ مطبوعاً أراك قد وقفت بين الحقّ والباطل، كأنَّك تنتظر شيئاً في يدي غيرك.

فقال معاوية: ألقاك بالفيصل أوَّل مجلس إنشاء الله.

قال نصر: فلمّا بايع معاوية أهل الشام وذاقهم قال: يا جرير الحق بصاحبك. وكتب إليه بالحرب، وكتب في أسفل كتابه: يقول كعب بن جعيل:

أرى الشام تكره ملك العراق   وأهل العراق لهم كارهينا

(١) نهج السعادة: ٤/ ٩٤، والغدير: ١٠/ ٣٢٠.

وكـلاً لـصـاحـبـه مـبـغـضـاً ... يـرى كـلَّ مـا كـان مـن ذاك ديـنـا
إذا مـا رمـونـا رمـيـنـاهـم ... ودنّـاهـم مـثـل مـا يـقـرضـونـا
فـقـالـوا عـلـيٌّ إمـام لـنـا ... فـقـلـنـا رضـيـنـا ابـن هـنـد رضـيـنـا
وقـالـوا نـرى أن تـديـنـوا لـنـا ... فـقـلـنـا ألا لا نـرى أن نـديـنـا
ومـن دون ذلـك خـرط الـقـتـاد ... وضـرب وطـعـن يـقـرُّ الـعـيـونـا
وكـلٌّ يـسـرُّ بـمـا عـنـده ... يـرى غـثَّ مـا فـي يـديـه سـمـيـنـا
ومـا فـي عـلـيّ لـمـسـتـعـتـب ... مـقـال سـوا ضـمّـه الـمـحـدثـيـنـا
وإيـثـاره الـيـوم أهـل الـذُّنـوب ... ورفـع الـقـصـاص عـن الـقـاتـلـيـنـا
إذا سـيـل عـنـه حـدا شـبـهـة ... وعـمّـى الـجـواب عـن الـسـائـلـيـنـا
فـلـيـس بـراض ولا سـاخـط ... ولا فـي الـنـهـاة ولا الآمـريـنـا
ولا هـو سـاء ولا سـرّه ... ولا بـدَّ مـن بـعـض ذا أن يـكـونـا

أقول: ما ذكر نصر في صفين صورة كتاب معاوية إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بل قال بالإجمال إنه كتب إليه عليه السلام بالحرب وكتب في أسفل كتابه أشعار كعب بن جعيل كما قدّمنا، لكن أبا العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد نقلها في **«الكامل»** وابن قتيبة الدّينوري في **«الإمامة والسياسة»**.

قال المبرّد: كتب معاوية إلى عليّ عليه السلام جواباً عن كتابه إليه:

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم؛ من معاوية بن صخر إلى عليِّ بن أبي طالب أمّا بعد فلعمري لو بايعك القوم الّذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنّك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلاّ قتالك حتّى تدفع إليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ولعمري ليس حجّتك عليَّ كحججك على طلحة والزُّبير، لأنّهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة، لأنَّ أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام، وأمّا شرفك في الإسلام وقرابتك من النبيِّ صلى الله عليه وآله وموضعك من قريش فلست أدفعه، قال: ثمَّ كتب في آخر كتابه بشعر كعب بن جعيل وهو: أرى الشام تكره ملك العراق ـ الخ[1].

أقول: وقد نقل الدِّينوريُّ ذيل كتاب معاوية هكذا: فإذا دفعتهم كانت شورى بين

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٣٧٨، والغدير: ١٠/٣١٧.

المسلمين وقد كان أهل الحجاز الحكّام على الناس وفي أيديهم الحقُّ فلمّا تركوه صار الحقُّ في أيدي أهل الشام، ولعمري ما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة، ولا حجّتك عليَّ كحجّتك على طلحة والزُّبير، لأنَّ أهل البصرة بايعوك ولم يبايعك أحد من أهل الشام، وأنَّ طلحة والزُّبير بايعاك ولم أبايعك. وأمّا فضلك في الإسلام وقرابتك من النبيِّ عليه الصلاة والسلام فلعمري ما أدفعه ولا أُنكره. وما نقله كان أوفق بكتاب أمير المؤمنين عليه السلام جواباً عنه كما لا يخفى.

ثمَّ النسخ في إعراب تلك الأبيات مختلفة ونحن اخترنا نسخة «**الكامل**» للمبرِّد ونسخة صفين لنصر: «وأهل العراق له كارهونا» «وكلٌّ لصاحبه مبغضٌ»، «وقلنا نرى أن تدينوا لنا» «فقالوا لنا لا نرى أن ندينا».

ثمَّ روى المصراع الثاني من البيت الخامس على وجه آخر وهو: «وضرب وطعن يفضُّ الشؤونا». وقال أبو العباس المبرِّد في كتابه «**الكامل**»: وأحسن الروايتين: يفضُّ الشؤونا، ثم أخذ في شرح كتاب معاوية (**وسنذكر صورة كتابه**) والأبيات فقال:

قوله: ولكنّك أغريت بعثمان المهاجرين، فهو من الإغراء، وهو التحضيض عليه، يقال: أغريته به وآسدت الكلب على الصيد أوسده إيساداً، ومن قال: أشليت الكلب في معنى أغريت فقد أخطأ إنّما أشليته دعوته إليَّ، وآسدته أغريته.

وقول ابن جعيل: وأهل العراق لهم كارهينا، محمول على أرى، ومن قال: وأهل العراق لهم كارهونا، فالرَّفع من وجهين أحدهما قطع وابتداء ثمَّ عطف جملة على جملة بالواو ولم يحمله على أرى، ولكن كقولك كان زيد منطلقاً وعمرو منطلق، الساعة خبرت بخبر بعد خبر. والوجه الآخر أن تكون الواو وما بعدها حالاً فيكون معناها إذ كما تقول رأيت زيداً قائماً وعمرو منطلق. وهذه الآية تحمل على هذا المعنى وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٨] والمعنى والله أعلم إذ طائفة في هذه الحال. وكذلك قراءة من قرأ: ﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر﴾ [لقمان: ٢٦] أي والبحر ـ بالرفع ـ هذه حاله، ومن قرأ البحر - بالنصب ـ فعلى أنَّ.

وقوله: ودنّاهم مثل ما يقرضونا، يقول: جزيناهم، وقال المفسرون في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قالوا: يوم الجزاء والحساب. ومن أمثال العرب: كما تدين تدان، وأنشد أبو عبيدة (**الشعر ليزيد بن الصعق الكلابي**):

واعلم وأيقن أنَّ ملكك زائل   واعلم بأنَّ كما تدين تدان

وللدِّين مواضع؛ منها ما ذكرنا، ومنها الطاعة ودين الإسلام من ذلك يقال فلان في دين فلان أي في طاعته، ويقال: كانت مكّة بلداً القاحاً أي لم يكونوا في دين ملك، وقال زهير:

لئن حللت بجوّ في بني أسد ... في دين عمرو وحالت بيننا فدك

فهذا يريد في طاعة عمرو بن هند، والدِّين العادة، يقال: ما زال هذا ديني ودأبي وعادتي وديدني وإجريّاي، قال المثقب العبديُّ:

تقول إذا درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبداً وديني

أكلُّ الدّهر حلٌّ وارتحال ... أما تبقى عليَّ وما يقيني

وقال الكميت بن زيد:

على ذاك إجرِيّايَ وهي ضريبتي ... وإن أجلبوا طرّاً عليَّ وأحلبوا

وقوله: فقلنا رضينا ابن هند رضينا، يعني معاوية بن أبي سفيان، وأُمّه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

وقوله: أن تدينوا له أي أن تطيعوه، وتدخلوا في دينه أي في طاعته.

وقوله: ومن دون ذلك خرط القتاد، فهذا مثل من أمثال العرب، والقتاد شجيرة شاكة غليظة أُصول الشوك فلذلك يضرب خرطة مثلاً في الأمر الشديد لأنَّه غاية الجهد.

ومن قال: يفضُّ الشؤونا يفرِّق، تقول: فضضت عليه المال. والشؤون واحدها شأن وهي مواصل قبائل الرأس وذلك أنَّ للرأس أربع قبائل أي قطع مشعوب بعضها إلى بعض فموضع شعبها يقول له الشؤون واحدها شأن. وزعم الأصمعيُّ قال: يقال إنَّ مجاري الدُّموع منها، فلذلك يقال: استهلّت شؤونه وأنشد قول أوس بن حَجر:

لا تحزنيني بالفراق فإنني ... لا تستهلُّ من الفراق شؤوني

ومن قال: يقرُّ العيونا، ففيه قولان: أحدهما للأصمعي وكان يقول: لا يجوز غيره يقال: قرَّت عينه وأقرَّها الله. وقال إنّما هو بردت من القرِّ وهو خلاف قولهم سَخِنَتْ عينه وأسخنها الله، وغيره يقول قرَّتَ هدأت وأقرَّها الله أهدَأها الله، وهذا قول حسن جميل، والأوَّل أغرب وأطرف. انتهى قوله.

«كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية»

كتبه عليه السلام جواب الكتاب الّذي كتب إليه معاوية ونقل هذا الكتاب نصر بن مزاحم في **«صفين» (ص ٣٣ من الطبع الناصري)** وابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ في كتاب **«الإمامة**

والسياسة» (ص ١٠١ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧هـ) وأبو العباس المبرِّد المتوفى سنة ٢٨٥هـ في **«الكامل» (ص ١٩٣ ج ١ طبع مصر)** وهو:

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من عليّ إلى معاوية بن صخر أمّا بعد فقد أتاني كتاب امرىءٍ ليس له نظر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاتّبعه، زعمت أنّه أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ولعمري ما كنت إلاّ رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة، ولا ليضربهم بالعمى، وما أمرت فيلزمني خطيئة الأمر، ولا قتلت فيجب عليّ القصاص.

وأمّا قولك: إنَّ أهل الشام هم الحكّام على أهل الحجاز، فهات رجلاً من قريش الشام يقبل في الشورى أو تحلّ له الخلافة، فإن زعمت ذلك كذّبك المهاجرون والأنصار، وإلاّ أتيتك به من قريش الحجاز.

وأمّا قولك: ادفع إلينا قتلة عثمان، فما أنت وعثمان، إنّما أنت رجل من بني أميّة، وبنو عثمان أولى بذلك منك، فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم فادخل في طاعتي ثمَّ حاكم القوم إليّ أحملك وإيّاهم على المحجّة.

وأمّا تمييزك بين الشام والبصرة وبينك وبين طلحة والزُّبير فلعمري ما الأمر فيما هناك إلاّ واحد، لأنها بيعة عامّة لا يثنّى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار.

وأمّت ولوعك بي في أمر عثمان فما قلت ذلك عن حقِّ العيان ولا بعين الخبر.

وأمّا فضلي في الإسلام وقرابتي من النبيِّ ﷺ وشرفي في قريش، فلعمري لو استطعت دفع ذلك لدفعته[1].

قال نصر: وأمر ـ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ـ النجاشي فأجابه في الشعر، وقال المبرِّد: ثمَّ دعا النجاشي أحد بني الحرث بن كعب فقال له: إنَّ ابن جعيل شاعر أهل الشام وأنت شاعر أهل العراق فأجب الرَّجل، فقال: يا أمير المؤمنين اسمعني قوله قال: إذن اسمعك شعر شاعر، ثمَّ أسمعه فقال النجاشي يجيبه:

دعن يا معاوي ما لم يكونا ... فقد حقَّق الله ما تحذرونا

أتاكم عليٌّ بأهل الحجاز ... وأهل العراق فما تصنعونا

(١) وقعة صفين: ٥٦، وحياة الإمام الحسين: ٢/٣٢٩، ح ٢.

على كلّ جرداء خيفانة	وأشعث نهد يسرُّ العيونا
عليها فوارس تحسبهم	كأسد العرين حمين العرينا
يرون الطعان خلال العجاج	وضرب الفوارس في النقع دينا
هم هزموا الجمع جمع الزبير	وطلحة والمعشر الناكثينا
وقالوا يميناً على حلفة	لنهدي إلى الشام حرباً زبونا
تشيب النواصي قبل المشيب	وتلقي الحوامل منها الجنينا
فإن تكرهوا الملك ملك العراق	فقد رضي القوم ما تكرهونا
فقل للمضلّل من وائل	ومن جعل الغثّ يوماً سميناً
جعلتم عليّاً وأشياعه	نظير ابن هند ألا تستحونا
إلى أوّل الناس بعد الرّسول	وصنو الرّسول من العالمينا
وصهر الرّسول ومن مثله	إذا كان يوم يشيب القرونا

واعلم أنَّ بين نسختي «**صفين**» و«**الكامل**» في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام اختلافاً في الجملة فما في «**الكامل**»: فكتب إليه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام جواب هذه الرّسالة ـ يعني رسالة معاوية ـ: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من عليِّ بن أبي طالب. . ليس له بصر يهديه. . زعمت أنك أنما أفسد. . . وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى، وبعد فما أنت وعثمان إنّما أنت رجل من بني أُميّة، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ثمَّ حاكم القوم إليَّ، وأمّا تمييزك بينك وبين طلحة والزبير وأهل الشام وأهل البصرة فلعمري ما الأمر فيما هناك إلاّ سواء، لأنّها بيعة شاملة لا يستثنى فيها الخيار ولا يستأنف فيها النظر، وأمّا شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وموضعي من قريش فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته.

أقول: ولله درُّ النجاشي كأنّما روح القدس نفث في روعه ونطق بلسانه قائلاً:

جعلتم عليّاً وأشياعه	نظير ابن هند ألا تستحونا

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام كما يأتي في الكتاب التاسع الّذي كتبه إلى معاوية: فيا عجباً للدَّهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي، ولم تكن له كسابقتي الّتي لا يدلي أحد بمثلها إلاّ أن يدَّعي مدَّع لا أعرفه، ولا أظنّ الله يعرفه والحمد لله على كلِّ حال.

وأقول: يا عجباً للدَّهر ثمَّ يا عجباً للدَّهر قد أصبح رأي يراعة تفوه بأنَّ لها براعة على يوح، وخنفساء شمخت بأنفها وشمزت من الرُّوح. سبحان الله، ما للتراب وربِّ الأرباب،

ما للّذي عبد الله على حرف والّذي لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً، ما لابن آكلة الأكباد والّذي تاهت في بيداء عظمته عقول العباد.

لحى الله هذا الدّهر من شرّ سائس عصافيره تُروى وتُظمى قشاعمه

تبّاً لأشباه رجال اتّبعوا أهواءهم، فضيّعوا دينهم بدنياهم، فنصروا من اتّخذ المضلّين عضداً حتّى ردُّوا الناس عن الإسلام القهقرى.

زعم الشارح البحراني أنَّ ذلك الكتاب المعنون للشرح أعني الكتاب السابع ملفّق من بعض عبارات كتابين أحدهما ذلك الكتاب المنقول من الثلاثة، وثانيهما كتاب آخر.

والحقُّ أنّه ليس جزءً منهما وإن كانا مشتركين في بعض الجمل والعبارات وأنّه جزء من كتاب آخر له عليه السلام جواباً عن كتاب آخر من معاوية كما سيجيء نقلهما، وذلك الكتاب المنقول من هؤلاء الثلاثة مذكور في النهج، واحتمال أنّهما كتاب واحد وجاء الاختلاف من النسخ بعيد عن الصواب، لأنَّ بينهما بوناً بعيداً، ومجرَّد الاشتراك في بعض الجمل والعبارات لا يجعلهما كتاباً واحداً ولا يؤيّد الاحتمال، فدونك ما قاله الشارح البحراني في شرح هذا الكتاب:

هذا جواب كتاب كتبه إليه معاوية، صورته: من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب.

أمّا بعد فلو كنت على ما كان عليه أبو بكر وعمر إذن ما قاتلتك، ولا استحللت ذلك، ولكنَّه إنّما أفسد عليك بيعتي خطيئتك في عثمان بن عفان، وإنّما كان أهل الحجاز الحكّام على الناس حين كان الحقُّ فيهم، فلمّا تركوه صار أهل الشام الحكّام على أهل الحجاز وغيرهم من الناس، ولعمري ما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة، ولا حجّتك عليَّ كحجّتك على طلحة والزُّبير، لأنَّ أهل البصرة قد كانوا بايعوك ولم يبايعك أهل الشّام، وأنَّ طلحة والزبير بايعاك ولم أبايعك، وأمّا فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله وموضعك من هاشم فلست أدفعه، والسلام.

قال: فكتب عليه السلام جوابه: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن صخر

أمّا بعد فإنّه أتاني كتابك كتاب امرىء - إلى قوله: خابطاً، ثمَّ يتصل به أن قال: زعمت أنّه إنّما أفسد عليَّ بيعتك كما أصدروا، «كذا» وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا يضربهم بعمى، وأمّا ما زعمت أنَّ أهل الشام الحكّام على أهل الحجاز فهات رجلين من قريش الشام يقبلان في الشورى أو ارتحل لهما الخلافة، فإن زعمت ذلك كذّبك المهاجرون والأنصار، وإلاّ فأنا آتيك بهما من قريش الحجاز. وأمّا ما ميّزت بين أهل الشام وأهل البصرة وبينك وبين طلحة والزبير فلعمري ما الأمر في ذلك إلاّ واحد.

قال: ثمَّ يتصل به قوله؛ لأنّها بيعة عامّة، إلى آخره، ثمَّ يتّصل به: وأمّا فضلي في الإسلام وقرابتي من الرسول وشرفي في بني هاشم فلو استطعت دفعه لفعلت والسلام.

قال: وأمّا قوله: **(أمّا بعد فقد أتتني ـ إلى قوله: بسوء رأيك)**، فهو صدر كتاب آخر أجاب به معاوية عن كتاب كتبه إليه بعد الكتاب الّذي ذكرناه، وذلك أنّه لما وصل إليه هذا الكتاب من عليّ عليه السلام كتب إليه كتاباً يعظه فيه، وصورته:

أمّا بعد فاتّق الله يا عليّ ودع الحسد فإنه طالما ينتفع به أهله، ولا تفسد سابقة قديمك بشرّ من حديثك فإنَّ الأعمال بخواتيمها، ولا تلحدنَّ بباطل في حقِّ من لا حقَّ لك في حقّه، فإنك إن تفعل ذلك لا تضلل إلاّ نفسك، ولا تمحق إلاّ عملك، ولعمري أنّ ما مضى لك من السوابق الحسنة لحقيقة أن تردّك وتردعك عمّا قد اجترأت عليه من سفك الدّماء، وإجلاء أهل الحقِّ عن الحلِّ والحرام فاقرأ سورة الفلق وتعوَّذ بالله من شرِّ ما خلق ومن شرِّ نفسك الحاسد إذا حسد قفل الله بقلبك، وأخذ بناصيتك، وعجّل توفيقك، فإنّي أسعد الناس بذلك، والسلام.

قال: فكتب عليه السلام جوابه:

أمّا بعد فقد أتتني منك موعظة ـ إلى قوله: سوء رأيك، ثمَّ يتصل به؛ وكتاب ليس ببعيد الشبه منك، حملك عليَّ الوثوب على ما ليس لك فيه حقٌّ، ولولا علمي بك وما قد سبق من رسول الله صلى الله عليه وآله فيك ممّا لا مردَّ له دون إنفاذه إذن لوعظتك لكن عظتي لا تنفع من حقّت عليه كلمة العذاب، ولم يخف الله العقاب، ولا يرجو الله وقاراً، ولم يخف له حذاراً، فشأنك وما أنت عليه من الضلالة والحيرة والجهالة تجد الله لك بالمرصاد من دنياك المنقطعة وتمنّيك الأباطيل، وقد علمت ما قال النبيُّ صلى الله عليه وآله فيك وفي أمّك وأبيك، والسلام[١].

قال: وممّا ينبّه على أنَّ هذا الفصل المذكور ليس من الكتاب الأوَّل أنَّ الأوَّل لم يكن فيه ذكر موعظة حتّى يذكرها عليه السلام في جوابه، غير أنَّ السيد ـ رحمه الله ـ أضافه إلى هذا الكتاب كما هو عادته في عدم مراعاة ذلك وأمثاله. انتهى كلامه.

أقول: وكذلك نقل هذا الكتاب من معاوية أعني قوله: أمّا بعد فاتّق الله يا علي ودع الحسد ـ الخ. وجواب أمير المؤمنين عليه السلام عنه أعني قوله: أمّا بعد فقد أتتني منك موعظة موصّلة ـ الخ، في بعض الجوامع أيضاً على الصورة الّتي نقله الشارح البحراني.

كذا ما نقلنا قبلهما من كتاب معاوية أعني قوله: من معاوية بن صخر إلى عليِّ بن أبي

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٨٠، ووقعة صفين: ٥٨.

طالب: أمّا بعد فلعمري لو بايعك القوم ـ الخ، وجواب أمير المؤمنين عليه السلام أعني قوله: من عليّ إلى معاوية بن صخر: أمّا بعد فقد أتاني كتاب امرىء ليس له نظر ـ الخ، كانا في سائر نسخ الجوامع على تلك الصورة الّتي نقلناها والاختلاف يسير لا يعبأ به.

ولكن نصر بن مزاحم المنقري قال في كتاب **«صفين»** (**ص ٥٩ من الطبع الناصري**) إنّ معاوية كتب كتابه: أمّا بعد فاتّق الله يا علي ودع الحسد فإنه طالما ينتفع به، الخ ـ جواباً عن كتاب آخر من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كتبه إلى معاوية وهو الكتاب الّذي جعله السيد رحمه الله الكتاب العاشر من باب المختار من كتبه ورسائله عليه السلام أوّله: وكيف أنت صانع إذا تكشّفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا قد تبهّجت بزينتها ـ الخ، وسيجيء اختلاف النسخ وأقوال أُخر فيه أيضاً في شرحه إن شاء الله تعالى.

فهذا القول من نصر بن مزاحم يناقض ما ذهب إليه الشارح البحراني، ونصر كان من الأقدمين قد أدرك الإمام سيّد الساجدين عليَّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام وكان قريب العهد من واقعة صفين أخذ عنه واقتبس منه جلّ المطالب المهمّة.

على أنّه نقل في جوامع الفريقين أنّه عليه السلام كتب كتاباً إلى معاوية جواباً عن كتاب آخر من معاوية إليه وفي ذلك الكتاب من أمير المؤمنين عليه السلام مذكور جميع ما أتى به السيّد في المقام أعني في هذا الكتاب السابع المعنون للشرح بلا زيادة ونقصان أجاب عليه السلام به عن الأباطيل الّتى أتى بها معاوية في كتابه إليه فاندفع ما أوردها الشارح البحرانيُّ بحذافيرها.

والحقُّ أنَّ كتابه عليه السلام: من عليّ إلى معاوية بن صخر: أمّا بعد فقد أتاني كتاب امرىء ـ الخ، المنقول آنفاً من نصر في **«صفين»** والمبرّد في **«الكامل»** والدينوري في **«الإمامة والسياسة»** ليس بمذكور في **«النهج»** وإن كان في بعض الجمل والعبارات مشاركاً لهذا الكتاب السابع، وإن أبيت إلاّ جعلهما كتاباً واحداً فما اعترض الشارح البحرانيُّ على السيّد في المقام وما زعم من أنّ هذا الكتاب ملفّق من صدر كتاب وذيل آخر فليس بصواب، فعليك بما كتب عليه السلام جواب كتاب معاوية:

«نسخة كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتاب كتبه معاوية إليه»

نقلهما غير واحد من رجال الأخبار والسير في جوامعهم، ونقلهما الفاضل الشارح المعتزلي في شرحه على النهج، وقد كتبه عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتاب كتبه معاوية إليه عليه السلام في أواخر حرب صفين لمّا اشتدَّ الأمر على معاوية وأتباعه وكادوا أن ينهزموا ويولّوا الدُّبر.

وكان كتاب معاوية: من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب.

أمّا بعد فإنّ الله تعالى يقول في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

وإني أحذّرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشقّ عصا هذه الأمّة وتفريق جماعتها.

فاتّق الله واذكر موقف القيامة واقلع عمّا أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين، وإنّي سمعت رسول الله يقول: «لو تمالأ أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكبّهم الله على مناخرهم في النّار»، فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين، وسادة المهاجرين، بَلهَ ما طحنت رحاء حربه من أهل القرآن وذي العبادة والإيمان من شيخ كبير، وشابّ غرير، كلّهم بالله تعالى مؤمن، وله مخلص، وبرسوله مقرٌّ عارف.

فإن كنت أبا حسن إنّما تحارب على الأمرة والخلافة فلعمري لو صحّت خلافتك لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين، ولكنّها ما صحّت لك وأنّى بصحّتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها ولم يرتضوا بها، وخف الله وسطواته، واتّق بأسه ونكاله، واغمد سيفك عن النّاس، فقد والله أكلتهم الحرب، فلم يبق منهم إلاّ كالثمد في قرارة الغدير، والله المستعان.

فكتب أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام جواباً عن كتابه: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان.

أمّا بعد فقد أتتني منك موعظة موصّلة، ورسالة محبّرة، نمّقتها بضلالك وأمضيتها بسوء رأيك، وكتاب امرىءٍ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتّبعه، فهجر لاغطاً، وضلّ خابطاً.

فأمّا أمرك بالتقوى فأرجو أن أكون من أهلها، وأستعيذ بالله من أن أكون من الّذين إذا أمروا بها أخذتهم العزّة بالإثم.

وأمّا تحذيرك إيّاي أن يحبط عملي وسابقتي في الإسلام، فلعمري لو كنت الباغي عليك لكان لك أن تحذّرني ذلك، ولكنّي وجدت الله تعالى يقول: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] فنظرنا إلى الفئتين ما الفئة الباغية فوجدناها الفئة الّتي أنت فيها، لأنّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام، وكما لزمت يزيد أخاك بيعة أبي بكر وهو أمير لأبي بكر على الشام، وأمّا شقّ عصا هذه الأمّة فأنا أحقُّ أن أنهاك عنه، فأمّا تخويفك لي من قتل أهل البغي فإنّ رسول الله ﷺ أمرني بقتالهم وقتلهم وقال لأصحابه: «إنّ فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» وأشار إليّ وأنا أولى من اتّبع أمره.

وأمّا قولك: إنَّ بيعتي لم تصحّ لأنَّ أهل الشام لم يدخلوا فيها، كيف وإنّما هي بيعة واحدة تلزم الحاضر والغائب، لا يستثنى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار، الخارج منها طاعن، والمرويّ فيها مداهن، فاربع على ظلعك، وانزع سربال غيّك، واترك ما لا جدوى له عليك، فليس لك عندي إلاّ السيف حتّى تفيء إلى أمر الله صاغراً، وتدخل في البيعة راغماً، والسلام[1].

المعنى

قوله عليه السلام: **(فقد أتتني منك موعظة موصّلة)** كأنما شبّه عليه السلام كتابه بثوب موصّل أي مرقّع والمراد أنّها ملفّقة من كلمات مختلفة وجمل غير مناسبة وصل بعضها ببعض.

أو المراد أنها موعظة مجموعة ملتقطة من ألفاظ الناس، لا أنّها من منشآته وممّا تكلّم بها مرتجلاً، وكأنّما المعنى الأوّل أظهر.

قوله عليه السلام: **(ورسالة محبّرة)** أي أتتني منك رسالة أتعبت نفسك في تقريرها وزيّنت ألفاظها بالتكلّف والتصنّع، لما دريت في بيان اللّغة أنّ المحبّر من يحسّن الشعر والخطّ وغيرهما، والجملة فيه إشارة لطيفة إلى أنَّ الرّجل كان في ميدان الكلام راجلاً لا مرتجلاً.

قوله عليه السلام: **(نمّقتها بضلالك)** قد بيّنا في الإعراب أنَّ الباء هذه سببيّة، والمعنى أتتني رسالة زيّنتها وزوّقتها بسبب ضلالك، وسرُّ ذلك أنَّ كلَّ فعل إذا لم يكن على اعتقاد وحقيقة لا يقع في محلّه على ما ينبغي، ولا يصدر من الفاعل على ترتيب حسن، ونظم متين، لأنّه قسريٌ خارج عن سجيّة الطبع واقع بالتكلّف فلا يرجى منه حسن الوقوع والنضد، نظير ما قاله أبو الحسن عليُّ بن محمّد التهاميُّ:

ومكلّف الأيّام ضدَّ طباعها ... متطلّب في الماء جذوة نار

فإذا لا بدَّ لهذا العامل من غير طويّة الطبع أن ينمّق عمله ثانياً ويزيّنه ليقرب من موقع ما وقع بغير تكلّف.

فنقول: لمّا كان معاوية عالماً بأنَّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان على بيّنة من ربّه، وأنَّ الحقَّ كان معه عليه السلام حيث دار، كان كتابه الّذي كتابه إليه عليه السلام على التكلّف والتصنّع لا محالة، فلولا ضلاله عن الحقِّ لما يحتاج كتابه إلى التنميق لأنّه كان كتاباً صادراً بالطبع ولم يكن مضطرباً مشوشاً حتّى يلوح منه أثر الكلفة المحتاج إلى التزيين.

قوله عليه السلام: **(وأمضيتها بسوء رأيك)** أي أنفذت تلك الرسالة وبعثتها إليَّ بسبب سوء رأيك

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٧٩، ونهج السعادة: ٤/٢٦٦.

بي، ومن سوء رأيه به اختلق عليه عليه السلام بأنه قتل عثمان وأعرض عن إجماع المهاجرين والأنصار في المدينة على بيعته عليه السلام للخلافة وفعل ما فعل.

قوله عليه السلام: **(وكتاب امرىءٍ ليس له بصر يهديه ـ إلى قوله: خابطاً)** عطف على موعظة أي أتاني كتاب امرىءٍ ليس له عقل يهديه إلى الحقّ أي يقوده إليه والهادي هو الّذي يتقدّم فيدلُّ، والحادي هو الّذي يتأخّر فيسوق.

وإنما حملنا البصر على العقل لا العين لأنَّ العقل هو لطيفة مجرَّدة إلٰهيّة وجوهرة ثمينة نورانيّة ربّانيّة يقود الإنسان إلى الرَّشاد، ويهديه إلى السداد ويدعوه إلى الاتصاف بالصفات الإلٰهية، والتخلّق بالأخلاق الرُّبوبيّة، لأنَّ العقل ما عبد به الرَّحمٰن واكتسب به الجنان، فمن لم يكن له نور العقل ينجيه من المهالك، فلا جرم يتّبع الجهل والهوى، لأنَّ بعد الحقّ ليس إلاّ الضلال، وبعد نور العقل ليس إلاّ ظلمة الجهل قال عزَّ من قائل: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٣].

وكما أنَّ العاقل يتفوَّه وينطق بما يعنيه وهو في أقواله وأعماله على الصراط السويِّ، والنهج القويم كذلك تابع الهوى لفقدان بصيرته وعميان سريرته لا بدَّ أن يهجر ويهذي في نطقه ويضلَّ عن سبيل الله في فعله وقوله لاقتضاء الهوى ذلك.

ففاقد البصر يجيب داعي الهوى ويتّبع قائد الضلال فيلزمه أن يهجر لاغطاً ويضلّ خابطاً، وبذلك ظهر سرُّ قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كما رواه الصدوق رضوان الله عليه في الخصال: المؤمن ينقلب في خمسة من النور: مدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، وكلامه نور، ومنظره يوم القيامة إلى النور.

«بحث روائي مناسب للمقام»

رواه ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني قدّس سرُّه في **«أصول الكافي»**: أحمد بن إدريس، عن محمّد بن عبد الجبّار، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما العقل؟ قال: «ما عبد به الرَّحمٰن، واكتسب به الجنان»، قال: قلت: فالّذي كان في معاوية؟ فقال: «تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل»[١].

بيان: سأل أبا عبد الله عليه السلام سائل عن معرفة العقل، ولمّا كان درك حقيقته وعرفان ذاته للسائل في غاية الصعوبة والتعسّر جدّاً، بل قد أعجز الحكماء الراسخين وتحيّر عقول المتألّهين النيل إلى عرفان ذاته، ولذا تحيّروا في تحديده واختلفوا فيه، عرَّفه ببعض آثاره وخواصّه، وهذا تعريف بالرَّسم في اصطلاح أهل الميزان.

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ٢٦٤، والغدير: ١٠/ ٣٢٠.

قال المحقّق الطوسيُّ في أوائل شرحه على منطق **«الإشارات»** للشيخ الرئيس: قد يختلف رسوم الشيء باختلاف الاعتبارات، فمنها ما يكون بحسب ذاته فقط ومنها ما يكون بحسب ذاته مقيساً إلى غيره كفعله أو فاعله أو غايته أو شيء آخر مثلاً يرسم الكوز بأنه وعاء صفريٌ أو خزفيٌ كذا وكذا وهو رسم بحسب ذاته، وبأنه آلة يشرب بها الماء، وهو رسم بالقياس إلى غايته وكذا في سائر الاعتبارات. انتهى كلامه.

فنقول: تعريفه عليه السلام العقل في الحديث بأنّه «ما عبد به الرّحمٰن واكتسب به الجنان» رسم له بغايته فإنّ ما ينبغي للسائل أن يعرفه أو يتأتّى له عرفانه هذا الرّسم له نحو قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وإنّما رسمه بذلك لأنّ اقتضاء العقل الناصع أعني المجرّد عن شوائب الأُمور الماديّة الدُّنيوية الموجبة لبعده عن ساحة جناب الرّب جلّ جلاله هو ميله وارتقاءه إلى الله تعالى، لأنه من عالم الأمر يرتقي بالطبع إليه كما أنّ الحجر مثلاً بالطبع يهبط إلى مكانه الطبيعي له قضاءً لحكم الجنسيّة، ونعم ما أشار إليه العارف الرُّوميُّ:

ذرّه ذرّه كاندرين وسما است   جنس خودراهمجوكاه كهربا است

جان كشايد سوي بالا بالها   تن زده اندر زمين جنكالها

ولذا يستلذُّ العقل من استفاضته من عالم القدس، ويقوي ويتّسع وجوداً من إفاضة الإشراقات النّوريّة الإلٰهيّة عليه، فمقتضى طويّته وسجيّته التقرُّب إلى الله تعالى واتّصافه العلياء، فهو الهادي إليه تعالى، ولذا قال عليه السلام: «ما عبد به الرّحمٰن» لأنّ العبادة فرع المعرفة ولذا فسّروا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٧] بقولهم: ليعرفون، فبالعقل يعرف الله ويعبد فهو مبدأ جميع الخيرات الموجبة للسعادة الأبديّة، فبه يكتسب الجنان لما دريت من أنّ العقل يهدي إلى سواء السبيل، فالعاقل على الجادة الوسطى والطريقة المثلى لا يسلك مسلكي الإفراط والتفريط، بل يعمل ما هو رضى الله تعالى.

ولذا قال الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصادق كما رواه ثقة الإسلام الكليني في **«أصول الكافي»**: «من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنّة»[١].

فينتج على هيئة قياس منطقي شرطي اقتراني من أعلى ضروب الشكل الأوّل: فمن كان عاقلاً دخل الجنّة.

ثمّ إنّ قوله عليه السلام: «ما عُبِدَ به الرَّحمٰن»، إشارة إلى كمال القوّة النظريّة.

---

(١) شرح أصول الكافي: ١/ ٧٨ ح ٦، وبحار الأنوار: ١/ ٩١ ح ٢٠.

وقوله عليه السلام: «واكتسب به الجنان» إلى العقل العملي، لأنّ الأوّل مقدّم بالرُّتبة على الثاني كما عرفت، وبالقوّة النظريّة يعلم المعارف الكليّة الإلٰهيّة، والأحكام الشرعيّة، والأخلاق الحسنة، وبالثانية يعمل بها، وهاتان القوّتان بمنزلة جناحين للعقل يطير بهما من حضيض الناسوت إلى أوج القدس.

وقد تظافرت الأخبار في العقل وآثاره وخواصّه بعبارات عذبة لطيفة علميّة من خزنة العلم أئمّتنا عليهم السلام أتى بجلّها المحدّث العالم الخبير الثقة الكلينيُّ رضوان الله عليه في **«الكافي»** وجعل كتابه الأوّل في العقل والجهل، ومن تأمّل علم أنّ تلك الأخبار علوم لدنيّة فاضت من سحاب وجود الّذين هم وسائط الفيض بين الله تعالى وعباده.

ثمّ السائل سأله عليه السلام عن الّذي كان في معاوية بقوله: فالّذي كان في معاوية. أي فالّذي كان في معاوية ما هو؟ على أن يكون الموصول مبتدأ حذف خبره، وفي بعض النسخ كما في **«مرآة العقول»** للمجلسي ـ رحمه الله، فما الّذي كان في معاوية، فعلى هذه النسخة فلا يحتاج إلى تقدير الخبر.

وبالجملة: أنّ السائل لما رأى جربزة معاوية ودهاه ومكره واحتياله في الأُمور وطلب الفضول في الدُّنيا التبس عليه الأمر فزعم أنّ تلك الرّويّة الرّديّة الدنيّة الدنيويّة كانت في معاوية عقلاً فعدّه من العقلاء كما يزعم الجهّال لبعدهم عن الأنوار العلميّة من كان له شيطنة في اقتراف الأغراض الشهوانيّة والزّخارف الدُّنياوية عاقلاً، فأجابه عليه السلام دفعاً لالتباسه وتوضيحاً لمسألته أنّ تلك القوّة الحاكمة على معاوية هي النكراء.

والنّكراء بفتح الأوّل وسكون الثاني في الدهاء والفطنة والمنكر، قال الجوهريُّ في **«الصحاح»**: النُّكر «بضم الأوّل وسكون» المنكر، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] وقد يحرّك مثل عُسر وعُسُر. قال الشاعر: وكانوا أتوني بشيء نُكر، والنّكراء مثله. انتهى قوله.

أقول: والمنكر كلُّ فعل وقول تقبّحهما العقول الصحيحة الناصعة أو ما تعجز عن درك استحسانه واستقباحه فتتوقف فيه فيحكم بقبحه الشرع، فالنكراء كلُّ ما قبّحه العقل أو الشرع.

ثم أعاد عليه السلام اسم الإشارة تأكيداً وتنصيصاً بأنّ تلك القوّة النكراء شيطنة أي الأفعال البارزة من معاوية ليست ممّا يأمره العقل لأنّ العقل يسلك إلى ما فيه عبادة الرَّحمٰن واكتساب الجنان، وكلُّ ما ليس كذلك فلا يأمر به بل ينكره وينهى عن ارتكابه، ومنهيّات العقل ومنكراته ما يوسوس بفعلها الشيطان السائق إلى التمرُّد والعصيان.

ولمّا كان الجهّال رأوا أنّ علل المعلولات المختلفة تجب أن تكون مختلفة وزعموا

بالقياس أنَّ الآثار المتقاربة والمعلولات المتشابهة يجب أن تكون مستندة إلى العلل المتشابهة أيضاً، وما زادهم ذلك القياس إلاّ بعداً عن الحقّ، ولذا يعدُّون معاوية وأشباهه السفهاء من العقلاء، بيّن الإمام عليه السلام بأنَّ المعلولات المتشابهة قد تكون مستندة إلى العلل المختلفة أيضاً، فمجرَّد اشتراك القوّتين في بعض الآثار كجلب نفع ودفع ضرّ وسرعة التفطّن وجودة الحدس، وأمثالها لا يوجب اتّحادهما حقيقة، لأنَّ المنافع مثلاً قد تتعلّق بالدُّنيا كما قد تتعلّق بالآخرة فالنفع فالّذي يجلبه معاوية إلى نفسه مشوب بالهوى، قاده إليه الشيطنة والضلال وهو عند أُولي الألباب منكر محض وضرر صرف، فأين هذا من ذاك؟ ولذا قال عليه السلام: هي شبيهة بالعقل، وآكده توضيحاً وصرَّح به ثانياً بقوله: وليست بالعقل، فبينهما بون بعيد ومسافة كثيرة، وحرف التعريف في العقل للعهد أي ليست تلك القوَّة الشيطنة النكراء هي تلك اللّطيفة النّوريّة الإلٰهيّة، أي العقل الّذي عرَّفناه بالرَّسم بأنَّه ما عبد به الرَّحمٰن واكتسب به الجنان.

قال الجاحظ في «**البيان التبيين**» (**ص ٢٥٨ ج ٣ طبع مصر ١٣٨٠هـ**): قيل لشريك بن عبد الله: كان معاوية حليماً، قال: لو كان حليماً ما سفه الحقَّ ولا قاتل عليّاً، ولو كان حليماً ما حمل أبناء العبيد على حُرَمه ولَما أنكح إلاّ الأكفاء.

قوله عليه السلام: (**لأنها بيعة واحدة ـ الخ**) هذا ردٌّ على كلام معاوية حيث قال في كتابه المقدَّم ذكره: فلعمري لو صحَّت خلافتك لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين ولكنّها ما صحت لك وأنّى بصحّتها وأهل الشام لم يدخلوها فيها ولم يرتضوا بها.

وبيان الرَّدِّ إنّما هو على حذو ما قدَّمنا في شرح الكتاب السادس من أنه عليه السلام احتجَّ على الخصم بما كان يعتقد من أنَّ أمر الإمامة ومبنى الخلافة إنّما هو بالبيعة دون النَّصِّ فألزم معاوية بما أثبت به هو والناس خلافة أبي بكر وعمر وعثمان من أنَّ أهل الشورى من المهاجرين والأنصار وهما أهل الحلِّ والعقد من أُمّة محمد صلى الله عليه وآله، كما اتّفقت كلمتهم على خلافة الثلاث واتّبعهم الناس ولم ينكروا عليهم ولم يكن للشاهد أن يختار غير من اختاروا، ولا للغائب أن يردَّ من بايعوه للإمامة بل إن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردُّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتّباعه غير سبيل المؤمنين، كذلك اتّفاقهم على إمامته عليه السلام بعد عثمان حجّة على الشاهد والغائب، فلا يجوز لمعاوية وأتباعه من أهل الشام أن يردُّوا من نصبه أهل الحلِّ والعقد من المهاجرين والأنصار لأنَّها بيعة واحدة لا يثنّى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار كما كان الأمر في بيعة الناس مع الثلاث كذلك، فقد أهجر معاوية في قوله: وأنّى بصحّتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها ولم يرتضوا بها.

قوله عليه السلام: (**الخارج منها طاعن**) أي الخارج من البيعة طاعن فيما اتّفق عليه كلمة أهل العقد والحلِّ وإجماعهم، فعليهم أن يردُّوه إلى ما خرج منه فإن أبى فعليهم أن يقاتلوه. كأنّما

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾ [التوبة: ١٢].

قوله عليه السلام: **(والمرويّ فيها مداهن)** أي الّذي يتفكّر ويرتأي في صحّة البيعة بعد تحقّقها، واستقرارها خادع خائن منافق.

الترجمة

این یکی از نامه های امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) است که در جواب نامه معاویه نوشت و به سویش ارسال داشت. این نامه معاویه و جواب آن در اواخر جنگ صفین وقوع یافت و صورت آن چنین است:

چون معاویه دید که علی و سربازانش در صفین عرصه را بر او و پیراوانش چنان تنگ کردند که راه گزیری جز گریز برایشان نمانده بود، به در عجز در آمده، نامه ای به این مضمون به امیرالمؤمنین نوشت:

این نامه ای است که بنده خدا معاویة بن ابی سفیان به علی بن ابی طالب نوشت؛ امّا بعد خداوند در کتاب استوارش فرمود: "لَقد أوحى إلَيك وَ إلى الّذين مِن قَبلك لَئِن أشرَكتَ لَيحبطَنَّ عَملكَ وَ لَتكونَنّ مِنَ الخاسِرين" (الزّمر: ٦٥) "ای پیغمبر، به تو و به پیغمبران پیش از تو وحی شد که اگر شرك آوری عملت تباه خواهد شد..." و من تو را ای علی، از خدا تحذیر می نمایم و بیم می دهم که مبادا عمل و سابقه ات در اسلام به ایجاد شکاف در وحدت امّت و پراکنده کردن جماعت شان که هم سنگ شرك است تباه شود. پس از خدا بترس و موقف قیامت را به یادآر و از ریختن خون این همه مسلمانان دست بدار که من از پیغمبر شنیدم اگر اهل صنعاء و عدن بر کشتن مسلمانی همدست شوند، خداوند همه آنان را به رو در آتش جهنم دراندازد، پس چگونه خواهد بود حال کسی که این همه اعلام مسلمین و بزرگان مهاجرین را کشته است؟

ای علی دست بدار از جنگی که چون آسیا این همه از اهل قرآن و عبادت کنندگان و افراد باایمان از پیر و جوان که مؤمن مخلص و مقرّ و عارف به خدا و

پیغمبرش بودند آرد کرده است.

ای ابوالحسن، اگر از آن روی خویشتن را امیر و خلیفه می پنداری جنگی این چنین روا می داری، به جانم سوگند که اگر خلافت تو صحیح به وقوع می پیوست گویا جای آن بود که توان گفت در ریختن خون مسلمانان معذور باشی، ولکن چگونه به صحّت رسیده باشد با این که اهل شام در بیعت تو در نیامدند و بدان راضی نشدند؟ بترس از خدا و قهرش و بپرهیز از سخت گیری و گوشمال دادنش و شمشیر را از روی مردم در غلاف نه که آتش جنگ مردمان را در ربود و از آن دریالشکر به اندازه مشت آبی در تك گودالی بیش نمانده، خدا مستعان است.

امیرالمؤمنین (عليه السلام) در جواب او نوشت:

این نامه ای است از بنده خدا علی امیرمؤمنان به معاویه پوربوسفیان.

امّا بعد نامه ای به اندرز از تو به ما آمده که عبارات آن از گفتار این و آن چون جامه پینه دار به هم بردوخته و نوشته ای به تکلّف انشاء شده، به الفاظ نامربوط آراسته بود، آن را به گمراهی خود زینت داده ای و به اندیشه بد خود فرستاده ای (در شرح گفته ایم که هر عمل در لباس حقیقت نباشد ناچار باید آن را بیارایند تا به ظاهر رنگ حقیقتش دهند و در معرض ترویجش در آورند).

نامه مردی که نه بصیرتی دارد تا هدایتش کند و نه رهبری تا ارشادش نماید، هوای نفس دعوتش کرد و او هم اجابتش، گمراهی افسار او را در دست گرفت و او نیز در پیش روان شد، از این روی ژاژ خایید و یاوه گفت و بانگ بیهوده برآورد.

امّا آن که مرا به تقوی خوانده ای، امیدوارم که اهل آن بوده و پناه می برم که از کسانی باشم که چون به تقوی دعوت شوند حميّت آنان را به گناه بدارد (اشاره است به آیه کریمه ۲۰۷ سوره بقره: "و اذا قيل له اتّق الله اخذته العزّة بِالاثم فحسبه جهنّم و لبئس المهاد".

و امّا پاسخ بیم دادنت مرا از خدا که مبادا عمل و سابقه من در اسلام تباه شود، این که به جانم سوگند اگر بر تو ستمکار بودم حق داشتی که مرا تحذیر کنی و بیم دهی، ولکن می بینم که خدا می فرماید: "فقاتلوا الّتی تَبغی حتّی تَفيىءَ إلی

أمر الله"(الحجرات . ۹) يعنى "پس كارزار كنيد با آن فرقه اى كه ستم مى كنند تا به امر خدا برگردند" و فرقه ستم كننده كسانى اند كه تو در آنهايى، چه بيعت مردم با من در مدينه بر تو نيز كه در شام بودى لازم شده بود و چنان كه بيعت با عثمان در مدينه بر تو كه از طرف عمر امير شام بودى لازم شده بود و چنان كه برادرت يزيد را كه از طرف ابوبكر امير شام بود بيعت ابوبكر لازم شده بود (كذا).

امّا پاسخ ايجاد شكاف در وحدت امّت، اين كه من سزاوارترم كه تو را از آن نهى كنم (زيرا كه معاويه آتش فتنه به پا كرد و مردم را به اختلاف و قتال كشانيد).

امّا پاسخ ترساندنت مرا از كشين ستمكاران، اين كه پيغمبر (ﷺ)مرا به كارزار با آنان و كشتن شان امر كرد و فرمود: "إنّ فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله و اشار إليّ"؛ يعنى در ميان شما كسى است كه بر تأويل قرآن قتال مى كند، چنان كه من بر تنزيل آن قتال كردم و اشاره به سوى من فرمود كه آن كس على است.

و امّا پاسخ گفتارت كه بيعتت صحيح بهوقوع نپيوست از آن روى كه شاميان بيعت نكردند، اين كه آن يك بيعت است و بر حاضر و غائب لازم، نظر در آن دو نمى شود و استيناف در آن راه ندارد، هركه از آن سرپيچيد و به در رفت طعن در بيعت و آيين مسلمانان زد و هركه در آن انديشه ناك و دودل است خائن و منافق است.

(احتجاج امام (عليه السلام) بر سبيل مماشات به آن چه خصم بدان معتقد است مى باشد وگرنه در امام عصمت شرط است كه بايد از جانب خدا و رسول منصوص و منصوب باشد، چنان كه در شرح كتاب ششم گفته ايم).

اى معاويه، آرام گير و جامه گمرهى از تن به در كن و آن چه كه در آن تو را سودى نيست ترك گوى و براى تو در نزدم جز شمشير چيزى نيست تا اين كه به امر خدا برگردى و به ذلّت در بيعت درآيى، درود بر آن كه سزاوارش است.

ومن كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية، وهو الكتاب الثامن من باب المختار من كتبه عليه السلام ورسائله

أَمّا بَعْدُ فَإِذَا أَتاكَ كتابي فاحْمِلْ مُعاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ، وَخُذْهُ بالأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ(١) فَإِنِ اخْتارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنِ اخْتارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ، وَالسّلامُ(٢).

اللغة

(فاحمل معاوية على الفصل) يقال: حمله على الأمر إذا أغراه به. والفصل القطع أي إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى تكون بينهما فرجة يقال: فصلت الشيء فانفصل أي قطعته وانقطع. والقضاء بين الحقّ والباطل من حيث إنه يفصّل بين الحقّ والباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾ [الطارق: ١٤] أي فاصل قاطع، وحديث وفد عبد القيس: فمرنا بأمر فصل، أي لا رجعة فيه ولا مردّ كما في النّهاية الأثيريّة. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ٣٨] أي اليوم يبيّن الحقُّ من الباطل ويفصّل بين الناس بالحكم، فالمراد: فاحمل معاوية على الحكم القطعيّ من الطاعة أو العصيان.

ويقرب منه معنى قوله: **(وخذه بالأمر الجزم)** يقال: جزم الأمر أي قطع به قطعاً لا عودة فيه. تقول: أمرته أمراً جزماً وهذا حكم جزم وحلف يميناً جزماً، فالمراد: خذه بالأمر المقطوع به إمّا الحرب أو السّلم.

(مجلية) من الإجلاء وهو الإخراج من الوطن قهراً. يقال: أجلى فلان القومَ عن بلدهم وديارهم إذا أخرجهم عنها قهراً.

(مخزية) أي مهينة مذلّة فاضحة من الخزي بالكسر فالسكون بمعنى الهوان والذُّلّ يقال: أخزاه إخزاءً إذا أوقعه في الخزي، وأخزى الله فلاناً أي فضحه.

وفي نسخة نصر في كتاب صفين الآتي ذكرها: **(محظية)**. من الحظوة بضمّ الحاء وكسرها، والحظة كالعدة: المكانة والحظ من الرّزق يقال: أحظاه أي جعله ذا حظوة، وأحظاه

---

(١) في نسخة: محظية.

(٢) نهج السعادة: ٤/ ٩٨، والغدير: ١٠/ ٣١٨.

به أي تفضّل عليه به، وروي أيضاً: مجزية، بالجيم أي كافية.

(فانبذ إليه) نبذت الشيء من يدي من باب ضرب إذا طرحته ورميت به. قال أبو كبير الهذلي **(الحماسة ١٢)**:

وإذا نبذت له الحصاة رأيته فزعاً لوقعتها طُمُور الأَخيَل

والنبذ أيضاً إلقاء الخبر إلى من لا يعلمه. وقال الفيوميُّ في **«المصباح»**: نبذت العهد لهم نقضته: وقوله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٦١] معناه إذا هادنت قوماً فعلمت منهم النقض للعهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقض حتّى تعلمهم أنّك نقضت العهد، فيكون في علم النقض مستويين ثمّ أوقع بهم.

الإعراب

(الفاء) الأُولى جواب أما، والثانية جواب إذا، والثالثة للتفصيل، والأَخيرتان جوابا الشرط كالأُوليين. مجلية للحرب، والحرب تؤنّث وقد تذكّر، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد: ٦]. قال الجوهريُّ في الصحاح قال المبرّد: الحرب قد تذكّر وأنشد:

وهو إذا الحرب هفا عقابه مِرزَجم حرب تلتقي حرابه

قال الخليل: تصغيرها حريب بلا هاء رواية عن العرب، قال المازنيُّ: لأنّه في الأصل مصدر وقال الفيوميُّ في **«المصباح»**: إنّما سقطت الهاء كيلا يلتبس بمصغّر الحربة الّتي هي كالرمح.

مخزية صفة للسّلم قال الجوهريُّ في **«المصباح»**: السّلم: الصلح، يفتح ويكسر ويذكّر ويؤنّث قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦٤] وفي **«أقرب الموارد»**: ويؤنث حملاً على نقيضه الحرب وقال بعض أهل الأدب: تأنيث الحرب باعتبار المحاربة والسّلم للمسالمة.

ضمير إليه يرجع إلى معاوية. والسلام مبتدأ وخبره محذوف، أي والسلام لأهله ككتابه الآتي بعد هذا. أو والسلام على من اتّبع الهدى ونحوهما.

«سند الكتاب»

رواه نصر بن مزاحم المنقري في كتاب **«صفين» (ص ٣٢ من الطبع الناصري)** عن محمّد بن عبيد الله وصالح بن صدقة مسنداً، وعلى نسخة نصر كان مكان قوله ﷺ **(أو سلم مخزية)** أو سلم محظية، ومكان قوله: **(فانبذ إليه)** فانبذ له.

ونقل الكتاب ابن قتيبة الدِّينوري المتوفى سنة ٢٧٦هـ في الإمامة والسياسة على صورة أُخرى، قال: وذكروا أنَّ عليّاً كتب إلى جرير: أمّا بعد فإنَّ معاوية إنّما أراد بما طلب ألّا يكون لي في عنقه بيعة وأن يختار من أمره ما أحبَّ، وقد كان المغيرة بن شعبة أشار عليَّ وأنا بالمدينة أن أستعمله على الشام فأبيت ذلك عليه ولم يكن الله ليراني أتّخذ المضلّين عضداً، فإن بايعك الرَّجل وإلا فأقبل (**ص ٩٥ ج ١ طبع مصر ١٣٧٧هـ**).

أقول: قد ذكرنا هذا الكتاب في شرح الكتاب السابع منقولاً عن كتاب «**صفين**» لنصر بن مزاحم وبين النسختين اختلاف في الجملة. ثمَّ يمكن أن يكون أنه عليه السلام أرسل إلى جرير في تلك الواقعة كتابين أو أنهما كانا كتاباً واحداً فتشتّت كما ذكرنا نبذاً من نظائره فلا حاجة إلى جعلهما كتاباً واحداً. ونقل هذا الكتاب المجلسيُّ رحمه الله في «**البحار**» عن كتاب «**صفين**» لنصر أيضاً (**ص ٤٧٠ ج ٨ من الطبع الكمباني**).

المعنى

قال أبو العباس المبرِّد في «**الكامل**» (**ص ١٩٠ ج ١ من طبع مصر، أوَّل الباب ٢٧**): وجّه عليُّ بن أبي طالب عليه السلام إلى معاوية يأخذه بالبيعة له فقال له: إنَّ حولي من ترى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار، ولكنّي اخترتك لقول رسول الله صلى الله عليه وآله فيك «خير ذي يمن» ائت معاوية فخذه بالبيعة. فقال جرير: والله يا أمير المؤمنين ما أدّخرك من نصرتي شيئاً وما أطمع لك في معاوية. فقال عليٌّ عليه السلام: إنّما قصدي حجّة أُقيمها عليه.

وقال اليعقوبيُّ في «**التاريخ**» (**ص ١٦٠ ج ٢ طبع النجف ١٣٥٨هـ**): خرج عليٌّ عليه السلام من البصرة متوجّهاً إلى الكوفة وقدم الكوفة في رجب سنة ستّ وثلاثين وكان جرير بن عبد الله على همذان فعزله، فقال لعليّ عليه السلام: وجّهني إلى معاوية فإنَّ جلَّ من معه قومي فلعلّي أجمعهم على طاعتك. فقال له الأشتر: يا أمير المؤمنين لا تبعثه فإنَّ هواه هواهم. فقال: دعه يتوجّه فإن نصح كان ممّن أدّى أمانته، وإن داهن كان عليه وزر من ائتمن ولم يؤدِّ الأمانة ووثق به فخالف الثقة ويا ويحهم مع من يميلون ويدعونني، فوالله ما أردتهم إلّا على إقامة حقّ، ولا يريدهم غيري إلّا على باطل.

قال المبرِّد: فلمّا أتى جرير معاوية دافعه معاوية فقال له جرير: إنَّ المنافق لا يصلّي حتّى لا يجد من الصَّلاة بُدّاً، ولا أحسبك تبايع حتّى لا تجد من البيعة بُدّاً، فقال له معاوية: إنّها ليست بخدعة الصبيّ عن اللّبن، إنه أمر له ما بعده فأبلعني ريقي.

فناظر عمراً ـ يعني عمرو بن العاصي ـ فطالت المناظرة بينهما، وألحَّ عليه جرير فقال له معاوية: ألقاك بالفصل في أوّل مجلس إن شاء الله تعالى. ثمَّ نقل كتاب معاوية إلى أمير

المؤمنين عليه السلام وجوابه عليه السلام عن كتابه كما ذكرناهما في شرح الكتاب السابع.

وقد نقلنا عن نصر في شرح الكتاب السابق أنّ جريراً أبطأ عند معاوية حتّى اتّهمه النّاس، وقال عليٌّ عليه السلام: وقتّ لرسولي وقتاً لا يقيم بعده إلّا مخدوعاً أو عاصياً وأبطأ على عليّ عليه السلام حتّى أيس منه.

قال نصر: وفي حديث محمّد بن عبيد الله وصالح بن صدقة قالا: وكتب عليٌّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك: أمّا بعد فإذا أتاك كتابي - إلخ.

وبالجملة لما أتى جرير معاوية يأخذه بالبيعة لأمير المؤمنين عليه السلام سوَّف معاوية وماطل في البيعة ولمّا رأى أمير المؤمنين عليه السلام ذلك كتب إليه ذلك الكتاب.

قوله عليه السلام: **(فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل وخذه بالأمر الجزم)** يعني لا تترك معاوية يسوِّف في البيعة ويماطلك بها وتدعك حيران لا تدري كيف يعامل بك، بل احمله على الحكم القطعي والأمر المقطوع به إمّا أن يدخل في الطاعة فيبايع، وإمّا أن يأذن بالحرب.

قوله عليه السلام: **(ثمّ خيّره بين حرب مجلية أو سلم محظية)** لا يخفى حسن صنيعته عليه السلام حيث أمر جريراً أن يوقع معاوية بين الخوف والرجاء والتخويف والاستعطاف أي إن عصى وتمرّد عن البيعة فلا بدّ له من أن يحاربنا، والحرب تجليه عن الّتي اتّخذها وطناً وهي الشام.

وهذا تهديد وتفزيع له بأنّه إن اختار الحرب يجليه جنود الحقّ أي أنصار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأعوانه عن بلده قهراً، فإسناد الإجلاء إلى الحرب مجاز وإن أسلم فاختار السلم والصلح فإعزاز وإفضال بإطاعته، فنسبة الإحظاء إلى السلم مجازاً أيضاً فتفسير كلامه عليه السلام على هذا الوجه بيّن لا غبار عليه ولا يخلو من لطف.

وأمّا على نسخة المخزية، بالزاء فقيل: **(السلم المخزية)** الصلح الدّالُّ على العجز والخطل في الرأي الموجب للخزي.

والظّاهر أنّ مراده من هذا التفسير هو ما ذكره الفاضل الشارح المعتزليُّ حيث قال: وإنّما جعل السلم مخزية لأنّ معاوية امتنع أوّلاً من البيعة، فإذا دخل في السلم فإنّما يدخل فيها بالبيعة، وإذا بايع بعد الامتناع فقد دخل تحت الهضيم ورضي بالضيم، وذلك هو الخزي.

أقول: وعلى هذه النسخة عرَّض أمير المؤمنين عليه السلام له في قوله هذا بأنه سواء كان بايع أو لم يبايع مهان ذليل مقهور، لأنّه إن بايع فالسلم تخزيه، وإن أبى واستكبر وأذن بالحرب فالحرب تجليه، وأمّا على رواية الجيم فواضح.

قوله عليه السلام: **(فإن اختار الحرب ـ إلخ)** هذا تفصيل لقوله: ثمّ خيّره، أي إذا خيّرته بين الحرب والسلم، فإن اختار الحرب فارمها إليه. وإن اختار السلم فخذ بيعته. والسلام لأهله..

أو أنّ قوله عليه السلام: فانبذ إليه، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٦١] وذلك أنَّ المراد من الخيانة في الآية نقض العهد بدليل سياق الآيات المتقدّمة عليها ونظمها في ذلك، وإجماع المفسرين عليه.

والآيات المتقدّمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ الآية [الأنفال: ٥٥ ـ ٥٨] والنّبذ إلقاء الخبر إلى من لا يعلمه. وبمعنى نقض العهد أيضاً كما مرَّ.

فمعنى الآية: وإن خفت من قوم معاهدين أي قوم بينك وبينهم عهد لأنَّ نقض العهد يدلُّ على تقدُّم العهد، نقض العهد لم يظهر منهم بعد، وذلك لأنَّ قوله تعالى: وإن خفت، يدلُّ على عدم ظهوره بل يخاف ذلك منهم بإمارات تلوح فيه فانبذ إليهم على سواء، أي ألق إليهم العهد الّذي بينك وبينهم، يعني أعلمهم جهاراً وأخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنّك قد نقضت ما شرطت لهم على سواء، أي على سواء في العلم بمعنى أن يكون الفريقان متساويين في العلم بنقض العهد، أو معناه على طريق قصد مستوٍ في العداوة وهذا يرجع إلى الأوَّل أيضاً.

وبالجملة أمره الله تعالى أن لا يبدأ القوم بالقتال وهم على توهّم بقاء العهد بل يعلمهم إعلاماً مكشوفاً بنقض العهد أوّلاً ثمَّ يوقع بهم، فإنَّ المناجزة قبل الإعلام به خيانة، إنَّ الله لا يحبُّ الخائنين.

فالمراد من قوله عليه السلام: **(فإن اختار الحرب، فانبذ إليه)**، إنَّ معاوية إن اختار الحرب فاطرح إليه عهد الأمان وأعلنه أنت بالحرب مجاهراً وأخبره إخباراً مكشوفاً من غير مداهنة حتّى يتمّ الحجّة عليه بإعلام نقض العهد ولا يتوهّم متوهّم أنَّ مناجزتنا إيّاه كانت خيانة وخدعة.

إن قلت: لم يكن بينه عليه السلام وبين معاوية عقد عهد حتّى يستفاد هذا المعنى من قوله عليه السلام، فكيف التّوفيق؟.

قلت: قد احتجَّ أمير المؤمنين عليه السلام في الكتاب السادس عليه بأنَّ أهل الشورى من المهاجرين والأنصار لمّا اجتمعوا على خلافته، وإمامته كان ذلك الإجماع لِلّهِ تعالى رضاً وحجّة على الغائب والشاهد كما في الخلفاء الّذين سبقوه عليه السلام بالزّمان حتّى لو خرج من إجماعهم خارج بطعن أو بدعة كانوا يردُّونه على ما خرج منه فإن أبى قاتلوه.

وقد بينّا في شرح ذلك الكتاب أنّ هذا الاحتجاج إنّما كان على سبيل المماشاة

والإلزام، وفي الاصطلاح أهل الميزان على طريق القياس الجدلي، فلزم معاوية وأتباعه على قبول خلافه أمير المؤمنين عليه السلام وإمامته والتسليم والانقياد لأمره على ما عاهده عليه أهل الحّل والعقد من أمّة محمّد صلى الله عليه وآله كما لزمهم قبول خلافة من سبق منه والتسليم لهم، فوقع بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين معاوية عهد.

«جرير بن عبد الله البجلي من هو؟»

قال ابن الأثير في «**أسد الغابة**»: جرير بن عبد الله بن جابر البجلي أسلم قبل وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله بأربعين يوماً، وكان حسن الصورة. وقال النبيُّ صلى الله عليه وآله لمّا دخل عليه جرير فأكرمه: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». وكان له في الحروب بالعراق القادسيّة وغيرها أثر عظيم. ومات في قرقيسيا، وقيل: مات بالسراة، وروى عنه بنوه عبيد الله، والمنذر، وإبراهيم، وروى عن قيس بن أبي حازم، والشعبي، وهمام بن الحارث، وأبو وائل، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير وغيرهم. وأرسله رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذي الخلصة وهي بيت فيه صنم لخثعم ليهدمه، فخرج في مائة وخمسين راكباً من قومه فأحرقها[1].

ثمّ روى ابن الأثير بإسناده عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة البدر فقال: إنّكم ترون ربّكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته.

قال: وتوفي جرير سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة أربع وخمسين. انتهى ما أردنا من نقل كلام ابن الأثير في ترجمة جرير ملخّصاً.

قال نصر في «**صفّين**» **(ص ١٧ من الطبع الناصري)**: عن عمر بن سعد، عن نمير بن وعلة، عن عامر الشعبي أنّ عليّاً عليه السلام حين قدم من البصرة نزع جريراً عن همدان، فجاء حتّى نزل الكوفة فأراد عليٌّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً فقال له جرير: ابعثني إلى معاوية فإنه لم يزل لي مستنصحاً، ووداً نأتيه فأدعوه على أن يسلّم لك هذا الأمر ويجامعك على الحقّ على أن يكون أميراً من أُمرائك وعاملاً من عمّالك ما عمل بطاعة الله واتّبع ما في كتاب الله، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك، وجلّهم قومي وأهل بلادي وقد رجوت أن لا يعصوني.

قال: فقال له الأشتر: لا تبعثه ودعه ولا تصدّقه فوالله إنّي لأظنُّ هواه هواهم ونيّته نيّتهم.

---

(١) أسد الغابة: ١/ ٢٨٠، وبحار الأنوار: ٢١/ ٣٧٤، والأنساب: ٢/ ٣٩٠.

فقال له عليٌّ عليه السلام: حتى ننظر ما يرجع به إلينا.

نصر: صالح بن صدقة بإسناده قال (ص ٢٤): لمّا رجع جرير إلى عليّ عليه السلام كثر قول الناس في التهمة لجرير في أمر معاوية، فاجتمع جرير والأشتر عند عليّ عليه السلام فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين لو كنت أرسلتني إلى معاوية لكنت خيراً لك من هذا الّذي أرخا من خناقه وأقام حتّى لم يدع باباً يرجو روحه إلاّ فتحه، أو يخاف غمّه إلّا سدّه.

فقال جرير: والله لو أتيتهم لقتلوك، وخوَّفه بعمرو وذي الكلاع وحوشب ذي ظليم وقد زعموا أنك من قتلة عثمان.

فقال الأشتر: لو أتيته والله يا جرير لم يعيني جوابها ولم تثقل عليّ محملها ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر. قال: فائتهم إذاً، قال: الآن وقد أفسدتهم ووقع بينهم الشرّ[1].

نصر عمر بن سعد، عن نمير بن وعلة، عن عامر الشعبي قال: اجتمع جرير والأشتر عند علي عليه السلام فقال الأشتر: أليس قد نهيتك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً وأخبرتك بعداوته وغشّه، وأقبل الأشتر يشتمه ويقول: يا أخا بجيلة إنَّ عثمان اشترى منك دينك بهمدان، والله ما أنت بأهل أن تمشي فوق الأرض حيّاً، إنما أتيتهم لتتّخذ عندهم يدك بمسيرك إليهم ثمَّ رجعت إلينا من عندهم تهدِّدنا بهم، وأنت والله منهم، ولا أرى سعيك إلاّ لهم، ولئن أطاعني فيك أمير المؤمنين ليحبسنك وأشباهك في محبس لا تخرجوا منه حتّى تستبين هذه الأُمور، ويهلك الله الظالمين.

قال جرير: وودت والله أنك كنت مكاني بعثت إذاً والله لم ترجع. قال: ولمّا سمع جرير ذلك لحق بقرقيسا ولحق به أناس من قيس فسرٌّ من قومه ولم يشهد صفين من قيس غير تسعة عشر، ولكن أحمس شهدها منهم سبعمائة رجل، وخرج عليٌّ إلى دار جرير فشعث منها، وحرَّق مجلسه وخرج أبو زرعة بن عمر بن جرير فقال: أصلحك الله إنَّ فيها أرضاً لغير جرير، فخرج عليٌّ منها إلى دار ثوير بن عامر فحرَّقها وهدم منها وكان ثوير رجلاً شريفاً وكان قد لحق بجرير.

قال: وقال الأشتر فيما كان من تخويف جرير إيّاه بعمرو وحوشب ذي ظليم وذي الكلاع:

لعمرك يا جرير لقول عمرو　　　وصاحبه معاوية الشآمي

(١) وقعة صفين: ٦٠، وتهذيب المقال: ٣/ ٧١.

وذي كـلـع وحـوشـب ذي ظـلـيـم ... أخـفّ عـلـيّ مـن زفّ الـنـعـام
إذا اجـتـمـعـوا عـلـيّ فـخـلّ عـنـهـم ... وعـن بـازٍ مـخـالـبـه درام
فـلـسـت بـخـائـف مـا خـوّفـونـي ... وكـيـف أخـاف أحـلام الـنـيـام
وهـمّـهـم الّـذي حـامـوا عـلـيـه ... مـن الـدُّنـيـا وهـمّـي مـا أمـامـي
فـإن أسـلـم أعـمّـهـم بـحـرب ... يـشـيـب لـهـولـهـا رأس الـغـلام
وإن أهـلـك فـقـد قـدّمـت أمـراً ... أفـوز بـفـلـجـه يـوم الـخـصـام
وقـد زادوا إلـيّ وأوعـدونـي ... ومـن ذا مـات مـن خـوف الـكـلام

والمنقول عن ابن قتيبة في «**المعارف**» أنّ جريراً قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله سنة عشر من الهجرة في شهر رمضان فبايعه وأسلم، وكان طوالاً ينقل في ذروة البعير من طوله، وكانت نعله ذراعاً، وكان يخضب لحيته بالزّعفران من اللّيل ويغسلها إذا أصبح، فتخرج مثل لون التبر، واعتزل عليّاً عليه السلام ومعاوية وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفّي بالشراة سنة أربع وخمسين في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة.

وفي شرح المعتزلي عند شرح قوله عليه السلام: (**أما أنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن ـ إلخ**): أنّ أشعث بن قيس الكندي وجرير بن عبد الله البجلي يبغضانه وهدم عليٌّ عليه السلام دار جرير بن عبد الله، قال إسماعيل بن جرير: هدم عليٌّ عليه السلام دارنا مرّتين[1].

وروى الحارث بن حضيرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبد الله نعلين من نعاله وقال: احتفظ بهما فإنَّ ذهابهما ذهاب دينك، فلما كان يوم الجمل ذهبت إحداهما، فلمّا أرسله عليٌّ عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأُخرى. ثمَّ فارق عليّاً عليه السلام واعتزل الحرب[2].

«بحث حكمي عقلي في إبطال رؤيته تعالى بالابصار في الدنيا والآخرة ويتبعه بحث روائي في ذلك»

ما روى ابن الأثير عن جرير من حديث الرؤية أوجب علينا البحث عن معنى الرؤية وتحقيقها في المقام، فإنَّ ظاهر الرواية يزلُّ الأقدام عن صوب الصواب.

قال ابن الأثير في مادّة «ضمم» من النهاية: في حديث الرؤية: لا تضامون في رؤيته، يروى بالتشديد والتخفيف، فالتشديد: معناه لا ينضمُّ بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٠٥، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٢٢٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٧٥، وتهذيب المقال: ٣/ ٧٤.

النظر إليه، ويجوز ضمُّ التاء وفتحها على تفاعلون وتتفاعلون ومعنى التخفيف لا ينالكم ضيم في رؤيته فيراه بعضكم دون بعض، والضيم: الظلم.

قال الشهرستانيُّ في «**الملل والنحل**» عند ترجمة الطائفة الحائطية (**ص ٢٨ طبع إيران ١٢٨٨هـ**): ومن ذلك أصحاب أحمد بن حائط، وكذلك الحدثيّة أصحاب فضل الحدثي كانا من أصحاب النظّام، وطالعا كتب الفلاسفة أيضاً، وضمّا إلى مذهب النظّام ثلاث بدع - إلى أن قال: البدعة الثالثة حملهما كلّما ورد في الخبر من رؤية الباري تعالى مثل قوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» على رؤية العقل الأوّل الّذي هو أوّل مبدع، وهو العقل الفعّال الّذي منه تفيض الصور على الموجودات، وإيّاه عنى النبيُّ ﷺ: أوّل ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثمَّ قال له: أدبر فأدبر، فقال وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك، بك أُعزُّ وبك أُذلُّ، وبك أعطي، وبك أمنع، فهو الّذي يظهر يوم القيامة وترتفع الحجب بينه وبين الصور التي فاضت منه، فيرونه كمثل القمر ليلة البدر، فأمّا واهب العقل فلا يرى ألبتّة ولا يشبّه إلاّ مبدع، انتهى ما أردنا من نقل كلامه.

واعلم أنّما تشعّبت الآراء في رؤيته تعالى على أقوال وكادت أن تنتهي إلى أكثر من عشرة أقوال، فذهبت الحكماء والإماميّة والمعتزلة إلى استحالة رؤيته تعالى بالأبصار في الدُّنيا والآخرة، لتجرُّده تعالى، وهذا هو المذهب المختار الحقّ ذهب إليه جلُّ الحكماء المتألّهين، والعلماء الشامخين، وبذلك شهد العقل وحكم به جميع الأنبياء والمرسلين، ونطق القرآن الكريم، وتواترت الأخبار عن أئمّة الهدى صلوات الله عليهم أجمعين، وسنذكر طائفة من تلك الأخبار وشرحها بعون الله تعالى.

وإنما قيّدنا الرؤية بالأبصار لأنَّ الرؤية إذا كانت بمعنى الشهود العقلي والحضور العلمي والانكشاف التام بالبصيرة القلبيّة لا بالبصر الحسي والخيالي فلا كلام في صحّتها ووقوعها للكمّلين من الموحّدين كما سيتّضح لك في البحث الآتي عن الأخبار إن شاء الله تعالى.

وذهبت المجسّمة والكرامية إلى جواز رؤيته بالبصر مع المواجهة فقالت الكرامية والحنابلة: يرى في جهة فوق.

قال الشهرستانيُّ في «**الملل والنحل**» عند ترجمة الفرقة المشبهة (**ص ٤٨ طبع إيران ١٢٨٨هـ**): وأمّا مشبّه الحشويّة فحكى الأشعريُّ عن محمّد بن عيسى أنه حكى عن مضر وكهمش وأحمد الهجيمي أنهم أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة وأنَّ المخلصين من المسلمين يعانقونه في الدُّنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حدِّ الإخلاص والاتّحاد المحض.

وحكى الكعبيُّ عن بعضهم أنه كان يجوّز الرؤية في الدُّنيا وأن يزوروه ويزورهم.

وحكي عن داود الجواري أنه قال: اعفوني عن الفرج واللّحية واسألوني عمّا وراء ذلك، وقال: إنَّ معبوده جسم ولحم ودم وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ولسان وعينين وأذنين، ومع ذلك جسم لا كالأجسام، ولحم لا كاللّحوم، ودم لا كالدِّماء، وكذلك سائر الصفات، وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء.

ويحكى عنه أنه قال: هو أجوف من أعلاه إلى صدره، مصمت ما سوى ذلك وأنَّ له وفرة سوداء، وله شعر قطط.

وأمّا ما ورد في التنزيل من الاستواء واليدين والوجه والجنب والمجيء والإتيان والفوقيّة وغير ذلك فأجروها على ظاهرها أعني ما يفهم عند الإطلاق على الأجسام، وكذلك ما ورد في الأخبار من الصورة في قوله عليه السلام: خلق الله آدم على صورة الرّحمٰن. وقوله: حتى يضع الجبّار قدمه في النار. وقوله: وضع يده أو كفّه على كتفي فوجدت (حتّى وجدت ـ خ ل) برد أنامله بين ثدييّ[1] إلى غير ذلك أجروها على ما يتعارف في صفات الأجسام.

ثمَّ قال: وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وأكثرها مقتبسة من اليهود، فإنَّ التشبيه فيهم طباع حتّى قالوا: اشتكت عيناه فعادته الملائكة وبكى على طوفان نوح عليه السلام حتّى رمدت عيناه. وأنَّ العرش لَيَأط من تحته كأطيط الرَّحل الحديد، وأنه ليفضل من كل جانب أربع أصابع.

وروت المشبّهة عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: لقيني ربّي فصافحني، وكافحني ووضع يده بين كتفي حتّى وجدت برد أنامله في صدري. انتهى ما أوردنا من نقل كلامه[2].

والأشاعرة مع أنهم اعتقدوا تجرُّده تعالى قالوا بصحّة رؤيته، وخالفوا بذلك جميع العقلاء، ولذا قالوا: إنه تعالى يرى لا كما قال هؤلاء القائلون بجسميّته بل يرى وليس فوقاً، ولا تحتاً، ولا يميناً، ولا شمالاً، ولا أماماً، ولا وراء، ولا يرى كلّه ولا بعضه، ولا هو في مقابلة الرائي، ولا منحرفاً عنه. ولا يصحُّ الإشارة إليه إذا رأي ومع ذلك يرى ويبصر.

قال بعض الأشاعرة: فقال: ليس مرادنا بالرُّوية الانطباع أو خروج الشعاع بل الحالة الّتي تحصل من رؤية الشيء بعد حصول العلم به، وتحذلق بعضهم فقال: معنى الرُّؤية هو أن ينكشف لعباده المؤمنين في الآخرة انكشاف البدر المرئي. نقلهما الفاضل المقداد في شرحه

---

(١) في نسخة: على كتفي.

(٢) انظر مسند أحمد: ٥/٢٤٣، ودفع شبهة التشبيه لابن الجوزي: ١٤٩.

الموسوم بالنافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر للعلامة الحلّي قدّس روحهما.

ذهب ضرار بن عمرو إلى أنَّ الله تعالى يرى يوم القيامة بحاسّة سادسة لا بهذا البصر.

وقال قوم: يجوز أن يحوّل الله تعالى قوّة القلب إلى العين فيعلم الله تعالى بها، فيكون ذلك الإدراك علماً باعتبار أنّه بقوّة القلب، ورؤية باعتبار أنّه قد وقع بالمعنى الحالّ في الغير.

ثمَّ القائلون برؤيته يوم القيامة اختلفوا في أنه هل يجوز أن يراه الكافر؟ فقال أكثرهم: إنَّ الكفار لا يرونه، لأنَّ رؤيته كرامة والكافر لا كرامة له. وقالت السالميّة وبعض الحشويّة: إنَّ الكفار أيضاً يرونه يوم القيامة.

وذهب قوم إلى أنّه لا يزالون يرون الله تعالى وأنَّ الناس كلّهم كافرهم ومؤمنهم يرونه ولكن لا يعرفونه، وتحذلق بعضهم فقال: لا يجوز أن يرى بعين خلقت للفناء، وإنّما يرى في الآخرة بعين خلقت للبقاء.

هذه نبذة من الأقوال والآراء في رؤيته تعالى وقد تمسّك كلُّ فرقة بظاهر بعض الآيات والأخبار، ولم يقدروا على الخروج من حكم الوهم إلى قضاء العقل والتميز بينهما كما أشار إليه المحقّق خواجة نصير الدّين الطوسيُّ في كتابه «**قواعد العقائد**» حيث قال: وعند أهل السنة إنَّ الله تعالى يصحُّ أن يرى مع امتناع كونه في جهة من الجهات، واحتجّوا لها بالقياس على الموجودات المرئيّة، وبنصوص القرآن والحديث، انتهى ما أردنا من نقل كلامه.

ثمَّ إنا لو تعرَّضنا لهدم بنيان ما تمسّك بها كلُّ فرقة على البسط والتفصيل لطال بنا الخطب ولخرجنا عن موضوع الكتاب، ولكن نذكر طائفة من الأصول الكليّة العقليّة الهادمة لما أسّسوا وبنوا عليها تلك الآراء الرديّة ثمَّ نعقّبها بذكر ما روي عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام لأنَّ مقالاتهم موازين القسط في كلِّ باب، وفيصل الخطاب في كلِّ حكم لأُولي الألباب.

واعلم أنَّ المعتمد في أُصول الإيمان هو العقل فقط والنقل إن وافقه وإلاّ فإن كان له محمل صحيح من وجوه الاستعارات والكنايات وغيرهما المتداولة في لسان العرب أو غيرهم المؤيّدة بالشواهد والقرائن الّتي لها وجه وجيه وأدركناها فنحمله عليه، وإلاّ إمّا نتوقّف في تفسيره وتقريره كما لو كانت آية من آي القرآن المخالفة بظاهرها لحكم العقل الصريح ولم نصل إلى فهم مراده، ولكنّا نعلم أنَّ ظاهرها ليس بمراد كما نعلم أنَّ لها معنى صحيحاً لو رزقنا دركه وجدناه معاضداً لحكم العقل، وإمّا نعرض عنه كالخبر الواحد المخالف للعقل والقرآن.

وهدانا إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمّتنا عليهم السلام فقد روى الشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله: إذا أتاكم عنّي حديث فاعرضوه على كتاب الله وحجّة عقولكم،

فإن وافقهما فاقبلوه، وإلاّ فاضربوا به عرض الجدار(١).

وفي باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب من **«الكافي»** رويت عدّة روايات في ذلك عن أهل بيت العصمة والطهارة حذّروا الناس عن أخذ ما خالف كتاب الله منها: عليٌّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ على كلِّ حقّ حقيقة وعلى كلِّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»(٢).

محمّد بن يحيى، عن عبد الله بن محمّد، عن عليِّ بن الحكم، عن أبان بن عثمان عن عبد الله بن أبي يعفور قال: وحدَّثني حسين بن أبي العلاء أنه حضر ابن أبي يعفور في هذا المجلس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من تثق به، ومنهم من لا تثق به، قال: «إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلاّ فالذي جاءكم به أولى به»(٣).

عدَّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن أبيه، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن أيوب بن الحرِّ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كلُّ شيء مردود إلى الكتاب والسّنة، وكلُّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»(٤).

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن ابن فضّال، عن عليِّ بن عقبة عن أيّوب بن راشد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»(٥).

محمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خطب النبيُّ صلى الله عليه وآله بمنى فقال: أيّها الناس ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»(٦).

وفي باب اختلاف الحديث والحكم من **«الكافي»** بإسناده عن أبان بن أبي عياش عن سليم بن قيس الهلالي، قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام: إنّي سمعت من سلمان والمقداد

(١) شرح أصول الكافي: ٢/٣٤٣ ح ١.
(٢) الكافي: ١/ ٦٩، ح ١، وشرح أصول الكافي: ٢/ ٣٤٣، ح ١.
(٣) المحاسن: ١/ ٢٢٥، ح ١٤٥، وشرح أصول الكافي: ٢/٣٤٤، ح ٢.
(٤) المحاسن: ١/ ٢٢١، والكافي: ١/ ٦٩، ح ٣.
(٥) الكافي: ١/ ٦٩، ح ٤، وشرح أصول الكافي: ٢/ ٣٤٥، ح ٤.
(٦) الكافي: ١/ ٦٩، ح ٤، وشرح أصول الكافي: ٢/ ٣٤٦، ح ٥.

وأبي ذرّ شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبيّ الله غير ما في أيدي الناس، ثمَّ سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبيّ الله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أنَّ ذلك كلّه باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله ﷺ متعمّدين ويفسّرون القرآن بآرائهم؟

قال: فأقبل عليه السلام عليّ فقال: «قد سألت فافهم الجواب إنَّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً، وصدقاً، وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعامّاً وخاصّاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً»، وقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتّى قام خطيباً فقال: يا أيّها الناس قد كثرت عليّ الكذّابة فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار، ثمَّ كذب عليه من بعده، وإنّما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس:

رجل منافق يظهر الإيمان متصنّع بالإسلام لا يتأثّم ولا يتحرّج أن يكذب على رسول الله ﷺ متعمّداً فلو علم الناس أنّه منافق كذّاب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوه، ولكنّهم قالوا: هذا قد صحب رسول الله ﷺ ورآه وسمع منه فيأخذون عنه وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبر الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ثمَّ بقوا بعده فتقرّبوا إلى إئمّة الضلال والدُّعاة إلى النار بالزُّور والكذب والبهتان فولّوهم الأعمال، وحملوهم على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدُّنيا، وإنّما الناس مع الملوك والدُّنيا إلاّ من عصم الله، فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحمله على وجهه ووهم فيه ولم يتعمّد كذباً فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه فيقول: «أنا سمعته من رسول الله ﷺ، فلو علم المسلمون أنّه وهم لم يقبلوه، ولو علم هو أنّه وهم لرفضه. إلى آخر ما أفاد عليه السلام»[1].

وأتى بهذه الرواية الرَّضي - ره - في باب الخطب من «**نهج البلاغة**» والصدوق في الباب الخامس والأربعين من رسالته في الاعتقادات وإنما أردنا نقل هذا المقدار من كلامه عليه السلام ليعلم أنَّ الكذّابة قد كثرت على رسول الله ﷺ وأنَّ هؤلاء المتكذبين اختلقوا الأخبار، وافتروا على الله ورسوله فلا يكون كلّ خبر مرويّ على حياله حجّة إلاّ ما يوافقه شاهد صادق كالعقل والقرآن والأحاديث الصحيحة.

وأوضح منه في مقصودنا هذا ما روي عن الحسن بن الجهم، عن الرضا عليه السلام أتى به الفيض قدّس سرُّه في باب اختلاف الحديث والحكم من «**الوافي**» **(ص ٦٦ ج١)** قال: قلت له عليه السلام: يجيئنا الأحاديث عنكم مختلفة، قال: «ما جاءك عنّا فاعرضه على كتاب الله عزَّ وجلَّ

(١) الكافي: ١/٦٣، وشرح أصول الكافي: ٢/٣٠٥، ح ١.

وأحاديثنا فإن كان يشبههما فهو منّا وإن لم يشبههما فليس منّا». الحديث.

وقال ثقة الإسلام أبو جعفر الكلينيُّ قدِّس سرُّه في أوائل «**الكافي**»:

يا أخي أرشدك الله أنه لا يسع أحداً تمييز شيء مما اختلف الرواية فيه عن العلماء ﷺ برأيه إلاّ على ما أطلقه العالم ﷺ بقوله: «اعرضوها على كتاب الله فما وافق كتاب الله عزَّ وجلَّ فخذوه، وما خالف كتاب الله فردّوه»[١].

وقال العالم الرّبانيُّ أبو جعفر محمّد بن بابويه الملقب بالصّدوق قدِّس سرُّه الشريف في الباب الأوّل من رسالته في الاعتقادات:

اعلم أنَّ اعتقادنا في التوحيد أنَّ الله تعالى واحد ليس كمثله شيء، قديم لم يزل ولا يزال سميعاً، بصيراً، عليماً، حكيماً، حيّاً، قيّوماً، عزيزاً، قدُّوساً عالماً، قادراً، غنيّاً، لا يوصف بجوهر، ولا جسم، ولا صورة، ولا عرض، ولا خط ولا سطح، ولا ثقل، ولا خفّة، ولا سكون، ولا حركة، ولا مكان، ولا زمان فإنّه تعالى متعال من جميع صفات خلقه خارج عن الحدَّين حدّ الإبطال وحدّ التشبيه وأنه تعالى شيء لا كالأشياء، أحد صمد لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يكن له كفواً أحد، ولا ندّ له، ولا ضدَّ، ولا شبه، ولا صاحبة، ولا مثل، ولا نظير، ولا شريك له، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا الأوهام وهو يدركها، لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو اللّطيف الخبير، خالق كلِّ شيء لا إله إلاّ هو له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين، ومن قال بالتشبيه فهو مشرك، ومن نسب إلى الإماميّة غير ما وصف في التوحيد فهو كاذب، وكلُّ خبر يخالف ما ذكرت في التوحيد فهو موضوع مخترع، وكلُّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو باطل، وإن وجد في كتب علمائنا فهو مدلّس والأخبار الّتي يتوهّمها الجهّال تشبيهاً لله تعالى بخلقه فمعانيها محمولة على ما في القرآن من نظائرها، إلى آخر ما قال[٢]:

أقول: لِلَّهِ درُّه ـ ره ـ أجاد وأفاد بما قضى به العقل الصريح والنقل الصحيح، إلاّ أنّه رحمه الله ذهب إلى أنَّ من قال بالتشبيه فهو مشرك.

فإن عنى بذلك الشرع المصطلح عند المتشرِّعة بأن يكون قائله كافراً بحيث يترتّب عليه أحكامه من النجاسة وعدم حلِّ ذبيحته وسائر أحكامه التي دوِّنت في الكتب الفقهيّة كما هو ظاهر كلامه ـ ره ـ فلا نسلّم، لأنَّ القائل برؤيته تعالى بالأبصار مثلاً، وإن كان شبّهه تعالى بالجسم وأثبت له صفات المخلوق المركّب المرئيّ إلاّ أنّه ذهب إليه من غير شعور بتلك

(١) الكافي: ١/٨، والحدائق الناضرة: ١/١٠٧. (٢) الاعتقادات: ٢٣.

التوالي الفاسدة واللّوازم الباطلة غير اللائقة بذاته تعالى، ولو تنبّه بها أعرض عنها، وذلك القائل أطاع الوهم من حيث لا يشعر فأضلّه السبيل حيث رأى أنَّ الأرض والماء والكواكب وغيرها مرئيّة محسوسة أو قابلة للرُّؤية، قاده الوهم إلى أنَّ كلَّ ما هو موجود فهو مرئيٌّ محسوس فالله تعالى موجود فتصحُّ رؤيته وما درى أنَّ ذلك القول ينتهي إلى التركيب والافتقار وسائر صفات الجسم في الله تعالى ولم يعلم من الشرع أنَّ القائل بما تترتّب عليه لوازم غير بيّنة من حيث لا يشعر مأخوذ ومحكوم بأحكام تلك اللوازم الشرعيّة، بل المعلوم خلافه، نعم لو كانت اللّوازم بيّنة ومع ذلك مال إليها وشبّهه تعالى بما يعلم تواليه الفاسدة المترتّبة على رأيه يمكن أن يقال إنه مشبّه مشرك كافر.

وإن عنى معناه اللّغوي العاري عن الأحكام الشرعيّة توسّعاً، أو أنَّ هذا قول المشرك وهو لا يعلم به أو نظائر هذين الوجهين فلا كلام فيه إلاّ أنَّ نحو هذا القائل ليس بمشرك كافر.

وقال ـ ره ـ في باب ما جاء في الرُّؤية من كتابه القيّم **«المفيد في التوحيد» (ص ١٠٨ طبع إيران ١٣٢١هـ)**: والأخبار الّتي رويت في هذا المعنى ـ يعني في الرؤية ـ صحيحة وإنما تركت إيرادها في هذا الباب خشية أن يقرؤها جاهل بمعانيها فيكذب بها فيكفر بالله عزَّ وجلَّ وهو لا يعلم.

والأخبار التي ذكرها أحمد بن محمّد بن عيسى في نوادره والّتي أوردها محمّد بن أحمد بن يحيى في جامعه في معنى الرُّؤية صحيحة لا يردُّها إلا مكذّب بالحقّ أو جاهل به، وألفاظها ألفاظ القرآن، ولكلٍّ خبر منها معنى ينفي التشبيه والتعطيل يثبت التوحيد وقد أمرنا الأئمّة صلوات الله عليهم أن لا نكلّم الناس إلاّ على قدر عقولهم.

ومعنى الرُّؤية الواردة في الأخبار العلم، وذلك أنَّ الدنيا دار شكوك وارتياب وخطرات فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات الله وأُموره في ثوابه وعقابه ما يزول به الشكوك ويعلم حقيقة قدرة الله عزَّ وجلَّ، وتصديق ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

فمعنى ما روي في الحديث أنه عزَّ وجلَّ يرى أي يعلم علماً يقينيّاً كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: ٢] وأشباه ذلك من رؤية القلب وليست من رؤية العين. إلى آخر ما أفاد قدّس سرّه وإنّما نقلنا موضع الحاجة من كلامه.

أقول: قوله ـ ره ـ: فيكفر بالله عزَّ وجلَّ وهو لا يعلم، كأنّما أراد به المعنى الثاني من المعنيين المتقدّمين فلا بأس أن يجعل كلامه في التوحيد قرينة على حمل كلامه في الاعتقادات على ذلك أيضاً، أي ومن قال بالتشبيه فهو مشرك وهو لا يعلم.

فنقول: إنَّ ما يدرك بالقوَّة الباصرة لا بدّ من أن يكون جسماً كثيفاً، لأنَّ للرُّؤية شروطاً.

فمنها أن يكون المرئيُّ مقابلاً للرائي أو في حكم المقابل، والثاني كرؤية الإنسان وجهه في المرأة ورؤية الأعراض، لأنَّ المقابل حقيقة هو الجسم وأعراضه مقابلة للرائي بالتبع فهي في حكم المقابل.

ومنها عدم البعد المفرط.

ومنها عدم القرب المفرط.

ومنها عدم الصغر المفرط.

ومنها عدم الحاجب بين الرائي والمرئي.

ومنها أن يكون المرئيُّ مضيئاً إمّا من ذاته أو من غيره.

ومنها أن يكون المرئيُّ كثيفاً أي مانعاً للشعاع من النفوذ فيه فلو لم يكن كثيفاً لا يمكن رؤيته.

سواء قيل: إنَّ الابصار بخروج الشعاع من العين على هيئة مخروط رأسه عند مركز البصر وقاعدته عند سطح المبصر.

إمّا يكون ذلك المخروط مصمتاً أو مركباً من خطوط شعاعيّة مستقيمة أطرافه الّتي يلي البصير مجتمعة عند مركزه ثمَّ تمتدُّ متفرُّقة إلى البصر، فما ينطبق عليه من المبصر أطراف تلك الخطوط أدركه البصر وما وقع بين أطراف تلك الخطوط لم يدركه.

وإمّا لم يكن الشعاع مخروطاً أصلاً بل هو خطٌّ مستقيم خارج من العين فإذا انتهى إلى المرئيِّ تحرَّك على سطحه في جهتي طوله وعرضه حركةً في غاية السرعة ويتخيّل بحركته هيئة مخروطة كما يتخيّل القطر النازل خطاً مستقيماً والنقطة الدائرة بسرعة خطاً مستديراً، وهذا قول الرياضيّين ذهب إلى كلٍّ واحدة من الشعب المذكورة طائفة منهم.

وسواء قيل: إنَّ الأبصار بالانطباع وهو مذهب الطبيعيّين وهو المختار عند أرسطو وأتباعه كالشيخ الرئيس حيث اختاره في «**الشفاء**».

أو قيل: إنَّ المشف الذي بين البصر والمرئي يتكيّف الشعاع الّذي هو في البصر ويصير بذلك آلة للإبصار كما ذهب إليه طائفة من الحكماء.

أو قيل: لا انطباع ولا شعاع وإنّما الإبصار بمقابلة المستنير للباصرة فيقع حينئذٍ للنفس علم إشراقيٌّ حضوريٌّ على المبصر كما مال إليه الشيخ الإشراقي شهاب الدّين السهروردي.

أو أنَّ الإبصار بإنشاء صورة مماثلة له بقدرة الله من عالم الملكوت النفساني مجرَّدة عن المادَّة الخارجيّة حاضرة عند النفس المدركة قائمة بها قيام الفعل بفاعله لا قيام المقبول بقابله.

وبالجملة أنَّ المحسوس لكلِّ حاسّة هو الصورة الإدراكيّة المفارقة عن المادّة لا الّتي هي في مادّة جسمانيّة ومع ذلك لا بدَّ في الإبصار من مقابلة البصر لما يقع صورته عند القوَّة المدركة والبصر، ومن تحقّق سائر شروط الرؤية كما ذهب إليه المولى صدر المتألّهين في السفر الرابع من الأسفار، وحجّة كلِّ طائفة مذكورة في محالّها ولسنا الآن في ذلك المقام.

وقد أشار إلى تلك الآراء في كيفية الإبصار الحكيم السبزواريُّ قدِّس سرُّه في **«غرر الفرائد»** بقوله منظوماً:

قد قيل الإبصار بالانطباع ... وقيل بالخارج من شعاع
مضطرب الآخر أو مخروطي ... مصمت أو أُلف من خطوط
لدى الجليديّة رأسه ثبت ... قاعدة منه على المرئي حوت
تكيّف المشفّ باستحالة ... بكيف ضوء العين بعض قاله
وبانتساب النفس والإشراق ... منها لخارج لدى الإشراقي
وصدر الآراء هو رأي الصدر ... فهو بجعل النفس رأياً يدري
للعضو أعداد إفاضة الصور ... قامت قياماً عنه كالذي استتر

وكيف كان ولو جازت رؤيته تعالى بالأبصار لزم أن يكون جسماً ذا جهة لأنَّ المرئيَّ بالعين يجب أن يكون كثيفاً مقابلاً للرائي. وليس ذلك إلاّ الأشياء الّتي قبلنا، فإذن يلزم تركيبه تعالى وتحديده وافتقاره وغيرها من التوالي الباطلة والمفاسد اللازمة على هذا الرأي السخيف، تعالى الله عما يقول الجاهلون علوّاً كبيراً.

فلمّا كانت البراهين العقليّة تمنعنا عن القول برؤيته تعالى بل برؤية المفارقات مطلقاً سواء كانوا عقولاً أو نفوساً بالأبصار فلا يصحُّ لنا الأخذ بظواهر الأحاديث المرويّة في الرُّؤية بل بظاهر الآيات القرآنيّة الناطقة فيها، وقد نعلم قطعاً أنَّ الله تعالى وحججه ما أرادوا معانيها الظاهرة، ولذلك تصدَّى العقلاء إلى درك معانيها الحقيقيّة وحمل ظاهرها على ما يوافقه

صريح العقل وصحيح النقل.

مثلاً أنهم بيّنوا في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] الّذي تمسّك به الأشعريُّ وأتباعه في القول بالرؤية وجوهاً من المعاني الصحيحة التي تناسب حكم العقل ولا يأبى عنها طباع الآية.

روى الصدوق قدّس سرُّه في الباب الحادي عشر من عيون أخبار الرضا ﷺ بإسناده عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قال عليٌّ بن موسى الرِّضا ﷺ في قول الله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ يعني مشرقة تنتظر ثواب ربّها[(١)].

وقال علم الهدى السيد المرتضى - ره - في كتابه **«غرر الفوائد ودرر القلائد» (ص ١٦ طبع طهران ١٢٧٢هـ)**:

إنَّ أصحابنا قد اعتمدوا في إبطال ما ظنَّ أصحاب الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ على وجوه معروفة، لأنهم بيّنوا أنَّ النظر ليس يفيد الرُّؤية ولا الرُّؤية من أجلِّ محتملاته. ودلّوا على أنَّ النظر ينقسم إلى أقسام كثيرة منها تقليب الحدقة الصحيحة حيال المرئي طلباً لرؤيته، ومنها النظر الّذي هو الانتظار. ومنها النظر الّذي هو التعطّف والرّحمة، ومنها النظر الّذي هو الفكر والتأمل، وقالوا: إذا لم يكن في أقسام النظر الرؤية لم يكن للقول بظاهرها تعلّق واحتجنا جميعاً إلى طلب تأويل الآية من غير جهة الرؤية، وتأوّلها بعضهم على الانتظار للثواب وإن كان المنظر في الحقيقة محذوفاً والمنتظر منه مذكوراً على عادة للعرب معروفة وسلّم بعضهم أنَّ النظر يكون الرؤية بالبصر وحمل الآية على رؤية أهل الجنَّة لنعم الله تعالى عليهم على سبيل حذف المرئي في الحقيقة، وهذا الكلام مشروح في مواضعه وقد بيّنا ما يورد عليه وما يجاب عن الشبهة المعترضة فيه في مواضع كثيرة.

قال: وههنا وجه غريب في الآية حكي عن بعض المتأخّرين - قيل: إنَّ ذلك البعض هو الصاحب بن عباد - لا يفتقر معتمده إلى العدول عن الظاهر أو إلى تقدير محذوف، ولا يحتاج إلى منازعتهم في أنَّ النظر يحتمل الرؤية أو لا يحتملها، بل يصحُّ الاعتماد عليه، سواء كان النظر المذكور في الآية هو الانتظار بالقلب أو الرؤية بالعين، وهو أن يحمل قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ على أنه أراد به نعمة ربّها لأنَّ الآلاء النعم وفي واحدها أربع لغات يقال: ألى مثل قَفا، وإلى مثل مِعى وَأليٌ مثل ظَبيٌ، وَإِليٌ مثل حِسِيٌ: قال الأعشى بكر بن وائلٍ:

(١) عيون أخبار الرضا (ع): ٢/١٠٥، ح ٢، والأمالي: ٤٩٤، ح ٦٧٢.

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحماً ولا يخون إليّ

أراد أنه لا يخون نعمة وأراد تعالى بإلى ربّها نعم ربّها، وأسقط التنوين للإضافة.

قال: فإن قيل: أيُّ فرق بين هذا الوجه وبين تأويل من حمل الآية على أنه أُريد بها إلى ثواب ربّها ناظرة يعني رائيةً لنعمه وثوابه؟

قلنا: ذلك الوجه يفتقر إلى محذوف لأنه إذا جعل إلى حرفاً ولم يعلّقها بالربِّ تعالى فلا بدَّ من تقدير محذوف وفي الجواب الّذي ذكرناه لا يفتقر إلى تقدير محذوف، لأنَّ إلى فيه اسم تتعلّق به الرؤية فلا يحتاج إلى تقدير محذوف غيره، والله أعلم بالصواب، انتهى كلامه رفع مقامه، وذكر البيت الطبرسي ـ ره ـ أيضاً في التفسير واستشهد به بأنّ إلى في الآية اسم مفرد الآلاء.

وجميع الآيات الّتي تمسّك بها الأشاعرة كان من هذا القبيل، وكذا الأخبار الظاهرة في الرؤية، ولو كان خبر ناصّاً في مقصودهم بالفرض لرفضناه ونضربه على الجدار لعلمنا بأنّه موضوع وإلاّ لما خالف العقل والقرآن.

على أنَّ للرّوايات التي تعلّقوا بها أيضاً معاني صحيحة كما سنشير إلى نبذة منها عند شرح الأحاديث الآتية المرويّة عن الأئمة عليهم السلام في إبطال رؤيته تعالى بالأبصار.

ثمَّ إنَّ الأشاعرة سلكوا في قولهم هذا مسلك قولهم في الكلام النفسي حَيث زعموا في ماهيّة كلامه تعالى أنه معنى قديم ليس بحرف ولا صوت ولا أمر ولا نهي ولا خبر ولا استخبار وغير ذلك من أساليب الكلام، لأنهم مع ذهابهم إلى تجردُه تعالى قالوا برؤيته بالأبصار ولكنه يرى لا كما يَرى الأجسام بل يرى وليس فوقاً ولا تحتاً ولا يميناً ـ إلى آخر ما نقلنا من مذهبهم في الرؤية.

ثمَّ إنَّ بعض الأشاعرة لمّا التفتوا إلى سخافة رأي شيخهم في الرؤية تصدّى لحمل كلامه على وجه لعلّه يوافق حكم العقل فقال: ليس مرادنا بالرؤية الانطباع أو خروج الشعاع، بل الحالة الّتي تحصل من رؤية الشيء بعد حصول العلم به.

ومراده من كلامه هذا أنه ليس المراد بالرؤية هو الانكشاف التامّ المسلّم جوازه عند الكلِّ، ولا ارتسام صورة المرئيِّ في العين المسلّم امتناعه عند الكلِّ بل أمر آخر وراء ذلك يسمّونه بالحالة الّتي تحصل من رؤية الشيء بعد حصول العلم كما صرَّح به شارح «**الفصوص**» المنسوب إلى الفارابي، والفخر الرازي في «**المحصّل**» والرجلان من كبار الأشاعرة.

فقال الأوّل (**ص ١٢٦ طبع طهران ١٣١٨هـ**): مذهب أهل الحقّ وهم الأشاعرة أنَّ الله تعالى يجوز أن يرى منزّهاً عن المقابلة والجهة والمكان، وخالفهم في ذلك سائر الفرق، ولا

نزاع للنافين في جواز الإنكشاف التامّ العلمي، ولا للمثبتين في امتناع ارتسام صورة المرئيّ في العين، واتصال الشعاع الخارج من العين بالمرئيّ إنما محلّ النزاع إذا عرّفنا الشمس مثلاً بحدّ أو رسم كان نوعاً من الإدراك، ثمّ إذا بصرناها وغمضنا العين كان نوعاً آخر فوق الأول، ثمّ إذا فتحنا العين يحصل لنا من الإدراك نوع آخر فوق الأوّلين نسمّيها الرؤية ولا يتعلّق في الدُّنيا إلاّ بما هو في جهة أو مكان. فمثل هذه الحالة الإدراكيّة هل يصحُّ أن يقع بدون المقابلة والجهة وأن يتعلّق بذات الله تعالى منزّهة عن الجهة والمكان أم لا فالأشاعرة يثبتونها والمعتزلة وسائر الفرق ينكرونها. انتهى كلامه.

ولا يخفى عليك أنه لم يأت بما يغنيهم وينجيهم من مهالك رأيهم الكاسد، وأورد عليه الفخر في «**المحصّل**» اعتراضات كثيرة مع أنه حرّر البحث أيضاً مثل ذلك الرّجل وقال: محل النزاع ذلك الأمر الآخر لا الأوّلان، واختار آخر الأمر أنّ المعتمد في مسألة الرؤية الدّلائل السمعيّة.

ونقل كلامه وإن كان مفضياً إلى إطناب، ولكن لمّا كان الرَّجل من أعاظم الأشعريّة، وقوله يعتنى به في تقرير ما ذهبوا إليه يعجبني نقله حتّى يعلم منه أنهم لمّا رأوا ركاكة رأي رئيسهم تصدُّوا إلى تحصيل مخلص، فتراهم أنّهم في كلِّ وادٍ يهيمون، فذهب أنّ المراد من الرؤية تلك الحالة، والآخر إلى أنّه الكشف التامُّ، وثالث إلى أنَّ المعتمد الدَّلائل السمعيّة من أنَّ شيخهم أبا الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري اعتقد خلاف ما بيّنوه.

قال الشهرستانيُّ في «**الملل والنحل**» (**ص ٤٥ طبع إيران ١٢٨٨هـ**): ومن مذهب الأشعري أنَّ كلَّ موجود فيصحُّ أن يرى، فإنَّ المصحح للرؤية إنّما هو الوجود، والباري تعالى موجود فيصحُّ أن يرى، وقد ورد السمع بأنَّ المؤمنين يرونه في الآخرة قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ إلى غير ذلك من الآيات والأخبار. قال: ولا يجوز أن تتعلّق به الرؤية على جهة ومكان وصورة ومقابلة واتّصال شعاع أو على سبيل انطباع فإنّ ذلك مستحيل. انتهى قوله.

وأقول؛ إنَّ قول الأشعري يضاهي ما ذهب إليه الملحدون قديماً وحديثاً حيث قالوا: كلُّ ما يرى فهو موجود، فلو كان الله موجوداً كان مرئيّاً، فحيث لم نره فليس بموجود.

على أنّه يرد على الأشعري أنَّ المعاني والمشمومات والمسموعات، وكثيراً من الأجسام كالهواء والفلك وجميع المشفّ الذي ينفذ فيه نور البصر لا تصحُّ أن ترى، اللّهمّ إلاّ أن يقال: إنَّ الرَّجل لمّا كان يعتقد بالإرادة الجزافيّة ويجوّز تخلّف المسبّبات عن الأسباب إلاّ أنَّ عادة الله جرت بإحراق النار وتبريد الماء مثلاً لا أنَّ النار سبب للإحراق، يقول في عدم رؤية تلك الأشياء أيضاً بتخلّفها عن أسبابها وبأنَّ إرادة الله لم تجر برؤيتها.

أمّا كلام الفخر الرازي في «**المحصّل**» فقال (**ص ١٣٧ طبع مصر ١٣٢٣هـ**).

«**مسألة**» الله تعالى يصحُّ أن يكون مرئيّاً، خلافاً لجميع الفرق، أمّا الفلاسفة والمعتزلة فلا إشكال في مخالفتهم، وأمّا المشبّهة والكراميّة فلأنّهم إنما جوّزوا رؤيته لاعتقادهم كونه تعالى في المكان والجهة، وأمّا بتقدير أن يكون هو تعالى منزّهاً عن الجهة فهم يحيلون رؤيته، فثبت أنَّ هذه الرؤية المنزَّهة عن الكيفيَّة مما لا يقول به أحد إلاّ أصحابنا.

وقبل الشروع في الدَّلالة لا بدَّ في تلخيص محلِّ النزاع.

فإنَّ لقائل أن يقول: إن أردت بالرؤية الكشف التّامَّ فذلك مسلّم، لأنَّ المعارف تصير يوم القيامة ضروريّة، وإن أردت بها الحالة الّتي نجدها من أنفسنا عند اتّصال الشعاع الخارج من العين إلى المرئي أو عن حالة مستلزمة لارتسام الصورة أو لخروج الشعاع، وكلّ ذلك في حق الله تعالى محال، إن أردت به أمراً ثالثاً فلا بدَّ من إفادة تصوُّره، فإنَّ التصديق مسبوق بالتصوُّر.

والجواب أنّا إذا علمنا الشيء حال ما لا نراه ثمَّ رأيناه فإنّا ندرك تفرقة بين الحالين. وقد عرفت أنَّ تلك التفرقة لا يجوز عودها إلى ارتسام الشبح في العين، ولا إلى خروج الشعاع منها، فهي عائدة إلى حالة أُخرى مسمّاة بالرؤية فندَّعي أنَّ تعلّق هذه الصفة بذات الله جائز، هذا هو البحث عن محلِّ النزاع، والمعتمد أنَّ الوجود في الشاهد علّة لصحّة الرؤية فيجب أن يكون في الغائب كذلك.

قال: وهذه الدلالة ضعيفة من وجوه:

أحدها أنّ وجود الله تعالى عين ذاته، وذاته مخالف لغيره فيكون وجوده مخالفاً لوجود غيره فلم يلزم من كون وجودنا علّة لصحّة الرؤية كون وجوده كذلك.

سلّمنا أنَّ وجودنا يساوي وجود الله تعالى ومجرَّد كونه وجوداً لكن لا نسلّم أنَّ صحة الرؤية في الشاهد مفتقرة إلى العلّة، فإنّا بيّنا أنَّ الصحَّة ليست أمراً ثبوتيّاً فتكون عدميّة، وقد عرفت أنَّ العدم لا يعلّل.

سلّمنا أنَّ صحَّة رؤيتنا معللة فلم قلت إنَّ العلّة هي الوجود؟ قالوا: لأنّا نرى الجوهر واللّون قد اشتركا في صحَّة الرؤية، والحكم المشترك لا بدَّ له من علّة مشتركة ولا مشترك إلاّ الحدوث والوجود، والحدوث لا يصلح للعلّية، لأنّه عبارة عن وجود مسبوق بالعدم، والعدم نفي محض، والعدم السابق لا دخل له في التأثير فيبقى المستقلّ بالتأثير محض الوجود، فنقول: لا نسلّم أنَّ الجوهر مرئيٌّ على ما تقدَّم.

سلّمناه لكن لا نسلّم أنَّ صحّة كون الجوهر مرئياً يمنع حصولها في اللّون مرئيّاً، فلم لا يجوز أن يقال: الصحّتان نوعان تحت جنس الصحّة؛ تحقيقه أنَّ صحّة كون الجوهر مرئيّاً يمتنع حصولها في اللَّون، لأنَّ اللّون يستحيل أن يرى جوهراً والجوهر يستحيل أن يرى لوناً، وهذا يدلُّ على اختلاف هاتين الصحّتين في الماهية.

سلّمنا الاشتراك في الحكم فلم قلت: إنه يلزم من الاشتراك في الحكم الاشتراك في العلّة؟ بيانه ما تقدّم من جواز تعليل الحكمين المتماثلين بعلّتين. مختلفتين.

سلّمنا وجوب الاشتراك فلم قلت: إنه لا مشترك سوى الحدوث والوجود وعليكم الدلالة. ثمَّ نذكره وهو الإمكان ولا شكَّ أنَّ الإمكان مغاير للحدوث فإن قلت: الإمكان عدميٌّ قلت: فإمكان الرؤية أيضاً عدميٌّ؛ ولا استبعاد في تعليل عدميّ بعدميّ.

سلّمنا أنه لا مشترك سوى الحدوث والوجود فلم قلت: إنَّ الحدوث لا يصلح قوله لأنه عبارة عن مجموع عدم ووجود؟ قلنا: لا نسلّم بل هو عبارة عن كون الوجود مسبوقاً بالعدم ومسبوقيّة الوجود بالعدم غير نفس العدم، والدَّليل عليه أنَّ الحدوث لا يحصل إلاّ في أوَّل زمان الوجود، وفي ذلك الزمان مستحيل حصول العدم فعلمنا أنَّ الحدوث كيفية زائدة على العدم.

سلّمنا أنَّ المصحّح هو الوجود فلم قلت: إنه يلزم من حصوله في حقّ الله تعالى حصول الصحّة فإنَّ الحكم كما يعتبر في تحققّه حصول المقتضي يعتبر فيه أيضاً انتفاء المانع، فلعلَّ ماهيّة الله تعالى أو ماهيّة صفة من صفاته ينافي في هذا الحكم وممّا يحقّقه إنَّ الحياة مصحّحة للجهل والشهوة، ثمَّ إنَّ حياة الله تعالى لا تصحّحها إمّا لأنَّ الاشتراك ليس إلاّ في اللفظ، أو اشتراكاً في المعنى لكن ماهيّة ذات الله تعالى وماهيّة صفة من صفاته ينافيهما، وعلى التقديرين فإنه يجوز في هذه المسألة ذلك أيضاً.

سلّمنا أنه لم يوجد المنافي لكن لم لا يجوز أن يكون حصول هذه الرؤية في أعيننا موقوفاً على شرط يمتنع تحقّقه بالنسبة إلى ذات الله تعالى، فإنّا لا نرى المرئيَّ إلاّ إذا انطبعت صورة صغيرة متساوية للمرئي في الشكل في أعيننا، وفي المحتمل أن يكون حصول الحالة المسمّاة بالرؤية مشروطاً بحصول هذه الصورة أو كان مشروطاً بحصول المقابلة، ولمّا امتنع حصول هذه الأمور بالنسبة إلى ذات الله لا جرم امتنع علينا أن نرى ذات الله تعالى.

والمعتمد في المسألة الدّلائل السمعيّة:

أحدها أنَّ رؤية الله تعالى معلّقة باستقرار الجبل وهو ممكن والمعلّق على الممكن ممكن فالرؤية ممكنة.

وثانيها أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الرؤية ولو لم تكن الرؤية جائزة لكان سؤال موسى عبثاً أو جهلاً.

وثالثها قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ انتهى ما أردنا من نقل كلامه في المسألة.

فعلمت أنه صرّح بأنَّ المراد بالرؤية عند الأشعري وأتباعه ليس الانكشاف التام، ولا ارتسام صورة المرئي في العين، لعدم الخلاف في صحّة الأوّل وبطلان الثاني بل المراد تلك الحالة الإدراكية الّتي فسّرت.

ولمّا كان هذا المعنى أيضاً غير مستقيم بوجوه أُشير إلى بعضها عدل عنه الفخر وتمسّك بظاهر الآيات الثلاث، مع أنها لا تدلُّ على مرادهم.

والعجب من الفخر كيف اعتمد على الآيات في إفادة ذلك المعنى الذي يأبى عنه العقل والنقل أيضاً كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٤] وكيف تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير، وفي كلمة اللّطيف في المقام لطائف يفهمها من كان له قلب.

نعم الوجه الأوّل الّذي بيّنه بعض آخر منهم من أنَّ معنى الرؤية عندهم الكشف التامّ أي ينكشف لعباده المؤمنين في الآخرة انكشاف البدر المرئي متين غاية المتانة، لما علمت آنفاً من أنَّ الدُّنيا دار شكوك وارتياب، فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد ما يزول به الشكوك.

قال بعض المحقّقين كما نقل المولى صدرا عنه في الفصل الرابع من الموقف السابع من السفر الرابع من الأسفار:

إنَّ الإنسان ما دام في مضيق البدن وسجن الدُّنيا مقيّداً بقيود البعد ومكان وسلاسل الحركة والزمان، ولا يمكنه مشاهدة الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة على وجه التمام ولا يتلوها دفعة واحدة إلاّ كلمة بعد كلمة، وحرفاً بعد حرف، ويوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

فيتلو آية ويغيب عنه أُخرى، فيتوارد عليه الأوضاع، ويتعاقب له الشؤون والأحوال، وهو على مثال من يقرأ طوماراً وينظر إلى سطر عقيب آخر، وذلك لقصور نظره وقوّة إداركه عن الإحاطة بالتمام دفعة واحدة قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

فإذا قويت بصيرته تكحّلت عينه بنور الهداية والتوفيق كما يكون عند قيام الساعة فيتجاوز نظره عن مضيق عالم الخلق والظلمات إلى عالم الأمر والنور فيطالع دفعة جميع ما في هذا الكتاب الجامع للآيات من صور الأكوان والأعيان كمن يطوى عنده السجلُّ الجامع

للسطور والكلمات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

وإنّما قال بيمينه لأنَّ أصحاب الشمال وأهل دار النكال ليس لهم نصيب في طيّ السماء بالقيام إليهم وفي حقّهم غير مطويّة أبداً، لتقيّد نفوسهم بالأمكنة والغواشي كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤٢].

فلو كانت الأشاعرة عنوا من قولهم هذا المعنى أعني ذلك الكشف التامّ الذي بيّنه ذلك البعض، فنعم الوفاق، وإلاّ فلا يتصوّر منه إلاّ الرؤية بالبصر وهو باطل عقلاً وسمعاً، ولكن قد عرفت أنَّ هذا المعنى اللّطيف الصحيح ليس بمراد الأشعري وأتباعه كما صرَّح به الرّجلان والشهرستاني في «الملل» وغيرهم.

ثمَّ إنَّ حمل الحائطيّة والحدثيّة خبر رؤية الباري تعالى مثل قوله ﷺ: «إنّكم سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»[1] وأشباهه على رؤية العقل الأوَّل كما نقل عنهما الشهرستانيُّ في «الملل» على ما قدّمنا آنفاً فليس بصحيح أيضاً.

وذلك لأنهما حملا كلمة الربِّ في الحديث على العقل الأوَّل من حيث إنه مربّ لما دونه من الموجودات وهذا لا بأس به كما برهن في محلّه أنَّ لكلِّ نوع من الأمور الّتي تلينا فرداً مجرَّداً عقلانيّاً على صورته يسمّى ربُّ ذلك النوع وهو تعالى ربُّ أرباب النوعيّات، ولكنّهما أخطأا في هذا الرأي أيضاً من حيث إنهما اختاراه حذراً من الإشكال الوارد على ظاهر الحديث أعني ما يتبادر إليه الذِّهن من أنَّ كلمة الرَّبِّ هو الله تعالى ربُّ العالمين وقد كرّا إلى ما فرّا منه، لأنَّ العقل الأوَّل لا يمكن رؤيته بالأبصار، لأنه من الموجودات النوريّة المحضة والمجرَّدات الصرفة، والمفارقات مطلقاً سواء كانوا عقولاً أو نفوساً لا يمكن رؤيتهم بالأبصار، لأنّهم ليسوا بجسمٍ ولا جسمانيّ، وليس لهم جهة وكثافة وثقل وغيرها من أوصاف الجسم.

على أنَّ الأجسام المشفّة وكثيراً من الأعراض مع كونها في جهة لا ترى وحكم بما أشرنا إليه العقل وعاضده الشرع، فقد قام البرهان على أنَّ الصادر الأوَّل لا يكون إلاّ عقلاً، والعقل لا يكون إلا مجرَّداً. وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الاحزاب: ١٠].

---

(١) المجازات النبوية: ٤٧، ح ٢٧، وعوالي اللئالي: ١/٤٨.

والجنود في الآيات الملائكة، وذلك أنّ الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

ومن تلك المواطن بدر وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢١ ـ ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ١٠].

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام حين سئل عن العالم العلوي: «صور عارية عن الموادّ، خالية عن القوّة والاستعداد، تجلّى لها فأشرقت، وطالعها فتلألأت، ألقى في هويّتها مثاله، وأظهر عنها أفعاله»[١] الحديث.

وهذه الصور قد يعبّر عنها بالعقول، وقد يعبّر عنها بالملائكة، وإذا كانوا عارين عن الموادّ لا يمكن رؤيتهم بالأبصار، لما أشرنا إليه آنفاً من أنّ المرئيّ بالبصر يجب أن يكون ماديّاً كثيفاً، وقد قدّمنا في المباحث السابقة نبذة من الكلام في ذلك (**راجع ص ٧٩ ج ٢ من التكملة**).

وأمّا جواب الأقوال الّتي نقلها الشهرسانيُّ من أنّ داود الجواري ذهب إلى أنّ معبوده جسم ولحم ودم ـ إلخ، وأنّ مضر وكهمش والهجيمي أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وأنّ المخلصين يعانقونه في الدّارين وغيرهما من أقوال المشبّهة فهو أنّهم شبّهوه تعالى بأنفسهم.

على حذو ما أفاده مولانا الإمام الخامس محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام: «هل سمّي عالماً قادراً إلاّ لما وهب العلم للعلماء، والقدرة للقادرين؟ وكلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم»[٢].

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام: «كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق

(١) الصراط المستقيم: ١/ ٢٢٣، وبحار الأنوار: ٤٠/ ١٦٥.

(٢) بحار الأنوار: ٦٦/ ٢٩٢، والرواشح السماوية: ١٣٣.

مصنوع مثلكم مردود إليكم، ولعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ لله سبحانه زبانتين، فإنّ ذلك كمالها، وتتوهّم أنّ عدمهما نقصان لمن لا يتّصف بهما، وهكذا حال العقلاء فيما يصفون الله سبحانه وتعالى به[1].

وأمّا الروايات الموعودة فقد رويت عن أئمّتنا المعصومين ﷺ في إبطال رؤيته تعالى بالأبصار مطلقاً روايات لطيفة دقيقة لو تأمّل فيها من كان له قلب سليم وسرٌّ نقيٌّ علم أنّ تلك الدّقائق الحكميّة والمعارف الحقّة الإلٰهيّة، والإشارات التوحيديّة والأصول الكليّة العقليّة الّتي لم تبلغ إليها أفكار أوحدي الناس في تلك الأعصار فضلاً عن غيرهم، ولا يدركها الراسخون في العلوم الإلٰهيّة والمعارف العقليّة إلاّ بعد تلطيف سرّ، وتصفية فكر، وتجريد ذهن، ومدد سماويّ إنما فاضت من سماء صدور الّذين هم المستضيئون بأنوار الرّحمٰن، والعارفون ببطون القرآن، والعالمون بالعلوم اللّدنيّة المستفاضة من لدن مبدأ العالم عليهم وهم الذين فتحوا أبواب الاستدلال العقلي على العلوم الربوبيّة.

والمتضلّع في أقوال علماء الشرع ومباحثهم الكلاميّة المنقولة من الخاصّة والعامّة على أنّ قصارى استدلالهم على أصول العقائد وغيرها كانت مقصورة بمفاهيم الآيات والأحاديث الظاهرة ولم يعهد منهم إقامة نحو تلك البراهين العقليّة المأثورة عن آل محمّد ﷺ.

فعليك بما رواه عنهم ثقة الإسلام أبو جعفر الكليني في «**الكافي**»، والشيخ الأجلُّ الصدوق في «**التوحيد والأمالي**»، والشيخ الجليل الطبرسيُّ في «**الاحتجاج**»، وبما استنبط منها المتألّهون من مطالب عرشيّة رقيقة، ونكات عقليّة أنيقة مما يضيء العقل ويقويه ويحييه.

إذا شئت أن ترضى لنفسك مذهباً وتعرف صدق القول من كذب أخبار

فوالِ أُناساً قولهم وحديثهم روى جدُّنا عن جبريل عن الباري

ودونك شرح الحكيم المتألّه المولى صدر الشيرازي، وشرح الحكيم المولى محمّد صالح المازندراني، وشرح الحكيم الفيض في «**الوافي على أصول الكافي**» وشرح الحكيم القاضي السعيد القمي على كتاب «**التوحيد**» للصّدوق، وشروح غيرهم من فحول العلماء على «**الكافي والتوحيد**» وغيرهما ممّا رويت عن أئمّتنا الطاهرين حتى يتبين لك أنّ المعارف الحقّة في الأصول الاعتقاديّة هي الّتي أفادوها وبيّنوها لأهلها، وأنّ من حاد عنها فقد سلك طريقة عمياء قاده الهوى إليها، وأطاع الوهم فأضلّه الجادّة الوسطى وأنّ من عزى إلى الإماميّة غير ما هداهم إليها أئمّتهم فقد افترى.

(١) بحار الأنوار: ٦٦/ ٢٩٣، ونور البراهين: ١/ ٩٣.

فقد يخلق بنا الآن أن نذكر عدَّة روايات في ذلك الموضوع المعنون ونفسّرها بقدر الوسع على الإيجاز والاختصار، دون التطويل والإكثار عسى أن ينفع طالب الرَّشاد وباغي السداد فنقول وبالله التوفيق وعليه التكلان:

إنَّ الكلينيَّ قدّس سرُّه قد نقل في الباب التاسع من كتاب «**التوحيد**» من جامعة «**أُصول الكافي**» المترجم بباب إبطال الرؤية أحاديث عنهم عليهم السلام وأتى بطائفة منها الصّدوق قدّس سرُّه في «**التوحيد والأمالي**»، والشيخ الجليل الطبرسي - ره - في «**الاحتجاج**»، والعلاّمة المجلسي في «**البحار**»، ونحن اخترنا منها ما نوردها ههنا ونبحث عن معانيها ونكشف القناع عن دقائقها ولطائفها بعون الله تعالى.

«الحديث الأول»

وهو الحديث الرابع من ذلك الباب من «**الكافي**» رواه بإسناده عن أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس، فكتب عليه السلام: «لا يجوز الرؤية ما لم يكن الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصحُ الرؤية، وكان في ذلك الاشتباه، لأنَّ الرائي متى ساوى المرئيَّ في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه وكان ذلك التشبيه لأنَّ الأسباب لا بدَّ من اتّصالها بالمسبّبات»[1].

وروى الحديث أحمد بن إدريس، عن أبيه، عن أحمد بن إسحاق أيضاً، وبينهما اختلاف في الجملة وعلى ما في «**التوحيد**»: قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام عن الرؤية وما فيه الناس - فإذا انقطع الهواء وعدم الضياء بين الرائي - وكان في ذلك التشبيه - إلخ. وقال المجلسيُّ - ره - وفي «**مرآة العقول**»: وفي بعض النسخ لم ينفذه البصر[2].

ورواه أيضاً الشيخ الجليل الطبرسي في «**الاحتجاج**» عن أحمد بن إسحاق عنه عليه السلام: قال: كتبت إلى أبي الحسن عليِّ بن محمّد عليه السلام أسأله عن الرؤية وما فيه الخلق، فكتب عليه السلام: «لا يجوز الرؤية، وفي وجوب اتّصال الضياء بين الرائي والمرئي وجوب الاشتباه، والله ميّزه عن الاشتباه، فثبت أنه لا يجوز على الله تعالى الرؤية بالأبصار، لأنَّ الأسباب لا بدّ من اتّصالها بالمسبّبات»[3].

---

(١) الكافي: ١/٩٧، ح ٤، والتوحيد: ١٠٩، ح ٧.

(٢) الكافي: ١/٩٧، ح ٤، وشرح أصول الكافي: ٣/١٧٣، ح ٤.

(٣) الكافي: ١/٩٧، ح ٤، والتوحيد: ١٠٩، ح ٧.

أقول: يعلم من عقد ذلك الباب في **«الكافي»** و**«التوحيد»** و**«في الغرر والدُرر»** للشريف المرتضى علم الهدى، وفي **«أوائل المقالات»** للشيخ الأجلّ المفيد، وفي غيرها من الكتب الكلاميّة والرّوائيّة، ومن سؤال الناس الأئمّة عليهم السلام عن الرؤية سيما من سؤال محمّد بن عبيد أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الرؤية وما ترويه العامّة والخاصّة ومن سؤال عبد السلام بن صالح الهروي عنه عليه السلام رواه الطبرسي في **«الاحتجاج الصدوق»** في أوّل الباب الحادي عشر من عيون أخبار الرضا عليه السلام قال: قلت لعليِّ بن موسى الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث أنّ المؤمنين يزورون ربّهم إلخ[1].

ومن سؤال أحمد بن إسحاق أبا الحسن الثالث عليه السلام عن الرؤية ما اختلف فيه النّاس وغيرها ممّا سيأتي طائفة منها وبيانها أنَّ البحث عن الرؤية كان دارجاً ورائجاً في تلك الأعصار جدّاً.

قال القاضي نور الله نوَّر الله مرقده في المجالس عند ترجمة إسماعيل بن عليٍّ بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت البغدادي نقلاً عن النجاشي كتاباً في استحالة رؤية القديم.

اغترّ كثير من الناس بظاهر الآيات والأخبار، وتفنّنت الآراء فيها وكان محضر الأئمّة مختلف الناس يسألونهم عن الرؤية وكان الإمام عليه السلام يقودهم إلى الصراط السويّ، ويهديهم إلى مناهج الصدق ببراهين متقنة متفنّنة على حسب اختلاف عقول الناس ووسعهم.

ثمَّ لمّا كان ذلك البحث دائراً ومال غير فرقة إلى التشبيه والرؤية بالأبصار وكانت فطرة الناس السليمة تأبى عن قبول الرؤية والتشبيه وأشباههما التجأوا إلى الأئمّة الهداة المهديّين لعلمهم بأنهم عليهم السلام خزنة علمه تعالى وعيبة وحيه، وبأنَّ عندهم مفاتيح الحكمة وعلم الكتاب وفصل الخطاب، فتبصّر ثمَّ استقم.

أبو الحسن الثالث هو الإمام العاشر عليٌّ بن محمّد الهادي العسكري عليه السلام كما في رواية الطبرسي في **«الاحتجاج»**.

وأحمد بن إسحاق بن سهل القمي كان ثقة قال الكشيُّ في **«الرجال»**: إنه عاش بعد وفاة أبي محمّد (**الحسن بن عليٍّ العسكريّ** عليه السلام).

سأله عليه السلام عن الرؤية هل يجوزها أم لا وعمّا اختلف فيه الناس من جوازها عند بعض واستحالتها عند آخر، والمراد أنه سأله عليه السلام عن المذهب الحقّ في ذلك فكتب عليه السلام إليه بأنَّ رؤيته تعالى بالأبصار مستحيلة، لأنَّ الرؤية تلازم تجسّم الباري وتحيّزه، وذلك لأنَّ الرؤية

(١) عيون أخبار الرضا (ع): ٢/١٠٥، ح ٣، والأمالي: ٥٤٥، ح ٨٢٨.

إنما تتحقّق إذا كان بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي بأن وقع بينهما حائل مثلاً لم تصحُّ الرؤية، فإذاً لا بد أن يكون المرئي شبيهاً بالرائي من حيث أنهما وقعا في طرفي امتداد فاصل هو الهواء وتحقّق بينهما الوضع بمعنى تمام المقول على هيئة مخصوصة لازمة للإبصار.

والمراد بالاشتباه هو هذا المعنى في المقام أي كون المرئي شبيهاً بالرائي في تلك الصفات الخاصّة بالأجسام من الوضع والمحاذاة والتقابل والطرف والجهة وغيرها يقال: اشتبه الشيئان إذا أشبه كلٌّ منهما الآخر، وكان ذلك الاشتباه تشبيهه تعالى بالأجسام وهو منزّه عن ذلك فلا تدركه الأبصار.

وإنّما يجب في الرؤية واسطة الهواء بين الرائي والمرئي وكونهما طرفي الواسطة بحيث يساوي أي يسامت الرائي المرئي، وذلك كلّه يكون موجباً لكون المرئي شبيهاً بالأجسام، لأنَّ الهواء المتوسط سبب للرؤية، وهي سبب لمسامتة الرائي والمرئي في طرفي الواسطة، والمسامتة سبب لكون كل منهما في حيّز وجهة فهي أسباب لوجوب المشابهة بينه تعالى والأجسام، والأسباب لا بدّ أن تكون متصلة بمسبّباتها غير منفكّة عنها.

وبالجملة إنه عليه السلام احتجَّ على بطلان رؤيته تعالى بالأبصار بقياسين: أحدهما للرائي، وكلمّا كان كذلك فهو جسم، ينتج كلّما كان الشيء مرئيّاً بالأبصار فهو جسم، ثمَّ نقول: لو كان الله تعالى مرئيّاً بالأبصار فهو جسم، لكنّه ليس بجسم فليس بمرئيّ.

إن قلت: قد يرى الأشياء وهي أو الرائي تحت الماء الصافية فليس بينهما إلاّ ماء ينفذها نور البصر، وليس من شروط الإبصار أن يكون الواسطة هواء ليس إلاّ فكيف قال عليه السلام: ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر؟

أقول: المذهب المنصور في الإبصار سواء كان بخروج الشعاع أو الانطباع أو غيرهما أنه لا بدّ من توسّط جسم شفاف كما سيأتي برهانه، وأمّا كونه هواءً فقط فليس بواجب ولكن لمّا كان أكثر ما يبصر بالقوّة الباصرة إنّما كان الهواء بينهما متوسّطاً وكان أنس الناس به آكد لهج به عليه السلام على سبيل ذكر مصداق لا على سبيل الانحصار.

وذهب بعض أعاظم العصر إلى أنَّ الهواء في الحديث ليس الهواء الّذي هو أحد العناصر حيث قال: الهواء في لغة العرب هو الخلاء العرفي قال الله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي خالية من العقل والتدبّر، وقال جرير: ومجاشع قصب هوت أجوافه أي خلت أجوافه، وفي «**الصحاح**» كلُّ خال هواء، وهذا هو المراد هنا لا الهواء المصطلح للطبيعيّين وهو جسم شفّاف كما حمله عليه صدر المتألّهين قدّس سرُّه وهذا الهواء الّذي هو جسم رقيق عند العرف

بمنزلة العدم.

والحاصل: أنه لا بد للرؤية من فاصلة بين الرائي والمرئي، ويتحقّق الفاصلة بعدم وجود جسم كثيف، والأجسام الفلكيّة غير مانعة للرؤية لأنّها أشفّ وأرقّ من هذا الهواء المكتنف للأرض، فهي بمنزلة الهواء فيكون الهواء في لغة العرب أقرب من البعد المفطور الّذي يقول به بعض الفلاسفة، انتهى موضع الحاجة في نقل كلامه.

أقول: لا كلام في أنَّ الهواء أحد معانيه ما ذكره كما قدَّمنا البحث عن ذلك في شرح الكتاب السابع، ولكن ليس هذا المعنى بمراد في الحديث، لبطلان الخلاء أوّلاً، وعدم تحقّق الرؤية بلا واسطة جسم شفاف بين الرائي والمرئي ثانياً وإن ذهب بعض إلى أنَّ الواسطة كلّما كانت أرقّ كانت الرؤية أولى وأسرع كالمرئي في الهواء والماء ثمَّ قال بالقياس فلو كانت الواسطة خلاء محضاً لكانت الرؤية أكمل لكن حجّته داحضة والحقّ أنَّ في الرؤية لا بدّ من توسّط جسم شفّاف كما اختاره الحكيم المولى صدراً قدّس سرُّه في آخر الباب الرابع من السفر الرابع من الأسفار، وأقام فيه برهاناً بما لا مزيد عليه حيث قال:

«**فصل**» في أنه لا بدّ في الإبصار من توسط الجسم الشفّاف، واعلم أنَّ الحجة على ذلك أنَّ تأثير القوى المتعلقة بالأجسام في شيء وتأثرها عنه لا يكون إلاّ بمشاركة الوضع ومنشأ ذلك أنَّ التأثير لا يكون إلاّ بين شيئين بينهما علاقة عليّة ومعلوليّة، وهذه العلاقة متحقّقة بالذات بين القوة وما يتعلّق به من مادّة أو موضوع أو بدن، لأنَّها إمّا علّة ذاته أو علّة تشخصه أو كماله، ومتحقّقة بالعرض بينها وبين ما له نسبة وضعيّة إلى ذلك المتعلّق به، فإنَّ العلاقة الوضعيّة في الأجسام بمنزلة العلاقة العلّيّة في العقليّات إذ الوضع هو بعينه نحو وجود الجسم وتشخّصه فإذا كان الجسمان بحيث يتجاوران بأن يتّصل طرفاهما فكأنَّهما كانا جسماً واحداً فإذا وقع تأثير خارجيٌ على أحدهما فيسري ذلك التأثير إلى الآخر كما تسخَن بعض جسم بالنار فإنه يتسخَن بعضه الآخر أيضاً بذلك التسخين، كما استضاء سطح أحدها بضوء النيّر يستضيء سطح آخر وضعه إلى الأوّل كوضعه إلى ذلك النيّر.

وإنما قيّدنا التأثير بالخارجي لأنَّ التأثير الباطني الّذي لا يكون بحسب الوضع لا يسري فيما يجاور الشيء.

فإذا تقرَّرَ هذا فتقول: إنَّ الإحساس كالإبصار وغيره هو عبارة عن تأثّر القوى الحاسّة من المؤثّر الجسماني، وهو الأمر المحسوس الخارجي فلا بد ههنا من علاقة وضعيّة بين مادّة القوّة الحاسّة وذلك الأمر المحسوس، وتلك العلاقة لا يتحقّق بمجرَّد المحاذاة من غير توسّط جسم ماديّ بينهما إذ لا علاقة بين أمرين لا اتّصال بينهما وضعاً ولانسبة بينهما طبعاً، بل العلاقة إمّا ربط عقليٌّ، أو اتّصال حسّيٌّ فلا بدّ من وجود جسم واصل بينهما.

وذلك الجسم إن كان جسماً كثيفاً مظلماً تسخّن فليس هو في نفسه قابلاً للأثر النوري فكيف يوجب ارتباط المبصر بالبصر أو ارتباط المنير بالمستنير فإن الرابط بين الشيئين لا بدَّ وأن يكون من قبلهما، لا أن يكون منافياً لفعلهما، فإذاً لا بدَّ أن يكون بينهما جسم مشفّ غير حاجز ولا مانع لوقوع أحد الأثرين أعني النور من النيّر إلى المستنير أو من البصر إلى المبصر أو تأدية الشبح من المبصر إلى البصر.

فعلى هذا يظهر فساد قول من قال: المتوسّط كلّما كان أرقّ كان أولى، فلو كان خلاء صرفاً لكان الإبصار أكمل حتى يمكن إبصارنا النملة على الصّماء.

لا بما ذكروه في جوابه بأنَّ هذا باطل فليس إذا أوجب رقّة المتوسّط زيادة قوّة في الإبصار لزم أن يكون عدمه يزيد أيضاً في ذلك، فإن الرقّة ليست طريقة إلى عدم الجسم لأنَّ اشتراط الرقّة في الجسم المتوسّط كان لأجل أن لا يمنع نفوذ الشعاع فصحَّ أنه إذا كان رقّة الجسم منشأ سهولة النفوش كان عدم الجسم فيما بين أولى في ذلك وكانت الرقّة على هذا التقدير طريقاً إلى العدم.

بل فساده لأنه لو لم يكن بين الرائي والمرئي أمر وجوديٌّ متوسّط موصل رابط لم يكن هناك فعل وانفعال.

فإن قلت: إنَّ الشيخ اعترف بأنَّ هذا النوع من الفعل والانفعال لا يحتاج إلى ملاقاة الفاعل والمنفعل، فلو قدّرنا الخلاء بين الحاسِّ والمحسوس فأيُّ محال يلزم من انطباع صورة المحسوس في الحاسِّ، بل الخلاء محال في نفسه والملاء واجب.؟

قلنا: إنَّ ملاقاتهما، وإن لم يكن واجباً لكن يجب مع ذلك إمّا الملاقاة وإمّا وجود متوسّط جسمانيّ بينهما يكون مجموع المتوسط والمنفعل في حكم جسم واحد بعضه يقبل التأثير لوجود الاستعداد به، وبعضه لا يقبل لعدم الاستعداد فلو فرض أن ليس بين النار والجسم المتسخّن جسم متوسّط لم يتحقّق هناك تسخين وتسخّن، لعدم الرابطة، وكذا لو لم يكن بين الشمس والأرض جسم متوسّط لم تقبل الأرض ضوء ولا سخونة، انتهى كلامه رفع مقامه.

وقد أشار إلى هذا البرهان إجمالاً العلامة الخواجة نصير الدين الطوسي في شرحه على أواخر النمط الثاني من «**الإشارات**» للشيخ الرئيس بقوله: الأجسام العنصريّة قد تخلو عن الكيفيّات المبصرة والمسموعة والمشمومة والمذوقة والسبب في ذلك أنَّ إحساس الحواسّ الأربعة بهذه المحسوسات إنما يكون بتوسّط جسم مَا كالهواء والماء ـ إلخ.

ولعمري أنَّ هذا كلام صدر من معدن تحقيق وفاض من عين صافية، وعليه جلُّ علماء

هذه الأعصار من إفرنج وغيره أيضاً، حيث ذهبوا بأنّ الإتر هو حامل النور من الشمس والقمر والكواكب، وهو منفوش بين السماء والأرض، فإذا أصاب النور الأجسام كالأرض مثلاً ينكسر قهراً. والانكسار مولّد للحرارة كما اختاره الرياضيّون من سالف الدّهر.

وبالجملة لو لم يكن بين الرائي والمرئي متوسّط مشفٌّ لا يمكن الرؤية، والمتوسّط إمّا هواء أو إتر أو غيرها، والمخالف مكابر.

ثمَّ إنَّ قوله عليه السلام: «الأسباب لا بدَّ من اتّصالها بالمسبّبات». حكم كلّيٌّ أصيل عقليٌّ ردٌّ على من زعم أنّ القول بتأثير الأسباب والوسائط في كونه تعالى مستغنياً عن غيره، ويفضي إلى إنكار معجزات الأنبياء عليهم السلام والشرك بالله تعالى وغيرها من الأوهام الباطلة.

كما ذهب إليه الأشاعرة وقالوا: إنَّ استناد الآثار الصادرة عن الإنسان وعن الطبائع وغيرها من الممكنات جميعاً إلى واجب الوجود ابتداء من غير واسطة حتّى تسخين النار وتبريد الماء، فلا النار سبب للإحراق ولا الماء للتبريد ولا الفكر لتحصيل النتيجة وهكذا الكلام في سائر الأسباب فيقول بجواز تخلّف الإحراق عن النار والتبريد عن الماء والنتيجة عن المقدّمات الفكريّة إلاّ أنَّ عادة الله جرت بترتّب الآثار الأصليّة عنها من غير تأثير لشيء منها فيها.

والعقل بفطرته الأصليّة يكذّب هذا القول وينفر عنه والكلمات الإلٰهيّة تنادي بأعلى صوتها بشناعته، والموحّد مع أنه يرى الكلَّ من الله تعالى ويقول بحقائق الإيمان: ليس المؤثّر في الوجود إلاّ الله، يقول: أبى الله أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، ويرى ما سواه معدّات مسخّرات بأمره تعالى، والمؤثر في الحقيقة هو تعالى ومع ذلك يقول: لا يجوز تخلّف المسبّبات عن الأسباب، ونعم ما قاله الحكيم السبزواري في «**اللآلىء المنتظمة**» عند الأقوال في نتيجة القياس:

والحقُّ أن فاض من القدسي الصور وإنّما إعداده من الفكر

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، فهو تعالى أرسل الرّياح ثمّ أسند إليها أنها تثير سحاباً.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧].

والآيات الإلٰهيّة من هذا القبيل كثيرة، والمخالف يخالف فطرته ويكذّبها ونعم ما قيل:

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

«الحديث الثاني»

وهو الثاني من ذلك الباب من **«الكافي»** أيضاً روى الكلَينيُّ قدّس سرُّه عن أحمد بن إدريس، عن محمّد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدِّث أن أُدخله إلى أبي الحسن الرِّضا عليه السلام، فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه، فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتّى بلغ سؤاله إلى التوحيد فقال أبو قرة: إنّا روّينا أنَّ الله قسّم الرؤية والكلام بين نبيّين، فقسّم الكلام لموسى ولمحمد الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: «فمن المبلّغ عن الله إلى الثقلين من الجنّ والإنس لا تدركه الأبصار ولا يحيطون به علماً وليس كمثله شيء، أليس محمد؟» قال: بلى، قال: «كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله فيقول: لا تدركه الأبصار ولا يحيطون به علماً وليس كمثله شيء ثمَّ يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر، أما تستحيون ما قدرت الزنادقة أن ترميه عليه السلام بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيء ثمَّ يأتي بخلافه من وجه آخر»[١].

ثمَّ قال أبو قرة: فإنه تعالى يقول: ﴿لقد رآه نزلة أخرى﴾ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنَّ بعد هذه الآية ما يدلُّ على ما رأى حيث قال: «ما كذب الفؤاد ما رأى» يقول ما كذب فؤاد محمّد صلى الله عليه وآله ما رأت عيناه. ثمَّ أخبر بما رأى فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ فآيات الله غير الله، وقد قال الله: ولا يحيطون به علماً، فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم ووقعت المعرفة».

فقال أبو قرة: فنكذّب بالروايات؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذّبتها وما أجمع المسلمون عليه أنّه لا يحاط به علماً ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء»[٢]، انتهى الحديث على ما في **«الكافي»**.

أقول: روى الحديث أبو جعفر محمّد بن بابويه الصدوق في باب ما جاء في الرؤية من كتابه في **«التوحيد»** قال: حدّثنا عليُّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقاق قال: حدّثنا محمّد بن يعقوب الكليني، عن أحمد بن إدريس ـ إلخ، وفيه: بين اثنين مكان بين نبيّين. إلى الثقلين الجنّ والإنس، ليس فيه كلمة من الجارّة. قال: فكيف يجيء رجل، مع كلمة الفاء،

---

(١) الكافي: ١/٩٦، والتوحيد: ١١١.

(٢) الكافي: ١/٩٦، ح ٢، والتوحيد: ١١١.

ويقول لا تدركه، مكان فيقول لا تدركه، يأتي عن الله بشيء مكان يأتي من عند الله بشيء، كذبت بها مكان كذبتها وما اجتمع المسلمون مكان وما أجمع المسلمون.

وكذا رواه الطبرسي في **«الاحتجاج»** وبين النسخ اختلاف في الألفاظ في الجملة والحديث على ما في **«الكافي والتوحيد»** يكون على مقدار خمس ما في الأخير.

وقد صرَّح الشيخ الطبرسي في **«الاحتجاج»** بأنَّ أبا قرة المحدِّث صاحب شبرمة وقد مضى **(في شرح المختار ٢٣٧)** في البحث الروائي عن الأخبار الناهية عن العمل بالقياس في الدين أنَّ عبد الله بن شبرمة القاضي كان يعمل بالقياس، وقال أبو عبد الله عليه السلام: «ضلَّ علم ابن شبرمة عند الجامعة»[1] إلخ.

ولكن ابن شبرمة هذا لم يدرك أبا الحسن الرضا عليه السلام قال المحدِّث القمي ـ ره ـ في مادَّة شبرم من السفينة: ابن شبرمة هو عبد الله البجلي الكوفي الضبّي كان قاضياً لأبي جعفر المنصور على سواد الكوفة وكان شاعراً توفي سنة ١٤٤هـ.

وقال الأستاذ الشعراني في تعليقته علي شرح المولى صالح المازندراني على **«أُصول الكافي»**: أبو قرة وشبرمة كلاهما مجهولان وليس عبد الله بن شبرمة المتوفي سنة ١٤٤هـ على عهد الصادق عليه السلام لأنه لم يدرك الرضا عليه السلام، وقد ذكر ابن حجر في **«التقريب»** موسى بن طارق القاضي المكنى بأبي قرة من الطبقة التاسعة وهو معاصر للرضا عليه السلام فلعله هو. انتهى كلامه مدَّ ظله.

ونقل في شرح المذكور عن بعض الأصحاب أنَّ أبا قرة هذا هو عليُّ بن أبي قرة أبو الحسن المحدِّث رزقه الله تعالى الاستبصار ومعرفة هذا الأمر أخيراً، ثمَّ قال الشارح: وإنّما وصفه بالمحدِّث لئلاّ يتوهّم أنه أبو قرة النصراني اسمه يوحنّا صاحب جاثليق.

قوله: فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتّى بلغ سؤاله إلى التوحيد، أقول: قد ذكرنا أنَّ هذا الحديث يكون في **«الاحتجاج»** على مقدار خمسة أمثال ما في **«الكافي»**، على أنَّ الطبرسيَّ لم ينقل الحديث بتمامه ولا بأس بذكره على ما في **«الاحتجاج»** لاشتماله على فوائد عظمى في مسائل شتّى.

قال الطبرسي ـ ره ـ: وعن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدِّث صاحب شبرمة أن أُدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته فأذن له، فدخل فسأله عن أشياء من الحلال والحرام والأحكام والفرائض حتّى بلغ كلامه «سؤاله ـ خ ل ـ» إلى التوحيد.

---

(١) الكافي: ١/٥٧، ح ١٤، وبحار الأنوار: ٢٦/٣٣، ح ٥٢.

فقال له: أخبرني جعلني الله فداك عن كلام الله تعالى لموسى.

فقال: «الله أعلم ورسوله بأيّ لسان كلّمه بالسريانيّة أم بالعبرانيّة».

فأخذ أبو قرة بلسانه فقال: إنّما أسألك عن هذا اللّسان.

فقال أبو الحسن عليه السلام: «سبحان الله ممّا تقول، ومعاذ الله أن يشبه خلقه أو يتكلّم بمثل ما هم به يتكلّمون، ولكنّه عزَّ وجلَّ ليس كمثله شيء ولا كمثله قائل فاعل».

قال: كيف ذلك؟

قال: «كلام الخالق لمخلوق ليس ككلام المخلوق لمخلوق، ولا يلفظ بشقّ فم ولا لسان، ولكن يقول له كن فكان بمشيئته ما خاطب به موسى من الأمر والنهي من غير تردُّد في نفس».

فقال له أبو قرة: فما تقول في الكتب؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «التوراة والإنجيل والزَّبور والقرآن وكلُّ كتاب أُنزل كان كلام الله أنزله للعالمين نوراً وهدًى وهي كلّها محدثة وهي غير الله حيث يقول: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾» وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ والله أحدث الكتب كلّها الّذي أنزلها».

فقال أبو قرة: فهل تفنى؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «أجمع المسلمون على أنَّ ما سوى الله فان وما سوى الله فعل الله، والتوراة والإنجيل والزبور والقرآن فعل الله، ألم تسمع الناس يقولون ربُّ القرآن وأنَّ القرآن يوم القيامة يقول يا ربّ هذا فلان وهو أعرف به منه قد أظمأت نهاره وأسهرت ليله فشفّعني فيه وكذلك[1] التوراة والإنجيل والزبور وهي كلّها محدثة مربوبة أحدثها من ليس كمثله شيء هدى لقوم يعقلون، فمن زعم أنهنّ لم يزلن فقد أظهر أنَّ الله ليس بأوّل قديم ولا واحد وأنَّ الكلام لم يزل معه، وليس له بدؤ وليس بإله».

قال أبو قرة: فإنّا روّينا أنَّ الكتب كلّها تجيء يوم القيامة والناس في صعيد واحد صفوف قيام لربِّ العالمين ينظرون حتّى ترجع فيه لأنّها منه وهي جزء منه فإليه تصير.

قال أبو الحسن عليه السلام: «فهكذا قالت النصارى في المسيح إنَّ روحه جزء منه ويرجع فيه، وكذلك قالت المجوس في النار والشمس إنّهما جزء منه ويرجع فيه تعالى ربّنا أن يكون

(١) في نسخة: فكذلك.

متجزئاً أو مختلفاً، وإنّما يختلف ويأتلف المتجزّيء لأنَّ كلَّ متجزىء متوهّم والقلّة والكثرة مخلوقة دالّة على خالق خلقها».

فقال أبو قرة: فإنّا روّينا أنَّ قسّم الرؤية والكلام بين نبيّين، فقسّم لموسى الكلام ولمحمد الرؤية - إلى آخر ما نقلناه عن «**الكافي**» وبعده: وسأله عن قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

فقال أبو الحسن عليه السلام: «قد أخبر الله أنه أسرى به ثمَّ أخبر لم أسري به فقال: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فآيات الله غير الله فقد أعاد[1] وبيّن لم فعل ذلك به وما رآه، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] فأخبر أنه غير الله.

فقال أبو قرة: فأين الله؟

فقال عليه السلام: «الأين مكان وهذه مسألة شاهد عن غائب، فالله ليس بغائب ولا يقدمه قادم، وهو بكلِّ مكان موجود مدبّر صانع حافظ يمسك السماوات والأرض».

فقال أبو قرة: أليس هو فوق السماء دون ما سواها؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «هو الله في السماوات وفي الأرض وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، وهو معكم أينما كنتم، وهو الّذي استوى إلى السماء وهي دخان، وهو الّذي استوى إلى السماء فسوَّاهنّ سبع سماوات، وهوالذي استوى إلى العرش قد كان ولا خلق وهو كما كان إذ لا خلق لم ينتقل مع المنتقلين»..

فقال أبو قرة: فما بالكم إذا دعوتم رفعتم أيديكم إلى السماء؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنَّ الله استعبد خلقه بضروب من العبادة ولله مفازع يفزعون إليه ومستعبد فاستعبد عباده بالقول والعلم والعمل والتوجّه ونحو ذلك استعبدهم بتوجّه الصلاة إلى الكعبة ووجّه إليها الحجّ والعمرة، واستعبد خلقه عند الدُّعاء والطلب والتضرُّع ببسط الأيدي ورفعها إلى السماء لحال الاستكانة وعلامة العبوديّة والتذلّل».

قال أبو قرة: فمن أقرب إلى الله الملائكة أو أهل الأرض؟

قال أبو الحسن عليه السلام: «إن كنت تقول بالشبر والذّراع فإنَّ الأشياء كلّها باب واحد هي فعله لا يشتغل ببعضها عن بعض يدبّر أعلى الخلق من حيث يدبّر أسفله ويدبّر أوّله من حيث يدبّر آخره، من غير عناء وكلفة، ولا مؤنة ولا مشاورة، ولا نصب، وإن كنت تقول: من

(١) في نسخة: أعذر.

أقرب إليه في الوسيلة فأطوعهم له، وأنتم ترون أنَّ أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد، ورويتم أنَّ أربعة أملاك التقوا: أحدهم من أعلى الخلق، وأحدهم من أسفل الخلق، وأحدهم من شرق الخلق وأحدهم من غرب الخلق، فسأل بعضهم بعضاً فكلّهم قال: من عند الله أرسلني بكذا وكذا، ففي هذا دليل على أنَّ ذلك في المنزلة دون التشبيه والتمثيل».

فقال أبو قرة: أتقرُّ أنَّ الله محمول؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «كلُّ محمول مفعول ومضاف إلى غيره محتاج فالمحمول اسم نقص في اللّفظ، والحامل فاعل وهو في اللّفظ ممدوح، وكذلك قول القائل: فوق وتحت وأعلى وأسفل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ولم يقل في شيء من كتبه أنّه محمول، بل هو الحامل في البرِّ والبحر والممسك للسماوات والأرض، والمحمول ما سوى الله ولم نسمع أحداً آمن بالله وعظّمه قطُّ قال في دعائه: يا محمول».

قال أبو قرة: أفتكذّب بالرواية إنَّ الله إذا غضب إنّما يعرف غضبه أنَّ الملائكة الذين يحملون العرش يجدون ثقله على كواهلهم، فيخرُّون سجّداً، فإذا ذهب الغضب خفَّ فرجعوا إلى مواقفهم؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «أخبرني عن الله تعالى منذ لعن إبليس إلى يومك هذا وإلى يوم القيامة غضبان هو على إبليس وأوليائه أو عنهم راضٍ؟»

فقال: نعم هو غضبان عليه.

قال: «فمتى رضي فخفَّ وهو في صفتك لم يزل غضباناً عليه وعلى أتباعه. ثمَّ قال: ويحك كيف تجتريء أن تصف ربّك بالتغيّر من حال إلى حال وأنه يجري عليه ما يجري على المخلوقين سبحانه لم يزل مع الزائلين، ولم يتغيّر مع المتغيّرين».

قال صفوان: فتحيّر أبو قرة ولم يحر جواباً حتّى قام وخرج(١).

قوله: «إنا روّينا» بضم الراء وتشديد الواو المكسورة مبنيّة للمفعول من باب التروية قال الشهاب الفيومي في «**المصباح المنير**»: روي البعير الماء يرويه من باب رمى حمله فهو رواية، والهاء فيه للمبالغة ثمَّ أطلقت الرواية على كلِّ دابّة يستقى الماء عليها، ومنه قيل: رويت الحديث إذا حملته ونقلته ويعدّى بالتضعيف فيقال: روّيت زيداً الحديث، ويبنى للمفعول فيقال: روّيت الحديث. انتهى كلامه.

قوله: «إنَّ الله قسّم الرؤية والكلام بين نبيّين فقسّم الكلام لموسى ولمحمد الرؤية، فهم

(١) شرح أصول الكافي: ١٦٩/٣، ح ٢، والاحتجاج: ١٨٩/٢.

أبو قرة أنّ المراد بالرؤية رؤيته تعالى بالأبصار ولذا تصدّى الإمام عليه السلام على عدم صحتّها مستدلاً عليه بما سيأتي شرحه. فجوابه عليه السلام إنما كان على حذو زعم أبي قرة وإلاّ فالرؤية القلبيّة الّتي هي الانكشاف التام للمخلصين والمكمّلين فلا كلام في صحّتها كما سيجيء بيانه من الأئمّة الهداة المهديّين عليهم السلام.

ثمّ لمّا كان على مشرب العرفان للحقّ سبحانه وتعالى في كلّ خلق ظهور خاصّ به، وهو تعالى متجلّ للعباد على حسب استعداداتهم المتنوعة بالعطايا الأسمائيّة الفائضة عليهم بالفيض المقدّس، بل له تعالى بحسب كلّ يوم هو في شأن شؤونات وتجليّات في مراتبه الإلٰهيّة وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنّ الله تعالى قد يتجلّى لعباده في كلامه ولكنّهم لا يعلمون» كما نقله عنه عليه السلام: القيصريُّ في شرحه على **«فصوص الحكم»** لمحيي الدّين في أوّل فصّ حكمة سبُّوحيّة في كلمة نوحيّة.

ولمّا كان وجود العالم مستنداً إلى الأسماء لأنّ كلّ فرد من أفراد الموجودات تحت تربية اسم خاصّ من أسماء الله تعالى، وقد تقرّر في محلّه أنّ للأسماء دول بحسب ظهوراتها وظهور أحكامها اتّصف كلّ موجود بمقتضى الاسم الخاصّ الغالب عليه، فبتلك الإشارات يعلم إجمالاً سرّ اتصاف بعض الأنبياء والأولياء ببعض الأوصاف دون بعض كما وصف آدم عليه السلام بصفي الله وإبراهيم عليه السلام بخليل الله وموسى عليه السلام بكليم الله، ومثل ما وصف الإمام عليُّ بن الحسين عليه السلام بالسجّاد، وابنه الإمام أبو جعفر محمّد عليه السلام بباقر العلوم.

ولمّا كان خاتم النبيين صلى الله عليه وآله منفرداً بمقام الجمعيّة الإلٰهيّة الّذي ما فوقه إلاّ مرتبة الذّات الأحديّة لأنّه صلى الله عليه وآله مظهر اسم الله، وهو الاسم الجامع للأسماء والنّعوت كلّها، فتخصيص الكلام وسائر النعوت الكماليّة بموسى عليه السلام وغيره من الأنبياء غير ثابتة بل هي ثابتة له صلى الله عليه وآله أيضاً.

قوله: «فقال أبو الحسن عليه السلام «فمن المبلّغ عن الله الثقلين من الجنّ والإنس لا تدركه الأبصار» ـ إلى قوله ـ وهو على صورة البشر» لمّا زعم أبو قرة الرؤية بالأبصار احتجَّ عليه الإمام، أبو الحسن الرِّضا عليه السلام: بتلك الآيات المنزَّلة من عند الله تعالى بلسان نبيّه الخاتم وسأله على صورة الاستفهام للتقرير بأنّ مبلّغها ليس محمّد صلى الله عليه وآله؟ قال: بلى، أي هو صلى الله عليه وآله مبلّغها.

ثمّ سأله على صورة الاستفهام للإنكار كيف يخبر الخلائق عن الله تعالى رسوله المبعوث إليهم بأنّ الأبصار لا تدركه ثمّ يقول هو: ورأيته بعيني، كما تكلّم المتكلّمون في رؤيته صلى الله عليه وآله ربّه تعالى ليلة الإسراء، فذهب بعضهم كأبي الحسن الأشعري أنه صلى الله عليه وآله رآه بعيني رأسه.

ثمَّ إنَّ ضمير (هو) في قوله: وهو على صورة البشر، يرجع إلى الله تعالى أعني أنَّ الجملة الأخيرة مقولة الرجل أي النبي ﷺ كالأوليين لا أنّها مقولة الإمام عليه السلام حتى تكون حاليّة، وإنه عليه السلام رتّب ثلاثة أمور على الآيات الثلاث على اللُّف والنشر المرتّبين فرتّب أنا رأيته بعيني على لا تدركه الأبصار، وأحطت به علماً على لا يحيطون به علماً، وهو على صورة البشر على ليس كمثله شيء.

أمّا وجه دلالة الآية الأولى على نفي الرؤية بالعين فلأنَّ إدراك كلّ قوّة من قوى ظاهريّة كانت أو باطنيّة على حسبها، فإذا سمعت الأذن كلاماً فقد أدركته وإذا رأت العين شيئاً فقد أدركته وإن كان المدرك في الحقيقة هو النفس والقوى آلاتها، لأنَّ الإدراك إذا تعلّق بما يكون ماديّاً تدركه النفس بآلة تخصّه، وإلاّ تدركه النفس بذاتها، وعلى الأوّل يكون حقيقة ذلك الشيء متمثّلة عند المدرك أي النفس بواسطة الحسّ بانتزاعها صورته من نفس حقيقته، على تجريد بيّن في محله.

ولذا قال الشيخ في الإشارة الثالثة من النمط الثالث من الإرشادات إدراك الشيء هو أن يكون حقيقته متمثّلة عند المدرك يشاهدها ما به يدرك، والفعل في سياق النفي كالنكرة في سياقه يفيد العموم، فالحجّة أنَّ النبيَّ ﷺ أخبر عن الله بأنه لا تدركه عين فكيف يقول هو: رأيته تعالى بعيني وهل هذا إلاّ التناقض في قوله.

وأمّا الآية الثانية فوجه الاحتجاج بها أنَّ النبيَّ ﷺ أخبرهم بأنّهم لا يحيطون به علماً، فكيف يقول هو بالتناقض: إنّي أحطت به علماً.

سواء كانت تلك الإحاطة بالإبصار لأنَّ إبصار الشيء إحاطة مّا علميّة به كما صرّح به الإمام عليه السلام في قوله الآتي: فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم ووقعت المعرفة.

أو كانت بإدراك آخر من غير إبصار كالوهم والعقل فإنَّ إحاطته تعالى بأيّة قوّة مدركة كانت مستحيلة، فالآية الثانية تدلُّ على نفي الرؤية أيضاً.

وأمّا الآية الثالثة فوجه الاحتجاج بها أنّه تعالى أخبرهم بأمره بأنّه ليس كمثله شيء فكيف يقول: إنّه تعالى على صورة البشر.

وهذه إشارة إلى ردّ ما رووا عن رسول الله ﷺ من أنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته[1] كما في «**الملل والنحل**» للشهرستاني عند الكلام في المشبّهة (**ص ٤٨ طبع إيران ١٢٨٨هـ**)، وإلى ردّ ما رووا عنه ﷺ من أنّه قال ونقل بعضهم عنه ﷺ قال: «رأيت ربّي في

(١) الكافي: ١٣٤، ح ٤، والتوحيد: ١٠٣، ح ١٨.

أحسن صورة». نقله الشهرستانيُّ أيضاً في ص ٤٩ من الكتاب.

ونقل بعضهم عنه صلى الله عليه وآله أنّه رآه تعالى ليلة المعراج على صورة شابّ حسن الوجه أو على صورة الشابّ المراهق ونحوهما من المنقولات الظاهرة في أنّه تعالى على صورة البشر.

روي في **«عيون أخبار الرضا»** عليه السلام للصدوق وفي **«الاحتجاج»** للطبرسي قدّس سرُّهما عن الحسين بن خالد أنه قال: قلت للرضا عليه السلام: إنَّ الناس يقولون: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنَّ الله خلق آدم على صورته، فقال: «قاتلهم الله لقد حذفوا أوّل الحديث إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرَّ برجلين يتسابّان فسمع أحدهما يقول: قبّح الله وجهك ووجه من يشبهك فقال صلى الله عليه وآله له: «يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك فإنَّ الله خلق آدم على صورته»[1].

روى الكلينيُّ في باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه من جامعه **«الكافي»** بإسناده عن إبراهيم بن محمّد الخزاز ومحمّد بن الحسين قالا: دخلنا على أبي الحسن الرضا عليه السلام فحكينا له أنَّ محمّد صلى الله عليه وآله رأى ربّه في صورة الشاب الموفق في سنّ أبناء ثلاثين سنة ـ إلى أن قال: ثمَّ قال عليه السلام: «يا محمّد إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله حين نظر إلى عظمة ربّه في هيئة الشاب الموفق وسنّ أبناء ثلاثين سنة؟! يا محمّد عظم ربّي عزَّ وجلَّ أن يكون في صفة المخلوقين» ـ إلى أن قال عليه السلام: «يا محمّد ما شهد له الكتاب والسنّة فنحن القائلون به»[2].

فبما حقّقنا دريت أنَّ الآية الأولى مطابقة للسؤال عن الرؤية، والأخيرتين إنّما ذكرتا على نحو التمثيل والتنظير، وهذا الدأب ليس بعزيز في الاحتجاجات وإن كان مورد السؤال نفي الرؤية، على أنّه يمكن إرجاع الآيات الثلاث إلى دلالتها على نفي الرؤية أيضاً ضمناً.

أمّا درجة دلالة الأوليين عليه فقد علم، وأمّا دلالة الأخيرة عليه فلأنّه لو تعلّق الإدراك بالبصر عليه تعالى لزم أن يكون مماثلاً لأجسام كثيفة حتّى يتحقّق الرؤية بالعين، لما علم في شرح الحديث الأوّل من أنَّ الرؤية إنّما تعلّق على الأجسام الّتي لا ينفذ عنها نور البصر، فلا تكون إلاّ كثيفاً ذا وضع وجهة فيلزم من القول بالرؤية أن يكون له تعالى ممثل من الأجسام، لأنَّ كلّما يدرك بالأبصار فهو ذو مثل، وهذه الدّقيقة مستفادة ضمناً ويؤيّده قوله عليه السلام بعد ذا: «فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم ووقعت المعرفة».

ويحتمل بعيداً أن يرجع ضمير (هو) في «وهو على صورة البشر» إلى الرّجل أي النبيّ صلى الله عليه وآله بأن تكون الجملة حاليّة والآيات الثلاث استشهد بها لدلالتها على نفي الرؤية

---

(١) التوحيد: ١٥٢، ح ١٠، وشرح أصول الكافي: ٤/ ١٢٤.

(٢) الكافي: ١/ ١٠٢، والتوحيد: ١١٥، ح ١٣.

ومنساقة إليه رأساً، لا أنّه يستفاد ضمناً كما ذهب إليه جمٌّ غفير من شرّاح الحديث.

فيكون المعنى أنه ﷺ أخبرهم عن الله تعالى بأمره، لا تدركه الأبصار ولا يحيطون به علماً وليس كمثله شيء، تدلُّ كلُّ واحدة منها على نفي رؤيته تعالى بالأبصار، ثمَّ يقول ذلك المخبر أنا رأيت الله بعيني وأحطت به علماً برؤيتي إيّاه بعيني أيضاً والحال أنّه على صورة البشر أي إذا لم يكن للبشر إدراكه وإحاطته بالأبصار فكيف يجوز له ﷺ وهو من البشر أيضاً.

ولكن طبع الحديث يأبى عن هذا الاحتمال جدّاً كما لا يخفى على المتدرِّب بصناعة الكلام من متن الحديث وأسلوبه، والمختار هو المتعيّن.

وبعض نسخ **«الكافي»** بلا ضمير **(هو)**، أي وأحطت به علماً على صورة البشر فعلى هذا الوجه إمّا تتعلّق على بضمير الفاعل في أحطت فيكون الرائي أي النبي ﷺ على صورة البشر، وإمّا أن تتعلّق بالضمير المجرور في **(به)** فيكون المرئيُّ أي الله تعالى على صورة البشر.

وبما حقّقناه يعلم أنَّ تلك النسخة ليست بصواب وأسقط الضمير من الكاتب وكم له من نظير.

قوله عليه السلام: «أما تستحيون ما قدرت الزنادقة أن ترميه عليه السلام بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيء ثمَّ يأتي بخلافه من وجه آخر»، وفي بعض النسخ أما تستحون وهي صحيحة أيضاً لأنها مخفّفة الأولى ولغة منها. وكلمة ما في قوله: ما قدرت، نافية.

قوله: أن ترميه عليه السلام بهذا أي تنسبه به والضمير يرجع إلى رسول الله ﷺ وقال العلامة المجلسي ـ ره ـ في **«مرآة العقول»**: وإرجاع الضمير إلى الله بعيد جدّاً. وأقول: بل هو وهم رأساً لعدم مناسبته الحجّة ولا لفظ الحديث.

قوله: أن يكون «اه» بدل لقوله هذا وبيان وتفصيل له، والمراد أنّ الزنادقة مع كفرهم وعنادهم لا ينسبونه ﷺ إلى ما نسبتموه إليه من المناقضة في أقواله وكذبه على الله تارة يقول من أمر الله لا تدركه الأبصار وتارة يقول إني رأيته ببصري فكيف أنتم مع اعترافكم بنبوّته ﷺ ترمونه به.

قوله: «ثم قال أبو قرة فإنه تعالى يقول ولقد رآه نزلة أُخرى» لـمّا بيّن الإمام عليه السلام استحالة إدراكه تعالى بالأبصار استدلَّ أبو قرة في مقام المعارضة بقوله تعالى على أنَّ رسول الله ﷺ رآه تعالى بعينه بناء على أنَّ ضمير المفعول ففي رآه راجع إليه تعالى، فأجابه الإمام عليه السلام بأنَّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً وأنَّ بعد هذه الآية ما يدلُّ على ما رأى حيث قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ وفسّرها عليه السلام بقوله ما كذب فؤاد محمّد ما رأت عيناه، ثمّ

استشهد بالآية التالية المبيّنة لما رأت عيناه ﷺ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ فضمير المفعول في رآه راجع إلى المخلوق لا إلى الخالق حيث قال: لقد رأى من آيات ربّه الكبرى وآيات الله غير الله، ثمّ احتجّ عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ ثمّ فسّره زيادة توضيح وبيان في دلالة الآية على نفي الرؤية بالأبصار بقوله: فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم ووقعت المعرفة.

ثمّ إنّ كثيراً من نسخ مخطوطة ومطبوعة من «**الكافي**» متفقة في تأنيث فعل أحاط أي «فقد أحاطت به العلم» ولكنها من تصحيف النساخ ظناً منهم أنّ ضمير الفعل راجع إلى الأبصار، وهو وهم لأنّ العلم فاعله وإلاّ يلزم أن يكون العلم تميزاً والتميز يجب أن يكون نكرة.

قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: أحاط به علمه، وأحاط به علماً، وأحاطت الخيل بفلان، واحتاطت به أي أحدقت. وفي الوحي الإلهي ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ و﴿**إن الله قد أحاط بكل شيء علما**﴾.

قوله: «فقال أبو قرة فتكذّب بالروايات» لمّا استدلّ الإمام ﷺ بالدليلين العقليّ والنقليّ على استحالة رؤيته تعالى بالأبصار ولم يبق لأبي قرة دليل يستدلُّ به على مطلوبه اعترض على الإمام فقال على صورة الاستفهام للإنكار: أفتكذّب بالروايات؟ يعني إذا لم تكن تلك الروايات دالّة على رؤيته تعالى لزم تكذيبها أي القول بعدم إسنادها إلى النبيّ ﷺ.

فأجابه الإمام بالتزامه فقال: «إذا كانت مخالفة للقرآن كذبتها»، وذلك لأنّه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فهو الأصل الصدق والمعيار الحقُّ ولا يعارضه الأخبار المتخالفة المختلفة، ولا يجوز التجاوز في التوحيد عمّا في القرآن المجيد وقد أدّب الأئمّة عليهم السلام أصحابهم بذلك.

ففي الحديث الحادي والثلاثين من الباب الأوّل من كتاب «**التوحيد**» للصدوق ـ ره ـ بإسناده عن الفضل بن شاذان، عن ابن أبي عمير قال: دخلت على سيّدي موسى بن جعفر ﷺ فقلت له: يا ابن رسول الله علّمني التوحيد، فقال: «يا أبا أحمد لا تتجاوز في التوحيد ما ذكره الله تعالى في كتابه فتهلك»(١)، الحديث.

فما وافقته من الأخبار وإلاّ تضرب بالجدار، ولا يخفى أنّ الأخبار الّتي يمكن الجمع بينها وبين الكتاب ليست بمخالفة له، ونسخة «**التوحيد**» للصدوق: كذبت بها، وهي أنسب بقول أبي قرة فتكذب بالروايات مطابقة.

---

(١) التوحيد: ٧٦، ح ٣٢، وبحار الأنوار: ٤/٢٩٦، ح ٢٣.

قوله: «وما أجمع المسلمون عليه أنّه لا يحاط به علماً، ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء» قوله عليه السلام أنّه لا يحاط به علماً إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

ولا تدركه الأبصار بعض آية ١٠٣ من الأنعام قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

وليس كمثله شيء بعض آية ١١ من الشورى قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وكلمة ما موصولة اسميٌّ مبتدأ وخبره كلٌّ واحد من أنّه لا يحاط به علماً ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء، وليست معطوفة على القرآن حتّى يكون التقدير: إذا كانت الروايات مخالفة لما أجمع المسلمون عليه كذّبتها، ولو كانت معطوفة عليه لوجب أن تقدم على كذّبتها.

ومعنى العبارة أنَّ القرآن لمّا كان منزّلاً من عند الله تعالى وأجمع المسلمون قاطبة على تسليم ما فيه منه قوله تعالى: **﴿لا يحيطون به علماً﴾**، و**﴿لا تدركه الأبصار﴾** و**﴿ليس كمثله شيء﴾**، لم يجز الإعراض عنه، وخرقه بروايات تنافيه وتخالفه ومن تمسّك بها خالف القرآن وإجماع المسلمين.

وإلى هنا تمّت الحجّة على أبي قرة على أتمّ بيان وأكمل برهان في استحالة إدراكه تعالى بالأبصار ما فاه بشيء من مناقضة أو معارضة في المسألة أصلاً، بل انتقل إلى أسئلة أُخرى، قدّمناها من رواية الطبرسي في «**الاحتجاج**» وفي آخرها: قال صفوان: فتحيّر أبو قرة ولم يحر جواباً حتّى قام وخرج.

«تقديم مطالب يليق أن يشار إليها»

الأول: أن قوله عليه السلام: «فمن المبلّغ عن الله إلى الثقلين من الجنّ والإنس وقوله عليه السلام: «كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً» أفادا ثلاثة أُمور.

الأوّل: أنَّ الثقلين بفتحتين هما الجنُّ والإنس وعليه إجماع أهل اللغة والتفسير في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمٰن: ٣١].

ويفسّر الثقلين بالجنّ والإنس آيات أُخرى من سورة الرحمٰن كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿يا

معشر الإنس والجن﴾ الآية [الرحمن: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩].

قال القاضي البيضاوي في تفسير «**أنوار التنزيل**»: **(الثقلان)** الإنس والجنُّ سميّاً بذلك لثقلهما على الأرض، أو لرزانة رأيهم وقدرهم، أو لأنهما مثقلان بالتكليف، انتهى قوله.

والجنّ والإنس يؤنّثان باعتبار أنّهما طائفة أو جماعة، قال المرزوقيُّ في شرح قول إياس بن مالك الطائيّ **(للحماسة ١٩٤)**.

كلا ثقلينا طامع بغنيمة وقد قدّر الرحمٰن ما هو قادر

قوله: **(كلا ثقلينا)**، أي كلُّ واحد من جماعتينا، والثقَل «بالتحريك» الجماعة. والثقلان الجنُّ والإنس.

الأمر الثاني: أنَّ الجنَّ مكلّفون بما كلّف بها الأنس.

الأمر الثالث: أنَّ رسول الله ﷺ مبعوث إليهم أيضاً، والقرآن الكريم ناطق بذين في عدَّة مواضع.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٩ذ٨٨].

وجه الاستدلال بالآية عليه أنّهم لو لم يكونوا مكلّفين بما كلّف بها الإنس ولم يكن خاتم النبيّين مبعوثاً إليهم أيضاً لما تحدّاهم الله تعالى بالإتيان بمثل القرآن.

وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الإنعام: ١٣٠ ـ ١٣٢].

أي اذكر يوم يحشرهم الله تعالى، بالياء على قراءة حفص عن عاصم، وعلى قراءة أبي بكر عنه يوم نحشرهم بالنون، وضميرهم لمن يحشر من الثقلين.

ووجه الاستدلال بهما بيّن، فإنَّ لهم حشراً وثواباً، وعقاباً فهم مكلّفون.

والآية الأخيرة صريحة على أنَّ رسلاً أرسلوا إليهم، وأمّا أنَّ هؤلاء الرسل المبعوثون إلى الإنس فلا تدلُّ عليه هذه الآية صريحة، وإن دلّت على أنَّ رسول الله ﷺ مبعوث إليهم، لأنّهم مخاطبون بالقرآن، ولولا القرآن كتابهم والرسول ﷺ بعث إليهم أيضاً لما خوطبوا به وإنّما الكلام في الرسل الذين كانوا قبله ﷺ.

وإنّما قلنا لا تدلُّ الآية عليه صريحاً، لإمكان إرجاع الضمير في قوله: رسل منكم إلى الإنس خاصّة لما سنشير إليه بعيد هذا، ولكنَّ الآية ظاهرة في أنَّ لكلِّ طائفتين نبيّاً من جنسهما.

وقال تعالى في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ [الملك: ٦ ـ ١١].

فالآيات تدلُّ على أنَّ للجنِّ ثواباً وعقاباً حيث قال تعالى: وأعتدنا لهم عذاب السعير، ثمَّ إنَّ لهم نذيراً أيضاً حيث قالوا بلى قد جاءنا نذير، والّذين كفروا يشملهم أيضاً بدليل قولهم لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير وقال تعالى أوّلاً: وأعتدنا لهم عذاب السعير فأصحاب السعير شامل للكافرين من الجنِّ أيضاً وتدلُّ أيضاً على أنَّ رسول الله ﷺ بعث إليهم بدليل المخاطبة والإنذار، وأمّا أنَّ جميع نذرهم هل كانوا منهم أو من الإنس فلا تدلُّ الآية عليه.

ونظير هذه الآيات الدّالّة على أنّه كان لهم نذير في كلِّ زمان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] لأنَّ الجنّ أمّة أيضاً بلا كلام والقرآن ناطق بذلك.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾ [الأعراف: ٣٧ ـ ٣٩].

نعم ولقائل أن يقول: إنَّ جميع نذرهم لم يكونوا من الإنس بدليل قوله تعالى ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الحجر: ٢٧].

وجه الاستدلال أنَّ الجانَّ خلق من قبل خلق الإنس من نار السموم. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فكان لهم نذير لم يكن خلق الإنسان بعد، والله تعالى أعلم، وما أُوتينا من العلم إلاّ قليلاً.

ثمَّ إنَّ الشياطين في سورة الملك هم بعض من طائفة الجنِّ وكذا قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨)﴾ [مريم: ٧١].

وذلك لأنّه تعالى قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: ٨٢ و٨٣] وكذا قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ـ إلى قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٥، ٣٨].

وإذا أضفناها إلى قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٤] وإلى قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٧] وإلى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] تنتج أنَّ هؤلاء الشياطين كانوا من الجنّ.

وكذا إذا أضفنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٦] إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] ـ إلى قوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٨ ـ ٩] ينتج أنَّ الشياطين من طائفة من الجنّ.

وقال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمٰن: ٣١] أي سنجرِّد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة قال القاضي: وفيه تهديد مستعار من قولك لمن تهدّده: سأفرغ ذلك فإنّ المتجرد للشيء كان أقوى عليه وأحدّ فيه ووجه الاستدلال به ظاهر.

وكذا آية أخرى من تلك السورة وهي قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ بل المخاطب فيها الجنُّ والإنس في آيات ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾، بدليل قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وبعض أي أخرى وعليه إجماع المفسرين، ولو لم يكن الرسول ﷺ مبعوثاً إليهم أيضاً لما خوطبوا بالقرآن الكريم.

وقال تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٢] إلى قوله تعالى مخبراً عنه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا

مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١١ ـ ١٥].

وقال تعالى آخر الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

وجه الاستدلال بآيات هاتين السورتين ظاهر وأنها تدلُّ مع كونهم مكلّفين على أنَّ القرآن كتابهم أيضاً فرسول الله ﷺ مبعوث إليهم أيضاً، بل ما في الأحقاف تدلُّ على أنَّ أنبياء السلف من الإنس كانوا مبعوثين إليهم أيضاً حيث قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه، كما تدلُّ على أنَّ هؤلاء النفر من الجنّ كانوا يهوداً ما آمنوا بعيسى عليه السلام.

ولعلَّ هؤلاء النفر هم القوم الّذين أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩] أو أنّ هذه الآية تشملهم أيضاً كقوله الآخر: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١]، والله تعالى أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ ـ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٨].

وجه الاستدلال به أنَّ العقاب فرع التكليف، وقال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، عدل من الغيبة إلى الخطاب ليشمل الحكم والخطاب كلا الفريقين من الجنّ والإنس.

نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٣].

ويفسّره قوله تعالى آيات أخر ص: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ـ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧٣ ـ ٨٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩].

وكذا يبيّن أنَّ المراد كلا الفريقين قول أمير المؤمنين عليه السلام **(الخطبة الأُولى من النهج)**:

فقال سبحانه اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس وقبيله، إلخ، وفي بعض النسخ: إلاّ إبليس وجنوده.

وبالجملة أنَّ الآيات القرآنية تدلُّ على أنَّ الجنَّ مكلّفون كالإنس ولا ريب أنَّ من شرائط التكليف أن يكون المكلّف عاقلاً، فلهم عقل وتمييز ولذا هدى هؤلاء النفر من الجنّ عقولهم إلى الهداية والرشد حيث قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝﴾ [الجن: ١ ـ ٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ الآية، والقلب في القرآن بمعنى العقل.

كما تدلُّ أنّهم رجال وإناث كالإنس حيث قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] وأخبر تعالى أنَّ بعضهم فرساناً والآخر مشاة حيث قال: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

فالآيات تنتج بأنّهم ليسوا بمجرَّدين، لأنَّ التكثر إنّما يصحُّ فيما كان له مادّة.

على أن الله تعالى صرَّح بذلك أيضاً في قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝﴾ [الرحمٰن: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝﴾ [الحجر: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ـ إلى قوله تعالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمر رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ [الصافات: ٣٦ ـ ٣٩].

وجه الاستدلال به أنَّ كونهم مقرَّنين في الأصفاد إنّما يصحُّ مع عدم تجرُّدهم، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝﴾ [إبراهيم: ٤٩] والله أعلم.

وكذا القرآن يدلُّ على أنّهم يتوالدون، لدلالة النّارية على ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ [الكهف: ٥٠]. وحيث قال عزَّ من قائل: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝﴾ [الرحمٰن: ٥٦].

ثمَّ إذا كانت الجنُّ ماديّة جسمانيّة ومع ذلك أنّا لا نراهم وهم يروننا كما قال عزَّ من قائل: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] علمنا أنّهم من الأجسام اللّطيفة وليس بلازم أن يدرك بالأبصار كلُّ ما هو جسم فإنَّ الأجسام الّذي قبلنا لا نراه بالعين كالهواء مثلاً.

والشيطان في الآية هو إبليس من الجنّ بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ الآية المتقدّمة، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ - إلى قوله تعالى مخبراً عنه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ - إلى قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ﴾ [الأعراف: ١١ - ٢٠].

وكذا إذا أضفنا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢١] ينتج أنَّ الشيطان هو إبليس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ﴾ - إلى قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٠ - ٦٥] كالصريح بأنَّ الشيطان هو إبليس.

فقد تحصّل من الآيات المتقدّمة أنّ الجنَّ مكلّفون ولهم عقل وتمييز وأنَّ رسول الله ﷺ مبعوث إليهم أيضاً، وأنَّ بعضهم مسلم وبعضهم قاسط وكافر كما اعترفوا في سورة الجنِّ بذلك حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ﴾، وقال تعالى في الآية المتقدِّمة من الكهف: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلخ، وقال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] فبعض الجنِّ كافر.

وأنَّ مَن كان من الجنِّ والإنس شريراً متمرِّداً على الله تعالى فهو شيطان قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وأنَّ بعض أنبياء الإنس مبعوثون إليهم أيضاً، وأنَّ نذيراً أو نذراً من جنسهم بعثوا إليهم.

ثمَّ ههنا يخلق بنا أن نبحث عن مسائل:

منها أنَّ أنبياء الإنس كيف بعثوا إلى الجنِّ وهما ليسا من جنس واحد، وقد مرَّ في شرح الخطبة ٢٣٧ (ص ٧٩ - ٨٢ ج١٦) البحث عن لزوم التناسب والتجانس في ذلك وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥].

وحيث أنكر النّاس أن يكون الرُّسل بشراً قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل﴾ جواباً لشبهتهم ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك لتمكينهم من الاجتماع بالرسول والتلقّي منه. وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

ومنها أنَّ شياطين الإنس والجن كيف يضلّون غيرهم من الجنّ والإنس عن سواء الصراط، وعلى أيِّ نحو كان سلطانهم عليهم، وما معنى قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؟ [الناس: ٤ ـ ٦].

ومنها لِمَ بعث بعض الأنبياء من الإنس إليهم أيضاً وبعضهم الآخر من جنسهم وما سرُّ التبعيض أو أنَّ قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٠].

ليس المراد أن بعث إلى كلّ من الثقلين رسل من جنسهم بل إنّما المراد الرُّسل من الإنس خاصّة، ولكن لما جمعوا مع الجنّ في الخطاب صحَّ ذلك، نظير قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ والمرجان يخرج من الملح دون العذب أو أنَّ الرسل من الجنّ رسل الرسل إليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ومنها أنَّ الجنَّ إذا كانوا مكلّفين فلا بدَّ لهم في كلِّ زمان من نبيّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾ [طه: ١٣٤] ولمّا كان بدء خلقهم قبل الإنس بلا ارتياب فلا بدّ من أن يكون لهم نبيٌّ من جنسهم من قبل بلا كلام، ويحمل قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ على ظاهره.

وغيرها من المسائل الّتي يحتاج عنوانها وحلّها والبحث عنها وعن الرّوايات المرويّة في المقام إلى تدوين كتاب على حدة، ولعلّنا نبحث عن بعضها في أثناء مباحثنا الآتية.

المطلب الثاني: أنَّ احتجاجه عليه السلام على أبي قرة بقوله: «إنَّ بعد هذه الآية ما يدلُّ على ما رأى» ـ إلخ، تحريض النّاس على التدبّر في آيات القرآن الكريم، وتعليمهم بأسلوب التنعم من تلك المأدبة والإلهية وقد فهّمنا بعمله هذا أنَّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

وقد مضى الكلام من سميّه وجدّه باب مدينة العلم أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك عند شرحنا على المختار الأوّل من باب الكتب والرسائل قال عليه السلام: «كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به يفسّر بعضه بعضاً ويشهد بعضه على بعض» **(ص ٢٥٤ ج ٢ من تكملة المنهاج)**.

وكذلك قد تبيّن في **(ص ٨٩ منها)** أنَّ الله تعالى نزّل القرآن تبياناً لكلِّ شيء، وقال عزَّ من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فكيف لا يكون تبياناً لنفسه. والله تعالى حثَّ عباده على التدبّر في كلامه، قال عزَّ من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء:

٨٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩﴾ [السجدة: ٢٩].

فممّا بيّنا دريت أنَّ من ذهب إلى عدم جواز التدبّر في آيات الله والأخذ بها إلاّ بما ورد تفسيره عنهم عليهم السلام خالف كتاب الله. وقد ذهب إلى هذا القول الأخباريّون على ما نقل الخوانساري في «**روضات الجنات**» عند ترجمة محمّد أمين الأخباري الاستراباديّ عن الشيخ عبد الله بن صالح السماهيجيّ البحرانيّ في الفروق بين المجتهدين والأخباريّين[(١)].

حيث قال: الفرق الخامس عشر إنهم يجوّزون الأخذ بظاهر الكتاب بل يرجّحونه على ظاهر الخبر والأخباريّون لا يجوّزون الأخذ إلاّ بما ورد تفسيره عنهم عليهم السلام. حتّى أنّ بعض الأخباريّين لا يعدُّ الكتاب من الأدلّة أيضاً ويقتصر على السنة فقط، وهذا الفرق بينهما في التمسك بالكتاب وعدمه إنّما هو في الفروع وأمّا في الأصول فإنّهم لا يجوّزون أخذ العقائد من القرآن وأخبار الآحاد، والأخباريّون يقولون بعكس ذلك.

ولا يخفى عليك أنّ الأخباريّين سلكوا في الفروع والأصول مسلكي الإفراط والتفريط. ولو قيل بجواز أخذ الأصول من الكتاب ليلزم الدُّور لأنَّ اعتقاد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله مبعوث من عند الله تعالى مثلاً لو كان بأخذ آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ الآية، مثلاً، إنّما يصحُّ إذا اعتقد أنّه رسول الله وكلامه وحيٍ من عنده تعالى، ولو كان الاعتقاد به من نفس هذه الآية ولم يثبت نبوّته بعد مثلاً لكان هو الدُّور.

المطلب الثالث: أنّه عليه السلام في جواب أبي قرة لمّا سأله فتكذّب بالرّوايات؟ قال: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذّبتها. وذلك أنَّ القرآن هو معيار الحقِّ وميزان الصّدق، وهو الأصل المعارف وميزان كلِّ شيء بحسبه، فإذا كانت رواية لم يمضها القرآن ولو كانت من الكتب الأربعة لا يجوز الأخذ بها.

وذهب الأخباريّون إلى أنَّ جملة ما فيها صحيحة، فلو كانت دعواهم أنَّ جميع الروايات المنقولة فيها موافقة لكتاب الله ففيه القطع بأنَّ بعضها لا يوافقه الكتاب ولا العقل، فمجرَّد أنَّ الرِّواية منقولة فيها لا يوجب صحّتها والمعيار كتاب الله كما قدَّمنا البحث عن ذلك في صدر هذه المسألة في الرؤية.

المطلب الرابع قوله عليه السلام: وما أجمع المسلمون عليه، إلى آخره دليل على حجّية الإجماع ففي كلِّ مسألة تحقَّق فيها إجماع المسلمين عليها فلا يجوز التخلّف عنها. وأجمعوا

(١) نقل ٢٩ فرقاً فيما اختلف فيها المجتهدون والأخباريون من كتاب السماهيجي الموسوم بمنية الممارسين لا يخلو من فائدة، فراجع.

على حجيّة القرآن وهو ناطق بعدم إدراك الأبصار إيّاه تعالى، والمتّبع الإجماع المحقّق.

والعجب من الأخباريّين كيف يقتصرون في الأدلّة على الكتاب والسنّة بل بعضهم على الثّاني فقط كما دريت ويدّعون الإجماع والعقل مع شدّة اهتمامهم بالتمسّك بالأخبار، وهذا هو خبر مرويٌّ في «**الكافي**» ذهب الأخباريّون إلى أنّ جملة ما فيه صحيحة، وينادي الإمام عليه السلام بأعلى صوته بأنَّ ما أجمع المسلمون عليه لا يجوز الإعراض عنه، فهل هذا إلاّ الإعراض عن الكتاب والسنّة.

المطلب الخامس أنّ أبا قرة لمّا زعم من الرؤية بالأبصار احتجّ الإمام عليه السلام عليه على مقدار فهمه وحذاء زعمه بعدم رؤيته تعالى بها، وإلاّ فسيأتي أخبار أُخر في صحّة رؤيته تعالى بمعنى آخر أدقّ وألطف لا يعقله إلاّ الأوحدي من النّاس.

«الحديث الثالث»

رواه الكلّينيُّ قدّس سرّه في باب إبطال الرؤية من جامعه «**الكافي**» عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن أبي هاشم الجعفري، عن أبي الحسن الرِّضا عليه السلام قال سألته عن الله هل يوصف؟ فقال: «أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: أما تقرأ قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾؟ قلت: بلى، قال: فتعرفون الأبصار؟ قلت: بلى، قال: ما هي؟ قلت: أبصار العيون، فقال: إنَّ أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون، فهو لا تدركه الأوهام وهو يدرك الأوهام»[1].

وقريب منه رواية أُخرى في ذلك الباب من «**الكافي**» أيضاً رواها عن محمّد بن أبي عبد الله، عمّن ذكره، عن محمّد بن عيسى، عن داود بن القاسم أبي هاشم الجعفري قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار؟ فقال: «يا أبا هاشم أوهام القلوب أدقّ من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان الّتي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه فكيف أبصار العيون»[2].

وقد رواهما الصّدوق قدّس سرّه في باب ما جاء في الرؤية من كتابه في «**التوحيد**» فروى الأوّل بإسناده عن محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، عن محمّد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمّد، عن أبي هاشم الجعفري، عن أبي الحسن الرِّضا عليه السلام. والثاني: عن عليّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقاق، عن محمّد بن أبي عبد الله على حذو ما في «**الكافي**».

---

(١) شرح أصول الكافي: ٣/ ١٩٠.

(٢) الكافي: ١/ ٩٩، ح ١١، والأمالي: ٤٩٥.

وروى في المجلس الرابع والستّين من أماليه عن الحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المؤدب قال: حدَّثنا أبو الحسين محمّد بن جعفر الأسدي، قال: حدَّثني محمّد بن إسماعيل بن بزيع، قال: قال أبو الحسن عليٌّ بن موسى الرِّضا عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قال: «لا تدركه أوهام القلوب فكيف تدركه أبصار العيون»[١].

بيان: أبو جعفر عليه السلام هو الإمام التاسع محمّد بن عليٍّ الرضا، بقرينة رواية أبي هاشم الجعفري عنه، وصرَّح به الصّدوق في «**التوحيد**» حيث قال في ذلك الإسناد: عن داود بن القاسم عن أبي هاشم الجعفري قال: قلت لأبي جعفر بن الرضا عليه السلام.

الأوهام جمع وهم وهو يطلق في الكتب الحكميّة على القوّة الوهميّة الّتي من شأنها إدراك المعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوسات كعداوة زيد ومحبّة عمرو قال الشيخ في «**الشفاء**»: القوّة المسمّاة بالوهم هي الرئيسة الحاكمة في الحيوان حكماً ليس فصلاً كالحكم العقلي، ولكن حكماً تخييلاً مقروناً بالجزئيّة وبالصّورة الحسيّة وعنه يصدر أكثر الأفعال الحيوانيّة، انتهى كلامه.

وكما أنَّ العقل رئيس الوهم ومخدومه كذلك الوهم رئيس الحواسِّ الظاهرة والباطنة ومستعملها ومستخدمها ولذا بيّنوا أنَّ آلتها الدّماغ كلّه ولكنَّ الأخصّ بها التجويف الأوسط على التفصيل الّذي بيّن في محلّه.

ولكنَّ المراد بالوهم في تلك الرّوايات معناه اللّغوي أي ما يقع في القلب من الخاطر، قال الطريحيُّ في «**مجمع البحرين**»: الوهم ما يقع في الخاطر يقال: وهمت الشيء أهمه وهماً من باب ضرب أي وقع في خلدي. وقال الفيوميُّ في «**المصباح**»: وهمت وهماً وقع في خلدي، والجمع أوهام.

فالمراد بأوهام القلوب إدراكاتها منه قول الصّادق والباقر عليهما السلام: «كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقِّ معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم» ـ الحديث الّذي ذكرناه في صدر هذا البحث.

وقد مرَّ غير مرَّة أنَّ القلب في الآيات والأخبار بمعنى النفس والعقل، والوهم بذلك المعنى أعني الإدراك المتعلّق بالقوّة العقليّة المتعلّقة بالمعقولات في الأخبار غير عزيز بل شائع ذائع.

---

(١) الأمالي: ٤٩٥، وبحار الأنوار: ٤/٢٩، ح ٤.

ولا يبعد أن يقال: وجه التعبير بالأوهام إنّما كان من جهة عدم إحاطة العقول به تعالى أعني أنَّ هذا التعبير ضمناً إلى أنَّ تلك الإدراكات في صفة الباري تعالى أوهام من الوهم بمعنى الغلط وخيالات لا أنّها حقائق ومعقولات صحيحة.

وإنّما كان إدراكات القلوب أكبر من أبصار العيون لأنَّ القلب أعني العقل مجرَّد والعقل قد لا يحتاج في إداركه إلى المادَّة والجهة وغيرهما ممّا يحتاج إليها غيره من القوى المدركة في إدراكاتها.

ولا يخفى أنَّ إدراك البصر مثلاً مقصور على ما هو محصور في المادَّة ولا بدَّ أن يكون ذا جهة ووضع وضوء ولون وأن لا يكون بعيداً مفرطاً عن محسّة الرؤية ولا قريباً منها كذلك، وأن لا يكون صغيراً جدّاً ممّا يحتاج في رؤيتها إلى الآلات المكبّرة وأن لا يكون بينهما حاجب ممّا قدَّمنا في صدر هذا البحث من شرائط الأبصار.

وأمّا العقل فيدرك ما هو مجرَّد عن المادَّة والجهة ولا يشترط في رؤيته وجود الواسطة وعدم الظلمة وعدم القرب والبعد المفرطان ولا عدم الحاجب، فإنه يدرك مطلقاً ولذا قال عليه السلام: أنت قد تدرك بوهمك أي بعقلك السند والهند ـ إلخ، والمجرَّد عن المادَّة يكون أدقّ وألطف وأكبر وأعظم وجوداً من إدراكات البصر، لأنَّ مدركاتها محبوسة محصورة.

وفي نسخة مخطوطة مصحّحة من توحيد الصّدوق موجودة عندنا: أنَّ أوهام القلوب أكثر من أبصار العيون، بالثاء المثلّثة وهذا صحيح أيضاً، والكلُّ يشير إلى معنى واحد أي أوسع وجوداً.

وبالجملة أنَّ كلَّ ما تدركه أوهام القلوب لا تدركه العيون، بخلاف العكس وأنّ العقل مجرَّد عن المادَّة ومدركاتها كذلك، وسائر القوى ليست في مرتبته، وكذلك مدركاتها.

فالمدركات العقليّة أدقّ وأكبر وأكثر وجوداً من الحسيّة، قل كلٌّ يعمل على شاكلته، فإذا لم يكن الوهم قادراً على إدراكه تعالى والإحاطة به فما ظنّك بالعيون الّتي دون الوهم بمراحل، فنفي إدراكه تعالى بالوهم الّذي هو أوسع وجوداً أو أتمّ إدراكاً يستلزم نفي إدراكه بالأبصار بطريق أولى، فإنَّ نفي الأعمّ يستلزم نفي الأخصّ كما أنَّ نفي الحيوان يستلزم نفي الإنسان على ما بيّن في صنعة الميزان.

ثمَّ لا يخفى على من ساعده التوفيق أنَّ هذه الأخبار الصادرة من أهل بيت العصمة تشير إلى تجرُّد الرُّوح الإنساني الّذي به امتاز الإنسان عن سائر الحيوانات وبه كرَّم الله بني آدم عليهم، فالحيوانات وإن كانت قويّة في إدراكاتها الحسيّة لكنها عاجزة عن نيل ما رزق به الإنسان من تعقّل المعقولات وإدراك الحقائق المجرَّدة والمعاني اللّطيفة الخفيّة من فعل

العقل، والفرق بين المعاني الحسيّة وبين المعاني العقليّة شرفاً كالفرق بين الحاسّة والعقل.

والمراد من سؤال أبي هاشم الجعفري أبا الحسن الرِّضا عليه السلام عن الله هل يوصف يعني هل يدرك سبحانه بالحواسّ والعقول ثمَّ يوصف بأن يقال: إنَّ الله ذاته كذا وصفاته كذا ولا محالة ينجرُّ إلى محدوديّته تعالى وإلى وصفه بالصورة والتخطيط وغيرها من صفات خلقه كما يستفاد من الأخبار الواردة في باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه جلّ وعلا كما في **«الكافي والتوحيد»** وغيرهما.

ثمَّ إنَّ هذه الأخبار لا تفسّر الأبصار بالأوهام، بل لمّا انجرَّ الكلام إلى إدراك الأبصار الحقَّ تعالى قالوا عليهم السّلام: إنَّ أوهام القلوب لا تدركه تعالى فكيف الأبصار تقدر على إدراكه، وكذا أنّه تعالى يدرك أوهام القلوب مع دقّتها وسعتها فكيف لا يدرك الأبصار ويظهر ما قلنا بأدنى تأمل في سياق تلك الأخبار، فقد وهم من قال إنّها تفسّر الأبصار بأوهام القلوب.

نعم رواية أُخرى منقولة في باب في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ من **«الكافي»** وفي باب ما جاء في الرؤية من توحيد الصدوق بسند واحد ومتن واحد من غير اختلاف ظاهرة في أنّها تفسّر الأبصار بأبصار القلوب.

ففيهما: بإسنادهما عن محمّد العطّار، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن ابن أبي نجران، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: إحاطة الوهم؛ ألا ترى إلى قوله: «قد جاءكم بصائر من ربّكم» ليس يعني بصر العيون «فمن أبصر فلنفسه» ليس يعني من البصر بعينه، «ومن عمي فعليها» ليس يعني عمى العيون إنّما عنى إحاطة الوهم كما يقال: فلان بصير بالشعر، وفلان بصير بالفقه، وفلان بصير بالدراهم، وفلان بصير بالثياب، الله أعظم من أن يرى بالعين، انتهى[1].

وكأنّه عليه السلام أراد من قوله هذا مفسّراً كما أنَّ للعين بصراً كذلك للقلب بصر وبصر القلب يسمّى بصيرة، فالمراد من إحاطة الوهم إحاطة بصيرة القلب ومع ذلك لا يبعد أن يقال: إنّه عليه السلام أراد من كلامه هذا التنبيه على إرادة أبصار القلوب بالآية لا أبصار العيون فقط، أي أنَّ الأبصار في الآية تشمل أبصار العيون والقلوب كليهما.

وأشار عليه السلام في صحّة إرادة إدارك القلبي من الأبصار إلى إطلاق البصر على بصيرة القلب في القرآن الكريم بقوله: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ إلخ، وإلى إطلاقه عليها في العرف أيضاً بقوله: كما يقال: فلان بصير ـ إلخ. وقوله: إنّما عنى

(١) الكافي: ١/٩٨، ح ٩، والتوحيد: ١١٢ ح ١٠.

إحاطة الوهم، أي إنّما أراد الله من قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ إحاطة الوهم.

إن قلت: هذه الأخبار تكذّب إدراكه تعالى بأوهام القلب، وقد رويت أخبار أُخر أنَّ القلوب تدركه بحقائق الإيمان فكيف التوفيق؟.

قلت: المراد من الأخبار النافية، إدراكه تعالى بالاكتناه والإحاطة، ومن الأخبار المثبتة إدراكه بوجه بمعنى الانكشاف التّامّ الحضوري والشهود العلمي من غيره اكتناه كما تتلوها مبيّنة.

«الحديث الرابع»

في «**الكافي**» عن محمّد بن أبي عبد الله، عن عليِّ بن أبي القاسم، عن يعقوب بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي محمّد عليه السلام أسأله كيف يعبد العبد ربّه وهو لا يراه؟ فوقّع عليه السلام «يا أبا يوسف، جلَّ سيّدي ومولاي والمنعم عليَّ وعلى آبائي أن يُرى»، قال: وسألته هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه؟ فوقّع عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحبَّ»[1].

أقول: هذا هو الحديث الأوّل من باب في إبطال الرؤية من أُصول «**الكافي**» وقريب منه الحديث الثامن منه.

قال: محمّد بن يحيى وغيره عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن ابن أبي نصر، عن أبي الحسن الرِّضا عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أُسري بي إلى السّماء بلغ بي جبرائيل مكاناً لم يطأه قط جبرائيل فكشف له فأراه الله من نور عظمته ما أحبَّ»[2] ورواه الصّدوق في «**التوحيد**» عن أبيه، عن محمّد العطّار، عن ابن عيسى، عن البزنطي عن الرّضا عليه السلام.

بيان: محمّد بن أبي عبد الله هو الّذي أكثر المشايخ الثلاثة رضوان الله عليهم الرواية عنه، وعليُّ بن أبي القاسم عبد الله بن عمران البرقيُّ المعروف أبوه بماجيلويه يكنّى أبا الحسن، وذهب المولى صالح المازندراني والمولى صدرا الشيرازي في شرحهما على أُصول «**الكافي**» إلى أنَّ يعقوب بن إسحاق هو الشيخ أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السّكيت الدورقي، وابن السكّيت هذا من أكابر علماء العربيّة وعظماء الشيعة وهو من أصحاب الجواد والهادي عليهما السلام، ومؤلّف كتاب «**إصلاح المنطق**».

---

(١) الكافي: ١/ ٩٥، ح ١، والتوحيد: ١٠٨، ح ٢.

(٢) قرب الإسناد: ٣٥٧، والكافي: ١/٨، ح ٨.

قال ابن خلّكان في «**وفيات الأعيان**»: قال بعض العلماء: ما عبر على جسر بغداد كتاب من اللّغة مثل إصلاح المنطق. وقال: قال أبو العبّاس المبرّد: ما رأيت للبغداديّين كتاباً أحسن من كتاب ابن السكّيت.

وقال الشيخ الجليل النجاشي في «**الفهرست**»: يعقوب بن إسحاق السكيت أبو يوسف كان مقدماً عند أبي جعفر الثاني وأبي الحسن عليه السلام وكان يختصّانه (**وكان يخصانه ـ ظ**) وله عن أبي جعفر عليه السلام رواية ومسائل، وقتله المتوكّل لأجل التشيّع وأمره مشهور، وكان وجيهاً في علم العربيّة واللّغة ثقة مصدق لا يطعن عليه وله كتب ثمّ عدَّ كتبه.

قال ابن النديم في «**الفهرست**»: وكان يعقوب بن السكّيت يكنّى بأبي يوسف وكان مؤدّباً لولد المتوكّل ويقال: إنَّ المتوكّل ناله بشيء حتّى مات في سنة ست وأربعين ومائتين، وليعقوب ابن يقال له: يوسف نادم المعتضد وخصَّ به، انتهى ما أردنا من نقل كلامه[١].

وفي «**وفيات الأعيان**»: وكان يميل في رأيه واعتقاده إلى مذهب من يرى تقديم عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، قال أحمد بن عبيد: شاورني ابن السكيت في منادمته المتوكّل فنهيته، فحمل قولي على الحسد وأجاب إلى ما دعي إليه من المنادمة فبينما هو مع المتوكّل يوماً جاء المعتزّ والمؤيّد فقال المتوكّل: يا يعقوب أيّما أحبّ إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ فغضّ ابن السكّيت من ابنيه وذكر الحسن والحسين رضي الله عنهما بما هما أهله، فأمر الأتراك فداسوا بطنه فحمل إلى داره فمات بعد غد ذلك اليوم، وكان ذلك في سنة أربع وأربعين ومائتين ـ إلى أن قال:

وقد روي في قتله غير ما ذكرته أوّلاً، فقيل: إنَّ المتوكّل كان كثير التحامل على عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام وابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين، وكان ابن السكيت من المغالين في محبّتهم والتوالي لهم، فلمّا قال له المتوكّل تلك المقالة قال ابن السكّيت: والله إنَّ قنبر خادم عليّ عليه السلام خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكّل: سلّوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك به فمات وذلك في ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة أربع وأربعين ومائتين، وقيل: سنة ثلاث وأربعين. وبلغ عمره ثمانياً وخمسين سنة[٢].

وقال المجلسي رحمه الله في «**مرآة العقول**»: وظنّ أصحاب الرِّجال أنَّ يعقوب بن إسحاق هو ابن السكّيت، والظّاهر أنّه غيره، لأنَّ ابن السكّيت قتله المتوكّل في زمان الهادي عليه السلام ولم يلحق أبا محمّد عليه السلام. انتهى كلامه رحمه الله[٣].

---

(١) فهرست ابن النديم: ٧٩. (٢) نهج السعادة: ٧/ ٣٨٧، وبحار الأنوار: ١٠٤/ ٢.

(٣) بحار الأنوار: ٤/ ٤٣، ح ٢١.

أقول: أبو محمّد في الرّوايات هو الحسن بن عليّ العسكري الإمام الحادي عشر والد الإمام المنتظر (عج).

قال في «**الكافي**»: ولد أبو محمّد الحسن بن عليّ عليه السلام في شهر رمضان وفي نسخة أُخرى في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وقبض عليه السلام يوم الجمعة لثمان ليال خلون من شهر ربيع الأوّل سنة ستّين ومائتين وهو ابن ثمان وعشرين سنة(١).

وفي «**الكافي**»: أنّ والده أبا الحسن الثالث عليّ بن محمّد الهادي الإمام العاشر عليه السلام قبض سنة أربع وخمسين ومائتين فكان أبو محمّد عليه السلام عند وفاة أبيه الهادي عليه السلام ابن اثنتين وعشرين سنة، وعند وفاة ابن السكّيت ابن اثنتين وعشرة سنة، فابن السكّيت لحق أبا محمّدعليه السلام إلاّ أنّ نقل ابن السكّيت عنه عليه السلام مستغرب في ظاهر الأمر فلا يبعد احتمال المجلسي رضي الله عنه عن الصّواب(٢).

فالظّاهر أنّ يعقوب بن إسحاق هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف العرب المتوفي ـ ٢٤٦هـ ولمّا كان هو وابن السكّيت في الاسم والكنية واسم الوالد مشتركين، وكانا أيضاً معاصرين اشتبه على الشرّاح أحدهما بالآخر.

وممّا يؤيّد هذا الاحتمال الاحتجاج الّذي وقع بين أبي محمّد عليه السلام وبين الكندي لمّا أخذ في تأليف تناقض القرآن على زعمه نقله المجلسيُّ رضي الله عنه في احتجاجات «**البحار**» عن مناقب ابن شهر آشوب قال:

أبو القاسم الكوفيُّ في كتاب التبديل إنّ إسحاق الكندي كان فيلسوف العراق في زمانه، أخذ في تأليف تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك وتفرَّد به في منزله وأنّ بعض تلامذته دخل يوماً على الإمام العسكري عليه السلام فقال له أبو محمد عليه السَّلام: أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عمّا أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟ فقال أبو محمّد عليه السلام: أتؤدّي إليه ما ألقيه إليك؟ قال: نعم، قال: فصر إليه (**فسر إليه ـ خ ل**) وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت المؤانسة في ذلك فقل: قد حضرتني مسألة أسألك عنها فإنّه يستدعي ذلك منك فقل له: إن أتاك هذا المتكلّم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلّم به منه غير المعاني الّتي ظننتها أنّك ذهبت إليها؟ فإنّه سيقول: إنه من الجائز لأنّه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعلّه قد أراد غير الّذي ذهبت أنت إليه فتكون واضعاً لغير معانيه، فصار الرّجل إلى الكندي وتلطّف إلى أن ألقى إليه (**عليه ـ خ ل**) هذه المسألة فقال له:

(١) الكافي: ١/ ٥٠٣، وبحار الأنوار: ٥٠/ ٣٧، ح ٧.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٠/ ١٥٠، والاحتجاج: ٢/ ٢٦٩.

أعِد عليّ فأعاد عليه فتفكّر في نفسه ورأى ذلك محتملاً في اللّغة وسائغاً في النظر.

وممّا يؤيّد هذا الاحتمال أيضاً أنَّ السؤال عن نحو هذه المسألة أنسب بحال الكندي من ابن السكّيت لأنّه كان فيلسوفاً حكيماً، وقد عدّ ابن النديم في «**الفهرست**» من كتبه الفلسفيّة أكثر من عشرين كتاباً، وكأنّه أراد اختبار الإمام فيه تعالى فأجابه عليه السلام بما يناسبه.

ولكن مع ذلك كلّه ههنا كلاماً يختلج بالبال وهو أنَّ عليَّ بن أبي القاسم لم يكن ممّن يروي عن الكندي أو يكون أحد تلامذته ولم نجد في الكتب الرِّجاليّة والفهارس من عدّه من تلامذته أو رواته، بل عدُّوه من رواة ابن السكّيت ومنهم المولى الأردبيلي رحمه الله في جامع الرواة.

ثمَّ إنَّ أبا محمّد عليه السلام كان عند وفاة الكندي ابن أربع عشرة سنة لما مضى من تاريخ وفاتهما، وعنده وفاة ابن السكيت ابن اثنتين وعشرة سنة كما دريت، فكان الفاصلة بين وفاة ابن السكيت والكندي سنتين، فلو كان نقل ابن السكيت عنه عليه السلام مستغرباً لكان كذلك الكلام في نقل الكندي عنه كما لا يخفى وقول المجلسي رحمه الله إنَّ ابن السكّيت لم يلحق أبا محمّد ليس بصواب كما علم.

وقال بعضهم في تعليقه على جامع الرواة المذكور آنفاً في المقام ما هذا لفظه: فيه اشتباه لأنّ يعقوب بن إسحاق السكيت لم يرو عن أبي محمد جزماً إذ كما صرَّح المؤلّف أيضاً قتله المتوكّل فكيف يمكن روايته عن أبي محمّد عليه السلام، فالظاهر أنّه يعقوب بن إسحاق البرقي لأنّه من رواة العسكري كما صرَّح «مح» انتهى قوله.

وفيه أوّلاً أنَّ يعقوب بن إسحاق البرقي لم يكنّ بأبي يوسف، على أنّه مجهول الحال عدّه الشيخ رحمه الله في «**الفهرست**» بعنوان يعقوب بن إسحاق من أصحاب الهادي عليه السلام وبزيادة وصفه بالبرقي من أصحاب العسكري عليه السلام، ولم يعلم من هو ومن روى عنه ولم يذكر أحد أنَّ عليَّ بن أبي القاسم روى عنه. والله تعالى أعلم.

وأمّا سؤال أبي يوسف أبا محمّد عليه السلام عن رؤيته تعالى ففيه كلام أيضاً، لأنَّ السائل إن كان ابن السكّيت فكيف لم يكن استحالة رؤيته تعالى بالأبصار معلومة له وهو أدرك الجواد والعسكريّين عليهما السلام وقال النجاشيّ: وله عن أبي جعفر الثاني عليه السلام رواية ومسائل.

نعم إن كان السائل الكندي فلا ضير فيه لأنّه سأله اختباراً وكيف كان فأجابه عليه السّلام بأنَّ الله تعالى جلَّ أن يرى بالأبصار، لما دريت آنفاً أنَّ ما يدرك بالأبصار يجب أن يكون جسماً كثيفاً له ضوء ولون وجهة ومكان وسائر ما يشترط في الأبصار حتّى يرى، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثمَّ سأله من باب المكاتبة أيضاً بدليل مقابلته بالتوقيع هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه وإنّما سأل عن ذلك لأنَّ طائفة من الرّوايات وبعض آيات النجم تدلُّ على أنّه صلى الله عليه وآله رآه تعالى، ويتبادر وهم العامّة في أمثال هذه المعاني إلى ما يتوهّمونها في الأجسام فيزعمون أنَّ كلَّ ما هو موجود فهو مرئيٌّ فما لم يكن بمرئيّ فليس بموجود، أو أنَّ كلَّ ما هو مرئيٌّ فهو مرئيٌّ بالأبصار فقط، ولا يعلمون أنَّ الرؤية بعين القلب أعني العقل أتمّ وأكمل وأشرف وأقوى وأبقى من الرؤية بعين الرأس، والفرق بين الرؤيتين كالفرق بين المدركين من العقل والعين.

فأجابه عليه السلام بأتمّ بيان بأنّه تعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحبَّ نفي رؤيته تعالى بالبصر وقال: أرى رسوله بقلبه ما أحبَّ من نور عظمته.

ورؤية القلب أشرف من رؤية العين، لعدم احتياجها إلى ما يشترط في الإبصار بالعين، بل هو انكشاف تامٌّ ووصول لا يتأتى بيانه بالقلم يفهمه من كان له قلبٌ وقال أبو الحسن الرضا عليه السلام في الحديث المقدَّم ذكره: فكشف له فأراه ـ إلخ، كأنّه بيان لقول أبي محمّد عليه السلام أرى بقلبه أي الإراءة ههنا هي الكشف التامُّ.

وقوله عليه السلام: من نور عظمته، بيان لكلمة ما قدّم عليها توسعة للظرف، وأُسلوب الكلام يقتضي إرجاع ضمير أحبَّ إليه تعالى لا إلى رسوله.

فبما حقّقنا في المقام علمت أنَّ أبا الحسن عليه السلام احتجَّ على أبي قرة في الحديث المقدَّم على زنة معرفته وقدر عقله، ولو وجده الإمام أهلاً للإشارات الرقيقة لفسّر له قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] بما رأى الفؤاد كما في الحديث الآتي.

وعلمت أيضاً أنَّ ما جاء في الروايات بأنّه عليه السلام رآه تعالى، فالمراد رؤيته بالقلب من غير إحاطة لا بالبصر جمعاً بين ما حكم به العقل الناصع وبين ظاهر النقل.

فنعم ما أشار إليه العالم الجليل الصدوق رضي الله عنه في باب ما جاء في الرؤية من كتابه في «التوحيد» حيث قال: حدَّثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، قال: حدَّثنا إبراهيم بن هاشم، عن ابن أبي عمير، عن مرازم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه عزَّ وجلَّ ـ يعني بقلبه ـ وتصديق ذلك ما حدَّثنا به محمّد بن أحمد بن الوليد، قال: حدَّثنا محمّد بن الحسن الصفّار، عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب، عن محمّد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه عزَّ وجلَّ؟ فقال: «نعم بقلبه رآه. أما سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ أي لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد»[1]، انتهى ما أفاده رضي الله عنه.

---

(١) التوحيد: ١١٦، ح ١٧، وبحار الأنوار: ٤/٤٣، ح ١٩.

الحديث الخامس

في «**الكافي**»: عدَّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن أبي الحسن الموصلي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء حبر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك حين عبدته؟ قال فقال: ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره، قال: وكيف رأيته؟ قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان[1].

أقول: هذه الرّواية جاءت في الجوامع بطرق متعدِّدة بينها اختلاف لفظاً وكمّاً في الجملة وما أتى به الكلينيُّ في هذا الباب من جامعه «**الكافي**» جزء ممّا نقل في الجوامع الأُخر.

ثمَّ إنَّ الظاهر أنَّ ذلك الحبر هو ذعلب اليماني والحديث بعض حديث ذعلب المشهور، رواه الخاصّة والعامّة بألفاظ مختلفة متقاربة وأسناده متعدِّدة.

نعم لا يبعد أن يذهب إلى أنَّ ذلك السؤال والجواب وقع بينه عليه السلام وبين ذلك الحبر مرَّة، وبينه وبين ذعلب مرَّة أُخرى، ولكن مشاركتهما في هيئة السؤال والجواب ونضد الألفاظ تأبيان بظاهرهما عن ذلك الاحتمال.

ففي باب «**التوحيد**» من «**الكافي**» وفي «**الوافي**» ص ٩٤ ج ١ في باب «**جوامع التوحيد**» وفي «**مرآة العقول**» ص ٩١ ج ١: محمّد بن أبي عبد الله رفعه عن أبي عبد الله عليه السّلام قال:

بينا أمير المؤمنين يخطب على منبر الكوفة إذ قام إليه رجل يقال له ذعلب ذو لسان بليغ في الخطب شجاع القلب فقال: أيا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك؟

فقال: ويلك يا ذعلب ما كنت أعبد ربّاً لم أره.

فقال: يا أمير المؤمنين كيف رأيته؟

قال: ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة هذه الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذعلب إنَّ ربّي لطيف اللّطافة لا يوصف باللّطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، قبل كلِّ شيء لا يقال شيء قبله، وبعد كلِّ شيء لا يقال له بعد، شاء (شيأ خ ل) الأشياء لا بهمّة، درّاك لا بخديعة، في الأشياء كلّها غير متمازج بها ولا بائن منها، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجلّ لا

(١) شرح أصول الكافي: ٣/ ١٨٠، ح ٦، والاختصاص: ٢٣٦.

باستهلال رؤية، نائي لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسّم، موجود لا بعد عدم، فاعل لا باضطرار، مُقدّر لا بحركة، مريد لا بهامة، سميع لا بآلة، بصير لا بأداة، لا تحويه الأَماكن، ولا تضمنه الأوقات ولا تحدُّه الصفات، ولا تأخذه السنات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، وبمضادّته بين الأشياء أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضادّ النّور بالظّلمة، واليبس بالبلل، والخشين باللّين، والصرد بالحرور، مؤلّف بين متعادياتها، مفرّق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها على مفرّقها وبتأليفها على مؤلّفها، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

ففرّق بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرّزها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه، كان ربّاً إذ لا مربوب، وإلهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم وسميعاً إذ لا مسموع. انتهى ما في «**الكافي**»[١].

ورواه الصّدوق في باب إثبات حدوث العالم من كتابه في التّوحيد بطريقين وكلّ واحد منهما يشتمل على أكثر ممّا في «**الكافي**» إلاّ أنّ ما في «**الكافي**» واقع في أثناء الطريق الأوّل وأمّا الطريق الثاني فمبتدأ بما في «**الكافي**».

فعلى الثاني قال: حدَّثنا عليُّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقاق رضي الله عنه قال: حدَّثنا محمّد بن أبي عبد الله الكوفي قال: حدَّثنا محمّد بن إسماعيل البرمكي قال: حدَّثنا الحسين بن الحسن قال: حدَّثنا عبد الله بن زاهر قال: حدَّثني الحسين بن يحيى الكوفي قال: حدَّثني قثم ابن قتادة، عن عبد الله بن يوسف، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة إذ قام إليه رجل يقال له ذعلب ذرب اللسان بليغ في الخطاب شجاع القلب ـ إلى آخر ما في «**الكافي**»، إلاّ أنّ في «**التوحيد**» شائي الأشياء على صورة الفاعل ويمكن أن يكون ما في «**الكافي**» أيضاً على اسم فاعل منوَّن كرام. وفي «**التوحيد**»: لا تصحبه الأوقات. ضاد النور بالظلمة والجسوّ بالبلل، ليعلم أن لا حجابَ بينه وبين خلقه غير خلقه[٢].

وجاء ذيل الحديث بعد قوله وسميعاً إذ لا مسموع أبيات على هذا الوجه: ثمّ أنشأ يقول:

ولم يزل سيّدي بالحمد معروفاً ولم يزل سيّدي بالجود موصوفاً
وكنت إذ ليس نور يستضاء به ولا ظلام على الآفاق معكوفاً

(١) الكافي: ١٠/١٣٩، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/١٥٨.
(٢) التوحيد: ٣٠٩، وبحار الأنوار: ٣/٣٢٧، ح ٢٧.

وربّنا بخلاف الخلق كلّهم وكلّما كان في الأوهام موصوفاً
ومن يرده على التشبيه ممتثلاً يرجع أخا حصر بالعجز مكتوفاً
وفي المعارج يلقى موج قدرته موجاً يعارض طرف الروح مكفوفاً
فاترك أخا جدل في الدين منعمقاً قد باشر الشك فيه الرأي مؤوفاً
واصحب أخا ثقة حبّاً لسيّده وبالكرامات من مولاه مخفوفاً
أمسى دليل الهدى في الأرض منتشراً وفي السماء جميل الحال معروفاً

قال: فخرَّ ذعلب مغشيّاً عليه ثمّ أفاق وقال: ما سمعت بمثل هذا الكلام ولا أعود إلى شيء من ذلك، انتهى.

أقول: والأبيات مذكورة في الديوان المنسوب إلى الأمير عليه السلام، وبين النسختين اختلاف في الجملة.

وأمّا الطريف الأوّل فالظاهر من «**التوحيد**» ـ إن لم يكن صريحاً ـ أنّ حديث ذعلب إنّما كان من جملة ما قالها عليه السلام في أوّل خطبة خطب بها الناس على المنبر بعد ما بايعوه.

قال الصدوق رضي الله عنه: حدَّثنا أحمد بن الحسن القطّان وعليُّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقاق رحمه الله قالا: حدَّثنا أحمد بن يحيى بن زكريّا القطان، قال: حدَّثنا محمّد بن العبّاس، قال: حدَّثني محمّد بن أبي السري قال: حدَّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، عن سعد الكناني، عن الأصبغ بن نباتة قال: لمّا جلس عليٌّ عليه السلام الخلافة وبايعه النّاس خرج إلى المسجد متعمّماً بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله، لابساً بردة رسول الله صلى الله عليه وآله، منتعلاً نعل رسول الله صلى الله عليه وآله، متقلداً سيف رسول الله صلى الله عليه وآله فصعد المنبر فجلس عليه متمكّناً ثمّ شبّك أصابعه فوضعها أسفل بطنه ثمّ قال:

يا معاشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني هذا سفط العلم هذا لعاب رسول الله صلى الله عليه وآله هذا ما زقّني رسول الله زقّاً زقّاً، سلوني فإنَّ عندي علم الأوّلين والآخرين، أما والله لو ثنّيت لي الوسادة فجلست عليها لأفتيت لأهل التوراة بتوراتهم حتّى تنطق التوراة فتقول: صدق عليٌّ ما كذب لقد أفتاكم بما أنزل الله فيَّ. وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم حتّى ينطق الإنجيل فيقول: صدق عليٌّ ما كذب لقد أفتاكم بما أنزل الله فيَّ، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتّى ينطق القرآن فيقول: صدق عليٌّ ما كذب لقد أفتاكم بما أنزل الله فيَّ. وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه، ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي هذه الآية ﴿يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩].

ثمَّ قال: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله الّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية في ليل أنزلت أو في نهار أنزلت مكيّها، ومدنيّها، سفريها وحضريها، ناسخها، ومنسوخها، محكمها، ومتشابهها، تأويلها، وتنزيلها لأخبرتكم.

فقام إليه رجل يقال له: ذعلب وكان ذرب اللّسان بليغاً في الخطب شجاع القلب فقال: لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقاة صعبة لأخجلنه اليوم لكم في مسألتي إيّاه فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك؟

قال: ويلك يا ذعلب لم أكن بالّذي أعبد ربّاً لم أره.

قال: فكيف رأيته صفه لنا؟

قال: ويلك يا ذعلب إنَّ ربي لا يوصف بالبعد، ولا بالحركة، ولا بالسكون ولا بالقيام قيام انتصاب، ولا بمجيء ولا ذهاب، لطيف اللّطافة لا يوصف باللطّف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقّة، مؤمن، لا بعبادة، مدرك لا بمجسّة، قائل لا باللّفظ، هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كلِّ شيء فلا يقال شيء فوقه، وأمام كلِّ شيء ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج.

فخرَّ ذعلب مغشياً ثمَّ قال: تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب والله لا عدت إلى مثلها.

ثمَّ قال عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني.

فقام إليه الأشعث بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين كيف يؤخذ من المجوس الجزية ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث إليهم نبيٌّ؟

قال: بلى يا أشعث قد أنزل الله عليهم كتاباً، وبعث إليهم رسولاً حتّى كان لهم ملك سكر ذات ليلة فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبها، فلمّا أصبح تسامع به قومه فاجتمعوا إلى بابه فقالوا: أيّها الملك دنّست علينا ديننا فأهلكته فأخرج نطهّرك ونقيم عليك الحدَّ. فقال لهم: اجتمعوا واسمعوا كلامي فإن يكن لي مخرج ممّا ارتكبت وإلاّ فشأنكم، فاجتمعوا فقال لهم: هل علمتم أنَّ الله لم يخلق خلقاً أكرم عليه من أبينا آدم من بنيه؟ قالوا: صدقت أيّها الملك. قال: أفليس قد زوّج بنيه بناته وبناته من بنيه؟ قالوا: صدقت هذا هو الدِّين فتعاقدوا على ذلك فمحى الله ما في صدورهم من العلم ورفع عنهم الكتاب، فهم الكفرة يدخلون النار بلا حساب والمنافقون أشدّ حالاً منهم.

قال الأشعث: والله ما سمعت لمثل هذا الجواب، والله لا عدت إلى مثلها أبداً.

ثمَّ قال عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني.

فقام إليه رجل من أقصى المسجد متوكئاً على عصاه فلم يزل يتخطّى النّاس حتّى دنا منه، فقال: يا أمير المؤمنين دلّني على عمل إذا أنا عملته نجاني الله من النار.

فقال له: اسمع يا هذا ثمّ افهم ثمّ استيقن قامت الدُّنيا بثلاثة: بعالم ناطق مستعمل لعلمه، وبغنيّ لا يبخل بماله على أهل دين الله، وبفقير صابر. فإذا كتم العالم علمه، وبخل الغنيُّ، ولم يصبر الفقير فعندها الويل والثبور، وعندها يعرف العارفون بالله أنَّ الدّار قد رجعت إلى بدئها أي الكفر بعد الإيمان.

أيّها السائل فلا تغترنَّ بكثرة المساجد وجماعة أقوام أجسادهم مجتمعة وقلوبهم شتّى.

أيّها النّاس إنّما النّاس ثلاثة: زاهد، وراغب، وصابر، فأمّا الزّاهد فلا يفرح بشيء من الدُّنيا أتاه ولا يحزن على شيء منها فاته، وأمّا الصّابر فيتمنّاها بقلبه فإن أدرك منها شيئاً صرف عنها نفسه لم «لماظ» يعلم من سوء عاقبتها، وأمّا الراغب فلا يبالي من حلّ أصابها أم من حرام.

قال له: يا أمير المؤمنين فما علامة المؤمن في ذلك الزَّمان.

قال: ينظر إلى ما أوجب الله عليه من حقّ فيتولاّه، وينظر إلى ما خلفه فيتبرّأ منه وإن كان حميماً قريباً.

قال: صدقت يا أمير المؤمنين ثمَّ غاب الرَّجل فلم نره فطلبه النّاس فلم يجدوه فتبسّم عليٌّ عليه السلام على المنبر ثمّ قال: ما لكم هذا أخي الخضر عليه السلام.

ثمَّ قال: سلوني قبل أن تفقدوني فلم يقم إليه أحد، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه صلى الله عليه وآله.

ثمَّ قال للحسن عليه السلام: يا حسن قم فاصعد المنبر فتكلّم بكلام لا تجهلك قريش من بعدي فيقولون: إنَّ الحسن بن عليّ لا يحسن شيئاً، قال الحسن عليه السلام: يا أبه كيف أصعد وأتكلّم وأنت في النَّاس تسمع وترى؟ قال له: بأبي وأُمّي وأرى «أُواري ظ» نفسي عنك وأسمع وأرى وأنت لا تراني.

فصعد الحسن عليه السلام المنبر فحمد الله بمحامد بليغة شريفة وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله صلاة موجزة ثمَّ قال:

أيّها النّاس سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها وهل تُدخَل المدينة إلاّ من بابها، ثمَّ نزل، فوثب إليه عليٌّ عليه السلام فحمله وضمّه إلى صدره.

ثمَّ قال للحسين عليه السلام: يا بنيَّ قم فاصعد المنبر وتكلّم بكلام لا تجهلك قريش من بعدي فيقولون: إنَّ الحسين بن عليّ لا يبصر شيئاً، وليكن كلامك تبعاً لكلام أخيك.

فصعد الحسين عليه السلام المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه صلاة موجزة ثمَّ قال:

يا معاشر النّاس سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول إنَّ عليّاً هو مدينة هدى فمن دخله نجا ومن تخلّف عنها هلك. فوثب إليه عليٌّ عليه السلام فضمّه إلى صدره وقبّله ثمَّ قال: معاشر النّاس اشهدوا أنّهما فرخا رسول الله صلى الله عليه وآله ووديعته الّتي استودعنيها، وأنا أستودعكموها، معاشر النّاس ورسول الله سائلكم عنهما، انتهى ما في «**التوحيد**»[1].

وروي هذا الطريق في أوّل المجلس الخامس والخمسين ما أماليه بهذا الإسناد في «**التوحيد**».

واعلم أنَّ كلامه عليه السلام في جواب ذعلب مذكور في النهج أيضاً، وهو الكلام ١٧٧ من باب الخطب أوّله: ومن كلامه عليه السلام وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى، قال: وكيف تراه ـ إلخ.

لكن ما في «**النهج**» يكون قريباً من ثلث ما في «**الكافي والتوحيد**»، على أنَّ نسخة «**النهج**» لا يوافقهما في الألفاظ والعبارات وبينهما تفاوت إلاّ في صدر الرواية حيث قال عليه السلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. وأمّا سائر كلامه هذا ليس بمذكور في «**النهج**» إلاّ أنَّ قوله عليه السلام: قامت الدُّنيا بثلاثة: بعالم ناطق مستعمل عليه ـ إلخ، شبيه بقوله عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصاري: يا جابر قوام الدّنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه ـ إلخ، وهو الحكمة ٣٧٢ من باب المختار من حكمه عليه السلام من «**النهج**».

تنبيه: قد قدّمنا في شرح المختار الأوّل من كتبه عليه السلام (**ص٣٥٧ ج ٢ من تكملة المنهاج**) اختلاف الأقوال في أوّل خطبة خطبها عليه السلام بعدما بويع له بالخلافة وقد حقّقنا هنالك أنَّ الخطب: ٢١ و٢٨، ١٦٦، ١٧٦ من «**النهج**» كانت جميعاً خطبة واحدة، فبما نقلنا من رواية «**التوحيد**» ههنا علمت أنَّ كلامه في جواب ذعلب أي ذلك الكلام ١٧٧ من باب الخطب أيضاً كان منها، وأنَّ الجميع ممّا قالها في جلسة واحدة حين صعد المنبر بعدما بويع له عليه السلام بالخلافة.

وروى الكلينيُّ في ذلك الباب من «**الكافي**» حديثاً عن أبي جعفر عليه السلام وقع بينه وبين رجل من الخوارج مثل ما وقع بين أمير المؤمنين عليه السلام وذعلب فأجاب الرَّجل بما يقرب من

---

(١) الأمالي: ٤٢٥، والتوحيد: ٣٠٨.

كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

قال: عليُّ بن إبراهيم عن أبيه، عن عليِّ بن معبد، عن عبد الله بن سنان، عن أبيه، قال: حضرت أبا جعفر عليه السلام فدخل عليه رجل من الخوارج فقال: يا أبا جعفر أيَّ شيء تعبده؟ قال: الله، قال: رأيته؟ قال: «بلى لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلاّ هو»، قال: فخرج الرَّجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته. انتهى[(١)].

ورواه الصدوق في المجلس السابع والأربعين من أماليه وفي باب ما جاء في الرؤية من «**التوحيد**» أيضاً. وأبو جعفر هذا هو محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام لا الإمام التاسع بقرينة رواية سنان عنه عليه السلام صرَّح به في إسناد الأمالي حيث قال: عن عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام.

قال الصدوق في «**التوحيد**» بعد نقل حديث ذعلب: في هذا الخبر ألفاظ قد ذكرها الرضا عليه السلام في خطبته، وهذا تصديق قولنا في الأئمّة عليهم السلام أنَّ علم كلٍّ واحد منهم مأخوذ عن أبيه حتّى يتّصل ذلك بالنّبي صلى الله عليه وآله. انتهى قوله رحمه الله.

أقول: إنَّ ما يجب أن يعتقد ويذعن فيهم عليهم السلام أنَّ علمهم من معدن واحد لا يخالفون الحقَّ ولا يختلفون فيه، ولقد أجاد الصدوق رحمه الله بما أفاد، ولكن ذلك الحديث المرويُّ في «**الكافي**» عن أبي جعفر عليه السلام منسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام على نسق واحد.

روى الطبرسيُّ في كتاب «**الاحتجاج**» في باب احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام فيا يتعلّق بتوحيد الله وتنزيهه عمّا لا يليق به ما هذا لفظه:

وروى أهل السير أنَّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الله أرأيته حين عبدته؟ فقال له أمير المؤمنين: لم أك بالّذي أعبد من لم أره، فقال له: كيف رأيته يا أمير المؤمنين؟ فقال له: ويحك لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته العقول بحقائق الإيمان، معروف بالدّلالات، منعوت بالعلامات لا يقاس بالناس، ولا يدرك بالحواس، فانصرف الرَّجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته، انتهى[(٢)].

والناقد في الأحاديث يرى أنَّ ذينك الحديثين واحد قاله أحدهما عليهما السلام ووقعت تلك

---

(١) الكافي: ١/٩٧، ح ٥، ودعائم الإسلام: ١/٩١.
(٢) الكافي: ١/٩٧، ح ٥، والأمالي: ٣٥٢، ح ٤٢٧.

الواقعة لأحدهما وتعدّدت من سهو الراوي فتأمّل والله تعالى أعلم.

أمّا بيان الحديث فيجوز قراءة الأبصار بالفتح والكسر، فعلى الأوّل جمع وعلى الثاني مصدر، وفي نسختي **«النهج والاحتجاج»** بمشاهدة العيان، والمراد بالقلوب العقول كما في الاحتجاج، وقد بيّنا في شرح المختار ٢٣٧ من باب الخطب أنَّ المراد من القلب في الآيات، والأخبار واصطلاح الإلهيّن هو اللّطيفة القدسيّة الرّبانيّة الّتي يعبّر عنها بالقوّة العقليّة، لا الجسم اللّحمي الصنويري.

قوله عليه السلام: لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار. قد عرفت في شرح الأحاديث المتقدّمة أنَّ ما تدركه الأبصار لا بدَّ من أن يكون جسماً ذا ضوء ولون، وما يقبل الضوء واللّون لا بدَّ من أن يكون كثيفاً، فلزم من رؤيته تعالى بالأبصار كونه جسماً، والجسم مركّب حادث ذو جهة ووضع، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأمّا قوله: ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان فاعلم أنَّ السائل الحبر لما سأله عليه السلام: هل رأيت ربّك حين عبدته وأجابه عليه السلام ما كانت أعبد ربّاً لم أره، حمل الرؤية على الرؤية بالعين، لأنَّ المرتكز عند عامّة الناس إنّما تكون الرؤية بهذا المعنى لأنّهم يتبادرون إلى الأحكام الّتي تحسّ بمحسّة لحشرهم معها وأُنسهم بها.

وأمّا التوجّه إلى ما وراء الطبيعة والسير إلى باطن عالم الشهود بقدم المعرفة فلا تيسّر لهم إلاّ بعد تنبيه وإرشاد، ولمّا رأى عليه السلام أنّه حمل الرؤية على ذلك بيّن له أنَّ المراد من الرؤية هو الرؤية القلبيّة لا العينيّة، وقال عليه السلام رأته القلوب بحقائق الإيمان.

وأمّا الرؤية القلبيّة بحقائق الإيمان فلا بدَّ من أن نمهّد مقدُمة في بيانه كي يتّضح المراد وهي:

أنَّ حقيقته تعالى غير معلومة لأحد بالعلم الحصولي الصوري كما أنّها غير معلومة لأحد أيضاً بالعلم الاكتناهي أعني إحاطته تعالى بالعقل أو الحسّ أو بغيرهما من القوى المدركة، واتّفق على امتناع ذينك العلمين به تعالى الحكماء الإلهيّون والعرفاء الشامخون.

أمّا الأوّل فلأنَّ العلم الحصولي به تعالى إنّما يتمشّى فيما له ماهيّة حتّى يصحّ تعدُّد أنحاء الوجود لتلك الماهيّة فيحصل نحو من وجوده في الأذهان، والعلم الحصولي هو حصول صورة الشيء وارتسامه في الذّهن، والعلم بالشيء ليس إلاّ نحو وجوده لدى الذات العاقلة المجرّدة، فهذا الوجود الذهني نحو من وجود ذلك الشيء الخارجي، غاية الأمر أنَّ للذهني بالنسبة إلى الخارجي تجرُّداً ما، ولكن الواجب تعالى لمّا كان حقيقته وجوده العيني الخاص وتعيّنه عين ذاته، وإنيّته ماهيّته لا يتطرّق إليه التعدُّد والكثرة، فلا يرتسم في الذهن،

فلا يكون معلوماً لأحد بالعلم الحصولي.

وأمّا الثاني فلأنَّ ما سواه معلول له، وأنّى للمعلول أن يحيط بعلّته وهو دونها وشأن من شؤونها، وهو تعالى لشدَّة نوريّة وجوده الغير المتناهي العيني الخاصُّ به ونهاية كماله وسعة عظمته وقاهريّة ذاته وتسلّطه عن من سواه حجب العقول المجرَّدة والنفوس الكاملة، فضلاً عن الأوهام والأبصار عن الإحاطة به واكتناه ذاته لقصورها وفتورها.

وفي الحديث: إنَّ الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار(١)، وأنَّ الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم.

وفي الكتاب الإلٰهي ﴿لا يحيطون به علما وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١٠ - ١١١] والعلم به تعالى على ما هو عليه مختصٌّ به.

سبحان من تحيّر في ذاته سواه فهم خرد بكنه كمالس نبرده راه

ازما قياس ساحت قدسش بودجنانك موري كندمساحت كردون زكعرجاه

وكما أنَّ أبصارنا عاجزة عن أن تملأ من نور الشمس المشرقة وعن إحاطة الرؤية بها واكتناهها، كذلك بصيرتنا عن اكتناه ذاته تعالى.

على أنَّ هذا التمثيل للتقريب، كيف؟ وهو تعالى أجلّ وأعلى عن التشبيه والتمثيل والقياس بمخلوقاته ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

أي برون ازرهم وقال وقيل من خاك بر فرق من وتمثيل من

نكتة: فإذا كانت الأبصار عاجزة عن أن تملأها من نور الشمس المشرقة فما ظنّك برؤية من هو في شدَّة نوريّته فوق ما لا يتناهى بما لا يتناهى.

وقد روى في ذلك الكلينيُّ في باب إبطال الرؤية من جامعه «**الكافي**» والصدوق في باب ما جاء في الرؤية من كتابه في «**التوحيد**» عن أحمد بن إدريس، عن محمّد بن عبد الجبّار، عن صفوان بن يحيى، عن عاصم بن حميد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذاكرت أبا عبد الله عليه السلام فيما يروون من الرؤية، فقال: الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسيُّ جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملؤوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب(٢).

---

(١) تحف العقول: ٢٤٥، والرواشح السماوية: ١٨.

(٢) الكافي: ١/٩٨، ح ٧، والتوحيد: ١٠٨، ح ٣.

فإذا ساقنا البرهان إلى أنَّ العلم به تعالى حصوليّاً واكتناهيّاً محال، فلا جرم يكون المراد من الرؤية القلبيّة بحقائق الإيمان غير هذين النحوين من العلم بل هي طوراً آخر أدقّ وألطف وهو:

أنَّ الرؤية القلبيّة به تعالى هي الكشف التامّ الحضوري وشهوده تعالى للعبد على مقدار تقرُّبه منه تعالى بقدم المعرفة ودرج معارف العقل وعقائد حقّانيّة برهانيّة، فإنّه عزَّ وجلَّ يتجلّى للعبد بقدر دعائه الوجوديّ، لأنَّه ربُّ العباد والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وهم في وجودهم وبقائهم في جميع الأحوال والعوالم ربط محض وفقر صرف، والأوّل تعالى لا ينفكُّ فيضه عليهم طرفة عين، ويفيض عليهم على مقدار قابليّتهم وسعة وجودهم وتقرُّبهم، والعارف السالك يشهده على مقدار حقائق إيمانه لا بالكنه، وهذا الشهود الوجودي والانكشاف التامّ الحضوري ذو درجات ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [المجادلة: ١١] وتنتهي هذه الدَّرجات إلى مرتبة يقول العبد السالك النائل بها على لسان صدق وقول حق: لو كشف الغطاء لما ازددت يقيناً.

قال يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف العرب: إذا كانت العلّة الأولى متّصلة بنا لفيضه علينا وكنّا غير متّصلين به إلاّ من جهته، فقد يمكن فينا ملاحظته على قدر ما يمكن للمفاض عليه أن يلاحظ المفيض، فيجب أن لا ينسب قدر إحاطته بنا إلى قدر ملاحظتنا له، لأنَّها أغزر وأوفر وأشدّ استغراقاً.

وقال المحقّق الشهرزوريُّ في «**الشجرة الإلهية**»: الواجب لذاته أجمل الأشياء وأكملها، لأنَّ كلَّ جمال وكمال ورشح وفيض وظلٌّ من جماله وكماله، فله الجلال الأرفع، والنور الأقهر، فهو محتجب بكمال نوريّته وشدّة ظهوره، والحكماء المتألّهون العارفون به يشهدونه لا بالكنه، لأنَّ شدَّة ظهوره وقوَّة لمعانه ضعف ذواتنا المجرَّدة النوريّة يمنعنا عن مشاهدته بالكنه كما منع شدَّة ظهور الشمس وقوَّة نورها أبصارنا اكتناهها، لأنَّ شدَّة نوريّتها حجابها، ونحن نعرف الحقَّ الأوّل ونشاهده، لكن لا نحيط به علماً كما ورد في الوحي الإلهي ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾. نقلهما صدر المتألّهين عنهما في الفصل الثالث من المنهج الثاني من أوّل الأسفار.

والمراد من حقائق الإيمان مراتبه لأنَّ الإيمان به في كلِّ مرتبة كان حقيقة وعقيدة حقّه.

فإنَّ قول الأعرابي حيث سئل عن الدَّليل على وجود الصّانع: البعرة تدلُّ على البعير وآثار الأقدام تدلُّ على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدلُّ على وجود اللّطيف الخبير، مرتبة من مراتب الإيمان، وهو استدلال بالآثار المحوجة إلى السبب الدّالِّ على وجوده تعالى، وهو اعتقاد صدق وإيمان حق.

وقد سلك هذا المسلك أمير المؤمنين عليه السلام في مقام إرشاد من كل وعاء عقله يقتضي هذا القدر من الخطاب بقوله: البعرة تدلُّ على البعير، والروثة تدلُّ على الحمير وآثار الأقدام تدلُّ على المسير فهيكل علويٌّ بهذه اللّطافة، ومركز ثفليٌّ بهذه الكثافة كيف لا يدلاّن على اللّطيف الخبير؟

وكأنَّ قول الأعرابي مأخوذ من كلامه عليه السلام كما أشار إليه السيد نعمة الله الجزائري في تعليقته في أوّل كتابه الموسوم بـ«**الأنوار النعمانية**».

واستدلال المتكلّمين بحدوث الأجسام والأعراض على وجود الخالق وبالنظر في أحوال الخليقة على صفاته تعالى واحدة فواحدة أيضاً مرتبة من الإيمان، وهذه المرتبة حقيقة من حقائق الإيمان.

وهذا طريق إبراهيم الخليل عليه السلام في مقام هداية العباد، فإنّه استدلَّ بالأُفول الّذي هو الغيبة المستلزمة للحركة المستلزمة للحدوث المستلزم لوجود الصّانع تعالى.

وما استدلَّ به الحكماء الطبيعيّون من وجود الحركة على محرِّك، وبامتناع اتّصال المحرِّكات لا إلى نهاية على وجود محرِّك أوّل غير متحرِّك، ثمَّ استدلّوا من ذلك على وجود مبدأ أوّل أيضاً حقيقة من حقائق الإيمان ومرتبة من مراتبه.

وما استدلّ به طائفة أُخرى من الإلٰهيين كالعرفاء الشامخين من ذاته على ذاته من غير الاستعانة بإبطال الدُّور والتسلسل، أعني برهان الصديقين حقٌّ وحقيقة من مراتب حقائق الإيمان، وأشير إليه في الكتاب الإلٰهي ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣] فعرفوا بذاته ذاته ووحدانيّته شهد الله أنّه لا إلٰه إلاّ هو، وبذاته عرفوا غيره، أو لم يكف بربّك أنّه على كلِّ شيء شهيد.

واعلم أنَّ أظهر الموجودات وأجلاها عند أهل البصيرة هو الله تعالى، ويستدلُّون بذاته على وجود غيره لا بالعكس كما هو دأب من لم يصل إلى تلك المرتبة العلياء.

وقد نطق ببرهان الصّديقين على أوضح بيان إمام الموحّدين سيّد الشهداء أبو عبد الله الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «كيف يستدلُّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك، ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك» ـ إلخ[1].

---

(١) شرح أصول الكافي: ٣/٨٨، وبحار الأنوار: ٦٤/١٤٢.

ونعم ما قال العارف الشبستري:

زهي نادان كه أوخورشيد تابان ز نور شمع جويد دربيابان

ولا يخفى أنَّ أتمَّ مراتب الإيمان وحقائقه هذه المرتبة الأخيرة، وهي أيضاً بحسب مراتب العرفان متفاوتة، وقد كان الفائزون بهذه المرتبة العلياء والنائلون بهذه النعمة العظمى يكتمونها عن غير أهلها مخافة أن تزلَّ أقدام لم تسلك منازل السائرين وتضطرب أحلام لم ترق إلى مقامات العارفين.

قد روى الشيخ الجليل السعيد الصدوق قدِّس سرُّه من باب ما جاء في الرؤية من كتابه في «التوحيد» حديثاً في ذلك.

قال: حدَّثنا عليُّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقاق، قال: حدَّثنا محمّد بن أبي عبد الله الكوفي، قال: حدَّثنا موسى بن عمران النخعي، عن الحسين بن يزيد النوفلي، عن عليِّ بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن الله عزَّ وجلَّ هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قل: «نعم وقد رأوه قبل يوم القيام»، فقلت: متى؟ قال: «حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثمَّ سكت ساعة ثمَّ قال: إنَّ المؤمنين ليرونه في الدُّنيا قبل يوم القيامة ألست تراه في وقتك هذا»؟ قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك فأُحدِّث بهذا عنك؟ فقال: «لا فإنّك إذا حدَّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ثمَّ قدَّر أنَّ ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عمّا يصفه المشبّهون والملحدون»[1].

بيان: قوله: فأُحدِّث جملة استفهاميّة أو أنّ أداة الاستفهام محذوفة أي أفأُحدِّث بهذا عنك؟.

وقوله عليه السلام: كفر، فعل ماض جزاء للشرط أعني إذا حدَّثت به. والمراد بالكفر، الكفر بأهل البيت عليهم السلام، لأنَّ الجاهل بذلك المعنى الرَّقيق الّذي أشار إليه الإمام عليه السلام يعتقد أنّهم عليهم السلام قائلون بالتشبيه المحال.

وفي الفتح الرابع من الفاتحة الأولى من شرح الميبدي على الديوان المنسوب إلى الأمير عليه السلام أبيات منسوبة إلى الإمام السجاد عليه السلام أنّه قال:

إنّي لأكتم من علمي جواهره كيلا يرى الحقَّ ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسن إلى الحسين ووصّى قبله الحسنا[2]

(١) التحفة السنية: ٨، وكتاب الأربعين: ٣٤٥. (٢) التوحيد: ١١٧، ح ٢٠، وبحار الأنوار: ٤/٤٥.

ورب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسناً

أو المراد بالكفر، الكفر بالله باعتقاد تشبيهه تعالى بسائر المرئيّات بالأبصار كما مرّ في الحديث الأوّل عن أبي الحسن الثالث عليه السلام أنّ الرائي متى ساوى المرئيّ في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه وكان ذلك التشبيه، وكأنّ الكفر بهذا المعنى أنسب بسياق العبارة.

وبما حقّقنا دريت أنّ معنى الرؤية القلبيّة هو الانكشاف التامُّ الحضوري الّذي شهد على صحّته العقل والنقل، وأنّ الرؤية البصريّة على أيّ نحو كانت محالة في حقّه تعالى بشهادة العقل والنقل أيضاً.

فقد أخطأ من فسّر قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] بقوله: إنّ الله تعالى جعل بصر رسول الله صلى الله عليه وآله في فؤاده أو خلق لفؤاده بصراً حتّى رآه تعالى رؤية العين. ونسب هذا الرأي إلى النواوي من العامة.

ويرد عليه جميع ما يرد على إدراكه تعالى بالعين، لأنّ الإدراك البصري محال فيه تعالى سواء كانت قوّة الإبصار في هذه البنية المخصوصة أعني العين أو في غيرها، جعل العين في القلب لا يخرج الرؤية عن الإدراك البصري ولا يدخلها في الرؤية القلبيّة بل هي رؤية بصريّة بلا كلام.

مثلاً: رؤيتنا زيداً في المنام وإن لم تكن بعين الرأس لكن ما يعتبر فيها حالة اليقظة في المنام أيضاً، فزيد المرئيّ في المنام محدود ذو جهة مسامت للرائي فرؤيته في المنام بغير هذه المحسّة أعني عين الرأس لا تخرج عن أحكام الرؤية العينيّة ولا تدخل في الرؤية القلبيّة المجرّدة عن أوصاف الجسم.

ولو أراد هذا القائل من كلامه ذلك المعنى اللّطيف، الصّحيح الّذي بيّناه آنفاً فنعم الوفاق ولكن صرّح غير واحد بأنّه لم يرده، ولفظه يأبى عن حمله عليه.

ودريت أيضاً أنّ الّذين ذهبوا إلى عكس ما ذهب إليه النواوي أي إلى جواز أن يحوّل الله تعالى قوّة القلب إلى العين فيعلم الله تعالى بها فيكون ذلك الإدراك علماً باعتبار أنّه بقوّة القلب، ورؤية باعتبار أنّه قد وقع بالمعنى الحالّ في العين سلكوا طريقة عمياء أيضاً، ويرد عليهم الإيراد من وجوه رأينا الإعراض عنها أجدر.

ولمّا كان هذا البحث الحكمي العقلي حاوياً لتلك النكات الأنيقة والمطالب الرقيقة، أكثرها كان مستفاداً من كلمات الأئمّة الهداة عليهم السلام، رأينا أن نشير إليها على حسب ما يقتضي

المقام، ولعمري من ساعده التوفيق وأخذت الفطانة بيده اغتنم ذلك البحث العقلي الجامع لكثير من ضوابط عقليّة تزيده بصيرة، ورُقيّاً في معرفة الله تعالى وفقهاً في الأخبار المرويّة في الرؤية غيرهما ممّا يغترّ المنتسبون إلى العلم بظاهرها. الحمد الله الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الترجمة

این نامه ایست که امیرالمؤمنين علي عليه السلام بجرير بن عبدالله بجلي گاهی که او را بسوی معاویه گسيل داشت تا از وی بیعت بگیرد ، نوشت .

معاويه دربیعت با آن بزرگوار به تسويف ومماطله می گذرانید وببهانه‌های بیجا امروز وفردا می کرد ، وبدین‌سبب جریر مدتی دراز در شام سر گردان بود وأمیرالمؤمنين عليه السلام چون دید که معاويه درأمر بیعت دودل است وبه لعلّ وعسی روزگار می گذراند این نامه را بجريرنوشت :

أمّا بعد ای جرير برسيدن نامه ام ، معاويه را وادار که قبول بیعت‌یاامتناع آنرا یکسره کند ، وفراگیرش که درإطاعت یا عصیان بجزم سخن گوید ، پس او را میان کارزاری که آواره‌اش کند ، ویا گردن نهادني كه ارجش دهد وبهره‌اش رساند ، (١) مخیّر گردان . اگر کارزار را بر گزید عهد أمان بسويش افكن واعلام‌جنگ درده ، واگر بصلح گرایدبیعت از وی بستان . والسلام .

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية وهو الكتاب التاسع من باب المختار من كتبه عليه السلام ورسائله

فَأَرَادَ قَوْمُنا قَتْلَ نَبِيِّنا، وَاجْتِيَاحَ أَصْلِنا وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ، وَفَعَلُوا بِنَا الأَفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّونا إِلى جَبَلٍ وَعْرٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللَّهُ لَنا عَلى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِه، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِه، مُؤْمِنُنا يَبْغِي بِذَلِكَ الأَجْرَ، وَكافِرُنَا يُحامي عَنِ الأَصْلِ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَه، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ آمِنٍ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ، فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ والأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتَ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذي أَرادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، ولَكِنَّ آجالَهُمْ عُجِّلَتْ، وَمَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ[١].

فَيَا عَجَباً للدَّهْرِ إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتي لا يُدْلي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا إِلاّ أَنْ يَدَّعِي مُدَّعٍ ما لا أَعْرِفُهُ وَلا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ وَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلى كُلِّ حالٍ.

وَأَمّا ما سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ في هذَا الأَمْرِ فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلا إِلَى غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ، لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ في بَرٍّ وَلا بَحْرٍ، وَلا جَبَلٍ وَلا سَهْلٍ، إِلاَّ أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ لا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ، وَالسَّلامُ لأَهْلِهِ[٢].

«سند الكتاب ونقله على صورته الكاملة وذكر ما» «وقع من الخلط والشتات فيه»

ما أتى به السيّد رضوان الله عليه من كتابه عليه السلام هذا فملتقط من كتاب طويل هو من محاسن كتابه عليه السلام بلا كلام كما سيتلى عليك والرَّضيُّ رضي الله عنه أسقط كثيراً من هذا الكتاب وأتى بشرذمة قليلة منه، وهذه عادته رضوان الله عليه، لأنَّ غرضه التقاط الفصيح والبليغ من كلامه عليه السلام.

---

(١) في نسخة: أُخِرَتْ.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ١١٣، والغدير: ٩/ ٧٢.

كتبه عليه السلام إلى معاوية وجواب كتابه إليه، ودفع معاوية كتابه إلى أبي مسلم الخولاني فقدم به على عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة والكتابان مذكوران في كتاب «**صفين**» لنصر بن مزاحم المنقري التميمي الكوفي المتوفّى في سنيّ المائة الثانية من الهجرة (**ص ٤٧، الطبع الناصري ١٣٠١هـ**) نقل عنه المجلسي رحمه الله في المجلّد الثامن من «**البحار**» (**ص ٥٤٧ الطبع الكمباني**) والرَّضيُّ تُوفِّي سنة ٤٠٦ من الهجرة.

ونحن نورد ما أتى به نصر في كتاب «**صفين**»: نصر: عن عمر بن سعد، عن أبي روق أنَّ أبا مسلّم الخولاني قام إلى معاوية في أناس من قرّاء أهل الشام فقالوا يا معاوية على ما تقاتل عليّاً وليس لك مثل صحبته ولا قرابته ولا سابقته؟.

قال لهم: ما أُقاتل عليّاً وأنا أدّعي أنَّ لي في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته، ولكن خبّروني عنكم ألستم تعلمون أنَّ عثمان قتل مظلوماً؟ قالوا: بلى. قال: فَلْيَدْفعْ إلينا قتلته فنقتلهم به ولا قتال بيننا وبينه. قالوا: فاكتب كتاباً يأتيه بعضنا.

فكتب إلي عليّ هذا الكتاب مع أبي مسلم الخولاني، فقدم به على عليّ. ثمَّ قام أبو مسلم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: أمّا بعد فإنك قد قمت بأمر وتولّيته والله ما أحبُّ أنّه لغيرك إن أعطيت الحقَّ من نفسك، إنَّ عثمان قُتل مسلماً محرماً مظلوماً، فادفع إلينا قتلته وأنت أميرنا، فإن خالفك أحد من الناس كانت أيدينا لك ناصرة، وألسنتنا لك شاهدة، وكنت ذا عذر وحجّة.

فقال له عليّ: اغد عليَّ غداً فخذ جواب كتابك.

فانصرف ثمَّ رجع من الغد ليأخذ جواب كتابه، فوجد النّاس قد بلغهم الّذي جاء فيه، فلبست الشيعة أسلحتها، ثمَّ غدوا فملؤوا المسجد وأخذوا ينادون: كلّنا قتل ابن عفّان، وأذن لأبي مسلم فدخل على عليّ أمير المؤمنين، فدفع إليه جواب كتاب معاوية.

فقال له أبو مسلم: قد رأيت قوماً مالك معهم أمر، قال: وما ذاك؟. قال: بلغ القوم أنّك تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان فضجّوا واجتمعوا ولبسوا السلاح وزعموا أنّهم كلهم قتلة عثمان.

فقال عليٌّ عليه السلام والله ما أردت أن أدفعهم إليك طرفة عين، لقد ضربت هذا الأمر أنفه وعينيه ما رأيته ينبغي لي أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك، فخرج بالكتاب وهو يقول: الآن طاب الضراب[1].

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٤١، وبحار الأنوار: ٣٢/ ١٧٤.

«كتاب معاوية إلى أمير المؤمنين عليه السلام»

قال نصر بالسند المقدم: وكان كتاب معاوية إلى عليّ عليه السلام:

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إلٰه إلا هو، أمّا بعد فإنّ الله اصطفى محمّد بعلمه وجعله الأمين على وحيه، والرسول إلى خلقه، واجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده الله بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام.

فكان أفضلهم في إسلامه وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة من بعده وخليفة خليفته والثالث الخليفة المظلوم عثمان فكلّهم حسدت، وعلى كلّهم بغيت، عرفنا ذلك في نظرك الشزر وفي قولك الهجر وفي تنفسك الصعداء، وفي إبطائك عن الخلفاء، تقاد إلى كلّ منهم كما يقاد الفحل المخشوش حتّى تبايع وأنت كاره.

ثمّ لم تكن لأحد منهم بأعظم حسداً منك لابن عمك عثمان، وكان أحقّهم أن لا تفعل ذلك به في قرابته وصهره، فقطعت رحمه، وقبّحت محاسنه، وألّبت الناس عليه، وبطنت وظهرت حتّى ضربت إليه آباط الإبل، وقيدت إليه الخيل العراب وحمل عليه السلاح في حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقتل معك في المحلّة وأنت تسمع في داره الهائعة لا تردع الظنّ والتهمة عن نفسك فيه بقول ولا فعل.

فأُقسم صادقاً لو قمت فيما كان من أمره مقاماً واحداً تنهى النَّاسَ عنه ما عدل بك من قبلنا من النّاس أحد، ولمحى ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة لعثمان والبغي عليه.

وأُخرى أنت بها عند أنصار عثمان ظنين إيواءك قتلة عثمان، فهم عضدك وأنصارك ويدك وبطانتك، وقد ذكر لي أنّك تنصّل من دمه، فإن كنت صادقاً فأمكِنّا من قتلته نقتلهم به ونحن أسرع إليك، وإلا فإنّه ليس لك ولا لأصحابك إلاّ السيف.

والّذي لا إلٰه إلاّ هو لنطلبنّ قتلة عثمان في الجبال والرمال والبرّ والبحر حتّى يقتلهم الله أو لتلحقنّ أرواحنا بالله، والسلام[1].

(١) نهج السعادة: ٤/ ١٧٤؛ وقعة صفين: ٨٧.

«جواب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية»

قال نصر: فكتب إليه عليٌّ عليه السلام:

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من عبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد، فإنَّ أخا خولان قدم عليَّ بكتاب منك تذكر فيه محمّداً صلى الله عليه وآله وما أنعم الله عليه به من الهدى والوحي، فالحمد لله الّذي صدَّقه الوعد، وتمّ له النصر ومكّن له في البلاد، وأظهره على أهل العدى والشنآن من قومه الّذين وثبوا به وشنفوا له، وأظهروا له التكذيب، وبارزوه بالعداوة، وظاهروا على إخراجه وعلى إخراج أصحابه، وألّبوا عليه العرب وجامعوهم على حربه، وجهدوا في أمره كلَّ الجهد، وقلّبوا له الأمور حتّى ظهر أمر الله وهم كارهون، وكان أشدّ النّاس عليه إلبةً أُسرته والأدنى فالأدنى من قومه إلاّ من عصمه الله منهم.

يا ابن هند فلقد خبّأ لنا الدّهر منك عجباً، ولقد قدمت فأفحشت، إذا طفقت تخبرنا عن بلاء الله تعالى في نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وفينا، فكتب في ذلك كجالب التمر إلى هَجرَ، أو كداعي مسدِّده إلى النضال، وذكرت أنّ الله اجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده الله بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلم في الإسلام، فكان أفضلهم زعمت[١] في الإسلام وأنصحهم لله ورسوله الخليفة وخليفة الخليفة، ولعمري إنَّ مكانهما من الإسلام لعظيم، وإنَّ المصاب بهما لجُرح في الإسلام شديد رحمهما الله وجزاهما بأحسن الجزاء[٢].

وذكرت أنَّ عثمان كان في الفضل ثالثاً، فإن يكن عثمان محسناً فسيجزيه الله بإحسانه، وإن يكن مسيئاً فسيلقى ربّاً غفوراً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره.

ولعمر الله[٣] إنّي لأرجو إذا أعطى الله النّاس على قدر فضائلهم في الإسلام ونصيحتهم لله ولرسوله أن يكون نصيبنا في ذلك الأوفر.

إنَّ محمّداً صلى الله عليه وآله لمّا دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كنّا أهل البيت أولَّ من آمن به وصدَّق بما جاء به، فلبثنا أحوالاً مجرّمة وما يعبد الله في رَبع ساكن من العرب غيرنا، فأراد قومنا قتل نبيّنا واجتياح أصلنا، وهمّوا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل.

---

(١) في نسخة: كما زعمت.

(٢) في البحار: وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة الصديق وخليفة الخليفة الفاروق ولعمري ذكرت أمراً إن تم أعتر كل كلمة وإن نقصك لم يلحقك ثلمة، وما أنت والصديق والصديق من صدق بحقنا وأبطل باطل عدونا، وما أنت والفاروق فالفاروق من فرق بيننا وبين أعدائنا وذكرت أن عثمان كان في الفضل...

(٣) في البحار: ولعمري إني لأرجو منه.

فمنعونا الميرة، وأمسكوا عنّا العذب، وأحلسونا الخوف، وجعلوا علينا الأرصاد والعيون، واضطَّرُّونا إلى جبلٍ وعرٍ، وأوقدوا لنا نار الحرب، وكتبوا علينا بينهم كتاباً لا يواكلونا، ولا يشاربونا، ولا يناكحونا، ولا يبايعونا، ولا نأمن فيهم حتّى ندفع النبيّ ﷺ فيقتلونه ويمثّلوا به، فلم نكن نأمن فيهم إلاّ من موسم إلى موسم.

فعزم الله لنا على منعه والذَّبِّ عن حوزته، والرَّمي من وراء حرمته، والقيام بأسيافنا دونه في ساعات الخوف واللّيل والنهار، فمؤمننا يرجو بذلك الثواب وكافرنا يحامي به عن الأصل.

فأمّا من أسلم من قريش بعدُ فأنّهم ممّا نحن فيه أخلياء فمنهم حليف ممنوع أو ذو عشيرة تدافع عنه، فلا يبغيه أحد بمثل ما بغانا به قومنا من التلف، فهم من القتل بمكان نجوة وأمن، فكان ذلك ما شاء الله أن يكون.

ثمَّ أمر الله رسوله بالهجرة، وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين، فكان إذا احمرَّ البأس ودُعيت نزال، أقام أهل بيته فاستقدموا، فوقى أصحابه بهم حرَّ الأسنّة والسّيوف.

فقتل عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أُحد، وجعفر وزيد يوم مؤتة، وأراد الله من لو شئت ذكرت اسمه الّذي أرادا من الشهادة مع النبيّ ﷺ غير مرّة إلاّ أنَّ آجالهم عجّلت، ومنيّته أُخّرت، والله وليُّ الإحسان إليهم، والمنّان عليهم بما قد أسلفوا من الصالحات.

فما سمعت بأحد ولا رأيت فيهم من هو أنصح لله في طاعة رسوله، ولا أطوع لرسوله في طاعة ربّه، ولا أصبر على اللأواء والضّراء وحين البأس وموطن المكروه مع النبيّ ﷺ من هؤلاء النفر الّذين سّميت لك، وفي المهاجرين خير كثير نعرفه جزاهم الله بأحسن أعمالهم.

وذكرت[1] حسدي الخلفاء وإبطائي عنهم وبغيي عليهم، فأمّا البغي فمعاذ الله أن يكون. وأمّا الإبطاء عنهم والكراهة لأمرهم فلست أعتذر منه إلى النّاس، لأنَّ الله جلَّ ذكره لمّا قبض نبيّه ﷺ قالت قريش منّا أمير وقالت الأنصار: منّا أمير، فقالت قريش: منّا محمّد رسول الله ﷺ فنحن أحقُّ بذلك الأمر، فعرفت ذلك الأنصار فسلّمت لهم الولاية والسلطان فإذا استحقّوها بمحمّد ﷺ دون الأنصار فإنَّ أولى النّاس بمحمّد ﷺ أحقّ بها منهم وإلاّ فإنَّ الأنصار أعظم العرب فيها نصيباً فلا أدري أصحابي سلموا من أن يكونوا حقّي أخذوا، أو الأنصار ظلموا عرفت أنَّ حقّي هو المأخوذ وقد تركته لهم تجاوز الله عنهم.

وأمّا ما ذكرت من أمر عثمان وقطيعتي رحمه وتأليبي عليه، فإنَّ عثمان عمل ما بلغك،

---

(١) في نسخة: فذكرت.

فصنع النّاس ما قد رأيت، وقد علمت أنّي كنت في عزلة عنه إلاّ أن تتجنّى فتجنَّ ما بدا لك.

وأمّا ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فإنّي نظرت في هذا الأمر وضربت أنفه وعينيه، فلم أرَ دَفعهم إليك ولا إلى غيرك، ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك ولا يكلّفونك أن تطلبهم في برٍّ ولا بحر، ولا جبل، ولا سهل.

وقد كان أبوك أتاني حين ولّى النّاس أبا بكر فقال: أنت أحقّ بعد محمّد ﷺ بهذا الأمر وأنا زعيم لك بذلك على من خالف عليك، ابسط يدك أُبايعك فلم أفعل.

وأنت تعلم أنَّ أباك قد كان قال ذلك وأراده حتّى كنت أنا الّذي أبيت لقرب عهد الناس بالكفر، مخافة الفرقة بين أهل الإسلام، فأبوك كان أعرف بحقّي منك فإن تعرف من حقّي ما كان يعرف أبوك تصب رشدك، وإن لم تفعل، فسيغني الله عنك والسلام[١].

انتهى كتابه الشريف برُمَّته على ما أتى به نصر في «صفين»، وإذا قايست بينه وبين ما نقله الرَّضيُّ رضوان الله عليه في النهج يظهر لك أنّه ﷺ أسقط كثيراً من فصول الكتاب ونقل في «**النهج**» طائفة منه[٢].

ثمَّ يوجد بعض فقرات هذا الكتاب في الكتاب الثامن والعشرين من هذا الباب أوَّله قوله: (**ومن كتاب له** عليه السلام إلى معاوية جواباً وهو من محاسن الكتاب، أمّا بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء ـ الخ).

اللغة

(**الاجتياح**) أجوف واويٌ يقال: جاحه من باب قال واجتاحه بمعنى أي أهلكه واستأصل. والجوح: الاستئصال والإهلاك.

(**الهَمّ**) بالفتح: واحد الهموم أي القصد، وأما تُجيل لفعله وإيقاعه فكرك والهم أيضاً مصدر هممت بالشيء من باب نصر إذا نويته وعزمت عليه وقصدته.

(**الفعل**) بالكسر اسم الحديث جمعه فعال مثل قِدح وقِداح ويجمع على الأفعال أيضاً، ويجمع الأَفعال على الأَفاعيل. وقيل: الأَفاعيل جمع أفعولة وهي الفعل الذّمي. ويقال لمن أثر آثاراً منكرة: فعل الأَفاعيل.

(**العذب**) بفتح أوّله وسكون ثانيه: قال الراغب: ماءٌ عذب: طيّب بارد قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ [فاطر: ١٢]. عذُب الماء عُذُوبةً من باب شرف: ساغ مشربه فهو

---

(١) في نسخة: فيغنيني.
(٢) وقعة صفين: ٩١، والبحار: ١١٣/٣٣، وشرح النهج: ٧٨/١٥.

عذوب واستعذبته رأيته عذباً، وجمعه عذاب مثل سهم وسهام. والعذب أيضاً: المستساغ من الطّعام، والطيّب من العيش.

(أحلسونا الخوف) قال المرزوقي في شرح الحماسة: الحِلس واحد من أحلاس البيت. قال: قال الخليل: وهو ما يبسط تحت حُرّ المتاع من مِسحٍ وجُوالِقٍ ونحوهما.

وفي **«الصحاح»** عن الأصمعي: الحلس للبعير وهو كساء رقيق يكون تحت البَرذَعة، وأحلاس البيوت ما يبسط تحت حُرّ الثياب. وفي الحديث: كن حلس بيتك، أي لا تبرح، وقولهم: نحن أحلاس الخيل أي نقتنيها ونلزم ظهورها، وأحلست البعير أي ألبسته الحِلس، وأحسلت فلاناً يميناً إذا أمررتها عليه. وأحلست السماء أي أمطرت مطراً دقيقاً دائماً.

وفي **«النهاية الأثيرية»**: وفي حديث الفتن عدّ منها فتنة الأحلاس، والأَحلاس جمع حلس وهو الكساء الّذي يلي ظهر البعير تحت القتب، شبّهها به للزومها ودوامها ومنه حديث أبي موسى قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: كونوا أحلاس بيوتكم أي الزموها. ومنه حديث أبي بكر: كن حلس بيتك حتّى يأتيك يد خاطئة أو منيّة قاضية.

فتحصّل ممّا قدّمنا في الحلس أنّ المراد من قوله عليه السلام: «أحلسونا الخوف» أنّهم جعلوا الخوف لهم كالحلس أي جعلوه ملازماً لهم من حيث إنّ الحلس ملازم ظهر البعير، وأحلاس البيوت ملازمة لها. أو أنّهم ألبسوهم الخوف وهذا كالأوّل يفيد أنّهم ألزموهم الخوف.

(وَعرٍ) بفتح أوّله وسكون ثانيه: المكان الصلب الغليظ ضدّ السهل، يقال مكان وَعر وطريق وعر ومطلب وعر ويقال بالفارسية: دشواروسخت. قالت كنزة **(الحماسة ٢٤١)**:

لهفي على القوم الّذين تجمّعوا ... بذي السيد لم يلقوا عليّاً ولا عمرا

فإن يك ظنّي صادقاً وهو صادقي ... بشمله يحسبهم بها محسباً وعراً

والوعر أيضاً: المكان المخيف الوحش. والجبل الوعر: الصعب المرتقى.

(الذّب): الدّفع والمنع. **(حوزته)** في **«الصحاح»**: الحوزة: الناحية وحوزة الملك بيضته. **(الحرمة)** كلُقمة: ما لا يحلّ انتهاكه. **(يبغي)** أي يطلب. ومنه قوله صلى الله عليه وآله: ألا إنّ الله يحبُّ بغاة العلم **(ج ١ من الوافي ص ٣٦)** أي طلاّبه جمع باغ كهداة وهادٍ. **(أحجم الناس)** أي نكصوا وتأخّروا هيبةً وكفّوا عن الحرب.

قال الجوهريُّ: حجمته عن الشيء أحجُمُه ـ بالضمّ ـ أي كففته عنه، يقال: حجمته عن الشيء فأحجم أي كففته فكفّ، وهو من النوادر مثل كببته فأكبّ.

(لم يسع) من السعي. **(لا يدلي)** واويٌّ من دل ويقال: أدلى برَحِمِهِ أي توسّل بقرابته،

وأدلى بحجّته أي أحضرها واحتجّ بها، وأدلى إلى الحاكم بمال أي دفعه إليه ليجعله وسيلة إلى قضاء حاجته منه وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٩] والأصل في ذلك من دلوت الدّلو وأدليتها، ثمّ استعير للتوصّل إلى الشيء. وفي الشفاعة يقال: دلوت بفلان أي استشفعت به ولا يقال حينئذٍ أدليت به.

قال عصام بن عبد الله كما في الحماسة (**الحماسة ٤٠٢**) وعلى ما في «**البيان والتبيين**» (**ص ٣١٦ ج٢**) قال همّام الرّقاشي:

فقد جعلت إذا ما حاجتي نزلت ... بباب قصرك أدلوها بأقوام

قال المرزوقيُّ في معناه: إذا اتّفق ما لا بدَّ لي منك ومن معونتك من حاجة أو عارض سبب فإنّي معتمد على غيري في التنجّز والاستعساف، معنى «أدلوها» من قولك دلوت الدلو إذا أخرجتها من البئر، أي أتسبّب بغيري وأصون من التبذّل عرضي.

(**لعمري**) العمر بالفتح: الحياة والدّين، قال في أقرب الموارد: ومنه لعمري في القسم أي لديني.

(**لم تنزع عن غيك**) النزع عن الشيء: الكفُّ عنه. (**الغيّ**): الضلال. (**الشقاق**) الخلاف. (**التكليف**): الأمر بما يشقُّ عليك من الكلفة بمعنى المشقّة.

(**زور**) بالفتح جاء مصدراً وغير مصدر وعلى الثاني يستوي فيه المفرد والمثنّى والجمع والمذكّر والمؤنّث. يقال: رجل زور وقوم زور ونساء زور. قال الجوهريُّ: الزُّور، الزائرون يقال: رجل زائر وقوم زور، وزوار مثل سافر وسَفر وسفار، ونسوة زور أيضاً. زاره زوراً من باب قال: أتاه بقصد الالتقاء به.

قال زياد بن حمل كما في كتاب الحماسة لأبي تمام الطائي (**الحماسة ٥٧٧**) أو زياد بن منقذ كما قاله الجوهريُّ في مادّة قزم من «**الصحاح**»:

زارت رُويقة شُعثاً بعد ما هجعوا ... لدى نواحل في أرساغها الخَدَم
وقمت للزّور مُرتاعاً وأرّقني ... فقلت أهي سَرت أم عادني حُلُم

والأصل في ذلك زرت فلاناً أي تلقّيته بزوري أو قصدت زوره نحو وجهته والزّور أعلى الصدر.

(**لقيان**) بضمّ اللاّم وكسرها مصدر من لقيت فلاناً من باب علم أي صادقته ورأيته.

الإعراب

الضميران في حوزته وحرمته يرجعان إلى النبيّ صلى الله عليه وآله كما يدلُّ عليه سياق الكلام،

وقوله ﷺ بعد ذلك «والقيام بأسيافنا دونه في ساعات الخوف واللّيل والنهار» على ما مرَّ في ذكر سند الكتاب.

«ومن أسلم» الواو للحال فالجملة حاليّة، أصحابه مفعول لفعل وقى حرّ السيوف مفعول ثان له.

قوله عليه السلام «أراد من» من فاعل أراد، ومثل الّذي مفعوله والضمير في منيّته راجع إلى (من)، وفي أرادوا وآجالهم إلى عبيدة ومن بعده، وكلمة (من) في من الشهادة بيانيّة تبيّن المثل.

(والعمر) بالفتح والضمّ وإن كانا مصدرين بمعنى إلاّ أنَّ المفتوح منهما يستعمل في القسم، فإذا أدخلت عليه اللام رفعته بالابتداء واللاّم لتوكيد الابتداء والخبر محذوف والتقدير لعمري قسمي أو ما أقسم به، فإن لم تأت باللام نصبته نصب المشدَّدة المؤكدة، لأنَّ الفعل المخاطب المذكّر إذا كان مؤكّداً بنوني التأكيد يفتح لئلاّ يلتبس بالجمع المذكّر والمفرد المؤنّث إذا كانا مؤكّدين بهما.

واختلف في هذه الفتحة فقال ابن السَّراج والمبرَّد والفارسي: بناء للتركيب وقال سيبويه والسيرافي والزّجاج: عارضة للساكنين وهما آخر الفعل والنون الأولى، ومحلّ يطلبونك النصب مفعولاً ثانياً لتعرفنّهم بمعنى لتعلمنّهم.

«طلبهم» منصوب أي لا يكلفونك في طلبك إياهم في بر ولا بحر - إلخ.

«لقيانه» الضمير فيه راجع إلى الزور فإن كان الزور مصدراً كما هو الظاهر من سياق الكلام حيث جعل قبال الطلب فالأمر ظاهر، وإن كان اسم جمع بمعنى الزائرين فإفراد الضمير باعتبار إفراد لفظ الزور، وهذا لا يخلو من تكلّف.

المعنى

قد أشار عليه السلام في هذا الكتاب المستطاب إلى طائفة من فضائله وحماية أهل بيت النبيّ من المسلم والكافر من الأعداء، وإلى نبذة ممّا دار بين المسلمين والمشركين وغيرهما ممّا سنتلوها عليك، وقد أجاب عليه السلام عن كلّ فصل من كتاب معاوية بفصل وذلك كما يلي:

قوله عليه السلام: **(بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من عليّ أمير المؤمنين - إلى قوله: إلاّ من عصمة الله منهم) قد أشار** في هذا الفصل بعد حمد الله وثنائه إلى ما فعل أهل العدى والشنآن من قومه ﷺ به حيث كذّبوه وبارزوه بالعداوة وشنفوا له أي أبغضوه حتّى ظاهروا على إخراجه من مكّة وحرَّضوا العرب على حربه ﷺ، ولم يقصّروا في شيء كان يؤذيه من قول أو فعل إلاّ فعلوه، وكانت عداوتهم به ﷺ واغرة في صدورهم حتّى أجمعوا في قتله، ولكنَّ الله تعالى

صدّقه الوعد، وتمّم له النصر ومكّن له في البلاد وأظهره عليهم، قال: عزّ من قائل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

ثمّ ذكر أنّ أسرته أي أهله كانوا أشدّ النّاس به ﷺ إلية وعداوة، وفيه تعريض بما فعل أبو سفيان وشيعته به ﷺ من أنحاء الإيذاء وأنواع المعاداة، وكان أبو سفيان يحثُّ النّاس ويحرّضهم على قتاله وقتله.

ثمّ استثنى عليه السلام من الأُسرة من عصمهم الله، أي حفظهم ووقاهم من إيذائه ﷺ، بل وفّقهم الله بنصره وعزم لهم على منعه والذّبّ عن حوزته.

والمراد من قوله عليه السلام: إلا من عصمهم الله منهم هو من عصمهم الله بالإسلام منهم وكانوا يومئذٍ قليلين، كما في السيرة الهشاميّة **(ص ٢٦٤ ج ١ طبع مصر ١٣٧٥هـ)** قال ابن إسحاق: فلمّا بادى ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه، ولم يردُّوا عليه ـ فيما بلغني ـ حتّى ذكر آلهتهم وعابها فلمّا فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته إلاّ من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون.

أو أراد بمن عصمهم الله نفسه وأباه أبا طالب والعباس وحمزة ممّن حدب على رسول الله ﷺ وقام دونه ووقاه عن أذى النّاس وحماه وإن لم يكن بعضهم أسلم بعد كما سيتّضح لك بُعيد هذا.

قوله عليه السلام: **(يا ابن هند فلقد ـ إلى قوله: أن يغفره)** أجاب عليه السلام بهذا الفصل عمّا كتب إليه معاوية من: «أنّ الله تعالى اجتبى له عليه السلام من المسلمين أعواناً أيّده الله بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام».

غرضه أنّ هذا الأمر كان له عليه السلام أوضح وأبين، وأنّه عليه السلام كان أعلم به من غيره، لأنّه عليه السلام كان صاحب لواء رسول الله ﷺ في كلّ زحف وكان أوّل من آمن به، وأوّل من صلّى معه، وما رأى أحد من المسلمين مثل عنائه في الحروب ولم يشركه أحد في حماية الدين والذبّ عن حوزته وفي خذلان أهل الكفر والعدوان وإرغام شيعة الشيطان.

والعجب من معاوية يخبره عليه السلام بذلك ولم يكن له سعي في الدِّين ولذا قال له الأمير عليه السلام تهكّماً به: يا ابن هند فلقد خبأ لنا الدّهر منك عجباً.

قوله عليه السلام: **«كجالب التمر إلى هجر»** مثل يضرب به لمن يجيء بالعلم إلى من هو أعلم منه، ويأتي بشيء إلى من كان أصل ذلك الشيء عنده، كما يقال بالفارسيّة: لقمان فرستاد، ولا ريب أنّ هذا العمل خطأ وعامله مخطيء.

قال الميدانيّ في فصل الكاف المفتوحة من الباب الثاني والعشرين من **«مجمع الأمثال»** في بيان مثل «كمستبضع التمر إلى هجر»: قال أبو عبيدة: هذا من الأمثال المبتذلة ومن قديمها

وذلك أنّ هجر معدن التمر والمستبضع إليه مخطىء، ويقال أيضاً: كمستبضع التمر إلى خيبر. قال النابغة الجعدي:

وإنّ امرءاً أهدى إليك قصيدة كمستبضع تمراً إلى أهل خيبرا

وهجر محرّكة اسم بلد معروف باليمن. وقال آخر:

أهدى كمستبضع تمراً إلى هجر أو حامل وشي أبرادٍ إلى يمن

وقوله عليه السلام: **(أو كداعي مسدّده إلى النضال)** مثل كالأوّل، أي كمن يدعو من يعلّمه الرّمي إلى المناضلة أي المراماة.

والغرض أنّ إخبار معاوية أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام بأنّ الله اجتبى للرسول أعواناً من المسلمين أيّده الله بهم، كمن جلب التمر إلى هجر أو كمن دعى مسدّده إلى النضال، لأنّه عليه السلام كان لرسول الله صلى الله عليه وآله ظهيراً في كلّ شدّة وعناء من ابتداء دعوته صلى الله عليه وآله إلى الإسلام إلى لقائه الملك العلاّم.

ولذا قال عليه السلام: **(يا ابن هند فلقد خبأ لنا الدّهر منك عجباً، ولقد قدمت فأفحشت إذ طفقت تخبرنا عن بلاء الله تعالى في نبيه محمّد صلى الله عليه وآله وفينا، فكنت في ذلك كجالب التمر إلى هجر ـ إلخ)**، ولا يخفى لطف كلامه عليه السلام.

قوله عليه السلام: **(ولعمر الله إنّي لأرجو ـ إلى قوله: نصيبنا في ذلك الأوفر)** معنى لعمر الله، أحلف ببقاء الله ودوامه، والغرض من هذا الفصل جواب عمّا قال معاوية «من أنّ الله اجتبى للرسول صلى الله عليه وآله أعواناً ـ إلى قوله: على قدر فضائلهم في الإسلام».

ولمّا كان أمير المؤمنين عليه السلام عوناً لرسول الله صلى الله عليه وآله في الشدائد، ولم يبلغ إلى رتبة حمايته عن الدّين ولا إلى قدر فضيلته في الإسلام وزنة نصيحته لله ولرسوله أحد، ولا أخال إنساناً ينكرها، قال عليه السلام: **(إنّي لأرجو إذا أعطى الله الناس على قدر فضائلهم في الإسلام ونصيحتهم لله ورسوله أن يكون نصيبنا في ذلك الأوفر)**.

قال المسعوديُّ في «مروج الذّهب» **(ص ٤٩ ج ٢ طبع مصر ١٢٤٦هـ)**: والأشياء الّتي استحقّ بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الفضل هي السبق إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وآله، والقربى منه والقناعة، وبذل النفس له والعلم بالكتاب والتنزيل، والجهاد في سبيل الله، والورع، والزهد، والقضاء والحكم، والعفّة، والعلم، وكلُّ ذلك لعليّ عليه السلام منه النصيب الأوفر والحظُّ الأكبر.

مضافاً إلى ما ينفرد به من قول رسول الله صلى الله عليه وآله حين آخى بين أصحابه: أنت أخي، وهو صلى الله عليه وآله لا ضدَّ له ولا ندَّ، وقوله صلى الله عليه وآله: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي، وقوله صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللّهمَّ وال من والاه وعاد من عاداه، ثمَّ

دعاء ﷺ وقد قدَّم إليه أنَسٌ الطائر: اللّهمَّ أدخل إليَّ أحبَّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر فدخل عليه عليٌّ عليه السلام إلى آخر الحديث، فهذا وغيره من فضائله.

وقوله عليه السلام: **(إنَّ محمداً ﷺ لما دعي إلى الإيمان بالله والتوحيد كنا أهل البيت أوّل من آمن به وصدَّق بما جاء به)** توافرت الأخبار من الفريقين أنَّ عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام كان أوّل ذكر أسلم مع رسول الله ﷺ وأوّل من كان صلّى معه ﷺ. هذا لو سلّمنا أنّه عليه السلام لم يكن أوّل من أسلم معه فقد قال أبو جعفر الطبريُّ في **«التاريخ» (ص ٥٦ ج ٢)**: حدَّثنا أبو كريب قال: حدَّثنا وكيع عن شعبة، عن عمرو بن مرّة، عن أبي حمزة مولى الأنصار، عن زيد بن أرقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله ﷺ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام.

وبهذا الإسناد عن زيد بن أرقم يقول: أوّل رجل صلّى مع رسول الله ﷺ عليٌّ عليه السلام[(١)].

وفي **«السيرة الهشامية» (ص ٢٤٥ ج ١)**: قال ابن إسحاق: ثمَّ كان أوّل ذكر من النّاس آمن برسول الله ﷺ وصلّى معه وصدَّق بما جاءه من الله تعالى: عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذٍ ابن عشر سنين[(٢)].

وفي **«السيرة الحلبية» (ص ٣٠٣ ج ١)**: في المرفوع عن سلمان أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوّل هذه الأمّة وروداً على الحوض أوّلها إسلاماً عليُّ بن أبي طالب عليه السلام»[(٣)].

وقال أبو جعفر الطبري في **«التاريخ»**: حدَّثنا ابن حميد، قال: حدَّثنا إبراهيم بن المختار عن شعبة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس قال: أوّل من صلّى عليٌّ.

وقال أيضاً: حدَّثنا زكريا بن يحيى الضرير قال: حدَّثنا عبد الحميد بن بحر قال: أخبرنا شريك عن عبد الله بن محمّد بن عقيل، عن جابر قال: بعث النبيُّ ﷺ يوم الاثنين وصلّى عليٌّ يوم الثلاثاء.

وقال اليعقوبي في **«التاريخ»: (ص ١٧ ج٢)**: كان أوّل من أسلم خديجة بنت خويلد من النساء، وعليٌّ بن أبي طالب من الرِّجال.

وقال أبو جعفر الطبري **(ص ٥٦ ج ٢)**: حدَّثنا أحمد بن الحسن الترمذي قال: حدَّثنا عبيد الله بن موسى قال: أخبرنا العلاء عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: أنا عبد الله، وأخو رسوله، وأنا الصِّديق الأكبر لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر، صلّيت مع رسول الله ﷺ قبل الناس بسبع سنين.

---

(١) الإمام علي «ع»: ٥٤٣، ح ٢٠، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦.

(٢) روضة الطالبين: ٨٥، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٣٧، ح ٨.

(٣) الصراط المستقيم: ١/ ٢٤٠، وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٥٦.

وقال: حدَّثني محّمد بن عبيد المحاربي قال: حدَّثنا سعيد بن خثيم عن أسد بن عبدة البجلي، عن يحيى بن عفيف، عن عفيف قال: جئت في الجاهليّة إلى مكّة فنزلت على العبّاس بن عبد المطلب قال: فلمّا طلعت الشمس وحلقت في السَّماء وأنا أنظر إلى الكعبة أقبل شابٌّ فرمى ببصره إلى السماء، ثمَّ استقبل الكعبة فقام مستقبلها فلم يلبث حتّى جاء غلام فقام عن يمينه، قال: فلم يلبث حتّى جاءت امرأة فقامت خلفهما، فرجع الشابُّ فرجع الغلام والمرأة، فرفع الشابُّ فرفع الغلام والمرأة فخرَّ الشابُّ ساجداً فسجدا معه. فقلت: يا عباس أمر عظيم، فقال: أمر عظيم، أتدري من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي، أتدري من هذا معه؟ قلت: لا. قال: هذا عليُّ بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن أخي. أتدري من هذه المرأة الّتي خلفهما؟ قلت: لا. قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي وهذا حدَّثني إنَّ ربّك ربُّ السّماء أمرهم بهذا الّذي تراهم عليه وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلّها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة[1].

أقول: وقد رواه ابن الأثير في **«أسد الغابة»** في ترجمة عفيف هذا وهو عفيف الكندي.

بيان: قوله: استقبل الكعبة، واعلم أنَّ الكعبة زادها الله شرفاً لم تكن عندئذ قبلة، وأنَّ النبيَّ ﷺ صلّى إلى بيت المقدس بعد النبوّة ثلاث عشرة سنة بمكّة وتسعة عشر شهراً بالمدينة، ثمَّ صرفه الله تعالى عن البيت المقدس إلى الكعبة.

وفي **«السيرة الهشامية» (ص ٦٠٦ ج ١ طبع مصر ١٣٧٥هـ)**. قال ابن إسحاق: ويقال: صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة.

وفي إزاحة العلّة في معرفة القبلة لأبي الفضل شاذان بن جبرائيل القمّي: قال معاوية بن عمّار: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: متى صرف رسول الله ﷺ إلى الكعبة؟ قال: «بعد رجوعه من بدر وكان يصلّي بالمدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ثمَّ أُعيد إلى الكعبة»[2].

وفي **«القانون المسعودي»** للعلامة أبي الريحان البيروني **(ص ٢٥٦ ج ١ طبع حيدر آباد الدكن)**: صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة لصلاة العصر كان في اليوم السادس عشر من شعبان.

وقول عفيف بأنّه ﷺ قام للصلاة مستقبل الكعبة يوافق ما روي أنَّ رسول الله ﷺ طول مقامه بمكّة كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس إذا أمكن كما رواه الشيخ الجليل في

(١) الإمام علي: ٥٤٤، وتاريخ الطبري: ٥٦/٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٩٨/٤، ح ٥٢٠١، والبيان: ١٧/٢.

«الاحتجاج» بإسناده إلى أبي محمّد العسكري عليه السلام.

وفي السيرة النبويّة لابن هشام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة وقبلته إلى الشام فكان إذا صلّى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام **(ص ٢٩٨ ج ١ طبع مصر ١٣٧٥هـ)**.

ولنا رسالة مفردة في الوقت والقبلة أتينا فيها بجميع ما يجب أن يعلم فيهما من طرق معرفة خط الزوال تنتهي إلى ثلاثين طريقاً، وطرق تحصيل سمت القبلة وبيان أخبارهما وغيرها ببراهين وأدلّة فقهية ما أخال بغاة العلم يستغنون عنها أو يبغون لها بدلاً.

وقال أبو جعفر الطبريُّ: حدَّثنا ابن حميد قال: حدَّثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: كان أوّل ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب وهو يومئذٍ ابن عشر سنين، وكان ممّا أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الإسلام[1].

وقد تظافرت الأخبار بأنّه عليه السلام قدر ربّي في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الإسلام ففي السيرتين وتاريخ الطبري وغير واحد من الكتب المدوَّنة في ذلك من الفريقين وقد أتى أبو جعفر الطبريُّ بما أتى به ابن هشام في السيرة من غير تغيير.

قال الطبريُّ: حدَّثنا ابن حميد قال: حدَّثنا سلمة قال: حدَّثني محمّد بن إسحاق قال: فحدَّثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج قال: كان من نعمة الله على عليّ بن أبي طالب وما صنع الله له وأراده به من الخير أنَّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للعبّاس عمّه وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إنَّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا فلنخفّف عنه من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ من بنيه رجلاً فنكفهما عنه.

قال العباس: نعم فانطلقنا حتّى أتيا أبا طالب فقالا: إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه.

فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمّه إليه، فلم يزل عليّ بن أبي طالب مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى بعثه الله نبيّاً فاتبعه عليٌّ فآمن به وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتّى أسلم واستغنى عنه[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٨/٢٣٧، ح ٨، وطريق حديث الأئمة الإثنا عشر: ٤٧، ح ٢٣.

(٢) علل الشرائع: ١/١٦٩، ح ١، وعمدة الطالب: ٥٩.

وقال: حدَّثنا ابن حميد قال: حدَّثنا سلمة قال: فحدَّثني محمّد بن إسحاق قال: وذكر بعض أهل العلم أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصَّلاة خرج إلى شعاب مكَّة وخرج معه عليٌّ بن أبي طالب مستخفياً من عمّه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه، فيصلّيان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا. ثمَّ إنَّ أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلّيان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ما هذا الدّين الّذي أراك تدين به؟ قال: أي عمّ هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، أو كما قال ﷺ بعثني به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عمّ أحقّ من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحقّ من أجابني إليه وأعانني عليه، أو كما قال، فقال أبو طالب: يا ابن أخي إنّي لا أستطيع أن أُفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما حييت[(١)].

انتهى ما رواه أبو جعفر عن ابن إسحاق وفي **«السيرة الهشامية»** أتى بمثل ما أتى به الطبريُّ إلاّ أنَّ فيه «ما بقيت» مكان «ما حييت» يعني أنَّ أبا طالب قال له ﷺ ولكن لا يوصل إليك مكروه ما دام لي الحياة والبقاء، أي أدفع عنك شرَّ النّاس وأذاهم، وسنشير إلى إسلام أبي طالب إن شاء الله تعالى.

وفي السيرة وتاريخ الطبري: ذكروا أنَّ أبا طالب قال لعليّ ؈: أي بنيّ ما هذا الدِّين الّذي أنت عليه؟ فقال: «يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله ﷺ وصدَّقته بما جاء به، وصلّيت معه لله واتّبعته»، قالا: فزعموا أنّه قال له: أما إنّه لم يدعُكَ إلاّ إلى خير فالزمه[(٢)].

في **«الإرشاد المفيد»** قدّس سرُّه: فأمّا مناقب أمير المؤمنين ؈ الغنيّة لشهرتها وتواتر النقل بها وإجماع العلماء عليها عن إيراد أسانيد الأخبار فهي كثيرة يطول بشرحها الكتاب، وفي رسمنا منها طرفاً كفاية عن إيراد جميعها في الغرض الّذي وضعنا له هذا الكتاب إن شاء الله تعالى[(٣)].

فمن ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ جمع خاصّة أهله وعشيرته في ابتداء الدَّعوة إلى الإسلام، فعرض عليهم الإيمان، واستنصرهم على أهل الكفر والعدوان، وضمن لهم عل ذلك الحظوة في الدُّنيا والشرف وثواب الجنان، فلم يجبه أحد منهم إلا أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب؈، فنحله بذلك تحقيق الأُخوَّة والوزارة، والوصيّة والوراثة والخلافة، وأوجب له به الجنّة.

---

(١) مناقب أهل البيت (ع): ٣٨، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨.

(٢) ذخائر العقبى: ٦٠، والصراط المستقيم: ١/ ٣٣٣.

(٣) الإرشاد: ١/ ٤٨.

وذلك في حديث الدّار الّذي أجمع على صحته نُقّاد[1] الآثار حين جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبد المطّلب في دار أبي طالب وهم أربعون رجلاً يومئذٍ يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً فيما ذكره الرواة، وأمر أن يصنع لهم طعاماً فخذ شاة مع مدّ من برّ ويعدّ لهم صاعاً من اللّبن، وقد كان الرجل منهم معروفاً بأكل الجذعة في مقام واحد ويشرب الفرق من الشراب في ذلك المقعد.

فأراد عليه وآله السلام بإعداد قليل الطّعام والشراب لجماعتهم إظهاراً لآية لهم في شبعهم وريّهم ممّا كان لا يشبع واحداً منهم ولا يريه، ثمَّ أمر بتقديمه لهم فأكلت الجماعة كلّها من ذلك اليسير حتّى تملّوا منه ولم يُبين ما أكلوه منه وشربوه فيه فبهرهم بذلك وبيّن لهم آية نبوّته وعلامة صدقه ببرهان الله تعالى فيه.

ثمَّ قال لهم بعد أن شبعوا من الطعام ورووا من الشراب: يا بني عبد المطلب إنَّ الله بعثني إلى الخلق كافّة وبعثني إليكم خاصّة فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللّسان ثقيلتين في الميزان، تملكون بهما العرب والعجم، وتنقاد لكم بهما الأمم، وتدخلون بهما الجنّة، وتنجون بهما من النّار: شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأنّي رسول الله.

فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني عليه وعلى القيام به يكن أخي ووصيّي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي. فلم يجبه أحد منهم.

فقال أمير المؤمنين: فقمت بين يديه من بينهم وأنا إذ ذاك أصغرهم سنّاً، وأحمشهم ساقاً، وأرمصهم عيناً، فقلت: أنا يا رسول الله أوازرك على هذا الأمر.

فقال صلى الله عليه وآله: اجلس ثمَّ أعاد القول على القوم ثانية فأصمتوا، فقمت وقلت مثل فلم مقالتي الأولى، فقال: اجلس ثمَّ أعاد القول على القوم ثالثة فلم ينطق أحد منهم بحرف فقمت وقلت: أنا أُوازرك يا رسول الله على هذا الأمر، فقال: اجلس فأنت أخي ووصيّي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي.

فنهض القوم وهم يقولون لأبي طالب: يا أبا طالب ليهنتك اليوم إن دخلت في دين ابن أخيك، فقد جعل ابنك أميراً عليك[2].

ثمَّ قال رضي الله عنه: وهذه منقبة جليلة اختصَّ بها أمير المؤمنين عليه السلام ولم يشركه فيها أحد من المهاجرين الأوّلين ولا الأنصار ولا أحد من أهل الإسلام، وليس لغيره عِدل لها من الفضل

---

(١) في نسخة: نقله.

(٢) اعلام الورى: ١/٣٢٣، ونهج الايمان: ٢٣٥.

ولا مقارب على حال، وفي الخبر بها ما يفيد أنَّ به عليه السلام تمكّن النبيُّ صلى الله عليه وآله من تبليغ الرسالة، وإظهار الدعوة، والصدع بالإسلام، ولولاه لم تثبت الملّة، ولا استقرّت الشريعة، ولا ظهرت الدَّعوة.

فهو عليه السلام ناصر الإسلام، ووزير الدّاعي إليه من قبل الله عزَّ وجلَّ، وبضمانه لنبيِّ الهدى عليه وآله السلام النصرة تمَّ له في النبوَّة ما أراد في ذلك من الفضل ما لا توازنه الجبال فضلاً، ولا تعادله الفضائل كلّها محلاً وقدراً. انتهى كلامه رضي الله عنه في «**الإرشاد**».

تنبيه: ما نقله المفيد رحمه الله في «**الإرشاد**» أتى به أبو جعفر الطبريُّ في التاريخ فراجع إلى ص ٦٢ ج ٢ منه، فتبصر أنَّ خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله كان من بدء الأمر متعيّناً وصرَّح رسول الله صلى الله عليه وآله بأنَّ عليّاً عليه السلام هو أخوه ووصيّه ووزيره ووارثه وخليفته من بعده فمن قال بغيره فقد سلك غير سبيل الله ورسوله.

وقال ابن الأثير في «**أسد الغابة**»: وهو يعني أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام أوَّل الناس إسلاماً في قول كثير من العلماء على ما نذكره ـ إلى أن قال: حدَّثنا محمّد بن عيسى حدَّثنا محمّد بن بشار وابن مثنى قالا: حدَّثنا محمّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة رجل من الأنصار، عن زيد بن أرقم قال: أوَّل من أسلم عليٌّ.

وروى بإسناده عن أنس بن مالك قال: بعث النبيُّ صلى الله عليه وآله يوم الإثنين وأسلم عليٌّ يوم الثلاثاء.

وبإسناده عن حبّة العرني قال: سمعت عليّاً يقول: أنا أوَّل من صلّى مع النبيِّ صلى الله عليه وآله.

وبإسناده عن أبي أيّوب الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد صلّت الملائكة عليَّ وعلى عليٍّ سبع سنين وذاك أنّه لم يصلِّ معي رجل غيره».

والروايات من الفريقين في أنّه عليه السلام كان أوَّل من أسلم وأوَّل من صلّى معه صلى الله عليه وآله أكثر من أن يحصى.

فإن قلت: قد توجد روايات في أنَّ أبا بكر كان أوَّل من أسلم فكيف التوفيق؟[1]

(١) علي أول من أسلم وجاء ذلك بعدة ألسنة منها: «أول من أسلم علي ـ علي اول من أسلم» «أولهم اسلاماً»:
رواه كل من: زيد بن أرقم (مسند أحمد: ٤/ ٣٦٧ ـ ٣٧١ ط.م و ٥/ ٤٩٩ ط.ب، وصحيح الترمذي: ٥/ ٣٤٢ ط. دار الحديث و٢/ ٣٠١ ط. مصر، والطبقات الكبرى: ٣/ ١٥ ترجمة علي، وأسد الغابة: ٤/ ١٧، وكنز العمال: ١٣/ ١٤٤ ح ٣٦٤٥١، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٥، وخصائص النسائي: ٢٦ ح ٣، والكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٤ ذكر الاختلاف في أول من أسلم، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٧٥ ح =

قلت: من تتبّع الجوامع علم أنَّ المسلّم عند الفحول من المحققين هو ما قدّمنا ومن

= ١٠١٤، وذخائر العقبى: ٥٨، جواهر المطالب: ١/ ٣٧ باب ٤ وأعلام النبوة: ٢٠٥ باب ١٢ والأوائل ٣٠ ح ٧٠)، وحبة العرني (مناقب الخوارزمي: ٥٧ ح٢٣، ومسند أبي حنيفة: ٢٤٧ ط. مصر)، وجابر (الإصابة: ٨/ ١٨٣ القسم ١ ط. مصر)، والحارث (أسد الغابة: ٥/ ٥٢٠)، وابن عباس (مستدرك الصحيحين: ٣/ ١٣٣ مناقبه، وذخائر العقبى: ٥٨، والمسند: ١/ ٣٧٣ ط.م و١/ ٦١٦ ط.ب، والطبقات الكبرى: ٣/ ١٥، والمعجم الكبير: ١٢/ ٧٧ ترجمة ابن عباس ما روى عنه عمرو بن ميمون ح ١٢٥٩٣، وشواهد التنزيل: ١/ ١٢٥ ح ١٣٤، وخصائص النسائي: ٤٥ ح ٢٣، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٧٤ ح ١٠٠، وكنز العمال: ١٣/ ١٢٣ ح ٣٦٣٩٢، وتاريخ الإسلام: ٣/ ٦٢٤، جواهر المطالب: ١/ ٣٧ باب ٤ وقال: قال أبو عمر هذا حديث صحيح، والأوائل ٣٠ ح ٧٠)، وأبي هريرة (كنز العمال: ١١/ ٦٠٥ ح ٣٢٩٢٥)، وعلي (عليه السلام) (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٥٧ ح ٨٣، وشواهد التنزيل: ١/ ٣٣٤ ح ٣٤٣، مناقب ابن المغازلي: ١٥ ح٢٠ ـ ٢١)، ومالك بن الحويرث (المعجم الكبير: ١٩/ ٢٩١ ترجمته، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٧٦ ح ١٠٢)، وأبي موسى الأشعري (المستدرك: ٣/ ٤٦٥ مناقب أبي موسى الأشعري من كتاب المعرفة وصححه)، وعفيف الكندي (المستدرك: ٣/ ١٨٣ فضائل خديجة من كتاب المعرفة ـ وصححه الذهبي)، وسعد بن أبي وقاص (المستدرك: ٣ / ٥٠٠ مناقب سعد)، وعمر (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٣٦١ ح ٤٠١، وذخائر العقبى: ٥٨، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٣٠ خطبة ٢٣٨، ومناقب الخوارزمي: ٥٥ ح ١٩ فصل ٤)، وسلمان والمقداد وأبي سعيد وخباب وأبي ذر (شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٣٠ خطبة ٢٣٨، والمعجم الكبير: ٥/ ٨٤ ح ٤٦٥٢ ترجمة زيد بن الحارث، و٦/ ٢٦٥ ترجمة سلمان ما روي عنه الكندي، والاستيعاب: ٢/ ٤٥٨، والمستدرك: ٣/ ١٣٦ مناقب الأمير، والأئمة الإثنا عشر: ٤٨)، وأبي رافع وبريدة (المعجم الكبير: ٢٢/ ٤٥٢ ترجمة خديجة، ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٢٠، والأوائل: ٣٠ ح ٧٠، والأئمة الإثنا عشر: ٤٨)، وانس (المعجم الكبير: ٢٢/ ٤١١ ترجمة فاطمة ـ تزويجها، وينابيع المودة: ١/ ٢٣٩، وصحيح الترمذي: ٥/ ٦٤٠ كتاب المناقب ط. دار الحديث، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٢٩)، وعمرو بن ميمون (مائة منقبة: ٧٦ المنقبة ٢٥)، ومحمد بن أبي بكر (مروج الذهب: ٣/ ١١ ذكر معاوية)، والحسن (عليه السلام) (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٤٥ ح ٦٥ ـ ٦٨، والاستيعاب: ٢/ ٤٥٨، والحلية: ٤/ ٢٩٤ ط. مصر ١٣٥١)، وابن اسحاق (تاريخ الطبري: ٢/ ٥٧ ذكر الخبر عما كان من أمر النبي ﷺ)، والكلبي (تاريخ الطبري: ٢/ ٥٧ ذكر أول من أسلم)، وأبي اسحاق (كنز العمال: ٥/ ١٥٣ ط. مصر، وتاريخ الإسلام: ١/ ١٣٧ إسلام السابقين، والمعجم الكبير: ١/ ٩٤ ح ١٥٦ ترجمة علي ـ صفته، وكنز العمال: ١١/ ٦٠٥ ح٣٢٩٢٧)، وابن عوف (الفتوح لابن أعثم: ١/ ٢١٧ كتاب علي لمعاوية (قبل صفين)، وشواهد التنزيل: ١/ ٣٧٤ ح ٣٤٣)، وعروة وسلمان بن يسار (أعلام النبوة: ٢٠٥ باب ١٢)، والمقداد وحبان وجابر وحسن البصري (الأئمة الإثنا عشر: ٤٨).

ـ ومنها بلسان: «علي أقدم أمتي سلماً ـ أولهم أو أقدمهم سلماً»

رواه كل من: أنس ومعقل بن يسار (تاريخ الإسلام: ٣/ ٦٢٨ عهد الخلفاء ـ علي، وشواهد التنزيل: ١/ ١٠٨ ح١٢٢، والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٠ ترجمة معقل ما روي عنه نافع، والمسند: ٥/ ٢٦ ط.م و ٦/ ط.ب، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٢٥٤ ح ٢٩٧، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٢٧ خ ٢٣٨)، والصادق عن آبائه (شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٢٧ خ ٢٣٨)، وجابر (مائة منقبة: =

ذهب إلى خلافه فحجّته داحضة بلا مرية وريب، ولم يرض أحد ممّن جانب المراء والتعصّب

= ٧٦ المنقبة ٢٥) ، وأبي سعيد (البيان للكنجي: ١١٧ باب ٩ تصريح النبي بأن المهدي من ولد الحسين) وسلمان (كنز العمال: ١١/٦١٦ ح ٣٢٩٩١، وكتاب سليم: ٧٠ و٩٣) ، وبريدة (مناقب الخوارزمي: ١٠٦ فصل ٩ ح١١١، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/٢٦٣ ح ٣٠٥، وكنز الفوائد: ١٢١) ، وأبي أيوب (مناقب الخوارزمي: ١١٢ فصل ٩ ح١٢٢) ، والمنصور عن أبائه (مناقب الخوارزمي: ٢٩٠ ح ٢٧٩ فصل ١٩، وإرشاد القلوب: ٢/٤٣٠) ، وأم سلمة (مناقب الخوارزمي: ٣٥٣ ح ٣٦٤ فصل ٢٠) ، وعائشة وأسماء (فتح الملك العلي: ٦٧) ، والأعمش (مناقب ابن المغازلي: ١٥١ ح ١٨٨) ، والحارث عن علي (الذرية الطاهرة: ٩١ ح ٨٣) . ـ ومنها بلسان: «أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم ».

رواه معاذ العدوية عنه، خرّجه البلاذري وابن قتيبة في المعارف (الكنى والأسماء للدولابي: ٢/٨١ من كنيته أبو الفضل، الجوهرة: ٨، وأنساب الاشراف: ٢/٣٧٩، وكنز العمال: ١٣/١٦٤ ح ٣٤٩٧، وأنساب الأشراف: ٢/١٤٦ ح ١٤٦ قبسات من ترجمة علي، ، وكنز الفوائد: ٣٣٩ الفصل العاشر من رسالة التعجب، وذخائر العقبى: ٥٨، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/٢٢٨ خ ٢٣٨، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/٦٢ ح ٨٨، وينابيع المودة: ١/٢٣٩ باب، وجواهر المطالب: ١/٣٨ باب ٤) . ـ ومنها بلسان: «أولكم وروداً على الحوض أولكم إسلاماً هو علي بن أبي طالب».

أخرجه صاحب الفردوس والحارث والطبراني والخطيب وابن عدي والحاكم وابن مردويه وابن أبي عاصم والقلعي عن سلمان وسفيان الثوري (الاوائل: ٢٩ ح ٦٧ - ٦٩، بغية الطلب في تاريخ حلب: ٣/١١٨٧، والمستدرك: ٣/١٣٦، وأسد الغابة: ٤/١٧، ومناقب الكلابي: ٤٣١ ح ١٠، والمطالب العالية: ٤/٥٧ ح ٣٩٥٢، ومناقب الخوارزمي: ٥٢ ح ١٥ فصل ٤، وجواهر المطالب: ١/٣٨ باب ٤، وكنز العمال: ١١/ ٦١٦ ح ٣٢٩٩١ و١٣/١٤٤ ح ٣٦٤٥٢، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/٨٢ ـ ٨٥ ح ١١٥، وينابيع المودة: ٢٧٨ ـ المناقب السبعون ـ، ومناقب ابن المغازلي: ١٦ ح ٢٢، وكنوز الحقائق ٤١٠، والفوائد المجموعة: ٣٤٦ ذكر مناقب علي ح ٤٧ وتاريخ بغداد: ٢/٧٩) . وزاد ابن أبي الحديد والكراجكي عن أنس: فقال له سلمان قبل أبي بكر وعمر؟

فقال: «قبل أبي بكر وعمر » (- شرح النهج: ٤/١١٧ الخطبة ٥٦، وكنز الفوائد: ١٢١ فصل في أن أمير المؤمنين أول بشر سبق إلى الإسلام) . ـ ومنها عن عائشة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : «ادعي لي أخي فإنه أول الناس بي اسلاماً» (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/٩٦ ح ١٣١) . ـ ومنها: «أما ترضين أن زوجك أول المسلمين إسلاماً ـ الرسول لفاطمة (عليها السلام) (المعجم الكبير: ٢٢/٤١٦ ترجمة فاطمة ما روي عنها أنس، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/٩٣ ح ١٢٧) . وعن محمد بن أبي بكر: . . «فكان أول من أجاب وأناب ووافق وأسلم وسلّم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب فصدقه بالغيب والمكتوم » (أنساب الاشراف: ٢/٣٩٢٤ أمر مصر في خلافة علي ومقتل محمد بن أبي بكر) .

بطلان كون أبو بكر أول من أسلم

* **أولاً**: ما رود من روايات أن علياً (عليه السلام) آمن وصلى قبل الناس بسبع سنين، وتقدم طرف من ذلك ويأتي عن عباد بن عبد الله عن علي، وحكيم مولى زاذان، وحبة العرني، وأبي ايوب، وأنس، وأبي هريرة، وأبي رافع، وحبة بن جوين. وهي بألفاظ: «صليت قبل الناس بسبع سنين» «لقد صلت الملائكة عليّ وعلى علي سبع سنين وذلك أنه لم يصلّ معي رجل فيها غيره» (راجع: صحيح ابن ماجه ـ المقدمة ـ: ٤٤ باب =

بتقدُّم إسلام أبي بكر، وكفاك في ذلك قول جلّ من كبار أهل السنّة بردُ من وهم ذلك.

= فضل أصحاب الرسول، والكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٤ ذكر الاختلاف من أول من أسلم، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٦١ ح٦٧، ومنتخب كنز العمال بهامش المسند: ٥/ ٤٠، وشواهد التنزيل: ١/ ١١١ ح١٢٤، والمسند: ١/ ٦١٦ و١٦٠ ط.ب ٩٩ و٣٧٣ ط.م، وشرح النهج: ١٣/ ٢٢٩ و٢٣٠ خطبة ٢٣٨، ومناقب المغازلي: ١٤ ح١٧ و١٩، وكنز العمال: ١٣/ ١٢٢ و١٢٦ ح٣٦٤٠٠، وكنز الفوائد: ١٢٥، وخصائص النسائي: ٢٩ ح ٦) .وورد: «صلت الملائكة عليّ وعلى علي سبع سنين وذلك أنه لم يرفع إلى السماء شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله إلاّ مني ومن علي» (كنز الفوائد: ١٢٥ فصل في كون الأمير أول بشر أسلم) .وفي لفظ: «قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة» (المستدرك للصحيحين: ٣/ ١١٢ ذكر مناقب الأمير) .

ويؤيد ذلك ما ورد أن أبا بكر أسلم بعد علي بسبع سنين (كنز الفوائد: ١٢٤) .ويؤيده أيضاً ما روي من أن إسلام أبي بكر مع عائشة في وقت واحد، وعائشة ولدت بعد البعثة بخمس سنين ؛ فيكون عمرها لا أقل عند إسلامها سنتين وذلك تمام السبع سنوات التي أسلم بها أمير المؤمنين قبل أبي بكر (كنز الفوائد: ١٢٤) .

* ثانياً: تصريح الروايات بعدم كون أبي بكر أول من أسلم: منها ما روي عن محمد بن كعب القرظي عندما سئل عن أول من أسلم علي أو أبو بكر قال: «سبحان الله علي أولهما إسلاماً، وإنما اشتبه على الناس لأن علياً أخفى إسلامه عن أبي طالب وأبو بكر أسلم وأظهر إسلامه» (أمتاع الاسماع للمقريزي: ١/ ١٧، وتاريخ الخميس: ١/ ٢٨٦ الركن الثاني ذكر أول من أسلم، وشرح النهج: ٤/ ١١٨ الخطبة ٥٦) .قال ابن عبد البر في الاستيعاب: الصحيح في أمر أبي بكر انه أول من أظهر إسلامه، كذلك قال مجاهد وغيره (شرح النهج: ٤/ ١١٩ الخطبة ٥٦). وقال الحافظ في التقريب: المرجح أنه أول من أسلم (زاد المسلم: ٤/ ٢١٧) .

ومن المعلوم أن هذه المسألة إن صحت، فانها تحمل على إخفائه الإسلام مدة يوم واحد، كما في رواية أبي رافع: «وصلى علي يوم الثلاثاء مستخفياً» (كنز الفوائد: ١٢٥ فصل في أن علي أول من أسلم) .وبعد ذلك رأه أبو طالب فسر لذلك، وأمر جعفر أن يصلي الى جنب أخيه. وروي في ذلك عدة روايات، وأنشد فيه شعراً (كنز الفوائد: ١٢٤) .على ان ابن الاثير روى عن ابن اسحاق: تقدم اسلام علي وزيد، ثم أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه (الكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٥ ذكر الاختلاف في أول من أسلم) .وسئل ابن الحنفية: أبو بكر كان أولهما إسلاماً ؟

قال: لا (شرح النهج: ٤/ ١١٩ الخطبة ٥٦، وتاريخ دمشق: ٣٠/ ٤٥ ترجمة أبو بكر) .وصح عن سعد بن أبي وقاص أنه أسلم قبل أبي بكر أكثر من خمسة (تاريخ دمشق: ٣٠/ ٤٥ ترجمة أبو بكر، والصواعق: ٧٦ ط. مصر و١١٥ بيروت فصل ٢ من باب ٣) .ورواه الطبري بلفظ: خمسين (تاريخ الطبري: ٢/ ٦٠ ذكر أول من أسلم) .

* ثالثاً: المتدبر في التواريخ يدرك إن أنصفه ضميره: أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يظهر دعوته إلاّ بعد قريب ثلاث سنوات، قال ابن الاثير:ثم إن الله تعالى أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما يؤمر، وكان قبل ذلك في السنين الثلاث مستتراً بدعوته لا يظهرها إلاّ لمن يثق به، فكان أصحابه إذا أرادوا الصلاة ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا (الكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٦ ذكر أمر الله بنية بإظهار دعوته).
وعن ابن مسعود: لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل الى البيت حتى أسلم عمر (لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٣٢٠ فصل في ذكر الصحابة ـ ذكر الفاروق). =

قال الحلبيُّ الشافعيُّ في كتابه «إنسان العيون في سيرة الأَمين والمأمون» المعروف بالسيرة

= فأين كان إظهار إسلام أبي بكر في هذه المدة ؟
ولماذا لم يستثنه أصحاب التواريخ ؟
وهم على أن إسلام أبي بكر وإظهاره لإسلامه كان في يوم واحد ـ كما ذكروا في كيفية إسلام أبي بكر ـ وهذا دليل واضح على أن إسلام أبي بكر كان بعد هذه الثلاث سنين لا أقل. وذكر الحاكم أن أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب والمقداد وبلال (المستدرك: ٣٤٩/٣ كتاب معرفة الصحابة مناقب المقداد). وهذا لا يبين متى أظهر أبو بكر إسلامه بل ظاهره أنه بعد إظهار رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، أي بعد الثلاث سنوات، إذا كان بمعنى التجاهر لا مجرد الشهادة.
* **رابعاً**: إطباق العلماء وأصحاب التواريخ وإجماعهم على تقديم إسلام علي (عليه السلام) اما علماء الإمامية ومؤلفيهم فقد أطبقوا على ذلك وهو ظاهر. أما علماء العامة فبملاحظة ما يلي:
ـ قال ابن حجر: قال ابن عباس وأنس وزيد بن أرقم وسلمان الفارسي وجماعة]من الصحابة [أنه أول من أسلم] ،حتى [ونقل بعضهم الإجماع عليه (الصواعق: ١٢٠ ط. مصر و١٨٥ ط. بيروت الباب التاسع ـ في إسلام علي، ولوامع الأنوار البهية للسفريني: ٣٣٨/٢ فصل في فضل الصحابة ـ علي، وما بين المعقودين منه) .كذا في الصواعق المطبوع ولوامع الأنوار البهية.
وفي نزل الأبرار للبدخشاني: قال ابن حجر: . . . هو الأرجح ونقل بعضهم الإجماع عليه (نزل الأبرار للبدخشاني: ١١٩ الباب الثاني) .
ـ وقال الحاكم: ولا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أن علي بن أبي طالب أولهم إسلاماً وإنما اختلفوا في بلوغه (الغدير: ٢٣٨/٣) .
وقال السفاريني: ونقل الحاكم اتفاق المؤرخين عليه (لوامع الأنوار البهية للسفريني: ٣١١/٢ تفضيل الصديق) .
وقال ابن الصباغ: أكثر الأقوال وأشهرها أنه [علياً] أول من أسلم وآمن برسول الله (صلى الله عليه وسلم) (الفصول المهمة: ٣١ تربية النبي ص) له) .وقال ابن أبي الحديد: أكثر أهل الحديث وأكثر المحققين من أهل السيرة رووا أنه (عليه السلام) أول من أسلم.
وقال: فدل ما ذكرناه أن علياً أول من أسلم، والمخالف في ذلك شاذ، والشاذ لا يعتد به (شرح النهج: ١١٦/٤ و١١٨ و١٢٥ الخطبة ٥٦) .وقال ابن عبد البر: اتفقوا على أن خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقه فيما جاء به ثم علي بعدها (الاستيعاب: ٤٥٧/٢، والغدير: ٢٣٨/٣) .وذكر في ترجمة علي ذهاب سلمان وأبي ذر والمقداد وخباب وجابر وأبي سعيد وزيد الي ذلك (جواهر العقدين: ٤٦٢ الباب الخامس عشر، والاستيعاب ١١٥٠/٣) .
وقال ابن اسحاق: ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة (سيرة ابن هشام: ٢٦٦/١ إسلام أبي بكر ط. مصر الحلبي ١٣٥٥ و٢٨٥ ط. بيروت) .أي بعد علي وزيد بن حارثة. وقال ابن كثير: الظاهر ان اهل بيته آمنوا قبل كل أحد: خديجة وزيد وأم أيمن وعلي وورقة (الصواعق المحرقة: ٧٦ الفصل الثاني من الباب الثالث ط. مصر و١١٥ ط. بيروت) .وذكر الطبري في معرض ذكر قول من قال إن علياً أول من أسلم: قال ابن سعد: قال الواقدي: اجتمع أصحابنا على أن علياً أسلم بعدما تنبيء رسول الله بسنة فأقام بمكة ثنتي عشرة سنة، وقال آخرون أول من أسلم من الرجال أبو بكر (تاريخ الطبري: ٥٨/٢ ذكر الخبر عما كان من أمر =

الحلبيَّة (ص ٣١١ ـ ج ١) بعدما ذهب إلى أنه عليه السلام كان أوّل من أسلم: وقول بعض الحفَّاظ

= النبي عند إرسال جبرائيل).

* **وهذا قول كل من**: الواقدي وابن جرير الطبري وصاحب كتاب الإستيعاب أبو عمر ابن عبد البر (شرح النهج: ١/ ٣٠ خطبة ١ ذيل القول في نسب الأمير الخطبة)، ومحمد بن المنذر وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وأبو حازم المدني والكلبي وابن اسحاق (تاريخ الطبري: ٢/ ٥٧ ذكر الخبر عما كان من أمر النبي عند ابتداء الله بإرسال جبرائيل، والكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٤ ذكر الاختلاف في أول من أسلم). وأبو جعفر الإسكافي وشيوخ المعتزلة كافة (شرح النهج: ١٣/ ٢٢٤ خطبة ٢٣٨ إسلام أبي بكر وعلي الخطبة و٤/ ١٢٢ الخطبة ٥٦). والثعلبي في قول تعالى: (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) قال: وهو قول ابن عباس وجابر وزيد ومحمد بن المكندر وربيعة المرائي (الفصول المهمة: ٣١ تربية النبي ص) له).

* **خامساً**: أننا لو سلمنا جدلا صحة ما قيل أن أبا بكر أول من أسلم، فإنه يحمل على أنه آمن بما آمن به رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام). ولذا نجد أن الله لم يصف هارون وزير موسى (عليه السلام) بأنه أول من آمن بموسى ورسالته بل وصف السحرة بذلك، قال تعالى: (قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) (الشعراء: ٥٠ - ٥١). وعلي بمنزلة هارون إلاّ النبوة كما يأتي. هذا، ويمكن أن يقال: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يقال عنه أول من أسلم وآمن، وذلك لأنه لم يكن مشركاً بالله حتى نقول أنه أسلم وآمن من بعد إشراكه، فكذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) فبإجماع الأمة أنه لم يسجد لصنم، فهو صلوات الله عليه لم يشرك بالله طرفة عين أبداً حتى يحتاج إلى أن يسلم، أو يكون أول من أسلم وهذا مذهب أكثر الناس:

* **قال المسعودي**: ذهب كثير من الناس إلى أنه [علي بن أبي طالب] لم يشرك بالله شيئاً فيستأنف الإسلام، بل كان تابعاً للنبي (صلى الله عليه وسلم) في جميع أفعاله مقتدياً به وبلغ وهو على ذلك، وأن الله عصمه وسدده ووفقه لتبعيته لنبيه (عليه السلام)، لأنهما كانا غير مضطرين ولا مجبورين على فعل الطاعات، بل مختارين قادرين، فاختارا طاعة الرب وموافقة أمره واجتناب منهياته (مروج الذهب: ٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨ ذكر مبعثه صلى الله عليه وآله وما جاء في ذلك إلى هجرته). ونحوه عن المقريزي كما تقدم.

وتقدم قول البلاذري وابن كثير: قال الزهري وسليمان بن يسار وعمران ابن أبي أنس وعروة بن الزبير: أول من أسلم زيد بن حارثة، وكان هو وعلي يلزمان النبي. ويرصدانه (الكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٥ ذكر الاختلاف في أول من أسلم).

بطلان وجوه الجمع في مسألة أول من أسلم. اعلم أن العامة كعادتهم عندما يقفون على كثرة الروايات التي تثبت الفضائل لأمير المؤمنين ـ وبعد عجزهم عن تحريفها أو إنكارها ثم إيجاد البديل في خلفائهم ـ يحاولون تأويل الأحاديث مما يتناسب مع مذهبهم من تأخير فضل أمير المؤمنين على خلفائهم الثلاثة، أو لا أقل الأول والثاني. فقاموا بجعل بعض وجوه للجمع في مسألة أول من أسلم. فقالوا: أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وعلي أول من أسلم من الصبيان. فعن سعيد بن عبد العزيز، قال: ما جاءنا أبو حنيفة بشيء أعجب إلينا من هذا قال: إن أول من آمن من النساء خديجة وأول من أسلم من الرجال أبو بكر وأول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الذرية الطاهرة: ٦١ ح٢٩، ولوامع الأنوار البهية للسفريني: ٢/ ٣١٢ تفضيل الصديق). والقائلون بهذه المقولة مما لا شك فيه أنهم يقصدون رد فضيلة أمير المؤمنين في كونه أول من أسلم، بل لعله بغضاً منهم لما فعل بأجدادهم.

* **قال المسعودي**: في الرد عليهم: (وهذا قول من قصد إلى إزالة فضائله ودفع مناقبه ليجعل إسلامه إسلام =

أنَّ أبا بكر أوَّل النَّاس إسلاماً هو المشهور عند الجمهور من أهل السنّة لا ينافي ما تقدَّم من

= طفل صغير وصبي غرير، لا يفرق بين الفضل والنقصان، ولا يميز بين الشك واليقين، ولا يعرف حقاً فيطلبه ولا باطلاً فيجتنبه) (الاشراف والتنبيه: ١٩٨ ذكر التاريخ من مولد الرسول ص). ـ ويبطل هذا النحو من الجمع امور: * الاول: ما تقدم في كثير من الروايات إن علي أول من أسلم من الرجال أو من الصحابة، كرواية حبّة وابن عباس (راجع إضافة لما تقدم ـ شرح النهج: ١٣/٢٢٨ و٢٢٤ خطبة ٢٣٨، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/٧٦ ح ١٠٢). وهذا لا يدع للجمع مجالاً، إلاّ بناء على أن أبا بكر ليس من الرجال أو ليس من الصحابة!!.

* **الثاني**: أن الروايات المتقدمة ليست تحت عنوان واحد وهو ـ أول من أسلم ـ فحتى لو صح الجمع المذكور في أول من أسلم، فماذا نفسر كون أمير المؤمنين أول من صلى، وأول من عبد الله، وأول من آمن، وأول من صدق النبي، وأول من اتبعه، وكل ذلك يأتي من طرق كثيرة متواترة؟! فهذه العناوين لم ترد في حق أبي بكر، فغاية ما روي وقيل أنه أول من أسلم، ولم يدع أحد إنه أول من صلى وعبد الله، ولا حتى رواية واحدة، وهذا أكبر دليل على تحريف روايات إسلامه.

* **الثالث**: التصريح في أغلب الروايات إن أمير المؤمنين أسلم بعد البلوغ: فروى أنه أسلم وعمره عشرون عاماً (معرفة الصحابة: ١/٢٠ ترجمة علي، وأنباء الرواة للشيباني: ١/١١ ط. القاهرة). وروى أنه أسلم وله ستة عشرة سنة (المستدرك: ٣/١١١ ذكر مناقب الأمير، والمعجم الكبير للطبراني: ١/ ٩٥ ح١٦٣ ترجمة علي ـ سنة، وشرح النهج: ٤/١٢١ الخطبة ٥٦، والاستيعاب: ٢/٤٥٨ ط. حيدر آباد ١٣٣٦ عن قتادة عن الحسن، وسنن البيهقي: ٦/٢٠٦ ط. دكن ١٣٤٤، وتاريخ الخميس: ٢/ ١٧٥ الفصل الثاني من الخاتمة ـ خلافته). وروى أنه أسلم وله خمسة عشرة سنة (المستدرك: ٣/١١١ ذكر مناقب الأمير، والمعجم الكبير: ١/ ٩٥ ح١٦٣ ترجمة علي، وشرح النهج: ١٣/ ٢٣٤ خطبة ٢٣٨، وسنن البيهقي: ٦/٢٠٦ ط. دكن ١٣٤٤، وصفة الصفوة: ١/١١٨، وشرح النهج: ٤/ ١٢٠ الخطبة ٥٦، والأشراف والتنبيه: ١٩٨ ذكر التاريخ من مولد الرسول، وتاريخ الخميس: ١/٢٧٩ ذيل الركن الأول ذكر ولد فاطمة وقال المصنف وهو الأصح عندي). إضافة إلى ما روي أن له أربعة أو ثلاثة عشر كما تقدم.

* **الرابع**: ما ذكره ابن أبي الحديد من كون إسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لم يكن إسلاماً عن عدم تفكير وتدبر، بل كان عن تأمل استغرق قريب من نصف يوم وليلة، وهو لا يتناسب مع مقولة: أسلم وهو صبي.

* **الخامس**: أن النبي كما كان يعرض على خديجة نزول الوحي كان يعرض على علي (عليه السلام) ذلك، فهل يعقل أن الرسول عند نزول الوحي أو الرؤيا ـ في بداية الوحي ـ يعرض هذا الأمر الخطير والمهم على طفل صغير؟! وكيف كان يصحبه عند هجرته خارج مكة عند عرض نفسه على القبائل مع وجود الشيبة والشبان!؟ تلك السفرات الخطيرة التبليغية لرسول البشرية (صلى الله عليه وآله)!.

والتي كان أحياناً يصحب فيها أبا بكر (شرح النهج: ٤/١٢٥ - ١٢٧ ـ ١٢٨ الخطبة ٥٦، ووفاء الوفاء للمسهودي: ١/٢٢٢ الباب الرابع ـ الفصل التاسع عن الحاكم وغيره، والمحاسن والمساوىء: ٧٦). بل أكثر من ذلك كان صلوات الله عليه يرشد أبا بكر في هذا المسير مع النبي إلى القبائل، كما يحدثنا البيهقي عن ذلك قائلاً: ـ بعد ذكر محاورة بين أبي بكر والأعرابي انتهت بغضب أبي بكر وفوز الأعرابي ـ.. فقال الأعرابي: صادَفَ دَرَّ السَّيْل دَرٌّ يَدفَعُه في هضبة ترفَعُهُ وتَضَعَهُ فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وقال علي (عليه السلام): فقلت: «يا أبا بكر إنك لقد وقعت من هذا الإعرابي على باقعة!. =

أنَّ عليّاً أوَّل الناس إسلاماً بعد خديجة، ثمَّ مولاه زيد بن حارثة، لأنَّ المراد أوَّل رجل بالغ

= فقال: أجل يا أبا الحسن ما من طامّة إلاّ فوقها طامة وإن البلاء موكّل بالمنطق (المحاسن والمساوىء: ٧٧ ـ ٧٨ ذيل محاسن المفاخرة). وزاد في محاضرت الأبرار: قال الإعرابي لأبي بكر: أما والله لو شئت لأخبرتك أنك لست من أشراف قريش.

فاجتذب أبو بكر زمام ناقته منه كهيئة المغضب (محاضرت الأبرار: ١/ ١٧٨ ذكر حجج الخلفاء).

* **السادس**: أن إسلام علي وكونه السابق إليه كان معرضاً للمفاخرة والمناشدة، فكان رسول الله يفتخر على الصحابة بذلك، وكان يقول أول من يرد الحوض أول من أسلم، كما تقدم.

وعلي كان يناشدهم بأنه أول من أسلم كما في الشورى وغيرها (كما تقدم).

وكذلك الحسن في مجلس معاوية وعمرو وكل ذلك لم يعترض عليه أحد ولم يقل أحد بأنه أسلم وهو طفل صغير أو سبقه إلى تلك المنقبة أبو بكر. ـ ومن وجوه الجمع: ما روي عن الحرث قال: «سمعت علي يقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر وأول من صلى القبلة من الرجال مع النبي علي». وهذا خبر يكذب نفسه، وهو من الأخبار التي لا تصدق.

كيف؟ وقد تقدم تصريح الأمير بكونه أول من أسلم. على أن مفاد هذا الخبر هو ذم لأبي بكر، فهو يصرح بإسلام أبي بكر ولكنه لم يكن ليصلّ وراء رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع رؤيته لخديجة وعلي. وكيف تصح الصلاة من علي بلا إسلام وإيمان؟! فالمسلم لا يصلي وغير المسلم يصلي؟! إن تعجب فعجب قولهم!!

علي أول من آمن ـ منها بلسان متواتر: «أول من آمن علي بن أبي طالب». روي عن كل من: الإمام الحسن (عليه السلام) (المعجم الكبير: ١/ ٩٥ ح٣ ١٦٣ ترجمة علي ـ سنّة، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٤٥ ح٦٦، وسنن البيهقي: ٦/ ٢٠٦ ط. دكن ١٣٤٤)، وابن عباس (شواهد التنزيل: ١/ ٢٦٢ ح٢٥٥، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٧٣ ح٩٦ و١٢٢، ومجمع الزوائد: ٦/ ٢٣٩)، وعمرو بن عباد (خصائص النسائي، ٣ ط. مصر التقدم)، وأبي اسحاق (أسد الغابة: ٤/ ١٩، وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٨١ ط. ب ١/ ٢٦٢ ط. مصر الحلبي، وتاريخ الخميس: ١/ ٢٧٩)، وليلى الغفارية (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٩٤، والاستيعاب: ٢/ ٧٥٩ ترجمنها)، وأبي ذر ومعاذة العدوية ومعاذ بن جبل (الرياض النضرة: ٢/ ١٥٧ و١٩٨، وروضة الواعظين ١١٥، وانساب الأشراف: ٢/ ٣٦٢)، وسلمان (فيض القدير: ٤/ ٢٥٨ ط. مصر ١٣٥٦، ومنتخب الكنز: ٥/ ٣٣، وذخائر العقبى: ٥٨، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٨٧، والمعجم الكبير: ٦/ ٢٦٩ ح٦١٨٤، وينابيع المودة: ١/ ٢٣٩)، وأبي رافع (شرح النهج: ١٣/ ٢٢٨ خطبة ٢٣٨)، ومحمد بن إسحاق (تاريخ الإسلام: ١/ ١٢٨ ـ السيرة ـ أول من آمن خديجة، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ١٥٧ ح١٩٤، ومناقب الخوارزمي: ٥١ فصل ٤ ح١٣)، ومحمد بن أبي بكر (مروج الذهب: ٣/ ١١ ذكر معاوية)، وحذيفة (كنز العمال: ١١/ ٦١٦ ح٣٢٩٩٠). ـ ومنها بلسان: «هذا أول من آمن بي [وصدقني وصلى معي]». رواه: الشعبي وسلمان وأبي ذر (شرح النهج: ١٣/ ٢٢٥ خطبة ٢٣٨، والمعجم الكبير: ٦/ ٢٦٩ ح٣١٨٤ ترجمة سلمان ما روي عنه أبو سخيلة، وأنساب الأشراف: ٢/ ١١٨ ح٧٤). ـ ومنها بلسان: «أنت أول المؤمنين بالله إيماناً». روي عن أبي سعيد ومعاذ بن جبل (حلية الأولياء: ١/ ٦٦ ط.، والرياض النضرة: ٢/ ١٩٨ ط.، وكفاية الطالب: ٢٧٠ باب ٦٤، ومناقب الخوارزمي: ١١٠ ح١١٨)، وعمر (كنز العمال: ٦/ ٣٩٣ ط. مصر و١٣/ ١١٧ ح٣٦٣٧٨ ط. ب، ومناقب الخوارزمي: ٥٥ ح١٩ فصل ٤، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ١٣٣ - ٣٦١ و٤٠١، ومنتخب الكنز: ٥/ ٤٥)، =

ليس من الموالي أبو بكر، ومن الصبيان عليّ ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن

= وجابر (مناقب الخوارزمي: ١١١ فصل ٩ ح١٢٠) ومعاوية بن يزيد (تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٥٤ أيام معاوية ابن يزيد)، وابن عباس (كنز العمال: ١٣/ ١٢٣ ح٣٦٣٩٢، وشواهد التنزيل: ٢/ ٤٨٣ ح١١٥٨ ح٩٧٦ و١/ ٧٠ ح٨١). وقال المقداد: «واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم (صلى الله عليه وسلم) وفيهم أول المؤمنين وابن عم رسول الله أعلم الناس وأفقههم في دين الله» (تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٦٣ أيام عثمان). وعن الأشتر: «علي أولهم إيماناً» (الفتوح: ١/ ٣٨٨ حرب صفين - ما جريس بين علي ومعاوية من الكتب). وعن ابن شهاب: «علي أول المؤمنين بالله» (شرح النهج: ١/ ٢٢٦ الخطبة ٦). وعن عمرو بن العاص: «علي أول من آمن بربنا» (الفتوح: ١/ ٤٠١ ذكر القوم الذين انفذهم معاوية لعلي) .وعن ابن عباس: «أن علياً أولكم إسلاماً (مناقب ابن المغازلي: ٥٢ ح ٧٦، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ٢/ ٤٤٢ ح٩٥٨).

ونحوه عن جابر (مناقب ابن المغازلي: ٥٢ ح٧٦، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ٢/ ٤٤٢ ح٩٥٨) ، وعن عبد الله بن حجل (الامامة والسياسة: ١/ ١٠٦ ط. مصر الحلبي ١٣٧٨ و١٤٢ ط. إيران) .وعنه: «علي أول ذكران العالمين إيماناً بالله» (المحاسن والمساوىء: ٤٣ محاسن علي). وعن معاذة العدوية: قال علي (عليه السلام): «أنا الصديق الأكبر آمنت بالله قبل ان يؤمن أبو بكر» (كنز العمال: ١٣/ ١٦٤ ح٣٦٤٩٧، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٦٢ ح٨٨، وأنساب الأشراف: ٢/ ١٤٦ ترجمة علي، وشرح النهج: ١٣/ ٢٢٨ خطبة ٢٣٨، وينابيع المودة: ١/ ٢٣٩، وذخائر العقبى: ٥٨). وعن عباد قال: قال علي: «آمنت قبل الناس بسبع سنين» (خصائص النسائي: ٢٩ ح٦). وعن ابن عباس في قوله تعالى: (والسابقون الأولون) قال: نزلت في علي سبق الناس كلهم بالإيمان بالله وبرسوله (شواهد التنزيل: ١/ ٣٣٦ ح٣٤٦). وقال نعمان بن جبلة لمعاوية: وما وقفت لرشد حين أقاتل على ملكك ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأول مؤمن به (مروج الذهب: ٢/ ٣٨٥ ذكر ايام صفين). والحسن احتج على معاوية وعمرو والمغيرة بأن علياً أول من آمن ولم يعترضوا (شرح النهج: ٦/ ٢٨٨ الخطبة ٨٣). كما تقدم في الاحتجاجات.

علي أول من صلى - منها بلسان: «أول من صلى [مع النبي] علي». روي عن كل من: ابن عباس (الكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٤ ذكر اختلاف في أول من أسلم، وشواهد التنزيل: ١/ ١١١ - ١١٧ ح١٢٤ و١٢٧، والمسند: ١/ ٦١٦ ط.م و٣٧٣ ط.ب، وتذكرة الخواص: ٢٦ باب ٢، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٧١ ح ٩٤ وما بعده و ح ٢٠٢، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٥، وشرح النهج: ١٣/ ٢٢٤، والمستدرك: ٣/ ١١١، وكنز العمال: ١١/ ٦١٦ ح٣٢٩٩٢، وجواهر المطالب: ١/ ٥٠ باب ٨، ومنحة المعبود: ١/ ٨٩ - ١٨٠ ح ٢٣٢٣ - ٢٦٥٧)، وحبة العرني (الاوائل: ٣٠ ح ٦٨، والطبقات الكبرى: ٣/ ١٥ ترجمة علي، وخصائص النسائي: ١٩ ح ١، وروضة الواعظين: ٨٥، والقول المسدد: ٨٢ الحديث العاشر، وفرائد السمطين: ٢/ ٨٢) ، وزيد بن أرقم وأبي حمزة (خصائص النسائي: ٢٢ و٢٦ ح ٢ و٤، وأسد الغابة: ٤/ ١٧، والمسند: ١/ ١٤١ و٤/ ٣٧٠ ط.م و١/ ٢٢٧ و٥/ ٤٩٨ ط.ب، ومناقب الخوارزمي: ٥٦ ح٢٢، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٧٦ ح١٠٤، ومناقب ابن المغازلي: ١٤ ح١٨، وأنساب الأشراف: ٩٣ ح١٠ ترجمة علي، ومنحة المعبود: ١/ ٨٩ - ١٨٠ ح ٢٣٢٣ - ٢٦٥٧) ، ومجاهد (الطبقات الكبرى: ٣/ ١٣ قسم ١ ط. ليدن ١٣٢٢ و٣/ ١٥ ترجمة علي ط. بيروت دار الكتب العلمية، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٤٣ ح٦٢) ، وابن إسحاق وجابر (تاريخ الطبري: ٢/ ٥٥ ط. =

حارثة، إلى آخر ما قال.

= مصر ١٣٥٧، وشرح النهج: ١٣/ ٢٢٩ خطبة ٢٣٨، وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٨١ ط.ب و١/ ٢٦٢ ط. مصر الحلبي، والكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٤)، وأبي مسعود (المعجم الكبير: ١٠/ ١٨٤ ترجمة ابن مسعود ح١٠٣٩٧، والشواهد: ٢/ ٣٠٢ ح٩٣٧)، وأنس بن مالك (ذخائر العقبى: ٥٩، وشرح النهج: ١٣/ ٢٢٨ خطبة ٢٣٨، وصحيح الترمذي: ٢/ ٣٠ و٣٠١، والمستدرك: ٣/ ١١١، ومنتخب الكنز: ٥/ ٣٤)، وبريدة (المستدرك: ٣/ ١١٢ ذكر إسلامه من كتاب المعرفة)، وعفيف الكندي (خصائص النسائي: ٢٧ ح٥، والمستدرك: ٣/ ١٨٣ مناقب خديجة، والكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٤، وشواهد التنزيل: ١/ ١١٣ ح١٢٥، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٧٠ ح٩٣، والمعجم الكبير: ٢٢/ ٤٥٢ ترجمة خديجة و١٨/ ١٠١ ترجمة عفيف الكندي، وشرح النهج: ١٣/ ٢٢٦ خطبة ٢٣٨، وينابيع المودة: ١/ ١٣٩، ومنحة المعبود: ١/ ٨٩ ـ ١٨٠ ح ٢٣٢٣ ـ ٢٦٥٧)، وابن مسعود (كنز العمال: ٧/ ٥٦، وشرح النهج: ١٣/ ٢٢٥ خطبة ٢٣٨)، والحكم بن عيينة (ذخائر العقبى: ٥٩، وجواهر المطالب: ١/ ٥٠ باب ٨ عن السلفي)، ورافع (ذخائر العقبى: ٥٩، ومناقب الخوارزمي: أ٥٧ ح٢٤)، وعبد الله ابن نجي (ترجمة علي: ١/ ٦٤ ح٩١ و٩٢)، وعمرو بن العاص (الفتوح: ١/ ٤٠١ صفين)، وهاشم بن عتبة (الكامل في التاريخ: ٢/ ٣٨٤ حوادث سنة ٣٧)، ومحمد بن علي الباقر (شواهد التنزيل: ٢/ ٣٠٠ ح٩٣٦)، وأبي أيوب (روضة الواعظين: ٨٥ مجلس في ذكر إسلام علي). ـ ومنها بلسان: «لقد صلت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين وذلك أنه لم يصل معي رجل فيها غيره».

أخرجه الطبري وابن ماجه وابن مردويه وابن عساكر.

وقد روي عن أبي أيوب وأنس وعباد بن عبد الله وأبي ذر (شرح النهج: ١٣/ ٢٣٠ خطبة ٢٣٨، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٨٠ ح١١٢، و١١٣، ومناقب ابن المغازلي: ١٤ ح١٧ و١٩، وأنساب الأشراف: ٩٢ ترجمته، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦، والفوائد المجموعة: ٣٤٣ ذكر مناقب علي ح ٤١). ـ وعنه (عليه السلام): «صليت قبل الناس [سبعاً] بسبع سنين».

وأخرجه ابن ماجه وابن عساكر والنسائي وابن حبان ووثقه (صحيح ابن ماجه ٤٤ من المقدمة ـ فضل علي ـ، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٦١ ح٨٧، ومنتخب الكنز: ٥/ ٤٠، والقول المسدد: ٨٢ الحديث العاشر عن حبة، وجواهر المطالب: ١/ ٧٠ باب ١٠، وشرح الأخبار: ١/ ١٧٨ ح ١٣٦، وزاد المسلم: ٤/ ٣٦، والفوائد المجموعة: ٣٤٣ ذكر مناقب علي ح ٤٢). وعن مروان وعبد الرحمن التميمي: «مكث الإسلام سبع سنين ليس فيه إلاّ ثلاثة رسول الله وخديجة وعلي» (شرح الأخبار: ١/ ١٧٨ ح ١٣٧).

وعنه أيضاً: «صليت قبل الناس لستة أشهر» (ربيع الأبرار: ٣/ ٤١٤ باب الفخر والكبر). وقال (عليه السلام): «أنا أول رجل صلى مع النبي» (كنز العمال: ١٣/ ١١٤ ح٣٦٣٩٦، ومسند أحمد: ١/ ٢٢٧ ط.ب، و١٤١ ط.م، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٥٧ ح٨٢، والقول المسدد: ٨٢ الحديث العاشر). وعن حبة: «لقد رأيتني صليت قبل الناس جميعاً» (منحة المعبود: ١/ ١٨٠ ح ٢٦٥٦).

وعن ابن عباس: «علي.. أول من صلى وركع» (المحاسن والمساوىء: ٤٣ محاسن علي). وعنه: «علي أول عربي وأعجمي صلى مع الرسول».

خرجه الحاكم وأبو عمر (المستدرك: ٣/ ١١ مناقبه من كتاب المعرفة، وجواهر المطالب: ١/ ٢٠٩ باب ٣٣). وعن جابر وأبي رافع وبريدة: «بعث [صلى ـ أوحي إلى] النبي يوم الإثنين وصلى علي يوم الثلاثاء» (تاريخ الطبري: ٢/ ٥٥، والمستدرك: ٣/ ١١٢ ذكر إسلامه و١٨٣ مناقب خديجة). وعن أبي رافع: =

ثمَّ إنَّ إسلامه عليه السلام وهو ابن عشر ستين أو ابن خمس عشر سنة، أو ابن ثمان سنين وإن

= «صلى النبي أول يوم الإثنين وصلت خديجة آخر يوم الإثنين وصلى علي يوم الثلاثاء من الغد مستخفياً قبل أن يصلي مع النبي أحد سبع سنين وأشهراً» (شواهد التنزيل: ٢/ ١٨٥ ح٨٢٠، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٤٨ ح٧٠، و٧١، وروضة الواعظين: ٨٥) .وعن الأشتر: «علي أول مصدق بالنبي ومصل معه» (شرح النهج: ١/ ٣٨ خطبة ٢٢). وقال هاشم: «أنه أول ذكر صلى من هذه الأمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)» (الفتوح: ١/ ٣٤٩ ـ صفين، وتاريخ الإسلام: ١/ ١٣٧ إسلام السابقين).

علي أول من عبد الله تعالى فعن حبة العوني أنه سمع علياً يقول: «اللهم لا اعترف أن عبداً لك من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيك ـ ثلاث مرات ـ» (مسند أحمد: ١/ ٩٩ ط.م، و١/ ١٦٠ ط.ب، وذخائر العقبى: ٦٠ ذكر أنه أول من صلى، ومنتخب كنز العمال: ٥/ ٤٠، وكنز العمال: ٦/ ٣٦٥ ط.مصر، و١٣/ ١٢٦ ح٣٦٤٠٠ ط.بيروت، وأسد الغابة: ٤/ ١٧ مع تفاوت، وكنز الفوائد: ١٢٢، ومجمع الزوائد: ٩/ ١٠٢، والاستيعاب: ٢/ ٤٥٨، والقول المسدد: ٨٣ الحديث العاشر وزاد المسلم: ٤/ ٣٦). ورواه النسائي بلفظ: «ما اعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري عبدت الله قبل أن يعبده احد من هذه الأمة تسع سنين» (خصائص النسائي: ٣ ط.مصر، و٣١ ح٧ ط.بيروت) .وعن حبة بن جوين عنه (عليه السلام) قال: «عبدت الله مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سبع سنين قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة» (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٥٣ ح٨٠، و٨١، و٨٦، وروضة الواعظين: ٨٥، والمستدرك: ٣/ ١١٣ مناقبه، وكنز العمال: ٦/ ٣٩٤ ط.مصر، و١٣/ ١٢٢ ح٣٦٣٩٠ ط.بيروت، والجوهرة: ١١). وأخرجه الطبراني في الأوسط بلفظ: «اللهم إنك تعلم أن لم يعبدك أحد من هذه الامة بعد نبيها (صلى الله عليه وسلم) قبلي، ولقد عبدتك قبل أن يعبدك أحد من هذه الأمة بست سنين» (المعجم الاوسط: ٢/ ٤٤٤ ح ١٧٦٧ من اسمه أحمد).

وقال العباس لابن مسعود عندما رأى علي وخديجة يصلون: «ما على وجه الأرض أحد يعبد الله تعالى بهذا الدين إلاّ هؤلاء الثلاثة» (المعجم الكبير: ١٠/ ١٨٤ ح١٠٣٩٧ ترجمة عبد الله بن مسعود، وكنز العمال: ١٣/ ٤٦٧ ح٣٧٢١٥، ومناقب الخوارزمي: ٥٦ فصل ٤ ح٢١) .وعن ابن عباس: «(علي) كان أول من صلى وعبد الله من أهل الأرض مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)» (شواهد التنزيل: ٢/ ٤٨٣ ح١١٥٨). وقال (عليه السلام) لعثمان: «بل أنا خير منك ومنهما عبدت الله قبلهما وبعدهما» (كنز الفوائد: ١٢٢).

* **ومما يؤيد هذه الفصول**: ما روي عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «السابقون ثلاثة ـ أو ـ السابق إلى محمد علي بن أبي طالب» (المعجم الكبير: ١١/ ٧٧ ح١١١٥٢ ترجمة ابن عباس ما روي مجاهد عنه، ومناقب ابن المغازلي: ٣٢٠ ح٣٦٥، وتاريخ الخميس: ١/ ٢٨٦ ذكر أول من أسلم، والدر المنثور: ٦/ ١٥٤، وكنز العمال: ١١/ ٦٠١ ح٣٣٨٩٦، وشواهد التنزيل: ٢/ ٢٩٢، و٩٢٤، و٩٢٦). وعن عمرو بن العاص: «علي أول من صدق نبينا» (الفتوح: ١/ ٤٠١ ذكر القوم الذين انفذهم معاوية لعلي). ونحوه عن ابن عباس وحذيفة وفيه: «علي أول من صدق به» (شواهد التنزيل: ٢/ ١٨١ ح٨١٤، و١/ ١٩٦ ح٢٠٦، و٢٠٩، وأخبار الدول: ١٠٣ فصل ٢ باب ٤). وعن الإمام الحسن (عليه السلام): «علي أول من هداه الله مع النبي وأول من لحق بالنبي (صلى الله عليه وسلم)» (شواهد التنزيل: ١/ ١٢٠ ـ ١٢٢ ح١٣٠ ـ ١٣٢). وعن محمد بن أبي بكر: «كان أول الناس لرسول الله اتباعاً وآخرهم به عهداً يشركه في أمره ويطلعه» (أنساب الأشراف: ٢/ ٣٩٥ امر مصر في خلافة علي، ومقتل محمد بن أبي بكر). =

كان الأخير فما دونه يخالف المشهور ويضادّ المعروف وروايته شاذّة مطرودة إنّما كان لسعة قلبه وكمال عقله وشرح صدره، وليس ذلك ممّن اجتباه الله تعالى بمستنكر، كيف وقد نطق القرآن الحكيم بنظائره:

قال في يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢﴾ [مريم: ١٢] وفي عيسى عليه السلام: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١﴾ [مريم: ٢٩ ـ ٣١].

فكم ضلَّ ونصب العداوة كالناصبة الذاهبة إلى أنَّ إيمانه عليه السلام في تلك الحالة إنما كان على وجه التقليد والتلقين وما كان بهذه المنزلة لم يستحقّ صاحبه المدحة ولم يجب له به الثواب وكان هو حينئذٍ ابن سبع سنين فلم يكن كامل العقل ولا مكلفاً فراجع إلى **«البحار» (ص ٣٢٧ ج ٢ من الطبع الكمباني)**.

على أنَّ ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤] يدلُّ على أنّه عليه السلام كان في موضع التكليف وكان ممّن دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإسلام، وقد تقرَّر في الفقه إمكان من بلغ عشراً عاقلاً من الذكور أن يبدو منه بعض آثار التكليف من إنبات الشعر وحصول الاحتلام وعلامة البلوغ ليست بمنحصرة في العدد.

ثمَّ لو لم يكن دالاً على أنّه عليه السلام كان في موضع التكليف ليدلّ على كمال فضله وحصول معرفته بالله وبرسوله على أنّه عليه السلام كان من آيات الله الخارقة للعادة وعلى اختصاصه وتأهيله لما رسخه الله له من الإمامة والحجّة على الخلق فجرى في خرق العادة مجرى عيسى ويحيى عليهما السلام كما قدّمنا، فلولا أنّه عليه السلام كان كاملاً وهو من أبناء عشر فما دونها لما كلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله من الإقرار بنبوّته، ولا دعاه إلى الاعتراف بحقّه، ولا افتتح به الدّعوة قبل جميع الرِّجال.

قال المسعوديُّ في **«مروج الذهب» (ص ٤٠٠ ج ١ طبع مصر ١٣٤٦هـ)**: وقد تنوزع في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فذهب كثير من النّاس إلى أنّه لم يشرك بالله شيئاً فيستأنف الإسلام، بل كان تابعاً للنبيِّ صلى الله عليه وآله في جميع فعاله، مقتدياً به، وبلغ وهو على ذلك. وأنَّ الله عصمه وسدّده وفّقه لتبعيّته لنبيّه عليه السلام، لأنهما كانا غير مضطرين، ولا مجبورين على فعل

= * **أقول**: هذه مجموعة طوائف متواترة تثبت تقدم صلاة وإيمان وإسلام علي (عليه السلام). ولأبي جعفر الإسكافي في رده على الجاحظ كلام لطيف فليراجع (يراجع شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢١٥ إلى ٢٩٥ خطبة ٢٣٨ إسلام أبي بكر).

الطاعات، بل مختارين قادرين فاختارا طاعة الرَّبِّ وموافقة أمره واجتناب منهيّاته.

ومنهم من رأى أنه أوَّل من آمن، وأنَّ الرَّسول دعاه وهو موضع التكليف بظاهر قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وكان بدؤه بعليّ عليه السلام إذ كان أقرب الناس إليه وأتبعهم له.

ومنهم من رأى غير ما وصفنا، وهذا موضع قد تنازع الناس فيه من الشيعة وقد احتجَّ كلٌّ فريق لقوله. ومنهم من قال بالنصّ في الإمامة والاختيار. وأرض **(كذا)** كل فريق وكيفيّة إسلامه ومقدار سنيه قد أتينا على الكلام في ذلك على الشرح والإيضاح في كتابنا المترجم بكتاب **«الصفوة في الإمامة»**، وفي كتاب **«الاستنصار»**، وفي كتاب **«الزاهي»**، وغيره من كتبنا في هذا المعنى. انتهى كلامه رضي الله عنه.

أقول: أمّا قوله رضي الله عنه: فذهب كثير من النّاس إلى أنّه عليه السلام لم يشرك بالله شيئاً ـ إلخ، فكلام في غاية الحسن والجودة والمتانة لما برهنّا في شرح **«المختار»** ٢٣٧ من باب الخطب أنَّ النبيّ ووصيّه يجب أن يكونا معصومين مطلقاً فعلاً وقولاً وذاتاً من جميع ما يأبى وينفر عنه الطبع السليم والعقل الناصع، ومن جميع الذنوب وأنحاء الظلم والشرك فإنَّ الشرك لظلم عظيم، ومن جميع ما يعتبر في التبليغ كالعصمة عن الخطأ في تلقّي الوحي والرسالة إن كان نبيّاً، والعصمة عن الخطأ في التبليغ سواء كان نبيّاً أو وصيّاً.

وأمّا قوله: ومنهم من رأى أنّه أوّل من آمن ـ إلخ، فقد دريت أنّه هو الحق. قوله: وأنَّ الرسول دعاه وهو موضع التكليف، فقد دريت تفصيل الكلام فيه وأمّا قوله وكان بدؤه بعليّ ـ إلخ، فنعم ما تمسّك فيه بقوله: إذ كان أقرب الناس إليه.

وأمّا قوله: ومنهم من قال بالنصّ ـ إلخ، فقد علمت من مباحثنا السالفة يجب أن يكون الإمام منصوباً ومنصوصاً من الله تعالى ورسوله.

وأمّا قوله: وغيره من كتبنا في هذا المعنى فمن ذلك الغير رسالة إثبات الوصيّة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام وقد عدَّها النجاشي وغيره من مصنّفي الكتب الرّجالية من كتبه **(وقد طبعت هذه الرّسالة في العاصمة طهران سنة ١٣١٨هـ)** وقد شكَّ فيها بأنّها هل هي تلك الرّسالة من المسعودي أو هي غيرها لغيره.

وقد عدَّه العامّة من علمائهم وعلى ظهر كتابه **«مروج الذّهب»** المطبوع في مصر عدُّوه من الشافعيّة، ولكنّه وهم، وهو رضي الله عنه من كبار علماء الإماميّة ومن فقهائهم، وقد نقل أقواله الفقيه صاحب **«الجواهر»** قدّس سرّه في غير موضع. كان رحمه الله معاصراً للصدوق وهو منسوب إلى مسعود الصحابي والد عبد الله بن مسعود **(كما في المقالة الثالثة من الفنّ الثالث من**

الفهرست لابن النديم فراجع) إلى الكتب الرّجالية للإماميّة كفهرست النجاشي وخلاصة العلاّمة وجامع الرواة للأردبيلي ورجال المامقاني وفي الفائدة الثانية من خاتمة المستدرك المحدّث النوري ص ٣١٠ وغيرها.

قوله عليه السلام: «فلبثنا أحوالاً مجرّمة وما يعبد الله في ربع ساكن من العرب غيرنا» الحول: السنة يجمع على الأحوال، والمجرّم التامّ الكامل أي سنين تامّة والربع: الدار والمحلّة وقيل: الربع المنزل في الرّبيع خاصّة. وقد مضى الخبر عن أبي جعفر الطبري آنفاً في أنّ أمير المؤمنين عليه السلام صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الناس بسبع سنين.

قوله عليه السلام: **(فأراد قومنا قتل نبيّنا ـ إلى قوله وأوقدوا لنا نار الحرب)** ما لقي رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه من الأذى أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يذكر حتّى قال صلى الله عليه وآله: «ما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت»[1]، كيف لا وقد رموه بالسحر والجنون وهو خاتم النبيّين وأفضل الرُّسل والعقل الكلّ.

ففي السيرة النبويّة لابن هشام: قال ابن إسحاق: ثمّ إنّ قريشاً اشتدّ أمرهم للشقاء الّذي أصابهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله صلى الله عليه وآله سفهاءهم، فكذّبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ورسول الله صلى الله عليه وآله مُظهر لأمر الله لا يستخفي به، مُبادٍ لهم بما يمكرون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إيّاهم على كفرهم **(ص ٢٨٩ ج ١)**.

ثمّ قال في عدوان المشركين وقسوة قريش على من أسلم: قال ابن إسحاق: ثمّ إنهم عدوا على من أسلم واتّبع رسول الله صلى الله عليه وآله من أصحابه، فوثبت كلُّ قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكّة إذا اشتدّ الحرُّ من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدّة البلاء الّذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم، ثمّ ذكر تعذيب قريش بلالاً وعمّار بن ياسر وأباه ياسراً وأمّه سميّة وغيرهم **(ص ٣١٧ ج ١)**.

وقال ابن إسحاق كما في **«السيرة»** لابن هشام: حدّثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطّشونه حتّى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدّة الضرّ الّذي نزل به حتّى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتّى يقولوا له: اللاّت والعزّى إلٰهك من دون الله؟ فيقول: نعم حتّى أنّ الجُعل ليمرُّ

(١) جواهر المطالب: ٢/ ٣٢٠.

بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلٰهك من دون الله؟ فيقول: نعم اقتداءاً منهم ممّا يبلغون من جهده. (ص ٣٢٠ ج١).

وبالجملة أنَّ إيذاء القوم بالمسلمين بلغ إلى غاية، أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يهاجروا إلى أرض الحبشة فخرجوا مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم وأقام المسلمون بأرض الحبشة حتّى ولد لهم الأولاد وجميع أولاد جعفر بن أبي طالب ولدوا بأرض الحبشة ولم يزالوا بها في أمن وسلامة.

والمرويُّ عن أحمد في مسنده عن ابن عبّاس قال: إنَّ الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاهدوا باللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، وإذا رأينا محمّداً قمنا إليه قيام رجل واحد فلا يفارقه حتّى يقتله.

قال: فأقبلت فاطمة عليها السلام حتّى دخلت عليه ﷺ فأخبرته بقولهم وقالت له لو قد رأوك لقتلوك وليس منهم رجل إلاّ وقد عرف نصيبه من دمك، فقال: يا بنيَّة أريني وضوءاً فتوضّأ ثمَّ دخل عليهم المسجد فلمّا رأوه غضّوا أبصارهم ثمَّ قالوا: هو ذا، ثمَّ لم يقم إليه منهم أحد فأقبل ﷺ حتّى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: شاهت الوجوه، فما أصاب رجل منهم شيء إلاّ قتل يوم بدر كافراً[١].

قال أبو جعفر الطبريُّ: حدَّثنا ابن حميد قال: حدَّثنا سلمة عن محمّد بن إسحاق[٢] قال: لمّا رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله وعمّه أبي طالب وأنّه لا يقدر أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنَّ بها ملكاً لا يظلم أحد عنده وهي أرض صدق حتّى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه.

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله عزَّ وجلَّ بدينهم، فكانت أوّل هجرة كانت في الإسلام إلى أن قال:

ولمّا استقرَّ بالّذين هاجروا إلى أرض الحبشة القرار بأرض النجاشي واطمأنّوا تآمرت قريش فيما بينها في الكيد بمن ضوى إليها من المسلمين، فوجّهوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي إلى النجاشي لتسليم من قبله وبأرضه من المسلمين إليهم، فشخص عمرو وعبد الله إليه في ذلك فنفذا لما أرسلهما إليه قومهما فلم

(١) ونقله ابن هشام عن ابن إسحاق في السيرة: ١/ ٣٢١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣١٥.

يصلا إلى ما أمّل قومهما من النجاشي، فرجعا مقبوحين وأسلم عمر بن الخطّاب.

فلمّا أسلم وكان رجلاً جلداً جليداً منيعاً، وكان قد أسلم قبل ذلك حمزة بن عبد المطلب ووجد أصحاب رسول الله ﷺ في أنفسهم قوّة وجعل الإسلام يفشو في القبائل، وحمى النجاشي من ضوى إلى بلده منهم.

اجتمعت قريش فائتمرت بينها أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا إلى بني هاشم وبني المطّلب ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم.

فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً بذلك الأمر على أنفسهم.

فلمّا فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شِعبِه واجتمعوا إليه في شِعبِه، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزّى بن عبد المطلب إلى قريش وظاهرهم عليه فأقاموا على ذلك من أمرهم سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا لا يصل إلى أحد منهم شيء إلاّ سرّاً مستخفياً به ممّن أراد صلتهم من قريش[1].

وفي «السيرة النبوية» لابن هشام عن ابن إسحاق: وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، ويقال: النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلّ بعض أصابعه.

قال اليعقوبي في «التاريخ» (ص ٢٢ ج ٢): وهمّت قريش بقتل رسول الله ﷺ وأجمع ملأها على ذلك وبلغ أبا طلب فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتّى أوسد في التراب دفينا

ودعوتني وزعمت أنك ناصح ... ولقد صدقت وكنت ثمّ أمينا

وعرضت ديناً قد علمت بأنّه ... من خير أديان البريّة دينا

فلمّا علمت قريش أنّهم لا يقدرون على قتل رسول الله ﷺ، وأنّ أبا طالب لا يسلّمه وسمعت بهذا من قول أبي طالب، كتبت الصحيفة القاطعة الظالمة أن لا يبايعوا أحداً من بني هاشم ولا يناكحوهم ولا يعاملونهم حتّى يدفعوا إليهم محمّداً ﷺ فيقتلوه وتعاقدوا على ذلك وتعاهدوا وختموا على الصحيفة بثمانين خاتماً، وكان الّذي كتبها منصور بن عكرمة فشلّت يده.

ثمّ حصرت قريش رسول الله ﷺ وأهل بيته من بني هاشم وبني المطّلب بن عبد مناف

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٧٤، وأبو طالب حامي الرسول: ٦٢.

في الشعب الّذي يقال له: شعب بني هاشم بعد ستّ ستين من مبعثه. فأقام ومعه جميع بني هاشم وبني المطلب في الشعب ثلاث سنين حتّى أنفق رسول الله ﷺ ماله، وأنفق أبو طالب، وأنفقت خديجة بنت خويلد مالها، وصاروا إلى حدّ الضرّ والفاقة.

ثمّ نزل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: إنَّ الله بعث الأرضة على صحيفة قريش فأكلت كلّ ما فيها من قطيعة وظلم «كذا» إلاّ المواضع الّتي فيها ذكر الله فخبر رسول الله ﷺ أبا طالب بذلك، ثمّ خرج أبو طالب ومعه رسول الله ﷺ وأهل بيته حتّى صار إلى الكعبة فجلس بفنائها.

وأقبلت قريش من كلّ أوب فقالوا: قد آن لك يا أبا طالب أن تذكر العهد وأن تشتاق إلى قومك وتدع اللّجاج في ابن أخيك.

فقال لهم: يا قوم احضروا صحيفتكم فلعلّنا أن نجد فرجاً وسبباً لصلة الأرحام وترك القطيعة، وأحضروها وهي بخواتيمهم، فقال: هذه صحيفتكم على العهد لم تنكروها؟ قالوا: نعم. قال: فهل أحدثتم فيها حدثاً؟ قالوا: اللّهمَّ لا. قال: فإنَّ محمّداً أعلمني عن ربّه أنه بعث الأرضة فأكلت كلّما فيها إلاّ ذكر الله أفرأيتم إن كان صادقاً ماذا تصنعون؟ قالوا: نكفُّ ونمسك. قال: فإن كان كاذباً دفعته إليكم تقتلونه، قالوا: قد أنصفت وأجملت. وفضّت الصحيفة فإذاً الأرضة قد أكلت كلَّ ما فيها إلاّ مواضع بسم الله عزَّ وجلَّ. فقالوا: ما هذا إلاّ سحر وما كنّا قطّ أجدّ في تكذيبه منّا ساعتنا هذه، وأسلم يومئذ خلق من النّاس عظيم، وخرج بنو هاشم من الشعب وبنو المطلب فلم يرجعوا إليه، انتهى كلام اليعقوبي[1].

وقريب ممّا أتى به اليعقوبي ذكره ابن هشام في «السيرة» ص ٣٧٧ ج ١ فعلم بما نقلنا أنَّ قريشاً حصرت رسول الله ﷺ وأهل بيته وفعلت تلك الأفاعيل بحماته وأنصاره ليدفع إليهم رسول الله ﷺ فيقتلونه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في الكتاب: حتّى ندفع النبيَّ ﷺ ويمثّلوا به.

والظّاهر من سياق الكلام وما نقله المؤرِّخون في ما جرى على المسلمين أنَّ الجبل الوعر في كلامه عليه السلام هو شعب أبي طالب.

والمراد من الموسم في قوله عليه السلام: فلم نكن نأمن فيهم إلاّ من موسم إلى موسم، هو موسم الحجّ وهو من الأشهر الحرم وكان أهل الجاهليّة أيضاً يحرِّمون فيه الظلم والقتال لحرمته.

(١) أبو طالب حامي الرسول: ٥٨، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٢.

قوله عليه السلام: **(فمؤمننا يبغي بذلك الأجر)** أي من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله من بني هاشم وبني المطلب كأبي طالب وحمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليهما يطلب بما لقي من قريش من الأذى وبالذَّبِّ والدَّفع سيّما زمن الحصر في الشعب الأجر من الله تعالى قال عزَّ من قائل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] وكان أبو طالب رضوان الله عليه سيد المحصورين في الشعب ورئيسهم وهو الكافل المحامي وقد عيّنه رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة[١].

وقد روى الصدوق قدّس سرُّه في المجلس الثالث والستين من **«الأمالي» (ص ٢٤٤ الطبع الناصري)** عن محمّد بن موسى بن المتوكل، عن محمد بن يحيى العطار، عن سهل بن زياد الآدمي، عن سنان، عن عمرو بن ثابت، عن حبيب بن أبي ثابت رفعه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على عمّه أبي طالب وهو مسجّى فقال: «يا عمّ كفّلت يتيماً، وربّيت صغيراً، ونصرت كبيراً، فجزاك الله عنّي خيراً ثمَّ أمر عليّاً عليه السلام بغسله»[٢].

«إسلام أبي طالب رضوان الله عليه»

قد أجمعت أصحابنا الإماميّة رضوان الله عليهم أنَّ أبا طالب مات مسلماً وقد تظافرت الروايات عن أئمتنا عليهم السلام بذلك، وإنَّ عدم إظهاره الإسلام لم يكن من عناد، بل إنّما كان من حسن تدبيره في دفع كيد القوم عنه صلى الله عليه وآله ولمصلحة الذبِّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله والتمكّن من حمايته، ولا يخفى أنّه كان بذلك أقدر على إعانة النبيِّ صلى الله عليه وآله لأنّه كان زعيماً نبيهاً حازماً سيّاساً، فقد قال الشيخ الجليل أبو الفتح الكراجكي في **«كنز الفوائد» (ص ٨٤ طبع إيران ١٣٢٢هـ)**: وروي أنّه قيل لأكثم بن صيفي وكان حكيم الحرب: إنّك لأعلم أهل زمانك وأحكمهم وأعقلهم وأحلمهم. فقال: وكيف لا أكون كذلك وقد جالست أبا طالب بن عبد المطلب دهره، وهاشماً دهره، وعبد مناف دهره، وقصيّاً دهره، وكلُّ هؤلاء سادات أبناء سادات فتخلّقت بأخلاقهم، وتعلّمت من حلمهم، واقتنيت سؤددهم واتّبعت آثارهم.

فقد روى الكلينيُّ قدّس سرُّه في **«الكافي»** بإسناده عن عليِّ بن إبراهيم، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسرُّوا الإيمان، وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرَّتين **(الحديث ٢٨ من أبواب تاريخ مولد النبيّ صلى الله عليه وآله ووفاته من «أصول الكافي» وص ٣٦٨ ج ١ من «مرآة العقول»**

---

(١) بحار الأنوار: ٣٥/١١٧ ح ٥٨، وأدب الضيافة: ٤٩.

(٢) الأمالي: ٤٨٩، ح ٦٦٤، وبحار الأنوار: ٣٥/٦٨، ح ١.

للمجلسي رحمه الله، **وص ١٥٩ ج ٢ من «الوافي»)**.

وروى هذا الخبر الشيخ الصدوق رحمه الله في **«الأمالي»** بإسناده عن الطالقاني عن أحمد الهمداني، عن المنذر بن محمّد، عن جعفر بن سليمان، عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام كما في **«البحار»** ص ١٥ ج ٩ الطبع الكمباني.

قال العلامة المجلسي في **«مرآة العقول»** في بيان الحديث: المثل بالتحريك الحال العجيبة، وقيل الإيمان: التطوع القلبي بجميع ما جاء به الرّسول فإنَّ الأوّل لا يجتمع مع الجحد بخلاف الثاني كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]. وأظهروا الشرك أي عند من تجب التقيّة عنده لا عند جميع النّاس مرّتين مرّة للإيمان ومرّة للتقيّة عند وجوبها، فإنها من أفضل الطاعات لا سيّما تقيّة أبي طالب عليه السلام لأنّها صارت سبباً لشدَّة اقتداره على إعانه الرّسول صلى الله عليه وآله. والخبر يدلُّ على أنَّ أصحاب الكهف كانوا مؤمنين ولم يحدث إيمانهم عند خروجهم، وهو المشهور أيضاً بين المفسّرين وغيرهم. انتهى كلامه.

أقول: الظاهر أنَّ قوله عليه السلام: فآتاهم الله أجرهم مرَّتين، يشير إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] وإنَّ كلمة مرّتين لا يراد بها حقيقة التثنية، بل المراد بها كثرة الأجر، نظير قولهم: لبّيك وسعديك، أي كلّما دعوتني فأنا ذو إجابة وذو ثبات بمكاني بعد ثبات وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٤].

ويؤيّد ما ذهب إليه من أنَّ إخفاء أبي طالب إيمانه كان من تقيّة **(كلام اليعقوبي في تاريخه المعروف)** من أنَّ معاوية لمّا وجّه بسر بن أرطأة إلى المدينة وأمره أن يقتل من لم يكن ليدخل في طاعته، انطلق جابر بن عبد الله الأنصاري إلى أمّ سلمة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: إنّي قد خشيت أن أُقتل وهذه بيعة ضلال قالت: إذاً فبايع فإنَّ التقيّة حملت أصحاب الكهف على أن كانوا يلبسون الصلب ويحضرون الأعياد مع قومهم **(ص ١٧٣ ج ٢ طبع النجف)**.

ولكنّ إخفاء أبي طالب الإيمان وإن كان لمصلحة الذبِّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وكان به أقدر على إعانته لكن عدّه تقيَّةً ليس بمرضيّ فإنَّ التقيّة كما عرَّفها الشهيد رحمه الله في **«القواعد»**: مجاملة الناس بما يعرفون وترك ما ينكرون وحذراً من غوائلهم، وموردها الطاعة والمعصية غالباً فمجاملة الظالم فيما يعتقده ظلماً والفاسق المتظاهر بفسقه اتّقاء شرّهما من باب المداهنة الجائزة لا تكاد تسمّى تقيّة وكيف كان عمله تقيّة وقد ذبَّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى إلاّ أن يحاميه جهاراً وأخبر قريشاً بأنّه غير مسلّم رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم ولا تاركه لشيء أبداً حتّى يهلك دونه، كما صرَّح به المؤرِّخون وأجمعوا عليه ومنهم ابن هشام في **«السيرة»** «ص ٢٧٢ ج ١» فتأمل.

وفي «**الكافي**» بإسناده عن الحسين بن محمّد ومحمّد بن يحيى، عن أحمد بن إسحاق عن بكر بن محمّد الأزدي، عن إسحاق بن جعفر، عن أبيه عليه السلام قال: قيل له: إنّهم يزعمون أنَّ أبا طالب كان كافراً، فقال عليه السلام: «كذبوا كيف كان كافراً وهو يقول:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبيّاً كموسى خطَّ في أوّل الكتب

ثمَّ قال الكلينيُّ: وفي حديث آخر كيف يكون أبو طالب كافراً وهو يقول:

لقد علموا أنَّ ابننا لا مكذّب لدينا ولا يعبأ بقول[1] الأباطل
وأبيض يستقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[2]

أقول: والخبر مرويٌّ في «**الوافي**» (**ص ١٥٩ ج ٢**) وفي «**مرآة العقول**» (**ص ٣٦٧ ج ١**) وفي «**البحار**» عن «**الأمالي**» للصدوق وعن السيد فخار بن معد الموسوي عن شاذان بن جبرائيل بإسناده إلى ابن الوليد ص ١٥ ج ٩ الطبع الكمباني.

والمراد أنَّ أشعار أبي طالب دالّة على إسلامه وإقراره بنبوَّة رسول الله صلى الله عليه وآله ولا فرق في ذلك بين الكلام المنظوم والمنثور.

والبيت الأوَّل من أبيات قالها أبو طالب رضوان الله عليه في قريش حين تظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وآله واجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا صحيفة يتعاقدون فيها على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، كما مرَّ خبر الصحيفة آنفاً.

وقد نقل الأبيات ابن هشام في «**السيرة النبويّة**» (**ص ٣٥٢ ج ١ طبع مصر ١٣٧٥هـ**) وهي:

ألا أبلغا عنّي على ذات بيننا لُؤيّاً وخصّا من لُؤيّ بني كعب
ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبيّاً كموسى خطَّ في أوّل الكتب
وأنَّ عليه في العباد محبّة ولا خير ممّن خصّه الله بالحبّ
وأنَّ الذي ألصقتم من كتابكم لكم كائن نحساً كراغية السقب
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا أواصرنا بعد المودّة والقرب

---

(١) في نسخة: يقبل.

(٢) شرح أصول الكافي: ٧/ ١٨٢، والإرشاد: ١/ ١٨٦.

وتستجلبوا حرباً عواناً وربّما أمرّ على من ذاقه جلب الحرب
فلسنا وربّ البيت نسلم أحمداً لعزّاء من عضّ الزّمان ولا كرب
ولمّا تبن منّا ومنكم سوالف وأيدٍ أترّت بالقُساسية الشهب
بمعترك ضيق ترى كسر القنا به والنسور الطُخم يعكفن كالشرب
كأنّ مُجال الخيل في حجراته ومعمعة الأبطال معركة الحرب
أليس أبونا هاشم شدّ أزره وأوصى بنيه بالطّعان وبالضرب
ولسنا نملّ الحرب حتّى تملّنا ولا تشتكي ما قد ينوب من النكب
ولكنّنا أهل الحفائظ والنهى إذا طار أرواح الكماة من الرّعب

ثمّ قال ابن إسحاق: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتّى جهدوا لا يصل إليهم شيء إلاّ سرّاً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش.

والبيتان الآخران من أبيات قصيدته اللاّمية الّتي بلغت شهرة كالشمس في رابعة النهار، والقصيدة طويلة تنتهي إلى أكثر من تسعين بيتاً أتى بها ابن هشام في «**السيرة**» «ص ٢٨٢ - إلى ٢٧٠ ج ١» بعض أبيات تلك القصيدة ما يلي:

قال ابن هشام: فلما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته الّتي تعوّذ فيها بحرم مكّة وبمكانه منها وتودّد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره أنّه غير مسلّم رسول الله ﷺ ولا تاركه لشيء أبداً حتّى يهلك دونه فقال:

ولمّا رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطعوا كلّ العرا والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدوّ المزايل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنّه يعضّون غيضاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي وأمسكت من أثوابه بالوصائل

إلى أن قال:

كذبتم وبيت الله نترك مكّة ونظعن أمركم في بلابل
كذبتم وبيت الله نبزي محمّداً ولمّا نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتّى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

إلى أن قال:

وما ترك قومٍ، لا أبا لك، سيّداً يحوط الذمار غير ذرب مواكل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاّك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل

إلى أن قال:

لعمري لقد كلّفت وجداً بأحمد وإخوته دأب المحبّ المواصل
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها وزيناً لمن والاه ربُّ المشاكل
فمن مثله في الناس أيُّ مؤمّل إذا قاسه الحكّام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إلٰهاً ليس عنه بغافل
فوالله لولا أن أجيء بسنّة تُجرّ على أشياخنا في المحافل
لكنّا اتّبعناه على كلّ حالة من الدّهر جدّاً غير قول التهازل
لقد علموا أنّ ابننا لا مكذّب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصّر عنه سورة المتطاول
حدبت نفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذُّرا والكلاكل
فأيّده ربُّ العباد بنصره وأظهر ديناً حقّه غير باطل

ومن أبيات تدلُّ على أنَّ أبا طالب مات مسلماً ما نقله ابن هشام في «**السيرة**» أيضاً (**ص ٢٦٩ ج ١**) قال: فلمّا رأى أبو طالب من قومه ما سرّه في جهدهم معه وحدبهم عليه جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشدّ لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرُّها وصميمها
وإن حصّلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإنّ محمّداً هو المصطفى من سرِّها وكريمها
تداعت قريش غثّها وسمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنّا قديماً لا نقرُّ ظلامة إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمي حماها كلّ يوم كريهة ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذّواء وإنّما بأكنافنا تندى وتنمى أرومها

قال الطبرسي قُدّس سرُّه في «**مجمع البيان في تفسير القرآن**»: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٦] قيل: عنى به أبا طالب بن عبد المطلب، ومعناه يمنعون النّاس عن أذي النبي ﷺ ولا يتبعونه عن عطا ومقاتل. وهذا لا

يصحُّ، لأنَّ هذه الآية معطوفة على ما تقدَّمها **﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كلَّ آية لا يؤمنوا بها حتّى إذا جاءوكَ يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين، وهم ينهون عنه﴾** ـ إلخ» وما تأخّر عنها معطوف عليها **﴿ولو ترى إذا وقفوا على النار﴾** ـ إلخ. وكلّها في ذمِّ الكفّار المعاندين للنبيِّ ﷺ هذا[1].

وقد ثبت إجماع أهل البيت عليهم السلام على إيمان أبي طالب وإجماعهم حجّة لأنّهم أحد الثقلين الّذين أمر النبيُّ ﷺ بالتمسّك بهما بقوله: إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا.

ويدلُّ على ذلك أيضاً ما رواه ابن عمر أنَّ أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ فأسلم فقال ﷺ: ألا تركت الشيخ فأتيته وكان أعمى؟ فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله تعالى، والّذي بعثك بالحقِّ لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشدّ فرحاً منّي بإسلام أبي التمس بذلك قرَّة عينك. فقال ﷺ: صدقت[2].

وروى الطبريُّ بإسناده أنَّ رؤساء قريش لمّا رأوا ذبَّ أبي طالب عن النبيِّ ﷺ اجتمعوا عليه وقالوا: جئناك بفتى قريش جمالاً وجوداً وشهامة عمارة بن الوليد ندفعه إليك وتدفع إلينا ابن أخيك الّذي فرَّق جماعتنا وسفّه أحلامنا فنقتله، فقال أبو طالب: ما أنصفتموني تعطوني ابنكم فأغذوه وأعطيكم ابني فتقتلونه بل فليأت كلُّ امرىء منكم بولده فأقتله وقال:

منعنا الرسول رسول المليك ... ببيض تلالأ كلمع البروق

أذود وأحمي رسول المليك ... حماية حامٍ عليه شفيق

وأقواله وأشعاره المنبئة عن إسلامه كثيرة مشهورة لا تحصى فمن ذلك قوله:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً ـ البيت ... أليس أبو هاشم، البيت

وقوله من قصيدة:

وقالوا لأحمد أنت امرؤ ... خلوف اللّسان ضعيف السبب

ألا إنَّ أحمد قد جاءهم ... بحقّ ولم يأتهم بالكذب

وقوله في حديث الصحيفة وهو من معجزات النبيِّ ﷺ:

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة ... متى ما يخبّر غائب القوم يعجب

محى الله منها كفرهم وعقوقهم ... وما نقموا من ناطق الحقِّ معرب

(١) مجمع البيان ٤/ ٣١.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي: ١/ ٥١٥، والصحيح من السيرة: ٣/ ٧٣٥، ح ٢.

وأمسى ابن عبد الله فينا مصدَّقاً على سخط من قومنا غير معتب

وقوله في قصيدة يحضُّ أخاه حمزة على اتباع النبيّ ﷺ والصبر في طاعته.

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد وكن مظهراً للدّين وفقت صابراً

فقد سرّني إذ قلت إنك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصراً

وقوله من قصيدة:

أقيم على نصر النبيّ محمّد أقاتل عنه بالقنا والقنابل

وقوله يحضُّ النجاشي على نصر النبيّ ﷺ:

تعلّم مليك الحبش أنّ محمّداً وزير لموسى والمسيح ابن مريم

أتى بهدى مثل الّذي أتيا به وكلٌ بأمر الله يهدي ويعصم

وإنّكم تتلونه في كتابكم بصدق حديث لا حديث المرجّم

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا وإنّ طريق الحقّ ليس بمظلم

وقوله في قصيدة في وصيته وقد حضرته الوفاة:

أوصي بنصر النبيّ مشهده عليّاً ابني وشيخ القوم عبّاساً

وحمزة الأسد الحامي حقيقته وجعفراً أن يذودوا دونه الناسا

كونوا فدى لكم أمّي وما ولدت في نصر أحمد دون الناس أتراساً

في أمثال هذه الأبيات ممّا هو موجود في قصائده المشهورة ووصاياه وخطبه يطول بها الكتاب.

على أنَّ أبا طالب لم ينأ عن النبيّ ﷺ قطُّ بل كان يقرب منه ويخالطه ويقوم بنصرته فكيف يكون المعنيّ بقوله: وينأون عنه.

وقال ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

قيل: نزلت قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي طالب فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يحبُّ إسلامه فنزلت هذه الآية، وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة فنزل فيه: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن﴾ [الزمر: ٥٤] فلم يسلم أبو طالب وأسلم وحشي ورووا ذلك عن ابن عباس وغيره.

وفي هذا نظر كما ترى، فإنَّ النبيَّ ﷺ لا يجوز أن يخالف الله سبحانه في إرادته كما

لا يجوز أن يخالفه في أوامره ونواهيه، وإذا كان الله تعالى على ما زعم القوم لم يرد إيمان أبي طالب وأراد كفره، وأراد النبيُّ إيمانه فقد حصل غاية الخلاف بين إرادتي الرسول والمرسل، فكأنه سبحانه يقول على مقتضى اعتقادهم إنك يا محمّد تريد إيمانه ولا أُريد إيمانه، ولا أخلق فيه الإيمان مع تكلّفه بنصرتك وبذل مجهوده في إعانتك والذبِّ عنك ومحبّته لك ونعمته عليك، وتكره أنت إيمان وحشي لقتله عمّك حمزة وأنا أُريد إيمانه وأخلق في قلبه الإيمان وفي هذا ما فيه.

وقد ذكرنا في سورة الأنعام أنَّ أهل البيت عليهم السلام قد أجمعوا على أنَّ أبا طالب مات مسلماً، وتظاهرت الروايات بذلك عنهم، أوردنا هناك طرفاً من أشعاره الدالة على تصديقه للنبيّ صلى الله عليه وآله وتوحيده، فإنَّ استيفاء ذلك جميعه لا تتسع له الطوامير، وما روي من ذلك في كتب المغازي وغيرها أكثر من أن يحصى يكاشف فيها من كاشف النبيَّ صلى الله عليه وآله ويناضل عنه ويصحّح نبوّته.

وقال بعض الثقات: إنَّ قصائده في هذا المعنى الّتي تنفث في عقد السحر وتعير وجه شعراء الدهر يبلغ قدر مجلّد وأكثر من هذا، ولا شكّ في أنه لم يختر تمام مجاهرة الأعداء استصلاحاً لهم وحسن تدبيره في دفع كيادهم لئلاً يلجئوا الرسول إلى ما ألجأوه إليه بعد موته. انتهى كلامه رضي الله عنه.

ومن تلك الأشعار قوله في أبيات كثيرة:

أنت النبيُّ محمّد ... قرم أعزّ مسوّد
لمسوّدين أكارم ... طابوا وطاب المولد
ما زلت تنطق بالصواب ... وأنت طفل أمرد

ومن تلك الأبيات قوله يخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله ويسكّن جأشه ويحضّه على إظهار الدّعوة ويغريه بها:

لا يمنعنك من حقّ تقوم به ... أيد تصول ولا سلق بأصوات
فإنّ كفك كفي إن مُليت بهم ... ودون نفسك نفسي في الملمّات

واعلم أنَّ هذه الأشعار إن لم تكن آحادها متواترة فمجموعها يدلُّ على تواتر معنويّ أعني أنّها تدلُّ على أنَّ أبا طالب مات مسلماً. ونظيره غير عزيز، مثلاً أنَّ الأخبار الدّالة على شجاعة أمير المؤمنين عليه السلام وإن لم تكن آحادها متواترة لفظاً، فمجموعها يدلُّ على أمر واحد مشترك يفيد العلم الضروري بشجاعته عليه السلام، وكذلك الكلام في سخاء حاتم ونظائرهما.

ثمّ نقول: من جانب المراء والاعتساف، ونظر نظرة في تلك القصائد بعين العدل والإنصاف، رأى أنّها ما صدرت إلاّ من قلب مؤمن بما قال، فإنَّ الكلام الصادر عمّن ليس

مؤمناً به لا يتجلّى بتلك التجلّيات الساطعة، ولا يسبك بتلك الأساليب الباهرة، بل يلوح منه التكلّف والتعسف.

وفي «**الكافي**»: عليُّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي نصر، عن إبراهيم بن محمّد الأشعري، عن عبيد بن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لمّا توفي أبو طالب نزل جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد اخرج من مكّة فليس لك فيها ناصر، وثارت قريش بالنبيّ صلى الله عليه وآله فخرج هارباً حتّى جاء إلى جبل بمكّة يقال له الحجون فصار إليه[1].

(**الحديث ٣١ من أبواب تاريخ مولد النبي** صلى الله عليه وآله من «**أصول الكافي**» ص ٣٦٩، ج ١ من «**مرآة العقول**»، وفي «**الوافي**» في باب ما جاء في عبد المطلب وأبي طالب ص ١٦٠ ج ٢).

وروى قريباً من هذه الرواية المجلسيُّ رحمه الله في «**البحار**» نقلاً عن إكمال الدين بإسناده عن ابن الوليد، عن الصفّار، عن أيوب بن نوح، عن العباس بن عامر، عن عليِّ بن أبي سارة، عن محمد بن مروان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ أبا طالب أظهر الشرك وأسرَّ الإيمان. فلمّا حضرته الوفاة أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أخرج منها فليس لك بها ناصر فهاجر إلى المدينة» (**ص ١٧ ج ٩ الطبع الكمباني**)[2].

وفي الشرح المعتزلي: روي أنَّ عليَّ بن الحسين عليه السلام سئل عن هذا، فقال: واعجباً إنَّ الله تعالى نهى رسوله أن يقرَّ مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام ولم تزل تحت أبي طالب حتّى مات[3].

أقول: وذلك أنَّ أبا طالب رضوان الله عليه توفي في آخر السنة العاشرة من المبعث بعد الخروج من الشعب بشهرين.

وروي أنَّ رجلاً من رجال الشيعة وهو أبان بن محمود كتب إلى عليِّ بن موسى الرضا عليه السلام: جعلت فداك إني قد شككت في إسلام أبي طالب، فكتب إليه «﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] وبعدها، إن لم تقرَّ بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار»[4].

وجملة الأمر أنَّ الأخبار من أئمتنا عليهم السلام متظافرة بأنّه ما مات إلاّ مسلماً كأشعاره الدالّة

---

(١) الكافي: ١/٤٤٩، ح ١٣، وحلية الأبرار: ١/١٥٥، ح ١.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ١٧٤، ح ٣١، ومستدرك الوسائل: ١٢/٢٧١، ح ١٤٠٧٦.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٤/٦٩.

(٤) إيمان أبي طالب: ٤، وكنز الفوائد: ٨٠.

على ذلك، وإنّما بقي في المقام أخبار مرويّة من القوم، بأنّه مات كافراً وأتى بطائفة منها المفسّرون منهم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ الآية[التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وتلك الأخبار المرويّة عنهم تناقض بعضها بعضاً وبعضها لا يناسب ذكره في نزول الآيات أصلاً ولا حاجة إلى نقلها وردّها ولا طائل تحت إطالة الكلام بعد وضوح الحقّ، فلو أنّ بيتاً من أبي طالب رضوان الله عليه أو رواية تدلّ بظاهرهما على كفره فالجواب عنهما ما ذكرنا من أنّ إظهاره الشرك إنّما كان لمصلحة الذّبّ عن رسول الله ﷺ ومن حسن تدبيره في دفع كياد القوم عنه ﷺ.

على أنّ مقابلهما إجماع أهل البيت عليهم السلام على إسلامه وقد علمت أنّ إجماعهم حجّة، وأشعاره الدّالة صريحةً على إسلامه وماذا أوجب علينا أن نعرض عن أشعاره المصرّحة المنصوصة على إسلامه وتتمسّك بما هي تنبىء بظاهرها على كفره، وليست بدالّة عليه وصريحة فيه، بل نعلم أنّه أبطن الإسلام فيها ليتمكّن من نصرة النبيّ ﷺ والقيام دونه جمعاً بين الطائفتين من أشعاره على ما هدانا لهذا أهل بيت العظمة، أو أن نعرض عن كلام أهل البيت وهم أدرى بما في البيت ونأخذ بالمرويّ عن زيد وعمرو المناقض بعضه بعضاً.

«سبب إسلام حمزة رضوان الله عليه»

وكان سبب إسلامه ما نقل ابن هشام في **«السيرة النبوية»** ج ١ ص ٢٩١ وابن الأثير في **«أسد الغابة»** عن ابن إسحاق من أنّ أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول الله ﷺ ومولاة لعبد الله بن جُدعان التيمي في مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك، ثمّ انصرف عنه فعمد إلى نادٍ لقريش عند الكعبة فجلس معهم.

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه أن أقبل متوشّحاً قوسه راجعاً من قَنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتّى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلاّ وقف وسلّم وتحدّث معهم، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّ شكيمة، وكان يومئذٍ مشركاً على دين قومه، فلمّا مرّ بالمولاة وقد قام رسول الله ﷺ فرجع إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة ـ وقد كان حمزة يكنّى بابنيه: يعلى وعمارة فكنّي بأبي يعلى وتارة بأبي عمارة أُخرى ـ لو رأيت ما لقي ابن أخيك

محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام ـ وأبو الحكم هو أبو الجهل ـ وجده ههنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره، ثمَّ انصرف عنه ولم يكلّمه محمّد.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالبيت، معّداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلمّا دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّة منكرة، ثمَّ قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فردَّ ذلك عليَّ إن استطعت؟

وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا: ما نراك يا حمزة إلاّ قد صبأت، فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه ذلك أنا أشهد أنه رسول الله الّذي يقول الحق، فوالله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين.

فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإنّي والله لقد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً.

وتمّ حمزة رضوان الله عليه على إسلامه. فلمّا أسلم حمزة عرفت قريش أنَّ رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأنَّ حمزة سيمنعه فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[1].

أقول: وكان قبوله الإسلام قبل حصار الشعب.

قوله ﷺ: **(وكافرنا يحامي عن الأصل)** يعني أنَّ رجالاً من بني هاشم وبني المطلب وإن كانوا كافرين وعلى دين قومهم لكنّهم يذبّون عن رسول الله ﷺ ويحامون عنه ويدفعون كياد القوم عنه ويحولون بينه وبين ما أرادوا من البطش به لا من حيث الحماية عن الإسلام، بل من حيث المراعاة لأصلهم والمحافظة على نسبهم وقبيلتهم.

وكان بعض هؤلاء المحامين في حصار الشعب ولم يسلم بعدُ: العباس وعقيل ابن أبي طالب، وطالب بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه الحارث بن نوفل، وأخوه سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان أبو لهب ابن عبد المطلب عمُّ رسول الله ﷺ وكذلك ابنه يبغضانه، وكانا شديدين عليه ونزل في أبي لهب وامرأته أُمّ جميل عمّة معاوية حمّالة الحطب قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ السورة[2].

---

(١) أسد الغابة: ٢/ ٤٧، وكتاب المنمق: ٣٤٠.

(٢) أقول: من العجيب أن العامة ما أنصفت بني أبي طالب وأبي لهب، فالله وصف أبا لهب بقوله: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي سوف يدخل جهنم لها لهب، ولم يقل أنه في قعر جهنم أو في تابوت أو نحو ذلك، بينما العامة وصفت أبا طالب بأنه بعد شفاعة النبي له يصبح في ضحضاح من نار يغلي منها دماغه ـ كما في الصحيحين ـ فأبو طالب المدافع والمحامي يكون عقابه أفضح من أبي لهب المؤذي للنبي والمانع من انتشار الإسلام؟! وهذا بعد شفاعة النبي لعمه؟!

وإنّما أجرينا بني هاشم وبني المطلب مجرى واحداً لأنّهم كانوا يداً واحدة لم يفترقوا في جاهليّة ولا إسلام، وكان من المسلمين المحصورين في الشعب هاشم بن عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف.

قوله عليه السلام: **(فأمّا من أسلم ـ إلى قوله: ما شاء الله أن يكون)** يعني أنَّ من أسلم من قريش كانوا آمنين ممّا نحن أهل البيت فيه من القتل والبلاء والأذى وذلك لأنَّ بعضهم كانوا على حلف وعهد من الكفّار، فمن أجل ذلك كانوا آمنين، وبعضهم الآخر لم يكن لهم العهد ولكنّهم كانوا ذوي عشيرة تقوم دونهم وتمنعهم من الأعداء.

فالمراد أنَّ البليّة إنّما كانت متوجّهة إليه عليه السلام وإلى سائر بني هاشم وبني المطّلب لم يكونوا على عهد ولم يكن لهم من يقوم دونهم، وبذلك يعلم فضيلتهم في حماية رسول الله وذبّه عن كيد الأعداء.

قوله عليه السلام: **(ثمّ أمر الله رسوله بالهجرة)**، وقد تقدّمت آنفاً طائفة من الأخبار في أنَّ أبا طالب رضوان الله عليه مات في آخر السنة العاشرة من المبعث بعد الخروج من الشعب بشهرين أنه لمّا توفّي نزل جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد اخرج من مكّة فليس لك فيها ناصر، وقد مضى كلامنا في هجرته صلى الله عليه وآله في «**شرح المختار**» ٢٣٤ من باب الخطب وهو قوله عليه السلام: فجعلت أتبع مأخذ رسول الله ـ الخ (ص ١٢٦ ج ١٥) فراجع.

قوله عليه السلام: **«وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين»** قال الطبرسيُّ في **«المجمع»**: إنَّ قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الآية [الحج: ٣٩، ٤٠] هي أوّل آية نزلت في القتال، وكان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول لهم صلوات الله عليه وآله: اصبروا فإني لم أُؤمر بالقتال حتّى هاجر، فأنزل الله عليه هذه الآية، انتهى كلامه.

أقول: وقد مضى كلامنا في نزول الأمر لرسول الله صلى الله عليه وآله في القتال في **«شرح المختار»** ٢٣٤ من باب الخطب أيضاً (ص ١٣١ ج ١٥) فراجع.

قوله عليه السلام: **«فكان إذا احمرّ البأس ـ إلى قوله: حرّ الأسنّة والسيوف»** بين البأس والناس جناس لاحق نحو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهمزة: ١]. والبأس: الحرب، قال حسّان بن ثابت في قصيدة يعدد فيها أصحاب اللّواء يوم أُحد:

ولِيَ البأس منكم إذا أبيتم　　　أُسرة من بني قُصيّ صميم

واحمرار البأس كناية عن شدّة الحرب وذلك كأنّما شبّهت الحرب بمحارب تلطّخ بالدّم

السائل من مقاديم بدنه بكثرة ما ورد من طعن السيوف والأسنّة، كما أنَّ احمرار القنا كناية عن شدَّة الحرب كأنّه احمرَّ من الدَّم السائل عليه لكثرة الطعن، قال سّوار بن المضرب في حماسة ٢٣٣:

يدعون سوّاراً إذا احمرّ القنا ولكلّ يوم كريهة سوّار

أو أنَّ الحرب شبّهت بإنسان غضبان احمرَّ وجهه ويقال: موت أحمر وميتة حمراء وسنة حمراء وسنون حمراوات يراد بها الشدَّة، قالت عاتكة بنت زيد في حماسة ٣٩٣:

إذا أشرعت فيه الأَسنّة خاضها إلى الموت حتّى يترك الموت أحمرا

أي حتّى يخوض الموت بها فيتركه أحمر أي شديداً، قال بشّار بن برد (**ص ٢٢٥ ج ١ من البيان والتبيين للجاحظ طبع مصر ١٣٨٠هـ**):

وخذي ملابس زينة ومصبّغات فهي أفخر

وإذا دخلت تقنّعي بالحمر إن الحسن أحمر

قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: وموت أحمر يوصف بالشدَّة ومنه الحديث: «كنّا إذا احمرّ البأس».

أو أنَّ الحرب شبّهت بالنّار واتّصفت بصفاتها أعني حمرة النار كقوله ﷺ آنفاً: وأوقدوا لنا نار الحرب.

ففي «**النهاية الأثيرية**»: وفي الحديث لو تعلمون ما في هذه الأُمّة من الموت الأَحمر يعني القتل لما فيه من حمرة الدَّم أو لشدّته، يقال: موت أحمر أي شديد ومنه حديث عليّ كنا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله ﷺ أي إذا اشتدَّت الحرب استقبلنا العدوّ به وجعلناه لنا وقاية، وقيل: أراد إذا اضطرمت نار الحرب، وتسعّرت كما يقال في الشرِّ بين القوم: اضطرمت نارهم تشبيهاً بحمرة النار، وكثيراً ما يطلقون الحمرة على الشدَّة، ومنه حديث طهفة. أصابتنا سنة حمراء أي شديدة الجدب، لأنَّ آفاق السماء تحمرُّ في سني الجدب والقحط ومنه حديث حليمة أنّها خرجت في سنة حمراء قد برت المال، انتهى كلامه(١).

فالمعنى أنَّ الحرب إذا اشتدَّت ونكص عنها قدَّم رسول الله ﷺ أهل بيته إلى القتال فوقى ﷺ بأهل بيته أصحابه من حرِّ الأسنّة والسّيوف.

وحرُّ السّيوف والأسنّة كأنّه كناية عن حدَّة جزِّهما وشدَّة وقوعهما، أو كناية عن شدَّة

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٣١، والنهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٢١.

القتال من حيث إنّهما إذا حرّكتا غير مرّة وقطعت الأبدان والرؤوس بهما ووقعتا على المبارز كثيراً حرّتا وحميتا، لأنَّ من شأن الحديد بل مطلق الجسم ذلك، أو كناية عن تعبهما، ففي **«النهاية الأثيرية»**: وفي حديث عليّ عليه السلام أنّه قال لفاطمة: لو أتيت النبيَّ فسألته خادماً تقيك حرَّ ما أنت فيه من العمل، وفي رواية حرّ ما أنت فيه يعني التعب والمشقّة من خدمة البيت لأنَّ الحرارة مقرونة بهما كما أنَّ البرد مقرون بالراحة والسكون، والحارّ: الشاقّ المتعب، انتهى[1].

واعلم أنَّ المتفق عند الكلِّ أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان في جميع الشدائد المتوجّهة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمين أسبق وأقدم في الوقاية والحماية، وكان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه بنفسه وقد أقرَّ أعداؤه بشجاعته وسبقه على أقرانه، وما ولّى قطّ عن أحد مع طول ملاقاته الحروب وكثرة من لاقاه من صناديد الأعداء.

وكان كما قال ابنه الحسن المجتبى كما في **«تاريخ اليعقوبي» (ص ١٩٠ ج ٢ طبع النجف)** و**«مروج الذهب»** للمسعودي **(ص ٤٢ ج ٢)** و**«الخرائج والجرائح»** للراوندي **(ص ١٤٦ طبع إيران ١٣٠١هـ)** و**«الإرشاد»** للمفيد **(ص ١٧٠ طهران ١٣٧٧هـ)** في صبيحة اللّيلة الّتي قبض فيها أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة خطب بها الناس:

«لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأوّلون إلاّ بفضل النبوّة ولا يدركه الآخرون، وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتّى يفتح الله عليه ـ إلخ».

قوله عليه السلام: **(فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر)** قال ياقوت الحمويُّ في كتابه المترجم بـ**«مراصد الإطلاع في معرفة الأمكنة والبقاع»**: بدر بالفتح ثمَّ السكون ماء مشهور بين مكّة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار وهو ساحل البحر ليلة به كانت الوقعة المشهورة بين النّبيِّ صلى الله عليه وآله وأهل مكّة.

وقال الجوهريُّ في **«الصحاح»**: بدر موضع يذكّر ويؤنّث وهو اسم ماءٍ، وقال الشعبي: بدر بئر كانت لرجل يدعى بدراً ومنه يوم بدر.

أقول: بدر أقرب إلى المدينة من مكّة والظاهر أنَّ القول بأنّها ماء مشهور والآخر بأنّها اسم بئر يشيران إلى معنىً واحد وإنّما الاختلاف في التعبير.

---

(١) **النهاية في غريب الحديث**: ١/ ٣٥٠، ولسان العرب: ٤/ ١٧٩.

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهي المذكورة في القرآن الكريم حيث يقول جلّ اسمه في الأنفال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥] - إلخ، والمراد بالبيت في الآية المدينة يعني خروجه ﷺ منها إلى بدر.

وكان سببها - كما في «**تاريخ اليعقوبي**» - أنَّ أبا سفيان بن حرب قدم من الشام بعير لقريش تحمل تجارات وأموالاً، فخرج رسول الله ﷺ يعارضه، وجاء الصريخ إلى قريش بمكّة يخبرهم الخبر، وكان الرسول بذلك ضمضم بن عمرو الغفاري، فخرجوا نافرين مستعدّين وخالف أبو سفيان الطريق فنجى بالعير، وأقبلت قريش مستعدَّة لقتال رسول الله ﷺ وعدَّتهم ألف رجل وقيل تسعمائة وخمسون[1].

«مقتل عبيدة بن الحارث رضوان الله عليه»

عبيدة بضمِّ العين وفتح الباء هو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، يكنّى أبا الحارث وأبو معاوية. وكان أسنّ من رسول الله ﷺ بعشر سنين»، وكان إسلامه قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم في مكّة، وكان لعبيدة قدر ومنزلة كبيرة عند رسول الله ﷺ، وكان عمره حين قتل ثلاثاً وستّين سنة، قتله شيبة بن ربيعة.

ففي «**الإرشاد**»: روى عليُّ بن هاشم عن محمّد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه عن جدِّه أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال:

لمّا أصبح الناس يوم بدر اصطفّت قريش إمامها عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة وابنه الوليد، فنادى عتبة رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد اخرج إلينا أكفاءنا من قريش، فبدر إليهم ثلاثة من شبّان الأنصار، فقال لهم عتبة: من أنتم؟ فانتسبوا له فقال لهم: لا حاجة بنا إلى مبارزتكم إنّما طلبنا بني عمّنا.

فقال رسول الله ﷺ للأنصار: ارجعوا إلى مواقفكم ثمَّ قال: قم يا عليّ قم يا حمزة قم يا عبيدة، قاتلوا على حقكم الذي بعث الله به نبيّكم إذا جاؤوا بباطلهم ليطفؤا نور الله.

فقاموا فصفّوا للقوم وكان عليهم البيض فلم يعرفوا فقال لهم عتبة: تكلّموا فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم، فقال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ، فقال عتبة: كفؤ كريم. وقال أمير المؤمنين عليه السلام أنا عليُّ بن أبي طالب ابن عبد المطلب، وقال

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤٥.

عبيدة: أنا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.

فقال عتبة لابنه الوليد: قم يا وليد فبرز إليه أمير المؤمنين عليه السلام وكان إذ ذاك أصغري الجماعة سناً فاختلفا ضربتين أخطأت ضربة الوليد أمير المؤمنين عليه السلام واتّقى بيده اليسرى ضربة أمير المؤمنين عليه السلام فأبانتها ـ فروي أنه عليه السلام يذكر بدراً وقتله الوليد فقال في حديثه: كأنّي أنظر إلى وميض خاتمه في شماله ثمَّ ضربته ضربة أُخرى فصرعته وسلبته فرأيت به ردعاً من خلوق فعلمت أنه قريب عهد بعرسٍ.

ثمَّ بارز عتبة حمزة رضي الله عنه فقتله حمزة، ومشى عبيدة وكان أسنّ القوم إلى شيبة فاختلفا ضربتين فأصاب ذباب سيف شيبة عضلة ساق عبيدة فقطعها، واستنقذه أمير المؤمنين وحمزة، وقتلا شيبة، وحمل عبيدة من مكانه فمات بالصفراء[1].

وفي «**أسد الغابة**»: قيل: إنّ عبيدة كان أسنّ المسلمين يوم بدر فقطعت رجله فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله رأسه على ركبته، فقال: يا رسول الله لو رآني أبو طالب لعلم أني أحقُّ بقوله منه حيث يقول:

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وعاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله من بدر فتوفّي بالصفراء..

بيان: (**البيض**) جمع بيضة يقال بالفارسية: كلاه خود: أصغري كلمة جمع أسقط نونه بالإضافة. (**درعاً من خلوق**) أي أثر منه والخلوق ضرب من الطيب. (**والصفراء**) اسم موضع قريب من بدر.

قوله عليه السلام: «وحمزة يوم أحد» أي قتل حمزة في غزوة أحد وأحد اسم جبل في قرب المدينة.

وكان يوم أُحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص اختبر الله المؤمنين ومحن به المنافقين ممن كان يظهر الإيمان بلسانه وهو مستخف بالكفر في قلبه، ويوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته حتّى خلص العدوُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فدثّ بالحجارة حتّى وقع لشقّه فأُصيبت رباعيّته، وكُلمت شفته وشجّ في وجهه، فجعل الدَّم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدَّم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم، فأنزل الله عزَّ وجل في ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٣] كما نقله ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق وقتل في ذلك اليوم من المسلمين أحد وثمانين رجلاً، ومن المشركين ثمانية وعشرون.

---

(١) روضة الواعظين: ١٤١، والفصول المختارة: ٢٨٥.

وفي «السيرة» لابن هشام أنّ حمزة بن عبد المطلب قاتل يوم أحد حتى قتل أرطأة بن عبد شرحبيل وكان أحد النفر الذين يحملون اللّواء، ثمّ مرّ به سباع بن عبد العزى فقال له حمزة: هلمّ إليّ يا ابن مقطعة البظور.

قال ابن هشام: قال وحشي: كنت غلاماً لجُبير بن مطعم وكان عمّه طعيمة بن عديّ قد أصيب يوم بدر، فلمّا سارت قريش إلى أحد قال لي جبير: إن قتلت حمزة عمّ محمّد فأنت عتيق.

قال: وحشي: فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلّما أخطىء بها شيئاً، فلمّا التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصّره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق يهدُّ الناس بسيفه هدّاً، ما يقوم له شيء فوالله إني لأتهيّأ له أُريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منّي إذ تقدّمني إليه سباعٍ بن عبد العزّى، فلمّا رآه حمزة قال له: هلمَّ إليَّ يا ابن مقطعة البظور قال: فضربه ضربة كأنَّ ما أخطأ رأسه.

قال: وهززت حربتي حتّى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثنّته حتّى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فغُلِبَ وتركته وإيّاها حتّى مات ثم أتيته فأخذت حربتي ثمَّ رجعت إلى المعسكر فقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة وإنّما قتلته لأُعتق فلمّا قدمت مكّة أُعتقت.

ثمَّ أقمت حتّى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكّة هربت إلى الطائف، فمكثت بها، فلمّا خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليُسلّموا تعيّت عليَّ المذاهب، فقلت: ألحق بالشام، أو اليمن، أو ببعض البلاد.

فوالله إنّي لفي ذلك من همّي إذ قال لي رجل: ويحك إنّه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وتشهّد شهادته، فلمّا قال لي ذلك خرجت حتّى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يَرعْه إلاّ بي قائماً على رأسه أتشهّد بشهادة الحقّ فلمّا رآني قال: أوحشيٌّ؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: اقعد فحدّثني كيف قتلت حمزة فحدَّثته فلمّا فرغت من حديثي قال: ويحك غيّب وجهك فلا أرينّك قال: فكنت أتنكّب رسول الله ﷺ حيث كان لئلاّ يراني حتّى قبضه الله ﷺ[1].

«هند وتمثيلها بحمزة»

قال ابن إسحاق: ووقعت هند بنت عتبة كما حدَّثني صالح بن كيسان والنسوة اللاّتي

---

(١) الإرشاد: ١/ ٧٤، وبحار الأنوار: ١٩/ ٢٨٠.

معها يمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدّعن الآذان والآنُف حتّى اتّخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خَدَماً وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطتها وحشيّاً غلام جبير بن مطعم، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها ثمَّ علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر — والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان من عتبة لي من صبر — ولا أخي وعمّه وبكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري — شفيت وحشيٌ غليل صدري
فشكر وحشيّ عليَّ عُمري — حتى ترِمَّ أعظُمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عبّاد بن المطلب فقالت:

خزيت في بدر وبعد بدر — يا بنت وقّاع عظيم الكفر
صبّحك الله غداة الفجر — ملهاشمّيين الطوال الزهر
بكلّ قطّاع حُسام يفري — حمزة ليثي وعليّ صقري
إذ رام شيب وأبوك غدري — فخضّبا منه ضواحي النحر
ونذرك السوء فشرُّ نذر

وقال محمّد بن إسحاق كما في «**السيرة**» لابن هشام: ومن الشعر الذي ارتجزت به هند بنت عتبة أيضاً يوم أُحد:

شفيت من حمزة نفسي بأُحد — حتّى بقرت بطنه عن الكبد
أذهب عنّي ذاك ما كنت أجد — من لذعة الحزن الشديد المعتمد
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد — تقدم إقداماً عليكم كالأَسد[١]

بيان: قولها: ملهاشميّين، مخفف من الهاشميّين وحذفت من لكثرة استعمالها ولا يجوز ذلك إلاّ فيها وحدها.

«حزن الرسول ﷺ على حمزة وتوعده بالمشركين بالمثلة»

قال ابن إسحاق كما في **السيرة** لابن هشام: خرج رسول الله ﷺ فيما بلغني يلتمس حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادي قد بُقر بطنه عن كبده ومثّل به فجدع أنفه وأُذناه.

قال: فحدَّثني محمّد بن جعفر بن الزبير: أنَّ رسول الله ﷺ قال حين رأى ما رأى:

---

(١) مجمع البيان: ١٠/١٧.

لولا أن تحزن صفيّة ويكون سنّة من بعدي لتركته حتّى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثّلنّ بثلاثين رجلٍ منهم». فلمّا رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وآله وغيظه على من فعل بعمّه ما فعل قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدّهر لنمثّلنّ بهم مثلةً لم يمثّلها أحد من العرب.

قال ابن هشام: ولمّا وقف رسول الله صلى الله عليه وآله على حمزة قال: «لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إليّ من هذا»، ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «جاءني جبرائيل فأخبرني أنّ حمزة بن عبد المطّلب مكتوب في أهل السمٰوات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله»[1].

«ما نزل في النهي عن المثلة والبحث عنها ورد بعض»

«الروايات المختلفة المنتسبة إليه صلى الله عليه وآله»

قال ابن إسحاق ـ على ما في السيرة لابن هشام ـ: وحدّثني بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمّد بن كعب القُرظي، وحدّثني من لا أتّهم عن ابن عباس أنّ الله عزّ وجلّ أنزل في ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٧] فعفى رسول الله صلى الله عليه وآله وصبر ونهى عن المثلة.

قال ابن إسحاق: وحدّثني حميد الطويل عن الحسن عن سمرة بن جندب قال: ما قام رسول الله صلى الله عليه وآله في مقام قطّ ففارقه حتّى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة.

أقول: كلّ ما نقلنا عن محمّد بن إسحاق منقول عن الواقدي وغيره أيضاً وقد ذكرنا في ذلك بعض الأقوال في **«شرح المختار»** ٢٣٦ من الخطب (**ص ٢٤٦ ج ١٥**).

وسيأتي في وصيّته عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لمّا ضربه ابن ملجم، قوله عليه السلام: «ولا يمثّل بالرّجل فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور».

وقال الشارح المعتزلي في شرحه: فأمّا المثلة فمنهيٌّ عنها أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمثّل بهبّار بن الأسود لأنّه روّع زينب حتّى أجهضت، ثمّ نهى عن ذلك وقال: لا مثلة، المثلة حرام.

واعلم أنّ القول المرويّ بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لئن أظهرني على قريش في موطن من المواطن لأمثّلنّ بثلاثين رجلاً منهم كما في **«السيرة»**، أو أمثّلنّ سبعين رجلاً كما في **«تفسير**

---

(١) الخصال: ٢٠٤، والأمالي: ٥٤٧، ح ٧٣١.

الصافي» للفيض رضي الله عنه ينافي مقام النبوّة وعصمة النبيّ صلى الله عليه وآله.

والصواب أنَّ ذلك القول كان من المسلمين دون النبيّ صلى الله عليه وآله كما في كتاب **«مجمع البيان»** لأمين الإسلام الطبرسي رضي الله عنه حيث قال: قال المسلمون: لئن أمكننا الله منهم لنمثّلنَّ بالأحياء فضلاً عن الأموات، فنزلت ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾ الآية..[1]

وظاهر الآية حيث خاطب بلفظ الجمع دون المفرد يؤيّده بل يدلُّ عليه وأمّا قول ابن إسحاق المذكور آنفاً: وحدَّثني من لا أتّهم عن ابن عباس: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل في ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآية، ففيه ما دريت من أنَّ النبيَّ أجلّ وأعلى من أن يختار ما لم يكن مأذوناً فيه ولم ينزل فيه حكم سماويٌّ بعد.

قال ابن الأثير في **«النهاية»**: فيه ـ **(يعني في الحديث)** ـ أنّه نهى عن المثلة يقال: مثلت بالحيوان أمثل به مثلاً إذا قطعت أطرافه وشوّهت به، ومثلت بالقتيل إذا جذعت أنفه وأذنه أو مذاكيره أو شيئاً من أطرافه، والاسم المثلة فأمّا مثّل بالتشديد فهو للمبالغة ومن الحديث نهى أن يمثّل بالدوابّ أي تنصب فترمى أو تقطع أطرافه وهي حيّة، زاد في رواية: وأن يؤكل الممثول بها.

وقيل: جعل بعض الأعضاء تمثيلاً باعتبار كونه مشتقاً من المثل فإنَّ الممثّل يصير بسبب ما فعل الجاني به من الأمر الفظيع مشهوراً كالمثل.

ثمَّ إنَّ النهي عن المثلة إنّما يصحُّ فيما لم يكن عن قصاص، وأمّا المثلة قصاصاً فلا بأس فقد روي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله مثّل بالعرنيين فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم لأنّهم قطعوا أيدي الرعاة وأرجلهم وسملوا أعينهم، وإن قيل إنَّ ذلك كان قبل تحريم المثلة.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ ـ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ الآية [المائدة: ٥٠].

وقد أفتى الفقهاء في قصاص الطرف بذلك وفرّعوا عليه أنَّ الأذن الصحيحة تقطع

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٦/ ٢١١.

بالصمّاء والأنف الشام بالأخشم، وذكر الشابّ بذكر الشيخ، وذكر المختون بالأعلف، والفحل بمسلول الخصيتين وكذا يقلع عين الأعور بعين ذي العينين المماثلة لها، وإن عمي بذلك الأعور والأعور هو ذو العين الواحدة خلقة، أو بآفة أو قصاص أو جناية، أي لو كان الجاني بعين واحدة والمجنيّ عليه باثنتين قلعت عين الجاني وإن استلزم عماه، فإنَّ الحقَّ أعماه.

كما نطق بذلك خبر عن أبان سأله عليه السلام عن أعور فقأ عين صحيح فقال عليه السلام: تفقأ عينه، قال: قلت: يبقى أعمى فقال: الحقُّ أعماه، وغيرها ممّا حرّر في كتاب القصاص.

وذهب غير واحد منهم إلى أنَّ الجاني إذا جمع بين التمثيل والقتل بضربات يقتصُّ الوليُّ منه في الطرف ثم يقتصُّ في النفس.

ففي «الكافي» و«التهذيب» و«الفقيه» عن محمّد بن قيس عن أحدهما عليهما السلام في رجل فقأ عيني رجل وقطع أنفه وأذنيه ثمَّ قتله، فقال عليه السلام: إن كان فرّق بين ذلك اقتصَّ منه ثمَّ يقتل، وإن كان ضربه ضربة واحدة ضربت عنقه لم يقتصَّ منه[1].

وفي «التهذيب» عن حفص بن البختري قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل ضرب على رأسه فذهب سمعه وبصره واعتقل لسانه ثمَّ مات فقال عليه السلام: إن كان ضربه ضربة بعد ضربة اقتصَّ منه ثمَّ قتل، وإن كان أصابه هذا من ضربة واحدة قتل ولم يقتصَّ منه[2].

والمراد بالطرف في القصاص ما دون النفس وإن لم يتعلّق بالأطراف المشهورة من اليد والرِّجل والأُذن والأنف وغيرها كالجرح على ا لبطن والظهر وغيرهما.

وكما أنَّ النهي عن المثلة لا يشتمل المثلة قصاصاً، كذلك لا يشملها إذا كانت عن حدّ مثل قطع الأصابع الأربع ما عدا الإبهام من اليد اليمنى للسارق إذا كانت سرقته أوّل مرة قطع رجله اليسرى من مفصل القدم وترك العقب يعتمد عليه حالة المشي والصلاة لو سرق ثانياً، قال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣].

ونظير ما قلنا أيضاً ما ورد من النهي عن تعذيب البهائم وقتلها عبثاً ومع ذلك إنَّ جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، فكان جعفر أوّل رجل من المسلمين عقر في الإسلام ولم يعب ذلك عليه أحد لأنَّه خاف أن يأخذها العدوُّ فيقاتل عليها المسلمين.

(١) الكافي: ٧/٣٢٦، ح ١، ومن لا يحضره الفقيه: ٤/١٣٠، ح ٥٢٨٠.
(٢) تهذيب الأحكام: ١٠/٢٥٣، ح ١٠٠٢، وسائل الشيعة: ٢٩/١١٢، ح ٣٥٢٨٠.

«صلاة الرسول ﷺ على حمزة رضوان الله عليه»

في **«الكافي والفقيه»** كما في **«الوافي»** (ص ٥٢ ج ١٣) بإسناد عن أبان بن تغلب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الذي يقتل في سبيل الله أيغسّل ويكفّن ويحنّط؟ قال: يدفن كما هو في ثيابه بدمه إلاّ أن يكون به رمق ثمَّ مات فإنه يغسّل ويكفّن ويحنّط ويصلّى عليه، إنَّ رسول الله ﷺ صلّى على حمزة وكفّنه وحنّطه لأنّه كان جرِّد.

وفي **«الكافي»** بإسناده عن ابن سنان عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: الذي يقتل في سبيل الله يدفن في ثيابه ولا يغسّل إلاّ أن يدركه المسلمون وبه رمق ثمَّ يموت بعد، فإنّه يغسّل ويكفّن ويحنّط، إنَّ رسول الله ﷺ كفّن حمزة في ثيابه ولم يغسّله ولكنّه صلّى عليه[1].

وفي **«الكافي»** بإسناده عن إسماعيل بن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: كيف رأيت الشهيد يدفن بدمائه؟ قال: نعم في ثيابه بدمائه ولا يحنّط ولا يغسّل ويدفن كما هو، ثمَّ قال: دفن رسول الله ﷺ عمّه حمزة في ثيابه بدمائه ألتي أُصيب فيها، وردّاه النبيُّ برداء فقصر عن رجليه فدعا له بأذخر فطرحه عليه وصلّى عليه سبعين صلاة، وكبّر عليه سبعين تكبيرة[2].

وفي **«الكافي»** بإسناده عن مثنى بن الوليد، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: صلّى رسول الله ﷺ على حمزة سبعين صلاة[3].

وفيه بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: كبّر رسول الله ﷺ على حمزة سبعين تكبيرة[4].

وفي **«السيرة النبوية»** لابن هشام قال: قال ابن إسحاق: وحدَّثني من لا أتّهم عن مقسم مولى عبد الله بن الحارث عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ بحمزة فسجّي ببردة ثمَّ صلّى عليه فكبّر سبع تكبيرات ثمَّ أُتي بالقتلى، فيوضعون إلى حمزة فصلّى عليهم وعليه معهم حتّى صلّى عليه ثنتين وسبعين صلاة[5].

أقول: الرواية الأُولى ناطقة بأنَّ حمزة كان جرِّد وكفّنه رسول الله ﷺ والثالثة ناطقة بأنّه ﷺ دفنه في ثيابه بدمائه التي أُصيب فيها وظاهرها أنَّ كفنه كان ثيابه تؤميء إلى أنَّ رسول

---

(١) الكافي: ٣/ ٢١٢، ح ٥، ومن لا يحضره الفقيه: ١/ ١٥٩، ح ٤٤٤.

(٢) الكافي: ٣/ ٢١١، ح ٢، وتهذيب الأحكام: ١/ ٣٣١، ح ٩٧٠.

(٣) الكافي: ٣/ ١٨٦، ح ١، ووسائل الشيعة: ٣/ ٨١، ح ٣٠٧٥٥.

(٤) الكافي: ٣/ ١٨٦، ح ٣، ومن لا يحضره الفقيه: ١/ ١٦٤، ح ٤٦٨.

(٥) نصب الراية: ٢/ ٣٦٥، والبداية والنهاية: ٤/ ٤٥.

الله ﷺ كفّنه بثوب آخر حال كونه في ثيابه التي أُصيب فيها فينافي بعضها بعضاً والتوفيق بينها أنَّ حمزة رضوان الله عليه جرِّد عن بعض ثيابه أي جرَّده المشركون عنه بعد قتله عن بعضها لا عن كلّها حتّى ترك عرياناً، وما بقي عليه من الثياب لم يكن كافياً لكفنه، فكفّنه رسول الله ﷺ بثوب آخر ولم يجرِّده عن ما بقي عليه من الثياب كما تومىء إليه الثانية فصحَّ أنَّ رسول الله ﷺ كفّنه بثوب آخر كما صحَّ أنَّ حمزة دفن في ثيابه الّتي أُصيب فيها أي دفن في بعض ثيابه وجرِّد عن بعضها.

ثمَّ إنَّ بين روايات «**الكافي**» الناطقة بأنَّ رسول الله ﷺ صلّى عليه سبعين صلاة وكبّر عليه سبعين تكبيرة وبين ما في السيرة من أنَّ رسول الله ﷺ صلّى عليه ثنتين وسبعين صلاة تنافياً ظاهراً.

فنقول: إنَّ روايات «**الكافي**» موافقة لما بلغنا من أئمّتنا عليهم السلام من أنَّ التكبير على الميّت المؤمن خمس تكبيرات، وإنما انتهى عددها إلى سبعين تكبيرة لأنَّ رسول الله ﷺ كبّر عليه خمس تكبيرات ثمَّ كلما صلّى لسائر القتلى أشرك حمزة في صلاتهم كما في صحيفة الرِّضا عليه السلام على ما نقله الفيض في «**الوافي**» (ص ٦٧ ج ١٣) بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: رأيت النَّبيَّ ﷺ كبّر على عمّه حمزة خمس تكبيرات وكبّر على الشهداءِ بعده خمس تكبيرات فلحق حمزة بسبعين تكبيرة ووضع يده اليمنى على اليسرى، انتهى.

فصلّى رسول الله ﷺ على حمزة أربع عشرة مرة لأنّه يحصل من ضرب خمسة في أربعة عشر سبعون.

نظير ذلك صلاة أمير المؤمنين عليه السلام على سهل بن حنيف فإنّه عليه السلام كبّر عليه خمساً وعشرين تكبيرة، ففي التهذيب بإسناده إلى عمرو بن شمر قال: قلت لجعفر بن محمّد عليه السلام: جعلت فداك إنّا نتحدَّث بالعراق أنَّ علياً عليه السلام صلّى على سهل بن حنيف فكبّر عليه ستّاً ثمَّ التفت إلى من كان خلفه فقال: إنّه كان بدريّاً قال: فقال جعفر عليه السلام: إنّه لم يكن كذا ولكنّه صلّى عليه خمساً ثمَّ رفعه ومشى به ساعة ثمَّ وضعه فكبّر عليه خمساً، ففعل ذلك خمس مرَّات حتّى كبّر عليه خمساً وعشرين تكبيرة[1].

وفي الفقيه قال أبو جعفر عليه السلام: كبّر خمساً خمساً كلّما أدركه الناس قالوا: يا أمير المؤمنين لم ندرك الصلاة على سهل فيضعه فيكبّر عليه خمساً حتّى انتهى إلى قبره خمس مرَّات[2].

---

(١) الكافي: ٣/ ١٨٦، ح ٢، والاستبصار: ١/ ٤٧٦، ح ١٨٤١.

(٢) الكافي: ٣/ ١٨٦، ح ٣، ومن لا يحضره الفقيه: ١/ ١٦٥.

وأمّا قول ابن إسحاق من أنّه ﷺ صلّى عليه ثنتين وسبعين صلاة فلا يوافق المذهب الحقَّ لأنَّه يلزم أن يكبّر عليه رسول الله ﷺ أربع تكبيرات وكذا كبّر على الشهداء بعده أربع تكبيرات فلحق حمزة بثنتين وسبعين تكبيرة أي صلّى عليه ثماني عشرة مرَّة وهو كما ترى مخالف لإجماعنا والصحاح المستفيضة وغيرها المتواترة ولو معنى من أئمّتنا عليهم السلام، على أنَّ صلاة جنازة المؤمن خمس تكبيرات.

فما وردت بالأربع إمّا متأوّله بالحمل على الصلاة على المنافقين ففي «**الكافي والتهذيب**» بإسنادهما عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يكبّر على قوم خمساً وعلى قوم آخرين أربعاً فإذا كبّر على رجل أربعاً اتّهم بالنفاق.

وفي «**الكافي**» بإسناده عن محمّد بن مهاجر عن أُمّه أُمّ سلمة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى على ميّت كبّر فتشهّد، ثمَّ كبّر فصلّى على الأنبياء ودعا، ثمَّ كبّر ودعا للمؤمنين، ثمَّ كبّر وانصرف، فلمّا نهاه الله عزَّ وجلَّ عن الصلاة على المنافقين كبّر فتشهّد، ثمَّ كبّر فصلّى على النبيّين صلى الله عليهم، ثمَّ كبّر ودعا للمؤمنين، ثمَّ كبَّر الرابعة وانصرف ولم يدع للميّت[١].

وفي «**التهذيب**» عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن الصلاة على الميّت فقال: أمّا المؤمن فخمس تكبيرات، وأمّا المنافق فأربع ولا سلام فيها، انتهى[٢].

ولا يخفى عليك أنَّ أهل البيت أدرى بما فيه.

وأمّا محمولة على التقيّة لأنّها مذهب جميع العامّة كما صرَّح به شيخ الطائفة قدّس سرُّه.

على أنَّ صدر قول ابن إسحاق لا يوافق ذيله لأنّه قال أوّلاً إنّه ﷺ صلّى عليه فكبّر سبع تكبيرات ولا ينتهي تكرار السبع مرَّة بعد أُخرى إلى ثنتين وسبعين. اللّهمَّ إلاّ أن يقال إنّه صلّى عليه في الدَّفعة الأُولى سبع تكبيرات وصلّى ثلاث عشرة صلاة أُخرى خمس تكبيرات، فلحق حمزة بثنتين وسبعين تكبيرة.

نحو ما روى الكشي بإسناده عن الحسن بن زيد أنّه قال: كبّر عليُّ بن أبي طالب عليه السلام على سهل بن حنيف سبع تكبيرات وكان بدريّاً، وقال: لو كبّرت عليه سبعين لكان أهلاً.

وإنّما كبّرا عليهما سبعاً تشريفاً لهما وإنّما وقع في واقعة خاصّة لا يجوز التجاوز عنها فتأمّل جيّداً.

---

(١) الكافي: ٣/١٨١، ح ٣، وعلل الشرائع: ١/٣٠٣.

(٢) الاستبصار: ١/٤٧٨، ووسائل الشيعة: ٣/٧٤، ج ٣٠٥٠.

فإن قلت: قد جاءت روايات على عدم جواز الصلاة على الميّت مرّتين فصاعداً ففي «التهذيب» بإسناده عن محمّد بن أحمد، عن أبي جعفر، عن أبيه، عن وهب بن وهب، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام: «أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى على جنازة فلمّا فرغ جاءنا ناس فقالوا: يا رسول الله لم ندرك الصلاة عليها فقال: لا يصلّى على جنازة مرّتين ولكن ادعوا لها».

وفيه بإسناده عن ابن كلوب، عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى على جنازة فلمّا فرغ جاء قوم فقالوا: فاتتنا الصلاة عليها فقال: إنَّ الجنازة لا يصلّى عليه مرّتين ادعوا له وقولوا له خيراً[1].

ثمَّ إنَّ إطلاق الخبرين أو عمومهما يقتضي عدم الفرق في المنع بين ما لو صلّيت ثانياً جماعة أو فرادى فكيف التوفيق بين تلك الأخبار؟

قلت: يمكن أن يقال: التعدُّد يختصُّ بمن له مزيد كرامة، أو يقال: إنَّ صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله على حمزة وعليّ عليه السلام على سهل وإنّما كانت مختصّة بهما فالاحتياط أن يترك التعدُّد في الصلاة على الجنازة.

ولم يذهب أحد منّا إلى القول بحرمة الصلاة على الجنازة الواحدة مرّتين فصاعداً، بل ذهب بعضهم إلى القول باستحباب التكرار على الإطلاق لها، وأفتى غير واحد بالجواز لمن لم يدرك الصلاة عليها، ولكنَّ المشهور على كراهة الصلاة عليها مرّتين فصاعداً، بل من محكيّ الغنية الإجماع عليها، للخبرين المنقولين في «التهذيب»، ولضعف سندهما حملا على الكراهة.

وفي التهذيب بإسناده عن الفطحيّة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الميّت يصلّى عليه ما لم يوار بالتراب وإن كان قد صلّي عليه[2].

وفيه عن يونس بن يعقوب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الجنازة لم أدركها حتّى بلغت القبر أُصلّي عليها؟ قال: إن أدركتها قبل أن يدفن فإن شئت فصلِّ عليها[3].

وفيه عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ـ في رواية ـ إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج إلى جنازة امرأة من بني النجار فصلّى عليها فوجد الحفرة لم يمكنوا فوضعوا الجنازة فلم يجيء قوم إلاّ قال لهم: صلّوا عليها، فتأمّل جيّداً[4].

---

(١) الاستبصار: ١/ ٤٨٥، وتهذيب الأحكام: ٣/ ٣٢٤، ح ١٠١٠.
(٢) الاستبصار: ١/ ٤٨٤، ح ١٨٧٤، وتهذيب الأحكام: ٣/ ٣٣٤.
(٣) وسائل الشيعة: ٣/ ٨٦، ح ٣٠٩٢.
(٤) الاستبصار: ١/ ٤٨٤، ح ١٨٧٧، وتهذيب الأحكام: ٣/ ٣٢٥.

وإن قلت: فما معنى الصلاة في قول أبي جعفر المرويِّ آنفاً من «**الكافي**» عن زرارة أنَّ رسول الله ﷺ صلّى على حمزة سبعين صلاة ومثله ما في «**السيرة**» حتّى صلّى عليه ثنتين وسبعين صلاة؟

قلت: الصلاة هذه بمعنى الدُّعاء أي دعا له سبعين مرَّة بعد كلِّ تكبيرة، ويبيّنه قوله الآخر المرويُّ آنفاً أيضاً من «**الكافي**» عن إسماعيل بن جابر أنّه ﷺ صلّى عليه سبعين صلاة وكبّر عليه سبعين تكبيرة.

ويعبّر عن الدُّعاء للميّت فيما بين التكبيرات بالصلاة ففي «**التهذيب**» بإسناده عن محمّد بن يزيد، عن أبي بصير، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام جالساً فدخل رجل فسأله عن التكبير على الجنائز، فقال له: خمس تكبيرات، ثمَّ دخل آخر فسأله عن الصلاة على الجنائز فقال له: أربع صلوات، فقال الأوَّل: جعلت فداك سألتك فقلت خمساً وسألك هذا فقلت أربعاً؟ فقال: إنّك سألتني عن التكبير وسألني هذا عن الصلاة ثمَّ قال: إنها خمس تكبيرات بينهنَّ أربع صلوات، ثمّ بسط كفّه فقال: إنهنّ خمس تكبيرات بينهنَّ أربع صلوات[1].

«حث الرسول ﷺ على طلب العلم حتى في دفن القتلى»

قال ابن هشام في «**السيرة**» (**ص ٨٩ ج ٢**) قال ابن إسحاق: حدَّثني محمد بن مسلم الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُغير العُذري حليف بني زهرة أنَّ رسول الله ﷺ لمّا أشرف على القتلى يوم أُحد قال: أنا شهيد على هؤلاء أنّه ما من جريح يجرح في الله إلاّ والله يبعثه يوم القيامة يدمي جرحه اللّون لون دم والريح ريح مسك انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر، وكانوا يدفنون الإثنين والثلاثة في القبر الواحد.

قوله عليه السلام: «وجعفر وزيد يوم مؤتة» أي قتلا في غزوة مؤتة وجعفر هو ابن أبي طالب بن عبد المطلب وكان ثالث الإخوة من ولد أبي طالب أكبرهم طالب، وبعده عقيل، وبعده جعفر، وبعده عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام وكلٌّ واحد منهم أكبر من الآخر بعشر سنين وأُمّهم جميعاً فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وكان لجعفر رضوان الله عليه فضل كثير، فقال ابن هشام في «**السيرة النبويّة**» (**ص ٣٥٩ ج ٢**): وذكر سفيان بن عيينة عن الأجلح، عن الشعبي: أنَّ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر فقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه وقال: ما أدري

(١) تهذيب الأحكام: ٣/٣١٨ ح ١٢، ووسائل الشيعة: ٣/٧٦ ح ١٢.

بأيّهما أنا أسرُّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر.

وكفى في فضله ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في حقّه في زمرة من مدحهم في هذا الكتاب الذي نقلناه عن نصر من أنَّ الله وليُّ الإحسان إليهم والمنّان عليهم بما قد أسلفوا من الصالحات، فما سمعت بأحد ولا رأيت فيهم من هو أنصح لله في طاعة رسوله ولا أطوع لرسوله في طاعة ربه ولا أصبر على اللأواء والضرّاء وحين البأس ومواطن المكروه مع النبيّ صلى الله عليه وآله من هؤلاء النفر - إلخ.

وقال اليعقوبي في «**التاريخ**» (ص ٩٧ ج ٢ طبع النجف): كان المشبّهون برسول الله صلى الله عليه وآله جعفر بن أبي طالب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أشبهتَ خلقي وخُلقي. إلخ.

وقال ابن عبد البرّ في كتاب «**الاستيعاب**»: كان سنُّ جعفر يوم قتل إحدى وأربعين سنة، وقال ابن هشام في «**السيرة**» (ص ٣٧٨ ج ٢): وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

ومؤتة بالهمز وحكي أيضاً غير الهمز قرية من أرض البلقاء من الشام، قيل: غزوة مؤتة تسمّى أيضاً غزوة جيش الأمراء لكثرة جيش المسلمين فيها وما لاقوه من الحرب الشديد مع الكفار.

وزيد هذا هو زيد بن حارثة وكان جعفر وزيد وعبد الله بن رواحةُ أمراء الجيش لرسول الله صلى الله عليه وآله وكان لعبد الله قصائد وأراجيز في غزوة مؤتة وتشجيع الناس على قتال الخصم وسنتلو بعضها عليك.

قال ابن واضح الأخباري في كتابه المعروف بـ«**تاريخ اليعقوبي**» (ص ٤٩ ج ٢): ووجّه - يعني رسول الله صلى الله عليه وآله - جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة في جيش إلى الشام لقتال للرُّوم سنة ثمان، وروى بعضهم أنّه صلى الله عليه وآله قال: أمير الجيش زيد بن حارثة، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر بن أبي طالب فعبد الله بن رواحة، فإن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض[1] المسلمون من أحبّوا، وقيل: بل كان جعفر المقدَّم، ثمَّ زيد بن حارثة، ثمَّ عبد الله بن رواحة.

وصار إلى موضع يقال له مؤتة من الشام من البلقاء من أرض دمشق فأخذ زيد الراية فقاتل حتّى قتل. ثمَّ أخذها جعفر فقطعت يده اليمنى فقاتل باليسرى فقطعت يده اليسرى ثمَّ ضرب وسطه. ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل.

فرفع لرسول الله صلى الله عليه وآله كلُّ خفض، وخفض له كلُّ رفع حتى رأى مصارعهم وقال: رأيت

(١) وفي بعض الكتب، فإن قتل فليتربص المسلمون برجل من بينهم يحملونه عليهم.

سرير جعفر المقدَّم فقلت يا جبريل إني كنت قدَّمت زيداً فقال: إنَّ الله قدَّم جعفراً لقرابتك، ونعاهم رسول الله ﷺ فقال: أنبت الله لجعفر جناحين من زبرجد يطير بهما في الجنّة حيث يشاء، واشتدَّ جزعه وقال: على جعفر فلتبك البواكي، وتأمّر خالد بن الوليد على الجيش.

قالت أسماء بنت عميس الخثعمية وكانت امرأة جعفر وأمّ ولده جميعاً: دخل عليَّ رسول الله ﷺ ويدي في عجين فقال: يا أسماء أين ولدك؟ فأتيته بعبد الله، ومحمّد وعون فأجلسهم جميعاً في حجره وضمّهم إليه ومسح على رؤوسهم ودمعت عيناه، فقلت: بأبي وأُمّي أنت يا رسول الله لم تفعل بولدي كما تفعل بالأيتام لعلّه بلغك عن جعفر شيء؟ فغلبته العبرة. وقال: رحم الله جعفراً، فصحت واويلاه، واسيّداه، فقال: لا تدعي بويل ولا حرب وكلّ ما قلت فأنت صادقة، فصحت واجعفراه وسمعت صوتي فاطمة بنت رسول الله ﷺ فجاءت وهي تصيح واابن عمّاه، فخرج رسول الله ﷺ يجرُّ رداءه ما يملك عبرته وهو يقول: على جعفر فلتبك البواكي، ثمَّ قال يا فاطمة اصنعي لعيال جعفر طعاماً فإنّهم في شغل فصنعت لهم طعاماً ثلاثة أيّام فصارت سنّة في بني هاشم.

قال ابن إسحاق كما في «السيرة» لابن هشام: بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة في جمادى الأُولى سنة ثمان ـ إلى أن قال: فتجهّز الناس ثمَّ تهيّؤا للخروج وهم ثلاثة آلاف، فلمّا حضر خروجهم ودَّع الناس أُمراء رسول الله ﷺ وسلّموا عليهم ـ يعني بالأُمراء جعفراً وزيداً وعبد الله.

فلمّا ودَّع عبد الله بن رواحة من ودَّع من أُمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟

فقال: أما والله ما بي حبُّ الدُّنيا ولا صبابة بكم، ولكنّي سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله عزَّ وجلَّ يذكر فيها النار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصَّدر بعد الورود.

فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنك وردَّكم إلينا صالحين فقال: عبد الله بن رواحة:

لكنّني أسأل الرحمٰن مغفرةً ... وضربة ذات فرغ تقذف الزَّبدا
أو طعنة بيدي حرّان مُجهزةً ... بحربة تنفذ الأَحشاء والكبدا
حتّى يقال إذا مرُّوا على جدثي ... أرشده الله من غازٍ وقد رشدا

قال ابن إسحاق: ثمَّ إنَّ القوم تهيّؤا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودَّعه ثمَّ قال:

فثبّت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا(١)

إنّي تفرّست فيك الخير نافلة ... الله يعلم أنّي ثابت البصر(٢)

أنت الرّسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

وهذه الأبيات في قصيدة له. ثمَّ خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ حتّى إذا ودّعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خلف السلام على امرىءٍ ودّعته ... في النخل خير مُشيّع وخليل

«تخوف الناس من لقاء هرقل وتشجيع ابن رواحة الناس على القتال»

ثمَّ مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أنَّ هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الرُّوم وانضمَّ إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلّى مائة ألف منهم عليهم رجل من بلّى ثمَّ أحد إراشة يقال له مالك بن زافلة فلمّا بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكّرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوّنا فإمّا أن يمدّنا بالرجال وإمّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

فشجّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة وقال: يا قوم والله إن الّتي تكرهون للّتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة ما نقاتلهم إلاّ بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين إمّا ظهور، وإمّا شهادة.

فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس حتّى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هِرقل من الرُّوم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ثمَّ دنا العدوُّ وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها فتعبأ لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذرة يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عباية(٣) بن مالك.

ثمَّ التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتّى شاط في رماح القوم.

ثمَّ أخذها جعفر فقاتل بها حتّى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثمَّ

---

(١) فالمصراع الثاني في رواية: في المرسلين ونصراً كالذي نصروا.

(٢) والمصراع الثاني في رواية: فراسة خالفت فيك الذي نظروا. بمعنى المشركين.

(٣) على رواية: عبادة.

قاتل حتّى قتل، فكان جعفر أوّل رجل من المسلمين عقر في الإسلام.

أقول: وقد مضى كلامنا في البحث عن المثلة آنفاً من أنَّ جعفراً رضوان الله عليه لماذا عقرها.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عبّاد قال: حدثني أبي الذي أرضعني وكان أحد بني مرّة بن عوف وكان في تلك الغزوة غزوة مؤتة قال: والله لكأنّي أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ثمَّ عقرها ثمَّ قاتل حتّى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنّة واقترابها طيّبةً وبارداً شرابها
والروم روم قد دنى عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليَّ إذ لاقيتها ضرابُها

قال ابن هشام: وحدَّثني من أثق به من أهل العلم: أنَّ جعفر بن أبي طالب أخذ اللّواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتّى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناجين في الجنّة يطير بهما حيث شاء.

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثمَّ تقدَّم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردَّد بعض التردُّد ثمَّ قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنّه لتنزلنَّ أو لتكرهنّه
إن أجلب الناس وشدّوا الرّنّة ما لي أراك تكرهين الجنّة
قد طال ما قد كنت مطمئنّة هل أنت إلا نطفة في شنّه

وقال أيضاً:

يا نفس إلاّ تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنّيت فقد أُعطيت إن تفعلي فعلهما هديت

يريد بقوله فعلهما صاحبيه جعفراً وزيداً.

ثمَّ نزل فلمّا أتاه ابن عمّ له بعرق من لحم فقال: شدّ بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيّامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثمَّ انتهس منه نهسة ثمَّ سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدُّنيا، ثمَّ ألقاه من يده ثمَّ أخذ سيفه فتقدَّم فقاتل حتّى قتل.

والعرق بالفتح ثمَّ بالسكون: العظم الذي عليه بعض اللّحم.

ثمَّ أخذ الراية ثابت بن أقران أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا

على رجل منكم. قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلمّا أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم، ثمّ انحاز وانحيز عنه حتّى انصرف بالناس[1].

«تنبؤ الرسول ﷺ بما حدث للمسلمين مع الروم»

قال ابن هشام في «السيرة»: قال ابن إسحاق: ولما أُصيب القوم قال رسول الله ﷺ فيما بلغني: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً. ثمّ أخذها جعفر فقاتل بها حتّى قتل شهيداً، قال: ثمّ صمت رسول الله ﷺ حتّى تغيّرت وجوه الأنصار وظنّوا أنّه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثمّ قال: ثمّ أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتّى قتل شهيداً، ثمّ قال: لقد رفعوا إليّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت: عمَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردّد عبد الله بعض التردُّد ثمّ مضى.

ثمّ نقل ابن إسحاق رواية أسماء بنت عميس الّتي نقلناها عن تاريخ اليعقوبي والروايتان تختلفان في بعض الألفاظ إلى أن قال: فقال ﷺ: لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنّهم قد شغلوا بأمر صاحبهم.

ثمّ نقل رجوع الجيش إلى المدينة وتلقّي الرسول لهم وغضب المسلمين عليهم فقال: حدَّثني محمّد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال: لمّا دنوا من حول المدينة تلقّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، قال: ولقيهم الصبيان يشتدُّون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابّة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم واعطوني ابن جعفر فأُتِي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه قال: وجعل الناس يحثُون على الجيش التراب ويقولون يا فُرّار فررتم في سبيل الله قال: فيقول رسول الله ﷺ ليسوا بالفُرّار ولكنّهم الكُرّار إن شاء الله تعالى.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عبد الله بن أبي بكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن بعض آل الحارث بن هاشم وهم أخواله عن أمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ قال: قالت أُمّ سلمة لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة: ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ مع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج كلّما خرج صاح به الناس يا فُرار فررتم في سبيل الله حتّى قعد في بيته فما يخرج[2].

وسمّى ابن هشام في «السيرة» من استشهد يوم مؤتة من المسلمين اثني عشر رجلاً منهم

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٢٢، والبداية والنهاية: ٤/ ٢٧٩.

(٢) أسد الغابة: ٥/ ٦٣٥، وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٢٣.

جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة من بني هاشم، وعبد الله بن رواحة، وعباد بن قيس من الأنصار، ثمّ من بني الحارث بن الخزرج.

قوله عليه السلام: «وأراد الله من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع النبيّ غير مرّة ولكن آجالهم عجّلت، ومنيّته أُجّلت» أراد عليه السلام: بقوله: «من لو شئت ذكرت اسمه» نفسه، وقوله: غير مرّة متعلّق بقوله أراد، وبين عجّلت وأُجّلت جناس مضارع نحو بيني وبين كنّي ليل دامس وطريق طامس.

المراد أنه عليه السلام أخبر عن نفسه بأني أردت لله تعالى الشهادة في سبيله مع النبيّ صلى الله عليه وآله غير مرّة أي في غزوات عديدة مثل هؤلاء النفر الذين رزقوها. لكن آجالهم عجّلت، أي جاء أجلهم وقضوا نحبهم، ومنيّتي أُجّلت، أي أُخّرت فإنّ الآجال بيد الله تعالي قال عزّ من قائل: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ ۝﴾ [الحجر: ٥].

وروى الشيخ الجليل أبو الفتح الكراجكي في **«كنز الفوائد» (ص ١٣٧ طبع إيران ١٣٢٢هـ)** بإسناده عن خالد بن يزيد، عن أبي جعفر محمّد بن عليّ، عن أبيه، عن الحسين بن عليّ، عن أبيه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الأحزاب: اللّهمّ إنّك أخذت منّي عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبد المطّلب يوم أحد وهذا أخي عليّ بن أبي طالب، ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين»[1].

قوله عليه السلام: **«فيا عجباً للدّهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي ولم تكن له كسابقتي الّتي لا يدلي أحد بمثلها»** لمّا ذكر طائفة مما يدلّ على سابقته في الإسلام وتقدّمه وأفضليّته على من سواه أردفه بالتعجّب من الدّهر حيث أنزله ثمّ أنزله حتّى قرنه بمن لم يكن له سعي في الدفاع عن الدّين، وحماية بيضة الإسلام بقدم مثل قدمه عليه السلام، ولم يكن له سابقة كسابقته الّتي ليس لأحد أن يتوسّل بمثلها، ويحتجّ به.

وقد قدّمنا في صدر شرح هذا الكتاب أنّ الأشياء الّتي استحقّ بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الفضل هي السبق إلى الإيمان، والهجرة، والنصر لرسول الله صلى الله عليه وآله والقربى منه، والقناعة، وبذل النفس له، والعلم بالكتاب والتنزيل، والجهاد في سبيل الله، والورع، والزهد والقضاء، والحكم، والعفّة، والعلم، وكلّ ذلك كان لعليّ عليه السلام منه النصيب الأوفر، والحظ الأكبر، فأين لابن آكلة الأكباد أن يوازنه ويوازيه ويقرن به؟!

ثمّ إذا كان له عليه السلام في جميع ما يستحقّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فضلاً النصيب الأوفر

(١) الصحيفة السجادية: ٦٠٠، ح ٢٥٨، والكافي: ٣/ ٤٨٢، ح ٣.

والسبق على من سواه بحيث لا يدلي أحد بمثلها فأنّى لغيره عليه السلام أن يتقدّمه في الخلافة؟ فهل هذا إلا ازوراراً عن الحقّ؟!

فبما ذكرنا دريت أنه عليه السلام أشار بقوله: من لم يسع بقدمي - إلخ، إلى معاوية ظاهراً، وإلى من تقدَّم عليه من الخلفاء تلويحاً وقد قال عليه السلام في الشقشقيّة: فيالله وللشورى متى اعترض الرَّيب فيَّ مع الأوَّل منهم حتّى صرت أُقرن إلى هذه النظائر؟

وفي **«الكافي»** بإسناده عن السّراد عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ثلاثة هم أشرار الخلق ابتلي بهم خيار الخلق: أبو سفيان بن حرب أحدهم قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وعاداه، ومعاوية قاتل عليّاً وعاداه، ويزيد بن معاوية لعنه الله قاتل الحسين بن عليّ عليه السلام وعاداه حتّى قتله». **(الوافي ص ٥٨ ج ٢)**[1].

«كلام معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في جده وأبيه»

ويعجبني أن نذكر في المقام ما وصف معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في خلافته جدَّه وأباه، فإنه كان أدرى بما فيهما. نقل كلامه اليعقوبيُّ في التاريخ **(ص ٢٦٦ ج ٢ طبع النجف)** والعلامة الشيخ بهاء الدين العاملي في **«الكشكول»** ونحن ننقل عن اليعقوبي.

قال: ثمَّ ملك معاوية بن يزيد بن معاوية وأُمّه أُمّ هاشم بنت أبي هاشم ابن عتبة بن ربيعة أربعين يوماً وقيل أربعة أشهر، وكان له مذهب جميل فخطب الناس فقال:

أمّا بعد حمد الله والثناء عليه أيّها الناس إنّا بلينا بكم وبليتم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا، ألا وإنَّ جدّي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله صلى الله عليه وآله وأحقّ في الإسلام، سابق المسلمين، وأوَّل المؤمنين، وابن عمِّ رسول ربِّ العالمين، وأبا بقيّة خاتم المرسلين، فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون حتّى أتته منيّته، وصار رهناً بعمله.

ثمَّ قلّد أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه فأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل، فقلّت منعته، وانقطعت مدَّته، وصار في حفرته رهناً بذنبه، وأسيراً بجرمه، ثمَّ بكى وقال: إنَّ أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه، وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول صلى الله عليه وآله وأباح الحرمة، وحرَّق الكعبة وما أنا المتقلّد أُموركم ولا المتحمّل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لئن كانت الدُّنيا مغنماً لقد نلنا منها حظّاً، وإن تكن شرّاً فحسب آل سفيان ما أصابوا منها.

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٣٤، ح ٣١١، وكتاب الأربعين: ١٠٣.

قوله عليه السلام: «إلا أن يدّعي مدّع ما لا أعرفه ولا أظنُّ الله يعرفه» يعني أنَّ من يدَّعي خلاف ما ذكرته فهو كاذب مختلق، ودعواه باطلة زاهقة.

ولمّا كان عليه السلام أفضل الصحابة في جميع الصفات الكماليّة فما لا يعرفها فهي داحضة، فأشار بقوله: إلاّ أن يدَّعي مدَّع ما لا أعرفه، إلى أنَّ ما ادّعاه ممّا لا يعرفه باطل.

وضمير يعرفه يرجع إلى ما كضمير أعرفه، والمراد أنَّ ما ادَّعاه مدَّع خلاف ما ذكرته غير موجودة وما ليس بموجود لا تتعلق المعرفة بوجوده والظن بمعنى العلم والغرض العلم بالسلب أي الله يعلم أنَّ ما ادَّعاه مدَّع ممّا لا أعرفه ليس بموجود.

قوله عليه السلام: «والحمد لله على كلِّ حال، تأسّى عليه السلام في كلامه هذا برسول الله صلى الله عليه وآله وهذا القول يؤميء إلى اغتمامه عليه السلام، وذلك أنَّ ثقة الإسلام الكليني رضوان الله عليه روى في **«الكافي»** بإسناده عن محمّد، عن ابن عيسى، عن القاسم، عن جدّه عن مثنّى الحنّاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ورد عليه أمر يسرُّه قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتمُّ به قال: الحمد لله على كلِّ حال.

وروى هذه الرواية الفيض قدِّس سرُّه في باب الشكر من أبواب جنود الإيمان من **«الوافي»** (ص ٦٨ ج ٣) عن «الكافي» أيضاً.

قوله عليه السلام: **(وذكرت حسدي الخلفاء وإبطائي عنهم، وبغيي عليهم، فأمّا البغي فمعاذ الله أن يكون)** كلامه هذا إلى قوله: **(إنَّ حقّي هو المأخوذ وقد تركته لهم تجاوز الله عنهم)**، جواب عن قول معاوية في كتابه: فكلّهم حسدت وعلى كلّهم بغيت ـ إلى قوله: وفي إبطائك عن الخلفاء.

وقد مضى كلامنا في البحث عن الإمامة في **«المختار»** ٢٣٧ أنَّ الإمام أجلُّ شأناً من أن يكون باغياً، فإنَّ البغي من الذُّنوب العظيمة وجميع الذُّنوب أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص، والحسد، والغضب، والشهوة، فهذه منفيّة عنه، فراجع إلى **(ص ٤٤ من ج ١٥)**.

وأمّا إجماع الناس في سقيفة بني ساعدة واختلاف المهاجرين والأنصار في البيعة ولم يغسّل رسول الله صلى الله عليه وآله بعد حتّى غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام حقّه فقد ذكره الشارح الخوئي قدِّس سرُّه في المباحث السالفة، ونحن أشرنا إلى شرذمة منه في المجلد السادس عشر **(ص ٣٨٢)**.

واليعقوبي في **«التاريخ»** في خبر السقيفة (ص ١٠٢ ج ٢) بعد ما نقل كلام عبد الرحمٰن بن عوف في فضل الأنصار قال: وقام المنذر بن الأرقم فقال: ما ندفع فضل من ذكرت وإنَّ فيهم رجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد ـ يعني عليَّ بن أبي طالب عليه السلام إلى أن قال:

وجاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم بويع أبو بكر، فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه ونحن أولى بمحمّد صلى الله عليه وآله، فقال العباس: فعلوها وربِّ الكعبة. وكان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في عليّ عليه السلام فلمّا خرجوا من الدَّار قام الفضل بن العباس، وكان لسان قريش فقال: يا معشر قريش إنه ما حقّت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم، وقام عتبة بن أبي لهب فقال: ما كنت أحسب أنَّ الأمر منصرف ـ إلى آخر الأبيات الّتي نقلنا في **(ج ١٦ ص ٣٨٣)** عن خزيمة بن ثابت الأنصاري.

ثمَّ قال اليعقوبي وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع عليِّ بن أبي طالب منهم: العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأُبيّ بن كعب.

قال: وكان خالد بن سعيد غائباً فأتى عليّاً فقال: هلمَّ أبايعك فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمّد منك.

قال: فأرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة فقال: ما الرأي؟ قالوا: الرأي أن تلقى العباس بن عبد المطلب، فتجعل له في هذا الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده، فتقطعون به ناحية عليِّ بن أبي طالب حجّة لكم على عليّ إذا مال معكم، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة حتّى دخلوا على العباس ليلاً.

فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثمَّ قال:

إنَّ الله بعث محمّداً نبيّاً، وللمؤمنين وليّاً، فمنّ عليهم بكونه بين أظهرهم حتّى اختار له ما عنده، فخلى على الناس أموراً ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم مشفقين فاختاروني عليهم والياً، ولأمورهم راعياً، فوليت ذلك وما أخاف بعون الله وتسديده وهناً ولا حيرة ولا جبناً، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أُنيب. وما انفك يبلغني عن طاعن يقول الخلاف على عامّة المسلمين يتّخذكم لجأ فتكون حصنه المنيع وخطبه البديع، فإمّا دخلتم مع الناس فيما اجتمعوا عليه، وإمّا صرفتموهم عمّا مالوا إليه، لقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك، إذ كنت عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان الناس قد رأوا مكانك ومكان صاحبك فعدلوا بالأمر عنكم على رسلكم بني هاشم فإنَّ رسول الله منّا ومنكم.

فقال عمر بن الخطاب: إي والله، وأخرى إنّا لم نأتكم لحاجة إليكم، ولكن كرهاً أن يكون الطعن في ما اجتمع عليه المسلمون منكم، فيتفاقم الخطب بكم وبهم فانظروا لأنفسكم.

«احتجاج العباس عم رسول الله ﷺ على أبي بكر وعمر في أمر البيعة»

قال اليعقوبيُّ: فحمد العباس الله وأثنى عليه وقال:

إنَّ الله بعث محمّداً كما وصفت نبيّاً، وللمؤمنين وليّاً، فمنَّ على أُمّته به حتّى قبضه الله إليه واختار له ما عنده، فخلى على المسلمين أمورهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين الحقَّ، لا مائلين بزيغ الهوى، فإن كنت برسول الله فحقّاً أخذت وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم، فما تقدمنا في أمرك فرطاً، ولا حللنا وسطاً، ولا برحنا سخطاً، وإن كان هذا الأمر إنما وجب لك بالمؤمنين، فما وجب إذ كنّا كارهين، ما أبعد قولك من أنّهم طعنوا عليك من قولك إنهم اختاروك ومالوا إليك وما أبعد تسميتك خليفة رسول الله ﷺ من قولك خلي على الناس أُمورهم ليختاروا فاختاروك، فأمّا ما قلت إنّك تجعله لي فإن كان حقّاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن كان لنا فلم نرض ببعضه دون بعض وعلى رسلك فإنَّ رسول الله ﷺ من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها، فخرجوا من عنده[1].

وفي «**الجمل**» للمفيد قدِّس سرُّه (ص ٤٥ طبع النجف) وقد عرفت الخاصة والعامّة ما أظهره أمير المؤمنين عليه السلام من كراهته من تقدَّم عليه وتظلّمه منهم، فقال في مقام بعد مقام: اللّهمَّ إنّي أستعيذك[2] على قريش فإنهم ظلموني حقّي ومنعوني إرثي وتمالؤا عليّ. وقال عليه السلام: لم أزل مظلوماً منذ قبض رسول الله ﷺ وقال: وقد عهد إليَّ رسول الله ﷺ أنَّ الأمّة ستغدر بي من بعده، وقال: يا عمر لقد ظلمت الحجر والمدر. وقال: اللّهمّ اجز قريشاً عنّي الجوازي فقد قطعت رحمي ودفعتني عن حقّي وأغرت بي سفهاء الناس وخاطرت بدمي.

قوله عليه السلام: **(وأمّا ما ذكرت من أمر عثمان وقطيعتي رحمه وتأليبي عليه ـ إلى قوله: إلاّ أن تتجنّى فتجنّ ما بدا لك)** هذا الفصل جواب عن قول معاوية في كتابه إليه عليه السلام مخاطباً له بقوله: ثمَّ لم تكن لأحد منهم بأعظم حسداً منك لابن عمّك عثمان إلى قوله: وقد ذكر لي أنك تنصّل من دمه.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٥، وعبد الله بن سبأ ١/ ١٢٧.

(٢) في رواية: «أستعديك».

وقد ذكرنا في «**شرح المختار**» الأوّل من كتبه ورسائله عليه السلام الأحدث الّتي أحدثها عثمان ممّا نقلها الناس منه وطعنوا عليه وصارت أسباب قتله (**ص ٢٠٣ ج ١٦**)، ونصح أمير المؤمنين عليه السلام عثمان في ص (**٣١١ ج ١٦ من**) الواقدي وغيره، وكذا قوله عليه السلام: «ما زلت أذبُّ عن عثمان حتّى أنّي لأستحي» المنقول من الطبري وغيره في «**شرح المختار**» ٢٣٨ من كلامه في باب الخطب (**ص ١٨٣ ج ١٦**) وقوله عليه السلام: والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً.

وقد أشرنا في (**ص ٣٥١ ج ١٦**) إلى أنَّ عثمان قتل نفسه بأحداثه التي أحدثها وأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: الله قتله، وأنه عليه السلام كان في عزلة عن قتله، وأنّه عليه السلام نصحه ونصره غير مرَّة وما أراد عثمان منه نصحاً وإلاّ لتاب من قوادحه حقيقة ولما خدع الناس مرَّة بعد مرَّة، وأنَّ أهل البصرة اتّهموا عليّاً عليه السلام بدم عثمان اتباعاً لتسويلات شيطانيّة، وأنَّ إسناد دم عثمان إليه تهمة وبهتان ليس إلاّ وغيرهما ممّا أشرنا إليها فراجع.

وقال ابن الأثير في مادّة عفو في «**النهاية**»: قالت أُمُّ سلمة لعثمان: لا تعف سبيلاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله لحبها، أي لا تطمسها.

ثمَّ قد بيّنا تفسير قوله عليه السلام: «إلاّ أن تتجنّى فتجنَّ ما بدا لك» في شرح الكتاب السادس، فراجع.

محتوى الجزء السابع عشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

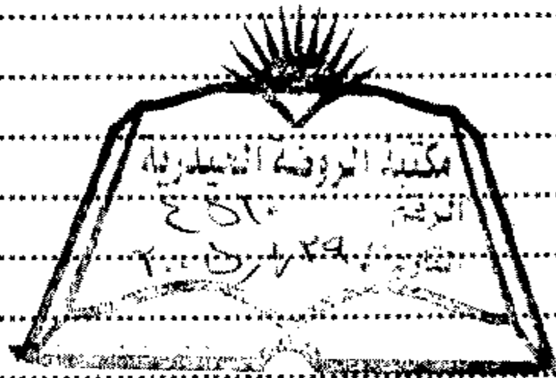

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه
العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها
الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملي

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الثامن عشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمداً لك يا مَن ألهمتنا حقائق الإيمان، وهديتنا إلى جنابك بنور العلم والعرفان، ودعوتنا إلى مأدُبتك القرآن الفرقان، وجعلتنا أهلاً للإطّلاع على دُررٍ مكنونةٍ عند خَزَنَة، علمك، وأذِنت لنا في الفحص عن أسرارٍ مستترة عند عيبة وحيك وغيبك.

اللهمَّ صلِّ على نبيّك الخاتم، المنزل عليه كتابٌ يهدي للّتي هي أقوم؛ وعلى آله الكرام البررة، وأصحاب العصمة والمعرفة. وعلى جميع من اجتبيت من رسلك وأرسلتهم إلى عبادك. وعلى الّذين احتذوا حذوهم، واقتفوا آثارهم، واقتدوا بهديهم.

وبعد: فيقول العبد المحتاج إلى مولاه الغنيّ نجم الدِّين الحسن بن عبد الطبريّ الأملي رحمهما الله تعالى وعفى عنهما: إنَّ ما لفظه لسان ميزان القسط وباب مدينة العلم بحرٌ لا تنفد لآليء معانيه الغالية، وما أودعه في لطائف ألفاظه كنوزٌ لا يزيدها الإنفاق إلاّ كثرة وسعة، فقد تيسّر لنا بالكدِّ والجهد التامّين استخراج قبضة من تلك اللآليء والكنور فهذه بضاعتنا المزجاة نهديها إلى بغاة علم الدِّين في شرح كلمات عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، ونطلب من الله التوفيق لاتمام الشرح على النهج السّديد، ونرجوه لكلِّ خير ونستزيد.

وهذا هو المجلّد الرابع من تكملة **«منهاج البراعة»** في شرحنا على **«نهج البلاغة»** فينتهي المنهاج به إلى ثامن عشر، فنقول مستعيناً بواهب المعاني والصور.

[تتمة المختار التاسع من كتبه عليه السلام ورسائله]

قوله عليه السلام: «وأمّا ما سألت من دفع قتلة عثمان إليك ـ إلى قوله: ولا إلى غيرك» هذا الفصل جواب عن قول معاوية له عليه السلام: فإن كنت صادقاً فأمكنّا من قتلته نقتلهم به.

وقد دريت من مباحثنا السالفة أنَّ معاوية لم يجد شيئاً يستغوي به النّاس ويستميل به أهواءهم إلاّ أن قال لهم: قتل إمامكم مظلوماً فهلمّوا نطلب بدمه فاستجاب له جفاة طغام، عبيد قزام، جمعوا من كل أوب، وتلقطوا من كلّ شوب.

وأنَّ عمّار بن ياسر قال في بعض أيّام صفين ـ كما رواه أبو جعفر الطبريُّ في التاريخ ونقلناه في الجزء الخامس عشر ـ: أيّها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاءِ الّذين يبغون دم ابن عفّان، ويزعمون أنّه قتل مظلوماً، والله ما طلبتم بدمه ولكنَّ القوم ذاقوا الدُّنيا فاستحبُّوها واستمرؤوها، وعلموا أنَّ الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرَّغون فيه من دنياهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقّون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون، ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان؛ إلخ[1].

وأنَّ معاوية لم يكن وليّ دم عثمان حتّى يطلبه، بل كان ولده أولياء دمه وأشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه تلويحاً: **(فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك)**.

وأنَّ معاوية لم يكن له ولاية شرعيّة على المسلمين، ثمَّ لم يرافع إليه أحد في دم ابن عفّان شيئاً، وما ترافع إليه الخصمان فيه فأنّى له أن يطلب قتلة عثمان؟

وأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن شريكاً في دمه، بل كان في عزلة عن قتله ولم يحضر قتل عثمان يوم قتل.

ونصَّ أبو جعفر الطبريّ في التاريخ أنّه لما حصر عثمان كان عليٌّ عليه السلام بخيبر فلو رأى معاوية أنّه عليه السلام كان من قاتليه فهو خطأ، وعلمت أنَّ إسناد قتله إليه اختلاق بل في **«مروج الذهب»** للمسعودي أنه لمّا بلغ عليّاً عليه السلام أنّهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته حتّى أنَّ القوم لما اشتبكوا جرح الحسن وشجَّ قنبر.

وكذا قال المسعوديُّ: لمّا حصر الناس عثمان في داره منعوه الماء فأشرف على الناس

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧، والغدير: ٩/١١١ ح ١.

وقال: ألا أحد يسقينا؟ فبلغ علياً عليه السلام طلبه للماء فبعث إليه بثلاث قرب ماء - إلخ، فراجع إلى المجلد السادس عشر.

ولو رآه وليّ المسلمين، وحاكم الشرع المبين طلب عنده حقّاً من غيره فقد كان واجباً عليه أن يرافع الدّعوى إليه عليه السلام مع الشروط المعتبرة في الترافع وما فعل معاوية ذلك.

على أنه إنّما قتله خلق كثير حتّى شهد قتله ثمانمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرون أنَّ عثمان كان يستحقُّ القتل بأحداثه.

ففي كتاب صفين لنصر بن مزاحم المنقري (**ص ١٧٦ الطبع الناصري**) مذكور أنما جرى بين عمّار بن ياسر رضوان الله عليه وعمرو بن العاصي كلام طويل في بعض أيام صفين - إلى أن قال عمرو لعمّار: فَعَلامَ تقاتلنا؟ أولسنا نعبد إلهاً واحداً، ونصلّي قبلتكم، وندعو دعوتكم، ونقرأ كتابكم، ونؤمن برسولكم؟

قال عمّار: الحمد لله الذي أخرجها من فيك إنّها لي ولأصحابي القبلة والدِّين وعبادة الرحمٰن والنبيّ صلى الله عليه وآله والكتاب من دونك ودون أصحابك؛ الحمد لله الذي قرّرك لنا بذلك دونك ودون أصحابك، وجعلك ضالا مضلا لا تعلم هادٍ أنت أم ضالّ، وجعلك أعمى وساء خبرك على ما قاتلتك عليه أنت وأصحابك، أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أُقاتل الناكثين وقد فعلت، وأمرني أن أُقاتل القاسطين فأنتم هم وأمّا المارقين فما أدري أدركهم أم لا؟ أيّها الأبتر ألست تعلم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللّهمَّ وال من والاه وعاد من عاداه» وأنا مولى الله ورسوله وعليّ بعده وليس لك مولى.

قال عمرو: لم تشتمني يا أبا اليقظان ولست أشتمك؟

قال عمّار: وبم تشتمني أتستطيع أن تقول إنّي عصيت الله ورسوله يوماً قطُّ؟

قال له عمرو: إنَّ فيك لمسبات سوى ذلك.

فقال عمّار: إنَّ الكريم من أكرمه الله: كنت وضيعاً فرفعني الله، ومملوكاً فأعتقني الله، وضعيفاً فقوّاني الله، وفقيراً فأغناني الله.

وقال له عمرو: فما ترى في قتل عثمان؟ قال: فتح لكم باب كلِّ سوء، قال عمرو: فعليٌّ قتله، قال عمّار: بل الله ربُّ عليّ قتله وعليٌّ معه، قال عمرو: كنت فيمن قتله من هنا عند ابن عقبة، قال: كنت مع من قتله وأنا اليوم أُقاتل معهم، قال عمرو: فلم قتلتموه؟ قال عمّار: أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه، فقال عمرو: ألا تسمعون قد اعترف بقتل عثمان؟ قال عمّار: وقد قالها فرعون قبلك لقومه: ألا تسمعون[1].

---

(١) كتاب صفين: ١٧٦، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٠.

وبالجملة إذا كان قتلة عثمان هذا الجمع العظيم وكان فيهم كبار الصحابة من الأنصار والمهاجرين ومثل عمّار بن ياسر على جلالة شأنه وعلوّ مقامه وثباته في الدّين اعترف بالمشاركة في قتله فكيف يسع أمير المؤمنين عليه السلام دفعهم إلى معاويه أو إلى غيره أوّلاً، ومع فرض تمكّنه من ذلك كيف يسوّغه الشرع قتل جمع عظيم من الأنصار والمهاجرين وكبار التابعين برجل أحدث أحداثاً نقمها الناس منه وطعنوا عليه وقتلوه بها ثانياً.

ولعلَّ قوله عليه السلام: «وأمّا ما ذكرت من أمر عثمان فإنّي نظرت في هذا الأمر وضربت أنفه وعينيه فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك» يشير إلى الوجه الأخير خاصّة.

وروي أنَّ أبا هريرة وأبا الدرداء أتيا معاوية فقالا له: عَلَامَ تقاتل عليّاً وهو أحقُّ بالأمر منك لفضله وسابقته؟

فقال: لست أُقاتله لأنّي أفضل منه ولكن ليدفع إليَّ قتلة عثمان، فخرجا من عنده وأتيا عليّاً عليه السلام فقالا له: إنَّ معاوية يزعم أنَّ قتلة عثمان عندك وفي عسرك فادفعهم إليه فإن قاتلك بعدها علمنا أنّه ظالم لك.

فقال عليٌّ عليه السلام: «إنّي لم أحضر قتل عثمان يوم قتل ولكن هل تعرفان من قتله»؟

فقالا: بلغنا أنَّ محّمد بن أبي بكر وعمّاراً والأشتر وعديَّ بن حاتم وعمرو بن الحمق وفلاناً ممّن دخل عليه.

فقال عليٌّ عليه السلام: «فامضيا إليهم فخذوهم»، فأقبلا إلى هؤلاء النفر وقالا لهم: أنتم من قتل عثمان وقد أمر أمير المؤمنين بأخذكم قال: فوقعت الصيحة في العسكر بهذا الخبر فوثب من عسكر عليّ أكثر من عشرة آلاف رجل في أيديهم السيوف وهم يقولون: كلّنا قتله، فبهت أبو هريرة وأبو الدَّرداء ثمَّ رجعا إلى معاوية وهما يقولان: لا يتمُّ هذا الأمر أبداً فأخبراه بالخبر[1].

وقد مرَّ قريب من هذه الرواية عن كتاب صفين لنصر بن مزاحم في صدر هذا الشرح قول عليّ عليه السلام لأبي مسلم الخولاني: «اغد عليَّ غداً فخذ جواب كتابك» ـ إلى قول نصر: فلبست الشيعة أسلحتها ثمَّ غدوا فملأوا المسجد وأخذوا ينادون: كلّنا قتل ابن عفّان.

وفي رواية أُخرى: لما سئل عليٌّ عليه السلام تسليمهم قال وهو على المنبر: «ليقم قتلة عثمان»، فقام أكثر من عشرة آلاف رجل من المهاجرين والأنصار وغيرهم.

---

(١) الأخبار الطوال: ١٦٣ بتفاوت.

فكيف يمكن تسليم أكثر من عشرة آلاف رجل جلّهم من حماة الدِّين وقواعده إلى من يطلب بدم رجل واحد قتلوه بأحداثه التي نقموها منه؟

قوله عليه السلام: «ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك - إلى قوله: وزور لا يسرك لقيانه» هذا الفصل جواب عن قول معاوية حيث قال في كتابه مخاطباً له عليه السلام: «والذي لا إله إلاّ هو لنطلبنَّ قتلة عثمان في الجبال والرمال والبرِّ والبحر حتّى يقتلهم الله أو لتلحقن أرواحنا بالله».

ولمّا كان معاوية شمخ بأنفه وتجاوز عن حدّه وجعل الله تعالى عرضة في يمينه وهدَّد الأمير وشيعته بقوله الشنيع أجابه الأمير عليه السلام وأخبره عن عاقبته السؤى بقوله ذلك: أي لعمري قسمي لئن لم تنته ولم تكفَّ عن ضلالك وخلافك لتعلمنَّ أنَّ هؤلاء المسلمين الذين يجاهدون في سبيل الله يطلبونك بعد زمان قليل، ولا يشقون عليك أن تطلبهم في البرِّ والبحر والجبال والرمال، يعني لا حاجة إلى أن تكلّف نفسك في طلبهم، بل أنّهم يطلبونك، فلا يخفى لطف كلامه وعذوبته في تهديده عليه السلام معاوية قبال كلامه في تهديده أمير المؤمنين عليه السلام.

ثمَّ هدَّده بعاقبة هذا الطلب بقوله: **(أنَّ هذا الطلب يسوءك وجدانه، وزور لا يسرُّك لقيانه)**، والظاهر أنَّ قوله عليه السلام: **(عن قليل يطلبوك)**، إشارة إلى ما سيوقع في وقعة صفين، وسيأتي نحو قوله هذا كلامه عليه السلام في آخر الكتاب الثامن والعشرين الذي كتبه إلى معاوية أيضاً جواباً: فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد - إلخ.

قوله عليه السلام: «وقد كان أبوك أتاني حين ولّى النّاس أبا بكر، إلخ» قال اليعقوبي في التاريخ **(ص ١٠٥ ج ٢ طبع النجف)** وكان فيمن تخلّف عن بيعة أبي بكر أبو سفيان بن حرب وقال: أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم وقال لعليٍّ بن أبي طالب: امدد يدك أُبايعك وعلي معه قصي فقال:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولا سيّما تيم بن مرّة أو عديّ

فما الأمر إلاّ فيكم وإليكم ... وليس لها إلاّ أبو حسن عليّ

أبا حسن فاشدد بها كفّ حازم ... فإنك بالأمر الذي يرتجي ملي

وإنَّ امرءاً يرمى قصيّا وراءه ... عزيز الحمى والنّاس من غالب قصي

وقال المفيد في **«الجمل» (ص ٤٢ طبع النجف)**: في الفصل المترجم بقوله: انكار جماعة بيعة أبي بكر، بعد عدِّ عدَّة من المنكرين بيعته: وقال أبو سفيان بن حرب بن صخر بأعلى صوته: يا بني هاشم أرضيتم أن يلي عليكم بنو تيم بن مرّة حاكماً على العرب ومتى طمعت أن تتقدَّم بني هاشم في الأمر، انهضوا لدفع هؤلاءِ القوم عمّا تمالوا إليه ظلماً لكم، أما والله لأن شئتم لأملأنّها عليكم خيلاً ورجالاً ثمّ قال: بني هاشم، الأبيات.

وقال في «**الإرشاد**» (**ص ٩٠ طبع طهران ١٣٧٧**): وقد كان جاء أبو سفيان (**يعني بعد ما بدر الطّلقاء بالعقد للرجل**) إلى باب رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ والعباس متوفّران على النظر في أمره فنادى: بني هاشم لا تطمعوا، الأبيات؛ ثمَّ نادى بأعلى صوته: يا بني هاشم يا بني عبد مناف أرضيتم أن يلي عليكم أبو فصيل الرَّذل ابن الرَّذل أما والله لو شئتم لأملأنّها عليهم خيلاً ورجلاً.

فناداه أمير المؤمنين عليه السلام: «ارجع يا أبا سفيان فوالله ما تريد بما تقول وما زلت تكيد الإسلام وأهله ونحن مشاغيل برسول الله صلى الله عليه وآله وعلى كلِّ امرىء ما اكتسب وهو وليُّ ما احتقب»[١].

فانصرف أبو سفيان إلى المسجد فوجد بني أُمية مجتمعين فحرَّضهم على الأمر ولم ينهضوا له. وكانت فتنة عمّت، وبليّة شملت، وأسباب سوء اتّفقت، تمكّن بها الشيطان، وتعاون فيها أهل الإفك والعدوان، فتخاذل في انكارها أهل الإيمان وكان ذلك تأويل قول الله عزَّ وجلَّ، ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

خاتمة

يذكر فيها مسألة فقهية وهي أنه قد تقدّم في شرح هذا الكتاب (**ص ٣٨٣ ج ١٧**) أنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم أُحد كانوا يدفنون الاثنين والثلاثة من القتلى في قبر واحد. وكذلك قد تظافرت الآثار في أنَّ ابن سعد لعنة الله عليه لما رحل من كربلاء خرج قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغاضرية إلى سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين وأصحابه روحي لهم الفداء فصلّوا عليهم ودفنوا الحسين عليه السلام حيث قبره الآن ودفنوا ابنه عليّ بن الحسين عند رجله وحفروا للشهداء من أهل بيته وأصحابه الذين صرعوا حوله مما يلي رجلي الحسين عليه السلام وجمعوهم فدفنوهم جميعاً معاً ودفنوا العبّاس بن عليّ عليه السلام في موضعه الذي قتل فيه على طريق الغاضريّة حيث قبره الآن.

ففيهما دلالة على جواز دفن ميّتين أو أكثر في قبر واحد، أمّا الأوّل: فلأنّه كان في حضرة رسول الله صلى الله عليه وآله بل كان بإذنه حيث قال صلى الله عليه وآله: انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر. وقال في الخبر الآخر: المروي عنه صلى الله عليه وآله كما في «**مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام**»: أنه قال للأنصار يوم أُحد: احفروا وأوسعوا وعمقوا واجعلوا الاثنين والثلاثة في القبر الواحد[٢].

---

(١) الإرشاد: ١/ ١٩٠، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٥٢٠.

(٢) الإرشاد: ٢/ ١١٤.

وأمّا الثاني: فلأنَّ بني أسد كانوا مسلمين بل لعلّهم كانوا مؤمنين فلولا علمهم بجواز ذلك من الشرع لما فعلوه في المقام، على أنَّه لم ينكر عليهم أحد. والجواز لا خلاف فيه وإنّما الكلام في أنَّ جواز ذلك فيما تقتضيه الضرورة كما هي ظاهر المقامين سيما الثاني، أو أنَّ العمل جائز مطلقاً، ثمَّ لولا الضرورة أكان مكروهاً أو محرَّماً. وهل يفصّل في المقام بين ما كان الميتان رجلين أو امرأتين وبين ما كانا رجلاً وامرأة، وعلى الثاني بين ما كانا أجنبيّين وغير أجنبيّن وعلى التقادير كلّها هل يجوز دفن أكثر من واحد في قبر ابتداء أو مطلقاً؟.

فالمنقول عن الشيخ قدّس سرّه في «**المبسوط**»: الأولى أن يفرد لكلّ واحد منهم قبر لما روي عنهم عليهم السلام أنّه لا يدفن في قبر واحد اثنان. وقال فيه: فإن دعت الضرورة إلى ذلك جاز أن يجمع اثنان وثلاثة في قبر واحد كما فعل النبيّ صلى الله عليه وآله يوم أُحد. قال: فإذا اجتمع هؤلاء جعل الرجل ممّا يلي القبلة والصّبيان بعدهم ثمَّ الخناثي ثمّ النساء، انتهى[١].

وفي «**التهذيب**»: محّمد بن الحسن الصّفّار قال: كتبت إلى أبي محمّد عليه السلام أيجوز أن يجعل (**تجعل ـ معاً**) الميّتين على جنازة واحدة ويصلّى عليهما؟ فوقّع عليه السلام لا يُحمل الرجل مع المرأة على سرير واحد.

ورواه في الوسائل هكذا: قال: كتبت إلى أبي محمّد عليه السلام أيجوز أن يجعل الميّتين على جنازة واحدة في موضع الحاجة وقلّة الناس وإن كان الميّتان رجلاً وامرأة يحملان على سرير واحد ويصلّى عليهما؟ فوقّع عليه السلام: لا يحمل الرجل مع المرأة على سرير واحد[٢].

فيستفاد من الخبر أمران: أحدهما جواز حمل الميّتين الرجلين على جنازة وثانيهما عدم جوازه إذا كان أحدهما رجلاً والآخر امرأة حتّى حال الضرورة. فيحكم على ذلك في دفنهما أيضاً على طريق الأولويّة أعني الجواز في الصورة الأُولى وعدمه في الثانية.

وقد ذهب بعض العلماء إلى حرمة دفن رجل أجنبيّ وامرأة أجنبيّة في قبر واحد ولعلّه أفتى به من ظاهر هذا الخبر وإن كان الخبر أعم شمولاً فإنّه نهى عن حمل الرَّجل والمرأة الميّتين في سرير مطلقاً.

كما أنَّ الشيخ قدِّس سره حكم بجعل الرجل ممّا يلي القبلة ـ إلخ في الدفن من الروايات الواردة في الصلاة على الجنائز المتعدّدة المختلفة الجنس.

---

(١) المبسوط: ١/ ١٥٥.

(٢) تهذيب الأحكام: ١/ ٤٥٤ ح ١٤٨٠، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٠٨ ح ٤٢.

والأصل يقتضي عدم جواز دفن الميّتين في قبر حال الإختيار كما هو المنقول عن ابن سعيد في الجامع والمرسل المذكور في «**المبسوط**» ظاهر في عدم الجواز. اللّهمّ إلاّ أن يقال إنَّ ادّعاء الضرورة في واقعة أُحد غير ثابت فإذنه ﷺ دليل على الجواز مطلقاً من غير كراهة. لكن العلماء قد ذهبوا إلى القول بالكراهة في حال عدم الضرورة وبعدمها في الضرورة فمع الضرورة تزول الكراهة قطعاً.

هذا إذا دفنّا ابتداءً وأمّا إذا استلزم دفن ميّت في قبر ميّت آخر بعد دفنه نبشه فحرام لتحريم النبش أوّلاً، ولأنَّ الأوّل قد ملكه بالحيازة لكن قد يناقش على الأوّل بأنَّ الكلام في إباحة الدفن نفسه لا النبش وأحدهما غير الأخر، وعلى الثاني بعدم ثبوت حقّ للأوّل وفي المسألة كلام بعد يطلب في الكتب الفقهيّة والذي حريٌّ أن يقال في المقام: إنَّ دفن الميّتين في قبر واحد ابتداءً مكروه إذا لم تقتضِ الضرورة ومعها تزول الكراهة. وأمّا دفن ميّت في قبر آخر قبل أن يصير رميماً فحرام. وإذا كان الميّتان رجلاً وامرأة أجنبيّين فلا يترك الاحتياط في أن يفرد لكلٍّ واحد منهما قبر.

الترجمة

این کتاب نهم از باب کتب و رسائل امیر (عليه السلام) است که به معاویه نوشت.

روزی ابومسلم خولانی با گروهی از قاریان شام که از پیروان معاویه بودند بدو گفتند: تو که چون علی صحبت و قرابت با پیغمبر و سابقت در اسلام و هجرت نداری، از چه روی با وی سر کار زار داری؟

معاویه گفت: من ادّعا نمی کنم که در این صفات از وی برتر یا با وی برابرم ولکن نه این است که عثمان به ستم کشته شد؟ گفتند: آری چنین است، گفت: علی کشندگان عثمان را تسلیم ما کند تا کار به کار زار نکشد، گفتند: دراین باره بدو نامه ای نویس، معاویه نامه ای به امیر (عليه السلام)نوشت و خولانی را برای رساندن نامه به سویش گسیل داشت.

خولانی نامه را به امیر (عليه السلام) رسانید و بدو گفت: اکنون زمام تولیت امور مسلمانان در دست تو است و به خدا سوگند اگر از خود داد حق بدهی دوست ندارم که امر خلافت به دست دیگری جز تو باشد؛ همانا که عثمان مسلمان بود و خونش به ستم ریخته شد، تو امیر مایی، کشندگانش را به ما ده، چه اگر کسی به مخالفت با تو برخیزد دستهای ما به یاریت آماده و زبانهای ما در حقّت گواه و مرتورا نیز در نزد خدا و مردم عذر و حجّت خواهد بود.

امام علیّ (عليه السلام) فرمود: فردا بیا و پاسخ نامه را بستان. چون فردا بیامد، دید که مردم از نامه معاویه آگاه شده، همگی با سلاح در مسجد گرد آمده، ندا درمی دهند: ما همه کشندگان عثمانیم.

خولانی به نزد امیر (عليه السلام) آمد، امیر بدو گفت: سوگند به خدا من نخواستم که به یك چشم بهم زدنی آنان را به دست تو دهم، چه این امر را نیك نگریستم و آن را زیر و رو کردم، سزاورا ندیدم که ایشان را به دست تو یا جز تو دهم.

پس خولانی نامه بستاند و به سوی معاویه بازگشت و داستان را بدو باز نمود.

اينك ترجمه نامه معاويه

بسم الله الرّحمن الرّحيم

از معاويه پور بوسفيان به على بن ابيطالب:

درود بر تو، با تو خدا را ستايش مى كنم و نعمتهاى او را سپاس مى گذارم، آن كه جز او خدايى نيست؛ امّا بعد همانا كه خداوند به دانش خود محمد (ﷺ) را برگزيد و او را امين بر وحيش و رسول به خلقش گردانيد و از مسلمانان يارانى برايش برگزيد كه به دستيارى آنان نيرويش داد و تاييدش فرمود و رتبه آنان در نزد خدا و رسول به اندازه فضل شان در اسلام بود، پس در ميان شان بعد از پيمبر كسى كه در اسلام برتر و در راه خدا و رسول مخلص تر است جانشين پيمبر و جانشين جانشين او است، سپس جانشين سوّم عثمان كه به ستم كشته شد.

و تو اى على بر همه شان حسد بردى و به همه آنان ستم كردى، ما اين معنى را از چپ چپ نگريستن و به خشم و تند و تيز نگاه كردن و از گفتار زشت و از آه كشيدن و دم بر آوردن دراز و از درنگ و كندى نمودنت در يارى جانشينان پيمبر پى برديم.

تو آنى كه چون شتر نر مهار كرده (چوب در بينى كشيده) به سوى هريك از خلفاى رسول براى بيعتت برده اند سر باززدى و از آن كاره بودى و بهويژه به عثمان بيشتر از ديگران حسد ورزيده اى، با اين كه از جهت رحامت و خويشاوندى و دامادى او به پيمبر از همه سزاوارتر بود كه با وى چنان كارى نكنى، پس قطع رحم كردى و خوبى هاى او را زشت گردانيدى و مردم را بر او شورانيدى و زير و رو كرده اى تا از هر سوى مردم بدو رو آوردند و برعليه او در حرم رسول خدا حمل سلاح كردند تا او را كشتند و تو حاضر بودى و ناله و فرياد او را مى شنيدى و حرفى نزدى و كارى نكردى تا گمان بد درباره تو نبرند و تهمت به تو نزنند و بدانند كه به قتل او راضى نبودى.

به راستى سوگند ياد مى كنم كه اگر به يك سو مى شدى و مردم را از كشتن عثمان بازمى داشتى يك تن ما از تو برنمى گشت، علاوه اين كه اين عمل تو آن چه را كه درباره تو راجع به عثمان مى پنداشتند جبران مى كرد و گمان بدشان را درباره

تو محو می کرد.

و دیگر این که درنظر انصار عثمان، متّهمی که کشندگانش را جا و پناه دادی که اکنون تو را بازوان و یاران اند و همدستان و دوستان خاصّ. و با این همه شنیدم که خویشتن را از خون عثمان تبرئه می نمایی، اگر راست می گویی ما را بر آنان دست ده تا ایشان را به قصاص خون عثمان بکشیم، آنگاه به سویت شتابیم وگرنه تو و یارانت را طعمه شمشیر گردانیم.

سوگند به آن که جز او خدایی نیست اگر قاتلان عثمان در کوهها و ریگستانها و دشت و دریا پراکنده شوند، هرآینه بر آنان دست یابیم تا اینکه خدا آنان را بکشد یا این که آنان جانهای ما را به خدا بپیوندند.

ترجمه نامه امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) در پاسخ نامه معاویه:

بسم الله الرّحمن الرّحیم

از بنده خدا علی امیرمؤمنان به معاویه پور بوسفیان:

امّا بعد همانا که بومسلم خولانی نامه ای از شما آورده که در او رسول خدا و نعمت هدایت و وحی را که خدا به او انعام فرموده ذکر کرده ای، پس حمد خدایی را که به وعده اش درباره پیمبرش وفا کرد و نصرتش را بر او تمام گردانید و مراورا در شهرها تمکین داد و بر قوم او. که دشمنی و کینه توزی با او داشتند و بر او حمله ها کردند و بغض او را در دل انباشتند و به دروغ نسبتش دادند و به قتال با او قیام کردند و بر اخراج او و اصحابش از مکّه هم پشت شدند و عرب را بر او تحریك کردند و آنان را بر جنگ او گردآوردند و تمام کوشش در کار او نمودند و کارها را بر او دگرگون کردند. پیروز گردانید، تا دین خدا. با این که آنان از آن بیزاری داشتند. آشکار شد و غالب گردید و شدیدترین مردم بر او قوم او، بهویژه خویشان نزدیك او بودند؛ مگر کسانی که خداوند آنان را حفظ کرد.

ای فرزند هند! روزگار امر شگفتی از شما بر ما پوشیده داشت؛ پیش آمدی و بدنمودی و ناروا کردی که ما را از آزمایش خدا به پیمبرش محمد (صلى الله عليه وآله) و به ما، خبر می دهی، چه در این کار چون آن کسی که خرما به هجر برد یا آن که به گستاخی استادش را که از او تیراندازی بیاموخت به تیراندازی بخواند.

در آن کتاب گفتی : "خداوند از مسلمانان یارانی برای پیمبرش برگزید که به دستیاری آنان نیرویش داد و تأییدش فرمود و رتبه آنان در نزد خدا و رسول به اندازه فضل شان در اسلام بود، پس در میانشان بعد از پیمبر کسی که در اسلام برتر و در راه خدا و رسول مخلص تر است جانشین پیمبر و جانشین جانشین او است" ؛ به جانم (یا به دینم) سوگند که آن دو را در اسلام پایه ای بزرگ است و از تیر مرگی که بدانهارسیده زخمی سخت در پیکر اسلام پدید آمده؛ خداوند رحمتشان کند و نیکوترین پاداش دهاد.

و در آن نامه آورده ای که عثمان در فضل و رتبه سوّمین آنها بود؛ اگر عثمان نیکوکار بود خداوند او را به نیکوکاریش پاداش می دهد و اگر بدکار بود دیدار می کند پروردگار آمرزنده ای را که گران و بزرگ نیاید او را گناهی که بیامرزدش.

به خدای لایزال قسم که همانا امیدوارم و آرزو دارم که چون خداوند مردم را به پایه فضایل آنان در اسلام و نصیحت شان در راه خدا و رسول پاداش عطا کند بهره ما در آن از دیگران زیادتر باشد؛ چه محّمد (ﷺ) چون مبعوث به رسالت شد و به ایمان به خدا و توحید دعوت کرد، ما اهل بیت او نخستین کسانی بودیم که به او ایمان آوردیم و به آن چه آورده تصدیق کردیم.

و چند سال تمام بود که در سرزمین عرب هیچ خانواده ای جز ما خدا را پرستش نمی کردند. و قوم ما خواستند که پیغمبر ما را بکشند و بیخ و بن ما را براندازند، درباره ما چیزها اندیشیدند و کارهایی به ما روا داشتند و آب و نان را به روی ما بستند و توشه را از ما بریدند و زندگی خوش را از ما باز داشتند و ما را همنشین و همدم ترس و بیم نمودند و جاسوسان و دیده بان ها بر ما گماشتند و به کوهی سخت (شعب ابوطالب) ما را مضطر گردانیدند و برای ما آتش جنگ برافروختند و با هم پیمان بستند و همدست شدند و نوشته به میان آوردند که کار را چنان بر ما تنگ گیرند، حتّی با ما نخورند و ننوشند و ازدواج نکنند و از ایشان در تمام مدّت سال جز در موسم حجّ ایمن نبودیم تا این که پیغمبر را به دست آنها دهیم که او را بکشند و مثله اش کنند.

پس خداوند متعال ما را عزیمت آن داد که دست ستم آنان را از سر رسول بریدیم و شرّشان را از ناحیه حضرتش باز داشتیم و آنان را از حریم حرمتش دور

کردیم و در ساعات خوف، شب و روز با شمشیرها در حضور او ایستادگی نمودیم. مؤمن ما به این حفظ و حراست پیمبر طلب پاداش می کرد و امیدوار ثواب بود؛ و کافر ما حمایت از اصل و نسب و دودمان خود می کرد. (مراد این است از بنی هاشم و بنی مطّلب آنکه ایمان به رسول آورد مثل ابوطالب پدر امیرمؤمنین علی (علیه السلام) و حمزة بن عبدالمطّلب(رحمهم الله) در حمایت پیغمبر امیدوار ثواب از خدا بودند و در راه خدا دین و پیغمبر را حفظ می کردند؛ به خصوص ابوطالب (رحمه الله) که خدمت بسیار بزرگ به اسلام کرده و رنج و خدمت او از همه بیشتر بود و دین خود را از کفّار نهان می داشت تا بهتر بتواند خدمت به اسلام کند و پیغمبر او را کافل الیتیم خوانده که فرمود: "انا و کافل الیتیم کهاتین فی الجنّة" و آن که از بنی هاشم ایمان نیاورده و کافر بود چون عبّاس عموی پیغمبر و عقیل و طالب فرزندان ابی طالب و حارث و پدرش نوفل و عمویش ابوسفیان فرزندان حارث بن عبدالمطلب که در شعب ابوطالب با پیغمبر و مؤمنین محصور بودند و حمایت از رسول می کردند نه به حساب دین و رسالت بلکه برای حفظ دودمان و اصل نسب و پس از خلاصی از شعب یکی پس از دیگری اسلام آوردند. و از بنی هاشم ابولهب و پسرش همدست با کفّار بودند و آنان را کمك می کردند).

و از قریش کسانی که اسلام آورده بودند از خوفی که ما داشتیم و رنجی که در آن بودیم ایمن بودند یا به سبب هم قسمی که با مشرکان داشتند که آنان را از شر مشرکان بازمی داشت یا به سبب عشیره ای که پیش رویشان از آنها دفاع می کردند تا کسی بر آنان دست نیابد که از قتل در امان بودند، تا روزگاری بدین منوال بگذشت.

سپس خداوند پیغمبرش را امر به هجرت فرمود و بعد از آنش به قتال مشرکین اذن داد. و هنگامی که جنگ سخت می شد و مردم از ترس، عنان باز پس می کشیدند و رومی گردانیدند و دوطرف کارزار آماده جنگ می شدند، رسول خدا اهل بیت خود را بر پا می کرد و آنان را پیش می داشت که به ایشان اصحاب خود را از گرمی و سوزش نیزه ها و شمشیرها حفظ می کرد، که عبیدة بن حارث پسر عم آن حضرت در جنگ بدر کشته شد و حمزه در روز احد و جعفر طیّار و زید بن حارثه

در جنگ موته و کسی که اگر بخواهم اسمش را ببرم (مراد از این کس خود امیرالمؤمنین (ﷺ)است و آن جناب خبر از خودش می دهد) چندین بار در جنگ ها با پیغمبر (ﷺ)شهادتی را که آن شهدا خواستند نیز خواسته و آرزوی آن را داشته است جز این که روزگارشان به سر آمد که به درجه رفیعه شهادت رسیدند ولی عمر وی به سر نیامده که مرگش به تأخیر افتاد. خداوند به ایشان در ازای آن کارهای شایسته که پیش فرستاده اند نیکو احسان کننده و نعمت دهنده است. و کسی از حامیان پیمبر را مختص تر به خدا در طاعت رسولش و مطیع تر به رسول در طاعت پروردگارش و شکیباتر در محنت ها و سختی ها و هنگام ترس و مواطن مکروه با پیغمبر از این چند تن که نام برده ام ندیدم و در مهاجرین خیر بسیار می شناسیم، خداوند ایشان را نیکوترین پاداش دهاد.

و در آن نامه گفتی که "من بر خلفا حسد برده ام و از بیعت به آنان کندی و خودداری نمودم و بر ایشان ستم کردم" اما ستم معاذالله که چنین باشد و من به احدی ستم کرده باشم.

و اما در خودداری از بیعت و طاعت و در کراهت به امرشان، هیچ عذری پیش کسی نیاورم و پوزش نطلبم، زیرا خداوند چون قبض روح پیمبر کرد، قریش گفتند امیر باید از ما باشد و انصار گفتند از ما؛ پس قریش گفتند محمّد رسول الله (ﷺ) از ما بود، در نتیجه ما سزاواریم به امر خلافت و امارت و انصار تسلیم شدند و امارت را به قریش تفویض کردند. پس سبب برکنار شدن انصار از امارت و استحقاق قریش آن را این بود که محمّد (ﷺ) از قریش بود. و به همین بیان آن که در میان قریش به پیغمبر اولی و اقرب است به خلافت نیز باید احق و اولی باشد (مرادش از این گفتار خود آن بزرگوار است). وگرنه انصار در میان عرب از آن بهره ای بزرگ داشتند. نمی دانم اصحابم به گرفتن حقم تن دردادند یا انصار به من ظلم کردند؟ همین قدر دانم که حقّ من گرفته شد؛ واگذاشتم آن را بر ایشان، خدا از ایشان درگذرد.

اما آن چه درباره عثمان گفتی که "قطع رحم کردم و مردم را بر او شورانیدم" ؛ تو خود دیده ای که عثمان در دین چه ها نمود و با مردم چه ها کرد که سرانجام کارهای او سبب قتلش شده و تو خود دانی که من در قتل او شریك

نبودم و از آن کناره گرفتم و عزلت اختیار کردم؛ مگر این که بخواهی افترا به من زنی و به دروغ نسبت به جنایتم دهی، پس هرچه خواهی بکن و هرچه دلت خواست بگو.

ای عجب از روزگار که با من قرین شد کسی (یعنی معاویه و خلفای گذشته) که در راه دین به پایه من قدم برنداشت و سابقه اش در اسلام چون سابقه من نبود؛ سابقه ای که کسی نتواند به مثل آن توسّل جوید و دعوی چنان سابقت نماید مگر کسی ادعا کند آنچه را که من نشناسمش و گمان نکنم که خدای آن را بشناسد (کنایه از این که جز آن چه گفته ام وجود ندارد و صرف ادعا است، اگر کسی ادعا کند دروغ گفته است) و حمد خدای را بر هر حال.

و امّا آن چه درباره قاتلان عثمان گفتی و از من طلب کردی که ایشان را تسلیم تو کنم؛ من در این امر نظر نمودم و نیك آن را زیر و رو کردم، ندیدم که تسلیم شان به تو و به غیر تو برایم گنجایش داشته و مقدور باشد.

به جانم ـ یا به دینم ـ سوگند اگر از گمرهیت بازنایستی و از دعوی خلافت دست برنداری خواهی دید که کشندگان عثمان خودشان به طلب تو آیند و زحمت نمی دهند که در صحرا و دریا و کوه و دشت ایشان را طلب کنی؛ جز این که طلب کردنشان تو را طلبی است که از آن خوشت نیاید و دیدارشان دیداری است که خوشنودت ننماید (کنایه از این که چنان کار را بر تو سخت کنند که دمار از روزگارت در آورند و زندگی در کام تو تلخ گردد).

ای معاویه هنگامی که مردم ابوبکر را والی قرار دادند، پدرت بوسفیان نزد من آمد و به من گفت: "تو بعد از محمّد به خلافت و امارت سزاواری؛ برخیز و حقّ خود بستان و اگر کسی با تو مخالفت کند من کفالت و حمایتت نمایم، اکنون دست دراز کن تا با تو بیعت کنم" ولی من نپذیرفتم.

و تو دانی که این سخن را پدرت به من گفت و از من خواست؛ ولی من بودم که قبول نکردم از بیم این که مبادا تفرقه میان مسلمانان چون قریب العهد به کفر بودند رخ دهد. پس پدرت به حقّ من از تو آشناتر بود و تو اگر چون پدرت حقّ مرا شناسی راه راست را یافته ای و گرنه خداوند ما را کفایت کند و از تو بی نیاز گرداند. درود بر آن که سزاوار آن است.

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً
وهو الكتاب العاشر من باب المختار
من كتبه ورسائله

وَكَيْفَ أَنْتَ صانِعٌ إِذا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلابيبُ ما أَنْتَ فيهِ مِنْ دُنيا قَدْ تَبَهْجَتْ بِزينَتِها، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِها، دَعَتْكَ فَأَجَبْتَها؛ وقادَتْكَ فَاتَّبَعْتَها، وَأَمَرَتْكَ فأَطَعْتَها. وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ واقِفٌ على ما لا يُنْجيكَ مِنْهُ مِجَن، فَاقْعَسْ عَن هذا الأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسابِ، وَشَمِّرْ لِما قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلا تُمَكِّنِ الْغُواةَ مِنْ سَمْعِكَ؛ وَإِلاّ تَفعَلْ أُعْلِمْكَ ما أَغْفَلْتَ مِنْ نَفسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فيكَ أَمَلَهُ، وَجَرى مِنْك مَجْرىَ الرُّوحِ وَالدَّمِ.

وَمَتى كُنْتُم يا مُعاوِيَةُ ساسَةَ الرَّعِيَّةِ وَوُلاةَ أَمْرِ الامَّةِ بِغَيْرِ قَدَمٍ سابِقٍ وَلا شَرَفٍ باسِقٍ. وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوابِقِ الشَّقاءِ، وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمادِياً في غِرَّةِ الأُمْنِيَّةِ مُخْتَلِفَ الْعَلانِيَةِ والسَّريرَةِ.

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِليَّ وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتالِ لِيُعْلَمَ أَيُّنا الْمَرينُ عَلى قَلْبِهِ، وَالْمُغَطّى عَلى بَصَرِهِ فأَنا أبو حَسَنٍ قاتِلُ جَدِّكَ وَخالِكَ وأخيكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ وَذلِكَ السَّيْفُ مَعي وبذلِكَ الْقَلْبِ أَلْقى عَدُوّي.

ما اسْتَبْدَلْتُ ديناً، وَلا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيًّا وَإِنّي لَعَلَى الْمِنْهاجِ الذي تَرَكْتُمُوهُ طائِعينَ وَدَخَلْتُمْ فيهِ مُكْرهينَ.

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثائِراً بِعُثْمانَ وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمانَ فاطْلُبْهُ مِنْ هُناكَ إِن كُنْتَ طالِباً فكَأَنّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ من الْحَرْبِ إِذا عَضَّتْكَ ضَجيجَ الْجِمالِ بالأَثْقالِ وَكأَنّي بِجَماعَتِكَ تَدْعُوني جَزْعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتابِعِ، وَالْقَضاءِ الْواقِعِ، وَمَصارِعَ بَعْدَ مَصارِعَ إِلى كِتابِ اللَّهِ وَهِيَ كافِرَةٌ جاحِدَةٌ، أَوْ مُبايِعَةٌ حائِدَةٌ(١).

سند الكتاب ونقل صورته الكاملة

هذا الكتاب نقله نصر بن مزاحم المنقريّ في كتاب صفين مسنداً (**ص ٥٩، الطبع الناصريّ ١٣٠١ هـ**) والرجل توفى قبل الرّضي بمأتي سنة تقريباً. وما في النهج بعض ما في كتاب نصر على ما هو عادة الرضي كما أشرنا غير مرّة إلى أنّ غرضه الأهم انتخاب كلامه الذي

(١) نهج البلاغة (محمد عبده): ٣/ ١٢، وبحار الأنوار: ٣٣/ ١٠٢.

له براعة في الفصاحة والبلاغة، ودونك الكتاب على صورته الكاملة التي نقلها نصر:

كتب عليه السلام إلى معاوية: «بسم اللّه الرحمٰن الرَّحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان سلام على من اتّبع الهدى فإنّي أحمد الله الذي لا إلٰه إلاّ هو. أما بعد فإنّك قد رأيت من الدُّنيا وتصريفها بأهلها وإلى ما مضى منها وخير ما بقي من الدُّنيا ما أصاب العباد الصادقون فيما مضى ومن نسي الدُّنيا نسيان الآخرة يجد بينهما بوناً بعيداً.

واعلم يا معاوية أنّك قد ادّعيت أمراً لست من أهله لا في القدم ولا في الولاية ولست تقول فيه بأمر بيّن تعرف لك به أثرة، ولا لك عليه شاهدٌ من كتاب الله ولا عهد تدّعيه من رسول الله صلى الله عليه وآله.

فكيف أنت صانع إذا انقشعت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا قد انتهت بزينتها، وركنت إلى لذّتها، وخلّى فيها بينك وبين عدوٍ جاهد ملحّ مع ما عرض في نفسك من دنيا قد دعتك فأجبتها، وقادتك فاتّبعتها، وأمرتك فأطعتها، فأيس من هذا الأمر، وخذ أهبة الحساب، فإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مِجَن.

ومتى كنتم يا معاوية ساسة للرعية، أو ولاة لأمر هذه الأُمة بغير قدم حسنٍ ولا شرفٍ سابقٍ على قومكم؛ فشمّر لما قد نزل بك، ولا تمكّن الشيطان من بغيته فيك مع أنّي أعرف أنَّ الله ورسوله صادقان فنعوذ بالله من لزوم سابق الشقا وإلاّ تفعل اعلمك ما أغفلك من نفسك فإنك مترف قد أخذ منك الشيطان مأخذه فجرى منك مجرى الدَّم في العروق.

واعلم أنَّ هذا الأمر لو كان إلى النّاس أو بأيديهم لحسدونا، ولأمتنّوا به علينا، ولكنّه قضاء ممّن امتنّ به علينا على لسان نبيّه الصادق المصدّق. لا أفلح من شكّ بعد العرفان والبيّنة. اللّهمَّ احكم بيننا وبين عدوّنا بالحقّ وأنت خير الحاكمين».

فكتب إليه عليه السلام معاوية:

بسم اللّه الرحمٰن الرَّحيم، من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب، أمّا بعد فدع الحسد فإنّك طالما لم تنتفع به ولا تفسد سابقة قدمك بشره نخوتك، فإنَّ الأعمال بخواتيمها، ولا تمحق سابقتك في حقّ من لا حقّ لك في حقّه فإنّك إن تفعل لا تضرّ بذلك إلاّ نفسك، ولا تمحق إلاّ عملك، ولا تبطل إلاّ حجّتك ولعمري ما مضى لك من السابقات لشبيه أن يكون ممحوقاً لمااجترأت عليه من سفك الدّماء، وخلاف أهل الحقّ، فاقرأ سورة الفلق وتعوَّذ بالله من شرّ نفسك فإنّك الحاسد إذا حسد[1].

---

(١) وقعة صفين: ١١٠.

واعلم أنَّ بين صورة كتاب الأمير عليه السلام على نسخة كتاب صفين التي نقلناه عنها وبين صورته على نسخته التي نقله عنها الفاضل الشارح المعتزلي في شرحه على النهج بوناً بعيداً وتفاوتاً كثيراً ولسنانعلم أنَّ هذا الإختلاف الفاحش من أين تطرَّق إلى كتاب واحد ولم يحضرني نسخة مصحّحة من كتاب صفين ولا نسخ متعددة منه لنحكم بتّاً على صحّة نسخة، ولا يبعد أن يقال أنّه إذا دار الأمر إلى اختيار نسخة من بين النسخ وترجيحها على غيرها فالمختار هو ما في النهج لمكانة الرضي في معرفة فنون الكلام وأساليبه، كيف لا وقد كان عالماً نبيلاً، وشاعراً مفلقاً، وأديباً بارعاً، ومترسلاً قويّاً ماهراً، وفي تميز فصيح الكلام من غيره إماماً خرّيتاً يشهد على ذلك ديوان أشعاره وخطبته على النهج وسائر آثاره.

وأمّا الكتاب على نسخة الشارح المعتزلي فهذه صورته: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان سلام على من اتّبع الهدى فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد فإنّك قد رأيت مرور الدُّنيا وانقضاءها وتصرّمها بأهلها وخير ما اكتسب من الدُّنيا ما أصابه العباد الصالحون منها من التقوى ومن يقس الدُّنيا بالآخرة يجد بينهما بعيداً[١].

واعلم يا معاوية أنّك قد ادّعيت أمراً لست من أهله لا في القديم ولا في الحديث ولست تقول فيه بأمر بيّن يعرف له أثر ولا عليك منه شاهد ولست متعلّقاً بآية من كتاب الله ولا عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله فكيف أنت صانع إذا تقشّعت عنك غيابة ما أنت فيه من دنيا قد فتنت بزينتها، وركنت إلى لذّاتها، وخلّى بينك وبين عدوّك فيها، وهو عدوٌّ كلب مضلٌّ جاهد مليح ملح مع ما قد ثبت في نفسك من حبّها دعتك فأجبتها، وقادتك فاتّبعتها، وأمرتك فأطعتها؛ فاقعس عن هذا الأمر، وخذ أهبة الحساب فإنّه يوشك أن يقفك واقف على ما ينجيك مجنٍ.

ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية، أو ولاة لأمر هذه الأُمّة بلا قدم حسن، ولا شرف تليد على قومكم؛ فاستيقظ من سنتك وارجع إلى خالقك، وشمّر لما سينزل بك؛ ولا تمكّن عدوَّك الشيطان من بغية فيك مع أنّي أعرف أنَّ الله ورسوله صادقان نعوذ بالله من لزوم سابق الشقاء، وإلاّ تفعل[٢] فإنّي اعلمك ما أغفلت من نفسك أنّك مترف قد أخذ منك الشيطان مأخذه فجرى منك مجرى الدَّم في العروق، ولست من أئمّة هذه الأُمّة ولا من رعاتها.

واعلم أنَّ هذا الأمر لو كان إلى النّاس أو بأيديهم لحسدوناه، ولامتنّوا علينا به، ولكنّه قضاء ممّن منحناه واختصّنا به على لسان نبيّه الصادق المصدّق، لا أفلح من شكَّ بعد العرفان

(١) في نسخة: بوناً بعيداً. شرح النهج: ٨٦/١٥، ونهج السعادة: ٢٤٦/٤ ح ٩١، ووقعة صفين: ١٠٩.

(٢) في نسخة: بغيته. بحار الأنوار: ١٠٠/٣٣.

والبيّنة. ربّ احكم بيننا وبين عدوّنا بالحقّ وأنت خير الحاكمين[١].

فكتب معاوية إليه الجواب من معاوية بن أبي سفيان...... ولا تفسد سابقة جهادك بشره...... ولا تمحص سابقتك بقتال من لا حقَّ لك...... فاقرأ السورة التي يذكر فيها الفلق وتعوَّذ من نفسك فإنّك الحاسد إذا حسد.

اللغة

«تكشّفت عنك» أي ارتفعت وزالت عنك و«انقشعت» و«تقشّعت» بمعنى انكشفت وتكشّفت يقال: انقشع السحاب وتقشّع أي زال وانكشف.

«جلابيب» جمع الجلباب بكسر (**الجيم**) وسكون (**اللام**) وتخفيف (**الباء**) وبكسر (**اللام**) وتشديد (**الباء**) أيضاً: الملحفة وهي الثوب الواسع فوق جميع الثياب. وتجلبب الرّجل جلببة أي لبس الجلباب ولم تدغم لأنّها ملحقة بدحرج.

«تبهّجت» أي تحسّنت. «يوشك» بالكسر أي يقرب ويدنو ويسرع؛ يقال: أوشك يوشك إيشاكاً فهو موشك، والوشيك السريع.

قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: وقد أوشك فلان إيشاكاً أي أسرع السير؛ ومنه قولهم يوشك أن يكون كذا. قال جرير يهجو العباس بن يزيد الكندي:

إذا جهل الشقيُّ فلم يقدّر ببعض الأمر أوشك أن يصابا

والعلامة تقول: يوشك بفتح (**الشين**) وهي لغة رديئة، انتهى كلامه.

«يقفك واقف على ما لا ينجيك منه» أي يطلعك عليه. قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: وقفته على ذنبه أي اطّلعتهُ عليه.

«مجنّ» الترس، وبعض النسخ «منج» اسم الفاعل من قوله عليه السلام (**ينجيك**).

«اقعس عن هذا الأمر» أمر من قعس عنه قَعَساً من باب علم أي تأخّر عنه كتقاعس واقعنسس كما في «**صحاح**» الجوهري؛ وعلى نسخة نصر أمر من أيس منه إياساً من باب علم أي قنط وقطع الرجاء منه. «الأهبة» في «**الصحاح**»: تأهّب: استعدّ، وأهبة الحرب عدّتها؛ والجمع أُهب، «شمّر» فقد مضى تفسيره وتحقيقه في شرح المختار ٢٣٧ من باب الخطب (**ص ١٩٠ ج ١٦**) فراجع.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/١٠١، ونهج السعادة: ٤/٢٤٩.

«الغواة» كالقضاة جمع غاوٍ أي الضال. الإغفال: الإهمال والترك. «المترف» مفعول، وفي «**الصحاح**»: أترفته النعمة أي أطغته. وفي بعض النسخ مشكول على هيئة الفاعل والصواب ما قدّمناه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَارْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ [الأنبياء: ١٣].

(**المأخذ**): المنهج والمسلك، ويروى على هيئة الجمع أعني المآخذ أيضاً، وجاءت المآخذ بمعنى المصائد أيضاً.

«ساسة» جمع سائس كبطلة جمع باطل إلاّ أنَّ حرف العلّة فيها ابدلت ألفاً وأصلها سيسة. «باسق» أي عالٍ رفيع، يقال: بسق فلان على أصحابه أي علاهم وبسق النخل بسوقاً أي طال وارتفعت أغصانه ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٢] قال هشام أخوذي الرّمة في أبيات يرثي بها أخاه ذا الرّمة وابن عمّه أوفى بن دلهم (**الحماسة ٢٦٤**).

نعوا باسق الأفعال لا يخلفونه تكاد الجبال الصمّ منه تصدّع

«متمادياً» فاعل من التمادي وأصله المدى أي الغاية، يقال: تمادى فلان في غيّه أي دام على فعله ولجّ وبلغ فيه المدى. «الغرّة»: الغفلة. «الأمنيّة» بضمّ الهمزة واحدة الأماني: ما يتمناه الإنسان ويؤمل إدراكه وطمع الناس.

«أعف» أمر من الإعفاء، وفي بعض النسخ مشكول بضمّ (**الفاء**) وهمزة الوصل ولكنّه وهم والصواب الأوّل يقال: أعفاه من الأمر أي برّاه منه. وفي «**الصحاح**»: يقال: أعفني من الخروج معك أي دَعني منه؛ واستعفاه من الخروج معه أي سأله الاعفاء.

«المرين» اسم مفعول من ران كالمدين من دان، وفي النهاية الأثيرية: يقال: رين بالرجل ريناً إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، وأصل الرين: الطبع والتغطية ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٥] أي طبع وختم، ومنه حديث عليّ ﷺ: «**لتعلم** أيّنا المرين على قلبه والمغطّى على بصره»[1]؛ (**والمرين**) المفعول به الرين؛ ومنه حديث مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٧٧] قال: هو الرّان، والرّان والرّين سواء كالذام والذيم، والعاب والعيب. انتهى كلامه.

ولا يخفى عليك أنَّ ابن الأثير أشار بقوله: «ومنه حديث عليّ ﷺ لتعلم أيّنا المريد على قلبه والمغطّى على بصره» إلى هذه الفقرة من ذلك الكتاب الذي نحن بصدد شرحه وابن الأثير هذا هو مبارك بن أبي الكرام أثير الدِّين محمّد الجزريّ توفي بموصل سنة ٦٠٦ من الهجرة.

---

(١) نهج البلاغة: ٣/ ١١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٨٧.

وفي «**الصحاح**» للجوهريّ: الرّين الطبع والدنس؛ يقال: ران على قلبه ذنبه يرين ريناً وريوناً أي غلب. وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي غلب. وقال الحسن: هو الذَّنب على الذّنب حتّى يسود القلب. وقال أبو عبيدة: كلُّ ما غلبك فقد ران ورانك وران عليك. وقال أبو زيد: يقال: رين بالرَّجل إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به، وران النعاس في العين ورانت الخمر عليه غلبته. وقال القنانيّ الأعرابيّ: رين به أي انقطع به ورانت نفسه ترين ريناً أي خبثت وغثّت. انتهى قول الجوهريّ.

«شَدْخاً» قال الجوهري في «**الصحاح**»: الشدخ كسر الشيء الأجوف، تقول: شدخت رأسه ـ من باب منع ـ فانشدخ، وشدّخت الرّؤوس شدّد للكثرة. انتهى.

«المنهاج» كالمعراج: الطريق الواضح «ثائراً بعثمان» ثأر القتيل وبالقتيل ثَأراً أو ثؤرَةً من باب منع: طلب دمه وقتل قاتله فهو ثائر، وقال الشاعر كما في «**الصحاح**»:

شفيت به نفسي وأدركت ثؤرتي بني مالك هل كنت في ثُؤرتي نكساً

وقال الجوهريُّ: الثائر: الذي لا يُبْقى على شيء حتّى يدرك ثَأره. وقال المرزوقيُّ في شرح الحماسة (٦٠٧) عند قول منصور بن مسجاح:

ثَأرت رُكاب العَير منهم بِهَجْمةٍ صفايا ولا بُقْيا لِمَن هو ثائر

والثائر ليس من حقّه أن يبقى، والأصل في الثائر القاتل، فوضعه موضع الواتر المنتقم، يقال: ثأرت فلاناً وثأرت بفلان إذا قتلت قاتله.

«عضّتك» عضّه عضّاً وعضيضاً من باب منع أي أمسكه بأسنانه ويقال بالفارسية گازگرفت اورا، يقال: عضّه، وعضّ به وعضّ عليه وهما يتعاضّان إذا عضَّ كلُّ واحد منهما صاحبه وكذلك المعاضّة والعضاض. وأعضضته الشيء فعضّه وفي الحديث فأعضّوه بهن أبيه ولا تكنوا، ويقال: أعضضته سيفي أي ضربته به. وعضّه الزمان أي اشتدّ عليه. وعضّ الشيء أي لزمه واستمسك به.

«ضجيج» مصدر من قولك ضجّ يضجّ من باب ضرب أي جلّب وصاح وجزع من شيء فالضجيج: الصياح.

«حائدة» أجوف يائي من حاد يحيد حيداً من باب باع يقال: حاد عن الطريق إذا مال عنه وعدل.

الإعراب

«من دُنيا» كلمة (**من**) بيانيّة لكلمة (**ما**)، وضمير تبهّجت وأخواتها يرجع إلى الدُّنيا وضمائر الخطاب إلى من أجاب دعوتها.

«يوشك» من أفعال المقاربة، هو وأخواه كاد وكرب من النوع الأوَّل منها الذي وضع للدلالة على قرب الخبر للمسمّى باسمها. وهي تعمل عمل (**كان**) إلاّ أنَّ خبرها يجب كونه جملة ليتوجّه الحكم إلى مضمونها (**وشذّ مجيئه**) مفرداً (**فواقف**) اسم ليوشك، (**وأن يقفك**) في موضع نصب خبر له قدِّم على الاسم، وعلى صلة يقف.

(**والفاء**) في (**فاقعس**) فصيحة، (**وتفعل واعلمك**) مجزومان (**بأن**) في (**إلاّ**) لأنّ أصلها هٰهنا إن لا. وكلمة (**من**) في (**من نفسك**) بيانيّة يفسُر كلمة (**ما**). ومفعول (**اغفلت**) العائد إلى (**ما**) محذوف أي ما أغفلته، أو يقال من نفسك متعلّق لأغفلت وإن لم نجد في المعاجم الحاضرة لدينا أن يقال أغفل منه ونحوه.

«مأخذه» مفعول لقوله أخذ، وروي المآخذ بالجمع أيضاً. وكذا مجرى الروح والدَّم لقوله جرى.

قوله: (**متى كنتم**) ـ إلخ ـ استفهام على سبيل الانكار، قوله: (**بغير قدم سابق**) استفهام آخر أيضاً على سبيل التعنيف والعتاب والانكار أي: أبغير قدم سابق وشرف باسق.

«مختلف العلانية» خبر بعد خبر لقوله (**أن تكون**)؛ والخبر الأوّل متمادياً. (**وقد دعوت**)؛ المفعول محذوف أي وقد دعوتني أو دعوتنا.

«جانباً» منصوب على الظرفية لقوله (**دع**)، واللاّم في «ليعلم» جارّة للتعليل والفعل المدخول بها مأوّل (**بأن**) المصدرية مضمرةً إلى المصدر المجرور (**باللام**)، والمعلل الأفعال الثلاثة أعني دع وأخويه التاليين له.

«قاتل جدِّك» إمّا خبر بعد خبر للضمير أنا، أو صفة لأبي حسن نحو قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] في كونه صفة للّه ربِّ العالمين.

«شدخاً» تميز يبيّن إبهام النسبة في قوله عليه السلام (**أنا قاتل جدّك**). «ما استبدلت ديناً» المبدل منه محذوف أي ما استبدلت ديناً بديني.

«ثائراً» حال لضمير جئت. و«جزعاً» تميز للنسبة في تدعو. (**من الضرب**) متعلّق بقوله جزعاً، (**والقضاء**) عطف على الضرب وكذا المصارع الأولى معطوفة على الضرب مجرورة بالفتح لأنّها غير منصرفة والثّانية مجرورة بالإضافة. وجملة «وهي كافرة» حالية والعامل في

الحال تدعو وضمير التأنيث يرجع إلى جماعة معاوية. **(وإلى كتاب الله)** متعلّق بتدعو. **(وجاحدة)** صفة للكافرة، **(ومبايعة)** معطوفة على الكافرة، **(وحائدة)** صفة للمبايعة.

المعنى

كتب عليه السلام هذا الكتاب إلى معاوية لمّا أراد المسير إلى أهل الشام بعدما شاور من كان معه في ذلك وأرود كلامه عليه السلام في المشاورة مع قومه وكلام عدّة من أنصاره وأعوانه في جوابه عليه السلام وكذا كلام بعض من المنافقين له عليه السلام وما دار بينهم وبين أصحابه عليه السلام نصر في كتاب صفّين ولا بأس بنقلهما لأنَّ كلمات أنصاره في المقام تزيد القاريء إيماناً.

نصر بن مزاحم، عن عمر بن سعد، عن إسماعيل بن يزيد والحارث بن حصيرة عن عبد الرَّحمٰن بن عبيد أبي الكنود قال: لمّا أراد عليّ عليه السلام المسير إلى أهل الشام دعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار فحمد الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد فإنكم ميامين الرأي مراجيح الحلم مقاويل بالحقّ مباركو الفعل والأمر وقد أردنا المسير إلى عدوّنا وعدوّكم فأشيروا علينا برأيكم[1].

أقول: كلامه عليه السلام هذا مع وجازته وجودته وفصاحته وبلاغته ليس بمذكور في النهج.

كلام هاشم بن عتبة له عليه السلام

فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثمَّ قال: أمّا بعد يا أمير المؤمنين فأنا بالقوم جدّ خبيرهم لك ولأشياعك أعداء وهم لمن يطلب حرث الدُّنيا أولياء، وهم مقاتلوك ومجاهدوك لا يبقون جهداً مشاحّة على الدُّنيا وضنّا بما في أيديهم منها وليس لهم إربة غيرها إلاّ ما يخدعون به الجّهال من الطلب بدم عثمان بن عفّان، كذبوا ليسوا بدمه يثارون ولكن الدُّنيا يطلبون فسر بنا إليهم فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلاّ الضلال، وإن أبوا إلاّ الشقاق فذلك الظنّ بهم والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممّن يطاع إذا نهى ويسمع إذا أمر.

كلام عمار بن ياسر له عليه السلام

نصر عمر بن سعد، عن الحارث بن حصيرة، عن عبد الرَّحمٰن بن عبيد أبي الكنود: أنَّ عمّار بن ياسر قام فذكر الله بما هو أهله وحمده وقال: يا أمير المؤمنين إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فاشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة،

(١) بحار الأنوار: ٣٩٧/٣٢ ح ٣٦٩، والغدير: ٧٧/٢.

وادعهم إلى رشدهم وحظّهم فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلاّ حربنا، فوالله إنَّ سفك دمائهم والجدَّ في جهادهم لقربة عند الله وهو كرامة منه.

كلام قيس بن سعد له عليه السلام

وفي هذا الحديث: ثمَّ قام قيس بن سعد بن عبادة فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: يا أمير المؤمنين انكمش بنا إلى عدوّنا ولا تعرّج فوالله لجهادهم أحبّ إليّ من جهاد التُرك والروم لادهانهم في دين الله واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمّد ﷺ من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ونحن لهم فيما يزعمون قطين، قال: يعني رقيق.

كلام سهل بن حنيف له عليه السلام

فقال أشياخ الأنصار منهم خزيمة بن ثابت وأبو أيّوب الأنصاري وغيرهما: لم تقدَّمت أشياخ قومك، وبدأتهم يا قيس بالكلام؟ فقال: أمّا إنّي عارف بفضلكم، معظم لشأنكم ولكنّي وجدت في نفسي الضغن الذي جاش في صدوركم حين ذكرت الأحزاب. فقال بعضهم لبعض: ليقم رجل منكم فليجب أمير المؤمنين عن جماعتكم فقالوا: قم يا سهل بن حنيف فقام سهل فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: يا أمير المؤمنين نحن سلم لمن سالمت، وحرب لمن حاربت، ورأينا رأيك، ونحن كفُّ يمينك. وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة فتأمرهم بالشخوص وتخبرهم بما صنع الله لهم في ذلك من الفضل فإنّهم هم أهل البلد وهم الناس؛ فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب وأمّا نحن فليس عليك منّا خلاف؛ متى دعوتنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك.

كلام اربد الفزاري له عليه السلام وقتله

نصر عمر بن سعد، عن أبي مخنف، عن زكريا بن الحارث، عن أبي جيش عن معبد قال: قام عليّ عليه السلام خطيباً على منبره فكنت تحت المنبر حين حرّض الناس وأمرهم بالمسير إلى صفّين لقتال أهل الشام فبدأ فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: سيروا إلى أعداء السنن والقرآن سيروا إلى بقيّة الأحزاب وقتلة المهاجرين والأنصار. فقام رجل من بني فزارة يقال له أربد فقال: أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم كلاّها الله[1] إذاً لا نفعل ذلك.

---

(١) نهج السعادة: ٢/٩٦، ووقعة صفين: ٩٤.
كلاها الله: مخفف كلا والله.

فقام الأشتر فقال: من لهذا أيّها النّاس؟ وهرب الفزاريُّ واشتدَّ الناس على أثره فلحق في مكان من السوق تباع فيه البرازين فوطّؤه بأرجلهم وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتّى قتل، فأتى عليّ عليه السلام فقيل: يا أمير المؤمنين قتل الرجل قال: ومن قتله؟ قالوا: قتله همدان وفيهم شوبة من الناس، فقال: قتيل عميّة لا يدري من قتله، ديته من بيت مال المسلمين[١].

قال علاقة التميمي:

أعوذ بربّي أن تكون منيّتي كما مات في سوق البرازين أرْبَد

تعاوده همدان خفق نعالهم إذا رُفِعَت عنه يد وضعت يد

كلام الاشتر له عليه السلام

قال: وقام الأشتر فحمد الله وأثنى عليه فقال يا أمير المؤمنين لا يهدنك ما رأيت ولا يؤيسنّك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقيّ الخائن إنَّ جميع من ترى من الناس شيعتك وليسوا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ولا يحبّون بقاء بعدك فإن شئت فسر بنا إلى عدوّك والله ما ينجو من الموت من خافه ولا يعطى البقاء من أحبّه وما يعيش بآمال إلاّ شقيّ، وإنّا لَعَلى بيّنة من ربّنا، إنَّ نفساً لن تموت حتّى يأتي أجلها؛ فكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين فأسخطوا الله وأظلمت بأعمالهم الأرض وباعوا خلاقهم بعرض من الدُّنيا يسير.

فقال عليٌّ عليه السلام: «الطريق مشترك والناس في الحقّ سواء ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامّة فله ما نوى وقد قضى ما عليه»[٢] ثمَّ نزل فدخل منزله.

كلام ابن المعتم وحنظلة العبسي المعروف بحنظلة الكاتب له عليه السلام وكانا كاتبين لمعاوية ومخالفين لأمير المؤمنين علي عليه السلام، وما قال لهما قوم علي عليه السلام وأمره بهدم دار حنظلة وما جرى في ذلك

نصر عمر بن سعد قال: حدَّثني أبو زهير العبسيّ، عن النضر بن صالح: إنَّ عبد الله بن المعتم العبسي، وحنظلة بن الربيع التميمي لما أمر عليٌّ عليه السلام الناس بالمسير إلى الشام دخلا في رجال كثير من غطفان وبني تميم على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له التميميّ: يا أمير المؤمنين إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منّا ورأينا لك رأياً فلا تردّه علينا: فإنّا نظرنا لك

(١) الكافي: ٧/٣٩٤ ح١، ووسائل الشيعة: ٢٩/ ٧١ ح ٧/ ٣٥.

(٢) نهج السعادة: ٢/٩٧، وميزان الحكمة: ٢/١٠٢٨ ح ١٤٣٠.

ولمن معك، أقم وكاتب هذا الرجل ولا تعجل إلى قتال أهل الشام فإنّي والله ما أدري ولا تدري لمن تكون إذا لقيتم الغلبة وعلى من تكون الدبرة؟ وقام ابن المعتم فتكلّم وتكلّم القوم الذين دخلوا معهما بمثل ما تكلّم به.

فحمد عليٌّ عليه السلام الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد فإنَّ الله وارث العباد والبلاد وربّ السماوات والأرضين السبع وإليه ترجعون يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممّن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء. أمّا الدّبرة فإنها على الضالّين العاصين ظفروا أو ظُفِر بهم. وأيم الله إنّي لأسمع كلام قوم ما أراهم يريدون أن يعرفوا معروفاً ولا ينكروا منكراً.

فقام إليه معقل بن قيس اليربوعي ثمَّ الرياحي فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ هؤلاء والله ما أتوك بنصح ولا دخلوا عليك إلاّ بغشّ فاحذرهم فإنّهم أدنى العدوّ.

فقال له مالك بن حبيب: يا أمير المؤمنين أنّه بلغني أنَّ حنظلة هذا يكاتب معاوية فادفعه إلينا نحبسه حتّى تنقضي غزاتك ثمَّ تنصرف.

وقام إلى عليّ عليه السلام عياش بن ربيعة وقائد بن بكير العبسيّان فقالا: يا أمير المؤمنين إنَّ صاحبنا عبد الله بن المعتمّ قد بلغنا أنّه يكاتب معاوية فاحبسه أو أمكنّا منه نحبسه حتّى تنقضي غزاتك وتنصرف.

فأخذا (**يعني ابن المعتم وحنظلة الكاتب**) يقولان: هذا جزاء من نصركم وأشار عليكم بالرأي فيما بينكم وبين عدوّكم.

فقال لهما عليٌّ عليه السلام: الله بيني وبينكم وإليه أكلكم وبه أستظهر عليكم اذهبوا حيث شئتم.

ثمَّ بعث عليٌّ عليه السلام إلى حنظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب وهو من الصحابة فقال: يا حنظلة أعليّ أم لي؟ قال: لا عليك ولا لك. قال: فما تريد؟ قال: اشخص إلى الرها فإنّه فرج من الفروج أصمد له حتّى ينقضي هذا الأمر؛ فغضب من ذلك خيار بني عمرو بن تميم وهم رهطه. فقال: إنّكم والله لا تغرّوني من ديني دعوني فأنا أعلم منكم. فقالوا: والله لئن لم تخرج مع هذا الرَّجل لا ندع فلان يخرج معك لام ولده ولا ولدها ولئن أردت ذلك لنقتلنّك فأعانه ناس من قومه فاخترطوا سيوفهم، فقال: أجّلوني حتّى أنظر فدخل منزله وأغلق بابه حتّى إذا أمس هرب إلى معاوية وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير، ولحق ابن المعتمّ أيضاً حتّى أتى معاوية وخرج معه أحد عشر رجلاً من قومه، وأمّا حنظلة فخرج بثلاثة وعشرين رجلاً من قومه ولكنّهما لم يقاتلا مع معاوية واعتزلا الفريقين جميعاً فقال حنظلة حين خرج إلى معاوية:

يسلّ عواة عند بابي سيوفها ونادى مناد في الهجيم لأقبلا

سأتركّكم عوداً لأصعب فرقة إذا قلتم كلا يقول لكم بلا

قال: فلمّا هرب حنظلة أمر عليّ عليه السلام بداره فهدمت هدمها عرّيفهم بكر بن تميم وشبث ابن ربعي[١].

كلام عدي بن حاتم الطائي له عليه السلام

نصر: عمر بن سعد، عن سعد بن طريف، عن أبي المجاهد، عن المحلّ بن خليفة قال: قام عديّ بن حاتم الطائي فبدأ فحمد الله بما هو أهله وأثنى عليه ثمَّ قال: يا أمير المؤمنين ما قلت إلاّ بعلم ولا دعوت إلاّ إلى حقّ ولا أمرت إلاّ برشد فإن رأيت أن تستأني هؤلاء القوم وتستديمهم حتّى يأتيهم كتبك ويقدم عليهم رسلك فعلت فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا والعافية أوسع لنا ولهم وإن يتمادوا في الشقاق ولا ينزعوا عن الغيّ فسر إليهم وقد قدَّمنا إليهم العذر ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحقّ فوالله لهم من الله أبعد وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم بناحية البصرة أمس لما أجهدنا لهم الحقّ فتركوه ناوحناهم براكاء القتال حتّى بلغنا منهم ما نحب وبلغ الله منهم رضاه فيما يرى.

كلام زيد بن حصين الطائي له عليه السلام

فقام زيد بن حصين الطائي وكان من أصحاب البرانس المجتهدين فقال: الحمد لله حتّى يرضى ولا إله إلاّ الله ربّنا ومحمّد رسول الله صلى الله عليه وآله نبيّنا أمّا بعد، فوالله لئن كنّا في شكّ من قتال من خالفنا لا يصلح لنا النيّة في قتالهم حتّى نستديمهم ونستأنيهم ما الأعمال إلاّ في تباب ولا السعي إلاّ في ضلال والله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١] إنّا والله ما ارتبنا طرفة عين فيمن يبتغون دمه فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم، القليل في الإسلام حظّهم، أعوان الظلم، ومسدّدي أساس الجور والعدوان ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان.

فقام رجل من طيء فقال: يا زيد بن حصين أكلام سيّدنا عديّ بن حاتم تهجن؟ قال: فقال: ما أنت بأعرف بحقّ عديّ منّي ولكن لا أدع القول بالحقّ وإن سخط الناس، قال: فقال عديّ بن حاتم: الطريق مشترك والنّاس في الحقّ سواء فمن اجتهد رأيه في نصيحة العامّة فقد قضى الذي عليه.

---

(١) وقعة صفين: ٩٧، وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٧٦.

كلام أبي زبيب بن عوف له عليه السلام

نصر عمر بن سعد، عن الحراث بن حصيرة[١] قال: دخل أبو زبيب بن عوف على عليّ عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين لئن كنّا على الحقّ لأنت أهدانا سبيلاً وأعظمنا في الخير نصيباً ولئن كنّا في ضلالة إنك لأثقلنا ظهراً وأعظمنا وزراً أمرتنا بالمسير إلى هذا العدوّ وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية وأظهرنا لهم العداوة نريد بذلك ما يعلم الله وفي أنفسنا من ذلك ما فيها؛ أليس الذي نحن عليه الحقّ المبين؛ والذي عليه عدوّنا الغيّ والحوب الكبير؟

فقال عليّ: شهدت أنّك إن مضيت معنا ناصراً لدعوتنا صحيح النيّة في نصرتنا قد قطعت عنهم الولاية وأظهرت لهم العداوة كما زعمت فإنّك وليّ الله تسبح في رضوانه وتركض في طاعته فأبشر أبا زبيب[٢].

فقال له عمّار بن ياسر: أثبت أبا زبيب ولا تشكّ في الأحزاب عدوّ الله ورسوله قال: فقال أبو زبيب: ما أُحبّ أنَّ لي شاهدين من هذه الأُمّة فيشهدا لي على ما سألت عنه من هذا الأمر الذي أهمّني مكانكما. قال: وخرج عمّار وهو يقول:

سيروا إلى الأحزاب أعداءِ النبيّ ... سيروا فخير الناس أتباع عليّ

هذا أوان طاب سلّ المشرفيّ ... وقودنا الخيل وهزّ السمهريّ

كلام يزيد بن قيس الأرحبي

عمر بن سعد، عن أبي روق قال: دخل يزيد بن قيس الأرحبيّ على عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين نحن على جهاز وعدة وأكثر الناس أهل التقوى ومن ليس بمضعف وليس به علّة فمُر مُناديك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة فإنَّ أخا الحرب ليس بالسَّؤم ولا النَّوْم ولا من إذا أمكنه الفرض أجّلَها واستشار فيها ولا من يؤخّر الحرب في النوب إلى غد وبعد غد.

كلام زياد بن النضر له عليه السلام

فقال زياد بن النضر: لقد نصح لك يا أمير المؤمنين يزيد بن قيس وقال ما يعرف فتوكّل على الله وثق به واشخص بنا إلى هذا العدوّ راشداً معاناً فإن يرد الله بهم خيراً لا يدعوك رغبة عنك إلى من ليس مثلك في السابقة مع النبيّ صلى الله عليه وآله والقدم في الإسلام والقرابة من محمّد صلى الله عليه وآله

(١) في نسخة: حصين، نهج السعادة: ٢/ ١٠٠.

(٢) نهج السعادة: ٢/ ١٠١، ووقعة صفين: ١٠٠.

وإلاّ ينيبوا ويقبلوا ويأبوا إلاّ حربنا نجد حربهم علينا هيّناً ورجونا أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم بالأمس.

كلام عبد الله بن بديل له عليه السلام

ثمّ قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ القوم لو كانوا الله يريدون أو لله يعملون ما خالفونا ولكنَّ القوم إنّما يقاتلون فراراً من الأسوة وحبّاً للأثرة وضنّاً بسلطانهم وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم وعلى إحن في أنفسهم وعداوة يجدونها في صدورهم لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة قتلت فيها آباءهم وإخوانهم.

ثمّ التفت إلى الناس فقال: فكيف يبايع معاوية عليّاً وقد قتل أخاه حنظلة وخاله الوليد وجدَّه عتبة في موقف واحد والله ما أظنُّ أن يفعلوا ولا يستقيموا لكم دون أن تقصد فيهم المران وتقطع على هامهم السيوف وتنثر حواجبهم بعُمد الحديد وتكون أُمور جمة بين الفريقين.

سب أصحاب علي عليه السلام معاوية وأتباعه وبراءتهم عنهم ومنعه عليه السلام إياهم عن السب

نصر: عمر بن سعد، عن عبد الرَّحمٰن، عن الحارث بن حصيرة، عن عبد الله بن شريك قال: خرج حجر بن عديّ وعمرو بن الحمق يظهران البراءة واللّعن من أهل الشام فأرسل إليهما عليّ عليه السلام أن كفّا عما يبلغني عنكما فأتياه فقالا يا أمير المؤمنين ألسنا محقّين؟ قال: بلى، قالا: فلم منعتنا من شتمهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا لعّانين شتّامين تشتمون وتتبرَّؤن ولكن لو وصفتم مساويء أعمالهم فقلتم من سيرتهم كذا وكذا كان أصوب في القول وأبلغ في العذر وقلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللّهمَّ احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتّى يعرف الحقّ منهم من جهله، ويرعوى عن الغيِّ والعدوان من لهج به كان هذا أحبّ إليَّ وخيراً لكم.

فقالا: يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ونتأدّب بأدبك.

وقال عمرو بن الحمق: إنّي والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ولا إرادة مال تؤتينه ولا التماس سلطان برفع ذكرى به ولكن أحببتك لخصال خمس: إنّك ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وأوّل من آمن به، وزوج سيّدة نساء الأُمّة فاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله، وأبو الذرّيّة التي بقيت فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأعظم رجلاً من المهاجرين سهماً في الجهاد، فلو أنّي كلفت نقل الجبال الرواسي، ونزح البحور الطوامي حتّى يأتي عليّ

يومي في أمر أقوى به وليّك وأوهن به عدوّك ما رأيت أنّي قد أدّيت فيه كلّ الذي يحقّ عليَّ من حقك.

فقال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: اللّهمَّ نوِّر قلبه بالتقى واهده إلى صراط مستقيم، ليت أنَّ في جندي مائة مثلك.

فقال حجر: إذا والله يا أمير المؤمنين صحَّ جندك، وقلَّ فيهم من يغشّك.

ثمَّ قام حجر فقال: يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب وأهل الذين [نلقحها][1] وننتجها قد ضارسنا وضارسناها ولنا أعوان ذو صلاح وعشيرة ذات عدد، ورأي مجرّب وبأس محمود، وأزمّتنا منقادة لك بالسمع والطاعة، فإن شرقت شرقنا، وإن غربت غربنا، وما أمرتنا به من أمر فعلناه.

فقال عليٌّ عليه السلام: أكلّ قومك يرى مثل رأيك؟ قال: ما رأيت منهم إلاّ حسناً وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وبحسن الإجابة، فقال له عليٌّ عليه السلام خيراً[2].

قال نصر: وفي حديث عمر بن سعد قال: وكتب عليٌّ عليه السلام إلى عمّاله: فكتب إلى مخنف بن سليم وكان عامله عليه السلام على أصفهان وهمدان كتاباً وهو قوله عليه السلام:

كتابه عليه السلام إلى مخنف بن سليم وقد كان عامله عليه السلام على أصفهان وهمدان

وهذا الكتاب لم يأت به الرضي رضوان الله عليه في النهج

سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو أمّا بعد، فإنَّ جهاد من صدف عن الحقِّ رغبة عنه وهبّ في نعاس العمى والضلال اختياراً له فريضة على العارفين إنَّ الله يرضى عمّن أرضاه ويسخط على من عصاه وإنّا قد هممنا بالمسير إلى هؤلاء القوم الذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله واستأثروا بالفيء وعطّلوا الحدود وأماتوا الحقَّ وأظهروا في الأرض الفساد واتّخذوا الفاسقين وليجة من دون المؤمنين فإذا وليٌّ لله أعظم أحداثهم أبغضوه وأمصوه وحرّموه؛ وإذا ظالم ساعدهم على ظلمهم أحبّوه وأدنوه وبرّوه فقد أصرّوا على الظلم وأجمعوا على الخلاف وقديماً مّا صدّوا عن الحقّ، وتعاونوا على الإثم وكانوا ظالمين فإذا

---

(١) زيادة عن بحار الأنوار: ٣٢/٣٩٩، وفي الأصل بياض.

(٢) نهج السعادة: ٢/١٠٦، ووقعة صفين: ١٠٤.

أتيت بكتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك وأقبل إلينا لعلّك تلقى هذا العدوّ المحل فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتجامع الحقَّ وتباين الباطل فإنّه لا غناء بك ولا بك عن أجر الجهاد وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم[١]، وكتب عبد الله بن أبي رافع سنة سبع وثلاثين.

قال نصر: فاستعمل مخنف على أصبهان الحرث بن أبي الحرث بن الربيع، واستعمل على همدان سعيد بن وهب وكلاهما من قومه وأقبل حتّى شهد مع عليّ عليه السلام صفين.

كتابه عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وقد كان عامله على البصرة وهذا الكتاب أيضاً ليس في النهج

قال نصر: وكان عليّ عليه السلام قد استخلف ابن عبّاس على البصرة فكتب عبد الله بن عبّاس إلى عليّ عليه السلام يذكر له اختلاف أهل البصرة فكتب إليه عليّ عليه السلام: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عبّاس أمّا بعد، فالحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد عبده ورسوله أمّا بعد، فقد قدمَ عليَّ رسولك وذكرت ما رأيت وبلغك عن أهل البصرة بعد انصرافي وسأُخبرك عن القوم هم من بين مقيم لرغبة يرجوها أو عقوبة يخشاها فأرغب راغبهم بالعدل عليه والانصاف له والإحسان إليه، وحلّ عقدة الخوف عن قلوبهم فإنّه ليس لأُمراء أهل البصرة في قلوبهم عظم إلاّ قليل منهم وانتهِ إلى أمري ولا تعُده، وأحسن إلى هذا الحيّ من ربيعة وكلّ من قبلك فأحسن إليهم ما استطعت إن شاء الله والسلام[٢]. وكتب عبد الله بن أبي رافع في ذي القعدة سنة سبع وثلاثين.

كتابه عليه السلام إلى الأسود بن قطنة

وكتب إلى الأسود بن قطنة: أما بعد، فإنّه من لم ينتفع بما وعظ لم يحذر ما هو غابر ومن أعجبته الدُّنيا رضي بها وليست بثقة فاعتبر بما مضى تحذر ما بقي واطبخ للمسلمين قبلك من الطّلاء ما يذهب ثلثاه وأكثر لنا من لَطَف الجند واجعله مكان ما عليهم من أرزاق الجند فإنَّ للولدان علينا حقّاً، وفي الذرّية من يخاف دعائه وهو لهم صالح والسلام[٣].

أقول: هذا الكتاب ليس بمذكور في النهج أيضاً وقد يأتي كتاب آخر له عليه السلام إلى الأسود بن قطنة، وهو الكتاب ٥٩. وجاء بعض النسخ قطيبة، والآخر: قطبة.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٠٠، ووقعة صفين: ١٠٤.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٠٠، ونهج السعادة: ٤/ ١٣٠.

(٣) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٠١.

كتابه عليه السلام إلى عبد الله بن عامر، وهذا الكتاب أيضاً لا يوجد في النهج

قال نصر: وكتب عليه السلام إلى عبد الله بن عامر: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عامر؛ أمّا بعد فإنَّ خير الناس عند الله عزَّ وجلَّ أقوَمهم لله بالطاعة فيما له وعليه وأقوَلُهم بالحقّ ولو كان مُرًّا فإنَّ الحقّ به قامت السماوات والأرض ولتكن سريرتك كعلانيتك؛ وليكن حكمك واحداً، وطريقك مستقيمة فإنَّ البصرة مهبط الشيطان فلا تفتحنَّ على يد أحد منهم باباً لا نطيق سدّه نحن ولا أنت والسلام[1].

وكتب إلى عبد الله بن عبّاس - إلخ. هذا الكتاب هو الذي أتى به الرَّضيُّ رضوان الله عليه في موضعين الأوَّل هو الكتاب ٢٢ أوَّله: أمّا بعد فإنَّ المرء قد يسرّه درك ما لم يكن ليفوته، وإنّما ذكره مرَّتين لاختلاف الرواية في صورته وسيأتي شرحه في محلّه بعون الله تعالى.

قال نصر: وكتب عليه السلام إلى أُمراء الخراج: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى أُمراء الخراج: أمّا بعد، فإنّه من لم يحذر ما هو صائر إليه - إلخ. وهو الكتاب ٥١ من النهج وسيأتي تفصيله وشرحه إنشاء الله تعالى.

قال نصر: وكتب إلى معاوية - إلخ. وهو الكتاب العاشر من النهج الذي نحن بصدد شرحه.

وكتب إلى عمرو بن العاص - إلخ. وهو الكتاب ٤٩ من النهج أوَّله: فإنَّ الدُّنيا مشغلة عن غيرها - إلخ. وسيأتي شرحه إنشاء الله تعالى فقد آن لنا أن نرجع إلى شرح جمل الكتاب:

قوله عليه السلام: «بسم الله - إلى قوله: بأهلها» وعظ عليه السلام معاوية بعد تسمية الله وتحميده بأنَّ الدُّنيا منقضية متصرِّمة ومتصرِّفة بأهلها أنحاءَ التصرّف فقد أشابت الصغير وأفنت الكبير وأبنائها فيها كأنّما قد قضوا نحبهم وانصرمت آجالهم فإنَّ الموت قريب، والدُّنيا دار مقرّ. وليس الناس للدُّنيا خلقوا؛ وبالجملة أنّه عليه السلام وعظه وذكّره بمرور الدُّنيا وتصرّمها بأهلها لعلَّ العظة والتذكرة تنفعانه، ولكن معاوية زيّن له الحياة الدُّنيا وصار قلبه أشدّ قسوة من الحجارة فأنّى له أن يذَّكّر، وينفعه نصحه عليه السلام؛ قال عزَّ من قائل في سورة الأعلى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ [الأعلى: ٩ - ١٣].

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٠١، ونهج السعادة: ٤/ ٢٢١ ح ٧٩.

قوله عليه السلام: «وخير ما بقي من الدُّنيا ما أصاب العباد الصادقون فيما مضى» هذه عظة أُخرى له. وكلمة **(من)** الجارة صلة **(بقي)** لأنّها بيانيّة تبيّن **(ما)**، **(وما)** الثانية خبر خير، **(والعباد)** فاعل أصاب، والضمير العائد إلى **(ما)** الثانية محذوف أي ما أصابه العباد لأنّه يجوز حذف العائد المنصوب إذا كان متصلاً منصوباً وناصبه فعل أو وصف غير صلة **(الألف)** **(واللاّم)** نحو يعلم ما يسرّون وما يعلنون أي يسرّونه ويعلنونه. ولم **(يبيّن)** ما الثانية ليذهب نفس السامع إلى كلّ مذهب خير ورأسه التقوى كما أتى بها في نسخة الشارح المعتزلي. **(وما)** الثالثة يمكن أن تفسّر إمّا بالزّمان أي في الزّمان الذي مضى من عمرهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤] أو بالأُمور والأفعال ونحوهما أي فيَ بيِّن الأُمور التي مضت منهم وصدرت عنهم فتذكير الفعل على هذا الوجه باعتبار ظاهرها.

قوله عليه السلام: «ومن نسي الدُّنيا نسيان الآخرة يجد بينهما بوناً بعيداً» كانت نسخة الشارح المعتزلي: «من يقس الدُّنيا بالآخرة يجد بينهما بوناً بعيداً» ومعناه واضح والغرض أنَّ العاقل لا يبيع الدار الباقية بالفانية ولا يخرب الأُولى لأجل الثانية قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الدهر: ٢٨].

وأمّا النسخة الأُخرى فمعناه أنَّ من زهد في الدُّنيا مثل من زهد في الآخرة يجد بين الدُّنيا والآخرة بوناً بعيداً، أي يجد ذلك الذي ترك الدُّنيا بينه وبين من ترك الآخرة في الآخرة بوناً بعيداً فإنَّ الأوّل له درجات عند ربّه والثاني ينسى في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١].

أو يقال: من نسي حظوظ الدُّنيا وترك الشهوات النفسانيّة لأجل أن لا يُنسى في الآخرة فيجد بينهما بوناً بعيداً، ولعلَّ غيري يفهم معنى آخر أدقّ وألطف ممّا تبادر إليه ذهني.

ومعلوم أنَّ غرضه عليه السلام ترغيب معاوية في ما ينفعه؛ وتحذيره ممّا يوجب نكال الآخرة. ونقل العبارة الشارح البحراني هكذا: «ومن نفس الدُّنيا بشأن الأخرة ـ إلخ» والظاهر أنَّ **(نفس)** في نسخته تحريف **(يقس)**؛ لأنَّ نفس ثلاثياً أو مزيداً لم يجيء لمعنى يناسب المقام، أو أنّه تحريف **(ينسى)**.

قوله عليه السلام: «واعلم يا معاوية ـ إلى قوله من رسول الله» يعني أنَّ معاوية ادّعى مقام الخلافة والإمامة وليس من أهله وذلك لأنَّ هذا المقام هو خلافة الله وخلافة الرّسول ولا بدَّ لمن يدَّعيه شاهد من كتاب الله وعهد من الرَّسول، وقد قدَّمنا طائفة من البحث عن الخلافة

وأوصاف الإمام في شرح المختار ٢٣٧ من باب الخطب وقد حرّرنا هناك أنّ الإمام يجب أن يكون منصوباً من عند الله تعالى، ومعصوماً من الذّنوب مطلقاً لما دريت أن ذلك المقام عهد الله ولا ينال عهده الظالمين، فراجع.

وقوله عليه السلام: ولا لك عليه شاهد من كتاب الله، ولا عهد تدّعيه من رسول الله؛ صريح بأنَّ الخلافة ليست زعامة عادية عامية تثبت بالشورى؛ بل هي رئاسة عامّة إليهَة في أُمور الدِّين والدُّنيا والفائز بهذا المنصب الإلٰهي إنّما يفوز به بنصّ الله تعالى ورسوله.

ثمَّ إنَّ معنى العبارة على نسخة الفاضل الشارح أعني قوله عليه السلام: «إنّك قد ادّعيت أمراً لست من أهله لا في القديم ولا في الحديث» بيّن لا يحتاج إلى التفسير وأمّا على النسخة الأُخرى أعني قوله عليه السلام: «إنّك قد ادّعيت أمراً لست من أهله لا في القدم ولا في الولاية» فلعلّ معناها: إنّك ادّعيت أمر الخلافة لست من أهله لا في القديم على أن يقرأ القدم بكسر القاف وفتح الدال بمعنى مقابل الحدوث، ويحتمل بعيداً أن يقرأ بفتحهما نحو قوله الآتي في هذا الكتاب: (**بغير قدم سابق**)، ونحو ما مضى منه عليه السلام في الكتاب السابق: (**إذا صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي**). ولا في الولاية بكسر الواو أي الإمارة لأنَّ الولاية الإلهيّة تلزم التدبير والعلم بالدِّين وسائر ما يجب أن يكون صاحب هذه الرتبة واجدها ومنها أن يكون وليّ العهد بنصّ الله تعالى ورسوله ولم تكن لمعاوية الولاية. ولعلّ حرف التعريف فيها يشير إلى أنّ الولاية المعهودة يجب أن تكون لخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ويؤيّد ما فسّرنا قول عمّار بن ياسر في صفين حيث قال: أيّها النّاس اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذي يبغون دم ابن عفّان - إلى قوله: ولم يكن للقوم (**يعني بهم معاوية وأتباعه**) سابقة في الإسلام يستحقّون بها طاعة النّاس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم، إلى آخر ما روينا عن الطبري في ص ٢٨٦ ج ١٥ ورواه نصر أيضاً في كتاب صفين ص ١٦٥ من الطبع الناصري.

وأظنّ أنَّ الأصل في الموضعين هو النسخة التي نقلناها عن نصر والتي نقلها الشارح المذكور عنه مصحّفة وذلك أنَّ نسختنا لا تخلو من أعضال وغرابة ولما لم يكن الذهن يستأنس بها في جليّ النظر حرّفت إلى ما ترى كما هو دأب الناس في ماله غرابة.

قوله عليه السلام: «فكيف أنت صانع إذا - إلى قوله: **فأطعتها**» العبارة في نسخ النهج مذكورة (**بالواو**) مكان (**الفاء**) أي «وكيف أنت صانع» والصواب (**الفاء**) دون (**الواو**) وذلك لأنَّ العبارة متفرّعة على ما قبلها (**والفاء**) هذه فصيحة تنبيء عن محذوف يدلّ عليه ما قبلها أي إذا لم يكن لك في ادّعائك هذا الأمر شاهد من كتاب الله، ولا عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا أمر بيّن تعرف لك به أثرة فكيف أنت صانع - إلخ.

أي فماذا تفعل إذا ارتفعت وزالت عنك ما كانت تغطيك وتواريك من جلابيب ما أنت فيه من دنيا فبقيت مكشوفاً غير مستور منها.

والغرض أنَّ معاوية لم يكن له هذا الشأن العظيم الإلٰهي إلاّ أنَّ الدُّنيا فتنته بزينتها وغرّته وخدعته فتجاوز عن حدّه فادّعى ما لم يكن له، وكأنّه عليه السلام أشار بقوله **(جلابيب)** حيث أتى بلفظ الجمع إلى كثرة اغتراره من الدُّنيا وتوغّله فيها وإحاطتها به كأنَّ خدعتها إيّاه في كلِّ مرَّة كانت ملحفة غشيته. وبقوله: فأجبتها فاتّبعتها، فأطعتها؛ إلى أنّه استغشى ثيابها أيضاً.

ثمَّ إنَّ من تصدّى لخدعة الغير لا بدَّ له من أن يلبس الباطل في ثياب الحقّ ويزين المنكر ويزخرفه حتّى يزوّر عليه الأمر فيصطاده بتلك الشرك المموّهة؛ ولذا قال عليه السلام: **(قد تبهّجت بزينتها وخدعت بلذّتها)**.

قوله عليه السلام: «وإنّه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مجنّ» أجرى عليه السلام المخاطب مجرى الغافل عن شيء ثمَّ أخبره بذلك الشيء كقول الشاعر:

جاء شقيق عارض رمحه إنَّ بني عمّك فيهم رماح

وذلك لأنَّ أعمال معاوية تشبه عمل من لم يقرَّ بالموت ولم يذعن بالحساب والجزاء، فأخبره تذكيراً له بأنَّ مطلعاً يطلعه عن قريب على (ما) لا يتّقى منه بترس ولا ينجيه منه منجٍ. ولم يبيّن كلمة ما ليعمّ الموت وما يتبعه من أحوال ما بعد الموت وأهواله. وما لزم معاوية ممّا اكتسبها من معاصي الله والتجاوز عن حدوده فإنّها صارت رينا على قلبه فماله من محيص قال عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

والظاهر أنَّ المراد من الواقف هو الله تعالى، أو ملك الموت؛ أو الموت، أو أنّه عليه السلام أراد به نفسه ويخبره عن عواقبه النازلة عليه في صفّين كقوله عليه السلام في ذيل هذا الكتاب: **(كأنّي قد رأيتك تضجُّ من الحرب)** ـ إلخ. وإن كان الأخير لا يناسب سياق الكلام.

قوله عليه السلام: «فاقعس عن هذا الأمر» **(الفاء)** فصيحة وأخذ عليه السلام أن ينفّره ويحذّره من سوء أعماله أي إذا كان الموت آتيك عن قريب وأنت رهين ما اكتسبت فتأخر عمّا تدّعيه واقطع الرجاء منه وأمسك عن أباطيلك، وتنحّ عن أضاليلك.

قوله عليه السلام: «وخذ أهبة الحساب» عطف على قوله **(اقعس)**، أي تأهّب واستعدَّ لحسابك يوم يقوم النّاس لربِّ العالمين قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١] وقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قوله عليه السلام: «وشمّر لما قد نزل بك» عبّر ما يأتي بلفظ الماضي لتحقّق وقوعه عن قريب حتّى كأنّه وقع. ثمَّ إنّه عليه السلام خوّفه من سوء مآله ونكال مآبه في الآخرة بقوله (**شمّر لما قد نزل بك**) أي تهيّأ لأمر هائل وخطب عظيم لما قد دريت من مباحثنا السالفة أنه يقال: فلا شدَّ عقد إزاره، أو كشف عن ساقيه أو شمّر عن ساقيه، أو شمّر ذيله، أو نحوها إذا تهيّأ لأمر هائل وخطب عظيم وفظيع.

ويمكن أن يكون مراده عليه السلام بقوله هذا تهديده وإنذاره من عواقبه وإخباره بما ينزل به ويفضحه في وقعة صفين كقوله عليه السلام له في ذيل كتابه هذا: (**فكأنّي قد رأيتك تضجّ من الحرب**) ـ إلخ. ولكن المعنى الأوّل أوفق بسياق الكلام.

قوله عليه السلام: «ولا تمكّن الغواة من سمعك» يقال مكّنه وأمكنه من الشيء إذا جعل له عليه سلطاناً وقدرة. أي لا تسلّطهم على سمعك ولا تسمع منهم ما يوحون إليك ولا تشاورهم فإنّهم يغوونك فيردونك لأنَّ اتّباع الأراء الباطلة مردية وذلك لأنَّ بعد الحقّ ليس إلاّ الضلال.

ومن هؤلاء الغواة عبيد الله بن عمر، علمت في شرح المختار ٢٣٦ من باب الخطب وشرح المختار الأوّل من باب الكتب: أنَّ عمر لما ضرب في غلس الصبح واشتبه الأمر في ضاربه سمع ابنه عبيد الله قوماً يقولون قتله العلج فظنّ أنّهم يعنون الهرمزان فبادر عبيد الله إليه فقتله قبل أن يموت عمر؛ فسمع عمر بما فعل ابنه فقال: قد أخطأ عبيد الله إنَّ الذي ضربني أبو لؤلؤة وإن عشت لأقيدنّه به فإنَّ عليّاً لا يقبل منه الدية وهو موليه. فلمّا مات عمر وتولّى عثمان طالبه عليّ عليه السلام بقود عبيد الله وقال: إنّه قتل مولاي ـ يعني الهرمزان ـ ظلماً وأنا وليّه، فقال عثمان: قتل بالأمس عمر واليوم تقتل ابنه حسب آل عمر مصابهم به وامتنع من تسليمه إلى عليّ. وقال عليّ: لئن أمكنني الدّهر منه يوماً لأقتلنّه به[1]، فلمّا ولي عليّ عليه السلام هرب عبيد الله إلى الشام والتجأ إلى معاوية وخرج معه إلى حرب صفين فقتله عليّ عليه السلام في حرب صفين.

ومنهم ذو الكلاع، ومنهم مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ومنهم عمرو بن العاصي وكثير ممّن أشرنا إليهم في الشروح السالفة قد استحبّوا الدُّنيا وأسرّوا الكفر وجعلوا قتل عثمان عرضة لأغراضهم النفسانيّة وأهوائهم الشيطانية فخدعوا أتباعهم بقولهم قتل إمامنا مظلوماً.

قوله عليه السلام: «وإلاّ تفعل أُعلمك ما أغفلت من نفسك» أي إن لا تردع نفسك عن الغيّ والضلال ولا تتأخّر عن هذا الأمر الذي تدَّعيه ولا تتّعظ بما وعظتك به ولا تفعل ما أمرتك

(١) الخرائج والجرائح: ١/ ٢١٢، وبحار الأنوار: ٣٠/ ٢٧٣.

فإنّي أُعلم نفسك التي أهملتها وتركتها. وإهمال النفس إرخاء عنانها وإرسالها فيما تشاء وعدم روضها في طاعة الله، ولا يخفى على عاقل أنَّ النفس أبيّة العنان ولا تنقاد لحكم العقل إلاّ أن تروّض وتمنع ممّا تهويه وتشتهيه فلو اهملت ولم تلجم لسلكت طريقة عمياء فإنّها أمّارة بالسوء، فطوبى لامرىء ألجم نفسه وأمسكها عن معاصي الله وقادها إلى طاعته تعالى.

ولم يبيّن عليه السلام متعلّق الإعلام أعني أنّه لم يقل بماذا يُعلمه ليعمّ جميع تبعاتها. يعني أنّك إن لم تنته عن أباطيلك ولم تمتثل أمري لأُذيقنّك حرّ السيوف وشرارة الموت حتّى تعلم نفسك ما كانت عليها من الأوزار التي اكتسبتها بإهمالك إيّاها.

ويمكن أن يكون من نفسك متعلّق أغفلت، فعلى متعلّق الأعلام مذكور لكنه مبهم فيندرج في حكم الأوّل.

قوله عليه السلام: «فإنّك مترف ـ إلى قوله: والدَّم» الظاهر من سياق العبارة دالّ على أنَّ **(الفاء)** تعليليّة لقوله عليه السلام: **(أعلمك)**؛ لا لقوله: **(أغفلت)**. أي أعلمك نفسك المهملة لأنك ممّن أطغته النعمة واستكنّ فيه الشيطان وتسلّط عليه وفعل فيه ما شاء من الآمال والأهواء، وجرى فيه مجرى الروح والدَّم، والمراد أنَّ معاوية تجاوز عن حدود الله بترفّه فلا بدَّ للإمام المبسوط اليد من أن يسدّه عن التجاوز إمّا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوّلاً، وإمّا بحرّ الأسنّة والسيوف إن لم ينته عن التجاوز ثانياً ولذا قال عليه السلام: **(وإلاّ تفعل أُعلمك)** ـ إلخ.

وقوله عليه السلام: **(وجرى منك مجرى الروح والدَّم)** إشارة إلى ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدَّم[1]. وحمل الروح على معنى الروح البخاري أولى من حمله على النفس الناطقة المجرَّدة لمكان مجرى وذلك لأنَّ للنفس النّاطقة تعلّق تدبير وتصرف للبدن ولا يقال إنّها جارية فيه بخلاف الروح البخاري فإنّه ليس بمجرَّد بل جسم لطيف.

قوله عليه السلام: «ومتى كنتم ـ إلى قوله: سوابق الشقاء» هذا استفهام انكار، وقد قدَّمنا في مباحثنا السالفة أنَّ الفائز برتبة الخلافة يجب أن يكون في جميع الصفات الكمالية أفضل من غيره طول عمره، فلو كان لغيره سابقة الشرف والتقدُّم في الأُمور لم يكن له أهليّة ذلك المقام.

وقوله عليه السلام: «بغير قدم سابق ولا شرف باسق» استفهام على سبيل التقريع والتعنيف والعتاب والانكار، أي هل كنتم ساسة الرعية وولاة أمر الأُمّة بغير قدم سابق يعني أنّى يكون

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١٣٩ ح ٤، ومستدرك الوسائل: ١٦/ ٢٢٠ ح ١٦.

كذلك أن يلي أحد أُمور الأُمّة بغير قدم سابق ولا شرف سابق؟

وقوله عليه السلام: «ونعوذ بالله ـ إلخ» كأنّما يشير إلى ما جرى فيه القضاء الإلٰهي من لزوم سوابق الشقاء فإنّه لا يبدّل ولا يغيّر ونعم ما قال الخواجه عبد الله الأنصاري بالفارسيّة: إلٰهي همه از آخر ترسند وعبد الله از أول زيرا آنچه رفته درأول، در آخر نميشود مبدّل.

قوله عليه السلام: «وأُحذّرك أن تكون متمادياً في غرة الأمنية» أي أُخوفك من أن تدوم وتستمرّ في غفلة الأمال الباطلة والأهواء المردية كادّعائه الخلافة. أي انتهِ عنه فإنّ عاقبته وخيمة.

قوله عليه السلام: «مختلف العلانية والسريرة» أي أُحذّرك أن تكون منافقاً، ومعلوم أنّ المنافق أضرّ بالدِّين من الكافر فإنّ من كان معلوم الحال يتّقى منه؛ والمنافق يردّ الناس عن صراط الله القهقرى يظهر الإيمان ويصير إلى الكفر. وكان لمعاوية في ذلك النصيب الأوفر.

وفي الكافي بإسناده عن سعيد بن يسار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مثل المنافق مثل جذع النخل أراد صاحبه أن ينتفع به في بعض بنائه فلم يستقم له في الموضع الذي أراد فحوّله في موضع آخر فلم يستقم له، وكان آخر ذلك أن أحرقه بالنّار[1].

رؤية النبي صلى الله عليه وآله بني أمية في المنام على صور قرود تصعد منبره وترد الناس عن الإسلام القهقرى

قال الفيض في تفسير الصافي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

العيّاشيّ عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ﴾؟ فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أري أنّ رجالاً من بني تيم وعديّ على المنابر يردون النّاس عن الصراط القهقرى؛ قيل: والشجرة الملعونة؟ قال: هم بنو أُميّة[2].

وعن الصادق عليه السلام مثله إلاّ أنه قال: رأى أنّ رجالاً على المنابر يردّون النّاس ضلالاً رزيق وزفر.

أقول: وهما كنايتان عن الأوّلين وتيم وعديّ جدّاهما.

قال: وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد رأى رجالاً من نار على منابر

---

(١) الكافي: ٢/٣٩٦ ح ٥، وميزان الحكمة: ٤/٨٣١ ح ٤.
(٢) بحار الأنوار: ٣١/٥٢٧ ح ٣١، وتفسير الصافي: ٣/١٩٩ ح ٦٠.

من نار يردُّون الناس على أعقابهم القهقرى؛ قال: ولسنا نسمّي أحداً، وفي أخرى: إنّا لا نسمّي الرجال ولكن رسول الله ﷺ رأى قوماً على منبره يضلّون الناس بعده على الصراط القهقرى[١].

وفي رواية أُخرى قال: رأيت الليلة صبيان بني أُميّة يرقون على منبري هذا فقلت: يا ربِّ معي؟ فقال: لا ولكن بعدك.

وفي الكافي عن أحدهما عليه السلام: أصبح رسول الله ﷺ يوماً كئيباً حزيناً؛ فقال له عليّ عليه السلام: ما لي أراك يا رسول الله كئيباً حزيناً؟ فقال: وكيف لا أكون كذلك وقد رأيت في ليلتي هذه أنَّ بني تميم وبني عديّ وبني أُميّة يصعدون منبري هذا يردّون النّاس عن الإسلام القهقرى، فقلت، يا ربِّ في حياتي أو بعد موتي؟ فقال: بعد موتك[٢].

أقول: معنى هذا الخبر مستفيض بين الخاصّة والعامّة إلاّ أنَّ العامّة رووا تارة أنّه رأى قوماً من بني أُميّة يرقون منبره وينزون عليه نزو القردة، فقال هو حظّهم من الدُّنيا يعطونه بإسلامهم.

وأُخرى أنَّ قروداً تصعد منبره وتنزل فساءه ذلك واغتمّ به.

والقمّي قال: نزلت لما رأى النبيّ ﷺ في نومه كأنَّ قروداً تصعد منبره فساءه ذلك وغمّه غمّاً شديداً فأنزل الله: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة لهم ليعمهوا فيها والشجرة الملعونة كذا نزلت وهم بنو أُميّة[٣].

والعياشيّ عن الباقر عليه السلام: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة لهم ليعمهوا فيها والشجرة الملعونة في القرآن يعني بني أُميّة[٤].

ومضمراً أنّه سئل عن هذه الآية فقال: إنَّ رسول الله ﷺ نام فرأى أنَّ بني أُميّة يصعدون منبره يصدّون الناس كلّما صعد منهم رجل رأى رسول الله ﷺ الذلّة والمسكنة فاستيقظ جزوعاً عن ذلك فكان الذين رآهم اثني عشر رجلاً من بني أُميّة فأتاهم، فأتاه جبرئيل عليه السلام بهذه الآية، ثمّ قال جبرئيل: إنَّ بني أُميّة لا يملكون شيئاً إلاّ ملك أهل البيت ضعفيه[٥].

---

(١) الكافي: ٤/ ١٥٩ ح ١٠، ومدينة المعاجز: ٦/ ١٤٠.
(٢) الكافي: ٨/ ٣٤٥ ح ٥٤٣.
(٣) تفسير القمي: ٢/ ٢١، والتفسير الصافي: ٣/ ٢٠٠.
(٤) تفسير العياشي: ٢/ ٢٩٧ ح ٩٣، والتفسير الصافي: ٣/ ٢٠٠.
(٥) بحار الأنوار: ٣١/ ٥٢٨، وتفسير العياشي: ٢/ ٢٩٨ ح ١٠١.

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: أما إنَّ معاوية وابنه سيليانها بعد عثمان ثمَّ يليها سبعة من ولد الحكم بن أبي العاص واحداً بعد واحد يكمله اثني عشر إمام ضلالة وهم الذين رأى رسول الله ﷺ على منبره يردّون الأمّة على أدبارهم القهقرى، عشرة منهم من بني أُمية ورجلان أسّسا ذلك لهم وعليهما أوزار هذه الأمّة إلى يوم القيامة(١).

وفي مقدّمة الصحيفة السجّاديّة عن الصادق، عن أبيه، عن جدّه: إنَّ رسول الله ﷺ أخذته نعسة وهو على منبره فرأى في منامه رجالاً ينزون على منبره نزو القردة يردّون الناس على أعقابهم القهقرى فاستوى رسول الله ﷺ جالساً والحزن يعرف في وجهه فأتاه جبرئيل بهذه الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ الآية يعني بن أميّة قال: يا جبرئيل أعلى عهدي يكونون وفي زمني؟ قال: لا ولكن تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشراً ثمَّ تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمساً ثمَّ لا بدَّ من رحى ضلالة في قائمة على قطبها ثمَّ ملك الفراعنة، قال: وأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾ [القدر: ١ ـ ٣] تملكها بنوا أُميّة ليس فيها ليلة القدر فاطّلع الله نبيّه أنَّ بني أُميّة تملك سلطان هذه الأُمّة وملكها وطول هذه الأمّة فلو طاولتهم الجبال لطالوا عليها حتّى يأذن الله بزوال ملكهم وهم في ذلك مستشعرون عداوتنا أهل البيت وبغضنا. أخبر الله نبيّه بما يلقى أهل بيت محمّد وأهل مودّتهم وشيعتهم منهم في أيّامهم وملكهم(٢).

أقول: إنّما أرى ﷺ ردّ النّاس عن الإسلام القهقرى لأنَّ الناس كانوا يظهرون الإسلام وكانوا يصلّون إلى القبلة ومع هذا كانوا يخرجون عن الإسلام شيئاً فشيئاً كالذي يرتدّ عن الصراط السوي القهقرى ويكون وجهه إلى الحقّ حتّى إذا بلغ غاية سعيه رأى نفسه في الجحيم.

وفي الاحتجاج عن الحسن بن عليّ عليه السلام في حديث أنّه قال لمروان بن الحكم: أمّا أنت يا مروان فلست أنا سببتك ولا سببت أباك ولكن الله عزَّ وجلَّ لعنك ولعن أباك وأهل بيتك وذرّيتك وما خرج من صلب أبيك إلى يوم القيامة على لسان محمّد ﷺ؛ يا مروان ما تنكر أنت ولا أحد ممّن حضر هذه الأمّة من رسول الله ﷺ لك ولأبيك من قبلك وما زادك الله يا مروان بما خوّفك إلاّ طغياناً كبيراً وصدق الله وصدق رسوله، يقوله الله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ وأنت يا مروان وذرّيتك

(١) كتاب سليم بن قيس: ٢١٢، وبحار الأنوار: ٣١/ ٤٢٧.

(٢) التفسير الصافي: ٣/ ٢٠١.

الشجرة الملعونة في القرآن(١).

عن رسول الله ﷺ وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: وجعل أهل الكتاب القائمين به والعاملين بظاهره وباطنه من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها أي يظهر مثل هذا العلم لمحتمليه في الوقت بعد الوقت وجعل أعدائها أهل الشجرة الملعونة الذين حاولوا إطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو علم المنافقون لعنهم الله ما عليهم من ترك هذه الآيات التي بيّنت لك تأويلها لأسقطوها مع ما أسقطوا منه(٢).

أقول: وفي قوله سبحانه: فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً لطافة لا يخفى، انتهى ما أتى به الفيض قدّس سرّه في هذا المقام من تفسيره.

جميع ملك بني أمية كان ألف شهر كاملة

لما انجرّ الكلام إلى ذكر الحديث في **(أنّ ليلة القدر خير من ألف شهر تملكها بنو أُميّة ليس فيها ليلة القدر)** يعجبني أن أذكر مقدار المدّة من الزّمان وما ملكت فيه بنو أُميّة من الأعوام على التفصيل ليزداد القاريء بصيرة في ما أخبره الله تعالى ورسوله وآل الرسول وقد ذكر المسعوديّ المتوفى سنة ٣٤٦ هـ في **«مروج الذّهب» (ص ١٩٨ ج ٢ طبع مصر ١٣٤٦ هـ)**: كان جميع ملك بني أُميّة إلى أن بويع أبو العبّاس السفّاح ألف شهر كاملة لا تزيد ولا تنقص لأنّهم ملكوا تسعين سنة واحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً.

قال المسعوديُّ: والنّاس متباينون في تواريخ أيّامهم والمعوَّل على ما نورده وهو الصحيح عند أهل البحث ومن عنى بأخبار هذا العالم وهو: أنَّ معاوية بن أبي سفيان ملك عشرين سنة، ويزيد بن معاوية ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً، ومعاوية بن يزيد شهراً واحد عشر يوماً، ومروان بن الحكم ثمانية أشهر وخمسة أيّام، وعبد الملك بن مروان إحدى وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً، والوليد بن عبد الملك تسع سنين وثمانية أشهر ويومين، وسليمان بن عبد الملك سنتين وستّة أشهر وخمسة عشر يوماً، وعمر بن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيّام، ويزيد بن عبد الملك أربع سنين وثلاثة عشر يوماً، وهشام بن عبد الملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيّام، والوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة وثلاثة أشهر، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك شهرين وعشرة أيّام وأسقطنا أيّام

(١) الاحتجاج: ١/٤١٦، وبحار الأنوار: ٤٤/٨٦.

(٢) تفسير الصافي: ٣/٢٠٢، والاحتجاج: ١/٣٧٦.

إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك كإسقاطنا أيّام إبراهيم بن المهدي أن يعدّ في الخلفاء العبّاسيّين، ومروان بن محمّد بن مروان خمس سنين وشهرين وعشرة أيّام إلى أن بويع السفّاح فتكون الجملة تسعين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، يضاف إلى ذلك الثمانية أشهر التي كان مروان يقاتل فيها بني العبّاس إلى أن قتل فيصير ملكهم إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً يوضع من ذلك أيّام الحسن بن عليّ وهي خمسة أشهر وعشرة أيّام، وتوضع أيّام عبد الله بن الزبير إلى الوقت الذي قتل فيه وهي سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيّام فيصير الباقي بعد ذلك ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر يكون ذلك ألف شهر سواء.

قال: وقد ذكر قوم إنَّ تأويل قوله عزَّ وجلَّ: **(ليلة القدر خيرمن ألف شهر)** ما ذكرناه من أيّامهم. وقد روي عن ابن عبّاس أنّه قال: والله ليملكنّ بنو العبّاس ضعف ما ملكته بنو أُميّة باليوم يومين بالشهر شهرين وبالسنة سنتين وبالخليفة خليفتين، انتهى ما أردنا من نقل كلام المسعودي في المروج.

قوله عليه السلام: «وقد دعوت إلى الحرب ـ إلى قوله: والمغطّى على بصره» أي قد دعوتنا إلى الحرب؛ وقد قدّمنا في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب أنَّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام نادى: يا معاوية علام يقتل النّاس بيني وبينك؟ هلمّ أُحاكمك إلى الله فأيّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور[1]. وقد ذكرنا شعر المتنبّي وحكاية سيف الدولة مع الأخشيد المناسبة للمقام فراجع إلى ص٣١٦ ج١٥.

وأفاد الشارح المعتزلي في «**المقام**» بقوله: وإنّما قال أمير المؤمنين عليه السلام هذه الكلمة ـ يعني: أيّنا المرين على قلبه والمغطّى على بصره ـ لأنَّ معاوية قالها في رسالة كتبها ووقفت عليها من كتاب أبي العبّاس يعقوب بن أبي أحمد الصيمري الذي جمعه في كلام عليّ عليه السلام وخطبه وأوّلها: أمّا بعد، فإنّك المطبوع على قلبك المغطّى على بصرك، الشرّ من شيمتك، والعتوّ من خليقتك، فشمّر للحرب، وأصبر للضرب فوالله ليرجعنَّ الأمر إلى ما علمت والعاقبة للمتقين؛ هيهات هيهات إحظاءك ما تمنّى وهوى قلبك فيما هوى؛ فاربع على ظَلعك وقس شبرك بفترك تعلم أين حالك من حال من تزن الجبال حلمه ويفصل بين أهل الشكّ علمه والسلام.

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام: أمّا بعد يا ابن صخر، يا ابن اللّعين؛ يزن الجبال فيما زعمت حلمك ويفصل بين أهل الشك علمك وأنت الجاهل القليل الفقه، المتفاوت العقل، الشارد عن الدّين، وقلت: فشمّر للحرب واصبر فإن كنت صادقاً فيما تزعم ويعينك عليه ابن

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٩.

النابغة، فدع النّاس جانباً واعف الفريقين من القتال وابرز إليّ لتعلم أيّنا المرين على قلبه، المغطّى على بصره. فأنا أبو الحسن حقاً قاتل أخيك وخالك وجدّك شدخاً يوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوّي[١].

قوله عليه السلام: «فأنا أبو حسن» كان يعرف ويكنّى عليه السلام بأبي حسن ومن الأمثال السائرة من صدر الإسلام إلى الآن قولهم: قضيّة لا أبا حسن فيها. ولم يأت **(بالألف) (واللام)** في ابنه رعاية للتواضع وهضم النفس لا استصغاراً لابنه عليه السلام نعوذ بالله لأنَّ حرف التعريف يدلّ على التعظيم والتجليل فما كان يعجبه عليه السلام ادخاله على اسم ابنه، وإن كان الأعداء يذكرونه بلا حرف التعريف احتقاراً فقد قال الشيخ الأجلّ أبو الفتح الكراجكي المتوفّى سنة ٤٤٩ هـ في كتابه المترجم بكتاب «**التعجّب**» **(ص ٤٤ طبع إيران ١٣٢٢ هـ)**:

ومن عجيب أمرهم وظاهر بغضهم لأهل البيت عليهم السلام أنّهم إذا ذكروا الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام الذي هو ولد رسول الله وريحانته وقرّة عينه والذي نحله الإمامة وشهد له بالجنّة حذف من اسمه الألف واللام ويقال حسن بن عليّ ولأولاده أولاد حسن استصغاراً واحتقاراً لذكره، ثمَّ يقولون مع ذلك: الحسن البصري فيثبتون في اسمه **(الألف) (واللام)** إجلالاً له وإعظاماً وتفخيماً لذكره وإكراماً، وذلك أنَّ هذا البصري كان متجاوزاً عن ولاية أهل البيت عليهم السلام وهو القائل في عثمان قتله الكفّار وخذله المنافقون ولم يكن في المدينة يوم قتله إلاّ قاتل وخاذل فنسب جميع المهاجرين والأنصار إلى الكفر والنفاق، وتخلّف عن الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ثمَّ خرج مع قتيبة بن مسلم في جند الحجّاج إلى خراسان[٢].

قوله عليه السلام: «قاتل جدّك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوّي» وقد تكرر هذا الكلام منه عليه السلام في عدّة كتبه إلى معاوية: فقد يأتي في آخر المختار ٢٨ من هذا الباب قوله عليه السلام: **(قد صحبتهم ذرّية بدريّة وسيوف هاشميّة قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدّك وأهلك وما هي من الظالمين ببعيد)**؛ وفي «**المختار**» ٦٤ من هذا الباب أيضاً قوله عليه السلام: **(وعندي السّيف الذي أعضضته بجدّك وخالك وأخيك في مقام واحد)**.

وجدُّه هذا هو جدُّه لأُمّه هند عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فإنَّ عتبة كان أبا هند وخاله هو الوليد بن عتبة، وأخوه هو حنظلة بن أبي سفيان وقد مضى كلام عبد الله بن بديل رحمه الله تعالى في صدر شرح هذا الكتاب: فكيف يبايع معاوية عليّاً وقد قتل أخاه حنظلة وخاله

(١) نهج البلاغة: ٣/١١، والصحيح من السيرة: ٥/٤٧.

(٢) التعجب: ٤٣.

الوليد وجدّه عتبة في موقف واحد.

قوله عليه السلام: «ودخلتم فيه مكرهين» قد مضى كلام أبي اليقظان عمّار رحمه الله في معاوية وأتباعه أنّهم ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر حتّى وجدوا عليه أعواناً، وكذا كلام غير واحد من الصحابة ومن تثنى عليهم الخناصر فيهم في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب فراجع إلى ص ٣٧٠ ج ١٥.

أقول: كلام أبي اليقظان مأخوذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام كما يأتي في «**المختار**» ١٦ من هذا الباب: فوالذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلما وجدوا أعواناً عليه أظهروه.

قوله عليه السلام: «وزعمت أنّك ـ إلى قوله: إن كنت طالباً» قد أشرنا في الشروح السالفة غير مرّة إلى أنَّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كان في عزلة عن دم عثمان وأبرأ النّاس منه وقد دريت في شرح «**المختار**» الأول من باب كتبه عليه السلام أنّ عمرو بن العاص كان شديد التحريض والتأليب على عثمان، وأنَّ عثمان لما أبى أن يخلع نفسه تولّى طلحة والزبير حصاره، وأنَّ عائشة كانت أوّل من طعن على عثمان وأطمع الناس فيه وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً فقد فجر، نقله الدينوريّ في «**الإمامة**» و«**السياسة**» وكانت تقول للناس: إنَّ فيكم فرعون هذه الأُمّة تعني به عثمان.

ومراده عليه السلام من كلامه هذا أنَّ معاوية إن كان صادقاً في قوله أنّه يطلب بدم عثمان ولم يكن غرضه استغواء الناس ولم يجعل دمه عرضة لأهوائه الردية المردية، فليطلبه من حيث وقع دمه يعني من قتله وألّب الناس على قتله أي من طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاصي وأمثالهم.

قوله عليه السلام: «فكأنّي قد رأيتك ـ إلخ» إخبار بما يأتي على معاوية وأتباعه في غزوة صفين من الذلّة والمسكنة والهوان أوّلاً بقوله جزعاً من الضرب المتتابع والقضاء الواقع ومصارع بعد مصارع.

وبحيلة عمرو بن العاص في رفع مصاحف لما ظهرت هزيمة أهل الشام ثانياً. وقد أتينا بنبذة ما وقعت في صفين في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب، وقال اليعقوبي في «**التاريخ**» ص ١٦٤ ج ٢ طبع النجف: ثمّ وجّه عليّ عليه السلام إلى معاوية يدعوه ويسأله الرجوع أن لا يفرّق الأُمّة بسفك الدّماء فأبى إلاّ الحرب فكانت الحرب في صفّين سنة سبع وثلاثين وأقامت بينهم أربعين صباحاً، وكان مع عليّ يوم صفين من أهل بدر سبعون رجلاً وممّن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل ومن سائر المهاجرين والأنصار أربعمائة رجل، ولم يكن مع معاوية من الأنصار إلاّ النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد.

قال: وصدقت نيات أصحاب عليّ عليه السلام في القتال وقام عمّار بن ياسر فصاح في النّاس فاجتمع إليه خلق عظيم فقال: والله إنّهم لو هزمونا حتّى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنّا على الحقّ وأنّهم على الباطل؛ ثمَّ قال: ألا من رائح إلى الجنّة فتبعه خلق فضرب حول سرادق معاوية فقاتل القوم قتالاً وقتل عمّار بن ياسر واشتدّت الحرب في تلك العشية ونادى النّاس قتل صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله تقتل عمّاراً الفئة الباغية.

قال: وزحف أصحاب عليّ عليه السلام وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً حتّى لصقوا به فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه فقال له عمرو بن العاص: إلى أين؟ قال: قد نزل ما ترى فما عندك؟ قال: لم يبق إلاّ حيلة واحدة أن ترفع المصاحف فتدعوهم إلى ما فيها فتستكفهم وتكسر من حدّهم وتفت في أعضادهم.

قال معاوية: فشأنك، فرفعوا المصاحف ودعوهم إلى التحكيم بما فيها وقالوا ندعوكم إلى كتاب الله فقال عليّ عليه السلام: إنّها مكيدة وليسوا بأصحاب قرآن[1].

وإنّما قال عليه السلام: **(فكأنّي قد رأيتك)** - إلخ، لأنَّ الزّمان والمكان وسائر الأجسام والجسمانيّات إنّما هي حجب لنا وأمّا الحجج الإلهيّة فإنّهم يرون الوقائع في متن العالم على ما هي عليه.

ثمَّ لا يخفى لطافة كلامه عليه السلام في ذلك حيث أتى بلفظ الماضي وقال: قد رأيتك وما قال فكأنّي أرى، لئلا يتوهّم متوهّم أنّه عليه السلام لما رأى ما جرى بينه وبين معاوية وتمهّد لهما تَفرّسَ فيما سيكون لمعاوية وجنده من هزيمة وذلّة وهوان.

على أنَّ غاية ما يمكن أن يقال لمن كان له حزم لو تفرَّس في نحو هذه الأُمور أن يتفرّس في أمور كليّة مثلاً: أنَّ له ظفراً على خصمه وأمّا أن يتفرَّس في جزئيات الوقائع التي لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم ولا يتيسّر لغيرهم العلم بها عادة فلا؛ فانظر في قوله عليه السلام: **(وكأنّي بجماعتك تدعوني إلى كتاب الله نظر دراية وإنصاف)** هل يمكن أن يقال إنّه عليه السلام لما رأى مقدّمات الأمور تفرَّس في رفعهم المصاحف فيما يأتي من زمان طويل وأمد مديد؟ وما أرى هذا الظنَّ بمن له خبرة في الأُمور ومن جانب المراء والتعصّب ونظر بعيني العقل والفهم.

وقد نقل اليعقوبيّ في **«التاريخ» (ص ١٦٩ ج ٢ طبع النجف)** خطبة له عليه السلام لما قدم الكوفة بعضها قوله عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني فإنّي عن قليل مقتول فما يحبس أشقاها أن

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٨٨.

يخضبها بدم أعلاها فَلَوَ الذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تضلّ مائة أو تهدي مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها إلى يوم القيامة ـ إلخ[١].

وقد مضى نحو كلامه هذا قوله عليه السلام في الخطبة ٩٩ **(لكأنّي انظر إلى ضلّيلٍ قد نعق بالشام وفحص براياته في ضواحي كوفان)** إلخ. وقوله عليه السلام في الخطبة ١٨٧ **(أيّها النّاس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض)** ـ إلخ.

قوله عليه السلام: «وهي كافرة جاحدة أو مبائعة حائدة» كان أتباع معاوية صنفين، وقوله عليه السلام: **(وهي كافرة جاحدة)** يشير إلى المنافقين من جماعته، وقوله: **(أو مبائعة حائدة)** إلى الذين بايعوه ثمّ نكثوا عهده يقال حاد عن الأمر أي مال وعدل عنه. وقد روى الفريقان في جوامعهم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: أنّه يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والناكثون أصحاب الجمل، والقاسطون أصحاب معاوية والمارقون خوارج نهروان.

(١) الأمالي: ٢٦٧ ح ٤٩٣، ونهج البلاغة: ١/ ١٨٢ ح ٣٩.

الترجمة

این نامه ای است که امیر (علیه السلام) در جواب نامه معاویه نوشت:

معاویه به امیرالمؤمنین علیّ (علیه السلام) نوشت: تویی آن که مهر غفلت و زنگ گناه بر دلش زده و پرده هوی و هوس بر چشمش افکنده شد. بدی خوی تو و گردنکشی و تجاوز سرشت ات است و از این روی آماده جنگ باش و برای ضرب و شکنجه دیدن شکیبا. قسم به خدا کار به جایی کشد که خود دانی و عاقبت برای پرهیزکاران است. چه بسا دور است رسیدنت به آرزویت و به خواسته دلت. پس از آن چه که از عهده ات خارج و از طاقتت دور است دست بدار و خودداری کن. و وجبت را به درنه ات اندازه گیر(۳) تا بدانی تفاوت حال تو و آن که بردباریش هم سنگ کوه ها و دانش او تمیز مردم گاه شکّ و شبهه می باشد تا چه حدّ است؛ والسلام.

نامه امیر (علیه السلام) در پاسخ معاویه

امیر (علیه السلام) در جواب وی نوشت:

بسم الله الرّحمن الرّحیم

از بنده خدا علی امیرالمؤمنان به معاویه پورسفیان:

امّا بعد درود بر آن که پیرو راه رشاد است، ستایش می کنم آن که را جز او خدایی نیست. ای معاویه، می بینی که دنیا با اهلش چگونه به سر می برد، بهترین توشه در روزگار آن است که بندگان شایسته گردآوردند؛ آن که دنیا را به آخرت بسنجد و چشم از دنیا بپوشد و کار آخرت نماید تفاوت این سرا و آن سرا را بسیار می یابد.

ای معاویه، ادّعای امری (مقام خلافت و امامت) می کنی که سزاوار آن نیستی، نه در سابقگی و نه در ولایت عهدی و امر بیّن و حجّتی نداری که بدان درباره تو مکرمت و برگزیدگی شناخته شود؛ و نه مر تو را برای این مقام از قرآن

شاهدی است و نه از رسول خدا عهدی؛ پس چه خواهی کرد آنگاه که پرده ها از تو برداشته شود و رسوا گردی، پردهای دنیایی که خود را به زینتش آراسته و به لذّتش فریفته است و تو را خوانده و اجابتش کرده ای و افسارت را کشیده و پیرویش نموده ای و سر در پی او نهادی و فرمانت داد و فرمان بردی.

همانا به زودی کسی آگاهت کند بر آن چه که کسی نتواند از آن برهاندت. و یا به هیچ دافعی از خود نتوانی دفع کرد. پس از این ادّعا دست بدار و دور شو و برای حساب آماده باش و بر آن چه که بر تو فرود آید دامن بر میان زن و به حرف گمراهان گوش مده.

و اگر چنین نکنی، جانت را که ترکش گفته ای و افسارش را رها کرده ای اعلام کنم بدان چه که خواهم اعلام کرد. یا بدان چه که خود را از آن غافل کرده ای اعلام خواهم کرد. که نعمت فراوان تو را سرکش کرده و در طغیان افکنده است و در تو شیطان راه یافته. یا این که دامهای خود را در تو نهاده. و به آرزوی خود رسیده و در تو چون جان و خون در جریان است.

ای معاویه، کی شما مدیر امور رعیت و والی امر این امّت بوده اید؟ آیا بی سابقه و اثر نیکو و پایه بلند و ارجمند باید صاحب آن مقام باشید؟ به خدا پناه می برم از لزوم رقم بدبختی که از قلم قضای الهی گذشته است. بپرهیز از این که پیوسته در غفلت آرزوها به سر بری و دورو باشی.

ما را به جنگ خوانده ای؛ اگر راست گویی مردم را به یك سوی نه و هر دو سپاه را از آن معاف دار و تنها با من درآی تا دانسته شود کدام یك از ما زنگ بر دلش زده و پرده هوس برچشمش افکنده شد، که منم آن ابوحسنی که در جنگ بدر نیا و خالوی و برادرت را سرکوفتم و هریك را طعمه شمشیر کرده ام، همان شمشیر با من است و با همان دل به دشمن رو کنم. نه دینم را به دینی تبدیل کرده ام و نه پیغمبری از نو گرفته ام و من بر همان راه روشنم که شما به اختیار ترکش گفته اید و با اکره بدان در آمدید.

گویی که به خونخواهی عثمان آمدم، تو که خود دانی خونش را که ریخته است، از آن کس بخواه.

هان ای معاويه، به دهان اژدهای جنگ بينمت كه دندانش را در تو چنان فرو برده كه بسان شتران زير بار گران ناله ات درگرفته است؛ و سپاهت را كه يا كفركيشند و يا پيمان شكن بينمی كه از ديدن ضربت های پی درپی و قضای بهوقوع پيوسته يكی پس از ديگری بر خاك هلاك افتاده مرا به كتاب خدا خوانند.

بدان اگر مقام امامت و خلافت به دست مردم بودی و اين كار بديشان برگزار می شدی، هرآينه بر ما رشك می بردند و منت می نهادند، لكن اين مشيّت الهی و قضای آسمانی است كه خداوند از زبان پيمبر راستگويش كه خود به راستيش تصديق كرده است به ما موهبت فرموده و ارزانی داشته است. آن كه پس از روشن شدن حق و اقامه بيّنه و برهان بر حقانيت آن دو دل باشد و شك و شبهه نمايد رستگار نخواهد شد. بارخدايا، ميان ما و دشمن ما به حق حكم بفرما كه تو بهترين حاكمی.

ترجمه نامه امير (عليه السلام) در پاسخ نامه معاويه مطابق نسخه صيمری چنين است: ای پسر صخر، ای فرزند لعين، پنداری كه كوه ها هموزن حلم تو و تميز اهل شك علم تو است و حال اين كه نادانی كم فهم و پريشان عقل و رميده از دينی.

به من گفتی كه آماده جنگ باش و صابر. اگر راستگويی و ابن نابغه (عمرو بن عاص) تو را كمك است مردم را به يك سوی نه و هر دو سپاه را از كارزار معاف دار و تنها با من درآی تا دانسته شود كدام يك از ما زنگ بر دلش زده و پرده هوس بر چشمش افكنده شد كه منم همان ابوالحسن كه در جنگ بدر برادر و خالو و نيايت را سركوفتم و طعمه شمشير كرده ام، همان شمشير با من است و با همان دل به دشمن رو كنم.

پاسخ معاويه به اميرالمؤمنين (عليه السلام)

معاويه در جواب امير (عليه السلام) نوشت:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

از معاوية بن ابی سفيان به علی بن ابی طالب

امّا بعد؛ دست از حسد بردار كه هيچگاه از آن سودی نبری و گامی كه در راه دين از پيش برگرفته ای به آز بزرگ منشی و خودخواهی تباه مكن كه كارها وابسته

به پایان است و سابقه ات را در حق کسی که بر او حقی نداری نابود مگردان که اگر چنان کنی جز خویشتن را آزار نکنی و جز کارت را نابود نگردانی و جز حجّتت را باطل ننمایی.

به جانم سوگند، آن همه سابقه خدمت در دین که داشته ای به خون هایی که ریخته ای و خلاف با مردم حق کرده ای شسته ای و فرا آب داده ای. پس سوره "قل اعوذ بربّ الفلق" را بخوان و از شرّ نفس خود به خدا پناه ببر، چه تویی آن حاسدی که خدا در فلق فرمود: "و من شرّ حاسد اذا حسد".

ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو وكلامه هذا هو المختار الحادي عشر من باب الكتب والرسائل

فَإِذا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ في قُبُلِ الأَشْرافِ أَوْ سِفاحِ الْجِبالِ، أَوْ أَثْناءِ الأَنْهارِ كَيْما يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً وَدُونَكُمْ مَرَدًّا. وَلْتَكُنْ مُقاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ واحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ. وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَباءَ في صَياصِي الْجِبالِ، وَمَناكِبِ الْهِضابِ؛ لِئَلا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكانِ مَخافَةٍ أَوْ أَمْنٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وعُيُونُ الْمُقَدِّمَةِ طَلائِعُهُمْ.

وَإِيّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ فَإِذا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَميعاً، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَميعاً، وَإِذا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّماحَ كِفَّةً؛ وَلاَ تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلا غِراراً. أَوْ مَضْمَضَةً[1].

سندها ونقلها على صورتها الكاملة على رواية نصرفى صفين والحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول

قد روى كلامه هذا نصر بن مزاحم المنقري الكوفي في كتابه في «**صفين**» مسنداً **(ص ٦٦ من الطبع الناصري)** وما أتى به الرضيُّ في النهج فملتقط ممّا أتى به نصر في صفين وأشرنا غير مرةٍ إلى أنَّ عادة الرضيّ التقاط الفصيح والبليغ من كلامه عليه السلام وإن كان هذا الكتاب على صورته الكاملة من محاسن كتبه عليه السلام. وقد دريت في شروح الكتب السالفة أنَّ نصراً في نفسه ثقة، وفي نقله ثبت؛ وأنّه كان يعيش قبل الرضيّ بمائتي سنة تقريباً؛ فدونك الوصيّة على ما رواها نصر:

عن نصر: عمر بن سعد، حدَّثني يزيد بن خالد بن قطن أنَّ عليّاً عليه السلام حين أراد المسير إلى النخيلة دعا زياد بن النضر وشريح بن هاني وكانا على مذحج والأشعريين فقال: يا زياد اتّق الله في كلّ ممسى ومصبح وخفف على نفسك الدُّنياالغرور ولا تأمنها على حال من البلاء. واعلم أنّك إن لم ترع نفسك عن كثير ممّا يجب مخافة مكروهه سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرّ فكن لنفسك مانعاً وادعاً من البغي والظلم والعدوان فإنّي قد ولّيتك هذا الجند فلا تستطيلنَّ عليهم وإنَّ خيركم عند الله أتقاكم، وتعلّم من عالمهم [علّم] جاهلهم

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٤١٢، ومستدرك الوسائل: ١١/٤١ ح٧.

وأحلم عن سفيههم فإنّك إنّما تدرك الخير بالحلم وكفّ الأذى والجهد(١).

أقول: كلامه هذا مذكور في النهج المعنون بقول الرضيّ: ومن وصيّة له عليه السلام وصّى به شريح بن هاني لمّا جعله على مقدّمته إلى الشام: اتّق الله في كلّ صباح ومساء وخف على نفسك الدُّنيا ـ إلخ. وهو «**المختار**» ٥٦ من باب الكتب والرسائل وبين النسختين أعني بين ما في النهج وكتاب «**صفين**» لنصر اختلاف في الجملة وسيأتي شرحها وتحقيقها في محلّها إن شاء الله تعالى، فلنرجع إلى ما أتى به نصر في كتاب «**صفين**».

فقال زياد: أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيّتك مؤدّباً بأدبك، يرى الرشد في نفاذ أمرك، والغيّ في تضييع عهدك.

فأمرهما أن يأخذا في طريق واحد ولا يختلفا. وبعثهما في أثنى عشر ألفاً. على مقدّمته شريح بن هاني على طائفة من الجند وزياد على جماعة. فأخذ شريح يعتزل بمن معه من أصحابه على حدة ولا يقرب بزياد بن النضر. فكتب زياد مع غلام له أو مولى يقال له شوذب:

كتاب زياد بن النضر إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام

لعبد الله عليّ أمير المؤمنين من زياد بن النضر سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو؛ أمّا بعد، فإنّك ولّيتني أمر النّاس وأنَّ شريحاً لا يرى لي عليه طاعة ولا حقّاً وذلك من فعله بي استخفافاً بأمرك وتركاً لعهدك.

كتاب شريح بن هاني إليه عليه السلام

وكتب شريح بن هاني ـ إليه عليه السلام ـ سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو أمّا بعد، فإنَّ زياد بن النضر حين أشركته في أمرك وولّيته جنداً من جنودك تنكّر واستكبر ومال به العجب والخيلاء والزهو إلى ما لا يرضاه الربُّ تبارك وتعالى من القول والفعل، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعزله عنّا ويبعث مكانه من يحبّ فليفعل فإنّا له كارهون والسلام.

(١) تحف العقول: ١٩١، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٤١٠.

كتابه عليه السلام إلى زياد بن النضر وشريح بن هاني في جواب كتابهما وهذا الكتاب هو الذي أتى به الرضى في النهج وعنونه بقوله ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو أعني تلك الوصية التي نحن بصدد شرحها الآن على صورتها الكاملة على رواية نصر

فكتب إليهما عليٌّ عليه السلام: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هاني، سلام عليكما فإنّي أحمد إليكما الله الذي لا إله إلاّ هو؛ أمّا بعد، فإنّي قد ولّيت مقدمتي زياد بن النضر وأمّرته عليها وشريح على طائفة منها أمير، فإن أنتما جمعكهما بأس فزياد بن النضر على الناس، وإن افترقتما فكلّ واحد منكما أمير على الطائفة التي ولّيناه أمرها.

فاعلما أنَّ مقدِّمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم. فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسئما من توجيه الطّلائع، من نقض[1] الشعاب والشجر والخَمَر في كلّ جانب كيلا يغترَّكما عدوّ، أو يكون لهم كمين.

ولا تسيّرنَّ الكتائب إلاّ من لدن الصباح إلى المساء إلاّ على تعبية؛ فإن دهمكم دهم، أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدّمتم في التعبية.

وإذا نزلتم بعدوّ أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كي ما يكون ذلك لكم ردءاً، وتكون مقاتلتكم من وجه أو اثنين.

واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال، وبأعالي الأشراف، ومناكب الأنهار يرون لكم لئلا يأتيكم عدّو من مكان مخافة أو أمن.

وإيّاكم والتفرُّق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً وإذا غشيكم ليل فنزلتم فحفّوا عسكركم بالرماح والأترسة **(والترسة)**؛ ورماتكم يلُون ترستكم ورماحكم وما أقمتم فكذلك فافعلوا كيلا تصاب لكم غفلة، ولا تلفى لكم غرة؛ فما قوم حفّوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلاّ كانوا كأنّهم في حصون.

واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإيّاكما أن تذوقا نوماً حتّى تصبحا إلاّ غراراً أو مضمضة، ثمّ ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوّكما، وليكن عندي كلّ يوم

---

(١) في نسخة: نفض. مستدرك الوسائل: ١١/ ٤٠ ح ١٢٣٨١.

خبركما، ورسول من قبلكما؛ فإنّي ولا شيء إلاّ ما شاء الله حثيث السير في آثاركما، عليكما في حربكما بالتُّؤَدة، وإيّاكم والعجلة إلاّ أن تمكّنكم فرصة بعد الإعذار والحجّة، وإيّاكما أن تقاتلا حتّى أقدم عليكما إلاّ أن تبديا، أو يأتيكما أمري إن شاء الله والسّلام[1].

صورة الكتاب على رواية ابن شعبة

قد رواه أيضاً الشيخ العالم الجليل أبو محمّد الحسن بن عليّ بن شعبة الحرّاني المتوفّى ٣٣٢ هـ في **«تحف العقول»** عن آل الرسول (**ص ٤٤ طبع إيران ١٣٠٣ هـ**) لكنّه رحمه الله نقل أنّ هذا الكتاب كتبه إلى زياد بن النضر فقط فإنّه بعدما أتى بالوصيّة التي وصّى بها زياد بن النضر حين أنفذه على مقدّمته إلى صفين وهي قوله عليه السلام: **(اتّق الله في كل ممسى ومصبح)** - إلى قوله: **(وكفّ الأذى والجهد)** - كما رواها نصر قال: ثمّ أردفه بكتاب يوصيه فيه ويحذّره: اعلم أنّ مقدّمة القوم عيونهم، وعيون المقدّمة طلائعهم، فإذا أنت خرجت من بلادك، ودنوت من عدوّك فلا تسأم من توجيه الطلائع في كلّ ناحية وفي بعض الشعاب والشجر والخمر وفي كلّ جانب حتّى لا يغيّركم عدوّكم ويكون لكم كمين، ولا تسير الكتائب والقنابل من لدن الصباح إلى المساء إلاّ تعبية، فإن دهمكم أمر أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدّمتم في التعبية، وإذا نزلتم بعدوّ فليكن معسكركم في إقبال الإشراف، أو في سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار كي ما تكون لكم ردءاً ودونكم مرداً. ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد واثنين، واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال، وبأعلى الأشراف، وبمناكب الأنهار يُريئون لكم ثقلاً يأتيكم عدوّ من مكان مخافة أو أمن، وإذا نزلتم فانزلوا جمعياً، وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً، وإذا غشيكم اللّيل فنزلتم فحفّوا عسكركم بالرماح والترسة، واجعلوا رماتكم يلون ترستكم كي لا تصاب لكم غرّة، ولا تلقى لكم غفلة. واحرس عسكرك بنفسك. وإيّاك أن ترقد أو تصبح إلاّ غراراً أو مضمضة، ثمّ ليكن ذلك شأنك ودأبك حتّى تنتهي إلى عدوّك. وعليك بالتأنّي في حربك. وإيّاك والعجلة إلاّ أن تمكنك فرصة. وإيّاك أن تقاتل إلاّ أن يبدؤوك أو يأتيك أمري والسّلام عليك ورحمة الله[2].

ثمّ إنّ كتابه هذا على رواية **«تحف العقول»** منقول في أبواب الجهاد من البحار (**ص ٩٨ ج ٢١ من الطبع الكمباني وفي ص ٦٢٧ ج ٨ منه أيضاً**) وعلى رواية صفين لنصر منقول في باب بغي معاوية وامتناع أمير المؤمنين عليه السلام تأميره من البحار (**ص ٤٧٧ ج ٨ من ذلك الطبع**).

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤١٢، ونهج السعادة: ٤/ ٢٣٨.

(٢) تحف العقول: ١٩٢، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤٦٦.

اللغة

«أحمد إليكما الله» قال المرزوقيُّ في شرح «**الحماسة**» ٩٣: الحمد: الثناء على الرجال بما فيه من الخصال المرتضاة، وبهذا المعنى فارق الشكر، لأنَّ الشكر لا يكون إلاّ على صنيعة، انتهى.

أقول: الظاهر من قوله: وبهذا المعنى فارق الشكر، أنّه أراد أن يبيّن مورد افتراق معنيي الحمد والشكر، وإلاّ فالحمد أعمّ من الشكر لأنّك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه ولا تشكره على صفاته.

وأمّا معنى قوله: (**أحمد إليكما الله**) فقال ابن الأثير في «**النهاية**»: وفي كتابه ﷺ (**أمّا بعد فإنّي أحمد إليك الله**) أي أحمده معك فأقام إلى مقام مع. وقيل: معناه أحمد إليك نعمة الله بتحديثك إيّاها.

«ولّيت» من التولية يقال: ولّى الأمير فلاناً الأمر إذا جعله والياً عليه. وفي «**صحاح**» الجوهريّ: ولاّه الأمير عمل كذا، وولّاه بيع الشيء وتولّى العمل أي تقلّد.

«مقدّمتي» في «**الصحاح**»: مقدّمة الجيش بكسر (**الدال**): أوّله. وفي «**النهاية**» الأثيرية وفي كتاب معاوية إلى ملك الروم: (**لأكوننّ مقدّمته إليك**) أي الجماعة التي تتقدم الجيش من قدّم بمعنى تقدّم؛ وقد استعيرت لكلّ شيء فقيل: مقدّمة الكتاب ومقدّمة الكلام بكسر (**الدال**) وقد يفتح. «أمّرته عليها» أي جعلته أميراً عليها يقال: أمّره إذا ولاّه الإمارة وحكّمه.

«عيونهم» العيون واحد العين بفتح العين، ومعناه هٰهنا: الجاسوس والراصد ويقال بالفارسية ديدبان ففي «**الصحاح**»: العين: الديدبان والجاسوس. وفي «**النهاية**» الأثيريّة: وفي الحديث أنّه بعث بسبسة عيناً يوم بدر أي جاسوساً. واعتان له إذا أتاه بالخبر؛ ومنه حديث الحديبيّة كان الله قد قطع عيناً من المشركين أي كفى الله منهم من كان يرصدنا ويتجسّس علينا أخبارنا.

«طلائعهم» جمع طليعة وطليعة الجيش هم القوم الذين يبعثون ليطّلعوا طِلْعَ العدوّ كالجواسيس. «لا تسئما» أي لا تملّا، يقال سئم الشيء يسئم سآمة من باب علم أي ملّه وضجر منه؛ والسآمة: الملل والضجر.

«نقض» النقض (**بالقاف**): الهدم، ولكنني أرى أنّ (**النقض**) مصحّف والصواب النفض (**بالفاء**) ففي «**صحاح**» الجوهريّ: وقد نفضت المكان واستنفضته وتنفضته أي نظرت جميع ما فيه قال زهير:

وتنفض عنها غَيْبَ كلِّ خَميلة وتخشى رُماة الغَوث من كلِّ مرصد

واستنفض القومُ أي بعثوا النفيضة، ويقال: إذا تكلّمت ليلاً فانفض أي التفت هل ترى من تكره؟ والنفض بالتحريك: الجماعة يبعثون في الأرض لينظروا هل فيها عدوٌّ أو خوف، وكذلك النفيضة نحو الطليعة.

وفي «**النهاية**» الأثيريّة: وفي حديث أبي بكر والغار: أنا أنفض لك ما حولت أي أحرسك وأطوف هل ترى طلباً؟ يقال: نفضت المكان واستنفضته وتنفّضته إذا نظرت جميع ما فيه. (**والنفضة**) بفتح (**الفاء**) وسكونها، (**والنفيضة**) قوم يبعثون متحسّسين هل يرون عدوّاً أو خوفاً.

«الشعاب» بكسر الشين جمع الشعب بكسرها أيضاً أي الطريق في الجبل. وما انفرج بين الجبلين، ومسيل الماء في بطن أرض.

«الخَمَر» بالتحريك كلّما سترك وواراك من الشجر والجبال ونحوها؛ قال ابن الأثير في «**النهاية**»: ومنه حديث أبي قتادة فابغنا مكاناً خمراً أي ساتراً بتكاثف شجره. وفي «**الصحاح**»: تقول: توارى الصيد منّي في خمر الوادي. وفي «**البيان والتبيين**» للجاحظ ص ٢١٠ ج ٣ قال الشاعر:

ثمّ أرميكم بوجه بارز لست أمشي لعدوّي بخَمَر

«كمين» الكمين: القوم يكمنون للعدوّ ويستخفون في مكمن لا يفطن له ثمّ ينتهزون غرّة العدوّ فينهضون عليه، من قولهم كمن كموناً من بابي نصر وعلم إذا اختفى وتوارى. ومنه قولهم: هذا أمر فيه كمن؛ أي دغل لا يفطن له.

«الكتائب» جمع الكتيبة من كتبت أي جمعت، تقول: فلان كتّب الكتائب تكتيباً أي عبّى كتيبةً كتيبةً، وتكتّبت الخيلُ أي تجمّعت فالكتيبة من الجيش ما جمع فلم ينتشر؛ أَلْحَقَ (**الهاء**) بها لأنّه جعل اسماً. وفي «**النهاية**» الأثيريّة: في حديث السقيفة نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، الكتيبة: القطعة العظيمة من الجيش، والجمع الكتائب.

قال الفرّار السُّلمي (**الحماسة ٣٨**).

وكتيبة لبّستُها بكتيبةٍ حتّى إذا التبست نفضتُ لها يدي

فتركتهم تقص الرّماح ظهورهم من بين منعفر وآخر مسند

في شرح المرزوقي عليها: هذا يتبجّح بأنّه مهياج شرّ وأذى، وجماع بين كتائب شتّى تتقاتل من دونه، ثمّ يخرج هو من بينهم غير مُبال بما يُجرون إليه، ولا مفكّرٍ فيما ينتج من

الشّر فيهم، فيقول: رُبّ كتيبة خلطتها بكتيبة. فلما اختلطت نفضت يدي منهم ولهم وخلّيتهم وشأنهم.

«فإن دهمكم دهم» دهمه أمر أي فاجأة وغشيه من بابي منع وعلم وفي «**الحماسة**» ٧١.

وكم دهمتني من خطوب مُلمّةٍ صبرتُ عليها ثمّ لم أتخشّع

قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: الدّهم. العدد الكثير؛ والجمع الدُّهوم وقال الشاعر:

جئنا بدَهمٍ يدهم الدّهوما مَجرٍ كأنَّ فوقه النجوما

وفي «**النهاية**» الأثيرية: في الحديث لما نزل قوله تعالى تسعة عشرة (**المدثر: ٣١**) قال أبو جهل: أما تستطيعون يا معشر قريش وأنتم الدّهم أن يغلب كلّ عشرة منكم واحداً؟ الدّهم: العدد الكثير. ومنه الحديث محمّد في الدّهم بهذا القوز[1] وحديث بشير بن سعد فأدركه الدّهم عند اللّيل، والحديث الآخر من أراد أهل المدينة بدهم أي بأمر عظيم وغائلة؛ من أمر يدهمهم أي يفجأهم.

«معسكر» على هيئة المفعول: موضع العسكر أي الجيش ويقال بالفارسية: لشكرگاه.

«قبل» في «**الصحاح**»: القبل ـ بضمّ (**القاف**) وسكون (**الباء**) ـ والقبل ـ بضمّهما ـ: نقيض الدُّبر والدُّبرُ ـ كذلك ويقال: أنزل بِقُبل هذا الجبل أي بسفحه. انتهى قوله. وفي «**النهاية**»: القبل: ما استقبلك من الشيء، فقبل الأشراف ما استقبلك منها. وجاء في بعض النسخ قبيل مصغّراً؛ وفي بعضها الأخر: قبل بكسر (**القاف**) وفتح (**الباء**) ولكن الأوّل هو الصواب.

«الأشراف» جمع الشرف محرَّكة ففي «**الصحاح**»: الشَّرَف: العلوّ والمكان العالي. وقال الشاعر:

آتي النديّ فلا يقرّب مجلسي وأقود للشَّرَف الرفيع حماري

يقول: إنّي خرفت فلا ينتفع برأيي، وكبرت فلا استطيع أن أركب من الأرض حماري إلاّ من مكان عالٍ وجبلٍ مشرف عالٍ.

«سفاح» بكسر أوّله جمع السفح بالفتح. وفي «**الصحاح**»: سفح الجبل أسفله حيث يسفح فيه الماء وهو مضطجعه، وقال المرزوقيُّ في شرح «**الحماسة**» ٣٣:

فلما أتينا السفح من بطن حائلٍ بحيث تلاقي طلحها وسيالها

دعوا لنزار وانتمينا لِطَيِّىء كأسد الشرى إقدامها ونزالها

---

(١) الغارات: ١/ ٢٨٢ ح ٢.

القوز بالفتح: العالي من الرمل كأنه جبل.

ما هذا لفظه: والسفح أسفل الجبل ولاشتهاره بما وضع له أغنى عن إضافته إلى الجبل.

«أثناء الأنهار» منعطفاتها، جمع الثني بكسر الأوّل وسكون الثاني. وفي **«الصحاح»**: قال أبو عبيد: الثِّني من الوادي والجبال مُنْعَطَفُه.

«ردءاً» الرّدء بالكسر فالسكون: العون والناصر، تقول: ردأت الرجل ردءاً من باب منع، وأردأته بمعنى أعنته. وأردأته بنفسي: إذا كنت له ردءاً. وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٤] وجمع الردء أرداء.

«رقباء» جمع الرقيب، والرقيب الحافظ والراصد والحارس تقول رقبه رقوباً من باب نصر إذا رصده وحرسه، ورقيب الجيش طليعتهم وعينهم أيضاً.

«صياصي» جمع الصيصة والصيصية وفي **«الصحاح»**: الصيصة: شوكة الحائك التي يسوّى بها السداة واللحمة؛ ومنه صيصة الديك التي في رجله، وصياصي البقر قرونها، وربما كانت تركّب في الرماح مكان الأسنّة. والصياصي: الحصون. انتهى.

وفي **«النهاية»** الأثيريّة: فيه ـ يعني في الحديث ـ أنه ذكر فتنة تكون في أقطار الأرض كأنّها صياصي بقر أي قرونها، واحدها صيصية بالتخفيف. وقيل: شبّه الرماح التي تشرع في الفتنة وما يشبهها من سائر السلاح بقرون بقر مجتمعة، ومنه حديث أبي هريرة أصحاب الدّجال شواربهم كالصياصي يعني أنّها أطالوها وفتلوها حتّى صارت كأنّها قرون بقر، والصيصة أيضاً الوتد الذي يقلع به التمر، والصنارة التي يغزل بها وينسج.

أقول: فبما ذكرنا من معاني الصياصي يمكن أن يكون معنى صياصى الجبال رؤوسها لأنَّ أحد معانيها القرون وأحد معاني القرون رؤوس الجبال، كما يمكن أن تكون الإضافة من قبيل لجين الماء أي الجبال التي كالحصون أو أنّها حصون لأنّه يمتنع بها كما أنَّ ذا القرن يمتنع بقرنه.

«مناكب» جمع المنكب بفتح (**الميم**) وكسر (**الكاف**)، وفي **«الصحاح»**: المنكب من الأرض: الموضع المرتفع.

«الهضاب» بكسر (**الهاء**) جمع الهضبة بفتحها، وفي **«الصحاح»**: الهضبة: الجبل المنبسط على وجه الأرض والجمع هِضَب وهِضاب.

«الأترسة» الصواب الترسة، والأولى مصحّفة. والترسة جمع التُّرس وهي صفحة من الفولاد تحمل للوقاية من السيف ونحوه ويقال بالفارسيّة: سپر، وفي **«الصحاح»**: التّرس

جمعه تِرسة وتِراس وأتراس وتُروس، قال يعقوب: ولا تقل أترَسَة. انتهى.

«رماتكم» الرُّماة جمع الرامي كالمشاة جمع الماشي. وأصلها الرَمَيَة كالطلبة أبدلت **(ياؤها) (ألفاً)**.

«لا تلفى» أي لا توجد. تقول: ألفيت الشيء إذا وجدته. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

«كفّة» بكسر **(الكاف)** أي مستديرة بحيث تحفّ العسكر وتصير حصناً لهم. وفي **«الصحاح»**: كُفَّة القميص بالضمّ: ما استدار حول الذيل. وكان الأصمعي يقول: كلّ ما استطال فهو كُفَّة بالضمّ نحو كفّة الثوب وهي حاشيته، وكفّه الرّمل وجمعه كفاف؛ وكلّ ما استدار فهو كفَّة بالكسر نحو كفّة الميزان، وكِفّة الصائد وهي حبالته، وكفّة اللثة وهي ما انحدر منها. قال: ويقال: كَفّة الميزان أيضاً بالفتح والجمع كِفَف. انتهى.

وقال المرزوقي في شرح **«الحماسة»** ٥٦:

مَلأت عليه الأرض حتّى كأنها   من الضيق في عينيه كِفّة حابل

(والكفّة) يجوز أن يريد به الحفيرة التي ينصب الحابل فيها الحبالة، ويجوز أن يريد بها قترته، ويجوز أن يريد بها عين الحبالة لأنها تجعل كالطّوق وهذا أقرب لأنَّ الخليل فسّر الكفّة على ذلك.

أقول: المراد منها هٰهنا أن يحفّوا العسكر بالرماح والترسة حتّى تكون حصناً لهم كما بين في نسخة نصر وسيتّضح في المعنى أيضاً. وقد غلط بعض الشراح حيث فسّر قوله عليه السلام **(فاجعلوا الرّماح كفّة)** بقوله: **(ليكون الرماح حولكم ككفّة الميزان)** أي مجموعة.

«غراراً» الغرار بالكسر، أحد معانيه: النوم القليل، تقول العرب: ما نومه إلا غرار. وقال **تأبّط شرًّا** كما في ديوان **«الحماسة»** من اختيار أبي تمّام **(حماسة ١٦٥)**:

وقالوا لها لا تنكحيه فإنّه   لأوّل نصل أن تُلاقى مجمعاً

قليل غِرار النوم أكبر همّه   دم الثار أو يلقى كميّاً مسفّعا

«مضمضة» هٰهنا كناية عن قلّة النوم، والأصل في المضمضة: تحريك الماء في الفم والمضمضة في النوم أن تنام خفيفاً ثمَّ تستيقظ ثمَّ تنام خفيفاً وهكذا تشبُّها بمضمضة الماء في الفم، وفي **«الصحاح»**: يقال: ما مضمضت عيني بنوم أي ما نمت وتمضمض النعاس في عينه، قال الراجز:

وصاحب نبّهته لينهضا   إذا الكرى في عينه تمضمضا

«حثيث» أي مسرع، يقال: ولّى حثيثاً أي مسرعاً، وفي القرآن الكريم ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] «التؤدة» بضمّ (التاء) وفتح (الهمزة) (والدال): الرزانة والتأني والرِّفق مقابل العجلة، وأصلها من وأد كالتّوآد على وزن التكرار. وفي «الصحاح»: إتّأد في مشيه وتوأدّ في مشيه وهو افتعل وتفعّل من التوءدة وأصل (التاء) في اتّأد (واو) يقال: اتّئد في أمرك أي تثبّت وفي «الحماسة» ٧٤:

إنّي امرؤ مكرم نفسي ومتّئد   من أن اقاذعها حتى أجازيها

الإعراب

(مقدمتي وزياد) مفعولان لقوله (ولّيت) فإذا أنتما خرجتما، (الفاء) فصيحة، وفي كلّ جانب متعلّق بكلّ واحد من التوجيه والنفض (فإن دهمكم)؛ (الفاء) تعليلية لقوله (إلاّ على تعبية) وضمير (يرون) يرجع إلى الرقباء (والفاء) في (فإذا نزلتم) فصيحة، (فحفّوا) جواب إذا الثالثة، (والفاء) في (فنزلتم) تفريع على غشيكم (فما قوم حفّوا)؛ (الفاء) تعليلية لقوله: (فحفّوا عسكركم بالرماح) إلخ. وقوله عليه السلام: (كي لا تصاب) - إلى قوله: (غرّة)، يمكن أن يكون تعليلاً لقوله (حفّوا) كما يمكن أن يكون تعليلاً لقوله: (وما أقمتم) وإن كان بالأوّل أوفق، (حثيث السير) خبر (إنّ)، وقوله عليه السلام (ولا شيء إلاّ ما شاء الله) جملة معترضة وقعت بين اسم إنّ وخبرها.

المعنى

كتابه هذا من محاسن كتبه عليه السلام لفظاً ومعنى ويا ليت الشريف الرضيّ رضوان الله عليه أتى بصورته الكاملة في النهج من دون التقاط بعضه ورفض بعضه الآخر.

ثمّ إنَّ الكتاب مشتمل على قوانين كليّة أصلية لا بدَّ لمن تولى إمارة جيش أن يستعملها في الحرب كي يظفر على الخصم. ولا تختصّ تلك القوانين بعصر دون عصر بل تعمّ الأعصار والدُّهور؛ فلا مجال لأحد في أن يقول: إنَّ الكتاب يتضمّن على قوانين الحرب في تلك الأعصار السالفة دون هذه الأزمان غاية الأمر أنَّ أدوات الحرب تغيّرت، ولو تأمّل في الكتاب من تدرب في فنون المحاربة يجد قائله بطلاً محامياً ومحارباً خرّيتا في فنون الحرب، وأميراً لمن يكن له في طول دهره إلاّ تعبية العساكر وتهيئة سلاح الحرب وتعليم فنون القتال، وأعمال الروية في كيفية مقابلة العساكر وتهيئة سلاح الحرب وتعليم فنون القتال، واعمال الروية في كيفية تعبية العساكر وتهيئة سلاح الحرب وتعليم فنون القتال، واعمال الروية في كيفية مقابلة المقاتل في المعارك؛ مع أنّه عليه السلام كان في جميع الصفات الكماليّة إماماً وقدوة، فدونك بما تضمّن الكتاب:

قوله عليه السلام: «وإن افترقتما فكلّ واحد منكما أمير على الطائفة التي ولّيناه أمرها» وقد دريت أنّه عليه السلام كتب إليهما هذا الكتاب بعد اعتزال شريح عن زياد وتنحّى زياد عنه، ثمّ إنّ الشركة في أمثال هذه الأمور قلّما تتّفق؛ على أنّ الاجتماع على راية واحدة وأمير واحد أقرب إلى الظفر على الخصم من التساند في الحرب وقد أجمعوا على أنّ الشركة ردّية في ثلاثة أشياء: في المُلك، والحرب والزّوجة.

قوله عليه السلام: «فاعلما أنّ مقدّمة القوم عيونهم - إلخ» قد أتى عليه السلام في هذا الكتاب بأحد وعشرين دستوراً ممّا لا بدّ أن يراعيها أمير الجيش طلباً للظفر على الخصم وهي ما يلي:

الأول: أنّ القوم لا بدّ لهم من مقدّمة.

الثاني: أنّ المقدّمة لا بدّ من أن يكونوا أكياساً حذّاقاً بصراء لأنّهم عيون القوم فالمقدّمة من القوم بمنزلة العين من الجسد وكما أنّ العين جاسوس للبدن تحفظه من المهالك وتراقبه عن المهاوي كذلك المقدّمة للقوم، ففي كتاب **«الحرب من عيون الأخبار»** لابن قتيبة الدينوريّ **(ص ١١٧ ج ١ طبع مصر)**: ذكر عبد الملك بن صالح الهاشمي أنّ خالد بن برمك حين فصل مع قحطبة من خراسان، بينا هو على سطح بيت في قرية قد نزلاها وهم يتغدّون نظر إلى الصحراء فرأى أقاطيع ظباء قد أقبلت من جهة الصحاري حتّى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة: أيّها الأمير ناد في النّاس: يا خيل الله اركبي، فإنّ العدوّ قد نهد إليك وحثّ، وغاية أصحابك أن يُسرجوا ويلجموا قبل أن يروا سُرعان الخيل، فقام قحطبة مذعوراً فلم ير شيئاً يروعه ولم يعاين غباراً، فقال لخالد: ما هذا الرأي؟ فقال خالد: أيّها الأمير لا تتشاغل بي ونادِ في النّاس، أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت وفارقت مواضعها حتّى خالطت النّاس! إنّ وراءها لجمعاً كثيفاً، قال: فوالله ما أسرجوا ولا ألجموا حتّى رأوا ساطع الغبار فسلموا، ولولا ذلك لكان الجيش قد اصطلم.

الثالث: أنّ للمقدّمة لا بدّ من طلائع.

الرابع: أنّ الطلائع عيون المقدّمة فالكلام في المقدّمة كالكلام في الطلائع بل الطلائع يجب أن يكونوا أكيس من المقدّمة لأنّهم عيون العيون.

الخامس: أن يوجّهوا الطلائع في كلّ جانب يظنّ فيه كمين مرّة بعد مرّة كما يستفاد من قوله عليه السلام **(فلا تسئما)** أي لا تملاً من كثرة توجيه الطلائع.

السادس: أن يبعثوا النفيضة كرّة بعد كرّةٍ كما يستفاد من قوله عليه السلام **(فلا تسئما)** أيضاً في كلّ جانب يظنّ فيه عدوّ في مكمن واغترار لينظروا في الشعاب وفي وراء الشجر والخمر. وعلّل هذين القسمين بقوله **(كي لا يغترّكما عدوّ)**، أو يكون لهم كمين وهذان القسمان في

الحقيقة متفرّعان على ما قبلهما ولذا أتى (بفاء) الفصيحة بعد قوله **(فاعلما أنّ مقدّمة القوم عيونهم وعيون المقدّمة طلائعهم)**.

السابع: أن لا تسيّر الكتائب في اللّيل لما في اللّيل من خوف الوقوع إلى التهلكة فحصر السير في النهار بقوله إلاّ من لدن الصباح إلى المساء.

الثامن: أنّ سير الكتائب إذا كان في اللّيل فلا بدّ من أن يكونوا على تعبية أي على تهيئة وتجهيز من قبل أن تسير الكتائب وعلّل ذلك بقوله: **(فإن دهمكم دهم أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدّمتم في التعبية)**.

التاسع: إذا نزلوا بعدوّ أو نزل العدوُّ بهم فليكن المعسكر في قبل الأماكن العالية أو أسافل الجبال، أو منعطفات الأنهار وعلّل ذلك بقوله **(كيما يكون لكم ردءاً ودونكم مردًا)**.

العاشر: أن تكون المقاتلة من وجه واحد أو اثنين وذلك لأنَّ المقاتلة إذا كانت من وجوه شتّى تشتّتت القوى فيتطرّق الوهن والضعف في الجند فيستلزم ظفر الخصم عليهم. والغرض من هذا الكلام أنَّ الجيش ينبغي لهم أن يجعلوا معسكرهم في قبل الأشراف أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كي لا يحمل عليهم الخصم من كلّ جانب بل من جانب واحد أو من جانبين والجوانب الأخرى تكون مصونة بالجبال والأنهار. وإن لم توجد الجبال والأنهار فيحفر الخندق حول العسكر كما فعله الإمام سيّد الشهداء أبو عبد الله الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام في كربلاء.

الحادي عشر: لا بدَّ للقوم من رقباء.

الثاني عشر: أن يجعل الرقباء في رؤوس الجبال والتلال ونحوهما من موضع مرتفع بحيث يرون للقوم؛ والسرُّ في ذلك أنّهم إذا كانوا في مواضع مرتفعة على مرئى قومهم يرون الخصم عن بعيد فيخبرون قومهم فلا ينزل الخصم عليهم بغتة كما صرّح عليه السلام بذلك **(لئلا يأتيكم عدوّ من مكان مخافة أو أمن)**.

الثالث عشر: أن يحذروا من التفرّق لأنّ الاجتماع يوجب الهيبة والعظمة تجاه الخصم فيستلزم وهنه وانكساره. وفي القرآن الكريم: **﴿ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفّار﴾** [الفتح ٢٩] **(آخر الفتح)**.

وفرّع على التحذير من التفرُّق قوله: **(فإذا نزلتم)** وأتى **(بالفاء)** الفصيحة أي إذا كان التفرّق محذوراً منه **(فانزلوا جميعاً وارحلوا جميعاً)**.

الرابع عشر: أن يحفّ العسكر بالرماح والترسة كي تصير الرماح والترسة حصناً لهم

وعلّل ذلك بقوله: **(فما قوم حفّوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلاّ كانوا كأنّهم في حصون)**.

الخامس عشر: أنّ الرّماة يلون الترسة والرّماح. والمراد أنّ كلّ من تدرب في فنّ من فنون الحرب يلي أمره ولما أمرهم بأن يحفّوا العسكر بالرماح والترسة أشار إلى أنّ الرماة يلون الترسة والرماح لأنّ ذلك أربط للجاش وأتقن وآكد في الحراسة.

السادس عشر: إذا أقام الجيش في منزل وإن كانت الإقامة في النهار فكذلك عليهم أن يحفُّوا العسكر بالترسة والرماح يجعلوا شأن الترسة والرماح على الرماة، وأشار إلى هذا الدستور بقوله: **(وما أقمتم فكذلك فافعلوا)**، وإنّما قيدنا الإقامة بالنّهار لأنه عليه السلام بعدما أمر بعمله في اللّيل بقوله: **(وإذا غشيكم ليل)** - إلخ أتى بقوله: **(هذا وما أقمتم)** - إلخ. ثمّ إنّه عليه السلام بعد ذلك يقول: **(فما قوم حفّوا عسكرهم برماح وترستهم من ليل أو نهار إلاّ كانوا كأنّهم في حصون)** فأتى باللّيل والنهار على سبيل اللفّ والنشر المرتّبين، فقوله: **(من ليل)** يشير إلى قوله: **(وإذا غشيكم ليل)**، وقوله عليه السلام: **(أو نهار)** يشير إلى قوله: **(فما أقمتم فكذلك فافعلوا)** غاية الأمر أن يقال فما أقمتم يعمّ الجديدين. فلا ضير أيضاً، ثمّ علّله بقوله: **(كي لا تصاب لكم غفلة ولا تلفى لكم غرّة)**. وذلك لأنّهم إذا اعتادوا أن يحفّوا العسكر بالرماح والترسة مهما أقاموا لا تفوتهم الكفّة في اللّيل ولذا قال عليه السلام: **(كي لا تصاب بكم غفلة ولا تلفى لكم غرّة)**، وأن جعل قوله عليه السلام: **(كي لا تصاب)** دليلاً لقوله **(فحفّوا عسكركم)** فالأمر أوضح.

السابع عشر: أن يحفظ الأمير قومهم بنفسه ولا يحمله على غيره لأنّه إذا جانب العسكر لا يراقبهم غيره من أفراد الجند كما ينبغي، فربّما ينجرّ إلى فرار بعض أو استيلاء الخصم على غفلة وغيرهما من المفاسد.

وفي نوادر الراونديّ بإسناده عن موسى بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام قال: قال الحسن بن علي عليهما السلام: كان عليّ عليه السلام يباشر القتال بنفسه ولا يأخذ السلب **(البحار الكمبانيّ ص ١٠٠ ج ٢١)**[1].

الثامن عشر: لا يجتنبوا من النوم الطويل بل من القليل أيضاً إلاّ غراراً أو مضمضة لئلا يدهمهم الخصم وهم نيام.

التاسع عشر: أنّ عليهم التأنّي والرفق في الحرب والتحذّر من العجلة. ثم استثنى الحكم بالتأنّي بقوله: **(إلاّ أن تمكنكم فرصة بعد الاعذار والحجّة)**.

(١) مستدرك الوسائل: ١١/١٢٧ ح ١٢٦١٥، وكتاب النوادر: ١٣٨.

العشرون: أن يقدّموا الإعذار والحجّة والنصح قبل الحرب.

الواحد والعشرون: أنَّ لا يقدّموا في الحرب ولا يبتدؤوا فيه، وسيجيء الكلام في هذين الوجهين في المختارين ١٤ و١٥ من هذا الباب إن شاء الله تعالى.

ثمَّ إنَّ في الفصل السابع والثلاثين من الباب الثالث من مقدّمة ابن خلدون مطالب مفيدة في الحروب وسياستها وما يتعلّق بها ومذاهب الأُمم فيها وأقسامها، وقال فيه: وانظر وصيَّة عليّ رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه قال في كلام له: (**فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص**) - إلخ. فمن شاء فليطلبها (**ص ٢٧٠ طبع مصر**).

الترجمة

این کتاب یازدهم از باب مختار کتب و رسائل امیر (عليه السلام) است که در آن لشکری را که به سوی دشمنی گسیل داشت به دستورهایی وصیت کرده است.

امیر (عليه السلام) این نامه را به شریح بن هانی و زیاد بن نضر نوشت گاهی که آن دو را بر لشکری امارت داد و در اثنای راه به مخالفت یکدیگر اقدام کردند و هریك نامه ای به امیرالمؤمنین (عليه السلام)نوشت و از مخالفت دیگری حضرتش را اعلام کرد. و زیاد نامه نوشت که شریح از طاعت من سر باز زد و برای من حقی روا نمی دارد و امر امیر را سبك شمرده و پیمانش را ترك گفت و شریح نامه نوشت که زیاد تکبّر نمود و بدخویی کرد و عُجب و خودبینی و فخر او را به گفتار و کرداری که خداوند از آن خرسند نیست کشانید و از امیر (عليه السلام) عزلش را درخواست کرد. چون نامه آن دو به آن بزرگوار رسید در جوابشان مرقوم فرمود:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

از بنده خدا علی امیرالمؤمنین به زیاد بن نضر و شریح بن هانی

درود بر شما؛ من با شما حمد می کنم خدایی را که نیست جز او خدایی؛ امّا بعد همانا که تولیت مقدّمه لشگر را به زیاد برگزار کرده ام و او را امیر بر آنان گردانیدم و شریح بر طایفه ای از ایشان امیر است. پس اگر کار شما به وفاق کشید زیاد بر مردم امیر است و اگر به خلاف انجامید هریکی بر طائفه ای که شما را بر آن ها والی گردانیدم امیر خواهد بود.

بدانید که مقدّمه لشگر دیدبانشان اند و طلیعه دیدبان مقدّمه اند (مقدّمه، گروهی هستند که پیشاپیش لشگرند و جاسوس شان و طلیعه نفری چند که جاسوس مقدّمه اند)، ازاین روی چون از شهر خود به در رفتید از فرستادن طلیعه ها به گوشه و کنار و این سوی و آن سوی خودداری نکنید و از تفتیش و تجسّس در درّه ها و پشت درختها و کوهها و مانند آن ها از هر سوی کوتاهی نکنید و از کثرت این کار ملال نگیرید که مبادا دشمن در کمین باشد و ناگهان شما را بفریبد و غفلت گیر کند.

و باید که سپاه از شب روی بر حذر باشند و فقط از بامداد تا شامگاه راه بپیمایند، مگر این که اگر بخواهند شبروی کنند از پیش آمادگی داشته و خود را مجهّز کرده باشند که اگر دشمن نابهنگام روی آورد شما نیز آماده و از پیش برای دفاع در تعبیه بوده و تهیّه دیده باشید.

پس هرگاه بر سر دشمن فرود آیید یا دشمن بر شما فرود آید، باید لشکرگاه شما در پیش جاهای بلند یا دامنه کوهها یا در خم جوی ها باشد تا شما را از شرّ دشمنان مددی و در پیش رویتان از آنان سدّ و مانعی بود و باید که کارزارتان از یك روی یا دو روی باشد (یعنی جهات دیگر باید به کوه یا به نهر محفوظ باشد که دشمن از هر طرف دست نیابد و حمله نکند).

و دیده بانها و پاسبان های لشگر را بر سر کوهها و بر بلندی پشته ها قرار دهید تا دشمن از رهگذر خوف یا امن بر سر شما ناگهان فرود نیابد.

و باید که از پراکندگی بپرهیزید، از این روی هرگاه فرود می آیید همگی یك بار فرود آیید و اگر کوچ می کنید همگی یك بار کوچ کنید. و هرگاه شب فرا رسد و فرود آمدید نیزه ها و سپرها را در گرداگرد لشکر، دیوار لشکر کنید و کار نیزه ها و سپرها را به تیراندازان واگذارید و اگر روز هم در جایی فرود آمدید همین کار کنید تا مبادا که در غفلت باشید و ناگهان دشمن بر شما بتازد، چه هیچ لشکری خواه در شب جایی فرود آیند و خواه در روز، گرداگرد خود را به نیزه ها و سپرها نگرفتند مگر این که گویی در دیواری قرار گرفتند. و باید خودتان لشکر را بپایید و بپرهیزید از خواب تا به بیداری شب به روز آورید مگر این که خواب اندکی مضمضه کنید و باید بدین سان که گفته ام خوی کنید و پایدار باشید تا با دشمن روبروی شوید. و باید هر روز از شما خبر داشته باشم. و من به خواست خدا به سرعت از پی شما خواهم آمد و باید در جنگ تانّی کنید و از شتاب دوری جویید مگر این که گاهی فرصت شما را به شتاب در جنگ پس از آن که حجّت را بر خصم به پند و اندرز تمام کرده باشید دست دهد. و مبادا تا من نیامدم اقدام به جنگ کنید. مگر این که دشمن افتتاح و ابتدای به جنگ کند یا این که دستور من به خواست خدا برسد؛ والسلام.

ومن وصية له عليه السلام لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له وكلامه هذا هو المختار الثاني عشر من باب كتبه ورسائله وعهوده ووصاياه عليه السلام

إِتَّقِ اللَّهَ الذي لا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقائِهِ وَلاَ مُنْتَهى لَكَ دُونَهُ. وَلاَ تُقاتِلَنَّ إلا مَنْ قاتَلَكَ. وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ. وَغَوِّرْ بِالناسِ. وَرَفِّهْ في السَّيْرِ. وَلا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقاماً لا ظَعْناً، فَأَرِحْ فيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذا وَقَفْتَ حينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ، أَوْ حينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ فَسِرْ عَلى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَإِذا لَقيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحابِكَ وَسَطاً، وَلا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُريدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ وَلا تَباعَدْ مِنْهُمْ تَباعُدَ مَنْ يَهابُ الْبَأْسَ حَتّى يَأْتِيَكَ أَمْري. وَلا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلى قِتالِهِمْ قَبْلَ دُعائِهِمْ وَالإِعْذارِ إِلَيْهِمْ[1].

ذكر سندها والكلام في تلفيقها

رواها نصر بن مزاحم المنقريّ التميميّ الكوفيّ الملقب بالعطّار من معاصري محمّد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام باقر علوم الأوّلين والآخرين في كتاب «صفين» **(ص ٧٨ من الطبع الناصري)** عن عمر بن سعد، عن أبي مخنف، عن نمير بن وعلة، عن أبي الودّاك: أنَّ عليّاً بعث من المدائن معقل بن قيس في ثلاثة آلاف وقال له:

خذ على الموصل ثمَّ نصيبين ثمَّ القنى بالرقّة فإنّي موافيها وسكّن النّاس وآمنهم، ولا تقاتل إلاّ من قاتلك، وسر البردين، وغورّ بالناس، وأقم اللّيل، ورفّه في السير، ولا تسر أوّل اللّيل، فإنَّ الله جعله سكناً، أرح فيه بدنك وجندك وظهرك فإذا كان السحر وحين ينبطح الفجر فسر[2].

فخرج ـ يعني معقل بن قيس ـ حتّى أتى الحديثة ـ وهي إذ ذاك منزل الناس إنّما بنى مدينة الموصل بعد ذلك محمّد بن مروان ـ فإذا هم بكبشين ينتطحان ومع معقل بن قيس رجل من خثعم يقال له شداد بن أبي ربيعة قتل بعد ذلك مع الحروريّة فأخذ يقول: إيه إيه فقال معقل: ما تقول؟ قال: فجاء رجلان نحو الكبشين فأخذ كلّ واحد منهما كبشاً ثمَّ انصرفا، فقال الخثعميُّ لمعقل: لا تَغلبون ولا تُغلبون قاله له: من أين علمت ذلك؟ قال: أما أبصرت

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٣٩٦، ونهج السعادة: ٢/١٣٨.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/٤٢٨، ونهج السعادة: ٢/١٣٨.

الكبشين أحدهما مشرق والآخر مغرب التقيا فاقتتلا وانتطحا فلم يزل كلّ واحد منهما من صاحبه منتصفاً حتّى أتى كلّ واحد منهما صاحبه فانطلق به، فقال له معقل: أو يكون خيراً ممّا تقول يا أخا خثعم؟ ثمّ مضوا حتّى أتوا علياً بالرقة. انتهى كلام نصر.

أقول: وصيّته عليه السلام لمعقل على نسخة نصر لا تتجاوز عن قوله **(حين ينبطح الفجر فسر)** كما نقلناها عنه وذيلها كان من وصيّته عليه السلام لمالك الأشتر وقد رواها نصر في «**صفين**» أيضاً (ص ٨١) وسيأتي تمام وصيّته لمالك في شرح «**المختار**» الثالث عشر من هذا الباب أعني المختار التالي لهذه الوصيّة وقدّمنا صورة وصيّته عليه السلام لمالك المتضمّنة لما في ذيل هذه الوصيّة لمعقل عن أبي جعفر الطبري في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب أيضاً فراجع إلى ص ٢٢١ من ج ١ من تكملة المنهاج.

فبما روينا عن الطبريّ وما يأتي عن نصر في «**صفين**» المتحدين في صورة تلك الوصيّة لمالك المتضمنة لذيل هذه الوصيّة، علم أنّ هذه الوصيّة لمعقل ملفّقة من وصيّتين صدرها من وصيّته عليه السلام لمعقل وذيلها لمالك. والشريف الرضي قدّس سرُّه مال إلى أنّها وصيّة واحدة قالها لمعقل وقد علمت ما فيه. على أنّ إسقاط بعض عباراته عليه السلام وتلفيق بعض آخر إلى خطبة أو كتاب غير عزيز في النهج وقد دريت أنّه من عادة الرضيّ رحمه الله لأنّ ما كان يهمّه التقاط الفصيح من كلامه عليه السلام اللهمّ إلاّ أن يقال أنّه ظفر برواية أخرى لا توافق ما في تاريخ أبي جعفر الطبريّ وما في «**صفين**» لنصروعدّ فيها جميع هذه الوصيّة وصيّة واحدة لمعقل ولم نظفر بها.

والذي يسهّل الخطب أن يقال إنّ الأمير عليه السلام كتب مضموناً واحداً ودستوراً فارداً إلى أكثر من واحد من أمراء جيشه، فإنّ ما يجب أن يراعيها هذا من قوانين الحرب يجب أن يراعيها ذاك أيضاً. غاية الأمر أنّ نصراً لم ينقل وصيّته عليه السلام لمعقل كاملةً وذلك لأنّ ظاهر كلام الشريف الرّضي رحمه الله يأبى عن أن يقال إنّ هذه الوصيّة ملفّقة من وصيّتين وهو رحمه الله أجلّ شأناً من أن يسند وصيّته عليه السلام لمالك إلى أنّه وصيّته لمعقل، والمواضع التي أسقطت بعض كلامه عليه السلام ولفقت بعضه الآخر تغاير المقام، فتأمّل.

اللغة

«دونه» قد مضى ذكر معاني دون في شرح المختار السادس من كتبه عليه السلام ورسائله، وهٰهنا بمعنى سوى أي ليس لك سواه منتهى.

«سر» أمر من السير كما أنّ قوله: **(لا تسر)** نهى عنه ومشتقّ منه.

«البردان» الغداة والعشيّ، قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: البردان: العصران، وكذلك

الأبرَدان وهما الغداة والعشيُّ، ويقال: ظلاّهما وقال ـ يعني الشاعر ـ:

إذا الأرطى توسّد أبرديه خدود جوازىء بالرّمل عين

أقول: البيت للشمّاخ بن ضرار نقله الجاحظ في «**البيان والتبيين**» أيضاً (**ص ٢٥١ ج ٢**) والجوازي بقر الوحش، والعين جمع العيناء، والعصران ثني على التغليب أي الصبح والعصر كقولك صلاة الظهرين وفسّرهما ثانياً بقوله: وهما (**الغداة والعشيّ**).

قال ابن الأثير في «**النهاية**»: فيه ـ يعني في الحديث ـ: من صلّى البردين دخل الجنّة، البردان والأبردان: الغداة والعشيّ وقيل: ظلاّهما، ومنه حديث ابن الزبير: كان يسير بنا الأبردين؛ وحديثه الآخر مع فضالة بن أبي شريك: وسربها البردين.

أقول: وستأتي رواية هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سيروا البردين[1].

«غوّر» أمر من التغوير مأخوذ من الغائرة أي الظهيرة، وفي «**الصحاح**»: التغوير: القيلولة، يقال: غوّروا أي انزلوا للقائلة. قال أبو عبيد: يقال للقائلة: الغائرة. وفي «**النهاية**» الأثيريّة: وفي حديث السائب لما ورد على عمر بفتح نهاوند قال: ويحك ما وراءك؟ فوالله ما بتّ هذه اللّيلة إلاّ تغويراً؛ يريد بقدر النومة القليلة التي تكون عند القائلة. يقال غوّر القوم إذا قالوا.

«رفّه» أمر من الترفيه أي الإراحة والتخفيف والتّنفيس والتوسيع، أو من رفّه الراعي الإبل إذا أوردها متى شاء، وفي «**الصحاح**»: رفهت الإبل بالفتح ترفه رفهاً ورفوهاً إذا وردت الماء كلّ يوم متى شاءت والاسم الرّفه بالكسر. وأرفتها أنا. ورفّه ترفيهاً ورفاهية على فعالية ورفهنية وهو ملحق بالخماسي (**بالألف**) في آخره وإنّما صارت (**ياء**) لكسرة ما قبلها، ويقال بيني وبينك ليلة رافهة وثلاث ليال روافه إذا كان يسار فيهنّ سيراً ليّناً، ورفّه عن غريمك أي نفّس عنه، والأوّل أوسع وأعم وبأسلوب الكلام وسياقه أدلّ وألصق، وسيأتي تقرير كلّ واحد منهما في المعنى.

«سكناً» السكن بالتحريك: ما سكنت إليه.

«ظعناً» الظعن: الارتحال، يقال: ظعن ظَعْناً وظَعَناً من باب منع أي سار ورحل. وفي القرآن الكريم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ

(١) المحاسن: ٢/٣٤٦ ح ٩، والكافي: ٨/٣١٣ ح ٤٨٨.

ظَعَنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠].

«أرح» على وزن أقم أمر من الأراحة. «روِّح» أمر من الترويح. والظهر هنا بمعنى الركاب، لا بمعنى خلاف البطن. قال الجوهريُّ في **«الصحاح»**: الظَّهر: الركاب. وبنو فلان مظهرون إذا كان لهم ظهر ينقلون عليه كما يقال مُنجبون إذا كانوا أصحاب نجائب. انتهى كلامه.

والركاب: الإبل التي يسار عليها؛ الواحدة راحلة ولا واحد لها من لفظها والجمع الركب مثال الكتب. فيكون معنى الترويح من قولهم روّح فلان إبله ترويحاً إذا ردّها إلى المراح. قال الجوهريُّ: أراح إبله أي ردّها إلى المراح وكذلك الترويح. ولا يكون ذلك إلاّ بعد الزوال، انتهى.

«ينبطح» يقال: انبطح الرجل إذا اسبطرّ على وجهه ممتداً على وجه الأرض وهٰهنا كناية عن الانبساط والإتّساع فينبطح أي ينبسط ويتّسع ومنه البطحاء والأبطح أي مسيل واسع فيه دقاق الحصى. وتبطّح السّيل أي اتّسع في البطحاء.

«ينشب الحرب» ينشب مضارع من باب الإفعال. في **«الصّحاح»**: نشب الشيء في الشيء بالكسر ـ من باب علم ـ نشوباً أي علق. وأنشبته أنا فيه أي أعلقته فانتشب وأنشب الصائد: أعلق، ويقال: نشبت الحرب بينهم.

«يهاب» أجوف يائيّ تقول: هابه يهابه هَيباً وهَيبة ومهابة إذا خافه وحذره فهو هائب وهيوب، ورجل مهيب أي يهابه الناس «البأس»: الحرب. «الشنآن»: البغض والعدواة.

الإعراب

في بعض النسخ «بالسير» **(الباء)** بمعنى **(في)**. ومذكور في نسختنا العتيقة في السير مكان بالسير «فإن الله» **(الفاء)** للتعليل. والتي بعدها فصيحة للتفريع والنتيجة. «فسر» **(الفاء)** جواب **(إذا)** كالّتي بعدها. «دنوّ» مفعول مطلق لقوله **(لا تدن)**. وكذلك تباعد لقوله **(ولا تباعد)**، وفي نسخة الطبري كما أشرنا إليها آنفاً مذكور: بعد من يهاب، وهو بضمّ **(الباء)** مفعول مطلقاً أيضاً إلاّ أنه ليس من باب عامله أعني لا تباعد على وزان قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾. «حتى يأتيك أمري» غاية لكلا النهيين المقدّمين ومتعلق بكلا الفعلين أعني **(لا تدن)**، **(ولا تباعد)**. «قبل» ظرف لقوله: **(ولا يحملنكم)**.

المعنى

قد أتى عليه السلام في هذه الوصيّة بأمور يدلّ بعضها على كمال رأفته بالنّاس، والآخر على نهاية بصارته في البأس. وقد جمع عليه السلام فيها بين الأضداد وألّف بين الأشتات، وإذا ضمّت

هذه الوصيّة إلى التي قبلها واللاّتي بعدها تزيد المجاهد بصيرة في فنون الحرب، ومع ذلك تذكّره بتقوى الله وتحذّره عن اتّباع الهوى وتنشطه وتشجعه في الجهاد في سبيل الله تعالى. ولو تأمّل فيها متأمل وفكر فيها متفكّر علم أنَّ عليها مسحة من العلم الإلهي وفيها عبقة من الكلام النبويّ. وأنَّ قائلها كان على بيّنة من ربّه وبصيرة في الدّين ولم يكن في قلبه زيغ عن سواء الطريق. وما كان همّه إلاّ إطفاء نار الفتنة وانقاذ الناس ممّا فيه الهلكة وإنفاذهم إلى ما فيه سعادة جمّة. فانظر في فقرات هذه الوصيّة، افتتحها بتقوى الله واختتمها بالكفّ عن القتال قبل الاعذار والدّعاء، ووسّط فيها قوله: (**فسر على بركة الله**)، وصدّر فيها بالأوامر، وأردفها بالنواهي ولعمري إنَّ محاسنها فوق أن تحوم حولها العبارة وإنّما هي تدرك ولا توصف وستقف على بعضها في أثناء الشرح فلنتعرّض لشرح فقراتها وجملها على قدر الوسع والاستطاعة.

قوله عليه السلام: «اتق الله - إلى قوله: دونه» أمره بتقوى الله أوّلاً لأنّها خير زاد وكان عليه السلام كثيراً ما يوصي أصحابه بتقوى الله ففي الكافي بإسناده عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يوصي أصحابه ويقول: أوصيكم بتقوى الله فإنها غبطة الطالب الراجي وثقة الهارب اللاجيء واستشعروا التقوى شعاراً باطناً واذكروا الله ذكراً خالصاً تحبوا به أفضل الحياة وتسلكوا به طريق النجاة إلخ (**ص ٦٢ ج ١٤ من «الوافي»**)[١].

وفي الفقيه عن سليم بن قيس الهلالي قال: شهدت وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن - يعني حين ضربه ابن ملجم - وأشهد على وصيّته الحسين ومحمّداً وجميع ولده ورؤساء شيعته - إلى أن قال: قال عليه السلام: ثمَّ إنّي أُوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي من المؤمنين بتقوى الله ربّكم (**ص ٧٩ ج ٢ من «الوافي»**)[٢].

ثمَّ وصف الله تعالى بما فيه تخويف وتشجيع وذلك أنّه عليه السلام لما أنفذ معقل بن قيس في ثلاثة آلاف مقدّمة له إلى الشّام توجّه إلى معقل أمران: الأوّل إمارة ثلاثة آلاف رجل، الثاني الجهاد في سبيل الله. والإمارة سلطان قد توجب البغي والطغيان إلاّ من عصمه الله عن اتّباع الشيطان؛ والجهاد بذل النفس دونه تعالى والجود بالنفس أقصى غاية الجود. فعلى الأوّل خوّفه بقوله: (**الله لا بدّ لك من لقائه ولا منتهى لك دونه**)؛ أي خف الله تعالى واتّقه فإنّك لو عصيته وظلمت من دونك من الجيش وعدلت عن العدل فيهم فاعلم أنّما لا بدّ لك من لقاء الله تعالى وليس منتهى لك غيره فإذاً يجازيك ويعاقبك بما أسلفت من سوء أعمالك فكن على حذر من طوع الهوى.

---

(١) الكافي: ٨/١٧ ح ٣، ونهج السعادة: ٧/٥٣ ح ٢.

(٢) شرح أصول الكافي: ٦/١٤٨ ح١، وبحار الأنوار: ٤٢/٢١٣.

وعلى الثاني شجّعه بذلك القول أيضاً على الجهاد أي لا تخف من الجهاد فإنّك لو تجود بنفسك فقتلت في سبيل الله فاعلم أنّما تلقى الله تعالى وليس لك سواه منتهى، فإذا كان منتهى أمرك إليه ولا بدّ لك من لقائه فهو تعالى يجزيك بما قدمت. قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١] وقال تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ٧٤].

قوله عليه السلام: «ولا تُقاتلنَّ إلاّ من قاتلك» في «**الكافي**» وفي حديث عبد الله بن جندب عن أبيه أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يأمر في كلّ موطن لقينا فيه عدوّنا فيقول: لا تقاتلوا القوم حتّى يبدؤوكم فإنّكم بحمد الله على حجّة وترككم إيّاهم حتّى يبدؤوكم حجّة لكم أُخرى فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا لهم مدبراً ولا تجيزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثّلوا بقتيل[١]. انتهى.

وأقول: سيأتي تمام الكلام في سيرته عليه السلام في الحروب في شرح «**المختار**» الرابع عشر من هذا الباب.

ثمَّ اعلم أنَّ أولياء الله شأنهم أجلّ وقدرهم أعظم من أن يقاتلوا النّاس لغير رضا الله تعالى فإنّهم مأمورون أوّلا لإحياء النفوس وإنارة العقول والهداية إلى جناب الربّ جلَّ وعلا إلاّ أنَّ طائفة من النّاس لمّا استحوذ عليهم الشيطان طغوا ونهضوا إلى هدم بناء الدين، أو صاروا جراثيم مؤذية راسخة في أُصول شجرة الفضيلة التي غرسها النبيّ بإذن الله تعالى فكان واجباً على النبيّ أو الوليّ أن يجتاحوا أُصول الجراثيم لئلا تطرق المفاسد والفواحش في الاجتماع الإنسانيّ ولذا ترى أنَّ الافتتاح في كلّ غزوة إنّما كان من معاندي الأنبياء والأولياء. وأمّا الأنبياء والأولياء فكانوا يأمرون جيوشهم قبل الغزوات بدعاء الكفّار إلى ما فيه حياتهم الدائمة وسعادتهم الباقية، والاعذار إليهم، وإتمام الحجّة عليهم، وبأن لا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم لأنَّ قتال غير المقاتل ظلم وهم مبرّؤون عنه.

وبما ذكرنا يعلم فضيلة المجاهد في سبيل الله ودرجة سيف به ينتظم أُمور الناس ويؤمن الخائفون ويعبد الله المؤمنون، وسرّ بعض الأيات القائلة بأنّه لو لم يكن السيف لفسدت

(١) الكافي: ٥/ ٣٨ ح ٣، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٩٢ ح ٢٠٠٥٣.

الأرض كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ وكذا سرّ بعض الأخبار الذي ينادي بأعلى صوته أنَّ الناس لمّا أبوا أن يقبلوا أمر الله رسوله بالقتال: ففي «الكافي» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خيول الغزاة في الدُّنيا خيولهم في الجنّة وإن أردية الغزاة لسيوفهم[١].

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: أخبرني جبرئيل بأمر قرّت به عيني وفرح به قلبي قال: يا محمّد من غزا من أُمتك في سبيل الله فأصابه قطرة من السماء أو صداع كتب الله له شهادة[٢].

وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الخير كلّه في السيف وتحت ظلّ السيف، ولا يقيم الناس إلاّ السيف، والسيوف مقاليد الجنّة والنّار[٣].

أقول: يعني أنَّ السيف الذي يشهره المسلم مجاهداً في سبيل الله فهو مقلاد الجنّة أي مفتاحها له، وأنَّ الذي يشهره الكافر مفتاح النّار له.

وفيه عن معمّر عن أبي جعفر عليه السلام قال: الخير كلّه في السيف وتحت السيف وفي ظلّ السيف.

وفيه عن عمر بن أبان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ الله تعالى بعث رسوله بالإسلام إلى النّاس عشر سنين فأبوا أن يقبلوا حتّى أمره بالقتال، فالخير في السيف وتحت السيف والأمر يعود كما بدا[٤].

أقول: وقوله عليه السلام: **(والأمر يعود كما بدا)** إشارة إلى دولة القائم عليه السلام والروايات في ذلك كثيرة جدًّا تشير إلى سرّ فارد وحقيقة واحدة.

قوله عليه السلام: «وسر البردين» أمره أن يسير في الغداة والعشيّ لأنّ السير في طرفي النّهار يكون أهون، وطيّ الطريق فيهما يكون أكثر، والتعب يكون أقلّ لبرد الهواء وطيبها في هاتين الساعتين. وفي الباب التاسع من أبواب آداب السفر من حجّ الوسائل عن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سيروا البردين، قلت: إنّا نتخوف الهوام قال: إن أصابكم شيء فهو خير لكم ثمّ إنّكم مضمونون.

(١) الكافي: ٥/٣ ح ٣، ووسائل الشيعة: ١٥/١١.
(٢) الكافي: ٥/٣ ح ٣، والأمالي: ٦٧٣ ح ٩٠٥.
(٣) الكافي: ٥/٣ ح ١، والأمالي: ٦٧٤ ح ٩٠٩.
(٤) الكافي: ٥/٧ ح ٧، ووسائل الشيعة: ١٥/١٥ ح ١٩٩١٤.

قوله عليه السلام: «وغوّر بالناس» أي أنزل بهم للقائلة أي منتصف النهار وذلك لأنَّ السير في الغائرة يستلزم شدَّة الحرّ الموجبة للتعب والكلال. والقائلة هي وقت القيلولة والإستراحة. قال تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور: ٥٨].

قوله عليه السلام: «ورفّه بالسّير» سياق الكلام يدلّ على أنّه عليه السلام أمره أن يرفّه جيشه في السير أي يوسّعهم فيه ويرفق بسيرهم ولا يوجفهم لكي لا يتعب الركاب والركبان، ولا يتأخّر بعض الجيش عن بعض فلولا التأنّي والرِّفق في السير لانجرّ الأمر إلى التفرقة والكلال وغيرهما من المضارّ في الجند والدواب فكأنّه عليه السلام قال له: هوّن بالسير ولا تتعب نفسك ولا دابّتك بالوجيف.

وإن أخذناه من قولهم: رفّه الرّاعي الإبل متى شاء فمتعلّق رفّه يكون خاصّاً أي رفّه الركاب بالسير. فيكون توصية له في أن يراعي حالها في السير ولا يمنعها من الماء والكلاء ويوسّع في الانفاق عليها، ومن وصيّة لقمان لابنه: وإذا قربت من المنزل فأنزل عن دابّتك وابدأ بعلفها فإنّها نفسك ـ إلخ. رواها الكلينيُّ في **«الكافي»** والصدوق في **«الفقيه»** وأتى بها الفيض في **«الوافي»** (ص ٦٦ ج ٨).

وفي الباب التاسع من أبواب **«أحكام الدواب من حجّ الوسائل»** عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: للدّابّة على صاحبها ستّة حقوق: لا يحملها فوق طاقتها، ولا يتّخذ ظهرها مجالس يتحدّث عليها، ويبدأ بعلفها إذا نزل، ولا يسمها، ولا يضربها في وجهها فإنها تسبّح، ويعرض عليها الماء إذا مرّ به[1].

قوله عليه السلام: «ولا تسر أوَّل اللّيل ـ إلى قوله: ظعناً» نهى عن السير في أوَّل اللّيل نهي كراهة لا نهي تحريم وكلامه هذا ممّا يستدلّ به في الفقه على كراهة السير أوَّل اللّيل كما استدلّ به العاملي رحمه الله عليها في الباب التاسع من أبواب **«آداب السفر من حجّ الوسائل»**. ثمَّ علّل النهي بقوله: **(فإنّ الله جعله سكناً)** أي موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم. وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]. ثمَّ أكّده بقوله: **(وقدّره مقاماً لا ظعناً)**. أطلق لفظ الظعن على اللّيل مجازاً لأنَّ اللّيل ليس بزمان الظعن لا أنه ليس بظعن إطلاق اسم المظروف الذي هو الظعن على الظرف الذي هو الليل، بخلاف اطلاق المقام عليه لأنَّ المقام بضمّ **(الميم)** اسم زمان من الإقامة فأطلق عليه حقيقة.

على أنَّ أوَّل اللّيل يكون حين تنتشر الشياطين كما وردت به روايات عن أئمّتنا المعصومين عليهم السلام: ففي **«الكافي»** بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنَّ إبليس عليه

(١) الكافي: ٦/ ٥٣٧ ح ١، والأمالي: ٥٩٧.

لعائن الله إنّما يبثّ جنوده من حين تغيب الشمس وحين تطلع فأكثروا ذكر الله تعالى في هاتين الساعتين وتعوّذوا بالله من شرّ إبليس وجنوده وعوّذوا صغاركم هاتين الساعتين فإنّهما ساعتا غفلة.

وفي «**الفقيه**» عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ إبليس إنّما يبثّ جنود اللّيل من حين تغيب الشمس إلى مغيب الشفق ويبثّ جنود النهار من حين يطلع الفجر إلى مطلع الشمس. وذكر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يقول: أكثروا ذكر الله تعالى في هاتين الساعتين[١] ـ إلى آخر الحديث المروي عن «**الكافي**» ورواهما الفيض في «**الوافي**» (**ص ٢٣٢ ج ٥**).

إن قلت: هل يدلّ الخبران على كراهة السير أوّل اللّيل؟

قلت: لا كلام في كراهة السير أوّل اللّيل وقد دلّت عليها أخبار أخرى أيضاً كما دلّت على استحباب اختيار آخر اللّيل للسّير ففي الباب التاسع من أبواب «**آداب السفر من حجّ الوسائل**» عن السكونيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالسفر باللّيل فإنّ الأرض تطوى باللّيل. وفيه عن حمّاد بن عيسى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال لقمان لابنه: يا بنيّ إيّاك والسير في أوّل اللّيل وسر في آخره[٢].

وعلى رواية الكلينيّ: إيّاك والسير في أوّل الليل وعليك بالتعريس والدّلجة وقد أتى بهما الطباطبائي قدّس سرّه في أوّل الحجّ من العروة الوثقى وأفتى بهما كذلك، وسيأتي نقل روايات أُخرى دالّة على كراهة السير أوّل اللّيل واستحبابه في آخره وفي البردين عن قريب.

وأمّا دلالة الخبرين على ذلك فغير معلومة لأنّهما يأمران بإكثار ذكر الله تعالى في هاتين الساعتين والتعوذ بالله فيهما من شرّ إبليس وجنوده فلا بأس أن يسير السائر فيهما ذاكراً متعوّذاً، اللّهمّ إلاّ أن يقال: إنّ دلالة تلك الأخبار على تحذير السير في أوّل اللّيل وكراهته فيه وعلى أنّه ساعة غفلة إنّما تكون من حيث إنه وقت تنشر الشياطين فإذا كانت هذه الساعة في الحضر ساعة غفلة ففي السفر أولى، لأنّ اضطراب البال في السفر أكثر وإنّما كانت الساعة ساعة غفلة لأنّها وقت اختتام الأعمال فالناس يعرضون ساعتئذٍ عما كانوا فيها من الأشغال وينسلون في الإقبال إلى بيوتهم من كلّ جانب فيشتغلون بالاكتنان، فترى الناس فيها أشتاتاً فطائفة أسرعت إلى تغليق الدّكاكين، وأُخرى إلى التأهّب للّيل، وأُخرى كذا وكذا؛ وبعكسها في الساعة الآخرى أعني حين تطلع الشمس فالناس في هاتين الساعتين في أُمور دنياهم متوغّلون، وإلى كلّ جانب ينسلون فسمّيتا لما ذكرنا ساعتي غفلة.

---

(١) الكافي: ٢/٥٢٢ ح ٢، ووسائل الشيعة: ٤/١٠٦٤ ح ٥.

(٢) الكافي: ٨/٣١٤ ح ٤٨٩، ووسائل الشيعة: ١١/٣٦٥.

قوله عليه السلام: «فأرح فيه بدنك» أي إذا كان الله تعالى قدّر اللّيل سكناً ومقاماً فأرح فيه بدنك وليرح الجيش أبدانهم.

قوله عليه السلام: «وروّح ظهرك» بين الظهر والبدن إيهام التناسب نحو بيت السقط:

وحرفٍ كنونٍ تحت راء ولم يكن بدالٍ يؤمّ الرسم غيّره النقط

ففي الجمع بين الحرف والراء والدّال والنقط إيهام أنَّ المراد منها معانيها، وليس كذلك؛ إلاّ أنَّ النون في البيت كان على معناه المتبادر من حروف المعجم والمراد من الحرف الناقة المهزولة، **(وراءٍ)** اسم فاعل من رأيته، **(ودال)** اسم فاعل من دلأ الركائب إذا رفق بسوقها. **(والنقط)** ما تقاطر على الرسوم من المطر، شبّه الناقة في الدّقة والإنحناء بنون ومدح حبيبته بأنّها تجلّ عن أن تركب من النوق ما هي في الضمر والإنحناء كالنون يركبها الأعرابي لزيارة الأطلال فيضرب ريتها إذ لا حراك بها من شدّة الهزال بل مراكب الحبيبة سمان ذوات أسنمة.

وكذلك في «**المقام**» أنَّ الجمع بين البدن والظهر يوهم أنَّ المراد من الظهر هو خلاف البطن وليس كذلك بل المراد منه الركاب أي روّح ركابك في اللّيل بمعنى ردّها إلى المراح. فأراد عليه السلام بلفظ الظهر معناه البعيد كقول القاضي أبي الفضل بن عياض يصف ربيعاً بارداً:

أو الغزالة من طول المدى خرفت فما تفرّق بين الجدي والحمل

يعني كأنَّ الشمس من كبرها وطول مدتها صارت خرفة قليلة العقل فنزلت في برج الجدي في أوان الحلول ببرج الحمل، إذ الجدي من البروج الشتوية، والحمل من الربيعيّة، والمراد من الغزالة معناها البعيد أي الشمس، ومعناها القريب: الرَّشأ وكذلك الكلام في قوله عليه السلام: **(ظهرك)**؛ إلاّ أنَّ القاضي قد قرن بها ما يلائم المعنى القريب الذي ليس بمراد كالجدي والحمل؛ وهو عليه السلام أتى بما يلائم كلا المعنيين القريب والبعيد أعني روّح وإن كان المراد ما يلائم البعيد كما دريت في اللّغة، وما يلائم القريب إنّما كان من قولهم روّح فلان الرجل إذا أراحه ولكنه ليس بمراد.

قوله عليه السلام: «فإذا وقفت ـ إلى قوله: بركة الله» يمكن أن تفسّر هذه الفقرة على ثلاثة أوجه:

الأوّل: أنَّ الأمير عليه السلام أمر معقل بن قيس بأن يكون وقت انبساط السحر أو انفجار الفجر يقظاً وذلك أنّه لما تولّى من قبله عليه السلام إمارة الجيش وصار قائدهم فلا بدَّ له من أن يكون قبل ظعن القوم يقظان ليهيّأ أصحابه للسير ويستعدّهم للإرتحال ويكون ناظر أعمالهم وقائماً عليهم يراقبهم حتّى لا يفوته بعض ما يصلح لهم.

الثاني: أن تكون صلة وقف كلمة (إلى) المحذوفة فمعناه إذا وقفت اللّيل إلى حين ينبطح السحر فسر على بركة الله؛ فكأنّه عليه السلام أمره بأن يريح بدنه ويروّح ظهره في اللّيل ونهاه عن السير فيه إلى أن ينبطح السحر.

الثالث: أن تكون صلة الفعل كلمة (**على**) أي إذا وقفت على حين ينبطح السحر بمعنى إذا اطلعت على انبطاحه فسر على بركة الله لأنَّ وقف مع (**على**) يفيد معنى الاطلاع يقال: وقفه على ذنبه إذا اطلعه عليه؛ فكأنّه عليه السلام أمره أن لا ينام هو ولا عسكره على حدّ يفوتهم السحر نظير قوله عليه السلام في الوصية السابقة: (**ولا تذوقوا النوم إلاّ غراراً أو مضمضة**)، فكأنَّ الوجه الأوّل أنسب بسياق الكلام من الأخيرين.

ثمّ اعلم أنَّ السحر يكون قبيل الصبح وهو على قسمين: السحر الأعلى وهو ما قبل انصداع الفجر، والسحر الآخر وهو عند انصداعه والظاهر من قوله عليه السلام: (**ينبطح السحر**) أنَّ المراد منه السحر الثاني فيؤل معنى كلامه إلى أنّه عليه السلام أمر ابن قيس بأن يسير إمّا في السحر الثّاني أو حين انشقَّ الفجر أي الفجر الصادق، فعلى هذا كأنّما السحر خارج عن اللّيل حقيقة لأنَّ اللّيل يتمّ حين انصداع الفجر.

وأمّا على نسخة نصر في «**صفين**» أعني: فإذا كان السحر أو حين ينبطح الفجر فسر؛ فالسحر خارج عن اللّيل حكماً لأنَّ الظاهر من قوله عليه السلام: (**ولا تسر أوّل اللّيل فإنَّ الله جعله ساكناً**) أنَّ الدَّليل أعني قوله: (**فإنَّ الله جعله ساكناً**) راجع إلى قوله (**أوّل اللّيل**) فالكراهة تختصّ بأوّل اللّيل فيستثنى أخر اللّيل عن حكم الكراهة فكلامه عليه السلام هذا كغيره من روايات أُخرى مخصّصة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ الآية المتقدّمة، والأخبار يأمر بعضها بالسير في اللّيل مطلقاً وينهى الأخرى عن السير فيه كذلك فقد تقرّر في أُصول الفقه صحّة تخصيص الكتاب بالسنّة، والسنّة بالسنّة أيضاً، فعليك بطائفة من أخبار وردت في «**المقام**» رواها العاملي قدّس سرّه في الباب التاسع من أبواب آداب السفر من حجُ الوسائل:

بإسناده عن جميل بن درّاج وحمّاد بن عثمان جميعاً، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الأرض تطوى في آخر اللّيل[1].

وعن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سيروا البردين؛ قلت: إنّا نتخوّف الهوام، قال: إن أصابكم شيء فهو خير لكم ثمَّ إنّكم مضمونون.

---

(١) الكافي: ٥/ ٤٢١ ح ١، ووسائل الشيعة: ١/ ٢٧٠ ح ٧٠٦.

وعن السكونيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالسفر باللّيل فإنَّ الأرض تطوى باللّيل[١].

وعن حمران بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: يقول النّاس: تطوى لنا الأرض باللّيل كيف تطوى؟ قال: هكذا[٢] ثمَّ عطف ثوبه.

وعن يعقوب بن سالم رفعه إلى عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا نزلتم فسطاطاً أو خبأ فلا تخرجوا فإنّكم على غرة[٣].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: اتّقوا الخروج بعد نومة فإن لله دواراً بينها يفعلون ما يؤمرون[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله على اليمن فقال لي وهو يوصيني ما حار من استخار ولا ندم من استشار، يا عليّ عليك بالدلجة فإنَّ الأرض تطوى باللّيل ما لا تطوى بالنهار، يا عليّ اغد على اسم الله فإنَّ الله تعالى بارك لأُمّتي في بكورها[٥].

وعن حمّاد بن عيسى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لقمان لابنه: يا بنيَّ إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك ـ إلى أن قال: وإيّاك والسير في أوّل اللّيل وسر في آخره. قال: ورواه الكلينيُّ ـ إلاّ أنّه قال: وإيّاك والسير في أوّل اللّيل وعليك بالتعريس والدلجة من لدن نصف اللّيل إلى آخره[٦].

أقول: قد ذكر طائفة من وصيّة لقمان لابنه ومنها هذه النبذة التي رواها حماد عن الصادق عليه السلام ابن قتيبة الدّينوري في كتاب «**الحرب من عيون الأخبار**» ص ١٣٥ ج ١ طبع مصر ١٣٨٣ هـ.

بيان: قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: أدلج القوم إذا ساروا من أوّل اللّيل؛ والاسم الدَّلَج بالتحريك والدُّلْجَة والدَّلْجَة أيضاً مثل بُرهَة من الدهر وبَرْهَة، فإن ساروا من آخر اللّيل فقد ادّلجوا بالتشديد (**يعني بتشديد الدال**) والاسم الدَّلجة والدُّلجَة. انتهى كلامه. والتعريس: نزول

(١) شرح أصول الكافي: ١٢/ ٤٣٨ ح ٤٨٩.
(٢) المحاسن: ٢/ ٣٤٦ ح ١٣، والكافي: ٨/ ٣١٤ ح ٤٩٠.
(٣) المحاسن: ٢/ ٣٤٧ ح ١٨، وبحار الأنوار: ٧٣/ ٢٧٨ ح ١٤.
(٤) المحاسن: ٣٤٧ ح ١٩، ووسائل الشيعة: ٥/ ٣١٩.
(٥) وسائل الشيعة: ٧/ ٤٠٦ ح ٩٧٠٤، وموسوعة الإمام الجواد: ٢/ ٥٤٤ ح ١٠١٥.
(٦) المحاسن: ٢/ ٣٧٦، والكافي: ٨/ ٣٤٩.

المسافر آخر اللّيل للنوم والاستراحة من قولهم عرّس القوم إذا نزلوا في السفر في آخر اللّيل للاستراحة كما في مجمع البحرين وأقرب الموارد، وربّما استعمل الإدلاج بالتخفيف لسير آخر اللّيل كقول الشاعر: اصبر على السير والإدلاج في السحر. كما أنَّ الإدّلاج بالتشديد قد يستعمل لسير اللّيل كلّه.

وأقول: فبما قدّمنا دريت وجه الجمع بين تلك الأخبار. ثمَّ إنَّ مقتضى الجمع أن تكون الدّلجة اسماً من ادَّلج القوم بتشديد الدال لأنَّ قول رسول الله ﷺ لعليّ: يا عليُّ عليك بالدّلجة فإنَّ الأرض تطوى باللّيل، ما لا تطوى بالنهار، وإن كان لا يفرّق بين أوَّل اللّيل وآخره إلاّ أنَّ رواية الصادق عليه السلام حكاية عن لقمان وإيّاك والسير في أوَّل اللّيل وعليك بالتعريس والدّلجة من لدن نصف اللّيل إلى آخره، تبيّن بأنَّ المراد من الدلجة في قول الرسول عليه السلام هو اسم من الادّلاج المشدّد أي السير في آخر اللّيل.

وبما حقّقنا دريت أنَّ ما ذهب إليه الطريحي في مادَّة دلج من المجمع حيث قال: «في الحديث عليكم بالدّلجة» وهو سير اللّيل يقال أدلج بالتخفيف إذا سار من أوَّل اللّيل وبالتشديد إذا سار من آخره والاسم منهما الدّلجة بالضمّ والفتح، ومنهم من يجعل الإدلاج للّيل كلّه، وكأنّه المراد هنا لما في آخر الحديث، **(فإنَّ الأرض تطوى)** ولم يفرّق بين أوَّل اللّيل وآخره ليس بصواب.

الكلام في حدوث الفجر وتعاكس الصبح والشفق والبحث عن مسائل شتى متنوعة

واعلم أنَّ الشمس أعظم جرماً من الأرض بكثير وهي على الحساب الذي أورده غياث الدّين جمشيد الكاشي في رسالته المفيدة الأنيقة المترجمة بسلّم السماء ثلاثمائة وستّ وعشرون مثلاً للأرض.

وقد بيّن اسطرخس في الشكل الثّاني من كتابه في جرمي النيّرين: أنَّ الكرة إذ أقبلت الضوء من كرة أُخرى أعظم منها كان المستضيء منها أعظم من نصفها، فلمّا كانت الشمس والأرض كرّيتان والشمس أعظم منها بكثير فالأرض تستضيء أكثر من نصفها من الشمس دائماً. وتحدث بين المستضيء والمظلم من الأرض دائرة صغيرة إذ الجزء المضيء من الأرض أعظم من النصف كما علمت، فهي لا تنصّف كرة الأرض وقد بيّن في محلّه أنَّ الدائرة العظيمة هي التي تنصّف الكرة التي فرضت عليها.

ثمَّ اعلم أنَّ ما يقبل الضوء يجب أن يكون كثيفاً مانعاً من نفوذ الضوء فيه، فلو لم يكن

مانعاً كالهواء والزجاج المشفّين لم يقبلا الضوء فالأرض لكثافتها المانعة من نفوذ الضوء قابلة له وكذا كرة البخار المحيطة بها، وأمّا ما فوق كرة البخار من الهواء لا يستضيء بضياء الشمس أصلاً لكونها مشفَّة في الغاية وينفذ النور فيها ولا ينعكس فإذا وقع ضوء الشمس على الأرض يستضيء وجهها المواجه لها بها، ولمّا كانت الأرض كروية الشكل تقريباً والشمس أعظم منها يكون ظلّها على شكل مخروط مستدير فإنَّ الكرة المنيرة لو كانت مساوية للمستنيرة يكون الظلّ على شكل الإستوانة المستديرة لا المخروط المستدير، ثمَّ قاعدة المخروط المستدير من ظلّ الأرض هي تلك الدائرة الصغيرة تحيط بها هذه القاعدة وسطح مستدير يرتفع منها ويستدقّ شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي في أفلاك الزهرة، ويكون لا محالة قاعدة مخروطة الظلّ نحو جرم الشمس وسهمه في مقابلة جرمها أبداً، ففي منتصف اللّيل يكون السّهم على دائرة نصف النهار فوق الأرض إمّا قائماً على سطح الأفق الحسّي إن كانت الشمس على سمت القدم، أو مائلاً إلى جهة القطب الظاهر إن كانت عن سمت القدم في جهة القطب الخفيّ، أو إلى جهة القطب الخفيّ إن كانت عن سمت القدم في جهة القطب الظاهر؛ ولكن يتساوى بعده عن الشرق والغرب في جميع الصّور.

ولا يخفى على ذي دربة في الفنّ أنَّ هذا مخصوص بما إذا لم يتّصل الصبح بالشفق إذ حينئذ قبل أن يميل المخروط إلى جانب الغرب يصير الشعاع المحيط به مرئيّاً كما ستزيدك فيه بياناً.

ثمَّ إنَّ كرة البخار هواء متكاثف بسبب مخالطة الأجزاء الأرضيَّة والمائيَّة المتصاعدتين من كرتيهما بحرارة الشمس أو غيرها على شكل كرة محيطة بالأرض على مركزها وسطح موازٍ لسطحها وهي مختلفة القوام فما هو أقرب منهما إلى الأرض أكثف ممّا هو أبعد، لأنَّ تصاعد الألطف أكثر بالطبع من الأكثف وقد بيِّن في الأبعاد والأجرام أنَّ بُعدَ سطحها الأعلى عن سطح الأرض اثنان وخمسون ميلاً تقريباً.

ومخروط الظلّ يثقب كرة البخار ولا يحيط بها وذلك لأنَّ قاعدة المخروط سطح دائرة محيطها هو الفصل المشترك بين المضيء والمظلم من كرة الأرض وتلك الدائرة صغيرة أعني أنَّ القاعدة أصغر من عظيمة مفروضة على كرة الأرض كما دريت فتكون أصغر كثيراً من عظيمة كرة البخار لأنَّها محيطة بالأرض. فما وقع من كرة البخار داخل هذا المخروط لا يستضيء بضياء الشمس وما سواه من كرة البخار مستنيرة أبداً لكثافتها وإحاطة الشمس بها لكنّها لا ترى في اللّيل لبعدها عن البصر.

فإذا كانت الشمس تحت الأرض قريبة من الأفق فما يُرى من القطعة المستنيرة من كرة البخار فوق الأُفق إن كان في الجانب الشرقي يسمّى صبحاً، وإن كان في الجانب الغربي

يسمّى شفقاً وهما متعاكسان أي متشابهان شكلاً ومتقابلان وضعاً، فإنَّ أوّل الصّبح بياض مستدقٍّ مستطيل منتصب، ثمَّ بياض عريض منبسط في عرض الأُفق مستدير كنصف دائرة يضيء به العالم، ثمَّ حمرة. وأوَّل الشفق حمرة، ثمَّ بياض عريض منبسط مستدير، ثمَّ بياض مستدقٍّ مستطيل منتصب.

وهما مختلفان لوناً أيضاً لاختلاف ما يستضيء من الجوّ بضياء الشمس بسبب اختلاف لون البخار فإنّه يكون في أواخر اللّيل مائلاً إلى الصَّفاء والبياض لرطوبة المكتسبة من برودة اللّيل؛ وإلى الصفرة في أوائله لغلبة الحرّ الدخاني المكتسب من حرارة النهار مع أنَّ الكثيف كلّما كان أكثر صفاء وبياضاً كان أضوء والشعاع المنعكس عنه أقوى.

واعلم أنَّ النوع الأوَّل من الفجر أعني ذلك البياض المستدقّ المستطيل المنتصب يعرف بالصبح الأوَّل، والصبح الكاذب، ويلقّب بذنب السرحان. أمّا بالأوَّل فلسبقه لأنّه أوّل ما يرى فوق الأُفق من نور الشمس.

وأمّا بالكاذب فلكون ما يقرب من الأُفق بعد مظلماً أي لو كان يصدق أنّه نور الشمس لكان المنير ما يلي الشمس دون ما يبعد منها.

وقيل: سمّي بالكاذب لأنّه تعقبّه ظلمة تكذّبه فإنّه إذا طلع الصبح الثاني انعدم ضوء الصبح الأوَّل.

وفيه أنَّ ضوء الصبح الأوَّل لا يعدم بطلوع الصبح الثاني بل يخفى عن البصر لضعفه وغلبة الضوء الشديد الطاري أعني ضوء الصبح الثاني عليه كما هو حكم النور الضعيف في قبال القويّ منه، ولذا يخفى ضياء الكواكب في ضوء الشمس فلا يصحُّ أن يقال إنَّ ظلمة تعقّبه وتكذّبه أيضاً لأنّه لا تعقبّه ظلمة بل يكون وقتئذ ما قرب من الأُفق مظلماً، وإنّما يعقّبه ضوء قوى عليه.

وأمّا بذنب السرحان فلدقّته واستطالته تشبيهاً له به إذا شاله ولاستطالته يسمّى بالفجر المستطيل أيضاً.

قال المسعود بن السعد بن السّلمان:

وليلٍ كأنَّ الشمس زلّت ممرُّها ... وليس لها نحو المشارق مرجع
نظرت إليه والظّلام كأنّه ... من الجوِّ غِربانٌ على الأرض وُقّع
فقلت لنفسي طال ليلي وليس لي ... من الهمِّ منجاة في الصّبر مفزع
أرى ذنب السّرحان في الجوّ طالعاً ... وهل ممكن قرن الغزالة تطلع؟

ومراده من الغزالة معناها البعيد أعني الشمس، قال الحافظ:

شود غزال خورشيد صيد لا غر من　　گرآهويى چوتو اندر كنار من باشى

وقال الخاقاني الشرواني في قصيدة مدح بهامنوجهر شروانشاه (**ص ٣٧٩ طبع طهران ١٣٣٦ هـ ش**):

صبحدم آب خضر نوش ازلب جام گوهوى　　كز ظلمات بحر جست آينه سكندرى

شاهد طارم فلك رست زديو هفت سر　　ريخت بهرد ريچه آغچه ززشش سرى

غاليه ساى آسمان سودبر آتشين صدف　　از پي مغزخاكيان لخلخه هاى عنبرى

يوسف روزجلوه كردازدم گرگ وميكند　　يوسف گرگ مست ما دعوى روزپيكرى

والنوع الثاني من الفجر أعني ذلك البياض العريض المنبسط في عرض الأُفق المستدير كنصف دائرة يضيء به العالم يسمّى بالصّبح الثاني، والصّبح الصادق، والفجر المستطير، والصّديع.

أمّا بالثاني فلكونه في مقابل الأوّل؛ وأمّا بالصّادق لأنَّ ضياءه أصدق من الضياء الأوّل، ولأنّه في إزاء الكاذب؛ وأمّا بالمستطير فمن قولهم استطار الفجر إذا انتشر وتبيّن، وسيأتي قول رسول الله ﷺ: لا يغرنّكم الفجر المستطيل فكلوا واشربوا حتّى يطلع الفجر المستطير[١].

وأمّا بالصّديع لأنّه انصداع ظلمة عن نور والصدع: الشّق والفرق والفصل كما مضى تفصيله في شرح «**المختار**» ٢٢٩ من باب الخطب (ص ٩ ج ١٥). وقد وردت في التعبير عن الصّديع رواية عن الصادق عليه السلام رواها شيخ الطائفة الطوسي قدّس سرّه في «**التهذيب**» بإسناده عن الحضرمي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: متى أُصلّي ركعتي الفجر؟ قال: حين يعترض الفجر وهو الذي تسميّه العرب الصّديع[٢] (**ص ٥٣ ج ٥ من «الوافي»**).

ولا يتعلّق بالنّوع الأوّل شيء من الأحكام الشرعيّة، ولا من العادات الرّسميّة غالباً، بل يتعلّق بالنوع الثاني منه كما تدلّ عليه بعض الآيات القرآنيّة وأخبار مستفيضة إن لم تكن متواترة وردت في هذا المعنى وسيجيء نقل طائفة منها إن شاء الله تعالى.

وإنّما قيّدنا الحكم بقولنا غالباً لأنَّ نبذة من عبادات نفليّة تتعلّق بطلوع الفجر الأوّل: منها دخول وقت فضيلة الوتر فإنَّ أفضل أوقاتها ما بين الفجرين كما رواه شيخ الطائفة قدّس

---

(١) الدر المنثور: ١/ ٢٠٠ وفيه: لايمنعكم من سحوركم.

(٢) تهذيب الأحكام: ٢/ ١٣٣ ح ٥١٧، وسائل الشيعة: ٣/ ١٩٤ ح ١٠.

سرّه في التهذيب **(وفي الوافي ص ٥٣ ج ٥)** بإسناده عن إسماعيل بن سعد الأشعري قال: سألت أبا الحسن الرّضا عليه السلام عن ساعات الوتر فقال: أحبّها إليّ الفجر الأوّل[١] ـ الحديث.

فإنّ قوله عليه السلام: أحبّها إليّ، يدلّ على أنّ وقت فضيلته الفجر الأوّل.

وفي الكافي والتهذيب بإسنادهما عن ابن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ساعات الوتر فقال: الفجر الأوّل[٢] **(ص ٥٣ ج ٥ من الوافي)**.

وفي أوائل مفتاح الفلاح للشيخ الأجلّ العلاّمة البهائي قدّس سرّه أنّه روي أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن الوتر أوّل اللّيل فلم يُجبه فلمّا كان بين الصّبحين خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد فنادى أين السائل عن الوتر؟ ثلاث مرّات، نعم ساعة الوتر هذه[٣]؛ ثمّ قام عليه السلام فأوتر.

فإنّ المراد من قوله: بين الصّبحين هو بين الفجرين أي الكاذب والصّادق كما لا يخفى.

ومنها وقت نافلتي الصّبح ففي **«التهذيب»** بإسناده عن البزنطيّ قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: ركعتي الفجر أصلّيهما قبل الفجر، وبعد الفجر؟ فقال: قال أبو جعفر عليه السلام: احش بهما صلاة اللّيل وصلّهما قبل الفجر[٤]. **(ص ٥٣ ج ٥ من «الوافي»)**.

وفي **«الكافي»** و**«التهذيب»** بإسنادهما عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: الركعتان اللّتان قبل الغداة أين موضعهما؟ فقال: قبل طلوع الفجر فإذا طلع الفجر فقد دخل وقت الغداة. **(ص ٥٣ ج ٥ من «الوافي»)**.

وفي **«التهذيب»** بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن ركعتي الفجر قبل الفجر أو بعد الفجر؟ فقال: قبل الفجر إنّهما من صلاة اللّيل ثلاث عشرة ركعة صلاة اللّيل ـ الحديث[٥]. **(ص ٥٣ ج ٥ من «الوافي»)**.

وفيه بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: ركعتا الفجر من صلاة

---

(١) تهذيب الأحكام: ٢/ ٣٣٩ ح ١٤٠١. وسائل الشيعة: ٣/ ١٩٧ ح ٤٠.

(٢) تهذيب الأحكام: ٢/ ٣٣٦ ح ١٣٨٨، بحار الأنوار: ٨٤/ ٢٢.

(٣) وسائل الشيعة: ٤/ ٢٧٢ ح ١٥٤٠.

(٤) الاستبصار: ١/ ٢٨٤، تهذيب الأحكام: ٢/ ١٣٣.

(٥) الاستبصار: ١/ ٢٨٣ ح ١٠٣١، تهذيب الأحكام: ٢/ ١٣٣ ح٥١٣.

اللّيل هي؟ قال: نعم[١]. (ص ٥٣ ج ٥ من «**الوافي**»).

وكذا غيرها من الرّوايات الواردة في ذلك عن أصحاب العصمة ﷺ. وإنّما تدلّ على ما أشرنا إليه؟ لأنَّ المراد من الفجر إذا أُطلق هو الفجر الثاني، على أنَّ قوله ﷺ: «فإذا طلع الفجر فقد دخل وقت الغداة» قرينة دالّة على ذلك. وأنَّ قوله ﷺ: احش بهما صلاة اللّيل، وإنّهما من صلاة اللّيل وغيرهما ترشدنا إلى أنَّ وقت النافلتين بين الفجرين، وقد علمت أنَّ الوتر الذي هي من صلاة اللّيل كان أفضل أوقاتها بين الفجرين فنافلتا الصّبح وقتهما بعد صلاة الوتر وقبل الفجر الثاني أي بين الفجرين فيتمّ المطلوب.

نعم إن طلع الفجر الثاني ولم يكن قد صلّى صلاّهما إلى أن يحمّر الأُفق فإن احمرّ ولم يكن قد صلّى أخّرهما إلى بعد الفريضة، كما ورد بها روايات عنهم ﷺ.

وبما قدَّمنا علمت أن ما جنح إليه العلاّمة البيروني في «**القانون المسعوديّ**» (**٩٤٩ ج ٢**) من أنه لا يتعلّق بالفجر الأوّل شيء من الأحكام الشرعيّة ولا من العادات الرسميّة، ليس باطلاقه صحيحاً.

فالأحكام الشرعيّة أكثرها متعلّقة بالثاني فالمرويُّ عن النبيّ ﷺ: لا يغرنّكم الفجر المستطيل فكلوا واشربوا حتّى يطلع الفجر المستطير[٢]، فأوَّل النهار طلوع الفجر الثاني، ويدلّ عليه القرآن الكريم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فالخيط الأبيض بياض الفجر المعترض الممدود المستطيل أي الفجر الثاني لأنّه أوسع ضياءً ويناسب قوله تعالى حتّى يتبيّن، والخيط الأسود سواد اللّيل، قال أبو داود الأياديُّ في الخيط الأبيض:

ولمّا أضاءت لنا غدوةً ولاح من الصبح خيطٌ أنارا

وقال آخر في الخيط الأسود:

قد كاد يبدو وبدت تباشره وسدف الخيط البهيم ساتره

ففي الآية استعارة عجيبة والمراد حتّى يتبيّن بياض الصبح من سواد اللّيل وعبّرهما بالخيطين مجازاً.

والظاهر أنَّ وجه تشبيههما بالخيط لدقّتهما كالخيط لأنَّ بياض الصبح في أوّل طلوعه يكون مشرقاً خافياً فيزداد انتشاراً، وسواد اللّيل وقتئذٍ يكون منقضياً مولّياً فيزداد استتاراً فهما

(١) تهذيب الأحكام: ٢/ ١٣٣، وسائل الشيعة: ٤/ ٢٦٤ ح ٥١١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٢.

جميعاً ضعيفان دقيقان كالخيط.

وتحقيقه أنَّ الفصل المشترك بين ما انفجر أي انشقَّ من الضياء وبين ما هو مظلم بعد يشبه خيطين اتّصلا عرضاً فالذي انتهى إليه الضياء الخيط الأبيض والذي ابتدأ منه الظلام الخيط الأسود.

وكلمة (من) بيانيّة أي الخيط الأبيض من الفجر؛ واستغنى به عن بيان الخيط الأسود لأنّه يعلم بالتّبع، وقد مال بعض إلى أنّها للتبعيض وقد علمت بما حقّقنا أنّه وهم.

وروي أنَّ عديَّ بن حاتم قال: لما نزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ الآية قلت للنبيّ ﷺ: إنّي وضعت خيطين من شعر أبيض وأسود فكنت أنظر فيهما فلا يتبيّن لي فضحك رسول الله ﷺ حتّى رؤيت نواجده ثمَّ قال: يا ابن حاتم إنّما ذلك بياض النهار وسواد اللّيل[1].

وقد نقله المفسرون بألفاظ مختلفة تؤل إلى ما نقلناه، فالآية تدلّ على أوّل النهار طلوع الفجر الثاني.

وفي **«الكافي»** بإسناده عن حمّاد، عن الحلبيّ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر فقال: بياض النهار من سواد اللّيل[2] ـ إلخ. **(ص ٣٤ ج ٧ من «الوافي»)**.

واعلم أنَّ البياض المستدقّ المستطيل المنتصب الموازي لذنب السرحان آخر الشفق قلّما أن يتنبّه له الناس ويدركونه، والسرّ في ذلك أنَّ الهواء حينئذ يكون كدراً جدًّا بسبب ما يكون الناس فيه من الأشغال وبغلبة الحرّ الدّخاني المكتسبة من حرارة النهار؛ بخلاف الصّبح فإنَّ الهواء فيه يكون مائلاً إلى الصفاء والبياض لرطوبة المكتسبة من برودة اللّيل ولعدم أشغال معتدّة تكدّره، فبتلك العوائق الطارئة أنَّ ذنب السرحان لا يُرى في الشفق، لا كما ذهب إليه العلاّمة أبو ريحان البيروني في **«القانون المسعوديّ»** (ص **٩٤٩ ج ٢ طبع حيدر آباد الدكن ١٣٧٤ هـ**) وتبعه المحقق الشريف والفاضل الفخري وغيرهما حيث قال: وإنّما لا يتنبّه النّاس له لأنَّ وقته عند اختتام الأعمال واشتغالهم بالإكتنان وأمّا وقت الصبح فالعادة فيه جارية باستكمال الرّاحة والتهيّؤ للتصرُّف فهم فيه منتظرون طليعة النهار ليأخذوا في الإنتشار، فلذلك ظهر لهم هذا وخفي ذلك. انتهى كلامه.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٢/ ٢٣، وفقه القرآن: ١/ ٢٠٢.

(٢) الكافي: ٤/ ٩٨ ح ٣، والوافي: ٧/ ٣٤.

كيف لم يكن هذا الدَّليل عليلاً؟ ولو ينتظر أحد غروب الشفق لا يدرك ذلك الخيط الشبيه بذنب السرحان غالباً كما يدركه أوّل طلوع الصبح.

وجملة الأمر أنَّ هذا الحكم رياضيّ لا يخصّص ولا يعتريه ريب ولا يشوبه عيب إلاّ أنَّ الطواريء تمنعنا عن إدراكه.

فبما حققناه في «**المقام**» دريت وهن ما ذهب إليه المولى أحمد النراقي رحمه الله في (**الخزائن**) حيث قال: إشكال رياضيٌ وهو أنَّ الرياضيّين علّلوا الفجر الكاذب ونسبوه إلى الشمس وضوئها ولو كان كذلك ينبغي أن يكون في المغرب أيضاً كذلك يعني إذا غابت الشمس يظهر بعد قليل بياض مستطيل شبيه بذنب السرحان وليس كذلك، انتهى كلامه. فراجع إلى (**ص ١٦٥ من كتاب «الخزائن» الذي طبع في طهران عاصمة إيران سنة ١٣٨٠ هـ**) على تصحيحنا وتعليقنا عليه.

وإن شئنا ثنينا البيان على تحرير أدقّ وبرهنّاه ببرهان هندسيّ أتمّ فنقول: إنَّ ظلَّ الأرض مخروط مستدير والمخروط المستدير كما عرّفه اقليدس في صدر المقالة الحادية عشر من الأصول ما يحوزه مثلث قائم الزاوية أثبت أحد ضلعي الزاوية القائمة محوراً لا يزول وأدير المثلث إلى أن يعود إلى موضعه، وسهمه الضلع الثابت وقاعدته دائرة وسهم المخروط مارٌّ بمركز القاعدة عمود عليها أبداً، وقد بيّن في محلّه أنَّ مركز الشمس والأرض أبداً على سهم مخروط ضلّ الأرض فليمرَّ سطح بمركزي الشمس والأرض وسهم المخروط وهذا السطح قائم على قاعدة المخروط على زوايا قوائم كما برهن في الشكل الثامن عشر من المقالة الحادية عشر من الأصول. ثمَّ ليحدث من ذلك السطح مثلّث حادُّ الزوايا قاعدته على الأفق وضلعاه على سطح مخروط الظلّ.

أمّا كون المثلّث حادّ الزوايا فنقول إنَّ زاويتي قاعدته حادّتان لأنَّ سهم المخروط قائم على القاعدة ومارٌّ بمركزها، وقطر قاعدة المخروط قاعدة المثلّث فمنتصف القطر موقع عمود السهم فينقسم المثلّث بمثلّثين يكون سهم المخروط ضلعهما المشترك، ونصف قطر قاعدة المخروط قاعدة كلّ واحد منهما، والزّاويتان اللّتان بين السهم ونصفي القطر قائمتان، لأنَّ السهم عمود على القطر، فالزوايتان الأخريان أعني زاويتي قاعدة المثلّث الأعظم حادّتان لأنَّ المثلّث على البسيط المستوى تعدل زواياه الثلاث قائمتين فإذا كانت إحدى زواياه قائمة فلا بدَّ من أن تكون كلّ واحدة من زوايتيه الأخريين أقل من قائمة أعني حادّة، والمثلّثان متساويان زواياهما كلّ لنظيره متساوية كما برهن في الرابع، وفي الثّاني والثلاثين من أولى (**الأصول**).

وإنّما قيّدنا المثلّث على البسيط المستوى لأنّه إذا كان على كرة أمكن أن يبلغ جميع

زواياه الثلاث إلى أعظم من قائمتين، كما برهن في الشكل الحادي عشر من أولى **(أكرمانا لأؤوس)**.

وإنّما كانت زواية رأسه حادَّة لأنّها لو لم تكن حادَّة لكانت إمّا قائمة أو منفرجة فكان وتره أعظم من كلّ من ضلعي المخروط لأنّهما وترا حادَّتين وقد بيّن في التاسع عشر من أولى الأصول أنَّ الزاوية العظمى من المثلّث يوترها الضلع الأطول وكان وترها قطر قاعدة المخروط الذي هو أصغر من قطر الأرض وقد تبيّن في الأبعاد والأجرام أنَّ رأس المخروط في أفلاك الزهرة وأنَّ بعد مقعر فلك الزهرة، أعظم من قطر الأرض بكثير.

وإنّما كان قطر قاعدة المخروط أصغر من قطر الأرض لأنَّ الأرض أصغر من الشمس بكثير فتقبل منها الضوء وقد علمت أنَّ الكرة إذا قبلت الضوء من كرة أُخرى أعظم منها كان المستضيء منها أعظم من نصفها ولذا تحدث بين المستضيء والمظلم من الأرض دائرة صغيرة هي قاعدة مخروط الظلّ فيكون قطره أصغر من قطر الأرض.

وأمّا كون قاعدة المثلّث على الأُفق فلأنَّ قطر قاعدة المخروط يكون دائماً موازياً لأُفق موضع مّا قريباً من الحسّي، وفي «**المقام**» خاصّة إذا كان نصف اللّيل كان قطر قاعدة المخروط موازياً لأُفق الناظر قريباً من الأُفق الحسّي.

فإذا دريت ما قدَّمنا لك فنقول: وليفرض هذا المثلّث في سطح ممتدّ فيما بين المشرق والمغرب فوق الأرض إن كان المطلوب تميز الصبح، وبينهما تحتها إن كان المقصود تميز الشّفق، بحيث إن أحد الضلعين على القاعدة يلي الشمس، ولا شكّ أنَّ الأقرب من الضلع الذي يلي الشمس إلى الناظر يكون موقع العمود الخارج من البصر الواقع على ذلك الضلع ثمَّ الأقرب فالأقرب منه، لا موضع اتّصال الضلع بالأُفق؛ فإذن أوّل ما يُرى نور الشمس يرى فوق الأُفق كخطٍ مستقيم منطبق على الضلع المذكور، ويكون ما يقرب من الأُفق بعدُ مظلماً، ولذلك يسمّى ذلك النور المرئيّ في المشرق بالصبح الأوّل والصبح الكاذب.

وإن شئت قلت إنَّ أوّل ما يرى من الشعاع المحيط بالمخروط أعني أقربه إلى موضع النّاظر هو موضع خطّ يخرج من بصره إليه في سطح دائرة سمتيّة أعني دائرة ارتفاع تمرّ بمركز الشمس حال كون ذلك الخطّ عموداً على الخطّ المماسّ للشمس والأرض جميعاً الذي هو في سطح الفصل المشترك بين الشعاع والظّل، فيرى الضوء مرتفعاً عن الأُفق مستطيلاً وما بينه وبين الأُفق مظلماً وهو الصبح الكاذب؛ فتبصّر.

ثمَّ إذا قربت الشمس من الأُفق الشرقيّ جدّاً ينبسط النور فصار الأفق منيراً يصير الصّبح صادقاً ثمَّ يزداد نوره لحظة فلحظة إلى أن تظهر الحمرة. وقد علمت أنَّ الشفق يكون بعكس الصبح.

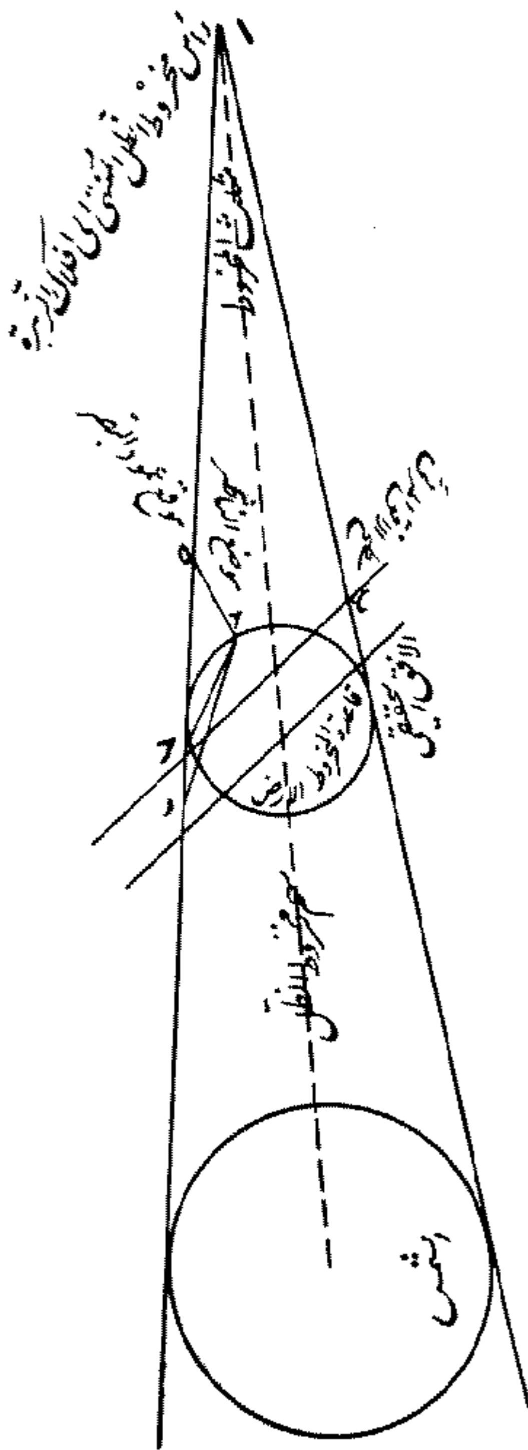

والحمرة التي ترى فوق الأفق في الصبح والشفق إنّما تتكوّن من اختلاط النور القوى والظلمة، وليكن ذلك في ذكرك حين يسير بك قطارٌ في نَفَق السكّة الحديديّة، أو سيّارة في نَفَقٍ؛ سيّما إذا كنت مواجهاً للشمس وكان النّفق ذا طولٍ فإذا ظهر مخرج النّفق من بعيد ترى حمرة كحمرة الصبح والشفق قد تكوّنت من اختلاط شعاع الشمس من خارج النفق والظلمة في داخله.

ولنمثّل لك مثالاً توضيحاً للمراد فليفرض (ا ب حـ) مثلّث المخروط و (ا حـ) الضلع الذي يلي الشمس و (ب حـ) سطح الأُفق المرئي و (د) موضع الناظر و (ه) موقع عمود البصر ونخرج من موضع الناظر عمود (د ه) على (ا حـ و) هذا العمود لا يمكن أن يقع على (حـ) لأن زاوية (د حـ ه) الداخلة في المثلّث حادة كما دريت. وزاويتاه قائمتان لأنَّ (د ه) عمود فيلزم إذن تساوي الحادة والقائمة (هف).

وكذلك لا يمكن أن يقع خارجاً عن جانب (حـ)، مثلاً أن يقع على (ر) لأنّه يلزم أن يجتمع في مثلّث (د ر حـ) قائمة ومنفرجة وقد بين امتناع اجتماعهما في مثلّث مستو. أمّا الزاوية القائمة فلأنَّ (د ر) عمود بالفرض على ضلع (ا حـ).

وأمّا المنفرجة فلأنَّ زاوية (د حـ ه) كانت حادَّة (فد حـ د) منفرجة لا محالة لأنه برهن في الثالث عشر من أولى الأُصول إذا قام خط على خط كيف كان حدثت عن جنبتيه زاويتان إما قائمتان أو متساويتان معاً لقائمتين فإذا كانت إحداهما حادّة بقيت الأُخرى منفرجة.

وأمّا امتناع اجتماعهما في مثلّث مستوٍ فلأنّه إذا كان إحدى زواياه قائمة فلا بدَّ من أن تعادل الأُخريان قائمة فلو كانت أحدهما منفرجة تعادل زواياه الثلاث أكثر من قائمتين (هف).

وبمثل هذا البيان نقول: إنَّ هذا العمود لا يمكن أن يقع على (ا) أعني رأس المخروط

ولا خارجاً من جانبه فيقع موقع العمود فيما بين نقطتي (ا حـ)، ثمَّ نقول: إنَّ (د ه) وتر حادّة و (د حـ) وتر قائمة، فالأوّل أقصر من الثاني بالتاسع عشر من أولى الأصول بل أقصر من كلّ خطّ يخرج من موضع الناظر إلى (ا حـ) لكونه وتر قائمة فتكون نقطة (ه) موقع العمود أقرب النقاط إلى البصر فيكون خط (د ه) من بين الخطوط الخارجة من البصر إلى ضلع (ا حـ) أقلّ مسافة منها فيرى أوّلاً موقع العمود أعني نقطة (ه) لقربه من البصر ثمّ بعض ما كان من الضلع المذكور فوق موقع العمود وتحته القريبين منه دون البعض الآخر لبعده عنه، فلذلك يرى بعض الأجزاء المرئي من الضلع المذكور كخطّ مستقيم شبيه بذنب السرحان إذا شال ذنبه.

وأمّا ما يقرب من الأُفق فيكون بعد مظلماً ولا يرى نور الشمس الذي وراء الظل لبعده عن البصر لأنَّ لكلِّ مُبصَرٍ غايةً من البعد والقرب إذا جاوزهما لم يبصر كما حقّق في محلّه وأشرنا إلى شرائط الرؤية في شرحنا على الكتاب الثامن فراجع.

على أنَّ الهواء الذي عند الأُفق يكون أكثف وأغلظ بخلاف الهواء الذي ارتفع عنه ولا يخفى عليك أنَّ للطافة الهواء وكثافته دخلاً في ظهور الضوء وعدمه.

فإن قلت: ما قدمت إنّما يتمّ لو كان خط (د ه) العمود الواقع على (ا حـ) شعاع البصر فتكون نقطة (د) بمنزلة عين الناظر مرتفعة على الأُفق على حدّ قامته، والاشكال فيه أن صورة مثلّث (د حـ ه) إنّما تتحقّق لو كانت نقطة (د) على سطح الأُفق الحسّي لا مرتفعة عنه، ولو اعتبر كونها عليه فأين قامة الناظر؟

قلت: قامة الناظر في أمثال هذه الأُمور كنقطة لا تخلّ بالمقصود فلا يضرّنا في المقام اعتبار قامته وعدمه.

وأمّا ما وعدنا من زيادة بيان في اتّصال الصبح بالشفق في بعض الآفاق فنقول: قد علم بالتجربة أنَّ انحطاط الشمس عند أوّل طلوع الصبح الكاذب وآخر الشفق ثمانية عشر درجة ففي الآفاق التي يكون عروضها ثماني وأربعين درجة وثلاث وثلاثين دقيقة شماليّة كانت أو جنوبيّة يتصل آخر الشفق وهو عند غاية انحطاط الشمس عن الأُفق بأوّل الصبح الكاذب إذا كانت الشمس في المنقلب الصيفي أعني أوّل السرطان في الآفاق الشماليّة وأوّل الجدي في الآفاق الجنوبيّة.

وذلك لأنَّ أُفقاً كان عرضه ٣٣ ٨ ٤° يكون تمام عرضه ٢٧ ١ ٤° فإذا نقص منه الميل الكلّي أعني الميل المنقلب الصيفي وهو في سنتنا هذه وهي سنة ١٣٨٥ هـ بلغ ٢٧ ٣ ٢° تقريباً بقي ١٨ درجة؛ وتكون غاية انحطاط المنقلب الصيفي في هذا الأُفق ١٨ درجة لا محالة ولا يخفى عليك أنَّ غاية انحطاطه حينئذ قوس من نصف النهار بين المنقلب عند كونه

تحت الأرض وبين قطب أوّل السموت من الجانب الأقرب، ولمّا كانت الشمس بلا عرض أعني أنّها في سطح دائرة منقطة البروج دائماً فإذا بلغت إلى هذا المنقلب تكون غاية انحطاطها عن ذلك الأفق ١٨ درجة فيكون آخر الشفق أي غاية انحطاطها مبدأ الصبح الأوّل.

وهذا أوّل عرض يتفق فيه اتّصال الصبح بالشفق وفي الآفاق التي جاوزت عروضها ذلك المقدار إلى أن بلغ عرضها مثل تمام الميل الأعظم أعني ٣٣ ٣ ٦ ٦° يتناقص انحطاط الشمس عن الأفق عند كونها في المنقلب الصيفي عن ذلك المقدار أي يكون انحطاط أقلّ من ١٨ درجة فلا محالة تكون عن جنبتي المنقلب نقطتان غاية انحطاطهما تكون ١٨ درجة فما دامت الشمس في القوس التي بين النقطتين يتّصل الشفق بالصبح وطلوع الصبح يكون قبل تمام غروب الشفق فيتداخل الصبح والشفق فيكون زمان ما من ساعاتهما ويكثر هذا الزمان كلّما ازداد العرض لأنَّ العرض كلّما كان الأكثر كانت تلك القوس الواقعة بين النقطتين أعظم.

وإذا بلغ العرض مثل تمام الميل الكلّي فما فوقها فلا يكون للشمس في المنقلب الصيفي انحطاط أصلاً لأنَّ مدار المنقلب على الأوّل يكون أعظم المدارات الأبديّة الظهور وعلى الثاني يدور فوق الأفق.

وبما حرّرنا دريت أنَّ قول الفاضل البرجنديّ في شرح التذكرة في «**المقام**» حيث فسّر نهاية المقدار في كلام الخواجة: «وفيما جاوزت عروضها ذلك المقدار» بقوله: إلى أن بلغ عرض تسعين، ليس بصواب. والحقّ فيه التفصيل.

ثمَّ إنَّ في «**المقام**» مباحث أنيقة ومطالب دقيقة حرّرناها في رسالتنا المدوّنة في الوقت والقبلة فليرجع الطالب إليها. ولعلّنا نشير إلى طائفة منها في شرح كتابه عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة إنشاء الله تعالى والله تعالى نحمد ونستزيد.

تذييل: قد ذكرنا أنَّ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ يدلّ على أنَّ المراد من الفجر هو الثاني وقد رويت أخبار عديدة من أئمّتنا المعصومين عليهم السلام فيه: ففي «**الكافي**» عن عليّ بن مهزيار قال: كتب أبو الحسن بن الحصين إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام معي جعلت فداك قد اختلف موالوك في صلاة الفجر فمنهم من يصلّي إذا طلع الفجر الأوّل المستطيل في السماء، ومنهم من يصلّي إذا اعترض في أسفل الأفق واستبان؛ ولست أعرف أفضل الوقتين فأصلّي فيه فإن رأيت أن تعلمني أفضل الوقتين وتحدّه لي وكيف أصنع مع القمر والفجر لا يتبيّن معه حتّى يحمرّ ويصبح؟ وكيف أصنع مع الغيم؟ وما حدّ ذلك في السفر والحضر؟ فعلت إن شاء الله تعالى.

فكتب بخطّه وقراءته: الفجر يرحمك الله هو الخيط الأبيض المعترض ليس هو الأبيض صعداء؛ فلا تصلّ في سفر ولا حضر حتّى تبيّنه فإنَّ الله تعالى لم يجعل خلقه في شبهة من هذا فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ والخيط الأبيض هو المعترض الذي يحرم به الأكل والشرب في الصوم وكذلك هو الذي يوجب به الصلاة. أتى به الفيض في («**الوافي**» في ص ٥١ ج ٥). والعاملي في باب أنَّ أوّل وقت الصبح طلوع الفجر الثاني المعترض في الأفق دون الفجر الأوّل المستطيل من صلاة الوسائل، ورواه في «**التهذيب**» بأدنى تفاوت في ألفاظه.

وفي «**التهذيب**» عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلّي ركعتي الصبح وهي الفجر إذا اعترض الفجر وأضاء حسناً[١].

وفي «**الفقيه**»: وروي أنَّ وقت الغداة إذا اعترض الفجر فأضاء حسناً. رواه في ذلك الباب من الوسائل أيضاً.

وفي «**الكافي**» و«**التهذيب**» و«**الفقيه**»، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الصبح هو الذي إذا رأيته[٢] معترضاً كأنّه نباض سورى[٣].

أقول: النباض بتقديم النون على الباء من نبض الماء إذا سال وربما قرىء بالباء فالياء والمراد منه نهرى سورى على وزن بشرى موضع بالعراق وقد دلّ عليه ما في «**التهذيب**» عن هشام بن الهذيل، عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: سألت عن وقت صلاة الفجر فقال: حين يعترض الفجر فتراه مثل نهر سورى[٤]. رواه في ذلك الباب من الوسائل أيضاً.

وفي «**التهذيب**» عن أبي بصير المكفوف قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصائم متى يحرم عليه الطعام، فقال: إذا كانت الفجر كالقبطيّة البيضاء[٥]، الخبر.

أقول: القبطيّة بضم القاف: الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء منسوب إلى القبط وهم أهل مصر هذا في الثياب، وأمّا في النّاس فقبطيّ بالكسر كما في «**النهاية**» الأثيريّة.

وفي الباب التالي من ذلك الباب المقدّم من الوسائل: عن زريق، عن أبي عبد الله عليه السلام

---

(١) بحار الأنوار: ٧٩/ ٣٧٠، والصحيح من السيرة: ٥/ ١٨٠.
(٢) في نسخة: كان.
(٣) الكافي: ٣/ ٢٨٣ ح ٢، والاستبصار: ١/ ٢٧٥ ح ٩٩٧.
(٤) تهذيب الأحكام: ٢/ ٣٧ ح ١١٧، ووسائل الشيعة: ٤٠/ ٢١٢.
(٥) الاستبصار: ١/ ٢٧٦ ح ١٠٠٢، تهذيب الأحكام: ٢/ ٣٩ ح ١٢٢.

أنّه كان يصلّي الغداة بغلس عند طلوع الفجر الصادق أوّل ما يبدو قبل أن يستعرض.

أقول: والأخبار بهذا المضمون المرويّة عن أئمتنا عليهم السلام كثيرة رويت أكثرها في الكتب الأربعة وكتابي الصلاة والصوم من الوسائل وغيرها من الجوامع تدلّ على ما قدّمنا من أنّ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ يدلّ على أنّ المراد من الفجر الفجر الصّادق وأنّ الأحكام الشرعيّة والعادات الرسميّة إنّما تتعلّق به لا بالكاذب.

قوله عليه السلام: «فإذا لقيت العدوَّ فقف من أصحابك وسطاً» أمره عليه السلام أن يقف عند لقاء العدوّ في وسط الجيش وذلك لأنَّ أمير الجيش إذا كان حينئذ في وسط الجيش يكون نسبته إلى كلّ جوانب على السواء فكان أقدر على إبلاغ أوامره ونواهيه إلى الجميع، وعلى الإحاطة بهم والتّسلّط عليهم.

على أنَّ أمير الجيش بمنزلة القطب فيهم فينبغي لهم أن يكونوا حوله على نسبة سواء، ويقوه بأنفسهم وينتظروا أمره ولا يبعدوا عنه بعداً ربّما يوجب اختلال نظامهم.

وأنّه بمنزلة القلب من جسد العسكر فيجب عليه وعليهم العناية التامّة في حفظه وحراسته وذلك لأنَّ موت احد من أفراد الجيش لا يوجب اضمحلالهم بخلاف الأمير لأنّه من الأعضاء الرئيسة التي ينتفي الكلّ بانتفائه فهلاك رئيس القوم يوجب انهدامهم وانهزامهم فنعم ما قاله الشاعر:

لك العزّ إن مولاك عزّ فإن يهن ... فأنت لدى بحبوحة الهون كائن

فإذا كان في وسط القوم فكأنّه في حصن حصين يمنع الخصم عن الظفر عليه.

وقوله عليه السلام: «ولا تدن من القوم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب ـ إلخ» بعدما أمره عليه السلام بما دريت أخذ أن ينهيه عن عدّة أُمور فمنها: أن لا يدنو من القوم دنوّ من يريد أن يوقع الفتنة ويقيم الحرب وذلك لما قدّمنا من أنَّ أولياء الله ما أمروا بسفك الدماء وقتل النفوس إلاّ بعد أن أبى النّاس إلاّ نفوراً وطغياناً، فعند ذلك كان أمر ربّهم حتماً مقضيّاً في اجتياحهم لئلا يختلّ بهم انتظام الاجتماع البشري وقد قيل: إنَّ ما يزع السلطان أكثر ممّا يزع القرآن وما يلتئم بالسنان لا ينتظم بالبرهان. وقد تقدّم في ص ٣٩ ج ٢ من **«التكلمة»**، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الخير كلّه في السيف وتحت ظلّ السيف ولا يقيم الناس إلاّ السيف والسيوف مقاليد الجنّة والنار[1]. رواه الكلينيّ في **«الكافي»** وقد تقدّم وبيانه آنفاً. وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى

---

(١) الكافي: ٥/ ٢، الأمالي: ٦٧٤ ح ٩٠٩.

ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة ٢٥٤]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٢] والآيتان مسوقتان إلى الجهاد في سبيل الله بالسيف كما يدلّ عليه سياق الآيات التي قبلهما، فراجع.

ثمَّ انظر في سيرة قائد الغرّ المحجّلين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في حروبه، لا يأذن القوم أن يواجهوا الخصم إلى حدّ يشعر بارادة إيقاع الفتنة فتبصر أنَّ الحجج الإلٰهيّة والذين تولّوا أُمور الدِّين بعدهم بإذنهم شأنهم أجلّ ممّا توهّمه الجاهلون وعزّوهم إلى كثير ممّا ليس إلاّ فرية واختلاق.

ومنها: أن يتباعد عنهم تباعد من يؤذن بخوفه من البأس أي الحرب لأنَّ ذلك يشعر بالوهن والضعف والخوف من العدوّ فيوجب أن يطمع العدوّ فيه. ثمَّ ضرب له في هذين النهيين غاية فقال: **(حتّى يأتيك أمري)**.

ومنها أن لا يحملنَّ معقل بن قيس وأصحابه بغض القوم وعداوتهم إيّاهم على أن يقاتلوهم قبل أن يعذروا إليهم الدّعاء ويمنحوهم النصح ويتمّوا الحجّة عليهم ويدعوهم إلى الإمام الحق. وفي **«الكافي»** (**«الوافي»** ص ١٦ ج ٩) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لمّا وجّهني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن فقال: يا عليّ لا تقاتل أحداً حتّى تدعوه إلى الإسلام وأيم الله لئن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس وغربت ولك ولاؤه[1].

ويستحبّ أن تكون الدَّعوة بما في النصّ كما يأتي تفصيله في شرح **«المختار»** الخامس عشر من هذا الباب إن شاء الله تعالى.

فلو كان القتال بمجرّد عداوة الخصم يخرج كونه طاعة بل قتال في سبيل هوى النفس وتشفّيها، فلا أقلّ من أن يكون مشوباً بغير طاعة الله وقد قال تعالى وتقدّس: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] والجهاد عبادة فلا بدَّ فيه من خلوص النيّة. وتأبى نفسي إلاّ نقل جملة ما أجاد العارف الرُّومي في المثنوي من أبيات تناسب المقام جدًّا:

از علـى آمـوز اخـلاص عمـل شيـر حـق راداں منـزّه از دغـل

در غـزا بـر پـهلوانـى دست يـافـت زود شـمـشيـري بـر آورد وشـتـافـت

او خـدو أنـداخـت بـر روى علـى افـتـخـار هـر نـبـيّ وهـر ولـيّ

---

(١) الكافي: ٥/ ٣٦ ح ٢، وبحار الأنوار: ٩/ ١٦٧ ح ١٤.

او خدو أنداخت برروبى كه ماه　سجده آرد پيش اودرسجده گاه

در زمان انداخت شمشير آن علي　كرد او أندر غزايش كاهلى

گشت حيران آن مبارز زين عمل　از نمودن عفو ورحم بى محل

گفت بر من تيغ تيز افراشتى　از چه افكندى مرا بگذا شتى

آن چه ديدى از پيكار من　تا شدى تو سست در اشكار من

آن چه ديدى كه چنين خشمت نشست　تا چنين برقي نمود وباز جست

آن چه ديدى كه مرازان عكس ديد　در دل وجان شعله أي آمد پديد

آن چه ديدى بهتراز كون ومكان　كه به ازجان بود وبخشيديم جان

در شجاعت شير ربّا نيستى　در مروّت خود ندانم كيستى

در مروّت ابر موسايى به تيه　كآمد ازوى خوان ونان بى شبيه

أي علي كه جمله عقل وديده أي　شمّه أي واگو ازآن چه ديده اى

تيغ علمت جان ما را چاك كرد　آب علمت خاك ما را پاك كرد

باز گو دانم كه اين اسرار هوست　زانكه بى شمشير كشتن كار اوست

باز گو اى باز عرش خوش شكار　تاچه ديدى اين زمان از كردگار

چشم تو ادراك غيب آموخته　چشمهاى حاضران بر دوخته

راز بگشا اى عليّ مرتضى　اي پس از سوء القضا حسن القضا

ياتوواگو آنچه عقلت يافته است　يا بگويم آنچه بر من تافته است

ازتوبر من تافت چون دارى نهان　ميفشانى نور چون مه بى زبان

ليك اگر درگفت آيد قرص ماه　شب روان را زودتر آرد براه

از غلط ايمن شوند واز ذهول　باگ مه غالب شودبر بانگ غول

ماه بة گفتن چو باشد رهنما　چون بگويد شد ضيا اندرضيا

چون تو بابى آن مدينه علم را　چون شعاعى آفتاب حلم را

باز باش أي باب بر جوياى باب　تا رسند ازتو قشور اندر لباب

باز باش اى باب رحمت تا ابد　بارگاه ما له كفواً أحد

پس بگفت آن نو مسلمان وليّ　از سر مستى ولذّت با عليّ

كه بفرما يا أمير المؤمنين　تا بجنبد جان بتن همچون جنين

باز گو اى باز پر افروخته　با شه وبا ساعدش آموخته

باز گو ای باز عنقا گیر شاه ای سپاه اشکن بخودنی با سپاه
امّت وحدی یکی وصد هزار بازگو ای بنده بازت را شکار
درمحلّ قهراین رحمت زچیست اژدها را دست دادن کار کیست
گفت من تیغ از پی حق میزنم بنده، حقّم نه مأمور تنم
شیر حقّم نیستم شیر هوا فعل من بردین من باشد گوا
من چو تیغم وآن زننده آفتاب ما رمیت إذ رمیت در حراب
رخت خودرا من زره برداشتم غیر حق را من عدم انگاشتم
گفت أمیر المؤمنین با آن جوان که بهنگام نبرد اي پهلوان
چون خدو انداختی برروی من نفس جنبید وتبه شد خوی من
نیم بهر حق شد ونیمی هوا شرکت اندر کار حق نبودروا
گفت من تخم جفا مي کاشتم من ترا نوعی دگر پنداشتم
تو ترازوی أحد خو بوده ای بل زبانه هرترازو بوده ای
من غلام آنچراغ شمع خو که چراغت روشنی پذرفت از و
عرضه کن برمن شهادت راکه من مر تورا دیدم سر افراز زمن
قرب پنجه کس زخویش وقوم او عاشقانه سوی دین کردند رو
او بتیغ حلم چندین خلق را وا خرید از تیغ چندین حلق را
تیغ حلم از تیغ آهن تیزتر بل ز صد لشگر ظفر أنگیزتر

الترجمة

این وصیّتی است که امیر (عليه السلام) به معقل بن قیس ریاحی. هنگامی که وی را با لشگری سه هزار نفری مقدّمه خود کرده بود و به سوی شام گسیل داشت. فرمود: بترس از خدایی که ناچار بازگشت بدو است و سرانجامت تنها او است، جنگ مکن مگر با کسی که با تو سر جنگ دارد و در دو طرف روز (صبح و عصر که هوا خنك است) راه میرو و در نیم روز لشگر را فرودآر تا بیاسایند و سبك و آسان راه میرو. و در اول شب سیر مکن که خدا آن را برای آرمیدن قرار داده و برای اقامت تقدیر فرموده نه کوچ کردن، پس در آن تنت و ستورانت را آسایش ده تا به پهن شدن آثار سحر و پیدایش سپیده صبح آگاه شدی، با درخواست برکت از خدای سیر میکن و چون دشمن را دیدی در میان لشگر قرار گیر و به دشمن چندان نزدیك مشو چون نزدیك شدن کسی که آهنگ درگرفتن آتش جنگ دارد و چندان از آنان دور مشو چون دور شدن کسی که از جنگ هراس دارد تا فرمان من در رسد و مبادا که دشمنی آنان، شما را پیش از آن که با آنان اتمام حجت کنید و مرایشان را به راه حق بخوانید و عذر خود را بدیشان تمام گردانید به جنگ وادارد.

ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه وهو المختار الثالث عشر من باب كتبه ورسائله عليه السلام

وَقدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُما وَعَلى مَنْ في حَيِّزِكُما مالِكَ بْنَ الْحارِثِ الأَشْتَرَ فَاسْمَعا لَهُ وَأطيعاهُ وَاجْعَلاهُ دِرْعاً وَمِجَنًا فَإِنَّهُ مِمَّنْ لا يُخافُ وَهْنُهُ (وَهْيُهُ ـ نسخة) وَلاَ سَقْطَتُهُ، وَلا بُطْؤُهُ عَمَّا الإِسْراعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلا إِسْراعُهُ إِلى مَا الْبُطْؤُ عَنْهُ أَمْثَلُ[1].

مصدر الكتاب وسنده

نقل الكتاب مسنداً أبو جعفر الطبريُّ المتوفى (٣١٠ هـ) في التاريخ بأدنى اختلاف وقد مضى نقله في شرح الخطبة ٢٣٦ فراجع إلى ص ٢٢١ من ج ١ من تكملة المنهاج.

ورواه مسنداً نصر بن مزاحم المنقريّ في كتاب «**صفين**» (**ص ٨١ من الطبع الناصري**)، وأتى به المجلسيّ في المجلّد الثامن من «**البحار**» (**ص ٤٧٨ من الطبع الكمباني**). وما أتى به الرضيّ في «**النهج**» فهو بعض هذا الكتاب وقد أسقط منه قريباً من سطر فدونك الكتاب بصورته الكاملة على ما رواه نصر وإن كان يوافق ما نقله الطبريّ تقريباً وقد نقل قبل.

قال نصر: وقال خالد بن قطن: فلمّا قطع عليٌّ عليه السلام الفرات دعا زياد بن النضر وشريح ابن هاني فسرحهما أمامه نحو معاوية على حالهما الذي كانا عليه حين خرجا من الكوفة في اثنى عشر ألفاً وقد كانا حيث سرحهما من الكوفة أخذا على شاطىء الفرات من قبل البرّ ممّا يلي الكوفة حتّى بلغا عانات فبلغهم أخذ عليّ عليه السلام على طريق الجزيرة، وبلغهما أنَّ معاوية أقبل في جنود الشام من دمشق لاستقبال عليّ عليه السلام فقالا: لا والله ما هذا لنا برأى أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر، وما لنا خير أن نلقى جموع أهل الشام بقلّة من عددنا منقطعين من العدد والمدد فذهبوا ليعبروا من عانات، فمنعهم أهل عانات وحبسوا عندهم السفن فأقبلوا راجعين حتّى عبروا من هيت، ثمَّ لحقوا عليّاً بقرية دون قرقيسياء وقد أرادوا أهل عانات فتحصنوا منهم فلمّا لحقت المقدّمة عليّاً قال: مقدّمتي تأتي ورائي. فتقدّم إليه زياد وشريح فأخبره الذي رأيا؛ فقال: قد أصبتما رشد كما، فلمّا عبر الفرات قدّمهما أمامه نحو معاوية، فلما انتهوا إلى معاوية لقيهم أبو الأعور في جند أهل الشام فدعوهم إلى الدخول في طاعة أمير المؤمنين فأبوا؛ فبعثوا إلى عليّ أنا قد لقينا أبا الأعور السلمي بسور

(١) نهج البلاغة: ٣/ ١٤ ح ١٣، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٤١٤ ح ٣٧٤.

الروم في جند من أهل الشام فدعوناهم وأصحابه إلى الدخول في طاعتك فأبوا علينا فمرنا بأمرك. فأرسل عليّ عليه السلام إلى الأشتر فقال:

يا مالِ إنَّ زياداً وشريحاً أرسلا إليّ يُعلِماني أنّهما لقيا أبا الأعور السلميّ في جندٍ من أهل الشام بسور الروم فنبأني الرسول أنّه تركهم متواقفين فالنجاء إلى أصحابك النجاء، فإذا أتيتهم فأنت عليهم وإيّاك أن تبدأ القوم بقتالٍ إلاّ أن يبدؤوك حتّى تلقاهم وتسمع منهم ولا يجرمنّكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرَّة بعد مرَّة واجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً، وقف بين أصحابك وسطاً، ولا تدنُ منهم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتّى أقدم إليك فإنّي حثيث السير إليك إن شاء الله.

وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفيّ. وكتب إليهما: أمّا بعد فإنّي قد أمّرت عليكما مالكاً فاسمعا له وأطيعا أمره فإنّه ممّن لا يخاف رهقه ولا سقاطه ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم، ولا الإسراع إلى ما البطؤ عنه أمثل. وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما ألاّ يبدأ القوم بقتال حتّى يلقاهم فيدعوهم ويعذر إليهم[1].

اللغة

(الحيز): أصله من الواو. وقد يقال: الحَيز مخفّفاً مثل هَيِّن وهَيْن، ولَيِّن ولَيْن. قال الجوهريّ: الحيِّز ما انضمّ إلى الدار من مرافقها وكلّ ناحية حيِّز، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنفال: ١٦] أي صائراً إلى حيِّز.

«درعاً» الدرع بكسر الدّال وسكون الراء مصنوع من حديد يلبس في الحروب للوقاية من الضرب والطعن، يقال بالفارسية: زره. مؤنّثة وقد يذكر جمعه القليل أدرع وأدراع فإذا كثرت فهي الدروع. رجلٌ دارع أي لابس الدرع أي عليه درع كأنّه ذو درع مثل تامر، قال السموأل بن عاديا اليهوديّ:

وأسيافنا في كلّ شرق ومغرب بها من قراع الدّارعين فلول

في أبيات له أتى بها الجاحظ في «**البيان والتبيين**» (**ص ١٨٥ ج ٣ طبع مصر**) ودرع المرأة قميصها وهو مذكّر والجمع أدراع قاله الجوهريّ.

«المجنّ» بالكسر: الترس وهو اسم آلة من الجنّ والجمع مجانّ بالفتح. وكذا المجنّة

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٣٢، ونهج السعادة: ٤/ ٢٣٩ ح ٨٧.

والجُنّة. وأصل الجنّ ستر الشيء عن الحاسّة والترس يجنّ صاحبه والجنّة: (السترة) يقال: استجنّ بجُنة أي استتر بسترة. قال عزّ من قائل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾، وفي «**الكافي**» عن الصّادق عليه السلام: الصوم جنّة[1]، وفي «**التهذيب**» و«**الفقه**» عن رسول الله صلى الله عليه وآله: الصوم جنّة من النّار[2]، والولد ما دام في بطن أُمّه جنين جمعه أجنّة، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، والجنان بالفتح القلب لكونه مستوراً عن الحاسة وكذا سميّ الجنّ جنّا لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار وعلى هذا القياس ما اشتقّ من الجنّ فإنّه لا يخلو فيه معنى الاستتار.

«الوهن»: الضعف و«السقطة»: الغلطة والخطأ، وفي نسختي الطبريّ ونصر: فإنّه ممّن لا يخاف رهقه ولا سقاطه، «الرهق» محرّكة: السفه، والنوك والخفّة وركوب الشرّ والظلم وغشيان المحارم، وفي «**النهاية**» الأثيريّة: وفي حديث عليّ عليه السلام أنّه وعظ رجلاً في صحبة رجل رهق، أي فيه خفّة وحدّة، يقال: رجل فيه رهق إذا كان يخف إلى الشرّ ويغشاه، والرهق السفه، وغشيان المحارم ومنه حديث أبي وائل أنّه صلّى على امرأة كانت ترهق أي تتهم بشرّ، ومنه الحديث سلك رجلان مفازة أحدهما عابد والآخر به رهق، انتهى. وفي القرآن الكريم: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ [الجن: ١٣]. وروي: ولا وهيه، وهو قريب من الوهن معنى.

«السقاط» ككتاب قال الجوهريّ في «**الصحاح**»: السَقْطَة العَثْرَة والزلّة.

وكذلك السقاط. قال سويد بن أبي كاهل:

كيف يرجون سقاطي بعدما جلّل الرأس مشيبٌ وصلعْ

وقال المرزوقي في شرح «**الحماسة**» ٧٦٩: يقال لمن لم يأت مأتى الكِرام: هو يساقط. قال الشاعر: كيف يرجون. البيت.

«أحزم» الحزم: ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة والحذر من فواته من قولهم حزمت الشيء أي شددته، وهذا الرأي أحزم من هذا أي أدخل في باب الحزم والاحتياط.

«أمثل» قال ابن الأثير في «**النهاية**»: وفيه ـ يعني في الحديث ـ أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل أي الأشرف والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة. يقال هذا أمثل من هذا أي أفضل وأدنى إلى الخير، وأماثل النّاس خيارهم، ومنه حديث التراويح قال عمر: لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل أي أولى وأصوب.

---

(١) الكافي: ٤/ ٦٢ ح ١.

(٢) المحاسن: ١/ ٢٨٧، والكافي: ٢/ ١٩.

الإعراب

(من في حيّزكما): معطوف على الضمير المجرور المقدّم ولذا أعاد الجارّ لأنّ الضمير المتّصل بالجارّ لشدّة اتّصاله به صار كالجزء له ولا يجوز العطف على جزء الكلمة، **(مالك)** منصوب بأمرت ومفعول له، **(والأشتر)** صفة له، **(والفاء)** الأُولى للتسبيب لأنّ المعطوف بها متسبّب عن المعطوف عليه، ولك أن تجعلها فصيحة والثانية للتعليل، وكلمتا **(من)** موصولتان اسميّتان **(ولا يخاف)** فعل مجهول، وضمير **(وهنه وسقطته)** راجعان إليه وأُفردا مراعاة للفظ نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] ويسمى هذا الضمير في النحو بالعائد.

(ولا بطؤه) عطف على وهنه أي لا يخاف بطؤه، **(وعمّا)** صلة للبطوء **(وما)** موصولة وضمير إليه عائدها باعتبار اللّفظ **(وأحزم)** خبر للإسراع وكذا القياس في الجملة التالية ليها.

المعنى

قد علمت بما قدّمنا هٰهنا عن نصر وفي **(ص ٢٢١ ج ١)** من **«التكملة»** عن الطبري أنّ الأميرين هما زياد بن نضر وشريح بن هانيء وقد مضى نقل كتابهما إلى الأمير عليه السلام وكتابه عليه السلام إليهما في شرح الكتاب الحادي عشر وسيأتي أيضاً وصيّة له عليه السلام وصّى بها شريح بن هانيء لما جعله على مقدّمته إلى الشام وهو الكتاب السادس والخمسون أوله: **(اتّق الله في كلّ صباح ومساء)** ـ إلخ.

قال ابن عبد البرّ في **«الاستيعاب»**: شريح بن هانيء بن يزيد بن الحارث الحارثي بن كعب، جاهلي إسلامي، يكنّى أبا المقدام وأبوه هانيء بن يزيد، له صحبة قد ذكرناه في بابه. وشريح هذا من أجلّة أصحاب عليّ رضي الله عنه.

وقال في باب هانيء في ترجمة أبيه: هانيء بن يزيد بن نهيك، ويقال هانيء ابن كعب المذحجي، ويقال: الحارثي، ويقال: الضبّي، وهو هانيء بن يزيد بن نهيك بن دريد بن سفيان بن الضباب، وهو سلمة بن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن كعب الضبابي المذحجي الحارثي. وهو والد شريح بن هانيء. وكان يكنّى في الجاهلية أبا الحكم لأنّه كان يحكم بينهم فكنّاه رسول الله ﷺ بأبي شريح، إذ وفد عليه، وهو مشهور بكنيته، شهد المشاهد كلّها، روى عنه ابنه شريح بن هانيء عن أبيه، عن جدّه، وكان ابنه شريح من جِلّة التابعين ومن كبار أصحاب عليّ رضي الله عنه وممّن شهد معه مشاهده كلّها. انتهى.

قوله عليه السلام: «وقد أمّرت عليكما وعلى من في حيّزكما مالك بن الحارث الأشتر» أي

(١) شرح النهج: ١٧/ ١٣٨.

جعلت مالكاً أميراً عليكما وعلى من كان في كنفكما وتحت أمارتكما وفي ناحيتكما وقد دريت بما قدّمنا أنَّ الأمير عليه السلام سرّح زياداً وشريحاً نحو معاوية في اثنى عشر ألفاً.

قوله عليه السلام: «فاسمعا له وأطيعاه» تفريع على تأميره مالكاً عليهما وعلى من في حيّزهما فأمرهما أن يسمعا له ويطيعاه أي أن لا يخالفاه ما أمرهما فإنَّ مخالفة الأمير فيما أمر توجب التفرق الموجب للهزيمة وقلّما غلب قوم اجتمعت كلمتهم. وقد استشار قوم أكثم بن صيفيّ في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم فقال: أقلّوا الخلاف على أُمرائكم. واعلموا أنّ كثرة الصياح من الفشل والمرء يعجز لا محالة، تثبّتوا فإنَّ أحزم الفريقين الرّكين، ورُبَّتَ عَجَلة تُعقب رَيثاً، واتّزروا للحرب، وادّرعوا اللّيل فإنّه أخفى للويل، ولا جماعة لمن اختلف عليه نقله ابن قتيبة الدينوريّ في كتاب «**الحرب من عيون الأخبار**».

ثمَّ إنَّ النسخ المطبوعة من «**النهج**» وبعض النسخ الخطيّة أيضاً تخالف ما اخترنا من قوله عليه السلام في كلمة «أطيعاه» فإنّها موافقة في عدم الضمير المنصوب فيها وما أتينا به هو ما اختاره السيّد الرضيّ رحمه الله أعني أنّها من نسخة قوبلت بنسخته رضوان الله عليه.

قوله عليه السلام: «واجعلاه درعاً ومجنّا» عطف على قوله عليه السلام اسمعاله، أمرهما بعد الأمر بالسمع والإطاعة أن لا يفارقاه قطّ فإنّه لحسن تدبيره وطول باعه في فنون الحرب درع ومجنّ أي واق وحافظ عن الخصم فحذّرهما بأبلغ وجه وأحسن طور عن التأبّي لأمره والمفارقة عنه حتّى أنّهما لو اقتحما في الحرب بدونه كأنّهما دخلاها بلا درع ولا مجنّ.

ومن كلامه عليه السلام هذا يعلم جلالة قدر الأشتر وعظم أمره كيف لا وقد جعله لذلك الجيش الكثيف درعاً ومجنّاً ولا يليق بهذا الوصف عن مثل أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ من كان بطلاً محامياً ومجاهداً شديد البأس ورابط الجأش. وقال الجاحظ في «**البيان والتبيين**» (**ص ٢٥٧ ج ٣ طبع القاهرة**): يعقوب بن داود قال: ذمّ رجل الأشتر، فقال له رجلٌ من النخع: اسكت فإنَّ حياته هزمت أهل الشام، وموته هزم أهل العراق.

قوله عليه السلام: «فإنّه ممّن لا يخاف ـ إلخ» الظاهر أنَّ هذا التعليل يتعلّق بقوله عليه السلام أمّرت عليكما أي إنّما أمّرت مالكاً عليكما وعلى من في حيّزكما لأنّه ممّن لا يخاف وهنه ـ إلخ. فدلّ كلامه عليه السلام على أنَّ هذا الأمر لا يصلح إلاّ لم اجتمعت فيه تلك الأوصاف.

ويمكن أن يتعلّق بقوله عليه السلام (**فاسمعا له وتاليه**) وكأنَّ الأوّل أولى وأجدر يعني أنَّ مالكاً ممّن لا يخاف أحد ضعفه وعثرته في المعارك لثبات قدمه في المهالك ثمّ وصفه بأنّه حازم في الأُمور وبصير فيها بحيث لا يبطىء فيما الإسراع إليه أقرب إلى الحزم، وكذلك لا يسرع فيما الإبطاء عنه أولى وأنسب بل يبطىء عن ما ينبغي الإبطاء عنه، ويسرع إلى ما يليق الإسراع إليه.

ثمَّ إنَّ وصفه عليه السلام مالكاً بها يدلّ على تثبّته عند الهزائز، وشجاعته قبال الأبطال وكثرة حذاقته في الأمور حيث عرّفه أوّلاً بأنّه ممّن لا يخاف وهنه ولا سقطته وثانياً بأنّه يبطىء في محلّه ويسرع كذلك ولا ريب أنّه إذا كان قوم أميرهم جباناً فمحال أن يرتقوا إلى المدارج العالية وينالوا المراتب السامية فإنَّ الجبن يوجب الوهن الموجب للسقطة في الأمور كلّها فأمير الجيش إذا أدركه الجبن أدركته الهزيمة بلا تراخ. والخطيب إذا أدركه الجبن كلَّ عن التكلّم بلا كلام بل ربّما لم يقدر على التفوّه أو إن تفوّه فكثيراً مّا يهجُر وكذا الحكم في غير الخطيب أيضاً وقد مضى طائفة من كلامنا في ذلك في شرح «**المختار**» ٢٣١ من باب الخطب (**ص ٣٤ ج ١ من «التكملة»**).

قال ابن قتيبة الدينوري في كتاب «**الحرب من عيون الأخبار**» في أخبار الجبناء (**ص ١٦٥ ج ١ طبع مصر**): كان خالد بن عبد الله من الجبناء خرج عليه المغيرة بن سعيد صاحب المغيرية [من الرافضة] وهو من بجيلة فقال من الدّهش: أطعموني ماء فذكّره بعضهم فقال:

عاد الظلوم ظليماً حين جُدَّ به واستطعم الماء لمّا جدّ في الهرب

وقال (**ص ١٦٤ منه**): أبو منذر قال: حدّثنا زيد بن وهب، قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: عجباً لابن النّابغة! يزعم أنّي تَلعابة أُعافس وأُمارس! أما وشرّ القول أكذبه، إنّه يسأل فيلحف ويُسأل فيبخل فإذا كان عند البأس فإنّه امرؤ زاجر ما لم تأخذ السيوف مأخذها من هام القوم، فإذا كان كذلك كان أكبر همّه أن يُبرقط ويمنح الناس استه. قبحه الله وترحه[1].

أقول: وقد أتى الرضيُّ رحمه الله في «**النهج**» بكلامه عليه السلام هذا لابن النابغة إلاّ أنَّ بين النسختين تفاوتاً في الجملة كمّاً وكيفاً، والرضيّ توفّي ٤٠٦ هـ وابن قتيبة ٢٧٦ هـ.

قال: وقال عبد الملك بن مروان في أُمية بن عبد الله بن خالد:

إذا صوّت العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد

قال: قال ابن المقفع: الجبن مقتلة، والحرص محرمة فانظر فيما رأيت وسمعت: من قتل في الحرب مُقبلا أكثر أم من قتل مُدبراً؟ وانظر من يطلب إليك بالإجمال والتكرّم أحق أن تسخو نفسك له بالعطية أم من يطلب إليك بالشره والحرص؟

قال: المدائني قال: رأى عمرو بن العاص معاوية يوماً يضحك فقال له: ممَّ تضحك يا أمير المؤمنين أضحك الله سنّك؟ قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن

(١) بحار الأنوار: ٤١/١٤٧، والغدير: ٢/١٣٨.

أبي طالب أما والله لقد وافقته منّاناً كريماً، ولو شاء أن يقتلك لقتلك. قال عمرو: يا أمير المؤمنين أما واللّهِ إني لعَنْ يمينك حين دعاك إلى البِراز فاحولّت عيناك وربا سَحْرك وبدا منك ما أكره ذكره لك فمن نفسك فاضحك أو دَع.

أقول: وقد مضى كلامنا على التفصيل في دعوة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام معاوية إلى البراز والحيلة الشنيعة التي احتال بها ابن النابغة في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب **(ص ٣١٦ إلى ٣١٩ ج ١)**.

قال الشاعر:

يـفـرّ الـجـبـان عـن أبـيـه وأمّـه ويـحـمـي شـجـاع الـقـوم من لا يـنـاسـبـه

والأخبار في الجبناء كثيرة جداً لا يخلو أكثرها عن لطافة وإنما أتينا بشر ذمة منها روماً للتنوّع في الكلام الموجب لرفع الكلال.

قوله عليه السلام: «وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما ألاّ يبدأ القوم - إلخ». قد دريت من الكتاب الذي أرسله عليه السلام إلى الأشتر على ما رواه نصر وأبو جعفر أنه عليه السلام قال له: (**إياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤوك**) - إلخ. فيكون كلامه عليه السلام بمثل الذي أمرتكما بمعنى مثل الذي آمر كما الآن. وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام في نهيه عليه السلام أمراء جيشه عن أن يبدؤوا القوم بقتال في شرح الكتاب التالي لهذا الكتاب أعني الكتاب الرابع عشر، وترجمة مالك الأشتر رضوان الله عليه في شرح الكتاب ٣٨ أوله من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى القوم الذين غضبوا لله - إلخ.

ثمَّ ينبغي أن يتأمّل الأديب الحاذق في الكتاب كيف نسجه الأمير عليه السلام على أسلوب بلغ من البلاغة ما يعدّ في السحر سيّما ذيله: (**ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم ولا إسراعه إلى ما البطؤ عنه أمثل**).

الترجمة

یکی از کتابهای امیر (عليه السلام) است که به دو امیری از امیران سپاهش نوشته است:

همانا که بر شما و بر هرکه در کنف شما و در تحت امارت شما است مالك بن حارث اشتر را امیر گردانیدم، پس بشنوید امر او را و فرمان برید و وی را زره و سپر خود بگردانید، چه او کسی است که بیم سستی و لغزش در او نمی رود و خوف درنگی در کاری که سرعت بدان به احتیاط نزدیکتر و سرعت به کاری که تأنّی در آن بهتر است درباره او راه ندارد.

ومن وصيته عليه السلام لعسكره بصفين وكلامه هذا هو المختار الرابع عشر من باب كتبه ورسائله عليه السلام

لا تُقاتِلُوهُمْ حَتّى يَبْدَؤوكُمْ فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللّهِ على حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيّاهُمْ حَتّى يَبْدَؤوكُمْ حُجَّةٌ أُخرى لَكُمْ عَلَيْهِمْ. فَإِذا كانَتِ الْهَزيمَةُ بِإِذْنِ اللّهِ فَلا تَقْتُلُوا مُدْبِراً؛ وَلا تُصيبُوا مُعْوِراً؛ وَلاَ تُجْهِزُوا على جَريحٍ؛ وَلا تَهيجُوا النِّساءَ بِأَذى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْراضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرائَكُمْ فَإِنَّهُنَّ ضَعيفاتُ القُوى والأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ. إِنْ كُنّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكاتٌ. وَإِنْ كانَ الرَّجُلُ لَيَتَناوَلُ الْمَرْأَةَ في الْجاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ الْهِراوَةِ فَيُعَيَّرُ بِها وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ[١].

بيان مصادر الوصية وإسنادها بطرق كثيرة من الفريقين ونقل نسخها

قد رواها الفريقان في الجوامع الروائية بأسناد عديدة وصور كثيرة متفاوتة وفي بعضها زيادة لم يذكرها الرضيّ رحمه الله.

فقد رواها نصر بن مزاحم المنقري الكوفي المتوفّى سنة ٢١٢ هـ في كتاب **«صفين» (ص ١٠٦ من الطبع الناصري)** حيث قال: نصر عمر بن سعد وحدّثني رجل عن عبد الله بن جندب، عن أبيه أنَّ علياً عليه السلام كان يأمرنا في كلِّ موطن لقينا معه عدّوه يقول: لا تقاتلوا القوم حتّى يبدؤوكم فإنّكم بحمد الله على حجّة وترككم إيّاهم حتّى يبدؤوكم حجّة أُخرى لكم عليهم، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلاّ بإذني، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلاّ ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة إلاّ بإذني، وإن شتمن أعراضكم وتناولن أُمراءكم وصلحاءكم فإنّهنَّ ضعاف القوى والأنفس والعقول ولقد كنّا وإنّا لنؤمر بالكفّ عنّهنَّ وإنّهنَّ لمشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهليّة بالهراوة والحديد فيعيّر بها عقبه من بعده.

وفي **«الجامع الكافي»** لثقة الإسلام الكلينيّ قدّس سرّه المتوفّى سنة ٣٢٩ هـ كتاب **«الجهاد» (ص ٣٣٨ طبع ١٣١٥ هـ)**: وفي حديث عبد الله بن جندب، عن أبي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يأمر في كلّ موطن لقينا فيه عدوّنا فيقول: لا تقاتلوا القوم حتّى يبدؤوكم فإنّكم بحمد الله على حجّة، وترككم إيّاهم حتى يبدؤوكم حجّة لكم أُخرى فإذا هزمتموهم فلا

(١) نهج البلاغة: ٣/ ١٥، الكافي: ٥/ ٣٨ ح ٣.

تقتلوا مدبراً، ولا تجيزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل. («**الوافي**» ص ١٩ ج ٩)[(١)].

وفي «**مروج الذهب**» للمسعوديّ المتوفى ٣٤٦ هـ (**ص ٩ ج ٢ طبع مصر ١٣٤٦ هـ**) قام عليّ عليه السلام (**يعني في حرب الجمل**) فقال: أيها النّاس إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً، ولا تقربوا من أموالهم إلاّ ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله.

وقد روى أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيد الطبريّ المتوفي ٣١٠ هـ في تاريخه (**ص ٦ ج ٤ طبع مصر**) بإسناده عن عبد الرّحمٰن بن جندب الأزديّ، عن أبيه أنَّ عليّاً عليه السلام كان يأمرنا في كلّ موطن لقينا معه عدوّه يقول: لا تقاتلوا القوم - إلى آخر ما نقلنا عن نصر - فإنَّ الروايتين متّحدتان تقريباً، على أنَّ رواية الطبري قد نقلناها في شرح «**المختار**» ٢٣٦ (**ص ٢٢٢ ج ١٥**) وفي «**البحار**» نقلاً عن «**الكافي**»: وفي حديث عبد الرَّحمٰن بن جندب، عن أبيه أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يأمر - إلخ (**ص ٦٢٤ ج ٨ من الطبع الكمباني**).

وأقول: يشبه أن يكون عبد الله بن جندب حرّف في تاريخ الطبريّ بعبد الرَّحمٰن بن جندب، لأنَّ نصراً والكلينيّ رويا هذه الرواية عن عبد الله بن جندب، عن أبيه بلا اختلاف ورواها الطبريّ عن ابن جندب، عن أبيه أيضاً وصورة الرواية في الجميع واحدة ولولا عبد الرَّحمن مكان عبد الله في التاريخ لكانت صورة السند أيضاً واحدة.

وفي «**الجامع الكافي**» أيضاً (**ص ٣٣٨ من كتاب الجهاد طبع ١٣١٥ هـ**): وفي حديث مالك بن أعين قال: حرّض أمير المؤمنين صلوات الله عليه الناس بصفّين فقال: إنَّ الله عزّ وجلّ قد دلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم وتشفي بكم على الخير: الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله؛ وجعل ثوابه مغفرة للذّنب، ومساكن طيّبة في جنّات عدن. وقال جلّ وعزّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤] فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص فقدّموا الدّارع، وأخّروا الحاسر، وعضّوا على النواجد فإنه أنبأ للسيوف عن الهام. والتووا أطراف الرماح فإنّه أمور للأسنّة. وغضّوا الأبصار فإنه أربط للجاش وأسكن للقلوب. وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار. ولا تميلوا براياتكم ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلاّ مع شجعانكم فإنّ المانع للذّمار والصابر عند نزول الحقائق أهل الحفاظ. ولا تمثلوا بقتيل. وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً. ولا

(١) الكافي: ٥/٣٨ ح ٣، ووسائل الشيعة: ١٥/٩٢ ح ١.

تدخلوا داراً. ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلاّ ما وجدتم في عسكرهم. ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنّهنّ ضعاف القوى والأنفس والعقول وقد كنّا نؤمر بالكفّ عنهنّ وهنّ مشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة فيعيّر بها وعقبه من بعده. واعلموا أنّ أهل الحفاظ هم الذين يحفّون براياتهم ويكتنفونها ويصيرون حفافيها ووراءها وأمامها ولا يضيعونها. لا يتأخّرون عنها فيسلّموها. ولا يتقدّمون عليها فيفردوها. رحم الله امرءاً واسى أخاه بنفسه ولم يكل قرنه إلى أخيه فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه فيكتسب بذلك اللآئمة ويأتي بدناءة وكيف لا يكون كذلك وهو يقاتل اثنين وهذا ممسك يده قد خلّى قرنه على أخيه هارباً منه ينظر إليه وهذا فمن يفعله يمقته الله فلا تعرّضوا لمقت الله عزّ وجلّ فإنما ممرّكم إلى الله وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] وأيم الله لئن فررتم من سيوف العاجلة لا تسلمون من سيوف الأجلة فاستعينوا بالصبر والصدق فإنما ينزل النصر بعد الصبر فجاهدوا في الله حقَّ جهاده ولا قوّة إلاّ بالله (**«الوافي» ص ١٩ ج ٩**)[١].

أقول: قد أتى الرضيّ رحمه الله ببعض هذا الحديث المنقول من **«الكافي»** في **«المختار»** ١٢٢ من باب الخطب أوّله: فقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر - إلخ. وسيأتي نقل روايات أُخرى في ذلك في **«المختار»** ١٦ من هذا الباب إنشاء الله تعالى.

ثمَّ على روايتي **«الكافي»** كانت الوصيّة ملفّقة منهما صدرها من حديث عبد الله بن جندب وذيلها من حديث مالك بن أعين.

اللغة

«يبدؤوكم» مهموز اللاّم من البدأ يقال: بدأ الشيء وبه يبدأ بدءاً من باب منع أي افتتحه وقدمه والبدأ والبديء: الأوَّل. ومنه قولهم افعله باديءَ بدء على وزن فَعْل، وباديءَ بديء على وزن فعيل أي أوّل شيء.

«الحجّة» بالضمّ: الدّليل والبرهان. والجمع حُجَج وحِجاج. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] تقول: حاجَّه فحجّه أي غلبه بالحجّة. واحتجّ على خصمه أي ادّعى وأتى بالحجّة. واحتجّ بالشيء جعله حُجّةً وعُذراً له. وقال الراغب في المفردات: الحجة الدلالة المُبيِّنة للحجّة أي المقصد المستقيم، والذي يقتضي صحّة أحد النقيضين.

«الهزيمة» هزم العدوّ هَزماً من باب ضرب أي كسرهم وفلّهم. وهُزِمَت الجيش هَزْماً وهزيمة فانهزموا أي وقعت عليهم الهزيمة. قال الراغب في المفردات: أصل الهزم غمز

(١) الكافي: ٥/ ٤، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٩٦.

الشيء اليابس حتى ينحطم كهزم الشَّنّ، وهَزم القِثّاء والبطيخ ومنه الهزيمة لأنه كما يعبّر عنه بذلك يعبّرنه بالحطم والكسر، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] - ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص: ١١] وأصابته هازمة الدهر أي كاسِرة كفاقرةٌ. وهزم الرعد تكسّر صوته.

«معور» من العورة. قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: العورة كلُّ خَلَل يتخوّف منه في ثغر أو حرب، وعورات الجبال شقوقها. وهذا مكان معور أي يخاف فيه القطع.

وقال ابن الأثير في «**النهاية**»: كلُّ عيب وخلل في شيء فهو عورة ومنه حديث عليّ عليه السلام (**ولا تجهزوا على جريح ولا تصيبوا معوراً**). أعور الفارس إذا بدا فيه موضع خلل للضّرب فيه. انتهى.

وقد أعور لك الصيد وأعورك: أمكنك. قال تأبّط شراً (**الحماسة ٧٧**).

أقول للحيانِ وقد صَفِرَتْ لهم وطابي ويَومي ضيّق الحَجر مُعوِرٌ

وقال المرزوقيّ في شرحه: ومُعور من أعور لك الشيء إذا بدت لك عورته وهي موضع المخافة. قال الله تعالى في الحكاية عن المنافقين لما قعدوا عن نصرة النبيّ صلى الله عليه وآله: إنَّ بيوتنا عورة، أي واهية يجب سترها وتحصينها بالرجال وكما قيل: يوم معور قيل: مكان معور أي مخوف. ويقال: عوِرَ المكان إذا صار كذلك. وقال بعضهم: كلّ ما طلبته فأمكنك فقد أعورك وأعور لك.

العورة: سوأة الإنسان، وذلك كناية وأصلها من العار وذلك لما يلحق في ظهوره من العار أي المذمّة ولذلك سمّي النساء عورةً ومن ذلك العوراء للكلمة القبيحة. قاله الراغب في المفردات في غريب القرآن.

«ولا تجهزوا على جريح» الجريح فعيل بمعنى المفعول أي المجروح وهو المصاب بجرح، جمعه جرحى كقتيل وقتلى. يستوي فيه المذكّر والمؤنث يقال: رجل جريح وامرأة جريح.

أجهز على الجريح اجهازاً أي شدَّ عليه وأسرع وأتمَّ قتله.

وفي «**الصحاح**» أجهزت على الجريح إذا أسرعت قتله وقد تمّمت عليه، ولا تقل أجَزْتُ على الجريح. انتهى.

أقول: وترده رواية «**الجامع الكافي**» المتقدّمة «ولا تجيزوا على جريح». وروايته الأُخرى بإسناده، عن عبد الله بن شريك، عن أبيه قال: لما هزم الناس يوم الجمل قال أمير

المؤمنين عليه السلام: لا تتبعوا مولّياً ولا تجهزوا على جريح ومن أغلق بابه فهو آمن، فلما كان يوم صفين قتل المقبل والمدبر وأجاز على الجريح، الحديث.(١)

وروايته الأُخرى عن الصادق عليه السلام: وجريحهم يجاز عليه(٢) **(ص ١٨ ج ٩ من «الوافي»)** والإجازة على الجريح كالاجهاز عليه معنى.

قال ابن الأثير في **«النهاية»**: وفيه ـ يعني في الحديث ـ هل تنتظرون إلاّ مرضاً مفسداً أو موتاً مجهزاً أي سريعاً يقال: أجهز على الجريح يجهز إذا أسرع قتله ومنه حديث عليّ عليه السلام لا يجهز على جريحهم أي من صرع منهم وكفى قتاله لا يقتل لأنهم مسلمون والقصد من قتالهم دفع شرّهم فإذا لم يمكن ذلك إلاّ بقتلهم قتلوا، ومنه حديث ابن مسعود أنه أتى على أبي جهل وهو صريع فأجهز عليه. انتهى.

ثمَّ إنَّ ما عليه أهل اللغة وما ذهب إليه فقهاء الفريقين في الكتب الفقهية وشرّاح الأحاديث أنَّ كلمة **(تجهزوا)** **(ويجهز)** وأمثالهما في المقام مشتقة من الإجهاز إلا أن كلمة **(تجهزوا)** مشكولة في نسخة مخطوطة من النهج قوبلت بنسخة السيد الرضيّ رضي الله عنه بفتح **(الجيم)** وكسر **(الهاء)** المشدّدة أعني أنها مأخوذة من التجهيز ولكنّ الوجه الأوّل أنسب وأصوب ولذا اخترناه في المتن.

«لا تهيجوا» في بعض النسخ مشكولة بضم **(التاء)** وفتح **(الهاء)** وكسر **(الياء)** المشدّدة من التّهييج، وفي بعضها بضمّ **(التاء)** وكسر **(الهاء)** من الإهاجة، ونسخة الرضيّ رضوان الله عليه مشكولة بفتح **(التاء)** وكسر **(الهاء)** يقال: هاج الشيء يهيج هَيْجاً وهِياجَةً وهِياجاً وهَيَجاناً أي ثار وانبعث، وهاجَ الشيءَ بالشيءَ أثاره وبعثه يتعدّى ولا يتعدّى. وكذا يقال: هيّج الشيء تهييجاً إذا أثاره وبعثه إلاّ أنَّ كثرة المباني تدلّ على كثرة المعاني فلا بدّ في التهييج من زيادة الهيجان ومبالغته وتكثيره والظاهر أنّه لا حاجة في المقام إلى المبالغة والتكثير. وأمّا القراءة الثانية فما وجدت لها معنى يناسب المقام وأظنّها مصحّفة فقراءة الرضيّ متعيّنة.

«أعراضكم» الأعراض جمع العِرْض بكسر **(العين)** المهملة وسكون **(الراء)** أحد معانيه النفس يقال: أكرمت عنه عرضي أي صنت عنه نفسي.

قال عتبة بن بُجَيْر الحارثي **(باب الأضياف من الحماسة، الحماسة ٦٧٤)**:

فقام أبو ضيف كريمٌ كأنّه وقد جَدّ من فَرط الفكاهة مازح

إلى جِذامِ مالٍ قد نَهِكنا سَوامَهُ وأعراضُنا فيه بواقٍ صحائِحُ

---

(١) الكافي: ٥/ ٣٣ ح ٥، وتهذيب الأحكام: ٦/ ١٥٦ ح ٧٠.

(٢) الكافي: ٥/ ٣٣ ح ٥، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٧٤ ح ٢٠٠١٣.

قال المرزوقيّ في الشرح: يعني بأبي الضيف نفسه، وجعله كالمازح المفاكه لما أظهره من التطلق والبشاشة واظهار السرور بما يأتي من توفير الضيافة والاحتفال فيه وإيناس الضيف والبسط منه محتفاً بالضيافة، ويريد بالقيام غير الذي هو ضدّ القعود وإنّما يريد به الاشتغال له بما يؤنّسه ويرحّب منزله ويطيّب قلبه، على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، لأنّه لم يرد القيام المضادّ للقعود بل أراد التهيّوء والتشمّر له، والجذم: الأصل، ومعنى نهكنا سوامه أثرنا في السائمة من المال بما عوّدناها من النحر والتفريق ويقال: نهكه المرض إذا أضرّ به، وقوله: وأعراضنا فيه بواق صحائح أي نفوسنا باقية على حدّها من الظَّلَفِ والصّيانة، لم تشنها الأفعال الذميمة، ولا كسرتها التكاليف المبخّلة فهي سليمة لا آفة بها ولا عار يكتنفها، وإن كانت أموالنا مشفوهة مفرّقةً، انتهى ملخّصاً.

وفي «**الصحاح**»: يقال فلان تقيّ العرض أي بريءٌ من أن يشتم أو يعاب، وقد قيل: عرض الرجل حسبه، انتهى.

أقول: كثيراً مَا يستعمل العرض في الحسب ومنه قول بَشامَة بن الغدير:

دافعت عن أعراضها فمنعتها ولديّ في أمثالها أمثالها

ذوو العِرض من القوم أي أشرافهم، وفلان عَرب العِرض أي لئيم الأسلاف والعرض ما يفتخر الإنسان به من حسب أو شرف، وما يصونه الإنسان من نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره أو موضع المدح والذّم منه.

«الفِهر» بالكسر الحجر ملْء الكفّ يذكّر ويؤنّث والجمع أفهار وقيل هو الحجر مطلقاً، وفي الحديث: لمّا نزلت تبّت يدا أبي لهب، ، جاءت امرأته وفي يدها فهر، نقله ابن الأثير في «**النهاية**»، قال مزرّد بن ضرار («**البيان والتبيين**» ج ٣ ص ٧٧):

فجاء على بَكر ثِفال يكدّه عصاه استه وَجْءَ العُجايَة بالفهر

البكر الفتى من الإبل، والثفال: البطيء، الوجء: الضرب، العجاية: العصب يضرب حتّى يلين، أي جاء على بكر ثقيل في مشيه ولم يكن له عصا يضربه بها حتّى يسير بل يحرّك ويضرب استه عليه بشدّة نحو ضرب العجاية بالفهر.

«الهِراوة» بالكسر: العصاء الضخمة جمعها الهَراوي بالفتح كالمطايا: تقول: هروتُه وتهرّيته إذا ضربته بها، قال فضالة بن شريك الأسدي (**ص ١٥ ج ٣ من «البيان والتبيين»**):

دعا ابن مُطيع للبياع فجئتُه إلى بيعةٍ قلبي لها غير آلف
فناولني خَشناء لمّا لمستُها بكفّي ليست من أكفّ الخلائف
من الشَّثنات الكُزْم أنكرتُ مسُّها وليست من البيض الرّقاق اللّطائف

معاودةً حملُ الهَراوي لقومها ... فروراً إذا ما كان يوم التسايف

وفي هامشه: وكان من خبر الشعر أنَّ عبد الله بن الزبير كان قد ولّى عبد الله بن مطيع الكوفة فكان ينشر الدّعوة ويتقبّل البيعة لابن الزبير، حتّى إذا نهض المختار بن أبي عبيد ودعا لنفسه، طرد عن الكوفة فيمن طرد عبد الله بن مطيع فقال فضالة الشعر، وقد رواه أبو الفرج في «**الأغاني**» (١٠ : ١٦٤) برواية أبسط.

واعلم أنَّ جمع الهراوة والاداوة وأمثالهما كان قياسه هراوي واداوي على وزن فعائل نحو رسالة ورسائل لكنّهم تجنّبوه وفعلوا به ما فعلوا بالمطايا والخطايا وجعلوا فعائل فعالى وأبدلوا هنا (**الواو**) لتدلّ على أنّه قد كانت في الواحدة (**واو**) ظاهرة. قالوا أداوى وهراوى فهذه (**الواو**) بَدَلٌ من (**الألف**) الزائدة في أداوة وهراوة (**والألف**) التي في آخر الأداوى والهراوى بدل من (**الواو**) التي في أداوة وهراوة والزموا (**الواو**) هاهنا كما الزموا (**الياء**) في المطاياء. قاله الجوهريُّ في أدو من «**الصحاح**».

«عقبه» عقب الرجل ولده وولد ولده وفيها لغتان عَقِب وعَقْب بالتسكين وهي مؤنثة عن الأخفش كما في «**صحاح**» الجوهريّ جمعها أعقاب.

الإعراب

(**الفاء**) في فإنّكم لتعليل النهي عن القتال بدواً، (**على حجة**) خبر لإنّ بحمد الله معترضة، (**حجة**) خبر للترك وأُخرى صفة للحجة، (**لكم وعليكم**) متعلّقان بها، (**الفاء**) في (**فلا تقتلوا**) جواب إذا، (**بأذى**) متعلّق (**بلا تهيجوا**)، (**الواو**) في (**وإن شتمن**) للوصل (**وسببن**) عطف على (**شتمن**)، (**والفاء**) في (**فانّهنّ**) لتعليل النهي عن هيجانهنّ بأذى (**إن**) في (**إن كنّا**) مخفّفة عن المثقّلة وفيه ضمير الشأن وتلزم (**اللام**) خبرها فرقاً بينها وبين (**إن**) النافية، (**الواو**) في (**وانهن**) للحال، (**الواو**) في (**وإن كان**) عطف على إن كنّا، (**وإن**) هذه مخففة من المثقّلة أيضاً وقيل للشرط وهو وهم، (**واللام**) في خبرها كالأولى (**ويعير**) فعل مجهول ضميره يرجع إلى الرجل، (**وعقبه**) مرفوعة بيعيّر بالعطف أعني أنّها معطوفة على الضمير المستكن المرفوع في (**فيعيّر**).

ولما كان الضمير المرفوع المتّصل بارزاً كان أو مستتراً ينزل من عامله منزلة الجزء فالعطف عليه لا يحسن في فصيح الكلام إلاّ بعد توكيده بتوكيد لفظي مرادف له بأن يكون بضمير منفصل نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤] ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] بتوكيد معنوي كقول الشاعر:

دعوتم أجمعون ومن يليكم ... برؤيتنا وكنا الظافرينا

(**أو**) بعد فاصل أيّ فاصل كان بين المعطوف عليه والمعطوف نحو قوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ

عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٣] وكقول الأمير عليه السلام: فيعيّر بها وعقبه من بعده. أو بعد فصل (بلا) النافية بين حرف العطف والمعطوف نحو قوله تعالى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

المعنى

قد علم بما قدّمنا من مصادر هذه الوصيّة أنَّ رواية نصر والطبري هي أقرب الروايات إليها متناً من غيرها لكن روايتهما لم تخصّها بصفين بل رويا عن جندب أنّه قال: أنَّ عليّاً عليه السلام كان يأمرنا في كلّ موطن لقينا معه عدوّه يقول تلك الوصيّة وقد نصّ الرضيُّ بأنه عليه السلام وصّى بها عسكره بصفين، نعم إنَّ للكلينيّ قدّس سرّه فيها روايتين ذكر في إحداهما أنّه عليه السلام قالها بصفّين كما دريت إلاّ أنَّ روايته هذه تشمل على ذيل هذه الوصيّة من قوله عليه السلام: **(ولا تهيجوا امرأة بأذى)** - إلى آخرها.

والذي يسهّل الخطب أنَّ كلام الرضيّ لا يدلّ على الحصر والتخصيص وقد اتّفق الرواة وتظافرت الروايات في أنّه عليه السلام كان يأمرهم في كلّ موطن لقيهم العدوّ بها.

والعدوّ الخارج على الإمام المعصوم عليه السلام إن كان من المسلمين يعرف في كتاب الجهاد من الكتب الفقهيّة بالباغي، ومن هذه الوصيّة وممّا نتلوها عليك إن شاء الله تعالى يعلم طائفة من أحكام القتال مع البغاة.

ومن البغاة الخارجين على أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب الجمل حاربوه في البصرة وأتباع معاوية حاربوه في صفين، والخوارج حاربوه في نهروان.

وعن عليّ عليه السلام أنّه قال: أُمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ففعلت ما أُمرت.

وقد مرَّ قوله في أواخر الخطبة القاصعة: وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض فأمّا الناكثون فقد قاتلت، وأمّا القاسطون فقد جاهدت وأمّا المارقة فقد دوّخت - إلخ.

وكذا قوله عليه السلام في الخطبة الشقشقيّة: فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أُخرى، وفسق آخرون كأنّهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه حيث يقول: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣] بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنّهم حليت الدُّنيا في أعينهم وراقهم زبرجها[1] - إلخ.

وفي المجلس الخامس عشر من أمالي الطوسيّ قدّس سرّه في حديث طويل أنَّ

(١) نهج البلاغة: ١/٣٦، ومناقب آل أبي طالب: ٢/٤٩.

رسول الله ﷺ قال لأمّ سلمة: يا أمّ سلمة! اسمعي واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب سيّد المسلمين وإمام المتّقين وقائد الغرّ المحجّلين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، قلت: يا رسول الله من الناكثون؟ قال ﷺ: الذين يبايعون بالمدينة وينكثون بالبصرة. قلت: ومن القاسطون؟ قال ﷺ: معاوية وأصحابه من أهل الشام. قلت: ومن المارقون؟ قال ﷺ: أصحاب نهروان[١]. الحديث.

فالناكثون أصحاب الجمل لأنّهم نكثوا بيعتهم، والقاسطون أهل الشام أتباع معاوية لأنّهم جاروا في حكمهم وبغوا عليه، والمارقون الخوارج لأنّهم مرقوا من الدّين كما يمرق السهم من الرمية.

وقد روى نصر بن مزاحم في **«صفين» (ص ١٧٦ من الطبع الناصري)** في حديث طويل دار بين أبي اليقظان عمّار بن ياسر رحمهما الله تعالى وبين عمرو بن عاص في وقعة صفين أنّ أبا اليقظان قال له: وسأُخبرك على ما قاتلتك عليه أنت وأصحابك أمرني رسول الله ﷺ أن أُقاتل الناكثين وقد فعلت، وأمرني أن أقاتل القاسطين فأنتم هم، وأمّا المارقين فما أدري أدركهم أم لا، أيّها الأبتر ألست تعلم أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه[٢] ـ إلخ.

وقال الشارح المعتزلي في شرح **«النهج»**: روى إبراهيم بن ديزيل الهمدانيّ في كتاب **«صفين»** عن يحيى بن سليمان، عن يحيى بن عبد الملك بن حميد بن أبي غَنيّة عن أبيه، عن إسماعيل بن رجا، عن أبيه، ومحمّد بن فضيل، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجا، عن أبي سعيد الخدري رحمه الله قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فانقطع شسع نعله فألقاها إلى عليّ عليه السلام يصلحها، ثمّ قال: إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، فقال عمر بن الخطّاب: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا ولكنّه ذاكم خاصف النعل[٣] ويد عليّ عليه السلام يصلحها، قال أبو سعيد: فأتيت عليّاً عليه السلام فبشّرته بذلك فلم يحفل به كأنّه شيء قد كان علمه من قبل[٤]. نقله عنه المجلسي رحمه الله في ثامن **«البحار»** ص ٤٥٧.

أقول: الخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ بأنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام يقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين ممّا اتّفقت عليه الأمّة وقد روي في جوامع الفريقين بوجوه عديدة وطرق

---

(١) الأمالي: ٤٢٦.
(٢) الكافي: ٤/١٤٩ ح ٣، ومسائل علي بن جعفر: ١٤٥ ح ١٧٥.
(٣) الكافي: ٥/١٢، والخصال: ٢٧٦.
(٤) شرح النهج: ٣/٢٠٧، والدرجات الرفيعة: ٣٩٨.

كثيرة وقد أفرد في فتن البحار باباً لذلك (ص ٤٥٤ ج ٨) فهذا الخبر الدالّ على الأخبار الصريحة بالغيب من معجزاته ودلائل نبوّته وهذا ممّا لا تخالجه شكوك ولا تمازجه ظنون.

وإنّما يعرف الخارج على الإمام العادل بالباغي لقوله رسول الله ﷺ عمّار بن ياسر رحمهما الله: إنّما تقتلك الفئة الباغية، وهذا الخبر ممّا اتفقت الأُمّة على نقله وقد مضى الكلام فيه من أنَّ هذا الحديث لا تناله يد الانكار، وقد رواه البخاري والمسلم في صحيحهما وقال الحافظ السيوطي أنّه من الأخبار المتواترة ونقله أكثر من عشرة من الصحابي. فراجع إلى شرح «**المختار**» ٢٣٦ من الخطب في ترجمة عمّار (**ج ١٥ ص ٢٧٤ - ٢٩٩**).

ولقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩].

إن قلت: فالآية تدلّ على أنَّ الخارجين على الإمام العادل مؤمنون وأنتم قد ذهبتم في المباحث السالفة إلى أنّهم كافرون وادّعيتم على أنّه مذهب الجلّ من الإماميّة فكيف التوفيق وما جوابك عن الآية؟

قلت: أوّلاً: الآية لا تدلّ على أنّهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان ويطلق عليهما هذا الاسم ولا يمتنع أن يفسق إحدى الطائفتين أو تفسقا جميعاً - كما في تفسير المجمع - إلاّ أنَّ الأدلّة القطعيّة لما كانت ناطقة بعصمة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأنه حجّة الله على خلقه وخليفة رسوله وأنَّ الفسق لا يتطرّق عليه أبداً علمنا أنّه عليه السلام كان باقياً على الإيمان وما كان باغياً على أحد بل الباغي غيره.

وثانياً: أنه تعالى إنّما سمّى البغاة مؤمنين في الظاهر كما قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأنفال: ٥، ٦] وهذه صفة المنافقين بلا خلاف فالآية لا تدلّ على أنَّ البغاة على الإيمان واقعاً.

وثالثاً: أنَّ خبر الأسياف أعني خبر حفص بن غياث المروي في «**الكافي**» و«**التهذيب**» وتفسير عليّ ابن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام دالّ على أنَّ الخارج على الإمام العادل باغ بالمعنى الذي ذهبنا إليه وقد أشهد الإمام عليه السلام الآية على ذلك المعنى ولا بأس بنقل الخبر وإن كان طويلاً لاشتماله على فوائد كثيرة من أحكام الجهاد ووجوهه وغيرها، روى الكليني في كتاب «**الجهاد**» من «**الكافي**» بإسناده عن المنقري، عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأل رجل أبي صلوات الله عليه عن حروب أمير المؤمنين عليه السلام وكان السائل من محبّينا فقال له أبو جعفر عليه السلام: بعث الله محمّداً ﷺ بخمسة أسياف: ثلاثة منها

شاهرة فلا تغمد حتّى تضع الحرب أوزارها ولن تضع الحرب أوزارها حتّى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت الشمس من مغربها أمن النّاس كلّهم في ذلك اليوم فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، وسيف منها مكفوف، وسيف منها مغمود سلّه إلى غيرنا وحكمه إلينا(١).

وأمّا السيوف الثلاثة الشاهرة فسيف على مشركي العرب قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا﴾ ـ يعني آمنوا ـ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهؤلاء لا يقبل منهم إلاّ القتل أو الدخول في الإسلام وأموالهم وذراريهم سبى على ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه سبى وعفى وقبل الفداء.

والسيف الثاني على أهل الذّمّة قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ نزلت هذه الآية في أهل الذمة ثمّ نسخها قوله عزّ وجلّ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منهم إلاّ الجزية أو القتل ومالهم فيء وذراريهم سبى وإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم، وحرمت أموالهم، وحلّت لنا مناكحتهم، ومن كان منهم في دار الحرب حلّ لنا سبيلهم وأموالهم، ولم تحل لنا مناكحتهم ولم يقبل منهم إلاّ الدّخول في دار الإسلام أو الجزية أو القتل.

والسيف الثالث سيف على مشركي العجم يعني التُّرك والديلم والخزر، قال الله عزّ وجلّ في أوّل السورة التي يذكر فيها الذين كفروا فقصّ قصّتهم ثمّ قال: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ فأمّا قوله: فإمّا منّاً بعد يعني بعد السبي منهم، وإمّا فداء يعني المفاداة بينهم وبين أهل الإسلام فهؤلاء لن يقبل منهم إلاّ القتل أو الدخول في الإسلام ولا تحلّ لنا مناكحتهم ما داموا في دار الحرب.

وأمّا السيف المكفوف فسيف على أهل البغي والتأويل قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فلمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ منكم من يقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل فسأل النبيّ صلى الله عليه وآله من هو؟ فقال: هو خاصف النعل يعني أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وقال عمّار بن ياسر: قاتلت بهذا الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثاً وهذه الرابعة والله لو ضربونا حتّى يبلغوا بنا السعفات من هجر لعلمنا أنّا على الحق وأنّهم على

(١) الكافي: ٥/ ١٠ ح٢، والخصال: ٢٧٤ ح ١٨.

الباطل، وكانت السيرة فيهم من أمير المؤمنين عليه السلام ما كان من رسول الله ﷺ في أهل مكّة يوم فتح مكّة فإنّه لم يسب لهم ذرّية وقال: من أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن؛ وكذلك قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه يوم البصرة نادى فيهم: لا تسبوا لهم ذرّية، ولا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ومن أغلق بابه وألقى سلاحه فهو آمن[١].

وأمّا السيف المغمود فالسيف الذي يقوم به القصاص قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ فسلّه إلى أولياء المقتول وحكمه إلينا فهذه السيوف التي بعث الله محمّد ﷺ فمن جحدها أو جحد واحداً منها أو شيئاً من سيرها وأحكامها فقد كفر بما أنزل الله على محمّد ﷺ. انتهى الخبر الشريف وسيأتي بياننا فيه إن شاء الله تعالى.

ورابعاً بعد الاغماض عن الاستشهاد بالآية على هذا المعنى، والتمسك بهذا الخبر في بيانها علمنا أيضاً أنَّ من حارب الإمام العادل كافر بالأدلّة التي أشرنا إلى طائفة منها في المجلّد الأوّل من هذه **«التكملة» (ص ٣٦٧ ـ ٣٧٩)** وفي المجلّد الثالث منها **(ص ٧٦)** فراجع. وستأتي طائفة من الروايات الأُخرى المنقولة عن أئمّة الدِّين الدالّة على ذلك في شرح **«المختار»** ١٦ من هذا الباب إن شاء الله تعالى.

ونزيدك بصيرة بنقل ما أفاده علم الهدى في **«الانتصار» (ص ١٢٧ طبع طهران ١٣١٥)** قال قدّس سرّه: وممّا انفردت به الإمامية القول بأنَّ من حارب الإمام العادل وبغي عليه وخرج عن التزام طاعته يجري مجرى محارب النبي ﷺ وخالف طاعته في الحكم عليه بالكفر، وإن اختلفت أحكامهما من وجه آخر في المدافعة[٢] والموارثة وكيفيّة الغنيمة من أموالهم وخالف باقي الفقهاء في ذلك وذهب المحصّلون منهم والمحقّقون إلى أن محاربي الإمام العادل فسّاق تجب البراءة منهم وقطع الولاية لهم من غير انتهاء إلى التكفير. وذهب قوم من حشو أصحاب الحديث إلى أنَّ الباغي مجتهد وخطأه يجري مجرى الخطأ. في سائر مسائل الإجتهاد.

والذي يدلّ على صحّة ما ذهبنا إليه إجماع الطائفة.

وأيضاً فإنَّ الإمام عندنا يجب معرفته وتلزم طاعته كوجوب[٣] المعرفة بالنبيّ ﷺ، ولزوم طاعته كالمعرفة بالله تعالى وكما أنَّ جحد تلك المعارف والتشكيك فيها كفر كذلك هذه المعرفة.

---

(١) الكافي: ٥/٧ ح ٧، وبحار الأنوار: ٦٧/٢٧ ح ٣٤.

(٢) في نسخة: المدافنة.

(٣) في نسخة: لوجوب.

وأيضاً فقد دلّ الدَّليل على وجوب عصمة الإمام من كلّ القبائح وكلّ من ذهب إلى وجوب عصمته ذهب إلى كفر الباغي عليه والخالف لطاعته، والتفرقة بين الأمرين خلاف إجماع الأُمّة.

فإن قيل: لو كان ما ذكرتم بالغاً إلى حدّ الكفر لوجب أن يكون مرتدًّا أو أن تكون أحكامه أحكام المرتدّين وأجمعت الأُمّة على أنَّ أحكام الباغي تخالف أحكام المرتدّ وكيف يكون مرتدًّا وهو يشهد الشهادتين، ويقوم بالعبادات؟

قلنا: ليس يمتنع أن يكون الباغي له حكم المرتدّ في الإنسلاخ عن الإيمان واستحقاق العقاب[1] العظيم وإن كانت الأحكام الشرعيّة في مدافنه ومواريثه وغير ذلك تخالف أحكام المرتدّ، كما كان الكافر الذمّي مشاركاً للحربي في الكفر والخروج عن الإيمان وإن اختلفت أحكامهما الشرعيّة.

فأمّا إظهار الشهادتين فليس بدالّ على كمال الإيمان ألا ترى أنَّ من أظهرهما وجحد وجوب الفرائض والعبادات لا يكون مؤمناً بل كافراً؟ وكذلك إقامة بعض العبادات من صلاة وغيرها، ومن جحد أكثر العبادات وأوجبها من طاعة إمام زمانه ونصرته لم ينفعه أن يقوم بعبادة أُخرى وغيرها.

وأمّا ما يذهب إليه قوم من غفلة الحشوية من عذر الباغي وإلحاقه بأهل الاجتهاد فمن الأقوال البعيدة من الصواب، ومن المعلوم ضرورة أنَّ الأُمّة أطبقت في الصدر الأوَّل على ذمّ البغاة على أمير المؤمنين عليه السلام ومحاربته والبراءة منهم ولم يقم لهم أحد في ذلك عذراً، وهذا المعنى قد شرحناه في كتبنا وفرغناه وبلغنا فيه النهاية وهذه الجملة هٰهنا كافية.

فإن اعترض المخالف على ما ذكرناه بالخبر الذي يرويه معمّر بن سليمان عن عبد الرَّحمٰن بن الحكم الغفاري، عن عديسة بنت أهبان بن صيفي قالت: جاء عليّ عليه السلام إلى أبي فقال: ألا تخرج معنا؟ قال: ابن عمّك وخليلك أمرني إذا اختلف الناس أن أتّخذ شيئاً من خشب.

أو بالخبر الذي يروي عن أبي ذرٍّ رحمة الله عليه أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف بك إذا رأيت أحجار الزيت وقد غرقت بالدَّم؟ قال: قلت: ما اختار الله لي ورسوله، قال: تلحق، أو قال: عليك بمن أنت منه، قال: قلت: أفلا آخذ بسيفي وأضعه على عاتقي؟ قال: شاركت القوم إذاً، قلت فما تأمرني يا رسول الله؟ قال: الزم بيتك، قلت: فإن دخل عليَّ

(١) في نسخة: العذاب.

بيتي؟ قال: فإن خفت أن يبهرك شعاع السيف فألق رداءك على وجهك يبوء بإثمه وإثمك[١].

قلنا: هذان الخبران وأمثالهما لا يرجع بهما عن المعلوم والمقطوع بالأدلّة عليه بلا دليل وهي معارضة بما هو أظهر منها وأقوى وأولى من وجوب قتال الفئة الباغية ونصرة الحقّ ومعونة الإمام العادل، ولو لم يرو في ذلك إلاّ ما رواه الخاص والعام والوليّ والعدوّ من قوله ﷺ: حربك يا عليُّ حربي وسلمك يا عليُّ سلمي، وقد علمنا أنّه ﷺ لم يرد أنَّ نفس هذه الحرب تلك بل أراد تساوي تلك الأحكام فيجب أن تكون أحكام محاربيه هي أحكام محاربي النبيّ ﷺ إلاّ ما خصّصه الدّليل.

وما روي أيضاً من قوله: اللّهمَّ انصر من نصره واخذل من خذله[٢].

ولأنّه ﷺ لما استنصره في قتال أهل الجمل وصفين ونهروان أجابته الأُمّة بأسرها ووجوه الصحابة وأعيان التابعين وسارعوا إلى نصرته ومعونته[٣] ولم يحتجّ أحد عليه بشيء ممّا تضمّنه هذان الخبران الخبيثان الضعيفان.

على أنَّ الخبر الأوَّل قد روي على خلاف هذا الوجه لأنَّ أهدم بن الحارث **(كذا)** قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا أهبان **(كذا)** أما أنك إن بقيت بعدي سترى في أصحابي اختلافاً فإن بقيت إلى ذلك اليوم فاجعل سيفك يا أهبان من عراجين، وقد يجوز أن يريد ﷺ بالاختلاف الذي يرجع إلى القول والمذاهب دون المقاتلة والمحاربة.

على أنَّ هذا الخبر ما يمنع من قتال أهل الردَّة عند بغيهم ومجاهرتهم فهو أيضاً غير مانع من قتال كلّ باغ وخارج عن طاعة الإمام.

فأمّا الخبر الثّاني فممّا يضعفه أن أبا ذرّ رحمة الله عليه لم يبلغ إلى وقعة أحجار الزيت لأنَّ ذلك إنّما كان محمّد بن عبد الله بن الحسن في أوَّل أيّام[٤] المنصوب وأبو ذرّ مات في أيّام عثمان فكيف يقول له رسول الله ﷺ: كيف بك في وقت لا يبقى إليه.

على أنَّ أبا ذرّ رضي الله عنه كان معروفاً بانكار المنكر بلسانه وبلوغه فيه أبعد الغايات والمجاهدات في إنكاره وكيف يسمع من الرسول ﷺ ما يقتضي خلاف ذلك. انتهى كلامه قدّس سرّه.

---

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٥٠٤، وكتاب الفتن: ٨٤ بتفوات.
(٢) مائة منقبة: ٤٦، وبحار الأنوار: ٣٧/ ١٤٩.
(٣) في نسخة: معاونته.
(٤) في نسخة: يوم.

ثمّ اعلم أنَّ القوم ذهبوا إلى أنَّ في الآية خمس فوائد: إحداها: أنَّ البغاة على الإيمان لأنَّ الله سمّاهم مؤمنين.

الثانية: وجوب قتالهم فقال: فقاتلوا التي تبغى.

الثالثة: القتال إلى غاية وهو أنَّ يفيئوا إلى أمر الله بتوبة أو غيرها.

الرابعة: أنَّ الصلح إذا وقع بينهم فلا تبعة على أهل البغي في دم ولا مال لأنّه ذكر الصلح أخيراً كما ذكره أوّلاً ولم يذكر تبعة فلو كانت واجبة ذكرها.

الخامسة: أنَّ فيها دلالة على أنَّ من كان عليه حقّ فمنعه بعد المطالبة به حلّ قتاله فإنَّ الله لما أوجب قتال هؤلاء لمنع حقّ كان كلّ من منع حقّاً بمثابتهم وعلى كلّ أحد قتالهم.

أقول: أمّا الأُولى فقد دريت ما فيها، وعلمت أنَّ تسميتهم البغاة ليس بالمعنى الذي مال إليه بعضهم من أنّه ليس بذمّ ولا نقصان وهم أهل الاجتهاد اجتهدوا فأخطأوا بمنزلة طائفة خالفوا من الفقهاء أو بالمعنى الآخر الذي مال إليها بعض آخر منهم من أنهم فسّاق تجب البراءة منهم وقطع الولاية لهم من غير انتهاء إلى الكفر، بل الذي بالمعنى ذهبنا إليه من أنَّ تسميتهم بذلك ذمّ وكفر، وقد استدلّ عليه أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

وبقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد مضى وجه الاستدلال بهما في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من الخطب (**ص ٣٧٧ ج ١ من «التكملة»**).

وقد روى الفريقان أنّ النبيّ ﷺ قال يوم خيبر: لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّاراً غير فرّار[1]، فتبصّر.

وبقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

وذلك لأنَّ المنافق من ظاهره الإسلام وكذلك الباغي لإظهاره الإسلام وخروجه عنه ببغيه على إمامه فهو حقيق باسم النفاق، ولذلك قال النبيُّ ﷺ لعليّ عليه السلام: لا يحبك إلاّ

(١) الكافي: ٨/ ٣٥١، وعلل الشرائع: ١/ ١٦٢، ومسند أحمد: ١/ ٩٩ ـ ١٨٥، وصحيح البخاري: ٤/ ٢٠.

مؤمن تقيّ ولا يبغضك إلاّ منافق شقيّ[١] رواه النسائي في صحيحه ورويناه أيضاً نحن في أخبارنا، ومن يحاربه لا يحبّه قطعاً فيكون منافقاً وهو المطلوب، ولا يلزم من عدم جهاد النبيّ ﷺ للمنافقين عدم ذلك بعده.

وأمّا الثانية فصحيحة، وقد يستدلّ أيضاً على قتال البغاة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩] بعموم وجوب طاعة أُولي الأمر.

وأمّا الثالثة فكالثانية.

وأمّا الرابعة فليست بصحيحة عندنا الإماميّة فإنَّ الباغي إذا أتلف مالاً أو نفساً ضمنه، نعم إن كان المتلف من أهل العدل فلا ضمان عليه لأنّ الله تعالى أوجب على أهل العدل قتالهم فكيف يوجب عليه القتال ويوجب عليه الضمان إذا أتلف مالاً لهم أو قتل نفساً منهم؟ كما إذا أتلف الحربيُّ مالاً أو نفساً من أموال المسلمين ونفوسهم ثمَّ أسلم فإنّه لا يضمن ولا يقاد لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ [الأنفال: ٣٨] ولخبر الجبّ.

وتفصيل هذه الأحكام موكول على الفقه والبحث عنها يوجب التطويل والخروج عن موضوع الكتاب، على أنَّ الجهاد مشروط بحضور الإمام العادل وأمره وهو أعلم بأحكام الله من غيره.

وأمّا لخامسة فكالرّابعة لأنَّ العلّة التي ذكروها لجواز القتال مستنبطة ليست بحجّة، ولأنَّ الحقوق متفاوتة فلا يوجب قتال البغاة لمنع حقّ خاص، قتال كلّ من منع حقّاً من الحقوق.

على أنَّ الآية كما أفاد شيخ الطائفة قدّس سرّه في **«المبسوط»** خطاب للأُمّة دون آحاد الأُمّة وليس من حيث قال: فقاتلوا التي تبغي فأتى بلفظ الجمع ينبغي أن يتناول الجميع لأنَّ ذلك يجري مجرى قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ ولا خلاف أنَّ هذا خطاب للأُمّة ونحن وإن وجبت علينا طاعة الإمام في قتال هؤلاء، فإنَّ قتالنا تبع لقتال الإمام وليس لنا الانفراد بقتالهم.

وأمّا ما وعدنا من بيان خبر الأسياف فنقول: قوله عليه السلام: **(شاهرة)** أي مجرّدة من الغمد. قوله: **(حتّى تضع الحرب أوزارها)** أي حتّى تنقضي لأنَّ أهلها يضعون أسلحتهم حينئذ، وسمّي السلاح وزراً لأنّه ثقل على لابسه، أو لأنَّ أصل الوزر ما يحمله الإنسان فسمّي السلاح أوزاراً لأنه يُحمل قال الأعشى:

---

(١) عوالي اللئالي: ٤/٨٥، وبحار الأنوار: ٣٩/٦١.

وأعـــددت لـلـحـــرب أوزارهـــا رمـــاحـــاً طـــوالاً وخـيـــلاً ذكـــوراً
ومِـــن نـــسـج داود يـحـــدو بـهـــا عـلـى أثـر الـحـيّ عـيـراً فـعـيـراً

قوله عليه السلام: **(حتّى تطلع الشمس من مغربها)**، قد جاءت روايات في علامات ظهور الإمام القائم عليه السلام نقلها المحقّق الفيض قدّس سرّه في **«الوافي»** (ص ١٠٦ ـ ١١٤ من ج ٢) والمحدِّث الجليل المجلسي في **«البحار»** (ج ١٣ ص ١٥٠ ـ ١٧٢ من الطبع الكمباني) وأتى بطائفة منها الشيخ الأجل المفيد في **«الإرشاد»** (ص ٣٣٦ طبع طهران ١٣٧٧ هـ) منها طلوع الشمس من المغرب.

وكذلك قد جاءت روايات أُخرى في شروط الساعة وقيام القيامة منها طلوع الشمس من المغرب، ففي الخرائج والجرائح للراونديّ (**ص ١٩٥ طبع إيران ١٣٠١هـ**): قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: عشر علامات قبل الساعة لا بدّ منها: السفياني، والدّجال، والدّخان، وخروج القائم، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم[1]. الحديث.

وفي أوّل كتاب **«الجهاد»** من **«المبسوط»** لشيخ الطائفة قدّس سرّه أنّه روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: لا تنقطع الهجرة حتّى تنقطع التّوبة ولا تنقطع التّوبة حتّى تطلع الشمس من مغربها[2].

فإن كانت كلمة **(أمن)** في قوله عليه السلام **(فإذا طلعت الشمس من مغربها أمن الناس)** فعلاً ثلاثياً مجرّداً فالمراد أنّ الحرب لن تضع أوزارها حتّى أن يظهر الإمام القائم عليه السلام لأنّ الله يملأ به الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً، روى عليُّ بن عقبة، عن أبيه قال: إذا قام القائم عليه السلام حكم بالعدل وارتفع في أيّامه الجور وأمنت به السبل وأخرجت الأرض بركاتها وردّ كلّ حق إلى أهله ولم يبق أهل دين حتّى يظهروا الإسلام ويعترفوا بالإيمان ـ الخ (**«الإرشاد» ص ٣٤٣**).

لكنّ الصواب أنّ الكلمة فعل ماض من الإيمان بقرينة قوله: **(فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها)** ـ إلخ. وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وإنّما لم ينفعها إيمانها حينئذ لأنَّ باب التوبة ينسدّ بظهور آيات القيامة، وأنَّ التكليف

---

(١) الخرائج والجرائح: ٣/١١٤٨ ح ٨٥.

(٢) بحار الأنوار: ٦٤/٣٥٩، ومكاتيب الرسول: ٣/٦١٧.

يزول عند ظهورها، وقال عزّ من قائل: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [السجدة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [الغافر: ٨٤، ٨٥].

ثمّ إنّه عليه السلام جعل السيوف الشاهرة مقابلة جهاد أهل البغي ومعلوم أنّ جهاد أهل البغي إنّما يكون بإذن الإمام عليه السلام فهو جار إذا كان الإمام حاضراً باسط اليد، وأمّا جهاد غيرهم من المشركين فالظاهر من قوله عليه السلام ثلاثة منها شاهرة دالة على جواز قتالهم في زمان الغيبة أيضاً وفي الحديث كما في «**مجمع البيان**» في تفسير سورة محمّد صلى الله عليه وآله عن النبيّ: والجهاد ماض مذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمّتي الدّجال[1]، لكنّ جهادهم لمّا كان مشروطاً بوجود الإمام أو من نصبه كما حقّق في محلّه فالمراد أنّها شاهرة إلى قيام الساعة إذا خيف على بيضة الإسلام إلاّ أنّه لا يكون جهاداً بل كان دفاعاً وقد تجب المحاربة على وجه الدّفع من دون حضور الإمام أو من نصبه إذا خيف كذلك.

قوله: عليه السلام (**على أهل الذمّة**)، أهل الذمّة هم اليهود والنصارى والمجوس وإنّما يجب جهادهم إذا أخلّوا بشرائط الذمّة.

قوله عليه السلام: (**وإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم، وحرمت أموالهم، وحلّت لنا مناكحتهم**). واعلم أنّه لا خلاف في عدم جواز نكاح غير الكتابية للمسلم وأمّا في جواز الكتابيّة فقد اختلفت الأقوال فيه وأتى بها العلاّمة قدّس سرّه في «**المختلف**» قال: قال المفيد رحمة الله: نكاح الكافرة محرّم سواء اليهود والنصارى والمجوس واطلق النكاح مع أنّه قسّمه أوّلاً إلى نكاح المتعة والدائم وملك اليمين ومقتضى هذا تحريم الجمع.

وقال الصدوق في «**المقنع**»: ولا يتزوّج اليهوديّة والنصرانيّة على حرّة متعة وغير متعة. وروى هذا اللّفظ في كتاب من لا يحضره الفقيه عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام، ثمّ روى عن الحسن التفليسي، عن الرّضا عليه السلام أنّه سأله يتمتّع الرجل من اليهوديّة والنصرانيّة؟ قال: يتمتّع[2].

وسوّغ الشيخ في «**النهاية**» التمتّع باليهوديّة والنصرانيّة دون من عداهما من ضروب الكفّار ومقتضاه تحريم المجوسيّة.

وقال سلاّر: يجوز نكاح الكتابيّات متعة.

---

(١) مباديء الوصول: ٦٦.

(٢) مختلف الشيعة: ٧/ ٢٢٠، وجواهر الكلام: ٣٠/ ٣٧.

وقال ابن إدريس: لا بأس أن يعقد على اليهوديّة والنصرانيّة هذا النكاح في حال الإختيار فأمّا من عدا هذين الجنسين من سائر أصناف الكفّار سواء كانت مجوسية أو غيرها، كافرة أصل أو مرتدّة، أو كافرة ملّة فلا يجوز العقد عليها ولا وطيها حتّى تتوب من كفرها.

وقال شيخنا أبو جعفر في نهايته: يكره التمتّع بالمجوسيّة وليس ذلك بمحظور وهذا خبر أورده إيراداً لا اعتقاداً لأنّ إجماع أصحابنا بخلافه.

وشيخنا المفيد في مقنعته يقول: لا يجوز العقد على المجوسيّة وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وهذا عام وخصصنا اليهوديّة والنصرانيّة بدليل الإجماع وبقى الباقي على عمومه. انتهى ما أردنا من نقل كلامه من «**المختلف**».

أقول: الأصل في المسألة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾ [النساء: ٢٥] وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] ونحوها من آيات أُخرى.

فالآية الأولى دلّت أوّلاً: على عدم جواز رجوع الزّوجة إذا أسلمت إلى زوجها الكافر، وكان رسول الله ﷺ يمتحن من جاءه من المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام ثمّ يحبسها ويعطى أزواجهنّ مهورهنّ.

وثانياً: على أنّ المؤمنات لسن بحلّ للكفّار وأنّ الكفّار لا يحلّون لهنّ فهي دالّة على منع النكاح مطلقاً سواء كانا يهوديين أو نصرانيّين أو مجوسيين أو غيرها من أقسام الكفّار، وسواء كان النكاح دائماً أو مؤجلاً أو ملك يمين.

وثالثاً: على تحريم نكاح المسلم الكوافر بقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وعمومها شامل على جميع أقسام الكفر وعلى جميع أقسام النكاح.

وفي «**مجمع البيان**»: قال الزهريّ: ولما نزلت هذه الآية وفيها قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ

ٱلْكَوَافِرِ﴾ طلّق عمر بن الخطّاب امرأتين كانتا له بمكّة مشركتين قرينة بنت أبي أُميّة بن المغيرة فتزوّجها بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكّة، والأُخرى أُم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعيّة أُمّ عبد الله بن عمر فتزوَّجها أبو جهم بن حذافة بن غانم رجل من قومه وهما على شركهما.

وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرَّق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسّك بعصم الكوافر وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة عند قومها كافرة، ثمَّ تزوَّجها في الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أُميّة وكانت ممّن فرّت إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفّار فحبسها وزوّجها خالداً.

وأميمة بنت بشر كانت عند ثابت بن الدحداحة ففرّت منه وهو يومئذ كافر إلى رسول الله ﷺ فزوّجها رسول الله سهل بن حنيف فولدت عبد الله بن سهل. قال الشعبيُّ وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع فأسلمت ولحقت بالنبيِّ في المدينة وأقام أبو العاص مشركاً بمكّة ثمَّ أتى المدينة فأمنته زينب ثمَّ أسلم فردّها عليه رسول الله ﷺ.

وقال الجبائيّ: لم يدخل في شرط صلح الحديبيّة إلاّ ردّ الرجال دون النساء ولم يجر للنساء ذكر وإنَّ أُمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكّة فجاء أخواها إلى المدينة فسألا رسول الله ﷺ ردّها عليهما فقال رسول الله ﷺ أنَّ الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردّها عليهما. قال الجبائي: وإنّما لم يجر هذا الشرط في النساء لأنَّ المرأة إذا أسلمت لم تحلّ لزوجها الكافر فكيف تردّ عليه وقد وقعت الفرقة بينهما[1].

والآية الثانية دالّة صريحة أيضاً على عدم جواز نكاح المشركات أي الكافرات وكذا على عدم جواز نكاح المشركين أي الكافرين واليهود والنصارى من المشركين قال عزَّ من قائل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١] فسمّاهم مشركين نعم أنَّ الظاهر من قوله: «خير من مشركة» وكذا «خير من مشرك» يومىء إلى جواز نكاح المشركة للمسلم ونكاح المشرك للمسلمة، فتأمّل.

ثمَّ أنّه تعالى علق النهي على الغاية التي هي الإيمان والتعليق يدلّ على اشتراط الإيمان

(١) مجمع البيان: ٩/٤٥٣، وتفسير نور الثقلين: ٥/٣٠٥ ح ٢٠.

في النكاح، ثمَّ أكّد ذلك بقوله أولئك يدعون إلى النّار لأنَّ الغالب يدعو الزّوج زوجته إلى النّار بل ربّما يدعو أحدهما صاحبه إلى النّار ويأخذ أحد الزوجين من دين الآخر.

قال في **«المجمع»**: وهي - يعني هذه الآية - عامّة عندنا في تحريم مناكحة جميع الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم وليست بمنسوخة ولا مخصوصة.

والآية الثالثة دلّت على المطلوب أيضاً حيث وصف الفتيات بالمؤمنات أي لا يجوز نكاح الفتيات الكافرات إن لم يستطع الناكح طولاً. كما أنّها دالّة على تحريم نكاح الكافرة الحرّة عليه إن لم يستطع طولاً حيث لم يجوّز مع عدم الاستطاعة بالمحصنات أي المؤمنات الحرائر نكاح الحرَّة من الكافرات.

والرابعة تدلّ بظاهرها على نفي التساوي في جميع الأحكام التي من جملتها المناكحة.

إن قلت: قد دلّت آية أخرى على جواز نكاح الكتابيات وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝﴾ [المائدة: ٥] فكيف التوفيق؟

قلت: قد نهت الآيات المتقدّمة عن نكاح الكوافر كما دريت وقد يجوز حمل هذه الآية على من أسلم منهنَّ ومن الجائز أن فرّق الشرع قبل ورود الآية بين المؤمنة التي لم تكن قطُّ كافرة، وبين من كانت كافرة ثمَّ آمنت ففي بيان ذلك والجمع بين الأمرين في الإباحة فائدة، كما في **«الانتصار»**، وقد حكى الطبرسيُّ في **«مجمع البيان»** عن أبي القاسم البلخي أنَّ قوماً كانوا يتحرَّجون من العقد على من أسلمت عن كفر فبيّن سبحانه أنه لا حرج في ذلك فلهذا أفردهنَّ بالذكر.

وإن قيل: إنَّ ظاهر الآية وسياقها في مقام الإمتنان والتسهيل، فتأبى عن ذلك الحمل.

قلنا: إنَّ النكاح على ثلاثة أقسام: نكاح المتعة، والدائم، وملك اليمين وقد نطق القرآن الكريم بنكاح المتعة في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤] وهو المنقول عن غير واحد من الصحابة والتابعين وجماعة معروفة الأقوال منهم أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الله بن عبّاس وعبد الله بن مسعود ومجاهد وعطا وأنّهم يقرأون ﴿فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن﴾ [النساء: ٢٤] وقد روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري وسلمة بن الأكوع وأبي سعيد الخدري والمغيرة بن شعبة وسعيد بن جبير وابن جريح أنّهم كانوا يفتون بها وقد أجاز الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام نكاح الكتابيات متعة لا دائماً وأهل البيت أدرى بما فيه، فالآية باقية على الإمتنان والتسهيل غاية الأمر أنّها تبيّن حكم

نكاح واحد من بين الثلاثة ولا ضير فيه فإنّ نكاح المتعة نكاح، وعلى هذا المعنى يحمل ما روى أنّ عمّاراً نكح نصرانيّة، ونكح طلحة نصرانيّة، ونكح حذيفة يهوديّة.

على أنّه قد وردت روايات على أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ففي «**الكافي**» بإسناده عن ابن رئاب، عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله سبحانه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؟ قال: هذه منسوخة بقوله[1]: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

وفيه بإسناده عن ابن فضّال، عن الحسن بن الجهم قال: قال لي أبو الحسن الرّضا عليه السلام: يا با محمّد! ما تقول في رجل يتزوّج نصرانية على مسلمة؟ قلت: جعلت فداك وما قولي بين يديك؟ قال: لتقولنّ فإنّ ذلك تعلم به قولي، قلت: لا يجوز تزويج نصرانيّة على مسلمة ولا على غير مسلمة، قال: ولم؟ قلت: لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، قال: فما تقول: في هذه الآية[2]: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؟ قلت: فقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ نسخت هذه الآية فتبسّم ثمّ سكت.

نعم إنّ في نسخ الآية بالآيتين كلاماً وهو أنّ الفريقين رووا عدّة روايات في أنّ المائدة آخر سورة نزلت وآية تحليل نكاح الكتابيات منها وتقديم الناسخ على المنسوخ نزولاً ليس بصحيح، ففي «**الإتقان**» للسيوطي: أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة قالت: آخر سورة نزلت المائدة فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه ـ الحديث.

وفي «**مجمع البيان**»: روى العياشيّ بإسناده، عن عيسى بن عبد الله، عن أبيه عن جدّه، عن عليّ عليه السلام قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً وإنّما يؤخذ من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بأخذه وكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة نسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء[3] ـ إلخ.

لكن غير واحدة من الروايات ناطقة بأنّ آخر السور نزولاً ليس المائدة، ففي «**الاتقان**»: أخرج مسلم عن ابن عبّاس قال: آخر سورة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح، وأخرج الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمر قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح ـ يعني إذا جاء نصر الله، وفي حديث عثمان المشهور براءة من آخر القرآن نزولاً، وفي «**مجمع البيان**» للطبرسيّ في تفسير سورة هل أتى أنّ التّوبة آخر سورة نزولاً ونزلت المائدة قبلها.

---

(١) الكافي: ٥/٣٥٨ ح ٨، وبحار الأنوار: ٢/٢٧٩ ح ٤٠.
(٢) الكافي: ٥/٣٥٧ ح ٦، وبحار الأنوار: ٢/٢٧٨ ح ٣٨.
(٣) تفسير القرطبي: ١/٦٠.

أقول: سلمنا أنَّ المائدة ليست آخر السور نزولاً أمّا أنَّ نزولها كان بعد البقرة فلا كلام فيه بل في «**المجمع**» في تفسير السورة المذكورة أنَّ البقرة أوّل سورة نزلت بالمدينة فالإشكال في تقديم الناسخ على المنسوخ باق بحاله، اللّهم إلاّ أن يقال يجوز أن يكون نزول الآيتين الناسختين في البقرة بعد نزول الآية المنسوخة في المائدة إلاّ أنَّ رسول الله ﷺ جعلها بأمر الله تعالى في ذلك الموضع من سورة المائدة كما أنَّ آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ فجعلها رأس الثمانين والمائتين من البقرة بأمر الأمين جبرائيل ﷺ كما في «**المجمع**» و«**الكشاف**» و«**أنوار التنزيل**» وغيرها. فتأمّل.

وبالجملة لو لم نقل بنسخ الآية لكانت بياناً لنكاح المتعة وتجويزه كما دريت.

ولقائل أن يقول: إنَّ قوله تعالى في البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ الآية غير الكتابيّة من عبدة الأوثان وغيرهم من الذين ليس لهم كتاب بدليل الافتراق بينهما في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة: ١].

قلت: قد دلّت الآية المتقدّمة من التوبة على أنّ اليهود والنصارى من المشركين وافتراقهما في آية لعناية خاصّة لا يدلّ على عدم كون أهل الكتاب مشركين.

وبالجملة القول بجواز نكاح الكتابيّة للمسلم بالدوام مشكل جدًّا وأمّا نكاحها متعة أعني مؤجّلاً، أو ملك يمين فلا بأس به.

وروايات الباب طائفة منها صريحة في أنَّ نكاح الكافرة سواء كانت عابدة وثن أو مجوسيّة أو يهوديّة أو نصرانيّة محرّم منها رواية ابن الجهم المتقدّمة المنقولة عن «**الكافي**».

وفيه أيضاً بإسناده عن ابن رئاب، عن زرارة، عن أبي جعفر ﷺ قال: لا ينبغي نكاح أهل الكتاب، قلت: جعلت فداك وأين تحريمه؟ قال: قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

وفيه بإسناده، عن أبي جعفر ﷺ قال: لا ينبغي للمسلم أن يتزوّج يهوديّة ولا نصرانيّة وهو يجد مسلمة حرّة أو أمة[1].

وأُخرى منها تجوز النكاح لكنّها يحتمل وجوهاً من التأويل كما أشار إليها شيخ الطائفة في «**التهذيب**» منها أن تكون هذه الأخبار خرجت مخرج التقيّة لأنَّ كلّ من خالفنا يذهب إلى

(١) الكافي: ٥/٣٥٨ ح ٩، والاستبصار: ٢/١٨٣ ح ٦٦٣.

إباحة ذلك فيجوز أن تكون هذه الأخبار وردت وفقاً لهم.

ومنها أن تكون هذه الأخبار تناولت إباحة من لا تكون مستبصرة معتقدة للكفر متديّنة به بل تكون مستضعفة فإنَّ نكاح من يجري هذا المجرى جائز.

ومنها أن يكون ذلك إباحة في حال الضرورة وعند عدم المسلمة ويجري ذلك المجرى إباحة الميتة والدم عند الخوف على النفس.

ومنها أن تكون هذه إباحة في العقد عليهنَّ عقد المتعة وإن شئت تفصيلها فعليك **«بالتهذيب»**.

ثمَّ إنَّ في خبر الأسياف تفصيلاً آخر في **«المقام»** وهو أنَّ أهل الذمّة إذا قبلوا الجزية حلّت للمسلم مناكحتهم وأمّا إذا كانوا في دار الحرب فلا.

ومثله مرويٌّ عن النبيّ ﷺ أيضاً ففي تفسير القميّ أنّه ﷺ قال: وإنّما يحلّ نكاح أهل الكتاب الذين يؤدُّون الجزية وغيرهم لم تحلّ مناكحتهم[١].

أقول: الخبران يدلاّن على جواز نكاحهم مع انعقاد الذمّة وإنّما لم يجز بدونه لأنّهم حينئذ محاربون فتشملهم الأحكام الواردة على المحاربين.

قوله عليه السلام: **(فلن يقبل منهم إلاّ الجزية أو القتل)** - إلخ.

أقول: أهل الكتاب أي اليهود والنصارى يجوز إقرارهم على دينهم ببذل الجزية وكذا حكم من لهم شبهة كتاب أي المجوس فيقرون على دينهم ببذل الجزية، ومتى امتنع أهل الكتاب من بذل الجزية قوتلوا وسبيت ذراريهم ونساءهم وأموالهم تكون فيئاً، وأمّا من لا كتاب له ولا شبهة كتاب من عباد الأصنام والأوثان والكواكب وغيرهم فلا يقرّون على دينهم ببذل الجزية.

قوله عليه السلام: **(والسيف الثالث سيف على مشركي العجم)** - إلخ.

أقول: لما ذكر الإمام عليه السلام في هذا الخبر أحكام أهل الذّمة على حدة علم أنَّ المراد من مشركي العرب والعجم سوى أهل الكتاب منهما وهذا واضح وإنّما الكلام في ذكر كلّ من مشركي العرب والعجم منفرداً، وذلك لأنَّ أحكام المشركين الذين ليس لهم كتاب واحد ولا تختلف أحكامها باختلاف البلاد والأقاليم والألسنة ولم نجد في الكتب الفقهية من تعرَّض بالتفصيل والتفريق بين مشركي العرب والعجم وما نعلم سبب انفراد مشركي العجم، بالذكر إلاّ أنَّ العلاّمة المجلسي قدّس سرّه قال في مرآة العقول: وإنّما أفرده عليه السلام **(يعني السيف**

(١) الكافي: ٥/٤٣٥ ح ٤، وتهذيب: ٦/٣٨٧ ح ١١٥٤.

الثالث) بالذكر لعلمه بأنّ قوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ نزل فيه والمخاطب بالقتال فيه أمّة النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّه لم يقاتلهم وإنّما قاتلهم الله. انتهى فتأمّل.

قوله عليه السلام: **(فسيف على أهل البغي والتأويل)** ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ منكم من يقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل[١].

أقول: في حديث عليّ عليه السلام: **(ما من آية إلا وعلّمني تأويلها)**[٢] أي معناها الخفيّ الذي هو غير المعنى الظاهري لما تقرّر من أنّ لكل آية ظهراً أو بطناً والمراد أنّه صلى الله عليه وآله أطلعه على تلك الخفيّات المصونة والأسرار المكنونة. قاله الطريحي في **«مجمع البحرين»**.

وقال المجلسيّ رحمه الله في **«مرآة العقول»**: لعلّ كون قتال التأويل لكون الآية غير نصّ في خصوص طائفة إذ الباغي أنّه على الحقّ وخصمه باغ أو المراد به أن آيات قتال المشركين والكافرين يشملهم في تأويل القرآن. انتهى.

وأقول: هذا البيان يناسب قول رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ منكم من يقاتل بعدي على التأويل. وأمّا الظاهر من كلام أبي جعفر عليه السلام فسيف على أهل البغي والتأويل فإنّما المراد أنّ الخارجين على الإمام العادل هم أهل البغي والتأويل ويؤيد ما ذكرنا قول أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه الآتي **(كتاب ٥٥)** إلى معاوية خطاباً إليه: **(فعدوت على طلب الدُّنيا بتأويل القرآن فطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني)** إلخ. حيث طلب معاوية القصاص لعثمان وأوّل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ الآية ونحوه من آيات أُخرى بما أراد حتّى ألّب الناس على أمير المؤمنين عليه السلام وسيأتي كلامنا في تحقيق التأويل في تفسير كتابه عليه السلام إلى ابنه المجتبى عليه السلام عند قوله: **(وأن أبتدؤك بتعليم كتاب الله وتأويله)** إلخ.

قوله عليه السلام: وقال عمّار بن ياسر: قاتلت بهذه الراية إلخ.

أقول: الراية إشارة إلى راية معاوية في بدر وأُحد وحنين. وهذه الرابعة يعني وقعة صفين وقد مرّ كلامنا في تفسير قوله هذا وقوله: **(والله لو ضربونا حتّى يبلغوا بنا السعفات)** من هجر في شرح **«المختار»** ٢٣٦ **(ج ١٥ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٩)**.

فقد آن أن نشرح جمل الوصيّة فنقول قوله: «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم» **نهى أصحابه** عن الإبتداء بالحرب وقد دريت من حديث عبد الله بن جندب المنقول من **«الكافي»** أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان يأمر أصحابه في كلّ موطن لقيهم عدوّهم بقوله: **(لا تقاتلوا القوم حتّى**

---

(١) الكافي: ٥/١٢، وتهذيب الأحكام: ٤/١١٦.

(٢) الكافي: ٥/١٢، وتحف العقول: ٢٩٠.

يبدؤوكم): إلخ. وإنّما نهاهم عن الابتداء بها لأنّه دعوة إلى المبارزة والداعي إليها باغ وقد قال عليه السلام لابنه الإمام المجتبى عليه السلام كما يأتي في باب «**المختار**» من حكمه عليه السلام **(الحكمة ٢٣٣)**: لا تدعونّ إلى مبارزة وإن دعيت بها فأجب فإن الدّاعي باغ والباغي مصروع. انتهى وفي كتاب «**الحرب من عيون الأخبار**» لابن قتيبة **(ص ١٢٨ ج ١ طبع مصر)**: العتبي عن أبيه قال: قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام لابنه الحسن: يا بُنيَّ لا تدعوَنّ أحداً البِراز ولا يدعونّك أحد إليه إلاّ أجبته فإنّه بَغى[١].

وقال عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس: ٢٣].

ومن الأمثال القديمة قولهم: لا ظفر مع بغي. أتى به ابن القتيبة في كتاب «**الحرب من عيون الأخبار**» (ص ١١١ ج ١).

وفي باب حكم طلب المبارزة من كتاب «**الجهاد**» من الوسائل بإسناده عن ابن القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دعى رجل بعض بني هاشم إلى البراز فأبى أن يبارزه فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ما منعك أن تبارزه؟ فقال: كان فارس العرب وخشيت أن يغلبني؛ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: فإنّه بغى عليك ولو بارزته لغلبته ولو بغى جبل على جبل لهدم الباغي[٢].

وفي هذا الباب من الوسائل أيضاً: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنَّ الحسين[٣] بن عليّ دعى رجلاً إلى المبارزة فعلم به أمير المؤمنين عليه السلام فقال: لئن عدت إلى مثل هذا لأُعاقبنّك؛ ولئن دعاك أحد إلى مثلها فلم تجبه لاعاقبنّك أما علمت أنّه بغى[٤].

وقد مضى في «**شرح المختار**» ٢٣٦ أنَّ معاوية لمّا كف أمير المؤمنين وعسكره في صفين عن الماء ثمّ أخذ أصحاب الأمير عليه السلام الماء عنهم وصار الماء في أيديهم قال بعضهم: لا نسقي معاوية وأتباعة الماء أرسل أمير المؤمنين عليه السلام إليهم أن خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلّوا عن معاوية وعسكره فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم **(ص ٢٢٧ ج ١٥)**.

قوله عليه السلام: «فإنكم بحمد الله على حجّة» علّل النّهي عن القتال بدواً بأن أتباعه عليه السلام على حجّة وبيّنة ويقين من ربّهم وأنّهم على الطريق الواضح من حيث إنّهم شايعوا الإمام الحقّ فهم على الصراط السوّي والجادّة الوسطى. وأهل الحقّ لا يقاتلون أحداً بغير حق

---

(١) نهج السعادة: ٢/٢٢٩، وترجمة الإمام الحسين: ٣٦٦ ح ٣٠٨.
(٢) بحار الأنوار: ٣٣/٤٤٦ ح ٦٥٨، وتذكرة الفقهاء: ٩/٨٠.
(٣) في نسخة: الحسن.
(٤) تهذيب الأحكام: ٦/١٦٩ ح ٣٢٤، ووسائل الشيعة: ١٥/٩٠ ح ٤.

وحجج الله لم يؤمروا بالقتل والقتال بل أمروا بإحياء النفوس وتزكيتها من الأرجاس والأدناس وتعليمهم الكتاب والحكمة فأنّى لهم أن يبدؤا بالقتال وقد قالوا: إنَّ البادي بالحرب باغ.

وإنّما قال: بحمد الله، لأنَّ الكون على حجّة من أعظم نعم الله تعالى لا تعادله نعمة فيجب على المنعم عليه حمد المنعم.

قوله عليه السلام: «وترككم إياهم حتّى يبدؤوكم حجّة أُخرى لكم عليهم» قد علمت أنَّ البادي بالحرب باغ والإمام الحقّ مطلقاً على حجة فإنّه ينظر بنور الله فإذا بدؤا بالحرب فقد تحقّق بغيهم عليه فيجب عليه قتالهم لقوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

ثمَّ إنَّ الباديء بالحرب معتد فيجب على الإمام الاعتداء عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وإنَّ محارب الإمام العادل محارب الله ورسوله فقد دريت من المباحث السالفة أنَّ الفريقين نقلاً عنه صلى الله عليه وآله أنه قال لأمير المؤمنين عليه السلام: حربك يا عليّ حربي.

على أنَّ الباغي عليه من الذين يسعون في الأرض فساداً فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: ٣٣].

وبالجملة أنَّ وجود الإمام عليه السلام حجّة عليهم فيجب عليهم اتباع أمره واقتفاء أثره والتأسي به فإذا طغوا وأعرضوا عن أمره وحاربوه وجازاهم على فعالهم وطغيانهم تمّت الحجة عليهم وانقطع عذرهم وفاءً لحقّ الإعتداء فهم محاربون والإمام عليه السلام وعسكره حينئذ مدافعون فهذه حجّة أُخرى لهم عليهم.

ثمَّ ينبغي للقاريء الكريم الطالب نهج القويم أن يتأمّل في سيرة سفراء الله في أهل البغي حقّ التأمّل والتدبّر حتّى يرى بعين العدل والإنصاف أنّهم لم يكونوا في سدد قتال النّاس وقتلهم بل شأنهم في القتال والقتل شأن من يجتّ نبات السوء من مزرعة، أو كمن يقلع ويطرد أشواكاً واقعة على طريق مانعة عن العبور عنها، أو كمثل الذي يقتل جراثيم مؤذية تؤذي شجرة مثمرة في حديقته. لأنَّ الله تعالى بعثهم رحمة للناس كافّة يدعوهم إلى ما يحييهم حياة طيّبة، ويسلكهم إلى الفوز والنجاح والسعادة الأبديّة إلاّ أنَّ طائفة من أراذل الناس وأوباشهم وأشرارهم لمّا ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون واتّخذوا دين الله وعباده سخريّاً

وأرادوا أن يطفؤوا نور الله بألسنتهم وأسنّتهم، وسيوفهم ورماحهم، وكانوا يضلّون الناس ويغوونهم حقّ عليهم العذاب بأيدي أهل الحقّ دفاعاً عن حوزة الإسلام السامية، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٢].

وقد روى ثقة الإسلام الكليني قدّس سرّه في الباب الثامن من كتاب **«الجهاد»** من **«الكافي»** بإسناده عن السكونيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن وقال لي: يا عليُّ لا تقاتلنَّ أحداً حتّى تدعوه وأيم الله لأن يهدى الله على يديك رجلاً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس وغربت ولك ولاؤه يا عليُّ[1].

وقد مضى في شرح **«المختار»** الثاني من باب الكتب **(ص ٥٧ ج ١٧)** أنّه عليه السلام بينا يوصي أصحابه في الجمل بقوله: **(لا تبدؤوا القوم بالقتال ولا تقتلوا مدبراً)** - إلخ، إذ ظلّهم نبل القوم الناكثين فقتل رجل من أصحابه فلما رآه قتيلاً قال: اللّهمّ أشهد، ثمّ رمى رجل عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقتله فأتى به أخوه عبد الرحمٰن يحمله فقال عليّ عليه السلام: اللّهمَّ أشهد، وتواتر على عمّار بن ياسر الرّمي فقال: ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين وليس لك عند القوم إلاّ الحرب، إلخ.

وفي **«الكافي» (الباب الثامن من كتاب «الجهاد»)** بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا بعث أميراً له على سريّة أمره بتقوى الله عزَّ وجلَّ في خاصّة نفسه ثمَّ في أصحابه عامّة ثمَّ يقول: اغز[2] بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا متبتّلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً لأنّكم لا تدرون لعلّكم تحتاجون إليه، ولا تعقروا من البهائم ممّا يؤكل لحمه إلاّ ما لا بدّ لكم من أكله وإذا لقيتم عدوًّا للمسلمين فادعوهم إلى إحدى ثلاث فإن هم أجابوكم إليها فاقبلوا منهم وكفّوا عنهم، وادعوهم إلى الإسلام فإن دخلوا فيه فاقبلوه منهم وكفّوا عنهم وادعوهم إلى الهجرة بعد الإسلام فإن فعلوا فاقبلوا منهم، وكفّوا عنهم، وإن أبوا أن يهاجروا واختاروا أديانهم وأبوا أن يدخلوا إلى دار الهجرة كانوا بمنزلة أعراب المؤمنين يجري عليهم ما يجري على أعراب المؤمنين، ولا يجري لهم في الفيء ولا في القسمة شيء إلاّ أن يهاجروا في

(١) الكافي: ٥/ ٢٨ ح ٤. وتهذيب الأحكام: ٦/ ١٤١ ح ٢٤٠.

(٢) في نسخة: اغزوا.

سبيل الله. فإن أبوا هاتين فادعوهم إلى إعطاء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فإن أعطوا الجزية فأقبل منهم وكفّ عنهم وإن أبوا فاستعن الله عزَّ وجلَّ عليهم وجاهدهم في الله حقّ جهاده. وإذا حاصرت أهل الحصن فأرادوك على أن ينزلوا على حكم الله عزَّ وجلَّ فلا تنزل لهم ولكن أنزلهم على حكمهم، ثمَّ اقض فيهم بعد ما شئتم فإنّكم إن تركتموهم على حكم الله لم تدروا تصيبوا حكم الله بهم أم لا. وإذا حاصرتم أهل حصن فإن أذنوك على أن تنزلهم على ذمّة الله وذمّة رسوله فلا تنزلهم ولكن أنزلهم على ذممكم وذم آبائكم وإخوانكم فإنّكم إن تخفروا ذممكم وذمم آبائكم وإخوانكم كان أيسر عليكم يوم القيامة من أن تخفروا ذمّة الله وذمّة رسوله[١].

فهذا هو رسول الله ﷺ يوصي سراياه وعساكره بتقوى الله، ودعوة الكفّار إلى الإسلام فأين هو ﷺ من أن يخوض في دماء الناس وقد طهّره الله من الرجس تطهيراً، وقال له عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وهو ﷺ قد تأدّب بآداب الله وفي الجامع الصغير نقلاً عن ابن عدي في **«الكامل»** عن ابن مسعود أنّه ﷺ قال: أدّبني ربّي فأحسن تأديبي. ومن أدبه ﷺ أنّه بعد ما لقى في دعوته من قومه ما لقي قال: اللّهمَّ اهد قومي فإنّهم لا يعلمون، وعلى رواية أُخرى: اللّهمَّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون[٢].

وفي كتاب **«الحرب من عيون الأخبار»** لابن قتيبة **(ص ١٢٣ ج ١)** أنَّ النبيّ ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتّى مالت الشمس ثمَّ قام في النّاس فقال: لا تتمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية[٣] ـ إلخ.

وقال ابن هشام في **«السيرة»**: إنَّ رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه: قفوا ثمَّ قال: اللّهم ربّ السماوات وما أظللن ـ إلى قوله: فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ـ إلخ، وقد نقلناه في شرح **«المختار»** الثاني من باب الكتب والرسائل **(ص ٥٠ ج ١٧)**.

فإيّاك أن تظنَّ أنَّ مثل حجج الله تعالى كمثل سلاطين الجور، والذين يريقون الدماء نيلاً إلى أغراض دنيويّة وهواجس نفسانيّة.

وهذا هو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يعظ عسكره أن يدعوا الله أين حقن دماءهم ودماء العدوّ، ويصلح ذات بينهما، ويهدي الأعداء من ضلالتهم.

---

(١) الكافي: ٥/ ٣٠، وثلاثيات الكليني: ٢٣٢.
(٢) الجامع الصغير: ١/ ٥١ ح ٣١٠.
(٣) مكاتيب الرسول: ١/ ٤٤٠ ح ١٢.

وكان عليه السلام ينهى جنوده عن أن يسبّوا ويشتموا الأعداء فأين هو عليه السلام والخوض في الدّماء، فقد روى نصر بن مزاحم المنقري في «صفين» (ص ٥٥ من الطبع الناصري) عن عمر بن سعد، عن عبد الرحمٰن، عن الحارث بن حصيرة، عن عبد الله بن شريك قال: خرج حجر بن عديّ وعمرو بن الحمق يظهران البراءة واللّعن من أهل الشام، فأرسل إليهما عليّ عليه السلام أن كفّا عمّا يبلغني عنكما. فأتياه، فقالا: يا أمير المؤمنين! ألسنا محقّين؟ قال: بلى، قالا فلِمَ منعتنا من شتمهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا لعّانين، شتّامين، تشتمون، وتتبرّؤون. ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم فقلتم من سيرتهم كذا وكذا، ومن عملهم كذا وكذا كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان لعنكم إيّاهم وبراءتكم منهم: اللّهمّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتّى يعرف الحقّ منهم مَن جَهِلَه، ويرعوي عن الغيّ والعدوان مَنْ لهج به، كان هذا أحبّ إليَّ، وخيراً لكم، فقالا: يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ونتأدّب بأدبك[1].

وقد مضى في شرح «المختار» الثاني من باب الكتب والرسائل أنه عليه السلام لمّا سار مع عسكره من المدينة إلى البصرة لقتال جند المرأة وأتباع البهيمة بلغ الموضع المعروف بالزاوية فنزلوا وصلّى عليه السلام أربع ركعات وعفّر خدّيه على التربة وقد خالط ذلك دموعه ثمّ رفع يديه يدعو: اللّهمّ رب السماوات وما أظلّت ـ إلى قوله: اللّهمّ احقن دماء المسلمين. (ص ٥٠ ج ١٧).

وهذا هو الإمام الحسن بن علي عليهما السلام لم يرض أن يهرق في أمره محجمة دم كما علمنا من وصيته عليه السلام يوم حضرته الوفاة وقد تضافرت بنقلها الروايات.

وهذا هو الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام، لمّا رام مسلم بن عوسجة أن يرمى شمر بن ذي الجوشن حين سبّ الحسين عليه السلام بسهم منعه عن ذلك فقال له: لا ترمه فإنّي أكره أن أبدؤوهم[2] رواه المفيد في «الإرشاد» (ص ٢١٧ طبع طهران ١٣٧٧ هـ).

وكذا روي في (ص ٢١٠) من «الإرشاد»: إنَّ الحرّ بن يزيد الرّياحي لمّا أخذهم بالنزول في مكان على غير ماء ولا قرية ـ ساق الكلام إلى أن قال: فقال زهير بن القين إنّي والله ما أراه يكون بعد الذي ترون إلاّ أشدّ ممّا ترون يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله إنَّ قتال هؤلاء القوم الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم فلعمري ليأتينا بعدهم ما لا قِبَل لنا به فقال الحسين عليه السلام: ما كنت لأبدأهم بالقتال ثمّ نزل.

نعم إنَّ الخوض في دماء النّاس إنّما هو من شأن عبيد الدُّنيا وأسرة الهوى الذين اتّخذوا

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١٨٦، ومستدرك الوسائل: ١٢/ ٣٠٧ ح ٢.

(٢) الإرشاد: ٢١٧.

دين الله دغلاً، وعباد الله خولاً، ومال الله دولاً، أتباع الشقيّ الجبار الذي يعالن الناس قائلاً: والله إنّي ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتزكّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا، وإنّما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون.

وقد قدّمنا نبذة من الكلام في ذلك في شرحنا على «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب (**ص ٢٢٧ و٢٥٢ و٣٠٠ ج ١٥**) فراجع.

قوله عليه السلام: «فإذا كانت الهزيمة بإذن الله» الهزيمة وإن كانت بحسب الظاهر على أيديهم ولكنّها ليست متحقّقة إلاّ بإذن الله تعالى وأمره ولمّا كان والله الأعظم عليه السلام موحّداً فانياً في الله لا يرى من نفسه أثراً في البين، ولا يرى في دار الوجود مؤثّراً إلاّ الله، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ولا يرى شيئاً إلاّ من عنده تعالى قال عزّ من قائل في قصّة طالوت وما جرى بينه وبين جالوت: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقال تعالى مخاطباً لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال عزّ من قائل مخاطباً لرسوله الخاتم: ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

والإنسان له وجهة إلٰهيّة بها فاعليّته ووجهة نفسيّة بها ينسب الأفعال إلى نفسه، والمؤمن الموحّد السالك إلى الله قد يرتقي بالرياضات والمجاهدات إلى مرتبة لا يرى لنفسه فيها أثراً، ولا يرى مؤثراً إلاّ الله، وما يشاهد من دونه تعالى على ظاهر الأمر ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]. ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

از سبب سازيش من سودائيم   وز سبب سوزيش سوفسطائيم

درسبب سازيش سر گردان شدم	در سبب سوزيش هم حيران شدم
اين سببها بر نظر ها پرده هاست	كه نه هرديدار صنعش راسزا است
ديده اى بايد سبب سوراخ كن	تاحُجُب را بر كند از بيخ وبن
تا مسبّب بيند اندر لا مكان	هرزه بيند جهد وأسباب دكان
هرچه خواهد آن مسبّب آورد	قدرت مطلق سببها بر درد

قوله عليه السلام: «فلا تقتلوا مدبراً» نهى عليه السلام أصحابه عن أمور:

نهاهم عن أن يقتلوا المدبر عن القتال كما نهاهم عن أن يتبعوا مولياً، وأن يطلبوا مدبراً على ما رواه الكلينيّ في **«الجامع الكافي»**، والمسعوديّ في **«مروج الذهب»** كما مرَّ ذكرهما آنفاً في **«بيان المصادر»**، وما يستفاد من ظواهر الأخبار وفتاوى العلماء في **«المقام»** أنَّ هذه الجمل الثلاث تشير إلى معنى فارد وتفيد حكماً واحداً ولذا يوجد واحدة منها في نسخة دون الأُخريين إلاّ أنَّ المسعوديّ جمع بين نسختي ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مدبراً.

وما وجدنا في الجوامع الرواية من **«الكافي»** و**«التهذيب»** و**«الوسائل»** و**«البحار»** و**«الوافي»** مع طول الفحص وكثرة الطّلب رواية جامعة لها أو لاثنتين منها.

اللّهمّ إلاّ أن يفسّر قوله مولياً بمن عاد من البغي إلى طاعة الإمام وترك المباينة فإنّه يحرم قتله وقتاله حينئذ فلا تكرار في نسخة المسعوديّ على هذا الوجه ولكنّه كما ترى.

قوله: عليه السلام: «ولا تصيبوا معوراً» قد تفرَّد الرَّضيُّ رضوان الله عليه بنقله وما وجدناه مع كثرة التحرِّي في نسخة أُخرى عن غيره، إلاّ أنَّ ابن الأثير أتى به في **«النهاية»** كما مرّ آنفاً في اللّغة إن لم يكن النهج مأخذه. ولم يتعرَّض الفقهاء على هذا الحكم في أحكام أهل البغي الخارجين على الإمام.

ويمكن أن يفسّر على وجوه: أحدها: أنّه عليه السلام نهى أصحابه عن أن يقتلوا أو يجرحوا من أمكنتهم الفرصة في قتله وجرحه بعد هزيمة العدوّ وانكسارهم كما نصَّ عليه بقوله (**فإذا كانت الهزيمة بإذن الله**) ـ إلخ وقد بيّن في اللّغة أنّه يقال أعور لك الصيد وأعورك إذا أمكنك والإصابة كناية عن القتل أو الجرح وكأنَّ المعنى الثاني أعني الجرح أنسب بأسلوب الكلام.

ثانيها: أنّه عليه السلام نهاهم أن يقتلوا بعد انهزام العدوّ فارساً منهم أُصيب قبل الإنهزام بجراحة من قولهم أعور الفارس إذا بدا فيه موضع خلل للضرب فيه، وهذا الوجه يقرب من قوله: (**ولا تجهزوا على جريح**) معنى بخلاف الأوّل ففيه تكرار.

أمّا لو فسّرت الإصابة بالطّعن والجرح فلا تكرار فيه لأنَّ معنى العبارة حينئذ أنّه نهاهم

عن أن يطعنوا ويجرحوا بعد انهزام العدوّ من كان منهم جريحاً أي لا تصيبوا جريحاً بجراحة أُخرى كما فسّره خواندمير بهذا الوجه في «**روضة الصفا**».

ثالثها: أنّه نهاهم عن أن يقتلوا أو يجرحوا بعده العدوّ الذي صار مضطرًّا حتّى أفضاه الإضطرار إلى أن يكشف عورته ويبدي سوءته وقاية لنفسه كما فعله عمرو بن العاص في «**صفين**» حين اعترضه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وقد أعرض عن قتله وتقدّمت الحكاية في شرح المختار ٢٣٦ (**ص ٣١٨ ج ١٥**).

رابعها: أن يكون المراد بالمعور المريب أي الذي يشك فيه هل هو محارب أم لا؟ أي لا تقتلوا إلاّ من علمتم أنّه محارب لكم.

لطيفة: في كتاب «**الحرب من عيون الأخبار**» لابن قتيبة (**ص ١٦٩ ج ١ طبع مصر**) قال المدائني: رأى عمرو بن العاص معاوية يوماً يضحك فقال له: ممّ تضحك يا أمير المؤمنين أضحك الله سنّك؟ قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب، أما والله لقد وافقته منّاناً كريماً ولو شاء أن يقتلك لقتلك.

قال عمرو: يا أمير المؤمنين أما والله إنّي لَعَنْ يمينك حين دعاك إلى البرازِ فاحولّت عيناك ورباك سَحْرك وبدا منك ما أكره لك فمن نفسك فاضحك أو دَعْ[1].

قوله عليه السلام: «ولا تجهزوا على جريح» نهى عليه السلام جنوده أن يشدّوا بعد انهزام العدوّ على صريعهم ويسرعون إلى قتله أي نهاهم عن قتل المجروح.

وإنّما نهاهم عليه السلام عن أن يقتلوا مدبراً، أو يصيبوا معوراً، أو يجهزوا على الجرحى بعد أن هزموهم لأنّهم على ظاهر الأمر مسلمون، وكان القصد من قتالهم دفع شرّهم وتفريق كلمتهم، فإذا ولّوا منهزمين فقد حصل القصد.

واعلم أنَّ أهل البغي لا يقتل مدبرهم، ولا يصاب معورهم، ولا يجهز على جريحهم إذا لم يكن لهم فئة يرجعون إليها فإذا كان لهم فئة يرجعون ويلتجؤن إليها جاز اتباع مدبرهم والإجهاز على جريحهم وإصابة معورهم لأنّهم ربّما عادوا إلى الفئة واجتمعوا ورجعوا إلى قتال الإمام العادل وهو مذهبنا الإمامية وخالفنا فيه بعض العامّة.

دليلنا قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية وهؤلاء الذين لهم فئة يرجعون إليها ما فاؤوا إلى أمر الله ولذا أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام نادى يوم الجمل أن لا يتّبع

(١) الغدير: ٢/١٦٣.

مدبرهم ولا يقتل، ولا يجهز على جريحهم لأنَّ أهل الجمل قتل إمامهم ولم تكن لهم فئة يرجعون إليها وإنّما رجع القوم إلى منازلهم غير محاربين ولا مخالفين ولا منابذين، وقتل أهل صفّين مقبلين ومدبرين وأجاز على جريحهم لأنَّ إمامهم كان من المنظرين، وكان لهم فئة يرجعون إليها ويلجئون إليها وأخبار الإماميّة بذلك عن أئمّتهم وردت متظافرة:

ففي البابا لعاشر من كتاب «**الجهاد**» من «**الجامع الكافي**» بإسناده عن حفص بن غياث قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الطائفتين من المؤمنين إحداهما باغية والأخرى عادلة فهزمت العادلة الباغية؟ فقال: ليس لأهل العدل أن يتبعوا مدبراً، ولا يقتلوا أسيراً، ولا يجهزوا على جريح، وهذا إذا لم يبق من أهل البغي أحد ولم يكن لهم فئة يرجعون إليها فإذا كان لهم فئة يرجعون إليها، فإنَّ أسيرهم يقتل، ومدبرهم يتبع، وجريحهم يجهز.

وفي ذلك الباب منه: بإسناده عن عقبة بن بشير، عن عبد الله بن شريك، عن أبيه قال: لمّا هزم النّاس يوم الجمل قال أمير المؤمنين: لا تتّبعوا مولّياً ولا تجيزوا[1] على جريح ومن أغلق بابه فهو آمن[2].

فلمّا كان يوم صفّين قتل المقبل والمدبر وأجاز على جريح. فقال أبان بن تغلب لعبد بن شريك: هذه سيرتان مختلفتان، فقال: إنَّ أهل الجمل قتل طلحة والزبير، وإنَّ معاوية كان قائماً بعينه وكان قائدهم.

رواه المجلسيُّ في المجلّد الحادي والعشرون من «**البحار**» **(ص ٩٨ من الطبع الكمباني)** بسند آخر عن عقبة بن شريك نقلاً عن رجال الكشيّ.

وروى عليّ بن شعبة في «**تحف العقول**» عن الإمام العاشر أبي الحسن الثالث عليّ بن محمّد عليه السلام في باب أجوبته عليه السلام ليحيى بن أكثم عن مسائله **(ص ١١٦ من الطبع الحجري ١٣٠٣ هـ)**: أنَّ يحيى بن أكثم قال له عليه السلام: أخبرني عن عليّ. لِمَ قتل أهل صفين وأمر بذلك مقبلين ومدبرين وأجاز على الجرحى، وكان حكمه يوم الجمل أنه لم يقتل مولّياً، ولا يجز على جريح؛ ولم يأمر بذلك وقال: من دخل داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، لِمَ فعل ذلك فإن كان الحكم الأوّل صواباً فالثاني خطأ؟

قال عليه السلام: وأمّا قولك: إنَّ عليّاً قتل أهل صفين مقبلين ومدبرين وأجاز على جريحهم، وإنّه يوم الجمل لم يتّبع مولّياً، ولم يجز على جريح، ومن ألقى سلاحه آمنه، ومن دخل داره

(١) في نسخة: لا تجهزوا خ ل.
(٢) الكافي: ٥/ ٣٣ ح ٥، وتهذيب الأحكام: ٦/ ١٥٦.

آمنه فإنَّ أهل الجمل قتل إمامهم، ولم تكن لهم فئة يرجعون إليها وإنّما رجع القوم إلى منازلهم غير محاربين ولا مخالفين ولا منابذين رضوا بالكفّ عنهم فكان الحكم فيهم رفع السيف عنهم والكفّ عن أذاهم إذ لم يطلبوا عليه أعواناً. وأهل صفين كانوا يرجعون إلى فئة مستعدّة وإمام يجمع لهم السلاحَ الدروعَ والرّماحَ والسيّوف، ويسنى لهم العطاء، ويهنيء لهم الأنزال، ويعود مريضهم، ويجبر كسيرهم، ويداوي جريحهم، ويحمل راجلهم، ويكسو حاسرَهم، ويردّهم فيرجعون إلى محاربتهم وقتالهم فلم يساو بين الفريقين في الحكم لما عرف من الحكم في قتال أهل التوحيد لكنّه شرح ذلك لهم فمن رغب عُرض على السيف أو يتوب من ذلك[1].

قوله عليه السلام: «ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم فإنّهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول» في نسخة «**الكافي**» وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم، وفي نسخة الطبري: ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وتناولن أُمراءكم وصلحاءكم، وفي روايتي «**الكافي**» و«**صفين**» لنصر فإنّهنّ ضعاف القوى والأنفس والعقول، وفي رواية الطبريّ: فإنهنّ ضعاف القوى والأنفس ولم يأت بالعقول. نهى عليه السلام عسكره أن يثيروا غضب نساء البغاة وشرورها ويحرّكوهنّ ويؤذوهنّ مطلقاً حتّى إنّهن إن شتمن أعراضهم وسببن أمراءهم وجب عليهم الإمساك عن ردّ السبّ إليهنّ والكفّ عنهنّ وعدم الاعتناء بشتمهنّ وسبّهنّ.

وعلّل النهي بقوله فإنّهنّ ضعيفات القوى والأنفس والعقول يعني لا يجوز إثارة من بلغن في الضعف هذه الغاية.

قال الشارح البحراني: قوله: (**لا تهيجوا النساء**) المراد بذلك أن لا تثيروا شرورهنّ بأذى وإن بلغن الغاية المذكورة من شتم الأعراض وسبّ الأُمراء وعلّل أولوية الكفّ عنهم «كذا والصواب الكف عنهنّ» بكونهنّ ضعيفات القوى أي ضعيفات القدر عن مقاومات الرجال وحربهم وسلاح الضعيف والعاجز لسانه، وبكونهنّ ضعيفات الأنفس أي لا صبر لنفوسهنّ على البلاء فيجتهدون في دفعه بما أمكن من سبّ وغيره، وبكونهنّ ضعيفات العقول أي لا قوّة لعقولهنّ أن ترى عدم الفائدة في السبّ والشتم وأنّه من رذائل الأخلاق وأنّه يسلتزم زيادة الشرور وإثارة الطباع التي يراد تسكينها وكفّها. انتهى.

أقول: إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أتى في كلامه هذا بحكمين: الأوّل أن لا يهيج قومه نساء أهل البغي ابتداء، والثاني أن يكفّوا عنهنّ إذا شتمنهم لمكان كلمة (**إن**) الوصلية في قوله:

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٧٥ ح ٢٠٠١٤، وبحار الأنوار: ١/ ٣٩٠.

(وإن شتمن أعراضكم وسببن أُمراءكم) وأسلوب الكلام يدلّ على أنّ قوله **(فإنّهنّ ضعيفات القوى والأنفس والعقول)** دليل للنّهي أعني أنّه متعلّق بقوله ولا تهيجوا وما أتى به الشارح المذكور فإنّما هو بيان لسبب شتمهنّ وسبّهنّ، وفحوى الكلام يأبى عن ذلك.

قوله عليه السلام: «إن كنّا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وأنّهنّ لمشركات» وفي نسخة الطبري: ولقد كنّا وإنّا لنؤمر بالكفّ عنهنّ - إلخ، يعني أنّا كنّا في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله مأمورين بالكفّ عنهنّ والحال أنهنّ كنّ مشركات فالكفّ عنهنّ وعدم التعرّض بهنّ والحال أنّهنّ مسلمات على ظاهر الأمر أولى.

فانظر أنَّ الشارع كيف أدّب الرجال في رعاية حقوق النساء وعدم التعرّض بهنّ ولو كنّ مشركات ولعمري ما فرّط الشريعة المحمّديّة بيان حقّ اجتماعي أو نوعي غاية الأمر أنَّ النّاس لتوغّلهم في الشهوات النفسانيّة ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون حتّى عموا وصموا وأعرضوا عن الصراط السّوي واتّبعوا الشيطان المردي المغوي واقتفوا آثار الذين سلكوا طريقة عمياء وتعوّدوا قبول كلّ ما سمعوا من أفواه أشباه الرجال وعبيد الدُّنيا من غير بصيرة وفكرة ودليل ونعم ما قاله الشيخ الرئيس ابن سينا: من تعوّد أن يصدق من غير دليل فقد انسلخ عن الفطرة الإنسانية.

وقد رأينا في عصرنا طائفة من منتحلي الإسلام، المتعصّبين غاية التعصّب، الجاهلين عن أحكام الشريعة الإسلاميّة حقيقةً قد تعرّضوا للنساء الكاشفات الرؤوس والوجوه وكانوا يحثون الأسيد (Acide) عليهنّ ويتركونهنّ في الشوارع والأسواق عراة حتّى بلغ عملهم المنكر العلماء ومنعوهم عنه.

وهؤلاء الجهّال ما تفقهوا في الدِّين لكي يعلموا أنَّ الشريعة الإسلاميّة لم تُجوِّز التعرّض على أعراض النّاس وإن كنَّ مشركات بل حرّم عليهم أن يقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن وتلك الرويّة النكراء والطويّة العوراء منها.

لست أقول إنَّ فعلهنَّ هذا صواب وسيرتهنَّ السيّئة المشوهة القبيحة حسنة بل أقول إنَّ المنكر لا يدفع بالمنكر وللإسلام في كلّ موضوع منطق صواب وحجّة بيضاء، ولا حاجة في دفع الفواحش وقمع المنكرات إلى فعل عارٍ عن حلية العقل، بعيد عن الحقّ، يستشبعه العقل السليم وتشمئزُ منه الطّباع.

قوله عليه السلام: «وإن كان الرجل - إلخ» وفي نسخة الطبري: وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة أو الحديد بعد الأمر بالكفّ عنهنَّ عقّبه بقوله هذا تأكيداً للأمر وتشديداً للكفّ، وتنبيهاً لهم على أنَّ هذا العمل يورث أثرين قبيحين: أحدهما في حياة مرتكبه حيث

يعيّر ويلام به، والآخر بعد حياته حيث يعير عقبه به، فمن عرف قدره وأحبّ نفسه وأهله وعقبه لا يعمل ما يوجب شينه ولومه وتعبير عقبه من بعده وبالجملة جعل حال الرجل الذي كان يضرب المرأة في الجاهليّة بالحجر والعصا يورث له ولعقبه تعيير النّاس وملامتهم عبرة لهم، فنفّرهم عن ذلك العمل أشدّ تنفير.

على أنّه عليه السلام نبّههم بهذا الكلام ضمناً على أنَّ المرء إذا ارتكب في الجاهلية هذا العمل يؤل أمره إلى كذا واجتنابكم عنه وأنتم المسلمون كان أولى، يعني أنَّ شناعة هذا الأمر بيّنة غاية الوضوح حتّى أنَّ الناس في الجاهليّة كانوا يلومون فاعله، فكيف أنتم لا تكفّون عن أذاهنّ وقد رزقتم الانتحال إلى الشريعة السامية المحمّديّة؟.

ثمَّ أنَّ في حقوق المرأة في الإسلام ووظائفها الإجتماعيّة والانفراديّة وسائر آدابها التي بيّنها الشارع تعالى مبحثاً نأتي به إن شاء الله تعالى في شرح وصيته عليه السلام الآتية لابنه المجتبى عند قوله: (**إيّاك مشاورة النساء فإنّ رأيهنّ إلى أفن**) - إلخ[1].

---

(١) قد ذكرنا بعض شؤون النساء وحقوقهم وكيفية تعاملهم مع أبائهم وأزواجهم في كتابنا «فاطمة بنت محمد قدوة للنساء».

الترجمة

یکی از وصیّت های علی امیرالمؤمنین (عليه السلام) است که به سپاه خود در سرزمین صفین پیش از برخوردن به لشکر دشمن (معاویه و پیروانش) و درگرفتن جنگ بیان فرمود:

با ایشان کارزار نکنید تا آنان آغاز جنگ کنند، زیرا بحمدالله شما برحقّید و حجّت با شما است و واگذاشتن شما ایشان را تا آغاز جنگ از آنها بشود حجّتی دیگر مرشما را بر ایشان خواهد بود و چون به خواست خدا بر آنان پیروز شدید و شکستشان دادید آنکه را پشت کرده و روبه فرار گذاشته مکشید و آن که را از در اضطرار به کشف عورت خود پناهنده شد (یا بر آن که بعد از شکست دست یافته اید - یا آن کسی که معلوم نیست که دوست است یا دشمن - یا بر آن که جراحت دیده و زخمی شده) مکشید و زخم مرسانید و زخم خورده ای که در میان کشتگان می بینید بر کشتن او مشتابید و وی را نکشید و زنان را اگرچه عرض شما و بزرگان و پارسایان شما را دشنام دهند و یاوه گویند برمی انگیزانید و اذیت و آزارشان نکنید و به دشنام شان اعتناء نکنید، چه نیرو و جان و خردشان ضعیف است، همانا که ما در زمان پیمبر از پیمبر امر داشتیم که از آنها با این که مشرك بودند خودداری کنیم و دست بداریم (اکنون که به ظاهر مسلمانند) و اگر در زمان جاهلیت مردی زنی را به سنگ و چوب دستی می زد وی را سرزنش می کردند و پس از مرگش فرزندانش را نکوهش می کردند، (زمان جاهلیت که چنین بود، پس مسلمان باید حتماً از این کار ناروا دست بردارد).

وكان يقول ﷺ إذا لقي العدو محارباً
هذا هو المختار الخامس عشر
من باب المختار من كتبه ﷺ

أَللّهُمَّ إِلَيْكَ أَفضَتِ القُلُوبُ، وَمُدَّتِ الأَعْناقُ، وَشَخَصَتِ الأَبْصارُ وَنُقِلَتِ الأَقْدامُ، وَأُنْضِيَتِ الأَبْدانُ.

أَللّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ[1] الشَّنَآنِ، وَجاشَتْ مَراجِلُ الأَضْغانِ.

أَللّهُمَّ إِنّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنا، وَتَشَتُّتَ أَهْوائِنا.

رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ[2].

مصادره وإسناده بطرق عديدة ومدارك
نقله بصور أخرى ممن كانوا قبل الرضي

رواه نصر بن مزاحم المنقري في «صفين» بإسناده عن عمرو بن شمر، عن جابر بن نمير الأنصاري (**ص ٢٥٦ من الطبع الناصري**) وفي نقله زيادة لم يأت بها الرضيُّ في «**النهج**» وقد نقلنا نسخة نصر كاملة في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب (**ص ٣٢٦ ج ١٥**) فلا حاجة إلى نقلها ثانية.

ورواه الشيخ الأجلّ المفيد عن الواقدي في «**الجمل**» (**ص ١٦٥ من طبع النجف**) وقد نقلنا نسخته في شرح «**المختار الثاني**» من باب المختار من كتبه ورسائله (**ص ٥٥ ج ١٧**).

ورواه نصر بن مزاحم على وجوه أُخرى تقرب ممّا سبق ذكره في كتاب «**صفين**» أيضاً بطرق عديدة (**ص ١١٨ و١١٩ من الطبع الناصري**) وهي كما يلي:

عن نصر، عن قيس بن الربيع، عن عبد الواحد بن حسان العجليّ، عمّن حدَّثه، عن عليّ ﷺ أنّه سُمِع يقول يوم صفين: اللّهمَّ إليك رفعت الأبصار، وبسطت الأيدي، ودعت الألسن، وأفضت القلوب، وتُحُوكِمَ إليك في الأعمال، فاحكم بيننا وبينهم بالحقّ وأنت خير الفاتحين، اللّهمّ إنّا نشكو إليك غيبة نبيّنا، وقلّة عددنا، وكثرة عدوّنا وتشتّت أهوائنا، وشدَّة الزّمان، وظهور الفِتن، أعِنّا عليهم بفتح تعجّله، ونصر تعزّ به سلطان الحقّ وتظهره.

---

(١) في نسخة: مكتومُ.

(٢) نهج البلاغة: ٣/١٥ ح ١٥، ومستدرك الوسائل: ١١/١٠٨ ح ١٢٥٥١.

عن نصر، عن عمرو بن شمر، عن عمران، عن سويد قال: كان عليّ عليه السلام إذا أراد أن يسير إلى الحرب قعد على دابّته وقال: الحمد لله ربّ العالمين على نعمه علينا وفضله العظيم، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربنّا منقلبون. ثمَّ يوجّه دابّته إلى القبلة ثمَّ يرفع يديه إلى السماء ثمَّ يقول: اللّهمَّ إليك نقلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وشخصت الأبصار، نشكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرة عدوّنا، وتشتّت أهوائنا، ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ، وأنت خير الفاتحين، سيروا على بركة الله، ثمَّ يُوردُ وَاللَّهِ من اتّبعه حياض الموت[١].

عن نصر، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن تميم قال: كان عليّ إذا سار إلى القتال ذكر اسم الله حين يركب ثمَّ يقول: الحمد لله على نعمه علينا وفضله العظيم سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون، ثمَّ يستقبل القبلة ويرفع يديه إلى الله ثمَّ يقول: اللّهمَّ إليك نقلت الأقدام، واتعبت الأبدان، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وشخصت الأبصار، ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين، سيروا على بركة الله، ثمَّ يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله والله أكبر يا الله يا أحد يا صمد يا ربّ محمّد بسم الله الرَّحمٰن الرحيم لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم إيّاك نعبد وإيّاك نستعين اللّهم كفّ عنّا بأس الظالمين، فكان هذا شعاره بصفّين رضي الله عنه.

أقول: ما نقلنا عن كتاب «**صفين**» لنصر منقول في «**البحار**» أيضاً **(ص ١٠١ ج ٢١، وص ٦٢٨ ج ٨ من الطبع الكمباني)**.

وقال السيّد عليّ بن طاووس قدّس سرّه في «**مهج الدعوات**» **(ص ١٣٨ طبع إيران ١٣٢٩هـ)** نقلاً عن كتاب «**صفين**» لعبد العزيز الجلودي الأزدي البصري المتوفّى سنة ٣٣٢ هـ: كان عليّ عليه السلام إذا سار إلى القتال ذكر اسم الله حين يركب ولما قعد على دابّته قال: سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنَّا إلى ربّنا لمنقلبون الحمد لله على نعمه علينا وفضله العظيم عندنا، ثمَّ استقبل القبلة ورفع يديه وقال: بسم الله الرحمٰن الرَّحيم لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم اللّهمَّ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين يا الله يا رحمٰن يا رحيم يا أحد يا صمد يا إله محمّد إليك نقلت الأقدام وأفضت القلوب، وشخصت الأبصار، ومدّت الأعناق، وطلبت الحوائج، ورفعت الأيدي، اللّهمَّ افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين، ثمَّ قال: لا إله إلاّ الله والله أكبر، ثلاثاً[٢].

---

(١) نهج السعادة: ٢/١٩٣ ح ٢، وميزان الحكمة: ١/ ٥٦٤ بتفاوت.

(٢) بحار الأنوار: ٩٠/٢٤١ بتفاوت.

اللغة

«أفضت» بسكون (**الفاء**) من الإفضاء، أفضى فلان إلى فلان: وصل إليه، وحقيقته أنّه صار في فضائه أي في ساحته، وفي القرآن الكريم: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١]. قال الشيخ الجليل أبو عليّ في تفسير «**المجمع**»: الإفضاء إلى الشيء الوصول إليه بالملامسة وأصله من الفضاء وهو السعة.

وقال المرزوقيُّ في شرح «**الحماسة**» ٢٤٩ لعديل بن الفرخ العجليّ:

فأُوصيكما يا ابنَيْ نزار فتابِعا وصيّة مُفضي النُّصح والصّدق والوُدّ

قوله: ـ مفضى النصح ـ أي واصلٍ نصحه إليكم، وصائرٍ في فضاءٍ وسعة والمعنى انكشافه وخلوصه، وفي القرآن: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أفضى إلى فلان سرّه، أو بسرّه: أعلمه به.

وقال في «**منتهى الأرب**»: الإفضاء راز را باكسى درميان آوردن.

وكلمة أفضت في نسخة خطية من «**النهج**»، وكذا في بعض روايات كتاب «**صفّين**» لنصر مشكولة بفتح (**الفاء**) وهي وهم والصواب ما بيّناه.

«شخصت الأبصار» أي ارتفعت أجفانها ناظرة إلى عفوك ورحمتك وفي رواية من كتاب نصر: (**اللّهمّ إليك رفعت الأبصار**) وفي رواية أُخرى: (**ورفعت الأيدي**) (**وشخصت الأبصار**)، كما تقدّمت وقد مرّ البحث عن معنى كلمة شخص في شرح «**المختار الثالث**» من باب الكتب والرسائل (**ص ١١١ ح ١٧**).

«ونقلت الأقدام» بالنّون، وفي رواية من كتاب «**صفين**» (ص **٢٥٦ من الطبع الناصري وقد ذكرناها في شرح «المختار» ٢٣٦ من باب الخطب ص ٣٢٦ ج ١٥**) ثقلت (**بالثاء**) المثلّثة ولكنها محرّفة لأنّها لا تناسب أُسلوب العبارة في المقام على أنّها لا تفيد معنى صحيحاً، إلاّ أن يتكلف في تأويلها غاية التكلّف.

«أُنضيت الأبدان» أي هزلت، ناقص واوي، قال عارف الطّائي (**الحماسة ٦١٥**).

مَن مُبلِغٌ عمرو بن هندٍ رسالةً إذا استحقبتها العيس تُنضى من البُعْد

أي إذا حملتها الأبال العيس تهزل لبُعد المسافة.

وقال ابن الأثير في «**النهاية**»: في الحديث أنّ المؤمن ليُنضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره أي يهزله ويجعله نضواً، والنضو الدابّة التي أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها. ومنه حديث

عليّ عليه السلام (**كلمات لو ركبتم فيهنّ المطيّ لأنضيتموهنّ**)، وحديث ابن عبد العزيز انضيتم الظهر أي هزلتموه.

«قد صرّح مكنون الشنآن» قوله عليه السلام: (**اللّهمّ قد صرّح**) ـ إلى قوله: (**مراجل الأضغان**)، ليس بمذكور في النسخ الأربع التي رواها نصر في «**صفين**»، وكذا في النسخة التي رواها المفيد في «**الجمل**» عن الواقدي.

ثمّ إنّ كلمة (**صرّح**) في بعض النسخ مشكولة بضمّ (**الصّاد**) وكسر (**الرّاء**) المشدّدة وفي بعضها بفتح (**الصاد**) وضمّ (**الراء**) المخفّفة، وفي نسخة مخطوطة عندنا قوبلت بنسخة الرضي بفتح (**الصاد**) وفتح (**الرّاء**) المشدّدة وهذا هو الحق، يقال: صَرَّحَ الحقُّ عن محضه أي كشف عن خالصه، مثل في ظهور الأمر غبَّ استتاره، وفي «**صحاح**» الجوهريّ: وفي المثل صَرَّح الحقُّ عن محضه أي انكشف.

وفي «**أساس البلاغة**» للزمخشري: صَرَّحتِ الخمرةُ: ذهب عنها الزّبد وصَرَّح النّهار ذهب سحابُه وأضاءت شمسه، قال الطُرمّاح في صفة ذئب.

إذا امتلَّ يعدو قلتَ ظلّ طَخاءة ... دَرَى الريحُ في أعقاب يوم مُصَرِّح

وفي «**الحماسة**»: قال شهل بن شيبان الزّماني (**الحماسة ٢**):

فلمّا صَرَّحَ الشرُّ ... فأمسى وَهْوَ عُرْيانُ

ولم يبقَ سِوَى العُدوا ... نِ دِنّاهُم كما دانُوا

وقال المرزوقيُ في «**الشرح**»: يقال: صرّح الشيء إذا كشفَ عنه وأظهره، وصَرَّح هو إذا انكشف، ومثله بَيَّنَ الشيءَ وبَيَّنَ هو أي تبيّن، وفي المثل «قد بَيَّنَ الصُبحُ لذي عَيْنين» وفَعَّل بمعنى تفعّل واسِعٌ، يقال وَجَّه بمعنى توجّه، وقَدَّمَ بمعنى تَقَدَّم، ونَبَّهَ بمعنى تنبّه، ونَكَّب بمعنى تَنَكَّب. انتهى ما أوردنا من نقل كلامه.

وقرىء في النسخة التي عورضت على نسخة الرضيّ مكنون ومكتوم معاً، ومعنى أحدهما قريب من الآخر أي المخفي والمستور والمغطّى ونظائرها يقال: كنَّ الشيء من باب نصر إذا ستره في كِنّه وأخفاه وغطّاه، والكِنّ وقاء كلّ شيء وستره، وكتم الشيء من باب نصر أيضاً أخفاه والشنآن: العدواة والبغضاء.

«جاشت مراجل الأضغان» جاشت أي غلت، والمراجل القدور جمع المرجل بمعنى القِدْر اسم آلة على وزن مفعل، والأضعان: الأحقاد جمع الضغن.

قال ابن الأثير في «**النهاية**»: يقال: فتح الحاكم بين الخصمين إذا فصل بينهما، والفاتح الحاكم. وفي تفسيري المجمع وغرائب القرآن أنّ ابن عبّاس قال: ما كنت أدري ما الفتح حتّى

سمعت بنت سيف بن ذي يزن وقد جرى بيني وبينها كلام فقالت: انطلق أُفاتحك القاضي أي أُحاكمك إليه[١].

وفي المفردات للراغب: فتح القضيّة فِتاحاً فَصَلَ الأمر فيها وأزال الأغلاق عنها قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ ـ إلخ ومنه الفتّاح العليم، قال الشاعر: وإنّي من فُتاحَتِكم غنيٌّ. وقيل: الفُتاحة بالضمّ والفتح. انتهى.

وقد قال ﷺ في الخطبة التي خطب بها الناس ورواها الكلينيُّ في **«الكافي» (ص ١١ ج ١٤ من «الوافي»)**: **(اللّهمّ فاحكم بيننا بالحقّ وأنت خير الحاكمين)**. وكذا في **«خبر دعائم الإسلام»** الآتي ذكره.

الإعراب

«إليك» ظرف لغو متعلّق بكلّ واحد من الأفعال الخمسة قدّم توسّعاً للظرف وجاز أن يكون لقوله **(أفضت)** مفعول محذوف والتقدير **(اللّهمّ إليك أفضت القلوب سرّها أو بسرّها)**، كما علم في **«بيان اللّغة»**.

«مكنون» أو «مكتوم» مرفوع فاعل لقوله **(صرّح)** وقد دريت في بيان اللّغة أن فعّل بمعنى تفعّل واسع في لغة العرب، و«مراجل» فاعل لقوله **(جاشت)**. «غيبة» منصوبة على المفعوليّة لقوله **(نشكو)**. وكلّ واحد من كثرة **(وتشتّت)** منصوب معطوف عليها.

المعنى

قد تظافرت روايات في أنّهم ﷺ كثيراً مّا كانوا يدعون بأدعية إذا لقوا العدوّ محارباً، وكذا عند إرادة القتال كانوا يدعون بأدعية، كما كانوا يوصون عساكرهم بكلمات من تقوى الله، وإماتة الباطل، وإحياء معالم الدِّين والوفاء بالأمان، ودعوة الأعداء إلى الدِّين قبل الشروع بالقتال، وعدم الإبتداء بالقتال وتعاهد الصلاة والحفظ عليها، والخلوص في الجهاد، وعدم التعرض بالنساء، وحفظ أعراض الناس، وتعليم آداب الجهاد والترغيب فيه وغيرها ممّا لا بدّ للمجاهد في سبيل الله من مراعاتها والمحافظة عليها.

قال ابن قتيبة الدينوريّ في كتاب **«الحرب من عيون الأخبار» (ص ١٢٣ ج ١ طبع مصر)**: حدّثني محمّد بن عبيد قال: حدّثنا معاوية عن أبي إسحاق، عن أبي رجاء قال: كان

---

(١) مجمع البيان: ٤/ ٣٠٥.

النبيُّ ﷺ يقول: إذا اشتدّت حلقة البلاء وكانت الضيقة: «تضيّقي تفرّجي» ثمَّ يرفع يديه فيقول: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم لا حول ولا قوَّة إلاّ بالله العليّ العظيم، اللّهمَّ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اللّهمَّ كفّ عنّا بأس الذين كفروا إنّك أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً، فما يخفض يديه المباركتين حتّى ينزل الله النصر[1].

قال: وحدَّثني محمّد بن عبيد، عن معاوية، عن أبي إسحاق، عن موسى بن عقبة، عن سالم أبي نصر مولى عمرو بن عبيد الله وكان كاتباً له قال: كتب عبد الله بن أبي أوفى حين خرج إلى الحروريّة أنَّ النبيّ ﷺ في بعض أيّامه التي لقي فيها العدوّ انتظر حتّى مالت الشمس ثمَّ قام في النّاس فقال: لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا واصبروا واعلموا أنَّ الجنّة تحت ظلال السيوف ثمَّ قال: اللّهمَّ منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم[2].

قال: وقال أبو النضر: وبلغنا أنّه دعا في مثل ذلك فقال: اللّهمَّ أنت ربّنا وربّهم وهم عبيدك ونحن عبيدك ونواصينا ونواصيهم بيدك فاهزمهم وانصرنا عليهم.

وقال ابن هشام في «**السيرة**»: إنَّ رسول الله ﷺ لمّا اشرف على خيبر قال لأصحابه: قفوا ثمَّ قال: اللّهمَّ ربّ السماوات وما أظللن - إلى آخر ما نقلنا عنه في شرح «**المختار الثاني**» من باب كتبه عليه السلام (**ص ٥٠ ج ١٧**) قال ابن هشام: وكان ﷺ يقولها لكلّ قرية دخلها.

وقال المسعودي في «**مروج الذهب**» (**ص ٨ ج ٢ طبع مصر**) إنَّ عليّاً عليه السلام لمّا خرج مع عسكره من مدينة الرسول إلى البصرة فساروا حتّى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية صلّى أربع ركعات وعفّر خدّيه على التربة وقد خالط ذلك دموعه ثمَّ رفع يديه يدعو: اللّهمَّ ربّ السماوات وما أظلّت إلى آخر ما نقلنا عنه في (**ص ٥٠ ج ١٧**) أيضاً، وقد بيّنا هناك أنَّ كلامه هذا ليس بمذكور في «**النهج**» بما ذكرناه هناك فراجع.

وفي الباب التاسع عشر من كتاب «**الجهاد**» من الجامع الكافي للكلينيّ قدّس سرّه عدّة من أصحابنا عن سهل بن زياد، عن جعفر بن محمّد، عن ابن القدّاح، عن أبيه الميمون، عن **أبي عبد الله** عليه السلام أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا أراد القتال قال هذه الدعوات: اللّهمَّ إنّك أعلمت سبيلاً من سبيلك جعلت فيه رضاك، وندبت إليه أولياءك، وجعلته أشرف سبيلك عندك ثواباً، وأكرمها لديك مآباً، وأحبّها إليك مسلكاً، ثمَّ اشتريت فيه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليك حقّاً؛ فاجعلني ممّن

---

(١) المجتنى من دعاء المجتبى: ٤٩، والبحار: ٨٣/ ٢٢ ح ٢٢.

(٢) مكاتيب الرسول: ١/ ٤٤٠ ح ١٢، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢٨.

اشترى فيه منك نفسه ثمَّ وفى لك ببيعه الذي بايعك عليه غير ناكث ولا ناقض عهداً ولا مبدّلاً تبديلاً بل استيجاباً لمحبّتك وتقرّباً به إليك فاجعله خاتمة عملي وصيّر فيه فناء عمري وارزقني فيه لك به مشهداً توجب لي به منك الرضا، وتحطّ به عنّي الخطايا، وتجعلني في الأحياءِ المرزوقين بأيدي العداة والعصاة تحت لواء الحقّ وراية الهدى ماضياً على نصرتهم قدماً غير مولٍّ دبراً، ولا محدثٍ شكّاً، اللّهمَّ وأعوذ بك عند ذلك من الجبن عند موارد الأهوال، ومن الضعف عند مساورة الأبطال، ومن الذنب المحبط للأعمال فأحجم من شكّ أو أمضى بغير يقين فيكون سعيي في تباب وعملي غير مقبول(١).

أقول: وكلامه هذا أيضاً ليس بمذكور في «**النهج**».

وفي الباب السادس والأربعين من كتاب «**الجهاد**» من مستدرك الوسائل: صاحب الدعائم في شرح الأخبار عن جعفر بن محمّد ﷺ أنّه قال: لمّا توافق النّاس يوم الجمل خرج عليّ ﷺ حتّى وقف بين الصفّين ثمَّ رفع يده نحو السماء ثمَّ قال: يا خير من أفضت إليه القلوب، ودُعي بالألسن، يا حسن البلاء، يا جزيل العطاء أحكم بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الحاكمين(٢).

وفي كتاب «**صفّين**» لنصر (**ص ١١٨ من الطبع الناصري**): الأبيض بن الأغرّ عن سعد بن طريف، عن الأصبغ قال: ما كان عليّ في قتال قطُّ إلاّ نادى يا ﴿كٓهيعٓصٓ ۝﴾.

ثمَّ قال نصر: فحدَّثني مالك بن أعين، عن زيد بن وهب أنَّ علياً خرج إليهم فاستقبلوه فقال: (**اللّهم ربّ السقف المحفوظ المكفوف**) ـ إلى آخر ما نقلناه عن أبي جعفر الطبري في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب (**ص ٢٥٥ ج ١٥**) وأتى به الرضيُّ في «**النهج**» وهو المختار ١٦٩ من باب الخطب وبين النسخ الثلاث اختلاف في الجملة.

وفي مهج الدَّعوات لسيّد بن طاووس (**ص ١٣٦ طبع إيران ١٣٢٩ هـ**) أنَّ أمير المؤمنين ﷺ دعا في يوم الجمل ـ ويروى أنّه دعا بهذا الدُّعاء يوم الجمل قبل الواقعة: اللّهمَّ إنّي أحمدك وأنت للحمد أهل على حسن صنعك إليَّ وتعطّفك عليَّ وعلى ما وصلتني به من نورك وتداركتني به من رحمتك وأسبغت عليَّ من نعمتك فقد اصطنعت عندي يا مولاي ما يحق لك به جهدي وشكري لحسن عفوك وبلائك القديم عندي، وتظاهر نعمائك عليَّ، وتتابع أياديك لديَّ، لم أبلغ إحراز حظّي ولا صلاح(٣) نفسي: ولكنّك يا مولايَ بدأتني أولاً

(١) الكافي: ٤٦/٥ ح ١، ونهج السعادة: ٣١٣/٦ ح ٨٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٠٨/١١ ح ١٢٥٥٠، ونهج السعادة: ٢٩٤/٦ ح ٧٣.

(٣) في نسخة: إصلاح خ ل.

بإحسانك فهديتني لدينك، وعرَّفتني نفسك، ثبّتّني في أُموري كلّها بالكفاية، والصّنع لي، فصرفت عنّي جهد البلاء، ومنعت منّي محذور الأشياء[١] فلست أذكر منك إلاّ جميلاً، ولم أر منك إلاّ تفضيلاً.

يا إلهي كم من بلاء وجهد صرفته عنّي وأريتنيه في غيري، فكم[٢] من نعمة أقررت بها عيني، وكم من صنيعة شريفة لك عندي.

إلهي أنت الذي تجيب عند[٣] الإضطرار دعوتي، وأنت الذي تنفّس عند الغموم كربتي، وأنت الذي تأخذ لي من الأعداء بظلامتي، فما وجدتك ولا أجدك بعيداً منّي حين أُريدك، ولا منقبضاً عنّي حين أسألك، ولا مُعرِضاً عنّي حين أدعوك.

فأنت إلهي أجد صنيعك عندي محموداً، وحسن بلائك عندي موجوداً، وجميع أفعالك عندي جميلاً، يحمدك لساني وعقلي وجوارحي وجميع ما أقلّت الأرض منّي.

يا مولاي أسألك بنورك الذي اشتققته من عظمتك، وعظمتك التي اشتققتها من مشيئتك، وأسألك باسمك الذي علا أن تمنَّ عليَّ بواجب شكري نعمتك.

ربِّ ما أحرصني على ما زهّدتني فيه وحثثتني عليه إن لم تعنّي على دنياي بزهد وعلى آخرتي بتقواى هلكت.

ربِّ دعتني دواعي الدُّنيا من حرث النساء والبنين فأجبتها سريعاً، وركنت إليها طائعاً، ودعتني دواعي الآخرة من الزهد والإجتهاد فكبوت لها، ولم أُسارع إليها مسارعتي إلى الحطام الهامد، والهشيم البائد، والسّراب الذاهب عن قليل.

ربِّ خوّفتني وشوّقتني واحتجبت عليَّ فما خفتك حقّ خوفك وأخاف أن أكون قد تثبّطت عن السعي لك، وتهاونت بشيء من احتجابك[٤].

اللهمَّ فاجعل في هذه الدُّنيا سعيي لك وفي طاعتك، واملأ قلبي خوفك، وحوّل تثبيطي وتهاوني وتفريطي، وكلّما أخافه من نفسي فرقاً منك، وصبراً على طاعتك، وعملاً به يا ذا الجلال والإكرام، واجعل جُنّتي من الخطايا حصينة، وحسناتي مضاعفة فإنّك تضاعف لمن تشاء.

اللّهمَّ اجعل درجاتي في الجنان رفيعة، وأعوذ بك من رفيع المطعم والمشرب، وأعوذ بك من شرّ ما أعلم ومن شرّ ما لا أعلم، وأعوذ بك من الفواحش كلّها ما ظهر منها وما

---

(١) في نسخة: القضاء خ ل.
(٢) في نسخة: وكم.
(٣) في نسخة: في.
(٤) في نسخة: احتجاجك.

بطن، وأعوذ بك ربّي أن أشتري الجهل بالعلم كما اشترى غيري أو السفه بالحلم، أو الجزع بالصبر، أو الضلالة بالهدى، أو الكفر بالإيمان، يا ربّ مُنَّ عليّ بذلك فإنّك تتولّى[١] الصاحين ولا تضيع أجر المحسنين والحمد لله ربّ العالمين[٢].

أقول: وإنّما نقلنا الدُعاء بطوله لأنه من الأدعيّة العالية المضامين كما لا يخفى على المتأمّل ولم يأت به الرضيُّ في «**النهج**»، وكم من أدعيّة له عليه السلام وقد بلغت في الفصاحة والبلاغة درجة رفيعة ومرتبة منيعة غير مذكورة في النهج.

وفي الباب ٤٦ من كتاب «**الجهاد من مستدرك الوسائل**» نقلاً عن الجعفريات: أخبرنا عبد الله بن محمّد قال: أخبرنا محمّد بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه عليّ بن الحسين عن أبيه، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله إذا لقي العدوّ عبّى الرجال وعبّى الخيل، وعبّى الإبل ثمَّ يقول: اللّهمَّ أنت عصمتي وناصري ومانعي اللّهمَّ بك أصول وبك أُقاتل[٣].

قال: وبهذا الإسناد عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: لمّا كان يوم خيبر بارزت مرحباً، فقلت ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله علّمني أن أقوله: اللّهمَّ انصرني ولا تنصر عليَّ، اللهمَّ اغلب لي ولا تغلب عليَّ، اللّهمَّ تولّني ولا تولّ عليَّ، اللّهمَّ اجعلني لك ذاكراً لك شاكراً لك راهباً لك منيباً مطيعاً أقتل أعداءك فقتلت مرحباً يومئذ وتركت سلبه وكنت أقتل ولا آخذ السلب.

قال: وبهذا الإسناد عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعا يوم الأحزاب: اللّهمَّ منزل الكتاب منشر السحاب واضع الميزان أهْزِمِ الأحزاب عنّا وذلّلهم، وفي نسخة: وزلزلهم[٤].

وقال المفيد رحمه الله في «**الإرشاد**»: (**ص ٢١٧ طبع طهران ١٣٧٧ هـ**) روي عن عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنّه قال لمّا أصبحت الخيل تقبل على الحسين عليه السلام رفع يديه وقال: اللّهمَّ أنت ثقتي في كلّ كرب، وأنت رجائي في كلّ شدّة وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد وتقلّ فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدوّ أنزلته بك وشكوته إليك رغبة منّي إليك عمّن سواك ففرّجته عنّي وكشفته فأنت وليّ كلّ نعمة وصاحب كلّ حسنة ومنتهى كلّ رغبة[٥].

---

(١) في نسخة: تولّى. (٢) مستدرك الوسائل: ١١/ ١١١، وبحار الأنوار: ٩١/ ٢٣٥.

(٣) دعائم الإسلام: ١/ ٣٧١، ومستدرك الوسائل: ١١/ ١٠٧ ح ١٢٥٤٨.

(٤) مستدرك الوسائل: ١١/ ١١٠.

(٥) الكافي: ٢/ ٥٧٩، وتهذيب الأحكام: ٣/ ٨٤.

وقد قال الشيخ قدّس سرّه إنّ أبا القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه قال: حدّثني الحسين بن محمد بن عامر، عن رجل، عن ابن أبي عمير، عن حفص البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان من دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الأحزاب: اللّهمّ أنت ثقتي في كلّ كرب وأنت رجائي في كلّ شدّة وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة كم من كرب يضعف عنه الفؤاد وتقلّ فيه الحيلة ويخذل عنه القريب ويشمت به العدوّ وتعنيني فيه الأمور أنزلته بك وشكوته إليك راغباً إليك فيه عمّن سواك ففرّجته شكوته فكفيتنيه فأنت وليُّ كلّ نعمة وصاحب كلّ حاجة ومنتهى كلّ رغبة لك الحمد كثيراً ولك المنّ فاضلاً[1]، انتهى. فكلام سيد الشهداء في كربلاء مقتبس من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عليه السلام تأسّى به صلى الله عليه وآله.

كما أنّ أبا عبد الله الصّادق عليه السلام كان يدعو بهذا الدُّعاء متأسّياً بجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رواه السيد ابن طاووس رحمه الله في باب أدعية الصادق عليه السلام من **«مهج الدّعوات» (ص ٢٦٩)** ونظائر هذه الأدعيّة والأوراد والأذكار عن أئمّتنا الطّاهرين عليهم السلام إذا لقوا العدوّ كثيرة وما أتينا بها هٰهنا شرذمة وأنموزجة عن ما رويت عنهم عليهم السلام ونقل طائفة منها السيد ابن طاووس في **«مهج الدعوات»** وفي الجوامع الروائية كـ**«البحار»** وغيرها مذكورة بإسنادها وسلسلة رواتها صفحنا عن نقلها بأسرها لئلا يفضي إلى الإسهاب

ومن كان طالب الأمر السديد وسالك النهج الرشيد يجب له أن يدين الله بما أوضحه حماة الدِّين ويعبده على سيرة حججه الهادين المهديّين الذين لا يرى في فعلهم غيّ ولا في منطقهم خطأ فإنّهم الحكماء المؤيّدون من عند الله والمؤدّبون بتأديبه تعالى لا يرون في جميع أحوالهم سواء في السرّاء والضرّاء والشدّة والرّخاء والعافية والبلاء إلاّ الله تعالى، ولا يرى منهم عمل إلاّ له تعالى، فطوبى لمن اقتفى أثرهم واقتدى بهديهم.

قوله عليه السلام: «إليك أفضت القلوب ـ إلخ» قد ذكرنا في أبحاثنا السالفة أنّ الجهاد عبادة وأنّه من أعظم العبادات بل أنّه أشرف الأعمال بعد الإسلام كما هو نصّ ما قاله الأمير عليه السلام **(باب ١٥ من كتاب «الجهاد» من «الكافي» ص ٣٣٧ من الطبع على الحجر)**. فلو كان مشوبة بالرياء لم يتقبّل الله وقال عزّ من قائل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾.

ثمّ عند إقبال الجهاد يمتحن الرجال ويميّز الخبيث من الطيّب فمن استعدّ له فقد انقاد المولى وذلّ له.

ولمّا كان بين النفس والبدن ارتباط تامّ، واتّصال كامل بحيث يتأثّر كلّ واحد منهما عن

(١) الكافي: ٢/ ٥٧٩، والأمالي: ٢٧٣ ح ٤.

الآخر كما قدّمنا البحث عنه في شرح «**المختار**» ٢٣٢ من باب الخطب (ص ٥٣ ج ١٥) وأنّ قوى البدن كلّها جنود للنفس فلا جرم ينقاد البدن للنفس ويحكي أحوالها الطارئه لها وإن كان سرّ الحكاية مستوراً عنّا فإنّا نعلم علماً يقيناً أنّ الإنسان إذا تحيّر في أمر أو خجل يطرق رأسه، وإذا أدرك حقيقة واطلع على مبهم معضل يحرّكه علواً وسفلاً، وإذا أدركه كمه يحرّكه يميناً وشمالاً، وإذا صدّق أمراً يؤميه إلى قدّامه وإذا أنكره يؤبيه إلى خلفه، وإذا خاف من شيء ينقبض البدن وتقف القوى عن أعمالها إن كان خوفاً شديداً، أو يدبر ويفرّ إن كان خفيفاً، وإذا غضب على غيره يتسدّل حاجباه وتنقبض ناصيته وتنبسط القوى وتبطش وتقوى على حدّ تخرج الحدقتان محمرّتين ويحمرّ البدن من جهة خروج الدّم إلى ظاهر البدن وقتئذ، وإذا تعجّب من أمر يخرج شفته السفلى ويرفع حاجبيه ويخرج حدقتيه، وإذا تعشق أمراً عرضت له حالة أُخرى وقد يستفاد من حركات اليدين والحاجبين والعينين والشفتين رموز وأُمور لا تحصى، وحالات البدن الحاكية أحوال طارئة للرّوح لا تكاد تمكن أن تحرّر وإذا تأملت في الأحوال المختلفة العارضة للمصلّي في صلاته تنكشف لك أسرار أُخرى فإنّه في تكبيرة الإحرام يرفع يديه إلى حذاء شحمتي أُذنه ويستقبل القبلة ببطون يديه وفي قنوته يرفع يديه على وجه آخر مع ذكر خاصّ وفي ركوعه يمدّ عنقه مع ذكر خاصّ ويفرّج بين أصابعه وجه آخر مع ذكر خاصّ وفي ركوعه يمدّ عنقه مع ذكر خاصّ ويفرّج بين أصابعه ويملأُ بها ركبتيه، وفي سجوده يضمّها ويجعل رأسه بين كفّيه وهكذا حالاته الأخرى في الصلاة لسنا الآن في مقام بيانها ونكتفي بذكر عدّة روايات رواها ثقة الإسلام الكلنيّ رحمه الله في «**الكافي**» ونقلها الفيض رحمه الله في باب الإشارات في الدُّعاء من «**الوافي**» (ص ٢٢٢ ج ٥).

روى الكلينيُّ قدّس سرّه بإسناده عن أبي إسحاق، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الرغبة أن تستقبل ببطن كفّيك إلى السماء، والرهبة أن تجعل ظهر كفّيك إلى السماء وقوله: وتبتّل إليه تبتيلاً قال: الدُّعاء بإصبع واحدة تشير بها والتضرّع تشير باصبعيك وتحرّكهما، والابتهال رفع اليدين وتمدّهما وذلك عند الدّمعة ثمَّ ادع[١].

وروى عن مروك بيّاع اللؤلؤ عمّن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكر الرغبة وأبرز باطن راحتيه إلى السماء وهكذا الرهبة وجعل ظهر كفّيه إلى السماء وهكذا التضرّع وحرّك أصابعه يميناً وشمالاً وهكذا التبتّل ويرفع أصابعه مرّة ويضعها مرّة وهكذا الابتهال ومدَّ يديه (يده ـ خ ل) تلقاء وجهه إلى القبلة ولا يبتهل حتى تجري الدُّمعة[٢].

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٧٩ ح ١، وشرح أصول الكافي: ١٠/ ٢٥٠ ح ١.

(٢) الكافي: ٢/ ٤٨٠ ح ٣، وشرح أصول الكافي: ١٠/ ٢٥١ ح ٣.

وروى بإسناده عن العلاء، عن محمّد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: مرّ بي رجل وأنا أدعو في صلاتي بيساري فقال: يا أبا عبد الله بيمينك فقلت: يا عبد الله إنّ لله تعالى حقّاً على هذه كحقّه على هذه وقال: الرغبة تبسط يديك وتظهر باطنهما، والرهبة تبسط يديك تظهر ظهرهما، والتضرّع تحرّك السبابة اليمنى يميناً وشمالاً، والتبتّل تحرّك السبابة اليسرى ترفعها إلى السماء رسلاً وتضعها، والابتهال تبسط يدك وذراعك إلى السماء، والابتهال حين ترى أسباب البكاء[1].

وروى عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الدعاء ورفع اليدين فقال: على أربعة أوجه، أمّا التعوّذ فتستقبل القبلة بباطن كفّيك، وأمّا الدُّعاء في الرزق فتبسط كفّيك وتفضي باطنهما إلى السماء، وأمّا التبتل فإيماؤك باصبعك السبابة، وأمّا الابتهال فرفع يديك تجاوز بهما رأسك، ودعاء التضرّع أن تحرّك إصبعك السّبابة ممّا يلي وجهك وهو دعاء الخيفة.

وروى عن الخزّاز، عن محمّد قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال: الاستكانة هي الخضوع والتضرُّع رفع اليدين والتضرُّع بهما[2].

وروى عن محمّد وزرارة قالا: قلنا لأبي عبد الله عليه السلام: كيف المسألة إلى الله تعالى؟ قال: تبسط كفّيك، قلنا: كيف الإستعاذة؟ قال: تفضي بكفّيك، والتبتّل الإيماء بالإصبع، والتضرّع تحريك الإصبع، والإبتهال أن تمدّ يديك جميعاً[3].

أقول: لمّا انجرّ كلامنا إلى هنا أقبلنا شهر رجب المرجّب من سنة ستّ وثمانين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة على هاجرها ألف تحيّة وصلاة وسلام، وقد خلت الشهر تسع ليالٍ وهذه ليلة الثلاثاء العاشرة منه، وتذكّرت دعاء كلّ يوم من رجب المرجّب المأثور عن الصادق عليه السلام رواه المجلسيّ رحمه الله في المجلّد العشرين من «**البحار**» (**ص ٣٤٢ من الطبع الكمباني**) قال:

ومن الدّعوات كلّ يوم من رجب ما ذكره الطّرازي أيضاً فقال: دعاء علّمه أبو عبد الله عليه السلام محمّد السجّادَ وهو محمّد بن ذكوان يعرف بالسّجّاد قالوا: سجد وبكى في سجوده حتّى عمى. روى أبو الحسن عليّ بن محمّد البرسيّ رضي الله عنه قال: أخبرنا الحسين بن

(١) الكافي: ٢/ ٤٨٠ ح ٤، وشرح أصول الكافي: ١٠/ ٢٥٢ ح ٤.
(٢) الكافي: ٢/ ٤٨٠، ووسائل الشيعة: ٤/ ١١٠٠ ح ١٢.
(٣) وسائل الشيعة: ٧/ ٤٩ ح ٨٦٨٧.

أحمد بن شيبان قال: حدَّثنا حمزة بن القاسم العلويّ العبّاسي قال: حدَّثنا محمّد بن عبد الله بن عمران البرقي، عن محمّد بن عليّ الهمدانيّ، قال: أخبرني محمّد بن سنان، عن محمّد السجّاد في حديث طويل قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلتُ فداك هذا رجب علّمني فيه دعاء ينفعني الله به، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: اكتب: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم وقل في كلّ يوم من رجب صباحاً ومساءً وفي أعقاب صلواتك في يومك وليلتك: «يا من أرجوه لكلّ خير، وآمن سخطه عند كلِّ شرّ، يا من يُعطي الكثير بالقليل، يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنُّناً منه ورحمة أعطني بمسألتي إيّاك جميع خير الدُّنيا وجميع خير الآخرة، وأصرف عنّي بمسألتي إيّاك جميع شرَّ الدُّنيا وشرَّ الآخرة فإنّه غير منقوص ما أعطيت وزدني من فضلك يا كريم» قال: ثمَّ مدَّ أبو عبد الله عليه السلام يده اليسرى فقبض على لحيته ودعا بهذا الدُّعاء وهو يلوذ بسبّابته اليمنى ثمَّ قال بعد ذلك: «يا ذا الجلال والإكرام يا ذا المنّ والطَّول حرِّم شيبتي على النّار». وفي حديث آخر ثمَّ وضع يده على لحيته ولم يرفعها إلاّ وقد امتلى ظهر كفّه دموعاً. انتهى[1].

فإنَّ في قوله: وهو يلوذ بسبّابته اليمنى إشارة إلى التبتّل والتضرّع والإلتجاء بتحريكها ففي «**النهاية**» الأثيريّة يقال: لاذ به يلوذ إذا التجأ إليه وانضمّ واستغاث. وقال الطُّريحي في «**المجمع**»: وقوله: وتلوذ بسبّابتك أي تتضرع بسبّابتك بتحريكها.

ثمَّ إنَّ الجهاد يستلزم المتاعب من نصب السفر، وحمل الأثقال وأوزار الحرب، وسهر اللّيالي لئلا يأتي العدوّ من مكان مخافةٍ أو أمن وغيرها ممّا يقبل للمجاهدين على أنحاء شتّى.

وهو عليه السلام أشار إلى الأوّل بقوله: (**إليك أفضت القلوب**) أي إنَّ هذه العبادة التي هي أشرف الأعمال خالصة لوجهك الكريم، أو أنها أفضت إليك بسرّها وإنّما تشكو بثّها وحزنها إليك ودخلت بفنائك وساحتك ولا تعبد غيرك ولا تعرف إلاّ إيّاك ولا تقرع إلاّ بابك، وقدم الظرف للحصر.

وإلى الثاني بقوله: (**ومدّت الأعناق وشخصت الأبصار**) لما دريت من أنَّ قوى البدن جنود للقلب وأنَّ البدن يحكي الحالات الطارئة عليه فإذا أخلصت القلوب وانقادت له وطارت ووصلت إليه تمدّ الأعناق تبعاً للقلوب اظهاراً للمذلّة والعبوديّة وترفع الأبصار إليها كذلك لا ترى غيرها ولا ترجو الرحمة والفيض إلاّ من عنده.

وإلى الثالث بقوله: (**ونقلت الأقدام وأُنضيت الأبدان**) لأنَّ متاعب السفر مستلزم للكلال

---

(١) الكافي: ٢/ ٥٨٥، وإقبال الأعمال: ٣/ ٢١١.

والهزال، ولا يخفى لطائف كلامه عليه السلام حيث جمع بين الافضاء والانضاء، وكذا بين عدّة جوارح البدن.

قوله عليه السلام: «اللّهمَّ قد صرّح مكنون الشنآن» بيّن عليه السلام في كلامه هذا أنَّ مقاتلوه كانوا يعاندونه ويبغضونه إلاّ أنّهم كانوا لا يظهرون العداوة والبغضاء لعدم استطاعتهم بالإظهار إمّا لوجود النبيّ عليه السلام وإمّا لفقدانهم أعواناً ولما ارتحل النبيُّ صلى الله عليه وآله أو وجدوا أعواناً أظهروهما وسيأتي قوله عليه السلام في «**المختار**» السادس عشر في معانديه: (**فوالذي فلق الحبّة وبريء النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلمّا وجدوا أعواناً عليه أظهروه**).

وقد تظافرت الآثار على أنَّ شبل أسد الله أبا عبد الله الحسين عليه السلام لمّا احتجَّ في الطفِّ على شذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب بما احتج إلى أن أنهى كلامه لهم بقوله: فبم تستحلّون دمي[1]؟ أجابوه بقولهم: بغضاً لأبيك.

وإنّما استكنّوا في صدورهم عداوة أمير المؤمنين عليه السلام لما رأوا منه في بدر وأُحد وغيرهما من المواطن وقد مضى في الكتاب العاشر قوله عليه السلام لمعاوية: (**فأنا أبو حسن قاتل جدّك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر**) - إلخ، وناهيك في ذلك عمل يزيد برأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله إبرازاً للعداة المستجنّة في صدره حيث دعا بقضيب خيزران فجعل ينكت به ثنايا الحسين وجعل يتمثّل بأبيات عبد الله بن الزبعري وأضاف بعض أشعاره إليها فقال:

ليت أشياخي ببدرٍ شَهِدوا	جَزَعَ الخزرج من وَقْعِ الأسَلْ
لأهلّوا واستهلّوا فَرَحاً	ثمَّ قالوا يا يزيدُ لا تَشَلْ
فقتلنا الضِّعفَ من أشرافهم	وعَدَلنا ميلَ بدرٍ فاعتَدَل
لعبت هاشمُ بالملك فلا	خبرٌ جاءَ ولا وحيٌ نزل
لستُ من خندف إنْ لم أنتقم	من بني أحمدَ ما كان فعل

وقيل: إنّه قالها بعد وقعة الحرَّة بدليل قوله: جزع الخزرج فإنَّ المراد من الخزرج الأنصار كانوا في المدينة لأنَّ الأنصار كانوا من قبيلتي الأوس والخزرج وقد قتل الأنصار في وقعة الحرة، وأن الأبيات ليزيد نفسه قالها على وزن أبيات ابن الزِّبَعْري، ولكنّه وهم، وقد قال المبرّد في «**الكامل**» (**ص ٢٥٧ ج ٢ طبع مصر**): قال ابن الزبعري في يوم أُحد: ليت أشياخي - إلخ. وكذا قال ابن هشام في «**السيرة النبوية**» (**ص ١٣٦ ج ٢ طبع مصر ١٣٧٥ هـ**) إنّ ابن الزبعري قال في يوم أُحد: ليت أشياخي - إلخ، وقد أتى بستّة عشر بيتاً قالها ابن

(١) الأمالي: ٢٢٣، وصحيفة الحسين: ٣٠٢.

الزبعري في ذلك اليوم ثمّ بعده نقل خمسة عشر بيتاً قالها حسّان بن ثابت الأنصاريّ ردًّا على ابن الزبعري وقد استشهد بأحد من الأنصار اثنا عشر رجلاً كما قال ابن هشام في السيرة **(ص ١٢٢ ج ٢)** ولذا قال ابن الزبعريّ: جزع الخزرج.

بيان: قوله: وعدلنا ميل بدر فاعتدل، يعني أنّ أشياخهم الكافرين لمّا قتلوا في بدر بأيدي المسلمين صار قتلهم سبباً لاعوجاج أمرهم وشأنهم وما زال كان معوجّاً حتّى أنّ من بقي منهم قتلوا جماعة من المسلمين في أحد فاستقام أمرهم أي اعتدل الميل والإعوجاج.

وقال أبو عليّ القالي في **«الأمالي» (ص ١٤٢ ج ١ طبع مصر ١٣٤٤ هـ)**: قال يعقوب بن السّكّيت: العرب تقول: لأقيمنّ مَيْلَكَ وجَنَفَك ودَرءَك وصغاك وصَدغَك وقَذْلَك وضَلْعَك كلّه بمعنى واحد، يقال: ضَلْع فلان مع فلان أي ميله، وقال غيره: فأمّا الضِّلَع فَخِلْقَة تكون في الإنسان، وقرأت على أبي بكر بن دريد لأبي كبير الهُذَليّ:

نضع السُّيُوف عَلى طوائفَ منهم فنقيمُ منهم ميلَ ما لم يُعْدَل

الطَّوائف: النَّواحي: الأيدي والأرجل والرُّؤوس، وقوله: **(ميل ما لم يعدل)**، قال: ميله فضله وزيادته، وإنّما يريد أنّ هؤلاء القوم كانوا غَزَوْهم فقتلوهم فكأنّ ذلك القتل ميلٌ على هؤلاء القوم، ثمّ إنّ هؤلاء القوم المقتولين غَزَوْهم بعدُ فقتلوهم فكأنّ قتلهم لهم قيامٌ[1] للميل، وهذا كقول ابن الزِّبَعْري:

* وأقَمنا ميلَ بدر فاعتَدَل *

يقولها في يوم أُحد، يقول: اعتدل ميلُ بدر إذ قتلنا مثلهم يوم أُحد. انتهى.

أقول: ما أفاد القالي يرجع بالدّقيق من النظر إلى المعنى الذي تبادر إليه ذهننا أوّلاً، ثمّ إنّ البيت قد نقل هكذا:

قد قتلنا القَرْمَ من ساداتهم وقتلناه ببدر فاعتدل

ولكنّ المصراع الثّاني محرّف، والصواب ما اخترناه وهو الذي أتى به ابن **هشام** في **«السيرة النبويّة»** والقالي في **«الأمالي»**.

قاله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وجاشت مراجل أضغانهم» شبّه صدورهم بالقدور وبيّن أنّها أكنان الأضغان أي إنّ مظروفها الأحقان الكامنة الواغرة فيها في حياة رسول الله ﷺ وقبل وجدان الأعوان وقد غلت الآن بما تيسّر لهم ممّا هي كالنّار الموقدة المغلية لها.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللّهم إنّا نشكو إليك غيبة نبيّنا وكثرة عدوّنا وتشتّت أهوائنا» لمّا كان القوم

---

(١) في نسخة: إقامةٌ.

لم يقدروا في زمن رسول الله ﷺ على إظهار الضغائن وإبراز السرائر وتشتّت الأهواء وبموته اصطلحوا على الشقاق والنفاق والمعاداة على كلمة الله العليا وحجّته على عباده وافتراق الكلمة شكى عليه السلام بلسانه ولسان تابعيه إليه تعالى غيبة نبيّه.

قوله عليه السلام: «ربّنا افتح - إلخ» ثمّ انقطع إلى الله تعالى والتجأ إليه واستغاث منه فسأله عن نفسه وعن أتباعه أن يحكم بينه وتابعيه وبين أعدائهم بالحقّ وإن كان عالماً بأنّ الله سيفعله إلاّ أنّه استفتح استنصارٌ من الله ورغبة منه إليه تعالى وإخباراً عن نفسه بأنه على الطريقة المثلى وعن أعدائه بأنّهم على العمياء وأنّهم فريق حقَّ عليهم الضلالة.

ثمّ إنّه عليه السلام طلب من الله تعالى أن يفرق بينه وبين أعدائه ويبعدهم عنه ويفصل بينهما لما دريت من أنَّ الفتح هو الفصل فإذا حكم بينهما بالفصل يميز الطيب من الخبيث والحق من الباطل وعند ذلك يفتضح الباطل ويحلّ إلى دار البوار فكأنَّ هذا القول دعاء عليهم، والمراد أنّه عليه السلام دعا عليهم أن ينزل الله عليهم عذاباً يدلّ على كونهم مبطلين وعلى أنّه عليه السلام وقومه محقّين، ولم يصرّح في كلامه هذا أن أيّهما على الحقّ وأيّ فريق على الباطل بل أبهم في ذلك لأنّه أدلّ على المقصود وأشدّ في تبكيت الخصم وأوفق بأسلوب المحاورة.

وهذا الكلام اقتباس من القرآن العظيم حكاه الله تعالى عن نبيّه شعيب صلوات الله عليه مع قومه حيث قال عزَّ من قائل: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

ويُعجبني في «المقام» نقل خطبة من عبد الله بن عبّاس رحمه الله فإنّه أجاد بما أفاد ونطق بالحقّ وهدى إلى الرشاد والسداد وأوصى وصيّة مفضي النُّصح والصّدق والوداد نقلها نصر بن مزاحم في كتاب «صفّين» **(ص ١٦٤ من الطبع الناصري)** قال نصر: قال عمر: حدّثني خالد بن عبد الواحد الجزري قال: حدّثني من سمع عمرو بن العاص قبل الوقعة العظمى بصفّين وهو يحرّض أصحابه بصفّين فقام محنياً على قوس فقال - وبعدما نقل قول عمرو بن العاص قال: ثمّ قام عبد الله بن العبّاس خطيباً فقال: الحمد لله ربّ العالمين الذي دحى تحتنا سبعاً وسمك فوقنا سبعاً ثمّ خلق فيما بينهنّ خلقاً، وأنزل لهم فيها رزقاً، ثمّ جعل كلّ شيء يبلى ويفنى غير وجهه الحيّ القيّوم الذي يحيى ويبقى، ثمّ إنَّ الله بعث أنبياء ورسلاً فجعلهم حججاً على عباده عذراً ونذراً، لا يطاع إلاّ بعلمه وإذنه يمنُّ بالطاعة على من يشاء من عباده ثمّ يثيب عليها، ويعصى فيعفو ويغفر بحلمه، لا يُقدَّر قدْره، ولا يبلغ شيء مكانه، أحصى كلّ شيء عدداً وأحاط بكلّ شيء علماً.

ثمَّ إنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله صلّى الله عليه إمام الهدى والنبيّ المصطفى وقد ساقنا قدر الله إلى ما قد ترون حتّى كان فيما اضطرب من حبل هذه الأمّة وانتشر من أمرها أنَّ ابن آكلة الأكباد قد وجد من طغام أهل الشام أعواناً على عليّ بن أبي طالب ابن عمّ رسول الله وصهره وأوّل ذكر صلى معه بدريّ، قد شهد مع رسول الله ﷺ كلّ مشاهده التي فيها الفضل ومعاوية وأبو سفيان مشركان يعبدان الأصنام.

واعلموا والله الذي ملك الملك وحده فبان به وكان أهله لقد قاتل عليٌّ بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ وعليٌّ يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب الله ورسوله، فما معاوية في هذه بأبرّ ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلكم، فعليكم بتقوى الله والجدّ والحزم والصبر، والله إنّكم لعلى الحقّ، وإنَّ القوم لعلى الباطل فلا يكوننَّ أولى بالجدّ في باطلهم منكم في حقكم.

أما والله إنّا لنعلم أنَّ الله سيعذّبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم، اللّهمَّ ربّنا أعنّا ولا تخذلنا وانصرنا على عدوّنا ولا تخل عنّا وافتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أقول قولي وأستغفر الله لي ولكم[1].

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٤٨٩ ح ٤٢١، وشرح النهج: ٥/٢٥٢.

الترجمة

اميرالمؤمنين (عليه السلام)با دشمن كارزاركننده روبرو مى شد، مى گفت: بارخدايا، دل هاى ما به سوى تو كوچ كرده و در كوى تو آرميده است و گردن ها در بندگى تو كشيده شده و چشم ها به روى تو گشوده گشت و پاها به جانب تو رهسپار شده و بدنها در راه تو نزار گرديده است. بارخدايا، دشمنان ما دشمنى هاى ديرينه را آشكار كردند و سينه هايشان كه آكنده از كينه بود چون ديگ به جوش آمد. بارخدايا، از نبودن پيغمبر خود و بسيارى دشمنان و پراكندگى و اختلاف انديشه هايشان به تو شكايت آوريم (كه قوم از نبودن پيغمبر ميدان گرفتند و درپى اظهار دشمنى نهفته و ابراز كينه نهانى برآمدند).

مهر درخشنده چو پنهان شود شب پره بازى گر ميدان شود

پروردگار ما، ميان ما و اين گروه به حق حكم به فرما (تا محق از مبطل براى همه آشكار شود) كه تو بهترين حكم كنندگانى.

وكان يقول عليه الصلاة والسلام لاصحابه عند الحرب وهذا هو المختار السادس عشر من باب المختار من كتبه ورسائله عليه السلام

لا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَها كَرَّةٌ، وَلا جَوْلَةٌ بَعْدَها حَمْلَةٌ. وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَها. وَوَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصارِعَها. وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ، والضَّرْبِ الطِّلَخْفِيِّ. وَأَمِيتُوا الأَصْواتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. والذي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ما أَسْلَمُوا ولكِنِ اسْتَسْلَمُوا وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ فَلَمّا وَجَدُوا أَعْواناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ[1].

المصدر

قوله هذا على النضد المذكور ما وجدناه فيما حضرني من الكتب والرسائل مع طول الفحص وكثرة الطلب إلاّ أنَّ المجلسي رحمه الله قد نقله في المجلّد الثامن من «**البحار**» (**ص ٦٢٦ من الطبع الكمباني**) وفي المجلّد الحادي والعشرين (**ص ١٠٢ من ذلك الطبع**) عن «**نهج البلاغة**» أيضاً ولم يذكر مأخذاً آخر.

وكذا نقله المحدّث النوري في كتاب «**الجهاد**» من المستدرك عن النهج بلا ذكر سند آخر وفيه نقل ـ ازمروا ـ بالزاي ولكنّه تصحيف من الناسخ (**ص ٢٥٩ ج ٢**) وكذلك في الموضع الثاني من «**البحار**».

نعم قد وجد متفرقاً في أقواله الأُخرى المرويّة في الجوامع الروائية مما سنتلوها عليك، ولا بعد أن يكون هذا القول ملتقطاً منها لما قد نبّهناك عليه غير مرَّة من أنَّ هذه عادة الرضيّ رضوان الله في النهج، فإنَّ غرضه كان التقاط الفصيح والبليغ من كلامه ولعلّه نقله عن مأخذ لم يحضرنا والله تعالى هو العالم، ولكنَّ المتدرّب في أساليب الكلام يعلم أنَّ قوله عليه السلام: «والذي فلق الحبّة ـ إلخ» خارج من أُسلوب ما قبله وسيأتي رواية نصر في كتاب «صفين» المتضمّنة هذا القول ويعلم أنّه في رواية على حدة وبالجملة لو لم نقل أنَّ عبارات هذا المختار ملفقة من أحاديث شتّى فيكون ذيلها أعني والذي فلق إلى آخره التقط من رواية آت نقلها ولفّق إلى ما قبله فممّا لا ينبغي أن يرتاب فيه، فنقول:

قد رويت عنه عليه السلام في الجوامع الروائية والمجاميع التي دوّنها القدماء في أُمور متنوّعة وعلوم متفنّنة، وكتب المغازي والملاحم والتواريخ والسّير روايات متظافرة ووصايا متكاثرة

(١) نهج البلاغة (محمد عبده): ٣/١٦، ونهج السعادة: ٨/٣٤٩ ح ٥٠.

بطرق عديدة وإسناد كثيرة في آداب الحرب ورسومها وهي سننٌ كليّة لن تجد لها بمضيّ اللّيالي والأيّام وانصرام الشهور والأعوام تبديلاً ولا تحويلاً، اللّهمّ إلاّ في آلات السلاح وأوزار الحرب ونذكر في «**المقام**» ما وجدناها في مظانٍّ مآخذها بالفحص والطّلب، وفيها توجد ما أتى بها الرضيُّ هٰهنا على أنَّ مصادر طائفة ممّا في «**نهج البلاغة**» تعلم بنقلها طائفة من أقوالها التي حرّض بها الناس على الجهاد.

ففي الباب الخامس عشر من كتاب «**الجهاد**» من فروع الكافي لقدوة المحدِّثين الكلينيّ قدّس سرّه (**ص ٤٣٩ من الرحلي المطبوع على الحجر**) وفي «**الوافي**» (**ص ٢٠ ج ٩**): وفي كلام له آخر - يعني أمير المؤمنين عليه السلام بقوله له -. وإذا لقيتم هؤلاء القوم غداً فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فإذا بدؤوكم فانهدوا إليهم، وعليكم السّكينة والوقار، وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبأ للسيوف عن الهام، وغضّوا الأبصار، ومدّوا جباه الخيول ووجوه الرجال وأقلّوا الكلام فإنّه أطرد للفَشَل وأذهب بالوَهَل، ووطّنوا أنفسكم على المبارزة والمنازلة والمجاولة، واثبتوا واذكروا الله عزَّ وجلَّ كثيراً فإنَّ المانع للذِّمار عند نزول الحقائق أهل الحفاظ الذي يحُفُّون براياتهم، ويضربون حافّتيها وأمامها، وإذا حملتم فافعلوا فعل رجل واحدٍ، وعليكم بالتّحامي فإنَّ الحربَ سِجال، لا يَشُدُّون عليكم كرّةً بعد فرَّةٍ، ولا حملةً بعد جَوْلةٍ، ومن ألقى إليكم السّلام فاقبلوا منه، فاستعينوا بالبصر، فإنَّ بعد الصبر النصر من الله عزّ وجلّ، إنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين[1].

أقول: روي قوله عليه السلام في هذه الرّواية بلفظ: «أقلّوا الكلام فإنّه أطرد للفشل» وروي في كلامه المقدّم ذكره من النهج بلفظ «أميتوا الأصوات فإنّه أطرد للفشل».

وفي رواية أُخرى من «**الكافي**» أعني حديث مالك بن أعين الذي أتينا به في مصادر الوصيّة الرابعة عشرة من «**المختار**» من باب الكتب والرسائل بلفظ «أميتوا الأصوات فإنّه أطرد للفشل».

وفي رواية نصر في «**صفين**» (**ص ١٠٦ من الطبع الناصري**) بصورة: «وغضوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلّوا الكلام» وقد نقلنا روايته كاملة في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب (**ج ١٥ ص ٢٢٢**) وتوافق رواية نصر رواية أبي جعفر الطبري في «**التاريخ**» (**ص ٧ ج ٤**) وقد مضى نقل روايته في شرح «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب أيضاً (**ج ١٥ ص ٢٣٨**).

ثمّ إنّه عليه السلام على رواية «**الكافي**» نبّه أصحابه بقوله: «لا يشدّون عليكم كرَّةً بعد فرَّة، ولا حملة بعد جولة» على أنَّ إدبار الخصم ربّما لا يكون عن هزيمة وذلك لأنَّ الأعداء قد يولّون

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥/٩٦ ح ٢٠٠٥٨، وبحار الأنوار: ٣٢/٥٦٤ ح ٤٦٩.

الأدبار عن الحرب خدعة لكي يغترّ المقاتلون المقابلون لهم بادبارهم عنها فيحسبون أنهم هزموا فيذهبون في آثارهم متفرّقين وبعدما سلكوا مسافة كذلك يرجع إليهم الأعداء بغتةً ويحملون عليهم حملة يد واحدة ورجل واحدٍ فيهزمونهم.

وعلى رواية النهج وصّى عليه السلام أصحابه كذلك بقوله: «لا تشتدَّنَّ عليكم فرّة بعدها كرّة، ولا جولة بعدها حملة» أي أنّكم إذا رأيتم المصلحة في الفرار لجذب العدوّ إلى حيث تتمكنوا منه فلا يشق عليكم ولا تستصعبوه فإنَّ الحرب خدعة.

أو يقال في تفسير هاتين الجملتين أنّه عليه السلام نبّه أصحابه في الأولى على أن يواظبوا أنفسهم من الأعداء وإن فرّوا عن هزيمة واقعاً، وذلك لأنَّ الأعداء ربّما ينهزمون ثمَّ يكرّون على الفئة الغالبة لما رأو أنّهم خرجوا من مكامنهم وانتشروا في معسكرهم واطمأنّوا بالغلبة على فرارهم وخرجوا من أوزار الحرب واشتغلوا بأنفسهم وغيرها ممّا لا يحصى كثرة أحوالها وأطوارها.

وفي الثانية حرّضهم بأنّكم إذا اتّفقت لكم الهزيمة من العدوّ وفررتم فلا تستحيوا من الكرة عليهم ثانياً ولا تحسبوها عاراً فإن هذه الكرة تتدارك الغرة ويناسب هذا التفسير الثاني قوله المرويُّ في «**المستدرك**» عن فرات بن إبراهيم الآتي نقله: عاودوا الكرَّ واستحيوا الفرَّ.

وفي «**الإرشاد**» للمفيد رحمه الله (**ص ١٢١ طبع طهران ١٣٧٧ هـ**): ومن كلامه عليه السلام حين دخل البصرة وجمع أصحابه فحرّضهم على الجهاد فكان ممّا قال: عباد الله انهدوا إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم بقتالهم فإنّهم نكثوا بيعتي، وأخرجوا ابن حنيف عاملي بعد الضّرب المبرِّح، والعقوبة الشديدة، وقتلوا السّيابجة، ومثلوا حكيم بن جبلة العبدي، وقتلوا رجالاً صالحين، ثمَّ تتبّعوا منهم من نجى يأخذونهم في كلِّ حائط وتحت كلِّ رابية، ثمَّ يأتون بهم فيضربون رقابهم صبراً، ما لهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون؟ انهدوا إليهم وكونوا أشدّاء عليهم، والقوهم صابرين محتسبين تعلمون أنّكم منازلوهم ومقاتلوهم ولقد وطّنتم أنفسكم على الطّعن الدَّعسي، والضرب الطّلحفي، ومبارزة الأقران، وأيُّ امرىء منكم أحسَّ من نفسه رباطةَ جأشٍ عند اللّقاء ورأى من أحدٍ من إخوانه فشلاً فليذبَّ عن أخيه الذي فضل عليكم كما يذبُّ عن نفسه فلو شاء الله لجعله مثله[1].

أقول: إنّه عليه السلام قال في كلامه هذا: «ولقد وطّنتم أنفسكم على الطّعن الدعسي والضرب الطلحفي» وهو يشابه قوله المقدَّم «واذمروا أنفسكم على الطعن الدعسي والضرب الطّلخفي إلاّ أنَّ المفيد روى (**الطلحفي**) بالحاء المهملة، وقد روى قوله عليه السلام في «**الجمل**» (**ص ١٦٢**

(١) نهج البلاغة: ٢/٢ ح ١٢٣، وبحار الأنوار: ١٧١/٣٢.

من طبع النجف) ونسخة في «**الجمل**»: «وقد وطّنتم أنفسكم على الضرب والطعن» من غير ذكر كلمتي (**الدعسي والطلحفي**)، وقد مضى نقل نسخة الجمل هذه في شرح «**المختار**» الثاني من كتبه ورسائله (ص ٥٢ ج ١٧)[١].

وفي كتاب «**صفين**» لنصر (**ص ١٢٠ من الطبع الناصري**) عن عمر بن سعد، عن الرّحيم بن عبد الرّحمٰن، عن أبيه أنّ عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام حرّض النّاس فقال: إنَّ الله عزّ وجلّ قد دلّكم على تجارة تنجيكم من العذاب، وتشفى بكم على الخير: إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيله، وجعل ثوابه مغفرة الذّنوب، ومساكن طيّبةٍ في جنات عدنٍ ورضوان من الله أكبر، فأخبَرَكُم بالذي يُحِبُّ فقال: إنَّ الله يُحبُّ الذين يقاتِلونَ في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص فسوُّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص، وقدِّموا الدّارعَ، وأخّروا الحاسِرَ، وعضُّوا على الأضراس فإنّه أطرد للفشل وأولى بالوقار، والتووا في أطراف الرِّماح فإنّه أمور للأسنّة وراياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلاّ في أيدي شجعانكم المانعي الذّمّار والصّبرُ عند نزول الحقائق، أهل الحفاظ الذين يحُفّون براياتِكم، ويكتنفونها يضربون خلفها وأمامها ولا تُضيّعوها، أجزاء كلّ امرىء منكم رحمكم اللّهِ قِرْنَه وواسى أخاه بنفسه، ولم يكل قِرْنَه إلى أخيه فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه فيكتسب بذلك لائمةً ويأتي به دناءة، وأنّى هذا وكيف يكون هكذا؟ هذا يقاتل اثنين، وهذا ممسك يَده قد خلّى قرنه إلى أخيه هارباً منه وقائماً ينظر إليه من يفعل هذا يمقته الله فلا تعرَّضوا لمقتِ الله فإنّما مَرَدُّكم إلى الله قال الله لقوم: قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتّعون إلاّ قليلاً، وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة، استعينوا بالصّدق والصبر فإنّه بعد الصبر ينزل النصر[٢].

وفيه أيضاً (**ص ١٣٠ من ذلك الطبع**): عن عمر، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب أنّ عليّاً لمّا رأى ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافّها وكشف من بإزائها حتّى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم فأقبل حتّى انتهى إليهم فقال: إنّي قد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، وتحوُزكم الجُفاة الطُّغاة وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب، والسّنام الأعظم، وعُمّار اللّيل بتلاوة القرآن وأهل دعوة الحقّ إذا ضلّ الخاطئون فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكرُكم بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المُوَلّي يوم الزّحف دُبُره، وكنتم فيما أرى من الهالكين، ولقد هوَّن عليّ بعض وجدي، وشفى بعض حاج نفسي أنّي رأيتكم بآخرة حِزْتموهم كما حازوكم وأزلتموهم عن مصافّهم كما أزالوكم، تحوزونهم بالسيوف ليركب أولهم آخرهم كالإبل المطرودة إليهم فالآن فاصبروا، انزلت عليكم السكينة وثبّتكم الله

---

(١) مستدرك الوسائل: ١١/ ٨٦، والإرشاد: ١/ ٢٦٦.

(٢) مستدرك الوسائل: ١١/ ٧١ ح ١٢٤٥٥، وبحار الأنوار: ٩٧/ ٢٨ ح ٣٦.

باليقين، وليعلم المنهزم أنه مُسخِط لِرَبِّه، ومُوبِقٌ نَفْسَه، وفي الفرار مَوْجِدة الله عليه، الذلّ اللازم، وفساد العيش، وأنّ الفارّ لا يزيد الفرار في عمره، ولا يرضى ربّه فموت الرجل مُحقّاً قبل إتيان هذه الخصال خيرٌ من الرِّضا بالتلبُّس بها والإقرار عليها[١].

أقول: الرّواية الأُولى قد ذكر طائفة منها العلامة ابن خلدون في الفصل السابع والثلاثين من الباب الثالث من «**المقدمة**» وقال: انظر وصية عليّ ﷺ وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه قال في كلام له: (**فسوُّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص**) - وفيه: (**واخفتوا الأصوات فإنّه أطرف للفشل وأولى بالوقار**) (**ص ٢٧٥ طبع مصر**).

وقد رواها أبو جعفري الطّبري في «**تاريخه**» عن أبي مخنف (**ص ١١ ج ٤**) ولكن بين النسختين تفاوتاً في الجملة وأرى أنّ نسخة نصر أصحّ وأمتن وقد مضى نقل نسخة الطبري في «**شرح المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب (**ص ٢٥٧ ج ١٥**) وقد رواها المفيد في «**الإرشاد**» (**ص ١٢٧ طبع طهران ١٣٧٧ هـ**) وتخالف الأُوليين في الجملة، وهي رواية مالك بن أعين المروية في الباب الخامس عشر من «**جهاد الكافي**» (**ص ٣٣٨ من الطبع الرحلي المطبوع على الحجر ١٣١٥ هـ**) وقد أشرنا آنفاً إلى نقله في مصادر «**المختار**» الرابع عشر من باب الكتب إلاّ أنّ بين روايتي الكافي ونصر اختلافاً كمّاً وكيفاً وقد أتى الكلينيّ قدّس سرّه بزيادة فيها لم يأت بها نصر في «**صفّين**» وهي من قوله: «ولا تمثّلوا بقتيل - إلى قوله: فيعيّر بها وعقبه من بعده».

والرّواية الثانية مرويّة في «**الكافي**» أيضاً بعد الرّواية الأُولى وإن كان يوجد بينهما اختلاف أيضاً: فعلى نسخة «**الكافي**»: قال عليه السلام: إنّي رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم تحوزكم الجفاة الطّغاة وأعراب أهل الشام وأنتم لها ميم العرب والسّنام الأعظم وعُمّار اللّيل بتلاوة القرآن، ودعوة أهل الحق إذا ضلّ الخاطئون فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكرّكم بعد انحيازكم لوجب عليكم ما يجب على المُولّي يوم الزّحف دبره، وكنتم فيما أرى من الهالكين ولقد هوّن عليّ بعض وجدي، وشفى بعض حاج صدري إذ رأيتكم حزتموهم كما حازوكم فأزلتموهم عن مصافّهم كما أزالوكم وأنتم تضربونهم بالسيوف حتّى ركب أوّلهم آخرهم كالإبل المطرودة إليهم الأنّ، فاصبروا نزلت عليكم السكينة، وثبّتكم الله باليقين، وليعلم المنهزم بأنّه مسخط ربّه، وموبق نفسه، إنّ في الفرار موجدة الله[٢] والذلّ اللازم، والعار الباقي، وأنّ الفارّ لغير مزيد في عمره، ولا محجور بينه وبين يومه، ولا يرضى ربّه، ولموت الرّجل محقّاً قبل إتيان

---

(١) نهج البلاغة: ٢/١٦ ح ١٦، وبحار الأنوار: ٣٢/١٧١ ح ١٣١.

(٢) في نسخة: موجدة الله عليه.

هذه الخصال خير من الرِّضا بالتلبيس بها، والإقرار عليها[١].

قوله: إليهم الآن: فعلى نسخة «**صفّين**» **ظرف (والنون)** مخفّفة، وعلى نسخة «**الكافي**» من الأنين وهي مثقّلة، والفرق بين سائر العبائر ظاهر.

ورواية نصر الثانية مذكورة في «**جهاد البحار**» أيضاً (**ص ٩٩ ج ٢١ من الطبع الكمباني**) قال: وقال: نصر بن مزاحم، عن عمر بن سعد، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب أنَّ عليّاً ـ إلخ، فأسقط عمر بن سعد في الطبع الناصري.

ثمَّ تجد رواية مالك بن أعين في «**الكافي**» والتي نقلناها عن «**الكافي**» أولاً مشتركتين في جملة من الألفاظ والجمل والعبارات، كما أنَّ نسختي نصر والكافي منقولتان عن مالك بن أعين إلاّ أنَّ الأُولى منهما ذكرت أنَّ مالك بن أعين روى عن زيد بن وهب، والثانية اكتفت بذكر مالك.

وقد مضى كلامنا في «**شرح المختار**» ٢٣٦ من الخطب (**ص ٢٥٧ ج ١٥**) أنَّ نسخة تاريخ الطبري أعني الرواية الأُولى من كتاب «**صفّين**» لنصر مذكورة في «**النهج**» وهو المختار ١٢٢ من باب الخطب أوّله: (**فقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبا للسيوف عن الهام**) ـ إلى آخره، ونزيدك هٰهنا بياناً فنقول: ذلك المختار المذكور ملتقط وملفق من عدّة روايات إحداها هي الرواية الأُولى من كتاب «**صفّين**» التي رواها ثقة الإسلام الكلينيّ في «**الكافي**»، وأبو جعفر الطبريّ في «**التاريخ**»، والشيخ الأجلّ المفيد في «**الإرشاد**» كما مرَّ آنفاً وهذه الرّواية التقطت وذكرت في صدر «**المختار**» ١٢٢ المذكور من أوّله إلى قوله عليه السلام: (**لا تسلموا من سيف الآخرة**).

والثانية هي الرّواية الثانية من كتاب «**صفّين**» لنصر التي رواها الكلينيّ في «**الكافي**» أيضاً وهي قوله عليه السلام: (**إنّي رأيت جولتكم وانحيازكم**) ـ إلخ، وقد التقط منها قوله عليه السلام: «وأنتم لهاميم العرب ـ إلى قوله: لا محجوز بينه وبين يومه» المذكور في ذلك «**المختار**».

الثالثة ما رواها نصر في «**صفين**» أيضاً (**ص ٢٠٧ من الطبع الناصري**) قال: حدَّثني رجل عن مالك الجهني، عن زيد بن وهب أنَّ عليّاً عليه السلام مرَّ على جماعة من أهل الشام بصفّين فيهم الوليد بن عقبة وهم يشتمونه ويقصبونه فأخبروه بذلك فوقف في ناس من أصحابه فقال: انهدوا إليهم وعليكم السكينة وسيما الصّالحين ووقار الإسلام والله لأقرب قوم من الجهل بالله عزَّ وجلَّ قومٌ قائدهم ومؤدّبهم معاوية، وابن النّابغة، وأبو الأعور السُّلَمي، وابن أبي معيط شارب الخمر والمجلود حدًّا في الإسلام وهم أولى يقومون فيقصبونني ويشتمونني، وقبل

(١) الكافي: ٥/٤١، ووقعة صفين: ٢٥٦.

اليوم ما قاتلوني وشتموني وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، فالحمد لله ولا إله إلاّ الله، وقديماً ما عاداني الفاسقون، إنَّ هذا لهو الخطب الجليل أنَّ فسّاقاً كانوا عندنا غير مرضيّين، وعلى الإسلام وأهله متخوّفين حتّى خدعوا شطر هذه الأُمّة فأشربوا قلوبهم حُبَّ الفتنة فاستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، وقد نصبوا لنا الحرب، وجدّوا في إطفاء نور الله والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون، اللّهمَّ فإنّهم قد ردّوا الحق فافضض جمعهم، وشتّت كلمتهم، أبسلهم بخطاياهم فإنّه لا يذلّ من واليت، ولا يعزّ من عاديت[١].

وقد أتى بذيلها المفيد قدّس سره في **«الإرشاد» (ص ١٢٦ طبع طهران ١٣٧٧ هـ)** ويوجد اختلاف يسير بينهما.

الرّابعة رواية رواها نصر في صفين أيضاً بعد الرّواية الثالثة عن نمير بن وعلة عن عامر الشعبي أنَّ عليّ بن أبي طالب ﷺ مرَّ بأهل راية فرآهم لا يزولون عن موقفهم فحرَّض النّاس على قتالهم وذكر أنّهم غسّان فقال: إنَّ هؤلاء القوم لن يزولوا عن موقفهم دون طعنٍ دراك يخرج منه النسيم وضرب يفلق الهام ويطيح العظام، وتسقط منه المعاصم والأكُفّ حتّى تصدع جباههم، وتنثر حواجبهم، على الصّدور والأذقان، أين أهل الصبر وطُلاّب الخير؟ أين من يشري وجهه لله عزَّ وجلّ، فثابت إليه عصابة من المسلمين فدعا ابنه محمّداً فقال له: امش نحو هذه الرّاية مشياً رويداً على هنيأتك حتّى إذا أشرعت في صدورهم الرّماح فامسك يدك حتّى يأتيك أمري ورأيي[٢].

وقد أتى بشطر من هذه الرواية الشيخ الأجل المفيد في **«الإرشاد» (ص ١٢٧ و١٢٨)** من الطبع المقدم ذكره.

وقد التقط من هاتين الروايتين قوله ﷺ: «اللّهمَّ فإن ردّوا الحقَّ - إلى قوله: ويندر السواعد والأقدام» المذكور في ذلك المختار.

الخامسة رواية رواها نصر في **«صفين» أيضاً (ص ٢٨٣ من الطبع الناصري)** عن عمر بن سعد، عن إسحاق بن يزيد، عن الشعبيّ أنَّ عليّاً ﷺ قال يوم صفّين حين أقرَّ النّاس بالصُّلح: إنَّ هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحقّ ولا ليجيبُوا إلى كلمة السّواء حتّى يُرْمَوا بالمناسر تتبعها العساكر، وحتّى يُرجَموا بالكتائب تقفوها الجلائب وحتّى يُجرَّ ببلادهم الخميسُ يتلوه الخميس حتّى يدعق الخيول في نواحي أرضهم وبأحناء مساربهم ومسارحهم، وحتّى تُشنَّ

---

(١) الإرشاد: ١/ ٢٦٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٣٩١.

(٢) الإرشاد: ١/ ٣٦٧، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٤٩٤ ح ٤٢٦.

عليهم الغارات من كلُ فجّ، وحتّى تلقاهم قومٌ صُدُوقٌ صُبُرٌ لا يزيدهم من هلك من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلاّ جدًّا في طاعة الله، وحِرْصاً على لقاءِ الله، ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً، ومُضياً على أمضّ الألم، وجدًّا على جهاد العدوّ، والإستقلال بمبارزة الأقران، ولقد كان الرَّجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيّهما سقى صاحبه كأس المنون فمَرَّةً لنا من عدوِّنا، ومرَّةً لعدوِّنا منّا، ولمّا رآنا الله صُبُراً صُدُقاً أنزل الله بعدوِّنا الكَبْتَ، وأنزل علينا النَّصر، ولعمري لو كنّا نأتي مثل الذي أتيتم ما قام الدِّين ولا عزَّ الإسلام، أيم الله لتجلبنَّها دماً فاحفظوا ما أقول لكم[1] ـ يعني الخوارج. انتهى.

ورواها الشيخ الأجل المفيد في الإرشاد **(ص ١٢٨ طبع طهران ١٣٧٧ هـ)** وبين النسختين اختلاف يسير، وهي مروية في الكتاب المنسوب إلى سليم بن قيس الكوفي **(ص ١١٨ من طبع النجف)** وهي تخالف روايتي نصر والمفيد.

وقد التقط من هذه الرّواية قوله: «حتّى يرموا بالمناسر ـ إلى قوله: مساربهم ومسارحهم» المذكور في ذيل ذلك المختار من النهج، وإنّما بقي من ذلك المختار قوله عليه السلام: «الرائح إلى الله كالظمآن ـ إلى قوله: إلى ديارهم» فلم نجد مأخذه بعد ولعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، والعارف بأساليب الكلام المتدرّب فيها يرى تلفيقه وانضمامه من أساليب شتّى وإن كانت كلّها ممّا أفاضها المرتضى روحي له الفداء، وقد مرَّ منّا الإشارة غير مرَّة إلى أنَّ غرض الرّضيّ في النهج كان التقاط الفصيح من كلامه وانتخاب بليغه، ويا ليت الرضيّ أتى في النهج بجميع الروايات المتقدّمة لأنها فوق كلام البشر ودون كلام الخالق والكلّ فصيح بليغ.

وفي مستدرك الوسائل **(الباب ٣٢ من كتاب الجهاد ص ٢٥٨ ج ٢)** للمحدِّث النوري رحمه الله قال:

فرات بن إبراهيم الكوفي في تفسيره عن إبراهيم بن بنان الخثعمي، عن جعفر بن محمّد بن يحيى بن شمس، عن عليّ بن أحمد بن الباهلي، عن ضرار بن الأزور أنَّ رجلاً من الخوارج سأل ابن عبّاس عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأعرض عنه ثمَّ سأله فقال: لقد كان والله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام يشبه القمر الزّاهر، والأسد الخادر ـ إلى أن قال: وقد رأيته يوم صفّين وعليه عمامة بيضاء وكأنَّ عينيه سراجان وهو يتوقّف على شرذمة يحضّهم ويحثّهم إلى أن انتهى إليّ وأنا في كنف من المسلمين فقال عليه السلام: معاشر الناس استشعروا الخشية،

(١) نهج البلاغة: ١/١٠٥، وبحار الأنوار: ٢/٢٣٨.

وأميتوا الأصوات، وتجلببوا بالسكينة، واكملوا اللأمة، وقلقلوا السّيوف في الغمد قبل السلّة، والحظوا الشّزر، واطعنوا الخزَز، ونافحوا بالظُّبى، وصِلُوا السّيوف بالخُطا، والرِّماح بالنبال، فإنّكم بعين اللهمع ابن عمِّ نبيِّكم، عاوِدوا الكرَّ، واستحيوا الفرَّ فإنّه عارٌ باقٍ في الأعقاب، ونار يوم الحساب، فطيبوا عن أنفسكم نفساً، واطووا عن الحياة كشحاً وامشوا إلى الموت مشياً - إلى أن قال: ألا فسوّوا بين الرُّكب، وعضّوا على النواجد. واضربوا القوابض[1] بالصوارم، واشرعوا الرِّماح بالجوانح شدّوا فإنّي شاذّ ما هم **(ماحم - خ)** لا ينصرون[2]. الخبر.

وروي هذا الخبر أعني خبر فرات بن إبراهيم في تفسيره المجلسيُّ في الثامن من البحار **(ص ٥١٨ من الطبع الكمباني)** بتمامه.

وأتى به الرضيُّ في المختار الرابع والستين من باب الخطب من النهج أوله: **(معاشر المسلمين استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة)** - إلخ.

وقد رواه المسعودي في مروج الذهب (ص ٢٠ ج ٢ **من طبع مصر ١٣٤٦ هـ**) وقد نقلنا نسخته في شرح المختار ٢٣٦ (ص ٢٥٤ ج ١٥). وأتى به الخواجه نصير الدِّين الطوسي قدِّس سرّه في الباب السابع والثلاثين من أخلاق محتشمي.

وقال الجاحظ في **«البيان والتبيين»** (ص ٢٨٥ ج ٢ **طبع مصر ١٣٨٠ هـ**): قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه **(يعني يوم صفين) (عضُّوا على النواجذ من الأضراس فإنه أنبَى للسيوف عن الهام)**، انتهى، ولم ينقل من كلامه عليه السلام أكثر من ذلك كما هو دأبه في ذلك الكتاب غالباً من التقاط بعض الجمل وترك الأُخرى.

ونقل ما أتى به الجاحظ ابن قتيبة الدينوري في كتاب الحرب من **«عيون الأخبار» (ص ١٣٣ ج ١ من طبع مصر)** وقال أيضاً (ص ١١٠ ج ١): ذكر ابن عبّاس عليّاً عليه السلام فقال: ما رأيت رئيساً يوزن به، لرأيتُه يوم صفّين وكأنَّ عينيه سراجاً سَليط وهو يحمّس أصحابه إلى أن انتهى إليَّ وأنا في كَنْفٍ فقال: معشر المسلمين استشعروا الخشية، وقلقلوا السُّيوف في أغمادها قبل السَّلّة، والحظوا الشَّرز، واطعنوا النَّبر، ونافِحُوا بالظُّبا، وصلُوا السُّيوف بالخُطا والرِّماحَ بالنّبل وامشوا إلى الموت مشياً سُجُحاً، وعليكم بهذا السّواد الأعظم، والرَّواق المطنّب فاضربوا ثبجه فإنَّ الشيطان راكد في كسره، نافج حُصيبه، مفترش ذراعيه، قد قدَّم للوثبة يداً، وأخَّرَ للنكوص رجلاً[3].

---

(١) في نسخة: للقوانص.

(٢) مستدرك الوسائل: ١١/ ٨٤، وبحار الأنوار: ٣٢/ ٦٠٦.

(٣) بحار الأنوار: ٣٢/ ٦٠٦، ونهج السعادة: ٨/ ٣٥٢.

وروى الكلينيّ قدّس سرُّه في آخر الباب الخامس عشر من جهاد الكافي **(ص ٣٣٩ من الطبع على الحجر)** بإسناده عن حريز، عن محمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه لأصحابه: إذا لقيتم عدوّكم في الحرب فأقلّوا الكلام واذكروا الله عزَّ وجلَّ ولا تولّوهم الأدبار فتسخطوا الله تبارك وتعالى وتستوجبوا غضبه وإذا رأيتم من إخوانكم المجروح ومن قد نكل به أو من قد طمع عدوُّكم فيه فقوه بأنفسكم[١].

وروى أبو جعفر الطبريّ في **«التاريخ» (ص ٧ ج ٤)** ونصر في **«صفّين» (ص ١٠٦)** بإسنادها إلى الحضرميّ قال: سمعت عليّاً عليه السلام عرض في الناس في ثلاثة مواطن في يوم الجمل ويوم صفّين ويوم نهروان فقال: **(عباد الله اتّقوا الله عزَّ وجلّ وغضّوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلّوا الكلام)** - إلى آخر ما مضى في شرح المختار ٢٣٦ من باب الخطب **(ص ٢٢٢ و٢٣٨ ج ١٥)**.

فمن هذه الروايات دريت أنّه عليه السلام كان يأمر أصحابه باخفاء الصوت تارةً بقوله: **(أميتوا الأصوات)**، وأُخرى بقوله: **(أميتوا الأصوات فإنه أطرف للفشل)** ومرّةً بأنّه أطرد للفشل وأولى بالوقار، وأُخرى بقوله: **(وعنّوا الأصوات)**، وهو من التعنية أي الحبس والأسر، ودفعةً بقوله: **(فعمّوا الأصوات)** كما في نسخة أُخرى، وهو من التعمية بمعنى الإخفاء، وأُخرى بقوله: **(اخفضوا الأصوات)**، وفي نسخة: **(اخفتوا الأصوات)** كما علم من نقلها مصادر صدر هذا المختار الذي نحن بصدر الشرح عليه وإنّما بقي ذكر مأخذ قوله عليه السلام: «والذي فلق الحبّة» - إلخ فنقول:

رواه نصر بن مزاحم في كتاب **«صفّين» (ص ١١٠ و١١١ من الطبع الناصري)** عن أبي عبد الرحمٰن المسعودي قال: حدّثني يونس بن الأرقم بن عوف، عن شيخ من بكر بن وائل قال: كنا مع عليّ عليه السلام بصفّين فرفع عمرو بن العاص شقّة قميصة سوداء في رأس رُمح. فقال ناس: هذا لواء عقده له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يزالوا كذلك حتّى بلغ عليّاً، فقال عليٌّ: هل تدرون ما أمر هذا اللّواء؟ إنَّ عدوَّ الله عمرو بن العاص أخرج له رسول الله هذه الشقة فقال: من يأخذها بما فيها؟ فقال عمرو: وما فيها يا رسول الله؟ قال: فيها أن لا تقاتل به مسلماً، ولا تقربه من كافر، فأخذها فقد والله قربه من المشركين وقاتل به اليوم المسلمين، والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرُّوا الكفر فلمّا وجدوا أعواناً رجعوا إلى عداوتهم منّا إلاّ أنّهم لم يدعوا الصّلاة[٢].

(١) الخصال: ٦١٧، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٩٧ ح ٢٠٠٥٩.

(٢) شرح الأخبار: ٢/ ١٥٥ ح ٤٧٥، وبحار الأنوار: ٣٢/ ١٨٦.

أقول: وقد روي نحو كلامه هذا من أبي اليقظان وعمّار بن ياسر رحمة الله عليهما والظاهر أنّه اقتبس من كلام إمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وقد رواه نصر في صفّين، كما روى نحوه من ابنه محمّد ابن الحنفيّة رضوان الله عليه فدونك ما روي عنهما.

قال بعد نقل كلامه هذا: أخبرني عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت قال: لمّا كان قتال صفّين قال رجل لعمّار: يا أبا اليقظان ألم يقل رسول الله ﷺ: قاتلوا النّاس حتّى يسلموا فإذا أسلموا عصموا منّي دماءهم وأموالهم؟ قال: بلى، ولكن واللَّهِ ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرُّوا الكفر حتّى وجدوا عليه أعواناً.

عن نصر عن قطرب بن خليفة، عن منذر الثّوري قال: قال عمّار بن ياسر: والله ما أسلم القوم ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر حتّى وجدوا عليه أعواناً.

عن نصر، عن عبد العزيز قال حبيب بن أبي ثابت قال: حدَّثني منذر العلوي قال: قال محمد بن الحنفيّة لما أتاهم الله من أعلى الوادي ومن أسفله وملأ الأودية كتائب: استسلموا حتّى وجدوا أعواناً.

اللغة

(اشتدّ عليه الأمر) أي شقَّ عليه واستصعبه، يقال: اشتدّ عليه المرض أي زاد وعظم، وهو تفتعل من الشدّ.

(الفرّة): الفرار، فعلة للمرّة، والكرّة: الجوع، والحملة في الحرب.

«الجولة» مصدر، أي الدوران في الحرب يقال: جال القوم جولة إذا انكشفوا ثمَّ كرّوا وقال عبد الشّارق بن عبد العزّى الجهني **(الحماسة ١٥٢)**.

سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجُلْنا جولةً ثمَّ ارعوينا

وقال الشارح المرزوقي: يقول: قرع أسماعنا في أثناء التهيُّؤ والتَّطالع دعوةٌ تأدّب من مكان غائب عن عيوننا فدُرنا دورة ثمَّ رجعنا إلى أماكننا.

وفي منتهى الأرب جال في الحرب جولة بالفتح من باب نصر: گرد بر آمد.

«السّيوف» جمع السيف معروف، وهو مأخوذ من قولهم: ساف إذا هلك لأنه به يقع الهُلْك. قال القلقشندي في «صبح الأعشى» **(ص ١٣٩ ج ٢ طبع مصر)**: السيف إن كان من حديد ذكر ـ وهو المعبّر عنه بالفولاذ ـ قيل: سيف فولاذ.

وإن كان من حديد أُنثى ـ وهو المعبر عنه في زماننا بالحديد ـ قيل: سيف أنيث، فإن

كان متنه من حديد أُنثى وحدّاه من حديد ذكر كما في سيوف الفِرِنْجَة قيل: سيف مذكّر، ويقال: إنَّ الصّاعقة إذا نزلت إلى الأرض وردّت[1] صارت حديداً، وربّما حفر عليها واخرجت فطبعت سيوفاً فتجيء في غاية الحسن والمضاء.

ثمَّ إن كان عريض الصّفيح قيل له: صفيحة، وإن كان محدقاً[2] لطيفاً قيل له: قضيب؛ فإن كان قصيراً قيل: أبتر؛ فإن كان قِصَره بحيث يحمل تحت الثياب ويشتمل عليه قيل: مِشْمَلٌ - بالكسر -.

فإن كان له حدّ واحد وجانبه الآخر جاف قيل فيه: صمصامه: - وبهذا كان يوصف سيف عمرو بن معدي كرب فارس العرب، فإن كان فيه حُزوز مستطيلة[3] قيل فيه: فقارات - بذلك سمّي سيف رسول الله ﷺ: ذا الفقار، يروى أنه كان فيه سبع عشرة فقارة.

ثمَّ تارة ينسب السّيف إلى الموضع الذي طبع فيه، فيقال فيما طبع بالهند: هِنديٌّ ومهنّدٌ، وفيما طبع باليمن: يَمانٍ، وفيما طبع بالمَشارف - وهي قرى من قرى العرب قريبة من ريف العراق - قيل له: مشرِفيّ؛ فإن كان من المعدن المسمّى بقُساس وهو معدن موصوف بجودة الحديد قيل له: قُساسي.

وتارة ينسب السيف إلى صاحبه كالسيف السُّرَيحي - نسبة إلى قين من قيون العرب اسمه: سُرَيْح معروف عندهم بحسن الصنعة.

ويوصف السيف بالحُسام وهو القاطع أخذاً من الحسم وهو القطع، وبالصّارم وهو الذي لا ينبو عن الصريبة.

«وطّنوا» بالنّون كما في النسخة الخطيّة التي عندنا قوبلت على نسخة الرضيّ، وفي نسخة الجامع الكافي وغيرها ممّا تلوناها عليك، يقال: وطّن البلد توطينا أي اتّخذه محلاً ومسكناً يقيم به، ووطّن نفسه على الأمر وللأمر أي مهّدها لفعله وذلّلها وحملها عليه، قال سيّار بن قصير الطائي (**الحماسة ٣٠**).

لو شهدت أمُّ القُدَيد طِعاننا ... بمرعَشَ خيلَ الأزمنيّ أرنَّتِ
عشيّةَ أرمي جمعهم بلَبانه ... ونفسي وقد وطّنتُها فاطمأنّت

وفي «**أساس البلاغة**» للزمخشري: وطّنت نفسي على كذا فتوطّنَتْ. قال:

(١) في نسخة: بردت.

(٢) في نسخة: مدقيقاً.

(٣) في نسخة: مطمئنة.

ولا خير فيمن لا يُوطّن نَفْسَه　　على نائبات الدهر حين تنوبُ

وفي غير واحدة من النسخ المطبوعة والخطيّة كتبت: وطّئوا بالهمزة من التوطئة أي التمهيد يقال وطّأ الأمر إذا مهّده.

(والجنوب) جمع الجنب بالفتح فالسكون كفلس وفلوس يقال بالفارسية: پهلو وقال الراغب في المفرات: أصل الجنب الخارجة وجمعه جُنوب قال الله عزَّ وجلَّ «فتكوى بها جباههم وجنوبهم» وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ وقال عزّ وجلّ: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ثمَّ يستعار في الناحية التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال كقول الشاعر: من عن يميني مرَّة وأمامي.

«المصارع» جمع المصرع، يقال: صرعه على الأرض صَرْعاً من باب منع أي طرحه عليها، والمصرع مكان الصرع، ومصارع القوم حيث قُتلوا.

«اذمروا» **(بالذّال)** المعجمة أُخت **(الدّال)** المهملة، ذمره على الأمر بالتخفيف من باب نصر، وبالتّشديد أيضاً حضّه مع لومٍ ليجدّ فيه يقال: القائد يَذْمُر أصحابه في الحرب أي يسمعهم المكروه ليشحذهم، ورأيتهمْ يتذامرون في الحرب، وأقبل يتذمّر أي يلوم نفسه على التفريط في فعله وهو ينشطها لئلا تفرط ثانية، وفلان يتذّمر ويرفع أذياله ويتشمّر، وهو ذمْرٌ من الأذمار: شجاع، قاله في الأساس وذَمَرْتُه أذمُرُه ذَمْراً حَثَثْتُه، ذَمار اسم فعل للحضّ على الحرب وتذامَرَ القومُ أي حثَّ بعضهم بعضاً وذلك في الحرب.

«الدعسيّ» الدَّعْس بالفتح فالسكّون: الدفع في الأصل، ثمَّ يستعمل في الطّعن وشدة الوطأ والجماع، قاله المرزوقي في شرحه على الحماسة قال العبّاس بن مرداس **(الحماسة** ١٥١):

إذا ما حملنا حَمْلةً نصبوا لنا　　صدور المذاكي والرِّماح الدَّواعسا

وقال قتادة بن مسلمة الحنفي **(الحماسة ٢٥٨)**:

وفي النقع ساهمة الوجوه عوابس　　وبهنّ من دَعْس الرِّماح كُلُوم

قال الجوهري في الصحّاح. الدَّعس بالفتح: الأثر، يقال: رأيت طريقاً دَعْساً أي كثير الآثار، والمدعاس الطريق الذي ليّنته المارّة والدّعس: الطعن وقد يكنّى به عن الجماع، ودعستُ الوعاء: حشوتُه، والمدعس: الرُّمح يدعس به، ويقال: المداعس الصمّ من الرّمح، انتهى ما أردنا من نقل كلامه، يقال: بينهم مداعسة أي مطاعنة بالرماح، وفي القاموس: الدَّعس كالمنع: حشو الوعاء.

وبما ذكرنا علمت أنَّ الطّعن بمعنى الضرب بالرِّماح فإنَّ الدعسي صفة للطعن والدعس

والدواعس والمدعس والمداعس قد استعملت في فصيح الكلام للرّماح فقط، وقد قال الأشتر في أبياتٍ آتٍ نقلها:

فاصبروا للطّعان بالأسَل السُّمـ ـرِ وضَربٍ يجري به الأمثال

والأسل بالتحريك في الأصل نبات دقيق الأغصان تتّخذ منه الغرابيل ويقال للرّماح الأسل على التشبيه والمُستدقّ اللّسان والذّراع الأسَلة.

«الطّلخفيّ» بكسر (**الطاء**) وفتح (**اللام**) وسكون (**الخاء**) المعجمة، قال الجوهريُّ في مادة (**ط خ ف**) من الصّحاح: ضَربٌ طِلَخفٌ بزيادة (**اللام**) مثال جِبَجر أي شديد، وقال الصّفي پوری في منتهى الأرب: ضرب طلخف كهزبر زدگى سخت، لام زائد است.

وجاءت الطلحفي في غير واحدة من النسخ (**بالحاء**) المهملة ولكن نسختنا التي قوبلت على نسخة الرضيّ مضبوطة بالمعجمة والمهملة كالمعجمة معنى يقال: ضربته ضرباً طِلْحيفاً وطِلَحَفاً وطِلْحفاً وطَلَحفى وطِلحفى وطِلحافاً أي شديداً، وقالوا إنَّ (**اللاّم**) في المهملة أصليّة، وقال في القاموس بعد ضروب اللّغات في الطلحفي المهملة: (**واللام**) أصليّة لذكرهم الطّلحفي في باب فعلّى مع حَبرَكى ووهم الجوهري.

أقول: زيادة (**اللام**) أوّل الكلمة وحشوها قليلة جدًّا وأمّا في الآخر فقد ثبت في الأعلام كزيدل وعبدل في زيد وعبد ولكن عدم زيادتها أوّلاً وحشواً، فممّا لم يثبت بل لها نظير والجوهريّ ذهب إلى أنّ (**اللام**) في الطّلخفي المعجمة زائدة ولم يأت بالمهملة في الصحاح وذكر الصفي پوري المعجمة في مادّة (**ط خ ف**) وصرّح بأنَّ (**اللاّم**) زائدة والمهملة في (**ط ل ح ف**) وبين بأنّها أصلية، فإسناد الوهم إلى الجوهري وهم.

ثمَّ إنَّ المعجمة في المعاجم التي عندنا مضبوطة على الوجه المقدّم ذكره إلاّ في أقرب الموارد فإنّه قال في طلخف (**بالخاء**) المعجمة: ضرب طلخيف (**بالخاء**): (**كالحاء**) في لغاته.

«إماتة الصوت»: إخفاؤه.

«الطّرد»: الإبعاد، تقول طَردته فاطّرد أي أبعدته فابتعد.

«الفشل» بالتحريك: ضعفٌ مع جبن مصدر من فشل الرجل من باب علم إذا جبن وضعف وتراخى عند حرب أو شدّة. قال الفيوميّ في مصباح المنير: فشل فشلاً فهو فشِلٌ عن باب تعب وهو الجبان الضعيف القلب.

تقول: دعي إلى القتال ففشل أي جبن، قوّته فهو فَشِل وفشيل وفشْل وقال الطّرمّاح مستهزءاً برجلٍ:

فقُد بزمام بظر أُمك واحتفر بأير أبيك الفشل كرّات عاسم

وهو من أبيات الحماسة (٦٢٨) وقد يروى في البيت الفسل أيضاً.

وعزم على كذا ثمّ فشل عنه أي نكل عنه ولم يمضه.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال: ٤٣]. ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٣].

«فلق»: شق، وقال ابن الأثير في النهاية: فيه ـ يعني في الحديث «من أعتق نسمة أو فكّ رقبة» النسمة: النفس والروح أي من أعتق ذا روح، وكلّ دابّة فيها روح فهي نسمة وإنّما يريد النّاس ومنه حديث عليّ عليه السلام **(والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة)** أي خلق ذات الروح وكثيراً ما كان يقولها إذا اجتهد في يمينه، انتهى.

الإعراب

(النون) المثقلة من **(تشتدنَّ)** نون تأكيد، **(عليكم)** ظرف لغو متعلّق بالفعل، **(فرّة)** فاعل الفعل، «بعدها كرّة» خبر ومبتدأ قدّم الخبر توسعاً للظروف والجملة صفة **(للفرّة)**، **(ولا جوله بعدها حملة)** عطف على **(فرّة بعدها كرّة)** والكلام فيها كالأُولى، ومفعول **(وطّنوا)** محذوف إن أخذ التوطين بمعنى التمهيد على وجه ستعرفه أي وطّنوا أنفسكم، أو أن حرف التعريف في الجنوب بدل من المضاف إليه كما سيعلم وجهه في المعنى، **(على الطّعن)** ظرف لغو متعلّق بقوله: **(اذمروا)**، **(وياء)** الدعسي للنسبة. وقال بعض المتأخّرين في تعاليقه على النهج: **(الدّعسيّ)** اسم من الدّعس أي الطّعن الشّديد فإن عني أن كلمة **(الدّعسيّ)** إحدى اللّغات في الدعس غير أنّها اسم للدّعس لا تساعده المعاجم والكتب الأدبيّة، **(والدعسي)** على أيّ نحو كان صفة **(للطعن)**، وكذلك **(الطلخفي)** صفة **(للضرب)** فإن كانت **(بالخاء)** المعجمة **(فالياء)** مشدّدة للنسبة، وإن كانت **(بالحاء)** المهملة في مقصورة إحدى اللّغات الخمس فيها، والضمير في أنه راجع إلى المصدر أعني الإماتة المستفاد من قوله: **(أميتوا)** كقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ولا بأس بتذكير الضمير لمكان المصدر، وكلمة **(أطرد)** للتفضيل والمفضّل منه محذوف بقرينة المقام أي أن أماتة الأصوات أطرد للفشل من إعلانها، «والذي» كلمة **(الواو)** للقسم متعلّقه محذوفاً وجوباً فإنّها لا تدخل إلاّ على مظهر ولا تتعلّق إلاّ بمحذوف. **(فلق الحبّة)** صلة للّذي **(وبرأ النسمة)** عطف عليها. «ما اسلموا» جواب للقسم، وكلمة **(ما)**

نافية. (لمّا علم) للظّرف وهو لوقوع الشيء لوقوع غيره والشيء الأوّل في المقام اظهارهم الكفر، والثاني وجود الأعوان عليه.

المعنى

قوله عليه السلام: «لا تشتدّنّ عليكم فرّة بعدها كرّة ولا جولة بعدها حملة» قد علمت آنفاً أنّه عليه السلام قد كان ينبّه أصحابه على أن لا يغترّوا بفرار الأعداء من المعارك فإنّ الفرار قد يكون عن حيلة وخدعة فيولّون الأدبار لكي يفرجوا الذين يقاتلونهم ويغرّوهم ويُغْروهم باتّباعهم آثارهم مهرعين ويخرجوهم من مكامنهم ظنّاً منهم بأنّهم انهزموا وما كان فرارهم عن هزيمة، وبعدما أفرجوهم برهةً من الزّمان يعطفون ويقبلون عليهم ويحملونهم حملة رجل واحد فيهزمونهم، كما كان هذا لتنبيه هو المرويّ عن الكافي حيث أيقظ عليه السلام أصحابه بقوله: «لا يشدّون عليكم كرّةً بعد فرّة، ولا حملة بعد جولة».

وهٰهنا أرشدهم إلى أنّ الحرب خدعة، وفرٌّ وكرٌّ فإن علموا أنّ مقتضى الحال في القتال يوجب أن يولّوهم الأدبار ويخيّلوهم ويروهم بأنّهم منهزمون حتّى إذا أمكنتهم الفرصة من الحملة عليهم كرُّوا عليهم دفعة واحدة فلا يحسبوهُ عارًا ولا يستحيوا منه، ولا يستصعب عليهم هذا النحو من الفرار الظاهري الموجب للظفر على الخصم وإنما الذي ينبغي أن يستصعب ويشق على المجاهد ويستحيي منه هو أن تكون فرّة من غير كرّة، بل لا يجوز الفرار إذا كان العدوُّ على الضِّعف أو أقلّ.

وقد مضى قول ثامن الأئمّة عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام في شرح المختار ٢٣٥ من باب الخطب (ص ١٧٨ ج ١٥) في الفرار عن الزحف حيث قال عليه السلام: وحرّم الله الفرار من الزَّحف لما فيه من الوهن في الدِّين، والاستخفاف بالرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم والأئمّة العادلة عليهم السلام، وترك نصرتهم على الأعداء والعقوبة لهم على انكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبيّة، واظهار العدل، وترك الجور، وإماتة الفساد لما في ذلك من جرأة العدوّ على المسلمين وما يكون في ذلك من السَّبي والقتل وإبطال حق الله تعالى وغيره من الفساد[1]. وكذا في المقام غيره من النصوص المستفاضة المستفاد منها أنّ الفرار من الزّحف من جملة الكبائر.

وبما قدّمنا علم وجه كون عبارة النهج بعكس ما في الكافي ففي الكافي كانت الكرّة مقدّمة على الفرّة والحملة على الجولة وهٰهنا كانت الكرّة متأخرة من الفرّة، والحملة من

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/٥٦٦، وبحار الأنوار: ٦/٩٨.

الجولة، وهناك أيقظهم بقوله: (لا يشدُّون عليكم)، وههنا وصّاهم بقوله: (لا تشتدّنّ عليكم).

واعلم أنَّ قوله ﷺ: «لا تشتدّنّ عليكم فرّة بعدها كرّة» قول في تفسير قوله تعالى إلاّ متحرّفاً لقتالٍ في الأنفال حيث قال عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٦﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

والزَّحف الجيش الدَّهم الذي يرى لكثرته كأنّه يزحف أي يدبُّ دبيباً، والزَّحف أيضاً الدنوّ قليلاً قليلاً كما قال الأزهريُّ: أصل الزَّحف هو أن يزحف الصّبيُّ على إسته قبل أن يقوم، شبّه بزحف الصبي مشي الطائفتين تتمشّى كلّ فئة مشياً رويداً إلى الفئة الأُخرى تتدانى للضراب، **(وزحفاً)** منصوب في موضع الحال للكفّار.

وفي تفسير المجمع: التحرُّف: الزّوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف فالمعنى - والله تعالى أعلم - إذا لقيتم الكفّار للقتال والحال أنّهم كثير جمّ وأنتم قليلا فلا تولّوهم الأدبار أي لا تجعلوا ظهوركم إليهم أي لا تفرّوا منهم فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، ومن يولّهم يومئذ أي وقتئذ سواء كان نهارٌ أو ليلاً فقد استحقَّ واحتمل غضب الله ومأواه جهنّم وبئس المصير فالآية تدلّ على أنَّ الفرار من الزَّحف من كبائر المعاصي[1].

وفي الكافي بإسناده عن عقيل الخزاعي: أنَّ أمير المؤمنين ﷺ قال: إنَّ الرُّعب والخوف من جهاد المستحقّ للجهاد والمتوازرين على الضّلال، ضلال في الدِّين وسلب للدُّنيا مع الذلّ والصغار، وفيه استيجاب النّار بالفرار من الزَّحف عند حضرة القتال يقول الله عزَّ وجل[2]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥﴾.

واستثنى جلَّ وعلا من حرمة الفرار حالتين إحداهما: إذا كان المجاهد متحرّفاً لقتالٍ، فقال في الكشاف: **(وهو الكرُّ بعد الفرّ)** يخيّل عدوّه أنّه منهزم ثمّ يعطف عليه وهو باب من خدع الحرب ومكائدها.

ونحوه النيسابوري في غرائب القرآن، والبيضاويّ في أنوار التنزيل حيث قال في معناه: يريد الكرَّ بعد الفرِّ وتغرير العدوّ فإنّه من مكائد الحربض.

وقال الطبرسيّ في المجمع: وقيل معناه. إلاّ منعطفاً مستطرداً كأنّه يطلب عورة يمكنه إصابتها فيتحرّف عن وجه ويرى أنّه يفرُّ ثمّ يكرُّ والحرب كرٌّ وفرٌّ.

والقول الآخر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ﴾ هو أن من ولّى دبره يبغي

(١) مجمع البيان: ٤/ ٤٤٤. (٢) الكافي: ٥/ ٣٨، وسائل الشيعة: ١٥/ ٩٤.

موقفاً أصلح للقتال من الموقف الأوّل فهو خارج عن حرمة الفرار من الزّحف والحق إنّه شامل على كلا القولين، أي إنَّ الفارّ عن الزّحف قد باء بغضب من الله إلاّ أن يدبر عن القتال وينحرف عن مضيق إلى اتّساع لتجول الخيل، أو من معاطش إلى مياه، أو كانت الشمس أو الريح في وجهه فاستدبرها، أو كان يوهم باستدباره خصمه أنّه منهزم منه ليغريه بإتّباعه فينفرد عن أشياعه فيكرَّ عليه فيقتله وما أشبه ذلك.

وثانيتهما إذا كان متحيّزاً إلى فئة. والتحيّز طلب حيّز يتمكّن فيه والمعنى أو كان منحازاً ومنقلاً إلى جماعة أُخرى من المسلمين أي غير الجماعة التي كان فيها وهم الذين يريدون قتال الأعداء والجهاد في سبيل الله فهو يريد أن يستعين بهم عليهم.

وعن ابن عبّاس أنَّ الفرار من الزّحف في غير هاتين الصورتين من أكبر الكبائر كما في الكشّاف وغرائب القرآن.

وقد روى أهل السنّة عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله ﷺ وما هنَّ؟ قال: الشِّرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلاّ بالحقِّ، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتَّولّي يوم الزَّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات[1].

وقد مرّت الإشارة إلى أنَّ مثل ذلك قد روي عن أهل بيت النبوّة عليهم السلام بروايات متكاثرة متظافرة وتقدَّم نقل شطرٍ ممّا أفاضه أبو الحسن الرِّضا عليه السلام في علل تحريم الكبائر ومنها الفرار عن الزَّحف. كما تقدَّم آنفاً قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن الكافي وصفّين لنصر: وليعلم المنهزم أنّه مسخطٌ لربّه وموبق نفسه وفي الفرار موجدة الله عليه والذلّ اللازم[2] - إلخ.

الحرب خدعة

لا كلام في أنَّ الخدعة في نفسها قبيحة تنفر الطباع عنها. روى الكلينيّ في «**الكافي**» بإسناده عن هشام بن سالم رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لولا أنَّ المكر والخديعة في النّار لكنت أمكر النّاس[3] (**الوافي ص ١٥٦ ج ٣**).

وقد رفع قبحها في الحرب فإنَّ الغرض الأسنى من الجهاد قمع أُصول الفساد، وقطع فروعه وقد جوّز الشارع تعالى التوصّل بالخدعة في حضرة القتال إلى ذلك، وتنفذه الأحلام

---

(١) الكافي: ٢/٢٨٦ ح ٦، وتفسير غريب القرآن: ٣٨٧.
(٢) الخصال: ٣٦٤ ج ٥٧، وسائل الشيعة: ١٥/٢٣ ح ٣٤.
(٣) بحار الأنوار: ٢٨/٩٧ ح ٣٦، ومستدرك الوسائل: ١١/٧١.

وتقبله الطّباع لذلك.

قال العلاّمة قدّس سرّه في آخر المقصد الثاني من «**جهاد المنتهى**» (**ص ٩١٣ من الطبع الرحلي على الحجر ١٣٣٣ هـ**): تجوز المخادعة في الحرب ويجوز للمبارز أن يخدع قرنه ليتوصّل بذلك إلى قتله إجماعاً، روى الجمهور أن عمرو بن عبدود بارز عليّاً عليه السلام فقال: ما أُحب قتلك يا ابن أخي، فقال عليّ عليه السلام: لكنّي أُحبُّ أن أقتلك فغضب عمرو وأقبل عليه، فقال عليٌّ عليه السلام: ما برزت لأُقاتل اثنين، فالتفت عمرو فوثب عليّ عليه السلام فضربه، فقال عمرو: خدعتني، فقال عليّ عليه السلام: الحرب خدعة[١]، انتهى ما أردنا من نقل كلامه.

وروى الشيخ الطائفة قدّس سرُّه في باب أنَّ الحرب خدعة من «**جهاد التهذيب**» بإسناده عن إسحاق بن عمّار، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام أنَّ علياً عليه السلام كان يقول: لأن يخطفني الطّير أحبُّ إليَّ من أن أقول على رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يقل، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم الخندق: الحرب خدعة، يقول: تكلّموا بما أردتم[٢]، (**الوافي ص ٢١ ج ٩**).

وفيه بإسناده عن مصعدة بن صدقة قال: حدَّثني شيخ من وُلد عديّ بن حاتم عن أبيه، عن جدِّه عديّ بن حاتم وكان مع عليّ عليه السلام في غزوته أنَّ عليّاً عليه السلام قال يوم التقى هو ومعاوية بصفّين فرفع بهم صوته يسمع أصحابه: واللّهِ لأقتلنَّ معاوية وأصحابه ثمَّ قال في آخر قوله: إن شاء الله خفض بها صوته فكنت منه قريباً فقلت: يا أمير المؤمنين إنّك حلفت على ما قلت ثمَّ استثنيت فما أردت بذلك؟ فقال: إنَّ الحرب خدعةٌ وأنا عند المؤمنين غير كذوب فأردت أن أُحرِّض أصحابي عليهم لكي لا يفشلوا ولكي يطمعوا فيهم فافهم فإنّك تنتفع بها بعد اليوم إن شاء الله.

واعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لموسى حيث أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ وقد علم أنّه لا يتذكّر ولا يخشى ولكن ليكون ذلك أحرص لموسى عليه السلام على الذَّهاب[٣]، (**الوافي ص ٩٥ ج ٧ وص ٢٢ ج ٩**)، ورواه في «**البحار**» عن تفسير العياشي (**ص ٩٨ ج ٢١ من الطبع الكمباني**).

وفي الباب السابع والثلاثين من «**أخلاق محتشمي**» للخواجة الطوسي قدّس سرُّه: كان النبيُّ صلى الله عليه وآله إذا أراد سفراً وَرّى إلى غيره وقال: الحرب خدعة[٤].

---

(١) الكافي: ٢/٢٣٦ ح ٤، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤٥٤ ح ٦٧٠.
(٢) منتهى المطلب: ٢/٩١٣، وجواهر الكلام: ٧٩/٢١.
(٣) وسائل الشيعة: ١٥/١٣٣ ح ٢٠١٥٠، وميزان الحكمة: ١/٥٦٦ ح ٦.
(٤) غريب الحديث: ٢/٧٥٩.

وفي **«مروج الذهب»** للمسعودي (ص ٦ ج ٢) قال ابن عبّاس لعليّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الحرب خدعة؟ فقال عليٌّ عليه السلام: بَلى وسيأتي تمام كلامهما في شرح الكتاب السابع عشر إن شاء الله تعالى.

وفي **«الجامع الصغير»** للسّيوطي عن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: الحرب خدعة.

وروى الكلينيّ في **«الكافي»** بإسناده عن صفوان، عن أبي مخلّد[١] السّرّاج، عن عيسى بن حسّان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كلّ كذب مسؤول عنه صاحبه يوماً إلاّ في ثلاثة: رجل كائد في حربه فهو موضوع عنه، أو رجل أصلح بين اثنين يلقى هذا بغير ما يلقى به هذا يريد بذلك الاصلاح فيما بينهما، أو رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتمَّ لهم[٢]، **(الوافي ص ١٥٨ ج ٣)**.

وفي **«الكامل»** لأبي العبّاس المبرِّد **(ص ١٩٣ ج ٢ طبع مصر)** ناقلاً عن المهلّب قال: أنّه جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «كلّ كذب يكتب كذباً إلاّ ثلاثة: الكذب في الصلح بين الرجلين، وكذب الرَّجل لامرأته يعدها، وكذب الرَّجل في الحرب يتوعّد ويتهدَّد[٣]».

وقال: وجاء عنه صلى الله عليه وآله إنّما أنت رجل فخذِّل عنّا فإنّما الحرب خدعة.

قال: وقال عليه السلام في حرب الخندق لسعد بن عبادة وسعد بن معاذ وهما سيّد الحيّين الخزرج والأوس: «ائتيا بني قريظة فإن كانوا على العهد فأعلنا بذلك؛ وإن كانوا قد نقضوا ما بيننا فالحنا لي لحناً أعرفه ولا تفتّا في أعضاد المسلمين» فرجعا بغدر القوم فقالا يا رسول الله: عضلٌ والقارة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للمسلمين: ابشروا فإنَّ الأمر ما تحبّون[٤].

قال الأخفش: سألت المبرَّد عن قولهما عضلٌ والقارة فقال: هذان حيّان كانا في نهاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله فأرادا أنّهم في الإنحراف عنه والغدر به كهاتين القبيلتين.

قال ابن إسحاق: لمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بدر نزل قريباً منه فركب هو ورجل من أصحابه يتعرَّفان أخبار قريش حتّى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمّد وأصحابه، وما بلغه عنهم؛ فقال الشيخ: لا أخبر كما حتّى تخبراني ممّن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنّه بلغني

---

(١) تهذيب الأحكام: ٦/١٦٣ ح ٢٩٩، ووسائل الشيعة: ١٥/١٣٤.

(٢) في نسخة: محمد.

(٣) الكافي: ٢/٣٤٢ ح ١٨، ووسائل الشيعة: ٨/٥٧٩ ح ٥.

(٤) بحار الأنوار: ٢٠/٢٢٣.

أنَّ محمّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به رسول الله ﷺ ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي فيه قريش ـ فلمّا فرغ من خبره قال: ممّن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن ماء[1]، ثمَّ انصرف عنه فجعل الشيخ يقول: نحن من ماء! من ماء العراق أو ماء كذا أو ماء كذا، نقله ابن هشام في **«السيرة النبويّة» (ج ١ ص ٦١٦ من طبع مصر ١٣٧٥ هـ)**، وابن قتيبة الدينوري في باب الحيل في الحروب من كتاب **«الحرب من عيون الأخبار» (ص ١٩٤ ج ١ طبع مصر ١٣٨٣ هـ)**.

واعلم أنَّ ما قدّمناه من جواز الخدعة في الحرب هو غير الغدر بهم أي قتالهم وقتلهم بغتة بعد الأمان، والغدر ترك الوفاء ونقض العهد، قال شيخ الطائفة قدِّس سرّه في **«جهاد المبسوط»: من أذمَّ مشركاً أو غير مشرك ثمَّ خفره ونقض ذمامه كان غادراً آثماً.**

وإنّما لا يجوز الغدر بهم لقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ ولقوله ﷺ: «لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا» وغيره من الأخبار الواردة في النهي عن الغدر بهم ففي خبر رواه الكلينيُّ قدِّس سرُّه في جامع الكافي بإسناده عن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قريتين من أهل الحرب لكلّ واحدة منهما ملك على حدة اقتتلوا ثمَّ اصطلحوا ثمَّ إنَّ أحد الملكين غدر بصاحبه فجاء إلى المسلمين فصالحهم على أن يغزوا تلك المدينة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: لا ينبغي للمسلمين أن يغدروا ولا يأمروا بالغدر ولا يقاتلوا مع الذين غدروا ولكنّهم يقاتلون المشركين حيث وجدوهم ولا يجوز عليهم ما عاهد عليه الكفّار[2]. **(جهاد الوسائل الباب ٢٠)** والرِّوايات عن الرسول ﷺ وعن أئمّة الدِّين في التحذير عن الغدر وكراهيته كثيرة.

وقد نقل ابن قتيبة في كتاب **«الحرب من عيون الأخبار» (ص ١١٧ ج ١ طبع مصر)** قضية معجبة في خدعة مستغربة، وسوء عاقبة الغدر والبغي تأبى نفسي إلاّ الإتيان بها، قال: وقرأت في كتاب **«سير العجم»** أن فيروز بن يزدجرد بن بهرام لمّا ملك سار بجنوده نحو خراسان ليغزو اخشنوار ملك الهياطلة ببلخ، فلمّا انتهى إلى بلاده اشتدَّ رعب اخشنوار منه وحذره له، فناظر أصحابه ووزراءه في أمره.

فقال له رجل منهم: أعطني موثقاً وعهداً تطمئنُّ إليه نفسي أن تكفيني أهلي وولدي وتحسن إليهم وتخلفني فيهم، ثمَّ اقطع يديَّ ورجليَّ والقني على طريق فيروز حتّى يمرَّ بي هو

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ١٤١، والبداية والنهاية: ٣/ ٣٢٣.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٣٧ ح ٤، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٦٩ ح ٢٠٠٠٣.

وأصحابه فأكفيك مؤونتهم وشوكتهم وأورّطهم مورّطاً تكون فيه هلكتهم.

فقال له له اخشنوار: وما الذي تنتفع به من سلامتنا وصلاح حالنا إذا أنت قد هلكت ولم تشركنا في ذلك؟

قال: إنّي قد بلغتُ ما كنت أُحبُّ أن أبلغه من الدُّنيا وأنا موقن بأنَّ الموت لا بدَّ منه وإن تأخّر أيّاماً قلائل، فأُحبُّ أن أختم عمري بأفضل ما تختم به الأعمار من النّصيحة لإخواني والنكاية في عدوّي فيشرف بذلك عقبي وأُصيب سعادة وحُظوة فيما أمامي.

ففعل به ذلك وأمر به فلمّا مرّ به فيروز سأله عن أمره فأخبره أنَّ اخشنوار فعل ذلك به وأنّه احتال حتّى حمل إلى ذلك الموضع ليدلّه على عورته وغرَّته، وقال: إنّي أدلّك على طريقٍ هو أقرب من هذا الذي تريدون سلوكه وأخفى، فلا يشعر اخشنوار حتّى تهجموا عليه فينتقم الله لي منه بكم، وليس في هذا الطريق من المكروه إلاّ تفويز يومين ثمَّ تفضون إلى كلِّ ما تحبّون.

فقبل فيروز قوله بعد أن أشار عليه وزراؤه بالإتّهام له والحذر منه وبغير ذلك فخالفهم وسلك الطريق حتّى انتهى بهم إلى موضع من المفازة لا صدر عنه ثمَّ بيّن لهم أمره فتفرَّقوا في المفازة يميناً وشمالاً يلتمسون الماء فقتل العطش أكثرهم ولم يخلص مع فيروز منهم إلاّ عدَّة يسيرة فإنّهم انطلقوا معه حتّى أشرفوا على أعدائهم وهم مستعدُّون لهم فواقعهم على تلك الحاله وعلى ما بهم من الضرِّ والجهد فاستمكنوا منهم وأعظموا النكاية فيهم.

ثمَّ رغب فيروز إلى اخشنوار وسأله أن يمنَّ عليه وعلى من بقي من أصحابه على أن يجعل لهم عهد الله وميثاقه ألاّ يغزوه أبداً فيما يستقبل من عمره؛ وعلى أنّه يحدّ فيما بينه وبين مملكته حدًّا لا تجاوزه جنوده، فرضي اخشنوار بذلك وخلّى سبيله وانصرف إلى مملكته.

فمكث فيروز بُرهَةً من دهره كئيباً، ثمَّ حمله الأنف على أن يعود لغزوه ودعا أصحابه إلى ذلك فردّوه عنه وقالوا: إنّك قد عاهدته و نحن نتخوَّف عليك عاقبة البغي والغدر مع ما في ذلك من العار وسوء المقالة.

فقال لهم: إنّي شرطت له ألاّ أجوز الحجر الذي جعلته بيني وبينه فأنا آمر بالحجر ليحمل على عجلة أمامنا.

فقالوا له: أيّها الملك إنَّ العهود والمواثيق التي يتعاطاها النّاس بينهم لا تحمل على ما يسرُّ المعطي لها ولكن على ما يعلن المعطي، وإنّك إنّما جعلت له عهد الله وميثاقه على الأمر الذي عرفه لا على أمر لم يخطر بباله.

فأبى فيروز ومضى في غزاته حتّى انتهى إلى الهياطلة وتصافّ الفريقان للقتال فأرسل اخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صفّيهم ليكلّمه، فخرج إليه.

فقال له اخشنوار: قد ظننت أنّه لم يدعك إلى غزونا إلاّ الأنف ممّا أصابك ولعمري لئن كنّا احتلنا لك بما رأيت لقد كنت التمست منّا أعظم منه، ما ابتدأناك ببغي ولا ظلم ولا أردنا إلاّ دفعك عن أنفسنا عن حريمنا، ولقد كنت جديراً أن تكون مكافأتنا بمنّنا عليك وعلى من معك من نقض العهد والميثاق الذي وكّدت على نفسك أعظم أنفاً وأشدَّ امتعاظاً ممّا نالك منّا فإنّا أطلقناكم وأنتم أسرى، ومننّا عليكم وأنتم مشرفون على الهلكة، وحقنّا دماءكم وبنا قدرةٌ على سفكها، وإنّا لم نجبرك على ما شرطت لنا بل كنت أنت الرّاغب إلينا فيه، والمريد لنا عليه؛ ففكّر في ذلك، وميّلَ بين هذين الأمرين فانظر أيّهما أشدُّ عاراً وأقبح سماعاً: إن طلب رجل أمراً يتح له، وسلك سبيلاً فلم يظفر فيها ببغيته، واستمكن منه عدوّه على حال جهد وضيعة منه وممّن معه فمنَّ عليهم وأطلقهم على شرط شرطوه وأمرٍ اصطلحوا عليه فاضطرّ لمكروه القضاء، واستحيا من النّكث والغدر؛ أم يقال امرؤ نكث العهد وختر الميثاق؟

مع أنّي قد ظننت أنّه يزيدك نجاحاً ما تثق به من كثرة جنودك وما ترى من حسن عدَّتهم وطاعتهم لك وما أجدني أشكّ أنّهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شخوصك بهم عارفون بأنّك قد حملتهم على غير الحقّ، ودعوتهم إلى ما يسخط الله فهم في حربنا غير مستبصرين، ونيّاتهم في مناصحتك اليوم مدخولة، فانظر ما قدر غناء من يقاتل على مثل هذه الحال؛ وما عسى أن تبلغ نكايته في عدوّه إذا كان عارفاً بأنّه إن ظفر فمع عارٍ، وإن قتل فإلى النّار؟

فأنا أذكّرك الله الذي جعلته على نفسك كفيلاً، ونعمتي عليك وعلى من معك بعد يأسكم من الحياة وإشفائكم على الممات، وأدعوك إلى ما فيه حظّك ورشدك من الوفاء بالعهد والإقتداء بآبائك الذين مضوا على ذلك في كلّ ما أحبّوه أو كرهوه فأحمدوا عواقبه وحسن عليهم أثره.

ومع ذلك إنّك لست على ثقة من الظّفر بنا، والبلوغ لنهمتك فينا وإنّما تلتمس منّا أمراً نلتمس منك مثله، وتناوىء عدوّاً لعلّه يمنح النصر عليك فقد بالغت في الاحتجاج عليك، وتقدَّمت الإعذار إليك، ونحن نستظهر بالله الذي اعتززنا به ووثقنا بما جعلته لنا من عهده إذا استظهرت بكثرة جنودك وازدهتك عدَّة أصحابك، فدونك هذه النّصيحة فوالله ما كان أحد من نصحائك ببالغ لك أكثر منها، ولا زائد لك عليها، ولا يحرمنّك منفعتها مخرجها منّي فإنّه لا يزرى بالمنافع عند ذوي الرأي أن كانت من قبل الأعداء كما لا يحبّب المضارَّ إليهم أن تكون على أيدي الأولياء.

واعلم أنّه ليس يدعوني إلى ما تسمع من مقالتي ضعفٌ أحسُّه من نفسي، ولا قلّة من جنودي؛ ولكنّي أحببت أن أزداد بذلك حجّة واستظهاراً، وأزداد به من الله النّصر والمعونة استيجاباً، ولا أوثر على العافية والسلامة شيئاً ما وجدت إليهما سبيلاً.

فأبى فيروز إلاّ تعلّقاً بحجّته في الحجر الذي جعله حدًّا بينه وبينه وقال: لستُ ممّن يردعه عن الأمر يهمُّ به وعيدٌ، ولا يقتاده التهدّد والترهيب، ولو كنت أرى ما أطلبك غدراً منّي ما كان أحد أنظر ولا أشدّ اتّقاء منّي على نفسي فلا يغرّنّك منّا الحال التي صادفتنا عليها في المرة الأُولى من القلّة والجهد والضّعف.

قال اخشنوار: لا يغرّنّك ما تخدع به نفسك من حملك الحجر أمامك فإنَّ النّاس لو كانوا يعطون العهود على ما تصفُ من إسرار أمرٍ وإعلان آخر إذاً ما كان ينبغي لأحدٍ أن يغترَّ بأمان، ولا يثق بعهدٍ، وإذاً لما قبل النّاس شيئاً ممّا يعطونه من ذلك؛ ولكنّه وضع على العلانية وعلى نيّة من تعقد العهود والشروط له.

فانصرفا يومهما ذلك فقال فيروز لأصحابه: لقد كان اخشنوار حسن المحاورة، وما رأيت للفرس الذي كان تحته نظيراً في الدَّوابِّ فإنّه لم يُزل قوائمه ولم يرفع حوافره عن موضعها ولا صهل ولا أحدث شيئاً يقطع به المحاورة في طول ما تواقفنا.

وقال اخشنوار لأصحابه: لقد واقفت فيروز كما علمتم وعليه السّلاح كلّه فلم يحرّك رأسه، ولم ينزع رجله من ركابه، ولا حنا ظهره، ولا التفت يميناً ولا شمالاً ولقد تورّكت أنا مراراً، وتمطّيت على فرسي وتلفّتُّ إلى من خلفي، ومددت بصري في أمامي وهو منتصبٌ ساكنٌ على حاله، ولولا محاورته إيّاي لظننت أنّه لا يبصرني.

وإنّما أراد بما وصفا من ذلك أن ينتشر هذان الحديثان في أهل عسكريهما فيشغلوا بالإفاضة فيهما عن النظر فيما تذاكراه.

فلمّا كان في اليوم الثّاني أخرج اخشنوار الصحيفة التي كتبها لهم فيروز فرفعها على رمح لينظر إليها أهل عسكر فيروز فيعرفوا غدره وبغيه ويخرجوا من متابعته. فانتقض عسكر فيروز واختلفوا وما لبثوا إلاّ يسيراً حتّى انهزموا وقتل منهم خلقٌ كثير وهلك فيروز، فقال اخشنوار: لقد صدق الذي قال: لارادَّ لما قُدِّر، ولا أشدَّ إحالةً لمنافع الرأي من الهوى واللّجاج، ولا أضيع من نصيحة يمنحها من لا يوطّن نفسه على قبولها والصّبر على مكروهها، ولا أسرع عقوبة ولا أسوأ عاقبةً من البغي والغدر، ولا أجلب لعظيم العار والفضوح من إفراط الفخر والأنفة[1].

---

(١)شرح النهج: ١٥/ ١١١.

وقد مضى وجه آخر في تفسير كلامه هذا في ضمن بيان المصادر، ويحتمل الوجهين قوله عليه السلام المنقول من الكافي ونصر والطّبري والمفيد آنفاً في ذكرا لمصادر: **(فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكرُكم بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المولّي يوم الزحف دبره وكنتم فيما أرى من الهالكين)**.

والشارح البحراني احتمل في تفسير قوله عليه السلام: «لا تشتدنَّ عليكم فرَّة بعدها كرَّة» وجهاً آخر سوى الوجهين الذين اخترناهما فقال:

ويحتمل أن يريد **(فلا تشتدَنَّ عليكم فرّة من عدوّكم بعدها كرّة منه عليكم)** فإنَّ تلك الكرّة لما كانت عقيب الفرّة لم تكن إلاّ عن قلوب مدخولة ونيّات غير صحيحة وإنّما قدَّم الفرّة في هذا الاحتمال لأنَّ مقصوده تحقير تلك الكرّة بذكر الفرّة وكان ذكرها أهم فلذلك قدّمت وكذلك قوله: **(ولا جولة بعدها حملة)**. انتهى.

وأقول: قد علمت أنَّ أمير المؤمنين عليّاً تارة يوصي عسكره ويوقظهم بأن لا يغرّنكم فرار الخصم فإنّه ربّما يكون من مكائد الحرب لأنَّ الخصم ربّما يولّيكم الدُبر ليخيّلكم أنّه منهزم ثمَّ يعطف ويشدّ عليكم؛ كما رواه الكلينيّ في **«الجامع الكافي»** عنه عليه السلام حيث قال: **(ولا يشدون عليكم كرّة بعد فرّة ولا حملة بعد جولة)**.

وتارة يوصيهم ويحثّهم إذا رأيتم المصلحة في أن تولّوهم الأدبار لكي توهموهم الإنهزام حتّى إذا أمكنتهم الفرصة تكرّون عليهم فلا يشتدّ عليكم هذا النحو من الفرار الذي هو من مكائد الحرب أي لا تحسبوه عاراً حتى يستصعب عليكم هذا الفرار كما هو المرويّ في النهج قال عليه السلام: **(لا تشتدَّنَّ عليكم فرّة بعدها كرّة)**، ولذا كانت العبارتان متعاكستين، وقد علمت أنَّ قوله في النهج كان ناظراً إلى قوله تعالى: **(إلاّ متحرِّفاً لقتال)**، والرِّوايات كالآيات يفسّر بعضها بعضاً، ورواية الكافي هذه والرّواية المتقدّمة الحاوية قوله عليه السلام: **(فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكرّكم بعد انحيازكم)** - إلخ، وقوله تعالى: **(إلاّ متحرِّفاً لقتال)** تدلّ على أنَّ معنى ما في النهج هو الذي قدّمناه أوّلاً، وكان للجملتان معنى صحيح آخر ذكرناه في ضمن بيان المصادر وكان معنياهما متعاكسين أيضاً، ولا يجري هذا الإحتمال الثالث في قوله المروي في **«الكافي»**، ولو يفسّر ما في النهج به لوجب أن يقال لا تشتدَنَّ عليكم كرَّة بعد فرَّه.

على أنَّ لأساليب الكلام معنى يتبادر إليه الذهن من غير تكلّف وما من كلام إلاّ أمكن فيه تقدير وجوه من المعاني البعيدة فيخرج حينئذ عن الفصاحة والجودة وبالجملة إذا تأمّلت فيما قدَّمنا وفي سيرة أهل الحرب يظهر لك أنَّ ما ينبغي أنَّ تفسّر الجملتان هو المعنيان المختاران.

قوله عليه السلام: «وأعطوا السيوف حقوقها» لا يخفى عليك أنَّ هذا الفصل من مختار كلامه عليه السلام يفيد ثلاثة مطالب: الأول: أنَّ الحرب خدعة فالفرار منها إذا كان موجباً لتغرير الخصم وهلاكه لا ينبغي أن يستصعب ويحسب عاراً، الثاني: أنَّ على المجاهد أن يراعي أُموراً، الثالث: أنَّ هؤلاء المحاربين للإمام كانوا كافرين إلاّ أنّهم أسرُّوا كفرهم، أمّا الأوَّل فقد مضى مفصّلاً، وأمّا الثالث فسيأتي بيانه، أمّا الثاني فقد ذكر أربعة منها: الأوَّل: أن يعطوا السّيوف حقوقها هذا تحريض على الجدّ في القتال أي إذا ضربتم بها فاحكموا الضرب، واضربوا ضربة منكرة وإعطاءها حقوقها كناية عن هذا لنحو من الضرب، فجعل للسيف حقاً وهو ما ينبغي أن يستفاد منه ثمَّ أمرهم بإعطاء حقّها فإذا لم يضربوا بها على ما كان الحريّ بها جدٌّ فكأنّهم خانوها، كما يقال أيضاً: إنَّ سيف فلانٍ لم يخنه، أي إنّه لشدَّة حدَّته وجودته فعل ما أراد منه صاحبه كما قال نهشل بن حريٍّ النهشلي في قصيدة يرثى بها أخاه مالكاً رحمة الله وقد قتل بصفين بحضرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قتله الفئة الباغية:

أخ ماجد لم يُخزني يوم مشهدٍ كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

وهوّن وجدي عن خليلي إنّني إذا شئت لاقيت امرءً مات صاحبه

قوله عليه السلام: «ووطّنوا للجنوب مصارعها» هذا هو الثاني من الأُمور أمرهم بها، الظاهر من كلامه عليه السلام أنّه حثّهم ونشّطهم على الإحكام في الضّرب، وإن شئت قلت: هذا تأكيد وتشديد في الأمر الأوَّل أي أدّوا حقوق السيوف واضربوا بها ضربة واحكموا الضرب إلى حدّ تطرحوا بها جنوب الأعداء على مصارعهم وتجعلوا مصارعهم أوطاناً لهم أي بحيث لا يقدر الصّرعى أن يقوموا من الأرض، فكأنّهم أخذوها أوطاناً لهم أو مهّدوا مصارعهم لجنوبهم أي اجعلوها ممهدةً لسقوطهم عليها بضروبكم المنكرة والمآل واحد وإن كان الأوَّل ألصق وأنسب بسياق الكلام إن لم يكن متعيّناً، هذا ما ينادي به أُسلوب الكلام.

وقال الشارح البحراني: والمعنى أن يوطّنوا لجنوبهم مصارعها أي يتخذوا مصارع جنوبهم أوطاناً لها وهو كناية عن الأمر بالعزم الجازم على القتل في سبيل الله والإقدام على أهوال الحرب إذا كان اتّخاذ المصارع أوطاناً للجنوب مستلزماً لذلك العزم والإقدام.

واحتذى على مثاله المجلسيّ في «**فتن البحار**» (**ص ٦٢٦ ج ٨ من الطبع الكمباني**) حيث قال: أي اجعلوا مصارع الجنوب ومساقطها وطناً لها أو طيئاً لها أي استعدّوا للسقوط على الأرض والقتل كناية على العزم على الحرب وعدم الاحتراز عن مفاسدها. انتهى.

وهذا كما ترى لا يناسب تحريض العسكر على الجهاد وحثّهم على القتال، أرأيت أنَّ

أمر أميرٍ عسكره بالاستعداد للسقوط على الأرض لا يوجب وهنهم؟ ولو سلّم أنَّ فيه تشجيعاً بالعزم الجازم على الإقدام على أهوال الحرب والقتال في سبيل الله تعالى فسوق الكلام يأبى عن ذلك الحمل.

قوله عليه السلام: «وادمروا أنفسكم على الطّعن الدَّعسي، والضرب الطّلخفي» هذا ثالث الأُمور أمرهم بها، حثّهم عليه السلام أن يحضّوا ويوطّنوا أنفسهم على الجدّ في الطّعن بالرِّماح والضّرب بالسّيوف ويوبّخوها على الفشل والضّعف، حتّى يتشمّروا للطّعن بالرِّماح على الأعداء بحيث يظهر أثره ويحشي به أجوافهم، ويتهيؤوا لإيقاع الضرب الشديد بالسّيوف عليهم.

ثمَّ بالتأمّل الصحيح في سياق هذه الأمور الثلاثة يعلم أنَّ مساقها واحد، ومفادها فارد، والحقّ أن يقال أنّها ملتقطة من روايات شتّى كما قد أتينا بها في بيان مصادرها.

قوله عليه السلام: «وأميتوا الأصوات فإنّه أطرد للفشل» هذا رابع الأُمور أمرهم بها، أي اخفضوا الأصوات وعنّوها فإنَّ اخفائها أولى بالوقار وأطرد للفشل وأذهب بالوهل وإنَّ شدَّة الضوضاء في الحرب أمارة الخوف والوجل.

وفي كتاب «**الحرب من عيون الأخبار**» لابن قتيبة (ص ١٠٨ ج ١) أنَّ قوماً استشاروا أكثم بن صيفي في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم فقال: أقلّوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أنَّ كثرة الصّياح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة تثبتوا فإنَّ أحزم الفريقين الرَّكين، وربّة عجلة تعقب ريثاً، واتّزروا للحرب، وادرعوا اللّيل فأنه أخفى للويل، ولا جماعة لمن اختلف عليه.

وقال ابن قتيبة بعد نقل ما قاله أكثم: قال بعض الحكماء: قد جمع الله لنا أدب الحرب في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

وقال: حدَّثني محمّد بن عبيد قال: حدَّثنا معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق عن الأوزاعي قال: قال عتبة بن ربيعة يوم بدر لأصحابه: ألا ترونهم - يعني أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله - جثيّاً على الرُّكب كأنّهم خرس يتلمظون تلمّظ الحيّات، قال: وسمعتهم عائشة يكبّرون يوم الجمل فقالت: لا تكثروا الصّياح فإنَّ كثرة التكبير عند اللّقاء من الفشل.

قوله عليه السلام: «والذي فلق الحبّة - إلخ» هذا هو المطلب الثالث الموعود بيانه وفي بعض النسخ: فالذي (**بالفاء**) وهو من تصرُّفات النسّاخ أتوا (**بالفاء**) ليرتبط الذيل بالصدر وقد غفلوا أنَّ كلامه هذا ليس بمقالة فاردة بل ملتقطة من عدّة مقالات مرويّة عنه عليه السلام.

وكان عليه السلام كثيراً مّا يحلف بقوله والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة إذا اجتهد في يمينه وهذا ممّا لم يسمع من غيره أن يقسموا به وكان عليه السلام متفرّداً بإنشائه والحلف به.

وقد دريت أنّه عليه السلام قال كلامه هذا في صفّين لمّا رفع عمرو بن العاص شقّة قميصة سوداء في رأس رُمح فقال ناس: هذا لواء عقده له رسول الله صلى الله عليه وآله - إلى آخر ما نقلنا في ذكر مصادر هذا الفصل عن كتاب «صفّين» لنصر بن مزاحم المنقري وأشار عليه السلام بقوله: «فأخذها فقد والله قربه من المشركين وقاتل به اليوم المسلمين» إلى أنَّ القوم كانوا كافرين.

ثمّ إنَّ سياق الكلام يقتضي إفراد الأفعال والضمائر إلاّ أنّه عدل من الإفراد إلى الجمع تنبيها على أنَّ عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وأشياعهما وأشباههما ما أسلموا واقعاً بقلوبهم ولكن استسلموا أي أظهروا الإسلام بألسنتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وانقادوه خوفاً من السيف وكانوا قد أسرُّوا كفرهم لأنّهم لم يجدوا أعواناً عليه حتّى يظهروه فلمّا وجدوهم أظهروه وكان كلامه عليه السلام المروي آنفاً عن «صفّين» لنصر حيث قال؛ «وقد نصبوا لنا الحرب وجدّوا في إطفاء نور الله والله مُتِمّ نوره ولو كره الكافرون» مشعراً بكفرهم كما لا يخفى.

وقد مرَّ كلام ابن الحنفيّة المنقول عن كتاب «صفين» لنصر في ذكر المصادر أنّه قال: لمّا أتاهم الله من أعلى الوادي ومن أسفله وملأ الأودية كتائب استسلموا حتّى وجدوا أعواناً، وكذا كلام عمّار رضوان الله عليه، وسيأتي كلام الأمير عليه السلام في الكتاب التالي إلى معاوية: ولمّا أدخل الله العرب في دينه أفواجاً وأسلمت له هذه الأُمّة طوعاً وكرهاً كنتم ممّن دخل في الدِّين إمّا رغبة وإمّا رهبة - إلخ. وراجع إلى باب ما ورد في كفر معاوية وعمرو بن العاص وأوليائهما من المجلّد الثامن من «البحار» (**ص ٥٦٠ - ٥٧١ من الطبع الكمباني**).

وقال الفاضل الشارح المعتزلي: وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام جعل محاربتهم له كفراً. انتهى.

أقول: هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام صريح في أنَّ القوم كانوا كافرين ولا يدلّ على أنَّ من حاربه فهو كافر نعم إنَّ محاربتهم له عليه السلام توجب كفراً ومحاربيه كفرة بالأدلّة التي قدَّمناها في «**شرح المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب (**ص ٣٦٧ - ٣٧٩ ج ١٥**) وفي «**شرح المختار**» الثاني من باب الكتب والرّسائل (**ص ٧٦ - ٨٠ ج ١٦**).

وأرسل معاوية كتاباً إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وذلك كان لمّا دعى النّاس من حيلة عمرو بن العاص وروغانه إلى كتاب الله وكتب فيما كتب فيه: واقطع لهذه الفتن فاتّق الله فيما دعيت له وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله والسلام.

فكتب إليه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كتاباً جواباً عن كتابه، ومن جملته: (**إنّك قد دعوتني إلى حكم القرآن ولقد علمت أنّك لست من أهل القرآن**) - إلخ. وقد نقلهما نصر في كتاب

«صفين» (ص ٢٦٧).

وروى نصر في «صفين» (ص ١٦٧) عن يحيى، عن عليّ بن حزوّر، عن الأصبغ بن نباتة قال: جاء رجل إلى عليّ عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء القوم الذين نقاتلهم الدعوة واحدة والرسول واحد والصّلاة واحدة والحجّ واحد فبما نسمّيهم؟ قال: نسمّيهم بما سمّاهم الله في كتابه، قال: ما كلّ ما في الكتاب أعلمه، قال: أما سمعت الله قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ - إلى قوله - وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ فلمّا وقع الإختلاف نحن أولى بالله وبالكتاب وبالنبيّ وبالحقّ فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا وشاء الله قتالهم فقاتلناهم هدى بسنّة الله ربّنا وإرادته[1].

أقول: ورواية نصر بن مزاحم في «صفين» عن الأصبغ ظاهرة في أنّ الرّجل سأل الأمير عليه السلام عن القاسطين، وقد روى نحوه الشيخ الأجلّ المفيد في المجلس الثاني عشر من أماليه (**ص ٥٩ طبع النجف**) أنّ الرّجل سأله عليه السلام عن النّاكثين حيث قال: حدَّثنا أبو الحسن بلال المهلّبي رحمه الله يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شعبان سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة قال: حدَّثنا محمّد بن الحسين بن حميد بن الرَّبيع اللحمي قال: حدَّثنا سليمان بن الرَّبيع النهديّ قال: حدَّثنا نصر بن مزاحم المنقريّ قال: حدَّثنا يحيى بن يحيى الأسلميّ، عن عليّ بن الحزَّور، عن الأصبغ بن نباتة رحمه الله قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالبصرة فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء القوم الذين نقاتلهم - إلخ - على حذوا الرّواية الأُولى من نصر في «صفين».

ومن الممكن أنَّ السؤال وقع عن كلّ واحدة من الطائفتين فقد سأله رجل عن الناكثين في البصرة، وذلك الرَّجل أو آخر سأله عن القاسطين، أو السؤال كان عن إحداهما فاشتبه الأمر على الرّاوي وأسند تارة إلى هؤلاء وتارة إلى هؤلاء أو يقال: إنَّ ما في كتاب «صفين» مطلق مرسل فإنّه قال يا أمير المؤمنين هؤلاء القوم الذين نقاتلهم، فهو يشمل الطائفتين ولمّا رأى نصر أنَّ السؤال الذي كان من الرّجل عن الناكثين جارٍ في القاسطين أيضاً فما سئل الأمير عليه السلام في البصرة أتى به في صفين لاتّحاد الحكم فيهما والحقُّ أنّ جواب الأمير عليه السلام الرّجل جارٍ في محاربي عليّ عليه السلام سواء كانوامن الطوائف الثلاث الناكثين والقاسطين والمارقين أو غيرهم.

وفي «**بشارة المصطفى**» لشيعة المرتضى (**ص ٢٣٥ من طبع النجف**): بإسناده عن

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٧٠ ح ٣٩٨، ومستدرك الوسائل: ١١/ ٦٢.

الأصبغ بن نباتة أنّه قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في بعض خطبه: (**أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه**) - إلى أن قال: (**لقد علم المستحفظون من أصحاب محمّد** صلى الله عليه وآله أنّ الناكثين والقاسطين والمارقين ملعونون على لسان النبيّ الأُمّيّ وقد خاب من افترى)[١].

الترجمة

امير (عليه السلام) در هنگام كارزار به لشگريانش تعليم مى داد كه: گريختن و عقب نشينى كه پس از بازگشت و حمله بر دشمن باشد، بر شما سخت و ناگوار نباشد و از آن ننگ نداشته باشيد - يا اگر از دشمن شكست خورديد و رو به گريز گذاشتيد از برگشتن و جنگيدن و تدارك گذشته كردن شرم نكنيد و آن را دشوار مپنداريد، حق شمشيرها را بدهيد و پهلوى دشمنان را بر خاك هلاك جاى دهيد و خودتان را بر نيزه زدنى كه به درون دشمن رسد و كارگر شود و به شمشير زدن سخت بر آنها وادار كنيد و آماده سازيد و آوازها را بميرانيد و صدا بلند نكنيد كه ترس را بهتر و بيشتر راننده تر و دوركننده تر است، سوگند به آن كه دانه را شكافت و آدمى را آفريد اين قوم منافق اسلام نياوردند و از ترس و حفظ جان خود گردن نهادند و به ظاهر دعوى اسلام كردند و كفر را در دل پنهان داشتند تا چون اكنون يارى كنندگان و پشتيبانان بر آن يافتند، آشكارش كردند و پرچم مخالفت برافراشتند.

(١) الأمالي: ٧٠٣، ومستدرك الوسائل: ١٠/ ٢٢٧.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه وهو المختار السابع عشر من باب الكتب والرسائل

وَأَمّا طَلَبُكَ إِلَى الشّامَ فَإِنّي لَمْ أَكُنْ لأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ ما مَنَعْتُكَ أَمْسِ.

وَأَمّا قَوْلُكَ إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلا حُشاشاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ أَلا فَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى النّارِ.

وَأَمّا اسْتِواؤُنا في الْحَرْبِ وَالرِّجالِ فَلَسْتَ بِأَمْضى عَلَى الشَّكِّ مِنّي عَلَى الْيَقِينِ. وَلَيْسَ أَهْلُ الشّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيا مِنْ أَهْلِ الْعِراقِ عَلَى الآخِرَةِ.

وَأَمّا قَوْلُكَ إِنّا بَنُوا عَبْدِ مَنافٍ فَكَذلِكَ نَحْنُ وَلكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهاشِمٍ، وَلا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ولا أَبُو سُفْيانَ كَأَبي طالِبٍ، وَلاَ الْمُهاجِرُ كَالطَّليقِ، وَلاَ الصَّريحُ كَاللَّصيقِ، وَلاَ الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ وَلاَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ، وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوى في نارِ جَهَنَّمَ.

وَفي أَيْدينا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ التي أَذْلَلْنا بِهَا الْعَزيزَ، وَنَعَشْنا بِهَا الذَّليلَ.

وَلَمّا أَدْخَلَ اللّهُ الْعَرَبَ في دينِهِ أَفْواجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هذِهِ الأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدّينِ إِمّا رَغْبَةً وَإِمّا رَهْبَةً على حينَ فازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهاجِرُونَ الأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ. فَلا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطانِ فيكَ نَصِيباً، وَلا عَلَى نَفْسِكَ سَبيلاً[1].

المآخذ

روى الكتابين سليم بن قيس الكوفي المتوفّى حدود سنة ٩٠ هـ كما في الكتاب المنسوب إليه (**١٧٤ من طبع النجف**).

ونصر بن مزاحم المنقريّ الكوفيّ المتوفّى ٢١٢ هـ في كتاب **«صفّين» (ص ٢٥٢ من الطبع الناصريّ)**.

وابن قتيبة الدّينوري المتوفّى ٢٧٦ هـ في كتاب **«الإمامة والسياسة»** المعروف بتاريخ الخلفاء (**ص ١١٧ و١١٨ ج ١ من طبع مصر ١٣٧٧ هـ**).

وعليّ بن الحسين بن عليّ المعروف بالمسعوديّ المتوفّى ٣٤٦ هـ في **«مروج الذّهب»**

(١) نهج البلاغة: ٣/ ١٧، وبحار الأنوار: ٣٣/ ١٠٥.

(ص ٦٠ و٦١ ج ٢ من طبع مصر ١٣٤٦ هـ).

والشيخ الجليل أبو الفتح محمّد بن عليّ المعروف بالكراجكي المتوفّى ٤٤٩ هـ وقد كان عاصر الرَّضي، في كتاب «كنز الفوائد» (ص ٢٠١ من الطبع الحجري في إيران ١٣٢٢ هـ).

وأتى المجلسيُّ رحمه الله برواية سليم بن قيس في ثامن «البحار» (ص ٥٢٠ من الطبع الكمباني)، وبرواية نصر في ص ٥٤٥ من ذلك المجلّد.

ولا بدَّ لنا من الإتيان ببعضها والإشارة إلى اختلاف نسخها لأنَّ معنى الكتاب الصحيح يتوقّف عليهما، وبذلك يعرف أيضاً صحة نُسخ، وتحريف أخرى، فدونك ما رواه نصر في «صفين» عن عمر في إسناده قال: وكان من أهل الشّام بصفّين رجلٌ يقال له الأصبغ بن ضرار الأزدي، وكان يكون طليعةً ومسلحة لمعاوية، فندب عليٌّ له الأشتر فأخذه أسيراً من غير أن يقاتل، وكان عليٌّ ينهى عن قتل الأسير الكافُ؛ فجاء به ليلاً وشدَّ وثاقه وألقاه مع أضيافه ينتظر به الصّباح، وكان الأصبغ شاعراً مفوهاً، ونام أصحابه، فرفع صوته فأسمع الأشتر فقال:

ألا ليت هذا اللّيلَ أُطبِق سرمداً ... على النّاس لا يأتيهم بنهارِ
يكون كذا حتّى القيامة إنّني ... احاذِرُ في الإصباح ضرمةَ نار
فيا ليلُ طبّق إنَّ في اللّيل راحةً ... وفي الصبح قتلي أو فكاك إسارى
ولو كنتُ تحتَ الأرض ستّين وادياً ... لما ردَّ عنّي ما أخاف حِذاري
فيا نفسُ مهلاً إنَّ للموت غايةً ... فصبراً على ما ناب يا ابن ضرار
أأخشى ولي في القوم رحمٌ قريبةٌ ... أبىَ اللّه أن أخشى والأشتر جاري
ولو أنّه كان الأسير ببلدة ... أطاع بها شمّرت ذيل إزاري
ولو كنت جار الأشعث الخير فكّني ... وقلَّ من الأمر المخوف فراري
وجار سعيدٍ أو عديّ بن حاتمٍ ... وجار شريح الخير قرَّ قراري
وجار المراديّ العظيم وهانيءٍ ... وزحر بن قيس ما كرهت نهاري
ولو أنّني كنت الأسير لبعضهم ... دعوت رئيس القوم عند عثاري
أُولئك قومي لا عدمتُ حياتهم ... وعفوهم عنّي وسترَ عُواري

فغدا به الأشتر على عليّ فقال: يا أمير المؤمنين هذا رجل من المسلحة لقيته بالأمس فوالله لو علمت أنَّ قتله الحقُّ قتلته؛ وقد بات عندنا اللّيلة وحركنا فإن كان فيه القتل فاقتله وإن غضبنا فيه وإن كنت فيه بالخيار فهبه لنا، قال: هو لك يا مالك، فإذا أصبت أسيراً فلا تقتله فإنَّ أسير أهل القبلة لا يفاد، أو لا يقتل، فرجع به الأشتر إلى منزله وقال: لك ما

أخذنا معك ليس لك عندنا غيره.

قال: وذكروا أنَّ عليّاً أظهر أنّه مصبح غداً معاوية ومناجزه فبلغ ذلك معاوية وفزع أهل الشّام لذلك وانكسروا لقوله، وكان معاوية بن الضحّاك بن سفيان صاحب راية بني سليم مع معاوية وكان مبغضاً لمعاوية وكان يكتب بالأخبار إلى عبد الله بن الطفيل العامري ويبعث بها إلى عليّ عليه السلام فبعث إلى عبد الله بن الطفيل أنّي قائلٌ شعراً أذعر به أهل الشام وأذعر[1] به معاوية، وكان معاوية لا يتّهمه وكان له فضل ونجدة ولسان فقال ليلاً ليسمع أصحابه:

ألا ليت هذا اللّيل أطبق سرمداً ... علينا وأنا لا نرى بعده غدا
ويا ليتَهُ إن جاءنا بصباحه ... وجدنا إلى مجرى الكواكب مصعداً
حذار عليّ إنّه غيرُ مُخلفٍ ... مدى الدّهر ما لبّى الملبّون موعداً
فأمّا فراري في البلاد فليس لي ... مقامٌ ولو جاوزت جابلق مصعداً
كأنّي به في النّاس كاشف رأسه ... على ظهر خوّار الرّحالة أجردا
يخوض غمار الموت في مُرجحنّة ... يُنادون في نقع العجاج محمداً
فوارس بدر والنضير وخيبر ... وأُحدٍ يردّون الصّفيح المهنّدا
ويوم حُنين جالدوا عن نبيّهم ... فريقاً من الأحزاب حتّى تبدّدا
هنالك لا تلوي عجوزٌ على ابنها ... وإن أكثرت في القول نفسي لك الفدا
فقل لابن حرب ما الذي أنت صانع ... أتثبت أم ندعوك في الحرب قعددا؟
وظنّي بأن لا يصبر القوم موقفاً ... نقفه وإن لم نجز في الدّهر للمَدا
فلا رأى إلاّ تركنا الشّام جهرة ... وإن أبرق الفجفاج فيها وأرعدا

فلمّا سمع أهل الشام شعره أتوا به معاوية فهمَّ بقتله، ثمَّ راقب فيه قومه وطرده عن الشّام فلحق بمصر وندم معاوية على تسييره إيّاه، وقال معاوية: والله لقول السّلمي[2] أشدّ على أهل الشام من لقاء عليّ ما له قاتله الله لو أصاب خلف جابلق مصعداً نفذه ـ وجابلق مدينة بالمشرق وجابلص مدينة بالمغرب ليس بعدهما شيء.

وقال الأشتر حين قال عليٌّ عليه السلام: إنّني مناجز القوم إذا أصبحت:

قد دنا الفضل في الصّباح ... وللسّلم رجال وللحرب رجال

(١) في نسخة: أرغم.

(٢) في نسخة: لشعر السلمي.

فرجال الحروب كلّ خدبٌ مُقحم لا تهدُّه الأهوال
يضرب الفارس المدجّج بالسيـ ـف إذا فُلّ في الوغا الأكفال
يا ابن هند شدَّ الحيازيم للموت ولا يذهبَنْ بك الأمال
إنَّ في الصّبح إن بقيت لأمراً تتفادى من حوله الأبطال
فيه عِزًّا لعِراق أو ظفر الشام بأهل العراق والزّلزال
فاصبروا للطّعان بالأسَل السّمر وضرب يجري به الأمثال
إن تكونوا قتلتم النّفر البيض وغالت أولئك الآجال
فلنا مثلهم وإن عظم الخطب قليلٌ أمثالهم أبدال
يخضبون الوشيح طعناً إذا جُرَّت للموت بينهم أذيال
طلب الفوز في معاد وفي ذا تُستهانُ النُّفوسُ والأموال

فلمّا انتهى إلى معاوية شعر الأشتر قال: شعر منكر من شاعر منكر رأس أهل العراق وعظيمهم ومسعّر حربهم وأوّل الفتنة وآخرها، وقد رأيت أن أكتب إلى عليّ كتاباً أسأله الشام وهو الشيء الأوّل الذي ردّني عنه وأُلقي في نفسه الشّكّ والرِّقّة.

فضحك عمرو بن العاص ثم قال: أين أنت يا معاوية من خدعة عليّ؟

فقال: ألسنا بني عبد مناف؟

قال: بلى، ولكنَّ لهم النبوّة دونك وإن شئت أن تكتب فاكتب، فكتب معاوية إلى عليّ مع رجل من السّكسك يقال له عبد الله بن عقبة وكان من ناقلة أهل العراق فكتب:

أمّا بعد، فإنّي أظنّك أن لو علمت أنَّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا لم يجنها بعضنا على بعض، وإن كنّا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به ما مضى ونصلح ما بقي، وقد كنت سألتك الشّام على أن لا تلزمني لك طاعةٌ ولا بيعة فأبيت ذلك عليَّ فأعطاني الله ما منعت؛ وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فإنّي لا أرجو من البقاء إلاّ ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلاّ ما تخافُ، وقد والله رقّت الأجنادُ وذهبت الرِّجال، ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضلٌ إلاّ فضلٌ لا يستذلّ به عزيزٌ، ولا يسترقُّ بهُ حرٌّ والسّلام.

فلمّا انتهى كتاب معاوية إلى عليّ عليه السلام قرأهُ ثم قال العجب لمعاوية وكتابه ثمَّ دعا عليٌّ عليه السلام عبيد الله بن أبي رافع كاتبه فقال: اكتب إلى معاوية:

أمّا بعد، فقد جائني كتابُك تذكر أنّك لو علمتَ وعلمنا أنَّ الحرب تبلغ بنا وبك ما

بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، فإنّا وإيّاك منها في غاية لم تبلغها[1]، وإنّي لو قتلت في ذات الله وحيّيت ثمَّ قتلت ثمَّ حيّيت سبعين مرَّة لم أرجع عن الشدَّة في ذات الله والجهاد لأعداء الله.

وأمّا قولك: إنّه قد بقيَ من عقولنا ما نندم به على ما مضى فإنّي ما نقضت عقلي، ولا ندمت على فعلي؛ فأمّا طلبك الشّام فإنّي لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس.

وأمّا استواؤنا في الخوف والرَّجاء فإنّك لست بأمضى على الشكِّ منّي على اليقين، وليس أهل الشّام بأحرص على الدُّنيا من أهل العراق على الآخرة.

وأمّا قولك: إنّا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل فلعمري إنّا بنو أبٍ واحدٍ ولكن ليس أُميّة كهاشم، ولا حربٌ كعبد المطّلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطّليق، ولا المحقّ كالمبطل، وفي أيدينا فضلُ النبوّة التي أذللنا بها العزيز، وأعززنا بها الذَّليل. والسّلام[2].

عن نصر، عن عمر بن سعد، عن نمير بن وعلة قال: فلمّا أتى معاوية كتاب عليّ عليه السلام كتمه عن عمرو بن العاص أيّاماً ثمَّ دعاه بعد ذلك فأقرأه الكتاب فشمت به عمرو ولم يكن أحد من قريش أشدَّ تعظيماً لعليّ عليه السلام من عمرو منذ لقيه وصفح عنه فقال عمرو بن العاص فيما كان أشار به على معاوية شعراً.

ألا لـلّـهِ درُّكَ يـا ابـنَ هـنـدٍ ... ودَرُّ الأمـريـنَ لـك الـشُّـهُـودِ
أتَـطـمـعُ لا أبـاً لـك فـي عـلـيٍّ ... وقـد قُـرِعَ الـحـديـدُ عـلـى الـحـديـد
وتَـرجـوُ أن تُـخـبِّـره بـشـكٍّ ... وتـرجـو أن يَـهـابَـك بـالـوعـيـدِ
وقـد كـشـف الـقـنـاع وجـرَّ حـربـاً ... ويَـشـيـبُ لـهـو لـهـا رأس الـولـيـد
لـه جـأواءُ مـظـلـمـةٌ طـحُـونٌ ... فـوارسـهـا تـلـهّـبُ كـالأُسُـودِ
يـقـول لـهـا إذا دلـفـت إلـيـه ... وقـد ملّـت طـعـان الـقـوم عـودي
فـإن وردت فـأوَّلـهـا وُرُوداً ... وإن صـدرت فـلـيـس بـذي صـدودِ
ومـا هـي مـن أبـي حـسـنٍ بـنـكـرٍ ... ومـا هـي مـن مَـسـائـك بـالـبـعـيـد
وقـلـت لـه مـقـالـة مـسـتـكـيـن ... ضـعـيـف الـرُّكـن مـنـقـطـع الـوريـد
دعـنَّ الـشّـام حـسـبـك يـا ابـن هـنـد ... مـن الـسّـوءات والـرأي الـزَّهـيـد
ولـو أعـطـاكـهـا مـا ازددت عـزًّا ... ولا لـك لـو أجـابـك مـن مـزيـدِ
ولـم تـكـسـر بـذاك الـرَّأي عـوداً ... لـركّـتـه ولا مـا دون عـودِ

(١) في نسخة: لم نبلغها.
(٢) نهج السعادة: ٤/ ٢٧٢، ووقعة صفين: ٤٧١.

فلمّا بلغ معاوية قول عمرو دعاه فقال: يا عمرو إنّني قد أعلم ما أردت بهذا قال: ما أردت؟ قال: أردت تفييل رأيي وإعظام عليّ وقد فضحك، فقال: أمّا تفييلي رأيك فقد كان، وأمّا إعظامي عليّاً فإنّك باعظامه أشدّ معرفةً منّي ولكنّك تطويه وأنا أنشره، وأمّا فضيحتي فلم يفتضح امرؤٌ لقي أبا حسنٍ وقد كان معاوية شمت بعمرو حيث لقي من عليّ عليه السلام ما لقي فقال عمرو في شماتة معاوية:

معاوي لا تشمت بفارس بهمة ... لقي فارساً لا تعتريه الفوارس
معاوي إن أبصرت في الخيل مقبلاً ... أبا حسنٍ يهوي دهتك الوساوس
أيقنت أنّ الموت حقٌّ وأنّه ... لنفسك إن لم تمض في الرّكض حابس
فإنّك لو لاقيته كنت بومةً ... أُتيح لها صقرٌ من الجوّ آنسٌ
وماذا بقاء القوم بعد اختباطه ... وإنّ امرءاً يلقى عليّاً لا يسٌ
دعاك فصمّت دونه الأذن هارباً ... فنفسك قد ضاقت عليها الأمالس
وأيقنت أنّ الموت أقرب موعدٍ ... وأن التي ناداك فيها الدّهارسُ
وتشمت بي أن نالني حدُّ رمحه ... وعضعضني نابٌ من الحرب ناهسٌ
أبى الله إلاّ أنّه ليثُ غابةٍ ... أبو أشبُل تُهدى إليه الفرايس
وإنّي امرؤٌ باقٍ فلم يلف شلوه ... بمعترك تسفي عليه الرّوامس
فإن كنت في شكّ فادهج عجاجه ... وإلاّ فتلك التُّرّهات البسابس[1]

وكتاب معاوية في نسخة «**الإمامة والسياسة**» يخالف ما في كتاب «**صفّين**» في الجملة ففيه: لو علمت أن الحرب تبلغ ولم يأت بلفظة «وعلمنا» كما أتى بها في صفين[2].

وفيه: فلنا منها ما ندمّ به ـ وكان في صفين «ما نندم به».

وفيه: وقد كنت سألتك ألاّ يلزمني ـ وكان في صفين «وقد كنت سألتك الشّام على أن لا تلزمني».

وفيه: وإنّي أدعوك إلى ـ وكان في صفين «وأنا أدعوك اليوم إلى».

وفيه: فإنّك لا ترجو من البقاء إلاّ ما أرجو، ولا تخاف من الفناء إلاّ ما أخاف ـ وكان في صفين بعكس ذلك، والتأمّل الصحيح يقضي بأن نسخة نصر كانت أمتن وأبلغ.

---

(١) الأمالي: ١٣٥ ح ٣٠، والغدير: ٢/ ١٦٢، ووقعة صفين: ٤٧٣.
(٢) الامامة والسياسة: ١/ ١٣٧.

صورة كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام على ما في الإمامة والسياسة

قال الدّينوري: فلمّا انتهى كتابه ـ يعني كتاب معاوية المقدّم نقله ـ إلى عليّ عليه السلام، دعا كاتبه عبيد الله بن أبي رافع، فقال: اكتب: أمّا بعد فقد جاءني كتابك تذكر أنّك لو علمت وعلمنا أنَّ الحرب تبلغ ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، وإنا وإيّاك في غاية لمن بلغها بعد، وأمّا طلبك إليّ الشام فإنّي لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأمّا استواؤنا في الخوف والرَّجاء فإنّك لست أمضى على الشّكّ منّي على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص من أهل العراق على الآخرة، وأمّا قولك: إنّا بنو عبد مناف فكذلك ولكن ليس أُميّة كهاشم، ولا حرب كعبد المطّلب ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطَّليق، ولا المحق كالمبطل، وفي أيدينا فضل النبوّة التي قتلنا بها العزيز، وبعنا بها الحرَّ. والسّلام[1].

نسخة الكتابين على ما في كتاب سليم بن قيس

قال سليم: ثمَّ إنَّ عليّاً عليه السلام قام خطيباً فقال: أيّها الناس إنّه قد بلغكم ما قد رأيتم وبعدوكم كمثل فلم يبق إلاّ آخر نفس وإنَّ الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولّها وقد صبر لكم القوم على غير دين حتّى بلغوا فيكم ما قد بلغوا وأنا غادٍ عليهم بالغداة إن شاء الله ومحاكمهم إلى الله، فبلغ ذلك معاوية ففزع فزعاً شديداً وانكسر هو وجميع أصحابه وأهل الشام لذلك فدعا عمرو بن العاص فقال: يا عمرو إنّما هي اللّيلة حتّى يغدوا علينا فما ترى؟

قال: أرى الرِّجال قد قلّوا، وما بقي فلا يقومون لرجاله ولست مثله وإنما يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء وليس يخاف أهل الشام عليّاً إن ظفر بهم ما يخاف أهل العراق إن ظفرت بهم، ولكن ألق إليهم أمراً فإن ردّوه اختلفوا وإن قبلوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب الله وارفع المصاحف على رؤوس الرِّماح فإن بالغ حاجتك فإنّي لم أزل أدّخرها لك.

فعرفها معاوية وقال: صدقت ولكن قد رأيت رأياً أخدع به عليّاً طلبي إليه الشام على الموادعة وهو الشيء الأول الذي ردّني عنه.

فضحك عمرو وقال: أين أنت يا معاوية من خديعة عليّ؟ وإن شئت أن تكتب فاكتب.

قال: فكتب معاوية إلى عليّ عليه السلام كتاباً مع رجل من أهل السَّكاسك يقال له عبد الله بن

---

(١) كنز الفوائد: ٢٠١، وبحار الأنوار: ٦١١/٣٢.

عقبة: أمّا بعد فإنّك لو علمت أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمناه نحن لم يجنها بعضنا على بعض وإن كنّا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي منها ما نرم به ما مضى ونصلح ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمني لك طاعة ولا بيعة فأبيت ذلك فأعطاني الله ما منعت وأنا أدعوك إلى ما دعوتك إليه أمس فإنّك لا ترجو من البقاء إلاّ ما أرجوه ولا تخاف من الفناء إلاّ ما أخاف، وقد والله رقّت الأكباد وذهب الرِّجال، ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذلّ به عزيز ولا يسترقُّ به ذليل. والسلام.

قال سليم: فلمّا قرأ عليّ عليه السلام كتابه ضحك وقال: العجب من معاوية وخديعته لي فدعا كاتبه عبيد الله بن أبي رافع فقال له: اكتب: أمّا بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنّك لو علمت أنّ الحرب تبلغ بنا وبك إلى ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، وإنّا وإيّاك يا معاوية على غاية منها لم نبلغها بعد، وأمّا طلبك الشام فإنّي لم أعطك اليوم ما منعتك أمس، وأمّا استواؤنا في الخوف والرَّجاء فإنّك لست بأمضى على الشّك مني على اليقين وليس أهل الشام أحرص على الدُّنيا من أهل العراق على الآخرة، وأمّا قولك: إنّا بنو عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض فكذلك نحن ولكن ليس أُميّة كهاشم، ولا حرب كعبد المطّلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المنافق كالمؤمن، ولا المبطل كالمحق، في أيدينا فضل النبوّة التي ملكنا بها العرب، واستعبدنا بها العجم. والسّلام[1].

وكتاب معاوية على نسخة المسعودي: «وإنّا وإن كنّا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا ما نردّ به ما مضى» «على أن لا تلزمني لك طاعة وأنا أدعوك اليوم» «وذهبت الرِّجال» «ويسترقّ به حرٌّ، والسّلام» وسائر العبارات تطابق نسخة سليم.

وكتاب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على نسخته «وأنا وإيّاك نلتمس منها غاية لم نبلغها بعد»، «وليس أهل الشام على الدُّنيا بأحرص» «وليس أُميّة» «وفي أيدينا فضل النبوّة التي قتلنا بها العزيز و بعنا بها الحرّ والسّلام» وسائر عباراته توافق نسخة سليم.

ونسخة كتاب الأمير عليه السلام من الكراجكي في **«الكنز»** تطابق نسخة المسعودي في **«المروج»**، وأمّا نسخة كتاب معاوية ففي **«الكنز»**: «فقد بقي لنا ما نرم به ما مضى» كما في نسخة سليم «يستذلّ به عزٌ ولا يسترقّ به حد والسلام» والبواقي توافق نسخة المسعودي.

أقول: وبعد اللّتيا والتي فلم نجد مع الجدّ في الطّلب وكثرة الفحص والتتبّع رواية تحوز جميع ما في نسخة الرَّضي في **«النهج»** أو توافق لها متناً، أو تطابق أجوبتها ما أتى به معاوية في كتابه وإن كان الاختلاف قليلاً ولا نشكُّ في أنّ الرضيّ نقل كلامه عليه السلام من مآخذ قيمةٍ كانت

(١) كنز الفوائد: ٢٠١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ١٣٠.

تحضره، غاية الأمر أن يكون مختار واحد ملفّقاً من ملتقطات عباراته الشتّى.

نعم على ما نقله الفاضل البحراني في شرحه على النهج تطابق أجوبة كتابه عليه السلام كتاب معاوية، قال: كتب إليه معاوية: أمّا بعد فإنّي أظنّك لو علمت أنَّ الحرب يبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا لم يجنها بعض على بعض، وإنّا وإن كنّا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم بها على ما مضى ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن لا يلزمني لك طاعة ولا بيعة وأبيت ذلك عليَّ فأعطاني الله ما منعت وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فإنّك لا ترجو من البقاء إلاّ ما أرجو ولا أخاف من القتل إلاّ ما تخاف وقد والله رقّت الأجناس وذهبت الرجال وأكلت الحرب العرب إلاّ حشاشات نفس بقيت، وأنّا في الحرب والرِّجال سواء ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل إلاّ فضل لا يستذلّ به عزيز ولا يسترقّ به حرّ. والسّلام. فلمّا قرأ عليّ عليه السلام كتابه تعجّب منه ومن كتابه ثمَّ دعا عبيد الله بن أبي رافع كاتبه وقال له اكتب إليه أمّا بعد فقد جاءني كتابك تذكر ـ الفصل.

اللغة

«طلبك إليّ» قال في أقرب الموارد: طلب إليَّ: رغب، وقال الفاضل الشارح المعتزلي: يقال: طلبت إلى فلان كذا والتقدير طلبت كذا راغباً إلى فلان كما قال تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي مرسلاً، وفي تعليقة نسخة خطيّة عندنا فسّرت العبارة هكذا: أي طلبك الشام قاصداً إليَّ بذلك، وسيأتي وجه آخر في «**بيان الإعراب**».

«حشاشات» جمع حشاشة بالضمّ، الحشاش والحشاشة بقيّة الرّوح في المريض قال في «**الأساس**»: وما بقي منه إلاّ حُشاشة، قال ذو الرُّمّة:

فلمّا رأين اللّيل والشمس حيّةً حياة التي تقضي حُشاشة نازعِ

وفي «**الحماسة**» (٢٠٢):

فهل أنت إلاّ مستعيرٌ حشاشةً لمهجة نفس آذنت بفراقِ

وقال المرزوقي في «**الشرح**»: الحشاشة هي روح القلب، ورمقٌ من حياة النّفس وقد آذنت بالمفارقة، والمهجة: خالصة النفس.

وفي «**منتهى الأرب**»: حشاش بالضمّ كغراب: بقيّهء جان دربيمار وجريح، حشاشه (**بالهاء**) كذلك.

«الطّليق» قال ابن الأثير في «**النهاية**»: وفي حديث حنين: وخرج إليها ومعه الطّلقاء، هم الذين خلّى عنهم يوم فتح مكّة وأطلقهم ولم يسترقّهم واحدهم طليق فعيل بمعنى مفعول

وهو الأسير إذ اطلق سبيله، ومنه حديث الطّلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف كأنّه ميّز قريشاً بهذا الإسم حيث هو أحسن من العتقاء.

«الصّريح»: الخالص من كلّ شيء، قال الفيومي في «**المصباح**»: صرح الشيء بالضمّ صراحة صروحة: خلص من تعلقات غيره فهو صريح، وعربيٌّ صريح خالص النّسب والجمع صرحاء، وكلّ خالص صريح، ومنه قولٌ صريح وهو الذي لا يفتقر إلى إضمار أو تأويل.

وفي أقرب الموارد يقال: رجلٌ صريح النسب أي خالصه.

«اللّصيق» أصل اللّصيق: الدَّعيُّ في قوم الملصق بهم وليس منهم من قولك لصق الشيء بغيره من باب تعب لصقاً ولصوقاً: لزق، وقال في «**الأساس**»: ومن المجاز: فلان ملصقٌ ولصيقٌ، دعيٌّ.

«المدغل» اسم فاعل من الإدغال، قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: الدَّغل بالتحريك: الفساد مثل الدَّخل، يقال: قد أدغل في الأمر إذا أدخل فيه ما يخالفه ويفسده.

وفي «**النهاية**» الأثيريّة: فيه ـ يعني في الحديث ـ اتّخذوا دين الله دغلاً أي يخدعون النّاس، وأصل الدّغل الشجر الملتفّ الذي يكمن أهل الفساد فيه، وقيل: هو من قولهم: أدغلت في هذا الأمر إذا أدخلت فيه ما يخالفه ويفسده ومنه حديث عليّ عليه السلام (**ليس المؤمن بالمدغل**) هو اسم فاعل من أدغل.

«نعشنا» نعشه الله ينعشه من باب منع أي رفعه، قال الجوهريُّ: لا يقال أنعشه الله، وسمّي سرير الميّت نعشاً لارتفاعه وإذا لم يكن عليه ميّت محمول فهو سرير، قاله ابن الأثير في «**النهاية**»، وقال المرزوقي في شرحه على (**الحماسة ٣٦٨**): النعش شبيه بالمحفّة كان يحمل عليه الملك إذا مرض؛ ثم كثر حتّى سمّي النعش الذي فيه الميّت نعشاً.

«رغبة» بالفتح فالسكون مصدر من قولك رغب فيه من باب علم إذا أراده بالحرص عليه وأحبّه.

و«رهبة» كالرغبة أي الخوف مصدر رهب الرّجل منه من باب علم إذا خاف منه.

الإعراب

«وأمّا طلبك إليّ الشام» الواو عاطفة على ما سبق في الكتاب من قوله: (**وأمّا قولك إنّه قد بقي من عقولنا**) ـ إلخ ـ كما دريت في بيان المآخذ، وفي بعض النسخ: (**فأمّا طلبك**)، (**بالفاء**) كما في نسخة نصر المقدّم نقلها، ونسخة الرّضي أصحّ، وياء (**إليّ**) مشدّدة مدغمة من (**ياء**) إلى الجارّة (**وياء**) ضمير المتكلّم المجرور (**والشّام**) منصوب مفعول للطّلب.

والعبارة في بعض النسخ مشكولة بجرّ الشام وتخفيف إلى أي رغبتك إلى الشّام ونحوه، وكأنّها وهم ونسخة الرَّضي وأكثر المتون ما اخترناها وهو أوفق بأسلوب الكلام، وأوثق في تأدية المعنى، وأوجز وأبلغ في الفحوى والمغزى.

وأمكن أن تكون كلمة **(إلى)** بمعنى **(من)** أي طلبك منّي الشّام نحو قول عمرو بن أحمر الباهلي في قصيدة قالها بعدما هرب من يزيد بن معاوية لما بلغ عنه شيء إليه.

تقول وقد عاليتُ بالكوُر فوقها أيسقى فلا يروى إليّ بن أحمر؟

أي تقول الناقة وقد رفعت الرَّحل ووضعته على ظهرها: أيركبني عمرو بن أحمر فلا يملّ من ركوبي، والبيت في جامع الشواهد.

«اكلت» الضمير يرجع إلى الحرب وهي تؤنّث وتذكّر.

«حشاشات» منصوب بالكسر لأنَّ المستثنى متصل، «ألا» حرف تنبيه.

«فإلى النّار» خبر لقوله **(من الموصولة في من أكله)**. **(والفاء)** في **(فإلى)** لتضمّن **(من)** معنى الشّرط، وقال ابن الحاجب في البحث عن المبتدأ والخبر **(من)** الكافية: وقد يتضمّن المبتدأ معنى الشرط فيصحّ دخول **(الفاء)** في خبره وذلك إمّا الاسم الموصول بفعل أو ظرف أو النكرة الموصوفة بهما مثل الذي يأتيني أو الذي في الدّار فله درهم ومثل كلّ رجل يأتيني أو في الدّار فله درهم.

«ما منعتك» **(ما)** موصول اسمي مفعول ثان لأعطيك «منّي على اليقين» الظّرفان متعلّقان بأمضى، **(ومن أهل العراق على الآخرة)** متعلّقان بأحرص «أُميّة» غير منصرف للعلميّة والتأنيث، وكذلك سفيان لمكان **(الألف والنّون)** الزّائدتين كعثمان.

«لبئس» بئس من أفعال الذّم، **(الخلف)** فاعله وخلف مخصوص بالذمّ وجملة **(يتبع سلفاً)**، في محلّ الرّفع صفة له لأنّه نكرة، **(وجملة هوى في نار جهنّم)** في محلّ الرّفع صفة **(لسلف لذلك)**.

(في أيد) خبر **(فضل النبوّة)** قدّم توسعاً للظرف **(والواو)** للحال فالجملة حالية بعد مبنيّ على الضمّ حذف المضاف إليه بقرينة المقام كما سيعلم في المعنى، **(نعشنا)** عطف على قوله **(اذللنا)**.

«كنتم» جواب **(لمّا)**، وأفرد **(دخل)** لظاهر من، على حين كقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥] وقال الفاضل أبو البقاء يعيش بن عليّ بن يعيش في **«تفسير التبيان في إعراب القرآن»**: **(على حين غفلة)** حال من المدينة ويجوز أن يكون حالاً من

الفاعل أي مختلساً. انتهى. ففي المقام جاز أن يكون على حين حالاً من ضمير **(كنتم)** أو من **(الذين)** وإن كالأوّل أنسب بسياق الكلام.

«طوعاً» و«كرهاً» مصدران في موضع الحال وكذا رغبة ورهبة وذوا لحال في الصورة الأُولى **(الأمّة)** وفي الثانية **(من)**.

«وذهب» عطف على **(فاز)**، أي على حين ذهب، **(والباء)** في **(بفضلهم)** للتّعدية أعني صار فعل ذهب بها متعدّياً، وفي باء التعدية معنى المصاحبة أيضاً، ولذلك إذا تعدّى الفعل اللازم بباب الافعال يفيد معنى، وإذا تعدّى بباء لجر يفيد معنى آخر يغاير الأوّل؛ مثلاً إذا قلت أذهبت زيداً جعلت زيداً ذاهباً وما ذهبت معه، وإذا قلت ذهبت بزيدٍ جعلته ذاهباً وأنت أيضاً ذاهب معه لمكان **(الباء)**؛ فتبصّر من لطافة قوله عليه السلام **(وذهب المهاجرون الأوّلون بفضلهم)**.

(والأوّلون) صفة للمهاجرين، **(والباء)** في **(بسبقهم)** سببيّة.

«نصيباً» مفعول **(لا تجعل)**، وللشيطان متعلق به وكذلك فيك **(قدما عليه)** توسعاً للظّروف.

«ولا على نفسك سبيلاً» معطوف على **(الشيطان)** فسبيلاً مفعول الفعل وعلى نفسك متعلق به **(قدّم عليه)** للظرفيّة.

المعنى

هذا الكتاب كتب قبل ليلة الهرير كما هو الظاهر، قيل بيومين أو ثلاثة جواباً عن كتاب كتبه معاوية إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وإنّما كتبه معاوية إليه بعد ما بلغه قوله عليّ عليه السلام: **(لأُناجزنّهم مصبحاً)**، وتناقل الناس كلمته وفزع أهل الشام لذلك وانكسروا لقوله كما تقدّم الكلام فيه من نصر وغيره آنفاً.

ومعاوية قد أظهر في كتابه الندامة والنفرة على إنارته نارا لحرب وإثارته إيّاها وإقدامه على إقبالها، واعترف بأنه أطاع نفسه في ذلك وأدبر عن فتيا العقل، وفيه أشعار بجزعه من الحرب واضطرابه من القتال وعدم نجدته في الحراب.

وأساء بأمير المؤمنين عليّ عليه السلام الظنّ وخرج عن صوب الصواب وطريق الأدب حيث خاطبه عليه السلام بقوله: فإنّي أظنّك ـ إلى قوله: لم يجنها بعض على بعض وأشركه في اتّباعه الهوى وخروجه عن الطريقة المثلى، بقوله: وإنّا وإن كنّا قد غلبنا على عقولنا.

وطلب منه عليه السلام ثانياً أن يترك الشّام، ولا يطلب منه طاعة ولا بيعة كما كان طلبه منه كذلك من قبل.

وشمخ بأنفه وأرعد وأبرق فجعل نفسه خليفة الله بقوله: فإنّك لا ترجو من البقاء ـ إلخ.

واستعطفه ودعاه إلى الشّفقة على النّاس والكفّ من البأس بقوله: وقد والله رقت ـ إلخ.

وخوّفه باستواء الفريقين في الحرب والرّجال بقوله: وإنّا في الحرب ـ إلخ.

ثمّ تبصبص وأبدى القرابة منه بأنّ أميّة وهاشم صنوان من أصل واحد.

ثمّ تغطرس بأنّ بني عبد مناف ليس لبعضهم على بعض فضل، واستثنى من ذلك فقال: إلاّ فضل لا يستذلّ به عزيز ولا يسترقّ به حرّ، فأجاب عنها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بما ترى:

أمّا بعد فقد جاءني كتابك تذكر: «أنّك لو علمتَ وعلمنا أنَّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض» نقل كلام معاوية أوّلاً فأجابه بقوله: (**فإنّا وإيّاك منها في غاية لم نبلغها، وإنّي لو قتلت في ذات الله وحُييت ثمّ قتلت ثمّ حييت سبعين مرّة لم أرجع عن الشدّة في ذات الله والجهاد لأعداء الله**).

وضمير (**منها**) يرجع إلى الحرب، وكلمة (**لم تبلغها**) جاءت في نسخة نصر (**بتاء**) الخطاب وفي نخسة كنز الكراجكي (**بياء**) الغيبة وفي سائر النسخ (**بنون**) المتكلّم مع الغير، والأخير أنسب بسياق الكلام، والمراد: أنّا نلتمس وننتظر من الحرب غايةً لم نبلغها بعدُ، أي إنّي أعلم أنَّ الحرب ستشبُّ إلى حدّ يكون ما مضى منها دونه.

وكلامه هذا إذعار معاوية وإرغامه في قبال قوله ذلك، وتهديد وتخويف وإيعاد إيّاه بأنَّ أمره سيؤل إلى أشدُّ من ذلك وأنَّ عاقبته وخيمة وأنَّ عاقبة الذين أساؤوا السّوأى، وإنبائه بنفسه أي إنّي لعلى بصيرة وبيّنة من ربّي وإنّي لعلى الطّريق الواضح، ثمّ أكّده بقوله: (**وإنّي لو قتلت في ذات الله وحييت ثمّ قتلت ثمّ حييت سبعين مرّة لم أرجع عن الشدّة في ذات الله والجهاد لأعداء الله**)، وأعلمه بذلك ثبات قدمه في الدّين، وكونه على النهج القويم والصّراط المستقيم، وعدم بأسه من القتال والقتل في سبيل الله ولو قتل وحيّي سبعين مرّة، وعرّف في أثناء قوله معاوية ومن سلكوا مسلكه واتّبعوا مأخذه بأنّهم كافرون لأنهم أعداء الله.

واعلم أنَّ أولياء الله لكونهم على بيّنة من ربّهم لا يبالون وقعوا على الموت أو وقع الموت عليهم، ولا يخافون من القتل في سبيل الله ولا من القتال في سبيله، ويعلمون أنّهم لا يتربّصون بالأعداء إلاّ إحدى السوئين، وأنَّ الأعداء لا يتربّصون بهم إلاّ إحدى الحُسنيين إمّا الفتح وإمّا الشهادة كما قال الله تعالى خطاباً لرسوله صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة: ٥٢].

واقتفى أثره عليه السلام في قوله هذا: **(وإنّي لو قتلت في ذات الله)** - إلخ، الذين استضاؤوا من مشكاة وجوده، واقتبسوا من نور علمه وربّوا في بيته وحجره، واحتذروا حذوه، واتّبعوا سبيله سلام الله عليهم أجمعين: فهذا هو عمّار بن ياسر فاستمع ماذا يقول رضوان الله عليه: روى نصر في «صفين» عن عمر قال: حدَّثني عبد الرَّحمٰن بن جندب، عن جندب بن عبد الله قال: قام عمّار بن ياسر بصفّين فقال: امضوا عباد الله إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم الظّالم لنفسه، الحاكم على عباد الله بغير ما في كتاب الله إنّما قتله الصّالحون المنكرون للعدوان الأمرون بالإحسان فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم لو درس هذا الدين: لم قتلتموه؟ فقلنا: لأحداثه، فقالوا: إنّه ما أحدث شيئاً وذلك لأنّه مكّنهم من الدُّنيا فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو انهدّت عليهم الجبال، والله ما أظنهم يطلبون دمه إنّهم ليعلمون أنّه لظالم ولكنَّ القوم ذاقوا الدُّنيا فاستحبّوها واستمرؤوها، وعلموا لو أنَّ الحقَّ لزمهم لحال بينهم وبين ما يرعون فيهم منها، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية فخدعوا أتباعهم بأن قالوا قتل إمامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون ولولا هي ما بايعهم من النّاس رجلان، اللّهمَّ إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فاذخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم، ثمّ مضى ومضى معه أصحابه فلمّا دنى من عمرو بن العاص فقال: يا عمر وبعت دينك بمصر تبّاً لك وطالما بغيت الإسلام عوجاً ثمّ حمل عمّار وهو يقول:

صدق اللّه وهو للصّدق أهلٌ ... وتعالى ربّي وكان جليلاً
ربُّ عجّل شهادةً لي بقتلٍ ... في الذي قد أحبُّ قتلاً جميلاً
مُقبلاً غيرَ مُدبرٍ إنَّ للقتلِ ... على كلُّ ميتةٍ تفضيلاً
إنّهم عند ربّهم في جنانٍ ... يشربون الرَّحيق والسلسبيلا
من شراب الأبرار خالطه المسك ... وكأساً مزاجها زنجبيلاً

والأبيات الثلاثة الأخيرة تشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ... وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨].

قال نصر: ثمَّ نادى عمّار عبيد الله بن عمر وذلك قبل مقتله فقال: يا ابن عمر صرعك الله بعت دينك بالدُّنيا من عدوِّ الله وعدوِّ الإسلام، قال: كلاّ ولكن أطلب بدم عثمان الشهيد المظلوم، قال: كلاّ أشهد على علمي فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله وأنّك إن لم تقتل اليوم فستموت غداً فانظر إذا أعطى الله العباد على نيّاتهم ما نيّتك؟

ثمَّ قال عمّار: اللّهمَّ إنّك لتعلم أنّي لو أعلم أنَّ رضاك أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت، اللّهمَّ إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنَّ رضاك أن أضع ظبة سيفي في بطني ثمَّ أنحنى عليها حتّى تخرج من ظهري لفعلت، اللّهمَّ وإنّي أعلم ممّا أعلمتني أنّي لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً أرضى لك منه لفعلته **(ص ١٦٥ من الطبع الناصري)**.

وقد نقل قوله هذا أبو جعفر الطّبري في تاريخه كما تقدّم في **«شرح المختار»** ٢٣٦ من باب الخطب **(ص ٢٨٤ ج ١٥)**.

وتقدّمت طائفة من كلمات قيّمة من أصحاب عليّ عليه السلام في شرح الكتاب العاشر فراجع.

ولمّا جمع ريحانة رسول الله سيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليهما السلام أصحابه عند قرب المساء من يوم التّاسوعاء وقال لهم: إنّي قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم منّي ذمام هذا اللّيل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً[1]، فبعد ما قال أعوانه من إخوته وأبنائه وبني أخيه وبني عقيل وابني عبد الله بن جعفر ما قالوا، قال إليه مسلم بن عوسجة رضوان الله عليه فقال: أنحن نخلّي عنك وبما نعتذر إلى الله في أداء حقّك أما والله حتّى أطعن في صدورهم برُمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمة في يدي ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة والله لا نخلّيك حتّى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو قد علمت أنّي أقتل ثمَّ أحيي ثمَّ أُحرق ثمَّ أُحيي ثمَّ أُذرى يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك وكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة ثمَّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

وقام زهير بن القين رحمة الله عليه فقال: والله لوددت أنّي قتلت ثم نشرت ثمَّ قتلت

(١) الإرشاد: ٢/ ٩٢، وبحار الأنوار: ٤٤/ ٣٩٣.

حتّى أُقتل هكذا ألف مرّة وأنّ الله عزَّ وجلَّ يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

تومكن تهديدم ازكشتن كه من	تشنه، زارم بخون خويشتن
عاشقانرا هر زماني مردني است	مردن عشاق خود يك نوع نيست
اودوصد جان دارد از نور هُدى	وآندو صد را ميكند هردم فدا
هريكى جان را ستاند ده بها	از نبي خوان عشرة أمثالها
آزمودم مرگ من در زندگيست	چون رهم زين زندگى پايندگيست
إنَّ في موتي حياتي يا فتى	كم أُفارق موطني حتّى متى
فرقتي لو لم تكن في ذا السكون	لم يقل إنّا إليه راجعون

قال عليه السلام وأمّا قولك: «أنّه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى» نقل كلام معاوية ثمَّ أجابه بقوله: «فإنّي ما نقضت عقلي ولا ندمت على فعلي» وذلك لأنه عليه السلام كان مأموراً بقتاله من الله تعالى كما احتجَّ عليه السلام بذلك على معاوية في الكتاب السابع **(ص ٢٢٣ ج ١٦)** حيث قال معاوية: وإنّي أُحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمّة وتفريق جماعتها. فأجابه الأمير عليه السلام: فلعمري لو كنت الباغي عليك لكان لك أن تحذّرني ذلك، ولكنّي وجدت الله تعالى يقول: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ فنظرنا إلى الفئتين ما الفئة الباغية؟ فوجدناها الفئة التي أنت فيها - إلخ.

على أنَّ الحجج الإلهيّة كما أنّهم معصومون من الذُنوب كذلك معصومون من أن يفعلوا فعلاً أو يتركوا ما يوجب ندامتهم به لأنّهم ينظرون بنور الله ويحكمون بالعقل النّاصح فإذا سكتوا فسكوتهم هو الصّواب، وإذا نطقوا فنطقهم هم الصّواب وإذا فعلوا ففعلهم هو الصّواب وإذا تركوا وكفّوا فتركهم هو الصّواب، ثمَّ من لم يكن عالماً بعواقب الأمور يندم من فعله لأنّه يفعل فعلاً كان الصواب تركه أو يترك فعلاً كان الصواب فعله، فإذا ظهر له خلافه يندم به فأين هذا ممّن كان بنهاية قربه من الله وكمال الإتّصال بجنابه وتمام الحضور إلى حضرته مصوناً ومعصوماً عن جميع ما تنفر عنها الطباع، وقد تقدَّم البحث عن صفاتهم وعصمتهم في **«شرح المختار»** ٢٣٧ من باب الخطب ولذا قال عليه السلام: **(فإنّي ما نقضت عقلي ولا ندمت على فعلي)**، وفي بعض النسخ: **(فإنّي ما تنقّضت عقلي)**، أي ما أنسبه إلى النقصان.

قال عليه السلام: «وأمّا طلبك إليَّ الشّام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس» طلب معاوية من الأمير عليه السلام الشّام غير مرّة كما اعترف به في كتابه المتقدّم إليه، وكان أتباعه أيضاً

يطلبون بأمره من الأمير عليه السلام أن يخلّي بينهم وبين الشام، ويخلّوا بينه وبين العراق وهماً منهم أنَّ خلفاء الله تعالى إنّما يقاتلون أعداء الله لاقتراف الدّيار والعقار وحطام الدُّنيا وقد روى نصر في صفّين (ص ٢٥٥) أنَّ رجلاً من أهل الشام ينادي بين الصفّين: يا أبا حسن يا عليّ ابرز إليّ فخرج إليه عليّ عليه السلام حتّى إذا اختلف أعناق دابّتيهما بين الصفّين؛ فقال يا عليُّ إنَّ لك قدماً في الإسلام وهجرة فهل لكل في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدِّماء وتأخير هذه الحروب حتّى ترى من رأيك؟

فقال له عليٌّ عليه السلام: وما ذاك؟

قال: ترجع إلى عراقك فنخلّي بينك وبين العراق ونرجع إلى شامنا فتخلّي بيننا وبين شامنا.

فقال له عليٌّ عليه السلام: لقد عرفت أنّما عرضت هذا نصيحة وشفقة، ولقد أهمّني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلاّ القتال أو الكفر بما أنزل على محمّد صلى الله عليه وآله إنَّ الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فوجدت القتال أهون عليَّ من معالجة الأغلال في جهنّم[1]، فرجع الشاميّ وهو يسترجع.

أقول: وقد مضى كلامنا في ذلك في شرح المختار ٢٣٦ من باب الخطب (**ص ٣٢٢ ج ١٥**)، وهذا من أبناء الدُّنيا يقصر الهمّة في الماء والكلاء ويتمرّغ في الأهواء والأميال الشهوانيّة، وذلك رجل إلهيٌّ وسفير ربّانيٌّ يرشد النّاس من عبارة وجيزة إلى حقيقة أشرقت من صبح الأزل فيها بيان علّة قيام أولياء الله ونهضتهم في قبال أعدائه قائلاً: إنَّ الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه ـ إلخ. والحريُّ بباغي الرُّشد أن ينظر حقَّ النّظر في قوله عليه السلام فوجدت القتال أهون عليَّ من معالجة الأغلال في جهنّم.

ولقد سبق معاوية في الطّلب المذكور مسيلمة المتنبّي إلاّ أنَّ هذا المفتري الكذّاب طلب من النبيِّ وذاك طلب من الوصيِّ سنّةً بسنّةٍ؛ ففي «**السيرة النبوية**» لابن هشام (**ص ٦٠٠ ج ٢ طبع مصر ١٣٧٥ هـ**): وقد كان مُسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله سلام عليك، أمّا بعد فإنّي قد أشركت في الأمر معك وإنَّ لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكنّ قريشاً قوم يعتدون.

فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب.

(١) الغدير: ١٠/ ٤٧، ونهج السعادة: ٢/ ٢٢٧.

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: فحدَّثني شيخ من أشجع عن سلمة بن نعيم بن مسعود الأشجعيّ، عن أبيه نُعيم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما حين قرأ كتابه: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال: أما والله لولا أنَّ الرُّسل لا تقتل لضربتُ أعناقكما، ثمَّ كتب ﷺ إلى مسيلمة:

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم: من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب: السّلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنَّ الأرض للّهِ يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين(١).

وهذه المشابهة بين مسيلمة وبين معاوية في النبيّ والوصيّ شبيهة بما وقع بين النبيّ ﷺ وسهيل بن عمرو يوم الحديبيّة، وبين الوصيّ عليه السلام ومعاوية يوم صفّين وذلك أنَّ صحيفة الصلح لمّا كتبت يوم الحديبيّة «هذا ما تصالح عليه محمّد رسول الله وسهيل بن عمرو» قال سهيل: لا أُجيبك إلى كتاب تسمّى رسول الله ولو علمت أنّك رسول الله لم أُقاتلك إنّي إذا ظلمتك إن منعتك أن تطوف ببيت الله وأنت رسول الله ولكن اكتب محمّد بن عبد الله اجيبك.

ولمّا كتبت صحيفة الصلح يوم صفين «هذا ما تقاضى عليه عليٌّ أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان» قال معاوية: بئس الرَّجل أنا إن أقررت أنّه أمير المؤمنين ثمَّ قاتلته فمحوا كلمة أمير المؤمنين، وقد مرَّ تفصيله في «**شرح المختار**» ٢٣٦ ص ٢٤٢ من ج ١٥ فراجع.

والعجب لمعاوية تارة يحرّض النّاس ويألّبهم على قتال الحقِّ مدّعياً الطّلب بدم عثمان، ويتّخذ عمرو بن العاص العاصي الظالم المضلّ عضده وجعل مصراً طعمة له؛ ومرَّةً يطلب من أمير المؤمنين عليه السلام الشّام فأين هذا من ذاك؟ ولا يدري أنّه كان بأيِّ رأي يعيش؟ بلى من كان ميّت القلب وأعماه حبُّ الدُّنيا فهو يهيم في كلّ وادٍ من أودية الأباطيل والأضاليل والأهواء المردية والآراء الرَّدية، قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩].

ايعجب چون من نبينند اين سپاه	عالمى پر آفتاب چاشتگاه
چشم باز وگوش باز واين ذكا	حيرتم از چشم بندى خدا
دو سر انگشت بر دو چشم نه	هيج بيني از جهان انصاف ده
ورنه بينى اين جهان معدوم نيست	عيب جزز انگشت نفس شوم نيست
توز چشم انگشت را بردار هين	وانگهاني هرچه ميخواهى ببين
نوح راگفتند أُمت كو ثواب؟	گفت او زانسوى واستغشوا ثياب

---

(١) الكافي: ١/٤٠٧ ح ١، وبحار الأنوار: ٩/٣٣٥ ح ٢٠.

روو سر در جامه ها پيچيده اند   لا جرم با ديده وبى ديده اند

وقوله: (أمس) إشارة إلى طلبه من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حين بويع بالخلافة إقراره على إمرة الشّام، ونقل عن ابن عبّاس أنّه قال له عليه السلام: ولّه شهراً واعزله دهراً فإنّه بعد أن يبايعك لا يقدر على أن يعدل في إمرته ولا بدَّ أن يجوز فتعزله بذلك، فقال عليه السلام: كلا وما كنت متّخذ المضلّين عضداً.

وقال المسعوديُّ في «مروج الذّهب» (ص ٥ ج ٢) أتى المغيرة بن شعبة عليّاً فقال له: إنَّ حقَّ الطاعة النصيحة، وإنَّ الرأي اليوم تحوز به ما في غد، وإنَّ التّصارع اليوم تضيع به ما في غد، اقرر معاوية على عمله، واقرر ابن عامر على عمله، واقرر العمّال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت.

قال عليه السلام: (حتّى أنظر)، فخرج من عنده وعاد إليه من الغد فقال: إنّي أشرت عليك بالأمس برأي وتعقّبته وإنّما الرأي أن تعالجهم بالنزع فتعرف السامع من غيره ويستقلّ أمرك، ثمّ خرج فتلقّاه ابن عبّاس خارجاً وهو داخل فلمّا انتهى إلى عليّ عليه السلام قال: رأيت المغيرة خارجاً من عندك ففيم جاءك؟ قال: جاءني أمس بكيت وكيت، وجاءني اليوم بذيت وذيت، فقال: أمّا أمس فقد نصحك وأمّا اليوم فقد غشّك.

قال: فما الرّأي؟ قال: كان الرّأى أن تخرج حين قتل عثمان أو قبل ذلك فتأتي مكّة فتدخل دارك فتغلق عليك بابك فإنَّ العرب كانت لجائلة مضطرّة في إثرك لا تجد غيرك فأمّا اليوم فإنَّ بني أُميّة سيحسنون الطّلب بأن يلزموك شعبة من هذا الأمر ويشبهون فيك على النّاس، وقال المغيرة: نصحته فلم يقبل فغششته وذكر أنه قال وأمّا أنا فنصحته قبلها ولا أنصحه بعدها.

قال المسعوديُّ: وجدت في وجه آخر من الرّوايات أنَّ ابن عبّاس قال: قدمت من مكّة بعد مقتل عثمان بخمس ليال فجئت عليّاً أدخل عليه فقيل لي عنده المغيرة بن شعبة فجلس بالباب ساعة فخرج المغيرة فسلّم عليَّ، وقال: متى قدمت؟ قلت: الساعة، و دخلت على عليّ وسلّمت عليه، فقال: أين لقيت الزّبير وطلحة؟ قلت: بالنواصف، قال: ومن معهما؟ قلت: أبو سعيد بن الحرث بن هشام بن قتيبة من قريش فقال عليٌّ: أما إنَّهم لم يكن لهم بدٌّ أن يخرجوا يقولون نطلب بدم عثمان، والله يعلم أنّهم قتلة عثمان.

فقلت: أخبرني عن شأن المغيرة ولم خلا بك؟ قال عليه السلام: جاءني بعد مقتل عثمان بيومين فقال: اخلني، ففعلت؛ فقال: إنَّ النّصح رخيص وأنت بقيّة النّاس وأنا لك ناصح وأنا أشير عليك أن لا تردَّ عمّال عثمان عامك هذا، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم فإذا بايعوا لك واطمأنَّ أمرك عزلت من أحببت وأقررت من أحببت، فقلت له: والله لا أداهن في ديني

ولا أعطى الرِّياء في أمري.

قال: فإن كنت قد أبيت فانزع من شئت وأترك معاوية فإنَّ له جراةً، وهو في أهل الشّام مسموع، ولك حجّة في إثباته؛ فقد كان عمر ولاّه الشّام كلّها.

فقلت: لا واللّهِ لا أستعمل معاوية يومين أبداً، فخرج من عندي على ما أشار به ثمّ عاد فقال: إنّي أشرت عليك بما أشرت به وأبيت عليَّ فنظرت في الأمر وإذاً أنت مصيب لا ينبغي أن تأخذ أمرك بخدعة ولا يكون فيه دنسة.

قال ابن عبّاس: فقلت له: أمّا أوّل ما أشار عليك فقد نصحك وأمّا الآخر فقد غشّك، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فإن بايع لك فَعَلَيَّ أن أقلعه من منزله.

قال: لا واللّهِ لا أعطيه إلاّ السّيف ثمّ تمثّل:

فما منّة إنْ منّها غير عاجز ... بعارٍ إذا ما غالت النفس غالها

فقال: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحرب خدعة؟ فقال عليٌّ عليه السلام: بلى، قلت: أمّا والله لأن أطعتني لأصدرنَّ بهم بعد ورودٍ، ولأتركنّهم ينظرون في آثارهم الأمر ولا يدرون ما كان وجهها من غير نقص لك ولا إثم عليك.

فقال: يا ابن عبّاس لست من هُنيّاتك وهُنيّات معاوية في شيء يسير ما لك عندي الطاعة والله وليُّ التوفيق(١).

بيان: (هنيات) جمع هنيّة على التصغير أصلها من (ه ن ه)، أو من (ه ن و)، قال ابن الأثير في «**النهاية**»: وفي حديث ابن الأكوع قال له: ألا تسمعنا من هناتك؟ أي من كلماتك أو من أراجزك؛ وفي رواية من هنياتك على التصغير؛ وفي أُخرى من هنيهاتك على قلب (**الياء**) (**هاءً**).

ثمَّ أردف معاوية قوله: «وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس» بقوله: «فإنّي لا أرجو من البقاء إلاّ ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلاّ ما تخاف» إشارةً إلى أنّه مثل عليّ عليه السلام في الخوف من القتل والرّجاء من البقاء يعني أنّه لا يبالي من الموت، ولا يطمع في الحياة بل يقاتل لإحياء حقّ أو إماتة باطل.

وغرضه من هذا القول دفع ما يوهم في طلبه الشام وموادعته الحرب من حصول الجبن

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٦٢.

والفزع له، أي لا تظنّ من طلبي الشّام إدخال الجبن فيّ فإنّي لا أخاف من الموت والقتل ولا أطمع في الحياة بل أطلب الموادعة لحقن دماء النّاس.

أقول: وقد ظهر صدق قوله حينما قام عليّ ﷺ بين الصفّين في صفّين ثمّ نادى يا معاوية يكرّرها؛ فقال معاوية: اسألوه ما شأنه؟ قال: أُحبُّ أن يظهر لي فأُكلّمه كلمة واحدة فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص فلمّا قارباه لم يلتفت إلى عمرو وقال لمعاوية: ويحك علىٰ مَ يقتل النّاس بيني وبينك ويضرب بعضهم بعضاً؟ ابرز إليّ فأيُّنا قتل صاحبه فالأمر له[1].

فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: ما ترى يا أبا عبد الله فيما هٰهنا أبارزه؟ فقال عمرو: لقد أنصفك الرّجل، واعلم أنّه إن نكلت عنه لم تزل سبّة عليك وعلى عقبك ما بقي عربيٌّ.

فقال معاوية: يا عمرو بن العاص ليس مثلي يخدع عن نفسه والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قطُّ إلاّ سقى الأرض من دمه، ثمّ انصرف معاوية راجعاً حتّى انتهى إلى آخر الصّفوف وعمرو معه.

هذا هي رواية نصر في «صفين» نقلناها بألفاظها (**ص ١٤٠ من الطبع التاصري**) وقد أتى بقريب منها المسعودي في «**مروج الذّهب**» (**ص ٢٥ ج ٢**) وقد تقدّم نقله في «**شرح المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب (**ص ٣١٦ ج ١٥**).

ونقل ابن قتيبة الدّينوريّ في باب أخبار الجبناء من كتاب «**الحرب من عيون الأخبار**» (**ص ١٦٩ ج ١ طبع مصر**) عن المدائني قال: رأى عمرو بن العاص معاوية يوماً يضحك، فقال له: ممَّ تضحك يا أمير المؤمنين أضحك الله سنّك؟ قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب أما والله لقد وافقته منّاناً كريماً ولو شاء أن يقتل لقتلك.

قال عمرو: يا أمير المؤمنين أما والله إنّي لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فاحولّت عيناك، وربا سحرك، وبدا منك ما أكره ذكره لك؛ فمن نفسك فاضحك أودع. ونقله المسعودي في «**مروج الذّهب**» مفصّلاً (**ص ٦٥ ج ٢**).

وحينما قام رجل من أصحاب عليّ ﷺ وقال: والله لأحملنّ معاوية حتّى أقتله فأخذ فرساً فركبه ثمّ ضربه حتّى إذا قام على سنابكه دفعه فلم ينهنهه شيء عن الوقوف على رأس معاوية ودخل معاوية خباءً فنزل الرّجل عن فرسه ودخل عليه فخرج معاوية من الخباء وطلع

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٧٧ ح ٤١٥، والغدير: ٢/ ١٦٤.

الرَّجل في أثره فخرج معاوية حتّى أحاط قومه بالرَّجل فقتلوه، على التفصيل الذي ذكره نصر في **«صفّين»** (ص ١٣٨).

وحينما حمل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأصحابه على القاسطين حملة واحدة فلم يبق لأهل الشام صفّ إلاّ أهمد حتّى أفضى الأمر إلى معاوية وعليّ عليه السلام يضرب بسيفه ولا يستقبل أحداً إلاّ ولّى عنه فدعا معاوية فرسه لينجو عليه فلمّا وضع رجله في الرِّكاب ليفرَّ من الحرب أشار عليه عمرو بن العاص برفع المصاحف على الرِّماح ففعلوا ما فعلوا، نقله الدّينوريّ في **«الإمامة والسياسة»** (ص ١٢٧ ج ١).

فإنّه لو لم يكن صادقاً في قوله: «فإنّي لا أخاف من الموت إلاّ ما تخاف ولا أرجو من البقاء إلاّ ما ترجو» لما أعرض عن المبارزة حين دعاه عليّ عليه السلام إلى البراز، ولم ينصرف راجعاً حتى ينتهي إلى آخر الصفوف أوّلاً، ولما أدبر عن الرَّجل ولم يدخل خباءاً مرَّةً ولم يخرج منه أخرى ثانياً، ولما فرّ من الحرب ولم يدعو فرسه لينجو عليه ثالثاً.

على أنَّ صاحبه عمرو بن العاص كان عارفاً بحاله وقد أمضى قوله ذلك حيث قال له في صفّين: إنَّ رجالك لا يقومون لرجاله (**يعني رجال عليّ عليه السلام**) ولست مثله هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، رواه نصر في **«صفّين» (ص ٢٥٦)** وسليم بن قيس كما تقدَّم نقله في مآخذ هذا الكتاب.

وإنّما قال عليه السلام: (**لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس**)، لأنَّ معاوية في الأمس لم يكن لائقاً بأخذ زمام الأُمور وإعطاء ذلك المقام لكونه على الباطل وهذه العلّة كانت باقية في اليوم فلم يصلح لتولية أُمور المسلمين بعد.

ثمَّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: أمّا قولك: «إنَّ الحرب قد أكلت العرب إلاّ حشاشات أنفس بقيت» «ألا فمن أكله الحقّ فإلى النّار» نقل كلام معاوية أوّلاً ثم أجابه بقوله: (**ألا فمن** ـ إلخ، والنسخ في عبارة الجواب مختلفة: ففي نسخة خطيّة عتيقة من النهج عندنا: (**ألا فمن أكله الحقّ فالنّار أولى به**)، وهي قريبة من نسخة الرَّضي التي اخترناها في المتن.

وفي أكثر النسخ المطبوعة: (**ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة ومن أكله الباطل فإلى النار**).

أقول: الصواب ما اخترناها في المتن من النسخة التي عندنا قوبلت على نسخة الرَّضي رضوان الله عليه، وما في تلك النسخة الخطيّة يؤيّدها فإنّهما بمعنى فارد تقريباً.

وأمّا النسخ المطبوعة فيشبه أن تكون مصحّفة عن أصلها، ولا يخلو حملها على معنى صحيح من تكلّف مثل أن يقل: من قُتل في سبيل الحقّ والذّبُ عنه فمصيره إلى الجنّة، ومن هلك في سبيل الباطل والدِّفاع عنه فإلى النّار.

أو يضمر في الجملتين مضافان، والتقدير: ألا ومن أكله أعداءُ الحقِّ فإلى الجنّة، ومن أكله أعداءُ الباطل فإلى النّار، ونحوهما.

والمعنى على نسخة الرَّضي مستقيم لا اعوجاج فيه لأنَّ الأكل في فصيح الكلام العربي كثيراً مّا يؤتى به لإفادته معنى الإفناء والإزالة والظهور على أمر أي من أفناه الحق وغلب عليه فمصيره إلى النار، وإنّما قال ذلك لأنَّ أتباع الحق قد قتلوا في صفّين خلقاً كثيراً من أحزاب معاوية فأشار عليه السلام إلى أنَّ مصيرهم إلى النّار وإن بلغ عددهم ما بلغ ولم يبق منهم إلاّ حشاشات أنفس، يقال: أكلت النار الحطب أي أفنته، وقال أوس بن حجر كما في مادة (ا ك ل) من **«الأساس»**:

وقد أكلت أظفاره الصخر كلّما تعنّى عليه طول مرقى توصّلا

أي أكلت الصّخر أي أفنت الحجارة أظفاره.

وقال الطُّريحيُّ في **«المجمع»**: أكلنا بني فلانٍ أي ظهرنا عليهم، وأصل الأكل للشيء الإفناء له ثمّ استعير لافتتاح البلاد وسلب الأموال.

وقال المرزوقي في **«شرح الحماسة»** عند قول خلف بن خليفة (**الحماسة ٧٩٤**):

لعمري لنعم الحيُّ يدعو صريخهم إذا الجار والمأكول أرهقه الأكل

ومعنى أرهقه الأكل ضيّق عليه وغشيه، وقد قيل: أكلت فلاناً إذا غلبته وغلبته.

وقد جاءت بهذا المضمون من معنى الأكل أعني الإفناء روايات عن أئمّتنا الطّاهرين عليهم السلام ففي باب الحسد من أصول **«الجامع الكافي»** لثقة الإسلام الكلينيّ قدّس سرّه بإسناده عن محمّد بن مسلم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إنَّ الرَّجل ليأتي بأيِّ بادرة فيكفر فإنَّ[1] الحسد ليأكل الإيمان كما يأكل النّار الحطب[2].

وروى بإسناده عن جرّاح المدائنيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ الحسد يأكل الإيمان - إلخ، وأتى بهما الفيض قدّس سرّه في **«الوافي»** (ص ١٤٨ ج ٣).

وقد مضى في **«المختار»** ٨٤ من باب الخطب عن الأمير عليه السلام: (**ولا تحاسدوا فإنَّ الحسد يأكل**) - إلخ.

---

(١) في نسخة: وإنّ.

(٢) الكافي: ٢/٣٠٦ ح ١، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/١٠٨ ح ١٨٥٧.

وفي **«الجامع الصغير»** للسيوطي عن النبيّ ﷺ: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب[(١)].

وسيأتي من كتاب أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام المجتبي قوله له: وإيّاك أن تغترّ بما ترى من إخلاد أهل الدُّنيا إليها وتكالبهم عليها - إلى أن قال: فإنّما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية يهرُّ بعضها بعضاً، ويأكل عزيزها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها[(٢)] - إلخ.

قال عليه السلام: **(وأمّا استواؤنا في الحرب والرِّجال)** - إلى قوله: **(على الآخرة)**. قد علمت من نسخ مآخذ الكتاب أنّها كانت متّفقة في قوله: «وأمّا استواؤنا في الخوف والرّجاء» مكان قوله: «وأمّا استواؤنا في الحرب والرجال» إلاّ ما نقلناه أخيراً من نسخة نقلها الشارح البحراني فإنّها كانت موافقة للمتن، ونسخة الرَّضي هي التي اخترناها في المتن وتوافقها نسختنا المذكورة.

وأظنُّ أنَّ الذين نقلوا عبارة «وأمّا استواؤنا في الخوف والرّجاء» نظروا بقول معاوية: «فإنّي لا أرجو من البقاء إلاّ ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلاّ ما تخاف» وظنّوا أنَّ قول الأمير عليه السلام **(فلست بأمضى)** - إلخ، جواب عنه فحرّفوا الحرب والرِّجال بالخوف والرَّجاء، وقد غفلوا أنَّ هذا الجواب لا يوافقه، كما يشهد به التأمّل الصّحيح، وأنَّ قول معاوية: «فإنّي لا أرجو - إلخ» إنّما هو تتمّة قوله: «وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك» لما قد عرفت آنفاً، وقد أجابه الأمير عليه السلام بقوله: **(وأمّا طلبك إليّ الشّام)** - إلخ.

ومعناه أنَّ معاوية خوّف الأمير عليه السلام وهدّده باستواء الفريقين في الحرب والرِّجال وأوهم بذلك ثباته في الحرب وبقاءه عليها وعدم تزلزله واضطرابه منها ومن وقوع كثرة القتلى في عسكره فأجابه الأمير عليه السلام: بأنّك إنّما على علمٍ في عدم كونك على حقٍّ، ويقينٍ في أنّك لست بمحقّ، وإنّما تقاتل وتحارب لاقتراف حطامَ الدُّنيا ولست على يقين في وصولك إلى ما ترجو وتتمنّى بل على شكّ وترديد فيه، لأنّه أمكن أن تظهر علينا فتصل إلى أمانيّك الدنيّة الدُّنيويّة، وأمكن أن نظهر عليكم فتعاق عنها وتحرم، وكذلك الكلام في أحزابك من أهل الشام.

وأمّا أنا فعلى بيّنة من ربّي، ويقين في أنّي على الصّراط المستقيم وليس بعده إلاّ الضّلال والتّباب، وأُقاتل وأُحارب على يقين في ديني وليس إلاّ إحدى الحسنيين إمّا الظفر عليكم فهو جهاد في سبيل الله، وإمّا القتل في سبيل الله فمصيره إلى الجنّة ورضوان الله وهكذا الكلام في أصحابي من أهل العراق.

---

(١) الكافي: ٨/ ٤٥، وتحف العقول: ٤٩٣.

(٢) نهج السعادة: ٤/ ٣٠٧، وبحار الأنوار: ٧٠/ ١٢٣.

ثمَّ من المعلوم أنَّ من يعمل فعلاً على شكّ وترديد فيه ليس بأمضى فيه ممّن يعمله على يقين، ومن يفعل عملاً لاقتراف الدُّنيا وحصول الأمانيّ الفانية الزائلة ليس بأحرص فيه ممّن يفعله للتقرّب إلى الله تعالى، والوصول إلى النعم الأُخروية الدائمة والحياة الباقية والدَّرجات العالية الأبديّة الرّوحانيّة، وأين هذا من ذاك ونعم ما قاله الأشتر رضوان الله عليه في أبياته السالفة آنفاً:

طلب الفوز في المعاد وفي ذا تستهان النفوس والأموال

فظهر أنَّ أهل الشّك والتّرديد ليسوا في رتبة أهل اليقين وإن كانوا كثيرين عدداً وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فما ادَّعاه معاوية من استواء الفريقين في الحرب والرِّجال اختلاق محض، فإنَّ مثلهما كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع هل يستويان؟

وأنَّ تهديده عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام بما نسجه من استوائهما في الحرب والرِّجال أوهن من بيت العنكبوت، بل الخوف به أولى والفزع به أحرى.

قال عليه السلام: وأمّا قولك: «إنّا بنو عبد مناف» **(فكذلك نحن ولكن ليس أُمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطّلب ولا أبو سفيان كأبي طالب)**، وسيأتي نحو كلامه هذا في الكتاب الثامن والعشرين الذي كتبه الأمير عليه السلام إلى معاوية جواباً: منّا النبيُّ ومنكم المكذِّب، ومنّا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنّا سيّدا شباب أهل الجنّة ومنكم صبية النار، ومنّاخير نساء العالمين ومنكم حمّالة الحطب[1] ـ إلخ.

افتخر معاوية بأنّه من بني عبد مناف، أو أراد بذلك الاستعطاف من أمير المؤمنين عليه السلام، أو قصد الاستواء بقوله هذا تبختراً، حيث قال بعده: وليس لبعضنا على بعض فضل، أو عنى بذلك أنّهما من بيت واحد فليس لبعضهم فضل على بعض أي أنّها في الفضيلة والشرافة سواء فإن استحقَّ هذا منصبا كان ذلك للآخر أيضاً، وإن ادّعى هذا مقاماً كان ذلك للآخر أيضاً، ومآل الوجهين الأخيرين واحد واستفادة الوجه الثاني من الأوّلين من العبارة لا تخلو من تكلّف.

ونقول أوّلاً: إنَّ معاوية وإن كان منتسباً إلى عبد مناف بحسب الظاهر لكنَّ دنيّات أُموره ورذيلات صفاته قد أخرجته من بيت الشرف حقيقةً، وكم من فعال خبيثة وأعمال غير صالحة

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٦١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٥٨.

أوجبت القطع عن بيت ورحم وفي القرآن الكريم قال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٥٠]، ولا يخفى عليك أنّ الورد والشّوك من أصل واحد ولكن أين هذا من ذاك؟.

وثانياً: إنّه لمّا افتخر بانتسابه إلى عبد مناف وادّعى الاستواء بينه وبين الأمير عليه السلام وأنكر فضل بعض على بعض من بيت عبد مناف أجابه الأمير عليه السلام بقوله: إنا بنو أب واحدٍ كما في نسخة نصر فعلى هذه النسخة لم يمض الأمير عليه السلام أنّ معاوية من بني عبد مناف كما لا يخفى وفيه نكتة لطيفة نشير إليها عن قريب، وعلى نسخة الرّضيّ أجابه بقوله: فكذلك نحن أي نسبنا ينتهي إليه أيضاً ولكنّ بين آبائك تفاوتاً فاحشاً، كما أنّ بين صفاتي وصفاتك فرقاً ظاهراً ومسافة كثيرة، وتفصيله أنّ أميّة ليس كهاشم ـ إلخ، بدأ عليه السلام بذكر الأوصاف الخارجة والفضائل الطارية عليه من جهة آبائه، والرّذائل العارضة على خصمه معاوية من جهة أسلافه، ثمّ أتى بالأوصاف الدّاخلة على أربعة أقسام الآتي شرحها إن شاء الله تعالى، فلا بدّ في المقام من ذكر سلسلتي نسبهما إلى عبد مناف فنقول: عليّ عليه السلام كان ابن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، ومعاوية كان ابن صخر أبي سفيان بن حرب بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

وآباء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كانوا أهل بيت شرف في قومهم، وكان كلّ واحد منهم أشرف وأفضل وأعلى من آباء معاوية بمراحل، أمّا أبو طالب عليه السلام فإنّه كان زعيماً حازماً نبيهاً سيّاساً، وله في دفع كيد الأعداء عن النبيّ والذّبّ عنه صلى الله عليه وآله على الإسلام والمسلمين حقّ عظيم، وجلالة شأنه وحسن إسلامه أشرق من الشارق وأبلج من الصّبح وقد ذكرنا طائفة من أشعاره السّامية الدالّة على إسلامه، وحمايته عن الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمين، ونبذة من روايات جاءت في فخامة أمره وعلوّ قدره في «**شرح المختار**» التاسع من باب الكتب والرسائل (**ص ٣٥١ ـ ٣٦٤**).

وقال اليعقوبي في «**التاريخ**»: وكفل رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاة عبد المطّلب أبو طالب عمّه فكان خير كافل، وكان أبو طالب سيّداً شريفاً مطاعاً مهيباً مع إملاقه، قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أبي ساد فقيراً، وما ساد فقير قبله[(١)].

وأمّا عبد المطّلب: ففي «**السيرة النبويّة**» لابن هشام (**ص ١٤٢ ج ١**) أنه ولي السّقاية والرّفادة بعد عمّه المطّلب فأقامها للنّاس وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرُف في قومه شرفاً لم يبلغه أحدٌ من آبائه وأحبّه قومه وعظم خطره فيهم، ثمّ ذكر

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤، وموسوعة التاريخ الإسلامي: ١/ ٢٨٨.

الرّؤيا التي أريها عبد المطّلب في حفر زمزم، ونذره ذبح ولده وما جرى فيهما، إلى أن قال:

ثمّ لم يلبث عبد الله بن عبد المطّلب أبو رسول الله ﷺ أن هلك وأمُّ رسول الله ﷺ حامل به، فلمّا وضعته أمّه آمنة بنت وهب أرسلت إلى جدّه عبد المطّلب: أنّه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه فأتاه فنظر إليه وحدّثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسمّيه.

فيزعمون أنَّ عبد المطّلب أخذه فدخل به الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ثمّ خرج به إلى أمّه فدفعه إليها والتمس لرسول الله ﷺ الرُّضعاء فاسترضع له امرأةً من بني سعد بن بكر يقال لها حليمة ابنة أبي ذؤيب.

وكان رسول الله ﷺ مع أمّه آمنة وجدّه عبد المطّلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته فلمّا بلغ رسول الله ﷺ ستَّ سنين توفّيت أمّه آمنة بالأبواء بين مكّة والمدينة فكان رسول الله ﷺ مع جدّه عبد المطلب بن هاشم.

وكان يوضع لعبد المطّلب فراش في ظلّ الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فَراشه ذلك حتّى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلامٌ جفر حتّى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه فيقول عبد المطّلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إنَّ له لشأناً ثمَّ يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسرّه ما يراه يصنع فلمّا بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين هلك عبد المطّلب بن هاشم فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطّلب مع عمّه أبي طالب وكان عبد المطّلب - فيما يزعمون - يوصي به عمّه أبا طالب وذلك لأنَّ عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأمّ، أمّهما: فاطمة بنت عمرو بن عائذ، وكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جدّه فكان إليه ومعه.

بيان: السقاية اسقاء الحجيج الماء العذب، والرُفادة خرج كانت قريش تخرجه في كلّ موسم من أموالها فتدفعه إليه فيصنع به طعاماً للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد.

وقال اليعقوبي في «**التاريخ**» (ص ٧ ج ٢): وتوفّيت أمّه ﷺ بنت وهب بالأبواء وكان عبد المطّلب جدُّ رسول الله ﷺ يكفله وعبد المطّلب يومئذ سيّد قريش غير مدافع قد أعطاه الله من الشَّرف ما لم يعط أحداً، وسقاه زمزم وذا الهرم[١] وحكمته قريشٌ في أموالها، وأطعم في المحلّ حتّى أطعم الطّير والوحوش في الجبال قال أبو طالب:

---

(١) ذو الهرم اسم بئر حفرها عبد المطلب بالطائف بعدما حفر زمزم بمكة.

ونطعم حتى تأكل الطير فضلنا إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد

ورفض عبادة الأصنام، ووحّد الله عزّ وجلّ، ووفى بالنّذر، وسنَّ سنناً نزل القرآن بأكثرها وجاءت السنّة من رسول الله بها، وهي: الوفاء بالنذور، ومائة إبل في الدّية، وألاّ تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السّارق، والنّهي عن قتل الموؤدة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزّنا والحدُّ عليه، والقرعة، وألاّ يطوف أحد بالبيت عريان، وإضافة الضّيف، وألاّ ينفقوا إذا حجّوا إلاّ من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرّايات، فكانت قريش تقول: عبد المطّلب إبراهيم الثاني.

وذكر قريباً ممّا نقلنا عن اليعقوبي الحلبيّ في «السيرة» ناقلاً عن ابن الجوزي وزيني دحلان بهامشه (ص ٢١) أيضاً، وقال دحلان: كان عبد المطّلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ويحثّهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيّات الأُمور وكان يقول: لن يخرج من الدُّنيا ظلوم حتّى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل ظلوم من أرض الشام ولم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطّلب في ذلك ففكر وقال: والله إن وراء هذه الدّار داراً يجزي فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته.

وأوصى عبد المطّلب إلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة، وإلى طالب برسول الله ﷺ وسقاية زمزم، وقال له: قد خلفت في أيديكم الشرف العظيم الذي تطاوُون به رقاب النّاس، وقال لأبي طالب ـ وكان اسمه عبد مناف أي أنّه كان سميَّ جدّه الأعلى عبد مناف ـ:

أُوصيك يا عبد منافٍ بعدي بمفرد بيد أبيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد فكنت كالأُمّ في الوجد
تدنيه من أحشائها والكبد فأنت من أرجى بنيَّ عندي
لدفع ضيم أو لشدُّ عقد[1]

وتوفّي عبد المطّلب ولرسول الله ﷺ ثماني سنين ولعبد المطّلب مائة وعشرون سنة وقيل: مائة وأربعون سنة، وأعظمت قريش موته، وغسّل بالماء والسّدر وكانت قريش أوّل من غسل الموتى بالسّدر، ولفَّ في حلّتين من حلل اليمن قيمتهما ألف مثقال ذهب وطرح عليه المسك حتّى ستره، وحمل على أيدي الرّجال عدَّة أيّام إعظاماً وإكراماً وإكبارً لتغييبه في

(١) وأسند إلى عبد المطلب هذان البيتان أيضاً؛

وصيف من كنيته بطالب عبد مناف وهو ذو تجارب
بابن الحبيب الأكرم الأقارب بابن الذي قد غاب غير آيب

التُّراب وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: إنَّ الله يبعث جدّي عبد المطّلب أُمّة[1] واحدة في هيئة الأنبياء وزيِّ الملوك.

أقول: قوله رضوان الله عليه: «فارقه وهو ضجيع المهد» ينافي ما نقلنا آنفاً من ابن هشام من أنَّ عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وآله مات وقد كانت أمّ رسول الله حاملاً به، فقد تنوزع في ذلك فمنهم من قال: أنّه مات قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وآله، ومنهم من قال: إنّه مات بعد مولده بشهر وقيل: بشهرين، ومنهم من قال: أنّه مات بعد مولده بسنة، وقيل: إنّه مات في السّنة الثانية من مولده، وقيل: بل مات عبد الله ورسول الله ابن ثمان وعشرين شهراً.

وقال الطبرسيُّ في تفسير سورة والضُّحى من «**المجمع**»: كان النبيّ صلى الله عليه وآله مات أبوه وهو ابن سنتين، وقال الكلينيُّ في باب تاريخ مولد النبيّ ووفاته عليه السلام: وتوفّي أبوه عبد الله بن عبد المطّلب بالمدينة عند أخواله وهو ابن شهرين، وظاهر الحديث الذي رواه الصدوق في المجلس الخامس والأربعين من أماليه (**ص ١٥٨**) عن ابن عبّاس أنّه مات قبل مولده حيث قال: فلمّا مات عبد الله وولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وآله أتيته ـ إلخ.

أكثر العلماء من الفريقين على أنَّ عبد الله مات بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال اليعقوبيُّ في «**التاريخ**»: توفّي عبد الله بن عبد المطّلب أبو رسول الله صلى الله عليه وآله ـ على ما روى جعفر بن محمّد ـ بعد شهرين من مولده، قال: وقال بعضهم: إنّه توفّي قبل أن يولد وهذا غير صحيح لأنَّ الإجماع على أنّه توفّي بعد مولده، انتهى، فقول الكلينيُّ ومن سلك مسلكه متّخذ من الحديث المروي عن الإمام الصّادق عليه السلام.

ثمَّ إنَّ ما نقل اليعقوبيُّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله في جدّه عبد المطّلب توافقه عدّة روايات في «**الكافي**» وأتى بها الفيض رحمه الله في باب ما جاء في عبد المطلب وأبي طالب رضي الله عنهما من «**الوافي**» (**ص ١٥٨ ج ٢**) ففي الكافي بإسناده إلى زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام **قال:** يحشر عبد المطّلب يوم القيامة أمّة واحدة عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك.

وفيه بإسناده عن مقرن، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ عبد المطّلب أوَّل من قال بالبدء يبعث يوم القيامة أُمّة واحدة عليه بهاء الملوك وسيماء الأنبياء، وغيرهما من روايات أُخرى.

وما نقل ابن هشام في السيرة من أنّه يوضع لعبد المطّلب فراش في ظلّ الكعبة ـ إلخ، توافقه رواية في «**الكافي**» بهذاا لمضمون نقلها الفيض في ذلك الباب من الوافي أيضاً: روى الكلينيّ بإسناده إلى رفاعة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان عبد المطّلب يفرش له بفناء الكعبة

---

(١) أبو طالب حامي الرسول: ٧٣، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤.

لا يفرش لأحد غيره وكان له وُلدٌ يقومون على رأسه فيمنعون من دنى منه فجاء رسول الله ﷺ وهو طفل يدرج حتّى جلس على فخذيه فأهوى بعضهم إليه لينحّيه عنه، فقال له عبد المطّلب: دع ابني فإنَّ الملك قد أتاه، (**الوافي ص ١٥٩ ج ٢**)[١].

وأمّا هاشم: ففي السيرة لابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق (**ص ١٣٥ ج ١**) وَلِي الرِّفادة والسقاية ـ يعني بعد أن توفّي أبوه عبد مناف ـ وذلك أنَّ عبد شمس كان رجلاً سفاراً، قلّما يقيم بمكّة وكان مُقلا ذا ولدٍ (**كان لعبد مناف بنون خمسة وهم: عبد شمس، وهاشم، والمطّلب، ونوفل، وأبو عمر وعبيد**) وكان هاشم موسراً، فكان ـ فيما يزعمون ـ إذا حضر الحاج قام في قريش فقال: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته؛ وإنّه يأتيكم في هذا الموسم زوّار الله وحجّاج بيته وهم ضيف الله، وأحقّ الضّيف بالكرامة ضيفه؛ فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيّامهم هذه التي لا بدَّ لهم من الإقامة بها فإنّه والله لو كان مالي يسع لذلك ما كلّفتكموه» فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم، كلُّ امرىءٍ بقدر ما عنده فيصنع به للحجّاج طعاماً حتّى يصدروا منها.

قال: وكان هاشم فيما يزعمون أوَّل من سنَّ الرِّحلتين لقريش رحلتي الشتاء والصيف، وأوَّل من أطعم الثريد بمكّة، وإنّما كان اسمه عمراً، فما سُمّي هاشماً إلاّ بهشمه الخبز بمكّة لقومه، فقال شاعر من قريش أو من بعض العرب (**قيل هو عبد الله بن الزِّبعري، وقيل هو مطرود بن كعب**):

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... قوم بمكّة مسنتين عجاف

سنّت إليه الرّحلتان كلاهما ... سفر الشتاءِ ورحلة الأصياف

المسنتون: الذين أصابتهم السّنة، وهي الجوع والقحط والجدب، والعجاف جمع عَجِف من العجف بمعنى الضعف والهزال.

ثمَّ توفّي هاشم بغزَّة من أرض الشام تاجراً فولي السقاية والرِّفادة من بعده المطّلب بن عبد مناف وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وكان ذا شرف في قومه وفضل وكانت قريش إنّما تسمّيه الفيض لسماحته وفضله.

وذكر أكثر ممّا نقلناه عن ابن هشام اليعقوبي في «**التاريخ**» (**ص ٢٠٢ ج ١**) فراجع، **قال**: ويقال: إنَّ هاشماً وعبد شمس كانا توأمين فخرج هاشم وتلاه عبد شمس وعقبه ملتصق بعقبه فقطع بينهما بموسى فقيل: ليخرجن بين ولد هاذين من التقاطع ما لم يكن بين أحد.

---

(١) الوافي: ١٥٩/٢، والكافي: ٤٤٨/١ ح ٢٦.

وأمّا بنو أميّة فالتاريخ أصدق شاهد على أنّهم لم يكونوا إلاّ في صدد إثارة فتنة، وإنارة حرب، وأنَّ شيمتهم كانت الخيلاء، والبخل، والنفاق، وأنَّ دأبهم كان الإستيلاء على النّاس والسلطان عليهم ظلماً وجوراً، وأنَّ بينهم وبين بني هاشم في السّجايا الإنسانيّة بوناً بعيداً.

وإنّي كلّما طلبتهم في كتب التواريخ والمغازي والسِّير فما وجدتهم إلاّ أفظاظاً غلاظ القلوب وقُساتها، وما رأيت أمانيّهم إلاّ أن تكونوا جبابرة ملوكاً.

وهذا هو أبو سفيان كان صخراً، وقد حارب رسول الله ﷺ وكان سبباً لإثارة وقعة بدر كما تقدَّم عن اليعقوبي في «**شرح المختار**» التاسع من باب الكتب (ص ٣٦٩ ج ١٧) ففي «**السيرة النبوية**» لابن هشام (ص ٦٧١ ج ١): قال ابن إسحاق: ثمّ قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ - إلى قوله: إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يعني النفر الذين مشوا إلى أبي سفيان وإلى من كان له مال من قريش في تلك التجارة فسألوهم أن يقوّوهم بها على حرب رسول الله ﷺ ففعلوا.

وقال ابن الأثير في «**أسد الغابة**» ناقلاً عن أبي أحمد العسكريّ: هو الذي قاد قريشاً كلّها يوم أُحد ولم يقدمها قبل ذلك رجل واحد إلاّ يوم ذات فكيف قادها المطّلب[1].

وقال اليعقوبيّ في «**التاريخ**»: كانت وقعة أُحد في شوّال بعد بدر بسنة، اجتمعت قريش واستعدّت لطلب ثارها يوم بدر واستعانت بالمال الذي قدِم به أبو سفيان وقالوا: لا تنفقوا منه شيئاً إلاّ في حرب محمّد إلى أن قال -:

وخرج المشركون وعدّتهم ثلاثة آلاف ورئيسهم أبو سفيان بن حرب، وخرج رسول الله ﷺ وخرج المسلمون وعدَّتهم ألف رجل حتّى صاروا إلى أُحد، ووافى المشركون فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل حمزة بن عبد المطّلب أسد الله وأسد رسوله رماه وحشي ومثلت به هند بنت عتبة (**وهند كانت زوجة أبي سفيان**) وشقت عن كبده فأخذت منها قطعة فلاكتها وجدعت أنفه فجزع عليه رسول الله ﷺ جزعاً شديداً وقال: لن أصاب بمثلك - إلخ.

وكان أبو سفيان يحرِّض قريشاً على القتال، وقال ابن إسحاق: وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللّواء من بني عبد الدّار يحرِّضهم بذلك على القتال: يا بني عبد الدّار إنّكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنّما يؤتى النّاس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا، فإمّا أن تكفونا لواءنا وإمّا أن تخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهمُّوا به وتواعدوه وقالوا: نحن

(١) أسد الغابة: ٥/٢١٦.

نسلم إليك لواءنا، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع! وذلك أراد أبو سفيان.

وكانت زوجه هند والنسوة اللاتي معها يحرّضن الكفّار على القتال فإنّه لمّا التقى النّاس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرّجال ويحرّضنهم فقالت هند فيما تقول:

ويهاً بني عبد الدّار ويهاً حماة الأدبار
ضرباً بكلّ بتّار

وتمثّلت بأبيات قالتها هند بنت طارق بن بياضة الإيادية في حرب الفرس لإياد:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وكان أبو سفيان يشمت بالمسلمين بعد أُحد، كما قال ابن عبّاس وعكرمة لمّا أُصيب المسلمين ما أصابهم يوم أُحد وصعد النبيّ ﷺ الجبل جاء أبو سفيان فقال: يا محمّد لنا يوم ولكم يوم، فقال ﷺ: أجيبوه فقال المسلمون: لا سواء قتلانا في الجنّة وقتلاكم في النّار، فقال أبو سفيان: لنا عُزّى ولا عُزّى لكم؛ فقال النبيّ ﷺ: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، فقال أبو سفيان: اعل هبل؛ فقال النبيّ ﷺ: قولوا: الله أعلى وأجل[1]، وذكر قريباً منه ابن هشام في **«السيرة» (ص ٩٣ ج ٢)**.

وكان دأب معاوية وشيمته أيضاً كذلك إلى أن أسلم بحسب الظاهر إمّا رغبةً وإمّا رهبة في يوم فتح مكّة وبعد ما أسلم ظاهراً قد سفك دماء المسلمين وأفرط فيه فقد قال المسعودي في **«مروج الذّهب» (ص ٦٦ ج ٢)**: وقد كان بسر بن أرطاة العامري **(كان بسر منصوباً من قبل معاوية على سفك الدّماء)** قتل بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم، وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال همذان، وقتل بصنعاء خلقاً كثيراً من الأبناء؛ ولم يبلغه عن أحد أنّه يمالىء عليّاً أو يهواه إلاّ قتله.

ونقل ما أصيب منه المسلمون يطول به الكتاب وينجرّ إلى الإسهاب، ونكتفي بنقل كتاب كتبه محمّد بن أبي بكر إلى معاوية ذكر فيه عليّاً وأباه، ومعاوية وأباه بما تراه، قال المسعوديّ في **«مروج الذّهب» (ص ٥٩ ج ٢)**: لمّا صرف عليّ عليه السلام قيس بن سعد بن عبادة عن مصر وجّه مكانه محمّد بن أبي بكر فلما وصل إليها كتب إلى معاوية كتاباً فيه:

(١) الاحتجاج: ١/٤٠٨، وبحار الأنوار: ٢٠/٢٣.

من محمّد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر: أمّا بعد فإنَّ الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبث منه ولا ضعف في قوّته ولا حاجة به إلى خلقهم لكنّه خلقهم عبيداً وجعل منهم غويًّا ورشيداً وشقيًّا وسعيداً ثمَّ اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمّداً ﷺ فانتخبه لعلمه واصطفاه لرسالته وائتمنه على وحيه وبعثه رسولاً ومبشّراً ونذيراً فكان أوَّل من أجاب وأناب وآمن وصدق وأسلم وسلم أخوه وأنب عمّه عليّ بن أبي طالب صدَّقه بالغيب المكتوم وآثره على كلّ حميم ووقاه بنفسه كلَّ هول وحارب حربه وسالم سلمه فلم يبرح مبتذلاً لنفسه في ساعات اللّيل والنّهار والخوف والجوع والخضوع حتّى برز سابقاً لا نظير له فيمن اتّبعه ولا مقارب له في فعله وقد رأيتك تساميه وأنت أنت وهو هو أصدق النّاس نيّةً، وأفضل النّاس ذرّيّة، وخير النّاس زوجةً وأفضل النّاس ابن عمّ أخوه الشاري بنفسه يوم مؤتة، وعمّه سيّد الشهداء يوم أُحد، وأبوه الذّابُّ عن رسول الله ﷺ وعن حوزته؛ وأنت اللّعين ابن اللّعين لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله ﷺ الغوائل، وتجهدان في إطفاء نور الله، تجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه المال، وتؤلّبان عليه القبائل؛ على ذلك مات أبوك وعليه خلفته؛ والشهيد عليك من تدني ويلجأ إليك من بقيّة الأحزاب ورؤساء النفاق؛ والشاهد لعليّ مع فضله المبين القديم أنصاره الذين معه الذين ذكرهم الله بفضلهم، وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار وهم معه كتائب وعصائب يرون الحقَّ في اتّباعه والشّقاء في خلافه؛ فكيف يالك الويل تعدل نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله ﷺ ووصيّه وأبو ولده، أوّل النّاس له اتّباعاً وأقربهم به عهداً، يخبره بسرّه ويطلعه على أمره، وأنت عدوُّه وابن عدوِّه فتمتّع في دنياك ما استطعت بباطلك، وليمددك ابن العاص في غوايتك، فكأنَّ أجلك قد انقضى وكيدك قد وهى، ثمَّ يتبيّن لك لمن تكون العاقبة العليا، واعلم أنّك انّما تكايد ربّك الذي آمنك كيده ويئست من روحه فهو لك بالمرصاد وأنت منه في غرور والسلام على من اتّبع الهدى.

فأجابه معاوية في كتاب أرسله إليه بما خلاصته: فقد كنّا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقّه لازماً لنا مبروراً علينا فلمّا قبض الله نبيّه كان أبوه وفاروقه أوّل من ابتزَّه حقّه، وخالفه على أمره على ذكل اتّفقا واتّسقا، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلمنا إليه ولكنّا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله فعيب أباك بما بدا لك أودع والسلام على من أناب[1].

وأتى بتفصيله المسعوديّ في **«مروج الذّهب»** فراجع، فأين أبو سفيان الضّاري بدماء النبيّ ﷺ والمسلمين، وأبو طالب الذي كان كافل الرّسول وحاميه وذابّاً عنه وعن المسلمين.

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ١٨٨.

وأين زوجه هند آكلة الأكباد، وامرأة أبي طالب فاطمة بنت أسد بن هاشم ربّتْ رسول الله ﷺ، وقال اليعقوبي في «التاريخ» (ص ١٠ ج ٢) ويروى عن رسول الله ﷺ لما توفيتْ (**يعني فاطمة بنت أسد**) وكانت مسلمة فاضلة ـ أنّه قال: اليوم ماتت أُمّي، وكفّنها بقميصه، ونزل على قبرها، واضطجع في لحدها؛ فقيل له يا رسول الله لقد اشتدّ جزعك على فاطمة؛ قال ﷺ[1]: إنّها كانت أُمّي إذا كانت لتجيع صبيانها وتشبعني، وتشعثهم وتدهنني وكانت أُمّي.

وبنو هاشم هم الذين كان النّبي من بيتهم وهو ﷺ ربّي في حجرهم وما بعث الله نبيّاً إلاّ في منعة من قومه ففي المقدّمة السادسة من **«مقدّمة ابن خلدون» (ص ٩١ طبع مصر)**: إنّ الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضّلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينهم وبين عباده يعرُفونهم بمصالحهم ويحرّضونهم على هدايتهم ـ ثمّ أخذ في بيان علامات هذا الصّنف من البشر فقال: ومن علاماتهم أيضاً أن يكونوا ذوي حسب في قومهم، وفي **«الصحيح»** ما بعث الله نبيّاً إلاّ في منَعَةٍ من قومه وفي رواية أُخرى في ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين، وفي مسألة هِرَقْل لأبي سفيان كما هو في **«الصحيح»** قال: كيف هو فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ذو حسب؛ فقال هرقل: والرُسل تبعث في أحساب قومها، ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفّار حتّى يبلغ رسالة ربّه ويُتمّ مراد الله من إكمال دينه وملّته.

وكلام ابن خلدون هذا قد عنون في الكتب الكلاميّة أيضاً، ثمّ إنّ المهديَّ الموعود ظهوره وقيامه من أهل بيت النبيّ ﷺ فهو من بني هاشم كما أنّ آباءه الكرام البررة ﷺ من ذلك البيت.

وقد قاتل أبو سفيان بن حرب الأموي رسول الله ﷺ وفعل ما فعل.

وابنه معاوية قاتل خليفة الرّسول عليّاً المرتضى، وقتل بالسمّ ريحانة الرسول الحسن المجتبى.

وزوجه هند كانت تحرّض المشركين على قتال المسلمين وقتلهم وقد مثلت أسد الله وأسد رسوله حمزة وأكلت أكباد أودّاء الله.

وابن معاوية يزيد قتل سيّد شباب أهل الجنّة ريحانة رسول الله الحسين بن فاطمة **وأصحابه أنصار الله** بكربلاء، وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء **(ص ٣٠٧ طبع مصر)**: وفي قتله قصّة فيها طول لا يحتمل القلب ذكرها فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. انتهى.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤، وموسوعة تاريخ الإسلامي: ١/ ٢٨٨.

وبعد قتله فعل بمدينة الرَّسول ما فعل، فقد قال السيوطي في «التاريخ» المذكور وفي سنة ثلاث وستّين بلغه (يعني يزيد بن معاوية) أنّ أهل المدينة خرجوا عليه وخلعوه فأرسل إليهم جيشاً كثيفاً وأمرهم بقتالهم ثمّ المسير إلى مكّة لقتال ابن الزبير فجاؤوا وكانت وقعة الحرّة على باب طيبة، وما أدراك ما وقعة الحرّة؟ ذكرها الحسن مرّة فقال: والله ما كاد ينجو منهم أحد قتل فيها خلق من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم، ونهبت المدينة وافتُضّ فيها ألف عذراء فإنّا لله وإنّا إليه راجعون؛ قال: قال صلى الله عليه وآله: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[1] وكان سبب خلع أهل المدينة له أنّ يزيد أسرف في المعاصي.

وقال عبد الله حنظلة الغسيل: والله ما خرجنا على يزيد حتّى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء إنّه رجل ينكح أمّهات الأولاد والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة[2].

قال: قال الذّهبيّ: ولما فعل يزيد بأهل المدينة ما فعل مع شرب الخمر وإتيانه المنكر اشتدَّ عليه النّاس وخرج عليه غير واحد ولم يبارك الله في عمره وسار جيش الحرة إلى مكّة لقتال ابن الزبير وأتوا مكّة فحاصروه وقاتلوه ورموه بالمنجنيق واحترقت من شرارة نيرانهم أستار الكعبة وسقفها ـ إلى آخر ما نقل فراجع إلى الكتاب[3].

والدَّجال الذي يقاتل المهديَّ المنتظر عليه السلام الهاشميَّ سفيانيٌّ أيضاً ففي معاني الأخبار للصدوق رحمه الله عن الصّادق عليه السلام: قال: إنا وآل أبي سفيان أهل بيتين تعادينا في الله: قلنا صدق الله وقالوا كذب الله، قاتل أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وآله وقاتل معاوية عليَّ بن أبي طالب عليه السلام وقاتل يزيد بن معاوية الحسين بن عليّ عليه السلام والسفيانيّ يقاتل القائم[4]، رواه المجلسي في «البحار» (ج ٨ ص ٥٦٠ من الطبع الكمباني).

وهذه أنموذجة من شيم بني أُميّة، وتلك نبذة من خلال بني هاشم وخُلُقهم العظيم.

ثمَّ إنَّ الفاضل الشارح المعتزلي قال: كان الترتيب يقتضي أن يجعل هاشماً بإزاء عبد شمس لأنّه أخوه في قُعْدُدٍ وكلاهما ولد عبد مناف لصلبه، وأن يكون أُميّة بإزاء عبد المطّلب، وأن يكون حرب بإزاء أبي طالب، وأن يكون أبو سفيان بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام لأن كلّ واحد من هؤلاء في قعدد صاحبه إلاّ أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا كان في صفّين بازاء معاوية اضطرَّ إلى أن جعل هاشم بازاء أُميّة بن عبد شمس. انتهى.

---

(١) المحاسن: ١/ ١٠٥ ح ٨٦، والكافي: ٧/ ٥٥.

(٢) وضوء النبي: ٢/ ٤٢٧، ومعالم المدرستين: ٣/ ١٨٢.

(٣) تعجيل المنفعة: ٤٥٣.

(٤) معاني الأخبار: ٣٤٦ ح ١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ١٦٥ ح ٤٣٣.

أقول: أوّلاً: إنَّ سلسلتي نسب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ومعاوية إلى عبد مناف ليستا متكافئتين حتّى يجعل كلّ واحد من هذه السلسلة في قعدد صاحبه من السلسلة الأخرى فإنّها في معاوية تجاوز حلقة فعليّ عليه السلام ينتهي إلى عبد مناف بثلاثة آباء ومعاوية ينتسب إليه ظاهراً بآباء أربعة.

وثانياً: إنَّ الأمير عليه السلام جعل نفسه بإزاء معاوية، وأباه أبا طالب بإزاء أبيه أبي سفيان، وجدّه عبد المطّلب بإزاء جدّه حرب، وأبا جدّه هاشم بإزاء أبي جدّه أُميّة فلا يخفى حسن صنيعته عليه السلام.

وثالثاً: إنَّ في صنيعته هذه إشارة لطيفة دقيقة إلى عدم انتهاء نسب الخصم إلى عبد مناف، أي عدم كونه من صميم قريش، فتبصّر.

ورابعاً: إنَّ الأمير عليه السلام كان في بيان فضل أولاد عبد مناف الذين كانوا آباءه عليهم السلام شرافةً وكرامةً ومجداً على أولاده الذين كان معاوية ينتسب بهم إليه وليس للتنظير مزيد اهتمام في المقام.

وخامساً: إنَّ في ما فعل الأمير عليه السلام من جعل أُميّة بإزاء هاشم، وحرب بإزاء عبد المطّلب، وأبي سفيان بإزاء أبي طالب نكتةً تاريخيّة أوجبت تنظير كلّ واحد من الثلاثة قبال صاحبه وقد غفل الشارح المذكور عنها، وهي أنَّ هاشماً بعد أبيه عبد مناف لمّا ولي ما كان إليه من السّقاية والرِّفادة وساد قومه حسده أُميّة ابن أخيه عبد شمس بن عبد مناف فتكلّف أن يصنع كما يصنع هاشم فعجز فعيّرته قريش وقالوا له: أتتشبّه بهاشم؟ ثمّ دعا هاشماً للمنافرة فأبى هاشم ذلك لسنّه وعلوّ قدره فلم تدعه قريش؛ فقال هاشم لأُميّة: أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكّة، والجلاء عن مكّة عشر سنين، فرضي أُميّة بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وكان بعُسفان فخرج كلّ منهما في نفر فنزلوا على الكاهن فقال قبل أن يخبروه خبرهم: والقمر الباهر، والكوكب الزّاهر، والغمام الماطر، وما بالجوّ من طائر، وما اهتدى بعَلَم مسافر، من منجدٍ وغائر، لقد سبق هاشمٌ أُميّة إلى المفاخر فنصر هاشم على أُميّة فعاد هاشم إلى مكّة ونحر الإبل وأطعم النّاس وخرج أُميّة إلى الشام فأقام بها عشر سنين فكانت هذه أوّل عداوة وقعت بين هاشم وأُميّة وتوارث ذلك بنوهما.

فقد أشار عليّ عليه السلام بقوله: «ولكن ليس أُميّة كهاشم» إلى هذا التنظير، وقد نقلنا هذه النكتة التاريخيّة من «**إنسان العيون**» في سيرة الأمين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبيّة (**ص ٥ ج ١ طبع مصر**) وقد نقل قريباً منه أبو جعفر الطبريّ في «**التاريخ**»، وابن الأثير في «**الكامل**».

وأمّا ما أوجبت التنظير بين عبد المطّلب وحرب فهي أنَّ حرباً كان نديم عبد المطّلب في الجاهلية وكان في جوار عبد المطّلب يهوديٌّ فأغلظ ذلك اليهودي القول على حرب في

سوق من أسواق تهامة فأغرى عليه حرب من قتله؛ فلمّا علم عبد المطّلب بذلك ترك منادمة حرب ولم يفارقه حتّى أخذ منه مائة ناقة دفعها لابن عمِّ اليهودي ثمَّ نادم عبد الله بن جدعان التميمي.

هذا ما نقلنا عن «**السيرة النبويّة**» لأحمد زيني دحلان (**هامش السيرة الحلبية ص ٢٢ ج ١**) وتفصيل ذلك ما أتى به أبو جعفر الطبري في «**التاريخ**» وابن الأثير في «**الكامل**» من أنَّ عبد المطّلب كان له جار يهوديٌّ يقال له: أُذينة يتّجر وله مال كثير فغاظ ذلك حرب بن أُميّة، وكان نديم عبد المطّلب فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدّار، وصخر بن عمرو بن كعب التيميُّ جدُّ أبي بكرٍ؛ ولم يعرف عبد المطّلب قاتله فلم يزل يبحث حتّى عرفهما وإذا هما قد استجارا بحرب بن أُميّة، فأتى حرباً ولامَه، وطلبهما منه فأخفاهما فتغالظا في القول حتّى تنافرا إلى النجاشي ملك الحبشة فأبى أن ينفر بينهما فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزّى بن رياح، فقال لحرب:

يا أبا عمرو أتنافر رجلاً هو أطول منك قامةً، وأعظم منك هامةً، وأوسم منك وسامةً، وأقلّ منك ملامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل صفداً، وأطول منك مذوداً؟ وإنّي لأقول هذا وإنّك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جلد المريرة، جليل العشيرة، ولكنّك نافرت منفراً.

فغضب حرب وقال: إنَّ من انتكاس الزّمان أن جعلت حكماً؛ فترك عبد المطّلب منادمة حرب، ونادم عبد الله بن جدعان وأخذ من حرب مائة ناقة فدفعها إلى ابن عمِّ اليهودي، وارتجع ماله إلاّ شيئاً هلك فغرمه من ماله.

ثمَّ قال زيني دحلان: ويروى أنَّ حرباً كان لا يلتقي من أحدٍ من رؤساء قريش أو غيرهم في عقبة أو مضيق إلاّ تأخّروا وتقدَّم هو، ولا يستطيع أحد أن يتقدَّم عليه فالتقى حرب مع رجل من بني تميم في عقبة فتقدَّمه التميمي، فقال حرب: أنا حرب بن أُميّة فلم يلتفت إليه التميمي ومرَّ قبله فقال حرب: موعدك مكّة فبقي التّميمي دهراً ثمَّ أراد دخول مكّة فقال: من يجيرني من حرب بن أُميّة؟ فقيل له: عبد المطّلب بن هاشم فأتى التّميمي ليلاً دار الزُّبير بن عبد المطّلب فدقَّ الباب فقال الزُّبير لأخيه الغيداق: قد جاءنا رجل إمّا مستجير أو طالب حاجة أو طالب قرى وقد أعطيناه ما أراد فخرج الزّبير فأنشد الرَّجل:

لاقيتُ حرباً في الثنيّة مقبلاً ... والصبح أبلج ضوءه للباري
فدعا بصوت واكتنى ليروعني ... ودعا بدعوته يريد فخاري
فتركته كالكلب ينبح وحده ... وأتيت أهل معالم وفخار
ليثاً هزبراً يستجار بقربه ... رحب المنازل مكرماً للجار
ولقد حلفت بمكّة وبزمزم ... والبيت ذي الأحجار والأستار

إنَّ الزُّبير لما نعي من خوفه ما كبّر الحجّاج في الأمصار

فقال الزُّبير للتميمي: تقدَّم فإنّا لا نتقدَّم على من نجيزه فتقدَّم التميمي ودخل المسجد فرآه حرب فقام إليه فلطمه فعدا عليه الزُّبير بالسَّيف فعدا حرب حتّى دخل دار عبد المطَّلب فقال: أجرني من الزُّبير فأكفأ عليه جفنةً كان أبوه هاشم يطعم النّاس فيها فبقي تحتها ساعة ثم قال له عبد المطّلب: اخرج، فقال: كيف أخرج وسبعة من ولدك قد اجتمعوا بسيوفهم على الباب؟ فألقى عليه عبد المطّلب رداءه فخرج عليهم فعلموا أنّه أجاره فتفرّقوا.

وإلى هذه القصّة أشار ابن عبّاس رضي الله عنهما حين دخل على معاوية في أيّام خلافته وعنده وفود العرب ذكره كلاماً فيه افتخار وذكر في كلامه حرب بن أُميّة فقال له ابن عبّاس: فمن أكفأ عليه إناءً وأجاره بردائه؟ فسكت معاوية[١].

وأمّا التنظير بين أبي طالب وأبي سفيان فظاهر ممّا قدَّمنا سالفاً من حماية أبي طالب رضوان الله عليه رسول الله ﷺ والمسلمين وذبّه عن الرَّسول ﷺ وحسن تدبيره في دفع كياد القوم عنه، وآنفاً من ايذاء أبي سفيان رسول الله ﷺ والمسلمين وبغيه لهم وتأليبه عليهم القبائل وجهده في إطفاء نور الله وولعه في سفك الدِّماء.

ثمَّ بما بيّنا من وجه التنظير علم أيضاً أنَّ بني هاشم كانوا يؤمنون الخائفين ويؤدُّون الحقوق، وكان دارهم مأمن النّاس وأنَّ بني أميَّة كانوا على خلافهم.

قال عليه السلام: «ولا المهاجر كالطليق، ولا الصَّريح كاللّصيق، ولا المحقُّ كالمبطل، ولا المؤمن كالمدغل» بعدما بيَّن ما كانت طارئة عليهما من جهة آبائهما أخذ بذكر الصّفات النفسانية، فقال: ولا المهاجر كالطَّليق يعني بالمهاجر نفسه وبالطليق معاوية وقد علمت في شرح المختار الرّابع والثلاثين والماءتين من باب الخطب وهو قوله عليه السلام: (**فجعلت أتبع مأخذ رسول الله ﷺ**) ـ إلخ (ص ١٢٦ ج ١٥) أنَّ رسول الله ﷺ لمّا فجأه من الكفّار ما أحوجه إلى الخروج من مكّة استخلف عليّاً في ردِّ الودائع إلى أربابها وقضاء ما كان عليه من دين لمستحقيه وجمع بناته ونساء أهله وأزواجه والهجرة بهم إليه فقام عليّ عليه السلام به أحسن القيام وبات على فراش رسول الله ﷺ ووقاه بنفسه ثمَّ ردّ كلَّ وديعة إلى أهلها وأعطى كلّ ذي حقّ حقَّه وحفظ بنات رسول الله وحرمه وهاجر بهم ماشياً على قدميه يحوطهم من الأعداء ويكلأهم من الخصماء ويرفق بهم في المسير حتّى أوردهم عليه ﷺ المدينة على أتمّ صيانة وحراسة ورفق ورأفة وحسن تدبير.

وكان معاوية وأبوه في زمان مهاجرة الرَّسول والوصيّ عليهما السلام مشركين وقد أسلما يوم فتح

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٢٦٧/٢٧؛

مكّة إمّا رغبة وإمّا رهبة ولما ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله على أهل مكّة قال لهم: فاذهبوا وأنتم الطلقاء فمعاوية طليق بن طليق[1]، وسيأتي ذكر فتحها عن قريب.

قوله عليه السلام: «ولا الصَّريح كاللّصيق» يعني بالصّريح نفسه وباللّصيق معاوية و قد علم في بيان لغة الكتاب أن الصَّريح بمعنى خالص النسب، واللصيق بمعنى الدعيّ في قومٍ، الملصق بهم وليس منهم.

قال الفاضل الشارح المعتزلي: إن قلت: ما معنى قوله: **(ولا الصَّريح كاللّصيق)** وهل كان في نسب معاوية شبهة ليقول له هذا؟ قلت: كلاّ إنّه لم يقصد ذلك وإنّما أراد الصّريح بالإسلام واللّصيق في الإسلام فالصّريح فيه هو من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً، واللّصيق فيه من أسلم تحت السيف أو رغبة في الدّنيا وقد صرّح بذلك فقال: **(كنتم ممّن دخل في هذا الدين إما رغبة وإمّا رهبة)**. انتهى.

أقول: لو كان شرح عبارة مبنيًا على الرأي من دون دلالة سبكها وأُسلوبها عليه، أو لم يكن له شاهد من خارج لجاز أن تفسر على آراء كثيرة فائلة خارجة عن حيطة المراد قطعاً.

ثمَّ يقال له: ما اقتضى عدولك عن ظاهر اللّفظ وارتكابك على هذا التكلّف؟ ولِمَ لا يجوز أن يكون معاوية ملصقاً بقريش ومع ذلك كان ممّن دخل في الدِّين إمّا رغبة أو رهبة، حتّى لا تحمل العبارتان على معنى واحدٍ؟

فإن قلت: إذا كان اللّصيق بهذا المعنى أي إنّه لم يكن من قريشٍ فلم قال الأمير عليه السلام: «وأمّا قولك إنّا بنو عبد مناف فكذلك نحن» ولم يردّه في ادّعائه هذا بأنّه ليس من بني عبد مناف، بل أمضاه وأثبته بقوله فكذلك نحن؟.

قلت: أوّلاً: إنّه عليه السلام على نسخة نصر لم يمضه ولم يعترف بأنَّ معاوية من بني عبد مناف بل قال: وأمّا قولك: «إنّا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فصل» «فلعمري إنّا بنو أب واحد» ولا يخفى عليك أنَّ الكافر والمسلم من أب واحد آدم عليه السلام.

وثانياً: هب أنّه قال: فكذلك نحن، ولكن لا ضير في أن يكون كلامه هذا مبنيًا على المماشاة وفرض التسليم أي سلّمنا أنَّ نسبك ينتهي إلى عبد مناف ولكنّ بين آبائي وآبائك إلى عبد مناف في الشرافة والجلالة فرقاً فاحشاً ثمَّ نفى نسبه إليه بقوله: **(وليس الصريح كاللّصيق)**، وهذا الدّأب في المحاورات ليس بعزيز.

وقال سمّينا عماد الدِّين الحسن بن عليّ بن محمّد بن الحسن الطبريّ في الفصل الأوّل من الباب الخامس والعشرين من كتابه كامل اسقيفة المشتهر بالكامل البهائي **(ص ١٦١ ج ٢**

(١) الإرشاد: ١/ ٥٣.

طبع دار العلم قم) وكذا قال صاحب إلزام النواصب: إنَّ بني أُميّة ليسوا بصحيحي النسب إلى عبد مناف، ونقل قولهما المجلسي في المجلّد الثامن من البحار (**ص ٣٨٣ من الطبع الكمباني**) قال:

قال صاحب «**الكامل البهائي**»: إنَّ أُميّة كان غلاماً روميًا لعبد الشمس فلمّا ألقاه كيِّساً فطِناً أعتقه وتبنّاه فقيل أُميّة بن عبد الشمس كما كانوا يقولون قبل نزول الآية: زيد بن محمّد، ولذا روي عن الصّادقين عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ أنّهم بنو أُميّة، ومن هنا يظهر نسب عثمان ومعاوية وحسبهما وأنّهما لا يصلحان للخلافة لقوله صلى الله عليه وآله: الأئمّة من قريش.

وقال مؤلّف كتاب «**إلزام النّواصب**»: أُميّة لم يكن من صلب عبد الشمس وإنّما هو من الروم فاستلحقه عبد الشمس فنسب إليه فبنوا أُميّة ليسوا من صميم قريش وإنّما هم يلحقون بهم ويصدق ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام إنَّ بني أُميّة لصاق وليسوا صحيحي النسب إلى عبد مناف ولم يستطع معاوية انكار ذلك. انتهى[١].

أقول: قوله قبل نزول الآية إشارة إلى قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ـ إلى قوله عزَّ وجلَّ: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

ورواية الصادقين قد رواها الشيخ الجليل أبو الفتح الكراجكي معاصر الشريف الرَّضي في «**كنز الفوائد**»، وقد روى عن غيرهما من أئمّتنا عليهم السلام أيضاً أتى بها المجلسي في ثامن البحار (**ص ٣٧٩**) روى الكراجكيّ قدّس سرُّه عن محمّد بن العبّاس، عن ابن عقدة، عن الحسن بن القاسم، عن عليّ بن إبراهيم بن المعلّى، عن فضيل بن إسحاق، عن يعقوب بن شعيب، عن عمران بن ميثم، عن عباية، عن عليّ عليه السلام قال: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ هي فينا وفي بني أُميّة[٢].

وروى عن محمّد بن العباس، عن الحسن بن محمّد بن جمهور العميّ، عن أبيه، عن جعفر بن بشير، عن ابن مسكان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن تفسير ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ قال: هم بنو أُميّة وإنّما أنزلها الله الم غلبت الرّوم بنو أُميّة في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله عند قيام القائم[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٥٤٤. (٢) بحار الأنوار: ٣١/ ٥٤٤. (٣) الكافي: ٨/ ٢٦٩ ح ٣٩٧.

واعلم أنَّ الرّوايتين تشيران إلى بطن من بطون الآية وليس المراد من قوله إنّما أنزلها **(الم غلبت الرّوم)** بنو أميّة، وقوله **(يفرح المؤمنون بنصر الله)** عند قيام القائم، أنَّ الآية نزلت هكذا أوّلاً ثمّ حرّفت وصحّفت؛ وذلك لما علمت من شرحنا على المختار الأوّل من باب الكتب والرّسائل أنَّ القرآن الذي في أيدي النّاس اليوم هو جميع ما أنزله الله تعالى على رسوله وما تطرّق إليه زيادة ونقصان فراجع إلى **(ص ٢٤٩ ـ ٢٩٥)** من المجلّد السادس عشر.

قال عليه السلام: «ولا المحقُّ كالمبطل» أي ليس ذاك كهذا، ويعني بالمحقِّ نفسه وبالمبطل معاوية، وكذا قوله عليه السلام: «ولا المؤمن كالمدغل» إنّما يعني بالمؤمن نفسه وبالمدغل معاوية.

فالأمير عليه السلام بدأ بذكر فضائله ورذائل خصمه من آبائهما أوّلاً وأدرج الخصم في سلك قريش على سبيل المماشاة، ثمَّ أتى بأوصاف أربعة كمالية كانت له عليه السلام، وذكر مع كلّ واحدة منها ضدّها الذي كان لخصمه معاوية.

وأفاد الشارح البحراني بأنّه عليه السلام ذكر الفرق بينهما من وجوه خمسة بدأ فيها بالأمور الخارجة أوّلاً من كمالاته وفضائله ورذائل خصمه متدرّجاً منها إلى الأقرب فالأقرب فالأوّل شرفه من جهة الآباء المتفرّعين على عبد مناف بعد أن سلّم الإشتراك بينهما في كونهما من بني عبد مناف.

الثاني: شرفه من جهة هجرته مع الرسول صلى الله عليه وآله وخسّة خصمه من جهة كونه طليقاً وابن طليق وهذه فضيلة وإن كانت خارجية إلاّ أنّها تستلزم فضيلة نفسانية وهي حسن الإسلام والنيّة الصادقة الحقّة وكذلك ما ذكر من رذيلة خصمه بدنيّة عرضت له إلاّ أنَّ هذه الفضيلة والرذيلة أقرب من الاعتبارين الأوّلين لكونهما حقيقيتين بالآباء وهميّتين بالأبناء دون هاتين.

الثالث: شرفه من جهة صراحة النسب وخسّة خصمه من جهة كونه دعيّاً وهذان الاعتباران أقرب ممّا قبلهما لكونهما اعتبارين لازمين لهما دون الأوّلين.

الرابع: شرفه من جهة كونه محقّاً فيما يقوله ويعتقده ورذيلة خصمه من جهة كونه مبطلاً وهذان الإعتباران أقرب لكونهما من الكمالات والرّذائل الذاتية دون ما قبلها.

الخامس: شرفه من جهة كونه مؤمناً، والمؤمن الحقّ هو المستكمل للكمالات الدينيّة النفسانيّة وخسّة خصمه من جهة كونه مدغلاً أي خبيث الباطن مشتملاً على النفاق والرذائل الموبقة وظاهر أنَّ هذين الاعتبارين أقرب الكمالات والرذائل إلى العبد، وإنّما بدأ بذكر الكمالات والرذائل الخارجية لكونهما مشتملة عند الخصم وأظهر له وللخلق من الأمور الدّاخلية.

قال عليه السلام: «ولبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنّم» أسلوب الكلام ينادي

بأعلى صوته أن جملة **(يتبع)** صفة للخلف، **(وهوى في نار جهنّم للسلف)** والإتيان بالفعل المضارع في الأُولى، والماضي في الثانية أصدق شاهد لما قلنا فأخبر عليه السلام بأنَّ سلف معاوية ومنهم أبو سفيان هوى بكفره وشركه في نار جهنّم.

على أن السّلف إذا كان على سويّ الصّراط فنعم الخلف خلف يتّبعه فلا يعاب على خلف بهذا الاتّباع ولا يذمّ به بل يمدح ففي هذا الكلام ذمٌّ للخلف والسلف معاً.

فبما حقّقنا دريت وهن ما جنح إليه الفاضل أحمد زكي صفوت في **«جمهرة رسائل العرب» (ص ٤٨٠ ج ١)** من أنّه عليه السلام لا يعيب على معاوية بأنّ سلفه كانوا كفّاراً بل بكونه متّبعاً لهم فقد نهج في معاداة عليّ نهج أجداده في معاداة أجداد عليّ.

قال عليه السلام: «وفي أيدينا بعد فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز ونعشنا بها الذليل» هذا ردّ على قول معاوية: «ليس لبعضنا على بعض فضل إلاّ فضل لا يستذلّ به عزيز ولا يسترقّ به حرّ» معناه: والحال أنَّ لنا فضلاً آخر عليكم بعد الفضائل المتقدّمة وهو فضل النبوّة، ولما استثنى معاوية بقوله إلاّ فضل لا يستذلّ به ـ إلخ أجابه الأمير عليه السلام تبكيتاً له وإفحاماً وردّاً لادّعائه الباطل بقوله: **(التي أذللنا بها العزيز)** كأبي سفيان وأبي لهب وأضرابهما، **(ورفعنا بها الذّليل)** كأثر الصحابة والتابعين كانوا خاملي الذكر ولمّا آمنوا رفع الله لهم ذكرهم.

بل كان لآبائه أعني بني هاشم فضل وشرف ومجد كانوا أعواناً للمظلوم وإن كان خاملاً ذليلاً، وخصماء للظالم وإن كان عزيز نبيهاً، وكانوا يؤدّون كلَّ ذي حقّ حقّه ويذلّون العزيز الظالم وينعشون المظلوم الذليل.

وفي قوله عليه السلام: **(وفي أيدينا بعد فضل النبوّة)** إشارة إلى أنه ربّي في بيت النبوّة واقتبس من مشكاة الرّسالة، وأنَّ نور النبوّة كان في بني هاشم ينتقل عن واحد منهم بعد واحد حتّى انتقل إلى عبد الله بن عبد المطّلب أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وأنَّ بني هاشم كانوا ببركة هذا النّور يذلّون العزيز ويرفعون الذّليل، وكان لهم به شرف وفضل لم يكن لغيرهم، وأنَّ من كان من بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وأهله إنّما كان شأنه إعانة المظلوم وإغاثته، وقمع الظالم ودفع الظالم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، ولا يخفى عليك أنَّ هذا الفضل لا يعادله شيء.

قوله عليه السلام: «ولما أدخل الله العرب ـ إلخ» بعدما عرّف عليه السلام نفسه وآباءه بأنّهم من بيت النبوّة ولهم فضل النبوّة وكانوا حماة النّاس ورعاتهم عقّبه بذكر رذيلة للخصم بأنّه وأباه وأتباعهما ـ كما أتى بلفظة الجمع حيث قال كنتم ـ ممّن دخلوا في دين الله لا عن اخلاص بل كانوا متمرّدين عاصين كارهين إلاّ أنّهم لمّا رأوا أنَّ دين الله استولى على النّاس وأظهره الله تعالى على الدّين كلّه لم يجدوا مخلصاً ومحيصاً إلاّ أن يستسلموا إمّا رغبة إلى زخارف

الدّنيا، وإمّا رهبةً من سيوف المسلمين وقد مضى في ذلك كلام عمّار وابن الحنفية في المختار السابق عند قوله عليه السلام: «والذي فلق الحبّة وبرىء النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلما وجدوا عليه أعواناً أظهروه» فراجع.

على أنّهم إنّما أسلموا ظاهراً بعدما فاز أهل السبق بسبقهم وذهب المهاجرون الأوَّلون بفضلهم، وإنّما الفضل للمتقدّم لأنّه إمام في فعله وداع إلى الخير وللسّابق إلى الإسلام ودعوة الناس إلى الله فضيلة على غيره لا تنكر.

وقوله عليه السلام: «ولمّا أدخل الله العرب في دينه أفواجاً» إشارة إلى سورة النصر.

وقوله عليه السلام: «على حين فاز أهل السبق بسبقهم وذهب المهاجرون الأوَّلون بفضلهم» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

قوله عليه السلام: «فلا تجعل للشيطان ـ إلخ» معناه كما أفاده الفاضل الشارح المعتزلي: لا تستلزم من أفعالك ما يدوم به كون الشيطان ضارباً فيك بنصيب لأنّه ماكتب إليه هذه الرِّسالة إلاّ بعد أن صار للشيطان فيه أوفر نصيب وإنّما المراد نهيه عن دوام ذلك واستمراره.

في صفّين لنصر بن مزاحم (**ص ١١٠ من الطبع الناصري**) أنّ عمّاراً جعل يقول (**يعني يوم صفّين**): يا أهل الإسلام أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغي على المسلمين وظاهر المشركين، فلمّا أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى النبيّ صلى الله عليه وآله فأسلم وهو والله فيما يرى راهب غير راغب وقبض الله رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّا لنعرفه بعداوة المسلم ومودَّة المجرم، ألا وإنّه معاوية فالعنوه لعنه الله، وقاتلوه فإنّه ممّن يطفىء نور الله ويظاهر أعداء الله.

حديث فتح مكة وأن أهل مكة الطلقاء

لمّا صالح رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً عام الحديبيّة كان في أشراطهم أنه من أحبّ أن يدخل في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله دخل فيه فدخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وآله وكنانة في عقد قريش فأعانت قريش كنانة فأرسلوا مواليهم فوثبوا على خزاعة فقتلوا فيهم فجاءت خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فشكوا إليه ذلك وكان ذلك ممّا هاج فتح مكّة فأحلَّ الله لنبيّه قطع المدّة التي بينه وبينهم وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال للناس: كأنّكم بأبي سفيان قد جاء ليشدَّ العقد ويزيد في المدَّة وسيلقي بديل بن ورقاء، فلقوا أبا سفيان بعسفان وقد بعثته قريش إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ليشدَّ العقد ويزيد في المدَّة فلمّا لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بُديل؟ وظنَّ أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سرت في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي قال: ما أتيت محمّداً؟

قال: لا؛ فلما راح بديل إلى مكّة فقال أبو سفيان: لئن كان جاء من المدينة لقد علف بها النوى فعمد إلى مبرك ناقته وأخذ من بعرها ففتّه فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله تعالى لقد جاء بديل محمّداً.

ثمّ خرج أبو سفيان حتّى قدم على رسول الله ﷺ فدخل على ابنته أُمّ حبيبة فلمّا ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طَوَتْه عنه؛ فقال: يا بنيّة ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنّي؟

قالت أُمّ حبيبة: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ولم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ.

قال: والله لقد أصابك يا بنيّة بعدي شرّ.

ثمّ خرج حتّى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه فقال: يا محمّد احقن دم قومك وأجر بين قريش وزدنا في المدَّة.

فقال ﷺ: أغدرتم يا أبا سفيان؟ قال: لا، قال: فنحن على ما كنّا عليه.

فخرج أبا سفيان فلقي أبا بكر فقال: أجر بين قريش.

قال: ويحك وأحد يجير على رسول الله ﷺ؟ ما أنا بفاعل.

ثمّ لقى عمر بن الخطاب فقال له مثل ذلك.

فقال عمر: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله فوالله لو لم أجد إلاّ الذّرّ لجاهدتكم به.

ثمّ خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعنده فاطمة بنت رسول الله سلام الله عليها وعندها حسن بن عليّ غلام يدبّ بين يديها، فقال: يا عليُّ إنّك أمسُّ القوم بي رحماً، وإنّي قد جئت في حاجة فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ.

فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة عليها السلام فقال: يا بنت محمّد هل لك أن تأمري بُنيّك هذا فيجير بين النّاس فيكون سيّد العرب إلى آخر الدّهر؟

قالت: والله ما بلغ بُنيَّ ذاك أن يجير بين النّاس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

وفي مجمع الطبرسيّ: دخل أبو سفيان بعد ما خرج من عند ابنته أمّ حبيبة على

فاطمة ﷺ فقال: يا بنت سيّد العرب تجيرين بين قريش وتزيدين في المدّة فتكونين أكرم سيّدةٍ في النّاس؟

فقالت: جواري جوار رسول الله ﷺ.

أتأمرين[١] ابنيك أن يجيرا بين النّاس؟ قالت: والله ما بلغ ابناي أي يجيرا بين النّاس وما يجير على رسول الله ﷺ أحد.

فقال: يا أبا الحسن إنّي أرى الأمور قد اشتدّت عليَّ فانصحني.

قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً ولكنّك سيّد بني كنانة فقم فأجر بين النّاس ثمَّ الحق بأرضك.

قال: أو ترى ذلك مغنياً عنّي شيئاً؟

قال: لا والله ما أظنّه ولكنّي لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيّها النّاس إنّي قد أجرت بين النّاس، ثمَّ ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟

قال: جئت محمّداً فكلّمته فوالله ما ردّ عليَّ شيئاً ثمَّ جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثمَّ جئت ابن الخطّاب فوجدته أدنى العدوّ، ثمَّ جئت عليّاً فوجدته ألين القوم وقد أشار عليَّ بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟

قالوا: وبم أمرك؟

قال: أمرني أن أُجير بين النّاس ففعلت.

قالوا: فهل أجار ذلك محمّد؟

قال: لا؛ قالوا: ويلك! أما والله إن زاد عليّ بن أبي طالب على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

ثمَّ عزم رسول الله ﷺ على غزو مكّة وقال: اللّهمَّ أعم الأخبار عنهم - يعني قريشاً - فكتب حاطب بن أبي بلتعة مع سارة مولاة أبي لهب إلى قريش بخبر رسول الله ﷺ وما اعتزم عليه فنزل جبرئيل فأخبره بما فعل حاطب فوجّه بعليّ بن أبي طالب والزُّبير وقال خذ الكتاب منها فلحقاها وقد كانت تنكّبت الطريق فوجد الكتاب في مشعرها، وقيل في فرجها فأتيا به

(١) في نسخة: فقال: أتأمرين.

إلى رسول الله ﷺ فأسرَّ إلى كلّ رئيس منهم بما أراد وأمره أن يلقاه بموضع سمّاه وأن يكتم ما قال له فأسرَّ إلى خزاعي بن عبد نهم أن يلقاه بمزينة بالروحاء، وإلى عبد الله بن مالك أن يلقاه بغفار بالسقيا، وإلى قدامة بن ثمامة أن يلقاه ببني سليم بقديد، وإلى الصعب بن جثامة أن يلقاه ببني ـ ليث بالكديد.

وخرج رسول الله ﷺ يوم الجمعة حين صلّى صلاة العصر لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ثمان، وقيل لعشر مضين من رمضان، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ولقيته القبائل في المواضع التي سمّاها لهم وأمر النّاس فأفطروا، وسمّى الذين لم يفطروا العصاة ودعا بماء فشربه وتلقّاه العبّاس بن عبد المطّلب في بعض الطريق فلمّا صار بمرٍّ الظهران خرج أبو سفيان بن حرب يتجسّس الأخبار ومعه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء وهو يقول لحكيم ما هذه النيران؟ فقال خزاعة أحمشتها الحرب، فقال خزاعة: أقل وأذل وسمع صوته العبّاس فناداه يا أبا حنظلة **(يعني به أبا سفيان)** فأجابه فقال له: يا أبا الفضل ما هذا الجمع؟ قال: هذا رسول الله ﷺ فأردفه على بغلته ولحقه عمر بن الخطّاب وقال: الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد فسبقه العبّاس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد جاء ليسلم طائعاً فقال له رسول الله ﷺ: قل أشهد أن لا إله إلاّ الله وأني محمّد رسول الله، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وجعل يمتنع من أن يقول وأنّك رسول الله فصاح به العباس، فقال.

وفي نقل آخر أنَّ رسول الله ﷺ قال له: يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلاّ الله؟ فقال: بأبي أنت وأُمّي ما أوصلك وأكرمك وأرحمك وأحلمك والله لقد ظننت أن لو كان معه إله لأغنى يوم بدر ويوم أُحد، فقال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأُمّي أمّا هذه فإنَّ في النفس منها شيئاً، قال العبّاس: فقلت له ويحك اشهد بشهادة الحقّ قبل أن يضرب عنقك فتشهّد كما في السيرة لابن هشام **(ص ٤٠٣ ج ٢)**.

ثمَّ سأل العبّاس رسول الله ﷺ أن يجعل له شرفاً وقال: إنّه يحبُّ الشرف فقال رسول الله ﷺ: من دخل دارك يا أبا سفيان فهو آمن.

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عبّاس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتّى تمرّ به جنود الله فيراها، قال عبّاس: فخرجت حتّى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه ومرّت القبائل على راياتها، كلّما مرّت قبيلة قال: يا عبّاس من هذه؟ فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسُليم، ثمَّ تمرّ القبيلة فيقول: يا عبّاس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتّى نفدت القبائل ما تمرّ به قبيلة إلاّ يسألني عنها فإذا

أخبرته بهم قال: ما لي ولبني فلان حتّى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلاّ الحدق فقال: سبحان الله من هؤلاء يا أبا الفضل - يعني به العباس -؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار؛ قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان إنّه ليس بملك إنّما هي النبوّة، قال: فنعم إذن[1].

ومضى أبو سفيان مسرعاً حتّى دخل مكّة فأخبرهم الخبر وقال هو اصطلام إن لم تسلموا وقد جعل أنَّ من دخل داري فهو آمن، فوثبوا عليه وقالوا: ما يسع دارك؟ فقال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وفتح الله على نبيّه وكفاه القتال ودخل مكّة ودخل أصحابه من أربعة مواضع وأحلّها الله له ساعة من نهار.

ثمَّ قام رسول الله ﷺ فخطب فحرمها، وأجارت أمُّ هانيء بنت أبي طالب حموين لها: الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة فأراد عليّ عليه السلام قتلهما؛ فقال رسول الله ﷺ: يا عليُّ قد أجرنا من أجارت أُمّ هانيء، وآمنهم جميعاً إلاّ خمسة نفر أمر بقتالهم ولو كانوا متعلّقين بأستار الكعبة، وأربع نسوة.

وهم: عبد الله بن عبد العزّي بن خطل من بني تيم الأكرم بن غالب، وكان رسول الله ﷺ وجّهه مع رجل من الأنصار فشدّ على الأنصاري فقتله وقال: لا طاعة لك ولا لمحمّد.

وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وكان يكتب لرسول الله ﷺ فصار إلى مكّة فقال: أنا أقول كما يقول محمّد والله ما محمّد نبيٌّ ولقد كان يقول لي اكتب «عزيز حكيم» فأكتب «لطيف خبير» ولو كان نبيًّا لعلم فآواه عثمان وكان أخاه من الرضاع وأتى به إلى رسول الله ﷺ فجعل يكلّمه فيه ورسول الله ﷺ ساكت ثمَّ قال: هلا قتلتموه؟ فقالوا: انتظرنا أن تؤميء، فقال: إنَّ الأنبياء لا تقتل بالإيماء.

ومقيس بن صبابة أحد بني ليث بن كنانة وكان أخوه قتل فأخذ الدّية من قاتله ثمَّ شدَّ عليه فقتله.

والحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد قصي كان ممّن يؤذي رسول الله ﷺ بمكّة ويتناوله بالقول القبيح.

---

(١) روى المقريزي في أمتاع الأسماع (١/٣٧٦ ط. القاهرة ١٩٤١ م تصحيح محمد شاكر) الرواية ولكن فيها: فَنَخَرَ، وفي الهامش: صوت صوتاً من خيشومة.

والنسوة: سارة مولاة بني عبد المطّلب وكانت تذكر رسول الله ﷺ بالقبيح.

وهند بنت عتبة، وقريبة وفرتا (كذا) جاريتا ابن خطل كانتا تغنّيان في هجاء رسول الله ﷺ.

وأسلمت قريش طوعاً وكرهاً، وأخذ رسول الله ﷺ مفتاح البيت من عثمان ابن أبي طلحة وفتح الباب بيده وستره ثمَّ دخل البيت فصلّى فيه ركعتين ثمَّ خرج فأخذ بعضادتي الباب فقال: لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له أنجز وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فللّه الحمد والملك لا شريك له.

ثمَّ قال ﷺ: ما تظنّون وما أنتم قائلون؟ قال سهيل: نظنُّ خيراً ونقول خيراً أخ كريم وابن عمّ كريم وقد ظفرت، قال: فإنّي أقول لكم كما قال أخي يوسف «لا تثريب عليكم اليوم».

ثمَّ قال ﷺ: ألا كلُّ دم ومال ومأثرة في الجاهليّة فإنّه موضوع تحت قدميّ هاتين إلاّ سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ فإنّهما مردودان إلى أهليهما، ألا وإنَّ مكّة محرَّمة بحرمة الله لم تحلّ لأحد من قبلي ولا تحلّ لأحد من بعدي وإنّما حلّت لي ساعة ثمَّ أغلقت فهي محرمة إلى يوم القيامة لا يختلي خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تحلّ لقطتها إلاّ لمنشد، ألا إنَّ في القتل شبه العمد الدّية مغلّظة، والولد للفراش وللعاهر الحجر.

ثمَّ قال ﷺ: ألا لبئس جيران النبيِّ كنتم لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وآذيتم ثمَّ ما رضيتم حتّى جئتموني في بلادي تقاتلونني فاذهبوا فأنتم الطلقاء، فخرج القوم فكأنّما انشروا من القبور.

ودخل مكّة بغير احرام وأمر بلالاً أن يصعد على الكعبة فأذّن فعظم ذلك على قريش وقال عكرمة بن أبي جهل وخالد بن أسيد: إنَّ ابن رباح ينهق على الكعبة، وتكلّم قوم معهما فارسل إليهم رسول الله ﷺ فقالوا: قد قلنا فنستغفر الله فقال ﷺ: ما أدري ما أقول لكم ولكن تحضر الصلاة فمن صلّى فسبيل ذلك وإلاّ قدّمته فضربت عنقه[1].

وأمر بكلّ ما في الكعبة من صورة فمحيت وغسلت بالماء، ونادى منادي رسول الله ﷺ من كان في بيته صنم فليكسره فكسروا الأصنام.

ودعا رسول الله ﷺ بالنساء فبايعنه ونزلت عليه سورة إذا جاء نصر الله والفتح فقال: نعيت إلي نفسي.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦٠.

واعلم أنّه قد مضى بحثنا الكلامي عن عمل عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطرح بعض روايات وردت فيه فراجع إلى «**شرح المختار**» الأوّل من باب الكتب والرّسائل (**ص ٢١٠ - ٢١٣ ج ١٦**).

وكذا قد تقدَّم وجه دلالة سورة النصر على رحلة رسول الله صلى الله عليه وآله في «**شرح المختار**» ٢٣٣ من باب الخطب (**ص ٧٩ ج ١٥**).

وقيل لأهل مكّة الطّلقاء لقوله صلى الله عليه وآله لهم: فاذهبوا وأنتم الطّلقاء، ولذا قالت عقيلة بني هاشم الصدّيقة الصغرى زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في احتجاجها على يزيد بن معاوية: أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا؟

وعن ابن مسعود قال: دخل النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الفتح وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحقّ وما يبدىء الباطل وما يعيد، جاء الحقّ وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقاً.

وعن ابن عبّاس قال: لمّا قدم النبيّ صلى الله عليه وآله إلى مكّة أبى أن يدخل البيت وفيه الإلهة فأمر بها فأُخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما الأزلام؛ فقال صلى الله عليه وآله: قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنّهما لم يستقسما بها قطُّ[1]، وجاء ابن الزّبعري إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأسلم وقال:

يا رسول المليك إنَّ لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أبارى الشيطان في سنن الغيّ ... ومن مال ميلَه مثبور
آمن اللحم والعظام لربّي ... ثمّ قلبي الشهيدُ أنت النذير
إنّني عنك زاجرٌ ثمّ حيًّا ... مِن لؤيٍّ وكلّهم مغرور

وابن الزّبعري هذا هو الذي تقدَّم الكلام فيه في شرح المختار الخامس عشر من باب الكتب والرّسائل.

طائفة من احتجاجات ومحاضرات وقعت بين معاوية وغيره يناسب نقلها المقام وتفيد زيادة تبصر في آل أبي سفيان

لما استتمّت البيعة لمعاوية من أهل الكوفة صعد المنبر فخطب النّاس، وذكر أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام، ونال منه ونال من الحسن عليه السلام ما نال؛ وكان الحسن والحسين عليهما السلام حاضرين فقام الحسين عليه السلام ليردَّ عليه فأخذ بيده الحسن عليه السلام وأجلسه ثمّ قام فقال عليه السلام: أيّها

(١) مستدرك سفينة البحار: ٣٩٦/٦، وسبل الهداية والرشاد: ٢٣٨/٥.

الذاكر عليًا أنا الحسن وأبي عليٌّ، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمّي فاطمة وأمك هند، وجدّي رسول الله وجدُّك حرب، وجدّتي خديجة وجدّتك فتيلة فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرّنا قِدْماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً[١]. فقالت طوائف من أهل المسجد: آمين آمين.

وكذلك يقول مؤلّف الكتاب نجم الدِّين الحسن بن الطبريّ الأمليُّ: آمين آمين، ويرحم الله عبداً قال آمينا، ونقل القصّة الشيخ الأجلّ المفيد رحمه الله في **«الإرشاد» (ص ١٧٣ طبع طهران ١٣٧٧ هـ)**.

ومن ذلك أنّه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص، والوليد بن عقبة، وعقبة بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة؛ فقالوا: يا أمير المؤمنين ابعث لنا إلى الحسن بن عليّ، فقال لهم: فيمَ؟ فقالوا: كي نوبّخه وتعرفه أنّ أباه قتل عثمان، فقال لهم: إنّكم لا تنصفون منه ولا تقولون شيئاً إلاّ كذّبكم النّاس، ولا يقول لكم شيئاً ببلاغته إلاّ صدّقه النّاس، فقالوا: أرسل إليه فإنّا سنكفيك أمره، فأرسل إليه معاوية، فلمّا حضر قال: يا حسن إنّي لم أُرسل إليك ولكن هؤلاء أرسلوا إليك فاسمع مقالتهم وأجب ولا تحرمني فقال الحسن عليه السلام فليتكلّموا ونسمع.

فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: هل تعلم يا حسن أنّ أباك أوّل من أثار الفتنة، وطلب الملك؟ فكيف رأيت صنع الله به؟

ثمّ قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: يا بني هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفّان فنعم الصّهر كان يفضلكم ويقرّبكم؛ ثمّ بغيتم عليه فقتلتموه؛ ولقد أردنا يا حسن قتل أبيك فأنقذنا الله منه، ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله ذنب.

ثمّ قام عقبة فقال: تعلم يا حسن أنّ أباك بغى على عثمان فقتله حسداً على الملك والدُّنيا فسلبها؟ ولقد أردنا قتل أبيك حتّى قتله الله تعالى.

ثمّ قام المغيرة بن شعبة فكان كلامه كلّه سبًّا لعليٍّ وتعظيماً لعثمان.

فقام الحسن عليه السلام فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: بك أبدأ يا معاوية لم يشتمني هؤلاء ولكن أنت تشتمني بغضاً وعداوة وخلافاً لجدّي صلى الله عليه وآله ثمّ التفت إلى النّاس وقال: انشدكم الله، أتعلمون أنّ الرّجل الذي شتمه هؤلاء كان أوّل من آمن بالله، وصلّى للقبلتين، وأنت يا معاوية يومئذ كافر تشرك بالله، وكان معه لواء النبيّ صلى الله عليه وآله يوم بدر ومع معاوية وأبيه لواء المشركين؟

ثمّ قال: انشدكم الله والإسلام أتعلمون أنّ معاوية كان يكتب الرسائل لجدّي صلى الله عليه وآله فأرسل إليه يوماً فرجع الرّسول وقال: هو يأكل فردّ الرّسول إليه ثلاث مرّات كلّ ذلك وهو

---

(١) الإرشاد: ٢/ ١٥، وبحار الأنوار: ٤٤/ ٤٩.

يقول هو يأكل فقال النبيّ ﷺ: لا أشبع الله بطنه؛ أما تعرف ذلك في بطنك يا معاوية؟

ثمَّ قال: وانشدكم الله أتعلمون أنَّ معاوية كان يقود بأبيه على جمل وأخوه هذا يسوقه فقال رسول الله ﷺ: لعن الله الجمل وقائده وراكبه وسائقه؟ هذا كلّه لك يا معاوية.

وأمّا أنت يا عمرو: فتنازع فيك خمسة من قريش فغلب عليك ألأمهُم حسباً وشرُّهم منصباً، ثمَّ قمت وسط قريش فقلت: إنّي شانيء محمّدٍ فأنزل الله على نبيّه ﷺ «إنَّ شانئك هو الأبتر» ثمَّ هجوت محمّداً ﷺ بثلاثين بيتاً من الشعر فقال النبيّ ﷺ: إنّي لا أحسن الشِّعر ولكن العن عمرو بن العاص بكلّ بيت لعنة ثمَّ انطلقت إلى النجاشي بما علمت وعملت فأكذبك الله وردّك خائباً فأنت عدوٌّ بني هاشم في الجاهلية والإسلام فلم نلمك على بغضك.

وأمّا أنت يا ابن أبي معيط فكيف ألومك على سبّك لعليّ وقد جلّد ظهرك في الخمر ثمانين سوطاً، وقتل أباك صبراً بأمر جدّي وقتله جدّي بأمر ربّي، ولمّا قدّمه للقتل قال: مَن للصبية يا محمّد؟ فقال: لهم النّار، فلم يكن لكم عن النبيّ ﷺ إلاّ النار ولم يكن لكم عند عليٍّ غير السّيف والسّوط.

وأمّا أنت يا عقبة فكيف تعد أحداً بالقتل؟ لِمَ لا قتلت الذي وجدته في فراشك مضاجعاً لزوجتك ثمَّ أمسكتها بعد أن بغت.

وأمّا أنت يا أعور ثقيف ففي أيِّ ثلاث تسبُّ عليّاً: أفي بُعده من رسول الله ﷺ؟ أم في حكم جائر؟ أم في رغبة في الدُّنيا؟ فإن قلت شيئاً من ذلك فقد كذبت أكذبك النّاس، وإن زعمت أنَّ عليّاً قتل عثمان فقد كذبت وأكذبك النّاس، وأمّا وعيدك فإنّما مثلك كمثل بعوضة وقفت على نخلة فقالت لها: استمسكي فإنّي أريد أن أطير؛ فقالت لها النخلة: ما علمت بوقوفك فكيف يشقّ عليّ طيرانك؟ وأنت فما شعرنا بعداوتك فكيف يشقُّ علينا سبّك[1]؟ ثمَّ نفض ثيابه وقام.

فقال لهم معاوية: ألم أقل لكم إنّكم لا تنتصفون منه؟ فوالله لقد أظلم عليّ البيت حتى قام فليس لكم بعد اليوم خير. وقد نقلها أبو بكر بن عليّ القادري الحنفيّ في **«ثمرات الأوراق»** في المحاضرات (**هامش المستطرف ص ٥٥ ج ١ طبع مصر**).

والمراد من الألأم الشانيء الأبتر هو العاص بن وائل السّهمي، وكان عمرو ابنه على النّحو الذي بيّنه المجتبى ﷺ.

ورواية «لا أشبع الله بطنه» منقبة جليلة لمعاوية قد اصطلحت نقلة الآثار بنقلها منهم ابن عبد البرّ في **«الاستيعاب»**، وابن الأثير في **«أسد الغابة»** عن **«مسند أبي داود الطيالسي»** وغيره،

---

(١) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي: ٢/ ٢٢٠.

وما أنكروا ثبوتها له.

وقد روى الصّدوق رحمه الله في باب السبعة من كتابه «**الخصال**»: قال رسول الله ﷺ: المؤمن يأكل في معاء واحدة والكافر يأكل في سبعة أمعاء، وروى السيوطي في «**الجامع الصغير**» عنه ﷺ: المؤمن يشرب في معي واحدٍ والكافر يشرب في سبعة أمعاء[١].

«المعى» يذكر ويؤنث فالعبارة في الروايتين صحيحة، وسيأتي كلام صعصعة له: اتسع بطن من لا يشبع، ودعا عليه من لا يجمع.

والكلام في حديث اللّعن كالرّواية المتقدّمة في المنقبة المذكورة، وقد مضى نقل روايات أُخرى في سائر مناقبه أيضاً عن كتاب «**صفين**» لنصر بن مزاحم في شرح المختار ٢٣٦ (ص ٣٧٠ ـ ٣٧٤ ج ١٥) منها عن البراء بن عازب قال: أقبل أبو سفيان ومعه معاوية، فقال رسول الله ﷺ: اللّهم العن التابع والمتبوع[٢].

وروى الصّدوق رحمه الله في باب السبع من الخصاب عن أبي الطفيل عامر بن واثلة أنَّ رسول الله ﷺ لعن أبا سفيان في سبعة مواطن. فراجع.

ومن ذلك أنَّ شريك بن الأعور دخل على معاوية وهو يختال في مشيته، فقال له معاوية: والله إنّك لشريك وليس لله من شريك، وإنّك ابن الأعور والصّحيح خيرٌ من الأعور، وإنّك لدميمٌ والوسيم خيرٌ من الدّميم؛ فبمَ سوَّدك [سدت] قومك؟

فقال له شريك: والله إنّك لمعاوية وما معاوية إلاّ كلبة عَوَتْ فاستعوت فسمّيت معاوية، وإنّك ابن حرب والسّلم خيرٌ من الحرب، وإنّك ابن صخر والسّهل خيرٌ من الصَّخر، وإنّك ابن أُميّة وما أُميّة إلاّ أمة صغّرت فسمّيت أُميّة فكيف صرت أمير المؤمنين؟

فقال له معاوية: أقسمت عليك إلاّ ما خرجت عنّي.

نقلها في «**ثمرات الأوراق**» أيضاً (**هامش المستطرف ص ٥٩ ج ١**) ونقلها الأبشيهي في «**المستطرف**» (ص ٥٧ ج ١).

وفي «تاريخ الخلفاء» (ص ١٩٩) للسّيوطي وفي «**المستطرف**» للأبشيهي (ص ٥٨ ج ١): أخرج عن الفضل بن سويد قال: وفد جارية بن قدامة السعدي على معاوية فقال له معاوية: أنت الساعي مع عليّ بن أبي طالب، والموقد النّار في شعلك تجُوسُ قرى عربية تسفك دماءهم؟

---

(١) كتاب الأربعين: ٦٣٢، وبحار الأنوار: ٦٣/٣٢٥ ح ١.

(٢) معاني الأخبار: ٣٤٥ ح ١، وبحار الأنوار: ٣٣/١٦٤ ح ٤٣١.

قال جارية: يا معاوية دع عنك عليّاً فما أبغضنا عليًا منذ أحببناه، ولا غششناه منذ صحبناه.

قال: ويحك يا جارية! ما كان أهْوَنَك على أهلك إذ سمُّوك جارية! قال: أنت يا معاوية كنت أهون على أهلك إذ سمّوك معاوية وهي الأُنثى من الكلاب، قال: اسكت لا أمَّ لك، قال: أمّ لي ولدتني؛ أما والله إنَّ القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، وقوائم السيوف التي لقيناك بها بصفّين في أيدينا، قال: إنّك لتهدّدني؟ قال: إنّك لم تملكنا قسرة ولم تفتحنا عنوة، ولكن أعطيتنا عهوداً ومواثيق فإن وفيت لنا وفينا وإن ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراءَنا رجالاً مِداداً، وأدرعاً شداداً، وأسنّةً حداداً، فإن بسطت إلينا فتراً من غدرٍ زلفنا إليك بباع من ختر؛ قال معاوية: لا أكثر الله في النّاس أمثالك يا جارية؛ فقال له: قل معروفاً فإنَّ شرَّ الدُّعاء محيط أهله[1].

وأخرج ابن عساكر عن عبد الملك بن عمير قال: قدم جارية بن قدامة السعدي على معاوية فقال: من أنت؟ قال: جارية بن قدامة، قال: وما عسيت أن تكون؟ هل أنت إلاّ نحلة؟ قال: لا تقل، فقد شبّهتني بها حامية اللّسعة حلوة البصاق؛ والله ما معاوية إلاّ كلبة تعاوي الكلاب، وما أميّة إلاّ تصغير أمة، **(تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٩)**.

ودخل عديٌّ بن حاتم الطائي على معاوية فقال له معاوية: ما فعلت الطرفات ـ يعني أولاده ـ؟ قال: قتلوا مع عليٍّ، قال: ما أنصفك علي قتل أولادك وبقاء أولاده، فقال عليّ: ما أنصفك عليٌّ [ما أنصفت عليّا] إذ قتل وبقيت بعده؛ فقال معاوية: أما إنّه قد بقي قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلاّ دم شريف من أشراف اليمن.

فقال عديّ: والله إنَّ قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإنَّ أسيافنا التي قاتلناك بها لعَلى عواتقنا، ولئن أدنيت إلينا من الغدر فتراً لنُدنينّ إليك من الشرِّ شبراً وإنَّ حزّ الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي فسلّم السيف لباعث السيف.

فقال معاوية: هذه كلمات حكم فاكتبوها وأقبل على عديٍّ محادثاً له كأنّه ما خاطبه بشيءٍ، ذكره المسعوديُّ في «مروج الذّهب» (ص ٥٤ ج ٢).

وخطب معاوية يوماً فقال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ فعلام تلومونني إذا قصرت في عطاياكم؟

فقال له الأحنف: وإنّا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزله الله من

---

(١) النصائح الكافية: ٤١.

خزائنه فجعلته في خزائنك حلت بيننا وبينه، نقله في «**المستطرف**» (ص ٥٨ ج ١).

ودخل عقيل على معاوية وقد كفّ بصره فأجلسه معه على سريره ثمّ قال له: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال له عقيل: وأنتم معشر بني أُميّة تصابون في بصائركم. أتى به في «**المستطرف**» (ص ٥٨ ج ١).

وقال معاوية يوماً: أيّها الناس إنَّ الله حبا قريشاً بثلاث: فقال لنبيّه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ونحن عشيرته الأقربون، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ ونحن قومه، وقال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾ ونحن قريش.

فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وأنتم قومه، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ وأنتم قومه، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة. ذكره في «**المستطرف**» (ص ٥٨ ج ١).

ومن ذلك أنَّ معاوية حجَّ سنة ٤٤ ولمّا صار إلى المدينة أتاه جماعة من بني هاشم وكلّموه في أُمورهم فقال: أما ترضون يا بني هاشم أن نقرّ عليكم دماءكم وقد قتلتم عثمان حتّى تقولوا ما تقولون فواللهِ لأنتم أحلُّ دماً من كذا وكذا وأعظم في القول.

فقال له ابن عبّاس: كلّما قلت لنا يا معاوية من شرّ بين دفّتيك وأنت والله أولى بذلك منّا، أنت قتلت عثمان ثمّ قمت تغمص على النّاس أنّك تطلب بدمه فانكسر معاوية، فقال ابن عبّاس: والله ما رأيتك صدقت إلاّ فزعت وانكسرت، قال فضحك معاوية، وقال: والله ما أحبّ أنّكم لم تكونوا كلّمتموني.

ثمَّ كلّمه الأنصار فأغلظ لهم في القول وقال لهم: ما فعلت نواضحكم؟ قالوا: أفنيناها يوم بدر لما قتلنا أخاك وجدّك وخالك، ولكنّا نفعل ما أوصانا به رسول الله ﷺ؛ قال: ما أوصاكم به؟ قالوا: أوصانا بالصبر؛ قال: فاصبروا ثمّ ادلج معاوية إلى الشام ولم يقض لهم حاجة.

ذكره اليعقوبي في «**التاريخ**» (ص ١٩٨ ج ٢) ثمّ قال اليعقوبيّ: وأخرج معاوية المنابر إلى المصلّى في العيدين وخطب الخطبة قبل الصّلاة وذلك أنَّ الناس كانوا إذا صلّوا انصرفوا لئلا يسمعون لعن عليّ عليه السلام فقدَّم معاوية الخطبة قبل الصلاة ووهب فدكاً لمروان بن الحكم ليغيظ بذلك آل رسول الله ﷺ.

قال السيوطي في «**تاريخ الخلفاء**» (ص ٢٠١): وابن عبد البرّ في «**الاستيعاب**» عن عبد الله بن محمّد بن عقيل: قدم معاوية المدينة فلقيه أبو قتادة الأنصاري، فقال معاوية: تلقّاني النّاس كلّهم غيركم يا معشر الأنصار، قال: لم يكن لنا دوابٌّ فقال: فأين النّواضح؟ قال:

عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، قال: نعم يا أبا قتادة!

ثمَّ قال أبو قتادة: إنَّ رسول الله ﷺ قال لنا: إنّكم سترون بعدي أثرة، فقال معاوية: فما أمركم عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر، قال: فاصبروا حتّى تلقوه، فبلغ عبد الرَّحمٰن بن حسّان بن ثابت ذلك فقال:

ألا أبلغ معاوية بن حرب أمير المؤمنين نَبا كلامي
فإنّا صابرون ومنظروكم إلى يوم التغابن والخصامِ

وفي نسخة «**الاستيعاب**»: ثَنا كلامي، وفي بعضها عنى كلامي.

ومن ذلك أنه لم يكن أحد أحبُ إلى معاوية أن يلقاه من أبي الطُّفيل عامر بن واثلة الصّحابي الكناني وكان فارس أهل صفّين وشاعرهم، وكان من أخصّ النّاس بعليّ عليه السلام، فقدم أبو الطفيل الشّام يزور ابن أخ له من رجال معاوية فأُخبر معاوية بقدومه، فأرسل إليه، فأتاه وهو شيخ كبير، فلمّا دخل عليه، قال له معاوية: أنت أبو الطفيل عامر بن واثلة؟ قال: نعم، قال معاوية: أكنت ممّن قتل عثمان؟ قال: لا؛ ولكن ممّن شهده فلم ينصره، قال: ولِمَ؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية: أما والله إن نصرته كانت عليهم وعليك حقًّا واجباً، وفرضاً لازماً فقال أبو الطفيل: فما منعك إذ تربّصت به ريب المنون أن لا تنصره ومعك أهل الشام؟ فقال معاوية: أما طلبي بدمه نصرة له؟ فضحك أبو الطفيل وقال: بلى ولكنّك وعثمان كما قال عبيد بن الأبرص.

لا ألفينّك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زوّدتني زاداً

فدخل مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعبد الرَّحمن بن الحكم فلمّا جلسوا نظر إليهم معاوية، ثمَّ قال: أتعرفون هذا الشيخ؟ قالوا: لا؛ فقال معاوية: هذا خليل عليّ بن أبي طالب، وفارس صفّين، وشاعر أهل العراق، هذا أبو الطّفيل، قال سعيد بن العاص: قد عرفناه فما يمنعك منه؟ وشتمه القوم، فزجرهم معاوية، قال: مهلاً فرُبَّ يومٍ ارتفع عن الأسباب قد ضقتم به ذرعاً، ثمَّ قال: أتعرف هؤلاء يا أبا الطّفيل؟ قال: ما أنكرهم من سوءٍ، ولا أعرفهم بخير، وأنشد:

فإن تكن العداوة قد أكنّت فشرُّ عداوة المرء السباب

فقال معاوية: يا أبا الطفيل ما أبقى لك الدهر من حبِّ عليٍّ؟ قال: حبّ أمّ موسى وأشكو إلى الله التقصير. (**وفي مروج الذهب: قال معاوية له: كيف وجدك على خليلك أبي الحسن؟ قال: كوجد أمّ موسى على موسى وأشكو إلى الله التقصير**) فضحك معاوية، قال: ولكن والله هؤلاء الذين حولك لو سألوا عنّي ما قالوا هذا فقال مروان: أجل والله لا نقول الباطل، (**الإمامة والسياسة للدينوريّ ص ١٩٣ ج ١، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٠٠، مروج**

الذهب للمسعودي ص ٦٢ ج ٢) وذكره أبو الفرج في «**الأغاني**» على التفصيل فراجع (**ص ١٥٩ ج ١٣ من طبع ساسي**).

ودخل على معاوية ضرار بن الخطّاب فقال له: كيف حزنك على أبي الحسن؟ قال: حزن من ذبح ولدها على صدرها فما ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها، نقله المسعودي في «**مروج الذهب**» (ص ٦٢ ج ٢).

وأخرج العسكري في كتاب «**الأوائل**» عن سليمان بن عبد الله بن معمر قال: قدم معاوية مكّة أو المدينة فأتى المسجد فقعد في حلقة فيها ابن عمر وابن عبّاس وعبد الرّحمٰن بن أبي بكر فأقبلوا عليه وأعرض عنه ابن عبّاس فقال معاوية: وأنا أحقُّ بهذا الأمر من هذا المعرض وابن عمّه، فقال ابن عبّاس: ولم؟ التقدُّم في الإسلام، أم سابقة مع رسول الله ﷺ، أو قرابة منه؟ قال: لا ولكنّي ابن عمّ المقتول، قال: فهذا أحقّ به ـ يريد ابن أبي بكر ـ قال: إنَّ أباه مات موتاً، قال: فهذا أحقّ به ـ يريد ابن عمر ـ قال: إنَّ أباه قتله كافر، قال: فذاك أدحضُ لحجّتك إن كان المسلمون عتبوا على ابن عمّك فقتلوه (**تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٠١**).

وأخرج ابن عساكر عن الأوزاعي قال: دخل خريم بن فاتك على معاوية ومئزره مشمّر ـ وكان حسن الساقين ـ فقال معاوية: لو كانت هاتان الساقان لمرأة! فقال خريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين (**تاريخ الخلفاء ص ٢٠٤**).

وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمّد، عن أبيه أنَّ عقيلاً دخل على معاوية فقال معاوية: وهذا عقيل وعمّه أبو لهب، فقال عقيل: هذا معاوية وعمّته حمّالة الحطب (**تاريخ الخلفاء ص ٢٠٤**).

وأخرج ابن عساكر عن حميد بن هلال أنَّ عقيل بن أبي طالب سأل عليّاً عليه السلام فقال: إنّي محتاج وإنّي فقير فأعطني، فقال: أصبر حتّى يخرج عطائي مع المسلمين فأعطيك معهم فألحَّ عليه، فقال لرجلٍ: خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق فقل: دق هذه الأقفال، وخذ ما في هذه الحوانيت، قال: تريد أن تتّخذني سارقاً؟ قال: وأنت تريد أن تتّخذني سارقاً؟ أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم، قال: لآتينَّ معاوية، قال: أنت وذاك؛ فأتى معاوية فسأله وأعطاه مائة ألف، ثمَّ قال: اصعد على المنبر فاذكر ما أولاك به عليٌّ وما أوليتك فصعد فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أيّها النّاس إنّي أُخبركم أنّي أردت عليّاً على دينه فاختار دينه، وأنّي أردت معاوية على دينه فاختارني على دينه. (**تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٠٤**)[1].

(١) الأنوار العلوية: ١٦، وينابيع المودة لذوي القربى: ١٤٩٢ ح ١٦٠.

ومن ذلك أنّه وفد على معاوية عقيل بن أبي طالب منتجعاً وزائراً، فرحّب به معاوية وسرّ بوروده لاختياره إيّاه على أخيه - يعني أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام - وأوسعه حلماً واحتمالاً؛ فقال له: يا أبا يزيد - يعني عقيلاً - كيف تركت عليًّا؟ فقال: تركته على ما يحبُّ الله ورسوله، وألفيتك على ما يكره الله ورسوله، فقال له معاوية: لولا أنّك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك أبا يزيد جواباً تألم منه.

ثمّ أحبَّ معاوية أن يقطع كلامه مخافة أن يأتي بشيء يخفضه، فوثب عن مجلسه وأمر له أن ينزل وحمل إليه مالاً عظيماً، فلمّا كان من غدٍ جلس وأرسل إليه فأتاه فقال له: يا أبا يزيد كيف تركت عليًّا أخاك؟ قال: تركته خيراً لنفسه منك وأنت خير لي منه، فقال له معاوية: أنت والله كما قال الشاعر:

وإذا عددت فخار آل محرق ... فالمجد منهم في بني عتاب

فمحلّ المجد من بني هاشم منوط فيك يا أبا يزيد ما تغيّرك الأيّام واللّيالي، فقال عقيل:

اصبر لحرب أنت جانبها ... لا بدّ أن تصلي بحاميها

بالحاملين على الموالي عزمهم ... والضاربين الهام يوم القارع

ولكن أنت يا معاوية إذا افتخرت بنو أميّة فبمن تفخر؟ فقال معاوية: عزمت عليك أبا يزيد لما أمسكت فإنّي لم أجلس لهذا وإنّما أردت أن أسألك عن أصحاب عليّ فإنّك ذو معرفة بهم، فقال عقيل: سل عما بدا لك، فقال: ميّز لي أصحاب عليّ وابدأ بآل صوحان فإنّهم مخاريق الكلام، قال: أمّا صعصعة فعظيم الشأن، عضب اللّسان، قائد فرسان، قاتل أقران، يرتق ما فتق، ويفتق ما رتق، قليل النظير.

وأمّا زيد وعبد الله فإنّهما نهران جاريان يصبّ فيهما الخلجان، ويغاث بهما البلدان، رجلا جدٍّ لا لعب معهما، وأمّا بنو صوحان فكما قال الشاعر:

إذا نزل العدوّ فإنَّ عندي ... أسوداً تخلس الأسد النفوسا

فاتّصل كلام عقيل بصعصعة فكتب إليه: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم، ذكر الله أكبر وبه يستفتح المستفتحون، وأنتم مفاتيح الدُّنيا والآخرة. أمّا بعد، فقد بلغ مولاك كلامك لعدوّ الله وعدوّه فحمدت الله على ذلك وسألته أن يفيء بك إلى الدّرجة العليا، والقضيب الأحمر، والعمود الأسود، فإنّه عمود من فارقه فارق الدّين الأزهر، ولئن نزعت بك نفسك إلى معاوية طلباً لماله إنّك لذو علم بجميع خصاله فاحذر أن تعلق بك ناره فيضلّك عن الحجّة فإنَّ الله قد رفع عنكم أهل البيت ما أوضعه في غيركم، فما كان من فضل أو احسان فبكم وصل إلينا، فأجلَّ الله أقداركم وحمى أخطاركم، وكتب آثاركم، فإنَّ أقداركم مرضيّة، وأخطاركم محميّة

وآثاركم بدريّة، وأنتم سُلّم الله إلى خلقه، ووسيلته إلى طرقه، أيدٍ عليّة، ووجوه جليّة، وأنتم كما قال الشاعر:

فما كان من خير أتوه فإنّما ... توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطّيّ إلاّ وشيجه ... وتغرس إلاّ في منابتها النخل؟

نقله المسعودي في «مروج الذهب» (ص ٧٥ ج ٢).

وحدث أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ، عن محمّد بن حميد الرازي، عن أبي مجاهد عن محمّد بن إسحاق بن أبي نجيح قال: لمّا حجَّ معاوية طاف بالبيت ومعه سعد فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة فأجلسه معه على سريره، ووقع معاوية في عليٍّ وشرع في سبّه فزحف سعد ثمّ قال: أجلستني معك على سريرك ثمّ شرعت في سبّ عليٍّ! والله لأن تكون فيَّ خصلةٌ واحدة من خصال كانت لعليٍّ أحبُ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس.

والله لأن أكون صهر الرّسول ﷺ لي من الولد ما لعليٍّ أحبُّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس.

والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قاله يوم خيبر: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبّه الله ورسوله ويحبُّ الله ورسوله ليس بفرّار يفتح الله على يديه» أحبُّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس.

والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قال له في غزوة تبوك: «ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي» أحبّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وأيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت، ونهض.

نقله المسعودي في «مروج الذهب» (ص ٦١ ج ٢) ثمّ قال المسعودي: ووجدت في وجه آخر من الرّوايات وذلك في كتاب عليّ بن محمّد بن سليمان النوفلي في الأخبار عن ابن عائشة وغيره أنَّ سعداً لما قال هذه لمقالة المعاوية ونهض ليقوم ضرط له معاوية وقال له: اقعد حتّى تسمع جواب ما قلت ما كنت عندي قطُ ألأم منك الآن فهلا نصرته ولم قعدت عن بيعته؟ فإنّي لو سمعت من النبيّ مثل الذي سمعت فيه لكنت خادماً لعليّ ما عشت، فقال سعد: والله إنّي لأحقّ بموضعك منك؛ فقال معاوية: يأبى عليك بنو عذرة ـ وكان سعد فيما يقال لرجل من بني عذرة ـ قال النوفلي: وفي ذلك يقول السيّد الحميري:

سائل قريش بها إن كنت ذاعمه ... من كان أثبتها في الدِّين أوتاداً
من كان أقدمها سلماً وأكثرها ... علماً وأطهرها أهلاً وأولاداً

مـن وحّـد الـلّـه إذ كـانـت مـكـذّبـة … تـدعـو مـع الـلّـه أوثـانـاً وأنـداداً
مـن كـان يـقـدم فـي الـهـيـجـاء أن نـكـلـوا … عـنـهـا وإن بـخـلـوا فـي أزمـة جـادا
مـن كـان أعـدلـهـا حـكـمـاً وأقـسـطـهـا … حـلـمـاً وأصـدقـهـا وعـداً وإيـعـادا
إن يـصـدقـوك فـلـم يـعـدوا أبـا حـسـنٍ … إن أنـت لـم تـلـق لـلأبـرار حـسّـادا
إن أنـت لـم تـلـق مـن تـيـمٍ أخـا صـلـف … ومـن عـديٍّ لـحـقّ الـلّـه جـحّـاداً
أو مـن بـنـي عـامـر أو مـن بـنـي أسـد … رهـط الـعـبـيـد ذوي جـهـلٍ وأوغـادا
أو رهـط سـعـد وسـعـد كـان قـد عـلـمـوا … عـن مـسـتـقـيـم صـراط الـلّـه صـداداً
قـوم تـداعـوا زنـيـمـاً ثـمّ سـادهـم … لـولا خـمـول بـنـي زهـر لـمـا سـادا

وقال معاوية لعقيل: إنّ فيكم شبقاً يا بني هاشم، فقال له عقيل: منّا في الرّجال ومنكم في النساء، نقله القاضي نور الله الشهيد في المجلس الثالث من مجالس المؤمنين[1].

ومن ذلك ما جرى بين معاوية وبين قيس بن سعد بن عبادة حين كان عاملاً على مصر فكتب إليه معاوية: أمّا بعد فإنّك يهوديّ ابن يهوديّ وإن ظفر أحبّ الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك نكل بك وقتلك؛ وقد كان أبوك أوتر قوسه ورمى غرضه فأكثر الجدّ وأخطأ القصد فخذله قومه وأدركه يومه ثمّ مات بحوران طريداً.

فكتب إليه قيس بن سعد: أمّا بعد فإنّما أنت وثنيّ ابن وثنيّ دخلت في الإسلام كرهاً، وخرجت منه طوعاً لم يقدم إيمانك ولم يحدث نفاقك وقد كان أبي أوتر قوسه ورمى غرضه فشغب به من لم يبلغ عقبه ولا شق غباره، ونحن أنصار الدِّين الذين منه خرجت وأعداء الدِّين الذي فيه دخلت، نقله المسعوديّ في «**مروج الذّهب**» (ص ٦٢ ج ٢).

ودخل قيس بن سعد بعد وفاة عليّ ووقوع الصلح في جماعة من الأنصار على معاوية فقال لهم معاوية: يا معشر الأنصار بم تطلبون ما قبلي؟ فوالله لقد كنتم قليلاً معي، كثيراً عليّ، ولفللتم حدّي يوم صفّين حتّى رأيت المنايا تلظّىء في أسنّتكم وهجوتموني في أسلافي بأشد من وقع الأسنّة حتّى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلتم ارع وصيّة رسول الله ﷺ هيهات يأبى الحقير الغدرة.

فقال قيس: نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله لا بما نمت به إليك الأحزاب وأمّا عداوتنا لك فلو شئت كففتها عنك، وأمّا هجاؤنا إيّاك فقول يزول باطله ويثبت حقّه، وأمّا استقامة الأمر فعلى كره كان منّا، وأمّا فلنا حدَّك يوم صفّين فإنّا كنّا مع رجل نرى طاعته لله

---

(١) الأمالي: ١/ ١٩٩، ومواقف الشيعة: ١/ ٢٣٨.

طاعة، وأمّا وصيّة رسول الله بنا فمن آمن به رعاها بعده، وأمّا قولك يأبى الحقير الغدرة فليس دون الله يدٌ تحجزك منّا يا معاوية، فقال معاوية: دعوه ارفعوا حوائجكم[١].

نقله المسعودي في «**مروج الذهب**» (ص ٦٣ ج ٢) ثمّ قال: وقد كان قيس بن سعد من الزهد والدّيانة والميل إلى عليٍّ بالموضع العظيم.

لما قدم معاوية الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد ذلكم فإنّه لم تختلف أمّة بعد نبيّها إلاّ غلب باطلها حقّها إلاّ ما كان من هذه الأمّة فإنّ حقّها غلب باطلها. ثمّ نزل وأحضر النّاس لبيعته وكان الرّجل يحضر فيقول: والله يا معاوية إنّي لأبايعك وإنّي لكاره لك فيقول: بايع فإنّ الله قد جعل في المكروه خيراً كثيراً؛ ويأتي الآخر فيقول: أعوذ بالله من نفسك، وأتاه قيس بن سعد بن عبادة فقال: بايع قيس، قال: إن كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية؟ فقال له: مه رحمك الله، فقال: لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يا ابن أبي سفيان إلاّ ما أحبَّ، قال: فلا يردّ أمر الله، فأقبل قيس على النّاس بوجهه فقال: «يا معشر النّاس لقد اعتضتم الشرّ من الخير، واستبدلتم الذلّ من العزّ، والكفر من الإيمان، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيّد المسلمين وابن عمّ رسول ربّ العالمين، وقد وليكم الطّليق ابن الطّليق، يسومكم الخسف، ويسير فيكم بالعسف، فكيف تجهل ذلك أنفسكم أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون» فجثا معاوية على ركبتيه ثمّ أخذ بيده وقال: أقسمت عليك ثمّ صفق على كفّه ونادى النّاس: بايع قيس؛ فقال: كذبتم والله ما بايعت ولم يبايع لمعاوية أحد إلاّ أخذ عليه الإيمان فكان أوّل من استخلف على بيعته[٢].

ودخل إليه سعد بن مالك فقال: السّلام عليك أيها الملك. فغضب معاوية فقال: ألاّ قلت السّلام عليك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذاك إن كنّا أمّرناك، إنّما أنت منتزٍ، (**نقلهما اليعقوبي في التاريخ ص ١٩٢ ج ٢**).

حدث أبو الهيثم قال: حدثني أبو البشر محمّد بن بشر الفزاري عن إبراهيم بن عقيل البصريّ قال: قال معاوية يوماً وعنده صعصعة وكان قدم عليه بكتاب عليّ وعنده وجوه النّاس: الأرض لله وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركته منه كان جائزاً لي، فقال صعصعة:

تمنّيك نفسك ما لا يكو ن جهلاً معاوى لا تأثم

فقال معاوية: ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك! قال: ليس ذلك بيدك ذلك بيد

---

(١) مواقف الشيعة: ١/ ٩٦. (٢) الغدير: ٢/ ١٠٤، ومواقف الشيعة: ١/ ٩٥.

الذي لا يؤخّر نفساً إذا جاء أجلها، قال معاوية: ومن يحول بيني وبينك؟ قال: الذي يحول بين المرء وقلبه، قال معاوية: اتّسع بطنك للكلام كما اتّسع بطن البعير للشعير، قال: اتّسع بطن من لا يشبع ودعا عليه من لا يجمع، نقله المسعوديّ في «**مروج الذّهب**» (**ص ٧٩ ج ٢**).

ودخل صعصعة بن صوحان على معاوية فقال له: يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها فأخبرني عن أهل البصرة وإيّاك والحمل على قوم لقوم فأجابه وأخبره عنهم، ثمّ قال: فأخبرني عن أهل الكوفة؛ قال: قبة الإسلام وذروة الكلام - إلى أن قال: غير أنّ لهم ثباتاً في الدّين وتمسكاً بعروة اليقين يتّبعون الأئمّة الأبرار ويخلعون الفسقة الفجّار؛ فقال معاوية مَن البررة والفسقة؟ فقال: يا ابن أبي سفيان ترك الخداع من كشف القناع، عليٌّ وأصحابه من الأئمّة الأبرار وأنت وأصحابك من أُولئك، ثمّ أحبَّ معاوية أن يمضي صعصعة في كلامه بعد أن بان فيه الغضب فقال: أخبرني عن القبّة الحمراء في ديار مضر فأخبره عنها ثمّ استخبره عن ديار ربيعة، وعن مضر فأخبره عنهما ثمّ أمسك معاوية فقال له صعصعة: سل يا معاوية وإلاّ أخبرتك بما تحيد عنه؛ قال: وما ذاك يا ابن صوحان؟ قال: أهل الشام، قال: فأخبرني عنهم قال: أطوع الناس لمخلوق، وأعصاهم للخالق، عصاة الجبار، وخلقة الأشرار، فعليهم الدّمار، ولهم سوء الدار، فقال معاوية: والله يا ابن صوحان إنّك لحامل مُدْيتك منذ أزمانٍ إلاّ أنّ حلم أبي سفيان يردُّ عنك، فقال صعصعة: بل أمر الله وقدرته إنّ أمر الله كان قدراً مقدوراً.

نقله المسعوديّ في «**مروج الذّهب**» مفصّلاً وما أتينا به هٰهنا ملتقط منه.

ومن ذلك أنّ معاوية حبس صعصعة بن صوحان العبدي، وعبد الله بن الكواء اليشكري ورجالاً من أصحاب عليّ عليه السلام مع رجال من قريش فدخل عليهم معاوية يوماً فقال: نشدتكم بالله إلاّ ما قلتم حقًّا وصدقاً أيُّ الخلفاء رأيتموني؟ فبعد ما تكلّم ابن الكواء في مساويء معاوية قال صعصعة: تكلّمت يا ابن أبي سفيان فأبلغت ولم تقصر عمّا أردت وليس الأمر على ما ذكرت أنّى يكون الخليفة من ملك النّاس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً؟ أما والله مالك في يوم بدر مضرب ولا مرمى وما كنت فهي إلاّ كما قال القائل «لا حلى ولا سيرى» ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممّن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّما أنت طليق ابن طليق أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وآله فأنّى تصلح الخلافة لطليق؟ فقال معاوية: لولا أنّي أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول:

قابلت جهلهم حلماً ومغفرة ... والعفو عن قدرة ضرب من الكرم

لقتلتكم. (**مروج الذّهب ص ٧٨ ج ٢**).

دخل صعصعة على معاوية أوّل ما دخل عليه وقد كان يبلغ معاوية عنه فسأله عن نسبه فبيّن له نسبه، ثمّ قال له معاوية: أما والله لقد كان يسوءني أن أراك أسيراً! قال: وأنا والله لقد كان يسوءني أن أراك أميراً، نقلهما القالي في **«الأمالي»** والقصّة طويلة عذبة غير مملّة **(ص ٢٢٧ ج ٢)** وقريب منها ما نقله المسعودي في **«مروج الذهب» (ص ٧٦ ج ٢)** ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان وكلام في نهاية البلاغة والفصاحة والإيضاح عن المعاني على إيجاز واختصار وقد جرى بينه وبين معاوية كلام كثير في غير موطن تكلّم فيها بقبائح أعمال معاوية وخبث سريرته وسوء رويته وقد أتى الشيخ الأجلّ الطبرسي في كتاب **«الاحتجاج»** طائفة من احتجاجات الإمامين سيّدي شباب أهل الجنّة وريحانتي الرّسول الحسن والحسين عليهما السلام، وغيرهما من كبار الصحابة والتابعين على معاوية بن أبي سفيان، وما تكلّم القوم بها معاوية من مساوىء أفعاله أكثر من أن تحصى وإنّما نقلنا نبذة منها فإنّ القليل ينبىء عن الكثير.

وفيما نقلناها مواقع للتدبّر والاستبصار في أمر معاوية وأشياعه وأتباعه كيف لعبوا بالقرآن، ورفعوا راية البغي والطغيان فاتّخذوا دين الله دغلاً، ومال الله دُوَلاً، وعباده خولاً والصّالحين حرباً، والفاسقين حزباً، وقد قال السيوطي في **«تاريخ الخلفاء»** إنّه أخرج السلفي في الطيوريات عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال سألت عن عليّ عليه السلام ومعاوية، فقال: اعلم أنّ عليًا كان كثير الأعداء ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا فجاؤوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له.

فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ويذرون طيباً من القول ويأخذون خبيثاً فبعداً للمفترين وسحقاً للممترين ربّ نعوذ بك من أماني الأنفس وشرورها.

إشارة: قد احتجّ صعصعة على معاوية بأنّ الطّليق لا يصلح للخلافة، وهذا حقّ وصعصعة رضوان الله عليه قد استنار من ضياء القرآن، واقتبس من مشكاة النبوّة والولاية وذلك لأنّ الطّلقاء كانوا مشركين قبل الإسلام وعبدوا الأصنام وقد قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٤] وقال الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١١٩] والخلافة عهد الله تعالى فلا يناله الطّلقاء، وتقدّم بحثنا عن ذلك في **«شرح المختار»** ٢٣٧ من باب الخطب فراجع (ص ٤٩ ـ ٥٩ ج ١٦).

الترجمة

نصر بن مزاحم منقری کوفی در کتاب صفّین و دیگر ارباب تاریخ آورده اند که امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) روزی در صفین اظهار داشت که فردا به انبوه لشکرم فرمان کارزار دهم و به مقاتلت اقدام نمایم تا کار را یکسره کرده مردم را از جنگ و جوش رهایی داده، امر را به خاتمت رسانم. چون این خبر به معاویه رسید و در شامیان که پیروان او بودند پراکنده شد همگی سخت مضطرب شدند و فزعی تمام در آنها درگرفت.

و از آن سوی معاویة بن ضحاك نیز ابیاتی چند بسرود که بر فزوعشان افزود. معاویه در این خیال افتاد و در خاطر نهاد که نامه ای به امیر (عليه السلام)نویسد و از حضرتش به حیلت و خدیعت و مکر درخواست کند که ایالت شام را - که پیش از این هم از وی خواسته بود - بدو واگذار کند و وی را از بیعت معاف بدارد، باشد که از این درخواست دودلی در علی روی دهد و رقّتی بی اساس بهوی دست دهد که در دام فریب معاویه افتاده، دست از کارزار بردارد.

سپس مکنون خاطرش را به عمرو عاص مکشوف داشت عمرو از بلاهت وی بر عقلش بخندید و گفت: ای معاویه تو کجا تا توانی علی را فریب دهی؟

معاویه گفت: مگر من و او هر دو از دودمان عبدمناف نیستیم؟

گفت: آری ولی ایشان را رتبت و فضیلت نبوّت است و تو را نیست - یعنی امیر (عليه السلام)از مشکات نبوّت اقتباس معارف حقه الهیّه کرده است و هیچگاه اهل نبوّت و وحی گول مردم نخوردند، چه در تمام صفات انسانیّت از دیگران بهتر و برترند و در هوش و زیرکی سرور و سرآمد و بالاتر از همه هستند - و با این همه اگر خواهی نامه ای بنویسی بنویس (تا صدق گفتارم بر تو روشن آید).

معاویه نامه ای نوشت و عبدالله بن عقبه را که از قبیله سَکاسك بود با نامه به سوی امیر (عليه السلام)گسیل داشت، مضمون نامه اش اینکه:

امّا بعد اگر ما و شما می دانستیم که جنگ کار را بدین غایت و خونریزی را

بدین نهایت می رساند، هیچگاه به آن اقدام نمی کردیم ولکن نفوس هردو ما بر عقول ما غلبه کرد - یعنی به خواهش نفسانی و از روی هوا و هوس آتش جنگ برافروختیم و به فرمان خرد ساز جنگ نکردیم - و اکنون وقت آن هست که از گذشته پشیمان شویم و در پی اصلاح آینده برآییم.

و پیش از این از شما خواستم که ایالت شام را به من واگذار و از بیعت و طاعت معافم دار، ولی شما از خواسته من سرباز زدید و نپذیرفتید و آنچه را که از من بازداشتید خداوند به من عطا فرمود و اکنون نیز همان خواسته پیش را خواهانم که تو از بقا نخواهی مگر آنچه را که من خواهم و از فنا نمی ترسی مگر آن چه که من می ترسم. سوگند به خدا که لشکریان نابود شدند و مردان جنگی از بین رفتند و عرب طعمه جنگ گردید و نیم جانی بیش نمانده و ما و شما در جنگ و مردان جنگی برابریم و هردو از دودمان عبدمناف و یکی از ما بر دیگری برتری ندارد و اگر هم دارد نباید بدان ارجمندی را خوار و آزادی را بنده گرداند. والسلام.

چون عبدالله بن عقبه نامه را به امیر (عليه السلام) رسانید و حضرت آن را بگشود و قرائت فرمود بخندید و گفت: شگفتم می آید از معاویه و نامه او و خدیعت و مکری که خواهد با من به کار برد، پس کاتبش عبیدالله بن ابی رافع را پیش خواند و فرمود: پاسخ نامه اش بنویس:

امّا بعد این که گفته ای: "اگر می دانستیم کار جنگ بدین حدّ خواهد رسید هیچ یك به آن تن درنمی دادیم"، همانا که این جنگ را نهایت و سرانجامی است که هنوز بدان نرسیده ایم و اگر من در راه ذات حق هفتاد بار کشته و زنده شوم، از سخت گیری و کوشش در راه خدا و جهاد با دشمنان خدا برنخواهم گشت.

و اما آن که گفته ای: "هوای ما بر خرد ما چیره شد و اینك وقت آن است که از کرده پیش نادم و در راه اصلاح آینده باشیم" همانا که من از دایره فرمان خرد پای به در ننهادم و از کرده خود پشیمان نیستم.

اما این که "شام را از من طلب کرده ای"، همانا که من کسی نیستم که امروز بدهم به تو آن چه را که دیروز تو را از آن بازداشتم. چه در دیروز استحقاق آن نداشت و امروز هم بر آن حال باقی است . .

امّا این که گفته ای: "جنگ عرب را خورده و در چنگش نیم جانی بیش نمانده"، آگاه باش هرکه را حق درربود و خورده و سترده است رخت به دوزخ کشد.

امّا آن که گفته ای: "در جنگ و سپاه جنگی یکسانیم" درست نیست، چه تو به شك و تردید در کار خود استوارتر و گذرانده تر از من که به علم و یقینم نیستی و مردم شام در اکتساب دنیا حریص تر از مردم عراق در کسب آخرت نیستند.

امّا این که گفتی: "ما فرزندان عبدمنافیم"، آری همه ما فرزندان یك پدریم، ولی امیّه پدرجدّ تو به منزلت هاشم پدر جدّ من نیست و حرب جد تو به مرتبت عبدالمطّلب جد من نیست و ابوسفیان پدر تو به پایه ابوطالب پدر من نیست. چه بنی هاشم خانواده ای نجیب و دلسوز و مهربان و یکتاپرست بودند و در شرافت و اصالت سرآمد عرب و همواره ملجا و مأمن مردم، علاوه این که حاملین نور نبوّت و صدفهای در ولایت بودند، امّا بنی امیّه جز خونخواری و بیدادگری و نخوت و حبّ شهوت و دنیا پرستی نمی دانستند..

و مهاجر مانند طلیق نیست. مهاجر امیر (عليه السلام) که از مکّه به مدینه هجرت فرمود چنان که شرح آن به طور اجمال در شرح خطبه ٢٣٤ گفته شد ص١٢٦ - ١٦٧ ج ١٥ و طلیق یعنی آزادشده و رهاشده از قید اسارت، چون معاویه و پدرش و از این روی معاویه را طلیق ابن طلیق گویند..

و نه خالص پاکیزه نسب مانند بسته و چسبیده به قومی است. چون بنی امیّه از قریش نیستند، چون امیّه رومی بود و آزادشده عبد شمس بن عبد مناف و عرب او را به قاعده نسبت و محاورت ابن عبدالشمس گفتند. این ابن، یعنی پسرخوانده نه پسر حقیقی، لذا حضرت امیر (عليه السلام)امضاء نکرده که معاویه از عبد مناف است، بلکه در جوابش فرمود: "إنّا بنو اب واحد" چنانکه نصر در کتاب صفیّن روایت کرده بود. و نه صاحب حق مانند طرف دار باطل است و نه مؤمن مثل منافق مفسد ناپاك است، و چه بدفرزندی است فرزندی که گذشتگانش را که اهل جهنّمند تقلید و پیروی کند و راه آنان را پیش بگیرد. یعنی معاویه که گذشتگانش از کفر و شرك و نفاق در آتش دوزخ اند و او راه آنان را پیش گرفت..

و حال آن که بعد از این همه فضایل، در دست ما فضل نبوّت است. که هیچ

فضیلتی با آن برابری نمی کند ـ که بدان گردنکشان را خوار و بیچارگان را بلند گردانیدیم.

و چون خداوند عرب را دسته دسته به دینش درآورد و این امّت برخی به رضا و رغبت و برخی به بی میلی و کراهت اسلام آوردند، شما از کسانی بودید که یا به جهت طمع به دنیا و یا از ترس شمشیر داخل در دین شدید. علاوه آن هم در وقتی که سابقان به سبقت شان در دین رستگار شدند و هجرت کنندگانی که پیش از این بودند فضل و بزرگی را برده بودند، پس برای شیطان در خود بهره ای و بر خویشتن راهی قرار مده؛ والسّلام.

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة وهو المختار الثامن عشر من باب كتبه ورسائله عليه السلام

إِعْلَمْ أن الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ؛ فَحادِثْ أَهْلَها بالإِحْسانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ؛ وَقَدْ بَلَغَني تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَميم، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَني تَميم لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إلا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ في جاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنا رَحِماً ماسَّةً وَقَرابَةً خاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلى صِلَتِها، وَمَأْزُورُونَ عَلى قَطيعَتِها، فَارْبَعْ أَبَا الْعَبّاسِ - رَحِمَكَ اللَّهُ - فيما جَرىٰ عَلىٰ يَدِكَ وَلِسانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَإِنّا شَريكانِ في ذٰلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صالِحِ ظَنّي بِكَ، وَلا يَفيلَنَّ رَأْيي فيكَ، والسَّلامُ[1].

المصدر

روي أنَّ ابن عبّاس كان قد أضرَّ ببني تميم حين ولي البصرة من قبل عليّ عليه السلام لما عرفهم به من العداوة يوم الجمل لأنّهم كانوا من شيعة طلحة والزبير وعائشة فتنكّر عليهم وسمّاهم شيعة الجمل وأنصار عسكر وحزب الشيطان فاشتدَّ ذلك على نفر من شيعة عليّ عليه السلام من بني تميم منهم جارية بن قُدامة فكتب بذلك إلى عليّ عليه السلام يشكو ابن عبّاس فكتب عليه السلام إلى ابن عبّاس: «أمّا بعد فإنَّ خير النّاس عند الله أعملهم بطاعته فيما له وعليه، وأقولهم بالحقّ وإن كان مرًّا ألا وإنّه بالحقّ قامت السماوات والأرض فيما بين العباد فلتكن سريرتك فعلاً، وليكن حملك واحداً، وطريقتك مستقيمة واعلم أنَّ البصرة مهبط إبليس» - إلخ.

أقول: هكذا قال العالم الشارح البحراني قدّس سرُّه في شرحه على **«النهج»**، ونقل عنه المحدّث الجليل المجلسيّ رضوان الله عليه في ثامن **«البحار»** **(ص ٦٣٤ من الطبع الكمباني)** وأتى به الفاضل الهادي كاشف الغطا رحمة الله عليه في **«مستدرك نهج البلاغة»**، ومداركه، ولكن روى أبو الفضل نصر بن مزاحم المنقري الكوفيّ المتوفّى **(٢١٢ هـ ق)** في كتاب **«صفين»** **(ص ٥٧ من الطبع الناصري)** أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كتب إلى عبد الله بن عامر:

بسم اللّه الرَّحمٰن الرَّحيم من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عامر أمّا بعد، فإنَّ خير النّاس عند الله عزَّ وجلَّ أقومهم لله بالطّاعة فيما له وعليه، وأقولهم بالحقّ ولو كان مرًّا، فإنَّ الحقَّ به قامت السماوات والأرض ولتكن سريرتك كعلانيتك، وليكن حكمك

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٩٣ ح ٦٩٩، ونهج السعادة: ٥/ ١٧١ ح ١٤٥.

واحداً، وطريقتك مستقيمة، فإنَّ البصرة مهبط الشيطان فلا تفتحنَّ على يد أحدٍ منهم باباً لا نطيق سَدَّه نحن ولا أنت والسّلام[1].

اللغة

(مهبط) بكسر الباء كمجلس: موضع الهبوط، يقال: هبط هبوطاً من باب ضرب أي انحدر ونزل؛ قال عزَّ من قائل: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، **(ومغرس)** كمجلس أيضاً موضع الغرس، يقال: غرس الشجر غرساً من ذلك الباب أيضاً أي أثبته في الأرض، ويُبنى اسما الزّمان والمكان من الثلاثي الصّحيح المجرّد على وزن مَفْعِل بكسر **(العين)** إذا كانت عين مضارعه مكسورة، وعلى مفعَل بفتح **(العين)** إذا كانت عين المضارع مضمومة أو مفتوحة إلاّ إحدى عشرة لفظة أتت بكسر العين مع أنَّ مضارعها مضموم؛ فالضّابطة قائلة بأنَّ المهبط والمغرس على وزن مفعل بالكسر، ففتح العين فيهما كما اختاره الشيخ محمّد عبده ليس بصحيح، ونسختنا التي قوبلت على نسخة الرضي مشكولة بالكسر فيهما.

(حادث أهلها بالإحسان إليهم) أي تعاهدهم تعدهم به، قال ابن الأثير في «**النهاية**» في حديث الحسن: حادثوا هذه القلوب بذكر الله [فإنّها سريعة الدثور] أي اجلوها به واغسلوا الدرن عنها وتعاهدوها بذلك كما يحادث السيف بالصقال، ففي المقام أمره الأمير عليه السلام أن يجلو قلوب أهلها ويغسل درن الأحقاد والضّغائن ورين الوساوس المؤدية المؤدية عنها بصقال الإحسان وماء البرِّ. **(تنمّرك)** النمر سبع معروف أصغر من الأسد وأخبث وأجرأ منه وهو منقط الجلد نقطاً سوداً وبيضاً سمّي به للنُّمر التي فيه ومنه النمرة بفتح **(النون)** وكسر **(الميم)** وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب؛ وفي «**البيان والتبيين**» **(ص ٦٨ ج ٢)** أنَّ عمر بن الخطّاب سأل عمرو بن معديكرب عن سعد، قال: كيف أميركم؟ قال: خير أمير، نبطيٌّ في حبوته، عربيٌّ في نمرته، أسد في تامورته، يعدل في القضية، ويقسم بالسويّة، وينفر في السّريّة، وينقل إلينا حقّنا كما تنقل الذَّرّة؛ فقال عمر: لشدَّ ما تقارضتما الثناء.

والتنمّر: التشبّه بالنّمر إمّا في لبس ثوب من النمرة ونحوها يشبه جلده، وإمّا في التخلّق بأخلاقه، ويفيد كلا الوجهين قول عمرو بن معديكرب:

قومٌ إذا لبسوا الحَديـ ـدَ تنمّروا حلقاً وقدّا

وهذا البيت من أبيات له مذكورة في الحماسة **(الحماسة ٣٤)** يريد بالحديد حلقاً الدروع التي نسجت حلقتين حلقتين، وبالحديد قدّاً اليلب وهو شبه درع كان يُتّخذ من القدّ أي إنّهم إذا

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٤٠١، ووقعة صفين: ١٠٦.

لبسوا الحديد الدروع واليلب تشبّهوا بالنمر في أفعالهم في الحرب فيكون حلقاً وقدّاً كل واحد منهما بدلاً عن الحديد ويجوز أن يريد بتنمّروا أنهم تلوّنوا بألوان النمر لطول ثباتهم وملازمتهم الحديد، وعلى هذا الوجه يصحُّ أن يكون انتصاب حلقاً وقدّاً على التميز، ويروى خلقاً وقدّاً أي أنهم تشبّهوا بالنمر في أخلاقهم وخلقهم فيكون انتصابهما على التميز أيضاً، هذا ما ذكره المرزوقيُّ في شرح الحماسة؛ وقال الجوهريُّ في «**الصحاح**» في معنى البيت: أي تشبهوا بالنمر لاختلاف ألوان القدّ والحديد ولم يذكر الرواية الثانية.

ونقل الجوهريُّ عن الأصمعي قال: تنمّر له أي تنكّر له وتغيّر وأوعده لأنَّ النّمر لا تلقاه أبداً إلاّ غضبان.

وفي «**كنز اللّغة**»: تنمّر ـ ما نند پلنگ خشمناك شدن، ولبس فلان لفلان جلد النمر إذا تنكّر له وأظهر الحقد والغضب وقيل: كانت ملوك العرب إذا جلست لقتل إنسان لبست جلود النمور ثمّ أمرت بقتل من تريد قتله، ونقل الجاحظ في «**البيان والتبيين**» عن أبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني صاحب التفسير قال: سمعت يزيد بن المهلّب يخطب بواسط فقال: «يا أهل العراق، يا أهل السّبق والسّباق، ومكارم الأخلاق، إنَّ أهل الشام في أفواههم لقمة دسمة، زبّبت لها الأشداق، وقاموا لها على ساق، وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدال؛ فالبسوا لهم جلود النّمور».

(وغم) الوغم بالفتح فالسكون: الحرب والقتال والترة والذحل الثقيل والحقد الثابت في الصّدر، قال ابن الأثير المتوفّى «٦٠٦ هـ ق» في وغم من النهاية: وفي حديث عليّ عليه السلام: «إنَّ بني تميم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام» الوغم: الترة، وجمعها أوغام، ووغم عليه بالكسر أي حقد وتوغم إذا اغتاظ. انتهى.

(رحماً) قال الراغب في المفردات: الرّحم رحم المرأة منه استعير الرّحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة يقال: رَحِمٌ ورُحْمٌ، قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ انتهى، وفي «**الأساس**» للزّمخشري: وقعت النطفة في الرّحم «هو الذي يصوّركم في الأرحام» وهي منبت الولد ووعاؤه في البطن وبينهما رَحِمٌ ورُحْمٌ قال الهذلي:

ولم يك فظّا قاطعاً لقرابة ولكن وصولاً للقرابة ذا رُحم

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] وهي علاقة القرابة وسببها.

(مأزورون) من الوزر فأصله موزورون **(بالواو)** إلاّ أنه عليه السلام قال: مأزورون، طلباً للمطابقة بين مأجورين ومأزورين، ونحوه قوله عليه السلام لأشعث بن قيس **(إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور)** وسيأتي في الحكمة ٢٩١.

(اربع) (بالباء) الموحدة قال الجوهريُّ: ربع الرَّجل يربع - من باب منع - إذا وقف وتحبّس ومنه قولهم أربع على نفسك وأربع على ظلعك أي ارفق بنفسك وكفّ، وفي نسخة مخطوطة من النهج جاءت الكلمة **(بالتاء)** المثناة **(ارتع)** وكأنّها مصحّفة.

(لا يفيلنّ) فال رأيه يفيل فيالةً وفيولةً من باب ضرب أخطأ وضعف، وفيّل رأيه تفييلاً: قبّحه وضعّفه وخطّأه، ورجل فائل الرأي وفيل الرأى أي ضعيفة، قال أبو الفرج محمّد بن الحسين الكاتب:

واعلم أنّي فائل الرأي مخطىء ولكن قضاء لا أُطيق غِلابَه

الإعراب

«فحادث» **(الفاء)** فصيحة.

«وإنَّ بني تميم» **(الواو)** هنا واو الحال ولذا يجب أن تكسر انَّ في المقام لأنَّ وقوع **(إنّ)** بعد **(واو)** الحال من المواضع التسعة التي يجب كسرها كما تقرّر في النحو فراجع إلى شرح صدر الدِّين السيد علي خان الكبير على الصّمدية في النحو للشيخ البهائي العاملي قدّس سرُّهما، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال: ٦] وقال أبو البقاء يعيش بن عليّ في تفسيره **«التبيان في إعراب القرآن»**: **(الواو)** هنا - يعني في قوله تعالى وإنَّ فريقاً: للحال، وفي تفسير الجلالين، والنيسابوري، والبيضاوي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في موضع الحال أي كما أخرجك في حال كراهتهم.

«وإنّهم وإنَّ لهم» معطوفان على قوله **(وإنَّ بني تميم)**، «لم يسبقوا» على صيغة المجهول «ماسّة» صفة لقوله **(رحماً)** لأنّها مؤنثة، «فاربع» **(الفاء)** فصيحة والتقدير إذا كان حال البصرة وشأن بني تميم كذا فاربع، «أبا العباس» منصوب بالنداء وهو كنية لابن عبّاس، «رحمك الله» جملة معترضة، «فيما جرى» متعلّق بقوله اربع «من خير وشرّ» بيان لما، «فإنا شريكان» تعليل لقوله أربع «وكن» عطف على **(اربع)**، «والسلام» خبره محذوف أي والسلام عليك، أو والسّلام على من اتّبع الهدى، ونحوهما.

المعنى

كان ابن عبّاس عامل البصرة وخليفة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فيها بعد وقعة الجمل فإنّه عليه السلام لما أراد الخروج من البصرة بعد أن وضعت الحرب أوزارها استعمله واستخلفه عليها، وقد مضى تفصيل ذلك في شرحنا على المختار الثاني من كتبه عليه السلام **(ص ٩٥ ج ١٧)**،

وكان عامله عليها قبله عثمان بن حنيف.

والبصرة أحدثها المسلمون ومصّروها أيّام عمر بن الخطّاب، تفصيل ذلك مذكور في كتاب «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**» للمقدسي المعروف بالبشاري (**ص ١١٧ طبع ليدن**)، وأتى بأكثر منه تفصيلاً وشرحاً البلاذريُّ في كتابه «**فتوح البلدان**» (**ص ٣٤١ ـ ٣٧٠ طبع مصر ١٣٥٠ هـ ق**).

وهذا الكتاب بعض ما كتبه عليه السلام إلى ابن عبّاس وسيأتي نقله على صورته الكاملة.

قوله عليه السلام: (**اعلم أنَّ البصرة مهبط إبليس، ومغرس الفتن**) قد ذمّ عليه السلام البصرة وأهلها من قبل هذا الكتاب أيضاً حين أراد الخروج من البصرة بعد الجمل وقد أشرنا إلى الروايات الواردة فيه في شرحنا على المختار الثاني من كتبه (**ص ٨٦ ـ ٨٩ ج ١٧**)، وقوله عليه السلام (**أنها مهبط إبليس**) يحتمل وجوهاً:

منها: أن تكون فيه إشارة إلى قوله تعالى لإبليس: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤] وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]، بأنّ إبليس لمّا أخرج من الجنّة وهبط إلى الأرض كانت أرض البصرة مهبطه ولكنَّ الإنصاف أنَّ الكلام يأبى عنه هذا الوجه، وكلمة مهبط لا تدلّ عليه لأنّها أعمّ من ذلك وقد قال تعالى لقوم موسى عليه السلام: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: ٦٠] وفي «**الأساس**» للزّمخشريّ: هبط من بلد إلى بلد، فالمهبط يأتي بمعنى موضع الورود والنزول ولا يعتبر فيه الانحدار من عالٍ إلى سافلٍ مطلقاً، ثم إنَّ الهبوط إذا استعمل في الإنسان وإبليس ففيه نوع استخفاف بخلاف الإنزال فإنَّ الله تعالى ذكر الإنزال في الأشياء التي نبّه على شرفها كإنزال الملائكة والقرآن والمطر وغير ذلك، والهبط ذكر حيث نبّه على الغضّ نحو: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾، فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها، اهبطوا مصراً؛ أفاده الراغب في المفردات.

ومنها: أن تكون فيه إشارة إلى أنَّ البصرة قرية بعيدة عن العلماء والقراء ولم تكن مدنية فاضلة وإلا لم تكن مهبطه وذلك لأن العلماء حصون كحصون سور المدينة لها.

ومنها: أن تكون فيه إشارة إلى أنَّ البصرة موطن ومحلّ له بأن تكون لها خواصّ أوجبت له أن يتّخذها موطناً له، وقد مضى في شرح المختار الثاني من باب الكتب قول الأمير عليه السلام فيها: «الحمد لله الذي أخرجني من أخبث البلاد وأخشنها تراباً، وأسرعها خراباً، وأقربها من الماء، وأبعدها من السماء، بها مغيض الماء وبها تسعة أعشار الشرّ، وهي مسكن الجنّ ـ إلخ» (**ص ٨٨ ج ١٧**) وكان إبليس من الجنّ كما مضى البحث عن ذلك في شرح المختار الثامن من باب الكتب (**ص ٢٨٦ ـ ٢٩٥ ج ١٧**) ولمّا كان إبليس وقبيله

وجنوده اتّخذوها موطناً لهم فهي مهبطهم ومغرس الفتن.

ومنها: أن تكون فيه إشارة إلى أنّها مهبط قوم تعلّق إبليس بهم فغرسوا أُصول الفتن في أراضي قلوبهم، ويذروا حبوب آراءٍ رديّة فيها حتّى أثمرت ما أثمرت، ففيه إشارة إلى هبوط جند المرأة وأتباع البهيمة فيها، وإذا تأمّلت فيما جرى على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام منذ خلافته الظاهرية إلى شهادته كلّها مولّدة من هبوط القوم في البصرة فإنّه أثار فتنة الجمل، وهي ولّدت وقعة صفّين، وهي ولّدت وقعة نهروان، وهي ولّدت أمر شهادته عليه السلام فهم غرسوا بهبوطهم فيها شجرة خبيثة أثمرت هذه الثمار السوء فكانت البصرة لذلك مهبط إبليس ومغرس الفتن.

قوله عليه السلام **(فحادث أهلها - إلى قوله: عن قلوبهم)** **(الفاء)** فصيحة كما مرَّ أي إذا كانت البصرة حالها كذا فحادث أهلها - إلخ ومن **(الفاء)** هذه، ومن قوله واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم يستفاد أنَّ أهل البصرة لم يكونوا بعد آمنين، بل كانوا خائفين، وكانوا يتربّصون بهم ريب المنون، بل يستفاد من قوله أنّها مهبط إبليس ومغرس الفتن، ومن تفريع حادث أهلها عليه ذلك أيضاً فأُسلوب الكلام يدلّ على اضطراب أوضاعها واحتمال إثارة فتنة فيها، وإقبال وقائع هائلة على أهلها ولذلك أمر الأمير عليه السلام ابن عبّاس بالإحسان إليهم وإزالة الخوف عنهم لئلا تحدث فتنة.

ثمَّ إنَّ قوله هذا في البصرة ذمّ على أهلها أيضاً فإنّه يدلّ على اتّباعهم إبليس بخروجهم عن حكومة سلطان العقل، وعلى أنّهم أهل شقاق ونفاق، وعلى أنَّ فيهم أهل التفتين وحزب الشيطان.

قوله عليه السلام **(وإنَّ بني تميم لم يغب لهم نجم إلاّ طلع لهم آخر)** النجم كثيراً ما يراد به في لغة العرب سيّد القوم ومقتداهم والمشهور من النّاس من حيث إنّهم يقتدون ويهتدون به وقال حسّان بن ثابت في قصيدة يذكر فيها عدّة أصحاب اللّواء يوم أُحد:

تسعةٌ تحمل اللّواء وطارت ... في رَعاع من القنا مخزوم

إلى أن قال:

لم تُطِق حمله العواتق منهم ... إنّما يحمل اللّواءَ النُّجوم

أي إنّما يحمله الأشراف المشاهير من النّاس، والقصيدة مذكورة في **«السيرة النبويّة»** لابن هشام **(ص ١٤٩ ج ٢ طبع مصر ١٣٧٥ هـ)**، وأتى الجاحظ في **«البيان والتبين»** أبياتاً منها **(ص ٣٢٥ ج ٢ طبع مصر ١٣٨٠ هـ)**، وفي ديوان لحسان، ولمّا استعار كلمة النجم لهذا المعنى رشّح بمناسبة ظاهر اللّفظ بقوله لم يغب وطلع، والمعنى كيف يجوز لنا التنمّر لهم

والغلظة عليهم والحال أنّ لهم هذه الخصال الثلاث:

أحدها: أنّه لم يمت منهم سيّد إلاّ قام لهم آخر منهم مقامه، وكأنّما يريد عليه السلام أنّ لهم سيّداً مطاعاً وأميراً خيّراً مدبّراً يجمع شمل أمورهم ويلمّ شعث آرائهم وأهوائهم، وينقذهم من المهالك، ويمنعهم عن الهوى فيما يوجب شينهم، وهذا التدبير والاتّحاد والاقتداء بقدوة كذا كان لهم في كلّ دورة فلا ينبغي التنمّر على قوم هذا شأنهم.

والثّاني: أنّهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام يعني بهذه الجملة أنّهم كانوا أهل بأس وقوّة وشجاعة وحميّةٍ في الجاهلية والإسلام ويناسبه معنى التميم لغة فإنّه بمعنى الشديد كما في «**نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**» للقلقشندي، فلا ينبغي التنمّر والغلظة على طائفة بلغوا في البأس والقوّة هذه المرتبة أمّا معناها المطابقيّ فالأولى أن يحمل الوغم على الحقد والغيظ لأنّه يناسب المقام وأسلوب الكلام وذلك لأنّ ابن عبّاس ـ كما دريت ـ إنّما تنكّر عليهم باتّباعهم الناكثين ويسمّيهم حزب الشيطان وشيعة الجمل وأنصار عسكر لذلك أوجب عملهم هذا حقداً في صدر ابن عبّاس وكأنّه كان يسمّيهم بها تشفّياً من غيظه، ويتنكّر عليهم انتقاماً منهم بفعلهم المنكر فنهاه الأمير عليه السلام عن ذلك وعرّف له بني تميم بأنّهم لم يسبقوا بوغم في جاهليّة ولا إسلام، أي لم يسبقهم أحد كان له حقد وغيظ عليهم فيتنكّر ويغلظ عليهم تشفّياً منهم ونكايةً فيهم لقوّتهم وقهرهم، هذا هو الوجه الذي ينبغي أن يختار في هذه الجملة في المقام.

وأمكن أن يفسّر بوجوه أُخرى: منها أن يقال: لم يسبقهم أحد بحقد لهم عليه لأنّهم لعلوّ همّتهم وشرافة نفوسهم لا يهتمّون بأذى غيرهم وإساءته عليهم ولذلك لم يكن في قلوبهم ضغن وعداوة على أحدٍ.

ومنها: أن يفسّر (**الوغم**) بالترة فقال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: الموتور الذي قُتِل له قتيلٌ فلم يُدرك بدمه تقول منه وتره يتره وتراً وترة، وكذلك وتره حقّه أي نقصه وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي لن يتنقّصكم في أعمالكم كما تقول دخلت البيت وأنت تريد دخلت في البيت، انتهى؛ فالمعنى أنّ بني تميم لم يهدر لهم دم، ولم ينقص أحد حقّهم.

ومنها: أن يفسّر (**الوغم**) بالحرب والقتال كقول شقيق بن سليك الأسدي يقول معتذراً إلى أبي أنس الضحّاك بن قيس بن خالد الشيباني الفهري (**الحماسة ٢٦١**):

أتاني عن أبي أنسٍ وعيدٌ ... فسُلَّ لغيظة الضحّاك جسمي

ولم أعصِ الأمير ولم أربه ... ولم أسبق أبا أنسٍ بوغمِ

وقول شقيق يشابه قول أبي دلامة زند بن الجون شهد مع روح بن حاتم المهلّبيّ الحرب

فقال له روح: تقدَّم وقاتل فقال أبو دلامة:

إنّي أعوذ بروح أن يقدّمني إلى البراز[1] فتخزى بي بنو أسد
إنَّ البراز إلى الأقران أعلمه مما يفرّق بين الرّوح والجسد

إلى آخر الأبيات المذكورة في «**الأغاني**» (**ص ١١٩ ج ٩ طبع ساسي في أخبار أبي دلامة**) وفي «**عيون الأخبار**» (ص ١٦٤ ج ١) وفي شرح المرزوقيّ على الحماسة (ص ٧٧٨ ج ٢).

الثالث: أنَّ لهم بنا - أي ببني هاشم - رحماً ماسّة وقرابة خاصّة لأنَّ نسب كلّ واحد من بني هاشم وبني تميم ينتهي إلى إلياس بن مضر: لأنَّ هاشماً هو ابن عبد مناف بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النّضر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضَر، كما في «**السيرة النبوية**» لابن هشام؛ وتميماً هو ابن مرّ بن أُد بن طابخة بن إلياس بن مضر، كما في «**نهاية الأرب في معرفة العرب**» للقلقشنديّ.

ويمكن أن تكون فيه إشارة إلى مصاهرة كانت بين الأمير عليه السلام وبين بني تميم فإنَّ إحدى زوجاته كانت ليلى بنت مسعود الحنظلية من بني تميم وولّدت له عبيد الله وأبا بكر كما في تاريخ اليعقوبي (**ص ١٨٩ ج ٢**).

ثمَّ إنّه عليه السلام أكّد مراعاة حقِّ الرَّحم بقوله: نحن مأجورون على صلتها ومأزورون على قطيعتها، وقد قال عزّ من قائل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٥].

قوله عليه السلام: (**فاربع - إلخ**) قد تقدَّم في الإعراب أنَّ (**الفاء**) فصيحة متفرَّعة على جميع ما تقدَّم من هذا الكتاب أي إذا كانت البصرة مهبط إبليس ومغرس الفتن وكانت منزلة بني تميم كذا فقف وتثبّت وارفق فيما يجري على لسانك ويدك من خير وشرّ ونافع وضارّ، ولا تعجل به، أمره أن يدارى مع الرّعية في أقواله وأفعاله فإنّ ما يجري على اللّسان واليد كناية عنهما، وسمّى ابن عبّاس بكنيته أبي العبّاس تكريماً له والعرب يقصد بها التعظيم وبعض النفوس تأنّف أن تخاطب باسمها.

قوله عليه السلام: (**فإنا شريكان في ذلك**) علّل التثبّت بقوله هذا، أي اربع وتثبّت فيما يجري على يدك ولسانك لأنّا شريكان في ذلك أي أنا وأنت شريكان في ما جرى على يدك ولسانك، وإنّما كان الأمير عليه السلام شريكه فيه لأنّه كان سبباً بعيداً فيما جرى على يد ابن عبّاس ولسانه وهو

---

(١) في نسخة: القتال.

كان نائباً عنه وسبباً قريباً في أفعاله وأقواله وكلّ ما صنع بالرّعية فإنما هو باتّكائه عليه عليه السلام وإلاّ لما كان له مكنة وقدرة على ذلك.

ثمَّ إنَّ قوله هذا يهدينا إلى حقيقة أُخرى وهي أنَّ الفرد الإنسانيّ لمّا كان بمنزلة عضو من هيكل اجتماعه ولم يكن تعيّشه مرتبطاً لشخصه خاصّة بل يؤثّر أثراً من جنس فعله وقوله في الاجتماع فكلّ ما صدر عن يده ولسانه وله بقاء في الاجتماع ويعمل به غيره ولو بعد مماته فهو شريك العامل في ذلك الأثر الصادر منه قال عزَّ من قائل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الصافات: ٧٩، ٨٠].

وفي «**البحار**» (**ص ١٨١ من الجزء الثاني من ج ١٥**) نقلاً عن «**ثواب الأعمال**» للصّدوق رحمه الله بإسناده عن ميمون القدّاح عن أبي جعفر عليه السلام قال: أيّما عبد من عباد الله سنَّ سنّة هدى كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك من غير أن ينقص من أُجورهم شيء، وأيّما عبد من عباد الله سنَّ سنّة ضلالة كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء[1].

وقد عقد المجلسيّ باباً في ذلك روى فيه عدَّة رواياتٍ عن أهل بيت رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين قريبة بهذا المضمون كلّها تشير إلى هذه الحقيقة.

وقد روى في المجلّد السابع عشر (**ص ١٨٨**) عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: لا يتكلّم أحد بكلمة هدى فيؤخذ بها إلاّ كان له مثل أجر من أخذ بها، ولا يتكلّم بكلمة ضلالة فيؤخذ بها إلاّ كان عليه مثل وزر من أخذ بها[2].

قوله عليه السلام (**وكن عند صالح ظني بك**) أي كن مراقباً لنفسك في ما يجري على يدك ولسانك بحيث إنّك ترى نفسك حاضرةً عند صالح ظنّي بك فانظر فيما تفعل وتقول هل هو مرضيٌّ عندي أم لا؟ فإذا رأيت رضاي فيه فافعل.

قوله عليه السلام: (**ولا يفيلنَّ رأيي فيك**) لمّا استعمله الأمير عليه السلام على البصرة، واستصلحه لذلك وكان ابن عبّاس ممّن يثق الأمير عليه السلام به وإلاّ لما كان يستخلفه على البصرة نبّهه على أن لا يعمل ما يوجب سلب وثوقه به وضعف رأيه فيه.

---

(١) ثواب الأعمال: ١٣٢، ووسائل الشيعة: ١٦/ ١٧٤.

(٢) تحف العقول: ٣٧٥، وبحار الأنوار: ٧٥/ ٢٦٠ ح ١٥٣.

الترجمة

این نامه ای است که ولیّ الله الاعظم امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) به عبدالله بن عبّاس که عامل و حاکم آن حضرت بر اهل بصره بود فرستاد.

در روایت آمده که ابن عبّاس در بصره بر بنی تمیم درشتی و بدخویی می کرد و آنان را پیروان جمل و یاران عسکر. که نام شتر عائشه بود. و حزب شیطان می نامید، از آن روی که بنی تمیم در جنگ جمل از طرفداران و اتباع طلحه و زبیر و عائشه بودند.

این رفتار ابن عبّاس بر گروهی از بنی تمیم که از شیعیان امیر (عليه السلام) بودند و از جمله آنان جارية بن قدامه بود گران آمد، نامه ای به امیر نوشته و از دست ابن عبّاس شکایت کردند، امیر (عليه السلام) این نامه را به ابن عبّاس نوشت:

امّا بعد بهترین مردم در نزد خدا آن کسی است که به طاعت او. خواه در آن چه به سود او است و خواه در آن چه که به زیان او است. عمل کننده تر باشد و به گفتار حق اگرچه برای او ناگوار و تلخ باشد گویاتر. آگاه باش که آسمانها و زمین به حق و عدل برای بندگان برپا است، پس مطابق اندیشه ات کردار داشته باش و با همه یکسان باش و راه راست پیش گیر و بدان که بصره فرودگاه شیطان و جای نشانیدن درخت فتنه است، پس اهل آن را وعده به احسان و نیکی ده. یعنی با آنان احسان و نیکی کن و به بخشش و دستگیری آنان را دلشاد دار. و گره بیم از دلشان بگشا.

به من خبر رسید که با بنی تمیم پلنگ خویی و درشتی روا می داری، با این که بنی تمیم کسانی هستند که ستاره ای از ایشان غروب نکرد مگر این که دیگری از ایشان طلوع کرد. یعنی آنان همیشه دارای بزرگی پیشوا و از اهل شرف و کرامت بودند. و کسی بر ایشان، چه در زمان جاهلیت و چه در اسلام سبقت نگرفته که به کینه توزی و خشم گرفتن و دشمنی بر آنان سخت گیرد و درشتی کند، (یعنی آنان مردم شجاعت و حمیّت و قوّت و نبرد بودند) و ایشان را با ما رحامتی پیوسته و

خویشی خاصّی است، (جدّ اعلای بنی هاشم و بنی تمیم الیاس بن مضر است. و دیگر این که امیر (علیه السلام)با بنی تمیم رحامت به مصاهرت داشت) که به صله رحم پاداش خوب یابیم و به قطع آن کیفر بد؛ پس ای ابوالعبّاس. خدا رحمتت کند. در نیك و بدی که از دست و زبانت جاری می شود آهستگی کن و تأنّی و رفق پیشه گیر و هموار باش و با رعیت مدارا کن که من و تو در نیك و بد تو شریکیم (زیرا ابن عبّاس عامل آن حضرت بود و آن چه می کرد به اتّکاء و اعتماد و پشت گرمی به او بود و امیر (علیه السلام) سبب بعید در کارهای او است، چنان که ابن عبّاس سبب قریب و هردو در آنها شریك) و باش در نزد گمان شایسته من به تو و باید رای من درباره تو سست نگردد؛ والسلام.

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله
وهو المختار التاسع عشر من باب كتبه ورسائله

أَمّا بَعْدُ فَإِنَّ دَهاقِينَ أهلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ قَسْوَةً وغِلْظَةً وَاحْتِقاراً وَجَفْوَةً؛ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أرَهُمْ أَهْلاً لأنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِم، ولا أنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ؛ فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْباباً مِنَ اللّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَداوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ والرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ والادْناءِ، والابعادِ والاقْصاء إنْ شاءَ اللّهُ[1].

المصدر

قال اليعقوبيّ في تاريخه (**ص ١٧٩ ح ٢ طبع النجف**): كتب عليٌّ عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة الأرحبي: أمّا بعد فإنَّ دهاقين عملك شكوا غلظة، ونظرت في أمرهم فما رأيت خيراً فلتكن منزلتك بين منزلتين جلباب لين بطرف من الشدَّة في غير ظلم ولا نقص، فإن هم أجابونا صاغرين فخذ مالك عندهم وهم صاغرون، ولا تتّخذ من دون الله وليّاً فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨]؛ وقال جلَّ وعزَّ في أهل الكتاب: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ وقال جلَّ وعزَّ في أهل الكتاب: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ وقرّعهم بخراجهم وقاتل من ورائهم، وإيّاك ودماءهم والسلام. انتهى.

الظاهر أنّهما كتاب واحد نقل الرّضي طائفة منه في النهج على ما هو دابه من التقاط الفصيح من كلامه عليه السلام ورفض ما عداه، ونقل اليعقوبيّ طائفة أخرى منه في تاريخه، إلاّ أنَّ صدره روي بروايتين مختلفتين في الجملة، ويؤيّده ما في شرح الفاضل البحراني من أنَّ المنقول أنَّ هؤلاء الدهاقين كانوا مجوساً فإنَّ الأمير عليه السلام أمّره على فارس وعلى البحرين كما في «**الاستيعاب**» و«**أسد الغابة**» فهذا الكتاب إنّما كتبه إليه لما كان عامله على فارس لأنّهم كانوا مجوساً يعبدون النّار، وهذا القول لا ينافي قول الأمير عليه السلام: (**وقال جلَّ وعزَّ في أهل الكتاب**) - إلخ؛ لأنّهم كانوا أهل كتاب لما مرّ في ذلك خبر مرويّ عنه عليه السلام من كتاب التوحيد للصّدوق قدّس سرّه حيث قال الأشعث بن قيس للأمير عليه السلام: يا أمير المؤمنين كيف يؤخذ من المجوس الجزية ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث إليهم نبيّ؟ قال: (**بلى يا أشعث قد أنزل الله عليهم كتاباً وبعث إليهم رسولاً**) - إلخ؛ فراجع إلى شرحنا على المختار الثامن من باب الكتب والرسائل (**ص ٣١٢ ج ١٧**).

(١) نهج البلاغة: ٣/ ١٩، ونهج السعادة: ٥/ ٢٩.

ثمَّ إنَّ العامل المذكور قد عرِّف في الكتب الرجاليّة بأبي حفص عمر بن أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله أمّه أُمُّ سلمة هند المخزومية زوج النبيّ صلى الله عليه وآله وشهد مع عليّ عليه السلام الجمل واستعمله على البحرين وعلى فارس وتوفّي بالمدينة أيّام عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وثمانين كما في «**الاستيعاب**» و«**الإصابة**» و«**أسد الغابة**».

وقد يأتي كتاب آخر من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إليه المعنون بقول الرَّضي ومن كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي وكان عامله على البحرين - إلخ، وهو الكتاب الثاني والأربعون، ولا تنافي ظاهراً بين قولهم بكونه مخزوميّاً وبين قول اليعقوبي بكونه أرحبيّاً لأنّه يمكن أن يكون من المخزومي ثمَّ أحد أرحب بن دُعام من همدان، ولم يذكر في الكتب الرّجالية عمر بن أبي سلمة غيره إلاّ عمر بن أبي سلمة بن عبد الرَّحمٰن بن عوف الزّهري قاضي المدينة ولكن لم يقل أحد بأنَّ الأمير عليه السلام أمّره على بلد أو قرية أو طائفة؛ على أنّه قتل بالشام سنة اثنتين وثلاثين مع بني أميّة كما في «**التقريب**» لابن حجر وقد كانت أمارة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من سنة خمس وثلاثين.

وقد ذكر ابن سعد في «**الطبقات الكبرى**» (**ص ١٧١ ج ٦ طبع بيروت**) عمرو بن سلمة بن عميرة الهمداني الأرحبي وقال: أنّه روى عن عليّ عليه السلام وعبد الله وكان شريفاً، ولكن الأمير عليه السلام لم يستعمله، ثمَّ أين هو وعمر بن أبي سلمة فالظنّ القويّ المتاخم بالعلم بالفحص والطلب حاصل لنا بأنَّ عمر بن أبي سلمة الأرحبيّ هو عمر بن أبي سلمة المخزومي والكتابان واحد. والله هو العالم.

ثم قد عثرنا في هذه الأيّام والأوان على كتابين أحدهما مترجم بمستدرك «**نهج البلاغة**» ومداركه لمؤلّفه العالم المتضلّع: أحمد زكي صفوت، أمّا الأوّل فقد خصّص للنّهج خاصّة وقد أتى بمدارك كثير من خطب النهج ورسائله وحكمه، وأمّا الثاني فموضوعه عامّ إلاّ أنّه ذكر فيه كتباً ورسائل كثيرة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام مع الإشارة إلى مآخذه ومصادره غالباً من غير النهج أيضاً؛ ولعمري إنّهما قد بذلا الجهد في تأليفهما وأجادا وأفادا، إنَّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولكن مصدر هذا الكتاب لأمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض عمّاله، والذي قبله إلى عبد الله بن عبّاس ليس بمذكورٍ فيهما.

وليعلم أنّا - لله الحمد - قد وفّقنا بالعثور على كثير من مصادر ما في النهج، وخطب ورسائل وحكم للأمير عليه السلام بطرق عديدة وأسانيد كثيرة من الجوامع الروائية التي ألّفها قبل الرَّضي علماؤنا الأقدمون، وهي تزيد على ما في الكتابين المذكورين بأضعاف مضاعفة.

اللغة

(دهاقين) بفتح **(الدال)** جمع دهقان بكسرها، فارسي معرّب أصله دهگان مخفّف ديهيگان ففي برهان قاطع: دهگان با كاف پارسى بر وزن ومعنى دهقان است كه زراعت كننده ومزارع باشد ودهقان معرّب آنست، ومردم تاريخي وتاريخ دان رانيز گفته اند. انتهى. وكثيراً ما تستعمل في الفارسيّة على صورتها المعرّبة قال الشاعر:

دهقان سالخورده چه خوش گفت باپسر   كاى نور چشم من بجز از كشته ندروى

وفي **«البيان والتبيين»** للجاحظ **(ص ٣٤٥ ج ٣)** قال فتى طيّبٌ من ولد يقطين:

ربَّ عُقارٍ باذرَنْجيَةٍ   اصطَبَحْتُها من بيت دِهقانْ

قال ابن الأثير في **«النهاية»**: في حديث حذيفة أنه استسقى ماء فأتاه دهقان بماء في إناء من فضّة، الدهقان بكسر **(الدال)** وضمّها: رئيس القرية، ومقدم النساء، وأصحاب الزراعة؛ وهو معرّب **(ونونه)** أصلية كقولهم تدهقن الرجل وله دهقنة موضع كذا؛ وقيل: **(النون)** زائدة وهو من الدهق الامتلاء ومنه حديث عليّ عليه السلام أهداها إليَّ دهقان. انتهى.

أقول: قوله الدهقان بكسر (الدال) وضمّها مبنيٌّ على أصلهم في التعريب: عجميٌّ فالعب به ما شئت، وإلاّ فأصله بكسر (الدال)، وتفسيره برئيس القرية مبنيّ على أصل الكلمة فإنها مركبة من **(ده وگان)** وأحد معاني **(گان)** في الفارسية: الأمير والرئيس والملك وقد تطلق على الملك الظالم.

وقال الفيّومي في **«المصباح»**: الدهقان معرب: يطلق على رئيس القرية وعلى التاجر وعلى من له مال وعقار، **(وداله)** مكسورة؛ وفي لغة تضمّ والجمع دهاقين ودهقن الرّجل وتدهقن كثر ماله. انتهى.

(قسوة) قسا قلبه يقسو من باب نصر قَسْوَةً: صلب وغلظ فهو قاسٍ وقسيٌّ فالقسوة: غِلَظ القلب، قال الراغب في المفردات: أصله من حجر قاسٍ، والمقاساة معالجة ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ [البقرة: ٧٤] ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣] ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] وقرىء قسيّة أي ليست قلوبهم بخالصة من قولهم درهمٌ قسيٌّ وهو جنس من الفضة المغشوشة فيه قساوة أي صلابة، قال الشاعر: صاح القسيّات في أيدي الصّياريف.

(الغِلظة) بتثليث الغين: الخشونة وضدّ الرّقة، قال الراغب: أصله أن يستعمل في الأجسام لكن قد يستعار للمعاني كالكبير والكثير، قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وقال: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وقال: ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾.

(**جفوة**) تقول: جفوتُه أجفُوه جَفوةً وجفاءً أي فعلت به ما ساءه ويقال على المجاز: أصابته جفوة الزّمان وجفاوته كما في «**الأساس**» والجفاء خلاف البرّ كما في «**الصحاح**»، والجفوة: ضدُّ المواصلة والمؤانسة كما في الأقرب.

(**يُدنوا**) من الإدناء، يقال: أدنى الشيء إذا قرّبه إليه كثيراً، ومنه قولهم: دخلت على الأمير فرحّب بي وأدنى مجلسي.

(**يقصوا**) من الإقصاء خلاف الإدناء أي الإبعاد، يقال: أقصاه عنه إقصاءً أي أبعده عنه كثيراً.

(**يجفوا**) من قولك جفوتُ الرّجل أجفوه جفاءً أي أعرضت عنه أو طردته فهو مجفوٌّ.

(**جلباباً**) قال في «**فتن البحار**» (ص ٦٣٣ ج ٨): الجِلباب: الإزار، والرّداء أو الملحفة، أو المقنعة. انتهى، وقال الفيّومي في «**المصباح**»: الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرّداء، وقال ابن الأعرابي: الجلباب إزار، وقال ابن فارس: الجلباب ما يغطى به من ثوب وغيره، والجمع جلابيب، وتجلببت المرأة لبست الجلباب، انتهى ما في «**المصباح**»، قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: الجلباب: الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً:

تمشي النُسور إليه وهي لاهيةً ... مشي العَذارى عليهنّ الجلابيب

والمصدر الجَلْبَبَة ولم تدغم لأنّها ملحقة، وفي «**منتهى الأرب في لغة العرب**»: جِلباب كسِرداب وسنمّار: پيراهن وچادر زنان، ومعجز يا چادری كه زنان لباس خودرا بدان از بالا بپوشند جلابيب جمع.

(**تشوبه**) أي تخلطه، يقال: شاب الشيء يشوبه شَوْباً وشِياباً من باب نصر أي خلطه، وفي المثل هو يشوب ويروب يضرب لمن يخلط في القول والعمل.

(**طرف**) بالتحريك طائفة من الشيء وقطعة منه؛ قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤] قال في «**الكشاف**»: ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر وهو ما كان من يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم.

(**داول**) أمر من المداولة، في القرآن الكريم: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٢٤] قال البيضاويُّ أي نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أُخرى كقوله:

فيوماً علينا ويوماً لنا ... ويوماً نساء ويوماً نسرّ

والمداولة كالمعاورة يقال: داولت الشيء بينهم فتداولوه، انتهى، دالت الأيّام أي

دارت، والله يداولها بين النّاس أي يديلها، والإدالة الإدارة، الماشي يداول بين قدميه أي يُرواح بينهما، وفي «البحار»: المداولة: المناوبة.

(الرأفة): الرحمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

(امزج) أمر من مزج الشيء بالشيء مَزْجاً ومِزاجاً إذا خلطه به، والإدناء أشدّ قرباً من التقريب، والإقصاء أكثر بعداً من الإبعاد.

الإعراب

(فلم أرهم) **(أر)**، فعل للمتكلّم وحده مجزوم بلم أصله أرأى من رأى يرأى لكنّ الهمزة هذه لا تستعمل في غير الماضي ويقال: يرى فالمتكلّم وحده أرى وإذا اسقطت لامه بالجازمة صار أرَ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ والأمر منه: رَ، رَيا، رَوْا، رَيْ، رَيا، رَيْنَ؛ وقد يستعمل غير الماضي على الأصل، والماضي على غير الأصل للضّرورة كقوله: ومن يتملّى العيش يرأى ويسمع، وقوله آخر: صاح هل رَيْتَ أو سمعت براعٍ.

(أهلاً) مفعول ثان لقوله **(لم أر)**، **(لأن)** الجار متعلّق بالأهل، **(لشركهم)** اللاّم للتعليل، وكذا لعهدهم، والأفعال الثلاثة منصوبة بحذف **(النون)** بأن، **(فالبس)** **(الفاء)** فصيحة أي إذا كان أمرهم على هذا المنوال من الشرك والعهد فالبس ـ إلخ جملة **(تشوبه...)** صفة لقوله جلباباً، **(داول)** معطوف على **(البس)** وكذلك **(امزج)**.

(إن شاء الله) متعلّق بكلّ واحدٍ من أفعال الأمر الثلاثة.

المعنى

تقدّم في المصدر أنّ عمر بن أبي سلمة كان أميراً على فارس من قبل أمير المؤمنين عليه السلام وكان أهل فارس يومئذ مشركين؛ وشكا أكابرهم وأرباب أملاكهم إلى أمير المؤمنين عليه السلام غلظته وخشونته عليهم واحتقاره واستصغاره إيّاهم فكتب عليه السلام إليه أن يسلك معهم مسلكاً متوسطاً بأن تكون منزلته معهم بين منزلتين جلباب لين بطرف من الشدّة فلا يدنيهم كلّ الدنوّ لأنّهم ليسوا لذلك أهلاً لكونهم مشركين ولا يبعدهم كلّ الإبعاد ولا يجفوهم لكونهم معاهدين، فإنّ معاملتهم بذلك النهج يمنعهم عن التمرّد والطغيان عن المعاهدة والذّمة، ويحفظ عظمة الدّين وصولته وقوّته في أعينهم، ويوجب تأليف قلوبهم ومراعاة شرائط المعاهدة في حقّهم وعدم خلل في انتظام أُمورهم.

وجعل عليه السلام الاتّصاف بهذا النهج الوسط جلباباً على التجسيم والتشبيه تصويراً له كقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢].

وكلامه هذا وزان ما قاله لمعقل بن قيس في الكتاب الثاني عشر: **(فقف من أصحابك وسطاً ولا تدن من القوم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم من يهاب البأس)**، ووزان قوله: **(الفقيه كلّ الفقيه من لم يقنط النّاس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يؤمنهم من مكر الله)**.

ثمَّ قيّد أوامره بالمشيّة إمّا تحريضاً له إلى العمل المطابق لأوامره، كأنّه قال أرجو منك أن تفعل بما أشرنا عليك؛ وإمّا تنبيهاً له على أنَّ ما أشرنا عليك من المماشاة معهم ومعاملتهم بذلك النحو إنّما يجب أن تكون على وجه يرضاه الله ويشاءه، كأنّه عليه السلام يقول: إنّي وإن كنت أمرتك بها ولكنّك تعاشرهم وتعيش فيهم وترى أحوالهم وأفعالهم فعليك بعمل معهم يحبّه الله ويرضاه وإمّا طلباً من الله تعالى المدد والتوفيق له بعمل ما أمره بها.

الترجمة

این نامه ای است که امیرالمؤمنین علی (عليه السلام) به عمر بن ابی سلمة که از جانب آن حضرت حاکم فارس بود نوشته است - و آن کتاب نوزدهم از باب کتب و رسائل نهج البلاغه است:

امّا بعد، دهقانان شهر تو از درشتی و سنگ دلی و خوار داشتن و بدی تو شکایت کرده اند، پس درباره شان نگریستم و اندیشه کردم، نه آنان را شایسته نزدیك گردانیدن دیدم، زیرا که مشرك اند و نه سزاوار دور گردانیدن و ترد کردن، از آن روی که با ایشان عهد بستیم و در ذمه ما هستند و چون امرشان بدین منوال است، پس بپوش بر ایشان جامه نرمی که پود آن پاره ای از درشتی باشد و روزگار را بر ایشان میان سخت دلی و مهربانی بگردان و بیامیز با ایشان میان نزدیك گردانیدن و به نهایت نزدیکی رساندن و میان دور ساختن و به غایت دور ساختن، اگر خدا بخواهد (یعنی با این همه چون تو نزدیکی و با آنها حشر داری و کارشان را از نزدیك می نگری، آن چنان با آنها رفتار کن که خدا بخواهد و مرضی او باشد).

ومن كتاب[1] له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبد الله بن العباس على البصرة (وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلى كور الاهواز وفارس وكرمان ـ نسخة) وهو المختار العشرون من باب الكتب والرسائل

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللّهِ قَسَماً لَئِنْ بَلَغَني أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمينَ شَيْئاً صَغيراً أَوْ كَبِيراً لأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَليلَ الْوَفْرِ، ثَقيلَ الظَّهْرِ، ضَئيلَ الأَمْرِ؛ والسَّلامُ[2].

المصدر

أتى بالكتاب ابن واضح الأخباري الكاتب المعروف باليعقوبي في تاريخه (**ص ١٨٠ ج ٢ طبع النجف ١٣٥٨ هـ ق**)، قال: كتب ـ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ـ إلى زياد وكان عامله على فارس: أمّا بعد، فإنَّ رسولي أخبرني بعجب، زعم أنّك قلت له فيما بينك وبينه إنَّ الأكراد هاجت بك فكسرت عليك كثيراً من الخراج وقلت له: لا تُعْلِم بذلك أمير المؤمنين؛ يا زياد وأُقسم بالله إنّك لكاذب ولئن لم تبعث بخراجك لأشدَّنَّ عليك شدَّة تدعك قليل الوفر، ثقيل الظهر؛ إلاّ أن تكون لما كسرت من الخراج محتملاً، انتهى.

والظّاهر أنّهما كتاب واحد روي على نسختين، وإن أمكن أن يكون كلّ واحد منهما كتاب على حياله.

اللغة

(**خنت**) مشتق من الخيانة بمعنى نقيض الأمانة، يقال: خانه في كذا يخونه خَوْناً وخِيانةً وخانةً ومَخانةً من باب نصر: إذا أؤتمن فلم ينصح، قال الراغب في المفردات: الخيانة والنّفاق واحد إلاّ أنَّ الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة، والنّفاق يقال اعتبارًا بالدِّين ثمّ يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، ونقيض الخيانة: الأمانة، يقال: خنتُ فلاناً وخنتُ أمانة فلانٍ وعلى ذلك قوله: ﴿**لا تخونوا الله والرَّسول وتخونوا أماناتكم**﴾.

(**فيء**) وقد تقدَّم معناه والفرق بينه وبين الغنيمة والأنفال على التفصيل في **«شرح المختار»** ٢٣٠ من باب الخطب (**ج ١٥ ص ٢٣**).

---

(١) في نسخة: كلام.

(٢) نهج البلاغة: ٣/ ١٩ ح ٢٠، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤٩٠.

(**لأشدَّنَّ عليك**) شدَّ على العدو شدّاً وشدَّة وشُدُوداً من بابي نصر وضرب أي حمل عليه؛ يقال: شدّوا عليهم شدّة صادقة. (**تدعك**) أي تتركك.

(**الوفر**) بالفتح فالسكون: المال الكثير الواسع، والغنى، واليسار؛ قال مالك بن الحارث الاشتر النخعي رضوان الله عليه (**الحماسة ٢٥**):

بقيت وفري وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجه عبوسِ

وقال آخر (**البيان والتبيين ص ٣٥٩ ج ٢**):

رأيت الناس لمّا قلّ مالي وأكثرتُ الغرامة وَدَّعوني

فلمّا أن غنيت وثابَ وفري إذاهم - لا أبا لك - راجعوني

(**الظهر**) خلاف البطن، وهو من الحيوان اعلاه ومن الإنسان من لدن مؤخر الكاهل إلى أدنى العجز، ومن الأرض ظاهرها يجمع على أظهُر وظُهور وظُهران.

(**ضئيل**) في «**النهاية**» لابن الأثير: في حديث إسرافيل وإنّه ليتضاءل من خشية الله، وفي رواية لعظمة الله أي يتصاغر تواضعاً له، ويقال: تضاءل الشيء إذا تقبض وانضمَّ بعضه إلى بعض فهو ضئيل أي نحيف دقيق حقير، وقال الطريحي في «**مجمع البحرين**»: ومثله حديث وصفه تعالى: هو إله يتضاءل له المتكبرون، وضؤل الشيء الهمز وزان قرب فهو ضئيل كقريب: صغير الجسم قليل اللّحم، انتهى. قال جوّاس الكلبيّ (**الحماسة ٦٣٢**):

وكنت إذا أشرفت في رأس رامة تضاءلت إنَّ الخائف المتضاءل

يقول: إنّك حينئذ متى أشرفت في رأس هذه الهضبة تخاشعت وتذلّلت لاستشعارك الخوف الشديد واستظهارك بالإتّقاء من أعدائك البليغ؛ والخائف هذا دأبه وعادته قاله المرزوقي في الشرح.

الإعراب

(**لإن**) (**اللاّم**) للإيذان وتسمّى (**اللاّم**) المؤذنة والموطّئة أيضاً وهي تؤذن من أوّل الأمر بأنّ الجواب بعدها مبنيٌّ على قسم قبلها لا على الشرط وسواء كان ذلك القسم مذكوراً كما نحن فيه أو مقدراً كقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٨] فقوله تعالى: ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ جواب قسم محذوف وسدّ مسدَّ جواب الشرط الذي هو «وإن لم ينتهوا». وكقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ

﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢﴾ [الحشر: ١١، ١٢] **(فاللاّم)** في **(لئن)** الأربعة للقسم وفي **(ليولنّ)** جواب القسم واستغنى به عن جواب الشرط في المواضع الخمسة.

(لأشدنّ) **(اللاّم)** لام جواب القسم نحو قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾، وفي سورة الأنبياء: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ وكلامه ﷺ كان وزان قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يس: ١٩] وهذا الجواب للقسم سدّ مسد جواب الشرط الذي هو: **(لئن بلغني)** فاستغنى به عن جواب الشرط.

وحرف **(إنْ)** في **(لإن)** من أداة الشرط، وجملة **(بلغني)** فعل الشرط، **(أنّك خنت)** - إلخ - مأوّل بالمصدر فاعل بلغني، **(شيئاً)** مفعول به لقول **(خنت)**، **(صغيراً وكبيراً)** صفتان له، جملة **(تدعك)** صفة للمصدر ويرجع ضمير الفعل إليه وكلّ واحد من قليل الوفر وأخويه حال للضمير المنصوب في **(تدعك)**، خبر **(السّلام)** محذوف أي والسلام على من اتّبع الهدى، أو السلام لأهله ككتبه الآتية.

المعنى

زياد بن أبيه هو زياد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أُمّية، ويقال زياد بن أبيه وزياد بن أُمّه وزياد بن سُمَيّة، وأمّه سميّة هي جارية الحارث بن كلدة وكان يطؤها بملك اليمين كما في **«الاستيعاب»** لابن عبد البرّ، و**«أسد الغابة»** لابن الأثير، و**«الإصابة»** لابن حجر.

كان يكنّى أبا المغيرة، ليست له صحبة ولا رواية وكان رجلاً عاقلاً في دنياه، داهية خطيباً له قدر وجلالة عند أهل الدُّنيا، كما في **«الاستيعاب»** وروى بإسناده عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال: بعث عمر بن الخطّاب زياداً في اصلاح فساد وقع باليمن فرجع من وجهه، وخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها فقال عمرو بن العاصي: أما والله لو كان هذا الغلام قرشيّاً لساق العرب بعصاه؛ فقال أبو سفيان: والله إنّي لأعرف الذي وضعه في رحم أُمّه، فقال له عليُّ بن أبي طالب: ومن هو يا أبا سفيان؟ قال: أنا - إلخ.

وقال: قال الشاعر:

زيـــاد لـــســـت أدري مـــن أبـــوه ولـــكـــن الـــحـــمـــار أبـــو زيـــاد

وقال ابن النديم في أوّل الفن الأول من المقالة الثالثة من **«الفهرست»** **(ص ١٣١ طبع مصر)**: قال محمّد بن إسحاق: قرأت بخطّ أبي الحسن ابن الكوفي أوّل من ألّف في المثالب كتاباً زياد بن أبيه فإنّه لما ظفر عليه وعلى نسبه عمل ذلك ودفعه إلى ولده وقال: استظهروا به على العرب فإنّهم يكفون عنكم، انتهى كلامه.

وقد روي أنَّ أوّل من دعاه ابن أبيه عائشة حين سئلت لمن يدعى وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في ذلك في «**شرح المختار**» ٤٤ من باب الكتب المعنون بقول الرّضي ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أنَّ معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه.

ثمَّ إنَّ ما جعلناه بين الهلالين في عنوان الكتاب ليس بمذكور في نسخة الرضي وكأنّه هامشة الحقت بالمتن.

وقال أبو جعفر الطبري في «**التاريخ**»: أمّر عليّ عليه السلام ابن عبّاس على البصرة وولّى زياداً الخراج وبيت المال، وأمر ابن عبّاس أن يسمع منه ـ إلى آخر ما تقدَّم في «**شرح المختار**» الثّاني من باب الكتب والرسائل (**ص ٩٦ ج ١٧**).

وقال ابن قتيبة في «**الإمامة والسياسة**» (**ص ٨٥ ج ١**): ذكروا أنَّ عليّاً لما صار من البصرة بعد فراغه من أصحاب الجمل استعمل عليها عبد الله بن عبّاس ـ وقال له: (**أُوصيك بتقوى الله**) ـ إلى أن قال: فلم يلبث عليٌّ عليه السلام حين قدم الكوفة وأراد المسير إلى الشام أن انضمّ إليه ابن عبّاس، واستعمل على البصرة زياد بن أبي سفيان.

وحاصل الفصل أنَّ الأمير عليه السلام لما اطّلع على أنَّ زياداً خان بيت المال وفيىء المسلمين كما في تاريخ اليعقوبي هدّده ورغّبه بأنّه إن لم يبعث إليه ما خان ليحملنَّ عليه حملة صادقة تدعه قليل المال بطرده عن المناصب، أو بأخذه ماله من يده تقاصّاً، وتدعه ثقيل الظهر بأعمال شاقّة وأمور مزمنة مفضحة لا يقدر بها على القيام والإرتقاء إلى معالي الأمور وكأنَّ من هذا القبيل قول سعد بن أبي وقاص في جواب معاوية:

فإنَّ الشرَّ أصغره كثير وإنَّ الظهر تثقله الدِّماء

أو يفقره على حدّ يصعب عليه مؤنة عياله فإنَّ كون ثقل الظهر كناية عن نحو هذا المعنى غير عزيز في محاوراتهم، ومنه حديث أمير المؤمنين عليه السلام: من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر بالغداء، وليجود الحذاء، وليخفّف الرِّداء، وليقلّ من مجامعة النساء؛ قيل: وما خفّة الرداء؟ قال: قلّة الدين[1]، ولكنّ إرادة هذا الوجه من كلامه هذا لا يخلو من بعد، فتأمّل.

أو تدعه ثقيل الظهر بأوزاره وآثامه أي على أنّه لا مال له ينتفع به، كانت عليه تبعاته وذنوبه فهو في الدُّنيا والآخرة من الخاسرين.

وتدعه ضئيل الأمر أي حقيراً خامل الذكر، دنيَّ المرتبة، لا منزلة ولا قدر له عند النّاس؛ لأنّه إنّما كان له شأن ونباهة بتولّيه معالي الأُمور من قبل الأمير عليه السلام فإذا عزله عن

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٥٥٥ ح ٤٩٠٢، ووسائل الشيعة: ٥/ ٦١ ح ٥٩١٤.

منصبه مع كونه قليل المال ومعروفاً بالخيانة فلا قدر له عندهم، بل لا يساوي فردا خامل الذكر لاشتهاره بالخيانة وعزله عن منصبه بخيانته.

الترجمة

این نامه ای است که امیرالمؤمنین علی (عليه السلام)به زیاد بن ابیه نوشت، در حالی که از طرف عبدالله بن عبّاس عامل امیرالمؤمنین (عليه السلام) بر بصره حکومت داشت:

و من سوگند راست به خدا یاد می کنم که اگر به من خبر رسد تو از غنیمت مسلمانان چیزی خرد یا بزرگ خیانت کرده ای چنان بر تو سخت بگیرم که کم مال و گران پشت و ناچیز بمانی؛ والسلام.

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً وهو المختار الحادي والعشرون من باب الكتب والرسائل

فَدَعِ الإِسْرافَ مُقْتَصِداً، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حاجَتِكَ. أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَواضِعينَ وأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ؟ وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ في النَّعِيمِ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ والأَرْمَلَةَ أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءِ مَجْزِيٌّ بِما أَسْلَفَ، وَقادِمٌ عَلَى ما قَدَّمَ. والسَّلام[1].

المصدر

هذا الكتاب بعض ما كتبه الأمير عليه السلام إلى زياد بن أبيه ونقله كاملاً الفاضل الشارح المعتزلي في «شرح المختار» ٤٤ من باب الكتب والرسائل من الجزء السادس عشر من شرحه وهو المختار المعنون بقول الرّضي: ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أنَّ معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه.

قال: كان عليٌّ عليه السلام أخرج إليه ـ يعني إلى زياد ـ سعداً مولاه يحثُّه على حمل مال البصرة إلى الكوفة، وكان بين سعد وزياد مُلاحاة ومنازعة؛ وعاد سعد وشكاه إلى عليّ عليه السلام وعابه فكتب عليٌّ عليه السلام إليه:

أمّا بعد فإنَّ سعداً ذكر أنّك شتمته ظلماً، وهدَّدته وجبهته تجبُّراً وتكبّراً، فما دعاك إلى التكبُّر؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الكبر رداء الله فمن نازع الله رداءه قَصَمه»، وقد أخبرني أنّك تُكثر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد وتدّهِنُ كلَّ يوم، فما عليك لو صُمت لله أيّاماً، وتصدَّقْتَ ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك مراراً قفاراً؟ فإنَّ ذلك شعار الصّالحين؛ أفتطمع وأنت متمرِّغ في النّعيم تستأثر به على الجار، المسكين، والضّعيف، والفقير، والأرملة واليتيم أن يُحسب لك أجر المُتصدِّقين؟ وأخبرني أنّك تتكلّم بكلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحبطت فتُب إلى ربّك يصلح لك عملك؛ واقتصد في أمرك وقدِّم إلى ربّك الفضل ليوم حاجتك وادَّهِنْ غبّاً فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ادهِنوا غبّاً ولا تَدَّهِنوا رَقْماً»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٩، ونهج السعادة: ٥/١٦٨.

(٢) نهج السعادة: ٥/١٧٠.

فكتب إليه زياد: أمّا بعد يا أمير المؤمنين فإنَّ سعداً قَدِمَ عليَّ فأساء القول والعمل فانتهرته وزجرته وكان أهلاً لأكثر من ذلك، وأمّا ما ذكرت من الإسراف واتّخاذ الألوان من الطعام والنعم، فإن كان صادقاً فأثابه الله ثواب الصالحين، وإن كان كاذباً فوقاه الله أشدَّ عقوبة الكاذبين، وأمّا قوله: إنّي أصف العدل وأخالفه إلى غيره، فإنّي إذن من الأخسرين؛ فخذ يا أمير المؤمنين بمقالٍ قلتَه في مقام قمته: «الدعوى بلا بيّنة كالسّهم بلا نصل» فإن أتاك بشاهدي عدلٍ، وإلاّ تبيّن لك كذبه وظلمه.

أقول: قد تعرّض الفاضل الشارح بأنَّ ما في **«النهج»** بعض هذا الكتاب، ولا يخفى عليك أنه لا يتضمّن ما في **«النهج»** على صورته وألفاظه، وأنَّ بين النسختين تفاوتاً ظاهراً ونحن لم نظفر به في المآخذ التي حضرتنا، والظاهر أنّهما كتاب واحد، بل ما في **«النهج»** بعض ذلك الكتاب إلاّ أنهما رويا على روايتين كما أنَّ الرَّضيّ نقل في غير موضع في **«النهج»** كلاماً له عليه السلام على روايتين.

اللغة

(الإسراف) السّرَف: ضدُّ القصد، وقال الراغب: السّرف تجاوز الحدّ في كلِّ فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الانفاق أشهر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: ٦٧] ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦]، ويقال: تارة اعتباراً بالقدر، وتارة بالكيفيّة؛ ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سَرَف وإن كان قليلاً، قال الله تعالى: **﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾** [غافر: ٤٣] أي المتجاوزين الحدّ في أُمورهم، وسمّى قوم لوط مسرفين من حيث إنّهم تعدّوا في وضع البذر في الحرث المخصوص له المعنيّ بقوله تعالى: **﴿نساؤكم حرث لكم﴾** [البقرة: ٢٤٣]، وقوله في القصاص **﴿فلا يسرف في القتل﴾** [الاسراء: ٣٣] فسرفه أن يقتل غير قاتله إمّا بالعدول عنه إلى من هو أشرف منه أو بتجاوز قتل القاتل إلى غيره حسبما كانت الجاهليّة تفعله.

قال السيّد نعمة الله الجزائري في **«فروق اللّغات»**: الإسراف والتبذير: قيل التبذير إنفاق المال فيما لا ينبغي، والإسراف صرفه زيادة على ما ينبغي، وبعبارة أُخرى الإسراف تجاوز الحدّ في صرف المال والتبذير إتلافه في غير موضعه فهو أعظم من الإسراف ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قيل: و ليس الإسراف متعلّقاً بالمال فقط بل بكلِّ شيء وضع في غير موضعه اللائق به، ألا ترى أنَّ الله وصف قوم لوط بالإسراف لوضعهم البذر في غير المحرث فقال: **﴿إنّكم لتأتون الرِّجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾** [الاعراف: ٨١] ووصف فرعون بالإسراف بقوله: **﴿إنّه كان عالياً من المسرفين﴾** [الدخان: ٣١].

أقول: ويفهم من بعض الأخبار أنَّ الإسراف على ضربين: حرام ومكروه فالأوّل مثل إتلاف مال ونحوه فيما هو فوق المتعارف، والثاني إتلاف شيء ذي نفع بلا غرض ومنه إهراق ما بقي من شرب ماء الفرات ونحوها خارج الماء وقد روي ذلك عن عليّ عليه السلام. انتهى قوله.

فتحصّل أنَّ الإسراف تجاوز الحدِّ في كلِّ ما يفعلها الإنسان من أفعاله سواء كانت متعلّقة مالاً أو غير مال، والتبذير إتلافه وتضييعه في غير موضعه وإذا لم يكن على سبيل الإتلاف والإفساد بأن يكون صرفه على الإصلاح لا يسمّى تبذيراً.

(مقتصداً) القصد والاقتصاد واسطة الأُمور، قال سالم بن وابطة **(الحماسة ٢٤٤)**:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله إنَّ التخلّق يأتي دونه الخلق

قال المرزوقيّ في **«الشرح»**: القصد: واسطة الأمور، فما تعدّاه سَرَف وما انحط عنه قصور، ولذلك قيل لمن ليس بجسيم ولا ضئيل، وليس بقصير ولا طويل: هو قصد ومقتصدٌ، وقال في **«شرح الحماسة»** ٩: القصد ما لا سرف فيه، ولذلك قيل: اقتصد في كذا، وطريقٌ قاصدٌ إذا كان على حدِّ الإستواء ومن كلامهم: ضلَّ عن قَصْد الطريق، كما قيل: ضلَّ عن سواء السبيل قال الراجز الحصين بكير الربعي:

إنّي إذا حار الجبان الهدره ركبت من قصد الطريق منجره

قال ابن الأثير في **«النهاية»**: في الحديث ما عال مقتصد ولا يعيل أي ما افتقر من لا يسرف في الإنفاق ولا يقتر، انتهى وقال الأمير عليه السلام لهمّام في الخطبة ١٩١ من **«النهج»** في وصف المتقين: **(منطقهم الصواب، وملبسهم الإقتصاد)**.

(متمرّغ) في **«الصحاح»**: مرّغته في التراب تمريغاً فتمرَّغ أي معّكته وتمعّك، قال ابن الأثير في **«النهاية»**: التمرُّغ: التقلّب في التراب، ومنه حديث عمّار: «أجنبنا في سفر وليس عندنا ماء فتمرّغنا في التراب» ظنَّ أنَّ الجنب يحتاج أن يوصل التراب إلى جميع جسده كالماء.

قال الزمخشريّ في **«الأساس»**: مرَّغ دابّته فتمرَّغ وهذا مراغ الدوابّ ومراغتها ومتمرَّغها، ومرَّغته تمريغاً إذا أشبعت رأسه وجسده دهناً، وتمرَّغ بالدُّهن ومن المجاز فلانٌ يتمرَّغ في النّعيم؛ يتقلّب فيه.

(الأرملة) قال الجوهريّ في **«الصحاح»**: الأرمل: الرَّجل الذي لا امرأة له والأرملة: المرأة التي لا زوج لها، وقد أرملت المرأة إذا مات عنها زوجها قال الشاعر ـ وهو جرير ـ:

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذّكر

قال ابن السكّيت: الأرامل: المساكين من نساءٍ ورجالٍ، قال ويقال لهم وإن لم يكن

فيهم نساء، ويقال: قد جاءت أرملةٌ من نساء ورجال محتاجين، قال ويقال للرجال المحتاجين الضعفاء: أرملةٌ وإن لم يكن فيهم نساء، انتهى ما في «**الصحاح**».

وقال المرزوقيّ في «**شرح الحماسة**» (**٥٧٧**) عند قول زياد بن حمل:

ترى الأرامل والهُلاّك تتبعه يستنُّ منه عليهم وابلٌ رَذِم

الأرامل: جمع الأرمل والأرملة لأنّه يقع على الذكر والأنثى وهم الذين قد انقطع زادهم وضاقت الأحوال بهم.

وقال عند قول كعب بن زهير (**الحماسة ٣٤٨**):

ألا لهف الأرامل واليتامى ولَهْفَ الباكيات على أُبَيّ

الأرامل: جمع أرمل، وهذه الصفة يشترك فيها المؤنّث والمذكّر، واشتقاقه من أرمل القوم إذا نفدت نفقاتهم، وحقيقته صاروا من الفقر في الرَّمل، كما يقال أتْرَبَ الرَّجل، والشّهادة في اشتراك الرَّجل والمرأة في هذه الصفة قول جرير: هذي الأرامل ـ البيت.

وقال الزمخشريّ في «**الأساس**»: أرمل: افتقر وفنى زاده وهو من الرمل كادقع من الدَّقعاء، ومنه الأرملة والأرامل، قال: وفي كتاب العين: ولا يقال شيخ أرمل إلاّ أن يشاء شاعرٌ في تمليح كلامه كقول جرير: هذي الأرامل ـ البيت، وأرملت المرأة ورملت من زوجها ولا يكون إلاّ مع الحاجة.

ثمَّ في نسخ خطّية عندنا قد ضبط قوله عليه السلام هكذا: (**أترجو أن يؤتيك الله**) و: (**مجزيٌّ بما سلف**) ولكنَّ ما اخترناه في المتن مطابق لنسخة الرضيّ رضوان الله عليه.

الإعراب

(**مقتصداً**) حال لضمير (**دع**)، (**غداً**) مفعول لقوله (**اذكر**)، قوله (**أن يعطيك**) مأوّل منصوب مفعول لقوله (**ترجو**)، (**وأنت**) الواو حالية والجملة حال لضمير (**ترجو**)، (**وتطمع**) عطف على قوله (**ترجو**)، والجملة استفهاميّة على سبيل الانكار كالمعطوف عليها (**وأنت**) الواو حالية والجملة حال لضمير (**تطمع**)، قوله (**أن يوجب**) مأوّل منصوب مفعول لقوله (**تطمع**) آخر عن الحال بعكس الأُولى، وضمير الفعل يرجع إلى الله.

المعنى

لمّا أخبر سعد أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام بأنَّ زياد بن أبيه يكثر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد وتدّهن كلّ يوم ـ إلى آخر ما رواه اليعقوبيُّ كما مرَّ آنفاً ـ أمره أن يترك رذيلة الإسراف، ويتّصف بفضيلة الاقتصاد الذي هو واسطة الأُمور.

وأقول: إنَّ لكلّ شيء حدًّا هو بمنزلة قاعدته فإذا كان على قاعدته فله ثبات وقرار، وإذا جاوز عن حدّه إمّا إلى الإفراط وإما إلى التفريط فلا بدّ له من أن يسقط منكوساً ومنكوباً وقد قال الأمير عليه السلام: **(اليمن والشمال مضلّة والوسطى هي الجادّة)**.

وكما أنَّ الله الحكيم خلق كلّ واحدٍ من قاطبة الأشياء على قدر لائق به لو عدل عنه لاختلّ نظام العالم كذلك جعل لكلّ ما يتعلّق بأفعال بني آدم وأُمور صالح الإنسانيّة حدًّا لو خرج الاجتماع الإنساني عنه لاختلَّ نظامه وهو من الهالكين وذلك الحدّ المتعلّق بهذا النوع هو ما يحتويه الذكر الحكيم وقد قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، وذلك الحدّ هو الوسط والقسط والعدل والحقّ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٣٩] وقال: ﴿**لقد أنزلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بالعدل قامت السماوات والأرض، وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: بالحقّ قامت السماوات والأرض[1].

ومن تفحّص في ما أتى به خاتم الأنبياء درى أنَّ الله تعالى كتب على النّاس الإقتصاد في مطلق الأمور حتّى في العبادات ففي القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقد روى الصدوق قدّس سرُّه في الفقيه **(ص ١٢ ج ١٣ من الوافي)**: بإسناده عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال عليّ عليه السلام: الحيف في الوصيّة من الكبائر[2].

وروى عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام: أنَّ رجلاً من الأنصار توفّي وله صبية صغار وله ستّة من الرقيق فأعتقهم عند موته وليس له مال غيرهم فأتى النبيّ صلى الله عليه وآله فأُخبر فقال: ما صنعتم بصاحبكم؟ قالوا دفنّاه، قال: لو علمت ما دفناه مع أهل الإسلام ترك ولده يتكفّفون النّاس[3]؟

وفي باب الاقتصاد في العبادة من «**الوافي**» **(ص ٦٩ ج ٣)** نقلاً عن «**الكافي**» بإسناد عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنَّ هذا الدّين متين فأوغلوا فيه برفقٍ، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا

(١) ميزان الحكمة: ٢/١٣٣ ح ١٨٤٨.

(٢) علل الشرائع: ٢/٥٦٧، ووسائل الشيعة: ١٣/٣٥٩ ح ٢.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ٤/١٨٦ ح ٥٤٢٧، وعلل الشرائع: ٢/٥٦٧.

ظهراً أبقى(١).

ثمَّ إنّه عليه السلام أتى بالحال أعني مقتصداً إشارة إلى أنَّ زياداً كما يجب عليه الإعراض عن الإسراف الذي هو إفراط كذلك يجب عليه أيضاً الإمساك الذي هو تفريط، بل يجب عليه ترك الإسراف الإقتصاد الذي هو وسط الإفراط والتفريط.

قوله عليه السلام: **(واذكر في اليوم غداً)** نبّهه بأن لا تلهيه الآمال ولا تشغله المشاغل في الدُنيا عن التأهّب والتزوُّد لغده وكنّى بالغد عن بعد حياته في هذه الدار من البرزخ ويوم البعث، كما أراد باليوم هذه الدُنيا.

قوله عليه السلام: **(وامسك ـ إلى قوله: ليوم حاجتك)** روى اليعقوبي في تاريخه (ص ٢٠٢ ج ٢): أنَّ رجلاً قال للحسين بن عليّ عليهما السلام: إنّي أخاف الموت؛ قال ذاك أنّك أخّرت مالك ولو قدَّمته لسَرَّك أن تلحق به(٢).

قوله عليه السلام: **(أترجو ـ إلخ)** استفهام على سبيل الإنكار أي كيف ترجو أن يعطيك الله ذلك الأجر والحال أنت عنده كذلك، وكيف تطمع أن يوجب الله لك ذلك الثواب والحال أنت تتقلّب وتتمعّك في النعيم تمنعه الضعيف والأرملة، وهذا تحريض له على التّواضع وشركة الضعيف والأرملة في عيشه وتنعّمه.

قوله عليه السلام: **(وإنّما المرء ـ إلخ)** بين الإنسان وعمله خيراً كان أو شرًا ارتباط خاصٌ لا يرجع إلاّ إليه ولا يجزى إلاّ به ولا يقدم إلاّ إليه ونعم ما قيل بالفارسية:

نيك وبد هرچه كنى بهر توخوانى سازند　　　جزتوبر خوان بد ونيك تومهمانى نيست

قال الشارح المعتزلي في المقام: قلت قبّح الله زياداً كافأ إنعام عليّ عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لا حاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبّيه والإسراف في لعنه، وتهجين أفعاله، والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه ولم يكن يفعل ذلك لطلب رضا معاوية كلا بل يفعله بطبعه ويعاديه بباطنه وظاهره وأبى الله إلا أن يرجع إلى أُمّه ويصحّح نسبه وكلُّ إناء ينضح بما فيه، ثمَّ جاء ابنه بعده فختم تلك الأعمال السّيّئة بما ختم وإلى الله ترجع الأُمور. انتهى. وسيأتي كلامنا أيضاً في قاتلي حجج الله ومعانديهم في شرح المختار ٤٤ من هذا الباب إن شاء الله تعالى(٣).

---

(١) الكافي: ٢/٨٦ ح ١، ووسائل الشيعة: ١/١١٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٢٧.

(٣) شرح النهج: ١٥/١٣٩.

الترجمة

اين نيز نامه اى است كه امير (عليه السلام) به زياد بن ابيه نوشت:

پس ترك اسراف گوى و ميانه رو باش و در امروز ياد فردا كن و از مال به قدر ضرورت زندگى نگه دار و زيادى را براى روز نيازت پيش فرست، آيا اميد دارى كه خدا به تو پاداش فروتنان دهد با اين كه نزد او از خود بينانى؟ و آيا آزمندى كه برايت ثواب صدقه دهندگان واجب گرداند با اين كه در نعمت قلتيده اى و آن را از ناتوان و بيچارگان و بيوه زنان بازمى دارى؟ و همانا كه مرد با آن چه كرده است پاداش يابد و به سوى آن چه پيش فرستاده است روى آورد؛ والسلام.

ومن كتاب له عليه السلام إلى ابن عباس وكان يقول عبد الله ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلاموهذا هو المختار الثاني والعشرون من باب كتب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله

أَمّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَرْءَ يَسُرُّهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ ما لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ؛ فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِما نِلْتَ مِنَ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ على ما فاتَكَ مِنْها. وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنياكَ فَلا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَما فاتَكَ مِنْها فَلا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فيما بَعْدَ الْمَوْتِ[1].

المصدر

رواه مسنداً أبو الفضل ونصر بن مزاحم المنقري المتوفّى ٢١٢ هـ في كتاب «**صفين**» (**ص ٥٨ من الطبع الناصري**) قال: وفي حديث عمر بن سعد قال: وكتب عليٌ عليه السلام إلى عمّاله فكتب: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عبّاس أمّا بعد، فإنَّ الإنسان قد يسرُّه ما لم يكن ليفوته ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه وإن جهد؛ فليكن سرورك فيما قدَّمت من حكم أو منطق أو سيرة، وليكن أسفك على ما فرَّطت لله فيه من ذلك، ودع ما فاتك من الدُّنيا فلا تكثر به حزناً، وما أصابك فيها فلا تبغ به سروراً؛ وليكن همّك فيما بعد الموت، والسّلام.

ونقله اليعقوبي المتوفّي حدود ٣٠٠ من الهجرة في تاريخه (**ص ١٨١ ج ٢**) وقال: كتب أبو الأسود الدئلي ـ وكان خليفة عبد الله بن عبّاس بالبصرة ـ إلى عامله عليّ عليه السلام يعلمه أنَّ عبد الله أخذ من بيت المال عشرة آلاف درهم فكتب إليه يأمره بردّها فامتنع فكتب يقسم له بالله لتردنّها فلمّا ردّها عبد الله بن عباس أورد أكثرها كتب إليه عليّ عليه السلام: أمّا بعد فإنَّ المرءَ يسرّه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه فما أتاك من الدُّنيا فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تكثر عليه جزعاً واجعل همّك لما بعد الموت، والسلام.

قال اليعقوبيّ: فكان ابن عبّاس يقول: ما اتّعظت بكلام قطُّ اتّعاظي بكلام أمير المؤمنين عليه السلام. انتهى.

ورواه ثقة الإسلام الكلينيّ المتوفّى ٣٢٩ هـ في الروضة من «**الكافي**» (**ص ٢١٩ الطبع الحجري ١٣٠١ هـ**) وهو حديث ٣٢٧ منها، قال: عدّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن

(١) نهج البلاغة: ٣/ ٢٠ ح ٢٢، وخصائص الأئمه: ٩٦.

عليّ بن أسباط رفعه قال: كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى ابن عبّاس: أمّا بعد، فقد يسرّ المرءَ ما لم يكن ليفوته، ويحزنه ما لم يكن ليصيبه أبداً وإن جهد؛ فليكن سرورك بما قدّمت من عمل صالح أو حكم أو قول، وليكن أسفك فيما فرّطت فيه من ذلك ودع ما فاتك من الدُّنيا فلا تكثر عليه حزَناً وما اصابك منها فلا تنعم به سروراً وليكن همّك فيما بعد الموت، والسلام[1].

وأتى الفيض برواية الكلينيّ في «**الوافي**» (ص ٦٣ ج ١٤) في باب مواعظ أمير المؤمنين عليه السلام، والمجلسيُّ في «**مرآة العقول**» (**ص ٣٥٤ ج ٤ من المطبوع على الحجر**).

ورواه عليّ بن شعبة المتوفّى ٣٣٢ هـ في «**تحف العقول**» (**ص ٤٦ الطبع الحجري ١٢٩٧ هـ وص ١٩٧ من الطبع المترجم بالفارسي في طهران ١٣٨٤ هـ**) وما رواه قريب من «**النهج**» ويخالفه قوله: فليكن سرورك بما نلته من آخرتك وليكن أسفك على ما فات منها، وما نلته من الدُّنيا ولا تكثرنَّ به فرحاً، وما فاتك منها ولا تأسفنَّ عليه حزناً وليكن همّك فيما بعد الموت، انتهى.

ورواه أبو عليّ إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي المتوفّى ٣٥٦ هـ في «**الأمالي**» (**ص ٩٤ ج ٢ طبع مصر**) المعنون بقوله: كتاب عليّ بن أبي طالب إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما بموعظة من أحسن المواعظ، وحدَّثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله قال حدَّثنا العكلي عن أبيه قال: بلغني عن ابن عبّاس أنه قال: كتب إليَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بموعظة ما سررت بموعظة سروري بها! أمّا بعد، فإنَّ المرء يسرُّه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تتبعه أسفاً، فليكن سرورك بما قدَّمت، وأسفك على ما خلّفت، وهمّك فيما بعد الموت.

ونقله القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفّى ٤٠٣ هـ في كتاب «**إعجاز القرآن**» (**هامش الاتقان للسيوطي ج ١ ص ١٩٥ طبع مصر ١٣١٨ هـ**) قال: كتب عليٌّ إلى عبد الله بن عبّاس وهو بالبصرة: أمّا بعد، فإنَّ المرء يسرُّ بدرك ما لم يكن ليحرمه ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه فليكن سرورك بما قدَّمت من أجر أو منطق، وليكن أسفك فيما فرَّطت فيه من ذلك وانظر ما فاتك من الدُّنيا فلا تكثر عليه جزعاً، وما نلته فلا تنعم به فرحاً وليكن همّك لما بعد الموت.

ونقله العلاّمة الشيخ بهاء الدِّين العاملي في المجلّد الثالث من «**الكشكول**» (**ص ٢٨٤ طبع نجم الدولة، وص ٥٦٢ من طبع قم**) قال: قال ابن عبّاس ما اتّعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) الكافي: ٨/ ٢٤٠ ح ٣٢٧، وشرح أصول الكافي: ١٢/ ٣٢٧.

بمثل كتاب كتبه إليَّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أمّا بعد فإنَّ الإنسان يسرُّه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحاً، ولا بما فاتك منها ترحاً؛ ولا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عملٍ، ويرجو التّوبة بطول الأمل، فكان وقد، والسلام.

ورواه سبط ابن الجوزي في **«التذكرة» (ص ٨٩ من الطبع الرَّحلي الناصري ١٢٨٥ هـ)** قال: «فصل» في ذكر قصة جرت له عليه السلام مع عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه: أخبرنا أبو الحسن بن النجّار المقريّ قال: حدَّثنا محمّد بن أبي منصور قال: حدَّثنا أحمد بن عليّ بن سوار قال: حدَّثنا أبو حامد محمّد بن هارون الحضرمي قال: حدَّثنا إبراهيم بن سعد الجوهريّ قال: حدَّثنا المأمون عبد الله بن هارون عن أبيه هارون، عن أبيه محمّد المهديّ، عن أبيه أبي جعفر المنصور، عن أبيه محمّد بن عليّ، عن أبيه عليّ بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن عبّاس قال: ما انتفعت بكلام أحدٍ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بكلام كتب به أمير المؤمنين كتب إليَّ: سلام عليك أمّا بعد، فإنَّ المرء يسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه ويسرّه درك ما لم يكن ليفوته فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك وليكن أسفك على ما فاتك منها وما فاتك من الدُّنيا فلا تأسفن عليه وليكن همّك فيما بعد الموت، والسلام.

قال السبط: وقد روى السديُّ هذا عن أشياخه وقال عقيبه: كان الشيطان قد نزع بين ابن عبّاس وبين عليّ عليه السلام مدّة ثمَّ عاد إلى موالاته ـ إلخ. انتهى.

وقد نقله الرضيّ رضوان الله عليه في أواخر هذا الباب برواية أُخرى وهو المختار السادس والستّون منه، قال: ومن كتاب كتبه عليه السلام إلى عبد الله بن العبّاس رحمه الله وقد مضى هذا الكتاب فيما تقدَّم بخلاف هذه الرّواية: أمّا بعد، فإنَّ العبد يفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذّة أو شفاء غيظ ولكن إطفاء باطل أو إحياء حقّ، وليكن سرورك بما قدَّمت، وأسفك على ما خلّفت وهمك فيما بعد الموت[1].

وقد نقل المجلسيّ رحمه الله روايتي **«النّهج»** في المجلّد الثامن من **«البحار» (ص ٦٣٣ و٦٣٤ من الطبع الكمباني)**، وسيأتي ذكر القصّة التي أشار إليها اليعقوبي وسبط ابن الجوزي في شرح المختارين ٤٠ و٤١ من هذا الباب، الأوّل منهما معنون بقول الرّضي ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله: **(أمّا بعد فقد بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت ربّك)** ـ إلخ، والثاني ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله: **(أمّا بعد فإنّي كنت أشركتك)** ـ إلخ، وإنّما نقلت

(١) نهج البلاغة: ٣/١٢٧ ح ٦٦، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤٩٢ ح ٦٩٨.

النسخ التي وجدتها بحذافيرها لما رأيت من الاختلاف فيها، ومن أنّ ذكر مواقع الاختلاف كان أطول من نقلها.

اللغة

(**درك**) بالتحريك ويسكن أيضاً: اللحاق والوصول إلى الشيء بعد طلبه، قال الزمخشريّ في «**الأساس**»: و«اللّهمّ أعنّي على دَرَك الحاجة» أي على إدراكها وقال ابن الأثير في «**النّهاية**»: في الحديث «أعوذ بك من دَرَك الشقاء» الدَّرَك: اللحاق والوصول إلى الشيء وأدركته إدراكاً ودركا، ومنه الحديث: لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً له في حاجته.

وقال الفيّومي في «**المصباح**»: الدرك (**بفتحتين**) وسكون (**الراء**) لغة من أدركت الشيء وأدركته إذا طلته فلحقته.

(**نلت**) من النيل يقال: نال من عدوّه ينال وينيل من بابي ضرب وعلم نَيْلاً ونالاً ونالةً بلغ منه مقصوده ومنه قيل: نال من امرأته ما أراد ونال من مطلوبه المراد ويتعدّي بالهمزة إلى اثنين فيقال: أنلته مطلوبه فناله والمطلوب منيل، والرَّجل نائل.

(**فلا تأس عليه**) أي لا تحزن، يقال: أسِيَ عليه أسَىً من باب علم أي حزن فهو آسٍ وأسيانٌ وهي آسيةٌ وأسيانة، وأسِيَ لفلان أي حزن له.

(**ترحاً**) على رواية الشيخ في «**الكشكول**»، (**بفتحتين**): ضدّ الفرح.

الإعراب

الضمير في (**لم يكن**) في الموضعين يرجع إلى (**ما**) وكذا ضمير الفعلين (**يفوت ويدرك**)، والضمير المنصوب فيهما يرجع إلى (**المرء**) بقرينة قوله ما فاتك، وأمكن أن يرجع ضمير الأفعال إلى (**المرء**)، والضميران المنصوبان إلى (**ما**).

المعنى

قد شرحه العالم الجليل المولى محمّد صالح المازندراني في شرحه على «**روضة الكافي**» بقوله: يعني أنّ المرء يكون من هذه الحالة وهي أنّه تسرّه إصابة ما ينفعه، ويحزنه فواته، وما ينفع على قسمين: أحدهما ما ينفع في الآخرة، وثانيهما ما ينفع في الدُّنيا؛ والعاقل اللّبيب ينبغي أن يسرّ بإصابة الأوّل، ويحزن بفواته وإليه أشار بقوله: فليكن سرورك بما قدّمت من عمل صالح أو حكم بالعدل أو قول بالحق وليكن أسفك وحزنك فيما فرّطت فيه من ذلك فإنّ هذا السرور أبديٌّ وهذا الحزن مع كونه ندامة وعبادة موجب للزيادة والتدارك، وأن لا

يحزن بفوات الثاني ولا يسرّ بإصابته وإليه أشار بقوله: ودع ما فاتك من الدُّنيا فلا تكثر عليه حزناً وما أصابك منها فلا تنعم به سروراً كما يسرّ وينعم أهل الدُّنيا يقال: نعم العود كفرح إذا اخضرّ ونضر، ثمّ أمر بما هو كالسبب بجميع ذلك بقوله: (**وليكن همّك فيما بعد الموت والسلام**) لأنّ التذكير بهادم اللّذات والتخويف بذكره تنفير عن محبّة الدُّنيا والحزن بفواتها وترغيب في محبّة الآخرة والعمل لها والحزن بفواتها. انتهى[1].

وأقول: هذا الكتاب مقتبس من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١٢] وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، نعم كلّ ما أفاده رسول الله وأهل بيته إنّما هو مقتبس من القرآن الكريم وما روى عنهم عليهم السلام فإنّما هو بيان بطون الآيات وحقائقها المستورة عن غيرهم، وأصل الجميع القرآن ولا بدّ من أن يرجع المروي عنهم إليه، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٩٢] وفي «**الكافي**» بإسناده عن المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرِّجال[2]، (**الوافي ص ٦١ ج ١**).

وفيه بإسناده عن أبي الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام إذا حدَّثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله، ثمَّ قال في بعض حديثه إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال فقيل له: يا ابن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟ قال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾، وقال: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[3] (**الوافي ص ٦١ ج ١**).

وحاصل الفصل أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أشار فيه إلى حقيقة وفرَّع عليها أمرين، والحقيقة: أنَّ ما يناله الإنسان أو يفوته فإنّما كان بقضاء الله المحتوم المقطوع أن يناله أو يحرمه فلا يصحّ الفرح والجزع بما كان حصوله وفواته كذلك، وقد قال عليه السلام كما يأتي في الحكمة ٤٣٩: الزّهد كلّه بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه.

(١) شرح أصول الكافي: ١٢/٣٢٨ ح ٣٢٨.
(٢) المحاسن: ١/٢٦٨، والكافي: ١/٦٠ ح ٦.
(٣) تهذيب الأحكام: ٧/٢٣٢، وتفسير مجمع البيان: ٣/٤٢٩.

ونحوه ما رواه ثقة الإسلام الكليني في «**الكافي**» بإسناده، عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام على المنبر: لا يجد أحدكم[1] طعم الإيمان حتّى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، (**الوافي ص ٥٤ ج ٣**)[2].

وبإسناده عن صفوان الجمّال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا يجد عبد طعم الإيمان حتّى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأنَّ الضارَّ النّافع هو الله تعالى (**الوافي ص ٥٤ ج ٣**)[3].

وروى بإسناده عن الثمالي، عن سعيد بن قيس الهمداني قال: نظرت يوماً في الحرب إلى رجل عليه ثوبان فحرّكت فرسي فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين في مثل هذا الموضع؟ فقال: نعم يا سعيد بن قيس إنّه ليس من عبد إلاّ وله من الله تعالى واقعة معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر فإذا نزل القضاء خلّيا بينه وبين كلّ شيء (**الوافي ص ٥٤ ج ٣**).

وروى نصر بن مزاحم المنقري في كتاب «**صفين**» (**ص ١٢٨ من الطبع الناصري**) عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي إسحاق قال: خرج عليٌّ يوم صفين وفي يده عنزة فمرَّ على سعيد بن قيس فقال له سعيد: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قرب عدوّك؟ فقال له عليّ عليه السلام: إنّه ليس من أحد إلاّ عليه من الله حفظة يحفظونه من أن يتردّى في قليب أو يخرَّ عليه حائط أو تصيبه آفةٌ فإذا جاء القدر خلّو بينه وبينه.

وقال ابن قتيبة الدينوريّ في «**الإمامة والسياسة**» (**ص ١٦٢ ج ١**) في مقتل أمير المؤمنين عليه السلام جاء رجل من مراد إلى عليّ عليه السلام فقال له يا أمير المؤمنين احترس فإنَّ هنا قوماً يريدون قتلك، فقال: إنَّ لكلِّ إنسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خلّياه[4].

وهذه الأخبار في الحفظة مأخوذة من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وقوله عزَّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: ٦٢].

والمرويّ أيضاً عن الباقر عليه السلام في قوله: له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من

(١) في نسخة: أحد. (٢) الكافي: ٢/٥٨ ح ٧، ووسائل الشيعة: ١٥/٢٠١ ح ٢٧٦.
(٣) الكافي: ٢/٥٩ ح ٨، ووسائل الشيعة: ١٥/٢٠٣ ح ٧.
(٤) نهج السعادة: ٧/١١٤.

أمر الله: من أمر الله يقول بأمر الله من أن يقع في ركيّ، أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء حتّى إذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه إلى المقادير وهما ملكان يحفظانه باللّيل وملكان بالنهار يتعاقبانه[١].

والمؤمن العارف بسرِّ القدر لا يفرح بما ناله ولا يحزن على ما فاته لعلمه بأنَّ قضاء الله وقدره في نظام العالم أوجبا وقوع الأوَّل وفوت الثاني فلم يكن الأوّل ليفوته ولا الثاني ليدركه وقد قال صلى الله عليه وآله: جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم الدّين[٢].

فالحزن على فوات شيء محتوم عليه أن يفوته، والفرح بحصول شيء مقطوع الحصول لماذا؟ وللعارف قلب مطمئنّ لا يرى إلاّ الله ولا يرجو إلاّ إيّاه ولا يخاف إلاّ منه، ولا يحسد ولا يعادي أحداً ولا يحزن ولا يبطر، وقد ورد الخبر كما في تفسير النيسابوري في سورة الحديث: من عرف سرَّ الله في القدر هانت عليه المصائب، ونعم ما في تفسير المجمع من أنَّ في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ إشارة إلى أربعة أشياء: الأوَّل حسن الخلق لأنَّ من استوى عنده وجود الدُّنيا وعدمها لا يحسد ولا يعادي ولا يشاحّ فإنَّ هذه من أسباب سوء الخلق وهي من نتائج حبّ الدُّنيا، وثانيها استحقار الدُّنيا وأهلها إذا لم يفرح بوجودها ولم يحزن لعدمها، وثالثها تعظيم الآخرة لما ينال فيها من الثواب الدائم الخالص من الشوائب، ورابعها الافتخار بالله دون أسباب الدُّنيا.

قال: ويروى أنَّ عليّ بن الحسين عليه السلام جاءه رجل فقال له: ما الزّهد؟ قال: الزّهد عشرة أجزاء: فأعلى درجة الزهد، أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا؛ وأنَّ الزهد كلّه في آية من كتاب الله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٣].

قال: وقيل لبزرجمهر: مالك أيّها الحكيم لا تأسف على ما فات ولا تفرح بما هو آت؟ فقال: إنَّ الفائت لا يتلافى بالعبرة، والآتي لا يستدام بالحبرة.

وعن عبد الله بن مسعود قال: لئن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحبّ إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان. انتهى.

ونعم ما قيل:

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ١٥٥، التفسير الأصفى: ١/ ٥٩٧.
(٢) شرح أُصول الكافي للمازندراني: ٨/ ١٥.
(٣) الخصال: ٤٣٧ ح ٢٦، تفسير البيان: ٩/ ٤٠٠.

لا تطل الحزن على فائت فقلّما يجدي عليك الحزن
سيّانَ محزون على ما مضى ومظهرٌ حزناً لما لم يكن

والمروي عن الإمام الصّادق عليه السلام: يا ابن آدم ما لك تأسو على مفقود لا يردّه إليك الفوت، ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت[1].

والتّفريع الأوَّل أنَّ ما ينبغي أن يسرّ المرء به هو ما ناله من الحقائق التي تفيده في ما بعد موته وينبغي له أن يأسف على فوتها، والثاني أنَّ ما ناله من الدُّنيا وما فاته منها هو ما لا قدر له أن يفرح به أو يجزع عليه، ثمَّ أكّد الأوَّل بقوله وليكن همّك فيما بعد الموت.

قال الفاضل الشارح المعتزلي في المقام: ولقائل أن يقول: هب أنَّ الأُمور كلّها بقضاء وقدر فلم لا ينبغي للإنسان أن يفرح بالنفع وإن وقع بالقدر، ويساء بفوته أو بالضرر وإن وقعا بقدر؟ أليس العريان يساء بقدوم الشتاء وإن كان لا بدَّ من قدومه، والمحموم غبّاً يساء بتجدّد نوبة الحمّي وإن كان لا بدَّ من تجدُّدها؟ فليس سبب الإختيار في الأفعال ممّا يوجب أن يسرّ الإنسان ولا يساء بشيء منها.

قال: والجواب ينبغي أن يحمل هذا الكلام على أنَّ الإنسان ينبغي أن لا يعتقد في الرزق أنّه أتاه بسعيه وحركته فيفرح معجباً بنفسه معتقداً أنَّ ذلك الرزق ثمرة حركته واجتهاده، وكذلك ينبغي أن لا يساء بفوات ما يفوته من المنافع لائماً نفسه في ذلك ناسباً لها إلى التقصير وفساد الحيلة والاجتهاد لأنَّ الرزق هو من الله تعالى لا أثر للحركة فيه وإن وقع عندها وعلى هذا التأويل ينبغي أن يحمل قوله تعالى: **(ما أصاب من مصيبه)** ـ إلخ، انتهى كلامه[2].

وأقول: الظاهر أنَّ المراد من الأسى والفرح المنهيّين ما بلغ حدّ الجزع والبطر والإختيال المنسية عن ذكر الله بقرينة قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. لا ما لا يملك ردّه ولا يستطاع دفعه من الأسى والفرح لا يخلو منهما بشر على الغريزة والفطرة تكويناً، نظير ما رواه الكلينيّ في «**الكافي**» والصّدوق في «**الفقيه**»: لمّا مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله هملت عين رسول الله بالدُّموع ثمَّ قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: تدمع العين ويحزن القلب[3] **(يحزن القلب وتدمع العين ـ كما في الفقيه)** ولا نقول ما يسخط الربّ **(ص ٨٨ ج ١٣ من الوافي)**.

(١) مستدرك سفينة البحار: ٣/ ٣٥٣، وميزان الحكمة: ٢/ ١١٦٧.
(٢) شرح النهج: ١٥/ ١٤١. (٣) الكافي: ٣/ ٢٦٢ ح ٤٥، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٨٠ ح ٣٦٥١.

ثمَّ إنَّ الأسى والفرح في كلامه عليه السلام وفي قوله عزَّ وجلَّ يعمّان حصول الرزق وفوته وغيره ممّا لم يكن برزق فلا وجه لاختصاصهما بالرزق فقط، اللّهمَّ إلاّ أن يقال: إنَّ الشارح المذكور أراد من الرزق أعمّ ممّا تُربّى به الحيوان من الأغذية والأشربة كما هو مذهب الاعتزال والشارح منهم فإنَّ الرزق عند المعتزلة هو كلّما صحّ انتفاع الحيوان به بالتغذّي أو غيره كما أشار إليه العلاّمة الشيخ البهائي في شرح الحديث الثالث عشر من كتابه الأربعين.

وليعلم أنَّ ما مضى من القول بأنَّ قضاء الله وقدره أوجبا ما أوجبا وأنَّ ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ونظائرها لا تنافي ما ورد في القرآن والأخبار من الحثّ على الدُّعاء والطلب إلى الله تعالى وإلاّ لما أمرنا الله تعالى ورسوله وأهل البيت بالسؤال والدُّعاء وقد قال عزَّ من قائل: ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [آخر الفرقان]، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تدعون ربّكم باللّيل والنّهار فإنَّ سلاح المؤمن الدُّعاء[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: الدُّعاء ترس المؤمن ومتى تكثر قرع الباب يفتح لك. وقال الصّادق عليه السلام: الدعاء أنفذ من السنان الحديد[٢].

وقال الكاظم عليه السلام: إنَّ الدُّعاء يردّ ما قدّر وما لم يقدّر، قلت **(أي قال الراوي)** ما قدّر فقد عرفته فما لم يقدّر؟ قال عليه السلام حتّى لا يكون[٣].

وقال عليه السلام: عليكم بالدُّعاء فإنَّ الدُّعاء والطلب إلى الله تعالى يردّ البلاء وقد قدِّر وقضى فلم يبق إلا إمضاؤه فإذا دُعي الله وسُئل صَرْفُهُ صَرَفَه[٤].

وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ألا أدلكم على شيء لم يستثن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قلت: بلى، قال: الدُّعاء يردّ القضاء وقد أبرم إبراماً وضمَّ أصابعه[٥].

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٦٨ ح ٣، وثواب الأعمال: ٢٦.
(٢) الكافي: ٢/ ٤٦٩ ح ٧، ووسائل الشيعة: ٧/ ٣٨.
(٣) الكافي: ٢/ ٤٦٩ ح ٢، ووسائل الشيعة: ٧/ ٣٧.
(٤) عدة الداعي: ١٣. (٥) الكافي: ٢/ ٤٧٠ ح ٦.

وعن سيّد العابدين عليه السلام: إنَّ الدُّعاء والبلاء ليتوافقان إلى يوم القيامة إنَّ الدُّعاء ليردّ البلاء وقد أبرم إبراماً[١].

وعنه عليه السلام: الدُّعاء يدفع البلاء النازل وما لم ينزل.

وقد أتى بهذه الروايات الفقيه الحبر المحقّق أحمد بن فهد الحلّي قدّس سرُّه في أوّل كتاب «**عدة الداعي ونجاح الساعي**» والروايات في ذلك كثيرة جدًا والكتب المؤلّفة فيه غير عزيزة، نعم إنَّ القضاء ينقسم إلى قضاء ثابت محتوم لا يتغيّر وقضاء متغيّر وما نحن فيه من الثاني فإيّاك أن تظنّ أنَّ الدُّعاء ينافي القول بالقضاء فإنّه ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]، وفي ضمن هذه الآية روايات دقيقة ومطالب أنيقة لعلّنا نبحث عنها في شروحنا الآتية في فصل نعقد في ذلك إن شاء الله تعالى. وقد قدّمنا نبذة من البحث عن استجابة الدُّعاء في شرحنا على «**المختار**» ٢٣٦ من باب الخطب (**ص ٣٥٩ ـ ٣٦٢ ج ١٥**) فراجع.

الترجمة

این نامه ای است که امیر (عليه السلام) به عبدالله عبّاس نوشت و او می گفت که من بعد از گفتار رسول خدا به هیچ گفتاری چون این کلام امیر بهره نبرده ام:

اما بعد، به راستی مرد را رسیدن چیزی به او که نمی بایستی از او فوت شود شاد می کند، فوت چیزی که نمی بایستی آن را به دست آورد اندوهگین می سازد، پس باید شادی تو به آن چه باشد که برای آخرتت اندوختی و اندوه تو به فوت چنان چیزی و آن چه که از دنیا عایدت شده بسیار به آن شادمانی نکن و آن چه که از آن از تو فوت شد بی تابی مکن و باید همّتت برای بعد از مرگت مصروف باشد.

(١) عدة الداعي: ١٣.

ومن كلام له عليه الصلاة والسلام قبيل موته لما ضربه ابن ملجم لعنه الله على سبيل الوصية وهو المختار الثالث والعشرون من باب كتب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله

وَصِيَّتي لَكُمْ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله فَلا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ أَقيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ. وَخَلا كُمْ ذَمٌّ ـ أَنَا بِالأَمْسِ صاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفارِقُكُمْ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَناءُ ميعادي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لي قُرْبَةٌ وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ فَاعْفُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ. وَاللَّهِ ما فَجَأَني مِنَ الْمَوْتِ وارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلا طالِعٌ أَنْكَرْتُهُ؛ وَما كُنْتُ إِلا كَقارِبٍ وَرَد، وَطالِبٍ وَجَدَ، وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ للأَبْرارِ[1].

قال الرَّضيُّ رضوان الله عليه: أقول: وقد مضى بعض هذا الكلام فيما تقدّم من الخطب إلاّ أنَّ فيه هٰهنا زيادةً أوجبت تكريره، انتهى.

أقول: والعبارة في بعض نسخ «**النهج**» في المقام هكذا: «أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين» كما أنّها في نسخة «**الكافي**» كذلك، وفي بعض نسخ «**النهج**»: «وهو لكم حسنة» كما أنّها مطابقة لنسخ «**الكافي**» أيضاً، ولكن ما في المتن في كلام الموضعين مطابق لنسخة الرضيّ.

المصدر

كلامه هذا قد روي في «**الجوامع الروائية**» وغيرها على صور مختلفة ووجوه كثيرة وقد مضى بعضه فيما تقدَّم من الخطبة ١٤٧ أوّلها: أيّها النّاس كلّ امرىءٍ لاقٍ ما يفرُّ منه في فراره، والأجل مساق النفس، والهرب منه موافاته ـ إلخ، وهي في شرح الخوئي رحمه الله أعني «**منهاج البراعة**» جعلت الخطبة ١٤٩ فراجع إلى ص ١١١ من المجلّد التاسع منه، وهذه الخطبة مروية في «**الجامع الكافي**» لثقة الإسلام الكلينيّ قدّس سرّه، ونقلها الفيض رضوان الله عليه في باب الإشارة والنصّ على الحسن بن عليّ عليه السلام (ص ٨٠ ج ٢)، وتجدها في «**مرآة العقول**» في ص ٢٢٢ من المجلّد الأوّل منه، وقد أتى بها الشارح الخوئي في شرح الخطبة المتقدّمة من «**النهج**» ص ١٢٧ ج ٩ من «**المنهاج**» فلا حاجة إلى تكريرها.

وقال المسعوديّ في «**مروج الذهب**» (ص ٤٨ ج ٢): وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن

---

(١) بحار الأنوار: ٤٢/ ٢٥٤ ح ٥٧، ونهج السعادة: ٧/ ١٣٥.

أبي عبد الله جعفر بن محمّد، عن أبيه محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام أنَّ عليّاً عليه السلام قال في صبيحة اللّيلة التي ضربه فيها عبد الرَّحمٰن بن ملجم بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله : كلّ امرىء ملاقيه ما يفرّ منه والأجل تساق النفس إليه، والهرب منه موافاته، وكم اطردت الأيام أتحينها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله عزَّ وجلَّ إلاّ إخفاءه هيهات علم مكنون، أمّا وصيّتي فلا تشركوا به شيئاً، ومحمد لا تضيّعوا سنّته، أقيموا هذين العمودين، حمل كلّ امرىء منكم مجهوده، وخفّف عن الحملة ربّ رحيم ودين قويم وإمام عليم؛ كنّا في أعصار ودى رياح تحت ظلّ غمامة اضمحل راكدها فحطها من الأرض حياً وبقي من بعدي خيرها واستكنه بعد حركة كاظمة بعد نطق لبعضكم هدوئي وخفوت أطرافي إنّه أوعظ لكم من نطق البليغ، ودعتكم وداع امرىءٍ مرصد لتلاق وغدا ترون ويكشف عن ساق عليكم السلام إلى يوم المرام كنت بالأمس صاحبكم، واليوم عظة لكم، غداً أفارقكم إن أُفق فأنا ولي دمي، وإن أمت فالقيامة ميعادي والعفو أقرب للتقوى ألا تحبّون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم[١]، انتهى ما في **«المروج»**.

وسنأتي بطائفة من وصاياه عليه السلام مع بيان مصادرها ومآخذها، وبيان ما فيها من غريب الحديث إن شاء الله تعالى في **«شرح المختار»** السابع والسبعين المعنون بقول الرَّضي: ومن وصيّته عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم لعنه الله: أُوصيكما بتقوى الله وأن لا تبغيا الدُّنيا وإن بغتكما ـ إلخ، ولم نظفر بعد في جامع روائيّ على رواية شاملة على قوله عليه السلام: والله ما فجأني من الموت ـ إلخ، وإن كان الرَّضيُّ في نقله ثقة ثبتاً وكفى بالنهج سنداً أنَّ مثل الرَّضي أسنده إلى أمير المؤمنين عليه السلام ولا إخال أنَّ من كان عارفاً بمقامه الشامخ وجلالة قدره علماً وعملاً أن يتفوّه بنسبة الوضع والاختلاق إليه.

ولا يخفى أنَّ المآخذ التي كانت للرَّضي لم يصل إلينا إلاّ نبذة منها، وبعد نقول إنّا لم نظفر عليه وعدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود ولعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً ويوفّقنا بالظفر عليه فنذكره في شرح وصيّته الآتية لابنيه عليهما السلام.

على أنَّ ابن الأثير في لغة قرب من النهاية قال: القارب: الذي يطلب الماء ومنه حديث عليّ عليه السلام: **(وما كنت إلاّ كقارب ورد، وطالب وجد)**[٢].

---

(١) الكافي: ٢٩٩/١ ح ٦، وبحار الأنوار: ٤٠٦/٤٢ ح ١١.

(٢) لسان العرب: ٧٨٣/١.

المعنى

قوله عليه السلام: **(وهو لكم حِسبةٌ)** ومن كلامه عليه السلام كما أتى به أبو عثمان الجاحظ في **«البيان والتبيين»** **(ص ٧٤ ج ٤ طبع مصر)** وسنذكره إن شاء الله تعالى بتمامه في **«شرح المختار»** ١٩١ في باب المختار من حكمه عليه السلام: إنّما المرء في الدُّنيا غرض تنتضل فيه المنايا، وهو قوله عليه السلام: **(فاستقبل المصيبة بالحسبة تستخلف بها نعمى)**، والحسبة بكسر **(الحاء)** إذا كانت عند المكروهات هي البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر، اسم من الاحتساب، قال الجوهريّ في **«الصحاح»**: احتسب بكذا أجراً عند الله والاسم الحِسْبَة بالكسر وهي الأجر والجمع الحِسَب، انتهى.

وقال ابن الأثير في **«النهاية»**: وفيه **(يعني في الحديث)** من صام رمضان إيماناً واحتساباً أي طلباً لوجه الله وثوابه، والإحتساب من الحسب كالإعتداد من العدّ؛ وإنّما قيل لمن ينوي بعمله وجه الله احتسبه لأنَّ له حينئذ أن يعتدّ عمله فجعل في حال مباشرة الفعل كأنّه معتدٌّ به، والحسبة اسم من الاحتساب كالعدَّة من الاعتداد، والاحتساب في الأعمال الصالحات وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر أو باستماع أنواع البرّ والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجوّ منها، ومنه حديث عمر: أيّها النّاس احتسبوا أعمالكم فإنَّ من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته، ومنه الحديث من مات له ولد فاحتسبه أي احتسب الأجر بصبره على مصيبته يقال: احتسب فلان ابناً له إذا مات كبيراً وافترطه إذا مات صغيراً ومعناه اعتدّ مصيبته في جملة بلايا الله التي يثاب على الصبر عليها.

ولا يخفى على البصير بأساليب الكلام، والعارف بمواقع اللّغة أنَّ لكلمة الحسبة **(بالباء)** في المقام شأناً ليس للحسنة **(بالنّون)**، والتشابه بين الكلمتين أوجب تصحيف الأُولى بالثانية، ولم يعترض أحد من شراح **«النهج»** و**«الكافي»** لهذه الدقيقة وإنّما كانت نسخهم حسنة **(بالنون)**.

قوله عليه السلام: **(إن أبق فأنا وليُّ دمي)** كانت العبارة على نسخة المسعودي في **«مروج الذَّهب»**: «إن أفق فأنا وليُّ دمي» وكلمة **(أفق)** مشتقة من الإفاقة أصله من **(ف)** و **(ق)**، قال ابن الأثير في **«النهاية»**: أفاق إذا رجع إلى ما كان قد شغل عنه وعاد إلى نفسه ومنه إفاقة المريض والمجنون والمغشى عليه والنائم.

قوله عليه السلام: **(وإن أفن فالفناء ميعادي)** وذلك لأنَّ كلَّ نفس ذائقة الموت، وكلّ الموت ضروريّ أمره والوجه فيه هو كما أفاده المحقق الطوسي قدّس سرّه قال: إنَّ السبب الموجب للموت في جميع الحيوانات هو أنَّ البدل الذي تورده الغاذية وإن كان كافياً في قيامه بدلاً عمّا يتحلّل فاضلاً عن الكفاية بحسب الكميّة لكنّه غير كاف بحسب الكيفيّة، وبيان ذلك أنَّ الرطوبة

الغريزيّة الأصليّة إنّما تخمّرت ونضجت في أوعية الغذاء أوّلاً، ثمّ في أوعية المني ثانياً، ثمّ في الأرحام ثالثاً؛ والذي تورده الغاذية لم يتخمّر ولم ينضج إلاّ في الأوّل دون الأخيرين فلم يكمل امتزاجها، ولم يصل إلى مرتبة المبدل عنها فلم يقم مقامها كما يجب بل صارت قوتها أنقص من قوة الأولى وكان كمن يفقد زيت سراج فأورد بدله ماء فما دامت الكيفيّة الأولى الأصليّة غالبة في الممتزج على الثانية المكتسبة كانت الحرارة الغريزيّة آخذة في زيادة الاشتعال موردة على الممتزج أكثر ممّا يتحلّل فينموه الممتزج، ثمّ إذا صارت مكسورة السورة بظهور الكيفيّة الثانية وقفت الحرارة الغريزيّة وما قدرت على أن يورد أكثر ممّا يتحلّل وإذا غلبت الثّانية انحطّ الممتزج وهرم وضعفت الحرارة إلى أن يبقى له أثر صالح الكيفيّة الأولى فيقع الموت ضرورة، وظهر من ذلك أنّ الرطوبة الغريزيّة الأصليّة من أوّل تكوّنها آخذة في النقصان بحسب الكيفيّة، وذلك هو السبب الموجب لفساد الممتزج لا غير فحصل المرام وذلك ما أردنا بيانه. انتهى.

وقيل بالفارسية:

جان قصد رحيل كرد وگفتم كه مرو گفتا چه كنم خانه فرو ميآيد

وقال الشيخ العارف السعديّ:

چار طبع مخالف سر كش چند روزى بوند با هم خوش
چون يكى زين چهار شد غالب جان شيرين بر آيد از قالب

قوله عليه السلام: **(والله ما فجأني من الموت ـ إلخ)** وذلك لأنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإنّما يكره الموت من تعلّق بالدُّنيا ونسي حظّه الأوفر في العقبى وأمّا أولياء الله فهم في الدُّنيا كمن ليس منها كما قاله عليه السلام في بعض الخطب الماضية؛ ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً عن العقاب كما ألقاه عليه السلام على همّام، وقد أخذ من مأدبته الشيخ الرّئيس في قوله في النمط التاسع من الإشارات في مقامات العارفين فكأنّهم وهم في جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجرّدوا عنها إلى عالم القدس.

وقال الشيخ العارف السعديّ:

ازهرچه ميرود سخن دوست خوشتراست پيغام آشنا سخن روح پرور است
هرگز وجود حاضر وغائب شنيده اى من در ميان جمع ودلم جاى ديگر است
ابناى روز گار بصحرا روند وباغ صحرا وباغ زنده دلان كوى دلبر است

ثمّ عقب عليه السلام كلامه بقوله: **(وما عند الله خير للأبرار)** وكأنّه بيان العلّة في عدم خوفه من الموت وهذا اقتباس من قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩] فقد أشار عليه السلام إلى أنّه من الأبرار وأنّ الآية شاملة عليه، وقد وصف الله الأبرار في عدّة مواضع من القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: ٦]، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٤]، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢٨].

فمن كان من الأبرار بل قدوتهم وإمامهم وكانت له بعد ارتحاله من سجن الدُّنيا تلك المقامات المنيعة الخالدة والدَّرجات الرفيعة الدائمة فكيف لا يكون مع الموت كقارب ورد وطالب وجد، وحقٌ له أن يقول:

مرگ اگر مرداست گونزد من آی — تادر آغوشش بگيرم تنگ تنگ
من از او ملكى ستانم جاودان — أوزمن دلقى بگيرد رنگ رنگ

ونعم ما نظمه العارف الرُّومي في المثنويّ:

چون بلال از ضعف شد همچون هلال — رنگ مرگ افتاد بر روى بلال
جفت او ديدش بگفتا وا حَرب — پس بلالش گفت نى نى وا طَرب
تاكنون اندر حَرَب بودم ز زيست — توچه دانى مرگ چه عيشست وچيست
اين خمى گفت ورخش در عين گفت — نرگس وگلبرگ ولا له مى شكفت
تاب روو چشم پر أنوار او — مى گواهى داد بر گفنار او
گفت جفتش الفراق اى خوش خصال — گفى نى نى الوصا لست الوصال
گفت جفت امشب غريبى مى روى — از تبار وخويش غائب ميشوى
گفت نى نى بلكه امشب جان من — ميرسد خوش از غريبى در وطن
گفت نى نى بلكه امشب جان من — ميرسد خوش از غريبى در وطن
گفت ايجان ودلم وا حسرتا — گفت نى نى جان من يا دولتا
گفت آن رويت كجا بينيم ما — گفت اندر حلقه خاص خدا
گفت ويران گشت اين خانه دريغ — گفت اندر مه نگر منگر بميغ
كرد ويران تا كند معمور تر — قومأنبُه بود و خانه مختصر
انبيا را تنگ آمد اين جهان — چون شهان رفتند اندر لا مكان
مرد گانرا اين جهان بنمود فرّ — ظاهرش زفت وبمعنى تنگتر

روح از ظلم طبيعت باز رست مرد زندانی زفكر حبس جست

وقد مضى بيان باقي كلامه هذا في شرح الخطبة المقدّم ذكرها من الشارح الخوئي رحمه الله، وسيأتي في «**شرح المختار**» ٧٧ من هذا الباب مباحث متعلّقة بالمقام إن شاء الله تعالى.

الترجمة

از سخنان اميرالمؤمنين (عليه السلام) كه پيشترك از بدرود زندگانى، زمانى كه از ضربت پسر ملجم در بستر بيمارى افتاده بود بر سبيل وصيت فرموده است:

وصيّتم به شما اين است كه چيزى را همتاى خدا ندانيد (شرك به خدا نياوريد) و سنّت پيمبر را تباه نكنيد و اين دو ستون دين را كه توحيد و حفظ سنت پيمبر است برپا بداريد. از شما نكوهش دور باد، من ديروز يار شما بودم و امروز مايه پند براى شما و فردا از شما جدا مى شوم، اگر از بيمارى نجات يافتم و در اين جهان باقى ماندم من خود ولّى خونم مى باشم و اگر نماندم مرگ ميعاد من است، اگر قاتلم را عفو كنم، پس عفو براى من موجب غربت است و براى شما موجب پيشگيرى به طلب اجر و تحصيل آن به تسليم و صبر است(٤)، پس عفو كنيد، آيا دوست نداريد كه خدا شما را بيامرزد؟ به خدا قسم از پيش آمد مرگ واردى كه آن را ناخوش داشته باشم به من روى نياورد و چيزى كه آن را بد داشته باشم بر من ظاهر نشد و نيستم من مگر چون جوياى آب كه به آب برسد و چون طالبى كه مطلوبش را يافته است و آن چه كه نزد خدا است بهتر است براى نيكوكاران.

سيّد رضى گويد كه: پاره اى از اين گفتار در باب خطب گذشت، جز اين كه در اين جا كلامى بيشتر بود كه در پيش نياورديم از اين روى تكرار آن واجب شد.

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام بما يعمل في أمواله، كتبها بعد منصرفه من صفين وكلامه هذا هو المختار الرابع والعشرون من باب كتبه عليه السلام ورسائله

هذا ما أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهُ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ في مالِهِ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الأَمَنَةَ.

مِنْها: وَإِنَّهُ يَقُومُ بِذلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْفِقُ مِنْهُ في الْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ قامَ بِالأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ.

وَإِنَّ لابْنَيْ فاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الذي لِبَنِي عَلِيٍّ.

وَإِنّي إن جَعَلْتُ الْقِيامَ بِذلِكَ إِلَى ابْنَيْ فاطِمَةَ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وقُرْبَةً إِلى رَسُولِ اللَّهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ.

وَيَشْتَرِطُ عَلَى الذي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمالَ عَلى أُصُولِهِ وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ، وَهُدِيَ لَهُ؛ وَأَنْ لا يَبِيعَ مِنْ أَوْلادِ نَخيلِ هذِهِ الْقُرى وَدِيَّةً حَتى تُشْكِلَ أَرْضُها غِراساً. وَمَنْ كانَ مِنْ إِمائِيَ اللاتي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَها وَلَدٌ أَوْ هِيَ حامِلٌ فَتُمْسَكُ عَلى وَلَدِها وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ فَإِنْ ماتَ وَلَدُها وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتيقَةٌ قَدْ أَفْرَجَ عَنْها الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ[1].

قال الرَّضيُّ رضوان الله عليه: قوله عليه السلام في هذه الوصيّة: «وألاّ يبيع من نخلها وديّة» فإنَّ الوديّة الفسيلة وجمعها ودى.

وقوله عليه السلام: «حتّى تشكل أرضها غراساً» هو من أفصح الكلام والمراد به أنَّ الأرض يكثر فيها غراس النخل حتّى يراها النّاظر على غير تلك الصفة التي عرفها به فيشكل عليه أمرها ويحسبها غيرها. انتهى.

المصدر ونقل الوصية على صورتها الكاملة

رواها ثقة الإسلام الكلينيّ قدَّس سرُّه في كتاب الوصايا من **«الجامع الكافي» (ص ٢٤٧ من الطبع الحجري، باب ٣٥ من كتاب الوصايا)** عن أبي عليّ الأشعري عن محمّد بن عبد الجبار ومحمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن صفوان بن يحيى، عن عبد الرّحمٰن بن

(١) بحار الأنوار: ٤٢/ ٢٥٥، ونهج السعادة: ٨/ ٤٦٢.

الحجّاج.

وشيخ الطائفة الطوسي قدّس سرّه في كتاب الوقوف من «**التهذيب**» (**ص ٣١٩ من الطبع على الحجر**) عن الحسين بن سعيد، عن صفوان، عن عبد الرَّحمٰن بن الحجّاج وبينهما اختلاف في الجملة ودونك الوصيّة على نسخة «**الكافي**» قال عبد الرَّحمٰن بن الحجّاج: بعث إليّ أبو الحسن عليه السلام بوصيّة أمير المؤمنين عليه السلام وهي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما أوصى به في ماله عبد الله عليٌّ ابتغاء وجه الله ليدخلني به الجنّة ويصرفني به عن النّار، ويصرف النّار عنّي يوم تبيضّ وجوه وتسوّد وجوه.

أنّه ما كان لي من مال بينبع يعرف لي فيها وما حولها صدقة، ورقيقها غير أنَّ رباحاً، وأبا نيزر، وجبيراً عتقاء ليس لأحد عليهم سبيل فهم مواليّ يعملون في المال خمس حجج وفيه نفقتهم ورزقهم وأرزاق أهاليهم. ومع ذلك ما كان لي بوادي القرى كلّه من مال لبني فاطمة ورقيقها صدقة، وما كان لي بديمة وأهلها صدقة غير أنَّ زريقاً له مثل ما كتبت لأصحابه، وما كان لي بادنية وأهلها صدقة، والفقيرين كما قد علمتم صدقة في سبيل الله.

وإنَّ الذي كتبت من أموالي هذه صدقة واجبة بتلةً حيّاً أنا أو ميّتاً ينفق في كلّ نفقة يبتغي بها وجه الله في سبيل الله ووجهه وذوي الرَّحم من بني هاشم وبني المطّلب والقريب والبعيد فإنّه يقوم على ذلك الحسن بن عليّ يأكل منه بالمعروف وينفقه حيث يراه الله عزَّ وجلّ في حلّ محلّل لا حرج عليه فيه فإن أراد أن يبيع نصيباً من المال فيقضي به الدين فليفعل إن شاء ولا حرج عليه فيه، وإن باع فإنّه يقسم ثمنها ثلاثة أثلاث: فيجعل ثلثها في سبيل الله، ويجعل ثلثاً في بني هاشم وبني المطّلب، ويجعل الثلث في آل أبي طالب، وأنّه يضعه فيهم حيث يراه الله، وإن حدث بحسن حدث وحسين حيّ فإنّه إلى حسين بن عليّ.

وإنَّ حسيناً يفعل فيه مثل الذي أمرت به حسناً له مثل الذي كتبت للحسن وعليه مثل الذي على الحسن.

وإنَّ لبني ابني فاطمة من صدقة عليّ مثل الذي لبني عليّ وإنّي إنّما جعلت الذي جعلت لبني فاطمة ابتغاء وجه الله عزَّ وجلَّ وتكريم حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وتعظيمها وتشريفها ورضاها، وإن حدث بحسن وحسين حدث فإنَّ الآخر منهما ينظر في بني عليّ فإن وجد فيهم من يرضى بهداه وإسلامه وأمانته فإنّه يجعله إليه إن شاء، وإن لم ير فيهم بعض الذي يريده فإنّه يجعله إلى رجل من آل أبي طالب يرضى به، فإن وجد آل أبي طالب قد ذهب كبراؤهم وذوو رأيهم فإنّه يجعله إلى رجل يرضاه من بني هاشم.

وأنّه يشترط على الذي يجعله إليه أن يترك المال على أصوله وينفق ثمره حيث أمرته به من سبيل الله ووجهه وذوي الرَّحم من بني هاشم وبني المطّلب والقريب والبعيد ولا يباع منه شيء ولا يوهب ولا يورث.

وإنَّ مال محمّد بن عليّ على ناحية وهو إلى بني فاطمة.

وإنَّ رقيقي الذين في صحيفة صغيرة التي كتبت لي عتقاء.

هذا ما قضى به عليُّ بن أبي طالب في أمواله هذه الغد من يوم قدم مسكن ابتغاء وجه الله والدار الآخرة والله المستعان على كلِّ حال ولا يحلّ لامرىء مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول في شيء قضيته من مالي ولا يخالف فيه أمري من قريب ولا بعيد.

أمّا بعد فإنَّ ولائدي اللاتي أطوف عليهنَّ السبعة عشر منهنَّ أمّهات أولاد معهنَّ أولادهنَّ، ومنهنَّ حبالى، ومنهنَّ من لا ولد له فقضائي فيهنَّ إن حدث بي حدث أنّه من كان منهنَّ ليس لها ولد وليست بحبلى فهي عتيق لوجه الله عزَّ وجلَّ ليس لأحد عليهنَّ سبيل، ومن كان منهنَّ لها ولد أو حبلى فتمسك على ولدها وهي من حظّه[1] فإن مات ولدها وهي حيّة فهي عتيق ليس لأحد عليها سبيل، هذا ما قضى به عليّ في ماله الغد من يوم قدم مسكن شهد أبو سمر بن أبرهة وصعصعة بن صوحان ويزيد بن قيس وهيّاج بن أبي هيّاج وكتب عليّ بن أبي طالب بيده لعشرة خلون من جمادى الأولى سنة سبع[2] وثلاثين[3].

اللغة

(ليولجه) أي ليدخله، ومنه الولجة بالتحريك موضع أو كهف تستر فيه المارّة من مطر وغيره.

(الابتغاء): الطلب، قال الجوهريُّ في «**الصحاح**»: ابتغيت الشيء وتبغّيته إذا طلبته وبغيته **(حدث)** بالتحريك: الحادث.

(أصدره مصدره) يصح المصدر بفتح **(الميم)** وضمّه معاً، والفتح أصحّ واختاره الرَّضيّ رضوان الله عليه، كما في النسخة التي قوبلت على نسخته، ففي «**الصحاح**»: أصدرته فصدر أي رجعته فرجع، والموضع مصدر ومنه مصادر الأفعال.

---

(١) في نسخة: حصته.
(٢) في نسخة: تسع.
(٣) تاريخ المدينة: ١/٢٢٨، وبحار الأنوار: ٤١/٤٢.

(الوصلة) بالضمّ: الصلة والقرابة.

وفيه **(الوديّ)** على فعيل صغار الفسيل، الواحدة وديّةٌ، والفسيلة والفسيل على فعيلة وفعيل صغار النخل والجمع الفُسْلان، انتهى، وفي العبارة كناية حسنة عن النخيلات التي تنبت من النوى تحت أشجار النخل، أو تنبت من أُصولها، وكأنَّ حملها على ما تنبت من أصولها أولى وأنسب.

(تشكل) قال ابن الأثير في «**النهاية**»: وفي وصيّة عليّ عليه السلام: «وأن لا يبيع من أولاد نخل هذه القرى وديّه حتّى تشكل أرضها غراساً» أي حتّى يكثر غراس النخل فيها فيراها الناظر على غير الصفة التي عرفها به فيشكل عليه أمرها. انتهى. وقال الكسائي: أشكل النخل طاب رطبه وأشكل العنب أينع بعضه.

(الغراس) بالكسر: فصيل النخل، ويقال للنخلة أوّل ما ينبت غريسَةٌ، ويقال: للجلدة الرقيقة التي تخرج مع الولد إذا خرج من بطن أُمّه غِرس بالكسر.

(قد أفرج عنها الرقُّ) كلمة أفرج مشكولة في أكثر النسخ المطبوعة وشروحها بضمِّ **(الهمزة)** وكسر **(الراء)** ولكنّها في نسخة الرضيّ بفتحهما ولذا اخترناه في المتن وهذا هو الصحيح ففي «**الصحاح**» للجوهري: أَفْرَجَ الناسُ عن طريقه أي انكشفوا.

الإعراب

(ابتغاء) منصوب في كلا الموضعين لأنّه مفعول له للفعلين: أمر وجعلت وكلّ واحد من قربة وتكريماً وتشريفاً منصوب معطوف على الابتغاء الثاني مفعول له.

(ليولجه) منصوب **(بأن)** الناصبة المقدّرة، **(ويعطيه)** منصوب معطوف على **(يولج)**، وضمير الفعلين يرجع إليه عليه السلام وفي بعض النسخ من المخطوطة وغيرها **(ليولجني ويعطيني)** ففيه التفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلّم وما في المتن مطابق لنسخة الرضي ومختاره، وضمير به في كلا الموضعين الأخيرين يصح أن يرجع إلى **(ما)** كالأوّل أو إلى الابتغاء.

(يأكل منه بالمعروف) حال للحسن عليه السلام فإنَّ الجملة الفعليّة إذا كانت مبدوءة بمضارع مثبت بدون **(قد)** فلا بدَّ من ضمير رابط وحده أو معها فمع **(الواو)**، والأُولى كما نحن فيه، والثانية كقوله تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٥].

(وينفق) معطوف على **(يأكل)**.

(وحسين حيٌّ) جملة اسميّة حاليّة والرابط هو **(الواو)**، **(قام)** جواب **(إن)**، **(أصدر)** عطف على **(قام)**، والضميران في أصدره ومصدره يرجعان إلى الأمر، **(مثل)** منصوب اسم لأنَّ

(لابني) ظرف مستقرّ خبر لها.

الظاهر أن ضمير **(يشترط)** يرجع إلى الأمير عليه السلام غاية الأمر أنَّ في الكلام التفاتاً من التكلّم إلى الغيبة، أو عطف على أمر به فلا يلزم التفات ويؤيّده ما في النسخة الآتي نقلها من الآتيان بالفعل الماضي: وأنّه شرط، وجاز أن يرجع إلى الإمام الحسن عليه السلام بقرينة يقوم ويأكل أو إلى الإمام الحسين عليه السلام فإنّه أقرب المراجع أو أنّه راجع إلى من يتفوّض الأمور إليه خلفاً بعد سلف، ولكنَّ الصواب هو الأوّل كما يدلّ عليه أسلوب الكلام وصورة الوصيّة.

جملة **(أن يترك)** مفعول يشترط، وينفق عطف على يترك، وأن لا يبيع عطف على أن يترك.

(تشكل) منصوب **(بأن)** الناصبة المقدَّرة وجوباً، **(أرضها)** مرفوعة على الفاعليّة لتشكل، **(غراساً)** منصوب على التميز، **(من)** موصول اسمي يستوي فيه المذكر والمؤنث **(من)** جارة بيانيّة لمن، **(لها ولد)** حال للإماء وكذلك جملة **(هي حامل)**، ولم يقل حاملة لكونها صفة خاصّة للأنثى، **(فتمسك)** خبر الموصول الاسمي وقد دريت في المباحث السالفة أنَّ **(الفاء)** تدخل في خبر الموصول الاسمي في عدَّة مواضع وهذا منها **(وهي من حظّه)** حاليّة لضمير تمسك، **(وهي حيّة)** أيضاً حال لها، **(فهي عتيقة)** جواب إن، وادخل **(الفاء)** لكون الجملة اسميّة، **(قد أفرج)** صفة للعتيقة لكونها نكرة وكذلك التالية.

المعنى

هذه الوصيّة قد رويت في **«الجوامع الروائية»** بصور مختلفة في الجملة ولعلّنا نأتي بها ونبيّنها مع ذكر مصادرها وأسانيدها في شرح وصيّته الآتية للإمامين الحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم، كما وعدناه في شرح المختار المقدَّم وما أتى بها الرَّضيُّ رضوان الله عليه ملتقط منها كما هو دأبه وعنايته في كلام الأمير عليه السلام.

واعلم أنَّ جميع وصاياه عليه السلام لأولاده وبما يعمل في أمواله على ما استقصيناه إنّما هي كانت بعد منصرفه من صفّين، وذلك لما كان يعلم من دنوّ شهادته، ولعلّك تقول إن كان علم الإمام في زعمك على هذا المنوال فلم قال عليه السلام: «فإن حدث بحسن حدث وحسين حيّ» ولم يجزم بما هو آت وجار في مستقبل الزَّمان؟ قلت: إنّه عليه السلام تكلّم بما هو متعارف النّاس في محاوراتهم وقد مضى بحثنا عن طور علم الإمام في المجلّد الخامس عشر في شرح قوله عليه السلام: «فجعلت أتّبع مأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله فأطأ ذكره حتّى انتهيت إلى العرج» على أنّه يأتي البحث عن ذلك في شرح الوصيّة الآتية زيادة إيضاح في ذلك إن شاء الله تعالى.

قوله عليه السلام: **(يأكل منه بالمعروف - إلخ)** لعلَّ كلامه هذا لدفع ما عسى يتوهم من أنَّ هذه

الصدقة حرام على الحسن بن عليّ عليه السلام كالزكاة فقال عليه السلام: أنّه يأكل منها بالمعروف وينفق منها بالمعروف فإنّها مال أبيه وقف عليه قوله عليه السلام: «فإن حدث بحسن حدث» أي إن أدركه الموت بقرينة قوله: وحسين حيٌّ.

قوله: **(وإنَّ لابني فاطمة من صدقة ـ اه)** يعني أنّهم فيها شرع واحد، لا تختصّ ببعض دون بعض ولا مزيّة لابني فاطمة في منافعها على غيرها؛ نعم إنّما جعلت القيام بذلك أي من يتولّى أمرها ويتصدّي عليها إليهما بتلك الوجوه الأربعة من ابتغاء وجه الله ـ إلخ، أو المراد منه دفع التوهّم المتقدّم.

قال الشارح المعتزلي: ثمَّ بيّن لماذا خصّهما بالولاية؟ فقال: إنّما فعلت ذلك بشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله فتقرّبت إلى رسول الله بأن جعلت لسبطيه هذه الرّياسة وفي هذا رمز وإزراء بمن صرف الأمر عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله مع وجود من يصلح للأمر أي كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرّياسة بعده لأهله قرابة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وتكريماً لحرمته وطاعةً له وأنفة لقدره صلى الله عليه وآله أن تكون ورثته سوقة يليهم الأجانب ومن ليس من شجرته وأصله، ألا ترى أنَّ هيبة الرسالة والنبوّة في صدور النّاس أعظم إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبوّة، وليس يوجد مثل هذه الهيبة والجلال في نفوس النّاس للنبوّة إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدَّعوة عليه السلام، انتهى، ونعم من قال.

وكان لأمير المؤمنين عليه السلام فيهما شأن خاصّ وقصد تامّ ومزيد اهتمام وزيادة عناية يخصّهما بها دون سائر بنيه تشريفاً لوصلة رسول الله صلى الله عليه وآله وتنبيهاً واعلاماً بمقامهما الشامخ ومنزلتهما السامية حتّى أنّه عليه السلام كان يضنّ بهما على الحرب والقتال لئلا ينقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الأُمّة فإنَّ نسله من الحسن والحسين وتسعة من أولاد الحسين بعد أبيهم أبي الأئمّة عليّ عليه السلام هم حجج الله تعالى واحداً بعد واحدٍ على عباده ولم تخل الأرض من حجّة الله على عباده قطّ ولا يخرج الحجّة من بيت النبوّة قطّ، وقد روى نصر بن مزاحم في أواخر صفّين عن عبد الرَّحمٰن بن جندب قال: لما أقبل عليّ عليه السلام من صفّين أقبلنا معه فأخذ طريقاً غير طريقنا الذي أقبلنا فيه، ثمَّ أخذ بنا طريق البرّ على شاطىء الفرات حتّى انتهينا إلى هيت وأخذنا على صندودا فبات بها ثمَّ غدا وأقبلنا معه حتّى جزنا النخيلة ورأينا بيوت الكوفة ـ إلى أن قال: ثمَّ مضى غير بعيد فلقيه عبد الله بن وديعة الأنصاري فدنى منه وسأله فقال: ما سمعت النّاس يقولون في أمرنا هذا؟ قال: منهم المعجب به، ومنهم الكاره له؛ والنّاس كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] فقال له: فما يقول ذوو الرأي؟ قال: يقولون: إنَّ عليّاً كان له جمع عظيم ففرّقه، وحصن حصين فهدمه وحتّى متى يبنى مثل ما قد هدم، وحتّى متى يجمع مثل ما قد فرّق؟ فلو أنّه كان مضى بمن أطاعه إذ

عصاه من عصاه فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك إذاً كان ذلك هو الحزم.

فقال عليّ عليه السلام: أنا هدمت أم هم هدموا؟ أم أنا فرّقت أم هم فرّقوا؟ وأمّا قولهم: لو أنّه مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتّى يظفر أو يهلك إذاً كان هو الحزم، فوالله ما غفلت عن ذلك الرأي وإن كنت سخيَّ النفس بالدُّنيا طيّب النفس بالموت ولقد هممت بالإقدام فنظرت إلى هذين قد استقدماني فعلمت أنَّ هذين إن هلكا انقطع نسل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الأمّة فكرهت ذلك وأشفقت على هذين أن يهلكا ولو علمت أنَّ هؤلاء مكاني لم يستقدما - يعني بذلك ابنيه الحسن والحسين - وأيم الله لئن لقيتهم بعد يومي لقيتهم وليس هما معي في عسكر ولا دار[1].

قوله عليه السلام: شرط[2] عليه السلام على من يفوّض الأمر إليه ويتولّي أمور أموال الصدقة شرطين: الأوّل أن لا يبيعها ولا يوهبها ولا يتصرَّف فيها تصرفات أُخرى تخرجها عن أصلها بل يتركها على أصلها وينفق ثمرها حيث أمره الله من سبيل الله ووجوهه وذوي الرحم من بني هاشم وبني المطلب والقريب والبعيد فإنَّ الوقف تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة.

والثاني: أن لا يبيع من صغار النخيل ما لم يكثر غراسها وذلك لأنَّ الحاجة ربّما تسوق إليها بحدوث آفة في النخيل فتغرس الفسيلة مكانها، أو لأنَّ قلع الفسلان ما لم تكثر النخيل ولم تكامل بعد يضرّها بخلاف ما إذا بلغت إلى حدّ تشكل أرضها غراساً، سيّما إذا قلنا أنَّ المراد من أولاد النخيل وفصيلها وغراسها نخيلات تنبت من أُصولها كما هو الظاهر من العبارة، لا ما تنبت من النوى، أو لأنَّ النخيل قبل أن تشكل أرضها غراساً مظنة للفساد من حيث قلّتها وعدم التفافها، وإذا كثرت وكثفت والتفّت لا تسلط عليها آفات من البر والحرّ والجدب ونحوها ولا تضرّها عندئذ قلع الفسلان.

قوله عليه السلام: **(ومن كان من إمائي - إلخ)** الطواف عليهنَّ كناية عن غشيانهنَّ أي نكاحهنَّ يعني أنَّ الأمة التي لها ولد منّي كسائر الإماء من التركة فمن كان من إمائي اللاتي لها ولد منّي، أو هي حامل منّي فهي تتعلّق بولدها لا يجوز لسائر الورثة التصرُّف فيها مطلقاً كما يدلّ عليه قوله عليه السلام **(فتمسك على ولدها)**، فإذا صارت من ميراث ولدها من تركتي تقوّم وتباع على الولد فتتحرّر قهراً لأنَّ الولد لا يملك العمودين ومتى ملكهما عتقا ولا يحتاج في ذلك إلى عتق الولد كما تحكم به الرّوايات الواردة عنهم عليهم السلام في الباب نقلها والبحث عنها يجرّنا إلى الأطناب والخروج عن موضوع الكتاب وكلامه هذا صريح في أنَّ أُمَّ الولد لا تتحرّر بمجرَّد موت

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٥٥٢، ونهج السعادة: ٢/ ٢٩٥.

(٢) في نسخة: ويشترط.

مولاها المستولد بل تنعتق من نصيب ولدها من تركة أبيه، وهذا من مذهبنا الإمامية، وللعامّة فيها اختلاف.

قوله عليه السلام: **(فإن مات ولدها ـ إلخ)** واعلم أنَّ أُمّ الولد قبل موت مولاها المستولد مملوكة له لا تخرج بمجرّد صيرورتها أُمّ الولد عن الرقيّة ويجوز له التصرُّف فيها بما شاء من وطئها واستخدامها وعتقها في كفّارة وغيرها سوى التصرف الذي يخرجها عن ملكه بغير العتق فلا يجوز له بيعها ولا هبتها ولا نحوهما من الناقلات، ثمّ إن مات ولدها قبل موت مولاها رجعت طلقاً فتعود إلى حكمها الأوّل الذي كان لغير أُمّ ولد فيجوز لمولاها التصرُّف فيها مطلقاً، وإن مات ولدها بعد موت مولاها ولو كانت حياته برهة قليلة من الزّمان كما أنّها كانت حاملاً به ووضعته حيّاً ومات بعد ساعة فحكمها حكم أُمّ الولد التي قد دريت آنفاً أنّها تجعل من حظّه من تركة أبيه وتعتق عليه لا أنّها ترجع بموته حينئذ طلقاً كالصُورة المتقدّمة حتّى تعود مملوكة إلى الورثة نعم إن ولدته ميّتاً بعد موت مولاها سقطاً كان أو غير سقط فلا يصدق به أنّها أُمّ ولد وأنَّ ولدها مات.

فنقول: إنّه عليه السلام أراد بقوله **(فإن مات ولدها وهي حيّة فهي عتيقة)** ـ إلخ دفع ما عسى يتوهّم بأنَّ أُمّ الولد إذا مات ولدها بعد موت مولاها سيّما إذا كانت حاملاً به ووضعته بعد موت مولاها ثمّ مات ترجع طِلْقاً كما إذا مات في حياته فقال عليه السلام: ليس حكمها في هذه الحالة كالصورة المتقدّمة بل إنّها عتيقة قد أفرج عنها الرّق وحرّرها العتق وذكر الفعلين على هيئة الماضي إشارة لطيفة إلى أنّها كانت عتيقة منذ موت مولاها، فتأمّل، وفي ما أشرنا إليها أحكام أُخرى خاصّة ومباحث فقهيّة تطلب في الكتب الفقهيّة.

ثمَّ إنَّ في أصل الوصيّة مواقع للبحث عن مسائل فقهيّة وغيرها أعرضنا عنها خوفاً للإطالة ولعلّنا نأتي بطائفة منها في شروح الوصايا الآتية ونكتفي الآن ببيان بعض اللّغات والعبارات:

(ينبع): قال في القاموس: ينبع كينصر حصن له عيون ونخيل وزرع بطريق حاج مصر، وقال ياقوت في **«معجم البلدان»**: ينبع بالفتح ثمّ السكون **(والباء)** الموحّدة مضمومة **(وعين)** مهملة بلفظ ينبع الماء. قال عَرّام بن الأصبغ السلمي هي عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر على ليلة من رضوي من المدينة على سبع مراحل وهي لبني حسن بن عليّ وكان يسكنها الأنصار وجُهينه رليث وفيها عيون عذاب غزيرة وواديها يَلْيَل وبها منبر وهي قرية غنّاء وواديها يصبُّ في غيقة، وقال غيره: **(ينبع)** حصن به نخيل وماء وزرع وبها وقوف لعليّ بن أبي طالب عليه السلام يتولاّها ولده، وقال ابن دُرَيْد: **(ينبع)** بين مكّة والمدينة، وقال غيره: **(ينبع)** من أرض تهامة غزاها النبيّ صلى الله عليه وآله فلم يلق كيداً وهي قريبة من طريق الحاج الشامي أخذ

اسمه من الفعل المضارع لكثرة ينابيعها، وقال الشريف بن سلمة بن عيّاش الينبعي: عددت بها مائة وسبعين عيناً، وعن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: أقطع النبيّ صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أربع أرضين الفقيران وبيرقيس والشجرة وأقطع عمر (ينبع) وأضاف إليها غيرها، انتهى ما في المعجم[1].

(**حجج**) أي سنوات جمع الحجّة أي السنة، (**بديمة**) وفي «**التهذيب**»: بدعة وهي (**بالعين**) المهملة عين قريب المدينة، (**غير أن زريقاً له مثل ما كتبت لأصحابه**) وفي «**التهذيب**»: غير أن رقيقها لهم مثل ما كتبت لأصحابهم، وفي أوّل كتاب الوقوف من «**التهذيب**» بإسناده عن ربعي بن عبد الله، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تصدَّق أمير المؤمنين عليه السلام بدار له بالمدينة في بني زريق فكتب: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم هذا ما تصدَّق به عليّ بن أبي طالب وهو حيّ سويّ تصدَّق بداره التي في بني زريق صدقة لاتباع ولا توهب حتى يرثها الله الذي يرث السماوات والأرض، وأسكن هذه الصدقة خالاته ما عشن وعاش عقبهنَّ فإذا انقرضوا فهي لذوي الحاجة من المسلمين، انتهى، وبني زريق بالتصغير بطن من الأنصار (**بادنيه**) وفي «**التهذيب**»: بأذينة.

(**والفقيرين كما قد علمتم**) وفي «**التهذيب**»: والقصيرة كما قد علمتم، وقال المجلسيّ رحمه الله في كتاب الوصايا من «**مرآة العقول**» (**ص ١٣٥ ج ٤ من الطبع الحجري**) قوله عليه السلام: العفرتين، وفي بعض النسخ الفقيرتين، وفي بعضها الفقرتين قال في تاريخ المدينة: موضعان بالمدينة يقال لهما الفقران، عن جعفر الصادق عليه السلام أقطع النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أربع أرضين الفقرين وبئر قيس والشجرة[2]، وقال: الفقير اسم حديقة بالعالية قرب بني قريظة من صدقة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال ابن شبه في كتاب عليّ عليه السلام: الفقير لي كما قد علمتم صدقة في سبيل الله؛ وأهل المدينة ينطقون مفرداً مصغراً. انتهى ما في «**المرآة**».

(**واجبة بتلةً**) بتقديم (**الباء**)، قال في القاموس: صدقة بتلة منقطعة عن صاحبها (**سرى الملك**) السريّ، النفيس والشريف، وفي نسخة «**التهذيب**»: شراء الملك (**ولد عليّ**) جمع الولد كأُسد وأسد.

قوله عليه السلام: (**فليبع إن شاء لا حرج عليه**) قال في «**مرآة العقول**»: ظاهره جواز اشتراط بيع الوقف متى شاء الموقوف عليه وهو خلاف ما هو المقطوع به في كلام الأصحاب إلاّ أن يحمل على أنه عليه السلام إنّما وهبها لهما وكتب الوقف لنوع من المصلحة قال: قال في الدروس: لو

---

(١) الغارات: ٢/ ٧٠١، ونهج السعادة: ٨/ ٤٤٤.

(٢) نهج السعادة: ٨/ ٤٣٦، ومكاتيب الرسول: ١/ ٣٣٢ ح ١٧٠.

شرط بيعه متى شاء أو هبته أو نقله بوجه من وجوه التملّك بطل.

قوله عليه السلام **(وإن حدث بحسن وحسين حدث ـ إلى قوله: يرضى به)** وفي **«التهذيب»**: وإن حدث بحسن وحسين حدث فإنّ الآخر منهما ينظر في بني عليّ فإن وجد فيهم من يرضى بهديه[١] وإسلامه وأمانته فإنّه يجعله إليه إن شاء وإن لم ير فيهم بعض الذي يريد فإنّه في بني ابني فاطمة فإن وجد فيهم من يرضى بهديه وإسلامه وأمانته فإنّه يجعله إليه إن شاء، وإن لم ير فيهم بعض الذي يريد فإنّه يجعله إلى رجل من آل أبي طالب يرضى به.

قوله عليه السلام: **(وأنّ مال محمّد بن عليّ على ناحية)** قال بعض شرّاح الحديث: يمكن أن يقرأ أنّ مشدّدة ويكون المراد أنّ مال محمّد بن الحنفيّة ليس داخلاً فيما سبق من أنّ ولد عليّ وأموالهم إلى الحسن، ولعلّه عليه السلام علم أنّه لم يتابع الحسن كباقي أولاده، أو أنّه لا يحتاج إلى معاونة الحسن لرشده وكمال عقله، ويمكن أن يقرأ **(إن)** المخففة ويكون المراد أنّ الأمر إلى الحسن والحسين عليهما السلام في جميع ما سبق وإن مال محمّد بن الحنفيّة إلى جانب ولم يرض بذلك. وقوله: وهو إلى ابني فاطمة أي النظر في الأُمور المذكورة إليهما وهي تأكيد لما سبق والله أعلم، انتهى كلامه.

قوله عليه السلام: **(كتبت لي عتقاء)** وفي **«التهذيب»**: كتبت عتقاء، بدون كلمة لي **(مسكن)** بكسر الكاف موضع من أرض الكوفة، كما في **«الصحاح»**، وقوله عليه السلام: **(هذا ما قضى به عليّ في ماله الغد من يوم قدم مسكن)** يعني أن ذلك كان في غد من يوم ورودنا وقدومنا الموضع الذي يقال له مسكن، أرّخ الكتابة وذكر الشهور وسائر الخصوصيات لأنّها توجب زيادة الوثوق بها.

قوله عليه السلام: **(أبو سمر)** في نسخة **«الكافي»** كان بالسين المهملة، وفي **«التهذيب»** بالمعجمة، وقال في **«مرآة العقول»**: قال ابن حجر في **«التقريب»** في حرف الشين المعجمة: أبو شمر بكسر أوّله وسكون الميم الضبعي المصري.

وليعلم أنّ في العتق فضلاً كثيراً وثواباً جزيلاً، والشارع تعالى جعل لعتق العبيد والإماء أسباباً عديدة لكي يخرج عباد الله عن الرقبة ويكونوا أحراراً، منها: التدبير، ومنها المكاتبة بقسميها، ومنها العتق في كفّارة، ومنها التحرير وهذه الأقسام تعمّهم، ومنها ما يخصّ الإماء وهو صيرورتهنّ أمّهات أولاد.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ الآية، وقد روى شيخ الطائفة في أوّل كتاب العتق من **«التهذيب»** بإسناده عن حفص بن البختري عن

---

(١) في نسخة: بهداه.

أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال في الرَّجل: يعتق المملوك قال: يعتق الله بكلّ عضو منه عضواً من النار، وقال: يستحب للرَّجل أن يتقرَّب عشية عرفة ويوم عرفة بالعتق وصدقة.

وبإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أعتق مسلماً أعتق الله العزيز الجبّار بكلّ عضو منه عضواً من النّار[1].

وبإسناده عن إبراهيم بن أبي البلاد، عن أبيه رفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أعتق مؤمناً أعتق الله العزيز الجبّار بكلّ عضو له[2] عضواً من النّار فإن كانت أُنثى أعتق الله العزيز الجبّار بكلّ عضوين منها عضواً من النّار لأنَّ المرأة نصف الرَّجل[3]، وغيرها من النصوص المرويّة في الجوامع الروائيّة من الفريقين.

(١) تهذيب الأحكام: ٨/٢١٦ ح ٧٦٩، ووسائل الشيعة: ٢٣/٩.
(٢) في نسخة: منه.
(٣) من لا يحضره الفقيه: ٣/١١٣ ح ٣٤٣٣، ووسائل الشيعة: ٢٣/١٣.

الترجمة

از جمله وصیّت امیرالمؤمنین (عليه السلام) است به آن چه که در اموال او عمل شود و این وصیّت را بعد از برگشتن از جنگ صفّین فرموده است:

این است آن چه که بنده خدا علی بن ابی طالب در مال خود برای طلب وجه الله فرموده و حکم کرده است تا خداوند وی را بدین کار به بهشت برد و امن و آسایش بخشد.

از جمله آن وصّیت اینکه: حسن بن علی باید متصدّی آن باشد و به مضمون وقف عمل نماید، از آن به وجه پسندیده و مطابق دستور شرع بخورد و ببخشد، پس اگر برای حسن پدیده مرگ پیش آمد و حسین زنده است باید حسین مانند او به انجام کار آن قیام کند و تولیت را در عهده بگیرد و همانا که برای این دو فرزند فاطمه (حسن و حسین) از مال وقف علی، مثل آن چیزی است که برای دیگر فرزندان علی است. یعنی باید همه از آن بهره ببرند نه این که چون صدقه و زکاة، بر حسن و حسین حرام باشد و یا آن دو را بر دیگری مزیّتی از این حیث باشد. و همانا که تولیت و تصدّی وقف را به دو فرزند فاطمه از جهت طلب وجه الله و تقرّب به رسول خدا و گرامی داشتن حرمت او و بزرگ داشت و تشریف به وصلت او قرار داده ام و آن که تولیت را عهده دار است باید که اصل مال را به هیچوجه منتقل نسازد و آن را به همانطور باقی بگذارد و درآمد و ثمره آن را مطابق دستور مصرف کند و باید که اولاد نخل را (نهال های ریزی که از ریشه درخت های بزرگ یا از خسته خرما می روید) نفروشد تا این که درخت ها بزرگ و انبوه شوند به حدّی که کثرت اشجار سبب اشتباه و عدم معرفت به حال سابق آن زمین شود.

و کنیزکانی که به آنها مباشرت کردم، آن که از من فرزندار یا باردار است باید از مال فرزندش که از ترکه من ارث می برد محسوب شود و آزاد گردد و اگر فرزندش مرد و خود زنده است، آزاد است.

ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات وإنما ذكرنا هنا جملا منها ليعلم بها أنه عليه السلام كان يقيم عماد الحق، ويشرع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها، ودقيقها وجليلها

انْطَلِقْ عَلى تَقْوَى اللّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَلا تَروعَنَّ مُسْلِماً، وَلا تَجْتازَنَّ عَلَيْهِ كارِهاً، ولا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللّهِ في مالِهِ، فَإِذا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخالِطَ أَبْياتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقارِ حَتى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ.

وَلا تُخْدِجْ بالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ثُمَّ تَقُولَ: عِبادَ اللّهِ أَرْسَلَني إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللّهِ وَخَليفَتُهُ لآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللّهِ في أَمْوالِكُمْ، فَهَلْ لِلّهِ في أَمْوالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلى وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قالَ قائِلٌ: لا. فَلا تُراجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ؛ فَخُذْ ما أَعْطاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ؛ فَإِنْ كانَ لَهُ ماشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلا تَدْخُلْها إِلا بِإِذْنِهِ فَإِنَّ أَكْثَرَها لَهُ فَإِذا أَتَيْتَها فَلا تَدْخُلْ عَلَيْها دُخولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلا عَنيفٍ بِهِ. وَلا تُنَفِّرَنَّ بَهيمَةً وَلا تُفْزِعَنَّها (وَلا تُفَزِّعَنَّها ـ معاً) وَلا تَسوءَنَّ صاحِبَها فيها.

وَاصْدَعِ الْمالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذا اخْتارَ فَلا تَعْرِضَنَّ لِما اخْتارَهُ. ثُمَّ اصْدَعِ الْباقِيَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذا اخْتارَ فَلا تَعْرِضَنَّ لِما اخْتارَ، فَلا تَزالُ بِذلِكَ حَتى يَبْقى ما فيهِ وَفاءٌ لِحَقِّ اللّهِ في مالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللّهِ مِنْهُ فَإِنِ اسْتَقالَكَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْها (اخْلِطْهُما ـ نسخة) ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الذي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتى تَأْخُذَ حَقَّ اللّهِ في مالِهِ.

وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَوْداً، وَلا هَرِمَةً، وَلا مَكْسورَةً، وَلا مَهْلوسَةً ذاتَ عَوارٍ، ولا تَأْمَنَنَّ عَلَيْها إِلا مَنْ تَثِقُ بِهِ، رافِقاً بِمالِ الْمُسْلِمينَ حَتّى تُوَصِّلَهُ (بالتاء والياء ـ معاً) إِلى وَلِيِّهِمْ فَتَقْسِمَهُ (بالياء نسخة) بَيْنَهُمْ، وَلا تُوَكِّلْ بِها إِلا ناصِحاً شَفيقاً وَأَميناً حَفيظاً غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلا مُجْحِفٍ وَلا مُلْغِبٍ وَلا مُتْعِبٍ.

ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللّهُ بِهِ، فَإِذا أَخَذَها أَمينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلا يَحُولَ بَيْنَ ناقَةٍ وَبَيْنَ فَصيلِها، وَلا يَمْصُرَ لَبَنَها فَيَضُرَّ ذلِكَ بِوَلَدِها، وَلا يَجْهَدَنَّها رُكوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَواحِباتِها في ذلِكَ وَبَيْنَها، وَلْيُرَفِّهْ عَلى اللاغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ والظّالِعِ، وَلْيُورِدْها ما تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ، ولا يَعْدِلْ بِها عَنْ نَبْتِ الأَرْضِ إِلى جَوادِّ الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْها فِي السّاعاتِ، وَلْيُمْهِلْها عِنْدَ النِّطافِ والأَعْشابِ، حَتّى يَأْتِينا بِإِذْنِ اللّهِ بُدْناً مُنْقِياتٍ، غَيْرَ مُتْعَباتٍ وَلا مَجْهوداتٍ، لِنَقْسِمَها عَلى

كِتابِ اللّهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَإِنَّ ذلِكَ أَعْظَمُ لأَجْرِكَ وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ اللّهُ[١].

اللغة

(ولا تروعن) من الروع بالفتح بمعنى الفزع، والكلمة مشكولة في أكثر النسخ بضمّ **(التاء)** وفتح **(الراء)** وكسر **(الواو)** المشدّدة من الترويع، وفي نسخة الرّضي بفتح **(التاء)** وضمّ **(الراء)** من الرَّوع كما اخترناها في المتن، ومعناها على الوجهين واحد ففي «**الصحاح**»: رُعتُ فلاناً وروَّعتُه فارتاع أي أفزعته ففزع.

(ولا تختارنَّ) **(بالخاء)** المعجمة **(والراء)** المهملة من الاختيار على نسخة الرّضي رضوان الله عليه، وفي نسخ **(تجتازنَّ)** **(بالجيم)** **(والزاي)** المعجمة من الاجتياز بمعنى السلوك من قولك جزت الموضعَ أجُوزه جَوازاً أي سلكته وسرت فيه.

(الحيّ) واحد أحياء العرب أصله من (ح ى و).

(تخدج) **(بالخاء)** المعجمة **(والجيم)**، قال ابن الأثير في «**النهاية**»: خدجت الناقة إذا ألقت ولدها قبل أوانه وإن كان تام الخلق وأخدجته إذا ولدته ناقص الخلق وإن كان لتمام الحمل؛ ومنه حديث سعد «أنه أتى النبيّ ﷺ بمُخدِجٍ سقيم» أي ناقص الخلق، ومنه حديث علي عليه السلام: «تسلّم عليهم ولا تخدج التحيّة لهم» أي لا تنقصها، انتهى، وقال الجوهريّ في «**الصحاح**»: وفي الحديث كلُّ صلاة لا يقرأ فيها بأُمّ الكتاب فهي خداج أي نقصان، وأخدجت الناقة إذا جاءت بولدها ناقص الخلق وإن كانت أيّامه تامّة فهي مُخْدِج والولد مُخْدَجٌ، ومنه حديث عليّ عليه السلام في ذي الثديه مُخدَج اليد أي ناقص اليد. انتهى.

(تخيفه) من الإخافة بمعنى التخويف وأصلها الخوف، يقال: وجعٌ مُخيفٌ أي يُخيفُ من رآه.

(توعده) من الإيعاد يستعمل في الشرّ، قال الجوهريّ في «**الصحاح**»: الوعد يستعمل في الخير والشرّ، قال الفرّاء يقال: وعدته خيراً، ووعدته شرّا، قال الشاعر:

ألا علّلاني كلّ حيّ معلّل ... ولا تَعِداني الشرَّ والخير مقبلٌ

فإذا أسقطوا الخير والشرَّ قالوا في الخير: الوعد والعدة وفي الشر: الإيعاد والوعيد، قال الشاعر:

وإنّي وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ١٩٣٤، ووسائل الشيعة: ٩/ ١٣٤.

(تعسفه) من العسف بمعنى الأخذ على غير الطّريق، كما في **«الصحاح»**، وقال ابن الأثير في **«النهاية»**: العسف: الجور، وفي الحديث: لا تبلغ شفاعتي إماماً عَسُوفاً أي جائراً ظالماً، والعسف في الأصل أن يأخذ المسافر على غير طريق ولا جادّة ولا علم، وقيل: هو ركوب الأمر من غير رويّة فنقل إلى الظلم والجور، انتهى.

(ترهقه) من الإرهاق، يقال: أرْهَقَهُ طغياناً أي أغشاه إيّاه، ويقال: أرْهَقَني فلانٌ إثماً حتى رهقته أي حمّلني إثماً حتّى حملته، قال أبو زيد: أرهقه عسراً أي كلّفه إيّاه، يقال: لا تُرْهِقْني لا أرهقك الله أي لا تعسرني لا أعسرك الله، قاله في **«الصحاح»**.

(الماشية) جمعها المواشي وهي اسم يقع على الإبل والبقر والغنم وأكثر ما يستعمل في الغنم، قاله في **«النهاية»**.

(عنيف به) العنف بالضمّ فالسكون ـ ضدّ الرفق تقول: منه عَنُفَ عليه بالضمّ وعَنُفَ به أيضاً، والعنيف الذي ليس له رفق بركوب الخيل والجمع عُنُق، قاله في **«الصحاح»**.

وفي **«النهاية»**: في الحديث إنّ الله يعطي على الرفق ما لا يعطى على العنف هو بالضمّ: الشدّة والمشقّة وكلّ ما في الرفق من الخير ففي العنق من الشرّ مثله.

(تنفّرن) نفرت الدابّة من كذا نفوراً ونفاراً من بابي نصر وضرب: جزعت وتباعدت فهي نافر ونفور ونَفّره جعله نافراً.

(لا تفزعنّها) أصلها من الفزع بمعنى الذُّعر، ورويت في نسخة الرّضي على وجهين بضمّ **(التاء)** وكسر **(الزاء)** من الإفزاع وبضمّ **(التاء)** وفتح **(الفاء)** وكسر **(الزاء)** المشدّدة من التفريع، والإفزاع بمعنى الإخافة والإغاثة من الأضداد وكذلك التفزيع، يقال: فزّعه أي أخافه، وفُزّع عنه أي كشف عنه الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي كشف عنها الفزع، قاله في **«الصحاح»**.

(واصدع) الصدع: الشق، **(استقالك)** الإستقالة طلب الإقالة أصلها من **(ق ي ل)**، يقال: أقالَه يُقيله إقالةً وتقايلاً إذا فسخا البيع وعاد المبيع إلى مالكه والثمن إلى المشتري إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما.

(عوداً) بفتح **(العين)** المهملة وسكون **(الواو)**، قال في **«الصحاح»**: العَوْد: المسنّ من الإبل وهو الذي جاوز في السنّ البازِل والمُخلفَ، وجمعه عِوَدَة، وقد عوَّد البعير، وفي المثل: إن جرجر العَود فزده وقراً، والناقة عَودةٌ، ويقال: راحم بَعودٍ أودَعْ أي استَعِنْ على حربك بأهل السنّ والمعرفة فإنّ رأي الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام، انتهى.

(هرمة) مؤنثة هَرِم من الهرم بالتسكين بمعنى كبر السنّ.

(مهلوسة) الهلاس بالضمّ السّلُّ وقد هلسه المرض يهلسه هلساً أي أضعفه ورجل مهلوس العقل أي مسلوبه، ويقال: السُلاس في العقل والهُلاس في البدن.

(عوار) قال في «**النهاية**» في حديث الزكاة: «لا يؤخذ في الصدقة هرمة ولا ذات عوار» العوار بالفتح: العيب وقد يضمّ.

(ملغب) فاعل من الإلغاب بمعنى الإتعاب والإعياء.

(أوعز إليه) وعز إليه في كذا أن يفعل أو يترك يعز وعزاً ـ من باب ضرب ـ تقدّم وأشار، وأوعز إليه إيعازاً بمعنى وعز إليه.

(الفصيل) ولد الناقة إذا فصّل عن أُمّه والجمع فُصلان الأصابع، قال ابن السُكيّت: المصر حَلَب كلّ ما في الضرع، والتَمَصُّر حلب بقايا اللّبن في الضرع.

وقال ابن الأثير في «**النهاية**»: وفي حديث عليّ عليه السلام «ولا يمصر لبنها فيضرّ ذلك بولدها» والمصر الحلب بثلاث أصابع يريد لا يكثر من أخذ لبنها.

(لا يجهدنّها) من الجهد بالفتح أي المشقّة يقال: جهد دابّته وأجهدها إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها.

(اللاغب) فاعل من اللّغوب بمعنى التعب والإعياء.

(ويستأن) من الأناة أصلها الوني يقال: استأنيتُ بكم أي انتظرتُ وتربّصتُ.

(النقب) يقال: نقب البعيرُ بالكسر إذا رقّت أخفافه، وقال ابن الأثير في «**النهاية**»: النَّقب: رقّة الأخفاف ومنه حديث عليّ عليه السلام: «ويستأن بالنقب والضالع» أي يرفق بهما ويجوز أن يكون من الجرب.

أقول: يعني أن يكون النقب مشتقاً من النقبة بالضمّ وهي أوّل ما يبدو من الجرب وقال في مادّة ظلع منها: الظلع بالسكون العرج وقد ظلع يظلع ظلعاً فهو ظالع، ومنه حديث الأضاحي: ولا العرجاء البيّن ظلعها، وفي حديث عليّ عليه السلام: وليستأن بذات النقب والظالع أي بذات الجرب والعرجاء، انتهى، وسيأتي البحث عن ذلك في المعنى.

(الغدر) بضمّتين جمع الغدير، وفي «**الصحاح**» الغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل وهو فعيل في معنى مُفاعَل من غادره، أو مُفعل من أغدره، ويقال: هو فعيل بمعنى فاعل لأنّه يغدر بأهله أن ينقطع عند شدة الحجة إليه، قال الكميت:

ومــن غــدره نــبــز الأوّلــون   إذ لــقــبــوه الــغــديــرَ الــغــديــرَ

والجمع غُدْران وغُدُر.

(جوادّ) بتشديد **(الدال)** جمع الجادَّة بتشديدها أيضاً بمعنى معظم الطّريق.

(النِّطاف) جمع النطفة بمعنى الماء الصافي قلّ أو كثر، وأما النطفة بمعنى ماء الرَّجل فجمعها نُطَف.

(الأعشاب) جمع العشب بالضمّ فالسكون وهو الكلاء الرطب.

(بدّنا) البدَّن كطُلّب جمع بادِن كطالب، يقال: بدن بَدناً وبُدناً من باب نصر إذا عظم بدنه بكثرة لحمه فهو بادن للمذكّر والمؤنث، وقد يقال في المؤنث بادنة، والبُدْن: السمن، والبدنة بالفتحات ناقة أو بقرة تنحر بمكّة سميّت بذلك لأنّهم كانوا يُسمِّنونها.

الإعراب

(على تقوى الله) متعلّق بمقدّر أي اذهب معتمداً على تقوى الله، مثلاً، **(وحده)** حال لله أي موحُداً، **(امض إليهم)** في بعض النسخ: امض عليهم **(بالتحية)** قرئت بالوجهين **(بالباء)** وعدمها **(صدعين)** مفعول مطلق عدديٌّ **(بذلك)** في أكثر النسخ: كذلك، وما في المتن مطابق لنسخة الرَّضي، **(ولا يمصر)** منصوب **(بأن)** لأنّه معطوف على قوله لا يحول أي أوعز إليه أن لا يمصر لبنها وفي سائر النسخ مجزومة وهي وَهم **(ركوباً)** بضمّ **(الراء)** وفتحها تميز **(منقيات)** وأخواتها صفات للبدن لأنّها تذكر وتؤنّث.

محتوى الجزء الثامن عشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

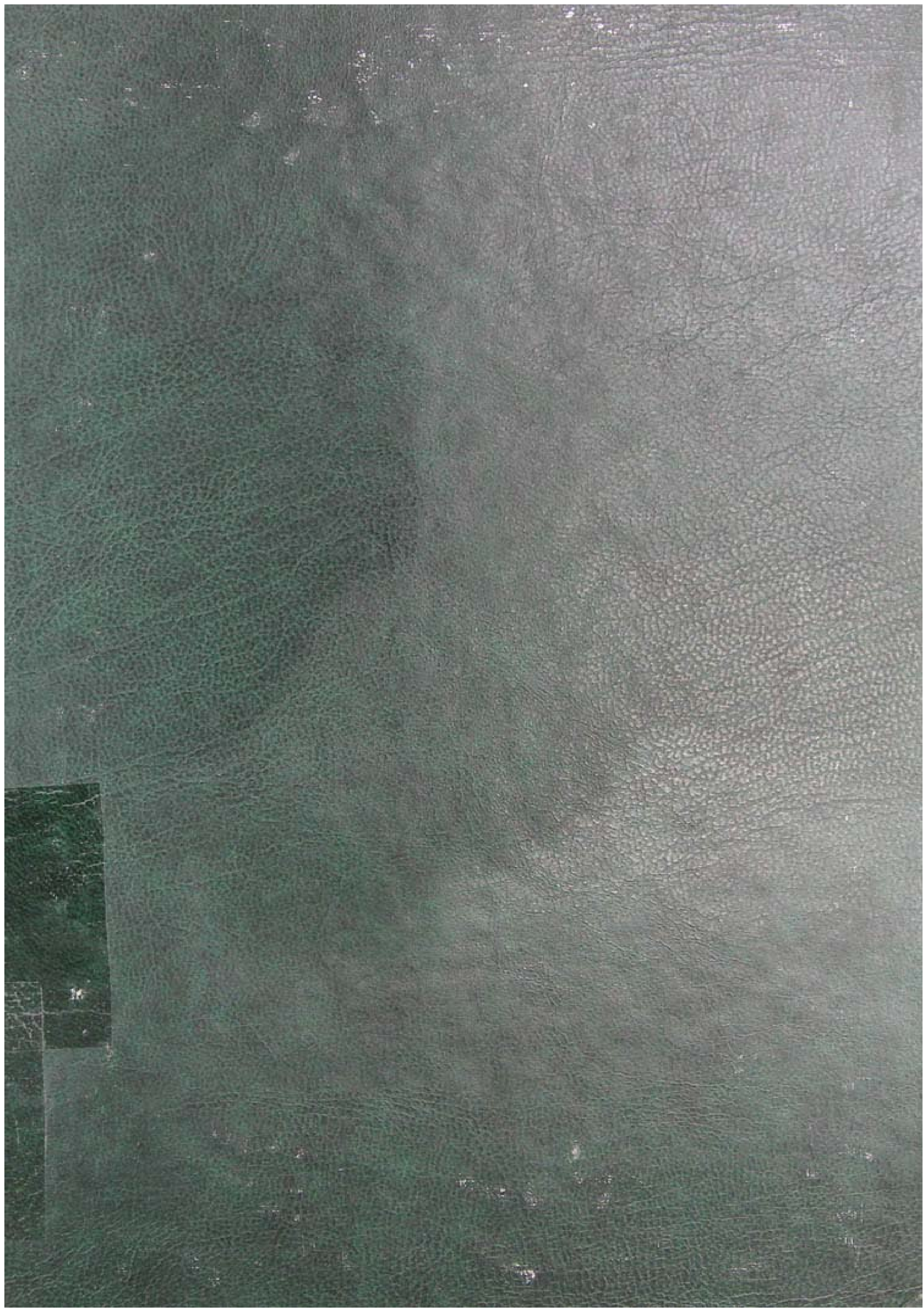

مِنهاجُ البَراعَةِ

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه
العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره
صنفها
الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لِمؤلِفـه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد التاسع عشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax. 850717 - 850623 P.O.Box, 7957, 11

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لوليّ النعم، ومنزل الكلم على قلوب من كرّم من بني آدم، وله الحمد على ما أولانا من مواهبه السنيّة الوافرة، ورزقنا من أيادي الأولى والآخرة، والصّلاة والسلام على مهبط كلماته ومقسّم هباته، واقف مواقف الشهود محمد المصطفى وآله أُمناء المعبود، ومظاهر أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأعلام الهدى، وعلى من تمسّك بذيل ولايتهم واقتفى بهديهم وهدايتهم.

وبعد، فيقول العبد الراجي لقاء ربه الكريم نجم الدين الحسن بن عبد الله الطبري الأملي المدعوّ بحسن زاده آملي رزقه الله وجميع المؤمنين الفناء في التوحيد، وهداهم إلى أمره الرّشيد السديد، وتغمّدهم بغفرانه ورضوانه: هذا هو السفر الخامس من تكملة منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، قد منّ الله علينا بما أجرى على القلم في شرح طائفة من كلمات وليّه الأعظم باب مدينة العلم وصيّ خير البشر، فينتهي به المنهاج إلى التاسع عشر، رب أنعمت فزد وآتنا من لدنك رحمة وهيّىء لنا من أمرنا رشداً.

اللهمَّ إن كانت بضاعتنا هذه وجيهة عندك، ولها ثمن وقدر وقيمة من جزيل ثوابك وسنيّ عطائك فاجعلها ذخراً لأساتذتي العظام الذين عطفت علينا قلوبهم ورزقتنا من مأدبة علومهم. اللهمَّ اجعل الغابرين عندك في أعلى علّيين، ومتّع الإسلام والمسلمين ببقاء الباقين آمين ربّ العالمين.

ثمَّ قد تأخر تأليف هذا المجلّد وطبعه ونشره لما أقبل في أثناء التأليف من تقبّلنا **«أصول الكافي»** لجعله معرباً مشكولاً وكان أمراً صعباً مشكلاً، فإنّه قد انجرّ الخلاص منه إلى قرب سنتين ونصف مع أنا قد بذلنا جهدنا فيه وأسهرنا أعيننا ليالي وأتعبنا أنفسنا متوالياً، وذلك الأمر وإن عوّق التكملة عن النشر لكن **«أصول الكافي»** بمنّ الله سبحانه وفضله قد برز اليوم على أحسن وجه يستقبل إليه العالم البصير ويشكره ويستنكف عنه الجاهل الضرير ويكفره، على أنّ الأمور مرهونة بأوقاتها، فلنعد إلى ما كنّا فيه فنقول متسعيناً من الله تعالى:

المصدر

روى هذه الوصيّة ثقة الإسلام الكليني رضوان الله عليه في باب أدب المصدّق من كتاب الزكاة من **«الجامع الكافي»** عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن حمّاد بن عيسى عن حريز، عن

بريد بن معاوية عن أبي عبد الله عليه السلام.

ورواه شيخ الطائفة الطوسي قدس سرّه في باب من الزيادات في الزكاة من «**التهذيب**» عن الكليني بذلك الإسناد، والكتابان من أصح الجوامع الروائيّة عند الإماميّة، ومن الكتب الأربعة المعتبرة عندهم عليها مدار استنباطهم وإليها مراجع اجتهادهم

ثمَّ إنَّ قول السّيد رحمه الله: «وإنما ذكرنا هنا جملاً منها» صريح في أنّه اختار منها فصولاً وحذف منها فصولاً، فالوصيّة طويلة ولكنّا لم نجدها بطولها مع طول الفحص وكثرة البحث في ما حضرنا من الجوامع الروائيّة وما أتى بها الكليني والشّيخ قريب مما في «**النهج**».

والعلاّمة المجلسي رحمه الله بعد نقلها من النهج في ثامن «**البحار**» (**٦٤٠ من الطبع الكمباني، في باب كتب أمير المؤمنين عليه السلام ووصاياه إلى عمّاله وأمراء أجناده**) وفي المجلّد العشرين منه (**في باب أدب المصدّق من كتاب الزكاة ص٢٤**). قال: أقول: أخرجته من «**الكافي**» في كتاب أحواله عليه السلام بتغيير ما رواه في كتاب الغارات عن يحيى بن صالح عن الوليد بن عمرو عن عبد الرّحمن بن سليمان عن جعفر بن محمد قال: بعث عليّ عليه السلام مصدقاً من الكوفة إلى باديتها، إلى آخر ما قال ونقل طائفة من الرواية.

ونقل الرواية من كتاب الغارات المحدث النوري رحمه الله في باب ما يستحبّ للمصدّق والعامل استعماله من الآداب من كتاب الزكاة من مستدرك الوسائل.

والرّوايات يخالف بعضها بعضاً فدونكها على نسختي «**الكافي**» و«**التهذيب**» ونجعل ما في «**التهذيب**» بين الهلالين.

قال الكليني بالإسناد المقدم ذكره عن بريد بن معاوية قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: بعث أمير المؤمنين صلوات الله عليه مصدِّقاً من الكوفة إلى باديتها فقال له: «يا عبد الله (**يا أبا عبد الله**) انطلق وعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ولا تؤثرنَّ دنياك على آخرتك وكن حافظاً لما ائتمنك عليه، راعياً لحقِّ الله فيك حتّى تأتي نادي بني فلان فإذا قدمت فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثمَّ امض إليهم بسكينة ووقار حتّى تقوم بينهم فتسلّم عليهم، ثم قل لهم: يا عباد الله أرسلني إليكم وليُّ الله لآخذ منكم حق الله في أموالكم فهل لله في أموالكم من حقّ فتؤدّون إلى وليّه (**فهل لله في أموالكم حق فتؤدُّوه إلى وليّه**) فإن قال لك قائل: لا، فلا تراجعه وإن أنعم لك منهم منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو تعده إلاّ خيراً، فإذا أتيت ماله فلا تدخله إلاّ بإذنه فإنّ أكثره له فقل له: يا عبد الله أتأذن لي في دخول مالك؟ فإن أذن لك (**أذن له**) فلا تدخل (**فلا تدخله**) دخول متسلط عليه فيه ولا عنف به فاصدع المال صدعين ثمَّ خيّره أيّ الصدعين شاء فأيّهما اختار فلا تعرّض له، ثمَّ اصدع

الباقي صدعين ثمَّ خيِّره فأيّهما اختار فلا تعرّض له ولا تزل كذلك حتّى يبقى ما فيه وفاء لحقّ الله تبارك وتعالى من ماله فإذا بقي ذلك فاقبض حق الله منه، وإن استقالك فأقله ثمّ أخلطها واصنع مثل الذي صنعت أوّلاً حتّى تأخذ حقّ الله في ماله فإذا قبضته فلا توكل به إلاّ ناصحاً شفيقاً أميناً حفيظاً غير معنف بشيء منها ثمَّ احدر كلّ ما اجتمع **(ثمَّ احدر ما اجتمع)**عندك من كل ناد إلينا نصيّره حيث أمر الله عزّ وجلّ فإذا انحدر بها رسولك فأوعز إليه أن لا يحول بين ناقة وفصيلها ولا يفرّق بينهما ولا يمصرّن **(وفي نسخة من «التهذيب»: ولا يمصّ لبنها)** فيضرّ ذلك بفصيلها، ولا يجهد بها ركوباً، وليعدل بينهنّ في ذلك، وليوردهنّ كلّ ماء يمرّ به، ولا يعدل **(ولا يبدل)** بهنّ عن نبت الأرض إلى جوادّ الطّريق **(الطرق)** في الساعة الّتي تريح وتغبق، وليرفق بهنّ جهده حتّى يأتينا بإذن الله سحاحاً سماناً غير متعبات ولا مجهدات فيقسّمهنّ بإذن الله على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ على أولياء الله فإنّ ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك ينظر الله إليها وإليك وإلى جهدك ونصيحتك لمن بعثك وبعثت في حاجة فإنّ رسول الله ﷺ قال: ما ينظر الله إلى وليّ له يجهد نفسه بالطاقة والنصيحة له ولإمامه **(والنصيحة لإمامه)** إلاّ معنا في الرفيق الأعلى، قال: ثمَّ بكى أبو عبد الله عليه السلام ثمَّ قال: يا بريد لا والله **(يا بريد والله)** ما بقيت لله حرمة إلاّ انتهكت ولا عمل بكتاب الله، ولا سنة نبيّه في هذا العالم، ولا أُقيم في هذا الخلق حدّ منذ قبض الله أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، ولا عمل بشيء من الحقّ إلى يوم الناس هذا. ثمَّ قال: أما والله لا تذهب الأيّام والليالي حتّى يحيي الله الموتى ويميت الأحياء ويردّ الله الحقَّ إلى أهله ويقيم دينه الذي ارتضاه لنفسه ونبيّه فابشروا ثمَّ ابشروا فوالله ما الحقُّ إلا في أيديكم»[١].

والرّواية على نسخة كتاب الغارات على ما في **«المستدرك»** تنتهي إلى الرفيق الأعلى ولم ينقل بعده، وهي توافق النسختين المذكورتين تقريباً.

وروى شطراً منها الشيخ قدس سرّه في المسألة ٢٦ من زكاة **«الخلاف»** هكذا: أنزل ماءهم من غير أن تخالط أبياتهم ثمَّ قل: هل للّه في أموالكم من حقّ؟ فإن أجابك مجيب فامض معه، وإن لم يجبك فلا تراجعه. انتهى. واحتمال النقل من حيث المعنى بعيد، ثمّ حرفت كلمتا مائهم وأبياتهم في النسخ المطبوعة من **«الخلاف»** بمالهم وأموالهم.

المعنى

قد أوصى عليه السلام من يستعمله على جباية الصدقات بأمور يراعي بعضها في حقّ نفسه، وبعضها في الرَّعيّة، وبعضها في الأنعام، ويستفاد منها أحكام عديدة فقهيّة وآداب كثيرة

---

(١) الكافي: ٣/٥٣٨، وبحار الأنوار: ١٢٧/٤٠١، وتهذيب الأحكام: ٤/٩٧.

أخلاقية اجتماعية، وقوانين عدليّة حقّة إلهيّة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وهذا هو السلطان العادل الذي كان ظلّ الله تعالى في أرضه، ولله درُّ الرَّضي قائلاً: وليعلم بهاأنه عليه السلام كان يقيم عمّاد الحقّ ويشرع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها ودقيقها وجليلها، ولا ريب أنّ السياسة إذا كانت بيده من يقوم مقامه ويجلس مجلسه ويجري أوامره ممّن حاز هذه الرتبة العظمى والدرجة العليا كان الزمان نورانياً، وإذا خلى الزمان عن تدبير مدبّر إلٰهى كانت الظلمات غالبة.

قوله عليه السلام: **(انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له)** كان من دأبه عليه السلام في أكثر وصاياه أن يصدرها بالأمر بتقوى الله، وقد مضى الكلام في ذلك في شرح المختار الثّاني عشر فراجع.

قوله عليه السلام: **(ولا تروعنَّ مسلماً)** لما جعله عليه السلام والياً على جباية الصدقات والولاية إمارة توجب البغي والطغيان على النّاس إلاّ والياً عصمه الله تعالى عن اتباع الهوى، نهاه عن أن يفزع مسلماً. وقد ذاق المسلمون فزعاً شديداً مرّة بعد مرّة في أمارة الثالث حتّى ضاق عليهم العيش فأجمعوا على قتله وقتلوه.

قوله عليه السلام: **(ولا تختارنّ عليه كارهاً ـ الخ)** أي لا تختارنّ على المسلم أمراً يكرهه بل ارفق به وخيّره فيه وكأنَّ هذا الكلام توطئة لما سيأتي في وصيّته له: واصدع المال صدعين ثمَّ خيّره الخ، وإن كان مفهومه أعمّ منه يشمل النهي عن الاختيار عليه كلّ ما يكرهه.

هذا على نسخة الرّضي، وأما على نسخة أخرى ـ أعني تجتازنّ بالجيم والزاى المعجمة ـ فمعناه لا تسلك ولا تسر على أرض المسلم أو ماله أو بيته ونحوها يكره مرورك بها، فكلمة: كارهاً، على الأول منصوب على المفعولية، وعلى الثّاني منصوب على الحال من الضمير المجرور، والمراد من حقّ الله الزكاة.

وهذا هو الملك العادل الإلهي ينهى عامله عن أن يمرّ ببيوت أحد من المسلمين يكره مروره بها وإن كان المسلم من رعاة الأغنام ومن أهل البادية من طبقة أنزل العوام وما هذا إلاّ أدب الله وأدب رسوله، وأين هذا من ملك ينتحل إلى الإسلام ويأمر عمّاله أن يجتازوا على أحبار الأمّة وحملة القرآن ليلاً وينهبوا بيوتهم اغتيالاً، وينفوهم من أوطانهم ويميلوا عليهم ميلاً، والقرآن الفرقان ينادي بأعلى صوته: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٨، ٢٩].

وفي تفسير «**الدر المنثور**»: أخرج ابن شيبة والحكيم الترمذي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله أرأيت قول الله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النُّور: الآية ٢٧] هذا التسليم قد عرفناه فما الاستئناس؟ قال: يتكلّم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت[١].

وفي تفسير «**مجمع البيان**»: روي أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أستأذن على أمّي؟ فقال: نعم، قال: إنّها ليس لها خادم غيري أفأستأذن عليها كلّما دخلت؟ قال: أتحبّ أنْ تراها عريانة؟ قال الرجل: لا، قال: فاستأذن عليها[٢].

قوله عليه السلام: (**فإذا قدمت على الحيّ فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم الخ**). وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام كما في المجلّد العشرين من «**البحار**» «ص٢٣ من الطبع الكمباني» أنه قال: يؤخذ صدقات أهل البادية على مياههم ولا يساقون. يعني لا يساقون من مواضعهم الّتي هم فيها إلى غيرها. وهذا أدب آخر غير ما في النهج، وأمّا ما في النهج فمعناه أنه عليه السلام أمره أن لا يخالط بيوتهم ابتداءً بل ينزل بمياهم أولاً ثمّ يمضِ إليهم بالسكينة والوقار.

أمره بالنزول بمائهم لأنّ من عادة عرب البادية بل من عادة غير العرب من أهل البادية أيضاً أن تكون مياههم بارزة عن بيوتهم، ولا ريب أن الإنسان يكره أن يخالط غيره بيته على حين غفلة من أهله وذلك لتنفر الطباع الإنسانيّة عن أن يطلع الغير على أسراره وبواطن أحواله.

على أنّ النزول كذلك يوجب خوف النسوان وفزع الأطفال ولذا أردفه أن يقدم عليهم بعد النزول بمائهم بالسكينة والوقار ويسلّم عليهم تحيّة كاملةً قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النُّور: ٦١] وقال ﷺ: السّلام اسم من أسماء الله فافشوه بينكم، الخبر[٣].

وبالجملة أنّ تلك الأمور توجب تأليف قلوبهم، وعدم نفارهم من أداء حقّ الله في مالهم، وفوائد كثيرة أُخرى لا تخفى على أولي النهى.

قوله عليه السلام: (**ثمّ تقول: عباد الله الخ**) أمره أن يرفق بالرعيّة في أخذ حقّ الله في أموالهم بأن يقول: أرسلني إليكم وليُّ الله وخليفته لأخذ منكم حقّ الله في أموالكم، وفي الكلام ملاطفة لطيفة توجب استيناسهم وذلك لأنّ وليّ الله وخليفته لا يظلم أحداً ولا يعدل عن الحقّ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩١، والدر المنثور: ٥/ ٣٨.
(٢) تفسير مجمع البيان: ٧/ ٢٣٧، والتفسير الصافي: ٣/ ٤٢٨.
(٣) تحف العقول: ١١٥، وبحار الأنوار: ٧٣/ ٢.

مثقال ذرّة، ولا يسلط ظالماً على أحد من آحاد الرعيّة.

ثمّ أمره أن يسألهم هل تعلّقت بأموالهم زكاة فيؤدُّوه إلى وليِّ الله أم لا؟ فإن قال قائل من ربّ المال: لا، فلا يراجعه بل ينصرف عنه لأنّ القول قول ربّ المال ما لم يعلم كذبه والأصل يعاضده، ولأنّها عبادة يقبل قوله فيها فلا يفتقر أداؤها إلى اليمين كغيرها من العبادات، ولأنّه أمين، ولأنّ له ولاية الإخراج فيكون قوله مقبولاً كالوكيل، ونحوه رواية غياث بن إبراهيم: كان عليٌّ عليه السلام إذا بعث مصدِّقه قال: إذا أتيت على ربّ المال فقل له: تصدَّق رحمك الله ممّا أعطاك الله، فإن ولي عنك فلا تراجعه. انتهى. فلو قال ربّ المال: لم يحل على مالي الحول أو قد أخرجت ما وجب عليّ أو تلف ما ينقص تلفه النصاب أو لا حقّ عليّ أو أنَّ المال عندي وديعة أو نحو ذلك، قُبِل منه ولم يكن عليه بيّنة ولا يمين كما أنّه عليه السلام أمر عامله بقبول قول ربّ المال ولم يأمر باستظهار ولا باليمين، وإليه ذهب فقهاؤنا الإمامية فراجع إلى زكاة الشرائع والقواعد وشروحهما وإلى «**خلاف**» الشيخ و«**منتهى**» العلاّمة.

(وإن أنعم لك منعم أي إن قال: نعم في مالي زكاة فانطلق معه من غير أن تخيفه الخ) وفي المقام روايات أنيقة في باب أدب المصدِّق من «**البحار**» (ص٢٢ ج٢٠).

قوله عليه السلام: **(فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة)** يمكن أن يستفاد من هذا الكلام جواز إخراج الزكاة من قيمة الأنعام ذهباً وورقاً كما يستفاد منه جواز إخراج قيمة الغلات كذلك بل أيّ شيء كانت القيمة لأنّ ذكر قيمة خاصّة لا يخصّها بها كما لا يخفى، والمقصود من الزكاة دفع حاجة الفقير وكما يحصل بدفع العين فكذا يحصل بدفع القيمة حتى أن العلامة قال في «**المنتهى**»: إذا كان البعير بقيمة الشاة فأخرجه أجزاءً عندنا وعند الشافعي، أما نحن فللمساواة في القيمة الخ، وقال في البحث السابع من المقصد الثّاني من زكاة «**المنتهى**»: يجوز إخراج القيمة في الزكاة سواء كان ما وجبت الزكاة فيه ذهباً أو فضة أو أحد الحيوانات وهو اختيار الشّيخ رحمه الله وأكثر علمائنا، انتهى. وقال في «**القواعد**»: يجوز إخراج القيمة في الأصناف التسعة والعين أفضل.

وقد قسم المفيد ـ رحمه الله ـ كما في «**المختلف**» للعلامة ـ قدّس سرّه ـ الأموال إلى الأنعام وغيرها ومنع من إخراج القيمة في الأوّل إلاّ أن تعدم الأصناف المخصوصة كما في المعتبر للمحقّق قدّس سرّه، وسوّغه في الثّاني فإنّه الظاهر من كلام ابن الجنيد فإنه قال: ولا بأس بأن يخرج عن الواجب من الصدقة والحقِّ في أرض العنوة ذهباً وورقاً بقيمة الواجب يوم أخذه. ويردّهما قوله عليه السلام هذا، وإطلاق روايات أخرى مذكورة في محلّها.

بل يستفاد من إطلاقها جواز إخراج القيمة في الزكوات كلّها وفي الفطرة أيّ شيء كانت القيمة. وقال الشافعي وأصحابه: إخراج القيمة في الزكاة لا يجوز وإنما يخرج المنصوص

عليه ولفقهاء العامّة في المقام وجوه أخرى من الاختلاف فراجع إلى المسألة ٥٨ من زكاة «**خلاف**» الشّيخ.

ثمّ إنّ قوله عليه السلام (**فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة**) يفيد جواز الإخراج من القيمة فهل يعتبر قيمة وقت تعلق الزكاة بالمال، أو قيمة يوم أخذها، أو يقيد ذلك بما إذا لم يقوم المالك الزكاة على نفسه؟ ولو قومها على نفسه وضمن القيمة فالواجب هو ما ضمنه زاد السوق قبل الإخراج أو انخفض والبحث مشبعاً موكول إلى الفقه.

ولقائل أن يقول: إنّ قوله عليه السلام: (**فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلاّ بإذنه ـ الخ**)، ظاهر في أنّه جعل زكاة الأنعام مقابل غيرها من الزكوات فجوّز إخراج القيمة في الأولى دون الثانية ولم يشعر كلامه في الثانية إلى جواز إخراج القيمة أصلاً بل يظهر منه خلافه كما ذهب إليه المفيد رحمه الله وغيره.

ولكن يجاب عنه بأنّ إطلاق قوله عليه السلام (**فهل لله في أموالكم من حق**) يشمل القسمين كليهما وكذلك إطلاق قوله: (**فخذ ما أعطاك من ذهب وفضة**)، وقوله: (**فإن كان له ماشية أو إبل ـ الخ ـ**) يفسّر أحد القسمين أعني زكاة الأنعام كما هو الظاهر من كلمة (**الفاء**) على هذا التقدير أي إن أعطاك زكاة الأنعام من جنسها من المواشي والإبل فحكمها كذلك، ويجب أن تكون سيرتك فيها كذلك فليتأمل جيّداً.

ثمّ إنّ الماشية والإبل تعمّ أنواعهما من معز وضأن وبقر وجاموس وعراب وبخاتي ولا تشمل الماشية البغال والحمير والرقيق والخيل فلا يجب فيها الزكاة بل ولا يستحب في الثلاثة الأُولى وإنما يستحب في إناث الخيل السّائمة فقط من كلّ عتيق ديناران وعن كلّ برذون دينار واحد. وكذا لا تشمل بقر الوحش لأنّها تنصرف بإطلاقها إلى الأهليّة، وخالف فيه بعض العامّة فراجع إلى المسألة ٦٢ من زكاة «**الخلاف**»، وإلى زكاة «**المنتهى**».

قوله عليه السلام: (**فإنّ أكثرها له ـ الخ**) علّل إذنه بأنّ أكثر الماشية والإبل له. وأفاد الفاضل الشارح المعتزلي بأن قوله: (**فإنّ أكثرها له**) كلام لا مزيد عليه في الفصاحة والرئاسة والدين وذلك لأنّ الصدقة المستحقة جزء يسير من النّصاب والشريك إذا كان له الأكثر حرم عليه أن يدخل ويتصرّف إلاّ بإذن شريكه فكيف إذا كان له الأقلّ، انتهى.

أقول: كلام الأمير عليه السلام هذا ظاهر في أنّ الزّكاة تجب في عين المال لا الذّمة، كما أنّ قوله عليه السلام: (**وأصدع المال صدعين ثمّ خيّره**) ـ الخ ـ ظاهر أيضاً في أنّ الخيار إلى ربّ المال لا إلى السّاعي أعني أنّ ربّ المال مخيّر في أن يعيّن ذلك في أيّ جزء شاء كما ذهب إليهما شيخ الطائفة قدّس سرّه في زكاة «**الخلاف**» (**مسألة ٢٨**) ونصّ بالأوّل العلاّمة في «**القواعد**»

والمحقّق في «**الشرائع**» والمعتبر بقولهما: الزّكاة تجب في العين لا في الذمّة والروايات الأخرى صريحة أيضاً بأنّ الفريضة تتعلق بالأعيان لا بالذمّة والأصل براءة الذمّة. وهو المشهور من الإماميّة بل لم ينقل الخلاف فيه صريحاً عن أحد منهم بل ادّعى غير واحد منهم الإجماع عليه.

ثمّ المراد بوجوبها في العين تعلقها بها أعني أنّ العين هي مورد هذا الحقّ لا الذّمة، لا وجوب إخراج الزكاة منها لما علمت آنفاً من جواز إخراج القيمة في الزّكوات كلّها. وفي المقام بحث فقهيّ أتى به صاحب «**الجواهر**» رحمه الله في زكاة الجواهر، والفقيه الهمداني رحمه الله في كتاب الزّكاة من «**مصباح الفقيه**». أعرضنا عنه خوفاً للإطناب ولخروجه عن موضوع الكتاب، فليرجع الطالب إليهما.

قوله عليه السلام: (**واصدع المال صدعين ـ الخ**) ثمّ علّم السّاعي كيفية استخراج الزّكاة من المال وأمره أن يفرّقها فرقتين ويخيّر ربّ المال في اختيار إحدى الفرقتين وأن لا يتعرّض لما اختار وهكذا إلى أن يبقى منها مقدار حقّ الله فيها. ثمّ أمره بتسهيل الأمر له وعدم تشديده عليه بقوله (**فإن استقالك فأقله**) ثمّ أمره أن يستأنف العمل رأساً بعد الإقالة بأن يخلط المال ثمّ يصدعه صدعين ويخيّره في اختيار أيّ شقين شاء، ثمّ يقسّم الشق الباقي قسمين وهكذا إلى أن ينتهي أحد الصدعين إلى مقدار الواجب من حقّ الله فيقبض.

قال الشّيخ رحمه الله في المسألة ٢١ من زكاة «**الخلاف**»: يفرق المال فرقتين ويخيّر ربّ المال ويفرق الآخر كذلك ويخيّر رب المال إلى أن يبقى مقدار ما فيه كمال ما يجب عليه فيؤخذ منه، وقال عمر بن الخطّاب: يفرق المال ثلاث فرق يختار ربّ المال واحدة منها ويختار السّاعي الفريضة من الأخرى، وقال الشافعي: لا يفرق المال، ذكر ذلك في القديم، دليلنا إجماع الفرقة والخبر المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما قاله لعامله عند توليته إياه ووصّاه به وهو معروف. انتهى.

ثمّ إنّ إطلاق كلامه عليه السلام في خيار رب المال في إخراج الفريضة من أيّ صدعين شاء يقتضي عدم الفقر في جواز الإخراج من أحد الصدعين بينما إذا تساوت قيمتهما أو اختلفت، وبهذا التعميم جزم غير واحد من الإمامية منهم العلاّمة في جملة من كتبه كما حكي والمحقّق في «**المعتبر**» و«**الشرائع**» حيث قال فيه: والمالك بالخيار في إخراج الفريضة من أيّ الصّنفين شاء. وقال صاحب «**المدارك**»: وهو متّجه لصدق الامتثال بإخراج مسمّى الفريضة وانتفاء ما يدلّ على اعتبار ملاحظة القيمة مطلقاً كما اعترف به الأصحاب في النوع المتّحد. انتهى[1].

---

(١) شرائع الإسلام: ١/٣١١، ومسالك الأفهام: ١/٣٨٠.

ثمَّ يستفاد من كلامه عليه السلام: **(واصدع المال صدعين)** الخ. فرع فقهي آخر كما ذكره العلامّة في **«المنتهى»** (ص٤٨١) في زكاة الإبل واستشهد بهذا الكلام حيث قال: لو اجتمع في مال ما يمكن إخراج الفريضتين كالمائتين يعني المائتين من الإبل يتخيّر المالك ذهب إليه علماؤنا إن شاء أخرج الحقاق الأربع، وإن شاء أخرج خمس بنات لبون ـ ثمَّ نقل أقوال العامّة فيه إلى أن قال: لنا ما رواه الجمهور في قول النّبي عليه السلام في كتاب الصدقات: فإذا كانت مائتين ففيها أربع حقاق أو خمس بنات لبون أيّ الصّنفين وجدت أخذت. وقوله عليه السلام لمعاذ: إياك وكرائم أموالهم. ومن طريق الخاصّة ما رواه الشّيخ في الحسن عن بريد بن معاوية قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: بعث أمير المؤمنين عليه السلام مصدِّقاً من الكوفة إلى باديتها ـ فنقل الرّواية بكمالها ثمَّ قال بعده: ولأنّ الامتثال يحصل مع إخراج المالك، أيّ النّصفين شاء فيخرج به عن العهدة، ولأنّها زكاة ثبت فيها الخيار فكان ذلك للمالك ـ الخ.

قوله عليه السلام: **(ولا تأخذنّ عوداً ـ الخ)** ثمَّ نهى عليه السلام السّاعي عن أن يأخذ في الفريضة تلك المعيبات الخمس. قد علمت في بيان اللّغة أنّ العود المسنّ من الإبل وهو الّذي جاوز في السنّ البازل والمخلف. والهرم هو كبر السنّ. وفي **«منتهى الأرب»**: يقال: جمل بازل وناقة بازل ـ وأين درسال نهم باشد ـ وليس بعده سنٌّ يسمّى ويقال بعد ذلك بازل عام وبازل عامين. مخلف كمحسن: شتركه ازنه سالگي در كذشته باشد. عود: كلانسال ازشتر وكوسپند، هرم ككتف: نيك پيرخرف.

قال العلاّمة قدّس سرّه في زكاة **«المنتهى»** (ص٤٨٥ ج١): مسألة: ولا يؤخذ المريضة من الصحاح ولا الهرمة من غيرها ولا الهرمة الكبيرة ولا ذات العوار من السليم وذات العوار هي المعيبة ولا نعلم فيه خلافاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٧]. وروى الجمهور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لا يؤخذ في الصدقة هرمة ولا ذات عوار ولا تيس إلاّ أن يشاء المصدّق[١].

ومن طريق الخاصّة ما رواه الشّيخ في الصحّيح عن محمد بن قيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ولا يؤخذ هرمة ولا ذات عوار إلاّ أن يشاء المصدّق[٢]، ولأنّ في ذلك ضرراً للفقراء. انتهى.

أقول: قوله رحمه الله: **(ولا الهرمة من غيرها ولا الهرمة الكبيرة)** يشير إلى قوله عليه السلام: ولا تأخذن عوداً ولا هرمة. والمشهور في المصدّق بكسر الدّال وذكره الخطائي بفتحها، قال: وكان أبو عبيد يرويه إلاّ أن يشاء المصدَّق بفتح الدّال يريد صاحب الماشية، أفاده ابن الأثير

(١) مكاتيب الرسول: ٢/ ٢١٧، والسنن الكبرى: ٢/ ١٤.
(٢) الاستبصار: ٢/ ٢٣ ح٦٢، وتهذيب الأحكام: ٤/ ٢١.

في النهاية، والطريحي في «**المجمع**» والنّراقي ـ قدّس سرّه ـ في «**المستند**» ثمّ قال: واحتمله ـ يعني فتح الدّال ـ في الذّخيرة.

أقول: لكن الصّواب هو الأوّل كما عليه المشهور فإنّ المراد من قول النبي ﷺ وصحيحي أبي بصير ومحمد بن قيس: إلاّ أن يشاء المصدّق، أنّ تلك المعيبات لا تؤخذ في الفريضة إلاّ أن يقبلها المصدّق لأنّ العاملين على الزّكاة من الأصناف الثمانية من مستحقي الزّكاة قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠] فهو يكون مستحقاً للزّكاة فيعطيها الصّحيح من الماشية والإبل وليس في ذلك ضرر للفقراء فالرّوايات قائلة بجواز أخذ تلك المعيبات مع مشيئة المصدّق بمعنى قبوله إيّاها له، وكيف يصحّ حمل الرّواية على معنى إلاّ أن يشاء صاحب الماشية مع أنّ قوله في ذلك لا يسمع والأصحاب صرّحوا من غير ذكر خلاف بل ادّعوا الإجماع عليه أنّه لا يكفي في الفريضة المريضة من الصحاح والهرمة من الفتيات وذات العوار من السليمة مضافاً إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

على أنّ إطلاق المصدّق بالكسر على السّاعي الّذي يأخذ الفريضة ممّا أجمعت عليه أئمّة اللّغة وعامّة الرواة. وقال ابن الأثير في «**النهاية**»: وخالف أبا عبيد عامّة الرواة فقالوا: بكسر الدّال وهو عامل الزّكاة الّذي يستو فيها من أربابها يقال: صدّقهم يصدّقهم فهو مصدّق.

وفي «**الكافي**» في باب آداب المصدّق بإسناده عن محمد بن خالد أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن الصّدقة، فقال: إنّ ذلك لا يقبل منك، فقال: إنّي أحمل ذلك في مالي. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: مر مصدّقك أن لا يحشر من ماء إلى ماء. الحديث.

وفي ذلك الباب منه أيضاً بإسناده عن حريز، عن محمد، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل: أيجمع الناس للمصدّق أم يأتيهم على مناهلهم؟ قال: لا بل يأتيهم على مناهلهم فيصدّقهم[(١)].

وفيه أيضاً بإسناده عن غياث بن إبراهيم، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام قال: كان عليٌّ عليه السلام إذا بعث مصدّقه قال: إذا أتيت على ربّ المال فقل له: تصدّق رحمك الله ممّا أعطاك الله، فإن ولي عنك فلا تراجعه[(٢)].

---

(١) الكافي: ٣/٥٣٨ ح٢، ووسائل الشيعة: ٩/١٢١ ح١١٦٧٩.

(٢) الكافي: ٣/٥٣٨ ح٤، ووسائل الشيعة: ٩/١٣٢.

وقال الجوهري في «**الصحاح**»: المصدِّق الّذي يصدُقك في حديثك والّذي يأخذ صدقات الغنم، والمتصدِّق الّذي يعطي الصّدقة. وفي «**أساس البلاغة**» للزمخشري: أخذ المصدِّق الفريضة، قال:

ودّ المصدِّق من بني عبرٍ أنّ القبائل كلّها غَنم

وفي «**منتهى الارب**»: تصديق: راستگوداشتن كسيرا وصدقات گرفتن مصدِّق كمحدِّث صدقات گيرنده نعتست از آن.

فبما قدّمنا علم أيضاً أنّ ضبط المصدِّق في الرّواية كما ذهب إليه أبو موسى على ما في «**النهاية**» الأثيريّة على تشديد الصاد والدال معاً وكسر الدّال بمعنى صاحب المال وأصله المتصدق فأدغمت التاء في الصاد، ليس بصواب أيضاً.

قال قطب الدّين الراوندي رحمه الله تعالى ـ على ما نقله عنه الشارح البحريني رحمه الله أنه كان يأمر بإخراج كلّ واحد من هذه الأصناف المعيبة من المال قبل أن يصدع بصدعين. انتهى.

وقال الشارح المعتزلي: وينبغي أن تكون المعيبات الخمس وهي المهلوسة والمكسورة وأخواتهما يخرجها المصدِّق من أصل المال قبل قسمته وإلاّ فربّما وقعت في سهم المصدِّق إذا كان يعتمد ما أمره به من صدع المال مرّة بعد مرّة. انتهى[1].

أقول: إذا كان أخذ تلك المعيبات في الفريضة منهياً عنه فهي خارجة عن الفريضة رأساً سواء أُخرجت قبل صدع المال أو بعده نعم إخراجها قبل الصدع تسهيل للأمر وإلاّ فليس هو أحد الأحكام أو الآداب المعتبرة في الزكاة كما لم يتعرض عليها أحد من الفقهاء في الكتب الفقهية.

ثمّ إنَّ للإمام أن يستأجر الساعي بأجرة معلومة مدة معلومة وأن يجعل له جعالة على عمله إذا أوفى العمل دفع إليه العوض فلم يكن له في هذا الوجه أخذ شيء من الصدقات، وأمّا في غير هذا الوجه فربما لم تقع الفريضة في سهمه بل تقع في سهم الفقراء فلو يخلو في كلام الشارح المعتزلي وإلاّ فربّما وقعت في سهم المصدِّق من دغدغة، لأنّ كلامه ينبيء أنّ النهي عن أخذ المعيبات الخمس في الفريضة يكون من حيث وقوعها في سهم المصدِّق، وقد علمت تحقيق القول فيه.

---

(١) شرح النهج: ١٥/ ١٥٥.

ثمّ إنه هل يجوز للهاشمي أن يكون عاملاً؟ منع أصحابنا الإماميّة من ذلك لأنّ ما يأخذه زكاة وهي محرّمة عليهم ولمّا سأل الفضل بن العباس والمطّلب بن ربيعة النبيَّ ﷺ أن يوليهما العمالة قال لهما: الصّدقة أوساخ الناس وإنها لا تحلُّ لمحمّد وآل محمد، كما في «**المنتهى**»، وفي صحيحة العيس بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ أناساً من بني هاشم أتوا رسول الله ﷺ فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي، وقالوا: يكون لنا هذا السهم الّذي جعله الله عزَّ وجلَّ للعاملين عليها فنحن أولى به، فقال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطّلب إنَّ الصدقة لا تحلُّ لي ولا لكم ولكني قد وعدت الشفاعة[١].

وقال الشيخ قدّس سرّه: هذا مع تمكّنهم من الخمس أمّا مع قصورهم فيجوز لهم.

أقول: مرادهم من عدم جواز كون الهاشمي عاملاً إذا لم تكن الزكاة من الهاشميّين لأنَّ زكاة غير الهاشميّين محرَّمة على بني هاشم لا مطلق الزكاة، كما في زكاة الفطرة.

قال العلاّمة في «**المنتهى**»: قد وقع الخلاف بين الفقهاء في وجه استحقاق العاملين على الزكاة، فعندنا أنه يستحق نصيباً من الزكاة، وبه قال الشافعي، وقال أبو حنيفة: يعطي عوضاً وأجرة لا زكاة.

لنا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠] والعطف بالواو يقتضي التسوية في المعنى والإعراب وما رواه الجمهور عن النبي ﷺ أن الله تعالى لم يرض في قسمتها نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب حتّى قسّمها بنفسه فجزّاها ثمانية أجزاء[٢].

ومن طريق الخاصّة ما رواه زرارة ومحمد بن مسلم في الحسن عن أبي عبد الله عليه السلام قالا: قلنا له: أرأيت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية أكلّ هؤلاء يعطي؟ فقال: إنَّ الإمام يعطي هؤلاء جميعاً.

وعن سماعة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الزكاة لمن يصلح أن يأخذها؟ قال: هي تحلّ للّذين وصف الله تعالى في كتابه: للفقراء والمساكين، إلى آخرها[٣].

ولأنّه لو استحقّها على سبيل الأجرة لافتقر إلى تقدير العمل أو المدّة وتعيين الأجرة وذلك منفيٌّ إجماعاً لأنّ النّبيَّ ﷺ والأئمة عليهم السلام بعده لم يعينوا شيئاً من ذلك. ولأنّه لو كان أُجرة لما منع منها الهاشمي.

---

(١) الكافي: ٤/٥٨ ح١ وتهذيب الأحكام: ٤/٥٨ ح١٥٤.

(٢) منتهى المطلب: ١/١٧٥.

(٣) وسائل الشيعة: ٦/١٦٤ ح٣.

احتجَّ أبو حنيفة بأنّه لا يعطي إلاّ مع العمل ولو فرّقها المالك أو الإمام لم يكن له نصيب، ولأنّه يأخذها مع الغنى والصدقة لا تحل لغني.

والجواب: كونهم لا يأخذون إلاّ مع العمل لا ينافي استحقاقهم منها ونحن ندفعها إليهم على وجه استحقاقهم لها بشرط العمل لأنها عوض عن عملهم لعدم اعتبار التقدير وإعطاؤه لا ينافي غناه لأنّه يأخذها باعتبار عمله لا باعتبار فقره كما يعطي ابن السبيل مع غنائه في بلده، ويدخل في العاملين الكاتب والقسّام والحاسب والحافظ والعريف أمّا الإمام والقاضي ونائب الإمام فلا. انتهى.

ثمَّ إنَّ النهي عن أخذ المعيبات منصرف عمّا إذا كان النصاب كلّه كذلك فلو كان كلّه كذلك لم يكلّف شراء الصحيح، على أنَّ قوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ في الآية يدلُّ على أنَّ الخبيث بعض المال، وكذا الظاهر من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٧] فإنَّ القصد إلى الخبيث ظاهر في وجود غيره أيضاً، كما أنَّ المرجع في صدق الأصناف المعيبة إلى العرف فإنّ صدق المعيب على مثل العرج القليل أو مقطوع الأذن أو القرن ونحوها بحيث يشملها النهي في الآية وفي قوله عليه السلام وفي الأخبار الأخرى مشكل بل خلافه ظاهر أو متعيّن.

قوله عليه السلام: **(ولا تأمننَّ عليها إلاَّ من تثق به، الخ)** ثمَّ أكّده بقوله: ولا توكل بها إلاَّ ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً ـ الخ. نهى عليه السلام عامله عن أن يولي على مال المسلمين من ليس محلاً للأمانة، والأمانة أحد الشروط المعتبرة في العاملين وقد اشترطوا في العامل البلوغ والعقل والإسلام والعدالة والفقه واعتبر بعضهم الحرّية أيضاً وقد علمت آنفاً أنه لا يجوز للهاشمي أن يكون عاملاً، ويقتصر في الفقه فيمن يتولاّه على ما يحتاج إليه.

قال في «**المدارك**»: لا ريب في اعتبار استجماع العامل لهذه الصفات الأربع: التكليف والإيمان والعدالة والفقه، لأنَّ العمالة تتضمّن الاستئمان على مال الغير ولا أمانة لغير العدل، ولقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخبر المتقدم: **(فإذا قبضته فلا توكل به إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً)**. وإنما يعتبر الفقه فيمن يتولّى ما يفتقر إليه والمراد منه معرفته بما يحتاج إليه من قدر الواجب وصفته ومصرفه ويختلف ذلك باختلاف حال العامل بالنسبة إلى ما يتولاّه من الأعمال. قال: ويظهر من المحقق في المعتبر الميل إلى عدم اعتبار الفقه في العامل والاكتفاء فيه بسؤال العلماء واستحسنه في البيان ولا بأس به.

قال: وشرط كونه غير هاشمي إنما يعتبر في العامل الذي يأخذ النصيب لا في مطلق العمالة فلو كان العامل من ذوي القربى وتبرّع بالعمل أو دفع إليه الإمام شيئاً من بيت المال جاز، لأنّ المقتضى للمنع الأخذ من الزكاة وهو منتف هنا. وكذا لو تولى عمالة قبيلة أو مع قصور الخمس، ويدلّ على اعتبار هذا الشرط ما رواه الشّيخ في الصحيح عن العيص بن

القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ أُناساً من بني هاشم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي. الخبر[١].

قال: وحكى الشّيخ في «**المبسوط**» عن قوم جواز كون العامل هاشمياً لأنه يأخذ على وجه الأجرة، فكان كسائر الإجارات وهو ضعيف جداً، قاله في «**المختلف**» والظاهر أنّ القوم الّذين نقل الشّيخ عنهم من الجمهوري إذ لا أعرف قولاً لعلمائنا في ذلك[٢].

قال: واختلف الأصحاب في اعتبار شرط الحريّة فذهب الشّيخ إلى اعتباره واستدلّ له في المعتبر بأنّ العامل يستحقُّ نصيباً من الزكاة والعبد لايملك ومولاه لم يعمل. ثمَّ أجاب عنه بأنّ عمل العبد كعمل المولى، وقوى العلاّمة في «**المختلف**» عدم اعتبار هذا الشرط لحصول الغرض بعمله ولأنّ العمالة نوع إجارة والعبد صالح لذلك مع إذن سيّده، ويظهر من المحقق في «**المعتبر**» الميل إليه ولا بأس به، أمّا المكاتب فلا ريب في جواز عمالته لأنّه صالح للملك والتكسّب، انتهى كلامه رحمه الله.

قال العلاّمة رحمه الله في «**المنتهى**» في وجه اشتراط الإسلام بأن الكافر ليس أهلاً للأمانة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: ١١٨] ورفع أبو موسى الأشعري إلى عمر حساباً فاستحسنه، فقال: من كتب هذا؟ فقال: كاتبي، قال: فأنى هو؟ قال: على باب المسجد، فقال: أجنب هو؟ قال: لا ولكنّه نصراني. فقال: لا تأتمنوهم وقد خوّنهم الله ولا تقرّبوهم وقد بعّدهم الله. ولأنّ ذلك ولاية على المسلمين وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النّساء: ١٤١].

قوله عليه السلام (**حتى توصله إلى وليّهم فيقسمه بينهم**) إن بنى الفعل الأوّل على الخطاب فهو راجع إلى العامل، وعلى الغيبة إلى من في قوله: (**إلاّ من تثق به**) وأما الثاني فالصواب فيه أن يقرأ على الغيبة لكي يرجع إلى الوليّ. وأراد بالوليّ نفسه. قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [المَائدة: ٥٥] والآية من الأدلّة الواضحة على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو وليّ المسلمين بعد الله تبارك ورسوله صلى الله عليه وآله فالآية دالّة على إمامته عليه السلام بعد النّبي صلى الله عليه وآله بلا فصل، فراجع إلى كتب التفسير.

وأفاد الفاضل الشارح المعتزلي في المقام حيث قال: قد كرّر عليه السلام قوله: (**لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وآله**) في ثلاثة مواضع من هذا الفصل، الأوّل قوله: (**حتّى يوصله**

---

(١) منتهى المطلب: ١/٥٢٤، ونهاية الأحكام: ٢/٤٠٠.

(٢) مختلف الشيعة: ٣/٢١٧، ومدارك الأحكام: ٥/٢١٢.

إلى وليهم ليقسمه بينهم)، الثاني قوله: **(نصيره حيث أمر الله به)** الثالث قوله: **(ليقسمها على كتاب الله)** والبلاغة لا تقتضي ذلك ولكنّي أظنه أحبّ أن يحتاط وأن يدفع الظنة عن نفسه فإنَّ الزمان كان في عهده قد فسد وساءت ظنون الناس لاسيما مع ما رواه من عثمان واستيثاره بمال الفيء.

قوله ﷺ **(ثمّ احدر إلينا ـ الخ)** ثمّ أمر ﷺ المصدّق بأن يسوق إليه سريعاً ما اجتمع عنده من حقّ الله يقال: حدر يحدر كينصر ويضرب إذا أسرع، إنما أمره كذلك لأنّ في تأخيره خوف التلف، أو لشدّة احتياج المستحقّين إليه.

وفي المقام يبحث عن فروع فقهيّة:

أحدها: أنّ الظاهر من كلامه ﷺ: **(احدر إلينا)** جواز نقل مال الزكاة إلى بلد آخر.

وثانيها: حمل الزكاة وجوباً إلى الوليّ ﷺ أو إلى من قام مقامه.

وثالثها: عدم جواز التصرف في الزكاة للساعي، وفي الفروع اختلاف بين الفقهاء ونكتفي بنقل طائفة من أقوالهم دون أدلّتهم تفصيلاً.

أمّا الفرع الأوّل: ففي **«المختلف»** قال الشّيخ في الخلاف: لا يجوز نقل مال الزكاة من بلد إلى بلد مع وجود مستحقه فإن نقله كان ضامناً له إن هلك، وإن لم يجد له مستحقاً جاز له نقله ولا ضمان عليه أصلاً. وفي **«المبسوط»**: وإذا وجب عليه زكاة فعليه أن يفرّقها في فقراء أهل بلده فإن نقلها إلى بلد آخر مع وجود المستحق في بلده ووصل إليهم أجزأه وإن هلك ضمن وإن لم يجد مستحقاً في بلده جاز حملها إلى بلد آخر ولا ضمان على حال ولا فرق بين أن ينقلها إلى قريب أو بعيد فإنّه لا يجوز نقلها عن البلد مع وجود المستحق إلاّ بشرط الضمان ومع عدم المستحق يجوز بالإطلاق.

وفي **«النهاية»**: متى لم يجد من تجب عليه الزكاة مستحقّاً عزلها من ماله وانتظر بها مستحقها فإن لم يكن في بلده جاز أن يبعث بها إلى آخر فإن أُصيب في الطريق أجزأه، وإن كان قد وجد في بلده مستحقاً فلم يعطه وآثر من يكون في بلد آخر كان ضامناً لها إن هلكت وجب عليه إعادتها.

وقال المفيد: إذا جاء الوقت فعدم المستحق عزلها من ماله إلى أن يجد من يستحقها من أهل الفقر والإيمان وإن قدر على إخراجها إلى بلد يوجد فيه مستحق أخرجها ولم ينتظر بها وجود مستحقها ببلده إلاّ أن يغلب على ظنه فوت وجوده ويكون أولى بها ممّن يحمل إليه من أهل الزكاة فإن هلكت في الطريق المحمول فيها إلى مستحقها أجزأت عن صاحب المال ولا يجزيه ذلك إذا حملها وهلكت وقد كان واجداً لمستحقها في بلده وإنما أخرجها منه إلى

غيره لاختيار أهل الاستحقاق ووضعها في بعض من يؤثره منهم دون من حضره[١].

وقال صاحب «**الوسيلة**» فيها: إذا وجد المستحق في بلده كره له نقلها إلى آخر فإن نقل ضمن، وإن لم يوجد لم يضمن.

وقال أبو الصلاح: وأهل المصر أولى من قطّان غيره، فإن لم يكن في المصر من يتكامل فيه صفات مستحقها أُخرجت إلى من يستحقها، وإذا أُريد حملها إلى مصر آخر مع فقد من يستحقها في المصر فلا ضمان على مخرجها في هلاكها وإن كان السبيل مخوفاً لم يجز حملها إلاّ بإذن الفقير، فإن نقلت من غير إذنه فهي مضمونة حتّى تصل إليه، وإن كان في مصره من يستحقها فحملها إلى غيره فهي مضمونة حتّى تصل إلى من حملت إليه إلاّ أن يكون حملها إليه بإذنه فيسقط الضمان.

وأما الثاني: ففي «**المختلف**» أيضاً قال المفيد رحمه الله تعالى: فرض على الأُمة حمل الزكاة إلى النّبي ﷺ والإمام خليفته وقائم مقامه فإذا غاب الخليفة كان الفرض حملها إلى من ينصبه خليفة من خاصّته فإذا عدم السفراء بينه وبين رعيّته وجب حملها إلى الفقهاء المأمونين من أهل ولايته. وقال أبو الصلاح: يجب على كلّ من تعيّن عليه فرض زكاة أو فطرة أو خمس أو أنفال أن يخرج ما وجب عليه من ذلك إلى سلطان الإسلام المنصوب من قبله تعالى أو إلى من ينصبه لقبض ذلك من شيعته ليضعه مواضعه، فإن تعذّر الأمران فإلى الفقيه المأمون فإن تعذّر وآثر المكلف تولّي ذلك بنفسه فمستحق الزكاة والفطرة الفقير المؤمنين، وهذا الكلام منهما يشعر بوجوب حمل الزكاة إلى الإمام أو نائبه أو الفقيه على ما رتّبناه.

وقال ابن البراج: وإذا كان الإمام ظاهراً وجب حمل الزكاة إليه ليفرّقها في مستحقها، فإن كان غائباً فإنّه يجوز لمن وجبت عليه أن يفرّقها في خمسة أصناف وهو يدلّ على الوجوب أيضاً.

وقال الشّيخ رحمه الله تعالى: الأموال ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة الدنانير والدراهم وأموال التجارات، فالمالك بالخيار بين أن يدفعها إلى الإمام أو من ينوب عنه وبين أن يفرّقها بنفسه على مستحقها بلا خلاف في ذلك. وأما زكاة الأموال الظاهرة مثل المواشي والغلاّت فالأفضل حملها إلى الإمام إذا لم يطلبها، وإن تولّى ففرّقها بنفسه فقد أجزأ عنه.

وقال السيّد المرتضى: الأفضل والأولى إخراج الزكاة لاسيما في الأموال الظاهرة كالمواشي والحرث والغرس إلى الإمام وإلى خلفائه النائبين عنه[٢] من وجبت عليه بنفسه من

---

(١) المقنعة: ٢٤٠، ومختلف الشيعة: ٣/٢٤٧.

(٢) في نسخة: وإن تولّى.

دون الإمام جاز.

ثمَّ قال العلاّمة رحمه الله تعالى: والحقّ الاستحباب إلاّ مع الطلب فيجب كما اختاره الشّيخ وهو قول ابن إدريس، إلى أن قال: لو طلبها الإمام فلم يدفعها إليه وفرّقها بنفسه قال الشّيخ: لا يجزيه، وهو الذي يقتضيه قول كلٍّ من أوجب الدفع إليه مع غير الطلب، وقيل: يجزيه.

لنا أنها عبادة لم يأتي بها على وجهها المطلوب شرعاً فيبقى في عهدة التكليف أمّا أنها عبادة فظاهر، وأمّا أنّه فعلها على غير الوجه المطلوب فللإجماع على وجوب الدفع إلى الإمام مع الطلب فإذا فرّقها بنفسه لم يأت به على وجهه

احتجَّ الآخرون بأنّه دفع مالاً إلى مستحقه فيخرج عن العهدة، والجواب إنما يخرج عن العهدة لو دفعه إليه على الوجه المطلوب منه.

وأمّا الفرع الثالث ففي «**المنتهى**»: إذا قبض السّاعي الصدقة وحملها إلى الإمام أو فرّقها إن كان قد أذن له في التفريق فليس له أن ينتفع منها شيئاً إلاّ مع الحاجة والعذر كما إذا مرضت الشاة فيخاف عليها التلف قبل اتصالها إلى المستحق أو كان التفريق مخوفاً أو احتاج في نقله إلى مؤنة يستوعبه فأمّا لغير عذر فلا يجوز لقوله ﷺ لمعاذ بن جبل (**أعلمهم أنّ عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم**) ولما بعث أمير المؤمنين ﷺ المصدق قال له: (**ثمَّ أحدر ما اجتمع عندك من كلِّ ناد إلينا نصيّره حيث أمر الله عزَّ وجلَّ**) ولما عدل عن البيع الّذي هو الأرفق إلى الأشقّ دلّ على أنَّ الواجب ذلك، أمّا مع العذر فلا بأس لأجل الضرورة، وقد روى الشّيخ رحمه الله تعالى عن محمد بن خالد عن أبي عبد الله ﷺ بيع الصدقة، وهو محمول على ما قلناه، إذا ثبت هذا فإن باع لا للضرورة لم يصحّ البيع فإن كانت العين باقية استرجعت وإن نقصت ضمن الأرش، وإن كانت تالفة ضمن المشتري المثل فإن تعذَّر أو لم يكن مثله ضمن القيمة.

قوله ﷺ: (**فإذا أخذها أمينك ـ الخ**) فيه زيادة تأكيد لقوله الماضي آنفاً: ولا تأمننَّ عليها إلاّ من تثق بدينه، حيث ذكره بالوصف مشعراً بذلك من كونه أميناً ثمَّ أمره أن يوعز إلى أمينه ويوصي إليه بحال الماشية والإبل بأن يراعي فيها عدَّة أمور:

أحدها: أن لا يحول بين ناقة وفصيلها طمعاً في اللّبن.

وثانيها: أن لا يحلب كلّ ما في ضرعها فيضرّ ذلك بولدها فيبقى جائعاً.

وثالثها: أن لا يتعبنّها ركوباً.

ورابعها: أن يعدل بين صواحباتها وبينها في الركوب أي لا يخصّ بالركوب واحدة بل تارة يركب عليها وأُخرى على غيرها. هذا إذا جعلنا ذلك مشيراً إلى الركوب كما هو الظاهر المنساق من العبارة، ويمكن أن يكون مشيراً إلى كلّ واحد من الركوب وحلب الضّرع أي كما يجب عليه العدل بينها في الركوب يجب عليه العدل في الحلب أيضاً بأن لا يخصّ واحدة منها في ذلك بل تارة يحلب هذه وأُخرى أُخرى.

وخامسها: أن يرفه على اللاّغب أي أن يريح المعيي ويدعه ويعفّه عن الركوب ليستريح.

وسادسها: أن يستأني بالنقب، وهو الّذي رقّت أخفافه فيشق عليه المشي لأنَّ الأرض تجرحه حينئذ، وكذلك أن يستأني ويرفق بالظالع وهو الذي يظلع أي يغمز في مشيه.

وسابعها: أن يوردها ما تمرّ به من الغدر أي لا يمنعها من الماء.

وثامنها: أن لا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جوادّ الطّريق أي لا يمنعها من الكلاء.

وكانت نسختا «**الكافي**» و«**التهذيب**» في هذا القسم هكذا: ولا يعدل - أو ولا يبدل - بهنَّ عن نبت الأرض إلى جوادّ الطّريق في الساعة الّتي تريح وتغبق.

وصاحب «**المدارك**» رحمه الله نقل الخبر بطوله من «**الكافي**» في زكاة «**المدارك**» (**ص٢٨١ من الطبع على الحجر**) وقال بعد نقل الخبر: ونقلنا هذا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد، ثمّ قال: قال ابن إدريس رحمه الله في سرائره بعد أن أورد هذا الخبر: قوله عليه السلام: (**ولا تعدل بهنَّ عن نبت الأرض إلى جوادّ الطّرق في الساعة الّتي تريح فيها وتعنق**) قال محمّد بن إدريس: سمعت من يقول: تريح وتغبق بالغين المعجمة والباء يعتقد أنه من الغبوق وهو الشرب بالعشيّ، وهذا تصحيف فاحش وخطأ قبيح وإنما هو بالعين غير المعجمة والنون المفتوحة وهو ضرب من سير الإبل شديد، قال الرّاجز:

يا ناق سيري عنقاً فسيحا إلى سليمان فتستريحا

لأنّ معنى الكلام أنّه لا يعدل بهنَّ عن نبت الأرض إلى جوادّ الطرق في الساعات الّتي لها فيها راحة ولا في الساعات الّتي عليها فيها مشقّة ولأجل هذا قال تريح من الراحة ولو كان من الرواح لقال تروح وما كان يقول تريح ولأنّ الرواح عند العشاء يكون قريباً منه والغبوق وهو شرب العشيّ على ما ذكرناه ولم يبق له معنى وإنما المعنى ما قلناه، وإنما أوردت هذه اللفظة في كتابي لأنّي سمعت جماعة من أصحابنا الفقهاء يصحفونها. انتهى كلامه رحمه الله. انتهى ما أتى به السيّد رحمه الله في «**المدارك**».

وقال الفيض قدّس سرّه في «**الوافي**» (**ص٢٢ ج٦**) في بيان الحديث: والغبوق بالغين

المعجمة والباء الموحدة شرب آخر النهار، وضبطه صاحب **«كتاب السرائر»** تعنق بالعين المهملة والنون من العنق وهو شدّة سير الإبل وجعل جعله تغبق تصحيفاً فاحشاً وخطأً قبيحاً معللاً بأنَّ يريح من الراحة ليس من الرواح.

ثمَّ قال الفيض ﷺ: قال أستاذنا رحمه الله: كون ذلك تصحيفاً غير معلوم بل يحتمل الأمرين. انتهى كلام الفيض. ومراده من أستاذه هو أستاذه في العلوم النقلية السّيد ماجد بن هاشم الصادقي البحراني طاب ثراه كما نصّ عليه في ص١٤ ج٦ من زكاة **«الوافي»**.

وتاسعها: أن يروّحها في ساعات الرّواح.

وعاشرها: أن يمهلها عند وصولها إلى النطاف والأعشاب، والنطاف المياه القليلة الصّافية، جمع النطفة، والأعشاب جمع العشب وهو الكلاء الرطب.

ثمَّ إنَّ كلامه عليه السلام: **(ولا يمصر لبنها فيضرّ ذلك بولدها ولا يجهدنّها ركوباً)** يفيد أنَّ للسّاعي أن ينتفع من الصدقة على مقدار الحاجة كما تقدّم الكلام آنفاً في الفرع الثالث.

وينبغي التأمل جدّاً في ما أمره عليه السلام ونهاه في حقّ البهائم سيّما فيما أوصى من رعاية العدل في الركوب والحلب فيها ليعلم أنّ الله يحبّ العدل في حقّها أيضاً، وأنّه سبحانه بيّن كلّ ما يتعلق بأفعال المكلّفين ولم يترك شيئاً إلاّ وله فيه حكم. وهذا هو خليفته أوصى في أخسّ خليقته ما أوصى، فما ظنّك بأشرفها وأكرمها.

فلنذكر في المقام عدَّة روايات منقولة من أئمة الدّين عليهم السلام في حقّ الدابة على صاحبها وآداب ركوبها وحملها، ففي **«الكافي»** و**«الفقيه»** **(الوافي ص٦٦ ج٨)** عن أبي عبد الله عليه السلام قال لقمان لابنه: يا بنيَّ إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم - إلى أن قال: ولا تنامنّ على دابّتك فإنَّ ذلك سريع في دبرها وليس ذلك من فعل الحكماء إلاّ أن تكون في محمل يمكنك التمدُّد لاسترخاء المفاصل، وإذا قربت من المنزل فأنزل عن دابّتك وابدأ بعلفها قبل نفسك فإنّها نفسك[1] الخ. قال الفيض قدّس سرّه: الدَّبر محركة قرحة الدابّة، وإنما جعل الدابّة نفسه لأنَّ هلاكها يستلزم هلاكه.

وفي **«الخصال»**: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للدَّابّة على صاحبها خصال ستّ: يبدأ بعلفها إذا نزل، ويعرض عليها الماء إذا مرّ به، ولا يضرب وجهها فإنّها تسبّح بحمد ربّها، ولا يقف على ظهرها إلاّ في سبيل الله عزَّ وجلَّ، ولا يحملها فوق طاقتها، ولا يكلّفها من المشي إلاّ ما تطيق[2].

(١) الكافي: ٨/ ٣٤٩، وبحار الأنوار: ٧٣/ ٢٧١.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٨٦ ح٢٤٦٥، والخصال: ٣٢٠ ح٢٨.

وفي «**البحار**» ـ باب حق الدابة على صاحبها وآدابها وحملها ص٧٠١ ج١٤ من طبع الكمباني ـ من المحاسن عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تضربوا وجوه الدّواب وكلّ شيء فيه الروح فإنه يسبّح بحمد الله[١].

وفيه من «**مجالس الصدوق**» عن الصادق عليه السلام قال: للدّابة على صاحبها سبعة حقوق: لا يحملها فوق طاقتها، ولا يتّخذ ظهرها مجلساً يتحدَّث عليها، ويبدأ بعلفها إذا نزل، ولا يسمها في وجهها فإنها تسبّح، ويعرض عليها الماء إذا مرَّ به، ولا يضربها على النفار، ويضربها على العثار لأنها ترى ما لا ترون[٢].

وفيه من «**المحاسن**» و«**الفقيه**» عن ابن فضّال عن حمّاد اللحام قال: مرَّ قطار لأبي عبد الله عليه السلام فرأى زاملة قد مالت فقال: يا غلام اعدل على هذا الجمل فإنَّ الله يحب العدل[٣].

وفيه من «**نوادر الراوندي**» عن علي عليه السلام قال: للدّابة على صاحبها ستُّ خصال: يبدأ بعلفها إذا نزل، ويعرض عليها الماء إذا مرَّ به، ولا يضربها إلاّ على حقّ ولا يحملها إلاّ ما تطيق، ولا يكلّفها من السير إلاّ طاقتها، ولايقف عليها فواقاً[٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تتّخذوا ظهور الدواب كراسي فربّ دابة مركوبة خير من راكبها وأطوع لله تعالى وأكثر ذكراً[٥].

وفيه من «**الفقيه**»: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الله تبارك وتعالى يحبُّ الرفق ويعين عليه فإذا ركبتم الدواب العجاف فأنزلوها منازلها فإن كانت الأرض مجدبة فانجوا عليها، وإن كانت مخصبة فأنزلوها منازلها. فقال صلى الله عليه وآله: من سافر منكم بدابّة فليبدأ حين ينزل بعلفها وسقيها[٦].

وفي «**الكافي**» بإسناده عن عمرو بن جميع أن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تتورّكوا على الدّواب ولا تتّخذوا ظهورها مجالس[٧].

---

(١) المحاسن: ٢/ ٦٣٣ ح١١٦، ووسائل الشيعة: ١١/ ٤٨٤ ح١٥٣٢٧.
(٢) الأمالي: ٥٩٧، والمحاسن: ٢/ ٦٢٧ ح٩٦.
(٣) المحاسن ٢/ ٣٦١ ح ٩١. ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٩٢ ح٢٤٩٢.
(٤) مستدرك الوسائل: ٨/ ٢٥٩، وكتاب النوادر: ١٢٠ ح١٢٩.
(٥) كتاب النوادر: ١٢١ وبحار الأنوار: ٦١/ ٢١٠ ح ١٦.
(٦) المحاسن: ٢/ ٣٦١ ح٨٨، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٩٠ ح٢٤٨١.
(٧) الكافي: ٦/ ٥٣٩ ح٨، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٨٧ ح٢٤٧١.

وفي «**البحار**» عن أبي الدرداء أنَّ النّبي ﷺ قال: من قال إذا ركب دابّة: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه ليس سميّ له سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله عليهم السلام» إلاّ قالت الدابّة: بارك الله عليك من مؤمن خففت على ظهري وأطعت ربّك وأحسنت إلى نفسك بارك الله لك وأنجح حاجتك(١).

وقد مضى كلام الأمير عليه السلام حين يركب في شرح المختار الخامس عشر من باب الكتب «ص١٦٩ ج١٨» فراجع. وفي المقام روايات عديدة أتى بها المجلسي رحمه الله في «**البحار**» فراجع «ص٧٠١ ج١٤ - إلى ص٧٠٨ من طبع الكمباني».

قوله عليه السلام: **(حتى يأتينا بإذن الله ـ الخ)** ثمَّ ذكر عليه السلام غاية ما أمر العامل أن يوصي إلى أمينه بما مرّ في أمر الدواب، أي له أن يراعي فيها بتلك الأمور حتّى يأتينا ـ الخ. فقوله؛ **(حتّى يأتينا)** متعلق بقوله: **(فأوعز إليه)**، **(والمنقيات)** اسم فاعل من أنقت الإبل إذا سمنت يقال؛ أنقت الإبل أي سمنت وصارت ذات نقي بكسر النون فسكون القاف أي ذات مخّ. ثمَّ أتبعه عليه السلام تشديداً في حفظ مال المستحقّين وتأكيداً لما أوصى مراراً من قسمته على ما أوجب الله تعالى بقوله: **(لنقسمها على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ)** ثمَّ وعده بما يترتب على عمله هذا من الأجر العظيم والقرب من الرشد والهداية والصواب، وقال عليه السلام: **(إنَّ ذلك أعظم أجراً)** لأنّ فيه كثرة مشقّة لا تخفى ولأنّ ذلك أحفظ لمال المستحقّين فثواب حافظه وأجره أقرب رشداً لأنَّ فيه اتّباع وليّ الأمر على نهج رضاه فيه أكثر، ولأنَّ اختيار عمل فيه كثرة مشقة يدلّ غالباً على خلوص العامل وصدق نيّته في إطاعة الأمر.

وكفى في عظم الأجر ما وعد عليه السلام على ما في روايتي «**الكافي**» و«**التهذيب**» المقدّمتين في ذكر المصدر حيث قال عليه السلام: فإنّ ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك ينظر الله إليها وإليك وإلى جهدك ونصيحتك لمن بعثك وبعثت في حاجة فإنّ رسول الله ﷺ قال: ما ينظر الله إلى وليّ له يجهد نفسه بالطاعة والنصيحة له ولإمامه إلاّ كان معنا في الرفيق الأعلى(٢). قال الفيض قدّس سرّه في «**الوافي**» «ص٢٢ ج٦» في بيان الرفيق الأعلى: أي في الرفقة العالية وهم الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون.

فرع فقهي

روى المسلم في آخر كتاب الزكاة من صحيحه بإسناده عن عبد الله بن أبي أوفى قال:

---

(١) بحار الأنوار: ٦١/٢١٩، وكتاب الدعاء: ٢٤٧.

(٢) شرح أصول الكافي: ٧/١٩ ح٣، ووسائل الشيعة: ٩/١٣١.

كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهمَّ صلِّ عليهم» فأتاه أبي أبو أوفى بصدقته فقال: «اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى»[١]. انتهى.

أقول: قوله ﷺ: اللهمَّ صلِّ عليهم يشير إلى قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣]. ثمَّ إنَّ الأمير عليه السلام لم يأمر العامل بالدُّعاء بعد أخذ الصّدقة لصاحبها ولو كان واجباً لذكره، اللهم إلاّ أن يقال: إنَّ الرضيَّ أسقطه على دأبه في النهج بل صرّح في المقام بأنه ذكر هنا جملاً منها كما دريت، ونسخة «**الكافي**» كالتهذيب كانت قريبة منه، ومع فرض ذكره في الوصيّة، القول بوجوبه مشكل بل الحق في المقام أنَّ الدُّعاء مستحب وليس الدُّعاء مؤقتاً.

قال العلاّمة رحمه الله في «**المنتهى**» «ص٥١٥»، مسألة: وإذا أخذ الساعي أو الإمام الصّدقة دعا لصاحبها، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وتردَّد الشَّيخ في الوجوب فقال في «**الخلاف**» به[٢] وهو مذهب داود بن عليّ بن خلف الأصبهاني لظاهر الآية.

وقال في «**المبسوط**» بالاستحباب وهو مذهب أكثر الجمهور وهو أولى لأنَّ النبيّ ﷺ لمّا بعث معاذاً إلى اليمن قال له: أعلمهم أنَّ عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم[٣]، ولم يأمره بالدُّعاء ولو كان واجباً لذكره، ولأنّه براءة للذمّة، ولأنَّ الفقراء لو أخذوا الصّدقة بأنفسهم لم يجب عليهم الدُّعاء فتأتيهم[٤] أولى (**كذا في المنتهى وفي العبارة تصحيف**) ولأنَّ هذ أداء عبادة فلا يجب الدُّعاء لها كالصّلاة، والآية محمولة على الاستحباب ولا شيء مؤقت في هذا الدُّعاء وأيَّ دعاء ذكره كان حسناً.

وفي «**المستند**» للنراقي ـ قدس سره ـ: يستحق للعامل والفقيه والفقير الدُّعاء للمالك بعد أخذ الزكاة، أمّا من حيث استحباب الدُّعاء مطلقاً فظاهر، وأمّا من جهة خصوص المورد فلفتوى جمع من الأصحاب، ولا يجب قطعاً للأصل وعدم الدليل سوى الآية المخصوص بالنبيّ ﷺ خطاباً وتعليلاً بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] مضافاً إلى عدم معلوميّة شمول مرجع الضمير لجميع المؤمنين وعدم صراحة الآية فتكون الصّلاة المأمور بها لأجل أداء الزّكاة وبعد مضيها بل عدم ظهورها فيه أيضاً.

---

(١) مستدرك الوسائل: ٧/١٣٦ ح٣، وتفسير مجمع البيان: ٥/١١٨.

(٢) ثم مال عنه وقال في كتاب قسمة الصدقات من الخلاف أيضاً بالاستحباب كما في المبسوط.

(٣) عوالي اللئالي: ٣/١١٤، وعبد الله بن سبا: ٢/٤٠١.

(٤) الظاهر: فنائبهم، م.

كلام في الرجعة

واعلم أنَّ ظاهر قوله عليه السلام في ذيل هذه الوصيّة على نسختي «**الكافي**» و«**التهذيب**» حيث قال عليه السلام: (**أما والله لا تذهب الأيّام واللّيالي حتى يحيي الله الموتى ويميت الأحياء ويردُّ الله الحقَّ إلى أهله ويقيم دينه الذي ارتضاه لنفسه ونبيّه فأبشروا ثمّ أبشروا فوالله ما الحقُّ إلا في أيديكم**) يدلّ على الرجعة[1].

وقال الفيض رحمه الله في «**الوافي**» «ص٢٢ ج٦»: قوله (**يحيي الله الموتى ويميت الأحياء**) إمّا محمول على الحقيقة بناء على الرجعة، وإمّا تجوّز شبه الشيعة لقلّتهم وخفائهم وعدم تمكّنهم من إظهار دينهم بالموتى، انتهى كلامه رحمه الله.

أقول: حمل العبارة على التجوّز بعيد من صوب الصواب جداً وتكلّفه واضح ولو جاز حمل العبارة على هذا النحو من التجوّز لا يبقى لظاهر الألفاظ معنى، ولا للرجعة محلّ لا مكان حمل كلّ خبر قائل بالرجعة على نحو هذا المعنى المتكلّف فيه.

ثمَّ إنَّ لعلمائنا الإماميّة رسائل عديدة منفردة في إثبات الرجعة وربّما أتوا بالبحث عنها في أثناء كتبهم الكلاميّة تمسّكوا في إثباتها بعدّة آيات وبروايات كثيرة.

وقال المحدِث الخبير الشيّخ الحر العاملي طيّب الله رمسه في أوّل كتابه في الرجعة المسمّى بـ«**الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة**»، وهو أطول كتاب عمل في الرجعة ممّا حضرنا من المؤلّفات فيها ما هذا لفظه: وقد نقل جماعة من علمائنا إجماع الإماميّة على اعتقاد صحتها وإطباق الشيعة الاثني عشريّة على نقل أحاديثها وروايتها وتأوّلوا معارضها على شذوذ وندور بالحمل على التقيّة إذ لا قائل بها من غير الشيّعة الإماميّة، وذلك دليل واضح على صحتها، وبرهان ظاهر على ثبوتها ونقل روايتها.

وقال في آخر كتابه هذا: فهذا ما خطر بالبال واقتضاه الحال من الكلام في إثبات الرجعة ودفع شبهاتها على ضعفها وعدم صراحتها في إبطال الرجعة وقوّة أحاديث الرجعة وأدلّتها كما رأيت فإنّها وصلت إلى حدّ التواتر بل تجاوزت بمراتب فأوجبت القطع واليقين بل كلُّ حديث منها موجب لذلك لكثرة القرائن القطعيّة من موافقة القرآن والأدلة والسنة النبوية وتعاضدها وكثرتها وصراحتها واشتمالها على ضروب من التأكيدات وموافقتها لإجماع الإمامية وإطباق جميع الرواة والمحدِّثين على نقلها ووجودها في جميع الكتب المعتمدة والمصنّفات المشهورة المذكورة سابقاً وغيرها، وعدم وجود معارض صريح لها أصلاً وعدم

---

(١) المقنعة: ٢٥٧، وبحار الأنوار: ١٢٧/٤١.

احتمالها للتقيه، واستحالة اتفاق رواتها على الكذب. ولعدم قول أحد من العامّة المخالفين للأماميّة بها، ولعدالة أكثر رواتها وجلالتهم، ولصحة طرق كثيرة من أحاديثها، ولكون أكثر رواتها من أصحاب الإجماع الذين اجتمعت الإمامية على تصحيح ما يصحّ عنهم وتصديقهم وأقرّوا لهم بالعلم والفقه، وللعلم القطعي بأنّ كثيراً من هذه الأحاديث كانت مروية في الأصول المجتمع على صحتها الّتي عرضت على الأئمة عليهم السلام فصحّحوها وأمروا بالعمل بها، ولكثرة تصانيف علماء الإماميّة في إثبات الرجعة، ولم يبلغنا أنّ أحداً منهم صرّح بردّها وإنكارها فضلاً عن تأليف شيء في ذلك.

وإنّي مع قلّة تتبّعي لو أردت الآن لأضفت إلى أحاديث هذه الرسالة ما يزيد عليها في العدد فتتضاعف الأحاديث لأنّي لم أنقل من رسائل المتأخرين شيئاً مع أنه حضرني منها ثلاث رسائل وفيما ذكرنا بل في بعضه كفاية إن شاء الله تعالى فقد ذكرنا في هذه الرسالة من الأحاديث والآيات والأدلة ما يزيد على ستّة مائة وعشرين، ولا أظنُّ شيئاً من مسائل الأصول والفروع يوجد فيه من النصوص أكثر من هذه المسألة. انتهى كلامه رحمه الله[1].

وقال الإحسائي في **«شرح الزيارة الجامعة»** «ص٢٦٨ من الطبع على الحجر ١٢٧٦هـ» في شرح قول الإمام عليه السلام «مصدّق برجعتكم» بعد نقل طائفة من الكلام في الرجعة: مع ما ورد في الرجعة من النصوص الكثيرة منها ما تقدم ذكره عن السيد نعمة الله الجزائري أنه قال: وقفت على ستمائة وعشرين حديثاً في هذا الباب. والشيخ عبد الله بن نور الله البحراني الّذي تقدّم ذكره وبعض كلامه وقلنا يأتي تمامه قال: وكيف يشكّ مؤمن بحقيقة الأئمة الأطهار عليهم السلام فيما تواتر عنهم في قريب من مائتي حديث صريح رواها نيّف وأربعون من الثّقات العظام والعلماء الأعلام في أزيد من خمسين من مؤلّفاتهم كثقة الإسلام الكليني، والصّدوق محمد بن بابويه، والشّيخ أبي جعفر الطوسي، والمرتضى والنّجاشي والكياشي والعيّاشي وعليّ بن إبراهيم وسليم الهلالي والشّيخ المفيد والكراجكي والنعماني والصفّار وسعد بن عبد الله وابن قولويه وعليّ بن عبد الحميد والسيّد عليّ بن الطاووس وولده صاحب كتاب **«زوائد الفرائد»**، ومحمد بن عليّ بن إبراهيم وفرات بن إبراهيم مؤلف كتاب **«التنزيل والتحريف»** وأبي الفضل الطبرسي وأبي طالب الطبرسي وإبراهيم بن محمد الثقفي ومحمد بن العباس بن مروان والبرقي وابن شهر آشوب والحسن بن سليمان والقطب الراوندي والعلاّمة الحلّي والسّيد بهاء الدين وعليّ بن عبد الكريم وأحمد بن داود بن سعيد والحسن بن علي بن أبي حمزة والفضل بن شاذان والشيخ الشهيد محمد بن مكّي والحسين بن حمدان والحسن بن محمد بن الجمهور العمي مؤلّف كتاب **«الواحدة»** والحسن بن محبوب وجعفر بن محمد بن مالك

(١) الذريعة: ٢/٥٠٧.

الكوفي وطهر بن عبد الله وشاذان بن جبرئيل صاحب كتاب **«الفضائل»** ومؤلف كتاب **«العتيق»** ومؤلف كتاب **«الخطب»** وغيرهم من مؤلفي الكتب عندنا ولم نعرف مؤلّفه على التّعيين ولذا لم ننسب الأخبار إليهم وإن كان موجوداً فيها ـ إلى أن قال البحراني المذكور:

ولنذكر لمزيد التشييد والتأكيد أسماء بعض من تعرّض لتأسيس هذا المدّعي وصنفه فيه أو احتجّ على المنكرين أو خاصم المخالفين سوى ما ظهر ممّا قدمنا في ضمن الأخبار والله الموفق؛ فمنهم أحمد بن داود بن سعيد الجرجاني، قال الشّيخ في **«الفهرست»**: له كتاب **«المتعة والرّجعة»**، ومنهم الحسن بن عليّ بن أبي حمزة البطائي وعدّ النّجاشي من جملة كتبه كتاب **«الرجعة»**. ومنهم الفضل بن الشاذان النيسابوري ذكره الشيخ في **«الفهرست»** والنجاشي أن له كتاباً في إثبات الرجعة. ومنهم الصّدوق محمد بن علي بن بابويه فإنه عدّ النجاشي من كتبه كتاب **«الرجعة»**. ومنهم محمد بن مسعود العيّاشي ذكر النّجاشي والشيخ في **«الفهرست»** كتابه في الرجعة. ومنهم الحسن بن سليمان على ما روينا عنه الأخبار. وأما سائر الأصحاب فإنهم ذكروها فيما صنفوا في الغيبة ولم يفردوا لها رسالة وأكثرأصحاب الكتب من أصحابنا أفردوا كتاباً في الغيبة وقد عرفت سابقاً من روى ذلك من عظماء الأصحاب وأكابر المحدثين الذين ليس في جلالتهم شكّ ولا ارتياب. وقال العلاّمة ﵀ في **«خلاصة الرّجال»** في ترجمة ميسر بن عبد العزيز: وقال العقيقي أثنى عليه آل محمد ﷺ وهو ممّن يجاهد في الرجعة، انتهى.

وقال علم المهدي سيّد المرتضى: إنّ الذي تذهب الشيعة الإمامية إليه أنّ الله تعالى يعيد عند ظهور إمام الزمان المهدي ﵇ قوماً ممّن كان قد تقدّم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ومشاهدة دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم فيلتذّوا بما يشاهدون من ظهور الحقّ وعلوّ كلمة أهله.

والدلالة على صحّة هذا المذهب أنّ الذين ذهبوا إليه ممّا لا شبهة على عاقل في أنه مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه فإنا نرى كثيراً من مخالفينا ينكرون الرجعة إنكار من يراها مستحيلة غير مقدورة، وإذا ثبت جواز الرجعة ودخولها تحت المقدور فالطريق إلى إثباتها إجماع الإماميّة على وقوعها فإنهم لا يختلفون في ذلك وإجماعهم، قد بيّنا في مواضع من كتبنا أنه حجة لدخول قول الإمام ﵇ فيه إلى آخر ما قال، وقد نقل كلامه تماماً المجلسي ﵀ في الثالث عشر من **«البحار»** الكمباني «ص٢٣٥».

وقال المجلسي ﵀ «ص٢٣١ ج١٣ من **«البحار»** الكمباني»: **اعلم يا أخي أنّي لا أظنك ترتاب بعد ما مهّدت وأوضحت لك في القول بالرجعة التي أجمعت الشيعة عليها في جميع الأعصار واشتهرت بينهم كالشمس في رابعة النهار حتّى نظموها في أشعارهم واحتجّوا**

بها على المخالفين في جميع أمصارهم وشنع المخالفون عليهم في ذلك وأثبتوه في كتبهم وأسفارهم، منهم الرازي والنيسابوري وغيرهما، وقد مرَّ كلام ابن أبي الحديد حيث أوضح مذهب الإماميّة في ذلك ولولا مخافة التطويل من غير طائل لأوردت كثيراً من كلماتهم في ذلك. وكيف يشكّ مؤمن بحقيقة الأئمّة الأطهار عليهم السلام فيما تواتر عنهم في قريب من مائتي حديث صريح ـ إلى آخر ما تقدَّم من الشيخ البحراني المذكور آنفاً[1].

(١) بحار الأنوار: ٥٣/ ١٢٢ ح١٦١، ومستدرك سفينة البحار: ٤/ ٨٧.

الترجمة

از جمله وصیت آن حضرت (عليه السلام) است که آن را برای کسی که او را بر گرفتن زکات عامل می گردانید می نوشت و ما در این جا پاره ای از آن را آورده ایم تا به آن دانسته شود که آن حضرت ستون حق را به پا می داشت و در کارهای کوچك و بزرگ و پنهان و آشکار، احکام عدل را ظاهر می کرد:

برو بر تقوای خدای یکتای بی همتا، مسلمانی را مترسان و آن چه را که ناخوش دارد بر او مگزین و بیش از حقّی که خدا در مال او دارد از او مگیر و چون به قبیله ای رسیدی به کنار آب شان فرود آی بدون این که به خانه هایشان در آیی و بعد از آن برو به سویشان به آرامی تن و جان تا در میانشان بایستی، پس بر آنان سلام کن و تحیّت و درود را بر ایشان کم و ناقص مگردان، بعد از آن می گویی ای بندگان خدا، ولیّ خدا و خلیفه او مرا به سوی شما فرستاده تا حق خدا را در اموال شما از شما بستانم، آیا در اموال شما برای خدا حقی است که آن را به ولی او بدهید؟ اگر کسی گفت نه، بازمگرد بر او و دوباره سخن را بر او اعاده مکن و اگر کسی گفت آری هست، با او برو بدون این که او را بیم دهی و بترسانی یا بر او سخت گیری یا دشواری را بر او تکلیف کنی، آن چه که از طلا و نقره به تو داده بگیر، اگر او را گاو و گوسفند و شتر است، بدون اذنش داخل در آن ها مشو، زیرا بیشتر آن ها مال او است و هرگاه به اذن او بر سر آن ها رفتی، چون کسی که بر آنها تسلط دارد و درشت کردار است مرو و حیوانی را مرمان و مترسان و صاحبش را در حق آن مرنجان.

و مال را به دو بخش کن و صاحبش را مخیّر کن تا هرکدام بخش را که خواهد اختیار کند و چون اختیار کرد متعرض آن چه را که اختیار کرده است مشو، دوباره آن باقی را به دو قسم کن، باز او را مخیّر کن تا هرکدام قسم را که خواهد، اختیار کند و چون اختیار کرد، متعرض آن چه را که اختیار کرده است مشو و همچنین پیوسته این کار را می کنی تا آن قدر بماند که وفا کند به حق خدا در مال او، پس حق خدا را از او می گیری، پس اگر خواهش فسخ کرده بپذیر و

دوباره آن ها را درهم آميز، سپس آن چنان كن كه در اوّل كردى تا حق خدا را در مال او بگيرى.

و نگير شتر پير را و نه كهن سال را و نه شكسته را و نه سل دار يا به مرض از پاى درافتاده را و نه عيب ناك را.

و امين مگردان بر آن مال ها مگر كسى را كه به دين او وثوق دارى كه به مال مسلمانان رفق و مدارا كند و مهربان باشد تا مال را به ولىّ مسلمانان برساند كه در ميانشان قسمت كند و وكيل مگردان بر آن مواشى و ابل مگر كسى را كه نيكوخواه و مهربان و امين و نگهبان باشد، درشتى به آنها نكند و زيان نرساند، نرنجاند و خسته نكند، پس آن چه كه از اموال زكات در نزد تو گرد آمده زود آنها را به سوى ما بفرست تا در هر جا كه خدا بدان امر فرموده است بگردانيم و صرف كنيم.

پس چون آن ها را امين تو براى آوردن گرفت، به او سفارش كن كه به طمع شير ميان شتر و بچه شيرخوارش جدايى نيندازد و همه شير آن را ندوشد كه به بچه اش ضرر برسد و آن را به سوار شدن خسته نگرداند و بين او و ديگر شتران در سوار شدن و دوشيدن به عدل رفتار كند (يعنى گاهى بر او سوار شود و گاهى بر ديگران و گاهى از او بدوشد و گاهى از ديگران، نه شير يكى را تمام بدوشد و در همه راه بر يكى سوار شود) و بايد آسان گرداند و رفاهت دهد خسته را و او را آسايش دهد و بر حيوانى كه پايش سوده شد و از رفتار وامانده و به تنگ آمده آهستگى كند و درنگ و تأنّى نمايد و بايد آنها را به غديرها و حوض هاى آب كه مى گذرند فرود آورد و وارد سازد و آنها را از زمين گياه دار به راه هايى كه از گياه خالى است نگرداند و بايد آنها را در هر چند ساعتى در چراگاه ها راحت دهد تا به فراغت اكل و شرب نمايند و بايد آن ها را در نزد آبها و گياه ها مهلت دهد تا به اذن خدا فربه و پرمغز، نه رنج ديده و خسته در نزد ما آورد كه آنها را على كتاب الله و سنت پيمبر خدا قسمت كنيم كه به اين طور كه گفتيم عمل شود، ان شاءالله براى پاداش تو بزرگتر و به رشد و رستگاريت نزديكتر است.

ومن عهد له عليه الصلاة والسلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة ـ وهو المختار السادس والعشرون من باب كتبه عليه السلام ورسائله

آمره بِتَقْوَى اللَّهِ في سَرائِرِ أمُورِهِ وَخَفِيَّاتِ أَعْمَالِهِ حَيْثُ لاَ شَهِيْدَ غَيْرُهُ، وَلاَ وَكِيلَ دُونَهُ.

وآمُرُهُ أنْ لاَ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إلىٰ غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لم يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلانِيَتُهُ وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ فَقَدْ أَدَّى الأَمانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ.

وَآمُرُهُ ألاَّ يَجْبَهَهُمْ وَلاَ يَعْضَهَهُم وَلاَ يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالْإِمارَةِ عَلَيْهِمْ فإنَّهُمُ الإِخْوَانُ في الدِّيْنِ، وَالأَعْوَانُ عَلَىٰ اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

وَإِنَّ لَكَ في هٰذِهِ الصَّدَقَةِ نَصيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكاءَ أهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فاقَةٍ، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَإِلاَّ فَإِنَّكَ مِنْ أكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبُؤْساً لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ وَالْغَارِمُ وَابْنُ السَّبيلِ، وَمَنِ اسْتَهَانَ بَالأَمانَةِ وَرَتَعَ في الْخِيَانَةِ وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِيْنَهُ عَنْهَا فَقَدْ أَخَلَّ بِنَفْسِهِ في الدُّنْيَا وَهُوَ في الآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزىٰ، وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الأَئِمَّةِ[1].

المصدر

رواه القاضي نعمان المصري رحمه الله تعالى المتوفّى ٣٦٣هـ.ق ـ مسنداً في دعائم الإسلام كما في الباب ١٢ من كتاب الزكاة من «**مستدرك الوسائل**» للمحدّث المتضلع الحاج الميرزا حسين النوري الطبري رحمه الله (ص٥١٦ ج١)، وفي باب أدب المصدِّق من كتاب الزكاة من «**البحار**» للعلاّمة المجلسي رحمه الله (**ص٢٢ ج٢٠ من الطبع الكمباني**) ونقله من النهج في المجلّد الثامن من «**البحار**» (**ص٦٤٢**) والمنقول عن الدعائم أنَّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام أوصى مخنف بن سليم الأزدي وقد بعثه على الصدقة بوصيّة طويلة أمره فيها بتقوى الله ربّه في سرائر أموره وخفيات أعماله وأن يتلقاهم (**يلقاهم ـ نسخة**) ببسط الوجه ولين الجانب، وأمره أن يلزم التواضع ويجتنب التكبر فإنَّ الله يرفع المتواضعين ويضع المتكبّرين. ثمَّ قال له[2]: يا مخنف بن سليم إنّ لك في هذه الصدقة حقاً ونصيباً مفروضاً[3] ولك فيها شركاء

(١) مستدرك سفينة البحار: ١/ ١٩٤، ونهج السعادة: ٨/ ٤٣٣.

(٢) في نسخة: وقال له.

(٣) في نسخة: نصيباً وحقاً مفروضاً.

فقراء ومساكين وغارمون ومجاهدون وأبناء سبيل ومملوكون ومتألّفون وإنّا موفّوك حقك فوفّهم حقوقهم وإلاّ فإنك من أكثر الناس يوم القيامة خصماً وبؤساً لامرىء خصمه مثل هؤلاء. انتهى[١].

أقول: لم نجد الوصيّة بطولها فيما عندنا من الجوامع الروائية وغيرها مع كثرة الفحص والجدّ في الطلب، ولم يحضرنا دعائم الإسلام ولعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً.

اللغة

(لا يجبههم) أي لا يزجرهم أصله من الجَبْه بمعنى مقابلة الإنسان بما يكرهه. قال ابن الأثير في «**النهاية**»: الجَبْه هو الاستقبال، بالمكروه وأصله من إصابة الجبهة يقال: جبهته إذا أصبت جبهته. انتهى قوله. وقال الشارح المعتزلي: وأن لا يجبههم: لا يواجههم بما يكرهونه وأصل الجبه لقاء الجبهة أو ضربها فلما كان المواجه غيره بالكلام القبيح كالضارب جبهته سمّي بذلك جبهاً. انتهى. وفي القاموس: جبهه كمنعه ضرب جبهته وردّه أو لقيه بما يكره. انتهى. وفي «**منتهى الأرب**»: جَبَهَهُ **(من باب فتح)**: زد برپيشاني أو ورد كرد آن را، وبمكروه پيش آمد اوراو نا بايست آود بروى. انتهى. وقال أُميّة بن أبي الصّلت في ابن له عقّه:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تُعلّ بما أُدني إليك وتنهل
إذا ليلةٌ نابتك بالشكو لم أبت ... لشكوك إلاّ ساهراً أتململ
كأنّي أنا المطروق دونك بالّذي ... طُرقت به دوني وعيني تهمل
فلمّا بلغت السنّ والغاية الّتي ... إليها مدى ما كنت فيك أُؤمّل
جعلت جزائي منك جبهاً وغلظةً ... كأنك أنت المنعم المتفضّل
فليتك إذ لم ترع حقَّ أبوّتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
تراه معدًّا للخلاف كأنّه ... بردّ على أهل الصّواب موكّل

(ولا يعضههم) أي لا يرميهم بالبهتان والكذب، وفي القاموس: عضه كمنع عضهاً ويحرك وعضيهةً وعضهةً بالكسر كذب وسحر ونمّ وجاء بالإفك والبهتان كأعضه وفلاناً بهته وقال فيه ما لم يكن انتهى. وقال المتوكل الليثي **(الحماسة ٤٤٢ من شرح المرزوقي)**.

احذر وصال اللّئيم إنّ له ... عضهاً إذا حبل وصله انقطعا

(١) بحار الأنوار: ٩٣/ ٨٥ ح٧، ونهج السعادة: ٨/ ٧١ ح١٩.

وقال المرزوقي في شرحه: احذر مواصلة اللئيم ومؤاخاته لأنّه إذا انقطع حبل وصله وانصرم ما يجمعك وإيّاه من ودّه يتكذّب عليك ويخلق من الإفك فيك ما لم تكتسبه لا بيدك ولا لسانك، والعضه ذكر القبيح كذباً وزوراً ويقال: عضهته إذا رميته بالزُّور. وأعضه الرجل أتى بالعضيهة وهي الإفك، ومن كلامهم يا للعضيهة ويا للأفيكة.

(بؤساً) قال الجوهري في **«الصحاح»** نقلاً عن أبي زيد في كتاب الهمزة: بئس الرجل يبأس بؤساً وبئيساً اشتدَّت حاجته فهو بائس. أنشد أبو عمرو:

بيضاء من أهل المدينة لم تذق ... بئساً ولم تتبع حمولة مجحدِ

وهو اسم وضع موضع المصدر. وقال الشّارح المعتزلي: قال الراوندي: بؤساً أي عذاباً وشدّة، ثمَّ خطّأه بقوله: فظنّه منوّناً وليس كذلك بل هو بؤسى على وزن فعلى كفضلى ونعمى وهي لفظة مؤنثة يقال: بؤسى بفلان، قال الشاعر:

أرى الحلم بؤسى للفتى في حياته ... ولا عيش إلا ما حباك به الجهل

انتهى قوله. وأقول: نسخة الرّضي تطابق ما اختاره الراوندي واللّغة أيضاً توافقه وانتصابه على المصدر كما يقال سحقاً لك وبعداً لك. فما صحّحه الراوندي ليس بخطأ. نعم ما فسّره الراوندي بقوله: أي عذاباً وشدّة، مخدوش لأنَّ العذاب والشدّة ليس من معاني البؤس بل هما من معاني البأس.

(الفقراء والمساكين) قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] قد ذهب جماعة إلى أنهما مترادفان. ولكن الحقَّ كما هو الظاهر من كلام الحقِّ تعالى أنّهما متغايران، وذهب إليه أكثر العلماء ولكنّهم اختلفوا في معناهما على أقوال كثيرة بعد ما اتفقوا على استحقاقهما من الزكاة والأصح أنَّ المسكين أسوأ حالاً من الفقير وأنه المحتاج الّذي يسأل والفقير المحتاج الّذي لا يسأل، لما رواه الكليني قدّس سرّه في **«الصحيح»** عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام أنه سأله عن الفقير والمسكين فقال: الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي هو أجهد منه الذي يسأل.

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التّوبَة: ٦٠]، قال: الفقير الّذي لا يسأل النّاس والمسكين أجهد منه والبائس أجهدهم(١).

---

(١) الكافي: ٣/ ٥٠١ ح١٦، ووسائل الشيعة: ٩/ ٢١٠ ح١١٨٥٨.

أقول: يعطى معنى المسكين الّذي قاله الإمام عليه السلام من أنه الّذي أجهد منه قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البَلَد: ١٦] وذكر أهل اللّغة والتفسير: المتربة الحاجة الشديدة. ومن أنه الّذي يسأل قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القلم: ٢٣ ـ ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [النور: ٢٢].

ويعطى معنى الفقير من أنه الّذي لا يسأل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾. وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٧١]، وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الحشر: ٨].

ثمَّ إنَّ المسكين بحسب النسبة أعمّ من الفقير لأنَّ الفقير مقابل الغني أي الّذي ليس له مال والمسكين من كانت به المسكنة أيضاً.

وبعد في المقام بحث طويل الذيل أعرضنا عنه لخروجه من موضوع الكتاب وخوفاً من الإسهاب والإطناب، فراجع إلى تفاسير القرآن الكريم وفي زكاة الكتب الفقهية، وقد أشبع الكلام السيّد صاحب «**المدارك**» عند قول المحقّق رحمه الله في زكاة الشرائع: أصناف المستحقين للزكاة سبعة: الفقراء والمساكين ـ الخ. (**ص٢٧٧ من الطبع الرحلي على الحجر**).

(**المدفوعون**) جمع المدفوع من دفعه إذا نحّاه وأبعده وردّه. قيل: المراد منه هنا الفقير لأنَّ كلّ أحد يكرهه ويدفعه عن نفسه، وسيأتي بقيّة الكلام فيه في المعنى.

وقال المجلسي رحمه الله في «**البحار**» (**ص٦٤٣ ج٨ من الطبع الكمباني**) وفي بعض النسخ: المدقعون بالقاف، قال في القاموس: المدقع كمحسن الملصق بالدّقعاء وهو التراب. انتهى.

وأقول: منه قول رسول الله صلى الله عليه وآله للنساء: إنّكنّ إذا جعتنّ دقعتنّ وإذا شبعتنّ خجلتنّ[1]، ولكن الصواب ما اخترناه وهو الّذي موافق لنسخة الرضي رحمه الله.

(**الغارم**) الّذي علاه الدَّين لا يجد القضاء. (**رتع**) كمنع أي أكل وشرب ما شاء في خصب وسعة. (**فقد أحلّ بنفسه في الدّنيا وهو في الآخرة أذلّ وأخزى**) هذا هو المطابق

---

(١) الفايق في غريب الحديث: ١/٣٧٣، وكنز العمال: ٦/٣٧٧ ح١٥١٣٦.

للنسخة التي قوبلت بنسخة الشريف الرضي رحمه الله وهو أخلّ بالخاء المعجمة من غير ذكر الخزي كما في بعض النسخ، ومن غير ذكر الذلّ والخزي كما في نسخ أُخرى. وفي أكثر النسخ المطبوعة فقد أحلّ بنفسه في الدُّنيا الذلّ والخزي بالحاء المهملة في أحلّ، وفي بعضها الآخر فقد أذلّ نفسه في الدنيا الخزي. وفي نسخة أُخرى مخطوطة، فقد أحلّ بنفسه في الدُّنيا الخزي. وجعل بعضهم الخزي بضم الخاء وفتح الزاي جمع الخزية بفتح الخاء أي البليّة ولكن الصواب ما اخترناه موافقاً للرضي رحمه الله.

قال في القاموس: أخلّ بالشيء أجحف وبالمكان وغيره غاب عنه وتركه والوالي بالثغور قلّل الجند بها وبالرجل لم يف له والخلّة الحاجة والفقر والخصاصة، وفي المثل: الخلّة تدعو إلى السلّة أي إلى السرقة. خلّ وأُخلّ بالضم احتاج ورجل مخلّ ومختلّ وخليل وأخلّ معدم فقير واختلّ إليه احتاج وما أخلّك الله إليه ما أحوجك والأخلّ الأفقر. وما يناسب المقام هو المعنى الأوّل أعنى الإجحاف. **(الأمنة)** قال الجوهري في **«الصحاح»**: الأمنة الأمن ومنه **﴿أمنة نعاساً﴾** والأمنة أيضاً الذي يثق بكلّ أحد وفي **«منتهى الأرب»**: أمنة محركة بي بيمي وراستي ضدّ خيانت وبمعنى أُمنة كهمزة است ثمَّ قال: أُمنة كهمزة آنكه برهركس ايمن باشد واعتماد كند وآنكه بروى هر كس اعماد كند درهر كارى، انتهى.

وهذا المعنى الأخير هو المراد إن قلنا أنَّ المصدر مضاف إلى الفاعل، وإن قلنا أنّه مضاف إلى المفعول به، فمعناها هو الذي يثق بكل أحد كما سيأتي.

وفي عدّة نسخ من المخطوطة والمطبوعة **(الأُمّة)** مكان الأمنة إلاّ نسخة الرضي رضوان الله عليه وهي الّتي اخترناها.

الإعراب

كلمة **(أمره)** في المواضع الثلاثة من العهد مشكولة في نسخة عندنا قوبلت بنسخة الرَّضي بفتح الهمزة والميم والراء، وفي غيرها من النسخ الّتي عندنا آمره بمدّ الهمزة وضمّ الميم والراء، فعلى الأول فعل ماض مغايب وعلى الثاني متكلّم من المضارع، والصواب هو الأوّل وذلك لأنَّ أسلوب كلامه عليه السلام في هذا العهد على وزان عهده الذي كتبه إلى محمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر وهو: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد عبد الله عليٌّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر أمره بتقوى الله والطاعة في السرّ والعلانية» ـ إلى أن قال عليه السلام: «وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة» ـ إلى أن قال عليه السلام: وأمره أن يجبي خراج الأرض ـ إلى أن قال عليه السلام: وأمره أن يحكم بين النّاس بالحقّ[1] ـ إلى آخر

(١) الغارات: ١/ ٢٢٤، ونهج السعادة: ٤/ ٩٩.

العهد. أتى به في «**جمهرة رسائل العرب**» (ص٥٣٢ ج١) ناقلاً عن «**تاريخ الطبري**» (ص٢٣١ ج٥) و«**شرح ابن أبي الحديد**» (ص٢٥ ج٢) فضمير (**أمر**) يرجع إلى الاسم الظاهر وهو عبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام وكذا الكلام في هذا العهد لأنّه كما دريت طويل ولم يذكره الرضي كاملاً، وكانت الكلمة على نسخة الرضي على هيئة الماضي فالمختار هو المتعيّن.

(**فيخالف**) الفعل منصوب لأنه وقع بعد (**الفاء**) التي وقعت جواباً للنّفي أعني لا يعمل وقد قرّر في النحو أنَّ المضارع ينصب (**بأن**) مضمرة وجوباً بعد (**الفاء**) الّتي وقعت جواباً لنفي أو طلب، قال ابن مالك في باب إعراب الفعل من **الألفية**:

وبعد فا جواب نفي أو طلب محضين أن وسترها حتم نصب

(**تفضلاً**)انتصب على المفعول له. والظاهر أنَّ قوله بالإمارة متعلق بلا يرغب وإن أمكن تعلقه بالأفعال الثلاثة جميعاً. (**فإنّهم الأخوان**) تعليل ما أمره ثالثاً.

قال الشارح الفاضل المعتزلي: انتصب (**أهل مسكنة**) لأنّه صفة (**شركاء**) وفي التحقيق أنّ (**شركاء**) صفة أيضاً موصوفها محذوف فيكون صفة بعد صفة وقال: قال الراوندي: انتصب (**أهل مسكنة**) لأنّه بدل من (**شركاء**). ثمَّ خطّأه بقوله: وهذا غلط لأنّه لا يعطي معناه ليكون بدلاً منه. انتهى.

وأقول: إنّ (**ذوي فاقة**) بدل لقوله (**ضعفاء**) ولا ضير في كون (**أهل مسكنة**) بدلاً لقوله (**شركاء**) فإنّ أهل مسكنة في المقام هو المقصود بالذّات قال ابن مالك:

التابع المقصود بالحكم بلا واسطة هو المسمّى بدلاً

وكونه مقصوداً بالذات لا يستلزم أن يكون المتبوع ساقطاً رأساً أو يجعل في حكم الساقط كما يشاهد في بعض كتب النحو إلاّ في بدل الغلط وذلك لأنّ في ذكر المتبوع أعني المبدل منه فائدة لا محالة لم تحصل لو لم يذكر صوناً لكلام الفصحاء عن اللغو ولاسيما كلامه تعالى وكلام نبيّه صلى الله عليه وآله فادّعاء كونه غير مقصود بالنسبة مع كونه منسوباً إليه في الظاهر واشتماله على فائدة يصحّ أن ينسب إليه لأجلها دعوى خلاف الظاهر، كما أفاده العالم الأديب الرضي رحمه الله تعالى في شرحه على «**الكافية**». وتلك الفائدة هي تقوية الحكم وتقريره لأنّه بمنزلة إسناد الحكم إلى المحكوم عليه مرّتين كما أفاده الفاضل العالم السيّد عليخان رحمه الله تعالى في **شرحه على الصمدية**.

ثمّ إن قول الفاضل الشارح: لأنه لا يعطي معناه ليكون بدلاً منه، لا يجري في بدل الغلط، على أنَّ بعض النحاة ذهب إلى أن اثنين في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [النحل: ٥١] بدل كلّ معللاً بقوله: لعدم اشتراط بدل الكلّ أن يكون متحداً مع المبدل في

المفهوم بل في المصداق فمن حكم أنه بدل بعض متمسكاً بأنَّ مفهومه بعض من مفهوم إلهين فقد أخطأ، أتى به الفاضل الميرزه أبو طالب في تعليقته على باب النعت من «**شرح السيوطي على الألفية**».

(**فقد أخلّ**) جواب لقوله: ومن استهان. (**وأنظع**) منصوب بأن معطوف على أعظم.

(**خيانة الأمنة**) مصدر مضاف إلى الفاعل، أو مصدر مضاف إلى المفعول به وإن كان الأوّل أولى، وأمّا إذا كانت الأمة مكان الأمنة فالثاني ليس إلاّ.

المعنى

قد أوصى أمير المؤمنين عليه السلام مخنف بن سليم الأزدي بهذه الوصيّة لمّا بعثه على الصّدقة. قال الاسترابادي في كتاب رجاله الكبير: مخنف بن سليم الأزديّ عربي كوفي وفي [د] مخنف بن سليم الأزدي [ى ـ جخ] من خواصّه عربي. وفي [ق] في أصحابه من اليمن مخنف بن سليم الأزدي وكذا في [صه] نقلاً عنه، وفي «**الجامع**» مخنف بن سليم الأزدي بن الحارث بن عوف بن ثعلبة بن الدول بن سعد بن مناة بن غامد الغامدي، ولاّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام أصفهان. روى عنه ابنه أبو رملة واسمه عامر، عداده في أهل البصرة وقيل في أهل الكعبة. مخنف بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح النون وبالفاء. سليم بضم السين وفتح اللام. والدول بضم الدّال وباللام. وغامد بالغين المعجمة ورملة بفتح الراء وباللاّم. انتهى كلام الأسترابادي.

وأقول: ما حصل لنا من الجوامع والمجاميع أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أوصى مخنف بن سليم بهذه الوصيّة لمّا بعثه على الصّدقة، وكتب إليه كتاباً لمّا كان عامله على أصبهان وهمدان وذلك أنّ الأمير عليه السلام لمّا أجمع أن يسير إلى الشام لقتال معاوية كتب إلى عمّاله يستفزّهم فكتب إلى مخنف:

سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد، فإنّ جهاد من صدف عن الحقّ رغبةً عنه، وهبَّ في نعاس العمى والضلال اختياراً به، فريضة على العارفين، إن الله يرضى عمّن أرضاه ويسخط على من عصاه. وإنّا قد هممنا بالسير إلى هؤلاء القوم الّذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله، واستأثروا بالفيء وعطّلوا الحدود، وأماتوا الحقَّ، وأظهروا في الأرض الفساد، واتّخذوا الفاسقين وليجةً من دون المؤمنين، فإذا وليّ الله أعظم أحداثهم أبغضوه وأقصوه وحرموه وإذا ظالم ساعدهم على ظلمهم أحبّوه وأدنوه وبرّوه، فقد أصرّوا على ظلمهم وأجمعوا على الخلاف وقديماً صدّوا عن الحقّ وتعاونوا على الإثم وكانوا ظالمين، فإذا أتيت بكتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك وأقبل إلينا لعلّك تلقى معنا هذا العدوّ المحلّ فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجامع المحقَّ،

وتباين المبطل فإنّه لا غنى بنا ولا بك عن أجر الجهاد وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة سبع وثلاثين.

فاستخلف مخنف على أصبهان الحارث بن أبي الحارث بن الرّبيع، واستعمل على همدان سعيد بن وهب وكلاهما من قومه، وأقبل حتّى شهد مع عليّ عليه السلام صفّين.

نقله في «**جمهرة رسائل العرب**» (ص٤٥٨ ج١) عن شرح ابن أبي الحديد (ص٢٨٢ ج١).

قوله عليه السلام: (**أمره بتقوى الله ـ الخ**) أمره عليه السلام في هذا الوصيّة بأوامر بعضها يبيّن وظيفته مع الخالق تعالى وبعضها يبيّن وظيفته مع الخلق، وذكر للأوّل أمرين أحدهما قوله عليه السلام: أمره بتقوى الله ـ الخ، وقد تقدّم منّا أنّه عليه السلام كان يوصي في أكثر كتبه وعهوده ووصاياه أوّلاً بتقوى الله وكان هذا من دأبه عليه السلام امتثالاً لأمر الله سبحانه واقتداء بكلامه حيث قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النّساء: ١٣١] فراجع إلى شرح المختار الثاني عشر من باب الكتب (ص٨٤ ج١٨) وإلى شرح المختار الخامس والعشرين.

وقد أفاد بعض الأماجد أنّ جميع خيرات الدُّنيا والآخرة جمعت في كلمة واحدة هي التقوى. انظر إلى القرآن ما علّق عليها من خير وثواب وأضاف إليها من سعادة وكرامة دنيوية وأخروية:

الأوّل: الثناء عليها قال الله سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٦].

الثاني: الحفظ والحراسة من الأعداء والماكرين قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الثالث: التأييد والنصر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [النّحل: ١٢٨].

الرابع: النجاة من النار قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريَم: ٧٢].

الخامس: الخلود في الجنّة قال الله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣].

السّادس: النجاة من الشدائد والرزق الحلال قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

السّابع: إصلاح العمل قال عزّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزَاب: ٧٠ ـ ٧١].

الثامن: غفران الذَّنب قال الله جلّ جلاله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ٣١].

التّاسع: محبّة الله تعالى عزّ اسمه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التّوبَة: ٤].

العاشر: قبول الأعمال قال الله عمّ نواله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٧].

الحادي عشر: الإكرام والإعزاز قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

الثاني عشر: البشارة عند الموت قال الله عظم شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣ ـ ٦٤].

ولأجل اجتماع تلك الخصال قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: ١٣١].

وأفاد نحوه مع زيادات من روايات وإشارات الشّيخ العالم الرّباني جمال الدّين أحمد بن فهد الحلّي قدّس سرّه في أواخر كتاب «**عدّة الداعي ونجاح الساعي**» (**ص٢٢٦**) فراجع.

والمرويُّ في «**مجمع البيان في تفسير القرآن**» عن النّبي ﷺ أنّه قال: جماع التقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]. قال: وقيل: المتّقي الّذي اتّقى ما حرم عليه وفعل ما أوجب عليه. وقيل: هو الّذي يتّقي بصالح أعماله عذاب الله. وسأل عمر بن الخطّاب كعب الأحبار عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ فقال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وتشمّرت، فقال كعب: ذلك التقوى. ونظمه بعض الناس فقال:

خلّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التّقى

واصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرةً ... إنّ الجبال من الحصى

وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال: إنما سمّي المتقون لتركهم ما لا بأس به حذراً للوقوع فيما به بأس(١). وقال عمر بن عبد العزيز: التُّقى ملجم كالمحرم في الحرم. وقال بعضهم: التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك. انتهى ما في «**المجمع**» في المقام، وقد أتى به في أوّل سورة البقرة.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١/ ٨٣.

وأقول: ما نقله من سؤال عمر عن التّقوى أتى به السيوطي في «**الدرّ المنثور**» أيضاً لكنّه قال: أخرج ابن أبي الدُّنيا في كتاب التقوى عن أبي هريرة أنّ رجلاً قال له: ما التقوى؟ قال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى[1]. انتهى. فليتأمّل.

ثمّ إنّ قول الشاعر: لا تحقرنّ صغيرة إنَّ الجبال من الحصى، كأنه يشير إلى قول رسول الله ﷺ حيث نزل بأرض قرعاء فقال لأصحابه: ايتونا بحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب؟ قال: فليأت كلُّ إنسان بما قدر عليه. فجاؤوا به حتّى رموا بين يديه بعضه على بعض. فقال رسول الله ﷺ: هكذا تجتمع الذُّنوب ثمّ قال: إياكم والمحقرات من الذُّنوب فإنَّ لكلّ شيء طالباً ألا وإنَّ طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين[2]. رواه الكليني قدّس سرّه في «**الكافي**». وأتى به الفيض في باب استصغار الذنب والإصرار عليه من «**الوافي**» **(ص١٦٨ ج٣)**.

وفي أوّل سورة البقرة من تفسير «**الدّر المنثور**» روايات وحكايات مفيدة في التقوى ولكن رأسها ما وصفه إمام المتقين عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام لهمام بن شريح بن يزيد بن مرّة رضوان الله عليه وهو المختار ١٩١ من باب الخطب من النهج أوّله: روي أنَّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همّام كان رجلاً عابداً ـ الخ. وقد رواه ثقة الإسلام الكليني في باب المؤمن وعلاماته وصفاته من «**أُصول الكافي**» ص٩٧٩ ج٢ من الكافي المشكول.

ورواه الصّدوق رحمه الله في «**المجالس**» أيضاً والشيخ الكراجي ـ رحمه الله ـ في «**كنز الفوائد**». وهو مرويٌّ أيضاً في كتاب سليم بن قيس الكوفي ص١٩٠ من طبع النجف. وراجع أيضاً إلى باب صفات الشيعة وأصنافهم من المجلّد الخامس عشر من «**البحار**» **(ص١٥٤ من الطبع الكمباني)**. وإلى باب صفات المؤمن وعلاماته من «**الوافي**» **(ص٣٣ ج٣)**. و«**مرآة العقول**» **(ص٢٠١ ج٢)** من المطبوع على الحجر.

ثمّ أوصى عليه السلام أن يكون تقواه في سرائر أمره وخفيّات عمله، وذلك لأنّ الإنسان يأبى عن إتيان الفواحش في مرئى الناس صوناً عن أن يتطرق إليه ما لا يرضى ممّا لا يضرّه ويمنعه من الوصول إلى ما يهويه ويشتهيه، ثمّ علّل ذلك تنبيهاً له بقوله: **(حيث لا شهيد غيره ولا وكيل دونه)** فمن عرف أنّه تعالى شهيد ووكيل لا غير وأنّه بذّه اللازم ومعه أينما كان فهو لا يفعل إلاّ ما أجازه تعالى وأمره به فهذا العرفان والشهود أشدّ بمراحل من الحضور مع الناس، بل أين هذا من ذلك فلا يرتكب المعاصي إلاّ الغافل الّذي لا يدري أنّه من هو وبين يدي من هو ومع

---

(١) الدر المنثور: ١/ ٢٤، وفتح القدير: ١/ ٣٤.

(٢) الكافي: ١/ ٢٨٣، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٣١١.

من هو، فهو من الّذين قال عزّ من قائل: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩]. وبما قدّمناه دريت أنّ ما ذهب إليه الشارح المعتزلي وفسّر كلامه عليه السلام حيث لا شهيد ولا وكيل بقوله يعني يوم القيامة، وَهْمٌ، لأنّه تعالى شهيد ووكيل في الدُّنيا والآخرة. وتفسير الكلام هو ما بيّناه لا غير، وما فسّره الشارح المذكور يشابه كلام الظاهريين من المتكلّمين.

وروى ثقة الإسلام الكليني رحمه الله في «**الجامع الكافي**» عن إسحاق بن عمّار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا إسحاق خف الله كأنّك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنّه لا يراك فقد كفرت وإن كنت تعلم أنّه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك(١).

وما أجاد قول العارف عبد الرحمٰن الجامي في «**سبحة الأبرار**» حيث قال:

در مقامي كه كنى قصده گناه گر كند كودكى از دور نگاه
شرم دارى ز گنه در گذرى پرده عصمت خودرا ندرى
شرم بادت ز خداوند جهان كه بود واقف أسرار جهان
بر تو باشد نظرش بيگه وگاه تو كنى در نظرش قصد گناه

وقد مضى بحثنا عن رؤيته تعالى في المختار الثامن من كتبه عليه السلام ورسائله (**ص٢٤٢ ج١٧**) فراجع. وسيأتي نقل رسالتنا منفردة في لقائه تعالى، فارتقب.

قوله عليه السلام: (**وأمره أن لا يعمل ـ الخ**) هذا ثاني الأمرين الذين ذكرهما بياناً لوظيفة العبد مع خالقه تعالى وحاصله أنّ العبد يجب له الاجتناب من الرياء والسمعة والنفاق، ثمَّ عرّف الأمين والمخلص ترغيباً للعباد إليهما بقوله: (**ومن لم يختلف سرّه ـ الخ**) وقد روى ثقة الإسلام الكليني قدّس سرّه في «**الجامع الكافي**» بإسناده عن مسع بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما زاد خشوع الجسد على القلب فهو عندنا نفاق(٢). رواه في آخر باب صفة النفاق والمنافق من كتاب الإيمان والكفر من «**أُصول الكافي**» (**ص٢٨٩ ج٢ من الكافي المشكول**).

والظاهر أن المراد بالأمانة في المقام هو أمانة العامل على الصدقات بأن يقال: لمّا كان عليه السلام بعث مخنف بن سليم على الصّدقة واتّخذه أميناً على حفظها في غيابه وبعض الناس يخالف سرّهم علانيتهم قال ذلك تحريضاً للأمين إلى أداء الأمانة وإخلاص العبادة. ولكلامه

---

(١) الكافي: ٢/ ٦٨، وشرح أصول الكافي: ٨/ ٢١٧ ح٢.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٩٦ ح٦، ووسائل الشيعة: ١/ ٦٦ ح١٤٤.

هذا أثر تامٌّ لمن يبعث على عمل وحفظ مال ونحوهما حيث لا يعلم ما يعمل إلا الله الشهيد الحفيظ.

قوله عليه السلام: **(وأمره أن لا يجبههم ـ الخ)** أخذ عليه السلام في بيان وظيفة العامل مع الخلق أمره أن لا يواجههم بما يكرهونه ولا يقول فيهم ما لم يكن فيهم بأن يقول مثلاً: ما تعلق به الزكاة من أموالكم كان أكثر من ذلك وإنّما كتمتموها منّي أو ما تدّعون من أنكم أدّيتم الزكاة لا أتقبّل منكم وإنّما تقولون به فراراً من الزكاة ونحوها، وأن لا يعرض عنهم تفضلاً بالإمارة عليهم أي لا يوجب إمارته عليهم هذه الأُمور كما هو دأب من غرّته الإمارة. ثمَّ علّل عليه السلام ما أمره به بقوله: **(فإنّهم الإخوان في الدين والأعوان على استخراج الحقوق)** فالإعراض عنهم ومقابلتهم بما يكرهون والإفك فيهم يوجب تفرّقهم وتنفّر طباعهم، وتعطيل الحقوق وتفرقة الإخوان مستلزمة لتخريب البلدان، وتضييع الحقوق يؤدّي إلى مفاسد كثيرة. وقد أكّد عليه السلام في مواضع كثيرة بتأدية حقوق الإخوان ومراعاة أحوالهم، وبيّن منزلتهم ببيانات شافية وافية، وكلامه عليه السلام في ذلك في النهج مشحون.

قوله عليه السلام: **(وإن لك في هذه الصّدقة ـ الخ)** وذلك لأنّ مخنف كان عامله على الصّدقة وقد قال عزّ من قائل في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبَة: ٦٠].

ثمَّ قال له: إنّ لك ولغيرك في هذه الصّدقات نصيباً مفروضاً فوفّ حقوقهم كما أنّا موفّوك حقك فكما تحبّ أخذ حقك كاملاً محفوظاً فاحفظ حقوقهم ولا تخنهم وأدّها إليهم، ووصف الشركاء بأهل مسكنة والضعفاء بذوي فاقة تحريضاً للعامل على الشفقّة عليهم وحفظ أموالهم وتأدية حقوقهم وعدم خيانته إيّاهم.

ثمَّ حذّره عن سوء الخاتمة ونكال الآخرة بقوله: **(وإلاّ فإنك ـ الخ)** أي وإن لم توفّ حقوقهم فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة. أي يكون خصومك أكثر الناس وهم مستحقّوا الزكاة من الفقراء والمساكين وغيرهم من أصناف المستحقّين.

ثمَّ شدّد التحذير بقوله **(وبؤساً لمن خصمه ـ الخ)** والخصم هم أصناف المستحقين للزكاة كما هو الظاهر من كلامه عليه السلام وهم في القرآن الكريم ثمانية إلاّ أنَّ المحقق رحمه الله مال في «**الشرائع**» وجماعة إلى أنّهم سبعة أصناف ظنّاً منهم أنّ الفقراء والمساكين صنف واحد وأنّ هذين اللفظين ـ أعني الفقراء والمساكين ـ مترادفان وقد دريت في بيان اللّغة أنه وهم والحقُّ أنهما متغايران كما اختاره أكثر العلماء.

وذكر أمير المؤمنين عليه السلام أربعة أصناف منهم بلفظ القرآن وهم: الفقراء والمساكين والغارمون وابن السبيل، وأشار إلى العاملين بقوله: (**وإنَّ لك في هذه الصّدقة نصيباً مفروضاً**). فهؤلاء خمسة أصناف وبقيت ثلاثة أصناف منهم، وهم: المؤلّفة قلوبهم والرقاب وفي سبيل الله، وبقي من كلامه عليه السلام أيضاً السّائلون والمدفوعون.

فقال الشارح البحريني: أنه عليه السلام قد ذكر ههُنا في معرض إيجاب الشفقة والرحمة له خمسة: وهم الفقراء والمساكين ويدخل فيه السائلون، ثمَّ المدفوعون ويشبه أن يريد بهم العاملين عليها وسمّاهم مدفوعين باعتبار أنّهم يدفعون لجباية الصّدقات أو لأنّهم إذا أتوا إلى من لا زكاة عليه فسألوه هل عليه زكاة أم لا دفعهم عن نفسه وذكرهم هنا بهذا الوصف لكونه وصف ذلّ وانقهار وكونه عليه السلام في معرض الأمر بالشفقة عليهم. قال بعض الشارحين: أراد بهم الفقراء السائلين لكونهم يدفعون عندالسؤال، ثمَّ الغارم وابن السبيل، وإنما ذكر هؤلاء الخمسة أو الأربعة لكونهم أضعف حالاً من الباقين. انتهى كلامه[١].

ولكنّك علمت بما قدّمنا أن الأمير عليه السلام أشار إلى العاملين عليها بقوله: وإنَّ لك في هذه الصّدقة نصيباً مفروضاً، فلا حاجة إلى التكلف الذي ارتكبه.

وقال الشارح المعتزلي: إنّه عليه السلام إنّما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة في الآية فترك ذكر المؤلّفة قلوبهم لأنّ سهمهم سقط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كان يدفع إليهم حين الإسلام ضعيف وقد أعزّه الله سبحانه فاستغنى عن تأليف قلوب المشركين وبقيت سبعة أصناف وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والرقاب والغارمون وفي سبيل الله وابن السبيل، فأما العاملون عليها فقد ذكره عليه السلام في قوله: وإنَّ لك في هذه الصّدقة نصيباً مفروضاً، فبقيت ستّة أصناف أتى عليه السلام بألفاظ القرآن في أربعة أصناف منها وهي: الفقراء والمساكين والغارم وابن السبيل، وأبدل لفظتين وهما الرقاب وفي سبيل الله بلفظتين وهما السائلون والمدفوعون.

وقال: والسائلون ههُنا الرقاب المذكورون في الآية وهم المكاتبون يتعذّر عليهم أداء مال الكتابة فيسألون الناس ليتخلّصوا من ربقة الرقّ وقيل: هم الأسارى يطلبون فكاك أنفسهم. والمدفوعون ههُنا هم الذين عناهم الله تعالى في الآية بقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وهم فقراء الغزاة سمّاهم مدفوعين لفقرهم والمدفوع والمدفع الفقير لأنَّ كلَّ أحد يكرهه ويدفعه عن نفسه، وقيل: هم الحجيج المنقطع بهم سمّاهم مدفوعين لأنهم دفعوا عن إتمام حجّهم أو دفعوا عن العود إلى أهلهم. انتهى كلامه.

---

(١) شرح النهج: ١٥/ ١٦١.

وأقول: إنَّ في اختصاص سهم المؤلفة قلوبهم بزمان النبيّ ﷺ كلاماً أوّلاً، وكذا في اختصاص المؤلفة قلوبهم بالمشركين ثانياً، وكذا في اختصاص الرقاب بالمكاتبين ثالثاً، وكذا في اختصاص سبيل الله بفقراء الغزاة رابعاً، وفي كلٍّ واحد منها بحث فقهيّ يطول بالورود فيها الكتاب وينجرٌّ إلى الإسهاب وإنما الغرض الإشارة إليها حتى يراجع إلى محالها من شاء.

ثمَّ إنَّ أسلوب كلامه عليه السلام على نسخة النهج يحكي بأنه ليس في مقام بيان أصناف مستحقّي الزكاة حتى يوجّه كلامه بتلك الوجوه، بل أتى بأربعة أصناف منهم، هم أسوء حالاً من غيرهم ترغيباً للعامل إلى مراعاة أحوالهم والشفقة عليهم. والسائلون والمدفوعون الفقراء والمساكين إلاّ أنَّ السائل والمدفوع أسوء حالاً من الفقراء والمسكين والمدفوع هو المطرود الذي يدفعه الناس ويطردونه وهو أسوء حالاً من السائل ويؤيّده ما نقلنا من «**البحار**» آنفاً من أنّ هذه الكلمة في بعض النسخ كانت المدقعين مكان المدفوعين والمدقع الملصق بالتراب. فكأنه عليه السلام قال: (**بؤساً لمن خصمه عند الله هؤلاء الّذين بلغوا إلى هذا المبلغ من الفقر والضعف والعجز**).

نعم على نسخة «**الدعائم**» كما تقدَّم في المصدر قد أتى بجميع أصناف المستحقين حيث قال: (**وإنَّ لك في هذه الصّدقة حقاً**) ـ إلى قوله: (**ولك فيها شركاء فقراء ومساكين وغارمون ومجاهدون وأبناء سبيل ومملوكون ومتألفون ـ الخ**) فعلى نسخة «**الدعائم**» معنى العبارة بيّن لا يقبل التأويل والتوجيه. وبعد اللتيّا والّتي فإن أبيت إلاّ حمل كلامه في النهج على أصناف المستحقين أيضاً فلا بدَّ من شمول السائلين والمدفوعين على الأصناف الثلاثة الباقية ـ أعني المؤلّفة قلوبهم والرقاب وفي سبيل الله ـ بأحد الوجوه المتقدّمة أو نحوها، ولا وجه لإخراج المؤلّفة قلوبهم.

ثمَّ إنّه عليه السلام قال في الوصيّة المتقدّمة لعامله: (**ثمّ أحدر إلينا ما اجتمع عندك نصيّره حيث أمر الله به**) وقال لعامله في هذه الوصيّة: (**وأنّا موفّوك حقّك فوفّهم حقوقهم**) وظاهر كلامه ههُنا يشعر بأنّه عليه السلام أمر عامله هذا ـ أعني مخنف ـ أن ينقل الصّدقات إلى مستحقّي بلدها أصفهان أو همدان ونواحيهما، وقد مرّ بعض المسائل الفقهية المربوطة في الوصيّة المتقدّمة منها جواز نقل مال الزكاة من بلد إلى بلد آخر، فراجع.

قوله عليه السلام: (**ومن استهان بالأمانة ـ الخ**) لا يخفى لطف كلامه عليه السلام: (**ورتع في الخيانة**) فكأنه عليه السلام شبّه الخائن بدابّة ترعى في مرعى لا تتدبّر في مأكلها ومشربها وسوء خاتمتها.

قوله عليه السلام: (**فقد أخلَّ بنفسه**) أي أجحف بنفسها فالخائن لا يخون إلاّ نفسه وكلُّ نفس

بما كسبت رهينة وإذا كشف الغطاء عن هذه النفس الدنية في يوم تبلى السرائر فهي أذلّ وأخزى لأنّها ليست في الآخرة إلاّ ما كانت في الأولى، ولا نتعبك بالبحث عن الجزاء في المعاد وإن شئت فراجع إلى كتابنا المسمى بـ«**القيامة**» ونكتفي ههٰنا بنقل حديث شريف من الكلمة العلياء خاتم الأنبياء محمد المصطفى ﷺ يهدي إلى الرشد لمن كان له قلب، رواه حملة الأحاديث في جوامعهم الروائيّة ونحن نأتي به من كتاب «**الأمالي**» للعالم الجليل قدوة المحدثين الشّيخ الصّدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي قدّس سرّه وهو الحديث الرّابع من المجلس الأوّل منه رواه بإسناده عن العلاء بن محمد بن الفضل عن أبيه عن جدّه قال: قال قيس بن عاصم: وفدت مع جماعة من بني تميم إلى النّبي ﷺ فدخلت وعنده الصلصال بن الدلهمس فقلت: يا نبيّ الله عظنا موعظة ننتفع بها فإنا قوم نعبر في البرية، فقال رسول الله ﷺ: يا قيس إنّ مع العزّ ذلاً، وإنّ مع الحياة موتاً وإنّ مع الدُّنيا آخرة وإنّ لكلّ شيء حسيباً وعلى كلّ شيء رقيباً وإنَّ لكلِّ حسنة ثواباً ولكلِّ سيّئة عقاباً، ولكلّ أجل كتاباً وإنّه لا بدَّ لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميّت فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك ثمَّ لا يحشر إلاّ معك ولا تبعث إلاّ منه ولا تسئل إلاّ عنه فلا تجعله إلاّ صالحاً فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلاّ منه وهو فعلك[1]. فقال: يا نبيّ الله أحبّ أن يكون هذا الكلام في أبيات من الشعر نفخر به على من يلينا من العرب وندّخره، فأمر النّبيُّ ﷺ من يأتيه بحسّان قال: فأقبلت أفكر فيما أشبه هذه العظة من الشعر فاستتب لي القول قبل مجيء الحسّان فقلت: يا رسول الله قد حضرتني أبيات أحسبها توافق ما تريد فقلت:

تخيّر خليطاً من فعالك إنما ... قرين الفتى في القبر ما كان يفعل

ولا بدّ بعد الموت من أن تعدّه ... ليوم ينادي المرء فيه فيقبل

فإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن ... بغير الذي يرضى به الله تشغل

فلن يصحب الإنسان من بعد موته ... ومن قبله إلاّ الذي كان يعمل

ألا إنّما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلاً بينهم ثمّ يرحل

وهذا الحديث وإن كان كلّه نوراً وكلّ واحدة من جملها تفتح باباً من الحقيقة وتشير إلى سرّ لأهله ومع ذلك فينبغي لك التأمل جداً في قوله ﷺ: وإنّ مع الدُّنيا آخرة ولم يقل: وإنّ بعد الدّنيا آخرة حتّى يجعل الآخرة في طول الدُّنيا الزمانيّ، فافهم، وفي قوله: من قرين يدفن معك وهو حيّ، وقوله: لا يحشر إلاّ معك، وقوله: لا تستوحش إلاّ منه، لاسيما في قوله:

(١) الأمالي: ٥١، ومعاني الأخبار: ٢٣٣.

وهو فعلك، أي ذلك القرين الحيّ المحشور معك هو فعلك. ونعم ما قيل:

نهفته معنى نازك بسى است درخط يار تو فهم آن نكنى اي أديب من دانم

وفي آخر الباب الخامس من **«إرشاد القلوب»** للديلمي ﷺ: قال قيس بن عاصم: وفدت على رسول الله ﷺ في جماعة من تميم فقال لي: اغتسل بماء وسدر، فاغتسلت ثمّ رجعت إليه فقلت: يا رسول الله عظنا موعظة ننتفع بها فقال: يا قيس إنّ مع العزّ ذلاً ـ الخ، انتهى[١].

وقال ابن الأثير في **«أسد الغابة»**: إنه أسلم فأمره النّبي ﷺ أن يغتسل بماء وسدر[٢].

ومن الحديث يعلم أنّ قيس بن عاصم كان رجلاً فهيماً عاقلاً لائقاً بأن يخاطب بهذه الجمل ويلقى إليه تلك الصحيفة المكرّمة والموعظة الحسنة بل الحكمة العالية المتعالية، وكان وفوده إلى النبي ﷺ سنة تسع من الهجرة وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: هذا سيّد أهل الوبر. وكان سيّداً شريفاً جواداً عاقلاً مشهوراً بالحلم، وهو الذي رثاه عبدة الطبيب بقوله:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحّما

تحيّة من أوليته منك نعمة إذا زار عن شحط بلادك سلّما

فما كان قيس هُلكه هُلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّما

وكان قيس بن عاصم قد حرّم على نفسه الخمر في الجاهليّة وكان سبب ذلك أنه غمز عنكة ابنته وهو سكران وسبّ أبويها، ورأى القمر فتكلّم، وأعطى الخمّار كثيراً من ماله، فلمّا أفاق أخبر بذلك فحرّمها على نفسه وقال فيها أشعاراً منها قوله:

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربه صحيحاً ولا أشفي بها أبداً سقيما

ولا أعطى بها ثمناً حياتي ولا أدعو لها أبداً نديما

فإنّ الخمر تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما

وأراد بالرجل الحليم نفسه فإنه كان بالحلم مشهوراً، قيل للأحنف بن قيس: ممّن تعلّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل

---

(١) الأمالي: ٥١ ح٤، ومعاني الأخبار: ٢٣٣ ح١.

(٢) تهذيب الأحكام: ٢/٣٣٤ ح٦٧٢، ومعرفة الثقات: ٢/٢٢١.

سيفه يحدّث قومه إذ أتي برجل مكتوف، وآخر مقتول فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك، قال: فوالله ما حلّ حبوته ولا قطع كلامه، فلمّا أتمّه التفت إلى ابن أخيه، فقال: يا ابن أخي بئس ما فعلت أثمت بربّك وقطعت رحمك وقتلك ابن عمّك ورميت نفسك بسهمك ثمّ قال لابن له آخر: قم يا بنيّ فوار أخاك وحلّ كتاف ابن عمّك وسق إلى أُمّك مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة.

ولمّا حضرته الوفاة دعا بنيه فقال: يا بنيّ احفظوا عنّي فلا أحدأنصح لكم منّي: إذا متّ فسوّدوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيسفّه الناس كباركم وتهونون عليهم، وعليكم بإصلاح المال فإنّه منبهة للكريم ويُستغنى به عن اللئيم، وإيّاكم ومسألة الناس فإنها آخر كسب الرجل وأوصى عند موته فقال: إذا أنا مت فلا تنوحوا عليّ فإنّ رسول الله ﷺ لم ينح عليه.

وكان قيس هذا أوّل من وأد وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني وأدت ثماني بنات لي في الجاهلية فقال: اعتق عن كلٍّ واحدة منهنّ رقبة. قال: إني صاحب إبل. قال ﷺ: إن شئت عن كلٍّ واحدة منهنَّ بدنة، كما في «**الإصابة**»[1].

وفي «**أسد الغابة**»: روي عنه أنّه قال للنّبي ﷺ: إني وأدت اثنتي عشرة بنتاً أو ثلاث عشرة بنتاً. فقال له النّبي ﷺ: اعتق عن كلّ واحدة منهنّ نسمة[2]. وفي المقام ينبغي أن يبحث عن الدّية ولكن الكلام يجرّ الكلام.

ويليق أن ينظر في شأن قيس هذا حيث كان أوّل الأمر ممّن يأد بناته، قال عزَّ من قائل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٦٠] ثمّ هدي بالقرآن الكريم إلى الدّين القويم، نعم إنَّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم، وكان ممّن حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية ومن أمره هذا ومن حلمه وكلامه يعلم فخامة قدره وقدر ذكائه وفطنته.

وقد كان غير واحد من أُولى الدراية حرّموا على أنفسهم الخمر في الجاهلية منهم عثمان بن مظعون وقال: لا أشرب شراباً يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى منّي، ويحملني أن أنكح كريمتي.

ومنهم العباس بن مرداس فإنه قيل له: ألا تأخذ من الشراب فإنه يزيد في قوتك وجرأتك، قال: لا أصبح سيّد قومي وأمسي سفيهها لا والله لا يدخل جوفي شيء يحول بيني

(١) الإصابة: ٥/٣٦٨، والمعجم الكبير: ١٨/ ٣٧٣.

(٢) المعجم الكبير: ١٨/٣٣٨.

وبين عقلي أبداً. وقد أتى بعدّة منهم ابن الأثير في ترجمة العباس هذا من «**أسد الغابة**».

قوله عليه السلام: (**وإنَّ أعظم الخيانة ـ الخ**) وذلك لأنّ الخيانة في نفسها قبيحة وإن كان في حقّ من لا يثق بك، فهي في حقّ من اعتمد عليك ووثق بك واستأمنك أقبح وأعظم عقوبة ونكالاً في الأولى والآخرة وكذلك الكلام في الغشّ. وكذلك على نسخة الأمّة مكان الأمنة ولكن في الأمنة لطفاً ليس في الأُمّة كما هو مختارنا الموافق لنسخة الرضي رضوان الله عليه. ومعنى العبارة على هذا الوجه يصّح إن كان المصدر مضافاً إلى المفعول وقد اختاره الفاضل الشارح المعتزلي حيث قال: وخيانة الأُمّة مصدر مضاف إلى المفعول به لأنّ الساعي إذا خان فقد خان الأُمّة كلّها، وكذلك غشّ الأئمة مصدر مضاف إلى المفعول أيضاً لأنّ الساعي إذا غشّ في الصّدقة فقد غشّ الإمام، انتهى.

وأقول: قد تقدّم أنّ العبارة إذا كانت (**الأُمّة**) فالجملة الأُولى لا تحتمل إلاّ إضافة المصدر إلى المفعول به، وتجعل الثّانية على وزانها أيضاً حتّى يصير الكلام على نسق واحد. ولكنّ حقَّ التدبر في الكلام وسياق العهد وأسلوبه تنادي بأنّ الصواب هو الأمنة وأنَّ الإضافة في الجملتين إلى الفاعل أولى إن لم تكن متعيّنة.

وانظر يا باغي الرشاد وطالب السداد في هذا العهد الشريف حيث صدّره عليه السلام بتقوى الله في بواطن الأُمور والأعمال مشيراً إلى أنّ الله هو الشهيد الوكيل فينبغي لعبد الله أن يكون عند الله مطلقاً ولا يكون من الغافلين أوّلاً، ثمَّ أمر بترك الرياء والنفاق المؤدّي إلى الإخلاص ثانياً، ثمَّ أمر بالشفقة على الرعيّة ونهى عن التكبر والتطاول عليهم بسبب الإمارة عليهم ثالثاً، ثمَّ أوصى في حفظ حقوقهم وتأديتها إليهم إن أحبَّ ألاّ يكون خصمه عند الله يوم القيامة هؤلاء المساكين رابعاً، ثمَّ حذَّر من استهان بالأمانة بعذاب الآخرة، وخيانته لنفسه خامساً، وكما صدَّر عهده بتقوى الله تعالى كذا عقبّه بالزهد في الدُّنيا وتزكية النفس عن الأدران النفسانية والأوساخ الدُّنيوية حيث قال: ولم ينزّه نفسه ودينه عنها ـ الخ سادساً، وختمه بذمّ خيانة الأمنة وغشّ الأئمة سابعاً، نعم هكذا والله كلام من اجتباه الله تعالى ليستنقذ عباده من الضلالة والجهالة. والحمد لله ولي التوفيق وبيده أزمّة التحقيق.

ثمَّ إنَّ لمستحقّي الزكاة من الأصناف الثمانية شروطاً مذكورة مشروحة في الكتب الفقهية فلا نتعبك بعنوانها والبحث عنها.

الترجمة

از جمله عهد آن حضرت (عليه السلام) است كه آن را به يكى از عمّالش هنگامى كه او را براى جمع زكات فرستاده مرقوم فرمود:

امر كرد او را كه در امور پنهان و اعمال پوشيده اش با تقوى باشد، چه گواهى جز خدا و وكيلى سواى او نيست.

و امر كرد او را كه در آشكار طاعتى به جا نياورد كه در پنهان خلاف آن را مرتكب شود و هركه پنهان و آشكارش و كردار و گفتارش دوگونه و خلاف هم نيست، امانت را ادا كرده و عبادت را به اخلاص گذرانده.

و امر كرد او را كه دست رد به پيشانى مردم نزند و نابايست و ناخوش بر آن ها پيش نياورد و بدان ها بهتان نزند و بر آن ها دروغ نبندد و از جهت امارت و حكومت بر آنان از ايشان روى برنگرداند، چه آنان برادران دينى و ياوران بر گرفتن حقوق هستند.

و همانا كه براى تو در اين زكات بهره واجب و حقى معلوم است و مرتورا انبازان درويش و ناتوان تهى دست در اين مال است و ما حق تو را به تمام مى دهيم، پس تو هم حق ايشان را به تمام و كمال بپرداز وگرنه خصم تو در روز رستاخيز، مردم بسيار خواهند بود. و بدا به كسى كه خصم او نزد خدا فقرا و مساكين و سائلان و رانده شدگان و وامداران و رهگذريان باشند و آن كه امانت را خوار دارد و در خيانت چراكند و خودش را و دينش را از آن پاك نسازد، به خودش در دنيا ستم كرد و در آخرت هم خويشتن را زبون و رسوا ساخت. و همانا كه بزرگترين خيانت، خيانت كسى است كه ديگران بر وى اعتماد دارند و زشت ترين غشّ كردن، غشّ كردن پيشوايان است.

ومن عهد له عليه الصلاة والسلام إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر ـ وهو المختار السابع والعشرون من كتبه عليه السلام ووصاياه وعهوده ورسائله

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَناحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ حَتَّى لاَ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ في حَيْفِكَ، وَلاَ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ. وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيْرَةِ مِنْ أَعْمالِكُمْ وَالْكَبِيْرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، فَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِيْنَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الآخِرَةِ فَشارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا في آخِرَتِهِمْ. سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ ما سُكِنَتْ، وَأَكَلُوها بِأَفْضَلِ ما أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا ما أَخَذَهُ الْجَبابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ وَالْمَتْجَرِ الْمُرْبِحِ، أَصابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا في دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيْرانُ اللَّهِ غَداً في آخِرَتِهِمْ. لاَ تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلاَ يُنْقَصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ، فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ فَإِنَّهُ يَأْتي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَلِيلٍ بِخَيْرٍ لاَ يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لاَ يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً فَمَنْ أَقْرَبُ إِلى الْجَنَّةِ مِنْ عامِلِها؟ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلى النَّارِ مِنْ عامِلِهَا؟ وَأَنْتُمْ طُرَداءُ الْمَوْتِ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ، الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَواصِيْكُمْ وَالدُّنْيَا تُطْوىٰ مِنْ خَلْفِكُمْ، فَاحْذَرُوا ناراً قَعْرُها بَعِيدٌ وَحَرُّها شَدِيْدٌ وَعَذَابُهَا جَدِيْدٌ.

دَارٌ لَيْسَ فِيْهَا رَحْمَةٌ، وَلاَ تُسْمَعُ فِيْهَا دَعْوَةٌ، وَلاَ تُفَرَّجُ فِيْهَا كُرْبَةٌ، وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَىٰ قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلَّهِ.

وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدَ بْنَ أَبي بَكْرٍ، قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَىٰ نَفْسِكَ وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِيْنِكَ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ لَكَ إِلاَّ ساعَةٌ مِنْ دَهْرِكَ فَلاَ تُسْخِطِ اللَّهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ في اللَّهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلَفٌ في غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا الْمُوَقَّتِ لَهَا، وَلاَ تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلاَ تُؤَخِّرْها عَنْ وَقْتِهَا لاشْتِغَالٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلاَتِكَ.

ومن هذا العهد:

فَإِنَّهُ لاَ سَوَاءٌ إِمامُ الْهُدَىٰ وَإِمامُ الرَّدىٰ، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ وَلَقَدْ قالَ لِيَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنّي لاَ أَخافُ عَلَىٰ أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلاَ مُشْرِكاً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللّٰهُ بِإِيْمانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللّٰهُ بِشِرْكِهِ، وَلٰكِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنافِقِ الْجَنانِ عالِمِ اللِّسانِ يَقُولُ ما تَعْرِفُونَ وَيَفْعَلُ ما تُنْكِرُونَ[1].

ذكر مآخذ العهد ومصادره

قد روى هذا العهد في كتب الفريقين بأسانيد عديدة وطرق كثيرة على صور متقاربة أو متفاوتة:

منهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعد بن هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود الثقفي الكوفي صاحب مصنّفات كثيرة، المتوفَّى سنة ثلاث وثمانين ومائتين في كتاب الغارات.

ومنهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة عشر وثلاثمائة في كتابه في **«تاريخ الرسل والملوك» (ص٣٢٤٦ ج٦ من طبع ليدن)**.

ومنهم الشيخ الجليل أبو محمّد الحسن بن عليّ بن شعبة الحرّاني المتوفّى ٣٣٢هـ. ق في **«تحف العقول» (ص٤٠ من الطبع على الحجر. وص١٧١ من الطبع الجديد)**.

ومنهم الشّيخ الأجل أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام البغدادي الملقّب بالمفيد المتوفّى سنة ٤١٣هـ. ق، في أوّل المجلس الحادي والثلاثين من أماليه **(ص١٥١ من طبع النجف)**.

ومنهم شيخ الطائفة الإماميّة أبو جعفر محمد بن الحسن بن عليّ الطوسي المتوفّى ٤٦٠هـ. ق في آخر الجزء الأوّل من أماليه (ص**١٦ من طبع طهران، وص٢٤ ج١ من طبع النجف)**.

ومنهم أبو جعفر محمد بن أبي القاسم محمد بن علي الطبري الآملي المعروف بعماد الدِّين الطبري من علماء الإمامية في القرن السادس في كتابه **«بشارة المصطفى لشيعة المرتضى» (ص٥٢ ج١ من طبع النجف)** وفي كتابه في **«الزهد والتقوى»**.

---

(١) تحف العقول: ١٧٩، والغارات: ١/ ٢٤٨ ح٢.

وأتى بما في الغارات الفاضل الشارح المعتزلي في أوائل الجزء السادس من شرحه على المختار ٦٦ من خطب النهج (**ص٢٩٥ ج١ من الطبع على الحجر**). والعلاّمة المجلسي في المجلد الثامن من «**البحار**» (**ص٦٤٣ من الطبع الكمباني**). ونقل بعض صور هذا العهد المنقول من الطبري وأبي إسحاق الثقفي الفاضل أحمد زكي صفوت في «**جمهرة رسائل العرب**» (**ص٥٣٢ إلى ٥٤٢ ج١ من طبع مصر**).

ونقل طائفة من كتاب الغارات في كيفية شهادت محمد بن أبي بكر ونبذة من مطالب أخرى الفاضل المقدم الميرزه حبيب الله الخوئي في «**شرح المختار**» المذكور آنفاً إلاّ أنه جعله المختار ٦٧ ولم يأت من صور هذا العهد إلاّ واحداً منها فراجع إلى (**ص١١٢ من ج٦ من الطبع الجديد**).

وقال بعد نقله: أقول: ولأمير المؤمنين عليه السلام كتاب آخر مبسوط إلى محمد وأهل مصر ورواه إبراهيم ـ يعني أبا إسحاق إبراهيم صاحب كتاب الغارات ـ نرويه إن شاء الله في باب الكتب إن ساعدنا التوفيق والمجال، انتهى.

أقول: ولكنه رضوان الله عليه قد قضى نحبه وقد بلغ شرحه إلى أواخر خطب النهج، كما تقدّم كلامنا في ذلك في أوّل «**تكملة المنهاج**»، ونحن نرويه ههنا إن شاء الله تعالى بصوره جميعاً نيابة عن الخوئي رحمه الله ونسأل الله تعالى أن يجعل سعيه مشكوراً. ويوفّقنا بإتمام شرح الكتاب إنّه المفيض الوهّاب.

صورة العهد على رواية أبي إسحاق في كتاب الغارات

أمّا صورة العهد على رواية أبي إسحاق إبراهيم في كتاب الغارات قال: وكان عهد عليّ إلى محمد بن أبي بكر رحمه الله الّذي قُرِيء بمصر: هذا ما عهد عبد الله عليٌّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر: أمره بتقوى الله في السرِّ والعلانية وخوف الله تعالى في المغيب والمشهد.

وأمره باللّين على المسلم، والغلظ على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمّة وبالإنصاف للمظلوم، وبالشدَّة على الظالم، وبالعفو عن النّاس، وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين.

وأمره أن يدعو من قِبلَه إلى الطاعة والجماعة، فإنَّ لهم في ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يُقدر قدره ولا يُعرف كنهه.

وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تُجبى عليه من قبل لا ينتقص ولا يبتدع ثمَّ

يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل، وإن تكن لهم حاجة يواسي بينهم في مجلسه ووجهه ليكون القريب والبعيد عنده على سواء.

وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسطاس، ولا يتبع الهوى ولا يخاف في الله لومة لائم فإنَّ الله مع من اتّقاه وآثر طاعته على من سواه.

وكتب عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله لغرّة شهر رمضان سنة ستّ وثلاثين.

قال أبو إسحاق إبراهيم: ثمَّ قام محمد بن أبي بكر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد، فالحمد لله الّذي هدانا وإيّاكم لما اختلف فيه من الحق، وبصرنا وإيّاكم كثيراً مما عَمِيَ عنه الجاهلون. ألا وإنَّ أمير المؤمنين ولّاني أموركم وعهد إليّ بما سمعتم وأوصاني بكثير منه مشافهةً ولن آلوكم جهداً ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب، فإن يكن ما ترون من آثاري وأعمالي طاعة لله وتقوى فاحمدوا الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادي إليه، وإن رأيتم من ذلك عملاً بغير الحقّ فارفعوه إليّ وعاتبوني عليه فإني بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون، وفّقنا الله وإيّاكم لصالح العمل[1].

صورة ما كتب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى أهل مصر لما بعث محمد بن أبي بكر إليهم يخاطبهم به ومحمداً أيضاً فيه على رواية أبي إسحاق في كتاب الغارات أيضاً

وقال أبو إسحاق إبراهيم في كتاب الغارات أيضاً: وحدّثني يحيى بن صالح عن مالك، عن خالد الأسدي، عن الحسن بن إبراهيم، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام قال: كتب عليٌّ عليه السلام إلى أهل مصر لمّا بعث محمد بن أبي بكر إليهم كتاباً يخاطبهم به ويخاطب محمد أيضاً فيه: أمّا بعد فإنّي أوصيكم بتقوى الله في سرّ أمركم وعلانيته، وعلى أيّ حالٍ كنتم عليها. وليعلم المرء منكم أنّ الدنيا دار بلاء وفناء، والآخرة دار جزاء وبقاء، فمن استطاع أن يؤثر ما بقي على ما يفنى فليفعل فإنّ الآخرة تبقى والدُّنيا تفنى، رزقنا الله وإيّاكم بصراً لما بصّرنا وفهماً لما فهّمنا حتى لا نقصّر عمّا أمرنا، ولا نتعدّى إلى ما نهانا.

واعلم يا محمد أنّك وإن كنت محتاجاً إلى نصيبك من الدُّنيا إلاّ أنّك إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران أحدهما للآخرة والآخر للدُّنيا فابدأ بأمر الآخرة.

---

(١) شرح النهج: ٦/٦٦، وتاريخ الطبري: ٣/٥٥٧.

ولتعظم رغبتك في الخير، ولتحسن فيه نيّتك فإنَّ الله عزّ وجلّ يعطي العبد على قدر نيّته، وإذا أحبَّ الخير وأهله ولم يعمله كان إن شاء الله كمن عمله، فإنَّ رسول الله ﷺ قال حين رجع من تبوك: إنَّ بالمدينة لأقواماً ما سرتم من مسير ولا هبطتم من وادٍ إلاّ كانوا معكم ما حبسهم إلاّ المرض[١] يقول: كانت لهم نيّة.

ثمَّ اعلم يا محمد إنّي ولّيتك أعظم أجنادي أهل مصر، وولّيتك ما ولّيتك من أمر الناس فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك وتحذر فيه على دينك ولو كان ساعة من نهارٍ، فإن استطعت أن لا تسخط ربّك لرضى أحدٍ من خلقه فافعل فإنَّ في الله خلفاً من غيره وليس في شيء غيره خلف منه، فاشتدَّ على الظّالم، ولِن لأهل الخير وقرِّبهم إليك واجعلهم بطانتك وإخوانك والسلام[٢].

كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر على صورة أخرى منقولة من كتاب الغارات أيضاً

قال أبو إسحاق إبراهيم: حدَّثني يحيى بن صالح عن مالك بن خالد، عن الحسن بن إبراهيم، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام قال: كتب عليٌّ عليه السلام إلى محمد وأهل مصر: أمّا بعد: فإنّي أُوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤلون فأنتم به رهنٌ وإليه صائرون، فإنَّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝﴾ [المدّثّر: ٣٨]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾، فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير فإن يعذِّب فنحن الظّالون وإن يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين.

واعلموا أنَّ أقرب ما يكون العبد إلى الرحمة والمغفرة حين ما يعمل بطاعة الله ومناصحته في التوبة، فعليكم بتقوى الله عزّ وجلّ فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها: خير الدُّنيا وخير الآخرة، يقول سبحانه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ [النّحل: ٣٠].

واعلموا عباد الله أنَّ المؤمنين المتّقين قد ذهبوا بعاجل الخير وآجله شركوا أهل الدُّنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدُّنيا في آخرتهم، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ

(١) الغارات: ١/ ٢٣٠، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٥٤٣.

(٢) تحف العقول: ١٧٩، مستدرك سفينة البحار: ٣/ ٢٣٣.

ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾. سكنوا الدُّنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدُّنيا في دنياهم، يأكلون من أفضل ما يأكلون، ويشربون من أفضل ما يشربون، ويلبسون من أفضل ما يلبسون ويسكنون من أفضل ما يسكنون، أصابوا لذَّة أهل الدُّنيا مع أهل الدُّنيا مع أنّهم غداً من جيران الله عزّ وجلَّ يتمنّون عليه، لا يردّ لهم دعوة ولا ينقص لهم لذة، أما في هذا ما يشتاق إليه من كان له عقل.

واعلموا عباد الله أنّكم إن اتّقيتم ربكم، وحفظتم نبيّكم في أهل بيته فقد عبدتموه بأفضل ما عبد، وذكرتموه بأفضل ما ذكر، وشكرتموه بأفضل ما شكر وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضل الجهاد، وإن كان غيركم أطول صلاة منكم، وأكثر صياماً إذا كنتم أتقى لله وأنصح لأولياء الله من آل محمد ﷺ وأخشع.

واحذروا عباد الله الموت ونزوله، وخذوا له فإنه يدخله بأمر عظيم: خير لا يكون معه شرّ أبداً، وشرّ لا يكون معه خير أبداً، ليس أحد من النّاس تفارق روحه جسده حتّى يعلم إلى أيِّ المنزلتين يصير: إلى الجنّة أم إلى النّار؟ أعدوّ هو لله أم وليٌّ له؟ فإن كان ولياً فتحت له أبواب الجنة، وشرع له طريقها، ونظر إلى ما أعدّ الله عزّ وجلّ لأوليائه فيها، فرغ من كل شغل، ووضع عنه كل ثقل وإن كان عدّواً فتحت له أبواب النّار وسهّل له طريقها ونظر إلى ما أعدَّ الله لأهلها، واستقبل كلَّ مكروهٍ، وفارق كلَّ سرور، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٢٨ ـ ٢٩].

واعلموا عباد الله أنّ الموت ليس فيه فوت فاحذروه وأعدّوا له عدَّته فإنّكم طرداء للموت إن أقمتم أخذكم، وإن هربتم أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلّكم، معقود بنواصيكم، والدُّنيا تطوى من خلفكم، فأكثروا ذكر الموت عند ما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات فإنّه كفى بالموت واعظاً قال رسول الله ﷺ: أكثروا ذكر الموت فإنه هادم اللّذات.

واعلموا عباد الله أنَّ ما بعد الموت أشدّ من الموت لمن لم يغفر الله له ويرحمه، واحذروا القبر وضمّته، وضيقه وظلمته فإنّه الّذي يتكلّم كلّ يوم: أنا بيت التراب، وأنا بيت الغربة، وأنا بيت الدّود، والقبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّار، إنّ المسلم إذا مات قالت الأرض: مرحباً وأهلاً قد كنت ممّن أُحبّ أن تمشي على ظهري، فإذا وليتك فستعلم كيف صنعي بك فيتّسع له مدَّ بصره، وإذا دفن الكافر قالت له الأرض: لا مرحباً ولا أهلاً قد كنت ممّن أبغض أن تمشي على ظهري، فإذا وليتك فستعلم كيف صنعي بك، فتنضمّ عليه حتى تلتقي أضلاعه.

واعلموا أنَّ المعيشة الضنك الّتي قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] هي عذاب القبر فإنه يسلّط على الكافر في قبره حيّاتٌ عظامٌ تنهش لحمه حتّى يبعث لو أنَّ تنيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت الزرع أبداً.

واعلموا عباد الله أنَّ أجسادكم الرقيقة النّاعمة التي يكفيها اليسير من العقاب ضعيفة عن هذا، فإن استطعتم أن ترحموا أنفسكم وأجسادكم مما لا طاقة لكم به ولا صبر عليه فتعملوا بما أحبَّ الله سبحانه، وتتركوا ما كره فافعلوا، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

واعلموا عباد الله أنَّ ما بعد القبر أشدّ من القبر يوم يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير وتذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت، واحذروا يوماً عبوساً قمطريراً كان شرّه مستطيراً، أما إنَّ شرَّ ذلك اليوم وفزعه استطار حتّى فزعت منه الملائكة الّذين ليست لهم ذنوبٌ والسبع الشداد والجبال الأوتاد والأرضون المهاد وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية وتغيّرت فكانت وردة كالدِّهان، وكانت الجبال سراباً بعد ما كانت صمّاً صلاباً، يقول الله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فكيف بمن يعصيه بالسمع والبصر واللّسان واليد والفرج والبطن إن لم يغفر الله ويرحم؟

واعلموا عباد الله أنَّ ما بعد ذلك اليوم أشدّ وأدهى، نارٌ قعرها بعيد، وحرُّها شديدٌ، عذابها جديدٌ، ومقامعها حديدٌ، وشرابها صديدٌ، لا يفتر عذابها، ولا يموت ساكنها، دارٌ ليست لله سبحانه فيها رحمةٌ، ولا تسمع فيها دعوةٌ ومع هذا رحمة الله التي وسعت كل شيء لا تعجز عن العباد، وجنّةٌ عرضها كعرض السماوات والأرض؛ خير لا يكون بعده شرٌّ أبداً، وشهوةٌ لا تنفد أبداً، ولذّة لا تفنى أبداً، ومجمعٌ لا يتفرّق أبداً، قومٌ قد جاوروا الرحمٰن، وقام بين أيديهم الغلمان، بصحافٍ من ذهبٍ فيها الفاكهة والريحان، وأنَّ أهل الجنّة يزورون الجبّار سبحانه في كلّ جمعة فيكون أقربهم منه على منابر من نور، والّذين يلونهم على منابر من ياقوت، والّذين يلونهم على منابر من مسك فبيناهم كذلك ينظرون الله جلَّ جلاله وينظر الله في وجوههم إذ أقبلت سحابةٌ تغشاهم فتمطر عليهم من النعمة واللذّة والسرور والبهجة ما لا يعلمه إلاّ الله سبحانه، ومع هذا ما هو أفضل منه رضوان الله الأكبر، أما إنّا لو لم نخوّف إلاّ ببعض ما خوّفنا به لكنّا محقوقين أن يشتدَّ خوفنا ممّا لا طاقة لنا به، ولا صبر لقوّتنا عليه، وأن يشتدَّ شوقنا إلى ما لا غنى لنا عنه، وما لا بدّ لنا منه، فإن استطعتم عباد الله أن يشتدَّ خوفكم من ربّكم فافعلوا فإنَّ العبد إنّما تكون طاعته على قدر خوفه، وإنَّ أحسن النّاس لله طاعة أشدّهم له خوفاً.

وانظر يا محمد صلاتك كيف تصلّيها فإنّما أنت إمام، ينبغي لك أن تتمّها، وأن تخفّفها وأن تصلّيها لوقتها فإنّه ليس من إمام يصلّي بقوم فيكون في صلاته وصلاتهم نقص إلاّ كان إثم

ذلك عليه ولا ينقص من صلاتهم شيئاً.

واعلم أنَّ كلّ شيء من عملك يتبع صلاتك فمن ضيّع الصّلاة فهو لغيرها أشدُّ تضييعاً، ووضؤوكَ من تمام الصلاة فأت به على وجهه فالوضوء نصف الإيمان أسأل الله الّذي يَرى ولا يُرى وهو بالمنظر الأعلى أن يجعلنا وإيّاك من المتّقين الّذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فإن استطعتم يا أهل مصر أن تصدّق أقوالكم أفعالكم وأن يتوافق سرُّكم وعلانيتكم، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم فافعلوا عصمنا الله وإيّاكم بالهدى، وسلك بنا وبكم المحجّة الوسطى.

وإيّاكم ودعوة الكذاب ابن هند، وتأمّلوا، واعلموا أنّه لا سوى إمام الهدى وإمام الرَّدى، ووصيُّ النّبي وعدوُّ النّبي، جعلنا الله وإيّاكم ممّن يحبُّ ويرضى، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّي لا أخاف على أُمّتي مؤمناً ولا مشركاً: أمّا المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأمّا المشرك فيحرمنّه الله بشركه ولكنّي أخاف عليهم كلَّ منافق اللسان يقول ما يعرفون ويفعل ما ينكرون.

واعلم يا محمد أنّ أفضل الفقه الورع في دين الله والعمل بطاعته فعليك بتقوى الله في سرّ أمرك وعلانيتك، وأُوصيك بسبعٍ هنّ جوامع الإسلام: اخش الله ولا تخش الناس في الله، وخير القول ما صدَّقه العمل، ولا تقض في أمرٍ واحدٍ بقضائين مختلفين فيتناقض أمرك وتزيغ عن الحقِّ، وأحبّ لعامّة رعيّتك ما تحبّه لنفسك وأكره ما تكره لنفسك، واصلح أحوال رعيّتك، وخض الغمرات إلى الحقِّ ولا تخف لومة لائم، وانصح لمن استشارك، واجعل نفسك أُسوة لقريب المسلمين وبعيدهم. جعل الله خلّتنا وديننا خلّة المتّقين ودَّ المخلصين، وجمع بيننا وبينكم في دار الرّضوان إخواناً على سررٍ متقابلين إن شاء الله[1].

قال أبو إسحاق إبراهيم: فحدّثني عبد الله بن محمد بن عثمان عن عليّ بن محمد بن أبي سيف عن أصحابه أنّ علياً ﷺ لما كتب إلى محمد بن أبي بكر هذا الكتاب كان ينظر فيه ويتأدّب به فلمّا ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجّب منه، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية وقد رأى إعجابه به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاوية: مه! فإنّه لا رأي لك، فقال الوليد: أفمن الرأي أن يعلم النّاس أنَّ أحاديث أبي تراب عندك تتعلّم منها؟ قال معاوية: ويحك أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم، فقال الوليد:

---

(١) الغارات: ١/ ٢٥٠، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٥٥٠.

إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله؟ فقال: لولا إنَّ أبا تراب قتل عثمان ثمَّ أفتانا لأخذنا عنه. ثمَّ سكت هنيئةً ثمّ نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول إنَّ هذه من كتب عليّ بن أبي طالب ولكن نقول: هذه من كتب أبي بكر الصّدّيق كانت عند ابنه محمد فنحن ننظر فيها ونأخذ منها. قال: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أُميّة حتّى ولي عمر بن عبد العزيز، فهو الذي أظهر أنّها من أحاديث عليّ بن أبي طالب.

وقال إبراهيم: فلمّا بلغ علياً عليه السلام أنّ ذلك الكتاب صار إلى معاوية اشتدَّ عليه حزناً.

وقال: حدّثني بكر بن بكار عن عقيس بن الرّبيع، عن ميسرة بن حبيب، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن مسلمة قال: صلّى بنا علي عليه السلام فلّما انصرف قال:

لقد عثرت عثرة لا أعتذر سوف أكيس بعدها واستمر
وأجمع الأمر الشتيت المنتشر

فقلنا: ما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني استعملت محمد بن أبي بكر على مصر فكتب إليَّ أنّه لا علم لي بالسّنة فكتبت إليه كتاباً فيه أدب وسنّة فقتل وأُخذ الكتاب[1].

قلت: قد نقلت هذا العهد الشريف المحكم المتين الذي هو نسيج وحده في المعارف الحقّة لاسيّما في المعاد من كتاب الغارات المنقول في شرح الفاضل المعتزلي ولكن من نسخة مخطوطة مصحّحة مشكولة عتيقة قد أنعمنا الله تعالى بها وهي من كتب مكتبتنا، وبين ما نقلناه منها وبين ما طبع من نسخ شرح الفاضل المذكور تفاوة في عدَّة مواضع يتغير المعنى بها ولعلّنا نأتي بها أو ببعض ما يهتمّ ويعتنى به في شرح العهد إن شاء الله تعالى.

صورة العهد على ما في «تاريخ الطبري»

وأما صورة العهد على ما ضبطه أبو جعفر الطبري في التاريخ فإنه قريب ممّا نقلناه من كتاب الغارات أوّلاً وليس في نقله كثير فائدة قال: قال هشام عن أبي مخنف قال: حدّثني الحارث بن كعب الوالبيّ عن أبيه قال: كنت مع محمد بن أبي بكر حين قدم مصر فلمّا قدم قرأ عليهم عهده: بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا ما عهد عبد الله عليٌّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر أمره بتقوى الله ـ الخ[2].

ولم ينقل أبو جعفر الطبري وصيّته عليه السلام المبسوطة لأهل مصر ومحمد وإنّما اكتفى بنقل العهد الذي كتبه إلى محمد فقط.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٥٥١، وشرح النهج: ٦/ ٧٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٥٦، وتحف العقول: ١٧٦.

صورة العهد على ما في تحف ابن شعبة

وأمّا أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني رحمه الله فإنه أتى بالعهد الذي كتبه إلى محمد، وما كتبه إلى أهل مصر ومحمد جميعاً، ولمّا كان الأوّل قريباً أيضاً ممّا في كتاب الغارات و«**تاريخ الطبري**» أعرضنا عن نقله أيضاً لقلّة الجدوى في ذلك، وأمّا ما كتبه عليه السلام إلى أهل مصر ومحمد فهذه صورته:

ثمَّ كتب إلى أهل مصر بعد مسيره ما اختصرناه: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر: سلام عليكم.

أمّا بعد فقد وصل إليّ كتابك وفهمت ما سألت عنه، وأعجبني اهتمامك بما لا بدّ لك منه وما لا يصلح المسلمين غيره، وظننت أنَّ الّذي أخرج ذلك منك نيّة صالحة ورأي غير مدخول.

أمّا بعد، فعليك بتقوى الله في مقامك ومقعدك وسرّك وعلانيتك، وإذا أنت قضيت بين النّاس فاخفض لهم جناحك، وليّن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللحظ والنظر حتّى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، وأن تسأل المدَّعي البيّنة وعلى المدّعى عليه اليمين، ومن صالح أخاه على صلح فأجز صلحه إلاّ أن يكون صلحاً يحرّم حلالاً أو يحلّل حراماً. وآثر الفقهاء وأهل الصّدق والوفاء والحياء والورع على أهل الفجور والكذب والغدر، وليكن الصالحون الأبرار إخوانك، والفاجرون الغادرون أعداءك فإنّ أحبّ إخواني إليّ أكثرهم لله ذكراً وأشدّهم منه خوفاً وأنا أرجو أن تكون منهم إن شاء الله.

وإنّي أوصيكم بتقوى الله فيما أنتم عنه مسؤولون وعمّا أنتم إليه صائرون فإنَّ الله قال في كتابه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدَّثر: ٣٨]. وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨]. وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٣]، فعليكم بتقوى الله فإنّها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها من خير الدُّنيا وخير الآخرة قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النّحل: ٣٠].

اعلموا عباد الله أنَّ المتّقين ذهبوا بعاجل الخير وآجله، شاركوا أهل الدُّنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدُّنيا في آخرتهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] الآية. سكنوا الدُّنيا بأحسن ما سكنت وأكلوها

بأحسن ما أكلت.

واعلموا عباد الله أنكم إذا لقيتم الله وحفظتم نبيّكم في أهله فقد عبدتموه بأفضل عبادته، وذكرتموه بأفضل ما ذكر، وشكرتموه بأفضل ما شكر، وقد أخذتم بأفضل الصبر والشكر، واجتهدتم بأفضل الاجتهاد وإن كان غيركم أطول منكم صلاة وأكثر منكم صياماً وصدقة إذ كنتم أنتم أوفى لله وأنصح لأولياء الله ومن هو وليّ الأمر من آل رسول الله ﷺ.

واحذروا عباد الله الموت وقربه وكربه وسكراته، وأعدّوا له عدَّته فإنّه يأتي بأمر عظيم: بخير لا يكون معه شرّ وبشرّ لا يكون معه خير أبداً، فمن أقرب إلى الجنّة من عاملها وأقرب إلى النّار من أهلها فأكثروا ذكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أكثروا ذكر هادم اللّذات، واعلموا أنَّ ما بعد الموت لمن لم يغفر الله له ويرحمه أشدّ من الموت.

واعلم يا محمّد إنّني ولّيتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر وأنت محقوق أن تخاف على نفسك وأن تحذر فيه على دينك وإن لم تكن إلاّ ساعة من النهار، فإن استطعت أن لا تسخط ربّك برضى أحد من خلقه فافعل فإنّ في الله خلفاً من غيره ولا في شيء خلف من الله، اشدد على الظالم وخذ على يديه، ولِنْ لأهل الخير وقرّبهم منك واجعلهم بطانتك وإخوانك.

ثمَّ انظر صلاتك كيف هي، فإنّك إمام وليس من إمام يصلّي بقوم فيكون في صلاتهم تقصير إلاّ كان عليه أوزارهم ولا ينتقص من صلاتهم شيء ولا يتمّمها إلاّ كان له مثل أجورهم ولا ينتقص من أجورهم شيء. وانظر الوضوء فإنّه تمام الصّلاة ولا صلاة لمن لا وضوء له. واعلم أنَّ كلّ شيء من عملك تابع لصلاتك، واعلم أنّه من ضيّع الصّلاة فإنّه لغير الصّلاة من شرائع الإسلام أضيع.

وإن استطعتم يا أهل مصر أن يصدّق قولكم فعلكم وسرّكم علانيتكم، ولا تخالف ألسنتكم أفعالكم فافعلوا، وقال رسول الله ﷺ: إنّي لا أخاف على أُمّتي مؤمناً ولا مشركاً أمّا المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأمّا المشرك فيخزيه الله ويقمعه بشركه، ولكنّي أخاف عليكم كلَّ منافقٍ حلو اللسان يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون ليس به خفاء، وقد قال النّبي ﷺ: من سرّته حسناته وساءته سيّئاته فذلك المؤمن حقّاً، وكان يقول ﷺ: خصلتنا لا يجتمعان في منافق: حسن سمت وفقه في سنّة[1].

---

(١) تحف العقول: ١٧٩، والأمالي: ٢٦٨.

واعلم يا محمد بن أبي بكر أنَّ أفضل الفقه الورع في دين الله، والعمل بطاعة الله أعاننا الله وإيّاك على شكره وذكره وأداء حقّه والعمل بطاعته إنّه سميع قريب.

واعلم أنَّ الدنيا دار بلاء وفناء والآخرة دار بقاء وجزاء فإن استطعت أن تؤثر ما يبقى على ما يفنى فافعل رزقنا الله بصر ما بصّرنا وفهم ما فهّمنا حتّى لا نقصّر عمّا أمرنا ولا نتعدّى إلى ما نهينا عنه فإنّه لا بدَّ لك من نصيبك من الدُّنيا، وأنت إلى نصيبك في الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران: أحدهما للآخرة والآخر للدُّنيا، فابدأ بأمر الآخرة، وإن استطعت أن تعظم رغبتك في الخير وتحسن فيه نيّتك فافعل، فإنَّ الله يعطي العبد على قدر نيّته إذا أحب الخير وأهله، وإن لم يفعله كان إن شاء الله كمن فعله.

ثمَّ إنّي أُوصيك بتقوى الله، ثمَّ بسبع خصال هنّ جوامع الإسلام: تخشى الله ولا تخشى النّاس في الله فإنّ خير القول ما صدّقه الفعل، ولا تقض في أمر واحد بقضائين فيختلف عليك أمرك وتزلّ عن الحقّ، وأحبّ لعامّة رعيّتك ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك، وألزم الحجّة عند الله واصلح رعيّتك، وخض الغمرات إلى الحق ولا تخف في الله لومة لائم، وأقم وجهك وانصح للمرء المسلم إذا استشارك، واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأُمور والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته[1].

صورة العهد على ما في نسختي الشيخين المفيد والطوسي قدس سرهما

أمّا صورة العهد على ما في أمالي الشّيخ المفيد، وما في أمالي الشّيخ الطوسي رفع الله درجتهما فإنّ إحداهما قريبة من الأُخرى بل الطوسي رحمه الله رواه من الشّيخ المفيد بسند ينتهي إلى أبي إسحاق الهمداني وبهذا السند رواه المفيد أيضاً في أماليه من غير اختلاف، إلاّ أنّا نجعل ما في أمالي الطوسي أصلاً وذلك لأنا ننقله من نسخة مخطوطة مصحّحة عتيقة محفوظة في مكتبتنا استنسخت من أصل كتب في سنة ٦١٨ وقوبلت عليه وقد نقل في آخرها عبارة خاتمة الأصل هكذا: تمَّ كتاب «**الأمالي**» وهو ثمانية عشر جزءاً آخر نهار الجمعة ثاني شوال سنة ثمان عشر وستمائة والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين وسلم تسليماً، كتبه عليّ بن أبي محمد بن أحمد بن منصور بن أحمد بن إدريس العجليّ الحلّي حامداً لله تعالى ومصلّياً على رسوله محمد وآله الطاهرين.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٨/ ٨٥.

فدونك صورة العهد على رواية الطوسي من ذلك الأصل قال: حدّثنا الشّيخ المفيد أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله تعالى بمشهد مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، قال: حدّثنا الشيخ السعيد الوالد أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي رحمه الله في شهر ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وأربعمائة، قال: حدّثنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رحمه الله قال: أخبرني أبو الحسن علي بن محمد بن حبيش الكاتب، قال: أخبرني الحسن بن عليّ الزّعفراني، قال: أخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي، قال: حدّثنا عبد الله بن محمد بن عثمان، قال: حدثنا عليّ بن محمد بن أبي سعيد عن فضيل بن الجعد عن أبي إسحاق الهمداني **(وفي أمالي المفيد: المجلس الحادي والثلاثون مجلس يوم الاثنين السادس عشر من شهر رمضان سنة تسع وأربعمائة ممّا سمعته أنا وأبو الفوارس حدّثنا الشّيخ الجليل المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان أيّد الله تمكينه قال: أخبرني أبو الحسن عليّ بن محمد بن محمد بن حبيش الكاتب ـ وهكذا بالإسناد المقدّم حتّى ينتهي إلى أبي إسحاق الهمداني)** قال:

لمّا ولّي أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب محمّد بن أبي بكر مصر وأعمالها، كتب له كتاباً وأمره أن يقرأه على أهل مصر وليعمل بما وصّاه به فكان الكتاب:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم من عبد الله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى أهل مصر ومحمّد بن أبي بكر: سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الّذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد، فإنّي أُوصيكم بتقوى الله فيما أنتم عنه مسؤولون وإليه تصيرون فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝﴾ [المدّثّر: الآية ٣٨]، ويقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] ويقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩٣].

واعلموا عباد الله أنَّ الله عزَّ وجلَّ سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير فإن يعذّب فنحن أظلم، وإن يعف فهو أرحم الرّاحمين **(وقد سقط في أمالي المفيد المطبوع في النجف شطر من الحديث)**.

يا عباد الله إنّ أقرب ما يكون العبد إلى المغفرة والرحمة حين يعمل لله بطاعته وبنصحه في التوبة. عليكم بتقوى الله فإنها تجمع الخير ولا خير غيرها ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها من خير الدنيا والآخرة قال الله عزّ وجل: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ [النّحل: ٣٠].

اعلموا يا عباد الله أن المؤمن يعمل لثلاث من الثواب [لثلاث] أمّا الخير فإنّ الله يثيب بعمله في دنياه، قال الله سبحانه لإبراهيم: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العَنكبوت: ٢٧] . فمن عمل لله تعالى أعطاه أجره في الدنيا والآخرة وكفاه المهم فيهما، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ [الزُّمَر: ١٠] فما أعطاهم الله في الدنيا لم يحاسبهم به في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]، والحسنى هي الجنة، والزيادة هي الدنيا، وإنّ الله تعالى يكفر بكلّ حسنة سيئة، قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: ١١٤] ، حتى إذا كان يوم القيامة حسبت لهم حسناتهم ثم أعطاهم بكلّ واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عزّ وجلّ: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا﴾ [النبأ: ٣٦]، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، فارغبوا [فارعنوا ـ كما في النسخة المصحّحة من الأمالي] في هذا رحمكم الله واعملوا له وتحاضّوا عليه.

واعلموا يا عباد الله أن المتّقين حازوا عاجل الخير وآجله، شاركوا أهل الدُّنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم أباحهم في الدُّنيا ما كفاهم به وأغناهم، قال الله عزّ اسمه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، سكنوا الدُّنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدُّنيا في دنياهم فأكلوا معهم من طيّبات ما يأكلون، وشربوا من طيّبات ما يشربون، ولبسوا من أفضل ما يلبسون، وسكنوا من أفضل ما يسكنون، وتزوّجوا من أفضل ما يتزوّجون، وركبوا من أفضل ما يركبون، أصابوا لذّة الدُّنيا مع أهل الدُّنيا وهم غداً جيران الله يتمنّون عليه فيعطيهم ما يتمنّون، لا يردّ لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من اللذّة، فإلى هذا يا عباد الله يشتاق إليه من كان له عقل ويعمل له تقوى الله [في المطبوعة بتقوى الله] ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

يا عباد الله إن اتّقيتم وحفظتم نبيّكم في أهل بيته فقد عبدتموه بأفضل ما عبد وذكرتموه بأفضل ما ذكر، وشكرتموه بأفضل ما شكر، وأخذتم بأفضل الصّبر والشّكر، واجتهدتم أفضل الاجتهاد، وإن كان غيركم أطول منكم صلاة وأكثر منكم صياماً فأنتم أتقى لله منه وأنصح لأُولي الأمر.

احذروا يا عباد الله الموت وسكرته فأعدّوا له عدّته فإنه يفاجئكم بأمر عظيم: بخير لا يكون معه شرٌّ أبداً، أو بشرّ لا يكون معه خيراً أبداً، فمن أقرب إلى الجنّة من عاملها، ومن أقرب إلى النّار من عاملها، أنه ليس أحد من النّاس تفارق روحه جسده حتّى يعلم إلى أيّ المنزلتين يصير: ألِى الجنّة أم النّار؟ أعدوٌّ هو لله أو وليٌّ؟ فإن كان وليّاً فتحت له أبواب الجنّة، وشرعت له طرقها ورأى ما أعدّ الله له فيها ففرغ من كلّ شغل، ووضع عنه كلّ ثقل، وإن كان عدوًّا لله فتحت له أبواب النّار، وشرع له طرقها، ونظر إلى ما أعدّ الله له فيها

فاستقبل كلّ مكروه، وترك كلّ سرور، كلّ هذا يكون عند الموت وعنده يكون بيقين، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: الآية ٢٨ ـ ٢٩].

عباد الله إنّ الموت ليس منه فوت، فاحذروا قبل وقوعه، وأعدّوا له عدة[١] فإنكم طرداء الموت إن أقمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلّكم، الموت معقود بنواصيكم، والدّنيا تطوى خلفكم، فأكثروا ذكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم من الشّهوات، وكفى بالموت واعظاً، وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يوصي أصحابه بذكر الموت فيقول: أكثروا ذكر الموت فإنه هادم اللذّات حائل بينكم وبين الشهوات[٢].

يا عباد الله ما بعد الموت لمن لا يغفر له أشدّ من الموت، القبر فاحذروا ضيقه وضنكه وظلمته وغربته، إنَّ القبر يقول كلّ يوم: أنا بيت الغربة، أنا بيت التراب أنا بيت الوحشة، أنا بيت الدُّود والهوام. والقبر روضة من رياض الجنّة، أو حفرة من حفر النّار، إنَّ العبد المؤمن إذا دفن قالت له الأرض: مرحباً وأهلاً قد كنت ممّن أُحبّ أن تمشي على ظهري فإذا وليتك فستعلم كيف صنيعي بك فيتّسع له مدّ البصر، وإنّ الكافر إذا دفن قالت له الأرض: لا مرحباً بك ولا أهلاً لقد كنت من أبغض من يمشي على ظهري فإذا وليتك فستعلم كيف صنيعي بك فتضمّه حتّى تلتقي أضلاعه، وأنّ المعيشة الضنك التي حذّر الله منها عدوّه عذاب القبر أنه يسلّط على الكافر في قبره تسعة وتسعين تنيناً فينهشن لحمه ويكسرن عظمه ويتردّدن عليه كذلك إلى يوم البعث، لو أنَّ تنيناً منها نفخ في الأرض لم تنبت زرعاً[٣].

يا عباد الله إنّ أنفسكم الضعيفة، وأجسادكم الناعمة الرقيقة الّتي يكفيها اليسير تضعف عن هذا، فإن استطعتم أن تجزعوا لأجسادكم وأنفسكم ممّا لا طاقة لكم ولا صبر لكم عليه فاعملوا بما أحبّ الله واتركوا ما كره الله.

يا عباد الله إنّ بعد البعث ما هو أشدّ من القبر يوم يشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير ويسقط فيه الجنين وتذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت، يوم عبوس قمطرير يوم كان شرّه مستطيراً، إنَّ فزع ذلك اليوم ليرهّب الملائكة الذين لا ذنب لهم وترعد منه السبع الشداد، والجبال الأوتاد، والأرض المهاد، وتنشقُّ السماء فهي يومئذ واهية وتتغير فكأنّها وردة

---

(١) في نسخة: عدته.

(٢) وسائل الشيعة: ٢/ ٤٢٧، والأمالي: ٢٦٤.

(٣) في نسخة: زرعاً أبداً.

كالدّهان، وتكون الجبال سراباً مهيلاً بعد ما كانت صمّاً صلاباً، وينفخ في الصور فيفزع من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله، فكيف من عصى بالسمع والبصر واللسان واليد والرّجل والفرج والبطن إن لم يغفرالله له ويرحمه من ذلك اليوم، لأنّه يصير إلى غيره: إلى نارٍ قعرها بعيد وحرّها شديد وشرابها صديد وعذابها جديد، ومقامعها حديد لا يفتر عذابها ولا يموت ساكنها، دار ليس فيها رحمة ولا يسمع لأهلها دعوة.

واعلموا يا عباد الله أنّ مع هذا رحمة الله التي لا تعجز العباد: جنّة عرضها كعرض السماء والأرض أُعدّت للمتّقين لا يكون معها شرّ أبداً، لذّاتها لا تملّ ومجتمعها لا يتفرّق، سكّانها قد جاوروا الرّحمٰن، وقام بين أيديهم الغلمان بصحاف من الذّهب فيها الفاكهة والريحان.

ثمَّ اعلم يا محمد بن أبي بكر أنّي قد ولّيتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر فإذا ولّيتك ما ولّيتك من أمر الدُّنيا فأنت حقيق أن تخاف فيه على نفسك، وأن تحذر فيه على دينك، فإن استطعت ألاّ تسخط ربّك برضى أحدٍ من خلقه فافعل، فإنَّ في الله عزّ وجلّ خلفاً من غيره وليس في شيء سواه خلف منه. اشتدّ على الظالم وخذ عليه، ولِنْ لأهل الخير وقرّبهم واجعلهم بطائنك وأقرانك.

وانظر إلى صلاتك كيف هي فإنك إمام لقومك أن تتمّها ولا تخفّفها فليس من إمام يصلّي لقوم يكون في صلاتهم نقصان إلاّ كان عليه لا ينقص من صلاتهم شيء وتمّمها وتحفّظ فيها يكن لك مثل أُجورهم ولا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً.

وانظر إلى الوضوء فإنّه من تمام الصّلاة: تمضمض ثلاث مرات، واستنشق ثلاثاً، واغسل وجهك ثمَّ يدك اليمنى ثمَّ اليسرى ثمَّ امسح رأسك ورجليك فإنّي رأيت رسول الله ﷺ يصنع ذلك، واعلم أنَّ الوضوء نصف الإيمان.

ثمَّ ارتقب وقت الصّلاة فصلّها لوقتها ولا تعجل بها قبله لفراغ ولا تؤخّرها عنه لشغل فإنّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن أوقات الصّلاة، فقال رسول الله ﷺ: أتاني جبرئيل عليه السلام فأراني وقت الصّلاة حين زالت الشمس فكانت على حاجبه الأيمن، ثمَّ أراني وقت العصر فكان ظلّ كلّ شيء مثله، ثمَّ صلّى المغرب حين غربت الشمس، ثمَّ صلى العشاء الآخرة حين غاب الشفق، ثمَّ صلّى الصبح فأغلس بها والنّجوم مشتبكة فصلّ لهذه الأوقات، والزم السنّة المعروفة والطريق الواضح[1].

---

(١) الأمالي: ٢٦٧، وبحار الأنوار: ٨٠/ ١٤ ح٢٥.

ثمَّ انظر ركوعك وسجودك فإنّ رسول الله ﷺ كان أتمّ الناس صلاة وأخفّهم عملاً فيها.

واعلم أنّ كل شيء من عملك تبع لصلاتك فمن ضيّع الصَّلاة فإنّه لغيرها أضيع.

أسأل الله الّذي يرى ولا يُرى وهو بالمنظر الأعلى أن يجعلنا **(في أمالي المفيد: على أن يعيننا)** وإيّاك على شكره وذكره وحسن عبادته وأداء حقّه وعلى كلّ شيء اختار لنا في دنيانا وديننا وآخرتنا.

وأنتم يا أهل مصر فليصدّق قولكم فعلكم وسرّكم علانيتكم ولا يخالف ألسنتكم قلوبكم. واعلموا أنه لا يستوي إمام الهدى وإمام الرّدى، ووصيّ النّبي عليه السلام وعدوّه، إنّي لا أخاف عليكم مؤمناً ولا مشركاً أمّا المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأمّا المشرك فيحجزه الله عنكم بشركه ولكنّي أخاف عليكم المنافق يقول ما تعرفون ويعمل بما تنكرون.

يا محمّد بن أبي بكر اعلم أنّ أفضل الفقه الورع في دين الله، والعمل بطاعته، وأنّي أُوصيك بتقوى الله في سرّ أمرك وعلانيتك وعلى أيّ حال كنت عليه، الدُّنيا دار بلاء ودار فناء، والآخرة دار الجزاء ودار البقاء، فاعمل لما يبقى واعدل عمّا يفنى، لا تنس نصيبك من الدُّنيا.

أُوصيك بسبع هنّ جوامع الإسلام: تخشى الله عزّ وجلّ ولا تخش النّاس في الله وخير القول ما صدّقه العمل، ولا تقض في أمر واحد بقضائين مختلفين فيختلف أمرك وتزيغ عن الحق، وأحبّ لعامّة رعيتك ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك وأكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك فإنّ ذلك أوجب للحجّة وأصلح للرعيّة وخض الغمرات إلى الحقّ ولا تخف في الله لومة لائم، وانصح المرء إذا استشارك، واجعل نفسك[1] أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم. جعل الله مودّتنا في الدِّين، وحلّنا وإيّاكم حلّة المتقين وأبقى لكم طاعتكم حتى يجعلنا وإيّاكم بها إخواناً على سررٍ متقابلين.

أحسنوا أهل مصر موازرة محمد أميركم، واثبتوا على طاعتكم تردوا حوض نبيّكم ﷺ. أعاننا الله وإيّاكم على ما يرضيه. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

قلت: صورة العهد على رواية الشيخين تصدّق ما نقلناه آنفاً عن كتاب الغارات أكثر تصديق من أن محمد بن أبي بكر كتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا علم لي بالسنّة فكتب عليه السلام إليه كتاباً فيه أدب وسنّة، وإلاّ لم يكن في رواية أبي إسحاق إبراهيم في كتاب الغارات كلامٌ

(١) في نسخة: لنفسك.
(٢) بحار الأنوار: ٧٤/٣٩١، ونهج السعادة: ٤/١٢٣.

في السنّة إلاّ قوله عليه السلام في جباية الخراج والصّلاة والوضوء مجملاً.

وكذلك يصدّقه ما رواه ابن شعبة في التحف حيث قال الأمير عليه السلام: أمّا بعد فقد وصل إليّ كتابك وفهمت ما سألت عنه وأعجبني بما لا بدّ لك منه ـ الخ.

صورة العهد على رواية أبي جعفر محمد بن أبي القاسم الطبري في كتابه «بشارة المصطفى لشيعة المرتضى»

وأمّا صورة العهد على رواية عماد الدين الطبري في كتابه «**بشارة المصطفى لشيعة المرتضى**» فهي أيضاً توافق صورته على رواية الشيخين قدّس أسرارهم قال: أخبرنا الشّيخ الإمام أبو محمد الحسن بن الحسين بن بابويه قرأته عليه بالرّي سنة عشرة وخمسمائة قال: حدّثنا السعيد أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي قال: حدّثنا الشّيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد ـ إلى آخر السّند المذكور آنفاً من «**أمالي الطوسي**» ـ ونقل العهد إلى قوله عليه السلام: فأنتم أتقى لله عزّ وجلّ منه وأنصح لأولي الأمر، ثمّ قال: قال محمّد بن أبي القاسم: الحديث طويل لكنّي أخذته إلى ها هنا لأنّ غرضي كان في هذه الألفاظ الأخيرة فإنّها بشارة حسنة لمن خاف واتّقى وتولّى أهل المصطفى والخبر بكماله أوردته في كتاب الزهد والتقوى. انتهى كلامه رحمه الله[1].

اللغة

(**فاخفض**) أي ألن لهم جانبك. والجناح ها هنا هو الجنب أي كن ليّن الجانب لرعيّتك ولا تغلظ عليهم قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشُعَراء: الآية ٢١٥]. (رهن) بضمّ الراء والهاء جمع رهن (**وابسط لهم وجهك**) أي كن طلق الوجه لهم. (آس) أمر من المواساة يقال آساه بماله مواساةً أي أناله منه وجعله فيهم أُسوة. ولا يقال واساه بل هو لغة رديئة كما في القاموس. ويقال آسيت بين القوم إذا أصلحت وآسيت بينهم أي جعلت بعضهم أُسوة بعض، والمراد من المواساة هنا المساواة أي سوّ بينهم وتقديره اجعل بعضهم أُسوة بعض. (**المترفون**) المنعمون، الترفة بالضمّ: النعمة، وأترفته النعمة أطغته (**الحيف**): الجور. (**فحظوا**) الحظوة بالضمّ والكسر والحظة كعدة: المكانة والحظّ من الرزق والفعل من باب علم. قال محمد بن بشير (**الحماسة ٤٣٦ من شرح المرزوقي**):

أخلق بذي الصّبر أن يحظى بحاجته ... ومد من القرع للأبواب أن يلجا

أي أن يظفر بطلبته.

(١) الغارات: ١/٢٣٧ ح١، وبشارة المصطفى: ٨٣ ح١٣.

(**المشهد**): المحضر، خلاف المغيب. (**أن يجبى**) أي أن يجمع من الجباية. (**القسطاس**) بالضمّ والكسر الميزان، أو أقوم الموازين، أو هو ميزان العدل أيّ ميزان كان كالقصطاس أو رومي معرّب.

(**آثر**) أي اختار. (**يتمنّون عليه**) التمنّي تشهّي حصول الأمر المرغوب فيه. (**شُرع له**) أي فُتح له.

(**مثوى**) أي مقام ومنزل. (**طرداء**) جمع طريد أي مطرود، والطريدة ما طردت من صيد أو غيره، وطردته نفيته عنّي.

(**هادم اللّذات**) الهدم بالدال المهملة نقض البناء، وقد ضبطه بعضهم بالذال المعجمة من الهذم بمعنى القطع. وفي «**أساس البلاغة**» للزمخشري: هذمه أسرع قطعه. وسيف مِخذَم ومِهذم وهُذام.

(**ضمّته**) الضمّ قبض الشيء إلى الشيء وقد ضمّه فانضمَّ إليه ومعنى ضمّة القبر بالفارسيّة فشارش قبر.

(**فإذا ولّيتك**) أي ملكتك، من ولى الشيء بكسر العين في الماضي والمضارع ولاية وولاية بكسر الواو وفتحها إذا قام به وملك أمره.

(**أجناد**) جمع الجند بمعنى العسكر. (**محقوق**) أي حقيق وجدير.

(**تنافح**) نافحتُ عنه أي خاصمت عنه، وجاهدتُ وذُبْتُ ودافعتُ، ويقال: نافحه إذا كافحه ودافعه.

(**تنهش**) نهشه كمنعه نهَسَه ولسعه عضّه وبالفارسية: گزيد او را.

(**قمطريراً**) أي شديداً. (**مقامعها**) جمع المقمعة أي العمود. (**الصديد**) ما يخرج من جوف أهل النّار من القيح والدّم.

(**صحاف**) جمع صحفة من أعظم القصاع، ويقال بالفارسيّة: كاسه بزرگ.

(**والّذين يلونهم**) أي يكونون بعدهم. (**المحجّة**): الطريق. (**أسوة**) بحركات الهمزة وسكون السين أي قدوة يقتدي القريب والبعيد بها.

(**يقمعه**) أي يقهره ويذلّله. (**خض الغمرات**) أمر من الخوض أي ادخل الشدائد. (**خلّتنا**) الخلّة الصّفة. وأمّا على نسخة «**أمالي الطوسي**»: وحلّنا وإيّاكم حلّة المتّقين فظاهر.

الإعراب

(**عن الصّغيرة**) متعلّق بقوله يسائلكم، (**معشر عباده**) منادى مضاف وقع في البين. (**حين ما يعمل بطاعة الله**) (**ما**) مصدرية (**ومناصحته**) معطوف على المصدر. كلمة (**ما**) في قوله:

(بأفضل ما سكنت) وفي أخواته مصدرية أي استعملوها على الوجه الذي ينبغي. **(والباء)** في قوله **(بالزاد المبلغ)** بمعنى مع **(من آل محمد)** بيان لأولياء الله. **(ما كنّا نعمل من سوء)** كلمة **(ما)**: نافية أو استفهاميّة. **(رحمة الله التي وسعت كل شيء لا تعجز عن العباد)** قيل: **(رحمة الله)** مبتدأ **(والتي)** خبرها **(ولا تعجز)** خبر بعد خبر، ولكن الظاهر من تنسيق الكلام أنّ **(الّتي)** صفة لها **(ولا تعجز)** خبر لها **(ولا ينقص من صلاتهم شيئاً)** نقص لازم ومتعدّ. **(تصدّق أقوالكم أفعالكم)** أقوالكم مفعول به مقدَّم على الفاعل أعني أفعالكم.

المعنى

هذا العهد الشريف يحتوي في أمر المعاد ما لا يحتويها غيره من خطبه ووصاياه وعهوده كما يظهر ذلك لك بالتأمّل في سائر كلامه عليه السلام، حتّى أنَّ العهد الّذي كتبه إلى مالك رضوان الله عليه وهو أطول عهوده، وأنّ الكتاب الّذي كتبه إلى ابنه الحسن المجتبى عليه السلام وهو أطول كتبه ووصاياه ومن جلائلها لا يشتملان على معارف وحقائق في المعاد، توجد في هذا العهد القويم، وإن كان نبذة من كتابه إلى الحسن عليه السلام في ذلك ولكنّها لا تقاس إلى ما في هذا العهد من دقائق ورقائق في المعاد، وأمّا العهد الّذي كتبه إلى المالك فهو وإن كان من محاسن كتبه عليه السلام ولكنّه برنامج الوظائف الاجتماعيّة والمدنيّة.

وبالجملة كتابه عليه السلام هذا إلى محمد بن أبي بكر يفتح أبواباً إلى معرفة ذلك المطلب الأسنى والمقصود الأسنى أعني المعاد وأحوال الناس فيه، وشرحه على التفصيل ينجرّ إلى إطناب، ولذا نعرض عنه ونكتفي بشرحه الإجمالي ونشير إلى طائفة من معاني أقوال عليه السلام والأخبار الأُخرى في المقام علي ما يقتضيه الحال وتفصيله يطلب من كتابنا المسمى بالقيامة فنقول مستعيناً بمن له الآخرة والأُولى:

قوله عليه السلام: **(فاخفض لهم جناحك ـ الخ)** أمره أن لا يغلظ على الرعيّة وأن يكون ليّن الجانب لهم، وخفض الجناح كناية عن التواضع واللّين والانقياد والتسليم، كما ترى من دأب الطير إذا تواضع أحدها للآخر يخفض جناحه عنده.

وروى الكليني قدّس سرّه في **«الكافي»** بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة وأنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً به[1] ـ الخبر.

وفي سورة الإسراء من القرآن الكريم: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ

(١) الكافي: ١/ ٣٤ ح١، والأمالي: ١١٦ ح٩٩.

ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقال عز من قائل خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٥].

وروى الشّيخ الجليل حسن بن زين الدّين الشّهيد الثاني في أوائل كتاب **«معالم الدّين»** في الأُصول مسنداً عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه حسنة ـ إلى أن قال عليه السلام: وترغب الملائكة في خلّتهم يمسحونهم بأجنحتهم في صلاتهم لأنَّ العلم حياة القلب ونور الأبصار من الهدى[1] ـ الخبر.

ولا يخفى عليك أنَّ الجناح في قوله عليه السلام: **(فاخفض لهم جناحك)** لا يحمل على معناه المطابقي الحقيقي، وكذا في الآيتين المذكورتين وكأنَّ المراد من أجنحة الملائكة أيضاً كناية عن تواضعهم لبغاة العلم في الخبر الأوّل، وبمعنى لطيف أدقّ وأشمخ من هذا في الخبر الثاني حيث قال عليه السلام: **(يمسحونهم بأجنحتهم في صلاتهم)** ومعلوم أنَّ مسح الجناح المؤلّف من العظم واللّحم والريش وغيرها بالمصلّى لا يزيد في كماله وتقرّبه إلى الله فالمسح بالأجنحة في الخبر محمول على ارتباط سرّ المصلّى العالم إلى عالم القدس، ولمّا كانت المعاني تنزلت من مقامها من غير خلوّها عن مرتبتها كاسيةً بلباس ألفاظ هذه النشأة، فلا بدَّ للبصير أن يجعل الألفاظ روازن إلى رؤية معانيها الأوّلية، قال ثقة المحدّثين الشّيخ الصّدوق رضوان الله عليه في رسالته في **«الاعتقادات»**: اعتقادنا في اللّوح والقلم أنّهما ملكان، وقال المعلّم الثاني أبو نصر الفارابي قدّس سرّه في **«الفصوص»**: فليتدبّر في قوله تعالى في أوّل سورة الفاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فَاطِر: ١].

وأفاد المتألّه السبزواري قدّس سرُّه في بيان الآية المباركة في شرحه على الفصل الرابع والثمانين من الدُّعاء المعروف بالجوشن الكبير بقوله: ولا نبالي بأن يكون لرقائقهم المثاليّة وأشباحهم الصوريّة أجنحة ولهم طيران وسير كما أنَّ لكلّ حقيقة من حقائقهم المعنويّة حقيقة الجناح من جناح القوّة العلاّمة وجناح القوّة العمّالة وحقيقة الطيران والسّير من الدرك والفعل كما سمّي بعضهم القوى المدركة من النّفس النّاطقة بالطّيارة والمحرّكة بالسّيارة، وقال في هامش الكتاب في بيان قوله: بأن يكون لرقائقهم المثالية ـ الخ ـ لأنَّ لكلّ معنى صورة ولكلّ حقيقة رقيقة كما أنَّ لسني الرخا صورة هي البقرات السمان ولسني القحط صورة هي البقرات العجاف وقس عليه والتعبير كالتأويل.

قوله عليه السلام: **(وآس بينهم ـ الخ)** ثمَّ أمره بالمساواة معهم حتّى في اللّحظة والنظرة لئلا

---

(١) الأمالي: ٧١٣ ح٩٨٢، وبحار الأنوار: ١/ ١٦٦ ح٧.

يطمع العظماء في حيفه مع الرَّعية ولا ييأس الضعفاء من عدله عليهم، وقد مضى كلامنا في العدل والمساواة في شرح الكتاب الثالث أعني كتابه عليه السلام لشريح القاضي لمّا اشترى داراً بثمانين ديناراً.

ثمَّ علل أمره بالمساواة والعدل حتّى في اللّحظة والنّظرة بقوله: **(فإنَّ الله يسائلكم ـ الخ)** كي لا يظنَّ أنَّ عدم التسوية في اللّحظة والنّظرة ممّا لا يعتني به ولا يحاسب عليه **(فإن يعذّبهم الله فهم أظلم وإن يعفو فهو أكرم)** والأفعل ههنا ليس أفعل التفضيل بل هو أفعل الوصف نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي ليس بظالم، وذلك لأنَّ صدور الظلم كثيره وقليله منه تعالى قبيح عقلاً، فمن ارتكب المعاصي فهو ظالم لنفسه وإن تاب عنها إليه تعالى وزكّى نفسه من درنها فقد أفلح وعفا الله عنه وهذا كرم ناله من الله تعالى، فإنَّ الله أمر بالخير ونهى عن الشرّ.

قوله عليه السلام: **(واعلموا عباد الله ـ الخ)** وصف المتّقين ترغيباً لعباد الله إلى التقوى، وإنما قال: **(إنّهم سكنوا الدُّنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت)** لأنَّ مكسبهم كان على وجه حلال وطريق صواب فملبسهم ومأكلهم ومشربهم كلّها قد تهيّأت على ذلك الوجه ولم يكن لهم فيها وزرٌ ولا وبال والمترفون والجبابرة المتكبّرون، لم يأخذوا من دنياهم إلاّ على قدر ما يحتاج الإنسان أن يعيش وتركوا ما زاد منها على حسرة هي أشدَّ من نار جهنّم ألماً:

اين بدرميرود از باغ بصد حسرت وداغ   وآن چه دارد كه بحسرت بگذارد آنرا

على أنه قد لزمهم أوزارها من مظالم العباد وغيرها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ الآية [آل عمران: ١٨١] وفي الخبر عن الباقر عليه السلام: الّذي يمنع الزّكاة يحوّل الله تعالى ماله يوم القيامة شجاعاًمن نار له ريمتان فتطوّقه ثمَّ يقال له ألزمه كما لزمك في الدُّنيا[1] وهو قوله الله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٠] الآية **(مادة نور من سفينة البحار)** ثمَّ تأمّل أيها البصير في قوله عليه السلام: يحوّل الله تعالى ماله يوم القيامة شجاعاً من نار، ثمَّ في قوله عليه السلام: يقال له: ألزمه كما لزمك في الدُّنيا، فإنَّ هذا الخبر يفتح لك باباً من المعرفة في أحوال الناس يوم القيامة.

وبالجملة إنَّ المتقين شاركوهم في دنياهم وانقلبوا عنها مع ما كسبوا وقدّموا لأنفسهم من الزاد المبلغ والمتجر المربح ولم يشاركهم أهل الدُّنيا في تلك النعمة العظمى والعطيّة الكبرى.

(١) مستدرك الوسائل: ١٩/٧ ح٧٥٢٨، ومستدرك سفينة البحار: ١٧٨/١٠.

قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧] . وقال أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة ١٨٠ أوّلها روى عن نوف البكالي الخ: وازمع الترحال عباد الله الأخيار وباعوا قليلاً من الدُّنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى.

ثمَّ ينبغي لك النظر حقّه في قوله عليه السلام **(وتيقّنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم لا تردُّ لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذّة)** حيث أخبر عليه السلام عن المتقين بأنّ صفة اليقين الكريمة بلغتهم إلى تلك الدَّرجة الرفيعة في آخرتهم ومن بلغ إلى تلك الرتبة المنيعة لا تردّ له دعوة وليست لذّة ينقص لهم نصيبها وذلك لأنَّ الموقنين داوموا الحضور عنده تعالى في هذه النشأة الدنياوية وليس الشاهد الحقيقي إلاّ واحداً والبيت واحد وربّ البيت واحد بل ليس في الدار غيره ديّار بل أينما تولّوا فثمَّ وجه الله بل هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن والدُّنيا مزرعة الآخرة ونعم ما قال كعبة العاشقين سيّد الشهداء أبو عبد الله الحسين روحي له الفداء في دعاء العرفة، نعم.

بأبه أقتدي عديّ في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

حيث قال عليه السلام: وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتّى لم يحبّوا سواك ولم يلجؤوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الّذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الّذي فقد من وجدك[١].

قوله عليه السلام: **(فاحذروا عباد الله الموت وقربه ـ الخ)** املاد من الحذر عن الموت الحذر عن الأهوال التي يراها غير المؤمن عند الموت فكأنه عليه السلام أمرهم أن يجعلوا الموت نصب أعينهم فإنّ من جعله نصب عينه زهّده في الدُّنيا ورغّبه في الآخرة وحثّه إلى إعداد عدّته، ومن كلام سيّد الساجدين عليه السلام في الدُّعاء الأربعين من الصحيفة: وانصب الموت بين أيدينا نصباً ولا تجعل ذكرنا له غبّاً.

ثمَّ علّل الأمر بالحذر بقوله **(فإنّه)** أي الموت **(يأتي بأمر عظيم وخطب جليل)**. روى الكليني في «**الكافي**» بإسناده عن عبد الله بن سنان عمّن سمع أبا جعفر عليه السلام يقول لمّا حضرت الحسن عليه السلام الوفاة بكى فقيل له: يا ابن رسول الله تبكي ومكانك من رسول الله صلى الله عليه وآله الّذي أنت به وقد قال فيك ما قال وقد حججت عشرين حجّة ماشياً وقد قاسمت مالك ثلاث مرات حتّى النعل بالنّعل؟ فقال عليه السلام: إنما أبكي لخصلتين: لهول المطّلع، وفراق الأحبّة[٢] **(الوافي**

---

(١) ميزان الحكمة: ١/٥٠٢، وصحيفة الحسين: ٢١٨.

(٢) شرح أصول الكافي: ٧/٢٢٦، وبحار الأنوار: ٤٤/١٥٠ ح١٩.

في باب ما جاء في الحسن بن علي عليه السلام ص١٧٤ ج٢).

قوله عليه السلام: (**بخير لا يكون معه شرّ أبداً أو شرّ لا يكون معه خير أبداً**) معنى الجملة الأولى ظاهر وإنما الكلام في معنى الثانية لأن أخبار البرزخ دالّة على أن أقواماً معذبون في البرزخ وينقطع منهم العذاب بعد البرزخ فقد روى الكليني قدّس سرّه في «**الكافي**» بإسناده عن عبد الرّحمٰن بن عبّاد عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي سمعت وأنت تقول: كلّ شيعتنا في الجنّة على ما كان منهم، قال: صدقتك كلّهم والله في الجنّة قال: قلت: جعلت فداك إنّ الذّنوب كثيرة كبار! فقال: أمّا في القيامة فكلّكم في الجنّة بشفاعة النبيّ المطاع أو وصيّ النبيّ ولكنّي والله أتخوّف عليكم في البرزخ قلت: وما البرزخ؟ قال: القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة(١).

والظاهر أنه عليه السلام أراد بكلامه هذا عاقبة أُمور الناس في الآخرة لأنّ ما يستفاد من ضمّ الآيات القرآنية وتصديق بعضها بعضاً وتفسير بعضها بعضاً أنّ مآل النّاس في الآخرة إلى أمرين أعني أنهم ينقسمون آخر الأمر إلى فريقين فريق في الجنّة وفريق في النار. قال عز من قائل: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٥ - ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧]. والله تعالى أعلم بكلام أوليائه.

قوله عليه السلام: (**فمن أقرب إلى الجنّة من عاملها، ومن أقرب إلى النار من عاملها**) تحت هذا الكلام أيضاً سرّ لمن كان له قلب لأنّه عليه السلام قال: فمن أقرب إلى الجنة من عامل الجنة وكذا من أقرب إلى النار من عامل النار فمن عمل الحسنات فهو عامل الجنّة، ومن ارتكب السيئات فهو عامل النار، ولم يقل عليه السلام فمن أقرب إلى الجنّة ممّن عمل ما يجرّه إلى الجنّة، أو من أقرب إلى النار ممّن عمل ما يدخله النار ونحوهما من العبارات. فمن عمل الحسنات فهو عامل جنّته، ومن عمل السيئات فهو عامل ناره، فتبصّر.

---

(١) الوافي: ١٣/ ٩٤، والكافي: ٣/ ٢٤٢ ح٤٧٣٣.

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: الآية ٥٤] لم يقل بما كنتم أو ممّا كنتم ونحوهما فتدبر.

قوله عليه السلام: **(فاحذروا ناراً قعرها بعيد وحرّها شديد وعذابها جديد)** أمّا كونها بعيد القعر فلأنها من دار الآخرة وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العَنكبوت: ٦٤] فنارها حيّة بحياتها الذّاتية لها فإذا أضفت كلامه هذا إلى قوله عليه السلام: **(ومن أقرب إلى النار إلى عاملها)** ينتج أنها ليست من عالم الخلق بل هو من عالم الأمر وكلّ ما في عالم الأمر غير متصفة بصفات الخلق الناقصة المحدودة جدّاً المستحيلة المتبدّلة آناً فآناً فظهر معنى كونه بعيد القعر لمن وقف على ما أشرنا إليها موجزة.

وقال بعض الأعاظم: ومن أعجب ما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان قاعداً مع أصحابه في المسجد فسمعوا هدّة عظيمة فارتاعوا فقال صلى الله عليه وآله: أتعرفون ما هذه الهدَّة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: حجر ألقى من أعلى جهنّم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها. فكان وصوله إلى قعرها وسقوطه فيها هذه الهدَّة، فما فرغ من كلامه عليه السلام إلاّ والصّراخ في دار منافق من المنافقين قد مات وكان عمره سبعين سنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الله أكبر[1]، فعلم علماء الصحابة أنَّ هذا الحجر هو ذلك المنافق، وأنّه منذ خلقه الله يهوي في جهنّم وبلغ عمره سبعين سنة فلما مات حصل في قعرها قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فكان سمعتهم تلك الهدّة الّتي أسمعهم الله ليعتبروا، فانظر ما أعجب كلام النبوّة وما ألطف تعريفه وما أغرب كلامه، انتهى كلامه.

وأما كونها شديدة الحرّ فلأن النّار ما دامت في كسوة المادة الدُنياويّة لم يظهر سلطان أثرها وتعوقها المادّة عن ذلك وكأنّها مغمورة تحت رماد فإذا خلصت منها وخرجت عن غلافها تؤثّر أثرها التّام.

وأمّا أنّ عذابها جديد فكأنَّ أمير المؤمنين روحي له الفداء يشير بقوله هذا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟

---

(١) تفسير القرآن الكريم: ٤/٥٤٦.

ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦] والبحث في المقام ينجرّ إلى الأطناب ويطلب في كتابنا «**القيامة**».

قوله عليه السلام: (**دار ليس فيها رحمة ولا تسمع فيها دعوة ولا تفرّج فيها كربة**) قال عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤] فتدبّر أيّها العاقل في قول الله تعالى وقول خليفته: وانظر إلى ما أنت فيه، وليس المحشور إلاّ أنت ولا يمكن سلبك وانتزاعك منك ولا يمكنك الفرار من نفسك فما عملته فهو جزاؤك قال الله المتعال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطّور: الآية ١٦] .

قوله عليه السلام (**إمام الهدى**) يعني به نفسه (**وإمام الرّدى**) هو معاوية، وكذلك (**وليّ النبيّ**) هو عليّ عليه السلام (**وعدوّ النبيّ**) هو عدوّ الله معاوية، وأمّا قوله (**فإنه لا سواء**) فذلك لأنَّ بعد الحقّ ليس إلاّ الضلال كما قال عزَّ من قائل: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ لا يخفى عليك أنه لا يستوي النور والظلمة ولا العلم والجهل ولا الظل ولا الحرور ولا الحيّ والميّت، ولا الحقُّ والباطل، ولا عليٌّ ومعاوية.

قوله عليه السلام (**كلُّ منافق الجنان**) يعني به عدوّ النبيّ وإمام الرّدى فهو شرّ من المشرك الّذي يقمعه الله بشركه.

الترجمة

این فرمانی است که امیرالمؤمنین (عليه السلام) به محمّد بن ابی بکر در وقتی که از قبل وی والی مصر بود نوشت:

با مردم، فروتن و نرم و گشاده روی باش و در لحاظ و نظر با همه یکسان تا بزرگان در تو طعم ستم نکنند و ناتوانان از دادت ناامید نشوند، چه خدای بزرگ از کار بزرگ و کوچك و پوشیده و آشکار شما می پرسد، پس اگر شکنجه دهد به ستم ما است و اگر ببخشد به کرم او است.

ای بندگان خدا، بدانید که پرهیزکاران، هم دنیا را دارند و هم آخرت را، چه انباز اهل دنیا در دنیایشان بودند و اهل دنیا با آنان در آخرتشان انباز نیستند.

در دنیا به بهترین وجه زیست کردند و بهترین غذا خوردند و بهره ای که خوش گذرانان داشتند نیز داشتند و آن چه که گردنکشان خودبین از دنیا گرفتند نیز گرفتند، پس از آن کوچ کردند با توشه ای رسا و بازرگانی ای سودمند. مزه ترك دنیا را چشیدند و به مقام یقین هم جواری خدا در آخرت رسیدند. خواسته شان رد نمی شود و بهره لذّتشان کم نمی گردد، پس ای بندگان خدا از مرگ و زود فرارسیدنش بترسید و زاد و توشه راه گردآورید، زیرا مرگ امر بزرگی در پیش دارد که آن تا ابد یا خیر بدون شر است یا شرّ بدون خیر، چه کسی به بهشت به سازنده آن نزدیکتر است؟ و چه کسی به آتش به فراهم کننده آن؟ بدانید که شما رانده مرگید، اگر بایستید بگیرد و اگر بگریزید برسد، از سایه شما به شما وابسته تر است. مرگ به پیشانی تان گره زده است و دنیا طومار عمرتان را درمی نوردد، پس بترسید از آتشی که ته آن دور است و سوزندگیش سخت و شکنجه های آن پی در پی. سرایی که در آن رحمت نیست و گوش به گفتار کسی داده نمی شود و اندوهی گشوده نمی شود، اگر می توانید هم سخت از خدا بترسید و هم نیك بدو خوش گمان باشید که خوش گمانی بنده به خدایش، به اندازه ترسش از او است، آن کس خوش گمان تر است که ترس او بیشتر است.

بدان ای محمّد بن ابی بکر که تو را بر بزرگترین سپاهیانم در نظرم، یعنی مردم مصر ولایت دادم، لذا برایت سزاوار این است که از خود روگردان باشی و دینت را نگهبان، اگرچه ساعتی بیش از عمرت نمانده باشد، پس خدا را به خرسند داشتن آفریده اش به خشم میار، چه عوض از خدا توان یافت و از غیر او نی.

نماز را به وقتش بخوان نه در گاه فراغ پیش از وقت و نه در صورت اشتغال پس از آن و بدان هر کارت پیرو نماز تو است.

و برخی از این عهد این است:

زیرا پیشوای راهنما (علی (عليه السلام)) و پیشرو نابودی و گمراهی (معاویه) و دوست پیمبر و دشمن وی یکسان نیستند. پیمبر به من گفت که نه از اُمت مؤمنم بیمناکم و نه از مشرك، زیرا خدا مؤمن را به ایمانش نگهدارد و مشرك را به شرکش خوار کند، ولی ترسم بر شما از منافق است که به گفتارش آشنایید و به کردارش بیگانه.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية وهو من محاسن الكتب ـ وهو المختار الثامن والعشرون من باب الكتب

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فَلَقَدْ خَبأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلاءِ اللَّهِ عِنْدَنا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا فَكُنْتَ فِي ذٰلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلىٰ هَجَرٍ [هَجَرَ ـ معاً]، أَوْ دَاعِيَ مُسَدِّدِهِ إِلىٰ النِّضَالِ.

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَ لَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ، وَمَا أَنْتَ وَالفَاضِلَ وَالمَفْضُولَ والسَّائِسَ والمَسُوسَ [وَالْفَاضِلُ وَالمَفْضُولُ والسَّائِسُ والْمَسُوسُ ـ معاً]، وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزَ [وَالتَّمييزُ ـ معاً] بَيْنَ المُهَاجِرِيْنَ الأَوَّلِيْنَ وَتَرْتِيبَ [تَرْتِيبُ ـ معاً] دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ [تَعْرِيفُ ـ معاً] طَبَقَاتِهِمْ؟ هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا.

ألاَ تَرْبَعُ أَيُّها الإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ، تَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ؟ فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلاَ لَكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ، وَإِنَّكَ[1] لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ، رَوَّاغٌ مِنَ الْقَصْدِ، أَلاَ تَرىٰ ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ـ ولٰكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحَدِّثُ، أَنَّ قَوْماً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ـ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُ[نَا] قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعِيْنَ تَكْبِيْرَةً عِنْدَ صَلاَتِهِ عَلَيْهِ؟ أَوَ لا تَرىٰ أَنَّ قَوْماً قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ـ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدٍ مِنَّا كَمَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ: الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ؟ وَلَوْلاَ ما نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِيْنَ، فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا، لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَعَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَىٰ قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا فِعْلَ الأَكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ، وَأَنَّىٰ يَكُونُ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلاَفِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وعَلَيْكُمْ، فَإِسْلاَمُنَا ما قَدْ سَمِعْتُمْ [سُمِعَ]، وَجَاهِلِيَّتُنَا لا تُدْفَعُ، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا ما شَذَّ عَنَّا وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

---

(١) في نسخة: فإنك.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]؛ فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَىٰ بِالْقَرَابَةِ وَتارَةً أَوْلىٰ بِالطَّاعَةِ.

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهاجِرُونَ عَلَىٰ الأَنْصارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ فَإِنْ يَكُنِ الْفُلْجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصارُ عَلَىٰ دَعْوَاهُمْ.

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَىٰ كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذٰلِكَ فَلَيْسَ الْجِنايَةُ عَلَيْكَ فَيَكُونُ الْعُذْرُ إِلَيْكَ وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها.

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ، وَمَا عَلَىٰ الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ في أَنْ يكُونَ مَظْلُوماً ما لَمْ يَكُنْ شاكًّا في دِينِهِ وَلا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ، وَهٰذه حُجَّتِي إِلىٰ غَيْرِكَ قَصْدُهَا وَلكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ ما سَنَحَ مِنْ ذِكْرِها.

ثُمَّ ذَكَرْتَ ما كانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ فَلَكَ أَنْ تُجابَ عَنْ هٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ فَأَيُّنَا كانَ أَعْدَىٰ لَهُ وَأَهْدَىٰ إِلىٰ مَقَاتِلِهِ؟ أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَ فَتَرَاخَىٰ عَنْهُ، وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَىٰ قَدَرُهُ عَلَيْهِ؟ كَلاَّ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلم اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً.

وَمَا كُنْتُ لأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحداثاً فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِيَ وَهِدَايَتِي لَهُ فَرُبَّ مَلُومٍ لا ذَنْبَ لَهُ، وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ.

وَمَا أَرَدْتُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ باللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ.

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لي وَلاَ لأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلاَّ السَّيْفُ فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ؛ مَتَىٰ أُلْفِيَتْ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الأَعْدَاءِ ناكِلِينَ، وَبِالسُّيُوفِ مُخَوَّفِينَ؟ فَلَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجاءَ حَمَلٌ؛ فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ في جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصارِ وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ؛ شَدِيدٍ زِحامُهُمْ، ساطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرابِيلَ الْمَوْت، أَحَبُّ اللِّقاءِ إِلَيْهِمْ لِقاءُ رَبِّهِمْ؛ قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هاشِمِيَّةٌ؛ قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِها في أَخِيكَ وَخالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ[1].

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١٦٦، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٦٠.

اللغة

قد مضى بيان طائفة من لغات هذا الكتاب في شرح المختار التاسع من هذا الباب، أوّله قوله عليه السلام: (**فأراد قومنا قتل نبيّه واجتياح أصله وهمّوا بنا الهموم ـ الخ**). (ص٣٢٤ ج١٧).

(**خَبأ**) أي أخفى، يقال: خبأ الشيء، من باب منع مهمزاً، وخبّأ مشدّداً أي ستره وأخفاه وفي كثير من النسخ المطبوعة كانت الكلمة مشكولة بتشديد الباء ونسخة الرضيّ بتحفيفها كما اخترناها. (**ببلاء الله**) أي بأنعامه وإحسانه، أو اختباره وامتحانه ولكن المناسب مع ما عندنا هو الإنعام والإحسان.

(**هجر**) محرّكة اسم بلد مذكر مصروف وغير مصروف والنسبة إليه هاجريٌّ على خلاف القياس ومن ذلك قولهم نبأٌ هاجري، وهو في نسخة الرّضي مشكول مصروفاً وغير مصروف معاً، (**مسدّده**) أي معلّمه، (**النضال**) المراماة.

(**ثلمه**) الثلم: الكسر والعيب، وفي عدّة من النسخ المطبوعة وغيرها: لم ينقصك ثلمه، ولكن نسخة الرضيّ رضوان الله عليه كانت: لم يلحقك ثلمه كما اخترناه (**الطلقاء**) جمع الطليق وهو من أُطلق بعد الأسرة.

(**لقد حنَّ قدحٌ ليس منها**) مثل، قال الميداني في فصل الحاء المهملة المفتوحة من «**مجمع الأمثال**»: حَنَّ قدحٌ ليس منها، القدح أحد قداح الميسر وإذا كان أحد القداح من غير جوهرة أخواته ثمَّ أجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها يعرف به أنّه ليس من جملة القداح، يضرب للرَّجل يفتخر بقبيلة ليس منها أو يتمدَّح بما لا يوجد فيه، وتمثّل به عمر حين قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط: اقتل من بين قريش فقال عمر: حنَّ قدح ليس منها، والهاء في منها راجعة إلى القداح. انتهى. قوله: أجاله المفيض يقال: أفاض أهل الميسر بالقداح أي ضربوا بها.

(**الا تربع**) ربع كمنع: وقف وانتظر وتحبّس ومنه قولهم: أربع عليك أو على نفسك أو على ظلعك قاله في القاموس.

(**والظّلع**) بسكون اللام: العيب، وبفتحها: العرج والغمز، وهو مصدر ظلع البعير كمنع أي غمز في مشيه، ومن أمثالهم: ظالع يعود كسيراً، يعود من العيادة، يضرب للضعيف ينصر من هو أضعف منه كما في «**مجمع الأمثال**» للميداني.

(**الذّرع**): الطاقة والوسع وبسط اليد وذرع الإنسان طاقته الّتي يبلغها، وفي آخر الدُّعاء السابع من الصّحيفة السّجادية: فقد ضقت لما نزل بي يا ربّ ذرعاً، وفي شرحها الموسوم

بـ«**رياض السالكين**» للعالم المتضلّع السيّد عليخان قدّس سرّه في ضيق الذّرع المناسب لقصورها نكات أدبيّة، فراجع.

(**التّيه**): الضلال والتحيّر في المفاوز قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، (**الرّواغ**): كثير الميل، يقال: راغ الرجل والثعلب روغاً وروغاناً إذا مال وحاد عن الشيء، ويقال: فلان يروغ روغان الثعلب ومن الأمثال فلان أروغ من الثعلب.

(**القصد**): الاعتدال والطّريق المستقيم، (**غير مخبّر**) خبّره الشيء وبالشيء من باب التفعيل أعلمه إيّاه وأنبأه كأخبره وأخبر به، (**استشهد**) أي قتل في سبيل الله، وكذا أُشهد، على صيغتي المجهول.

(**تمجّها**) يقال مجّ الماء من فيها إذا ألقاه، (**الطّول**) بالفتح فالسّكون: الفضل، (**عاديّ**) أي قديم، قال الجوهري في «**الصحاح**»: عاد قبيلة وهم قوم هود عليه السلام وشيء عاديّ أي قديم كأنّه منسوب إلى عاد.

وقال الشيخ محمد عبده: العادي الاعتياديّ المعروف، أقول: الصّواب ما قدّمنا وهذا الوجه خطر ببالنا أيضاً إلاّ أنَّ مقابلته بالقديم منعنا عن ذلك، وفي رواية «**صبح الأعشى**»: ومديد طولنا.

(**الرّمية**) المراد منها ههنا الصيد الّذي يرمى وهو كالمثل يضرب لمن يميل به عن الحقّ أغراضه الباطلة وأصله أن الرجل يقصد قصداً فيتعرّض له الصيد فيتبعه فيميل به عن قصده الأصلي.

(**فلجوا عليهم**) أي ظفروا عليهم، والفلج: الظّفر، والفعل من بابي نصر وضرب، قال محمد بن بشير:

كم من فتى قصرت في الرّزق خطوته ألفيته بسهام الرزق قد فلجا

والبيت من الحماسة، (**الحماسة ٤٣٦ من شرح المرزوقي**)، وفي الحديث السادس من باب في شأن ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: الآية ١] وتفسير من «**أُصول الكافي**» عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا معشر الشيعة خاصموا بسورة إنّا أنزلناه تفلجوا فوالله إنها لحجّة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وإنها لسيّدة دينكم وإنّها لغاية علمنا[1] الحديث.

(**صنائع**) جمع صنيعة، قال الزمخشري في «**أساس البلاغة**»: فلان صنيعتك ومصطنعك،

(١) الكافي: ١/ ٢٤٩ ح٦، وشرح أصول الكافي: ٦/ ١٢ ح٦.

واصطنعتك لنفسي، قال الحطيئة:

فإن يصطنعني الله لا أصطنعكم ولا أُوتكم مالي على العثرات

وقال في **«القاموس»**: هو صنيعي وصنيعتي أي اصطنعته وربيّته وخرّجته.

والصنيعة أيضاً هي ما يسدي من معروف أو يد إلى إنسان، قال ابن مولى ليزيد بن حاتم:

وإذا صنعت صنيعةً أتممتها بيَدين ليس نَداهما بمكدّر

والبيت من الحماسة، قال المرزوقي في الشرح: يقول: وإذا اتّخذت عند إنسان يداً وأزللت إليه نعمةً فإنّك لا تخدجها ولا تترك تربيتها لكنّك تكمّلها وتقوم بعمارتها مصونة من المنّ والتكدير صافيةً من الشوائب والتعذير.

(شباب) جمع الشاب.

(شكاة) الشكاة في الأصل: المرض، وتوضع موضع العيب والذم كما في هذا البيت فمعناها العيب والنقيصة.

(ظاهر عنك) أي زائل عنك وينبو، ولا يعلق بك، قال ابن الأثير في **«النهاية»**: وفي حديث عائشة كان يصلّي العصر ولم يظهر فيء الشمس بعد من حجرتها أي لم يرتفع ولم يخرج إلى ظهرها، ومنه حديث ابن الزبير لما قيل له: يا ابن النطاقين، تمثّل بقول أبي ذؤيب: وتلك شكاة ظاهر عنك عارها، يقال ظهر عنّي هذا العيب إذا ارتفع عنك ولم ينلك عنه شيء أراد أنَّ نطاقها لايغضّ منه فيعيّر به ولكنّه يرعف منه ويزيده نبلاً، انتهى.

أقول في بيانه: كانت أُم عبد الله بن الزبير ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر وأراد ابن الزبير أنَّ تعييره إيّاه بلقب أمّه ليس عاراً يستحيى منه إنّما هو من مفاخره لأنه لقب لقبها به رسول الله ﷺ وهو في الغار مع أبي بكر على ما قيل، فراجع إلى **«السيرة النبوية»** لابن هشام **(ص٤٨٦ ج١ من طبع مصر ١٣٧٥هـ)** وفي الحماسة: قال سبرة بن عمرو الفقعسيّ وعيره شمرة بن النهشليّ كثرة إبله:

أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عارياً ابن ريطة ظاهر

قال المرزوقي في الشرح: وذلك عار ظاهر أي زائل، قال أبو ذؤيب:

وعيّرها الواشون أنّي أُحبّها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ومن هذا قولك: ظهر فوق السطح، وقولك: جعلته منّي بظهر، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] انتهى قول المرزوقي.

وأقول: صار هذا المصراع من البيت أعني قول أبي ذؤيب: وتلك شكاة ـ الخ، مثلاً يضرب لمن ينكر فعلاً ليس له ربط به ولا تعلّق له، والبيت من قصيدة غرّاء تنتهي إلى ثمانية وثلاثين بيتاً يرثى بها نشيبة بن محرث أحد بني مؤمل ابن حطيط الهذلي منقولة كاملة في ديوان الهذليّين (**ص٢١ من طبع مصر ١٣٨٥هـ**) مطلعها:

هل الدّهر إلاّ ليلة ونهارها ... وإلاّ طلوع الشمس ثمّ غيارها

أبى القلب إلاّ أمّ عمرو وأصبحت ... تحرّق ناري بالشّكاة ونارها

البيت.

وأبو ذؤيب هذا هو خويلد بن محرز الهذليّ شاعر مجيد مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، قدم المدينة عند وفاة النّبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه روي عنه أنه قال: قدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج أهلّوا بالإحرام، فقلت: مه؟ فقالوا: توفّى رسول الله ﷺ، كما في «**معجم الأدباء**» لياقوت (**ص٨٣ ج١١ من طبع مصر**).

(**الجمل المخشوش**) الّذي جعل في أنف البعير ونحوه يشدّ به الزمام ليكون أسرع لانقياده، مشتقّ من خشّ في الشيء إذا دخل فيه لأنّه يدخل في أنف البعير.

(**الغضاضة**): الذلّة والمنقصة، (**المعوّقين**) أي المانعين عن القيام بنصرة الإسلام (**فربّ ملوم لا ذنب له**) مثل، قال الميداني في فصل الراء المضمومة من «**مجمع الأمثال**»: هذا من قول أكثم بن صيفي، يقول: قد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون حجّته فهو يلام عليه، وذكروا أنَّ رجلاً في مجلس الأحنف بن قيس قال: لا شيء أبغض إليّ من التمر والزبد. فقال الأحنف: ربّ ملوم لا ذنب له ـ انتهى كلام الميداني.

(**الظّنّة**) بالكسر: التهمة (**المتنصّح**) أي المتكلّف بنصح من لا يقبل النصيحة والمبالغ فيه له.

وقد يستفيد الظّنّة المتنصّح، مصراع بيت صدره: وكم سقت من آثاركم من نصيحة، (**استعبار**) استعبر: جرت عبرته أي بكى.

(**لبّث قليلاً يلحق الهيجا حمل**) هذا المثل قريب من قولهم: لبّث رويداً يلحق الداريّون، وحمل بالتحريك هو ابن بدر رجل من قشير وفيه يقول قيس ابن زهير العبسي:

ولكنّ الفتى حمل بن بدرٍ ... بغى والبغي مرتعه وخيم

وهذا البيت للعبسي من أبيات الحماسة (**الحماسة ١٤٧ من شرح المرزوقي**) ومن أبيات «**الأمالي**» للقالي ص٢٦١ ج١، وفي «**السيرة النبّوية**» لابن هشام ص٢٨٧ ج١.

وقول حمل يضرب به مثلاً للتهديد بالحرب.

وروى الميداني في «**مجمع الأمثال**» في فصل الضاد المفتوحة هكذا: ضحَّ رويداً يدرك الهيجا حمل، وقال: ضحّ رويداً هذا أمر من التضحية أي لا تعجل في ذبحها ثمّ استعير في النهي عن العجلة في الأمر، ويقال: ضحّ رويداً لم ترع أي لم تفزع ويقال ضحّ رويداً يدرك الهيجا حمل، يعني حمل بن بدر، قال زيد الخيل:

فلو أنّ نصراً أصلحت ذات بينها لضحّت رويداً عن مطالبها عمرو

ولكنّ نصراً ارتعت وتخاذلت وكانت قديماً من خلائقها الغفر

أي المغفرة، نصر وعمرو ابنا قعين وهما حيّان من بني أسد، انتهى قول الميداني.

وفي الباب الثالث والعشرين في ما جاء من الأمثال من أوله لام من «**جمهرة الأمثال**» لأبي هلال العسكري: لبّث رويداً يلحق الهيجا حمل، أي انتظر حتّى يتلاقى الشّبان، والهيجا يقصر ويمدّ، وحمل اسم رجل، انتهى كلام أبي هلال.

وكما اختلف في ضبط هذا المثل على ما قدّمنا كذا اختلف في حمل فذهب غير واحد إلى أنه ابن بدر كما دريت وفي «**الإصابة**» و«**أسد الغابة**» أنه حمل بن سعدانة قال في الأوّل: حمل بن سعدانة بن حارثة الكلبي وفد على النّبي ﷺ وعقد له لواء وهو القائل: لبّث قليلاً يدرك الهيجا حمل، وشهد مع خالد مشاهده كلّها وقد تمثّل بقوله سعد بن معاذ يوم الخندق حيث قال:

لبّث قليلاً يدرك الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

وفي «**أسد الغابة**»: البث قليلاً ـ الخ وقال: شهد صفّين مع معاوية، والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّ الهيجاء في نسختنا الّتي قوبلت على نسخة الرضي ممدودة، ويجب أن تقرأ في البيت مقصورة ليستقيم الوزن.

(**مرقل**) أي مسرع، والأرقال ضرب من السير السريع، (**جحفل**) أي جيش عظيم، (**قتامهم**) أي غبارهم، (**ساطع**) أي منتشر، (**نصالها**) قال في «**القاموس**»: النّصل والنصلان حديدة السهم والرمح والسيف ما لم يكن له مقبض جمعه أنصل ونصول ونصال، ونصل السهم فيه: ثبت، وفي بعض النسخ نضالها بالمعجمة يقال ناضل عنه إذا دفع ولكن الصحيح ههنا بالمهملة وفي صدر الكتاب بالمعجمة كما في نسخة الرضى رضوان الله عليه، قال أبو العيال الهذلي في أبيات لما حصر هو وأصحابه ببلاد الروم في زمن معاوية كتبها إلى معاوية فقرأه معاوية على الناس كما في «**ديوان الهذليين**» (**ص٢٥٥ من طبع مصر**):

فترى النبال تعير في أقطارها شمساً كأنّ نصالهنّ السنبل
وترى الرّماح كأنما هي بيننا أشطان بئر يوغلون ونوغل

الإعراب

(وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس) الفاضل وأترابه التالية على نسخة الرضى مشكولة بالنصب، كما أنّ في الجملة التي بعدها ـ أعني وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز الخ ـ التمييز وترتيب وتعريف منصوبة أيضاً وقد قرأت الجملة الأولى بالنصب والرفع معاً كما في نسخة مخطوطة مشكولة مقروؤة عندنا، واحتمل بعضهم الرفع في الجملة الثانية أيضاً.

أفاد الفاضل الشارح المعتزلي بقوله: **(وما أنت والفاضل والمفضول)** الرواية المشهورة بالرفع وقد رواها قوم بالنصب فمن رفع احتجَّ بقوله: **(وما أنت وبيت أبيك والفخر)** وبقوله: **(فما القيسي بعدك والفحار)** ومن نصب فعلى تأويل مالك والفاضل وفي ذلك معنى الفعل أي ما تصنع لأنَّ هذا الباب لا بدَّ أن يتضمّن الكلام فيه فعلاً أو معنى فعل وأنشدوا: فما أنت والسير في متلف، والرفع عند النحويين أولى، **(وما للطلقاء وأبناء الطلقاء)** والتمييز النصب ههٰنا لا غير لأجل **(اللاّم)** في الطلقاء.

(حنّ قدح ليس منها) الضمير المجرور راجع إلى القداح كما مرّ، **(فيها من عليه الحكم لها)** **(الهاء)** في الطرفين راجعة إلى الطبقات أو الجماعة أو القضية أو نحوها غير مخبّر منصوب على الحالية لضمير أحدث، **(ومخبّر)** على نسخة الرضى كان بتشديد **(الباء)** من التخبير وفي غير واحد من نسخ أخرى بكسر **(الباء)** المخففة من لإخبار وكلاهما بمعنى واحد كما مرّ في شرح اللغات، **(أنّ قوماً)** مفعول ترى **(الرميّة)** فعلية بمعنى مفعولة وأنثت لأنّها جعلت اسماً لا نعتاً والمراد بها الدُّنيا أي دع مَنْ مَال إلى الدُّنيا ومالت به أي أمالته إليها. **(فعل الأكفاء)** منصوب على المصدر، **(ولستم هناك)** **(الواو)** للحال والعامل فيه خلطناكم، **(على قومك)** متعلق بقوله **(طولنا)** أي فضلنا عليهم، وجملة **(أن خلطناكم)** فاعل لقوله: لم يمنعنا، وكلمتا **(قديم وعادي)** منصوبتان على المفعولية، وفي نسخة الرضي ﷺ وهي الصّواب مرفوعتان على الفاعلية وجملة **(خلطناكم)** على هذا الوجه منصوبة على المفعوليّة، أفاد الفاضل الشارح المعتزلي بقوله: فإن قلت: فبماذا يتعلّق في قوله في كثير؟ قلت: بمحذوف تقديره هذا الكلام داخل في جملة كلام كثير يتضمّن ما لنا وعليكم.

(الفلج به) الضمير المجرور يرجع إلى الرسول **(قصدها)** الضمير يرجع إلى الحجّة **(وإلى غيرك)** خبر قدّم على القصد أي هذه حجّتي قصدها إلى غيرك.

(يلحق الهيجا حمل) قريء الفعل وحمل على وجهين: على تأنيث الفعل ونصب **(حمل)** **(فالهيجاء)** فاعل، وعلى تذكير الفعل، ورفع **(حمل)** فالهيجاء مفعول **(متسربلين)** منصوب على الحال.

المصدر

قد مرّ في ذكر مآخذ الكتاب التاسع **(ص٣٢٦ ج١٧)** نقل كتابه عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتابه إليه وقد نقلناهما من كتاب صفّين لنصر بن مزاحم وقد نقله ابن عبد ربّه في «**العقد الفريد**» أيضاً **(ص٣٣٤ ج٤ من طبع مصر)** وأمّا كتابه هذا فقد نقله أعثم الكوفي في الفتوح **(ص١٥٧ من ترجمة الهروي طبع بمبئي)** وأبو العبّاس أحمد بن عليّ القلقشندي في «**صبح الأعشى**» **(ص٢٢٩ ج١ من طبع مصر)** وشهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب النويريّ في «**نهاية الأرب**» **(ص٢٣٣ ج٧)** ويطلب من باب كتبه عليه السلام إلى معاوية واحتجاجاته عليه من ثامن البحار **(ص٥٣٤ ج٨ من الطبع الكمباني)**، وكتابه هذا يوهم أنّه قريب من التاسع وأنّهما واحد والاختلاف في النسخ أو الروايات حتّى أنَّ الشارح البحراني مال ههٰنا أنّ هذا الكتاب ملتقط من كتاب ذكر السيّد منه فصلاً سابقاً وهو قوله: **(فأراد قومنا إهلاك نبيّنا)** وقد ذكرنا كتاب معاوية الذي هذا الكتاب جواب له وذكرنا الكتاب له بأسره هناك وإن كان فيه اختلاف ألفاظ يسيرة بين الروايات. انتهى قوله.

أقول: قد وجدنا الكتابين في مآخذ عديدة ونرى بينهما اختلافاً يمنعنا من اعتقادهما واحداً، على أنّ دأب الشريف الرضي ـ رضوان الله عليه ـ كان إذا نقل كلامه برواية أُخرى أن ينبّه بتقديمه على صورة أُخرى: قال في المختار ٢٢٧ من باب الخطب أوله: بسطتم يدي فكففتها، ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة وقد تقدّم مثله بألفاظ مختلفة.

وقال في المختار ٢٣ من باب الكتب، أوله: وصيتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً.
أقول: وقد مضى بعض هذا الكلام فيما تقدّم من الخطب إلاّ أنّ فيه زيادة أوجبت تكريره.

وقال في المختار ٦٦ من هذا الباب أوّله: أما بعد فإنّ المرء ليفرح بالشيء الّذي لم يكن ليفوته. وقد تقدّم ذكره بخلاف هذه الرّواية.

ونحوها في عدّة مواضع أُخرى فلو كان الكتابان واحداً لكان يتعرَّض عليه كما تعرَّض فيها، وبعد الغمض عن ذلك نقول: إنّ الروايات قائلة بأنّ معاوية كتب إلى عليّ عليه السلام كتاباً أنفذه إليه مع أبي أمامة الباهليّ فكتب إليه عليٌّ عليه السلام هذا الكتاب، وكتب إليه كتاباً أنفذه إليه مع أبي مسلم الخولاني فكتب عليه السلام في جوابه ذلك الكتاب المقدّم في المختار التاسع: وكان صدره: فإنَّ أخا خولان قدم عليّ بكتاب ـ الخ.

وقد أقبل على الفاضل الشارح المعتزلي هذا السؤال أيضاً وأورده على النقيب أبي جعفر فأجابه بما لا يخلو ذكره من فائدة، قال: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن زيد فقلت: أرى هذا الجواب منطبقاً على كتاب معاوية الّذي بعثه مع أبي مسلم الخولاني إلى عليّ عليه السلام فإن كان هذا هو الجواب فالجواب الّذي ذكره أرباب السيرة وأورده نصر بن مزاحم في كتاب صفّين إذاً غير صحيح، وإن كان ذلك الجواب فهذا الجواب إذاً غير صحيح ولا ثابت؟.

قال: فقال لي: بل كلاهما ثابت مروي وكلاهما كلام أمير المؤمنين عليه السلام وألفاظه، ثمّ أمرني أن أكتب ما يمليه عليّ فكتبته قال: كان معاوية يتسقط علياً وينعى عليه ما عساه يذكره من حال أبي بكر وعمر وأنّهما غصباه حقّه ولا يزال يكيده بالكتاب يكتبه والرسالة يبعثها يطلب غرّته لينفث بما في صدره من حال أبي بكر وعمر إمّا مكاتبة أو مراسلة فيجعل ذلك حجّة عليه عند أهل الشام ويضيفه إلى ما قرّره في أنفسهم من ذنوبه زعم فقد كان غمصه عندهم بأنه قتل عثمان أو مالأ على قتله، وأنّه قتل طلحة والزبير، وأسر عائشة، وأراق دماء أهل البصرة وبقيت خصلة واحدة وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرأ من أبي بكر وعمر وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول في أمر الخلافة وأنهما وثبا عليه غلبة وغصباه إيّاها فكانت هذه الطامة الكبرى ليست مقصرة على فساد أهل الشام عليه بل وأهل العراق الّذين هم جنده وبطانته وأنصاره لأنّهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين إلاّ القليل الشاذّ من خواصّ الشيعة.

فلمّا كتب ذلك الكتب مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يغضب علياً ويحرجه ويحوجه إذا قرأ ذكر أبا بكر وأنه أفضل المسلمين إلى أن يرهن خطه في الجواب بكلمة تقتضي طعناً في أبي بكر فكان الجواب مجمجماً غير بيّن فيه تصريح بالتظليم لهما ولا التصريح ببراءتهما وتارة يترّحم عليهما وتارة يقول أخذ حقّي وقد تركته لهما، فأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأوّل ليستفزا فيه علياً عليه السلام ويستخفّاه ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلّقان به في تقبيح حاله وتهجين مذهبه، وقال له عمرو: إنّ علياً رجل نزق تيّاه وما استطعمت منه الكلام بمثل تقريظ أبي بكر وعمر فاكتب، فكتب كتاباً أنفذه إليه مع أبي أمامة الباهلي وهو من الصحابة بعد أن عزم على بعثه مع أبي الدرداء ونسخة الكتاب: من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب أما بعد، فإن الله تعالى جدّه ـ إلى آخر ما ننقله بُعيد هذا في ذكر المعنى.

ثمّ قال: قال النقيب أبو جعفر: فلمّا وصل هذا الكتاب إلى علي عليه السلام مع أبي أمامة الباهلي كلّم أبا أمامة بنحو ممّا كلّم به أبا مسلم الخولاني وكتب معه هذا الجواب.

قال: قال النقيب: وفي كتاب معاوية هذا ذكر لفظ الجمل المخشوش أو الفحل المخشوش لا في الكتاب الواصل مع أبي مسلم وليس في ذلك هذه اللفظة وإنما فيه حسدت

الخلفاء وبغيت عليهم عرفنا ذلك من نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء وإبطاؤك عن الخلفاء.

قال: قال: وإنما كثير من الناس لا يعرفون الكتابين والمشهور عندهم كتاب أبي مسلم فيجعلون هذه اللفظة فيه والصحيح أنّها في كتاب أبي أمامة ألا تراها عادت في جوابه ولو كانت في كتاب أبي مسلم لعادت في جوابه ـ انتهى كلام النقيب أبي جعفر في شرح الفاضل الشارح المعتزلي(١).

أقول: وهذا تحقيق خبري دقيق وبحث رواني عميق فإنّ المجاميع في الفنون العديدة والجوامع الروائية يفيد أنهما كتابان كما دريت، وقد مال إليه الفاضل المؤرخ الفنّان محمد تقي سپهر في «**ناسخ التواريخ**» (**ص١٦٤ ج٢ من الطبع الناصري**) فإنّه بعدما نقل كتاب معاوية مع أبي مسلم الخولاني وكتاب أمير المؤمنين عليه السلام في جوابه على ما مرّ نقلهما في ذكر مآخذ الكتاب التاسع قال ما هذا هو لفظه بالفارسية وكأنّه ترجمة ما أفاده النقيب.

معاوية مكتوب را قرائت كرد وعمرو عاص را نيز بنمود، عمرو نگريست كه علي عليه السلام در جواب معاوية آنجا كه أبو بكر را برتمامت مسلما نان تفضيل نهاده كلمه كه تصريح بر تقبيح أبو بكر وتشنيع أعمال أو باشد رقم نكرده إلاّ آنكه نگاشته است حق مرا مأخذو داشته اند ومن تفويض كردم، با معاوية گفت برقانون كتاب أوّل علي مكتوب كن وهمچنان فصلى در فضل أبو بكر وعمرو عثمان رقم كن، چون على ايشانرا غاصب حق خويش داند ودرنزد خدا ورسول عاصي وبزه كار ميخواند بعيد نباشد كه در فضيحت عقيدت ايشان وظلم وطغيان ايشان چيزى رقم كند آنگاه ما مكتوب او را برفساد مذهب أو حجّت كنيم وبر مردم شام وصناديد قبايل عرضه داريم وتمامت عربرا بر او بر شورانيم وبر گردن آرزو سوار شويم، معاويه را كلمات أو پسنده افتاد وهميخواست تا بصحبت أبو دردا چيزى نكارد هم ازاين انديشه باز نشست واين مكتوبرا بدست أبو أمامه باهلى كه درشمار أصحاب رسول خدا است انفاذ داشت: من عبد الله معاوية بن أبي سفيان ـ إلى آخر كتابه الآتي عن قريب ـ إلى أن قال: بالجملة أبو أمامه باهلي اين نامه بگرفت وراه درنوشت ودر كوفه حاضر حضرت أمير المؤمنين عليه السلام شده تسليم داد أمير المؤمنين بعد ازقرائت آن مكتوب بدينگونه پاسخ نگاشت: أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله تعالى ـ الخ.

وبالجملة أنَّ الظنّ المتاخم بالعلم من التتبّع والفحص حاصل بأنّ كلَّ واحد منهما كتاب على حياله، فلنرجع إلى تفسير الكتاب.

(١) شرح النهج: ١٥/١٨٧، وبحار الأنوار: ٣٣/٦٤.

المعنى

لما كان الأمير عليه السلام في هذا الكتاب يردّ الأباطيل الّتي نسجتها عنكبوت أوهام معاوية وأهواء شيطانه عمرو العاصي فلا بدّ لنا من نقل كتاب معاوية ليتّضح الجواب، كتب معاوية إليه بعد كتابه الّذي أنفذه إليه مع الخولاني على ما مرّ آنفاً:

من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب: أما بعد، فإنّ الله تعالى جدُّه اصطفى محمداً عليه الصّلاة والسّلام لرسالته، واختصّه بوحيه وتأدية شريعته فأنقذ به من العماية، وهدى به من الغواية، ثمّ قبضه إليه رشيداً حميداً قد بلّغ الشرع، ومحق الشرك، وأخمد نار الإفك، فأحسن الله جزاءه، وضاعف عليه نعمه وآلاءه.

ثمّ إنّ الله سبحانه اختصّ محمداً عليه الصّلاة والسّلام بأصحاب أيّدوه ونصروه وكانوا كما قال الله سبحانه لهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] فكان أفضلهم مرتبة، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلةً الخليفة الأوّل الذي جمع الكلمة ولمَّ الدَّعوة وقاتل أهل الرّدّة، ثمَّ الخليفة الثاني الّذي فتح الفتوح، ومصّر الأمصار وأذلّ رقاب المشركين، ثمَّ الخليفة الثالث المظلوم الّذي نشر الملّة وطبّق الآفاق بالكلمة الحنيفيّة.

فلمّا استوثق الإسلام وضرب بجرانه عدوت عليه، فبغيته الغوائل ونصبت له المكائد وضربت له بطن الأمر وظهره ودست عليه وأغريت به وقعدت حيث استنصرك عن نصره، وسألك أن تدركه قبل أن يمزّق فما أدركته، وما يوم المسلمين منك بواحد: لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه ورمت إفساد أمره وقعدت في بيتك، واستغويت عصابة من الناس حتّى تأخّروا عن بيعته، ثمَّ كرهت خلافة عمر وحسدته، واستطلت مدته وسررت بقلته، وأظهرت الشماتة بمصابه حتى أنك حاولت قتل ولده لأنّه قتل قاتل أبيه.

ثمّ لم تكن أشدَّ منك حسداً لابن عمك عثمان نشرت مقابحه، وطويت محاسنه، وطعنت في فقهه، ثمَّ في دينه ثمّ في سيرته، ثمّ في عقله وأغريت به السفهاء من أصحابك وشيعتك حتّى قتلوه بمحضرٍ منك، لا تدفع عنه بلسان ولا يد، وما من هؤلاء إلاّ من بغيت عليه، وتلكّأت في بيعته حتّى حملت عليه قهراً تساق بحزائم الاقتسار كما يساق الفحل المخشوش، ثمّ نهضت الآن تطلب الخلافة وقتلة عثمان خلصاؤك وسجراؤك والمحدقون بك، وتلك من أماني النفوس وضلالات الهواء.

فدع اللجاج والعبث جانباً، وادفع إلينا قتلة عثمان، وأعد الأمر شورى بين المسلمين ليتّفقوا على من هو لله رضاً، فلا بيعة لك في أعناقنا، ولا طاعة لك علينا ولا عتبى لك عندنا، وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف والذي لا إله ألا هو لأطلبنَّ قتلة عثمان أين كانوا وحيث كانوا حتّى أقتلهم أو تلحق روحي بالله.

فأمّا ما لا تزل تمنّ به من سابقتك وجهادك فإنّي وجدت الله سبحانه يقول: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحُجرَات: ١٧] ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها أشدّ الأنفس امتناناً على الله بعملها وإذا كان الامتنان على السائل يبطل أجر الصدَّقة فالامتنان على الله يبطل أجر الجهاد ويجعله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤] انتهى كتاب معاوية[١].

ومعنى كلامه: فلمّا استوثق الإسلام وضرب بجرانه، أنّ الإسلام لمّا استقام وقرّ في قراره تشبيهاً بالبعير إذا برك واستراح مدّ جرانه على الأرض، وجران البعير هو مقدّم عنقه من مذبحه إلى منحره.

وقوله: حتّى أنك حاولت قتل ولده لأنّه قتل قاتل أبيه، يشير إلى عبيد الله بن عمر وقتله أبا لؤلؤة فيروز قاتل عمر وقد تقدّم كلامنا في شرح المختار ٢٣٦ من باب الخطب **(ص٢٤٤ ج١٥)** وفي شرح المختار الأوّل من باب الكتب **(ص٢٣٨ ج١٦)**.

قوله: تلكأت في بيعته، تلكأ عن الأمر أي أبطأ وتوقف، فالصّواب أن يقال تلكأت عن بيعته فكلمة **(في)** بمعنى **(عن)** إن لم يتطرق فيها تحريف، قوله سجراؤك هو بالسين المهملة جمع سجير ككريم أي الخليل الصفي.

فكتب أمير المؤمنين علي عليه السلام في جوابه: أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكر اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه وآله ـ الخ، فحان لنا الآن شرح كتابه عليه السلام:

قوله عليه السلام: **(أما بعد فقد أتاني ـ إلى قوله: إلى النضال)** هذا الكتاب يشتمل على فصول تجيب عن فصول من الأباطيل المموّهة الّتي توّغل فيها معاوية وهذا القسم من الكتاب جواب عن قوله: فإنَّ الله تعالى جدّه ـ إلى قوله: فكان أفضلهم مرتبة.

وبيان الجواب على الإجمال أنَّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان بما أخبره معاوية أعلم من غيره لأنّه لم يكن أحد كمثله في حماية الدين والذّب عن حوزته عن ابتداء دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى زمان ارتحاله من الدُّنيا وإخبار معاوية علياً عليه السلام بذلك كسفيهٍ استبضع تمراً إلى هجر، أو كغبيٍّ دعى من علّمه الرماية إلى المراماة، وأما بيانه على التفصيل فقد مرّ في شرح المختار التاسع من باب الكتب **(ص٣٣٦ ـ ٣٤٨ ج١٧)** وفي شرح المختار السابع عشر منه، فراجع.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٦٣، ونهج السعادة: ٤/١٩٠.

قوله عليه السلام: **(وزعمت أنّ أفضل الناس فلان ـ إلى قوله: فالأنصار على دعاويهم)** هذا الفصل جواب عن قول معاوية: فكان أفضلهم مرتبة ـ إلى قوله: وطبق الآفاق بالكلمة الحنيفية، كان معاوية ذكر في كتابه الأفضل فالأفضل من الأصحاب على زعمه. وفضّلهم على أمير المؤمنين عليه السلام تعريضاً على حقده حيث قال: وأعلاهم الأوّل والثاني والثالث فأجابه بأنّ ما ذكرت فيهم إمّا أن يتمّ ويصحّ أولاً فإن تمّ اعتزلك كلّه لأنّه كان من تلك الفضائل في معزل، وعلى الثاني لم يلحقك عيبه ونقصه لأنّه لم يكن منهم، فعلى كلا الوجهين كان معاوية خائضاً في ما لا يعنيه.

ثمّ بيّن عليه السلام عدم لياقة معاوية لتمييز الفاضل والمفضول منهم وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم بقوله: **(وما أنت والفاضل والمفضول ـ الخ)**، ومن الطلقاء أبو سفيان ومن أبنائهم معاوية كما مضى بيان ذلك تفصيلاً من شرح المختار السابع عشر من باب الكتب عند حديث أهل مكّة وأنّ أهل مكّة هم الطلقاء **(ص٢٨١ ج١٨)**.

وكأنّ قوله عليه السلام **(بين المهاجرين الأوّلين)** يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَالسَّـٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَـٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وكان معاوية وأبوه في زمان الهجرة مشركين ولمّا رفع الله الكلمة العليا وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً استسلما وما أسلما كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: فوالّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلمّا وجدوا أعواناً عليه أظهروه **(المختار ١٦ من باب الكتب ص٢٢٤ ج١٨)** وراجع أيضاً إلى **(ص٣٧٠ ج١٥ وإلى ص٥٣ ج١٨)**.

وقال الطبرسي رحمه الله في التفسير: في هذه الآية دلالة على فضل السابقين ومزيّتهم على غيرهم لما لحقهم من أنواع المشقة في نصرة الدين فمنها مفارقة العشائر والأقربين، ومنها مباينة المألوف من الدين، ومنها نصرة الإسلام وقلّة العدد وكثرة العدوّ، ومنها السبق إلى الإيمان والدُّعاء إليه ـ إلى أن قال: وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناد مرفوعاً إلى عبد الرحمٰن بن عوف في قوله سبحانه: ﴿وَالسَّـٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] قال: هم عشرة من قريش أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب[1].

وبالجملة أنّ معاوية وأترابه شأنهم وقدرهم دون أن يدخلوا في التمييز بين هؤلاء ونحوه وليسوا بأهل لذلك ونعم ما قيل:

(١) مجمع البيان: ٥/١١٣، وشواهد التنزيل: ١/٣٣٤.

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعة وثريد

ثمّ أتى أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك بمثلين كما أتى في الأمر المقدّم بالمثلين فقال عليه السلام: **(هيهات لقد حنّ قدح ليس منها)** وقد علمت في تفسير اللّغة أنه يضرب للرجل يفتخر بقبيلة ليس منها أو يتمدّح بما لا يوجد فيه، وقريب منه ما يقال في الفارسية: من آنم كه رستم جوانمرد بود، والثاني قوله عليه السلام: **(وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها)** أي طفق يحكم في هذه الجماعة أو القضيّة أو نحوهما من عليه الحكم لها، يعني ليس له أن يحكم فيها وقدره دون ذلك بل يجب عليه قبول الحكم الصادر من أهله فيها.

ثمّ نبّهه على ضعفه وقصور ذرعه عن البلوغ إلى تلك المراتب السامية وأنّى للأعرج العروج إلى قلل شامخة، فقال: **(ألا تربع - الخ)**، استفهام على سبيل الاسترحام أو الاستحقار والتقريع، وقد عرفت أنّ الظلع هو العرج والغمز، وهل للظالع أن يحمل حملاً ثقيلاً؟ أي ألا ترفق بنفسك أيّها الظالع حتّى لا تحمل عليها ما لا تطيقه؟ وألا تعرف قصور ذرعك وعدم قدرتك واستطاعتك عن البلوغ إلى درجة السابقين؟ وألا تتأخّر حيث أخرّك قدر الله وتضع نفسك حيث وضعها الله؟.

ثمّ قال عليه السلام: **(فما عليك غلبة المغلوب ولا لك ظفر الظاهر)** أتى بفاء التفريع على هذه الجملة، أي إذا كنت بمعزل عنهم وأجنبيّاً عن هؤلاء المهاجرين الأوّلين والسّابقين في الإسلام، فما عليك غلبة المغلوب أي لا تضرّك، ولا لك ظفر الظافر أي لا ينفعك، فدخل معاوية فيما لا يعنيه.

ثمّ قال عليه السلام: **(وإنك لذهّاب في التّيه روّاغ من القصد)** وذلك لأنّ من خرج عن زيّه ودخل فيما لا يعنيه، وتكلّم فوق قدره يعدّ كلامه فضولاً، وصدق عليه مثل: لقد حنّ قدح ليس منها، فقد ذهب في الضلال ومال عن الاعتدال وماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال.

على أنّ معاوية أنكر الحقّ وعدل عن الصّراط المستقيم حيث خرج مبارزاً لمن له الحقّ ولمن هو على الصّراط المستقيم بل لمن هو الحق والصّراط المستقيم ألا وهو إمام المتّقين وقائد الغرّ المحجلين وخليفة ربّ العالمين ومن هو من خاتم النّبيّين بمنزلة موسى من هارون عليّ أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين فمن عدل عن ذلك القسطاس المستقيم والميزان القسط، فهو ذهّاب في التّيه روّاغ عن القصد.

نقل سبط ابن الجوزي في **«التذكرة»** عن أبي حامد الغزالي حيث قال في كتاب سرّ العالمين وكشف ما في الدّارين بعد نقل طائفة من كلامه في غصب الغاصبين خلافة أمير المؤمنين عليه السلام: ثمّ العجب من منازعة معاوية لعليّ عليه السلام الخلافة وقد قطع الرّسول صلى الله عليه وآله طمع من طمع فيها بقوله: **«إذا ولّي خليفتان فاقتلوا الأخير منهما»**، والعجب من حقّ واحد كيف

ينقسم بين اثنين والخلافة ليست بجسم ولا عرض فيتجزأ، قال: وقال أبو حازم: أوّل خلافة[1] تجري بين العباد في المعاد بين عليّ عليه السلام ومعاوية فيحكم الله تعالى لعليّ على معاوية والباقون تحت المشيئة، وقال ﷺ لعمّار: تقتلك الفئة الباغية، ولا ينبغي للإمام أن يكون باغياً، ولأنَّ الإمامة تضيق عن شخصين، كما أنَّ الرّبوبيّة لا تليق بإلٰهين اثنين ـ إلى أن قال: ثمَّ استفاض لعن عليّ عليه السلام على المنابر ألف شهر وكان ذلك بأمر معاوية أتراهم أمرهم بذلك كتاب أو سنّة أو إجماع؟ هذا صورة كلام الغزالي. (**ص٣٧ من التّذكرة الرَّحلي المطبوع على الحجر والمقابلة الرابعة من سرّ العالمين ص٢٢ من طبع النجف**).

ثمَّ أخذ أمير المؤمنين عليه السلام بتذكير معاوية وتنبيهه على أفضليّته وأفضليّة من هو من بيته ونسبه من بني هاشم حيث قال: (**ألا ترى غير مخبر لك ـ لكن بنعمة الله أحدّث ـ أنَّ قوماً الخ**). يعني بقوله غير مخبر لك أنك لست بأهل أن يخاطبك مثلي كما يستفاد من سياق الكلام، ويحتمل بعيداً أن يفسّر بأنَّ معاوية لما كان واقفاً على ذلك قال الأمير عليه السلام: (**غير مخبر لك**)، وقوله عليه السلام: (**لكن بنعمة الله أحدّث**) يشير إلى قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضّحى: الآية ١١].

ثمَّ قال عليه السلام: (**قيل: سيّد الشّهداء**) يعني بسيّد الشّهداء عمّه حمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه استشهد في أُحد والقائل هو رسول الله ﷺ حيث قال: إنه سيّد الشّهداء وخصّه بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ومضى الكلام في شهادة حمزة وصلاة الرسول ﷺ وحزنه عليه في المختار التاسع من باب الكتب (ج١٧) فراجع.

ثمَّ قال عليه السلام: (**إنَّ قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله**) يعني به أخاه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه استشهد في غزوة مؤتة، وقد تقدَّم الكلام في شهادته وفضله في شرح المختار التاسع المقدّم ذكره أيضاً فلا فائدة في الإعادة.

ثمَّ أخذ عليه السلام بنقل فضائله ولكن أعرض عنه لما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه فقال: (**ولولا ما نهى الله ـ الخ**) ـ وأراد من قوله: (**لذكر ذاكر**) نفسه الشريفة، ثمَّ وصف الفضائل بأنها بلغت في الشهرة والوضوح مبلغاً تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذان السّامعين فلا ينكرها إلاّ عميان القلب وفاقد السمع، وسياق الكلام يفيد أنّها لوضوحها لا يمكن لأحد إنكارها وإن كان غير مؤمن يثقل عليه سماعها حيث قال عليه السلام: (**ولا تمجّها آذان السّامعين**) بعد قوله: (**تعرفها قلوب المؤمنين**).

ثمَّ قال عليه السلام: (**فدع عنك من مالت به الرّمية**) وفي «**نهاية الأرب**»: الدنية مكان الرمية

---

(١) في نسخة: حكومة.

وهي الأمر الخسيس، قيل: إنه مثل، وأصله أنَّ رجلاً قصد مكاناً وقد عرض عليه في أثناء طريقه صيد فجعل يتبعه ليصطاده فشغله عمّا قصده. انتهى كلامه بترجمة منّا، ولكنا لم نظفر به، والحقّ ما قاله آخر من أنه كالمثل.

وأمّا معناه: فقال الكيدريّ ـ كما نقل عنه في البحار: **(ص٥٣٦ ج٨)** أراد عليه السلام أنّه ـ يعني معاوية ـ مطعون في نسبه وحسبه وأنّه أزاله عن مقام التّفاخر والتنافر مطاعن شهرت فيه انتهى. ثمّ قال المجلسي رحمه الله: وكأنّه حمل على الرماية على السهام المرميّة. انتهى.

وذكر المولى صالح القزويني رحمه الله في شرحه على النهج بالفارسيّة في معناه ثلاثة أوجه: أوّلها: أنّه عليه السلام أراد بِمنٍّ نفسه الشريفة أي دعني يا معاوية وشأني أسكت عنك، ولم يك قصدي أن أفاخرك بمفاخري ولكن تعرَّض لي صيد في أثناء الطريق فرميته بسهم.

وثالثها: أنّه عليه السلام أراد بِمَنٍّ معاوية أي دع ما يشغلك عن الحق واترك ما لا يعنيك ودونك وشأنك ولا تكن كالّذي مالت به الرَّمية، واحتمله العالم الشارح البحريني قدّس سرّه أيضاً حيث قال: ويحتمل أن تكون الإشارة إليه بعينه على طريقة قولهم: إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

قلت: ما ذهب إليه الكيدري رحمه الله بعيد عن سياق العبارة وكذا الوجهان المذكوران سيّما الأوّل منهما، ومعنى العبارة المستفاد من سياقها أن أمير المؤمنين عليه السلام يأمره عن عدم الالتفات إلى أقوال أبناء الدُّنيا كعمرو بن العاص وأضرابه أي دع قوماً أمالتهم الدُّنيا الدنيئة عن سويّ الصراط، وبعد نفسك عنهم.

ثمّ قال عليه السلام: **(فإنا صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا)** إنما أتى بالفاء لأنَّ كلامه هذا في مساق العلّة لقوله عليه السلام: فدع عنك من مالت به الرَّمية، أي يجب عليك ترك هؤلاء القوم الّذين ضلّوا عن الطريق الحق، وعليك باتباع سبيلنا لأنّا صنائع ربّنا فمن أعرض عنّا فقد حاد عن الصراط المستقيم.

ثمَّ إنَّ كلامه هذا فوق كلام البشر، وفوق ما تحوم حوله العبارة، عليه مسحة من العلم الإلهي، ولعمري أنه يجري مجرى التنزيلات السماويّة، لما اشتمل عليه من أمر الخلافة الحقّة، وشأن الحجج الإلهيّة، وأراه كأنه موج برز من محيط عظيم، أو نور سطع من عالم الأمر الحكيم، لا يتفوّه به إلا من اصطنعه الله تعالى لنفسه، ولا يقدر على الإتيان به إلا قائل إنا لأمراء الكلام وفينا تنشّبت عروقه وعلينا تهدّلت غصونه، ولا يليق هذا الادّعاء إلاّ لنبيّ أو وصيّ نبيّ، ولا يصدر نحو هذه الكلمة العليا إلا من قلب هو عيبة أسرار الله جلَّ شأنه، وبالجملة:

آنكس كه زكوى آشنائيست دانـد كـه متـاع مـا كـجـائيست

وقد علمت في تفسير اللّغات أنّ فلاناً صنيعي وصنيعتي أي اصطنعته وربيّته وخرجته وفلان صنيعتك ومصطنعك، قال عز من قائل: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾ [طه: ٤٠ ـ ٤١] أي اصطفيتك وأخلصتك واستخلصتك لنفسي كما قال عزّ من قائل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١] وقال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، قال جار الله الزّمخشري في «**الكشاف**»: هذا تمثيل لما خوّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثّل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص أهلاً لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ولا يأتمن على مكنون سرّه سواه. انتهى.

وقال النيسابوري في «**التفسير**»: اصطنعت فلاناً لنفسي إذا اصطفيته وخرجته ومعناه أحسنت إليه حتى أنه يضاف إليه، ونقل نحوه عن القفّال أيضاً، ففيه غاية التشريف والتكريم.

وإذا تأمّلت حقّ التأمّل بما أهدينا إليك في الصنيعة تجدها تجري مجرى الاصطفاء والاجتباء والإخلاص والاستخلاص فتدبّر في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٣١ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣١ ـ ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ـ إلى قوله: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٦ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾ [الأنعام: ٨٦ ـ ٨٧].

وفي قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وفي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يُوسُف: الآية ٥٤].

ثمّ لا يخفى عليك لطف كلامه ﷺ: (**فإنا صنائع ربنا والناس بعد صنائع لنا**) من حيث

إتيانه الضمير على هيئة الجمع دون المفرد يعني أنَّ جميع حججِ الله اصطنعهم الله تعالى لنفسه واصطفاهم بين سائر عباده فهو عليه السلام ينادي بأعلى صوته بأنّ خليفة الله لا بدَّ من أن يكون منصوباً من عنده تبارك وتعالى، كما أفاد بكلامه، هذا أعني: فإنا صنائع ربّنا. معصومون أيضاً، وذلك لأنّ الله لا يصطنع لنفسه من لا يكون معصوماً، وقد مرّ بحثنا عن ذلك مشبعاً في الإمام وصفاته في شرح المختار ٢٣٧ من باب الخطب (ص٣٣ ـ إلى ـ ١٧٦ من ج١٦).

وقد مضى كلام ثامن الأئمة عليهم السلام في ذلك أيضاً من أن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً فلم يعي بعده بجواب ويحيّر فيه عن الصّواب وهو معصوم مؤيد موفق مسدّد قد أمن الخطايا والزلل والعثار وخصّه الله بذلك ليكون حجّة على عباده وشاهده على خلقه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأفاد عليه السلام بكلامه: **(والناس صنائع لنا)**، أنهم عليهم السلام وسائط فيض الله تعالى بين الله المتعال وبين عباده، وبقوله: **(إنا صنائع ربنا)** أنه لا واسطة بينهم وبين الله تعالى[1].

---

(١) **كون آل محمد (عليهم السلام) وسائط الفيض وأسباب العطاء**

. فعن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: **﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾** فقال: **«انا هو الذي عنده علم الكتاب، وقد صدقه الله واعطاه الوسيلة في الوصية، ولا تخلى امة من وسيلته اليه والى الله فقال ﴿يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة﴾** ـ بصائر الدرجات: ٢١٦ باب ما عندهم من الإسم الأعظم ح ٢١..

. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل: **«نحن يمين الله ونحن امناء الله... من آمن بنا آمن بالله، ومن ردّ علينا ردّ على الله، ومن شك فينا شك في الله، ومن عرفنا عرف الله، ومن اطاعنا اطاع الله، ونحن الوسيلة الى الله والوصلة الى رضوان الله، ولنا العصمة والخلافة والهداية»** - بحار الأنوار: ٢٥/ ٢٢ ـ ٢٣ باب بدء خلقهم ح ٨٣..

. وجاء في دعاء الندبة: **«اين باب الله الذي منه يؤتي، اين السبب المتصل بين الأرض والسماء»** - بحار الأنوار: ١٠٢/ ١٠٤.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: **«نحن السبب بينكم وبين الله تعالى»** - بشارة المصطفى: ٩٠.

. وعنه عليه السلام في حديث يصف به آل محمد: **«نحن علة الوجود وحجة المعبود لا يقبل الله عمل عامل جهل حقنا»** - بحار الأنوار: ٢٦/ ٢٥٩ ح ٣٦.

. وعن أبي جعفر عليه السلام: **«نحن حجة الله، ونحن باب الله، ونحن لسان الله، ونحن وجه الله، ونحن عين الله في خلقه، ونحن ولاة امر الله في عباده.**

ثم قال: يا اسود بن سعيد ان بيننا وبين كل ارض ترّاً مثل ترّ البناء، فاذا أمرنا في امرنا جذبنا ذلك التِر فأقبلت إلينا الأرض بقلبها واسواقها ودورها حتى ننفذ فيها ما نؤمر فيها من امر الله تعالى» - بحار الأنوار: ٢٥/ ٣٨٤ باب غرائب افعالهم ح ٤٠، وبصائر الدرجات: ٦١ مختصراً.

=

ثمَّ إنَّ في سياق العبارة إيماء إلى أنّ من بلغ هذه المرتبة والمنزلة إكراماً من الله تعالى

= قال ابن أبي الحديد:

تقبلت افعال الربوبية التي عذرت بها من شك انك مربوب
ويا علة الدنيا ومن بدأ خلقها اليه سيتلو البدأ في الحشر تعقيب

ـ مشارق انوار اليقين: ٤٤.

ـ وعن أبي عبد الله الصادق ﷺ: **«ان الله انتجبنا لنفسه، فجعلنا صفوته من خلقه ولسانه الناطق باذنه وامناؤه على ما نزل من عذر ونذر وحجة»** - بصائر الدرجات: ٦٢ باب انهم حجة الله وبابه ح ٧.

ـ وعن أمير المؤمنين ﷺ قال: **«انا علم الله وانا قلب الله الواعي ولسان الله الناطق وعين الله الناظر، وانا جنب الله وانا يد الله»** - بصائر الدرجات: ٦٤ ح ١٣، والتوحيد: ١٦٤ ح ١ باب ٢٢، والمراقبات: ٢٥٩.

وفي رواية: **«انا عين الله ولسانه الصادق ويده، وانا يد الله المبسوطة على عباده بالرحمة والمغفرة»** - التوحيد للصدوق: ١٦٥ باب ٢٢ ح ٢.

وعن الإمام الصادق ﷺ: **«ان لله عزوجل خلقاً من رحمته خلقهم من نوره ورحمته، من رحمته لرحمته، فهم عين الله الناظرة واذنه السامعة ولسانه الناطقة في خلقه باذنه، وامناؤه على ما انزل من عذر أو نذر او حجة فبهم يمحو السيئات وبهم يدفع الضيم، وبهم ينزل الرحمة وبهم يحيي ميتاً وبهم يميت حياً، وبهم يبتلي خلقه وبهم يقضي في خلقه قضيته»**.

قلت: جعلت فداك من هؤلاء؟

قال: **«الاوصياء (عليهم السلام)»** - التوحيد للصدوق: ١٦٧ باب ٢٤ ح ١.

* **أقول:** الأحاديث في كونهم وجه الله وعينه ويده وجنبه كثيرة - كمال الدين: ١/ ٢٣١ باب ٢٢ ح ٣٤، والتوحيد: ١٥٠ ـ ١٦٥ - ١١٧ ح ٤ ـ ٢١، والكافي: ١/ ١٤٣ ح ٣ وبحار الأنوار: ١٥٩/٧، ونور الثقلين: ٤/ ٤٩٥، وبصائر الدرجات: ٢٦، وامالي الشيخ: ٦٦٦ المجلس ٣٤ ح ٤، واثبات الوصية: ١٥١.

واحاديث كون آل محمد الواسطة في الفيض من الأحاديث المشهورة، والتي منها ما تقدم في توسل الأنبياء ﷺ بآل محمد (عليهم السلام)، ومنها كل ادلة التوسل التي تذكر في محلها - في كتاب التوسل.

ومنها ما تقدم من روايات ان الأرض تنبت بفضلهم، والسماء تمطر بهم، وما شابه من هذه الأحاديث.

ومنها ما تقدم في كونهم واسطة في الرزق، ومنها أيضاً ما تقدم من تنزيل الرحمة وصرف العذاب ببركة آل محمد (عليهم السلام)، وان الهداية منحصرة بهم، كل ذلك تقدم في الطوائف السابقة (النحو الأول).

واما هذه الروايات المتقدمة هنا، والتي تجعل آل محمد (عليهم السلام) واسطة وسبباً بين الله تعالى وبين عباده، وان من اراد الوفود على الله وعبادته والتقرب اليه، فلابد ان يأتيه من بابه الذي امرنا به.

هذه الطائفة تفيد ان عطاءات الله وفيوضاته لا تصل إلاّ بتوسط آل محمد **«فهم واسطة على سبيل هداة» ولا يهتدي هاد لا بفضلهم؛**

وهذا معناه انهم مصدر هذه الامور، ليس بعرض ولا بطول مصدرية الله، انما هم مظهر لمصدرية وعطاءات الله، وهذا ما قدمناه في معنى ولاية آل محمد (عليهم السلام) على الامور الكونية.

وما تقدم ويأتي من انهم اسباب العطاءات وعلله، لا يحمل على اكثر من هذا، ومن المسلم انهم ليسوا العلة التامة، بل ولا الناقصة لهذه الفيوضات، بل هم علة مظهرية وتقدم ما يدل على ذلك.

هذا وقال الحكيم السبزواري: ... فلابد من للحادثين السائرين الى الله الطالبين له من جالس بين الحدين =

حتى اصطفٰيه الله واتخذه صنيعته وجعل الناس صنائع له فكيف يجعل غيره عدله فضلاً عن أن

= ذي حظ من الجانبين، ومسافر من الخلق الى الحق ليقودهم اليه ويدلهم عليه - شرح دعاء الصباح: ٦٥ - ٦٦.

وقال صاحب كتاب غوالي اللآلي بعد كلام في معنى العقل وانه اول الخلق، وشرح ادباره واقباله والاثابة به والعقاب: فيمكن ان يكون المراد بالعقل نور النبي ﷺ الذي انشعبت منه انوار الائمة صلوات الله عليهم، لان اكثر ما اثبتوه لهذه العقول قد ثبت لارواح النبي والائمة عليهم السلام في اخبارنا المتواترة على وجه آخر، فانهم اثبتوا القدم للعقل، وقد ثبت التقدم في الخلق لارواحهم على جميع المخلوقات أو على سائر الروحانيين في اخبار متواترة.

وأيضاً اثبتوا لهم التوسط في الايجاد أو الاشتراط في التأثير، وقد ثبت في الاخبار كونهم (عليهم السلام) علة غائية لجميع المخلوقات، وانه لولاهم لما خلق الله الافلاك وغيرها.

واثبتوا لها كونها وسائط في افاضة العلوم والمعارف على النفوس والأرواح، وقد ثبت في الاخبار ان جميع العلوم والحقائق والمعارف بتوسطهم يفيض على سائر الخلق حتى الملائكة والأنبياء... فكلما يكون التوسل بهم والاذعان لفضيلتهم اكثر كان فيضان الكمالات من الله تعالى اكثر - عوالم العلوم والمعارف: ٤٩ - ٥٠ قسم العقل.

ان قيل: كونهم واسطة الفيض كيف يدل على ولايتهم التكوينية؟

قلت: كونهم الواسطة معناه ان الفيض كل الفيض لا يصل إلاّ بتوسطهم، فبهم يرزق الله العباد، ويحيي الموتى ويميت الاحياء، وعليه دلت الرواية الاخيرة، وهذا تفويض من الله لهم في الاحياء ونحوه، لان معنى التفويض اليهم ليس انهم هم الفاعلون بالاستقلال، بل معناه ان فعلهم مظهرٌ لفعل الله ومرآة له كما تقدم.

هذا؛ وفي الحديث المستفيض عن رسول الله ﷺ عند الفريقين:

«لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه، فاذا احببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله، فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش وبي يمشي» - جامع الاسرار: ٢٠٤ ح ٣٩٣، وراجع المعجم الكبير للطبراني: ٨/٢٠٦، والمعجم الاوسط: ١٠/١٦٣، وكنزالعمال: ٧/ ٧٧٠ ح ٢١٣٢٧، ونور الابصار: ٧٥، وصفة الصفوة: ١/ ٩ ط مصر، واصول الكافي: ٢/ ٣٥٢ ح٧، علل الشرائع: ١/ ٢٢٧ باب ١٦٢.

وفي الحديث: **«احبني اجعلك مثلي»** - جامع الاسرار: ٢٠٤ ح ٣٩٣.

وهذا الحديث يدل دلالة صريحة على قدرة العبد المطيع لله تعالى حتى يصبح فعله فعل الله تعالى ينسب اليه.

قال الشيخ حسن زاده آملي: بل ان هذا الشخص ولان الحق يكون عينه التي يرى واذنه التي بها يسمع، وعين جوارحه وقواه الروحية والجسمية؛ فان تصرفه الفعلي أيضاً يكون كالحدس والجذبة الروحية، حتى يصير قوله وفعله واحداً، ولا يحتاج الى الامتداد الزماني في حركاته وانتقالاته، بل يصير محلاً لمشيئة الله ومظهراً ل) انما قولنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون (حيث يتحد عندها القول والفعل - الانسان الكامل: ١٧٣.

. وقال الخواجة نصير الدين الطوسي: العارف إذا انقطع عن نفسه واتصل بالحق رأى كل قدرة مستغرقة في قدرته المتعلّقة بجميع المقدورات، وكل علم مستغرق في علمه الذي لا يعزب عنه شيء من الموجودات، وكل إرادة مستغرقة في إرادته التي يمتنع ان يتأتى عليها شيء من الممكنات.

بل كل وجود فهو صادر عنه فائض عن لدنه فصار الحق حينئذ بصره الذي به يبصر وسمعه الذي به يسمع =

يجعل أفضل منه وإن كان للغير قرب صوري وظاهري من رسول الله ﷺ وأنى هذه المنزلة الاعتبارية ومن هو ممّن اجتبٰيه الله تعالى واصطنعه لنفسه.

ثمَّ قال عليه السلام: **(لم يمنعنا قديم عزّنا ـ الخ)** معناه على نصب كلمتي قديم وعاديّ حتّى تكونا مفعولين وجملة **(أن خلطناكم)** مرفوعة على الفاعلية أن المخالطة بيننا وبينكم بالنكاح أي تزوّجنا فيكم وتزوّجكم فينا كفعل الأكفاء لا يمنعنا قديم عزّنا ولا عاديّ طولنا عليكم والحال أنكم لستم في مرتبة المماثلة لنا وكيف يكونون الأكفاء لنا والحال منّا النّبي ومنكم المكذّب ـ الخ.

وأمّا معناه على رفع الكلمتين ـ كما في نسخة الرضي رضوان الله عليه ـ وهو الصواب فأن يقال: إنّ قديم عزّنا وفضلنا عليكم لم يمنعنا أن خلطناكم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء والحال أنكم لستم في مرتبة الأكفاء لنا، كما أنَّ بيوت العزّ والشرف يأنفون عن مخالطة من دونهم كذلك.

أفاد الفاضل الشارح المعتزلي بقوله: وينبغي أن يحمل قوله عليه السلام قديم وعادي على مجازه لا على حقيقته لأنّ بني هاشم وبني أمية لم يفترقا في الشرف إلاّ مذ نشأ هاشم بن عبد مناف وعرف بأفعاله ومكارمه ونشأ حينئذ أخوه عبد شمس وعرف بمثل ذلك وصار لهذا بنون ولهذا بنون وادّعى كلّ من الفريقين أنه أشرف بالفعال من الآخر ثمَّ لم يكن المدّة بين نشأة هاشم وإظهار محمد ﷺ الدّعوة إلاّ نحو تسعين سنة ومثل هذه المدّة القصيرة لا يقال فيها قديم عزّنا وعاديّ طولنا فيجب أن يحمل اللفظ على مجازه لأنَّ الأفعال الجميلة كما تكون عادية تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر وإن كانت المدّة قصيرة، ولفظة قديم ترد ولا يراد بها قدم الزمان بل من قولهم لفلان قدم صدق وقديم أثر أي سابقة حسنة.

أقول: ويؤيده رواية **«صبح الأعشى»**: لم يمنعنا قديم عزّنا ومديد طولنا، فإن لفظة مديد قرينة على أنَّ القديم ليس بمعناه المطابقي، ويمكن أن يقال: إنَّ للقديم توسّعاً في المحاورات كما يقال من قديم الدهر ومن زمان قديم وإن لم يمض من الزمان إلاّ نحو تسعين

= وقدرته التي بها يفعل وعلمه الذي به يعلم ووجوده الذي به يوجد، فصار العارف حينئذ متخلّقاً بأخلاق الله في الحقيقة ـ شرح الإشارات والتنبيهات: ٣/٣٨٩ عنه السير إلى الله: ٧٩.

* أما صحة مضامين هذه الطائفة، فقد رويناها من عدة طرق ومن مجموعها يحصل للانسان استفاضة هذا المضمون واذا لاحظنا الطوائف الاخرى المتقدمة والآتية فانا نصل الى حد القطع بصدق المضامين وعندها يصح القول بتواتر ثبوت الولاية التكوينية لآل محمد (عليهم السلام)، خاصة مع ما تقدم من آيات تدل على هذه الطوائف.

سنة فلا يكون تجوّز على هذا الوجه.

وقال العلاّمة المجلسي رحمه الله في «**البحار**» (ص٥٣٦ ج٨): وقد ظهر لك مما سبق أن بني أُميّة لم يكن لهم نسب صحيح ليشاركوا في الحسب آباءه عليه السلام، مع أنَّ قديم عزّهم لم ينحصر في النسب بل أنوارهم عليهم السلام أوّل المخلوقات ومن بِدِء خلق أنوارهم إلى خلق أجسادهم وظهور آثارهم كانوا معروفين بالعزّ والشرف والكمالات في الأرضين والسماوات يخبّر بفضلهم كلّ سلف خلفاً ورفع الله ذكرهم في كل أُمة عزّاً وشرفاً، انتهى كلامه رحمه الله.

وأقول: قد ذكرنا نبذة من خلال بني هاشم وأنموذجة من شيم بني أُمية في شرح المختار السابع عشر من باب الكتب (من ص٢٥٧ ـ إلى ـ ص٢٧٠ ج١٨)، فراجع.

ثمَّ أخذ عليه السلام في بيان عدم كون بني أمية في مرتبة المماثلة لبني هاشم ونفي كونه أهلاً للمخالطة بقوله: (**وأنى يكون ذلك كذلك ومنا النبي ومنكم المكذّب**) والمكذّب هو أبو سفيان صخر بن حرب كان عدوّ رسول الله والمكذِّب له وما أسلم آخِر الأمر بل استسلم كما مضى الكلام في استسلام القوم في شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام: والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلمّا وجدوا أعواناً عليه ظهروه، (المختار ١٦ من باب الكتب ص١٩٠ ج١٨).

وكان أبو سفيان أصل الشجرة الملعونة وما من فتنة ظهرت من قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمين إلاّ كان له قدم راسخ وسعي بالغ فيها ثمَّ استسلم عام الفتح إمّا رغبة وإمّا رهبة كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في المختار السابع عشر من هذا الباب (ص٢٢٨ ج١٨): ولمّا أدخل الله العرب في دينه أفواجاً وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً كنتم ممن دخل في الدين إمّا رغبة وإمّا رهبة، وراجع في ذلك إلى ص٢٢٤ من ج١٨ أيضاً، ومات أبو سفيان في سنة ٣١هـ منافقاً أعمى القلب والعينين، وتقدم طائفة من رذائل شيمه في تفسير المختار السابع عشر من باب الكتب (ص٢٦٥ ج١٨ فراجع).

قال الواقدي في «**المغازي**» (ص٩٠ طبع مصر): ولما رجعت قريش إلى مكّة ـ يعني من غزوة بدر منهزمين ـ قام فيهم أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولاتنوح عليهم نائحة ولا يبكيهم شاعر وأظهروا الجلد والعزاء فإنكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم، فأكلكم ذلك عن عداوة محمد وأصحابه، مع أنّه إن بلغ محمداً وأصحابه شمتوا بكم فيكون أعظم المصيبتين شماتتهم، ولعلّكم تدركون ثاركم فالدّهن والنساء عليّ حرام حتّى أغزو محمداً، فمكثت قريش شهراً لا يبكيهم شاعر ولا تنوح عليهم نائحة.

وقال غير واحد من شرّاح النهج: المكذّب هو أبو جهل، كان أشدّ الناس عداوة للنّبي ﷺ، قتل يوم بدر كافراً وقال رسول الله ﷺ في حقّه لمّا قتل: إنّ هذا أعتى على الله من فرعون إنّ فرعون لمّا أيقن بالهلاك وحّد الله وإنّ هذا لمّا أيقن بالهلاك دعا باللّات والعزّى[1].

وقال الشارح البحراني قدّس سرّه: المكذّب هو أبو جهل بن هشام وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ [المُزمّل: ١١] الآية قيل نزلت في المطيبين ببدر وكانوا عشرة وهم: أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج وأبو البختري بن هشام والنّضر بن الحارث والحارث بن عامر وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود فذكر عليه السلام النبي ﷺ بفضيلته وهي النّبوة وذكر أبا جهل برذيلته وهي تكذيبه، انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وسيأتي البيان في المطيّبين وحلفهم وحلف الفضول بعيد هذا.

قال ابن هشام في «**السيرة النّبوية**» (ص٣٦٢ ج١) في أبي جهل وما أنزل الله تعالى فيه: وأبو جهل بن هشام لمّا ذكر الله عزّ وجل شجرة الزّقوم تخويفاً بها لهم قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزّقوم الّتي يخوّفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزّبد، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنّها تزقّماً فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٦]، أي ليس كما يقول، انتهى.

أقول: المراد من التقابل بين منّا ومنكم في كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو التقابل بين بني هاشم وبني أميّة كما لا يخفى، وأبو جهل لعنه الله تعالى وإن كان أعد عدوّ رسول الله ﷺ وألدّ خصامه والمكذّبين له لكنّه هو أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي من بني مخزوم بن مرّة من قريش فهو ليس من بني أميّة فلا يصحّ أن يفسّر قول أمير المؤمنين عليه السلام ومنكم المكذّب بأبي جهل لعنه الله تعالى، وأيّ عار يلزم معاوية من هذا التفسير؟

ثمّ قال عليه السلام: (**ومنّا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف**) عني بأسد الله حمزة بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي عليه السلام سمّاه رسول الله بذلك لشجاعته وذبّه عن دين الله.

وفي «**الإصابة**» لابن حجر: أسلم حمزة عليه السلام في السنة الثانية من البعثة ولازم نصر رسول الله ﷺ وهاجر معه، شهد بدراً وأبلى في ذلك وقتل شيبة بن ربيعة وشارك في قتل

(١) الأمالي: ٣١٠ ح٦٢٦، وبحار الأنوار: ١٩/ ٢٧٣.

عتبة بن ربيعة أو بالعكس، وقتل طعيمة بن عدي وعقد له رسول الله ﷺ لواء وأرسله في سرّية فكان ذلك أوّل لواء عقد في الإسلام في قول المدائني واستشهد بأُحد وكان ذلك في النصف من شوّال سنة ثلاث من الهجرة فعاش دون ستين، ويقال إنه قتل بأحد قبل أن يقتل أكثر من ثلاثين نفساً، ولقبه رسول الله ﷺ أسد الله وسمّاه سيّد الشهداء - انتهى ما أردنا نقله منها[١].

وفي «**أسد الغابة**»: لمّا أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع وأنَّ حمزة سيمنعه فكفّوا عن بعض ما كانوا يتناولون منه ثمَّ هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأبلى فيها بلاء عظيماً مشهوراً - إلى أن قال: وكان حمزة يعلم في الحرب بريشة نعامة، وقاتل يوم بدر بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، وقال بعض أُسارى الكفّار: من الرجل المعلم بريشة نعامة؟ قالوا: حمزة، قال: ذاك فعل بنا الأفاعيل، وشهد أُحداً فقُتل بها يوم السبت النصف من شوّال وكان قتل من المشركين قبل أن يُقتل أحداً وثلاثين نفساً منهم سباع الخزاعي، قال له حمزة: هلمَّ إليّ يا ابن مقطعة البظور وكانت أُمّه ختّانة فقتله.

قال: قال ابن إسحاق: كان حمزة يقاتل يومئذ بسيفين فقال قائل أيّ أسد هو حمزة، فبينما هو كذلك إذ عثر وقع منها على ظهره فانكشف الدرع عن بطنه فزرقه وحشى الحبشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله ومثّل به المشركون، إلى أن قال:

وروى جابر قال: لمّا رأى رسول الله ﷺ حمزة قتيلاً بكى فلمّا رأى ما مثّل به شهق وقال: لولا أن تجد صفيّة لتركته حتّى يحشر من بطون الطير والسباع[٢]، وصفية هي أُمّ الزّبير وهي أُخته، انتهى ما أردنا من نقل كلامه[٣].

وأمّا أسد الأحلاف، فقال بعض الشراح: هو أبو سفيان، وقيل لأبي سفيان أسد الأحلاف لأنّه حالف الأحزاب على قتال رسول الله ﷺ حول المدينة وزلزل المؤمنون بمكانهم زلزالاً شديداً إلى أن فرّق الله تعالى جمعهم كما حكاه في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].

وتبعه الفاضل الشّيخ محمد عبده قال: أسد الله حمزة، وأسد الأحلاف أبو سفيان لأنّه حزّب الأحزاب وحالفهم على قتال النبيّ في غزوة الخندق، انتهى كلامه.

قلت: هذا تفسير وجيه ملائم غير أنَّ أسلوب الكلام يوجب أن يكون أسد الأحلاف

(١) الإصابة: ٢/١٠٦.
(٢) بحار الأنوار: ١٠/٣٣، وبحار الأنوار: ١٧/٢٧٩.
(٣) مستدرك سفينة البحار: ٢/٤١٧، وبحار الأنوار: ١٧/٢٧٩.

هٰهنا غيره لما دريت أنّ أبا سفيان كان المكذّب فأسد الأحلاف غيره.

وقال العالم الشارح البحراني: هو أسد بن عبد العزّي والأحلاف هم عبد مناف وزهره وأسد وتيم والحارث بن فهر، وسمّوا الأحلاف لأنّ بني قصي أرادوا أن ينتزعوا بعض ما كان بأيدي بني عبد الدار من اللواء والندوة والحجابة والرفادة وهي كلّ شيء، كان فرضه قصيّ على قريش لطعام الحاج في كلّ سنة ولم يكن لهم إلاّ السقاية فتحالفوا على حربهم وأعدّوا للقتال ثمّ رجعوا عن ذلك ناكصين وأقرّوا ما كان بأيديهم، انتهى كلامه.

قلت: أسد بن عبد العزيّ هو جدّ خديجة زوجة رسول الله ﷺ لأنّها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر، كما في **«السيرة النّبوية»** لابن هشام (ص١٨٩ ج١ من طبع مصر ١٣٧٥هـ).

والرفادة على التفصيل مذكورة في **«السيرة النّبوية»** لابن هشام أيضاً (ص١٣٠ ج١) وقد نقلنا نبذة من الكلام في السقاية والرفادة في شرح المختار السابع عشر من باب الكتب (ص٢٦٤ ج١٨).

ثمّ ذكر ابن هشام بعد الكلام في الرفادة حلف المطيّبين ثمّ حلف الفضول قال: قال ابن إسحاق: ثمّ إن قصيّ بن كلاب هلك فأقام أمره في قومه وفي غيرهم بنوه من بعده فاختطّوا مكة رباعاً، بعد الذي كان قطع لقومه بها، فكانوا يقطعونها في قومهم وفي غيرهم من حلفائهم ويبيعونها فأقامت على ذلك قريش معهم ليس اختلاف ولا تنازع.

ثمّ إنّ بني عبد مناف ابن قصيّ: عبد شمس وهاشماً والمطّلب ونوفلاً، أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصيّ ممّا كان قصيّ جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم، وفضلهم في قومهم فتفرّقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحقّ به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصيّ جعل إليهم.

فكان صاحب أمر بني عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف وذلك أنه كان أسنّ بني عبد مناف وكان صاحب أمر بني عبد الدار عامر بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار، فكان بنو أسد بن عبد العزيّ بن قصيّ، وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرّة بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن النّضر، مع بني عبد مناف.

وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرّة: وبنو عديّ بن كعب مع بني عبد الدار وخرجت عامر بن لؤيّ ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين.

فعقد كلّ قوم على أمرهم حلفاً مؤكّداً، على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ما بلّ بحرصوفة ـ يريد إلى الأبد، وصوف البحر: شيء على شكل الصوف الحيواني، واحدته: صوفة، يقال: لا آتيك ما بلّ بحرصوفة، أو ما بلّ البحر صوفة يريد لا آتيك أبداً ـ.

فأخرج بنو عبد مناف جفنةً مملوءة طيباً فيزعمون أنَّ بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثمَّ غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثمَّ مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسُمّو المطيّبين.

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكّداً على أن لا يتخاذلوا، ولا يُسلم بعضهم بعضاً فسمّوا الأحلاف.

ثمَّ سُوند بين القبائل ولزّ بعضها ببعض فعُبّيت بنو عبد مناف لبني سهم، وعبيت بنو أسد لبني عبد الدّار، وعبيّت زهرة لبني جمح، وعبيّت بنو تميم لبني مخزوم، وعبيّت بنو الحارث بن فهر لبني عديّ بن كعب. ثمَّ قالوا: لتفن كلّ قبيلة من أسند إليها.

فبينا النّاس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللّواء والندوة لبني عبد الدّار كما كانت، ففعلوا ورضي كلّ واحد من الفريقين بذلك وتحاجز النّاس عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا، فلم يزالوا على ذلك حتّى جاء الله تعالى بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ما كان من حلف في الجاهلية فإنَّ الإسلام لم يزده إلاّ شدَّةً[1].

حلف الفضول وسبب تسميته كذلك

قال ابن هشام: وأمّا حلف الفضول: فحدّثني زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق قال: تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤيّ، لشرفه وسنّه، فكان حلفهم عنده: بنو هاشم، وبنوا المطلب، وأسد بن عبد العزيّ، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مُرّة فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر النّاس إلاّ قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتّى تردّ عليه مظلمة فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

قال: قال ابن إسحاق: وحدّثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيميّ أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزّهري يقول: قال رسول الله ﷺ: لقد شهدت في دار عبد الله بن

(١) الأمالي: ٢٦٣ ح٤٨١، المعجم الكبير: ٢/١٣٧.

جدعان حلفاً ما أحبّ أنَّ لي به حمر النّعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت[١].

قال: قال ابن إسحاق: وحدّثني يزيد بن عبد الله بن أُسامة بن الهادي اللّيثيّ: أن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيميّ حدّثه: أنّه كان بين الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، والوليد يومئذ أمير على المدينة أمره عليها عمّه معاوية بن سفيان منازعة في مال كان بينهما بذي المروة، فكان الوليد تحامل على الحسين عليه السلام في حقّه لسلطانه، فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفنّي من حقّي أو لآخذنَّ سيفي، ثمّ لأقومنَّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ لأدعونَّ بحلف الفضول[٢].

قال: فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال الحسين عليه السلام ما قال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذنَّ سيفي ثمَّ لأقومنّ معه حتّى ينصف من حقه أو نموت جميعاً، قال: فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهريّ، فقال مثل ذلك وبلغت عبد الرّحمٰن بن عثمان بن عبيد الله التّيمي فقال مثل ذلك، فلمّا بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين عليه السلام من حقّه حتّى رضي.

قال: قال ابن إسحاق: وحدّثني يزيد بن عبد الله بن أُسامة بن الهادي اللّيثي عن محمّد بن إبراهيم بن الحارث التّيمي، قال: قدم محمد بن جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف ـ وكان محمد بن جبير أعلم قريش ـ على عبد الملك بن مروان بن الحكم حين قتل ابن الزبير واجتمع النّاس على عبد الملك، فلمّا دخل عليه قال له: يا أبا سعيد ألم نكن نحن وأنتم ـ يعني بني عبد شمس بن عبد مناف، وبني نوفل بن عبد مناف ـ في حلف الفضول؟ قال: أنت أعلم، قال عبد الملك: لتخبرني يا أبا سعيد بالحق من ذلك، فقال: لا والله، لقد خرجنا نحن وأنتم منه! قال: صدقت، تمَّ خبر حلف الفضول.

والمنقول عن «**الروض الأنف**» في سبب تسمية هذا الحلف بهذا الاسم أنَّ جرهماً في الزمن الأوّل، قد سبقت قريشاً إلى مثل هذا الحلف فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم أحدهم: الفضل بن فضالة، والثاني: الفضل بن وداعة، والثالث: فضيل بن الحارث، وقيل: بل هم: الفضيل بن شراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بن قضاعة، فلمّا أشبه حلف قريش هذا حلف هؤلاء الجرهميين سمّي حلف الفضول.

وقيل: بل سميّ كذلك لأنهم تحالفوا أن تردّ الفضول على أهلها، وألا يغزو ظالم مظلوماً.

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٣، وسيرة النبي: ١/ ٨٧.

(٢) كلمات الإمام الحسين: ٢١٣.

وكان حلف الفضول هذا قبل البعث بعشرين سنة، وكان أكرم حلف وأشرفه وأوّل من تكلّم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطّلب، وكان سببه أنَّ رجلاً من زبيد قدم مكّة ببضاعة، فاشتراها منه العاصي بن وائل، وكان ذا قدر بمكّة وشرف فحبس عنه حقّه، فاستدعى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار، ومخزوماً، وجمح وسهماً، وعديّ بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاصي، وزبروه، فلمّا رأى الزبيدي الشرّ، أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكّة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر

إنَّ الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقال في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة، وتيم بن مرّة، في دار ابن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا، وكان حلف الفضول، وكان بعدها أن أنصفوا الزبيدي من العاصي، انتهى ما عن «**الروض الأنف**»(١).

والغرض من نقل حلف المطيّبين وحلف الفضول من السيرة أن يعلم أنَّ تفسير أسد الأحلاف بأسد بن عبد العزّي ليس بصواب وكأنّ الشارح البحراني تبع في هذا التفسير قطب الدّين الراوندي رضوان الله عليه، وقد نقل كلامه ابن أبي الحديد في شرحه على النهج ثمَّ خطّاه والحقُّ مع ابن أبي الحديد في المقام، قال:

قال الراوندي: المكذّب من كان يكذّب رسول الله ﷺ عناداً من قريش وأسد الأحلاف أسد بن عبد العزىّ قال: لأنَّ بني أسد بن عبد العزى كانوا أحد البطون الّذين اجتمعوا في حلف المطيّبين وهم بنو أسد بن عبد العزىّ، وبنو عبد مناف، وبنو تميم بن مرّة، وبنو زهرة، وبنو الحارث بن فهر.

ثمَّ قال ابن أبي الحديد: هذا كلام طريف جدًّا لأنّه لم يلحظ أنه يجب أن يجعل بإزاء النبي ﷺ مكذب من بني عبد شمس، فقال: المكذب من كذّب النبي ﷺ من قريش عناداً وليس كلّ من كذّبه ﷺ من قريش أن يعيّر معاوية به، ثمَّ قال: أسد الأحلاف أسد بن عبد العزيّ وأيّ عار يلزم معاوية من ذلك؟ ثمَّ إنّ بني عبد مناف، كانوا في هذا الحلف وعلي ومعاوية من بني عبد مناف ولكن الراوندي يظلم نفسه بتعرّضه لما لا يعلمه، انتهى كلام ابن أبي الحديد(٢).

(١) البداية والنهاية: ٢/٣٥٦، والسيرة النبوية: ١/٢٥٩.

(٢) شرح النهج: ١٥/١٩٧.

والصواب أنّ أسد الأحلاف هو عتبة بن ربيعة، قال الواقدي في الجزء الثالث من غزوة بدر من كتابه في «**مغازي رسول الله**» ﷺ (ص٤٩ من طبع مصر ١٣٦٧هـ):

والمشركون ينظرون على صفوفهم وهم يرون أنهم ظاهرون، فدنا الناس بعضهم من بعض فخرج عتبة وشيبة والوليد حتى فصلوا من الصف ثمَّ دعوا إلى المبارزة، خرج إليهم فتيان ثلاثة من الأنصار وهم بنو عفراء معاذ ومعوذ وعوف بنو الحارث، ويقال ثالثهم عبد الله بن رواحة، والثبت عندنا أنهم بنو عفراء فاستحيى رسول الله ﷺ من ذلك، وكره أن يكون أوّل قتال لقي المسلمون فيه المشركين في الأنصار، وأحبَّ أن تكون الشوكة لبني عمّه وقومه، فأمرهم فرجعوا إلى مصافّهم وقال لهم خيراً.

ثمَّ نادى منادي المشركين: يا محمد أخرج لنا الأكفاء من قومنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا بني هاشم قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله[1].

فقام حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيد بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف فمشوا إليهم.

فقال عتبة: تكلموا نعرفكم ـ وكان عليهم البيض فأنكروهم ـ فإن كنتم أكفاء قاتلناكم.

فقال حمزة بن عبد المطلب: أسد الله وأسد رسوله. قال: عتبة: كفؤ كريم. ثمَّ قال عتبة: وأنا أسد الحلفاء، ومن هذان معك؟ قال: عليّ بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، قال: كفؤان كريمان.

ثمَّ قال الواقديّ: قال ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: لم أسمع لعتبة كلمة قطُّ أوهن من قوله: ـ أنا أسد الحلفاء ـ يعني حلفاء الأجمة.

ثمّ قال عتبة لابنه: قم يا وليد، فقام الوليد، وقام إليه عليٌّ عليه السلام وكان أصغر النفر فقتله علي عليه السلام، ثمَّ قام عتبة، وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين فقتله حمزة رضي الله عنه، ثمَّ قام شيبة وقام إليه عبيدة بن الحارث وهو يومئذ أسنّ أصحاب رسول الله ﷺ فضرب شيبة رجل عبيدة بذباب السيف فأصاب عضلة ساقه فقطعها، وكرَّ حمزة وعليّ على شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة فحازاه إلى الصفّ ومخّ ساقه يسيل فقال عبيدة: يا رسول الله ألست شهيداً؟ قال: بلى، قال: أما والله لو أن أبو طالب حيّاً لعلم أنا أحقّ بما قال منه حين يقول:

كذبتم وبيت الله نخلى محمداً ... ولمّا نطاعن دونه ونناضل

(١) الإرشاد: ١/٧٤، وبحار الأنوار: ١٩/٢٧٩ ح١٨.

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

إلى آخر ما ذكره الواقدي في «**المغازي**»[١].

وعتبة هذا هو جدّ معاوية من قبل أمّه فإنّ هنداً أمّ معاوية هي بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، ففي المقابلة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام: منّا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف بحمزة من بني هاشم وعتبة من بني أميّة جدّ معاوية ممّا لا ينبغي أن يرتاب فيه وهذا هو التفسير الصّحيح بلا مدافع.

والحلفاء في قول عتبة هل هو مفرد أو جمع، فذهب أبو الزناد إلى أنّه مفرد فهي بفتح الحاء وسكون اللاّم ففي «**أقرب الموارد**»: الحلفاء نبت أطرافه محدّدة كأنّها أطراف سعف النخل والخوص ينبت في مغايض الماء والنزوز، الواحدة حلفة مثل قصبة وقصباء، وطرفة وطرفاء، وقيل: واحدته حلفاء، قال سيبويه: الحلفاء واحد وجميع، وكذلك طرفاء وبهمىٰ وشكاعىٰ واحدة وجميع، ومن ذلك: أنا الّذي في الحلفاء، أراد أنا الأسد لأنّ مأوى الأسد الآجام ومنابت الحلفاء. انتهى.

وفي «**منتهى الأرب**»، حلفاء كحمراء وحلف محرّكة: كياه دوخ، وهذا هو المراد من قوله: يعني حلفاء الأجمة. وأمّا على الجمع فهي جمع الحليف أي المحالف قال أبو ذؤيب:

فسوف تقول إن هي لم تجدني أخان العهد أم أثم الحليف

قال ابن أبي الحديد بعد نقل ما نقلناه عن الواقدي: قلت: قد روى هذه الكلمة على صيغة أُخرى: وأنا أسد الحلفاء، وروى أنا أسد الأحلاف.

ثمّ قال: قالوا في تفسيرهما: أراد: أنا سيّد أهل الحلف المطيّبين، وكان الّذين حضروه بني عبد مناف وبني أسد بن عبد العزّى وبني تيم وبني زهرة وبني الحارث بن فهر خمس قبائل.

قال: وردّ قوم هذا التأويل فقالوا: إنّ المطيّبين لم يكن يقال لهم الحلفاء ولا الأحلاف وإنّما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الّذين وقع التحالف لأجلهم وهم بنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عديّ بن كعب، خمس قبائل.

قال: وقال قوم في تفسيرهما: إنّما عنى حلف الفضول وكان بعد حلف المطيّبين بزمان وشهد حلف الفضول رسول الله صلى الله عليه وآله وهو صغير في دار ابن جدعان ثمّ نقل قصّة حلف الفضول فقال: وهذا التفسير أيضاً غير صحيح لأنّ بني عبد الشمس لم يكونوا في حلف

(١) الأمالي: ٣٠٤، والخرائج والجرائح: ١/ ٥٩.

الفضول، فقد بانَ أنَّ ما ذكره الواقدي أصحّ وأثبت، انتهى كلامه.

وقد نقلنا كلام ابن أبي الحديد من الجزء الرابع عشر من شرحه على الكتاب التاسع من النهج أوّله: ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية: فأراد قومنا قتل نبيّنا واجتياح أصلنا ـ الخ (ص١٧٨ ج٢ من الطبع على الحجر).

قلت: ما قال ابن الحديد من أنّه روى هذه الكلمة على صيغة أُخرى فالأولى منهما أعني **(وأنا أسد الحلفاء)** على صيغة الجمع ومفرده حليف، والثانية منهما أعني **(أنا أسد الأحلاف)** مطابق لما في «**نهج البلاغة**» ولا بُعد أن يقال: إذا دار الأمر بين ما اختاره الرّضي وبين ما في النسخ الأُخرى فما اختاره الرّضي فهو الأقوى لأنّه ـ رضوان الله عليه ـ متضلّع في البلاغة وخرّيت هذه الصناعة، فينبغي أن يختار صيغة أسد الأحلاف كما اختارها.

ويبقى الكلام حينئذ في تفسير أسد الأحلاف أعني بيان المراد منه في المقام فإنّ تفسيره بالوجهين السّابقين أعني بحلف المطيّبين وحلف الفضول كما نقلهما ابن أبي الحديد عن القوم ليس على ما ينبغي، وأرى أنّ الصواب في تفسيره المناسب للمقام هو ما أفاده الفاضل أحمد زكي صفوت في «**جمهرة رسائل العرب**» (ص٤٥٠ ج١) حيث قال بعد نقل كلام ابن أبي الحديد المذكور آنفاً:

غير أنَّ ابن أبي الحديد مع ما ذكره من تفنيد هٰذين التفسيرين، لم يبيّن المراد بالأحلاف أو الحلفاء في رواية من روى «**أنا أسد الأحلاف**» و«**أنا أسد الحلفاء جمعاً**» وأقول: إنّنا إذا بحثنا عمّن قتلوا من مشركي قريش يوم بدر وجدناهم: من بني عبد شمس بن عبد مناف، ومن بني نوفل بن عبد مناف، ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي، ومن بني عبد الدار بن قصيّ، ومن بني تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرّة، ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص، ومن بني عامر بن لؤي، (راجع كتب السيرة) أي أنّ هذه البطون من قريش كانت قد تآزرت واتفقت كلمتها على حرب محمد صلى الله عليه وآله وإن شئت فقل إنهم قد تحالفوا على قتاله وإن لم ينقل إلينا التاريخ أنّهم قد عقدوا بينهم على ذلك حلفاً بمعناه الأخص ثمَّ ولوا أمرهم عتبة بن ربيعة فكان قائدهم وصاحب حربهم، فهو إذ يقول: «أنا أسد الأحلاف» يبغي أن يقول أنّه أسد هذه البطون القرشية المتناصرة على قتال المسلمين. انتهى كلامه.

قلت: ويؤيده ما نقله الواقدي في المغازي (ص٤٥) بعد نقل واقعة: أنَّ حكيم بن حزام أتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد أنت كبير قريش وسيّدها والمطاع فيها فهل لك أن لا تزال منها بخير آخر الدّهر مع ما فعلت يوم عكاظ ـ وعتبة يومئذ رئيس الناس ـ إلى أن قال: ثمَّ جلس عتبة على جمله فسار في المشركين من قريش يقول: يا قوم أطيعوني. ـ الخ.

وروى البخاري في صحيحه بعدّة طرق عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد عن أبي ذرّ رضوان الله عليه قال: نزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحَجّ: الآية ١٩] في ستة من قريش برزوا يوم بدر: علي عليه السلام وحمزة وعبيدة بن الحارث، وشيبة وعتبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، فراجع إلى (ص٩٥) من الجزء الخامس منه.

ثمَّ قال عليه السلام: **(ومنّا سيّدا شباب أهل الجنّة ومنكم صبية أهل النار)** سيّدا شباب أهل الجنّة هما الحسن والحسين عليهما السلام كما نصّ جدّهما رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك وقد أغنانا شهرته واستفاضته بين الفريقين إن لم نقل ببلوغه إلى حدّ التواتر عن نقل الروايات الواردة في ذلك وإن أبيت إلاّ نقلها فنقول: كفى كلام أبيهما أمير المؤمنين علي عليه السلام في ذلك حجّةً أوّلاً.

وثانياً: قد روى أحمد في المسند قال: حدَّثنا أبو نعيم، قال: حدَّثنا سفيان عن يزيد بن أبي زياد، عن أبي نعيم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة[1]، وقد أخرجه الترمذي أيضاً، وقال: هذا حديث حسن صحيح. **(نقله سبط ابن الجوزي في «التذكرة»، ص١٣٣ من الطبع الرحلي).**

وفي مطالب السؤل في مناقب آل الرسول لابن طلحة الشافعي: ومنها ما رواه الترمذي بسنده عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة. **(ص٦٥ من الطبع الرحلي).**

وفيه أيضاً **(ص٧١)**: ومنه حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أخرجه الترمذي في صحيحه يرويه عنه بسنده، وقد تقدَّم طرف منه في فضائل فاطمة عليها السلام أنَّ حذيفة قال لأمّه: دعيني آت رسول الله صلى الله عليه وآله فأُصلّي معه وأسأله أن يستغفر لي ذلك، فأتيته فصلّيت معه المغرب، ثمَّ قام فصلّى حتّى صلّى العشاء، ثمَّ انفتل فأتبعته فسمع صوتي فقال: من هذا؟ حذيفة! قلت: نعم، قال: ما حاجتك غفر الله لك ولأمّك؟ إنَّ هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قطّ قبل هذه اللّيلة استأذن ربّه أن يسلّم عليَّ ويبشّرني أنَّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة، وأنَّ الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة.

إلى أن قال: ومنه ما نقله الإمام محمد بن إسماعيل البخاري والترمذي رضي الله عنهما بسندهما كلّ منهما في صحيحه عن ابن عمر وسأله رجل عن دم البعوض، فقال: ممّن أنت؟ فقال: من أهل العراق، فقال: انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض وقد قتلوا ابني النّبي صلى الله عليه وآله وسمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: هما ريحانتاي من الدّنيا.

(١) دعائم الإسلام: ١/ ٣٧، والأمالي: ١٨٧ ح١٩٦.

وروي أنّه سأله عن المحرم يقتل الذّباب، فقال: يا أهل العراق تسألونا عن قتل الذّباب قتلتم ابن رسول الله ﷺ، وذكر الحديث وفي آخره: وهما سيّدا شباب أهل الجنّة.

وفي «**الصواعق المحرقة**» لابن حجر الهيتمي: أخرج الترمذي والحاكم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة (**ص٨٣ من طبع مصر**).

قال ابن الأثير في «**أسد الغابة**» (**ص١١ ج٢**) في معرفة الإمام المجتبى الحسن بن علي عليه السلام: أخبرنا أبو القاسم عبد العزيز بن علي بن أحمد الأنماطي أخبرنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمٰن المخلص، أخبرنا عبد الله بن محمد البغوي، أخبرنا داود بن رشيد، أخبرنا مروان، أخبرنا الحكم بن عبد الرَّحمٰن بن أبي نعيم البجلي عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة ـ الخبر.

وقال أبو جعفر الطبري في التاريخ (**ص٣٢٨ ج٧ من طبع ليدن**): قال أبو مخنف: حدَّثني عبد الله بن عاصم قال: حدَّثني الضحّاك المشرقي، لمّا دنا منه ـ يعني من أبي عبد الله أحد سيّدي شباب أهل الجنة الحسين بن عليّ عليه السلام في واقعة الطف ـ القوم دعا براحلته فركبها ثمَّ نادى بأعلى صوته بصوتٍ عالٍ دُعاءً يسمع جلّ النّاس:

أيّها النّاس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحقّ لكم عليَّ وحتّى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

قال: فلمّا سمع أخواته كلامه هذا صِحْنَ وبكين وبكى بناته فارتفعت أصواتهنَّ فأرسل إليهنَّ أخاه العبّاس بنَ عليّ وعلياً ابنه، وقال لهما: اسكتاهنَّ فلعمري ليكثرنَّ بكاؤهنَّ.

قال: فلمّا ذهبا ليسكتاهنَّ قال: لا يبعد ابن عبّاس، قال: فظنّنا أنه إنما قالها حينُ سمع بكاؤهنَّ لأنه قد كان نهاه أن يخرج بهنَّ، فلمّا سكتن حمد الله وأثنى عليه وذكر الله بما هو أهله وصلّى على محمد ﷺ وعلى ملائكته وأنبيائه وذكر من ذلك ما الله أعلم وما لا يحصى ذكره، قال: فوالله ما سمعت متكلّماً قطُّ قبله ولا بعده أبلغ في منطق منه، ثمَّ قال:

أمّا بعد فانسبوني فانظروا من أنا ثمَّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم ﷺ وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل المؤمنين

بالله والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟ أو ليس حمزة سيّد الشّهداء عمّ أبي؟ أو ليس جعفر الشّهيد الطّيار ذو الجناحين عمّي؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أنَّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحقّ، والله ما تعمّدت كذباً مذ علمت أنَّ الله يمقت عليه ويضرّ به من اختلقه؛ فإن كذّبتموني فإنَّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي[١] ـ الخبر.

قلت: قوله عليه السلام: ابن وصيّه ينادي بأعلى صوته بأنَّ أباه أمير المؤمنين علياً عليه السلام يعرف بالوصيّ، وقد مضى كلامنا ونقل الأشعار من سنام الصحابة والمسلمين في شرح المختار ٢٣٦ من باب الخطب (ص١٩ ج١٧) فراجع.

قوله عليه السلام: وأوّل المؤمنين به والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه ـ وقد مضى كلامنا أنه عليه السلام كان أوّل الناس إسلاماً في شرح المختار التاسع من باب الكتب **(ص٣٤٥ ج١٧)**.

ثمَّ إنَّه ﷺ قال: إنهما سيّدا شباب أهل الجنّة لأنَّ أهل الجنّة كلّهم شبّان وذلك لأنّها من عالم الأمر ولا يتطرّق إليها أحكام عالم الخلق من الهرم والوهن ونحوهما ألا ترى أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾ [يس: ٦٨]، وكأن التعبير بالشباب من حيث أنّ الدار الآخرة لهي الحيوان، وأنّها أقوى وجوداً من الدار الأُولى وآثار الوجود فيها أشدّ وأكثر، نظير ما رواه ثقة الإسلام الكليني قدس سره في «**الكافي**» عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال لرجلٍ: ما الفتى عندكم؟ فقال له: الشابّ، فقال: لا، الفتى المؤمن، إنّ أصحاب الكهف كانوا شيوخاً فسمّاهم الله عز وجل فتية بإيمانهم[٢] **(الوافي ص٣٩ ج٣)**.

وقد روى عن النّبي ﷺ: أهل الجنّة جرد مرد كحل لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم، أتى به السيوطي في «**الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير**»[٣].

وجاء في الأثر أنَّ عجوزاً من الأنصار قالت: يا رسول الله ادع الله بالمغفرة، فقال لها:

---

(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ٧، والعوالم، الإمام الحسين (ع): ٢٥١.

(٢) الكافي: ٨/ ٣٩٥ ح٥٩٥، وميزان الحكمة: ٢/ ١٤٠٢ ح١٩٤٨.

(٣) الجامع الصغير: ١/ ٤٢٣ ح٢٧٦٣، وكنز العمال: ١٤/ ٤٧١.

أما علمت أنّ الجنّة لا تدخلها العجائز[١] فصرخت فتبسّم رسول الله ﷺ وقال لها: أما قرأت قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقِعَة: ٣٥ ـ ٣٧].

ويناسب المقام نقل احتجاج مرويّ في كتاب **«الاحتجاج»** للطبرسي رحمه الله رواه في باب احتجاج أبي جعفر محمد بن علي الثاني عليه السلام قال:

وروي أن المأمون بعد ما زوّج ابنته أُمّ الفضل أبا جعفر عليه السلام كان في مجلس وعنده أبو جعفر عليه السلام ويحيى بن أكثم وجماعة كثيرة فقال له يحيى بن أكثم: ما تقول يا ابن رسول الله في الخبر الذي روى أنّه نزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله ﷺ وقال: يا محمد إن الله عزَّ وجلَّ يقرئك السلام ويقول لك: سل أبا بكر هل هو عنّي راض، فإنّي عنه راض.

فقال أبو جعفر عليه السلام: لست بمنكر فضل أبي بكر ولكن يجب على صاحب هذا الخبر أن يأخذ مثال الخبر الّذي قاله رسول الله ﷺ في حجّة الوداع: قد كثرت عليّ الكذّابة وستكثر، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النّار فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله عزّ وجلّ وسنّتي فما وافق كتاب الله وسنّتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنّتي فلا تأخذوا به، وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله تعالى قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: الآية ١٦] فالله عزّ وجل خفي عليه رضا أبي بكر من سخطه حتى سأل عن مكنون سرّه، هذا مستحيل في العقول.

ثمَّ قال يحيى بن أكثم: وقد روي أنَّ مثل أبي بكر وعمر في الأرض كمثل جبرئيل وميكائيل في السماء.

فقال عليه السلام: وهذا أيضاً يجب أن ينظر فيه لأنَّ جبرئيل وميكائيل ملكان لله مقرّبان لم يعصيا الله قط ولم يفارقا طاعته لحظة واحدة، وهما قد أشركا بالله عزّ وجل وإن أسلما بعد الشرك فكان أكثر أيّامهما الشرك بالله فمحال أن يشبها بهما.

قال يحيى: وقد روي أيضاً أنهما سيّدا كهول أهل الجنّة فما تقول فيه؟.

فقال عليه السلام: وهذا الخبر محال أيضاً لأنّ أهل الجنة كلهم يكونون شباباً ولا يكون فيهم كهل، وهذا الخبر وضعه بنو أُميّة لمضادَّة الخبر الّذي قال رسول الله ﷺ في الحسن والحسين: بأنّهما سيّدا شباب أهل الجنّة.

فقال يحيى بن أكثم: وروي أنَّ عمر بن الخطّاب سراج أهل الجنّة.

---

(١) ميزان الحكمة: ١/ ٤٣٦ ح٥٦٣، وكشف الخفاء: ١/ ٢٦١ ح٨٠٦.

فقال عليه السلام: وهذا أيضاً محال لأن في الجنّة ملائكة الله المقرّبين وآدم ومحمد وجميع الأنبياء والمرسلين لا تضيء بأنوارهم حتى تضيء بنور عمر.

فقال يحيى: وقد روي أنَّ السكينة تنطق على لسان عمر.

فقال عليه السلام: لست بمنكر فضل عمر ولكن أبا بكر أفضل من عمر، فقال على رأس المنبر: إنّ لي شيطاناً يعتريني فإذا ملت فسدّدوني.

فقال يحيى: قد روي أنَّ النبي صلى الله عليه وآله قال: لو لم أُبعث لبعث عمر.

فقال عليه السلام: كتاب الله أصدق من هذا الحديث يقول الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٧] قد أخذ الله ميثاق النبيّين فكيف يمكن أن يبدّل ميثاقه وكلّ الأنبياء عليهم السلام لم يشركوا طرفة عين فكيف يبعث بالنّبوة من أشرك وكان أكثر أيّامه مع الشرك بالله، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نبّئت وآدم بين الروح والجسد.

فقال يحيى بن أكثم: وقد روي أيضاً أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: ما احتبس عنّي الوحي قط إلاَّ ظننته قد نزل على آل الخطاب.

فقال عليه السلام: وهذا محال أيضاً لأنّه لا يجوز أن يشكّ النَّبي في نبوّته قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحجّ: الآية ٧٥] فكيف يمكن أن تنتقل النبوّة ممّن اصطفاه الله تعالى إلى من أشرك به.

قال يحيى: روي أنَّ النبي صلى الله عليه وآله قال: لو نزل العذاب لما نجا منه إلاّ عمر فقال عليه السلام: وهذا محال أيضاً لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] فأخبر سبحانه أنّه لا يعذّب أحداً ما دام فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وما داموا يستغفرون الله[1]، انتهى.

قلت: وقد وضع بنو أُميّة في عمرو بن العاص ما تضحك به الثكلى فإنّ محمد بن سعد روى في **«الطبقات الكبرى»** عن عبد الله بن عمرو أنّه حدّثه أنَّ أباه أوصاه قال: يا بنيّ إذا متُّ فاغسلني غسلة بالماء ثمّ جفّفني في ثوب، ثمَّ اغسلني الثانية بماء قراح ثمَّ جفّفني في ثوب، ثمَّ اغسلني الثالثة بماء فيه شيء من كافور ثمَّ جفّفني في ثوب، ثمَّ إذا ألبستني الثياب فأزرّ عليّ فإنّي مخاصم، ثمَّ إذا أنت حملتني على السرير فامش بي مشياً بين المشيتين وكن خلف جنازة فإنّ مقدّمها للملائكة، خلفها لبني آدم، فإذا أنت وضعتني في القبر فسنّ عليَّ التراب سنّاً، **(ص٢٦٠ ج٤ من طبع بيروت)**.

---

(١) الاحتجاج: ٢/ ٢٤٩. وبحار الأنوار: ٥٠/ ٨٣.

وهذا الخبر كما تراه كذب محض وضعه بنو أُميّة وأتباعهم من أشباه الرُّجال اقتراف الدُّنيا وزخارفها وأنّى لعمرو بن العاص العاصي المتوغّل في قاذورات الشهوات النفسانيّة أن ينال تلك المنزلة العظمى والرتبة العليا، وهل هذا إلاّ اختلاق.

وكيف له أن يتفوّه بذلك وقد نقل غير واحد من نقلة الأخبار وحملة الآثار أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة قال لابنه: لودّ أبوك أنّه كان في غزاة ذات السلاسل إنّي قد دخلت في أُمور لا أدري ما حجّتي عند الله فيها، ثمَّ نظر إلى ماله فرأى كثرته فقال: يا ليته كان بعراً يا ليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت ديني آثرت دنياي وتركت آخرتي، عمى على رشدي حتى حضرني أجلي، كأني بمعاوية قد حوى ما لي وأساء فيكم خلافتي، فراجع إلى **«تاريخ اليعقوبي»**، و**«حياة الحيوان»** للدميري.

وأنّى لعمرو أن يدّعي نزول الملائكة عليه وحملهم سريره وقد قال فيه وصيّ خاتم النبيّين عليه السلام:

إنّه ليقول فيكذب، يعد فيخلف، ويسأل فيلحف، ويُسأل فيبخل، ويخون العهد، ويقطع الإلَّ، فراجع إلى المختار ٨٢ من باب الخطب من النهج.

نعم، إنّ تلك الفضيلة لمن كانت الملائكة أعوانه في الأمور ألا وهو عليّ أمير المؤمنين عليه السلام فقد قال عليه السلام: ولقد ولّيت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعواني، فراجع إلى المختار ١٩٥ من باب الخطب من النهج أيضاً.

ولمّا مات عليه السلام قام ابنه ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وأحد سيّدي شباب أهل الجنّة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله: ثمَّ قال: **ألا إنّه قد مضى في هذه اللّيلة رجل لم يدركه الأوّلون ولن يرى مثله الآخرون، من كان يقاتل وجبريل** عن يمنه وميكائيل عن شماله[1]، فراجع إلى **«الكافي»** للكليني قدّس سرّه و**«تاريخ اليعقوبي»** **(ص١٩٠ ج٢)**.

وقد جاء في الأثر أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام أوصى بذلك ابنه أبا محمد الحسن المجتبى عليه السلام حيث قال: **فإذا أنا متّ يا أبا محمد فغسّلني وكفّني وحنطني ببقيّة حنوط جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه من كافور الجنّة جاء به جبرئيل عليه السلام إليه ثمَّ ضعني على سريري ولا يتقدّم أحد منكم مقدّم السرير واحملوا مؤخّره واتّبعوا مقدّمه فأيّ موضع وضع المقدّم فضعوا**

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٣.

المؤخّر فحيث قام سريري فهو موضع قبري[١] ـ الخ، فراجع إلى باب كيفية شهادته عليه السلام ووصيّته وغسله والصّلاة عليه ودفنه من المجلّد التاسع من **«البحار» (ص٦٧٤ من طبع الكمباني)**.

فانظر إلى تصرُّف بني أُميّة في الأخبار كيف سرقوها من محلّها وأسندوها إلى غير أهلها، وكم لما نقلناها من نظير ولولا خوف الإطناب لأتينا بطائفة منها في الكتاب[٢].

ثمَّ إنّ بني أُميّة ما تصرّفوا في الأخبار فقط بل تجاوزوا إلى القرآن حرّفوا كلام الله عن مواضعه. قال الشارح الفاضل المعتزلي في الجزء الرابع من شرحه على النهج **(ص٢٣ من الطبع الرحلي)**: قال أبو جعفر: وقد روي أنَّ معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتّى يروي أنَّ هذه الآية أنزلت في عليّ عليه السلام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥] وأنَّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٧] فلم يقبل فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربع مائة ألف فقبل وروى ذلك. انتهى ما أردنا من نقل كلامه.

[وصبية أهل النار]: هم صبية عقبة بن أبي معيط، لما قد روى الواقدي في غزوة بدر من كتابه في **«مغازي رسول الله ﷺ» (ص٨٤ من طبع مصر)** من أن رسول الله ﷺ أقبل بالأسرى حتّى إذا كان بعرق الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط وكان أسره عبد الله بن سلمة العجلاني فجعل عقبة يقول: يا ويلي علام أقتل يا معشر قريش من بين من ههُنا؟

فقال رسول الله ﷺ: لعداوتك لله ورسوله.

قال: يا محمد منّك أفضل فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتني وإن مننت عليهم مننت علي، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم يا محمد من للصبية؟

قال رسول الله ﷺ: النار، قدّمه يا عاصم فاضرب عنقه، فقدّمه عاصم فضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: بئس الرجل كنت والله ما علمت كافراً بالله وبرسوله وبكتابه مؤذياً لنبيّه [منك] فأحمد الله الّذي هو قتلك وأقرّ عيني منك[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٤٢/ ٢٩٢، والأنوار العلوي: ٣٨٦.

(٢) وقد ذكرنا في الأجزاء الماضية نموذجاً من سرقة الفضائل.

(٣) بحار الأنوار: ١٩/ ٣٤٧.

ثمَّ قال عليه السلام: **(ومنّا خير نساء العالمين ومنكم حمّالة الحطب)** يعني بخير نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ المعصومة الّتي أذهب الله عنها الرّجس وطهّرها تطهيراً، فقد روى أبو الحسين مسلم بن الحجّاج في جامعه المعروف بـ**«صحيح مسلم» (الباب التاسع من كتاب الفضائل في فضائل أهل بيت النبي ﷺ** (ص١٨٨٣ ج٤ من طبع مصر) بإسناده عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير، عن محمد بن بشير، عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صفيّة بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرطٌ مرحلٌ من شعر أسود، فجاء الحسن بن عليّ فأدخله، ثمَّ جاء الحسين فدخل معه، ثمَّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمَّ جاء عليٌّ فأدخله، ثمَّ قال: إنّما يريد الله ليذهب عنك الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً.

وفي الباب الخامس والخمسين من **«ينابيع المودّة»** للفاضل الشّيخ سليمان النقشبنديّ الحنفي **(ص١٤٨ من الطبع الناصري)**: وفي جمع الفوائد، عائشة: كنَّ أزواج النّبي ﷺ عنده لا يغادر منهنَّ واحدة فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطي مشيتها من مشية النّبيّ ﷺ شيئاً فلمّا رآها رحّب بها، وقال: مرحباً يا بنتي. ثمَّ أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثمَّ سارّها فبكت بكاءً شديداً، فلمّا رأى جزعها سارّ الثانية فضحكت، فلمّا قام سألتها: ما قال لك أبوك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرّه فلمّا توفّي، قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحقّ حدّثيني ما قال لك أبوك ﷺ؟ قالت: أمّا الآن فنعم، أمّا حين سارّني في المرّة الأُولى فأخبرني أنّ جبرائيل كان يعارضني القرآن في كلّ سنة مرّة وعارضه الآن مرّتين وإنّي لا أرى الأجل إلاّ قد اقترب فاتّقي الله واصبر[ي] فإنّه نعم السلف أنا لك، فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارّني في الثانية، فقال: يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء المؤمنين أو سيّدة نساء هذه الأمّة فضحكت ضحك الّذي رأيت. وفي رواية: ثمَّ سارَّني أنّي أوَّل أهله يتبعه فضحكت وفي أُخرى قال: أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء أهل الجنّة وأنّك أوّل أهلي لحوقاً بي فضحكت[1]، للشيّخين والترمذي.

وقال: وفي صحيح البخاري: قال النّبيّ ﷺ: فاطمة سيّد نساء أهل الجنّة.

وقال أيضاً: وفي **«جمع الفوائد»**، أنس رفعه: حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون ـ للترمذي. انتهى.

قلت: رواية البخاري مذكورة في باب مناقب فاطمة عليها السلام **(ص٣٦ من الجوء الخامس من «صحيح البخاري» المشكول)**.

---

(١) ينابيع المودة لذوي القربى: ٢/ ٥٦.

وفي «**الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور**» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ٤٢] أخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل نساء العالمين خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية امرأة فرعون.

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ إنَّ الله اصطفى نساء العالمين أربعة: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ.

وأخرج أحمد والترمذي وصحّحه وابن المنذر وابن حبّان والحاكم عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: حسبك من نساء العالمين، مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون[١]، وأخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلاً.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن فاطمة عليها السلام: قالت: قال لي رسول الله ﷺ: أنت سيّدة نساء أهل الجنّة لا مريم البتول.

وأخرج ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحّاك، عن ابن عبّاس، عن النبي ﷺ قال: أربع نسوة سادات عالمهنَّ: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وأفضلهنَّ عالماً فاطمة[٢]. انتهى ما أردنا من نقل ما في «**الدر المنثور**».

أقول: ونزل في آسية امرأة فرعون وفي مريم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١١ ـ ١٢].

ثمَّ لمّا كانت فاطمة عليها السلام بضعة من أبيها خاتم النبيّين سيّد ولد آدم كما رواها الفريقان في جوامعهم الروائية فهي عليها السلام سيدة نساء العالمين مطلقاً، فقوله تعالى في مريم عليها السلام: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٢] محمول على أنها مصطفاة عليهنَّ لا مطلقاً بل على بعض الوجوه، فليتأمّل في قول الإمام أبي جعفر عليه السلام في معنى الآية: اصطفاك لذرية الأنبياء وطهرك من السفاح واصطفاك لولادة عيسى من غير فحل.

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ١٩٥، والمصنف: ٧/ ٥٢٧.

(٢) تفسير الميزان: ٣/ ٢١٥، والدر المنثور: ٢/ ٢٣.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٠ ـ ٣٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ١٦].

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

فإمّا أن يكون المواد من العالمين في قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٢] نساء عالمي زمانها كما مال إليه غير واحد من المفسّرين، وأمكن أن يؤيّد هذا المعنى بآيتي الدُّخان والجاثية، ولكن الإعراض عن إطلاق سياق الآية لا يخلو من دغدغة.

وإمّا أنَّ المراد من اصطفائها على نساء العالمين اصطفائها عليهنّ من حيث إنها آية عجيبة إلهيّة كما بيّنه أبو جعفر عليه السلام في الخبر المذكور بقوله: واصطفيك لولادة عيسى من غير فحل، ويستفاد هذا المعنى من آيتي الأنبياء والتحريم ويؤيّد بهما فلا تختصّ من هذه الجهة بنساء عالمي زمانها، وهذا الوجه الأخير كأنّه الصّواب أو هو متعيّن.

قال الشارح الفاضل المعتزلي في شرح قوله عليه السلام: **(ومنّا خير نساء العالمين)**: يعني فاطمة عليها السلام نص رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك لا خلاف فيه. انتهى[1].

---

(١) **مقام فاطمة عليها السلام وأفضليتها على العالمين**

قال ياسين الخطيب العمري: ذكر في سيرة العراقي، قال الحافظ السيوطي في الخصائص: ذكر الإمام علم الدين العراقي أنّ فاطمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وأخاها إبراهيم أفضل من الخلفاء الأربعة بإتفاق، ونقل عن مالك أنّه قال: لا أفضل على بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ الروضة الفيحاء: ٢٤٦ ذكر فاطمة =

حمالة الحطب

هي العوراء أمّ جميل امرأة عبد العزّى المكنّى بأبي لهب بنت حرب أُخت أبي سفيان

= (عليها السلام)..

وقال السهيلي (٥٨١ هـ) : (يذكر عن أبي بكر بن داوود أنه سئل أعائشة أفضل أم خديجة؟
فقال: عائشة أقرأها رسول الله صل الله عليه وسلم السلام من جبريل، وخديجة أقرأها جبريل السلام من ربها على لسان محمد؛ فهي أفضل.
قيل له: فمن أفضل أخديجة أم فاطمة؟
فقال: إن رسول الله صل الله عليه وسلم قال: «**إن فاطمة بضعة مني**» فلا أعدل ببضعة من رسول الله أحداً.
وقال السهيلي: وهذا استقراء حسن، ويشهد لصحة هذا الاستقراء أن أبا لبابة حين ارتبط نفسه وحلف ألاّ يحله إلاّ رسول الله صل الله عليه وسلم، فجاءت فاطمة لتحلّه، فأبى من أجل قسمه، فقال رسول الله صل الله عليه وسلم: «**إنما فاطمة بضعة مني**» فحلّته، وسنذكر الحديث في موضعه باسناده، ويدل على تفضيل فاطمة قوله عليه السلام: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة إلاّ مريم، فدخل في هذا الحديث أمها وأخواتها**». ـ الروض الانف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام: ١/١٦٠ كتاب المبعث ـ فصل في ذكر قوله لخديجة: إن جبريل يقرئك السلام ـ ط. مصر ١٣٣٢ هـ المطبعة الجمالية.
ونقله عنه الجكني في زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم: ٢/٣٩٩ ح ٧٤١، والمواهب اللدنية: ١/٤٠٤ الفصل الثالث من المقصد الثاني باختصار، والقاري في شرح كتاب الفقه الاكبر: ٢٠٨ باختصار.

* قال السبكي: الذي اختاره وأدين الله به أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أفضل ثم أمها خديجة ثم عائشة عليهن رضوان الله تعالى. انتهى ـ المواهب اللدنية: ١/٤٠٤ الفصل الثالث من المقصد الثاني، وشرح كتاب الفقه الاكبر: ١٨٦، والكوكب الرفيع: ١٧٩، ومشارق الأنوار: ١٠٥، وشرح كتاب الفقه الأكبر: ٢٠٨ مسألة في أفضلية النساء..
* وقال الزرقاني على المواهب: الذي اختاره الإمام المقريزي والقطب الخضيري والإمام السيوطي بأدلة واضحة أن السيدة فاطمة أفضل نساء العالمين حتى مريم ـ وقال: وقال الإمام السبكي الذي اختاره وأدين الله به أن فاطمة بنت رسول الله أفضل ثم أمها خديجة ثم عائشة. قال: والخلاف شهير ولكن الحق أحق أن يتبع. ـ مشارق الأنوار للحمزاوي: ١٠٥.
* وقال الامام أبو بكر: الاخبار ثابتة صحيحة أن فاطمة سيدة نساء هذه الأمة. ـ مستدرك الصحيحين: ٤/٤٤ ذكر بنات رسول الله من كتاب المعرفة.
* وقال السفاريني: فاطمة أفضل من خديجة للفظ السيادة وأفضل من مريم. ـ لوامع أنوار الكوكب: ١/٧٥.

وقال ابن الجكني: فاطمة الزهراء التي هي أفضل النساء على القول الأصح، وقيل بفضل مريم عليها وأنها هي تليها في الفضل. ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم: ٤/٦٧ ح ٩١٤.

* وقال الشيخ الرفاعي: أما فاطمة فهي أفضل النساء على ما صححه كثير من الائمة المتقدمين والعلماء العالمين. ـ ضوء الشمس: ١/٩٥.
* وأنشد الشيخ أحمد المقري قصيدة جاء منها:

وهل كفاطمة الزهراء أمهما * بنت النبي المصطفى بشر
فإنها بضعة منه وما أحد * كبضعة المصطفى إن حقق النظر =

عمّة معاوية الّتي ورد فيها وفي زوجها قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ

= وهن أفضل أصناف النساء سوى * بنت الرسول فما مثل لها بشر

ـ ذيل فتح المتعال: ٣٨٣ ـ ٣٨٨ ط. الهند.

وقال المناوي: من أطلق نساؤه ورد عليه خديجة، وهي أفضل من عائشة على الصواب لتصريحه بأنّه لم يرزق خيراً من خديجة، لخبر ابن أبي شيبة: فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة بعد مريم بنت عمران وآسية وخديجة، فإذا فُضّلت فاطمة فعائشة أولى ومَنْ أوّل بنساء زمنها ورد عليه فاطمة وفي شأنها قال المصطفى ما سمعت. وقد قال جمع من السلف لا يعدل ببضعة رسول الله أحد. قال البعض: وبه يعلم أنّه بقيّة أولاده كفاطمة.

وممّا يرجّح القول بأنّ خديجة أفضل من عائشة أنّ عائشة أقرأها النبيّ ﷺ السلام من جبريل وخديجة أقرأها السلام جبريل من ربّها عزّ وجلّ، ويفهم من حديث ابن أبي شيبة أنّ خديجة أفضل من فاطمة ويعارضه ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ : سيّدة نساء أهل الجنّة مريم بنت عمران ثمّ فاطمة ثمّ خديجة ثمّ آسية امرأة فرعون، وسُئل ابن داود إيُّما أفضل فاطمة أم أمّها؟ فقال: فاطمة بضعة رسول الله ﷺ فلا تعدل بها أحد.

وسُئل السبكي فقال: الذي نختاره وندين الله به أنّ فاطمة بنت محمد أفضل ثمّ أمّها خديجة ثمّ عائشة.

وعن ابن العماد أن خديجة إنّما فُضّلت فاطمة باعتبار الإمامة لا السيادة. ا هـ. وإنّما لم يساو فاطمة غيرها من أخواتها لشدّة شبهها به ﷺ خلقاً وخُلقا، ولأنّ سائر أخواتها مُتنَ في حياته ﷺ ، وفاطمة إنّما ماتت بعده فكان في ميزانها.

كذا كان يقرّره شيخنا العلاّمة أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد المناوي (رحمه الله) وفي الحديث: **«فاطمة خير بناتي»** انّها أحييت.

وقد اختلف أيضاً هل الأفضل مريم بنت عمران على القول بأنّها ليست بنبيّة أم فاطمةبنت محمد ﷺ ؟ وقد تعرّض للكلام في ذلك الشيخ تقي الدين السبكي في فتاويه الحلبيات وشفى الغليل، واقتضب الشيخ جلال الدين السيوطي من كلامه ماهو المقصود وكأنّهما مالا إلى تفضيل فاطمة على الكلّ وخديجة على عائشة ـ شرح الشمائل المحمديّة: ١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦، باب ما جاء في صفة إدام الرسول ﷺ ..

وجاء في الحلية: قال الشيخ (رحمه الله) : ومن ناسكات الأصفياء وصفيات الأتقياء فاطمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ السيّدة البتول البضعة الشبيهة بالرسول ألوط أولاده بقلبه لصوقاً وأوّلهم بعد وفاته به لحوقاً، كانت عن الدنيا ومتعتها عازفة وبغوامض عيوب الدنيا وآفاتها عارفة ـ حلية الأولياء لأبي نعيم: ٢/ ٣٠ ترجمتها رقم ١٢٨..

وقال رسول الله ﷺ : **«فاطمة سيدة نساء أمتي أو سيدة نساء المؤمنين أو الجنة»** ـ صحيح البخاري: ٥/ ٥٣ ح ١٥٠ كتاب المناقب باب ٢٦، وصحيح مسلم: ١٦/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ح ٦٢٦٣ ـ ٦٢٦٤ فضائل الصحابة، وفتح الباري بشرح البخاري: ٦/ ٧٧٩ ح ٣٦٢٤، والمصنف لابن أبي شيبة: ٦/ ٣٩٣ ح ٣٢٢٨١، والمصنف لعبد الرزاق: ١١/ ٤٣٠ ح ٢٠٩١٩، والمنتخب من مسند عبد بن حميد: ٢٠٥ ح ٥٩٧، وتاريخ البخاري: ١/ ٢٣٢ ح ٧٢٨، والفردوس: ٣/ ١٤٥ ح ٤٣٨٨، ومسند أبو يعلى: ١٢/ ١١١ ح ٦٧٤٤ ـ ٦٧٤٥ و٢/ ٣٩٥، والاعتقاد على مذهب السلف: ١٦٥، والثغور الباسمة: ٢٨ ح ٣٦ ـ ٣٨ وبالهامش صحيح، ومشكاة المصابيح: ٣/ ١٧٣٢ ح ٦١٢٩، والتبيين في أنساب القرشيين: ١/ ٧١، وانساب الاشراف: ١/ ٤٠٥ ـ ٥٥٢ ح ١١٢٢ ـ ٨٦٥، وزاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم: ٢/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠، ومنح المدح: ٣٥٦، والعقائد النسفية: ١٠٤، وكنز العمال: ١٣/ ٦٤٠ ح ٣٧٦١٧، ومستدرك =

مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا

= الصحيحين: ٣/ ١٥١، ومسند ابن راهويه: ٥/ ٧ ح ٢١٠٢..

وقال رسول الله ﷺ: **«أفضل وخير النساء أربع مريم وخديجة وفاطمة وآسية»** ـ الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ٩/ ٥٢ ح ٦٩١٢ عن أنس، وشرح كتاب الفقه الاكبر: ٢٠٨ والتبيين: ٥٢، ومسند أحمد: ١/ ٢٩٣ و ٣٢٢ ط. م و٤٨٢ ـ ٥٢٩ ح ٢٦٦٣ ـ ٢٩٥٢ ط. ب، والمواهب اللدنية: ١/ ٤٠٤ الفصل الثالث من المقصد الثاني، والكامل لابن عدي: ٤/ ٢١٧ رقم ١٠٢٤. ودر السحابة للشوكاني: ٣١٥ ـ ٣١٦ مناقب خديجة ح ١٤ وقال: أخرجه الطبراني وأبو يعلى وأحمد ورجالهم رجال الصحيح، الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ٩/ ٧٣ ح ٦٩٧١، وتاريخ الإسلام للذهبي: ٣/ ٤٦ سنة ١١، المعجم الكبير: ١١/ ٢٦٦ ح ١١٩٢٨، ومستدرك الصحيحين: ٢/ ٤٩٧ كتاب التفسير ـ التحريم و٥٩٤ كتاب التاريخ ذكر عيسى، والاعتقاد على مذهب السلف: ١٦٥، وفضائل الصحابة لاحمد: ٢/ ٧٦١ ح ١٣٣٩، ومسند أبو يعلى: ٥/ ١١٠ ح ٢٧٢٢ ابن عباس صحيح، والبيان والتعريف: ١/ ٢٨٢ ح ٣١٧، والمواهب اللدنية: ١/ ٤٠٤ الفصل الثالث من المقصد الثاني..

وقال رسول الله ﷺ: **«حسبك من نساء العالمين أربع فاطمة وخديجة ومريم وآسية»** ـ المعجم الاوسط: ٨/ ٢٠٧ ح ٧٤٢٤، ومسند شمس الاخبار: ١/ ١١٣ انس، وكتاب المصنف لابن أبي شيبة: ٦/ ٣٩٣ ح ٣٢٢٨١ الحسن، وسيرة ابن اسحاق: ٢٤٤ وفاة خديجة، وقصص الانبياء للثعلبي: ٣٧٢، ومصابيح السنة: ٤/ ٢٠٢ ح٤٨٥٠ أنس، والاحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ٩/ ٧١ ح ٦٩٦٤ انس، وفضائل الصحابة: ٢/ ٧٦٠ ـ ٧٥٨ ـ ٧٥٥ ح ١٣٣٢ ـ ١٣٣٧ ـ ١٣٣٨ ـ ١٣٢٥، ومسند أبو يعلى: ٥/ ٣٨٠ ح٣٠٣٩ انس، ومصنف عبد الرزاق: ١١/ ٤٣٠ ح٢٠٩١٩ أنس، ومشكاة المصابيح: ٣/ ١٧٤٥ ح ٦١٨١ وبالهامش قال صحيح، والثغور الباسمة: ٢٨ ح ٣٧ وبالهامش: صحيح، ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٢٣ ط. مصر والبغية: ٣٥٧ ح ١٥٢٦٩..

وقال رسول الله ﷺ: **«يا فاطمة إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»** ـ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١/ ١٠٨ ح ١٨٢ ذيل ترجمة علي وبالهامش: **«في هامش الاصل: هذا حديث صحيح الاسناد وروي من طرق عن علي رواه الحارث عن علي وروي مرسلاً، وهذا الحديث أحسن شيء رايته وأصح اسناد قرأته»** و٢٢/ ٤٠١ ترجمة فاطمة ـ مناقبها، وجواهر العقدين: ٣٥٠ الباب الحادي عشر، ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٠٣ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٨ ح ١٥٢٠٤ كتاب المناقب وقال اسناده حسن. وذيل تاريخ بغداد لابن النجار: ١٧/ ١٤٠ ترجمة عثمان بن الحسين برقم ٤٢٦، وأخبار الدول للقرماني: ٨٧ ط. بغداد ١٢٨٢ هـ، وتهذيب التهذيب: ١٢/ ٤٤٢ ط حيدر آباد الاولى، ومقتل الحسين للخوارزمي: ١/ ٥٢ الفصل الخامس، وذخائر العقبى: ٣٩ وقال: أخرجه أبو سعيد في شرف النبوة وابن المثنى في معجمه، ومستدرك الصحيحين: ٣/ ١٥٣ كتاب معرفة الصحابة ـ مناقب فاطمة، وأسد الغابة: ٥/ ٥٢٢ ترجمة فاطمة. والتدوين في أخبار قزوين: ٣/ ١١ باب الذال ـ ترجمة أبو ذر بن رافع، والمدهش لابن الجوزي: ١٣٤ الفصل السادس والعشرون ـ في تزويج علي بفاطمة عليهما السلام..

قال السمهودي بعد إيراده هذا الحديث: (فمن آذى شخصاً من أولاد فاطمة أو أبغضه فقد جعل نفسه عرضة لهذا الخطر العظيم، وبضده من تعرض لمرضاتها في حبهم وإكرامهم كما يؤخذ مما تقدم) ـ جواهر العقدين: ٣٥١ الباب ١١.

* وقال السهيلي: (هذا الحديث يدل على أن من سبها كفر ومن صلى عليها فقد صلى على أبيها) ـ المواهب اللدنية: ٢/ ٥٣٣ الفصل الثاني من المقصد السابع.. =

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ١ ـ ٥].

وفي تفسير «الدُّر المنثور» وأخرج ابن جرير عن ابن زيد: أن امرأة أبي لهب كانت تلقي في طريق النّبي ﷺ الشوك فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: ١ ـ ٤].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ قال: كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق رسول الله ﷺ.

وأخرج ابن أبي الدُّنيا في ذمّ الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ [المَسَد: ٤] قال: كانت تمشي بالنميمة ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المَسَد: ٥] من نار.

وأخرج ابن أبي جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ [المَسَد: ٤] قال: كانت تنقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ﴾ [المَسَد: ٥] قال: عنقها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المَسَد: ٤] قال: كانت تحمل النميمة فتأتي بها بطون قريش.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن عروة بن الزبير ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المَسَد: ٥] قال: سلسلة من حديد من نار ذرعها سبعون ذراعاً.

= وقال رسول الله ﷺ: **«فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني»** ـ المصنف لابن أبي شيبة: ٦/٣٩١ ح ٣٢٢٥٩ كتاب الفضائل ـ فضائل فاطمة. والفردوس بمأثور الخطاب: ١/٢٣٢ ح ٨٨٧ ط. دار الكتب العلمية، و٢٨٢ ح ٨٨٦ ط. دار الكتاب العربي. وصحيح البخاري: ٥/٨٣ ح ٢٣٢ كتاب الفضائل ـ مناقب قرابة الرسول و٧/٧٣ كتاب النكاح باب (١١٠) ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والانصاف ح ١٥٩، وصحيح مسلم: ١٦/٢٢١ ح ٦٢٥٧ كتاب الفضائل ـ فضائل الصحابة ـ فاطمة، والفردوس بمأثور الخطاب: ٣/١٤٥ ح ٤٣٨٩ ط. دار الكتب العلمية و١٦١ ح ٤٢٨٢ ط. دار الكتاب العربي. والطبقات الكبرى: ٨/٢٠٦ ترجمة جويرية بنت أبي جهل (٤٢٠٥)، والتبصير في الدين للاسفرايني: ١١١ الباب الخامس عشر، ومسند أحمد: ٤/٥ ـ ٣٢٣ ـ ٣٣٢ ـ ٣٢٨ ط.م و٥/٤٢٣ ـ ٤٣٥ ـ ٤٣٠ و٤/٥٧١ ط.ب ح ١٨٤٢٨ ـ ١٨٤٥١. وفضائل الصحابة لاحمد: ٢/٧٥٥ ـ ٧٥٦ ح ـ ١٣١٧ ـ ١٣٢٨ ـ ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤ مناقب علي، ومستدرك الصحيحين: ٣/١٥٨ ـ ١٥٩، والبيان والتعريف في أسباب ورود الحديث: ٢/١١٦ ح ٧٢١، والمعجم الكبير: ٢٢/٤٠٤ ـ ٤٠٥، ومصابيح السنة: ٤/١٨٥ ح ٤٧٩٩ مناقب أهل البيت، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ٩/٥٣ ح ٦٩١٦..

وفي التفسير الصّافي نقلاً من قرب الإسناد عن الكاظم عليه السلام في حديث آيات النّبي صلى الله عليه وآله قال: ومن ذلك أنّ أُمّ جميل امرأة أبي لهب أتته حين نزلت سورة تبّت ومع النّبي أبو بكر بن أبي قحافة فقال: يا رسول الله هذه أمّ جميل محفظة أم مغضبة تريدك ومعها حجر تريد أن ترميك به، فقال صلى الله عليه وآله: إنها لا تراني، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك؟ قال: حيث شاء الله، قالت: لقد جئته ولو أراه لرميته فإنّه هجاني، واللاّت والعزّى إنّي لشاعرة، فقال أبو بكر: يا رسول الله لم ترك؟ قال: لا، ضرب الله بيني وبينها حجاباً[١].

وقال معاوية يوماً وعنده عمرو بن العاص وقد أقبل عقيل: لأضحكنّك من عقيل، فلمّا سلم قال معاوية: مرحباً برجل عمّه أبو لهب، فقال عقيل: وأهلاً برجل عمّته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد، قال معاوية: يا أبا يزيد ما ظنّك بعمّك أبي لهب؟ قال: إذا دخلت النار فخذ على يسارك تجده مفترشاً عمّتك حمّالة الحطب أفناكح في النار خير أم منكوح؟ قال: كلّا شرّ والله. نقله الشارح المعتزلي في الجزء الرّابع من شرحه على النهج (٢٧ من **الطبع الرحلي**)[٢].

ونقل الشيخ الأجل المفيد قدس سرّه في **«الإرشاد» (ص١٧٣ طبع طهران ١٣٧٧هـ)**: بعد السبب في قبول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الهدنة والصلح من معاوية ما هذا لفظه: فتوثق عليه السلام لنفسه من معاوية بتوكيد الحجة عليه والإعذار فيما بينه وبينه عند الله تعالى وعند كافة المسلمين واشترط عليه ترك سب أمير المؤمنين عليه السلام والعدول عن القنوت عليه في الصّلاة، وأن يؤمّن شيعته رضي الله عنهم ولا يتعرّض لأحد منهم بسوء ويوصل إلى كلّ ذي حقّ منهم حقه.

فأجابه معاوية إلى ذلك كله وعاهده عليه وحلف له بالوفاء به، فلمّا استتمّت الهدنة على ذلك سار معاوية حتّى نزل بالنخيلة وكان ذلك يوم الجمعة فصلّى بالناس ضحى النهار فخطبهم وقال في خطبته: والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنكم لتفعلون ذلك ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون، الا وإنّي كنت منّيت الحسن عليه السلام أشياء وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها له.

ثمّ سار حتّى دخل الكوفة فأقام بها أيّاماً فلمّا استتمّت البيعة له من أهلها صعد المنبر فخطب الناس وذكر أمير المؤمنين عليه السلام ونال منه ونال من الحسن عليه السلام ما نال، وكان الحسن

---

(١) قرب الإسناد: ٣٢٩، وبحار الأنوار: ١٧/ ٢٣٥.

(٢) شرح النهج: ٤/ ٩٣.

والحسين عليهما السلام حاضرين، فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه فأخذ بيده الحسن عليه السلام وأجلسه، ثمّ قام فقال: أيّها الذاكر عليّاً أنا الحسن وأبي عليّ وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمّي فاطمة وأمّك هند، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وجدّك حرب، وجدّتي خديجة وجدّتك فتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرّنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً، فقالت طوائف من أهل المسجد: آمين آمين، انتهى قوله قدّس سره[1].

وروى قريباً منه المحدّث القمّي رضوان الله عليه في مادّة حسن من «**سفينة البحار**» عن الشعبي، وقال الفاضل الشارح المعتزلي: إنّ هذا الحديث نقله الفضل بن الحسن المصري عن يحيى بن معين قال: وقال الفضل: قال يحيى: آمين[2]، وقال الفضل: أنا أقول آمين، وقال عليّ بن الحسين الأصفهاني آمين، وقال الشارح المذكور أنا أقول آمين، وكذلك كاتب هذه الأحرف الحسن بن عبد الله الطبري الآملي يقول آمين، آمين ويرحم الله تعالى عبداً قال آمين[3].

ثمّ قال عليه السلام: **(في كثير مما لنا وعليكم)** أي ما ذكرناه من فضائلنا ورذائلكم قليل من كثير مما لنا من الفضائل وعليكم من الرذائل وقد تقدّم الكلام في رؤية النّبي صلى الله عليه وآله بني أُميّة في المنام على صور قرود تصعد منبره وتردّ الناس عن الإسلام القهقرى، فراجع إلى شرح المختار العاشر من هذا الباب **(ص٤٧ ج١٨)**.

وقد سئل عليّ أمير المؤمنين عليه السلام عن بني هاشم وبني أُميّة فقال عليه السلام: نحن أمجد وأنجد وأجود، وهم أغدر وأمكر وأنكر[4] **(المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء ص٢٢٤ ج٤)**.

ثمّ قال عليه السلام: **(فإسلامنا ما قد سمعتم، وجاهليتنا لا تدفع)** يريد أن فضائل بني هاشم لا تختص بهم في الإسلام فقط بل لهم تلك الفضائل في زمن الجاهليّة أيضاً لا مدافع لهم في ذلك، أي أنهم كانوا من بيت شرف ومجد حيث كان الناس في الجاهليّة الجهلاء، وقد مضى نقل طائفة منها في شرح المختار التاسع من باب الكتاب **(ج١٧)** وفي شرح المختار السابع عشر من ذلك الباب أيضاً **(ج١٨) فراجع.**

---

(١) الإرشاد: ٢/ ١٥، والغدير: ١٠/ ١٦٠ ح٥٠.

(٢) شرح النهج: ١٦/ ٤٧.

(٣) اللهم آمين.

(٤) كشف الغمة: ٢/ ٢٣٣.

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع احتجاجات أتى بها نقلة الآثار في أسفارهم:

قال الشّيخ إبراهيم بن محمد البيهقي في كتاب «**المحاسن والمساوي**» قيل: وأتى الحسن بن عليّ عليه السلام معاوية بن أبي سفيان وقد سبقه ابن عباس فأمر معاوية فأنزل، فبينا معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزياد بن أبي سفيان يتحاورون في قديمهم وحديثهم ومجدهم، فقال معاوية: أكثرتم الفخر فلو حضركم الحسن بن علي وعبد الله بن العباس لقصّرا من أعنّتكما ما طال، فقال زياد: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ما يقومان لمروان بن الحكم في غرب منطقه ولا لنا في بواذخنا؟ فابعث إليهما في غد حتى نسمع كلامهما.

فقال معاوية لعمرو: ما تقول؟ قال هذا، فابعث إليهما في غد، فبعث إليهما معاوية ابنه يزيد، فأتياه ودخلا عليه وبدأ معاوية فقال: إنّي أجلّكما وأرفع قدركما عن المسامرة بالليل ولاسيّما أنت يا أبا محمد فإنّك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسيّد شباب أهل الجنّة فشكّرا له، فلمّا استويا في مجلسهما وعلم عمرو أن الحدَّة ستقع به قال: والله لا بدَّ أن أقول، فإن قهرت فسبيل ذلك وإن قُهرت أكون قد ابتدأت.

فقال: يا حسن إنّا تفاوضنا فقلنا: إن رجال بني أُميّة أصبر عند اللقاء وأمضى في الوغى، وأوفى عهداً، وأكرم خيماً، وأمنع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطّلب.

ثمّ تكلّم مروان فقال: وكيف لا تكون كذلك وقد قارعناكم فغلبناكم وحاربناكم فملكناكم، فإن شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا.

ثمّ تكلّم زياد فقال: ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهله ويجحدوا الخير في مظانه، نحن أهل الحملة في الحروب ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً.

فتكلّم الحسن عليه السلام فقال: ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجّة، ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالخنا ويصوّر الباطل بصورة الحقّ، يا عمرو افتخاراً بالكذب وجرأة على الإفك! ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة أبديها مرّة وأمسك عنها أُخرى فتأبى إلاّ انهماكاً في الضلالة، أتذكر مصابيح الدّجى وأعلام الهدى وفرسان الطراد وحتوف الأقران وأبناء الطعام وربيع الضيفان ومعدن النبوّة ومخبط العلم وزعمتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم وقد تبيّن ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطال وتساورت الأقران واقتحمت الليوث واعتركت المنيّة وقامت رحاؤها على قطبها وفرّت عن نابها وطار شرار الحرب فقتلنا رجالكم ومنَّ النبي صلى الله عليه وآله على ذراريكم فكنتم لعمري في هذا اليوم غير ما نعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب!.

ثمَّ قال: وأمّا أنت يا مروان فما أنت والإكثار في قريش وأنت طليق وأبوك طريد يتقلّب من خزاية إلى سوءة ولقد جيء بك إلى أمير المؤمنين فلمّا رأيت الضّرغام قد دميت براثنه واشتبكت أنيابه كنت كما قال:

لـيـث إذا سـمـع الـلّـيـوث زئـيـره بـصـبـصـن ثـمّ قـذفـن بـالأبـعـار

ويروى رمين بالأبعار.

فلمّا منّ عليك بالعفو وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك وغصصت بريقك لا تقعد معنا مقعد أهل الشكر ولكن تساوينا وتجارينا ونحن ممّن لا يدركنا عار ولا يلحقنا خزاية!

ثمَّ التفت إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشاً لا أعرف لك فيها أديماً صحيحاً ولا فرعاً نابتاً ولا قديماً ثابتاً ولا منبتاً كريماً بل كانت أُمّك بغيّاً تداولها رجال قريش وفجّار العرب فلمّا ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادّعاك هذا ـ يعني معاوية ـ بعد ممات أبيه، مالك افتخار، تكفيك سُميّة ويكفينا رسول الله ﷺ، وأبي عليّ بن أبي طالب سيّد المؤمنين الّذي لم يرتدّ على عقبيه، وعمّي حمزة سيّد الشهداء وجعفر الطيّار وأنا وأخي سيّدا شباب أهل الجنّة! ثمَّ التفت إلى ابن عبّاس فقال: يا ابن العمّ إنّما هي بغاث الطير انقضّ عليها أجدل، فأراد ابن عبّاس أن يتكلّم فأقسم عليه معاوية أن يكفّ فكفّ ثمَّ خرجا.

فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أنَّ حجّته دحضت وتكلّم مروان لولا أنّه نكص.

ثمَّ التفت إلى زياد وقال: ما دعاك إلى محاورته؟ ما كنت إلا كالحجل في كفّ البازي، فقال أفاخر رجلاً رسول الله ﷺ جدّه وهو سيّد من مضى ومن بقي وأمّه فاطمة الزّهراء السّواء، فقال عمرو: لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان طحن الرّحى بثفالها يأبى إلاّ الإغراء بيننا وبينهم، لا جرم والله لا شهدت مجلساً يكونان فيه إلاّ كنت معهما على من فاخرهما.

فخلا ابن عبّاس بالحسن فقبّل بين عينيه وقال: أفديك يا ابن عم، والله ما زال بحرك يزخر وأنت تصول حتّى شفيتني من أولاد البغايا.

ثم إن الحسن عليه السلام غاب أيّاماً ثمَّ رجع حتّى دخل على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير، فقال معاوية: يا أبا محمد إنّي أظنك تبعاً نصباً فأت المنزل فأرح نفسك فيه، فقام الحسن عليه السلام فلمّا خرج قال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن فإنك ابن حواريّ رسول الله ﷺ وابن عمّته، ولأبيك في الإسلام نصيب وافر، فقال ابن الزبير: أنا له! فرجع وهو يطلب ليلته الحجج فلمّا أصبح دخل على معاوية وجاء الحسن عليه السلام فحيّاه معاوية وسأله مبيته، فقال: خير مبيت وأكرم مستفاض، فلمّا استوى في مجلسه قال ابن الزبير:

لولا أنّك خوّار في الحرب غير مقدام ما سلّمت لمعاوية الأمر وكنت لا تحتاج إلى اختراق السهوب وقطع المفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه، وكنت حريًّا أن لا تفعل ذلك وأنت ابن عليّ في بأسه ونجدته، فما أدري ما الّذي حملك على ذلك أضعف رأي أم وهن نحيزة، فما أظنّ لك مخرجاً من هاتين الخلّتين، أما والله لو استجمع لي ما استجمع لك لعلمت أنّي ابن الزبير وأنّي لا أنكص عن الأبطال وكيف لا أكون كذلك وجدّتي صفيّة بنت عبد المطّلب، وأبي الزبير حواريّ رسول الله ﷺ وأشدّ النّاس بأساً وأكرمهم حسباً في الجاهليّة وأطوعهم لرسول الله ﷺ.

فالتفت إليه الحسن عليه السلام وقال: وأما والله لولا أنّ بني أميّة تنسبني إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهاوناً، ولكن سأبيّن ذلك لك لتعلم أنّي لست بالعيّ ولا كليل اللّسان، إيّاي تعيّر وعليّ تفتخر ولم يكن لجدّك بيت في الجاهليّة ولا مكرمة فزوّجته جدّتي صفيّة بنت عبد المطلب، فبذخ على جميع العرب بها وشرف بمكانها، فكيف تفاخر من هو من القلادة واسطتها ومن الأشراف سادتها نحن أكرم أهل الأرض زنداً، لنا الشرف الثاقب والكرم الغالب.

ثمّ تزعم أنّي سلمت الأمر لمعاوية فكيف يكون ذلك ويحك كذلك وأنا ابن أشجع العرب، وقد ولدتني فاطمة سيّدة نساء العالمين وخير الإماء؟ لم أفعل ذلك ويحك جبناً ولا ضعفاً ولكنّه بايعني مثلك وهو يطلبني ببرّه ويداجيني المودّة ولم أثق بنصرته لأنكم أهل بيت غدر، وكيف لا يكون كما أقول، وقد بايع أبوك أمير المؤمنين ثمّ نكث بيعته ونكص على عقبيه واختدع حشيّة من حشايا رسول الله ﷺ ليضلّ بها النّاس، فلمّا دلف نحو الأعنّة ورأى بربق الأسنّة قتل مضيعة لا ناصر له وأُتي بك أسيراً قد وطئتك الكماة بأظلافها والخيل بسنابكها واعتلاك الأشتر فغصصت بريقك وأقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته اللّيوث، فنحن ويحك نور البلاد وأملاكها وبنا تفخر الأمّة وإلينا تُلقى مقاليد الأزمّة، أنصول وأنت تختدع النّساء ثمّ تفتخر على بني الأنبياء؟ لم تزل الأقاويل منا مقبولة وعليك وعلى أبيك مردودة. دخل الناس في دين جدّي طائعين وكارهين، ثمّ بايعوا أمير المؤمنين عليه السلام فسار إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله ﷺ فقتل أبوك وطلحة وأُتي بك أسيراً، فبصبصت بذنبك وناشدته الرحم أن لا يقتلك فعفا عنك، فأنت عتاقة أبي وأنا سيّدك وسيّد أبيك، فذقْ وبال أمرك.

فقال ابن الزبير: اعذر يا أبا محمد فإنّما حملني على محاورتك هذا، وأحبّ الإغراء بيننا فهلاّ إذا جهلت أمسكت عنّي فإنّكم أهل بيت سجيّتكم الحلم والعفو.

فقال الحسن عليه السلام: يا معاوية انظر هل أكيعُ عن محاورة أحد؟ ويحك أتدري من أيّ

شجرة أنا وإلى من أنتمي؟ أنته قبل أن أسمك بميسم تتحدّث به الركبان في الآفاق والبلدان.

فقال ابن الزبير: هو لذلك أهل، فقال معاوية: أما إنّه قد شفي بلابل صدري منك ورمي مقتلك فصرت كالحجل في كفّ البازي يتلاعب بك كيف أراد فلا أراك تفتخر على أحد بعدها.

وذكروا أنَّ الحسن بن علي عليه السلام دخل على معاوية فقال متمثلاً:

فيم الكلام وقد سبقت مبرّزاً سبق الجواد من المدى والمقيس

فقال معاوية: إيّاي تعني؟ أما والله لأُنبئنّك بما يعرفه قلبك ولا ينكره جلساؤك: أنا ابن بطحاء مكة، أنا ابن أجودها جوداً وأكرمها جدوداً وأوفاها عهوداً، أنا ابن من ساد قريشاً ناشئاً وكهلاً.

فقال الحسن عليه السلام: أجل إيّاك أعني، أفعليّ تفتخر يا معاوية؟ أنا ابن ماء السماء وعروق الثّرى وابن من ساد أهل الدُّنيا بالحسب الثابت والشرف الفائق والقديم السابق، أنا ابن من رضاه رضي الرّحمٰن وسخطه سخط الرّحمٰن، فهل لك أب كأبي وقديم كقديمي؟ فإن قلت: لا، تغلب، وإن قلت: نعم، تكذب[1].

فقال معاوية: أقول لا تصديقاً لقولك، فقال الحسن:

الحقّ أبلج ما تخون سبيله والصدق يعرفه ذوو الألباب

وقال معاوية ذات يوم وعنده أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبروني بخير الناس أباً وأُمّاً وعمّاً وخالاً وخالةً وجدًّا وجدَّةً، فقام مالك بن العجلان فأومأ إلى الحسن فقال: هاهوذا أبوه عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليهم وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وعمّه جعفر الطيّار في الجنان، وعمّته أمّ هانيء بنت أبي طالب، وخاله القاسم بن رسول الله صلى الله عليه وآله، وخالته بنت رسول الله زينب، وجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وجدّته خديجة بنت خويلد.

فسكت القوم ونهض الحسن، فأقبل عمرو بن العاص على مالك فقال: أحبّ بني هاشم حملك على أن تكلّمت بالباطل؟ فقال ابن العجلان: ما قلت إلاّ حقّاً وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق إلاّ لم يعط أمنيّته في دنياه وختم له بالشقاء في آخرته، بنو هاشم أنضرهم عوداً وأوراهم زنداً، كذلك يا معاوية؟ قال: اللهمَّ نعم.

قيل: واستأذن الحسن بن علي عليه السلام على معاوية وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن

---

(١) كلمات الإمام الحسين: ٢٤١ ح٢١٠.

العاص، فأذن له، فلمّا أقبل قال عمرو: قد جاءكم الأفة العييّ الّذي كان بين لحييه عبلة، فقال عبد الله بن جعفر: مه فوالله لقد رمت صخرة ململمة تنحطّ عنها السيول وتقصر دونها الوعول ولا تبلغها السهام، فإياك والحسن إيّاك، فإنّك لا تزال راتعاً في لحم رجل من قريش ولقد رميت فما برح سهمك وقدحت فما أورى زندك.

فسمع الحسن الكلام فلمّا أخذ الناس مجالسهم قال: يا معاوية لا يزال عندك عبدٌ راتعاً في لحوم الناس، أما والله لو شئت ليكوننّ بيننا ما تتفاقم فيه الأُمور وتحرّج منه الصدور ثمَّ أنشأ يقول:

أتأمر يا معاوي عبد سهم ... بشتمي والملا منّا شهود
إذا أخذت مجالسها قريش ... فقد علمت قريش ما تريد
قصدت إليّ تشتمني سفاهاً ... لضغنٍ ما يزول وما يبيد
فما لك من أبٍ كأبي تسامي ... به من قد تسامي أو تكيد
ولا جدّ كجدّي يا ابن هند ... رسول الله إن ذكر الجدود
ولا أمّ كأُمّي من قريش ... إذا ما يحصل الحسب التليد
فما مثلي تهكّم يا ابن هند ... ولا مثلي تجاريه العبيد
فمهلاً لا تهج منّا أموراً ... يشيب لها معاوية الوليد

وذكروا أنَّ عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم:

ابعث إلى الحسن بن عليّ فمره أن يخطب على المنبر فلعلّه يحصر فيكون ذلك ممّا نعيّره به، فبعث إليه معاوية فأصعده المنبر وقد جمع له الناس فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال:

يا أيّها الناس من عرفني فأنا الّذي يعرف ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عمّ النّبي ﷺ، أنا ابن البشير النذير السراج المنير أنا ابن من بعث رحمةً للعالمين وسخطاً للكافرين، أنا ابن من بعث إلى الجنّ والإنس، أنا المستجاب الدّعوة، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابن أوّل من ينفض رأسه من التراب، أنا ابن أوّل من يقرع باب الجنّة، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة ونصر بالرّعب من مسيرة شهرٍ، فأفتنّ في هذا الكلام ولم يزل حتّى أظلمت الدُّنيا على معاوية فقال: يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفةً ولست هناك.

فقال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله ﷺ وعمل بطاعة الله وليس الخليفة من دان بالجور وعطّل السنن واتّخذ الدُّنيا أباً وأُمّاً، ولكنّ ذاك ملك أصاب ملكاً يمتّع به قليلاً وكان قد انقطع عنه واستعجل لذّته وبقيت عليه تبعته فكان كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١١] ثمَّ انصرف.

فقال معاوية لعمرو: والله ما أردت إلاّ هتكي، ما كان أهل الشام يرون أنّ أحداً مثلي حتّى سمعوا من الحسن ما سمعوا.

قيل: وقدم الحسن بن عليّ رضوان الله عليه على معاوية فلمّا دخل عليه وجد عنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة وصناديد قومه ووجوه اليمن وأهل الشام، فلمّا نظر إليه معاوية أقعده على سريره وأقبل عليه بوجهه يريه السرور بمقدمه، فلمّا نظر مروان إلى ذلك حسده وكان معاوية قال لهم: لا تحاوروا هذين الرجلين فلقد قلّداكم العار وفضحاكم عن أهل الشام ـ يعني الحسن بن علي عليه السلام، وعبد الله بن العبّاس.

فقال مروان: يا حسن لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بني له آباؤه الكرام من المجد والعلاء ما أقعدك هذا المقعد ولقتلك وأنت له مستوجب بقودك الجماهير فلمّا أحسست بنا وعلمت أن لا طاقة لك بفرسان أهل الشام وصناديد بني أُميّة أذعنت بالطاعة واحتجرت بالبيعة وبعثت تطلب الأمان، أما والله لولا ذلك لأُريق دمك، وعلمت أنّا نعطي السيوف حقّها عند الوغى، فاحمد الله إذ ابتلاك بمعاوية فعفا عنك بحلمه ثمّ صنع بك ما ترى.

فنظر إليه الحسن فقال: ويحك يا مروان لقد تقلّدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها والمخاذلة عند مخالطتها، نحن ـ هبلتك الهوابل ـ لنا الحجج البوالغ ولنا إن شكرتم عليكم النعم السوابغ، ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النّار فشتّان ما بين المنزلتين، تفخر ببني أُميّة وتزعم أنّهم صبّر في الحروب أسد عند اللقاء ـ ثكلتك أُمّك ـ أولئك البهاليل السادة والحماة الذادة والكرام القادة بنو عبد المطلب، أما والله لقد رأيتم وجميع من في هذا البيت ما هالتهم الأهوال ولم يحيدوا عن الأبطال كاللّيوث الضارية الباسلة الحنقة، فعندها ولّيت هارباً وأُخذت أسيراً فقلّدت قومك العار لأنّك في الحروب خوّار، أيراق دمي زعمت؟ أفلا أرقت دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يذبح الجمل وأنت تثغو ثغاء النعجة وتنادي بالويل والثبور كالأمة اللّكعاء، ألا دفعت عنه بيد أو ناضلت عنه بسهم؟ لقد ارتعدت فرائصك وغشي بصرك فاستغثت بي كما يستغيث العبد بربّه، فأنجيتك من القتل ومنعتك منه ثمّ تحثّ معاوية على قتلي ولو رام ذلك معك لذبح كما ذبح ابن عفّان، أنت معه أقصر يداً وأضيق باعاً أجبن قلباً من أن تجسر على ذلك، ثمّ تزعم أنّي ابتليت بحلم معاوية أما والله لهو أعرف بشأنه وأشكر لما ولّيناه هذا الأمر فمتى بدا له فلا يغضينّ جفنه على القذي معك، فوالله لأثخنن أهل الشام بجيش يضيق عنها فضاؤها، ويستأصل فرسانها ثمّ لا ينفعك عند ذلك الهرب والرّوغان ولا يردّ عنك الطلب تدريجك الكلام فنحن ممّن لا يجهل آباؤنا القدماء الأكابر وفروعنا السادة الأخيار، أنطق إن كنت صادقاً[1].

(١) صحيفة الإمام الحسن: ٣١٢.

فقال عمرو: ينطق بالخنى وتنطق بالصدق، ثمّ أنشأ يقول:

قد يضرط العير والمكواة تأخذه لا يضرط العير والمكواة في النار

ذق وبال أمرك يا مروان، وأقبل عليه معاوية فقال: قد نهيتك عن هذا الرجل وأنت تأبى إلاّ انهماكاً فيما لا يعنيك، أربع على نفسك فليس أبوك كأبيه ولا أنت مثله، أنت ابن الطريد الشريد وهو ابن رسول الله ﷺ الكريم ولكن ربّ باحث عن حتفه وحافر عن مدينه، فقال مروان: إرم من دون بيضتك وقم بحجّة عشيرتك، ثمّ قال لعمرو: طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصييك فلذلك تحذّره وقام مغضباً فقال معاوية: لا تجار البحور فتغمرك، ولا الجبال فتبهرك واسترح من الاعتذار.

قيل: ولقي عمرو بن العاص الحسن بن علي عليه السلام في الطّواف فقال: يا حسن أزعمت أنَّ الدّين لا يقوم إلاّ بك وبأبيك؟ فقد رأيت الله جلّ وعزّ أقامه بمعاوية فجعله راسياً بعد ميله وبيّناً بعد خفائه، أفرضي الله قتل عثمان أم من الحقّ أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطّحين؟ عليك ثياب كغرقيء البيض وأنت قاتل عثمان، والله إنّه لألمّ للشعث وأسهل للوعث أن يوردك معاوية حياض أبيك.

فقال الحسن عليه السلام: إنَّ لأهل النّار علامات يعرفون بها وهي الإلحاد لأولياء الله والموالاة لأعداء الله، والله إنّك لتعلم أنَّ عليّاً عليه السلام لم يترتب في الأمر ولم يشكّ في الله طرفة عين، وأيم الله لتنتهينَّ يا ابن أُمّ عمرو أو لأقرعنَّ جبينك بكلام تبقى سمته عليك ما حييت، فإيّاك والإبراز عليَّ فإنّي من قد عرفت لستُ بضعيف الغمزة، ولا بهشّ المشاشة، ولا بمريء المأكلة، وإنّي من قريش كأوسط القلادة، يُعرف حسبي ولا أُدعى لغير أبي، وقد تحاكمت فيك رجال قريش فغلب عليك ألأمهم نسباً وأظهرهم لعنة، فإياك عنّي فإنك رجس، وإنما نحن بيت الطّهارة، أذهب الله عنّا الرجس وطهّرنا تطهيراً[1].

قيل: واجتمع الحسن بن علي عليه السلام وعمرو بن العاص، فقال الحسن عليه السلام: قد علمت قريش بأسرها أنّي منها في عزّ أرومتها لم أُطبع على ضعف ولم أُعكس على خسف، أُعرف بشبهي وأُدعى لأبي.

فقال عمرو: قد علمت قريش أنّك من أقلّها عقلاً وأكثرها جهلاً، وأنَّ فيك خصالاً لو لم يكن فيك إلاّ واحدة منهنَّ لشملك خزيها كما شمل البياض الحالك، لعمر الله لتنتهينَّ عمّا أراك تصنع أو لأكبسنَّ لك حافة كجلد العائط أرميك من خللها بأحرّ من وقع الأثافي أعرك

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٨، وبحار الأنوار: ٤٤/١٠٣ ووفيات الأئمة: ١١٤.

منها أديمك عرك السلعة، فإنّك طالما ركبت صعب المنحدر ونزلت في أعراض الوعر التماساً للفرقة وإرصاداً للفتنة ولن يزيدك الله فيها إلاّ فظاعة.

فقال الحسن عليه السلام: أما والله لو كنت تسمو بحسبك وتعمل برأيك ما سلكت فجّ قصد ولا حللت رابية مجد، وأيم الله لو أطاعني معاوية لجعلك بمنزلة العدوّ الكاشح فإنّه طالما طويت على هذا كشحك وأخفيته في صدرك وطمح بك الرجاء إلى الغاية القصوى الّتي لا يورق بها غصنك ولا يخضرّ لها مرعاك، أما والله ليوشكنَّ يا ابن العاص أن تقع بين لحيي ضرغام من قريش قويّ متمنّع فروسٍ ذي لبد يضغطك ضغط الرحى للحبّ لا ينجيك منه الرّوغان إذا التقت حلقتا البطان[1]. انتهى ما أتى به البيهقي في **«المحاسن والمساويء»** في المقام.

وفي «محاسن البرقي»: قال عمرو بن العاص للحسين عليه السلام: ما بال أولادنا أكثر من أولادكم؟ فقال عليه السلام:

بغاث الطير أكثرها فراخاً　　وأمُّ الصقر مقلاة نزور

فقال: ما بال الشيب إلى شواربنا أسرع منه إلى شواربكم؟ فقال عليه السلام: إنَّ نساءكم نساء بخرة فإذا دنا أحدكم من امرأته نهكته في وجهه فشاب منه شاربه، فقال: ما بال لحاكم أوفر من لحائنا؟ فقال عليه السلام: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، فقال معاوية: بحقّي عليك إلاّ سكت فإنّه ابن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال عليه السلام:

إن عادت العقرب عدنا له　　وكانت النعل لها حاضرة

قد علم العقرب واستيقنت　　أن لا لها دنيا ولا آخرة

وروى ابن شهر أشوب وغيره عن أبان الأحمر أنّ شريك بن الأعور دخل على معاوية، فقال له معاوية: والله إنك لشريك وليس لله لشريك وأنك لابن الأعور والبصير خير من الأعور، وأنك لدميم، والجيد خير من الدميم فكيف سدت قومك؟ فقال له شريك: إنّك لمعاوية وما معاوية إلاّ كلبة عوت واستعوت الكلاب، وإنّك لابن صخر والسهل خير من الصخر، وإنّك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنّك لابن أُميّة وما أُميّة إلاّ أمة صغرت فاستصغرت فكيف صرت أمير المؤمنين؟ فغضب معاوية وخرج شريك وهو يقول:

أيشتمني معاوية بن صخر　　وسيفي صارم ومعيْ لساني

---

(١) صحيفة الإمام الحسن: ٣٢٠.

فلا تبسط علينا يا ابن هند لسانك إن بلغت ذرى الأماني
وإن تك للشقاء لنا أميراً فإنّا لا نقرّ على الهوان
وإن تك في أُميّة من ذراها فأنا في ذري عبد المدان

وروي أنّ معاوية أرسل إليه هدية منها حلواء، يريد بذلك استمالته وصرفه عن حبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فدخلت ابنة صغيرة له خماسي أو سداسي عليه فأخذت لقمة من تلك الحلواء وجعلتها في فمها، فقال لها أبو الأسود: يا بنتي ألقيه فإنه سمّ، هذه حلواء أرسلها إلينا معاوية ليخدعنا عن أمير المؤمنين عليه السلام ويردّنا عن محبّة أهل البيت، فقالت الصبيّة: قبّحه الله يخدعنا عن السيّد المطهّر بالشّهد المزعفر تبًّا لمرسله وآكله. فعالجت نفسها حتّى قاءت ما أكلتها ثمّ قالت:

أبالشّهد المزعفر يا ابن هند نبيع عليك أحساباً وديناً
معاذ الله كيف يكون هذا ومولانا أمير المؤمنينا

ويشبه هذا ما روي أنه دخل أبو أمامة الباهلي على معاوية فقرّبه وأدناه ثمّ دعى بالطعام فجعل يطعم أبا أمامة بيده، ثمّ أوسع رأسه ولحيته طيباً بيده وأمر له ببدرة من دنانير فدفعها إليه، ثمّ قال: يا أبا أمامة بالله أنا خير أم عليّ بن أبي طالب؟ فقال أبو أمامة: نعم ولا كذب ولو بغير الله سألتني لصدقتُ عليٌّ والله خير منك وأكرم وأقدم إسلاماً وأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قرابة وأشدّ في المشركين نكاية وأعظم عند الأمّة عناء، أتدري من عليٌّ يا معاوية؟ ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وزوج ابنته سيّدة نساء العالمين، وأبو الحسن والحسين سيّدي شباب أهل الجنّة، وابن أخي حمزة سيّد الشهداء، وأخو جعفر ذي الجناحين، فأين تقع أنت من هذا يا معاوية؟ أظننت أنّي سأختارك على علي عليه السلام بألطافك وطعامك وعطائك فأدخل إليك مؤمناً، وأخرج منك كافراً بئسما سوّلت لك نفسك يا معاوية ثمّ نهض وخرج من عنده فأتبعه بالمال، فقال: لا والله لا أقبل منك ديناراً واحداً.

قال تقي الدّين أبو بكر بن علي الحموي في «**ثمرات الأوراق في المحاضرات**»: قلت: وأما الأجوبة الهاشميّة وبلاغتها فهي في المحل الأرفع، فمن ذلك أنه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعتبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، فقالوا: يا أمير المؤمنين ابعث لنا إلى الحسن بن علي فقال لهم: فيم؟ فقالوا: كي نوبّخه وتعرفه أنّ أباه قتل عثمان، فقال لهم: إنكم لا تنتصفون منه ولا تقولون شيئاً إلاّ كذبكم الناس، ولا يقول لكم شيئاً ببلاغته إلاّ صدّقه الناس، فقالوا: أرسل إليه فإنا سنكفيك أمره. فأرسل إليه معاوية فلمّا حضر قال: يا حسن إنّي لم أرسل إليك ولكن هؤلاء أرسلوا إليك فاسمع مقالتهم وأجب ولا تحرمني.

فقال الحسن عليه السلام: فليتكلّموا ونسمع، فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه

قال: هل تعلم يا حسن أن أباك أوّل من أثار الفتنة وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله به؟.

ثمَّ قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: يا بني هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفان فنعم الصّهر كان يفضّلكم ويقرّبكم ثم بغيتم عليه فقتلتموه، ولقد أردنا يا حسن قتل أبيك فأنقذنا الله منه ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله ذنب.

ثمَّ قام عتبة فقال: تعلم يا حسن أنَّ أباك بغى على عثمان فقتله حسداً على الملك والدُّنيا فسلبها، ولقد أردنا قتل أبيك حتّى قتله الله تعالى.

ثمَّ قام المغيرة بن شعبة فكان كلامه كلّه سبًّا لعليّ وتعظيماً لعثمان.

فقام الحسن عليه السلام فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: بك أبدأ يا معاوية لم يشتمني هؤلاء، ولكن أنت تشتمني بغضاً وعداوة وخلافاً لجدّي ﷺ، ثمَّ التفت إلى الناس وقال: أنشدكم الله أتعلمون أنَّ الرّجل الّذي شتمه هؤلاء كان أوَّل من آمن بالله وصلّى القبلتين، وأنت يا معاوية يومئذ كافر تشرك بالله، وكان معه لواء النّبي ﷺ يوم بدر، ومع معاوية وأبيه لواء المشركين.

ثمَّ قال: أنشدكم الله والإسلام، أتعلمون أنَّ معاوية كان يكتب الرسائل لجدّي ﷺ فأرسل إليه يوماً فرجع الرسول وقال: هو يأكل، فردّ الرسول إليه ثلاث مرّات كلّ ذلك وهو يقول: هو يأكل، فقال النبي ﷺ: لا أشبع الله بطنه، أما تعرف ذلك في بطنك أما تعرف ذلك في بطنك يا معاوية؟

ثمَّ قال: وأنشدكم الله، أتعلمون أنَّ معاوية كان يقود بأبيه على جمل وأخوه هذا يسوقه، فقال رسول الله ﷺ: لعن الله الجمل وقائده وراكبه وسائقه هذا كله لك يا معاوية.

وأمّا أنت يا عمرو فتنازع فيك خمسة من قريش فغلب عليك شبه ألأمهم حسباً وشرّهم منصباً ثمَّ قمت وسط قريش فقلت: أنى شانيء محمد، فأنزل الله على نبيّه ﷺ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣]، ثمَّ هجوت محمداً ﷺ بثلاثين بيتاً من الشعر، فقال النبيّ ﷺ: اللهمَّ إنّي لا أحسن الشعر ولكن العن عمرو بن العاص بكلّ بيت لعنة ثمَّ انطلقت إلى النجاشي بما عملت وعملت فأكذبك الله وردّك خائباً فأنت عدوّ بني هاشم في الجاهليّة والإسلام فلم نلمك على بغضك.

وأمّا أنت يا ابن معيط، فكيف ألومك على سبّك لعليّ وقد جلد ظهرك في الخمر ثمانين سوطاً، وقتل أباك صبراً بأمر جدّي، وقتله جدّي بأمر ربّي، ولمّا قدمه للقتل قال: من للصبية يا محمد، فقال: لهم النار، فلم يكن لكم عن النبي ﷺ إلاّ النّار، ولم يكن لكم عند عليّ غير السيف والسوط.

وأمّا أنت يا عتبة فكيف تعد أحداً بالقتل، لم لا قتلت الّذي وجدته في فراشك

مضاجعاً لزوجتك ثمَّ أمسكتها بعد أن بغت.

وأمّا أنت يا أعور ثقيف ففي أيِّ ثلاث تسبّ عليّاً؟ أفي بعده من رسول الله ﷺ؟ أم في حكم جائر؟ أم في رغبة في الدُّنيا؟ فإن قلت شيئاً من ذلك فقد كذبت أكذبك النّاس، وإن زعمت أنَّ عليّاً قتل عثمان فقد كذبت وأكذبك النّاس، وأمّا وعيدك فإنما مثلك كمثل بعوضة وقفت على نخلة، فقالت لها: استمسكي فإني أُريد أن أطير، فقالت لها النخلة: ما علمت بوقوفك فكيف يشقّ عليَّ طيرانك، وأنت فما شعرنا بعداوتك فكيف يشق علينا سبّك؟ ثمَّ نفض ثيابه وقام، فقال لهم معاوية: ألم أقل لكم إنكم لا تنتصفون منه، فوالله لقد أظلم عليَّ البيت حتّى قام فليس فيكم بعد اليوم خير[(١)]. انتهى.

قال سبط ابن الجوزي في «**التذكرة**»: قال أهل السير: ولمّا سلم الحسن الأمر إلى معاوية أقام يتجهز إلى المدينة فاجتمع إلى معاوية رهط من شيعته منهم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وهو أخو عثمان بن عفّان لأُمّه وكان عليٌّ عليه السلام قد جلده في الخمر، وعتبة وقالوا: نريد أن تحضر الحسن على سبيل الزيارة لنخجّله قبل مسيره إلى المدينة، فنهاهم معاوية وقال: إنّه ألسن بني هاشم. فألحّوا عليه، فأرسل [إلى] الحسن فاستزاره فلمّا حضر شرعوا فتناولوا عليّاً عليه السلام والحسن ساكت فلمّا فرغوا حمد الحسن الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله محمد ﷺ قال:

إنّ الّذي أشرتم إليه قد صلّى إلى القبلتين وبايع البيعتين وأنتم بالجميع مشركون وبما أنزل الله على نبيّه كافرون، وأنّه حرّم على نفسه الشهوات وامتنع على اللّذات حتّى أنزل الله فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٨٧] وأنت يا معاوية ممّن قال رسول الله ﷺ في حقّه: اللهمَّ لا تشبعه أو لا أشبع الله بطنك، أخرجه مسلم عن ابن عبّاس.

وبات أمير المؤمنين يحرس رسول الله ﷺ من المشركين، وفداه بنفسه ليلة الهجرة حتّى أنزل الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٧] ووصفه بالإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المَائدة: الآية ٥٥] والمراد به أمير المؤمنين، وقال له رسول الله ﷺ: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى وأنت أخي في الدُّنيا والآخرة، وأنت يا معاوية نظر النّبي ﷺ إليك يوم الأحزاب فرأى أباك على جمل يحرّض النّاس على قتاله وأخوك يقود الجمل وأنت تسوقه فقال: لعن الله الراكب والقائد والسائق، وما قابله أبوك في موطن إلاّ ولعنه وكنت معه، ولاّك عمر الشام فخنته، ثمَّ ولاّك

(١) بحار الأنوار: ٢٤/١٠٨ ح١٩، وميزان الحكمة: ٤/٣٤١٢.

عثمان فتربّصت عليه وأنت الّذي كنت تنهى أباك عن الإسلام حتّى قلت مخاطباً له:

يا صخر لا تسلمن طوعاً فتفضحنا بعد الّذين ببدر أصبحوا مزقا
لا تركننّ إلى أمر تقلّدنا والرّاقصات بنعمان به الحرقا

وكنت يوم بدر وأُحد والخندق والمشاهد كلّها تقاتل رسول الله ﷺ وقد علمت الفراش الذي ولدت عليه.

ثمّ التفت إلى عمرو بن العاص وقال: أما أنت يا ابن النابغة فادّعاك خمسة من قريش غلب عليك ألأمهم وهو العاص وولدت على فراش مشترك وفيك نزل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكَوثَر: الآية ٣] وكنت عدو الله وعدو رسوله وعدو المسلمين وكنت أضر عليهم من كل مشرك، وأنت القائل:

ولا أنثني عن بني هاشم بما أسطعت في الغيب والمحضر
وعن عائب اللاّت لا أنثني ولولا رضى اللاّت لم تمطر

وأمّا أنت يا وليد فلا ألومك على بغض أمير المؤمنين فإنّه قتل أباك صبراً وجلّدك في الخمر لمّا صلّيت بالمسلمين الفجر سكراناً وقلت أزيدكم، وفيك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة حين يلقى ربّه أنّ الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تم صلاتهم أأزيدكم سكراً وما يدري
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا لأتت صلاتهم على العشر
فأتوا أبا وهب ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك إذ جريت ولو تركوا عنانك لم تزل تجري

وسمّاك الله في كتابه فاسقاً، وسمّى أمير المؤمنين مؤمناً في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨] وفيك يقول حسان بن ثابت وفي أمير المؤمنين:

أنزل الله ذو الجلال علينا في عليّ وفي الوليد قرانا
ليس من كان مؤمناً عمرك الله كمن كان فاسقاً خوّانا
سوف يُدعى الوليد بعد قليل وعليّ إلى الجزاء عيانا
فعليّ يجزى هناك جنانا ووليد يجزى هناك هوانا

(١) مناقب الإمام علي: ٢/ ٢٢٠.

وأمّا أنت يا عتبة فلا ألومك في أمير المؤمنين فإنّه قتل أباك يوم بدر واشترك في دم ابن عمّك شيبة، وهلا أنكرت على من غلب على فراشك ووجدته نائماً مع عرسك حتى قال فيك نصر بن حجّاج:

نبّئت عتبة هيّأته عرسه ... لصداقة الهذلي من الحيّان
ألقاه معها في الفراش فلم يكن ... فحلاً وأمسك خشية النسوان
لا تعتبن يا عتب نفسك حبّها ... إنّ النساء حبائل الشيطان(١)

ثمّ نفض الحسن ثوبه وقام، فقال معاوية:

أمرتكم أمراً فلم تسمعوا له ... وقلت لكم لا تبعثنّ إلى الحسن
فجاء وربّ الرّاقصات عشيّة ... بركبانها يهوين من سرّة اليمن
أخاف عليكم منه طول لسانه ... وبعد مداه حين إجراره الرسن
فلمّا أبيتم كنت فيكم كبعضكم ... وكان خطابي فيه غبناً من الغبن
فحسبكم ما قال ممّا علمتم ... وحسبي بما ألقاه في القبر والكفن

ثمّ قال سبط ابن الجوزيّ: تفسير غريب هذه الواقعة: قال الأصمعي وهشام بن محمد الكلبي في كتابه المسمّى بـ«**المثالب**»: وقد وقفت على معنى قول الحسن لمعاوية: قد علمت الفراش الّذي ولدت عليه. أن معاوية كان يقال إنه من أربعة من قريش: عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، ومسافر بن أبي عمرو وأبي سفيان والعبّاس بن عبد المطّلب، وهؤلاء كانوا ندماء أبي سفيان وكان كلٌّ منهم يتّهم بهند.

فأمّا عمارة بن الوليد كان من أجمل رجالات قريش وهو الّذي وشى به عمرو بن العاص إلى النّجاشي فدعى الساحر فنفث في أحليله فهام مع الوحش وكانت امرأة النّجاشي قد عشقته.

وأمّا مسافر بن أبي عمرو فقال الكلبيّ: عامة الناس على أنّ معاوية منه لأنّه كان أشدّ الناس حبّاً لهند فلمّا حملت هند بمعاوية خاف مسافر أن يظهر أنّه منه فهرب إلى ملك الحيرة وهو هند بن عمرو فأقام عنده. ثمّ إنّ أبا سفيان قدم الحيرة فلقيه مسافر وهو مريض من عشقه لهند وقد سقى بطنه فسأله عن أهل مكّة فأخبره، وقيل: إنّ أبا سفيان تزوّج هنداً بعد انفصال مسافر عن مكّة فقال أبو سفيان: إنّي تزوجت هنداً بعدك، فازداد مرضه وجعل يذوب فوصف الكيّ فأحضروا المكاويّ والحجّام فبينا الحجّام يكويه إذ حبق الحجّام فقال مسافر: قد

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٨٢.

يحبق[1] العير والمكواة في النّار، فسارت مثلاً ثمَّ مات مسافر من عشقه لهند.

وذكر هشام بن محمد الكلبي أيضاً في كتاب «**المثالب**» وقال: كانت هند من المغيلمات وكانت تميل إلى السودان من الرجال فكانت إذا ولدت ولداً أسود قتلته قال: وجرى بين يزيد بن معاوية وبين إسحاق بن طابة بن عبيد كلام بين يدي معاوية وهو خليفة فقال يزيد لإسحاق: إن خيراً لك أن يدخل بنو حرب كلّهم الجنّة، أشار يزيد إلى أنّ أُمَّ إسحاق كانت تتّهم ببعض بني حرب، فقال له إسحاق: إن خيراً لك أن يدخل بنو العبّاس كلّهم الجنّة، فلم يفهم يزيد قوله وفهم معاوية فلما قام إسحاق قال معاوية ليزيد: كيف تشاتم الرجال قبل أن تعلم ما يقال فيك. قال: قصدت شين إسحاق. قال: وهو كذلك أيضاً قال: وكيف؟ قال: أما علمت أنَّ بعض قريش في الجاهلية يزعمون أنّي للعبّاس، فسقط في يدي يزيد.

وقال الشعبي: وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هند يوم فتح مكّة بشيء من هذا، فإنّها لما جاءت تبايعه وكان قد أهدر دمها فقالت: على ما أُبايعك؟ فقال: على أن لا تزنين، فقالت: وهل تزني الحرّة؟ فعرفها رسول الله ﷺ فنظر إلى عمر فتبّسم.

وأمّا قول الحسن عليه السلام لعمرو بن العاص: ولدت على فراش مشترك فذكر، الكلبيّ أيضاً في «**المثالب**» قال: كانت النابغة أُم عمرو بن العاص من البغايا أصحاب الرايات بمكّة فوقع عليها العاص بن وائل في عدّة من قريش منهم أبو لهب وأُميّة بن خلف وهشام بن المغيرة وأبو سفيان بن حرب في طهر واحد.

قال ابن الكلبيّ: وكان الزّناة الّذين اشتهروا بمكّة جماعة، منهم هؤلاء المذكورون، وأُميّة بن عبد الشمس، وعبد الرّحمٰن بن الحكم بن أبي العاص أخو مروان بن الحكم، وعتبة بن أبي سفيان أخو معاوية، وعقبة بن أبي معيط. فلمّا حملت النابغة بعمرو وتكلّموا فيه فلمّا وضعته اختصم فيه الخمسة الّذين ذكرناهم كلّ واحد يزعم أنّه ولده وألّب عليه العاص بن وائل وأبو سفيان بن حرب كلّ واحد يقول: والله إنّه منّي، فحكّما النابغة فاختارت العاص فقالت: هو منه، فقيل لها: ما حملك على هذا وأبو سفيان أشرف من العاص؟ فقالت: هو كما قلتم إلاّ أنه رجل شحيح، والعاص جواد ينفق على بناتي، وأبو سفيان لا ينفق عليهنَّ وكان لها بنات.

وأمّا قول الحسن عليه السلام للوليد بن عقبة: وجلدك عليٌّ في الخمر، فذكر أرباب السّير قاطبة: أنَّ عثمان بن عفّان ولّى الوليد بن عقبة الكوفة سنة ستّ وعشرين وكان الوليد مدمناً على شرب الخمر وكان يجلس على الشراب وعنده ندماؤه ومغنّوه طوال الليل إلى الفجر فإذا

(١) في نسخة: قد يضرط.

أذّنه المؤذّن بصلاة الفجر خرج سكراناً فصلّى بهم، فخرج يوماً في غلالة لا يدري أين هو فتقدّم إلى المحراب فصلّى بهم الفجر أربعاً وقال: أزيدكم؟ فقال له عبد الله بن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم، ولما سجد قال في سجوده: إشرب واسقني، فناداه عتاب بن غيلان الثقفي: سقاك الله المهل ومن بعثك أميراً علينا، ثمَّ حصبه وحصبه أهل المسجد، فدخل الوليد القصر وهو يترنّح فنام في سريره، فهجم عليه جماعة منهم أبو جندب بن زهير الأسديّ وابن عوف الأزديّ وغيرهما وهو سكران لا يعي فأيقظوه فلم يتنبّه، ثمّ قاء عليهم الخمر فنزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فدخلوا على عثمان فشهدوا على الوليد أنه شرب الخمر، فقال: وما يدريكم أنه شرب خمراً؟ قالوا: شرب الخمر الّذي كنّا نشربه في الجاهليّة. فزبرهما ونال منهما فخرجا من عنده فدخلا على عليّ عليه السلام وأخبراه بالقصّة، فدخل على عثمان فقال له: دفعت الشهود وأبطلت الحدود، قال له: فما ترى؟ فقال: تبعث إلى الفاسق فتحضره فإن قامت عليه البيّنة حددته. فأرسل إلى الوليد فأحضره فشهدوا عليه ولم يكن له حجّة، فرمى عثمان السّوط إلى عليّ عليه السلام وقال له: حدّه، فقال عليّ لولده الحسن: قم فحدّه، فامتنع الحسن عليه السلام وقال: يتولّى حارّها من تولّى قارّها، والقرّ البرد ومعناه يتولاّه والي الأمر، فقال لعبد الله بن جعفر: قم فاجلده فامتنع فلمّا رآهم لا يفعلون توقّياً لعثمان أخذ السوط ودنى من الوليد فسبّه الوليد فقال له عقيل بن أبي طالب: يا فاسق ما تعلم من أنت ألست علجاً من أهل صفوريّة ـ قرية بين عكّا واللّجون من أعمال الأردن ـ كان أبوك يهوديّاً منها فجعل الوليد يحيد عن عليّ فأخذه فضرب به الأرض فقال له عثمان: ليس لك ذلك فقال: بلى وشرّ من ذلك إذ فسق ثمّ يمتنع أن يؤخذ منه حقّ الله تعالى ثمّ جلده أربعين.

وقد أخرج أحمد في «**المسند**» معنى هذا فقال: حدّثنا يزيد بن هارون، ثنا سعيد بن أبي عروبة، عن عبد الله بن الدّاناج، عن حصين بن المنذر بن الحرث بن وعلة قال: لمّا قال عليّ عليه السلام للحسن: قم فاجلده، قال: وفيم أنت وذاك فقال عليّ عليه السلام: بل عجزت ووهنت قم يا عبد الله بن جعفر فاجلده، فقام فجلده وعليّ عليه السلام يعدّ حتّى بلغ أربعين، قال: أمسك، ثمّ قال: جلد رسول الله صلى الله عليه وآله في الخمر أربعين، وضرب أبو بكر أربعين، وضربه عمر صدراً من خلافته، ثمّ أتمّ ثمانين، وكلّ سنّة.

فإن قيل: فقد روى أحمد في «**المسند**» أيضاً عن علي عليه السلام أنه قال: ما من رجل أقمت عليه حدًّا فمات فأجد في نفسي منه إلاّ صاحب الخمر فإنّه لو مات لوديته لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يسنّه، وأخرجاه في الصحيحين فكيف تقول: وكلّ سنّة؟

قلنا: لا خلاف أنَّ النّبي صلى الله عليه وآله ضرب في الخمر فالضرب في الجملة سنّة والعدد ثبت بإجماع الصحابة.

قال السبط: وقيل: هذه القصّة إنّما جرت للحسن عليه السلام مع معاوية والوليد ومن سمّيناهم بالشام لأنَّ الحسن كان يعد على معاوية كلّ حين ومعه الحسين، قلت: وقد دعى رسول الله صلى الله عليه وآله على الوليد بن عقبة لمّا ردّ أمانه، فقال أحمد في المسجد حدَّثنا عبيد الله بن عمر، ثنا عبد الله بن داود، ثنا نعيم بن حكمي، عن ابن أبي مريم عن عليّ عليه السلام قال: جاءت امرأة الوليد بن عقبة تشكوه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقالت: يا رسول الله إنَّ الوليد يضربني فقال: اذهبي إليه وقولي له: قد أجارني رسول الله صلى الله عليه وآله. فلم تلبث إلاّ يسيراً، حتّى جاءت فقالت: يا رسول الله ما زادني إلاّ ضرباً، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله يديه وقال: اللهمَّ عليك بالوليد[1]، وفي رواية: عليك بالفاسق.

واختلفوا في معنى تسميته بالفاسق على قولين: أحدهما أنَّ الوليد قال يوماً لعليّ عليه السلام: ألست أبسط منك لساناً وأحدّ سناناً، فنزلت: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨] ذكره ابن عبّاس.

والثاني أنَّ النّبي صلى الله عليه وآله بعثه سنة ثمان من الهجرة إلى بني المصطلق يصدقهم وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد. فلما بلغهم قدوم الوليد خرجوا يتلقّونه بالهدايا والسلاح فرحاً به، فلمّا رآهم ولّى راجعاً إلى المدينة، فقال: يا رسول الله قد منعوا الزكاة وقاموا إليَّ بالسّلاح فابعث إليهم البعوث، فقدم الحارث بن عباد على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: يا حارث أردت قتل رسولي ومنعت الزكاة؟! فقال: والّذي بعثك بالحق ما وصل إلينا وإنّما رجع من الطريق، ولقد كذب، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجرات: الآية ٦] الآية.

وذكر هشام بن محمد الكلبي عن محمد بن إسحاق قال: بعث مروان بن الحكم وكان والياً على المدينة رسولاً إلى الحسن عليه السلام فقال له: يقول لك مروان: أبوك الّذي فرّق الجماعة وقتل أمير المؤمنين عثمان وأباد العلماء والزّهاد ـ يعني الخوارج ـ وأنت تفخر بغيرك، فإذا قيل لك من أبوك تقول: خالي الفرس.

فجاء الرسول إلى الحسن فقال له: يا أبا محمد إنّي أتيتك برسالة ممن يخاف سطوته ويحذر سيفه فإن كرهت لم أبلغك إيّاها ووقيتك بنفسي، فقال الحسن: لا بل تؤدّيها ونستعين عليه بالله فأدّاها فقال له: تقول لمروان: إن كنت صادقاً فالله يجزيك بصدقك، وإن كنت كاذباً فالله أشدّ نقمة، فخرج الرسول من عنده فلقيه الحسين فقال: من أين أقبلت؟ فقال: من عند أخيك الحسن، فقال: وما كنت تصنع؟ قال: أتيت برسالة من عند مروان، فقال: وما

(١) بحار الأنوار: ١٧/٣٩٨.

هي؟ فامتنع الرسول من أدائها، فقال: لتخبرني أو لأقتلنّك فسمع الحسن فخرج وقال لأخيه: خلٍّ عن الرجل، فقال: لا والله حتّى أسمعها فأعادها الرسول عليه فقال له: قل له: يقول لك الحسين بن عليّ وفاطمة: يا ابن الزرقاء الداعية إلى نفسها بسوق ذي المجاز، صاحبة الراية بسوق عكاظ، ويا ابن طريد رسول الله ﷺ ولعينه، أعرف مَن أنت ومَن أمّك ومَن أبوك(١).

فجاء الرسول إلى مروان فأعاد عليه ما قالا. فقال له: ارجع إلى الحسن وقل له: أشهد أنك ابن رسول الله وقل للحسين: أشهد أنك ابن عليّ بن أبي طالب فقال للرّسول قل له كلاهما لي ورغماً.

قال: قال الأصمعي: أما قول الحسين: يا ابن الداعية إلى نفسها فذكر ابن إسحاق أنّ أُمّ مروان اسمها أُميّة وكانت من البغايا في الجاهليّة وكان لها راية مثل راية البيطار تعرف بها وكانت تسمّى أُم حنبل الزرقاء وكان مروان لا يعرف له أب وإنما نسب إلى الحكم كما نسب عمرو إلى العاص.

وأما قوله: يا ابن طريد رسول الله. يشير إلى الحكم بن أبي العاص بن أُميّة بن عبد شمس، أسلم الحكم يوم الفتح وسكن المدينة وكان ينقل أخبار رسول الله ﷺ إلى الكفّار من الأعراب وغيرهم ويتجسّس عليه، قال الشعبي: وما أسلم إلاّ لهذا ولم يحسن إسلامه ورآه رسول الله ﷺ يوماً وهو يمشي ويتخلّج في مشيته يحاكي رسول الله فقال له: كن كذلك فما زال يمشي كأنه يقع على وجهه، ونفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف ولعنه فلمّا توفي رسول الله ﷺ كلّم عثمان أبا بكر أن يردّه لأنه كان عمّ عثمان فقال أبو بكر: هيهات شيء فعله رسول الله ﷺ والله لا أُخالفه أبداً، فلمّا مات أبو بكر وولّى عمر كلّمه فيه فقال: يا عثمان أما تستحي من رسول الله ﷺ ومن أبي بكر تردّ عدوّ الله وعدوّ رسوله إلى المدينة؟ والله لا كان هذا أبداً، فلمّا مات عمر وولّى عثمان ردّه في اليوم الّذي ولّى فيه وقرّ به وأدناه ودفع له مالاً عظيماً ورفع منزلته، فقام المسلمون على عثمان وأنكروا عليه وهو أوّل ما أنكروا عليه وقالوا: رددت عدوّ الله وروسله وخالفت الله ورسوله فقال: إنّ رسول الله وعدني بردّه فامتنع جماعة من الصحابة عن الصّلاة خلف عثمان لذلك.

ثمّ توفي الحكم في خلافته فصلّى عليه ومشى خلفه فشقّ ذلك على المسلمين وقالوا: ما كفاك ما فعلت حتّى تصلّي على منافق ملعون لعنه رسول الله ﷺ ونفاه. فخلعوه وقتلوه وأعطى ابنه مروان خمس غنائم أفريقيّة خمسمائة ألف دينار، ولمّا بلغ عائشة أرسلت إلى

(١) بحار الأنوار: ٤٩/ ٢٥٣، وكلمات الإمام الحسين: ٢١٣.

عثمان: أما كفاك أنك رددت المنافق حتى تعطيه أموال المسلمين وتصلّي عليه وتشيّعه بهذا السبب؟ قالت: اقتلوا نعثلاً قتله الله فقد كفر، ولمّا بلغ مروان إنكارها جاء إليها يعاتبها فقالت: أُخرج يا ابن الزرقاء أنّي أشهد على رسول الله ﷺ أنه لعن أباك وأنت في صلبه.

قال الشعبي: إنّ مروان ولد سنة اثنتين من الهجرة وأبوه إنّما أسلم يوم الفتح ونفاه رسول الله ﷺ بعد ذلك؛ قلت: وقد ذكر ابن سعد في «**الطبقات**» معنى الحكاية الّتي حكيناها عن ابن إسحاق ورسالة مروان إلى الحسن. انتهى ما أردنا من نقل كلام سبط ابن الجوزي في «**التذكرة**».

وأقول: سيأتي توضيح كلام الإمام المجتبى عليه السلام في عمرو بن العاص العاصي: فادّعاك خمسة من قريش في تفسير كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى عمرو بن العاص.

وأمّا قول الكلبيّ والأصمعي أنَّ معاوية كان من أربعة من قريش فقد روى الزمخشري في كتاب «**ربيع الأبرار**» أيضاً أنّ معاوية كان يعزى إلى أربعة: إلى عمرو بن مسافر، وإلى عمارة بن الوليد، وإلى العبّاس بن عبد المطلّب وإلى الصباح مغنّ أسود كان لعمارة، قال: قالوا: كان أبو سفيان وسيماً قصيراً، وكان الصباح عسيفاً لأبي سفيان شابّاً وسيماً فدعته هند إلى نفسها، وقالوا: إنَّ عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً وأنّها كرهت أن تضعه في منزلها فخرجت إلى أجياد فوضعته هناك، وفي ذلك قال حسان بن ثابت:

لمن الصبي بجانب البطحاء ... في الأرض ملقى غير ذي مهد
بخلت به بيضاء آنسة ... من عبد شمس صلتة الخدّ

وأقول: هذان البيتان من أبيات توجد في آخر ديوان حسّان على ما في نسخة مخطوطة من ديوانه في مكتبتنا، والأبيات معنونة بهذا العنوان: وقال حسّان لهند بنت عتبة بن أبي ربيعة، وبعد البيتين:

تسعى الصباح معولة ... يا هند إنك صلبة الحرد
فإذا تشادعت بمقطرة ... تذكى لها بالوذة الهند
غلبت على شبه الغلام وقد ... بان السواد لحالك جعد
أشرت لكاع وكان عادتها ... دَق المشاش بناجذ جلد

فحرّى لمعاوية أن يباهي ويفتخر قائلاً: أُولئك آبائي فجئني بمثلهم.

وأمّا قوله: إذ حبق الحجّام، فقال مسافر: قد يحبق[1] العير والمكواة في النار فقال

(١) في نسخة: يضرط.

الميداني في «**مجمع الأمثال**»: ويقال: إنّ أوّل من قاله مسافر ابن أبي عمرو بن أُميّة وذلك أنّه كان يهوى بنت عتبة وكانت تهواه فقالت: إنّ أهلي لا يزوّجونني منك إنك معسر، فلو قد وفدت إلى بعض الملوك لعلك تصيب مالاً فتتزوّجني، فرحل إلى الحيرة وافداً إلى النعمان فبينما هو مقيم عنده إذ قدم عليه قادم من مكّة فسأله عن خبر أهل مكّة بعده فأخبره بأشياء وكان منها أنّ أبا سفيان تزوّج هنداً فطعن مسافر من الغمّ فأمر النعمان أن يكوى فأتاه الطبيب فلمّا رآه يكوى ضرط فقال مسافر: قد يضرط العير ويقال: إنّ الطبيب ضرط.

وأمّا ما نقل السبط من قول أمير المؤمنين علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: قم فحدّه فامتنع الحسن، وما روى أحمد في المسند من أنّ علياً عليه السلام لما قال للحسن عليه السلام قم فاجلده قال الحسن عليه السلام: وفيم أنت وذاك، ففيهما كلام، لأنّ امتناع الإمام المجتبى عليه السلام عمّا أمره به أبوه أمير المؤمنين عليه السلام فدونه خرط القتاد.

وأمّا ما نقله من حدّ شارب الخمر ومن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام جلد الوليد أربعين فالبحث عنه يوجب الإسهاب فإنّه يؤدّي إلى شعب كثيرة من مسائل فقهية وغيرها ولذلك نكتفي على نقل ما أتى به صاحب «**الجواهر**» في شرح كتاب الحدود من كتاب الشرائع قال رحمه الله:

حدّ المسكر ثمانون جلدة بلا خلاف أجده فيه بل الإجماع بقسميه عليه بل المحكى منهما مستفيض أو متواتر كالنصوص، لكن في حسن الحلبى سئل الصّادق عليه السلام أرأيت النبي صلى الله عليه وآله كيف يضرب بالخمر؟ قال: كان يضرب بالنعال ويزيد إذا أتى بالشارب ثمّ لم يزل الناس يزيدون حتّى وقف ذلك على ثمانين، أشار بذلك عليّ عليه السلام على عمر[1].

ونحوه خبر أبي بصير عنه عن أمير المؤمنين عليه السلام معلّلاً بأنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى فإذا فعل ذلك فاجلدوه حدّي المفتري ثمانين.

بل في «**المسالك**» روى العامة والخاصّة أنّ النّبي صلى الله عليه وآله كان يضرب الشارب بالأيدي والنعال ولم يقدّره بعدد فلمّا كان في زمن عمر استشار أمير المؤمنين عليه السلام في حدّه فأشار عليه أن يضربه ثمانين معلّلاً له بأنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذي وإذا هذى افترى، فجلده عمر ثمانين وعمل بمضمونه أكثر العامّة.

وذهب بعضهم إلى أربعين مطلقاً لما روي أنّ صحابة قد رووا ما فعل في زمانه صلى الله عليه وآله بأربعين وكان التقدير المزبور عن أمير المؤمنين عليه السلام من التفويض الجائز لهم.

---

(١) الكافي: ٧/ ٢١٤ ح٢، وتهذيب الأحكام: ١٠/ ٩١ ح٣٥١.

ومن الغريب ما في كتاب «**الاستغاثة في بدع الثلاثة**» من أنّ حدّ الشارب الثمانين من بدع الثاني، وأنّ الرسول ﷺ جعل حدّه أربعين بالنعال العرين وجرائد النخل بإجماع أهل الرواية. وأن الثاني قال: إذا سكر افترى وأنه افترى حدّ حد المفتري، وفي كشف اللثام ولعلّه أراد إلزامهم باعترافهم كما في الطرائف من قوله ومن طريق ما شهدوا به أيضاً على خليفتهم عمر من تغييره لشريعة نبيّهم ﷺ وقلّة معرفته بمقام الأنبياء وخلفائهم ما ذكره الحميدي في «**الجمع بين الصحيحين**» من مسند أنس بن مالك في الحديث الحادي والتسعين من المتفق عليه أنَّ النّبي ضرب في الخمر بالجرائد والنعال وجلد أبو بكر أربعين فلمّا كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمٰن: أخفّ الحدود ثمانون فأمر به عمر.

وذكر الحميدي أيضاً في كتاب «**الجمع بين الصحيحين**» في مسند السائب بن يزيد في الحديث الرابع من أفراد البخاري قال: كنّا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله ﷺ وإمرة أبي بكر وشطر من خلافة عمر فنتقدَّم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين حتّى إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين.

ثمَّ إنّ ظاهر النصّ والفتوى اعتبار الثمانين مترتبة لكن في خبر زرارة: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ الوليد بن عقبة حين شهد عليه بشرب الخمر قال عثمان لعلي عليه السلام: اقض بينه وبين هؤلاء الّذين زعموا أنه شرب الخمر، قال: فأمر عليٌّ عليه السلام فجلد بسوط له شعبتان أربعين جلدة فصارت ثمانين[1].

وفي خبره الآخر سمعته أيضاً يقول: أقيم عبيد بن عمر وقد شرب الخمر فأمر عمر أن يضرب فلم يتقدَّم عليه أحد يضربه حتّى قام عليٌّ عليه السلام بنسعة مثنية لها طرفان فضربه أربعين، ويمكن حملهما على جواز ذلك لمصلحة والله العالم، وكيف كان فالمشهور بين الأصحاب شهرة عظيمة كادت تكون إجماعاً أنه لا فرق في الثمانين رجلاً كان الشارب أو امرأة حرّاً كان أو عبداً بل عن صريح الغنية وظاهر غيرها الإجماع عليه، انتهى ما أردنا من نقل كلامه طيّب الله رمسه.

ثمّ قال عليه السلام: **(وكتاب الله يجمع لنا ـ إلى قوله: أولى بالطاعة)** احتج عليه السلام بآيتين من القرآن الكريم على أولويّته من غيره في أمر الخلافة واستنتج من الأولى أولويّته بالخلافة بقرابته إلى رسول الله ﷺ، ومن الثانية أولويّته بالخلافة بطاعة الرسول ولا يخفى على أُولي الألباب حسن استنباطه عليه السلام هذا المعنى من القرآن الكريم.

كما لا يخفى عليهم أنّه عليه السلام كان من أخصّ أُولي الأرحام بالرسول ﷺ. وكان أقرب

---

(١) الكافي: ٧/ ٢١٥ ح٦، وتهذيب الأحكام: ١٠/ ٩٠ ح٣٤٧.

الخلق إلى اتباعه، وناهيك في المقام قوله عليه السلام: ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّ رأسه لعلى صدري ولقد سالت نفسه في كفّي فأمررتها على وجهي ولقد وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعواني فضجّت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هنيمة منهم يصلّون حتى واريناه في ضريحه فمن ذا أحقُّ به منّي حيّاً وميّتاً؟، كما مضى في المختار ١٩٥ من باب الخطب، وقد مضت طائفة من كلامنا في الإمام وصفاته في شرح المختار ٢٣٧ من باب الخطب فراجع (ص٣٥ ـ ١٧٦ ج١٦).

ثمّ إنّه عليه السلام أتى بعد آية أُولي الأرحام بالآية الثانية لأنّ الأمر الأهمّ هو الاتباع ولولاه لا تنفع القرابة، ألا ترى قوله عزّ وجل خطاباً لنوح عليه السلام في أمر ولده: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٦].

ثمّ قال عليه السلام: **(ولما احتجَّ المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة ـ إلى قوله: على دعواهم)** ثمّ احتجَّ عليه السلام على معاوية بما ظفر المهاجرون يوم السقيفة على الأنصار وذلك أنّه قالت الأنصار يوم السقيفة للمهاجرين: منّا أمير ومن قريش أمير. وقال المهاجرون: نحن شجرة الرسول وعشيرته ورووا عنه صلى الله عليه وآله: الأئمة من قريش، فغلبوا بذلك على الأنصار **(ص١٨٣٨ من «تاريخ الطبري»)** فاحتجّ أمير المؤمنين علي عليه السلام على معاوية بأنّ ظفرهم على الأنصار إن كان لقربهم منه عليه السلام فالحق لنا، أي فالحقّ لأهل بيته، ومن كان من أخصّ أُولي الأرحام بالرسول وأقربهم إليهم أولى بذلك الحقّ، وإن كان بغيره فالأنصار على دعواهم أي لم تتم حجّة المهاجرين عليهم فلم يتحقّق إجماع الصحابة على خلافة من جعل خليفة المسلمين منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله. وسيأتي عن قريب في شرح هذا الكتاب نحو احتجاجه هذا لمّا أتي به إلى أبي بكر للبيعة المنقول من كتاب **«الإمامة والسياسة»** للدينوري.

وبالجملة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام احتجَّ على معاوية بالكتاب العزيز أوّلاً بأنّه مرّة أولى بالخلافة بقرابة الرسول صلى الله عليه وآله وتارة أولى بها بالطاعة، ثمّ احتجَّ عليه بما غلب المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة بأنّ ظفر المهاجرين عليهم إن كان لقربهم من الرّسول صلى الله عليه وآله فهو عليه السلام أولى بالخلافة من غيره لقربه من الرسول بما دريت، وإن كان لغير القرابة فلم يتمّ أمر الخلافة في الخلفاء الثلاث. فما كتب معاوية في كتابه المنقول آنفاً ليس بصحيح لأنّه قال في ذلك الكتاب: فكان أفضلهم مرتبة وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة الخليفة الأوّل الّذي جمع الكلمة ـ ثمّ الخليفة الثاني الّذي فتح الفتوح ـ ثمّ الخليفة الثالث المظلوم الّذي نشر الملّة ـ الخ ـ فإذا كان الأنصار على دعويهم لم يتحقّق إجماع على خلافة هؤلاء.

على أنَّ معاوية كان أجنبيّاً من النبي صلى الله عليه وآله والأنصار كليهما بلا كلام فلا يجوز له دعوى الخلافة فليس لمثله حقّ فيها.

وقد مضى نحو كلامه عليه السلام هذا في المختار التاسع (ص٣٣٠ ج١٧) حيث قال عليه السلام: لأن الله جل ذكره لمّا قبض نبيّه صلى الله عليه وآله قالت قريش: منّا أمير وقالت الأنصار: منّا أمير فقالت قريش: منّا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله فنحن أحقّ بذلك الأمر فعرفت ذلك الأنصار فسلمت لهم الولاية السلطان فإذاً استحقّوها بمحمّد صلى الله عليه وآله دون الأنصار فإنَّ أولى النّاس بمحمّد صلى الله عليه وآله أحقّ بها منهم وإلاّ فإنَّ الأنصار أعظم العرب فيها نصيباً فلا أدري أصحابي سلموا من أن يكونوا حقّي أخذوا أو الأنصار ظلموا عرفت أنَّ حقّي هو المأخوذ ـ الخ.

قلت: ومن كلامه هذا يستفاد حمل قوله: **(وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم)**، على أنّ دعواهم: منّا أمير ومنكم أمير، بحالها، فإنّهم أعظم العرب فيها نصيباً فهم منعوا عن حقّهم ظلماً، وهذا وجه آخر فهم من كلامه هذا بقرينة كلامه ذلك، وإن كان يستلزم هذا الوجه المعنى الأوّل أيضاً.

قال المسعودي في **«مروج الذهب»**: بايع النّاس أبا بكر في سقيفة بني ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري في يوم الإثنين الّذي توفّى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ولمّا بويع أبو بكر في يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء، خرج علي عليه السلام فقال: أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقّاً، فقال أبو بكر: بلى، ولكن خشيت الفتنة، وكان للمهاجرين والأنصار يوم السقيفة خطب طويل ومحادثة في الإمامة، وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع، ولم يبايع أبا بكر أحد من بني هاشم حتّى ماتت فاطمة عليها السلام.

قال: ولما احتضر أبو بكر قال: ما أنا إلاّ على ثلاث فعلتها وددت أنّي تركتها، وثلاث تركتها وددت أنّي فعلتها، وثلاث وددت أنّي سألت رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فأمّا الثلاث الّتي فعلتها ووددت أنّي تركتها فوددت أنّي لم أكن فتشت بيت فاطمة، وذكر في ذلك كلاماً كثيراً. ووددت أنّي أكن حرقت الفجاءة وأطلقته نجيحاً أو قتلته صريحاً، ووددت أنّي يوم سقيفة بني ساعدة قد رميت الأمر في عنق أحد الرجلين فكان أميراً وكنت وزيراً، الخ.

قلت: قد ذكر نحو كلام المسعودي في **«مروج الذهب»** ابن عبد البرّ في كتاب **«الاستيعاب»** حيث قال في ترجمة أبي بكر: أنه بويع له بالخلافة اليوم الّذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وآله في سقيفة بني ساعدة، ثمَّ بويع البيعة العامّة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم وتخلّف عن بيعته سعد بن عبادة، وطائفة من الخزرج، وفرقة من قريش. انتهى.

ونقل نحوهما غير واحد من حملة الأخبار غيرهما وفيه دليل بيّن على اختلاف القوم في بيعته وعدم توافقهم في خلافته.

وقال **اليعقوبي في تاريخه**: اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يوم توفّي

رسول الله ﷺ وهو بعد لم يغسل ـ إلى أن قال: وقام المنذر بن الأرقم فقال: إنَّ فيهم رجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد ـ قال: يعني عليّ بن أبي طالب ـ وجاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم بويع أبو بكر، فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدّثون حدثاً نغيب عنه ونحن أولى بمحمّد ﷺ، فقال العبّاس: فعلوها وربّ الكعبة.

قال: وكان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في عليّ عليه السلام فلما خرجوا من الدار، قام الفضل بن العبّاس وكان لسان قريش فقال: يا معشر قريش إنّه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم، وقام عتبة ابن أبي لهب فقال:

ما كنت أحسب أنَّ الأمر منصرف ... عن هاشم ثمّ منها عن أبي الحسن

عن أوّل النّاس إيماناً وسابقة ... وأعلم النّاس بالقرآن والسنن

وآخر النّاس عهداً بالنبي ومن ... جبريل عون له بالغسل والكفن

من فيه ما فيهم لا يمترون به ... وليس في القوم ما فيه من الحسن

فبعث إليه عليّ عليه السلام فنهاه، وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع عليّ بن أبي طالب منهم العبّاس بن عبد المطلّب، والفضل بن العبّاس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسيّ، وأبو ذرّ الغفاريّ، وعمّار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب، انتهى كلامه(١).

قلت: ومن هنا سمّيت الطّائفة الحقّة الإثنا عشريّة بالرافضة كما قال شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي قدّس سرّه: من أنَّ سبعة عشر رجلاً من الصحابة ومع عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ثمانية عشر أبوا عن بيعة أبي بكر، فقال غيرهم ممّن بايعوا أبا بكر في هؤلاء: رفضونا أي تركونا ولم يوافقونا في البيعة.

وكان فيمن تخلّف عن بيعة أبي بكر أبو سفيان بن حرب، وقال: أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم، وقال لعلي عليه السلام: امدد يدك أُبايعك، ومضى كلام أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية: وقد كان أبوك أتاني حين ولى النّاس أبا بكر فقال: أنت أحقّ بعد محمد ﷺ بهذا الأمر وأنا زعيم لك بذلك على من خالف عليك أبسط يدك أُبايعك، فلم أفعل؛ فراجع إلى شرح المختار التاسع **(ص٣٣١ ج١٧ وص٧ ج١٨)**.

قوله عليه السلام: (وزعمت أنّي لكلّ الخلفاء حسدت وعلى كلّهم بغيت ـ إلى قوله: ظاهر

---

(١) خلاصة عبقات الأنوار: ٣/ ١٢ ح٣، ومعالم المدرستين: ١/ ١٢٢.

عنك عارها) هذا الفصل جواب عن قول معاوية: لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه، إلى قوله: ثمّ كرهت خلافة عمر وحسدته، إلى قوله: لم تكن أشدّ منك حسداً لابن عمّك عثمان إلى قوله: وما من هؤلاء إلاّ من بغيت عليه وقال عليه السلام فإن يكن ذلك كذلك أي لا نسلّم، أوّلاً: على أنّي حسدت هؤلاء وأنت كاذب في دعواك هذه.

أقول: قد مرّ تحقيق ذلك في المختار ٢٣٧ من باب الخطب في البحث عن الأمامة من أنّ جميع الذُّنوب أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة فهذه منفية عن الإمام **(فراجع إلى ص٤٤ ج١٦)**.

وثانياً: على فرض التسليم والمماشاة معكم في تلك الدعوى بأن تكون صادقاً فيها فليس الجناية عليك حتّى أعتذر إليك وذلك لما مرّ غير مرّة من أنّ معاوية لم يكن وليّ دم عثمان كي يطلب دمه بل كلامه في ذلك من الفضول وخوض فيما لا يعنيه، على أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان يذبّ عنه حتّى قال عليه السلام: ما زلت أذبّ عن عثمان حتّى أنّي لأستحي، وقد دريت أنّ عثمان قتل نفسه بأحداثه التي أحدثها ممّا نقمها الناس منه وطعنوا بها عليه، فراجع إلى شرحنا على المختار التاسع من باب الكتب **(ص٣٩٥ ج١٧)**، وقد تمثّل عليه السلام تأكيداً لكلامه: ليس الجناية عليك فيكون العذر إليك، بقول أبي ذؤيب الهذلي وقد تقدّم بيانه في شرح اللغات على التفصيل.

ثمّ قد مضى نحو كلامه هذا في المختار التّاسع من باب الكتب حيث قال عليه السلام: وذكرت حسدي الخلفاء وإبطائي عنهم وبغيي عليهم فأما البغي فمعاذ الله أن يكون، وأمّا الإبطاء عنهم والكراهة لأمرهم فلست أعتذر منه إلى الناس ـ الخ **(ص٣٣٠ ج١٧)**[1].

قوله عليه السلام: **(وقلت: إنّي كنت أُقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتّى أبايع ـ إلى قوله: بقدر ما سنح من ذكرها)** هذا الفصل جواب عن قول معاوية: وتلكّأت في بيعته حتّى حملت عليه قهراً تساق بحزائم الاقتسار كما يساق الفحل المخشوش.

وكان كلام معاوية في كتابه المنقول في شرح المختار التاسع **(ص٣٢٧ ج١٧)** إلى أمير المؤمنين عليه السلام: فكان أفضلهم في إسلامه وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة من بعده وخليفة خليفته، والثالث الخليفة المظلوم عثمان فكلّهم حسدت وعلى كلّهم بغيت، عرفنا ذلك في نظرك الشزر وفي قولك الهجر وفي تنفسّك الصعداء وإبطائك عن الخلفاء تقاد إلى كلّ منهم كما يقاد الفحل المخشوش حتّى تبايع وأنت كاره.

(١) نهج السعادة: ١/ ٤٥، والمعيار والموازنة: ٤٦ ح١١٦٠.

وإنّما قال عليه السلام: **(لقد أردت أن تذمّ فمدحت وأن تفضح فافتضحت)** لأنّ قول معاوية: وتلكأت في بيعته حتى حملت عليه قهراً تساق بحزائم الاقتسار، كما يساق الفحل المخشوش، وكذا قوله: وفي إبطائك عن الخلفاء تقاد إلى كلّ منهم كما يقاد الفحل المخشوش حتّى تبايع وأنت كاره، اعتراف صريح بأنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام بايعهم على إجبارهم إيّاه، فلم يكن إجماع الأُمّة على خلافة الثلاث، فلم تتم خلافتهم فاعترف معاوية بظلمهم عليّاً عليه السلام وأنّه عليه السلام كان مظلوماً، وكان معاوية جعل خلافتهم عرضة لأغراضه الفاسدة سيما الثالث منهم كما لا يخفى فأراد معاوية أن يذمّ أمير المؤمنين عليه السلام فمدحه، وأن يفضحه فافتضح هو نفسه بكلامه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فَاطِر: ٤٣].

ثمّ إنّ نحو هذا الاحتجاج وقع بين الأمير عليه السلام وبين أبي بكر وقد أتى به الطبرسي في كتاب **«الاحتجاج»** قال: احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على أبي بكر لمّا كان يعتذر إليه من بيعة الناس له ويظهر الانبساط له، عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال:

لمّا كان من أمر أبي بكر وبيعة الناس له وفعلهم بعليّ لم يزل أبو بكر يظهر له الانبساط ويرى منه الانقباض فكبر ذلك على أبي بكر وأحب لقاءه واستخرج ما عنده والمعذرة إليه ممّا اجتمع الناس عليه وتقليدهم إيّاه أمر الأُمّة وقلة رغبته في ذلك وزهده فيه، أتاه في وقت غفلة وطلب منه الخلوة فقال: يا أبا الحسن والله ما كان هذا الأمر عن مواطأة مني ولا رغبة فيما وقعت عليه ولا حرص عليه ولا ثقة بنفس فيما تحتاج إليه الأُمّة ولا قوّة لي بمال وكثرة العشيرة ولا استيثار به دون غيري فما لك تضمّر عليّ ما لم أستحقّه منك، وتظهر لي الكراهة لما صرت فيه وتنظر إليّ بعين الشناءة لي؟

قال: فقال أمير المؤمنين عليه السلام: فما حملك عليه إذ لم ترغب فيه ولا حرصت عليه وثقت بنفسك في القيام به؟

قال: فقال أبو بكر: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله لا يجمع أُمّتي على ضلال، ولمّا رأيت إجماعهم اتّبعت قول النبي صلى الله عليه وآله وأحلت أن يكون إجماعهم على خلاف الهدى من الضلال، فاعطيتهم قود الإجابة ولو علمت أنّ أحداً يتخلّف لامتنعت.

فقال عليّ عليه السلام: أمّا ما ذكرت من قول النبي صلى الله عليه وآله: إنّ الله لا يجمع أُمّتي على ضلال أفكنت من الأُمّة أم لم أكن؟ قال: بلى، قال: وكذلك العصابة الممتنعة عنك من سلمان وعمّار وأبي ذرّ والمقداد وابن عبادة ومن معه من الأنصار؟ قال: كلٌّ من الأمّة، قال عليّ عليه السلام: فكيف تحتجّ بحديث النبيّ صلى الله عليه وآله وأمثال هؤلاء قد تخلّفوا وليس للأمة فيهم طعن

ولا في صحبة الرسول ولصحبته منهم تقصير[١] ـ إلى آخر الاحتجاج.

قال القاضي قدّس سرّه في إحقاق الحقّ: إنَّ إجماع الأُمّة بأجمعهم على إمامة أبي بكر لم يتحقّق في وقت واحد وهذا واضح جدًّا مع قطع النظر عن عدم حضور أهل البيت عليهم السلام وسعد بن عبادة سيّد الأنصار وأولاده وأصحابه ولهذا طوى صاحب المواقف دعوى ثبوت خلافة أبي بكر بالإجماع واكتفى في إثباته بالبيعة ـ إلى أن قال:

فإنَّ بني هاشم لم يبايعوا أوّلاً ثمَّ قُهِروا فبايعوا بعد ستّة أشهر وامتنع علي عليه السلام ولزم بيته ولم يخرج إليهم في جمعة ولا جماعة إلاّ [إلى] أن وقع ما نقله أهل الأحاديث والأخبار واشتهر كالشمس في رابعة النهار حتّى أنَّ معاوية بعث إلى عليّ عليه السلام في كتاب كتبه إليه يقول فيه: إنك كنت تقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتّى تبايع، يعيّره ويؤنبه بأنه لم يبايع طوعاً ولم يرض ببيعة أبي بكر حتى استكره عليها خاضعاً ذليلاً كالجمل إذا لم يعبر على قنطرة وشبهها فإنه يكره ويخشّ بالرماح وغيرها ليعبر كرهاً.

فكتب إليه بالجواب عنه ما ذكر في نهج البلاغة المتواتر نقله عنه عليه السلام وهذا لفظه: وقلت: إني كنت أُقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتّى أبايع، ولعمر الله لقد أردت أن تذمّ فمدحت وأن تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكّاً في دينه أو مرتاباً في يقينه وهذه حجّتي إلى غيرك[٢]. انتهى ما أردنا من نقل كلامه في المقام.

ثمَّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: **(وما على المسلم من غضاضة)** أي ذلة ومنقصة **(في أن يكون مظلوماً)** أي مغصوباً حقّه وهو الخلافة والغاصب ظالم **(ما لم يكن)** المسلم المظلوم **(شاكّاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه)** فهو عليه السلام يشير إلى أنّه كان على يقين وبصيرة في دينه ولا يضرّه ولا يضلّه عدول الناس عن العدل وميلهم إلى الجور وسيأتي كلامه عليه السلام في المختار ٦٢ من هذا الباب: **إنّي والله لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلّها ما باليت ولا استوحشت، وإنّي من ضلالهم الّذي هم فيه والهدى الّذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربي وإني إلى لقاء الله ولحسن ثوابه لمنتظر راج ـ الخ.**

كما مضى نحو كلامه هذا في المختار العاشر من باب الخطب: **ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله وإنّ معي لبصيرتي ما لبّست على بصيرتي نفسي ولا لبّس**

---

(١) حياة أمير المؤمنين (ع) عن لسانه: ٢/ ١٨٥، والخصال: ٥٤٩.

(٢) الاحتجاج: ١/ ٢٦٢، وكتاب الأربعين: ١٦٥.

عليّ - الخ، وكذا في المختار ١٣٥ من باب الخطب: وإنّ معي لبصيرتي ما لبّست ولا لبّس عليّ - الخ.

وفي الحديث الثاني عشرمن كتاب العقل والجهل من «**أصول الكافي**» للكليني قدس سره روى بإسناد عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه - إلى أن قال عليه السلام: يا هشام ثمّ ذم الله الكثرة فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥] وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣].

يا هشام، ثمّ مدح القلّة، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] وقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وقال: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] وقال: (**وأكثرهم لا يشعرون**)[1] الحديث.

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام (**وهذه حجّتي إلى غيرك قصدها ولكنّي أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها**) يعني عليه السلام أنّ بيعته عليه السلام الخلفاء على إجبارهم إيّاه وإكراههم إيّاه حجّة عليهم لما دريت من احتجاجه عليه السلام على أبي بكر المنقول آنفاً من «**كتاب الاحتجاج**»، ومن إحقاق الحق، ولما لم يكن معاوية في أمر الخلافة في شيء كما دريت آنفاً من عدم كونه في مظنّة الاستحقاق بل كان غير لائق له رأساً وكان أجنبيّاً من النبيّ والأنصار كليهما ولم يكن له حظ وشأن فيه أصلاً قال عليه السلام: وهذه حجّتي إلى غيرك - الخ.

وبما قدمنا وحقّقنا في معنى قوله عليه السلام: (**وقلت إنّي كنت أُقاد كما يقاد الجمل المخشوش - الخ**)، تعلم أنّ ما ذهب إليه الشارح البحراني ليس كما ينبغي تركنا نقل كلامه مخافة التطويل ومن شاء فليراجع إلى شرحه.

ولنذكر نبذة من كلام ابن قتيبة الدينوري في إكراه القوم عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام للبيعة وإبايته البيعة، فقال في كتاب «**الإمامة والسياسة**» المعروف **بتاريخ الخلفاء (ص١١ من طبع مصر)**:

---

(١) الكافي: ١/ ١٥، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٥٩٣.

ثمَّ إنّ علياً كرّم الله وجهه أتي به إلى أبي بكر وهو يقول: أنا عبد الله، وأخو رسوله، فقيل له: بايع أبا بكر. فقال: أنا أحقّ بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ، وتأخوذنه منّا أهل البيت غصباً؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة، وسلّموا إليكم الإمارة وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى برسول الله ﷺ حيّاً وميّتاً، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلاّ فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون.

فقال له عمر: إنك لست متروكاً حتّى تبايع، فقال له عليٌّ: إحلب حلباً لك شطره واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً، ثمَّ قال: والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أُبايعه، فقال له أبو بكر: فإن لم تبايع فلا أكرهك، فقال أبو عبيدة بن الجرّاح لعلي كرّم الله وجهه: يا ابن عمّ إنّك حديث السنّ وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ولا أرى أبا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به، فسلّم لأبي بكر هذا الأمر، فإنّك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك.

فقال عليّ كرّم الله وجهه: الله الله يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيعته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحقّ النّاس به لأنا أهل البيت ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله العالم بسنن رسول الله المضطلع بأمر الرعيّة، المدافع عنهم الأمور السّيئة القاسم بينهم بالسوية والله إنّه لفينا، فلا تتّبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحقّ بعداً.

فقال بشير بن سعد الأنصاري: لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا عليُّ قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان.

قال: وخرج عليّ كرّم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله ﷺ على دابّة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول عليّ كرّم الله وجهه: أفكنت أدع رسول الله ﷺ في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلاّ ما كان ينبغي له ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم.

قال: وإنّ أبا بكر تفقد قوماً تخلّفوا عن بيعته عند علي، فبعث إليهم عمر فجاء فناداهم وهم في دار علي فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده: لتخرجنّ أو

لأحرقنها على من فيها، فقيل له: يا أبا حفص إنَّ فيها فاطمة، فقال: وإن. فخرجوا فبايعوا إلاّ عليّاً فإنّه زعم أنه قال حلف أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتّى أجمع القرآن، فوقفت فاطمة على بابها فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا ولم تردّوا لنا حقاً.

فأتى عمر أبا بكر فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلّف عنك بالبيعة؟ فقال أبو بكر لقنفذ وهو مولى له: إذهب فادع لي عليّاً، فذهب إلى عليّ فقال له: ما حاجتك؟ فقال: يدعوك خليفة رسول الله، فقال عليّ: لسريع ما كذبتم على رسول الله. فرجع فأبلغ الرسالة فبكى أبو بكر طويلاً فقال عمر الثانية: لا تمهل هذا المتخلّف عنك بالبيعة، فقال أبو بكر لقنفذ: عد إليه فقل له: أمير المؤمنين يدعوك لتبايع، فجاءه قنفذ فأدّى ما أمر به فرفع عليّ صوته فقال: سبحان الله! لقد ادّعى ما ليس له فرجع قنفذ فأبلغ الرسالة فبكى أبو بكر طويلاً ثمَّ قام عمر فمشى معه جماعة حتى أتوا باب فاطمة فدّقوا الباب فلمّا سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها: يا أبت يا رسول الله ما ذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة.

فلمّا سمع القوم صوتها وبكاءها انصرفوا باكين وكادت قلوبهم تنصدع وأكبادهم تنفطر وبقي عمر ومعه قوم فأخرجوا عليّاً فمضوا به إلى أبي بكر فقالوا له: بايع، فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذا والله الّذي لا إله إلاّ هو تضرب عنقك، قال: إذا تقتلون عبد الله وأخ رسوله، قال عمر: أمّا عبد الله فنعم وأمّا أخو رسوله فلا، وأبو بكر ساكت لا يتكلّم، فقال له عمر: ألا تأمرك فيه بأمرك، فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه، فلحق عليّ بقبر رسول الله ﷺ يصيح ويبكي وينادي: يا ابن أُمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني.

قال، فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها. فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا عليّاً فكلّماه فأدخلهما عليها فلمّا قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط فسلّما عليها فلم تردّ عليهما السلام فتكلّم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله والله إنَّ قرابة رسول الله أحبّ إليّ من قرابتي، وإنك لأحبّ إليَّ من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أنّي متّ ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله إلا أني سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول: لا نورث ما تركنا فهو صدقة. فقالت: أرأيتكما إن حدَّثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به؟ قالا: نعم، فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ، قالت:

فإنّي أُشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه[١]، إلى أن قال ابن قتيبة: فلم يبايع علي كرم الله وجهه حتّى ماتت فاطمة ولم تمكث بعد أبيها إلاّ خمساً وسبعين ليلة، الخ[٢].

قلت: إنّ كلام الأمير عليه السلام: يا ابن أُمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يتقلونني، اقتباس من قول الله عزّ وجلّ فيما جرى بين موسى كليم الله عليه السلام وأخيه هارون وبين قومه الظالمين حيث قال عزّ من قائل: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٢].

وإنّما تذكّر عليه السلام في التجائه بقبر النبي صلى الله عليه وآله بهذه الآية لأنه عليه السلام كان من النبي بمنزلة هارون من موسى كما رواه الفريقان في جوامعهم الروائية وحديث المنزلة من الأحاديث المتواترة وقد نقل المحدّث الخبير الرّباني السّيد هاشم البحراني طيب الله رمسه وأعلى مقامه في الباب العشرين من كتابه القيّم الموسوم بـ«**غاية المرام وحجّة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعامّ**» مائة حديث من طريق العامّة في قول النبي صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي، وفي الباب الحادي والعشرين منه سبعين حديثاً من طريق الخاصّة في ذلك[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٨/٣٥٧، والغدير: ٧/٢٢٩.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/٣١.

(٣) **حديث المنزلة ودلالته**

صحة المنزلة وتواتره: في شرح الرسالة للشيخ جسوس ما نصه: وحديث «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى**» متواتر (نظم المتناثر من الحديث المتواتر: ٢٠٧ ح ٢٣٣).

وقال الحاكم: هذا حديث دخل حد التواتر (كفاية الطالب: ٢٨٣ الباب ٧٠).

وقد صرح السيوطي أيضاً وغيره بتواتره (الازهار المتناثرة: ٧٦ ح ١٠٣، ونظم المتناثر: ٢٠٦ ح ٢٣٣، واتحاف ذوي الفضائل: ١٦٩ ح ٢١٧).

وأخرجاه في الصحيحين واتفقا عليه، مشكاة المصابيح: ٣/١٧١٩ ح ٦٠٧٨ كتاب المناقب ـ مناقب علي، وصحيح مسلم في: ١٥/١٦٩ ح ٦١٦٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي عن سعد، وصحيح =

فإذا كان لأمير المؤمنين علي عليه السلام تلك المنزلة السامية ففي استشهاده بالآية يظهر

= البخاري: ٥/ ٨١ ح ٢٢٥ كتاب فضائل أصحاب النبي باب مناقب علي (٣٩) .

مكان صدور حديث المنزلة ومواطنه:

١ - قبل غزوة تبوك: رواه جملة من الصحابة منهم سعد بن عبيدة بن أبي بردة بلفظ: فقال ﷺ : **«ألا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ النبوة وأنت خليفتي»** مسند أحمد: ١/ ١٨٣ ط.م و٢٩٨ ط.ب، ومروج الذهب: ٢/ ٦١ ط. مصر ١٣٤٦ و٣/ ١٤ ط. دار الاندلس بيروت ـ خلافة معاوية، وكنز العمال: ١٠/ ١٣٩ ط. حيدر آباد،

٢ - حديث المنزلة يوم المؤآخاة في المدينة: روي عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دخلت على رسول الله ﷺ في مسجده فقال لي: **«اين فلان واين فلان فجعل ينظر في وجوه اصحابه ويتفقدهم ويبعث اليهم حتى توافوا عنده فحمد الله واثنى عليه وآخى بينهم»**. فقال له علي بن ابي طالب: **«لقد ذهبت روحي يا رسول الله حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيري، فان كان هذا من الله فلك العتبى والكرامة»**.

فقال رسول الله ﷺ : **«والذي بعثني بالحق ما اخرتك لا لنفسي، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى، وأنت أخي ووارثي»**.

فضائل الصحابة لاحمد: ٢/ ٦٣٨ ـ ٦٦٦ ح ١٠٨٥ ـ ١١٣٧ مناقب علي، والمعجم الاوسط: ٨/ ٤٣٥ ح ٧٨٩٠.

٣ ـ حديث المنزلة يوم المباهلة: رواه أنس بن مالك قال: لما كان يوم المباهلة وآخى النبي ﷺ بين اصحابه المهاجرين والانصار (وساق الحديث إلى ان قال) فأخذ بيده وأرقاه المنبر وقال: **«اللهم هذا مني وأنا منه، ألا إنه مني بمنزلة هارون من موسى، ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه»** (الطرائف: ١/ ١٤٨ - ١٤٩ ح ٢٢٤، والعمدة: ٤٦) .

٤ - حديث المنزلة يوم ولادة الحسن بلسان رب العزة: قالت اسماء بنت عميس: قال رسول الله لعلي يوم ولادة الحسن: **«أي شيء سميت ابني؟**.

قال عليه السلام : ما كنت لا سبقك بذلك. فقال ﷺ : ولا أنا سابق ربي به».

فهبط جبرائيل فقال: يا محمد ان ربك يقرؤك السلام ويقول لك: **«علي منك بمنزلة هارون من موسى ولكن لا نبي بعدك، فسم ابنك هذا باسم ولد هارون»** (تاريخ الخميس: ١/ ٤١٨ الموطن الثالث وقائع سنة ٣ هجري ـ ذكر تسمية الحسن والحسين، ومقتل الحسين للخوارزمي: ٨٧ - ٨٨ الفصل السادس فضائل الحسنين، عيون اخبار الرضا: ٢/ ٢٤ باب ٣١ ح٤.

٥ - حديث المنزلة يوم ولادة الحسين بلسان رب العزة: قالت اسماء بنت عميس: قال رسول الله لعلي يوم ولادة الحسين عليه السلام : **«أي شيء سميت ابني»** وساق الحديث نحو ما تقدم عن الامام الحسن عليه السلام (تاريخ الخميس: ١/ ٤١٨ الموطن الثالث وقائع سنة ٣ هجري ـ ذكر تسمية الحسن والحسين، والرياض النضرة: ٢/ ١٤٤ ط. مصر.

٦ - حديث المنزلة يوم الدار: يوم نزول قوله تعالى: (وانذر عشيرتك الاقربين) (الشعراء: ٢١٤) اخرجه الثعلبي في تفسيره أن النبي ﷺ جمع بني عبد المطلب في الشعب وهم يومئذ اربعون رجلا فجعل لهم علي عليه السلام فخذاً من شاة (الى ان قال) : فقال رسول الله ﷺ : **«إن الله امرني ان انذر عشيرتي الاقربين، ورهطي المخلصين وان الله تعالى لم يبعث نبياً إلاّ جعل له من اهله اخاً وارثاً ووزيراً ووصياً وخليفةً في اهله ؛ فأيكم يبايعني على انه أخي ووزيري [ووصيي [ووارثي دون اهلي ويكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ انه لا نبي بعدي؟»**. =

مطالب لأولي الدراية، فتأمّل فيما تلوناه عليك من الآيات القرآنية.

= فسكت القوم، فاعاد الكلام عليهم ثلاث مرات.
فقام علي وهم ينظرون كلهم إليه فبايعه وأجابه إلى ما دعاه» (الغدير: ٢٨٣.
٧ - حديث المنزلة يوم خيبر: عن جابر الانصاري قال: لما قدم علي على رسول الله ﷺ بفتح خيبر قال له رسول الله ﷺ : «**لولا تقول فيك طائفة من امتي ما قالت النصارى في المسيح بن مريم لقلت فيك اليوم مقالا لا تمر بملأ إلاّ اخذوا التراب من تحت قدميك ومن فضل طهورك فاستشفوا به، وليكن حسبك ان تكون مني وأنا منك ترثني وارثك وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ انه لا نبي بعدي**» (كنز الفوئد: ٢٨١، ومناقب ابن المغازلي: ١٥٧ ط. بيروت وط. طهران: ٢٣٧ ح ٢٨٥.
٨ - حديث المنزلة عند كل قتال لعلي عن يمين الرسول: أخرجه الخوارزمي عن أبي ذر قال: احتج علي اليوم الاول من بيعه عثمان فقال: «**هل تعلمون اني كنت إذا قاتلت عن يمين رسول الله قال: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ انه لا نبي بعدي؟**». قالوا: اللهم نعم (مناقب الخوارزمي: ٣٠١ ح ٢٩٦ الفصل ١٩).
٩ - حديث المنزلة قبل وفاة الرسول بعام: ابن عباس قال: رأيت أبا ذر الغفاري متعلقاً بحلقة بيت الله الحرام وهو يقول: اني رايت رسول الله في العام الماضي وهو آخذ بهذه الحلقة وهو يقول: «**يا ايها الناس لو صمتم حتى تكونوا كالحنايا.. (الى ان قال) علي سيد المسلمين وإمام المتقين يقتل الناكثين والمارقين والجاحدين، وعلي مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ انه لا نبي بعدي**» (كنز الفوائد: ٢٨٢).
١٠ - حديث المنزلة في المسجد عند سد الابواب: فعن جابر الانصاري قال: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن مضطجعون في المسجد وفي يده عسيب رطب فضربنا وقال: «**اترقدون في المسجد؟ انه لا يرقد فيه أحد**».
فاجفلنا واجفل معنا علي بن أبي طالب فقال رسول الله ﷺ : «**تعال يا علي انه يحل لك في المسجد ما يحل لي، يا علي ألا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ النبوة**» (ترجمة امير المؤمنين من تاريخ دمشق: ١/ ٢٩٠ ح ٣٢٩، وينابيع المودة: ١/ ٥١ ـ ٨٨ ط. اسلامبول ١٣٠١ هـ و٥٧ ـ ١٠٠ ط. النجف الباب ٦ ـ ١٧).
١١ - حديث المنزلة في المسجد عند مرض امير المؤمنين عليه السلام : عن أبان عن سليم بعد ما دعى لعلي بالشفاء فعوفي فبشره فقال: «**اني لم اسأل الله شيئاً إلاّ اعطانيه ولم اسأل لنفسي شيئاً إلاّ سألت لك مثله ـ إلى ان قال ـ وسألته ان يجعلك مني بمنزلة هارون من موسى وان يشد بك ازري ويشركك في امري ففعل إلاّ انه لا نبي بعدي، فرضيت**» (كتاب السقيفة ـ سليم.: ٢٢٢ - ٢٢١).
١٢ - المنزلة عند قول عمر: ما مثل محمد في أهل بيته إلا كنخلة نبتت في كناسة: فعند ما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب وخرج فأتى المنبر وفزعت الانصار فجاءت شاكة في السلاح فقال: «**ما بال القوم يعيرونني بقرابتي وقد سمعوا مني ما قلت في فضلهم (الى ان قال) وقد سمعتم ما قلت في أفضل أهل بيتي وخيرهم فما خصه الله به واكرامه وفضله على من سبقه في الإسلام وبلائه فيه وقرابته مني، وانه مني بمنزلة هارون من موسى، ثم تزعمون ان مثلي في أهل بيتي كمثل نخلة نبتت في كناسة**» (كتاب السقيفة ـ سليم.: ١٤٠، ورواه في احقاق الحق عن محمد بن أحمد الحنفي في كتابه: در بحر المناقب: ٥/ ٤١).
١٣ - حديث المنزلة عند تفاضل علي وعقيل: أخرجه القرماني عن ابن عقيل عن ابيه قال: نازعت علياً وجعفر بن أبي طالب بين يدي رسول الله في شيء فقلت والله ما انتما بأحب إلى رسول الله ﷺ مني ان قرابتنا لواحدة، وإنا أبانا وأمنا لواحد كذلك يا رسول الله؟
فقال رسول الله ﷺ : «**يا عقيل والله اني لاحبك لخلتين لقرابتك ولحب أبي طالب ابيك، وكان أحبهم إلى أبي طالب.** =

ثمَّ إنَّ كلام أبي بكر لفاطمة عليها سلام الله المتعال: إنّي سمعت أباك رسول الله ﷺ

= واما أنت يا جعفر ان خلقك يشبه خلقي.
واما أنت يا علي، فانت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي» (اخبار الدول للقرماني: ١٢٢ الفصل).

ورواه في تاريخ دمشق مختصراً (تاريخ دمشق: ٣٦/ ١٠٠ ترجمة عبيد الله بن عبد الله بن هشام الداراني، و١٤/٥١ ترجمة محمد الاصغر ابن عقيل).

١٤ - حديث المنزلة عند تفاضل علي مع جعفر وزيد: أخرجه النسائي وابن عساكر عن هاني بن هاني بن علي: لما صدرنا من مكة إذا ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فتناولها علي واخذها فقال لصاحبته: «**دونك ابنة عمك محملها**»، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: ان اخذتها هي ابنة عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد ابنة أخي، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها. وقال: «**الخالة بمنزلة الام، وقال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون وأنا منك**» وقال لجعفر: اشبهت خَلقي وخُلقي وقال لزيد: يا زيد أنت اخونا ومولانا» (خصائص النسائي: ٧٩ ـ ٨٠ ح ٦٨ ذكر قول النبي علي مني وأنا من علي.

١٥ - حديث المنزلة يوم الغدير: وذلك ما روي عن جابر الانصاري ـ رواه الثعلبي في تفسيره ـ ان رسول الله نزل بخم فتنحى الناس ثم قال: «**ايها الناس اني قد كرهت تخلفكم عني حتى خيّل إليّ انه ليس بشجرة أبغض اليكم من شجرة تليني ثم قال: لكن علي بن أبي طالب أنزله الله مني بمنزلة هارون من موسى وانزلني منه منزلته مني**» (احقاق الحق: ٥/ ٨٩ عن مناقب عبد الله الشافعي: ١٠٨ مخطوط..

١٦ - حديث المنزلة في بيت رسول الله ﷺ أمام فاطمة (عليها السلام): وذلك ما روته كريمة ابنة عقبة قالت: سمعت فاطمة بنت حمزة تقول: كنت عند رسول الله ﷺ فسمعته يقول: «**علي مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي**» (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٣٩٠ ح ٤٥٤).

١٧ - حديث المنزلة في بيت أم سلمة: أخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله لام سلمة: «**هذا علي بن أبي طالب لحمه لحمي]أسيط لحمه بلحمي [ودمه دمي هو مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي]هذا علي سيد مبجل مؤمل المسلمين وامير المؤمنين وموضع سري وعلمي وبابي الذي أوي إليه وهو الوصي على أهل بيتي وعلى الاخيار من امتي هو اخي في الدنيا والآخرة، وهو معي في السناء الاعلى، إشهدي يا ام سلمة ان علياً يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين[**» (المعجم الكبير: ١٢/ ١٥ ترجمة ابن عباس ما روى سعيد بن جبير عنه ح ١٢٣٤١، وترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٩٠ ح ١٢٣.

١٨ - حديث المنزلة في محضر أبو بكر وعمر وابو عبيدة: كالمروي عن عبد الله بن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كنت أنا وأبو عبيد وابو بكر وجماعة من الصحابة إذ ضرب النبي ﷺ بيده على منكب علي فقال له: «**يا علي أنت أول المؤمنين ايماناً، وأول المسلمين اسلاماً، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى**». خرجه ابن السمان (وذخائر العقبى: ٥٨ ط. مصر ـ مكتبة القدس، وكنز العمال: ٦/ ٣٩٥ ط. حيدر آباد الركن و١١/ ٥٩٩ ـ ٦٠٣ ـ ٦٠٦ ط. بيروت، وجواهر المطالب: ١/ ٣٧ باب ٤.

١٩ - حديث المنزلة عند مدح أبو بكر وعمر: الضحاك عن ابن عباس قال: رايت علياً أتى النبي ﷺ فاحتضنه من خلفه فقال: «**بلغني إنك سميت أبا بكر وعمر وضربت امثالهما ولم تذكرني**».
فقال النبي ﷺ : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» (ترجمة علي من تاريخ دمشق: ١/ ٣٦٧ ح٤٠٨).

٢٠ ـ حديث المنزلة عند اجتماع علي والزبير: أخرجه القزويني بسنده إلى معاوية بن أبي سفيان قال: حق لك يا ابن ذات النطاقين اني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: «**دخلت أنا والزبير بن العوام علي رسول الله ﷺ** متصافحين وهو في بيت خديجة بنت خويلد، فسلمنا عليه فقال: وعليكما السلام ورحمة =

يقول: لا نورث ـ الخ، فيظهر ما فيه التأمّل في ما أفاده العلاّمة الحلّي قدس سره في كتابه

= الله، يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى، ثم قال يا علي..» (التدوين في أخبار قزوين: ٢/ ١٥٤ ترجمة أحمد بن الحسن بن القاسم) .

٢١ - حديث المنزلة قبل وفاة رسول الله بجمعة: أخرجه الكوفي عن أم سلمة أنها قالت لابن عباس: ... سمعته يقول في علي قبل موته بجمعة فان زاد على جمعة فلن يزيد على عشرة أيام... الى أن قالت: **«اسمعي يا أم سلمة قولي واحفظي وصيتي واشهدي وأبلغي: هذا أخي في الدنيا والاخرة.. وهو مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي»** (مناقب الكوفي: ١/ ٣٥٥ ح ٢٨١) .

٢٢ - حديث المنزلة في مرض رسول الله الذي توفى فيه: قال امير المؤمنين ﷺ : إن رسول الله ﷺ أوعز إليّ قبل وفاته وقال لي: **«يا أبا الحسن ان الأمّة ستغدر بك من بعدي وتنقض فيك عهدي وانك مني بمنزلة هارون من موسى وان الأمّة بعدي كهارون ومن اتبعه والسامري ومن اتبعه»** (الاحتجاج: ١/ ٧٥ ذكر طرف مما جرى بعد وفاة الرسول من اللجاج) .

٢٣ - حديث المنزلة بدعاء النبي ﷺ :

كالمروي عن اسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول الله يقول: **«اللهم اني اقول كما قال اخي موسى واجعل لي وزيراً من أهلي أخي علياً اشدد به ازري واشركه في امري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيرا»** اخرجه أحمد في المناقب وابن مردويه والخطيب وابن عساكر (فضائل الصحابة لاحمد: ٢/ ٦٧٨ ح ١١٥٨.

وعن جابر الانصاري قال: قال رسول الله ﷺ : **«الهي وسيدي إنك ارسلت موسى إلى فرعون فسألك ان تجعل معه اخاه هارون وزيراً يُشد به عضده ويصدق به قوله واني اسألك يا سيدي والهي ان تجعل لي من اهلي وزيراً تشد به عضدي فاجعل لي علياً وزيراً واخاً واجعل الشجاعة في قلبه وألبسه الهيبة على عدوه.. واني سألت ذلك ربي عز وجل فأعطانيه»** (ينابيع المودة: ١/ ٦٢ ط. اسلامبول ١٣٠١ هـ و٧١ ط. النجف الباب الثاني عشر) .

٢٤ ـ حديث المنزلة بين النبي وعلي (عليهما السلام): قال رسول الله ﷺ : **«يا أبا الحسن ان الأمّة ستغدر بك بعدي وتنقض فيك عهدي وانك بمنزلة هارون من موسى وان الأمّة بعدي كهارون ومن اتبعه والسامري ومن اتبعه»** (الاحتجاج: ١/ ٧٥ ذكر طرف مما جرى بعد وفاة الرسول) .

دلالة حديث المنزلة على الامامة: نقل الكنجي عن شعبة بن الحجاج قوله في الحديث: (وكان هارون أفضل أمة محمد فوجب ان يكون علي أفضل من كل أمة محمد صيانة بهذا النص الصحيح الصريح كما قال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي واصلح) (كفاية الطالب: ١٥٠ الباب ٧٠ ح ٨٩٠) .

وقال في موضع آخر: بعد ذكر حديث: علي كنفسي (قال رسول الله: **«لينتهين بني وليعة أو لأبعثن عليهم رجلا كنفسي...»** مجمع الزوائد: ٧ / ١١٠ ط. مصر ١٣٥٢ وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٧/ ٢٤٠ ح ١١٣٥٥ كتاب التفسير ـ الحجرات، وكنز العمال: ٦/ ٤٠٠ ط. دكن ١٣١٢، وخصائص النسائي: ١٩ ط. مصر ١٣٤٨، والرياض النضرة: ٢/ ١٦٤ ط. مصر الاولى، وذخائر العقبة ٦٤، وكفاية الطالب: ٢٨٩، ومنتخب كنز العمال: ٥/ ٤٧ وفيه **«يسألني عن النفس»**) ـ ومن المعلوم انه يمتنع ان تكون نفس علي هي نفس النبي، ولابد ان يكون المراد هو المساواة بين النفسين، وهذا يقتضي أنّ كل ما حصل لمحمد من الفضائل والمناقب فقد حصل مثله علي، تُرِكَ العمل بهذا النص في فضيلة النبوة، فوجب ان تحصل المساواة بينهما فيما وراء ذلك.

ثم لا شك ان محمد ﷺ كان أفضل الخلق بسائر الفضائل فلما كان علي مساوياً له في تلك الصفات =

الموسوم بـ«**كشف الحقّ**» حيث قال:

= يجب ان يكون أفضل، ولم أر الأصوليين أجابوا عن هذا بشيء (كفاية الطالب: ٢٩١ الباب الثاني والسبعون حديث ماء الفردوس) .

وجزم أبو جعفر الاسكافي بتقدم أميرالمؤمنين علي وأفضليته على الخلفاء بحديث المنزلة (المعيار والموازنة للاسكافي: ٢١٩ ـ ٢٢٠) .

وسأل معلى بن سليمان محمد بن عبد الله عن الحديث فقال: أراد به أن يطاع من بعده كما يطاع النبي في حياته (مناقب الكوفي: ١/ ٥١٠ ح ٤٢٩) .

إستدلال المأمون بالمنزلة: وكذا ما شرحه المأمون لاسحاق بن ابراهيم في مناظرته الطويلة جاء فيها:

يا اسحاق اتروي حديث: أنت مني بمنزلة هارون من موسى؟

قلت: نعم يا امير المؤمنين قد سمعته وسمعت من صححه وجحده.

قال: فمن أوثق عندك مَن سمعت منه فصححه أو مَن جحده؟

قلت: من صححه. قال: فهل يمكن ان يكون الرسول ﷺ خرج بهذا القول؟

قلت: اعوذ بالله. قال: فقال]أي الرسول ﷺ[قولا لا معنى له فلا يوقف عليه؟

قلت: اعوذ بالله. قال: فما تعلم ان هارون كان اخا موسى لابيه وامه؟

قلت بلى. قال: فعلي اخو رسول الله لابيه وامه؟

قلت لا. قال: أوليس هارون]كان[نبياً وعلي غير نبي؟

قلت: بلى.

قال: فهذان الحالان معدومان في علي وقد كانا في هارون؛ فما معنى قوله ﷺ أنت مني بمنزلة هارون من موسى؟ قلت له:]انما[اراد ان يطيب بذلك نفس علي لما قال المنافقون انه خلفه استثقالا له.

قال: فاراد ان يطيب نفسه بقول لا معنى له؟

قال: فاطرقت. قال: يا اسحاق له معنى في كتاب الله بيّن.

قلت: ما هو يا امير المؤمنين؟

قال: قوله عز وجل حكاية عن موسى: انه قال لأخيه هارون ﴿**اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾.

قلت: يا امير المؤمنين ان موسى خلف هارون في قومه وهو حي ومضى إلى ربه وان رسول الله ﷺ خلف علياً كذلك حين خرج إلى غزاته.

قال: كلا ليس كما قلت؛ اخبرني عن موسى حيث خلف هارون هل كان معه حيث ذهب إلى ربه احد من اصحابه أو أحد من بني اسرائيل؟

قلت: لا. قال: أوليس استخلفه على جماعتهم؟

قلت: نعم. قال: فاخبرني عن رسول الله ﷺ حين خرج إلى غزاته هل خلف الاّ الضعفاء والنساء والصبيان فانى يكون مثل ذلك.

وله عندي تأويل آخر من كتاب الله يدل على استخلافه اياه لا يقدر أحد ان يحتج فيه ولا اعلم احداً احتج به وارجو أن يكون توفيقاً من الله،

قلت: وما هو يا امير المؤمنين؟

قال: قوله عز وجل حيث حكى عن موسى قوله: «**واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي اشدد به ازري واشركه في امري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيرا**» (طه: ٢٩) فانت مني يا علي =

ومن المطاعن الّتي رواها السنّة في أبي بكر أنه منع فاطمة إرثها فقالت له: يا ابن قحافة أترث أباك و لا أرث أبي، واحتجَّ عليها برواية تفرَّد بها هو عن جميع المسلمين مع قلّة رواياته وقلّة علمه وكونه الغريم لأنَّ الصدقة تحل عليه، فقال لها: إن النبي ﷺ قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، والقرآن مخالف لذلك فإنَّ صريحه يقتضي دخول النبي ﷺ فيه بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١١] وقد نصّ على أن الأنبياء يورثون فقال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النَّمل: الآية ١٦] وقال عن زكريا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريَم: ٥ ـ ٦].

وناقض فعله أيضاً بهذه الرواية لأنَّ أمير المؤمنين والعبّاس اختلفا في بغلة رسول الله ﷺ وسيفه وعمامته وحكم بها ميراثاً لأمير المؤمنين عليه السلام ولو كانت صدقة على علي عليه السلام كان يجب على أبي بكر انتزاعها منه، ولكان أهل البيت الّذين حكى الله تعالى عنهم بأنه طهّرهم تطهيراً مرتكبين ما لا يجوز، نعوذ بالله من هذه المقالات الرديئة والاعتقادات الفاسدة.

وأخذ فدك من فاطمة وقد وهبها أباها رسول الله ﷺ فلم يصدّقها مع أنَّ الله تعالى طهّرها وزكّاها واستعان بها النبيّ ﷺ في الدّعاء على الكفّار على ما حكى الله تعالى وأمره بذلك فقال له: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] فكيف يأمره الله تعالى بالاستعانة وهو سيّد المرسلين بابنته وهي كاذبة في دعواها غاصبة لمال غيرها نعوذ بالله من ذلك.

فجاءت بأمير المؤمنين عليه السلام وشهد لها فلم يقبل شهادته قال: إنّه يجرّ إلى نفسه، وهذا من قلّة معرفته بالأحكام، ومع أنَّ الله تعالى قد نصّ في آية المباهلة أنه نفس رسول الله ﷺ فكيف يليق بمن هو بهذه المنزلة واستعان به رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى في الدُّعاء يوم المباهلة أن يشهد بالباطل ويكذب ويغصب المسلمين أموالهم، نعوذ بالله من هذه المقالة.

وشهد لها الحسنان عليهما السلام فردّ شهادتهما وقال: هذان ابناك لا أقبل شهادتهما لأنهما يجرّان نفعاً بشهادتهما، وهذا من قلّة معرفته بالأحكام مع أنَّ الله تعالى قد أمر النبي ﷺ بالاستعانة بدعائهما يوم المباهلة فقال: «أبناءنا وأبناءكم» وحكم رسول الله ﷺ بأنهما سيّدا

= بمنزلة هارون من موسى وزيري من اهلي واخي شدّ الله به ازري وأشركه في امري كي نسبح الله كثيرا ونذكره كثيراً، فهل يقدر أحد ان يدخل في هذا شيئاً غير هذا، أو لم يكن ليبطل قول النبي ﷺ وأن يكون لا معنى له؟ العقد الفريد: ٥/ ٧٦ احتجاج المأمون على الفقهاء في فضل علي من كتاب التيمية الثانية اخبار زياد والحجاج والطالبين ط. دار الاحياء. و٢/ ٤٣ الطبعة الاولى ٣/ ٣١ ط. مطبعة الشرفية سنة ١٣١٦.

شباب أهل الجنّة فكيف يجامع هذا شهادتهما بالزور والكذب وغصب المسلمين حقّهم نعوذ بالله من ذلك.

ثمّ جاءت بأُمّ أيمن فقال: امرأة لا يقبل قولها. مع أنّ النّبي ﷺ قال: أمّ أيمن امرأة من أهل الجنّة. فعند ذلك غضبت عليه وعلى صاحبه وحلفت أن لا تكلّمه ولا صاحبه حتى تلقى أباها وتشكو له فلما حضرتها الوفاة أوصت أن تدفن ليلاً ولا يدع أحداً منهم يصلّي عليها وقد رووا جميعاً أن النبي ﷺ قال: يا فاطمة إنّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك[1]، انتهى كلامه قدس سرّه في المقام.

قوله عليه السلام: **(ثمّ ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان ـ إلى قوله عليه السلام: وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلت)** هذا الفصل جواب عن قول معاوية: ثمّ لم تكن أشدّ منك حسداً لابن عمك عثمان ـ إلى قوله: وتلك من أماني النّفوس وضلالات الهواء.

واعلم أن احتجاجه هذا على معاوية في أمر عثمان يتّضح لك بعد استحضارك ما قدّمنا من الطبري وغيره من قوله عليه السلام: ما زلت أذبّ عن عثمان حتّى أنّي لأستحي وقوله عليه السلام: **(والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً)**، وما قدّمنا من نصح أمير المؤمنين علي عليه السلام عثمان وطلبه قعوده في البيت، فراجع إلى ص١٨٣ وص٢٠٣ وص٣١١ وص٣٢٥ من ج١٦. وص٣٩٥ من ج١٧، وص٣ من ج١٨.

قوله عليه السلام: **(حتّى أتى قدره عليه)** أي حتّى أتى قتله المقدّر له.

وقوله عليه السلام: **(كلاّ والله لقد علم الله المعوّقين منكم ـ الخ)** إشارة إلى قوله عزّ وجلّ في أوائل سورة الأحزاب: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٨ ـ ١٩].

وهي من الآيات التي نزلت في الأحزاب الّذين حاربوا رسول الله ﷺ في غزوة الخندق وكان من الأحزاب قريش وكان قائدهم أبو سفيان بن حرب كما نصّ به حملة الأخبار، منهم أبو جعفر **الطبري في التاريخ (ص١٤٦٥ ج٣ من طبع ليدن)** وابن هشام في **«السيرة النبوية» (ص٢١٥ ج٢)**، وكاتب الواقدي محمد بن سعد في **«الطبقات الكبرى»**.

---

(١) روضة الواعظين: ١٤٩، والأمالي: ٤٢٧ ح٩٥٤.

(ص٦٦ ج٣ من طبع مصر) حيث قال: فكان جميع القوم الّذين وافوا الخندق ممن ذكر من القبائل عشرة آلاف وهم الأحزاب وكانوا ثلاثة عساكر وعناج الأمر إلى أبي سفيان بن حرب - إلى آخر ما قال.

والمعوّقون هم الّذين يعوّقون أي يمنعون غيرهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ وغزوة الأحزاب أي غزوة الخندق مذكورة في كتب التفاسير في سورة الأحزاب، وفي كتب المغازي والسير فراجع إلى **«مغازي رسول الله»** ﷺ للواقدي **(ص٢٩٠ من طبع مصر)** وإلى **«السيرة النبوية»** لابن هشام **(ص٢١٤ ج٢ من طبع مصر)** وإلى **«تاريخ الطبري»**، و**«الطبقات الكبرى»** لابن سعد، حتّى يتبيّن لك ما فعلت الشجرة الملعونة بنو أُميّة بالإسلام والمسلمين.

قوله عليه السلام: **(وذكرت أنه ليس لي ولا لأصحابي إلاّ السيف - الخ)** هذا الفصل جواب عن قول معاوية: وليس لك ولأصحابك عندي إلاّ السيف - الخ.

وقد مضى نحوه في الكتاب التاسع، فأجابه بقوله **(فلقد أضحكت بعد استعبار)** وذلك أنَّ تهديد معاوية لمّا كان في غير محله لأنّ مثل تخويفه أمير المؤمنين عليه السلام بالسيف كصبيّ يخوّف بطلاً محامياً قال عليه السلام: لقد أضحكت، أي أضحكت غيرك من المؤمنين بتخويفك، ولمّا كان تصرّفه في أُمور الدّين ممّا يبكي المؤمنين قال عليه السلام: بعد استعبار، أي بعد استعبارك أهل الدّين بما يرون منك في دين الله.

وقوله عليه السلام: **(من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان)** اقتباس من قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

و**(ذريّة بدريّة)** أي الّذين هم من ذراري أهل بدر، وأخو معاوية، هو حنظلة بن أبي سفيان وخاله وليد بن عتبة وجدّه عتبة بن ربيعة وأهله أتباعه، ومضى نحو كلامه هذا في الكتاب العاشر: فأنا أبو حسن قاتل جدّك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوّي. وسيأتي نحوه في الكتاب الرابع والستين: وعندي السيف الذي أعضضته بجدّك وخالك وأخيك في مقام واحد.

قوله عليه السلام: **(وما هي من الظالمين ببعيد)** أراد بالظالمين معاوية وأتباعه، وهو بعض آية من قوله تعالى في قصّة قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣] وهو عليه السلام ذكر في هذا الكتاب عدّة آيات لا يخفى مناسبة كلّ واحدة منها لموردها.

ومعنى سائر الجمل واضح إلاّ أنه عليه السلام أخبر عنه نفسه وعن الجحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين بأنَّ أحبّ اللقاء إليهم لقاء ربّهم وإنّما يليق في المقام أن نبحث عن لقاء الله تعالى، ولنا بفضله سبحانه رسالة منفردة في لقاء الله أرى الإتيان بها ههنا ودرجها في هذا الشرح أولى من أن تطبع وتنشر على حدة فأطلبها بعد الترجمة.

الترجمة

این یکی از نامه های بسیار خوب امیر (عليه السلام) است که به معاویه نوشت:

اما بعد، نامه ات به من رسیده در آن گفتی: خدای تعالی پیمبر را برای دینش برگزید و یاورانش را یاری کرد، روزگار امر شگفتی از تو بر ما پوشیده داشت که آزمون خدا را و نعمت وجود پیمبر را به ما گزارش می دهی، در این کار برنده خرما به هجری یا آن که استاد تیر اندازیش را به کارزار بخواند مانی.

پنداشتی که برترین مردم در اسلام فلانی و فلانی است، اگر راست است به توچه و اگر نه عیب آن دامن گیرت نشود. تو را با فراتر و فروتر و باتدبیر و بی تدبیر چه کار، آزادشدگان و فرزندانشان را چه رسد به تمیز میان مهاجرین اول و ترتیب درجات و تعریف طبقاتشان، تیری رها شد که از جنس تیرهای دیگر نبود، حرف بی جایی از دهن نااهل درآمد و در آن امور کسی دارد زبان درازی می کند که دستور او فرمان بردن است.

آیا بر لنگی خود ایست نمی کنی و آرام نمی گیری و کوتاه دستیت را نمی دانی؟ که در حدّ خود باشی و تجاوز نکنی، شکست و پیروزی این و آن به توچه، تو در گمراهی به سر می بری و از راستی به دری.

نمی خواهم که به تو خبر دهم و با تو سخن بگویم، ولی نعمت خدای تعالی را بازگو می کنم که می گویم: مگر نمی بینی که چون از مهاجرین کسی شهید می شد. و البتّه برای هر یك فضلی است. یکی سیّدالشهداء بود که پیغمبر (صلى الله عليه وآله) بر جنازه اش هفتاد تکبیر بگفت و دیگری که دستهایش بریده شد او را طیّار گفتند که با دو بال در بهشت پرواز می کرد و اگر خدای تعالی از خودستایی بازنمی داشت هر آینه فضایل کسی را می شنیدی که دل های با ایمان بدانها آشنایند و شنونده ای انکار آنها نتواند کرد.

دست بردار از کسانی که گول دنیا خورده اند و از راه راست به در رفتند، ما برگزیدگان خدای خودیم و مردم برگزیدگان ما، آمیزش در زندگی با شما ما را از

عزّت دیرین باز نداشته و شما را بزرگ نکرده، چه پیمبر از ما است و ابوسفیان مکذّب از شما، حمزه اسدالله از ما است و اسد الأحلاف - کسانی که هم پیمان شدند برای کشتن پیمبر در جنگ بدر - از شما، حسن و حسین بزرگان جوانان اهل بهشت از ما و عقبة بن ابی معیط، پدر فرزندان دوزخی از شما، بهترین زنان روزگار فاطمه از ما است و حمّالة الحطب زن ابولهب از شما و دیگر خوبی ها و نکویی ها که ما را است و بدی ها و زشتی ها که شما را.

از اسلام ما که شنیدید و آگاهید، در زمان جاهلیّت هم روزگار ما را نیالود و مهتر و بهتر همه بودیم و کتاب خدا این پایه را به ما داده که با پیمبرش به کریمه اولواالأرحام وابسته و به آیت "إنَّ أَولی النّاس" نزدیکیم، پس ما به حکم آیه نخستین، به قرابت به پیمبر سزاواریم و به آیه دوّم به طاعت.

چون مهاجرین در روز سقیفه به رسول الله (ﷺ) بر انصار احتجاج کردند، بر آن پیروز شدند، پس اگر به پیمبر پیروز شدند حق با ما است نه با شما و اگر نه که انصار بر دعوای خود باقیند.

پنداشتی که من بر خلفا حسد بردم و بر آنان ستم کردم، اگر این طور است به تو چه، دخل و ربطی به تو ندارد که از آنان بیگانه ای.

و گفتی: مرا چون شتر مهار کرده برای بیعت بردند، خواستی از این گفتارت مرا نکوهش کنی، ستودی و خواستی رسوایم کنی، رسوا شدی؛ خواری برای مسلمانی که مظلوم گردد ولی در دینش و در یقینش دودل نباشد، نیست.

این سخنانم حجّت بر دیگران است، روی سخنم با تو نیست، پاره ای از آنها پیش آمد و گفتم.

سپس در کار من و عثمان حرف به میان آوردی، تو باید از جانب او در این باره پاسخ گویی، پس بنگر که کدام یك از من و تو به کشتن او اقدام و راهنمایی کردیم؟ آیا آن کسی که دستش را می گرفت و یاریش می کرد و از بدعت ها و بدی هایش بازش می داشت؟ یا آن که عثمان چون وی را به یاریش خواست سر باز زد و دیگران را بر او بشورانید؟ نه، به خدا که خدای متعال از خودداری کنندگان شما و کسانی که به برادرانشان گفتند بیایید به سوی ما و به کارزار نرفتند مگر اندکی،

دانا است. عذرخواهی نمی کنم از این که عثمان را از بدعت هایش بازمی داشتم و کارهای ناروایش را تبقیح می کردم، حال اگر هدایت و ارشاد، گناه است و موجب سرزنش می شود، چه بسا سرزنش شده بی گناه است و آن که نخواهد، نپذیرد، از گفتار ناصح گمان بد می برد و من تا آنجا که در قدرتم بود جز اصلاح نخواستم و توفیق از خدا خواهم و بس و توکّلم با او است.

دیگر این که از شمشیر بیم داده ای، از این سخنت گریان را به خنده آوردی، کی فرزندان عبدالمطّلب از دشمن روی گردان بودند و از شمشیر ترسان؟ اندکی درنگ کن تا حَمَل شیر نر به کارزار درآید، که آن گاه کسی بگیردت که تو او را می خواستی و به تو نزدیك می شود مرگی که از آن دوری می جستی.

و من با لشکری بزرگ از مهاجر و انصار و تابعین، به احسان شتابان به سوی تو رهسپاریم، لشکر سخت انبوهی که گرد سوارانش فضا را فرا گرفت و خود لباس مرگ در بر کرده اند، بهترین دیدارشان دیدار خدایشان است، با آنان فرزندان و دودمان سربازان سلحشور و جنگاور روز بدرند، در دست آن پهلوانان، شمشیر بنی هاشم است، همان شمشیرهایی که در جنگ بدر بر سر برادر و دایی و جدّ و دودمانت فرود آمد، که آماده اند بر سر ستمکاران دیگر فرود آیند.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمداً لك يا من شرّف أولياءه بلقائه، وكرّم أحبّاءه بالعكوف على فنائه سبحانك يا من انتجب أسرار أهله لرؤية جماله، واحتجب عن أبصار خليقته بحجاب جلاله، صلِّ اللهمَّ على مظهرك الأتم، وجامع الكلم والحكم، المنزل عليه ما يهدي للّتي هي أقوم، وآله خير الورى وأعلام الهدى ومن اتبع هديهم من أولي النّهى.

وبعد، فيقول العبد الراجي لقاء ربّه الكريم نجم الدّين حسن بن عبد الله الطبري المدعوّ بحسن زاده الآملي بلغه الله وجميع المؤمنين إلى آمالهم، ورزقهم نعمة لقائه: يا أهل الوداد والسّداد! وطالبي الهداية والرشاد، يا إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء، إلى متى وحتّى متى جاز لنا الحرمان عن حرم الحبّ، والخذلان في غيابة الجبّ؟ وما لنا ألّا نسير إلى نواحي القدس؟ ولا نطير إلى رياض الأُنس؟ أو ترون أنّا خلقنا عبثاً، أو تركنا سدىً؟ نأكل ونتمتّع كالأنعام السائمة، غافلين عن لقاء الله عزّ وجلّ إلى أن يدركنا الأجل، ويلهينا الأمل؟ كلاّ وحاشاكم عن هذا الظنّ وإنَّ بعض الظنّ إثم ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥ ـ ٢٠٦].

خليليّ نحن نيام في فراش الغفلة، وقد أدبرت العاجلة وأقبلت الآخرة إن هؤلاء يحبّون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً، يوماً عبوساً قمطريراً، يوماً كان شرّه مستطيراً.

قد أتى يوم تبلى فيه السرائر، وما زرع في الأوّل يحصد في الآخر، فانظروا بما أسلفتم في الأيّام الخالية، واقرأوا ألواح أنفسكم تخبركم عن غدكم وأمسكم ورمسكم.

واستمع ماذا يقول برهان السالكين وإمام المتقين وقائد الغرّ المحجّلين عليّ أمير المؤمنين: احذروا عباد الله الموت ونزله، وخذوا له فإنّه يدخل بأمر عظيم خير لا يكون معه شرّ أبداً، وشرٌّ لا يكون معه خير أبداً، فمن أقرب إلى الجنّة من عاملها، ومن أقرب إلى النار من عاملها.

ليس أحد من النّاس تفارق روحه جسده حتّى يعلم إلى أيّ المنزلتين يصير إلى الجنّة أم إلى النّار؟ أعدوّ هو لله أم وليّ له؟ فإن كان ولياً فتحت له أبواب الجنّة وشرع له طريقها، ونظر إلى ما أعدّ الله عزّ وجلّ لأوليائه فيها فرغ من كلّ شغل، ووضع عنه كلّ ثقل، وإن كان

عدوّاً فتحت له أبواب النّار وسهّل له طريقها ونظر إلى ما أعدّ الله لأهلها واستقبل كلّ مكروه.

واعلموا عباد الله أنَّ ما بعد اليوم أشدّ وأدهى: نار قعرها بعيد، وحرّها شديد، وعذابها جديد، ومقامعها حديد، وشرابها صديد، لا يفتر عذابها، ولا يموت ساكنها، دار ليس لله سبحانه فيها رحمة، ولا يسمع فيها دعوة.

فطوبى لمن انتبه عن النّوم وتشمّر الذيل لتدارك اليوم، ثمَّ طوبى لمن راقب سرّه عمّا سوى الله وما طالب إلاّ القرب منه ولقاءه ورضاه، فإنّا أُمرنا ألاّ نعبد إلاّ إيّاه ولا نطلب إلاّ إيّاه، فوحّد الله سبحانه بصدق السريرة حتّى ترى بعين البصيرة أن لا هو إلاّ هو ولا إله إلا هو، فأينما تولّوا فثمَّ وجه الله، وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، وهو معكم أينما كنتم[1].

خليليّ إنّي لأستحيي من نفسي فضلاً عن غيري بأن أقول: هذه رسالة عملتها يداي في لقاء الله تعالى، كيف لا وأنّى لهذا المطرود عن صفّ النعال، بل المردود عن الباب أن يأتي فيه بكتاب؟ وهل هذا إلاّ الخروج عن الزّي؟ ولا يخرج عنه إلاّ البذيّ.

وقال أفلاطن الألهيّ: إنّ شاهق المعرفة أشمخ من أن يطير إليه كل طائر وسرادق البصيرة أحجب من أن يحوم حوله كل سائر. **(الفصل الرابع من شرح رسالة زينون الكبير اليوناني تليمذ أرسطاطاليس، للمعلم الثاني أبي نصر الفارابي ص٨ من طبع حيدر آباد الدكن)**.

وقال الشّيخ الرئيس أبو علي سينا في آخر النمط التاسع من **«الإشارات»** في مقامات العارفين: جلّ جناب الحقّ عن أن تكون شريعة لكلّ وارد أو يطّلع عليه إلاّ واحد بعد واحد.

وقال أبو الفتح يحيى بن حبش بن أميرك الملقّب شهاب الدّين السهروردي الحكيم المقتول: الفكر في صورة قدسيّة يتلطف بها طالب الأريحيّة، ونواحي القدس دار لا يطأها القوم الجاهلون وحرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السماوات فوحّد الله وأنت بتعظيمه ملان، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان، ولو كان في الوجود شمسان لانطمست الأركان وأبى النظام أن يكون غير ما كان **(نقلنا كلامه من «تاريخ ابن خلكان»)**
وقال العارف السنائي:

بار توحيد هر كسى نكشد   طعم توحيد هر خسي نچشد

---

(١) الغارات: ١/ ٢٤١، والأمالي: ٢٦٦.

وقال العارف الرومي:

ياد أو اندرخورهرهوش نيست	حلقه أو سخره هر گوش نيست

وبالجملة هذا المحروم بقصور باعه مقرّ، في إقراره مصرٌّ وعلى نفسه بصير، وبأمره خبير، يفوه من شدّة الخجل أخفى من الهمس، ويبوه من كثرة الوجل كعليل دان حلوله في الرّمس ويقول:

جز تو ما را هواى ديگر نيست	جز لقاى تو هيچ در سر نيست
اين ره است ودگر دوم ره نيست	اين در است ودگردوم درنيست
دلگشا تر ز محضر قدست	محضر هيچ نيك محضر نيست
جانفزا تر ز نفحه أنست	نفحة مشك وعود و عنبر نيست
خوشتر از گفته تو گفتارى	بهتر از دفتر تو دفتر نيست
دفترى بيكرانه در يائى	كاندرو هر خسى شناور نيست
نرسد تا بسرّ گفتارت	دست جانى اگر مطهّرنيست
بهر وصف صفات نيكويت	در همه دهر يك سخنورنيست
آنچه را گفته اندو ميگويند	از هزاران يكى مقرّر نيست
كرمك شب فروز بي پارا	قدرت وصف مهر خاور نيست
هرچه وهر كه راكه مى بينم	درحريم تو جزكه مضطر نيست
نبود ذرّه اي كه در كارش	تحت فرمان تو مسخّر نيست
آنچه از صنع تو پديد آمد	خير محض است وخردلى شر نيست
در همه نقش بوالعجب كه بود	وين عجب نقطه اى مكرر نبست
يارو دلدار وشاهد ومعشوق	هرچه گويند جزتو دلبرنيست
ره نيابد بسويت آنكه درو	تيرعشقت نشته تا برنيست
بسرى شور عشقت ار نبود	بحقيقت دم است وآن سرنيست
دل كه از نور تو نديده فروغ	تيره جانى بود منوّر نيست
برضاى تو سالك صادق	هرچه پيش آيدش مكدّر نيست
كانچه آمد مقدّر است همان	وآنچه كو نامده مقدّر نيست
سالك راه را ره آوردى	جزخموشى وفكر آخر نيست
عاشق تشنه وصالت را	خبر ازهرچه هست يكسر نيست

بــهــر رازو نــيــاز در گــاهــت — تــن او را نــيــاز بــسـتـر نـيـسـت
بـاتـو مـحـشـورهـم در امـروزاسـت — انـتـظـارش بـروز مـحـشـر نـيـسـت
آتـشـى كـو فـتـاده در جـانـش — عـيـن نـار الله اسـت وأخـگـرنـيـسـت
عـاشـقـى كـار شـيـر مـردانـسـت — سـخـره كـودكـان مـعـبـر نـيـسـت
اوفـتـادن در آتـش سـوزان — جـز كـه در عـهـده سـمـنـدر نـيـسـت
آنـچـه عـاشـق كـنـد تـمـاشـايـش — اي بـرادر بـه ديـده سـر نـيـسـت
لـذّة خـلـوت شـبـانـه او — درگـل قـنـد وشـهـد وشـكّـر نـيـسـت
مـزه بـاده حـضـورش در — چـشـمـه سـلـسـبـيـل وكـوثـر نـيـسـت
آنـچـه انـدر حـضـور مـي يـابـد — خـامـه درشـرح اوتـوانـگـر نـيـسـت
عـوض گـريـه سـحـر گـاهـش — گـر بـگـويـد امـيـد بـاور نـيـسـت
لا جـرم آن سـعـيـد فـرزانـه — درپـى تـاج وتـخـت وافـسـر نـيـسـت
هـسـت إيـمـان بـالـلّـهـش سـدّى — كـه چـنـو صـد سـد سـكـنـدر نـيـسـت
بـهـتـر از لا إلـه إلاّ الله — هـيـچ حـصـنـى وبـرج وسـنـگـر نـيـسـت
انـدريـن كـشـور بـزرگ جـهـان — جـز خـداى بـزرگ داور نـيـسـت
كـشـتـى مـمـكـنـات عـالـم را — جـزكـه نـام خـداى لـنـگـر نـيـسـت
آنـچـه پـنـهـان وآشـكـار بـود — جـزكـه مـجـلاى يـا رومـظـهـر نـيـسـت
نـيـسـت جـزاو زدارو مـن فـي الـدّار — نـي كـه هـمـسـنـگ اوهـمـسـر نـيـسـت
قـائـل وقـيـل وقـولـي وقـالا — جـزكـه اطـوار قـول مـصـدر نـيـسـت
زيـن مـثـل آنـچـه بـايـدش گـفـتـن — گـفـتـم وبـيـش ازيـن مـيـسّـر نـيـسـت
اي كـه دورى زگـلـشـن عـشّـاق — جـانـت ازبـوى خـوش مـعـطّـر نـيـسـت
اي كـه غـافـل ز حـال خـويـشـتـنـى — گـويـمـت چـون تـو كـورى وكـرنـيـسـت
گـربـدى كـردهـاى زخـودمـيـدان — گـنـه مـهـر و مـاه وأخـتـر نـيـسـت
تـو بـهـشـت خـودى ودوزخ خـود — جز كـه نـفـس تـرمـا مـارو أژدر نـيـسـت
مـسـلـم هـمـدم هـوا و هـوس — مـشـر كـسـت وبـاسـم كـافـر نـيـسـت
آن شـكـم پـرور اسـت حـيـوانـي — گـرچـه نـامـش حـمـاروأسـتـر نـيـسـت
اي كـه خـو كـرده اى بـه نـادانـى — ايـن ره مـردمـان بـافـر نـيـسـت
آدمـي را دريـن سـراى سـپـنـج — جـزبـدانـش جـمـال وزيـور نـيـسـت

علم آب حيات جان باشد بهر تحصيل سيم يا زر نيست
روبى مصطفى شوى بوذر فيض حق وقف خاص بوذر نيست
تو درآ از حجاب نفساني تاكه بينى هر آنچه مبصر نيست
آخر ايدوستان بخود رحمى كآفرينش به لاف وتسخر نيست
حسن نجم آملي طبعش
چشمه حكمت است وديگر نيست

ثمّ أقول: لا ريب أنّ الاقتحام في ذلك المشهد العظيم فوق شأن هذا المسكين الّذي لم يذق حلاوة ذكر الله ولم يتنعم بنعمة المراقبة والحضور ولم يخرج من سجن الدُّنيا الدنيّة ومن ظلمة دار الغرور، إلى عالم النور والسرور، يا حسرتي على ما فرّطت في جنب الله، ولله درّ الشاعر قائلاً:

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعة وثريد

ولكن كما قيل: ألق في الدِّلاء دلوك. نشير إلى عدّة آيات وروايات وأدعية وأذكار ومطالب رشيقة أنيقة من كبار تنبيهاً للغافلين وأنا منهم، وتذكرة للمستبصرين، فنقول: قد بحثنا عن رؤيته تعالى في شرحنا على المختار الثامن من كتب أمير المؤمنين عليه السلام من النهج (ص٢٤٢ ـ إلى ٣٢٣ ج١٧) لكنّ ذلك البحث كان طوراً. وهذا البحث طور آخر، وإن كان أحدهما يعاضد الآخر. وقد أشرنا هنالك إلى هذا المطلب الأسنى، أعني البحث عن لقاء الله أيضاً إجمالاً، فإن شئت قلت إنّ هذا البحث مكمّل ذلك:

اعلم أنَّ القرآن الكريم قد نطق في مواضع كثيرة بلقائه تعالى فنأتي بها لأنها شفاء ورحمة للمؤمنين:

١ ـ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

٢ ـ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

٣ ـ ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤].

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧ ـ ٨].

٥ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ٨].

٨ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [السجدة: ٧ ـ ١٠].

٩ ـ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فُصّلَت: ٥٣ ـ ٥٤] [آخر فصلت، حم السجدة].

١٠ و١١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ٧، ١١].

١٢ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يُونس: ١٥].

١٣ ـ ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفُرقان: ٢١].

١٤ ـ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

١٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العَنكبوت: ٢٣].

١٦ ـ ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥ ـ ٤٦].

١٧ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

١٨ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هُود: الآية ٢٥] ـ إلى قوله: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هُود: ٢٩].

١٩ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [٤١ ـ ٤٤].

٢٠ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦].

٢١ ـ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٦].

٢٢ ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

٢٣ ـ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

٢٤ ـ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

٢٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرّعد: ٢٢] ـ الآية.

٢٦ و٢٧ ـ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: ٣٨ ـ ٣٩].

٢٨ ـ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ

﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: الآيات ١٥-٢١] [آخر سورة الليل].

واعلم أنَّ غير واحد من المفسّرين ذهبوا في تفسير لقاء الله إلى لقاء العبد ثواب أعماله أو عقابها ونحوهما، وهذا الرأي كأنّما نشأ من توّهم القوم اللقاء بمعنى الرؤية بالأبصار ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، فلمّا فهموا من اللقاء هذا المعنى احتاجوا إلى تقدير الثواب أو العقاب، أو حمل اللّقاء على معنى آخر يناسب ما توّهموه، ولكن ما مالوا إليه وَهْم، وليس اللقاء إلا الرؤية القلبيّة كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ في جواب حبر، قال له: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك حين عبدته؟ فقال ﷺ: ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره، قا: وكيف رأيته؟ قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان[1]، وقال علم الهدى في الغرر والدّرر **(ص١٥٠ ج١)**: أتى أعرابيّ أبا جعفر محمد بن علي ﷺ فقال له: هل رأيت ربّك حين عبدته نحو الخبر المذكور إلى آخره.

وقد فسّرنا هذا الحديث في شرحنا على المختار الثامن من باب الكتب من النهج وقد بيّنا هناك أن ما يتبادر إلى الأذهان من معنى الرؤية ونحوها هو الرؤية بالعين وذلك للألف بالمحسوسات والحشر معها، وأمّا السير إلى باطن هذه النشأة والسفر إليه وإدراك ما عبّى في كلام الله المتعال وسفرائه ووجدانها من الدقائق واللطائف فلا يتيسّر إلاّ لواحد بعد واحد.

كما دريت أيضاً أنَّ الرؤية القلبيّة به تعالى هي الكشف الحضوري وشهوده تعالى للعبد على مقدار تقرّبه منه تعالى بقدم المعرفة ودرج معارف العقل، فراجع إلى المجلد السابع عشر من ص٣٠٨، إلى ٣٢٣.

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرونا

وقلت في قصيدتي التوحيديّة:

آنچه عاشق كند تماشايش ... اي برادر بديده سر نيست

ولا نعني من اللّقاء الرؤية بكنهه تعالى فإنّ معرفته بالاكتناه لا يتيسّر لما سواه وذلك لأنَّ المعلول لا يرى علّته إلاّ بمقدار سعة وجوده، والمعلول ظل علّته وعكسها والظل مرتبة ضعيفة من ذيه ولذا قالوا: إن العلم بالعلّة من العلم بالمعلوم علم بها من وجه يعني أنه علم ناقص بالعلة بقدر ظرف المعلول سعةً وضيقاً، لا يحيطون به علماً وعنت الوجوه للحيّ القيوم.

(١) الكافي: ١/٩٧ ح٥، والأمالي: ٣٥٢.

وقد أفاد في ذلك فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكندي رحمة الله عليه بقوله: إذا كانت العلّة الأُولى متّصلة بنا لفيضه علينا وكنّا غير متّصلين به إلاّ من جهته فقد يمكن فينا ملاحظته على قدر ما يمكن للمفاض عليه أن يلاحظ المفيض فيجب أن لا ينسب قدر إحاطته بنا إلى قدر ملاحظتنا له لأنها أغزر وأوفر وأشدّ استغراقا.

ونعم ما أفاد، لله دره، ولا يخفى على أُولي النّهى أنَّ هذا الكلام سامٍ بعيد الغور.

وما أجاد قول المحقّق العارف أفضل الدِّين الكاشي في المقام:

گفتم همه ملك حسن سرمايه تست   خورشيد فلك چو ذرّه درسايه تست
گفتا غلطى زما نشان نتوان يافت   از ما تو هر آنچه ديده اى پايه تست

وتبصّر ممّا قدّمنا أنّه ما من موجود إلاّ وهو علم الحقّ تعالى لأنّ علمه بما سواه حضوري إشراقي، لم يعزب عن علمه مثقال ذرّة.

وأفاد العلامة الشّيخ البهائي في شرح الحديث الثاني من كتابه **«الأربعين»**: المراد بمعرفة الله تعالى الاطلاع على نعوته وصفاته الجلالية والجمالية بقدر الطاقة البشرية، وأما الاطلاع على حقيقة الذات المقدسة فممّا لا مطمع فيه للملائكة المقرَّبين والأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم، وكفى في ذلك قول سيّد البشر ﷺ: ما عرفناك حقَّ معرفتك، وفي الحديث: إنَّ الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وإنَّ الملاء الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم.

فلا تلتفت إلى من يزعم أنه قد وصل إلى كنه الحقيقة المقدّسة بل أُحث التراب في فيه فقد ضلَّ وغوى وكذب وافترى فإنَّ الأمر أرفع وأطهر من أن يتلوَّث بخواطر البشر، وكلّما تصوّره العالم الراسخ فهو عن حرم الكبرياء بفراسخ، وأقصى ما وصل إليه الفكر العميق فهو غاية مبلغه من التدقيق، وما أحسن ما قال:

آنچه پيش تو غير از آن ره نيست   غايت فهم تست الله نيست

بل الصفات الّتي تثبتها له سبحانه إنّما هي على حسب أوهامنا وقدر أفهامنا فإنّا نعتقد اتصافه سبحانه بأشرف طرفي النقيض بالنظر إلى عقولنا القاصرة وهو تعالى أرفع وأجلّ من جميع ما نصفه به.

وفي كلام الأمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام إشارة إلى هذا المعنى حيث قال: كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم ولعل النّمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيتين فإنَّ ذلك كمالها، وتتوهم أنَّ عدمهما نقصان لمن لا

يتّصف بهما وهكذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به[1]. انتهى كلامه صلوت الله عليه وسلامه.

قال بعض المحقّقين ـ يعني به المولى الجلال الدواني ـ: هذا كلام دقيق رشيق أنيق صدر من مصدر التحقيق ومورد التدقيق، والسر في ذلك أن التكليف إنّما يتوقّف على معرفة الله بحسب الوسع والطاقة، وإنّما كلّفوا أن يعرفوه بالصفات الّتي ألفوها وشاهدوها فيهم مع سلب النقائص الناشئة عن انتسابها إليهم.

ولما كان الإنسان واجباً بغيره عالماً قادراً مريداً حيّاً متكلّماً سميعاً بصيراً كلّف بأن يعتقد تلك الصفات في حقّه تعالى مع سلب النقائص الناشئة عن انتسابها إلى الإنسان بأن يعتقد أنه تعالى واجب لذاته لا بغيره، عالم بجميع المعلومات قادر على جميع الممكنات وهكذا في سائر الصفات، ولم يكلّف باعتقاد صفة له تعالى لا يوجد فيه مثالها ومناسبها، ولو كلّف به لما أمكنه تعقّله بالحقيقة، وهذا أحد معاني قوله عليه السلام: من عرف نفسه فقد عرف ربّه، انتهى كلامه.

واعلم أنَّ تلك المعرفة الّتي يمكن أن تصل إليها أفهام البشر لها مراتب متخالفة ودرج متفاوتة، قال المحقّق الطوسي طاب ثراه في بعض مصنفاته: إنّ مراتبها مثل مراتب معرفة النار مثلاً فإنّ أدناها من سمع أنَّ في الوجود شيئاً يعدم كلَّ شيء يلاقيه، ويظهر أثره في كلّ شيء يحاذيه، وأيّ شيء أُخذ منه لم ينقص منه شيء ويسمّى ذلك الموجود ناراً، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى معرفة المقلّدين الّذين صدّقوا بالدين من غير وقوف على الحجّة.

وأعلى منها مرتبة من وصل إليه دخان النار وعلم أنّه لا بدّ له من مؤثّر فحكم بذات لها أثر هو الدّخان، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى معرفة أهل النظر والاستدلال الذين حكموا بالبراهين القاطعة على وجود الصانع.

وأعلى منها مرتبة من أحسَّ بحرارة النار بسبب مجاورتها وشاهد الموجودات بنورها وانتفع بذلك الأثر، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى سبحانه معرفة المؤمنين الخلّص الّذين اطمأنّت قلوبهم بالله وتيقّنوا أنَّ الله نور السماوات والأرض كما وصف به نفسه.

وأعلى منها مرتبة من احترق بالنّار بكليّته وتلاشى فيها بجملته. ونظير هذه المرتبة في

---

(١) بحار الأنوار: ٦٦/ ٢٩٣، ونور البراهين: ١/ ٩٣.

معرفة الله تعالى معرفة أهل الشهود والفناء في الله وهي الدرجة العليا والمرتبة القصوى رزقنا الله الوصول إليها والوقوف عليها بمنّه وكرمه، انتهى كلامه أعلى الله مقامه، هذا آخر ما أردنا من نقل ما أتى به العلاّمة الشيخ البهائي طاب ثراه في المقام.

ومعنى قوله ﷺ: (**فإنّا نعتقد اتصافه سبحانه بأشرف طرفي النقيض بالنظر إلى عقولنا القاصرة**) أنَّ العقل ينظر إلى الحياة وعدمها وهما نقيضان فيرى أنَّ الحياة أشرف من الموت فيعتقد باتصافه سبحانه بها فيقول: إنّه حيٌّ، وينظر إلى العلم ونقيضه الجهل فيعتقد باتصافه تعالى بالأشرف منهما فيقول: إنه عالم وهكذا.

ومعنى كلام الدواني: «ولم يكلّف باعتقاد صفة له تعالى لم يوجد فيه مثالها ومناسبها» يعلم من كلامنا الآتي في أسماء الله المستأثرة إن شاء الله تعالى.

وبالجملة أنَّ ما يفهم الناس في مقام خطابهم الله تعالى وندائهم إيّاه هو ما يجده أهل المعرفة ويسمّون ذلك الوجدان بالكشف والشهود.

قال العلامة الشّيخ البهائي قدس سره في «**الكشكول**» (**ص٤١٦ من طبع نجم الدولة**): العارف من أشهده الله تعالى صفاته وأسماءه وأفعاله فالمعرفة حال تحدث عن شهود، والعالم من اطّلعه الله على ذلك لا عن شهود بل عن يقين.

ومن ذاق هذه الحلاوة والتذَّ بتلك اللّذة وتنعّم بتلك النعمة فقد فاز فوزاً عظيماً، وهذا الوجدان الشهودي الحضوري الحاصل لأهله يدرك ولا يوصف وهو طور وراء طور العقل يتوصّل إليه بالمجاهدات الكشفيّة دون المناظرات العقلية.

ولا يقدر أهله أن يقرّره لغيره على النحو الّذي أدركه، ولا يعدله لذّة ولا ابتهاج، وانظر إلى قول ولي الله المتعال الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام رواه ثقة الإسلام الكليني في «**الكافي**» بإسناده عن جميل بن دراج عنه عليه السلام قال:

لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدُّوا أعينهم إلى ما متّع به الأعداء من زهرة الحياة الدُّنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقلّ عندهم ممّا يطؤونه بأرجلهم، ولنعموا بمعرفة الله تعالى، وتلذذوا بها تلذُّذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله، إنَّ معرفة الله أنس من كلِّ وحشة، وصاحب من كلِّ وحدة ونور من كلِّ ظلمة، وقوّة من كلِّ ضعف، وشفاء من كلِّ سقم، قال: قد كان قبلكم قوم يقتلون ويحرقون وينشرون بالمناشير، وتضيق عليهم الأرض برحبها فما يردّهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى مما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، فسلوا ربكم درجاتهم واصبروا

على نوائب دهركم[1]. **(باب ثواب العالم والمتعلم من المجلّد الأول من «الوافي» ص٤٢).**

ثمَّ إنّ التوغّل في عالم الطبيعة الّذي هو عالم الكثرة والشتات صار حجاباً للمتوغلين فيه ولو خلصوا منه وأقبلوا إلى ما هو الحق الأصيل وعرفوا معنى التوحيد والفناء فيه وصاروا موحّدين على النهج الذي قال عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣] بلا تنزيه محض وتشبيه باطل، لارتفع الخلاف والنزاع بينهم، ولما شاجروا أهل المعرفة في ما يجدونه ويرونه، قائلين: ما كنّا نعبد ربّاً لم نره.

كما أنّ من لم يقدر الجمع بين الجمع والتفرقة إذا سمع من الفائزين به ينكره كلّ الإنكار.

وإذا تفوّه فانٍ في التوحيد بقوله: ليس في الدّار غيره ديّار، أو ليس الدار ومن في الدار إلا هو، أو أن الله كل الأشياء أو نحوها من العبارات تقوّل عليه من لم يدرك فهم كلامه بعض الأقاويل ولم يعلم أنّ سببه إنما هو تراكم عروق سبل الجهل المركب الناشئة من التقليدات الراسخة المانعة له عن ذلك الإدراك.

بل كثيراً ما نرى أصاغر لا يبالون بما يقولون إذا سمعوا من متألّه أن الوجود واحد لا تعدّد فيه والوجود هو الله تعالى أسندوه إلى الكفر والإلحاد والزندقة ولم يعلموا أن نفي الوجود الحقيقي عن الأشياء ليس قولاً بأنَّ كلَّ شيء هو الله وليس قولاً بالاتّحاد وقد نقل طود العلم والتّقى العارف المتألّه المولى ميرزا جواد آقا الملكيّ التبريزي أعلى الله تعالى درجاته في كتابه القيّم المعمول في لقاء الله تعالى حكاية بقوله:

حكي أنّ حكيماً كان في إصبهان وكان من دأبه أنه إذا حضر وقت غذائه يرسل خادمه يشتري له ولمن كان عنده كائناً من كان غذاءً يأكل معه، واتفق في يوم أن جاءه واحد من طلاّب البلد لحاجة وقت الغذاء، فقال الحكيم لخادمه: اشتر لنا غذاءً نتغذى. وذهب الخادم واشترى لهما غذاءً وأحضره، قال الحكيم للفاضل: بسم الله، تعالى، نتغذى، قال الشيخ: أنا لا أتغذّى، قال: تغذّيت؟ قال: لا، قال: لم لا تتغذى وأنت ما تغذّيت بعد؟! قال: أحتاط أن آكل من غذائكم، قال: ما وجه احتياطك؟ قال: سمعت أنّك تقول بوحدة الوجود وهو كفر ولا يجوز لي أن آكل من طعامك معك لأنه ينجس من ملاقاتك، قال: ما فرضت أنت معنى وحدة الوجود وحكمت بكفر قائله؟ قال: من جهة أن القائل به قائل بأنّ الله كلّ الأشياء وجميع الموجودات هو الله، قال: أخطأت، تعالى تغذّ لأنّي قائل بوحدة الوجود ولا

(١) الكافي: ٢٤٨/٨، وميزان الحكمة: ٣٠٣/١.

أقول بأنَّ جميع الأشياء هو الله لأنّ من جملة الأشياء جنابك وأنا لا أشكّ في كونك بدرجة الحمار أو أخسّ منها فأين القول بإلهيتك؟ فلا احتياط ولا إشكال تعالى تغذّ، انتهى.

وقلت: قدر رأى حكيم ناسكاً جاهلاً في يده سبحة يذكر الحكماء واحداً بعد واحد ويلعنهم فقال له: لماذا تلعنهم وما أوجب لعنهم؟ قال: لأنهم قائلون بوحدة واجب الوجود، فتبسّم الحكيم ضاحكاً من قوله: فقال له: أنا أيضاً قائل بوحدة واجب الوجود، فاشتدّ الناسك غضباً فقال: اللهمَّ العنه.

واعلم أنَّ البحث عن وحدة الوجود تارة يتوهّم أنَّ الوجود شخص واحد منحصر بفرد هو الواجب بالذّات وليس لمفهوم الوجود مصداق آخر، وغيره من الموجودات كالسماء والأرض والنبات والحيوان والنفس والعقل خيالات ذلك الفرد أي ليس سوى ذلك الفرد شيء وهذه الموجودات ليست أشياء أُخرى غيره كماء البحر وأمواجه حيث إنّ تلك الأمواج المختلفة في الكبر والصغر ليست إلاّ ماء البحر، إلاّ أن اختلاف الأمواج وكثرتها يوهم أنها موجودات بحيالها غير الماء فهذا التوهم مخالف لكثيرٍ من القواعد العقليّة الحكميّة الرصينة المباني، لأنه يوجب نفي عليّة الحق ومعلوليّة الممكنات حقيقةً وعدم افتقار الممكنات رأساً، بل يوجب نفيها أصلاً، وبالجملة أنّ مفاسدها كثيرة عقلاً وشرعاً ولم يتفوّه به أحد من الحكماء المتألهين والعرفاء الشامخين ونسبته إليهم اختلاق كبير وإفك عظيم.

على أنَّ الآثار المختلفة المتنوّعة المشهورة من أنواع الموجودات حسّاً وعياناً تردّ هذا الوهم وتبطله وتنادي بأعلى صوتها أنها مولود من فطانة بتراء.

قال صدر المتألهين في مبحث العلّة والمعلول من الأسفار (**الفصل ٢٧ من المرحلة الرابعة في إثبات التكّثر في الحقائق الإمكانية ص١٩٠ ج١ من الرحلي وص٣١٨ ج٢ من الطبع الجديد**):

إنّ أكثر الناظرين في كلام العرفاء الإلهيّين حيث لم يصلوا إلى مقامهم ولم يحيطوا بكنه مرامهم ظنّوا أنه يلزم من كلامهم في إثبات التوحيد الخاص في حقيقة الوجود والموجود بما هو موجود وحدة شخصيّة أنَّ هويات الممكنات أُمور اعتبارية ومحضة وحقائقها أوهام وخيالات لا تحصل لها إلاّ بحسب الاعتبار، حتى أنَّ هؤلاء الناظرين في كلامهم من غير تحصيل مرامهم صرّحوا بعدميّة الذوات الكريمة القدسيّة والأشخاص الشريفة الملكوتيّة كالعقل الأوّل وسائر الملائكة المقرّبين وذوات الأنبياء والأولياء والأجرام العظيمة المتعدّدة المختلفة بحركاتها المتعدّدة المختلفة جهةً وقدراً وآثارها المتفنّنة وبالجملة النظام المشاهد في هذا العالم المحسوس والعوالم التي فوق هذا العالم مع تخالف أشخاص كلّ منها نوعاً

وتشخّصاً وهوّية وعدداً والتّضاد الواقع بين كثير من الحقائق أيضاً.

ثمَّ إنّ لكل منها آثاراً مخصوصة وأحكاماً خاصّة ولا نعني بالحقيقة إلاّ ما يكون مبدأ أثر خارجي ولا نعني بالكثرة إلاّ ما يوجب تعدّد الأحكام والآثار فكيف يكون الممكن لا شيئاً في الخارج ولا موجوداً فيه.

وما يترائى من ظواهر كلمات الصوفيّة أن الممكنات أُمور اعتباريّة أو انتزاعية عقليّة ليس معناه ما يفهم منه الجمهور ممّن ليس له قدم راسخ في فقه المعارف وأراد أن يتفطّن بأغراضهم ومقاصدهم بمجرَّد مطالعة كتبهم كمن أراد أن يصير من جملة الشعراء بمجرّد تتبّع قوانين العروض من غير سليقة يحكم باستقامة الأوزان أو اختلالها عن نهج الوحدة الاعتداليّة.

فإنّك إن كنت ممّن له أهليّة التفطّن بالحقائق العرفانيّة لأجل مناسبة ذاتية واستحقاق فطري يمكنك أن تتنبّه ممّا أسلفناه من أنّ كلَّ ممكن من الممكنات يكون ذا جهتين: جهة يكون بها موجوداً واجباً لغيره من حيث هو موجود، وواجب لغيره وهو بهذا الاعتبار يشارك جميع الموجودات في الوجود المطلق من غير تفاوت، وجهة أُخرى بها يتعّين هويتها الوجودية وهو اعتبار كونه في أيِّ درجة من درجات الوجود قوّة وضعفاً كمالاً ونقصاً فإنّ ممكنيّة الممكن إنما تنبعث من نزوله عن مرتبة الكمال الواجبي والقوّة الغير المتناهية والقهر الأتم والجلال الأرفع وباعتبار كل درجة من درجات القصور عن الوجود المطلق الّذي لا يشوبه قصور ولا جهة عدميّة ولا حيثيّة إمكانيّة تحصل للوجود خصائص عقليّة وتعيّنات ذهنيّة هي المسمّات بالمهيّات والأعيان الثابتة فكلّ ممكن زوج تركيبي عند التحليل من جهة مطلق الوجود ومن جهة كونه في مرتبة معيّنة من القصور، إلى آخر ما أفاد قدّس سرّه.

وقال الحكيم السبزواري رضوان الله عليه في بيانه: المغالطة نشأت من خلط الماهيّة بالهوية واشتباه الماهيّة من حيث هي بالحقيقة ولم يعلموا أن الوجود عندهم أصل فكيف تكون الهويّة والحقيقة عندهم اعتبارياً، أم كيف تكون الجهة النورانيّة من كلِّ شيء الّتي هي وجه الله وظهوره وقدرته ومشيئته المبينة للفاعل لا للمفعول اعتبارّياً، تعالى ذيل جلاله عن علوق غبار الاعتبار فمتى قال العرفاء الأخيار أُولوا الأيدي والأبصار: إنّ الملك والفلك والإنسان والحيوان وغيرها من المخلوقات اعتبارية، أرادوا شيئيات ماهياتها الغير المتأصّلة عند أهل البرهان وعند أهل الذوق والوجدان، وأهل الاعتبار ذهب أوهامهم إلى ماهياتها الموجودة بما هي موجودة أو إلى وجوداتها حاشاهم عن ذلك بل هذا نظر عامي منزَّه ساحة عزّ الفضلاء عن ذلك.

نظير ذلك إذا قال: الإنسان مثلاً وجوده وعدمه على السّواء أو مسلوب ضرورتي

الوجود والعدم أراد بشيئية ماهية الإنسان ونحوه أنها كذلك وظنّ العامي الجاهل أنه أراد الإنسان الموجود في حال الوجود أو بشرط الوجود، ولم يعلم أنه في حال الوجود وبشرطه محفوف بالضرورتين وليست النسبتان متساويتين ولا جائزتين إذ سلب الشيء عن نفسه محال وثبوت الشيء لنفسه واجب، بل لو قيل بأصالة الماهيّة فالماهيّة المنتسبة إلى حضرة الوجود أصليّة عند هذا القائل لا الماهيّة من حيث هي فإنّها اعتباريّة عند الجميع، وقول الشيخ الشبستري: تعيّنها أُمور اعتبارية، ينادي بما ذكرناه.

وبما حقّقناه علمت أنّ ما توهّمه بعض من أنّ الوجود مع كونه عين الواجب وغير قابل للتجزّيء والانقسام قد انبسط على هياكل الموجودات وظهر فيها فلا يخل منه شيء من الأشياء بل هو حقيقتها وعينها وإنما امتازت وتعيّنت بتقيّدات وتعيّنات وتشخّصات اعتباريّة، ويمثل ذلك بالبحر وظهوره في صورة الأمواج المتكثرة مع أنه ليس هناك إلاّ حقيقة البحر فقط، ليس على ما ينبغي بل وهم، اللهمّ إلا أن يقال: إنّ مراده من قوله: ويمثل ذلك بالبحر وظهوره في صورة الأمواج المتكثرة ليس محمولاً على ظاهره بل المراد شدّة افتقار ما سواه تعالى به، فإنّ الكلّ قائم به كالأمواج بالبحر مثلاً، أو نحو هذا المعنى.

وتارة يعقل من الوحدة الدائرة في ألسنتهم الوحدة السنخيّة لا الوحدة الشخصيّة المذكورة بمعنى أنّ أعلى مرتبة الوجود كالأوّل تعالى متحد مع أدنى مرتبته وأضعف الموجودات كالجسم والهيولى في سنخ أصل حقيقة الوجود والتفاوت والتمايز إنما في الشدّة والضعف والنقص والكمال وعظم درجة الوجود وصغرها وتفاوت شؤون الوجود من الحياة والعلم والقدرة ونحوها، وبالجملة أنّ ما به الامتياز عين ما به الاتفاق وأهل الحكمة يسمّون هذا المعنى بالوحدة السنخيّة، والاشتراك المعنوي في الوجود، وهذا رأي الفهلويين من الحكماء نظمه المتأله السبزواري قدّس سرّه في غرر الفرائد بقوله:

الفهلويون الوجود عندهم حقيقة ذات تشكّك تعم

مراتباً غنى وفقراً تختلف كالنور حيثما تقوى وضعف

وهذا الرأي لا ينافي أمراً من الأمور العقليّة، ولا المباني الشرعيّة، بل ذهب أكثر المحقّقين إلى أنّ صدور المعلول من العلّة إنّما يصحُّ على هذا المبنى، لأنّ الموجودات لو كانت حقائق متبائنة كما أسند إلى طائفة تستلزم مفاسد كثيرة منها عدم كون ما سوى الله تعالى آياته وعلاماته لأنّ السنخيّة بين العلّة والمعلول حكم عقلي لا يشوبه ريب، وذلك لأنّ الشيء لا يصدر عنه ما يضادّه ولا يثمر ما يباينه وإلاّ يلزم أن لا يكون وجود العلّة حدًّا تامّاً لوجود معلولها، ولا وجود المعلول حدًّا ناقصاً لوجود علّته، كما يلزم أن لا يكون حينئذ العلم بالعلة مستلزماً للعلم بالمعلول، والكلّ كما ترى.

وأمّا هؤلاء الطائفة فظاهر الكلام الحكيم المتألّه السبزواري قدّس سرّه الشريف في الغرر هم المشاؤون كلّهم حيث قال: والوجود عند طائفة مشّائيّة من الحكماء حقائق تباينت، والدائر في ألسنة كثير ممّن عاصرناهم كذلك أيضاً؛ ولكن صريح كلام ابن تركه في كتاب «**التمهيد**» في شرح رسالة قواعد التوحيد: أنَّ مذهب المشائين في هذه المسألة التشكيك: حيث قال في شرح كلام المصنّف تركة: «ثمَّ إنَّ الوجود الحاصل للمهيات المختلفة والطبائع المتخالفة ـ الخ»:

أقول: هذا دليل على بطلان القول بالتشكيك الّذي هو مبنى قواعد المشائين في هذه المسألة وعمدة عقائدهم. انتهى ما أردنا من نقل كلامه **(ص٤٨ طبع إيران ١٣٥١)**.

ولا يخفى عليك أنَّ كلام ابن تركه يبائن كلام السبزواري، ولا يبعد أن يقال: إنَّ مراده من طائفة مشائية بعضهم، والله سبحانه أعلم.

وثالثة يعقل من الوحدة الوحدة الشخصيّة غير الوجه الأوَّل الباطل بل بمعنى أن الوجود واحد كثير، أي إنه مع كونه واحداً بالشخص كثير وتلك الكثرة والتعدّد واختلاف الأنواع والآثار لا تنافي وحدته لأنَّ الوحدة من غاية سعتها وإحاطتها بما سواها تشمل على جميع الكثرات الواقعية، والوجود حقيقة واحدة ولها وحدة لا تقابل الكثرة وهي الوحدة الذاتية، وكثرة ظهوراتها وصورها لا تقدح في وحدة ذاتها.

ويعبّرون عن هذا المعنى بالوحدة في عين الكثرة، والكثرة في عين الوحدة، ويمثّلونه بالنفس الناطقة الإنسانيّة لأنَّ كلّ إنسان شخص واحد بالضرورة، قال عزَّ من قائل: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية ٤] والنّفس النّاطقة مع أنّها واحدة بالشخص هي عين جميع قواها الظاهرة والباطنة وتلك القوى مع كونها كثيرة هي عين النّفس النّاطقة الواحدة بالشخص.

فالنّفس بالحقيقة هي العاقلة المتوهمّة المتخيّلة الحسّاسة المحرّكة المتحرّكة وغيرها وهي الأصل المحفوظ في القوى لا قوام لها إلاّ بها، قال المتألّه السبزواري في بعض تعاليقه على كتابه «**غرر الفرائد**»: والحقّ أنَّ وجود النّفس ذا مراتب وأنها الأصل المحفوظ فيها وأنّ كلّ فعل لأيّة قوّة تنسب في الحقيقة فعلها بلا مجاز وجدانيّ، وهذا ذوق أرباب العرفان، قال الشيخ العربي في **فتوحاته**:

النّفس النّاطقة هي العاقلة والمفكّرة والمتخيّلة والحافظة والمصوّرة والمغذية والمنمية والجاذبة والدّافعة والهاضمة والماسكة والسامعة والباصرة والطاعمة والمستنشقة واللاّمسة والمدركة لهذه الأمور، فاختلاف هذه القوى واختلاف الأسماء ليست بشيء زائد عليها، بل

هي عين كل صورة، هذا كلامه.

فأنوار المراتب المسمّاة بالقوى كلّها فانية في نور النّفس النّاطقة، والتنزيه الّذي يراعيه الحكماء إنّما هو لئلا تقف الأذهان في مراتب جسمها وجسمانيّتها كأذهان الطباعيّة والعوام وهو يرجع إلى تنزيه مرتبة منها هي أعلى مراتبها وهي المسمّاة بذاتها، والبواقي إشراقاتها المتفاضلة، انتهى كلامه ـ قدس سره.

قال صدر المتألّهين قدّس سرّه في «**الأسفار**»: إنَّ النفس الإنسانيّة ليس لها مقام معلوم في الهويّة ولا لها درجة معيّنة في الوجود كسائر الموجودات الطبيعيّة والنفسيّة والعقليّة الّتي كلّ له مقام معلوم، بل النّفس الإنسانيّة ذات مقامات ودرجات متفاوتة ولها نشئات سابقة ولاحقة، ولها في كلّ مقام عالم وصورة أُخرى.

وبيان هذا القول المنيع الشريف يطلب من كتابه في «**المبدأ والمعاد**» حيث قال فيه (**ص٢٨٢**): الوحدة الشخصيّة في كلّ شيء ليست على وتيرة واحدة ودرجة واحدة فإنَّ الوحدة الشخصيّة في الجواهر المجرّدة حكمها غير الوحدة الشخصيّة في الجواهر المادّية، فإنّ في الجسم الواحد الشخصي يستحيل أن تجتمع أوصاف متضادّة وأغراض متقابلة من السواد والبياض والسعادة والشقاوة واللذّة والألم والعلوّ والسفل والدُّنيا والآخرة وذلك لضيق حوصلة ذاته وقصر ردائه الوجودي عن الجمع بين الأُمور المتخالفة، بخلاف وجود الجوهر النطقي من الإنسان فإنّها مع وحدتها الشخصيّة جامعة للتجسّم والتجرّد وحاصرة للسعادة والشقاوة فإنها قد تكون في وقت واحد في أعلى عليّين وذلك عند تصوّر أمر قدسي، وقد يكون في أسفل سافلين وذلك عند تصوّر أمر شهويّ، وقد يكون ملكاً مقرّباً باعتبار وشيطاناً مريداً باعتبار.

وذلك لأنَّ إدراك كلّ شيء هو بأن ينال حقيقة ذلك الشيء المدرك بما هو مدرك بل بالاتحاد معه كما رآه طائفة من العرفاء وأكثر المشائين والمحققون وصرَّح به الشّيخ أبو نصر في مواضع من كتبه، والشّيخ اعترف به في كتابه المسمّى بـ«**المبدأ والمعاد**» وفي موضع من الشفاء حيث قال في الفصل السادس من المقالة التاسعة من الإلهيات بهذه العبارة:

ثمَّ كذلك حتّى يستوفي في النّفس هيئة الوجود كلّه فينقلب عالماً معقولاً مقبولاً موازياً للعالم الموجود كلّه مشاهداً لما هو الحسن المطلق والخير المطلق والجمال الحقّ ومتحدة به ومنتقشة بمثاله وهيئاته ومنخرطة في سلكه وسائرة من جوهره.

وممّا يؤيّد ذلك أنّ المدرك بجمع الإدراكات والفاعل بجميع الأفاعيل الواقعة من الإنسان هو نفسه الناطقة النازلة إلى مرتبة الحواس والآلات والأعضاء والصّاعدة إلى مرتبة

العقل المستفاد والعقل الفعال في آن واحد وذلك لسعة وجودها وبسط جوهريّتها وانتشار نورها في الأكناف والأطرف بل يتطوّر ذاتها بالشؤون والأطوار وتجلّيها على الأعضاء والأرواح، وتحلّيها بحلية الأجسام والأشباح مع كونها من سنخ الأنوار ومعدن الأسرار.

ومن هذا الأصل تبيّن وتحقّق ما ادّعيناه من كون شيء واحد، تارة محتاجاً في وجوده إلى عوارض مادية ولواحق جسمية وذلك لضعف وجوده ونقص تجوهره، وتارة ينفرد بذاته ويتخلّص بوجوده وذلك لاستكمال ذاته وتقوى أنيّته وما اشتهر بين متقدّمي المشائين أنَّ شيئاً واحداً لا يكون له إلاّ أحد نحوي الوجود الرابطي والاستقلالي غير مبرهن عليه بل الحق خلافه، نعم لو أريد منه أنَّ الوجود الواحد من جهة واحدة لا يكون ناعتيًا وغير ناعتيٍّ لكان صحيحاً. انتهى كلامه قدّس سرُّه.

ويعبّرون عن الوحدة الجمعية الّتي في الحق سبحانه بالوحدة الحقّة الحقيقيّة والتي في النفس بالوحدة الحقة الظلّية، ومن كان عين بصيرته مفتوحة، يعرف من هذا سرّ قوله ﷺ: من عرف نفسه فقد عرف ربّه، قال علم الهدى الشريف المرتضى رضوان الله عليه في المجلس التاسع عشر من أماليه **«غرر الفوائد ودرر القلائد» (٢٧٤ ج١)**: روي أنَّ بعض أزواج النّبي ﷺ سألته متى يعرف الإنسان ربّه؟ فقال: إذا عرف نفسه، وفي ص٣٢٩ ج٢ منه روي عن النبي ﷺ أنه قال: أعلمكم بنفسه أعلمكم بربه[١]، قال العارف الرومي:

سايه يزدان بود بنده خدا   مرده اين عالم وزنده خدا

كيف مدّ الظل نقش أوليا است   كو دليل نور خورشيد خدا است

وتسمّى هذه الكثرة بالكثرة النوريّة، وهي كلّما كانت أوفر كانت في الوحدة أوغر، وقد اختار الخواجه لسان الغيب هذا المعنى في قوله:

زلف آشفته أو موجب جمعيّت ما است   چون چنين است پس آشفته ترش بايد كرد

وفي قوله الآخر:

ازخلاف آمد دوران بطلب كام كه من   كسب جمعيّت ازآن زلف پريشان كردم

وقد اختار صدر المتألّهين المولى صدرا قدَّس سرُّه الشريف هذا الوجه، وشنّع على القسم الأوّل وأبطله في مبحث العلّة والمعلول من **«الأسفار»**، كما دريت، وهذا وجه وجيه شريف دقيق يوافقه البرهان وذوق العرفان والوجدان ولا ينافي أمراً.

ورابعةً يعقل معنى الوحدة على وجه أدقّ وألطف من الوجوه المتقدّمة وأعلى وأرفع

---

(١) كتاب النوادر: ٢٧، وبحار الأنوار: ١٠٦/٤٧.

منها، والإخلاص في العبادة كما ندب إليه العقل والنقل مقدّمة لحصول هذا المقام المنيع الأسنى، وسلّم للارتقاء إلى هذا المنظر الرفيع الأعلى، ومن راقب الإخلاص والحضور يستعدّ للوصول إلى هذه الرتبة العظمى والجنّة العليا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين فيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد سلك إليه العرفاء الشامخون.

تقريره: أنه لا شبهة بوجود الكثرة والتعدُّد واختلاف الأنواع والأصناف والأفراد، والله جلّ جلاله في إيجاد الممكنات المختلفة وتكوينها، قد ظهر وتجلى بالحياة والقدرة، والعلم والإرادة تجلى المتكلّم الفصيح البليغ في كلامه، وظهور عاكس كإنسان مثلاً في مرائي متعددة مختلفة جنساً ولوناً وشكلاً وجهةً وعظماً وصغراً وغيرها من الصفاء والكدرة ولا ريب أنّ ما يرى من عكوسه المختلفة في أنحاء كثيرة في تلك المرائي ظهوره فيها لا وجوده فيها، ولا حلوله فيها، ولا اتحاده معها، وكذا الكلام في تجلّي المتكلّم في كلامه.

فإذا نظر شخص آخر في تلك المرائي والمظاهر يرى عكوس الأوّل المتعدّدة المختلفة فيها، كما يرى تلك المرائي أيضاً، فمن وقع نظره على العكوس المتفاوتة بالمحالّ والمجالي من غير أن يجعلها عنوانات للعاكس فهو يزعمها أشياء مستقلّة بذواتها، وقد غاب عن العاكس كما هو مذهب عامّة النّاس.

ومن جعل نظره في العاكس فقط بحيث أنَّ كلّه مشغول بكلّه، ومن فرط العشق به لم يلتفت إلى غيره من الصّور والمرائي، ولم يشاهد في تلك الكثرات والتعيّنات إلاّ إيّاه، أعني أصل الصور وصاحبها، فهذا وحدة الوجود في النظر وفناء في الصورة.

زهررنگى كه خواهى جامه مي بوش كه من آن قدّ رعنا مى شناسم

فالموحّد الحقيقي إذا أسقط الإضافات ولم يشاهد أعيان الممكنات والحقائق الوجوديّة الإمكانيّة والجهات الكثيرة الخلقيّة، ولم ينظر إليها ولم ير فيها إلاّ تجليه تعالى وظهور قدرته وصفاته الكمالية حيث لم تشغله تلك الخليقة عن الوجود الواجبي ولم تنسه عن لقاء الله عزَّ وجلَّ، ولم تذهله عن وجهه في كلِّ شيء فهو فانٍ في الله مرزوق عنده ولا يرى إلاّ إيّاه ولا يرزق التوحيد بهذا المعنى إلا الأوحديُّ من أهل الله، الفائز بنعمة لقائه العظمى.

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلاّ على أكمه لا يعرف القمرا

والموحّد في ذلك المشهد يرى ما سواه من الأرض والسماء والغيب والشهادة مرتبطاً بعضها ببعض ولا يرى فصلاً بينها كارتباط أجزاء بدن واحد بعضها ببعض، وبهذا المعنى قد جعل وحدة العالم دليلاً على توحيده تبارك وتعالى، وإن كان كلّ شيء بحياله يدلّ على

وحدانيّته تعالى كما قرّر في محلّه.

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه واحد
هر گياهى كه اززمين رويد وحده لا شريك له گويد

وروى الصّدوق في باب الرّد على الثنوية والزنادقة من التوحيد ص٢٥٤ بإسناده عن هشام بن الحكم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما الدَّليل على أنّ الله واحد؟ قال: اتّصال التّدبير وتمام الصنع، كما قال عزَّ وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢][1].

وإذا نال الموحّد هذا المقام العظيم يجد سلطان الله تعالى على ما سواه ويرى أنّه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هُود: الآية ٥٦]، ويقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غَافر: الآية ١٦] ويصل إلى سر قول إمام الموحّدين أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مع كلّ شيء لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة».

قال القصيري في شرح الفصّ الإدريسي من «**فصوص الحكم**»: أُنظر أيّها السالك طريق الحقّ ماذا ترى من الوحدة والكثرة جمعاً وفرادى؟ فإن كنت ترى الوحدة فقط فأنت مع الحقّ وحده لارتفاع الإثنينيّة، وإن كنت ترى الكثرة فقط فأنت مع الخلق وحده، وإن كنت ترى الوحدة في الكثرة محتجبة، والكثرة في الوحدة مستهلكة، فقد جمعت بين الكمالين وفزت بمقام الحُسنيين. انتهى كلامه.

وبما قرّرنا علم سرّ قول كاشف الحقائق الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (**والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون**) رواه عنه عليه السلام العارف الربّاني مولانا عبد الرّزاق القاساني في تأويلاته كما في آخر «**كشكول**» العلاّمة البهائي ص٦٢٥ من طبع نجم الدولة، وكذا الشّيخ الأكبر محيي الدين في مقدّمة تفسيره (**ص٤ ج١**)، كذا رواه عنه عليه السلام أبو طالب محمد بن علي الحارث المكّي في «**قوّة القلوب**» (**ص١٠٠، ج١ من طبع مصر ١٣٨١هـ**) وقد روى قريباً منه ثقة الإسلام الكليني في «**روضة الكافي**» (**٢٧١ من الطبع الرّحلي**) عن مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة خطب بها في ذي قار حيث قال عليه السلام: فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، وأتى بها الفيض المقدّس في «**الوافي**» ص٢٢ م١٤، وقد نقلناها في شرح المختار ٢٢٩ من الخطب، فراجع إلى ص١٩ من ج١٥[2].

---

(١) التوحيد: ٢٥٠ ح٢، وبحار الأنوار: ٣/٢٢٩ ح١٩.

(٢) الكافي: ٨/٣٨٧ ح٥٨٦.

وبعد اللّتيّا والّتي نقول: ولله المثل الأعلى، والتوحيد على الوجه الرابع أدقّ من التمثيل المذكور أعني مثل صور عاكسة في المرايا، ونعم ما قاله الشّيخ العارف محيي الدين العربي في الباب الثالث والستين من كتاب «**الفتوحات المكّية**» كما في الأسفار: إذا أدرك الإنسان صورته في المرآة يعلم قطعاً أنه أدرك صورته بوجه وأنه ما أدرك صورته بوجه لما يراه في غاية الصغر لصغر جرم المرآة أو الكبر لعظمه ولا يقدر أن ينكر أنّه رأى صورته ويعلم أنه ليس في المرآة صورته ولا هي بينه وبين المرآة فليس بصادق ولا كاذب في قوله: رأى صورته وما رأى صورته، فما تلك الصورة المرئيّة، وأين محلّها وما شأنها فهي منتفية ثابتة موجودة معدومة معلومة مجهولة أظهر سبحانه هذه الحقيقة لعبده ضرب المثال ليعلم ويتحقّق أنه إذا عجز وحار في درك حقيقة هذا وهو من العالم ولم يحصل علماً بحقيقته فهو بخالقها إذاً أعجز وأجهل وأشدّ حيرة. انتهى.

قال الغزالي في «**الإحياء**» في بيان الوجه الأخير من التوحيد: هو أن لا يرى في الموجود إلا واحداً وهو مشاهدة الصّديقين ويسميّه الصوفيّة الفناء في التوحيد لأنّه من حيث لا يرى إلاّ واحداً لا يرى نفسه أيضاً بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه.

فإن قلت: كيف يتصوّر أن لا يشاهد إلاّ واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة؟

فاعلم أنَّ هذا غاية علوم المكاشفات وأنَّ الموجود الحقيقي واحد، وأنَّ الكثرة فيه في حق من يفرق نظره، والموحّد لا يفرق نظر رؤية السماء والأرض وسائر الموجودات بل يرى الكلّ في حكم الشيء الواحد، وأسرار علوم المكاشفات لا يسطر في كتاب، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أنَّ الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار واحداً كما أنَّ الإنسان كثير إذا نظر إلى روحه وجسده وسائر أعضائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أُخرى واحد إذ نقول إنّه إنسان واحد فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أجزائه وأعضائه وتفصيل روحه وجسده، والفرق بينهما وهو في حالة الاستغراق والاستهتار مستغرق واحد ليس فيه تفرّق وكأنّه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقة.

وكذلك كلّ ما في الوجود له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة وهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبار آخر سواه كثير بعضه أشدّ كثرة من بعض.

ومثال الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكن ينبّه في الجملة على كشف الكثير ويستفيد معاً من هذا الكلام بترك الإنكار والجحود بمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب منه، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما

أنك إذا آمنت بالنّبوة كان لك نصيب منه، وإن لم يكن بيّناً وهذه المشاهدة الّتي لا يظهر فيها إلاّ الواحد الحقّ سبحانه تارة يدوم وتارة يطرأ كالبرق الخاطف وهو أكثر، والدوام نادر عزيز جداً.

وقال في موضع آخر من الكتاب: وأمّا من قويت بصيرته ولم تضعف نيّته فإنّه في حال اعتدال أمره لا يرى إلاّ الله ولا يعرف غيره، ويعلم أنّه ليس في الوجود إلاّ الله تعالى وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة وإنّما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومن هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلاّ ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنّه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنّه صنع فلا يكون نظره مجاوزاً له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطّه أو تصنيفه، فرأى فيه الشاعر والمصنّف ورأى آثاره من حيث إنها آثاره لا من حيث إنها حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنّف وكلّ العالم تصنيف الله فمن نظر إليها من حيث إنها فعل الله وأحبّها من حيث إنها فعل الله لم يكن ناظراً إلاّ في الله، ولا عارفاً إلاّ بالله، ولا محبّاً إلاّ الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذي يقال إنه فني في التوحيد، وإنه فني في نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنّا بنا فغبنا عنّا فبقينا بلا نحن، فهذه أُمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها، وقصور قدر العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أنّ بيان ذلك لغيرهم ممّا لا يغنيهم. انتهى كلامه.

قلت: قد رأيت ليلة الإثنين الثالثة والعشرين من ربيع الأوّل من شهور السنّة السّابعة والثمانين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة بعض مشايخي متّع الله المسلمين بطول بقائه في منامي، قد ناولني رسالة في السير والسلوك إلى الله تبارك وتعالى، ثمّ قال لي: «التوحيد أن تنسى غير الله» ولمّا قصصت عليه الرؤيا، قال مدّ ظلّه العالي:

نشاني داده اندت از خرابات | كه التوحيد إسقاط الإضافات

والبيت من گلشن راز للشبستري قدّس سرُّه.

وخامسة يعني بالوحدة ما يفوه به من يبوح قائلاً من عرَّف سرّ القدر فقد ألحد.

فبما قدَّمنا علمت أنَّ المراد من وحدة الوجود ليس ما توهّمه أوهام من لم يصل إلى مغز مرامهم وسرّ كلامهم، وأنَّ لقاء الله تعالى الحاصل لأهله ليس كما يتصوَّره الجهّال الّذين

(١) الكافي: ٨/ ٣٨٧، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٥١٧.

لم يجمعوا بين الجمع والتفرقة، وقد جاء حديث عن معدن الحقائق الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق صلوات الله تعالى عليه: «إنَّ الجمع بلا تفرقة زندقة، والتفرقة بدون الجمع تعطيل، والجمع بينهما توحيد».

وقال المولى الحكيم العارف المتأله ميرزا محمد رضا القمشي قدس سره في تعاليقه على «**تمهيد القواعد**» لابن تركه في شرح قواعد التوحيد لتركه في بيان الحديث:

ذهبت طائفة من المتصوّفة إلى أنَّ الوجود حقيقة واحدة لا تكثّر فيها ولا تشأن لها وما يرى من الممكنات المكثّرة أُمور موهومة باطلة الذوات كثاني ما يراه الأحول، وهذا زندقة وجحود ونفي له تعالى لأنَّ نفي الممكنات يستلزم نفي فاعليّته تعالى، ولمّا كانت فاعليّته تعالى نفس ذاته فنفى فاعليّته يستلزم نفي ذاته، وإليه أشار عليه السلام بقوله: إنَّ الجمع بلا تفرقة زندقة.

وذهبت طائفة أُخرى منهم إلى أنّ الممكنات موجودة مكثرة ولا جاعل ولا فاعل لها خارجاً عنها والوجود المطلق متحد بها بل هو عينها وهذا إبطال لها وتعطيل لها في وجودها فإنه حينئذٍ لا معطى لوجودها لأن المفروض أن لا واجب خارجاً عنها والشيء لا يعطي نفسه ولا يوصف الممكن بالوجوب الذاتي، وإليه أشار عليه السلام بقوله: والتفرقة بدون الجمع تعطيل، ويظهر من ذلك البيان أنَّ كلا القولين يشتمل على التناقض لأنَّ الجمع بلا تفرقة تستلزم نفي الجمع، والتفرقة بدون الجمع يستلزم نفي التفرقة، انتهى كلامه رفع مقامه.

وإن شئت تقرير ذلك المطلب الأسنى على أُسلوب آخر أبين وأوضح مما تقدَّم، فاعلم أنَّ ما يخبر عنه ويصدر عنه أثر هو الوجود لا غير وسواه ليس محض وعدم صرف وباطل بالذات وما ليس بشيء ليس بشيء حتى يكون ذا أثر، وإذا تأمّلت في الأشياء الممكنة تجدها أنَّ ظهورها بالوجود، ولولاه لم يكن لها ظهور فضلاً عن أن يكون لها أثر فإذا تحقّق الوجود في موطن يتبعه أثر لائق بذلك الموطن.

وتجد أنَّ لها اعتبارين: أحدهما وجودها والآخر حدودها فتصير وجودات مقيّدة محدودة، فبالقيد والحد تسمى بأسماء لفظية، فيقال: هذه أرض، وتلك شمس وذلك قمر وفلك وملك وهكذا، وتلك الحدود يعبّر عنها في الكتب الحكميّة بل في الجوامع الروائيّة بالماهيّة، ولمّا لم يكن للأوّل تعالى حدّ لم تعلم له ماهيّة، وفي دعاء اليماني لإمام الموحّدين عليّ أمير المؤمنين عليه السلام رواه السيّد الأجلّ ابن طاووس عليه رحمة الملك القدّوس، مسنداً في «**مهج الدعوات**» (ص١٠٥): بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم اللهمَّ أنت الملك الحقّ الّذي لا إله إلاّ أنت ـ إلى أن قال بعد سطور: لم تُعَن في قدرتك، ولم تشارك في إلهيّتك، ولم تعلم لك مائيّة فتكون للأشياء المختلفة مجانساً، الخ.

وفي باب نفي الجسم والصورة والتشبيه من ثاني البحار نقلاً عن **«روضة الواعظين»**: روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال له رجل: أين المعبود؟ فقال عليه السلام: لا يقال له أين لأنه أيّن الأينيّة، ولا يقال له كيف لأنّه كيّف الكيفيّة، ولا يقال له ما هو لأنّه خلق الماهيّة[1] ـ الحديث.

والماهيّة والمائيّة بمعنى واحد وهي مشتقّة عن ما هو، كما هو صريح رواية أمير المؤمنين عليه السلام، وكما صرّح به المحقّق الخواجه نصير الدّين الطوسي قدّس سرّه في أوّل الفصل الثاني من المقصد الأوّل من **«التجريد»**، والمتألّه السبزواري في أوّل الفريدة الخامسة من **«غرر الفرائد»**، وتعبير الماهيّة بالمائيّة في كتب القدماء بل في الروايات كثيرة جدًّا، وقد كان فيلسوف العرب الكندي يعبّرها في رسائله بالمائية، كما ترى في رسائله الفلسفيّة المطبوعة في مصر، وقد روى الشيخ الجليل الصدوق في باب تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] من كتاب التوحيد بإسناده عن وهب بن وهب القرشي قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: قدم وفد من أهل فلسطين على الباقر عليه السلام فسألوه عن مسائل فأجابهم، ثمّ سألوه عن الصمد، فقال: تفسيره فيه، الصمد خمسة أحرف: فالألف دليل على أنّيته، وهوقوله عزَّ وجلَّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨] و ذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس، واللام دليل على إلهيّته بأنه هو الله ـ إلى أن قال: لأنّ تفسير الإله هو الذي أله الخلق عن درك مائيّته وكيفيّته بحسّ أو وهم ـ إلى أن قال: فمتى تفكّر العبد في مائيّة الباري وكيفيّته أله فيه وتحيّر[2] ـ الخ.

والإنيّة مشتقّة من الإنّ، كما قال الإمام عليه السلام من حسن صنيعته: وهوقوله عزَّ وجلَّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨] والتعبير عن تحقّق الشيء ووجوده بالإنيّة وعن حدوده بالماهيّة أو المائيّة غير عزيز في ألسنة أهل الله.

والماهيّات بأسرها ظاهرة بالوجود فهي ليست نوري الذّات بل بذاتها ليس محض وظلمة وإنّما أيسها ونورها بغيرها وهو الوجود، ولما لم يكن لله جلَّ جلاله حدّ ونهاية فلا يتصوّر فيه ماهيّة تعالى عن أن يكون مجانساً لمخلوقاته، وفي الحديث: ربّنا نوري الذّات، حيّ الذات، قادر الذّات، عالم الذات، من قال أنه قادر بقدرة، عالم بعلم، حي بحياة، فقد اتخذ مع الله آلهة أخرى وليس على ولايتنا من شيء.

وفي التوحيد عن جابرالجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: إنَّ الله نور لا

---

(١) روضة الواعظين: ٣٧، وبحار الأنوار: ٣/ ٢٩٧ ح٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ٣/ ٢٢٥، والتوحيد: ٩٢ ح٦.

ظلمة فيه، وعلم لا جهل فيه، وحياة لا موت فيه[١].

وفيه بإسناده عن هشام بن سالم قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: أتنعت الله؟ قلت: نعم، قال عليه السلام: هات، فقلت: هو السميع البصير، قال عليه السلام: هذه صفة يشترك فيها المخلوقون، قلت: وكيف ننعته؟ فقال عليه السلام: هو نور لا ظلمة فيه، وحياة لا موت فيه، وعلم لا جهل فيه، وحق لا باطل فيه[٢]، فخرجت من عنده وأنا أعلم الناس بالتوحيد.

ولمّا كان النور ظاهراً بذاته ومظهراً لغيره كما ترى الأنوار المحسوسة من نور القمر والكواكب وضياء الشمس وغيرها، ويطلق عليها النور من هذه الحيثيّة كما أنَّ النّور يطلق على العلم من حيث ظهوره للعالم، كذلك فقد جاء في الخبر عن سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله: العلم نور وضياء يقذفه الله في قلوب أوليائه. كما في «**جامع الأسرار**» للسيّد المتألّه حيدر الآملي قدّس سرُّه (ص٥١٣) وفي خبر آخر عنه صلى الله عليه وآله: ليس العلم بكثرة التعلّم إنّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه[٣]، كما في «**قرّة العيون**» للفيض المقدّس رضوان الله عليه(ص٢٢٠) وفي الحديث الآتي عن عنوان البصري عن الإمام الصادق عليه السلام أطلق على شمس الوجود المضيئة لغيرها من ماهيّات القوالب والهياكل الإمكانيّة بل مخرجها من اللّيس إلى الأيس اسم النور أيضاً بل هو النور حقيقة وتستنير سائر الأنوار الحسيّة به لما دريت من أنّ ظهور كلّ شيء به، فالوجود ظاهر بذاته ومظهر لغيره من أشباح الماهيات وهياكلها، كما يرشدك إليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: الآية ٣٥] ـ الآية.

وقد روى الشّيخ الجليل الصدوق في أوَّل باب تفسير قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] إلى آخر الآية بإسناده عن العبّاس بن هلال قال: سألت الرّضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: الآية ٣٥] فقال: هادٍ لأهل السّماء وهادٍ لأهل الأرض[٤]، قال: وفي رواية البرقي: هدى من في السماوات وهدى من في الأرض.

وذلك لأنَّ كلّ من هدى إلى حقيقة فإنّما هدى بنور الوجود ولولاه لكانت الظلمات غالبة فالنور أي الوجود هو الهادي فليس إلاّ صدق وليّ الله الأعظم في قوله حيث فسّر النور بالهادي.

(١) نور البراهين: ١/٣٤٨ ح١١، وميزان الحكمة: ٣/١٩١٠ ح٢٦٤٢.
(٢) نور البراهين: ١/٣٦٨ ح١٤، والتوحيد: ١٤٦ ح١٤.
(٣) بحار الأنوار: ٦٧/١٤٠، وشجرة طوبى: ١/٣٨.
(٤) شرح أصول الكافي: ٤/٨ ح٤، ومسند الإمام الرضا: ١/٣٥٩ ح١٥٤.

فإن قلت: قد جاءت في عدّة آيات وكثير من أدعيّة وروايات أنه تعالى مضلٌ أيضاً كقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعَام: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فَاطِر: ٨] ونحوهما فكيف التوفيق؟

قلت: الإضلال: إخراج الغير عن الطريق من دواع نفسانيّة وأغراض شخصيّة من إعمال حقد وحسد ونحوهما حتى يحصل التشفّي للمضلّ بإضلاله الغير، ولا يخفى عليك أنَّ إسناد الإضلال إليه تعالى قبيح عقلاً لعدم تجويز العقل إسناده إليه فليس الإضلال بمعناه الحقيقي مسنداً إليه تعالى من غير التوسّل بوسط.

فنقول: لا كلام أنّه تعالى مضلٌ، من شاء الله يضلله، ولكن تحت هذا سرٌّ ويتّضح لك بإيراد مثال وهو أن نقول: لو كان لك أولاد ولم تأمرهم بعمل ودستور لا يصحُّ أن يقال: إنَّ فلاناً أطاع أباه، وفلاناً عصاه، وأمّا إذا جعلت لهم دستوراً يأمرهم بالخير قبله بعض وأبى بعض آخر، فحينئذ يقال للأوَّل: المطيع، وللثاني: العاصي، ثمَّ لمّا كان ذلك الدستور حاوياً لما فيه صلاحهم ورشادهم، فأنت هادٍ للبعض الأوَّل، وحيث إنَّ الثاني ظلم نفسه وأعرض عن الدستور، فحينئذ يقال له: هو ضال وأنت مضلٌ له، بمعنى أنّه لو لم يكن جعل هذا الدستور لم تتميّز الهداية من الضلالة، ولم يصحّ قبل تعيين الطريق أن يقال: فلان اهتدى وفلان ضلّ، فبالحقيقة أنَّ الثاني إنّما ضل عن دستورك وطريقك، فأنت مضلّ له بهذا المعنى الدقيق اللّطيف.

فإذا فهمت المثال فهمت جواب السؤال وذلك لأنه لولا إرسال الرسل وإنزال الكتب لم يتميّز الخبيث عن الطيب ولم يصح أن يقال: فلان هدي إلى الصراط المستقيم فأفلح، وفلان ضلّ فعصى وغوى، وحيث إنَّ الدستور هو القرآن وهو الصراط والمعيار والميزان وإنَّ الله تعالى أنزله هدايةً للعباد فمن استكبر وأبى فقد ضلّ وظلم نفسه، وبهذا المعنى يقال: إنَّ الله أضّله أو هو مضلٌ ونحوهما، ألا ترى أنَّ الإضلال يضاف إلى الظّالمين والخاسرين والكافرين ونحوها، نحو قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٨] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غَافر: الآية ٧٤] وأمثالها، فتبصّر وخذه واغتنم.

قال القيصري في مقدّمته على «شرح الفصوص»: والوجود خير محض وكلّ ما هو خير فهو منه وبه وقوامه بذاته لذاته، إذ لا يحتاج في تحقّقه إلى أمر خارج عن ذاته فهو القيّوم الثابت بذاته والمثبت لغيره.

وليس له ابتداء وإلاّ لكان محتاجاً إلى علّة موجودة لإمكانه حينئذ، ولا له انتهاء وإلاّ

لكان معروضاً فيوصف بضدّه أو الانقلاب فهو أزلي وأبدي، فهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن لرجوع كلّ ما ظهر في الشهادة أو بطن في الغيب إليه، وهو بكلّ شيء عليم لإحاطته بالأشياء بذاته وحصول العلم لكلّ عالم إنّما هو بواسطته فهو أولى بذلك بل هو الّذي يلزمه جميع الكمالات وبه تقوم كلّ من الصّفات كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر وغير ذلك فهو الحيّ العليم المريد القادر السميع البصير بذاته لا بواسطة شيء آخر إذ به تلحق الأشياء كلّها كمالاتها بل هو الّذي يظهر بتجلّيه وتحوّله في صورة مختلفة بصور تلك الكمالات فيصير تابعاً للذوات لأنّها أيضاً وجودات خاصة مستهلكة في مرتبة أحديّته ظاهرة في واحديّته.

وهو حقيقة واحدة لا تكثّر فيها وكثرة ظهوراتها وصورها لا تقدح في وحدة ذاتها وتعيّنها، وامتيازها بذاتها لا بتعيّن زائد عليها إذ ليس في الوجود ما يغايره ليشترك معه في شيء ويتميّز عنه بشيء وذلك لا ينافي ظهورها في مراتبها المتعيّنة بل هو أصل جميع التعيّنات الصفاتيّة والأسمائيّة والمظاهر العلميّة والعينيّة.

ولها وحدة لا يقابل الكثرة هي أصل الوحدة المقابلة لها وهي عين ذاتها الأحديّة، والوحدة الأسمائيّة المقابلة للكثرة الّتي هي ظلّ تلك الوحدة الأصليّة الذاتيّة أيضاً عينها من وجه.

وهو نور محض إذ به تدرك الأشياء كلّها ولأنّه ظاهر بذاته ومظهر لغيره ومنوّر سماوات الغيوب والأرواح وأرض الأجسام لأنّها به توجد وتتحقّق، ومنبع جميع الأنوار الروحانيّة والجسمانيّة، وحقيقته غير معلومة لما سواه، وليست عبارة عن الكون ولا عن الحصول والتحقّق والثبوت، إن أُريد بها المصدر لأنّ كلاً منها عرض حينئذ ضرورة، وإن أُريد ما يراد بلفظ الوجود فلا نزاع كما أراد أهل الله بالكون وجود العالم، وحينئذ لا يكون شيء منها جوهراً ولا عرضاً ولا معلوماً بحسب حقيقته، وإن كان معلوماً بحسب أنّيته، والتعريف اللّفظي لا بدّ أن يكون بالأشهر ليفيد العلم والوجود أشهر من الكون وغيره ضرورة.

والوجود العام المنبسط على الأعيان في العلم ظلّ من أضلاله لتقيّده بعمومه وكذلك الوجود الذهني والوجود الخارجي ظلاّن لذلك الظلّ لتضاعف التقييد وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٥] فهو الواجب الوجود الحقّ سبحانه وتعالى الثابت بذاته المثبت لغيره الموصوف بالأسماء الألهيّة المنعوت بالنعوت الربّانية المدعوّ بلسان الأنبياء والأولياء الهادي خلقه إلى ذاته الداعي مظاهره بأنبيائه إلى عين جمعه ومرتبة ألوهيّته أخبر بلسانهم أنّه بهويّته مع كلّ شيء، وبحقيقته مع كلّ حيّ؛ ونبّه أيضاً أنّه عين الأشياء، بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحَديد: الآية ٣] فكونه عين الأشياء بظهوره في ملابس أسمائه وصفاته في عالمي العلم والعين وكونه غيرها باختفائه في ذاته واستعلائه بصفاته عمّا يوجب النقص والشين وتنزّهه عن الحصر والتعيين وتقدّسه عن سمات الحدوث والتكوين.

وإيجاده للأشياء اختفاؤه فيها مع إظهاره إيّاها، وإعدامه لها في القيامة الكبرى ظهوره بوحدته وقهره إيّاها بإزالة تعيناتها وسماتها وجعلها متلاشية، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية ١٦] ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨] وفي الصغرى تحوّله من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، أو من صورة إلى صورة في عالم واحد، فالمهيّات صور كمالاته ومظاهر أسمائه وصفاته ظهرت أوّلاً في العلم ثمَّ في العين بحسب حبّه إظهار آياته ورفع أعلامه وراياته فتكثر بحسب الصّور وهو على وحدته الحقيقيّة وكمالاته السرمديّة وهو يدرك حقائق الأشياء بما يدرك حقيقة ذاته لا بأمر آخر كالعقل الأوّل وغيره لأنَّ تلك الحقائق أيضاً عين ذاته حقيقة وإن كانت غيرها تعيّناً.

ولا يدركه غيره كما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٠٣] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠] ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعَام: الآية ٩١] ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠] نبّه عباده تعطّفاً منه ورحمة لئلا يُضيّعوا أعمارهم فيما لا يمكن حصوله.

وإذا علمت أنَّ الوجود هو الحق علمت سرّ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحَديد: الآية ٤] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ٨٥] ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٢١] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزّخرُف: الآية ٨٤] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ وكنت سمعه وبصره، وسر قوله عليه السلام: لو دليتم بحبل لهبط على الله. وأمثال ذلك من الأسرار المنبهة للتوحيد بلسان الإشارة. انتهى ما أردنا من نقل كلام القيصري.

ولمّا كان حكم السنخيّة بين العلّة والمعلول ممّا لا يتطرّق إليه شكّ وشبهة فكلّ واحد ممّا سواه تعالى آية وعلامة له وآية الشيء تحاكي عنه من وجه ولا تباينه من جميع الوجوه ونسبتها إليه كظلّ إلى ذيه، ولولا حكم السنخيّة لم يصحّ كون الموجودات الآفاقية والأنفسيّة ـ أعني ما سواه ـ آيات له وتأمّل في ألفاظ الآية وأخواتها المذكورة في القرآن الكريم ترشدك إلى الصواب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٠] إلى آخر الآيات الخمس [آل عمران:].

قال في «**المجمع**»: وقد اشتهرت الرواية عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآيات قال: ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّل ما فيها(١).

وقد روى ثقة الإسلام الكليني قدّس سرّه في كتاب فضل القرآن من «**أُصول الكافي**» (**ص٤٤٦ ج٢ من المعرب**) بإسناده عن حفص بن غياث، عن الزّهري قال: سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: آيات القرآن خزائن فكلّما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها(٢).

وهذه اللفظة أعني الآية وأخواتها تنادي بأعلى صوتها أنَّ الوجود أصل وأنَّ ما سواه تعالى علامة وفيء له تعالى، ولولا الوجود لما كان عن الأشياء عين وأثر، ولمّا كان الوجود نوراً فما صدر عنه تعالى نور أيضاً لحكم السنخيّة بين العلّة ومعلولها.

وفي المجلّد الأوّل من «**البحار**» نقلاً عن كتاب «**علل الشرائع**» في سؤالات الشامي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن أوّل ما خلق الله تبارك وتعالى؟ فقال عليه السلام: النّور.

وفي التاسع عشر من «**البحار**» ص١٨٣ في دعاء عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ: اللهمَّ إنّي أسئلك يا من احتجب بشعاع نوره عن نواظر خلقه(٣).

ففيه دلالة على أنّه لا حجاب مضروب بينه وبين خلقه إلاّ شدَّة ظهوره وقصور بصائرنا فضلاً عن أبصارنا عن اكتناه نوره كما تقدّم آنفاً بيانه.

جمالك في كلّ الحقائق سائر ... وليس له إلاّ جمالك ساتر

حجاب روى توهم روى تست درهمه حال ... نهاني از همه عالم زبس كه پيدائى

وهذا الدُّعاء معروف بدعاء احتجاب، نقله الشّيخ العلاّمة البهائي قدّس سرُّه في «**الكشكول**» أيضاً (**ص٣٠٣ من طبع نجم الدولة**) ورواه السيّد الأجلّ ابن طاووس رحمه الله عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ في «**مهج الدعوات**» (**ص٧٥**).

وتأمّل في حرز مولانا وإمامنا محمد بن علي الجواد عليه السلام، رواه السيّد الأجل ابن

---

(١) بحار الأنوار: ٦٦/٣٥٠، وتفسير مجمع البيان: ٢/٤٧٠.

(٢) الكافي: ٢/٦٠٩ ح٢، ووسائل الشيعة: ٦/١٩٨ ح٧٧٢٢.

(٣) بحار الأنوار: ٩١/٤٠٣، ومستدرك سفينة البحار: ٢/١٨٢.

طاووس رفع الله تعالى درجاته في «**مهج الدّعوات**» (ص٣٦) وفي ذلك الحرز: وأسألك يا نور النّهار ويا نور الليل ويا نور السّماء والأرض ونور النّور ونوراً يضيىء به كلّ نور ـ إلى أن قال ﷺ، وملأ كلّ شيء نورك[١].

وفي قوله ﷺ: «ملأ» دقيقة وهي أنّ ذلك النور لم يترك مكاناً لغيره حتى يوجد شيء مؤلّفٌ منه ومن غيره بل كلّ شيء ليس إلاّ ذلك النّور فقط وحدودها أعدام ذهنيّة اعتباريّة.

غير تش غيردر جهان نگذاشت   لا جرم عين جمله أشيا شد

وفي دعاء إدريس ﷺ نقله السيّد الجليل المذكور قدس سرّه في المهج أيضاً (**ص٣٠٥**): يا نور كلّ شيء وهُداه أنت الّذي فلق الظلمات نوره.

وفي دعاء إبراهيم خليل الرحمٰن صلوات الله عليه (**المهج ص٣٠٦**): يا الله نور النّور قد استضاء بنورك أهل سماواتك وأرضك.

وفي دعاء لنبيّنا ﷺ: فيا نور النّور ويا نور كلّ نور ـ الخ، رواه السيّد قدّس سرُّه في «**الإقبال**» (ص١٢٦).

وفي «**المهج**» أيضاً (ص٨٨) ومن ذلك دعاء آخر علّمه جبرائيل ﷺ النبي ﷺ أيضاً: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم يا نور السّماوات والأرض يا جمال السّماوات والأرض ـ الخ.

وفي دعاء السحر لإمامنا محمد بن علي الباقر ﷺ: اللهمَّ إنّي أسألك من نورك بأنواره وكلّ نورك نيّر اللهمَّ إنّي أسئلك بنورك كله[٢].

ونحوها من الأذكار والأدعيّة المأثورة عن حجج الله تعالى كثير جدًّا وإنّما نقلنا طائفة منها ضياءً ونوراً للمستضيئين، وليعلم أنَّ المعارف كلّها عند خزنة علم الله جلَّ وعلا.

ازهگذر خاك سركوى شما بود   هر نافه كلهدردست نسيم سحر افتاد

وذلك النور الّذي ملأ كلّ شيء هو وجهه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦ ـ ٢٧] ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥].

قال العارف المتألّه السيّد حيدر الآملي قدّس سرّه في «**جامع الأسرار**» (**ص٢١٠**):

---

(١) الأمان من أخطار الأسفار: ٧٩، وبحار الأنوار: ٩١/٣٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ٩٥/٩٤، ومسند الإمام الرضا: ٢/١٦.

حكي أنَّ جماعة من الرّهبانيّين وردوا المدينة في عهد خلافة أبي بكر ودخلوا عليه وسألوه عن النبي وكتابه، فقال لهم أبو بكر: نعم جاء نبيّنا ومعه كتاب، فقالوا له: وهل في كتابه وجه الله؟ قال: نعم، قالوا: وما تفسيره؟ قال أبو بكر: هذا السّؤال منهيّ عنه في ديننا، وما فسّره نبيّنا بشيء، فضحك الرهبانيون كلّهم وقالوا: والله ما كان نبيّكم إلاّ كذّاباً وما كان كتابكم إلاّ زوراً وبهتاناً.

وخرجوا من عنده، فعرف بذلك سلمان فدعاهم إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقال لهم: إنَّ هذا خليفته الحقيق وابن عمّه فاسألوه، فسألوا عن السؤال بعينه أمير المؤمنين عليه السلام فقال لهم: ما نقول جوابكم بالقول بل بالفعل. فأمر بإحضار شيء من الفحم وبإشعاله فلمّا اشتعل وصار كلّه ناراً، سأل عليه السلام الرّهبان وقال: يا رهبان! ما وجه النّار؟ فقال الرّهبان هذا كلّه وجه النار، فقال عليه السلام: فهذا الوجود كلّه وجه الله[1]؛ وقرأ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرة: الآية ١١٥] ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨] فأسلم الرهبانيّون كلهم بذلك على يده وصاروا موحّدين عارفين.

وقال ـ رضوان الله عليه ـ: وحكي أيضاً أنَّ حيتان البحر اجتمعوا يوماً عند كبيرهم وقالوا له: يا فلان نحن عزمنا على التوجّه إلى البحر الذي نحن به موجودون وبدونه معدومون فلا بدَّ من أن تعلّمنا جهته وتعرّفنا طريقه حتّى نتوجّه إليه ونصل إلى حضرته لأنّا بقينا مدّة متطاولة نسمع به وما نعرفه ولا نعرف مكانه ولا جهته.

فقال لهم كبيرهم: يا أصحابي وإخواني ليس هذا الكلام يليق بكم ولا بأمثالكم لأنَّ البحر أعظم من أن يصل إليه أحد وهذا ليس بشغلكم ولا هو من مقامكم، فاسكتوا عنه ولا تتكلموا بعد ذلك بمثل هذا الكلام بل يكفيكم أنكم تعتقدون أنكم موجودون بوجوده ومعدومون بدونه.

فقالوا له: هذا الكلام ما ينفعنا ولا هذا المنع يدفعنا، لا بدَّ لنا من التوجّه إليه ولا بدَّ لك من إرشادنا إلى معرفته ودلالتنا إلى وجوده.

فلمّا عرف الكبير صورة الحال وأنَّ المنع لا يفيد شرع لهم في البيان وقال: يا إخواني؛ البحر الذي أنتم تطلبونه وتريدون التوجّه إليه هو معكم وأنتم معه، وهو محيط بكم وأنتم محاطون به، والمحيط لا ينفك عن المحاط به، والبحر عبارة عن الذي أنتم فيه فأينما توجّهتم في الجهات فهو البحر وليس غير البحر عندكم شيء فالبحر معكم وأنتم مع البحر، وأنتم في البحر والبحر فيكم، وهو ليس بغائب عنكم، ولا أنتم بغائبين عنه، وهو أقرب

(١) مقالات وتفتارها: ٢٨٠.

إليكم من أنفسكم.

فحين سمعوا هذا الكلام منه قاموا كلّهم إليه وقصدوه حتى يقتلوه، فقال لهم: لِمَ تقتلوني ولأي ذنب أستحق هذا؟ فقالوا له: لأنّك قلت البحر الّذي نحن نطلبه هو الّذي نحن فيه والّذي نحن فيه هو الماء فقط، وأين الماء من البحر فما أردت بهذا إلاّ إضلالنا عن طريقه وَحَيدَانِنَا عنه.

فقال كبيرهم: والله ما كان كذلك وما قلت إلاّ الحقّ والواقع في نفس الأمر لأنّ البحر والماء شيء واحد في الحقيقة وليس بينهما مغايرة أصلاً، فالماء اسم للبحر بحسب الحقيقة والوجود، والبحر اسم له بحسب الكمالات والخصوصيّات والانبساط والانتشار على المظاهر كلها.

فعرف ذلك بعضهم وصار عارفاً بالبحر وسكت عنه، وأنكر البعض الآخر وكفر بذلك ورجع عنه مطروداً محجوباً.

والّذي حكيتُ عن لسان الحيتان لو حكيته عن لسان الأمواج لكان أيضاً صحيحاً وكلاهما جائز، وإذا تحقّق هذا فكذلك شأن الخلق في طلب الحقّ فإنّهم إذا اجتمعوا عند نبي أو إمام أو عارف وسألوا عن الحقّ، فقال هذا النبي أو الإمام أو العارف: إنَّ الحقّ الذي تسألون عنه وتطلبونه هو معكم وأنتم معه، وهو محيط بكم وأنتم محاطون به، والمحيط لا ينفك عن المحاط، وهو معكم أينم كنتم، وهو أقرب إليكم من حبل وريدكم ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣] ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: الآية ٨٨] وهو ليس بغائب عنكم ولا أنتم بغائبين عنه، أينما توجّهتم فثم ذاته ووجهه ووجوده وهو مع كلّ شيء وهو عين كلّ شيء، بل هو كلّ شيء وكلّ شيء به قائم وبدونه زائل، وليس لغيره وجود أصلاً، لا ذهناً ولا خارجاً، وهو الأوّل بذاته، والآخر بكمالاته، الظاهر بصفاته، والباطن بوجوده، وإنه للكل مكان،في كل حين وأوان، ومع كل إنس وجان.

فلمّا سمع الخلق ذلك قاموا إليه كلهم وقصدوه ليقتلوه، فقال لهم: لِمَ تقتلوني ولأيّ ذنب أستحقّ هذا؟.

فقالوا له: لأنّك قلت الحق معكم وأنتم معه، وليس في الوجود إلاّ هو، وليس لغيره وجود لا ذهناً ولا خارجاً، ونحن نعرف بالحقيقة أنَّ هناك موجودات غيره من العقل والنّفس

والأفلاك والأجرام والملك والجنّ وغير ذلك، فما أنت إلاّ كافر ملحد زنديق، وما أردت بذلك إلاّ إغواءنا وإضلالنا عن الحقّ وطريقه.

فقال لهم: لا والله ما قلتُ لكم غير الحق ولا غير الواقع، وما أردتُ بذلك إضلالكم وإغواءكم، بل قلتُ ما قال هو بنفسه، وأخبركم إيّاه على لسان نبيّه، وإلاّ فأيّ شيء معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فُصّلَت: الآية ٥٣] ـ الآية، ومعنى قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: الآية ٣٥] ـ الآية، ومعنى قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحَديد: الآية ٣] ولأي شيء قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يُوسُف: ٤٠] ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٠]، ولِمَ قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤] لأنه يعرف أنَّ كلّ واحد ما يعرف ذلك ولا يقدر عليه، كما قال أيضاً: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ ﴿وأن في ذلك لآيات لأولي الألباب﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

فعرف ذلك بعضهم وقبل منه وصار عارفاً موحّداً، وأنكر ذلك بعضهم، ورجع عنه محجوباً مطروداً ملعوناً نعوذ بالله منه ومن أمثاله، هذا آخر الأمثلة المضروبة في هذا الباب. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٧] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٣]، انتهى ما أردنا من نقل كلامه رحمة الله عليه في المقام.

ولمّا لم يكن للمهيّات أصالة، ولم يكن لها أثر وظهور إلاّ بنور الوجود، ولم يكن الوجود إلاّ ذاته سبحانه وشؤونه ودريت أنّه ملأ كل شيء وفتق ظلمات الماهيّات نوره فأوّل ما يرى ويدرك ويعلم في دار الوجود هو الوجود ليس إلاّ فهو ظاهر بذاته لا يحتاج إلى معرّف ودليل يدلُّ عليه لأنَّ ذلك الدّليل إمّا وجود أو غيره والوجود وجود، والغير عدم والعدم لا شيء محض وما ليس بشيء رأساً كيف يدلُّ على ما هو شيء وموجود، نعم إنَّ غير الوجود من ماهيّات أشباح الموجودات الممكنة بأسرها يعرف به، وقد سئل نبيّنا ﷺ بماذا عرفت ربك؟ قال ﷺ: بالله عرفت الأشياء، وقال مولانا علي أمير المؤمنين عليه السلام: اعرفوا الله بالله(١).

وروى ثقة الإسلام الكليني بإسناده عن عبد الأعلى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اسم

(١) الكافي: ١/ ٨٥ ح١، وبحار الأنوار: ٣/ ٢٧٠ ح٧.

الله غيره وكل شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله ـ إلى أن قال عليه السلام: من زعم أنّه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك لأنّ حجابه ومثاله وصورته غيره وإنما هو واحدٌ موحدٌ فكيف يوحده من زعم أنه عرفه بغيره، وإنّما عرف الله من عرفه بالله، فمن لم يعرفه به فليس يعرفه إنّما يعرف غيره ليس بين الخالق والمخلوق شيء[1] ـ الحديث (**حديث ٤ من باب حدوث الأسماء من «أصول الكافي»** ج١ ص٨٨ من المعرب).

وفي «**التوحيد**» (**ص٤٩٤**) عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي ناظرت قوماً فقلت لهم: إنَّ الله أجلّ وأكرم من أن يعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله، فقال عليه السلام: رحمك الله[2].

وفي دعاء عرفة لسيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام: كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك، كما تقدَّم آنفاً، ولا يخفى لطف كلامه عليه السلام «في وجوده» فإن لهذا الكلام شأناً من الشأن.

وممّا يرشدك أيضاً إلى أنَّ ما سواه تعالى شأنه ومجالي ذاته ومظاهر أسمائه وصفاته كلمة فاطر وفطر وأخواتهما في القرآن الكريم نحو قوله عزَّ من قائل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وكذا في عدَّة آيات أخرى، لأنَّ أصل الفطر الشقّ، يقال: تفطّر الشّجر بالورق والورد إذا أظهرهما، كما في «**غرائب القرآن**» للنيسابوري.

قال الراغب: أصل الفطر: الشقّ طولاً، يقال: فطر فلانٌ كذا فطراً وأفطر هو فطوراً وانفطر انفطاراً، وفطرت الشاة حلبتُها بإصبعين، وفطرتُ العجين إذا عجنتُه فخبزته من وقته، ومنه الفطرة، وفطر الله الخلق وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله: فطرة الله التي فطر الناس عليها فإشارة منه تعالى إلى ما فطر، أي أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى، وفطره الله هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرُف: الآية ٨٧] وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: الآية ١] وقال: ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٦] ـ ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طٰه: الآية ٧٢] أي أبدعنا وأوجدنا، يصحّ أن يكون الانفطار في قوله: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ [المُزمّل: الآية ١٨] إشارة إلى قبول ما أبدعه وأفاضه علينا منه. انتهى[3].

---

(١) الكافي: ١/ ١١٤، والتوحيد: ١٩٢ ح٦.
(٢) الكافي: ١/ ٨٦ ح٣، والتوحيد: ٢٨٥ ح١.
(٣) مفردات غريب القرآن: ٣٨٢.

وكلمة فطر ومشتقّاتها تنبئك أنَّ ما سواه تعالى تفطّر منه وكلّ واحد منهم على حياله مشتق منه ومنشقٌّ عنه وصورة وآية له، وإن دعاء سيّد السّاجدين عليه السلام في الصلاة على آدم عليه السلام، كما في ملحقات الصّحيفة: اللهمَّ صل على آدم وآدم بديع فطرتك[1] ـ الخ.

ولمّا اتّصف كلّ واحد منهم بالوجود، اتّصف على قدر قابليّته وسعته وضيقه بالأسماء والصّفات اللاّزمة للوجود أيضاً، وفي أيّ موطن ظهر منك الوجود ظهر معه أتباعه من الأسماء والصفات اللائقة به إلاّ الأسماء المستأثرة كالوجوب الذّاتي فإنّها صفايا الملك الواحد القهّار، أسماء مخزونة عنده تعالى لا يمكن لغيره أن يتّصف به ولا يسع غيره أن يطلبها منه ويتعب نفسه لإدراكها.

وفي حرز مولانا محمد بن عليّ الجواد عليه السلام: وبأسمائك المقدّسات المكرّمات المخزونات في علم الغيب عندك[2]، رواه السيّد الأجلّ ابن طاووس قدّس سرّه في **«مهج الدّعوات» (ص٣٦)**.

وفي أعمال ليلة عيد الفطر: أسألك بكلّ اسم في مخزون الغيب عندك، رواه السيّد المذكور قدّس سرّه في **«الإقبال» (٢٧٣)**.

وفي دعاء مولانا وإمامنا موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام أتى به الشّيخ الكفعمي نوّر الله مضجعه في البلد الأمين **(ص٥٢١)**. وبالاسم الذي حجبت عن خلقك فلم يخرج منك إلاّ إليك.

وفي آخر دعاء مرويّ عن مولانا الحسين بن علي عليه السلام الدعاء المعروف بدعاء الشابّ المأخوذ بذنبه، رواه السيّد الجليل ابن طاووس قدّس سرّه في **«مهج الدّعوات» (ص١٥١)**: أسألك بكلّ اسم سمّيت به نفسك، أو أنزلته في شيء من كتبك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك[3] ـ الخ.

وفي الدُّعاء الخمسين من **«الصحيفة السجّادية»**: فأسألك اللهمّ بالمخزون من أسمائك.

وفي **«رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد السّاجدين»** للعالم الربّاني صدر الدّين عليّ بن أحمد نظام الدّين الحسيني المدعوّ بالسيّد علي خان قدّس سرُّه **(٥٦٥)**: روي عن

(١) الصحيفة السجادية: ٥٢٨، والذريعة: ٢٥٦/١٣.
(٢) الصحيفة السجادية: ٦٠٥.
(٣) الكافي: ٤٥٢/٤ ح١، ومن لا يحضره الفقيه: ٥٦٩/٢.

النبيّ ﷺ قال: إن لله تعالى أربعة آلاف اسم: ألف لا يعلمها إلا الله، وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة، وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة والنبيون، وأمّا الألف الرابع فالمؤمنون يعلمونه، فثلاثمائة في التوراة، وثلاثمائة في الإنجيل، وثلاثمائة في الزبور، ومائة في القرآن، تسعة وتسعون ظاهرة وواحد منها مكتوم من أحصاها دخل الجنّة[1].

وروى ثقة الإسلام الكلينيّ نوّر الله مضجعه في الحديث الأوّل من باب حدوث الأسماء من «**أُصول الكافي**» (**ص٨٧ ج١ من المعرب**) بإسناده عن إبراهيم بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ الله تبارك وتعالى خلق اسماً بالحروف غير متصوّت وباللّفظ غير منطق وبالشخص غير مجسّد وبالتشبيه غير موصوف وباللّون غير مصبوغ، منفى عنه الأقطار مبعّد عنه الحدود، محجوب عنه حسّ كلّ متوهّم مستتر غير مستور، فجعله كلمة تامّة على أربعة أجزاء معاً ليس منها واحد قبل الآخر فأظهر منها ثلاثة أسماء لفاقة الخلق إليها وحجب منها واحداً وهو الاسم المكنون المخزون[2] ـ الحديث.

ورواه رئيس المحدّثين الشّيخ الصّدوق رضوان الله عليه أيضاً في باب أسماء الله تعالى، والفرق بين معانيها وبين معاني أسماء المخلوقين من «**كتاب التوحيد**» ص١٨٣ من طبع إيران ١٣٢١هـ.

وروى الكليني في الحديث الأوّل من باب ما أعطى الأئمة عليهم السلام من اسم الله الأعظم من «**أُصول الكافي**» (**ص١٧٩ ج١ من المعرب**) بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنَّ اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً وإنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلّم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتّى تناول السرير بيده، ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة العين، ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم[3].

وفي الحديث الثاني منه: وإنَّ اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً أعطى محمد ﷺ اثنين وسبعين حرفاً وحجب عنه حرف واحدٌ.

وفي الثالث منه: وعندنا منه اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله مستأثر به في علم الغيب.

(١) عوالي اللئالي: ٤/١٠٦ ح١٥٧.
(٢) الكافي: ١/١١٢ ح١، والتوحيد: ١٩١.
(٣) بصائر الدرجات: ٢٢٨، وميزان الحكمة: ٢/١٣٦٧.

وفي الحديث السادس عشر من باب الدُّعاء للكرب والهمّ والحزن والخوف من كتاب الدُّعاء من «الكافي» (ص٤٠٨ ج٢ من المعرب) عن أبي عبد الله عليه السلام: اللهمَّ إنّي أسألك بكلّ اسم هو لك أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت في علم الغيب عندك[1] ــ الحديث.

والأخبار والأدعيّة في ذلك كثيرة جدًّا، وللحكيم المتأله المولى الصالح المازندراني السروي قدس سره في شرح الأبواب المذكورة من «الكافي»، وكذا لأستاذنا العلاّمة ميرزا أبي الحسن الشعراني متّع الله علماء المسلمين بطول بقائه معارف حقّة إلهيّة في بيان تلك الأسرار الصادرة عن خزنة علم الله تعالى، فعليك بطلبها في مظانّها.

وبالجملة إنَّ الوجود إذا ظهر أينما كان لا ينفك عنه توابعه النوريّة وصفاته العليا بحكم السنخيّة المستفاد من الفطر أيضاً، وإنّما التفاوت بحسب قرب الأشياء من مبدئها وبعدها عنها طولاً فكلّما كان أقرب كان سعة وجوده أكثر وآثاره الوجوديّة أشدّ وأوفر فتنتهي كلّها إلى من واجب وجوده، ولا ينقطع جوده طرفة عين، وليس ما سواه إلاّ فيضه القائم به وهو قيامه، فإذاً جميع الصّفات الكمالية تنتهي إليه أيضاً ولا يتصوّر فوقه وجود ولا كمال، قال عزَّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصّلت: الآية ١٥] وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحِجر: ٢١] وقال جلَّ وعلا: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٩] وقال جلت عظمته: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [فَاطِر: الآية ١٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ٨٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فَاطِر: الآية ٤١] وقال تعالى: ﴿والله بكل شيء محيط﴾ وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

وممّا يتفرّع على هذه الدقيقة أنّه ما من موجود إلاّ وله ملكوت ناطق بالحقّ بلسان يليق به، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فُصّلت: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن

(١) الصحيفة السجادية: ٦٤، والكافي: ٢/ ٥٦١ ح١٦.

يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إلخ [النمل: ١٧ ـ ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: الآية ٢٠] ـ إلى قوله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: الآية ٢٢] ـ إلى آخر الآيات [النمل: ٢٢].

وقال تعالى في سورة يس: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآية ٦٥]، وغيرها من الآيات القرآنية.

وأمّا الأخبار في تكلّم الحيوانات بل الجمادات لحجج الله تعالى وأوليائه فكثيرة جدًّا.

قال العلاّمة البهائي قدِّس سرُّه في أوائل المجلّد الثاني من «**الكشكول**»: العالم بأجزائه حيّ ناطق ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، لكن نطق البعض يسمع ويفهم ككلام الإثنين المتفقين في اللّغة إذا سمع كلّ منهما كلام الآخر وفهمه، ونطق البعض يسمع ولا يفهم كالإثنين المختلفي اللّغة ومنه سماعنا أصوات الحيوانات وسماع الحيوانات أصواتنا، ومنه ما لا يسمع ولا يفهم كغير ذلك، وهذا بالنسبة إلى المحجوبين، وأمّا غيرهم فيسمعون كلام كلّ شيء.

وقال في آخر «**الكشكول**» (**ص٦٢٥ من طبع نجم الدولة**): روى العارف الربّاني المولى عبد الرزاق القاساني في تأويلاته: أنَّ الصادق جعفر بن محمد عليه السلام خرّ مغشيّاً عليه في الصّلاة فسُئِلَ عن ذلك فقال: ما زلت أُردّد الآية حتّى سمعتها من المتكلّم بها[1]، ثمّ قال: نقل الفاضل الميبدي في شرح الديوان عن الشيخ السهروردي أنه قال بعد نقل هذه الحكاية عن الصادق عليه السلام: أنَّ لسان الإمام في ذلك الوقت كان كشجرة موسى عند قول: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القَصَص: الآية ٣٠] وهو مذكور في «**الإحياء**» في تلاوة القرآن. انتهى.

قال الشيّخ العارف محي الدّين في أوائل الفصّ الهودي: وكلّ ما سوى الحقّ فهو دابّة

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ١/ ٥٥.

لأنّه ذو روح وما ثمّة من يدّب بنفسه وإنّما يدبّ بغيره فهو يدبّ بحكم التبعيّة للذي هو على الصراط المستقيم فإنّه لا يكون صراطاً إلاّ بالمشي عليه.

إذا دان لـك الـخـلـق فـقـد دان لـك الـحـق وإن دان لـك الحق فقـد لا يـتـبـع الـخـلـق
فـحـقّـق قـولـنـا فـيـه فـقـولـي كـلّـه حـقّ فـمـا فـي الـكـون مـوجـود تـراه مـالـه نـطـق
ومـا خـلـق تـراه الـعـيـن إلاّ عـيـنـه حـقّ ولـكـن مـودع فـيـه لـهـذا صـوره حـقّ

وقال القيصري في بيان قوله: فما في الكون موجود تراه ماله نطق: أي ليس في الوجود موجود تراه وتشاهده إلاّ وله روح مجرّد ناطق بلسان يليق به، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٤] وهذا اللّسان ليس لسان الحال كما يزعم المحجوبون، قال الشّيخ رضي الله عنه في آخر الباب الثاني عشر من «**الفتوحات**»: وقد ورد أنّ المؤذّن يشهد له مدى صوته من رطب أو يابس، والشرائع والنبوات من هذا القبيل مشحونة ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف فقد رأينا الأحجار رؤية عين بلسان نطق تسمعه آذاننا منها وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله مما ليس يدرك كل إنسان، وإنّما اختفى نطق بعض الموجودات لعدم الاعتدال الموجب لظهور ذلك الفعل فلا يسمعه كلّ أحد فبقي نطقه باطناً والمحجوب يزعم أنه لا نطق له والكامل لكونه مرفوع الحجاب لشاهد روحانيّة كلّ شيء، ويدرك نطق كلّ حيّ باطناً وظاهراً والحمد لله أوّلاً وآخراً.

وأفاد العارف المولى عبد الرزاق القاساني في المقام بقوله: إذا كان الحق هو المتجلّي في كل موجود فلا موجود إلاّ هو ناطق بالحقّ لأنّه لا يتجلّى في مظهر إلاّ في صورة اسم من أسمائه، وكلّ اسم موصوف بجميع الأسماء لأنّه لا يتجزّأ لكن المظاهر متفاوتة في الاعتدال والتسوية، فإذا كانت التسوية في غاية الاعتدال تجلّى بجميع الأسماء، وإذا لم يكن ولم يخرج عن هذا الاعتدال الإنساني ظهر النطق وبطنت سائر الأسماء والكمالات وإذا انحطّ عن طور الاعتدال الإنساني بقي النطق في الباطن في الجميع حتى الجماد، فإنّ الّتي لم يظهر عليها من الأسماء الإلهيّة والصفات كانت باطنة فيه لعدم قابليّة المحلّ لظهوره فلا موجود إلاّ وله نطق ظاهراً أو باطناً، فمن كوشف ببواطن الوجود سمع كلام الكلّ حتّى الحجر والمدر. انتهى.

وقال القيصري في الفصل الرابع من مقدّماته على «**شرح الفصوص**»: ولا تظنّ أن مبدأ النطق الذي هو النفس الناطقة ليس للحيوان لينضمّ معه فيصير الحيوان به إنساناً مع أنه غير صالح للفصليّة لكونه موجوداً مستقلاً في الخارج بل هذا المبدأ مع كلّ شيء حتّى الجماد أيضاً، فإنّ لكلّ شيء نصيباً من عالم الملكوت والجبروت وقد جاء ما يؤيّد ذلك من معدن

الرسالة المشاهد للأشياء بحقائقها صلوت الله عليه، مثل تكلّم الحيوانات والجمادات معه، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] وظهور النطق لكلٍّ واحد بحسب العادة والسنّة الإلهية موقوف على اعتدال المزاج الإنساني، وأمّا للكمّل فلا لكونهم مطّلعين على بواطن الأشياء مدركين لكلامها، وما قال المتأخرون بأنَّ المراد بالنطق هو إدراك الكلّيات لا التكلّم مع كونه مخالفاً لوضع اللّغة لا يفيدهم لأنّه موقوف على أنَّ الناطقة المجرَّدة للإنسان فقط، ولا دليل لهم على ذلك، ولا شعور لهم على أنَّ الحيوانات، ليس لهم إدراك كلّي، والجهل بالشيء لا ينافي وجوده، وإمعان النظر فيما يصدر منها من العجائب يوجب أن يكون لها إدراكات كليّة. وأيضاً لا يمكن إدراك الجزئي بدون كلّيه إذ الجزئي هو الكليّ مع التشخّص، والله الهادي.

وقال الحكيم المتألّه المولى صدرا قدَّس سرُّه في شرح الحديث الثالث من باب النسبة من كتاب التوحيد من «**أصول الكافي**»: عن عاصم بن حميد قال: قال سُئل عليّ بن الحسين عليه السلام عن التوحيد، فقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] والآيات من سورة الحديد ـ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: الآية ٦] فمن رام وراء ذلك فقد هلك(١).

ثمَّ اعلم أنَّ كلّ واحدة من هذه الآيات الستّة المشار إليها في هذا الحديث متضمّنة لباب عظيم من علم التوحيد والإلهيّة محتوية على أمر حكيم من الأحكام الصمديّة والربوبيّة لو أمهل الزّمان وساعد الدّهر الخوّان لعارف ربّاني وحكيم إلهيّ أخذ علمه من مشكاة النّبوة المحمّديّة على صادعها وآله أفضل الصلاة والتحيّة واقتبس حكمته عن أحاديث أصحاب العصمة والطهارة والتزكية سلام الله عليهم لكان من حقه وحقّهما أن يكتب في تفسير كلّ منها ما يشخن به مجلّداً كبيراً بل مجلّدات كثيرة، ولكن سنذكر في كلّ آية منها ما هو كالشاهد لما ادّعيناه وكالأنموذج لما شاهدناه فنقول:

أمّا الآية الأولى ففي الأخبار عن تسبيح كلّ ما في السماوات وما في الأرض من الموجودات حتّى الجماد والنّبات والأجساد والمواد والأرض الموات وجثث الأموات لله تعالى، ومعرفة هذا التسبيح الفطري والعرفان الكشفي الوجودي من غوامض العلوم ودقائق الأسرار التي عجزت عن إدراكها أذهان جمهور العلماء وأكثر الحكماء فضلاً عن غيرهم وليس عندهم في هذا الباب إلاّ مجرّد التقليد، إيماناً بالغيب أو حمل التسبيح على ما فيها من

(١) الكافي: ١/ ٩١ ح٣، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ١/ ١٧١.

الأدلّة على وحدانيّة الله وتنزيهه[1] عن صفات النقص من التجسّم والتغيّر والتكثّر.

وقال بعضهم: إنَّ كلمة (ما) ههٰنا بمعنى من؛ وقيل: معناه كلّ ما يتأتّى منه التسبيح، هذا تمام كلام الأعلام في هذا المقام، ولا يخفى عدم ملائمة كلّ من الوجهين الأخيرين، بل كلّ ما قيل من التأويل والتخصيص لكثير من الآيات القرآنية والأخبار النبويّة الدالّة على تسبيح المسمّى بالجماد والنّبات من الشجر والحجر والصخر والمدر فضلاً عن المسمّى بالحيوان والطير والبشر.

منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجّ: ١٨].

ومنها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨] وكذا نظائرها من الآيات الدالة على وقوع التسبيح من جميع الموجودات حقيقة.

وحكاية تسبيح الحصى في كفّ النبي ﷺ وسماعه وإسماعه مشهور، وفي ألسنة الرواة مذكور، وما روي أيضاً عن ابن مسعود أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكّة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله حجر ولا مدر إلاّ ويقول: السّلام عليك يا رسول الله[2]، وأمثاله كثيرة في الروايات دالّة على أنَّ هذا التسبيح والسجود والتسليم واقع على وجه التحقيق.

حتّى أنَّ كثيراً من المنتسبين إلى الكشف والعرفان، زعموا أنَّ النبات بل الجماد فضلاً عن الحيوان له نفس ناطقة كالإنسان، وذلك أمر باطل والبراهين ناهضة على خلافه من لزوم التعطيل والمنع عما فطر الله طبيعة الشيء عليه ودوام القصر على أفراد النوع والإبقاء له على القوّة والإمكان للشيء من غير أن يخرج إلى الفعليّة والوجدان إلى غير ذلك من المفاسد الشنيعة المصادمة للبرهان والحكمة.

بل هذا تسبيح فطري وسجود ذاتي وعبادة فطرية نشأت عن تجلٍّ إلهي وانبساط نور وجودي على كافة الخلائق على تفاوت درجاتها وتفاضل مقاماتها في نيل الوجود ودرك الشهود، ومع هذا التفاوت والتفاضل في القرب والبعد والشرف والخسّة فأفراد العالم كلّه كأجزاء شخص واحد تنال من روح الحياة وروح المعرفة ما ناله الكلّ دفعة واحدة فأنطقها الله الّذي أنطق كل شيء فأحبّته وخضعته وسجدت له بسجود الكلّ وسبحت له بتسبيحات هي

(١) في نسخة: تنزهه.

(٢) ميزان الحكمة: ٤/ ٣٢٠٥.

تسبيح الكل ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النّور: الآية ٤١] .

والّذي يمنع عن هذه العبادة الفطريّة الأفكار الوهميّة والتصرّفات النفسانيّة لأكثر الإنس الموجبة للخروج عن الفطرة الأصليّة واستحقاقيّة العذاب كما في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحجّ: الآية ١٨] .

وبالجملة تحقيق هذا التسبيح الفطري وإثبات هذه العبادة الذاتية مما يختص به الكاملون في الكشف والعرفان الراسخون في العلم والإيقان، وأمّا سماع اللّفظ أو إسماعه كما هو المروي عن النبي ﷺ وصحبه فكذلك من باب المعجزة الواقعة نفسه القدسيّة على إنشاء الأصوات والأشكال على موازنة المعاني والأحوال، انتهى كلامه طيب الله رمسه في المقام.

وقلت: الظاهر من كلامه: حتى أنَّ كثيراً من المنتسبين ـ الخ ـ يوهم التناقض بينه وبين كلام القيصري المذكور آنفاً حيث قال: «لأنه موقوف على أن الناطقة المجردة للإنسان فقط ولا دليل لهم على ذلك» ولكن بعد التأمّل الدقيق في كلامهما يظهر عدم التناقض بينهما وكلاهما يشيران إلى معنى واحد، وبيان عدم التنافي بينهما يعلم بما قدّمنا من كلام المولى عبد الرزاق القاساني فإنّك إذا أمعنت النظر فيه تدري أنّ المولى صدرا والقيصري يسلكان ما سلكه القاساني ويفيدان ما أفاده ولا اختلاف ولا تفرقة بينهم، وقد أجاد العارف صاحب المثنوي بقوله نظماً:

گر تو را از غيب چشمى باز شد ... با تو ذرّات جهان همراز شد
نطق خاك ونطق آب ونطق گل ... هست محسوس حواس أهل دل
هر جمادى با تو مي گويد سخن ... كوترا آنگوش وچشم أي بو الحسن
گر نوبدى واقف از حق جان باد ... فرق كي كردى ميان قوم عاد
سنگ أحمد را سلامي مي كند ... كوه يحيى را پيامى مى كند
جمله ذرات در عالم نهان ... باتو ميگويند روزان وشبان
ما سميعيم وبصيرو باهشيم ... باشما نا محرمان ما خامشيم
از جمادى سوى جان جان شويد ... غلغل أجزاى عالم بشنويد
فاش تسبيح جمادات آيدت ... وسوسه تأويلها بزدايدت
چون ندارد جان تو قنديلها ... بهر بينش كرده اى تأويلها

فإذا دريت أنّ ما سواه آية له ومشتقّ منه ومنفطر منه، وأنّه إنَّ من شيء إلاّ أنّه حاكٍ عنه ومثال وصورة له ولله المثل الأعلى وأن الوجود لا ينفكّ عن آثاره النّوريّة، علمت أنّ ما

يخاطبنا الله جلّ جلاله بكتابه وكلامه ويدعونا إلى ما فيه خيرنا وسعادتنا كلقائه مثلاً، فلا بدّ من أن يكون فطرتنا مناسبة ومتشابهة له ولو بوجه وإلاّ لم يصحّ الخطاب. ونزيدك في ذلك بياناً.

ونقول: قال محي الدّين في الفصّ الآدميّ من «**الفصوص**»: ولما كان استناده ـ أي استناد الحادث ـ إلى من ظهر عنه لذاته اقتضى أن يكون على صورته فيما ينسب إليه من كلّ شيء من اسم وصفة ما عدا الوجوب الذاتي فإنّ ذلك لا يصح للحادث، وإن كان واجب الوجود ولكن وجوده بغيره لا بنفسه.

وقال القيصري في شرحه: أي اقتضى هذا الاستناد أن يكون الحادث على صورة الواجب، أي يكون متّصفاً بصفاته، وجميع ما ينسب إليه من الكمالات ما عدا الوجوب الذاتي وإلاّ لزم انقلاب الممكن من حيث هو ممكن واجباً، وذلك لأنّه اتّصف بالوجود والأسماء والصفات لازمة للوجود، فوجب أيضاً اتّصافه بلوازم الوجود وإلاّ لزم تخلّف اللاّزم عن الملزوم، ولأنّ المعلول أثر العلّة والآثار بذاتها وصفاتها دلائل على صفات المؤثّر وذاته، ولا بد أن يكون في الدليل شيء من المدلول لذلك صار الدليل العقلي أيضاً مشتملاً على النتيجة، فإنّ إحدى مقدّمتيه مشتملة على موضوع النتيجة، والأخرى على محمولها، والأوسط جامع بينهما، ولأنّ العلّة الغائيّة من إيجاد الحادث عرفان الموجد كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] والعبادة تستلزم معرفة المعبود ولو بوجه، مع أن ابن عباس رضي الله عنه فسّر هاهنا بالمعرفة ولا يعرف الشيء إلاّ بما فيه من غيره لذلك قال عليه السلام حين سئل بم عرفت الله: عرفت الأشياء بالله، أي عرفته به أوّلاً ثمّ عرفت به غيره، ولما كان وجوده من غيره صار أيضاً وجوبه بغيره، وغير الإنسان من الموجودات، وإن كان متّصفاً بالوجود لكن لا صلاحيّة له بظهور جميع الكمالات فيه. انتهى.

وقال العارف الجامي في **شرحه على الفصوص**: قوله: «فيما ينسب إليه من كل شيء من اسم وصفة» من اسم وصفة بيان لشيء، فحاصله أن يكون على صفته تعالى في كل اسم وصفة تنسب إليه تعالى، يعني كما أنه ينسب كلّ اسم وصفة إليه تعالى كذلك ينسب إلى الحادث فإنّه بأحديّة جمعه الأسمائي متجلّ وسارٍ فيه ولذا قيل كلّ موجود متّصف بصفات السبع الكماليّة لكن ظهورها فيه بحسب استعداده وقابليّته.

وقال بعض المحشّين على شرح القيصري: قوله: «لأنه اتصف بالوجود» يظهر من هذا أنّ ذات الواجب بصرافة ذاته لا يكون في الممكن وإلاّ يلزم أن يكون الممكن متّصفاً بالوجوب الذاتي أيضاً بعين هذا الدليل بأن يقال أنّ الممكن متصف بالوجود الّذي يكون واجباً لذاته والوجوب لازم للواجب فوجب اتصاف الممكن بذلك اللازم أيضاً، انتهى، يعني

أنَّ الممكن غير متصف بالوجود الصرف الواجب الوجود حتّى يلزم انقلاب الممكن واجباً.

وأفاد بعض أساتيذنا وهو العالم المحقّق النحرير محمد حسين بن المولى عبد العظيم التوني الشهير بالفاضل التوني تغمّده الله بغفرانه في تعليقته على قول القيصري المنقول آنفاً «ولا يعرف الشيء إلا بما منه في غيره»:

لأنه لا يعرف الغائب إلاّ بالشاهد بمعنى أنه لا يمكن أن يعرف شيء إلاّ أن يكون له مثال في ذات العالم، فإذا قيل لك: كيف يكون الواجب تعالى عالماً بذاته؟ فالجواب: كما أنّك تعلم ذاتك فتفهم علمه تعالى بذاته، وإذا قيل كيف يعلم الواجب تعالى غيره؟ فيقال: كما تعلم أنت غيرك، وإذا قيل: كيف يعلم الواجب تعالى بعلم واحد بسيط سائر المعلومات؟ فيقال: كما تعلم جواب مسائل دفعة بدون تفصيل ثمَّ تنتقل بالتفصيل، وإذا قيل: كيف علمه مبدأ لوجود الأشياء؟ فيقال: كما يكون توهمك للسقوط عن الجدار مبدأ للسقوط. وإذا قيل: كيف يعلم الأشياء كلّها؟ فيقال: كما يعلم المنجم الخسوف أو الكسوف من العلم بأسبابها، والحاصل أنك لا تقدر أن تفهم شيئاً من الله تعالى إلاّ بالمقايسة إلى شيء من نفسك فإذا لم يكن لشيء نظير في نفسك فلا يمكنك العلم به كالوجوب الذاتي والوجود بلا مهيّة، ولمّا لم يكن لهما نظير في نفسك لم يمكنك العلم بهما فلا تتعب نفسك في العلم بهما ولذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠] انتهى كلامه رفع مقامه وله قدس سره تعليقات أنيقة على **«شرح الفصوص القيصري»** من بدو الكتاب إلى ختمه وقد طبع طائفة منها على مقدمات القيصري على شرح الفصوص.

فبما قدَّمنا علمت معنى قول ثامن الأئمة عليّ بن موسى الرضا عليه آلاف التحيّة والثناء: «قد علم أولوا الألباب أن ما هنالك لا يعلم إلا بما ههُنا»(١) وهذا الكلام الوجيز بعيد الغور جداً، ككلام جده باب مدينة العلم أمير المؤمنين علي عليه السلام في الصورة الإنسانية: «وهي الشاهدة على كل غائب» كما في **«شرح الأسماء»** للمتأله السبزواري ص١٢ من الطبع الناصري، كما علمت أن الإنسان متّصف بحسب استعداده وقابليته بأوصاف وجوديّة تحاكي عن أصلها قال عز من قائل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٣١] والتفاوت بينها وبين الأصل كتفاوت مرحلتي الوجودين حيث إنّ وجود الإنسان كغيره فيض من وجوده تعالى وفيء له وقائم به وواجب به وفقير إليه وكذا صفاته المنطبعة في فطرته ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

ومن بحثنا هذا تنتقل إلى أن دين الإسلام هو دين الفطرة ماذا؟ وقد أفاد في ذلك

(١) اليقين: ٣٦، وألف حديث في المؤمن: ٢٠٢ ح٦٠٢.

أستاذنا العلاّمة الطباطبائي البارع في الحكمة الحقّة جزاه الله تعالى عنّا أفضل جزاء المعلّمين وأدام أيّام إفاضاته في الجزء السابع من تفسيره القيّم: «**الميزان**»، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] بقوله:

وفي تخصيص فطر السماوات والأرض من بين صفاته تعالى الخاصّة وكذا من بين الألفاظ الدّالة على الخلقة كالباري والخالق والبديع إشارة إلى ما يؤثره إبراهيم عليه السلام من دين الفطرة وقد كرّر وصف هذا الدين في القرآن الكريم بأنّه دين إبراهيم الحنيف ودين الفطرة أي الدين الّذي بنيت معارفه وشرائعه على خلقة الإنسان ونوع وجوده الّذي لا يقبل التبدّل والتغيّر فإنّ الدين هو الطريقة المسلوكة التي يقصد بها الوصول إلى السعادة الحقيقيّة والسعادة الحقيقيّة هي الغاية المطلوبة الّتي يطلبها الشيء حسب تركّب وجوده وتجهّزه بوسائل الكمال طلباً خارجياً واقعيّاً، وحاشا أن يسعد الإنسان أو أي شيء آخر من الخليقة بأمرٍ ولم يتهيّأ بحسب خلقته له أو هيّىء لخلافه كأن يسعد بترك التغذّي أو النكاح أو ترك المعاشرة والاجتماع وقد جهز بخلافها، أو يسعد بالطيران كالطّير أو بالحياة في قعر البحار كالسمك ولم يجهّز بما يوافقه.

فالدين الحقّ هو الذي يوافق بنواميسه الفطرة وحاشا ساحة الربوبيّة أن تهدي الإنسان أو أيّ مخلوق آخر مكلّف بالدين - إن كان - إلى غاية سعيدة مسعدة ولا يوافق الخلقة أو لم يجهّز بما يسلك به إليها فإنّما الدين عند الله الإسلام وهو الخضوع لله بحسب ما يهدي إليه ويدلّ عليه صنعه وإيجاده، انتهى ما أفاد مدّ ظلّه العالي في المقام.

فتبصّر بما قدّمناه أنّ أصل المعرفة فطريّ للأشياء وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨] وإنّما ضلّ عنهم المعرفة بالمعرفة والبصرية بالرؤية، وأنّ المعرفة والرؤية القلبيّة ترجعان إلى أمر واحد وإنهما تثمران الإيمان على البصيرة، ولا نعني من اللقاء إلاّ المعرفة والرؤية بهذا المعنى، ففي «**التوحيد**» عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال عليه السلام: نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة. فقلت: متى؟ قال عليه السلام: حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ثمّ سكت ساعة ثم قال: وإنّ المؤمنين ليرونه في الدُّنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك فأُحدّث بهذا عنك؟ فقال عليه السلام: لا فإنك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما نقوله ثمّ قدّر أنّ ذلك تشبيه كفر وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى عما يصفه بالمشبّهون والملحدون[1].

(١) التوحيد: ١١٧ ح٢٠، وبحار الأنوار: ٤/ ٤٥.

وفي أخر باب نفي المكان والزمان عنه تعالى من كتاب «**التوحيد**» أيضاً ص١٧٦ بإسناده عن إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه دخل السوق فإذا هو برجل[١] مولّيه ظهره يقول: لا، والّذي احتجب بالسبع. قال: الله يا أمير المؤمنين، قال: «أخطأت ثكلتك أُمّك إنّ الله عز وجل ليس بينه وبين خلقه حجاب لأنّه معهم أينما كانوا» قال: ما كفارة ما قلت يا أمير المؤمنين؟ قال: «أن تعلم أنَّ الله معك حيث كنت» قال: أُطعم المساكين؟ قال: «لا، إنما حلفت بغير ربّك»[٢].

ومن سلك هذا المسلك فقد حيي بحياة طيّبة ويدخل في ملك لا يبلى وجنّة الخلد الّتي وعد المتقون، ففي «**التوحيد**» عن الحارث بن المغيرة النضري قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨] قال: كل شيء هالك إلا من أخذ طريق الحق[٣].

واعلم أنّ الوجود مع وحدة حقيقته وكثرة تشأنه، كلّ يوم هو شأن له مراتب طوليّة تختلف غنىً وفقراً وسعة وضيقاً فتنتهي إلى ذات واجب الوجود الّذي تلك الكثرات مجاليه ومظاهره ومراياه والله تعالى من ورائهم محيط فله تعالى مرتبة متحققة مجرّدة عن المظاهر والمجالي غير متناهية في جميع الصفات النورية أشدّ وأقوى ممّا سواه وجوداً، قال عزّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ولا يحيطون به علماً لأن الدّاني لا يسعه الإحاطة بالعالي المحيط به، كما أنَّ النفس مع كونها في وحدتها كلّ القوى وكلّها مجاليها ومظاهرها ليست هي بمجموع تلك القوى الظاهرة والباطنة تعلّقت بالبدن فحسب بل لها مرتبة فوقها أعلى وأشمخ منها رتبة وآثاراً وهي جهتها المجرّدة الّتي تلي ربّها، وإن كانت تلك القوى مراتبها النازلة، والمرتبة النازلة منها كالواهمة مثلاً لا تحيط بالمرتبة العالية كالعاقلة المحيطة بها.

قال صدر المتألّهين قدسّ سرّه في «**شرحه للهداية**»: والصنف الثالث وهم الراسخون في العلم من الحكماء قائلون بأنّ العالم ليس عبارة عن الممكن الصرف ولا عن الوجود الحقيقي الصرف، بل من حيث هو موجود بالوجود الحقيقي له اعتبار، ومن حيث إنه ينقسم إلى العقول والنفوس وغيرها له اعتبار، ومن حيث إنّه ينقسم إلى العقول والنفوس وغيرها له اعتبار آخر. فالعالم زوج تركيبي من الممكن والسنخ الباقي الذي هو بذاته موجود ووجود فليس العالم عبارة عن الذوات المتعدّدة كما حسبه المحجوبون بل ذاته واحد وهو الحق

---

(١) في نسخة: فإذا هو مرّ برجل.

(٢) التوحيد: ١٨٤ ح٢١، ومستدرك الوسائل: ١٦/ ٥٠ ح١٩٠٦.

(٣) المحاسن: ١/ ٢١٩ ح١١٧، والتوحيد: ١٤٩ ح٢.

الذي هو الوجود الحقيقي ولا وجود للممكنات إلاّ بارتباطها به لا بأن يفيض عليها وجودات مغايرة للوجود الحقيقي وبرهان ذلك مذكور في كتابنا المسمّى بـ«**الأسفار الأربعة**».

وقال في مبحث العلة والمعلول من «**الأسفار**»: (**ص١٩٦ من الرحلي**) تنبيه: إنّ بعض الجهلة من المتصوفين المقلّدين الّذين لم يحصّلوا طريق العلماء العرفاء ولم يبلغوا مقام العرفان توهّموا لضعف عقولهم ووهن عقيدتهم وغلبة سلطان الوهم على نفوسهم أن لا تحقق بالفعل للّذات الأحديّة المنعوتة بألسنة العرفاء بمقام الأحديّة وغيب الهوية وغيب الغيوب مجرّدة عن المظاهر والمجالي بل المتحقّق هو عالم الصورة وقواها الروحانيّة والحسيّة والله هو الظاهر المجموع لا بدونه وهو حقيقة الإنسان الكبير والكتاب المبين الّذي هذا الإنسان الصغير أنموذج ونسخة مختصرة عنه، وذلك القول كفر فضيح وزندقة صرفة لا يتفوّه به من له أدنى مرتبة من العلم ونسبة هذا الأمر إلى أكابر الصوفيّة ورؤسائهم افتراء محض وإفك عظيم يتحاشى عنها أسرارهم وضمائرهم، ولا يبعد أن يكون سبب ظنّ الجهلة بهؤلاء الأكابر إطلاق الوجود تارة على ذات الحق وتارة على المطلق الشامل وتارة على المعنى العام العقلي فإنّهم كثيراً ما يطلقون الوجود على المعنى الظلّي الكوني فيحملونه على مراتب التعيّنات والوجودات الخاصّة فيجري عليه أحكامها.

وبما تقدّم من أنّ ما سواه تعالى مظاهر أسمائه وصفاته ومجالي إشراقات نور وجهه ومرايا ظل ذاته علمت معنى الإخلاص في التوحيد أعني التوحيد الذاتي الّذي ينطق به الموحّدون وإمامهم عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «أوَّل الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزّأه ومن جزّأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه قد حدّه ومن حدَّه فقد عدّه ـ الخ» (**الخطبة الأولى من «نهج البلاغة»**)[(١)].

ولا يخفى عليك أنّ كلامه عليه السلام يشير إلى التوحيد الذاتي وإخلاصه تمحيض حقيقة الأحديّة عن شائبة الكثرة.، قال العارف السيّد حيدر الآملي في رسالة «**نقد النقود في معرفة الوجود**» (**ص٦٣٦**): وإذا تحقّق هذا وثبت أنّ الوجود المطلق موجود في الخارج وليس لغيره وجود أصلاً، وثبت أنّ هذا الوجود المطلق هو الحقّ تعالى فاعلم أنّ مرادهم بالوجود من حيث هو الوجود، الوجود الصرف والذات البحت الخالص بلا اعتبار شيء معه أصلاً أعني

(١) بحار الأنوار: ٥٤/١٧٦ ح١٣٦، ونهج السعادة: ٣/٤٠.

تصوّره من حيث هو هو لا بشرط الشيء ولا بشرط اللا شيء أي مجرداً عن جميع النسب والإضافات والقيود والاعتبارات.

ومعلوم أنّ كل شيء له اعتباران؛ اعتبار الذات من حيث هي هي، واعتبارها من حيث الصفات أي وصفها بصفة ما أيّة صفة كانت، فهذا هو اعتبار الذات فقط أعني اعتبار الذات بقطع النظر عن جميع الاعتبارات والإضافات المخصوصة بالحضرة الأحديّة وأنّ مرادهم بالمطلق هو الذات المطلقة المنزّهة عن جميع هذه الاعتبارات، وليس إطلاق لفظ المطلق على الوجود الصرف إلاّ من هذه الحيثيّة لا من جهة المطلق الّذي هو بإزاء المقيد، ولا من جهة الكلي الّذي هو بإزاء الجزئي، ولا من جهة العام الذي هو بإزاء الخاص، لأنه ـ أي الوجود الصرف ـ من حيث هو غنيّ عن إطلاق شيء عليه اسماً كان أو صفة، سلباً كان أو ثبوتاً، إطلاقاً كان أو تقييداً، عامّاً كان أو خاصّاً، لأنّ كلّ واحد منها ـ أي من هذه الأمور المتقابلة ـ يقتضي سلب الآخر، أو يقتضي التقيّد والتعيّن فيه، وهو ـ أعني الوجود المطلق المحض ـ منزّه عن الكلّ حتّى عن الإطلاق وعدم الإطلاق لأنّ الإطلاق تقييد يقيّد الإطلاق، كما أنّ اللاّ إطلاق قيد بعدم الإطلاق وكذلك التعيّن واللاّ تعين وغير ذلك من الصفات كالوجود والقدم والعلم والقدرة وأمثالها.

وعن هذا التنزيه والتقديس الشريف أخبر مولانا وإمامنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في قوله: **(أوّل الدين معرفته ـ الخ)** والغرض أنّ كلّ ذلك إشارة إلى إطلاقه وتجرّده وتنزّهه وتقدّسه عن الكثرة الوجوديّة والاعتباريّة، لأنّ قوله عليه السلام وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه. إشارة إلى الوجود المطلق المحض والذات البحت الخالص الّذي لا يمكن وصفه بشيء أصلاً ولا يكون قابلاً للإشارة أبداً كما أشار إليه عليه السلام في موضع آخر في قوله: **(الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة)**.

قلت: قوله عليه السلام: **(الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة)**، بعض حديث الحقيقة المخاطب به كميل بن زياد رضوان الله عليه سأله عليه السلام عن الحقيقة بقوله: ما الحقيقة؟ قال عليه السلام: مالك والحقيقة؟! قال: أولست صاحب سرّك؟ قال: بلى، ولكن يرشح عليك ما يطفح مني، قال: أو مثلك يخيّب سائلاً؟! قال: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة، قال: زدني فيه بياناً، قال: محو الموهوم مع صحو المعلوم، قال: زدني فيه بياناً، قال: هتك الستر لغلبة السرّ، قال: زدني فيه بياناً، قال: جذب الأحديّة بصفة التوحيد، قال: زدني فيه بياناً، قال: نور يشرق من صبح الأزل فتلوح على هياكل آثاره، قال: زدني فيه بياناً، قال: أطف السراج فقط طلع الصبح[1].

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ١/ ١٣٣.

نقله العارف المذكور في «**جامع الأسرار**» ص١٧٠ وشرحه في عدّة مواضع من ذلك الكتاب، والعلاّمة الشّيخ البهائي في «**الكشكول**»، والقاضي نور الله الشهيد نوّر الله مرقده في «**مجالس المؤمنين**» والعارف الشّيخ عبد الرزاق اللاّهجي في «**شرح گلشن راز**»، والخوانساري في «**روضات الجنّات**»، والمحدّث القمّي في «**سفينة البحار**» وغيرهم من أساطين الحكمة والعرفان في صحفهم القيّمة، وشرحه العلاّمة قطب الدين الشيرازي في رسالة معمولة في ذلك فقط، وشرحه أيضاً بعض أساتذتنا بالنظم الفارسي ولقد أحسن وأجاد، ألا وهو العارف الرّباني محيي الدين مهدي الإلهي القمشئي آدام الله أيّام إفاضاته.

وقال العارف الآملي المذكور في «**جامع الأسرار**» في تعريف التوحيد: اعلم أنّ حقيقة التوحيد أعظم من أن يعبّر عنها بعبارة أو يؤمىء إلى تعريفها بإشارة فالعبارة في طريق معرفتها حجاب، والإشارة على وجه إشراقها نقاب، لأنّها - يعني حقيقة التوحيد - منزّهة عن أن تصل إلى كنهها العقول والأفهام، مقدّسة عن أن تظفر بمعرفتها الأفكار والأوهام، شعر:

تجول عقول الخلق حول حمائها ... ولم يدركوا من برقها غير لمعة

وإلى صعوبة إدراكها يعني حقيقة التوحيد وشدّة خفائها أشار مولانا وإمامنا أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين سلطان الأولياء والوصيين وارث علوم الأنبياء والمرسلين علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: «ما وحّده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا قصده من أشار إليه وتوهّمه»[1].

وفي قوله: هو الأحد لا بتأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصب، والسميع لا بأداة، والبصير لا بتفريق آلة، والشاهد لا بمماسّة، والبائن لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة، بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه، من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله، ومن قال كيف؟ فقد استوصفه، ومن قال أين؟ فقد حيّزه، عالم إذ لا معلوم، وربّ إذ لا مربوب وقادر إذ لا مقدور.

وفي قوله: (**أوّل الدين معرفته - الخ**).

وكذلك الشّيخ العارف الشبلي البغدادي رحمة الله عليه في قوله: من أجاب عن التوحيد بعبارة فهو ملحد، ومن أشار إليه بإشارة فهو زنديق، ومن أومىء إليه فهو عابد وثن، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن وهم أنه إليه واصل فليس له

---

(١) الاحتجاج: ١/٢٩٩.

حاصل، ومن ظنّ أنه منه قريب فهو عنه بعيد، ومن به تواجد فهو له فاقد، وكلّ ما ميّزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم في أتمّ معانيكم فهو مصروف مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم.

وليس مرادهم من هذه الإشارات الامتناع من حصوله، ولا اليأس من وصوله بل المراد منها إعلاء أعلام منزلته، وارتفاع أركان درجته، وبيان أنّه ليس بقابل للإشارة ولا بمحلّ للعبارة، لأنّه عبارة عن الوجود المطلق المحض والذات الصرف البحت المسمّى بالحقّ جل جلاله الّذي لا يقبل الإشارة أصلاً ورأساً ولا العبارة قولاً وفعلاً وذلك لا يكون إلاّ عند فناء الطالب في المطلوب والشاهد في المشهود وحين الاستغراق والاستهلاك في المطلق المحيط ولا شكّ أنّه لا يبقى مع ذلك لا الإشارة ولا المشير، ولا من الغير أثر في العقل والضمير.

وإليه أشار الإمام عليه السلام بقوله أيضاً: «الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة» إظهاراً بأنه لا ينكشف الحق حقيقة على أحد إلاّ عند ارتفاع الكثرة مطلقاً اسماً كان أو صفةً ولهذا قال: سبحات الجلال بدون الجمال لأنّ الجمال مخصوص بالأسماء والصفات التي هي منشأ الكثرة لا الجلال، انتهى ما أردنا من نقل كلام العارف السيّد حيدر الآملي قدّس سرّه الشريف في التوحيد الذاتي.

والشّيخ العارف المحقّق أبو إسماعيل خواجه عبد الله بن إسماعيل الأنصاري الهروي قد ذكر في آخر كتابه الموسوم بـ«**منازل السائرين**» باباً مفرداً في التوحيد وقسمه على ثلاثة أوجه، وقد بذل الجهد في ذلك جدّاً، ولكنّه موجز يحتاج إلى البيان وقد شرح ذلك الكتاب المولى العارف المحقّق كمال الدّين عبد الرزّاق الكاشاني يفضل ذلك الشرح على سائر الشروح كفضله على سائر الشراح، وذلك الباب باب إلى ما كنّا في صدده، وقد أشار الشارح المذكور إلى المتن بحرف الميم، وإلى الشرح بحرف الشين فنأتي بالباب على هديه وطريقته من غير تغيير وضعه وأسلوبه وهو ما يلي:

(م)كتاب التوحيد، قال الله تعالى: شهد الله أنه لا إله إلا هو.

(ش) إنّما خصّ بعض الآية بالذكر لأنّ هذا محض التوحيد الجمعي وهو أن لا يكون معه شيء فلو ذكر والملائكة وأولوا العلم لكان نزولاً عن الجميع إلى الفرق فيكون معه غيره فلا يبقى التوحيد المحض فهو الشاهد بنفسه لنفسه فلم يشهد أن لا إله إلا هو غيره فمن تحقّق هذا بالذوق فقد شهد التوحيد بالحقيقة.

(م) التوحيد تنزيه الله عزّ وجلّ عن الحدث وإنما نطق العلماء بما نطقوا به وأشار المحقّقون بما أشاروا إليه في هذا الطريق لقصد تصحيح التوحيد وما سواه من حال أو مقام

فكلّه مصحوب العلل.

(ش) قوله: التوحيد تنزيه الله عز وجل عن الحدث. مجمل يتناول تنزيه العقلاء من الحكماء والمسلمين، وتنزيه العرفاء الموحّدين، لأنَّ جميع العقلاء وأهل الفكر يدّعون تنزيه الله تعالى مع كونهم مقيّدين لأن العقل لا يقول إلاّ بالتقييد ويثبتون الحدث وينفونه عن الحقّ تعالى وينزّهونه عنه، وأما العرفاء المحقّقون فلا يثبتون الحدث أصلاً ورأساً فإنّ شهود التوحيد تنفيه عن أصله ثمَّ تثبته بعد نفيه بالحقّ بمعنى تجلّي الحقّ مع الآيات بوجوهه في الصّور فيكون الحدوث عندهم ظهوره في الصّور المختلفة بالتجلّيات المتعاقبة الغير المتكرّرة.

ومراد الشّيخ قدّس الله روحه هذا التنزيه ولا يهتدي العقل إلى طريق التوحيد الّذي لا يكون فيه مع الحقّ سواه ولا يرى الحقّ عين الكلّ بحيث لا يكون في الوجود شيء غيره.

وإنما نطق العلماء بما نطقوا به وأشار المحقّقون إلى ما أشاروا إليه في هذا الطريق لقصد تصحيح التوحيد أي ما نطقوا وما أشاروا إلاّ لقصد تصحيح هذا المقام السنيّ لأنّه المقصد الأقصى والموقف الأعلى وما دون ذلك من الأحوال والمقامات فكلّه مصحوب العلل لا صحّة له لبقاء الرسوم فيها ولو في الحضرة الواحديّة والتجليّات الأسمائية، هذا ما ذهب إليه خاطري.

ووجه آخر مبني على أن «ما» في «إنّما نطق» موصولة حقها أن تكتب مفصولة على معنى أنّ كلّ ما نطق به العلماء وأشار إليه المحقّقون لقصد تصحيح التوحيد وما سواه من الأحوال والمقامات فكلّه مصحوب العلل لا تخلو منها يعني أنّ التوحيد بالعلم لا يخلص عن العلل وكذا إثبات الأحوال والمقامات بطريق العلم وإشارات المحقّقين لا يخلو من العلل فإنّها مواجيد ذوقيّة لا تندرج تحت العبارات ولا تحيط به الإشارات ولا تفي ببيانها الكلمات والعلل هي الجهالات.

(م) والتوحيد على ثلاثة وجوه: الوجه الأوّل: توحيد العامة الّذي يصحّ بالشواهد، والوجه الثاني: توحيد الخاصّة وهو الّذي يثبت بالحقائق، والوجه الثالث: توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصّة الخاصّة.

(ش) الشواهد هي الأكوان والمصنوعات الّتي يستدلّ بها على المكوّن الصانع وبالجملة الدلائل الّتي يستدّل بها العلماء بالنظر والفكر وبراهين العقل، فتوحيد العامّة إنّما يصحّ بالاستدلال، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢] ولكن ما فسدتا فليس فيهما آلهة غير الله وأمثال ذلك.

وأما توحيد الخاصّة وهم المتوسطون: فهو الذي يثبت بالحقائق المذكورة في القسم التاسع وهي المكاشفة والمشاهدة والمعاينة والحياة والقبض والبسط والسكر والصحو والاتصال والانفصال.

وأما توحيد خاصة الخاصة فهو التوحيد القائم بالقدم يعني توحيد الحق لنفسه أزلاً وأبداً كما قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقيامه بالقدم أزليّة وامتناع قيامه بالحدث وإلاّ كان مثبتاً للغير فلم يكن توحيداً وأهل هذا المقام هم المذكورون في الدرجة الثالثة من كل باب من أبواب أقسام النهايات.

(م) فأما التوحيد الأوّل فهو شهادة أن لا إلاّ الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، هذا هو التوحيد الظاهر الجليّ الذي نفى الشرك الأعظم وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمّة، وبه حقنت الدّماء والأموال، وانفصلت دار الإسلام عن دار الكفر، وصحّت به الملّة العامّة وإن لم يقوموا بحق الاستدلال بعد أن سلموا من الشّبهة والحيرة والريبة بصدق شهادة صحّحها قبول القلب.

(ش) هذا ظاهر غنيّ عن الشرح وهو أصل التوحيد التقليدي الذي صحت به الملة للعامة بصدق شهادة صحّحها في الشرع قبول قلوبهم لها تقليداً وإن لم يقدروا على الاستدلال بعد أن لم تعتريهم الشّبهة والحيرة والشك وسلمت قلوبهم من ذلك.

(م) هذا توحيد العامّة الّذي يصحّ بالشواهد، والشواهد هي الرسالة والصنائع.

(ش) أي الأخبار التي وردت بها الرسالة والمصنوعات المتقنة المحكمة الدالّة بحسن صنعتها وإتقانها على وجود الصّانع وعلمه وحكمته وقدرته.

(م) يجب بالسمع ويوجد بتبصير الحقّ وينمو على مشاهدة الشواهد.

(ش) أي يجب قبول هذا التوحيد بالأدلّة السمعيّة وهي أخبار الكتاب والسّنة الّتي تسمعها من النبي ﷺ كقوله: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾. وقوله ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، و﴿**شهد الله**﴾، وسورة الإخلاص وأمثالها، ولا توجد حقيقته وحلاوته وإدراك معناه إلاّ بتبصير الحق إياه بنوره المقذوف في قلب المؤمن ويزيد وينمو بالمواظبة على مشاهدة الشواهد بنظر الاعتبار والتفكر فيها ومطالعة حكمة صانعها في أحوالها

(م) وأمّا التوحيد الثاني الّذي يثبت بالحقائق فهو توحيد الخاصّة وهو إسقاط الأسباب الظاهرة والصعود عن منازعات العقول وعن التعلّق بالشواهد وهو أن لا تشهد في التوحيد دليلاً، ولا في التوكل سبباً، ولا للنّجاة وسيلة.

(ش) إسقاط الأسباب الظاهرة هو أن لا يعلق المسبّبات بالأسباب المعروفة بين الناس ولا يرى لها تأثيراً ولا لغير الحق فعلاً، ويشهد بالحقيقة أن لا مؤثّر إلاّ الله، والصعود عن منازعات العقول هو الترقيّ إلى مقام الكشف والتخلّص عن منازعات العقول أحكام الشرع لعماها عن حكمها، واحتجابها بقياساتها، وعن منازعات بعض العقول بعضاً، ومجادلاتها في الأحكام لثبوت الأوهام إيّاها، ومعارضتها في المناظرات باتّهامها في الأحكام[1] وتصفية الباطن عن المخالفات والمجادلات مجاوزاً طور العقل إلى نور الكشف وعن التعلّق بالشواهد أي الصعود عن طور الاستدلال والتمسّك بالأدلة استغناء عنها بنور التجلّي والعيان.

قوله: «وهو» إشارة إلى الصعود عن التعلق بالشواهد أي وذلك الصعود أن لا تشهد في التوحيد دليلاً فيكون التوحيد عندك أجلى من كلّ دليل فإنّ نور الحقّ إنما لا يدرك لشدّته وقوّة نورتيه كما قيل، شعر:

خفيّ لإفراط الظهور تعرّضت ... لإدراكه أبصار قوم أخافش

«ولا في التوكّل سبباً» أي وأن لا تشهد في التوكّل سبباً لقوّة يقينك في أن لا مؤثّر إلاّ الله ورؤيتك الأفعال كلّها منه فتتلاشى الأسباب في المسبّب في شهودك لشهودك التأثير منه دون السبب «ولا للنجاة وسيلة» أي وأن لا تشهد للنّجاة من العذاب والعقوبة والطرد وسيلةً من الأعمال الصالحة والحسنات.

(م) فتكون مشاهداً سبق الحقّ بحكمه وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها وتعليقه إيّاها بأحايينها، وإخفائه إيّاها في رسومها وتحقّق معرفة العلل وتسلك سبيل إسقاط الحدث، هذا توحيد الخاصّة الّذي يصحّ بعلم الفناء ويصفو في علم الجمع ويجذب إلى توحيد أرباب الجمع.

(ش) أي فتكون أنت مشاهداً أنَّ الحقّ سبق بحكمه على الأشياء بما هي عليه في الأزل فلا تكون إلاّ كما حكم به، وكذا سبق بعلمه وتقديره الأشياء على ما هي عليه، وحكمه تعالى على الأشياء تابع لعلمه فتكون الأشياء على مقتضى سابق علمه وقضائه، «ووضعه الأشياء مواضعها» أي وتكون مشاهداً لوضع الحقّ تعالى كلّ شيء في موضعه بتقديره وحكمته في الأزل، وكذا تشاهد «تعليقه إيّاها بأحايينها» فلا تقع إلاّ في الوقت الّذي قدر وقوعها فيه، «وإخفائه إيّاها في رسومها» أي وتكون مشاهداً سبق الحق بإخفائه الأشياء في رسومها عن أعين المحجوبين فإنّهم لا يرون أنّها بفعل الحقّ وحكمه وتقديره في القضاء السابق جارية

(١) في نسخة: بإتمامها في الأحكام.

على مجراها فينسبونها إلى أسبابها ومقتضيات رسومها الخلقيّة وطبائعها وأوقاتها. فيجعلون لكلّ تغيّر حال من أحوالها سبباً، ويحتجبون بها عن التصرّف الإلهيّ والتقدير الأزليّ، وذلك هو إخفاؤها في الرسوم.

قوله «وتحقّق» عطف على «فتكون» أي فتكون مشاهداً وتحقّق معرفة العلل وهي الوسائط وإسناد أحوالها إلى ما سوى الله تعالى من الأسباب والرسوم الخلقية من الطبائع واختيار الخلق وإرادتهم وقدرتهم وإلى حركات الأفلاك وأوضاع الكواكب وأمثالها، وكلّ ذلك علل تحتجب أهل العادات عن الله تعالى وتوحيده.

وأما العرفاء الموحّدون فهم يعرفون هذه العلل ويسقطون الحدث ويسلكون سبيل علم القدم بإسقاط الحدث فلا يرون إلا سابقة حكم الأزل فيكونون مع الحق في جريان الأحول ويشهدون تصريفاته للأشياء بفعله على مقتضى حكمه وتقديره وحكمته الأزليّة وقدرته وإرادته الأوليّة فيشاهدون الحقَّ وأسماءه وصفاته لا غير.

هذا توحيد الخاصّة أي المتوسطين الّذي يصحّ بعلم الفناء لا بنفس الفناء الآتي بعده فإنّ علم الفناء يحصل بالفناء في حضرة الصفات والأسماء أي الحضرة الواحديّة قبل الفناء في الذات الأحديّة الّتي هي عين الجمع ويصفو بعلم الجمع لا بعين الجمع واضمحلال الرسوم بل قبله عند فناء علمه في علم الحقّ ويجذب إلى توحيد أرباب الجمع الّذي يأتي في قوله:

(م) وأما التوحيد الثالث فهو توحيد اختصّه الله لنفسه واستحقّه بقدره وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم من نعته وأعجزهم عن بثّه.

(ش) اختصّه الله لنفسه أي استأثره الله به ليس لغيره منه نصيب ولا فيه قدم لأنّه يتحقق بفناء الحقّ كلّهم وبقاء الحقّ وحده فلا يمكن لغيره عنه عبارة ولا إليه إشارة ولا شيء من أحكام الخلق وأوصافهم يصل إليه لحصوله بفنائهم واستحقّه بقدره أي لا يستحقّه بمقدار كنهه وحقيقته إلاّ هو ولا يبلغه غيره وما قدروا الله حق قدره. وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته حال البقاء بعد الفناء في عين الجمع لأنّهم حال الفناء قد استغرقوا فيه فانين عن أسرارهم غائبين عنها، وفي حال البقاء ردّوا إلى الخلق باقين به فعرفوا أنّ الحضرة الأحديّة لا نعت لها وكلّ ما ينعت به فهو من الحضرة الواحديّة فأخرسهم الله عن نعته لا بمعنى أنهم يعرفون نعته فمنعهم عن التكلّم به بل لأنّهم عرفوا أنَّ حضرة النعوت تحت مقام الجمع فهو كقوله ـ شعر ـ على لاحب لا يهتدى بمناره، وكذا معنى قوله: «وأعجزهم عن بثّه» أي عن إظهار ذلك اللائح والإخبار به لأنّه لا يقبل الإخبار عنه كما لا يقبل النعت.

(م) والذي يشار به إليه على ألسن المشيرين أنه إسقاط الحدث وإثبات القدم، على أنَّ هذا الرمز في ذلك التوحيد علّة لا يصحّ ذلك التوحيد إلاّ بإسقاطه.

(ش) «والّذي يشار به إليه» مبتدأ، خبره «أنّه إسقاط الحدث» أي وأحسن ما يشار به إلى هذا التوحيد وألطفه هو هذا الكلام المرموز، مع أنَّ هذا الرمز في ذلك التوحيد علّة لا يصحّ ذلك التوحيد إلاّ بإسقاطه فإنّ الحدث لم يزل ساقطاً، وإنّ القدم لم تزل ثابتة، فما معنى إسقاط ذلك وإثبات هذا، ومن المسقط والمثبت، وما ثمَّ إلاّ وجه الحقّ تعالى؟ فهذه علّة وهؤلاء ظنوا أنّهم قد حصّلوا تعريفه وليسوا في حاصل.

(م) هذا قطب الإشارة إليه على ألسن علماء هذا الطريق وإن زخرفوا له نعوتاً وفصّلوه فصولاً فإنّ ذلك التوحيد يزيده العبارة خفاءً، والصفة نفوراً والبسط صعوبة.

(ش) «هذا» أي قولهم إسقاط الحدث وإثبات القدم قطب مدار الإشارة إلى هذا الطريق وأعظم الإشارات وأحكمها وهو مع ذلك معلول يجب إسقاطه في تصحيح هذا التوحيد والباقي من المتن ظاهر.

(م) وإلى هذا التوحيد شَخَصَ أهل الرياضة وأرباب الأحوال والمعارف وله قصد أهل التعظيم وإيّاه عنى المتكلمون في عين الجمع، وعليه تصطلم الإشارات ثمَّ لم ينطق عنه لسان ولم يشر إليه عبارة فإنَّ التوحيد وراء ما يشير إليه مكوّن، أو يتعاطاه حين، أو يقلّه سبب.

(ش) «وإلى هذا التوحيد شخص» أي ذهب «أهل الرياضة» السالكون «وعليه تصطلم الإشارات» أي تنقطع وتستأصل «فإنّ التوحيد وراء ما يشير إليه مكوّن» أي مخلوق، لأنّه لا يصحّ إلاّ بفناء الرسوم كلّها وصفاء الأحديّة عن الكثيرة العددية فلا مجال للإشارة فيه، «أو يتعاطاه حين» أي وراء ما يتداوله زمان لأنّه في عين القدم فوق طور الزمان والحدث، «أو يقلّه سبب» أي وراء ما يحمله سبب لأنّه قائم بمسبّب الأسباب وحده فكيف يحمله سبب؟ وكلامه ظاهر لا يحتاج إلى الشرح.

(م) وقد أجبت في سالف الزمان سائلاً سألني عن توحيد الصوفيّة بهذه القوافي الثلاث:

ما وحّد الواحد من واحد	إذ كلّ من وحّده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته	عارية أبطلها الواحد
توحيده إيّاه توحيده	ونعت من ينعته لاحد

(ش) يعني ما وحّد الحقّ تعالى حقّ توحيده الذّاتي أحد إذ كلّ من وحّده أثبت فعله ورسمه بتوحيده فقد جحده بإثبات الغير إذ لا توحيد إلاّ بفناء الرسوم والآثار كلّها «توحيد من

ينطق من نعته عارية» إذ لا نعت في الحضرة الأحدية ولا نطق ولا رسم لشيء والنطق والنعت يقتضيان الرسم وكلّ ما يشمّ منه رائحة الوجود فهو للحقّ عارية عند الغير فيجب عليه ردّها إلى مالكها حتّى يصحَّ التوحيد ويبقى الحقّ واحداً واحداً فلذلك أبطل الواحد الحقيقي تلك العارية الّتي هي ذلك التوحيد مع بقاء رسم الغير فإنّه باطل في نفسه في الحضرة الأحديّة «توحيده إيّاه توحيده» أي توحيد الحق ذاته بذاته هو توحيده الحقيقي «ونعت من ينعته لاحد» أي وصف الّذي يصفه هو أنّه مشرك جائر عن طريق الحقّ مائل عنه لأنّه أثبت النعت ولا نعت ثمّة وأثبت رسمه بإثبات النعت ولا رسم لشيء في الحضرة الأحديّة ولا أثر وإلاّ لم تكن أحدية، انتهى.

فإن قلت: إنّ ما أستفيد ممّا تقدّم في معنى التوحيد أنّه تعالى أحد لا بتأويل عدد، كما صرّح به الأمير عليه السلام في كلامه المذكور آنفاً وقد قال سيد الساجدين وزين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام في الدُّعاء الثامن والعشرين من الصحيفة السّجاديّة وهو كان من دعائه عليه السلام متفزعاً إلى الله عزَّ وجلَّ: «لك يا إلهي وحدانية العدد، وملكة القدرة الصمد، وفضيلة الحول والقوة، ودرجة العلو والرفعة، ومن سواك مرحوم في عمره، مغلوب على أمره، مقهور على شأنه، مختلف الحالات، متنقل في الصفات، فتعاليت عن الأشباه والأضداد وتكبّرت عن الأمثال والأنداد، فسبحانك لا إله إلاّ أنت»[1].

فكيف التوفيق بين قوله عليه السلام: لك يا إلهي وحدانيّة العدد، وبين ما مرّ من أنَّ الله تعالى منزّه عن الوحدة العددية؟

قلت: قد أفاد العالم المحقّق صدر الدّين المعروف بالسيّد علي خان رضوان الله عليه في شرحه ما أتلوه عليك أوّلاً ثمَّ أذكر ما عندي، قال رحمه الله تعالى:

تقديم المسند لإفادة قصر المسند إليه عليه، أي لك وحدانيّة العدد لا تتخطّاك إلى غيرك، ووحدانيّة الشيء كونه واحداً لأنّ ياء النسب ألحقت آخر الاسم وبعدها هاء التأنيث أفادت معنى المصدر كالألوهية والربوبية والألف والنون مزيدتان للمبالغة.

والعدد قيل: هو كثيرة الآحاد وهي صورة تنطبع في نفس العادّ من تكرار الآحاد، وعلى هذا فالواحد ليس عدداً، وقيل: هو ما يقع جواباً لكم فيكون الواحد عدداً.

وقد اختلف أقوال الأصحاب في معنى قوله عليه السلام: لك يا إلهي وحدانيّة العدد، لمنافاتها ظاهراً وجوب تنزيهه تعالى عن الوحدة العدديّة نقلاً وعقلاً.

---

(١) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٤٥.

أمّا النقل فمستفيض من أخبارهم عليهم السلام ومنه قول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: الواحد بلا تأويل عدد، وقوله في خطبة أُخرى: واحد لا بعدد ودائم لا بأمد.

ومنه ما رواه رئيس المحدّثين في كتاب «**التوحيد**»: أنَّ أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول أن الله واحد؟ فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإنّ الّذي يريده الأعرابي هو الّذي نريده من القوم ثم قال: يا أعرابي إنّ القول بأنّ الله تعالى واحد على أربعة أقسام فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ، ووجهان يثبتان فيه:

فأما اللّذان لا يجوزان عليه فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال ثالث ثلاثة؟.

وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز عليه لأنّه تشبيه، وجل ربنا عن ذلك وتعالى.

وأما الوجهان اللّذان يثبتان فيه فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه عزّ وجلّ أحدي المعنى يعني به أنه لا ينقسم في وجوده ولا عقل ولا وهم كذلك ربّنا عزّ وجلّ[١].

وأما العقل فلأن الوحدة العدديّة إنّما تتقوّم بتكرّرها الكثرة العدديّة ويصحّ بحسبها أن يقال إنَّ المتصف بها أحد أعداد الوجود أو أحد آحاد الموجودات وعزّ جنابه سبحانه أن يكون كذلك، بل الوحدة العدديّة والكثرة العدديّة الّتي هي في مقابلتها جميعاً من صنع وحدته المحضة الحقيقيّة الّتي هي نفس ذاته القيّومة وهي وحدة حقّه صرفة وجوبيّة قائمة بالذات لا مقابل لها ومن لوازمها نفي الكثرة كما أشار إليه أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه في الحديث المذكور آنفاً أنه إحدى المعنى لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم.

إذا عرفت ذلك ظهر لك أنَّ قوله عليه السلام: لك يا إلهي وحدانيّة العدد، ليس مراداً به الوحدة العدديّة بل لا بدّ له من معنى آخر يصح تخصيصه به تعالى وقصره عليه كما يقتضيه تقديم المسند على المسند إليه.

فقال بعضهم: المراد به نفي الوحدة العدديّة عنه تعالى لا إثباتها له، وهو غير ظاهر.

وقيل: معناه أنّ لك من جنس العدد صفة لوحدة وهو كونك واحداً لا شريك لك ولا ثاني لك في الربوبيّة.

(١) الخصال: ٢ ح١، والتوحيد: ٨٣ ح٣.

وقيل: معناه إذا عددت الموجودات كنت أنت المتفرد بالوحدانيّة من بينها.

وقيل: أُريد به أنَّ لك وحدانيّة العدد بالخلق وألا يجادلها فإنّ الوحدة العدديّة من صنعه وفيض وجوده وجوده ولا يخفى أنه بمعزل عن المقام.

وقال بعضهم: أراد بوحدانيّة العدد جهة وحدة الكثرات وأحدية جمعها لا إثبات الوحدة العدديّة له تعالى.

وقيل: معناه أنّه لا كثرة فيك أي لا جزء لك ولا صفة لك يزيدان على ذلك وهو أنسب المعاني المذكورة بالمقام، وتوضيح المراد أنَّ قوله ﷺ لك يا إلهي وحدانيّة العدد يفسّره قوله ﷺ: **(ومن سواك مختلف الحالات متنقل في الصفات)** فإنّه ﷺ قابل كل فقرة من الفقرات الأربع المتضمّنة للصفات الّتي قصرها عليه سبحانه بفقرة متضمّنة لخلافها فمن سواه على الطريق اللّف والنشر الّذي يسميّه أرباب البديع معكوس الترتيب وهو أن يذكر متعدد تفصيلاً ثمَّ تذكر أشياء على عدد ذلك كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم من غير تعيين ثقة بأنّ السامع يرد كلّ واحد إلى ما يليق به ويكون الأوّل من النشر للآخر من اللف والثاني لما قبله وهكذا على الترتيب كعبارة الدُّعاء فإنّ قوله ﷺ: مختلف الحالات متنقل في الصفات راجع إلى قوله: لك يا إلهي وحدانيّة العدد، وقوله: مقهور على شأنه راجع إلى قوله: وملكة القدرة الصمد، وقوله: مغلوب على أمره راجع إلى قوله: وفضيلة الحول والقوّة، قوله: مرحوم في عمره راجع إلى قوله: درجة العلو والرفعة.

إذا علمت ذلك ظهر لك أنَّ المراد بوحدانيّة العدد له تعالى معنى يخالف معنى اختلاف الحالات والتنقل في الصفات لغيره سبحانه فيكون المقصود إثبات وحدانية ما تعدَّد من صفاته وتكثر من جهاته وأنَّ عددها وكثرتها في الاعتبارات والمفهومات لا يقتضي اختلافاً في الجهات والحيثيات ولا تركيباً من الأجزاء بل جميع نعوته وصفاته المتعدّدة موجودة بوجود ذاته، وحيثية ذاته بعينها حيثية علمه وقدرته وسائر صفاته الإيجابية فلا تعدد ولا تكثر فيها أصلاً بل هي وحدانية العدد موجودة بوجود واحد بسيط من كل وجه إذ كل منها عين ذاته فلو تعددت لزم كون الذات الواحدة ذواتاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا معنى قولهم واجب الوجود بالذات واجب الوجود من جميع الجهات فجميع صفاته الإيجابيّة عين ذاته من غير لزوم تكثر.

فإن قلت: كيف تكون صفاته عين ذاته ومفهوم الصفة غير مفهوم الذات؟ وأيضاً فإنّ مفهوم كلّ صفة غير مفهوم صفة أُخرى فكيف تتّحد بالذات؟.

قلت: قد تكون المفهومات المتعدّدة موجودة بوجود واحد فالصفات بحسب المفهوم

وإن كانت غير الذات وبعضها يغاير بعضها إلاّ أنها بحسب الوجود ليست أمراً وراء الذات أعني أنّ ذاته الأحدية تعالى شأنه هي بعينها صفاته الذاتية بمعنى أنّ ذاته بذاته وجود وعلم وقدرة وحياة وسمع وبصر، وهي أيضاً موجود عالم قادر حيّ سميع بصير يترتّب عليها آثار جميع الكمالات ويكون هو من حيث ذاته مبدأ لها من غير افتقار إلى معان أخرى قائمة به تسمّى صفاتاً تكون مصدراً للآثار لمنافاته الوحدة والغناء الذاتيين والاختصاص بالقدم فذاته صفاته وصفاته ذاته لا زائدة عليها كصفات غيره من المخلوقين فإنّ العلم مثلاً في غيره سبحانه صفة زائدة على ذاته مغايرة للسمع فيه وفيه نفسه تعالى وهو بعينه سمعه وقس على ذلك سائر الصفات الثبوتية.

فتبيّن أنّ المراد بقصر وحدانية العدد عليه تعالى هذا المعنى المخالف لصفات من سواه وحالاته فإنّها كيفيات نفسانيّة انفعاليّة وحالات متغايرة ومعان مختلفة له إذ كان يسمع بغير ما يبصر، ويبصر بغير ما يسمع إلى غير ذلك من صفاته المتعدّدة المتكثّرة التي توجب اختلاف الحالات والتنقل في الصفات، وبالجملة فمعنى قصر وحدانية العدد عليه سبحانه نفي التعدّد والتكثّر والاختلاف عن الذات والصفات على الإطلاق، وهذا المعنى مقصور عليه تعالى لا يتجاوزه إلى غيره، والله أعلم بمقاصد أوليائه، وفي المقام كلام طويل طويناه على عزّه. انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: أوّلاً إنَّ حديث الأعرابي يوم الجمل قد نقله العلاّمة الشيخ بهاء الدّين قدّس سرّه أيضاً في أوائل المجلّد الثالث من **«الكشكول» (ص٢٥٨ من طبع نجم الدولة)** من كتاب أعلام الدّين تأليف أبي محمد الحسن بن أبي الحسن الديلمي، عن مقداد بن شريح البرهاني، عن أبيه قال: قام رجل يوم الجمل إلى علي عليه السلام ـ الخ، وثانياً الحكم في أصول العقائد والمعيار فيها هو العقل فحسب فما حكم به العقل الناصع فهو المتّبع فإذا ورد أمر من أهل بيت الوحي وخزنة أسرار الله فإن كان ممّا يدركه العقل، وإلاّ فإن عجز عن إدراكه فإمّا كان العجز من حيث إنه كلام عالٍ سامٍ لا تبلغه العقول بلا تلطيف سرّ وتدقيق فكر ونور علم فلا بدّ من الورود فيها من أبوابها، أو من حيث إنَّ ظاهره ينافي حكم صريح العقل فلا بدّ من التأمّل فيه حقّ التأمّل لأنَّ الكلام حينئذ ليس محمولاً على ظاهره قطعاً وذلك للعلم القطعي بأنَّ ما صدر عن أولياء الله تعالى لاسيّما عن حججه ووسائط فيضه ليس ما ينافي حكم العقل واقعاً بل منطقهم عقل ليس إلاّ، فما يحرى على الفاحص مغزا كلامهم، والمستفيد من مأدبة مرامهم أن يسأل الله تعالى فهم ما أفاضوه، ونيل ما أفادوه، فقد روى ثقة الإسلام الكليني في باب فيما جاء أنَّ حديثهم صعب مستصعب من كتاب الحجّة من **«أُصول الكافي»** بإسناده عن جابر قال: قال أبو جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ حديث آل محمد صعب مستصعب لا يؤمن به إلاّ ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فما ورد عليكم من

حديث آل محمد ﷺ فلانت له قلوبكم وعرفتموه فاقبلوه، وما اشمأزّت منه قلوبكم وأنكرتموه فردّوه إلى الله وإلى الرسول وإلى العالم من آل محمد ﷺ وإنما الهالك أن يحدّث أحدكم بشيء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا، والله ما كان هذا والإنكار هو الكفر[1] **(٣٣٠ ج١ من الكافي المشكول)** وقريب منه ما قد أتى به السيّد الرضي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في الخطب ١٨٧ من **«النهج»** أوّلها: فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب.

فنقول: العقل حاكم على أنّه تعالى ليس بواحد عدديٍّ أي شخصيّ لأنَّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد والوحدة العدديّة معروضها هويّات آحاد عالم الإمكان، على أنّه قد تحقق في محلّه أنَّ العدد لا يعرض المفارق العقلي لا بالذات ولا بالعرض وهو عارض للنفوس بواسطة البدن، بل الله تعالى واحد بالوحدة الحقّة هي حقّ الوحدة إذ لا مهيّة له سوى الوجود البحت البسيط والوجود هو الوحدة القائمة بذاتها والوحدة هي الوجود.

فاعلم أنَّ الوحدة هي ما يقال به لشيء ما واحد، والعدد هو الكميّة المتألّفة من الوحدات، كما في صدر المقالة السابعة من **«أصول»** أقليدس، فالوحدة ليست بعدد لأنَّ العدد ما فيه انفصال لأنّه كمّ، والكمّ تقبل الانقسام، والوحدة لا تقبله، ومن جعلها عدداً أراد بالعدد ما يدخل تحت العدّ، كما قال العلاّمة الخواجه الطوسي في الصدر المذكور: «وقد يقال لكلّ ما يقع في مراتب العدّ عدد فيقع اسم العدد على الواحد أيضاً بهذا الاعتبار» فالنزاع لفظي، وقد يحدّ العدد بأنّه نصف مجموع حاشيته كالأربعة مثلاً حاشيتاها ثلاثة وخمسة وهي نصف مجموعها، فيخرج الواحد منه أيضاً.

والوحدة مبدأ العدد المتقوم بها فالحق كما صرّح به العلاّمة الشّيخ البهائي في **«خلاصة الحساب»** أنّ الواحد ليس بعدد وإن تألفت منه الأعداد كما أنّ الجوهر الفرد عند مثبتيه ليس بجسم وإن تألّفت منه الأجسام، مثلاً أنَّ العشرة متقومة بالواحد عشر مرّات وليست متقومة بخمسة وخمسة ولابستّه وأربعة ولا بسبعة وثلاثة ولا بثمانية واثنين لأن تركّبها من الخمستين ليس بأولى من تركّبها من الستّة والأربعة وغيرها من أنواع الأعداد الّتي تحتها، ولهذا قال الفيلسوف المقدم أرسطاطاليس ـ كما في الخامس من ثالثة إلٰهيات الشفاء ـ: لا تحسبن أن ستة ثلاثة وثلاثة بل هو ستة مرة واحدة.

وقال الشّيخ في الفصل المذكور: وحدّ كلّ واحد من الأعداد إن أردت التحقيق هو أن يقال إنّه عدد من اجتماع واحد وواحد وواحد وتذكر الآحاد كلّها وذلك لأنّه لا يخلو إما أن يحدّد العدد من غير أن يشار إلى تركيبه ممّا ركّب منه بل بخاصية من خواصّه فذلك يكون

---

(١) الكافي: ١/٤٠١ ح١، وبحار الأنوار: ٢/١٨٩ ح٢١.

رسم ذلك العدد لا حدّه من جوهره، وإمّا أن يشار إلى تركيبه ممّا ركّب منه، فإن أُشير إلى تركيبه من عددين دون الآخر مثلاً أن يجعل العشرة من تركيب خمسة وخمسة لم يكن ذلك أولى من تركيب ستة مع أربعة وليس تعلق هويّتها بأحدهما أولى من الآخر وهو بما هو عشرة مهية واحدة ومحال أن تكون مهية واحدة وما يدلّ على مهية من حيث هي واحدة حدود مختلفة، فإذا كان كذلك فحدّه ليس بهذا ولا بذاك بل بما قلنا ويكون إذا كان ذلك كذلك فقد كان له التراكيب من خمسة وخمسة ومن ستة وأربعة ومن ثلاثة وسبعة لازماً لذلك وتابعاً فيكون هذه رسوماً له.

فنقول: كما أنَّ الوحدة مبدأ العدد وليست منه وتتألف منه الأعداد بكثرتها ولم تجد في مراتبها المختلفة بعد الفحص والتفتيش غير الوحدة وقد علمت أن مفاهيم الأعداد تتحقّق بتكرّر المفهوم الوحدة لا غير كذلك الوحدة الحقّة الّتي هي حقّ الوحدة مبدأ للحقائق وبتكرّر تجلّياته تتحقّق الحقائق بلا تكثر في المتجلّى. وكأنّ ما في زبور آل محمد ﷺ من أنّ له تعالى وحدانيّة العدد يشير إلى هذا السرّ المكنون وقد سلك أهل السرّ هذا المسلك الأقوم والطريق الأوسط.

فقال السيّد المحقق الداماد قدّس الله روحه معناه: أنّ الوحدة العدديّة ظلّ لوحدة الحقّة الصرفة القيّومية، وقال مولانا محسن الفيض قدس سرّه: وحدانيّة العدد أي جهة وحدة الكثرات وأحديّة جمعها لأنَّ العدديّة منتفية عنه سبحانه تعالى البتّة وإنّما الثابت له معنى الوحدة ليس إلاّ الوحدة الحقيقيّة كما ثبت في محلّه عقلاً ونقلاً.

وقال صدر المتألّهين قدّس سرُّه في «**الشواهد الربوبية**»: ومن اللّطائف أنّ العدد مع غاية تباينه عن الوحدة وكون كلّ مرتبة منه حقيقة برأسها موصوفة بخواصّ ولوازم لا توجدان في غيرها إذا فتّشت في حاله وحال مراتبه المختلفة لم تجد فيها غير الوحدة.

وقال الحكيم المتألّه السبزواري رضوان الله عليه في الحاشية: فكلّ عدد من الأعداد الّتي من النسب الأربع فيه التباين مع الآخر ليس أجزاؤه إلاّ الواحد فالإثنان واحد وواحد، والثلاثة واحد وواحد وواحد وهكذا فالواحد رسم بتكراره الأعداد المتباينة ولو في غاية التباين، وتكرار الشيء ليس إلا ظهوره ثانياً وثالثاً بالغاً ما بلغ وظهورات الشيء ليست مكثرة له فإذا ظهر زيد في البيت مرّة بعد أُولى وكرّة غبّ أُخرى لم يتعدد تعدّداً شخصيّاً أو نوعيّاً، وهذا الواحد لا بشرط صار باللحظات الكثيرة أعداداً متباينة لها أحكام وآثار متخالفة ممّا هي مشروحة في علم الحساب وعلم الأعداد وغيرهما فمفهوم الواحد في مفاهيم الأعداد كحقيقة الوجود بالنسبة إلى أنحاء الوجودات ولعلّ هذا معنى قول سيّد الساجدين عليّ بن الحسين عليه السلام: يا إلهي لك وحدانية العدد، أي لك وحدانية آيتها الوحدانية الّتي هي راسمة

الأعداد وعلّة قوامها وعادّها ومفنيها، انتهى.

وقد نقلنا بيان هؤلاء العظام من تعليقة الحكيم المتأله البارع الآخوند الهيدجيّ على الفريدة الثالثة من المقصد الأوّل من «**غرر الفرائد**» للمتألّه السبزواري قدّس سرّهما.

وأنت تعلم أنَّ كلامهم مبنيٌّ على ذلك السرّ المشار إليه وقد بسط القول فيه غير واحد من أجلّة المتألّهين منهم محيي الدّين في الفصّ الإدريسي من كتاب «**فصوص الحكم**»، ومنهم المولى صدرا في الفصل الرابع من المرحلة الخامسة من السفر الأوّل من «**الأسفار الأربعة**»، ومنهم المولى محسن الفيض في «**عين اليقين**».

ونأتي بكلام الأوّلين تتميماً للفائدة وتكميلاً لها قال أوسطهم: فصل في بعض الأحكام الوحدة والكثرة، إنّ الوحدة ليست بعدد وإن تألّف منها لأنَّ العدد كم يقبل الانقسام والوحدة لا يقبله ومن جعل الوحدة من العدد أراد بالعدد ما يدخل في تحت العدّ فلا نزاع معه لأنّه راجع إلى اللفظ بل هي مبدأٌ للعدد لأنّ العدد لا يمكن تقوّمه إلاّ بالواحدة لا بما دون ذلك العدد من الأعداد فإنَّ العشرة لو تقويت بغير الوحدات لزم الترجيح من غير مرجّح فإنَّ تقوّمها بخمسة وخمسة ليس أولى من تقوّمها بستة وأربعة، ولا من تقومها بسبعة وثلاثة والتقوم بالجميع غير ممكن وإلاّ لزم تكرّر أجزاء المهيّة المستلزم لاستغناء الشيء عمّا هو ذاتي له لأنّ كلاً منها كان في تقوّمها فيستغنى به عمّا عداه، وإن أخذ تقويمها باعتبار القدر المشترك بين جميعها لا باعتبار الخصوصّيات كان اعترافاً بما هو المقصود إذ القدر المشترك بينها هو الوحدات.

ومن الشواهد أنّه يمكن تصوّر كل عدد بكنهه مع الغفلة عمّا دونه من الأعداد فلا يكون شيء منها داخلاً في حقيقته، فالمقوّم لكلّ مرتبة من العدد ليس إلاّ الوحدة المتكرّرة فإذا انضم إلى الوحدة مثلها حصلت الاثنينيّة وهي نوع من العدد وإذا انضم إليها مثلاها حصلت الثلاثة وهكذا تحصل أنواع لا تتناهى بتزايد واحد واحد لا إلى نهاية إذا التزايد لا ينتهي إلى حدّ لا يزاد عليه، فلا تنتهي الأنواع إلى نوع لا يكون فوقه نوع آخر.

وأمّا كون مراتب العدد متخالفة الحقائق كما هو عند الجمهور فلاختلافها باللوازم والأوصاف من الصمم والمنطقيّة والتشارك والتباين والعاديّة والمعدودية والتجذير والمالية والتكعّب وأشباهها، واختلاف اللوازم يدلّ على اختلاف الملزومات.

وهذا ممّا يؤيّد ما ذهبنا إليه في باب الوجود من أنّ الاختلاف بين حقائقها إنّما نشأ من نفس وقوع كلّ حقيقة في مرتبة من المراتب فكما أنّ مجرّد كون العدد واقعاً في مرتبة بعد الاثنينيّة هو نفس حقيقة الثلاثة إذ يلزمها خواصّ لا توجد في غيره من المراتب قبلها أو بعدها

فكذلك مجرّد كون الوجود واقعاً في مرتبة من مراتب الأكوان يلزمه معان لا توجد في غير الوجود الواقع في تلك المرتبة فالوحدة لا بشرط في مثالها بإزاء الوجود المطلق، والوحدة المحضة المتقدّمة على جميع المراتب العددية بإزاء الوجود الواجبي الذي هو مبدأ كل وجود بلا واسطة ومع واسطة أيضاً، والمحمولات الخاصّة المنتزعة من نفس كل مرتبة من العدد بإزاء المهيات المتّحدة مع كلّ مرتبة من الوجود، وكما أنَّ الاختلاف بين الأعداد بنفس ما به الاتفاق فكذلك التفاوت بين الوجودات بنفس هويّاتها المتوافقة في سنخ الموجوديّة.

وعلى ما قرَّرنا يمكن القول بالتخالف النوعي بين الأعداد نظراً إلى التخالف الواقع بين المعاني المنتزعة عن نفس ذواتها بذواتها وهي الّتي بإزاء المهيات المتخالفة المنزعة عن نفس الوجودات.

ويمكن القول بعدم تخالفها النوعي نظراً إلى أنَّ التفاوت بين ذواتها ليس إلاّ بمجرّد القلّة والكثرة في الوحدات ومجرَّد التفاوت بحسب قلّة الأجزاء وكثرتها في شيء لا يوجب الاختلاف النوعي في أفراد ذلك الشيء، وأمّا كون اختلاف اللوازم دليلاً على اختلاف الملزومات فالحق دلالته على القدر المشترك بين التخالف النوعي والتخالف بحسب القوّة والضعف والكمال والنقص. انتهى كلامه رفع مقامه.

وأمّا ما أفاده في المقام أوَّلهم في الفصّ الإدريسي، فلمّا كان كشف دقائقه على طالبيه مبتنياً على زيادة إيضاح، فالحريّ بنا أن نأتي به مع شرح كاشف معضلات كتابه «**فصوص الحكم**» داود بن محمود القيصري مشيراً إلى المتن بحرف الميم وإلى الشرح بالشين، كما يلي:

(م) فاختلطت الأُمور وظهرت الأعداد بالواحد في المراتب المعلومة.

(ش) أي فاختلطت الأُمور واشتبهت بالتكثر الواقع فيها على المحجوب الغير المنفتح عين بصيرته وإن كانت ظاهرة راجعة إلى الواحد الحقيقي عند من رفعت الأستار عن عينه وانكشف الحق إليه بعينه، والاختلاط بالتجلّيات المختلفة صار سبباً لوجود الكثرة كما ظهرت الأعداد بظهور الواحد في المراتب المعلومة، ولمّا كان ظهور الواحد في المراتب المتعدّدة مثالاً تامّاً لظهور الحقّ في مظاهره جعل هذا الكلام توطئة وشرع في تقرير العدد وظهور الواحد فيه ليستدلّ المحجوب به على الكثرة الواقعة في الوجود المطلق مع عدم خروجه عن كونه واحداً حقيقيّاً، وقال:

(م) فأوجد الواحد العدد وفصل العدد الواحد.

(ش) أي أوجد الواحد بتكرّره العدد إذ لو لم يتكرّر الواحد لم يكن حصول العدد،

وفصل العدد مراتب الواحد مثل الإثنين والثلاثة والأربعة وغير ذلك إلى ما لا يتناهى لأنَّ كلّ مرتبة من مراتب الآحاد والعشرات والمآت والألوف ليس غير الواحد المتجلّي بها لأنَّ الإثنين مثلاً ليست إلاّ واحداً وواحداً اجتمعا بالهيئة الوحدانيّة فحصل منها الإثنان فمادّته هو الواحد المتكرّر وصورته أيضاً واحدة فليس فيه شيء سوى الواحد المتكرّر فهو مرتبة من مراتبه وكذلك البواقي، فإيجاد الواحد بتكراره العدد مثال لإيجاد الحق الخلق بظهوره في الصورة الكونيّة، وتفصيل العدد مراتب الواحد مثال لإظهار الأعيان أحكام الأسماء الإلهيّة والصفات الرّبانية والارتباط بين الواحد والعدد مثال للارتباط بين الحق والخلق وكون الواحد نصف الإثنين وثلث الثلاثة وربع الأربعة وغير ذلك مثال للنسب اللازمة الّتي هي الصفات للحق.

(م) وما ظهر حكم العدد إلاّ بالمعدود فالمعدود منه عدم ومنه وجود، فقد يعدم الشيء من حيث الحسّ وهو موجود من حيث العقل.

(ش) أي العدد لكونه كمّاً منفصلاً وعرضاً غير قائم بنفسه لا بدّ أن يقع في معدود ما سواء كان ذلك المعدود موجوداً في الحس أو معدوماً فيه موجوداً في العقل وظهور العدد بالمعدود مثال لظهور الأعيان الثابتة في العلم بالموجودات وهي بعضها حسيّة وبعضها غيبيّة كما أنَّ بعض المعدود في الحس وبعضه في العقل.

(م) فلا بدّ من عدد ومعدود ولا بدّ من واحد ينشيء ذلك فينشأ بسببه.

(ش) أي إذا كان لا يظهر حكم العدد إلاّ بالمعدود، ولا يتبيّن مراتب الواحد إلاّ بالعدد فلا بدّ من عدد ومعدود، ولمّا كان العدد ينشأ بتكرار الواحد فلا بدّ من واحد ينشيء ذلك العدد فينشأ، أي يظهر الواحد في مراتبه ومقاماته المختلفة بسبب ظهور العدد فالسبب هنا السبب القابلي، ولا بدّ من واحد ينشيء العدد فينشأ العدد بسبب ذلك الواحد فالسبب السبب الفاعلي والأوّل أنسب.

(م) فإن كان كلّ مرتبة من العدد حقيقة واحدة كالتسعة مثلاً والعشرة إلى أدنى وأكثر إلى غير نهاية ما هي مجموع ولا ينفكّ عنها اسم جمع الآحاد فإن الإثنين حقيقة واحدة والثلاثة حقيقة واحدة بالغاً ما بلغت هذه المراتب.

(ش) وفي بعض النسخ فإنّ لكلّ مرتبة من العدد حقيقة والظاهر أنّه تصرّف ممّن لا يعرف معناه، ومقصوده ﷺ أن كان كلّ مرتبة حقيقة واحدة أي إن عبرنا في كلّ مرتبة ما به يمتاز العدد المعيّن فيها من غيرها وهو ما به الإثنان إثنان والثلاثة ثلاثة مثلاً فما هي مجموع الآحاد فقط بل ينضم إليها أمر آخر يميّزها عن غيرها ولا ينفكّ عنها اسم جمع الآحاد لأنّه

كالجنس لها فلا بدّ منها فإنّ الإثنين حقيقة واحدة ممتازة من الثلاثة وهي أيضاً كذلك حقيقة واحدة متميزة عن الأخرى إلى ما لا نهاية له، فقوله: ما هي مجموع، جواب الشرط والجملة الاسميّة إذا وقعت جواب الشرط يجوز حذف الفاء منه عند الكوفيين كقول الشاعر: من يفعل الحسنات الله يجزيها، وإن لم تعتبر الأُمور المتميّزة بعضها عن بعضها وتأخذ القدر المشترك بين الكل الّذي بين النوعين كالإنسان والفرس فيحكم عليهما بأنهما حيوان فكذلك يحكم في الإثنين والثلاثة والأربعة بأنها مجموع من الآحاد مع قطع النظر عمّا به يمتاز بعضه عن البعض الآخر وهو المراد بقوله:

(م) وإن كانت واحدة فما عين واحدة منهنّ عين ما بقي.

(ش) وهذا الشق يدلّ على ما ذهبنا إليه من أن الأصحّ فإن كانت كلّ مرتبة من العدد حقيقة أي وإن كانت المراتب كلّها واحدة في كونها جمع الآحاد أو مجموعها، فليس عين مرتبة واحدة من تلك المراتب عين ما بقي منها لأنّ كل مرتبة منها حقيقة برأسه موصوفة بخواصّ لا توجد في غيرها، ويجوز أن تكون **(ما)** بمعنى **(الّذي)** أي وإن كانت المراتب كلّها واحدة بحسب رجوعها إلى حقيقة واحدة هي جمع الآحاد، فالّذي عين واحدة من مراتب الإثنين والثلاثة وغير ذلك عين ما بقي في كونه عبارة عن جمع الآحاد وهذا أنسب بقوله:

(م) فالجمع يأخذها فيقول بها منها ويحكم بها عليها.

(ش) أي إذا كان لا ينفكّ عنها اسم جمع الآحاد فجمع الآحاد الّذي هو كالجنس لتلك المراتب يأخذها ويجمعها ويتناولها ويصدق عليها صدق الجنس على أنواعه فنقول بتلك المراتب من تلك الحقيقة الجامعة إياها ويحكم بها عليها أي الجامع بين المراتب يحكم عليها بما يعطيه من الأحكام كما يحكم الحقّ على الأعيان بما يعطيه من الأحوال.

(م) وقد ظهر في هذا القول عشرون مرتبة فقد دخلها التركيب.

(ش) أي حصل في هذا القول وهو أن كانت كل مرتبة حقيقة عشرون مرتبة أولها مرتبة الواحد المنشيء للعدد، ثمّ مرتبة الإثنين إلى التسعة فصار تسعة ثمّ مرتبة العشرة والعشرين إلى تسعين وهي تسعة أُخرى فصار ثمانية عشر، ثمّ مرتبة المائة والألف وعلى الباقي يدخل التركيب، وضمير دخلها يرجع إلى المراتب العشرين.

(م) فما تنفكّ تثبت عين ما هو منفيّ عندك لذاته.

(ش) أي لا تزال تثبت في كلّ مرتبة من المراتب عين ما تنفيه في مرتبة أُخرى كما ذكر من أنّ الواحد ليس من العدد باتفاق جمهور أهل الحساب مع أنّه عين العدد إذ هو الّذي

بتكرّره توجد الأعداد فيلزمه في كلّ مرتبة من مراتب العدد لوازم وخصوصيّات متعدّدة وكذلك نقول لكلّ مرتبة أنها جمع الآحاد ونثبت أنّها ليست غير مجموع الآحاد مع أنّه منفيّ عندك بأنّها ليست مجموع الآحاد فقط.

(م) ومن عرف ما قرّرناه في الأعداد وأنَّ نفيها عين ثبتها علم أنّ الحقّ المنزّه هو الخلق المشبّه وإن كان قد تميّز الخلق من الخالق فالأمر الخالق المخلوق والأمر المخلوق الخالق.

(ش) أي ومن عرف أنَّ العدد هو عبارة عن ظهور الواحد في مراتب متعدّدة وليس في العدد بل هو مقوّمه ومظهره والعدد أيضاً في الحقيقة ليس غيره، وأنَّ نفي العدديّة من الواحد عين إثباتها له لأنَّ الأعداد ليست إلاّ عين مجموع الآحاد مادّةً وصورة علم أنَّ الحق المنزه عن نقائص الإمكان بل عن كمالات الأكوان هو بعينه الخلق المشبّه، وإن كان قد تميّز الخلق بإمكانه من الخالق فالأمر الخالق أي الشيء الّذي هو الخالق هو المخلوق بعينه، لكن في مرتبة أخرى غير المرتبة الخالقيّة، والأمر المخلوق هو الخالق بعينه لكن باعتبار ظهور الحق فيه.

واعلم أنَّ الإثنين مثلاً ليست عبارة إلاّ عن ظهور الواحد مرتين مع الجمع بينهما والظاهر فرادى ومجموعاً ليس إلا الواحد فما به الإثنان إثنان وتغاير الواحد ليس إلاّ أمر متوهّم لا حقيقة له كذلك شأن الحقّ مع الخلق فإنّه هو الّذي يظهر بصور البسائط ثمَّ بصور المركّبات فيظنّ المحجوب أنّها مغايرة بحقائقها وما يعلم أنّها أمور متوهمّة ولا موجود إلاّ هو.

(م) كلّ ذلك من عين واحدة لا بل هو العين الواحدة وهو العيون الكثيرة.

(ش) أي كلّ ذلك الوجود الخلقي صادر من الذات الواحدة الإلهيّة ثمَّ أضرب عنه لأنه مشعر بالمغايرة فقال: بل ذلك الوجود الخلقي هو عين تلك العين الواحدة الظاهرة في مراتب متعدّدة وتلك العين الواحدة الّتي هي الوجود المطلق هي العيون الكثيرة باعتبار المظاهر المتكثّرة، كما قال:

سبحان من أظهرنا سوته سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثمَّ بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب

(م) فانظر ماذا ترى.

(ش) أي انظر أيها السالك طريق الحقّ ماذا ترى من الوحدة والكثرة جمعاً وفرادى؟ فإن كنت ترى الوحدة فقط فأنت مع الحقّ وحده لارتفاع الإثنينيّة، وإن كنت ترى الكثرة فقط فأنت مع الخلق وحده، وإن كنت ترى الوحدة في الكثرة محتجبة والكثرة في الوحدة مستهلكة

فقد جمعت بين الكمالين وفزت بمقام الحسنيين، هذا آخر ما أفاد هذا الفحل العارف المتأله في المقام.

فبما قدّمنا ظهر لك سرُّ كلام وليّ الله الأعظم زين العابدين وسيّد الساجدين عليّ بن الحسين عليه السلام: لك يا إلهي وحدانية العدد، وكلام هؤلاء الأكابر سيما الأخير منهم تفصيل ذلك الكلام الموجز المفاض من صقع الملكوت وقد عرّفه جدّه قدوة المتألهين وإمام العارفين وبرهان السالكين عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إنّا لأمراء الكلام: وفينا تنشبت عروقه وعلينا تهدّلت غصونه»[1] **(المختار ٢٣١ من خطب النهج)**، وبقوله: «هم عيش العلم وموت الجهل ـ الخ» **(المختار ٢٣٧ من خطب النهج)** فراجع إلى شرحنا عليهما في المجلّدين الأوّل والثاني من تكملة منهاج البراعة.

وحيث انجرّ البحث إلى التوحيد وساقنا لقاء الله فلنشر إلى نبذة ممّا أودع في سورة التوحيد أعني سورة الإخلاص كي يستقرّ التوحيد على ما شاهده أهله في قلوب مستعدّيه، ويتّضح معنى اللقاء المبحوث عنه أتمّ إيضاح لمبتغيه على أنّ هذه السورة نسبته تبارك وتعالى ووصفه، والحبيب يشتاق ذكر حبيبه ويلتذّ بوصفه كما يحبّ الخلوة معه، والأُنس به، وآثاره من رسوله وكتابه وأوليائه.

ففي آخر الباب الحادي والعشرين من **«إرشاد القلوب»** للديلمي قدس سرّه في الذكر والمحافظة عليه: قال الصادق عليه السلام إن النبي صلى الله عليه وآله: صلى على سعد بن معاذ وقال: لقد وافى من الملائكة للصلاة عليه تسعون ألف ملك وفيهم جبرئيل يصلّون عليه فقلت: يا جبرئيل بما استحقّ صلاتكم؟ قال: يقرأ قل هو الله أحد قائماً وقاعداً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً[2].

وقد انعقد الشيخ أبو جعفر الصّدوق رضوان الله عليه باباً في كتاب التوحيد في تفسير سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] وأتى من أئمة الدين بأحاديث قيّمة فليراجع الطالب إليه وإلى **«شرح المقتبس من مشكاة الولاية»** القاضي السعيد القمّي أعلى الله درجاته على ذلك الكتاب، ولكنّا إنّما نكتفي بنقل بعضها، وبما أفاده العارف المتألّه الميرزا محمد رضا القمشئي قدّس سرّه في تعليقته على **«شرح الفصوص»** للقيصري، والحكيم البارع المولى صدرا قدس سره في **«شرح أصول الكافي»** في تفسير سورة الإخلاص لأنَّ نقل جميع تلك الأحاديث ينجرّ إلى الإطالة لكونها صعباً مستصعباً جدّاً لا بدّ من تفسيرها وكشف معضلاتها.

---

(١) تحف العقول: ٧، وبحار الأنوار: ٣١/٢٤٥.

(٢) الأمالي: ٤٨٠ ح٦٤٥، والتوحيد: ٩٥ ح١٥.

فأمّا ما قال القمشئي رضوان الله عليه في تعليقته على الفصل الأوّل من مقدّمات القيصري على «**شرح الفصوص**» في الإشارة إلى نبذ ممّا في سورة التوحيد فهو ما يلي:

اعلم أنّ الوجود لمّا كان حيث ذاته حيث التحقّق والإنيّة فهو متحقّق بنفس ذاته ولما كان واجباً بذاته والواجب بالذات مهيّته إنيّته فليس فيه سوى حيث الوجود حيث، ولما لم يكن فيه سوى حيث الوجود حيث فلم يكن معه شيء فكان الله ولم يكن معه شيء والآن كما كان، وهذا هو الّذي يوهم أنّه وجود بشرط لا والأمر كذلك إلاّ أنّ كونه بشرط لا من لوازم ذاته ولا دخل في وجوب ذاته.

فإن قلت: فما معنى سريان تلك الحقيقة في الواجب والممكن؟

أقول: معنى السريان الظهور فقد يكون ظاهراً بنفس ذاته لذاته وهذا سريانه في الواجب وقد يكون ظاهراً في ملابس الأسماء والأعيان الثابتة في العلم، وقد يكون ظاهراً في ملابس أعيان الموجودات في الأعيان والأذهان، وهذا السريان في الممكن والكلّ شؤونه الذاتيّة، فالوجود المأخوذ لا بشرط عين الوجود بشرط بحسب الهويّة والاختلاف في الاعتبار وإليه أُشير في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: الآية ١] فإنّ لفظة (**هو**) ضمير يشير إلى أنّه لا اسم له، ولفظة (**الله**) اسم للذت بحسب الظهور الذّاتي، ولفظة (**أحد**) قرينة دالّة على أنَّ اسم الله هناك للذات فإنّه مشترك بينها وبين الذات الجامعة لجميع الصفات وفي الظهور الذاتي لا نعت له ولا صفة بل الصفات منفيّة كما قال ﷺ: (**وكمال التوحيد نفي الصفات عنه تعالى**)، أي الغيب المجهول هو الذات الظاهرة بالأحدية، ولمّا كانت لفظة (**أحد**) قد تطلق لمعنى سلبي كما في هذا الموضع فإنّه يسلب عنه جمع الأشياء بل الأسماء والصفات أيضاً فيوهم أنّه خال عن الأشياء فاقد لها بل عن النعوت والكمالات وهو تعالى بوحدته كلّ الأشياء وجميع النعوت والكمالات فاستدرك بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ②﴾ [الإخلاص: الآية ٢] فإنّ الصمد هو الواحد الجامع، ثمَّ استدل عليه بأنّه لم يلد ولم يولد أي لم يخرج عنه شيء ولم يخرج عن شيء ليكون ناقصاً بخروج الشيء عنه أو بخروجه عن شيء فأحديّته بسلب تعيّنات الأشياء عنه، وصمديّته تثبت باندماج حقائقها فيه. انتهى كلامه.

قلت: ما أفاده قدّس سرُّه شريف متين جدًّا وتجد في تلك المعاني الدقيقة الفائضة من عرش التحقيق إشارات أنيقة من أئمّة الدّين صلوات الله عليهم أجمعين ومن تأمّل في الجوامع الروائيّة الإماميّة رأى بالعيان أنَّ أصل العرفان تنشّبت عروقه فيهم، وتهدّلت غصونه عليهم إلاّ أنَّ الجهلة من المتصوّفة وأشباه العرفاء ولا عرفاء إنّما ردّوا النّاس عن الدّين القهقرى، وما سمعت من كلام هذا العارف الجليل في «هو» مأخوذ من خزنة العلم وعيَب أسرار الله، فقد روى أبو جعفر الصدوق رضوان الله عليه في باب تفسير ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ﴾ [الإخلاص: الآية ١]

من كتابه «**التوحيد**» بإسناده عن أبي البختري وهب بن وهب القرشي، عن أبي عبد الله الصّادق جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن عليّ الباقر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]:

قال: ﴿قُلْ﴾ [الإخلاص: ١] أي أظهر ما أوحينا إليك ونبّأناك به بتأليف الحروف الّتي قرأتها لك ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد، و«هو» اسم مكنّى مشار إلى غائب فالهاء تنبيه على معنى ثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أنَّ قولك: هذا إشارة إلى الشاهد عند الحواس، وذلك أنَّ الكفّار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك، فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار فأشر أنت يا محمّد إلهك الّذي تدعو إليه حتّى نراه وندركه ولا نأله فيه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فالهاء تثبيت للثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواسّ، وأنّه تعالى عن ذلك، بل هو مدرك الأبصار ومبدع الحواس، حدَّثني أبي، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر بليلة، فقلت له: علّمني شيئاً أنصر به على الأعداء، فقال: قل: يا هو يا من لا هو إلاّ هو، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لي: يا عليّ علّمت الاسم الأعظم، فكان على لساني يوم بدر وأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فلمّا فرغ قال: يا هو يا من لا هو إلاّ هو اغفر لي وانصرني على القوم الكافرين، وكان علي عليه السلام يقول ذلك يوم صفين وهو يطارد، فقال له عمّار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: اسم الله الأعظم وعماد التوحيد لله لا إله إلا هو[1]، ثمّ قرأ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨] وآخر الحشر - ثمّ نزل فصلّى أربع ركعات قبل الزوال.

بيان: قوله: ولا نأله فيه، أي لا نتحيّر فيه من أله كفرح أي تحيّر، وقوله: حدَّثني أبي عن أبيه، من تتمّة الحديث، والقائل هو الإمام محمد بن علي الباقر يقول حدَّثني أبي زين العابدين عليّ بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقوله: قبل بدر بليلة، يعني قبل غزوة بدر بليلة.

وأمّا ما أفاده الحكيم المتألّه مولى صدرا في تفسير السورة، فقال قدِّس سره في شرح الحديث الثالث من باب النسبة من كتاب التوحيد من «**أصول الكافي**» المذكور من قبل عن سيّد السّاجدين عليه السلام في سورة التوحيد والآيات من الحديد:

أمّا سورة التوحيد، فلا يخفى لمن تدبّر وتعمّق فيها اشتمالها على غوامض علوم

---

(١) التوحيد: ٨٩ ح٢، وبحار الأنوار: ٣/ ٢٢٢.

التوحيد ولطائف أسرار التقديس، فقد علمت نبذاً من أسرارها العميقة مع أنَّ المذكور يسير من كثير ما علمنا، نزر حقير في جنب ما ستر فيها من العلوم الأحديّة والأسرار الصمّديّة.

واعلم أنّ كثرة الأسامي والألقاب يدلّ على مزيد الفضيلة والشرف، كما لا يخفى فأحدها سورة التفريد، والثاني سورة التجريد، وثالثها سورة التوحيد، ورابعها سورة الإخلاص، لأنّه لم يذكر في هذه السورة الصفات السلبيّة الّتي هي صفات الجلال، ولأنَّ من اعتقدها كان مخلصاً في دين الله، ولأنَّ غاية التنزيه والتفريد والتوحيد تستلزم غاية الدنوّ والقرب المستلزم للمحبّة والإخلاص في الدُّنيا.

وخامسها سورة النجاة لأنّها تنجيك من التشبيه والكفر في الدُّنيا، وعن النار في الآخرة، وسادسها سورة الولاية لأنَّ من قرأها عارفاً بأسرارها صار من أولياء الله، وسابعها سورة النسبة، لما روي أنّه جواباً لسؤال من قال: انسب لنا ربّك، ثامنها سورة المعرفة، وروى جابر ﷺ: إنَّ هذا عبد عرف ربّه فسميّت سورة المعرفة لذلك.

وتاسعها سورة الجمال لأنَّ الجلال غير منفك عن الجمال كما أشرنا إليه، ولما روي أنّه قال ﷺ: إنَّ الله جميل يحبّ الجمال، سألوه عن ذلك فقال: أحد صمد لم يلد ولم يولد، وعاشوها سورة المقشقشة، يقال: قشقش يقشقش المريض برأ، فمن عرفها تبرّأ من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما في قلوبهم مرض، الحادي عشر المعوّذة، روي أنّه ﷺ دخل على عثمان بن مظعون يعوذه بها وباللّتين بعدها، ثمَّ قال: تعوّذ بهنَّ فما تعوّذت بخير منها[1]، والثاني عشر سورة الصمد.

والثالث عشر سورة الأساس لما روي أنّه قال: أسّست السماوات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد، وممّا يدلّ عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السماوات والأرض بدليل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريَم: الآية ٩٠] فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم ونظامه.

والرابع عشر سورة المانعة روي أنّها تمنع فتاني القبر ونفخات النيران، والخامس عشر سورة المحضرة لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرأت، والسادس عشر سورة المنفرة لأن الشيطان ينفر عند قراءتها، السابع عشر البراءة لأنها تبريء من الشرك، ولما روي أنه ﷺ رأى رجلاً يقرأها فقال: أمّا هذا فقد بريء من الشرك، الثامن عشر سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد.

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ٤٧٦/٧، وكتاب الدعاء: ٣٤٠.

التاسع عشر سورة النور لأن الله نور السماوات والأرض والسورة في بيان معرفته ومعرفته النور، ونوره المعرفة، ولما روي أنّه ﷺ قال: إنّ لكلّ شيء نوراً ونور القرآن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ونظيره أنّ نور الإنسان في أصغر أعضائه وهو الحدقة فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان.

العشرون سورة الأمان قال ﷺ: إذا قال العبد لا إله إلاّ الله دخل في حصني ومن دخل في حصني أمن من عذابي[1]، فهذه عشرون اسماً من أسامي هذه السورة ولها فضائل كثيرة ومعاني ونكات غير محصورة، وما روي في فضل قرائتها وثواب الصلاة المشتملة على عدد منها فلا يعدّ ولا يحصى.

فمن فضائلها أنّها ثلث القرآن وذكروا لذلك وجوهاً أجودها أنّ المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات معرفة ذات الله، ومعرفة صفات الله ومعرفة أفعاله وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات فكانت معادلة لثلث القرآن.

ومن فضائلها أيضاً أنّ الدلائل والبراهين قائمة على أنّ أعظم درجات العبد وأجل سعاداته أن يكون قلبه مستنيراً بنور جلال الله وكبريائه وهو إنما يحصل بعرفان هذه السورة فكانت هذه السورة أفضل السور وأعظمها.

فإن قيل: صفات الله تعالى مذكورة في سائر السور؟ قلنا: لكن لهذه السورة خصوصية وهي أنها مع وجازتها مشتملة على عظائم أسرار التوحيد فتبقى محفوظة في القلب معقولة للعقل فيكون ذكر جلال الله حاضراً بهذا السبب فلا جرم امتازت عن سائر السور.

وأما المعاني والنكات فمنها ما سبق، ومنها وجوه أُخرى كثيرة لو ذهبنا إلى تفسير هذه السورة مستقصى لخرجنا عمّا نحن بصدده من شرح الأحاديث ولكن نذكر أنموذجاً ينبّه على الكثير لمن هو أهله فنقول:

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاثة ألفاظ كل واحدة منها إشارة إلى مقام من مقامات السالكين إليه تعالى: المقام الأول للمقربين وهم أعلى السائرين إلى الله تعالى فهؤلاء رأوا أن موجودية المهيّات بالوجود وأنّ أصل حقيقة الوجود بذاته موجود وبنفسه واجد الوجود متعيّن زائد، فعلموا أنّ كل ذي مهيّة معلول محتاج وأنه تعالى نفس حقيقة الوجود والوجوب والتعيّن، فلهذا سمعوا كلمة (هو) علموا أنّه الحقّ تعالى لأنّ غيره غير موجود بذاته وما هو غير موجود بذاته فلا إشارة إليه بالذات.

---

(١) التوحيد: ٢٥ ح٢٢، والأمالي: ٥٨٩.

والمقام الثاني مقام أصحاب اليمين وهؤلاء شاهدوا الحقّ موجوداً والخلق أيضاً موجوداً فحصلت كثرة في الموجودات فلا جرم لم يكن هو كافياً في الإشارة إلى الحق بل لا بدّ هناك من مميّز يميّز الحقّ عن الخلق، فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرن لفظة (الله) بلفظة **(هو)** فقيل لأجله **(هو الله)** لأنّ الله هو الموجود الّذي يفتقر إليه ما عداه وهو مستغن عن كلّ ما عداه فيكون أحديّ الذات لا محالة إذ لو كان مركبّاً كان ممكناً محتاجاً إلى غيره فلفظة الجلالة دالة على الأحديّة من غير اقتران إلى لفظ أحد به.

المقام الثالث مقام أصحاب الشمال وهو أدون المقامات وأخسّها وهم الّذين يجوزون كثرة في واجب الوجود أيضاً كما في أصل الوجود فقورن لفظ **(أحد)** بكلمة **(الله)** ردّاً عليهم وإبطالاً لمقالهم فقيل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾.

وههٰنا بحث آخر أدق وأشرف، وهو أنّا نقول: كلّ ماله مهيّة غير أنيّته فلا هو هو لذاته وكلّما تكون مهيّته عين هويته وحقيقته نفس تعيّنه فلا اسم ولا حدّ له ولا يمكن شرحه إلاّ بلوازمه الّتي يكون بعضها إضافيّة وبعضها سلبيّة والأكمل في التعريف ما يجمع النوعين جميعاً وهو كون تلك الهوية إلهاً فإن الإلهيّة تقتضي أن ينسب إليه غيره ولا ينسب هو إلى غيره، والمعنى الأوّل إضافي، والثاني سلبي فلا جرم ذكر **(الله)** عقيب قوله **(هو)**.

ثمَّ اعلم أنّ الّذي لا سبب له وإن لم يكن تعريفه بالحدّ إلاّ أنّ البسيط الّذي لا سبب له وهو مبدأ الأشياء كلّها على سلسلة الترتيب النازل من عنده طولاً وعرضاً فمن البيّن أنّ ما هو أقرب المجعولات إليه بل اللاّزم الأقرب المنبعث عن حاق الملزوم إذا وقع التعريف كان أشدّ تعريفاً من غيره، وأقرب اللوازم له تعالى كونه واجب الوجود غنيّاً عمّا سواه وكونه مبدءاً ومفتقراً إليه الجميع ومجموع هذا الأمرين هو معنى الإلهية فلأجل ذلك وقع قوله **(الله)** عقيب **(هو)** شرحاً وتعريفاً له.

ولمّا ثبت مطلوب الهليّة البسيطة بقوله هو الدال على أنّه ألهو المطلق الّذي لا تتوقف هويته على غيره، ولأجل ذلك هو البرهان على وجود ذاته وثبت مطلوب الهليّة البسيطة بقوله فحصلت بمجموع الكلمتين معرفة الإنيّة المهية أريد أن يذكر عقبهما ما هو كالصفات الجلالية والجماليّة فقوله تعالى: ﴿أَحَـدٌ﴾ مبالغة في الوحدة، والوحدة التامّة ما لا ينقسم ولا يتكثر بوجه من الوجوه أصلاً لا بحسب العقل كالانقسام بالجنس والفصل، ولا بحسب العين كالانقسام من المادّة والصورة ولا في الحسّ ولا في الوهم كالانقسام بالأعضاء والأجزاء وكان الأكمل في الوحدة ما لا كثرة فيه تعالى أصلاً فكان الله تعالى غاية في الوحدة، فقوله تعالى: ﴿أَحَـدٌ دلّ على أنه واحد من جميع الوجوه وإنما قلنا أنه واحد كذلك لأنه لم يكن كذلك لم يكن إلهاً لأن كل ما هو مركّب فهو مفتقر إلى أجزائه وأجزاؤه غيره فيكون مفتقراً

إلى غيره فلم يكن واجب الوجود ولا مبدأ الكلّ.

ثمَّ إنّ هذه الصفة وهي الأحدية التامّة الخالصة عن شوب الكثرة كما توجب التنزّه عن الجنس والفصل والمادة والصورة، وعن الجسميّة والمقدارية والأبعاض والأعضاء والألوان وسائر الكيفيّات الحسيّة الانفعاليّة وكلّما يوجب قوّة أو استعداداً أو إمكاناً لك يقتضي كل صفة كماليّة من العلم التام والقدرة الكاملة والحياة السرمدية والإرادة التامة والخير المحض والجود المطلق فإنّ من أمعن النظر وتأمل تأملاً كافياً يظهر له أن الأحديّة التامّة منبع الصفات الكماليّة كلّها، ولولا مخافة الإطناب لبيّنت استلزامها لواحدة واحدة منها لكن اللبيب يدرك صحّة ما ادّعيناه.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ قد مرّ أن الصمدية لها تفسيران أحدهما ما لا جوف له، والثاني السيّد، فمعناه على الأوّل سلبي وهو إشارة إلى نفي المهية فإنّ كل ماله مهيّة كان له جوف وباطن وكان من جهة اعتبار مهيّة قابلاً للعدم وكلّ ما لا جهة ولا اعتبار له إلاّ الوجود المحض فهو غير قابل للعدم فواجب الوجود من كلّ جهة هو الصمد الحق، وعلى التفسير الثاني يكون معنى إضافياً وهو كونه سيُّد الكلّ أي مبدأ الجميع فيكون من الصفات الإضافية.

وههنا وجه آخر وهو أنّ الصمد في اللّغة هو المصمت الّذي لا جوف له وإذا استحال هذا في حقّه تعالى فوجب حمله على الفرد المطلق أعني الواحد المنزّه عن المثل والنظير، إما ابتداءاً أو بعد نقله إلى معنى الأحدية المستلزمة للواحديّة كما مرّ فيكون الصمد إشارة إلى نفي الشريك كما الأحد إلى نفي الانقسام.

فانظر كيف عرّف أوّلاً هويّته وإنيّته، ثمَّ عرّف أنه تعالى خالق لهذا العالم، ثمّ عرّف أنَّ الأمور الّتي لأجلها افتقر هذا العالم إلى الخالق كالتركيب والإمكان والمهيّة والعموم والاشتراك والاحتياج لا بدّ أن يكون منفيّاً عنه تعالى لئلا يلزم الدور أو التسلسل.

ثمَّ لمّا كان من عادة المحقّقين أن يذكروا أوّلاً ما هو الأصل والقاعدة ثمَّ يخرّجون عليه المسائل فذكر أوّلاً كونه موجوداً إلهاً ثمَّ توصل به إلى كونه صمداً ثمّ رتّب عليه أحكاماً ثلاثة أحدهما أنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لاستيجاب التوليد للتركيب لأنّه عبارة عن انفصال بعض ناقص من أبعاضه ثمَّ يترقّى فيصير مساوياً له في الذات والحقيقة، ومن البيّن أنَّ نقصان البعض يستلزم تركيب الكلّ، وثانيها قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لاستلزامه للحدوث والنقصان والافتقار إلى العلل من جهات شتّى كالإعداد والإحداث والإبقاء والتربيّة والتكميل، وثالثها قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ وبيانه أنا لو فرضنا مكافياً له في رتبة الوجود فذلك المكافي لو كان ممكن الوجود كان محتاجاً إليه متأخّراً عنه في الوجود فكيف يكون مكافياً له؟ وإن كان

واجب الوجود وقد علمت أن تعدّده ينافي الأحديّة وأنه يستلزم التركيب، فهذا أنموذج من دقائق أسرار التوحيد تحويها هذه السورة، انتهى كلامه قدّس سره الشريف.

خاتمة

نذكر فيها أمرين لمن أراد أن يتذكّر، ويسعى إلى لقاء ربّه ويتنعم به، أحدهما نقل عدَّة أذكار وأدعية عن خزنة علم الله عز وجل وعيب وحيه الذين أنعم الله عليهم بلقائه وكانوا يناجون بها ربّهم الجليل لأنها جلاء القلوب عن رين علائقها الدُّنيوية، وإرشاد للطالب إلى لقاء ربّه المتعال، وثانيهما نبذة ممّا هي آداب مبتغي اللقاء والفائزين به.

أمّا الأوَّل: فقد روى السيّد الأجلّ جمال العارفين ابن طاووس قدّس سره الشريف في أعمال شعبان من كتابه القيّم الكريم المسمّى بـ«**الإقبال**» (**ص٦٨٥ من الطبع الرحلي**) عن ابن خالويه ـ إلى أن قال: إنّها مناجاة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من ولده عليهم السلام كانوا يدعون بها في شهر شعبان:

اللهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد واسمع دعائي إذا دعوتك ـ إلى قوله عليه السلام: إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك ـ إلى أن قال عليه السلام: إلهي إن أنامتني الغفلة عن الاستداد للقائك فقد نبّهتني المعرفة بكرم آلائك ـ إلى أن قال عليه السلام: وألحقني بنور عزّك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً ومنك خائفاً مراقباً يا ذا الجلال والإكرام[1]، ورواه العلاّمة المجلسي في «**البحار**» أيضاً (**ص٨٩ ج١٩ من طبع الكمباني**).

وقال السيّد المذكور في أعمال شهر رجب من ذلك الكتاب (**ص٦٤٦**): ومن الدعوات في كلّ يوم من رجب ما رويناه أيضاً عن جدّ أبي جعفر الطوسي رضي الله عنه فقال: أخبرني جماعة عن ابن عيّاش قال: ممّا خرج على يد الشيّخ الكبير أبي جعفر محمد بن عثمان بن سعيد رضي الله عنه من الناحية المقدّسة ما حدَّثني به خير بن عبد الله قال: كتبته من التوقيع الخارج إليه:

بسم الرَّحمن الرَّحيم، ادع في كلِّ يوم من أيّام رجب: اللهمَّ إنّي أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك المأمونون على سرّك المستبشرون[2] بأمرك الواصفون لقدرتك

(١) ميزان الحكمة: ٣/١٩٠٦ ح٢٦٣٧، وتفسير القرآن الكريم: ٥/١٢٤.

(٢) في نسخة: المستسرون.

المعلنون لعظمتك، وأسألك بما نطق فيهم من مشيئتك، فجعلتهم معادن لكلماتك وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك الّتي لا تعطيل لها في كلّ مكان يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينها إلاّ أنّهم عبادك وخلقك، فتقها ورتقها بيدك بدؤها منك وعودها إليك[1] ـ الخ.

قلت: هذا التوقيع من أسرار الله المكنونة المخزونة، والحقائق المودعة فيها تدرك ولا توصف ينالها من كان له قلب ولو تصدّينا لشرحه على قدر باعنا القصيرة وبضاعتنا المزجاة لانجرّ إلى تأليف كتاب على حدة، والضمير المجرور في لها وبها وبينها راجعة إلى المقامات وكذلك الضمير المنصوب في إلاّ أنّهم عبادك وضميرهم لذوي العقول فالمقامات من ذوي العقول، ولا بأس بإتيان الضمير، تارة من غير ذوي العقول وتارة من ذوي العقول، وذلك نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣١] أورد الضمير ثانياً من ذوي العقول إشارة إلى أنّ الأسماء ليست ألفاظاً دالّة على معانيها لأنَّ معرفة الألفاظ تعدّ من العلوم الأدبيّة وهي لا توجب شرح الصدر وسعة الذات، بل المراد بها حقائق المخلوقات ومقامات دار الوجود على ما هي عليه.

قوله عليه السلام: **(لا فرق بينك وبينها إلاّ أنهم عبادك)** قال القيصري في آخر الإشارة إلى بعض المراتب الكلّية من الفصل الأوَّل من مقدّماته على **«شرح الفصوص»** **(ص١١ من الطبع الناصري)**: ومرتبة الإنسان الكامل عبارة عن جمع جميع المراتب الإلهية والكونيّة من العقول والنفوس الكلّية والجزئية، ومراتب الطبيعة إلى آخر تنزلات الوجود ويسمّى بالمرتبة العمائية أيضاً فهي مضاهية للمرتبة الإلهية، ولا فرق بينهما إلاّ بالربوبية والمربوبية لذلك صار خليفة الله ـ الخ.

إنّما نقلنا كلام القيصري في المقام لكي يعلم أنَّ أصل ما تفوّه به العرفاء الشامخون مقتبس من مشكاة بيت آل النبي صلى الله عليه وآله، نعم إنهم والله ينابيع الحكمة والمعرفة والعرفان وخزنة الحقائق كلها.

وفي دعاء عرفة لمولانا الحسين بن علي صلوات الله عليهما، كما أتى به السيد المذكور في **«الإقبال»** أيضاً **(ص٣٤٨)**: إلهي تردّدي في الآثار يوجب بُعْد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك؟ ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً.

---

(١) إقبال الأعمال: ٣/ ٢١٤، وبحار الأنوار: ٩٥/ ٣٩٣.

إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها، كما دخلت إليك منها مصون السرّ عن النظر إليها، مرفوع الهمّة عن الاعتماد عليها إنّك على كل شيء قدير.

إلهي هذا ذلّي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي علّمني من علمك المخزون، وصنّي بسرّك[١] المصون.

إلهي حقّقني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسلك أهل الجذب[٢].

وروى ثقة الإسلام الكليني في باب الدُّعاء في أدبار الصلوات من «**الكافي**» (**ص٣٩٩ ج٢ من المعرب**) بإسناده عن محمد بن الفرج قال: كتب إليّ أبو جعفر بن الرِّضا ـ يعني الإمام الجواد عليه السلام ـ بهذا الدُّعاء وعلمنيه ـ إلى أن قال عليه السلام: وأسألك الرضا بالقضاء وبركة الموت بعد العيش وبرد العيش بعد الموت ولذّة المنظر إلى وجهك وشوقاً إلى رؤيتك ولقائك من غير ضرّاء مضرّة ولا فتنة مضلّة[٣]. الخ.

وفي دعاء يوم الإثنين للإمام موسى بن الكاظم عليه السلام: وأسألك خشيتك في السرّ والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وأن تحبّب إليّ لقاءك في غير ضرّاء مضرَّة ولا فتنة مضلّة[٤] ـ الخ. رواه الكفعمي رضوان الله عليه في «**البلد الأمين**» (**ص١١٨**) وفي «**المصباح**» أيضاً (**ص١١٥**).

وفي الدُّعاء السابع والأربعين من «**الصحيفة السجادية**»: وأخفني مقامك وشوّقني لقاءك.

وفي المناجاة الخمس عشرة لمولانا عليّ بن الحسين صلوات الله عليه ـ وقال العلاّمة المجلسي رحمة الله عليه في التاسع عشر من «**البحار**» (**ص١٠٥ من الطبع الكمباني**): وقد وجدتها مروية عنه عليه السلام في بعض كتب الأصحاب رضوان الله عليهم، انتهى.

وعدها المحدث الخبير والعالم الجليل الشّيخ حرّ العاملي صاحب «**الوسائل**» في الصحيفة الثانية من الأدعيّة السجاديّة عليه السلام ونسبها إليه من غير ترديد.

---

(١) في نسخة: بسترك.

(٢) بحار الأنوار: ٩٥/٢٢٦، وصحيفة الحسين: ٢١٦.

(٣) الكافي: ٢/٥٤٨، وشرح أصول الكافي: ١٠/٣٧٧ ح٦.

(٤) المحاسن: ١/٣ ح٣، ووسائل الشيعة: ١/١٠٥ ح٢١.

ففي مناجاة الخائفين: وليتني علمت أمن أهل السعادة جعلتني وبقربك وجوارك خصصتني فتقرّ بذلك عيني وتطمئنّ له نفسي ـ إلى أن قال عليه السلام: إلهي لا تغلق على موحّديك أبواب رحمتك ولا تحجب مشتاقيك عن النظر إلى جميل رؤيتك.

وفي مناجاة الراغبين: إلهيَ إن كان قلّ زادي في المسير إليك فلقد حسن ظنّي بالتوكّل عليك ـ إلى أن قال عليه السلام: وإن أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك فقد نبهتني المعرفة[١] بكرمك وآلائك أن قال عليه السلام أسألك بسبحات وجهك وبأنوار قدسك، وأبتهل إليك بعواطف رحمتك ولطائف برّك أن تحقق ظنّي بما أُؤمّله من جزيل إكرامك وجميل إنعامك في القربى منك والزلفى لديك والتمتع بالنظر إليك.

وفي مناجاة المطيعين لله: اللهمَّ احملنا في سفن نجاتك ومتّعنا بلذيذ مناجاتك وأوردنا حياض حبّك، وأذقنا ودّك وقربك.

وفي مناجاة المريدين: ولقاؤك قرَّة عيني، ووصلك مُني نفسي، وإليك شوقي وفي محبّتك ولهي وإلى هواك صبابتي ورضاك بُغيتي، ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك أُنسي وراحتي[٢].

وفي مناجاة المحبيّن: إلهي من ذا الّذي ذاق حلاوة محبّتك، فرام منك بدلاً؟! ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً؟! إلهي فاجعلنا ممّن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودّك ومحبّتك، وشوّقته إلى لقاءك، ورضيّته بقضاءك، ومنحته بالنظر إلى وجهك ـ إلى أن قال: واجتبيته لمشاهدتك.

وفي مناجاة المتوسّلين: واجعلني من صفوتك الّذين أحللتهم بحبوحة جنّتك وبوّأتهم دار كرامتك، وأقررت أعينهم بالنظر إليك يوم لقائك، وأورثتهم منازل الصدق في جوارك.

وفي مناجاة المفتقرين: ولوعتي لا يطفيها إلا لقاؤك وشوقي إليك لا يبلّه إلا النظر إليك.

وفي مناجاة العارفين: فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون ـ إلى أن قال: وقرّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، إلى أن قال: ما أطيب طعم حبّك، وما أعذب شرب قربك.

وفي مناجاة الذاكرين: فلا تطمئن القلوب إلاّ بذكراك، ولا تسكن النفوس إلاّ عند

---

(١) في نسخة: المغفرة.

(٢) في نسخة: روحي.

رؤياك ـ إلى أن قال: وأستغفرك من كلِّ لذّة بغير ذكرك، ومن كلِّ راحة بغير أُنسك، ومن كلِّ سرور بغير قربك.

وفي مناجاة الزاهدين: واقرر أعيننا يوم لقائك برؤيتك.

فعليك بتلك المناجاة الخمس عشر سيما مناجاة العارفين ومناجاة المحبّين منها فإنّها جلاء للقلوب.

وفي آخر الدُّعاء السابع والأربعين من الصحيفة وكان من دعائه عليه السلام في يوم عرفة: وأتحفني بتحفة من تحفاك، واجعل تجارتي رابحة، وكرّتي غير خاسرة، وأخفني مقامك، وشوّقني لقاءك[١] ـ الخ.

وفي باب في أنه عزّ وجلّ لا يعرف إلاّ به من توحيد الصّدوق رضوان الله عليه بإسناده عن زياد بن المنذر، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر، عن أبيه، عن جدّه عليه السلام أنّه قال: إنّ رجلاً قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقال: بماذا عرفت ربّك؟ قال: بفسخ العزم، ونقض الهمم لما هممت فحيل بيني وبين همّي وعزمت فخالف القضاء عزمي علمت أنّ المدبّر غيري، قال: فبماذا شكرت نعماه؟ قال: نظرت إلى بلاء قد صرفه عنّي وأبلى به غيري فعلمت أنّه قد أنعم عليّ فشكرته، قال: فبماذا أحببت لقاه؟ قال: لما رأيته قد اختار لي من دين ملائكته ورسله وأنبيائه علمت أنّ الّذي أكرمني بهذا ليس ينساني فأحببت لقاه[٢].

روى الكليني في باب الاهتمام بأُمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم بإسناده عن سفيان بن عيينة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عليك بالنصح لله في خلقه فلن تلقاه بعمل أفضل منه[٣].

واعلم أنّ ما تقدّم من التوقيع الشريف الصادر من الناحية المقدّسة وفيه قول عليه السلام: **(لا فرق بينك وبينها إلاّ أنهم عبادك وخلقك)**، وما مرّ في ذيله من كلام القيصري: لا فرق بينهما إلاّ بالربوبيّة والمربوبيّة كأنّما يفيدان وجهاً خامساً في وحدة الوجود أعلى وأشمخ وأدقّ وأشرف من الأربعة المتقدّمة المبيّنة، ولعلّ كلام العارف الرّباني الخواجه صائن الدين علي تركه أصفهاني يشير إلى هذا الوجه المنيع حيث قال: فهو العابد باعتبار تعيّنه وتقيّده بصورة العبد الّذي هو شأن من شؤونه الذاتيّة وهو المعبود باعتبار إطلاقه، اعلم أنّ الشهود الأتم

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٤١٣، والصحيفة السجادية: ٣٣١.

(٢) الخصال: ٣٣ ح١، والتوحيد: ٢٨٨ ح٦.

(٣) الكافي: ٢/ ١٦٤ ح٣، وبحار الأنوار: ٧١/ ٣٣٨ ح١١٨.

الأكمل قضى أن كلّ ما يسمّى مرآة ومجلى ومظهراً وعيناً ونحو ذلك ليس سوى تعينات صور أحوال الحقّ على بينها من التفاوت في الحكم والحق من حيث هو باطن هويّته متجلي في عين كل فرد فرد من أحواله المتميّزة الّتي تغيب وظهرت له، انتهى كلامه.

والله تعالى أعلم بمراد أوليائه، اللّهم ارزقنا فهم ما أودعت في كلماتك التامّة، قال عزّ من قائل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

اي برتر ازخيال وقياس وگمان ووهم | وز آنچه گفته اند وشنيديم وخوانده ايم
مجلس تمام گشت وبآخر رسيد عمر | ما همچنان در أوّل وصف تو مانداه ايم

وأما الأمر الثاني فنقول: لا يعرج الإنسان إلى ذي المعارج إلاّ بجناحى العلم والعمل قال عزّ من قائل: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠)﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٠] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥)﴾ [النّازعات: الآية ٣٥] [النازعات: ٣٥]. ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)﴾ [الإسراء: ١٩] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [آخر الكهف].

ثمَّ تأمّل تأمّلاً كاملاً في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النّجم: الآية ٣٩]، فإن ما هو خارج عن ذاتك ليس لك حقيقة بل له ارتباط ما إليك فاسع إلى ما هو لك بل هو أنت وأنت هو على الحقيقة لما ثبت بالبراهين العقلية المعاضدة بالأدلة النقلية من اتحاد العاقل بمعقوله، ونعم ما أفاده الشيخ أبو علي الرئيس رضوان الله عليه في النمط الثامن من كتاب «**الإشارات**»: كمال الجوهر العاقل أن يتمثل فيه جليّة الحقّ الأوّل قدر ما يمكنه أن يقال منه ببهائه الّذي يخصّه ثمَّ يتمثل فيه الوجود كلّه على ما هو عليه مجرداً عن الشوب مبتدءاً فيه بعد الحق الأوّل بالجواهر العقليّة العالية ثمَّ الرّوحانيّة السماوية ثمَّ ما بعد ذلك تمثّلاً لا يمايز الذات.

فاعلم أنّ الخبر ليس كالمعاينة، والعلم بالشيء غير النيل لوصوله ووجدانه وحصوله، ولا يبلغ مرتبة علم اليقين مرتبة عين اليقين فضلاً عن مرتبة حقّ اليقين بل الأوّل دون الثاني بمراحل والثاني دون الثالث بمنازل، قال الشيخ الرئيس قدّس سرّه في أواخر النمط التاسع من كتاب «**الإشارات**»: من أحبّ أن يتعرّفها - يعني أن يتعرّف الدرجات الّتي يجدها السالك - فليتدرّج إلى أن يصير من أهل المشاهدة دون المشافهة ومن الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر.

وقال الخواجه نصير الدين الطوسي رضوان الله عليه في الشرح بعد كلام في

الدرجات: واعلم أنَّ العبارة عن هذه الدرجات غير ممكنة لأنّ العبارات موضوعة للمعاني الّتي يتصوّرها أهل اللغات ثمَّ يحفظونها ثمَّ يتذكرونها ثمَّ يتفاهمونها تعليماً وتعلّماً، أما الّتي لا يصل إليها إلاّ غائب عن ذاته فضلاً عن قوى بدنه فليس يمكن أن يوضع لها ألفاظ فضلاً عن أي يعبّر عنها بعبارة، وكما أنّ المعقولات لا تدرك بالأوهام، والموهومات لا تدرك بالخيالات، والمتخيلات لا تدرك بالحواس كذلك ما من شأنه أن يعاين بعين اليقين فلا يمكن أن تدرك بعلم اليقين، فالواجب على من يريد ذلك أن يجتهد في الوصول إليه بالعيان دون أن يطلبه بالبرهان.

قلت: قد مضى في ذلك كلامنا آنفاً وتقدَّم قول الإمام الصادق عليه السلام فيه.

ولا يتيسّر الوصول إلى لقائه تعالى إلاّ بالعمل الصالح والإخلاص في عبادته كما في آية الكهف الكريمة وإنما يتأتى لمن تخلّص عن العلائق النفسانيّة والشواغل الدنياوية وإلاّ لم يحصل معها ذوق اللذائذ العقليّة حتّى يحصل الشوق إليها فمن لم يعشق العبادة فإنّما لتمكّن تلك العوائق فيه ونعم ما قال الشّيخ في النمط الثامن من «**الإشارات**»: الآن إذا كنت في البدن وفي شواغله وعلائقة فلم تشتق إلى كمالك المناسب أو لم تتألم بحصول ضدّه، فاعلم أنّ ذلك منك لا منه.

وما قال المعلم الثاني أبو نصر الفارابي رضوان الله عليه في «**الفصوص**»: إنّ لك منك غطاءً فضلاً عن لباسك من البدن فاجهد أن ترفع الحجاب فحينئذ تلحق فلا تسأل عمّا تباشره، فإن ألمت فويل لك، وإن سلمت فطوبى لك ونفسك وأنت في بدنك كأنك لست في بدنك وكأنك في صقع الملوك فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاتخذ لك عند الحق عهداً إلى أن تأتيه فرداً.

قلت: قوله: فلا تسأل عمّا تباشره، كلام عميق بعيد الغور يفسّره قول الشيخ الرئيس في آخر النمط التاسع في «**مقامات العارفين**»: والعارف ربما ذهل فيما يصار به إليه فغفل عن كل شيء فهو في حكم من لا يكلّف، وكيف والتكليف لمن يعقل التكليف حال ما يعقله ولمن اجترح بخطيئته إن لم يعقل التكليف.

وقال الخواجه نصير الدين الطوسي في الشرح: والمراد أنّ العارف ربما ذهل في حال اتصاله بعالم القدس عن هذا العالم فغفل عن كل ما في هذا العالم وصدر عنه إخلال بالتكاليف الشرعيّة فهو لا يصير بذلك متأثّماً لأنه في حكم من لا يكلف لأنَّ التكليف لا يتعلّق إلاّ بمن يعقل التكليف في وقت تعقّله ذلك، أو بمن يتأثّم بترك التكليف إن لم يكن يعقل التكليف كالنائمين والغافلين والصبيان الّذين هم في حكم المكلفين.

وإلى هذا المعنى أشار الخواجه عبد الله الأنصار بقوله: صاحب غلبة عشق ازخود آگاه نيست آنچه مست مى كند اورا گناه نيست، والخواجه شمس الدين الحافظ بقوله:

رشته تسبيحم اربگسست معذورم بدار دستم اندر ساعد ساقي سيمين ساق بود

وبيانه أوضح من ذلك يطلب من شرح اللاّهيجي على گلشن راز للشبستري (**ص١٩٨ من الطبع الأوّل**)، ومن شرح الأمير إسماعيل الشنب غازاني التبريزي على «**فصوص**» الفارابي (**ص٧١**) رحمة الله عليهم.

وقوله: وأنت في بدنك كأنّك ـ الخ. ومنه أخذ الشّيخ الرئيس أبو علي بن سينا كلامه في أوّل النمط التاسع في «**مقامات العارفين**»: فكأنّهم وهم في جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجرّدوا عنها إلى عالم القدس ـ الخ، وكأنّ هذا الكلام مأخوذ من مشكاة الولاية العلوية حيث قال إمام الموحدين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في صفة الزّهاد: «كانوا قوماً من أهل الدُّنيا وليسوا من أهلها فكانوا فيها كمن ليس منها»[1] ـ الخ (**نهج البلاغة آخر المختار ٣٢٨ من باب الخطب**) وحيث قال عليه السلام لكميل بن زياد: «صحبوا الدّنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحلّ الأعلى» الخ (**المختار ١٤٧ من باب الحكم والمواعظ من النهج**)، وإلى هذا المعنى أشار السعدي بقوله:

هر گز وجود حاضر وغائب سنيده اي من درميان جمع ودلم جاى ديگراست

وقوله: فترى ما لا عين رأت، مأخوذ من حديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: فاتخذ لك عند الحق فرداً، كأنّما إشارة إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريَم: ٨٧]، وقوله: إلى أن تأتيه فرداً، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريَم: ٩٥].

ثمّ اعلم أنّ معرفة النفس هي مرقاة إلى معرفة الرب، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه كما تقدمت الإشارة إليه إجمالاً، وفي الخبر المروي تارة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام كما في «**الصافي» للفيض قدس سره، وأُخرى عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق** عليه السلام كما في «**المجلي**» لابن جمهور الأحسائي رضوان الله عليه: الصورة الإنسانية هي أكبر حجج الله على خلقه، وهي الكتاب الّذي كتبه بيده، وهي الهيكل الّذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من اللوح المحفوظ، وهي الشاهدة على كلّ غائب، وهي الحجّة

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٣٢٠ ح٣٦، وميزان الحكمة: ٢/ ١١٦٩ ح١٦١٤.

على كلّ جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كلّ خير، وهي الجسر[١] الممدود بين الجنّة والنّار[٢].

وهذا الخبر الشريف باب بل أبواب إلى معارف حقّة وأسرار مكنونة ولعمري جدير أن يقال فيه كلّ الصيد في جوف الفراء، شرحه يخرجنا إلى الإسهاب، ويجرّنا إلى تأليف رسالة على حدة أو كتاب، وحيث إن الصورة الإنسانية هي مجموع صور العالمين قالوا في حدّ الفلسفة: هي معرفة الإنسان نفسه، كما في رسالة الكندي في **«حدود الأشياء ورسومها» (ص١٧٣ من طبع مصر)** وقد أتى الكندي فيها في حدّ الفلسفة بستة حدود من القدماء وهذا أحدها، وقال بعد نقله الحدّ المذكور: وهذا قول شريف النهاية بعيد الغور مثلاً أقول: إنّ الأشياء إذا كانت أجساماً ولا أجسام، وما لا أجسام إما جواهر وإما أعراض، وكان الإنسان هو الجسم والنفس والأعراض، وكانت النفس جوهراً لا جسماً فإنّه إذا عرف ذاته عرف الجسم بأعراضه والعرض الأوّل والجوهر الذي هو لا جسم فإذن إذا علم ذلك جميعاً فقد علم الكلّ، ولهذه العلّة سمّى الحكماء الإنسان العالم الأصغر.

وقال العارف المتنزّه الميرزا جواد الملكي قدّس سرّه في كتابه المسمّى بـ**«لقاء الله»**: إنّ الإنسان له عوالم ثلاثة: عالم الحسّ والشهادة، وعالم الخيال والمثال، وعالم العقل والحقيقة، فمن جهة أنّ إنيّته الخاصّة إنّما بدأت من عالم الطبيعة كما في الآية الكريمة المباركة ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السَّجدَة: الآية ٧] صار عالمه هذا له بالفعل وعرف نفسه وحقيقته بعالمه هذا، بل لو سمع من عارف أو عالم عالميه الآخرين أنكره، بل لو أخبره أحد بصفات عالمه العقلي لكفّره، وذلك لأنّ عالمه الطبيعي له بالفعل وعالميه الآخرين بالقوّة، ولم ينكشف له بالكشف التام إلاّ عالم الطبيعة، وآثار من عالم المثال، وشيء قليل من عالمه العقلي.

وإنسانيته إنما بعالمه العقلي وإلاّ فهو مشترك مع سائر بني جنسه من الحيوان في عالميه الآخرين، وإن كان عالماه الآخران أيضاً من جهة المرتبة أشرف من عالمي سائر الحيوانات.

وبهذه العوالم الثلاثة وترتيبها وقع التلويح بل التصريح في دعاء سجدة ليلة النصف من شعبان عن النبي ﷺ حيث قال فيها: وسجد لك سوادي وخيالي وبياضي[٣].

---

(١) في نسخة: الصراط.
(٢) الإمام علي (ع): ٤٦٧ ح٣، والتفسير الصافي: ١/٨٦.
(٣) وسائل الشيعة: ٨/١٠٨ ح١٠١٨٨، ووسائل الشيعة: ٥/٢٠٤ ح٨.

وبالجملة فعالمه الحسيّ عبارة عن بدنه الّذي له مادّة وصورة، وعالمه المثالي عبارة عن عالمه الّذي حقائقه صور عارية عن المواد، وعالمه العقلي عبارة عن عالمه الّذي هو حقيقته ونفسه بلا مادَّة ولا صورة.

ولكلّ من هذه العوالم لوازم وآثار خاصّة لازمة لفعليّتها، فمن انغمر في عالم الطبيعة وتحقّق بآثارها وتحرّك بحكمها وضعفت فيه آثار عالمه العقلي فقد أخلد إلى الأرض وصار موجوداً بما هو حيوان بل أضلّ من الحيوان كما هو الصريح في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية ٤٤]، ومن ترقى إلى العالم العقلي وغلب آثاره على آثار عالميه الطبيعي والخيالي وكان الحاكم في مملكة وجوده العقل يصير موجوداً روحانياً حتى يتكامل في العقلانيّة وتنكشف له حقيقته ونفسه وروحه فإذا ترتفع عنه الحجب الظلمانية بل النورانيّة أو غالبها بينه وبين معرفة الله جل جلاله ويتحقّق في حقّه قوله ﷺ: من عرف نفسه فقد عرف ربه[(١)].

وإذا تمهّدت لك هذه الإجماليات فراجع إلى تفصيل لوازم كل عالم من العوالم واشتغل بتدبير السفر وتوكّل على الرب الرّحيم واستعن منه وتوّسل بأوليائه في كلّ جزئي وكلي من شؤونك.

واعلم أنَّ هذا العالم الحسي هو عالم الموت والفناء والفقد والظلمة والجهل وهو ذات مادة وصورة سائلتين زائلتين دائم التغير والانقسام ولا شعور له ولا إشعار إلاّ بتبعية العالمين الآخرين وإنّما ظهوره للحسّ بتوسط الأعراض من حيث وحدته الاتصالية أمّا من حيث كثرته المقدارية المتجزئة عند فرض القسمة فكل واحد من الأجزاء معدوم عن الآخر ومفقود عنه فالكلّ غائب عن الكلّ ومعدوم عنه وذلك من جهة أنّ المادَّة مصحوبة بالعدم بل هو جوهر مظلم وأوَّل ما ظهر من الظلام.

ولأنّها في ذاتها بالقوّة وبما لها في أصلها من عالم النور تقبل الصور النورية وتذهب ظلماتها بنور صورها فهذه النشأة اختلط نورها بظلامها وضعف وجودها وظهورها ولضعفها احتاجت إلى مهد المكان وظئر الزمان وأهلها المخصوصون بها أشقياء الجن والإنس والحيوان والنبات والجماد، وفي الحديث القدسي: ما نظرت إلى الأجسام منذ خلقتها، وهم الّذين علومهم مختصّة بهذا العالم ويعلمون ظاهراً من الحياة الدُّنيا وهم عن الآخرة غافلون، ولم يتجاوز علمهم عن المحسوسات ولم يعرفوا من العوالم العالية إلاّ الأسماء، وكلما سمعوا حكاية منها قدروا له لوازم عالمهم وأنكروا ما يقال لهم من لوازم غير عالمهم.

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٣٢ ح٢٢، ودرر الأخبار: ٣٦ ح١٣.

وبالجملة مرعيهم ومأنسهم ووطنهم هذا العالم المحسوس وملاذهم ومقاصدهم كلها من مألوفات هذا العالم وهم الّذين قلنا إنّهم من الّذين أخلدوا إلى الأرض وهم يعتقدون أن أنفسهم هو هذا البدن وأرواحهم هي الروح الحيواني، وأنّ الجماد كلها موجودات متأصّلة متحقّقة وجواهر قائمة بذواتها مخلوقة في عالمها وحيّزها، وأنّ موجودات العوالم الأُخرى على القول بها موجودات اعتبارية خياليّة لا حقيقة لها وأنّ اللّذة إنّما هي في المأكل والمشرب والمنكح وجاه هذا العالم، وذكرهم وفكرهم وخيالهم وآمالهم وعلومهم كلّها متعلّقة بالمحسوسات وأُنسهم بها يحبّونها ويستأنسون بها، ويشتاقون لما لم يصلوا إليه من زخارفها وحلوها وخضرتها بل يعشقونها وشغفهم حبّها كالعاشق المستهتر.

فمن كان منهم مع ذلك مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولكن بإيمان مستقر غير زائل عند الموت لضعفه وقلة نوره وشدّة ظلمة المعاصي وخلط مع ذلك عملاً صالحاً وآخر سيئاً أولئك ممّن يرجى له المغفرة ولو بعد حين.

وأما الطائفة الأُولى فهم الأشقياء الكافرون ليس لهم في الآخرة إلاّ النار لأنهم من أهل السجين ويوم القيامة وإذا ميّزت الحقائق والتحقت الفروع بالأُصول التحق ما في هذا العالم من النور إلى عوالمه وبقيت ظلمتها ونارها وتبدلّت صور كل واحد من الأفعال والأخلاق بما يناسب عالم القيامة من الحياة والعقارب وعذب بها فاعلها ومختلقها، ومن كان يريد الدُّنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أُولئك ليس لهم في الآخرة إلاّ النار.

ولو فرض لهم عمل خير يوفّ إليهم في حياتهم الدنيا أو ينقص بقدره من عذابهم في الآخرة وبالجملة أنّ الإنسان لما خلق ابتدأ من هذه الأرض فإن بقي فيها بعدما خلق فيه الروح والعقل واستأنس بها وألف لذاتها كان ممّن أخلد إلى الأرض فيوم القيامة ملتحق بالسجّين.

وإن خلص منها بعد ذلك بمعنى أن تحقّق بآثار العقل والروح وصار جسداً عقلانياً وهيكلاً نورانياً فيوم القيامة يرتقي إلى أعلى علّيّين، وبعبارة أوضح خلق الله الإنسان في أوّل ما خلق من سلالة من طين، ويبقي مدة في صورة السلالة والنطفة والعلقة والمضغة والعظم واللحم، ثمّ أعطاه الحياة ويبقي حيًّا إلى أن وهبه قوّة الحركة والبطش، ويبقي على ذلك حتى وهبه قوّة التميّز بين النافع والضار فأراد النافع وكره الضار فإن اتبع إرادته لإرادة الله جلّ جلاله في جميع حركاته وسكناته ولم يبق له إرادة مخالفة لإرادته تعالى، فهذا مقام الرضا وهذا الشخص دائماً يكون في الجنّة ولهم فيها ما يشاؤون ولذلك كان اسم خازن الجنّة الرضوان.

وفي حديث المعراج أنّ الله قال: فمن عمل برضاي ألزمته[١] ثلاث خصال أعرفه شكراً لا يخالطه جهل وذكراً لا يخالطه النسيان ومحبة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين[٢].

ثمّ إن عرف أنّ قدرته منتفية في قدرة الله ولم ير قدرة الله لغير الله لا لنفسه ولا لغيره فهو مقام التوكّل ـ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه.

ثمّ إن وفق مع ذلك أن ينفي علمه أيضاً في علم الله لئلا يكون بنفسه شيئاً فهذا مقام الوحدة[٣] أولئك الّذين أنعم الله عليهم.

فإن اتبع إرادة نفسه وعمل في حركاته وسكناته بهواه، والحقّ لا يتبع بهوى غيره، فيخالف هواه مع هوى الحق فيكون هوى الحق ولا يكون هواه وحيل بينهم وبين ما يشتهون، إلى أن يوصله الهوى إلى الهاوية ويقيده بالأغلال والسّلاسل في جميع مراداته وهذا شأن المماليك بالنسبة إلى مراداتهم ولذلك سمي خازن جهنم مالكاً.

وإن تخلّف عن التوكلّ يقع في الخذلان. وإن تخلّف عن جليل مرتبة التوحيد[٤] ردّ إلى سفلى الدركات وهي دركة اللّعنة أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ـ إلى أن قال قدّس سرّه:

ولا يذهب عليك أنّ ما ذكرنا من العوالم إنّما هي داخل هذا العالم وليس خارجاً عنه بمعنى أنّ هذا العالم حالة وكيفية للموجودات في حدّ ومرتبة من الوجود وعالم المثال حالة وكيفية أُخرى ألطف من هذه الكيفيات في باطن هذا العالم وليس خارجاً منه، فمن كان له نور لعينه الحسيّة واجتمع بنور الشمس أو القمر الحسيّين يرى العالم الحسيّ بكيفيات حسيّة وصور حسيّة ومن كان لعينيه المثالية نور مثالي واجتمع نوره بنور الكواكب المثاليّة يرى مثال هذا العالم بكيفيّات مثاليّة وصور مثالية فإنّ كيفيات العوالم وصورها مختلفة كل بحسبها ومناسبتها، وهكذا.

ويكشف عن هذا الاختلاف الرؤيا وتعبيرها بما يرى واقعة مطابقاً لصورتها المثالية يرى النائم اللبن ويفسّره المعبّر بالعلم ويقع في الواقع ما يرى على وفق التعبير.

ويكشف عن ذلك أيضاً الأخبار الكثيرة الواردة في أحوال البرزخ والقيامة وتجسيم الأعمال بما يناسبها من الصور، فحصل من جميع ما قلنا أن الموجود الحق الواقعي إنّما هو

---

(١) في نسخة: ألزمه.
(٢) بحار الأنوار: ٢٨/٧٤، وميزان الحكمة: ٣/ ١٨٨٢.
(٣) في نسخة: التوحيد. (٤) في نسخة: الوحدة.

الذات جلّ جلاله في عالمها وسائر العوالم إنما هو شأن من شؤونها وتجلي من تجلياتها مثلاً تجلى بالتجلي الأوّل فوجد منه العالم العقلي ثمَّ تجلّى ثانياً فظهر العالم النفسي، وهكذا إلى أن خلق هذا العالم الحسيّ ففي الخارج موجود حقيقي حقّ ثابت وشؤونه فكل شأن من شؤونه عبارة عن عالم من العوالم تامّ في مرتبته ولكلّ عالم آثار وصفات حتّى ينتهي إلى أحسن العوالم وأكثفها وأضيقها وهو هذا العالم المحسوس وهذا العالم كيفية خاصة وصور وحدود شتّى لازم لهذه المرتبة من الوجود، ووجوده وآثاره مخصوصة بعالمها، وهكذا.

وعالم الرؤيا إنّما هو من عالم المثال فكلما يرى فيها فهو من هذا العالم أرضها وسماؤها وجمادها ونباتها بل وصور المرايا أيضاً منه والصور الخيالية أيضاً منه وهذا العالم واسع بل عوالم كثيرة بل قيل إنّ في عالم المثال ثمانية عشر ألف عالم.

وحكى عن بعض العرفاء؛ أنّ كلما ورد في الشّرع ممّا ظاهره مجاز في عالمنا فقد وجدناه في بعض هذه العوالم حقيقه من غير تجوز ـ فكما أن كلّما يراه النائم في الرؤيا إنّما هو حال وكيف مثالي يظهر لنفسه في عالم المثال فكذلك ما يراه اليقظان في عالمنا هذا الحسيّ حال وكيف حسيّ يظهر لنفسه في عالم الحس ـ إلى أن قال رضوان الله عليه:

والإدراك لا يمكن إلاّ بنيل المدرك لذات المدرك وذلك إما بخروجه من ذاته إلى أن يصل إليه أو بإدخاله إيّاه في ذاته وكلاهما محال إلاّ أن يتّحد معه ويتصوّر بصورته فالذات العالمة ليست بذاتها بعينها هي الذات الجاهلة، فالعلم بالأجسام لا يتعلق بوجوداتها الخارجية لأنَّ صورها بما هي هي ليست حاصلة بهذا النحو من الحصول الاتحادي إلاّ لموادها وليست حاصلة لأنفسها وحصولها لموادها ليس بنحو العلمي إذ هي أمر عدمي ليست إلا جهة القوة في الوجودات فليس لها في أنفسها ذات يصحّ أن يدرك شيئاً ويعلمه وإذا لم تكن الصور الخارجية للأجسام ممّا يصحّ أن يحصل لها شيء الحصول المعتبر في العلم ولا هي حاصلة لما يصحّ له أن يعلمها فليست هي عالمة بشيء أصلاً ولا لشيء أن يعلمها بعينها كما هي، فهي إذاً معلومة بالقوّة بمعنى أن في قوّتها أن ينتزع منها عالم صوراً فيعلمها أي يتصور بمثل صورها لاستحالة انتقال المنطبعات في المواد، فالمعلوم بالذات من كل شيء ليس إلاّصوراً إدراكيّة قائمة بالنفس متّحدة معها لا مادة خارجيّة.

فالمعلوم بالفعل ليس إلاّ لعالمه فكل عالم معلومه غير معلوم عالم آخر وهو في الحقيقة عالم وعلم ومعلوم، هذا.

والمقصود من التعرض بهذه التفصيلات التنبيه إليه الفكر في معرفة النفس وكيفيّة الترقي منها إلى معرفة الربّ، والاستدلال بما يستحكم به تصديق ذلك وأن يتفطّن المبتدىء لأصول تنفع في فكره، وإلاّ فليس كيفيّة التفكر إلاّ أن يشغل المتفكر تارة لتجزئة نفسه، وأخرى

لتجزئة العالم حتّى يتحقّق له أن ما يعلمه من العالم ليس إلاّ نفسه وعالمه لا العالم الخارجي، وأنّ هذه العوالم المعلومة له إنّما هي مرتبة من نفسه وحتى يجد نفسه لنفسه ما هي؟! ثمّ ينقّى عن قلبه كلّ صورة وخيال ويكون فكره في العدم حتّى تنكشف له حقيقة نفسه أي يرتفع العالم من بين يديه ويظهر له حقيقة نفسه بلا صورة ولا مادّة، وهذا هو أوّل معرفة النفس ولعلّ إلى ذلك أشير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] حيث سئل عنه وقال عليه السلام: نور يقذفه الله في قلبه فيشرح صدره، قيل: هل لذلك من علامة؟ قال عليه السلام: علامته التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل حلول الفوت[1].

ولعلّ العامّة لا يعتقدون في معنى التجافي إلاّ الزهد في شهوات الدنيا، ولا يتصوّرون معنى للتجافي الحقيقي الّذي هو ارتفاع الغرور الواقع في هذا العالم لأهله وعدم رؤية الأشياء كما هي الّذي هو شأن العامّة الّذين لم يبلغوا بعد معرفة النفس بهذه المعرفة، انتهى ما أردنا من نقل كلامه نوّر الله تعالى رمسه. وقد أجاد فيما أفاد وكتابه في لقاء الله ممتّع جدًّا لله درّه مؤلّفاً.

وكلامه ـ رحمه الله ـ في النشآت الثلاثة الإنسانيّة تشير إلى ما برهنه المتألّه المولى صدرا في الرابع من «**الأسفار**» حيث قال قدّس سرّه:

حكمة عرشية: إنّ للنفس الإنسانية نشآت ثلاثة إدراكية: النشأة الأولى هي الصورة الحسيّة الطبيعية ومظهرها الحواس الخمس الظاهرة ويقال لها الدنيا لدنوّها وقربها لتقدمها على الأخيرتين، وعالم الشهادة لكونها مشهودة بالحواس وشرورها وخيراتها معلومة لكلّ أحد لا يحتاج إلى البيان وفي هذه النشأة لا يخلو موجود عن حركته واستحالته ووجود صورتها لا تنفك عن وجود مادتها.

والنشأة الثانية هي الأشباح والصور الغائبة عن هذه الحواس ومظهرها الحواس الباطنة ويقال لها عالم الغيب والآخرة لمقايستها إلى الأُولى لأنَّ الآخرة والأُولى من باب المضاف، ولهذا لا يعرف إحداهما إلاّ مع الأُخرى كالمتضائفين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ٦٢] وهي تنقسم إلى الجنّة وهي دار السعداء، والجحيم وهي دار الأشقياء، ومباديء السعادات والشقاوات فيهما هي الملكات والأخلاق الفاضلة والرذيلة.

والنشأة الثالثة هي العقليّة وهي دار المقرّبين ودار العقل والمعقول ومظهرها القوّة

(١) بحار الأنوار: ٩٥/٦٣، وإقبال الأعمال: ١/٤٠٣.

العاقلة من الإنسان إذا صارت عقلاً بالفعل، وهي لا تكون إلاّ خيراً محضاً ونوراً صرفاً فالنشأة الأولى دار القوّة والاستعداد والمزرعة لبذور الأرواح ونبات النيّات والاعتقادات، والأخريتان كلّ منهما دار التمام والفعلية، وحصول الثمرات وحصاد المزروعات.

وقد أفاد قدّس سرّه هذا المطلب الأرفع الأعلى في عدّة مواضع من الأسفار فراجع إلى ص١٧، وص٢١، وص٩٧، وص١٣١ من ج٩.

وإذا دريت أنَّ الصورة الإنسانية هي مجموع صور عالمي الأمر والخلق فادر أيضاً أنَّ الإنسان إذا كان مراقباً لقلبه وحارساً له عن ولوج الأجانب والأغيار، وناظراً إلى ربّه ومستشعراً جانب الله عزّ وجلّ ومنصرفاً بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحقّ في سرّه يلوح له ملكوت السماوات والأرض ويرتقي إلى أعلى علّيين، ويصافحه الملائكة المقرّبين، قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢] وقد تقدّم في صدر الرسالة كلام العارف السهروردي: الفكر في صورة قدسيّة يتلطّف بها طالب الأريحيّة.

وفي باب تنقل أحوال القلب من كتاب الإيمان والكفر من **«أصول الكافي» (ص٣٠٩ ج٢ من المعرب)** بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال: أما إنّ أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قالوا: يا رسول الله نخاف علينا النفاق. قال: فقال: ولم تخافون ذلك؟ قالوا: إذا كنّا عندك فذكّرتنا ورغّبتنا وجلنا ونسينا الدنيا وزهدنا حتى كأنا نعاين الآخرة والجنّة والنار ونحن عندك، فإذا خرجنا من عندك ودخلنا هذه البيوت وشممنا الأولاد ورأينا العيال والأهل يكاد أن نحوّل عن الّتي كنّا عليها عندك وحتّى كأنّا لم نكن على شيء، أفتخاف علينا أن يكون ذلك نفاقاً؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: كلا إنَّ هذه خطوات الشيطان فيرغبّكم في الدنيا، والله لو تدومون على الحالة الّتي وصفتم أنفسكم بها لصافحتكم الملائكة ومشيتم على الماء[1] ـ الخبر.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: لولا إن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء[2].

قال الكندي في رسالته في «النفس»: إنَّ النفس بسيطة ذات شرف وكمال عظيمة الشأن، جوهرها من جوهر الباري عزّ وجل كقياس ضياء الشمس من الشمس.

(١) الكافي: ٢/ ٤٢٤، وبحار الأنوار: ٦/ ٤٢.
(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٦٣، ودرر الأخبار: ٤٤٢ ح١.

وقد بيّن أنّ هذه النفس منفردة عن هذا الجسم مباينة له وأن جوهرها جوهر إلهي روحاني بما يرى من شرف طباعها ومضادتها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب.

وذلك أنَّ القوّة الغضبية قد تتحرك على الإنسان في بعض الأوقات فتحمله على ارتكاب الأمر العظيم فتضادّها هذه النفس وتمنع الغضب من أن يفعل فعله أو أن يرتكب الغيظ وترته، وتضبطه كما يضبط الفارس الفرس إذا همّ أن يجمح به أو يمده.

وهذا دليل بيّن على أنَّ القوّة التي يغضب بها الإنسان غير هذه النفس التي تمنع الغضب أن يجري إلى ما يهواه لأنَّ المانع لا محالة غير الممنوع لأنه لا يكون شيء واحد يضادّ نفسه، فأمّا القوّة الشهوانية فقد تتوق في بعض الأوقات إلى بعض الشهوات ففكّر النفس العقليّة في ذلك أنّه أخطأ وأنّه يؤدي إلى حال رديئة فتمنعها عن ذلك وتضادها، وهذا أيضاً دليل على أنَّ كلّ واحد منهما غير الأُخرى.

وهذه النفس الّتي هي من نور الباري عزّ وجلَّ إذا هي فارقت البدن علمت كلّ ما في العالم ولم تخف عنها خافية، والدليل على ذلك قول أفلاطون حيث يقول: إنَّ كثيراً من الفلاسفة الطاهرين القدماء لم يتجرّدوا من الدُّنيا وتهاونوا بالأشياء المحسوسة وتفرّدوا بالنظر والبحث عن حقائق الأشياء انكشف لهم الغيب، وعلموا بما يخفيه الناس في نفوسهم واطلعوا على سرائر الخلق.

فإذا كان هذا هكذا، والنفس بعد مرتبطة بهذا البدن في هذا العالم المظلم الّذي لولا نور الشمس لكان في غاية الظلمة فكيف إذا تجرّدت هذه النفس، وفارقت البدن، وصارت في عالم الحق الذي فيه نور الباري سبحانه؟!

ولقد صدق أفلاطون في هذا القياس وأصاب به البرهان الصحيح، ثم إنَّ أفلاطون اتبع هذا القول بأن قال: فأمّا من كان غرضه في هذا العالم التلذّذ بالمآكل والمشارب المستحيلة إلى الجيف، وكان أيضاً غرضه في لذّة الجماع فلا سبيل لنفسه العقلية إلى معرفة هذه الأشياء الشريفة ولا يمكنها الوصول إلى التشبّه بالباري سبحانه.

ثمَّ إنّ أفلاطون قاس القوة الشهوانية التي للإنسان بالخنزير، والقوة الغضبيّة بالكلب، والقوة العقلية التي ذكرنا بالملك، وقال: من غلبت عليه الشهوانيّة وكانت هي غرضه وأكثر همته فقياسه قياس الخنزير، ومن غلب عليه الغضبيّة فقياسه قياس الكلب، ومن كان الأغلب عليه قوّة النفس العقلية وكان أكثر أدبه الفكر والتميز ومعرفة حقائق الأشياء، والبحث عن غوامض العلم كان إنساناً فاضلاً قريب الشبه من الباري سبحانه لأنَّ الأشياء الّتي نجدها للباري عزّ وجلّ هي الحكمة والقدرة والعدل والخير والجميل والحق.

وقد يمكن للإنسان أن يدبّر نفسه بهذه الحيلة حسب ما في طاقة الإنسان فيكون حكيماً عدلاً جواداً خيّراً يؤثر الحق والجميل، ويكون بذلك كلّه بنوع دخل دون النوع الّذي للباري سبحانه من قوّته وقدرته لأنّها إنما اقتبست من قربها قدرة مشاكلة لقدرته، فإنّ النفس على رأي أفلاطون وجلّة الفلاسفة باقية بعد الموت جوهرها كجوهر الباري عزّ وعلا في قوّتها إذا تجرّدت أن تعلم سائر الأشياء كما يعلم الباري بها أو دون ذلك برتبة يسيرة، لأنها أُودعت من نور الباري جلّ وعزّ.

وإذا تجرّدت وفارقت هذا البدن وصارت في عالم العقل فوق الفلك صارت في نور الباري، ورأت الباري عزّ وجلّ وطابقت نوره وجلّت في ملكوته فانكشف لها حينئذ علم كلّ شيء، وصارت الأشياء كلّها بارزة لها كمثل ما هي بارزة للباري عزّ وجلّ، لأنّا إذا كنّا ونحن في هذا العالم الدنس قد نرى فيه أشياء كثيرة بضوء الشمس فكيف إذا تجرّدت نفوسنا، وصارت مطابقة لعالم الديموميّة وصارت تنظر بنور الباري فهي لا محالة ترى بنور الباري كلّ ظاهر وخفيّ وتقف على كلّ سرّ وعلانية.

وكان أفسقورس يقول: إنّ النفس إذا كانت وهي مرتبطة بالبدن تاركة للشهوات متطهّرة من الأدناس، كثيرة البحث والنظر في معرفة حقائق الأشياء انصقلت صقالة ظاهرة واتّحدت بها صورة من نور الباري يحدث فيها ويكامل نور الباري بسبب ذلك الصقال الذي اكتسبه من التطهر فحينئذ يظهر فيها صور الأشياء كلّها ومعرفتها كما يظهر صور خيالات سائر الأشياء المحسوسة في المرآة إذا كانت صقيلة، فهذا قياس النفس لأنّ المرآة إذا كانت صدشة لم يتبيّن صورة شيء فيها بتّة، فإذا زال منها الصدأ ظهرت وتبيّنت فيها جميع الصور، كذلك النفس العقلية إذا كانت صدئة دنسة كانت على غاية الجهل ولم يظهر فيها صور المعلومات وإذا تطهّرت وتهذّبت وانصقلت، وصفاء النفس هو أنّ النفس تتطّهر من الدنس وتكتسب العلم تظهر فيها حينئذ صورة معرفة جميع الأشياء وعلى حسب جودة صقالتها تكون معرفتها بالأشياء، فالنفس كلما ازدادت صقالاً ظهر لها وفيها معرفة الأشياء.

وهذه النفس لا تنام بتّة لأنّها في وقت النوم تترك استعمال الحواس وتبقى محصورة، ليست بمجرَّدة على حدتها، وتعلم كلَّ ما في العوالم وكلّ ظاهر وخفي ولو كانت هذه النفس تنام لما كان الإنسان إذا رأى في النوم شيئاً يعلم أنه في النوم بل لا يفرق بينه وبين ما كان في اليقظة.

وإذا بلغت هذه النفس مبلغها في الطهارة رأت في النوم عجائب من الأحلام وخاطبتها الأنفس الّتي قد فارقت الأبدان وأفاض عليها الباري من نوره ورحمته فتلتذّ حينئذ لذّة دائمة

فوق كل لذّة تكون بالمطعم والمشرب والنكاح والسماع والنظر والشم واللمس، لأنَّ هذه لذات حسيّة دنسة تعقب الأذى، وتلك لذّة إلهيّة روحانيّة ملكوتيّة تعقب الشرف الأعظم، والشقي المغرور الجاهل من رضى لنفسه بلذات الحس وكانت هي أكثر أغراضه ومنتهى غايته.

وإنما نجيء في هذا العالم في شبه المعبر والجسر الذي يجوز عليه السّيارة ليس لنا مقام يطول، وأما مقامنا ومستقرّنا الّذي نتوقع فهو العالم الأعلى الشريف الّذي تنتقل إليه نفوسنا بعد الموت حيث تقرب من باريها، وتقرب من نوره ورحمته، ونراه رؤية عقليّة لا حسيّة، ويفيض عليها من نوره ورحمته، فهذا قول أفسقورس الحكيم. انتهى ما نقلنا عن الفيلسوف الكندي.

وقد صدر هذه النكات اللطيفة الشريفة عن قلوب نقيّة، وهي كلمات اقتبست من مشكاة الأنبياء غاية الأمر بوسائط، والملهم المبتدع القديم حقّ عليم منّه عظيم.

قوله: جوهرها من جوهر الباري، يعني أنها من عالم الأمر الحكيم قال عزّ من قائل: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] [الإسراء: ٨٦] ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

وقوله: كقياس ضياء الشمس من الشمس شريف جداً وقد قال الإمام كشّاف الحقائق وارث علوم النبيِّين أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: إنَّ روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها[1]، رواه ثقة الإسلام الكليني قدس سرّه في باب أخوة المؤمنين بعضهم لبعض من كتاب الإيمان والكفر من «**أصول الكافي**» **(ص٣٣ ج٢ من المعرب)**.

قوله: إذا هي فارقت البدن علمت كلّ ما في العالم، قال تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

وقوله: ثمَّ إنَّ أفلاطون قاس القوّة الشهوانيّة الّتي للإنسان بالخنزير ـ الخ، كلام شريف أيضاً، ومن هنا يعلم أيضاً حشر الناس عل صور نيّاتهم وأن الجزاء في الآخرة بنفس العمل وقد وردت في ذلك روايات كثيرة من بيت الوحي والعصمة والطهارة، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: يحشر الناس على صور نيّاتهم، وفي الآخر عن البراء بن عازب قال: كان معاذ بن جبل جالساً قريباً من رسول الله صلى الله عليه وآله في منزل أبي أيوب الأنصاري فقال معاذ: يا

(١) الكافي: ٢/١٦٦ ح٤، وكتاب المؤمن: ٣٨ ح٨٦.

رسول الله ما رأيت قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝﴾ [النّبَإ: الآية ١٨] ، الآيات؟ فقال: يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمر، ثمَّ أرسل عينيه ثمَّ قال: يحشر عشرة أصناف من أمّتي أشتاتاً قد ميّزهم الله من المسلمين وبدّل صورهم: فبعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسون أرجلهم من فوق ووجوهم من تحت ثمَّ يسحبون عليها، وبعضهم عمي يتردّدون، وبعضهم صمّ بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم.

فأمّا الّذين على صورة القردة فالقتّات من الناس، وأما الّذين على صورة الخنازير فأهل السحت، وأما المنكسون على رؤوسهم فآكلوا الربا، والعمي الجائرون في الحكم، والصّم البكم المعجبون بأعمالهم، والّذين يمضغون بألسنتهم فالعلماء والقضاة الّذين خالف أعمالهم أقوالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الّذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار فالسّعاة بالناس إلى السلطان، والذين هم أشدّ نتناً من الجيف فالّذين يتمتّعون بالشهوات واللّذات ويمنعون حقّ الله تعالى في أموالهم، والّذين يلبسون الجباب فأهل التجبّر والخيلاء.

وهذا الحديث قد رواه الفريقان في الجوامع وكتب التفسير وفي الحديث عنه ﷺ: من خالف الإمام في أفعال الصلاة يحشر ورأسه رأس حمار، وقد روى الكليني في باب الكبر من كتاب الإيمان والكفر من «**أصول الكافي**» (**ص٢٣٥ ج٢ من المعرب**) بإسناده عن داود بن فرقد عن أخيه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ المتكبرين يجعلون في صور الذرّ يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب[(١)].

وفي الحديث عنه ﷺ: كما تعيشون تموتون وكما تنامون تبعثون. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: رأيت ليلة أسري بي قوماً تقرض شفاههم، وكلما قرضت وفت، فقال لي جبرائيل: هؤلاء خطباء أمّتك تقرض شفاههم لأنّهم يقولون ما لا يفعلون[(٢)]، رواه علم الهدى سيّد المرتضى في المجلس الأوّل من «**أماليه غرر الفوائد ودرر القلائد**» (**ص٦ من ج١ من طبع مصر**).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في صفة بعض علماء السوء: فالصورة صورة إنسان والقلب

---

(١) الكافي: ٢/ ٣١١ ح١١، وبحار الأنوار: ٧٠/ ٢١٩ ح١١.

(٢) الأمالي: ١/ ٥، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٠٩٨ ح٢٨٩٦.

قلب حيوان[١].

وفي حديث الريّان بن شبيب عن ثامن الأئمة علي بن موسى الرضي عليه السلام: يا ابن شبيب إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان فاحزن لحزننا وافرح لفرحنا وعليك بولايتنا، فلو أنّ رجلاً تولى حجراً لحشره الله تعالى معه يوم القيامة[٢]، رواه المجلسي رحمه الله عليه في **«عاشر البحار» (ص١٦٥ من طبع الكمباني)** عن عيون أخبار الرضا وأمالي الصدوق.

قلت: كنت ذات ليلة متفكراً في أمري من حشري معادي وناظراً في صحيفة عملي، ويوم عرضي للحساب ونحوها إذ رأيت فيما رأيت في صقع نفسي شيئاً لازباً بها جدًّا، محشوراً عندها غير منفك عنها، ولمّا أمعنت النظر فيه عرفته، وكان نسخة مخطوطة من كتاب، قد كنت أُحبّها شديداً فعندئذ حضر وخطر بالبال، قوله عليه السلام: فلو أنّ رجلاً تولّى حجراً لحشره الله تعالى معه يوم القيامة، فإنّ الكتاب جماد كالحجر ولا فرق بينهما من هذه الحيثيّة.

ومن تلك البراهين النقلية المعاضدة للعقلية قال أساطين الحكمة: إنّ حشر الخلائق في الآخرة على أنحاء مختلفة حسب أعمالهم وأخلاقهم فلقوم على سبيل الوفد، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥]، ولقوم على سبيل التعذيب ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ [فصلت: ١٩]، ولقوم نحشر المجرمين يومئذ زرقاً ولقوم ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، وبالجملة كل أحد إلى غاية سعيه وعمله وإلى ما يحبّه ويهواه حتى أنه لو أحبّ حجراً لحشر معه لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٨] وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣].

والمراد بأزواجهم الملكات وصورها فإن تكرّر الأفاعيل يوجب الملكات وكل ملكة تغلب على نفس الإنسان تتصور في القيامة بصورة تناسبها، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، ولا شك أن أفاعيل الأشقياء المدبرين إنما هي بحسب هممهم القاصرة النازلة في مراتب البرازخ الحيوانية وتصوراتهم مقصورة على أغراض بهيميّة أو سبعيّة أو شيطانيّة تغلب على نفوسهم فلا جرم يحشرون على صور تلك الحيوانات، وإذا الوحوش حشرت، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله يحشر بعض الناس على صور يحسن عندها القردة والخنازير، وفيه أيضاً يحشر الناس يوم

(١) ميزان الحكمة: ٤/٢٩٧٤ ح٣٧٤١، وبحار الأنوار: ٢/٥٧.

(٢) الأمالي: ١٩٣، وبحار الأنوار: ٤٤/٢٨٦.

القيامة ثلاثة أصناف: ركباناً، ومشاة، وعلى وجوههم[1].

والسرّ في ذلك أن لكلّ خُلق من الأخلاق المذمومة والهيئات الرديئة المتمكنة في النفس صورة نوع من أنواع الحيوانات وبدن يختصّ بذلك كصور أبدان الأسود ونحوها لخلق التكبّر والتهوّر مثلاً، وأبدان الثعالب وأمثالها للخبث والروغان، وأبدان القرود ونحوها للمحاكاة والسخرية، والخنازير للحرص والشهوة إلى غير ذلك.

وربما كان لشخص واحد من الإنسان عدد كثير من الأخلاق الرديئة على مراتب متفاوتة فبحسب ذلك تختلف الصور الحيوانيّة في الآخرة قال الله عزّ وجل: يوم تشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون.

قال المولى صدرا قدس سره في مبحث الحشر من «**الأسفار**»: إنّ في داخل بدن كلّ إنسان ومكمن جوفه حيواناً صورياً بجميع أعضائه وأشكاله وقواه وحواسّه هو موجود قائم بالفعل لا يموت بموت هذا البدن وهو المحشور يوم القيامة بصورته المناسبة لمعناه وهو الذي يثاب ويعاقب وليست حياته كحياة هذا البدن المركب عرضيّة واردة عليه من الخارج وإنما حياته كحياة النفس ذاتية وهو حيوان متوسط بين الحيوان العقلي والحيوان الحسيّ يحشر في القيامة على صورة هيئات وملكات كسبتها النفس بيدها العمالة، وبهذا يرجع ويؤول معنى التناسخ المنقول عن الحكماء الأقدمين كأفلاطون ومن سبقه مثل سقراط وفيثاغورس وغيرهما من الأساطين، وكذا ما ورد في لسان النبوات، وعليه تحمل الآيات المشيرة إلى التناسخ، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النمل: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ١٤] ، كلّ ذلك إشارة إلى انقلاب النفوس في جوهرها وصيرورتها من أفواج الأُمم الصامتة وخروجها يوم النشور إذا بعثر ما في القبور وحصّل ما في الصدور على صورة أنواع الحيوانات من السباع والمؤذيات والبهائم والوحوش والشياطين.

وقال في «**المبدأ والمعاد**»: **(ص٣٢٥)** قال بعض العرفاء: كلّ من شاهد بنور البصيرة باطنه في الدُّنيا لرآه مشحوناً بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسه وتنهشه إن سهى عنه بلحظة إلاّ أن أكثر الناس لكونه محجوب العين عن مشاهدتها فإذا كشف الغطاء ووضع في قبره عاينها وقد تمثلت له بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها فيرى بعينه العقارب والحيات قد

---

(١) معاني القرآن: ٢٦/٥، ومسند أبي داود: ٣٣٤.

أحدقت به وإنما هي صفاته الحاضرة الآن قد انكشفت له صورها، فإن أردت يا أخي أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فوطّن نفسك على لدغها ونهشها بصميم قلبك فضلاً عن ظاهر بشرتك وجسمك.

وقول الكندي: كان أفسقورس يقول إن النفس ـ الخ، يقصد بأفسقورس فيثاغورس الفيلسوف المشهور من أعاظم الحكماء الأقدمين قد استفاد من مشكاة النّبوة وله في نضد العالم وترتيبه على خواصّ العدد ومراتبه رموز عجيبة وأغراض بعيدة وله في شأن المعاد مذاهب قارب فيها أبيذقلس من أن عالماً فوق عالم الطبيعة روحانياً نورانياً لا يدرك العقل حسنه وبهاءه، وأنَّ الأنفس الزكية تحتاج إليه، وأنّ كلّ إنسان أحسن تقويمه بالتبرُّؤ من العجب والتجبر والرياء والحسد وغيرها من الشهوات الجسدانية فقد صار أهلاً أن يلحق بالعالم الروحاني ويطلع على ما شاع[1] من جواهره من الحكمة الإلهية، وأنَّ الأشياء الملذّة للنفس تأتيه حشداً إرسالاً كالألحان الموسيقية الآتية إلى حاسّة السمع فلا يحتاج إلى أن يتكلف لها طلباً، نقلناه من **«تاريخ الحكماء»** للقفطي.

ومن كلماته السامية: أنّك ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكارك وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية أو جسمانية فإن كانت الحركة غضبيّة أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك، وإن كانت الحركة عقلية صارت ملكاً تلتذُّ بمنادمته في دنياك، وتهتدي به في أُخراك إلى جوار الله ودار كرامته، نقلناه من مبحث نشر الصحائف وإبراز الكتب من **«الأسفار»**.

وما أفاد هؤلاء الأعاظم في إنيّة النفس وتطوّراتها لطيف جدّاً إلاّ أني ما رأيت بعد قول الله تعالى ورسوله ﷺ كلاماً في النفس وأطوارها ألطف وأجمع وأتقن من كلام إمام الموحّدين وراية السالكين وقدوة المتألّهين علي أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال لحبر من أحبار اليهود وعلمائهم: من اعتدل طباعه صفى مزاجه، ومن صفى مزاجه قوي أثر النفس فيه، ومن قوي أثر النفس فيه سمي إلى ما يرتقيه، ومن سمي إلى ما يرتقيه فقد تخلق بالأخلاق النفسانية، ومن تخلق بالأخلاق النفسانية فقد صار موجوداً بما هو إنسان دون أن يكون موجوداً بما هو حيوان، ودخل في الباب الملكي، وليس له عن هذه الحالة مغيّر[2]، فقال اليهودي: الله أكبر يا ابن أبي طالب لقد نطقت بالفلسفة جميعها، نقله العلاّمة الشيخ بهاء الدين العاملي قدس سره في أواخر المجلّد الخامس من **«الكشكول»** **(ص٥٩٤ من طبع نجم الدولة)**.

---

(١) في نسخة: يشاء.

(٢) الصراط المستقيم: ١/ ٢١٤، والإمام علي: ٦٢٤ ح١.

وقال في المجلد الثاني منه (ص٢٤٦) عن كميل بن زياد قال: سألت مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين أريد أن تعرّفني نفسي، فقال: يا كميل وأي الأنفس تريد أن أعرّفك؟ قلت: يا مولاي وهل هي إلا نفس واحدة؟!

قال: يا كميل إنما هي أربعة: النامية النباتية، والحسيّة الحيوانيّة، والنّاطقة القدسيّة، والكليّة الإلهيّة، ولكل واحدة من هذه خمس قوى وخاصيّتان:

فالنامية النباتية لها خمس قوى: ماسكة، وجاذبة، وهاضمة، ودافعة ومربيّة، ولها خاصيّتان: الزيادة والنقصان، وانبعاثها من الكبد.

والحسيّة الحيوانية لها خمس قوى: سمع، وبصر، وشم، وذوق، ولمس، ولها خاصيّتان: الرضا والغضب، وانبعاثها من القلب.

والناطقة القدسيّة لها خمس قوى: فكر، وذكر، وعلم، وحلم ونباهة، وليس لها انبعاث وهي أشبه الأشياء بالنفوس الملكيّة، ولها خاصيّتان: النزاهة والحكمة.

والكليّة الإلهيّة لها خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذلّ، وفقر في غناء، وصبر في بلاء، ولها خاصيّتان: الرّضا والتسليم وهذه الّتي مبدؤها من الله وإليه تعود، قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: الآية ٢٩] وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨] والعقل وسط الكل[١].

وروي في كتاب «**الدرر والغرر**» أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام سئل عن العالم العلوي فقال: صور عارية عن المواد، عالية من القوّة والاستعداد، تجلّى لها فأشرقت وطالعها فتلألأت، وألقى في هويّتها مثاله فأظهر عنها أفعاله، وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة إن زكّيها بالعلم والعقل فقد شابهت جواهر أوائل عللها، وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد[٢] (**نقلناه من الكلمة التاسعة عشر من قرّة العيون في أعز الفنون للفيض قدس سره**)، وقد رواه العالم الجليل ابن شهر آشوب في المناقب أيضاً.

ولنذكر ما حصل لبعض الأعاظم من التخلّص عن درن البدن، والتنزّه عن رين الرذائل النفسانيّة فكوشف لهم ما وراء الطبيعة، ترغيباً للمشتاقين إلى السير في عالم المجردات، وأنموذجاً من عظم شأن النفس وشرفها للطالبين:

(١) قال الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي في رسالته في «**النفس**» (**ص٢٧٩ من رسائل الكندي**): وقد وصف أرسطاطاليس أمر الملك اليوناني الذي تحرّج بنفسه فمكث لا

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ٨٥، وتفسير الصافي: ٣/ ١١٢.

يعيش ولا يموت أياماً كثيرة، كلما أفاق أعلم الناس بفنون من علم الغيب وحدثهم بما رأى من الأنفس والصور والملائكة، وأعطاهم في ذلك البراهين، وأخبر جماعة من أهل بيته بعمر واحد واحد منهم، فلمّا امتحن كل ما قال لم يتجاوز أحد منهم المقدار الذي حده له من العمر، وأخبر أن خسفاً يكون في بلاد الأوس بعد سنة، وسيل يكون في موضع آخر بعد سنتين فكان الأمر كما قال.

قال: وذكر أرسطاطاليس أنَّ السبيل في ذلك أنَّ نفسه إنّما علمت ذلك العلم لأنها كادت أن تفارق البدن، وانفصلت عنه بعض الانفصال فرأت ذلك فكيف لو فارقت البدن على الحقيقة؟! لكانت قد رأت عجائب من أمر الملكوت الأعلى.

فقل للباكين ممن طبعه أن يبكي من الأشياء المخزونة ينبغي أن يبكي ويكثر البكاء على من يهمل نفسه، وينهك من ارتكاب الشهوات الحقيرة الخسيسة الدنيئة المموّهة الّتي تكسبه الشرّة وتميل بطبعه إلى طبع البهائم ويدع أن يتشاغل بالنظر في هذا الأمر الشريف والتخلّص إليه، ويطهّر نفسه حسب طاقته، فإنّ الطهر الحق هو طهر النفس لا طهر البدن فإنّ العالم الحكيم المبرّز المتعبد لباريه، إذا كان ملطّخ البدن بإكماة فهو عند جميع الجهّال، فضلاً عن العلماء أفضل وأشرف من الجاهل الملطّخ البدن بالمسك والعنبر[١].

ومن فضيلة المتعبّد لله الذي قد هجر الدُّنيا ولذّاتها الدنيئة أنّ الجهّال كلّهم إلاّ من سخر منهم بنفسه يعترض بفضله ويجلّه ويفرح أن يطلع منه على الخطأ.

فيا أيها الإنسان الجاهل ألا تعلم أنَّ مقامك في هذا العالم إنما هو كلمحة ثمَّ تصير إلى العالم الحقيقي، فتبقى فيه أبد الآبدين؟ انتهى كلام الكندي تغمده الله بغفرانه.

(٢) وروى الكليني أعلى الله مقامه في باب حقيقة الإيمان واليقين من كتاب الإيمان والكفر من جامعه **«الكافي» (ص٤٤ ج٢ من المعرب)** بإسناده عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالنّاس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوى برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: إن لكلّ يقين حقيقةً فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنَّ يقيني يا رسول الله هو الّذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدُّنيا وما فيها حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعمون في الجنة ويتعارفون وعلى الآرائك متكئون، وكأنّي أنظر إلى

---

(١) نهج الإيمان: ٢٧٩، وميزان الحكمة: ١/ ٢٢٣.

أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: هذا عبد نوَّر الله قلبه بالإيمان، ثمَّ قال له: الزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله ﷺ فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي ﷺ فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر(١).

وروى بعده بإسناده عن عبد الله بن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: استقبل رسول الله ﷺ حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري فقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك؟ فقال: يا رسول الله مؤمن حقّاً، فقال له رسول الله ﷺ: لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك؟ فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري وكأنّي أنظر إلى عرش ربي وقد وضع للحساب وكأني أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون في الجنّة، وكأنّي أسمع عواء أهل النار في النار، فقال له رسول الله ﷺ: عبد نوَّر الله قلبه، أبصرت فأثبت، فقال: يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني الشهادة معك. فقال: اللهم ارزق حارثة الشهادة، فلم يلبث إلاّ أياماً حتّى بعث رسول الله ﷺ سرية فبعثه فيها فقاتل فقتل تسعة أو ثمانية ثمَّ قتل(٢).

وقال: وفي رواية القاسم بن بريد عن أبي بصير قال: استشهد مع جعفر بن أبي طالب بعد تسعة نفر وكان هو العاشر.

قلت: إنما قال لرسول الله ﷺ: ادع لي أن أُرزق الشهادة معك. لما فيها من فضيلة سامية وكفى فيها ما قال عز من قائل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٩] وأرى في طلبه الشهادة منه ﷺ أنَّ حفظ الحال أصعب من تحصيله كالمال قال شاعر العجم:

مال راهر كسى بدست آرد رنجش اندر نگاهداشتن است

وتأمّل في كلام رسول الله ﷺ حيث قال له: إلزم ما أنت عليه، أو أبصرت فاثبت، أمره بلزوم ما وجده من الإيمان الكامل الذي نور الله به قلبه وثباته على ذلك، فإن للكمالات الحاصلة آفات كثيرة والمراقبة في حفظها وعدم زوالها لازمة جدّاً لمن تنعم بها، قال الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم:

يا هشام إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا

(١) المحاسن: ١/ ٢٥١، والكافي: ٢/ ٥٣ ح٢.

(٢) الكافي: ٢/ ٥٤ ح٣، وشرح أصول الكافي: ٨/ ١٧٢ ح٣.

مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨] حين علموا أن القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها[١] (**رواه الكليني** رحمه الله في كتاب العقل والجهل من «**أصول الكافي**» الحديث ١٢).

قال الشيخ العلاّمة البهائي قدس سره كما في سلافة العصر (**ص٢٩٢**): سانحة: قد تهب من عالم القدس نفحة من نفحات الأنس على قلوب أصحاب العلائق الدينية، والعلائق الدنيويّة، فتقطر بذلك مشام أرواحهم وتجري روح الحقيقة في رميم أشباحهم، فيدركون قبح الأنفاس الجسمانية، ويذعنون بخساسة الانتكاس في مهاوي القيود الهيولانية، فيميلون إلى سلوك الرشاد وينتبهون من نوم الغفلة عن البداء والمعاد، لكن هذا التنبيه سريع الزوال، ووحي الاضمحلال، فيا ليته يبقى إلى حصول جذبة إلهية تميط عنهم أدناس عالم الزور وتطهرهم من أرجاس دار الغرور، ثم إنهم عند زوال تلك النفحة القدسية، وانقضاء هاتيك النسمة الإنسية يعودون إلى الانعكاس في تلك الأدناس، فيتأسّفون على ذلك الحال الرفيع المنال، وينادي لسان حالهم بهذا المقال، إن كانوا من أصحاب الكمال:

هان اى طبيب خسته دلان مرهم دگر تيرى زدى وزخم دل آسوده شد ازان

وبالجملة كأن الشاب خاف من زيغ القلب وزوال النعمة فرأى أن خروجه من الدُّنيا مع ذلك النور الإلهي أفضل وأحب إليه من البقاء فيها مع خوف زواله فاستحب الأول على الثاني، والله تعالى أعلم.

وقد روى ابن الأثير في «**أسد الغابة**» بإسناده عن أنس هذه الواقعة ونسبها إلى حارثة أيضاً (**ص٣٣٥ ج١**)، وكذا الغزالي في «**إحياء العلوم**»، لكن نسبها العارف الرّومي في المجلّد الأوَّل من «**المثنوي**» إلى زيد والظاهر أنه زيد بن حارثة حيث قال:

كيف أصبحت اى رفيق باصفا گفت پيغمبر صباحى زيد را

إلى آخر الأبيات.

ونسبها أبو نعيم الأصفهاني في «**حلية الأولياء**» (**ص٢٤٢ ج١**) إلى معاذ بن جبل ورواها بإسناده عن أنس بن مالك أيضاً، ونسبها الديلمي في الباب السابع والثلاثين من كتابه «**إرشاد القلوب**» إلى سعد بن معاذ وألفاظهما واحدة والاختلاف يسير، وفي رواية أبي نعيم أنَّ معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه دخل على رسول الله ﷺ فقال: كيف أصبحت يا معاذ؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله تعالى. قال: إنَّ لكلّ قول مصداقاً ولكل حق حقيقة فما مصداق ما

(١) الكافي: ١/١٨، وتحف العقول: ٣٨٨.

تقول؟ قال: يا نبيّ الله ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أني لا أمسي، وما أمسيت مساءً قط إلاّ ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى، وكأنّي أنظر إلى كلّ أُمّة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيّها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله وكأنّي أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة، قال: عرفت فالزم[1].

(٣) قال العارف المتنزه المتأله السيّد حيدر الآملي قدس سره في أول كتابه «**جامع الأسرار ومنبع الأنوار**»: والله ثم والله لو صارت أطباق السماوات أوراقاً، وأشجار الأرضين أقلاماً، والبحور السبعة مع المحيط مداداً، والجنّ والإنس والملك كتاباً لا يمكنهم شرح عشر من عشير ما شدت من المعارف الإلهية والحقائق الربانية، الموصوفة في الحديث القدسي «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، المذكورة في القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] .

ولا يتيسّر لهم بيان جزء من أجزاء ما عرفت من الأسرار الجبروتيّة والغوامض الملكوتيّة المعبّر عنها في القرآن بما لم يعلم لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ٣ ـ ٥] المومي إليها أيضاً بتعليم الرحمٰن، لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤] المسماة بكلمات الله التي لا تبيد ولا تنفد لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩] ولقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

(٤) وفي «**سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر**» (ص٤٧٩) تأليف العلاّمة السّيد عليّ صدر الدين المدني صاحب «**رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين**»، و«**شرح الفوائد الصمدية**» في النحو، و«**الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة**» وغيرها تبلغ إلى ثمانية عشر مؤلفاً في فنون متنوّعة: الأمير محمد باقر بن محمد الشهير بالداماد الحسني ـ إلى أن قال صاحب السلافة في ترجمته قدّس سرّه: ومن غريب رسائله رسالته الخليعة وهي ممّا يدلّ على تألّه سريرته، وتقدّس سيرته، وصورتها:

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم الحمد كلّه لله رب العالمين، وصلاته على سيّدنا محمد وآله

---

(١) حلية الأولياء: ١/٢٤٢.

الطاهرين، كنت ذات يوم من أيّام شهرنا هذا وقد كان يوم الجمعة سادس عشر شهر رسول الله شعبان المكرّم لعام ثلاث وعشرين وألف من هجرته المقدّسة في بعض خلواتي أذكر ربّي في تضاعيف أذكاري وأورادي باسمه الغني فأُكرّر يا غني يا مغنيٍ مشددها بذلك عن كلّ شيء إلاّ في التوغل في حريم سرّه والانمحاء في شعاع نوره، وكأنّ خاطفة قدسيّة قد ابتدرت إليّ، فاجتذبتني من الوكر الجثماني ففككت حلق شبكة الحسّ، وحللت عقد حبالة الطبيعة وأخذت أطير بجناح الروح في وسط ملكوت الحقيقة وكأني قد خلعت بدني ورفضت عدني، ومقوت خلدي، ونضوت جسدي، وطويت إقليم الزمان، وصرت إلى عالم الدهر فإذا أنا بمصر الوجود بجماجم أُمم النظام الجملي من الإبداعيات والتكوينيّات والإلهيات الطبيعيّات والقدسيات والهيولانيات والدهريات والزمنيات وأقوام الكفر والإيمان، وأرهاط الجاهلية والإسلام من الدارجين والدارجات والغابرين والغابرات، والسالفين والسالفات، والعاقبين والعاقبات، في الآزال والآباد، وبالجملة آحاد مجامع الإمكان ودارات عوالم الإمكان بقضّها وقضيضها وصغيرها وكبيرها بإثباتها وبإبدائها حالياتها وآتياتها وإذا الجميع زفة زفة وزمرة زمرة يجذبهم قاطبة معاملون، وجوه ماهياتهم شطر بابه سبحانه شاخصون، بأبصار نيّاتهم تلقاء جنابه جلّ سلطانه من حيث لا يعلمون، وهم جميعاً بألسنة فقر ذواتهم الفاخرة، وألسن فاقة هوياتهم الهالكة في صحيح الضراعة وصراخ الابتهال ذاكروه وداعوه ومستصرخوه ومنادوه بيا غني يا مغني من حيث هم لا يشعرون، فطفقت في تلك الضجة العقلية والصرخة الغبية أخرّ مغشياً علي وكدت من شدة الوله والدهش أنسى جوهر ذات العاقلة وأغيب عن بصر نفسي المجردة وأُهاجر ساهرة أرض الكون وأخرج من صقع قطر الوجود رأساً إذ قد ودعتني تلك الخلسة الخالسة حيناً حيوناً إليها، وخطفتني تلك الخطفة الخاطفة تائقاً لهوفاً عليها فرجعت إلى أرض التيار، وكورة البوار، وبقعة الزور، وقرية الغرور تارة أُخرى، هذا منتهى الرسالة المذكورة.

(٥) قال صدر المتألّهين قدّس سرّه في آخر الثاني من العاشر من رابع **«الأسفار»**: إنّي أعلم من المشتغلين بهذه الصناعة من كان رسوخه بحيث يعلم من أحوال الوجود أُموراً تقصر الأفهام الذكيّة عن إدراكها، ولم يوجد مثلها في زبر المتقدّمين والمتأخرين من الحكماء، والعلماء لله الحمد وله الشكر.

ولا يخفى على العارف بأساليب الكلمات أنه أراد بقوله هذا نفسه الشريفة، وقال المتألّه السبزواري رضوان الله عليه: والحقّ معه، وتحقيقاته الأنيقة أعدل شاهد على ما أفاده، شكر الله مساعيه.

(٦) قال الشيخ الرئيس في آخر السابعة من ثامن **«طبيعيات الشفاء»** (ص٤١٧ ج١):

حكى لي رجل بيابان دهستان يخذّر نفسه ونفخه الحيات والأفاعي الّتي بها وهي قتّالة جدّاً والحيّات لا تنكأ فيه باللسع ولا تلسعه اختياراً ما لم يقسرها عليه، فإن لسعته حية ماتت، وحكى أنَّ تنيناً عظيماً لسعته فماتت وعرض له حمّى يوم، ثمَّ إنّي لما حصلت ببيابان دهستان طلبته فلم يعش وخلف ولداً أعظم خاصيّة في هذا الباب منه، فرأيت منه عجائب نسيت أكثرها وكان من جملتها أن الأفاعي تصد عن عزّه ويحتد عن نفسه ويخذّر في يده، انتهى.

وهذه الأحوال الّتي سمعتها نزر يسير ممّا رأينا في الكتب المعتبرة من العجائب الصادرة عن النفس الناطقة الإنسانيّة، على أنّ هؤلاء العظام ممن لم يبلغوا رتبة النّبوة والإمامة بل جلّهم لولا الكل اقتبسوا من مشكاة نبي أو وصي نبي فما ظنّك بالفائز إلى الخلافة الإلهيّة من الأنبياء والأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين.

فلنأت بعدَّة أُمور من مواعظ الله سبحانه ومواعظ رسوله وأهل بيته ممّا لا محيص عنها للسائر إلى الله تعالى فنقول:

١ ـ القرآن الكريم صورة الإنسان الكامل الكتبيّة، أعني أنه صورة الحقيقة المحمدية ﷺ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فبقدر ما قربت منه قربت من الإنسان الكامل، فانظر إلى حظك منه فإنّ حقائق آياته درجات ذاتك ومدارج عروجك، ومن وصيّة إمام الثقلين أبي الحسنين علي عليه السلام لابنه محمد بن الحنفيّة رضي الله عنه كما رواه صدوق الطائفة المحقة في الفقيه (**الوافي** **ص٦٤ ج١٤**):

وعليك بتلاوة[1] القرآن والعمل به ولزوم فرائضه وشرائعه وحلاله وحرامه وأمره ونهيه والتهجّد به وتلاوته في ليلك ونهارك فإنّه عهد من الله تعالى إلى خلقه فهو واجب على كلّ مسلم أن ينظر في كلّ يوم في عهده ولو خمسين آية، واعلم أنَّ درجات الجنّة على عدد آيات القرآن فإذا كان يوم القيامة يقال لقارىء القرآن: اقرأ وارق، فلا يكون في الجنّة بعد النبيّين والصديقين أرفع درجة منه.

وانظر بنور العقل والعلم إلى ما أفاضه وليّ الله الأعظم في كلامه هذا فإنَّ محاسنه ولطائفه فوق أن تحوم حولها العبارة[2].

وقد روى علم الهدى الشريف المرتضى في «**الغرر والدرر**» عن نافع عن أبي إسحاق الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود عن سيّد البشر ﷺ أنه قال: إنّ هذا القرآن

---

(١) في نسخة: بقراءة.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/٦٢٨، ووسائل الشيعة: ١٥/١٧١.

مأدبة الله، فتعلّموا مأدبته ما استطعتم، وإنّ أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى[1] **(المجلس ٢٦ منه، ص٣٥٤ ج١ من طبع مصر).**

قلت: تعبير القرآن بمأدبة الله تدرك حلاوته ولا توصف، قال الشريف علم الهدى: المأدبة في كلام العرب هي الطعام يصنعه الرَّجل ويدعو النّاس إليه، فشبّه النّبي ﷺ ما يكتسبه الإنسان من خير القرآن ونفعه وعائدته عليه إذا قرأه وحفظ، بما يناله المدعوّ من طعام الداعي وانتفاعه به، يقال: قد أدب الرَّجل يأدب فهو آدب إذا دعا الناس إلى طعامه، ويقال للمأدبة: المدعاة، وذكر الأحمر أنه يقال فيها أيضاً مأدبة بفتح الدال، وقد روى هذا الحديث بفتح الدال «مأدبة» وقال الأحمر: المراد بهذه اللفظة مع الفتح هو المراد بها مع الضم.

وقال غيره: المأدبة بفتح الدال مفعلة من الأدب، معناه أن الله تعالى أنزل القرآن أدباً للخلق وتقويماً لهم، وإنما دخلت الهاء في مأدُبة ومأدَبة والقرآن مذكر لمعنى المبالغة كما قالوا هذا شراب مطيبة للنفس. وكما قال عنترة: والكفر مخبثة لنفس المنعم، انتهى ما أردنا من نقل كلامه قدس سره.

فيا إخوان الصفاء هلمّوا إلى مأدبة إلهية فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين وإلى مأدبة ليس وراءها أدب ومؤدّب وماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال.

وفي **«فلاح السائل»** للسيّد الأجل ابن طاووس قدّس سرّه: فقد روى أنَّ مولانا الصّادق عليه السلام كان يتلو القرآن في صلاة فغشى عليه فلمّا أفاق سئل: ما الّذي أوجب ما انتهت حالك إليه؟ فقال عليه السلام ما معناه: ما زلت أُكرّر آيات القرآن حتّى بلغت إلى حال كأنّني سمعتها مشافهة ممّن أنزلها على المكاشفة والعيان، فلم تقم القوّة البشرية بمكاشفة الجلالة الإلهية[2].

واعلم أنَّ القرآن محيط لا نفاد له، كيف لا وهو مجلى الفيض الإلهي وقد تقدّم في الرسالة عن الإمامين الأوَّل والسادس عليهما السلام أن الله عزّ وجلّ تجلّى لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون. قال الطريحي رحمة الله عليه في مادّة جمع من **«مجمع البحرين»**: وفي الحديث أُعطيت جوامع الكلم، يريد به القرآن الكريم لأنَّ الله جمع بألفاظه اليسيرة المعاني الكثيرة حتّى روى عنه أنّه قال: ما من حرف من حروف القرآن إلاّ وله سبعون ألف معنى، انتهى.

وقلت: إذا كان شكل واحد هندسي يعرف عند أهله بالشكل القطّاع يفيد «٤٩٧٦٦٤»

---

(١) وسائل الشيعة: ٦/ ١٦٨ ح٧٦٤٨، وبحار الأنوار: ٨٩/ ١٩.

(٢) فلاح السائل: ١٠٨، وبحار الأنوار: ٤٧/ ٥٨ ح١٠٠.

أحكام هندسيّة كما برهن في محلّه فلا بعد أن يكون لكلّ حرف من القرآن سبعون ألف معنى. ويطلب الكلام في القطّاع في رسالتنا المعمولة في معرفة الوقت والقبلة.

يا عباد الرحمٰن! هذه آيات آخر الفرقان من القرآن الفرقان لا تلكها بين فكّيك بل تدبّر فيها حقّ التدبّر فإنَّ كلَّ آية منها دستور برأسه من عمل به فاز ونجا.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٧].

٢ ـ روى الديلمي رضوان الله عليه في الموضعين من كتابه **«إرشاد القلوب»** أحدهما في أواخر الباب الثالث عشر، وثانيهما في أواخر الباب العشرين عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: من أحدث ولم يتوضّأ فقد جفاني، ومن أحدث وتوضّأ ولم يصلّ ركعتين فقد جفاني، ومن صلى ركعتين ولم يدعني فقد جفاني ومن أحدث وتوضّأ وصلّى ركعتين ودعاني فلم أجبه فيما يسأل من أمر دينه ودنياه فقد جفوته ولست بربّ جافٍ[1].

واعلم يا حبيبي أنَّ الوضوء نور والدوام على الطهارة سبب لارتقائك إلى عالم القدس. وهذا الدستور العظيم النفع مجرّب عند أهله جدّاً فعليك بالمواظبة عليها ثمَّ عليك بعلوّ الهمّة وكبر النفس فإذا صليت الركعتين فلا تسأله تبارك وتعالى إلاّ ما لا يبيد ولا ينفد ولا يفنى فلا تطلب منه إلاّ إيّاه وليكن لسان حالك هكذا:

ما ازتو نداريم بغير ازتو تمنّا   حلوابكسى ده كه محبّت نچشيده است

(١) وسائل الشيعة: ١/ ٣٨٢ ح١٠١٠، وبحار الأنوار: ٧٧/ ٣٠٩.

فإنّ من ذاق حلاوة محبّته تعالى يجد دونها تفهاً، على أنّ ما يطلب ممّا سواه كلّ واحد منها مظهر اسم من أسمائه فإذا وجد الأصل كانت فروعه حاضرة عنده، وقلت في أبيات:

چرا زاهد اندر هواى بهشت است چرا بيخبر ازبهشت آفرين است؟!

وقال العارف المتألّه صدر الدين الدزفولي قدّس سرّه:

خدايا زاهد ازتو حورميخواهد قصورش بين بجنّت مى گريزد ازدرت يارب شعورش بين

فإذا صلّيت فقل ساجداً: اللهمّ ارزقني حلاوة ذكرك ولقائك، والحضور عندك ونحوها.

٣ ـ قال عزّ من قائل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] واعلم حبيبي أنَّ فضول الطعام يميت القلب بلا كلام، ويفضي إلى جموح النفس وطغيانها، والجوع من أجلّ خصال المؤمن، ونعم ما قال يحيى بن معاذ: لو تشفعت بملائكة سبع سماوات، وبمائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبيّ وبكلّ كتاب وحكمة وولّي على أن تصالحك النفس في ترك الدنيا والدخول تحت الطاعة لم تجبك، ولو تشفعت إليها بالجوع لأجابتك وانقادت لك، نقل قوله هذا أبو طالب المكيّ في «**علم القلوب**» ص٢١٥ من طبع مصر.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: إن البطن ليطغى من أكله، أقرب ما يكون العبد من ربّه عزّ وجلّ إذا خفّ بطنه، وأبغض ما يكون العبد إلى الله عزّ وجلّ إذا امتلأ بطنه[1].

٤ ـ إيّاك وفضول الكلام فقد روى شيخ الطائفة الناجية في أماليه بإسناده عن عبد الله بن دينار عن أبي عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسو القلب إنَّ أبعد النّاس من الله القلب القاسي[2]، وقد جعله الشّيخ قدّس سرّه الخبر الأوّل من كتابه «**الأمالي**» فلا بدَّ في عمله هذا من عناية خاصّة في ذلك، وقد رواه الكليني رضوان الله عليه في باب الصمت وحفظ اللسان من «**أصول الكافي**» (**ص٩٤ ج٢ من المعرب**) بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان المسيح عليه السلام يقول: لا تكثروا ـ إلى آخر الخبر.

٥ ـ وعليك بالمحاسبة، ففي باب محاسبة العمل من «**أصول الكافي**» (**ص٣٢٨ ج٢ من المعرب**) بإسناده عن أبي الحسن الماضي صلوات الله عليه ـ يعني الإمام الكاظم عليه السلام ـ قال:

---

(١) ميزان الحكمة: ١/ ٧٩، والكافي: ٦/ ٢٦٩ ح٤.

(٢) وسائل الشيعة: ١٢/ ١٩٤ ح١٦٠٦٤، وأصول الكافي: ٢/ ٩٤.

ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه[١].

وفي الفصل الخامس من الباب الثاني من «**مكارم الأخلاق**» في وصيّة رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري رحمة الله عليه: يا أبا ذر لا يكون الرّجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه: فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه أمن حلّ ذلك أم من حرام[٢]؟.

٦ ـ والمراقبة لله تعالى، وهي العمدة في الباب، وهي مفتاح كلّ سعادة ومجلبة كلّ خير وهي خروج العبد عن حوله وقوّته مراقباً لمواهب الحق ومتعرّضاً لنفحات ألطافه ومعرضاً عمّا سواه، ومستغرقاً في بحر هواه ومشتاقاً إلى لقائه، وإليه قلبه يحنّ ولديه روحه يئنّ وبه يستعين عليه ومنه يستعين إليه حتّى يفتح الله له باب رحمة لا ممسك لها ويغلق عليه باب عذاب لا مفتّح له بنور ساطع من رحمة الله تعالى على النفس به يزول عنها في لحظة ما لا يزول بثلاثين سنة بالمجاهدات والرياضات، يبدّل سيّئاتهم حسنات، للّذين أحسنوا الحسنى وزيادة والزيادة حسنات ألطاف الحق، وذلك فضل الله يؤتيه ما يشاء.

گدائى گردد ازيك جذبه شاهى   به يك لحظه دهد كوهى بكاهى

فعليك بالمراقبة، وعليك بالمراقبة، وعليك بالمراقبة، ففي الباب التاسع والثلاثين من «**إرشاد القلوب**» للديلمي رضوان الله عليه: قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٢]، وقال النبي ﷺ لبعض أصحابه: اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك[٣].

وهذا إشارة إلى المراقبة لأنّ المراقبة علم العبد باطلاع الرب عليه في كلّ حالاته وملاحظة الإنسان لهذا الحال هو المراقبة، وأعظم مصالح العبد استحضاره مع عدد أنفاسه أنّ الله تعالى عليه رقيب ومنه قريب، يعلم أفعاله ويرى حركاته ويسمع أقواله ويطلع على أسراره وأنه ينقلب في قبضته وناصيته وقلبه بيده وأنّه لا طاقة له على الستر عنه ولا على الخروج من سلطانه.

قال لقمان لابنه: يا بنيّ إذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكاناً لا يراك فيه، إشارة منه لأنّك لا تجد مكاناً لا يراك فيه فلا تعصه وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

---

(١) أصول الكافي: ٢/٣٢٨، وتحف العقول: ٣٩٦.

(٢) مسند الرضا: ١٢٨، ومكارم الأخلاق: ٤٦٨.

(٣) التوحيد: ٣٣٠، والأمالي: ٢٠٦.

وكان بعض العلماء يرفع شابّاً على تلاميذه كلّهم فلاموه في ذلك فأعطى كلَّ واحد منهم طيراً وقال: اذبحه في مكان لا يراك فيه أحد فجاؤوا كلّهم بطيورهم وقد ذبحوها فجاء الشاب بطيره وهو غير مذبوح، فقال له: لم لم تذبحه؟ فقال: لقولك لا تذبحه إلاّ في موضع لا يراك فيه أحد، ولا يكون مكان إلاّ يراني الواحد الأحد الفرد الصمد، فقال له: أحسنت، ثمَّ قال لهم: لهذا رفعته عليكم وميزته منكم.

ومن علامات المراقبة إيثار ما آثر الله وتعظيم ما أعظم الله وتصغير ما صغّر الله فالرجاء يحثّك على الطاعات والخوف يبعد عن المعاصي، والمراقبة تؤدّي إلى طريق الحياء وتحمل على ملازمة الحقائق والمحاسبة على الدقائق، وأفضل الطاعات مراقبة الحقّ سبحانه وتعالى على دوام الأوقات.

ومن سعادة المرء أن يلزم نفسه المحاسبة والمراقبة وسياسية نفسه باطلاع الله ومشاهدته لها، وأنّها لا تغيب عن نظره ولا تخرج عن علمه، انتهى كلامه قدّس سرّه.

قلت: ومن آداب المراقب أن يراقب أعمال الأوقات من الشهور والأيّام بل الساعات بل يواظب أن لا يهمل الأنات ويكون على الدوام متعرضاً لنفحات أُنسه ونسائم قدسه كما قال ﷺ: إنَّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها ولا تعرضوا عنها[(١)]، وللعلم الآية المرزا جواد آقا الملكي التبريزي قدّس سرّه الشريف كتاب في مراقبات أعمال السنة وهو من أحسن ما صنع في هذا الأمر، فعليك بالكتاب.

وفي خاتمة «**إرشاد القلوب**» فيما سأل رسول الله ﷺ ربّه ليلة المعراج: يا أحمد هل تدري أيّ عيش أهنى وأيّ حياة أبقى؟ قال: اللهمَّ لا، قال: أمّا العيش الهنيء فهو الّذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقّي يطلب رضاي ليله ونهاره[(٢)].

وأمّا الحياة الباقية فهي الّتي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدُّنيا، وتصغر في عينيه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه، ويبتغي مرضاتي، ويعظم حقّ عظمتي، ويذكر علمي به ويراقبني بالليل والنهار كلّ سيئة ومعصية، وينفي قلبه عن كلّ ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّاً حتّى أجعل قلبه لي وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة الّتي أنعمت بها على أهل محبّتي من خلقي، وأفتح عين قلبه وسمعه حتّى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي

---

(١) تفسير الميزان: ٦/ ١٧٦، وميزان الحكمة: ٣/ ١٨٨٣.

(٢) بحار الأنوار: ٧٤/ ٢٨، ومستدرك سفينة البحار: ٧/ ٥٠٨.

وأضيق عليه الدنيا، وأبغض إليه ما فيها من اللّذات، وأحذره من الدُّنيا وما فيها كما يحذر الراعي غنمه من مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفرّ من النّاس فراراً وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار الشيطان إلى دار الرحمٰن، يا أحمد لأُزيّنه بالهيبة والعظمة فهذا هو العيش الهنيّ والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين.

فمن عمل برضاي أُلزمه ثلاث خصال: أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين، فإذا أحبّني أحببته وأفتح عين قلبه إلى جلالي فلا أخفي عليه خاصّة خلقي، فأُناجيه في ظلم اللّيل ونور النهار حتّى ينقطع حديثه من المخلوقين ومجالستهم معهم، وأُسمعه كلامه وكلام ملائكتي، وأُعرّفه السرّ الّذي سترته عن خلقي وأُلبسه الحياء حتّى يستحيي منه الخلق كلّهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، واجعل قلبه واعياً وبصيراً ولا يخفى عليه شيء من جنّة ولا نار، وأعرّفه بما يمرّ على الناس في يوم القيامة من الهول والشدّة وما أُحاسب به الأغنياء والفقراء والجهّال والعلماء وأُنوّر في قبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتّى يسألاه ولا يرى غمّ الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطلع حتى أنصب له ميزانه وانشر له ديوانه ثمّ أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشوراً ثمّ لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبّين[١]، الحديث.

فتأمّل يا مريد الطريق إلى الله تعالى في قوله عزّ وجلّ لحبيبه خاتم النبيين من الجوائز الكريمة الّتي أعدّها للمراقبين والراضين والمحبّين ومن تلك المواهب الجزيلة والعطايا النفيسة العزيزة اليتيمة الثمينة فتح عين القلب وقد ذكرها لعظم شرفها وعلوّ رتبتها مرّتين.

ونظير تلك المنح السنيّة ما وعد عباده في النوافل والفرائض من القرب حيث قال تعالى: وما يتقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ ممّا افترضت عليه، وإنه ليتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به وبصره الّذي يبصر به، ولسانه الّذي ينطق به، ويده الّذي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته.

نقله العلاّمة الشّيخ البهائي في كتاب «**الأربعين**»، وهو الحديث الخامس والثلاثون منه، بإسناده عن أبان بن تغلب عن الإمام جعفر بن محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: لما أسري بالنبي صلى الله عليه وآله قال: يا رب ما حال المؤمن عندك؟ قال: يا محمد ـ إلى قوله: وما يتقرَّب إليّ عبدي ـ الخ وقال ـ قدس سره ـ: وهذا الحديث صحيح السند وهو من الأحاديث المشهورة بين الخاصّة والعامّة وقد رووه في صحاحهم بأدنى تغيير، فراجع إليه[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٢٩، والذريعة: ٧/ ٢٠٠.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٥٢ ح٨ وشرح أصول الكافي: ٩/ ٤٢٨ ح٨.

وقد رواه ثقة الإسلام الكليني قدّس سرّه في باب من أذى المسلمين واحتقرهم من أبواب الإيمان والكفر (**ص٢٦٣ ج٢ من المعرب**) بطريقين، وروى فيه حديثاً ثالثاً يقرب منهما معنى، هذا قرب النوافل الّذي يدور في ألسنة القوم أي القرب الّذي يحصل للعبد من النوافل، وأما قرب الفرائض فقال عزّ وجلّ ما يتقرَّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه وما زال يتقرَّب إليَّ عبدي بالفرائض حتّى إذا ما أُحبّه وإذا أحببته كان سمعي الّذي أسمع به، وبصري الّذي أبصر به، ويدي الّذي أبطش بها.

فانظر إلى تفاوت القربين ففي الأوَّل كان الله سمع العبد وبصره ولسانه ويده، وفي الثاني كان العبد سمع الله تعالى وبصره ويده، فالواجبات أكثر ثواباً وأعلى مرتبة من المندوبات بتلك النسبة بين القربين.

قال العلاّمة المحقّق نصير الدين محمد الطوسي قدّس الله سرّه: العارف إذا انقطع عن نفسه واتّصل بالحقّ رأى كلَّ قدرة مستغرقة في قدرته المتعلقة بجميع المقدورات، وكلّ علم مستغرقاً في علمه الذي لا يعزب عنه شيء من الموجودات وكلّ إرادة مستغرقة في إرادته الّتي لا يتأبّى عنها شيء من الممكنات، بل كلّ وجود وكلّ كمال وجود فهو صادر عنه، فائض من لدنه فصار الحق حينئذ بصره الّذي به يبصر، وسمعه الّذي به يسمع، وقدرته الّتي بها يفعل، وعلمه الّذي به يعلم، ووجوده الّذي به يوجد، فصار العارف حينئذ متخلقاً بأخلاق الله بالحقيقة.

نقلنا كلامه من الرابعة من «قرّة العيون» للفيض رضوان الله عليه وفي الثالثة من السابعة من ذلك الكتاب:

قال بعض العارفين: إذا تجلّى الله سبحانه بذاته لأحد يرى كلّ الذوات والصفات والأفعال متلاشية في أشعّة ذاته وصفاته وأفعاله يجد نفسه مع جميع المخلوقات كأنّها مدبّرة لها وهي أعضاؤها لا يلمّ بواحد منها شيء إلاّ ويراه ملماً به، ويرى ذاته الذات الواحدة وصفته صفتها وفعله فعلها لاستهلاكه بالكليّة في عين التوحيد، ولمّا انجذبت بصيرة الروح إلى مشاهدة جمال الذات استتر نور العقل الفارق بين الأشياء في غلبة نور الذات القديمة وارتفع التمييز بين القدم والحدوث لزهوق الباطل عند مجيء الحق، ويسمّى هذه الحالة جمعاً، ولصاحب الجمع أن يضيف إلى نفسه كلّ أثر ظهر في الوجود وكلّ صفة وفعل واسم لانحصار الكلّ عنده في ذات واحدة فتارة يحكى عن هذا وتارة عن حال ذاك ولا نعني بقولنا قال فلان بلسان الجمع إلاّ هذا.

عشق بگرفت مرا ازمن وبنشست بجاى سيئآتم ستدند وحسناتم دادند

ثمّ قال الفيض بعد نقل كلام هذا العارف: ولعلّ هذا هو السرّ في صدور بعض

الكلمات الغريبة من مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة البيان وغيرها كقوله عليه السلام: أنا آدم الأوّل، أنا نوح الأوّل، أنا آية الجبار، أنا حقيقة الأسرار، أنا مورق الأشجار، أنا مونع الثمار، أنا مجري الأنهار ـ إلى أن قال عليه السلام: أنا ذلك النور الّذي اقتبس موسى منه الهدى، أنا صاحب الصور، أنا مخرج من في القبور أنا صاحب يوم النشور، أنا صاحب نوح ومنجيه، أنا صاحب أيوب المبتلى وشافيه أنا أقمت السماوات بأمر ربّي[1] ـ إلى آخر ما قال من أمثال ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أجاد في المقام العالم العارف الشهير داود بن محمود القيصري في الفصل الثامن من مقدّماته على «**شرح فصوص الحكم**» في أنّ العالم هو صورة الحقيقة الإنسانية بقوله: إنّ الاسم (الله) مشتمل على جميع الأسماء وهو متجلّ فيها بحسب مراتبه فلهذا الاسم الإلهي بالنسبة إلى غيره من الأسماء اعتباران: اعتبار ظهور ذاته في كلّ واحد من الأسماء، واعتبار اشتماله عليها كلّها من حيث المرتبة الإلهية.

فبالأوّل تكون مظاهرها كلّها مظهر هذا الاسم الأعظم لأنّ الظاهر والمظهر في الوجود شيء واحد لا كثرة فيه ولا تعدّد وفي العقل يمتاز كلّ منهما عن الآخر كما يقول أهل النظر بأنّ الوجود عين المهية في الخارج وغيره في العقل فيكون اشتماله عليها اشتمال الحقيقة الواحدة على أفرادها المتنوّعة.

وبالثاني يكون مشتملاً عليها من حيث المرتبة الإلهيّة اشتمال الكلّ المجموعي على الأجزاء الّتي هي عينه بالاعتبار الأوّل.

وإذا علمت هذا علمت أنَّ حقائق العالم في العلم والعين كلّها مظاهر للحقيقة الإنسانية التي هي مظهر للاسم (الله) فأرواحها أيضاً كلّها جزئيات الروح الأعظم الإنساني سواء كان روحاً فلكيّاً أو عنصرياً أو حيوانياً وصورها صور تلك الحقيقة ولوازمها لوازمها لذلك يسمى العالم المفصّل بالإنسان الكبير عند أهل الله لظهور الحقيقة الإنسانيّة ولوازمها فيه، ولهذا الاشتمال وظهور الأسرار الإلهيّة كلّها فيها دون غيرها استحقّت الخلافة من بين الحقائق كلّها ولله درُّ القائل: سبحان من أظهر ناسوته ـ إلى آخر البيتين المذكورين آنفاً.

فأوّل ظهورها في صورة العقل الأوّل الّذي هو صورة إجمالية للمرتبة العمائيّة المشار إليها في الحديث الصحيح عند سؤال الأعرابي: أين كان ربّنا قبل أن يخلق الخلق؟ قال عليه السلام: كان في عماء ما فوقه هواء ولا تحته هواء، لذلك قال عليه السلام: أوّل ما خلق الله نوري، وأراد العقل كما أيّده بقوله: أوّل ما خلق الله العقل ثمَّ في صورة باقي العقول والنفوس الناطقة

(١) تفسير نور الثقلين: ٤/ ٤٩٥ ح٩٢.

الفلكية وغيرها، وفي صورة الطبيعة والهيو الكلّية والصورة الجسميّة البسيطة والمركبة بأجمعها.

ويؤيّد ما ذكرنا قول أمير المؤمنين وليّ الله في الأرضين قطب الموحّدين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في خطبة كان يخطبها للناس: أنا نقطة باء بسم الله، أنا جنب الله الّذي فرطتم فيه، وأنا القلم، وأنا اللّوح المحفوظ، وأنا العرش، وأنا الكرسي، وأنا السماوات السّبع والأرضون، إلى أن صحا في أثناء الخطبة وارتفع عنه حكم تجلّي الوحدة ورجع إلى عالم البشريّة، وتجلّى له الحقّ بحكم الكثرة فشرع معتذراً فأقرّ بعبوديّته وضعفه وانقهاره تحت أحكام الأسماء الإلهية.

ولذلك قيل: الإنسان الكامل لا بدَّ أن يسري في جميع الموجودات كسريان الحق فيها، وذلك في السفر الثالث الّذي من الحق أن الخلق بالحق، وعند هذا السفر يتمّ كماله وبه يحصل له حق اليقين.

ومن ههنا يتبين أنّ الآخريّة هي عين الأوّليّة، ويظهر سرُّ هو الأوَّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلِّ شيء عليم.

قال الشّيخ رضي الله عنه في فتوحاته في بيان المقام القطبي: إنّ الكامل الّذي أراد الله أن يكون قطب العالم وخليفة الله فيه إذا وصل إلى العناصر مثلاً متنزلاً في السفر الثالث ينبغي أن يشاهد جميع ما يريد أن يدخل في الوجود من الأفراد الإنسانية إلى يوم القيامة وبذلك الشهود أيضاً لا يستحق المقام حتّى يعلم مراتبهم أيضاً فسبحان من دبّر كلّ شيء بحكمته، وأتقن كلّ ما صنع برحمته، انتهى كلام القيصري.

٧ ـ الأدب مع الله تعالى في كلّ حال، وقد كان بعض مشايخي وهو العالم المتنزّه المتألّه والحكيم العارف الموّحد البارع الآية السيّد محمد حسن القاضي الطباطبائي التبريزي الشهير بالإلهي أعلى الله تعالى مقاماته ورفع درجاته وجزاه عنّي خير جزاء المعلّمين كثيراً ما يوصيني فيما يوصي بالمراقبة لله تعالى، والأدب معه، ومحاسبة النفس لاسيما بالأولى منها، ولا أنسى نفحات أنفاسه الشريفة وبركات فيوضاته المنيفة.

قال عيسى روح الله وكلمته عليه السلام: لا تقولوا العلم في السماء من يصعد فيأتي به، ولا في تخوم الأرض من ينزل فيأتي به، العلم مجهول في قلوبكم تأدّبوا بين يدي الله بآداب الروحانيين، وتخلّقوا بأخلاق الصديقين، يظهر من قلوبكم حتّى يعطيكم ويغمركم[١].

---

(١) فيض القدير: ٤/٥١٠ ح٥٧١١.

قال الإمام الجواد عليه السلام كما في الباب ٤٩ من «**إرشاد القلوب**» للديلمي في الأدب مع الله تعالى: ما اجتمع رجلان إلاّ كان أفضلهما عند الله آدبهما، فقيل: يا ابن رسول الله قد عرفنا فضله عند الناس فما فضله عند الله؟ فقال: بقراءة القرآن كما أُنزل - ويروى حديثنا كما قلنا - ويدعو الله مغرماً[1].

وفي ذلك الباب: قد روي أنَّ الله تعالى يقول في بعض كتبه: عبدي أمن الجميل أن تناجيني وتلتفت يميناً وشمالاً ويكلّمك عبد مثلك تلتفت إليه وتدعني؟ وترى من أدبك إذا كنت تحدث أخا لك لا تلتفت إلى غيره فتعطيه من الأدب ما لم تعطني فبئس العبد عبد يكون كذلك.

وفيه أيضاً: روي أنَّ النبي صلى الله عليه وآله خرج إلى غنم له وراعيها عريان يفلي ثيابه فلمّا رآه مقبلاً لبسها، فقال النبي صلى الله عليه وآله: امض فلا حاجة لنا في رعايتك، فقال: إنا أهل بيت لا نستخدم من لا يتأدّب مع الله ولا يستحي منه في خلوته.

والأدب مع الله بالاقتداء بآدابه وآداب نبيه صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وهو العمل بطاعته والحمد لله على السرّاء والضّراء والصبر على البلاء، ولهذا قال أيوب: ﴿رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]. فقد تأدّب هنا من وجهين، أحدهما أنه لم يقل أنك امسستني بالضّر، والآخر لم يقل ارحمني بل عرض تعريضاً فقال: وأنت أرحم الراحمين، وإنما فعل ذلك حفظاً لمرتبة الصبر.

وكذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠]، ولم يقل إذا مرضتني حفظاً للأدب.

وقال أيوب عليه السلام في موضع آخر: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١]، أشار بذلك إلى الشيطان لأنّه كان يغري النّاس فيؤذونه وكل ذلك تأدُّب منهم مع الله تعالى في مخاطبتهم.

قلت: وتأدّب آدم وزوجه عليهما السلام بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، وترك إبليس الأدب معه تعالى بقوله: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦].

٨ - والعزلة، قال الإمام الصادق عليه السلام: صاحب العزلة متحصّن بحصن الله تعالى ومتحرّس بحراسته، فيا طوبى لمن تفرّد به سراً وعلانيّة، وفي العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسلامة العيش وكسر سلاح الشيطان والمجانبة من كلّ سوء وراحة، وما من نبيّ ولا

---

(١) موسوعة الإمام الجواد: ٢/٢١٧ ح١.

وصيّ إلاّ واختار العزلة في زمانه إما في ابتدائه وإما في انتهائه[١] ـ نقلناه من **«مصباح الشريعة»**.

وفي **«كشكول»** العلاّمة البهائي **(ص١٥٥ من طبع نجم الدولة)** عن سفيان الثوري قال: سمعت الصّادق جعفر بن محمد يقول: عزّت السلامة حتّى لقد خفي مطلبها فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن لم توجد في الخمول فيوشك أن تكون في التخلّي وليس كالخمول، وإن لم تكن في التخلّي فيوشك أن تكون في الصمت وليس كالتخلّي، وإن لم توجد في الصمت فيوشك أن تكون في كلام السلف الصالح، والسعيد من وجد في نفسه خلوة[٢].

وتأمّل في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٦، ١٧]، والعزلة هي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع وأصلها عزل الحواس بالخلوة عن التصرف في المحسوسات، فإنّ كل آفة وفتنة وبلاء ابتلى الروح بها دخلت فيه بروازن الحواس، فبالخلوة وعزل الحواس ينقطع مدد النفس عن الدنيا والشيطان وإعانة الهوى والشيطان.

٩ ـ والتهجّد، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٩ ـ ٨٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذّاريات: ١٥ ـ ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمّل: ١ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٥ ـ ٢٨].

وروى الشّيخ الصدوق قدّس سرّه في باب معنى التوحيد والعدل من كتاب **«التوحيد» (ص٨٤)** عن سلمان الفارسي رحمه الله تعالى إنّه أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله إني لا أقوى على الصلاة بالليل، فقال: لا تعص الله بالنهار، وفيه أيضاً: جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام

(١) مستدرك الوسائل: ١١/ ٣٩٠، ونهج السعادة: ٨/ ١٠٤.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥/ ٢٠٣، ونهج السعادة: ٨/ ٤٥.

فقال: يا أمير المؤمنين إنّي قد حرمت الصلاة بالليل، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: أنت رجل قد قيّدتك ذنوبك[١].

وروى الكليني ـ قدس سره ـ في باب الذنوب من كتاب «**الإيمان والكفر**» (**ص٢٩٠ ج٢ من المعرب**) بإسناده عن ابن بكير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وإنّ العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم[٢].

روى الشيخ الصدوق رضوان الله عليه في «**الأمالي**» بإسناده عن المفضل قال: سمعت مولاي الصادق عليه السلام يقول: كان فيما ناجى الله عزّ وجلّ به موسى بن عمران أن قال له: يا ابن عمران كذب من زعم أنه يحبّني فإذا جنّه الليل نام عنّي أليس كلّ محبّ يحبّ خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا يا ابن عمران مطّلع على أحبّائي إذا جنّهم الليل حوّلت أبصارهم من قلوبهم، ومثّلت عقوبتي بين أعينهم يخاطبوني عن المشاهدة ويكلّموني عن الحضور، يا ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك[٣] الدّموع في ظلم الليل وادعني فإنك تجدني قريباً مجيباً[٤].

١٠ ـ والتفكّر، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢﴾ [آل عِمرَان: ١٩٢]، وروى الكليني في «**الكافي**» (**ج٢ ص٤٥ من المعرب**) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته، وروى عن معمّر بن خلاّد قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ[٥].

وروى عن ربعي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: إنّ التفكّر يدعو إلى البرّ والعمل به[٦].

وروى العلاّمة البهائي في الحديث الثاني من كتابه «**الأربعين**» بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام، وبطنه من الطعام، وعنى نفسه بالصيام والقيام، قالوا: بآبائنا وأُمّهاتنا يا رسول الله هؤلاء أولياء الله؟ قال: إنّ أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم فكراً، وتكلّموا فكان كلامهم ذكراً، ونظروا فكان

(١) الكافي: ٣/ ٤٥٠ ح٣٤، وعلل الشرائع: ٢/ ٣٦٢.
(٢) المحاسن: ١/ ١١٥ ح١١٩، والكافي: ٢/ ٢٧٢ ح١٦.
(٣) في نسخة: عينك.
(٤) الأمالي: ٤٣٨ ح٥٧٧، وروضة الواعظين: ٣٢٩.
(٥) تحف العقول: ٤٨٨، ووسائل الشيعة: ١٥/ ١٩٦ ح٢٠٢٦٠.
(٦) الكافي: ٢/ ٥٥ ح٥، ووسائل الشيعة: ١٥/ ١٩٦ ح٢٠٢٦٢.

نظرهم عبرة، ونطقوا فكان نطقهم حكمة، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة، لولا الآجال الّتي قد كتبت عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العذاب وشوقاً إلى الثواب[١]، ورواه ثقة الإسلام الكليني في «**الكافي**» بأدنى تفاوت (**الحديث ٢٥ من باب المؤمن وعلاماته وصفاته من كتاب الإيمان والكفر: ص١٨٦ ج٢**).

١١ ـ وذكر الله تعالى في كل حال قلباً ولساناً قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وروى عن النبي ﷺ قال: ارتعوا في رياض الجنّة، فقالوا: وما رياض الجنّة؟ فقال: الذكر غدوّاً ورواحاً فاذكروا، ومن كان يحبّ أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإنَّ الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل الله العبد من نفسه، ألا إنَّ خير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها عند ربّكم في درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله سبحانه وتعالى، أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني، وأيّ منزلة أرفع من منزلة جليس الله تعالى[٢]: (**الباب الثالث عشر من إرشاد القلوب للديلمي**).

وفي كتاب الدُّعاء من «**الكافي**»: فيما ناجى الله تعالى به موسى عليه السلام قال: يا موسى لا تنسني على كلّ حال فإنَّ نسياني يميت القلب (**ص٣٦١ ج٢**).

وفيه أيضاً: قال الله عزَّ وجلَّ لعيسى عليه السلام: يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي واذكرني في ملاك[٣] اذكرك في ملإ خير من ملإ الآدميّين يا عيسى ألن لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أنَّ سروري أن تبصبص إليَّ وكن في ذلك حيّاً ولا تكن ميّتاً (**ص٣٦٤ ج٢**).

وفي الباب الأوّل من توحيد الصّدوق رحمة الله عليه: قال رسول الله ﷺ: ما قلت ولا قال القائلون قبلي مثل لا إله إلاّ الله.

وفيه أيضاً قال رسول الله ﷺ: خير العبادة قول لا إله إلاّ الله.

وفيه أيضاً قال أبو عبد الله عليه السلام: قول لا إله إلاّ الله ثمن الجنّة.

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٧٧ ح٢٥، والأمالي ٣٨٠.
(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ١٦٢ ح٩٠١٢، وعدة الداعي: ٢٣٨.
(٣) في نسخة: ملئي.

وفيه أيضاً قال رسول الله ﷺ: يقول الله جلّ جلاله: لا إله إلاّ الله حصني فمن دخله أمن من عذابي.

وفيه أيضاً عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ، وكذا بإسناده عن محمد بن حمران، عن أبي عبد الله عليه السلام: من قال لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنّة وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلاّ الله عمّا حرّم الله عزَّ وجلّ[(١)].

والذكر هو الخروج عن ذكر ما سوى الله بالنسيان عن غيره، وكلمة لا إله إلاّ الله ذكر معجون مركّب من النفي والإثبات، فبالنفي تزول الموادة الفاسدة الّتي يتولّد منها مرض القلب وقيود الروح، وبإثبات إلاّ الله تحصل صحّة القلب وسلامته عن الرذائل من الأخلاق.

١٢ ـ والرياضة في طريقي العلم والعمل على النهج الّذي قرّرته الشريعة المحمّدية ﷺ فحسب، فدونها لا يوجب إلاّ بعداً وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال لما قد دريت آنفاً أنَّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم، واعلم أنَّ العلم والعمل بمنزلة جناحين للإنسان ولولاهما لم يقدر على الطيران إلى أوج الكمال والعروج إلى المعارج.

والنفس بالاعتبار الأوّل تسمّى نظرية وبالاعتبار الثاني عمليّة توضيحه أنّ لها باعتبار تأثرها عمّا فوقها من المبادىء باستفاضتها عنها ما تتكّمل به من التعقلات قوّة تسمّى نظرية، ولها أربع مراتب، وأنّ لها باعتبار تأثيرها في البدن لتفيد جوهره كمالاً تأثيراً اختيارياً قوّة أُخرى تسمّى عمليّة ولها أيضاً أربع مراتب، على أنَّ هذا الكمال الّذي يحصل للبدن بسببها في الحقيقة يعود إليها لأنّ البدن آلة لها في تحصيل العلم والعمل.

أما مراتب القوّة النظرية فلأنّ النفس في مبدأ الفطرة خالية عن العلوم كلّها لكنّها مستعدّة لها وإلاّ لامتنع اتصافها بها وحينئذ تسمّى عقلاً هيولانياً تشبيهاً لها بالهيولي الخالية في نفسها عن جميع الصور القابلة إيّاها، ثمَّ إذا استعملت آلاتها أعني الحواسّ الظاهرة والباطنة حصل لها علوم أوّلية واستعدّت لاكتساب النظريات وحينئذ تسمّى عقلاً بالملكة لأنّها حصلت لها بسبب تلك الأوليات ملكة الانتقال إلى النظريات. ثمَّ رتّبت العلوم الأولية وأدركت النظريات وحصلت لها ملكة الاستحضار بحيث تستحضرها متى شاءت من غير كسب جديد لأجل تكرار الاكتساب لكن لا تشاهدها بالفعل بل صارت مخزونة عندها فهو العقل بالفعل لحصول قدرة الاستحضار للنفس بالفعل وإذا استحضرت العلوم مشاهدة إيّاها تسمّى عقلاً مستفاداً لأنّ النفس الإنسانيّة في آخر المراتب تصير عقلاً لكن لا فعّالاً للكمالات بل عقلاً منفعلاً بحسب قبول الكمالات من العقل الفعّال.

---

(١) التوحيد: ٢٧ ح٢٦، وثواب الأعمال: ٥.

وأما مراتب القوّة العمليّة فأولها: تهذيب الظاهر باستعمال الشرائع النبّوية والنواميس الإلهيّة، وهذه المرتبة تسمّى عندهم التجلية ـ بالجيم، وبعبارة واضحة التجلية أن تورد النفس قواها وأعضائها بالمراقبة الكاملة تحت انقياد الأحكام الشرعيّة والنواميس الإلهية وإطاعتها فتطيع أوامر الشرع وتجتنب عن المناهي حتّى يظهر آثار الطهارة الظاهرية في الظاهر أعني البدن، ويحصل للنفس أيضاً على التدريج ملكة التسليم والانقياد للسلوك إلى طريق الحق تعالى والمتكفّل لحصول هذه المرتبة هو علم الفقه على الطريقة الحقّة الجعفريّة ليس إلاّ.

وثانيها: تهذيب الباطن عن الملكات الرديئة ونفض آثار شواغله عن عالم الغيب وتسمّى هذه المرتبة التخلية بالخاء، وبعبارة أُخرى التّخلية أن يعرض النفس عن المضار الاجتماعية والانفرادية ومفاسدهما يحذر من عواقبهما الوخيمة دنيوية وأُخرويّة كالحسد والحرص والكبر والعجب وغيرها من الأخلاق الرذيلة المبيّنة في الكتب الأخلاقيّة، ورفض تلك الرذائل عن النفس بمنزلة علاج البدن من الأمراض الجسمانية، وشرب المسهل والدواء لقلعها فكما أنَّ الجسم ما كان مريضاً لم ينفعه غذاء طيب مقوّ وعلى الطبيب أن يداوي الجسم ويعالجه أوّلاً ثمَّ يقوّيه بالأغذية المقويّة كذلك الأمراض الروحيّة أعني تلك الرذائل الأخلاقيّة ما لم يقلع من النفس ولم يسلم النفس منها لم تنفعه الملكات الفاضلة.

وثالثها: ما يحصل بعد اتصالها بعالم الغيب وهو تحلّي النفس بالصور القدسية وتسمّى هذه المرتبة التّحلية بالحاء المهملة، وبعبارة أخرى التّحلية أن تتحلّى النفس بعد حصول التخلية بحليّ الأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة الجميلة ممّا هي في نظام الاجتماع ورشد الفرد وتكامله مؤثر جدّاً فالتحلية طهارة معنوية وما لم تتحقّق هذه الطهارة للإنسان فهو ليس بطاهر حقيقة وإن كان ظاهره متّصفاً بالطهارة واتّصاف النّفس بها منزلة تقوية المريض بالأغذية المقويّة بعد خلاصه من الأمراض.

ورابعتها: ما يتجلّى له عقيب ملكة الاتصال والانفصال عن نفسه بالكليّة وهو ملاحظة جمال الله وجلاله وقصر النظر على كماله حتى يرى كل قدرة مضمحلة جنب قدرته الكاملة، وكل علم مستغرقاً في علمه الشامل بل كلّ وجود فائضاً من جنابه، وتسمّى هذه المرتبة بالفناء في الحق، رزقنا الله وجميع المؤمنين تلك النعمة العظمى وبلغنا إلى تلك الغاية القصوى، وله أيضاً ثلاث مراتب: محو وطمس ومحق، المحو: فناء أفعال العبد في فعل الحق، والطمس: فناء صفاته في صفات الحق، والمحق: فناء وجوده في ذات الحق، ففي الأوَّل لا يرى في الوجود فعلاً لشيء إلاّ للحق، وفي الثاني لا يرى لشيء من الوجود صفة إلاّ للحقّ، وفي الثالث لا يرى وجوداً لشيء إلاّ للحق، والفناء قسمان: فناء استهلاك كفناء أنوار الكواكب في نور الشمس، وحينئذ تبقى عين الفاني وذاته ويرتفع حكم إنّيته، وفناء الهلاك

كفناء الأمواج عند سكون البحر، وحينئذ يزول الفاني وترتفع عينه ولا يبقى أثره.

ونزيدك بياناً ونقول: غبّ ما حصلت المراتب الثلاثة التجلية والتخلية والتحلية للسالك تحصل له ببركة الطهارة والصفاء، جاذبة المحبّة والعشق إلى جناب الحق جلّ جلاله فتصير محبّاً لما هو كمال له حقيقة من الحضور دائماً عنده تعالى وعبادته والخلوة معه والأُنس به، وذكره قلباً ولساناً، فتوجب تلك الأحوال تشديد المحبّة تدريجاً واشتعال نار المحبّة يسيراً يسيراً حتى يذهل عن نفسه ولا يرى إلاّ هو، ويبلغ بحق اليقين إلى أنّه تعالى هو الأوَّل والآخر والظّاهر والباطن، وإلى أنه هو الظاهر لا غير، وأنَّ الظاهر هو لا غير، وإلى أنَّ الباطن هو الظاهر، وأنَّ الأوَّل هو الآخر والآخر هو الأوَّل، والكلّ تحت اسم الظاهر تدويناً وتكويناً لفظاً وعيناً، وهذه الحالة للعارف تسمّى بالفناء في الله، فالفناء ملاحظة جمال الله وجلاله وقصر النظر على كماله.

وللفناء ثلاث درجات: الأولى، الفناء في الأفعال فيرى العارف في هذه الدرجة المؤثّرات، والمبادي والأسباب والعلل من المجرّدات والماديات ومن الطبيعيّات والإراديات باطلة بلا أثر، ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل، ولا يرى مؤثّراً إلاّ الحقّ جل جلاله ولا يرى قدرة عاملة ولا إرادة نافذة في الكائنات إلاّ قدرته وإرادته، فيشهد ذاتاً غير متناهية، وإرادة وقدرة غير متناهيتين حاكمة على الجميع، وعنت الوجود للحيّ القيّوم، فيرى بعين الشهود بلا شوب ريب حقيقة الكريمة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾، فيكون لسان حاله مترنّماً بمقال لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، بلا شائبة خيال ووهم بل بعين بصيرة وقلب مستيقظ نبيه، وفي هذا المقام يحصل له اليأس عمّا سواه تعالى والرجاء الواثق التامّ إليه تعالى، ويساوي عنده بل يتّحد قدرة أعظم ملوك الأرض وقدرة أخسّ ذوي النفوس كالبقّ مثلاً، وهذه الدرجة تسمّى بالمحو وإليه أشار صاحب المثنوي بقوله:

أين سببها بر نظرها پردهها است	كه نه هرديدارصنعش را سزااست
ديده اي بايد سبب سوراخ كن	تاحجب را بركند از بيخ و بن
تا مسبب بيند اندر لا مكان	هرزه بيند جهدو أسباب دكان

والثانية: الفناء في الصفات، فيرى العارف في هذه الدرجة جميع أسمائه تعالى وصفاته من صفات اللطف كالرحمٰن والرّحيم والرّازق والمنعم، وصفات القهر كالقهّار والمنتقم مستهلكة في غيب الذات الأحديّة، ولا يرى إلاّ الذات الأحديّة ولا يرى تعيّناً، وحينئذ يرتفع اختلاف المظاهر كالجبرئيل والعزرائيل وموسى وفرعون من عين صاحب هذا المقام، ويتّحد عنده ولا يتفاوت له اللطف والقهر والبسط والغضب والعطاء والمنع والجنّة والنّار والصحّة والمرض والفقر والغنى والعزّة والذلّة، وإلى هذه المرحلة أشار العارف المصقع بقوله:

گروعده دوزخ است وياخلدغم مدار بيرون نمى برند تورا ازديار دوست

وهذه الدرجة تسمّى بالطمس.

واعلم أنّ صفاته تعالى إما إيجابيّة وإما سلبيّة، ويقال لنعوته الإيجابيّة لكونها وجودية جماله تعالى، ولنعوته السلبيّة صفات الجلال لتجليله بأنّه المترفّع عن التركيب والجوهرية والعرضيّة والجسمية ويقال: إنّه ليس بمركب وليس بعرض وليس بجسم وليس له ماهية ونحوها فلزم أن لا يكون مرئياً ومشاهداً بل ولا مدركاً ولذا نسب الاحتجاب إلى صفة الجلال كما قيل:

جمالك في كلّ الحقائق سائر وليس له إلاّ جلالك ساتر

وقال المتأله السبزواري قدّس سرّه:

پرده ندارد جمال غير صفت جلال نيست براين رخ نقاب نيست براين مغرپوست

والصفات الجمالية والجلاليّة تُقال بمعنى آخر أيضاً، قال القيصري في الفصل الثاني من مقدماته على «**شرح الفصوص**»: إنّ ذاته تعالى اقتضت بحسب مراتب الألوهيّة والربوبيّة صفات متعددة متقابلة كاللطف والقهر والرحمة والغضب والرضا والسخط وغيرها وتجمعها النعوت الجمالية والجلالية إذ كلّ ما يتعلق باللطف فهو الجمال، وما يتعلق بالقهر فهو الجلال.

ولكلّ جمال أيضاً جلال كالهيمان الحاصل من الجمال الإلهي فإنه عبارة عن انقهار العقل منه وتحيّره فيه، ولكلّ جلال جمال وهو اللطف المستور في القهر الإلهي كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٩] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: سبحان من اتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته، واشتدّت نقمته لأعدائه في سعة رحمته، ومن هنا يعلم سرُّ قوله عليه السلام: حفّت الجنّة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات[1]، انتهى كلام القيصري.

والثالثة: الفناء في الذت، والعارف في هذا المقام يرى جميع أنواع الكائنات المختلفة متّحدة كما أنّ الجاهل يحسبها متكثرة، إذ تعيّن كلّ واحد منها كالملك والفلك والإنسان والحيوان والأشجار والمعادن أو همه إلى الكثرة فظنّ أنها متبدّدة متعدّدة ولكن العارف في ذلك المشهد العظيم يشاهد من عرض التجرد الأعلى إلى مركز التراب بصورة نجارستان انتقش بقلم التجلّي على جدرانه وسقفه وعلى جميع ما في ذلك النجارستان عكوس علمه

(١) الغارات: ١/ ٢٩٣ ح٤، ومستدرك سفينة البحار: ٦/ ٩٤.

تعالى وقدرته وحياته ورحمته، ونقوش لطفه وقهره، وأشعة جماله وجلاله، ويشاهد جميع ما في دار الوجود من برّها وبحرها وعاليها ودانيها ومجرّدها وماديها متّصلاً بعضها ببعض ومرتبطاً أحدهما بآخر ومنضماً هذا بذاك كهيكل إنسان واحد مثلاً، يخبر الجميع بنغمة موزونة واحدة عن عظمة العالم الربوبي، وفي هذا المقام يتحقّق بحقيقة التوحيد وكلمة لا إله إلاّ الله الطيّبة، قائلاً بلسان الحقيقة يا هو يا من ليس إلاّ هو، فإذن لا يبقى له ولا للممكنات الأُخرى هويّة، بل هويّة الكلّ مضمحلة ومتلاشية في تجلّي حقيقة الحقّ سبحانه، لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار، وتسمّى هذه الدرجة بالمحق.

وما حرّرنا في مراتب القوّة العمليّة نبذة من إفاضات مولانا المكرّم ورشحة من فيوضات أستاذنا العليم، الآية العظمى الميرزا أبي الحسن الرفيعي القزويني متّع الله تعالى المسلمين بطول بقائه وأدام أيام إفاداته ـ مع بعض إفاضات منّا مزيداً للإيضاح، والحمد لله باسط الرزق فالق الإصباح.

واعلم أنَّ الطهارة الحقيقيّة للنفس إنما هي حاصلة في الثالثة من الدرجات لأنّها تطهير النفس عمّا عداه تعالى، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

وأنَّ لسان الغيب الخواجه شمس الدّين الحافظ قدّس سرُّه أشار في بيته:

ساقي حديث سرو وگل و لاله ميرود   اين بحث باثلاثة غسّاله ميرود

إلى هذه الدرجات الثلاث فعبّرها بالثلاثة الغسّالة لتغسيلها النفس عن الأنجاس والأدناس فبالفناء في الأفعال تنبت الورد في روضة سرّ القلب، ويستشمّ العارف من رياض القدس ريح الورد، وبالفناء في الصفات ينبت الشقائق فيها إشارة إلى تكامل الورد، وبالثالث ينبت السّرو فيها فيحيط أثر العمل شراشر وجود السالك فالجزاء مرتّب على وفق العمل فكلّما كان العمل أصعب وأشدّ كان جزاؤه أشرف وأسدّ، جزاءً بما كانوا يعملون، نقل هذه اللطيفة المحقّق النراقي قدّس سرّه في الخزائن عن الشّيخ محمد الدارابي **(ص١٣٤ طبع علمية إسلامية ١٣٨٠هـ ق)**.

وأنَّ العلاّمة البهائي قدّس سرّه نقل في أواخر المجلّد الأوّل من **«الكشكول» (ص١٤٣ من طبع نجم الدولة)** عن النبي ﷺ قال: خير الدُّعاء دعائي ودعاء الأنبياء من قبلي وهو: «لا إله إلا الله وحده وحده وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حيٌ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير»[1]، وروى ثقة الإسلام الكليني في كتاب الدُّعاء من **«الكافي» (ص٣٧٥ ج٢ من المعرب)** بإسناده عن عليّ بن النعمان، عمّن ذكره، عن

---

(١) بحار الأنوار: ٨٣/ ٢٥٦ ح٢٦، وسنن النبي (ص): ٣٨٦ ح٣٨.

أبي عبد الله عليه السلام قال: قال جبرئيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله: طوبى لمن قال من أمّتك: «لا إله إلا الله وحده وحده وحده»، ورواه الشيخ الجليل الصدوق في باب ثواب الموحدين والعارفين من كتاب «**التوحيد**» بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام (ص٨) وتثليث قوله وحده فيها باعتبار توحيد الذات والصفات والأفعال، أفاده العالم المتأله السعيد القاضي السعيد في «**شرح توحيد الصدوق**».

فإذا زكيت نفسك فقد أفلحت ولاح فيك ما وعد الله تعالى عباده الصالحين ولم يكن حجابك إلاّ أنت، قال عز من قائل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٤ ـ ١٥] قال الخواجة صائن الدّين علي التركة في آخر قواعد التوحيد: إنّ العلوم كلّها موجودة فينا لكنّها مختفية بالحجب المانعة عن الظهور، ولا يخفى عليك أنّ ظهورها تارة يكون بالحركات اللطيفة الفكريّة الروحانيّة بعد تسليط القوّة القدسيّة على قوّتي الوهميّة والمتخيّلة وسائر القوى الجسمانيّة وتهذيب الأخلاق وتزيين النفس بالأخلاق الحسنة، وتارة أخرى بتسكين المتخيّلة والمتوهّمة وإلجامهما ومنعهما عن الحركات المضطربة المشوشة بعد تسخير القوى الجسمانيّة بالتزكية والتصفية وكلا الطريقين حقّ عند أكثر المحقّقين من أهل النظر وأصحاب المجاهدة.

خذا بطن هرشى أو قفاها فإنّه ... كلا جانبي هرشى لهنّ طريق

ومن اعتقد أنّه لا اعتبار بالتزكية والتصفية في طريق التعلم والنظر ركب متن الهوى والهوس حسب هذه العقيدة الفاسدة، وغلبت على نفسه الشهوة والغضب واستولت عليه الرّذائل الطبيعية المهلكة، وحرمت عليها الفضائل الملكية المحيية واشتغل بقراءة كتب مقلّدي الفلاسفة وزبر المتكلمين من أصحاب الجدل والمشاغبة وضيع عمره في ضبط الآراء المتناقضة وحفظ الأحوال والأقوال المتقابلة فأوقع نفسه في لجج الخيالات الفاسدة والأوهام الباطلة عند تلاطم أمواج الشكوك والشبهات المفرقة فاضمحل نور قلبه وعميت بصيرته بتراكم الكدورات المظلمة والعقائد الفاسدة وازداد فيه الجهل والتردد وحصل له البهت والتحيّر ولا يدري أين يذهب فلحق به من الحق الغضب وظنّ أن الكمال ما حصل له ووصل إليه وليس وراءه حالة مرغوبة كمالية ولا سعادة باقية فتيقّن خبث هذه العقيدة ووجه ضررها من لطفه واستعذابه من مكره وغضبه.

١٣ ـ وعليك بما نقصّ عليك من قصص ثلاث هي من أحاسن القصص دستوراً، أما الأولى فقد روى ثقة الإسلام الكليني في باب المؤمن وعلامته وصفاته من كتاب الإيمان والكفر من «**الكافي**» (ص١٧٦ ج٢ من المعرب): أنَّ الحسن بن عليّ صلوات الله عليهما خطب الناس فقال: «أيها الناس أنا أخبركم عن أخ لي كان من أعظم الناس في عيني، وكان

رأس ما عظم به في عيني صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد. كان خارجاً من سلطان فرجه فلا يستخفّ له عقله ولا رأيه، كان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يمدّ يده إلاّ على ثقة لمنفعة، كان لا يتشهّى ولا يتسخّط ولا يتبرّم، كان أكثر دهره صمّاتاً فإذا قال بذّ القائلين، كان لا يدخل في مراء ولا يشارك في دعوى ولا يدلي بحجّة حتّى يرى قاضياً، وكان لا يغفل عن إخوانه ولا يخصّ نفسه بشيء دونهم، كان ضعيفاً مستضعفاً فإذا جاء الجدّ كان ليثاً عادياً، كان لا يلوم أحداً فيما يقع العذر في مثله حتى يرى اعتذاراً، كان يفعل ما يقول ولا يفعل ما لا يقول، كان إذا ابتزّه أمران لا يدري أيهما أفضل نظر إلى أقربهما إلى الهوى فخالفه، كان لا يشكو وجعاً إلاّ عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير إلاّ من يرجو عنده النصيحة، كان لا يتبرّم ولا يتسخّط ولا يتشكّى ولا يتشّهى ولا ينتقم ولا يغفل عن العدو، فعليكم بمثل هذه الأخلاق الكريمة إن أطقتموها، فإن لم تطيقوها كلّها فأخذ القليل خير من ترك الكثير، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله»[1]، وهذا الحديث قد نسبه الشريف الرضي رضوان الله عليه إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وأتى به في القسم الثالث من «**النهج**» أعني في باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام وهو المختار ٢٨٩.

ورواه أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني رحمة الله عليه عن أبي محمد الإمام الحسن بن علي المجتبى عليه السلام أيضاً، كما في «**الكافي**» وفي هامش نسخة مخطوطة عتيقة من النهج توجد في مكتبتنا: قال السيّد الإمام السعيد أبو الرضا رضي الله عنه: وجدت هذا الفصل في «**أدب ابن المقفع**»، ووجدت في كتاب آخر هذا الكلام منسوباً إلى الحسن بن عليّ صلوات الله عليهما، ونقل ذلك الحديث العلاّمة البهائي أيضاً في أوائل المجلّد الثالث من «**كشكوله**» (**ص٢٤٩ طبع نجم الدولة**) من النهج أيضاً من غير تعرّض فيه.

قلت: إذا دار الأمر بين الجامع الكافي وبين غيره من الجوامع الروائية فضلاً عن غيرها فلا ريب أنّ المتعيّن هو الأوّل، على أنّ رواية ابن شعبة موافقة له ومعاضدة، وبين النسخ تفاوت في الجملة ونحن نقلناها من نسخة مخطوطة مصحّحة من «**الكافي**» مزدانة بعلائم المقابلة والتصحيح من أوّلها إلى آخرها وبتعليقات أنيقة رشيقة، وبخط صدر الدين السيّد علي خان المدني قدّس سرّه الذي تقدّم ذكره في هذه الرسالة غير مرّة على ظهرها وهذه صورته: «الحمد لله سبحانه، على هذه النسخة الشريفة المعتمدة خط السيّد نصير الملة والدين وخط ابن أخيه وصهره السيّد محمد معصوم وخط ابنه والدي الأمير نظام الدين أحمد، وقد قرأها

(١) الكافي: ٢/٢٣٨، ومشكاة الأنوار: ٤٢٢.

على السيّد العلاّمة نور الدين ابن عليّ بن أبي الحسن العلوي قدّس الله سبحانه أسرارهم، كتب عليٌّ الصدر المدني عفى عنه».

وأما الثاني فقد نقلها العلاّمة الشيخ البهائي قدّس سرّه في أوّل المجلّد الثالث من كتابه القيّم النفيس المسمّى بـ«الكشكول» **(ص٢٤٥ من طبع نجم الدولة)** حيث قال: من خط س[1] عن عنوان البصري وكان شيخاً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة، قال: كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين فلمّا قدم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام اختلفت إليه وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال يوماً لي: إنّي رجل مطلوب ومع ذلك لي أوراد في كل ساعة من آناء الليل والنهار فلا تشغلني عن وردي وخذ عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف.

فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده، وقلت في نفسي: لو تفرّس لي خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه، فدخلت مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّمت عليه ثمّ رجعت من الغد إلى الروضة، وصلّيت فيها ركعتين وقلت: أسألك يا الله يا الله، أن تعطف عليَّ قلب جعفر وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم، ورجعت إلى داري مغتمّاً ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما أُشرب في قلبي من حب جعفر عليه السلام فما خرجت من داري إلاّ إلى الصّلاة المكتوبة حتّى عيل صبري، فلمّا ضاق صدري تنعّلت وتردّيت وقصدت جعفراً عليه السلام وكان بعدما صلّيت العصر، فلمّا حضرت باب داره استأذنت عليه فخرج خادم له فقال: ما حاجتك؟ فقلت: السلام على الشريف، فقال: هو قائم في مصلاّه، فجلست بحذاء بابه فما لبثت إلاّ يسيراً إذا خرج خادم فقال: أدخل على بركة الله.

فدخلت وسلّمت عليه فردّ عليّ السلام، وقال: اجلس غفر الله لك فجلست فأطرق مليّاً، ثمّ رفع رأسه فقال: أبو من؟ قلت: أبو عبد الله، قال: ثبّت الله كنيتك ووفّقك يا أبا عبد الله ما مسألتك؟ فقلت في نفسي: لو لم يكن لي في زيارته والتسليم عليه غير هذا الدّعاء لكان كثيراً.

ثمّ رفع رأسه فقال: ما مسألتك؟ قلت: سألت الله أن يعطف عليَّ قلبك ويرزقني من علمك وأرجو أنّ الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته.

فقال: يا أبا عبد الله ليس العلم بالتعلّم وإنّما هو نور يقع على قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أوّلاً في نفسك حقيقة العبودية واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك.

---

(١) هكذا في ذلك الطبع بالسين المهملة في الأول والآخر. وفي طبع قم بالشين المعجمة وقال الفاضل محمد صادق النصيري في تعاليقه على الكشكول أن كلمة شين المعجمة إشارة إلى مجموعة الشهيد الثاني (ره).

قلت: يا شريف، قال: قل يا أبا عبد الله، قلت: يا أبا عبد الله ما حقيقة العبوديّة؟

قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً لأنَّ العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً وجعل اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه وإذا فوّض العبد تدبير نفسه إلى مدبّره هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرّغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس، وإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدُّنيا وإبليس والخلق، ولا يطلب الدُّنيا تكاثراً أو تفاخراً ولا يطلب ما عند الناس عزًّا ولا يدع أيّامه باطلاً، فهذا أوّل درجة التقى، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القَصَص: الآية ٨٣] .

قلت: يا أبا عبد الله أوصني، فقال: أوصيك بتسعة أشياء فإنّها وصيّتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعماله:

ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم فاحفظها، وإيّاك والتهاون بها، قال عنوان: ففرغت قلبي له.

قال: أمّا اللّواتي في الرّياضة: فإيّاك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنّه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلاّ عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً، وسمّ الله، وذكر حديث الرسول ﷺ: ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه.

فأمّا اللّواتي في الحلم: فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشراً فقل له إن قلت عشراً لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل إن كنت صادقاً فيما تقول فاسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فاسأل الله أن يغفر لك، ومن وعدك بالخَنى فعِدْهُ بالنصيحة والدُّعاء.

وأمّا اللّواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإيّاك أن تسألهم تعنّتاً وتجربة، وإيّاك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك في النّاس جسراً، قم عنّي يا أبا عبد الله فقد نصحت لك ولا تفسد عليّ وردي فإني امرؤ ضنين بنفسي والسّلام على من اتبع الهدى[1]، منقول كله من خطّ س. انتهى ما أتى به الشيخ رحمه الله في «الكشكول».

(١) مشكاة الأنوار: ٥٦٤، ومنية المريد: ١٥٠.

قلت: تأمّل يا باغي السداد وطالب الرشاد وسالك الطريق إلى ربّ العباد في هذه الصحيفة المكرّمة الّتي كتبت بقلم الولاية وانتقشت بما كلّه نور وهداية.

وأخاطب نفسي الخاطئة فأقول لها: أيتها الهالكة ما غرّك بربّك الكريم تعملي عنده الأعمال الفاضحة، قومي وسافري إلى من خلقك فسوّاك فعدلك في أيّ صورة ما شاء ركبك، ألا ترى أن ما سواه معتكف ببابه ومالك لا تطير إلى جنابه، صرفت العمل في قيل وقال، وضيّعته في الجواب والسؤال، قومي فاغتنمي الفرصة، واخلصي من الغصّة، إيّاك والتسويف فإنه مبير الوضيع والشريف، عليك الفرصة، واخلصي من الغصّة، إيّاك والتسويف فإنّ مبير الوضيع والشريف، عليك بالحضور عند ربّك الغفور فإنّ الحضور يورث النور بل النور على النور والله نور السماوات والأرض وجمالها جل جلاله وعم نواله، أما قرأت الكتاب الحكيم القرآن العظيم يقول قائله عزّ اسمه وله الأسماء الحسنى: من جاهد فينا لنهدينّهم سبلنا، ألا رأيت كلام إمامك كشّاف الحقائق أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق: «ليس العلم بالتعلّم وإنما هو نور يقع على قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه»[1].

اگربودى كمال اندرونويسائى وخوانائى	چراآن قبله كل نانويسا بود وناخوانا

إلى متى في فراش الغفلة واتخذي لك الخلوة، وانتبهي من النّوم، وتوبي نصوحاً في اليوم، وعليك بالسكوت والصوم، وقومي عن العشيرة والقوم، ويا نفسي الآثمة الجانية وازهدي في الدُّنيا الفانية فإنّ حبّها جبّ كلّ عطيّة ورأس كلّ خطيئة، أعرضي عن دار الغرور، وتوجهي إلى نور كلّ نور، لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، وعسى أن تأتيه فرداً.

اى شده مغرور بدار غرور	قد خسر الغافل يوم النشور
اى كه فتادى زره عشق دور	ألا إلى الله تصير الأُمور
از چه نداری خبراز خویشتن	یاحضورو تو نداری حضور
وما إخالك بناجٍ لما	يداك قد حصّلنا من شرور
ولا تخافنّ سوى نفسكا	ترس توبيجااست زمرك وزگور
والله قد أظهر آياته	بيخبراست گرچه دل وديده كور
هرچه تواني بره عشق كوش	كامده از عشق همه در ظهور
دست زأنبان شكم باز دار	تاكه دلت نور دهد همچو هور
هل كان عبد البطن عبدالا لاه	ظلمتي از پرتوو نور است دور

(١) مشكاة الأنوار: ٥٦٣، وبحار الأنوار: ١/٢٢٥.

آن بطلب كو بود أصل مراد إيّاك والزّهد لو جدان حور
باش همى در ره ديدار يار إن شئت عيشاً دائماً في السرور
اين سر بيهوش تواز خيرگى لما يفيقنّ إلى نفخ صور
اين دلزنگار تورا راه نيست في ساحة القدس من الله نور
نعم لئن تبت نصوحاً عسى أن يغفر الله الرحيم الغفور
في ظلمة الليل تناجى الإلاه تكلّم الله كموسى بطور
وابك بكاء عالياً قانتاً عند صلاة ليلك بالحضور
نيست گرت مرده دلى بهرچه لست لربّك بعبدٍ شكور
مرد خدا را حسنا روى دل
سوى حضوراست نه حور وقصور

فيا من خلقني من العدم، يا من كرّم بني آدم يا نور المستوحشين في الظلم يا شاهد كلّ نجوى، يا من إليه الكل يسعى، يا من هو بدُنا اللازم، يا من جرى في الخلق حكمه الجازم، يا من إلى بابه ألوذ، يا من به من شرّ نفسي أعوذ، يا من تحيّر فيه ما سواه، يا من نطق به الألسن والأفواه.

اي كه زبانها به تو گوياستي ايكه دل وديده بيناستي
اي كه صفات تووذاتت نكواست اي كه زهر عيب مبرّاستي
اى كه زنور رخ زيباى تو روى همه خرّم وزيباستي
اى كه سزاى دل شوريدگان شورشى ازعشق تو برپاستي
اى كه زتو مرغ شباهنگ را ناله جانسوز سحرهاستى
دست حسن گيرو رهائيش ده
اي كه ز راز دلش آگاستى

وأمّا الثالثة فهي مكاتبة جرت بين العالمين الشّيخ أبي سعيد بن أبي الخير والشّيخ الرئيس أبي عليّ بن سينا ولمّا رأينا كثرة فوائدها أتينا بها مزيداً للفائدة وقد نقلها الشّيخ البهائي في أواخر **«الكشكول» (ص٦٢٣ من طبع نجم الدولة وص٥٩٥ ج٢ من طبع قم)**، ولكنّ صورتها على طبع قم مشوشة بل مشوهة جداً، وهي منقوله أيضاً في نامه دانشوران في ترجمة الشيخ الرئيس أكمل ممّا في **«الكشكول»** وقد نقل القاضي نور الله الشهيد نبذة من كلام الشيخ الرئيس في **«مجالس المؤمنين»** وهذه صورتها:

كتب الشيخ **أبو سعيد** بن أبي الخير إلى الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا: **أيها العالم** وفقك الله لما ينبغي، ورزقك من سعادة الأبد ما تبتغي، إنّي من الطريق المستقيم على يقين

إلاّ أنَّ أودية الظنون على الطريق المستجدّ[١] متشعّبة، وإنّي من كلِّ طالب طريقه لعلّ الله يفتح لي من باب حقيقة حاله بوسيلة تحقيقه وصدقة تصديقه، وإنّك بالعلم وفقت لموسوم، بمذاكرة أهل هذا الطريق مرسوم، فأسمعني ما رزقت، وبيّن لي ما عليه وقفت، وإليه وفّقت، واعلم أنّ التذبذب بداية حال الترهّب، ومن ترهّب تراأب، وهذا سهل جدّاً، وعسر إن عدّ عدّاً، والله وليُّ التوفيق.

فأجابه الشيخ الرئيس: وصل خطاب فلان مبيّناً ما صنع الله تعالى لديه[٢] وسبوغ نعمه عليه، والاستمساك بعروة الوثقى، والاعتصام بحبله المتين والضرب في سبيله، والتولية شطر التقرب إليه، والتوجه تلقاء وجهه، نافضاً عن نفسه غبرة هذه الخربة، رافضاً بهمّته الاهتمام بهذه القذرة ـ أعزَّ وارد وأسرّ واصل وأنفس طالع وأكرم طارق، فقرأته وفهمته وتدبّرته وكرّرته وحقّقته في نفسي وقرّرته فبدأت بشكر الله واهب العقل ومفيض العدل، وحمدته على ما أولاه، وسألته أن يوفّقه في أخراه وأولاه، وأن يثبّت قدمه على ما توطّاه، ولا يلقيه إلى ما تخطّاه، وتزيده إلى هدايته هداية، وإلى درايته التي آتاه دراية، إنّه الهادي المبشّر والمدبّر المقدّر، عنه يتشعّب كلّ أثر، وإليه تستند الحوادث والعبر[٣] وكذلك تقضي الملكوت، ويقضي الجبروت وهو من سرّ الله الأعظم يعلمه من يعلمه ويذهل عنه من لا يعصمه، طوبى لمن قاده القدر إلى زمرة السعداء، وحاد به عن رتبة الأشقياء، وأوزعه استرباح البقاء من رأس مال الغنى، وما نزهة هذا العاقل في دار يتشابه فيها عقبي مدرك ومفوّت، ويتساويان عند حلول وقت موقت، دارٌ أليمها موجع، ولذيذها مشبع، وصحتها قسر الأضداد[٤] على وزن وإعداد، وسلامتها استمرار فاقة إلى استمراء مذاقة، ودوام حاجة إلى مجّ مجاجة.

نعم والله ما المشغول بها إلاّ مثبّط، والمتصرّف فيها إلاّ مخبّط، موزّع البال بين ألم ويأس، ونقود وأجناس، أخيذ حركات شتّى، وعسيف أوطار تترى وأين هو من المهاجرة إلى التوحيد، واعتماد النظام بالتفريد، والخلوص من التشعب إلى التراب، وعن التذبذب إلى التهذّب، وعن ناد[٥] يمارسه إلى أبدي يشارقه، هناك اللّذة حقّاً، والحسن صدقاً، سلسال كلّما سقيته على الرّي كان أهنى وأشفى، ورزق كلّما أطعمته على الشبع كان أغذى وأمرىء، ريُّ استبقاء لا ريّ إباء، وشبع استشباع لا شبع استبشاع.

ونسأل الله تعالى أن يجلو عن أبصارنا الغشاوة، وعن قلوبنا القساوة، وأن يهدينا كما

---

(١) في نسخة: الجد.
(٢) في نسخة: إليه.
(٣) في نسخة: الغير.
(٤) في نسخة: قران الأضداد.
(٥) في نسخة: باد.

هداه، ويؤتينا ممّا أتاه، وأن يحجز بيننا وبين هذه الغارّة الغاشّة البسور في هيأة الباشّة، المعاسرة في حلية المياسرة، المفاصلة في معرض المواصلة وأن يجعله إمامنا فيما آثر وأثّر، وقائدنا إلى ما صار إليه وسار، إنّه وليّ ذلك.

فأمّا ما التمسه من تذكرة ترد منّي وتبصرة تأتيه من قبلي وبيان يشفيه من كلامي فكبصير استرشد من مكفوف، وسميع استخبر عن موقور السمع غير خبير فهل لمثلي أن يخاطبه بموعظة حسنة، ومثل صالح، وصواب مرشد، وطريق أسنّه له منفذ، وإلى غرضه الّذي أمّه منفذ؟

ومع ذلك فليكن الله تعالى أوّل فكره وآخره، وباطن اعتباره وظاهره ولتكن عين نفسه مكحولة بالنظر إليه، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه مسافراً بعقله في الملكوت الأعلى، وما فيه من آيات ربه الكبرى، فإذا انحطّ إلى قراره فيرى الله في آثاره فإنه باطن ظاهر تجلّى بكل شيء لكلّ شيءٍ.

ففي كلّ شيء له آية تدل على أنّه واحد

فإذا صارت هذه الحال ملكة، وهذه الخصلة وتيرة، وانطبع في فصّه نقش الملكوت، وتجلّى له آية قدس اللاهوت، فألف الأنس الأعلى، وذاق اللذّة القصوى، وأخذ عن نفسه إلى من هو به أولى، وفاضت عليه السكينة، وحقّت به الطمأنينة، واطّلع على الأدنى اطّلاع راحم لأهله مستوهن بحبله[1] مستخفّ لثقله، مستحسن لفعله، مستطل لطرفه، ويذكر نفسه وهي بهجة فتعجّب منهم تعجّبهم منه، وقد ودعها وكان معها كمن ليس معها.

وليعلم أن أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السكنات الصيام، وأرفع[2] البر الصدقة[3] وأزكى السّير الاحتمال، وأبطل السعي الرياء (**وأفضل السعي المراياة ـ على نسخة مجالس المؤمنين**)، ولن تخلص النفس عن البدن ما التفتت إلى قيل وقال، ومناقشة وجدال، وانقلعت بحالة من الأحوال، وخير العمل ما صدر عن مقام نيّة[4] وخير النيّة ما ينفرج عن جناب علم، والحكمة أم الفضائل، ومعرفة الله أوّل الأوائل، إليه يصعد الكلم الطّيب، والعمل الصالح يرفعه، أقول قولي هذا وأستغفر الله وأستهديه وأتوب إليه وأستكفيه، وأسأله أن يقرّبني إليه إنه سميع مجيب.

ثمّ يقبل على هذه النفس المزّينة بكمالها الذاتي، ويحرسها عن التلطّخ بما يشينها من الهيئات الانقيادية للنقوش المادية التي إذا بقيت في النفس المزينة كانت حالها عند الانفصال

---

(١) في نسخة: بخيله.
(٢) في نسخة: أنفع.
(٣) في نسخة: وأفضل البر العطا.
(٤) في نسخة: عن خالص نية.

كحالها عند الاتصال، إذ جوهرها متناوب ولا مخالطة وإنّما يدنّسها هيئة الانقياد لتلك الصواحب بل تفيدها هيئات الاستيلاء والاستعلاء والرئاسة ولذلك يهجر أكذب قولك، ويخلّي حتّى تحدث للنّفس هيئة صدوقة فيصدّق الأحلام والرؤيا واللذّات، فليستعملها على إصلاح الطبيعة وإلقاء الشخص والنوع والسياسة.

وأمّا المشروب فأن يهجر شربه ملهياً بل تشفيّاً تداوياً، ويعاشر كلّ فرقة بعادته ورسمه، ويسمح بالمقدور من المال ويترك لمساعدة النّاس كثيراً ما هو خلاف طبعه، ثمّ لا يقصر في الأوضاع الشرعيّة، وتعظيم السنن الإلهيّة والمواظبات على التعبدات البدنيّة، ويكون دوام عمره إذا خلا وخلص من المعاشرين، نظر بالرويّة والفكرة في الملوك الأول وملكها، واكبس عن عثار النّاس من حيث لا تقف على النّاس، عاهد الله أن تسير بهذه السيرة وتدين بهذه الدّيانة، والله وليّ الذين آمنوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

هذا آخر المكاتبة، وقد نقل منها الشّيخ في **«الكشكول»** ـ إلى قوله: إنّه سميع مجيب، ونقلنا بعده من نامه دانشوران، ونقل القاضي نور الله الشهيد نوَّر الله مرقده في **«المجالس»** بعد قوله: إنّه سميع مجيب، هذا السطر أيضاً: والحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين.

١٤ ـ كن عالي الهمّة، على حدّ لا تعبد إلا إياه تعالى، ولا تكن في إعراضك عن متاع الدنيا وطيّباتها معاملاً ولا في عباداتك أجيراً، وكن كما نطق به الناطق بالصواب ميزان يوم الحساب، وفصل الخطاب أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين علي عليه السلام: ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك.

تو بندگى چو گديان بشرط مزد مكن   كه خواجه خود صفت بنده پرورى داند

وفي الباب التاسع عشر من **«مصباح الشريعة»**: قال النبي صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي للسائلين[1].

وروى ثقة الإسلام الكلينيّ في باب العبادة من كتاب الإيمان والكفر من **«أُصول الكافي»** **(ص٦٨ ج٢ من المعرب)** بإسناده عن هارون بن خارجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزَّ وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عزَّ وجلَّ حُبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة[2].

(١) إعانة الطالبين: ١/١٩، وكشف القناع: ١/٥١٩.

(٢) شرح أصول الكافي: ١/٢٥٨ ح١، ومستدرك سفينة البحار: ٧/٥٤.

ورواه ابن شعبة رحمة الله عليه في تحف العقول عن سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام أيضاً، حيث قال عليه السلام: إنَّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وإنَّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة[1]، وهذا بعينه منقول في النهج عن أمير المؤمنين عليه السلام **(المختار ٢٣٧ من باب حكمه عليه السلام)**.

فكن من أهل الله لا من أهل الدُّنيا ولا من أهل الآخرة، وحقيقة الزهد أن يزهد في الدُّنيا والآخرة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الدُّنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدُّنيا، وهما حرامان على أهل الله[2].

وفي ذلك الباب من الكافي بإسناده عن عمرو بن جميع، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدُّنيا على عسر أم على يسر[3].

أقول: هذه الرواية قد نطقت بالعشق، وفي عشق من **«سفينة البحار»** للمحدث القمّي رحمة الله عليه: النبوي صلى الله عليه وآله أنَّ الجنّة لأعشق لسلمان من سلمان للجنّة[4]. وفي تاسع **«البحار» (ص٥٨٠)** عن الخرائج: روي عن أبي جعفر عليه السلام، عن أبيه قال: مرَّ علي عليه السلام بكربلاء فقال لما مرَّ به أصحابه وقد اغرورقت عيناه يبكي ويقول: هذا مناخ ركابهم، وهذا ملقى رحالهم، ههنا مراق دمائهم، طوبى لك من تربة عليها تراق دماء الأحبّة[5].

وقال الباقر عليه السلام: خرج عليٌّ يسير بالنّاس حتّى إذا كان بكربلاء على ميلين أو ميل تقدّم بين أيديهم حتّى طاف بمكان يقال له المقدفان فقال: قتل فيها مائتا نبيّ ومائتا سبط، كلّهم شهداء ومناخ ركاب ومصارع عُشّاق شهداء لا يسبقهم من كان قبلهم ويلحقهم من بعدهم[6].

وكم نرى من المقدّسين الخشك يطعنون في أهل الله بإطلاقهم العشق ومشتقاته قائلين بأنَّ أيّ خبر نطق به؟ وهذا خبرهم بل هذه أخبارهم، على أنّه لو لم يأت به أثر في الجوامع الروائية لكانت حجتهم داحضة وكلمتهم سفلى.

---

(١) شرح أصول الكافي: ١/ ٢٥٧، وعوالي اللئالي: ١/ ٢٠.

(٢) الكافي: ٢/ ٥٠١ ح١، وبحار الأنوار: ٩٠/ ٣٢٣.

(٣) الكافي: ٢/ ٨٤ ح٥، وتحف العقول: ٢٤٦.

(٤) عوالي اللئالي: ٤/ ١٠١، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٣٤١ ح٥٢.

(٥) قرب الإسناد: ٢٦ ح٨٧، وكامل الزيارات: ٤٥٣ ح١٢.

(٦) بحار الأنوار: ٤١/ ٢٩٥ ح١٨، ومستدرك سفينة البحار ٧/ ٢٤٥.

وفي الباب الرابع والخمسين من «**إرشاد القلوب**» للديلمي وهو آخر أبواب الكتاب فيما سأل رسول الله ﷺ ربه ليلة المعراج: يا أحمد وجوه الزاهدين مصفرّة من تعب الليل وصوم النهار، وألسنتهم كلال من ذكر الله تعالى، قلوبهم في صدورهم مطعونة من كثرة صمتهم قد أعطوا المجهود من أنفسهم لا من خوف نار ولا من شوق جنّة ولكن ينظرون في ملكوت السماوات والأرض فيعلمون أن الله سبحانه أهل للعبادة، يا أحمد هذه درجة الأنبياء والصديقين من أُمّتك وأُمّة غيرك وأقوام من الشهداء[١] ـ الخ.

وفي باب اتباع الهوى من كتاب الإيمان والكفر من «**أُصول الكافي**» (**ص٢٥١ ج٢ من المعرب**) عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه عى هواي إلاّ شتت عليه أمره ولبست عليه دنياه وشغلت قلبه به ولم أوته منها إلاّ ما قدّرت له، وعزّتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوّي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلاّ استحفظته ملائكتي وكفّلت السماوات والأرضين رزقه وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر وأتته الدُّنيا وهي راغمة[٢].

وإذا ذقت حلاوة ذكره تعالى وأنست به ورزقت جنّة اللقاء لا تطلب منه تعالى إلا إيّاه وتنسى غيره، كما في الباب التاسع عشر من «**مصباح الشريعة**» قال الصادق عليه السلام: لقد دعوت الله مرة فاستجاب لي ونسيت الحاجة لأن استجابته بإقباله على عبده عند دعوته أعظم وأجلّ ممّا يريد منه العبد ولو كانت الجنة ونعيمها الأبدي، وليس يعقل ذلك إلاّ للعاملون المحبّون العارفون صفوة الله وخواصّه، انتهى[٣].

وكأنما الشّيخ العارف السعدي رضوان الله عليه يشير إلى قوله عليه السلام، حيث زيّن مطلع گلستانه بورد بيانه: يكى از صاحبدلان سر بجيب مراقبت فرو برده ودر بحر مكاشفت مستغرق گشته، حالى كه ازآن حالت بازآمد، يكى از دوستان گفت: در اين بوستان كه بودى ما را چه تحفه آوردى؟ گفت بخاطر داشتم كه چون بدرخت گل رسم دامنى پركنم هديّه أصحاب را، چون برسيدم بوى گلم چنان مست كرد كه دامن ازدست برفت، ولقد أجاد، طيّب الله رمسه وقدّس سرّه.

فمن عبد الله تعالى طلب الثواب أو خوفاً من العقاب فهو محروم عن اللذّة الحقيقيّة،

---

(١) الجواهر السنية: ١٩٦، وبحار الأنوار: ٧٤/ ٢٦.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٣٥ ح٢، وشرح أصول الكافي: ٩/ ٣٨٩.

(٣) مصباح الشريعة: ١٣٤.

بل إنّك إن فتّشته لم تجده إلاّ عابد هواه إن عبده تعالى رغبة، أو محبّاً لنفسه لا لمولاه إن عبده رهبة، وقد أفاد الشّيخ الرئيس أبو علي بن سينا تغمّده الله بغفرانه في «**مقامات العارفين**» بقوله:

المستحلّ توسيط الحقّ مرحوم من وجه فإنه لم يطعم لذّة البهجة به فيستطعمها إنّما معارفته مع اللذّات المخدجة فهو حنون إليها غافل عمّا ورائها، وما مثله بالقياس إلى العارفين إلاّ مثل الصبيان بالقياس إلى المحنكين، فإنّهم لمّا غفلوا عن طيّبات يحرص عليها البالغون، واقتصرت بهم المباشرة على طيّبات اللعب صاروا يتعجبّون من أهل الجدّ إذا زورّوا عنها عائفين لها عاكفين على غيرها، كذلك من غضّ النقص بصره عن مطالعة بهجة الحقّ أعلق كفيّه بما يليه من اللذّات لذّات الزور، فتركها في دنياه عن كره، وما تركها إلاّ ليستأجل أضعافها وإنّما يعبد الله تعالى ويطيعه ليخوّله في الآخرة شعبه منها فيُبعث إلى مطعم شهيّ ومشرب هنيء ومنكح بهيّ، وإذا بعثر عنه فلا مطمح لبصره في أولاه وأخراه إلاّ إلى لذّات قبقبه وذبذبه، والمستبصر بهداية القدس في شجون الإيثار قد عرف اللذّة الحقّ وولّى وجهه سمتها مسترحماً على هذا المأخوذ عن رشده إلى ضدّه، وإن كان ما يتوخاه بكدّه مبذولاً له بحسب وعده.

١٥ ـ التوبة وهي لا تنفك عمّن استبصر وإلاّ فليس بمستبصر، ولا أنسى عذوبة كلام سيّدنا الأستاذ محمد حسن الإلهي المقدّم ذكره قدّس سرّه، ولطافة بيانه في التوبة حيث قال: التوبة الحقيقيّة أن تتوب من خيرك وشرّك، وبعد تأمّل قليل قلت له: أمّا التوبة من الشرّ فلا كلام فيها، وأما التوبة من الخير فما مراد جنابك منها؟ فقال رضوان الله عليه: ما نحسبها خيراً من صلاتنا وصيامنا وقراءتنا القرآن ودراستنا وغيرها لو تأمّلنا فيها لرأيناها مخدجة غير كاملة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤] فيجب على المستبصر أن يتوب من هذه الأعمال الناقصة، وأن يقصد الإتيان بها على النحو الكامل الّذي يتقبّل الله وإنما يتقبّل الله من المتقين، فما حسبناه خيراً ليس بخير حقيقةً، فطوبى لمن وفّق بالتوبة ممّا حسبه خيراً وعمل ما هو خير واقعاً.

والتوبة تذهب بدرن القلب، وتزيل رينه فإذاً يستبصر التائب بدائه ودوائه ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، قال الإمام الباقر عليه السلام: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا تخلّصت النفس من الرذائل وتنزهت من أوساخ الذنوب فقد قبلت توبته[1]، وأمّا البحث الكلامي عن التوبة فقد أشبعنا الكلام فيه في شرحنا على المختار ٢٣٥ من خطب النهج من

(١) الكافي: ٢/ ٤٣٥ ح١٠.

كتابنا تكملة منهاج البراعة (ص١٧١ ـ إلى ـ ٢٠١ من ج١٥).

وقال السيّد بن طاووس قدّس سرّه الشريف في أعمال شهر ذي القعدة من كتابه **«الإقبال»**: فصل: فيما نذكره ممّا يعمل في يوم الأحد من الشهر المذكور وما فيه من الفضل المذخور وجدنا ذلك بخط الشيخ علي بن يحيى الخيّاط رحمه الله وغيره في كتب أصحابنا الإمامية وقد روينا عنه كلّما رواه وخطّه عندنا بذلك في إجازة تاريخها شهر ربيع الأوّل سنة تسع وستمائة فقال ما هذا لفظه:

روى أحمد بن عبد الله، عن منصور بن عبد الحميد، عن أبي أمامة، عن أنس بن مالك قال: خرج رسول الله ﷺ يوم الأحد في شهر ذي القعدة فقال: يا أيها الناس من كان منكم يريد التوبة؟ قلنا: كلّنا يريد التوبة يا رسول الله، فقال عليه السلام: اغتسلوا وتوضأوا وصلّوا أربع ركعات واقرؤوا في كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة قل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين مرة ثمّ استغفروا سبعين مرّة ثمّ اختموا بلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم ثمّ قولوا: يا عزيز يا غفار اغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات فإنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت.

ثمّ قال عليه السلام: ما من عبد من أمّتي فعل هذا إلاّ نودي من السماء: يا عبد الله استأنف العمل فإنك مقبول التوبة مغفور الذنب.

وينادي ملك من تحت العرش: أيها العبد بورك عليك وعلى أهلك وذرّيتك.

وينادي مناد آخر: أيها العبد ترضى خصماؤك يوم القيامة.

وينادي ملك آخر: أيها العبد تموت على الإيمان ولا أسلب منك الدين ويفسح في قبرك وينوّر فيه.

وينادي مناد آخر: أيها العبد يرضى أبواك وإن كانا ساخطين وغفر لأبويك ذلك ولذريتك وأنت في سعة من الرزق في الدنيا والآخرة.

وينادي جبرئيل عليه السلام: أنا الذي آتيك مع ملك الموت عليه السلام أن يرفق بك ولا يخدشك أثر الموت إنما تخرج الروح من جسدك سلاً[١].

قلنا: يا رسول الله لو أنّ عبداً يقول في غير الشهر؟ فقال عليه السلام: مثل ما وصفت وإنما علّمني جبرئيل عليه السلام هذه الكلمات أيّام الله[٢] ربي[٣].

---

(١) في نسخة: سلاماً. (٢) مستدرك الوسائل: ٦/٣٩٧، وإقبال الأعمال: ٢/٢٠.

(٣) في نسخة: لما أسري بي.

ونذيّل الرسالة بقصيدة الفارسيّة تفوّه بها هذا الراجي لقاء ربّه الرّحيم وقد فرغ منها في أوائل ذي الحجّة ١٣٨٨هـ ق، وسمّاها بالقصيدة اللّقائيّة.

اي دل بدر كن از سرت كبرو ريارا ... خواهى اگر بينى جمال كبريا را
تا با خودى بيگانه اى ازآشنايان ... بيگانه شو از خود شناسي آشنا را
عنقاى أوج قاف قرب دلبر من ... در زير پر بگرفته كلّ ما سوا را
در پايتخت كشور دل پادشاهى ... منگر مگر سلطان يهدي من يشارا
مرآت أسماء وصفات حق بود دل ... مشكن چنين آيينه ايزد نما را
أى همدم كرّوبيان عالم قدس ... از خود بدر كن لشكر ديو دغا را
تا ازسوادو از خيال واز بياضت ... فانى شوى بينى جهان جان فزا را
گرجذبه اى از جانب جانانه يابى ... بازيچه خوانى جذب كاه وكهربارا
گاهى ز اشراق رخ مهر آفرينش ... بر آسمان جان دهدرشك ضيا را
گاهى ززلف مشكساى دلربايش ... آشفته خود مى كند أحوال ما را
دل درميان اصبعين او است دائم ... ازقبض وبسطش فهم كن اين مدّعارا
الله قد خلقكم أطواراً أي قوم ... كيف فلا ترجون لله وقارا
در آستان لطف آن محبوب يكتا ... دريوزه گر بينم همه شاه وگدارا
تسبيح گوى ذات پابك لا يزاليش ... بنگر ز ذرّات ثريّا تا ثرى را
بنيوش ازمن باش دائم در حضورش ... تا در حضور او چه ها يابى چه هارا
گر تارو پود بودم ازهم برشكافى ... جز اونخواهى يافت ابن دولت سرارا
درچشم حق بينم من أو اومن نباشد ... يكتا پرستم من نميدانم دوتا را
عشق منش از گفته استاد نبود ... نو شيده ام باشير مادر اين غذارا
تنهانه من سرگشته ام زانروكه بينم ... نالان وسر گردان أو أرض وسمارا
تنها نه من در حيرتم از سرّ انسان ... بل صار في القوم كلّهم حيارى
فكري بكن بنگر كه اى ودركجائي ... هم از كجا بودى وميخواهى كجارا
دردا كه مارا آگهى از خويش نبود ... ورنه بما كردى عطا كشف غطارا
دردت اگر باشد پى در مان دردت ... از چه نجوئى از طبيب خود دوا را
يا رب دهد اندر حريم خويش بارت ... مر آزمونرا گوى از اخلاص يا را
بيدار باش ودرره زاد أبد كوش ... بگسل ز خود دام هوسها وهوا را

بـرآب زن أوراق نـقـش ايـن وآنـرا — بـر دل نـشـان أحـكـام قـرآن ودعـارا
در خـلـوت شـبـهـاى تـارت مـيـتـوانـى — آرى بـكـف سـر چـشـمـه آب بـقـا را
گـوئى خـلـيـل آسـا اگـر وجّـهـت وجـهـي — گـردد بـتـو راز نـهـانـى آشـكـا را
تـسـلـيـم بـاش و سـر بـنـه انـدر رضـايـش — بـر بـنـدلـب از گـفـتـن چـون وچـرا را
از رحـمـت بـي انـتـهـاى خـويـش دارد — وابـسـتـه دام بـلا أهـل ولا را
زاهـد بـود سـودا گـرو عـابـد أجـيـري — محـواسـت وطـمـس ومـحـق أربـاب وفـارا
آيـيـن مـردان خـدا تـقـوى اسـت تـقـوى — مـرزوق عـنـد الله بـيـن أهـل تـقـى را
ره روچـنـانـكـه مـردم هـشـيـار رفـتـنـد — راهـى مـبـين جـز راه و رسـم مـصـطـفـى را
گـر مـشـكـلـى پـيـش آيـدت ايـسـالـك ره — نـاد عـلـيّـاً آن شـه مـشـكـل گـشـارا
خـواهـى روى انـدر مـنـاى عـاشـقـا نـش — بـار سـفـر بـر بـنـد سـوى كـربـلا را
گـفـتـار نـيـكـو بـايـد وكـردار نـيـكـو — تـا در جـزاى ايـن و آن يـابـى لـقـارا
أبـنـاءنـوعـت را زخـود خـوشـنـود مـى دار — خـواهـى زخـود خـوشـنـود أر دارى خـدارا
بـيـچـاره ايـم اى چـاره بـيـچـاره گـانـت — جـز تـو كـه يـارد دسـت مـا گـيـرد نـگـارا
عـارم بـود از ايـن كـلـيـمـى أربـعـيـنـم — از جـود تـو دارم مـن امـيـد عـطـا را

تـسـخـيـر خـودكـن نـجـم را آنـسـان كـه كـردى
تـسـخـيـر خـود مـهـرو مـه واسـتـاره هـا را

وقد فرغنا من تأليف هذه الرسالة اللقائية في بلدنا الآمل وقت السحر من ليلة الاثنين السادسة عشر من ربيع المولود من شهور سنة تسع وثمانين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة على هاجرها ألف تحية وسلام، رزقنا الله تعالى القرب منه ونعمة لقائه.

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة
وهو المختار التاسع والعشرون
من باب المختار من كتبه ورسائله

وَقَدْ كَانَ مِنْ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تُغْبُوا عَنْهُ؛ فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ، وَسَفَهُ الآرَاءِ [الأَرْآءِ - معاً] الْجَائِرَةِ إِلَىٰ مُنَابَذَتي وَخِلافي فَها أَنَذَا [أَنَاذا - نسخة] قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي وَرَحَلْتُ رِكَابِي.

وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لاَ يَكُونُ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلاَّ كَلَقْعَةِ لاَعِقٍ؛ مَعَ إِنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَىٰ بَرِيءٍ، وَلاَ نَاكِثاً إِلَىٰ وَفِيٍّ(١).

المصدر

رواه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعد بن هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود الثقفي الكوفي المتوفى ٢٨٤هـ ـ ق في كتاب الغارات.

بعث أمير المؤمنين عليّ عليه السلام جارية بن قُدامة إلى أهل البصرة على ما يأتي تفصيله في المعنى، وكتب معه هذا الكتاب إليهم، وهذا المختار بعض ذلك الكتاب وهذه صورته الكاملة:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من قُرِيء عليه كتابي هذا من ساكني البصرة من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم أمّا بعد، فإنّ الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة قبل البيّنة. ولا يأخذ المذنب عند أوّل وهلة، ولكنّه يقبل التوبة، ويستديم الأناة، ويرضى بالإنابة، ليكون أعظم للحجّة، وأبلغ في المعذرة.

وقد كان من انتشار حبلكم وشقاقكم ما لم تغبّوا عنه فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السّيف عن مدبركم، وقبلتُ من مقبلكم، وأخذت بيعتكم، فإن تفوا ببيعتي، وتقبلوا نصيحتي، وتستقيموا على طاعتي، أعمل فيكم بالكتاب والسنّة وقصد الحق وأُقيم فيكم سبيل الهدى، فوالله ما أعلم أنّ والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلم بذلك منّي ولا أعمل بقولي، أقول قولي هذا صادقاً غير ذامٍ لمن مضى، ولا متنقص لأعمالهم.

(١) الغارات: ٢/ ٤٠٣، ونهج السعادة: ٥/ ١٦٥.

وإن خطت بكم الأهواء المردية، وسفه الآراء الجائرة إلى منابذتي تريدون خلافي فها أناذا قد قرّبت جيادي، ورحلت ركابي، وأيمُ الله لئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعنَّ بكم وقعةً لا يكون يوم الجمل إليها إلاّ كلعقة لاعق مع أنّي عارف لذي الطاعة منكم فضله، ولذي النصيحة حقّه، غير متجاوز متهماً إلى بريء، ولا ناكثاً إلى وفيّ.

وإنّي لظانٌّ أن لا تجعلوا إن شاء الله على أنفسكم سبيلاً، وقد قدّمت هذا الكتاب إليكم حجّة عليكم ولن أكتب إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استغششتم نصيحتي، ونابذتم رسولي حتّى أكون أنا الشاخص نحوكم إن شاء الله تعالى والسّلام(١).

اللغة

(الحبل) كناية عن العهد و**(الانتشار)** كناية عن نقضه. قال الراغب في «**المفردات**»: الحبل معروف، قال عزَّ وجلَّ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المَسَد: الآية ٥] وشبّه به من حيث الهيئة حبل الوريد وحبل العاتق والحبل المستطيل من الرمل وأستعير للوصل ولكلّ ما يتوصّل به إلى شيء، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣] فحبله هو الذي معه التوصل به إليه من القرآن والعقل وغير ذلك ممّا إذا اعتصمت به أدّاك إلى جواره، ويقال للعهد: حبلٌ. انتهى.

(لم تغبوا عنه) ذهب الشراح والمترجمين إلى أنَّ كلمة تغبوا مشتقّة من غبي فهي في الأصل ناقصة اللاّم، قال الفاضل الشارح المعتزلي: ما لم تغبوا عنه أي لم تسهوا عنه ولم تغفلوا، يقال: غبت عن الشيء أغبي غباوة إذا لم يفطن، وغبي الشيء عليَّ كذلك إذا لم تعرفه، وفلان غبيّ علي فعيل، أي قليل الفطنة، وقد تغابى، أي تغافل، يقول لهم: **(قد كان من خروجكم يوم الجمل عن الطاعة ونشركم حبل الجماعة وشقاقكم إلى ما لستم أغبياء عنه فعفوت ورفعت السيف وقبلت التوبة)**. انتهى كلامه، وهكذا قد حذا حذوه غيره من الشراح.

قلت: الكلمة مشتقة من الإغباب فهي في الأصل مضاعف، وهي مختار الشريف الرضي، كما في النسخة الّتي قوبلت وصحّحت على نسخته، وقد مرَّ ذكرها غير مرّة، والكلمة المشكولة في تلك النسخة بضمّ التاء وكسر الغين المعجمة وتشديد الباء الموحّدة، قال ابن الأثير في «**النهاية**»: وفي حديث هشام كتب إليه الجنيد يُغِبُّ عن هلاك المسلمين أي لم يخبره بكثرة من هلك منهم مأخوذ من الغبّ الورد فاستعاره لموضع التقصير في الإعلام بكنه الأمر، وقيل: هو من الغبّة وهي البلغة من العيش. انتهى.

---

(١) الغارات: ٢/٤٠٤، ونهج السعادة: ٥/٦٦.

(خطت بكم) أي تجاوزت من الخطو، **(المردية)**: المهلكة، **(الجائرة)** المائلة عن الحق **(المنابذة)** المخالفة والمظاهرة للعداوة **(فها أنذا)** أو فهأنذا، أصلهما فها أنا ذا.

(جياد) جمع جواد، أي فرس سريع الجري رائع، **(الركاب)**: الإبل، رحل البعير من باب منع أي شدّ على ظهره الرحل، والرحل مركب للبعير أصغر من القتب، وفي **«منتهى الأرب»**: رحل البعير رَحْلاً پالان برنهاد برشتر.

(اللعقة) بفتح اللاّم فعلة للمرّة من اللعق بمعنى اللحس، وفي بعض النسخ مشكولة بضمّها كلقمه وهي اسم ما تأخذه في الملعقة أو الأصبع، والقليل ممّا يُلعق ولكنَّ الأولى مطابقة لمختار الرضي وهي كناية عن قلّة اللّبث، **(ولا ناكثاً)** أي ناقضاً لعهده.

الإعراب

(ما لم تغبوا عنه) كلمة **(ما)** اسم كان أُخّر عن الخبر المقدّم لتوسع الظروف **(فهأنذا)** جواب إن الشرطية في قوله: فإن خطت **(إلى منابذتي)** متعلّق بقوله: خطت، **(اللاّم)** في **(لئن ألجأتموني)** تسمّى اللاّم المؤذنة والموطّئة أيضاً وهي اللاّم الداخلة على أداة الشرط وأكثر ما تدخل على إن، سميّت المؤذنة للإيذان بأنَّ الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط سواء كان ذلك القسم مذكوراً أو مقدراً، وسميّت الموطئة لأنها وطأت أي مهّدت الجواب للقسم، واللاّم في **(لأوقعنَّ)** لام جواب القسم، وجملة: **(لا يكون يوم الجمل)**، الخ، صفة للوقعة.

(غير) منصوب حال بضمير إنّي **(متهماً)** على صيغة المفعول.

المعنى

قد علمت أنَّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام بعث جارية بن قدامة إلى أهل البصرة وكتب معه هذا الكتاب إليهم قال كاتب الواقدي محمد بن سعد في **«الطبقات الكبرى» (ص٥٦ ج٧ من طبع مصر)**: جارية بن قدامة السعدي بن زهير بن الحصين بن رزاح بن أسعد بن بجير بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

قال: أخبرنا عبد الله بن نمير قال: حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن الأحنف بن قيس عن ابن عمّ له يقال له جارية بن قدامة أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني وأقلل لي لعلي أعيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تغضب، ثمَّ أعاده عليه فقال: لا تغضب، حتّى أعاد عليه مراراً كلّ ذلك يقول له: لا تغضب[1].

(١) المعبر الكبير: ٢/ ٢٦٣، وتحف العقول: ٤٧.

قال: وجارية بن قدامة فيمن شهد قتل عمر بن الخطّاب، قال: وكنّا آخر من دخل عليه فسألناه وصيّة ولم يسألها إيّاه أحد قبلنا.

ولجارية بن قدامة أخبار ومشاهد كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعثه إلى البصرة وبها عبد الله بن عامر بن الحضرمي خليفة عبد الله بن عامر بن كريز فحاصره في دار سنبيل رجل من بني تميم وكان معاوية بعثه إلى البصرة يبايع له، انتهى كلام ابن سعد.

قلت: كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل البصرة هذا الكتاب مع جارية في الواقعة التي أشار إليها ابن سعد وسيأتي تفصيل ذلك.

قوله عليه السلام: **(وقد كان من انتشار حبلكم ـ إلى قوله: وقبلت من مقبلكم)** لمّا نقض أهل البصرة عهدهم الّذي عاهدوه أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام ونكثوا بيعتهم إيّاه في وقعت الجمل عبّر عن فعلهم هذا بقوله **(انتشار حبلكم)** فالحبل كناية عن العهد والانتشار عن النكث كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: الآية ٩٢]، وقوله عليه السلام: ما لم تغبّوا عنه أي كنتم عالمين بما فعلتم من نقض عهدكم، ثمّ نبّههم بما فعل بعد ظفره عليهم من الإكرام والإحسان في إزاء ما أساؤوا به بقوله: **(فعفوت عن مجرمكم)** وقد مضى ذكر سيرته عليه السلام في أهل البصرة في شرحنا على المختار الثاني من باب الكتب (ص٩٣ ج١٧) وسيرته عليه السلام في كلّ موطن لقيه عدوّ في شرحنا على المختار الرابع عشر من ذلك الباب (ص١٣٣ ج١٨).

قوله عليه السلام: **(فإن خطت بكم الأمور ـ الخ)** لمّا كان معاوية بعث بعد وقعت الجمل عبد الله بن عامر الحضرميّ إلى البصرة ليبايعهم له وكان سفه آرائهم الجائرة وأمورهم المهلكة يجرّ أهلها إلى مخالفة أمير المؤمنين عليه السلام ونقض عهده ثانياً أخبرهم موعداً بقوله فإن خطت اهـ، أي إن عدتم إلى الفتنة ونقض العهد بتلك الأمور والآراء من أهل الهوى والضلال فها أناذا قد استعدت للقتال والكرّة حتّى قرّبت جيادي ورحلت ركابي ولئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعنّ بكم وقعة أي حرباً لا يكون وقعت الجمل بالنسبة إليها في الحقارة والخفّة إلاّ كلحسة لاحس، وكأنّ في كلامه عليه السلام **(لئن ألجأتموني)** إشارة إلى العفو عمّا مضى منهم أي إن كنتم إلى الآن اتبعتم تلك الآراء فإن تبتم وعدتم إلى الحق عفوت عنكم وإلاّ فلا بدّ لي إلا المسير إليكم فأوقعن بكم كذا وكذا.

قوله عليه السلام: **(مع إنّي عارف ـ الخ)** أردف كلامه في الإيعاد والتهديد بالتحبيب والتأليف فقال: **(مع إنّي عارف بفضل ذي الطاعة منكم وحق ذي النصيحة منكم لا آخذ متّهماً ببريء، ولا ناكثاً بوفيّ)**.

نعم إنّ من هو سلطان العالم الأرضي وخليفة الله فيه وربّ إنسانيّ فائز بالخواصّ النبويّة فهو يؤتي كلّ ذي حق حقه ولا يتصور فيه أن يتجاوز متّهماً إلى بريء أو ناكثاً إلى وفيّ وإنما التجاوز من دأب أبناء الدُّنيا وعبيد الهوى، هذا هو زياد بن أبيه خطب بالبصرة الخطبة المشهورة الّتي تدعى البتراء ذكرها أبو عثمان الجاحظ في **«البيان والتبيين»** ج٢ ص٦١، وابن قتيبة في **«عيون الأخبار»** ج٢ ص٣٤١ وأبو جعفر الطبري في حوادث سنة ٤٥ من **«تاريخه»**، وأبو علي القالي في **«ذيل الأمالي»** ص١٨٥ من طبع مصر، وأتى بها صاحب **«العقد الفريد»** أيضاً.

قال الجاحظ: قال أبو الحسن المدائني وغيره ذكر ذلك عن مسلمة بن محارب وعن أبي بكر الهذليّ قالا: قدم زياد البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان وضمّ إليه خراسان وسجستان فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ولم يصلّ علي النبيّ:

أما بعد، فإنَّ الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغيّ الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ـ إلى أن قال: وإنّي لأقسم بالله لآخذنَّ الوليّ بالوليّ **(وفي نسخة العقد: لآخذن الولي بالمولى)**، والمقيم بالظّاعن والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم ـ إلى آخر الخطبة.

قال: فقام إليه أبو بلال مرداس بن أديّة، وهو يهمس ويقول: أنبأنا الله بغير ما قلت، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النّجم: ٣٧ ـ ٣٩] وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي والمقبل بالمدبر. فسمعه زياد فقال: إنّا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً.

وقال الجاحظ في أوَّل الجزء الثاني من **«البيان والتبيين»**: إنّ خطباء السّلف الطيّب، وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمّون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد البتراء، ويسمّون التي لم توشّح بالقرآن وتزيّن بالصّلاة على النبي ﷺ الشوهاء.

وأمّا ذكر تفصيل الواقعة فقد أفاد الفاضل الشارح المعتزلي في الجزء الرابع من شرحه على المختار السادس والخمسين من باب الخطب من النهج أوّله: ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ نقتل آبائنا وأبنائنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ـ الخ، بقوله: وهذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في قصة ابن الحضرمي حيث قدم البصرة من قبل معاوية واستنهض أمير المؤمنين أصحابه إلى البصرة فتقاعدوا، قال: قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب الغارات: حدّثنا محمد بن يوسف قال: حدّثنا

الحسن بن علي الزعفراني عن محمد بن عبد الله بن عثمان عن ابن أبي سيف عن يزيد بن حارثة الأزدي عن عمرو بن محصن؛ أنّ معاوية لما أصاب محمد بن أبي بكر بمصر وظهر عليها دعا عبد الله بن عامر الحضرمي فقال له: سر إلى البصرة فإنّ جلّ أهلها يرون رأينا في عثمان ويعظمون قتله وقد قتلوا في الطلب بدمه فهم متودّدون حنقون لما أصابهم ودّوا لو يجدون من يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم في الطلب بدم عثمان واحذر ربيعة وانزل في مضر وتودّد الأزد فإنّ الأزد كلّها معك إلاّ قليلاً منهم، وإنهم إن شاء الله غير مخالفيك.

فقال عبد الله الحضرمي له: أنا سهم في كنانتك وأنا من قد جربت وعدوّ أهل حربك وظهيرك على قتلة عثمان فوجّهني إليهم متى شئت، فقال: اخرج غداً إن شاء الله، فودّعه وخرج من عنده.

فلمّا كان الليل جلس معاوية وأصحابه يتحدثون فقال لهم معاوية: في أيّ منزل ينزل القمر الليلة؟ فقال: بسعد الذابح، فكره معاوية ذلك وأرسل إليه أن لا تبرح حتّى يأتيك أمري، فأقام، ورأى معاوية أن يكتب إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر عامله عليها يستطلع رأيه في ذلك، فكتب إليه وقد كان تسمّى بإمرة المؤمنين بعد يوم صفين وبعد تحكيم الحكمين:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك أما بعد، فإنّي قد رأيت رأياً هممت بإمضائه ولم يخذلني عنه إلاّ استطلاع رأيك فإن يوافقني أحمد الله وأمضيه، وإن يخالفني فإنّي أستخير الله وأستهديه، إنّي نظرت في أمر أهل البصرة فوجدت معظم أهلها لنا وليّاً ولعليّ وشيعته عدواً وقد أوقع علمه بهم الواقعة الّتي علمت فأحقاد تلك الدماء ثابتة في صدورهم لا تبرح ولا تريم، وقد علمت أن قتلنا ابن أبي بكر ووقعتنا بأهل مصر قد أطفأت نيران أصحاب عليّ في الآفاق ورفعت رؤوس أشياعنا أين ما كانوا من البلاد، وقد بلغ من كان بالبصرة على مثل رأينا من ذلك ما بلغ الناس وليس أحد ممّن يرى رأينا أكثر عدداً ولا أضرّ خلافاً على عليّ من أولئك فقد رأيت أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرمي فينزل من مضر ويتودّد الأزد ويحذر ربيعة ويبتغي دم ابن عفان ويذكرهم وقعة عليّ بهم الّتي أهلكت صالحي إخوانهم وآبائهم وأبنائهم فقد رجوت عند ذلك أن يفسد على عليّ وشيعته ذلك الفرج من الأرض ومتى يؤتى من خلفهم وأمامهم يضلّ سعيهم ويبطل كيدهم فهذا رأيي فما رأيك؟ فلا تحبس رسولي إلاّ قدر مضي الساعة الّتي ينتظر فيها جواب كتابي هذا أرشدنا الله وإيّاك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية: أما بعد، فقد بلغني رسولك وكتابك فقرأته وفهمت رأيك الّذي رأيته فعجبت له وقلت: إنّ الّذي ألقاه في روعك وجعله في نفسك هو الثائر بابن عفّان والطالب بدمه وأنّه لم يك منك ولا منا منذ نهضنا في هذه الحرب ونادينا

أهلها ولا رأى الناس رأياً أضرّ على عدوّك ولا أسرّ لوليّك من هذا الأمر الّذي ألهمته، فامض رأيك مسدّداً فقد وجهت الصليب الأريب الناصح غير الظنين والسلام.

فلمّا جاءه كتاب عمرو دعا ابن الحضرمي، وقد كان ظنّ حين تركه معاوية أياماً لا يأمره بالشخوص أنّ معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى غير ذلك الوجه فقال: يا ابن الحضرمي سر على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل في مضر واحذر ربيعة وتودّد الأزد وانع ابن عفّان وذكّرهم الوقعة الّتي أهلكتهم ومنّ لمن سمع وأطاع دينا [دنيا] لا تفنى وأثرة لا تفقدها حتّى يفقدنا أو نفقده.

فودّعه ثمَّ خرج من عنده وقد دفع إليه كتاباً وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس، قال عمرو بن محصن: فكنت معه حين خرج فلمّا خرجنا سرنا ما شاء الله أن نسير فسنح لنا ظبي أعضب عن شمائلنا فنظرت إليه فوالله لرأيت الكراهية في وجهه ثمَّ مضينا حتّى نزلنا البصرة في بني تميم فسمع بقدومنا أهل البصرة فجاءنا كلّ من يرى رأي عثمان فاجتمع إلينا رؤوس أهلها.

فحمد الله ابن الحضرمي وأثنى عليه ثمَّ قال: أما بعد أيها الناس، فإنّ إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفّان قتله عليّ بن أبي طالب ظلماً فطلبتم بدمه وقاتلتم من قتله فجزاكم الله من أهل مصر خيراً وقد أُصيب منكم الملاء الأخيار وقد جاءكم الله بإخوان لكم لهم بأس يتقى وعدد لا يحصى فلقوا عدوكم الّذي قتلوكم فبلغوا الغاية التي أرادوا صابرين ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا فمالؤهم وساعدوهم وتذكروا آثاركم لتشفوا صدوركم من عدوِّكم.

فقام إليه الضّحاك بن عبد الله الهلالي فقال: قبح الله ما جئتنا به وما دعوتنا إليه جئتنا والله بمثل ما جاء به صاحباك طلحة والزبير، آتيانا وقد بايعنا علياً واجتمعنا له فكلمتنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم فدعوانا إلى الفرقة وقاما فينا بزخرف القول حتى ضربنا بعضنا ببعض عدواناً وظلماً فاقتتلنا على ذلك، وأيم الله ما سلمنا من عظيم وبال ذلك ونحن الآن مجمعون على بيعة هذا العبد الصالح الّذي أقال العثرة وعفا عن الشيء [المسيء] وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أغمادها ثمَّ يضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً وتكون له وزيراً ونعدل بهذا الأمر عن علي عليه السلام والله ليوم من الأيّام عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله خير من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدُّنيا، ما الدُّنيا باقية.

فقام عبد الله بن حازم السلمي فقال للضحّاك: اسكت فلست بأهل أن تتكلّم في أمر العامّة، ثمَّ أقبل على ابن الحضرمي فقال: نحن يدك وأنصارك والقول ما قلت وقد فهمنا عنك فادعنا أنّى شئت.

فقال الضّحاك لابن حازم: يا ابن السوداء والله لا يعزّ من نصر، ولا يذلّ بخذلانك من خذلت، فتشاتما، قال صاحب كتاب الغارات: والضّحّاك هذا هو الّذي يقول:

يا أيها ذا السائلي عن سببي بين ثقيف وهلال منصبي
أمّي أسماء وضحّاك أبي

قال: وهو القائل في بني العبّاس:

ما ولدت من ناقة لفحل في جبل نعلمه وسهل
كستّة من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل
عمّ النّبي المصطفى ذي الفضل وخاتم الأنبياء بعد الرسل

قال: فقام عبد الرّحمن بن عمير بن عثمان القرشي ثمّ التّيمي فقال: عباد الله إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفرقة لا نريد أن تقتلوا ولا تتنابزوا ولكنّا إنما ندعوكم إلى أن تجمعوا كلمتكم وتوازروا إخوانكم الّذين هم على رأيكم، وأن تلموا شعثكم وتصلحوا ذات بينكم فمهلاً مهلاً ورحمكم الله استمعوا لهذا الكتاب وأطيعوا الذي يقرأ عليكم.

ففضّوا كتاب معاوية وإذا فيه: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى من قرأ كتابي هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة: سلام عليكم أمّا بعد، فإنّ سفك الدّماء بغير حلّها، وقتل النفوس الّتي حرّم الله قتلها هلاك موبق وخسران مبين، لا يقبل الله ممّن سفكها صرفاً ولا عدلاً وقد رأيتم رحمكم الله آثار ابن عفان وسيرته وحبّه للعافية ومعدلته وسدّه للثغور وإعطاءه في الحقوق وإنصافه للمظلوم وحبّه للضعيف حتى توثب عليه المتوثبون وتظاهر عليه الظالمون فقتلوه مسلماً محرماً ظمآن صائماً لم يسفك فيهم دماً، ولم يقتل فيهم أحداً، ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوط، وإنا ندعوكم أيّها المسلمون إلى الطلب بدمه، وإلى قتال من قتله، فإنا وإيّاكم على أمر هدي واضح، وسبيل مستقيم إنّكم إن جامعتمونا طفئت النائرة وأجمعت الكلمة واستقام أمر هذه الأمّة وأقرّ الظالمون المتوثبون الّذين قتلوا إمامهم بغير حق فأخذوا بجرائرهم وما قدّمت أيديهم إنّ لكم أن أعمل فيكم بالكتاب وإن أعطيتم في السنّة عطائين ولا أحتمل فضلاً من فيئكم عنكم أبداً فسارعوا إلى ما تدعون رحمكم الله، وقد بعث إليكم رجلاً من الصالحين كان من أمناء خليفتكم المظلوم ابن عفّان وعمّاله وأعوانه على الهدى والحق جعلنا الله وإيّاكم ممّن يجيب إلى الحق ويعرفه وينكر الباطل يجحده، والسلام عليكم ورحمة الله.

قال: ولما قريء عليهم الكتاب قال معظمهم: سمعنا وأطعنا.

قال: وروى محمد بن عبد الله بن عثمان، عن عليّ بن أبي طالب، عن أبي زهير عن

أبي منقر الشيباني قال: قال الأحنف: لمّا قريء عليهم كتاب معاوية: أمّا أنا فلا ناقة لي في هذا ولا جمل وأعتزل أمرهم ذلك، وقال عمرو بن مرحوم من عبد القيس: أيّها الناس ألزموا طاعتكم ولا تنكثوا بيعتكم فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة ولا يكن بعدها لكم بقية ألا إنّي قد نصحت لكم ولكن لا تحبّون الناصحين.

قال إبراهيم بن هلال: وروى محمد بن عبد الله عن ابن أبي سيف، عن الأسود بن قيس، عن ثعلبة بن عباد: إنَّ الذي كان سدَّد لمعاوية رأيه في تسريح ابن الحضرمي كتاب كتبه إليه عبّاس بن صخّار العبدي، وهو ممّن كان يرى رأي عثمان ويخالف قومه في حبّهم عليّاً ونصرتهم إيّاه وكان الكتاب: أما بعد فقد بلغنا وقعتك بأهل مصر الذين بغوا على إمامهم وقتلوا خليفتهم طمعاً وبغياً فقرّت بذلك العيون وشفيت بذلك النفوس وبردت أفئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ولعدوّه مفارقين ولكم موالين وبك راضين، فإن رأيت تبعث إلينا أميراً طيّباً زكيّاً ذا عفاف وديّن إلى الطلب بدم عثمان فعلت فإنّي لا إخال النّاس إلاّ مجمعين عليك، وإنَّ ابن عبّاس غائب عن المصر والسلام.

قال: فلمّا قرأ معاوية كتابه: قال: لا عزمت رأياً سوى ما كتب به إليَّ هذا، وكتب إليه جوابه:

أمّا بعد، فقد قرأت كتابك فعرفت نصحيتك، وقبلت مشورتك: رحمك الله وسدّدك أثبت هداك الله على رأيك الرشيد فكأنك بالرجل الّذي سألت قد أتاك وكأنك بالجيش قد أظلّ عليك فسررت وحببت والسلام.

قال إبراهيم: وحدَّثنا محمد بن عبد الله قال: حدَّثني عليّ بن أبي سيف عن أبي زهير قال: لما نزل ابن الحضرمي في بني تميم أرسل إلى الرؤوس فأتوه فقال لهم: أجيبوني إلى الحق وانصروني على هذا الأمر، قال: وإنَّ الأمير بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عبّاس وقدم على عليّ عليه السلام إلى الكوفة يعزّيه عن محمد بن أبي بكر قال: فقام إليه ابن صخّار فقال: إي والّذي له أسعى وإيّاه أخشى لننصرنّك بأسيافنا وأيدينا.

وقام المثنى بن مخزمة العبدي فقال: لا والّذي لا إله إلا هو لأن لم ترجع إلى مكانك الّذي أقبلت منه لنجاهدنّك بأسيافنا وأيدينا ونبالنا وأسنّة رماحنا نحن ندع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسيّد المسلمين وندخل في طاعة حزب من الأحزاب طاغٍ؟ والله لا يكون ذلك أبداً حتى تسير كتيبة ونفلق السيوف بالهام.

فأقبل ابن الحضرمي على صبرة بن شيمان الأزدي فقال: يا صبرة أنت رأس قومك

وعظيم من عظماء العرب وأحد الطلبة بدم عثمان رأينا رأيك، ورأيك رأينا وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورأيت فانصرني وكن من دوني.

فقال له: إن أنت أتيتني فنزلت في داري نصرتك ومنعتك.

فقال: إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أترك في قومه من مصر، فقال: اتبع ما أمرك به، وانصرف من عنده وأقبل الناس إلى ابن الحضرمي وكثر تبعه ففزع لذلك زياد وهاله وهو في دار الإمارة فبعث إلى الحصين بن المنذر ومالك بن مسمع فدعاهما فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أما بعد، فإنّكم أنصار أمير المؤمنين وشيعته وثقته وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم فأجيروني حتّى يأتيني أمر أمير المؤمنين ورأيه.

فأما مالك بن مسمع فقال: هذا أمر فيه نظر أرجع إلى من ورائي وأنظر وأستشير وألقاك.

وأما حصين بن المنذر فقال: نحن فاعلون ولن نخذلك ولن نسلمك، فلم ير زياد من القوم ما يطمئن إليه فبعث إلى صبرة بن شيمان الأزدي فقال: يا ابن شيمان أنت سيّد قومك وأحد عظماء هذا المصر فإن يكن فيه أحد هو أعظم أهله فأنت ذاك، أفلا تجيرني وتمنعني وتمنع بيت مال المسلمين فإنّما أنا أمين عليه؟ فقال: بلى إن تحمّلت حتّى تنزل في داري منعتك، فقال: إنّي فاعل. فارتحل ليلاً حتّى نزل دار صبرة بن شيمان، وكتب إلى عبد الله بن عبّاس ولم يكن معاوية ادعى زياداً بعد، لأنّه إنّما ادّعاه بعد وفاة علي عليه السلام.

للأمين عبد الله بن عبّاس من زياد بن عبيد سلام عليك أما بعد فإنّ عبد الله بن عامر بن الحضرمي قبل من قبل معاوية حتّى نزل في بني تميم، ونعى ابن عفّان ودعا إلى الحرب فبايعه جلّ أهل البصرة فلمّا رأيت ذلك استجرت بالأزد بصبرة بن شيمان وقومه لنفسي ولبيت مال المسلمين ورحلت من قصر الإمارة فنزلت فيهم وإنّ الأزد معي، وشيعة أمير المؤمنين من فرسان القبائل يختلف إليّ، وشيعة عثمان يختلف إلى ابن الحضرمي، والقصر خالٍ منّا ومنهم فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين ليرى فيه رأيه وأعجل إليّ بالذي ترى أن تكون منه فيه، والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فرفع ذلك ابن عبّاس إلى عليّ عليه السلام وشاع في النّاس بالكوفة ما كان ذلك، وكانت بنو تميم وقيس ومن يرى رأي عثمان قد أمروا ابن الحضرمي أن يسير إلى قصر الإمارة حين خلاه زياد، فلما تهيّأ لذلك ودعا أصحابه ركبت الأزد وبعثت إليه وإليهم: إنا والله لا ندعكم تأتون القصر فتنزلون فيه من لا يرضى ومن نحن له كارهون حتى يأتي رجل لنا ولكم رضا فأبى أصحاب ابن الحضرمي إلاّ أن يسيروا إلى القصر، وأبت الأزد إلاّ أن يمنعوهم، فركب الأحنف فقال لأصحاب ابن الحضرمي: إنّكم والله ما أنتم بأحق بقصر

الأمارة من القوم ومالكم أن تؤمروا عليهم من يكرهونه، فانصرفوا عنهم ففعلوا، ثمَّ جاء إلى الأزد فقال: إنّه لم يكن ما تكرهون ولا يؤتى إلاّ ما تحبّون فانصرفوا رحمكم الله، ففعلوا.

قال إبراهيم: وحدَّثنا محمد بن عبد الله بن أبي سيف عن الكلبي: أنَّ ابن الحضرمي لمّا أتى البصرة ودخلها نزل في بني تميم في دار سبيل ودعا بني تميم وأخلاط مضر، فقال زياد لأبي الأسود الدؤلي: أما ترى ما صنعوا أهل البصرة إلى معاوية ما في الأزد لي مطمع؟ فقال: إن كنت تركتهم لم ينصروك وإن أصبحت فيهم منعوك.

فخرج زياد من ليلته فأتى صبرة بن شيمان الحداني الأزدي فأجاره، وقال له حين أصبح: يا زياد إنّه ليس حسناً بنا أن تقيم فينا مختفياً أكثر من يومك هذا، فأعدَّ له منبراً وسريراً في مسجد الحدان وجعل له شرطاً وصلّى بهم الجمعة في مسجد الحدان، وغلب ابن الحضرمي على ما يليه من البصرة وجباها وأجمعت الأزد على زياد فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال:

يا معشر الأزد إنّكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي، وأولى الناس بي وإنّي لو كنت في بني تميم وابن الحضرمي فيكم لم أطمع فيه أبداً وأنتم دونه، فلا يطمع ابن الحضرمي فيَّ وأنتم دوني، وليس ابن آكلة الأكباد في بقيّة الأحزاب وأولياء الشيطان بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار وقد أصبحت فيكم مضموناً وأمانة مرادّة وقد رأينا وقعتكم يوم الجمل فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل فإنّكم لا تحمدون إلاّ على النجدة ولا تعذرون على الجبن.

فقام شيمان أبو صبرة ولم يكن شهد يوم الجمل وكان غائباً فقال: يا معشر الأزد ما أبقيت عواقب الجمل عليكم إلاّ سوء الذكر وقد كنتم أمس على عليٍّ فكونوا اليوم له، واعلموا أن إسلامكم ذل، وخذلانكم إيّاه عار، وأنتم حتى مضماركم الصبر، وعاقبتكم الوفاء، فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم وإن استمدّوا معاوية فاستمدّوا عليّاً، وإن وادعوكم فوادعوهم.

ثمَّ قال صبرة ابنه فقال: يا معشر الأزد إنا قلنا يوم الجمل نمنع مصرنا ونطيع أمنا، فنطلب دم خليفتنا المظلوم فجدّدنا في القتال وأقمنا بعد انهزام الناس حتّى قتل منّا من لا خير فينا بعده، زياد جاركم اليوم والجار مضمون ولسنا نخاف من عليّ ما نخاف من معاوية فهبوا لنا أنفسكم وامنعوا جاركم أو فابلغوه مأمنه.

فقالت الأزد: إنما نحن لكم تبع فأجيروه، فضحك زياد وقال: يا صبرة أتخشون أن لا تقوموا لبني تميم؟ فقال صبرة: إن جاؤونا بالأحنف جئناهم بأبي صبرة، وإن جاؤوا بالحباب

جئت أنا وإن كان فيهم شباب كثير، فقال زياد: إنما كنت مازحاً.

فلمّا رأت بنو تميم أنَّ الأزد قد قامت دون زياد بعثت إليهم: أخرجوا صاحبكم ونحن نخرج صاحبنا فأيّ الأميرين غلب عليّ أو معاوية دخلنا في طاعته ولا نهلك عامّتنا.

فبعث إليهم أبو صبرة: إنما كان هذا يرجى عندنا قبل أن نجيره، ولعمري ما قتل زياد وإخراجه إلاّ سوءاً وأنّكم لتعلمون أنّا لم نجره إلاّ كرماً، فألهوا عن هذا.

قال: وروى أبو الكنود أنّ شبث بن ربعي قال لعليّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين ابعث إلى هذا الحيّ من تميم فادعهم إلى طاعتك ولزوم بيعتك ولا تسلّط عليهم أزد عمان البعداء البغضاء فإنَّ واحداً من قومك خير لك من عشرة من غيرهم.

فقال له مخنف بن سليم الأزدي: إنَّ البعيد البغيض من عصى الله وخالف أمير المؤمنين وهم قومك، وإنّ الحبيب القريب من أطاع الله ونصر أمير المؤمنين وهم قومي وأحدهم خير لأمير المؤمنين من عشرة قومك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: مه تناهوا أيها النّاس وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغي والتهاذي، ولتجمع كلمتكم، والزموا دين الله الّذي لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص الّتي هي قوام الدّين، وحجّة الله على الكافرين، واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين متفرقين فألّف بينكم بالإسلام فكثرتم واجتمعتم وتحاببتم فلا تفرّقوا بعد إذ اجتمعتم، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببتم، وإذا رأيتم النّاس وبينهم النائرة وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل فاقصدوا لهامهم ووجوهم بالسيف حتى يفزعوا إلى الله وإلى كتابه وسنة نبيّه فأما تلك الحميّة من خطرات الشياطين فانتهوا عنها لا أبا لكم تفلحوا وتنجحوا.

ثمَّ إنّه عليه السلام دعى أعين بن صبيعة المجاشعي وقال: يا أعين ألم يبلغك أنَّ قومك وثبوا إلى عاملي مع ابن الحضرمي بالبصرة يدعون إلى فراقي وشقاقي ويساعدون الضلاَّل القاسطين عليَّ.

فقال: لا تساء يا أمير المؤمنين ولا يكن ما تكره ابعثني إليهم فأنا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم ونفي ابن الحضرمي من البصرة أو قتله.

قال عليه السلام: فاخرج الساعة، فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة، هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات[1].

---

(١) الغارات: ٢/ ٣٩٦ ح٣، ونهج السعادة: ٢/ ٤٧٨.

وروى الواقدي أنّ علياً عليه السلام استنفر بني تميم أيّاماً لينهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي ويردّ غادية بني تميم الذين أجاروه بها فلم يجبه أحد فخاطبهم وقال: أليس من العجب أن ينصرني الأزد وتخذلني مضر؟ وأعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي وخلاف تميم البصرة عليَّ، وأن أستنجد بطائفة منها بشخص إلى إخوانها فيدعوهم إلى الرشاد فإن أجابت وإلاّ فالمنابذة والحرب فكأنّي أُخاطب صمّاً بكماً لا يفقهون حواراً، ولا يجيبون نداءً، كلّ هذا جبناً عن البأس وحبّاً للحياة لقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبنائنا ـ الفصل إلى آخره.

قال: فقام إليه أعين بن ضبيعة المجاشعي فقال: أنا إن شاء الله أكفيك يا أمير المؤمنين هذا الخطب وأتكفل لك بقتل ابن الحضرمي أو إخراجه عن البصرة فأمره بالتهيّوء للشخوص، فشخص حتى قدم البصرة.

قال إبراهيم بن هلال: فلمّا قدمها دخل على زياد وهو بالأزد مقيم فرحّب به وأجلسه إلى جانبه فأخبره بما قال له علي عليه السلام وما ردّ عليه وما الذي عليه رأيه فإنّه يكلمه إذ جاءه كتاب من عليّ عليه السلام فيه:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد: سلام عليك أمّا بعد فإنّي قد بعثت أعين بن ضبيعة ليفرق قومه من ابن الحضرمي فارقب ما يكون منه فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظنّ به وكان في ذلك تفريق تلك الأوباش فهو ما تحبّ وإن ترامت الأُمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان فانبذ من أطاعك إلى من عصاك فجاهدهم فإن ظهرت فهو ما ظننت وإلاّ فطاولهم وماطلهم فكأن كتائب المسلمين قد أطلت عليك فقتل الله المفسدين الظالمين ونصر المؤمنين المحقّين والسلام.

فلمّا قرأه زياد أقرأه أعين بن ضبيعة فقال له: إنّي لأرجو أن يكفي هذا الأمر إن شاء الله.

ثمّ خرج من عنده فأتى رحله فجمع إليه رجالاً من قومه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

يا قوم على ماذا تقتلون أنفسكم وتهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار، وإنّي والله ما جئتكم حتى عبيّت إليكم الجنود فإن تنيبوا إلى الحق يقبل منكم ويكفّ عنكم، وإن أبيتم فهو والله استيصالكم وبواركم.

فقالوا: بل نسمع ونطيع، فقال: انهضوا الآن على بركة الله عزّ وجلّ، فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمي فخرجوا إليه مع ابن الحضرمي فصافوه وواقفهم عامة يومه يناشدهم الله

ويقول: يا قوم لا تنكثوا بيعتكم ولا تخلفوا إمامكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فقد رأيتم وجربتم كيف صنع الله بكم عند نكثكم بيعتكم وخلافكم، فكفّوا عنه ولم يكن بينه وبينهم قتال، وهم في ذلك يشتمونه وينالون منه، فانصرف عنهم وهو منهم منتصف.

فلمّا رأى إلى رحله تبعه عشرة نفر يظنّ النّاس أنهم خوارج فضربوه بأسيافهم وهو على فراشه ولا يظنّ أنَّ الذي كان يكون فخرج يشتدّ عرياناً فلحقوه في الطريق فقتلوه فأراد زياد أن يناهض ابن الحضرمي حين قتل أعين بجماعة من معهم من الأزد وغيرهم من شيعة علي عليه السلام فأرسل بنو تميم من الأزد، والله ما غرضنا لجاركم إذ أجرتموه ولا لما هو له ولا لأحد ليس على رأينا فما تريدون إلى حربنا وإلى جارنا فكأن الأزد عند ذلك كرهت قتالهم.

فكتب زياد إلى علي عليه السلام: أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنّ أعين بن صبيعة قدم علينا من قبلك بجدّ ومناصحة وصدق ويقين فجمع إليه من أطاعه من عشيرته فحثّهم على الطاعة والجماعة، وحذّرهم الخلاف والفرقة ثمَّ نهض بمن أقبل معه إلى من أدبر عنه فوافقهم عامة النهار فهال أهل الخلال تقدمه، وتصدع عن ابن الحضرمي كثير ممّن كان يريد نصرته فكان كذلك حتّى أمسى فأتى في رحله فبنيه نفر من هذه الخارجة المارقة فأصيب رحمه الله فأردت أن أناهض القوم ابن الحضرمي عند ذلك فحدث أمر قد أمرت صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين وقد رأيت ـ إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت ـ أن يبعث إليهم جارية بن قدامة فإنّه نافذ البصيرة ومطاع في العشيرة شديد على عدوّ أمير المؤمنين فإن يقدم يفرّق بينهم بإذن الله، والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلمّا جاء الكتاب دعا جارية بن قدامة فقال عليه السلام له: يا ابن قدامة تمنع الأزد عاملي وتبيت مالي وتشاقني مضر وتنابذني وبنا ابتدأها الله تعالى بالكرامة وعرفه الهدى وتداعوا إلى المعشر الذين حادُّوا الله ورسوله وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه حتى علت كلمة الله وهلك الكافرون، فقال: يا أمير المؤمنين ابعثني إليهم واستعن بالله عليهم، قال: قد بعثتك إليهم واستعنت بالله عليهم.

قال إبراهيم: فحدثنا محمد بن عبد الله قال: حدثني ابن أبي السيف عن سليمان بن أبي راشد عن كعب بن قيعن قال: خرجت مع جارية من الكوفة إلى البصرة في خمسين رجلاً من بني تميم ما كان فيهم يماني غيري وكنت شديد التشيّع فقلت لجارية: إن شئت كنت معك، وإن شئت ملت إلى قومي، فقال: بل معي، فوالله لوددت أن الطير والبهائم تنصرني عليهم فضلاً عن الإنس.

قال: وروى كعب بن قعين أنَّ عليّاً عليه السلام كتب مع جارية كتاباً وقال: اقرأه على

أصحابك، قال: فمضينا معه فلمّا دخلنا البصرة بدأ بزياد فرحّب به وأجلسه إلى جانبه وناجاه ساعة وسائله ثمّ خرج فكان أفضل ما أوصاه به أن قال: احذر على نفسك واتّق أن تلقى ما لقي صاحبك القادم قبلك.

وخرج جارية من عنده فقام في الأزد فقال: جزاكم الله من حيّ خيراً، ما أعظم عناءكم، وأحسن بلاءكم، وأطوعكم لأميركم! لقد عرفتم الحقّ إذ ضيّعه من أنكره، ودعوتم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه، ثمّ قرأ عليهم وعلى من كان معهم من شيعة علي عليه السلام وغيرهم كتاب علي عليه السلام فإذا فيه:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى من قرىء عليه كتابي هذا من ساكني البصرة من المؤمنين والمسلمين - إلى قوله عليه السلام: حتى أكون أنا الشاخص نحوكم إن شاء الله تعالى والسلام، كما تقدّم في المصدر.

قال: فلمّا قرىء الكتاب على الناس قام صبرة بن شيمان فقال: سمعنا وأطعنا ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب، ولمن سالم سلم، إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك، وإن أبيت أن ننصرك نصرناك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه فلم يأذن لأحد منهم أن يسير معه ومضى نحو بني تميم فقام زياد في الأزد فقال:

يا معشر الأزد إنّ هؤلاء كانوا أمس سلماً فأصبحوا اليوم حرباً وإن كنتم حرباً فأصبحتم سلماً وإنّي والله ما اخترتكم إلاّ على التجربة ولا أقمت فيكم إلاّ على الأمل فما رضيتم إذ أجرتموني حتّى نصبتم لي منبراً وسريراً وجعلتم لي شرطاً وأعواناً ومنادياً وجمعة، فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلاّ هذا الدرهم لا أجبه اليوم فإن لا أجبه اليوم أجبه غداً إن شاء الله، واعلموا أنّ حربكم اليوم معاوية أيسر عليكم في الدُّنيا والدِّين من حربكم أمس عليّاً، وقد قدّم عليكم جارية بن قدامة وإنّما أرسله عليّ ليصدع أمر قومه والله ما هو بالأمير المطاع ولو أدرك أمله في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين ولكان لي تبعاً، وأنتم الهامّة العظمى والجمرة الحامية فقدّموه إلى قومه فإن اضطرَّ إلى نصركم فسيروا إليه إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبرة بن شيمان فقال: يا زياد إنّي والله لو شهدت قومي يوم الجمل رجوت أن لا يقاتلوا عليّاً وقد مضى الأمر بما فيه وهو يوم بيوم وأمر بأمر والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسيء والتوبة مع الحق والعفو مع الندم ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء واستئناف الأمور ولكنّها جماعة دماؤها حرام وجروحها قصاص ونحن

معك نحبّ ما أحببت.

فعجب زياد من كلامه وقال: ما أظنّ في الناس مثل هذا.

ثمّ قام صبرة ابنه فقال: إنّا والله ما أصبنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أُصبنا أمس يوم الجمل، وإنّا لنرجو اليوم أن يمحص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين وأما أنت يا زياد فوالله ما أدركت أملك فينا، ولا أدركنا ما أملنا فيك دون ردّك إلى دارك ونحن رادّوك إليها غداً إن شاء الله تعالى، فإذا فعلنا فلا يكن أحد أولى بك منّا فإنّك إلاّ تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنّا والله نخاف حرب عليّ في الآخرة ما لا نخاف من حرب معاوية في الدُّنيا فقدِّم هواك وأخّر هوانا فنحن معك وطوعك.

ثمّ قام خنفر الجمّاني فقال: أيّها الأمير إنّك لو رضيت منّا بما ترضى به من غيرنا لم نرض ذلك لأنفسنا، سر بنا إلى القوم إن شئت، وأيم الله ما لقينا يوماً قط إلا اكتفينا بعفونا دون جهدنا إلاّ ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأمّا جارية فإنّه كلّم قومه فلم يجيبوه وخرج إليهم منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتموه وأسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزد يستصرخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه فسارت الأزد بزياد وخرج إليهم ابن الحضرمي وعلى خيله عبد الله بن حازم السلمي فاقتتلوا ساعة وأقبل شريك بن الأعور الحارثي وكان من شيعة عليّ عليه السلام وصديقاً لجارية بن قدامة فقال: ألا أُقاتل معك عدوّك؟ فقال: بلى، فما لبثوا بني تميم أن هزموهم واضطرّوهم إلى دار سبيل السعدي فحصروا ابن الحضرمي وحدود مأتي رجل من بني تميم ومعهم عبد الله بن حازم السلمي فجاء أمّه وهي سوداء حبشيّة عجلى فنادته فأشرف عليها فقالت: يا بنيَّ أنزل إليّ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قناعها وسألته النزل فأبى، فقالت: والله لتنزلنّ أو لأتعرين، وأهوت بيدها إلى ساقها فلمّا رأى ذلك نزل فذهبت به وأحاط جارية وزياد بالدّار، وقال جارية: عليّ بالنّار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق بالنّار في شيء وهم قومك وأنت أعلم.

فحرق جارية الدّار عليهم فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلاً أحدهم عبد الرحمٰن بن عمير بن عثمان القرشي ثمّ التميميّ، وسمّي جارية منذ ذلك اليوم محرقاً، وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ومعه بيت المال، وقالت له: هل بقي علينا من جوارك شيء؟ قال: لا، قالوا: فبرءنا منه؟ فقال: نعم، فانصرفوا عنه.

وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعد فإنّ جارية بن قدامة العبد الصالح قدم من عندك فناهض جمع ابن الحضرمي بمن قصره وأعانه من الأزد ففضّه واضطرّه إلى دار من دور

البصرة في عدد كثير من أصحابه فلم يخرج حتّى حكم الله تعالى بينهما فقتل ابن الحضرمي وأصحابه منهم من أحرق بالنار، ومنهم من هدم عليه البيت من أعلاه، ومنهم من قتل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى، والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلمّا وصل كتاب زياد قرأه عليّ عليه السلام النّاس وكان زياد قد أنفذه مع ظبيان بن عمارة، فسرّ علي عليه السلام بذلك وسرّ أصحابه وأثنى على جارية وعلى زياد وعلى الأزد البصرة فقال عليه السلام: «إنها أوّل القرى خراباً إمّا غرقاً وإمّا حرقاً حتّى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة، ثمَّ قال لظبيان: أين منزلك منها؟ فقال: مكان كذا، فقال: عليك بضواحيها»[1].

(١) الغارات: ١/١٩١، وشرح نهج البلاغة: ٤/٥٣.

الترجمة

این نامه ای است که امیرالمؤمنین (عليه السلام) به اهل بصره نوشت:

از گسیختن رشته پیمان و دشمنی خود آگاهید که من از گناهکارتان درگذشتم و از گریزنده شما شمشیر برداشتم و به پوزش روی آورنده را پذیرفتم، پس اگر کارهای تباه کننده و بی خردی اندیشه های بی جا، شما را به جنگ و خلاف با من به راه انداخت، این منم که اسبان تازی راهوار کارزاری خود را نزدیك گردانیده ام و دم دست آورده ام و بر شتران سواری خود پالان نهادم.

و اگر مرا به آمدن ناچار کنید با شما کاری و کارزاری کنم که جنگ جمل در پیش آن چون لیسیدن لیسنده انگشت خود را پس از خوراك بیش نباشد، با این که به پایه فرمانبردار و به حق نیکخواه شما آشنایم، بدون این که از گناهکار درگذرم و به جای آن بی گناه را بگیرم و یا از پیمان شکن بگذرم و به آن که پیمان را به سر برده مؤاخذه کنم.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ـ وهو المختار الثلاثون من باب المختار من كتبه ورسائله

فَاتَّقِ اللَّهَ فِيما لَدَيْكَ، وَانْظُرْ في حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلىٰ مَعْرِفَةِ ما لا تُعْذَرُ بِجَهالَتِهِ فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً [نهجة ـ معاً]، وَغايَةً مُطَّلَبَةً يَرِدُهَا الْأَكْياسُ وَيُخالِفُهَا الْأَنْكاسُ، مَنْ نَكَّبَ عَنْها جارَ عَنِ الْحَقِّ، وَخَبَطَ في التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نَقِمَتَهُ، فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ فَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَناهَتْ بِكَ أُمُورُكَ فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلىٰ غايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، وَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْحَلَتْكَ شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَأَوْرَدَتْكَ المَهالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ المَسالِكَ(١).

المصدر

هذا الفصل اختاره الشريف الرضي رضوان الله عليه على دأبه من كتاب له عليه السلام إلى معاوية وهذه صورته الكاملة:

أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر مشاغبتي، وتستقبح موازرتي، وتزعمني متجبّراً، وعن حقّ الله مقصّراً، فسبحان الله، كيف تستجيز الغيبة؟ وتستحسن العضيهة؟ وإنّي لم أشاغب إلاّ في أمرٍ بمعروف، أو نهيٍ عن منكر ولم أتجبّر [ولم أضجر ـ نسخة] إلاّ على باغٍ مارقٍ، أو ملحد منافقٍ، ولم آخذ في ذلك إلاّ بقول الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]

وأما التقصير في حق الله تعالى فمعاذ الله! والمقصّر في حق الله جل ثناؤه من عطّل الحقوق المؤكّدة، وركن إلى الأهواء المبتدعة، وأخلد إلى الضلال المحيّرة.

ومن العجب أن تصف يا معاوية الإحسان، وتخالف البرهان، وتنكث الوثائق التي هي لله عز جل طلبة، وعلى عباده حجّة، مع نبذ الإسلام، وتضييع الأحكام وطمس الأعلام، والجري في الهوى، والتهوس في الرّدى.

فاتّق الله فيما لديك، وانظر في حقّه عليك ـ إلى آخر الفصل المختار من النهج ـ وإنّ للنّاس جماعة يد الله عليها، وغضب الله على من خالفها، فنفسك نفسك قبل حلول رمسك، فإنّك إلى الله راجع، وإلى حشره مهطع، وسيبهظك كربه ويحلّ بك غمّه، يوم لا يغني النّادم

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٨٣، والغدير: ١٠/ ١٥١.

ندمه، ولا يقبل من المعتذر عذره، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون[(١)].

قلت: إن كلامه عليه السلام أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر مشاغبتي، صريح في أن هذا الكتاب جواب عن كتاب كتبه معاوية إليه ولكن لم نظفر عليه مع كثرة الفحص والتتبّع، وكتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام هذا نقله الشارح المعتزلي والشارح البحراني في المقام وعلم الهدى ابن المولى المحسن الفيض في «**معادن الحكمة**» «ص١٥٩ ج١» وأحمد زكي صفوت في «**جمهرة رسائل العرب**» «ص٤٣٣ ج١» ولم ينقلوا كتاب معاوية بل الأخيرين نقلا كتاب أمير المؤمنين عليه السلام هذا من الأوّلين وأتى به المجلسي في «**ثامن البحار**» «ص٥٤٠» ناقلاً عن البحراني أيضاً.

اللغة

(**مشاغبتي**) الشّغب تهييج الشرّ كالتشغيب وشاغبه شارّه، (**مواربتي**) المواربة: المداهاة والمخاتلة كما في «**القاموس**»، وفي غير واحد من النسخ موازرتي، (**متجبراً**) بالجيم والباء الموحدة كما في عدّة نسخ وفي نسخ أخرى متحيراً بالحاء المهملة والياء المثناة من تحت والأوّل أنسب بما يأتي من قوله عليه السلام: (**ولم أتجبّر إلاّ على باغٍ مارق**)، ومنه يعلم رجحان أتجبّر على أضجر أيضاً.

(**العضيهة**): بالفتح البهيتة وهي الإفك والبهتان كما قاله الجوهري في «**الصحاح**» قال المتوكّل الليثي:

احذر وصال اللئيم إنَّ له عضهاً إذا حبلُ وصله انقطعا

والبيت من الحماسة (**الحماسة ٤٤٢**) قال المرزوقي في شرحه عليها: العضه ذكر القبيح كذباً وزوراً، ويقال عضهته إذا رميته بالزّور، وأعضه الرجل أتى بالعضيهة وهي الإفك، ومن كلامهم يا للعضيهة ويا للأفيكة.

(ركن) إليه، من بابي علم ونصر أي مال إليه وسكن ووثق به.

(**أخلد إلى الضلالة**) قال الجوهري: أخلدت إلى فلان أي ركنت إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦]، (**الطمس**) إزالة الأثر بالمحو، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ [المرسلات: ٨] ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: الآية ٨٨] أي أزل صورتها ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: الآية ٦٦] أي أزلنا

(١) الكافي: ١/ ٤٢٣ ح٥٦، والتوحيد: ٥١.

ضوأها وصورتها كما يطمس الأثر قاله الراغب في «**المفردات**».

(**التهوّس في الردى**) تهوَّس: مشى ثقيلاً في أرض ليّنة كما عن اللّسان، وقال الجوهري في «**الصّحاح**»: الهَوْس السوق اللين، يقال: هستُ الإبل فهاست أي ترعى وتسير.

(**المحجّة**) الطريق الواضحة، و(**النهجة**) الطريق الواضحة أيضاً وأنهج الطريق أي استبان وصار نهجاً واضحاً بيّناً، أي جادّة مستبينة.

(**مطلبة**) بتشديد اللاّم المفتوحة، كما في نسخة الرضي أي مطلوبة، وفي غير واحد من النسخ مطلوبة، وقال المجلسي في «**البحار**»: النسخ المصحّحة متفقة على تشديد الطّاء، فالكلمة على هذا من اطّلب كافعتل، يقال: اطّلبه أي طلبه قال الجوهري في «**الصّحاح**»: طلبت الشيء طلباً وكذلك اطّلبته على افتعلته، وقال الشارح البحراني: مطَّلبة بتشديد الطاء وفتح اللام، أي مطلوبة جدّاً منهم بناءً على أنَّ كثرة المباني تدلُّ على كثرة المعاني، قال الرضي في «**شرح الشافية**»: اعلم أنَّ المزيد فيه لغير الإلحاق لا بدَّ لزيادته من معنى لأنّها إذا لم يكن لغرض لفظي، كما كانت في الإلحاق، ولا لمعنى كانت عبثاً. انتهى.

وقرأها الشارح المعتزلي على سكون الطاء وكسر اللام، حيث قال: قوله غاية مطلبة أي مساعفة لطالبها بما يطلبه، تقول: طلب فلان منّي كذا فأطلبته أي أسعفته به، ثمَّ خطّأ الراوندي بقوله: قال الراوندي: مطلبة بمعنى متطلّبة يقال: طلبت كذا وتطلبته وهذا ليس بشيء يخرج الكلام أن يكون له معنى. انتهى.

قلت: التطلّب طلب الشيء مرَّة بعد أخرى مع تكلّف، ويأبى سياق الكلام عن حمله على هذا المعنى، ولذا قال الشارح المذكور ردًّا على الراوندي: وهذا ليس بشيء يخرج الكلام عن أن يكون له معنى.

ثمَّ إنَّ ما اختاره الشارح المعتزلي ليس بسديد أيضاً لأنَّ قول أمير المؤمنين ﷺ: (**يردها الأكياس**) وما بعده يبيّن لنا أنَّ الكلمة بمعنى المطلوبة سواء كانت بتشديد اللام، كما في نسخة الرضي، أو بتشديد الطّاء وفتح اللاّم كما في «**البحار**».

وعاضد ما اختاره الشارح المذكور الفاضل أحمد زكي صفوت في «**جمهرة رسائل العرب**» بقوله: ويجوز أن تكون مطلبة بسكون الطاء وكسر اللاّم من أطلبه إذا أعطاه ما طلبه أي تؤتى أصحابها ما يطلبون من ثواب الله ورحمته وهذا أحسن. انتهى. ولقد علمت ما فيه.

(**الأكياس**) جمع كيّس كجيّد أي العاقل ويجمع على الكيسى أيضاً إجراء له مجرى ضده أحمق وحمقى، قال إبراهيم النّخعي لمنصور بن المعتمر: سل مسألة الحمقى، واحفظ حفظ الكيسى، كما في «**البيان والتبيين**» (ج١ ص٢٩٩).

(الأنكاس) جمع النّكس بكسر النّون فالسّكون، قال رجل من بني أسد:

وما أنا بالنّكس الدّني ولا الّذي إذا صدّعني ذو المودّة أحرب

والبيت من أبيات الحماسة (**الحماسة ٩١**) وقال المرزوقي في شرحه: النّكس أصله في السهام ونقل إلى الضعيف من الرّجال، يقال: نكسته نكساً ثمَّ يسمّى المنكوس نكساً، كما يقال: نقضته نقضاً ثمَّ يسمّى المنقوض نقضاً بكسر النون كأنَّ السهم انكسر فوقه فنكس فسّمى نكساً، فيقول: ما أنا بالمستضعف اللئيم ولا الّذي إذا انحرف عنه من يوادّه دعا بالويل والحرب فقال واحرباه.

وفي الحماسة ٣٩٧، قالت امرأة من بني الحارث:

فارس ما غادروه ملحماً غير زمّيلٍ ولا نكس وكل

وقال المرزوقي في شرحه: النّكس المقصّر عن غاية النجدة والكرامة وأصله في السّهام وهو الّذي انكسر فجعل أسفله أعلاه فلا يزال ضعيفاً.

وفي الحماسة ٧١٤، قال عمرو بن الإطنابة.

ليسوا بأنكاسٍ ولا ميلٍ إذا ما الحرب شبّت أشعلوا بالشاعل

وقال المرزوقي في شرحه: الأنكاس جمع النّكس، والنّكس أصله في السّهام تنكسر فيجعل أسفلها أعلاها فتضعف، انتهى، قلت: ويقال للأحمق أنكس شبيهاً بذلك السهم النّكس، وفي «**المفردات**» للراغب: النّكس السهم الّذي انكسر فوقه فجعل أعلاه أسفله فيكون رديئاً ولرداءته يشبّه به الرجل الدّني، **(نكب عنها)** من باب نصر وفرح أي عدل عنها، يقال: نكبت الريح إذا مالت عن مهابّ الرّياح، فالرّيح نكباء.

والفعل في نسخة الرضي كان بتشديد الكاف وقد اخترناه، يقال: نكّب عن الطريق بالتشديد إذا عدل وتنحّى، ونكّب الشيء نحّاه لازم متعدّ، ويقال: نكّبه الطريق، ونكّب به الطريق، ونكّب به عن الطريق أي عدّله ونحّاه، وفي المقام بمعناه الأوّل.

(جار عن الحقّ) من الجور كما مضى في المختار المقدّم قوله عليه السلام: وسفه الآراء الجائرة، قال الجوهري: الجور الميل عن القصد يقال: جار عن الطريق، انتهى كلامه.

(خبط) مشى على غير هدى واستقامة، و**(التيه)**: الضلال، **(نقمته)** بفتح النون وكسر القاف كما في نسخة الرضى، وفيها وجهان آخران بفتح النون وسكون القاف، وبكسر النون وسكون القاف أيضاً وهي اسم من الانتقام وهي المكافأة بالعقوبة يقال: حلّت به النقمة، تجمع على نقم ونَقَم ونقمات.

(تناهت) أي بلغت، قال الجوهري: الإنهاء الإبلاغ وأنهيت الخبر فانتهى وتناهى أي بلغ.

(أجريت) يقال: أجرى فلان إلى غاية كذا أي قصدها بفعله وأصله من إجراء الخيل للمسابقة، والمحلة: المنزلة.

(أوحلتك) بالواو فالحاء المهملة كما في نسخة الرضي رضوان الله عليه، وفي نسخ قد أولجتك، وفي بعضها: قد أوجلتك، والمختار هو الأوّل، أي أورطتك في الوحل، قال الجوهري: الوحل بالتحريك؛ الطين، ووحل الرجل بالكسر، وقع في الوحل، وأوحله غيره.

(أقحمتك) أي أدخلتك، والاقتحام الدخول في الأمر بشدّة وعنفٍ، ويقال: أقحم فرسه النهر، أي أوقعه وأدخله فيه بعنف.

(الغيّ): الضلال والانهماك في الباطل، وقال الراغب في **«المفردات»**: الغي جهل من اعتقاد فاسد وذلك أنَّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقدٍ اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسدٍ وهذا النحو الثاني يقال له غيّ، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾ [النّجم: الآية ٢] ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٢] وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: الآية ٥٩] أي عذاباً فسماه الغي لما كان الغي هو سببه وذلك كتسمية الشيء بما هو سببه كقولهم للنبات: ندى.

(أوعرت) من الوعر أي الصعب وزناً ومعنى، يقال: مكان وعر وطريق وعر ومطلب وعر، وأوعرت عليك المسالك أي أخشنت وصعبت **(رمسك)** الرمس القبر، قال الفيومي في **«المصباح»**: رمست الميت رمساً من باب قتل وفي لغة من باب ضرب دفنته، والرمس: التراب تسمية بالمصدر ثمَّ سمي القبر به والجمع رموس مثل فلس وفلوس، قال مسور بن زيادة الحارثي:

أبعد الّذي بالنعف نعف كويكبٍ ... رهينة رمس ذي تراب وجندل

والبيت من الحماسة (٦٤) قال المرزوقي في الشرح: الرمس القبر، والأصل في الرمس التغطية يقال: رمسته بالتراب ومنه الرياح الروامس، وقال المتلمّس:

ألم تر أنَّ المرء رهن منيّةٍ ... صريع لعافي الطير أو سوف يُرمس

والبيت من الحماسة أيضاً **(الحماسة ٢٢٠)** وقال المرزوقي: ومعنى يرمس يدفن والرمس الدفن والرياح الروامس منه، وتوسّعوا في الدّفن فقيل: أرمس هذا الحديث، كما يقال: ادفن.

(مهطع) قال ابن الأثير في **«النهاية»**: في حديث علي عليه السلام سراعاً إلى أمره مهطعين إلى

معادة: الإهطاع الإسراع في العدو، وقال الراغب: هطع الرجل ببصره إذا صوّبه، وبعير مهطع إذا صوّب عنقه، قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٣] ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: الآية ٨] انتهى، والإهطاع لا يكون إلاّ مع خوف وذلّ وخشوع يقال: أهطع في السير إذا أسرع وأقبل مسرعاً خائفاً كهطع كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣] وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٧ ـ ٨]، وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج: ٣٦ ـ ٣٧].

قال أحمد بن يحيى: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع لا يقلع بصره كما في «**مجمع البيان**»، وقال: قال الزجاج: المهطع المقبل ببصره على الشيء لا يزايله وذلك من نظر العدو.

وفي «**القاموس**» هطع كمنع هطعاً وهطوعاً؛ أسرع مقبلاً خائفاً أو أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه.

(**سيبهظك**) قال الجوهري في «**الصحاح**»: بهظه الحمل يبهظه بهظاً أي أثقله وعجز عنه فهو مبهوظ وهذا أمر باهظ أي شاق، قال زياد بن حمل كما في الحماسة أو زياد بن منقذ كما في مادة ق ز م من «**صحاح اللغة**» في أبيات منها:

وكان عهدي بها والمشي يبهضها ... من القريب ومنها النوم والسأم

قال المرزوقي: ومعنى يبهضها يثقل عليها ويشقّ.

الإعراب

(**معاذ الله**) منصوب مفعول مطلق لفعله المحذوف العامل فيه كسبحان الله، قال الجوهري في «**الصحاح**»: قولهم: معاذ الله أي أعوذ بالله معاذاً، تجعله بدلاً من اللفظ بالفعل لأنه مصدر وإن كان غير مستعمل مثل سبحان الله ويقال أيضاً معاذة الله ومعاذة وجه الله ومعاذ وجه الله وهو مثل المعنى والمعناة والمأتى والمأتاة، ويقال عوذٌ بالله منك أي أعوذ بالله منك.

(**فإن للطاعة**) (**الفاء**) في مقام التعليل لقوله: (**لا تعذر بجهالته**) وضمير يردها ويخالفها وعنها راجع إلى السبل والمهجّة، وأمكن أن يرجع إلى الطّاعة والغاية أيضاً على توسّع.

(**فنفسك نفسك**) منصوب من باب الإغراء وهو أن تحمل المخاطب على فعل شيء محبوب نحو قول الشاعر:

أخـــاك أخـــاك إنّ مـــن لا أخـــاً لـــه كـساع إلـى الـهـيـجـا بـغـيـر سـلاح

والفعل يقدّر في كلّ موضع بحسبه ففي الشعر يقتضي الزم مثلاً وفي الغزال الغزال يناسب ارم، وههنا احفظ وارحم وانقذ ونحوهما.

قوله: **(وحيث تناهت بك أُمورك)** أفاد الفاضل الشارح المعتزلي بقوله: الأولى أن لا يكون هذا معطوفاً ولا متّصلاً بقوله: فقد بيّن الله لك سبيلك، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف: حيث أنت، أي قف حيث أنت فلا يذكرون الفعل، ومثله قولهم: مكانك، أي قف مكانك.

المعنى

قوله عليه السلام: **(فاتق الله فيما لديك)** ما كان لديه هو تولّي أمور المسلمين غصباً وطغياناً، فإنّ ما كان في يده هو حقّ الله وحقّ رسوله وحقّ أولي الأمر وحقّه سبحانه مفوّض إلى نبيّه أو وصيّ نبيّه ولا يتولّى ذلك المنصب إلاّ نبيّ أو وصيّ أو شقيّ، والشقي من غصب حقّ الإمام الحقّ أي حقّ الله ورسوله، ولذا أمره الأمير عليه السلام باتقائه الله في ذلك، وصرّح باسم الله سبحانه لأنه عليه السلام كأنما يقول له: اتق الله في تصرفك حقه سبحانه عدواناً، كما نقول نحن لمن خان زيداً مثلاً: استح من زيد في خيانتك في عرضه وماله.

قوله عليه السلام: **(وانظر في حقّه عليك)** حقّه تعالى عليه أن لا يعصيه فيما أمره، وممّا أمره به هو قوله سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] اللهمّ إلاّ أن يقال أن الآية مصدّرة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء: ٥٩] ومذيّلة بقوله سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النّساء: الآية ٥٩] فمعاوية وأترابه خارجة عن الخطاب رأساً.

وفي رسالة إمامنا سيد الساجدين وزين العابدين علي بن الحسين صلوات الله عليهما المعروفة برسالة الحقوق، قد نقلها كاملة المحدث الخبير ابن شعبة الحراني قدس سره في **«تحف العقول»**: اعلم رحمك الله أنَّ لله عليك حقوقاً محيطة بك في كل حركة تحرّكتها، أو سكنة سكنتها، أو منزلة نزلتها، أو جارحة قلبتها، أو آلة تصرّفت فيها، بعضها أكبر من بعض، وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه لنفسه تبارك وتعالى من حقّه الّذي هو أصل الحقوق ومنه تفرّع[1].

فاليوم ثمّ الويل لمن لم يطع الله سبحانه في حقّه عليه، فضلاً عن أن يغاصب حقه.

---

(١) تحف العقول: ٢٥٥، ونهج السعادة: ٧/ ٢١١.

قوله عليه السلام : **(وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته)** أمره أن يرجع إلى معرفة ما لا يقبل عذره بجهالته من وجوب طاعة الله سبحانه ورسوله وطاعة الإمام الحق، ولمّا أخرجته هوى النفس عن الطاعة إلى العصيان والطغيان وعن نور المعرفة إلى ظلمة الجهالة وحيرة الضلالة، أمره بالرجوع إلى معرفة ما أي الحق الذي لا يسمع تجاهله فيه.

قوله عليه السلام **(فإنّ للطاعة أعلاماً واضحة ـ الخ)** الأعلام جمع العلم بفتحتين وهو شيء منصوب في الطريق يُهتدى به وغاية الطاعة القرب منه تعالى والغاية ما إليه الحركة، ووصف عليه السلام الأعلام بالواضحة وتالييها بالنيّرة والنهجة لحسم العذر أصلاً وسدّ طرق العذر من جميع الجوانب، فإنّ السبل إذا كانت نيّرة والمهجة نهجة وأعلامها واضحة وكانت غايتها مطلّبة، فمن أين يعتذر المتمرّد عن الطاعة، وما مستمسكه في العذر، وبأي باب يدخل لذلك؟ وقد دريت من بحثنا عن الإمامة في المختار ٢٣٧ من باب الخطب **(ص٣٥ ـ إلى ص١٧٥ من ج١٦)** أنّ القرآن ورسوله الله صلى الله عليه وآله وآله هم الأئمة الحق والأعلام الواضحة والسبل النيرة والمهجة النهجة لا غير، فراجع إلى ذلك المبحث الشريف حتى يتبين لك بالعيان أن الآل هم الذين اختارهم الله واجتباهم واصطفاهم أعلاماً واضحة للطريقة التي هي أقوم، إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.

قوله عليه السلام : **(يردها الأكياس ويخالفها الأنكاس)** قد دريت في اللغة أنَّ الأكياس بمعنى العقلاء، وإنما يردها الأكياس لأنَّ العقل ما عبد به الرحمٰن واكتسب به الجنان، وأنَّ الأنكاس جمع النكس وهو الرجل الدني المنكوس على ما بُيّن في اللغة مشبعاً، وإنما يخالفها الأنكاس لأنهم لدناءة طبعهم، وقصور همّتهم ألفوا بقاذورات الدنيا الدنيئة وأوساخ الآمال النفسانية الشيطانية فهم ناكسوا رؤوسهم إلى اللّذائذ الحيوانية الدائرة الفانية أقرب شيء شبهاً بهم الأنعام السائمة، وفي كتاب العقل والجهل من **«الكافي»**: بإسناده عن محمد بن عبد الجبّار عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمٰن واكتسب به الجنان، قال: قلت: فالّذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل[1]، وقد مضى بحثنا عن هذا الحديث وشرحه في المختار السابع باب الكتب والرسائل، فراجع إلى **(ص٢٢٥ ج١٧)**.

وقد تقدَّم في رسالتنا في لقاء الله تعالى أن حشر الخلائق حسب أعمالهم، وأنّ كلّ أحد إلى غاية سعيه وعمله وإلى ما يحبه ويهواه، فحيث إنّ الأنكاس أدبروا ههنا عن أمر الله تعالى وطاعته ولقائه وأقبلوا إلى الشهوات النفسانية ولم يرفعوا رؤوسهم عن معلفهم ومرعاهم

(١) الكافي: ١/ ١١ ح٣، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٠٥ ح٢٠٢٨٨.

فهم في النشأة الآخرة أيضاً ناكسون لأنّ الدُّنيا مزرعة الآخرة قال عزّ من قائل: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦٢]، وفي «**الكافي**» كما في الصافي عن السّجاد عليه السلام: العجب كل العجب لمن أنكر النشأة الأُخرى وهو يرى النشأة الأولى[1].

وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝﴾ [السجدة: ١٢].

وروى ثقة الإسلام الكليني في باب ظلمة قلب المنافق وإن أعطى اللسان ونور قلب المؤمن وإن قصر بلسانه من كتاب «**الإيمان والكفر**» **(ص٣٠٩ ج٢ من المعرب)** بإسناده عن المفضل عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس، وقلب مطبوع، وقلب أزهر أجرد. فقلت: ما الأزهر؟ قال: فيه كهيئة السراج، فأمّا المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك، ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [المُلك: ٢٢] فأما القلب الّذي فيه إيمان ونفاق فهم قوم كانوا بالطائف فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك وإن أدركه على إيمانه نجى[2].

وقال العالم الحجّة المولى صالح المازندراني قدس سره في بيانه: **(ص١٣٠ ج١٠)** القلب المنكوس كالكوز المقلوب ـ إلى أن قال ـ وقيل: القلب المنكوس القلب الناظر إلى الدّنيا والمتوجّه إليها لأنّ الدُّنيا تحت الآخرة والآخرة فوقها فالناظر إليها منكوس رأسه، والآية من باب التمثيل بالأشياء المحسوسة تقريباً للفهم والاستشهاد باعتبار أنّ المشرك يمشي مكباً على وجهه لكون قلبه مكبوباً، مقلوباً والمؤمن يمشي سويّاً لكون قلبه على وجه الفطرة مستقيماً عارفاً بالحق كما رشد إليه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله عليه السلام: **(من نكّب عنها ـ الخ)** أي من عدل وتنحّى عنها مال عن الوسط والعدل والقصد، ومشى على غير هداية واستقامة في الضلال.

قوله عليه السلام: **(وغير الله نعمته وأحل به نقمته فنفسك نفسك)** إنّما أمره بحفظ نفسه وكرّره تأكيداً وتشديداً لما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التّوبة: ٧٠].

---

(١) التفسير الأصفى: ٢/١٢٥٨، وكشف الغمة: ٢/٢٨٨.

(٢) الكافي: ٢/٤٢٢ ح٢، ومعاني الأخبار: ٣٩٥ ح٥١.

في باب محاسبة العمل من كتاب الإيمان والكفر من «**الكافي**» (**ص٣٢٩ ج٢ من المعرب**): قال أبو عبد الله عليه السلام لرجل: إنّك قد جُعلت طبيب نفسك، وبُيّن لك الداء، وعُرّفت آية الصحة، ودُللت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك[1].

وفي ذلك الباب عنه عليه السلام أيضاً: اقصر نفسك عمّا يضرّها من قبل أن تفارقك واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك فإنّ نفسك رهينة بعملك.

وفيه عنه عليه السلام أيضاً قال: كتب رجل إلى أبي ذر رضي الله عنه يا أبا ذر أطرفني بشيء من العلم، فكتب إليه: أنّ العلم كثير ولكن إن قدرت أن لا تسيء إلى من تحبه فافعل، قال: فقال له الرجل: وهل رأيت أحداً يسيء إلى من يحبه؟ فقال له: نعم نفسك أحب الأنفس إليك فإذا أنت عصيت الله فقد أسأت إليها[2].

قوله عليه السلام: (**وحيث تناهت بك أمورك ـ الخ**) قال بعضهم: حيث عطف على سبيلك، أي فقد بين الله لك مآلك ومنقلبك، قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧] فهو عليه السلام يحذره عن عاقبته الوخيمة، ويخوّفه عن جزاء أعماله الفاضحة، ثمّ كأنّما قيل: وإلى ما تناهت به أموره وأيّ شيء يترتّب على أفعاله؟ فأجاب عليه السلام: فإنه قد أجري إلى غاية خسر ـ الخ، فما تناهت به أُموره جزاء أعماله السيئة.

هذا غاية ما يمكن أن يقرّر معنى العبارة على قول هذا البعض، ولكنّ الإنصاف أن الصواب هو ما أفاده الفاضل الشارح المعتزلي كما تقدّم في بيان الإعراب، أي قف حيث أنت لأنك قد أجريت إلى غاية خسر، فالفاء في (**فقد**) في معرض التعليل للفعل المحذوف أعني قف، والكلام على هذا الوجه خالٍ عن التكلّف دون الأوّل.

ولا يخفى لطافة قوله عليه السلام: (**وإنّ نفسك قد أوحلتك شراً**)، وقد علمت أنّ معنى أوحلتك أورطتك في الوحل، فالويل ثمّ الويل لمن أطاع نفسه ونسي حظّه، فإنّ النفس لأمّارة بالسوء ينسي مطيعه ذكر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: الآية ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٧].

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٥٤ ح٦، ووسائل الشيعة: ١٥/ ١٦١ ح٢٠٢١٠.
(٢) شرح أصول الكافي: ١٠/ ٢١٤، وميزان الحكمة: ٢/ ١٧٨٢.

هذا آخر المجلّد الخامس من «تكملة منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة» وبه انتهى المنهاج إلى المجلّد التاسع عشر، ولله الحمد على ما أولانا، وله الشكر بما تفضّل علينا من إفاضة مننه، وإسبال نعمه علينا، وكيف أشكره تعالى حق شكره وليس من شكر أشكره به إلا وهو نعمة جزيلة أنعم بها عليّ، اللّهم ارزقنا قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً، اللهم ثبت قلوبنا على دينك، اللهم ارزقنا نعمة الحضور عندك، اللهم يا عاصم قلوب المؤمنين خلصنا من شرور أنفسنا ووفقنا بالتنعم من مأدبتك القرآن الفرقان العظيم، وباتباع سنة نبيك الكريم، وإطاعتك وإطاعة رسولك وأولى الأمر الذين هم وسائط فيضك وأبواب رحمتك يا أرحم الراحمين.

وقد حصل الفراغ من تأليف هذا السفر الكريم بيد العبد الراجي لقاء ربه الرحيم: نجم الدين الحسن بن عبد الله الطبري الآملي في الآمل، ليلة الأربعاء الثامنة عشر من ربيع المولود من شهور سنة تسع وثمانين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، والحمد لله، وآخر دعويهم أن الحمد لله رب العالمين.

الترجمة

این نامه ای است که امیرالمؤمنين (عليه السلام) به معاویه نوشت:

در آن چه که در دست داری از خدا بترس و حقّ خدا را بر خود بنگر و به شناختن آن چه که عذرت در ندانستن آن پذیرفته نمی شود بازگرد، زیرا برای بندگی و طاعت، نشان ها و پرچم های روشن و راه های هویدا و جادّه آشکار و نتیجه و غایت مطلوب است، خردمندان بدان درآیند و سفلگان از آن روی گردانند، هرکه از آنها بازگشت، از حقّ برگشت و در وادی گمراهی به سر برد و خدای نعمتش را بر وی دگرگون کرد و او را در عذابش افکند، پس خویشتن را دریاب و خود را باش که خدا راه را برایت روشن کرد و چون کارها به دست تو افتاد، نهایت زیان را از دست خویش جاری کردی و در وادی کفر درآمدی، نفست تو را به شرّ کشانید و از دست وی به گل درماندی و تو را به گمراهی درآورد و به نابودی ها رسانید و راه ها را بر تو دشوار کرد.

إلى هنا انتهى الجزء التاسع عشر من هذه الطبعة النفيسة القيمة
وتم تصحيحه وترتيبه بيد العبد ـ السيد إبراهيم الميانجي ـ
عفى عنه وعن والديه في اليوم السابع من شهر رجب الأصبّ ـ ١٣٨٩ ـ
ويليه إن شاء الله الجزء العشرون وأوله: المختار الحادي والثلاثون
والحمد لله كما هو أهله.

محتوى الجزء التاسع عشر من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٤٥١٢
التاريخ ٢٩/١/٢٠٠٥

مِنهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه
العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره
صنفها
الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملي

مؤسسة التاريخ العربي

منهاج البراعة

شرح

نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد العشرون

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box: 7957/11

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المختار الحادي والثلاثون
ومن وصية له ﷺ للحسن بن علي، كتبها إليه بحاضرين منصرفاً من صفين

الفصل الأول من قوله:

«مِنَ الْوَالِدِ ٱلْفانِ، الْمُقِرِّ للزَّمانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، ٱلذامِّ للدُّنْيا، ٱلساكِنِ مَساكِنَ الْمَوْتى، والظَّاعِنِ عَنْها غَداً إِلى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ ما لا يُدْرَكُ، السالِكِ سَبيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ ٱلأَسْقامِ، وَرَهينَةِ الأَيامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنايا، وَأَسيرِ الْمَوْتِ، وَحَليفِ ٱلْهُمُومِ، وَقَرينِ الأَحْزانِ، وَنَصْبِ الآفاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَواتَ وَخَليفَةِ الأَمْواتِ.

أما بَعْدُ، فَإِنَّ فيما تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبارِ الدُّنْيا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، ما يَزَعُني عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوايَ وَالإِهْتِمامِ بِما وَرائي، غَيْرَ أَنّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بي - دُونَ هُمُومِ النّاسِ - هَمُّ نَفْسي، فَصَدَفَني رَأْيي، وَصَرَفَني عَنْ هَوايَ، وَصَرَّحَ لي مَحْضُ أَمْري، فَأَفْضى بي إِلى جِدٍّ لا يَكُونُ فيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لا يَشُوبُهُ كَذِبٌ، وَجَدْتُكَ بَعْضي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلّي، حَتّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصابَكَ أَصابَني، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتاكَ أَتاني، فَعَناني مِنْ أَمْرِكَ ما يَعْنيني مِنْ أَمْرِ نَفْسي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتابي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقيتُ لَكَ أَوْ فَنيتُ».

اللغة

(**حاضرين**): بصيغة التثنية وقرء بصيغة الجمع مع اللام وبدونها: اسم موضع بالشام، (**الفان**): من الفناء حذف لامه للسّجع، (**الرّمية**): الهدف، (**نصب**): المنصوب (**يزعني**): يكفني، (**المحض**): الخاص (**الشوب**): المزج والخلط.

الإعراب

(من الوالد): متعلق بمحذوف بقرينة الحال وهو كتب وما يساوقه، و**(إلى المولود)**: متعلق به أيضاً، **(غرض الأسقام)**: صفة ثالثة **(للمولود)** ومجموعها معرّف مركب فترك فيها العطف، **(فيما تبيّنت)**: ظرف مستقر اسم إنَّ، وقوله: **(ما)**: لفظه موصول خبر لها، قوله: **(حيث تفردّ بي)**: ظرف يتضمّن معنى الشّرط وقوله: **(فكتبت إليك)**: بمنزلة الجزاء له.

المعنى

هذه وصيّة عامّة تامّة أخرجها إلى ابنه الحسن عليه السلام وجمع فيها أنواع المواعظ والنصائح الكافية الشافية وصنوف الحكمة العمليّة الوافية، وكفى بها دستوراً إرشاديّا لكلّ مسلم بل لكلّ إنسان، فكأنّه عليه السلام جرّد من نفسه الزكيّة والداً للكلّ أو نموذجاً لجميع الوالدين، وجرّد من ابنه الحسن عليه السلام ولداً لكلّ الأولاد أو نموذجاً لجميع الأبناء في أيّ بلاد، ثمَّ سرد النّصائح ونظّم المواعظ لتكون وصيّته هذه انجيلاً لأمّة الإسلام. وتوجيه هذه الوصيّة إلى ابنه الحسن يشير إلى زعامته بعده واهتضامه واعتزاله فلا يكون إلاّ إماماً مبشّراً منذراً بلا سلاح ولا اقتدار.

الترجمة

سی و یکم از سفارشنامه ای که به حسن بن علی سپرد و آن را در هنگام بازگشت از نبرد صفین در حاضرين نگارش فرمود:

از پدری فناپذیر و زمان افکنده و از عمرگذشته و سر به روزگارسپرده، بدگوی دنیا و سکنی گزین منازل مرده ها که فردا از آن کوچا است.

به سوی فرزندی آرزومند بدانچه در نیابد آن که به راه هالکان است و بیماریهایش نشانه گرفته اند، گرو چند روز است و هدف مصائب و بنده دنیا غرور فروش است و بدهکار جان عزیز به مرگها و اسیر مردن است و پیوندسپار با هموم و همگام با احزان، نشانه آفات است و کشته شهوات و جانشین اموات.

اما بعد، به من از ملاحظه برگشت دنیا و هجوم روزگار و پیشامد آخرت به اندازه ای درآویخت که از یاد دیگران و از اهتمام به این و آنم بازداشت جز این که چون از همه به خود پرداختم و خود را شناختم و از هوسرانی گذشتم و کار خود را به خوبی فهمیدم به کوششی خسته ناپذیر و صداقتی بی دروغ برخاستم و تو را پاره از خویش یافتم نه بلکه همه خودم شناختم تا جائی که گزندت گزند من است و اگر بمیری من مرده باشم و به کار تو تا آن جا توجه دارم که به کار خود و این نامه را برای کمك به تو پرداختم که در نظر بگیری چه بمانم و چه بمیرم.

الفصل الثاني قوله عليه السلام:

«فَإنّي أُوصيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ - أيْ بُنَيَّ - وَلُزُومِ أمْرِهِ، وعَمارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، والإعْتِصامِ بِحَبْلِهِ، وَأيُّ سَبَبٍ أوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إنْ أنْتَ أخَذْتَ بِهِ؟

أحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأمِتْهُ بِالزَّهادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَناءِ، وَبَصِّرْهُ فَجائِعَ الدُّنيا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيالي والأيامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أخْبارَ الْماضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِما أصابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِنَ الأوَّلينَ، وَسِرْ في دِيارِهِمْ وَآثارِهِمْ، فَانْظُرْ فيما فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأنَّكَ عَنْ قَليلٍ قَدْ صِرْتَ كَأحَدِهِمْ فَأصْلِحْ مَثْواكَ، وَلا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْياكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فيما لا تَعْرِفُ، وَالْخِطابَ فيما لَمْ تُكَلَّفْ، وَأمْسِكْ عَنْ طَريقٍ إذا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالَةِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأهْوالِ. وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أهْلِهِ، وَأنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسانِكَ وَبايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجاهِدْ في اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ، وَلا تَأْخُذْكَ في اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، وَخُضِ الْغَمَراتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كانَ، وَتَفَقَّهْ في الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ وَألْجِئْ نَفْسَكَ في الأُمُورِ كُلِّها إلىٰ إلٰهِكَ فَإنَّكَ تُلْجِئُها إلىٰ كَهْفٍ حَريزٍ، ومَانِعٍ عَزيزٍ، وَأخْلِصْ في الْمَسْألَةِ لِرَبِّكَ فَإنَّ بِيَدِهِ الْعَطاءَ وَالْحِرْمانَ، وَأكْثِرِ الإسْتِخارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتي، وَلا تَذْهَبَنَّ عَنْها صَفْحاً، فَإنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ ما نَفَعَ، وَاعْلَمْ أنَّهُ لا خَيْرَ في عِلْمٍ لا يَنْفَعُ وَلا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ[1]».

اللغة

(الغمرات): جمع الغمرة وهي اللّجة في البحر وكناية عن الشدّائد، **(المثوى)**: محلّ الإقامة.

المعنى

قد لخص عليه السلام في هذا الفصل جوامع وصاياه في أُمور خمسة:

١ - التوجّه إلى الله تعالى برعاية تقواه، ولزوم أمره، والاعتصام بحبله.

٢ - التوجّه إلى القلب بتحليته بالفضائل، وإحيائه بالمواعظ، وتخليته عن الرّذائل بالزّهد

(١) بحار الأنوار: ٢١٩/١ ح ٤٨، ونهج السعادة: ٢٨٨/٤.

وذكر الموت.

٣ ـ التوجّه إلى الخلق الغابر، والتدبّر في أحوالهم ومآل أمرهم.

٤ ـ التوجّه إلى طريقه في الحياة وسيره في صراط السّعادة بالحذر عن الارتباك فيما لا يعلم.

٥ ـ التوجّه إلى الاجتماع بنشر الخير والمعروف، ودفع الشرّ والمنكر باليد واللّسان، والجهاد للحقّ بملازمة الصبر والالتجاء إلى الرّب بالإخلاص في مسألته والاستخارة من حضرته.

الترجمة

به راستی سفارشت می کنم که از خدا بپرهیز و به فرمانش بچسب و دلت را به یادش آباد کن و به رشته وی درآویز. کدام وسیله محکمتر از آن است که میان تو و خدا باشد اگرش به دست گیری؟

دلت را با پند زنده دار و با زهدش بکش و با یقینش نیرو بخش و با حکمتش درخشان دار و به یاد مرگش زبون ساز و به فناء تن مقرّش کن و به ناگواری های دنیایش بینا نما و از پوزش روزگارش برحذر دار و از بی باکی دیگرگونیهای زمانه، اخبار گذشته گان را بر او عرض کن و آن چه بر سرشان آمده به یادش آر. در خانمان و آثار آنان بگرد و ببین از کجا آمدند؟ کجا رفتند؟ کجا خفتند؟ تا دریابی که از دوستان بریدند و به غربت رسیدند و تو هم به زودی یکی از آنها شوی. آرامگاهت را درست کن و آخرتت را به دنیا مفروش آن چه را ندانی مگو و در آن چه را نبایستت ملای. از راهی که ندانی مرو، زیرا توقف هنگام گمراهی به است از دچاری به پرتگاه جانگاه.

به کارهای خیر وادار تا اهل خیر باشی و با دست و زبانت از زشتی ها جلوگیری کن و تا توانی از زشت کار به دور باش، در راه خدا تلاش و مبارزه کن و در راه خدا از سرزنش کسی نهراس و برای حق، هر جا باشد خود را در لجّه ها افکن و مسائل دین را بیاموز. خود را به بردباری ناخواه دل وادار و چه خوب روشی است بردباری و خود را در همه کارها به پناه خدا بسپار که به دژ محکمی و مقام منیعی سپردی، از درگاه پروردگارت به اخلاص درخواست کن که عطاء و حرمان به دست او است. پر استخاره کن و سفارش مرا بفهم و از آن رومگردان، راستی که بهترین سخن آن است که سود بخشد و بدان که در دانش بی سود خیری نیست و علمی که نباید آموخت سودی ندهد.

الفصل الثالث قوله عليه السلام

«أَيْ بُنَيَّ إِنِّي لَما رَأَيْتُني قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُني أَزْدادُ وَهْناً، بادَرْتُ بِوَصِيَّتي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصالاً مِنْها قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِما في نَفْسي، أَوْ أَنْ أَنْقصَ في رأيي كَما نَقَصْتُ في جِسْمي، أَوْ يَسْبِقَني إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَباتِ الْهَوى، أو فِتَنِ الدُّنْيا، فَتَكُون كَالصَّعْبِ النَّفُورِ، وَإِنَّما قَلْبُ الْحَدَثِ كالأَرْضِ الْخالِيَةِ ما أُلْقِيَ فيها مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِيَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ ما قَدْ كَفاكَ أَهْلُ التَّجارُبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعوفيتَ مِنْ عِلاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتاكَ مِنْ ذٰلِكَ ما قَدْ كُنّا نَأْتيهِ وَاسْتَبانَ لَكَ ما رُبَّما أَظْلَمَ عَلَيْنا مِنْهُ.

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي ـ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كانَ قَبْلي ـ فَقَدْ نَظَرْتُ في أَعْمالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ في أَخْبارِهِمْ، وَسِرْتُ في آثارِهِمْ، حَتّى عُدتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنّي بِمَا انْتَهى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ، قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذٰلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفَعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخيلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَميلَهُ، وصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ ـ حَيْثُ عَناني مِنْ أَمْرِكَ ما يَعْني الْوالِدَ الشَّفيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ ـ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ، وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَليمَةٍ، وَنَفْسٍ صافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْليمِ كِتابِ اللّٰهِ وَتَأْويلِهِ، وَشَرائِعِ الإِسْلامِ وَأَحْكامِهِ، وَحَلالِهِ وَحَرامِهِ، [و] لا أُجاوِزُ ذٰلِكَ بِكَ إِلىٰ غَيْرِهِ، ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ ما اخْتَلَفَ النّاسُ فيهِ مِنْ أَهْوائِهِمْ وَآرائِهِمْ مِثْلَ الَّذي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكانَ إِحْكامُ ذٰلِكَ عَلى ما كَرِهْتُ مِنْ تَنْبيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلامِكَ إِلى أَمْرٍ لا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللّٰهُ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتي هٰذِهِ.

وَاعْلَمْ يا بُنَيَّ، أَنَّ أَحَبَّ ما أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتي تَقْوى اللّٰهِ، وَالإِقْتِصارُ عَلى ما فَرَضَهُ اللّٰهُ عَلَيْكَ، وَالأَخْذُ بِما مَضى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبائِكَ، والصالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لأَنْفُسِهِمْ كَما أَنْتَ ناظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَما أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذٰلِكَ إِلىَ الأَخْذِ بِما عَرَفُوا، والإِمْساكِ عَمّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذٰلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَما عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذٰلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهاتِ؛ وَعُلُوِّ الْخُصوماتِ؛ وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ في ذٰلِكَ، بِالإِسْتِعانَةِ بِإِلٰهِكَ، والرَّغْبَةِ إِلَيْهِ في تَوْفيقِكَ وَتَرْكِ كُلِّ شائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ في شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلى ضَلالَةٍ، فَإِذا أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكانَ هَمُّكَ في

ذلِكَ هَمّا واحِداً، فَانْظُرْ فيما فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ ما تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ وَفَراغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّما تَخْبِطُ ٱلْعَشْواءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْماءَ، وَلَيْسَ طالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالإِمْساكُ عَنْ ذلِكَ أَمْثَلُ.

فَتَفَهَّمْ، يا بُنَيَّ، وَصِيَّتي، وَٱعْلَمْ أَنَّ مالِكَ ٱلْمَوْتِ هُوَ مالِكُ الْحَياةِ، وَأَنَّ الْخالِقَ هُوَ الْمُميتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعيدُ، وَأَنَّ ٱلْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعافي، وَأَنَّ الدُّنْيا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاّ عَلى ما جَعَلَهَا ٱللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْماءِ والإِبْتِلاءِ وَالْجَزاءِ في الْمَعادِ، أَوْ ما شاءَ مِمّا لا نَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذلِكَ فاحْمِلْهُ عَلى جَهالَتِكَ بِهِ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ ما خُلِقْتَ جاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَما أَكْثَرَ ما تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فيهِ بَصَرُكَ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذلِكَ، فَاعْتَصِمْ بِالَّذي خَلَقَكَ، وَرَزَقَكَ وَسَوّاكَ، فَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

وَٱعْلَمْ يا بُنَيَّ، أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ كَما أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ، فَارْضَ بِهِ رائِداً، وَإِلَى النَّجاةِ قائِداً، فَإِنّي لَمْ آلُكَ نَصيحَةً، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ في النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ ٱجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَري لَكَ».

اللغة

(الوهن): الضعف، **(أفضى)**: أوصل، **(الحدث)**: الشابّ والغلام، **(الصفو)**: الخالص، **(النخيل)**: الدقيق الذي غربل وأُخذ دخيله، **(الشائبة)**: الوهم، **(خبط العشواء)**: كناية عن ارتكاب الخطر.

الإعراب

(فاعلم أنك إنما تخبط) إلخ - بمنزلة الجزاء لقوله عليه السلام: **(وإن أنت لم يجتمع)** الخ -، **(لم آلك)**: صيغة المتكلّم من فعل الجحد من ألى يألو، **(نصيحة)**: تميز من فعل **(لم آلك)**.

المعنى

قد أشار عليه السلام في هذا الفصل إلى بيان سبب اقدامه لكتابة هذه الوصيّة عاجلاً في انصرافه من صفّين مشوّش البال منكسر الحال مبتلى بالأهوال من قبل الخوارج في المآل فبين أنّ سببه الخوف من الأجل ونقص الرأى وفوت الوقت من قبل المولود وقبل أن يغرق في الفساد فلا تنفعه الموعظة.

قال الشارح المعتزلي في (ص ٦٦ ج ١٦ ط مصر): قوله عليه السلام **(أو انقص في رأيي)**

هذا يدلّ على بطلان قول من قال: إنه لا يجوز أن ينقص في رأيه، وأنَّ الإمام معصوم عن أمثال ذلك وكذلك قوله للحسن: **(أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدُّنيا)** يدلّ على أنَّ الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى ولا عن فتن الدُّنيا.

أقول: مع إظهاره للإخلاص بعليّ عليه السلام وغلوّه في توصيفه في غير مورد من الشرح وفي قصائده المشهورة كأنّه غلب عليه النّصب في هذا المقام فاستفاد من كلام له وللحسن عليهما السلام ما ليس بمقصود، لما قلنا من أنَّ إخراج هذه الوصيّة ينظر إلى حال عامّة الوالدين وأبنائهم مجرّداً عن الخصوصيات الشخصيّة ليكون مثالاً نافعاً للكلّ، ولا تنافي عصمته وعصمة ولده ومقام الإمامة والقداسة فيهما، كيف؟! وعمر الحسن في هذا الوقت يزيد على ثلاثين وقد استأهل للخلافة عند عامّة الناس ونصَّ عليه بالإمامة في غير مورد فلا يقصد عليه السلام أن يربّيه بعد ذلك بهذا الكلام وإنما المقصود «إيّاك أعني واسمعي يا جارة».

الترجمة

ای پسرجانم چون بینی سالخورده ام و هر روزه سست تر می شوم در سفارشم به تو پیشدستی کردم و مواد آن را پیش از آن که مرگم برسد برشمردم و خاطره خود را برنهفتم تا مبادا دچار کاستی رأی شوم، چونان که تنم کاسته می شود یا آن که مبادا هوس و دلبری دنیا بر تو چیره شوند و چون شتر فراری از پندم سر باز زنی. همانا دل جوان چون زمین بکر است و هر بذری در آن افکنده شود بپذیرد. من پیشدستی کردم تا دلت سخت نشده و درونت مشغول باطل نگردیده تو را دریابم تا از صمیم قلب بدان روشی که آزموده شده روآوری و از رنج جستجو راحت شوی و از آزمایش معاف گردی ما آن چه اندوختیم به تو دادیم تا اگر تیرگی در آن باشد خود نقطه آن را روشن سازی.

ای پسرجانم گرچه من عمر کسان پیش از خود را نگذراندم ولی در کردار آنان نگریستم و در اخبارشان اندیشیدم و در آثارشان گردیدم تا یکی از آنان شمرده شدم، بلکه چون هم کارهاشان به من گزارش شده گویا از آغاز تا انجام با آنها عمر کردم و زلال و تیره و زیان و سود همه کارها را فهمیدم و زبده و خوب آنها را برایت برگزیدم و کارهای جاهلانه را از تو دور کردم و چون کارهای تو مورد توجه پدری مهربان است خواستم تو در آغاز عمر و نخست برخورد با روزگار نهادی پاك و خاطری تابناك داشته باشی و خواستم آموزش را از قرآن خدا و تفسیر آن و از دستورهای اسلام و احکام حلال و حرامش آغاز کنی و از آن نگذری و بر تو ترسیدم که در مورد اختلافات، چون مردم دچار اشتباه شوی و دنبال اهواء و آراء باطل بروی و با این که دلخواه نیست که تو را تنبیه سازم ولی تحکیم این مطلب نزد من دوست تر است از این که تو را تسلیم بهوضعی کنم که برایت خطرناك باشد و امیدوارم خداوند توفیق رشدت دهد و به راستی تو را هدایت فرماید برای این است که سفارشنامه خود را به تو می سپارم.

ای پسر جانم بدان که بهترین فصل وصیت من که بکاربندی پرهیزکاری و عمل به فرائض الهی است و پیروی از روش پدران شایسته خاندان است، زیرا آنها هیچ

بی اعتنا نبودند که خود را منظور دارند چنان چه تو ناظر خودی و برای خود بیندیشند چنان چه تو در اندیشه ای و درنتیجه آنچه را دانستند به کار بستند و از آن چه نبایست دست باز داشتند. اگر دلت نپذیرفت ندانسته پیرو آنان باشی تا خود بدانی باید از روی فهم و آموزش حقیقت را بجوئی نه بهوسیله پرت شدن در شبهه و از راه امتیازپرستی و پیش از جستجوی حقیقت از معبودت یاری بجو و توفیق بخواه و از هر توهّمی که تو را در شبهه افکند و به گمراهی کشد دست بکش و چون یقین کردی دلت پاك شده و خشوع دارد و رأیت تابناك است و تصمیم دارد و تشویش خاطر نداری در آن چه برایت شرح دادم نظر نما وگرنه بدان که در رنج افتادی و در تاریکی پرتاب شدی و کسی که دچار خبط و اشتباه باشد طالب دین حقّ نباشد و بهتر است دست نگهدارد.

پسرجانم وصیّت مرا خوب بفهم و بدان که مالك مرگ و زندگی و آفریننده و میراننده یکی است و همان که به فنا می برد به زندگی باز می آورد و آن که درد می دهد عافیت بخشد و راستی که دنیا پایدار نباشد جز بر پایه نعمت هایی که خداوند در آن مقرّر داشته و بر بنیاد ابتلا و جزاء در معاد یا هر آن چه او بخواهد و ما نمی دانیم و اگر چیزی از این بابت بر تو مشکل است به نادانی خود حمل کن زیرا تو در آغاز آفریدنت نادان بودی و سپس دانا شدی و چه بسیار است آن چه را نمی دانی و درباره آن سرگردانی و دیدرس تو نیست و پس از آن خواهی دید، تو باید خود را در پناه آن کسی بیندازی که آفریدت و روزیت داد و درستت کرد و باید هم او را بپرستی و بدو روی آری و از او بترسی.

و بدان ـ ای پسر جانم ـ هیچ کس از سوی خدا خبری درست تر نیاورده از آن چه رسول (ﷺ) آورده، او را به پیشوایی بپسند و برای نجات رهبر خود ساز، زیرا من هیچ اندرزی از تو دریغ نداشتم و تو هر چه هم تلاش برای خیرخواهی خود نمایی به اندازه من نتوانی به حقیقت رسید.

الفصل الرابع من قوله عليه السلام

«وَٱعْلَمْ، يا بُنَيَّ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثارَ مُلْكِهِ وَسُلْطانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفعالَهُ وصِفاتِهِ، ولكِنَّهُ إِلهٌ واحِدٌ كَما وَصَفَ نَفْسَهُ، لا يُضادُّهُ في مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلا يَزُولُ أَبَداً، وَلَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْياءِ بِلا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الأَشْياءِ بِلا نِهايَةٍ عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإحاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ، فَإِذا عَرَفْتَ ذلِكَ فَافْعَلْ كَما يَنْبَغي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ في صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حاجَتِهِ إِلى رَبِّهِ، في طَلَبِ طاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلاّ عَنْ قَبِيحٍ.

يا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيا وَحالِها، وَزوالِها وانْتِقالِها وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَما أُعِدَّ لأَهْلِها فيها، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثالَ لِتَعْتَبِرَ بِها، وَتَحْذُوَ عَلَيْها! إِنَّما مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً، وَجَناباً مَرِيعاً فَاحْتَمَلُوا وَعْثاءَ الطَّرِيقِ، وَفِراقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ أَلَماً، وَلا يَرَوْنَ نَفَقَةً فيهِ مَغْرَماً، وَلا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْناهُمْ مِنْ مَحَلِّهِمْ، وَمَثَلُ مَنِ ٱغْتَرَّ بِها كَمَثَلِ قَوْمٍ كانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ فَنَبا بِهِمْ إِلى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفارَقَةِ ما كانُوا فيهِ إِلى ما يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

يا بُنَيَّ، ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيْزاناً فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَٱكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَهُ لَها، وَلا تَظْلِمْ كَما لا تُحِبُّ أَنْ تظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَما تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَٱسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ ما تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النّاسِ بِما تَرْضاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلا تَقُلْ ما لا تَعْلَمُ، وَإِنْ قَلَّ ما تَعْلَمُ، وَلا تَقُلْ ما لا تُحِبُّ أَنْ يُقالِ لَكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ الإِعْجابَ ضِدُّ الصَّوابِ، وَآفَةُ الأَلْبابِ، فَاسْعَ في كَدْحِكَ، وَلاَ تَكُنْ خازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ، فَكُنْ أَخْشَعَ ما تَكُونُ لِرَبِّكَ[١]».

(١) نهج السعادة: ٤/ ٣٠٠، وميزان الحكمة ١/ ٧٤٤ ح ١٠٢٢.

اللغة

(حذا عليه): اقتدى به، **(قوم سفر)**: بالتسكين أي مسافرون، **(أمّوا)**: قصدوا **(الجديب)**: ضدُّ الخصيب **(الجناب المريع)**: ذو الكلاء والعشب، **(وعثاء الطريق)**: مشقّتها.

المعنى

قد استدلّ عليه‌السلام في إثبات التوحيد بما يقرب من الاستدلال في قوله تعالى ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١] فإنَّ المقصود نفي الشريك بنفي آثاره التي لا بدَّ من ترتّبه على وجوده لو كان، وهذا أحد طرق إثبات التوحيد المأثورة المشهورة.

ثمَّ انتقل عليه‌السلام بعد تنوير الفكر بنور التوحيد إلى بيان زوال الدُّنيا وضرب المثل للفريقين من أهل السّعادة والشّقاوة وكفى به واعظاً.

الترجمة

پسرجانم، بدان که اگر پروردگارت را شریکی بود فرستاده هایش نزد تو می آمدند و آثار ملك و سلطنتش را می دیدی و کردار و صفاتش را می شناختی، ولی همان معبود یکتا است چنانچه خود را به یگانگی ستوده در ملکش دیگری نیست و هرگز زوال نپذیرد و تا همیشه بوده است بی نهایت آغاز هر چیز است و بی نهایت در انجام هر چیز، بزرگتر از آن است که ربوبیتش در دل و دیده گنجد. چون این را دانستی چنان کن که مانند تو بی اهمیت و بی مقدار و پرعجز و حاجتمند به پروردگار خود بایست در طلب طاعت و ترس از کیفر و نگرانی از غضبش به کار بندد، زیرا تو را فرمان نداده جز به کار نیك و نهی نکرده جز از کار بد.

پسر جانم منت از دنیا و حالش آگاه ساختم و هم از زوال و انتقالش و از آخرت و آنچه برای اهلش آماده شده آگاه کردم و مثل ها آوردم تا پندگیری و به روش آنها کار کنی، همانا مثل کسی که دنیا را بررسی کرده است اهلش مانند مردمی مسافرند که در منزل قحط و سختی گرفتارند و قصد دارند به منزل پرنعمت و آستان بابرکتی بروند و سختی راه و دوری از دوست و رنج سفر و خوراك ناهموار

را بر خود هموار كردند تا به خانه وسيع و قرارگاه خود رسند از رنج هاى چنين سفرى دردى نكشند و هزينه آن را زيانى ندانند و چيزى محبوب تر از آن نيست كه آنان را به منزل موعودشان نزديك سازد و به قرارگاهشان بكشاند و مثل آنان كه فريب دنيا خورده اند و دل بدان بسته اند مثل مردمى است كه در منزل پرنعمت باشند و خواهند به منزل قحطى و سختى سفر كنند و چيزى نزد آن ها بدخواه تر و دشوارتر از آن نيست كه از آن چه دارند جدا شوند و بدان آينده بد و سخت برسند.

پسرجانم، خود را ترازويى قرارده و با آن خويش را با ديگران بسنج، براى ديگران همان را بخواه كه براى خود مى خواهى و همان را بددار كه براى خود بد مى دارى، ستم مكن چونان كه دوست ندارى ستم بشوى، احسان كن چنان چه دوست دارى به تو احسان شود، از خود زشت شمار آنچه را از ديگران زشت مى شمارى از خود نسبت به مردم همان را پسند كه از مردم نسبت به خودت پسنده دارى، آن چه را ندانى مگو و اگرچه كم است آن چه را مى دانى، مگو با ديگران آن چه را دوست ندارى با تو بگويند.

و بدان كه خود بينى مخالف حقّ و صواب است و آفت خرد و عقل است. در رنج خود هموار باش و تلاش مكن كه گنجينه براى ديگران بسازى و چون به قصد خود كامياب شدى بايد بيشتر براى پروردگارت خاشع و شكرگزار باشى.

الفصل الخامس من قوله عليه السلام

«وَاعْلَمْ أَنَّ أمامَكَ طَريقاً ذا مَسافَةٍ بَعيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَديدَةٍ، وَأَنَّهُ لا غِنى بِكَ فيهِ عَنْ حُسْنِ الإرْتِيادِ، وَقَدْرِ بلاغِكَ مِنَ الزّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلا تَحْمِلَنَّ عَلى ظَهْرِكَ فَوْقَ طاقَتِكَ فَيَكُونَ ثِقْلُ ذلِكَ وَبالاً عَلَيْكَ، وَإذا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زادَكَ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ فَيُوافيك بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتاجُ إلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إيّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْويدِهِ وَأَنْتَ قادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلا تَجِدُهُ، واغْتَنِمْ مَنْ اسْتَقْرَضَكَ في حالِ غِناكَ لِيَجْعَلَ قَضاءَهُ لَكَ في يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أمامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً، الْمُخِفُّ فيها أَحْسَنُ حالاً مِنَ الْمُثْقِلِ. وَالْبَطيءُ عَلَيْها أَقْبَحُ حالاً مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبَطَكَ بِها لا مَحالَةَ عَلى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، وَلا إلى الدُّنْيا مُنْصَرَفٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الذي بِيَدِهِ خَزائِنُ السَّماواتِ والأرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ في الدُّعاءِ وَتَكَفَّلَ بالإجابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ تَحْجُبُهُ عَنْكَ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إلى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالانابَةِ، وَلَمْ يُعاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضيحَةُ بِكَ أَوْلى وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في قَبُولِ الإنابَةِ، وَلَمْ يُناقِشْكَ بِالْجَريمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وحَسَبَ سَيِّئَتَكَ واحِدَةً وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بابَ الْمَتابِ وَبابَ الاسْتيعابِ، فَإذا نادَيْتَهُ سَمِعَ نِداءَكَ، وإذا ناجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْواكَ، فَأَفْضَيْتَ إلَيْهِ بِحاجَتِكَ وأَبْثَثْتَهُ ذاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلى أُمورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزائِنِ رَحْمَتِهِ ما لا يَقْدِرُ عَلى إعْطائِهِ غَيْرُهُ: مِنْ زِيادَةِ الأعْمارِ، وَصِحَّةِ الأبْدانِ؛ وَسَعَةِ الأرْزاقِ، ثُمَّ جَعَلَ في يَدَيْكَ مَفاتِيحَ خَزائِنِهِ، بِما أَذِنَ لَكَ فيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعاءِ أَبْوابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شآبيبَ رَحْمَتِهِ، فَلا يُقْنِطَنَّكَ إبْطاءُ إجابَتِهِ، فَإنَّ الْعَطِيَّةَ عَلى قَدْرِ النِّيَّةِ وَرُبَّما أُخِّرَت عَنْكَ الإجابَةُ لِيَكُونَ ذلكَ أَعْظَمَ لأجْرِ السّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطاءِ الآمِلِ، وَرُبَّما سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلا تُؤْتاهُ، وَأُوتيتَ خَيْراً مِنْهُ عاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِما هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فيهِ هَلاكُ دينِكَ لَوْ أُوتيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيما يَبْقى لَكَ جَمالُهُ، وَيُنْفى عَنْكَ وَبالُهُ، فَالْمالُ لا يَبْقى لَكَ، وَلا تَبْقى لَهُ»[1].

(١) تفسير نور الثقلين: ١/ ١٧١ ح ٥٩١، وتفسير كنز الدقائق: ١/ ٤٣٨.

اللغة

(الارتياد): طلب المنزل الرّحب، **(الوبال)**: الهلكة، **(كؤود)**: الشاق الصعود **(الشآبيب)**: الدفعات من المطر الغزير.

الإعراب

(أمامك): ظرف مستقر خبر مقدّم لقوله «أن» وما بعده اسم له، **(من زيادة الأعمار)**: بيان اللفظ ما في قوله: «ما لا يقدر».

المعنى

جعل عليه السلام الإنسان مسافراً في طريق الحياة واصلاً إلى الجنّة أو النار بانتخابه السير المؤدّي إلى هذه أو هذه، وفي طريقه عقبة شاقّة وهي المرور على شهواته وأهوائه وأخطائه فوصّاه بحمل الزاد الكافي للسير في هذا الطريق البعيد والاجتهاد في تحصيل المعاون معه لحمل الزاد باعطاء الفقراء والمساكين مقداراً من أمواله ليكون ذخراً في مسعاه ومعاده أو قرضاً يرد عليه في أيام عسرته في آخرته.

ثمَّ نبّه عليه السلام على ملازمة الدُّعاء والتضّرع إلى الله في كلِّ حال من الأحوال ولجميع الحوائج سواء كان مذنباً أو مطيعاً فإنَّ المذنب إذا تضرَّع إلى الله تعالى وسأل منه التوبة والمغفرة يخرج عن ذنبه، والمطيع إذا سأله أجابه وإن لم يظهر له الإجابة كما يريد، وبّين أنَّ الدُّعاء إلى الله لا يضيع بحال من الأحوال فإن لم يوافق المسألة مع المصلحة أعطاه الله في إجابة دعائه ما هو خير ممّا سأله عاجلاً أو آجلاً.

الترجمة

بدان که در برابر تو راه دور و رنج سختی است و راستی که تو نیازمند یك بررسی عمیقی هستی که راه خود را هموار سازی و اندازه توشه خود را بسنجی و سبك بار باشی، مبادا بار گران و طاقت فرسایی بر دوش بگیری و از سنگینی آن بنالی و هلاك شوی و اگر از نیازمندان کسی را یافتی که برایت توشه به قیامت برد و فردا که بدان نیاز داری به تو برساند وجود او را غنیمت شمار و توشه خود را به دوش او گزار و هرچه می توانی بیشتر به او بسپار، شاید دیگر او را درنیابی و غنیمت بدان که کسی از تو مالی به وام گیرد و در روز سختی به تو بپردازد.

بدانکه در برابر تو گردنه سخت و دشواری است، هر که در آن سبك بار باشد خوش حالتر است از کسی که بارش سنگین است و هر که کندرو باشد بدحالتر است از آنکه شتابان می رود، فرودگاه تو در پشت این گردنه به ناچار بهشت است یا دوزخ، پیش از آن که از این گردنه فرود شوی جلوی پای خود را پاك کن و به بهشت برو نه به دوزخ و پیش از مرگ برای خود منزل را هموار ساز که پس از مردن نه عذری پذیرفته شود و نه راه باز گشتی به دنیا می ماند.

و بدان که آن خدایی که همه گنجهای آسمان و زمین را در دست دارد به تو اجازه داده تا به درگاهش خواستار هر حاجتی شوی و از او بخواهی و دعا کنی و ضامن شده که دعایت را اجابت کند و به تو فرموده از او بخواهی تا به تو بدهد و از او رحمت طلبی تا به تو رحم کند و میان تو و خودش دربانی مقرر نداشته که تو را از او باز دارد و تو را وادار بهواسطه تراشی نکرده و اگر بدکرداری، جلوی توبه و بازگشت تو را نگرفته و در بازگشت تو را مورد سرزنش نساخته و در کیفر تو شتاب ندارد و در آنجا که شاید تو را رسوا نساخته و در پذیرش توبه و بازگشت تو سخت نگرفته و از تو جریمه نخواسته و از رحمتش تو را ناامید نساخته، بلکه روگردانی تو را از گناه، خوش کرداری مقرّر کرده و بدکاری تو را یکی به شمار گرفته و کار خوبت ده برابر به حساب آورده است و در توبه را برای تو بازگذاشته و باب عذرخواهی را مفتوح داشته، هر آنگاهش بخوانی فریادت را می شنود و اگر

رازش بگویی رازت را می داند، تو می توانی عرض حاجت خود را بیواسطه به او برسانی و هر چه در دل داری با او در میان گزاری و از گرفتاری هایت بهوی شکایت کنی و از او چاره دردهایت را بخواهی و در هر کارت از او یاری بجویی و از خزائن رحمتش درخواست کنی آن چه را جز او نتواند به تو عطا کند، از فزونی عمر و تندرستی و وسعت روزی، سپس همه کلیدهای خزائن خودش را به تو سپرده که اجازه مطلق درخواست از وی را به تو داده است. هروقت بخواهی می توانی بهوسیله دعاء ابواب نعمت بی دریغش را به روی خود باز کنی و از ریزش سیل آسای رحمتش برخود ببارانی و برخوردارباشی، نباید تأخیر اجابتش تو را نومید سازد، زیرا بخشش به اندازه صدق نیت است و بسا تأخیر اجابت برای این است که اجر خواستار بزرگتر شود و عطیه بیشتری دریابد و بسا که چیزی درخواست کردی و به تو نداده و درعوض بهتر از آن را در دنیا و یا آخرت به تو خواهد رسانید یا این که مسؤول تو را دریغ داشته و پاداش بهتری مقرّر نموده است، چه بسا چیزی را خواستی که سبب از دست رفتن دین تو شود اگرش به دست آری، باید همیشه درخواهت از درگاه خدا چیزی باشد که بهره آن برای تو بماند و وبال و رنجی ببار نیاورد، مال دنیا نه برای تو می ماند و نه تو برای آن می مانی.

الفصل السادس من قوله عليه السلام

«وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّما خُلِقْتَ للآخِرَةِ لا لِلدُّنْيا، وَلِلْفَناءِ لا لِلْبَقاءِ، وَلِلْمَوْتِ لا لِلْحَياةِ، وَأَنَّكَ في مَنْزِلِ قُلْعَةٍ، وَدارِ بُلْغَةٍ، وَطَريقٍ إِلَى الآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَريدُ ٱلْمَوْتِ الَّذي لا يَنْجُو مِنْهُ هارِبُهُ، وَلا يَفُوتُهُ طالِبُهُ، وَلا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلى حالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذٰلِكَ، فَإِذا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

يا بُنَيَّ، أَكْثِرِ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ ما تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ، وَإِيّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِما تَرى مِنْ إِخْلادِ أَهْلِ الدُّنْيا إِلَيْها، وَتَكالُبِهِمْ عَلَيْها، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللّهُ عَنْها، وَنَعَتْ [نَعَتَتْ] لَكَ نَفْسَها، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَساوِيها، فَإِنَّما أَهْلُها كِلابٌ عاوِيَةٌ، وَسِباعٌ ضارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُها بَعْضاً، وَيأْكُلُ عَزيزُها ذَليلَها وَيَقْهَرُ كَبيرُها صَغيرَها، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّت عُقُولَها وَرَكِبَتْ مَجْهُولَها، سُرُوحُ عاهَةٍ بِوادٍ وَعْثٍ! لَيْسَ لَها راعٍ يُقيمُها، وَلا مُسيمٌ يُسيمُها، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيا طَريقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصارِهِمْ عَنْ مَنارِ الْهُدى، فَتاهُوا في حَيْرَتِها، وَغَرِقُوا في نِعْمَتِها، وَاتَّخَذُوها رَبّاً فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِها، وَنَسُوا ما وَراءَها!!

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلامُ، كَأَنَ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ»[1].

اللغة

يقال: هذا منزل قلعة بضمّ القاف وسكون اللاّم: ليس بمستوطن، ويقال: هم على قلعة أي على رحلة، **(البلغة)**: قدر الكفاية من المعاش، **(الأزر)**: الظّهر والقوّة، **(فيبهرك)** أي يجعلك مبهوتاً مغلوباً لا تقدر على التدارك، **(أخلد)** إلى كذا: اتّخذه دار الخلد والإقامة الدائمة، **(التكالب)**: التنازع على التسلط كالكلاب يتنازعون للتسلط على الجيف، **(المساوى)**: المعايب، **(الضراوة)**، الجرأة على الاصطياد، **(المعقدة)**: المربوطة بالعقال، **(المجهول)** والمجهل: المفازة التي لا أعلام فيها، **(واد وعث)**: لا يثبت فيه خفٌّ و لا حافر لسهولته أو كونه مزلقاً **(سروح عاهة)**: جمع سرح وهي المواشي المبتلاة بالآفة المعرضة للهلاك، **(مسيم يسيمها)**: راع يرعاها، **(رويداً)**: تصغير رود وأصل الحرف من رادت الرّيح

(١) نهج السعادة: ٤/ ٣٠٩، وبحار الأنوار: ٧٤/ ٢٢٥.

ترود تحرّك حركة خفيفة والمعنى لا تعجل **(يسفر الظلام)**، يقال أسفر وجهه إذا أضاء وأسفر الصبح إذا انكشف، **(الأظعان)**: جمع ظعن، وهي الجماعات المتنقلة في البراري.

الإعراب

(للآخرة): اللاّم للعاقبة، **(منزل قلعة ودار بلغة)**: الظاهر أنَّ القلعة والبلغة بمعنى المصدر فالأولى إضافة ما قبلهما إليهما ويحتمل أن تكونا صفة لما قبلهما بالتأويل، **(نعم معقّلة)**: خبر بعد خبر لقوله «أهلها»، **(سروح عاهة)**: خبر ثالث، **(بأبصارهم)**: مفعول **(أخذت)** والظاهر أنَّ **(الباء)** زائدة للتأكيد، **(رويداً)**: منصوب بمقدر أي امهل رويداً، هذه الجملة وما بعدها أمثال سائرة.

المعنى

بَيّن عليه السلام في هذا الفصل الهدف من خلق الإنسان وأوضح بأبين بيان أنَّ الدُّنيا طريق ومعبر له لا يستحقّ أن يطمئنَّ إليه بل يجب أن يتزوَّد منها لآخرته ويهيِّيء فيها لملاقات ربّه، ويكون على حذر من الاشتغال بها وارتكاب سيِّئآتها حتّى يأتيه الموت بغتة ولا يجد مهلة للتوبة والتدارك لما فاته.

ثمَّ حذّره أكيداً عن تقليد الناس في الافتتان بالدُّنيا والاشتغال بها كأنها دار خلود لهم وليس لهم انتقال عنها إلى دار أُخرى، ونبّه على ذلك بوجوه:

١ ـ إخبار الله تعالى عن فنائها.

٢ ـ توصيف الدُّنيا نفسها بالفناء والزوال آناء الليل والنّهار.

٣ ـ المغترُّون بها كلاب وأنعام ضالّة مبتلاة بالآفات بلا مرشد ولا راع ولا مناص لهم من الهلاكة والدّمار، فلا ينبغي الاقتداء بهم في أفعالهم وأحوالهم في حال من الأحوال.

الترجمة

بدان ـ پسر جانم ـ که تو تنها برای آخرت آفریده شدی نه دنیا و برای فنا از دنیا بهوجود آمدی نه برای زیست در آن و سرانجامت در دنیا مرگ است نه زندگی و بدان که تو امروز در منزل کوچ و خانه موقت هستی که رهگذری است به آخرت و راستی که مرگ در پی تو است و گریزان از مرگ را رهائی نیست و از دست جوینده خود به در نمی رود و به ناچار او را می گیرد، تو برحذر باشی که مرگت فرارسد و در حال گناه باشی و در دل داشته باشی که از آن توبه کنی ولی مرگ به تو مهلت ندهد و بی توبه بمیری و خود را هلاك سازی. پسر جانم بسیار در یاد مرگ باش و بیاددار که به کجا افکنده می شوی و پس از مرگ به کجا و به چه وضعی می رسی تا آن که چون مرگت رسد خود را آماده کرده باشی و پشتیبانت محکم باشد و ناگهانت نگیرد تا خیره و درمانده شوی.

مبادا فریب بخوری که دنیاطلبان بدان دل داده و آن را جاودانه گرفته اند و بر سر آن با هم سگانه مبارزه می کنند، زیرا خدا از فناء دنیا خبر داده و خود دنیا هم خود را به بیوفایی توصیف کرده و از بدی های خود برایت پرده بر گرفته، همانا اهل دنیا سگهایی عوعوکننده و درنده هایی پوزش آور و زیان زننده اند، به روی یکدیگر زوزه کشند و عزیزانشان خوارهایشان را بخورند و بزرگشان خوردشان را مقهور سازند، چارپایانی باشند بسته یا مهارگسیخه و آزاد، عقل خود را گمراه کرده و در بیابانی ناشناخته می تازند، رمه هایی بیمار و آفت زده در نمك زاری لغزان سرگردانند، نه شبانی دارند که آنها را نگهداری کند و نه چوپانی که آن ها را بچراند، دنیا آن ها را به کوره راه ناهمواری کشانده و چشم آن ها را از دیدار راه روشن هدایت بسته، در سرگردانی دنیا گم شده اند و در نعمت بی عافیت آن اندرند، دنیا را پروردگار خود شناخته و دودستی آن را گرفته اند و دنیایشان به بازی گرفته و آنها هم سرگرم بازی با دنیا شدند و فراموش کردند که در دنبال دنیا چه عالمی است؟

آرام باش، پرده تاریکی به کنار می رود، گویا کاروان های جهان ناپیدا وارد شوند، هرکس شتاب کند به زودی به کاروانهای پیش گذر می رسد.

الفصل السابع من قوله عليه السلام

«وَاعْلَمْ [يا بُنَيّ] أَنَّ مَنْ كانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ فَإِنَّهُ يُسارُ بِهِ وَإِنْ كانَ واقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسافَةَ وَإِنْ كانَ مُقيماً وادِعاً.

وَاعْلَمْ يَقيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ في سَبيلِ مَنْ كانَ قَبْلَكَ فَخَفِّضِ في الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ في الْمُكْتَسَبِ، فإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إلى حَرَبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وإِنْ سَاقَتْكَ إلى الرَّغائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتاضَ بِما تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً، وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ، وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا، وَما خَيْرُ خَيْرٍ لا يُنالُ إلا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لا يُنالُ إلا بِعُسْرٍ!

وَإِيّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطايَا الطَّمَعِ فَتُورِدَكَ مَناهِلَ الْهَلَكَةِ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قِسْمَكَ، وآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسيرَ مِنَ اللَّهِ - سُبْحانَهُ - أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ كانَ كُلٌّ مِنْهُ.

وَتلافيكَ ما فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْراكِكَ ما فاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ ما في الوِعاءِ بِشَدِّ الْوِكاءِ، وَحِفْظُ ما في يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ ما في يَدِ غَيْرِكَ، وَمَرارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ ساعٍ فيما يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ، قارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ، بِئْسَ الطَّعامُ الْحَرامُ، وَظُلْمُ الضَّعيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ، إِذا كانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كانَ الْخُرْقُ رِفْقاً، رُبَّما كانَ الدَّواءُ داءً وَالدّاءُ دَواءً، وَرُبَّما نَصَحَ غَيْرُ النّاصِحِ وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ، وَإِيّاكَ والإِتِّكالَ عَلَى الْمُنى فَإِنَّها بضائِعُ النَّوْكى، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجارُبِ، وَخَيْرُ ما جَرَّبْتَ ما وَعَظَكَ، بادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً، لَيْسَ كُلُّ طالِبٍ يُصيبُ، وَلا كُلُّ غائِبٍ يَؤُبُ، وَمِنَ الْفَسادِ إِضاعَةُ الزّادِ وَمُفْسَدَةُ المَعادِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ ما قُدِّرَ لَكَ، التّاجِرُ مُخاطِرٌ، وَرُبَّ يَسيرٍ أَنْمى مِنْ كَثيرٍ.

وَلا خَيْرَ في مُعينٍ مَهينٍ، وَلا في صَديقٍ ظَنينٍ، ساهِلِ الدَّهْرَ ما ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلا تُخاطِرْ بِشَيْءٍ رَجاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيّاكَ أَنْ تَجْمَعَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجاجِ، احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَباعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلى اللّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ، وَإِيّاكَ

أنْ تَضَعَ ذلِكَ في غَيْرِ مَوْضعهِ، أَوْ أَنْ تَفعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ لا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَديقاً فَتُعادِي صَديقَكَ، وَامْحَضْ أخاكَ النَّصيحَةَ حَسَنَةً كانَتْ أو قَبيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلى مِنْهَا عاقِبَةً وَلا أَلَذَّ مَغَبَّةً، وَلِنْ لِمَنْ غالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أنْ يَلينَ لَكَ، وَخُذْ عَلى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطيعَةَ أَخيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدا لَهُ ذلِكَ يَوْماً ما، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلا تُضيعَنَّ حَقَّ أَخيكَ اتِّكالاً على ما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيس لَكَ بأخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ، ولا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ، وَلا تَرْغَبَنَّ فيمَنْ زَهَدَ عَنْكَ وَلا يَكُونَنَّ أَخُوكَ على مُقاطَعَتِكَ أَقْوى مِنْكَ عَلى صِلَتِهِ، وَلا يَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَة أَقْوىٰ مِنْكَ عَلَى الإحْسانِ، وَلا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فإِنَّهُ يَسْعى في مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزاءُ مَنْ سَرَّكَ أنْ تَسُوءَهُ»[1].

اللغة

(المطيّة): ما يقطع به المسافة، فاختلاف اللّيل والنّهار يوجب طيّ مدّة العمر، **(تعدو)**: تجاوز، **(التخفيف والإجمال)**: ترك الحرص في طلب الدُّنيا، **(الحرب)**: سلب المال وفنائه، **(أوجفت)**: أسرعت، **(التلافي)**: التدارك **(الوكاء)**: حبل يشدّ به رأس القربة، **(الحرفة)**: الاكتساب بالتعب، **(أهجر الرجل)**: إذا أفحش في منطقه، **(الرفق)**: اللين و**(الخرق)**: ضدّه، **(النوكى)**: الحمقى، **(الصّرم)**: القطع، **(الصدود)**: الاعراض، **(الظنين)**: المتهم، **(محضه النصيحة)**: أخلصها له، **(المغبّة)**: العاقبة.

الإعراب

(وقد جعلك الله حرّاً): جملة حاليّة، **(وما خير خير)**: يحتمل أن يكون كلمة **(ما)** استفهامية للانكار فالخير الأوّل مضاف إلى الثاني ولو جعلت نافية ففي الإضافة غموض وفي العبارة إبهام والإعراب في قوله «ويسر لا ينال» أغمض فتدبّر، **(بشدّ الوكاء)**: ظرف مستقر خبر لقوله «حفظ»، **(ما ذلّ)**: لفظة **(ما)** مصدرية زمانيّة، **(رجاء أكثر منه)**: مفعول له لقوله «لا تخاطر»، **(ما)** في قوله «يوما مّا»: نكرة تفيد القلّة.

المعنى

قرّر عليه السلام في هذا الفصل زوال الدُّنيا وفناءها بحساب رياضي فقال: إنَّ العمر عدد من

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ٣٢٠، وبحار الأنوار: ٧٥/ ١١ ح ٦٨.

اللّيالي والأيّام المارة على الدّوام ويصل إلى النهاية وينفذ لا محالة، وبعد ما أثبت بالبرهان الرياضي أنَّ العمر منقض وأنَّ الأجل محتوم فلا ينبغي الركون إلى الدُنيا والاعتماد عليها، ثمَّ توجّه إلى ابطال ما يفتتن به أهل الدُّنيا من الآمال وبيّن أنَّ الإنسان في هذه الدُّنيا لا يبلغ إلى آماله لأنَّ الأمل غير محدود، والأجل محدود، ووصّاه بترك الحرص والكدّ في طلب الدُّنيا، فإنَّ الرزق المقدّر يصل بأدنى طلب وما يطلب بجدّ وكدٍّ ربّما يتلف ويضيع ويعرضه للحرب.

قال ابن ميثم: وذلك كما شوهد في وقتنا أنَّ تاجراً كان رأس ماله سبعة عشر ديناراً فسافر بها إلى الهند مراراً حتى بلغت سبعة عشر ألفاً فعزم حينئذ على ترك السّفر والاكتفاء بما رزقه الله، فسوّلت له نفسه الأمارة بالسّوء في العود وحبّبت إليه الزّيادة فعاود السّفر فلم يلبث أن خرجت عليه السّراق في البحر فأخذوا جميع ما كان معه، فرجع وقد حرب ماله، وذلك ثمرة الحرص المذموم.

ثمّ تعرّض عليه السلام للوصيّة بحفظ كرامة النفس والاحتفاظ بالشخصيّة التي هي شرف وجود الإنسان وامتيازه عن سائر أنواع الحيوان فقال عليه السلام: **(وأكرم نفسك عن كلّ دنيّة وإن ساقتك إلى الرغائب)**[1] ويندرج في وصيّته هذه الأمر بحفظ الحريّة والاستقلال في عالم البشريّة التي هي لبّ الديمقراطية في الاجتماع الإنساني وأشار إلى أنَّ النفس أعزّ وأعلى من كلِّ شيء فلا قيمة له بوجه من الوجوه وأكّد ذلك بقوله عليه السلام: **(ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً)**[2].

ثمّ أشار إلى أنّ آفة الحرّية الطمع فحذّر منه أشدّ الحذر وفي التشبث بالوسائط نوع من الضعف في الاستقلال والحرّية فقال عليه السلام: **(وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل)**.

ثمّ سرد أنواعاً من الفضائل وحث على اكتسابها، وأنواعاً من الرّذائل ووصّى الاجتناب عنها، فمن الفضائل: الصّمت، وحفظ المال، وتكلّف الحرفة، ومن الرذائل: إظهار الحاجة إلى الناس، وتحصيل الغنى بالفجور وكثرة الكلام.

ومن الفضائل: الفكر ومصاحبة أهل الخير، ومن الرّذائل: مصاحبة أهل الشرّ والظلم بالضعيف، وجرَّ عليه السلام كلامه إلى الوصيّة بحفظ روابط الودّ مع الأحبّاء والأقرباء فإنّه أُسّ الاجتماع والتعاون المفيد في الحياة. فقال عليه السلام: **(احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصّلة)** وبيّن كلّ ما يمكن أن يصير سبباً لقطع رابطة الأخاء وفتّ عضد المحبّة والاجتماع

(١) بحار الأنوار: ١٠٠/ ٣٩ ح ٨٨.

(٢) ميزان الحكمة: ٢/ ٩٨٢.

وأراه دواءه الناجع النافع فدواء الإعراض الإقبال والمقارنة باللّطف، ودواء المنع عن العطاء هو البذل عليه ودواء التباعد الناشيء عنه هو التقارب والدّنوُّ منه، ودواء شدّته وصولته هو اللّين والرِّفق معه، ودواء جرمه واجترائه هو الاعتذار منه وله، وقد لخّص كلّ ذلك في قوله: **(حتّى كأنّك له عبد)**.

وقد ذيّل وصايته هذه بأنَّ تلك المعاملة الإخائيّة لا بدّ وأن تكون مع من يليق بها وهو المؤمن المعتقد.

الترجمة

ای پسر جانم بدان كه هركس بر پاكش شب و روز سوار است هميشه به سوى مرگ در رفتار است گرچه در جاى خود ايستاده و استوار است و به ناخواه طى راه مى نمايد گرچه مقيم و آسوده مى زيد، به طور يقين بدان كه به آرزو و آرمان خود نمى رسى و از عمر مقدر نمى گذرى و به راه همه كسانى كه پيش از تو بوده اند مى روى، در طلب دنيا آرام باش و در كسب مال هموار رفتار كن، زيرا بسا طلب كه به سرانجام تلف مى كشد، نه هر كس دنبال روزى دود به روزى مى رسد و نه هركس آرام و هموار كار مى كند از روزى وامى ماند، خود را از هر پستى در طلب دنيا گرامى دار و اگرچه آن كار پست تو را به آرمان هايت برساند، زيرا اگر خود را بفروشى بهائى كه ارزش شخصيت را داشته باشد به دست نياورى، خود را بنده ديگرى مساز و به او مفروش در صورتى كه خداوندت آزاد و مستقل آفريده است، چه خير و خوبى دارد آن خيرى كه جز بهوسيله بدى به دست نيايد و چه آسايشى است در آن چه جز به دشوارى فراهم نشود؟

مبادا اختيار خود را به مركب سركش طمع بسپارى تا تو را در پرتگاه هلاك و نابودى كشاند. اگر توانى هيچ منعمى را ميان خود و خدا واسطه طلب روزى نسازى همين كار را بكن و زير بار نوكرى ديگران مرو، زيرا تو قسمت روزى خود را خواهى يافت و بهره ات به تو خواهد رسيد؛ همان روزى اندك از طرف خداوند سبحان بى منت ديگران بزرگتر و گرامى تر است از بهره بيشتر از دست ديگران و گرچه همه از طرف خداوند منّان است.

هر كه نان از قبل خويش خورد

منّت از حاتم طائى نبرد تدارك تقصيرى كه از خموشى برآيد آسان تر است از تدارك آن چه از گفتار ناهنجار زايد. نگهدارى رازهاى درون به بستن زبان است، چون بستن سر ظرف آن چه را در آن است حفظ مى نمايد، نگهدارى آن چه در دست خود دارى نزد من محبوب تر است از جستن چيزى كه در دست ديگران است، تلخى نوميدى به است از دست نياز به مردم دراز كردن، پيشهورى و آبرومندى به است از بى نيازى بهوسيله هرزگى هر مردى بهتر، راز خود را نگه مى دارد، بسا كسى كه در زيان به خود مى كوشد هركه پر گويد ژاژ خايد، هركه انديشه كند بينا گردد، با خيرمندان درآميز تا از ايشان باشى، از شرّانگيزان جدا شو تا از آنها بركنار باشى، چه بد خوراكى است مال حرام، ستم بر ناتوان فاحش ترين ستم است، در جائى كه از ملايمت كج خلقى برآيد كج خلقى ملايمت زايد، چه بسا كه دارو درد گردد و درد دارو، چه بسا كه اندرز از بدخواه برآيد و خيرخواه به دغلى در اندرز خود گرايد، مبادا بر آرزوهاى خود اعتماد كنى كه آرزومندى كالاى احمقان است، عقل و خرد تجربه اندوزى است، بهترين تجربه آن است كه تو را پند دهد تا غصه و افسوس نيامده وقت را غنيمت شمار و از دستش مده، هركس جويد به مقصد رسد و نه هر غايبى به خانه اش برگردد، ضايع نمودن توشه راه ارتكاب تباه است و مفسد روز رستاخيز، هركارى را دنباله اى است و به سرانجامى گرايد، هرچه براى تو مقدّر باشد به تو خواهد رسيد، بازرگان خود را به خطر مى اندازد، چه بسا اندكى كه پر بركت تر از بسيار است، در ياور و همكار پست و زبون خيرى نباشد و نه در دوست دودل و متهم به خيانت، تا روزگار با تو بسازد با او بساز، چيزى كه در دسترس است به اميد بيش از آنش در خطر ميفكن، مبادا عنان خود را به دست مركب سركش لج بازى بسپارى، براى نگهدارى برادر و دوست خود اگر از تو بريد با او پيوست كن و هنگام روگردانى او با لطف و مهربانى به او نزديك شو و چون مشت خود را بست به او ببخش و چون دورى گزيد به او نزديك شو و هنگام سخت گيرى او با او نرمش كن و چون جرمى مرتكب شد بر او پوزش آور، تا آنجا در برابر او فروتن باش به مانند بنده اى در برابر آقاى خود و تا آنجا كه او را منعم خويش به حساب آورى و مبادا اين معامله برادرانه را با نااهل و ناشايست آن روادارى.

با دشمن دوستت طرح دوستى مريز تا با دوستت دشمنى كرده باشى، با برادر خود پاك و صريح نصيحت كن و حق را به او بگو چه خوشايد او باشد چه او را بدآيد، خشم را فروخور زيرا من نوششى را شيرين سرانجام تر و لذت بخش تر در دنبال از آن نديدم، با كسى كه درشتت برآيد نرمش كن چه بسا كه نرم شود، بر

دشمن خود به تفضل و احسان برتری جو، زیرا که این شیرین تر پیروزی ها است، اگر خواستی از دوستی ببری یك رشته از حسن رابطه را به جای گزار که بهوسیله آن بهوی برگردی اگر روزی پشیمان شدی. هرگاه کسی به تو گمان خوبی دارد به او خوبی کن و گمانش را درست درآور، به اعتماد دوستی و یگانگی، حق دوست را زیر پا مکن، زیرا کسی که حقش را ضایع سازی با تو برادری نکند.

مبادا خاندان تو بدبختترین مردم باشند نسبت به تو و از آنها رعایت دیگران را نکنی، کسی که تو را ترك گوید و از تو رو گرداند دل به او مبند. برادر و دوست تو در قطع رابطه بر تو از پیوند تو با او پیشدستی نکند و پیش از آن که او قطع رابطه کند جلوی آن را بگیر و مواظب باش که او در بد رفتاری با تو از خوش رفتاری تو با او پیش دستی نکند و با خوش رفتاری جلوی بدرفتاریش را ببند. ستم ستمگر بر تو گران نیاید، زیرا که او در زیان خود و سود تو کوشش می نماید. پاداش کسی که تو را شادمان می نماید این نیست که تو به او بدی کنی و دلش را آزرده سازی.

الفصل الثامن من قوله عليه السلام

«وَاعْلَمْ، يا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتاكَ، ما أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الحاجَةِ، وَالْجَفاءَ عِنْدَ الْغِنى، إِنَّما لَكَ مِنْ دُنْياكَ ما أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْواكَ، وَإِنْ جَزِعْتَ عَلى ما تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ ما لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ، إِسْتَدِلَّ عَلى ما لَمْ يَكُنْ بِما قَدْ كانَ فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْباهٌ، وَلا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلا إِذا بالَغْتَ في إِيلامِهِ، فَإِنَّ الْعاقِلَ يَتَّعِظُ بِالآدَبِ، وَالْبَهائِمَ لا تَتَّعِظُ إِلاّ بِالضَّرْبِ، إِطْرَحْ عَنْكَ وارِداتِ الْهُمُومِ بِعَزائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقينِ، مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جارَ، وَالصّاحِبُ مُناسِبٌ، وَالصَّديقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ، وَالْهَوى شَريكُ الْعَمىٰ [الْعَنا]، وَرُبَّ قَريبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعيدٍ، وَبَعيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَريبٍ، وَالْغَريبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبيبٌ، مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلى قَدْرِهِ كانَ أَبْقى لَهُ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَمَنْ لَمْ يُبالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ، قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْراكاً إِذا كانَ الطَّمَعُ هَلاكاً، لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصابُ، وَرُبَّما أَخْطَأَ الْبَصيرُ قَصْدَهُ، وَأَصابَ الأَعْمىٰ رُشْدَهُ، أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطيعَةُ الْجاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعاقِلِ، مَنْ أَمِنَ الزَّمانَ خانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهانَهُ، لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمى أَصابَ، إِذا تَغَيَّرَ السُّلْطانُ تَغَيَّرَ الزَّمانُ، سَلْ عَنِ الرَّفيقِ قَبْلَ الطَّريقِ، وَعَنِ الْجارِ قَبْلَ الدّارِ.

إِيّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً وَإِنْ حَكَيْتَ ذلِكَ عَنْ غَيْرِكَ، وَإِيّاكَ وَمُشاوَرَةَ النِّساءِ، فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلى وَهْنٍ، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصارِهِنَّ بِحِجابِكَ إِيّاهُنَّ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجابِ أَبْقى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخالِكَ مَنْ لا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ، وَلا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِها ما جاوَزَ نَفْسَها، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحانَةٌ وَلَيْسَت بِقَهْرَمانَةٍ، وَلا تَعْدُ بِكَرامَتِها نَفْسَها، وَلا تُطْمِعْها في أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِها، وَإِيّاكَ وَالتَّغايُرَ في غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذلِكَ يَدْعُو الصَّحيحَةَ إِلى السَّقَمِ، وَالْبَريئَةَ إِلَى الرِّيَبِ، وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرى أَنْ لا يَتَواكَلُوا في خِدْمَتِكَ، وَأَكْرِمْ عَشيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَناحُكَ الذي بِهِ تَطيرُ، وَأَصْلُكَ الذي إِلَيْهِ تَصيرُ، وَيَدُكَ التي بِها تَصُولُ.

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دينَكَ وَدُنْياكَ، وَأَسْأَلُهُ خَيْرَ الْقَضاءِ لَكَ في الْعاجِلَةِ وَالآجِلَةِ، والدُّنْيا وَالآخِرَةِ، والسَّلامُ[١]».

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ٣٣٤، وبحار الأنوار: ٧٤/ ٢٣٣.

اللغة

(مثوى): اسم مكان من ثوى بمعنى محلّ الإقامة، **(تفلّت)**: تخلّص وفي معناه الافلات والانفلات، **(العظة)**: كالعدة مصدر وعظ يعظ، **(عزائم الصبر)**: ما لزمته منها، **(مناسب)**: مفعول من ناسب أي من ذوي القربى، **(العورة)**: قال ابن ميثم: هنا الاسم من أعور الصيد إذا أمكنك من نفسه وأعور الفارس إذا بدا منه موضع خلل الضّرب، **(أفن)**: الأفن بسكون الفاء، النقص، والمتأفن، المتنقص وروى إلى أفن بالتحريك فهو ضعيف الرأي، أفن الرّجل يأفن أفناً أي ضعف رأيه، **(الوهن)**: الضّعف، **(القهرمانة)**: فارسي معرّب.

الإعراب

(رزق تطلبه): عطف بيان لقوله «رزقان»، **(من دنياك)**: متعلق بقوله «لك» وهي ظرف مستقر خبر مقدّم لقوله «أن» و**(ما)** الموصولة اسم له، **(واكفف عليهنّ من أبصارهنّ)**: قال الشارح المعتزلي **(ص ١٢٤ ج ١٦ ط مصر)**: **(من)** هاهنا زائدة وهو مذهب أبي الحسن الأخفش من زيادة من في الموجب، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه فيعني به: فاكفف عليهنّ بعض أبصارهنّ، **(بأشدّ)**: خبر ليس، والباء زائدة، **(لا تعد)**: نهى من عدا يعدو أي لا تجاوز، **(التغاير)**: تفاعل من الغيرة وهي الرقابة في النّساء.

المعنى

قد قسّم عليه السلام الرزق إلى رزق يحصل بلا طلب وإلى رزق يحصل بالطّلب وقد ورد في غير واحد من الآيات والأخبار أنَّ الرزق مضمون على الله تعالى وأصرح الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

فالآيتان تدلاّن على أنَّ اللّه تعالى تعهّد رزق كلّ دابّة كدين يجب الوفاء به وهو قادر على أداء هذا الدَّين فيصل رزق كلّ دابّة إليها وأنّه تعالى هو الرّازق على وجه الحصر ولا رازق غيره لأنَّ ضمير الفصل في قوله: هو الرّزاق، وتعريف المسند يفيدان الحصر فمعنى الآية أنّه تعالى رازق ولا رازق غيره، وينبغي البحث هنا في أمرين:

١ ـ أنَّ وصول الرّزق إلى كلّ مرزوق مطلق أو له شرط معلّق عليه فإذا لم يحصل الشرط يسقط الرّزق المقدّر، وما هو هذا الشرط؟

يستفاد من بعض الأخبار أنّ الرّزق مشروط بالطلب والاكتساب(١) بوجه ما فإذا ترك الطلب مطلقاً يسقط الرّزق المقدّر، وذلك كمن ترك تحصيل الرّزق واعتزل في زاوية منتظراً لمن يدخل عليه ويكفله، ويؤيّد ذلك وجوب تحصيل النفقة لنفسه ولمن يجب عليه نفقته كالزّوجة والأقارب باتفاق الفقهاء، فلو كان الرّزق واصلاً مطلقاً وحاصلاً بتقدير من الله فلا معنى لوجوب تحصيله، ولكن لا إشكال في أنّ تأثير الطلب مختلف في الأشخاص، فربما يحصل بطلب قليل رزق واسع كثير، وربّما يحصل بالجدّ والكدّ أدنى مؤونة العيش ومقدار دفع الجوع وسدّ الرَّمق، ونظره عليه السلام في هذا المقام ترك الحرص وتحمّل العناء في طلب الدّنيا، كما أنّه لا إشكال في حصول الرّزق لبعض الأشخاص من حيث لا يحتسب قال الشارح المعتزلي **(ص ١١٤ ج ١٦ ط مصر)**:

دخل عماد الدّولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها وهو فقير لا مال له فساخت إحدى قوائم فرسه في الصحراء في الأرض فزلّ عنها وابتدرها غلمانه فخلّصوها، فظهر لهم في ذلك الوضع نقب وسيع، فأمرهم بحفره فوجدوا فيه أموالاً عظيمة وذخائر لابن ياقوت.

ثمّ استلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز التي كان ابن ياقوت يسكنها فرأى حيّة في السقف، فأمر غلمانه بالصّعود إليها وقتلها، فهربت منهم، ودخلت في خشب الكنيسة فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل، فلمّا قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار لابن ياقوت.

واحتاج لأن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله فقيل: هاهنا خيّاط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهو رجل منسوب إلى الدّين والخير، إلاّ أنّه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلاً فأمر باحضاره فأُحضر وعنده رعب وهلع، فلمّا أدخله إليه كلّمه وقال: أُريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب، فارتعد الخيّاط واضطرب كلامه وقال: والله يا مولانا ماله عندي إلاّ أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قوله الأعداء فيَّ، فتعجّب عماد الدّولة وأمر باحضار الصناديق فوجدها كلّها ذهباً وحلياً وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت.

٢ ـ أنَّ من يأكل من الحرام كالسارق والكاسب من الوجوه المحرّمة فهل يأكل رزقه المقدّر أم يأكل من غير رزقه؟ وهل الحرام رزق الله ويندرج في كلامه هذا أنَّ الرّزق رزقان أم هو خارج عن مفهوم كلامه ورزق ثالث؟

ثمّ قبّح عليه السلام خلقاً معروفاً عند الناس وهو الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى.

---

(١) انظر الكافي كتاب المعيشة ج٥/ ٦٥ ح١. وكذلك صفحة ٧٧.

وقد ارتكب الناس هذا الخلق حتّى مع الله تعالى فعاتبهم به في كلامه قال عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1] [يونس: ٢٢، ٢٣].

وقد أشار عليه السلام إلى أنّ ما يفيد للإنسان من الدُّنيا هو يصلح به أمر آخرته فحسب، وأما غير ذلك فيذهب هدراً ويبقى تبعته.

وأشار عليه السلام إلى تسلية مقنعة مستدلة لترك الأسف على ما فات بأنه إذا جزع على ما خرج من يده من المال والجاه فلا بدّ أن يجزع على جميع ما في الدُّنيا ممّا لم يصل إليه لأنه لا فرق بين القسمين، ووصّى أن يكون للإنسان قلباً خاضعاً فهماً مستعداً للاتّعاظ وهو دليل العقل والفراسة.

العبدُ يقرع بالعصا والحرّ تكفيه الملامة

ولا يخلو الإنسان من هموم ترد على قلبه من حيث يشعر ولا يشعر فوصّى عليه السلام بطرد هذه الهموم بملازمة صبر ثابت ويقين صادق وبملازمة طريقة عادلة في أعماله وأخلاقه ونبّه على أنّ الصاحب الصديق كنسيب قريب، وكان يقال: «الصديق نسيب الرّوح والأخ نسيب البدن».

وقد بين عليه السلام موازين لأُمور هامّة:

١ ـ ميزان الصّداقة، فقال: (**والصديق من صدق غيبه**) يعنى أنّ الصّداقة يعرف[2] بحفظ الغيب للصديق، فربّما شخص يظهر الصّداقة في الحضور ولم يكن إلاّ منافقاً.

٢ ـ ميزان الغربة، فقال: (**الغريب من لم يكن له حبيب**) أي من لم يكن له مونس يطمئنّ إليه ويلمسه عن ظهر قلبه برابطة وديّة صادقة فهو غريب وإن كان في وطنه.

٣ ـ ميزان العداوة، فقال: (**ومن لم يبالك فهو عدوّك**) أي لم يكترث بك ويراعيك فهو عدوّ.

وقد استغرب الشارح المعتزلي هذه الميزانيّة للعداوة فقال (**ص ١١٩ ج ١٦ ط مصر**): وهذه الوصاة خاصّة بالحسن عليه السلام وأمثاله من الولاة وأرباب الرّعايا وليست عامّة للسوقة من أفناء الناس، وذلك لأنّ الوالي إذا أنس من بعض رعيته أنّه لا يباليه ولا يكترث به، فقد أبدى

(١) انظر الكافي: ٥/٥٦، ومعجم آيات القرآن: ١٠٢.

(٢) كذا وردت في الأصل والأصح «تُعرف..» (المصحح).

صفحته، ومن أبدى لك صفحة فهو عدوّك وأما غير الوالي من أفناء الناس فليس أحدهم إذا لم يبال بالآخر بعدوّ له.

أقول: قد ذكرنا في بدء شرح هذه الوصيّة أنها موجّهة من نوع الوالد إلى نوع الولد من دون ملاحظة أيّة خصوصيّة في البين، والمقصود من عدم المبالاة في كلامه عليه السلام هو عدم رعاية الحقّ بعد المعرفة ووجود الرّابطة بين شخصين وكلّ من عرف غيره ولم يراع له حقّه يكون عدوّاً له وظالماً، سواء من السوقة وأفناء الناس، أو من الولاة والحكّام، والفرق أنَّ المعرفة للوالي أعم، وحقوقه على الرّعايا أتمّ وألزم.

وقد اختلف في تفسير قوله عليه السلام: **(ليس كلّ عورة تظهر)** فقال الشارح المعتزلي **(في ص ١١٩ ج ١٦ ط مصر)**: يقول: قد تكون عورة العدوّ مستترة عنك فلا تظهر، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها.

وقال ابن ميثم: نبّه بقوله: ليس كلّ عورة - إلى قوله: رشده، على أنَّ من الأُمور الممكنة والفرض ما يغفل الطالب البصير عن وجه طلبه فلا يصيبه ولا يهتدي له، ويظفر به الأعمى - إلى أن قال: وغرض الكلمة التسلية عن الأسف والجزع على ما يفوت من المطالب بعد إمكانها.

أقول: قد ارتبط ابن ميثم هذه الجمل الأربع إلى غرض واحد، والظاهر أنَّ كلا منها حكمة عامّة تامّة، والمقصود من العورة العيب في عدوّ أو غيره المعرض للانكشاف، فيقول: ربّما يبقى عيب معروف للانكشاف مستوراً لغفلة الناس أو سبب آخر، كما أنه ربّما لا يستفاد من الفرصة وربما يخطيء البصير عن قصده كما أنه ربّما يصيب الأعمى رشده.

وهذه الحكم كلّها من قبيل المثل السائر المشهور: رميّة من غير رام وتنبيه على أنَّ الأسباب المعمولة ليست عللا تامّة للوصول إلى المقاصد والأهداف.

ونبّه بقوله عليه السلام **(من أمن الزّمان خانه ومن عظّمه هانه)**[1] على أن الزّمان إذا أقبل على الإنسان لا يصحّ الاعتماد عليه، فإنه دوّار غدّار كما قال أبو الطّيب:

وهي معشوقة على الغدر لا تحـ ـفظ عهداً ولا تتمم وصلاً

وقد أشار إلى السّبب الأساسي في تغيير الزّمان على بني الإنسان فقال: **(إذا تغيّر السلطان تغيّر الزّمان)** ذكر الشارح المعتزلي **(ص ١٢١ ج ١٦ ط مصر)** في شرح هذه الجملة: في كتب الفرس أنّ أنوشروان جمع عمّال السّواد وبيده درّة يقلبها، فقال: أيّ شيء

(١) نهج السعادة: ٤/٣٢٧، وبحار الأنوار: ٧٤/٢٣١.

أضرّ بارتفاع السّواد وأدعى إلى محقه؟ أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه؟ فقال بعضهم: انقطاع الشّرب، وقال بعضهم: احتباس المطر وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال، فقال لوزيره: قل أنت فإني أظن عقلك يعادل عقول الرّعيّة كلّها أو يزيد عليها، فقال: تغيّر رأي السلطان في رعيّته، وإضمار الحيف لهم، والجور عليهم، فقال: لله أبوك، بهذا العقل أهّلك آبائي وأجدادي لما أهّلوك له، ودفع إليه الدرّة فجعلها في فيه.

ثمّ توجّه عليه السلام في آخر وصيّته إلى المعاملة مع النساء والخدم وهم أهل البيت والخاصّة ووصّى في النساء بأُمور:

١ ـ ترك المشاورة معهنّ لضعف الرأي ووهن العزم والتصميم في الأمور.

٢ ـ كفّ أبصارهنّ عن الأجانب وزهرة الدُّنيا بواسطة الحجاب عليهنّ فإنّه موجب لبقائهنّ ووفائهنّ للزّوج.

٣ ـ عدم إدخال الرّجال الأجانب عليهنّ في البيت إذا كانوا أهل ريب وفتنة.

٤ ـ عدم إحالة تدبير أُمور البيت من شراء الحوائج والأُمور الخارجة عن تدبير أنفسهنّ عليهنّ لأنّ ذلك يؤذيهنّ ويذهب بجمالهنّ وبهائهنّ وينقص من الاستمتاع بوجودهنّ.

٥ ـ عدم إجابتهنّ في الشفاعة والوساطة للأغيار، فإنّه يوجب توجّههم إليهنّ ويؤدّي إلى فسادهنّ يوماً ما.

٦ ـ عدم إظهار الغيرة عليهنّ في غير موضعها، والمقصود المنع من سوء الظنّ بهنّ ضنّاً عليهنّ وشغفاً بحبهنّ فإنّه يوجب سوقهنّ إلى الفساد، ويلوث براءة ساحتهنّ بالرّيب وعدم الاعتماد.

وأمّا وصيّته عليه السلام بالنسبة إلى الخدم فإنّها تنظم أعمال خدمتهم بتقسيم أُموره بينهم وإحالة كلّ أمر إلى من يناسبه منهم وجعله مسؤولاً عنه بخصوصه لئلا يكل بعضهم إلى بعض ويضيع[1] الأُمور وتبقى بلا مسؤول خاصّ.

ثمّ ختم عليه السلام وصاياه بقوله **(وأكرم عشيرتك)** والمقصود منه صلة الرّحم المأمور بها في الكتاب والسّنة معلّلا بأنّ العشيرة كالجناح للطّيران وكالأصل للبنيان وكاليد للصّولة على ذوي العدوان.

وقد قرّر ابن خلدون في مقدمته المعروفة في علم الاجتماع والعمران، العصبة

(١) كذا وردت في الأصل والأصح من حيث المعنى «وتضيع الأمور..» (المصحح).

والاعتماد على العشيرة أصلاً ثابتاً في القبض على الحكومة والسّلطان وتحصيل الزعامة على سائر أفراد الإنسان، وقرّر ذلك الأصل بشواهد كثيرة من التاريخ في شتّى النواحي والبلدان.

قال في **(ص ١١٧ ج ١ من المقدّمة ط مصر)**: الفصل السابع عشر في أنَّ الغاية التي تجري إليه العصبيّة هي الملك.

وذلك لأنا قدّمنا أنَّ العصبيّة بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه، وقدّمنا أنَّ الأدميّين الطبيعة الإنسانية يحتاجون في كلّ اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض، فلا بدَّ أن يكون متغلّباً عليهم بتلك العصبيّة وإلاَّ لم تتمَّ قدرته على ذلك وهذا التغلّب هو الملك.

الترجمة

ای پسر جانم بدان که روزی بر دو قسم است: یك روزی است که تو به دنبال آن می روی و روزی دیگری که به دنبالت می آید و اگر به دنبال آن نروی او به دنبال تو می آید، وه چه زشت است که هنگام نیاز فروتن و زبون باشی و چون نیاز نداری جفا کنی و روگردانی، تو از دنیای خود همانی را داری که با آن کار آخرت خود را درست کنی، اگر بدانچه از دست رفته است بی تابی کنی باید بر هر چه که در جهان است و به تو نمی رسد بی تابی کنی و غم آن را بخوری، بدانچه نباشد از آنچه هست رهیاب باش، زیرا همه امور به هم مانند و آنچه هست نمونه ای است برای آن چه نیست.

از آن کسانی مباش که پند نپذیرند مگر آن که پندی جانکاه و ملامت بار باشد و دلش را به درد آورد، زیرا خردمند به همان ادب و پرورش پند پذیرد، جانوران و چهارپایان که جز با کتك فرمان پذیر نباشند، آن چه همّ و اندوه بر دلت وارد شود بهوسیله شکیبایی پایدار و خوش باوری از قدرت پروردگار از خود دور کن. هرکس از راه عدل و داد بگردد جائر و نابکار باشد و رفیق موافق برادر باشد، دوست آن کس است در پشت سر دوستی را رعایت کند، هوس هم عنان رنج و غم است، بسا خویشی که از بیگانه دورتر است و بسا بیگانه که از خویش نزدیك تر و مهربان تر، آواره کسی است که دوستی ندارد.

هر کس از حقّ تجاوز کند به تنگنای گرفتار آید، هرکه قدر خود را شناسد و بر آن بایستد برای او پاینده تر است، محکم ترین وسیله که به آن بچسبی آن است که میان تو و خدا است، هر کسی به تو بی اعتنا است دشمن تو است، گاهی شود که نومیدی رسیدن به مقصود باشد در صورتی که طمع ورزی مایه نابودی است، هر بدی فاش نگردد و هر فرصتی مورد استفاده نباشد، بسا که بینا و هشیار از مقصد خود خطا رود و نابینا و نادان به مقصد رسد.

بدی را تا توانی به تأخیر انداز که هردم می توانی در آن بشتابی، بریدن نادان برابر پیوند با خردمندان است، هر کس از مکر زمانه آسوده زید به خیانت او دچار گردد و هر کس زمانه را بزرگ شمارد خواری آن را بیند، نه هر کس تیر اندازد به

هدف زند، وقتی سلطان دیگر گونه گردد زمانه هم دیگرگون شود، نخست از رفیق پرسش کن آنگاه از راه و از همسایه بررسی کن آنگاه از خانه، مبادا سخنی بگویی که خنده آور باشد و اگرچه از دیگری آن را حکایت کنی.

مبادا با زنان خانه خود در کارهایت مشورت کنی، زیرا رأی آنان سست است و تصمیمشان ناپایدار است. با حجاب خود جلو دیده آنان را برگیر، زیرا هر چه در پرده باشند بهتر می مانند و سالم ترند، بیرون رفتن آنها از خانه و گردش آنان در کوی و برزن از آن بدتر نیست که بیگانه ای که مورد اطمینان نباشد نزد آنها آوری و با او معاشرت کنند و اگر بتوانی آنها را چنان داری که جز تو را نشناسند همین کن.

زن را به بیش از آن چه راجع به خود او است بر کارها سر کار و صاحب اختیار مکن، زیرا زن چون گل است و جنس لطیف و قهرمان و کارگزار نیست و نباید از اندازه احترام و شایستگی خود تجاوز نماید، زن را به طمع مینداز که پیش تو واسطه انجام کار دیگران شود و مبادا بی جا غیرتورزی کنی و به دنبال بدبینی باشی که این خود، زن درست و پارسا را بیمار و ناهموار سازد و زن پاکدامن را به سوی آلودگی کشد.

برای هر کدام از خدمت کاران خود کاری مخصوص او مقرّر دار که مسؤول او باشد و در عهده او شناخته شود، زیرا این تقسیم کارها خود سبب می شود که کارها را به هم وا نگذارند و خدمت را بی سرانجام ننمایند.

عشیره و تیره و تبار خود را گرامی دار و محترم شمار، زیرا که آنان به جای پرهای تواند که بهوسیله آنها پران می شوی و پایه تواند که بدانهای می گردی و چون دست تواند که بهوسیله آنها یورش و فعالیت داری.

من تو را از نظر دین و دنیایت به خدا می سپارم و از او برای تو فرمان خیر و صلاح را در دنیا و آخرت خواستارم؛ والسّلام.

المختار الثاني والثلاثون
من كتاب له عليه السلام إلى معاوية

«وَأَرْدَيْتَ جيلاً مِنَ النّاسِ كَثيراً: خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ في مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشاهُمُ الظُّلُماتُ، وَتَتَلاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهاتُ، فَجازُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلى أَعْقابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا على أَدْبارِهِمْ وَعَوَّلُوا عَلى أَحْسابِهِمْ إِلاّ مَنْ فاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصائِرِ فَإِنَّهُمْ فارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ، وَهَرَبُوا إِلى اللّهِ مِنْ مُوازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ، فَاتَّقِ اللّهَ يا مُعاوِيَةُ في نَفْسِكَ وَجاذِبِ الشَّيْطانَ قِيادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، والآخِرَةِ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلامُ»[1].

وأول هذا الكتاب

«من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد: فإنَّ الدُّنيا دار تجارة، وربحها أو خسرها الآخرة، فالسّعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصّالحة، ومن رأى الدُّنيا بعينها، وقدّرها بقدرها، وإنّي لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك ممّا لا مردّ له دون نفاذه، ولكنّ الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة، وأن ينصحوا الغويَّ والرّشيد، فاتّق الله، ولا تكن ممّن لا يرجو الله وقاراً، ومن حقّت عليه كلمة العذاب، فإنّ الله بالمرصاد، وإنَّ دنياك مستدبر[2] عنك، وستعود حسرة عليك، فاقلع عمّا أنت عليه من الغيّ والضلال، على كبر سنّك، وفناء عمرك، فإنَّ حالك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح من جانب إلاّ فسد من آخر، وقد أرديت جيلاً»، إلخ.

اللغة

(أرديت): أوقعت في الهلاك والضلالة، **(جيلا)**: الجيل من الناس: الصنف منهم فالتُّرك جيل والروم جيل والهند جيل، **(نكصوا)**: أي انقلبوا، **(قياد)**: حبل يقاد به البعير ونحوه، **(المهيل)**: المتداعي في التمزّق ومنه رمل مهيل أي: ينهال ويسيل، **(عوّل)**: على كذا: اعتمد عليه، **(فاء)**: رجع **(الموازرة)**: المعاونة.

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ٢٠٤، وميزان الحكمة: ١/ ٣٢.

(٢) وردت في بعض نسخ النهج «وان دنياك ستدبر عنك..» (المصحح).

الإعراب

(كثيراً): صفة للجيل ويدلّ على متابعة شعوب كثيرة لمعاوية في حرب عليّ عليه السلام كأقباط الشام ويهود من القاطنين فيها وغيرهم وغرضهم إشعال الحرب بين المسلمين وتضعيف الدين ليحصّلوا حرّيتهم في أديانهم، **(تغشاهم الظلمات)**: فعليّة حالية، **(قيادك)**: مفعول ثان لقوله: «جاذب» ولا يتعدى باب المفاعلة إلى مفعولين على الأصول ويمكن أن يكون منصوباً على التميز فتدبّر.

المعنى

تعرَّض عليه السلام في كتابه هذا لوعظ معاوية إتماماً للحجَّة عليه ووفاءً بما في ذمّته من إرشاد الناس وتوضيح الحقّ لهم ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيىٰ من حيَّ عن بيِّنة[١].

ونبّه معاوية على أنَّ ما ارتكبه من الخلاف أمر يرجع إلى إضلال كثير من الناس ولا تدارك له إلاّ برجوعه إلى الحقّ وإعلامه ضلالته ليرجع عنها من وقع فيه بغيّه وتلبيسه مع إشارته إلى أنه لا يتّعظ بمواعظه حيث يقول في صدر الكتاب «**وإنّي لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك** ممّا لا مردّ له دون نفاذه ـ إلخ» ومقصوده إعلام حاله على سائر المسلمين لئلا يقعوا في حبل ضلالته ويخدعوا بالقاء شبهاته.

وقد نقل الشارح المعتزلي **(ص ١٣٣ ج ١٦ ط مصر)**: بعد نقل صدر كتابه عن أبي الحسن عليّ بن محمّد المدائني مكاتبات عدّة بعد هذا الكتاب بين عليّ عليه السلام ومعاوية تحتوي على جمل شديدة اللّحن يبين فيها عليّ عليه السلام ما عليه معاوية من الغيّ والضلالة والخدعة والجهالة، فيردّ عليه معاوية بما يفتري على عليّ عليه السلام من الأباطيل والأضاليل مقروناً بالوعيد والتهديد، ثمَّ يقول في **(ص ١٣٦)**.

قلت: وأعجب وأطرب ما جاء به الدّهر. . يفضي أمر عليّ عليه السلام إلى أن يصير معاوية ندًّا له ونظيراً مماثلاً، يتعارضان الكتاب والجواب ـ إلى أن قال: ثمَّ أقول ثانياً لأمير المؤمنين عليه السلام: ليت شعري لماذا فتح باب الكتاب والجواب بينه وبين معاوية؟ وإذا كانت الضّرورة قد قادت إلى ذلك، فهلّا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرُّض للمفاخرة والمنافرة، وإذا كانت لا بدّ منهما فهلّا اكتفى بهما من غير تعرّض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله، وبأشدّ منه ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وهلّا دفع هذا الرّجل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السّفيه الأحمق.

---

(١) كلام مستعار من آية ٤٨ من سورة الأنفال.

ثمَّ جرَّ الكلام إلى ابتداء علي عليه السلام بلعن معاوية في القنوت مع عمرو بن العاص وأبي موسى وغيرهم، فقابله معاوية بلعنه مع أولاده ومع جمع من أخصّاء أصحابه.

أقول: ظاهر كلامه تأسّف مع اعتراض شديد أو اعتراض مقرون بتأسّف عميق، ويشدّد اعتراضه عليه استدلاله بالآية الشريفة، وفحوى كلامه أنّ عمله عليه السلام مخالف لمفاد الآية، وهذا جرأة عليه عليه السلام، وغرضه تنديده بمقام عصمته وإمامته والجواب أنَّ لعن أعداء الله والدّعاء عليهم منصوص في القرآن في غير واحد من الآيات.

كقوله عزّ من قائل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ وقوله عزّ من قائل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨].

مضافاً إلى أنَّ ما يندرج في كتب عليّ عليه السلام بيان للحقيقة من أحوال معاوية والمقصود كشف الحقيقة لعموم النّاس حتى لا يضلّوا بتضليلاته ولا ينخدعوا بخدعه وتسويلاته.

ومفاد الآية التي استدلَّ بها النّهي عن سبِّ الآلهة ولعلّ وجهه أنَّ الآلهة غير مستحقين للسبّ لأنهم أجسام غير شاعرة يعبدون بغير إرادتهم ومستحقّ الملامة والسبّ عبادهم يصنعونهم ويعبدونهم، مع أنَّ الآية نزلت حين ضعف المسلمين وحين الهدنة لأنها مكيّة من سورة الأنعام.

قال في مجمع البيان: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٦] أي لا تخرجوا من دعوة الكفار ومحاجّتهم إلى أن تسبّوا ما يعبدونه من دون الله فإنَّ ذلك ليس من الحجاج في شيء ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ٦] وأنتم اليوم غير قادرين على معاقبتهم بما يستحقّون لأنَّ الدَّار دارهم ولم يؤذن لكم في القتال[1].

---

(١) مجمع البيان: ٤/ ١٣٢.

الترجمة

دسته های بسیاری از مردم را بنابودی کشاندی ، بگمراهی خود آنان را فریفتی ودر امواج تاریك وجود خود افکندی ، وپرده های تاریك وجودتو آنهارا فرو گرفت ، وشبهه ها که ساختی و پرداختی آنانرا درهم پیچید ، تا از پیشاهنگی خود در گذشتند و بروی پاشنهٔ پای خود سر نگون گشتند ، وروی بر پشت دادند وازحق بر گشتند ، بخاندان وتبار خویش تکیه کردند و از دین وخدا بر گشتند،

جزآنانکه از مردمان بینا و هشیار روی از تو برتافتند و پس‌ازاینکه تورا شناختند از تو جدا شدند و بسوی خدا گریزان باز گشتند و از یاری با تو سر باز زدند ، چونکه آنان را بکوهستانی سخت می‌بردی و ازراه هموار ودرست بدر می کردی ، أی معاویه برای خاطر خود از خداوند بپرهیز و مهار خود را که بدست شیطان دادی وآنرا می کشد خود بدست گیر و بسوی حق بکش زیرا که دنیا بناخواه‌ازتوبریده می‌شود وآخرت بتو نزدیکست وبناخواه می‌رسد، والسلام .

المختار الثالث والثلاثون
ومن كتاب له عليه السلام إلى قثم بن العباس
وهو عامله على مكة

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْني بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُني أَنَّهُ وُجِّهَ إِلى المَوْسِمِ أُناسٌ مِنْ أَهْلِ الشّامِ، الْعُمْى الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الأَسْماعِ، الْكُمْهِ الأَبْصارِ، الذينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ، وَيُطيعُونَ الْمَخْلُوقَ في مَعْصِيَةِ الْخالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيا دَرَّها بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عاجِلَها بِآجِلِ الابْرارِ الْمُتَّقينَ، وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلاَّ عامِلُهُ، وَلاَ يُجْزى جَزاءَ الشَّرِّ إِلا فاعِلُهُ، فَأَقِمْ عَلى ما في يَدَيْكَ قِيامَ الْحازِمِ الصَّليبِ، والنّاصِحِ اللَّبيبِ، التّابِعِ لِسُلْطانِهِ، الْمُطيعِ لإِمامِهِ، وَإِيّاكَ وَما يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْماءِ بَطِراً، ولا عِنْدَ الْبَأْساءِ فَشِلاً، وَالسَّلامُ»[1].

اللغة

(العين): الجاسوس، **(المغرب)**: الشام لأنّه في مغرب كوفة ومكّة، **(الموسم)**: موقع أداء الحجّ ومجمع الحجّاج في مكّة المكرّمة، **(العمى)** جمع أعمى: من لا يُبصر، **(الصّم)**: جمع أصمّ، **(ألكمه)**: جمع الأكمه: الأعمى خلقةً، **(البطر)**: شدّةُ الفرح وكثرةُ النّشاط، **(البأساء)**: الشدّة ولا أفعل له لأنّه اسمٌ غير صفة، **(الفشل)**: الجبنُ والضّعف.

الإعراب

(بالمغرب): متعلّق بالعين لما فيه من معنى الوصفيّة وجملة **(كتب إليّ خبر العمى القلوب)**: من إضافة الصفة إلى معموله والإضافة لفظيّة ولا مانع من دخول **(ألْ)** على المضاف وكذا ما بعده، **(درّها)**: بدل اشتمال من الدنيا.

المعنى

قثم بن عباس بن عبد المطلب من المُوالين لعليّ عليه السلام ولاّه على مكّة المكرَّمة بعد عزل أبا قتادة الأنصاري عنها، ولم يزل والياً عليها حتى قتل عليٌّ عليه السلام، حكي عن ابن عبد البرّ أنَّ قثم استشهد بسمرقند، كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفّان زمن معاوية فقتل بها، قيل: وكان قثم يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) نهج السعادة: ٥/ ٢٩٦، وميزان الحكمة: ٣/ ١٨٥٨.

قال الشارح المعتزلي في (**ص ١٣٨ ج ١٦ ط مصر**): كان معاوية قد بعث إلى مكة دعاةً في السرّ يدعون إلى طاعته ويُثبطون العرب عن نصرة أمير المؤمنين ويوقعون في أنفسهم أنه إمّا قاتل لعثمان أو خاذل، وإنَّ الخلافة لا تصلح فيمن قتل أو خذل، وينشرون عندهم محاسن معاوية بزعمهم وأخلاقه وسيرته، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكة ينبهه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السياسة ولم يصرّح في هذا الكتاب بماذا يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم.

أقول: لعلَّ ذلك قد كان، ولكن لا يلائم ما ذكره ما يستفاد من هذا الكتاب فإنه صادر باعتبار موسم الحجّ واجتماع الحجاج في مكة من كلِّ صقع من الأصقاع الإسلامية، والموقف يقتضي القيام بعملٍ جهري للملأ لا القيام بأمر سرّي.

وقد ورد في شأن صدور هذا الكتاب أنَّ معاوية بعث يزيد بن شجرة أميراً على ثلاثة آلاف جندي مجرّب وأمره بزحفه إلى مكّة جهاراً وإقامته الحجّ للنّاس من قبله وإخراجه والي أمير المؤمنين من مكّة وأخذه البيعة له عن الحاضرين في مكّة المكرَّمة ولكن شرط عليه أن يكون كلُّ ذلك من دون حربٍ وإراقة دم في الحرم، ولمّا ورد جيش يزيد بن شجرة الجحفة واطّلع قثم على ذلك عزم الهرب من مكّة والالتجاء بالجبال، فمنعه الصّحابي الكبير أبو سعيد الخدري فورد يزيد بن شجرة مكّة ونزل بمنى وطلب أبا سعيد وأخبره أنّه لا يريد حرباً وأنَّ الأمير قثم لا يرضى بإمامته للحاجّ ولا أرضاه واقترح أن يختار الناس رجلاً ثالثاً يؤمُّ الفريقين، فاستشاروا وتوافقوا على إمامة شيبة بن عثمان العبدي فأقام لهم الحجَّ وصلّى بالفريقين ولم يقع حرب بينهما، وخرج يزيد بعد الحجّ بجمعه عن مكّة المكرَّمة.

وهذا ألصق بما كتبه عليه السلام إلى قثم بن العباس في هذا المقام.

وقوله عليه السلام: (**يحتلبون الدُّنيا درَّها بالدين**) توصيف لأتباع معاوية وإشعار بعدم اعتقادهم بالدّين وإنما يظهرون شعائر الدين ليحتلبون بها متاع الدُّنيا ويجعلونها وسيلة لأغراضهم المادّية الخسيسة.

الترجمة

نامه آن حضرت به قثم بن عباس که کارگزار او بود در مکّه معظمه:

اما بعد، به راستی که دیده بان من در مغرب به من نامه ای نوشته و به من گزارش داده که جمعی از مردم شام برای موسم انجام حج به مکّه فرستاده شدند، مردمی کوردل که نه گوش شنوا دارند و نه دیده بینا، مردمی که حق را به باطل درآمیزند و آن را وسیله مقاصد پوچ خود سازند، مردمی که در فرمان بردن از مخلوق نافرمانی آفریدگار را دارند و پستان دنیا را بهوسیله اظهار دین بدوشند و دین را وسیله دریافت آرمان های دنیای خود سازند و سرانجام سعادت با نیکان پرهیزکار را به دنیای فانی بفروشند، هرگز به سرانجام نیك نرسد مگر نیکوکار و سزای بدکرداری را نکشد مگر بدکار و شرانگیز.

تو بر آنچه در دست داری از کارگزاری مکّه با کمال حزم و پایداری ایستادگی کن و مردی باش خیراندیش و خردمند که پیرو حاکم خویش است و فرمانبر از پیشوای خود، مبادا مرتکب خلافی شوی که نیاز به پوزش داشته باشد و بر اثر دست یافتن به نعمت های خداوند خوشگذرانی پیشه مکن و در موقع سختی و گرفتاری سستی از خود نشان مده.

المختار الرابع والثلاثون
ومن كتاب له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجده من عزله بالاشتر عن مصر، ثم توفى الاشتر في توجهه إلى مصر قبل وصوله إليها

«أمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَني مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْريحِ الأَشْتَرِ إلى عَمَلِكَ، وَإنّي لَمْ أَفْعَلْ ذلِكَ آسْتِبْطاءً لَكَ في الْجُهْدِ، وَلاَ ازْدِياداً في الْجِدِّ، وَلَوْ نَزَعْتُ ما تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطانِكَ لَوَلَّيْتُكَ ما هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَعْجَبُ إلَيْكَ وِلايَةً.

إنَّ الرَّجُلَ الذي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كانَ رَجُلاً لَنا ناصِحاً، وَعَلى عَدُوِّنَا شَديداً ناقِماً، فَرَحِمَهُ اللَّهُ فَلَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَيّامَهُ، وَلاقىٰ حِمامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ راضُونَ، أَوْلاهُ اللَّهُ رِضْوانَهُ، وَضاعَفَ الثَّوابَ لَهُ، فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَامْضِ عَلى بَصيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حارَبَكَ، وَآدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الإسْتِعانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ ما أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلى ما نَزَلَ بِكَ، إنْ شاءَ اللَّهُ»[1].

اللغة

(**الموجدة**): الغضب والحزن، وجدت على فلان موجدة، (**التّسريح**): الإرسال، (**الجُهد**): الطّاقة، ومن رواها الجهد بالفتح فهو من قولهم أجهد جهدك في كذا أي أبلغ الغاية، (**ناقماً**): من نقمت على فلان كذا إذا أنكرته عليه وكرهته منه، (**الحمام**): الموت، (**أصحر له**): أخرج له إلى الصّحراء وأبرز له من أصحر الأسد من خيسه إذا خرج إلى الصّحراء، (**شمّر**) فلان للحرب: أخذ لها اهبتها.

الإعراب

(**من تسريح**): للتّعليل، (**استبطاء**): مفعول له، (**لنا**): ظرف مستقر أي ثابتاً لنا وتعلّقه بقوله «ناصحاً» فيه غموض، (**أولاه الله**): جملة دعائيّة، (**يكفك**): مجزوم في جواب الأمر.

المعنى

مصر بلدة عامرة ضمّت إلى حكومة عليّ عليه السلام بعد تصدّيه للحكومة، وهي بلدة هامّة من أعظم ثغور الإسلام كما أشار إليه عليه السلام في مكتوب له إلى محمد بن أبي بكر بعد ما ولاّه على

---

(١) نهج السعادة: ٥/ ١٢٧، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٥٩٣ ح ٧٣٩.

مصر: «ثمَّ اعلم يا محمد إنّي ولّيتُكَ أعظم أجنادي أهل مصر وإذ وليتك ما وليتك من أمر النّاس فإنّك محقوق أن تخاف فيه على نفسك».

ولمّا كانت مصر مجاورة للشّام ويمدُّ إليها الأعناق لكثرة خيراتها كانت أحد مراكز دعاة معاوية وجواسيسه وسكن فيها جمع من شيعة عثمان، ولمّا ورد محمّد بن أبي بكر فيها والياً تخلّفوا عنها ولا يقدر على إخضاعهم فاختار عليٌّ عليه السلام مالك الأشتر وعهد له على مصر لقوّته ومنعته، ولمّا اطّلع محمّد بن أبي بكر على ذلك شقَّ عليه تبديله بالأشتر لمكانته من أبي بكر وقريش، ولكنَّ الأشتر لم يصل إلى مصر واغتيل في الطريق فكتب عليه السلام هذا الكتاب إلى محمّد بن أبي بكر كاعتذار ممّا بلغه وإعلام لوفاة الأشتر وتثبيت ولايته على مصر مشيراً إلى أنَّ الولاية على مصر شاقٌّ ومعرض للخطر، ومؤكّداً على التّيقّظ، والاستعداد لمقابلة ما يجري في مصر من المكائد.

قال الشّارح المعتزلي (**ص ١٤٢ ج ١٦ ط مصر**): أُمُّ محمّد رحمه الله أسماء بنت عميس الخثعميّة وهي أختُ ميمونة زوج النّبي صلى الله عليه وآله وأخت لبابة أُمّ الفضل وعبد الله زوج العبّاس بن عبد المطلب، وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة، وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام، فولد له هناك محمّد بن جعفر وعبد الله وعوناً، ثمَّ هاجرت معه إلى المدينة، فلمّا قتل جعفر يوم مُؤْتَة تزوَّجها أبو بكر فولدتْ له محمّد بن أبي بكر هذا، ثمَّ مات عنها فتزوَّجها عليٌّ عليه السلام، وولدت له يحيى بن علي، لا خلاف في ذلك ـ إلى أن قال ـ: وقد روي أنَّ أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له بنتاً تسمّى أمة الله ـ وقيل أمامة ـ ومحمّد بن أبي بكر ممَّن ولد في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله ـ إلى أن قال ـ: ثمَّ كان في حجر عليّ عليه السلام وقتل بمصر، وكان عليٌّ عليه السلام يثني عليه ويقرّظه ويفضّله، وكان لمحمّد رحمه الله عبادة واجتهاد، وكان ممّن حضر عثمان ودخل عليه.

الترجمة

نامه ای که به محمّد بن ابی بکر نوشت، چون به آن حضرت گزارش رسید که محمّد از عزل خود بهوسیله جای گزینی مالك اشتر ناراحت و اندوهگین شده، سپس اشتر پیش از رسیدن به مصر در راه مصر وفات کرد:

امّا بعد به من رسیده که از گسیل داشتن اشتر به کارگزاری در جای تو غمنده و ناراحت شدی، من این کار را برای آن نکردم که تو در کوشش و تلاش در کار خود کندی و مسامحه داری و نه این که خواسته باشم تو را در کوشش بیشتر نسبت به کارگزاریت وادار کرده باشم و اگر هم آن حکومت که داشتی از دستت می گرفتم تو را حکومتی می دادم که اداره آن آسان تر باشد و در چشم تو خوش تر جلوه کند.

راستی آن مردی که من کار حکومت مصر را بدو واگزار کردم، مردی بود که از ما بود، خیرخواه بود و نسبت به دشمنان ما سخت گیر و دلیر بود و خرده گیر و بدخواه، خدایش رحمت کند که روزگار عمر خود را به سر آورد و در گذشت، ما از او خوشنودیم، خداوندش مشمول رضایت خود سازد و ثوابش را دو چندان کند.

بایدت از خانه بدرآیی و در بیابان ها به دشمن بتازی و با بینایی دنبال وظیفه خود بروی و با هر که به جنگ تو آید مردانه بجنگی و پر از خدا یاری جویی تا مهم تو را کفایت کند و تو را در گرفتاری یاری نماید؛ والسّلام.

المختار الخامس والثلاثون
ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس، بعد مقتل محمد بن أبي بكر

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبي بَكْرٍ رحمه الله قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً ناصِحاً، وَعامِلاً كادِحاً، وَسَيْفاً قاطِعاً، وَرُكْناً دافِعاً، وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النّاسَ عَلى لِحاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِياثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً، فَمِنْهُمُ الآتي كارِهاً، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كاذِباً، وَمِنْهُمُ الْقاعِدُ خاذِلاً. أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لي مِنْهُمْ فَرَجاً عاجِلاً، فَوَاللَّهِ لَوْلاَ طَمَعي عِنْدَ لِقائي عَدُوِّي في الشَّهادَةِ، وَتَوْطيني نَفْسي عَلَى الْمَنِيَّةِ، لأَحْبَبْتُ أَنْ لا أَبْقى مَعَ هؤُلاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلا أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَداً».

اللغة

(نحتسبه): يقال: احتسب ولده إذا مات كبيراً، وافترط ولده إذا مات صغيراً، ويقال: احتسبت كذا عند الله أي طلبت به الحسبة بكسر الحاء وهي الأجر، **(الشهادة)**: القتل في سبيل الله، واستشهد كأنه استحضر إلى الله، **(كادحاً)**: مجدّاً في الأمر، **(حثثت)**: أمرتهم أكيداً.

الإعراب

(فعند الله): ظرف متعلّق بقوله «نحتسبه»، **(ولداً)**: بدل من ضمير نحتسبه قال ابن ميثم: وولداً وعاملاً وسيفاً وركناً أحوال، وفيه غموض والأظهر أنَّ عاملاً وما بعده نعوت لقوله ولداً، **(الوقعة)**: **(اللاّم)** فيه للعهد: أي وقعة قتل محمّد بن أبي بكر، **(سرا)**: بدل من المفعول المطلق وهو دعاء وقد حذف.

المعنى

بعث عليه السلام بهذا المكتوب إلى عبد الله بن العبّاس وهو يومئذ عامله على البصرة وهي أيضاً ثغر من الثغور الهامة ومتاخم للشام من وجه يطمع معاوية في التسلّط عليها لكونها ثالث ثلاثة من المعسكرات الإسلاميّة العظمى، وهي: مصر، والكوفة، والبصرة.

ويعلم معاوية أنَّ في البصرة أناس يكرهون عليّاً عليه السلام بعد وقعة الجمل لقتل كثير منهم

في هذه الوقعة فلا تخلو صدورهم من حبّ الانتقام من عليّ عليه السلام وقد ولى عليها ابن عبّاس لشرفه وعلمه واعتماده عليه وكان أحد أركان حكومته وينبغي إعلامه بما وقع في الحكومة من الأمور الهامّة وفتح مصر.

وقتل محمّد بن أبي بكر من أهمّ ما وقع في حكومته عليه السلام لأنّ مصر أحد الأركان الثلاثة في البلاد الإسلاميّة، ومحمّد بن أبي بكر من الرجال الأفذاذ وابن أوّل الخلفاء في الحكومة الإسلامية، فكان قتله وهتك حرمته من أنكى الرّزايا في المجتمع الإسلامي، هذا.

مع الإيماء إلى ابن عبّاس بشدّة صولة الأعداء وعدم رعايتهم أيّ حرمة وأي شخصيّة ليكون يقظاً في حوزة حكومته مدبّراً في ردّ كيد الأعداء، فإنّ حوزة حكومته وهي البصرة مطمح نظر معاوية وأعوانه الطّغاة.

ويتلظّى لهبات قلبه الكئيب من خلال سطور هذا الكتاب، فقد أصابه جراحات عميقة لا تندمل من موت الأشتر الذي كان يمينه القاطعة في دفع أعدائه ولم يتسلّى عنه حتّى ورد عليه خبر فتح مصر وقتل محمّد بن أبي بكر الذي يكون قرّة عينه في العالم الإسلامي وناصره المخلص الوحيد من أبناء الخلفاء الماضين فكان إطاعته له عليه السلام حجّة قاطعة له تجاه مخالفيه ولعلّه وصفه في كلامه بالسّيف القاطع بهذا الاعتبار ومن الوجهة السّياسيّة كتوصيفه بأنّه كان ركناً دافعاً.

وكان فوت[1] الأشتر ومحمّد بن أبي بكر نكاية من جهتين:

١ ـ أنّ الأشتر اغتيل ومات بالسّمّ المدسوس من قبل جواسيس معاوية فعظُم فوته عليه حيث إنّه لو كان قتل في الحرب كانت مصيبته أخفّ.

٢ ـ حيث إنّ محمّداً أُخذَ وُقتلَ صبراً وأُحرقَ جثمانه بأشدّ الإحراق وأفظعه ولو كان قتل في الحرب والضّرب كانت مصابه أخفّ.

وانضمّ إلى هاتين المصيبتين الكبيرتين عصيان أصحابه، فصار عليه السلام آيساً من الحكومة على المسلمين وكارهاً من الحياة حتّى يسأل الله الفرج والخلاص من هذه الأُناس، وهل أراد عليه السلام بالفرج العاجل إلاّ الموت؟؟ فيالله من مصيبة ما أعظمها وأفجعها.

---

(١) كذا وردت في الأصل، لكن وبحسب معنى الجملة فإن كلمة «موت» هي الأنسب بل الأصح وكذلك في الجملة بعدها (المصحح).

الترجمة

نامه ای که پس از کشته شدن محمّد بن ابی بکر به عبدالله بن عباس نگاشته:

امّا بعد، به راستی که مصر به دست دشمنان گشوده و تصرف شد و محمّد بن ابی بکر ـ که خدایش رحمت کناد ـ به درجه شهادت رسید، من او را به حساب خدا می گذارم، به حساب فرزندی خیرخواه و کارگزاری کوشا و رنج کش و شمشیری برنده و گذرا و پشتیبانی در دفع اعداء، من محققاً مردم را ترغیب و وادار نمودم که وی را دریابند و به آنها فرمان دادم تا حادثه واقع نشده به فریاد او برسند، آشکارا و نهان و از آغاز تا انجام از آنها دعوت کردم.

یك دسته به ناخواه حاضر شدند و یك دسته آنها عذرهای دروغین آوردند و یك دسته شان تقاعد کردند و ترك یاری نمودند.

من از خدا خواهانم که راه خلاص نزدیکی از دست این مردم برایم مقرّر سازد، به خدا سوگند اگر این آرزو نبودم که در برخورد با دشمن، سعادت شهادت یابم و عزم بر مرگ نداشتم دوست داشتم یك روز هم با این مردم به سر نبرم و هرگز با آنها روی در رو نشوم.

المختار السادس والثلاثون

من كتاب له عليه السلام إلى عقيل بن أبي طالب في ذكر جيش انفذه إلى بعض الأعداء، وهو جواب كتاب كتبه إليه

«فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثيفاً مَنَ الْمُسْلِمينَ، فَلَمّا بَلَغَهُ ذلِكَ شَمَّرَ هارِباً، وَنَكَصَ نادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّريقِ وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ للإيابِ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كلا وَلا، فَما كانَ إِلاّ كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتّىٰ نَجا جَريضاً بَعْدَ ما أُخِذَ ومِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ فَلأْياً بِلأْيٍ ما نَجا فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكاضَهُمْ في الضَّلالِ وَتَجْوالَهُمْ في الشِّقاقِ وَجِماحَهُمْ في التِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلى حَرْبي كإِجْماعِهِمْ عَلى حَرْبِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله قَبْلي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنّي الْجَوازي، فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمي، وَسَلَبُوني سُلْطانَ ابْنِ أُمّي.

وَأَمّا ما سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيي في الْقِتَالِ، فَإِن رَأْيي قِتالُ الْمُحِلِّينَ حَتّىٰ أَلْقى اللّهَ، لا يَزيدُني كَثْرةُ النّاسِ حَوْلي عِزَّةً، وَلا تَفَرُّقُهُمْ عَنّي وَحْشَةً، وَلاَ تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبيكَ ـ وَلَوْ أَسْلَمَهُ النّاسُ ـ مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلا مُقِرًّا لِلضَّيْمِ واهِناً، وَلا سَلِسَ الزِّمامِ لِلْقائِدِ، وَلا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرّاكِبِ الْمُقْتَعِدِ، وَلكِنَّهُ كَما قالَ أَخُو بَني سَليمٍ:

فَإِنْ تَسْأَليني كَيْفَ أَنْتَ؟ فَإِنَّني صَبُورٌ عَلى رَيْبِ الزَّمانِ صَليبٌ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرى بي كَآبَةٌ فَيَشْمَتَ عادٍ أَوْ يُساءَ حَبيبٌ[1]»

اللغة

(**سرحت**): أرسلت، (**كثيفاً**): متراكماً كثيراً، (**شمّر**): هيّأ، (**نكص**): رجع إلى عقبه، (**طفّلت**) الشمس بالتشديد: إذا مالت للمغيب، (**الجريض**): أي غصّ ريقه من شدَّة الجهد والكرب، وحُكي عن الأصمعي، ويقال: هو يجرّض نفسه: أي يكاد يموت، (**المخنّق**) بالتشديد: موضع الخنق في الحيوان من عنقه، (**الرّمق**): بقية النفس والرّوح، (**اللأى**): الشدَّة والعسر وقيل: البطء، (**الاجماع**): تصميم العزم، (**الجوازي**): جمع جارية كالجواري جمع جارية وهي أنواع العقاب للنفوس السيئة، (**المُحلّين**): الناقضين للبيعة يقال لمن نقض

---

(١) الغارات: ٢/٤٣٥، ونهج السعادة: ٥/٣٠٦.

عهده وبيعته: مُحلٌ ولمن حفظه: مُحرِم، **(الضيم)**: الظلم، **(واهناً)**: ضعيفاً، **(المقتعد)**: الرّاكب على ظهر البعير.

الإعراب

(هارباً): حال، **(كلا ولا)**: ظرف مستقر في محلّ النصب لأنه صفة لقوله «شيئاً» ومعناه قليلاً وقليلاً، **(كوقف ساعةٍ)**: مستثنى مفرغ في محلّ الاسم لقوله **(كان)** وهو فعل تامٌ لا خبر له، **(جريضاً)**: حال من فاعل نجا، **(لأياً)**: مصدر منصوب قائم مقام الحال، أي نجا مبطئاً والعامل في المصدر محذوف أي أبطأ إبطاءاً وما زائدة و**(بلأى)**: جار ومجرور متعلق بقوله لأياً أي لأياً مقروناً بلأى، **(تركاضهم)**: عطف على «قريشاً» ومعناه شدّة العدو وكذا تجوالهم، **(الجوازي)**: فاعل جزت.

قال الشارح المعتزلي في (**ص ١٥١ ج ١٦ ط مصر**): هذه كلمة تجري مجرى المثل، تقول لمن يسيء إليك وتدعو عليه: جزتك عنّي الجوازي، أي أصابتك كلّ سوء ومجازاة تقدر لعملك.

المعنى

أشار السيد الرضي رحمه الله أنَّ كتابه عليه السلام هذا جواب عن كتابٍ كتبه إليه عقيل، والظاهر أنّه أخوه عقيل بن أبي طالب ولم يذكر الشّراح أنَّ عقيلاً من أيّ بلد كتب إليه كتابه هذا، ويشير جوابه عليه السلام إلى أنَّ كتاب عقيل يتضمّن بيان أحد من الغارات التي وجّهها معاوية إلى أطراف حكومته في أيّام الهدنة السنوية المقرّرة بعد صلح صفّين، وأنَّ عقيلاً تعرَّض في كتابه لبيان اضطراب حكومته وإعراض عامّة قريش عنه عليه السلام، فيريد استبطان رأيه في إدامة الحرب مع مخالفيه بعد قلّة أنصاره واضطراب أطراف حكومته في أثر غارات معاوية وقتل كثير من شيعته، وأجاب عليه السلام بتسريح الجيش في أثر المغير والضّغط عليه إلى أن نجا برمقٍ من حياته.

فيحتمل أن يكون كلامه هذا ناظراً إلى إغارة بسر بن أرطأة على نواحي جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة فإنّها أشدُّ الغارات وأنكاها وأكثرها قتلاً لشيعة عليّ عليه السلام وأوقعها محلاً في قلوب أنصاره، وقد أشار إلى ذلك الشارح المعتزلي (**ص ١٤٨ ج ١٦ ط مصر**) حيث يقول بعد ذكر المكتوب: قد تقدَّم ذكر هذا الكتاب في اقتصاصنا ذكر حال بسر بن أرطأة وغارته على اليمن في أوّل الكتاب.

ولكن لم نعثر في التواريخ على محاصرة جيش عليّ عليه السلام بسراً على هذا الوجه الذي

يشعر به هذا الكتاب، بل ذكروا أنّه لمّا بلغ إليه عليه السلام إغارة بسر على المدينة ومكّة المكرَّمة وقتله لشيعته وذبحه لابنَيْ عبيد الله بن عباس عامله على اليمن، خطب أهل الكوفة وأكثر من ذمّهم وتأبينهم، فأجابه حارثة بن قدامة السعدي فرحب عليه السلام به وسرّحه في ألفيْ رجل من الفرسان، ولمّا سمع بسر في اليمن تسريح الجيش من الكوفة خاف وهرب إلى نجران وكان يستخير[1] من جيش حارثة ويهرب من لقائهم هنا وهنا حتّى رجع إلى الشّام.

نعم حُكي عن ابن أعثم الكوفي أنّه لمّا بلغ بسر إلى أرض اليمامة زحف في عقبه عبيد الله بن عباس في ألف فارس حتى لقيه وحارب معه وقتله.

وقد تعرَّض عليه السلام في جواب كتاب عقيل لأُمور:

١ ـ إظهار البسالة من قبل المسلمين في تعقيب المعتدي وضعفه قبال جيش المسلمين بحيث صار مورداً للحملة عند التلاقي مع القرب من غروب الشمس فلم يقدر على المقاومة ليلة واحدة، قال الشارح المعتزلي **(ص ١٤٩ ج ١٦ طبع مصر)**: والطفل بالتحريك بعد العصر حين تطفل الشمس للغروب ـ إلى أن قال ـ: وقال الراوندي «عند الإياب» عند الزوال وهذا غير صحيح لأنَّ هذا الوقت لا يسمّى طَفَلاً، ليقال إنَّ الشمس قد طفلت فيه.

٢ ـ أنه لا يتوجّه إلى نصرة قريش له ولا يعبأ بمخالفتهم وأنهم كلّا يركضون في الضّلال ويجولون في الشقاق معه في تيهٍ من الطريق وأنّهم أجمعوا على حربه كإجماعهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليهم بقوله: «جزت قريشاً عنّي الجوازي» وشكى منهم أنهم قطعوا رحمه وسلبوه سلطان ابن أمّه، قال الشارح المعتزلي **(ص ١٥١ ج ١٦ ط مصر)**: وسلطان ابن أُمّي يعني به الخلافة، وابن أُمّه هو رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم أُم عبد الله وأبي طالب، ولم يقل سلطان ابن أبي، لأنَّ غير أبي طالب من الأعمام يشتركه في النسب إلى عبد المطلب.

٣ ـ أبدى رأيَه صريحاً في القتال مع المُحلّين وهم الخارجون من الميثاق والبيعة يعني البغاة والمخالفين مع الإمام المفترض الطاعة، ويقال لكلّ من خرج عن الإسلام أو حارب في الحَرَم أو في الأشهر الحُرُم: مُحِلّ، وبيّن أنّه لا ينقاد للعُتاة ولا يقرُّ بالضّيم ولا يعرضه وهنٌ وفتورٌ مهما قلَّ ناصره وكَثُر أعداؤه.

---

(١) كذا وردت في الأصل، إلا أن المناسب كلمة يستجير، يقال أجاره منه أي أنقذه. (المصحح).

الترجمة

ترجمه از نامه ای که به عقیل درباره اعزام قشون به برخی دشمنان نوشته در پاسخ نامه وی:

من قشونی انبوه از مسلمانان را به سوی او گسیل داشتم و چون این قشون به وی رسید برای گریختن کمر را تنگ بربست و با پشیمانی فراوان به دنبال برگشت، قشون به تعقیب او پرداخت و در نیمه راهش دریافت و خورشید به دامن مغرب سرازیر شده بود، جنگی ناچیز در میانه درگرفت و با نبردی اندك که به اندازه ایست ساعتی بود شکست خورده، نیمه جانی با رنج فراوان از معرکه به در برد، چون گلوگیر شده بود و جز رمقی بر تن نداشت و به کندی و سختی خود را نجات داد.

یاد قریش را از نهاد به در کن که دو سپه به وادی گمراهی می تازند و در میدان تفرقه اندازی جولان می زنند و خود را به گمگاه شقاوت پرتاب می نمایند. راستی که همگی تصمیم دارند با من پیکار کنند، چنانچه همه تصمیم داشتند تا با رسول خدا (ﷺ) پیش از من پیکار کردند، هرگونه کیفر و سزا بر قریش باد که به راستی با من قطع رحم کردند و از من بریدند و خلافت همزاد و پسر مادرم را از من باز گرفتند.

امّا این که از نظر من درباره جنگ پرسیدی، راستی که رأی من بر آن است که با شکننده های عهد و میثاق دیانت بجنگم تا به خدا برسم، فزونی مردم در دنبال من برای من عزتی نیفزاید و جدا شدن آنها از من مایه هراس من نگردد. گمان مبر پسر پدرت. و گر چه همه مردمش از دست بدهند و او را تنها بگذارند. زاری و زبونی پیشه سازد و به ستم ستمکاران تن در دهد و سست گردد و مهارش را آرام به دست پیشوایی سپارد و پشت خود را برای راکبی هموار گیرد و خم کند، ولی او چنان است که شاعر بنی سلیم سروده:

اگر پرسی که چونی راست گویم — که در ریب زمان سخت و شکیبا
نخواهم در رخ من غم ببینی — که دشمن شاد گردد، دوست رسوا

المختار السابع والثلاثون
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ!! ما أَشَدَّ لُزُومَكَ للأَهْواءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبِعَةِ، مَعَ تَضْييقِ [تَضييعِ] الْحَقائِقِ، وَاْطّراحِ الْوَثائِقِ، التي هِيَ للَّهِ طَلِبَةٌ، وَعَلَى عِبادِهِ حُجَّةٌ، فَأَمّا إِكْثارُكَ الْحِجاجَ في عُثْمانَ وَقَتَلَتِهِ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمانَ حَيْثُ كانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كانَ النَّصْرُ لَهُ، وَالسَّلامُ[1]».

ولهذا الكتاب صدر ذكره الشارح هكذا:

«أمّا بعد، فإنَّ الدُّنيا حلوة خضرة، ذات زينة وبهجة، لم يصْبُ إليها أحد إلاّ وشغلته بزينتها عمّا هو أنفع له منها، وبالآخرة أُمرنا وعليها حثنا، فدعْ يا معاوية ما يفنى، واعمل لما يبقى، واحذر الموت الذي إليه مصيرك، والحساب الذي إليه عاقبتك.

واعلم أنَّ الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره، ووفّقه لطاعته، وإذا أراد بعبد شرّاً أغراه بالدُّنيا وأنساه الآخرة، وبسط له أمله، وعاقه عمّا فيه صلاحه، وقد وصلني كتابك فوجدتك ترمي غير غرضك، وتنشد غير ضالّتك، وتخبط في عمايةٍ، وتتيه في ضلالةٍ، وتعتصم بغير حجّةٍ، وتلوذ بأضعف شبهة.

فأمّا سؤالك إليَّ المشاركة والإقرار لك على الشام، فلو كنت فاعلاً لذلك اليوم لفعلته أمس. وأمّا قولك: إنَّ عمر ولاّكها فقد عزل عمر من كان ولّيٰ صاحبه، وعزل عثمان من كان عمر ولاّه، ولم ينصب للنّاس إمام إلاّ ليرى من صلاح الأُمّة ما قد كان ظهر لمن كان قبله، أو خفي عنهم عيبه، والأمر يحدث بعده الأمر، ولكلّ والٍ رأيٌ واجتهادٌ، فسبحان الله ما أشدَّ لزومك» ـ إلى آخر الكتاب[2].

أقول: وقد اختلف متن المحذوف من كتابه عليه السلام في نسخة شرح ابن ميثم وابن أبي الحديد في موارد أهمّها في قوله: «وأمّا سؤالك إليَّ المشاركة» ففي نسخة ابن أبي الحديد «وأمّا سؤالك المتاركة» فالمقصود من المشاركة أن يكون شريكاً في أمر الخلافة، والغرض

---

(١) الإحتجاج: ١/ ٢٦٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٩٨.

(٢) الغدير: ١٠/ ٣٢٣، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٩٧ ح ٤٠٣.

منه تجزية الحكومة الإسلامية وإفراز الشام منها لمعاوية، والمقصود من المتاركة ترك الحرب وإقرار معاوية عاملاً على الشام، فالظاهر منه أنَّ هذا الكتاب من الكتب التي ترادَّت بين علي عليه السلام وبينه أيّام حرب صفّين وتضييق الأمر على معاوية كما يشير إليه قوله عليه السلام: **(مع تضييق الحقائق، واطّراح الوثائق)** وقد اقترح معاوية في كتابه اقتراحاً يشمل أمرين:

متاركة الحرب أو المشاركة في أمر الخلافة وإقراره على الشام، مستدلاً بأنَّ عمر ولاّه على الشام، وردَّ عليه السلام اقتراحه بتصميمه على عزله من قبل لفقد صلاحيّته في نظره للولاية على المسلمين، وردَّ استدلاله بأنَّ من شأن الإمام الاستقلال في عزل العُمّال والحُكّام وجرت عليه سيرة السلف، فعمر عزل من ولاّه أبو بكر، وعثمان عزل من ولاّه عمر، فلا وجه لهذا التشبّث، وذكر أنه يلازم الأهواء المبتدعة بتقلّب الأحوال ويتّبع الحيرة والضلال في أشدّ الأحوال مع ظهور الحجّة والوثائق لديه على بطلان دعواه.

ثمَّ بيّن أنّه هو الذي خذل عثمان حتى قتل وإنما يُظهر الانتصار له والانتقام لدمه بحساب نفسه ولانتصار مقاصده كما روي عن البلاذري أنّه قال: لمّا أرسل عثمان إلى معاوية يستمدُّه، بعث يزيد بن أسد القسري، جدَّ خالد بن عبد الله القسري أمير العراق، وقال له: إذا أتيتَ ذا خشب فأقمْ بها، ولا تتجاوزْها، ولا تقلْ: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فإنّني أنا الشاهد وأنت الغائب.

قال: فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان، فاستقدمه حينئذٍ معاوية، فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان أرسل معه، وإنّما صنع معاوية ذلك ليقتل عثمان فيدعوَ إلى نفسه.

ونقل عن مكتوب لابن عباس في جواب معاوية أنه قال: وأمّا قولك: إني من الساعين على عثمان، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك منّي، فأُقسم بالله لأنت المتربّص بقتله، والمحبُّ لهلاكه، والحابس الناس قبلك عنه على بصيرة من أمره ـ إلى أن قال ـ أنت تعلم أنّهم لن يتركوه حتى يقتل، فقتل كما كنتَ أردتَ[1].

(١) بحار الانوار: ٣٣/٩٩ ح ٤٠٤، والغدير: ٩/١٣٤ ح ٢.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت به معاویه نوشت:

امّا بعد، به راستی دنیا شیرین و خوش نما است، زیوردار و بهجت افزا است هیچ کس بدان دل نبازد جز آن که به زیورش او را سرگرم سازد تا از آن چه وی را سودمندتر است واندازد، ما فرمان داریم به کار آخرت بپردازیم و به آن است که ترغیب شده ایم.

ای معاویه، آن چه را نیست می شود از دست بگذار و برای آنچه به جا می ماند کار کن، بترس از مرگی که به سوی آن می روی و از حساب خداوند که سرانجام تو است و بدان که راستی چون خداوند برای بنده ای خیر و نیکویی خواهد میان او و هر آن چه بد دارد حایل گردد و او را برای طاعت خود موفق دارد و هرگاه برای بنده ای بدی خواهد او را به دنیا وادار کند و آخرت را از یادش ببرد و پهنای آرزو را در برابرش بگشاید و او را از آن چه صلاح او است دور کند.

نامه تو به من رسید و دریافتم که به هدف خود تیر نیندازی و جز گمشده خود را می جویی، در تاریکی می پویی، و در گمگاه می دوی، به چیزی که حجت نتواند بود پناه می بری و به سست ترین شبهه ای دست می اندازی.

امّا این که از من در خواست داری شریك کار خلافت باشی و جنگ متارکه گردد و بر حکومت شام بمانی پاسخش این است که:

اگر من امروز چنین کاری می کردم همان دیروز کرده بودم و امّا این که می گویی عمرت فرمان ولایت و حکومت بر شام صادر کرده است محقق است که عمر خودش والیان صاحب خود ابی بکر را از کار برکنار کرد و عثمان هم که بر سر کار آمد هر که را عمر والی کرده بود از کار برکنار کرد و عزل نمود، برای مردم امام و رهبری منصوب نگردد جز برای این که صلاح امّت را به نظر خود بسنجد و آن چه از پیش برطبق آن بوده به کار بندد و آن عیبی که نهفته بوده منظور

دارد و برطرف سازد، به دنبال هر کاری کار تازه ای می آید و باید تجدیدنظر شود، هر پیشوایی رأی و اجتهادی دارد.

سبحان الله، تا چند به دنبال هوس های نوظهور چسبیده ای و از سرگردانی پیروی می کنی با این که حقیقت محدود است و دلایلی که مسؤولیت الهی بارمی آورند و بر بندگان خدا حجّت تمام می کنند در دست هستند و مشهود.

امّا این که درباره عثمان و کشندگانش پر می گویی و راه احتجاج می پویی، راستی که تو آن جا که یاری عثمان یاری خودت باشد با نصرت او هم داستانی و آن جا که یاری تو پیروزی او است او را ترك می گویی و وامی گذاری.

المختار الثامن والثلاثون
ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر، لما ولى عليهم الاشتر رحمه الله

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنينَ إِلى الْقَوْمِ الذين غَضِبُوا للَّهِ حينَ عُصِي في أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرادِقَهُ، عَلَى الْبَرِّ وَالْفاجِرِ، وَالْمُقيمِ وَالظّاعِنِ، فلا مَعْرُوفٌ يُسْتَراحُ إِلَيْهِ، وَلا مُنْكَرٌ يُتَناهى عَنْهُ.

أَمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبادِ اللَّهِ، لا يَنامُ أَيّامَ الْخَوْفِ، وَلا يَنْكُلُ عَنِ الأَعْداءِ ساعاتِ الرَّوْعِ، أَشَدّ عَلَى الْفُجّارِ مِنْ حَريقِ النّارِ، وَهُوَ مالِكُ بْنُ الْحارِثِ أَخوُ مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطيعُوا أَمْرَهُ فيما طابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، لا كَليلُ الظُّبَةِ، وَلا نابِي الضَّريبَةِ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقيمُوا فَأَقيمُوا، فَإِنَّهُ لا يُقْدِمُ وَلا يُحْجِمُ، وَلا يُؤَخِّرُ وَلا يُقَدِّمُ، إِلاّ عَنْ أَمْري، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلى نَفْسي لِنَصيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكيمَتِهِ عَلى عَدُوِّكُمْ»[1].

اللغة

(السّرادق) جمع سرادقات: الفسطاط الذي يعدّ فوق صحن البيت، **(الظّاعن)**: الراحل، **(النكول)**: الرّجوع، **(الظبة)** بالتخفيف: حدّ السّيف، و**(النابي)**: من السيوف: الذي لا يقطع، **(الاحجام)**: ضدّ الإقدام، **(شديد الشّكيمة)**: القوي الأبي، وأصل الشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس.

الإعراب

(يستراح إليه): جملة فعلية خبر، **(للاء المشبهة)**: بليس والمقصود الأخبار عن سلب اطمينان النّاس على ما يتظاهر به عمّال عثمان من إقامة الصّلاة ونحوها، وكذا قوله: **(يتناهى عنه)**، خبر والمقصود عدم النهي عن المنكر، **(لا ينام)**: فعلية وصفة لقوله: «عبداً».

---

(١) الغارات: ١/ ٢٦١، والأمالي: ٨٢.

المعنى

وجّه عليه السلام كتابه هذا إلى الأخبار الوجهاء من أهل مصر الذين نقموا على المظالم الواقعة بيد عمّال عثمان في مصر وقاموا للنهي عنها وبعثوا وفداً إلى عثمان يطلبون عزل عاملهم واستبداله برجل صالح، وقد استظهر الشارح المعتزلي من هذا العنوان الوصفي رضاء علي عليه السلام بقتل عثمان وقال في «ص١٥٨ ج١٦ ط مصر»: هذا الفصل يشكل عليَّ تأويله، لأنَّ أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان وإذا شهد أمير المؤمنين عليه السلام أنّهم غضبوا لله حين عصي في الأرض، فهذه شهادة قاطعة على عثمان بالعصيان.

ثمَّ تعسّف باعترافه في الجواب عنه في كلام طويل.

أقول: لا وجه لهذا الاستظهار فإنَّ المخاطب بهذا الكلام من أهل مصر هم الموصوفون بما ذكره عليه السلام منهم، ولا يلزم أن يكون قتلة عثمان داخلاً فيهم.

والعجب من ابن ميثم حيث يقول: **(ص ٨٣ ج ٥)**، فإن قلت: فيلزم أن يكون عليه السلام راضياً بقتل عثمان، إذ مدح قاتله على المسير بقتله.

أقول: قد عرفت أنَّ الخطاب في الكتاب لم يوجّه إلى عامّة أهل مصر ولا إلى قتلة عثمان ولا وجه لهذا الاستنكار والتعرّض للجواب من ابن ميثم.

وقد بالغ عليه السلام في كتابه هذا في مدح الأشتر وتعريفه، وذلك لتقريبه إلى أفكار أهل مصر، فإنّهم ينظرون إلى كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله في أمر الحكومة والولاية عليهم ويخضعون للصّحابي، والأشتر من التابعين فيثقل عليهم الانقياد إلى طاعته والخضوع لحكومته خصوصاً بعد حكومة محمّد بن أبي بكر المعظم عند أهل مصر بأبيه ونسبه القرشيّ، ولهذا وصف الأشتر في خاتمة كتابه هذا بقوله: **(فإنّه لا يقدم ولا يحجم، ولا يؤخّر ولا يقدِّم إلاّ عن أمري)** ليقنع أهل مصر بأنَّ الأمر لهم والحاكم عليهم هو نفسه وأنَّ الأشتر آلة وواسطة لإيصال أوامره إليهم، فهو نفسه وال عليهم وحاكم بينهم.

قال الشارح المعتزلي **(ص ١٥٩ ج ١٦ ط مصر)**: وهذا إن كان قاله مع أنه قد سنح له أن يعمل برأيه في أمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيم جدًا لأنه يكون قد أقامه مقام نفسه، وجاز أن يقول: إنّه لا يفعل شيئاً إلاّ عن أمري وإن كان لا يراجعه في الجزئيات على عادة العرب في مثل ذلك، لأنّهم يقولون فيمن يثقون به نحو ذلك.

أقول: كان الأشتر رحمه الله بطيب طينته وحسن استعداده وكمال خلوصه له عليه السلام تأدب بآدابه ولمس بقلبه الطّاهر روحيّته الشريفة فينعكس في نفسه إرادته ومشيته عليه السلام فكأنها كانت مرآة مجلوّة محاذية لنفس عليّ عليه السلام أينما كان فما أراد إلاّ ما أراده، وما شاء إلاّ ما شاء كما

أنّ نفس النبيّ ﷺ كانت مرآة مجلوّة تجاه مشيّة الله تعالى فيطبع فيها ما يشاء الله، فكان ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣ و٧] فأنزل الله تعالى في حقّه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ثمّ نبّه على علوّ مقام الأشتر رأياً وإقداماً بقوله: **(وقد آثرتكم به على نفسي)**.

الترجمة

از نامه ای که درباره حکومت مالك اشتر بر مصر به اهل مصر نوشت:

از طرف بنده خدا علی امیرمؤمنان به سوی مردمی که برای خداوند به خشم آمدند؛ چون در سرزمین آنان نافرمانی حضرت او شد و حق اطاعت او را از میان بردند و ستمکاری و نارواخیمه سیاه خود را برفراز سر نیکوان و بدکاران و مقیمان و کوچ کنان آن شهرستان برافراشت و همه را فرو گرفت و کار خیری نماند که وسیله آسایش باشد و کار زشتی نماند که از آن جلوگیری شود.

امّا بعد، محققاً من یکی از بندگان خدا را به سوی شما گسیل داشتم که در روزگار ناامن خواب ندارد و در هنگام هراس از تعقیب دشمنان سر باز نمی زند، بر جان نابکاران از زبانه آتش سخت تر درگیرد.

او مالك بن حارث از تیره مذحج است، نسبت به او شنوا باشید و در آن چه مطابق حق است از او فرمان برید، زیرا که او شمشیری است از شمشیرهای خدا بر جان دشمنان دین، نه دمش کند است و نه ضربتش بی اثر، اگر به شما فرماید: بسیج شوید، بسیج شوید و اگر فرماید: در جای خود بمانید، بمانید، زیرا که او پیش نرود و عنان درنکشد و عقب ننشیند و پیش نتازد مگر به فرمان خود من. من او را از خود بازگرفتم و به شما دادم، چون خیراندیش شما و سخت گیر و شکننده دشمن شما است.

المختار التاسع والثلاثون
ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص

«فإنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا ٱمْرِىءٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ ٱلْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ ٱتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ: يَلُوذُ إِلى مَخالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقِي إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ! وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ ما طَلَبْتَ، فَإِنْ يُمَكِّنِّي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنِ ابْنِ أَبِي سُفْيانَ أَجْزِ كُما بِما قَدَّمْتُما، وَإِنْ تُعْجِزاني وَتَبْقَيا فَما أَمامَكُما شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلامُ[1].

قال الشّارح المعتزلي (**ص ١٦٣ ج ١٦ ط مصر**): وذكر نصر بن مزاحم في كتاب «صفّين» هذا الكتاب بزيادة لم يذكرها الرّضيّ، قال: نصر، وكتب عليّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص:

من عبد الله أمير المؤمنين إلى الأبتر بن الأبتر عمرو بن العاص بن وائل، شانىء محمّد وآل محمّد في الجاهلية والإسلام، سلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد، فإنّك تركت مروءتك لامرء فاسق مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفّه الحليم بخلطته فصار قلبك لقلبه تبعاً، كما قال: «وافق شنّ طبقة» فسلبك دينك وأمانتك ودنياك وآخرتك، وكان علم الله بالغاً فيك، فصرت كالذّئب يتبع الضّرغام إذا ما اللّيل دجى، أو أتى الصبح يلتمس فاضل سؤره، وحوايا فريسته، ولكن لا نجاة من القدر، ولو بالحق أخذت لأدركت ما رجوت، وقد رشد من كان الحقّ قائده، وإن يمكنّي الله منك ومن ابن آكلة الأكباد ألحقتكما بمن قتله الله من ظلمة قريش على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن تعجزا وتبقيا بعد فالله حسبكما، وكفى بانتقامه انتقاماً، وبعقابه عقاباً، والسّلام»[2].

اللغة

(**الغيّ**): الضلالة، (**بشين**): يصير قبيح الوجه مذموماً، (**الضّرغام**): الأسد (**المخالب**): أظفار السبع من الحيوان، (**الفريسة**): ما يصيده السبع ويقتله (**أجزكما**):

(١) الإحتجاج: ١/ ٢٦٨، والغدير: ٢/ ١٣٠ ح ٥.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ٢٢٥، والغدير: ٢/ ١٣٠.

أعاقبكما، **(وافق شن طبقه)** أو طبقة: مَثَلٌ سائر قال في فرائد الأدب: يضرب مثلا للشيئين يتفقان، قال الأصمعي: الشنّ وعاء من أدم كان قد تشن أي تقبض فجعل له طبقاً أي غطاء فوافقه، وقيل أيضاً: شن رجل من دهاة العرب وكان ألزم نفسه أن لا يتزوّج إلاّ بامرأة تلائمه، فكان يجوب البلاد في ارتياد طلبته، فوافق في بعض أسفاره رجلاً إلى بلاد ذلك الرَّجل وهما راكبان فقال له شن: أتحملني أو أحملك؟ فاستجهله الرّجل، وإنما أراد أتحدِّثني أو أُحدِّثك لنميط عنا كلال السّفر، وقال له وقد رأى زرعاً مستحصداً: أكل هذا الزرع أم لا؟ وإنّما أراد هل بيع وأكل ثمنه، ثمَّ استقبلتهما جنازة فقال له شن: أحيّ من على هذا النعش أم ميّت؟ وإنّما أراد هل له عقب يحيا به ذكره؟ فلمّا بلغ الرَّجل وطنه وعدل بشنّ إليه، سألته بنت له اسمها طبقة عنه، فعرّفها قصّته وجهله عندها، فقالت: يا أبت ما هذا إلاّ فطن داه، وفسّرت له أغراض كلماته فخرج إلى شن وحكى له قولها، فخطبها فزوَّجها إيّاه، وحملها إلى أهله، فلمّا رأوها وعرفوا ما حوته من الدهاء والفطنة قالوا: وافق شنّ طبقة.

المعنى

بيّن عليه السلام حال عمرو بن العاص ومعاوية بأبلغ بيان، ويشير كلامه إلى أنَّ معاوية لا دين له أصلاً، وأنَّ عَمْراً جعل دينه تبعاً لدنيا معاوية.

قال الشارح المعتزلي **(ص ١٦٠ ج ١٦ ط مصر)**: كلّ ما قاله فيهما هو الحقّ الصريح بعينه، لم يحمله بغضه لهما، وغيظه منهما إلى أن بالغ في ذمّهما به، كما يبالغ الفصحاء عند سورة الغضب، وتدفّق الألفاظ على الألسنة، ولا ريب عند أحد من العقلاء ذوي الأنصاف أنَّ عمراً جعل دينه تبعاً لدنيا معاوية، وأنه ما بايعه وتابعه إلاّ على جعالة له، وضمان تكفّل له بايصاله، وهي ولاية مصر مؤجّلة وقطعة وافرة من المال معجّلة، ولولديه وغلمانه مالئاً أعينهم.

الترجمة

از نامه ای که به عمرو بن عاص نوشت:

به راستی که تو دین خود را دنباله و پیرو دنیای معاویه ساختی، آن مردی که گمراهی و ضلالتش آشکار و بی پرده است، آبرویش بربادرفته و پرده اش دریده، مرد راد و ارجمند از هم نشینی با او لکه دار و آلوده و زشت می شود و بردبار و باوقار از آمیزش با او به نابخردی و سفاهت کشیده می شود.

تو دنبال او رفتی و فضله او را خواستی، چونان که سگی به دنبال شیری رود و به نیروی چنگال او پناهنده گردد و در انتظار ته مانده شکار او باشد که پیش او اندازند.

تو دنیا و آخرت خود را از میان بردی و اگر حق و راستی را پیشه می ساختی آن چه را خواستار بودی به دست می آوردی. اگر خدا مرا بر تو و بر زاده ابوسفیان قدرت عنایت کرد به سزای کردار گذشته تان می رسانم و اگر مرا درمانده کردید و زنده ماندید آن چه در برابر شما است برای شما بدتر از سزایی است که من بدهم؛ والسّلام.

ترجمه نامه به روایت نصربن مزاحم طبق نقل ابن ابی الحدید:

از طرف بنده خدا علی امیرمؤمنان به سوی ابتربن ابتر عمرو بن عاص بن وائل، دشمن محمّد و خاندان محمّد در جاهلیت و اسلام، درود بر آن که پیرو حق است. امّا بعد به راستی تو مردانگی خود را زیرپا کردی برای مردی فاسق و بی آبرو که رادمرد از نشستن با او لکه دار می شود و مرد بردبار از آمیزش با او بی خرد و ناهنجار می گردد، دلت پیرو دل او شد چنانکه گفته اند "شن و طبقه با هم دمساز شدند" دین و امانت را از تو ربود و دنیا و آخرتت را بر باد داد و آن چه خدا می دانست درباره تو انجام گردید.

چون گرگی شدی که دنبال شیری باشد، در تاریکی شب یا بامدادان آید، درخواست ته مانده او را کند و درونیهای شکار او را که دور ریخته بخواهد، آری

از قدر نجاتی نیست، اگر حق و راستی را پیشه کرده بودی آن چه را امید داشتی بدان می رسیدی، محققاً به راه راست رفته کسی که حق پیشوای او باشد، اگر خداوند مرا بر تو و زاده هند جگرخوار فرمان گزار ساخت، شما هر دو را به ستمکاران قریش عهد رسول خدا (ﷺ) که خداوندشان کشت ملحق کنم و اگر از دست من گریختید و زنده ماندید، خداوند شما را بس است و کافی است انتقام او و شکنجه و عذاب او در برابر هر انتقام و هر شکنجه و عذابی؛ والسّلام.

المختار الأربعون
ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ في أَمانَتي، وَجَعَلْتُكَ شِعاري وَبِطانَتي، وَلَمْ يَكُنْ في أَهْلي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ في نَفْسي لِمُواساتي وَمُوازَرَتي وَأَداءِ الأَمانَةِ إِلَيَّ، فَلَمّا رَأَيْتَ الزَّمانَ عَلى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمانَةَ النّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَهذِهِ الأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ، فَفارَقْتَهُ مَعَ الْمُفارِقينَ، وخَذَلْتَهُ مَعَ الْخاذِلينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخائِنينَ فَلاَ ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلاَ الأَمانَةَ أَدَّيْتَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللَّهَ تُريدُ بِجِهادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّما كُنْتَ تَكيدُ هذِهِ الأُمَّةَ عَنْ دُنْياهُمْ، وَتَنْوي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ في خِيانَةِ الأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ، وَعاجَلْتَ الْوَثْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ ما قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوالِهِمْ الْمَصُونَةِ لأَرامِلِهِمْ وَأَيْتامِهِمْ اخْتِطافَ الذِّئْبِ الأَزَلِّ دامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلى الْحِجازِ رَحيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ - لا أَبا لِغَيْرِكَ - حَدَرْتَ إِلى أَهْلِكَ تُراثَكَ مِنْ أَبيكَ وَأُمِّكَ، فَسُبْحانَ اللَّهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعادِ؟ أَوَ ما تَخافُ نِقاشَ الْحِسابِ؟ أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كانَ - عِنْدَنا مِنْ ذَوي الأَلْبابِ، كَيْفَ تُسيغُ شَراباً وَطَعاماً وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَراماً وَتَشْرَبُ حَراماً؟ وَتَبْتاعُ الإِماءَ وَتَنْكِحُ النِّساءَ مِنْ مالِ الْيَتامى وَالْمَساكينَ وَالْمُؤْمِنينَ وَالْمُجاهِدينَ الذينَ أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هذِهِ الأَمْوالَ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هذِهِ الْبِلادَ!! فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْدُدْ إِلى هؤُلاءِ الْقَوْمِ أَمْوالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَني مِنْكَ اللَّهُ لأُعْذِرَنَّ إِلى اللَّهِ فيكَ، وَلأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِيَ الذي ما ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلاّ دَخَلَ النّارَ! وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ والْحُسَيْنَ فَعَلا مِثْلَ الذي فَعَلْتَ ما كانَتْ لَهُما عِنْدي هَوادَةٌ، وَلا ظَفِرا مِنّي بِإِرادَةٍ حَتّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُما، وَأُزيلَ الْباطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِما، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ العالَمينَ: ما يَسُرُّني أَنَّ ما أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوالِهِمْ حَلالٌ لي أَتْرُكُهُ ميراثاً لِمَنْ بَعْدي، فَضَحِّ رُوَيْداً فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدى، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرى، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمالُكَ بِالْمَحَلِّ الذي يُنادي الظّالِمُ فيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنّى الْمُضَيِّعُ فيهِ الرَّجْعَةَ، وَلاتَ حينَ مَناصٍ»[1].

اللغة

(الأمانة): الوديعة، قال الشارح المعتزلي (ص ١٦٨ ج١٦): جعلتك شريكاً فيما قمت

(١) بحار الأنوار: ٤٢/ ١٨٢، والإمام علي عليه السلام: ٧٨٢.

فيه من الأمر، وائتمنني الله عليه من سياسة الأُمّة، وسمى الخلافة أمانة، **(الشعار)**: ما يلي الجسد من الثياب، **(وبطانة الرجل)**: خاصّته، **(كلب الزمان)** اشتدَّ، **(حرب العدوّ)**: استأسد واشتدّ غضبه، **(والفنك)**: التعدّي والغلبة، **(شغرت)** الأُمّة: خلت من الخير، وشغر البلد خلا من الناس وقيل معناه: تفرّقت.

(وقلبت له ظهر المجنّ): إذا كنت معه فصرت عليه، وأصل ذلك أنَّ الجيش إذا لقوا العدوَّ كانت ظهور مجانّهم إلى وجه العدوّ، وإذا صاروا مع العدوّ قلبوها إلى رئيسهم الذي فارقوه.

(أسرعت الكرّة): أي حملت على جمع الأموال **(الذّئب الأزلّ)**: خفيف الوركين وذلك أشدّ على عدوه، **(نقاش الحساب)**: مناقشته، **(والهوادة)**: المصالحة والمصانعة، **(فضحّ رويداً)**: أمر بالأناة والسكون، وأصلها الرّجل يطعم إبله ضحى ويسّيرها مسرعاً ليسير فلا يشبعها: فيقال له: ضحِّ رويداً، **(المناص)**: المهرب والمخلص و**(النّوص)**: الهرب والتخلّص.

الإعراب

(ابن عمّك): مفعول مقدّم لقوله: «آسيت»، **(الله)**: مفعول «تريد» قُدّم عليه وجملة **(تريد بجهادك)** خبر **(لم تكن)**، **(اختطاف الذّئب)**: مفعول مطلق نوعي لقوله: «اختطفت»، **(كان)**: كأنه زائدة **(أن ما أخذت)**: مؤوّل بالمصدر أي المأخوذ من أموالهم وفاعل لقوله «يسرّني» و«حلال» بدل منه، **(رويداً)** نائب للمفعول المطلق وصفة لمحذوف أي ضحِ رويداً، **(حين مناص)** اسم **(لا)** وخبرها محذوف.

المعنى

وممّا يوجب الأسف المحرّق هذا الكتاب المخاطب به أحد خواصّه من بني عشيرته والأكثر على أنه عبد الله بن عبّاس[1]، فالظاهر أنه لما كتب عليه السلام إليه كتابه بعد مقتل محمّد بن أبي بكر، وقد مرَّ آنفاً أيس بن عباس من إدامة حكومته العادلة وعلم أنَّ الحكومة تقع في يد أعدائه وأعداء بني هاشم وأقلّ ما ينتقمون منهم منعهم عن حقوقهم وإيقاعهم في ضيق المعاش وضنك العيش فادّخر من بيت مال البصرة مقادير يظهر من كتابه عليه السلام أنها كثيرة تسع لابتياع العقار في مكّة والمدينة والطائف وابتياع العبيد ونكاح الأزواج.

(١) وقيل أنه عبيد الله بن عباس.

وقد أثر عمله هذا في قلبه الشريف حيث يتوجّه إلى تأمين معاش عشرات الألوف من الأرامل والأيتام اللاّتي قُتِل أزواجهنّ وآباؤهم في معارك جمل وصفّين ولا كفيل لهنَّ في معاشهنَّ. وكان ما يجمع في بيت مال البصرة مبلغاً[1] كثيراً يسدّ كثيراً من حاجته في هذه الأرامل والأيتام فالتهب قلبه الشريف من هذا الاختطاف والاختلاس الذي ارتكبه مثل ابن عبّاس أو من يقارنه أو يقاربه من أهله وعشيرته، فرماه من لسانه الشّريف بسهام ما أغرزها في القلب وسيوف ما أقطعها للوتين.

وكان ابن عباس يتوجّه إلى حالة عليٍّ الروحيّة فيبادر إلى جوابه بأخصر عبارة ويشير إلى عذره في خيانته.

قال الشارح المعتزلي (**ص ١٧٠ ج ١٦ ط مصر**): وقد روى أرباب هذا القول «أي القول بأنَّ هذا الكتاب خطاب إلى عبد الله بن عبّاس» أنَّ عبد الله بن عبّاس كتب إلى عليّ عليه السلام جواباً عن هذا الكتاب، قالوا: وكان جوابه:

أمّا بعد، فقد أتاني كتابك تعظّم عليّ ما أصبت من بيت مال البصرة، ولعمري إنَّ حقّي في بيت المال أكثر ممّا أخذت، والسّلام.

هذا وقد ذكر في نسخة شرح ابن أبي الحديد كتاباً منه إلى بعض عمّاله لم يذكر في نسخة شرح ابن ميثم، نذكره هنا تتميماً للفائدة قال:

الأصل: ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله:

أمّا بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربّك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك، بلغني أنّك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك، فارفع إليّ حسابك، وأعلم أنَّ حساب الله أعظم من حساب النّاس، والسّلام[2].

---

(١) كذا وردت في الأصل، إلا أن الأنسب قوله: «أموالاً كثيرة تلبي حاجات هذه الأرامل والأيتام..». (المصحح).

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ٥١٥ ح ٧١٠، ونهج السعادة: ٥/ ٣٢٥ ح ١٦٦.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت (عليه السلام) به یکی از کارگزارانش نوشت:

امّا بعد، به راستی که من تو را در ریاست خود که سپرده به من بود شریك کردم و تو را همراز دل و همکار حکمرانی خویش نمودم، در میان خاندانم در نظرم مردی از تو بیشتر برای همدردی و پشتیبانیم وجود نداشت و در پرداخت سپرده و امانت بهتر مورد اعتماد نبود، چون دیدی که روزگار بر عموزاده ات دست انداخت و سخت گرفت و دشمن چیره شد و اختیار را از دست گرفت و مردم در امانت داری خیانت کردند و به رسوایی گراییدند و این ملت اسلامی ربوده شده و پریشان و بدبخت گردید، تو پشت به عموزاده خود دادی و از او برگشتی و به همراهی آنان که از او جدا شدند جدا شدی و به همراهی آن دسته بیوفا از او گسستی و با خیانتکاران وی پیوستی، نه با عموزاده خود همدردی و غمخواری کردی و نه امانت خود را پرداختی، گویا این که تو در جهاد و تلاش خود خدا را نخواستی و گویا که در برابر پروردگارت گواه روشن بر طریقه حق نداشتی و گویا که همانا تو برای به دست آوردن دنیای این ملت با آنها نیرنگ باختی و در دل داشتی که آنها را فریب بدهی و بیت المال آنها را برای خودت ببری و چون سختی روزگار برای خیانت بر امّت به تو فرصت داد شتابانه به یورش پرداختی و به زودی جست و خیز را آغاز کردی و هر چه را توانستی از اموال آنان که پشتوانه زندگی بیوه زنان و کودکان بی پدر آنان بود درربودی، چونان که گرگ لاغر کفل بزغاله شکسته استخوان خونین را درمی رباید.

این اموال بیت المال را برگرفتی و با دل خوش به حجاز فرستادی و خود را از برگرفتن آن گناهکار ندانستی، گویا که - جز تو بی پدر باد - ارث پدر و مادرت را به سوی خاندانت سرازیر کردی، سبحان الله، تو به روز رستاخیز ایمان نداری؟ تو از خورده گیری حساب قیامت خبر نداری؟ ای آن که نزد ما در شمار خردمندان و دلداران و هشیاران بودی چگونه بر خود نوشابه و خوراکی را گوارا می داری که می دانی حرام می خوری و حرام می نوشی؟ و چطور از مال یتیمان و مستمندان و

مؤمنان و جانبازان، کنیزان می خری و زنانی به همسری در می آوری از مال کسانی که خداوند این اموال را غنیمت و بهره آنها مقرر داشته و بهوجود آنها این بلاد اسلامی را در برابر دشمنان نگه داشته است، از خدا بپرهیز اموال اینان را بدانها بازگردان، زیرا اگر این کار نکنی و مال مردم را به آنها باز پس ندهی و سپس خداوند مرا برتو مسلّط کند و به چنگ من افتی من نزد خداوند در عقوبت تو معذورم و هرآینه تو را از دم تیغ خود بگذرانم، همان شمشیری که به کسی نزدم مگر آن که به دوزخ رفت.

به خدا سوگند اگر حسن و حسینم به مانند کاری که تو کردی بکنند برای آنها در نزد من هیچ مسامحه و سازشی نیست و به جلب اراده من به سود خود پیروز نخواهند شد تا آن که حق را از آنها بستانم و زنگ باطل را از ستمی که کردند بزدایم، من به خداوند پروردگار جهانیان سوگند می خورم که خوش نداشتم آن چه را تو برگرفتی و بردی از اموال مردم، برایم از راه حلال میسر باشد و آنها را برای کسانم پس از خود به ارث بگذارم.

آرام بران و بیندیش گویا تو به آخر عمر خود رسیدی و زیر خاك تیره به گوراندر شدی و کردارت به رخت کشیده شده، در همان جا که ستمکار فریاد افسوس برآورد و بنده ضایع روزگار و بدکردار آرزوی برگشت به دنیا دارد و راه چاره ای وجود ندارد.

"ترجمه نامه ای که در شرح ذکر شده است":

امّا بعد به من از تو گزارش کاری رسیده که اگر آن را کرده باشی محقّقاً پروردگارت را به خشم آوردی و امام خود را نافرمانی کردی و امانت خود را خیانت کردی و کارش را به رسوایی کشاندی؛ به من گزارش رسیده که تو سرزمین حکومتت را لخت کردی و هرچه زیر پایت بوده برگرفتی و آن چه در پیش رویت بوده خوردی، حساب خود را به من صورت بده و بدان که حساب خداوند از حساب مردم بزرگتر است؛ والسّلام.

المختار الواحد والأربعون
ومن كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي، وكان عامله على البحرين فعزله واستعمل نعمان بن عجلان الزرقي مكانه

«أَمّا بَعْدُ، فَإنّي قَدْ وَلَّيْتُ نُعْمَانَ بْنَ عَجلاَنَ الزُّرَقيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلا ذَمٍّ لَكَ ولا تَثْريبٍ عَلَيْكَ، فَلَقَدْ أحْسَنْتَ الْوِلايَةَ وَأدَّيْتَ الأمانَةَ، فَأقْبِلْ غَيْرَ ظَنينٍ، وَلا مَلُومٍ، ولا مُتَّهَمٍ، وَلا مَأثُومٍ، فَلَقَدْ أرَدْتُ الْمَسيرَ إلى ظَلَمَةِ أهْلِ الشَّامِ، وَأحْبَبْتُ أنْ تَشْهَدَ مَعي، فَإنَّكَ مِمَّنْ أسْتَظْهِرُ بِهِ عَلى جِهادِ الْعَدُوِّ، وَإقامَةِ عَمودِ الدِّينِ، إن شاءَ اللَّهُ».

اللغة

(لا تثريب عليك): لا لوم عليك والتثريب: الاستقصاء في اللّوم، **(الظّنين)**: المتهم، والظنّة: التّهمة والجمع الظنن.

المعنى

عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوه أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم يكنى أبا حفص: ولد في السّنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة، وقيل: إنّه كان يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ابن تسع سنين.

وأمّا النعمان بن عجلان الزُّرقي من الأنصار من بني زريق، قال ابن عبد البرّ: كان النعمان هذا لسان الأنصار وشاعرهم وهو القائل يوم السقيفة:

وقلتم حرام نصب سعد ونصبكم عتيق بن عثمان حلال أبا بكر
وأهل أبو بكر لها خير قائم وإنّ عليّاً كان أخلق بالأمر
وإنّ هوانا في عليّ وإنّه لأهل لها من حيث يدرى ولا يدري

أقول: ولعلّ إحضار عمر بن أبي سلمة إلى جبهة صفّين باعتبار وجاهته وحرمته في المسلمين حيث إنّه قرشي ومهاجر ومن بني مخزوم وهم من سادات قريش يتنافسون بني هاشم في السيادة والشّرف.

وهذا من أهمّ موانع إسلام أبي جهل، كما في سيرة ابن هشام **(ص ١٩٣ ج ١ ط مصر)**: في مصاحبة الأخنس مع أبي جهل بعد استماعهم آيات من القرآن في ليال متتابعة عن

لسان النبيّ ﷺ باستراق السمع من وراء بيته: قال: ثمّ خرج من عنده «أي من عند أبي سفيان» حتّى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشّرف: أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتّى إذا تحاذينا على الركب وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السّماء فمتى ندرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه[1].

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت (عليه السلام) به عمر بن ابی سلمة مخزومی نگاشته، وی از طرف آن حضرت کارگزار بحرین بود و او را از کار برکنار کرد و نعمان بن عجلان زُرقی را به جای او گماشت:

امّا بعد، من به راستی نعمان بن عجلان زرقی را بر بحرین کارگزار ساختم و بدان ولایت گماشتم و دست تو را از آن برگرفتم، نه تو را نکوهشی هست و نه بر تو انتقاد و سرزنش می باشد، تو خوب فرمان گزاری کردی و امانت خود را پرداختی، نزد من بیا، نه بدگمانی داری و نه شرمساری، نه متّهمی و نه گنهکار.

من می خواهم به سوی ستمکاران اهل شام کوچ کنم و دوست دارم که تو هم با من حاضر باشی، زیرا تو از کسانی هستی که پشت من در نبرد با دشمن بهوجود تو نیرومند است و هم تو در برپا داشتن ستون دین یاور و پشتیبان من هستی، ان شاء الله.

(١) تفسير الميزان: ١٣/ ١٢٥. وتفسير ابن كثير: ٢/ ١٣٤.

المختار الثاني والأربعون
ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني، وهو عامله على أردشير خرّة

«بَلَغَني عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ، وَأَغْضَبْتَ إِمامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمينَ الذي حازَتْهُ رِماحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ، وَأُريقَتْ عَلَيْهِ دِماؤُهُمْ، فيمَنِ اعْتامَكَ مِنْ أَعْرابِ قَوْمِكَ، فَوالَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كانَ ذٰلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ بِكَ عَلَيَّ هَواناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدي مِيزاناً، فَلا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلا تُصْلِحْ دُنْياكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الأَخْسَرينَ أَعْمالاً.

أَلا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنا مِنَ الْمُسْلِمِينَ في قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَواءٌ: يَرِدُونَ عِنْدي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ».

ورد في نسخة شرح المعتزلي (**ص ١٧٥ ج ٦ طبع مصر**): وعصيت إمامك بدل أغضبت.

اللغة

(**اعتامك**): اختارك من بين الناس، أصله من العيمة، وهي خيار المال، وقد روي «فيمن اعتماك» بالقلب، والصحيح المشهور الأوّل: (**الفيء**): الغنيمة ومال الخراج المضروب على الأراضي المفتوحة عنوة، (**حازته**): جمعته، (**المحق**): محق محقاً الشيء: أبطله ومحاه.

الإعراب

(**لتجدنَّ بك عليَّ هواناً**): (**بالباء**) ومعناها (**اللاّم**) ويصحُّ أن يكون (**الباء**) للسببيّة أي بسبب فعلك كما في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وروي «ولتجدنَّ بك عندي هواناً»، (**أردشير خرّة**): كورة من كور فارس.

المعنى

مصقلة بن هبيرة من سادات نجد ومن بني شيبان وفيه ضعف واتّباع هوى يظهر من

عتابه عليه السلام في كتابه هذا ويُشير إلى أنّه تصرّف في بيت المال وقسّم الخراج في بني قومه من دون إجازته عليه السلام ظنّاً منه احتسابه عليهم من سهامهم في بيت مال المسلمين ويظهر أنّه خصّص من بني قومه من اعتامه واختاره وصار من خواصّه وحاشيته.

فبيّن عليه السلام أنّ الفيء من أيّ بلد يحوز فهو لجميع المسلمين ولا يختصُّ بمن حضر ذلك البلد منهم لأنّه من الأراضي المفتوحة عنوةً التي حازته جيوش الإسلام بضرب الرماح وزحف الخيول وبذل النفوس فصارت ملكاً لعامّة المسلمين واختيارها بيد الإمام فلا بدّ من جمع خراجها في بيت المال وتقسيمه بنظر الإمام حفظاً للعدالة فإنَّ خراج جميع الأراضي والبلدان ليس مساوياً والساكن في كلِّ البلاد ليسوا مساوين حتّى يحرز العدالة باختصاص فيء كلِّ بلدٍ بأهله.

مضافاً إلى أنَّ تصرُّف كلِّ عاملٍ فيما يجمع من الخراج يوجب الفوضى واختلال النظام المالي والاقتصادي للدولة الإسلاميّة فكان شرَّع عليه السلام في كتابه هذا قانون الميزانيّة العامّة الذي يتّكي عليه اقتصاد البلدان العامرة الشاملة للملايين من النفوس ولا محيص عنه في إدارة شؤون الماليّة لبلد كافل بالجماهير، فالخزانة العامّة بمنزلة القلب لجريان الشؤون الاقتصاديّة فينشعب منها شرايين المصارف الماليّة وينتشر في مجاري الأُمور الكلّية والجزئيّة ثمَّ يجتمع فيها ثمَّ ينتشر كجريان الدم في أعضاء الحيوان ينتشر من القلب في جميع العروق الدمَويّة ثمَّ يجتمع فيه ثمَّ ينتشر، وكان للمصقلة خلاف آخر معه عليه السلام أدّى إلى فراره في ظلِّ معاوية وهو أنّه ارتدّ بنو الناجية عن عليّ عليه السلام وأخذوا يحاربون مع المسلمين فسار في تعقيبهم معقل بن قيس في جهاد مرّ طويل حتّى غلب عليهم بعد ائتلافهم مع جمع من النصارى في حوالي أهواز فأسر منهم جمًّا غفيراً فاشتراهم مصقلة بمآت الأُلوف من الدراهم في ذمّته وأعتقهم ثمَّ امتنع من تسليم ما تعهّد إلى بيت المال وطالبه عليٌّ عليه السلام واستحضره إلى الكوفة وتعهّد بأدائه أقساطاً فأدّى قسطاً منه ثمَّ هرب إلى معاوية فراراً عن أداء هذا الدَّين فصدر منه عليه السلام في حقّه: «عمِلَ عملَ الأحرارِ وفرَّ فرارَ العبيدِ» وهل ينظر هذا الكتاب إلى ذلك أو هذه قصّة أخرى عنه في خلافه معه؟ الله أعلم.

الترجمة

از نامه ای که به مصقلة بن هبيرة شيبانى نوشت و وى كارگزار آن حضرت بود بر شهرستان اردشير خرّه:

به من گزارشى رسيده درباره تو كه اگر درست باشد محقّقاً معبود خود را به خشم آورده اى و امام خود را نافرمانى و غضبناك كردى.

راستى كه تو درآمد خراج مسلمانان را كه با سرنيزه و تاخت و تاز قشون و ريختن خون خود به دست آوردند ميان آن دسته از اعراب قوم و قبيله ات كه دور تو جمع شدند پخش كردى؟

سوگند بدان خدايى كه دانه را سبز كند و جاندار را بيافريند، اگر اين گزارش درست باشد خود را در نزد من خوار و بى مقدار خواهى يافت و در پيش من سبك و كم ارج خواهى بود، به حقّ پروردگار خود سستى و بى اعتنايى روا مدار و دنيايت را با از ميان بردن دينت اصلاح مكن تا از آنها باشى كه در كردار خود از همه زيانمندترند. آگاه باش كه حقّ كسانى كه نزد تو هستند از مسلمانان و كسانى كه نزد ما هستند در پخش اين خراج و غنيمت برابرند و همه بايد در نزد من و به اجازه من بر آن وارد شوند و سهم خود را از دست من بگيرند و برگردند؛ والسّلام.

المختار الثالث والأربعون
ومن كتاب له ﷺ إلى زياد بن أبيه، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه

«وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّما هُوَ الشَّيْطانُ: يَأْتي الْمَرْءَ [الْمُؤْمِنَ] مِنَ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمينِهِ وَعَنْ شِمالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ.

وَقَدْ كانَ مِنْ أَبي سُفْيانَ في زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَديثِ النَّفْسِ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغاتِ الشَّيْطانِ، لا يَثْبُتُ بِها نَسَب، وَلا يُسْتَحَقُّ بِها إِرْثٌ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِها كَالْواغِلِ الْمُدَفَّعِ، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ[1].

فلمّا قرأ زياد الكتاب قال: شهد بها وربِّ الكعبة، ولم تزل في نفسه حتّى ادّعاه معاوية.
قال الرَّضيُّ:

قوله ﷺ: اَلْواغِلِ: هو الذي يهجم على الشُّرب ليشرب معهم وليس منهم، فلا يزال مدَّفعاً محاجزاً، والنَّوْطِ مَذَبْذَبِ هو ما يناط برجل الراكب من قعب أو قدح أو ما أشبه ذلك، فهو أبداً يتقلقل إذا حثّ ظهره، واستعجل سيره».

اللغة

(يستزلُّ لبّك): يطلب زلله وخطأه، **(اللّبّ)**: العقل والقلب، **(يستفلُّ غربك)**: يريد أن يفلَّ عزمك، الغرب: حدُّ السيف وهو مجاز عن العزم، ويصح أن يكون الجملة مجازاً مركّباً، **(فلتة)**: الكلام أو الأمر بغير رويّة، **(نزغة من نزغات الشيطان)**: نزغ الشيطان بينهم أي أغرى بعضهم على بعضٍ ونزغه الشيطان إلى المعاصي أي حثَّه، **(محاجَزاً)**: ممنوعاً، **(القعب)**: القدح الضَّخم الغليظ المنجد..

الإعراب

(فلتة): اسم كان وخبره من أبي سفيان وهو ظرف مستقرّ، **(وفي زمن)**: جارٌّ ومجرور

---

(١) الغارات: ٢/ ٩٢٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٥١٧ ح ٧١٣.

متعلّق بالظرف المتقدِّم ويمكن أن يكون مستقرًّا خبراً بعد خبر، **(من حديث النفس)**: متعلّق بقوله عليه السلام «فلتة»، **(الهاء)** في قول الرضي نقلاً عن زياد «شهد بها» يرجع إلى مقدّر وهو «القصّة».

المعنى

قد حكم عليه السلام في هذا الكتاب بأنَّ معاوية هو الشيطان باعتبار أنّه يوسوس من كلِّ جانب مشيراً إلى ما ورد في وصف الشيطان في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧].

قال الشارح المعتزلي **(ص ١٧٨ ج ١٦ ط مصر)**: وقال شقيق البلخي: ما من صباح إلاّ قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يديَّ، ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أمّا من بين يديّ فيقول: لا تخف فإنَّ الله غفور رحيم، فأقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢] وأمّا من خلفي فيخوّفني الضيعة على مخلّفي، فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦] وأمّا من قبل يميني فيأتيني من جهة الثناء، فأقرأ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] و [القصص: ٨٣] وأمّا من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

وقد تعرَّض فيه لنفي نسب زياد من أبي سفيان وتكذيب معاوية في ادِّعائه أخاً له وإنكاره استلحاقه به طمعاً في نصره له وهذه مسألة دقيقة ولا بدَّ من النظر فيها من وجوه:

١ ـ قد ادَّعى أبو سفيان في زمن عمر أنَّ زياد بن سميّة مع كون أُمّها زوجةً لعبيد مكوَّنة من نطفته وهو الذي وضعه في رحم أُمّه، قال المعتزلي:

وروى أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب **«الاستيعاب»** عن هشام بن محمّد بن سائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس، أنَّ عمر بعث زياداً في إصلاح فسادٍ واقع باليمن، فلمّا رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع مثلها ـ وأبو سفيان حاضر وعليٌّ عليه السلام وعمرو بن العاص ـ فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام! لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: إنّه لقرشي، وإنّي لأعرف الذي وضعه في رحم أُمّه، فقال عليٌّ عليه السلام: ومن هو؟ قال أنا فقال: مهلاً يا أبا سفيان، فقال أبو سفيان:

أمَا واللّه لولا خوف شخصٍ ... يراني يا عليُّ من الأعادي
لأظهر أمره صخر بن حربٍ ... ولم يخف المقالة في زيادِ
وقد طالت مجاملتي ثقيفاً ... وتركي فيهم ثمرَ الفؤادِ[1]

---

(١) بحار الانوار: ٣٣/٥١٨ ح ٧١٢. والغدير: ١٠/٢١٨.

وفي رواية نقلها عن الواقدي أنّه قال في جواب عليّ عليه السلام: أتيت أمّه في الجاهليّة سفاحاً، فقال عليٌّ عليه السلام: مهْ يا أبا سفيان! فإنّ عمر إلى المساءة سريع، فعرف زياد ما دار بينهما، فكانت في نفسه.

وقد روي في هذا المعنى أحاديث أُخر كلّها صريحة في دعوى أبي سفيان لزياد ابناً له قطعاً والكلام في أنّه ادّعى هذه الدعوى جزافاً وعلى سبيل الخرص والسلف أو له علم بذلك، ومن أين علم ذلك فإنّ مجرّد بغائه مع سميّة مرّة وزوجها معها حاضر عندها ثمّ حملها وولادتها لا يدلُّ على كونه منه.

وهذا ما روي عن المدائني من حديث الاستلحاق، قال: لمّا أراد معاوية استلحاق زياد وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياداً معه فأجلسه بين يديه على المرقاة التي تحت مرقاته، وحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس إنّي قد عرفت نسبتنا أهل البيت في زياد، ومن كان عنده شهادة فليقم بها ـ إلى أن قال ـ فقام أبو مريم السلولي ـ وكان خمّاراً في الجاهليّة ـ فقال: أشهد يا أمير المؤمنين أنَّ أبا سفيان قدم علينا بالطائف، فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً، فلمّا أكل قال: يا أبا مريم، أصب لي بغيًّا فخرجت، فأتيت بسميّة فقلت لها: إنَّ أبا سفيان ممّن قد عرفت شرفه وجوده، وقد أمرني أن أصيب له بغيًّا، فهل لك؟ فقالت: نعم، يجيء الآن عبيد بغنمه ـ وكان راعياً ـ فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته فرجعت إلى أبي سفيان فأعلمته، فلم تلبث أن جاءت تجرُّ ذيلها، فدخلت معه، فلم تزل عنده حتّى أصبحت، فقلت له لمّا انصرفت: كيف رأيت صاحبتك؟ قال: خير صاحبة، لولا ذفر في إبطيها[1].

وربّما طال مصاحبة أبي سفيان مع سميّة حتى عرف ذلك وأنّه كان كثيراً يزور الطائف للبغي والمصاحبة مع بغاتها كما يدلُّ عليه ما تقدَّم من شعره:

وقد طالت مجاملتي ثقيفاً وتركي فيهم ثمر الفؤاد

ثمَّ إنّه عليه السلام ذكر في كتابه ما أظهره أبو سفيان في زمان عمر، ووصفه أنه فلتة من حديث النفس ونزغة من نزغات الشيطان، ويحتمل كلامه عليه السلام وجهين:

١ ـ أنَّ زعمه كون زياد منه لا أصل له، وإنّما هو صرف حديث نفس بلا رويّة وتخيّل شيطانيّ كاذب لا أصل له.

٢ ـ أنَّ إظهار هذه الحقيقة فلتة وكلام بلا رويّة واستلحاق زياد بمجرَّد كونه من مائه نزغة من نزغات الشيطان لأنَّ الماء من الزنا لا يثبت به النسب كما صرَّح به النّبيُّ صلى الله عليه وآله «الولد

---

(١) شرح النهج: ١٦/ ١٨٧.

للفراش وللعاهر الحجر»[١].

وكأنّ زياداً حمل كلامه عليه السلام على الوجه الثاني حيث استفاد منه إثبات كونه متكوّناً من ماء أبي سفيان فقال: شهد بها وربِّ الكعبة، ولكنّ الظاهر منه هو الأوّل والظاهر أنَّ شهادة أبي مريم السلولي شهادة زورٍ زوَّره معاوية وحمّلها عليه أو زوّرها هو طمعاً في التقرُّب والعطاء وكان أبو بكر أخو زياد ينكر ذلك أشدّ الانكار، وحلف أن لا يكلّم زياداً أبداً وقال: هذا زنى أمّه وانتفى من أبيه، لا والله ما علمت سميّة رأت أبا سفيان قبل[٢].

الترجمة

از نامه ای که حضرتش (عليه السلام) به زياد بن ابيه نوشت، چون به آن حضرت گزارش رسيد که معاويه به او نامه ای نوشته و قصد دارد او را بفريبد و به برادری خود پيوندش دهد:

من دانستم که معاويه به تو نامه نوشته است تا دلت را بلغزاند و تصميمت را بگرداند، از او درحذر باش، همانا که او شيطانی است که به مؤمن درآيد از پيش رو و از پشت سر و از سمت راست و از سمت چپ، او از همه سو به آدم درآويزد تا او را غافل گير کند و فريب دهد.

از ابی سفيان در دوران خلافت عمر بن الخطّاب يك سخن پريشان و بی جايی سر زد که ناشی از جهش نفس امّاره بود و يك پرشی بود از پرش های شيطان، با اين سخن بی پر و پا و بی جا نه نسب ثابت می شود و نه پايه استحقاق ارث و ميراثی می تواند بود، کسی که به اين سخن چنگ زند چون شتری است بيگانه که با اشتران برآبگاهشان درآيد و او را برانند و يا چون ظرفی است که به بار مرکبی بياويزند و هميشه در لرزش و اضطراب باشد.

رضی عليه الرحمة گويد: اين که فرموده است "الواغل"، آن است که هجوم برد برای نوشيدن از آب و بيگانه باشد و پيوسته او را برانند و دور کنند و "نوط مذبذب" آن ظرفی است که شترسوار به بند زير پای خود بندد، مانند قدحی يا سبويی يا هر چه بدانها ماند و آن در موقع راندن مرکب يا شتاباندن آن پيوسته در لرزش است و زير و رو می شود.

---

(١) الكافي: ٧/ ١٦٣ ح١ و٣.

(٢) شرح النهج: ١٦/ ١٨٩، والغارات: ٢/ ٩٣٣.

المختار الرابع والأربعون
ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها

«أَمّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْها، تُسْتَطابُ لَكَ الأَلْوانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفانُ، وَما ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجيبُ إِلى طَعام قَوْم عائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ، فَانْظُرْ إِلى ما تَقْضِمُهُ مِنْ هذا الْمُقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَما أَيْقَنْتَ بِطيبِ وُجُوهِهِ [وَجْهِهِ] فَنَلْ مِنْهُ.

أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِماماً يَقْتَدي بِهِ، وَيَسْتَضيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ أَلا وَإِنَّ إِمامَكُمْ قَدِ اكْتَفى مِنْ دُنْياهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلاَ وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعينُوني بِوَرَعٍ وَٱجْتِهادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدادٍ، فَوَٱللّهِ ما كَنَزْتُ مِنْ دُنْياكُمْ تِبْراً، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنائِمِها وَفْراً، وَلا أَعْدَدْتُ لِبالي ثَوْبي طِمْراً»[(١)].

اللغة

(الفتية): جمع فتى كفتيان وفتوّ الشابّ والجواد، **(المأدبة)**: بضمّ الدال: طعام يدعى إليه الجماعة وأدب القوم يأدبهم بالكسر أي دعاهم إلى طعامه، **(الألوان)**: أنواع من الطعام اللذيذ، **(الجفان)**: جمع جفن، وهو القصعة الكبيرة، **(العائل)**: الفقير، **(مجفوّ)**: مفعول من جفاه أي معرض عنه يقال: جفوت الرجل أجفوه إذا أعرضت عنه، **(المقضم)**: معلف الدابّة، يأكل منه الشعير بأطراف أسنانه، والقضم: الأكل بأطراف الأسنان إذا أكل يابساً يقال: قضمت الدابّة شعيرها من باب تعِب ومن باب ضربَ لغةٌ: كسَّرته بأطراف أسنانها ـ مجمع البحرين ـ، و**(لفظت)**: الشيء من فمي ألفظه لفظاً من باب ضرب: رميت به، **(الطمر)**: بالكسر هو الثوب الخلق العتيق أو الكساء البالي من غير الصوف ـ مجمع ـ.

الإعراب

(تستطاب لك الألوان): جملة حاليّة عن المخاطب وما بعدها عطف إليها، **(تجيب إلى**

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٧٤، ونهج السعادة: ٤/ ٣٣.

طعام قوم)، مفعول ثان لقوله **(ظننت)**، وجملة: **(عائلهم مجفوٌّ)**، مبتدأ وخبر حال عن **(القوم)** وما بعدها عطف إليها.

المعنى

عثمان بن حنيف، بضمّ الحاء، ابن واهب بن الحكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاري الأوسي أخو سهل بن حنيف أحد الأمجاد من الأنصار، أخذ من النبيّ ﷺ العلمَ والتربيةَ وبلغ الدرجة العالية فنال مناصب كبرى، قال في الشرح المعتزلي: «عمل لعمر ثمّ لعليّ وولاّه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق، وضرب الخراج والجزية على أهلها، وولاّه عليٌّ عليه السلام على البصرة، فأخرجه طلحة والزبير منها حين قدماها».

ويظهر من ذلك أنّه كان رجلاً بارعاً في علم الاقتصاد والسياسة معاً فاستفاد منه عمر من الناحية الاقتصاديّة وفوّض إليه أمر الخراج والجزية وهو من أهمّ الأُمور في هذا العصر وخصوصاً في أرض العراق العامرة، وكان من خواصّ عليّ عليه السلام ومن السابقين الذين رجعوا إليه وأخلصوا له، قال في الرجال الكبير بعد ترجمته: «هو من السابقين الذين رجعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، قاله الفضل بن شاذان»[١] وكلمة السابقين في وصفه مأخوذ من قوله تعالى في سورة البراءة الآية ١٠٠ ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ وكفى له بذلك مدحاً وإخلاصاً له عليه السلام فإنّ الآية تخصّص السابقين الأوّلين من الأنصار والمهاجرين بهذه الفضيلة التي لا فضيلة فوقها، والسبق والتقدُّم إنّما هو بقبول ولاية أمير المؤمنين فإنّها ميزان الإيمان والإخلاص لله ورسوله ودليل البرائة من النفاق والمطامع الدنيويّة.

ومؤاخذته عليه السلام بمجرّد إجابة دعوة من بعض فتيان البصرة وتشديده في توبيخه بهذه الجمل البالغة في الطعن والمذمّة دليل آخر على علوّ رتبته وسموّ درجة إيمانه وأنّه لا ينبغي من مثله إجابة مثل تلك الدعوة والاشتراك في حفلة ضيافة تُعقد لكسب الشهرة، أو جلب المنفعة، أو الانهماك في اللذة والغفلة، أو الاستمتاع بالأغذية اللذيذة، فظاهر الكتاب الموجّه على[٢] عثمان بن حنيف بالعتاب توبيخ عنيف على ارتكابه خلافاً عظيماً يستحقُّ به هذا التوبيخ الشديد الذي آلم من الضرب بالسوط، أو الحبس إلى حين الموت، فلا بدّ من التدبّر في أمور:

---

(١) خلاصة الأقوال: ٨٢ ح ٢، والتحرير الطاووسي: ٢٢٢ ح ١٧١.

(٢) كذا وردت والأصح «إلى». (المصحح).

الأول: ما هو جوهر هذا الخلاف الذي ارتكبه هذا الوالي الذي فوّض إليه إدارة أُمور ثغر هامّ من الثغور الإسلاميّة في هذا الزمان، فالبصرة أحد الثغور الهامّة الإسلاميّة في تينك العصور تضاهي مركزيّة الكوفة ومصر والشام، وقد انتخبه عليه السلام والياً له وفوّض إليه إدارة شؤونه وسياسة نظامه في هذا الموقف الرهيب، فكيف يوبخه ويؤنّبه بهذه الجمل القاسية ملؤها الوهن والاستضعاف فهذا الخلاف يحتمل وجوهاً:

١ ـ أنّه مجرَّد إجابة دعوة الاشتراك في وليمة لذيذة هيئت للتفريح والأُنس مع الأحباب والأقران.

٢ ـ أُعدَّت هذه الوليمة على حساب استمالة الوالي والنفوذ فيه للاستفادة منه في شتّى المقاصد المرجوعة إليه وللاعتماد عليه في تنفيذ الحوائج كما هو عادة ذوي النفوذ والجاه في كلّ بلد، فإنَّ شأنهم تسخير عمّال الدولة بالتطميع والإحسان للاستمداد منه في مقاصدهم.

٣ ـ إنَّ هذه الوليمة أُعدَّت من عصابة مخالفة لعليّ عليه السلام وموالية لمعاوية وأعوانه فهي حفلة مؤامرة ضدّ عليّ عليه السلام والهدف منه جلب الوالي إلى الموافقة مع مقاصد سياسة هامّة وصرف عثمان بن حنيف عن موالاته عليه السلام إلى معاداته كما فعل معاوية مع زياد ابن أبيه بعد ذلك، فإنّه أحد أعوان عليّ عليه السلام وأحد ولاته المسيسين، وله يد في تقوية حكومته فاستجلبه معاوية بالمكائد والمواعيد وأثبته أخاً لجلبه من موالاة عليّ عليه السلام إلى معاداته، واستفاد منه أكثر استفادةٍ في حكومته.

وما ذكره عليه السلام في كتابه هذا يناسب الوجه الثالث، فإنّه موقف خطر يحتاج إلى الحذر منه أشدَّ الحذر فشرع عليه السلام يوبّخ عثمان في قبول هذه الدعوة والإسراع إليها وتقبّل ما أعدُّوه له من النذل من إعداد الأطعمة الطّيبة المختلفة الألوان وتقديم الأقداح الكبيرة في الخوان، وأشار عليه السلام إلى أنَّ هذه الوليمة ممّا لم يقصد به رضاء الله وإكرام والي وليّ الله، وإلاّ فيشترك فيه ذوو الحاجة والفقراء من الجيران وسائر المسلمين ولم يخصّصوا الدّعوة بالأغنياء وذوي النفوذ والثروة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنَّ الحاضرين حول هذه الخوان من الغافلين المنهمكين في اللذّات المادّيّة، فعبّر عن الخوان بالمقضم وهو ما يعدُّ فيه علف الدابّة من التبن والشعير، وتعبيره عليه السلام يعمُّ كلَّ خوان ومطعم مهيّئٍ لأمثال هؤلاء المفتونين بأمر الدنيا.

وقوله عليه السلام **(فما اشتبه عليك علمه فالفظه)** يحتمل وجهين:

١ ـ أن يكون المقصود منه بيان الأصل في الأموال وأنَّ الأصل فيها التحريم ولزوم الاحتياط والتحرُّز إلاّ ما ثبت حلّه بوجه شرعيّ كما ورد في الحديث أنّه: «لا يحلُّ مال إلاّ

من حيث ما أحلّه الله»[١]، فالأصل في المال المشتبه الحلّ والحرمة التحريم وإن قلنا في غيره بالحلّيّة وهو الظاهر من قوله عليه السلام «فما اشتبه عليك علمه فالفظه» ولكن يشكل عليه بأنّه لا ينطبق على المورد لأنّ مورد الكتاب الأكل من مأدبة الضيافة ودليل حلّها هو ظاهر يد المسلم وإصالة اليد دليل عامّ يُتّكأ عليه في أكثر المعاملات والمبادلات.

٢ ـ أن يكون المقصود تحقيق الحلال الواقعي وعدم الاكتفاء بالأمارات والأدلّة المحتملة للخلاف تحصيلاً للورع عن الحرام الواقعي، كما يستفاد من قوله عليه السلام **(وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه)** فيستفاد منه أنّه قرّر على عمّاله احتياطاً في الدين فوق حدّ العدالة التي كانت شرطاً في تصدّي هذه المناصب الجليلة.

قال ابن ميثم في شرح المقام: «ويفهم منه بحسب التأديب الأوّل أنّ التنزّه عن هذا المباح أفضل له من تناوله» فحمل كلامه عليه السلام على الوجه الثاني وهو أوضح، لأنّ مقام هذا الصحابي الكبير أجلّ من أن ينال ما لا يحلّ له من الطعام جهلاً بالمسألة أو تسامحاً في أمر دينه فكان هذا التشدّد منه عليه السلام عليه لعلوّ رتبته، فنبّه عليه السلام على أنّه لا يليق هذا العمل بمثله وإن كان لا بأس عليه لغيره ممّن لم ينل مقامه في العلم والورع.

ثمّ توجّه عليه السلام إلى بيان منظّمة لعمّاله أو مطلق شيعته، ولخّصها في كلمتين:

١ ـ الاقتداء بالإمام في العمل والسيرة.

٢ ـ الاستضاءة من نور علمه والأخذ بدستوره في كلّ الأُمور، والاقتداء بالإمام عملاً وأخذ دستور العمل منه، كلاهما سلوك طريق النجاة ولكنّ الثاني أعمّ، فإنّه يشمل الغايب عن محضر الإمام ويشمل التكاليف الخاصّة بالمأموم دون الإمام، وهي كثيرة جدّاً.

ثمّ لخّص عليه السلام سيرته في كلمتين لتكون مدار العمل لعمّاله وللاقتداء به عليه السلام:

١ ـ الاكتفاء من رياش الدنيا ولباسها وزينتها بطمرين أي ثوبين باليين إزار ورداء من غير صوف يلبسه أحوج الناس.

٢ ـ الاكتفاء من طعامها وغذائها ولذائذها بقرصين من خبز الشعير اليابس الفارغ عن الأدام.

وقد مثّل عليه السلام في هذه الكلمتين الزهد بأدقّ معانيه وأشقّ ما فيه بحيث جعله من كراماته وأنّه ممّا لا يقدر على العمل به غيره فقال عليه السلام: **(ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك)**.

(١) العروة الوثقى: ١/٤٠٧، وجامع المدارك: ٢/١٠٨.

ثمَّ نظم برنامجاً تربويّاً لعمّاله ومن يتصدّى إدارة أُمور حكومته في أربع موادّ:

١ ـ الورع ـ وهو تحصن النفس عن الرذائل والاجتناب عن المحارم والمحرَّمات.

٢ ـ الاجتهاد ـ في تحرِّي الحقيقة والعمل على مقتضى الوظيفة وتحمّل الكدّ والأذى في سبيل الحقّ.

٣ ـ العفّة ـ وهي ضبط النفس عمّا لا يحلُّ ولا ينبغي من المشتهيات وما فيه الرغبات.

٤ ـ السداد ـ وهو تحكيم المعرفة بالأُمور والأخذ باليقين وتحكيم العمل والدقّة في تقرير شرائطه وكيفيّاته وعدم التسامح فيه.

وقد بقي في المقام نكتة وهي أنّه ربما يزهد بعض الناس في معاشهم حبًّا بجمع المال وادِّخاره، فيعيشون عيشَ الفقراء ويكنزون الذهب والفضّة ويقتنون العقار والدار فقال عليه السلام **(فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ولا ادَّخرت من غنائمها وفراً ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً)**، وزاد في متن الكتاب في شرح ابن أبي الحديد (ج ١٦ ط مصر): «ولا حُزتُ من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلاّ كقوت أتان دبرة»[١] وهي التي عقر ظهرها فقلَّ أكلها.

ثمَّ بيّن إحساسه من الدنيا التي يطلبها أهلها ويجهدون في طلبها وأنّه من النفرة والانزجار إلى أقصى حدّ، فقال «دنياكم في عيني أهون من عفصة مقرة»[٢] والعفصة حبّة كالبندقة تستعمل في دبغ الجلود ويتّخذ منها الحبر ـ كما في مجمع البحرين ـ أي من طعم هذه الحبّة المرّة وهي في نهاية النفور.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٧٠، بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٧٤.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٧٤، ونهج السعادة: ٤/ ٣٣.

بقية من المختار الرابع والأربعين من كتبه عليه السلام

«بَلىٰ كانَتْ في أَيْدينا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ ما أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْها نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْها نُفُوسُ [قَوْمٍ] آخَرينَ، وَنِعْمَ الْحَكَم اللَّهُ! وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ، وَالنَّفْسُ مَظانُّها في غَدٍ جَدَثٌ، تَنْقَطِعُ في ظُلْمَتِهِ آثارُها، وَتَغِيبُ أَخْبارُها، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ في فُسْحَتِها، وَأَوْسَعَتْ يَدا حافِرِها لأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرابُ الْمُتَراكِمُ، وَإِنَّما هِي نَفْسي أَرُوضُها بِالتَّقْوى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ، وَتَثْبُتُ عَلَى جَوانِبِ الْمَزْلَقِ»[1].

اللغة

(فدك): قرية من قرى اليهود بينها وبين مدينة النبي صلى الله عليه وآله يومان، وبينها وبين خيبر دون مرحلة ـ مجمع البحرين ـ، **(الشحّ)**: البخل مع حرص فهو أشدّ من البخل، **(سخوت)**: نفسي عن الشيء: تركته، **(الجدث)**: القبر، **(أضغطها الحجر)**: جعلها ضاغطة، **(المظانّ)**: جمع مظنّة: موضع الشيء ومألفه الذي يكون فيه.

الإعراب

(في أيدينا): ظرف مستقرّ خبر **(كانت)** وقوله: **(فدك)**، اسم لها، **(من كلّ)**: جار ومجرور و**(ما)** موصولية وجملة **(أظلّته السماء)** صلتها الظرف في محلّ الحال من فدك، **(والنفس مظانّها في غدٍ جدث)**: جملة حالية، وقوله: **(حفرة)**، عطف على جدث.

المعنى

لمّا قال عليه السلام «ولا حزت من أرضها شبراً» توجّه إلى ماض بعيد وهو بُعَيد وفاة النبي صلى الله عليه وآله فقال: **(كانت في أيدينا فدك)** فبخلت بها قوم، سلبوها وأخذوها من أيدينا غصباً وهم المتصدُّون لغصب خلافته خوفاً منهم أن يجمع الناس حول أهل البيت برجاء هذا المال فأيّدوهم واستردُّوا حقّهم **(وسخت عنها نفوس آخرين)** يظهر من بعض الشرّاح أنَّ المراد من نفوس آخرين هم أهل البيت أي تركوها في أيدي الغاصبين وانصرفوا عنها قال الشارح المعتزلي: وسخت عنها نفوس آخرين أي سامحت وأغضت وليس يعني بالسخاءِ هاهنا إلاّ هذا لا السخاء الحقيقي لأنّه عليه السلام وأهله لم يسمحوا بفدك إلاّ غصباً وقسراً.

أقول: يمكن أن يكون المراد من الآخرين هم الأنصار حيث سكتوا عن مطالبة حقّهم

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٧٤، ومستدرك سفينة البحار: ٤/٢٥٣.

وقعدوا عن نصرتهم لاسترداده وإن لم يبخلوا بكونها في أيديهم وهذا هو الظاهر لأنّه عليه السلام في مقام الشكوى إلى الله عمّن ظلمه وأهله في غصب فدك وقد سامح الأنصار في نصرته لردّها بعد مطالبتها من جانب فاطمة عليها السلام.

قال في الشرح المعتزلي: قال أبو بكر: حدّثني أبو زيد عمر بن شبّة قال: حدّثنا حيّان بن بشر، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، قال: أخبرنا ابن أبي زائدة عن محمّد بن إسحاق، عن الزهري، قال: بقيت بقيّة من أهل خيبر تحصّنوا، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحقن دمائهم ويسيرهم ففعل، فسمع ذلك أهل فدك، فنزلوا على مثل ذلك، وكان للنبي صلى الله عليه وآله خاصّة، لأنّه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب[1].

وقال ابن ميثم: ثمّ المشهور بين الشيعة والمتّفق عليه عندهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاها فاطمة عليها السلام ورووا ذلك من طرق مختلفة.

منها: عن أبي سعيد الخدري قال لمّا أُنزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الروم: ٣١] أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة فدك[2]، فلمّا تولّى أبو بكر الخلافة عزم على أخذها منها فأرسلت إليه تطالبه بميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله وتقول: إنّه أعطاني فدكاً في حياته واستشهدت على ذلك عليًّا عليه السلام وأُمّ أيمن فشهدا لها بها فأجابها عن الميراث بخبر رواه هو: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث فيما تركناه فهو صدقة»، وعن دعوى فدك: أنّها لم تكن للنبيّ وإنما كانت للمسلمين في يده يحمل بها الرجال وينفقه في سبيل الله وأنا أليه كما كان يليه.

وفي شرح المعتزلي: قال أبو بكر وحدَّثني محمّد بن أحمد بن يزيد، عن عبد الله بن محمّد بن سليمان، عن أبيه، عن عبد الله بن الحسن بن حسن قالوا جميعاً: لمّا بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر على منعها فدك، لاثت خمارها، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها تطأ في ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى دخلت على أبي بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار، فضرب بينها وبينهم ريطة بيضاء وقال بعضهم: قبطيّة وقالوا قبطيّة، بالكسر والضمّ، ثمَّ أنّت أنّةً أجهش لها القوم بالبكاء، ثمَّ أمهلت طويلاً حتّى سكنوا من فورتهم، ثمَّ قالت:

أبتدء بحمد مَن هو أولى بالحمد والطَّول والمجد، الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم، وذكرت خطبة جيّدة قالت في آخرها:

(١) شرح النهج: ١٦/ ٢١٠، وسنن أبي داود: ٢/ ٣٧.

(٢) انظر البحار: ٢٨/ ٣٠٢، وكنز العمال: ٣/ ٧٦٧ ح ٨٦٩٦.

«فاتّقوا الله حقَّ تقاته، وأطيعوه فيما أمركم به، فإنّما يخشى الله من عباده العلماء واحمدوا الله الذي بعظمته ونوره يبتغي من في السماوات والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته في خلقه، ونحن خاصّته، ومحلّ قدسه، ونحن حجّته في غيبه، ونحن ورثة أنبيائه، ثمّ قالت:

أنا فاطمة بنت محمّد، أقول عوداً على بدءٍ وما أقول ذلك سَرَفاً ولا شَطَطاً فاسمعوا بأسماع واعية، وقلوب داعية، ثمّ قالت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ١٢٨] فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم»[1].

ثمَّ ذكرت كلاماً طويلاً، سنذكره فيما بعد في الفصل الثاني، ثمَّ أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾ [المائدة: ٥٠] إيهاً معاشر المسلمين، أُبتزُّ إرث أبي، أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فريًّا، فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، و ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، ثمَّ التفتت إلى قبر أبيها فتمثّلت بقول هند بنت أثاثه:

قد كان بعدك أنباء وهينمة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لمّا قضيت وحالت دونك الكتب

تجهّمتنا رجال واستخفَّ بنا ... إذ غبت عنّا فنحن اليوم نُغتصب

قال: ولم ير الناس أكثر باك ولا باكية منهم يومئذ، ثمَّ عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت: يا معشر البقيّة، وأعضاد الملّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الفترة عن نصرتي، والونية عن معونتي، والغمزة في حقّي، والسِّنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله ﷺ يقول: «المرء يحفظ في ولده»[2] سرعان ما أحدثتم، وعجلان ما أتيتم، الآن مات رسول الله ﷺ أمتّم دينه، ها إنَّ موته لعمري خطب جليل استوسع وهنه، واستبهم فتقه، وفُقِد راتقه، وأُظلمت الأرض له، وخشعت الجبال وأكدت الآمال، أُضيع بعده الحريم، وهتكت الحرمة، وأُذيلت المصونة، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته، وأنبأكم بها قبل وفاته، فقال ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ

(١) الإحتجاج: ١/ ١٣٤، وبحار الأنوار: ٣٩/ ٢٢٤.

(٢) الإحتجاج: ١/ ١٣٩، وبحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٧.

﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إيهاً بني قيلة أأهتضم تراث أبي، وأنتم بمرأى ومسمع، تبلغكم الدعوة ويشملكم الصوت، وفيكم العدّة والعدد، ولكن الدار والجنن، وأنتم نخبة الله التي انتخب، وخيرته التي اختار، باديتم العرب، وبادهتم الأمور، وكافحتم البهم، حتّى دارت بكم رحى الإسلام، ودرَّ حلبه، وخبت نيران الحرب، وسكنت فورة الشرك وهدأت دعوة الهرج، واستوثق نظام الدين، أفتأخّرتم بعد الإقدام، ونكصتم بعد الشدّة، وجبنتم بعد الشجاعة عن قوم ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢] ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وركنتم إلى الدعة، فجحدتم الذي وعيتم، وسغتم الذي سوّغتم، و ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

ألا وقد قلت لكم ما قلت على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتْكم، وخور القناة، وضعف اليقين، فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر، ناقبة الخفّ، باقية العار، موسومة الشعار، موصولة بنار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة، فبعين الله ما تعملون، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧](١).

وحدّث بسنده عن عوّانة بن الحكم قال: لمّا كلّمت فاطمة عليها السلام أبا بكر بما كلّمته به حمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله، ثمّ قال: يا خيرة النساء وابنة خير الآباء: والله ما عدوت رأي رسول الله صلى الله عليه وآله، وما عملت إلاّ بأمره، وإنَّ الرائد لا يكذب أهله، وقد قلت فأبلغت وأغلظت فأهجرت، فغفر الله لنا ولك، أمّا بعد، فقد دفعت آلة رسول الله ودابّته وحذاءه إلى علي عليه السلام، وأمّا ما سوى ذلك فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول «إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً ولا فضّة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً ولكنّا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنّة»(٢) فقد عملت بما أمرني ونصحت له، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب.

قال أبو بكر: وروى هشام بن محمّد، عن أبيه قال: قالت فاطمة لأبي بكر: إنَّ أُمّ أيمن تشهد لي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني فدك، فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق الله خلقاً أحبّ إليّ من رسول الله صلى الله عليه وآله أبيك ولوددت أنّ السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، والله لأن تفتقر عائشة أحبُّ إليّ من أن تفتقري، أتراني أُعطي الأحمر والأبيض حقّه

(١) شرح النهج: ١٦/ ٢١٣، وكشف الغمة: ٢/ ١١٤.

(٢) السقيفة وفدك: ١٠٣، وفدك في التاريخ: ١٥١ ح ١.

وأظلمك حقّك، وأنت بنت رسول الله ﷺ، إنّ هذا المال لم يكن للنبي ﷺ، وإنّما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل به النبي الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلمّا توفّي رسول الله ﷺ وليته كما كان يليه، قالت: والله لا كلمتك أبداً، قال: والله لاهجرتك أبداً، قالت: والله لأدعونَّ الله عليك قال: والله لأدعونّ الله لك، فلمّا حضرتها الوفاة أوصت ألاّ يصلّي عليها، فدفنت ليلاً، وصلّى عليها عبّاس بن عبد المطلب، وكان بين وفاتها ووفاة أبيها اثنتان وسبعون ليلة[1].

قال أبو بكر: وحدّثني محمّد بن زكريّا، قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن عمارة بالإسناد الأوّل قال: فلمّا سمع أبو بكر خطبتها شقّ عليه مقالتها، فصعد المنبر وقال: أيّها الناس ما هذه الرّعة إلى كلِّ قالة، أين كانت هذه الأمانيّ في عهد رسول الله ﷺ، ألا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكلّم، إنّما هو ثعالة شهيده ذنبه، مربّ لكلِّ فتنه، هو الذي يقول كرُّوها جذعة بعدما هرمت، يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء، كأُمّ طحال أحبُّ أهلها إليها البغيّ ألا إنّي لو أشاء أن أقول لقلت، ولو قلت لبحت، إنّي ساكت ما تركت.

ثمّ التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم، وأحقُّ من لزم عهد رسول الله ﷺ أنتم، فقد جاءكم فآويتم ونصرتم، ألا إنّي لست باسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحقّ ذلك منّا، ثمّ نزل، فانصرفت فاطمة إلى منزلها[2].

أقول: هذا شطر ممّا ورد في أمر فدك عن طرق أهل السنّة، ذكرناه بنصّه عن الشرح المعتزلي، وقد بحث الفريقان في هذه المسألة بحثاً وافياً لا مزيد عليه، وأوّلوا ما ورد فيه وما صدر من النصوص بكلِّ وجه ممكن لتأييد كلِّ فريق مذهبه وكفى في ذلك ما نقله الشارح المعتزلي عن قاضي القضاة وما نقله من النقد والردّ عليه من السيّد المرتضى رحمه الله وما علّق على نقوض السيّد المرتضى انتصاراً لقاضي القضاة، من أراد الإطّلاع فليرجع إليه، ونحن نلخّص البحث في أمر فدك بما يلي:

الأول: لا خلاف ولا شكّ في أنّ فدك كانت ملكاً صافياً خالصاً لرسول الله ﷺ، لأنّ أهلها ملّكوها إيّاها صلحاً عل أن يزرعوها بنصف عوائدها، وما روي من أنّه صالحهم على النصف محمول على العوائد لا على صلب الملك ولا ينافي مع ما دلّ على أنّ أهلها صالحوه على جميعها، والدليل على ذلك من وجوه:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ

---

(١) شرح النهج: ١٦/ ٢١٤، واللمعة البيضاء: ٧٥٠.

(٢) السقيفة وفدك: ١٠٥، وبحار الأنوار: ٢٩/ ٣٢٦.

ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحشر: ٦].

ظاهر هذه الآية أنّ ما أعطاه الله رسوله من أهل القرى من غير إيجاف الخيل والركاب وزحف المجاهد والمحارب فهو خاصّة للرسول لا يشترك فيه سائر المسلمين كأرض صالحَ أهلها مع النبي ﷺ وسلّموها إليه أو باد أهلها أو تركوها وهاجروا منها، وفدك ممّا سلّمها أهلها إلى النبي ﷺ من دون حرب وزحف، فهي له خاصّة، والآية التالية تنظر إلى الفيء الذي أُخذ عنوة، فهو للنبي ﷺ وذوي القربى وغيرهم.

٢ ـ اعتراف أبي بكر بأنّه للنبي ﷺ حيث تمسّك بمنعها عن فاطمة عليها السلام بحديث رواه عن النبيّ وهو قوله «لا نورث، ما تركناه صدقة»[1] مع أنّه لو لم يعترف بكونها ملك النبيّ ﷺ لا يحتاج إلى التمسك بهذا الحديث، بل يمنعها باعتبار عدم ارتباطها بها.

٣ ـ أنّه بعدما ادَّعت فاطمة عليها السلام أنّها نحلة أبي وقد وهبها لي، طلب أبو بكر منها الشهود، وطلب الشهود على النحلة، يدلُّ على اعترافه بأنّها ملك مخصوص بالنبيّ ﷺ، لأنّه لا هبة إلاّ في ملك، نعم قال في الشرح المعتزليّ: قال أبو بكر: وروى هشام بن محمد، عن أبيه قال: قالت فاطمة لأبي بكر: إنَّ أمّ أيمن تشهد لي أنَّ رسول الله ﷺ أعطاني فدك، فقال لها: يا ابنة رسول الله والله ما خلق الله خلقاً أحبّ إليَّ من رسول الله ﷺ أبيك ـ إلى أن قال ـ إنَّ هذا المال لم يكن للنبي ﷺ وإنّما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبيّ به الرجال وينفقه في سبيل الله، فلمّا توفّى رسول الله وليته كما كان يليه، قالت: والله لا كلّمتك أبداً ـ إلخ.

ويرد الإشكال على هذا الحديث بوجوه:

١ ـ معارضته صريحاً مع ما رواه في الشرح أيضاً:

قال أبو بكر: حدّثني أبو زيد عمر بن شبّة قال: حدّثنا يحيى بن بشر، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، قال: أخبرنا ابن أبي زائدة عن محمّد بن إسحاق، عن الزهري، قال: بقيت بقيّة من أهل خيبر تحصّنوا، فسألوا رسول الله ﷺ أن يحقن دمائهم ويسيرهم ففعل، فسمع ذلك أهل فدك، فنزلوا على مثل ذلك، وكانت للنبي ﷺ خاصّة، لأنّه لم يوجف عليها بِخَيْل ولا ركاب[2].

وهذا الحديث صريح ومعلّل وموافق للقرآن وله وجوه من الترجيح سنداً.

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٢١٨، والإيضاح: ٢٥٨.
(٢) السقيفة وفدك: ٩٩، وشرح النهج: ١٦/ ٢١٠.

٢ ـ قال الشارح المعتزلي: وأمّا الخبر الثاني وهو الذي رواه هشام بن محمّد الكلبي عن أبيه ففيه إشكال أيضاً، لأنّه قال: إنّها طلبت فدك وقالت: إنَّ أبي أعطانيها، وإنَّ أُمّ أيمن تشهد لي بذلك، فقال لها أبو بكر في الجواب: إنّ هذا المال لم يكن لرسول الله ﷺ وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل به الرجال وينفقه في سبيل الله، فلقائل أن يقول له: أيجوز للنبي ﷺ أن يملّك ابنته أو غير ابنته من أفناء الناس ضيعة مخصوصة، أو عقاراً مخصوصاً من مال المسلمين، لوحي أوحى الله إليه ـ إلى أن قال: وهذا ليس بجواب صحيح[١].

٣ ـ مخالفته مع الآية السابقة السادسة من سورة الحشر كما بيّناه، فالقول بأنَّ فدك لم يكن للنبيّ ﷺ مردود ومخالف لما عليه الفريقان، فإذا ثبت أنّ فدك كانت خاصّة لرسول الله يثبت أنّ انتقالها إلى فاطمة عليها السلام كان بهبة رسول الله إياها لا بالإرث فإنه لو كان بالإرث لا يختص بفاطمة سلام الله عليها، فإنّها لم تكُ وارثة منحصرة له ﷺ بل تشترك معها أزواج النبيّ التسع وعصبة النبيّ ﷺ، على مذهب العامّة فلا يصحّ لها دعوى كلّ فدك.

ولم يرد في روايةٍ اشتراك غيرها معها في دعوى فدك إلاّ ما رواه في الشرح عن أبي بكر بسنده عن عروة عن عائشة أنَّ فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ وهما حينئذٍ يطلبان أرضه بفدك وسهمه بخيبر، فقال لهما أبو بكر: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث، ما تركناه صدقة» إنّما يأكل آل محمّد صلّى الله عليه من هذا المال، وإنّي والله لا احيز أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلاّ صنعته، قال: فهجرته فاطمة فلم تكلّمه حتّى ماتت.

وهذه رواية شاذّة تتضمّن إرث العصبة مع الأولاد، وهو مخالف لمذهب الإماميّة، مع احتمال أن يكون أرضه بفدك غير ضيعة فدك، بل قطعة أرضٍ مخصوصة فيها.

الثاني لا بدّ وأن يكون في بحث فاطمة عليها السلام مع أبي بكر دعوتان:

١ ـ دعوى فدك بعنوان النحلة لا بعنوان الميراث.

٢ ـ دعوى ميراث النبيّ ممّا تركه من غير فدك، وهي أُمور، منها سهمه ﷺ بخيبر، ومنها سهم الخمس الذي كان له في حياته من سهم الله وسهم الرسول، ومنها سائر ما يملكه من الدار والمتاع وغيرهما وقد حازها كلّها أبو بكر بحجّة ما تفرّد بروايته من قوله «لا نورث ما تركناه صدقة» فدعوى الهبة والإرث لم تتعلّق بموضوع واحد وهو فدك، بل الهبة متعلّقة

(١) اللمعة البيضاء: ٧٥٠.

بفدك ودعوى الإرث بغيرها، كما يستفاد ممّا رواه في الشرح المعتزلي عن أبي بكر بسنده إلى أُمّ هاني، أنّ فاطمة قالت لأبي بكر: من يرثك إذا متَّ؟ قال: ولدي وأهلي، قالت: فما لك ترث رسول الله ﷺ دوننا؟ قال: يا ابنة رسول الله، ما ورّث أبوك داراً ولا مالاً ولا ذهباً ولا فضّة، قالت: بلى سهم الله الذي جعله لنا، وصار فيئنا الذي بيدك، فقال لها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّما هي طعمة أطعمنا الله، فإذا متُّ كانت بين المسلمين(١).

ولا بدّ من القول بأنَّ الدعوتين مختلفتان ولم تتواردا على مورد واحد، فإنّهما متكاذبتان، لأنّ دعوى الهبة تقتضي الاعتقاد بخروج المورد عن ملك النبيّ ﷺ في حياته، ودعوى الإرث تقتضي بقاءه في ملكه إلى حين الموت اللهمَّ إلاّ أن يقال: إنَّ دعوى الهبة مقدَّمة على دعوى الإرث فلمّا ردَّت طرحت دعوى الإرث على وجه التنزُّل عنها وعلى وجه الجدال مع الخصم، وفيه بعد.

وقد اختلف كلامهم في أنّ أيّ الدعوتين مقدّمة، قال في الشرح المعتزلي في الفصل الثالث من مباحثه التي طرحها في أمر فدك **(ص ٢٦٩ ج ١٦ ط مصر)**:

وقد أنكر أبو علي ما قاله السائل من أنها لمّا ردّت في دعوى النحلة ادَّعته إرثاً وقال: بل كانت طلبت الإرث قبل ذلك، فلمّا سمعت منه الخبر كفّت وادَّعت النحلة.

والعجب كلّ العجب من أبي علي، كيف خفى عليه أنّه لو كانت دعوى الإرث مقدّمة فقد اعترفت فاطمة عليها السلام ببقاء المورد في ملك أبيه إلى حين الوفاة، فكيف يصحُّ منها أن تدَّعي النحلة بعد ذلك.

والعجب من السيّد المرتضى رحمه الله حيث لم يتوجّه في جوابه عن كلامه هذا في الشافي إلى خطبه فقال: وأمّا إنكار أبي علي أن يكون النحل قبل ادّعاء الميراث وعكسه الأمر فيه، فأوّلُ ما فيه إنّا لا نعرف له غرضاً صحيحاً في إنكار ذلك لأنّ كون أحد الأمرين قبل الآخر لا يصحّح له مذهباً فلا يعتدُّ على مخالفه مذهباً، ثمَّ قال رحمه الله:

ثمَّ إنّ الأمر في أنّ الكلام في النحل كان المتقدّم ظاهراً، والروايات كلّها به واردة، وكيف أن تبتدىء بطلب الميراث فيما تدّعيه بعينه نحلاً أو ليس هذا يوجب أن تكون قد طالبت بحقّها من وجه لا تستحقّه منه مع الاختيار وكيف يجوز ذلك والميراث يشتركها فيه غيرها، والنحل تنفرد به.

أقول: قد ترى أنّ السيّد رحمه الله لم يُشر إلى التكاذب والتناقض الذي يلزم على المدّعي للميراث قبل ادّعاء النحل، فإنّه لو ادَّعى الميراث أوّلاً فقد اعترف ببقاء الملك على ملك

---

(١) شرح النهج: ١٦/ ٢١٨، وكنز العمال: ٥/ ٥٨٥ ح ١٤٠٤٠.

المورث إلى حين الموت، فلو ادَّعى النحل بعد ذلك فقد ناقض دعواه الأُولى وكذّب نفسه، ولا يصحُّ صدوره من فاطمة عليها السلام مع عصمتها وطهارتها، فلا بدّ من القطع بتقدُّم دعوى النحل على دعوى الإرث، ولا يصحُّ جعله ظاهر الحال أو ظاهر الأخبار، كما يستفاد من كلام السيّد رحمه الله.

وقد انتصر الشارح المعتزلي لأبي علي بما يلي **(ص ٢٨٥ ج ١٦ ط مصر)**:

فأمّا تعجّب المرتضى من قول أبي علي أنَّ دعوى الإرث كانت متقدّمة على دعوى النحل وقوله: إنّا لا نعرف له غرضاً في ذلك، فإنّه لا يصحُّ له بذلك مذهب ولا يبطل على مخالفيه مذهب، فإنّ المرتضى لم يقف على مراد الشيخ أبي علي في ذلك، وهذا شيء يرجع إلى أصول الفقه، فإنَّ أصحابنا استدلّوا على جواز تخصيص الكتاب بخبر الواحد باجماع الصحابة، لأنّهم أجمعوا على تخصيص قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] برواية أبي بكر عن النبيّ صلى الله عليه وآله «لا نورث ما تركناه صدقة»، قالوا: والصحيح في الخبر أن فاطمة عليها السلام طالبت بعد ذلك بالنحل لا بالميراث، فلهذا قال الشيخ أبو علي: إنّ دعوى الميراث تقدَّمت على دعوى النحل، وذلك لأنّه ثبت أنّ فاطمة انصرفت عن ذلك المجلس غير راضية ولا موافقة لأبي بكر، فلو كانت دعوى الإرث متأخّرة، وانصرفت عن سخط لم يثبت الإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد، أمّا إذا كانت دعوى الإرث متقدّمه فلمّا روى لها الخبر أمسكت وانتقلت إلى النزاع من جهة أُخرى، فإنه يصحُّ حينئذ الاستدلال بالإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد، فأمّا أنا فالأخبار عندي متعارضة، يدلُّ بعضها على أنّ دعوى الإرث متأخّرة، وبعضها على أنّها متقدّمة وأنا في هذا الموضع متوقّف، وما ذكره المرتضى من أنَّ الحال تقتضي أن تكون البداية بدعوى النحل فصحيح، انتهى.

أقول: لا يخفى ما في كلام الشارح المعتزلي من الاضطراب والتناقض، فتارة ينتصر لأبي علي جزماً ليصحّح الإجماع، وأخرى يحكم بتعارض الأخبار ويتوقّف وثالثة يصحّح كلام المرتضى في تقدُّم دعوى النحل.

والأصحُّ أنَّ مورد دعوى النحل خصوص فدك ولم يرد عليها دعوى الإرث أصلاً لا قبلها ولا بعدها، ومورد دعوى الإرث سائر ما تركه رسول الله من سهمه بخيبر وسهمه في الخمس وغير ذلك من متاعه، وقد تصرَّف أبو بكر في جميع ذلك وقام مقامه كلاً ولم يمسك عن أموال رسول الله يداً إلاّ من آلة رسول الله ودابّته وحذائه حيث دفعها إلى عليّ عليه السلام، كما في رواية عوانة بن الحكم.

والعجب من الشارح المعتزلي حيث انتصر لأبي علي بما يوجب تكاذب فاطمة عليها السلام لنفسها وسقوط كلامها عن الاعتبار بالتناقض الظاهر، وكيف يصحُّ لها عليها السلام دعوى النحل في

فدك بعد الاعتراف بأنّها ميراث لرسول الله ﷺ، وقد أصرَّ في غير موضع من كلامه على اعتراف فاطمة بصحّة ما رواه أبو بكر من قوله «لا نورث، ما تركناه صدقة» وموافقتها معه في ذلك، ومن يتدبّر من كلام فاطمة تجاه أبي بكر ومن وافقه يفهم أنَّ فاطمة ؏ أنكرت حديثه ونسبت المعترف به إلى الكفر والإلحاد والخروج عن الإسلام ومتابعة القرآن، فانظر إلى قولها فيما ذكره الشارح المعتزلي بأسناد عدَّة:

«ثمَّ أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] ايهاً معاشر المسلمين أبتزُّ إرث أبي، أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فريًا، فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولكلِّ نبأ مستقرٌّ وسوف تعلمون، من يأتيه عذاب يخزيه ويحلُّ عليه عذاب مقيم»، وقالت فيما خاطبت وعاتبت به الأنصار:

«ما هذه الفترة عن نصرتي، والونية عن معونتي، والغمزة في حقّي، والسّنة عن ظلامتي - إلى أن قالت ؏: ايهاً بني قيْلة، أأُهتضم تراث أبي، وأنتم بمرأى ومسمع، تبلغكم الدعوة، ويشملكم الصوت، وفيكم العدّة والعدد، ولكم الدار والجنن، وأنتم نخبة الله التي انتخب، وخيرته التي اختار، باديتم العرب، وبادهتم الأُمور، وكافحتم البهم، حتّى دارت بكم رحى الإسلام، ودرَّ حلبه، وخبت نيران الفتنة، وسكنت فورة الشرك، وهدأت دعوة الهرج واستوثق نظام الدين، أفتأخّرتم بعد الإقدام، ونكصتم بعد الشدّة، وجبنتم بعد الشجاعة، عن قوم ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ⑫﴾ [التوبة: ١٢].

أقول: من تدبّر هذه الكلمات التي خرجت من قلب ملتهب وأسف عميق يفهم بوضوح عدم الموافقه بين بنت الرسول المظلومة الممنوعة عن حقّها مع مخالفيها بوجه من الوجوه، وقد صرَّحت فيها بنكث العهد ومخالفة الرسول عن أولئك المخالفين.

الثالث ممّا يهمّ في المقام، بيان أنَّ فدك كانت في تصرُّف فاطمة ؏ فانتزعها منها أبو بكر؟ أو كانت في ضمن ما تركه النبي ﷺ فمنعها أبو بكر من التصرُّف فيها؟

حكى في الشرح المعتزلي عن قاضي القضاة ما يلي (**ص ٢٦٩ ج ١٦ ط مصر**):

ولسنا ننكر صحّة ما روي عن ادّعائها فدك، فأمّا أنّها كانت في يدها فغير مسلّم، بل إنْ كانت في يدها لكان الظاهر أنّها لها، فإذا كانت في جملة التركة فالظاهر أنّها ميراث.

ونقل عن السيّد المرتضى في ردّ كلامه (**ص ٢٧٥ ج ١٦ ط مصر**):

فأمّا إنكار صاحب الكتاب لكون فدك في يدها فما رأيناه اعتمد في إنكار ذلك على حجّة، بل قال: لو كان ذلك في يدها لكان الظاهر أنّها لها، والأمر على ما قال، فمن أين أنّه لم يخرج عن يدها على وجه يقتضي الظاهر خلافه، وقد روى من طرق مختلفة غير طريق أبي سعيد الذي ذكره صاحب الكتاب أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الروم: ٣٨] دعا النبيُّ ﷺ فاطمة عليها السلام فأعطاها فدك[1]، وإذا كان ذلك مرويّاً فلا معنى لدفعه بغير حجّة.

أقول: لا إشكال في أنَّ ظاهر «فأعطاها فدك» الواردة في غير واحد من الأخبار هو إقباض النبيِّ ﷺ إيّاها، لا مجرَّد إنشاء صيغة الهبة، فإنَّ العطاء حقيقة في العمل الخارجي، ومن هذه الجهة عنون الفقهاء المعاطاة في مقابل العقد والمعاملة الإنشائيّة، فالمعاطاة معاملة بالعمل وبالأخذ والردِّ، وأدلُّ دليل على كونها في تصرُّف فاطمة عليها السلام حين موت النبيِّ ﷺ كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكتاب الموجّه إلى عثمان بن حنيف من كبار الصحابة حيث يقول صلوات الله عليه:

«بلى كانت في أيدينا فدك»[2] فإنّه كاد أن يكون صريحاً في كونها تحت تصرُّف أهل البيت.

الرابع: لقضيّة فدك جهتان هامّتان:

الأولى: النظر إليها من الوجهة الحقوقيّة والقضائيّة والبحث من حيث إنَّ فدك كانت حقًّا لفاطمة سلام الله عليها بهبة من النبيِّ ﷺ كما هو الظاهر، أو بالإرث كما ذكره غير واحد من الأصحاب وجمٌّ من المخالفين فأُخذت منها غصباً وتعمّداً، أو على وجه الشبهة باعتماد الحديث الذي رواه أبو بكر عن النبيِّ ﷺ «لا نورث، ما تركناه صدقة» والبحث في هذا الحديث يقع من وجهين:

الأوّل: من جهة السند، ويضعّف من وجوه شتّى، كتفرُّد أبي بكر بنقله مع وفور الصحابة وتوفّر الداعي ببيانه للناس لإزالة الشبهة، وكعدم اطّلاع أهل البيت عليهم السلام وأزواج النبيِّ ﷺ عنه مع مسيس الحاجة إلى إبلاغهم هذا الحكم من النبيِّ ليعرفوا تكليفهم في تركته من حين موته، ويكاد يقطع باستحالة إخفاء النبيِّ ﷺ هذا الحكم عنهم مع ولعه بتقوى ذويه وأهل بيته.

---

(١) رواه ابن كثير في تفسيره: ٣/٣٩، وفتح القدير: ٣/٢٢٤، والمطالب العالية لابن حجر: ٣/٣٦٧ ح ٣٧٢٥، ومسند أبي يعلى الموصلي: ٢/٣٣٤ ـ ٥٣٤ ح ١٠٧٥ ـ ١٤٠٩.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/٣٥٠، وفدك في التاريخ: ٣٣.

الثاني: من جهة دلالته حيث إنَّ للنبيِّ ﷺ جهتان متمايزتان: الأُولى جهة شخصيّة وأنّه كسائر أفراد البشر المسلمين يملك ويتزوَّج ويصير أباً ويكون ابناً لأبيه، وله حقوق متساوية مع غيره فيملك ويملّك ويرث ويورِّث، الثانية جهة نبوَّته وما يتعلّق به بعنوان أنّه نبيٌّ فيكون والد الأُمّة ومالك الوجوه العامّة من الغنائم والسبايا، وبيده مفتاح بيت المال يتصرّف فيه على ما يراه صلاحاً، فيمكن أن يكون مقصوده من قوله ﷺ «لا نورث» الجهة الثانية ومعناه أنَّ ما يملكه النبيُّ بعنوان أنّه نبيٌّ غير مورث وتترك صدقة عامّة للأُمّة ولا يشمل ما يملكه باعتبار شخصه من أمواله الخاصّة فإنّها متروكة لوارثه كسائر الأفراد.

وحيث كانت فدك مطرحاً لدعوى فاطمة عليها السلام من جهة النحلة وطلب أبو بكر منها البيّنة فشهد لها عليٌّ عليه السلام وأُمّ أيمن فردَّت شهادتهما أو لم يكتفِ بهما لنقصانهما عن حدِّ البيّنة الشرعيّة فإنّها تتحقّق بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين عرضت القضيّة لبحث قضائي من وجوه شتّى.

منها، هل يصحُّ أو يجب الاكتفاء بمجرّد الدعوى من فاطمة عليها السلام للحكم لها؟ أم حالها حال سائر الناس ولا بدَّ من عرض دعوتها على الموازين القضائيّة العامّة؟

وتحقيق البحث فيه يرجع إلى النظر في أمرين:

الأول في أنّ البيّنة حجة لإثبات دعوى المدَّعي باعتبار صرف الحكاية عن الواقع ومن جهة الكاشفيّة فقط، فكلّ كاشف عن الواقع يساويها في البيان أو يقوى عليها يقوم مقامها، أم هي حجّة قضائيّة بخصوصها ولها موضوعيّة لفصل الدعوى وإثبات المدَّعى؟ والظاهر هو الأوّل لأنَّ البيّنة كاشفة عن الواقع وحجّة بهذا الاعتبار ولذا يقوم مقامها الشياع، وحينئذ فعصمة فاطمة عليها السلام وطهارتها عن الكذب بحكم آية التطهير الشامل لها ممّا يوجب العلم بصدق دعوتها فيحكم لها لهذا العلم الناشيء عن خصوصية المدَّعي وإن منعنا عن جواز حكم القاضي في موضوع النزاع بمجرّد علمه الغير المستند إلى طرح الدعوى كالوحي أو الاستظهار بالغيب من الرياضة أو مثل علوم الجفر والرمل ونحوهما لمن هو أهله.

ففي الشرح المعتزلي: قال المرتضى: نحن نبتدء فندلّ على أنّ فاطمة عليها السلام ما ادَّعت من نحل فدك إلاّ ما كانت مصيبة فيه، وأنّ مانعها ومطالبها بالبيّنة متعنّت، عادل عن الصواب، لأنّها لا تحتاج إلى شهادة وبيّنة ـ إلى أن قال ـ أمّا الذي يدلّ على ما ذكرناه فهو أنّها معصومة من الغلط، مأمون منها فعل القبيح ومن هذا صفته لا يحتاج فيما يدَّعيه إلى شهادة وبيّنة.

ثمَّ استشهد لاثبات عصمتها بآية التطهير وحديث «فاطمة بضعة منّي، ومن آذاها فقد

آذاني ومن آذاني فقد آذى الله عزّ وجلّ»[١] وهذا يدلّ على عصمتها، لأنّها لو كانت ممّن يقترف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذياً له على كلّ حال، بل متى فعلت المستحقّ من ذمّها، أو إقامة الحدّ عليها، إن كان الفعل يقتضيه ساراً له ومطيعاً، على أنّنا لا نحتاج في هذا الموضع على الدلالة على عصمتها، بل يكفي في هذا الموضع العلم بصدقها فيما ادَّعته، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين لأنَّ أحداً لا يشكُّ أنّها لم تدَّع ما ادَّعته كاذبة، وليس بعد أن لا تكون كاذبة إلاّ أن تكون صادقة، وإنّما اختلفوا في أنّه هل يجب بعد العلم بصدقها تسليم ما ادَّعته بغير بيّنة أم لا يجب ذلك.

ثمَّ استدلَّ على أنَّ البيّنة من جهة الكاشفيّة لا من جهة الموضوعيّة بوجوه:

١ ـ اشتراط العدالة في البيّنة للاعتماد بصدقها.

٢ ـ جواز حكم الحاكم بعلمه من غير شهادة.

٣ ـ كون الإقرار أقوى من البيّنة من حيث إنّه أكشف للواقع ـ إلى أن قال:

«والذي يدلُّ على صحّة ما ذكرناه أيضاً أنّه لا خلاف بين أهل النقل في أنَّ أعرابيًّا نازع النبيَّ ﷺ في ناقة، فقال ﷺ: «هذا لي وقد خرجت إليك من ثمنها» فقال الأعرابي: من يشهد لك بذلك؟ فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد بذلك، فقال النبيُّ ﷺ: «من أين علمت، وما حضرت ذلك»؟ قال: لا ولكن علمت ذلك من حيث علمت أنّك رسول الله، فقال: «قد أجزت شهادتك وجعلتها شهادتين» فسمّي ذا الشهادتين، وهذه القضيّة شبيهة لقصّة فاطمة عليها السلام»[٢].

ومنها أنّه حيث كانت فاطمة عليها السلام مدَّعية لفدك باتّفاق أهل الحديث يستفاد أنّها كانت متصرِّفة فيها وصاحبة يد عليها، فلا يصحُّ مطالبتها بالبيّنة إلاّ أن يقال بأنَّ دعوتها مقرونة بالاستناد إلى ادّعاء الهبة وبهذا الاعتبار تحتاج إلى البيّنة، وقد شهد لها عليٌّ عليه السلام وأُمُّ أيمن، ويظهر مما نسب إلى أبي بكر التوقّف في الحكم لها باعتبار نقصان البيّنة، فإنّها تتحقّق برجلين أو رجل وامرأتين، فيبحث عن خطأ أبي بكر في ذلك باعتبار أنَّ عليًّا مشمول لآية التطهير ومعصوم، فتقوم شهادته مقام رجلين وأمّ أيمن ممّن ثبت كونها من أهل الجنّة فيقطع بصدقها وتقوم شهادتها مقام امرأتين وأكثر، ونسب إلى عمر ردّ شهادتهما باتّهام عليّ عليه السلام بأنّه يجرّ النار إلى قرصه، والقدح في أُمّ أيمن بأنّها عجميّة مردودة الشهادة فيا لهما من خطأ وجور.

(١) الأمالي: ٤٠٩ ح ٥٣٠، وتحف العقول: ٤٥٩.

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٦/٢٧٣.

الثانية النظر إليها من الوجهة السياسية، وهي أنَّ أخذ فدك من فاطمة عليها السلام وأخذ سائر مواريث النبيّ منها ومن سائر الورّاث تابع للاستيلاء على الخلافة والحكم، فلا يستقرّ بيعة سقيفة على أبي بكر إلاّ بهذين الأمرين، لأنَّ الرياسة على الأمّة من أهمّ مواريث النبيّ صلى الله عليه وآله ومن أوفر ما تركه بعده فتتعلّق بذويه الأقربين من أهل بيته، ولا يكفي مجرّد بيعة الناس مع أبي بكر لسلب هذا الحق عن أهل البيت إلاّ بمنع التوريث عن النبيّ صلى الله عليه وآله، ومنع الإرث يحتاج إلى قضيّة عامّة وهي جملة «لا نورّث، ما تركناه صدقة» التي ابتكرها أبو بكر وتفرَّد بنقلها ولم يكن لمن بايع معه من المهاجرين والأنصار إلاّ التسليم لها وترك النكير عليها، فإنّهم لو أنكروها وقاموا في وجه أبي بكر لردِّها يضطرُّون إلى نقض بيعتهم معه بالرئاسة والخلافة فلا يستقيم قبول وراثة فاطمة وسائر أهل البيت عمّا تركه النبيُّ صلى الله عليه وآله مع بيعتهم لأبي بكر بالخلافة.

ويدلُّ على ذلك ما حكي أنَّ هارون العبّاسي قال لموسى بن جعفر عليه السلام: حدَّ لي فدك حتّى أردَّه، فقال عليه السلام: حدُّها من سيف البحر إلى دومة الجندل إلى عريش مصر، فقال هارون: حتّى أنظر فيها، فالظاهر أنَّ مقصوده عليه السلام أنَّ فدك نموذج ما تركه النبيُّ صلى الله عليه وآله لأهل بيته وهو ما استقرَّ حكومته عليه في حياته.

وقال الشارح المعتزلي **(ص ٢٨٤ ج ١٦ ط مصر)**: «وسألت عليَّ بن الفارقي مدرِّس المدرسة الغربيّة ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدك وهي عنده صادقة؟ فتبسم، ثمَّ قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته وقلّة دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فدك بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادَّعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء لأنّه يكون قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدَّعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود، وهذا كلام صحيح، وإن كان قد أخرجه مخرج الدُّعابة والهزل»(١).

ثمَّ إنّ عمق سياسة قضيّة فدك يظهر من التدبّر في خطب أبي بكر ومكالمته مع فاطمة عليها السلام حيث يستفاد منها أنَّ أبا بكر كان داهية دهياء ولا يكون في المسلمين يومئذ أدهى منه وأمكر، وصوَّر خطّة سياسته في هذه القضيّة من ثلاث:

الأولى رقّته ولينه تجاه فاطمة عليها السلام بما لا مزيد عليه وتمسّكه بالإطاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وولعه على العمل بسنّته وسيرته حرفاً بحرف وقدماً على قدم، وتحريش الناس على فاطمة عليها السلام بأنّها تريد خلاف قول أبيها طلباً لحطام الدنيا فانظر فيما يلي:

---

(١) شرح النهج: ١٦/ ٢٨٤، واللمعة البيضاء: ٣٠٦.

في الشرح المعتزلي (ص ٢١٤ ج ١٦ ط مصر): وروى هشام بن محمّد عن أبيه قال: قالت فاطمة لأبي بكر: إنَّ أُمَّ أيمن تشهد لي أنَّ رسول الله ﷺ أعطاني فدك، فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق خلقاً أحبُّ إليَّ من رسول الله ﷺ أبيك، ولوددت أنَّ السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، والله لأن تفتقر عائشة أحبُّ إليَّ من أن تفتقري، أتراني أُعطي الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقّك، وأنت بنت رسول الله ﷺ، إنَّ هذا المال لم يكن للنبي ﷺ، وإنّما كان مالاً من أموال المسلمين، يحمل النبيُّ به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلمّا توفّي رسول الله ﷺ وليته كما كان يليه، قالت: والله لا كلّمتك أبداً، قال: والله لاهجرتك أبداً، قالت: والله لأدعونَّ الله عليك، قال: والله لأدعونَّ الله لك، فلمّا حضرتها الوفاة أوصت ألاّ يصلّي عليها، فدفنت ليلاً...

وفي الشرح أيضاً (ص ٢١٣ ج ١٦ ط مصر): عن عوّانة بن الحكم، قال: لمّا كلّمت فاطمة عليها السلام أبا بكر بما كلّمته به، حمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثمّ قال: يا خيرة النساء وابنة خير الآباء، والله ما عدوت رأي رسول الله ﷺ، وما عملت إلاّ بأمره، وإنَّ الرائد لا يكذب أهله، وقد قلت فأبلغت وأغلظت فأهجرت، فغفر الله لنا ولك، أمّا بعد، فقد دفعت آلة رسول الله، ودابّته وحذاءه إلى عليّ عليه السلام، فأمّا ما سوى ذلك فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضّة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً، ولكنّا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنّة، فقد عملت بما أمرني، ونصحت له، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب.

فقد ترى أبا بكر في هذه المكالمة وهذه الخطبة القصيرة التي أجاب بها عن خطبة فاطمة الطويلة القاصعة يظهر الخضوع والتذلّل لفاطمة عليها السلام والطوع والانقياد لأمر أبيها حتّى يصوّر فاطمة عليها السلام في نظر الناس عاقّة لأبيها وطالبة لحطام الدنيا.

الثانية استصغار عليّ وأهل بيته وإهانتهم في نظر الناس ليسقط عندهم هيبة أهل البيت وينتهك حرمتهم التي اكتسبوها في ضوء توصيات النبي ﷺ وحرمة مهبط الوحي والرسالة، ويجترؤا على الصّول عليهم، بما يقتضيه السياسة في مواقفها الآتية.

فانظر إلى قوله في تلك الخطبة «أمّا بعد، فقد دفعت آلة رسول الله ودابّته وحذاءه إلى عليّ» فإنَّ فيه من الإهانة بمقام عليّ عليه السلام ما لا يخفى، فيغصب أبو بكر منبر رسول الله وسيفه ويدفع إلى عليّ عليه السلام حذاءه.

ثمّ انظر إلى ما أفاده في خطبته الثانية كما في الشرح المعتزلي (**ص ٢١٤ ج ١٦ ط مصر**): قال أبو بكر: وحدّثني محمّد بن زكريّا قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن عمارة بالإسناد الأوّل قال: فلمّا سمع أبو بكر خطبتها شقَّ عليه مقالتها، فصعد المنبر وقال: أيّها

الناس، ما هذه الرعة إلى كلِّ قالة، أين كانت هذه الأماني في عهد رسول الله ﷺ، ألا من سمع فليقل ومن شهد فليتكلم، إنّما هو ثعالة شهيده ذنبه، مربّ لكلِّ فتنة هو الذي يقول: كرُّوها جذعة بعد ما هرمت، يستعينون بالضعفة ويستنصرون بالنساء كأُمّ طحال أحبّ أهلها إليها البغيّ ألا أنّي لو أشاء أن أقول لقلت، ولو قلت لبحت، إنّي ساكت ما تركت...

قال الشارح المعتزلي: قرأت هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن أبي زيد البصري وقلت له: بمن يعرّض؟ فقال: بل يصرِّح، قلت: لو صرَّح لم أسألك، فضحك وقال: بعليّ بن أبي طالب عليه السلام، قلت: هذا الكلام كلّه لعليّ يقوله؟ قال: نعم، إنّه الملك يا بنيّ، ويظهر نهاية استخفافه بعليّ وفاطمة عليها السلام واستصغاره لشأنهما بما فسّره من غريب ألفاظ الخطبة، قال: فسألته عن غريبه، فقال: أمّا الرعة بالتخفيف، أي الاستماع والاصغاء، والقالة: القول، وثعالة: اسم الثعلب علم غير مصروف مثل ذؤالة للذئب، وشهيده ذنبه: أي لا شاهد له على ما يدَّعي إلاّ بعضه وجزء منه، وأصله مثل، قالوا: إنَّ الثعلب أراد أن يغري الأسد بالذئب فقال: إنّه قد أكل الشاة التي قد أعددتها لنفسك، وكنت حاضراً، قال: فمن يشهد لك بذلك؟ فرفع ذنبه وعليه دم، وكان الأسد قد افتقد الشاة فقبل شهادته، وقتل الذئب، ومربّ: ملازم، أرّب بالمكان، وكرُّوها جذعة: أعيدوها إلى الحال الأُولى، يعني الفتنة والهرج، وأُمّ طحال امرأة بغيّ في الجاهليّة، فيضرب بها المثل فيقال: أزنى من أمّ طحال، انتهى[1].

فقد اتّهم عليًا عليه السلام في كلامه هذا بأنّه يجرُّ النار إلى قرصه ويشهد لجرِّ النفع وجلب المنفعة وأنّه يريد إلقاء الفتنة بين المسلمين وايقاد نيران الحرب وردّ الإسلام قهقرى فيستعين بالضعفة والنساء، وكفى وهناً به وبفاطمة قوله: كأُمّ طحال أحبّ أهلها إليها البغيّ، وهل قصد تشبيه عليّ عليه السلام بأُم طحال أو فاطمة عليها السلام أو هما معاً، وكفى به توهيناً لهما وإظهاراً للكفر والزندقة.

ويقصد في ضمن ذلك سلب الفوائد عن عليّ عليه السلام بحيث لا يملك درهماً ولا ديناراً، فيكون قد اشتغل بتحصيل القوت ويكون آكلاً سهمه من بيت المال بنظارته كأحد أُجرائه وأمرائه لئلا يتوجّه إليه النّاس فيعتزّ بهم ويطلب حقّه من الخلافة.

قال في الشرح المعتزلي (**ص ٢٣٦ ج ١٦ ط مصر**): وقال لي علويّ من الحلّة، يعرف بعليّ بن مهنّا، ذكيّ ذو فضائل: ما تظنُّ قصد أبي بكر وعمر بمنع فاطمة فدك؟ قلت: ما قصدا؟ قال: أرادا أن لا يظهرا لعليّ ـ وقد اغتصباه الخلافة ـ رقّة وليناً، ولا يرى عندهما

---

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٣٢٨، وشرح النهج: ١٦/ ٢١٥.

خوراً، فاتبعا القرح بالقرح.

وقلت لمتكلّم من متكلّمي الإماميّة يعرف بعليّ بن تقي من بلدة النّيل وهل كانت فدك إلاّ نخلاً يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير؟ فقال لي: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليلة جدًا، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلاّ ألاّ يتقوّى عليٌّ بحاصلها وغلّتها على المنازعة في الخلافة، ولهذا اتبعا ذلك بمنع فاطمة وعليّ وسائر بني هاشم وبني المطلب حقّهم في الخمس، فإنَّ الفقير الذي لا مال له تضعف همّته ويتصاغر عند نفسه ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرآسة، فانظر إلى ما قد وقر في صدور هؤلاء...

الثالثة إرعاب الناس وتخويفهم إلى حيث ينقادون لحكمهم ويتهيّأون لكلِّ ما يقرّرونه بعد ذلك من مؤامراتهم، فتشديدهم الأمر على أهل بيت النبيِّ إلى حيث هدَّدوهم بإحراق بيتهم أو أشعلوا النار في باب فاطمة عليها السلام وفي روايات عدَّة أنّهم ضربوها بالسياط تقرير لهذه السياسة الحديديّة الناريّة التي يرتكبها الطامعون في استقرار حكومتهم وكبح مخالفيهم.

قال في الشرح المعتزلي **(ص ٢٨٣ ج ١٦ ط مصر)**: فيما نقله عن السيّد المرتضى في جواب قاضي القضاة: فأمّا قوله إنَّ حديث الإحراق لم يصحّ، ولو صحَّ لساغ لعمر مثل ذلك فقد بيّنا أنَّ خبر الإحراق قد رواه غير الشيعة وقوله أنّه يسوغ مثل ذلك، فكيف يسوغ إحراق بيت عليّ وفاطمة عليهما السلام وهل في ذلك عذر يصغى إليه أو يسمع، وإنّما يكون عليٌّ وأصحابه خارقين للاجماع ومخالفين للمسلمين لو كان الإجماع قد تقرَّر وثبت، وليس بمتقرّر ولا ثابت مع خلاف عليّ وحده فضلاً عن أن يوافقه على ذلك غيره...

وتهديد أبي بكر للناس وخصوص الأنصار الذين هم العدَّة والعدد وصاحبوا الدار والجنن يظهر من ذيل خطبته السابقة **(ص ٢١٥ ج ١٦ ط مصر)**:

ثمَّ التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم، وأحقُّ من لزم عهد رسول الله أنتم، فقد جائكم فآويتم ونصرتم، ألا أنّي لست باسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحقّ ذلك منّا، ثمَّ نزل، فانصرفت فاطمة عليها السلام إلى منزلها.

قال الشارح المعتزلي في ضمن ما سأله عن النقيب أبي يحيى «قلت: فما مقالة الأنصار؟ قال: هتفوا بذكر عليّ فخاف من اضطراب الأمر عليهم، فنهاهم».

وبهذه السياسة الحديديّة المقرونة بأشدّ الإرعاب أخمدوا نار الثورة الفاطميّة التي أشعلتها عليهم بخطبتها الرنّانة الفائقة وتمسّكوا بالملك والخلافة بكلّ قوّة وشدّة، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

الترجمة

از نامه آن حضرت (عليه السلام) است كه به عثمان بن حنيف انصارى نگاشته؛ عثمان بن حنيف كارگزار آن حضرت بود بر استان بصره و از وى به آن حضرت گزارش رسيده بود كه براى صرف وليمه جشن جمعى از مردم بصره دعوت شده و اين دعوت را پذيرفته و در آن وليمه شركت كرده و در ضمن نامه بدو نوشته است:

امّا بعد اى زاده حنيف، به من خبر رسيده كه مردى از جوانان اهل بصره از تو بر سر خوان مهمانى دعوت كرده و تو هم بدان شتافتى، خوراك هاى رنگارنگ برايت آورده اند و قدح هاى چند در برابرت چيده اند (تو حريصانه از آنها خوردى و استخوان هاى گوشت را به دندان پاك كردى).

من گمان نمى بردم تو پذيراى دعوت مردمى شوى بر سر خوان خوراكشان كه بينوايان آنها گرسنه اند و توانگرانشان دعوت شده اند، بنگر از اين آخر دنيا چه مى جوى، آن چه را يقين ندارى كه حلال است به دور انداز و از آن چه به يقين مى دانى حلال است استفاده كن.

هلا، به راستى كه هر مأمومى را امامى است كه از او پيروى كند و از پرتو دانشش روشنى گيرد؛ هلا، به راستى امام و پيشواى شما از دنياى خود به دو پاره كرباس و دو قرصه نان جوين قناعت كرده، معلوم است كه شما نتوانيد چنين زندگى كنيد و تا اين اندازه قناعت ورزيد، ولى بهورع و كوشش خود در كار دين به من كمك كنيد و با پارسايى و درستكارى مرا مدد كنيد، به خدا سوگند، من از دنياى شما گنجينه زرى نيندوختم و از دست آوردهاى آن برى برنگرفتم و ذخيره و پس اندازى نيندوختم و براى كهن جامه تن خود پارچه كرباسينى آماده نساختم و از زمين اين دنيا يك وجب به چنگ نياوردم و از اين دنيا جز قوتى اندك به اندازه خوراك ماده الاغى پشت ريش برنگرفتم و هر آينه اين دنيا در چشم من سست تر و پست تر است از دانه بلوطى گرف و نامطبوع.

آرى در زير دست ما تنها يك فدك بود، از هر آن چه آسمان بر آن سايه دارد و

دل های مردمی بر آن دریغ آورد و دل های دیگران بر آن بخشش گر شد و از دست ما ربوده گردید و چه خوب دادگری است خداوند. مرا چه کار است با فدك یا جز فدك با این که منزل فردای هر کس گور است، گوری که در تاریکیش آثار و کردار هرکس منقطع می گردد و اخبارش نهان می شود گودالی که اگر در میدانش بیفزایند و دست حفّارش پهناور سازد، سنگ و کلوخش تنگ سازد و خاك های انباشته سوراخ و روزنش را مسدود سازد، همانا منم و این نفس سرکشم که بهوسیله تقوی و پرهیزکاری آن را سوقان می دهم تا بلکه در روز هراس بزرگ تر در آسایش باشد و بر اطراف پرتگاه دوزخ پابرجا و استوار گذر کند.

بقية من المختار الرابع والأربعين من كتبه عليه السلام

«وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّريقَ إلىٰ مُصَفَّى هَذا العَسَل، وَلُبابِ هَذَا القَمْحِ، ونَسَائِجِ هذَا القزِّ، وَلكِنْ هَيْهاتَ أَنْ يَغْلِبَني هَوايَ، وَيَقُودَني جَشَعي إِلى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ وَلَعَلَّ بالْحِجازِ أَو الْيَمامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ في الْقُرْصِ، وَلا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ!! أَوْ أَبيتَ مِبْطاناً وَحَوْلي بُطُونٌ غَرْثى، وَأَكْبادٌ حَرّى، أَوْ أَكُونَ كَما قالَ الْقائِلُ:

وَحَسْبُكَ داءً [عاراً] أَنْ تَبيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبادٌ تَحِنُّ إِلى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسي بِأَنْ يُقالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ وَلا أُشارِكَهُمْ في مَكارِهِ الدَّهْرِ؟ أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ في جُشُوبَةِ الْعَيْشِ، فَما خُلِقْتُ لِيَشْغَلَني أَكْلُ الطَّيِّباتِ كَالْبَهيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّها عَلَفُها، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُها تَقَمُّمُها تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلافِها، وَتَلْهُو عَما يُرادُ بِها، أَوح أُتْرَكَ سُدى، أَوْ أُهْمَلَ عابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَريقَ الْمَتاهَةِ»(1).

اللغة

(القمح): الحنطة، **(الجشع)**: أشدّ الحرص، **(المبطان)**: الذي لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، فأمّا المبطن: فالضامر البطن، وأمّا البطين فالعظيم البطن بالخلقة، وأمّا البطن: فهو الذي لا يهمّه إلاّ بطنه، وأمّا المبطون فالعليل البطن، **(والبطون الغرثى)**: الجائعة، **(البطنة)**: الكظة، وذلك أن يمتلىء الإنسان من الطعام أمتلاءً شديداً، **(القدّ)**: إناء من جلد يدّخر فيها الغذاء أو بمعنى القديد: اللحم المشوي المقدّد الذي يجفّ بالشمس ويدّخره أهل البادية يتغذّون به، **(التقمّم)**: أكل الشاة ما بين يديها بمقمقتّها أي بشفتها، **(تكترش من أعلافها)**: أي تملأ كرشها من العلف، والكرش للشاة بمنزلة المعدة للإنسان، ويقال **(أجررته)** رسنه: أهملته، **(الاعتساف)**: السلوك في غير طريق، **(المتاهة)**: أرض يتاه فيها لعدم وجود الطريق.

الإعراب

(هيهات) اسم فعل بمعنى بعُدَ، **(بالحجاز)** جار ومجرور متعلّق بفعل مقدّر والجملة خبر مقدم لقول **(لعلّ)**، **(ومن لا طمع له)** اسم لها **(أو أبيت)**: عطف على قوله **(يغلبني)** ومنصوب مثله، **(حولي)**: ظرف مستقر خبر لقوله **(بطون غرثى)** والجملة حالية عن الضمير في قوله **(أبيت)**، **(همّها علفها)**: جملة حالية عن **(البهيمة)**، **(شغلها تقمّمها)**: مبتدأ وخبر

(1) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٧٥، ونهج السعادة: ٤/ ٣٦.

والجملة حال عن (**المرسلة**)، (**أو أترك سدى**): عطف على قوله (**يشغلني**) وكذلك قوله اهمل واجرّ واعتسف.

المعنى

بيّن عليه السلام في هذا الفصل من كتابه إلى عثمان بن حنيف أنَّ تجنّبه عن الأكل الطيّب الهنيء والقناعة بقرصين جافين من شعر ليس من الضرورة لعدم القدرة على ما زاد من المآكل الهنيئة، وأشار إلى اقتداره على أطيب الأكل وأهنأ العيش من وجوه:

١ ـ من فوائد ما استنبطه من العيون وما غرسه من النّخيل في ينبع أيام اعتزاله في المدينة واشتغاله بالحرث والزراعة في نواحيها، فمن ضياعه العين المعروفة بعين نيزر أحد مواليه المشتغلين بالزراعة من قبله عليه السلام في ينبع، فقد ورد في الحديث أنه حضر يوماً يحفر فيه بئراً فأصاب حجراً فألقى عليه السلام رداءه وأخذ المعول وضرب الحجر حتّى كسره فطلع من تحته عين ماء كأنها عنق البعير.

وفي حديث آخر: أنَّ مغيرة بن شعبة مرَّ عليه عليه السلام يوماً وقد ركب بعيراً وتحته حمل فقال له عليه السلام: ما تحتك يا عليُّ؟ فأجابه: مائة ألف نخلة إن شاء الله فكان يحمل نوايا التمر ليغرسه[1].

وعلى الجملة كان له عليه السلام ضياع ونخيل أنشأها وجعلها صدقة وصرفها على الفقراء.

٢ ـ أنّه عليه السلام يقدر على الاحتراف والكسب بوجوه شتّى ويهتدي إلى تهيئه أطيب العيش من كدّ يده مضافاً إلى ما يستحقه من العطايا والحقوق من بيت المال وهو رئيس المسلمين وأمير المؤمنين، فيقدر على ما يريد من العيش الرّغيد، ولكنّه ترك ذلك ولازم الزُّهد والرياضة ليكون أُسوة للزاهدين.

بقية من المختار الرابع والأربعين من كتبه عليه السلام

«وَكَأنّي بِقائِلِكُمْ يَقُولُ: إذَا كانَ هذا قُوتُ ابْنِ أبي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَن قِتالِ الأقْرانِ، وَمُنازِلَةِ الشُّجْعانِ؟! ألاَ وَإنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أصْلَبُ عوُداً، وَالرَّوائِعَ الْخَضِرَةَ أرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّباتاتِ الْعَذْبَةِ [وَالنَّباتاتِ الْبَدوِيَّةِ] أقْوى وقُوداً وَأبْطأُ خُمُوداً! وَأنَا مِنْ رَسُولِ اللّهِ كَالصِّنْوِ مِنَ الصِّنْوِ والذِّراعِ مِنَ الْعَضُدِ، وَاللّهِ لَوْ تَظاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلى قِتالي لَما وَلَّيْتُ عَنها، وَلَوْ أمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقابِهَا لَسارَعْتُ إلَيْها، وَسَأجْهَدُ في أنْ أُطَهِّرَ الأرْضَ مِنْ هذا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ،

(١) انظر البحار: ٤٠/١١٤.

وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ حَتّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ»[١].

اللغة

(الأقران): جمع قِرن وهو الكفو في المبارزة والقتال، **(الشجرة البرّيّة)**: التي تنبت في البرّ الذي لا ماء فيه، **(الروائع)**: جمع رائعة وهي الشجرة النابتة على الماء، **(النابتات العذبة)** بسكون الذال: الزرع لا يسقيه إلاّ ماء المطر، **(الصنو)**: إذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد فكلٌّ واحدة منها هي صِنو أو صنُو، **(ركس)**: ركساً الشيء: قلب أوّله على آخره.

المعنى

كان المخالفون لعليّ عليه السلام يعترضون عليه حتّى في زهده ورياضته ويذمّون قلّة أكله باعتبار أنّه مخلٌّ بما يجب عليه من وظيفة الجهاد والدفاع عن العدوّ، لأنّه موجب لضعفه وقلّة مقاومته تجاه العدوّ الشجاع اللدود، وكأنّه ارتفع صدى هذا الاعتراض من الكوفة إلى البصرة فتذكّر عليه السلام في هذا الكتاب وجه الدفاع عنه بقوله: **(الا وإنَّ الشجرة البرّية أصلب عوداً والروائع الخضرة أرقُّ جلوداً)**.

ويمكن أن يكون هذا الكلام جواباً عن اعتراض ربما يرد على تحريض أصحابه بالزهد وقلّة الأكل والمواظبة على جشوبة العيش، فدفعه عليه السلام بأنَّ القوّة والشجاعة ذاتيّة للمؤمن ولا تتوقّف على تقوية الجسم بالأغذية اللذيذة.

ثمَّ أيّد سيرته هذه بمتابعته للنبيّ صلى الله عليه وآله فقال: **(أنا من رسول الله)** كغصنان من أصل واحد فأصلهما عبد المطلب عليه السلام تفرَّع منه عبد الله أبو النبيّ وأبو طالب أبو علي عليه السلام أو أنهما مشتقان من أصل نوريّ واحد في تسلسل الوجود وانبعاثه عن المصدر الأزلي كما في غير واحد من الأخبار، وعن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: أنا وعليٌّ من شجرة واحدة وسائر النّاس من شجر شتّى[٢]. وهذه الرواية تؤيّد النسخة التي روت قوله **(كالصّنو من الصّنو)** بالصّاد المهملة بعدها نون معجمة.

ونسخة شرح ابن أبي الحديد **(٢٨٩ ج ١٦ ط مصر)**: «كالضوء من الضوء» بالضّاد المعجمة، وبهذا الإملاء فسّره في شرحه فقال: (ص ٢٩٠) وذلك لأنَّ الضّوء الأوّل يكون

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٥٥، ومدينة المعاجز: ١/ ٣٨١ ح ٢٤٨.

(٢) مناقب أمير المؤمنين: ١/ ٤٦٩ ح ٣٧٠، والاحتجاج: ١/ ٢٠٨.

علّة في الضّوء الثاني، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشّمس يصير مضيئاً من الشّمس، فهذا الضوء هو الضوء الأوّل.

ثمّ إنّه يقابل وجه الأرض فيضيء وجه الأرض منه، فالضوء الذي على وجه الأرض هو الضوء الثاني، وما دام الضّوء الأوّل ضعيفاً فالضّوء الثاني ضعيف، فإذا إزداد الجوّ إضاءة ازداد وجه الأرض إضاءة لأن المعلول يتبع العلّة، فشبّه عليه السلام نفسه بالضوء الثاني، وشبّه رسول الله صلى الله عليه وآله بالضوء الأوّل، وشبّه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشّمس التي توجب الضوء الأوّل، ثمّ الضوء الأوّل يوجب الضّوء الثاني، وهاهنا نكتة وهي أن الضوء الثاني يكون أيضاً علّة لضوء ثالث، وذلك أنَّ الضوء الحاصل على وجه الأرض - وهو الضوء الثاني - إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم، فإنَّ ذلك المكان يصير مضيئاً بعد أن كان مظلماً.

أقول: قد اعتبر الشارح المذكور لفظة (من) في كلامه نشويّة فيصير المعنى: وأنا من رسول الله كالضوء الناشي من الضّوء، واستفاد منه تسلسل أنواع العلوم والافاضات إلى سائر النّاس بواسطته جيلاً بعد جيل إلى أن يضعف ويضمحلّ ويعود الإسلام غريباً، ويمكن استفادة تسلسل الإمامة منه نسلاً بعد نسل كما هو معتقد الإماميّة ولا يلزم أن يكون الضوء الثاني أضعف من الضوء الأوّل إذا تساوت القابليّات والانعكاسات المثالية كما لا يخفى.

ثمّ التفت عليه السلام إلى شجاعته في ذات الله وأنّه لا يخاف تظاهر العرب تجاهه وبيّن أنّهم ارتدّوا عن الإسلام وصاروا كالمشركين يجب قتالهم وتطهير الأرض من وجودهم وأنّ من يجاهد الكفّار يجب عليه أن يغلظ عليهم ويستأصل شافتهم، وأشار إلى معاوية رأس النفاق والشقاق ووصفه بأنّه شخص معكوس انقلب على وجهه وارتدّ عن حقيقة إنسانيته، وسقط في مهوى شهواته حتّى أثر باطنه في ظاهره فصار جسمه مركوساً إلى ظلمات الطبيعة ودركات الهوى والبهيميّة، فوجوده بين المسلمين كالمدرة بين حبّ الحصيد يوجب الفساد ويضلّ العباد قالوا: وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

بقية من المختار الرابع والأربعين من كتبه عليه السلام

«إِلَيْكِ عَنّي يا دُنْيا فَحَبْلُكِ على غارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهابَ في مَداحِضِكِ أَيْنَ الْقُرُونُ الذينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَداعِبِكِ؟ أَيْنَ الأُمَمُ الذينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخارِفِكِ؟ هاهُمْ رَهائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضامينُ اللُّحُودِ، وَاللّهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيًّا، وَقالِباً حِسِّيًّا، لأَقَمتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللّهِ في عِبادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالأَمانِيّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ في الْمَهاوي، وَمُلُوكٍ

أَسْلَمْتِهِمْ إِلى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوارِدَ الْبَلاءِ، إِذْ لا وِرْدَ وَلا صَدَرَ. هَيْهاتَ مَنْ وَطِىءَ دَحْضَكِ زَلَقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ٱزْوَرَّ عَنْ حَبائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسّالِمُ مِنْكِ لا يُبالي إِنْ ضاقَ بِهِ مُناخُهُ، وَالدُّنْيا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حانَ ٱنْسِلاخُهُ.

أُعْزُبي عَنّي فَوَاللَّهِ لا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلّيني، وَلا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُوديني، وَأَيْمُ اللَّهِ - يَميناً أَسْتَثْني فيها بِمَشيئَةِ اللَّهِ - لأَرُوضَنَّ نَفْسي رِياضَةً تَهِشُّ مَعَها إِلَى الْقُرْصِ إِذا قَدَرَتْ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلأَدَعَنَّ مُقْلَتي كَعَيْنِ ماءٍ نَضَبَ مَعينُها مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَها، أَتَمْتَلِىءُ السّائِمَةُ مِنْ رَعْيِها فَتَبْرُكَ؟ وَتَشْبَعُ الرَّبيضَةُ مِنْ عُشْبِها فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زادِهِ فَيَهْجَعُ؟ قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنينَ الْمُتَطاوِلَةِ بِالْبَهيمَةِ الْهامِلَةِ، وَالسّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ!

طوبىٰ لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلى رَبِّها فَرْضَها، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِها بُؤْسَها، وَهَجَرَتْ في اللَّيْلِ غُمْضَها، حَتّى إِذا غَلَبَ الْكَرى عَلَيْهَا ٱفْتَرَشَت أَرْضَها وَتَوَسَّدَتْ كَفَّها، في مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعادِهِمْ، وَتَجافَتْ عَنْ مَضاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ ٱسْتِغْفارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حُنَيفٍ، وَلْتَكْفِكَ أَقْراصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلاصُكَ»[1].

اللغة

(الغارب): جمع غوارب: الكاهل، أو بين الظهر أو السنام والعنق، حبلك على غاربك: كناية من كنايات الطلاق، أي اذهبي حيث شئت، لأنَّ الناقة إذا أُلقي حبلها على غاربها فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءت وتذهب حيث شاءت.

(المخالب): جمع مخلب وهي للطيور الجوارح، **(المداحض)**: المزالق، **(المداعب)**: جمع مدعبة: الدعابات، **(زخارف)**: جمع زخرف: ما يتزيّن به، **(رهائن)**: جمع رهينة وهي الوثيقة، **(مضامين)**: أي الذي تضمّنتهم القبور فاستعارها للموتى لشبههم في اللحود بالأجنّة في بطون الأمّهات، **(المهاوي)**: جمع مهواة: المهلكة **(الدحض)**: المكان الزلق، **(ازورّ)**: تنحّى، **(مناخ البعير)**: مبركه، **(اعزبي)**: ابعدي، **(اسلس)**: انقاد، **(ايم الله)**: من صيغ الحلف، **(تهشّ)**: تفرح **(نضب)**: غار في الأرض، **(ماء معين)**: جارٍ على وجه الأرض، **(فتبرك)**: أي تنام، **(الربيضة)**: جمع الغنم **(فيهجع)**: فينام، **(البهيمة الهاملة)**: المسترسلة المهملة من الزمام، **(السائمة المرعيّة)**: جمع الغنم مع الراعي، **(عركت بجنبها)**: أي تحمل

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٧٦، ونهج السعادة: ٤/٤١.

الشدَّة في العبادة ناقلاً من جنب إلى جنب.

المعنى

كتب عليٌّ عليه السلام هذا الكتاب إلى أحد عمّاله في ناحية كبيرة من دار حكومته الواسعة وهو في أبان قدرته وعلى عرش حكومته الإسلاميّة التي حازها بحقّ، فينبغي أن يتوجّه إليها ويطمئنّ بها، ولكن يتوجّه إلى أنّها مظهر من مظاهر الدنيا الغرّارة الفتّانة يكاد يغلب عليه ببهرجها وزينتها وعواملها الخلاّعة الخلاّبة من توجّه عموم الناس إلى بابه، ومن انقياد الأمراء والحكّام والضابطين إلى جنابه، ومن ورود سيل الخراج والأموال والغنائم من شتّى نواحي البلاد الإسلاميّة تحت يده، فمن هو الرجل الذي لا يغرّ بهذه المظاهر الفتّانة الدنيويّة ويقدر على ضبط نفسه عن التأثّر بها والافتتان منها، فكان عليه السلام يلقّن بهذه الجمل النافذة كره الدنيا وكيدها وغرورها وعواقبها على نفسه وعلى قلوب أعوانه وحكّامه ويطرد الدنيا عن حوله وعن فنائه بقوله عليه السلام: **(إليك عنّي يا دنيا)** فأنت مطلّقة عنّي لا سبيل لك إليّ، ويهدّدها أشدَّ التهديد بأنّها لو كانت جسماً محسوساً كالواحد من البشر يقيم عليها الحدّ ويعرضها للمجازات بما ارتكبته من الخلاف في حقّ ذويها:

١ ـ بجرم التغرير وإراءة ما لا واقع له لطلاّبها فكانت مدلّسة يتوجّه إليها مجازات التدليس.

٢ ـ التسبيب إلى الهلاك والتلف لأبنائها وجرّهم إلى موارد البلاء والدّمار.

ثمَّ بيّن أنّه لا نجاة لمن غرَّ بها وصار في طلبها فليس لها إلاّ مزالق هائلة ولجج مهلكة، فمن سلم عنها فهو على طريق النجاة، وإن ضاق عليه أمر الدنيا، فإنَّ الدنيا لمحة يسيرة تنصرم عاجلاً ويفوز المؤمن السالم فيها عن مكائدها إلى الفوز الأبد والراحة الطويلة.

ثمَّ يبيّن عليه السلام سيرته في معيشة الدنيا مقروناً بالحلف بالله تعالى في التمسّك بالرياضة وتقليل الطعام إلى حيث يفرح نفسه بأكل قرصة من الشعير لسدِّ جوعتها وتقنع بالملح للأدام، ومع ذلك يبكي من خشية الله وموقف الحساب إلى حيث ينضب عينه من الدموع، وأشار إلى أنَّ النفس الإنسانيّة أشرف من الاقتداء بالبهائم من الآبال والبقر والغنم في الأكل وطلب الراحة، فلا بدَّ من حفظ الامتياز، وهو ملازمة الجوع والخوف من الله والعبادة في جوف الليل، والهمهمة بذكر الله بالشفاه، وغسل الذنوب بالاستغفار في باب الله.

المختار الخامس والأربعون من كتبه عليه السلام
ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلى ما أَهَمَّكَ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَارْفُقْ مَا كانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حينَ لا يُغْني عَنْكَ إلاَّ الشِّدَّةُ وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَناحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ في اللَّحْظَةِ والنَّظْرَةِ وَالإِشارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتّى لا يَطْمَعَ الْعُظَماءُ في حَيْفِكَ، وَلا يَيْأَسَ الضُّعَفاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلامُ»[١].

اللغة

(أستظهر): أجعلك كظهري أتقوّى بك، **(النخوة)**: الكبر، **(الأثيم)**: المخطيء المذنب، **(اللهاة)**: ما بين الفكّين الأعلى والأسفل، وهي كناية عن هجوم العدوّ كالسبع فاتحاً فاه لأخذ الصيد، **(الضغث)**: النصيب من الشيء يختلط بغيره».

الإعراب

(ما كان الرفق): **(ما)** مصدريّة زمانيّة و**(كان)** صلتها، **(حتّى لا يطمع)**: لفظة **(حتّى)** تفيد التعليل.

المعنى

لم يشر الشارح إلى من كاتبه عليه السلام بهذا الكتاب وإلى من خاطبه بهذه التوصيات الحكيمة، ولكن يستفاد من قوله عليه السلام **(وأسدّ به لهاة الثغر المخوف)** أنّه كان من الأمراء والعمّال المرابطين في أحد الثغور الهامّة الهائلة، والثغور التي لا بدَّ من المراقبة منها في عصر حكومته على قسمين: منها ما كانت بين المسلمين والكفار من ناحية المشرق والمغرب، ومنها ما كان بين المؤمنين والفسّاق في داخل البلاد الإسلاميّة كثغور الشام والعراق، فإنّ معاوية يحكم في قطعة واسعة من البلاد الإسلاميّة تمتدُّ من شمال الجزيرة إلى نواحي العراق، وكان يراقب الغرّة من المجاهدين المؤمنين الذي يطيعون عليًّا للفتك بهم

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٨٢ ح ٦٨٧، ونهج السعادة: ٨/ ٧٤.

والتسلّط على ما في يدهم كما فعله بحسّان بن حسّان البركي عامل عليّ عليه السلام على أنبار، وربما يشعر قوله عليه السلام **(واقمع به نخوة الأثيم)** على الوجه الثاني كما أنّ قوله عليه السلام **(لهاة الثغر المخوف)** لا يخلو من إيماء إلى ذلك فإنّ الثغور الداخليّة حينئذٍ كانت أخوف من الثغور الخارجيّة المجاورة مع الكفّار، وقد ارتكب معاوية أيّام الهدنة المضروبة طيلة سنة في قضيّة الحكمين من العيث والفساد في نواحي العراق والحجاز ما لا يرتكبه الكفّار في الثغور الإسلاميّة الخارجيّة.

وقد أمر عليّ عليه السلام عامله على محافظة أُمور ثلاثة:

١ ـ الإعانة على إقامة الدين الذي هو برنامج تربية المسلمين مادّةً ومعناً.

٢ ـ قمع العصاة والمخالفين الذين يريدون الفساد والإفساد في حوزة المسلمين.

٣ ـ المراقبة على الثغر الإسلامي والدفاع عن هجوم الأعداء، وأمر عامله بالاستعانة على ما يهمّه من الله تعالى والاستمداد من سياسة ذات جهتين مخلوطة ومركّبة من الرفق والشدّة واللين والضغط، بحسب ما يعترضه من الحوادث والعوارض تجاه العدوّ والمخالف، فإنّ مدار التدبير والسياسة على الانذار والتبشير والإحسان والتقتير كما قال الشاعر:

فوضع الندى في موضع السيف بالعلا مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ووصّاه في معاملته مع الرعايا المطيعين بمراعاة أربعة أُمور:

١ ـ التواضع لهم وخفض الجناح تجاههم لحفظ حرمتهم وعدم إظهار الكبرياء في وجوههم كما أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله في السلوك مع المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

٢ ـ لقائهم بالبشر والبشاشة والفرح للدلالة على مودّتهم ولتحكيم الرابطة الأخوية معهم.

٣ ـ الاستئناس بهم والتلطف معهم ليطمئنوا برحمة الحكومة ويخلصوا لها إيمانهم بها.

٤ ـ المواساة بينهم ورفع التبعيض بحيث ينسلكون في نظم الأُخوَّة الإسلامية كملاً، ولا يطمع العظماء وأرباب الثروة والنفوذ في سوء الاستفادة من الحاكم في الظلم على الضعفاء، ولا ييأس الضعفاء من عدل الحاكم والشكاية عن الظالم.

الترجمة

در نامه ای به یکی از کارگزاران خود چنین می نویسد:

امّا بعد، تو یکی از کسانی هستی که من برای پایدار کردن دین بدانها پشت گرم هستم و سربزرگی گنهکار را بهوسیله آنها می گویم و مرز معرض هجوم و بیمناك را مسدود می سازم. از خدا در کارهایی که به عهده تو است یاری بجو، سخت گیری را با اندکی نرمش درآمیز، تا آن جا که نرمش برای پیشرفت کارت هموارتر است نرمش کن و چون جز سخت گیری چاره ای نماند بر دشمن سخت گیر.

دربرابر رعیّت فرمانبر تواضع پیشه کن و بزرگی بدانهامفروش، با خوشرویی با آنها روبرو شو و آنان را به خود راه بده و مأنوس کن و مساوات و برابری کامل را میان آنها رعایت کن تا آن جا که نگاه و توجّه و اشاره و درود را میان همه پخش کنی و برابری را رعایت کنی تا آن که بزرگان و ارباب نفوذ در طرفداری و ستم تو طمع نورزند و بهوسیله تقرّب به تو بر دیگران ستم نکنند و بینوایان از عدالت و دادخواهیت نومید نگردند و از شکایت ستمکاران دم درنبندند.

المختار السادس والأربعون
ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام
لما ضربه ابن ملجم لعنه الله

«أُوصيكُما بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَنْ لا تَبْغِيَا الدُّنْيا وَإِنْ بَغَتْكُما، وَلا تَأْسَفا عَلَى شَيْءٍ مِنْها زُوِيَ عَنكُما، وَقُولا بِالْحَقِّ، وَاعْمَلا للأجْرِ، وَكُونا للظّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصيكُما وَجَمِيعَ وَلَدي وَأَهْلي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتابي بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلاحِ ذاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنّي سَمِعْتُ جَدَّكُما صلى الله عليه وآله يَقُولُ: صَلاحُ ذاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عامَّةِ الصَّلاةِ وَالصِّيامِ.

اللَّهَ اللَّهَ في الأَيْتام، فَلا تُغِبُّوا أَفْواهَهُمْ، وَلا يَضيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ وَاللَّهَ اللَّهَ في جيرانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ، ما زالَ يُوصي بِهِمْ حَتّى ظَنَنا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ، وَاللَّهَ اللَّهَ في الْقُرْآنِ، لا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ وَاللَّهِ اللَّهَ في الصَّلاةِ فَإِنَّها عُمُودُ دِينِكُمْ، وَاللَّهَ اللَّهَ في بَيْتِ رَبِّكُمْ، لا تُخْلوهُ ما بَقيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُناظَرُوا، وَاللَّهَ اللَّهَ في الْجِهادِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ في سَبيلِ اللَّهِ، وَعَلَيْكُمْ بِالتَّواصُلِ وَالتَّباذُلِ وَإِيّاكُمْ وَالتَّدابُرَ وَالتَّقاطُعَ، لا تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيُوَلّى عَلَيْكُمْ أَشْرارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلا يُسْتَجابُ لَكُمْ.

ثُمَّ قالَ: يا بَني عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضونَ دِماءَ الْمُسْلِمينَ خَوْضاً تَقُولُونَ: قُتِلَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ، قُتِلَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ، أَلا لاَ تَقْتُلُنَّ بي إِلاَّ قاتِلي.

انْظُروا إِذا أَنا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ وَلا يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ فَإِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «إِيّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[1]».

اللغة

(لا تبغيا): لا تطلبا، **(زوى عنكما)**: قبض عنكما، **(صلاح ذات البين)**: الصلح بينكم وترك الخصومة **(وذات)** هاهنا زائدة مقحمة، **(لا تغبّوا أفواههم)**: لا تطعموهم يوماً بعد يوم فتجيعوهم، **(لم تناظروا)**: عجّل لكم البلاء والاستيصال، **(المثلة)**: قطع الأعضاء.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٦/ ١٥٠، ووسائل الشيعة: ٢٩/ ١٢٨ ح ٣٥٣١٦.

الإعراب

(الله الله): منصوب على التحذير أي اتّقوا الله، (إيّاكم والتدابرّ): مفعول لمحذوف على التحذير.

المعنى

هذه وصيّة عامّة لأهل بيته وغيرهم من المسلمين نظمها في اثنتي عشرة مادّة وقدَّم عليها وصيّة خاصّة لولديه الحسن والحسين عليهما السلام في ستِّ موادّ تالية:

١ ـ ملازمة التقوى. ٢ ـ ترك طلب الدنيا وإن أقبلت. ٣ ـ ترك التأسّف على فوت أمور الدنيا مهما كانت. ٤ ـ ملازمة القول بالحقّ. ٥ ـ العمل للثواب وإدراك أجر الآخرة. ٦ ـ الخصومة مع الظالم وعون المظلوم للدِّفاع عنه.

وأمّا وصاياه العامّة:

١ ـ ملازمة التقوى.

٢ ـ التزام النظم في كلِّ الأمور، فإنَّ عدم رعاية النظم يوجب عدم الوصول إلى المآرب والحوائج.

٣ ـ إصلاح ذات البين وترك الخصومة والنزاع والنفاق.

٤ ـ رعاية الأيتام في حفظ مالهم وتغذيتهم وتربيتهم وهو الغير البالغ الذي فقد أباه، قال الشارح المعتزلي: والظاهر أنّه لا يعني الأيتام الذين لهم مال تحت أيدي أوصيائهم، لأنَّ أولئك الأوصياء محرَّم عليهم أن يصيبوا من أموال اليتامى إلاّ القدر النزر جدًّا عند الضرورة ثمَّ يقضونه مع التمكّن، ومن هذه حاله لا يحسن أن يقال له: لا تغيروا أفواه أيتامكم، وإنّما الأظهر أنه يعني الذين مات آباؤهم، وهم فقراء يتعيّن مواساتهم، ويقبح القعود عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨] واليتم في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأمّ ـ إلى أن قال ـ ولا يسمّى الصبيُّ يتيماً إلاّ إذاكان دون البلوغ وإذا بلغ زال اسم اليتم عنه، واليتامى أحد الأصناف الذين عيّنوا في الخمس بنصِّ الكتاب العزيز.

٥ ـ رعاية الجيران، فإنَّ الجار بمنزلة الملتجيء المأمون بالنسبة إلى جاره ومن حقّه كفُّ السوء عنه والإحسان والإعانة بالنسبة إليه، وأبلغ ما روي في حق الجار ما حدَّثه عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله من قوله **(ما زال يوصي بهم حتّى ظننّا أنّه سيورّثهم)**[1].

---

(١) الكافي: ٧/ ٥١، وتحف العقول: ١٩٨.

قال في الشرح المعتزلي: واللفظ الذي ذكره عليه السلام قد ورد مرفوعاً في رواية عبد الله بن عمر لمّا ذبح شاة، فقال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه»[1].

وفي الحديث أنَّ حسن الجوار وصلة الرحم يعمران الديار ويزيدان في الأعمار.

وقد ورد في ذمّ جار السوء أخبار وآثار كثيرة.

٦ ـ ملازمة القرآن تعليماً وتعلّماً وملازمة العمل به وبأحكامه، وقد حذّر عليه السلام من المسامحة في ذلك إلى حيث يسبق غير المسلمين عليهم في العمل به كما نشاهده الآن من عمل غير المسلمين بأحكام العامّة من الصدق والتعاون والجدّ في العمل حتّى تقدّموا على المسلمين في كثير من الأمور.

٧ ـ ملازمة إقامة الصلاة بالجمعة والجماعة كما هي سنّة الرسول صلى الله عليه وآله، فإنّها بهذه الكيفيّة عمود الدين وملاك تربية المسلمين وجمعهم وتأليف قلوبهم ووحدتهم.

٨ ـ ملازمة إقامة شعائر الحجّ في كلّ سنة، ليجتمع جميع المسلمين في هذا المعبد الإسلامي العامّ فيتعارفون ويتعاونون ويشدُّ بعضهم إزر بعض، فإنَّ الحجَّ عمود الاجتماع الإسلامي، فلو ترك تنثلم الوحدة الإسلاميّة ولا يناظر المسلمون.

٩ ـ الجهاد بالمال والنفس واللسان، فإنّه واجب على كلّ حال بحسب ما اقتضاه الأحوال.

١٠ ـ التواصل وحفظ الرابطة مع الإخوان المسلمين في شتّى البلاد الإسلاميّة وبذل العون بالمال والحال بعضهم مع بعض.

١١ ـ ترك التدابر والهجر والقطيعة فإنّه يوجب المقت والعداوة وسوء الظنّ والتخاذل.

١٢ ـ ملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لردع الأشرار عن أعمالهم السوء وقيام الأبرار بإجراء الأمور النافعة للعامّة والأمّة، فإنَّ التسامح فيهما يوجب تسلّط الأشرار والاستيلاء على موارد القدرة والثروة في الجامعة الإسلاميّة ويؤثّر الدعاء في دفعهم لتقصير المسلمين وجرّهم البلاء على أنفسهم.

ثمَّ وصّى عشيرته بالاكتفاء بالقصاص عن القاتل وعدم الأخذ بالظنّ والتهمة وعدم الانتقام من سائر الأمّة وإن كانوا أعداءاً وعدم التجاوز على الجاني دون ضربة ارتكبها في قتله.

---

(١) دعائم الإسلام: ٢/ ٨٨، ومن لا يحضره الفقيه: ٤/ ١٣.

الترجمة

چون ابن ملجم ملعون ضربت بر سر آن حضرت زد به حسن و حسين(عليهما السلام)چنين وصيّت كرد:

من به شما وصيّت مى كنم كه پرهيزكار باشيد و به دنبال دنيا نرويد و گرچه دنيا به دنبال شما آيد، به هرچه از دنيا كه از دست شما به در رفت افسوس مخوريد، حق بگوييد، براى ثواب آخرت كار نكنيد، دشمن ظالم باشيد و كمك كار مظلوم.

من به شما و همه فرزندان و خاندانم و به هركس اين نامه من بدو رسد وصيّت مى كنم كه:

تقوا پيشه سازيد و كارهاى خود را منظم داريد و با هم خوب باشيد و خوب رفتار كنيد زيرا از جدّ شما (ﷺ) شنيدم كه مى فرمود: صلح و صلاح ميان مسلمانان بهتر است از همه گونه نماز و روزه.

خدارا، خدا را درباره كودكان پدرمرده، مبادا آن ها را گرسنه بگذاريد و درحضور شما از ميان بروند و نابود گردند.

خدا را، خدا را درباره همسايه هاى شما كه مورد سفارش پيمبر شمايند پيوسته درباره آنان سفارش مى كرد تا آن جا كه پنداشتيم سهمى از ارث برايشان مقرّر خواهد داشت.

خدا را، خدا را درباره قرآن، مبادا ديگران در عمل بدان بر شما پيش دستى كنند.

خدا را، خدا را درباره نماز كه ستون دين شما است.

خدا را، خدا را درباره خانه پروردگارتان كعبه معظّمه، تا زنده ايد آن را وانگذاريد زيرا اگر متروك گردد مهلت نخواهيد يافت.

خدا را، خدا را درباره جهاد با مال و جان و زبانتان در راه خدا.

بر شما باد که با هم پیوسته باشید و به هم بخشش کنید، مبادا به هم پشت کنید و از هم ببرید، امر به معروف و نهی از منکر را از دست ندهید که بدان شما بر شما حکمران گردند و سپس هر چه دعا کنید پذیرفته نباشد و به اجابت نرسد، سپس فرمود: ای زادگان عبدالمطلب و هاشمیّین، شما را فتنه جو و خون ریز نیابم که دست به خون مسلمانان بیالایید و بگویید: امیرالمؤمنین را کشتند، امیرالمؤمنین را کشتند، "چنانچه معاویه خون عثمان را بهانه کرد و به قتل و غارت مسلمانان پرداخت" نباید به خاطر کشتن من جز کشنده مرا بکشید.

متوجّه باشید اگر من بر اثر این ضربت ابن ملجم کشته شدم و وفات کردم از او با یك ضربت قصاص کنید، مبادا آن مرد را مثله کنید و دست و پایش را ببرید، زیرا من خود از رسول خدا (ﷺ) شنیدم که می فرمود: بپرهیزید از مثله گرچه نسبت به یك سگ گزنده باشد.

المختار السابع والأربعون من كتبه عليه السلام
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

«وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يوتِغانِ [يُذيعانِ] بِالْمَرْءِ في دينِهِ وَدُنْياهُ وَيُبْدِيانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعيبُهُ، وَقَدْ عَلِمتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ ما قُضِيَ فَواتُهُ وَقَدْ رامَ أَقْوامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَوَّلُوا عَلَى اللّهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ [يُغْبَطُ] فيهِ مَنْ أَحْمَدَ عاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطانَ مِنْ قِيادِهِ فَلَمْ يُجاذِبْهُ.

وَقَدْ دَعَوْتَنا إِلى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنا إِيّاكَ أَجَبْنا، وَلكِنّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ في حُكْمِهِ، وَالسَّلامُ»[١].

اللغة

(الزور): خلاف الحقّ ويطلق كثيراً على الشهادة الكاذبة، **(يوتغان)**: يهلكان، والوتغ بالتحريك الهلاك، وقد وتغ يوتَغ وتغاً: أي أثم وهلك، **(رام)**: طلب، **(فتأوّلوا)**: التأويل: حمل الكلام على خلاف ما قصد منه في الظاهر أو حمل المجمل على أحد محتملاته، وفي الشرح المعتزلي: فتألوا، أي خلفوا.

المعنى

قال ابن ميثم: هذا الفصل من كتاب له إليه بعد التحكيم وتمسّك معاوية بما حكم به الحكمان ويحتمل أن يكون عند إجابته إلى التحكيم.

أقول: صدر عنه عليه السلام هذا الكتاب في مبتدأ حكومة معاوية واستقرار سلطته الظالمة على ناحية كبيرة من البلدان الإسلاميّة المتعقّبة لتسلّطه على سائر البلاد، وبيّن أنّ مبنى حكومته البغي وهو خروجه عن إطاعة الحكومة الحقّة الإسلاميّة وعدم إطاعته عن أمير المؤمنين عليه السلام وإيجاده الفوضى في بلاد الشام وإغوائه لأهلها مؤيّداً بالزور والبهتان الذي تمسّك به من الطلب بدم عثمان وتعاون أتباعه معه باتّهام عليّ عليه السلام بقتله أو معاونته في ذلك، ونبّهه على أنّ الحكومة المتكسبة بهذين العاملين توجب هلاكه في الدين والدنيا وتبدي

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ٢٧٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٠٨ ح ٥٥٨.

مساويه عند أهل النقد وأهل البصيرة في مسير التاريخ، وأشار إلى أنّه لا ينال ما رامه وما قصد إليه من تقمّصه بخلافةٍ وامارةٍ ظاهرة الصلاح عند كافّة المسلمين كحكومة الأوّل والثاني وأنّ المسلمين يتنفّرون عنه لمساويء أعماله، أو المقصود أنّه لا يدرك ثأر عثمان عمّن قتله، أو المراد أنّه لا يدرك إثبات تهمة عليّ عليه السلام بدم عثمان لأنّه زور وبهتان معلوم عند المسلمين.

ثمّ بيّن أنّ أناساً ممّن يؤيّدونه يطلبون السلطنة والأمارة بغير حقّ فتحالفوا على الله على ذلك فكذبهم، والظاهر أنّ المقصود من هؤلاء الأقوام طلحة والزبير وأشياعهما ممّن حضر البصرة وأثاروا حرب الجمل فكذبهم الله بانهزامهم وفشلهم، وحذّر بهذا التذكر معاوية وخوّفه من سوء عاقبته وأفاد عليه السلام أنّ الشيطان قائده، فلا بد له من المقاومة تجاهَ الشيطان حتّى لا يندمَ من سوء عاقبته.

ثمّ أشار إلى أنّ دعوة معاوية إلى حكم القرآن كانت خدعة منه وأنّه لا يعتقد بالقرآن ولا يكون من أهله وأنّ أمير المؤمنين وشيعته لم يوافقوا على إجابته وإنّما وافقوا على إجابة حكم القرآن في أمر الإمامة والخلافة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وحكمه إقرار خلافة عليّ عليه السلام لنصوص خاصة وعامّة تعين إمامته بعد النبيّ صلى الله عليه وآله من الآيات الدالة على إمامته.

قال ابن ميثم: قوله: وقد دعوتنا ـ إلى آخره صورة سؤاله والجواب عنه، وكون ليس من أهله إذ لم يكن صالحاً للإمامة كما سبق بيانه مراراً، وحيث لم يكن أهلاً لأن يجاب إلى الرضا بالتحكيم أعلمه بذلك وأنه إنما أجاب القرآن إلى حكمه وذلك في قوله تعالى في حقّ الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] الآية، فجعل هذا أصلاً وقاس عليه بالطريق الأولى حال الأمّة عند وقوع الشقاق بينهم، وبعين ذلك احتجّ ابن عباس رضي الله عنه على الخوارج حيث أنكروا التحكيم فقالوا: كيف يجوز لعليٍّ أن يحكّم في دين الله الرجال؟ فقال لهم: إن ذلك ليس بأمر عليّ وإنما هو بأمر من الله تعالى في كتابه، إذ يقول في حقّ الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الآية أفترون أنّه أمر تعالى بذلك في حقّ الرّجل وامرأته مراعاة لمصلحتهما ولا يأمر بذلك في حقِّ الأُمّة رعياً لمصلحتهم؟ فرجع كثير منهم إلى قوله، وبالله التوفيق.

أقول: وفي كلامه هذا موارد من النظر:

١ ـ أنّ مفاد قوله عليه السلام **(ولكنّا أجبنا القرآن في حكمه)** ليس الإجابة إلى الدّعوة بالتحكيم في أمر الإمامة على وجه عرضه معاوية، فإنّ الإمامة تشريع إلهي لا يناله رأي البشر، بل المراد الإجابة إلى حكم القرآن في تعيين أمر الإمامة وبيان أوصاف الإمام ممّا ينطبق عليه عليه السلام.

٢ ـ أنّه عليه السلام لم يرض بالتحكيم وإنّما أكرهوه على ذلك فسكت عمّا يطلبه ذوو البأس من جنده حفظاً لدماء أهله وخصوصاً الحسن والحسين عليهما السلام منهم حيث أنّهما إمامان بعده ولا بدّ من بقائهما وتحمّلهما أمر الإمامة على ما قرّره النّبيُّ صلى الله عليه وآله، وقد أوضح عليه السلام ذلك فيما أجاب به رأس اليهود في مصاحبته معه عليه السلام بعد المراجعة من صفّين، كما ذكره الشّيخ الصّدوق رحمه الله في الباب الرّابعة عشر من الخصال في ضمن ما يلي به من الامتحان والابتلاء في زمان حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وبعد مماته، فأُكره عليه السلام على التحكيم أوّلاً وعلى انتخاب أبي موسى الأشعري حكماً ثانياً.

٣ ـ أنَّ قياس الحكميّة في أمر الإمامة بالحكميّة في اختلاف الزّوجين قياس مع الفارق من وجوه شتّى، فإنَّ الاختلاف بين الزّوجين يرجع إلى حقوقهما الخاصّة بهما، ولهما الحقّ على إسقاطها والطلب بها والتراضي عليها بكلّ وجه ولكن أمر الإمامة حقّ إلهيّ ولا مدخل للرأي والنظر من النّاس فيها، ويرجع إلى كافّة الرّعيّة فكيف يصحّ تحكيم جمع أو أفراد فيه، وما نقله عن ابن عبّاس لا يصحّ إلاّ على وجه الجدال بالأحسن والاحتجاج على الخصم بما يلتزم به دحضاً لشبهته ودفعاً لتهمته وإرجاعاً له إلى الحقّ بأيّ وجه تيسّر، وإلاّ فآية التحكيم بين الزّوجين بمعزل عن الإمامة والخلافة خصوصاً على ما التزم به الإماميّة من أنها لا يثبت إلاّ بالنّص من المعصوم في حقّ إمام معصوم.

الترجمة

از يك نامه اى كه به معاويه نگاشته است:

و راستى كه شورش بر حكومت و گفتار دروغ مرد را در ورطه هلاكت دين و دنيا اندازند و كم و كاستى او را نزد تيزبينان و عيب جويان هويدا سازند.

تو به خوبى مى دانى كه آن چه به حكم قضاى حتمى از دست رفته به دست نتوانى آورد، مردمى بنا حق دنبال كارى و مقامى ناشايست آنها رفتند و با هم بر خداوند هم سوگند شدند و خداوند دروغ آنها را فاش ساخت.

برحذر باش از روزى كه بر هر كه سرانجامش ستوده و رضايت بخش است رشك برند و هركس شيطانش مهار كشيده و در برابرش مقاومتى نكرده و دنبال او رفته پشيمان است و افسوس مى خورد.

تو ما را به حكم قرآن دعوت كردى با اين كه اهل آن نبودى و ما هم پاسخ گو و پذيراى دعوت تو نبوديم ولى قرآن را در حكم و فرمانش پذيرا هستيم؛ والسّلام.

المختار الثامن والأربعون من كتبه عليه السلام
ومن كتاب له عليه السلام إلى غيره [إلى معاوية أيضاً]

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنيا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِها، ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها ولَهَجاً بها، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُها بِما نالَ فيها عَمّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنها، وَمِنْ وَراءِ ذٰلِكَ فِراقُ ما جَمَعَ، ونَقْضُ ما أَبْرَمَ! وَلَو اعْتَبَرْتَ بِما مَضى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلامُ»[1].

اللغة

(اللّهج): الحرص الشّديد.

المعنى

قال الشارح المعتزلي: وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب قائلاً:

إنَّ أميرِ المؤمنين عليه السلام كتبه إلى عمرو بن العاص، وزاد فيه زيادة لم يذكرها الرَّضي: «أمّا بعد، فإنَّ الدُّنيا مشغلةٌ عن الآخرة، وصاحبها منهوم عليها، لم يصب شيئاً منها قطّ إلاّ فتحت عليه حرصاً، وادخلت عليه مؤنة تزيده رغبةً فيها ولن يستغنى صاحبها بما نال عمّا لم يدرك، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسّعيد من وعظ بغيره، فلا تحبط أجرك أبا عبد الله ولا تشرك معاوية، في باطله، فإنَّ معاوية غمص النّاس وسفه الحقّ، والسّلام»[2].

قال نصر: وهذا أوّل كتاب كتبه عليّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص فكتب إليه عمرو جوابه:

أمّا بعد، فإنَّ الذي فيه صلاحنا، وألفة ذات بيننا، أن تنيب إلى الحقّ، وأن تجيب إلى ما ندعوكم إليه من الشّورى، فصبر الرّجل منّا نفسه على الحقّ، وعذره النّاس بالمحاجزة، والسّلام.

قال نصر بن مزاحم: فكتب عليّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتاباً غليظاً وهو الذي ضرب مثله فيه بالكلب يتبع الرَّجل، وهو مذكور في نهج البلاغة.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٨٣ ح ٦٨٨، ومستدرك سفينة البحار: ٣/ ٣٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٠٢، والغدير: ١٠/ ١٥٢ ح ٢٦.

أقول: ما ذكره عن نصر بن مزاحم صريح في أنَّ هذا الكتاب موجّه إلى غير معاوية وتذكّر بالغ لعمرو بن عاصم في الرجوع عن غيّه وهربه عن حبالة معاوية فإنّه عليه السلام نبّه على أنَّ مشغلة الإنسان على وجهين:

١ ـ المشغلة الروحانية والهدف الإنساني المجرّد عن الأميال المادّية وهي التقرّب إلى الله وتحصيل رضاه لأداء شكره ورسم العبوديّة تجاه عظمته ثمَّ طلب رضوان الله ونيل المثوبات الأخرويّة ومنها رعاية الوجهة الملكيّة والسّماويّة الرّاجعة إلى الرُّوح الإنسانيّة التي هي من عالم القدس والتجرّد، ورعاية الأخلاق السامية البشريّة من طلب العلم والمعرفة وكشف الحقائق الكونيّة ورموز أنوار الوجود المطلق.

٢ ـ المشغلة الدُّنيويّة الشاملة لما فيها من الأُمور المادّية المتنوّعة كالمال والجمال والجاه والأنانيّة وكلّما يرجع إلى الغرائز الحيوانيّة من الملاذِّ والشّهوات والمكاره والأسفات التي منشأها كلتا القوّتين الشهويّة والغضبيّة، فبيّن عليه السلام أنَّ ما رامه مخاطبه بهذا الكتاب سواء كان عمرو بن عاص كما نصَّ عليه نصر بن مزاحم أو معاوية أو غيرهما ممّن يتبعهما محبّ للدُّنيا وشؤونها من الثّروة والقدرة والجاه، وبيّن أنَّ الدُّنيا مشغلة موبقة ومهلكة للشاغل بها وللطالب لها لأنَّ صاحب الدُّنيا كشارب الماء المالح كلّما ازداد شرباً ازداد عطشاً، وكالمبتلى بمرض الاستسقاء لا يرتوي من شرب الماء.

قال الشارح المعتزلي: «والأصل في هذا قول الله تعالى «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب» وهذا من القرآن الذي رفع ونسخت تلاوته»[1].

مضافاً إلى أنَّ للدُّنيا شؤون وحوائج لا تحصى ولا يؤثر نيل شأن من شؤونها أو قضاء حاجة من حوائجها عن سائر الشؤون والحوائج. بل كلّما نال طالبها حاجة من حوائجها وشأناً من شؤونها ازداد حوائج أُخرى، فمن نال ثروتها يحتاج إلى حفظة يحفظونها ومخازن تحتويها، ومن نال جاهها وملوكيتها تحتاج إلى خدم وجند وأعوان، ثمَّ بيّن أنّه من نال شيئاً منها فلا يبقى له بل يفارقه وينقطع منه إمّا بفناء ما ناله وزواله وهلاكه، وإمّا بموت صاحبه وطالبه، وعبّر عن الجامع بين الوجهين بقوله **(ومن وراء ذلك فراق ما جمع ونقض ما أبرم)**.

(١) شرح النهج: ٢٠/ ١٧٤، ورياض الصالحين: ٧٣.

الترجمة

امّا بعد، به راستی که دنیا از هرآن چه جز خودش باز دارنده است، دنیادار به چیزی از آن دست نیابد جز آن که آزش بر آن بیفزاید و دلش بیشتر در بند آن باشد و هرگز دنیادار به هرآن چه که از آن به دست آرد بی نیاز نگردد از آن چه را که بدان دست نیافته است.

و در دنبال آن همه جدا شدن از هر آن چه است که فراهم آورده و شکست هرآن چه است که محکم ساخته و اگر تو از آن چه گذشته است عبرت پذیر باشی آن چه را که از عمر و فرصت برایت به جا است غنیمت شماری و نگهداری؛ والسّلام.

المختار التاسع والأربعون من كتبه عليه السلام
ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيوش

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَليِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ إِلى أَصْحابِ الْمَسالِحِ:

أَمّا بَعْدُ فَإِنَّ حَقًّا عَلى الْوالي أَنْ لا يُغَيِّرُهُ عَلى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نالَهُ، وَلا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزيدَهُ ما قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبادِهِ، وَعَطْفاً عَلى إِخْوانِهِ.

أَلا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدي أَنْ لا أَحتَجِزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلاّ في حَرْبٍ، وَلا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلاّ في حُكْمٍ، وَلا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدي في الْحَقِّ سَواءً، فَإِذا فَعَلْتُ ذلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلي عَلَيْكُمُ الطّاعَةُ، وَأَنْ لا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلا تُفَرِّطُوا في صَلاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَراتِ إِلى الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقيمُوا لي عَلى ذلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنْ اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلا يَجِدُ عِنْدي فيها رُخْصَةً، فَخُذُوا هذا مِنْ أُمَرائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ما يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ، وَالسَّلامُ»[١].

اللغة

(أصحاب المسالح): جماعات تكون بالثغر يحمون البيضة، والمسلحة هي الثغر، كالمرغبة، **(لا أحتجز)**: لا أستر، **(لا تنكصوا)**: لا ترجعوا أي لا تردّوا الدّعوة، **(الغمرة)**: اللّجة من البحر يغرق من وقع فيه.

الإعراب

(أن لا يغيّره): تركيب من لفظة **(أن)** الناصبة مع **(لاء)** النافية، و**(فضل)** فاعل لقوله يغيّره، والجملة خبر فإنَّ، **(وأن يزيده)**: عطف على قوله: **(أن لا يغيّره)**، وهو خبر لقوله **(فإنّ)** أيضاً، **(دنوّاً من عباده)**: مفعول ثان لقوله **(يزيده)**.

المعنى

كتابه هذا إلى أُمراء الجيوش، أوّل مصدر تشريعيّ وسند قانونيّ للنظام العسكري في

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٦٩ ح ٦٨٢، ونهج السعادة: ٤/ ٢٣٠.

الدّولة الإسلاميّة الفنيّة يبيّن فيه الحقوق والنظامات بين الوالي وهو مقام الرآسة المطلقة للقوى المسلحة في الحكومة مع الأمراء والضّباط والقوّاد الذين بيدهم الأمر في الحرب والسّلم، وتعرض في هذا الكتاب للرابطة بين الوالي والأمراء وهم الطبقة الأولى وأصحاب الدرجة العليا من المراتب العسكريّة المعبّر عنهم في هذا العصر بالفريق، ودونهم درجات ومراتب متنازلة إلى أن ينتهى إلى قائد عشرة، ومن بيان الرّابطة والحقوق المتبادلة بين الوالي وأمراء الجيوش تتّضح الحقوق والروابط بين الأمراء وسائر المأمورين والرّؤساء، وقد بنى الأمر في هذا المقام على أكمل درجات الديموقراطية العليا وهو سقوط الرتبة والمزيّة بين الوالي وأمراء الجيوش، وبيّن أنَّ هذا الفضل الذي ناله الوالي من ارتقائه إلى مقام الرآسة بأمر من الله أو بعلّة أخرى كانتخابه من طرف الرَّعيّة يلزم ألاّ يغيّره على الرَّعيّة ولا يثبت له درجة ومزيّة عليهم، بل لا بدّ وأن يزيده ما قسم الله له من نعمته دنوًّا من عباده وعطفاً على إخوانه فيكون بينهم كأحدهم، وقد كانت سيرته عليه السلام مع رعيّته هكذا طول أيّام أمارته وولايته، وهذه هي الدَّرجة العليا في الديموقراطية لم تبلغ النّظامات الديموقراطيّة البشرية إليها بعد.

ثمَّ التزم في مقام ولايته العليا لأمراء جيوشه بأمور أربعة:

١ ـ اشتراكهم معه في الاطلاع على إجراء كلّ أمر إلاّ في بعض الأسرار المتعلّقة بالحرب، فإنّه ربما يلزم إخفائه حتّى عن الأمراء، صيانة عن إفشائه قبل أوانه لئلا يطّلع عليه العدوّ، فكتمان الأسرار الحربية من مهام الأمور العسكريّة حتّى في هذه العصور، وقد اكتسب نظره هذا أهمّية في خلال القرون الماضية إلى هذا العصر، وقد اهتمّت الدّول الكبرى في إنشاء إدارات هامّة للتجسّس وكسب الاطلاع عن برامج أعدائهم في الحروب وعن سائر ما يتعلّق بها.

قال ابن ميثم: ويحتمل أن يكون ترك مشورتهم لأمرين:

أحدهما: أنَّ أكثرهم ربّما لا يختار الحرب، فلو توقّف على المشورة فيه لما استقام أمره بها، ولذلك كان كثيراً ما يحملهم على الجهاد ويتضجّر من تثاقلهم عليه وهم له كارهون كما سبق.

الثاني: أن يكتم ذل خوف انتشاره إلى العدوّ فيكون سبب استعداده وتأهّبه للحرب، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً إلى الحرب ورّى بغيره كما روي أنّه لما نوى غزاة بدر كتب للسريّة كتاباً وأمرهم أن يخرجوا من المدينة إلى صوب مكّة يومين أو ثلاثة أيام، ثمَّ ينظروا في الكتاب ويعملوا بما فيه. فلمّا ساروا المدَّة نظروا فيه فإذا هو يأمرهم فيه بالخروج إلى نخلة محمود وأن يفعلوا كذا وكذا ففعلوا وخرج النبيّ ﷺ خلفهم إلى بدر وكان الظّفر لهم ولو أعلمهم حين أمرهم بالخروج أنّه يسير إلى قريش لانتشر ذلك إلى قريش وكان

استعدادهم لهم أقوى، وجاز أن يكون ذلك أيضاً مانعاً لبعض الصحابة عن النّهوض خوفاً من أهل مكّة وشوكتهم.

أقول: في حمل كلامه هذا على ترك المشورة معهم نظر، فإنَّ اخفاء بعض الأُمور الحربيّة غير ترك المشورة، مع أنَّ حروبه في الجمل وصفّين ونهروان كان مع الشّوْر والاطلاع.

وأما ما ذكره من إخفائه صلوات الله عليه أمر بدر فلا يوافق ما ذكر ابن هشام في سيرته قال: في **(ص ٣٦٩ ج ١ ط مصر)** عن ابن عبّاس في حديث بدر قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم فقال: ها هي عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلَّ الله ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أنَّ رسول الله ﷺ يلقى حرباً[١].

نعم ذكر في غزوة تبوك ما يلي: أنَّ رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتّهيؤ لغزو الرّوم، وذلك في زمن عسرة من الناس وشدَّة من الحرّ وجدب من البلاء، وحين طابت الثمار، والنّاس يحبون في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشّخوص على الحال من الزّمان الذي هم عليه، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها وأخبر أنّه يريد غير الوجه الذي يصمد له إلاّ ما كان من غزوة تبوك فإنّه بيّنها للنّاس لبعد الشقة وشدَّة الزمان وكثرة العدوّ الذي يصمد له ليتأهّب النّاس لذلك أهبته فأمر النّاس بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الرّوم.

٢ ـ عدم استقلاله بإنجاز الأُمور وإجرائها ودعوتهم للشركة فيها إلاّ أن يكون ذلك الأمر حكماً إلهياً فإنّه لا مجال لاشتراك غيره معه في بيان الحكم الإلهي أو إنشاء حكم شرعي.

٣ ـ عدم تأخير حقوقهم عن محلّه ووقته وعدم التردّد فيه، بل ينفذه في وقته صريحاً سواء كان في عطايا بيت المال المقرّرة لهم أو غيرها ممّا يستحقونها.

٤ ـ عدم التبعيض فيما بينهم وعدم ترجيح بعضهم على بعض مع تساوي العمل والرّتبة لأغراض شخصيّة أو قبليّة أو ارتشاء أو استمالة وتوصية من ذوي النفوذ كما يرتكبه الولاة الغير العدول أو الولاة الظلمة فإنّهم يرجحّون من يستخدمهم في أغراضهم على غيرهم.

ثمَّ أعلمهم عليه السلام أنَّ مراعاة هذه الشروط يتمّ عليهم نعمة الولاية العادلة من الله تعالى فيلزم عليهم رعاية أُمور أربعة:

١ ـ الطّاعة في كلّ ما أمرهم من الوظائف وما وجّهه إليهم من الأوامر.

---

(١) الدر المنثور: ٣/١٦٨، والبداية والنهاية: ٣/٣١٣.

٢ ـ عدم ردّ دعوته في إجراء الأُمور وإنجازها وما يلزم في ذلك من عقد المؤامرات واللّجان المربوطة بها.

٣ ـ عدم التّقصير والتفريط في إظهار نظرات اصلاحيّة وارتكاب ما يلزم في صلاح أمر الأُمّة وحفظ وحدتها والألفة بين أفرادها وجماعاتها ليكونوا يداً واحدة على أعدائها.

٤ ـ أن يخوضوا الغمرات ويتحمّلوا الشّدائد ويجهدوا في تثبيت الحقّ ودحض الباطل.

ثمّ توجّه إلى تشريع المجازات على التخلّف بوجهين:

أ ـ إسقاط الرتب والدرجات عن المتخلّفين وإنزال المعوّجين عن درجاتهم فقال عليه‌السلام: **(فلم يكن أحد أهون عليَّ ممّن اعوجَّ منكم)**[1].

ب ـ تشديد العقوبة المقتضية للتخلّف وترك الانضباط والإطاعة وعدم الإرفاق بالمتخلّف.

فقد شرّع عليه‌السلام في كتابه هذا نظاماً عسكريًا وأعطى أُصولاً كلّياً فرّع عليه علماء الحقوق النظاميين قوانين شتّى يكون المدار على العمل بها في النظامات العسكريّة إلى عصرنا هذا.

الترجمة

از نامه ای كه به فرماندهان و افسران قشون خود نوشته است:

از طرف بنده خدا على بن ابى طالب اميرالمؤمنين به سرپرستان و فرماندهان مرزهاى اسلامى.

امّا بعد، به راستى بر شخص والى و فرمانده كلّ و رئيس ارتش لازم است كه فضيلت ولايت و فرمانروايى، مزاج برادرانه او را دگرگون نسازد نسبت به رعايا و زيردستانش و مقام شامخى كه مخصوص او است او را از امّت جدا نكند، بلكه اين نعمتى كه خداوندش نصيب كرده او را به بنده هايش نزديكتر سازد و بر برادران

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٧/١٦.

هم کیش او مهربانتر نماید، بدانید که شما را بر من این حقوق در عهده است:

١ . هیچ رازی را از شما کتمان نکنم و همه اطلاعات را در دسترس شما بگذارم و به شما گزارش دهم مگر راجع به اسرار جنگی باشد که کتمان آن لازم است.

٢ . هیچ امری را بی مشورت و مراجعه به شما انجام ندهم، مگر بیان حکم الهی باشد که مخصوص مقام خود من است.

٣ . هیچ یك از حقوق شماها را از موقع خود به تأخیر نیاندازم و دچار تردید و توقف نسازم.

٤ . تبعیضی میان شما قائل نشوم و همه را در حقوق و مزایا برابر به حساب آورم.

چون این شرایط و مقررات را رعایت کردم نعمت ولایت عدل الهی بر شما مسلّم گردیده است و شما هم باید چهار حق را نسبت به من رعایت کنید:

١ . فرمانبردار و طاعت گزار باشید.

٢ . دعوت مرا رد نکنید و از آن سرباز نزنید.

٣ . در صلاح و اصلاح امور کشور و ملّت تقصیر و کوتاهی رواندارید.

٤ . در اجرای حق نهایت بکوشید و خود را به آب و آتش بزنید تا حق مجری شود.

در خاتمه بدانید که اگر بر این مقررات پای بند نشوید و از آنها تخلّف ورزید هیچ کس نزد من خوارتر و زبون تر نیست از کسی که راه کج رفته در میان شماها و سپس مجازات و سزای او را سخت و بزرگ نمایم و تخفیف و گذشتی از آن رعایت نکنم این دستور را از فرماندهان خود بگیرید و خود را آماده کنید که وسیله صلاح کارهای خود باشید؛ والسّلام.

المختار الخمسون من كتبه عليه السلام
ومن كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ إِلى أَصْحابِ الْخَراجِ:

أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ ما هُوَ صائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ ما يُحْرِزُها، واعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ يَسيرٌ، وَأَنَّ ثَوابَهُ كَثيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فيما نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوانِ عِقابٌ يُخافُ، لَكانَ في ثَوابِ اجْتِنابِهِ ما لا عُذْرَ في تَرْكِ طَلَبِهِ، فَأَنْصِفُوا النّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاءُ الأُمَّةِ، وَسُفَراءُ الأَئِمَّةِ، وَلا تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حاجَتِهِ، وَلا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلا تَبيعُنَّ لِلنّاسِ في الْخَراجِ كِسْوَةَ شِتاءٍ وَلا صَيْفٍ وَلا دابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْها وَلا عَبْداً، وَلا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكانِ دِرْهَمٍ، وَلاَ تَمَسُّنَّ مالَ أَحَدٍ مِنَ النّاسِ مُصَلٍّ وَلا مُعاهِدٍ إِلاّ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلاحاً يُعْدى بِهِ عَلى أَهْلِ الإِسْلامِ فَإِنَّهُ لا يَنْبَغي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذلِكَ في أَيْدي أَعداءِ الإِسْلامِ فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ، وَلا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصيحَةً، وَلاَ الْجُنْدَ حُسْنَ سيرَةٍ، وَلاَ الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلا دينَ اللَّهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا في سَبيلِ اللَّهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِما بَلَغَتْ قُوَّتُنا، وَلا قُوَّةَ إِلاّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظيمِ»[1].

اللغة

(السفير): الرسول، **(حشمته)** واحتشمته بمعنى: أي أغضبته وأخجلته، **(الشوكة)**: القوّة، **(أبليته)**: أعطيته.

الإعراب

(عقاب): اسم لم يكن اخّر عن خبره، **(يخاف)**: فعل مبني للمفعول المستتر فيه والجملة صفة لقوله عقاب، **(ما لا عذر)**: **(ما)** نكرة موصوفة بما بعده وهو اسم مكان. **(لا تبيعُنَّ)**: نهي مؤكد بنون التأكيد الثقيلة، **(كسوة شتاءٍ)**: مفعول، **(اصطنع)**: افتعال من صنع أي أعطى، **(أن نشكره)**: بمنزلة المفعول له لقوله: **(اصطنع)** بحذف اللام أي لأن نشكره،

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٧٢، ونهج السعادة: ٤/ ٢٤٣.

قال في الشرح المعتزلي: وحذفها أكثر نحو قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠].

المعنى

قد نظّم عليه السلام في كتابه هذا الاقتصاد العمومي واعتمد في نظمه هذا على الإيمان والأخلاق، فإنَّ أكثر ما يصل إلى بيت المال في ذلك الزمان يجتمع من أموال الزكاة التي تتعلّق بالمسلمين فيما يجب عليه الزكاة من الغلاّت الأربعة والأنعام الثلاثة والذهب والفضّة المسكوكتين بشرائطها المقرَّرة في الفقه الإسلامي ومن أموال الخراج التي تؤخذ من أهل الذمّة والمعاهدين الذين يعملون في الأراضي المفتوحة عنوة، فإنَّ هذه الأراضي ينتقل إلى ملك المسلمين عموماً فتسلم إلى من يعمل فيها قبال سهمٍ من زراعتها أو مقدار معين من النقود والأوّل يسمّى بالمقاسمة والثاني بالخراج.

قال ابن هشام في سيرته **(ص ٢٤١ ج ٢ ط مصر)**: فأخبرني ابن هشام أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله افتتح خيبر عنوة بعد القتال وكانت خيبر ممّا أفاء الله عزَّ وجلَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وخمّسها رسول الله صلى الله عليه وآله وقسّمها بين المسلمين ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم وأقرّكم ما أقرّكم الله»[١]، فقبلوا فكانوا على ذلك يعملونها وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يبعث عبد الله بن رواحة فيقسّم ثمرها ويعدل عليهم في الخرص.

وقد نظّم أمر الخراج في البلاد التي استولى عليه المسلمون بعد ذلك من بلاد الرُّوم وفارس، وقد بعث عمر أيّام حكومته عبد الله بن مسعود وحذيفة بن يمان لمساحة الأراضي العامرة في العراق وضرب الخراج فحسبوها ثلاثين ألف ألف جريب من مزارع الحنطة والشعير والنخل فضربوا على كلِّ جريبٍ من النخيل ثمانية دراهم ومن الحنطة درهمين ومن الشعير أقلّ من ذلك، فكان الخراج يبلغ مائة وسبعون ألف ألف درهم، وكانت مهمّة الحكومة الإسلاميّة تحصيل هذا الخراج وحفظه وإيصاله إلى موارده ومصارفه، فكان عمّال الخراج من عمد النظام في عالم الإسلام، وكان يعتمد على تقواهم ودينهم في ذلك وقد نبّههم عليه السلام على ذلك وحذّرهم من الخيانة والتسامح في أموال المسلمين فابتدأ كلامه بقوله.

(فإنَّ من لم يحذر ما هو سائر إليه، لم يقدّم لنفسه ما يحرزها) أشار إلى أنَّ المسير هو الموت ولقاء الله العالم بكلّ خفيّة وخائنة فمن اهتمّه أمر نفسه فلا بد من الحذر من موارد

---

(١) البداية والنهاية: ٤/٢٤٩، وسيرة النبي صلى الله عليه وآله: ٣/٨١٦.

الهلكة والعقاب، ونبّه على أنَّ اشتغالهم بأمر الخراج لا بدَّ وأن يكون باعتبار إطاعة الله وليّة فيما يلزم عليهم ويكون في عهدتهم لا باعتبار ما ينالونه من الأجرة الماليّة في هذا العمل بما هو حلال لهم، فقال عليه السلام: **(ما كلّفتم يسير وإنَّ ثوابه كثير)** وأكّد ذلك بقوله: **(لو لم يكن فيما نهى الله عنه من البغي والعدوان عقاب يخاف، لكان في ثواب اجتنابه ما لا عذرَ في ترك طلبه)**.

ثمَّ حرَّضهم على رعاية العدل والانصاف في أخذ الخراج وإيصاله إلى مصارفه، قال ابن هشام في سيرته **(ص ٢٣٩ ج ٢ ط مصر)**: فكان رسول الله ﷺ ـ كما حدَّثني عبد الله بن أبي بكر ـ يبعث إلى أهل خيبر عبد الله بن رواحة خارصاً بين المسلمين واليهود فيخرص عليهم فإذا قالوا: تعدَّيت علينا قال: إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا فتقول اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض.

ثمَّ وصف عمّال الخراج بألقاب شامخة ثلاثة:

١ ـ جعلهم خزّان الرَّعيّة فيلزم عليهم رعاية الأمانة وترك الخيانة.

٢ ـ جعلهم وكلاء الأُمّة فلا بدَّ لهم من رعاية العدالة والمصلحة في ما حوّل إليهم من أمر الأُمّة.

٣ ـ جعلهم سفراء الأئمّة فلا بدَّ لهم من حفظ مقام سفارتهم برعاية الصحّة والأمانة في ما تحت أيديهم.

ثمَّ نهاهم عن إظهار الحشمة والهيبة تجاه الناس ليمنعوهم عن إظهار حوائجهم ويحبسوهم عن مطالبهم.

ثمَّ استثنى من الخراج لوازم المعيشة من اللباس ودوابّ العمل والعبد الخادم ونهى عن ضرب الناس في تحصيل الخراج وعن مصادرة أموالهم وإن كانوا كفّاراً في ذمّة الإسلام وعهده إلاّ أن يكون ممّا يعين به على مخالفة الإسلام وتقوية أعداء الإسلام من الفرس والسلاح فلا بدَّ من ضبطها لدفع مادَّة الفساد وحفظ الأمن في البلاد الإسلاميّة.

ثمَّ وصّاهم أُموراً أربعة:

١ ـ بذل النُّصح لأنفسهم.

٢ ـ وحسن السيرة مع الجنود الذين يُضحّون أنفسهم في سبيل تقوية الإسلام.

٣ ـ وإعانة الرعيّة فيما يقوّيهم على العمل والاكتساب لتوفير الفوائد ومزيد الدخل القومي.

٤ ـ تقوية الدين بالتبليغ والمواظبة على العمل بقوانينه.

ثمّ أمرهم بالجدّ في سبيل ما أوجب الله عليهم من التكاليف وضبط الخراج ورعاية الأمانة فيه لأداء شكر الله تعالى في قبال نعمة الإسلام والتسلّط على الأعداء وبلادهم ونعمهم.

الترجمة

از نامه ای که به کارمندان خراج نگاشت:

از طرف بنده خدا علی امیرمؤمنین به اصحاب خراج.

امّا بعد، هرکس از سرانجامی که بدان در حرکت است نهراسد برای خود پیش گیری لازم را مراعات نکرده است، بدانید این وظیفه ای که به شما واگذار شده اندك است و ثوابش بسیار است، اگر در ارتکاب آن چه خداوند از آن نهی کرده از ستمگری و تجاوز، عقوبتی بیمناك نبود همان درك ثواب اجتناب از آن برای قطع عذر در ترك اطاعت فرمان خدا بس بود.

از طرف خود نسبت به مردم انصاف را رعایت کنید و در برابر انجام حوائج و نیازمندی های آنان شکیبا باشید زیرا شماها خزانه داران رعیّت و وکلاء امّت و سفیران ائمّه هستید، هیچ کس را از نیازی که دارد گرفتار حشمت خود نسازید و او را از تقاضایش باز ندارید.

برای تحصیل خراج از مردم جامه تن آنها را چه تابستانی باشد و چه زمستانی نفروشید و حیوانی که وسیله کار آنها است از گاو و الاغ نفروشید و بنده و خدمتکار را هم به فروش نرسانید.

به خاطر یك در هم بدهی خراج، احدی را یك تازیانه نزنید، به مال احدی چه مسلمان باشد و چه کافر در پناه اسلام دست درازی نکنید، مگر این که اسب یا ساز و برگ جنگ باشد که وسیله تجاوز به اهل اسلام گردد که برای مسلمان نشاید که نیروی جنگی را در دست دشمنان اسلام وانهد و وسیله شوکت آنها در برابر مسلمانان گردد.

از نصیحت و اندرز خود دریغ نکنید و از خوشرفتاری با قشونی ها کوتاهی نکنید، از کمك به رعیّت خودداری ننمائید و از تقویت و تأیید دین خدا بازنایستید، در راه آن چه خدا بر شما واجب کرده تلاش کنید، زیرا خداوند به ما و شماها احسان کرده و نعمت بخشیده تا با همه کوشش خود شکر او را بگزاریم و تا آنجا که نیروی ما برسد او را یاری کنیم و جنبش و توانی نیست جز به خداوند والا و بزرگوار.

المختار الواحد والخمسون من كتبه عليه السلام
ومن كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة

«أَمّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنّاسِ الظُّهْرَ حَتّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِثْلَ مَرْبَضِ الْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضاءُ حَيَّةٌ في عُضْوٍ مِنَ النَّهارِ حينَ يُسارُ فيها فَرْسَخانِ، وَصَلُّوا بِهِمُ المَغْرِبَ حينَ يُفْطِرُ الصّائِمُ وَيُدْفَعُ الْحاجُّ إِلى مِنى، وَصَلوا بِهِمُ الْعِشاءَ حينَ يَتَوارى الشَّفَقُ إِلى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَداةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلاةَ أَضْعَفِهِمْ وَلا تَكُونُوا فَتّانينَ»[(١)].

اللغة

(مربض العنز): محلّ نوم الشاة طوله يقرب من ذراعين وعرضه يقرب من ذراع، **(ويدفع الحاجّ إلى منى)**: وقت الإفاضة من عرفات إلى منى وهو آخر يوم عرفة يبتدء من المغرب الشرعي، **(يتوارى الشفق)**: تزول الحمرة المغربيّة الحادثة بعد غروب الشمس، **(والرجل يعرف وجه صاحبه)**: أي إذا كانا تحت السماء ولم يكن غيم ولا مانع.

الإعراب

(صلّوا بالناس): **(الباء)** في قوله: بالناس، يشبه أن تكون للتعدية **(كالباء)** في ذهب به لأنَّ الإمام يوجد الصلاة في المأمومين بتصدّيه للإمامة كما أنَّ ذهب به ربما يستعمل في مقام تصدّى الفاعل لهداية الذاهب وإمامته في الذهاب، **(مثل مربض العنز)**: أي فيئاً مثل مربض العنز فحذف الموصوف وهو مفعول مطلق لقوله تفيء، **(والشمس بيضاء حيّة)**: مبتدأ وخبر والجملة حاليّة عن فاعل **(صلّوا)**، **(وفي عضو من النهار)**: ظرف مستقرّ خبر بعد خبر لقوله: **(والشمس)**، وكذلك قوله: **(حين يسار فيها فرسخان)**. ويمكن أن يكون ظرفاً لغواً متعلّقاً بقوله: **(صلّوا)**، وقوله: **(حين يفطر الصائم)**: ظرف متعلّق بقوله: **(صلّوا)**.

المعنى

هذا دستور لإقامة صلاة الجماعة مع النّاس إلى أُمراء البلاد لأنَّ الإمامة في الصّلاة من أهمّ وظائف الأمراء في الإسلام وخصوصاً في ذلك العصر، لأنَّ الجماعة في الصلاة محور

(١) وسائل الشيعة: ٤/ ١٦٢ ح ٤٨٠٢، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٤٧٣.

تربية المسلمين وتعليمهم لما يهمّهم من أُمور الدين وخصوصاً تعليم آي القرآن وسوره، فإنّ الإمام يقرأ بعد الحمد ما يتيسّر من سور القرآن الكريم والمأمومين ينصتون له ويحفظون ما يقرؤه بالمداومة والمحافظة على الصلاة كما أنّ إقامة الصلاة في صفوف مرصوصة منظّمة يدرّ بهم على الاصطفاف تجاه الأعداء في ميادين الجهاد ومعارك القتال وهو فنّ نظامي عسكري كان له أثر كبير في تقدُّم جيوش الإسلام والغلبة على أعدائهم، وقد أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤] فالمقاتلة في صفّ كأنّهم بنيان مرصوص ممّا يدربون عليها في الإصطفاف لصلاة الجماعة.

فالظاهر أنَّ هذا الدستور لا يرجع إلى تحديد أوقات الصلاة تشريعاً بحيث يمكن الاستناد به لإثبات الوقت المشروع، نعم يستفاد منه أنَّ إقامة الصلاة في هذه الأوقات مقرونة بالفضيلة ومناسبة مع حال الأُمّة.

وليس الغرض منه تحديد وقت الصلاة الشرعي كما يظهر من ابن ميثم قال: **(ص ١٣٣ ج ٥)** بيّن في هذا الكتاب أوقات الصلاة المفروضة، فالأوَّل وقت الظهر وحدّه بوقت فيء الشمس أي رجوعها وميلها إلى المغرب، ثمَّ نبّه بتقديره بمربض العنز وهو أوَّل وقت الظهر وذلك ممّا يختلف باختلاف البلاد.

أقول: ظاهر كلامه بل صريحه أنَّ رجوع الظلّ الحادث بعد الزوال إلى مقدار مربض العنز أوّل وقت الظهر، وفيه:

١ ـ أنَّ ظاهر قوله ﷺ: **(صلّوا بالناس الظهر حتّى تفيء الشمس مثل مربض العنز)** أنّ بلوغ الفيء إلى هذا المقدار آخر وقت صلاة الظهر، لأنَّ لفظة حتّى تفيد انتهاء الغاية في الزمان والمكان لا ابتداءها، فالمقصود أنّه صلّوا الظهر من حين الزوال إلى أن يبلغ الفيء هذا المقدار.

٢ ـ أنّه مخالف لقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨].

قال في المجمع: أقم الصّلاة لدلوك الشمس، أي لزوالها وميلها، يقال: دلكت الشمس والنجوم من باب قعد دلوكاً إذا زالت ومالت عن الاستواء، قال الجوهري: ويقال دلوكها غروبها، وهو خلاف ما صحَّ عن الباقر ﷺ من أنَّ دلوك الشمس زوالها، فهذه الآية شرّعت أوقات الصلاة وابتدأت ببيان وقت الظهر من حين زوال الشمس ورجوع الفيء إلى مقدار مربض العنز متأخّر عنه بساعات خصوصاً في البلاد التي تسامت الشمس رؤوس أهلها ويزول الظلّ عند زوال الشمس كالمدينة في أيّام من كون الشمس في برج الجوزاء.

٣ ـ أنّه مخالف لما اتّفق عليه الفقهاء الإماميّة من أنَّ أوّل وقت صلاة الظهر من حين

زوال الشمس وميلها عن دائرة نصف نهار البلد.

قال المحقّق في الشرائع: فما بين زوال الشمس إلى غروبها وقت للظهر والعصر وإن كان يختصُّ الظهر من أوّله بمقدار أدائها وكذا العصر من آخره وما بينهما فمشترك.

قال صاحب الجواهر في شرح كلامه: كلُّ ذلك على المشهور بين الأصحاب بل لا خلاف في كون الزوال مبدأ صلاة الظهر بين المسلمين، كما عن المرتضى وغيره الاعتراف به عدا ما يحكى عن ابن عبّاس والحسن والشعبي من جواز تقديمها للمسافر عليه بقليل وهو بعد انقراضه لا يقدح في إجماع من عداهم من المسلمين على خلافه إن لم يكن ضروريًّا من ضروريّات الدين.

ثمَّ تعرَّض صاحب الجواهر رحمه الله لأخبار كثيرة يستفاد منها تأخير وقت الظهر عن الزوال، فقال: فما في صحيح الفضلاء عن الباقر والصادق عليهما السلام من أنَّ وقت الظهر بعد الزوال قدمان ووقت العصر بعد ذلك قدمان، وصحيح زرارة عن الباقر عليه السلام أنَّ وقت الظهر بعد ذراع من زوال الشمس ووقت العصر ذراعين من وقت الظهر، وذلك أربعة أقدام من زوال الشمس، بل عن ابن مسكان أنّه قال: حدَّثني بالذراع والذراعين سليمان بن خالد وأبو بصير المرادي وحسين صاحب القلانس وابن أبي يعفور ومَن لا أحصيه منهم، وخبر عبد الله بن مسكان أنه كان حائط مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يظلّل قامة وكان إذا كان الفيء ذراعاً وهو قدر مربض غزال صلّى الظهر وإذا كان ضعف ذلك صلّى العصر ونحوه غيره.

وخبر إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان فيء الجدار ذراعاً صلّى الظهر وإذا كان ذراعين صلّى العصر»[1]، قلت: إنَّ الجدار يختلف، بعضها قصير وبعضها طويل؟ فقال: كان جدار مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ قامةً.

وخبر إسماعيل بن عبد الخالق عن الصادق عليه السلام: «إنَّ وقت الظهر بعد الزوال بقدم أو نحو ذلك إلاّ في يوم الجمعة أو في السفر فإنَّ وقتها حين تزول الشمس»[2].

ومضمر ابن أبي نصر: سألته عن وقت صلاة الظهر والعصر؟ فكتب: قامة للظهر وقامة للعصر».

وخبر عمر بن سعيد بن هلال عن الصادق عليه السلام: قال: «قل لزرارة إذا كان ظلّك مثلك فصلِّ الظهر وإذا كان ظلّك مثليك فصلِّ العصر»[3].

---

(١) الإستبصار: ١/٢٥٥ ح ٩١٦، وتهذيب الأحكام: ٢/٢١ ح ٥٨.
(٢) الإستبصار: ١/٢٤٧ ح ٨٨٥١٢، ووسائل الشيعة: ٧/٣١٧ ح ٩٤٥٥.
(٣) الإستبصار: ١/٢٤٨ ح ٨٩١١٨، وتهذيب الأحكام: ٢/٢٢ ح ٦٢.

وخبر سعيد الأعرج عن الصادق عليه‌السلام أيضاً عن وقت الظهر، أهو إذا زالت الشمس؟ فقال: «بعد الزوال بقدم أو نحو ذلك إلاّ في السفر ويوم الجمعة فإنَّ وقتها إذا زالت الشمس» فقال: بعد الزوّال.

وخبر ابن شعيب عن الصادق عليه‌السلام: سألته عن صلاة الظهر؟ فقال: «إذا كان الفيء ذراعاً قلت: ذراعاً من أيّ شيء؟ قال: ذراعاً من فيئك، قلت: فالعصر؟ قال: الشطر من ذلك، قلت: هذا شبر؟ قال: أوليس الشبر بكثير».

وخبر زرارة عن الصادق عليه‌السلام أيضاً: «وقت الظهر على ذراع».

وخبر ذريح المحاربي: سأل أبا عبد الله أُناس وأنا حاضر، إلى أن قال: فقال بعض القوم: إنّا نصلّي الأُولى إذا كانت على قدمين والعصر على أربعة أقدام فقال أبو عبد الله عليه‌السلام: «النصف من ذلك أحبّ إليّ».

وخبر أبي بصير عن الصادق عليه‌السلام: «الصلاة في الحضر ثمان ركعات إذا زالت الشمس ما بينك وبين أن يذهب ثلثا القامة، فإذا ذهب ثلثا القامة بدأت بالفريضة».

وخبر عبيد بن زرارة: سألت أبا عبد الله عليه‌السلام من أفضل وقت الظهر؟ قال: «ذراع بعد الزوال، قال: قلت: فالشتاء والصيف واحد؟ قال: نعم»(١).

ويستفاد من مجموع هذه الأخبار أمور:

١ ـ أنَّ المقصود من مربض العنز في كلامه عليه‌السلام هو مقدار مربضه عرضاً ويقرب من ذراع.

٢ ـ أنَّ المقصود من هذه التعبيرات المختلفة كمربض العنز ومربض الغزال والذراع والقدمين أمر واحد وأنَّ اختلاف التعبير بمناسبة أُنس ذهن المخاطب بأحد هذه المقادير.

٣ ـ أنَّ تأخير صلاة الظهر عن الزوال بهذا المقدار كان لغرض من الأغراض:

منها: إرادة الرخصة في التنفّل كما ذكره في الجواهر، قال: محمول على إرادة الرخصة للمتنفّل في تأخير الظهر هذا المقدار وأنّه لا يتوهّم حرمته للنهي عن التطوُّع وقت الفريضة كما يؤمى إليه الأمر بالظهر عند الزوال حيث لا تشرع النافلة فيه كالسفر يوم الجمعة، وفي خبر زرارة قال: قال لي: «أتدري لم جعل الذراع والذراعان؟» قال: قلت: لم؟ قال: «لمكان الفريضة لك أن تتنفل من زوال الشمس إلى أن يبلغ ذراعاً فإذا بلغ ذراعاً بدأت بالفريضة وتركت النافلة».

(١) جواهر الكلام: ٧/ ٧٧ ح ٢٠، والاستبصار: ١/ ٢٥٤ ح ٩١١.

ومنها: انتظار اجتماع الناس وحضورهم في الجماعة وعدم تخلّف أحد منها كما هو الظاهر من دستوره لأمراء بلاده.

ومنها: انتظار برودة الهواء في الأيّام الشديدة الحرّ كما ورد من قوله ﷺ «أبردوا بصلاة الظهر»[١] وفسّر بأنّ المقصود من الإبراد بصلاة الظهر هو تأخيره إلى أن يبلغ الظلُّ مقدار ذراع وتنكسر سورة الحرّ.

هذا، ولم يتعرَّض عليه السلام في كتابه هذا لبيان آخر وقت الظهر، وهذا دليل على أنّه ليس في مقام تحديد الوقت، ووقت صلاة العصر بعد مضيّ مقدار أداء صلاة الظهر من الزوال ويمتدُّ إلى غروب الشمس فيختصُّ العصر بمقدار أربع ركعات من آخر النهار كما في مرسلة داود بن فرقد المنجبرة عن الصادق عليه السلام إذا زالت الشمس فقد دخل وقت الظهر حتّى يمضي مقدار ما يصلّي المصلّي أربع ركعات فإذا مضى ذلك فقد دخل وقت الظهر والعصر حتّى يبقى من الشمس مقدار ما يصلّي أربع ركعات فإذا بقي مقدار ذلك فقد خرج وقت الظهر وبقي وقت العصر حتّى تغيب الشمس ـ إلخ.

ولكنّه قرَّر وقت أداء صلاة العصر وعقد الجماعة لها بقوله: **(وصلّوا بهم العصر والشمس بيضاء حيّة)** أي لم ينكسر ضوؤها بقربها وهبوطها إلى أُفق المغرب ثمَّ أوضح ذلك بقوله **(حين يسار فيها فرسخان)** والمقصود سير القوافل المعمولة ويشغل مسير الفرسخين ممّا يقرب من ساعتين والظلّ في هذا الوقت يقرب من المثلين كما نقل في الجواهر: ودخل أبو بصير على أبي عبد الله عليه السلام فقال: إنَّ زرارة سألني عن شيء فلم أُجبه فقد ضقت من ذلك فاذهب أنت رسولي إليه فقل له: صلّ الظهر في الصيف إذا كان ظلّك مثلك والعصر إذا كان مثليك، وكان زرارة هكذا يصلّي في الصيف[٢].

ولم يتعرَّض عليه السلام لبيان آخر وقت العصر أيضاً وقد عرفت أنّه يمتدُّ إلى غروب الشمس.

وأمّا صلاة المغرب فقد أمر بعقد الجماعة لها من أوّل وقتها وهو غروب الشمس وذكر له علامتين:

١ ـ حين يفطر الصائم، وإفطار الصائم إنّما يكون بعد انتهاءِ النهار ودخول الليل لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ٢٦٢، والمصنف لابن أبي شيبة: ١/ ٣٥٩.

(٢) جواهر الكلام: ٧/ ٧٧، ومصباح الفقيه: ٢/ ٣٥.

٢ ـ حين يدفع الحاجّ من عرفات إلى المشعر، وهو بعد انتهاء نهار عرفة أيضاً ولكن في التعبير بقوله عليه السلام: (إلى منى)، غموض فإنَّ دفع الحاجّ إلى منى إنّما يكون في عشيّة يوم التروية ليبتوا بمنى ثمَّ يذهبوا إلى عرفات من صبيحة اليوم التاسع وليس له وقت محدود وعلى أيٍّ حال فالمقصود إقامة صلاة المغرب في أوّل الليل بعد انتهاء النهار، وقد اختلفت كلمات الأصحاب في تحديده:

قال في الشرائع: وكذا إذا غربت الشمس دخل وقت المغرب ويختصُّ من أوّله بمقدار ثلاث ركعات ثمَّ يشاركها العشاء حتّى ينتصف الليل ويختصُّ العشاء من آخر الوقت بمقدار أربع ركعات ـ إلى أن قال: ويعلم الغروب باستتار القرص وقيل: بذهاب الحمرة عن المشرق وهو الأشهر، قال صاحب الجواهر في شرحه: بل في كشف اللثام أنّه مذهب المعظم بل هو المشهور نقلاً وتحصيلاً فتواً وعملاً شهرة عظيمة سيّما بين المتأخّرين، بل في الرياض أنَّ عليه عامّتهم إلاّ من ندر، بل في المتبر أنَّ عليه عمل الأصحاب كما عن التذكرة بل عن السرائر الإجماع عليه[1].

أقول: لا إشكال في أنَّ المدار في دخول الليل وانتهاء النهار هو سقوط الشمس عن الأُفق وغيبوبة الشمس عن الأبصار والأنظار وحلول السواد محلَّ بياض النهار، ولكنَّ البحث في أنَّ سقوط الشمس عن أيِّ الأُفق مدار نهاية النهار ودخول الليل، فالأُفق الظاهري هو ما يحيط به خطٌّ موهوم يخرج من عين الناظر ويتّصل بمنتهى الأُفق في الأرض المستوية بحيث إذا هبطت عنه الشمس تغيب عن عين الناظر والأفق الحقيقي هو ما يحيط به دائرة متوهّمة يمرُّ بمركز الأرض من تحت رجل الناظر بحيث إذا جاوزت عنه الشمس تقع محاذية للقسم الأسفل من الكرة الأرضية، فسقوط الشمس عن الأفق الظاهري محسوسة في الأرض المستوية وأمّا سقوطه عن الأُفق المركزي فيعلم بعلامة وهي ذهاب الحمرة المشرقيّة الحادثة أو أن غيبوبة الشمس عن الأُفق الظاهري كان، فينبغي أن يقال أنّه لا خلاف في أنَّ حقيقة المغرب هو سقوط القرص كما أنّه لا خلاف بين الإماميّة في اعتبار ذهاب الحمرة علامة للمغرب، إنّما الكلام في تحقيق معنى ذهاب الحمرة عن المشرق، ففسّره بعضهم بأنّه عبارة عن ارتفاع الحمرة إلى فوق الرأس ثمَّ هبوطها إلى أُفق المغرب وظهورها هناك، ولكنّه ليس بصحيح، لأنَّ الحمرة المشرقيّة ترتفع عن الأُفق إلى فوق القامة ثمَّ تمحو وتضمحلُّ ولا مفهوم لتجاوز الحمرة عن فوق الرأس بهذا المعنى.

وفسّره بعضهم بارتفاع الحمرة عن أُفق المشرق إلى ما يتجاوز قامة إنسان معتدل بحيث

---

(١) شرائع الاسلام: ١/٤٧، ومسالك الأفهام: ١/١٣٩.

إذا توهم قيام إنسان في الأُفق الشرقي وقيست الحمرة المرتفعة معه كانت الحمرة فوق رأسه فيصحُّ أن يقال إنَّ الحمرة جاوزت عن الرأس، وهذا هو الصحيح.

فالحاصل أنَّ المغرب يدخل بسقوط الشمس عن الأُفق المركزي وعلامته ارتفاع الحمرة عن أُفق المشرق فوق القامة، وإن كانت باقية بعد، وهذا هو المراد من تجاوز الحمرة قمّة الرأس، كما ورد في مرسل ابن أبي عمير الذي وصفه في الجواهر بأنّه في قوّة المسند عن الصادق عليه السلام وقت سقوط القرص ووقت الافطار من الصيام أن تقوم بحذاء القبلة وتتفقّد التي ترتفع من المشرق فإذا جاوزت قمّة الرأس إلى ناحية المغرب فقد وجب الافطار وسقط القرص - انتهى.

وهذا هو مراد ابن أبي عقيل فيما حكي عنه كما في الجواهر:

«أوّل وقت المغرب سقوط القرص، وعلامة ذلك أن يسوّد أُفق السماء من المشرق وذلك الليل» فإنّه لا معنى لتجاوز الحمرة عن قمّة الرأس إلاّ ارتفاعها فوق القامة فإنّها بعد ذلك تضمحلُّ وتمحو فإنَّ ظهور هذه الحمرة إنّما هو من تجلّي أشعّة الشمس في الطبقة البخاريّة الهوائيّة حول الأُفق.

ويؤيّد ذلك ما رواه في الجواهر عن كتاب محمّد بن علي بن محبوب، قال: أمرت أبا الخطّاب أن يصلّي المغرب حين زالت الحمرة من مطلع الشمس فجعل هو الحمرة التي من قبل المغرب وكان يصلّي حين يغيب الشفق[1].

هذا، ولم يتعرَّض عليه السلام في كتابه هذا لبيان آخر وقت صلاة المغرب وقد عرفت أنّه يمتدُّ إلى نصف الليل وإن اختصَّ من آخره مقدار أربع ركعات بصلاة العشاء.

ثمَّ قال عليه السلام **(وصلّوا بهم العشاء حين يتوارى الشفق إلى ثلث الليل)**.

فقد فسر الشفق بالحمرة المغربية، قال في الشرح المعتزلي: فأمّا وقت العشاء فقال الشافعي: هو أن يغيب الشفق وهو الحمرة - إلى أن قال: وقد حكينا مذهب أبي حنيفة فيما تقدَّم وهو أن يغيب الشفق الذي هو البياض وبه قال زفر والمزني - انتهى.

فقد ترى اختلاف الفقهاء في أنَّ الشفق هو الحمرة المغربيّة القليلة البقاء بعد غروب الشمس أو البياض الباقي في أُفق المغرب إلى ما يقرب ساعتين من الليل، وقد فسر بعض الفقهاء الشفق بالحمرة المغربيّة فقال بضيق وقت المغرب ونافلتها حيث إنَّ هذا الوقت لا يكفي إلاّ لأداء فريضة المغرب ونافلتها، والظاهر أنَّ المراد من الشفق في كلامه عليه السلام هو البياض الساطع بعد غروب الشمس إلى مقدار ساعة ونصف من الليل تقريباً فإنّه المعهود

(١) جواهر الكلام: ٧/١١٣ ح ١٦، ومصباح الفقيه ٢/٢٨.

لأداء صلاة العشاء عند تفريقها عن صلاة المغرب، وعليه جرت السُّنَّة والسيرة في مدينة الرسول ﷺ إلى عصرنا هذا.

وحدَّد ﷺ آخر وقت أداء صلاة العشاء بمضيّ ثلث الليل وظاهره سعة وقت إقامة الجماعة في صلاة العشاء إلى ثلث الليل باختلاف وضع البلدان واختلاف الليل والنهار في الفصول المختلفة وليس المقصود أنَّ ثلث الليل نهاية وقت صلاة العشاء على وجه الاطلاق، لما عرفت ممّا ذكرنا أنَّ هذا الكتاب ليس بصدد بيان الأوقات بحدودها، بل المقصود منه دستور لإقامة الجماعة في وقت مناسب لها.

وأمّا الغداة فقال ﷺ **(وصلّوا بهم الغداة والرجل يعرف وجه صاحبه)** وهذا التعبير كناية عن بسط ضوء الفجر بحيث يعرف الرجل صاحبه إذا نظر إليه كما عبّر في القرآن الكريم عن الفجر الصادق بقوله عزّ من قائل: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ ففسّره بعضهم بأنَّ المراد منه بسط ضوء الصباح إلى حيث يمتاز الخيط الأسود من الخيط الأبيض لأصحاب العيون الصحيحة، بناءاً على أن لفظة (من) في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ للتعليل فالمقصود أنَّ الفجر يعتبر من بسط الضوء إلى حيث يكشف الظلمة ويتبين الأشياء فيمتاز الخيط الأسود من الخيط الأبيض أو يعرف الرجل وجه صاحبه إذا لم يكن هناك مانع من غيم أو سقف أو غيرهما.

وقد وصّى ﷺ أمراءه بعد بيان أوقات الجماعة بأمرين:

١ ـ مراعاة حال الضعفاء في الصلاة بترك التطويل وأداء المستحبّات في الركوع والسجود فيصعب الأمر على الضعفاء وترد عليهم المشقّة فيبغضون الجماعة.

٢ ـ ترك الفتنة في إقامة الجماعة وهي على وجوه:

أ ـ أي لا تفتنوا الناس بإتعابهم وإدخال المشقّة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة. . .، هكذا فسّره في الشرح المعتزلي.

ب ـ وجه الفتنة هنا أنّهم يكونون صادفين للناس عن الاتفاق والتساعد على الجماعة بإطالتها المستلزمة لتخلّف العاجزين والضعفاء، هكذا فسّره ابن ميثم **(ص ١٣٤ ج ٥)**.

أقول: وأنت ترى أنَّ كلا التفسيرين متشابهان وكأنّه تكرار للأمر الأول.

ج ـ أن يكون المراد من النهي عن الفتنة عدم التوسّل بالمأمومين واجتماعهم لاثارة الخلاف والصول على المخالفين أو عدم الافتتان بالصفوف المرتصّة خلفهم فيدخلهم الكبرياء والعجب، فتدبّر.

الترجمة

از يك نامه اى كه در معنى نماز به فرماندهان بلاد نگاشت:

امّا بعد، نماز ظهر را براى مردم بخوانيد تا گاهى كه سايه خورشيد به اندازه خوابگاه گوسفندى برگردد و نماز عصر را هنگامى براى آنان بخوانيد كه خورشيد پرتو افكن و زنده است و قسمتى از روز باقى است به اندازه اى كه بتوان مقدار دو فرسخ در آن طى مسافت كرد (پياده يا با چهارپا)، نماز مغرب را در آن گاه برايشان بخوانيد كه روزه دار افطار كند و حاج از عرفات كوچ كنند "به سوى منى" و نماز عشا را در آن گاه برايشان بخوانيد كه شفق نهان مى شود تا يك سوم از شب و نماز بامداد را در آن گاه بخوانيد كه هر مردى چهره مصاحب خود را مى شناسد، نماز را برابر توانايى ضعيف ترين مردم بخوانيم و در نماز فتنه جو مباشيد.

المختار الثاني والخمسون من كتبه عليه السلام
ومن عهد له عليه السلام كتبه للاشتر النخعي رحمه الله، لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر محمد بن أبي بكر، وهو أطول عهد وأجمع كتبه للمحاسن

«مالك بن الحارث الأشتر النخعي قد عدَّه الشيخ رحمه الله في رجاله من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وقال في القسم الأوّل من الخلاصة: «وهو ما اجتمع فيه الصحاح والحسان» مالك بن الأشتر قدَّس الله روحه ورضي الله عنه جليل القدر عظيم المنزلة كان اختصاصه بعليّ عليه السلام أظهر من أن يخفى، وتأسّف أمير المؤمنين لموته وقال: «لقد كان لي مثل ما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله»، انتهى[1]، وقد روي عن الكشيّ فيه روايات:

فمنها ما عن الفضل بن شاذان أنّه من التابعين الكبار ورؤسائهم وزهّادهم.

ومنها ما رواه مرسلاً بقوله لمّا نعي الأشتر مالك بن الحارث النخعي أمير المؤمنين عليه السلام تأوّه حزناً، ثمّ قال: رحم الله مالكاً وما مالك؟! عمزّ عليَّ به هالكاً لو كان صخراً لكان صلداً ولو كان جبلاً لكان فنداً وكأنّه قدّمني قداً.

ومنها ما رواه هو عن محمّد بن علقمة بن الأسود النخعي، قال: خرجت في رهط أُريد الحجَّ، منهم مالك بن الحارث الأشتر وعبد الله بن الفضل التميمي ورفاعة بن شدّاد البجلي حتّى قدمنا الربذة، فإذا امرأة على قارعة الطريق تقول: يا عباد الله المسلمين هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله هلك غريباً ليس لي أحد يعينني عليه، قال: فنظر بعضنا إلى بعض وحمدنا الله على ما ساق إلينا واسترجعنا على عظيم المصيبة، ثمّ أقبلنا معها فجهّزناه وتنافسنا في كفنه حتّى خرج من بيننا بالسواء، ثمّ تعاونّا على غسله حتّى فرغنا منه، ثمّ قدَّمنا الأشتر فصلّى بنا عليه، ثمّ دفنّاه، فقام الأشتر على قبره ثمّ قال: اللّهمَّ هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله عبدك في العابدين وجاهد فيك المشركين، لم يغيّر ولم يبدّل لكنّه رأى منكراً فغيّره بلسانه وقلبه حتّى جفي ونفي وحُرِم واحتقر ثمّ مات وحيداً غريباً، اللهمَّ فاقصم من حرمه ونفاه عن مهاجرة حرم رسولك، قال: فرفعنا أيدينا جميعاً وقلنا آمين، ثمّ قدَّمت الشاة التي صنعت فقالت: إنّه قد أقسم عليكم أن لا تبرحوا حتّى تتغدّوا فتغدَّينا وارتحلنا»[2].

ومنها ما روي عن حلاّم دلف الغفاري وكانت له صحبة، قال: مكث أبو ذر بالربذة

---

(١) الوسائل: ٣٠/٤٥٣، وحقوق آل البيت عليهم السلام: ٩٩.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٠/٣٠٦، وبحار الأنوار: ٢٢/٤٠٠.

حتّى مات فلمّا حضرته الوفاة قال لامرأته: إذبحي شاة من غنمك واصنعيها فإذا نضجت فاقعدي على قارعة الطريق فأوّل ركب تريهم قولي يا عباد الله المسلمين هذا أبو ذر صاحب رسول الله قد قضى نحبه ولقي ربّه فأعينوني عليه وأجيبوه. فإنَّ رسول الله ﷺ أخبرني أنّي أموت في أرض غربة وأنّه يلي غسلي ودفني والصلاة عليّ رجال من أُمّته صالحون[1].

ومنها ما في البحار من أنّه ممّا كتب أمير المؤمنين إلى مالك الأشتر لمّا نعي إليه محمّد بن أبي بكر وكان مقيماً بنصيبين، أمّا بعد فإنّك ممّن أستظهر به على إقامة الدين وأقمع به نخوة الأثيم وأسدُّ به الثغر المخوف، وقد كنت ولّيت محمّد بن أبي بكر مصر فخرج خوارج وكان حدثاً لا علم له بالحرب فاستشهد فأقدم إليَّ لننظر في أُمور مصر وأستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك واستخلف مالك بن شبيب بن عامر.

وقد ذكر جماعة من أهل السير أنّه لمّا بلغ معاوية إرسال عليّ عليه السلام الأشتر إلى مصر عظم ذلك عليه وبعث إلى رجل من أهل الخراج وقيل: دسَّ إليه مولى عمر، وقيل: مولى عثمان فاغتاله فسقاه السمَّ فهلك، ولمّا بلغ معاوية موته خطب الناس فقال: أمّا بعد فإنّه كان لعليّ بن أبي طالب يمينان قطعت إحداهما يوم صفّين وهو عمّار بن ياسر وقد قطعت الأُخرى اليوم وهو مالك بن الأشتر.

وفي شرح ابن أبي الحديد أنّه كان فارساً شجاعاً رئيساً من أكابر الشيعة وعظمائها شديد التحقّق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره وقال فيه بعد موته: رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول الله ﷺ.

أقول: إنَّ الأشتر كان رجل فذ من نخع أحد قبائل يمن وقد كان أكثر أهل اليمن ذوو بصيرة في الدين ومن المخلصين لأمير المؤمنين لوجوه:

١ ـ أنَّ مقاطعة يمن دخل فذ تحت حماية فارس منذ زمان كسرى أنوشروان وأنّها صارت تحت إدارة الفرس عشرات من السنين واختلط سكّانها بالفرس فكانوا ذوي بصيرة وأجابوا إلى الإسلام عن طوع وإرادة واتّصلوا بأهل بيت النبي ﷺ فنشأ فيهم رجال من المخلصين لعليّ العارفين بحقّه أمثال مالك الأشتر النخعي وكميل بن زياد النخعي.

٢ ـ أنَّ رسول الله ﷺ خصَّ أهل يمن بأن بعث عليهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام غير مرّة، قال في (**ص ٤١٥ ج ٢ من سيرة ابن هشام ط مصر**):

غزوة عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى اليمن:

---

(١) شجرة طوبى: ١/ ٧٧، ومعجم رجال الحديث: ١٥/ ١٦٧.

وغزوة عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه اليمن غزاها مرّتين، قال ابن هشام: قال أبو عمرو المدني: بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب إلى اليمن وبعث خالد بن الوليد في جند آخر وقال: إن التقيتما فالأمير عليّ بن أبي طالب.

وكان عليٌّ عليه السلام سنة حجّة الوداع في اليمن والتحق برسول الله ﷺ في الحجّ وقد أحرم على إحرام رسول الله ﷺ فاشترك معه في الهدي الذي ساقه.

قال ابن هشام في سيرته (ص ٣٨٩ ج ٢ ط مصر):

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عبد الله بن أبي نجيح أنَّ رسول الله ﷺ كان بعث عليًّا رضي الله عنه إلى نجران فلقيه بمكّة وقد أحرم فدخل على فاطمة بنت رسول الله رضي الله عنها فوجدها قد حلّت وتهيّأت فقال: ما لكِ يا بنت رسول الله؟ قالت: أمرنا رسول الله أن نحلَّ بعمرة فحللنا، ثمَّ أتى رسول الله ﷺ فلمّا فرغ من الخبر عن سفره قال له رسول الله ﷺ: انطلقْ فطُفْ بالبيت وحلَّ كما حلَّ أصحابك قال: يا رسول الله إنّي أهلَلْت كما أهللت فقال: ارجع فاحلل كما حلَّ أصحابك قال: يا رسول الله إنّي قلت حين أحرمت: اللهمَّ إنّي أُهلُّ بما أهلَّ به نبيّك وعبدك ورسولك محمّد ﷺ، قال: فهل معك من هدي؟ قال: لا، فأشركه رسول الله في هديه وثبت على إحرامه مع رسول الله ﷺ حتّى فرغا من الحجِّ ونحر رسول الله ﷺ الهدي عنهما[1].

قال ابن إسحاق: وحدَّثني يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي عمرة عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن دكانة قال: لمّا أقبل عليٌّ رضي الله عنه من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكّة تعجل إلى رسول الله ﷺ فاستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه فعمد ذلك الرجل فكسا كلَّ رجل من القوم حلّة من البزّ الذي كان مع عليّ رضي الله عنه، فلمّا دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل قال: ويلك ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجمّلوا به إذا قدموا في الناس، قال: ويلك أنزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله ﷺ قال: فانتزع الحلل من الناس فردّها في البزّ قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني عبد الله بن عبد الرحمٰن بن معمر بن حزم عن سليمان بن محمّد بن كعب بن عجرة، عن عمّته زينب بنت كعب وكانت عند أبي سعيد الخدري عن أبي سعيد الخدري قال: اشتكى الناس عليًّا رضوان الله عليه فقام رسول الله فينا خطيباً فسمعته يقول: «أيّها الناس لا تشكوا عليًّا فوالله إنّه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله من أن يشكى»[2]، انتهى ما أردنا نقله عن السيرة لابن هشام.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٠١، وسيرة النبي: ٤/ ١٠٢١.

(٢) ميزان الحكمة: ١/ ١٤٢، والبداية والنهاية: ٥/ ٢٢٨.

فممّا ذكرنا يظهر أنّ عرب اليمن وقبائله الذين سكنوا كوفة بعد الفتح الإسلامي كانوا أهل بصيرة بالدِّين وأهل إخلاصٍ لأهل بيت النبي وأمير المؤمنين عليه السلام، ومن هذه الجهة لمّا جمع طلحة والزبير الجموع في بصرة بغياً على حكومة عليّ عليه السلام خرج عليٌّ إليهم من مدينة بما لا يبلغ ألف نفس من كبار أصحاب النبيّ اعتماداً على نصرة أهل كوفة فاستنصر منهم فنصروه، فانهزم أصحاب الجمل وأكثر المهاجرين في الكوفة من قبائل اليمن.

موقعية مصر في الحكومة الإسلامية

مصر من البلاد العريقة في المدنية منذ آلاف من القرون، وقد كشف الباحثون فيها آثار المدنيّة إلى ما يزيد عن عشرات من القرون، وبرع فيها جمع من الفلاسفة الأول قد استمدَّ اليونان في عصره الذهبي من تعليمات شائعة فيها، ثمَّ عقّب ذلك بحكومة البطالسة فيها فأسّسوا فيها دور الحكمة وألّفوا كتباً قيّمة بقي منها نحو (**مجسطي**)، فكانت مصر متهيّئة لبيان دقائق النظم الاجتماعيّة والقضائيّة والعسكرية أكثر من سائر البلاد.

وهذا هو السبب في تطويل هذا العهد وتعرُّضه لكافّة شؤون الحياة المادّية والمعنويّة، فإنَّ الإسلام حاوٍ لكلّ ما يحتاج إليه بنو الإنسان من النظم والقوانين لتربية الروح والمادّة، وهذا أحد معاني الشريعة الكاملة الناسخة لما قبلها من الشرائع والباقية إلى آخر الدَّهر.

ولكنَّ العرب في الحجاز و سائر أقطار الجزيرة كانوا في سذاجة من العيش وبساطة من الفهم لا يستطيعون تحمّل دقائق القوانين وتفاصيل النظم ممّا يتعلّق بشتّى أنواع المعاش من الزراعة والتجارة والقضاوة وغير ذلك، لعدم الأُنس بها في حياتهم وعدم ممارسة شؤونها.

فدعاهم الإسلام في بادىء الأمر على أبسط تعاليمها في العقيدة والأخلاق، وأزكى شؤون الإنسانيّة من الاعتقاد بالصانع وعبادته وملازمة الأُمور الخيريّة من البرّ بالوالدين وصلة الأرحام وترك الفحشاء والكذب وغير ذلك، ولمّا نشر الإسلام إلى بلاد فارس وجد قوماً عريقاً في المدنيّة وأليفاً بالنظم الاجتماعيّة ففسح أمامه مجالاً لبسط تعاليمه الجذريّة.

كما أنّه إذا نشر الإسلام في مصر وجد أمامه قوم من الأقباط وبقايا الفلاسفة والبطالسة مارسوا الحياة المدنيّة أكثر وأدقّ ولمّا وقعت في حوزة حكومة عليّ عليه السلام قام فيها بتعاليم هامّة وعامّة منها صدور هذا العهد، وإن كان عليٌّ عليه السلام يتفرّس بعدم توفيق مالك نفسه لإجرائه.

وقد نفصّله على خمسة عشر فصلاً يمتاز بعضها عن بعض بما تتضمنها من الشؤون المختلفة والآداب الممتازة في كلّ شأن من الشؤون.

الفصل الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«هَذَا ما أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَميرُ الْمُؤْمِنِينَ مالِكَ بْنَ الْحارِثِ الأَشْتَرَ في عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حينَ وَلاّهُ مِصْرَ: جِبايَةَ خَراجِها، وَجِهادَ عَدُوِّها، وَاسْتِصْلاحَ أَهْلِها، وَعِمارَةَ بِلادِها.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِيْثارِ طاعَتِهِ، وَاتِّباعِ ما أَمَرَ بِهِ في كِتابِهِ: مِنْ فَرائِضِهِ وَسُنَنِهِ، التي لا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاّ بِاتِّباعِها، وَلاَ يَشْقى إِلا مَعَ جُحُودِها وَإِضاعَتِها، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهَ سُبْحانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسانِهِ، فَإِنَّهُ ـ جَلَّ اسْمُهُ ـ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزازِ مَنْ أَعَزَّهُ.

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهَواتِ، وَيَنْزَعَها [يَزَعَها] عِنْدَ الْجَمَحاتِ فَإِنَّ النَّفْسَ أَمّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّ ما رَحِمَ اللَّهُ.

ثُمَّ اعْلَمْ، يا مالِكُ أَنّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلى بِلادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْها دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ في مِثْلِ ما كُنْتَ تَنْظُرُ فيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فيكَ ما كُنْتَ تَقُولُ فيهِمْ، وَإِنَّما يُسْتَدَلُّ عَلَى الصّالِحينَ بِما يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلى أَلْسُنِ عِبادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبُّ الذَّخائِرِ إِلَيْكَ ذَخيرَةَ الْعَمَلِ الصّالِحِ فَامْلِكْ هَواكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمّا لا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الإِنْصافُ مِنْها فيما أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ»[١].

اللغة

(الجباية): جبا الخراج: جمعه، **(يزعها)**: يكفّها، **(جمح الفرس)**: تغلّب على راكبه وذهب به لا ينثنى ـ المنجد ـ.

الإعراب

(حين ولاّه مصر): ظرف أُضيف إلى جملة فعليّة متعلق بقوله: **(عهده)**.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٦٠٠، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٢٨٦.

المعنى

قد عقد لمالك ولاية عامّة على كلّ أُمور مصر وجمعها في أربع:

١ ـ الأُمور الماليّة والاقتصاديّة التي تتركّز في ذلك العصر في جمع الخراج فإنّ مصر من الأراضي المفتوحة عنوة انتقلت أراضيها العامرة إلى المسلمين فقرّروا فيها الخراج.

٢ ـ في الأُمور العسكريّة فأثبت له القيادة العامّة على القوى المسلّحة والجامع لها جهاد الأعداء.

٣ ـ الأُمور الاجتماعية والنظم الحقوقيّة الراجعة إلى كلّ فرد فعبّر عنها بقوله: **(واستطلاح أهلها)**.

٤ ـ عمران البلاد بالزّراعة والغرس وسائر ما يثمر للناس في معاشهم.

ثمّ ابتدأ بما يلزم عليه في نفسه من التأديب والحزم ليقدر على إجراء أمره عليه السلام وحصرها في أمور:

١ ـ تقوى الله وإيثار طاعته.

٢ ـ اتباع ما أمر الله في كتابه من الفرائض والسنن.

٣ ـ نصرة الله بالقلب واليد واللسان.

قال الشارح المعتزلي: **(نصرة الله باليد)**: الجهاد بالسّيف، **(وبالقلب)** الاعتقاد للحقّ، **(وباللسان)**: قول الحق.

أقول: لا ينحصر نصرة الله باليد على الجهاد بالسّيف فإنها تحقق في كلّ أعمال الجوارح المرضية لله تعالى، ومنها الجهاد بالسّيف إذا حان وقته وحضر شرطه.

ثمّ وصّاه بحفظ نفسه عن التغلّب عليه في أُموره وأمر بكسر شهواته وميوله نحو اللذائذ المادّية وحذره منها أشدّ الحذر.

ثمّ خاطبه باسمه فقال: **(ثمّ اعلم يا مالك أني قد وجّهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور)** فقد أثبت عليه السلام لمصر في تاريخها الماضي دول وحكومات ووصفها بأنّها عدل وجور، فلا بدّ من الفحص عن هذه الدّول والفحص عن ما هي عادلة أو جائرة.

فهل المقصود من هذه الدّول هي العمّال الإسلاميين بعد فتح مصر، وهل يصحّ التعبير عنهم بأنها دول عدل ولو باعتبار شمول السلطة الإسلاميّة من أواخر خلافة أبي بكر إلى أيّام عمر وعثمان فالدّول الجارية دولة عمر وعثمان مثلاً، أو حكومة عمرو بن عاص فاتح مصر

ومن وليه من أمثال ابن أبي السّرح، وهل توصف واحدة منها بأنها عادلة؟ أو المراد من الدول الجارية المتتالية في مصر الدّول قبل الإسلام في قرون كثيرة وأشكال شتّى فلا بدّ من بيان إجمالي لهذه الدّول، وهل يمكن أن تعرف دولة عادلة فيها أم لا؟.

فنقول: نتوجّه إلى دول مصر في ضوء القرآن الكريم فإنه قد تعرّض لشرح بعض دولها إجمالاً فيما يأتي.

١ ـ دولة مصر المعاصرة ليوسف النبيّ صلوات الله عليه المعبّر عنها بدولة عزيز مصر.

ففي سورة يوسف الآية ٣٠ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

والظاهر أنّ عزيز مصر هو حاكمها ورئيسها في هذا العصر المعبر عنه بفرعون وقد قيل: إنّ عزيز مصر غير فرعون مصر بل هو رئيس جندها أو أحد أركان دولتها ولكن سياق الآيات الواردة يأباها، فانظر إلى آية ٤٣ في بيان رؤيا الملك:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ ـ إلى آية ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: ٥٠] ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥١] ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤].

فسياق هذه الآيات يشهد بوضوح أنّ زوج زليخا وعزيز مصر رجل واحد وهو حاكم مطلق على أُمور مصر وليس فوقه أحد، ويستفاد من نصّ الآيات الأخيرة من سورة يوسف أنّ عزيز مصر لمّا اطلع على مقام يوسف وطهارته وعصمته ونبوته تنزل عن عرش مصر وفوّض إليه أُمور مصر كافّة فصار يوسف عزيز مصر، كما في آية ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يوسف: ٧٨] إلى آية ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]. فعزيز مصر وهو زوج زليخا وإن لم يتنزل عن العرش رسماً بحيث تتحوّل الحكومة من بيت إلى بيت لكنه آمن بيوسف وانقاد له وفوّض إليه أُموره، كما يستفاد من الآية ٣٤ المؤمن عن قول مؤمن آل فرعون موسى ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾[1] [غافر: ٣٤].

---

(١) من سورة غافر وتسمى المؤمن.

وهذا الذي ذكرناه وإن كان مخالفاً لما اثبته التوراة في تاريخ يوسف وتبعها التواريخ ولكن الالتزام بتحريف التوراة والتاريخ ليس بعيداً عن الصّواب بعد ظهور القرآن المستند إلى الوحي، وبهذه الجهة قال الله تعالى في الآية ١٠٢ من سورة يوسف ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ويتعارض القرآن مع التوراة في موارد شتّى من قصّة يوسف أشرنا إليها في تفسيرنا لسورة يوسف كانون عفت قرآن من أراد الاطلاع فليرجع إليه.

فعلى ضوء هذا التفسير كان دولة عزيز مصر في زمن يوسف عليه السلام دولة عادلة ودولة فرعون مصر المعاصر لموسى بن عمران دولة جائره من كلّ النواحي منكراً لله تعالى ولعبادته ومنادياً على رؤوس الأشهاد ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وظالماً لبني إسرائيل إلى حيث يذبح أبنائهم ويستحيي نسائهم ويجرّ عليهم بلاء عظيماً ليستأصلهم عن شافتهم حتّى صارت من الأمثال السّائرة العالمية في الجور والظلم والعدوان.

هذا بالنظر إلى مجمل التاريخ المنعكس في الكتب السّماوية.

وقد انتهت حكومة مصر قبل الإسلام إلى بطالسة اليونان فأثّروا في بسط الفلسفة اليونانية فيها وأسّسوا دوراً لتعليم الفلسفة ومكتبة عامّة بقيت إلى عصر الفتح الإسلامي وكان حاكم مصر وواليها في ذلك العصر مقوقس الذي كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وآله كتاباً يدعوه إلى قبول الإسلام مع الكتب التي بعثها إلى غير واحد من رؤساء وملوك ذلك العصر، ففي سيرة ابن هشام **(ص ٣٩٢ ج ٢ ط مصر)**.

قال ابن هشام: حدّثني من أثق به عن أبي بكر الهذلي قال: بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صدّ عنها يوم الحديبيّة فقال: أيّها النّاس إنّ الله قد بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى ابن مريم، فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريّون يا رسول الله؟ فقال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه فأمّا من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأمّا من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل وشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأمّة التي بعث إليها، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله رسلاً من أصحابه وكتب معهم كتاباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الرّوم، وبعث عبد الله بن حذافة السّهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أميّة الضّمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الاسكندرية - إلخ[1].

ومقوقس هذا رجل يوناني يحكم على مصر عقب ملوك بطالسة وكان تحت حماية ملوك

(١) المباهلة: ٢٨، وموسوعة التاريخ الاسلامي: ٢/ ٦٥٠.

الرّوم البيزانطية في ذلك العصر، فلمّا جاءه رسول رسول الله ﷺ وسلّم إليه الكتاب لقيه ببشر واحترام وردّه إلى رسول الله ﷺ مصحوباً بهدايا منها المارية القبطيّة التي قبلها رسول الله ﷺ بقبول حسن وسرّيها واتّخذها لفراشه وأولدها فولدت له إبراهيم ابن النّبي ونالت حظوة عند رسول الله ﷺ.

وقد دخل مصر في حوزة الإسلام سنة العشرين من الهجرة وأقدم على فتحها عمرو بن العاص بعد ما استتب للمسلمين فتح سوريّة وتسلّطوا عليها وفرّ هرقل ملك الرُّوم الشرقيّة إلى قسطنطينيّة.

فلما سافر عمر إلى الشّام للنظر في أمر معاوية وما بلغه من سرفه لقيه عمرو بن العاص في قرية يقال لها: جابية قرب دمشق وأخلى به وعرض عليه زحفه إلى مصر بجيش من المسلمين معلّلا بأنَّ فتح مصر يضاعف شوكة الإسلام، فمنعه عمر معلّلا بخوفه من جموع الرُّوم السّاكنين في مصر للدفاع عنها على جيش الإسلام، فأقام عمرو بن العاص في دمشق حتى استقرّت سلطة الإسلام على جميع بلاد الشّام ورجع بعد فتح النوبة إلى فلسطين بأمر من عمر، ويهمّه فتح مصر دائماً حتى تهيأ جيشاً وقصد مصر من دون تحصيل رخصة من عمر، وبلغ خبره إلى عمر فلم يرتضه وكتب إليه: «من عمر بن الخطّاب إلى العاصي بن العاصي أمّا بعد فإنك سرت إلى مصر ومن معك وبها جموع الرُّوم، وإنّما معك نفر يسير ولعمري لو ثكلت أمّك وما سرت بهم فإن لم يكن بلغت مصر فارجع بهم».

وأمر عقبة بن عامر الجهني بايصال هذا الكتاب إلى عمرو بن العاص معجّلاً فأسرع لإيصال المكتوب حتى أدركه في رفح، وهي مرحلة في طريق مصر منها إلى عسقلان يومان، فلمّا رآه عمرو بن العاص تفرّس أنه قاصد من عمر ليرجع فماطل في أخذ كتابه حتّى بلغ عريش وكانت هي بلدة من مصر في ساحل بحر الرُّوم ونهاية أرض الشّام، فطلب عقبة وأخذ منه كتاب عمر وقرأه على النّاس وقال: هذا العريش الذي نحن فيه من أيِّ البلاد؟ قالوا: من بلاد مصر، فقال: لا ينبغي لنا أن نرجع لأنَّ الخليفة شرط لرجوعنا عدم دخول مصر، فرحل في تخوم مصر حتّى بلغ جبل [الحلال].

ووصل الخبر إلى مقوقس ملك مصر، فأرسل قائداً له يسمّى مذقور الأعيرج بجيش لدفع المسلمين وتلاقى الفريقان في أرض فرما، واشتدّ الحرب بينهما وقتل من الفريقين جمع كثير فهزم جمع الرُّوم وتقدّم عمرو بن العاص إلى قواصر ورحل إلى أمّ دنين ونزل فيها بقرب القاهرة، وهي بلدة في جنب فسطاط بينهما سور، وهي كانت دار الملك لمصر كما أنّها عاصمة مصر في هذا العصر، ثمَّ رجع أعيرج إلى الحرب مع عمرو بن عاص فتلاقيا في أمّ دنين وقتل خلق كثير من الجانبين ودامت الحرب مدّة شهر كامل ولم يتيسّر فتح مصر، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر واستمدّ منه، فأرسل عمر أربعة من أبطال المسلمين وهم زبير بن

العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن صامت ومسلمة بن المخلّد في اثني عشر ألفاً لمددهم فأسرعوا في السير ولحقوا بعمرو بن العاص فقوي جيش الإسلام ووهن أمر أعيرج وتحصّن في قصر له وحوله خندق يتخلّله معابر إلى القصر ملاها بقطعات حادّة من الحديد لا يقدر العبور عليها الراكب والرّاجل، وجهد المسلمون في فتح الحصن، وبلغ الخبر إلى مقوقس، فزحف بجيوش لحرب المسلمين ودامت الحرب سبعة أشهر.

فقال الزبير: أُضحّي بنفسي في سبيل الله عسى أن يفتح هذا الحصن للمسلمين فصنع عدّة مراقي ونصبها على الحصن فقال: إذا سمعتم تكبيري من فوق السّور فارفعوا أصواتكم جميعاً معي بالتّكبير، فصعد الحصن بجمع من رجاله وهبط وفتح الباب فعرض مقوقس على المسلمين الصلح لما رأى من جهودهم في فتح الحصن وشرط لهم دينارين من الذّهب كلّ سنة عن كلّ شخص في مصر، فطلبوا هذه الجزية من الرّوم الساكنين في أرض مصر وعرض على هرقل فلم يرض بذلك، وأمر مقوقس بالحرب مع المسلمين ولكن مقوقس لم ينكث عهده ولحق القبط بالمسلمين، ولمّا استقرّ المسلمون في مصر صلحاً أو عنوة على قول بعضهم وفتحوا الاسكندريّة ودخلها عمرو بن العاص فتن بها وأراد الإقامة فيها كمركز لجيوش الإسلام، فاستجاز من عمر في ضمن مكتوب أفصح فيه عن فتوحاته فأجابه بما يلي:

لا تجعلوا بيني وبينكم ماء حتّى إذا ما أردت أركب إليكم راحلتي حتّى أقدم عليكم قدمت.

فلمّا قرأ مكتوب عمر رحل من اسكندريّة إلى الفسطاط فسكنها وجعلها معسكر المسلمين فتنازع الجيش في مسكنهم حول فسطاط فأمر عمرو أربعة من أُمراء الجيش فخطّوا لهم وعينوا حدود مساكنهم، وقد اشترك من أصحاب رسول الله ﷺ في حرب مصر أربعة عشر من المهاجرين يرأسهم زبير بن العوّام، وستة عشر من الأنصار يرأسهم عبادة بن صامت الأنصاري.

ولمّا تمَّ فتح مصر صار عمرو بن العاص والياً عليها وهو أوَّل من صار والياً على مصر من المسلمين وهو قرشيٌّ من سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤيّ، وكان يسافر إلى مصر تاجراً في أيّام الجاهليّة، وفتح مصر أيّام عمر يوم الجمعة غرَّة محرّم سنة العشرين من الهجرة، وبقي فيها والياً أربع سنين وشهوراً، زار عمر خلالها مرَّتين.

كان في إسكندريّة مصر رجل يسمّى يحيى النّحوي من أساقفة إسكندريّة فهداه الله إلى الإسلام فكبر على الأساقفة فاجتمعوا حوله وناظروه فأجابهم ودام على إسلامه، فلمّا فتح عمرو بن العاص مصر دخل عليه فاستقبله بإكرام لما سمع من فضله ومجاوبته للنّصارى في إثبات حقانيّة الإسلام واتّخذه نديماً له يكتسب من فضله وحكمته.

فقال يوماً لعمرو: قد حزت ما في الاسكندريّة من الأموال والخزائن ولا كلام لأحد معك في ذلك لكن هنا شيء لا يفيدكم ونحتاج إليه فاعفُ عنه ودعه لنا، فقال عمرو: ما هو؟ قال: كتب الحكمة التي جمعها ملوك إسكندريّة طيلة قرون خاصّة يوناطيس الذي يدعوه أهل أروپا فيلادِلفس وكان محبّاً للحكمة، فأمر رجلاً يسمّى زهيرة بجمع الكتب ونصبه ضابطاً لمكتبته، فاشترى الكتب من التجّار بأثمان غالية حتّى اجتمع في مكتبته أكثر من أربعة وخمسين ألف كتاباً، وقلّده ملوك البطالسة في جمع الكتب إلى ما خرج عن الإحصاء.

فعجب عمرو بن العاص من كلامه، وقال: لا بدّ من أن أكتب ذلك لعمر بن الخطّاب وآخذ منه الجواب فكتب إليه، فأجابه: إن كان ما في هذه الكتب ما يوافق كتاب الله لا حاجة لنا بها وإن كان مخالفاً له لا نرتضيها فأعدمها وامح أثرها فقسّمها عمرو على حمّامات إسكندريّة ليصرفوها فيها بدلاً من الوقود فأوقدوها خلال ستّة أشهر حتّى أفنوها.

وقد استنكر بعض المؤرّخين الجدد من أهل مصر صدور الأمر من عمر باحراق كتب مكتبة إسكندريّة لما صدر في الإسلام من الأمر بالفحص والبحث عن الحقائق وتحصيل العلم ولو بالصّين[١].

أقول: وقد عرفت ممّا ذكرنا من ملخّص تارخ فتح مصر بيد المسلمين أنّه لم يحكم في مصر إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام وإلى حين صدور هذا العهد التاريخي للأشتر النخعي إلاّ عمرو بن العاص وعبد الله بن سرح بن أبي سرح الذي ولاّه عثمان على مصر بعد عزل فاتحه عمرو بن العاص فثار عليه الرُّومان، فاستعان عثمان بعمرو فسار إلى مصر وأخمد ثورة الرومان وأخرجهم من مصر ولكن لم يرض عثمان بعزل عبد الله فاشتركا في إدارة أُمور مصر وتنازعا ورجّح عثمان عبد الله بن سرح عليه فرجع إلى المدينة ناقماً على عثمان معيناً لأعدائه ومحرِّضاً للقيام عليه حتى قتل وهما واليان على مصر.

ولا يصدق على حكومتهما باعتبار أنهما عاملان للخليفة لفظ الدّولة ولا يمتازان بالعدل والجور بل كلاهما من نسيج واحد ومن أهل النفاق ومن أعداء أهل البيت والمخالفين لولاية أمير المؤمنين عليه السلام ومن الحكّام الجائرين فإنّ عمرو بن العاص توجّه في مصر إلى جمع المال والإدّخار حتّى بلغت ثروته إلى حيث ظهر للملأ اغتصابه لأموال المسلمين وأخذه من بيت المال فوق حقّه وسهمه حتّى بلغ خبره إلى عمر بن الخطّاب فكتب إليه معاتباً له:

أمّا بعد، فقد ظهر لي من مالك ما لم يكن في رزقك ولا كان لك مال قبل أن استعملك، فأنّى لك هذا؟ فوالله لو لم يهمّني في ذات الله إلاّ من اختان في مال الله لكثر

(١) عمر بن الخطاب: ١٥٧.

همّي وانتشر أمري، ولقد كان عندي من المهاجرين الأوَّلين من هو خير منك ولكنّي قلّدتك رجاء غنائك فاكتب إليّ من أين لك هذا المال؟ وعجّل.

فأجابه عمرو بن العاص

أمّا بعد، فقد فهمت كتاب أمير المؤمنين فأمّا ما ظهر لي من مالٍ فإنّا قدمنا بلاداً رخيصة الأسعار وكثيرة الغزو، فجعلنا ما أصابنا في الفضول التي اتّصل بأمير المؤمنين نبؤها والله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك وقد ائتمنتني فإنَّ لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك، وذكرت أنَّ عندك من المهاجرين الأوَّلين من هو خيرٌ منيّ فإذا كان ذاك فوالله ما دققت لك يا أمير المؤمنين باباً ولا فتحت لك قفلاً.

فلمّا وصل جوابه إلى عمر كتب إليه ثانياً:

أمّا بعد فإني لستُ من تسطيرك الكتاب وتثقيفك الكلام في شيء، ولكنكم معشر الأمراء قعدتم على عيون الأموال ولن تقدّموا عذراً، وإنّما تأكلون النّار وتتعجّلون العار، وقد وجّهت إليك محمّد بن مسلمة فسلّم إليه شطر مالك.

فأعطى الكتاب محمّد بن مسلمة وبعثه إلى مصر، فلمّا وصل إلى مصر وحضر عند عمرو بن العاص أحضر له طعاماً، فقال محمّد: لو دعوتني إلى الضّيافة وأحضرت لي طعاماً لأكلته ولكن هذا الطّعام مقدّمة للشرّ فنحّه عنّي واحضر شطر مالك، ولا مناص لعمرو بن العاص من إطاعة أمر عمر، فأمر باحضار شطر من ماله من المواشي والذّهب والفضّة وأثاث الدّار وغيرها، فلمّا نظر إليها رأى خزانة جزيلة فقال تأسّفاً:

لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر، والله لقد رأيت عمر وأباه على كلّ واحد منهم عباءة قطوانية لا تجاوز مأبض ركبتيه وعلى عنقه حزمة حطب والعاص بن وائل في مزرّدات الديباج[١].

وكان محمّد بن مسلمة من شجعان الأنصار والمخلصين لحكومة عمر فاختاره من عمّال غضبه ويبعثه إلى كبار الرجال لإجراء أوامره الرّهيبة الشاقة فهو الذي أجرى أمره في تشطير أموال خالد بن الوليد في الشّام وعزله من إمارة جيش الإسلام وتأديبه في محضر الأنام.

وهو الذي أجرى أمر عمر في سعد بن وقاص باحراق قصره الذي بناه في الكوفة ونصب فيه بابين من أبواب قصر مدائن.

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١/ ١٧٥.

وهو الذي فتك بكعب بن أشرف وقتله في عصر النبيّ ﷺ كما قال ابن هشام في سيرته.

فنقول: إنّ الدول التي وقعت في صدر هذا العهد ووصفها عليه السلام بأنَّ فيها عادل وجائر لا يصحُّ أن تكون حكومة عمر وعاص وخلفه على مصر لأنّها ليست دولة إلاّ بتكلّف ولا يطلق عليها دول بلفظ الجمع مع أنهما جائران لاتباعهما عمر وعثمان وحالهما معلومة مع أنهما عريقان في النفاق وعداوة أهل البيت وخصوصاً الثاني منهما.

فلا بدّ أن يكون المقصود من هذه الدّول الحاكمة على مصر قبل الإسلام ممّا بقيت آثارها وأخبارها وعرفها خلق مصر ولو بالنّقل عن الأسلاف أو بسبب ثبت أخبارها في كتب التاريخ، فوجّه عليه السلام مالكاً إلى هذا التاريخ العميق العريق في القدم وملأ عهده هذا من القوانين السائدة في مصر القديمة ومن بعض سير ملوكها العدول.

ولا ينافي توصيف بعض دول مصر بالعدالة مع كونهم وثنيّين، لأنَّ عدالة الدّولة بالنسبة إلى رعاياها وحفظ النظم والحقوق لا يرتبط بمذهبها، ويمكن أن يعدّ ذلك من كراماته عليه السلام وإحاطته بالعلوم والأخبار.

ثمَّ نبّهه عليه السلام إلى أنَّ سيرة الحاكم والوالي بمالها من التعلّق إلى عموم النّاس تنعكس في التّاريخ وتلهج بها الألسن وكما أنّك تقضي في أعمال الولاة قبلك يقضي عليك من يقوم مقامك، بعدك ودليل الصّلحاء ما يجرى على لسان العباد بإذن الله فلا تتوجّه إلى ادّخال الأموال كما هو عادة طلاّب الدُّنيا المفتونين بها بل ليكون أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، والعمل الصالح للوالي وعامله ما يوجب راحة رعيته واجراء العدل فيما بينهم، ولذا أمر بمنع الهوى عن التأثير في أعماله ومنع النفس عمّا لا يحلّ له.

الترجمة

به نام خداوند بخشنده مهربان.

این فرمان بنده خدا امیرمؤمنان است به مالك بن حارث الاشتر که باید آن را در عهده خود بشناسد و این فرمان هنگامی شرف صدور یافته که او را والی بر کشور مصر نموده تا خراج آن را بگیرد و با دشمن آن بجنگد و ملّت آن را اصلاح کند و بلاد آن را آباد نماید.

١ - تقوا از خدا را شعار خود کند و طاعتش را غنیمت شمارد و از آن چه در کتابش از فرائض و سنن دستور داده پیروی نماید، زیرا هیچ کس به سعادت نرسیده مگر با پیروی از آنها و کسی بدبخت نگردد مگر به انکار و ترك عمل بدانها.

٢ - خداوند سبحان را با دست و دل و زبان یاری کند، زیرا خدای جلّ اسمه ضامن یاری و عزت کسانی است که او را یاری کنند و عزیز شمارند.

٣ - خود را از شهوت رانی و سرکشی نفس باز دارد، زیرا نفس به طبع خود بدخواه است مگر خدا رحم کند.

ای مالك من تو را به کشوری فرستادم که پیش از تو دولت های عادل و ظالمی به خود دیده، مردم به همان چشم تو را بینند که تو والیان پیش از خود را بینی و درباره تو همان را می گویند که درباره آنها می گویی، خداوند مردمان نیك و شایسته را به زبان بندگان خود معرفی می کند، باید محبوب ترین ذخیره در نظر تو پس انداز کردن عمل صالح باشد، هوای نفس خود را داشته باش و نسبت به خود از آن چه بر تو حلال نیست دریغ کن، زیرا دریغ کردن به خویشتن رعایت انصاف با او است در آن چه دوست داری یا بد داری.

الفصل الثاني من عهده عليه السلام للاشتر النخعي

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللطفَ بِهِم، وَلا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفانِ: إِمّا أَخٌ لَكَ في الدِّينِ، وَإِمّا نَظِيرٌ لَكَ في الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتى على أَيْدِيهِمْ في الْعَمْدِ وَالْخَطاءِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِك مِثْلَ الذي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوالي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلاّكَ، وَقَدْ اسْتَكْفاكَ أَمْرَهُمْ، وابْتَلاكَ بِهِمْ، وَلا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلا غِنى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلا تَنْدَمَنَّ على عَفْوٍ، وَلا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلا تُسْرِعَنَّ إِلى بادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْها مَنْدُوحَةً، وَلا تَقُولَنَّ إِنِّي مؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغالٌ في الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ للدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ، وَإِذا أَحْدَثَ لَكَ ما أَنْتَ فيهِ مِنْ سُلْطانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخيلَةً فَانْظُرْ إِلى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلى ما لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذلِكَ يُطامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِماحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِما عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ.

إِيّاك وَمُساماةَ اللَّهِ في عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ في جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتالٍ.

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فيهِ هَوى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبادَ اللَّهِ كانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبادِهِ، وَمَنْ خاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكانَ للَّهِ حَرْباً حَتّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعى إِلى تَغْييرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقامَةٍ عَلى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدينَ، وَهُوَ للظّالِمينَ بِالْمِرْصادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطَها في الْحَقِّ، وَأَعَمَّها في الْعَدْلِ وَأَجْمَعَها لِرِضى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الخاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى العامَّةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوالي مؤُونَةً في الرَّخاءِ وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ في الْبَلاءِ، وَأَكْرَهَ للإِنْصافِ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإِعْطاءِ وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخاصَّةِ، وَإِنَّما عِمادُ الدِّينِ وَجِماعُ الْمُسْلِمينَ وَالْعُدَّةُ للأَعْداءِ العامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صَغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَؤُهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبَهُمْ لِمَعايِبِ النّاسِ، فَإِنَّ في النّاسِ عُيُوباً، الْوالي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَها، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمّا غابَ عنكَ مِنْها، فَإِنَّما عَلَيْكَ تَطْهيرُ ما ظَهَرَ [مِنْها] لَكَ،

وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى ما غابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ، يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ ما تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ، أَطْلِقْ عَنِ النّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغابَ عَنْ كُلِّ ما لا يَضِحُ لَكَ، وَلا تَعْجَلَنَّ إلى تَصْديقِ ساعٍ، فَإِنَّ السّاعِي غاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بالنّاصِحينَ.

وَلا تُدْخِلَنَّ في مَشْوَرَتِكَ بَخيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلا جَباناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمورِ، وَلا حَريصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غرائِزُ شَتّى يَجْمَعُها سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ.

إِنَّ شَرَّ وِزَرائِكَ مَنْ كانَ للأَشْرارِ قَبْلَكَ وَزيراً، وَمَنْ شَرِكَهُم في الآثامِ فلا يَكُونَنَّ لَكَ بِطانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوانُ الأَثَمَةِ، وَإِخْوانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ واجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرائِهِمْ وَنَفاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصارِهِمْ وَأَوْزارِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يُعاوِنْ ظالِماً على ظُلْمِهِ وَلا آثِماً عَلى إِثْمِهِ، أُولئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مُؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولئِكَ خاصَّةً لِخَلَواتِكَ وَحَفَلاتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُساعَدَةً فيما يَكُونُ مِنْكَ مِمّا كَرِهَ اللَّهُ لأَوْلِيائِهِ، واقِعاً ذلِكَ مِنْ هَواكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلى أَنْ لا يُطْرُوكَ، وَيُبَجِّحُوكَ بِباطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْراءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْني مِنَ الْعِزَّةِ.

وَلا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَواءٍ، فَإِنَّ في ذلِكَ تَزْهيداً لأَهْلِ الأَحسانِ في الإِحسانِ، وَتَدْريباً لأَهْلِ الإِساءَةِ على الإِساءَةِ وَأَلْزِمْ كُلا مِنْهُمْ ما أَلْزَمَ نَفْسَهُ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعى إِلى حُسْنِ ظَنِّ والٍ [راعٍ] بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفيفِهِ الْمَؤُوناتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْراهِهِ إِيّاهُمْ عَلى ما لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ، فَلْيَكُنْ مِنْكَ في ذلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَويلاً، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ ساءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ ساءَ بَلاؤُكَ عِنْدَهُ.

وَلا تَنْقُضْ سُنَّةً صالِحَةً عَمِلَ بِها صُدُورُ هذِهِ الأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِها الأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْها الرَّعِيَّةِ، وَلا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيءٍ مِنْ ماضِي تِلْكَ السُّنَنِ فَيَكُونُ الأَجْرُ لِمَنْ سَنَّها، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِما نَقَضْتَ مِنْها.

وَأَكْثِرْ مُدارَسَةَ الْعُلَماءِ، وَمُنافَثَةَ [مُناقَشَةَ] الْحُكَماءِ في تَثْبيتِ ما صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلادِكَ، وَإِقامَةِ مَا اسْتَقامَ بِهِ النّاسُ قَبْلَكَ»[1].

---

(١) تحف العقول: ١٣١، ومستدرك الوسائل: ١٣/ ١٦٣.

اللغة

(الضاري): المعتاد للصّيد، الجرىء عليه، **(الصفح)**: الإعراض عن الذنب وغفرانه، **(البجح)** بسكون الجيم: الفرَح والسرور، **(البادرة)**: الحدّة، **(المندوحة)**: السّعة في الأمر وعدم الضيق والإضطرار، **(الإدغال)**: إدخال الفساد في الأمر، **(المنهكة)**: الضعف، **(الإبهة)** و**(المخيلة)**: الكبر، **(يطامن)**: يسكّن، **(طماح)** النفس: جماحها عن المشتهيات، طمح البصر: ارتفع، **(عزب)** الفرس حدته وأول جريه، **(المساماة)**: مفاعلة من السموّ، **(الجبروت)**: عظيم الكبر، **(أدحض حجته)**: أبطلها، **(ينزع)**: يرجع، **(اجحف)** به: ذهب به، **(الالحاف)**: شدّة السؤال والإصرار فيه، **(ملمّات الدّهر)**: ما يلم وينزل من خطوبه وبلاياه، **(جماع المسلمين)**: جمعهم وعامّتهم **(الصغو)**: الميل، **(أشنأهم)**: أبغضهم، **(الوتر)**: الحقد، **(التغابي)**: التجاهل والتغافل، **(بطانة)** الرّجل: خاصّته الملاصقون به، **(الآصار)** جمع إصر: الآثام، **(حفلاتك)**: جلساتك في المجالس والمحافل، **(الاطراء)**: المبالغة في المدح والثناء، **(الزّهو)**: الكبر، **(التدريب)**: التّعويد، **(المناقشة)**: المحادثة والبحث.

الإعراب

(تغتنم أكلهم): جملة حالية عن اسم، **(لا تكوننّ)**، **(مثل الذي تحبّ)**: صفة موصوف محذوف أي عفواً وصفحاً مثل الذي تحبّ، **(ووالى الأمر)** مبتدأ و**(فوقك)** ظرف مستقر خبر له والجملة حالية، **(لا يدي)**: **(لا)** نافية للجنس **(ويدي)** مبني على علامة النصب وهو الياء وحذف النّون على التوسع والتشبيه بالمضاف.

(إيّاك ومساماة الله): منصوب على التحذير، **(تغاب)**: أمر من تغابى يتغابى تغابياً للأشرار قبلك، **(قبلك)**: ظرف مستقر حال عن الأشرار.

المعنى

قد تعرّض عليه السلام هذا في الفصل من عهده للأشتر لبيان روابطه مع رعيته والمسوسين له من العامّة والخاصّة في ثلاثة مراحل:

الأولى: رابطته باعتبار أنه وال على النّاس وبيده القدرة والأمر والنهي مع كلّ أحد، وبيّنها في أمور:

١ ـ أن يكون ملء قلبه المحبّة واللطف والرّحمة لكافّة الرعيّة.

٢ ـ عدم سوء الاستفادة من قدرته عليهم فيصير ذئباً وقع على غنم يأكلهم لأنّ رعاياه،

إمّا إخوانه في الدّين ككافة المسلمين، وإمّا إخوانه في الإنسانية كالذّمّي والمعاهد.

٣ ـ الصفح عن خطاياهم والعفو عن ذنوبهم لنقصان التربية، ونبّهه على أنّ نسبتهم إليه كنسبته إلى الوالي الأمر عليه وفوقه أيضاً هو الله، فينبغي الصفح عنهم، كما أنّه يرجو الصفح عنه من الوالي الأمر وفوقه من الله القادر، وبيّن أنّ تعذيب عباد الله بمنزلة الحرب مع الله الذي لا قدرة تجاه عقوبته، ولا غنى عن عفوه ورحمته.

٤ ـ عدم النّدامة على عفو المجرم مهما كان.

٥ ـ عدم السرور والانشراح لعقوبة المجرم إذا اقتضاها الضرورة.

٦ ـ ملازمة الحلم والاجتناب عن بادرة الغضب.

٧ ـ لا تفسد قلبك بحديث الرياسة والسلطة.

٨ ـ وإذا أحدث السلطان فيه أبهة وطغياناً فلينظر إلى عظم ملك الله حتّى يخضع قلبه ويدرك عجز نفسه ويكف عن جريه في سبيل الأمارة، ويجد عقله الزائل في سكر الرياسة.

٩ ـ حذّره عن اغتراره باحتفاف النّاس حوله وانقيادهم له فتطغى نفسه كفرعون ويبارز الله في عظمته وجبروته، فإنه يذلّه الله ويهينه كفرعون ويأخذه بنكال الآخرة والأُولى ويصير عبرة لمن يخشى.

١٠ ـ أمره برعاية الانصاف مع الله وخلقه، سواء بالنسبة إلى نفسه أو أهله أو من يهواه من رعيّته، فلا يهضم حقّ الله وحقّ أحد من عباده لرعاية هؤلاء فإنه ظلم والله خصم للظالم، ومن خاصمه الله أدحض حجّته وكان لله حرباً حتّى يتوب والظلم يوجب تغيير النعم وسلب الأمارة والحكم.

١١ ـ أمره برعاية ما هو الأفضل في أداء الحقّ وما هو أعمّ لجميع الرّعيّة في أجراء العدل وما هو أجمع لرضا الرعية في تمشية الأُمور وإن كان يوجب سخط الخاصّة من أرباب النفوذ وأصحاب المقامات السّامية، وعلّل ذلك بأنّ غضب عامّة الرعيّة وعدم رضاهم عن وضعهم يوجب الثورة والبلوى ولا يقدر الخاصّة مهما كانوا مخلصين للحكومة وجادين في نصرته المقاومة تجاه سيول الثائرين وأهل البلوى كما حدث في زمان عثمان حيث إنّ سوء سياسته وعدم تأديته الحقوق العموميّة صار سبباً لنقمة عامّة الجيش الإسلامي، فانحازوا من مصر وكوفة واجتمعوا في المدينة وحصروا عثمان ولم يقدر خاصّته كمروان بن حكم وسائر رجال بني أُميّة مع كمال نفوذهم ودهائهم أن يصدّوا سيل الثائرين والمهاجمين حتّى قتل عثمان في داره وأُلقي بجسده إلى البقيع وتبعه ما تبعه من الحوادث الهامّة، ولكن إذا كان

العموم راضياً وموافقاً مع الوالي فسخط بعض الخواص لا يؤثر شيئاً، لأنَّ الفرد والأفراد القليلين لا يقدرون على مقاومة الوالي إذا لم تساعدهم العموم.

ثمَّ وصف الخاصّة الملاصقة بالوالي مع كمال أدبهم وتواضعهم بما يلي:

أ ـ هم أثقل النّاس على الوالي من جهة المؤونة وما يتوقّعون من معاش أشرافي يصاحب الخدم والحشم والغلمان والمماليك، كما كان في حال الرّخاء والعافية.

ب ـ هم أقلّ النّاس معونة عند حلول البلاء وضيق الحال.

ج ـ هم أكره النّاس للعدل والانصاف لأنَّ وضعهم يقتضي التجاوز والتعدّي بحقوق غيرهم.

د ـ هم أصرّ النّاس على السؤال وتقديم التقاضا لحوائجهم حقًّا كانت أم باطلة.

هـ ـ هم أقلّ النّاس شكراً للعطايا وأبطأ لقبول الاعتذار عند المنع.

و ـ هم أضعف صبراً في النوائب وتجاه الحوادث فيفرّون عن صفّ الجهاد عند شدّة البأس، ثمَّ وصف العامة من النّاس بما يلي:

هم عماد الدّين وحفاظه، ويتشكّل منهم جامعة المسلمين والسّواد الأعظم وهم العدَّة في الدِّفاع عن الأعداء.

١٢ ـ ثمَّ وصف أهل النمامة وطلاّب عيوب الناس وأمره بابعاده وشنئانه ونبّه أنَّ من مصلحة الوالي الستر على عيوب النّاس وعدم التفتيش عنها حتّى لا يوجب نفورهم عنه وخوفهم منه.

١٣ ـ أمره بقطع كلّ ما يوجب حقد النّاس وتمكن البغضاء في صدورهم.

١٤ ـ التجاهل عن أُمورٍ لا يصحُّ للوالي الدخول فيها من أحوال الناس الخصوصيّة ممّا لا يصح ويظهر له.

١٥ ـ التوقّف في تصديق من يسعى لديه عن غيره حتّى يتفحّص ويتحقّق ووصف الساعي بأنّه عاش في صورة ناصح.

١٦ ـ النهي عن المشورة مع البخيل.

١٧ ـ النهي عن المشورة مع الجبان.

١٨ ـ النهي عن المشورة مع الحريص.

وقد أشار إلى أنَّ المشورة مع هؤلاء لا تهتدي إلى رأي صالح مصيب باعتبار ما ركز في طبع هؤلاء من مساوى الأخلاق التي تؤثّر في رأيهم وتكدّره، فالبخيل يمنع عن الإيثار والبذل لكلٍّ أحدٍ كما أنَّ الجبان لا يرى الحرب والجهاد مع الأعداء مصلحة في حال من الأحوال، لأنَّ جبنه يدعوه إلى حفظ النفس والإخفاء عن العدوّ كما أنَّ الحريص الجامع للدنيا يدعو إلى الشَّره.

ثمَّ نبّه إلى أنَّ هذه الذمائم ترجع إلى مبدءٍ واحدٍ وهو سوء الظنّ بالله تعالى وقلّة معرفته.

واعلم أنَّ الوزير هو المعاون والظهير كما قال الله تعالى حكايةً عن موسى بن عمران ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١)﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣١] وقد خصّص هذا العنوان بمن يعاون الرؤساء والملوك حتّى يتبادر من لفظ وزير فلان أنّه سلطان ووالي مصر باعتبار سعة ميدان نفوذه يساوي ملكاً من الملوك وقد كان لكلٍّ فرعون من فراعنة مصر وكلّ ملك من ملوكها وكلٍّ والٍ من ولاتها الإسلاميّين وزراء ومعاونون وهم أهيأ الناس للالتصاق بالوالي الجديد وكسب الجاه عنده وإشغال مقام الوزارة لديه وتقديم الهدايا وتحسين الثناء وبذل العون له بما لهم من التجربة والاطّلاع على مجاري الأُمور، وقلّما يقدر والٍ جديدٍ أو ملك جديد من التخلّص عن أمثال هؤلاء، ولكنّه صلوات الله عليه بيّن حال تلك العصابة المتمرّنة على الظلم فقال: إذا كان الوزير وزيراً للوالي الشرير فقد شركه في الآثام والمظالم ولا يجوز الاعتماد عليه واتّخاذه بطانة في أُمور الحكومة فإنّهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة.

ثمَّ هداه إلى رجال آخرين يفضّلون على أمثال هؤلاء من وجوه:

١ ـ لهم مثل آرائهم ونفاذهم في الأُمور مبرّؤون من الآصار والأوزار لعدم المعاونة على الظلم والإثم فتكون آراؤهم أصقل ونفاذهم أكثر.

٢ ـ أولئك أخفُّ مؤونة لأنّهم أهل صلاح وسداد ولم يعتادوا الإسراف في المعيشة وادّخار الأموال.

٣ ـ معونتهم للوالي أكثر من الوزراء السابقين لعدم اعتيادهم بالمسامحة في الأُمور.

٤ ـ لم يغيّر صفاء قلوبهم المطامع والمكائد فكان حبّهم للوالي خالصاً وعطفهم عليه عن صميم القلب.

٥ ـ لم يألفوا مع أُناس آخرين هم أتباع وأعوان الأشرار الماضين فأُلفتهم مع غير الوالي قليل.

ثمَّ أمره بالانتخاب من أولئك الوزراء الصالحين فقال عليه السلام:

(**ثمَّ ليكن آثرهم عندك أقولهم بمرِّ الحقِّ لك**) على خلاف عادة الولاة الظلمة الطالبين لمن يؤيّدهم على أهوائهم الباطلة، وقد ذكر الشارح المعتزلي هنا قصّة لطيفة كما يلي:

أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول في الحجّاج؟ قال: وما عسيت أن أقول فيه، هل هو إلاّ خطيئة من خطاياك، وشرر من نارك، فلعنك الله ولعن الحجّاج معك وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز فقال: ما تقول في هذا؟ قال: ما أقول فيه هذا رجل يشتمكم، فإمّا أن تشتموه كما شتمكم، وإمّا أن تعفوا عنه، فغضب الوليد وقال لعمر: ما أظنّك إلاّ خارجياً، فقال عمر: وما أظنّك إلاّ مجنوناً، وقام فخرج مغضباً، ولحقه خالد ابن الرّيان صاحب شرطة الوليد، فقال له: ما دعاك إلى ما كلّمت به أمير المؤمنين؟ لقد ضربت بيدي إلى قائم سيفي أنتظر متى يأمرني بضرب عنقك، قال: أو كنت فاعلاً لو أمرك؟ قال: نعم، فلمّا استخلف عمر جاء خالد بن الرَّيان فوقف على رأسه متقلّداً سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد ضع سيفك، فإنّك مطيعنا في كلِّ أمر نأمرك به، وكان بين يديه كاتب كان للوليد، فقال له: فوالله ما زالا وضيعين مهينين حتّى ماتا.

أقول: عمر بن عبد العزيز لمّا تصدّى للخلافة يعلم أنَّ مظالم بني أُميّة شاعت في الأقطار الإسلاميّة وتلاطمت فكاد عرش الخلافة يسقط فدبّر أحسن تدبير لتعليل تلك المظالم وقطع أيادي المولعين بها بكلِّ وجه ممكن، ومن أهمِّ ما نفّذه إسقاط سبِّ أهل البيت من الخطب وردّ فدك إلى بني فاطمة كما ذكرناه في مقامه ولم يأل جهداً في إصلاح الاجتماع ولكن لم يتركوه على سرير الخلافة إلاّ ممّا يقرب ثلاث سنين.

ثمَّ أمره عليه السلام بالتقرُّب بأهل الورع والصّدق وتركهم على حالهم حرًّا لئلا ينحرفوا عن طريق الورع والصدق فيطروه بالثناء ويمدحوه بما لا يستحقُّ فإنَّ الإطراء يفسدهم ويؤثر في الوالي فيكسبه زهواً وغروراً فيفسد هو أيضاً.

ثمَّ أمره برعاية العدالة والحقِّ بينهم وليس معناه أن ينظر إلى جميعهم بنظرة واحدة ويكون المحسن والمسيء سواءاً فإنّه يوجب تزهيد أهل الإحسان في الإحسان وتدريب أهل الإسائة بالإسائة.

ثمَّ نبّهه على أن ألزم ما يكون يتوجّه إليه الوالي جلب حسن ظنِّ الرعيّة وجلب عطفه وأدعى شيءٍ إلى ذلك أمران:

١ ـ الإحسان بالرعايا ببذل ما يحتاجون من المؤونة والحوائج.

٢ ـ تخفيف ما يطلب منهم من الخراج والمؤونات وترك استكراههم على ما ليس في

عهدتهم لجلب حسن ظنّهم واعتمادهم على الوالي فحسن الظن بالوالي إذا عمَّ الرعايا يسهّل الأمر عليه في إدارتهم ولا يحتاج إلى بثّ العيون والمحافظين عليهم، وحسن الظنّ لا بدّ وأن يكون إثر التجربة والامتحان.

ثمَّ وصّاه برعاية السنن الصالحة التي عمل بها صدور الأُمّة الإسلاميّة وشاعت بين المسلمين وألفوا بها فلا يصحُّ نقض هذه السنن وتبديلها بالبدع أو تركها رأساً والمقصود منها السنن الحسنة التي عمل بها المسلمون اقتداءاً بالنبيّ ﷺ أو عملوها في مشهد من النبيّ فأقرّهم عليها فصارت من السنن الإسلاميّة الثابتة.

الترجمة

۱ - دلت را نسبت به رعیّت پر از مهر و محبّت و لطف کن، نسبت به آنها چون درنده آزارکننده ای مباش که خوردن آنان را غنیمت شماری، زیرا از دو کس بیرون نیستند: یا برادر دینی تو هستند یا همنوع تو محسوبند و در معرض لغزش و خطا قرار دارند و از روی عمد و یا خطا گاهی تجاوز می کنند، به اندازه ای درباره آنها گذشت و عفو منظوردار که خود از خداوند توقّع گذشت و عفو گناه خود را داری، تو بالادست آنهایی و والی تو بالادست تو است و خداوند بالادست کسی است که تو را والی کرده و کار آنها را به تو وا نهاده و بهوسیله آنها تو را در معرض امتحان قرار داده است.

۲ - هرگز به جنگ و ستیز با خدا برمخیز زیرا تاب انتقام او را نداری و از عفو و رحمتش بی نیاز نیستی.

۳ - هرگز از عفو خلاف کار پشیمان مباش.

٤ - هرگز بر شکنجه و عقوبت مبال.

٥ - تا راه گریز داری به تندی و تحکّم مشتاب، مگو من فرماندهم و فرمانم اجرا می شود، زیرا این خود فساد در دل و سستی در دین پدید می کند و دگرگونی و آشوب به بار می آورد.

٦ - چون از ملاحظه حکومت و مقاومت، تکبّر و سرافرازی به تو دست داد، نگاهی به ملك بزرگ خدا کن که بالادست تو است و توجّه کن که خداوند بر تو قدرت دارد و تو در برابر او بر خود هم قدرت نداری، زیرا این توجه سرکشی تو را فرونشاند و تندی تو را بازدارد و عقلی که بر اثر خود بینی از سرت به در رفته به تو بازگردد.

۷ - مبادا با خداوند در بزرگی و جبروت سر همسری و همانندی داشته باشی، زیرا خداوند هر جبّاری را خوار و هر بالنده ای را زبون می کند.

۸ - نسبت به خداوند و مردم از طرف خودت و خاندانت و دوستانت انصاف و عدالت را مراعات کن، اگر نکنی ستم ورزیده ای (و هر کس به بندگان خدا ستم کند خدا از طرف بندگانش خصم او است و چون خدا با کسی خصومت کند دلیلش را باطل نماید و با او بجنگد تا برگردد و توبه کند)، هیچ چیز از ادامه ستمکاری مؤثّرتر در زوال نعمت خداوند و تعجیل انتقام او نیست، زیرا خدا نفرین ستم کشان را خوب می شنود و در کمین ستم کاران است.

۹ - کارهایی را بیشتر دوست دار که با حقیقت تر و عادلانه تر و رضایت عمومی رعایا را بهتر جلب می کند، زیرا خشم ملّت رضایت مخصوصان دولت را پایمال می کند ولی خشم مخصوصان دولت با وجود رضایت عمومی ملّت جبران و درگذشت می شود، مخصوصان و اطرافیان والی در هنگام صلح و آسایش هزینه بسیار سنگینی بر او تحمیل می کنند و در هنگام گرفتاری کمتر به او کمك می دهند، از عدالت بیشتر بدشان می آید و پروتر درخواست عطا و مقام می کنند، چون به آنها چیزی داده شود کمتر شکر می کنند و اگر دریغ شود دیرتر عذر می پذیرند و در پیشامدهای ناگوار روزگار ناشکیباترند.

همانا ستون دیانت و جامعه مسلمانان و ذخیره دفن دشمنان توده عمومی ملّت باشند، باید گوشت به سخن آنها و دلت با آنها باشد.

۱۰ - هرکس از رعایا نسبت به مردم عیب جوتر است او را از خود دور کن و دشمن تر بدار، زیرا طبعاً در مردم عیب هائی هست که بایست والی بیشتر از دیگران آنها را بپوشد، در مقام مباش که عیب آنها را بدانی زیرا هرچه را بدانی باید آن را اطلاح کنی ولی آن چه از تو پنهان است خدا درباره آن حکم می کند، تا می توانی بدی ها را بپوش تا خدا عیب تورا از رعیّت بپوشد.

۱۱ - با مردم به هیچ وجه کینه توزی مکن و خونی از آنها برعهده مگیر و از آن چه بر تو روشن نیست تغافل بورز.

۱۲ - در تصدیق راپورتچیان سخن چین شتاب مکن، زیرا آنان در لباس خیرخواه، آب به شیر می کنند.

۱۳ - چند طایفه را هم شور خود مکن:

الف - بخیل، زیرا تو را از فضل و احسان منصرف می کند و از تهی دستی بیم می دهد.

ب -ترسو، زیرا تو را در هر کاری به سستی و ضعف می کشاند.

ج - حریص و آزمند، زیرا دست اندازی برخلاف حق را در نظر تو نمایش می دهد، بخل و ترس و حرص چند خصلت بدند که ریشه همه آن ها بدگمانی به خدا است.

١٤ - بدترین وزیران تو کسانی اند که وزیر والیان بدکار پیش از تو بوده اند و با آنها در گناهان همکاری کرده اند، مبادا اینان طرفداران و مخصوصان تو باشند، زیرا که یار گنهکاران و برادر ستمگرانند، تو می توانی به جای آنها بهتر از آن ها را بیابی، کسانی که نظریّات و نفوذ آنها را دارند ولی وزر و وبال آنها را ندارند و با ستمکاران و گنهکاران همکاری نکرده اند، این مردان پاکدامن هزینه کمتری بر تو تحمیل می کنند و نسبت به تو مهربان ترند و با بیگانه ها کم الفت ترند، آنها را مخصوصان جلسه های سرّی و انجمنهای علنی خود قرارده، سپس برگزیده تر آنها پیش تو کسی باشد که حق را بی پرده برابر تو بگوید و در مخالف خواست حق برای دوستانش تورا کمتر مساعدت کند، چه دلخواه تو باشد چه نباشد.

١٥ - به پاکدامنان و راستگویان بپیوند و آنها را چنان بارآور و بپرور که تملق تورا نگویند و به کارهایی که نکرده ای بیهوده ستایش و خوشامد تو را نگویند، زیرا مدح، خودپسندی آورد و به غرور کشاند.

١٦ - مردمان درست و خوش رفتار و نادرست و بدکار را به یك چشم منگر و برابر مدان، زیرا در این صورت مردان درست و خوشرفتار به خدمت کردن و درستی بی رغبت می شوند و مردان بدکار و نادرست به بدکرداری تشویق و وادار می گردند، هریك از این دو را به پاداش کارشان که خود برای خود خواسته اند برسان.

١٧ - باید رعیّت را به خود خوش بین و امیدوار کنی و بهترین راهش این است که به آنها احسان کنی و بار هزینه و مخارج آنها را تا می توانی سبك کنی و آنها را به چیزی که در عهده آنها نیست به زور وادار نکنی، در این زمینه طبعاً تو

هم برعيّت خوش بين خواهى شد و خوش بينى تو به آنها رنج و اندوه فراوان و دنباله دارى را از دوشت برمى دارد.

۱۸ - نسبت به هركس پيش تو آزمايش خوب داده بايد خوشبين باشى و هركس آزمايش بد داده به او بدبين باش.

۱۹ ـ روش نيكى كه پيشروان و رهبران نخست اين امّت به كار زده اند و با آن توده را به هم پيوسته اند و كار رعّيت را اصلاح كرده اند نقض مكن و روش تازه و بدى كه به اين دستورات نيك گذشته لطمه مى زند پديد مياور تا آنان كه روشهاى نيك را گذاشته اجر برند و تو وبال نقض آن را به گردن بگيرى.

۲۰ ـ درباره دستورات اصلاحى كشور و اداره كارهاى مردم كه پيش از تو بوده است با دانشمندان مطّلع بسيار گفتگو كن و با فرزانگان خيرخواه بسيار انجمن نما.

الفصل الثالث من عهده عليه السلام

«وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقاتٌ لا يَصْلُحُ بعضُها إلاّ بِبَعْضٍ، وَلا غِنى بِبَعْضِها عَنْ بَعْضٍ، فَمِنْها جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْها كُتّابُ الْعامَّةِ والْخاصَّةِ وَمِنْها قُضاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْها عُمّالُ الإنْصافِ والرِّفْقِ، وَمِنْها أَهْلُ الْجِزْيَةِ والْخَراجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النّاسِ، وَمِنْهَا التُّجّارُ وَأَهْلُ الصِّناعاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلى مِنْ ذَوِى الْحاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلى حَدِّهِ فَرِيضَتَهُ في كتابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ عَهْداً مِنْهُ عِنْدنا مَحْفُوظاً.

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ وَسُبُلُ الأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إلاّ بِهِمْ، ثُمَّ لا قِوامَ لِلْجُنُودِ إلاَّ بِما يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الخَراجِ الَّذي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلى جِهادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فيما يُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَراءِ حاجَتِهِمْ، ثُمَّ لا قِوامَ لِهذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إلاّ بِالصِّنْفِ الثّالِثِ مِنَ الْقُضاةِ والْعُمّالِ وَالْكُتّابِ لِما يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَواصِّ الأُمُورِ وَعَوامِّهَا، وَلا قِوامَ لَهُمْ جَميعاً إلاّ بِالتُّجّارِ وَذَوِي الصِّناعاتِ فيما يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرافِقِهِمْ، وَيُقيمُونَهُ مِنْ أَسْواقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مِمّا لا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِم، ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلى مِنْ أَهْلِ الحاجَةِ والْمَسْكَنَةِ الذينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ، وَفي اللَّهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوالي حَقٌّ بِقَدْرِ ما يُصْلِحُهُ.

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوالي مِنْ حَقيقَةِ ما أَلْزَمَهُ اللَّهُ تَعالى مِنْ ذلِكَ إلاّ بالإهْتِمامِ والإسْتِعانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطينِ نَفْسِهِ عَلى لُزُومِ الْحَقِّ والصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيما خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ».

اللغة

(الرَّعية): الماشية الراعية، الماشية المرعية، **(الطبقة)**: المرتبة ومن ذلك قولهم: الطبقة الاجتماعية وطبقة العمّال ونحوها، **(الجند)**: جمع أجناد وجنود والواحد جندي: العسكر، **(الكاتب)** ج: كتاب: العالم ومن عمله الكتابة ـ المنجد.

(الجزية): الخراج المعروف المجعول على رأس الذمّي يأخذه الإمام في كلّ عام، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ قيل: سمّيت بذلك لأنّها قضاية منهم لما عليهم، وقيل: لأنها يجتزى بها ويكتفى بها منهم **(الحصن)**: واحد الحصون: وهو المكان المرتفع لا يقدر عليه لارتفاعه ومنه: الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة[1] ـ مجمع البحرين.

(١) مجمع البحرين: ١/٥٢٦.

(المعاقد) جمع معقد: وهو العقد والقرار في المعاملات ويطلق على الأوراق المتضمّنة للمعاهدات.

الإعراب

(لا يصلح بعضها إلاّ ببعض): جملة فعلية صفة لقوله **(طبقات)**، **(لا غنى ببعضها)**: **(لاء)** المشبهة بليس و**(غنى)** اسمها، **(منها جنود الله)**: جملة اسميّة قدّم خبرها لكونه ظرفاً، وهكذا ما عطف عليها من سائر الجمل، **(أو سنّة نبيّه)**: عطف على قوله فريضة عهداً منه منصوب على التميز الرافع للإبهام عن النسبة من قوله: **(قد سمّى الله سهمه)** ويحتمل أن يكون حالاً، **(لاقوام للجنود)**: **(لاء)** نافية للجنس والخبر محذوف أي لا قوام متحقّق للجنود، **(ما لا يبلغه)**: لفظة **(ما)** اسميّة: أي شيئاً لا يبلغه، **(وفي الله لكلّ سعة)**: سعة مبتدأ مؤخّر، **(وفي الله)** ظرف مستقرّ خبر له **(ولكلّ)** جار ومجرور متعلّق بقوله سعة.

المعنى

قد تعرّض عليه السلام في هذا الفصل من عهده المبارك لبيان طبقات النّاس والرَّعيّة وأثبت للرَّعيّة طبقات سبعة وليس المقصود من ذلك إثبات نظام الطبقات وتأييده فإن نظام الطبقات مخالف للعدل والديمقراطية الحاكمة بتساوي الرّعيّة في الحقوق.

فالبشر في تحوّله الاجتماعي شَرُعٌ من النظام القبلية والأسرة المبني على أنَّ الحكم المطلق ثابت لرئيس القبيلة وأبو الأسرة يحكم على الأفراد بما شاء يعزّ من شاء ويذلُّ من شاء، فلا حياة للفرد إلاّ في ضمن القبيلة ويشترك معها في الخيرات والشرور على ما يراه صاحب الأسرة ورئيس القبيلة، وهذا أدنى نظام اجتماعي وصل إليه البشر في تكامله الاجتماعي وانتقاله من الغاب إلى الصّحراء، وقد ظلّ البشر في هذا النظام آلافاً من السّنين يسكن في ظلّ بيوت من الشعر أو الجلد وينتقل من كور إلى كور، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدور في قوله:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل: ٨٠].

وقد تحولت أُمم من هذا النظام إلى نظام مدني أرقى قبل آلاف من السنين فقد ذكر بعضهم اكتشاف آثار المدنيّة في مصر من قبل خمسة عشر ألف عام وفي الصّين إلى ما قبل ذلك بآلاف من القرون، ثمّ ازدهرت المدنية في بين النّهرين وضواحي إيران وفارس وظلّت قبائل أوروبا وافريقيا برابرة يعيشون تحت الخيام إلى هذه العصور الأخيرة إلاّ ما ظهرت من المدنية في اليونان وبعض ضواحي البحر الأبيض وجزره.

فنظام الطبقات يحصل للأمم بعد التحول من النظام القبلي ومرجعه إلى اعتبار الامتيازات بين الأفراد والأصناف ويبتنى على التبعيض في الحقوق العامّة، كما شاع الآن في إفريقيا الجنوبية حيث إنَّ الجنس الأبيض وهم الأسرة الحاكمة في البلاد يمتازون عن السودان وهم أكثر سكان البلاد الأصليين بحقوق واسعة، فنظام الطبقات يخالف التساوي والتآخي بين الأفراد والتساوي في الحقوق كما نادى به الإسلام في القرآن الشريف حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣] وقد تعلّق العرب على النظام الطبقاتي واعتبار الامتياز من وجوه شتّى: منها عدم تزويج بناتهم من غير العرب وعدم تزويج القبائل بعضها مع بعض باعتبار علوّ شأنهم، وقد اهتمّ النبيّ ﷺ بمحو النظام الطبقاتي وإلغاء هذه الامتيازات المتوهّمة بكلّ جهده.

ومقصوده عليه السلام من قوله **(واعلم أنَّ للرَّعيّة طبقات)** ليس إثبات الطبقات بهذا المعنى بل بيان اختلاف الرَّعيّة في ما تتصدّاه من شؤون الحياة البشريّة حيث إنَّ الإنسان مدني بالطبع يحتاج إلى حوائج كثيرة في معاشه من المأكل والملبس والمسكن ولا يقدر فرد واحد بل أفراد على إدارة كلّ هذه الأمور فلا بدّ وأن ينقسم الرّعيّة بحسب مشاغله إلى طبقات ويتصدّى كلّ طبقة شأناً من الشؤون وشغلاً من المشاغل، ثمَّ يتبادل حاصل أعماله بعضهم مع بعض حتّى يتم أمر معيشتهم ويكمل حوائج حياتهم وجعل الرَّعية سبع طبقات:

١ ـ الجنود المحافظون للحدود والثغور والمدافعون عن هجوم الأعداء.

٢ ـ كتّاب العامّة المتصدّون لكتابة العقود والمعاهدات والحقوق وغيرها من المراسلات.

٣ ـ قضاة العدل ورؤساء المحاكم المتصدُّون للترافع بين النّاس والنظر في الدَّعاوى وإثبات الحق عن غيره بحسب الموازين القضائية المقرَّرة.

٤ ـ عمال الأمور الحسبيّة المحافظون على الانصاف والرِّفق بين النّاس وهم الذين يجرون الأحكام القضائية وينفذونها وتتعلّق هذه الوظيفة في هذه العصور بإدارة الشرطة العامّة وما يتبعها من المخافر.

٥ ـ أهل الجزية والخراج من أهل الذمّة ومسلمة النّاس، قال ابن ميثم وقوله من أهل الذمّة ومسلمة النّاس تفصيل للأهل الأوّل، فأهل الذمّة تفسير لأهل الجزية ومسلمة الناس تفسير لأهل الخراج، ويجوز أن يكون تفسيراً لأهل الجزية والخراج لأنَّ للإمام أن يقبل أرض الخراج من سائر المسلمين وأهل الذمّة.

أقول: لا إشكال في اختصاص أهل الجزية بالذمّيين، وأمّا أهل الخراج أيضاً كان أكثرهم في صدر الإسلام ذمّياً لأنَّ المسلمين مشتغلون بأمور الدّين وتجهيز الجيوش ولا فرصة لهم في الاشتغال بزرع الأرض وحرسها فكلّ أرض يملكها المسلمون يكون في أيدي أهل الذمّة يعملون فيها ويؤدّون خراجها، ولكن ظهر في أهل الخراج من المسلمين وزادوا تدريجاً بوجهين:

أ ـ أنَّ كثيراً من أهل الذمّة التابعين للإسلام أسلموا فيما بعد لما ظهر لهم من دلائل صدق الإسلام وحسن سلوكه.

ب ـ أنه بعد ما شاع الإسلام في كثير من المعمورة وانتشر في البلدان النائية العامرة كمصر والشّام فقد تصدّى جمع من المسلمين لأمر الزراعة والحرث وصاروا من أهل الخراج.

٦ ـ التجار وأهل الصناعات والحرف الكثيرة التي عليها مدار حياة البشر وإدارة شتّى شؤونها من التجارة والبناية والعمارة وغيرها.

٧ ـ الطبقة السّفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، والتعبير عن هذه الطبقة بالسفلى باعتبار أنها لا تقدّم عملاً نافعاً في الاجتماع تتبادل به مع أعمال الطبقات الأُخر فلا بدّ وأن تعيش من عمل الطبقات الأُخر.

وقد بيّن عليه السلام في نظام طبقات الرّعيّة أنه لا محلّ للعاطل ومن لا يعمل عملاً يفيد الاجتماع في المجتمع الحيّ البشري، فما ترى بَيْنا لأُمّة من جماعات لا يتصدّون لهذه المشاغل ويعيشون ربما أرغد عيش بين الرَّعيّة فهم كاللّصوص والمغيرين.

فمنهم أرباب رؤوس المال الذين يتحصّلون الأرباح من رأس مالهم ويعملون بالرّبا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

وقد شاع هذه الطبقة في هذه العصور يسكنون القصور ويعيشون بالهناء والسرور من دون أن يعملوا عملاً للاجتماع.

ومنهم أرباب الحيل والمخاديع ممّن يدّعى السحر والنيرنجات والرّمل وأمثال ذلك فيتوجّه إليهم البسطاء من الناس ويبذلون في سبيل دعاويهم الباطلة الغالي والرخيص من أموالهم.

ومنهم أصحاب التعاويذ والدراويش ومن حذا حذوهم ممّن يحصلون أموال البسطاء والغافلين بأنواع المكائد والحيل.

ومنهم من يسأل بكفّه ويدور في الأسواق والدُّور ويستغيث بالنّاس لتحصيل المعاش والرزق بالتكدّي.

ولو عدّ في مثل هذه العصور طبقات النّاس في بلد إسلامي يوجد فيها طبقات كثيرة لا تدخل في هذه السبعة.

ثمَّ بيّن عليه السلام الموقع الاجتماعي لكلّ من هذه الطبقات واحتياج بعضها إلى بعض في إدارة شؤون الحياة وإدامتها فوصف الجنود بأنّهم:

١ ـ حصون الرَّعية ووسيلة الأمن والرّاحة لهم بحيث لا حفاظ ولا دفاع تجاه الأعداء المهاجمين أو اللصوص السالبين إلاّ بوجودهم.

٢ ـ زينة وأُبّهة للولاة تجاه العدوّ الخارجي والمخالف الدّاخلي فلولا وجود الجند لا يمكن للوالي تمشية الأمور وتدريبها.

٣ ـ الجنود الإسلاميّة الذين يقومون في ميادين الجهاد بنصرة الحقّ عزّ للدِّين تجاه الأعداء الكافرين.

٤ ـ الجنود سبل للأمن من وجوه شتّى فلا يجترىء اللّص أن يسلب أموال النّاس خوفاً من الجنود ولا يجترىء العدوّ أن يهاجم المسلمين ويسلبهم أموالهم خوفاً من الجنود.

ولا بد لمعاش الجندي وسدّ حوائجه من وجوه كافية تصل إليه دوماً وهو الخراج الذي يتحصّل من الأراضي الخراجيّة وقد يكون أجناساً صالحة للمعيشة كحصّة من حنطة الأرض الخراجية، وقد يكون درهماً وديناراً يصرف في رفع الحوائج، فوجود الجند إنّما يقوم على الخراج المقررّ له فإنّه لولا هذا الخراج يحتاج إلى التخلّي عن شغله والسعي وراء طلب المعيشة فلا يبقى جنديًا فإنَّ الجنود لا بدّ وأن يكونوا معدّين للجهاد ومقاومة العدوّ في كلّ حينٍ وتحصيلِ الخراج وإيصاله إلى الجند يحتاج إلى الصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب، فإنَّ الخراج إنّما يؤخذ على طبق معاهدة بين عمّال الأرض والوالي فلا بدّ من تنظيم أسناد ثمَّ لا بدّ من عمّال يحصّلون الخراج من عمال الأرض طبق المعاقدة المرضيّة، وربما ينشأ هناك خلافات بين عمّال الوالي وعمّال الأراضي أو بعضهم مع بعض فلا بدّ من الرجوع إلى القاضي في حلّ هذه الخلافات، وهذه الجامعة المركّبة من القوّة الدفاعيّة والماليّه والقضائيّة والكتّاب لا يقدرون على المعيشة إلاّ مع ما يقضي حوائج المعيشة من اللباس والغذاء وأنواع الأثاث والرياش التي يحتاج وجودها إلى من يصنعها ويهيّؤها وإلى من

ينقلها من بلدٍ إلى بلد، وهم التجّار وذوي الصناعات فأهل الصنعة بفنونها وشعوبها منتشرة في شرق الأرض وغربها ويتخصّص أهل كلّ بلدٍ بصنعة خاصّة بهم والواسطة في حمل هذه المصنوعات من بلدٍ إلى بلد هم التجّار الذين يتعرّفون على وجود كلّ صنعة في أيّ بلدٍ ويتحمّلون المشاقّ في نقلها إلى أسواق أُخرى حيث يضعونها في منال أيدي الطالبين، فالتجّار وذووا الصنعة ركن في الاجتماع المدني لما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونه من الترفّق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثمَّ بعد ذلك لا يخلو الاجتماع مهما كان صحيحاً ومنظّماً وعادلاً من وجود ذوي العاهات والعجزة والأشياخ لا يقدرون على العمل، فهذه الطبقة كالقشر من الشجرة فكما أنّه لا يمكن وجود شجرة سالمة مثمرة من دون قشر، لا يمكن وجود اجتماعٍ خالٍ من هذه الطبقة السفلى، فمنهم من أدّى خدمته أيّام شبابه ودوران صحّته ثمّ عرضه الهرم أو اعترضه السقم فتعذّر له العمل، فلا بدَّ من رعايته بتحمّل مؤونته، ومنهم من حرم من القوّة لعاهة اعترضته فلا بدَّ من حفظ حرمته ورعاية كرامته، وهم الذين يحقُّ رفدهم ومعونتهم وتهيئة وسائل معيشتهم ويسع رحمة الله كلّ هذه الطبقات السبع ولكلّ منهم على الوالي حقّ الرعاية والمحافظة بقدر ما يصلحه.

الترجمة

ای مالك، بدان كه ملّت از طبقه های چندی تشكيل می شود كه بايد هركدام را با ديگری اصلاح كرد و همه با هم پيوسته و مرتبط و به هم نيازمندند.

الف . جنود الله، ارتشی كه در راه خدا و برای خدا می جنگد.

ب . نويسندگان عامّه و خاصّه، دفترداران عمومی و منشيان مخصوص كه برای رجال و بزرگان نامه های خصوصی، والی و كارگزاران عالی رتبه او را تنظيم می نمايند.

ج . قاضيان و دادگران عادل، دادستان ها و قاضيان محاكم.

د . كارمندان انصاف و رفق: تشكيلات كلّ شهربانی و شهرداری، اداره امر به معروف و نهی از منكر.

هـ . اهل جزيه و خراج از كفّار ذمّی و مسلمانان، بدهكاران ماليات سری و ماليات زمين هايی كه خالصه دولت اسلامی است و متصرّفين آن بايد سهم درآمد زمين را به دولت بپردازند.

و . بازرگانان و پيشهوران و صنعتگران.

ز . بيچارگان و زبونان كه نيازمندند و دست طلب دراز دارند: مردمان بيچاره كه سرمايه ای و كار و شغلی ندارند و يا نمی توانند كار كنند و بازنشسته اند و برای قوت خود محتاجند.

خداوند در كتاب خود قرآن مجيد و سنّت پيغمبرش برای هركدام از اين طبقات، بخشی از ثروت كه در كشور است نام برده و در خور استحقاقش قرار معيّنی نهاده، اين دستور بودجه و پخش آن به ما سپرده است و نزد ما مصون و محفوظ است. لشكريان به اذن خدا پناه رعيّت و زينت واليان و عزّت دين و وسيله امنيّت راهها می باشند، رعيّت بيوجود آنها بر سر پا نمی ماند و آنها بر سر پا نمی مانند مگر بهوسيله دريافت حقوق خود كه خدا از خراج و ماليات برای آنها معين

کرده و به پشت گرمی آن در جنگ با دشمنان نیرومند می شوند و زندگی خود را اصلاح می نمایند و رفع نیاز می کنند.

این دو دسته لشکریان و خراج گزاران را دسته سومی باید اداره کند که عبارتند از قاضیان (دستگاه دادگستری) و کارمندان دولت (استانداران و فرمانداران و بخشداران) و نویسندگان (متصدّیان امور دفتری)، برای آن که معاملات و معاهدات را منعقد می کنند و عوائد را جمع آوری می کنند و کارهای کلّی و جزئی به آنها سپرده است.

زندگی همه اینها اداره نمی شود مگر بهوسیله بازرگانان و صنعتگران که وسایل زندگی را جمع آوری می کنند و بازار داد و ستد بهوجود می آورند و با دست خود ابزارهای زندگانی را جمع آوری می کنند و می سازند که دیگران نمی توانند بسازند، سپس آن دسته پائین و بیچاره اند که نیازمند و مسکینند، کسانی که باید به آنها بخشش کرد و برای خدا بدانها کمك نمود، هرکدام آنها را نزد والی جایی است و بر او لازم است به اندازه ای که زندگی آنها اصلاح شود به آنها کمك دهد. والی از عهده این خدمتی که خدا بر او لازم کرده برنیاید مگر به کوشش و استعانت از خداوند و وادار کردن خود بر درستکاری و صبر بر آن سبك باشد بر او یا سنگین.

الفصل الرابع من عهده عليه السلام

فَوَلِّ مَنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ في نَفْسِكَ للّهِ وَلِرَسُولِهِ ولإمامِكَ، وَأَنْقاهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِىءُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إلى الْعَذْرِ، وَيَرْأفُ بِالضُّعَفاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الأقْوِياءِ، وَمِمَّنْ لا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الأحْسابِ، وأَهْلِ الْبُيُوتاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخاءِ وَالسَّماحَةِ، فَإنَّهُمْ جِماعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ، ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ ما يَتَفَقَّدُ الْوالِدانِ منِ وَلَدِهِمَا، وَلا يَتفاقَمَنَّ في نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تعاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإنْ قَلَّ، فَإنَّهُ داعِيَةٌ لَهُمْ إلى بَذْلِ النَّصيحَةِ لَكَ وَحُسْنُ الظَّنِّ بك، وَلا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطيفِ أُمُورِهِم اتّكالاً على جَسيمِها، فَإنَّ لِلْيَسيْرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُون بِهِ، وَلِلْجَسيمِ مَوْقِعاً لا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ واساهُمْ في مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِما يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْليهِمْ، حَتّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً واحِداً في جِهادِ الْعَدُوِّ، فَإنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ»[١].

اللغة

(جنود): جمع جند والواحد جندي: العسكر، **(أنقاهم جيباً)**: أطهرهم في القلب والنفس وألزمهم للتقوى، **(بطؤ)**: يبطيء: ضدّ أسرع، **(رؤف)**: رأفةً: رحمه أشد رحمة فهو رؤوف، **(نبا)**: ينبو: تجافى وتباعد، **(أثاره)**: هيّجه، **(العنف)**: الشدّة والقساوة، **(قعد به)**: أعجزه، **(النجدة)**: الرفعة، **(السماحة)**: البذل، **(جماع الشيء)**: جمعه، يقال: الخمر جماع الإثم أي جامعة لكلِّ أصنافه، **(فقم)**: فقماً الأمر: عظم، تفاقم الأمر: عظم ولم يجرِ على استواء ـ المنجد، **(الخلوف)**: المتخلّفون جمع خلَف بالفتح.

الإعراب

(أنصحهم في نفسك): **(في نفسك)** متعلّق بقوله أنصحهم، **(جيباً)**: تمييز لقوله أنقاهم رافع للإبهام عن النسبة وكذلك حلماً منصوب على التمييز، من قوله **(أفضلهم عن الغضب)**: متعلّق بقوله يبطيء ويفيد المجاوزة أي يبطيء متجاوزاً عن الغضب، **(على الأقوياء)**: يفيد

---

(١) تحف العقول: ١٣٣، ومستدرك الوسائل: ١٣/ ١٦٤.

الاستعلاء، **(لا يقعد به الضعف)**: الباء للتعدية، **(ثمّ الصق)**: يفيد التراخي أي ولّ من جنودك في الدرجة الثانية من ذوي الأحساب، ثمّ **(أهل النجدة)**: تراخ ثان، **(جماع)**: خبر إن أي مجمع الكرامة وشعب من الأعمال الحسنة، **(لا يتفاقمنّ)**: نهي مؤكّد، **(اتّكالاً)**: مفعول له لقوله لا تدع، **(لليسير من لطفك)**: ظرف مستقرّ خبر إن قدّم على اسمها وهو مرفوع موضعاً، **(ينتفعون به)**: جملة فعليّة صفة لقوله موضعاً، **(آثر)**: أفعل التفضيل من الأثرة يعني أحبّهم وأخصّهم إليك، **(جدَته)**: اسم مصدر من الوجدان مثل عدة من الوعد أي ممّا تمكّن منه، **(وراءهم)**: ظرف مستقرّ صلة لقوله من، **(من خلوف)**: بيان لقوله مَن وراءهم.

المعنى

قد تعرَّض عليه السلام في هذا الفصل لبيان ما يلزم أن يتّصف به الجنديّ من الأوصاف حتّى يستحقَّ لمقام الولاية على السائرين، وهذا هو من أهمِّ أُمور النظام العسكري وقد انشأت في هذه العصور معاهد ومدارس لتعليم النظام وتربية الضبّاط والأُمراء في الجيوش وتتضمّن هذه التعليمات تمرينات وتدريبات عسكريّة شاقّة في دورات متعدِّدة ينتهي كل منها إلى امتحانات صعبة ربما قلَّ الناجحون منها.

ولكنَّ الإسلام يتوجّه إلى روحيّة الجندي أكثر ممّا يتوجّه إلى تدريبه العملي، فإنّ الجنديَّ إنّما يواجه العدوَّ ويدافع عنه بروحه وإيمانه وقوَّة عقيدته أكثر ممّا يعتمد على قوَّة جسمه وأعماله، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجمع المسلمين في صفوف صلاة الجماعة يعلّمهم آي القرآن ويبين لهم طريق عبادة الرحمٰن ويؤيّد اعتقادهم بالله ورسوله بالتمرين والتدريب على الأُصول التعليميّة للإسلام ويتخرَّج من بينهم رجال كأكبر قوّاد الجيوش في العالم يبارزون الأبطال المدرّبين في الكلّيات العسكريّة الرومانية والفارسية فيقهرونهم ويغلبون عليهم حتّى اشتهروا في هذه العصور بالبطولة والشجاعة يقع الخوف في قلوب الأعداء من ذكر أسمائهم، وقد افتخر النبيُّ صلى الله عليه وآله بقوله: «ونصرت بالرعب مسيرة شهر»[١].

وهذه البطولة الفائقة تعتمد على قوَّة الروح والإيمان في القادة الإسلاميّين أكثر ممّا تعتمد على قوَّة الجسم والتدريبات العمليّة، وقد وصف عليه السلام من يستحقُّ مقام الولاية على الجند وينبغي أن يكون أميراً بسبعة أوصاف:

١ ـ أن يكون أنصح وأطوع لله ورسوله وللإمام المفترض الطاعة من سائر الأفراد، فلا يألوا جهداً في تحصيل رضا الله ورسوله ورضا إمامه مهما كلّفه من الجهد والمشقّة، وقد قدَّم

(١) الفصول المهمة: ٢/ ٤٧، والبحار: ١٦/ ١٧٩.

هذا الاخلاص والنصح لرسول الله ﷺ سعد بن معاذ رئيس الأوس في قضيّة بدر حين عرض ﷺ على الأنصار الزحف لمقاتلة قريش في بدر فجمع أصحابه وعرض عليهم ما أراده، قال ابن هشام في سيرته **(ص ٣٧٤ ج١ ط مصر)**:

ثمّ نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار الناس فأخبرهم عن قريش ـ إلى أن قال: ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله إمض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٥] ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ موضع بعيد مخوف ـ لجالدنا معك من دونه حتّى تبلغه، فقال له رسول الله خيراً ودعا له به.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيّها النّاس وإنّما يريد الأنصار وذلك أنّهم عدد النّاس وأنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنّا براء من ذمامك حتّى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّتنا نمنعك ممّا نمنع أبنائنا ونسائنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلاّ ممّن دهمه بالمدينة من عدوّه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم.

فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل قال: فقد آمنّا بك، وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منّا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً إنّا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك فسِر بنا على بركة الله[1].

٢ ـ أن يكون أطهر أفراد الجيش قلباً وسريرةً وتجنّباً عن الفواحش والمنكرات.

٣ ـ أن يكون أثبتهم حلماً وتسلّطاً على نفسه تجاه ما يثير الغضب حتى لا يسوقه جبروت إمارته على ارتكاب الشدّة بالنسبة إلى من وقعوا تحت إمرته بارتكاب ما يخالف هواه كما هو مقتضى طبع الأمراء وأصحاب القوّة وبسط اليد والنفوذ.

٤ ـ كان ممّن يقبل الاعتذار عمّن ارتكب خلافاً ويتّصف بالعفو والصفح عن المذنب.

٥ ـ حين ما يكون جنديًا موصوفاً بشدّة الشكيمة تجاه الأعداء مهيباً عند السائرين لإنفاذ

---

(١) جامع البيان: ٩/٢٤٦، وتفسير ابن كثير: ٢/٣٠١.

أوامره، يكون رقيق القلب يرأف بالضعفاء، كما وصف الله المؤمنين بقوله عزّ من قائل: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

٦ ـ كان مقاوماً للأقوياء المعتادين لإعمال النفوذ في الدولة لإحراز منافعهم ومقاصدهم وتحميل مظالمهم على الضعفاء.

٧ ـ كان حليماً وصبوراً تجاه الشدائد ومفكّراً في حلّ ما ينوبه من العقد والعقائد فلا يؤثّر فيه العنف وشدّة النائبة وصعوبة الحادثة فيثيره ويجذبه إلى ارتكاب ما لا يليق به أو يجد في نفسه ضعفاً فيتكاسل ويقعد عن العمل وتدبير الأمر والخطب الذي به حل.

هذا، وإحراز هذه الصفات الكريمة في الأفراد يحتاج إلى درس كامل عن أحوالهم وإلى تجارب وامتحانات متتالية ومتطاولة ربما لا يتيسّر بالنسبة إلى ما يحتاج إليه من الأفراد فقرّر عليه السلام ضابطتين تكونان كالأمارة والدليل على وجود هذه الصفات العالية النفسانية.

الأول ضابطة الأُسرة والبيت وهي فصيلة من القبيلة تبقى دوراً طويلاً بعد التحوّل من النظام القبلي إلى النظام الدولي فكانت العرب تظلّ في النظام القبلي منذ قرونٍ كثيرةٍ حتّى جاء نظام الإسلام فحوّل العرب إلى نظام حكومي أعلى ليس الحاكم فيه إرادة رئيس القبيلة ومقرّراتها بل الحاكم فيه قانون الإسلام والدستورات النبوية، ولكنّ الملّة بقيت تحت تربية الأُسرة والبيت فهي التي تكفل تربية الفرد وتعليمه بلا واسطة أو بوسيلة المكاتب أو المعلّمين المخصوصين، فذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة هم المؤدّبون والمربّون تربية صحيحة.

فإذا تمّ النظام الحكومي في الشعب وأكمل فيه وسائل التربية والتثقيف بانشاء دور التعليمات الابتدائيّة والمتوسّطة والعالية وتشمل جميع الأفراد كما في الدول الراقية والشعوب المترقّية فينفصل الفرد عن البيت والأُسرة وينتقل إلى تربية النظام الحكومي فيطالب بالشهادات المدرسيّة في كلّ دور ويعتمد في تعهّده لأيّ شغل ومقام إلى ما في يده من الشهادات المدرسيّة والكلّيات والمعاهد العلمية ولا ينظر إلى بيته وأُسرته وإلى أبيه وأُمّه لأنّ جهوده التي بذلها في سبيل التحصيل المنعكس في شهاداته المدرسيّة وأوراق دور علمه يثبت جوهر شخصيّته وما يستحقّه من الرتب والدرجات في النظام وسائر الشؤون.

ولكنّ الحكومة الإسلامية الفنية في عصره عليه السلام لم تبلغ إلى حدّ يتكفّل تربية الأفراد، وكان الاعتماد في صلاحيّة الأفراد إلى البيت والأُسرة، فالانتساب إلى بيت صالح وأُسرة معروفة يقوم مقام الشهادة الصادرة من كلّية علمية أو معهد رسمي كما كانت حكومة الفرس في أدوارها الطويلة قائمةً على نظام الأُسرة والبيوتات في تربية الأفراد وتأديبهم وإن بلغت من

السعة والنفوذ إلى ما يوجب العجب والتحسين، وقد بيّن تلك الحكمة الاجتماعية الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطوطاليس في ما أجاب به الإسكندر الفاتح الشهير ننقله من الشرح المعتزلي بعينه، قال:

رسالة الاسكندر إلى أرسطو وردّ أرسطو عليه

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع رسالة أرسطو إلى الأسكندر في معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوي الأحساب، وأن يخصّهم بالرياسة والإمرة، ولا يعدل عنهم إلى العامّة والسّفلة، فإنَّ في ذلك تشييداً لكلام أمير المؤمنين عليه‌السلام ووصيّته.

لمّا ملك الاسكندر إيرانشهر وهو العراق مملكة الأكاسرة وقتل دارا بن دارا كتب إلى أرسطو وهو في بلاد اليونان:

عليك أيّها الحكيم منّا السلام، أمّا بعد، فإنَّ الأفلاك الدائرة، والعلل السمائيّة وإن كانت أسعدتنا بالأُمور التي أصبح الناس بها دائبين، فانّا جدُّ واجدين لمسّ الاضطرار إلى حكمتك، غير جاحدين لفضلك والإقرار بمنزلتك والاستنامة[1] إلى مشورتك والاقتداء برأيك، والاعتماد لأمرك ونهيك لما بلونا من جدا ذلك علينا، وذقنا من جنا منفعته، حتى صار ذلك بنجوعه فينا وترسّخه في أذهاننا وعقولنا كالغذاء لنا، فما ننفكُّ نعوّلُ عليه ونستمدُّ منه استمداد الجداول من البحور، وتعويل الفروع على الأُصول، وقوّة الأشكال بالأشكال، وقد كان ممّا سبق إلينا من النصر والفلح، وأُتيح لنا من الظفر، وبلغنا في العدوِّ من النكاية والبطش ما يعجز العقول عن وصفه، ويقصر شكر المنعم عن موقع الأنعام به، وكان من ذلك أنّا جاوزنا أرض سوريّة والجزيرة، إلى بابل وأرض فارس، فلمّا حللنا بعقوة أهلها ـ العقوة ما حول الدار ـ وساحة بلادهم، لم يكن إلاّ ريثما تلّقنا[2] برأس ملكهم هدّية إلينا، وطلباً للحظوة عندنا، فأمرنا بصلب من جاء به، وشهرته لسوء بلائه، وقلّة ارعوائه ووفائه ثمَّ أمرنا بجمع من كان هناك من أولاد ملوكهم وأحرارهم وذوي الشّرف منهم، فرأينا رجالاً عظيمة أجسامهم وأحلامهم، حاضرة ألبابهم وأذهانهم، رائعة مناظرهم ومناطقهم، دليلاً على أنَّ ما يظهر من روائهم ومنطقهم أنَّ وراءه من قوّة أيديهم، وشدَّة نجدتهم وبأسهم ما لم يكن ليكون لنا سبيل إلى غلبتهم، وإعطائهم بأيديهم، لولا أنَّ القضاء أدالنا منهم، وأظفرنا بهم، وأظهرنا عليهم، ولم نر بعيداً من الرَّأي في أمرهم أن نستأصل شافتهم، ونجتثَّ أصلهم، ونلحقهم

---

(١) كذا واستنام إلى الأمر، سكن إليه.

(٢) سقطت جملة «تلقانا نفر منهم» من المؤلف ووردت كلمة تلقانا وليس تلقنا. راجع شرح ابن أبي الحديد. (المصحح).

بمن مضى من أسلافهم، لتكون القلوب بذلك إلى الأمن من جرائرهم وبوائقهم، فرأينا أن لا نعجل باسعاف بادىء الرَّأي في قتلهم دون الاستظهار عليهم بمشورتك فيهم، فارفع إلينا رأيك، فيما استشرناك فيه بعد صحّته عندك، وتقليبك إياه يجليّ نظرك، وسلام على أهل السّلام فليكن علينا وعليك.

فكتب إليه أرسطو

لملك الملوك وعظيم العظماء، الأسكندر المؤيّد بالنّصر على الأعداء، المهدي له الظّفر بالملوك، من أصغر عبيده وأقلّ خوله، ارسطوطاليس البخوع بالسّجود، والتذلّل في السّلام، والأذعان في الطاعة.

أمّا بعد، فإنّه لا قوّة بالمنطق وإن احتشد الناطق فيه، واجتهد في تثقيف معانيه وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقلّ ما تناله القدرة من بسط علوّ الملك وسمّو ارتفاعه عن كلّ قول، وإبرازه على كلّ وصف، واغترافه بكل إطناب، وقد كان تقرّر عندي من مقدّمات إعلام فضل الملك في صهلة سبقه، وبروز شأوه، ويمن نقيبته مذ أدّت إليَّ حاسّة بصري صورة شخصه، واضطرب في حسّ سمعي صوت لفظه، ووقع وهمي على تعقيب نجاح رأيه، أيّام كنت أودي إليه من تكلّف تعليمي إيّاه ما أصبحت قاضياً على نفسي بالحاجة إلى تعلّمه منه، ومهما يكن منّي إليه في ذلك، فإنّما هو عقل مردود إلى عقله، مستنبطة أو إليه وتواليه من علمه وحكمته، وقد جلا إليَّ كتاب الملك ومخاطبته إيّاي ومسألته لي عمّا لا يتخالجني الشك في لقاح ذلك وإنتاجه من عنده، فعنه صدر وعليه ورد، وأنا فيما أُشير إليه على الملك ـ وإن اجتهدت فيه واحتشدت له، وتجاوزت حدّ الوسع والطاقة منّي في استنطاقه واستقصائه ـ كالعدم مع الوجود، بل كما لا يتجزأ في جنب معظم الأشياء ولكنّي غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سأل، مع علمي ويقيني بعظم غناه عنّي وشدّة فاقتى إليه، وأنا رادّ إلى الملك ما اكتسبته منه، ومشير عليه بما أخذته عنه، فقائل له.

إنَّ لكلّ تربة لا محالة قِسْماً من الفضائل، وإنَّ لفارس قسمها من النّجدة والقوّة وإنّك إن تقتل أشرافهم تخلّف الوضعاء على أعقابهم، وتورث سفلتهم على منازل عليّتهم، وتغلّب أدنيائهم على مراتب ذوي أخطارهم، ولم يبتل الملوك قطّ ببلاء هو أعظم عليهم وأشدّ توهيناً لسلطانهم من غلبة السفلة، وذلّ الوجوه فاحذر الحذر كلّه من أن تمكّن تلك الطبقة من الغلبة والحركة، فإنّه إن نجم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجم دهمهم منه ما لا رويّة فيه ولا بقيّة معه، فانصرف عن هذا الرَّأي إلى غيره واعمد إلى من قبلك من أُولئك العظماء والأحرار، فوزّع بينهم مملكتهم، وألزم اسم الملك كلّ من ولّيته منهم ناحيته واعقد التاج على رأسه، وإن صغر ملكه، فإن المتسمّى بالملك لازم لاسمه، والمعقود التاج على رأسه لا

يخضع لغيره، فليس ينشب ذلك أن يوقع كلّ ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطعاً وتغالباً على الملك، وتفاخراً بالمال والجند حتّى ينسوا بذلك أضغانهم عليك وأوتارهم فيك، ويعود حربهم لك حرباً بينهم، وحنقهم عليك حنقاً منهم على أنفسهم، ثمَّ لا يزدادون ذلك بصيرة إلاّ أحدثوا لك بها استقامة، وإن دنوت منهم دانوا لك، وإن نأيت عنهم تعزَّزوا بك، حتّى يثبت من ملك منهم على جاره باسمك، ويسترهبه بجندك، وفي ذلك شاغل لهم عنك وأمان لاحداثهم بعدك، وإن كان لا أمان للدّهر، ولا ثقة بالأيّام.

قد أدّيت إلى الملك ما رأيته لي حظّاً، وعليّ حقّاً من إجابتي إيّاه إلى ما سألني عنه، ومحضته النصيحة فيه، والملك أعلى عيناً، وأنفذ رويّة، وأفضل رأياً وأبعد همّة فيما استعان بي عليه، وكلّفني بتبيينه والمشورة عليه فيه، لا زال الملك متعرِّفاً من عوائد النّعم، وعواقب الصّنع وتوطيد الملك، وتنفيس الأجل، ودرك الأمل، ما تأتي فيه قدرته على غاية قصوى ما تناله قدرة البشر، والسّلام الذي لا انقضاء له، ولا انتهاء، ولا فناء، فليكن على الملك.

قالوا: فعمل الملك برأيه، واستخلف على إيران أشهر أبناء الملوك والعظماء من أهل فارس فهم ملوك الطّوائف الذي بقوا بعده والمملكة موزّعة بينهم إلى أن جاء أردشير بن بابك فانتزع الملك منهم.

وينبغي أن يلفت النظر إلى مكاتبة إسكندر وأرسطو هذه من وجوه:

١ ـ ما يستفاد من كتاب إسكندر من إعجابه بالأسرة المالكة في إيران أيّام داريوش حيث أعجب بهم وهابهم وخاف منهم بعد الغلبة عليهم حتّى همَّ بقتلهم واستيصال شافتهم ليأمن بوائقهم على ملكه فيما بعد، هابهم وهم أذلاّء وأسراء تحت يديه، هابهم من قوّة منطقهم ووفور تعقلهم وبسالتهم وشجاعتهم واعترف بأنَّ الغلبة عليهم كان قضاءً مقدراً لا أمراً بشريًّا ميسراً، ويستفاد من ذلك أنّه كان في الأُسرة المالكة تربية وتثقيف لا يوجد مثلها حتّى في اليونان مركز الفلسفة في هذه العصور.

٢ ـ إنّ هذه التربية والثقافة كانت مقصورة على الأسرة المالكة لا تتعدّاهم، وكانت عامّة النّاس في هذه المملكة الواسعة الأطراف فاقدين لكلّ شيء، لا يمسّون من شؤون الحياة إلاّ العمل تحت إرادة الحكّام ونيل أدنى المعيشة مما يناله البهائم والأنعام، فهم في الحقيقة كالغنم ترعاهم الأسرة المالكة، تأكل منهم ما تشاء وتبقي ما تشاء، وهذا هو السرّ في إمكان الحكومة على هذه الشعوب الكثيرة في بلاد شاسعة الأطراف، ومن هذه الجهة لا تهتمّ عامّة الشعوب في الدفاع عن الوطن ولا تدخل لهم في هذا الأمر السّياسي إلاّ ما يؤمرون به من جهة الأمراء، فإذا ضعفت الحكومة في ناحية أو شعب يهاجم عليها العدوّ ويتسلّط عليها بلا منازع ومدافع وبقي هذا التلاشي بين الحكومة والشعب في إيران إلى أيّام الفتح العربي،

فهاجم ما يقلّ عن أربعين ألف جنديّ بدويّ وغلب الامبراطوريّة الممدودة من نواحي سورية والشام إلى ثغور الهند والصّين.

٣ ـ يستحق العجب من تدبير الحكيم أرسطو لردّ إسكندر الفاتح المغرور عن عزمه بقتل الإسرة المالكة في إيران، فقد أظهر في جوابه عن كتاب إسكندر كلّ خضوع وانقياد تجاه هذا الجبّار العنيد ليستميله إلى إصغاء ما يملي عليه من سوء عاقبة هذا العزم الخبيث ودلل عليه بأنّ قتل الأُسرة المالكة المدبّرة في إيران الذين يحكمون ويديرون شؤون أُمم شتّى يزدادون على ملايين من البشر الذين لا يمسّون من شؤون الحياة إلاّ كالأنعام والأغنام ـ يوجب تلاشي الأُمة البشريّة وفنائهم ويولد منه الهرج والمرج المفني لجماعات من البشر، فإنّ البشر الغير المثقّف الوحشي إذا كسب قوّة ومنعة يعيث في الأرض فساداً وخراباً ودماراً كما ارتكبه آتيلا الآمر على القبائل الوحشية في أوروبا، وچنگيز الآمر على قبائل وحشية في الصين.

ونعود فنقول: إنّه عليه السلام أشار في كلامه هذا إلى أنّ الاعتماد على الفرد يكتسب من ملاحظة أسرته وبيته الذي ولد ونشأ فيه.

الضابطة الثانية ما يستفاد من حال الفرد نفسه، فإنّ دخل في جماعة المسلمين في هذه الأيّام خُلق كثير من سائر الشعوب لا يُعرف لهم أُسرة وبيت ويعبّرون عنهم بالموالي فكان الاعتماد عليهم يُرجع إلى ما يستفاد من أخلاقهم فبيّن لذلك أربعة أوصاف:

١ ـ النجدة، وهي صفة تنبيء عن علوّ الهمّة وتمنع الرّجولية.

٢ ـ الشجاعة، وهي صفة تنبيء عن الغيرة وسرعة الإقدام في الدفاع عما يجب حفظه.

٣ ـ السخاء، وهي صفة تنبيء عن بسط اليد وعدم حجب المال والادّخار وحبّ الإيثار على الأغيار.

٤ ـ السّماحة، وهي صفة تنبيء عن الاقتدار على جمع الناس وتأليفهم حوله والتسلّط عليهم بحسن الخلق وبسط الجود.

فهذه صفات شخصية إذا اجتمعت في فرد تؤهلها للإمرة وتوجب الاعتماد عليه في إعطاء الولاية على الجند.

ثمّ أشار في آخر هذا الفصل إلى أنّ أفضل رؤساء الجند وأُمراء الجيوش من يواسيهم في المعونة ويوفّر عليهم فيما يجده من المؤونة ولا يقتصر على خصوص رواتبهم المقرّرة المحدودة بحيث يغنيهم لما يحتاجون إليه من مؤونة أنفسهم ومؤونة أهلهم المتخلّفين ورائهم ينتظرون عونهم في كلّ حين فيكون حينئذ همّهم همّاً واحداً في جهاد العدوّ والدّفاع عن حوزة الإسلام.

الترجمة

آن کس را از لشکریان خود بر قشون فرمانده کن که دارای خصایل زیر باشد:

١ - در پیش خود از همه نسبت به خدا و رسول خدا (ﷺ) و نسبت به امام و رهبر تو، بااخلاص تر و خیرخواه تر باشد.

٢ - از همه پاکدامن تر و پارساتر باشد.

٣ - از همه در حلم و بردباری بیشتر باشد و از کسانی باشد که خشم، او را فرا نگیرد و به زودی از جای خود به در نرود.

٤ - عذرپذیر باشد.

٥ - نسبت به بینوایان و ضعفاء رؤوف و مهربان باشد.

٦ - نسبت به افراد نیرومند و بانفوذ تأثیرناپذیر و خوددار باشد.

٧ - از کسانی باشد که سختی و دشواری کارها او را از جای به در نبرد و از خود بی خود و بیچاره نسازد و ناتوانی و سستی او را زمین گیر نگرداند.

سپس خود را به مردمان خانواده دار و آبرومند و منسوبان به خانواده های خوش سابقه و خوب نزدیك کن و فرماندهان خود را از میان آنها انتخاب کن.

و از آن پس مردمان رادمرد و دلیر را که با سخاوت و مردم دارند در نظربگیر، زیرا آنان جامع اوصاف کرامتند و همه خوبیها در وجود آنها هست.

سپس از همه کارهاشان وارسی کن و آنها را تحت نظر بگیر چنانچه پدر و مادر از فرزند خود دلجویی می کنند و هیچ تقویت و نیروبخشی بدانها درنظر تو مشکل و گره دار جلوه نکند و هیچ لطف و دلجویی نسبت بدانها در چشمت خرد و کوچك نیاید وگرچه اندك و ناچیز باشد، زیرا این خود برای آنها باعث خیرخواهی و اخلاص مندی و خوشبینی به تو می گردد. از وارسی و تفقد کارهای ریز و چشم نارس آنها صرف نظر نکن به اعتماد این که کارهای عمده و چشم گیر آنها را بازرسی کردی، زیرا لطف و دلجویی تو در کارهای خرد و کوچك موقعیتی دارد که

از آن بهره مند شوند و در کارهای مهم هم در جای خود از بازرسی تو مستغنی نباشند.

باید برگزیده ترین فرماندهان قشونت در نزد تو کسانی باشند که با افراد دیگر قشون همدردی دارند و بدانها کمك می نمایند و از آنچه در دسترس دارند بدانها بذل می کنند، تا آنجا که وسیله وسعت زندگی خود آنها و افراد خانواده آنها باشد که در پشت سر خود به جا نهاده اند و چشم انتظار مخارج از آن ها هستند تا این که یك دل و یك جهت، در جهاد با دشمن بکوشند و پریشان خاطر نباشند. راستی که مهربانی و مهروزی تو با آنها مایه این می شود که از دل با تو مهرورزند و مخلص تو باشند.

و یجدر بناهنا أن نترجم مکاتبة اسکندر مع أرسطو فی هذا المقام طلباً لمزید النفع للقرّاءالکرام.

نامه اسکندر به ارسطو و پاسخ ارسطو به نامه او

چون اسکندر، ایران شهر که کشور عراق و مملکت خسروان پارس بود به چنگ آورد و دارا بن دارا را کشت، به ارسطو که در یونان بود این نامه را نوشت:

ای حکیم از طرف ما بر تو درود باد؛ امّا بعد، به راستی که چرخ های گردان و علل آسمان گرچه ما را به اموری سعادتمند کرده که زبانزد همه مردم است، ولی باز ما با کمال جد و کوشش به حکمت و فرزانگی تو خود را نیازمند میدانیم، فضیلت تو را انکار نتوانیم و به مقام والای تو اقرار داریم و به مشورت تو دلگرم هستیم و پیروی از رأی تو را لازم شمرده و به امر و نهی تو اعتماد داریم، چون سود آن را آزموده و نفع آن را چشیدیم تا آنجا که در ما ریشه کرده و در اذهان ما رسوخ نموده و غذای خرد ما گردیده و همیشه به نظر تو اعتماد توانیم و چون نهری از آن دریای دانش بهرمنده مند می شویم و چون شاخه ای هستیم از تنه ای تنومند و به نظرهای تو نیرومند می شویم، چنان پیروزی و پیشتازی به ما سبقت جست و ظفرمندی ما را نصیب آمد و در سرکوبی و غلبه بر دشمن بدانجا رسیدیم که وصفش به گفت درنیاید و شکر این نعمت از دست ما برنیاید و از این جمله است که ما از سرزمین سوریه و جزیره در گذشتیم تا به بابل و سرزمین فارس تاختیم و چون در بن خانه و عرصه بلاد آنها جای گزین شدیم، دیری نگذشت که چندتن از

خود آنان سر پادشاهشان را به دست خودشان برای ما پیشکش آوردند تا در نزد ما بهره مند گردند و به مقامی رسند، فرمان دادیم آنان که سر را آوردند به دار آویخته شدند، زیرا سزای بدرفتاری و بیوفایی آنها همین بود، سپس فرمان دادیم تا همه شاهزادگان و رادمردانی که در آن کشور بودند گرد آوردند، مردمی دیدیم تنومند و پهلوان و سربزرگ و خردمند و آزموده، خوش منظر و خوش گفتار و این خود دلیل است که عقل و منطق نیرومندی در خود دارند و پهلوان و رادمرد و جنگجو هستند تا آنجا که ما را راهی برای غلبه و پیروزی بر آنها وجود نداشته، جز اینکه قضا و قدر به سود ما چرخیده و ما را بر آنها پیروز کرده و بر آنها مسلط نموده.

و به نظر خود این را دور نمی دانیم که همه را از بن بر کنیم و از ریشه براندازیم و به گذشته هایشان ملحق سازیم تا از دست درازی و انتقام جویی آنان آسوده خاطر و دل نهاده باشیم و درنظر آوردیم که در کشتار آنان شتاب نکنیم تا رأی شما را دراین باره ندانیم و با شما مشورت نکنیم، شما رأی خود را دراین باره برای ما روشن سازید و زیر و روی این مطلب را بسنجید و همه درود درود گویان بر ما و شما یاد.

ارسطو در پاسخ او چنین نوشت

به سوی شاه شاهان و بزرگ بزرگان، اسکندر که در پیروزی بر دشمنان تأیید یافته و ظفر بر پادشاهان هدیه پیشگاه او شده، از طرف خردترین بنده ها و کمترین وابسته های او، ارسطو طالیس که در پیشگاهش پیشانی ساید و درود و تذلل و فرمانبری و انقیاد وی را گردن نهاده.

امّا بعد، گفت را هر چه گویا در آن مهارت به خرج دهد و در سنجش معانی و تألیف حروف و مبانیش بکوشد، احاطه به کمترین درجه قدرت و بسط علو سلطنت و فرازمندی رفعت تو نتواند، زیرا از هر گفتاری و توصیفی و تفصیلی برتر است. از مقدّمات اعلامیه فضیلت آن پادشاه در میدان مسابقت و بروز مرتبت و یمن مقدم بر من مقرر گردیده است چنان درجه ای که حس دیده ام پیکر او را وارنداز کرده و گوشم آوازه او را شنیده و کام بخشی رای او در وهمم صورت بسته، از همان دورانی که من به ظاهر مکلف به آموزش او بودم خود را نیازمند آموختن حکمت او می دانستم و هرآن چه از من به وی القاء می شد همانی بود که

از پرتو عقل او در من منعکس می گردید و استنباطی بود که به هم نظری با او از علم و حکمتش رد و بدل می کرد. از نامه پادشاه و خطاب وی با من و پرسش از من، روشن است که شکی ندارم نظر خود را در فکر من بیدار کرده و از رأی روشن خود در من نتیجه خواسته هم از او به من نظری صادر شود و هم از او دریافت گردد و به او برگردد آن چه من به حضرت پادشاه اشاره کنم با همه کوشش و تلاشی که در آن نمایم و از حد وسع و طاقت در آن بگذرم و در بازرسی و نکته سنجی آن بکوشم باز هم در برابر رأی منیرش چون عدم است نسبت به وجود و چون جزء لایتجزّی در برابر معظم اشیاء، ولی درهرحال من از اجابت پادشاه سربرنتابم و پرسش وی را بی پاسخ نگذارم، بااین که می دانم که حضرتش از رأی من بی نیاز است و من بدو بسیار نیازمند و محتاج، من خود همان را که از آن پادشاه به دست آورده و استفاده کردم به وی باز گردانم و همان را که از حکمتش دریافت نمودم به وی اشارت کنم و به حضرتش گویم.

به ناچار هر خاکی و هر سرزمینی را بهره ای است از فضایل و راستی که سرزمین پارس را بهره ای است از بزرگواری و نیرومندی و به راستی که اگر تو مردم شرافتمند آن سرزمین را بکشی، مردمی پست را جایگزین آنها می سازی و خانمان و کشور بزرگانشان را به دست اوباش می سپاری و زبونان را بر آبرومندانشان چیره می کنی و پادشاهان، هرگز گرفتار بلایی نشوند که بزرگتر و دردناکتر و بیشتر مایه توهین سلطنت آنان باشد از غلبه اوباش و بی آبرویان، باید به سختی برحذر باشی از این که طایفه اوباش را صاحب قدرت و حرکت در امر کشور سازی، زیرا چنانچه از این اوباش شورشی بر علیه لشکر تو و اهل کشور تو رخ دهد، بلایی بدانها رسد که نتوان پیش بینی کرد و کسی را باقی نخواهند گذاشت. از این نظر برگرد و نظر بهتری پیش گیر و هر آن کس از این بزرگان و شاهزادگان که در دسترس تواند بخواه و بنواز و کشورشان را میان آنها تقسیم کن و هرکدام را فرمانروای سرزمین کردی نام پادشاه بر او بنه و تاجی بر سر او بگذار و اگرچه قلمرو فرمان او کوچك باشد، زیرا هرکس را پادشاه خواندند بدین نام بچسبد و بر سر هر که تاج نهند زیر بار فرمان دیگری نرود و این تدبیر سبب گردد که میان آنها ستیزه و تفرقه و نزاع بر سر ملك و سلطنت درگیرد و با یکدیگر از نظر مال و قشون مفاخرت آغازند تا آنکه کینه های تو را فراموش کنند و خون ها که از

آنها ریختی به دست فراموشی سپارند و جنگی که باید با تو بنمایند به میان خودشان برگردد و کینه بر تو که بایست در سینه ها پرورند به کینه میان خودشان مبدّل گردد و سپس هرچه در این زمینه بیناتر گردند و به مقام خود دل بسته تر شوند نسبت به تو خوش بین تر و راست کردارتر گردند، اگر بدانها نزدیك شوی و از هریك آنها دلجویی کنی، نسبت به تو اظهار اطاعت و انقیاد کنند و اگر از آنها دوری گزینی، از تو عزّت و آبرو خواستار شوند تا آنکه هر کدام به نام و به اعتبار پشتیبانی تو بر همسایه خود بشورد و بهوسیله لشکر تو او را بترساند و در این کشمکش و ستیز از تو صرفنظر کنند و با تو در مقام ستیزه در نیایند و تو از گزند آنها در آسایش باشی، گرچه در این روزگار آسایشی وجود ندارد و اعتمادی به گذشت زمانه نیست.

من آن چه را بهره دانش و فکرت خود می دانستم به پیشگاه پادشاه عرضه داشتم؛ این حقّی بود بر عهده من که مخلصانه در پاسخ آن حضرت نگاشتم و اندرز بی شائبه خود را به عرض رسانیدم و در عین حال آن پادشاه از من بیناتر است و اندیشه نافذتر و رأیی بهتر و همّتی والاتر نسبت بدان چه درباره آن از من کمك خواسته و مرا به توضیح و شور در آن واداشته دارد.

همیشه پادشاه از نعمتهای واصله و احسانهای بی دریغ برخوردار باد و ملکش پاینده و عمرش دراز و آرزویش رسا باد تا آنجا که نیرویش به نهایت آن چه قدرت بشر رسا است برآید؛ درودی بی انتها و پیوسته و بی نهایت و فناناپذیر بر پادشاه باد.

مورّخان گفته اند: پادشاه به رأی ارسطو عمل کرد و نظر او را به کار بست و شاهزادگان و آزادگان پارس را بر سراسر کشور ایران جایگزین و فرمانروا ساخت و آنان همان پادشاهان ملوك الطوائف بودند که پس از او به جای ماندند و کشور ایران میان آنان تقسیم بود تا اردشیر بن بابك آمد و کشور را از آنها گرفت و مملکت را متّحد ساخت.

الفصل الخامس من عهده عليه السلام

«وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاةِ ٱسْتِقامَةُ الْعَدْلِ في الْبِلادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ، وَأَنَّهُ لا تَظْهَرْ مَوَدَّتُهُمْ إِلاّ بِسَلامَةِ صُدُورِهِمْ، وَلا تَصِحُّ نَصيحَتُهُمْ إِلاّ بِحيطَتِهِمْ عَلى وُلاةِ [الأُمُورِ] أُمُورِهِمْ، وَقِلَّةِ ٱسْتِثْقالِ دُوَلِهِمْ وَتَرْكِ ٱسْتِبْطاءِ ٱنْقِطاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ في آمالِهِمْ، وَواصِلْ في حُسْنِ الثَّناءِ عَلَيْهِمْ وَتَعْديدِ ما أَبْلى ذَوُو الْبَلاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجاعَ، وَتُحَرِّضُ النّاكِلَ، إِنْ شاءَ اللَّهُ تَعالى.

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ ما أَبْلى، وَلا تُضيفَنَّ بَلاءَ امْرِىءٍ إِلى غَيْرِهِ، وَلا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غايَةِ بَلائِهِ، وَلا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ ٱمْرِىءٍ إِلى أَنْ تُعَظِّمَ مِنْ بَلائِهِ ما كانَ صَغيراً، وَلا ضَعَةُ ٱمْرِىءٍ إِلى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِن بَلائِهِ ما كانَ عَظيماً.

وَٱرْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ما يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قالَ اللَّهُ سُبْحانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشادَهُمْ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ: الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ»(١).

اللغة

(**قرّة عين**) لي ولك: أي فرح وسرور لي ولك، (**الحيطة**): على وزن الشيمة مصدر حاطه يحوطه حَوطاً وحياطةً وحيطةً: أي كلاه ورعاه، (**استثقال**): استفعال من الثقل: تحمّل الشدَّة والاستنكار بالقلب، (**بطؤ**): بالضمّ ككرم، بطاء ككتاب، وأبطأ ضدّ أسرع ومنه الخبر: من بطأ به عمله لم ينفعه نسبه، أي من أخره عمله السيىء وتفريطه في العمل الصالح لم ينفعه في الآخرة شرف النسب، (**فسحت**): له في المجلس فسحاً من باب نفع: فرجت له عن مكان يسعه وفسح المكان بالضمّ، وأفسح لغة.

(**تهزُّ الشجاع**): يقال هزَّه وهزَّ به إذا حرَّكه، (**وتحرِّض الناكل**): قوله تعالى: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: ٨]، أي حثّهم والتحريض الحثّ والاحماء عليه، (**أبلى**): أي

(١) مستدرك الوسائل: ١٣/ ١٦٥، وبحار الأنوار: ٢/ ٢٤٤ ح ٤٨.

أظهر الإخلاص في الجهاد، **(لا تضيفنَّ)**: صيغة نهي مؤكّدة بالثقيلة من أضاف يضيف: لا تنسبنَّ، **(ضعة)**: اسم مصدر من وضع يضع أي خسّة مقامه وحسبه، **(ما يضلعك)**: يقال ضلع بالفتح يضلع ضلعاً بالتسكين أي مال عن الحقّ وحمل مضلع أي مثقل، **(الخطوب)**: وهذا خطب جليل أي أمر عظيم.

الإعراب

(استقامة العدل): خبر قوله أفضل، **(إلاّ بسلامة صدورهم)**: مستثنى مفرَّغ، **(ذووا)**: جمع ذا بمعنى صاحب: أي أصحاب الإخلاص في الجهاد، **(ما أبلى)**: يحتمل أن يكون لفظة ما مصدريّة أي ابتلائه ويحتمل أن يكون موصولة بحذف العائد أي ما أبلا فيه، **(دون)**: ظرف مضاف إلى قوله: غاية بلائه، **(ولا ضعة)**: عطف على قوله: شرف امرىء أي لا يدعونّك ضعة امريء، **(من الخطوب)**: لفظة مِن بيانية، **(غير المفرقة)**: صفة ثانية لقوله بسنّته.

المعنى

قد تعرَّض عليه السلام في ضمن هذا الفصل المتعلّق بالجند وأُمرائه للعدالة فقال: **(وإنَّ أفضل قرَّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد)** وذلك لارتباط إجراء العدل في البلاد بالجند من وجوه شتّى نذكرها بعد التنبيه على نكتة مهمّة في المقام، وهي أنَّ الجند بمعناه العامّ هو المالك والقائم بالسيف في الرعيّة بحيث يكون القوّة أنَّ الجند بمعناه العامّ هو المالك والقائم بالسيف في الرعيّة بحيث يكون القوَّة والقدرة على إجراء الأُمور بيده، وقد تفرَّع من الجند في النظامات العصرية ما يلي:

١ ـ إدارة الشرطة العامّة التي تنظر إلى إجراء الأمن في البلاد بحراسة الأسواق والطرق وطرد اللصوص وأخذهم ومعاقبتهم وطرد كلٍّ من يريد الاستفادة من الناس من غير طريقها القانوني والمحافظة على الأمن من جهة المنع عن النزاع والمضاربة والمقاتلة وارتكاب الجنايات بأنواعها.

٢ ـ إدارة حفظ الانتظامات العامّة السائدة على إدارة الشرطة.

٣ ـ إرادة الجيش الحافظ للأمن في البلاد تجاه هجوم الأعداء من الخارج.

ويرتبط العدل بالجند وفروعه من نواحٍ شتّى:

أ ـ من حيث أنَّ كلَّ سرقة أو جناية أو جنحة وقعت بين الناس فتعرض على إدارة الشرطة وهي التي تتصدّى لدفعها وتتعرَّض لرفعها بعد وقوعها وتنظم أوراق الاعترافات

وتشريح القضايا للعرض على المحاكمات فيكون مفتاح العدل بيد إدارة الشرطة من حيث انضباطها وحراستها للشعب حتّى لا توجد فرصة للصوص فيسرقون متاع الناس وفرصة للنزاع والقتال فتحدث الجنايات بأنواعها، فهذا مبدأ إجراء العدل في البلاد ومن حيث رعاية الحقّ والحقيقة في تنظيم أوراق الاعترافات والشهادات وتشريح القضايا وضبطها على حقيقتها للعرض على المحاكم وإحقاق حقّ المظلوم عن الظالم، فلو كان الجند غير معتن[1] بحراسة الناس ونظارة الطرق والأسواق والدُّور ليلاً ونهاراً لكثرة السرقة والجناية ولاختلّ العدل والنظام، ولو كان الجندي غير ديّن وغير أمين فيأخذ الرشوة ويقع تحت نفوذ ذوي القدرة فلا يضبط الاعترافات وأوراق الشهادات على ما تحكي عن الواقع ويدسّسها ويلطّخها بالرشوة أو غير ذلك فيختلُّ الأمن والعدل ويكثر المظالم بين الشعب.

ب ـ من حيث أنَّ الظلم وثلم سياج العدل ينشأ غالباً من القدرة فالمقتدر هو الذي يطمع في أموال الضعفاء وأعراضهم ويتعرَّض للعدوان والتجاوز، فلمّا كان السيف والقدرة في يد الجندي فهو الذي يتعرَّض للظلم على أفراد الشعب. وقد ملئت كتب التواريخ من ارتكاب الأُمراء والجنود الظلم على الناس من وجوه شتّى وأكثر من يقع منهم الظلم ويختلّ بهم العدل في كلّ عصر هم الذين بيدهم السيف والسوط فيطمعون في أموال الناس وأعراضهم ويتجاوزون على حقوق غيرهم سيّما إذا كان الوالي نفسه ظالماً ومتجاوزاً فقد قال شاعر فارسي ما معناه:

لو أنَّ الملك أكل تفّاحة من الرعيّة ظلماً وعدواناً يستأصل عبيده ألفاً من شجرات التفّاح ظلماً وعدواناً.

ولو أخذ الملك من الرعيّة خمس بيضات ظلماً يشوي جنده وعبيده ألف دجاجة من أموال الرعيّة ظلماً وعدواناً.

ج ـ من حيث أنَّ أُمراء الجنود كثيراً ما يطمحون إلى تحصيل مراتب أعلى ومناصب أغلى فيثيرون الفتن ويثورون على الولاة فتقع هناك حروب وثورات تجرُّ إلى القتل والنهب والأسر وتشتعل نار الفتنة فتعمُّ الأبرياء والضعفاء من النساء والولدان والمرضى ومن لا حرج عليهم، وأكثر الفتن في التاريخ نشأت من مطامح ومطامع أُمراء الجيوش حتّى في صدر الإسلام وفي حكومة النبي ﷺ، فهذا خالد بن الوليد أمره النبي ﷺ بعد فتح مكة فعدا على بني جذيمة فقتل منهم رجالاً أبرياء فوصل الخبر إلى النبي ﷺ فنادى: اللهمَّ إنّي أبرأ إليك ممّا فعل خالد، وبعث مولانا عليَّ بن أبي طالب لتلافي خطأ خالد.

---

(١) كذا وردت لكن من المناسب القول «لا يعتنون بحراسة الناس». (المصحح).

قال في سيرة ابن هشام (ص ٢٨٣ ج ٢ ط مصر): بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكّة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً ومعه قبائل من العرب: سليم بن منصور ومدلج بن مرّة فوطئوا بني جذيمة بن عامر بن كنانة، فلمّا رآه القوم أخذوا سلاحهم، فقال خالد: ضعوا السلاح فإنّ الناس قد أسلموا، قال ابن إسحاق: فحدَّثني بعض أصحابنا من أهل العلم من بني جذيمة ـ إلى أن قال ـ فلمّا وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتّفوا ثمَّ عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم فلمّا انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثمَّ قال: «اللهمَّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد»[١].

قال ابن هشام: حدَّثني بعض أهل العلم أنّه حدَّث عن إبراهيم بن جعفر المحمودي قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت أنّي لقمت لقمة من حَيس فالتذذت طعمها فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها فأدخل عليّ يده فنزعه، فقال أبو بكر الصديق ﷺ: يا رسول الله، هذه سريّة من سراياك تبعثها فيأتيك بها بعض ما تحبُّ ويكون في بعضها اعتراض فتبعث عليًّا فيسهله[٢].

قال ابن هشام: وحدَّثني أنه انفلت رجل من القوم فأتي رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ: هل أنكر عليه أحد؟ قال: نعم أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهمه خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فراجعه فاشتدَّت مراجعتهما، فقال عمر بن الخطّاب: أمّا الأوّل يا رسول الله، فابني عبد الله وأمّا الآخر فسالم مولى أبي حذيفة ـ إلى أن قال ـ ثمَّ دعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم وأمر الجاهليّة تحت قدميك، فخرج عليٌّ حتّى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله فودي لهم الدماء وما أُصيب لهم من الأموال حتّى أنّه ليدي لهم ميلغة الكلب حتّى إذا لم يبق شيء من دمٍ ولا مالٍ إلاّ وداه، بقيت معه بقيّة من المال فقال لهم عليٌّ حين فرغ منهم: هل بقي لكم بقيّةٌ من دم أو مالٍ لم يوديكم؟ قالوا: لا، قال: فإنّي أُعطيكم هذه البقيّة من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ ممّا لا يعلم ولا تعلمون..

وقد ارتكب خالد هذا في صدر حكومة أبي بكر قتل مالك بن نويرة وأسر أهله وقبيلته على وجه وضيع وفضيح ممّا فتَّ في عضد العدل الإسلامي بما لم يتدارك بعد، وإذا تصفّحت تاريخ أيِّ شعب من الشعوب وتأمّلت في أحوالهم وجدت أكثر الفتن والمظالم والجنايات ناشئة من قبل الأُمراء ورؤوس الجيوش، وتمدُّ إلى هذا العصر المضيء بالقوانين والنظامات الدولية العامّة الحائزة للأُمم المتّحدة المحافظة على السلم والسلام في جميع

(١) الخصال: ٥٦٢، ووسائل الشيعة: ١/١٧.

(٢) الغدير: ٧/١٦٩، وسيرة النبي ﷺ: ٤/٨٨٣.

الشعوب الملجأ لدفع المظالم عن الأبرياء والضعفاء ومع ذلك لا تمضي سنة بل وأشهر حتّى تسمع ثورة عسكريّة ناشئة من أمراء الجيش هنا وهناك تتضمّن مقاتل ومظالم لا تحصى.

وقد نادى عليه السلام في هذا الفصل الذي عقده في عهده التاريخي الذي لا مثيل له بحفظ العدالة ونبّه على أنَّ العدالة قرَّة عين الولاة مشيراً إلى أنَّ استقامة العدل في البلاد مرتبطة بالجند من نواحٍ كثيرة كما بيّنّاه.

ثمَّ توجّه عليه السلام في هذا المقام إلى أهمِّ ما يجب في نظام الدولة العادلة، وهو أن تكون الحكومة حكومة الشعب وأن يرى الشعب الحكومة ناشئة منه وحافظة لمصالحه فيودّها ويحبّها عن ظهر قلب، فشرَّح رابطة الأُمّة والشعب في حكومة كهذه في خمسة أُمور جذرية:

١ ـ ظهور مودَّة الرعيّة وإظهارهم الحبّ لها.

٢ ـ سلامة صدورهم بالنسبة إلى الحكومة وعدم الحقد والخصومة بالنسبة إليها.

٣ ـ إحاطتهم على ولاة الأُمور إحاطةَ الولدان بالولد مع إظهار الإخلاص والنصيحة لها.

٤ ـ عدم استثقال إدامة الحكم والدولة نفوراً عن مظالمها.

٥ ـ ترك تمنّي انقطاع مدَّة غلبة الحكومة بزوالها رجاءاً للخلاص عن ظلمها وعدوانها.

وهذه هي إمارات حكومة شعبيّة قائمة على درك الشعب ونيله لحقوقه السياسية المعبِّر عنه بحكومة الشعب على الشعب المبني على الديموقراطيّة الأصيلة الصحيحة وإمارة حكومة كهذه هو حسن رابطة الجند مع الشعب والرعيّة بحيث يدرك الشعب أنَّ الجند منه وله يحرس منافعه ويدفع عنه هجوم عدوِّه ويحفظ على العدل والمساواة بين أفراده.

وممّا لا شكَّ أنَّ أكثر الحكومات قامت على القهر والاضطهاد بالنسبة للأمّة والرعيّة خصوصاً في مبادىء تأسيسها في العصور القديمة وبقي في التاريخ أعلام حكومات نمرودية وفرعونية كسمات لرجال جبّابرة ظلمة ظلاّم لا يتوقّع منهم إلاّ الإرهاب والنهب وربما يرتعد الفرائص من سماع أسمائهم بعد دفنهم في عمق التاريخ من زمن بعيد، وإنّما يظهر قهر الحكومات الجبّارة واضطهادها للرعيّة على أيدي الجند المأمورين لقهر الناس وقتلهم وأسرهم، فكان الناس من زمن بعيد وفي أكثر الشعوب والأُمم يواجهون الجندي كعدوٍّ ظالم لا ينتظر منه إلاّ الإيلام والإرهاب فوصّى عليه السلام في ضمن عهده هذا إلى السعي لقلب هذه الرابطة بين الشعب والجند وتحويلها إلى رابطة ودّية أخويّة أسَّس الإسلام حكومته عليها، فإنّه جعل وظائف الجند من الأُمور العامّة، وكلّف بها جميع الأمّة ففي عصر النبي صلى الله عليه وآله كلُّ المسلمين جنود وجنود الإسلام كلُّ مسلم بالغ عاقل، فالجند الإسلامي ناشىء عن صميم الأُمّة فلم يكن هناك جند وشعب متمايزون حتّى يرهب الشعب من الجند ويتجاوز الجند على

الشعب، ولمّا توسّعت الأُمّة الإسلاميّة بالفتوحات المتواصلة المتوالية ودخل في ظلّ الإسلام شعوب شتّى لم تتّسم كلّها بسمة الجند الإسلامي وصّى عليه السلام في عهده هذا بحفظ الرابطة الوديّة بين الجند وسائر أفراد الشعب بحيث لا يدرك الشعب أنَّ الجند صنف ممتاز عنه قاهر عليه وحاكم على أمره.

وصيته عليه السلام بإحياء الفضيلة وحفظ الحقوق

ثمَّ أمر عليه السلام بعدم التضييق على أُمراء الجنود وحصرهم في درجة واحدة، بل التوسيع عليهم في الارتقاء إلى درجات أعلى بحسب ما لهم من الاستعداد واللياقة لها فقال عليه السلام **(فافسح في آمالهم)**.

وهذا كما جرى في التاريخ من أمر طارق بن زياد في ما بعد فإنّه أحد الأمراء والقوّاد الأمجاد الأفذاذ في تاريخ الفتوحات الإسلاميّة بلغته همّته إلى فتح الأندلس بعد استيلاء الجنود الإسلامية على سواحل البحر الأبيض من سوريّة ومصر إلى المغرب الأقصى إلى المراكش، ويوجب ذلك عبر مضيق جبل الطارق والزحف على بلاد العدوّ وراء البحر ولا يرخص موسى بن نصير القائد العامّ للجنود الإسلاميّة في ذلك العصر لقصور همّته أو غبطته على فتحٍ كهذا من أحد قوّاده، ولكنَّ طارق عزم على ذلك وعبر مضيق البحر في سبعة آلاف جندي وفتح مملكة الأندلس، وأتى بآية كبيرة من الرجوليّة وعلوّ الهمّة في تاريخ الفتوحات العسكرية فصار أندلس مملكة إسلاميّة غنيّة بالتمدُّن والعلم منذ ثمانية قرون بقيت آثارها إلى عصرنا هذا، وأمر عليه السلام بحسن الثناء على رجالٍ كهذا وضبطِ ما لهم من المآثر في الجهاد إحياءاً للفضيلة وترغيباً لسائر الأفراد القاصري الهمّ والهمَّة.

وصيته عليه السلام بالمساواة وترك التبعيض

المساواة والتآخي أصل إسلامي مال إليه كلُّ الشعوب في هذه العصور الأخيرة المنيرة بالتفكير والاختراع، وأُدرج في برنامج الحقوق العامّة البشريّة، ولكن المقصود منه ليس تساوي الأفراد في النيل من شؤون الحياة: الصالح منهم والطالح والجادّ منهم والكسلان على نهج سواء، بل المقصود منه نيل كلِّ ذي حقّ حقّه من حظّ الحياة على حسب رتبته العلمية وجدّه في العمل، فهذا الأصل يبتني على تعيين الحقوق، وقد شرَّح عليه السلام في هذا الفصل من كلامه هذا الأصل فقال **(اعرف لكلِّ امرىء منهم ما أبلى)** فأمر بإيصال حقّ الجهد والإخلاص إلى صاحبه وعرفان هذا الحقّ بما يوجبه من الرتبة والامتياز وفسّر التبعيض البغيض في أمور:

١ ـ إضافة جهد رجل إلى غيره واحتسابه لغير صاحبه.

٢ ـ عدم استيفاء حقّ المجاهد الجادّ والتقصير في رعاية حقّه على ما يستحقّه.

٣ ـ احتساب العمل الصغير من رجل شريف كبيراً رعايةً لشرفه.

٤ ـ استصغار عمل كبير من رجل وضيع بحساب ضعته.

فهذه هي التبعيضات الممنوعة التي توجب سلب الحقوق عن ذوي الحقوق.

توصيته عليه السلام برعاية القانون وتبيين معناه والتثبت عند الترديد والاشتباه

فالقانون في الحكومة الإسلاميّة هو نصُّ القرآن الصريح وسنّة الرسول الثابتة الصحيحة، فكثيراً ما يعرض أمور على الوالي يشكل عليه حكمها ويشتبه عليه أمرها من جهة العرض على القانون فيختلف في حكمها الآراء ويتولّد النزاع وقد بيّن الله حكمه بعد الأمر بإطاعة القانون من وجوب إطاعة الله وإطاعة رسوله وإطاعة أولى الأمر الحافظ للقانون بعد الرسول صلى الله عليه وآله فقال ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وينبغي البحث في مفاد هذه الآية من وجهين:

الأول أنَّ هذا التنازع الذي يوجب في رفعه الرجوع إلى الله ورسوله هو ما يقع بين أفراد الأُمّة الإسلاميّة غير أُولي الأمر الذي أوجب طاعتهم في رديف طاعة الله وطاعة رسوله، فيكون النزاع المردود إلى الله ورسوله تارةً بين فردين من الأُمّة، وأُخرى بين فرد أو جمع من الأُمّة مع أُولى الأمر، أو مخصوص بالنزاع بين الأُمّة غير أُولي الأمر، ولا بدَّ من القول بأنَّ هذا النزاع لا يشمل أُولى الأمر، لأنَّ أُولى الأمر عدُّوا واجب الطاعة كالله والرسول ولا معنى لوجوب طاعة أُولي الأمر وتصوير النزاع معهم بحيث يردُّ في رفعه إلى الله ورسوله، فأُولوا الأمر مندرج في الرسول ولا بدَّ من كونهم معصومين ومصونين عن الخطأ والاشتباه ولا يجتمع وجوب طاعة أُولي الأمر على الاطلاق مع كونهم طرفاً في النزاع.

الثاني: أنَّ هذا التنازع المبحوث عنه في الآية لا بدَّ وأن يكون في الشبهة الحكميّة وفي العلم بكبرى كلّيّة للحكم الشرعي التي هي نصُّ القانون المرجوع إليه، كاختلاف الصحابة في وجوب الغسل من الدُّخول بلا إنزال، فأنكره جمع قائلين بأنَّ الماء من الماء حتّى رجعوا إلى عموم قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ النساء: ٤٣] [الفرقان: ٣٨] الشامل للدُّخول بلا إنزال، وكالنزاع في حكم المجوس من حيث إنّهم أهل الكتاب فيشملهم حكم الجزية أم ملحقون بالكافر الحربي حتّى رجعوا بدلالة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنّهم أهل كتاب لقوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾، وكالنزاع في أمر حلي الكعبة في زمان حكومة عمر، فقال قوم

بجواز بيعها وصرفها في تجهيز الجنود الإسلاميّة لتقوية عساكر الإسلام حتّى أرجعهم مولانا أمير المؤمنين إلى ما نزل في القرآن من أحكام الأموال وما عمل به النبيُّ ﷺ في حلي الكعبة من عدم التعرُّض لها.

وأمّا في الشبهات الموضوعيّة فقد تتنازع الأُمّة مع النبي ﷺ نفسه كما وقع في موارد:

منها في الخروج من الحصون للحرب مع المشركين في أُحد، فرأى النبي أوَّلاً التحصّن فردَّ رأيَه أكثرُ الصحابة فرجع إلى قولهم وأفضى إلى هزيمة المسلمين وقتل ما يزيد على سبعين من كبار الصحابة منهم حمزة بن عبد المطلب، وقد شرّع الشورى بين النبيِّ والمسلمين بهذا الاعتبار فقال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد أمر عليه السلام لرفع التنازع بالرجوع إلى محكم الكتاب فقال «فالردُّ إلى الله: الأخذ بمحكم الكتاب» والظاهر منه أنّ المرجع عند النزاع أوّلاً هو الرجوع إلى الآيات المحكمة من القرآن التي وصفها الله تعالى بأنّها أُمُّ الكتاب، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

فما هي الآية المحكمة:

الآية المحكمة هي التي لها دلالة واضحة على المعنى يتوافق عرف اللسان الذي نزل عليه القرآن على فهمه منها، والمحكم بحسب الاصطلاح هو الجامع بين النصّ والظاهر الذي يتوافق عرف اللسان على فهمه من الكلام، قال الشيخ البهائي في زبدته في مبحث الدلالات: اللفظ إن لم يحتمل غير ما يفهم منه لغةً فنصٌّ، وإلاّ فالراجح ظاهر والمرجوح مأوّل والجامع بين الأوّلين محكم وبين الأخيرين متشابه.

فالمحكم هو الظاهر الدلالة على المعنى المقصود مضافاً إلى كون معناه أمراً مفهوماً للعموم لتضمّنها حكماً عمليًا أو أصلاً إعتقاديًا كآيات الأحكام وما يدلُّ على التوحيد وصفات الله الجلاليّة والجماليّة.

فإن لم تكن الآية ظاهرة الدلالة على المقصود كالحروف المقطعة الواقعة في أوائل غير واحد من السور، أو تدلُّ على معنى مبهم غامض يحتاج إلى البيان والتوضيح كقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] فليست من الآيات المحكمة التي يرجع إليها عند الاختلاف.

فإن لم تكن هناك آية محكمة ترفع النزاع فترجع إلى السنّة الجامعة الغير المفرقة وهي قول أو تقرير صادر عن النبيِّ ﷺ مجمع عليها بين أصحابه وثابت عند الأمّة، ولم تكن النصوص والقضايا الصادرة عنه ﷺ المجمع عليها بين الأصحاب بقليل في ذلك العصر الذي صدر هذا العهد الشريف.

ونختم هذا الفصل بنقل تفسير هذه الآية الشريفة عن «مجمع البيان»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾[1] أي ألزموا طاعة الله في ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي والزموا طاعة رسوله أيضاً، وإنّما أفرد الأمر بطاعة الرسول وإن كانت طاعته مقترنة بطاعة الله، مبالغةً في البيان وقطعاً لتوهّم من توهّم أنه لا يجب لزوم ما ليس في القرآن من الأوامر ـ إلى أن قال ـ ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ للمفسرين فيه قولان: أحدهما أنّه الأمراء عن أبي هريرة وابن عبّاس في إحدى الروايتين وميمون بن مبران والسّدي واختاره الجبّائي والبلخي والطبري، والآخر أنهم العلماء عن جابر بن عبد الله وابن عبّاس في الرواية الأُخرى ومجاهد والحسن وعطاء وجماعة، وقال بعضهم: لأنّهم الذين يرجع إليهم في الأحكام ويجب الرُّجوع إليهم عند التنازع دون الولاة.

وأمّا أصحابنا فإنّهم رووا عن الباقر والصادق عليهما السلام أنَّ أُولي الأمر الأئمّة من آل محمّد ﷺ أوجب الله طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحدٍ على الإطلاق إلاّ من ثبت عصمته وعلم أنَّ باطنه كظاهره وأمن منه الغلط، وإلاّ يلزم الأمر بالقبيح وليس ذلك بحاصل في الأمراء ولا العلماء سواهم، جلَّ الله أن يأمر بطاعة من يعصيه أو بالانقياد للمختلفين في القول والفعل، لأنّه محال أن يطاع المختلفون كما أنّه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه، وممّا يدلُّ على ذلك أيضاً أنَّ الله قرن طاعة أُولي الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته وأُولوا الأمر فوق الخلق جميعاً كما أنَّ الرسول فوق أُولي الأمر وفوق سائر الخلق، وهذه صفة أئمّة الهدى من آل محمّد الذي ثبت إمامتهم وعصمتهم واتّفقت الأُمّة على علوّ رتبتهم وعدالتهم، انتهى ما نقلناه عن التفسير[2].

---

(١) آية: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، من سورة النساء آية ٥٩.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٦/ ١٦٤.

الترجمة

و به راستی بهترین چیزی که باعث شادمانی و رضایت والیان است، پابرجا شدن عدل و داد است در بلاد و ظهور دوستداری رعیّت است نسبت به آنان و به راستی که این گنجینه دوستی و مهرورزی را از گنجدان دل آنان نتوان بر آورد، مگر به اینکه:

۱ - سینه هاشان از کینه پاك باشد.

۲ - خیرخواهی و اخلاص آنان نسبت به والیان محقّق نشود، مگر به اینکه دوستانه و با اطمینان خاطر، گرد والیان برآیند و آن را به سود خود بدانند و سلطنت و تسلّط والی را بر خود سنگین و ناروا نشمارند و برای زوال دولت و حکومت او روزشماره نکنند و بقاء حکومت او را بر خود ستم ندانند.

باید میدان آرزوی فرماندهان قشون را توسعه بخشی و راه ترقّی را در برابر آنها بازگزاری و از آنها ستایش کنی و خدمات ارزنده ای که انجام داده اند همیشه برشماری و در نظر آری، زیرا هرچه بیشتر خدمات خوب آنها را یادآور شوی دلیران را بهتر بر انگیزد و کناره گیران را تشویق به کار و خدمت باشد.

باید برای هرکدام حقّ خدمت او را منظور داری و خدمت یکی را به پای دیگری به حساب نیاوری و کمتر از آن چه هست نشماری، شرافت و مقام هیچ کس باعث نشود که خدمت اندك او را بزرگ به حساب آوری و زبونی و بینوایی هیچ کس سبب نشود که خدمت بزرگ او را به کم گیری.

اگر تو را در احکام خدا و قانون شرع هدی مشکلی پیش آید و شبهه ای در حکمی به دلت شود، خداوند خودش مردم را دراین باره ارشاد کرده و فرموده: "آیا کسانی که گرویدید، فرمان خدا را ببرید و فرمان رسول خدا را ببرید و از اولی الأمر را و اگر درباره حکمی میان شما اختلاف و نزاعی رخ داد، آن را از خدا و رسولش جویا شوید". ردّ حکم به خدا عبارت از عمل به آیات روشن قرآن است و ردّ حکم و جویا شدنش از رسول خدا، به معنی رجوع به سنّت و روش مقرّر و ثابت و مورد اتّفاق آن حضرت است که مورد اختلاف نباشد.

الفصل السادس من عهده عليه السلام

«ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ في نَفْسِكَ مِمَّن لا تَضيقُ بِهِ الأُمُورُ، وَلاَ تَمْحَكُهُ الْخُصُومُ، وَلا يَتَمادَى في الزَّلَّةِ، وَلا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إلى الحق إذا عَرَفَهُ، وَلا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلى طَمَعٍ وَلا يَكْتَفي بأَدْنى فَهْمٍ دُونَ أَقْصاهُ، وَأَوْقَفَهُمْ في الشُّبُهاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُراجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلى تَكَشُّفِ الأمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضاحِ الْحُكْمِ مِمَّنْ لا يَزْدَهيهِ إِطْراءٌ وَلا يَسْتَميلُهُ إِغْراءٌ، وَأُولئِكَ قَليلٌ، ثُمَّ أَكْثِرْ تَعاهُدَ قَضائِهِ، وَافْسَحْ لَهُ في الْبَذْلِ ما يُزيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حاجَتُهُ إِلى النّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لا يَطْمَعُ فيهِ غَيْرُهُ مِنْ خاصتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذلِكَ اغْتِيالَ الرِّجالِ لَهُ عِنْدَكَ، فَانْظُرْ في ذلِكَ نَظَراً بَليغاً، فَإِنَّ هذا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسيراً في أَيْدِي الأَشْرارِ، يَعْمَلُ فيهِ بِالْهَوى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيا»[١].

اللغة

(الحكم): مصدر حكم يحكم وجاء منه حكّم تحكيماً وتحكّم تحكّماً وحاكم وتحاكم وهو إنشاء نفساني يتعلّق بالنسبة بين الموضوع والمحمول ايجاباً أو سلباً فيسمّى تصديقاً وخبراً إذا حكى عمّا ورائه، ويحتمل الصدق والكذب وإنشاءاً إذا لم يحك بأقسامه من الأمر والنهي والقَسَم والدعاء وغير ذلك، وينسب إلى الشرع فيقال: الحكم الشرعي، وهو طلب الشارع الفعل أو تركه مع استحقاق الذّم بمخالفته أو بدونه أو تسويته ويتولّد منه الحكم الوضعي بأقسامه أو هو إنشاء مستقلٌ في بعض صوره، والحكم الشرعي عند الأشاعرة خطاب الله المتعلّق بأفعال المكلّفين، وهذا التفسير أعمّ وأتمّ، والحكم القضائي إنشاء إثبات حقّ لأحد المترافعين كما إذا أُقيم البيّنة أو اعترف المدّعى عليه أو نفيه كما إذا أنكر وحلف، **(محك)** الرجل: لجَّ وماحك زيدٌ عمراً: لاجّه، **(الزلّة)**: موضع الخطر والمزلّة، المزلق، **(الصرم)**: القطع، **(لا يزدهيه)**: افتعال من الزهو وهو الكبر، **(الاطراء)**: كثرة المدح، **(الاغتيال)**: الأخذ على غرَّة.

الإعراب

(في نفسك): ظرف متعلّق بقوله **(أفضل)**، **(ممّن)**: لفظة (من) للتبعيض والظرف مستقرّ وحال من فاعل **(أفضل)**، **(وأوقفهم)**: عطف على قوله **(أفضل)**، **(قليل)**: خبر **(أولئك)**

---

(١) تحف العقول: ١٣٦، وبحار الأنوار: ٣٣/٦٠٥.

يستعمل في المفرد والجمع، **(ما يزيل علّته)**: لفظة (**ما**) اسميّة موصوفة بما بعدها أي **(شيئاً)** أو بذلاً يزيل علّته، **(له عندك)**: ظرفان متعلّقان بقوله **(اغتيال الرجال)**.

المعنى

تحتاج إدارة شؤون الاجتماع إلى قانون كلّي يتضمّن تعيين الحقوق والحدود بين الأفراد على الوجه الكلّي، وإلى قانون يتضمّن رفع الاختلاف بينهم عند النزاع والخصومة في الحقوق التي تتضمّنها القوانين العامّة، وإلى قوّة لإجراء هذه القوانين، ومن هنا يقسّمون قوى المجتمع الحاكمة على الشعب والأمّة إلى القوّة المقنّنة والقوّة القضائيّة والقوّة المجرية، وهذه القوى الثلاثة هي أركان إدارة شعبٍ وأُمّة متمدّنة مترقّية ولا بدّ من استقلال كلّ هذه القوى في شؤونها وعدم مداخلة أيّ منها في الشؤون المتعلّقة بالقوّة الأُخرى حتّى تستقيم الأُمور وتتحقّق العدالة في المجتمع ويصل كلّ ذي حقّ إلى حقّه.

وقد تعرَّض عليه السلام في هذا الفصل من عهده للأشتر عليه الرحمة حين ولاّه مصر إلى القوّة القضائيّة وما يلزم في القاضي من الأوصاف والألقاب ليكون أهلاً لتصدّي منصب القضاء والحكم بين الناس فقال **(ثمّ اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك)** فقد أدرج عليه السلام في هذه الجملة استقلال القوّة القضائيّة حيث إنّ المتصدّي للقضاء لا بدّ وأن يكون من أفضل أفراد الأُمّة، وإذا كان من أفضل أفراد الأمّة فيكون مستقلاً في أمره ولا يتسلط عليه غيره لأنّ المفضول لا يحكم على الفاضل والأفضل، مضافاً إلى ما أكّد ذلك الاستقلال بما ذكره عليه السلام في آخر الفصل من قوله **(وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك)**[1].

ثمّ فسّر عليه السلام الأفضل بمن يحوز ألقاباً ستّة:

١ ـ لا تضيق به الأُمور لقلّة الإحاطة بوجوه تدبيرها وعدم قوّة التحليل والتجزية للقضايا الواردة عليه فيحار فيها ويعرضه الشكّ والترديد في حلّها وفصلها.

٢ ـ ولا تمحكه الخصوم، قال في الشرح المعتزلي: جعله ماحكاً أي لجوجاً، وقال ابن ميثم: أي يغلبه على الحقّ باللّجاج، وقيل: ذلك كناية عن كونه ممّن يرتضيه الخصوم فلا تلاجّه ويقبل بأوّل قوله.

أقول: يمكن أن يكون كناية عن كونه بشدّة صلابته في أمره وهيبة إيمانه وتمسّكه بالحقّ

---

(١) تحف العقول: ١٣٦، ومستدرك الوسائل: ١٣/ ١٦٥.

بحيث لا يطمع الخصوم في جعله محكاً يمتحنونه هل يقبل الرشوة أم لا وهل يؤثّر فيه التطميع والتهديد أم لا؟

٣ ـ ولا يتمادى في الزّلّة، حيث إنَّ القاضي في معرض الاشتباه دائماً من جهة تحيّل المترافقين وتشبّث كلٍّ واحد منهما في جلب نظر القاضي إلى الاعتماد بكون الحقّ له فإذا عرض له رأى ثمَّ كشف له أنّه خلاف الحقّ لا يتمادى في الزلّة ولا يصعب عليه الرجوع إلى الحقّ.

٤ ـ لا يحصر من الرجوع إلى الحقّ إذا عرفه، قال الشارح المعتزلي: هو المعنى الأوّل بعينه، إلاّ أنَّ هاهنا زيادة، وهو أنّه لا يحصر أي لا يعيا في المنطق، لأنَّ من الناس من إذا زلَّ حصر عن أن يرجع وأصابه كالفهاهة والعيّ وأضاف ابن ميثم أنّه يأبى للرجوع إلى الحقّ حفظاً لجاهه وخوفاً من الشناءة كما يفعله قضاة السوء.

٥ ـ أن لا يحدّث نفسه بالطمع في الاستفادة من المترافعين فيتوجّه إلى الأوفر منهم ثروةً أو جاهاً ليستفيد من ماله أو جاهه، ثمَّ يجرّه ذلك إلى أخذ الرشوة والميل عن الحقّ والحكم بخلاف الحقّ.

٦ ـ أن يكون دقيقاً في كشف القضيّة المعروضة عليه محقّقاً لفهم الحقيقة ولا يكتفي بالنظر السطحي في فهم صدق المتداعيين وكذبهم، بل يكتنه القضيّة عن طرق كشف الجرم وعن طرق كشف الحقيقة وهي كثيرة غير محصورة جدًّا، وقد ظهر منه عليه السلام في قضاياه الكثيرة ما يقضي منه العجب.

فممّا ذكر من ذلك أنّه سافر عبد مع مولاً له شابّ فادَّعى العبد أثناء السفر أنّه هو المالك لسيّده وأنّه عبده وعامل معه معاملة المسترقّ فدخلا الكوفة وترافعا عند عليّ عليه السلام ولم يكن هناك بينة لأحدهما ولم يعترف العبد المتجاوز للحقيقة بوجهٍ من الوجوه، فأحضرهما يوماً وأمر بحفر ثقبتين في جدار متعاكساً وأمرهما باخراج رأسهما من تلك الثقبتين،ثمّ نادى بصوت عال يا قنبر أضرب عنق العبد، فلمّا سمع العبد ذلك هابه وأخرج رأسه من الثقبة فوراً فصار ذلك اعترافاً له بالحقيقة، وقد قرّر في محاكم هذه العصور طرائق هائلة في كشف الحقيقة وكشف الجرائم.

فهذه هي الصفات التي توجب فضيلة الفرد وتشكّل له شخصيّة رهيبة تؤهّله لتصدّي منصب القضاء، ولم يكتف عليه السلام بهذه الصفات حتّى أكملها بستّة أُخرى فقال:

١ ـ أوقف الرعيّة عند عروض الشبهة، فلا يأخذ بأحد طرفي الشبهة حتى يفحص ويبيّن له الحقُّ بدليل علمي يوجب الاطمئنان.

٢ ـ آخَذهم بالحجج، فلا يقصّر في جمع الدلائل والأمارات على فهم الحقيقة من أيّ طريقٍ كان.

٣ ـ وأقلّ الناس تضجّراً وقلقاً من مراجعة الخصوم، فلا ينهرهم ولا يصيح في وجوههم ليسع لهم بيان الحال والمآل فينكشف له الحقُّ ولا يضيع حقّ الخصوم قال الشارح المعتزلي: وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه عليه السلام، فإنَّ القلق والضجر والتبرُّم قبيح وأقبح ما يكون من القاضي.

٤ ـ أن يكون أصبر الناس على كشف حقيقة الأُمور بالبحث وجمع الدلائل.

٥ ـ أن يحكم عند وضوح الحقّ صريحاً وقاطعاً ولا يؤخّر صدور الحكم.

٦ ـ أن لا يؤثّر فيه المدح والثناء من المتداعيين أو غيرهما فيصير متكبّراً ولا يؤثّر فيه تحريض الغير فيجلب نظره إلى أحد الخصمين.

وقد أعلن عليه السلام بعد بيان هذه الأوصاف بأنَّ الواجدين لها قليل.

واعلم أنَّ القضاء من شؤون النبوّة كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] فهي من شؤون الرياسة العامّة على الدّين والدّنيا الثابتة للنبيّ بالرسالة وللوصيّ بحكم الوصاية، وقد ورد في الحديث أنَّ مسند القضاء مجلس لا يجلسه إلاّ نبيٌّ أو وصيٌّ أو شقيٌّ[1]، فلا بدَّ من كسب هذا المنصب من النبيِّ والوصيِّ، فلا يجوز تصدّي القضاة لأحد من عند نفسه وإن كان مجتهداً وواجداً لأوصاف القاضي.

قال في «الرياض» بعد ذكر شرائط القاضي: واعلم أنّه لا بدَّ مع اجتماع هذه الشرائط من إذن الإمام بالقضاء لمستجمعها خصوصاً أو عموماً، ولا يكفي مجرَّد اجتماعها فيه إجماعاً لما مضى من اتّفاق النصّ والفتوى على اختصاصه عليه السلام بمنصب القضاء، فلا يجوز لأحدٍ التصرُّف فيه إلاّ بإذنه قطعاً، ومنه ينقدح الوجه في ما اتّفقوا عليه من أنّه لا ينعقد القضاء بنصب العوامّ له، أي المستجمع للشرائط أو غيره بالطريق الأولى بينهم قاضياً، انتهى[2].

ثمَّ استثنى بعد ذلك بقوله: نعم لو تراضى اثنان بواحد من الرعيّة فحكم بينهما لزم حكمه في حقّهما في المشهور بين أصحابنا بل لم ينقلوا فيه خلافاً أصلاً، مستندين إلى وقوع

---

(١) الكافي ٧/ ٤٠٦ ح٢.

(٢) رياض المسائل: ٢/ ٣٨٧.

ذلك في زمن الصحابة ولم ينكر أحد منهم ذلك، انتهى.

أقول: لو تمَّ الدليل على ذلك كان من موارد صدود الأذن على وجه العموم فكان قاضي التراضي قاضياً منصوباً بالأدلّة العامة.

إلى أن قال: ومع عدم الإمام ينفذ قضاء الفقيه من فقهاء أهل البيت عليهم السلام الجامع للصفات المشترطة في الفتوى لقول أبي عبد الله عليه السلام: «فاجعلوه قاضياً فقد جعلته قاضياً فتحاكموا إليه»[١].

وقد نقل عن الشهيد الثاني في المسالك ما لفظه: ما تقدَّم من اشتراط نصب القاضي وإن كان فقيهاً ومجتهداً وعدم نفوذ حكمه إلاّ مع التراضي به مختصٌّ بحال حضور الإمام وتمكّنه من نصب القضاة، وأمّا مع عدم ذلك إمّا لغيبته أو لعدم بسط يده فيسقط هذا الشرط من جملة الشروط وهو نصب الإمام، انتهى[٢].

ثمَّ قال: وينفذ عندنا قضاء الفقيه العدل الإمامي الجامع لباقي الشروط وإن لم يتراض الخصمان بقوله لقول أبي عبد الله عليه السلام لأبي خديجة: «إيّاكم أن يحاكم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور ولكن انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضائنا فاجعلوه بينكم قاضياً فإنّي قد جعلته قاضياً فتحاكموا إليه» ـ إلى أن قال: وقريب منها رواية عمر بن حنظلة، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا يكون بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أيحلُّ ذلك؟ فقال عليه السلام من تحاكم إلى الطاغوت فحكم له فإنّما يأخذه سحتاً وإن كان حقّه ثابتاً لأنّه أخذ بحكم الطاغوت وقد أمر الله تعالى أن يكفر به، قلت: كيف يصنعان؟ قال: «انظروا إلى من كان منكم روى قد حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فارضوا به حكماً فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً»[٣] ـ إلخ.

أقول: يستفاد من الحديثين أنَّ الإمام نصب الفقيه الجامع للشرائط قاضياً على وجه العموم فليس هناك استثناء عن اشتراط القضاء بإذن الإمام، وظاهر الفقهاء أنَّ القاضي يلزم أن يكون مجتهداً مطلقاً فلا يجوز للمتجزّي تصدّي القضاء وإن كان استفادة ذلك من الحديثين مشكل.

واعلم أنّه قد ذكر الفقهاء للقاضي شرائط كما يلي:

قال في الرياض: واعلم أنَّ الصفات المشترطة فيه ستّة: التكليف بالبلوغ وكمال

---

(١) الكافي: ٧/٤١٢ ح ٤، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/٣.

(٢) الكافي: ١/٦٧ ح ١٠، وتهذيب الأحكام: ٦/٢١٨ ح ٥١٤.

(٣) رسائل الشهيد الثاني: ٨١. الكافي: ٧/٤١٢ ح٥.

العقل، والإيمان بالمعنى الأخصّ أي الاعتقاد بالأصول الخمسة، والعدالة وطهارة المولد عن الزنا، والعلم ولو بالمعنى الشامل للظنّ الاجتهادي بالحكم الشرعي القائم مقامه بالدليل القطعي فإنّه في الحقيقة علم ولو بوسيلة الظنّ فإنّه في طريق الحكم لا نفسه، والذكورة، بلا خلاف في شيء من ذلك أجده بيننا بل عليه الاجماع في عبائر جماعة كالمسالك وغيره في الجميع - إلى أن قال: ولا بدَّ أن يكون ضابطاً فلو غلبه النسيان لم ينعقد له القضاء، وهل يشترط علمه بالكتابة؟ الأشبه نعم - إلى أن قال: ولا ينعقد القضاء للمرأة وفي إنعقاده للأعمى تردُّد إلى أن قال: والأقرب الأشهر أنّه لا ينعقد له القضاء - انتهى[1].

أقول: لا ينطبق ما ذكره الفقهاء من شرائط القاضي على ما ذكره عليه السلام في هذا الفصل من الصفات الاثنتي عشر للقاضي فإنَّ كلامه عليه السلام يخلو من كثير من هذه الشرائط كشرط الإيمان بالمعنى الأخص، كيف وقد نصب شريحاً قاضياً في أيّام حكومته ولم يكن مؤمناً بالمعنى الأخصّ كما أنَّ كلامه خالٍ عن اشتراط الذكورة وطهارة المولد، إلاّ أن يقال إنَّ هذه الشرائط يستفاد من فحوى كلامه بأنها دون ما ذكره عليه السلام من الشرائط للقاضي بكثير مع التوجّه إلى قوله عليه السلام **(وأُولئك قليل)**.

وهل يشترط هذه الشرائط التي عدَّدها عليه السلام في القاضي على وجه الوجوب فلا يجوز نصب القاضي الفاقد لأحد هذه الشروط مطلقاً أو عند وجود واجد هذه الشرائط؟ ظاهر كلام الفقهاء عدم وجوب رعاية وجود كلِّ هذه الشرائط في القاضي وقد ذكروا بعضها من صفات مستحبّة له.

قال في الرياض: النظر الثاني في الآداب وهي قسمان: مستحبّة ومكروهة ولم يرد بكثير منها نصٌّ ولا رواية ولكن ذكرها الأصحاب فلا بأس بمتابعتهم مسامحة في أدلّة السنن والكراهة، فالمستحبُّ إشعار رعيّته وأخبارهم بوصوله إن لم يشتهر خبره، والجلوس في قضائه في موضع بارز مثل رحبة أو فضاء يسهل الوصول إليه، ويكون مستقبل القبلة في جلوسه لتحصيل الفضيلة على قول، والأكثر على استحبابه، مستدبرَ القبلة ليكون وجوه الناس إليها، نظراً إلى عموم المصلحة وأن يأخذ مبتدءاً ما في يد الحاكم المعزول من حجج الناس وودائعهم - إلى أن قال: والسؤال بعد ذلك عن أهل السجون وإثبات أسمائهم والبحث عن موجب اعتقالهم وحبسهم ليطلق من يجب إطلاقه، ويستحبُّ تفريق الشهود عند الإقامة، فإنّه أوثق خصوصاً في موضع الريبة عدا ذوي البصائر والشأن من العلماء والصلحاء الأعيان فلا يستحبُّ تفريقهم بل يكره وربّما يحرم لما يتضمّن تفريقهم من الغضاضة والمهانة بهم بل ربما يحصل في ذلك كسر قلوبهم، وأن يستحضر من أهل العلم والاجتهاد من يعاونه في المسائل

---

(١) رياض المسائل: ٢/ ٣٨٥.

المشتبهة.

والمكروهات: الاحتجاب أي اتّخاذ الحاجب وقت القضاء، للنبوي: «من ولى شيئاً من أُمور الناس فاحتجب دون حاجتهم وفاقتهم، احتجب الله تعالى دون حاجته وفاقته وفقره» - إلى أن قال: «وأن يقضي مع ما يشغل النفس كالغضب لغير الله تعالى والجوع والعطش والمرض وغلبة النعاس ومدافعة الأخبثين» ونحو ذلك من المشغلات كما يستفاد من الأخبار، ففي النبوي: «لا يقضي وهو غضبان»، وفي آخر: «لا يقضي إلاّ وهو شبعان» - إلى أن قال: وأن يرتّب ويعيّن قوماً للشهادة دون غيرهم لما يترتّب عليه من التضييق على الناس والغضاضة من العدل الغير المرتّب، ونقل قول بتحريمه نظراً إلى أنّ ذلك موجب لإبطال شهادة مقبولي الشهادة فإنّه ربما يتحمّل غيرهم الشهادة فإذا لم تقبل شهادتهم ضاع الحقّ عن أهله وقد قال سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] فأطلق، انتهى[١].

وقال في مبحث وظائف الحكم وآدابه: وهي أربع: الأولى يجب على القاضي التسوية بين الخصوم في السلام عليهما وردّه إذا سلّما عليه، والكلام معهما والمكان لهما فيجلسهما بين يديه معاً، والنظر إليهما والإنصات والإستماع لكلامهما، والعدل في الحكم بينهما وغير ذلك من أنواع الإكرام كالإذن في الدخول وطلاقة الوجه للنصوص المستفيضة - إلى أن قال: من جملته قول علي عليه السلام لشريح: ثمّ واس بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك حتّى لا يطمع قريبك في حيفك، ولا ييأس عدوُّك من عدلك، انتهى[٢].

وقد ذكر الشارح المعتزلي في هذا الشأن حديثاً كما يلي:

واستعدى رجل على عليّ بن أبي طالب عليه السلام عمر بن الخطاب وعليٌّ جالس، فالتفت عمر إليه، فقال: قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك، فقام فجلس معه وتناظرا ثمّ انصرف الرجل ورجع عليّ عليه السلام إلى محلّه، فتبيّن عمر التغيّر في وجهه، فقال: يا أبا الحسن، ما لي أراك متغيّراً، أكرهت ما كان؟ قال: نعم، قال: وما ذاك؟ قال: كنّيتني بحضرة خصمي، هلاّ قلت: قم يا عليُّ فاجلس مع خصمك، فاعتنق عمر عليًّا، وجعل يقبّل وجهه، وقال: بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور[٣].

ونذكر في آخر هذا الفصل ما ذكره الشارح المعتزلي في آداب القاضي نقلاً عن الفقهاء:

(١) رياض المسائل: ٢/ ٣٨٩.
(٢) رياض المسائل: ٢/ ٣٩٤.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٦٥.

قال: وقد ذكر الفقهاء في آداب القاضي أموراً، قالوا:

لا يجوز أن يقبل هديّة في أيّام القضاء، ولا يجوز قبولها في أيّام القضاء ممّن له حكومة وخصومة وإن كان ممّن له عادة قديمة، وكذلك إن كانت الهديّة أنفس وأرفع ممّا كانت قبل أيّام القضاء لا يجوز قبولها، ويجوز أن يحضر القاضي الولائِمَ ولا يحضر عند قوم دون قوم؛ لأنّ التخصيص يُشعر بالمَيل، ويجوز أن يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويأتي مقدم الغَائب، ويكره له مباشرة البيع والشراء. ولا يجوز أن يقضي وهو غضبان، ولا جائع ولا عطشان، ولا في حال الحزن الشديد، ولا الفرح الشديد، ولا يقضي والنعاس يعانيه، والمرض يقلقه، ولا هو يدافع الأخبثين، ولا في حرّ مزعج، ولا في برد مزعج، وينبغي أن يجلس للحكم في موضعٍ بارزٍ يصل إليه كلُّ أحد، ولا يحتجب إلاّ لعذرٍ، ويستحبُّ أن يكون مجلسه فسيحاً لا يتأذّىَ بذلك هو أيضاً، ويكره الجلوس في المساجد للقضاء، فإن احتاج إلى وكلاء جاز أن يتّخذهم ويوصيهم الرفق بالخصوم. ويستحبُّ أن يكون له حبس، وأن يتّخذ كاتباً إن احتاج إليه ومن شرط كاتبه أن يكون عارفاً بما يكتب به عن القضاء. واختلف في جواز كونه ذمّيًا، والأظهر أنّه لا يجوز، ولا يجوز أن يكون كاتبه فاسقاً، ولا يجوز أن يكون الشهود عنده قوماً معيّنين بل الشهادة عامّة في من استكمل شروطها.

واعلم أنّه من المقرَّر في القوانين القضائيّة في هذا العصر أنَّ الحكم الصادر في قضيّةٍ واحدةٍ يقبل النقض مرّتين، فقسّموا الدائرة القضائيّة إلى ثلاث مراتب:

المحكمة الابتدائيّة التي يعرض عليها القضيّة أوّل مرَّة، فإذا صدر حكم من قاضي هذه المحكمة يكون لمن صدر الحكم عليه أن يعرضه على محكمة الاستئناف ويطلب تجديد النظر فيه، ويجوز لقاضي محكمة الاستئناف نقض الحكم إن رأى فيه خللاً من حيث القوانين القضائيّة، فإن أبرمه فلمن هو عليه أن يعرضه مرَّة ثالثة إلى محكمة أعلى وهي محكمة التميز، فلها أن ينقضه إن رأت فيه خللاً، فإن أبرمته يصير قطعيًا باتاً لا يقبل النقض، وقد أشار عليه السلام إلى هذه المراتب الثلاثة في ضمن هذا الفصل، فقوله عليه السلام **(ولا يحصر من الفيء إلى الحقّ إذا عرفه)** إشارة إلى الحكم الاستئنافي، فإنَّ الرجوع إلى الحقّ إنّما يكون بعد صدور حكم ابتدائي في القضيّة المعروضة على محكمة القضاء، ثمَّ أشار إلى الدرجة الثالثة بقوله عليه السلام **(وأكثر تعاهد قضائه)** فإنَّ تعاهد القضاء والفحص عنها من قبل الوالي يشمل الأحكام الصادرة في القضايا المعروضة، وفائدة الفحص والتعاهد عنها إنّما يكون في نقضها إذا رأى الوالي فيها خللاً.

ثمَّ أوصى للقضاة بوفور البذل لهم بحيث يكفي لمؤونتهم وسدّ حاجاتهم، فلا يؤدّيهم ضيق المعيشة إلى أخذ الرشوة والميل عن الحق.

ثمَّ أوصى بحفظ جانبهم وإعطاء ا لمنزلة العالية لهم عند الوالي بحيث لا يجترىء أحد على انتقادهم لدى الوالي وحطّ رتبتهم ليكون ذلك مظنّة لتهديدهم من قبل ذوي النفوذ بالسعي في عزلهم إذا لم يوافقوا لما أرادوا منهم من الميل عن الحقّ بنفعهم والمقصود من هذه الجملة حفظ استقلال القوّة القضائية عن القوّة المقنّنة والقوّة المجرية وعدم تدخّل أحد فيها حتّى يطمئنّ القاضي بنفسه ويعتقد أنّه لا يحول بينه وبين تشخيص الحقّ في القضيّة المعروضة عليه أحد، فيفحص عن الحقّ ويميّزه ويحكم به من دون خوف ولا وجل.

الترجمة

سپس برگزين براى قضاوت ميان مردم در اختلافات آنها بهترين رعاياى خود را در نظر خودت، از كسانى كه داراى اين صفات باشند:

١ - كارها بر آنها مشكل نگردند و در حلّ و فصل آنها درنمانند.

٢ - اهل دعوى، آنها را به لجبازى نكشند و در معرض امتحان نياورند.

٣ - اگر به لغزش و خطايى دچار شدند، دنبال آن نروند و به محض اين كه فهميدند، به حق برگردند.

٤ - رجوع و برگشت به حق پس از فهميدن آن، بر آنها دشوار و ناهموار نباشد.

٥ - خود را در پرتگاه طمع نكشند و پيرامون آن نگردند.

٦ - به فهم سطحى و ابتدايى در قضايا اكتفاء نكنند و دنبال فهم نهايى و تحقيق كافى باشند.

با اين حال، از همه مردم در مورد شبهه و ابهام حق محتاط تر باشند و از همه بيشتر دنبال دليل و حجّت براى روشن شدن حق بگردند و از مراجعت اهل دعوى دلگير و تنگ خلق نشوند و از همه كس براى كشف حقيقت بردبارتر باشند و چون حق را روشن و گويا فهميدند، در صدور حكم قاطع باشند.

از كسانى باشند كه ستايش، آنها را فريفته و خودبين نسازد و تشويق و ترغيب

در آنها مؤثّر نگردد و دل آنها را نبرد، اینان کمیابند.

سپس بسیار از قضاوت آنها بازرسی کن و به جریان کار آنها مطّلع باش و برای قاضی بخشش فراوان کن و حقوق مکفی مقرّر دار، به اندازه ای که رفع نیاز او را بکند و حاجت وی را به مردم دیگر به حدّاقل برساند.

برای او در نزد خود مقامی بس منیع مقرّر دار که هیچ کدام از خواص کارگزاران تو بدان مقام طمع نورزند تا بدینوسیله از دستبرد مردان دیگر در پیشگاه تو نسبت به خود مصون باشند، در این باره نظری رسا داشته باش، زیرا این دین به دست مردمی بد، اسیر بوده است و به هوی و هوس در آن عمل می شده و آن را وسیله برآوردن آرزوهای شیطانی کردند و بهوسیله آن دنیاطلبی نمودند.

الفصل السابع من عهده عليه السلام

«ثُمَّ انْظُرْ في أُمورِ عُمّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِباراً، وَلا تُوَلِّهِمْ مُحاباةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمْ [فَإِنَّهُما] جِماعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيانَةِ، وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَياءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتاتِ الصّالِحَةِ، والْقَدَمِ في الإِسْلامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُم أَكْرَمُ أَخْلاقاً، وَأَصَحُّ أَعْراضاً وَأَقَلُّ في الْمَطامِعِ إِشْرافاً، وَأَبْلَغُ في عَواقِبِ الامورِ نَظَراً، ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الأَرْزاقَ، فَإِنَّ ذلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاحِ أَنْفُسِهِمْ، وغِنى لَهُمْ عَنَ تَناوُلِ ما تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خالَفُوا أَمْرَكَ، أَوْ ثَلَمُوا أَمانَتَكَ، ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعاهُدَكَ في السِّرِّ لأُمورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمالِ الأَمانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلى خِيانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِها عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبارُ عُيُونِكَ اكْتَفَيْتَ بِذلِكَ شاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ في بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِما أَصابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عارَ التُّهَمَةِ.

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَراجِ بِما يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ في صَلاحِهِ وَصَلاحِهِمْ صَلاحاً لِمَنْ سِواهُمْ، وَلا صَلاحَ لِمَنْ سِواهُمْ إِلاّ بِهِمْ، لأَنَّ النّاسَ كُلَّهُمْ عِيالٌ عَلَى الْخَراجِ وَأَهْلِهِ، وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ في عِمارَةِ الأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ في اسْتِجْلابِ الْخَراجِ، لأَنَّ ذلِكَ لا يُدْرَكُ إِلاّ بِالْعِمارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَراجَ بِغَيْرِ عِمارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاّ قَليلاً، فَإِنْ شَكَوْا ثِقْلاً أَوْ عِلَّةً أَوِ انْقِطاعَ شِرْبٍ أَوْ بالَّةٍ أَو إِحالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَها غَرَقٌ أَوْ أَجْحَفَ بِها عَطَشٌ خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِما تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ في عِمارَةِ بِلادِكَ، وَتَزْيينِ وِلايَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلابِكَ حُسْنَ ثَنائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفاضَةِ الْعَدْلِ فيهِمْ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِما ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمامِكَ لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِما عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّما حَدَثَ مِنَ الامورِ ما إِذا عَوَّلْتَ فيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طيبَةً أَنْفُسِهِمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمْرانَ مُحْتَمِلٌ ما حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّما يُؤْتَى خَرابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوازِ أَهْلِها، وَإِنَّما يُعْوِزُ أَهْلُها لإِشْرافِ أَنْفُسِ الْوُلاةِ عَلَى الْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقاءِ، وَقلةِ انْتِفاعِهِمْ بِالْعِبَرِ»[1].

اللغة

(المحاباة): المعاطاة والعطاء بلا عوض، **(الاثرة)**: الاستبداد والانعام للحبّ

(١) تحف العقول: ١٣٨، ومستدرك الوسائل: ١٣/١٦٧.

والمودَّة، **(الجماع)**: الجمع، **(التوخّي)**: التقصّد، ثلمت الإناء من باب ضرب: كسرته من حافته، **(الثلمة)**: كبرمة الخلل الواقع في الحائط وغيره، **(الحدوة)**: الحثّ، **(وسمه)** وسماً وسمة: أثّر فيه بسمة وكيّ، والميسم بكسر الميم اسم الآلة التي يكوى بها، يقال **(ثقل)** الشيء بالضمُّ: ثقلاً وزان عنب ويسكن للتخفيف فهو ثقيل، **(الشرب)**: النصيب من الماء، **(البالّة)**: القليل من الماء يبلُّ به الأرض، والظاهر أنّه في الأراضي التي يسقيه الأمطار فحسبُ، فإذا قلّت الأمطار يقال: أصيب بالبالّة، **(أحالت)** الأرض: تغيرت عمّا عليه من الاستواء فلم ينجب زرعها ولا أثمر نخلها، وذلك يكون على أثر السيول والأمطار الغزيرة **(البجح)**: الفرح، يقال: بجح بالشيء بالكسر وبالفتح لغة ضعيفة وبجحته فتبجّح: أي فرحته ففرح وفي حديث: أهل الجنّة في خيراتها يتبجّحون، **(معتمداً)**: قاصداً، **(الإجمام)**: الاراحة، **(الاعواز)**: الفقر.

الإعراب

(اختباراً): مفعول له لقوله **(فاستعملهم)**، **(محاباةً)**: مفعول له لقوله **(لا تولّهم)**، **(توخّ)**: أمر من توخّي يتوخّى، و**(أهل التجربة)** مفعوله، **(المتقدّمة)**: صفة لقوله **(البيوتات)**، **(أخلاقاً)**: منصوب على التميز من النسبة في قوله **(أكرم)**، **(ما تحت أيديهم)**: «ما» موصولة و«تحت أيديهم» ظرف مستقرّ صلة والعائد محذوف أو مستتر في الظرف باعتبار متعلّقه المقدَّر ويحتمل أن تكون موصوفة وما بعدها صفتها أي شيئاً تحت أيديهم، **(فإن أحد منهم)**: «أحد» فاعل فعل مضمر يفسّره قوله: **(بسط يده إلى خيانة اكتفيت بذلك شاهداً)**: جملة فعليّة حاليّة وقوله: **(فبسطت عليه العقوبة)**: جزاء الشرط، **(بما يصلح أهله)**: **(ما)** موصولة وما بعدها صلتها، **(سواهم)**: ظرف مستقرّ صلة لقوله: **(من)** في **(لمن)**، **(إلاّ بهم)**: استثناء مفرَّغ، **(خفّفت عنهم)**: جزاء شرط لقوله **(فإن شكوا)**، **(معتمداً)**: حال عن المخاطب، **(من بعدُ)**: بضمِّ بعد مبنيّاً لكون المضاف إليه المحذوف منويًا أي بعد ذلك الارفاق، **(طيّبةً)**: حال، **(من إعواز)**: من هنا للتعليل.

المعنى

قد انبسط النظام السياسي للبلاد في هذه العصور فتشكّل الحكومة من رئيس أو ملك يعيّن وزراء عديدة لكلّ شأن من شؤون البلد، فوزير للحرب، ووزير للماليّة، ووزير للأُمور الداخليّة، ووزير للأُمور الخارجيّة، ووزير للعلوم، ووزير للاشغال العامّة، وهكذا، وربما يزيد الوزراء على عشرين وزيراً وتتشكّل كلُّ وزارة من مديريّاتٍ وإداراتٍ كثيرة يشتغل في أمورها خلق كثير، ولكنَّ النظام السياسي في صدر حكومة الإسلام كان بسيطاً جدًّا، وهذا

هو العلّة الرئيسيّة لتقدُّم الإسلام ونفوذه في الأمم والشعوب، فكان ينبعث من قبل الخليفة لكلِّ ناحية عامل، والشغل الرئيسي لهذا العامل مهما كان مدار عمله وسيعاً أمران:

١ ـ إقامة الصلاة للناس بإمامته فكان حضور الجماعة والصلاة خلف العامل واجباً على كلِّ المكلّفين فيحضرون المسجد كلَّ يوم في مواقيت الصلوات الخمسة ويصطفّون وراء العامل فيصلّي بهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة في صلاته ويلقّنهم العقائد الإسلاميّة ويدرِّبهم للاصطفاف تجاه العدوِّ في ميادين الجهاد، فكانت جامعة الصلاة مدرسة للمعارف وتعليم النظامات العسكريّة لكلِّ مسلم، ولا يشغل منه إلاّ مقدار ساعتين في كلِّ يوم وليلة، ويكون له الفرصة الكافية أن يذهب وراء مشاغله وحرفه المعتادة.

٢ ـ جمع الخراج من الدهاقين والزارعين ويدخل في ضمنه الجزية المفروضة على أهل الكتاب الداخلين في ذمّة الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس، وهم الأكثرون عدداً في هذا العصر المشتغلون بأمر الزراعة والعمران في شتّى نواحي البلاد الإسلاميّة الممتدَّة من إفريقيا إلى حدود الصين، فكانت شخصيّة الوالي هي النقطة الرئيسيّة في استقامة نظم البلاد الإسلاميّة وصحّة مسير الإسلام نحو التقدُّم والازدهار ونحو هدفه الأساسي الذي هو هداية الناس كافّةً كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] ولا يوصل إلى هذا الهدف الرئيسي إلاّ برعاية القوانين الإسلاميّة وبثِّ العدل الإسلامي ورعاية نوع البشر وإراءة طريق سعادته بالسيرة والعمل، فكان وظيفة العامل ثقيلة، ودقيقة، ومن هذه الجهة أوصى لانتخاب العمّال بقوله (**فاستعملهم اختباراً**).

قال في الشرح المعتزلي (**ج ١٧ ص ٢٩ ط مصر**): وهم عمّال السواد والصدقات والوقوف والمصالح وغيرها، فأمره أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجربتهم وأن لا يولّيهم محاباة لهم ولمن يشفع فيهم ولا إثرة ولا إنعاماً عليهم.

أقول: لا وجه لاختصاص كلامه بصنف من العمّال، بل المقصود منه مطلق العمّال ومن يلي أمر ناحية من البلاد، والإثرة هو إظهار المحبّة لأحد أو التعطّف له لتودُّده أو حاجته أو غير ذلك من الدواعي الخصوصيّة، وفي نسخة ابن ميثم: «فإنّهم جماع من الجور والخيانة».

فالمقصود أنَّ العمّال الشاغلين للأعمال في زمان عثمان ومن تقدَّمه كانوا جمعاً من شعب الجور والخيانة، فإنَّ الخلفاء الذين تقمّصوا الخلافة بغير حقّ ويخافون على مقامهم من ثورة طلاّب الحقّ ويستعملون في أعمالهم من يوافقهم في نفاقهم ويعينهم على جورهم وشقاقهم ممّن ينحرف عن الحقِّ ويميل إلى الباطل لضعف عقيدته ورقّة إيمانه.

فانظر إلى أبي بكر المتحفّظ على الظاهر والمتظاهر بحفظ السيرة النبويّة قد اختار

خالد بن الوليد المنحرف عن أهل بيت النبوّة والحاسد الحاقد على مركز الولاية، عليٍّ بن أبي طالب أمير الأمراء في حكومته وفوّض إليه قوّة السيف الإسلامي ولقّبه بسيف الله وسيف شهرة رسول الله مع وجود مئات من الأبطال في الأصحاب ممّن لهم القدمة في الإسلام والإخلاص والنصيحة، فارتكب خالد جنايات وفضائح في العالم الإسلامي يقشعرُّ الأبدان من سماعها.

وهذا عمر استعمل على الكوفة وهي أحد الثغور الإسلاميّة الرئيسيّة بما لها من الوسعة الشاملة من حدود نجد إلى تخوم خراسان مغيرة بن شعبة أحد أعداء أمير المؤمنين الألدّاء، وهو رجل الجناية والخيانة من عصره الجاهلي قد التجأ بالإسلام على أثر جناية وخيانة فضيحة ارتكبها كما في سيرة ابن هشام (ص ٢١٣ ج ٢ ط مصر) قال الزهري في حديثه: ثمَّ بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي - إلى أن قال: ثمَّ جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلّمه قال؛ والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد قال: فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك «أي المقرعة» قال: ويقول عروة: ويحك ما أفظّك وأغلظك؟! قال: فتبسّم رسول الله ﷺ فقال له عروة: من هذا يا محمّد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، قال: أي غدر، وهل غسلت سوأتك إلاّ بالأمس، قال ابن هشام: أراد عروة بقوله هذا أنَّ المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف فتهايج الحيّان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين والأحلاف رهط المغيرة فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر، انتهى.

أقول: وكان قتلهم غدراً لأخذ هداياهم التي أعطاهم ملك اليمن فأخذها وفرَّ بها إلى رسول الله ﷺ فأسلم وعرضها على رسول الله ﷺ فلم يقبلها، فارتكب في أيّام عمله في الكوفة فضيحة الزنا وهو محصن مع أمّ جميل امرأة ذات بعل على ضوء النهار فاطّلع على زناه أربعة من الصحابة والتابعين في دار الحكومة منهم زياد بن أبيه فعرضوا أمره إلى عمر فطلبه والشهود إلى المدينة وحاكمه بنفسه وأدّى ثلاثة من الشهود شهادة تامّة على ارتكابه الزنا، ولكن لمّا ورد زياد لأداء الشهادة قال له عمر: أرى وجه رجل لا يفتضح به أحد كبار أصحاب رسول الله، فلقّنه بهذا الكلام ما أراد أن يلقّنه، فقال زياد: رأيت مغيرة نائماً مع أُمّ جميل على فراش واحد وهو راكب على بطن أُمّ جميل وسكت عن رؤيته دخوله فيها كالميل في المكحلة ونقص شهادته ولم ير عمر شهادته كافية فأمر بضرب سائر الشهود حدَّ القذف وبرّأ مغيرة، وأيُّ فضيحة في الإسلام أفضح من هذه؟

وأمّا عمّال عثمان فلا يحتاج جورهم وخيانتهم إلى توضيح فإنّه كالعيان المغني عن البيان، فقال عليه السلام: إنَّ العمّال السابقين كانوا جماعاً من شعب الجور والخيانة.

ولكن في نسخة المعتزلي «فإنّهما جماع من شعب الجور والخيانة» وقال في شرحه: فإنّهما ـ يعني استعمال المحاباة والأثرة ـ جماع من شعب الجور والخيانة وقد تقدَّم شرح مثل هذه اللفظة، والمعنى أنَّ ذلك يجمع ضروباً من الجور والخيانة أمّا الجور فإنّه يكون قد عدل عن المستحقّ إلى غير المستحقّ ففي ذلك جور على المستحقّ، وأمّا الخيانة فلأنَّ الأمانة تقتضي تقليد الأكفاء، فمن لم يعتمد ذلك فقد خان من ولاّه.

واغترَّ ابن ميثم بهذا التفسير فقال: فلا يولّيهم محاباة وإثرة، كأن يعطونه شيئاً على الولاية فيولّيهم ويستأثر بذلك دون مشاورة فيه، فإنّهما أي المحاباة والأثرة ـ كما هو مصرّح به في بعض النسخ عوض الضمير ـ جماع من شعب الجور والخيانة، أمّا الجور فللخروج بهما عن واجب العدل المأمور به شرعاً، وأمّا الخيانة فلأنَّ التحرّي في اختيارهم من الدين وهو أمانة في يد الناصب لهم، فكان نصبهم من دون ذلك بمجرّد المحاباة والأثرة خروجاً عن الأمانة ونوعاً من الخيانة.

أقول: لا يخفى ما في ذكرناه الشارحان من تطبيق جملة: جماع من شعب الجور والخيانة على الانتخاب بالمحاباة والأثرة من التكلّف والتعسفّ، نعم لا إشكال في أنَّ هذا الانتخاب جور وخيانة ولكن لا ينطبق عليه أنّه جماع من شعب الجور والخيانة إلاّ بالتكلّف، فالأظهر أنَّ هذه الجملة راجعة إلى العمّال الشاغلين للأعمال قبل حكومته عليه السلام.

ثمَّ أمر عليه السلام بانتخاب العمّال من أهل البيوتات الصالحة والمتقدّمة في الإسلام لما ذكرنا سابقاً من أنّ كفيل تربية الأفراد في ذلك العصر هي الأسرة والبيت، ولم تكن هناك شهادة على صلاحيّة الفرد غير النّظر في البيت والأُسرة التي ربّي فيها ونشأ في ظلّها، فقد وصف هؤلاء المربّين في البيوت الصالحة بأنّهم موصوفون بما يلزم للعامل من كرم الأخلاق ومصونيّة العرض وقلّة الطمع والنظر في عواقب الأُمور.

ثمَّ أوصى بوفور الأرزاق والرواتب عليهم، لئلا يضطروا إلى الاختلاس ممّا في أيديهم من أموال الخراج ويتمّ الحجّة عليهم إن خانوا.

ثمَّ أوصى بتفقّد أعمالهم وبثّ العيون عليهم لحثّهم على حفظ الأمانة والرفق بالرعيّة.

ثمَّ شرّع عقوبة الخائن الذي ثبت خيانته باتّفاق أخبار العيون والمتفقّدين في البدن بعرضهم على السياط وعزلهم عن العمل وإعلام خيانتهم للعموم وتقليدهم بعار التهمة وأثر ذلك انفصالهم عن شغلهم أبداً.

ثمَّ توجّه إلى أمر الخراج وهو المصدر الوحيد في هذا العصر لخزانة الحكومة وما يلزمها من المصارف في شتّى حوائجها من أرزاق الجند ورواتب العمّال والخدم، ونبّه على أنَّ المبدأ الوحيد للخراج هو عمران البلاد بالزرع والغرس وما يتحصّل منه عوائد جديدة وبيّن

أنَّ التوليدات المثمرة إنّما هي من الزراعة وتربية المواشي، وكليهما يتّفقان على عمران البلاد وقدرة الزرّاع والدهاقين الماليّة على العمل في الانتاج والتوليد وأنَّ طلب الخراج مع قطع النظر عن العمران موجب للخراب والاستيطال.

ومن واجب العمران التوجّه إلى الآفات الطارئة في المحاصيل الزراعيّة والحيوانيّة، فقال ﷺ: **(فإن شكوا ثقلاً)** ـ أي جوراً ـ في ضرب مقدار الخراج المضروب عليهم أو جور العمّال في أخذه **(أو علّة)** نحو أن يصيب الغلّة آفة كالجراد والبرق والبرد وغيرها.

(أو انقطاع شرب) ـ بأن ينقص الماء في النهر أو طمّ القنوات في أثر السيول أو الزلازل ونحوها.

(أو بالة) ـ يعني قلّة الأمطار في ما يسقى بماء المطر أو كثرة الأمطار الموجبة للسيول الجارفة للزرع والشجر.

(أو إحالة أرض اغتمرها غرق) ـ يعني أنَّ الأرض قد تحوَّلت في أثر السيول أو تكرار الزرع فلم يحصل منها زرع لأنَّ الغرق غمرها وأفسد زرعها.

(أو أجحف بها عطش فأتلفها).

فلا بدَّ من سماع الشكوى والتحقيق عنها والتخفيف على الزراع والدهاقين وبذل المساعدة لهم بحيث يصلح أمرهم ويتمكّنوا من الاشتغال بالعمران، ونبّه على أنَّ هذا التخفيف والمساعدة لم يذهب هدراً، لأنّه:

١ ـ ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك.

٢ ـ زينة وافتخار لولايتك فإنَّ زينة الوالي عمران البلاد وراحة العباد.

٣ ـ تكتسب حسن ثنائهم عليك وتسرُّ باستفاضة العدل فيهم مع اعتمادك على فضل قوَّتهم بما ذخرت عندهم من توجّهك عليهم وتوجّههم عليك بالوثوق بك والاعتماد بعدلك ورفقك.

٤ ـ فربما حدث عليك حادث وتحتاج إلى الاقتراض منهم أو طلب المعونة منهم أو مساعدتهم لك بنفوسهم فيجيبونك ويساعدونك بطيب أنفسهم.

ثمَّ انتج من ذلك ضابطتين عامّتين هامّتين:

١ ـ العمران محتمل ما حمّلته.

٢ ـ يؤتى خراب الأرض من فقر أهلها وإعوازهم مصارف عمرانها.

ثمَّ نبّه على أنَّ إعواز أهل الأرض ناشىء عن الولاة السّوء الذي لا همّ لهم إلاّ جمع المال والأخذ من الرّعايا بكلّ حال، لسوء ظنّهم ببقائهم على العمل وخوفهم من العزل وعدم

انتفاعهم بالعبر واعتقادهم بالعقوبة من الله في الآخرة.

وقد نقل الشارح المعتزلي هنا ما يؤيّد كلام مولانا لا بأس بنقله قال:

عهد سابور بن أردشير لابنه

وقد وجدت في عهد سابور بن أردشير إلى ابنه كلاماً يشابه كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا العهد وهو قوله:

واعلم أنَّ قوام أمرك بدُرور الخراج، ودرور الخراج بعمارة البلاد، وبلوغ الغاية في ذلك استصلاح أهله بالعدل عليهم، والمعونة لهم، فإنَّ بعض الأمور لبعض سبب، وعوامّ النّاس لخواصّهم عُدة، وبكلّ صنف منهم إلى الآخر حاجة، فاختر لذلك أفضل من تقدر عليه من كتّابك، وليكونوا من أهل البصر والعفاف والكفاية، واسترسل إلى كُلّ أحد منهم شخصاً يضطلع به، ويمكنه تعجيل الفراغ منه، فإن اطّلعت على أنَّ أحداً منهم خان أو تعدّى، فنكّل به، وبالغ في عقوبته، واحذر أن تستعمل على الأرض الكثير خراجها إلاّ البعيد الصّوت، العظيم شرف المنزلة ولا تولّين أحداً من قوّاد جندك الذين هم عُدّة للحرب، وجنّة من الأعداء شيئاً من أمر الخراج، فلعلّك تهجم من بعضهم على خيانة في المال، أو تضييع للعمل فإن سوّغته المال، وأغضيت له على التّضييع كان ذلك هلاكاً وإضراراً بك وبرعيّتك وداعية إلى فساد غيره، وإن أنت كافأته فقد استفسدته، وأضقت صدره، وهذا أمر توقّيه حزم، والإقدام عليه خُرق، والتّقصير فيه عجز.

واعلم أنَّ من أهل الخراج من يلجيء بعض أرضه وضياعه إلى خاصّة الملك وبطانته لأحد أمرين، أنت حريّ بكراهتهما، إمّا لامتناع من جور العمّال وظلم الولاة، وتلك منزلة يظهر بها سوء أثر العمّال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده، وإمّا للدّفع عمّا يلزم من الحقّ والتيسّر له، وهذه خلّة تفسد بها آداب الرّعية، وتنقص بها أموال الملك، فاحذر ذلك، وعاقب الملتجئين والملجأ إليهم[1].

الترجمة

سپس در كارهاى كارمندان و عمّال خود بنگر و از روى امتحان و آزمايش، آنان را به كار بگمار و به محض دلخوشى و احسان به آنها يا خويش و اظهار خصوصيّت با آنها كارگزارشان مكن، زيرا آنها مجموعه اى از تيره هاى جور و

(١) تحف العقول: ١٣٩.

ستم و خیانتند.

از میان آنان، اهل تجربه و مردم آبرومند را انتخاب کن، کسانی که از خانواده های خوب و پیشقدم در اسلام هستند و پیشرو بودند، زیرا که آنان:

۱ ـ اخلاقی گرامی تر و اصیل تر دارند.

۲ ـ آبروی آنها نیالوده و محفوظ و به آبروی خود علاقه دارند.

۳ ـ کمتر پیرامون طمع و جلب منافع می گردند.

٤ ـ در عواقب امور و دنباله کارها نظری رساتر و عمیق تر دارند و ملاحظه عاقبت کار خود را بهتر می کنند.

سپس حقوق و ارزاق مکفی بدانهابده، زیرا و فور معیشت مایه اصلاح نفوس آنها است و سبب بی نیازی آنان از تصرّف در اموالی که زیردست آنها است می شود و وسیله اتمام حجّت بر آنها می گردد در صورتی که از دستور تو سرپیچند و در امانت خیانت ورزند.

سپس کارهای آنان را زیرنظر بگیر و دیده بان های درست و وفادار بر آنها بگمار، زیرا بازرسی پنهانی تو از کارهای آنان موجب تشویق آنها است براماننداری و خوشرفتاری با رعیّت، معاونان خود را خوب بپا و اگر از آنها کسی دست به خیانت گشود و مورد اتفّاق نظر خبرگزاران و دیده بانان گردید و گواهی آنان را درباره اثبات جرمش کافی دانستی، او را زیر تازیانه مجازات بکش و مسؤول کار خودش بشناس و در معرض خواری درآور و داغ خیانت بر پیشانی او بنه و جامه ننگین تهمت را در بر او کن.

از وضع خراج و درآمد املاك بازرسی کن، به وجهی که مایه بهبود خراج گزاران باشد، زیرا در بهبود امر خراج و بهبود حال خراج گزاران، بهبود حال دیگران نهفته است و دیگران را جز بدانها بهبودی حال میسّر نیست، زیرا همه مردم نانخوران خراجند و خراج گزاران و باید توجّه تو به آبادی زمین بیشتر باشد از توجّه به جلب خراج، زیرا خراج، جز از زمین آباد به دست نیاید و هرکس آباد نکرده خراج خواهد، شهرستانها را ویران و بندگان خدا را نابود سازد و جز اندك زمانی کارش درست نیاید.

اگر زارعان و دهقانان شکایت کردند از فزونی و گرانی مقدار خراج یا از آفت در زراعت یا قطع آب یا کمی باران یا دگرگونی و فساد زمین زراعت و درخت بهواسطه آن که سیل آن را غرق کرده یا تشنگی بدان زیان رسانیده، خراج آنها را تا حدی که مایه بهبود حالشان باشد تخفیف بده و این تخفیف که مایه کمك بدانها است بر تو گران نیاید، زیرا:

۱ ـ این ذخیره و پس اندازی است در ملك که به وسیله آباد کردن بلاد تو به تو برمی گردد.

۲ ـ سبب زیور و آرایش حکمرانی تو است.

۳ ـ مایه جلب ستایش آنان و شادمانی تو به انتشار عدالت درباره آنها است، در حالی که به فزونی نیروی آنها اعتماد داری، بدانچه برای آنها ذخیره کردی و فراهم آوردی و جلب اعتماد آنها را به خود نمودی به وسیله آن که آنها را به عدالت گستری خود معتاد ساختی و با نرمش با آنها معامله کردی.

به علاوه، بسا باشد که برای تو پیشامدی رخ دهد و گرفتاری پیش آید و چون تو با آنها احسان کردی و خوشرفتاری نمودی و اعتماد آنها را جلب کردی، در دنبال آن هر تقاضا را با طیب خاطر پذیرا شوند و به تو هرگونه کمك و مساعدت را از روی رضا و رغبت تقدیم دارند.

به آبادانی، هرچه بار نهی بار می کشد و همانا ویرانی سرزمینها زاییده نداری و بیوسیله ای اهل آن سر زمین است؛ آیا نداری و بیچارگی مردم از کجا ناشی می شود؟

از توجّه کارگزاران به جمع مال دنیا و ربودن دسترنج مردمان برای بدبینی آن کارگزاران نسبت به بقاء آنان بر سر کار خود و بهواسطه کم عبرت گرفتن آنها از آن چه برای مردم با ایمان و بابصیرت مایه عبرت است.

الفصل الثامن من عهده عليه السلام

«ثُمَّ انْظُرْ في حالِ كُتّابِكَ فَوَلِّ عَلى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسائِلَكَ الَّتي تُدْخِلُ فيها مَكائِدَكَ وَأَسْرارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صالِحِ الأَخْلاقِ مِمَّنْ لا تُبْطِرُهُ الْكَرامَةُ فَيَجْتَرِىءَ بِها عَلَيْكَ في خِلافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلإٍ، وَلاَ تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إيرادِ مُكاتَباتِ عُمّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدارِ جَواباتِها عَلَى الصَّوابِ عَنْكَ فيما يأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلاَ يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاقِ ما عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ في الأُمُورِ، فَإِنَّ الجاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ، ثُمَّ لا يَكُنِ اخْتِيارُكَ إِيّاهُمْ عَلى فِراسَتِكَ وَاسْتِنامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِراساتِ الْوُلاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ [حَديثِهِمْ] وَلَيْسَ وَراءَ ذلِكَ مِنَ النَّصيحَةِ وَالأَمانَةِ شَيْءٌ، وَلكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِما وُلوا للصّالِحينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لأَحْسَنِهِمْ كانَ في الْعامَّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالأَمانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذلِكَ دَليلٌ عَلَى نَصيحَتِكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وَلِّيتَ أَمْرَهُ، وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ لا يَقْهَرُهُ كَبيرُها، وَلا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثيرُها، وَمَهْما كانَ في كُتّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ»[١].

اللغة

(كتّاب) جمع كاتب: من يتولّى ديوان المكاتبات، **(مكائد)**: جمع مكيدة: تدبير سرّي تجاه العدوّ، **(لا تبطره)**: وقد تكرّر في الحديث ذكر البطر وهو كما قيل: سوء احتمال الغنى والطغيان عند النّعمة ويقال: هو التجبّر وشدّة النشاط، وقد بطر بالكسر يبطر بالفتح - مجمع البحرين -.

(الملأ): قيل: الملأ جماعة من النّاس يملؤون العين والقلب هيبةً، وقيل: هم أشراف الناس ورؤساؤهم الذين يرجع إلى قولهم، **(العقد)**: المعاهدة في أمر بين اثنين، **(الفراسة)** بالكسر: الاسم من قولك تفرّست فيه خيراً، وهي نوعان أحدهما ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بعض أحوال النّاس بنوع من الكرامات وإصابة الحدس والظنّ وهو ما دلّ عليه ظاهر الحديث: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله»[٢]، وثانيهما نوع يعلم بالدّلائل والتجارب، **(استنام)** إلى كذا: سكن إليه، **(تغابيت)** عنه: تغافلت عنه.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٦٠٧، ونهج السعادة: ٥/٩٩.

(٢) الكافي: ١/٢١٨، ح ٣، وعلل الشرائع: ١/١٧٤ ح ١٣٩.

الإعراب

(ممّن لا تبطره): من للتبعيض، **(بحضرة ملأ)**: متعلّق بقوله: **(فيجترىء)**، **(فيما يأخذ)**: لفظة **(ما)** موصولة وما بعدها صلتها والعائد محذوف، **(وراء ذلك)**، ظرف مستقرّ خبر ليس قدّم على اسمها وهو **(شيء)**، **(بما ولّوا)**: يجوز أن تكون **(ما)** مصدريّة: أي بالولاية التي ولّدوها والعائد محذوف على أيّ تقدير، **(كان في العامّة)**: اسم كان مقدر فيه **(وفي العامّة)**: ظرف مستقرّ خبر له، **(وأثراً)** تميز من قوله عليه السلام لأحسنهم ألزمته: جزاء قوله عليه السلام: مهما كان.

المعنى

من أهمّ الأنظمة الرّئيسية في الدُّول الرّاقية والمتمدّنة نظام الديوان والكتّاب، فقد اهتمَّ به الملوك والرّؤساء من عهد قديم وتمثّل في النظام الإسلامي في عهد النّبي صلى الله عليه وآله في كتابة آي القرآن، وقد دار حول النّبي في هذا العصر مع ندرة الكاتب في الأُمّة العربية الأمّيين اثني عشر كاتباً يوصفون بكتّاب الوحي يرأسهم مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وقد اهتمَّ النّبي صلى الله عليه وآله بتوفير الكتّاب في الجامعة الإسلاميّة حتّى جعل فداء أسر الحروب الكاتبين تعليم الكتابة لعشر نفر من المسلمين، وكان علي عليه السلام هو الكاتب المخصوص للنبي صلى الله عليه وآله يتولّى كتابة العهود والمواثيق بينه وبين النّاس في مواقف كثيرة على الأكثر:

منها كتابه عهد الصّلح بين المسلمين وقبائل اليهود الساكنين حول المدينة في صدر الهجرة، كما في سيرة ابن هشام **(ص ٣٠١ ج ١ ط مصر)**.

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وآله كتاباً بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم واشترط لهم.

«بسم الله الرّحمٰن الرحيم، هذا كتاب من محمّد النبيّ صلى الله عليه وآله بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم «و» فلحق بهم وجاهد معهم إنّهم أُمّة واحدة من دون النّاس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجّار على ربعتهم - إلى أن قال: وأنّه من تبعنا من اليهود فإنَّ له النّصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم - إلخ»[١].

(١) فقه السنة: ٢/٧٠٦، ومكاتيب الرسول: ٣/٢٣ ح ١٧.

وهو عهد تاريخيّ غزير اللّفظ والمعنى، ولم يصرّح في السيرة باسم الكاتب ولكنّ الظاهر أنه عليّ بن أبي طالب عليه السلام - فتدبّر.

ومنها العهد التاريخي المنعقد بينه ﷺ مع قريش في واقعة الحديبيّة حيث منع قبائل قريش مكّة عن دخول المسلمين مكّة المكرّمة لأداء العمرة وصدّوهم في وادي حديبيّة وعرّضوهم للحرب، فامتنع النبيّ ﷺ عن إثارة حرب في هذه الواقعة وتردّد بينه وبين قريش عدّة من الرّجال حتّى تمكّن سهيل بن عمرو من عقد صلح بين النبيّ ﷺ مع قريش في ضمن شروط هامّة ثقيلة على المسلمين وتولّى عليّ عليه السلام كتابة هذا العهد، كما في سيرة ابن هشام **(ص ٢١٦ ج ٣ ط مصر)**:

قال: ثمّ دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: اكتب:

بسم اللّٰه الرَّحمٰن الرَّحيم، فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهمَّ، فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهمَّ، فكتبها، ثمَّ قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو قال: فقال سهيل: لو شهدت أنّك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله ﷺ اكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن النّاس عشر سنين يأمن فيهنَّ النّاس ويكفّ بعضهم عن بعضٍ على أنّه من أتى محمّداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ومن جاء قريشاً ممّن مع محمّد لم يردّه عليه وأنَّ بيننا عيبة مكفوفة وأنّه لا إسلال ولا إغلال وأنّه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا نحن في عقد محمّدٍ وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم وأنّك ترجع عنّا عامك هذا فلا تدخل علينا مكّة وأنّه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الرّاكب السّيوف في القرب لا تدخلها بغيرها - إلى أن قال: في بيان شهود الكتاب: وعليّ بن أبي طالب كتب وكان هو كاتب الصَّحيفة[1].

وقد بيّن عليه السلام في هذا الفصل نظام الديوان وألقاب الكتّاب اللائقين الأنجاب ونظّم أمر الدّيوان والكتّاب في مباحث قيّمة.

١ - في شخصيّة الكاتب من الوجهة الأخلاقيّة ورعاية الأمانة والصداقة ولم يتعرض عليه السلام لما يلزم في الكاتب من الوجهة الفنيّه وما يجب عليه من تعلم الخطّ وتحصيل درجات علميّة ليتمكّن من الاشتغال بكتابة الدّيوان العالي لأنّه معلوم بالضّرورة لمن يعرّض نفسه لهذا المنصب العالي، فشغل الكتابة في ديوان رسمي يحتاج في عصرنا هذا إلى شهادة إتمام

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٢، والبداية والنهاية: ٤/ ١٩٣.

تحصيلات الدورة المتوسّطة مضافاً إلى ما يلزم له من التعلّم الخصوصي لفنّ الكتابة والفوز بجودة الخطّ.

وقد لخّص الوصف العام للكاتب بقوله عليه السلام (فولّ على أُمورك خيرهم) قال ابن ميثم: وتفسير الخير هنا هو من كان تقيًّا قيّماً بما يراد منه من مصالح العمل.

أقول: كأن غفل عن معنى التّفضيل المصرّح به في قوله عليه السلام: خيرهم.

قال في الشرح المعتزلي:

فصل في الكتّاب وما يلزمهم من الآداب

واعلم أنّ الكاتب الذي يشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي يسمّى الآن في الاصطلاح العرفي وزيراً، لأنّه صاحب تدبير حضرة الأمير، والنّائب عنه في أُموره، وإليه تصل مكتوبات العمّال وعنه تصدر الأجوبة، وإليه العرض على الأمير، وهو المستدرك على العمّال، والمهيمن عليهم، وهو على الحقيقة كاتب الكتّاب، ولهذا يسمّونه الكاتب المطلق[1].

أقول: الوزارة منصب ممتاز عن الكتابة في عصرنا هذا وأظنّ أنه كان ممتازاً في العصور السابقة، وإن كان الوزير يشتغل بالكتابة وإنشاء ما يهمّ من الكتب في بعض الأزمان، وفي بعض الأحيان إلاّ أنّه لا يدلّ على كون الكاتب هو الوزير، فقد كان في عهد هارون ومأمون يصدر التوقيعات الهامّة في الأُمور العامّة المرتبطة بدار الخلافة بقلم يحيى بن خالد البرمكي وابنه جعفر وفضل ولهم مقام الوزارة في ديوان الخلافة إلاّ أنّه لم يعهد توصيفهم بالكاتب في كتب السّير والتواريخ.

قال: وكان يقال للكاتب على الملك ثلث: رفع الحجاب عنه، واتّهام الوشاة عليه، وإفشاء السرّ لديه.

٢ ـ في تقسيم الكتّاب إلى درجات وطبقات:

فمنهم كاتب السرّ، فأوصى فيه بأن يكون أجمع الكتّاب للأخلاق الصّالحة ولا يكون خفيف المزاج فيسوء فيه أثر خلواته مع الوالي وتوديعه أسراره لديه فيعتريه البطر والطغيان على الوالي فيجترىء عليه بإظهار الخلاف والأنانيّة في المحضر الحافل بالأشراف والرّؤساء والأُمراء فيهون الوالي بجزئته عليه ويضعف قدره عند الملأ.

---

(١) شرح النهج: ١٧/ ٧٩.

ومنهم كاتب الدّيوان العام الذي يرد عليه مكاتبات العمّال ويتكلّف جوابها فيوصي عليه‌السلام فيه أن يكون حافظاً يقظاً لا يسامح في اصدار جواب هذه الكتب على وجه الصواب سواء فيما يتعلّق بأخذ الخراج والعوائد أو ما يتعلّق باعطاء الرواتب والمصارف، فيضبط ذلك كلّه ليتمكّن الوالي من النظر في الواردات والصّادرات.

وأن يكون فطناً لائقاً في تنظيم موادّ العهود والعقود بين الوالي وغيره من أصناف الرّعايا أو الأجانب، وهذا أمر يحتاج إلى بصيرة فائقة وفطنة وقّادة يقتدر صاحبها إلى تنظيم موادّ المعاهدة محكمة غير مبهمة بحيث لا يمكن لطرف المعاهدة أن يجعل بعض جملها مبهمة ويفسّرها على ما يريد كما أنّه يحتاج التخلّص عن المسؤلية تجاه مقررات العهود إلى بصيرة وحسن تعبير، عبّر عليه‌السلام بقوله: **(ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك)**.

واشترط في الكاتب أن يعرف قدره ويقف عند حدّه في إعمال النفوذ لدى الوالي ولا يغترَّ بصحبته مع الوالي ومجالسته معه لأداء ما يجب عليه من شغله في إنهاء الرَّسائل إليه وأخذ الإمضاء منه في جوابها فلا يحسب هذا الحضور والمجالسة التي يقتضيها شغله دلالاً على الوالي فيطير فوق قدره.

ثمَّ نبّه على أنَّ انتخاب الكتاب وانتصابهم في هذا الشّغل الهامّ لا بدَّ وأن يكون معتمداً على اختبار كامل في صلاحيّتهم ولا يكتفي في إثبات لياقتهم بمجرّد الحدس والفراسة وحسن الظنّ النّاشيء عن التظاهر بالإخلاص وتقديم الخدمة لأنَّ الرِّجال أهل تصنّع وتظاهرٍ ربّما يغترُّ الوالي بهما وهم خلو من الإخلاص في الباطن.

وبيّن عليه‌السلام أنَّ الدَّليل على صلاحيتهم سابقتهم في تولّي الكتابة للصالحين قبل ذلك مع حسن أثرهم في نظر العامّة وعرفان أمانتهم عند النّاس.

ثمَّ أشار إلى تفنّن أمر الكتابة ووجوهها المختلفة فأمر بأن يجعل لكلّ من الأُمور رئيساً لائقاً من الكتّاب الماهرين في هذا الفنّ بحيث لا يقهره مشكل ورد عليه ولا يعجز عن الإدارة إذا تكثرت الواردات عليه، ونبّه على أنّه من الواجب الفحص عن صحّة عمل الكتّاب وعدم الغفلة عنهم فلو غفل عنهم وتضرّر النّاس منهم كان تبعته على الوالي وهو مسؤول عنه.

ونذكر هنا وصيّة صدرت من ابرويز إلى كاتبه، نقلاً عن الشرح المعتزلي **(ص ٨١ ج ١٧ ط مصر)**.

وقال أبرويز لكاتبه: اكتم السرّ، واصدق الحديث، واجتهد في النّصيحة وعليك بالحَذرِ، فإنَّ لك عليَّ أن لا أُعجّل عليك حتّى أستأني لك، ولا أقبل فيك قولاً حتّى أستيقن، ولا أطمعُ فيك أحداً فتغتال، واعلم أنّك بمنجاة رفعة فلا تحطّها وفي ظلّ مملكة

فلا تستزيلنّه، قارب النّاس مجاملة من نفسك، وباعدهم مسامحة عن عدوّك، واقصد إلى الجميل ازدراعاً لغدك وتنزّه بالعفاف صوناً لمروءتك، وتحسّن عندي بما قدرت عليه، احذر لا تسرعنَّ الألسنة عليك، ولا تقبحنَّ الأحدوثة عنك، وصن نفسك صون الدُّرة الصّافية، وأخصلها خلاص الفضّة البيضاء وعاتبها معاتبة الحذر المشفق، وحصّنها تحصين المدينة المنيعة، لا تدعنَّ أن ترفع إليَّ الصغير فإنّه يدلّ على الكبير، ولا تكتمنَّ عنّي الكبير فإنّه ليس بشاغل عن التصغير، هذّب أُمورك، ثمَّ ألقنى بها، واحكم أمرك، ثمَّ راجعني فيه، ولا تجترئنَّ عليَّ فامتعض، ولا تنقبضنَّ منّي فأتّهم، ولا تمرضنَّ ما تلقاني به ولا تخدجنّه، وإذا فكرت فلا تعجل، وإذا كتبت فلا تُعذر، ولا تستعن بالفضول فإنّها علاوة على الكفاية، ولا تقصرنَّ عن التحقيق فإنّها هجنة بالمقالة، ولا تلبّس كلاماً بكلام، ولا تبعدن معنى عن معنى، واكرم لي كتابك على ثلاث: خضوع يستخفّه، وانتشار يهجنه، ومعان تعقد به، واجمع الكثير مما تريد في القليل ممّا تقول، وليكن بسطة كلامك على كلام السّوقة كبسطة الملك الذي تحدّثه على الملوك، فاجعله عالياً كعلوّه، وفائقاً كتفوّقه، فإنما جماع الكلام كلّه خصال أربع: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرك عن الشيء، فهذه الخصال دعائم المقالات، إن التمس إليها خامس لم يوجد، وإن نقص منها واحد لم يتمّ، فإذا أمرت فأحكم، وإذا سألت فأوضح، وإذا طلبت فأسمح وإذا أخبرت فحقّق، فإنّك إذا فعلت ذلك أخذت بجراثيم القول كلّه، فلم يشتبه عليك واردة، ولم تعجزك صادرة، أثبت في دواوينك ما أخذت، احص فيها ما أخرجت، وتيقّظ لما تعطى، وتجرّد لما تأخذ، ولا يغلبنّك النسيان عن الإحصاء ولا الإناة عن التقدُّم، ولا تخرجنَّ وزن قيراط في غير حقّ، ولا تعظمنَّ إخراج الألوف الكثيرة في الحقّ، وليكن ذلك كلّه عن مؤامرتي[1].

الترجمة

سپس در حال کاتبان آستانت نظر کن و کارهایت را به بهترین آنان بسپار و نامه های محرمانه و حاوی تدبیرات خود را مخصوص کسی کن که:

۱ ـ بیشتر از همه واجد اخلاق شایسته و نیك باشد.

۲ ـ احترام و مقام مخصوص نزد تو، او را مست و بیخود نسازد تا در حضور

(۱) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ۱۷/ ۸۳.

بزرگان و سروران با تو اظهار مخالفت کند و نسبت به تو گستاخی و دلیری کند.

۳ . غفلت و مسامحه کاری، مایه کوتاه آمدن او از عرض نامه های عمّال تو بر تو و صدور پاسخهای درست آنها نگردد، چه درباره آن چه برای تو دریافت می شود و چه درباره آن چه از طرف تو پرداخت می گردد.

٤ . عهدنامه ای که برای تو تنظیم می کند سست و شکننده نباشد و از آزاد کردن تو از قید مقررات عهدنامه ها بهوسیله تفسیرهای پذیرفته، عاجز نماند.

٥ . به اندازه خود و حدود مداخله او در کارها نادان و نفهمیده نباشد، زیرا کسی که اندازه خود را نداند به اندازه و قدر و مرتبه دیگران نادانتر باشد.

سپس باید انتخاب و انتصاب آنان در مقام منیع کاتبان، متکی به خوشبینی و دلباختگی و خوش گمانی تو نباشد، زیرا مردان زرنگ راه جلب فراست و خوشبینی والیان را بهوسیله ظاهرسازی و تظاهر به خوش خدمتی خوب می شناسند، در صورتی که در پس این ظاهر سازی هیچ اخلاص و حقیقتی وجود ندارد، ولیکن باید آنها را بهوسیله تصدی کارهای مربوطه برای نیکان پیش از خود بیازمایی و هرکدام نزد عموم مردم خوش سابقه تر و به امانت داری معروفترند برگزینی که این خود دلیل است بر این که نسبت به پروردگار خود به کسی که از جانب او متصدّی ولایت و فرمان گزاری شدی، خیراندیشی کردی.

و باید برای هر نوعی از کارهای خود رئیسی برای دفتر مربوطه انتخاب کنی که کارهای مهم، او را مقهور و درمانده نسازند و کارهای بسیار او را پریشان نکنند و باید بدانی هر عیبی در کاتبان تو باشد و مایه زیان گردد، تو خود مسؤول آنی.

الفصل التاسع من عهده عليه السلام

«ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجّارِ وَذَوِي الصِّناعاتِ وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً، الْمُقيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبِ بِمالِهِ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ [بِيَدَيْهِ]، فَإِنَّهُمْ مَوادُّ الْمَنافِعِ، وَأَسْبابُ الْمَرافِقِ، وَجُلاَّبُها مِنَ الْمَباعِدِ وَالْمَطارِحِ في بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، [وَ] حَيْثُ لا يَلْتَئِمُ النّاسُ لِمَواضِعِها، وَلا يَجْتَرِؤُنَ عَلَيْها، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لا تُخافُ بائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لا تُخْشى غائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفي حَواشي بِلادِكَ وَاعْلَمْ ـ مَعَ ذلِكَ ـ أَنَّ في كَثيرٍ مِنْهُمْ ضيقاً فاحِشاً، وَشُحّاً قَبيحاً، وَاحْتِكاراً لِلْمَنافِعِ، وَتَحَكُّماً في الْبِياعاتِ، وَذلِكَ بابُ مَضَرَّةٍ لِلْعامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاةِ، فَامْنَعْ مِنَ الإحْتِكارِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَنَعَ مِنْهُ، وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوازينِ عَدْلٍ، وَأَسْعارٍ لا تُجْحِفُ بِالْفَريقَيْنِ مِنَ الْبائِعِ وَالْمُبْتاعِ، فَمَنْ قارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَعاقِبْهُ في غَيْرِ إِسْرافٍ»[1].

اللغة

(المضطرب بماله): التاجر الذي يدور بماله من بلد إلى بلد للكسب، **(جلاّب)**: جمع جالب، **(المطارح)** جمع مطرح: الأرض البعيدة، **(البائقة)**: الدّاهية، **(الغائلة)**: الشرّ، **(حواشي البلاد)**: أطرافها، **(الشحّ)**: البخل مع حرص فهو أشدّ من البخل لأنَّ البخل في المال وهو في مال ومعروف تقول: شحّ يشحّ من باب قتل وفي لغة من باب ضرب وتعب فهو شحيح ـ مجمع البحرين.

(الاحتكار): حبس المنافع عن النّاس عند الحاجة إليها، **(التحكم في المبايعات)**: التطفيف في الوزن والزيادة في السّعر، **(السّمحة)** بفتح فسكون أي السهلة التي لا ضيق فيها ولا حرج وسمح به يسمح بفتحتين سموحاً وسماحاً وسماحة أي جاد، **(قارف)**: قارف الذّنب وغيره إذا داناه ولا صقه وإن شئت إذا أتاه وفعله ـ مجمع البحرين.

الإعراب

(استوص بالتجّار): مفعوله محذوف: أي أوص نفسك بذلك، **(أوص بهم خيراً)**: حذف مفعوله: أي أوص عمّالك، **(المقيم)**: بدل أو عطف بيان للضمير في «بهم» **(والمضطرب)**: عطف عليه، **(المترفق ببدنه)**، بيان لقوله ذو الصّناعات، **(فإنّهم سلمٌ)**: أي

---

(١) دراسات في نهج البلاغة: ١٠١، ومستدرك سفينة البحار: ٢/٣٤٧.

أولو سلم فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه للمبالغة والضمير في **(بائقته)**: يرجع إلى «السلم» باعتبار أولى السّلم، وهكذا الكلام في قوله صلح ـ إلخ.

(في كثير منهم): ظرف مستقر خبر إن، **(البياعات)**: جمع بياع مصدر بايع أي المبايعات، **(عيب على الولاة)**: عطف على قوله «باب مضرّة»، **(بيعاً)**: مفعول مطلق نوعي، **(بموازين عدل)**: جار ومجرور متعلق بقوله «بيعاً»، وأسعار عطف على قوله «موازين»، **(من البائع)** من بيانيّة.

المعنى

انتقل عليه السلام بعد تنظيم الحكومة إلى الاجتماع وما يصلح به أمر الأُمّة وركنه التجارة والصنّاعة، والتجارة شغل شريف حثَّ عليها في الشرع الإسلامي لكونها وسيلة لتبادل الحاصلات الأوّليّة والتوليدات الصّناعيّة، وهذا التبادل ركن الحياة الاجتماعية ونظام الحيويّة المدنيّة، وقد ورد أخبار كثيرة في مدح التجارة والترغيب إليها ففي الخبر أنّه تسعة أعشار الرزق في التجارة وواحدة في سائر المكاسب.

قال في الوسائل في مقدمات كتاب التجارة: وبإسناده عن روح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تسعة اعشار الرّزق في التّجارة»[(١)].

وروى بسنده عن عبد المؤمن الأنصاري عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «البركة عشرة أجزاء: تسعة أعشارها في التجارة والعشر الباقي في الجلود». قال الصّدوق: يعني بالجلود الغنم[(٢)].

وبإسناده عن عليّ عليه السلام في حديث الأربعمائة قال: «تعرّضوا للتجارات فإنَّ لكم فيها غنى عمّا في أيدي النّاس، وإن الله عزَّ وجلَّ يحبّ المحترف الأمين المغبون غير محمود ولا مأجور»[(٣)].

وبإسناده عن محمّد بن يعقوب، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن محمّد الزعفراني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من طلب التّجارة استغنى عن النّاس، قلت: وإن كان معيلاً؟ قال: وإن كان معيلاً إنَّ تسعة أعشار الرزق في التجارة».

وبسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «التجّارة تزيد في العقل»[(٤)].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٩٣ ح ٣٧٢٦، والخصال: ٤٤٥ ح ٤٣.
(٢) وسائل الشيعة: ١٧/ ١٠ ح ٢١٨٤٦، وبحار الأنوار: ٦١/ ١١٨ ح ١.
(٣) الكافي: ٥/ ١١٣ ح ١، ووسائل الشيعة: ١٧/ ١١ ج ٢١٨٤٨.
(٤) الكافي: ٥/ ١٤٨ ح ٢، ووسائل الشيعة: ١٧/ ١٢ ح ٢١٨٥١.

وبالإسناد عن عليّ بن الحكم، عن أسباط بن سالم، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فسألنا عن عمر بن مسلم ما فعل؟ فقلت: صالح ولكنّه قد ترك التجارة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: عمل الشيطان - ثلاثاً - أما علم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله اشترى عيراً أتت من الشام فاستفضل فيها ما قضى دينه وقسّم في مراتبه، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية [النور: ٣٧] يقول القصّاص: إنّ القوم لم يكونوا يتّجرون، كذبوا ولكنّهم لم يكونوا يدعون الصّلاة في ميقاتها وهم أفضل ممّن حضر الصّلاة ولم يتّجر.

والأخبار في هذا الموضوع كثيرة مستفيضة، وكفى في فضل التّجارة أنها كانت شغل النبيّ صلى الله عليه وآله قبل أن يبعث نبيّاً، وقد سافر إلى الشّام في التجارة مع عمّه أبي طالب وهو غلام لم يبلغ الحلم، ثمّ صار عاملاً لخديجة بنت خويلد وسافر إلى الشّام للتجارة مرّة أُخرى، وقد أعجبت خديجة أمانته وكفايته فطلبت منه أن يزوّجها.

والظاهر من حديث أسباط بن سالم الآنف الذكر أنه لم يدع الاشتغال بها بعد البعثة وتحمّل أعباء النبوّة، كما يستفاد ذلك من تعبير قريش له بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

وقد وصف عليه السلام التجّار بما لا مزيد عليه من خدمتهم في الاجتماع الإنساني وحمايتهم المدنية البشريّة فقال:

١ - **(والمضطرب بماله)** أي من يجعل ماله متاعاً يدور به في البلاد البعيدة يقطع المفاوز ويعرّض نفسه للأخطار ليصل حوائج كلّ بلد إليه.

٢ - فإنهم موادّ المنافع وأسباب المرافق.

قد اهتمّت الدّول الراقية والشعوب المتقدّمة في هذه العصور بأمر التّجارة وأدركوا حقيقة ما أفاده عليه السلام في هذه الجملة القصيرة قبل قرون طويلة من أنّ التّجارة موادّ المنافع، وقد أبلغ عليه السلام في إفادة ما للتجارة من الأهمّية في أمر الاقتصاد حيث جاء بكلمة الموادّ جمعاً مضافاً مفيداً للعموم، وبكلمة المنافع جمعاً معرّفاً باللاّم مفيداً للاستغراق، فأفاد أنّ كلّ مادة لكلّ منفعة مندرج في أمر التّجارة، فالتّجارة تحتاج إلى ما يتّجر به من الأمتعة وإلى سوق تباع تلك الأمتعة، ثمّ يؤخذ بدلها متاعاً آخر ويبدّل بمتاع آخر فيستفاد من هذه المبادلات كلّها أرباحاً.

وقد بلغت أهمّية التّجارة في هذه القرون المعاصرة إلى حيث صارت محوراً للسّياسة العامّة للدّول العظمى فكانوا يبحثون عن الأراضي التي يحصل منها موادّ نافعة كالمعادن الغزيرة من النفط والذّهب والفضّة والمحاصيل الزراعيّة التي تصرف في صناعة النسج

وغيرها، ثمّ ينقلونها إلى بلادهم ويصنعون منها أنواع الأمتعة التي يحتاج إليها كلّ شعب من الشّعوب، ويبحثون عن الأسواق التي يصرف منها هذه المصنوعات، فصارت هذه المنافع التجاريّة أساساً لسياسة الدّول ومثاراً للحروب الهائلة ومداراً للمعاملة مع الشّعوب، تحيّلت الدّول العظمي في الحيلولة بين الشّعوب المتأخّرة ذات الموادّ الصالحة للصنعة كالنفط وأنواع المعادن والمحاصيل الزراعيّة المتحوّلة إلى المنسوجات، وبين الرّقي والتقدّم في أمر الصّنعة والعلم بإدارة المكائن الصناعيّة.

وقد ابتلت أُمّة إيران وشعبها بهذه العرقلة السّياسيّة والمكيدة الحيّالة منذ قرون وسلّطت على معادنها ومنافعها وأسواقها دول حيّالة عظمى دبّرت تأخّرها في أمر الصنّاعة منذ قرون، وقد غفلت أُمّة إيران وشعبها بل الأمم الإسلامية كلّها من هذه الجملة من كلام مولانا أمير المؤمنين في أمر التجّار (**فإنّهم موادّ المنافع وأسباب المرافق**)[1].

وقد كانت التّجارة العالميّة في القرون المزدهرة الإسلامية أيّام الخلفاء العباسيين الأول في يد المسلمين، فكانوا يجوبون البحار والبراري شرقاً وغرباً في جميع القارّات بوسيلة السّفن الأرياحيّة الخطيرة ويحملون أنواع الأمتعة إلى تلك البلاد البعيدة والجزر النائية ويبدّلونها بما في هذه البلاد والجزر البحريّة من أنواع المحاصيل والنّقود ويزرعون العقائد الإسلاميّة في قلوب أهاليها، فنحن نعلم الآن في رسوخ الإسلام إلى بلاد نائية وقارّات متنائية كإفريقيا وجزائر أندونوسيا وأبعد منها، وكان المبلّغون الأوّلون للإسلام في هذه البلاد البعيدة حتّى الصين واليابان هم تجّار المسلمين الأبطال في القرون الزاهية الإسلاميّة، فكانوا يدخلون تلك البلاد ويخالطون أهلها تجّاراً سالمين ويحبّبون إليهم الإسلام بأعمالهم الإسلاميّة النيّرة الجاذبة، فيعمل الإسلام فيهم كجهاز حيّ نشيط يتوسّع وينمو حتّى بلغ أهل الإسلام في جميع الأصقاع مائة ملايين، وهذا أهمّ المنافع التجّارية التي نالها المسلمون في عصور نشاطهم وتقدّمهم، وهذا أحد الأسرار المخزونة في قوله عليه السلام: «فإنّهم موادّ المنافع وأسباب المرافق»[2].

وقد نبّه عليه السلام إلى أنّ الروابط التجّاريّة تفيد الشّعوب وعامّة البشريّة من جهة أنها سبب استقرار السّلم والصّلح بين أفراد الأُمّة وبين الشّعوب فقال عليه السلام: (**فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا**[3] **تخشى غائلته**) فيالها من جملة ذهبيّة حيّة في هذه القرون المعاصرة، وفي القرن

---

(١) البحار: ٣٣/٦٠٧، ومستدرك الوسائل: ١٣/١٦٧.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٣/١٦٧، وبحار الأنوار: ٣٣/٦٠٧.

(٣) تحف العقول: ١٤٠، والبحار: ٣٣/٦٠٧.

العشرين العطشان لاستقرار الصّلح العالمي والسّلم العامّ بين الشعوب.

فالرّابطة التجارية المبنية على تبادل المنافع والحوائج تكون ودّية وأخويّة دائماً وهذا هو أساس الوداد العقلاني الصّادق الثابت فإنَّ المتبادلين للحوائج والمنافع يحبّ كلّ منهما الآخر لأنَّ حبّ أحدهما للآخر يرجع إلى حبّ الذات الذي هو الحبّ الثابت للإنسان، فإنَّ الإنسان يحبّ ذاته قبل كلّ شيء فحبّه لذاته ذاتيّ ويحبّ كلّ شيء لحبّه بذاته حبًّا عرضيًّا بواسطة في الثبوت أو العروض، فالرّابطة التجاريّة سواء كانت بين فردين أو شعبين أو شعوب شتّى رابطة ودّية سلميّة نافرة للحرب والتّنازع، فالشعوب المحبّة للسّلام ساعون لبسط التجارة الحرَّة الدّاعية إلى الودّ والتّفاهم المتبادل، فإنَّ كلّ أحد يحبّ من يقضي حاجته وينفعه، والحبّ الزواجي الذي هو أساس تزويج ثابت لا بدَّ وأن يرجع إلى هذا المعنى ويدرك كلّ من الزّوجين أنَّ الآخر يتبادل معه قضاء الحوائج وتبادل المنافع.

وأمّا الحبّ الغريزي القائم بين الأمّ وولدها فلا يصحّ أن يكون مبدءاً للمعاهدات والعقود، وهو الذي يعبر عنه بالعشق في لسان الأدب والشّعر، وهو حبّ كاذب خارج عن تحت الإرادة والإدارة وأحسن ما عبّر عنه ما نقل عن الشيخ الرَّئيس أبو عليّ بن سينا في تعريف العشق من أنّه: مرض سوداويّ يزول بالجماع والسّفر ويزيد بالفكر والنّظر.

والشّعوب المحبّة للسّلام في عالم البشريّة يسعون وراء عقد روابط تجاريّة حرَّة مع الشعوب الأخرى مبنيّة على تبادل المنافع والحوائج ويسعون وراء التّجارة بالتّهاتر أي تبادل الحاجيّات بنوع آخر منها ولا تقيّدون بيوعهم بأخذ النّقود، فالتجارة الحرَّة تكون أساساً للسّلم بين الشعوب كما أشار إليه عليه السلام بقوله **(فإنّهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته)** وقد فسّر البائقة بالدّاهية فيفيد أنَّ التجارة الحرَّة ليس فيها دهاء ومكر وقصد سوء من قبيل الاستعمار والتسلّط وصلح ليس ورائه مضرّة وهلاك.

وأمر عليه السلام بتفقّد أحوال التجار والنظارة عليهم تكميلاً لتوصيته لهم بالخير وبالحماية لرؤوس أموالهم عن التّلف والسّرقة بأيدي اللّصوص، وهذه توصية بإقرار الأمن في البلاد وفي طرق التّجارة بحراً وبرًّا، وقد التفتت الأمم الرّاقية إلى ذلك فاهتمّوا باستقرار الأمن في البلاد والطّرق، وفي حفظ رؤوس الأموال التّجاريّة عن المكائد والدسائس المذهبة لها، فقال عليه السلام: **(تفقّد أمورهم بحضرتك)** أي في البلد، **(وفي حواشي بلادك)** أي في الطّرق والأماكن البعيدة.

ثمّ نبّه عليه السلام إلى خطر في أمر التجارة يتوجّه إلى عامّة النّاس المحتاجين في معاشهم إلى شراء الأمتعة من الأسواق، وهو خلق الشح وطلب الادّخار والاستكثار من المال الكامن في طبع الكثير من التجّار، فإنّه يؤول إلى الاستعمار والتسلّط على أجور الزراع والعمّال إلى

حيث يؤخذون عبيداً وأسرى لأصحاب رؤوس الأموال فوصفهم بقوله ﷺ: **(أن في كثير منهم)**:

١ ـ **(ضيقاً فاحشاً)**: أي حبّاً بالغاً في جلب المنافع وازدياد رقم الأموال المختصّة به ربما يبلغ إلى الجنون ولا يقف بالملايين والمليارات.

٢ ـ **(وشحّاً قبيحاً)**: يمنع من السّماح على سائر الأفراد بما يزيد على حاجته بل بما لا يقدر على حفظه وحصره.

٣ ـ **(واحتكاراً للمنافع)**: بلا حدّ ولا حساب حتّى ينقلب إلى جهنّم كلما قيل لها: هل امتلأت؟ يجيب: هل من مزيد؟

٤ ـ **(وتحكّماً في البياعات)**: أي يؤول ذلك الحرص الجهنّمي إلى تشكيل الشركات والانحصارات الجبّارة فيجمعون حوائج النّاس بمكائدهم وقوّة رؤوس أموالهم ويبيعونها بأيّ سعر أرادوا وبأيّ شروط خبيثة تحفظ مزيد منافعهم وتقهر النّاس وتشدّد سلاسل مطامعهم ومظالمهم على أكتافهم واستنتج ﷺ من ذلك مفسدتين مهلكتين:

أ ـ **(باب مضرّة للعامّة)**: وأيّ مضرّة أعظم من الأسر الاقتصادي في أيدي ثعابين رؤوس الأموال.

ب ـ **(وعيب على الولاة)**: وأيّ عيب أشنع من تسليم الأمّة إلى هذا الأسر المهلك.

فشرّع ﷺ لسدّ هذه المفاسد، المنع من الاحتكار للمنافع، فنلفت نظر القراء الكرام إلى أنّ الاحتكار على وجهين.

١ ـ احتكار الأجناس وهو موضوع بحث الفقهاء في باب البيع حيث حكموا بحرمة الاحتكار أو كراهته على خلاف بين الفقهاء، فقد عدّه المحقق في المختصر النافع في المكروهات فقال بعد عدّة جملة منها: والاحتكار، وقال صاحب الرّياض في شرحه: وهو حبس الطّعام، كما عن الجوهري أو مطلق الأقوات يتربّص به الغلاء للنّهي عنه في المستفيضة.

منها الصّحيح، إيّاك أن تحتكر، المعتبر بوجود فضالة المجمع على تصحيح رواياته في سنده فلا يضرّ اشتراك راويه بين الثقة والضّعيف، وعلى تقدير تعيّنه فقد ادّعى الطّوسي الإجماع على قبول روايته، ولذا عدّ موثقاً وربّما قيل بوثاقته، وفيه: لا يحتكر الطعّام إلاّ خاطىء، ولذا قيل: يحرم، كما عن المقنع والمرتضى والحلّي وأحد قولي الحلبيّ والمنتهي وبه قال في المسالك والرّوضة، ولا يخلو عن قوّة ـ إلى أن قال: وإنّما يكون الاحتكار

الممنوع منه في خمسة: الحنطة، والشّعير، والتّمر، والزبيب، والسّمن، على الأشهر - إلى أن قال: وقيل: كما عن المبسوط وابن حمزة أنّه يكون في الملح أيضاً، وقوّاه في القواعد والمسالك وأفتى به صريحاً في الرَّوضة تبعاً للمتعه، ولعلّه لفحوى الأخبار المتقدّمة لأنَّ احتجاج النّاس إليه أشدّ مع توقف أغلب المآكل عليه - إلى أن قال: وإنّما يتحقّق الكراهة إذا اشتراه واستبقاه لزيادة الثمن مع فقده في البلد واحتياج النّاس إليه ولا يوجد بايع ولا باذل مطلقاً غيره، فلو لم يشتره بل كان غلّته لم يكره كما عن النهاية للصّحيح: الحكرة أن يشتري طعاماً ليس في المصر غيره، ونحوه الخبر المتقدّم عن المجالس لكنّه ضعيف السند، ومع ذلك الشرط فيه كالأوّل يحتمل وروده مورد الغالب فالتعميم أجود، وفاقاً للمسالك عملاً بالإطلاق والتفاتاً إلى مفهوم التّعليل في الصّحيح المتقدّم: يكره أن يحتكر والنّاس ليس لهم طعام. إلى أن قال: ويشترط زيادة على ما مرَّ أن يستبقيه في زمان الرّخص أربعين يوماً وفي الغلاء ثلاثة أيّام، فلا حكرة قبل الزمانين في الموضعين لرواية ضعيفة عن المقاومة لما مرَّ وتقييده قاصرة، ويجبر الحاكم المحتكر على البيع مع الحاجة إجماعاً، كما في التنقيح وكلام جماعة وهو الحجّة مضافاً إلى الخبرين في أحدهما أنّه مرَّ بالمحتكرين فأمر بحكرتهم إلى أن يخرج في بطون الأسواق وحيث ينطلق الناس إليها.

وهل يسعّر الحاكم السّعر عليه حينئذ، الأصحّ الأشهر لا، مطلقاً وفاقاً للطّوسي والرَّضي والحلّي والشّهيد الثاني للأصل وعموم السلطنة في المال، وخصوص الخبر: لو قوّمت عليهم، فغضب ﷺ حتّى عرف الغضب من وجهه فقال: أنا أُقوّم عليهم إنّما السّعر إلى الله تعالى يرفعه إذا شاء ويضعه إذا شاء[1].

خلافاً للمفيد والدّيلمي فيسعّر عليه بما يراه الحاكم من المصلحة لانتفاء فائدة الإجبار لا معه لجواز الإجحاف في القيمة، وفيه منع انحصار الفائدة فيما ذكره مع اندفاع الاجحاف بما يأتي.

ولابن حمزة والفاضل واللّمعة فالتفصيل بين اجحاف المالك فالثاني، وعدمه فالأوّل، تحصيلاً لفائدة الإجبار ودفعاً لضرر الإجحاف، وفيهما نظر فقد يحصلان بالأمر بالنزول عن المجحف وهو وإن كان في معنى التّسعر إلاّ أنه لا ينحصر على قدر خاصّ.

هذا خلاصة ما ذكره الفقهاء في باب الاحتكار نقلناه عن الرّياض مزدوجاً شرحه مع متن المختصر النافع للمحقق رحمه الله.

٢ ـ احتكار المنافع، كما عبّر في كلامه عليه السلام والظاهر أنَّ احتكار المنافع التي عنونه عليه السلام

(١) الاستبصار: ٣/ ١١٥، ووسائل الشيعة: ١٧/ ٤٣٠ ح ٢٢٩١٧.

غير الاحتكار المعنون في الفقه، والمقصود منه الحرص على أخذ الأرباح والمنافع من التجارات زائداً عن المقدار المشروع على الوجه المشروع بحيث يؤدّي هذا الحرص والولع إلى تشكيل الشّركات وضرب الانحصارات التي شاع في هذه العصور ومال إليه أرباب رؤوس الأموال الهامّة في الشركات النفطية والانحصارات المعدنية ويدلّ على ذلك أمور:

١ ـ أنّه عليه السلام جعل ثمرة الضّيق الفاحش والشحّ القبيح احتكار المنافع، والاحتكار المعنون في الفقه هو احتكار الأجناس والحبوبات المعيّنة، والفرق بينهما ظاهر.

٢ ـ أنّه عليه السلام عطف على قوله «احتكاراً للمنافع» قوله «وتحكّماً في البياعات» والبياعات جمع معرّف بالألف واللاّم يفيد العموم، والاحتكار الفقهي لا ينتج هذا المعنى بل التحكّم في البياعات والتسلّط على الأسواق معنى آخر ناش عن الانحصارات التجاريّة التي توجدها أرباب رؤوس الأموال.

٣ ـ ما رواه في الوسائل بسنده عن محمّد بن يعقوب، عن أبي عليّ الأشعري، عن محمّد بن عبد الجبّار، عن أحمد بن النّضر، عن أبي جعفر الفزاري قال: دعا أبو عبد الله عليه السلام مولى يقال له مصادف فأعطاه ألف دينار وقال له: تجهّز حتّى تخرج إلى مصر فإنّ عيالي قد كثروا، قال: فتجهّز بمتاع وخرج مع التجّار إلى مصر، فلمّا دنوا من مصر استقبلتهم قافلة خارجة من مصر فسألوهم عن المتاع الذي معهم ما حاله في المدينة وكان متاع العامّة فأخبروهم أنّه ليس بمصر منه شيء فتحالفوا وتعاقدوا على أن ينقصوا متاعهم من ربح الدينار ديناراً، فلمّا قبضوا أموالهم انصرفوا إلى المدينة فدخل مصادف على أبي عبد الله عليه السلام ومعه كيسان كلّ واحد ألف دينار فقال: جعلت فداك هذا رأس المال وهذا لآخر ربح، فقال: إنّ هذا الرِّبح كثير ولكن ما صنعتم في المتاع؟ فحدَّثه كيف صنعوا وتحالفوا، فقال: سبحان الله تحلفون على قوم مسلمين أن لا تبيعوهم إلاّ بربح الدينار ديناراً، ثمّ أخذ أحد الكيسين وقال: هذا رأس مالي ولا حاجة لنا في هذا الرِّبح، ثمّ قال: يا مصادف مجالدة السّيوف أهون من طلب الحلال. وقد رواه بسندين آخرين مع اختلاف يسير(١).

أقول: يستفاد من هذا الحديث أنّ التجّار أوجدوا في معاملتهم مع أهل مصر انحصاراً وهم محتاجون على المتاع فأخذوا منهم مائة في المائة من الرِّبح فلمّا اطّلع الإمام على عملهم لم يتصرّف في هذا الرِّبح لأنّه مأخوذ من أرباب الحاجة إلى المتاع بالتّحالف وإيجاد الانحصار الموضعي، وهذا هو عين ما يستعمله أصحاب الشركات والانحصارات في هذا العصر وهو ما عبّر عنه عليّ عليه السلام «باحتكار المنافع والتحكّم في البياعات» فيستفاد من ذلك

(١) تهذيب الأحكام: ٧/ ١٤، وبحار الأنوار: ٤٧/ ٥٩ ح ١١١، والوسائل: ١٧/ ٤٢١ ح ٢٢٨٩٧.

كلّه أنَّ كبرى احتكار المنافع كبرى مستقلّة، ومغايرة مع كبرى الاحتكار المعنون في الفقه، وأنّه تشريع علويٌّ كما أنَّ المنع عن الاحتكار في الطّعام تشريع نبويّ.

فاحتكار المنافع في مورد تحالف الشركات والانحصارات على أسعار معينة في الأمتعة فيخرج وضع السّوق عن طبعه المبنيّ على مجرّد العرضة والتقاضي من دون مداخلة أمر آخر في ذلك، وحينئذ لا بدَّ أن يداخل الحكومة وينظر في أمر الأسعار ويعين للأجناس سعراً عادلاً يوافق مقدرة الناس المحتاجين إلى هذه الأمتعة ويمنع التجّار الانحصاريّين عن الاجحاف بالناس في أسعارهم النّاشئة عن أهوائهم وولعهم بجمع الأموال والاغارة على العمّال والزّراع في مصّ دمائهم وأخذ أُجورهم.

وأمّا الاحتكار الفقهي المبني على مجرّد الامتناع عن بيع الأطعمة المدخرة انتظاراً لارتفاع سعره فهو في مورد لا مداخلة لأرباب رؤوس الأموال في السّوق وكان السّوق على طبعه العادي والسعر حينئذ ينطبق على مقتضى تقاضي المبتاعين ومقدار عرضة البايعين وهو السّعر الذي لهمه الله في قلوب أهل السّوق فيتوافقون عليه كما في حديث الوسائل في أبواب الاحتكار بسنده عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه مرَّ بالمحتكرين فأمر بحكرتهم أن تخرج إلى بطون الأسواق وحيث تنظر الأبصار إليها فقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: لو قوّمت عليهم، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى عرف الغضب في وجهه فقال: أنا أُقوّم عليهم؟ إنّما السّعر إلى الله يرفعه إذا شاء ويخفضه إذا شاء[١].

فقوله عليه السلام «فامنع من الاحتكار» يرجع إلى المنع عن احتكار المنافع وإيجاد الشركات الانحصاريّة وتعليله بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله منع الاحتكار يحتمل وجهين:

١ ـ أنه أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله المنع عن الاحتكار المطلق بحيث يشمل احتكار المنافع واحتكار الأطعمة، فنقله عنه دليلاً على ما أمر به من المنع عن احتكار المنافع.

٢ ـ أنه ذكر منع رسول الله صلى الله عليه وآله عن احتكار الأطعمة تنظيراً وبياناً لحكمة التشريع مع أنه لا يحكم ولا يقول إلاّ ما علّمه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقد تبيّن ممّا ذكرنا أنَّ الحقَّ في مسألة حق تسعير الحاكم وعدمه، هو التفصيل بين ما إذا كان وضع السّوق طبيعيّاً عاديّاً منزّهاً عن مداخلة أرباب رؤوس الأموال وأطماعهم فلا يجوز للحاكم تسعير الطعام أو المتاع الذي أجبر مالكه على عرضه للبيع ويرجع في السّعر إلى طبع السّوق الملهم من طبع العرضة والتقاضي.

---

(١) التوحيد: ٣٨٨ ح ٣٣، والاستبصار: ٣/ ١١٥.

وأمّا إذا كان السّوق تحت نفوذ أرباب رؤوس المال ومطامعهم وحملوا عليه الانحصارات الرأسماليّة أو ما بحكمها فلا بدَّ للحاكم من تعيين السعر العادل، كما قال عليه السلام «وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع»[١].

---

(١) نهج السعادة: ٥/ ١٠١، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٦٠٧.

الترجمة

سپس درباره بازرگانان و صنعتگران سفارش خواه باش و درباره آنان به خوبی و رعایت حال سفارش کن، چه بازرگانان صاحب بنگاه و اقامتگاه در شهر و روستا و چه بازرگانان دوره گرد که سرمایه خود را به همراه خود به هر شهر و دیار می گردانند و آن صنعتگرانی که با دسترنج خود، وسیله آسایش دیگران را فراهم می سازند، زیرا آنان مایه های سودهای کلان و وسایل آسایش هم نوعانند و هر کالا را از سرزمینهای دوردست و پرتگاه ها به دست می آورند، از بیابان تو و از دریای تو و از سرزمینهای هموار تو و از کوهستان هایت و از آنجایی که عموم مردم با آنها سر و کاری ندارند و رفت و آمدی نمی کنند و جرئت رفتن بدان سرزمینها را ندارند. زیرا که بازرگانان و صنعتگران، مردمی سالمند و از نیرنگ و آهنگ شورش و جنگ آنان بیمی در میان نیست، مردمی صلح دوست و آرامش طلبند و از زیان آنان هراسی در میان نیست.

و باید از حال و وضع آنها بازرسی کنی، چه آن که در کنار تو و در شهر و دیار تو باشند و یا در کناره های دوردست کشور و محور حکمرانی تو.

و بدانکه با این حال، بسیاری از آنها بسیار تنگ نظرند و گرفتار بخل و دریغی زشت و زننده و در پی انباشتن سودهای کلانند و تسلط بر انجام همه گونه معاملات و این خود مایه زیان عموم رعایا و ننگ و نکوهش بر حکمرانان است. از احتکار غدقن کن، زیرا رسول خدا (ﷺ) از آن غدقن کرده و باید فروش هر متاع، فروشی آزاد و روا و بهوسیله ترازوهای درست و نرخ های عادلانه ای باشد که به هیچ کدام از طرفین معامله، از فروشنده و خریدار ستمی نشوند و هرکس پس از غدقن تو، دستش به احتکار و انباشتن سود آلوده شد، او را شکنجه کن و عقوبت نما و از حدّ مگزران.

الفصل العاشر من عهده عليه السلام

«ثُمَّ اللَّهَ اللَّهَ في الطَّبَقَةِ السُّفْلى مِنَ الذينَ لا حيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَساسينِ وَالْمُحْتاجينَ وَأَهْلِ الْبُؤسى وَالزَّمْنى، فَإِنَّ في هذِهِ الطَّبَقَةِ قانِعاً وَمُعْتَرّاً، وَاحْفَظْ لِلَّهِ ما اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلاّتِ صَوافي الإِسْلامِ في كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ للأَقْصى مِنهُمْ مِثْلَ الَّذي للأَدْنى، وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعيتَ حَقَّهُ، فَلا [وَلا] يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لا تُعْذَرُ بَتَضْييعِكَ [بِتَضْييعِ] التّافِهَ لأَحْكامِكَ الْكَثيرَ الْمُهِمَّ، فَلا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدْ أُمورَ مَنْ لا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجالُ، فَفَرِّغْ لأُولئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّواضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمورَهُمْ، ثُمَّ اعْمَلْ فيهِمْ بِالإِعْذارِ إِلى اللَّهِ يَوْمَ تَلْقاهُ، فَإِنَّ هؤلاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلى الإِنْصافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلى اللَّهِ في تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ وتَعَهَّدَ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ في السِّنِّ مِمَّنْ لا حِيْلَةَ لَهُ، وَلا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذلِكَ عَلَى الْوُلاةِ ثَقيلٌ «وَالْحَقُّ كُلهُ ثَقيلٌ» وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ على أَقْوامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ».

اللغة

(**البوسى**): هي البؤسى كالنّعمى للنّعيم بمعنى الشدّة، (**والزّمنى**): أُولوا الزّمانة والفلج، (**القانع**): الذي يسئل لحاجته (**المعترّ**): الذي يتعرَّض للعطاء من غير سؤال، (**الصّوافي**) جمع صافية: أرض الغنيمة، (**التافه**): الحقير، (**أشخص همّه**): رفعه، (**تصعير الخدّ**): إمالته كبراً، (**تقتحمه**): تزدريه، (**أعذر في الأمر**): صار ذا عذر فيه.

الإعراب

(**الله**) مكرراً: منصوب علي التّحذير، (**من الذين**): (**من**) بيانيّة، (**لله**): اللاّم للاختصاص وتفيد الاخلاص، (**وكلٌّ**): المضاف إليه محذوف أي كلّهم.

المعنى

قد عبّر عليه السلام من الطبقة السّابعة بالطّبقة السّفلى نظراً إلى ظاهر حالهم عند النّاس حيث إنّهم عاجزون عن الحيلة والاكتساب وهم مساكين ومحتاجون والمبتلون بالبؤس والزّمانة ولكن سوّاهم مع سائر النّاس في الحقوق وأظهر بهم أشدّ العناية والاهتمام وقسّمهم إلى ثلاثة أقسام.

١ ـ القانع، وقد فسّر بمن يسأل لرفع حاجته ويعرض حاجته على مظانّ قضائه.

٢ ـ المعترّ، وهو السّيىء الحال الذي لا يسأل الحاجة بلسانه ولكن يعرض نفسه في مظانّ التّرحم والتوجّه إليه فكان يسأل بلسان الحال.

٣ ـ من اعتزل في زاوية بيته لا يسأل بلسانه ولا يعرض نفسه على مظانّ قضاء حوائجه، إمّا لرسوخ العفاف وعزّة النّفس فيه، وإمّا لعدم قدرته على ذلك كالزّمني وهم الذين بيّن حالهم في قوله عليه السلام **(وتفقّد أُمور من لا يصل إليك منهم، ممّن تقتحمه العيون وتحقره الرّجال)**[1] وقد وصّى فيهم بأمور:

١ ـ حفظ حقوقهم والعناية بهم طلباً لمرضاة الله وحذراً من نقمته لأنهم لا يقدرون على الانتقام ممن يهضم حقوقهم.

٢ ـ جعل لهم قسماً من بيت المال العام الذي يجمع فيه الصّدقات الواجبة والمستحبّة وأموال الخراج الحاصل من الأراضي المفتوحة عنوة.

٣ ـ جعل لهم قسماً من صوافي الإسلام في كلّ بلد، قال في الشّرح المعتزلي: وهي الأرضون التي لم يوجف عليها بخَيلٍ ولا ركاب وكانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا قبض صارت لفقراء المسلمين، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام.

٤ ـ أن لا يصير الزهو بمقام الولاية موجباً لصرف النّظر عنهم وعدم التوجّه إليهم مغترّاً باشتغاله بأُمور هامّة عامّة، فقال عليه السلام: أحكام الأُمور الهامّة الكثيرة لا يصير كفّارة لصرف النظر عن الأُمور الواجبة القصيرة.

٥ ـ الاهتمام بهم وعدم العبوس في وجوههم عند المحاضرة والمصاحبة لاظهار الحاجة.

ثمّ أوصى بالتفقّد عن القسم الثالث المعتزل بوسيلة رجال موثق من أهل الخشية والتواضع وخصّص طائفتين من العجزة بمزيد التّوصية والاهتمام.

أ ـ الأيتام الذين فقدوا آبائهم وحرموا من محبّة والدهم الذين يلمسونهم بالعطف والحنان دائماً.

ب ـ المعمّرون إلى أرذل العمر الذين أنهكتهم الشّيبة واسقطت قواهم فلا يقدرون على انجاز حوائجهم بأنفسهم، وأشار إلى أنّ رعاية هذه الطبقة على الولاة ثقيل بل الحقّ كلّه ثقيل.

---

(١) نهج السعادة: ٥/١٠٣، وبحار الأنوار: ٧٤/١٦٣ ح ١٨٧.

الترجمة

سپس خدا را باش، خدا را باش درباره آن طبقه زیردستی که بیچاره و مستمندند چون گدایان و نیازمندان و گرفتاران سختی در زندگی و مردم زمین گیر و از کارافتاده، زیرا در این طبقه حاجت خواهان و ترحم جویانند آن چه را از تو درباره حفظ حق آنان خواسته در نظر دار و بهره ای از بیت المال برای آنها مقرّر دار و بهره ای هم از درآمد خالصجات اسلامی در هر شهرستانی باشند، حقّ بیگانه ها و دوردستهای این طبقه همانند حق نزدیکان آنها است.

سرمستی مقام و جاه، تو را از آنها باز ندارد، زیرا انجام کارهای مهم و فراوان برای تقصیر تو در این کارهای کوچك و لازم، عذر پذیرفته نیست، دل از آنان برمدار و چهره بر آنها گره مساز، از آن دسته این مستمندان که به حضور تو نمی رسند و مردم به دیده تحقیر بدانها نگاه می کنند بازرسی و تفقّد کن، برای سرپرستی آنان کسان موثق و مورد اعتمادی که خداترس و فروتن باشند بگمار تا وضع آنان را به تو گزارش دهند. با اینها چنان رفتار کن که در پیشگاه خداوند سبحان هنگام ملاقاتش رو سفید و معذور باشی، زیرا اینان در میان رعیت از دیگران بیشتر نیازمند انصاف و عدلند و درباره هرکدام به درگاه خدا، از نظر پرداخت حقش عذر خواه باش، یتیمان و پیران پشت خمیده را که بیچاره اند و نیروی سؤال و درخواست ندارند بازرسی کن؛ این کاری است که برای حکمرانان سنگین است، ولی چه باید کرد؟ هر حقّی سنگین است و خداوند آن را بر مردمی سبك نماید که عاقبت خوش بخواهند و خود را بسیار شکیبا دارند و به راستی وعده های خداوند بر ایشان اطمینان و عقیده دارند.

الفصل الحادي عشر من عهده عليه السلام

«وَٱجْعَلْ لِذَوِي ٱلْحاجاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عامّاً فَتَتَواضَعُ فيهِ لِلَّهِ الَّذي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوانَكَ مِنْ أَحْراسِكَ وَشُرَطِكَ حَتّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ، فَإِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ في غَيْرِ مَوْطِنٍ: (لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعيفِ فيها حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ) ثُمَّ ٱحْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ، وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَالأَنَفَ، يَبْسُطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذلِكَ أَكْنافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوابَ طاعَتِهِ، وَأَعْطِ ما أَعْطَيْتَ هَنيئاً وَٱمْنَعْ في إِجْمالٍ وَإِعْذارٍ.

ثُمَّ أُمورٌ مِنْ أُمورِكَ لا بُدَّ لَكَ مِنْ مُباشَرَتِها: مِنْها إِجابَةُ عُمّالِكَ بِما يَعْيا عَنْهُ كُتّابُكَ، وَمِنْها إِصْدارُ حاجاتِ النّاسِ عِنْدَ [يَوْمِ] وُرُودِها عَلَيْكَ بِما تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوانِكَ، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ ما فيهِ، وَٱجْعَلْ لِنَفْسِكَ فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَواقيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأَقْسامِ وَإِنْ كانَتْ كُلُّها لِلَّهِ إِذا صَلُحَتْ فيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ.

وَلْيَكُنْ في خاصَّةِ ما تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دينَكَ إِقامَةُ فَرائِضِهِ الَّتي هِيَ لَهُ خاصَّةً، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ في لَيْلِكَ وَنَهارِكَ، وَوَفِّ ما تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلى اللَّهِ مِنْ ذلِكَ كامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ ولا مَنْقُوصٍ بالِغاً مِنْ بَدَنِكَ ما بَلَغَ، وَإِذا قُمْتَ في صَلاتِكَ لِلنّاسِ فَلا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً ولا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ في النّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحاجَةُ، وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حينَ وَجَّهَني إِلى الْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلّي بِهِمْ؟ فَقالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنينَ رَحيما»[١].

اللغة

(الحرس): حرس السّلطان وهم الحرّاس الواحد حرسي والحرس اسم مفرد بمعنى الحرّاس كالخدّام والخدم، **(الشرط)**: قوم من أعوان الحكومة يعلّمون أنفسهم بعلامات الخدمة يعرفون بها، **(التعتعة)**: في الكلام: التردّد فيه من حصر أو عيّ، **(الخرق)**: ضدّ الرّفق، **(عيّ)**: يقال: عيى من باب تعب عجز عنه ولم يهتد لوجه مراده، العيّ بكسر العين وتشديد الياء: التحيّر في الكلام، **(الأنف)**: الأنفة وهي خصلة تلازم الكبر، **(الأكناف)**: الجوانب، **(إجمال)**: في الرّفق، **(يعيا)**: يعجز **(مثلوم)**: ما فيه خلل.

---

(١) نهج السعادة: ٥/١٠٩، وبحار الأنوار: ٣٣/٦٠٩.

الإعراب

(مجلساً): مصدر ميميّ فيكون مفعولاً مطلقاً أو اسم مكان فيكون مفعولاً فيه، **(من أحراسك)**: لفظة **(من)** بيانيّة، غير متتعتع حال، **(يبسط الله)**: مجزوم في جواب الأمر، **(ما أعطيت)**. لفظة **(ما)** مصدريّة زمانيّة أو موصولة والعائد محذوف، **(هنيئاً)**: تميز رافع للإبهام عن النسبة، **(في إجمال)**: لفظة **(في)** الظرفيّة المجازيّة، **(أُمور من أُمورك)** مبتدأ لخبر مقدّم محذوف أي هنا أُمور من أُمورك، ولذا صحّ الابتداء بالنكرة **(ما فيه)**: **(فيه)** ظرف مستقر صفة أو صلة **(لما)**، **(إقامة فرائضه)**: اسم **(وليكن)** أُخّر عن الخبر، وهو جملة ظرفيّة.

المعنى

بعدما فرغ عليه‌السلام من تشريح النّظام العام وتقرير القوانين لتشكيلات الدَّولة وتنظيم أمر طبقات الأُمّة، توجّه إلى بيان ما يرتبط بالوالي نفسه وبيّنه في شعب ثلاث:

الأولى: ما يلزم على الوالي بالنسبة إلى عموم من يرجع إليه من حاجة ويشكو إليه في مظلمة ووصّاه بأن يعين وقتاً من أوقاته لإجابة المراجعين إليه وشرط عليه:

١ ـ أن يجلس لهم في مكان بلا مانع يصلون إليه ويأذن للعموم من ذوي الحاجات في الدخول عليه.

٢ ـ أن يتلقّاهم بتواضع وحسن خلق مستبشراً برجوعهم إليه في حوائجهم.

٣ ـ أن يمنع جنده وأعوانه من التعرّض لهم وينحّى الحرس والشّرط الذين يرعب النّاس منهم عن هذه الجلسة ليقدر ذو الحاجة من بيان مقاصدهم وشرح مآربهم ومظالمهم بلا رعب وخوف وحصر في الكلام.

٤ ـ أن يتحمّل من السّوقة والبدويّين خشونة آدابهم وكلامهم العاري عن كلّ ملاحة وأدب.

٥ ـ أن لا يضيّق عليهم في مجلسه ولا يفرض عليهم آداباً يصعب مراعاتها ولا يلقاهم بالكبر وأبهّة الولاية والرّياسة.

٦ ـ أنه إن كان حاجاتهم معقولة ومستجابة فأعطاهم ما طلبوا لم يقرن عطاءه بالمنّ والأذى والخشونة والتأمّر حتّى يكون هنيئاً وإن لم يقدر على إجابة ما طلبوا يردّهم ردّاً رفيقاً جميلاً ويعتذر عنهم في عدم إمكان إجابة طلبتهم.

الثاني: ما يلزم عليه فيما بينه وبين أعوانه وعمّاله المخصوصين به من الكتّاب والخدمة كما يلي:

١ ـ يجيب عمّاله وكتّابه في حلّ ما عجزوا عنه من المشاكل الهامّة.

٢ ـ يتولّى بنفسه اصدار الحوائج التي عرضت على أعوانه ويصعب عليهم انفاذها لما يعرض عليهم من التّرديد في تطبيق القوانين أو الخوف ممّا يترتّب على انفاذها من نواح شتّى.

٣ ـ أن لا يتأخر أيّ عمل عن يومه المقرّر ويتسامح في إمضاء الأُمور في أوقاتها المقرَّرة.

الثالث: ما يلزم عليه فيما بينه وبين الله فوصّاه بأنَّ الولاية بما فيها من المشاغل والمشاكل لا تحول بينه وبين ربّه وأداء ما يجب عليه من العبادة والتوجّه إلى الله فقال عليه السلام:

(اجعل أفضل أوقاتك وأجزل أقسام عمرك بينك وبين الله في التوجّه إليه والتضرّع والدعاء لديه وإن كان كلّ عمل من أعمالك عبادة لله مع النية الصالحة وإصلاح حال الرَّعية).

وأمره بإقامة الفرائض المخصوصة، وإن كانت شاقة ومتعبة لبدنه كالصّوم في الأيّام الحارَّة والصّلاة بمالها من المقدّمات في شدّة البرد وفي الفيافي والأسفار الطائلة بحيث لا يقع خلل فيما يؤدّيه من الأعمال ولا منقصة فيه من التسامح والإهمال.

قال في الشَّرح المعتزلي في بيان قوله: **(كاملاً غير مثلوم)** أي لا يحملنّك شغل السّلطان على أن تختصر الصّلاة اختصاراً، بل صلّها بفرائضها وسننها وشعائرها في نهارك وليلك وإن أتعبك ذلك ونال من بدنك وقوّتك.

أقول: الظاهر أنَّ المقصود من قوله **(غير مثلوم)** هو النّهي عن الاخلال بواجب في العبادة من شرط أو جزء بحيث يوجب البطلان والمقصود من قوله **(غير منقوص)** النهي عن النقصان الغير المبطل كالاختصار والتّعجيل في الأداء أو التأخير من وقت الفضيلة.

قال ابن ميثم: الثامن أن يعطي الله من بدنه في ليله ونهاره: أي طاعة وعبادة فحذف المفعول الثاني للعلم به والقرينة كون اللّيل والنّهار محلّين للأفعال والقرينة ذكر البدن.

أقول: لا يخلو كلامه من تكلّف والظاهر أنَّ قوله عليه السلام **(من بدنك)** ظرف مستقر مفعول ثان لقوله **(فأعط)** كما تقول أعط زيداً من البرّ، والجملة كناية عن رياضة بدنيّة في العبادة بحيث يصرف فيها جزء من البدن وقواه.

ثمّ استدرك من ذلك صلاته بالنّاس في الجماعة فأمره برعاية حال المأمومين وأدائها على وجه لا يشقّ على المعلولين ولا يضرّ بحوائج العمّال والمحترفين فتصير الصّلاة في الجماعة منفورة عندهم ولكن لا يؤدّيها على وجه يخلّ بواجباتها وآدابها المرعيّة بحيث يكون مضيّعاً لأعمالها أو وقتها.

ونختم شرح هذا الفصل بذكر قصّتين مناسبتين للمقام:

الأولى: حكي أنه استأذن بعض أعوان فتح علي شاه من المحقّق القمّي المعاصر له وهو مرجع ومفت للشيعة في أيّامه ومعتمدٌ لديه في إفطار الشّاه وصومه لطول النهار وشدّة الحرّ معلّلاً بأنَّ الصّوم يؤثر في حاله ويورث فيه الغضب الشّديد وخصوصاً في أوان العصر فربّما يحكم على المتّهمين بالعقوبة قبل التحقيق عن إثباته جرمه، أو على المجرمين بتشديد العقوبة إلى أن يصل بالقتل والفتك بما يخرج عن حدّ العدالة، فأجاب رحمه الله تعالى: بأنَّ الشّاه يصوم ولا يغضب حتّى يرتكب الخلاف والظلم.

الثانية: ما ذكره الشارح المعتزلي في شرحه (**ص ٨٧ ج ١٧ ط مصر**) قال: كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه، ولا يثق إلى غيره، ويقعد بحيث يسمع الصّوت، فإذا سمعه أدخل المتظلّم، فأُصيب بصمم في سمعه، فنادى مناديه: أنَّ الملك يقول: أيّها الرَّعيّة إني إن أصبت بصمم في سمعي فلم أصب في بصري، كلّ ذي ظلامة فليلبس ثوباً أحمر، وجلس لهم في مستشرف له.

الترجمة

برای مراجعان شخص خودت که به تو نیازی دارند، وقتی مقرر دار که شخص خودت بدانها رسیدگی کنی و در مجلس عمومی همه را بار دهی و در آن متواضع باشی برای خدایی که تو را آفریده به شرایط زیر:

لشکریان و یاوران خود را از قبیل گارد مخصوص پاسبانی و پاسبانان شهربانی خود را از مراجعان برکنار سازی تا هرکس بی لکنت زبان با تو سخن خود را در میان گذارد، زیرا من از رسول خدا (ﷺ) شنیدم که در چند جا فرمود: "مقدّس و پاك نباشند امّتی که در میان آنها حق ناتوان از توانا بی لکنت زبان گرفته نشود".

سپس بدبرخوردی و کندزبانی آنان را بر خود هموار کن و فشار و تکبّر فرمانروایی خود را از آنان دور دار تا خداوند بدینوسیله رحمت همه جانبه خود را به روی تو بگشاید و پاداش طاعتش را به تو ارزانی دارد. هر چه به هر کس می دهی بی منّت باشد تا بر او گوارا بود و اگر از انجام درخواست کسی دریغ کردی، با زبان خوش و معذرت او را روانه ساز.

سپس تو را کارهایی است که به ناچار خوب است، باید انجام دهی:

از آن جمله پذیرفتن مراجعه کارمندان تو است در آن چه دفترداران تو از انجام آن درمانند.

از آن جمله پاسخ گویی به نیازمندی های مردم است که به تو مراجعه می شود، در صورتی که یاوران تو از پاسخ بدانها دچار نگرانی شوند.

کار هر روزی را در همان روز انجام بده و به فردا میفکن، زیرا برای هرروزی است کارهای مربوط بدان روز.

برای خود، میان خود و خدای تعالی بهترین اوقات و شایان ترین قسمت عمر خود را مقرّر دار و گرچه همه اوقات تو برای خدا مصرف می شود و عبادت محسوب است، در صورتی که نیت پاك باشد و کار رعیّت درست شود و باید در

خصوص آن چه با خلاصمندی در کار دین خود برای خدا انجام می دهی، انجام واجباتی که بر تو است و مخصوص خدا است منظور داری، از تن خود به خدا بده، در شب خویش و در روز خویش آن چه برای تقرّب به خدای سبحان می کنی (از نماز و روزه و غیره) کامل انجام بده، به طوری که خللی در آن نباشد و کاستی نداشته باشد، بگذار هر چه بیشتر به تنت رنج عبادت رسد.

ولی هرگاه برای مردم نماز می خوانی و جماعت در پشت سر داری، نباید به اندازه ای طول بدهی که مایه نفرت مردم از نماز جماعت شود و نه چنان کوتاه آیی که مایه تضییع نماز گردد، مردمی که پشت سر تو نماز می خوانند، برخی دچار بیماری و گرفتاری و حاجت هستند.

من خود از رسول خدا (ﷺ) هنگامی که برای سرپرستی مسلمانان به سوی یمنم گسیل داشت پرسیدم که: چگونه برای مردم نماز جماعت بخوانم؟ در پاسخ فرمود: مانند نماز ناتوان ترین آنها و نسبت به مؤمنان مهربان باش.

الفصل الثاني عشر من عهده عليه السلام

[وَ] أمّا بَعْدَ [هذا] فَلا تُطوِّلَنَّ احْتِجابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فإِنَّ احْتِجابَ الْوُلاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بالأُمُوْرِ، وَالاِحْتِجابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشابُ الْحَقُّ بِالْباطِلِ، وَإِنَّمَا الْوالي بَشَرٌ لا يَعْرِفُ ما تَوارى عَنْهُ النّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِماتٌ تُعْرَفُ بِها ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكِذْبِ، وَإِنَّما أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ في الْحَقِّ فَفِيمَ احْتِجابُكَ مِنْ واجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ؟ أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ؟ أَوْ مُبْتَلى بِالْمَنْعِ؟ فَما أَسْرَعَ كَفَّ النّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حاجاتِ النّاسِ إِلَيْكَ مِمّا لا مَؤُونَةَ فيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكاةِ مَظْلَمَةٍ أَوْ طَلَبِ إِنْصافٍ في مُعامَلَةٍ[1].

اللغة

(**الشوب**): بالفتح: الخلط يقال: شابه شوباً من باب قال خلطه، (**الوري**): ما توارى عنك واستتر، (**سمات**): جمع سمة كعدة وأصلها وسم وهي العلامات، (**ضروب**): أنواع، (**سخت**): من سخا يسخو: جادت، (**الأسداء**): الاعطاء.

المعنى

قد يتّخذ الوالي حاجباً على بابه يمنع عن ورود النّاس إليه إلاّ مع الأذن، وقد يحتجب عن النّاس أي يكفّ نفسه عن الاختلاط بهم فيقطع عنه أخبارهم وأحوالهم، وقد سعى الإسلام في رفع الحجاب بين الوالي والرَّعيّة إلى النّهاية، فكان النّبي ﷺ يختلط مع النّاس كأحدهم فيجتمعون حوله للصّلاة في كلّ يوم خمس مرّات ولاستماع آي القرآن والوعظ وعرض الحوائج في أي وقت حتّى يهجمون على أبواب دور نسائه ويدخلونها من دون استيذان.

فنزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٦٠٩، ونهج السعادة: ٥/٥٦.

وقد كانوا يصيحون عليه من وراء الباب ويستحضرونه حتّى نزلت الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

ولكن ورد الحجاب في الحكومة الإسلاميّة في أيّام عمر، قال الشارح المعتزلي **(ص ٩١ ج ١٧ ط مصر)** حضر باب عمر جماعة من الأشراف منهم سهيل بن عمرو وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس فحجبوا، ثمّ خرج الإذن فنادى، أين عمّار أين سلمان، أين صهيب وأدخلهم فتمعّرت وجوه القوم ـ تغيّرت غيظاً وحنقاً ـ فقال سهيل ابن عمرو: لم تتمعّر وجوهكم، دُعوا ودعينا، فأسرعوا وأبطأنا ولئن حسدتموهم على باب عمر اليوم لأنتم غداً لهم أحسد.

واشتدّ الحجاب في أيّام بني أُميّة فكان المراجعون يحجبون وراء الباب شهوراً وسنة، قال الشارح المعتزلي **(ص ٩٣ ج ١٧ ط مصر)** أقام عبد العزيز بن زرارة الكلابي على باب معاوية سنة في شملة من صوف لا يؤذن له.

والظاهر أنَّ موضوع كلامه عليه السلام هذا ليس الحجاب بهذا المعنى، بل المقصود النّهي عن غيبة الوالي من بين النّاس وعدم الاختلاط معهم بحيث يعرف أحوالهم وأخبارهم فانتهز خواصّه هذه الفرصة فيموّهون عليه الحقائق، كما يريدون ويعرضون عليه الأمور بخلاف ما هي عليه فيستصغر عنده الكبير وبالعكس ويقبح بإضلالهم عنده الحسن وبالعكس ولا يتميّز عنده الحقّ من الباطل قال عليه السلام «إنّما الوالي بشر» لا يعلم الغيب وما يخفيه عنه ذوو الأغراض وليست للحقّ علائم محسوسة ليعلم الصّدق من الكذب.

ثمَّ ردَّ عليه السلام عذر الوالي في الاحتجاب من هجوم النّاس عليه وطلب الجوائز منه فقال: إن كان الوالي جواداً يبذل في الحق فلا وجه لاحتجابه، وإن كان أهل المنع من العطاء فإذا لم يبذل للطّالبين أيسوا منه فلا يطلبون.

ونختم شرح هذا الفصل بنقل ما حكاه الشارح المعتزلي من وصايا أبرويز لحاجبه قال:

وقال أبرويز لحاجبه: لا تَضَعَنَّ شريفاً بصعوبة حجاب، ولا ترفعنَّ وضيعاً بسهولته ضع الرِّجال مواضع أخطارهم فمن كان قديماً شرفه ثمَّ ازدرعه «اثبته» ولم يهدمه بعد آبائه فقدّمه على شرفه الأوّل، وحسن رأيه الآخر، ومن كان له شرف متقدّم ولم يصن ذلك حياطة له، ولم يزدرعه تثمير المغارسة، فألحق بآبائه من رفعة حاله ما يقتضيه سابق شرفهم، وألحق به في خاصّته ما ألحق بنفسه ولا تأذن له إلاّ دبريًّا وإلاّ سراراً، ولا تلحقه بطبقة الأوّلين، وإذا ورد كتاب عامل من عمّالي فلا تحبسه عنّي طرفة عين إلاّ أن أكون على حال لا تستطيع

الوصول إليّ فيها، وإذا أتاك من يدّعي النّصيحة لنا فاكتبها سرًّا، ثمَّ أدخله بعد أن تستأذن له، حتّى إذا كان منّي بحيث أراه فادفع إليّ كتابه فإن أحمدت قبلت وإن كرهت رفضت، وإن أتاك عالم مشتهر بالعلم والفضل يستأذن، فأذن له، فإنَّ العلم شريف وشريف صاحبه، ولا تحجبنّ عنّي أحداً من أفناء النّاس إذا أخذت مجلسي مجلس العامّة، فإنَّ الملك لا يحجب إلاّ عن ثلاث: عيّ يكره أن يطّلع عليه منه، أو بخل يكره أن يدخل عليه من يسأله، أو ريبة هو مصرّ عليها فيشفق من إبدائها ووقوف الناس عليها، ولا بدَّ أن يحيطوا بها علماً، وإن اجتهد في سترها.

الترجمة

پس از همه این ها، خود را مدتی طولانی از نظر رعیت محجوب بدار، زیرا پرده گیری کارگزاران از رعایا یك نوع فشار بر آنها است و کم اطلاعی از کارها؛ پرده گیری از رعیت، مانع از دانستن حقایق است و بزرگ را در نظر کارگزار خرد جلوه می دهد و خرد را بزرگ و زیبا را زشت جلوه می دهد و زشت را زیبا و حق و باطل را به هم می آمیزد. همانا کارگزار و حکمران یك آدمی است و آن چه را مردم از او نهان دارند نخواهد دانست. حق را نشانه های آشکار و دیدنی نیست تا درست و نادرست بهوسیله آنها شناخته شوند. همانا تو که حکمرانی، یکی از دو کس خواهی بود:

. یا مردی دست باز و با سخاوتی در راه حق، چرا پشت پرده می روی برای پرداخت حقی که باید بدهی یا کار خوبی که باید بکنی؟

. یا مردی هستی گرفتار بخل و تنگ نظر؛ در این صورت هم مردم چه زود از حاجت خواستن از تو صرف نظر کنند، وقتی تو را بیازمایند از تو نومید گردند، با این که بیشتر حوائج مراجعان به تو خرجی ندارد، از قبیل شکایت از مظلمه ای یا درخواست انصاف و عدالت در معامله و دادوستدی.

الفصل الثالث عشر من عهده عليه السلام

ثُمَّ إنَّ لِلْوالي خاصَّةً وَبِطانَةً فِيهِمُ اسْتِئْثارٌ وَتَطاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصافٍ في مُعامَلَةٍ، فَاحْسِمْ مادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبابِ تِلْكَ الأَحْوالِ وَلا تُقْطِعَنَّ لأَحَدٍ مِنْ حاشِيَتِكَ وَحامَّتِكَ قَطِيعَةً، وَلا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ في اعْتِقادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَليها مِنَ النّاسِ في شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ على غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ في ذلِكَ صابِراً مُحْتَسِباً، واقِعاً ذلِكَ مِنْ قَرابَتِكَ وخاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عاقِبَتَهُ بِما يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذلِكَ مَحْمُودَةٌ.

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحارِكَ، فَإِنَّ في ذلِكَ رِياضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذاراً تَبْلُغُ بِهِ حاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ[١].

اللغة

(بطانة) الرّجل: دخلاؤه وأهل سرّه ممن يسكن إليهم ويثق بمودّتهم، **(الاستئثار)**: طلب المنافع لنفسه خاصّة، **(التطاول)**: وأطال الرّجل على الشيء مثل أشرف وزناً ومعنى وتطاول علا وارتفع، **(الحسم)**: قطع الدّم بالكي وحسمه حسماً من باب ضرب: قطعه، **(الحامّة)**: القرابة، **(القطيعة)**: محال ببغداد أقطعها المنصور أُناساً أعيان دولته ليعمّروها ويسكنوها، ومنه حدثني شيخ من أهل قطيعة الرّبيع، وأقطعته قطيعة أي طائفة من أرض الخراج والأقطاع إعطاء الإمام قطعة من الأرض وغيرها ويكون تمليكاً وغير تمليك ـ مجمع البحرين ـ.

(العقدة): الضّيعة، والعُقدة أيضاً: المكان الكثير الشّجر والنّخل، اعتقد الضيعة: اقتناها، **(المهنا)**: مصدر هنأته كذا **(المغبة)**: العاقبة، **(الحيف)**: الظلم والجور، **(وأصحرت)** بكذا أي كشفته، مأخوذ من الاصحار، وهو الخروج إلى الصحراء.

الإعراب

(استئثار): مبتدأ لقوله **(فيهم)** وهو ظرف مستقر قدّم على المبتدأ لكونه نكرة، **(بقطع)**: **(الباء)** للتّسبيه، **(لا يطمعن)**: فاعله مستتر فيه راجع إلى قوله **(أحد)**، **(يحملون مؤونته)**:

---

(١) بحار الأنوار: ٢٦١/٧٤، ونهج السعادة: ١١٣/٥.

جملة حالية، واقعاً حال من قوله ذلك، **(بما)**: **(الباء)** بمعنى مع، **(بك حيفاً)**: الجار والمجرور ظرف مستقرّ مفعول ثان لقوله: **(ظنّت)** قُدّم على حيفاً وهو المفعول الأوّل لكونه ظرفاً. **(فأصحر)**: ضمن معنى صرّح فعدى بالباء، من تقويمهم لفظة من للتّعليل.

المعنى

من أصعب نواحي العدالة للولاة والحكّام والسّلاطين والزّعماءِ العدالة في خصوص الأولياء، والأحبّاء والأقرباء والأرحام من حيث منعهم عن الظلم بالرَّعيّة اعتماداً على تقرّبهم بالحاكم ومن بيده الأمر والنّهي، وقد اهتمَّ النبيُّ ﷺ في ذلك فحرَّم الصّدقات على ذوي قرباه لئلا يشتركوا مع النّاس في بيت المال فيأخذون أكثر من حقّهم، ومنع بني عبد المطّلب من تصدّي العمل في جمع الصّدقات لئلا يختلسوا منها شيئاً بتزلّفهم إلى النبيّ ﷺ.

ففي الوسائل بسنده عن محمّد بن يعقوب، عن أحمد بن إدريس، عن محّمد بن عبد الجبّار، وعن محمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان جميعاً عن صفوان بن يحيى، عن عيص بن القاسم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ أُناساً من بني هاشم أتوا رسول الله ﷺ فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي وقالوا يكون لنا هذا السّهم الذي جعل الله عزَّ وجلَّ للعاملين عليها فنحن أولى به، فقال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطّلب [يا بني هاشم ـ خ ب] إنَّ الصّدقة لا تحلّ لي ولا لكم ولكنّي قد وعدت الشّفاعة ـ إلى أن قال: أتروني مؤثراً عليكم غيركم؟»[1].

وقد حفظ على هذه السيرة النبويّة المقدَّسة في صدر الإسلام شيئاً ما حتّى وصلت النوبة إلى عثمان فحكّم ذوي قرابته من بني أُميّة على رقاب المسلمين وسلّطهم على أموالهم فكان يعطي العطايا الجزيلة لهم من بيت مال المسلمين ويقطع الأقطاع لهم من أراضي المسلمين وهتك حجاب العدل فأقطع مروان بن الحكم من فدك التي أخذها أبو بكر من فاطمة عليها السلام بحجّة مختلقة من أنه فيء لجميع المسلمين وصدقة مرجوعة إليهم، ثمّ شاع أمر الأقطاع في حكّام الجور إلى أنَّ المنصور العبّاسي أعطى جمعاً من بطانته قطايع من أراضي بغداد أكثرهم حظّاً من ذلك الربيع الحاجب المتهالك في خدمته والفاتك بأعدائه وأهل ريبته كائناً من كان حتّى بالنسبة إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

وقد أكثر حكّام بني أُميّة أيّام إمارتهم من أقطاع القطائع وغصب أراضي المسلمين إلى حيث ملأوا صدور المسلمين غيظاً وكرهاً على حكومتهم فخاف عمر بن عبد العزيز من ثورة

(١) الكافي: ٤/٥٨ ح ١، وتهذيب الأحكام: ٤/٥٨ ح ١.

تدكّ عرشهم فعزم، بحزمه الفائق على سدّ هذا الخلل وتصدّى لردّ المظالم بكلّ صرامة وصراحة.

قال الشارح المعتزلي (**ص ٩٨ ج ١٧ ط مصر**): ردّ عمر بن عبد العزيز المظالم التي احتقبها بنو مروان فأبغضوه وذمّوه، وقيل: إنّهم سمّوه فمات وفي (**ص ٩٩**): روى جويرية بن أسماء، عن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: كنّا عند عمر بن عبد العزيز، فلمّا تفرّقنا نادى مناديه، الصّلاة جامعةً، فجئت إلى المسجد، فإذا عمر على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أمّا بعد، فإنّ هؤلاء ـ يعني خلفاء بني أُميّة قبله ـ قد كانوا أعطوا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها، وإنيّ قد رأيت الآن أنّه ليس عليَّ في ذلك دون الله حسيب، وقد بدأت بنفسي والأقربين من أهل بيتي، اقرأ يا مزاحم.

فجعل مزاحم يقرأ كتاباً فيه الأقطاعات بالضّياع والنّواحي، ثمَّ يأخذه عمر فيقصّه بالجلم «المقصّ» لم يزل كذلك حتّى نودي بالظهر.

وروى الأوزاعيّ، أيضاً، قال: قال عمر بن عبد العزيز يوماً، وقد بلغه عن بني أُميّة كلام أغضبه: إنَّ لله في بني أُميّة يوماً ـ أو قال: ذبحاً ـ وأيم الله لئن كان ذلك الذبح ـ أو قال: ذلك اليوم ـ على يدي لأعذرنَّ الله فيهم، قال: فلما بلغهم ذلك كفّوا، وكانوا يعلمون صرامته، وأنّه إذا وقع في أمر مضى فيه[1].

أقول: ومن هذه الرّواية يعلم عمق سياسة عمر بن عبد العزيز وحزمه وأنه تفرّس أنَّ مظالم بني أُميّة تؤدي إلى ثورة عامّة عليهم تستأصلهم، فصار بصدد العلاج من نواح كثيرة:

منها ـ يردّ الظّلامات والأقطاع ما أمكنه.

منها ـ التحبّب إلى أهل بيت النّبي ﷺ حتّى ردّ فدك إليهم خلافاً لسنّة أبي بكر الغاصبة وإلغاء سبّ ولعن عليّ عليه السلام من خطبة صلاة الجمعة الذي سنّها وأمر بها معاوية.

وروى عمر بن عليّ بن مقدّم، قال: قال بن صغير لسليمان بن عبد الملك لمزاحم: إنَّ لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر، قال: فاستأذنت له، فأدخله، فقال: يا أمير المؤمنين لم أخذت قطيعتي؟ قال: معاذ الله أن آخذ قطيعة ثبتت في الإسلام، قال: فهذا كتابي بها ـ وأخرج كتاباً من كمّه ـ فقرأه عمر وقال: لمن كانت هذه الأرض؟ قال: كانت للمسلمين، قال: فالمسلمون أولى بها، قال: فاردد إليَّ كتابي، قال: إنّك لو لم تأتني به لم أسألكه، فإذا جئتني به فلست أدعك تطلب به ما ليس لك بحقّ، فبكى ابن سليمان، فقال مزاحم: يا

---

(١) شرح النهج: ١٧/١٠٣.

أمير المؤمنين، ابن سليمان تصنع به هذا؟! قال: وذلك لأنّ سليمان عهد إلى عمر، وقدّمه على إخوته فقال عمر: ويحك يا مزاحم، إنّي لأجد له من اللّوط ـ في اللسان: وقد لاط حبّه بقلبي أي لصق ـ ما أجد لولدي، ولكنّها نفسي أُجادل عنها ـ انتهى[١].

أقول: هذا في أقطاع الأراضي، وأمّا أقطاع المناصب، فقد ابتدع من عصر أبي بكر حيث اتّخذ خالد بن الوليد بطانة وأعطاه لقب سيف الله وفوّض إليه إمارة جيوش الإسلام لما علم منه عداوة عليّ عليه السلام وفوّض إمارة الجيش الذي بعثه إلى الشام إلى يزيد بن أبي سفيان فاتّخذ بني أُميّة بطانة لما عرف فيهم من المعاداة مع بني هاشم وأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله مع وجود من هو أشجع وأرسخ قدماً في الإسلام من كبار الصحابة العظام كأمثال مقداد والزبير وعمّار بن ياسر.

وقد عرف عليه السلام ما لحق من الإضرار بالإسلام من استئثار خاصّة الوالي وبطانته وأنّ فيهم تطاول وقلّة انصاف، فأمر الوالي بقطع مادّة الفساد ونهاه مؤكّداً عن أقطاع الأراضي لحاشيته وقرابته، وأضاف إليه أن لا يسلّطه على ما يمسّ بالرّعيّة بواسطة عقد إجارة أو تقبّل زراعة الأراضي ونحوهما لئلا يظلمهم في الشّرب ويحمّلهم مؤونة لانتفاعه عنهم بلا عوض وأشار إلى أنّ ذلك صعب فأمره بالصبر وانتظار العاقبة المحمودة لإجزاء هذه العدالة الشاقة عليه.

ثمّ توجّه عليه السلام إلى أنّه قد ينقم الرَّعيّة على الوالي في أُمور يرونها ظلماً عليهم فيتّهمونه بالمظالم والجور فيتنفّر عنه قلوبهم ويفكّرون في الخلاص منه، وربّما كان ذلك من جهلهم بالحقيقة، فلا بدّ للوالي من التماس معهم وكشف الحقيقة لهم وإقناعهم وتنبيههم على جهلهم وحلّ العقدة التي تمكّنت في قلوبهم، وقد اتّفق ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله في مواقف:

منها ـ ما اتّفق في موقف تقسيم غنائم حنين حيث أسهم لرؤساء قريش كأبي سفيان مائة بعير، وأسهم لرؤساء العشائر كعيينة بن حصن وأمثاله مائة بعير، وأسهم للأنصار المجاهدين المخلصين مع سابقتهم وتفانيهم في نصرة الإسلام أربعة، فدخل في صدورهم من الغيظ ما لا يخفى فنقموا على رسول الله صلى الله عليه وآله واتّهموه بالحيف في تقسيم الغنيمة فلمّا عرض ذلك عليه صلى الله عليه وآله جمع الأنصار وأصحر لهم بعذره وأزال غيظهم وأقنعهم قال ابن هشام في سيرته **(ص ٣٢٠ ج ٢ ط مصر)**:

قال ابن إسحاق: وأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله المؤلّفة قلوبهم وكانوا أشرافاً من أشراف النّاس يتألّفهم ويتألّف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ١٠٥.

مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث ابن كلدة أخا بني عبد الدار مائة بعير - إلى أن قال: وأعطى العلاء بن جارية الثقفي مائة بعير، وأعطى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التّميمي مائة بعير، وأعطى مالك بن عوف بن النّصري مائة بعير، وأعطى صفوان بن أُميّة مائة بعير - إلى أن قال: جاء رجل من تميم يقال له: ذو الخويصرة فوقف عليه وهو يعطى النّاس، فقال: يا محمّد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله ﷺ أجل فكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت - إلى أن قال: عن أبي سعيد الخدري قال: لمّا أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن للأنصار منها شيء، وجد هذا الحيّ من الأنصار في أنفسهم حتّى كثرت منهم القالة حتّى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله إنَّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلاّ من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد فجمع الأنصار، في تلك الحظيرة - إلى أن قال: فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: قد اجتمع هذا الحيُّ من الأنصار فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمَّ أصحر لهم عن عذره في ضمن خطبة بليغة قاطعة فبكى القوم حتّى اخضلّوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظًّا، ثمّ انصرف رسول الله وتفرّقوا فمن أراد الإطلاع فليرجع إلى محلّه[1].

ومن أهمّها ما وقع في صلح الحديبيّة مع مشركي مكّة حيث قبل رسول الله ﷺ منهم الرّجوع من حديبيّة ونقص العمرة التي أحرم بها مع أصحابه وشرط لقريش شروطاً يثقل قبولها على أصحابه.

قال ابن هشام في سيرته (**ص ٢١٥ ج ٢ ط مصر**) قال الزهريُّ: ثمَّ بعث قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤيّ إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمّداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلاّ أن يرجع عنه عامه هذا فوالله لا تحدّث العرب عنّا أنّه دخلها علينا عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو، فلمّا رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: قد أراد القوم الصّلح حين بعثوا هذا الرَّجل، فلمّا انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلّم فأطال الكلام وتراجعا، ثمّ جرى بينهما الصّلح فلمّا التأم الأمر ولم يبق إلاّ الكتاب وثب عمر بن الخطّاب فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال:

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٦١، وسيرة النبي: ٤/ ٩٣٥.

بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا؟! قال أبو بكر: يا عمر إلزم غرزه - الغرز: العود المغروز بالأرض: أي إلزم رايته - فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنّه رسول الله، ثمَّ أتى رسول الله، فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام[1] نعطى الدنيّة في ديننا؟! قال: أنا عبد الله ورسوله لن أُخالف أمره ولن يضيعني[2] - انتهى.

وهذا الذي بيّنه عمر ما كان يختلج في صدور أكثر المسلمين لما أحسّوا من ثقل شروط الصّلح واضطهادها المسلمين حتى دخل الشكّ في قلوب النّاس، وروى عن عمر أنّه قال: ما شككت في الإسلام قطّ كشكّي يوم حديبيّة.

فأصحر رسول الله ﷺ عن عذره بأنّه عبد الله ورسوله، وقد أمره الله تعالى بعقد هذا الصلح ولا يستطيع مخالفة أمر الله.

ويظهر شكّهم ممّا رُوي عن ابن عبّاس قال: حلّق رجال يوم حديبيّة وقصّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلّقين، قالوا: والمقصّرين يا رسول الله، قال: يرحم الله المحلّقين، قالوا: والمقصّرين - إلى أن قال: فقالوا: يا رسول الله فلم ظاهرت التّرحيم للمحلّقين؟ قال: لم يشكّوا»[3].

ومنها - ما رواه في الوسائل عن عنبسة بن مصعب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «أُتي النبيّ ﷺ بشيء يقسّمه فلم يسع أهل الصّفة جميعاً فخصّ به أُناساً منهم فخاف رسول الله ﷺ أن يكون قد دخل قلوب الآخرين شيء، فخرج إليهم، فقال: معذرة إلى الله عزَّ وجلَّ وإليكم يا أهل الصّفة إنّا أُوتينا بشيء فأردنا أن نقسمه بينكم فلم يسعكم فخصصت به أُناساً منكم خشينا جزعهم وهلعهم» - ذكره في كتاب الزكاة في باب عدم وجوب استيعاب المستحقين بالإعطاء -[4].

ولعمري أنَّ هذه المرحلة من أصعب ما يبتلي به الولاة والأُمراء ورؤساء الشعوب والملل الغير الرّاقية والملل المتأخّرة، حيث إنَّ أعدل القوانين مما لا يرضى به كثير منهم

---

(١) بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٣٣، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٠.
(٢) المسترشد: ٥٣٨ ح ٢١٤، وبحار الأنوار: ٢٠/ ٣٣٣.
(٣) عوالي اللئالي: ١/ ١٣٣، وبحار الأنوار: ٢٠/ ٣٥٣.
(٤) الكافي: ٣/ ٥٥٠ ح ٥، ووسائل الشيعة: ٩/ ٢٦٦ ح ١١٩٨٨.

لاستئثارهم بالمنافع وعدم التّوجه إلى غيرهم من الأفراد فقلّما وقع في تاريخ الدّول والملل أن يكون الشّعب راضياً من الحكومة غير ناقم عليها في كثير من قوانينها وإجراءاتها.

الترجمة

سپس راستی که برای والی، مخصوصان و یاران نزدیکی است که خودخواه و دست درازند و در معامله با دیگران کمتر رعایت انصاف را می نمایند، ریشه تجاوز و ستم آنان را با قطع وسایل ستم، از بن برکن و به هیچ کدام از دورو‌ریها و خویشان خود، تیولی از اراضی مسلمانان وامگذار و هرگز در تو طمع نبندند که قراردادی به نفع آنها منعقد کنی که مایه زیان مردم دیگر باشد در حقابه آب یاری یا در عمل مشترکی که مخارج آن را بر دیگران تحمیل کنند تا سود آن را ببرند و گوارا بخورند و عیب و نکوهشش در دنیا و آخرت به گردن تو بماند.

حق را درباره خویش و بیگانه به طور لزوم مراعات کن و در این باره شکیبایی و خدا خواهی را منظور دار، با هر چه فشار بر خویشان و یارانت وارد شود، گرانی این کار را در سرانجام خوب آن تحمّل کن، زیرا سرانجامش پسندیده و دلنشین است. و اگر رعیّت تو را متهم به ستم و جوری کردند، عذر خود را درباره کاری که منشأ اتهام و بدبینی آنها شده فاش کن و با کمال صراحت مطلب را به آنها بفهمان و بدبینی آنها را بهوسیله صراحت در بیان مطلب از خود بگردان، زیرا این خود برای نفس تو ریاضت و پرورشی است و نسبت به رعیت ارفاق و ملاطفتی است و درنتیجه عذرخواهی مؤثری است که گره کار تو را می گشاید و رعیت را به راه حق استوار می دارد.

الفصل الرابع عشر من عهده عليه السلام

وَلا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَللَّهِ فِيهِ رِضاً، فَإِنَّ في الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ، وَراحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وَأَمْناً لِبِلادِكَ، وَلكِنِ ٱلْحَذَرَ كُلَّ ٱلْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَدُوَّ رُبَّما قارَبَ لِيَتَغَفَّلَ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَاتَّهِمْ في ذلِكَ حُسْنَ ٱلظَّنِّ، وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفاءِ، وَٱرْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمانَةِ، وَٱجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ ما أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرائِضِ ٱللَّهِ شَيْءٌ النّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ ٱجْتِماعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوائِهِمْ وَتَشَتُّتِ آرائِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ ٱلْوَفاءِ بِالْعُهُودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ ٱلْمُشْرِكُونَ فيما بَيْنَهُمْ دُونَ ٱلْمُسْلِمينَ لِمَا ٱسْتَوْبَلُوا مِنْ عَواقِبِ ٱلْغَدْرِ، فَلا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلا تَخيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لا يَجْتَرِىءُ عَلَى ٱللَّهِ إِلاَّ جاهِلٌ شَقِيٌّ، وَقَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضاهُ بَيْنَ ٱلْعِبادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَريماً يَسْكُنُونَ إِلى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلى جِوارِهِ، فَلا إِدْغالَ وَلا مُدالَسَةَ وَلا خِداعَ فيهِ، وَلا تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فيهِ ٱلْعِلَلَ، وَلا تُعَوِّلَنَّ عَلى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَٱلتَّوْثِقَةِ، وَلا يَدْعُوَنَّكَ ضيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلى طَلَبِ ٱنْفِساخِهِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلى ضيقِ أَمْرٍ تَرْجوُ انْفِراجَهُ وَفَضْلَ عاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحيطَ بِكَ مِنَ ٱللَّهِ فيهِ طِلْبَةٌ فَلا تَسْتَقْبِلُ فيها دُنْياكَ وَلا آخِرَتَكَ[1].

اللغة

(دعة): مصدر ودع: الرّاحة، **(استوبلوا)**: استفعال من الوبال: أي يتنظرون وبال عاقبة والوبال: الوخم، يقال: استوبلت البلد: استوخمت فلم توافق ساكنها، **(خاس)** بالعهد: نقضه، **(الختل)**: الخداع والمكر **(أفضاه)**: بسطه، استفاض الماء: سال، **(الدّغل)**: الفساد، **(المدالسة)**: مفاعلة من التّدليس في البيع وغيره كالمخادعة وهي إرائة الشيء وتعريفه بخلاف ما هو عليه، **(لحن القول)**: كالتورية والتعريض وهي أداء المقصود بلفظ يحتمل غيره من المعنى، **(التوثقة)**: مصدر من وثّق.

الإعراب

(لله فيه رضاً): (رضا) مبتدأ مؤخّر مرفوع تقديراً **(ولله)** جار ومجرور متعلّق برضاً **(وفيه)** ظرف مستقر خبر له، والجملة حال عن قوله عليه السلام صلحاً، **(الحذر)**: منصوب على التحذير

(١) تحف العقول: ١٤٦، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٦١١.

بفعل مقدر وكلّ الحذر تأكيد، **(عقدة)** مفعول **(عقدت)** **(وبينك)** ظرف متعلّق بها، **(ما أعطيت)**، (ما) موصولة أو مصدرية والعائد محذوف.

(فإنّه ليس من فرائض الله) ـ إلى قوله: **(أشدّ عليه اجتماعاً)** ـ إلخ، قال الشارح المعتزلي في (**ص ١٠٧ ج ١٧ طبع مصر**)، قال الرّاوندي: **(النّاس)** مبتدأ و**(أشدّ)** مبتدأ ثان **(ومن تعظيم الوفاء)** خبره، وهذا المبتدأ الثاني مع خبره خبر المبتدأ الأوّل ومحلّ الجملة نصب لأنها خبر **(ليس)** ومحلّ **(ليس)** مع اسمه وخبره رفع لأنّه خبر **(فإنّه)**، **(وشيء)**. اسم **(ليس)** **(ومن فرائض الله)** حال ولو تأخر لكان صفة لشيء والصّواب **(أنّ شيء)** اسم **(ليس)** وجاز ذلك وإن كان نكرة لاعتماده على النّفي **(ولأنّ)** الجار والمجرور قبله في موضع الحال كالصّفة، فتخصّص بذلك وقرب من المعرفة، **(والنّاس)** مبتدأ **(وأشدّ)** خبره، وهذه الجملة المركّبة من مبتدأ وخبر في موضع رفع لأنّها صفة شيء وأمّا خبر المبتدأ الذي هو **(شيء)** فمحذوف وتقديره **(في الوجود)** كما حذف الخبر في قولنا «لا إله إلاّ الله» أي في الوجود.

وليس يصحّ ما قال الرّاوندي من أنّ **(أشدّ)** مبتدأ ثان، و**(من تعظيم الوفاء)** خبره لأنَّ حرف الجرّ إذا كان خبراً لمبتدأ تعلّق بمحذوف، وهاهنا هو متعلّق بأشدّ نفسه، فكيف يكون خبراً عنه، وأيضاً فإنّه لا يجوز أن يكون **(أشدّ من تعظيم الوفاء)** خبراً عن **(النّاس)**، كما زعم الرّاوندي، لأنَّ ذلك كلام غير مفيد ألا ترى أنّك إذا أردت أن تخبر بهذا الكلام عن المبتدأ الذي هو **(النّاس)** لم يقم من ذلك صورة محصّلة تفيدك شيئاً، بل يكون كلاماً مضطرباً.

ويمكن أن يكون **(من فرائض الله)** في موضع رفع لأنه خبر المبتدأ وقد قدم عليه، ويكون موضع (النّاس) وما بعده رفع لأنّه خبراً لمبتدأ الذي هو **(شيء)**، كما قلناه أوّلاً، وليس يمتنع أيضاً أن يكون **(من فرائض الله)** منصوب الموضع لأنّه حال ويكون موضع **(النّاس أشدّ)** رفعاً لا خبراً لمبتدأ الذي هو **(شيء)**.

أقول: الوجه الصحيح في إعراب هذه الجملة أنَّ: **(من فرائض الله)** ظرف مستقرّ خبر ليس و**(شيء)** اسمه وكونه الخبر ظرفاً ومقدماً من مصحّحات الابتداء بالنّكرة، و**(الناس)** مبتدأ و**(أشدّ عليه اجتماعاً)** خبره و**(من تعظيم الوفاء)** مكمّل قوله **(أشدّ)** فإنَّ أفعل التفضيل يكمّل بالإضافة أو لفظة من، والجملة في محل حال أو صفة لقوله **(شيء)** وما ذكره الراوندي والشارح المعتزلي من الوجوه تكلّفات مستغنى عنها.

(دون المسلمين): ظرف مستقر في موضع الحال عن المشركين، **(لا تختلنّ)**: نهي مؤكّد من ختله يختله إذا خدعه وراوغه، **(فلا ادغال)**: لنفي الجنس والاسم مبني على الفتح ونفي جنس الادغال وما بعده كناية عن النّهي المؤكّد، **(وفضل عاقبته)**: عطف على قوله: **(انفراجه)**، **(وأن تحيط)**: فعل مضارع منصوب بأن المصدرية معطوف على قوله عليه السلام غدر أي

ومن أحاطة لله بك فيه طلبة، **(فلا تستقبل)**: الفاء فصيحة تفيد التفريع وهي الفاء الفصيحة.

المعنى

قد تعرَّض عليه السلام في هذا الفصل في الرَّوابط الحكوميّة الإسلاميّة الخارجيّة وحثَّ على رعاية الصلح وقبول الدّعوة إليه، وهذا الدَّستور ناشيء من جوهر الإسلام الذي كان شريعة الصّلح والسلام والأمن، فإنّه نهض بشعارين ذهبيّين وهو الإسلام والإيمان، والإسلام مأخوذ من السّلم، والإيمان مأخوذٌ من الأمن وهذان الشعاران اللذان نهض الإسلام بهما اعلام بأنَّ هذا الدّين داع إلى استقرار الصلح والأمن بين كافّة البشر، وقد نزلت في القرآن الشريف آيات محكمات تدعو إلى الصّلح واستتباب السّلام.

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

قال في مجمع البيان: وقرء في بعض الرّوايات عن عاصم السلام بكسر السّين وسكون اللاّم وقرأ الباقون السّلام بالألف، وروي عن أبي جعفر القاريء عن بعض الطّرق «لست مؤمناً» بفتح الميم الثانية، وحكى أبو القاسم البلخي أنّه قراءة محمّد بن علي الباقر عليه السلام - انتهى.

فجمع هذين القراءتين يصير **﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا﴾** فيكون صريحاً في المطلوب وموافقاً لقوله عليه السلام **(ولا تدفعنَّ صلحاً دعاك إليه عدوّك)**.

٢ - ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

٣ - ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨].

فقوله تعالى ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ جملة صارمة ذهبية مال إليها كلّ الشعوب في هذه العصور وآمنوا بها من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، فقد صار حفظ الصّلح والسّلام ديناً للبشر كافّة أسّسوا لحفظه والدعوة إليه مؤسّسة الأمم المتّحدة.

٤ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والسبب في ترغيب الإسلام في الصلح والسّلم، أنَّ الإسلام دين برهان وتفكير وشريعة

تبيان ودليل والاستفادة منها يحتاج إلى محيط سالم وطمأنينة والحرب المثيرة للأحقاد والتعصّبات منافية للتوجّه إلى البرهان والتعقّل في أيّ بيان، وقد نبّه عليه السلام إلى ما في الصّلح من الفوائد القيّمة فقال: **(فإنَّ في الصّلح)**:

١ ـ **دعة لجنودك)** فالحرب متعبة للأبدان منهكة للقوى، فيحتاج الجند إلى دعة واستراحة لتجديد القوى والاقتداء على مقاومة العدى.

٢ ـ **(وراحة من همومك)** فالحرب تحتاج إلى ترسيم خطّة صحيحة تؤدّي إلى الظّفر فإذا حمي الوطيس وأحمرّ الموقف من دم الأبطال وارتج الفضاء من العويل والويل لا يقدر القائد من التفكير وترسيم خطط ناجحة والصّلح يريحه من الهموم ويفتح أمامه فرصة الفكر وترسيم خطط للظفر بالعدوّ.

٣ ـ **(وأمناً لبلادك)** فالحرب تثير الضّغائن وتحرّض العدوّ على الاغارة في البلاد وسلب الأمن والرّاحة عن العباد.

ثمَّ نهى عليه السلام وحذّر عن الغفلة بعد الصّلح ووصّى أن يكون المسلمون دائماً على أهبة فطنا يقظاً من كيد الأعداء، لأنّ العدوّ إذا رأى التفوّق لعدوّه في الحرب وأيس من الغلبة عليه يلتجيء باقتراح الصّلح، ثمَّ لم يلبث أن يفكّر في الخديعة وطلب الظّفر بالمكر والدّهاء من شتّى النواحي ويقارب ليتمكن من درس نقاط الضعف وينتهز الفرصة للهجوم على عدوّه في موقع مقتض.

فالحرب خطة محيطة بالأخطار من شتّى النّواحي فلا بدّ من ملاحظة أيّ احتمال يؤدّي إلى ظفر العدوّ وإن كان ضعيفاً والفكر في معالجته وسدّه، كما أنه لما اصطفّ المسلمون مع قريش في أحد فكّر النّبي صلى الله عليه وآله في إمكان هجوم خيّالة قريش من وراء عسكر الإسلام ومحاصرتهم حتّى بعد انهزامهم، فوكّل عبد الله بن جبير في ستّين نفراً من رماة الإسلام على جبل الرّماة ووصّاهم بالمقام هناك وحفظ خلف صفوف المسلمين وأكّد لهم مزيد التأكيد ووعدهم بمزيد من سهم الغنيمة.

ولمّا انهزم المشركون في الهجوم الأوّل لجيش الإسلام وشرعوا بالفرار غرّ أصحاب عبد الله ولم يطيعوه وأخلّوا مقامهم، فانتهز خالد بن وليد قائد خيّالة قريش هذه الفرصة ودار بالخيّالة وراء صفوف المسلمين وحاصرهم فوقع الانهزام في صفوف المسلمين وقتل أكثر من سبعين من أبطال الإسلام وأُصيب النبيُّ صلى الله عليه وآله بجراحات عظيمة كاد أن يقضي عليه لولا نصر الله وتأييده.

والصّلح دورة ينضب شعلة الحرب تحت الرّماد فلا بدّ من الحذر واليقظة التامّة من

مكائد العدوّ الكاسر بأسنانه الحاقد بقلبه.

وقد تقدّم الإسلام في أيام بني عثمان تقدّماً ظاهراً في أوروبا حتّى حاصر جيش الإسلام بلدة وينه ولكن لما وقع عقد الصلح بين زعماء أوروبا وبني عثمان كادوا ودبّروا حتى استولوا على متصرفاته وأرجعوا سلطة الإسلام الرّهيبة قهقري وشرعوا في ترسيم خطط لإغفال المسلمين وتنويمهم بشتّى الوسائل حتّى غلبوا في القرن الثامن عشر وبعده على كافّة نواحي الإسلام وفتحوا بلاد الإسلام فتحاً اقتصادياً لا نظير له من قبل وحازوا كل منابع ثروة المسلمين من المعادن، وحوّلوا بلادهم إلى أسواق تجارية لهم وكبّلوهم برؤوس الأموال الهائلة وسخّروهم من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ودامت سلطتهم على أغلب المسلمين وأغلب بلادهم إلى عصرنا هذا، فيالها من مصيبة سبّبت إغواء شباب الإسلام وانحرافهم عن الإسلام.

زعم العواذل أنّني في غمرة ... صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

فلا بدّ من الأخذ بالحزم وطرد حسن الظنّ تجاه العدوّ سواء في حالة الحرب أو الصّلح، والصّلح مع العدوّ غالباً ينتهي إلى عقد قرار بشروط معيّن فتوجّه عليه السلام إلى ذلك ووصّى فيه بأمرين:

١ ـ أمر بالوفاء بالعهد والذمّة وفاء كاملاً يحوط به من كلّ ناحية ورعاية الذمّة إلى حيث يضحّي بنفسه في سبيل الوفاء ورعاية الذمّة مع أنها تنعقد مع غير المسلم، وأشار إلى أن الوفاء بالعهد فريضة إلهيّة يجب رعايتها والالتزام بها ووديعة بشريّة اتفقت الشعوب والملل راقيها ومتأخّرها على الالتزام بها حتّي المشركين المنكرين للدّين، حيث أنهم يخافون من عاقبة الغدر، فيقول عليه السلام: **(فلا تغدرنّ بذمتك ولا تخيسنّ بعهدك، ولا تختلنّ عدوّك)** لأنّ الغدر ونقض العهد والمخادعة بعد التعهّد ظلم ولو كان الطّرف كافراً ولا يرتكبه إلاّ جاهل شقيّ.

ونبّه على أن اتفاق بني الإنسان على رعاية العهود والذّمم نظام إلهي وإلهام فطري أوحى إليهم من حيث لا يشعرون لحفظ الأمن والنظام اللازم لبقاء البشر فهو رحمة الله التي فاضت في كافّة العباد كالرزق المقدر لهم ليسكنوا إلى منعة حريمها وينتشروا في جوارها وراء مآربهم ومكاسبهم.

٢ ـ أمره بالسّعي في صراحة ألفاظ المعاهدة ووضوح النّصوص المندرجة فيها بحيث لا تكون ألفاظها وجملها مبهمة ومجملة، قابلة للترديد والتأويل، ونهى عن التمسّك بخلاف ظاهر ألفاظ المعاهدة بعد التأكيد والتوثيق لنقضها إذا طرء الصّعوبة على إجرائها، وقال عليه السلام **(ولا يدعونّك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحقّ)** وعلّله عليه السلام بأنّ

الصّبر على الصّعوبة النّاشئة من الوفاء بالعهد متعقّب بالفرج وحسن العاقبة وهو خير من الغدر الذي يخاف تبعته بانتقام من نقض عهده في الدُّنيا وبعقوبة الله على نقض العهد المنهيّ عنه في غير آية من القرآن في الآخرة.

وممّا ينبغي تذكّره هنا ما وقع لرسول الله ﷺ في معاهدة حديبيّة مع قريش، قال ابن هشام في سيرته **(ص ٢١٦ ج ٢ ط مصر)**.

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمران إذا جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ حين خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلمّا رأوا ما رأوا من الصّلح والرّجوع وما تحمّل عليه رسول الله ﷺ في نفسه دخل على النّاس من ذلك أمر عظيم حتّى كادوا يهلكون، فلمّا رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه، ثمّ قال: يا محمد قد لجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت فجعل بتلبيبه ويجرّه ليردّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأردّ إلى المشركين يفتنونني في ديني فراد النّاس إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ يا أبا جندل أصبر واحتسب فإنَّ الله عاجل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم، قال: فوثب عمر بن الخطّاب، انتهى[1].

وأنت ترى ما وقع فيه رسول الله ﷺ من الحرج والمشقّة في الوفاء بالعهد الذي عقده مع قريش ولكن دام عليه حتّى فرّج الله عنه أحسن فرج.

الترجمة

محققاً صلحى كه از دشمن بدان دعوت شدى رد مكن در صورتى كه خداپسند باشد، زيرا در صلح با دشمن آرامش خاطر لشكريان تو است و مايه آسايش تو از همّ و هول است و وسيله آسايش شهرستانها است، ولى بايد پس از صلح بسيار از دشمن درحذر باشى، زيرا بسا كه دشمن، نزديك و دمخور مى شود تا دشمن را

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٢١١، وتاريخ الطبري: ٢/٢٨٢.

غافلگیر کند. دوراندیشی را پیشه کن و خوش بینی را کنار بگذار. و اگر میان خود و دشمنت قراردادی بستی یا او را در پناه خود گرفتی، تعهد خود را از همه جهت وفا کن و ذمّه پناه بخشی خود را رعایت نما و جان خود را سپر آن عهدی ساز که سپردی، زیرا در میان واجبات خداوند چیزی نیست که همه مردم با تفرقه در اهواء و تشتت در آراء سخت تر در آن اتفاق داشته باشند از تعظیم و بزرگداشت وفا به تعهّدات.

تا آن جا که مشرکان و بت پرستان هم که مسلمانی ندارند آن را بر خود لازم می شمارند، برای آن که عواقب نقض تعهد را نکبت بار می دانند، به تعهد پناه بخشی خود غدر مکن و عهد خود را مشکن و دشمن خود را گول مزن، زیرا دلیری و گستاخی بر خدا را مرتکب نشود مگر نادان بدبخت.

خداوند تعهد و ذمّه پناه بخشی را مایه آسایش ساخته که میان بندگان خود از هر کیش و ملّت پراکنده و آن را بست و دژ محکمی مقرر کرده که در سایه آن بیارامند و در پناه آن به دنبال انجام کارهای خود بگرایند، دغلی و تدلیس و فریب و خدعه را در آن راهی نیست.

قراردادی منعقد نکن که عبارات آن مبهم باشد و خلل در آن راه یابد و به کنایه و اشاره در عقد قرار داد مؤکد و مورد وثوق اعتماد مکن و اگر برای اجرای برخی مواد قرار داد در فشار افتادی، امر خدا تو را به اجرای آن ملزم ساخته در مقام برنیا که به ناحق راه فسخ آن را جستجو کنی، زیرا شکیبایی تو بر تحمل فشار اجرای تعهد با امید به این که دنبالش گشایش است و سرانجامش خوب است بهتر است از عهدشکنی که بیم از عواقب ناهنجارش داری و از این که از جانب خداوند درباره آن مورد مسؤولیت قرار بگیری و خدا از تو نگذرد نه در دنیا و نه در آخرت.

الفصل الخامس عشر من عهده عليه السلام

إيّاكَ وَالدِّماءَ وَسَفْكَها بِغَيْرِ حِلِّها، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أدْعى لِنِقْمَةٍ، وَلا أعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلا أحْرى بِزَوالِ نِعْمَةٍ، وَانْقِطاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدِّماءِ بِغَيْرِ حَقِّها، وَٱللَّهُ سُبْحانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ ٱلْعِبادِ فيما تَسافَكُوا مِنَ الدِّماءِ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ، فَلا تُقَوِّيَنَّ سُلْطانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرامٍ، فَإِنَّ ذلِكَ مِمّا يُضْعِفُهُ وَيوهِنُهُ بَلْ يُزيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَلا عِنْدي في قَتْلِ ٱلْعَمْدِ، لأنَّ فيهِ قَوَدَ ٱلْبَدَنِ، وَإنِ ٱبْتُليتَ بِخَطإٍ وَأفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أوْ سَيْفُكَ أو يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ فَإِنَّ في ٱلْوَكْزَةِ فما فَوْقَها مَقْتَلَةً فَلا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطانِكَ عَنْ أنْ تُؤَدِّيَ إلى أوْلِياءِ ٱلْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

وَإيّاكَ وَالإعْجابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِما يُعْجِبُكَ مِنْها، وَحُبَّ الإطْراءِ، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطانِ في نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ ما يَكُونُ مِنْ إحْسانِ الْمُحْسِنينَ.

وَإيّاكَ وَٱلْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإحْسانِكَ، أوِ التَّزَيُّدَ فيما كانَ مِنْ فِعْلِكَ، أوْ أنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ ٱلْمَنَّ يُبْطِلُ الإحْسانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ ٱلْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنّاسِ، قالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣].

وَإيّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالأمُورِ قَبْلَ أوانِها، أوِ التَّسَقُّطَ [ٱلتَّساقُطَ] فيها عِنْدَ إمْكانِها، أوِ ٱللَّجاجَةَ فيها إذا تَنَكَّرَتْ، أوِ ٱلْوَهْنَ عَنْها إذا ٱسْتَوْضَحَتْ، فَضَعْ كُلَّ أمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.

وَإيّاكَ وَالإسْتِئْثارَ بِمَا النّاسُ فيهِ أُسْوَةٌ، والتَّغابِي عَمّا تُعْنى بِهِ مِمّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمّا قَليلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أغْطِيَةُ الأمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنكَ لِلْمَظْلُومِ. ٱمْلِكْ حَمِيَّةَ أنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسانِكَ وَٱحْتَرِسْ مِن كُلِّ ذلِكَ بِكَفِّ ٱلْبادِرَةِ، وَتَأْخيرِ السَّطْوَةِ، حَتّىٰ يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الإخْتِيارَ، وَلَنْ تَحْكُمَ ذلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ ٱلْمَعادِ إلى رَبِّكَ.

وَٱلْواجِبُ عَلَيْكَ أنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عادِلَةٍ، أوْ سُنَّةٍ فاضِلَةٍ، أوْ أثَرٍ عَن نَبِيِّنا ﷺ أوْ فَريضَةٍ في كِتابِ اللَّهِ، فَتَقْتَدِي بِما شاهَدْتَ مِمّا عَمِلْنا بِهِ فيها، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ في ٱتِّباعِ ما عَهِدْتُ إلَيْكَ في عَهْدي هذا، وَٱسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسي عَلَيْكَ لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إلى هَواهَا. فَبِذلِكَ أخْتِمُ لَكَ بِما عَهِدْتُ، وَلاَ حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاّ بِاللَّهِ ٱلْعَلِيِّ الْعَظِيمِ][1].

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٢٦٥، ونهج السعادة: ٥/ ١٢٣.

اللغة

(قود): القود بالتحريك: القصاص، يقال: أقدت القاتل بالقتيل: قتلته به وبابه قال **(الوكزة)**: وكزه: ضربه ودفعه، ويقال: وكزه أي ضربه بجميع يده على ذقنه، وأصابه بوكزة أي بطعنة وضربة، **(نخوة)**: في الحديث إنَّ الله أذهب بالإسلام نخوة الجاهليّة بالفتح فالسّكون أي افتخارها وتعظّمها، **(الفرصة)**: النوبة، والممكن من الأمر، **(يمحق)** يقال: محقه محقاً من باب نفعه: نقصه وأذهب منه البركة، وقيل: المحق ذهاب الشيء كلّه حتّى لا يرى له أثر، **(التزيّد)**: تفعّل من الزيادة أي احتساب العمل أزيد مما يكون، **(المقت)**: البغض، **(لجّ)** في الأمر لجاجة إذا لازم الشيء وواظبه من باب ضرب، **(الأسوة)**: المساواة، **(التغابي)**: التغافل، **(سورة)** الرّجل: سطوته وحدّة بأسه، **(غرب)**: اللسان: حدّته، **(البادرة)**: سرعة السّطوة والعقوبة.

الإعراب

(إيّاك): منصوب على التحذير، **(والدّماء)**: منصوب على التحذير والتقدير اتّق نفسك واحذر الدّماء وسفكها، **(ممّا يضعفه)**: (من) للتبعيض، **(لا)** عذر لنفي الجنس والخبر محذوف، **(في نفسه)**: جار ومجرور متعلق بقوله: **(أوثق)**، **(مقتا)**: منصوب على التميز، **(بما الناس)**، **(ما)** موصولة أو موصوفة، والجملة بعدها صفة أو صلة، وفيه متعلّق بقوله **(أسوة)**، **(بكفّ البادرة)**: مصدر مضاف إلى المفعول من المبني للمفعول.

المعنى

قد تعرَّض عليه السلام في هذا الفصل للتّوصيات الأخلاقيّة بالنسبة إلى الوالي نفسه ليكون أسوة لعمّاله أوّلاً ولكافّة الرّعيّة نتيجةً، فتوجّه إلى التّعليم الأخلاقي كطبيب روحاني ما أشدّه في حذقه ومهارته فإنّه عليه السلام وضع إصبعه على أصعب الأمراض الأخلاقيّة والجنائية التي ابتلت بها الأمّة العربيّة في الجاهليّة العمياء التي ظلّت عليها قروناً وسعت في معالجتها والتحذير عنها وبيان مضارّها كدواء ناجع ناجح في معالجتها فشرع في ذلك الفصل بقوله عليه السلام.

(إيّاك والدّماء وسفكها) كانت العرب في الجاهليّة غريقة في الحروب والمشاحنات، وعريقة في سفك الدّماء البريئات، فكانت تحمل سلاحها وتخرج من كمينها للصّيد فيهدف أيّ دابّة تلقاها وحشيّة كانت أم أهليّة بهيمة كانت أم نسمة، تعيش بالصّيد وتشبع منها وتسدّ جوعتها، وإذا كان صيدها إنساناً يزيده شغفاً وسروراً، لأنه ينال بسلبه ومتاعه فانقلبت إلى أمّة سفّاكة تلذّ من قتل النّفوس ويزيدها نشاطاً إذا كان المقتول رجلاً شريفاً وبطلاً فارساً فتفتخر

بسفك دمه وتنظم عليه الأشعار الرّائقة المهيّجة وترنّمها وتغنّي بها في حفلاتها.

وجاء الإسلام مبشّراً بشعار الإيمان والأمن ولكن ما لبث أن ابتلى بالهجومات الحادّة التي ألجأه إلى تشريع الجهاد، فاشتغل العرب المسلمون بقتل النفوس في ميادين الجهاد حقًّا في الجهاد المشروع وباطلاً في شتّى المناضلات التي أثارها المنافقون فيما بينهم بعض مع بعض أو مع الفئة الحقّة حتّى ظهر في الإسلام حروب دمويّة هائلة تعدّ القتلى فيها بعشرات الألوف كحرب جمل وصفّين.

فزاد المسلمون العرب السّادة في الجزيرة وما فتحوه من البلاد الواسعة الأُلفة بمص الدّماء وسفكها حتّى سقطت حرمة الإنسان في نظرهم وسهل عليهم أمر سفك الدّماء لا يفرّقون بين ذبح شاة وبين ذبح إنسان.

وهذا الدّاء العضال مهمّة للتعليمات الإسلاميّة من الوجهه الأخلاقيّة منذ بعثة النبيّ ﷺ.

فنزلت في القرآن الشريف آيات محكمة صارمة في تحريم سفك الدّماء فبيّن الاعتراض عليه من لسان الملائكة العظام حين إعلام خلق آدم فقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وتلاها بنقل قصّة ابني آدم الذي قتل أحدهما الآخر فأبلغ في تشنيع ارتكاب القتل إلى حدّ الاعجاز، ثمّ صرّح بالمنع في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]، وفرض في ارتكاب قتل الخطأ كفّارة عظيمة، فقال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢] ثمّ قرّر عقوبة لا تتحمّل في قتل المؤمن عمداً فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

وأكّد النبيُّ في المنع عن قتل الخطأ باشتراك العاقلة في هذا الجريمة المعفوّة عن العقوبة الأُخروية لكونها غير اختيارية من حيث النيّة فحمّلهم الدية وأعلن أنَّ حرمة المؤمن كحرمة الكعبة باعتبار أنَّ حرمة الكعبة راسخة في قلوب العرب وعقيدتهم إلى النهاية.

وقد نبّه عليه السلام إلى تبعات سفك الدم بما يلي:

١ ـ **(فإنّه ليس شيء أدعى لنقمة)** في نظر أولياء المقتول وعامّة الناس وعند الله.

٢ ـ **(ولا أعظم لتبعة)** في الدنيا بالانتقام من ذوي أرحام المقتول وأحبّائه وبالقصاص المقرّر في الإسلام.

٣ ـ **(ولا أحرى بزوال نعمة)** وأهمّها زوال الطمأنينة عن وجدان القاتل وابتلائه بالاضطراب الفكري وعذاب الوجدان.

٤ ـ **(وانقطاع مدّة)** سواء كان مدّة الشباب فيسرع المشيب إلى القاتل أو الرتبة الاجتماعيّة والمدنيّة فتسقط عند الناس وعند الأمراء، أو العمر فيقصر عمر القاتل.

٥ ـ أنّه أوّل ما يقضي الله به يومَ القيامة، فتحلّ أوّل عقوبة الآخرة بالقاتل.

٦ ـ انتاجه عكس ما يروم القاتل من ارتكابه، فيضعف سلطنته ويوهنها إن قصد به تقوية سلطانه بل يزيلها وينقلها.

٧ ـ إنّه لا يقبل الاعتذار والخلاص من عقوبته إن كان عمداً.

٨ ـ أدائه إلى القود المفني للبدن والمزيل للحياة.

ثمَّ بيّن عليه السلام أنّه إن كان خطأً فلا بدَّ من الانقياد لأولياء المقتول بأداء الدية من دون مسامحة واعتزاز بمقام الولاية، ونبّه إلى الاحتياط في الضرب والإيلام وإلى كظم الغيظ عند المكاره فإنّه ربما يصير الوكزة باليد سبباً للقتل.

قال في الشرح المعتزلي: في شرح قتل الخطأ **(ص ٢١٢ ج ١٧ ط مصر)**: وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة، فقال أبو حنيفة وأصحابه: القتل على خمسة أوجه: عمد، وشبه عمد، وخطأ، وما أجري مجرى الخطأ، وقتل بسبب:

فالعمد ما يُتعمّد به ضرب الإنسان بسلاح، أو ما يجرى مجرى السلاح كالمحدَّد من الخشب وليطة القصب «وهي قشر القصب اللازق به» والمروة «وهي الحجر الأبيض البرّاق» المحدَّدة، والنار، ويوجب ذلك المأثم والقود إلاّ أن يعفو الأولياء، ولا كفّارة فيه.

وشبه العمد أن يتعمّد الضرب بما ليس بسلاح وأجرى مجرى السلاح كالحجر العظيم والخشبة العظيمة، ويوجب ذلك المأثم والكفّارة، ولا قود فيه، وفيه الدية مغلّظة على العاقلة.

والخطأ على وجهين: خطأ في القصد، وهو أن يرمي شخصاً يظنّه صيداً، فإذا هو آدمي، وخطأ في الفعل، وهو أن يرمي غرضاً فيصيب آدميًا، ويوجب النوعان جميعاً الكفّارة والدية على العاقلة، ولا مأثم فيه.

وما أُجري مجرى الخطأ، مثل النائم يتقلّب على رجل فيقتله، فحكمه حكم الخطأ.

وأمّا القتل بسبب، فحافر البئر وواضع الحجر في غير ملكه، وموجبه إذا تلف فيه إنسان الدية على العاقلة، ولا كفّارة فيه.

فهذا قول أبي حنيفة ومن تابعه، وقد خالفه صاحباه أبو يوسف ومحّمد في شبه العمد، وقالا: إذا ضربه بحجر عظيم، أو خشبة غليظة فهو عمد، قال: وشبه العمد أن يتعمد ضربه

بما لا يقتل به غالباً، كالعصا الصغير، والسوط، وبهذا القول قال الشافعي.

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنَّ المؤدِّب من الولاة إذا تلف تحت يده إنسان في التأديب فعليه الدية، وقال لي قوم من فقهاء الإماميّة: إنَّ مذهبنا أن لا دية عليه، وهو خلاف ما يقتضيه كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

أقول: ليس في كلامه عليه السلام أنَّ الضرب كان للتأديب كما قيّده به في كلامه بل الظاهر خلافه وأنّه عليه السلام بيّن حكم العنوان الذاتي الأوّلي للضرب ولا ينافي ذلك سقوطه بعنوانه الثانوي كما إذا كان للتأديب أو الدفاع.

وقال المحقّق[1] ـ رحمه الله ـ في الشرائع: القتل إمّا عمد، وإمّا شبه العمد وإمّا خطأ محض، فضابطة العمد أن يكون عامداً في فعله وقصده، وشبه العمد أن يكون عامداً في فعله مخطئاً في قصده، والخطأ المحض أن يكون مخطئاً فيهما[2] ـ انتهى.

قسّم القتل إلى هذه الأقسام الثلاثة، ثمَّ فرَّع بعد ذلك فروعاً كثيرة في موجبات الضمان الملحق بقتل الخطأ أو شبه العمد، ومع ملاحظة الفروع التي تعرَّض فيها لأنواع الضمانات في هذا الباب لا يظهر منا كثير خلاف مع ما ذكره الشارح المعتزلي من فقهاء العامّة، ولا يسع المقام تفصيل ذلك.

ثمَّ حذَّر عن الاعجاب بالنفس والاعتماد على ما يصدر منه من محاسن الأعمال في نظره، والإعجاب بالنفس موجب للنخوة والغرور التي كانت من أمراض العرب الجاهلي وأدّاه إلى الاعتقاد بالتبعيض العنصري والتمسّك بأنَّ عنصره وجرثومته القبلي أشرف العناصر، فالعرب مع ضيق معاشه وحرمانه عن أكثر شؤون الحياة السعيدة وموجبات الرفاه في المعيشة وتقلّبه في رمال الصحراء وحرِّ الرمضاء يرى نفسه أشرف البشر وأفضل من سلف وغبر. فيأنف من الارتباط الأخوي مع بني ـ نوعه والتبادل الانتفاعي بالزواج، وقد يأنف من أخذ العطاء مع حاجته وفقره.

وقد تمكّن في عقيدته هذا الامتياز العنصري حتّى بالنسبة إلى بني قبائله العرب فضلاً عن غيرها، كما حكى عن الأصمعي أنّه مرَّ على شابّ عريان، في رحلته بين القبائل العربيّة لاستقصاء اللغة والأقاصيص العربيّة، فاستنطقه فأجابه بأبيات فصيحة أعجبه فأعطاه دنانير،

---

(١) المحقق أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن، وهو المعروف بالمحقق الحلي صاحب شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام. (المصحح).

(٢) شرائع الإسلام ج٢ ص: ١٠١٢ (الطبعة الأولى). (المصحح).

فسأل منه الشابّ عن أيِّ قبيلة هو؟ فقال: من باهلة، فامتنع من أخذ العطاء لخسّة قبيلة باهلة عند العرب حتّى قيل في ذلك:

إذا باهليّ تحته حنظليّة له ولد منها، فذاك المذرّع

أراد الشارع أنّه إذا كانت الزوجة للزوج الباهلي حنظليّة يصير الولد مذرّعاً أي شريفة الأمّ ووضيع الأب.

ولمّا بعث الله نبيّه محمّداً ﷺ رحمةً للعالمين، مهمّة هدفين هامّين في دعوته الإصلاحيّة:

١ ـ بثّ التوحيد وهداية البشر إلى عبادة الله وحده تحت شعار «لا إله إلاّ الله» وردعهم عن عبادة الأصنام والأنداد الذين لا ينفعون ولا يضرّون.

٢ ـ إلفات البشر إلى أخوّة إنسانيّة ورفع التبعيض العنصري بأدقّ معانيه ومحو الامتيازات الموهومة بوجه جذري، فبثَّ دعوة التوحيد بكلِّ جهدٍ وجهود حتّى لبّى دعوته أُناس مخلصون. وأيّده الله بنصرة قبائل عرب يثرب فهاجر إلى المدينة وأسّس حكومة الإسلام النيّرة، فاتّبعه قبائل العرب واحدة بعد أُخرى وفتح مكّة المكرّمة وأخضع قبائل قريش الأشدّاء في العناد مع الإسلام، وهم ذروة العرب وأشرف القبائل في عقيدة سائر العرب وفي اعتقادهم، نشأوا بهذه العقيدة منذ قرون حتّى رسخ في دماغهم ورسب في دمائهم ومصّوها من أُمّهاتهم.

ولمّا فتح مكّة على خطّة نبويّة أشبه بالإعجاز من دون سفك الدماء في الحرم وإيقاع الحرب المؤلمة وتبيّن سيادة الإسلام على أنحاءِ الجزيرة العربيّة وأجوائها الواسعة قام على الكعبة المكرَّمة، ونادى بهذين الهدفين الهامّين بكلِّ صراحة في خطبة ذهبيّة هاك نصّها عن سيرة ابن هشام:

قال ابن إسحاق: فحدَّثني بعض أهل العلم أنَّ رسول الله قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، صدق وعده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين إلاّ سدانة البيت، وسقاية الحاجّ، وقتل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلّظة: مائة من الإبل أربعون منها أولادها في بطونها، يا معشر قريش: إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثمَّ تلا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾» [الحجرات: ١٣].

ثمَّ قال: يا معشر قريش، ما ترون إنّي عامل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ

كريم، قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء»[(١)].

وفي بعض الروايات «وحده» ثلاث مرّات كما أنّه في بعضها بعد قوله «وآدم من تراب» ورد أنّه ﷺ قال: «وليس لعربي فضل على عجمي إلاّ بالتقوى»[(٢)].

ولكنّه لم يدُم هذه التربية النبويّة في العرب ولم يعتقد بها المنافقون فسكتوا حتّى توفّي ﷺ فرجعوا قهقرى وأحيوا تفاخر العرب بالآباء وتفضيل عنصرهم على سائر الناس وجدَّ في ذلك عمر واشتدَّ في ترويجه بنو أُميّة طول حكومتهم الجبّارة التي دامت ألف شهر وقد توجّه ﷺ إلى حرّيّة التناكح ونصَّ عليها في خطبة تاريخيّة هامّة ألقاها في حجّة الوداع.

وقد كان منشأ النخوة العربيّة التي روى فيها أنّها مهلكة للعرب هي العجب بالنفس وبما يأتي من الأعمال، فحذَّر عليه السلام من هذه الخصلة المهلكة أشدَّ تحذير وبالتحذير من حبِّ الاطراء الناشيء منه، وبيّن أنَّ ذلك من أوثق فرص الشيطان لإغواء الإنسان ومحق ما يفعله من الإحسان.

قال الشارح المعتزلي **(ص ١١٤ ج ١٧ ط مصر)**: ناظر المأمون محمّد بن القاسم النوشجاني المتكلم، فجعل «المتكلم» يصدِّقه ويطريه ويستحسن قوله، «فقال المأمون: يا محمّد، أراك تنقاد إلى ما تظنّ أنّه تسرُّني قبل وجوب الحجّة لي عليك، وتطريني بما لست أحبّ أن أطرى به، وتستخذي[(٣)] لي في المقام الذي ينبغي أن تكون فيه مقاوماً لي، ومحتجًّا عليّ، ولو شئت أن أُفسّر الأُمور بفضل بيان، وطول لسان، وأغتصب الحجّة بقوّة الخلافة، وأُبّهة الرياسة لصدَّقت وإن كنت كاذباً، وعدَّلت وإن كنت جائراً، وصوَّبت وإن كنت مخطئاً، لكنّي لا أرضى إلاّ بغلبة الحجّة، ودفع الشبهة، وإنَّ أنقص الملوك عقلاً، وأسخطهم رأياً من رضي بقولهم: صدق الأمير».

ثمَّ نبّه عليه السلام بالنهي عن ثلاثة أُمور: المنّ على الرعيّة بالإحسان والتزيّد في الأعمال والخلف في الوعد إلى التجنّب عن الإفراط في حبِّ النفس الذي يكون غريزة للإنسان بالذات، فإنّه أوّل ما يحسّ ويشعر، يحسّ بحبِّ نفسه وحبّ النفس مبدأ الرضا والغضب المحرِّكين لأيِّ حركة في الإنسان، والافراط فيه موجب لرذائل كثيرة أشار عليه السلام إلى أُمّهاتها في هذه الجمل.

---

(١) مجمع البيان: ١٠/ ٤٧٢، وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٧.
(٢) بحار الأنوار: ٧٣/ ٣٥٠، والغدير: ٦/ ١٨٧.
(٣) كذا وردت، ولعل المقصود «تستأخذ» أي استأخذ بمعنى استكان وطأطأ رأسه (من المصحح).

فمنها: المنّ على من يحسن إليه لأنّه إشعار بالأنانيّة وتبجّح بالشخصيّة من فرط الحبّ بالذات، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال الشارح المعتزلي **(ص ١١٥ ج ١٧ ط مصر)** وكان يقال: المنّ محبّة للنفس، مفسدة للصنع.

ومنها، التزيّد في الفعل الناشيء عن تعظيم نفسه، فيرى حقير عمله كبيراً وقليله كثيراً فيذهب بنور الحقّ لكونه كذباً وزوراً، قال الشارح المعتزلي في الصفحة الآنفة الذكر: مثل أن يسدي ثلاثة أجزاء من الجميل، فيدّعي في المجالس والمحافل أنّه أسدى عشرة.

ومنها، نهيه عن خلف الوعد مع الرعايا، فهو أيضاً ناشيء عن إكبار نفسه وتحقير الرعايا حيث إنّه لم يعتنِ بانتظارهم ولم يحترم تعهّدهم وخلاف الوعد وإن كان قبيحاً ومذموماً على وجه العموم ولكنّه من الأمراء والولاة بالنسبة إلى الرعيّة أقبح وأشنع، لاشتماله على العجب والكبر وتحقير طرف التعهّد، . وقد عدَّ الله خلف الوعد من المقت عنده البالغ في النهي عنه حيث قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣] فإنّه مشتمل على تكبير خلف الوعد من وجوه، قال الشارح المعتزلي **(ص ١١٥ ج ١٧ ط مصر)**: وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام قال: **(إنّه يوجب المقت)** واستشهد عليه بالآية، والمقت: البغض.

ثمَّ حذّره عن العجلة في الأمور، فإنّه ناشيء عن الجهل وخفّة العقل كما ترى في الصبيان وغير المثقفين من بني الإنسان، وقد روي «أنَّ العجلة من الشيطان»[1] والعجلة من الغرائز الكامنة في البشر من ناحية طبعه الحيواني كما قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

كما أنّه عليه السلام حذّر عن المسامحة والتساقط في الأمور إذا حان وقتها وتيسّرت، وعن الإصرار في إنجاحها إذا صعبت وتنكّرت ولم تتيسّر، أو الاغماض عنها إذ كشفت حقيقتها واتّضحت.

قال الشارح المعتزلي **(ص ١٦ ج ١٧ ط مصر)**: ومنها نهيه عن التساقط في الشيء الممكن عند حضوره، وهذا عبارة عن النهي عن الحرص والجشع، وفي كلامه ما لا يخفى من النظر.

ومن أسوء الأخلاق الحاكمة في رجود الإنسان خلق الاستئثار، وأثره أن يجلب كلَّ

(١) مفردات غريب القرآن: ٤٧٦، وتاريخ العروس: ٣٤٩/١٠.

شيء إلى نفسه ويخصّص كلّ ما يناله بنفسه فيتجاوز على حقوق إخوانه ويمنع الحقوق المتعلّقة بماله، والاستئثار طبيعي للإنسان المحبّ لذاته بلا نهاية ويؤيّده الجهل والحاجة السائدين على العرب طيلة قرون الجاهليّة، فنهى عليه السلام عنه فيما يشترك فيه الناس.

ونهاه عن الغفلة والتسامح فيما تهمّه وترتبط به من نظم الأُمور وبسط العدل حيث يقبح أمثاله في عيون الناس، فإنَّ التسامح في أخذ حقّ المظلوم عن الظالم مأخوذ من الوالي بنفع غيره وهو الظالم، قال الشارح المعتزلي في الصفحة الآنفة الذكر: وصورة ذلك أنَّ الأمير يومي إليه أنَّ فلاناً ما خاصّته يفعل كذا ويفعل كذا من الأُمور المنكرة، ويرتكبها سرًّا فيتغابى عنه ويتغافل، انتهى.

ونهاه عن الاستكبار والبطش اللذين[1] من آثار الإمارة والسلطان، فإنَّ السلطان بطبعه سريع الغضب وشديد الانتقام والحكم على من أساء إليه فوصّاه بقوله عليه السلام **(ولن تحكم ذلك من نفسك حتّى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربّك)**.

قال الشارح المعتزلي في **(ص ١١٧ ج ١٧ ط مصر)**: وكان لكسرى أنوشروان صاحب قد رتّبه ونصبه لهذا المعنى، يقف على رأس الملك يوم جلوسه، فإذا غضب على إنسان وأمر به قرع سلسلة تاجه بقضيب في يده وقال له: إنّما أنت بشر، فارحم من في الأرض يرحمك من في السماء.

ثمَّ بيّن له المرجع القانوني الذي يجب عليه العمل به في حكومته، كما يلي:

١ ـ السيرة العمليّة للحاكم العادل الذي كان قبله، فإنّها محترمة ومرضيّة عند الله وعند الناس.

٢ ـ السنّة المأثورة الفاضلة الصادرة عن النبي صلى الله عليه وآله بنقل الجماعات أو الثقات.

٣ ـ الفرائض المقرَّرة في كتاب الله في محكم آياته، وشرط عليه في العمل بها بما شاهد من عمله وتطبيق القوانين على موضوعاتها ليأمن من الاشتباه في التفسير وفهم المقصود ومن الخطأ في التطبيق، وهاهنا بحثان:

١ ـ كيف جعل عليه السلام سيرة الحكومة العادلة أصلاً في مقابل السيرة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وهو أشبه بأصول العامّة.

٢ ـ كيف قدَّم سيرة الحكومة العادلة على السيرة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وقدَّمهما على الفريضة المنصوصة في كتاب الله والخوض فيهما يحتاج إلى إطالةٍ لا يسعها المقام.

---

(١) كذا، والأنسب قول اللذين هما من آثار... (من المصحح).

الترجمة

از خون و خونریزی ناروا بپرهیز، زیرا خون ناحق از همه چیز زودتر مورد انتقام می شود و گناهش بزرگتر است و نعمت را زودتر از میان می برد و ریشه عمر را قطع می کند، خداوند سبحان در روز قیامت محاکمه گنهکاران را درباره خونریزی های میان بندگان آغاز می کند.

حکومت خود را بهوسیله خون ناحق تقویت مکن، زیرا خونریزی ناروا آن را سست و متزلزل می سازد و سپس بنیادش را می کند و به دست دیگرانش می دهد؛ در نزد خدا و در نزد من، در قتل عمد راه عذر و امید عفو نداری، زیرا کیفر مقرر آن قصاص است.

و اگر گرفتار قتل خطا شدی و تازیانه یا شمشیر و یا دستت بدون قصد قتل، زیاده روی کردند و کسی را کشتی (چون ممکن است به يك مشت محکم و بالاتر قتلی واقع شود)، مبادا غرور سلطنت تورا باز دارد از این که حق اولیای مقتول را بپردازی و رضایت آنها را جلب کنی.

مبادا به خود ببالی و به سرافرازی های خود اعتماد کنی.

مبادا تملّق و ستایش را دوست بداری، زیرا که آن در نزد شیطان مناسبترین فرصتی است برای پایمال کردن هر نتیجه ای از نیکی نیکوکاران. مبادا به احسان خود نسبت به رعایا بر سر آنها منّت بگذاری یا کار خود را بیش از آن چه که هست در حساب آنها آری یا به آنها وعده ای بدهی و تخلّف کنی، زیرا منّت، احسان را نابود می کند و بیشتر به حساب آوردن خدمتی، نور حقیقت را می برد و خلف وعده نزد خداوند و مردم، دشمنی به بار می آورد. خداوند متعال (در سوره صف آیه ۳) می فرماید: "دشمنی بزرگی است نزد خدا که بگویید آن چه را عمل نمی کنید".

مبادا در کارهای خود بیوقت شتاب کنی یا در وقت مناسب سستی و تنبلی کنی یا اگر متعذّر و دشوار شد، درباره آن اصرار و لجبازی کنی و در صورت روشنی

زمینه کاری، در آن مسامحه روا داری. هر کاری را به جای خود مقرر دار. مبادا از آن چه همه مردم در آن برابر و شریکند برای خود امتیازی قایل شوی یا از آن چه در برابر چشم همه است صرف نظر کنی و در تخلّف وظایف دستگاه، خود را به نفهمی بزنی، زیرا مسئولیّت بر تو است و سود را دیگران می برند و به زودی پرده از کارها برداشته می شود و انتقام مظلوم از ظالم گرفته می شود.

باد بینی و شراره تندی و ضرب دست و تیزی زبان خود را مهار کن و در جلوگیری از زبان خود و پس زدن سطوت و تندی بکوش تا خشمت فرونشیند و اختیار خود را به دست آری و قضاوتی مکن تا بسیار متوجّه معاد و قیامت و پروردگار خود نگردی و حق را رهنمون نسازی.

بر تو لازم است که روش حکومت های عدالت شعار پیش از خود را در نظر بگیری و روش نیك و اثری که از پیغمبر (ﷺ) باقی مانده منظور سازی و فریضه ای که در قرآن خدا مقرر شده پیش چشم گذاری و چنانچه به چشم خود دیدی ما آن را مورد عمل و اجراء نموده ایم، از آن پیروی کنی.

باید برای خود بکوشی در پیروی این فرمانی که من برای تو صادر کردم و حجّت خود را در آن به تو تمام نمودم تا در صورتی که هوای نفس بر تو چیره شد، عذری نداشته باشی.

خاتمة عهده عليه السلام

وَأَنَا أَسْأَلُ اللّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلى إِعْطاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ [رَغِيبَةٍ] أَنْ يُوَفِّقَني وَإِيّاكَ لِما فيهِ رِضاهُ مِنَ الإقامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْواضِحِ إِلَيْهِ وَإِلى خَلْقِهِ، مَعَ حُسْنِ الثَّناءِ في الْعِبادِ، وَجَميلِ الأثَرِ في الْبِلادِ، وَتَمامِ النِّعْمَةِ، وَتَضْعيفِ الْكَرامَةِ وَأَنْ يَخْتِمَ لي وَلَكَ بِالسَّعادَةِ وَالشَّهادَةِ، إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ [راغِبُونَ]، وَالسَّلامُ عَلى رَسولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله الطَّيِّبينَ الطاهِرينَ [وَسَلَّمَ تَسْليماً كَثيراً][1].

الإعراب

قال الشارح المعتزلي: فإن قلت: فقوله **(وتمام النعمة)** على ماذا تعطفه؟ قلت: هو معطوف على **(ما)** في قوله **(لما فيه)** كأنّه قال: أسأل الله توفيقي لذا ولتمام النعمة.

أقول: الأوضح عطفه على **(الإقامة)** في قوله **(من الإقامة)** لأنَّ تمام النعمة وما بعده ممّا فيه رضاه، وأن يختم لي: عطف على قوله **(أن يوفقني)**.

المعنى

قد نبَّه عليه السلام أنَّ للوالي مسؤوليّة عند الله ومسؤوليّة عند الناس، ولا بدَّ له من الاجتهاد في الخروج عن كلتا المسؤوليّتين حتّى يعذره الله ويعذره خلق الله، وعلامته حسن الثناء من العباد وجميل الأثر في البلاد، من الجانب الخلقي، وتمام النعمة وتضعيف الكرامة من جانب الله، لأنّه أثر شكر نعمة الولاية الذي أدّاه الوالي.

ثمَّ سأل الله تعالى لنفسه وله نيل السعادة وفوز الشهادة، وقد استجاب الله ذلك لهما.

الترجمة

من از خداوند خواستارم كه به رحمت واسعه و عظمت قدرتش بر بخشش هر خواست، مرا و تورا توفيق عطا فرمايد براى انجام آن چه رضاى او است از پايدارى بر معذرت خواهى روشن نزد خدا و خلق، به همراه ستايش خوب در ميان بندگان و اثر نيك در آبادى و عمران شهرستانها و تمامى نعمت و دو چندانى كرامت از حضرت يزدان و از حضرتش خواستارم عمر من و تو را به پايان رساند با سعادت و توفيق جانبازى و شهادت، راستى كه ما همه را به درگاه او گرايش و

(١) تحف العقول: ١٤٩، ومستدرك الوسائل: ١٣/ ١٧٢.

رغبت است.

درود فراوان بر فرستاده خداوند و صلوات بر او و خاندان پاك و پاكيزه اش، درودى هر چه بيشتر.

وقد أدرج الشارح المعتزلي في آخر شرح هذا العهد الشريف وصايا من العرب وأردفها بوصيّة من أردشير بن بابك مليئة بحكم مفيدة يؤيّد ما ذكره عليه السلام في هذا العهد فألتقط منها قطعاً، قال في **(ص ١٢٤ ج ١٧ ط مصر)**:

ومن كتاب أردشير بن بابك إلى بنيه والملوك من بعده:

رشاد الوالي خير للرعيّة من خصب الزمان، الملك والدين توأمان، لاقوام لأحدهما إلاّ بصاحبه، فالدين أُسُّ الملك وعماده، ثمَّ صار الملك حارسَ الدين فلا بدَّ للملك من أسّه، ولا بدَّ للدين من حارسه، فأمّا ما لا حارس له فضائع وما لا أسَّ له فمهدوم...

واعلموا أنّه ليس ينبغي للملك أن يعرف للعبّاد والنسّاك بأن يكونوا أولى بالدين منه، ولا أحدب عليه، ولا أغضب له [ولا ينبغي له] أن يخلّي النسّاك والعبّاد من الأمر والنهي في نسكهم ودينهم فإنَّ خروج النسّاك وغيرهم من الأمر والنهي عيب على الملوك وعلى المملكة، وثلمة بيّنة الضرر على الملك وعلى من بعده.

واعلموا أنه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوك كان الملك منهم يتعهّد الحماية بالتفتيش والجماعة بالتفضيل بالاشغال، كتعهّده جسده بقصّ فضول الشعر والظفر، وغسل الدرن والغمر ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن، وقد كان من أُولئك الملوك من صحّة ملكه أحبّ إليه من صحّة جسده، فتتابعت تلك الأملاك بذلك كأنّه ملك واحد، وكأنَّ أرواحهم روح واحدة، يمكّن أوّلهم لآخرهم، ويصدّق آخرهم أوّلهم، يجتمع أبناء أسلافهم، ومواريث آرائهم، وعثرات عقولهم عند الباقي بعدهم، وكأنّهم جلوس معه يحدّثونه ويشاورونه. حتّى كان على رأس دارا بن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرومي على ما غلب عليه من ملكه، وكان إفساده أمرنا، وتفرقته جماعتنا، وتخريبه عمران مملكتنا أبلغ له في ما أراد من سفك دمائنا، فلمّا أذن الله عزَّ وجلَّ في جمع مملكتنا، وإعادة أمرنا كان من بعثه إيّانا ما كان، وبالاعتبار يتّقى العثار، والتجارب الماضية دستور يرجع إليه من الحوادث الآتية...

وعند حسن الظنّ بالأيّام تحدث الغيَر، وتزول النعم، وقد كان من أسلافنا وقدماء ملوكنا من يذكّره عزّه الذلّ، وأمنه الخوف، وسروره الكآبة، وقدرته المعجزة، وذلك هو

الرجل الكامل قد جمع بهجة الملوك، وفكرة السوقة، ولا كمال إلاّ في جمعها...

واعلموا أنَّ بدء ذهاب الدَّولة ينشأ من قبل إهمال الرعيّة بغير أشغالٍ معروفة، ولا أعمالٍ معلومة، فإذا تولّد الفراغ تولّد منه النظر في الأمور، والفكر في الفروع والأُصول، فإذا نظروا في ذلك نظروا بطبائعَ مختلفة، فتختلف بهم المذاهب، فيتولّد من اختلاف مذاهبهم تعاديهم وتضاغنهم، وهم مع اختلافهم هذا متّفقون ومجتمعون على بغض الملوك، فكلّ صنفٍ منهم إنّما يجري إلى فجيعة الملك بملكه، ولكنّهم لا يجدون سلّماً إلى ذلك أوثق من الدين والناموس، ثمَّ يتولّد من تعاديهم أنَّ الملك لا يستطيع جمعهم على هوى واحد، فإن انفرد باختصاص بعضهم صار عدوَّ بقيّتهم.

ومن طبائع العامّة استثقال الولاة وملالهم والنفاسة عليهم، والحسد لهم، وفي الرعيّة، المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود، ويتولّد من كثرتهم مع عداوتهم أن يجبن الملك من الأقدام عليهم، فإنَّ في إقدام الملك على الرعيّة كلّها كافّة تعزيراً بملكه ـ إلى أن قال ـ فمن أفضى إليه الملك بعدي فلا يكوننَّ بإصلاح جسده أشدّ اهتماماً منه بهذه الحال، ولا يكوننَّ بشيء من الأشياء أكره وأنكر لرأس صار ذنباً أو ذنب صار رأساً، ويد مشغول صارت فارغة، أو غنيّ صار فقيراً، أو عامل مصروف، أو أمير معزول...

واعلموا أنّكم لن تقدروا على أن تختموا أفواه الناس من الطعن والأزراء عليكم، ولا قدرة لكم على أن تجعلوا القبيح من أفعالكم حسناً، فاجتهدوا في أن تحسن أفعالكم كلّها، وألاّ تجعلوا للعامّة إلى الطعن عليكم سبيلاً....

واعلموا أنَّ لكلِّ ملك بطانة، ولكلّ رجل من بطانته بطانة، ثمَّ إنَّ لكلِّ امرىء من بطانة البطانة بطانة، حتّى يجتمع من ذلك أهل المملكة، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصواب فيهم أقام كلّ امرىء منهم بطانته على مثل ذلك حتّى يجتمع على الصلاح عامّة الرعيّة...

واعلموا أنَّ ابن الملك وأخاه وابن عمّه يقول: كدت أن أكون ملكاً، وبالحريّ ألاّ أموت حتّى أكون ملكاً، فإذا قال ذلك قال ما لا يسرّ الملك، إن كتمه فالداء في كلّ مكتوم، وإذا تمنّى ذلك جعل الفساد سلّماً إلى الصلاح، ولم يكن الفساد سلّماً إلى صلاح قطُّ، وقد رسمت لكم في ذلك مثالا:

اجعلوا الملك لا ينبغي إلاّ لأبناء الملوك من بنات عمومتهم، ولا يصلح من أولاد بنات العمّ إلاّ كامل غير سخيف العقل، ولا عازب الرّأي، ولا ناقص الجوارح ولا مطعون عليه في الدّين، فإنّكم إذا فعلتم ذلك قلّ طلاّب الملك، وإذا قلّ طلاّبه استراح كلّ امرىء إلى ما يليه، ونزع إلى حدّ يليه، وعرف حاله، ورضي معيشته، واستطاب زمانه.

المختار الثالث والخمسون
ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير، مع عمران بن الحصين الخزاعي، ذكره أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقامات في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام

«أَمّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُما وَإِنْ كَتَمْتُما أَنّي لَمْ أُرِدِ النّاسَ حَتّى أَرادُوني، ولم أُبايِعْهُمْ حتى بايَعُوني، وإِنّكما مِمَّن أرادني وبايَعَني، وَإِنَّ الْعامَّةَ لَمْ تُبايِعْني لِسُلْطانٍ غالِبٍ، وَلا لِعَرَضٍ حاضِرٍ، فَإِنْ كُنتُما بَايَعْتُمَاني طائِعَيْنِ فَارْجِعا وتُوبا إِلى اللّهِ مِنْ قَريبٍ، وَإِنْ كُنْتُما بايَعْتُماني كارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُما لي عَلَيْكُمَا السَّبيلَ بِإِظْهارِكُمَا الطّاعَةَ وَإِسْرارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ، وَلَعَمْري ما كُنْتُما بِأَحَقِّ الْمُهاجِرينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمانِ، وَإِنَّ دَفْعَكُما هذَا الأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلا فيهِ كانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُما مِنْ خُرُوجِكُما مِنْهُ بَعْدَ إِقْرارِكُما بِهِ.

وَقَدْ زَعَمْتُما أَنّي قَتَلْتُ عُثْمانَ، فَبَيْني وَبَيْنَكُما مَنْ تَخَلَّفَ عَنّي وَعَنْكُما مِنْ أَهْلِ الْمَدينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِىءٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ، فَارْجِعا أَيُّهَا الشَّيْخانِ عَنْ رَأْيِكُما، فَإِنَّ الآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُما الْعارُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعارُ وَالنّارُ، وَالسَّلامُ»[١].

الإعراب

(إن كتمتما): لفظة **(إن)** وصليّة، **(أني لم أرد)**: قائم مقام مفعولي علم، **(وإنّكما ممّن أرادني)**: عطف على **(أني لم أرد)**، وكذلك قوله: **(وأنّ العامّة)**، **(طائعين)**: حال من ضمير في **(كنتما)**، **(السّبيل)**: مفعول أوّل لقوله **(جعلتما)**، و**(لي)**: ظرف مستقرّ وهو مفعوله الثاني وعليكما متعلّق بقوله **(السّبيل)**، **(باظهاركما)**: **(الباء)** للسببيّة وإظهار مصدر مضاف إلى الفاعل، **(بالتقية)** متعلّق بقوله: **(بأحقّ)**.

المعنى

قال ابن ميثم: خزاعة قبيلة من الأزد، وقيل: الاسكاف منسوب إلى اسكاف رستاق[٢]

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ١٣٦.

(٢) وهي القرية.

كبير بين النهروان والبصرة، وكتاب المقامات الذي صنّفه الشّيخ المذكور في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام.

قال الشارح المعتزلي: عمران بن الحصين بن عبد بن خلف، وسرد نسبه إلى كعب بن عمر الخزاعي، يكنّى أبا بجيد بابنه بجيد بن عمران، أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر، وكان من فضلاء الصّحابة وفقهائهم... وقال محمّد بن سيرين: أفضل من في البصرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عمران بن الحصين...

وأمّا أبو جعفر الإسكافي ـ وهو شيخنا محمّد بن عبد الله الإسكافي ـ عدّه قاضي القضاة في الطّبقة السّابعة من طبقات المعتزلة ـ إلى أن قال: وقال: كان أبو جعفر فاضلاً عالماً، وصنّف سبعين كتاباً في علم الكلام وهو الّذي نقض كتاب «العثمانيّة» على أبي عثمان الجاحظ في حياته ـ إلى أن قال: وكان أبو جعفر يقول بالتفضيل على قاعدة معتزلة بغداد، ويبالغ في ذلك، وكان علويّ الرّأي، محققاً مصنّفاً قليل العصبيّة.

أقول: خزاعة من القبائل الساكنة حول مكّة المكرّمة الموالية لرسول الله صلى الله عليه وآله حتّى قبل نشر الإسلام وقبل أن أسلموا، وقد نصروه وأيدوه في مواقف هامّة وسيّدهم بديل بن ورقاء الخزاعي المشهور وهو أحد الممثّلين لأهل مكّة المشركين في قضية حديبيّة.

فمن تلك المواقف ورودهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في معاهدة صلح الحديبيّة وقبولهم حمايته واعتمادهم به تجاه قريش.

ومنها ردعهم أبا سفيان وجنده من الهجوم ثانياً إلى المدينة بعد الرّحيل من أُحد وإصابة المسلمين بأكثر من سبعين قتيلاً وجرحى كثيرة، فقد روي أنّه لما بلغ إلى الرّوحاء ندم من تركه الزحف بقيّة المسلمين في المدينة وعزم على الرجوع فلحقه عير خزاعة الرّاحلة من المدينة فاستخبرهم عن المسلمين فأجابوه بأنّه قد رحلوا وراءكم بجيش كثير سوّد الأرض يسرعون في اللّقاء معكم واستئصالكم فخاف ولم يرجع.

والظّاهر أنّ هذا الكتاب صدر منه عليه السلام في ضمن المراجعات والاحتجاجات المتبادلة بينه وبين طلحة والزّبير في جبهة الجمل، وكان أحد مجاهيده التي توسّل بها لإخماد هذه الثّورة الحادّة قبل اشتغال الحرب الهائلة الهدّامة.

ونبّه فيه على أن نفوذ الإمامة وهي الرّئاسة العامّة تحتاج إلى بيعة الأمّة عن الرّضا وطيب النّفس فإنّ الإمامة تحتاج إلى صلاحيّة روحيّة ومعنويّة في نفس الإمام تعتمد على العصمة عند الإماميّة ولا طريق إلى إثباتها إلاّ النّص الصادر عن المعصوم نبيّاً كان أم إماماً منصوصاً فيعتمد على دلالة من الله إليها، ولكن نفوذها في الأمّة بحيث يتصدّى الإمام لإجراء الأمور يحتاج إلى بيعتهم عن طيب النّفس.

وهذا معنا التمكّن الذي أشار إليه المحقق الطّوسي في تجريده بقوله: «وجوده لطف وتصرّفه لطف آخر وعدمه منّا» أي عدم تمكّننا وبيعتنا مع الإمام فوّت عنّا تصرّف الإمام في الأمور وإجرائها كما ينبغي.

وأشار عليه السلام إلى ما يسقط اعتبار البيعة وهو أمران:

١ ـ **(وإنَّ العامّة لم تبايعني لسلطان غالب)**: يعني أنَّ البيعة الصادرة عن قهر الناس بإرعابهم وتخويفهم لا تنعقد، لأنَّ الإكراه مبطل للمعاهدات عقداً كانت أم إيقاعاً والبيعة من أهمّ العقود بين الرعيّة والإمام فلا تنعقد مع الإكراه.

٢ ـ **(ولا لعرض حاضر)** قال الشارح المعتزلي **(ص ١٢٣ ج ١٧ ط مصر)**: «أي مال موجود فرَّقته بينهم» وهو المعبّر عنه بابتياع الرأي، فالبيعة الحاصلة بابتياع آراء من بايع إلى حيث يخلّ بالأكثريّة اللازمة يسقط البيعة عن الاعتبار، فأثبت عليه السلام صحّة بيعته بأنّها صادرة عن عامّة الناس بالرضا وطيب النفس فيلزم عليهما التسليم والطاعة والانقياد.

ثمَّ أقام عليهما الحجّة بأنّهما بايعا معه فيلزم عليهما الوفاء بها والرجوع عن الخلاف والتوبة إلى الله فوراً فإنّها واجبة على العاصي فوراً، فإن زعما أنّهما كارهان لبيعته ولم تصدر عنا لرضا وطيب النفس فاعترض عليهما بوجوه:

١ ـ أنَّ الكراهة غير مبطلة للعقود، لأنَّ مجرَّد الكراهة الباطنيّة لا تضرّ بصحّة العقد الصادر عن الرضا الإنشائي بداعي المنافع المقصود منه كالمريض يشتري الدواء وهو كاره له بداعي معالجة مرضه، وكالمضطرّ في شراء الحوائج فإنّه كاره قلباً فالمبطل للعقد هو الإكراه الذي يَسْلِبُ قدرة المكره لا الكراهة الباطنيّة.

٢ ـ أنَّ ظاهر بيعتكما الرضا وطيب النفس، فدعوى الكراهة مردودة لأنّها كالإنكار بعد الإقرار، فقال عليه السلام **(فقد جعلتما لي عليكما السلطان بإظهاركما الطاعة)**.

٣ ـ أنّكما تعترفان بالنفاق، وإظهار النفاق موجب للعقوبة وإن كان المستتر منه يحال إلى الله تعالى فيعاقب عليه في الآخرة، وأشار إليه بقوله: **(وإسراركما المعصية)**.

ثمَّ تعرَّض لجواب ما يمكن أن يحتجّوا به في المقام وهو التقيّة فقال عليه السلام ليس المقام مقام التقيّة لأنّها في معرض الخوف من إظهار العقيدة وأنتما من المهاجرين الذين لا يخافون في المقام مع أنّه عليه السلام لم يتعرَّض لمن تخلّف عن بيعته بأدنى تعقيب وأذى، كما أشار إليه بعد ذلك في قطع عذرهما وما تمسّكا به من اتّهامه عليه السلام بقتل عثمان، فقال:

(وقد زعمتما أنّي قتلت عثمان، فبيني وبينكما من تخلّف عنّي وعنكما من أهل المدينة)

أمثال: محمّد بن مسلمة وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، فاتّخذهم شهوداً على من شرك في قتل عثمان ودعا إليه.

قال في الشرح المعتزلي: وأهل المدينة يعلمون أنَّ طلحة كان هو الجملة والتفصيل في أمره وحصره وقتله، وكان الزبير مساعداً له على ذلك وإن لم يكن مكاشفاً مكاشفة طلحة ـ انتهى[1].

وقد أشار في قوله **(من قبل أن يجتمع العار والنار)**: إلى قتل طلحة والزبير في هذه الحرب، ونلفت نظر القرّاء إلى أنَّ طلحة والزبير من أكابر الصحابة المهاجرين الذين آمنوا في السنين الأُولى من البعثة في عصر غربة الإسلام بدعوة أبي بكر وهم عدّة، كما في سيرة ابن هشام **(ص ١٥٨ ج ١ ط مصر)**: فلمّا أسلم أبو بكر ﷺ أظهر إسلامه ودعا إليه ـ إلى أن قال ـ فأسلم بدعائه في ما بلغني عثمان بن عفّان «وسرد نسبه» والزبير بن العوّام «وسرد نسبه» وعبد الرحمٰن بن عوف «وسرد نسبه» وسعد بن أبي وقّاص «وسرد نسبه» وطلحة بن عبيد الله «وسرد نسبه» ـ انتهى.

وكان أثر نفس أبي بكر نفث النفاق في هؤلاء فخرج كلّهم من أعداء عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ومن رؤوس أهل النفاق والخلاف مع أهل بيت رسول الله ﷺ والدليل عليه إقبالهم على الدنيا وجمع الأموال الطائلة والنزة إلى الرئاسة والجاه كما يظهر من الأخبار الصحيحة.

---

(١) شرح النهج: ١٧/ ١٣٤.

الترجمة

از يك نامه اى كه به طلحه و زبير نگاشته و با عمران بن حصين گسيل داشته، ابوجعفر اسكافى آن را در كتاب مقامات خود كه در مناقب اميرالمؤمنين نوشته است ياد آور شده:

امّا بعد، شما هر دو به خوبى مى دانيد ـ گرچه نهان مى سازيد ـ كه من مردم را نخواستم تا مرا خواستند و دست بيعت بدانها دراز نكردم تا آنها دست براى بيعت من دراز كردند و شما هر دو از كسانى هستيد كه مرا خواستيد و با من بيعت كرديد و راستش اين است كه عموم مردم به زور و قهر با من بيعت نكردند و براى طمع در عرض موجودى كه به آنها پرداخت شده باشد بيعت نكردند، بلكه از روى رضا و رغبت دست بيعت به من دادند.

اگر شما به دلخواه با من بيعت كرديد، اكنون از خلاف خود برگرديد و فوراً به درگاه خدا توبه كنيد و اگر از روى بى ميلى و ناخواهى با من بيعت كرديد، اين بيعت به گردن شما ثابت شده و خود دليل محكوميّت خود را به من سپرديد كه اظهار اطاعت كرديد و نافرمانى را در دل نهفتيد. به جان خودم قسم، شما از ساير مهاجران سزاوارتر به تقيّه و كتمان عقيده نبوديد، كناره گيرى شما از اين كار پيش از ورود در آن به راستى براى شما رواتر بود از مخالفت با آن پس از اعتراف و اقرار بدان.

شما را گمان اين است كه من عثمان را كشتم، همه آنها كه در مدينه از من و شما هر دو طرف كناره گيرى كردند و از حادثه قتل عثمان به خوبى-آگاهند، ميان من و شما حكم باشند تا هركس به اندازه اى كه متحمّل انجام اين حادثه شده است مسؤول باشد. اى دو تن پيرمرد كهنسال و رهبر اسلامى! از رأى و نظر خود برگرديد و به سوى حق گراييد، زيرا اكنون بزرگترين نكوهشى كه بر شما است همان ننگ كناره گيرى از جبهه نبرد است و پيشگيرى كنيد از اين كه اين ننگ با شكنجه دوزخ توأم گردد.

المختار الرابع والخمسون
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيا لِما بَعْدَها، وَٱبْتَلى فيها أَهْلَها، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَلَسْنا للدُّنْيا خُلِقْنا، وَلا بِالسَّعْيِ فيها أُمِرْنا، وَإِنَّما وُضِعْنا فيها لِنُبْتَلى بِها، وَقَدْ ابْتَلانِي ٱللَّهُ بِكَ وَٱبْتَلاكَ بي، فَجَعَلَ أَحَدَنا حُجَّةً عَلَى الآخَرِ، فَعَدَوْتَ [فَغَدَوْتَ] عَلى طَلَبِ الدُّنْيا بِتَأْوِيلِ ٱلْقُرْآنِ وَطَلَبْتَني بِما لَمْ تَجْنِ يَدي وَلا لِساني، وعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشّامِ بِي وَأَلَّبَ عالِمُكُمْ جاهِلَكُمْ وَقائِمُكُمْ قاعِدَكُمْ فَاتَّقِ اللَّهَ في نَفْسِكَ، وَنازِعِ الشَّيْطانَ قِيادَكَ وَاصْرِفْ إِلى الآخِرَةِ وَجْهَكَ، فَهِيَ طَريقُنا وَطَريقُكَ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِعاجِلِ قارِعَةٍ تَمَسُّ الأَصْلَ وَتَقْطَعُ الدّارَ [الدّابِرَ]، فَإِنّي أُولي لكَ بِاللَّهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فاجِرَةٍ، لَئِنْ جَمَعَتْني وَإِيّاكَ جَوامِعُ الأَقْدارِ لا أَزالُ بِباحَتِكَ [بِناحِيَتِكَ] ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

اللغة

(عصبه به): علّقه به، **(التأليب)**: التحريض، **(القيادة)**: حبل تقاد به، **(القارعة)**: الدّاهية، **(تمسّ الأصل)**: تقطعه، **(الدّابر)**: المتأخّر من النسل، **(الأليّة)**: اليمين، **(باحة الدار)**: وسطها، ساحتها.

الإعراب

(لما بعدها): **(لما)** موصولة أو موصوفة والظرف مستقرّ مفعول ثانٍ لقوله **(جعل)**، و**(بعدها)**: ظرف مستقرّ صلة أو صفة، **(أيّهم أحسن عملاً)**: جملة محكيّة عن القرآن قائمة مقام مفعولي **(يعلم)**، **(لم تجن)**: صيغة الجحد من الجناية، **(أنت)**: تأكيد للضمير المخاطب في عصبته لتصحيح العطف عليه، **(أن يصيبك الله منه)**: قال الشارح المعتزلي: الضمير في «منه» راجع إلى الله تعالى و«من» لابتداءِ الغاية، وقال الراوندي: «منه» أي من البهتان الذي أتيته، أي من أجله و«من» للتعليل، وهذا بعيد وخلاف الظاهر، **(بعاجل قارعة)**: من إضافة الصفة إلى الموصوف وكذا جوامع الأقدار وأثره التأكيد، **(لا أزال)**: نفي من زال، **(بباحتك)**: ظرف مستقرّ خبره، **(غدوت على الدنيا)**: قال المعتزلي: **(على)** ههنا متعلّق بمحذوف دلّ عليه الكلام تقديره مثابراً على طلب الدنيا أو مصرًّا.

المعنى

بعث الله الأنبياء بطبقاتهم لهداية الناس وردعهم عن الفساد واتّباع الشهوات وأهمّ وسائلهم التذكير والإنذار والتبشير ولم يؤمر من الأنبياء بطبقاتهم وهم آلاف مؤلّفة بالسيف والجهاد إلاّ نذر يسير، وروي إلاّ أربعة أمروا بالسيف لدفع هجوم الأعداء الألدّاء، منهم خاتمهم رسول الإسلام ﷺ، وقد نزلت عدّة آيات كريمة في القرآن الشريف يصرّح بأنّه بشير ونذير وأنّه ليس بجبّار ولا وكيل عليهم.

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

وقد قام أمير المؤمنين عليه السلام بعده بالتبشير والإنذار للعصاة والبغاة، ومن رؤوسهم معاوية الذي لم يؤثّر فيه إنذار الرسول ﷺ طيلة دعوته بمكّة قبل الهجرة، فدام على كفره ووثنيّته حتى فتح رسول الله ﷺ مكّة المكرّمة، ووقع قريش مكّة الألدّاء في أسره، فآمن هو وأبوه وأهله كرهاً وأسرُّوا النفاق دهراً، حتّى توفّي ﷺ فدبّروا وكادوا حتى سادوا في الإسلام وسلّط معاوية على بلاد الشام فقام عليٌّ بإنذاره أداءاً لحقِّ الوصاية وذكّره بآي من القرآن منها قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود: ٧].

ونبّهه على أنَّ الدنيا دار مجاز و دار امتحان وابتلاء والابتلاء على وجوه شتّى باعتبار أحوال الناس، فجعل أحدنا حجّة على الآخر.

فأوَّلت القرآن في طلب الدنيا، قال الشارح المعتزلي: وتأويل القرآن ما كان معاوية يموه به على أهل الشام فيقول له أنا وليُّ دم عثمان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقال ابن ميثم: تأويل القرآن كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: ١٧٨] وغيرها من الآيات الدالّة على وجوب القصاص، فتأوّل بادخال نفسه فيها وطلب القصاص لعثمان وإنّما كان دخوله في ذلك بالتأويل، لأنَّ الخطاب خاصٌّ بمن قتل وقتل منه ومعاوية بمعزل من ذلك إذ لم يكن من أولياء دم عثمان ففسّر الآية بالعموم ليدخل فيها.

وبرّأ عليه السلام نفسه من الاشتراك في قتل عثمان يداً ولساناً وقد اتّهمه معاوية بذلك وجعله

وسيلة لتحريض أهل الشام بالحرب معه عليه السلام وأمره بترك هذا البهتان والدفاع تجاه الشيطان بنزع قيادته من الهوى والشهوات والتوجّه إلى الآخرة وحذّرة من العقوبة في الدنيا بحيث تصل إلى أصله وتقطع نسله كما وقع بعد ذلك من قطع نسل بني أميّة ومحوهم عن الجامعة البشريّة.

الترجمة

امّا بعد، به راستى كه خداوند سبحان، دنيا را مقدّمه ما بعدش مقرّر داشته و اهل دنيا را در آن در بوته آزمايش گذاشته تا معلوم شود كداميك خوش كردارترند. ما براى دنيا آفريده نشديم و به كوشش در آن فرمان نداريم، همانا ما در دنيا آمديم تا امتحان شويم، خداوند مرا به تو و تورا به من در معرض امتحان آورده و هركدام را حجت بر ديگر ساخته، تو بر روى دنيا افتادى و تأويل قرآن را برخلاف حق وسيله آن ساختى و مرا به چيزى مسؤول كردى كه دست و زبانم بدان آلوده نشده.

خودت و اهل شام آن را دستاويز كرده ايد و آن را به من چسبانده ايد و دانشمندتان نادانها را ترغيب بدان مى كنند و آنها كه بر سر كارند بيكاره ها را بدان تشويق مى نمايند.

تو خود پرهيزكار باش و از خدا بترس و با شيطان در مهار كردنت ستيزه كن و خود را برهان و روى به آخرت كه راه من و تو است بگردان و درحذر باش كه خداوندت به يك بلاى كوبنده در اين دنيا دچار كند كه به ريشه ات بزند و دنباله ات را ببرد و نسلت را قطع كند.

به راستى من براى تو سوگندى ياد كنم كه تخلّف ندارد بر اين كه اگر خداوند مرا با تو در ميدان نبرد فراهم آورد و پيشامد مقدرات مرا و تو را در پيكار با يكديگر كشاند، هميشه در خانه و كاشانه ات بمانم "تا خداوند ميان ما حكم فرمايد كه او بهترين حكم ها است".

المختار الخامس والخمسون
ومن كلام له عليه السلام وصى بها شريح بن هاني، لما جعله على مقدّمته إلى الشام

«إتَّقِ ٱللَّهَ في كُلِّ صَباحٍ وَمَسَاءٍ، وَخَفْ عَلى نَفْسِكَ الدُّنْيا ٱلْغَرُورَ، وَلا تأْمَنْها، عَلى حالٍ، وَٱعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثيرٍ مِمّا تُحِبُّ مَخافَةَ مَكْرُوهٍ سَمَتْ بِكَ الأَهْواءُ إِلى كَثيرٍ مِنَ الضَّرَرِ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مانِعاً رادِعاً، ولِنَزْوَتِكَ [لِنَزَواتِكَ] عِنْدَ ٱلْحَفيظَةِ واقِماً قامِعاً».

اللغة

(الغَرور): فعول من الغُرور بمعنى الفاعل يستوي فيه المذكّر والمؤنّث **(الردع)**: المنع، **(سمت)**: كدعت من سما يسمو أي رفعت بك، **(النزوة)**: الوثبة الشهوانيّة وتستعل لركوب الذكر على الأُنثى، **(الحفيظة)**: الغضب، **(الواقم)**: الذي يردّ الشيء شديداً من وقمته أي رددته أقبح الردّ وقهرته، **(القمع)**: القلع والدقّ المهلك من الرأس.

الإعراب

(الدنيا الغرور): مفعول خف، يقال: خافه وخاف منه، **(سمت بك)**: جزاء الشرط في قوله عليه السلام «إن لم تردع»، **(بك)**: **(الباء)** للتعدية، **(لنفسك)**: جار ومجرور متعلّق بقوله عليه السلام «مانعاً رادعاً» قدّم عليه، **(عند الحفيظة)**: ظرف متعلّق بقوله «النزوتك».

المعنى

قال الشارح المعتزلي بعد سرد نسب شريح بن هاني إلى الحارث بن كعب المذحجي: كان هاني يكنّى في الجاهليّة أبا الحكم، لأنّه كان يحكم بينهم، فكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي شريح إذ وفد عليه، وابنه شريح هذا من جلّة أصحاب علي عليه السلام، شهد معه المشاهد كلّها، وعاش حتّى قتل بسجستان في زمن الحجّاج.

وقال ابن ميثم: أنفذه مع زياد بن النضير على مقدّمته بالشام في اثني عشر ألفاً.

أقول: مبالغته عليه السلام في وصيّة شريح بالتقوى والحذر من الدنيا الغرور في كلّ حال وتحذيره من العواقب السوء لمتابعة هوى النفس من الميل للترفّع مع أنّه من كبار أصحاب المخلصين إنّما كان لما يعلمه من مكائد معاوية وخداعه لجلب الرجال باعطاء المنصب والرتبة والمال بتدليس وتلبيس يعجز عنه الأباليس، فإنّه خدع أمثال أبي الدرداء وأبي هريرة

وكثير من عبّاد وزهّاد أصحاب رسول الله ﷺ واستلحق زياداً بعشيرته بدعوى أنّه أخوه وكوّن من منيّ أبيه وغمر إلى لحيته في فضيحته، فخاف عليه السلام من كيد معاوية لمقدّمته واستلحاقهم به قبل وصوله كما صنع مع مقدّمة الجيش الّتي بعثها ابنه الحسن المجتبى عليه السلام بعده لإكمال جهاد أبيه بقيادة أمثال عبد الله بن العبّاس من كبار أصحاب رسول الله ﷺ وأبيه والمتعلّمين في مكتبه والعالمين بحقيقته.

الترجمة

از سخنانى كه در سفارش به شريح بن هانى فرمود، چون او را به فرماندهى مقدّمة الجيش خود به شام فرستاد:

از خدا بپرهيز در هر بام و شام و برخود بترس از دنياى پر فريب و از آن آسوده مباش در هر حال و بدانكه اگر نفس خود را از بسيارى دوست داشتنى هايت براى نگرانى از سخت حالى باز ندارى، هواهاى نفسانيت تورا به زيان هاى فراوانى بكشانند، جلوگير و مهاركش نفس سركش خود باش و هنگام خشم از جهشش به سختى باز دار و او را سركوب و ريشه كن ساز.

المختار السادس والخمسون
ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة، عند مسيره من المدينة إلى البصرة

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هذا، إِمّا ظالِماً وَإِمّا مَظْلُوماً وَإِمّا باغِياً وَإِمّا مَبْغِيًّا عَلَيْهِ، وَإِنّي أُذَكِّرُ اللَّهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتابي هذا لَمّا نَفَرَ إِلَيَّ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أعانَني، وَإِنْ كُنْتُ مُسيئاً اسْتَعْتَبَني»(١).

اللغة

(**الحيّ**): القبيلة ومنه مسجد الحيّ أعني القبيلة وحيّ من الجنّ: قبيلة منها، (**البغي**): الفساد وأصل البغي الحسد ثمّ سمّي الظالم بغياً لأنّ الحاسد ظالم، (**نفر إليّ**) ونفروا إلى الشيء: أسرعوا إليه ـ مجمع البحرين ـ.

الإعراب

(**حيّي هذا**): (**هذا**) عطف بيان للحيّ والتعبير بلفظة (**هذا**) وهم قريش المهاجرون أو هم مع الأنصار بعناية الوحدة الإسلاميّة الساكنون في المدينة بادّعاء حضورهم عند المخاطبين ذهناً حتّى كأنّهم يعاينونهم فإنّ حرج الموقف يلفت نظر أهل الكوفة وفكرتهم إلى المدينة التي كانت مركزاً للإسلام ولأهل الحلّ والعقد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

(**إمّا**): تفيد الترديد والإبهام وإذا كان مدخولها الجمع وما في معناه يشعر بالتقسيم كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]، (**أُذكّر**): من باب التفعيل يتعدّى إلى مفعولين وهما قوله «الله» و«من بلغه»، (**كتابي**): فاعل قوله «بلغه»، (**لمّا**): بالتشديد بمعنى إلاّ كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾ [يس: ٣٢] وبالتخفيف مركّبة من لام التأكيد وما الزائدة.

المعنى

قال ابن ميثم: وقوله: (**إمّا ظالماً**) ـ إلى قوله: (**عليه**)، من باب تجاهل العارف لأنّ القضيّة لم تكن بعد ظهرت لأهل الكوفة وغيرهم ليعرفوا هل هو مظلوم أو غيره.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٦٨ ح ٤٧، ونهج السعادة: ٤/٦١.

وقال الشارح المعتزلي: ما أحسن هذا التقسيم وما أبلغه في عطف القلوب عليه واستمالة النفوس إليه، قال: لا يخلو حالي في خروجي من أحد أمرين ـ إلخ.

أقول: جعل الشارح المعتزلي قوله عليه السلام **(إمّا ظالماً وإمّا مظلوماً)** حالا عن الضمير المتكلّم في قوله **(خرجت)** وتبعه ابن ميثم على هذا التفسير ولا يخلو من الاعتراض.

إظهار الترديد منه عليه السلام في هذا الموقف الحرج وتأييد أهل التشكيك في إبهام حاله من كونه ظالماً أو مظلوماً لا يناسب مقامه ولا موقعه ولا يناسب الموقف هضم النفس بهذا التعبير الموهن كما ذكره المعتزلي.

ولا يصحُّ ما ذكره ابن ميثم «ولأنَّ القضيّة لم تكن بعد ظهرت لأهل الكوفة وغيرهم ليعرفوا هل هو مظلوم أو غيره» لأنَّ غيره هو عثمان المقتول باهتمام أهل الكوفة وحضور جيش منهم فكيف لا يصحُّ حاله عندهم ولا يعرفون براءة علي عليه السلام عن الظلم والبغي حتّى يؤيّد شكّهم بهذا التعبير الموجب للفشل والمستند للمخالف في دعوة الناس إلى التخذيل والكفّ عن النصرة.

والأصحّ جعله حالاً عن الحيّ المقصود منه قبيلة قريش أو مسلمة المدينة من المهاجرين والأنصار فإنَّ قريشاً حيّه العنصري ومسلمة المدينة حيّه الإسلامي والتعبير بالمفرد باعتبار لفظ جمع أو كلّ كما ورد في الآية ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان].

والمقصود أنّي خرجت من بين قريش أو مسلمة المدينة حالكون بعضهم ظالماً وبعضهم مظلوماً، ويؤيّده قوله «مبغيًا عليه» وإلاّ فالأنسب أن يقول «مبغيًا عليّ»، وقوله عليه السلام **(فإن كنت محسناً)** بالنظر إلى أعماله بعد نفرهم إليه لا بالنسبة إلى ما قبله، ولفظ الماضي بعد «إن» تفيد معنى المضارع غالباً، واندرج في كلامه عليه السلام **(فإنّي خرجت عن حيّي هذا)** معناً ذهبيًا يشعر بديموقراطيّة ساميّة هي لبُّ التعاليم الإسلاميّة.

وهي أنّه عليه السلام بعد تصدّيه للزعامة على الأُمّة الإسلاميّة وبيعة المسلمين معه بالإمامة تجرَّد عن جميع المعاني العنصريّة وسلّم نفسه للشعب الإسلامي بأسره وخرج عن حيّه وقبيلته فهو اليوم ابن الشعب الإسلامي عامّة بخلاف من تقدّمه من الزعماء الثلاثة، فإنَّ أبا بكر وعمر كانا ابنا المهاجرين والأنصار ولم يخرجا عن التعصّب للعرب فهما ابنا العرب كما يظهر من ديوان العطايا الذي نظمه عمر ومن جعله العرب طبقات بعضها فوق بعض ولم يراع لمن أسلم من سائر الناس حقًّا وجعلهم موالي وأسقط حقوقهم الاجتماعيّة في موارد شتّى، وأمّا عثمان فقد ظهر ابن حيّه بني أميّة وفوّض إليهم أمور المسلمين وبيت مالهم حتّى نقموا عليه وثاروا على حكومته وقتلوه.

وقد أكّد عليه السلام هذه الفلسفة السامية العميقة بقوله «ظالماً أو مظلوماً. . .» أي تجرّد عن حيّه على أيّ حال كان حيّه فإن هذا التجرّد طبيعة زعامته العامّة على الأُمّة ولا ربط له بوضع حيّه من كونه ظالماً أو مظلوماً، فإنّ كلا العنوانين ربما صارا من دواعي الخروج عن الحي، وكلامه هذا أبلغ تعبير في استعطاف أهل الكوفة للقيام بنصرته فكأنّه قال: أنا من الشعب ومنكم فهلمّوا إليّ.

الترجمة

از نامه ای است که حضرتش در هنگام رفتن از مدینه به بصره به اهل کوفه نگاشته است:

امّا بعد، به راستی که من از این قبیله بیرون شدم که یا ستمکا بودند و یا ستمکش یا متجاوز بودند و یا تجاوزکش و خدا را یادآور همه خواننده های این نامه می کنم که به محض اطّلاع از مضمون آن به سوی من کوچ کنند تا اگر نیك رفتارم مرا یاری دهند و اگر بدرفتارم از من گله کنند و به من اعتراض نمایند.

المختار السابع والخمسون
كتبه إلى أهل الأمصار، يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين

«وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنا أَنَّا اَلتَقَيْنا [وَ] اَلْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَالظّاهِرُ أَنَّ رَبَّنا واحِدٌ، وَنَبِيَّنا واحِدٌ، وَدَعْوَتَنا في الإِسْلامِ واحِدَةٌ، وَلا نَسْتَزيدُهُمْ في الإِيمانِ بِاللَّهِ وَالتَّصْديقِ بِرَسُولِهِ وَلا يَسْتَزيدُونَنا [وَ] الأَمْرُ واحِدٌ إِلاَّ مَا اَخْتَلَفْنا فيهِ مِنْ دَمِ عُثْمانَ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَراءٌ! فَقُلْنا: تَعالَوْا نُداوِ ما لا يُدْرَكُ اَلْيَومَ بِإِطْفاءِ النّائِرَةِ وَتَسْكينِ اَلعامَّةِ، حَتّى يَشْتَدَّ الأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ، فَنَقْوى عَلى وَضْعِ اَلْحَقِّ في مَوضِعِهِ، فَقالوا: بَلْ نُداويهِ بِالْمُكابَرَةِ، فَأَبَوْا حَتّى جَنَحَتِ اَلْحَرْبُ وَرَكَدَتْ، وَوَقَدَتْ نيرانُها وَحَمِسَتْ [حَمَشَتْ]، فَلَمّا ضَرَّسَتْنا وَإِيّاهُمْ، وَوَضَعَتْ مَخالِبَها فينا وَفيهِمْ، أَجابُوا عِنْدَ ذٰلِكَ إِلى الَّذي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَبْناهُمْ إِلى ما دَعَوْا، وَسارَعْناهُمْ إِلى ما طَلَبُوا حَتّى اَسْتَبانَتْ عَلَيْهِمُ اَلْحُجَّةُ، وَاَنْقَطَعَتْ مِنْهُمُ اَلْمَعْذِرَةُ، فَمَنْ تَمَّ عَلى ذٰلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذي أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنَ اَلْهَلَكَةِ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمادى فَهُوَ الرّاكِسُ الَّذي رانَ اَللَّهُ [رينَ] عَلى قَلْبِهِ، وَصارَتْ دائِرَةُ اَلسَّوْءِ عَلى رَأْسِهِ»[1].

اللغة

(بدء) الأمر: أوّله وبدء بمعنى مبتدء، **(النائرة)**: فاعلة من النار، أي العداوة، **(جنحت)**: أقبلت، **(ركدت)**: ثبتت، **(حمست)**: اشتدّت، حمشت: التهبت غضباً، **(ضرّست)**: عضّتنا بأضراسها، يقال: ضرّسهم الدهر أي اشتدّ عليهم، **(المخالب)**: جمع مخلب وهو من الطير بمنزلة الظفر للإنسان، **(أنقذه)**: خلّصه، **(التمادي)** في الشيء: الإقامة عليه وطلب الغاية منه، **(الركس)**: ردّ الشيء مقلوباً، **(ران)**: غلب وغطّى.

الإعراب

(أنّا): بالفتح مع اسمه وخبره تأوّل بالمصدر وخبر لقوله «بدء أمرنا»، **(القومُ)**: بالرفع، قال ابن ميثم: عطف على الضمير **(في التقينا)**، وقال الشارح المعتزلي: «التقينا والقوم» كما قال: قلت إذ أقبلت وزهر تهادى، ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلّف.

أقول: الظاهر أنّ التكلّف في العطف على الضمير المرفوع المتّصل من دون إعادة المنفصل ومع حذف الواو ينصب القوم مفعولاً، **(منه براء)**: تقول العرب: أنا براء ونحن

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٠٧، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٦١٠.

براء، الذكر والأُنثى والمفرد والجمع فيه واحد، وتأويله ذو براء ـ مجمع البيان ـ وهو خبر نحن، **(نداو)**: مجزوم في جواب الأمر، **(اليوم)**: ظرف متعلّق بقوله «ندا» وكقوله باطفاء النائرة.

المعنى

قد تصدّى عليه السلام في كتابه هذا إلى بلاغ رسمي لعموم المسلمين في الأمصار والبلاد الشاسعة يبيّن فيه ما آل إليه زحفه بالجيوش المسلمين إلى الشام لدفع بغي معاوية وصدّه عن الهجوم بالبلاد وتعرُّضه للعيث والفساد، وأشار بقوله **(والظاهر أنَّ ربّنا واحد)** إلى موادِّ الموافقة بين الفريقين المسلمين والطائفتين اللتين اقتتلا.

وحصّر مادَّة الخلاف في أمر واحد وهو دم عثمان حيث إنَّ مقاتلة أهل الشام يتشبّثون بمطالبته من أهل الكوفة وخصوصاً من علي عليه السلام، وقد برَّأ عليه السلام كلَّ المقاتلة الكوفيّين من دم عثمان مع أنَّ فيهم من ينسب إليه بجمع الجموع عليه كالأشتر النخعي رحمه الله أو المباشرة بالهجوم عليه في داره كعمّار بن ياسر فحكمه عليه السلام بهذه البراءة العامّة لوجهين:

١ ـ أنّه قتل حقًّا لا ظلماً، لقيامه في زعامته على خلاف مصالح الأُمّة الإسلاميّة وانحرافه عن سنن الشريعة، ونقضه للقوانين الثابتة في الكتاب والسنّة، وإحداثه البدعة والفتنة، وليس على قاتله دية ولا قود، فكلّهم براء من قتله، ولا يجوز مطالبتهم به، وقد ورد مطاعن عثمان في السير المتقنة بما لا مزيد عليها.

٢ ـ أنَّ المباشر لقتل عثمان غير داخل في جيشه وغير معلوم عندهم، والقصاص والدية إنّما يتعلّقان بالمباشر وهو مفقود، فهم براء منه.

وقد بيّن عليه السلام اقتراحه لأهل الشام وهو ترك العداوة والشحناء والخصومة واللجاج في الوقت الحاضر لتحقّق الوحدة الإسلاميّة وتسكن فورة نفوس العوام وثورتهم الّتي أثارها معاوية بدهائه وخداعه، فاشتداد الحكومة الإسلاميّة في ظلِّ الوحدة والوئام وتجمُّع القوى في جميع الثغور ومن كلِّ الأنام لتداوي ما لا يدرك، وما هو ما لا يدرك.

قد فسره الشارح المعتزلي بالتمكّن من قتلة عثمان والقصاص منهم، فقال **(ص ١٤٢ ج ١٧ ط مصر)**:

قلنا لهم: تعالوا فلنطفىء هذه النائرة الآن بوضع الحرب إلى أن تتمهّد قاعدتي في الخلافة وتزول هذه الشوائب التي تكدِّر عليَّ الأمر، ويكون للناس جماعة ترجع إليها، وبعد ذلك أتمكّن من قتلة عثمان بأعيانهم فأقتصّ منهم.

أقول: وفيه نظر من وجهين:

١ - أنّه عليه السلام لا يدعو إلى معالجة قضيّة قتل عثمان بتعقيب قتلته، لأنّه غرَّر بنفسه حتّى قتل في غوغاء من المسلمين لا يدري من قتله.

٢ - لا معنى للاقتصاص من جمع في قتل رجل واحد فإنّه لا يقتل قصاصاً للواحد إلاّ واحداً إذا ثبت أنّه قاتل وحده ولو اشترك جمع في قتل واحد لا يقتصُّ منهم جميعاً.

وقال ابن ميثم: والباء في قوله **(بإطفاء النائرة)** متعلّق بقوله **(نداوي ما لا يدرك)** أي ما لا يمكن تلافيه بعد وقوع الحرب ولا يستدرك من القتل وهلاك المسلمين.

أقول: وله وجه، والأوجه أنَّ المقصود من «ما لا يدرك» الاتّفاق العامّ والتامّ بين المسلمين في نشر الإسلام وبثّ دعايته، فإنّه لولا خلاف معاوية معه لم يلبث الإسلام أعواماً قلائل حتّى يستولي على كلِّ البلدان ويهتدي في ظلِّ تعليماته العالية جميع بني الإنسان، فإنَّ أكثر الخلق الذين بلغ إليهم تعليمات الإسلام ونشرت في بيئتهم إنّما أسلموا طوعاً لما أدركوا من أنّه يهدي للّتي أقوم هي لتربية الإسلام العليا وطريقته الوسطى.

فلولا تسلّط بني أُميّة على الحكومة الإسلاميّة وتكديرهم قوانينه النيّرة العادلة الكافلة لصلاح بني الإنسان مادَّة ومعنًى لساد الإسلام في كافّة البلدان وشملت هدايته جميع أبناء الإنسان فينال البشر بالتقدُّم والازدهار من القرون الأُولى الإسلاميّة.

ولكن أجاب أهل الشام باغواء معاوية بما لخّصه عليه السلام في قوله **(فقالوا: بل نداويه بالمكابرة)** أي طلب الكبر والسلطنة، فيعلم كلّ أحد أنَّ هدف معاوية من القيام بطلب دم عثمان ليس إلاّ طلب الرياسة والتسلّط على الأنام فأثار الحرب الشعواء حتّى دارت عليه الدائرة فتشبّث بمكيدة عمرو بن العاص إلى دهاء آخر واعترف باقتراح علي عليه السلام.

فأجاب إلى ما دعاه إليه من الرجوع إلى حكم القرآن، وقال عليه السلام **(وسارعناهم إلى ما طلبوا)**، قال المعتزلي في شرحه **(ص ١٤٣ ج ١٧ ط مصر)**: كلمة فصيحة، وهي تعدية الفعل اللازم، كأنّها لمّا كانت في معنى المسابقة والمسابقة متعدّية عدّي المسارعة.

أقول: وهذا ما عبّر عنه ابن هشام في المغني بالتضمين وجاء له بشواهد كثيرة منها قول الشاعر:

هنَّ الحرائرُ لا ربّاتُ أخمرة سودُ المحاجر لا يقرأن بالسور

وقد علّل عليه السلام إجابته إلى ذلك بايجاد محيط سالم يمكن فيه التفاهم وبيان الحجّة على الحقِّ فإنَّ المحيط الموبوء الحربي مثار التعصّب والغضب المانعين عن استماع دليل الخصم

والتفاهم معه فلا يتمّ الحجّة عليه خصوصاً مع ما نشره معاوية فيهم من الأكاذيب والاتّهامات الفارغة، فحتّى في كلامه عليه السلام للتعليل وما بعدها في معنى المضارع والمقصود أنّ هدف الهدنة إتمام الحجّة على من خدعهم معاوية وعمرو بن العاص من أهل الشام، واستنتج منه أنّ من انقاد لحكم القرآن بعد ذلك أنقذه الله من الهلكة والعقاب ومن لجَّ وتمادى في غيّه فهو الراكس الّذي ران الله على قلبه ولم تنفع الحجّة الواضحه له.

قال الشارح المعتزلي: قال قوم: الراكس هنا بمعنى المركوس، فهو مقلوب فاعل بمعنى مفعول، كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [القارعة: ٧] أي مرضيّة، وعندي أنّ اللفظة على بابها، يعني أنّ من لجَّ فقد ركس نفسه فهو الراكس وهو المركوس، ولا يجوز أن يكون الفاعل وهو الله محذوفاً، لأنّ الفاعل لا يحذف ـ انتهى[١].

وممّا ذكرنا ظهر ضعف ما قاله ابن ميثم في قوله **(فمن تمَّ على ذلك)** أي على الرضا بالصلح وتحكيم كتاب الله وهم أكثر أهل الشام وأكثر أصحابه عليه السلام والذين لجّوا في التمادي فهم الخوارج الذين لجّوا في الحرب واعتزلوه ـ إلخ.

وفي كلامه وجوه من النظر:

١ ـ كيف حكم أمير المؤمنين عليه السلام على أهل الشام بأنّه أنقذهم الله من الهلكة وظاهر الهلكة العذاب الأخروي لا النجاة من الحرب والنيل بالحياة الدنيويّة.

٢ ـ أنَّ صدور هذا البلاغ كان بعد الهدنة وقبل تحكيم أمر الخوارج وظهور خلافهم عليه كما هو الظاهر.

٣ ـ أنَّ صريح قوله عليه السلام «حتّى استبانت عليهم الحجّة ـ إلخ» راجع إلى أهل الشام ولا ربط له بالخوارج الذين كانوا معه وجاهدوا حقَّ الجهاد قبل ارتدادهم عنه.

٤ ـ أنَّ قوله **(ومن لجَّ وتمادىْ)**: يدلُّ على أنَّ المقصود من كلامه المخالفين معه قبل الهدنة وحين الحرب ولا ينطبق على الخوارج، والحاصل أنَّ غرضه عليه السلام بيان هدف قبول الهدنة والرجوع إلى حكم الله تعالى لإتمام الحجّة على أهل الشام ببيان الأدلّة على حقّيّته وبطلان مكائد معاوية وخواصّه كما هو وظيفة القائم بالإرشاد والهداية ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيَّ عن بيّنة، فكلامه عليه السلام في حكم قضيّة كلّيّة ولا نظر له إلى تحقّق المصاديق الخارجيّة كما زعمه ابن ميثم عليه الرحمة.

---

(١) شرح النهج: ١٧/١٤٣.

الترجمة

از نامه ای است که به اهالی شهرها نوشت و آن چه در صفین میان او و مخالفانش انجام یافت گزارش فرمود:

آغاز کار ما این بود که با مردم شام برخورد کردیم و ظاهر حال این بود که پروردگار و معبود ما یکی است و پیغمبر ما یکی است و در دعوت به مسلمانی هم آهنگیم و ما از آنها در ایمان به خدا و تصدیق به فرستاده او فزونی نخواستیم و آنها هم در این باره از ما فزونی نخواستند و وضع ما در همه جهت یکی بود و فقط مورد اختلاف خون خواهی برای عثمان بود، در صورتی که ما از خون عثمان پاك بودیم و بدان آلوده نبودیم.

ما پیشنهاد کردیم: بیایید تا درباره آن چه به دست نداریم امروزه چاره جویی کنیم بهوسیله خاموش کردن آتش شورش و جوشش دشمنی میان خود و شماها و به کمك آرام کردن افکار پریشان توده مردم مسلمان تا آن که کار اسلام محکم گردد و جماعت اسلام بی مخالفت پابرجا شود و ما نیرو گیریم تا هر حقّی را به جای خودش برقرار داریم.

آنها در پاسخ گفتند: ما با زورآزمایی وضع موجود را معالجه می کنیم و سر از پیشنهاد ما برگردانیدند و پافشاری کردند تا جنگ سردرآورد و پر درآورد و پای برجا شد و آتش سوزانش شعلهور و تیز گردید.

و چون دندانش بر کالبد ما و آنها فرو شد و چنگال در تن ما و آنها انداخت، به ناچار به همان پیشنهادی که ما با آنها داشتیم پاسخ مثبت دادند و به حکم قرآن رضا شدند و ما هم باشتاب آن چه را خواستند پذیرفتیم برای آن که حجّت حق بر آنها آشکار شود و عذر جهالت و شبهه آنها قطع گردد تا هرکس بر این مطلب پایید و به درستی آن را پذیرفت، همان کس باشد که خداوندش از هلاکت و نابودی و عذاب نجات داده و هرکس لجبازی کرد و به ناحق اصرار ورزید و آن را کش داد، همان باشد که خود را نگونسار کرده، هم آن که خدایش بر دل مهر زده و پرده کشیده و بدآمد و شکست معنوی بر سر او چرخیده و گرفتارش کرده است.

المختار الثامن والخمسون
ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطيبة صاحب جند حلوان

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْوالِيَ إِذَا آخْتَلَفَ هَواهُ مَنَعَهُ ذلِكَ كَثيراً مِنَ ٱلْعَدْلِ فَلْيَكُنْ أَمْرُ النّاسِ عِنْدَكَ في ٱلْحَقِّ سَواءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ في ٱلْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ ٱلْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ ما تُنْكِرُ أَمْثالَهُ، وَٱبْتَذِلْ نَفْسَكَ فيمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ، راجِياً ثَوابَهُ، وَمُتَخَوِّفاً عِقابَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيا دارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صاحِبُها فيها قَطُّ ساعَةً إلاّ كانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ، وَأَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ ٱلْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً، وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَالإِحْتِسابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجَهْدِكَ، فَإِنَّ الّذي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الّذي يَصِلُ بِكَ، وَالسَّلامُ»[1].

اللغة

(اختلف) من موضع إلى موضع: تردَّد، ومنه الحديث «من اختلف إلى المساجد أصاب إحدى الثمان» ومثله «كنت أختلف إلى ابن أبي ليلى في مواريث لنا»، **(سواء)** قال في المغني: تكون بمعنى مستوٍ، **(الجور)**: الميل عن الحقّ وهو خلاف العدل، **(قطّ)**: من أسماء الأفعال بمعنى انته وكثيراً ما تصدَّر بالفاء ـ مجمع البحرين ـ.

الإعراب

(كثيراً): مفعول مطلق لقوله «منعه» بحذف الموصوف أي منعاً كثيراً أو مفعول له لمنعه، ومن العدل متعلّق به، **(سواء)**: خبر **(فليكن)**، **(عندك)**: ظرف متعلّق **(بسواء)**، **(في الحقّ)**: جار ومجرور متعلّق بقوله «سواء»، **(في الجور)**: ظرف مستقرّ خبر **(ليس)** قدّم على اسمه وهو **(عوض)** و**(من العدل)**: جار ومجرور متعلّق بقوله «عوض»، **(فيها)**: متعلّق بقوله «لم يفرغ»، **(ساعة)**: مفعول فيه، **(فرغة)**: مصدر للمرَّة، **(حفظ نفسك)**: مبتدأ مؤخّر لقوله «ومن الحقّ» وهو ظرف مستقر، و**(عليك)**: متعلّق بقوله «الحقّ»، الباء في **(بك)**: للالصاق.

المعنى

قال الشارح المعتزلي **(ص ١٤٥ ج ١٧ ط مصر)**: لم أقف إلى الآن على نسب الأسود بن قطبة، وقرأت في كثير من النسخ أنّه حارثي من الحارث بن كعب، ولم أتحقّق

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٥١١ ح ٧٠٨.

ذلك، والذي يغلب على ظنّي أنّه الأسود بن زيد بن قطبة بن غنم الأنصاري من بني عبيد بن عدي، ذكره أبو عمر بن عبد الله بن عبد البرّ في كتاب الاستيعاب، وقال: إن موسى بن عقبة عدَّه ممّن شهد بدراً.

أقول: حلوان بلد ربما يعدّ من البلدان العظيمة المحصّنة لحكومة فارس في الدولة الساسانيّة بعد مدائن التي كانت عاصمة تلك الدولة الكبرى في عصرها واقع جنوبَ مدائن ممّا يقرب من أربعة مراحل، وقد تحصّن فيه يزدجرد الثالث بعد هزيمته من مدائن وسقوطها في أيدي المسلمين وعسكر هناك لسدِّ هجوم جيش الإسلام ووقع بين الفريقين حروب هائلة انتهت بسقوط حلوان في أيدي المسلمين وبخراب هذه البلدة العظيمة.

والظاهر أنّه صار معسكراً لجنود الإسلام إلى أيّام زعامة أمير المؤمنين عليه السلام وكان سياسة الزعماء الماضين التي بناها عمر الإهانة والخشونة مع غير المسلمين العرب وإن كانوا مسلمين واحتقارهم والنظر إليهم كعبيد وإماء، وكان من مهمّة حكومته عليه السلام تغيير هذه السياسة العمريّة والإرفاق بعموم الناس تشويقاً لهم إلى قبول الإسلام وإجراءاً للعدالة بين الأنام.

وقد أقدم على هذه السنّة النبويّة من طرقٍ شتّى:

منها: تقريب الموالي والمسلمة من غير العرب وتسويتهم في العطايا مع العرب حتّى المهاجرين منهم والأنصار.

ومنها: إظهار اعتماده عليهم وتفويض المناصب إليهم بقدر لياقتهم، ففوَّض حجابته وهي من أهمِّ المناصب حينئذ إلى قنبر وهو المخلص له عليه السلام والمعتمد عنده.

وروى صاحب منهج المقال بسنده عن جعفر بن محمّد عن أبيه أنَّ عليًّا عليه السلام قال:

لـمّا رأيتُ الأمر أمراً منكراً أوقدتُ ناري ودعوتُ قنبراً

وكفى بذلك شرفاً لقنبر ودليلاً على كمال عنايته عليه السلام به واعتماده عليه.

وقد وصّى عليه السلام صاحب جند حلوان الحاكم في أرض الأُمّة الفارسيّة بأنّه إذا تردَّد على الوالي الأهواء يمنعه من رعاية العدل كثيراً، وأغلب الأهواء المتردِّدة على ذوي القدرة من العرب هو التعصّب العربي والترفّع العنصري الذي نشأوا عليه في الجاهليّة فأخمد لهيبه الإسلام في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ أحياه حكومة عرب وأسرة بني أُميّة، أهل النفوذ في حكومته في جميع البلاد الإسلاميّة وخصوصاً في الشام والعراق التي تليها، فأمره برعاية التساوي في الحقوق بالنسبة إلى جميع الناس ونبّه على أنَّ الجور على أيِّ قبيل لا يقوى به الإسلام ولا يصير عوضاً عن العدل كما زعمه العمريّون بل الجور على غير العرب يوجب نفورهم عن الإسلام.

وأمره باجتناب ما تنكره وهو عرب بالنسبة إلى جميع الناس، وفي قوله عليه السلام **(وابتذل نفسك)** إشارة ظاهرة على ترك الترفّع العنصري أي اجعل نفسك كأحد من الناس لأداء ما فرضه الله عليك.

ونبّهه على أنَّ الدنيا دار امتحان وابتلاء واغتنام فرصة ساعة فيها للراحة والسرور يوجب الحسرة والأسف يوم القيامة، ونبّهه على أنَّ وظيفة الوالي أن يحفظ نفسه أي يمنعها عن هواها وجاهها عن الأمر عليه حتّى ينساها ويخلص همّه وجهده لخدمة الرعيّة مسلمين كانوا أو ذمّيين ومعاهدين معلّلاً بأنَّ ما يصل من رعاية الرعيّة من حسن الذكر ورفاه معيشة العامّة في الدنيا ومن المثوبة في الآخرة أفضل من الذي يصل به من الجهد والمشقّة من ذلك.

قال الشارح المعتزلي في شرح هذه الجملة **(فإنَّ الذي يصل إليك)**: من ثواب الاحتساب على الرعيّة وحفظ نفسك عن مظالمهم والحيف عليهم **(أفضل من الذي يصل بك)** من حراسة دمائهم وأعراضهم وأموالهم، ولا شبهة في ذلك.

وقال ابن ميثم في شرح الجملة **(ص ١٩١ ج ٥ ط موسّسة النصر)**: وأراد أنَّ الذي يصل إلى نفسك من الكمالات والثواب اللازم عنها في الآخرة بسبب لزومك للأمرين المذكورين أفضل ممّا يصل بعدلك وإحسانك إلى الخلق من النفع ودفع الضرر.

أقول: وهو يقرب ممّا ذكره الشارح المعتزلي ولا يخفي ضعف كلا التفسيرين على أهل النظر.

الترجمة

از نامه ای که به اسود بن قطبه، سرلشکر حلوان نگاشته:

امّا بعد، به راستی که اگر هوسهای فرمان گذار پیاپی باشد، او را بسیار از اجرای عدالت جلوگیر گردد، باید از پیروی هوس درگذری و به همه مردم در اجرای حق به یك چشم نگری، زیرا که در خلاف حق هیچ عوضی از عدالت وجود ندارد، برکنار باش از آن چه که مانند آن را نسبت به خود زشت و ناهنجار شماری و خود را در انجام آن چه خدا بر تو فرض کرده و وظیفه تو دانسته خواردار، به امید پاداش نیك او و از بیم شکنجه اش.

و بدانکه دنیا خانه آزمایش و بلا است، هرگز دنیادار ساعتی در آن بیکار و برکنار از انجام وظیفه نیارامد، جز آن که در روز رستاخیز بر آن افسوس خورد و راستش این است که هیچ چیزی تورا از رعایت حق و درستی بی نیاز نسازد و از جمله حقوقی که برعهده تو است، این است که خوددار باشی و نفس خود را مهار زنی و با همه کوشش خود به کارهای رعایا بپردازی، زیرا آن چه از این راه به تو عاید می شود بهتر است از آن رنج و تعب که در اجرای حق و رعایت رعیّت به تو می رسد.

المختار التاسع والخمسون
ومن كتاب له عليه السلام إلى العمال الذين يطأ الجيش عملهم
[عملهم الجيوش]

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَميرِ ٱلْمُؤْمِنينَ إلى مَنْ مَرَّ بِهِ ٱلْجَيْشُ مِنْ جُباةِ الْخَراجِ وَعُمّالِ الْبِلادِ:

أمّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُوداً هِيَ مارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شاءَ اللَّهُ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِما يَجِبُ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ ٱلأَذى وَصَرْفِ ٱلشَّذى، وَأَنا أَبْرَءُ إِلَيْكُمْ وَإِلى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ إلاّ مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ لا يَجِدُ عَنْها مَذْهَباً إلى شِبَعِهِ، فَنَكِّلُوا مَنْ [بِمَنْ] تَناوَلَ مِنْهُمْ [شَيْئاً] ظُلْماً عَنْ ظُلْمِهِمْ، وَكُفوا أَيْدِيَ سُفَهائِكُمْ عَنْ مُضارَّتِهِمْ وَالتَّعَرُّضِ لَهُمْ فيمَا ٱسْتَثْنَيْناهُ مِنْهُمْ وَأَنا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجَيْشِ فَٱرْفَعُوا إِلَيَّ مَظالِمَكُمْ وَما عَراكُمْ مِمّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَلا تُطيقُونَ دَفْعَهُ إلاّ بِاللَّهِ وَبي [فَأَنا] أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ إِنْ شاءَ [اللَّهُ]»(١).

اللغة

(الجباة): جمع جابي: الذين يجمعون الخراج، جبيت الماء في الحوض، أي جمعته، **(الشذى)**: الضرب والشرّ، لقد أشذيت وآذيت، **(المعرّة)**: المضرّة عرَّة معرّة أي ساءه، **(جوعة)**: مرَّة من جاع، **(نكّلوا)** أي عاقبوا، خوّفوا جبّنوا، نكل ينكل بالضمّ: جبُن، **(عراه)** الأمر: غشيه.

الإعراب

(من جباة الخراج): لفظة (من) بيانيّة، **(هي مارّة بكم)**: جملة اسميّة، صفة **(للجنود)** أو حال عنه، **(عنها)**: ظرف مستقرّ مفعول ثانٍ لقوله «لا يجد» ومذهباً مفعوله الأوّل أُخّر عنه و«إلى شعبه» متعلّق بقوله «مذهباً»، **(ظلماً)**: عطف بيان قوله شيئاً.

المعنى

هذا بلاغ رسمي صدر منه عليه السلام يهدف إلى حفظ الأمن والنظام في البلاد الواقعة على مسير الجنود الواجفة إلى جبهة الحرب، والظاهر منه أنّه عليه السلام يسير مع الجنود وله زحفان معها للجنود:

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٨٦ ح ٦٩١، ونهج السعادة: ٤/٢٤١.

١ ـ من المدينة إلى الكوفة إلى البصرة في حرب الجمل.

٢ ـ من الكوفة إلى الشام في حرب صفّين.

فمن المقصود بقوله عليه السلام **(من مرَّ به الجيش)**؟ وهل يمكن أن يكون المخاطب به كلّ أحد من جباة الخراج والعمّال الشامل لأهل الذمّة، ففوّض أمر محاكمة من ظلم من الجيش إلى كلّ فردٍ وفوّض إليه مجازاته وعقوبته فكيف يستقيم ذلك؟ وهل ينتجُ إلاّ الهرج والمرج والشغب؟! فلا بدَّ وأن يكون المخاطب عموم أهل كلّ بلدٍ على نحو الواجب الكفائي ويحتاج إجراء هذا الأمر إلى لجنة مركّبة من أعضاء ينتدبون لإجراء مثل هذه الأمور عن قبل كلّ أهل البلد البالغين الواجدين لشرائط الانتخاب والانتداب وهي المعبّر عنه بلجان الايالات والولايات المنظورة في تشكيلات الدول الراقية لبسط الديموقراطيّة السامية.

فكتابه عليه السلام هذا ينظر إلى تشريع هذا النظام الهامّ الديموقراطي، وقد صرَّح عليه السلام بتفويض الاختيارات في محاكمة الجنديّ المتعدّي ومجازاته وهي شعبة هامّة من دائرة العدليّة في التشكيلات المدنيّة الراقية، ولا بدَّ من اقتدار هذه اللجان على إجراء أُصول المحاكمات وتنفيذ المجازات بوجدان الرجال الاخصّائيّين في هذه المسائل الهامّة، ويشعر بجواز تصدّي أهل الكتاب الذمّيّين لذلك إذا كان عمّال بلد منهم خاصّة أو مساهمين مع المسلمين لأنّ خطابه عليه السلام يشملهم لقوله: **(وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمّتكم)**.

قال الشارح المعتزلي (**ص ١٤٧ ج ١٧**): وإلى ذمّتكم، أي اليهود والنصارى الذين بينكم، قال صلى الله عليه وآله: **«من آذى ذمّيّا فكأنّما آذاني»** وقال: إنّما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا، ويسمّى هؤلاء ذمّة، أي أهل ذمّة بحذف المضاف.

وقد استثنى من معرَّة الجيش وضرره بالناس مادَّة واحدة عن العقوبة وهي مورد الاضطرار لسدّ الجوعة وحفظ النفس عن التلف فيجوز له أخذ ما يأكله إلى حدّ الشبع ولكنّ الظاهر ضمانه لقيمة ما يأخذه اضطراراً لأنّ الاضطرار يسقط الحرمة والعقوبة لا الضمان كما هو مقرَّر في الفقه.

قال ابن ميثم (**ص ١٩٩ ج ٥**): وتقدير الكلام: فإنّي أبرء إليكم من معرَّة الجيش إلاّ من معرَّة جوعة المضطّر منهم، فأقام المضاف إليه مقام المضاف أو أطلقه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

أقول: وهل يجوز معرَّتهم للاضطرار في غير مورد الجوعة كما إذا اضطرّوا إلى قطع الأشجار للبنايات الضروريّة للجيش أو الاسكان في البيوت للاضطرار إلى توقّي الحرّ والبرد

وغير ذلك؟ يشعر إضافة الجوعة إلى المضطرّ بالعموم ويؤيده قاعدة الاضطرار المأخوذة من حديث الرفع المشهور «رفع عن أُمّتي تسعة»[1] وعدَّ منها ما اضطرّوا إليه.

الترجمة

از نامه ای که به کارگران و کارمندان شهرهای سر راه قشون نگاشته است:

از طرف بنده خدا علی امیرمؤمنین به هر کس لشکر بدو گذرد، از کارمندان جمع مالیات و خراج و از کارگران و کارکنان همه شهرستانها.

امّا بعد، به راستی که من لشکرهایی گسیل داشتم که به خواست خدا بر شما گذر خواهند کرد، من سفارش آن چه را خدا بر آنها واجب کرده است نموده ام که خود را از آزار و رنج دادن مردم نگهدارند. من پیش شما مسلمانان و در برابر هرکه در پناه دارم از دیگران، بیزار و بری هستم از زیانکاری های لشکریانم، مگر گرسنه ای از راه ناچاری برای رفع گرسنگی از مال کسی بهره گیرد و راه دیگری برای رفع نیاز خود نداشته باشد، شما هر که را که چیزی به ستم از آنان برگرفت خود او را به سزا برسانید و از ستمش بازدارید.

و دست کم خردان شهرستان خود را از زیان رساندن به لشکر و درآویختن با آنان جز در موردی که استثناء کردم کوتاه سازید و من خود به همراه لشکرم؛ و هر ستم و ناگواری از آنها به شما رخ داد و بر شما چیره شدند و چاره آن را جز به کمك خداوندی نتوانید، به خود من مراجعه کنید و من به کمك خداوند و خواست خدا آن را چاره کنم و نگون گردانم.

---

(١) مكاتيب الرسول: ١/ ٦١٥، ومجمع البحرين: ٣/ ٨٣.

المختار الستون
ومن كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي، وهو عامله على هيت: ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدو طالباً الغارة

«أمّا بَعْدُ، فَإنَّ تَضْييعَ الْمَرْءِ ما وُلِّيَ، وَتَكَلُّفَهُ ما كُفِيَ، لَعَجْزٌ حاضِرٌ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ، وَإِنَّ تَعاطِيَكَ الْغارَةَ عَلى أَهْلِ قِرْقيسا، وَتَعْطيلَكَ مَسالِحَكَ الّتي وَلَّيْناكَ لَيْسَ بِها [لَها] مَنْ يَمْنَعُها وَلا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْها، لَرَأْيٌ شَعاعٌ، فَقَدْ صِرْتَ جِسْراً لِمَنْ أَرادَ الْغارَةَ مِنْ أَعْدائِكَ عَلى أَوْلِيائِكَ غَيْرَ شَديدِ الْمَنْكِبِ، وَلا مَهيبِ الْجانِبِ، وَلا سادٍّ ثُغْرَةً، وَلا كاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوكَةً، وَلا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ، وَلا مُجْزٍ عَنْ أَميرِهِ، وَالسَّلامُ»[١].

اللغة

(المتبّر): الهالك والفاسد، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩]، **(التعاطي)**: تفاعل من العطاء يفيد معنى التناول، **(قرقيسا)**: من القرى التي على الفرات ملحقة بالشام في ذلك الزمان، **(المسالح)** جمع مسلحة: الموضع الذي يقام فيه طائفة من الجند لحمايتها، **(شعاع)**: المتفرّق المبعثر، **(الثغرة)**: الثلمة، **(مجزٍ)**: كافٍ ومغنٍ وأصله مجزيء فخفّفت الهمزة فصار مجزي وأُعلّ إعلال الناقص فصار مجزٍ.

المعنى

قال الوحيد البهبهاني في حاشيته على الرجل الكبير: كميل هذا هو المنسوب إليه الدعاء المشهور، قتله الحجّاج وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أخبره بأنّه سيقتله وهو من أعاظم خواصّه، قال شيخنا البهائي في أربعينه وغيره: والعجب من الوجيزة أنه قال فيه: م ا و ح فتأمّل، قال جدّي رحمه الله: وفي النهج ما يدلُّ على أنّه كان من ولاته على بعض نواحي العراق.

أقول: ومقصوده رحمه الله هذا الكتاب الذي كتبه إليه وهو عامل له على هيت.

وقال الشارح المعتزلي في **(ص ١٤٩ ج ١٧ ط مصر)**: هو كميل بن زياد بن سهيل، وسرد نسبه إلى مالك بن أدد، ثمَّ قال: كان من أصحاب علي عليه السلام وشيعته وخاصّته، قتله

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٥٢٢، ونهج السعادة: ٥/ ٣٢١.

الحجّاج على المذهب فيمن قتل من الشيعة، وكان كميل بن زياد عامل علي عليه السلام على هيت، وكان ضعيفاً يمرُّ عليه سرايا معاوية تنهب أطراف العراق ولا يردّها، ويحاول أن يجبر ما عنده من الضعف بأن يغير على أطراف أعمال معاوية مثل قرقيسيا وما يجري مجراها من القرى الّتي على الفرات.

أقول: الظاهر أنَّ هذا الكتاب التوبيخي الحادّ صدر من ديوان عليّ عليه السلام إلى كميل بن زياد ـ عليه الرحمة ـ بعد إغارة أعوان معاوية على الأنبار وقتل حسّان بن حسّان البكري فأصاب لهيب قلبه الشريف كميلاً، والهدف أمران:

١ ـ التوصية على عمّاله عليه السلام خصوصاً من كان منهم عاملاً في الثغور المتأخمة لعدوّ حيّال كمعاوية على شدَّة الانضباط واليقظة تجاه تنقّلات العدوّ ومهاجمتهم على أعمال ولايتهم من دونها من الولايات التي كانت يحميها عليٌّ عليه السلام.

٢ ـ إشعاره عليه السلام بأنَّ مجاوبة الإغارة بالإغارة في البلاد الإسلاميّة لا يناسب شأن الحكومة العادلة الإسلاميّة لأنَّ في كلِّ بلدٍ جمع من الأطفال والنساء والضعفاء ومن لا يدَ له على تغيير المظالم ولا يرضى بها والإغارة تشمل الحيف على بعض هذه الجماعات التي لا يصحُّ التعرّض لهم، وليس من دأبه عليه السلام الانتقام من الظلم بالظلم بل ردّ الظالم من ظلمه وإلزامه بالعدل مع أنَّ أهل قرقيسيا كأهل أنبار رعاياه مسلمهم وذمّيهم وإن تسلّط عليهم معاوية ظلماً وعدواناً.

الترجمة

از نامه ای که به کمیل بن زیاد نخعی عامل خود در هیت نوشته و مسامحه او را در جلوگیری از عبور لشکر دشمن بر قلمرو حکمرانی او برای غارت بر قلمرو حکومت علی (عليه السلام) و پرداختن به غارت در قلمرو دشمن را بر او زشت شمرده است:

امّا بعد، به راستی که سستی مرد در نگهداری آن چه بر او حکم فرما شده است و تکلف آن چه از او خواسته نشده و مسؤول آن نیست یك ناتوانی است و یك نظریّه باطل و گسیخته و راستی که دست اندازی تو برای چپاول بر مردم شهرستان قرقیسیا و بی سرپرست گذاردن پاسگاه خود که ما به تو واگذار کردیم، در حالی که نیروی دفاع نداشته و کسی نبوده تا لشکر دشمن را از آن براند و جلوگیری کند، محقّقاً رأی بی بنیادی است.

راستی که تو پلی شدی برای هر دشمنی که می خواهد بر دوستانت چپاول کند و مال آنها را ببرد؛ نه بازوی نیرومندی برای دفع دشمن داری و نه از تو حسابی برده می شود و نه هیبتی در قلمروت داری و نه رازی را نگه می داری و نه شوکت دشمن را می شکنی و نه از مردم شهر خود دفاع می کنی و نه از فرمانده و پیشوای خود کفایت می نمایی؛ والسلام.

المختار الواحد والستون
ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الاشتر
لما ولاه إمارتها

«أَمّا بَعْدُ، فإِنَّ ٱللَّهَ ـ سُبْحانَهُ ـ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ نَذيراً لِلْعالَمِينَ وَمُهَيْمِناً عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ، فَلَمّا مَضى ﷺ تَنازَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَٱللَّهِ ما كانَ يُلْقىٰ في رَوْعِي، وَلا يَخْطُرُ بِبالي أَنَّ ٱلْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذا ٱلأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ﷺ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنّي مِنْ بَعْدِهِ!! فَما راعَني إِلاَّ ٱنْثِيالُ ٱلنّاسِ عَلى فُلانٍ يُبايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدي حَتّى رَأَيْتُ راجِعَةَ ٱلنّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلامِ يَدْعُونَ إِلى مَحْقِ دينِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَخَشيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أرى فيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ ٱلْمُصيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلايَتِكُمُ ٱلَّتي إِنَّما هِيَ مَتاعُ أَيّامٍ قَلائِلَ يَزُولُ مِنْها ما كانَ كَما يَزُولُ ٱلسَّرابُ، أَوْ كَما يَتَقَشَّعُ السَّحابُ، فَنَهَضْتُ في تِلْكَ الأَحْداثِ حَتّى زاحَ ٱلْباطِلُ وَزَهَقَ، وَٱطْمَأَنَّ الدّينُ وَتَنَهْنَهَ.

ومنه: إِنّي وَٱللَّهِ لَوْ لَقيتُهُمْ واحِداً وَهُمْ طِلاعُ الأَرْضِ كُلِّها ما بالَيْتُ وَلاَ ٱسْتَوْحَشْتُ، وَإِنّي مِنْ ضَلالِهِمُ ٱلَّذي هُمْ فيهِ وَٱلْهُدَى ٱلَّذي أَنَا عَلَيْهِ لَعَلى بَصيرَةٍ مِنْ نَفْسي وَيَقينٍ مِنْ رَبّي، وَإِنّي إِلى لِقاءِ اللَّهِ لَمُشْتاقٌ، وَحُسْنِ ثَوابِهِ لَمُنْتَظِرٌ راجٍ، وَلكِنَّني آسى أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هذِهِ الأُمَّةِ سُفَهاؤُها وَفُجّارُها فَيَتَّخِذُوا مالَ ٱللَّهِ دُوَلاً وَعِبادَهُ خَوَلاً وَٱلصّالِحِينَ حَرْباً، وَٱلْفاسِقينَ حِزْباً، فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذي قَدْ شَرِبَ فيكُمُ ٱلْحَرامَ وَجُلِدَ حَدًّا في الإِسْلامِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الإِسْلامِ الرَّضائِخُ، فَلَوْلاَ ذلِكَ ما أَكْثَرْتُ تَأْليبَكُمْ وَتَأْنيبَكُمْ وَجَمْعَكُمْ وَتَحْريضَكُمْ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ.

أَلا تَرَوْنَ إِلى أَطْرافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ، وَإِلى أَمْصارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ وَإِلى مَمالِكِكُمْ تُزْوى، وَإِلى بِلادِكُمْ تُغْزى؟! ٱنْفِرُوا ـ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ـ إِلى قِتالِ عَدُوِّكُمْ، وَلا تَثّاقَلُوا إِلى الأَرْضِ فَتَقَرُّوا بِالْخَسْفِ، وَتَبُوءُوا بِالذُّلِّ، وَيَكُونَ نَصيبُكُمُ الأَخَسَّ، وَإِنَّ أَخا ٱلْحَرْبِ الأَرِقُ، وَمَنْ نامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ، وَالسَّلامُ»[1].

---

(١) ميزان الحكمة: ١/ ٥٦٣ ح ٧٥٧، والغارات: ١/ ٣١٦.

اللغة

(مهيمناً): أصل مهيمن مؤيمن فقلبت الهمزة هاءاً كما قيل في أرقت الماء: هرقت، وقد صرّف فقيل: هيمن الرجل إذا ارتقب وحفظ وشهد ـ مجمع البيان. **(الرّوع)**: القلب، **(البال)**: الخاطر، **(تزعج)**: تردّ، **(منحّوه)**: مبعّدوه **(الانثيال)**: الانصباب، **(محق)**: قيل: المحق ذهاب الشيء كلّه حتّى لا يرى له أثر، **(ثلمة)** كبرمة: الخلل الواقع في الحائط وغيره، **(هدمت)** البناء من باب ضرب: أسقطته، **(زاح)**: ذهب، **(زهق)**: زال واضمحلَّ، **(تنهنه)**: سكن، وأصله الكفّ تقول: نهنهت السبع فتنهنه: أي كفَّ عن حركته وإقدامه.

(طلاع الأرض): ملؤها، **(آسى)**: أحزن، **(الدُّولة)** في المال بالضمّ: أن يكون مرَّة لهذا ومرَّة لذاك، **(الخول)**: العبيد، **(الرضيخة)**: شيء قليل يعطاه الإنسان يصانع به عن شيء يطلب منه كالأجر، **(التأليب)**: التحريض والاغراء **(التأنيب)**: أشدّ اللوم، **(ونيتم)**: ضعفتم وفترتم، **(تزوى)**: تقبض، **(تثّاقلوا)**: بالتشديد، أصله تتثاقلوا، **(تقرّوا بالخسف)**: تعترفوا بالضيم وتصبروا له، **(تبوءوا)** بالذلّ: ترجعوا به، **(الأرق)**: الّذي لا ينام.

الإعراب

(نذيراً): حال عن محمد ﷺ، **(أنَّ العرب)**: جواب القسم، **(منحّوه)**: اسم فاعل من نحّى مضاف إلى مفعوله، **(إلاّ انثيال)**: مستثنى مفرَّغ وفي موضع الفاعل لقوله راعني، **(رأيت)**: من رؤية البصر متعدّ إلى مفعول واحد، **(راجعة)**: مصدر مضاف إلى **(الناس)** أي **(ردة الناس)**، **(قد رجعت)**: جملة حالية عن قوله عليه السلام «الناس»، **(تكون المصيبة به)**: جملة وصفيّة لقوله **(ثلماً)**، **(واحداً)**، حال عن فاعل لقيتهم.

وقوله **(وهم طلاع)**: جملة اسميّة حال عن مفعوله، **(وإنّي من ضلالهم)**: استئناف وتعليل لما سبق ويحتمل كونها حاليّة وكذلك قوله **(وإنّي إلى لقاء الله)**، **(لمشتاق)**: مبتدأ مؤخّر لقوله إلى لقاء الله وهو ظرف مستقرّ والجملة خبر قوله (إنّي)، **(وحسن)**: عطف على **(لقاء)** أي لحسن ثوابه وهو خبر مقدّم لقوله **(لمنتظر)**، **(راجٍ)**: صفة لمنتظر مرفوع تقديراً.

(آسى): متكلّم عن مضارع (أسي)، **(أن يلي)**: ناصبة مصدريّة مع صلتها وهي مضارع ولي أي آسف على ولاية السفهاء والفجّار، **(رحمكم الله)**: جملة دعائيّة معترضة بين **(انفروا)** ومتعلّقه، **(فتقرّوا)**: منصوب **(بأن)** مضمرة وكذا ما عطف عليه من قوله عليه السلام: **(وتبوؤا)**، **(ويكون)**.

المعنى

قال الشارح المعتزلي (ص ١٥٢ ج ١٧ ط مصر): والروع: الخلد، وفي الحديث «إنَّ

روح القدس نفث في روعي»[١].

قال: ما يخطر لي ببال أنَّ العرب تعدل بالأمر بعد وفاة محمّد ﷺ عن بني هاشم، ثمّ من بني هاشم عنّي: لأنّه كان المتيقّن بحكم الحال الحاضرة، وهذا الكلام يدلّ على بطلان دعوى الإماميّة النصّ وخصوصاً الجليّ منه.

أقول: قد فسَّرَ أهل البيت في كلامه ﷺ ببني هاشم وهو غير صحيح لأنَّ أهل بيت النبي وعترته هم فاطمة وعليّ والحسن والحسين ﷺ، يدلّ على ذلك آية التطهير.

قال في مجمع البيان بعد تفسير كلمة البيت: واتّفقت الأمّة بأجمعها على أنَّ المراد بأهل البيت في الآية أهل بيت نبيّنا ثمّ اختلفوا فقال عكرمة أراد أزواج النبيّ لأنَّ أوّل الآية متوجّه إليهنّ، وقال أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وعائشة وأمّ سلمة أنَّ الآية مختصّة برسول الله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ﷺ[٢].

---

(١) الكافي: ٥/٨٣ ح ١١، وشرح أصول الكافي: ٢/٢٥٩ ح ١٠.

(٢) **أقوال المفسّرين والعلماء باختصاص آية التطهير بأصحاب الكساء**

* قال أبو بكر النقّاش في تفسيره: أجمع أكثر أهل التفسير أنّها نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم (جواهر العقدين: ١٩٨ الباب الأول، وتفسير آية المودّة: ١١٢).

* وقال سيدي محمّد بن أحمد بنيس في شرح همزيّة البوصيري: (إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) أكثر المفسّرين أنّها نزلت في عليّ وفاطمة والحسنين رضي الله عنهم (لوامع أنوار الكوكب الدرّي: ٢/٨٦).

* وقال العلاّمة سيدي محمّد جسوس في شرح الشمائل: «... ثمّ جاء الحسن بن عليّ فأدخله، ثمّ جاء الحسين فدخل معهم، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمّ جاء عليّ فأدخله ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾» وفي ذلك إشارة إلى أنّهم المراد بأهل البيت في الآية» (شرح الشمائل المحمدية: ١/١٠٧ ذيل باب ما جاء في لباس رسول الله).

* وقال السمهودي: وقالت فرقة، منهم الكلبي: هم عليّ وفاطمة والحسن والحسين خاصّة، للأحاديث المتقدمة (جواهر العقدين: ١٩٨ الباب الأول).

* وقال الطحاوي في مشكل الآثار بعد ذكر أحاديث الكساء: فدلّ ما روينا في هذه الآثار ممّا كان من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى أمّ سلمة ممّا ذكرنا فيها، لم يرد أنّها كانت ممّا أريد به ممّا في الآية المتلوّة في هذا الباب، وأنّ المراد بما فيها هم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وعليّ وفاطمة والحسن والحسين دون ما سواهم (مشكل الآثار: ١/٢٣٠ ح ٧٨٢ باب ١٠٦ ما روي عن النبيّ في الآية).

وقال بعد ذكر أحاديث تلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم الآية على باب فاطمة: في هذا أيضاً دليل على أنّ هذه فيهم (مشكل الآثار: ١/٢٣١ ح ٧٨٥ باب ١٠٦ ما روي عن النبيّ في الآية).

* وقال الفخر الرازي: وأنا أقول: آل محمّد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر؛ فوجب أن يكونوا هم

ذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره: حدَّثني شهر بن حوشب عن أمّ سلمة قالت: جاءت

الآل.
أيضاً اختلف النّاس في الآل، فقيل: هم الأقارب، وقيل: هم أمّته، فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمّة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل؛ فثبت أنّ على جميع التقديرات هم الآل، وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟
فمختلف فيه، وروى صاحب الكشاف أنّه لمّا نزلت هذه الآية]المودّة[قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟
فقال صلى الله عليه وسلم: «**عليّ وفاطمة وابناهما**»، فثبت أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التّعظيم ويدلّ عليه وجوه..) الخ (تفسير الفخر الرازي: ١٦٦/٢٧ مورد آية المودّة (٢٣) من سورة الشورى).
* وقال في موضع آخر: واختلفت الأقوال في أهل البيت، والأولى أن يقال: هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعليّ منهم؛ لأنّه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبيّ وملازمته للنبيّ صلى الله عليه وسلم (تفسير الفخر الرازي: ٢٠٩/٢٥).
* وقال أبو بكر الحضرمي في رشفة الصادي: (والذي قال به الجماهير من العلماء، وقطع به أكابر الأئمّة، وقامت به البراهين وتظافرت به الأدلّة أنّ أهل البيت المرادين في الآية هم سيّدنا عليّ وفاطمة وابناهما... وما كان تخصيصهم بذلك منه صلّى الله عليه وآله وسلّم إلاّ عن أمر إلهيّ ووحي سماويّ... والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وبما أوردته منها يعلم قطعاً أنّ المراد بأهل البيت في الآية هم عليّ وفاطمة وابناهما رضوان الله عليهم، ولا التفات إلى ما ذكره صاحب روح البيان من أنّ تخصيص الخمسة المذكورين عليهم السلام بكونهم أهل البيت من أقوال الشيعة، لأنّ ذلك محض تهوّر يقتضي بالعجب، وبما سبق من الأحاديث وما في كتب أهل السنّة السنيّة يسفر الصبح لذي عينين - إلى أن يقول - وقد أجمعت الأمّة على ذلك فلا حاجة لإطالة الاستدلال له) (رشفة الصادي من بحر فضائل بني النبيّ الهادي: ١٣ - ١٤ - ١٦ ط. مصر و٢٣ و٤٠ ط. بيروت - الباب الأول - ذكر تفضيلهم بما أنزل الله في حقّهم من الآيات).
* وقال ابن حجر: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ (الأحزاب: ٣٣) أكثر المفسّرين على أنها نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين (الصواعق المحرقة: ١٤٣ ط. مصر، وط. بيروت: ٢٢٠ الباب الحادي عشر، في الآيات الواردة فيهم، الآية الأولى).
* وقال في موضع آخر بعد تصحيح الصلاة على الآل:.. فالمراد بأهل البيت فيها وفي كلّ ما جاء في فضلهم أو فضل الآل أو ذوي القربى جميع آله صلى الله عليه وسلم وهم مؤمنو بني هاشم والمطّلب، وبه يعلم أنّه صلى الله عليه وسلم قال ذلك كلّه (مراده الروايات التي حذفت الآل كما في الصحيحين، والروايات التي اثبتت الآل) فحفظ بعض الرواة مالم يحفظه الآخر، ثمّ عَطْف الأزواج والذرّيّة على الآل في كثير من الروايات يقتضي أنّهما ليسا من الآل، وهو واضح في الأزواج بناءً على الأصحّ في الآل أنّهم مؤمنو بني هاشم والمطّلب، وأمّا الذرّيّة فمن الآل على سائر الأقوال، فذكرهم بعد الآل للإشارة إلى عظيم شرفهم (الصواعق المحرقة: ١٤٦ ط. مصر و٢٢٤ - ٢٢٥ ط. بيروت، باب ١١، الآيات النازلة فيهم - الآية الثانية).
* وقال النووي في شرح صحيح مسلم: وأمّا قوله في الرواية الأخرى: «**نساؤه من أهل البيت ولكن أهل بيته من حرم الصدقة**».
قال: وفي الرواية الأخرى: «**فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا**».

فاطمة إلى النبي ﷺ حريرة لها، فقال: ادعي زوجك وابنيك، فجائت بهم فطعموا، ثمّ ألقى

فهاتان الروايتان ظاهرهما التناقض، والمعروف في معظم الروايات في غير مسلم أنّه قال: **«نساؤه لسن من أهل بيته»**، فَتُتَأول الرواية الأولى على أنّ المراد أنهنّ من أهل بيته الذين يسكنونه ويعولهم... ولا يدخلن فيمن حرم الصدقة (صحيح مسلم بشرح النووي: ١٥/ ١٧٥ ح ٦١٧٥ كتاب الفضائل ـ فضائل عليّ).

* وقال السمهودي: وحكى النووي في شرح المهذّب وجهاً آخر لأصحابنا: أنّهم عترته الذين ينسبون إليه صلى الله عليه وسلم قال: وهم أولاد فاطمة ونسلهم أبداً، حكاه الأزهري وآخرون عنه. انتهى.
وحكاه بعضهم بزيادة أدخل الأزواج (جواهر العقدين: ٢١١ الباب الأول، وبهامشه: شرح المهذب: ٣/ ٤٤٨).

* وقال الإمام مجد الدين الفيروز آبادي: المسألة العاشرة: هل يدخل في مثل هذا الخطاب (الصلاة على النبيّ) النّساء؟ ذهب جمهور الأصوليين أنّهنّ لا يدخلن، ونصّ عليه الشافعي، وانتُقد عليه، وخطىء المنتقد (الصلات والبشر في الصلاة على خير البشر: ٣٢ الباب الأول).

* وقال الملاّ عليّ القاري: الأصحّ أنّ فضل أبنائهم على ترتيب فضل آبائهم إلاّ أولاد فاطمة رضي الله تعالى عنها فإنّهم يفضّلون على أولاد أبي بكر وعمر وعثمان؛ لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فهم العترة الطاهرة والذرّيّة الطيّبة الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا (شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة: ٢١٠ مسألة في تفضيل أولاد الصحابة).

* وقال السمهودي بعد ذكر الأحاديث في إقامة النبيّ آله مقام نفسه وذكر آية المباهلة وأنّها فيهم: وهؤلاء هم أهل الكساء، فهم المراد من الآيتين (المباهلة والتطهير) (جواهر العقدين: ٢٠٤ الباب الأول).

* وقال الحمزاوي: واستدلّ القائل على عدم العموم بما روي من طرق صحيحة: **«أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ومعه عليّ وفاطمة والحسن والحسين..»** وذكر أحاديث الكساء، إلى أن قال: ويحتمل أنّ التّخصيص بالكساء لهؤلاء الأربع لأمر إلهيّ يدلّ له حديث أمّ سلمة، قالت: **«فرفعت الكساء لأدخل معهم، فجذبه من يدي»** (مشارق الأنوار للحمزاوي: ١١٣ الفصل الخامس من الباب الثالث ـ فضل أهل البيت).

* وقال القسطلاني: ان الراجح أنّهم من حرمت عليهم الصدقة، كما نص عليه الشافعي واختاره الجمهور ويؤيده قوله صلّى الله عليه وسلّم للحسن بن عليّ: إنّا آل محمّد لا تحل لنا الصدقة، وقيل المراد بآل محمّد أزواجه وذرّيّته.
ثمّ ذكر بعد ذلك كلام ابن عطيّة فقال: الجمهور على أنّهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين وحجتهم (عنكم ويطهّركم) بالميم (المواهب اللدنية: ٢/ ٥١٧ ـ ٥٢٩ الفصل الثاني من المقصد السابع).

* وقال أبو منصور ابن عساكر الشافعي: بعد ذكر قول أمّ سلمة: **«وأهل البيت رسول الله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين»** هذا حديث صحيح.. والآية نزلت خاصّة في هؤلاء المذكورين (كتاب الأربعين في مناقب أمّهات المؤمنين: ١٠٦ ح ٣٦ ذكر ما ورد في فضلهنّ جميعاً).

* وقال ابن بلبان (المتوفى ٧٣٩ هـ) في ترتيب صحيح ابن حبّان: ذكر الخبر المصرّح بأنّ هؤلاء الأربع الذين تقدّم ذكرنا لهم هم أهل بيت المصطفيصلى الله عليه وسلم، ثمّ ذكر حديث نزول الآية فيهم عن واثلة (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان: ٩/ ٦١ ح ٦٩٣٧ كتاب المناقب، ويأتي الحديث بتمامه).

* وقال ابن الصبّاغ من فصوله: أهل البيت على ما ذكر المفسّرون في تفسير آية المباهلة، وعلى ما روي عن أُمّ سلمة: هم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليّ وفاطمة والحسن والحسين (مقدّمة المؤلف: ٢٢).

* وقال الحاكم النيشابوري بعد حديث الكساء والصلاة على الآل وأنّه فيهم: إنّما خرّجته ليعلم المستفيد أنّ أهل البيت والآل جميعاً هم (المستدرك: ٣/ ١٤٨ كتاب المعرفة ـ ذكر مناقب أهل البيت (عليهم السلام)).

عليهم كساءاً له خيبريًا فقال: اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي وعترتي فأذهب عنهم الرِّجس وطهّرهم

---

* وقال الحافظ الكنجي: الصحيح أنّ أهل البيت عليّ وفاطمة والحسنان (كفاية الطالب: ٥٤ الباب الأول).

* وقال القندوزي في ينابيعه: أكثر المفسِّرين على أنّها نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين لتذكير ضمير عنكم ويطهِّركم (ينابيع المودّة: ١/ ٢٩٤ ط. اسلامبول ١٣٠١ هـ و٣٥٢ ط. النجف، باب ٥٩ الفصل الرابع).

* وقال محبّ الدّين الطبري: باب في بيان أنّ فاطمة والحسن والحسين هم أهل البيت المشار إليهم في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** وتجليله صلى الله عليه وسلم إيّاهم بكساء ودعائه لهم (ذخائر العقبى: ٢١).

* وقال السخاوي في القول البديع في بيان صيغة الصلاة في التشهّد: فالمرجع أنّهم من حرمت عليهم الصدقة، وذكر أنّه اختيار الجمهور ونصّ الشافعي، وأنّ مذهب أحمد أنّهم أهل البيت، وقيل: المراد أزواجه وذرّيّته... (عن هامش الصواعق المحرقة لعبد الوهاب عبد اللطيف: ١٤٦ ط. مصر ١٣٨٥ هـ).

* وقال القاسمي: ولكن هل أزواجه من أهل بيته؟ على قولين هما روايتان عن أحمد: أحدهما أنّهنّ لسن من أهل البيت، ويروى هذا عن زيد بن أرقم (تفسير القاسمي المسمّى محاسن التأويل: ١٣/ ٤٨٥٤ مورد الآية ط. مصر = عيسى الحلبي).

* وقال الآلوسي: وأنت تعلم أنّ ظاهر ما صحّ من قوله ﷺ: **«إنّي تارك فيكم خليفتين ـ وفي رواية ـ ثقلين كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»**. يقتضي أنّ النّساء المطهّرات غير داخلات في أهل البيت الذين هم أحد الثّقلين (تفسير روح المعاني: ١٢/ ٢٤ مورد الآية).

* وقال الشاعر الحسن بن عليّ بن جابر الهبل في ديوانه:

آل النّبيّ هُمُ أتباع ملّته	من مؤمني رهطه الأدنون في النّسبِ
هذا مقال ابن إدريس الذي روت الـ	أعلام عنه فمِل عن منهج الكذبِ
وعندنا أنّهم أبناء فاطمة	وهو الصحيح بلا شكّ ولا ريبِ

(جناية الأكوع: ٢٨).

* وقال الحافظ البدخشاني: وآل العباء عبارة عن هؤلاء لأنّه صحّ عن عائشة وأُمّ سلمة وغيرهما بروايات كثيرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جلّل هؤلاء الأربعة بكساء كان عليه، ثمّ قال: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾**.

* وقال توفيق أبو علم: فالرأي عندي أنّ أهل البيت هم أهل الكساء: عليّ وفاطمة والحسن والحسين ومن خرج من سلالة الزهراء وأبي الحسنين رضي الله عنهم أجمعين (أهل البيت: ٩٢ ذيل الباب الأول، و: ٨ـ المقدّمة).

وقال في موضع الردّ على عبد العزيز البخاري: أمّا قوله: إنّ آية التطهير المقصود منها الأزواج، فقد أوضحنا بما لا مزيد عليه أنّ المقصود من أهل البيت هم العترة الطاهرة لا الأزواج (أهل البيت: ٣٥ الباب الأول).

* وقال: وأمّا ما يتمسك به الفريق الاعم والاكبر من المفسّرين فيتجلى فيما روي عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«نزلت هذه الآية في خمسة فيّ وفي عليّ وحسن وحسين وفاطمة»** (أهل البيت: ١٣ ـ الباب الأول).

تطهيراً، فقلت: يا رسول الله وأنا منهم؟ قال: أنت على خير ـ انتهى[1].

وقد روى في هذا المعنى أخباراً أُخر عنها وعن عائشة وعن جابر وعن الحسن بن عليّ عليه السلام وقال: «والروايات في هذا كثيرة من طريق العامّة والخاصّة لو قصدنا إلى إيرادها لطال الكتاب» ـ إلخ.

فالمقصود من الجملتين واحد وهو عدم احتمال تنحية العرب إيّاه عليه السلام عن الخلافة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله والمقصود أنّ استحقاقه لها وتوصية النبيّ صلى الله عليه وآله بكونه بعده صاحب الأمر واضحة جليّة عندهم من إصرار النبي على ذلك وتكراره في كلّ موقف يقتضيه وإعلامه على

---

* وقال الشوكاني في إرشاد الفحول في الردّ على من قال أنّها مختصة بالنّساء: ويجاب عن هذا بأنّه قد ورد بالدليل الصحيح أنّها نزلت في عليّ وفاطمة والحسنين (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول: ٨٣ البحث الثامن من المقصد الثالث، وأهل البيت لتوفيق أبو علم: ٣٦ ـ الباب الأول) .
* وقال أحمد بن محمّد الشامي: وقد أجمعت أمّهات كتب السنّة وجميع كتب الشيعة على أنّ المراد بأهل البيت في آية التطهير النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ؛ لأنّهم الذين فسرّ بهم رسول اللهصلى الله عليه وسلمالمراد بأهل البيت في الآية، وكلّ قول يخالف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعيد أو قريب مضروبٌ به عرض الحائط، وتفسير الرسول صلى الله عليه وسلمأولى من تفسير غيره ؛ إذ لا أحد أعرف منه بمراد ربّه (جناية الأكوع: ١٢٥ الفصل السادس) .
* وقال الشيخ الشبلنجي: هذا ويشهد للقول بأنّهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين ما وقع منه صلى الله عليه وسلم حين أراد المباهلة، هو ووفد نجران كما ذكره المفسّرون (نور الأبصار: ١٢٢ ط. الهند و٢٢٣ ط. قم، الباب الثاني ـ مناقب الحسن والحسين) .
* وقال الشيخ السندي في كتابه (دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحبيب) : وهذا التحقيق في تفسير (أهل البيت) يعيّن المراد منهم في آية التطهير ؛ مع نصوص كثيرة من الأحاديث الصحاح المنادية على أنّ المراد منهم الخمسة الطاهرة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ؛ ولنا وريقات في تحقيق ذلك مجلّد في دفترنا يجب على طالب الحقّ الرجوع إليه (عنه عبقات الأنوار: ١/ ٣٥٠ ط. قم، و٩١١ ط. إصبهان ـ قسم حديث الثقلين) .
* وقال الرفاعي: وقيل عليّ وفاطمة وابناهما، وهو المعتمد الذي عليه جمهور العلماء (المشرع الروي: ١/١٧) .

وقال الدكتور عبّاس العقاد: واختلف المفسرون فيمن هم أهل البيت:
أمّا الفخر الرازي في تفسيره (٦/ ٧٨٣) ، والزمخشري في كشافه، والقرطبي في تفسيره، وفتح القدير للشوكاني، والطبري في تفسيره، والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٦٩) ، وابن حجر العسقلاني في الاصابة (٤/ ٤٠٧) ، والحاكم في المستدرك، والذهبي في تلخيصه (٣/ ١٤٦) ، والإمام أحمد في الجزء الثالث صفحة: ٢٥٩ ؛ فقد قالوا جميعاً: إنّ أهل البيت هم عليّ والسيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين رضي الله عنهم. وأخذ بذكر الأدلة. (فاطمة الزهراء للعقاد: ٧٠ ط. مصر دار المعارف الطبعة الثالثة) .
حقيقة علم آل محمد (عليهم السلام) وجهاته

(١) الأمالي: ٥٥٩ ح ١١٧٣، وبحار الأنوار: ٣٥/ ٢٠٩.

رؤوس الأشهاد في غدير خم وتنصيصه عليه في قوله ﷺ «يا عليّ أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي»[١] المتّفق على صدوره عنه ﷺ غير مرّة فدلالة كلامه عليه السلام على وجود دلائل واضحة ومبيّنة للعرب بخلافته كالنار على المنار.

والعجب من الشارح المعتزلي حيث اتّهم كلامه بالدلالة على عدم وجود النصّ ولا أدري أنّها أيّ دلالة من أقسام الدلالات مطابقة أم تضمّن أم إلتزام؟ وإنّما أظهر عليه السلام العجب من توافق أكثر العرب من ترك إطاعة الكتاب والسنّة وعدم تمكينهم له.

فإنَّ تصدّي الإمامة والتصرّف في أمور الأمّة يحتاج إلى أمرين: صدور النصّ بها وتمكين الأمّة لها، فإذا لم يتمكّنوا للإمام بمقدار يتحقّق جماعة الإسلام بحيث تقوى على إنفاذ الأمور والدفاع عن المخالف يقع الإمام في المحذور لأنّه إن نهض تجاههم بقوّة بشريّة يقتلونه وإن نهض بقوّة إلهيّة تقهرهم فيسقط مصلحة التكليف القائمة على الاختيار وقد قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

قال الشارح المعتزلي في هذه الصفحة: قوله (**فأمسكت بيدي**): أي امتنعت عن بيعته (**حتّى رأيت راجعة الناس**): يعني أهل الردة كمسيلمة وسجاح وطليحة بن خويلد ومانعي الزكاة وإن كان مانعوا الزكاة قد اختلف في أنّهم أهل ردّة أم لا، ثمَّ عقّب كلامه بما رواه عن ابن جرير الطبري من اجتماع أسد وغطفان وطيء على طليحة بن خويلد - إلى أن قال: «فخرج عليّ عليه السلام بنفسه وكان على نقب من أنقاب المدينة».

أقول: الظاهر أنَّ المراد من إمساكه يده إمساكه عن بيعة موافقيه معه وقيامه بالإمامة فانتظر أمر بيعة أبي بكر هل يفوز بالأكثريّة الساحقة بحيث يسقط تكليفه بالجهاد والدفاع لقلّة أعوانه أم لا؟ فكان الأمر رجوع الناس وارتدادهم عن وصيّة رسول الله ﷺ واستخلافه فإنّ المقصود من كلمة (**النّاس**) في قوله: «رأيت راجعة الناس» المعرّف باللام هو المقصود منه في قوله «النّاس» في جملة (**فما راعني إلاّ انثيال النّاس على فلان**).

وقد فسّره الشارح بأبي بكر وقال: أي انصبابهم من كلّ وجه كما ينثال التراب على أبي بكر، وهكذا لفظ الكتاب الّذي كتبه للأشتر وإنّما النّاس يكتبونه الآن «إلى فلان» تذمّماً من ذكر الاسم[٢].

أقول: مرحباً باعترافه بتذمّم النّاس من اسم أبي بكر.

---

(١) المحاسن: ١/١٥٩ ح ٩٧، والكافي: ٨/١٠٧.

(٢) شرح النهج: ١٧/١٥٢، وبحار الأنوار: ٣٣/٥٩٨ ح ٧٤٣.

فمقصوده عليه السلام من النّاس الّذين رجعوا عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمّد صلى الله عليه وآله هم الّذين بايعوا مع أبي بكر، ولمّا أيس عليه السلام من المبارزة معهم بقوّة الأمرة والحكومة وتصدّي زعامة الأمّة عدل إلى مبارزة مسلميّة وبايع أبا بكر ونصر الإسلام بآرائه النيّرة وهداهم إلى المصالح الإسلاميّة كاظماً غيظه وصابراً على سلبهم حقّه، فكم من مشكلة حلّها وقضيّة صعبة لجأوا فيها إليه حتّى قال عمر في عشرات من المواقف: «لولا عليّ لهلك عمر»[١] وهذا هو المعنيّ بقوله عليه السلام: (**فخشيتُ إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم**).

وهذه الصعوبات التي حلّها علماً ورأياً هي الأحداث التي نهضت لها حتّى زاح الباطل وزهق، والمقصود منه توطئة خبيثة دبّرها بنو أميّة لمحق الإسلام والرجوع إلى آداب الجاهليّة الأولى (**واطمأنَّ الدين وتنهنه**) عن الزوال ببقاء ظواهر الإسلام ودفع الشبهات وعرفان جمع من العرب والناس الحقّ ورجوعهم إليه واستقرار طريقة الشيعة الإماميّة وتحزّبهم علماً وتدبيراً حتّى تسلسل أئمّة الحقّ كابراً عن كابر فأوضحوا الحقائق وهدوا إلى صراط عليّ جمًّا غفيراً من الخلائق حتّى قويت شوكتهم وظهرت دولتهم في القرون الإسلاميّة الأولى ودامت واتّسعت طيلة القرون الأخرى تنتظرون أيّام كلمتهم العليا وظهور الحجّة على أهل الأرض والسماء ليظهر الله دينه على الدين كلّه ولو كره المشركون.

ويؤيّد ما ذكرنا قوله عليه السلام: (**إنّي والله لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلّها ما باليت ولا استوحشت**) فإنّه يرجع إلى جميع الأدوار التي مضت عليه ولا يجد ناصراً كافياً لأخذ حقّه وسحق عدوّه وكان يأسى على ولاية السفهاء والفجّار أمر هذه الأمّة إلى أن قال: (**وإنّ منهم من لم يسلم حتّى رضخت له على الإسلام الرضائخ**).

وقد اعترف الشارح المعتزلي بأنّ المقصود منهم المؤلّفة قلوبهم الذين رغبوا في الإسلام والطاعة بمال دفعت إليهم، وهم قوم معروفون كمعاوية وأخيه يزيد وأبيهما أبي سفيان وحكيم بن حزام وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام بن المغيرة وحويطب بن عبد العزّي، والأخنس بن شريق وصفوان بن أميّة وعمير بن وهب الجمحي، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعبّاس بن مرداس وغيرهم وكان إسلام هؤلاء للطمع والأغراض الدنيويّة ـ انتهى[٢].

وليس مقصوده عليه السلام من العرب الّذين كانت تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله ومنحّوه عنه

(١) شرح أصول الكافي: ١١/ ٣٠٤، ووسائل الشيعة: ١/ ٢٠ ح ٢.

(٢) شرح النهج: ١٧/ ٢٢٦.

بعده إلاّ هؤلاء وأتباعهم وهم الّذين انثالوا على أبي بكر يبايعونه وهم الذين رجعوا عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمّد ﷺ، وهذا ظاهر لمن تدبّر كتابه وذيله وفهم سياقه ومغزاه.

وأمّا تاريخ الردّة وأهلها بمالها من الغوغاء في أيّام أبي بكر فيحتاج تحليله وتوضيح حقائقه إلى أبحاث طويلة لا يسع المقام خوضها وتحقيق الحقّ فيها.

ولا يخفى أنَّ تعبيره عليه السلام عمّن يشكو عنهم بالعرب وبالناس مع أنَّ المقام يناسب التعبير عنهم بالمسلمين يشعر بما ذكرناه وكأنّه براعة استهلال بما ذكره بعد ذلك من ارتدادهم ورجوعهم عن الإسلام.

ثمَّ نسأل عن المقصود منه قوله: **(ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقصت - إلخ)** هل المقصود منه إلاّ تجاوز معاوية وأتباعه على بلدان المسلمين وفتحها والغزو معها للاستيلاء عليها فهم على جانب والمسلمون على جانب؟!.

الترجمة

از نامه ای که با مالك اشتر به مردم مصر نگاشت، هنگامی که او را به ولایت مصر گماشت:

امّا بعد، پس به راستی که خداوند سبحان، محمّد (ﷺ) را فرستاد تا بیم دهنده جهانیان باشد و گواه و امین بر همه فرستادگان خداوند منّان، چون از این جهان درگذشت ـ و بر او درود باد ـ مسلمانان بر سر کار خلافت او نزاع کردند و به خدا سوگند که در نهاد من نمی گنجید و در خاطرم نمی گذشت که عرب کار جانشینی و رهبری پس از او را از خاندانش بگردانند و نه این که مرا از پس وفات وی از آن دورسازند و به کنار اندازند.

و مرا در هراس اندر نساخت مگر پیرامون گیری مردم بر فلانی (ابی بکر) در بیعت با وی، من دست روی هم نهادم و به نظاره ایستادم تا برگشت مردم را از دین به چشم خود دیدم که از اسلام برگشته اند و برای نابود ساختن دین محمّد (ﷺ)دعوت می کنند.

پس ترسیدم اگر اسلام و مسلمانان را یاری ندهم رخنه سخت و تباهی کلّی در اسلام بینم که مصیبت آن بر من بزرگتر باشد از فوت سروری و حکمفرمایی بر شما مسلمانها که خود بهره چند روز اندك است و هرچه هم باشد چون سراب زایل گردد و چون ابر و سحاب از هم بپاشد، پس برای دفع و رفع این پیشامدها بپا خواستم و کوشیدم تا باطل از میان رفت و نابود شد و دیانت اسلام گسترده و پابرجا گردید.

و قسمتی از آن نامه چنین است:

راستش این است که به خدا سوگند من یك تنه اگر با همه آنها که روی زمین را یك جا پر کنند روبه رو گردم باکی ندارم و هراسی به خود راه ندهم، من گمراهی آنان را که در آن افتاده اند و راست کرداری و رهیابی خودم را به چشم دل بینایم و در یقین به پروردگارم پای بر جا و راستی که من به ملاقات پروردگارم

بسیار شیفته ام و به راستی که به پاداش نیك او منتظر و امیدوارم، ولی پیوسته اندوه می خورم از این که سرکاری و پیشوایی این امّت اسلامی را کم خردان و هرزه های آنان در دست گیرند، و نتیجه این است که:

مال خدا را که در بیت المال سپرده شود از آن خود دانند و به دست هم بدهند و بندگان خدا را بردگان خود شمارند و نیکان امّت را به پیکار خونین گیرند و تبهکاران را یاران و همدستان خود سازند و از آنان به سود خود حزب درست کنند. زیرا از همین سفیهان است کسی که در میان شما مسلمانها نوشابه حرام نوشیده و در محیط اسلام کیفر آن را چشیده و حدّ شرعی بر او جاری گردیده.

و از هم آنها کسانی اند که اسلام را نپذیرفتند مگر این که برای اظهار مسلمانی، رشوه ها و عوضها بر ایشان مقرّر گردید. اگر این چنین نبود، من تا این جا شما را تشویق به مقاومت و نهضت نمی کردم و به سستی در کار سرزنش نمی دادم و به جمع آوری و توحید نیرو ترغیب نمی نمودم و چون سر بازمی زدید و سستی می کردید شما را وا می گذاشتم. آیا نمی بینید مرزهای شما رو به کاست است و شهرهای شما را دشمن گشوده است و کشورهای شما درهم فشرده و کوچك می شود و شهرستانهای شما را به باد غارت می گیرند؟ کوچ کنید. خدایتان رحمت کناد. برای پیکار با دشمن خود و تنبلی را از خود دور کنید و زمینگیر نشوید تا به کاستی و تباهی اندر شوید و به خواری تن دردهید و بهره شما از زندگی پست تر از همه باشد.

و راستی که دلاور جنگجو بی خواب است و هر کس بخوابد و غفلت ورزد دشمن از او به خواب نیست و در کمین شبیخون به او است؛ والسلام.

المختار الثاني والستون
ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري، وهو عامله على الكوفة وقد بلغه عنه تثبيطه الناس على الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أميرِ ٱلْمُؤْمِنينَ إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ:

أَمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَني عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ، فَإذا قَدِمَ رَسُولي عَلَيْكَ فَارْفَعْ ذَيْلَكَ، وَاشْدُدْ مِئْزَرَكَ، وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ وانْدُبْ مَنْ مَعَكَ، فَإنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ وَأيْمُ ٱللَّهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ، وَلا تُتْرَكُ حَتّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخاثِرِكَ، وَذائِبُكَ بِجامِدِكَ، وَحَتّى تُعْجَلَ في قِعْدَتِكَ، وَتَحْذَرَ مِنْ أمامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَما هِيَ بِٱلْهُوَيْنا التي تَرْجوُ، ولكِنَّها ٱلدّاهِيَةُ ٱلْكُبْرى يُرْكَبُ جَمَلُها، وَيُذَلُّ صَعْبُها، وَيُسَهَّلُ جَبَلُها، فاعْقِلْ عَقْلَكَ، وَامْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصيبَكَ وَحَظَّكَ، فَإنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إلى غَيْرِ رُحْبٍ وَلا في نَجاةٍ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نائِمٌ حَتّى لا يُقالُ: أَيْنَ فُلانٌ؟ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ، وَما أُبالي ما صَنَعَ ٱلْمُلْحِدُونَ، وَالسَّلامُ»[١].

اللغة

(ثبّطهم): حبسهم بالجبن يقال: ثبّطه عن الأمر أي أثقله وأقعده، **(الجحر)** بالضمّ: ثقب الحيّة ونحوها من الحشار، **(الزبد)** بالضمّ: ما يستخرج بالمخض من اللبن، **(خثر)** اللبن خثورة من باب قتل بمعنى ثخن واشتدّ ورجل خاثر النفس أي ثقيل كسلان.

الإعراب

(وهو عامله على الكوفة): جملة حاليّة ويحتمل الاستئناف وكذا ما بعده ويحتمل فيه العطف أيضاً، **(هو لك)**: جملة اسميّة صفة لقوله «قَوْلٌ»، **(وعليك)**: ظرف مستقرٌ معطوف على «لك» ويمكن أن يكون عطفاً على «هو» بتقديره بعده أي وهو عليك فتكون حاليّة والمعنى أنّه قولك حال كونه يكون على ضررك، **(أيم الله)**: قسم وهو مبتدأ لخبر محذوف وهو قسمي وما بعده جواب القسم.

(١) بحار الأنوار: ٦٥/٣٢ ح ٤٥.

المعنى

قال الشارح المعتزلي (**ص ٢٤٦ ج ١١ ط مصر**): المراد بقوله (**هو لك وعليك**) أنَّ أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة: إنَّ عليًا إمام هدى، وبيعته صحيحة إلاّ أنّه لا يجوز القتال معه لأهل القبلة، هذا القول بعضه حقّ وبعضه باطل.

أقول: الظاهر من كلامه أنَّ البعض الحقّ منه تصديقه بامامته وصحّة بيعته والبعض الباطل عدم تجويزه القتال معه لما قال عنه ابن ميثم «ويقول: إنّها فتنة فلا يجوز القيام فيها ويروى عن النبيِّ ﷺ أخباراً يتضمّن وجوب القعود عن الفتنة والاعتزال فيها» ـ إلى أن قال: وهو عليه من وجوه:

١ ـ كان معلوماً من همّه أنّه لم يقصد بذلك إلاّ قعود النّاس عنه، وفهم منه ذلك، وهو خذلان للدين في الحقيقة وهو عائد عليه بمضرَّة العقوبة منه عليه السلام ومن الله تعالى في الآخرة.

أقول: ويؤيّد ذلك ما قيل في حال أبي موسى من أنّه من المعتقدين بعبد الله بن عمر ومن الذين يميلون إلى انتخابه بالخلافة لظاهرة تقواه الجامد العاري عن تحقيق الحقّ كأكثر المتزهّدين وقد اعتزل عن عليّ عليه السلام ولم يبايعه وتبعه جمع من كبار الصحابة كأسامة بن زيد وعمرو بن عاص وسعد بن أبي وقّاص، وكان اعتزالهم عنه عليه السلام فتّ في عضد ولايته ونصرٌ لعدوِّه وهو معاوية وقد لحقوا به بعد ذلك، وأظهر أبو موسى جوهره في قضيّة الحكمين فيما بعد، وقال ابن ميثم:

٢ ـ أنّه لمّا كان على الحقّ في حربه كان تثبيط أبي موسى عنه جهلاً بحاله وما يجب من نصرته والقول بالجهل عائد على القائل بالمضرَّة.

٣ ـ أنّه في ذلك القول مناقض لغرضه لأنّه نهى عن الدخول مع النّاس ومشاركتهم في زمن الفتنة وروى خبراً يقتضي أنّه يجب القعود عنهم حينئذٍ مع أنّه كان أميراً يتهافت على الولاية وذلك متناقض، فكان عليه لا له.

أقول: والأوضح أن يقال أنَّ تصدّيه للولاية في هذه الحالة دخول في الفتنة لأنّها سياسة للناس فلو اعتقد بما نقل لزم عليه الاستعفاء والعزلة عن العمل فوراً مضافاً إلى أنَّ اعترافه بإمامته وصحّة بيعته يقتضي وجوب طاعته عليه فلا معنى للخلاف معه بأيِّ استنادٍ مع أنّه اعتمد على النهي من القتال معه عليه بأنَّ المخالفين من أهل القبلة والقتال مع أهل القبلة لقمع الفتنة مشروع في القرآن كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] وأيُّ بغي أعظم من نكث طلحة والزبير بيعتهما وجمعهما الجموع على خلاف عليّ عليه السلام؟!

وقد شدَّد عليه الأمر بالخروج من الكوفة ومن معه واللحاق به بقوله: **(فارفع ذيلك واشدد مئزرك وأخرج من جحرك، واندب من معك)**.

ثمَّ نبّه عليه السلام إلى ما في قلبه من الشكّ والنفاق بقوله: **(فإن تحقّقت فانفذ وإن تفشّلت فابعد)**.

ثمَّ نبّهه عليه السلام إلى ما يؤول إليه خلافه معه من سوء العاقبة بقوله: **(وأيم الله لتؤتينَّ من حيث أنت ـ إلخ)**.

قال الشارح المعتزلي: معناه إن أقمت على الشكّ والاسترابة وتثبيط أهل الكوفة عن الخروج إليّ وقولك لهم، لا يحلّ لكم سلّ السيف لا مع عليّ ولا مع طلحة، والزموا بيوتكم واكسروا سيوفكم، لتأتينّكم وأنتم في منازلكم أهل بالكوفة أهل البصرة مع طلحة ونأتينّكم نحن بأهل المدينة والحجاز فيجتمع عليكم سيفان من أمامكم ومن خلفكم فتكون ذلك الداهية الكبرى ـ إلخ.

وقال في شرح قوله عليه السلام **(ولا تترك حتّى يخلط زبدك بخاثرك)**: تقول للرجل إذا ضربته حتّى أثخنته: لقد ضربته حتّى خلطت زُبده بخاثره، وكذلك حتّى خلطت ذائبه بجامده، والخاثر اللبن الغليظ، والزبد خلاصة اللبن وصفوته فإذا أثخنت الإنسان ضرباً كنت كأنّك خلطت ما دقَّ ولطف من أخلاطه بما كثف وغلظ منها، وهذا مثل ومعناه لتفسدنَّ حالك ولتخلطنَّ، وليضطربنَّ ما هو الآن منتظم من أمرك ـ إلخ.

أقول: وحيث أنَّ الخطاب له شخصاً يمكن أن يكون مراده عليه السلام الإخبار عن حاله فيما يأتي عليه من انتخابه حكماً في صفّين والمقصود أنّه حيث يصدّق ظاهراً إمامته، ويمنع أهل الكوفة من نصرته بحجّة الدفاع عن مصلحتهم سيأتي عليه الابتلاء بالحكومة في صفّين فيظهر سوء عقيدته بالنسبة إليه عليه السلام وخيانته بأهل الكوفة في إظهار عزل الإمام وتسليمهم إلى معاوية فيعجل في الفرار من الكوفة ويحذر من دنياه وآخرته لما ارتكبه بخدعة عمرو بن العاص معه.

وقد يظهر من بعض التواريخ أنَّ هذا الكتاب ثالث الكتب الذي كتبها عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري وأصرَّ وأبلغ في الاستعانة منه لدفع العدوّ الثائر، ولكن أبو موسى الأشعري أصرَّ على الإنكار والمكابرة حتّى عزله عليه السلام عن ولاية الكوفة وأجرى عزله بيد مالك الأشتر.

الترجمة

این نامه ای است که به ابوموسی اشعری نگاشت که کارگزار آن حضرت بود بر کوفه، در حالی که به آن حضرت گزارش رسید ابوموسی مردم کوفه را از اجابت دعوت آن حضرت باز می دارد، چون آنها را برای جنگ با اصحاب جمل دعوت کرده بود:

از طرف بنده خدا علی امیرمؤمنان به سوی عبدالله بن قیس؛

امّا بعد، راستی که به من از تو گفتاری رسیده است که از آن تو است و بر زبان تو است، چون فرستاده و پیك من اینك به تو دررسد، بی درنگ دامن بالا زن و کمرت را تنگ بربند و از سوراخت به در آی و هر آن که با خود داری احضار کن و اگر حق را دریافتی آن را مجری کن و اگر سستی شیوه خود ساختی و نرد شکّاکی باختی از منصب خود درگذر و دور شو، به خدا سوگند هر چه باشی و هر کجا باشی دستخوش گرفتاری شوی و به دنبالت آیند و رها نشوی تا گوشت و استخوانت به هم درآمیزند و تر و خشکت به هم آمیزند و نهان و عیانت هویدا گردد و تا این که از کناره گیری و بازنشست در شتاب اندر شوی و از آن که در برابرت باشد بهراسی، چونان که از آن که در پشت سرت باشد و پیگرد تو است بهراسی.

این پیشآمد برای تو چنانچه امیدواری، آسان نیست بلکه بزرگترین گرفتاری و دشواری است که باید بر مرکبش برنشست و دشواریش را هموار کرد و گردنه و کوهش را صاف نمود.

خرد خویش را به کارگیر و خود را داشته باش و بهره خود را دریاب و اگر نخواهی دور شو دور، بی خوشآمد و بی کامیابی و رستگاری، تو که در خواب باشی محقّقاً دیگران وظیفه تورا ایفاء کنند و کار تورا کفایت نمایند تا آن که به دست فراموشی سپرده شوی و نگویند: فلانی کجاست؟ به خدا سوگند که این راه حق است و به دست حق دار است و باکی ندارد که ملحدان خدانشناس چه بازی کنند؛ والسلام.

المختار الثالث والستون
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية: جواباً

«أمّا بَعْدُ، فإنّا كُنّا نَحنُ وَأنتُم عَلى ما ذَكَرْتَ مِنَ الألْفَةِ وَالْجماعَةِ فَفَرَّقَ بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ أمْسِ أنّا آمَنّا وَكَفَرْتُم، وَالْيَوْمَ أنّا اسْتَقَمْنا وَفُتِنْتُم، وَما أسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إلاّ كُرْهاً، وَبَعْدَ أنْ كانَ أنفُ الإسْلامِ كُلهُ لِرَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله حِزباً.

وَذَكَرْتَ أنّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَشَرَّدْتُ بِعائِشَةَ وَنَزَلْتُ [بَيْنَ] الْمِصْرَيْنِ! وَذلِكَ أمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ فَلا عَلَيْكَ، وَلاَ الْعُذْرُ فيهِ إلَيْكَ.

وَذَكَرْتَ أنّكَ زائِري في الْمُهاجِرينَ وَالأنصارِ، وَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أخُوكَ، فَإنْ كانَ فيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ [فَاسْتَرْفِهْ]، فَإنّي إنْ أزُرْكَ فَذلِكَ جَديرٌ أنْ يَكُونَ اللّهُ إنّما بَعَثَني إلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ، وَإنْ تَزُرْني فَكَما قالَ أخُو بَني أسَدٍ:

مُسْتَقْبِلينَ رِياحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحاصِبٍ بَيْنَ أغْوارٍ وَجُلْمُودِ

وَعِنْدي السَّيْفُ الَّذي أعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخالِكَ وَأخيكَ في مَقامٍ واحِدٍ، وَإنّكَ ـ وَاللّهِ ـ ما عَلِمْتُ الأغْلَفُ الْقَلْبِ، الْمُقارِبُ الْعَقْلِ، والأولى أنْ يُقالَ لكَ: إنّكَ رَقيتَ سُلَّماً أطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لا لَكَ، لأنّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضالَّتِكَ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سائِمَتِكَ، وَطَلَبْتَ أمْراً لَسْتَ مِنْ أهْلِهِ وَلا في مَعْدِنِهِ فَما أبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ!! وَقَريبٌ ما أشْبَهْتَ مِنْ أعْمامٍ وَأخْوالٍ حَمَلَتْهُمُ الشَّقاوَةُ، وَتَمَنّي الْباطِلِ عَلَى الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَصُرِعُوا مَصارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ لَمْ يَدْفَعُوا عَظيماً، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَريماً بِوَقْعِ سُيُوفٍ ما خَلا مِنْهَا الْوَغى، وَلَمْ تُماشِهَا [تُماسَّها] الْهُوَيْنا.

وَقَدْ أكْثَرْتَ في قَتَلَةِ عُثْمانَ، فَادْخُلْ فيما دَخَلَ فيهِ النّاسُ، ثُمَّ حاكِمِ الْقَوْمَ إلَيَّ أحْمِلْكَ وَإيّاهُمْ عَلى كِتابِ اللّهِ تَعالى، وَأمّا تِلْكَ الَّتي تُريدُ فَإنّها خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ في أوَّلِ الْفِصالِ، وَالسَّلامُ لأهْلِهِ»[١].

اللغة

(أنف) كلّ شيء أوّله وطرفه، **(شرَّده)**: أهربه، **(المصرين)**: الكوفة والبصرة،

---

(١) الإحتجاج: ١/ ٢٦٥، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٩٢.

(واسترفه): نفّس عنك من الرفاهية وهي السعة، **(الأفوار)**: المنخفضة من الأرض، **(الحاصب)**: ريح فيها حصباء وهي الرمل، **(الجلمود)**: الأحجار الصلبة.

(أعضضت) بالضاد المعجمة: أي جعلت السيف يعضّهم ويقتلهم، قال ابن ميثم: وأغصصت السيف بفلان أي جعلته يغصّ به فقرأه بالغين المعجمة والصاد المهملة فجعله من المقلوب وفيه تعسّف.

(أغلق): أي خلقة وجبلّة مغشاة بأغطية فلا يفقه، **(المقارب)** بالكسر: الذي ليس بالتمام، **(الضالّة)**: المفقودة، **(السائمة)**: الأنعام المجتمعة للرعي، **(لم تماشها)**: صيغة جحد من ماشى يماشي أي لا يصاحبها الهوينا، ولا تماسّها كما في نسخة أخرى.

الإعراب

(وأنتم): عطف على اسم **(كنّا)**، **(أنّا آمنّا)**: في تأويل المفرد فاعل فرّق، أي إيماننا وكفركم، **(فذلك جدير)**: جملة اسميّة جزاء الشرط وفي محلّ خبر **(إنّي)**، **(تضربهم بحاصب)**: جملة حاليّة عن الرياح، والله وما علمت: جملتان معترضتان بين اسم **(إنّ)** وخبره وهو الأغلف القلب **(وما)** في ما علمت مصدريّة زمانيّة مفعول فيه لقوله **(علمت)** والفعل ملغى عن مفعوليه ونزل منزلة اللازم لإفادة الإطلاق، **(المقارب)**: خبر ثان **(لأنّ)**، **(قريب)**: عطف على الأغلف، **(ما أشبهت)**: فعل التعجّب.

المعنى

قال الشارح المعتزلي **(ص ٢٥١ ج ١٧ ط مصر)**: أمّا الكتاب الذي كتبه إليه معاوية وهذا الكتاب جوابه، فهو: من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب:

أمّا بعد، فإنّا بني عبد مناف لم نزل ننزع من قليب واحد، ونجري في حلبة واحدة، ليس لبعضنا على بعض فضل، ولا لقائمنا على قاعدنا فخر، كلمتنا مؤتلفة، وألفتنا جامعة، ودارنا واحدة، يجمعنا كرم العرق، ويحوينا شرف النجاد، ويحنو قويّنا على ضعيفنا، ويواسي غنيّنا فقيرنا، قد خلصت قلوبنا من دغل الحسد، وطهرت أنفسنا من خبث النيّة.

فلم نزل كذلك حتّى كان منك ما كان من الإدهان في أمر ابن عمّك، والحسد له، ونصرة الناس عليه، حتّى قتل بمشهد منك، لا تدفع عنه بلسان ولا يد، فليتك أظهرت نصره، حيث أسررت خبره، فكنت كالمتعلّق بين الناس بعدوّ[1] وإن ضعف، والمتبرّي من دمه بدفع وإن وهن.

---

(١) في نسخة: بعذر.

ولكنّك جلست في دارك تدسُّ إليه الدواهي وترسل إليه الأفاعي، حتّى إذا قضيت وطرك منه أظهرت شماتة، وأبديت طلاقة وحسرت للأمر عن ساعدك، وشمّرت عن ساقك ودعوت الناس إلى نفسك، وأكرهت أعيان المسلمين على بيعتك.

ثمّ كان منك ما كان من قتلك شيخي المسلمين أبي محمد طلحة وأبي عبد الله الزبير وهما من الموعودين بالجنّة، والمبشّر قاتل أحدهما بالنار في الآخرة.

هذا إلى تشريدك بأُمّ المؤمنين عائشة، وإحلالها محلّ الهون، مبتذلة بين أيدي الأعراب وفسقة أهل الكوفة، فمن بين مشهّر لها، وبين شامت بها، وبين ساخر منها، ترى ابن عمّك كان بهذه لو رآه راضياً؟ أم كان يكون عليك ساخطاً؟ ولك عنه زاجراً أن تؤذي أهله وتشرّد بحليلته، وتسفك دماء أهل ملّته.

ثمّ تركك دار الهجرة التي قال رسول الله ﷺ عنها: «**إنص المدينة لتنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد**»[1] فلعمري لقد صحّ وعده وصدق قوله، ولقد نفت خبثها وطردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها، فأقمت بين المصرين، وبعدت عن بركة الحرمين، ورضيت بالكوفة بدلاً عن المدينة، وبمجاورة الخورنق والحيرة عوضاً عن مجاورة خاتم النبوّة.

ومن قبل ذلك ما عيّبت خليفتي رسول الله أيّام حياتهما، فقعدت عنهما، وألّبت عليهما، وامتنعت من بيعتهما، ورمتَ أمراً لم يرك الله له أهلاً، ورقيت سلّماً وعراً، وحاولت مقاماً دحضاً، وادّعيت ما لم تجد عليه ناصراً، ولعمري لو ولّيتها حينئذٍ لما ازدادت إلاّ فساداً واضطراباً، ولا أعقبت ولايتكها إلاّ انتشاراً وارتداداً، لأنّك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيل على الناس بلسانه ويده.

وها أنا سائر إليك في جمع من المهاجرين والأنصار تحفّهم سيوف شاميّة، ورماح قحطانيّة، حتى يحاكموك إلى الله، فانظر لنفسك وللمسلمين وادفع إليّ قتلة عثمان، فإنّهم خاصّتك وخلصاؤك والمحدقون بك.

فإن أبيت إلاّ سلوك سبيل اللجاج، والإصرار على الغيّ والضلال، فاعلم أنّ هذه الآية إنّما نزلت فيك وفي أهل العراق معك ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

أقول: وأنا أحكي ما ذكره في شرح الكتابين ونقد كتاب معاوية معلّقاً عليه بما سنح

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٩٠، والغدير: ١٠/ ٢٨٤.

للخاطر على وجه الإيجاز مزيداً للفائدة.

فقال: قال عليه السلام: لعمري إنّا كنّا بيتاً واحداً في الجاهليّة لأنّا بنو عبد مناف.

أقول: لقد أحسن في تفسير الألفة والجماعة بين بيت هاشم وبيت أميّة بأنّهما بنو عبد مناف لأنّ بين البيتين فروق كثيرة حتّى في الجاهليّة - إلى أن قال: ثمّ قال عليه السلام: وما أسلم من أسلم منكم إلاّ كرهاً، كأبي سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وغيرهم من بني عبد شمس.

قال عليه السلام: وبعد أن كان أنف الإسلام محارباً لرسول الله ﷺ، أي في أوّل الإسلام، يقال: كان ذلك في أنف دولة بني فلان، أي في أوّلها، وأنف كلّ شيء أوّله وطرفه، وكان أبو سفيان وأهله من بني عبد شمس أشدّ الناس على رسول الله ﷺ في أوّل الهجرة، إلى أن فتح مكّة.

أقول: قد قرأ الشارح المعتزلي «حربا» بالراء المهملة بعد قوله «وبعد أن كان أنف الإسلام كلّه لرسول الله» فنقله بهذه العبارة نقلاً بالمعنى، والأولى قراءته بالزاء المعجمة «حزباً» لأنّه لا يستقيم كون أنف الإسلام محارباً له ﷺ.

قال: ثمّ أجابه عن قوله «قتلت طلحة والزبير وشرّدت بعائشة، ونزلت بين المصرين» بكلام مختصر أعرض فيه عنه هواناً به، فقال: (**هذا أمر غبت عنه**) فليس عليك به أثم العدوان الذي تزعم ولا العذر إليك لو وجب عليّ العذر عنه.

فأمّا الجواب المفصّل فأن يقال: إنّ طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكثهما ولو استقاما على الطريق ليسلما، ومن قتله الحق فدمه هدر، وأمّا من كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغير مدفوع، ولكنّ العيب يحدث، وأصحابنا يذهبون إلي أنّهما تابا، وفارقا الدنيا نادمين على ما صنعا، وكذلك نقول نحن فإنّ الأخبار كثرت بذلك، فهما من أهل الجنّة لتوبتهما.

أقول: في كلامه هذا تناقض ظاهر فإنّه حكم أوّلاً بأنّهما قتلا أنفسهما، ودمهما هدر، وكيف يجتمع هذا مع القول بأنّهما تابا وندما وهما من أهل الجنّة ولا بدّ أن تكون التوبة قبل الموت.

إلى أن قال: وأمّا الوعد لهما بالجنّة فمشروط بسلامة العاقبة، والكلام في سلامتهما، وإذا ثبتت توبتهما فقد صحّ الوعد لهما وتحقّق.

أقول: الوعد بالجنّة بشرط سلامة العاقبة يعمّ كلّ المسلمين فلا امتياز لهما بهذا الوعد مع أنّ حديث التوبة لم يثبت خصوصاً في حقّ طلحة المقتول في معمعان القتال، ولو تاب

الزبير فلا بدَّ أن يرجع إلى عليّ عليه السلام لا أن يفرَّ من ميدان الحرب ومنه عليه السلام حتّى يقتله ابن جرموز.

إلى أن قال: وأمّا أمّ المؤمنين عائشة فقد صحّت توبتها والأخبار الواردة في توبتها أكثر من الأخبار الواردة في توبة طلحة والزبير لأنّها عاشت زماناً طويلاً وهما لم يبقيا، والذي جرى لها كان خطأً منها، فأيّ ذنبٍ لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك؟ ولو أقامت في منزلها لم تبتذل بين الأعراب وأهل الكوفة، على أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أكرمها وصانها وعظّم من شأنها، ومن أحبَّ أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة، ولو كانت فعلت بعمر ما فعلت به، وشقّت عصا الأُمّة عليه ثمَّ ظفر بها، لقتلها ومزّقها إرباً إرباً، ولكنَّ عليًّا كان حليماً كريماً.

وأمّا قوله: لو عاش رسول الله صلى الله عليه وآله فبربّك هل كان يرضى لك أن تؤذي حليلته، فلعليّ عليه السلام أن يقلب الكلام عليه، فيقول: أفتراه لو عاش أكان يرضى لحليلته أن تؤذي أخاه ووصيّه، وأيضاً أتراه لو عاش أتراه يرضى لك يا ابن أبي سفيان أن تنازع عليًّا الخلافة وتفرّق جماعة هذه الأُمّة، وأيضاً أتراه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا ثمَّ ينكثا لا لسبب، بل قالا: جئنا نطلب الدراهم فقد قيل لنا أنَّ بالبصرة أموالاً كثيرة، هذا كلام يقوله مثلهما.

فأمّا قوله: تركت دار الهجرة، فلا عيبَ عليه إذا انتقضت عليه أطراف الإسلام بالبغي والفساد أن يخرج من المدينة إليها، ويهذّب أهلها، وليس كلّ من خرج من المدينة كان خبثاً، فقد خرج عنها عمر مراراً إلى الشام، ثمَّ لعليّ عليه السلام أن يقلب عليه الكلام فيقول له: وأنت يا معاوية قد نفتك المدينة أيضاً عنها، فأنت إذاً خبث، وكذلك طلحة والزبير وعائشة الذين تتعصّب لهم وتحتجّ على الناس بهم، وقد خرج من المدينة الصالحون، كابن مسعود وأبي ذرّ وغيرهما وماتوا في بلاد نائية عنها.

وأمّا قوله: بعدت عن حرمة الحرمين، ومجاورة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فكلام إقناعيّ ضعيف، والواجب على الإمام أن يقدّم الأهمّ فالأهمّ من مصالح الإسلام، وتقديم قتال أهل البغي على المقام بين الحرمين أولى.

وأمّا ما ذكره من خذلانه عثمان وشماتته به ودعائه الناس بعد قتله إلى نفسه وإكراهه طلحة والزبير وغيرهما على بيعته، فكلّه دعوى والأمر بخلافها ومن نظر كتب السير عرف أنّه بهته وادّعى عليه ما لم يقع منه.

وأمّا قوله: التويت على أبي بكر وعمر، وقعدت عنهما، وحاولت الخلافة بعد

رسول الله ﷺ فإنَّ عليًا عليه السلام لم يكن يجحد ذلك ولا ينكره، ولا ريب أنّه كان يدَّعي الأمر بعد رسول الله ﷺ لنفسه على الجملة، إمّا لنصّ كما تقوله الشيعة أو لأمر آخر كما يقوله أصحابنا.

أمّا قوله: لو وليتها حينئذٍ لفسد الأمر واضطرب الإسلام، فهذا علم غيبٍ لا يعلمه إلاّ الله، ولعلّه لو وليها حينئذٍ لاستقام الأمر وصلح الإسلام وتمهّد.

أقول: لا وجه للتعبير هنا بلعلّه بل هو المحقّق، فإنَّ الفساد والاضطراب نشأ من نقض عهد ولايته عليه السلام حيث إنَّ قبائل العرب الحاضرين في غدير خمّ السامعين لقول النبيّ ﷺ «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه» والواعين لقوله «يا عليُّ أنت منّي بمنزلة هارون من موسى» لا يشكّون في أنَّ القائم بالأمر بعده هو عليّ عليه السلام.

ولكن لمّا رأوا وسمعوا أنَّ أكثر أصحاب النبيّ من المهاجرين والأنصار عدلوا عن وصيّته وتوليته شكَّ بعضهم في أصل الإسلام وفي أنّه دين إلهيّ قائم بالوحي وبعضهم تردَّد في إنجاز أوامره وعهوده ووصاياه في سائر مشاعر الإسلام مثل الزكاة وغيرها فثاروا على الإسلام وارتدّوا.

وهذا هو فلسفة ارتداد العرب على الحكومة المركزيّة القائمة على خلافة أبي بكر الانتخابيّة، ففي السقيفة زرعت جراثيم الفساد وبذورها ونمت إلى أن أثمرت في خلافة عثمان، فقام الاختلاف على ساق وتلاشت وحدة المسلمين، حتّى نقلت الخلافة والزعامة الإسلاميّة إلى أمثال معاوية، وطمعت فيها أمثال طلحة والزبير، فإنَّ ظهور مطامعهم وتكالبهم على الدنيا أثّر في نفوس عامّة الناس وأضعف عقائدهم بالنسبة إلى ما ورد في القرآن الشريف من الوعيد والإنذار.

الترجمة

امّا بعد، ما و شما چنانچه یاد کردی هم انس و گرد هم بودیم، ولی در گذشته از هم جدا شدیم برای آن که ما ایمان آوردیم و شما به کفر باقی ماندید و امروز هم از هم جداییم برای آن که ما در راه راستی می رویم و به ایمان خود پای بندیم و شما پیرامون فتنه هستید و از اسلام برگشتید، شما هم از دل قبول اسلام نکردید، بلکه به ناخواه اظهار مسلمانی نمودید، بعد از این که در صدر اسلام همه را با رسول خدا در نبرد بودید (بعد از این که همه مسلمانان نخست حزب و طرفدار رسول خدا (ﷺ) شدند ـ خ).

یادآور شدی که من طلحه و زبیر را کشتم و عایشه را راندم و در بصره و کوفه اقامت کردم، اینها همه در غیبت تو واقع شده و برعهده تو نیست و به تو مربوط نیست و عذرخواهی از آن به تو ارتباطی ندارد.

یادآور شدی که در جمع مهاجر و انصار مرا دیدار خواهی کرد، با این که از روزی که برادرت (یزید بن ابی سفیان) اسیر شد (یعنی روز فتح مکّه) هجرت برداشته شد و قانون آن ملغی گردید و مسلمانان پس از فتح مکّه که پیرامون تواند مهاجر نیستند، اگر در این دیدار شتابی هست در آسایش باش (بر آن سوار شو خ) زیرا اگر من به دیدار تو آیم سزاوار است، برای آن که خداوندم به دیدار تو فرستد تا از تو انتقام بگیرم و اگر تو به دیدار من آیی چنان است که شاعر بنی اسد سروده:

به پیشواز بادهای گرم تابستانی شتابند تا با خار و خاشاك و سنگ ریزه در پست و بلند روبه رو گردند.

در بر من است همان شمشیری که با آن جدّ تو و دایی و برادرت را در یك میدان (میدان نبرد احد) کشتم و راستی که ـ تا من دانسته ام ـ تو مردی دل مرده و کم خرد بودی و بهتر است درباره تو گفت: به نردبانی بر آمدی که تورا به بد پرتگاهی کشاند و به زیانت رساند و سودی نبری، زیرا کسی را مانی که جز گمشده

خود را جوید و جز چراگاه خویش را بچراند و به دنبال مقامی می گردی که سزاوار آن نیستی و از خاندان آن دوری.

وه چه اندازه گفتار و کردار تو از هم به دورند و تا دانسته ام تو به اعمام و اخوال خود مانی که بدبختی و آرزوهای بیهوده، آنان را به انکار رسالت محمّد (ﷺ) واداشت و تا آن جا با او ستیزه کردند که در قتلگاه خود به خاك و خون غلطیدند، همانجا که تو خود می دانی، نتوانستند از خود دفاعی عظیم نمایند و حریم وجود خود را از زخم شمشیرهایی که میدان نبرد از آنها برکنار نیست مصون دارند، آن جا که سستی و مسامحه در آن روا نیست.

تو درباره کشندگان عثمان پرگفتی، بیا با مسلمانان هم آهنگ شو و آن چه را پذیرفتند بپذیر و سپس آنان را در محضر من محاکمه کن تا تو را و آنها را به قانون کتاب خدا وادارم.

و امّا آن چه تو از دعوی خونخواهی عثمان می خواهی، بدان ماند که به خدعه بخواهند کودکی را در نخست دوران شیربری از شیر بازگیرند و پستان مادر را در پیش او نازیبا و بد جلوه دهند؛ درود بر هر که شایسته او است.

المختار الرابع والستون
ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً

«أَمّا بَعْدُ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ الْباصِرِ مِنْ عِيانِ [عَيْنِ] الأُمُورِ فَلَقَدْ سَلَكْتَ مَدارِجَ أَسْلافِكَ بِادِّعائِكَ الأَباطِيلَ، وَإِقْحامِكَ [اقْتِحامِكَ] غُرُورَ الْمَيْنِ وَالأَكاذِيبِ، وَبِانْتِحالِكَ ما قَدْ عَلا عَنْكَ وَابْتِزازِكَ لِمَا اخْتُزِنَ دُونَكَ، فِراراً مِنَ الْحَقِّ، وَجُحُوداً لما هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ، مِمّا قَدْ وَعاهُ سَمْعُكَ، وَمُلِىءَ بِهِ صَدْرُكَ، فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاّ الضَّلالُ الْمُبِينُ، وَبَعْدَ الْبَيانِ إِلاّ اللَّبْسُ؟ فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَاشْتِمالَها على لُبْسَتِها، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طالَما أَغْدَفَتْ جَلابِيبَها، وَأَعْشَتِ الأَبْصارَ ظُلْمَتُها.

وَقَدْ أَتانِي كِتابٌ مِنْكَ ذُو أَفانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُواها عَنِ السِّلْمِ، وَأَساطِيرَ لَمْ يَحُكْها مِنْكَ عِلْمٌ وَلا حِلْمٌ، أَصْبَحْتَ مِنْها كَالْخائِضِ في الدَّهاسِ، وَالْخابِطِ في الدِّيماسِ، وَتَرَقَّيْتَ إِلى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرامِ، نازِحَةِ الأَعْلامِ، تَقْصُرُ دُونَهَا الأَنُوقُ، وَيُحاذَى بِهَا الْعَيُّوقُ.

وَحاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدِي صَدَراً أَوْ وِرْداً، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْداً أَوْ عَهْداً، فَمِنَ الآنَ فَتَدارَكْ نَفْسَكَ وَانْظُرْ لَها، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبادُ اللَّهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الأُمُورُ، وَمُنِعْتَ أَمْراً هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ، وَالسَّلامُ»[1].

اللغة

(آن): قرب وحان، **(اللمح الباصر)**: النظر بالعين الصحيحة، **(الأباطيل)**: جمع الباطل على غير قياس، **(المدارج)**: الطرائق، **(الاقحام والاقتحام)**: الدخول في الشيء من غير روية، **(المين)**: الكذب، **(الغرور)**: بالضمّ مصدر وبفتح الأول صفة بمعنى الفاعل، **(الانتحال)**: ادّعاء ما ليس له، **(الابتزاز)**: الاستلاب، **(الجحود)**: إنكار ما يعلم.

(أغدفت): المرأة قناعها: أرسلته على وجهها، **(الأفانين)**: الأساليب المختلفة، **(الأساطير)**: الأباطيل واحدها أُسطورة بالضمّ وإسطارة بالكسر، **(الدهاس)**: المكان السهل دون الرمل، **(الديماس)**: بالكسر: المكان المظلم وكالسراب ونحوه.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/١١٩، ونهج السعادة: ٤/٢١٥.

(المرقبة) موضع عالٍ مشرف يرتفع إليه الراصد، **(الأنوق)**: بالفتح: طائر وهو الرخمة أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة، **(العيّوق)**: نجم فوق زحل، **(تنهد)**: ترفع، **(ارتجت)**: اغلقت.

الإعراب

(الباصر): صفة لقوله **(باللمح)** مجازاً أي بلمح الإنسان الباصر و(الباء) للاستعانة، **(بادّعائك)**: **(الباء)** للسببيّة، **(ممّا قد وعاه)**: **(من)** للتعليل، **(فاحذر الشبهة واشتمالها)**: قال الشارح المعتزلي: ويجوز أن يكون اشتمال مصدر مضاف إلى معاوية أي احذر الشبهة واحذر اشتمالك إيّاها على اللبسة، أي ادّراعك بها وتقمّصك - إلى أن قال: ويجوز أن يكون مصدراً مضافاً إلى ضمير الشبهة فقط. **(ذو)**: صفة للكتاب، **(أساطير)**: عطف على **(أفانين)**، **(لم يحك)**: مضارع مجزوم من حاك يحوك وحوك الكلام صنعته ونظمه، **(تقصر دونها)**: جملة حاليّة.

المعنى

قال الشارح المعتزلي **(ص ٢٧ ج ١٨ ط مصر)**: وهذا الكتاب هو جواب كتاب وصل من معاوية إليه عليه السلام بعد قتل عليّ عليه السلام الخوارجَ، وفيه تلويح بما كان يقوله من قبل: (إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدني بقتال طائفة أخرى غير أصحاب الجمل وصفّين، وإنّه سمّاهم المارقين).

أقول: وكان معاوية بعد قتل الخوارج وهم شجعان جيش الكوفة الصادقين للجهاد في صفّين يرجو نيل الخلافة على كافّة المسلمين لأنَّ خلافهم مع عليّ عليه السلام وقتلهم في نهروان كافّة إلاّ عدد يسير قد فتَّ في عضد علي عليه السلام وشوّش أمره إلى حيث انجرّ إلى الفتك به، فانتهز معاوية هذه الفرصة وطمع في قبول عليّ عليه السلام شروطاً للصلح تؤيّد مقصود معاوية في صعود عرش الخلافة الإسلاميّة برضا كافّة المسلمين وتجويز عليّ خلافته بإقراره على ولاية الشام ونصبه على أنّه وليُّ عهد له من بعده.

قال الشارح المعتزلي **(ص ٢٦ ج ١٨ ط مصر)**: وكان كتب إليه يطلب منه أن يفرده بالشام وأن يولّيه العهد من بعده، وأن لا يكلّفه الحضور عنده، وكان مقصوده بعد أخذ هذا الاعتراف عنه عليه السلام التدبير في الفتك به بأيِّ وجه يمكنه، وقد أدرك عليه السلام غرضه من هذا الكتاب فأبلغ في ردعه ودحض مطامعه بما لا مزيد عليه، وبيّن له أنّه بعيد عن مقام الخلافة بوجوه عديدة:

١ ـ سلوكه مسالك أجداده الجاهليّين بادّعاء الأباطيل واقتحام غرور المين والأكاذيب فكأنّه باقٍ على كفره أخلاقاً ومعناً وإن كان مسلماً ظاهراً، فلا أهليّة له لزعامة المسلمين.

٢ ـ دعواه مقاماً شامخاً علا عنه، واستلابه ما قد اختزن دونه، قال الشارح المعتزلي: يعني التسمّي بأمير المؤمنين، وفسّره ابن ميثم بمال المسلمين وبلادهم التي يغلب عليها.

٣ ـ فراره عن الحقّ وجحوده ما يعلمه حقًّا وثبت عنده حتّى وعاه سمعه وملأ به صدره.

وقد فسّره المعتزلي بفرض طاعة عليّ عليه السلام لأنّه قد وعاها سمعه، لا ريب في ذلك.

إمّا بالنصّ في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله كما تذكره الشيعة، فقد كان معاوية حاضراً يوم الغدير لأنه حجَّ معهم حجّة الوداع، وقد كان أيضاً حاضراً يوم تبوك حين قال له بمحضر من الناس كافّة «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى» وقد سمع غير ذلك.

وإمّا بالبيعة كما نذكره نحن فإنّه قد اتّصل به خبرها، وتواتر عنده وقوعها، فصار وقوعها عنده معلوماً بالضرورة كعلمه بأنَّ في الدنيا بلداً اسمه مصر، وإن كان ما رآها.

٤ ـ وانتهى عليه السلام كتابه إلى التأكيد في منعه عن تصدّي الخلافة، فقال عليه السلام **(وحاش لله أن تلي للمسلمين بعدي صدراً أو ورداً، أو أجري لك على أحد منهم عقداً أو عهداً)**.

وهذا تصريح ببعده عن الخلافة إلى حيث دونها الأنوق ويحاذي بها العيّوق.

وأنذره من سوء عاقبة إصراره على التمرّد والطغيان بقوله عليه السلام **(فإنّك إن فرّطت حتّى ينهد إليك عباد الله ارتجت إليك الأمور ـ إلخ)**.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت (عليه السلام) باز هم به معاويه نگاشته است:

امّا بعد، آن هنگامت فرا رسیده که به خود آیی و از آن چه به چشم خود دیدی پند پذیری. به راستی که تو باز هم به راه نیاکان بت پرست خود می روی برای آن که بیهوده دعوی داری و خود را در فریب و دروغ اندر می سازی و آن چه را برتر از مقام تو است به خود می بندی و در آن چه از تو دریغ است دست اندازی می کنی تا از حق گریزان باشی و از پیروی آن چه از گوشت و خون تنت به تو آمیخته تر است سر باز زنی و انکارش کنی، همان حقایقی که به گوش خود فرا گرفتی و در دلت انباشته اند و به خوبی می دانی.

پس از کشف حقیقت، راه دیگری جز گمراهی و ضلالت نیست و پس از تمامی بیان و حجّت، جز شبهه سازی وجود ندارد، از شبهه سازی و فریب کاری و عوام فریبی بر کنار شو، زیرا که دیر زمانی است فتنه و آشوب پرده های سیاه خود را گسترده و با تیرگی خود دیده های کوته بین را کور و نابینا کرده.

نامه ای از تو به من رسید که سرتاسر، سخن بافی ها و دگرگونی ها داشت، منطق درست و خیرخواهی در آن سست بود و به مانند افسانه هایی بود که از دانش و بردباری در نگارش آن بهره ای نبود، به مانند مردی شدی که از خاك تیره گوهر جوید و در تاریکی شب خار برآرد و گام فرا مقامی برداشتی که بسیار از تو دور است و نشانه اش ناجور، کرکس را بدان یارای پرواز نیست و با ستاره عیّوق دمساز است.

پناه بر خدا که تو فرمانروا بر مسلمانان گردی و پس از من در خرد و درشت کار آنها مداخله کنی یا من در این باره برای تو بر یکتن از آنان قرار و تعهّدی امضاء کنم.

از هم اکنون خود را دریاب و برای خویش چاره اندیش، زیرا اگر کوتاه آیی تا بندگان خدا بر سر تو آیند، کارها بر تو دشوار گردد و درهای نجات به روی تو بسته شوند و از آن مقامی که امروزه از تو پذیرا است بازمانی؛ والسلام.

المختار الخامس والستون
إلى عبد الله بن العباس، وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيءِ الذي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَحْزَنُ عَلَى اَلْشَّيْءِ الذي لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ، فَلا يَكُنْ أَفْضَلُ ما نِلْتَ في نَفْسِكَ مِنْ دُنْياكَ بُلُوغَ لَذَّةٍ أَوْ شِفاءَ غَيْظٍ، وَلكِنْ إِطْفاءَ باطِلٍ أَوْ إِحْياءَ حَقٍّ، وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِما قَدَّمْتَ، وَأَسَفُكَ عَلى ما خَلَّفْتَ وَهَمُّكَ فيما بَعْدَ اَلْمَوْتِ»[١].

أقول: وفي قوله رضي الله عنه: وقد تقدَّم ذكره بخلاف هذه الرواية، إشارة إلى أنَّ ما ذكره هنا وما تقدَّم عليه بهذا المعنى مكتوب واحد نقل بروايتين.

فيحتمل أن تكون كلتا الروايتان مأثورتين عنه عليه السلام بناءاً على صدورهما معاً عنه عليه السلام في مكتوب واحد، فتكون إحداهما نسخة بدلٍ صدرت عن الكاتب فبعثت إحداهما وحفظت الأُخرى فنقلت ورويت أيضاً.

ويحتمل أن يكون الاختلاف ناشئاً عن النسّاخ بتصرّف وتصحيف وعلل أُخرى.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت (عليه السلام) به عبدالله بن عبّاس نگاشته، اين نامه به روايت ديگرى که با اين مضمون اختلاف داشت پيشتر نقل شد:

امّا بعد، به راستى که مرد براى رسيدن به بهره اى که از دست به در نمى رود خشنود مى شود (يعنى روزى مقدّر) و بر آن چه نبايد به وى برسد و مقدّر او نيست غمگين مى گردد. نبايد پيش تو بهترين بهره دنيايت، کاميابى جسمانى يا تشفّى خاطر از خشمگينى و انتقام از دشمنت باشد.

ولى بايد بهترين چيزى که به حساب آرى، اين باشد که باطل را خاموش و نابود سازى و يا حقّى را زنده و پايدار کنى، بايد شادى تو به مالى باشد که براى ذخيره آخرتت پيش مى فرستى و افسوست از آن چه باشد که به جاى خود براى ديگران مى گذارى و بايد همّ تو معطوف به وضع تو پس از مردن باشد.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٩٢ ح ٦٩٨، ومستدرك سفينة البحار: ٨/ ١٦٣.

المختار السادس والستون
ومن كتاب له عليه السلام إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكة

«أمّا بَعْدُ، فأقِمْ للنّاسِ ٱلْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأيامِ ٱللَّهِ، وَٱجْلِسْ لَهُمُ ٱلْعَصْرَيْنِ فَأفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ، وَعَلِّم الْجاهِلَ، وَذاكِرِ الْعَالِم، وَلا يَكُنْ لَكَ إِلى النّاسِ سَفيرٌ إِلاّ لِسانُكَ، وَلا حاجِبٌ إِلاّ وَجْهُكَ، وَلا تَحْجُبَنَّ ذا حاجَةٍ عَنْ لِقائِكَ بِها، فَإِنَّها إِنْ ذيدَتْ عَنْ أبْوابِكَ في أوَّلِ وِرْدِها لَمْ تُحْمَدْ فيما بَعْدُ عَلى قَضائِهَا.

وَٱنْظُرْ إِلى مَا ٱجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مالِ ٱللَّهِ فَاصْرِفْهُ إِلى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي ٱلْعِيالِ والْمَجاعَةِ، مُصيباً بِهِ مَواضِعَ الْفاقَةِ [الْمَفاقِرَ] وَالْخَلاّتِ، وَما فَضَلَ عَنْ ذلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنا لِنُقْسِمَهُ فيمَنْ قِبَلَنا.

وَمُرْ أَهْلَ مَكةَ أنْ لا يَأْخُذُوا مِنْ ساكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحانَهُ يَقُولُ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج: ٢٥] فَالْعاكِفُ: الْمُقيمُ بِهِ، وَالْبادِي الذي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَفَّقَنا ٱللَّهُ وَإِيّاكُمْ لِمَحابِّهِ، وَالسَّلامُ»[1].

اللغة

(ذيدت): منعت، **(ورد)**: دخول الغنم والبعير على الماء للشرب، **(المفاقر)** الفقر جمع فقور ومفاقر: ضدّ الغنى وذلك أن يصبح الإنسان محتاجاً أو ليس له ما يكفيه ـ المنجد ـ، **(الباد)**: مخفّف البادي ساكن البادية.

الإعراب

(بأيّام الله): **(الباء)** للتعدية تأكيداً، **(فأفت)**: أمر من أفتى يفتي، **(لك)**: ظرف مستقرّ خبر لقوله «ولا يكن»، **(إلى الناس)**: ظرف متعلّق بقوله «سفير» وهو اسم لا يكن، **(إلاّ لسانك)**: مستثنى في كلام تامّ منفي يجوز فيه النصب والإتباع للمستثنى منه وهوقوله «سفير» فإنّه يفيد العموم لتقدّم النفي عليه ويحتمل كون الاستثناء منقطعاً بدعوى عدم دخول اللسان والوجه في مفهوم السفير والحاجب.

قال الشارح المعتزلي (ص ٣١ ج ١٨): وروى «ولا يكن إلاّ لسانك سفيراً لك إلى الناس» بجعل «لسانك» اسم كان مثل قوله **(فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا)** والرواية

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٩٧ ح ٧٠٢، وميزان الحكمة: ٤/٣٦٠٦.

الأولى هي المشهورة، وهو أن يكون «سفيراً» اسم كان و«لك» خبرها، ولا يصحّ ما قاله الراوندي: إنَّ خبرها «إلى الناس»، لأنَّ «إلى» هاهنا متعلّقة بنفس «سفير» فلا يجوز أن تكون الخبر عن «سفير» تقول: سفرت إلى بني فلان في الصلح، وإذا تعلّق حرف الجرّ بالكلمة صار كالشيء الواحد.

أقول: وأضعف ممّا ذكره الراوندي ما ذكره ابن ميثم **(ص ٢١٧ ج ٥)** «وإلاّ للحصر وما بعدها خبر كان» فإنّه إنّما يستقيم على كون الاستثناء مفرغاً وقد عرفت أنّه تامّ على الرواية المشهورة وعلى ما ذكره الشارح المعتزلي من ـ الرواية الغير المشهورة فالاستثناء مفرّغ ولكن «لسانك» اسم كان لا خبره.

وقال ابن ميثم في الصفحة التالية: وروى «مواضع المفاقر» والإضافة لتغاير اللفظين.

أقول: قد جعل في «المنجد» المفاقر جمع الفقر فالإضافة معنويّة تفيد التخصيص والفرق المعنوي بين المضاف والمضاف إليه جلي.

المعنى

قد نهى عليه السلام في آخر كتابه أهل مكّة عن أخذ الأُجرة عن الحاجّ الساكن في مكّة للحجّ مفسّراً آية ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥] وهل المقصود منه يعمّ أخذ الأُجرة عن الساكنين في البيوت المملوكة أو المقصود خصوص الساكنين في المسجد الحرام كما هو ظاهر الآية وأرض الحرم الغير المملوكة بالخصوص؟ فيه بحث لا يسع المقام بسط الكلام فيه.

قال الشارح المعتزلي: وأصحاب أبي حنيفة يتمسّكون بها ـ أي بهذه الآية ـ في امتناع بيع دور مكّة وإجارتها وهذا بناء على أنَّ المسجد الحرام، هو مكّة كلّها والشافعي يرى خلاف ذلك، ويقول: إنّه الكعبة، ولا يمنع من بيع دور مكّة ولا إجارتها ويحتجّ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠][1].

أقول: في دلالة الآية على ما ذكره أصحاب أبي حنيفة ضعف ظاهر كما أنَّ تفسير المسجد الحرام بخصوص الكعبة كما ذكر عن الشافعي أضعف، كاحتجاجه بالآية على مالكيّة دور مكّة.

---

(١) شرح النهج: ١٨/ ٣٢.

الترجمة

از نامه ای است که آن حضرت به کارگزار خود در مکّه، قثم بن عبّاس نگاشته:

امّا بعد، در انجام حج مردم را راهنما باش و آنها را به روزهای خدا یادآوری کن، در بامداد و پسین برای پذیرایی از آنها بنشین و به هرکس در مسایل دین از تو فتوی خواست فتوی بده و نادانها را دانش بیاموز و با دانشمند از مردم هم گفتگو باش و میان تو و مردم کسی واسطه و ایلچی نباشد جز زبانت و دربانی نباشد جز رخسارت.

هیچ حاجت خواهی را از دیدار خودت پشت در نگذار، زیرا اگر از در خانه تو رانده شود در آغاز مراجعه کردن بر آوردن حاجتش، بعد از آن هم تا آن جا مورد پسند نباشد که جبران آن را بنماید.

آن چه از مال خداوند نزد تو گرد آمد بدان توجّه کن و به عیالداران و گرسنه های محیط فرمان گزاریت مصرف کن و به مستمندان و بیچارگان برسان و هرچه از آن بیش باشد برای ما بفرست تا میان کسانی که در اطراف ما هستند بخش کنیم.

به مردم مکّه دستور بده از کسانی که ساکن مکّه شوند اجرت سکونت نگیرند، زیرا خدای سبحان می فرماید: "عاکفین و بیابانگردان در آن برابرند"، امّا مقصود از عاکف کسانی اند که در مکّه اقامت دارند و مقصود از بادی و بیابانی کسانی اند که جز از اهالی خود شهر مکّه برای انجام وظیفه مقدّس حجّ به مکّه می آیند. خدا ما و شما را برای هر چه دوست دارد توفیق دهد؛ والسلام.

المختار السابع والستون
ومن كتاب له عليه السلام إلى سلمان الفارسي رحمه الله قبل أيام خلافته

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّما مَثَلُ ٱلدُّنيا مَثَلُ ٱلحَيَّةِ، لَيِّنٌ مَسُّها قاتِلٌ سَمُّها، فَأَعْرِضْ عَمّا يُعْجِبُكَ فيها لِقِلَّةِ ما يَصْحَبُكَ مِنْها، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَها، لِما أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِراقِها، وَتَصَرُّفِ حالاتِها، وَكُنْ آنَسَ ما تَكُونُ بِها أَحْذَرَ ما تَكُونُ مِنْها، فإِنَّ صاحِبَها كُلَّما ٱطْمَأَنَّ فيها إلى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلى مَحْذُورٍ [أَوْ إِلى إِيناسٍ أَزالَتْهُ عَنْهُ إِلى إِيحاشٍ، وَالسَّلامُ]»[1].

اللغة

(أشخصته): أذهبته.

الإعراب

(ليّن): خبر مقدّم **(ومسّها)**: مبتدأ مؤخّر وكذا ما بعدها وكلتا الجملتين بمنزلة عطف البيان لقوله عليه السلام «مثل الدنيا مثل الحيّة» فترك فيهما حرف العطف ووصل بينهما وبينها، **(كن آنس ما تكون)** ـ إلخ: قال ابن ميثم: **(ما)** مصدريّة، **(وآنس)** ينصب على الحال **(وأحذر)** خبر كان.

أقول: والأولى جعل آنس وأحذر خبراً واحداً لكان، فيكون من قبيل قولهم «الرمّان حلو حامض».

المعنى

قال الشارح المعتزلي **(ص ٣٩ ج ١٨ ط مصر)**: وكان سلمان من شيعة علي عليه السلام وخاصّته وتزعم الإماميّة أنّه أحد الأربعة الذين حلقوا رؤوسهم وأتوه متقلدي سيوفهم في خبر يطول.

وقد روى من حديث ابن بريده عن أبيه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أمرني ربّي بحبّ أربعة، وأخبرني أنّه يحبّهم: عليٌّ وأبو ذرّ والمقداد وسلمان[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٨/ ٣٤.

(٢) شرح الأخبار: ٣/ ٤٨٧ ح ١٤١٢، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٣٩١.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت (عليه السلام) پیش از دوران خلافتش، به سلمان فارسی (رحمه الله) نگاشته:

امّا بعد، همانا دنیا ماری را ماند نرم اندام و زهرآگین، از آن چه اش که خوشت آمد روی برگردان و دوری گزین که بسیار بیوفا است و اندکی با تو همراه می شود. هیچ اندوه دنیا را مخور، چه به خوبی می دانی از تو جدا می شود و دیگرگونیها دارد. هرگاه بیشتر با او انس گرفتی و دل آرام تو شد، بیشتر از او در حذر باش و بترس، زیرا یار دنیا هرچه به شادی آن دلبند و خاطرجمع باشد او را به مشکل و محذور پرتاب می کند و هرگاه به آرامش او مطمئن شود او را به هراس می افکند.

المختار الثامن والستون
ومن كتاب له عليه السلام إلى الحارث الهمداني

«وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَآنْتَصِحْهُ [وَأَسْتَنْصِحْهُ]، وَأَحِلَّ حَلالَهُ وَحَرِّمْ حَرامَهُ، وَصَدِّقْ بِما سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ، وَآعْتَبِرْ بِما مَضى مِنَ آلدُّنْيا ما [لِما] بَقِيَ مِنْها، فَإِنَّ بَعْضَها يُشْبِهُ بَعْضاً، وَآخِرُها لاحِقٌ بِأَوَّلِها، وَكُلُّها حائِلٌ مُفارِقٌ، وَعَظِّمِ اسْمَ آللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلاّ عَلَى حَقٍّ وَأَكْثِرْ ذِكْرَ آلْمَوْتِ، وَما بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلاّ بِشَرْطٍ وَثِيقٍ، وَآحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضاهُ صاحِبُهُ لِنَفْسِكَ وَيَكْرَهُ [يُكْرِهُهُ] لعامَّةِ آلْمُسْلِمينَ وَآحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ وَيُسْتَحى مِنْهُ في آلْعَلانِيَةِ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذا سُئِلَ عَنْهُ صاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوِ اعْتَذَرَ مِنْهُ، وَلا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبالِ الْقَوْمِ، وَلا تُحَدِّثِ آلنَّاسَ بِكُلِّ ما سَمِعْتَ بِهِ فَكَفى بِذلِكَ كَذِباً، وَلا تَرُدَّ عَلَى آلنَّاسِ كُلَّ ما حَدَّثُوكَ بِهِ فَكَفى بِذلِكَ جَهْلاً، وَاكْظِمِ الْغَيْظَ وَتَجاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ، وَآحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ الْعاقِبَةُ، وَآسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا آللَّهُ عَلَيْكَ، وَلا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ آللَّهِ عِنْدَكَ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ ما أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمالِهِ، وَأَنَّكَ ما تُقَدِّمُ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ، وما تُؤَخِّرُهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ، وَآحْذَرْ صَحابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصاحِبِهِ، وَآسْكُنِ الأَمْصارَ الْعِظامَ فَإِنَّها جِماعُ الْمُسْلِمِينَ، وَآحْذَرْ مَنازِلَ آلْغَفْلَةِ وَآلْجَفاءِ وَقِلَّةَ الأَعْوانِ عَلى طاعَةِ اللَّهِ، وَاقْصُرْ رَأْيَكَ عَلى ما يَعْنِيكَ، وَإِيّاكَ وَمَقاعِدَ الأَسْواقِ فَإِنَّها مَحاضِرُ الشَّيْطانِ وَمَعارِيضُ آلْفِتَنِ، وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أَبْوابِ الشُّكْرِ، وَلا تُسافِرْ في يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتّى تَشْهَدَ الصَّلاةَ إِلاّ فاصِلاً في سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ في أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ، وَأَطِعِ اللَّهَ في جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طاعَةَ اللَّهِ فاضِلَةٌ عَلى ما سِواها، وَخادِعْ نَفْسَكَ في آلْعِبادَةِ، وَارْفُقْ وَلا تَقْهَرْها، وَخُذْ عَفْوَكَ وَنَشاطَها إِلاّ ما كانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ آلْفَرِيضَةِ، فَإِنَّهُ لا بُدَّ مِنْ قَضائِها وَتَعاهُدِها عِنْدَ مَحَلِّها، وَإِيّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ آلْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ في طَلَبِ الدُّنْيا وَإِيّاكَ وَمُصاحَبَةَ آلْفُسّاقِ فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ، وَوَقِّرِ اللَّهَ وَأَحْبِبْ أَحِبّاءَهُ، وَاحْذَرِ آلْغَضَبَ فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ، وَالسَّلامُ»[1].

---

(١) ينابيع المودة لذوي القربى: ٣/٤٤٦.

المعنى

قال الشارح المعتزلي (ص ٤٢ ج ١٨ ط مصر):

الحارث الهمداني ونسبه

هو الحارث الأعور صاحب أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الحارث بن عبد الله بن كعب ـ سرد النسب إلى صعب بن معاوية الهمداني، كان أحد الفقهاء، له قول في الفتيا، وكان صاحب عليّ عليه السلام، وإليه تنسب الشيعة الخطاب الذي خاطبه به في قوله عليه السلام:

يا حارِ هَمْدان من يمت يَرَني ... مِنْ مؤمنٍ أو منافقٍ قِبَلا

وهي أبيات مشهورة قد ذكرناها فيما تقدَّم.

أقول: ظاهر حال المكتوب والكتاب أن يكون من غائب إلى غائب لبيان المآرب، وقد يصدر الكتاب من الأعاظم والأنبياء والأولياء إلى أخصّائهم ليكون مثالاً للإرشاد ومنشوراً للتعليم واستفادة العموم وهدايتهم إلى طريق الرشاد فالمخاطب به خاصّ والمقصود منه عامّ، ومن هذا القبيل رسائل أصحاب عيسى إلى خواصّهم وحواريّهم المعدودة من المآخذ والمصادر الدينيّة عند المسيحيّين والمضمونة في العهد الجديد من الكتاب المقدّس عند أتباع الأناجيل، وهذا الكتاب الذي صدر منه عليه السلام إلى الحارث الهمداني من هذا القبيل فإنّه مثال للهداية والإرشاد لكافّة العباد، ويدلّ على علوّ مقام الحارث الهمداني وحظوته بموقف عالٍ عند أمير المؤمنين عليه السلام حيث خصّه بهذا المنشور الإرشادي الغزير الموادّ والعميق المغزى بالنظر إلى التعاليم العالية الأخلاقيّة كمثل أعلى في طريق التزكية النفسانيّة وافٍ في المرام لجميع الأنام، وقد انتخب السيّد الرضيّ منه قطعة صالحة لما يرمي إليه في نهجه هذا من المقاصد الأدبيّة.

قال ابن ميثم: هذا الفصل من كتاب طويل إليه، وقد أمره فيه بأوامره، وزجره بزواجره، مدارها على تعليم مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

أقول: وقد جمع عليه السلام في هذا الفصل كلّما يلزم لمسلم معتقد إلهيّ في الرابطة بينه وبين الله تعالى من التمسّك بالقرآن وملازمة أحكامه من الحلال والحرام وفي المواجهة مع الدنيا والاعتبار عن فنائها وعدم الركون عليها والاتّعاظ بما سلف منها وفي التوجّه إلى الموت والتهيّؤ لما بعده بادّخار الأعمال الصالحة والاجتناب عن الأعمال المهلكة.

ثمَّ نظم وصايا اجتماعيّة في الروابط بين المسلم وسائر إخوانه وأبناء نوعه وحذَّر عن الاستئثار بما يكره سائر الناس ويضرّهم وعن النفاق، وأمر بصيانة العرض وحفظ اللسان عن

حكاية الكذب بأعمّ معانيها إلى أن بلغ الوصاية بالتضحية في سبيل الله، والاجتناب عن المعاشرة والصحابة مع الفسّاق وضعفاء الرأي والسكونة في الأمصار للإلحاق بجامعة المسلمين ـ إلى آخر ما أفاده عليه السلام.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت (عليه السلام) به حارث همدانی نگاشته:

به رشته قرآن بچسب و اندرزش بجو، حلالش را حلال شمر و حرامش را حرام، بدانچه از حق در گذشته می دانی باور کن و آینده دنیا را با گذشته اش بسنج که به هم مانند و پایانش به آغازش پیوسته شود، همه دنیا گذرا و ناپای است.

نام خدا را بزرگتر شمار از آن که جز به راستی یاد کنی، مرگ و ما بعد مرگ را بسیار بیاد آور، آرزوی مردن مکن مگر با وضعی مورد اعتماد، از کرداری که پسند خود تو و ناپسند دیگر مسلمانها است برحذر باش، از کرداری که نهانی انجام شود و در آشکار شرم آور است بپرهیز، از هر کرداری که چون از کننده آن باز پرسی شود منکر آن گردد یا از آن پوزش خواهد برحذر باش، آبروی خود را عزیزدار و هدف تیر گفتارش مساز، هرچه شنیدی برای مردم حکایت مکن که همین برای آلودگی به دروغگویی بس است، هرچه را مردم برایت حکایت کنند انکار مکن، زیرا این انکار برای اثبات نادانی تو بس است، خشم خود را فرو خور و در هنگام غضب بردبار باش و چون بر انتقام توانا شدی گذشت کن و چون بختت یار و دولتت بیدار شد صرف نظر کن تا سرانجام با تو باشد، هر نعمتی که خدایت داد نیکو دار و هیچ نعمتی را که از نعمتهای خدا است فرو مایه مشمار و از دستش مده و باید اثر نعمت خداوند که به تو عطا کرده در تو دیدار شود.

و بدانکه برتر مؤمنان آن کس است که خود و خاندانش و دارائیش را پیشکش درگاه خدا کند، زیرا هر چیزی که پیش داشتی برای خودت می ماند و هر چه به دنبال خود گذاشتی و درگذشتی خیرش به دیگران می رسد.

از یاران سست نظر و کج اندیشه و زشت کار برحذر باش، زیرا یار را با یارش بسنجند، در شهرهای بزرگ نشیمن کن، زیرا مرکز اجتماع مسلمانانند.

از منزل های دورافتاده و بینوا و کم یاور برای طاعت خداوند دور باش، توجّه خود را به همان چیزی معطوف دار که مسؤول آنی و از آن بهره می بری، از پاتوق بازارها بپرهیز که محضرهای شیطانند و انگیزشگاه آشوبها، به کسی که بر او برتری داری بسیار توجّه کن، زیرا این خود از راههای شکرگزاری است.

در روز جمعه پیش از انجام نماز جمعه مسافرت مکن، مگر برای جهاد در راه خدا یا عذر خدا پسند و مقبول، در هر کاری فرمانبر خدا باش و به دستور او کار کن، زیرا فرمانبری خدا از هر کاری بهتر است، در انجام عبادت خود را گول بزن تا بدان راغب شوی و با خود مدارا کن و به زورش به عبادت وادار مکن و نشاط و رغبت خود را منظور دار، مگر نسبت به نماز واجب و کارهای لازم و مفروض که به ناچار باید انجام داد و به پای آنها ایستاد و در موقع به آنها عمل کرد.

مبادا در حالی مرگ گریبانت بگیرد که برای دنیا از پروردگار خود گریزانی و پشت به حضرت او داری.

مبادا یار بزهکاران شوی که بدی، بدی آرد، خدا را محترم شمار و دوستانش را دوست دار.

از خشم برحذر باش که لشکر بزرگی است از لشکرهای شیطان.

المختار التاسع والستون
ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على المدينة في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية

«أمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَني أنَّ رِجالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إلى مُعَاوِيَةَ فَلا تَأْسَفْ عَلى ما يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفى لَهُمْ غَيّاً وَلَكَ مِنْهُمْ شافياً، فِرارهُمْ مِنَ ٱلْهُدى وَٱلْحَقِّ، وَإِيضاعُهُمْ إلى ٱلْعَمى وَٱلْجَهْلِ، وَإنَّما هُمْ أهْلُ دُنْيا مُقْبِلُونَ عَلَيْها، وَمُهْطِعُونَ إلَيْهَا، قَدْ عَرَفُوا ٱلْعَدْلَ وَرَأوْهُ وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ وَعَلِمُوا أنَّ النّاسَ عِنْدَنا في ٱلْحَقِّ أُسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إلى الأَثَرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً!!

إنَّهُمْ ـ وَٱللّهِ ـ لَمْ يَفِرُّوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإنّا لَنَطْمَعُ في هذَا الأَمْرِ أنْ يُذَلِّلَ ٱللّهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَيُسَهِّلَ لَنا حَزْنَهُ، إنْ شاءَ ٱللّهُ، وَالسَّلامُ [عَلَيْكَ وَرَحْمَةِ اللّهُ وَبَرَكاتُهُ]»[١].

اللغة

(يتسلّلون): يخرجون إلى معاوية هاربين في خفية واستتار، **(فلا تأسف)**: لا تحزن، **(الغيّ)**: الضلال، **(الإيضاع)**: الإسراع، **(مهطعين)**: مسرعين، **(الأسوة)**: مستوين، **(الأثرة)**: الإستبداد.

الإعراب

(ممّن قبلك): **(الباء)** للتبعيض، **(غيًّا)**: تمييز، **(فرارهم)**: مصدر مضاف إلى الفاعل، **(فبعداً وسحقاً)**: منصوبان على المفعول المطلق لفعل محذوف أي «فابعدوا بعداً» و«اسحقوا سحقاً»، يفيد الدعاء عليهم.

المعنى

هذا الكتاب لهيب من لهبات قلبه المقدّس تشتعل من إصابات مخالفة رعاياه على قلبه الشريف حيث يرمونه بسهام نفاقهم وتخلّفهم عنه ساعون وراء آمالهم الدنيويّة الدنيّة، فقد قعد جمع من كبار الصحابة عن بيعته وتخلّف عنه جمّ ممّن بايعه بعد رحلته إلى البصرة لإخماد ثورة الجمل وإلى صفّين لسدّ خلل خلاف معاوية.

---

(١) الغارات: ١/ ٧٣، وبحار الأنوار: ٢٩/ ٤٩٥.

فلمّا انتهت حرب صفّين بأسوء العواقب من مقاومة أهل الضلال وقيام أهل النهروان على وجهه وهم جلّة أصحابه المخلصين الأبطال، وشاعت هذه الأخبار الهائلة وأحسّ المتقاعدون عن البيعة والنفر معه نصرة معاوية عليه بمكائده وبذل الأموال الطائلة لمن مال عنه عليه السلام إليه، شرع المهاجرون والأنصار المتخلّفون عنه في التسلّل إلى معاوية مثنى وفرادى وكان ذلك فتًّا في عضد حكومته وضربة شديدة على عامله في المدينة.

فكأنّه طلب منه عليه السلام معالجة هذا الداء العضال بما رآه عليه السلام.

فكتب إليه بعدم التعرّض لهم وصرف النظر عنهم وتفويضهم إلى سوء عاقبتهم التي اختاروها لأنفسهم من الغيّ والضلال وهلاك الأبد.

وإن كان من جزائهم عند الحكومات بسط العقوبة عليهم بالحبس وبمصادرة أموالهم وهدم دورهم.

ولكنّه عليه السلام عزى عامله عن هذه المصيبة الهائلة بما نبّه عليه من أنّهم أُناس يفرّون من العدل إلى الظلم ومن الهدى إلى الضلالة ومن الحقّ إلى الباطل ومن الجنّة إلى النار بعد تمام الحجّة ووضوح البيان «وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال».

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت به سهل بن حنیف انصاری، فرمانگزار خود در مدینه نگاشت، درباره مردمی که از اهل مدینه به معاویه پیوستند:

امّا بعد، به من رسیده که مردانی از قلمرو فرمانگزاری تو نهانی به معاویه پیوستند و عهد ما را گسستند، بر شماره آنان که از دست می دهی و از کمك آنان بی بهره می شوی افسوس مخور، همین گمراهی و سرگردانی برای سزای آنها و تشفّی خاطر تو بس که از شاهراه هدایت و حقیقت گریخته اند و به کوری و نادانی شتافته اند (چه شکنجه از این بدتر؟) همانا که آنان اهل دنیایند که بدان روی آورده و به سوی آن می شتابند با این که به خوبی عدالت را شناخته و دیده و گزارش آن را شنیده اند و باور کرده اند و دانسته اند که همه مردم نزد ما و در آیین حکومت ما حقوق برابر دارند و از این برابری و برادری گریخته و به دنبال خودخواهی و امتیازطلبی رفته اند گم باشند، نابود باشند.

به راستی که ـ سوگند به خدا ـ اینان از ستم نگریخته اند و به عدل و داد نپیوسته اند و ما امیدواریم که در این کار، خداوند دشواری ها را بر ما آسان سازد و سختی ها را هموار کند، انشاءالله؛ والسلام.

المختار السبعون
ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدي، وقد خان في بعض ما ولاه من أعماله

«أمّا بَعْدُ، فَإنَّ صَلاحَ أبيكَ غَرَّني مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أنكَ تَتَّبعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبيلَهُ، فَإذا أنْتَ فيما رُقِّيَ إليَّ عَنْكَ لا تَدَعُ لِهَواكَ انْقِياداً، وَلا تُبْقي لآخِرتِكَ عَتاداً، تَعْمُرُ دُنْياكَ بِخَرابِ آخِرَتِكَ، وَتَصِلُ عَشيرَتَكَ بِقَطيعَةِ دينِكَ، وَلَئِنْ كانَ ما بَلَغَني عَنْكَ حَقًّا لجَمَلُ أهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَمَنْ كانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأهْلٍ أنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أوْ يُنْفَذَ بِهِ أمْرٌ، أوْ يُعْلى لَهُ قَدْرٌ، أوْ يُشْرَكَ في أمانَةٍ أوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبايَةٍ [خِيانَةٍ] فأقْبِلْ إليَّ حينَ يَصِلُ إلَيْكَ كِتابي هذا إنْ شاءَ اللَّهُ.

قالَ الرَّضيُّ: [وَ] ٱلْمُنْذِرُ هذا هُوَ الَّذي قالَ فيهِ أميرُ ٱلْمُؤْمِنينَ عليه السلام: إنَّهُ لَنَظّارٌ في عِطْفَيْهِ، مُخْتالٌ في بُرْدَيْهِ، تَفّالٌ في شِراكَيْهِ»[1].

اللغة

(رقّي) بالتشديد: رفع إليّ، وأصله أن يكون الإنسان في موضع عال فيرقى إليه شيء، **(العتاد)**: العدّة، **(الشسع)**: سير بين الأصبعين في النعل العربي.

الإعراب

قال الشارح المعتزلي: **(واللام)** في لهواك متعلّقة بمحذوف دلّ عليه «انقياداً» لأنَّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر.

أقول: يصحّ أن تتعلّق بقوله «لا تدع» فلا يحتاج إلى تكلّف التقدير وهو أوضح معناً أيضاً وكذا في الجملة التالية.

المعنى

المنذر بن الجارود من أشراف العرب ومن عبد القيس الناهي في الشرف ينسب إلى نزار بن معد بن عدنان، كان الجارود نصرانيًّا فوفد على النبيّ صلى الله عليه وآله في سنة تسع أو عشر من

(١) خاتمة المستدرك: ٥/ ٤٢٠، والغارات: ٢/ ٨٩٧.

الهجرة فأسلم وحسن إسلامه وسكن بعد ذلك في البصرة وقتل بأرض فارس أو نهاوند مع النعمان بن المقرّن.

وقد بلغ عليٌّ عليه السلام في ذمّه وتوبيخه في هذا الكتاب لما ثبت عنده من خيانته في أموال المسلمين وصرفها في شهواته وعشيرته زائداً على ما يستحقّون وهذا ممّا لا يتحمّله عليه السلام.

قال الشارح المعتزلي في (ص ٥٩ ج ١٨ ط مصر): وأمّا الكلمات التي ذكرها الرضيّ عنه عليه السلام في أمر المنذر فهي دالّة على أنّه نسبه إلى التيه والعجب، فقال: **(نظّار في عطفيه)** أي جانبيه: ينظر تارة هكذا وتارة هكذا، ينظر لنفسه ويستحسن هيئته ولبسته، وينظر هل عنده نقص في ذلك أو عيب فيستدركه بإزالته، كما يفعل أرباب الزهو ومن يدّعي لنفسه الحسن والملاحة.

قال: **(مختال في برديه)** يمشي الخيلاء عجباً - إلى أن قال **(تفّال في شراكيه)** الشراك: السير الذي يكون في النعل على ظهر القدم، والتفل بالسكون مصدر تفل أي بصق، والتفل محرّكاً: البصاق نفسه وإنّما يفعله المعجب والتائه في شراكيه ليذهب عنهما الغبار والوسخ، يتفل فيهما ويمسحهما ليعودا كالجديدين.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت (ع) به منذر بن جارود عبدی نگاشت که در کار فرمانگزاری خود خیانت کرده بود:

امّا بعد، به راستی که خوبی و شایستگی پدرت مرا فریفت و گمان بردم پیرو درستی او هستی و به راه او می روی، به ناگاه چنین به من رسید که تو یکسره هوسبازی و دنبال هوای نفس می روی و برای آخرتت توشه ای برنمی گیری و در فکر سرای دیگر نیستی.

دنیایت را به ویرانی آخرتت آباد می کنی و با دینت به خویشانت وصله می زنی و به آنها کمك می کنی.

و اگر چنانچه آن گزارشاتی که از تو به من رسیده درست باشد، شتر خاندانت و بند کفشت بهتر از تو است و کسی که چون تو باشد شایسته نباشد که مرزداری کند و یا کاری بهوسیله او انجام شود و یا درجه ای از او بالا رود یا شریك در کارگزاری خلافت که امانت الهی است بوده باشد یا آن که بر جمع خراج و مالیات امین شمرده شود، به محض این که این نامه من به تو رسید به سوی من بیا، انشاء الله.

المختار الواحد والسبعون
ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس

«أمّا بَعْدُ، فَإنَّكَ لَسْتَ بِسابِقٍ أجَلَكَ، وَلا مَرْزُوقٍ ما لَيْسَ لَكَ وَاعْلَمْ بِأنَّ الدَّهْرَ يَوْمانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأنَّ الدُّنْيا دارُ دُوَلٍ، فَما كانَ مِنْها لَكَ أتاكَ عَلى ضَعْفِكَ، وَما كانَ مِنْها عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ»[1].

المعنى

بعد ما انتشر الإسلام وورد الخراج والغنائم كالسيل إلى الحجاز، مال جمع من الصحابة إلى ادّخار الأموال وتحصيل الثروة والجاه، وقد حذّرهم عليه السلام من الاغترار بالدنيا وزخارفها وملأ أسماعهم بالمواعظ الشافية في الخطب والكتب ومنها هذا الكتاب الذي أرسله إلى ابن عبّاس ليكون عظةً وإرشاداً للناس، ونبّه فيه على أنَّ الرزق والأجل أمران مقدَّران مرزوقان وأنَّ إقبال الدنيا وإدبارها على كلِّ أحد لا يكون بالكسب والجهد وأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريب.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت به عبدالله بن عبّاس نگاشت:

امّا بعد، به راستى كه تو از اجل مقدّر پيشدستى نتوانى و آن چه را از آنت نيست روزى نگيرى، بدان كه روزگار دو هنگامه است، روزى به سود تو و روزى به زيانت، دنيا خانه ای است كه دست به دست می گردد آن هنگامه كه از آن تو است تو را آيد گر چه بينوا باشى و آن هنگامه كه بر زيان تو است بر سرت چرخد و نتوانى به نيروى خود جلويش را بگيرى.

(١) كتاب التمحيص: ٥٤، وكمال الدين وتمام النعمة: ٥٧٣.

المختار الثاني والسبعون
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنّي عَلَى التَرَدُّدِ في جَوابِكَ، وَالإِسْتِماعِ إِلى كِتابِكَ لَمُوَهِّنٌ رَأْيي، وَمُخَطِّىءٌ فِراسَتي، وَإِنَّكَ إِذْ تُحاوِلُني الأُمورَ وَتُراجِعُني السُّطُورَ كَالْمُسْتَثْقِلِ النّائِمِ تَكْذِبُهُ أَحْلامُهُ، وَالْمُتَحَيِّرِ الْقائِمِ يَبْهَظُهُ مَقامُهُ، لا يَدْري أَلَهُ ما يَأْتي أَمْ عَلَيْهِ، وَلَسْتَ بِهِ غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبيهٌ وَأُقْسِمُ بِاللّهِ إِنَّهُ لَوْلا بَعْضُ الإِسْتِبْقاءِ لَوَصَلَتْ إِلَيْكَ مِنّي قَوارِعُ: تَقْرَعُ الْعَظْمَ، وَتَهْلِسُ [تَنْهَسُ] اللَّحْمَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُراجِعَ أَحْسَنَ أُمورِكَ، وَتَأْذَنَ لِمَقالِ نَصيحَتِكَ [وَالسَّلامُ لأَهْلِهِ]».

قال المعتزلي: وروى تهلس اللحم وتلهس بتقديم اللام وتهلس بكسر اللام تذيبه حتّى يصير كبدن به الهلاس وهو السلّ، وأمّا تلهس فهو بمعنى تلحس ابدلت الحاء هاءاً وهو من لحست كذا بلساني بالكسر، ألحسه، أي تأتي على اللحم حتّى تلحسه لحساً، لأنَّ الشيء إنّما يلحس إذا ذهب وبقي أثره وأمّا «ينهس» وهي الرواية المشهورة فمعناه يعترق[1].

اللغة

(موهّن): مضعّف، وقال المعتزلي: لائم نفسي ومستضعف رأيي، **(التردّد)** الترداد والتكرار في مجاوبة الكتب والرسائل، **(بهظه)**: أثقله، **(القوارع)**: الشدائد، **(ثبّطه)** عن كذا: شغله، **(تأذن)** بفتح الذال: تسمع.

الإعراب

(لموهّن): خبر **(فإنّي)** **(ورأيي)** مفعوله، **(كالمستثقل)**: خبر **(إنّك)**، **(تكذّبه)**: جملة حاليّة عن «النائم» وكذا جملة **(لا يدري)**.

المعنى

يأسف عليه السلام في كتابه هذا على ابتلائه بالمراسلة مع معاوية حيث يعلم أنَّ المواعظ لا تؤثّر فيه وما يتضمّن كتبه من إظهار الاعتقاد بالله ورسوله صرف لقلقة اللسان ولا يجوز تراقيه، بل تظاهره بمطالبة دم عثمان لا يكون عن اعتقاده بأنّه ممّا يجب عليه وله حقّ فيه بل جعله وسيلة إلى جلب قلوب أنصاره وموافقيه الذين ضلّوا وأضلّوا، فشبّهه بالنائم الثقيل الذي

(١) شرح النهج: ١٨/ ٦٢

يرى أحلاماً كاذبة والمتحيّر في المقام الذي لا يقدر حمله والجاهل في أعماله الذي لا يدري أنَّ ما يأتيه في عقب أعماله ينفعه أو يضرّه.

ثمَّ نبّه على أنَّ مداراته معه لا تكون لعجزه عن قمعه وقهره بل لما يقتضيه المصلحة من إبقاء ظاهر الإسلام وحفظ مركزيّة العلم والدين بوجود أهل البيت وعترته الحاملين لحقائق الدين والقرآن.

فإنّه لو يجدّ في الحرب معه ليستأصله من شافته ينجرّ إلى هلاك أنصاره عليه السلام وأنصار معاوية المتمسّكين بالإسلام، فيكرّ الكفّار على المسلمين ويقهرونهم في ظاهر الدين وربما ينجرّ إلى قتل الحسن والحسين عليهما السلام بقيّة العترة الطاهرة فينقطع الإمامة كما صرّح به في الاستسلام إلى اقتراح قبول الصلح في جبهة صفّين.

فالمقصود من بعض الاستبقاء في كلامه عليه السلام هو الاستبقاء على ظاهر الإسلام وحفظ العترة الطاهرة لخير الأنام وهذا هو المصلحة التي رعاها في ترك المحاربة مع أصحاب السقيفة ومخالفيه بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت (عليه السلام) به معاويه نگاشته:

امّا بعد، به راستی که من در تکرار پاسخ نامه های تو و شنیدن آنها، رأی خود را سست می شمارم و خود را سرزنش می نمایم و نباید مراسله با تو را تا این حد ادامه دهم و تو که در کارها با من داد و ستد می کنی و در نگارش سطور مراجعه و تکرار می نمایی کسی را مانی که در خواب سنگینی اندر است و رؤیاهای دروغین بیند و یا کسی که در مقامی برتر از خود ایستاده و بر دوش او سنگینی می کند و نمی داند آینده به سود او است یا زیان او، تو خود او نیستی، مانند او هستی.

به خدا سوگند، اگر برای حفظ بقیّه ظواهر اسلام و بقیّه عترت خیرالانام و مؤمنین پاکدل نبود، ضربتهای کوبنده از من به تو می رسید که استخوانت را خرد می کرد و گوشت تنت را همه از آن جدا می نمود، بدان که شیطان بر سر راه تو است و تو را به کلّی باز داشته از این که به کارهای بهتر و نتیجه بخش تر از آن چه می کنی برگردی و راه دین و حقیقت را بپویی و به گفته های اندرزگوی خود گوش بدهی، (درود بر اهل آن).

المختار الثالث والسبعون
من حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن، ونقل من خط هشام بن الكلبي

«هذا مَا ٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْيَمَنِ حاضِرُها وَباديها، وَرَبيعَةُ حاضِرُها وَباديها أَنَّهُمْ عَلى كِتَابِ اللَّهِ: يَدْعونَ إِلَيْهِ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ، وَيُجيبُونَ مَنْ دَعا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ، لا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً، وَلا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلاً، وَأَنَّهُمْ يَدٌ واحِدَةٌ عَلى مَنْ خالَفَ ذٰلِكَ وَتَرَكَهُ، أَنصارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعْوَتُهُمْ واحِدَةٌ، لا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عاتِبٍ، وَلا لِغَضَبِ غاضِبٍ، وَلا لاسْتِذْلالِ قَوْمٍ قَوْماً، وَلا لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْماً، عَلَى ذٰلِكَ شاهِدُهُمْ وَغائِبُهُمْ، وَسَفيهُهُمْ وعالِمُهُمْ، وَحَليمُهُمْ وَجاهِلُهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذٰلِكَ عَهْدَ ٱللَّهِ وَميثاقَهُ إِن عَهْدَ اللَّهِ كانَ مَسْؤُولاً، وَكَتَبَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ»[1].

اللغة

(**الحلف**): العهد أي ومن كتاب حلف، فحذف المضاف، (**اليمن**): كلّ من ولده قحطان نحو حمير وعك وحذام وكندة والازد وغيرهم.

و(**ربيعة**): هو ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان وهم بكر وتغلب وعبد القيس، و(**هشام**): هو هشام بن محمّد بن السائب الكلبي نسّابة ابن نسّابة عالم بأيّام العرب وأخبارها، (**الحاضر**): أهل القرى والمدن، (**البادي**) سكّان البدو.

الإعراب

(**هذا ما اجتمع**): قال ابن ميثم: (هذا) مبتدأ و(ما) موصولة وهي صفة المبتدأ وخبره (**أنّهم**)، ويجوز أن يكون (هذا) مبتدأ وخبره (**ما اجتمع عليه**) ويكون قوله أنّهم تفسيراً لهذا.

(**أنّهم على كتاب الله**): قال الشارح المعتزلي: حرف الجرّ يتعلّق بمحذوف أي مجتمعون.

أقول: الظاهر (**أنّه**) ظرف مستقرّ متعلّق بفعل عامّ خبر لأنَّ أي أنّهم ثابتون على كتاب الله.

---

(١) عبد الله بن سبا: ٢/ ٢٩٩، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٥٢٣ ح ٧١٦.

المعنى

أشار في قوله **(ما اجتمع عليه أهل اليمن)** إلخ - إلى محاربات وأحقاد كانت بين الفئتين القحطاني والعدناني في أيّام الجاهليّة فأماتها الإسلام وأحياها رجعة السقيفة ثمَّ بلّغها أوجها سياسة بني أميّة المثيرة للخلاف بين المسلمين لغرض الاستيلاء عليهم.

وأشار عليه السلام في قوله: **(لا ينقضون عهدهم لمعتبة عاتب)** إلخ - إلى ما يثير قبائل العرب الجاني للحروب والمناضلات وجمعها في أربعة: المعاتبة، والغضب، وقصد التسلّط والاستذلال بعضهم لبعض، والسبّ والشتم المتبادل بينهم بعضهم مع بعض.

قال الشارح المعتزلي **(ص ٦٧ ج ١٨ ط مصر)**: واعلم أنّه قد ورد في الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «كلّ حلف كان في الجاهليّة فلا يزيده الإسلام إلاّ شِدَّة»[١] ولا حلف في الإسلام، لكنَّ فعل أمير المؤمنين عليه السلام أولى بالاتّباع من خبر الواحد - إلخ.

أقول: هذه الجملة تدلّ على أنَّ ما ذكره الرضيُّ رحمه الله في نهجه كان معلوم الصدور حتّى عند أمثال أبي الحديد المتأخّر عن عصره بما يقرب من قرنين فتدبّر.

---

(١) فتح القدير: ١/ ٤٦٢.

الترجمة

عهدنامه ای كه آن حضرت ميان قبيله ربيعه و يمن به خط خود نوشته و از خط ابن هشام كلبی نقل شده است:

اين است آنچه همه اهل يمن از شهری و بيابانی و ربيعه از شهری و بيابانی بر آن اتّفاق كردند:

١ . همه بر قانون قرآن و پيرو آنند و بدان دعوت كنند و بدان دستور دهند و هركس بدان دعوت كند او را اجابت كنند، آن را به هيچ بها نفروشند و از آن بدلی نگيرند و به جای آن نپسندند.

٢ . همه همدست و متّفق باشند در برابر كسی كه مخالف اين قرار باشد و آن را وانهد و ياور همديگر باشند در اين باره و كلمه آنها يكی باشد.

٣ . عهد و پيمان خود را به خاطر گله از همديگر يا خشم كسی يا قصد خوار كردن مردمی مردم ديگر را يا بدگويی و دشنام دادن به همديگر نشكنند.

٤ . مسؤول اين عهد و پيمان است هركدام حاضر مجلس هستند و هر كدام غايب هستند از نادان و دانا و بردبار و جاهل آنان.

سپس عهد و ميثاق خداوند به عهده آنها است كه بايد رعايت كنند، به راستی كه عهد خداوند مسؤوليت دارد و مورد بازپرسی است.

علیّ بن ابيطالب نوشته است.

المختار الرابع والسبعون

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية [من المدينة] في أول ما بويع له ذكره الواقدي في كتاب الجمل

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ إِلى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبي سُفْيانَ:

أَمّا بَعْد، فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذاري فيكُمْ وَإِعْراضي عَنْكُمْ، حتّى كانَ ما لا بُدَّ مِنْهُ وَلا دفْعَ لَهُ، وَٱلْحَديثُ طَويلٌ، وَٱلْكَلامُ كَثيرٌ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ، وَأَقْبَلَ ما أَقْبَلَ، فَبايِعْ مَنْ قِبَلَكَ، وَأَقْبِلْ إِلَيَّ في وَفْدٍ مِنْ أَصْحابِكَ، [وَٱلسَّلامُ]»(١).

اللغة

(**الوفد**): الواردون على الملك.

المعنى

هذا أوّل مكتوب أرسله عليه السلام إلى معاوية يطلب منه أخذ البيعة له من أهل الشام بمقتضى ثبوت خلافته معناً بالنصّ من النبيّ صلى الله عليه وآله وعرفاً بمبايعة المهاجرين والأنصار معه، وكان عليه السلام يعلم ما في قلب معاوية من النقمة على قتل عثمان.

فلخّص أمره في قوله: (**فقد علمت إعذاري فيكم**) أي إظهار عذره وذلك باجتهاده في نصيحة عثمان وذبّه عن هجوم الناس عليه حتّى بعث الحسنين للدفاع عنه ولكنَّ الثورة دارت عليه، وأعرض عليه السلام عن التعرّض لبني أميّة وأشار إلى أنَّ الموضوع يحتاج إلى شرح طويل لا يسعه المقام.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٦٥ ح ٣٤٠، والغدير: ١٠/ ٣١٦.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت در آغاز بیعت با وی به معاویه نگاشت، واقدی آن را در کتاب جمل خود ضبط کرده است:

از بنده خدا امیرمؤمنان به معاوية بن ابی سفيان؛

امّا بعد، تو خود می دانی که من درباره شماها حقّ نصیحت را به جای آوردم و چون نتیجه نداد از شماها کناره کردم تا آن چه شدنی بود شد و چاره ای هم نداشت، در این جا داستان دراز است و سخن بسیار، گذشته ها گذشت و برگشتی ندارد و آمد آن چه آمدنی بود، تو با هر کس در پیش خود و به فرمان خود داری به نام من بیعت کن و با جمعی از یاران و همکارانت به پیشگاه من بیا و شرط طاعت به جای آور.

المختار الخامس والسبعون
لعبد الله بن العباس، عند استخلافه إياه على البصرة

«سَعِ النّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ، وَإِيّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطانِ، وَاعْلَمْ أَنَّ ما قَرَّبَكَ مِنَ اللَّهِ يُباعِدُكَ مِنَ النّارِ وَما باعَدَكَ مِنَ اللَّهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النّارِ»[1].

قال الشارح المعتزلي: (ص ٧٦ ج ١٨ ط مصر): روى «وحملك» قال: وطيرة من الشيطان بفتح الطاء وسكون الياء أي خفّة وطيش.

الإعراب

(سع): أمر من وسع يسع، و(الباء) في بوجهك للالصاق.

ومقصوده عليه السلام المساواة في معاشرته ومعاملته بين الناس بحيث يشملهم جميعاً.

الترجمة

براى عبدالله بن عبّاس نگاشته، هنگامى كه او را در بصره گماشته:

مردم را همه پذيرا باش با چهره باز و در مجلس خود و در قضاوت خود.

مبادا خشم گيرى كه خشم جهش و پرشى است از شيطان و بدان كه هر آن چه تو را به خداوند نزديك كند از دوزخت دور سازد و هر چه تو را از خدا به دور كند به دوزخت نزديك سازد.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ٤٩٨ ح ٧٠٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٥٤٣.

المختار السادس والسبعون
ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج

«لاَ تُخاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمّالٌ ذُو وُجُوهٍ تَقُولُ وَيَقُولُونَ وَلكِنْ حاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْها مَحيصاً»[١].

اللغة والمعنى

(حمّال ذو وجوه): يتحمّل ألفاظه بسياقه الخاصّ أن تحمل على معان مختلفة ووجوه عديدة فإذا تمسّك أحد بمعنى وفسّرها بما يوافق مقصوده تمسّك الخصم بوجه آخر وتفسير يخالفه فلا يخصم، وهذا الكلام بالنسبة إلى متشابهات القرآن وكلّياته صادقة لا بالنسبة إلى محكماته الواضحة البيّنة، ولعلّ ما يريد ابن عبّاس أن يحتجّ به محصور في القسمين الأوّلين، وأمّا السنن الواردة في صحّة مدّعاة الدالّة على أنّ عليًّا عليه السلام حقّ في كلّ ما يعمل فصريحة ناصّة كافية في إفحام الخوارج.

قال الشارح المعتزلي (ص ٧٢ ج ١٨ ط مصر): وذلك أنّه أراد أن يقول لهم: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليٌّ مع الحقّ والحقُّ مع عليّ يدورُ معه حيثما دار»[٢]. وقوله «اللهمَّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»[٣] ونحو ذلك ـ إلخ.

أقول: وفي المقام أبحاث عميقة لا يسع الكتاب للخوض فيها.

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٢٤٥ ح ٥٦، وأضواء على الصحيحين: ١٣.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام: ٢/ ٥٣٠، والفصول المختارة: ١٣٥.

(٣) الصحيفة السجادية: ٢٤٧، ودعائم الإسلام: ١/ ١٦.

الترجمة

از سفارشی که آن حضرت به عبدالله بن عبّاس کرد چونش برای احتجاج نزد خوارج فرستاد:

به آیات قرآن با آنها محاجّه مکن که قرآن معانی بسیار در بر دارد و به چند وجه تفسیر می شود، می گویی و جواب می گویند، ولی با حدیث پیغمبر با آنها محاجّه کن که در برابر آن جوابی ندارند.

المختار السابع والسبعون
ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري جواباً في أمر الحكمين ذكره سعيد بن يحيى الأموي في كتاب المغازي

«فَإِنَّ النّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثيرٌ مِنهُمْ عَنْ كَثيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ، فَمالُوا مَعَ الدُّنْيا، وَنَطَقُوا بِالْهَوَى، وَإِنّي نَزَلْتُ مِنْ هذا الأَمْرِ مَنْزِلاً مُعْجِباً اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، فَإِنّي أُداوي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخافُ أَنْ يَعُودَ عَلَقاً، وَلَيْسَ رَجُلٌ - فَاعْلَمْ - أَحْرَصَ عَلى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَأُلْفَتِها مِنّي، أَبْتَغي بِذلِكَ حُسْنَ الثَّوابِ وَكَرَمَ الْمَآبِ، وَسَأَفي بِالذي وَأَيْتُ عَلى نَفْسي، وَإِنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صالِحِ ما فارَقْتَني عَلَيْهِ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ ما أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ، وَإِنّي لأَعْبَدُ أَنْ يَقُولَ قائِلٌ بِباطِلٍ، وَأَنْ أُفْسِدَ أَمْراً قَدْ أَصْلَحَهُ اللَّهُ، فَدَعْ ما لا تَعْرِفُ، فَإِنَّ شِرارَ النّاسِ طائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقاويلِ السُّوءِ، وَالسَّلامُ»[١].

قال الشارح المعتزلي: وروى ونطقوا مع الهوى، أي مائلين عنه، وروى وأنا أداري بالراء من المداراة، وروى نفع ما أولى باللام، يقول: أوليته معروفاً وروى أن قال قائل بباطل ويفسد أمراً، وأنا أداوي، أن يعود علقاً، فدع عنك[٢].

اللغة

(العلق): الدم الغليظ، **(وأيت)**: وعدت وتعهّدت، **(أعبد)**: آنف وأتنكف.

المعنى

قوله عليه السلام **(قد تغيّر كثير منهم)**: يشير إلى انحرافهم عن سنّة الرسول الرامية إلى تهذيب النفوس وتحكيم العقيدة بالمبدأ والمعاد الباعث على الزهد في شؤون الدنيا بزعامة عليّ عليه السلام ففات كثير من حظّهم الأُخروي والمعنوي.

قوله **(منزلاً معجباً)**: أي نزلت عن مقام الولاية الإلهيّة والخلافة المنصوصة إلى مقام الإمارة العادية بالانتخاب من الناس وقد اجتمع معه في هذا المقام النازل قوم وصلوا إلى

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٣٠٤ ح ٥٥٤، وميزان الحكمة: ٣/٢٠٤٢ ح ٢٧٩٧.

(٢) شرح النهج: ١٨/ ٧٤.

هذا المقام قبله كأبي بكر وعمر، وطمع فيه معه قوم آخرون كطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن عمر المرشح من جانب أبي موسى الأشعري، فأظهر ﷺ العجب من تنزّله إلى هذا المقام.

وقد فسر الشارحان القوم المجتمع معه في هذا المنزل بأنصاره وأعوانه الذين بايعوا معه فأعجبتهم أنفسهم وطمعوا في الشركة معه في تمشية أمر الخلافة وأن يكون إمضاء الأمور بالشور معهم على اختلاف آرائهم.

قال الشارح المعتزلي: وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونصّاره من أهل العراق، فإنّهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديداً.

أقول: هذا بناء على أنَّ هذا الكتاب صدر منه إليه بعد قرار الحكمين، ولكن إن صدر منه حين انتدابه أهل الكوفة لحرب الجمل وكان أبو موسى يثبّطهم عنه فلا يستقيم.

قوله ﷺ **(وأنا أُداوي منهم قرحاً)** الظاهر أنَّ القرح هو ضعف العقيدة الإسلاميّة والانحراف عن ولايته ﷺ.

قوله ﷺ **(وسأفي بالذي وأيت على نفسي)**: من التضحية في سبيل الحقّ وطلب الشهادة في المناضلة مع أعداء الحقّ، ويؤيّد ذلك قوله ﷺ: **(وإنّي لأعبد أن يقول قائل بباطل وأن أفسد أمراً قد أصلحه الله)**.

الترجمة

از نامه ای که آن حضرت به ابی موسی اشعری نگاشته در پاسخ نامه او درباره حکمین، سعید بن یحیی اموی آن را در کتاب مغازی آورده:

به راستی که بسیاری مردم از بسیاری بهرهوری های خود روگردان شده اند و دل به دنیا داده و از هوای نفس سخن گویند، من در این میان به مقام شگفت آوری فروافتاده ام که مردمی خودپسند در آن گرد آمده اند، من می خواهم ریشی که در دل دارند و می ترسم خونی بسته شود (و آنها را بکشد) درمان کنم و بدان که مردی نیست که بر امّت محمّد (ﷺ) رؤوف تر و بر اتفاق و الفت آنان از من حریص تر باشد و من در این باره پاداش خوب می جویم و سرانجام نیك.

و بدانچه با خویش تعهّد کرده ام وفادارم و گرچه تو از شایستگی که با آن از من جدا شدی دیگرگون کردی و بیوفایی را پیشه سازی، چه به راستی بدبخت آن کس است که از بهرهوری از عقلی که به او داده شده محروم ماند و از تجربه ای که اندوخته سود نبرد و آن را به کار نبندد.

و به راستی که من گریزانم از این که گوینده ای بیهوده و ناروا گوید و از این که تباه سازم امری را که خداوند بهبود ساخته و به صلاح آورده، آن چه را ندانی وانه و پیرامونش مگرد و از روی دانش و یقین کار کن، زیرا مردمان بد، گفتارهای بد و ناروا از هر سو به جانب تو می پرانند (و تو را منحرف می سازند).

المختار الثامن والسبعون
ومن كتاب له عليه السلام لما استخلف، إلى أمراء الأجناد

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النّاسَ ٱلْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالباطِلِ فَاقْتَدَوْهُ»(١).

المعنى

قال الشارح المعتزلي (ص ٧٩ ج ١٨ ط مصر): أي منعوا الناس الحقّ فاشترى الناس الحقّ منهم بالرشا والأموال، فأرجع ضمير اشتروا إلى الناس - إلى أن قال: وروى فاستروه بالسين المهملة أي اختاروه ويقال: استريت خيار المال: أي اخترته، ويكون الضمير عائداً إلى الظلمة لا إلى الناس.

وقال ابن ميثم: فاستروه أي فباعوه وتعوّضوا عنه بالباطل لما منعوا منه كقوله تعالى ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠].

أقول: المقصود من الاشتراء هنا أخذ ما ليس بحقّ بدلاً من الحقّ كقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٧] فإنّه لا بدَّ للناس من الالتزام بنظام يعيشون في ظلّه فهو إمّا حقّ إلهيّ، وإمّا غير حقّ يحمل عليهم قسراً، كما أنّه في زماننا هذا بدّلوا القانون الإلهيّ بقانون انتخابيّ بشريّ، فإذا صار هذا البدل متداولاً ومعمولاً بين الناس يقتدي به أخلافهم ومن يأتي من بعدهم فيصير الباطل الذي حمل عليهم ممّا يقتدى به.

قد وقع الفراغ من هذا الجزء العشرين من شرح نهج البلاغة في العشرين من شهر ربيع المولود من سنة التاسع والثمانين بعد الألف وثلاثمائة من الهجرة النبويّة القمريّة، بيد مؤلّفه **محمد باقر الكمره اى** - في شهر ري.

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٤٨٧ ح ٦٩٢، ونهج السعادة: ٤/٢٩ ح ١١.

الترجمة

از نامه ای كه آن حضرت (عليه السلام) به فرماندهان قشون خود نگاشت چون خليفه شد:

امّا بعد، همانا كسانى كه پيش از شما بودند هلاك شدند براى آن كه مردم را از حق باز داشتند و آنان حق را بنا حق فروختند و مردم را به باطل و بيهوده واداشتند تا همه بدان اقتداء كردند و از آن پيروى نمودند.

قد وقع الفراغ من هذا الجزء العشربن من شرح نهج البلاغة في العشرين
من شهر ربيع المولود من سنة التاسع والثمانين بعد الألف وثلاثمائة
من الهجرة النبويّة القمريّة، بيد مؤلّفه محمد باقر الكمره اى - في شهر ري.

محتوى الجزء العشرون من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

صنفها

الفاضل البارع المحقق الشيخ حسن (حسن زاده) الاملى

مؤسسة التاريخ العربي

مِنهاجُ البَراعَة

شَرح

نَهجُ البَلاغَة

لمؤلّفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

طبعة جديدة

ضبط وتحقيق

علي عاشور

المجلد الحادي والعشرون

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام

ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله، والكلام القصير الخارج في سائر أغراضه

بوّب المصنّف رحمه الله كتابه على ثلاثة أبواب كما نصّ عليه في فاتحة الكتاب، وجعل المختار من حكمه ومواعظه خاتم تلك الأبواب، لأنَّ ما حواه هذا الباب في محكم هذا الكتاب كالثمرة من الشجرة واللّب من القشرة، فإنَّ ما حواه باب الحكم من مختار كلامه عليه السلام فصول من الحكمة العمليّة الّتي بها تخرج القوى الإنسانيّة والاستعدادات البشريّة الكامنة في هذا القالب الّذي خلقه الله بيده وأحسن تقويمه إلى الفعل، كما أنَّ ما قدّمه من البابين يشمل على أصول الحكمة النظرية والفلسفة الأولى الإلهيّة ودقائق المعارف القدسيّة، ويندرج فيها فنون من سياسة المدن، ودساتير الاجتماع البشري والنظام المدني الراقي العادل.

فنُلفت نظر القرّاء الكرام من أهل الإسلام وسائر البشر من أيِّ قطر ومن أيِّ نظام إلى دراسة هذا السفر الجليل الّذي لخّص فيها تعاليم الفلاسفة الأول وقادة الملل من أقدم عصور التاريخ وأسبق أدوار توجّه أهل الرّشاد والإرشاد إلى بثّ فنون التربية لبني الإنسان.

فإن كانت فلسفة بوذا أو كنفوشيوش أو تعاليم الكتاب المقدّس أو نظريات الفلاسفة المعاصرين وقادة البشر المتأخرين تلخّص في كلمات جامعة، لما يقارن أعشار ما حواه حكم مولانا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولما يقارب عمقه ودقّته في تعاليمه الأخلاقيّة والإرشاد إلى دقائق الحكمة العمليّة الّتي لا بدّ لبني الإنسان أن يفهمها ويمارسها وينقش لبه على منوالها ليتحصّل له اجتماع راق عادل يلمس الطمأنينة والارتياح على أساس متين.

وممّا يلزم التوجّه إليه هنا أنَّ هذه الحكم منقولة على وجه الإرسال كسائر ما جمعه في هذا الكتاب ويصعب بل يتعذّر الفحص عن إسناد متسلسل يثبت صدورها عنه عليه السلام إلاّ ما شذّ منها من رواية مسندة في غير هذا الكتاب أو جمل ربّما اقتطفت وقطعت من بعض الخطب أو الكتب المسندة، وهي قليلة جدّاً ولكن يسهل هذا الخطب أُمور:

١ ـ أنَّ هذه الحكم لها قيم أخلاقيّة وتربوية يؤيّدها العقل السليم ويستقبلها الخلق

العميم بالقبول، وهذا التأييد يقوم مقام الدرس الإسنادي المصطلح.

٢ ـ أنَّ جلالة قدر ناقلها وهو السيِّد الرَّضي رحمه الله يكفي في الوثوق على صحّة صدورها عنه عليه السلام، فإنَّ السيّد رحمه الله من أهل البيت بل من صميم بني هاشم وذروتهم، وهم أدرى بما فيه مع قرب عهده بمعهد هذا الحكم وطول باعه في النقد الإسنادي والأدبي ووفور أُنسه بما صدر عنهم عليهم السلام وكثرة المصادر المودعة فيه هذا الحكم في عصره من كتب التاريخ والرسائل، ووفور الأسانيد والمشايخ والوسائل كما أنَّ رواة الحديث اعتمدوا على مراسيل غير واحد من الأصحاب كابن أبي عمير رحمه الله في إثبات الأحكام الفرعيّة وعملوا برسالة عليّ بن بابويه مع فقد مستند آخر للحكم والفتوى للوثوق بنقدهم والاعتماد عليهم.

٣ ـ جلُّ هذا الحكم لولا كلّها بمنزلة الأمثال السائرة الّتي تكون وليدة عقليّة عامّة لكلِّ شعب وجيل تتكوَّن وتتظاهر من تسالم العقول والاتّفاق عليها بالقبول ويصعب تشخيص مصدرها الأوَّل ومُنشئها بلا بديل وبدل وإن تتكلف جمع من جامعيها كالميداني في مجمع الأمثال ومؤلّف فرائد الأدب في رواية قصّة بشأن بعضها تشير إلى قائلها ممّا ورد من الأمثال السائرة في اللغة العربيّة ثمَّ قلّد هذه العصابة صاحب جامع التمثيل في اللغة الفارسيّة فجمع بعض الأمثال السائرة الدائرة فيها وقرن بعضها بمثل هذه الروايات.

وممّا يجب التوجّه إليه أنَّ هذه الأمثال ثابتة، ولكن روايات قصصها غير مطمئنّة إليها ويبدو بالتأمّل أنّها أو بعضها مختلقة ومصنوعة كالدَّساتير ولكن اختلاقها لا يمسّ بصحّة تلك الأمثال وأصالتها وما حوته من الحكم والعبر، فتشرق مصابيح للأمم في صراط التربية والعظة.

ولكن ما صدر من مولانا عليه السلام تقوم مقام ما ولدته عقول أُمم في أجيال لأنّه عليه السلام عقل الكلِّ وكلُّ العقل، وردف لخاتم الرسل الّذي أوحى إليه الكتاب المنزل، فإنّه نزل القرآن الشريف في أُسلوب حكيم على أعلا درجات البلاغة والفصاحة فتحدّى بنفسه لنفسه ونادى بأعلا صوته: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤] وتحدّى به النبي صلى الله عليه وآله نوابغ الفصاحة والأدب من قريش وسائر خطباء وشعراء العرب المصاقع.

وقد حفظ القرآن على بكارته وعلوّ رتبته في هذا الميدان منذ بعثة خاتم الأنبياء طيلة القرون والأعصار، فخضع تجاه عظمته الإنشائية كلُّ خطيب وأديب من أيّة أُمّة وخريج أيّة جامعة، ثمَّ أردفها النبيُّ صلى الله عليه وآله بما افتخر به من جوامع الكلم وصواعق الخطب المنسجم أرسلها في مشاهده وجمعاته إرسالاً ووقّعها في غزواته وقضاواته ومختلف ما عرض بحضرته

وفي مقام تشريعاته بأوجز عبارة وأفصح إشارة.

وقد جمع مصنّف هذا الكتاب شطراً منها في أثره القيّم النّفيس المعروف بالمجازات النبويّة، وروي شطر منها في توقيعات قضائية صدر منه في شتّى الموارد رواها عبادة بن صامت الأنصاري رضي الله عنه ربما تبلغ فوق ثلاثمائة وعدّها بعض الأسانيد في أربعمائة توقيع قضائي معجب لأهل الأدب ولم يبلغ شأوه شاء وإن تكلّف ما شاء، فهي بجوهرها كرامة نبويّة، كما أنَّ القرآن الشريف بابهة وحيه معجزة النبوّة.

ثمَّ تصدر مولانا عليّ بن أبي طالب عليه السلام هذا الحفل التشريعي والعلمي والأدبي الرّهيب ومحلّه منه محلَّ القطب من الرّحى ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير وأبلغ في بيان المعارف الإلهيّة، والأحكام الشرعيّة، والأصول التربويّة والمواعظ الإرشاديّة، والدستورات الاجتماعيّة، والحكم الأخلاقيّة، والحكمة العمليّة بما عجز عنه غيره وإن جهد ما جهد.

ولنعلم أنّه عليه السلام لم ينشىء ما يقدر عليه، لأنّه لم يجد حملة لعلمه الجمّ وغوّاصاً لهذا اليمّ، ولم يحفظ عنه كلّما أنشأه من الشوارد في شتّى الموارد، ولم يبق كلّما حفظ عنه عليه السلام مصوناً من حوادث الزمان ومكائد الاستراق والكتمان.

وقد جمع المصنّف رحمه الله مختارات من خطبه وكتبه وحكمه بنقاوة فكرته الوقّادة من الوجهة الأدبيّة فحسب ونظمها في نهج البلاغة فجاء أثراً قيماً مدّت إليه الأعناق في كلّ الآفاق طيلة القرون الماضية، فأكبّ علماء الأدب وبغاة التحقيق على دراسته وشرحه وترجمته من مختلف المذاهب والفرق طبقاً عن طبق.

حتّى انتهى الدور إلى العلاّمة المحقّق **الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي** كما وصف قدّس سرُّه، وجاء أثره ممّا اشتاق إليه أهل العلم والأدب وتصدّى لتجديد طبعه أصحاب السعادة **الأخوان الكتابچي** أنجال المرحوم السيّد أحمد الكتابچي أحد خدمة نشر الكتب الإسلاميّة عن جدّ لا يعقبها كسل، ورغبة صادقة لا تنزف.

وممّا يؤسف عليه أنَّ المحقّق المرحوم لم يوفّق لإتمام الكتاب لعوائق زمنية أو تسابق المنيّة، فتصدّى الإخوان الناشرين إلى تتميم شرحه بما اختاره من الأسلوب بمعاونة من تيسّر له سلوك سواء هذا الطريق، أو ما يقرب منه على التحقيق.

وقد عرض عليّ الأخ الموفّق الحاج سيّد إسماعيل الكتابچي مدير إدارة هؤلاء الأخوة الأمجاد وفّقه الله تعالى لمراضيه، وجعل مستقبله خيراً من ماضيه أن أكمل بعضاً ممّا بقي من هذا الشرح فأجبته على مضيق الفرصة وشواغل جمّة تعوق دون الهمّة لعلّي أفي ببعض ما يجب عليّ من خدمة علميّة وأداء حقوق مولية لحضرة المولى عليه السلام، ومن هو بعد النبيّ صلى الله عليه وآله

بكلّ مؤمن ومؤمنة أولى، وأرجو من حضرته صلوات الله عليه أن ينظر إلى هذه الخدمة كهديّة نمليّة إلى حضرة قدسيّة.

وقد عزمت على ترجمة حكمه عليه السلام في طيّ الكتاب بجمل فارسيّة وجيزة مردفة ببيت أو أبيات على ما تيسّر لمزيد رغبة الطالبين والقرّاء الكرام على ضبطها وحفظها إن شاء الله.

محمد باقر الكمره اى

ومن حكمه عليه السلام وهي الحكمة الأولى

(١) قال عليه السلام: كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ، لا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ وَلاَ ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ[1].

اللغة

منقولة من صحاح الجوهري:

(الفتنة) الامتحان والاختبار ـ إلى أن قال ـ وقال الخليل: الفتن الإحراق.

(ابن اللّبون) وصف سني للبعير ـ وفي الصّحاح: وابن اللّبون ولد الناقة إذا استكمل السّنة الثانية ودخل في الثالثة، والأُنثى بنت لبون لأنَّ أُمّه وضعت غيره فصار لها لبن وهو نكرة ويعرّف بالألف واللّام **(الظّهر)** خلاف البطن و **(الضّرع)** لكلّ ذات ظلف أو خُفّ.

الإعراب

(في الفتنة) ظرف مستقرّ حال عن الضمير المستتر في كلمة (كن)، (وكابن اللّبون) ظرف مستقرّ أيضاً، خبر لأمر كن، وكلمة «لا» مشبّهة بليس، وظهر إسمها وخبرها محذوف وهو «له» وقيل: موجوداً، (والفاء) للتفريع، ويُركب على صيغة المبني للمفعول مرفوع على الأصل، وقال ابن أبي الحديد: منصوب في جواب النفي وهو ضعيف وكذا الكلام في: (ولا ضرع فيحلب)، بعينه والجملة حاليّة لابن اللّبون، فيتعيّن أن يكون الخبر المحذوف **«له»** ليربطها به.

المعنى

فسّر الشراح كلمة الفتنة على مفهومها العرفي، وهو الاضطراب الواقع بين جماعة أو أُمّة لغرض، والأكثر أن يكون سياسة أو وسيلة لكسب الأمرة والقوّة وحيازة مقام الإمامة، وفسَّروا الدستور بتكلّف الانزواء والعزلة والخمول وعدم التدخل في الأمور، وخصّصها ابن أبي الحديد بالخصومة بين رئيسين ضالّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة كفتنة عبد الملك وابن الزبير، وفتنة مروان والضحاك، وفتنة الحجاج وابن الأشعث ونحو ذلك، قال: وأما إذا كان أحدهما صاحب حقّ فليست أيّام فتنة، كالجمل وصفّين ونحوهما، بل يجب الجهاد مع

(١) بحار الأنوار: ٦٦/٤٠٨ ج١٢٠، والغدير: ٩/ ٢٥٣.

صاحب الحقّ.

أقول: المقصود من الفتنة أعمّ والمراد من الدستور أمر أتمّ، وليس غرضه عليه السلام الأمر بالانزواء والعزلة والاستراحة إلى الخمول والتغافل والغفلة بل المقصود الحذر عن التعاون مع دعاة الفتنة وشدّ أزرهم في مقاصدهم الفاسدة ومحقّ الحق، سواء كانت الفتنة لغرض سياسي كما مثّل، أو لغيره كما في فتنة خلق القرآن في أيّام المأمون، وسواء كانت لتخاصم بين ضالّين كما ذكر، أو تخاصم الحقّ والباطل كفتنة السقيفة والجمل وصفّين.

فالمقصود الحذر من إعانة المفتنين، وتأييد أغراض المبطلين وأمر عليه السلام بالتمسك بالحقّ في كلّ حين على ما يجب على المسلمين، ولا عزلة في الإسلام ولا خمول للمسلم، بل يجب عليه القيام، كما قال عزَّ من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦]، ولا مندوحة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل يجب الكفاح عن الحقّ بما تيسّر في كلّ زمان ومكان.

الترجمة

در هنگام فتنه و آشوب چون شتر دو ساله باش كه نه بار كشد و نه شير دهد.

در فتنه چنان باش كه بارت ننهند — وز دست و زبانت استعانت نبرند
زين آتش تند در حذر باش و به هوش — تا مدّعيان رند، جانت نخرند

إلى السادسة من حكمه وآدابه
وهي في مكارم الأخلاق

(٢) وَقالَ عليه السلام: أَزْرىٰ بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ ضُرَّهُ[١]، وَهانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْها لِسانَهُ.

(٣) وَقالَ عليه السلام: الْبُخْلُ عارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَريبٌ فِي بَلْدَتِهِ، وَالْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شُجاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، والْوَرَعُ جُنَّةٌ.

(٤) وقال عليه السلام: نِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضا، وَالْعِلْمُ وِراثَةٌ كَريمَةٌ وَالْآدابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ، وَالْفِكْرُ مِرآةٌ صافِيَةٌ.

(٥) وَقالَ عليه السلام: صَدْرُ الْعاقِلِ صنْدُوقُ سِرِّهِ، والْبَشاشَةُ حِبالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالْاِحْتِمالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ.

(**وَرُوِيَ أَنَّهُ** عليه السلام قالَ في الْعِبارَةِ عَنْ هٰذَا الْمَعْنَى أَيْضاً:)

الْمُسالَمَةُ خِباءُ الْعُيُوبِ.

(٦) وقال عليه السلام: مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ، وَالصَّدَقَةُ دَواءٌ مُنْجِحٌ، وَأَعْمالُ الْعِبادِ في عاجِلِهِمْ نُصْبُ أَعْيُنِهِم في آجِلِهِمْ[٢].

اللغة

في الصحاح يقال (**أزريت به**) إذا قصرت به وأرزيته أي حقرته و(**استشعر**) فلان خوفاً: أي أضمره (**طمع**) فيه طمعاً وطماعة وطماعية مخفف فهو طمع (**الضر**) بالضم الهزال وسوء الحال و(**الخرس**) بالتحريك مصدر الأخرس وقد خرس وأخرسه الله و(**المقل**) الفقير الذي لا مال له (**الحبالة**) التي يصادفها.

(١) عن ضُره في نسخة

(٢) تحف العقول: ٢٠٢، وعيون الحكم والمواعظ: ٧٠.

الإعراب

(أزرى بنفسه)، (الباء) للتعدية بتضمين أزري معنى قصر ما فسّره في الصّحاح.

المعنى

(الطمع) توقّع ما لا يستحقّ أو ما ليس بحقّ، فقد يكون مباحاً كطمع الجائزة من الأمراء والهبة من الأغنياء، وقد يكون أمراً محرّماً كالطمع فيما لا يحلّ له من مال أو جمال، وهو مذموم وممنوع أخلاقاً وهو من الصّفات العامّة قلّما يخلو عنه إنسان إلاّ من ارتاض نفسه وأزال أصل هذه الصّفة الذميمة عن نفسه، فإنه من لهبات الشهوة الكامنة في الطبائع الإنسانيّة.

وقد اشتهر أشعب أحد التابعين بهذه الصفة ونسب إليه مطامع عجيبة إلى حدّ السخف والسفه.

فمنها: أنّه اجتمع عليه الصّبيان يؤذونه فأراد تفريقهم وطردهم، فأشار إليهم إلى بيت أنه يقسم فيه الحلوى، فشرعوا يركضون نحوه، وركض معهم فقيل له في ذلك فأجاب أنه ربّما يكون صادقاً.

ومنها: أنّه إذا مشى تحت السّماء يبسط طرف ردائه، فسئل عن ذلك فقال: عسى أن يبيض طائر في الهواء فتقع بيضته في طرفي.

فالطمع بما في أيدي النّاس يستلزم الخضوع لهم ويجرّ الهوان وسقوط المنزلة عندهم وعند الله، وقد ورد في ذمّ الطمع أخبار وأحاديث كثيرة.

ورد في الشرح المعتزلي: «وفي الحديث المرفوع أنَّ الصفة الزلزال الّذي لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع» وقد اشتهر أنّه عزَّ من قنع وذلَّ من طمع وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام: بئس العبد عبدٌ له طمع يقوده، وبئس العبد عبدٌ له رغبة تذلّه[1].

(كشف الضرّ) للنّاس شكوى من الله إلى عباده وهو خلاف رسم العبودية وهتك ستر الرّبوبيّة، وقد ورد فيه ذمّ كثير.

سمع الأحنف رجلاً يقول: لم أنم الليلة من وجع ضرسي، فجعل يكثر فقال: يا هذا لم تكثر فوالله ذهبت عيني منذ ثلاث سنين فما شكوت ذلك إلى أحد ولا أعلمت بها أحداً، وهو مع ذلك يوجب تنفير الناس ومذلّة عندهم.

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٢٠ ح٢، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٢٤ ج٢٠٨٦٥.

وأمّا حفظ اللّسان والتسلّط عليه فمّم حثّ عليه في غير واحد من الأخبار وكان يقال: ربّ كلمة سفكت دماً وأورثت ندماً، وفي الحديث أنَّ لسان ابن آدم يشرف صبيحة كلّ يوم على أعضائه ويقول لهم: كيف أنتم؟ فقالوا: بخير إن تركتنا وفي شرح ابن ميثم:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الأقران

(والبخل) حبس ما يقدر على إنفاقه من مال أو معاونة بيد ولسان، فقد يصل إلى حدّ منع أداء الحقوق الواجبة كمنع النفقة على الأهل والأقرباء الواجبة النفقة، أو منع حق الزكاة للفقراء وسائر مصارفه، أو الخمس عن أربابه فيوجب العقاب والمؤاخذة، وقد يكون سبباً لمنع ذوي الحقوق العامّة فيبلغ إلى حدّ الوبال والنكال، وفي الحديث أنّه لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع، فلذا قال عليه السلام: إنّه **(عار)**.

(والجبن منقصة) لمضادّته مع الشجاعة الّتي هي ركن من أركان الإيمان وحلية لنفس الإنسان، فالجبان لا يقوم بالدّفاع عن عرضه ودينه، ويخاف في كلّ موطن على نفسه.

(وأمّا الفقر) قد ورد فيه الأخبار وكلمات الأخيار بالمدح تارة والذّمّ أُخرى، فقد ورد في الكافي في باب الكفر والإيمان «ج٣ ص٤٥٢» من المطبوع مع الشرح والترجمة الفارسية بطهران عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن النّوفلي، عن السّكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر»[1].

وقد وصف عليٌّ عليه السلام الفقر في هذه العبارة بطبعه المؤثر في الفقير بالنظر إلى الاجتماع، فإنَّ النّاس عبيد الدينار ولا ينظرون إلى الفقير إلاّ بعين الاحتقار ولا يتوجّهون إلى كلامه وحجته وإن كان حقّاً ويؤثّر هذا الأمر في الفقير فلا نشاط له في إظهار حجّته عند المخاصمة حتّى كأنّه أخرس، ونعم ما قيل:

فصاحة سحبان وخطّ ابن مقلة وحكمة لقمان وزهد ابن أدهم

لو اجتمعت في المرء والمرء مفلس فليس له قدر بمقدار درهم

وقد بيّن عليه السلام سوء أثر الفقر بأبلغ بيان في الفقرة التالية وهي قوله عليه السلام: **(والمقلّ غريب في بلدته)** وإن يمكن التفريق بين الفقير والمقلّ حيث إنَّ الفقير من أظهر حاجته للنّاس، والمقلّ ربّما يظهر الغناء والاستغناء ولكنَّ النّاس لا يفرّقون بينهما، فإنّهم غالباً كالذباب يدورون حول الحلوى، فإذا كان الإنسان مقلاً لا يقدر على جلبهم ببذل المال يعرضون عنه

(١) الكافي: ٢/٣٠٧ ح٤، والخصال: ١٢.

ولا يتقرَّبون إليه ولا يسألون عن حاله ولا يتوجّهون إليه، وبهذا النّظر يصير غريباً وإن كان في بلدته وبين عشيرته، فإنَّ الغريب من لا يتوجّه إليه ولا يسأل عن حاله، ونعم ما قال:

لا تظن أنَّ الغريب هو النائي ولكن الغريب المقلّ

وتلحق الفقرة التالية وهو قوله عليه السلام **(والعجز آفة)** بهاتين الفقرتين فإنَّ العجز في الإنسان نوع من الفقر والإقلال لأنّه عوز ما يحتاج إليه في العمل وإنفاد الأمور الدُّنيويّة أو الدّينية، فكما أنَّ الفقر وعدم المال نوع من العجز حيث إنَّ الفقير لا يقدر على إنفاد الأمر المحتاج إلى بذل المال، فهو عاجز عن كثير من الأعمال أيّ عاجز، فكذا العاجز الجسمي مثل الأعمى والزمني والأشل، والعاجز النّفساني كالسفيه والكسلان لا يقدر على كثير من الأعمال، فهو كمن عراه مرض أو عاهة منعته عن العمل.

(الشجاعة) هي المقاومة تجاه العدوّ المهاجم ودفع هجومه بما تيسّر، أو الهجوم على العدوّ الّلدود لدفعه، وكلّما لا يلائم عدوّ كالبلاء وهجران الأصدقاء ومفارقة الأقرباء وترك التمتّع بما اشتهاه الإنسان **(والصبر)** هو المقاومة تجاه عدوّ المكاره والبلايا، فحقيقة الشجاعة هو الصّبر، وهو من الصفات الممدوحة الّتي ورد في الحثّ عليها آيات الكتاب ومستفيض السنّة بغير حساب.

(والثروة) المال والمتاع المصروفان في إنجاز الحوائج، والزاهد هو الّذي ترك الحوائج العادية ورغب عنها وكرهها، فيتحصّل بالزهد للزاهد ما يحصّله غيره بصرف الثروة مضافاً إلى أنَّ الزاهد في راحة عن تحصيل الحاجة وعواقبها، فمن صرف الدِّينار والدرهم في تحصيل غذاء لذيذ تعب نفسه بتحصيله وتحمّل ألم ما يعقبه من البطنة والكسل والدّفع، وربّما بعض الأمراض، ولكن الزاهد في راحة عن ذلك كلّه، فالزهد ثروة بلا تعب.

(والورع) هو التحرُّز عما يضرّ عاجلاً أو آجلاً فهو **(جنّة)** دون أيِّ بلية وعاهة في الدُّنيا، ودون أيِّ عذاب وعقوبة في الآخرة.

(والرِّضا) هو حسن الاستقبال عمّا يعرض للإنسان في كلِّ حال من حيث لا يقدر على تغييره بتدبيره، فمن تلبّس بالرِّضا تجاه ما قدر وقضى فقد قرن بما حسن حاله في كلّ حين، وجعل لنفسه من نفسه رفيقاً يفيض السرور في قلبه.

(والعلم) فطري وهو موهبة إلهيّة أُلهم على قلب العالم بعناية الله، أو اكتسابي أوحى إليه بعد تحصيل مقدّماته المفضية إليه، والتعبير عنه بأنّه **(وراثة)** تشير إلى أنَّ العلم وهو النور الساطع من باطن العالم ينكشف به الأشياء المجهولة لديه، موهبة من الله وإن تكلّف تحصيل مقدّماته في العلوم الاكتسابيّة، فهو كالرزق للأبدان بذله الله لكلّ من يستحقّه مؤمناً كان أو

غيره، إلاّ ما كان من العلوم الإلهيّة والمعارف القدسيّة الّتي تختصّ بالمؤمن ومن يرد الله أن يهديه.

والإرث ما يتحصّل للوارث بلا عوض، وبهذا الاعتبار عبّر عنه بالوارثة وليس المقصود أنَّ العلم ميراث من العلماء والأساتذة، كما في الشرحين لابن ميثم وابن أبي الحديد، فإنَّ العلم أعمّ، والمقصود أتمّ.

(والآداب حلل مجدّدة) الأدب لفظة يشعر بالنظم والترتيب، ومنه مأدبة لسفرة الغذاء، لأنّه يراعى فيه النظم والأدب رعاية القوانين المقرَّرة في الشرع وتنظيم الوظائف الدّينيّة ورعاية القوانين المقرَّرة في المعاشرة والمعاملة مع الناس فرعاية الأدب التحلّي بأعمال وأقوال تجاه الخالق أو الخلق.

وحيث إنَّ الإنسان دائماً مسؤول عن فعله وقوله أمام الخالق والمخلوق ولا بدّ له من رعاية وظائفه حيناً بعد حين فكأنّه برعاية الآداب يجدّد حلية جماله المعنوي، ويلبس حللاً ويبدلها بأُخرى، وهذا من أحسن التعبيرات والاستعارات.

وقد ذكر صاحب الشرح في ذيل هذه الجملة قصّة لنا عليها نكتة وتعليق نذكرها بنصّها ثمَّ نردفها بهذه النكتة ونعلّق عليها وهذا نصّها (في ص٩٦ ج١٨ ط مصر ـ عيسى البابي الحلبي). وأنشد منشد بحضرة الواثق هارون بن المعتصم:

أظلوم أنَّ مصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحيّة ظلم

فقال شخص: رجل هو خبر «إنّ» ووافقه على ذلك قومٌ وخالفه آخرون فقال الواثق: من بقي من علماء النحويّين؟ قالوا: أبو عثمان المازني بالبصرة فأمر بإشخاصه إلى سرَّ من رأى بعد إزاحة علّته، قال أبو عثمان: فأُشخصت، فلمّا أدخلت عليه قال: ممّن الرَّجل؟ قلت: من مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم من مازن قيس، أم مازن اليمن؟ قلت: من مازن ربيعة، قال: باسمك؟ ـ بالباء ـ يريد «ما اسمك؟» لأنّ لغة مازن ربيعة هكذا يبدلون الميم باء والباء ميماً، فقلت: مكر أي «بكر» فضحك وقال: اجلس واطمئنّ، فجلست فسألني عن البيت فأنشدته منصوباً، فقال: فأين خبر «إنَّ»؟ فقلت «ظلم» قال: كيف هذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أنَّ البيت إن لم يجعل «ظلم» خبر «إنّ» يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة، فلما كرّرت القول عليه فهم، وقال: قبح الله من لا أدب له ثمَّ قال: ألك ولدٌ؟ قلت: بنيّة، قال: فما قالت لك حين ودّعتها؟ قلت: ما قالت إبنة لأعشى:

تقول ابنتي حين جدّ الرحيل ... أرانا سواء ومن قد يتم

أبانا فلا رمت من عندنا ... فإنا بخير إذا لم ترم

أبانا إذا أضمرتك البلا، نخفى وتقطع منا الرحم

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت: أنشدتها بيت جرير:

ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله تعالى ثمَّ أمر لي بألف دينار وكسوة، وردَّني إلى البصرة انتهى[1].

أقول: فيها نكتتان:

١ ـ صاحب الشرح حمل لفظة الآداب الواردة في كلام مولانا عليه السلام على المعنى الاصطلاحي المحدث، وهو علم العربية وما يلحق بها وما يسمّونه بعلوم الأدب، والأدبيّات، ومفهوم العلوم الأدبيّة ليس بواضح من وجهين:

الأوَّل: ما هي العلوم الأدبيّة؟

الثاني: لماذا سمِّيت تلك العلوم بالأدبيّة وأدبيّات؟

أمّا جواب السؤال الأوَّل فليس بمحرّر من حيث إنَّ علم اللّغة والصرف والنحو والبلاغة والشعر أدبيّات ولكن هل تشتمل اللفظة علم التاريخ والمنطق؟

ونوضح أوَّلاً جواب السؤال الثاني فنقول: إنَّ لفظة أدب كما ذكر يشعر بالنظم والترتيب، وعلوم اللغة والصرف والنحو ينظّم الكلام فيقال له: علوم الأدب أو الأدب العربي قال في «المنجد» آدب إيداباً السلطان البلاد ملأها قسطاً وعدلاً ـ والعدل هو استقرار النظم الاجتماعي الصّحيح ـ إلى أن قال: الآداب تطلق على العلوم والمعارف عموماً، أو على المستظرف منها فقط ويطلقونها على ما يليق بالشيء أو الشخص فيقال: آداب الدرس وآداب القاضي ـ إلخ، وعلم الأدب هو علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة انتهى.

وعلى كلّ حال حمل لفظة الآداب في كلام مولانا عليه السلام على هذا الاصطلاح، كما يشعر به كلام الشارح المعتزلي بعيد جدّاً، فإنَّ هذا الاصطلاح غير موجود في هذا العصر وليس بمقصود في المقام، كما أوضحناه.

٢ ـ يظهر من هذه القصّة انحطاط بلاط الخلافة في العلم والأدب إلى حيث لا يفهم المعتصم هذا البيت العربي الصريح حتّى فهمه المازني وأوضح له المراد مع أنّه قريب العصر بالمأمون العبّاسي الشهير بالفضل والتوجّه إلى أهله.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/٩٦.

وأما تعليقنا على هذه القصّة فقد نلفت نظر القرّاء الكرام إلى وضع هذه الشخصيّة الفذّة وهو أبو عثمان المازني أحد أعيان العلوم الأدبية وواضع علم الصرف وقد كان من أعيان الشّيعة الإماميّة في عصره الرَّهيب.

قال في تنقيح المقال ج١ ص١٨٠: بكر بن محمّد بن حبيب بن بقية أبو عثمان المازني ـ إلى أن قال: قال النجاشي: بكر بن محمّد بن حبيب بن بقية أبو عثمان المازني مازن بني شيبان كان سيّد أهل العلم بالنحو والغريب واللغة بالبصرة ومقدّمته مشهورة بذلك ـ إلى أن قال: ولا إشكال في كون الرَّجل إمامياً، وقد سمع من النجاشيّ أنّه من علماء الإماميّة إلخ.

أقول: ويشعر بعض مضامين القصّة المنقولة أنّه من الإماميّة حيث إنَّ دعوته إلى سرّ من رأى بأمر الخليفة كانت رهيبة ومعرض خطر، وبهذه المناسبة سأله المعتصم عن أولاده وعمّا قالت له ابنته حين سفره وأعطاه الأمان بقوله: اجلس، واطمئن، فيظهر منها أنّه كان معروفاً بالتشيّع ومبتلى بالضغط وضيق المعاش، فطمع فيه ذمّي وأعطاه مائتي دينار ليعلّمه كتاب سيبويه، وكما نقل عن المبرّد امتنع عن ذلك بأنَّ في الكتاب ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ، ولست أرى أن أمكّن ذمّياً منها، غيرة وحميّة للإسلام، ويكشف ذلك عن غاية ورعه وتقواه.

وذكر العلاّمة الأوحد الأقارضا الأصبهاني قدّس سرُّه أحد أساتيدي وشيخ إجازتي أنَّ حفظ حرمة كتاب الله صار سبباً لحدوث المناقشة بحضرة المعتصم وأدّى إلى إحضاره وإكرامه وبذل المال والكسوة له وتعريفه بحضرة الخليفة أستاذاً منحصراً للأدب واللغة في عصره، فنال تأييداً منه بمنّه تعالى وصار سبباً لشهرته ورفع الضيق عنه ببركة حرمة القرآن الشريف، ومن هنا يتوجّه هذا السّؤال:

هل يجوز تعليم القرآن لغير المسلم أم لا؟

ربما يستفاد من ظاهر الآية الشريفة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩] عدم الجواز، لأنَّ أظهر أفراد مسّ القرآن درك صورته العلميّة وحفظه في القلب، ويستفاد من هذه الآية النهي عن مسّ غير المطهّر، والكافر غير مطهّر.

كما أنَّ خباب بن أرت امتنع عن تسليم جزء من القرآن كان يعلّمه فاطمة أُخت عمر المسلمة حين طلبه عمر ليقرأه وقال أو قالت: «لا يمسّه إلاّ المطهّرون».

ويشعر امتناع المازني أحد شيوخ الإماميّة عن تعليم كتاب سيبويه المتضمّن لآيات القرآن الذمّي الغير المسلم بذلك، ولعلّه يتفرَّع على ذلك حرمة بيع المصحف لغير المسلم كما ذكره الفقهاء في مسائل المكاسب المحرّمة.

ولكن يضعف ذلك كلّه أنَّ القرآن الشريف أُوحي إلى النبيّ ﷺ ليقرأه على المشركين فيفهمونه ويصير سبباً لإسلامهم، وكان تعليم القرآن لغير المسلم سيرة ثابتة للنّبيّ ﷺ.

(والفكر مرآة صافية) الفكر أشعاع عقلي ينور القلب تنكشف به الحقائق وهي حركة روحيّة من المبادي إلى المقاصد ومن المقاصد إلى المبادي وعرَّفه الشيخ البهائي قدّس سرُّه في المبادي المنطقيّة لزبدة الأُصول بأنّه تأمّل معقول لكسب مجهول.

ووصفها عليه السلام بأنّها مرآة صافية ينعكس فيها الحقائق فيجب على الكل استعمالها في شتّى أُموره ويخلّصها من شوب الوهم والتخيّل ليرى الأشياء فيها، كما هي.

(وصدر العاقل صندوق سرّه) كتمان الأسرار دأب العقلاء الأخيار، وقد أُمر في غير واحد من الأخبار بكتمان السرّ، وصدر الوصاية به عن غير واحد من الحكماء وذوي البصيرة سواء كان سرّ نفسه أو السرّ المودع عنده من غيره.

وقد كان سرّ الشّيعة في دولة الخلفاء الجائرة ما أفاده إليهم أئمّة الحقّ من الأحكام والآداب الخاصّة وأمروهم بحفظه وصيانته عن الأعداء، ووردت أخبار كثيرة في ذمّ من يذيع هذه الأسرار عند الأغيار.

(والبشاشة حبالة المودّة) البشر وحسن الخلق مما يجلب به ويحفظ مودّة النّاس، وكما يصاد بالحبالة الطيور النافرة يصاد بالبشاشة وحسن الخلق القلوب الوحشية، وقد وصّى عليه السلام ابنه الحسن في حديث المعاشرة بقوله: «وبشرك للعامّة» يعني أنَّ حسن الخلق أدب مع كلّ النّاس.

(والاحتمال قبر العيوب) الاحتمال نوع من الحلم تجاه ما يكره من قول أو فعل يصدر عن المعاشر من صديق أو عدوّ، فإذا تحمّله الإنسان ولم يظهر الضّجر يصير سبباً لدفن العيوب من وجهين:

١ ـ أنَّ كثيراً من العيوب يتولّد من عدم الاحتمال نفسه، فكم من شخص اغتاظ من قول مكروه أو فعل غير ملائم فارتكب الجرائم والمعاصي والذمّائم والمآثم.

٢ ـ أنّه إذا لم يتحمّل تلك المكاره وقام في وجه المرتكب بالانتقام والسّفه يبدون معائبه المكنونة ويفضحونه بما يعلمون من سرائر حاله، فتحمّل المكاره موجب لستر العيوب.

وقال في شرح ابن الميثم: وروي أنّه عليه السلام قال في العبارة عن هذا المعنى أيضاً: **(المسالمة خباء العيوب)** قال الجوهريُّ: **(الخباء)**: واحد الأخبية بيت من وبر أو صوف ولا يكون من شعر ويكون على عمودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو بيت والمسالمة فضيلة تحت العفّة انتهى.

والأنسب أن يجعل المسالمة من فروع الشجاعة الأدبيّة فإنَّ مرجعها إلى المقاومة في قبال هجوم الغضب والطمأنينة في موقع الاستفزاز. وفي الشرح:

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السّكوت
سكتُّ عن السّفيه فظنّ أنّي عييتُ عن الجواب وما عييت

(من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه) الرّضا عن النّفس من شعب العجب الّذي عدَّ في غير واحد من الأخبار من المهلكات، ففي الحديث: ثلاث من المهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه.

وأثر هذه الخصلة توقّع الاحترام من النّاس وتحميل الوظائف المربوطة به عليهم، فعند اللقاء يتوقّع منهم الابتداء بالسلام والتحيّة، وفي الورود على المحافل والمجالس يتوقّع منهم التعظيم والقيام، وعند البحث وإبداء الرأي يتوقّع منهم قبول قوله وهكذا، وهذه التوقّعات ثقيلة على النّاس فيحصل الناقم عليه والساخط والمنتقد.

(والصّدقة دواء منجح) الصّدقة تمليك مال للمستحقّ مجّاناً قربة إلى الله تعالى وهي واجبة كالزكاة المقررة في الشرع، ومندوبة وهي على مقدرة المتصدّق وسخائه، وكلّ منهما دواء منجح للآلام الاجتماعية والفرديّة.

فإنَّ من مصارف الزكاة الواجبة أداء الديون وتحرير الرقاب والإعانة للفقراء والمساكين والصرف في الأُمور العامّة من تسبيل السبل وتأمين الصحّة وإيجاد البيمارستانات والمساجد والإعانة على الجهاد، وكلّ هذه الأمور معالجة باتت نافعة لآلام محسوسة وموجعة للجمع والفرد، ويؤثر ذلك في رفع آلام المتصدّق وينتفع به كغيره.

كما أنَّ الصدقة المندوبة دواء منجح في معالجة ألم الجزع والحاجة للمستحق فتوجّه بقلبه على المتصدّق والمنفق فيدفع آلامه ويقضي حوائجه بإذن الله وقال ﷺ: **«داووا مرضاكم بالصّدقة»**[1].

وفي زكاة الجواهر: ويكفيك فيما ورد في فضل الصدقة الشاملة لها من أنَّ الله يربيها لصاحبها كما يربي الرَّجل فضيلة فيأتي بها يوم القيامة مثل أُحد، وأنها تدفع ميتة السوء وتفكّ من سبعمائة شيطان، ولا شيء أثقل على الشيطان منها وصدقة الليل تطفيء غضب الربّ وتمحق الذّنب العظيم وتهوّن الحساب، وصدقة المال تنمي المال وتزيد في العمر.

(وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم) هذه الجملة تدلّ على تجسّم

(١) فقه الرضا (عليه السلام): ٣٤٢، والدعوات للراوندي: ١٨١.

الأعمال ويستفاد منها أنَّ كلَّ عمل يتجسّم بصورة يناسبها من خير أو شرج، وحسن أو قبح، ويراها العامل بعينه في آجله وهو حين حلول الموت الّذي يرفع الحجاب ويكشف الغطاء إلى القبر والبرزخ والقيامة.

ويؤيّدها ظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٨] فإنَّ ظاهر الرؤية بمفعول واحد هي الرؤية بالبصر.

الترجمة

هركه طمع در دل آرد خود را پست دارد و هركه پرده از سختى و تنگدستى خويش برگيرد خود را به خوارى بسپارد و هركه به گستاخى زبان خود سر نهد خويش را به زبونى دهد؛ بخل ننگ است و ترس كاستى مرد است؛ بينوايى هوشمند را از دليل حق خود گنگ سازد؛ تنگ سرمايه در وطنش آواره است و ناتوانى خود آفتى است جانى و شكيبايى دليرى است و زهد توانگرى و پارسايى سپرى است محكم و رضا به پيش آمد، چه خوب رفيقى است، خوش آمد و دانش بهره اى است، ارجمند؛ رعايت آداب جامه اى است زيبا و تازه و انديشه آيينه اى است زلال؛ سينه خردمند صندوق هر رازى است؛ خوشخويى، دام مهر و دوستى است و حلمورزى، گورستان عيب ها است؛ "سازش سرپوش عيب ها است"؛ هركه از خود راضى است دشمنش فراوان است؛ صدقه درمانى است مؤثر و كارهاى بندگان خدا در ديگرسرا برابر چشمان آنها است.

هر آن كس كه چشم طمع باز كرد — به خود خوارى و پستى آغاز كرد
زبونى پسندد به خود هر كسى — شكايت ز سختى كند با كسى
زبان هر كه فرمانده خويش كرد — ز خوارى دل خويش را ريش كرد
بود بخل ننگ و بود ترس نقص — چه درويشى از حجت خود مرقص
نداران غريب اند اندر وطن — بدان عجز را آفت خويشتن
شكيبا دلير است و زاهد غنى — بود پارسايى دژ پر فنى
رضا خوش قرين است، از كف مده — چه دانش برى ارث ارجش بنه
ادب جامه فاخرى نو به نو — ز انديشه پاك آينه كن درو
خردمند را سينه صندوق راز — ز خوشخويى ات دام مهرى بساز
تحمل كن و عيب را خاك كن — به سازش ز خود عيب را پاك كن
ز خود راضيان راست دشمن بسى — ز صدقه به درمان دردت رسى
بود بندگان را به ديگر سراى — همه كار در پيش چشم دوتاى

السابعة من حكمه عليه السلام

(٧) وَقالَ عليه السلام: إعْجَبُوا لِهٰذَا الإِنسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ، وَيَتَكَلّمُ بِلَحْمٍ وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ، وَيَتَنَفَّسُ في خَرْمٍ (مِنْ خَرْمٍ)[1][2].

اللغة

(عَجِبَ) عجباً من الأمر أخذه العجب منه ـ إلى أن قال: العجب جمع إعجاب انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه أو استظرافه أو إنكاره ما يرد عليه ـ المنجد.

(الشحم) القطعة منه شحمة جمع شحوم ما ابيضّ وخفّ من لحم الحيوان كالذي يغشى الكرش والأمعاء ونحوهما ـ المنجد.

(الخرم) جمع خروم أنف الجبل ـ المنجد والصّحاح.

المعنى

من العلوم الهامّة للبشر وخصوصاً في هذه القرون المعاصرة علم فوائد الأعضاء، والبحث عن حقائق الحواسّ وما لها من خواصّ، ولم تكن تلك العلوم معروفة في عصره عليه السلام وسيّما للعرب العوام، وقد استلفت عليه السلام نظر أبناء الإسلام إلى هذين العلمين باستفزاز العجب الّذي منشأه، كما ذكره ـ المنجد ـ: انفعال النفس عن استعظام الأمر أو استظرافه.

وهذه الحواس والخصائص الإنسانيّة عظيمة وظريفة جدّاً إلى غير النهاية ولكن لا يتوجّه إلى دقائقها أفكار أُولئك الأعراب في هذا العصر، ولا يستعدُّون لدرك ما أودع في هذه الحواسّ من دقائق الصنع ولطائف الخلقة الّتي ما زالت العلماء والبحاثة يتدارسونها، ويبحثون عنها طيلة القرون الماضية والحاضرة ويعترفون بعدم الوصول إلى غورها.

فمسألة الأبصار من مسائل الحكمة الطبيعية من عهد فلاسفة يونان، وتوجّه العلماء إليها إلى الآن، واكتشفوا الطبقات السبعة للعين وما فيها من المواد والنسوج والأوردة والجلود، ولكن يتحيّرون في كيفيّة إدراك النّفس للصورة المنطبقة في عدسة العين.

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ١٨٢٤ ح٢٥٣١، وعيون الحكم والمواعظ: ٨٨.

(٢) «من خرم» في نسخة

كما أنّ تأثّر عضلات اللّسان من إرادة المتكلّم بسهولة ومران لا يتوجّه إليه المتكلّم سرّ لم ينكشف للعلماء الباحثين.

وهذا نقل أثر الارتجاجات القارعة على الصماخ في النّفس الإنسانيّة أمر مجهول للعلماء الباحثين.

وهذا الثقب الخيشُومي الذي هو وسيلة لدخول الهواء دائماً إلى الرئة من عجائب صنع الله.

وقد استلفت عليٌ عليه السلام نظر مستمعيه إلى ظاهرة هذه الحواسّ والخواصّ واختلاف مناحيها وآلاتها المودَعة فيها، فالنظر بظاهره ينبعث من الشحم المودع في العين، والتكلّم يخرج من اللسان والشفتين، والسمع يقع من عظمي الصماخين كما أنّ التنفس يتحقّق من ثقب الأنف الذي هو داخل الخرم.

ومن ناحية أُخرى ينبّه الإنسان على ضعفه في أُصول حياته لينزله من مركب غروره وهناته، ويشير إلى أنَّ أعظم أركان وجوده قائم على أُمور خفيفة ومبانٍ ضعيفة.

فمبدأ نظره الذي هو نور وجوده وضياءِ ديجوره الّذي لو سلب عنه أُظلمت عليه الدُّنيا وما فيها، قطعة صغيرة من الشحم الّذي لو عرض على أحد لا يشتريه بفلس.

وكلامه الّذي هو قوام إنسانيّته ومبدأ فخره على سائر أبناء جلدته الحيوانيّة قائم على قطعة صغيرة من اللّحم الّذي لو بقي يوماً لتعفّن وفسد، ويتنفّر عنه كلُّ أحد.

وسمعه الّذي يربطه بكلّ العالم وينشد له بما شاء ويترنّم قائم على قطعة من العظم الفاقد للقيمة والبائد عند شروق الشمس ونفوذ البرد يوماً بعد أمس.

وتنفّسه الذي به يحيى كلّ آن يخرج من خرم بلا بنيان.

الترجمة

در شگفت باشيد از اين بشر كه به قطعه پيهى بينا است و به پاره گوشتى سخنور و به تكه استخوانى شنوا و از سوراخ بينى دم برآرد.

شگفت آريد بر انسان كه از پيهى بود بينا
سخن گويد به لحمى، بشنود با استخوانى نغمه دنيا
بر آرد دم ز يك سوراخ مبهم بر سر بينى
كه گر بندد، برآيد جان شيرينش ز سر تا پا

الثامنة من حكمه عليه السلام

(٨) وَقال عليه السلام: «إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيا عَلىٰ أَحَدٍ أعارَتْهُ مَحاسِنَ غَيْرِهِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحاسِنَ نَفْسِهِ»[١].

نظم نعمت خان عالي أحد أبطال الحكمة والشعر من أهالي إيران في الهند في مثنويه قصّة في معارضة الحظّ والعقل أيهما أنفع للإنسان، فقال الحظُّ للعقل: نجرّب ذلك نختار أسوأ النّاس حالاً فأُقارنه وأُؤيّده وتفارقه مرّة، وتقارنه وتؤيّده وأُفارقه مرّة أُخرى ليتبيّن الحقّ.

فوجدا يتيماً عارياً بلا مال ولا مأوى يعمل لأحد الزراعين مشغول بحرث الأرض مع الثيران فقال الحظُّ: أنا له الآن فلا تقربه، فأقبل عليه وصادف محراثه ثقبة كنز مملوء من المجوهرات الكريمة فاستخرجها ولا يعقل ما يعمل معها، فألقى مقداراً منها في معلف الثيران، وصنع منها قلائد وعلّقها على عنقها وأذنابها وقرونها، فشرعت تتلألأ في الصحراء كأنها كوكب درّي، وخرج ملك البلاد للصيد ومرَّ على هذه الناحية فاستجلبه بهاء هذه الجواهر وتلألؤها، فعكف عنانه نحوها فرأى اليتيم وراء الثيران وأعجب به حسناً وكياسة وقال لأصحابه: ما رأيت غلاماً أحسن ولا أكيس منه قط، فاحملوه مع هذه الجواهر إلى القصر الملكي، فحملوه وصار الملك لا يفكّر إلاّ فيه فوقع في روعه أنه لا ولد له يرث ملكه ويحفظه وإنما له بنت واحدة فقال: أُزوِّجه ابنتي وأجعله وارث ملكي فلا أجد أليق منه، فزوّجه ابنته وأقام الحفلات والمآدب وصار يفتخر به عند الأباعد والأقارب حتّى زفَّ مع ابنة الملك ونام معها في فراشها.

فقال الحظُّ للعقل: هذا عملي رفعت يتيماً عارياً من وراء الثور إلى فراش ابنة الملك والآن أُفارقه وأُسلّمه إليك بما لك من التدبير والازدهار.

فلمّا فارق حظّه ورجع إليه عقله ذهب النوم من رأسه وجعل يفكّر في عاقبة أمره فقال لنفسه: أنت ما تعلم فلو سألك الملك بالبارحة عن أبيك وأسرتك ما تقول له، ولو علم بلؤم نسبك وحسبك لقتلك في الساعة، فمن حكم العقل الهرب من هذا الضرر المهلك ودبّر العلاج في الهرب عارياً في ظلمة هذه الليلة، فخلع لباسه الملوكي وألقى بنفسه من جدار القصر وراح يهرول في البادية هارباً، فتوجّه الحظُّ إلى العقل وقال: هذا من عملك.

(١) عيون أخبار الرضا «ع»: ١/٢٣٨ ح١١، وروضة الواعظين: ٤٤٥.

وقد سمع في حديث أنه عليه السلام يدعو بهذا الدُّعاء:
«اللّهمّ ارزقني حظّاً يخدمني به ذوو العقول، ولا ترزقني عقلاً أخدم به ذوي الحظوظ».

الترجمة

ون دنيا به كسى رو آرد، خوبى هاى ديگران را به وى بخشد و چون به كسى پشت دهد، زيبايى هاى او را به غارت برد.

چو دنيا رو كند با كس دهد خوبى اش از هر كس
چه برگردد، برد زيبايى و سازد ورا چون خس

التاسعة من حكمه عليه السلام

(٩) وَقالَ عليه السلام: «خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالِطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ»[1].

اللغة

(خالطه) مخالطة وخلاطاً: عاشره (حنَّ) حنيناً إليه: اشتاق ـ المنجد.

المعنى

هذا بيان جامع لأدب المعاشرة والخلطة مع الناس، والمقصود أن تكون المخالطة ودّية وعلى قصد الإعانة للناس وجلب قلوبهم والتفاني في مصالحهم بحيث يحسّوا من فقده فقد محبّ ومعين فيبكوا من فقده وفراقه، وإذا كان حيّاً يشتاقون إلى لقائه.

الترجمة

با مردم چنان دوستانه معاشرت كنيد كه اگر مرديد بر شما بگريند و اگر زنده باشيد به ملاقات تان مشتاق باشند.

به مردم درآميز با مهر و يارى | كه بر مرده ات گريه آرند و زارى
و گر زنده مانى چه پروانه گردت | برآيند و سوزند از شرمسارى

(١) شرح أصول الكافي: ١/ ٣٢٢، ووسائل الشيعة: ١٢/ ١٢ ح١٥٥١٤.

العاشرة من حكمه عليه السلام

(١٠) وَقالَ عليه السلام: «إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ»[1].

اللغة

(قدر) قدراً... على الشيء: قوي عليه **(العداوة)** الخصومة والمباعدة والعدوُّ جمع الأعداء.

المعنى

القدرة من أفضل النعم وأمجد الكرم الّذي منّ الله به على الكائنات، فالقدرة هي النشاط والحركة التي بها يستكمل كلُّ موجود سيره ويصعد على درجات الكمال، وبها تتصوَّر المادة على أنواع شتّى الكائنات، فالقدرة حركة في ذاتها ودفاع عن مضاداتها وكلّ عائق عن الحركة عدوّ لدود لا بدَّ من دفعه والمضيّ في سبيل الرقي والكمال.

وأفضل الدفاع عن العدوّ تسخيره وتحويله إلى رفيق مساعد كما يشاهد في استكمال القوى الحيويّة فإنها تعمل في مضاداتها وتجعل منها آلاتها ومعدّاتها فإن ظهر تجاه الإنسان عدوٌّ يضادُّه ويعانده وأنعم الله على عبده بالقدرة على عدوّه فليحذر سلّ سيف الانتقام، بل يعفو عنه شكراً على هذه النعمة، ويجعله بمنّه من أصدقائه ومعاونيه، فالشكر من موجبات مزيد النعم ووفور الكرم، والعفو عن المسيء يوجب ذلك بتحوّل العدوّ صديقاً، والسّاخط محبّاً رفيقاً.

وسير الأنبياء والأكابر مليء بالعفو عند القدرة كيف؟ والعفو من صفات الله تعالى أقدر القادرين، والقاهر فوق المذنبين كلّ حين.

ونقل في السير أنه لما دخل كورش الأكبر مبعد بابل كمن له ارتب على شجرة في طريقه ليرميه بسهم قاتل، ولما رمى بسهمه كبا فرس كورش وهبط إلى الأرض فأخطأ السهم فأخذ ارتب ومثّل بين يدي كورش ولا يظنّ أحد أنه ينجو من القتل ولا طمع هو فيه، ولكن كورش عفا عنه فصار من أخلص أصدقائه وأوفى خدمه وجنده، وحضر معه كافة المعارك

(١) وسائل الشيعة: ١٢/ ١٧١ ح١٥٩٩٠، وشرح مئة كلمة: ١٣٣.

حتى إذا أُصيب كورش بجرح ومات قتل ارتب نفسه فوق جنازته، ولم يحبّ الحياة دونه بعده، وهذا من أغرب آثار العفو عن العدوّ المذنب بعد القدرة عليه.

الترجمة

چو دشمنت در چمبر افتد با گذشت از او شكر نعمت ادا كن.

چه قدرت به دشمن تو را داده شد به بخشش تو را شكرش آماده شد

الحادية عشرة من حكمه عليه السلام

(١١) وَقالَ عليه السلام: «أَعْجَزُ النّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ»(١).

اللغة

(الإخوان) جمع الأخ قال في «المنجد»: الأخ والأخّ والأخو والأخْو... من جمعك وإيّاه صلب أو بطن ـ إلى أن قال: ويقال: هؤلاء إخوة فلان، الصاحب والصديق وقيل: الأخوان جمع أخ من الصداقة يقال: هؤلاء إخوان الصفا، يستعار لكلّ مشارك لغيره في القبيلة أو في الدُّنيا أو في الصنعة أو في معاملة أو في غير ذلك من المناسبات.

أقول: وأليق المناسبات في لسان القرآن والأخبار المشاركة في الإسلام كما قال عزّ من قائل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الإعراب

(أعجز) مضافاً متبدأ، وجملة من عجز ـ إلخ ـ موصولة خبره، والرابط العموم المستفاد من الموصول.

المعنى

يشير الحديث إلى أنَّ الإنسان كما يتوجّه إلى المال ويصرف عمره في تحصيله فلا بدّ من توجّهه إلى أمر آخر وهو صرف الوقت في تحصيل الإخوان والأصدقاء وكما أنَّ الوصول إلى الأموال عادة لا يكون على وجه الصدفة والاختيار ولا يعتمد الناس في تحصيل المال عليها، كذلك الأصدقاء والإخوان لا يجتمعون حول الإنسان على وجه التصادف، فلا بدَّ من صرف الهمّة وبذل الثروة في تحصيلهم فإنه أهون من تحصيل الأموال، حيث إنَّ حسن المعاشرة وبذل المعاونة مما يكتسب به الأصدقاء ولا مؤنة فيه، وربما يحصل الصديق بمسابقة السلام والتحية وبالزيارة والعيادة وسائر الروابط الحسنة الاجتماعيّة المعمولة بين

(١) وسائل الشيعة: ١٢/١٨ ح١٥٥٢٧، وعيون الحكم والمواعظ: ١٢٦،

الناس، فمن ترك كلّ ذلك في سبيل تحصيل الأصدقاء والإخوان فهو من أعجز النّاس، وكما أنَّ المال بعد تحصيله محتاج إلى الحفظ والتنمية حتى يبقى، كذلك الصداقة والإخوة تحتاج إلى التودّد وحفظ الروابط حتى تبقى، فمن اكتسب صديقاً ثمَّ تركه وضيّعه كان أعجز من الأعجز.

الترجمة

ناتوانتر مردم آن كه برادرانى به دست نيارد و ناتوانتر از وى آن كه برادران را از خود براند.

ناتوانتر ز جمله مردم آن كه تحصيل دوست نتواند
ناتوانتر از او كسى كه ز دوست رشته دوستى ببرّند

الثانية عشرة من حكمه عليه السلام

(١٢) وَقالَ عليه السلام: إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرافُ النِّعَمِ فَلا تُنَفِّرُوا أَقْصاها بِقِلَّةِ الشُّكْرِ[١].

اللغة

(الأطراف) جمع طريف وهو المكتسب من المال حديثاً كما في ـ المنجد ـ أو جمع طَرف وهو الشيء ومنتهى كلّ شيء كما في ـ المنجد ـ والأوّل أنسب بالمقام.

(النّعمة) جمع نعم وأنعم الحالة الّتي يستلذّها الإنسان، وفلان واسع النعمة أي كثير المال ـ المنجد ـ.

(نفر) ينفر نفوراً الدّابة: جزعت وتباعدت، ونفر ينفرُ الظّبي: شرد وأبعد ـ المنجد ـ.

المعنى

نال المسلمون في عصره نعماً لم يسبقوها ولم يكونوا يطمعوا فيها من السيادة والعزّة والأموال الكثيرة الّتي مادّتها غنائم الجهاد السريع الناجح والفتوحات الواسعة التي أرسلت إلى المدينة سيلاً من طرائف الغنائم من ناحية الفرس والروم وقلّما يصل البائس والفقير إلى نعمة وافرة إلاّ بطر وطغى، والبطر والطغيان كفران النعمة، وقد شاهد عليه السلام كيف أثّرت هذه الوضعية في روحية المسلمين وشرعت تفسدهم وتغررهم حتى كبار الصحابة أمثال طلحة والزبير وعمرو بن العاص، فخاف عليهم عواقب هذه الغرة والطغيان الموجب للكفران وزوال النعم، فقد كان عليه السلام يتوقّع للإسلام نفوذاً عاماً يشمل البشريّة بأجمعها ويجعلها تخضع لحكومة واحدة عادلة ملؤها الأخلاق الفاضلة والتوحيد والعدل والسلام والإسلام، وهي النعمة القصوى الّتي ينظر إليها بعينه النافذة، وحذر المسلمون من تنفيرها، ولكن هيهات هيهات ويا أسفا من هذه الخلافات الّتي نفرت هذه النعم وأبعدتها إلى ظهور الحجّة عجّل الله فرجه.

الترجمة

چون نعمت هاى نورستان در رسند، كم سپاسى نكنيد تا دنبال هايشان برمند.

سر نعمت چه در آيد زدرت ... مى رسد از پس آن بيشترت
ناسپاسى مكن رم ندهش ... بر رگ خويش مزن نيشترت

---

(١) روضة الواعظين: ٤٧٣، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٣٢٨ ح٢١٦٧٧.

الثالثة عشرة من حكمه عليه السلام

(١٣) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ ضَيَّعَهُ الْأَقْرَبُ أُتيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ»(١).

اللغة

(ضيّع) الشيء: أهمله أهلكه فقده، (تاح) توحاً له الشيء: تهيّأ ـ المنجد ـ.

الإعراب

(أُتيح) مبنيٌّ للمفعول من أتاح يتيح، (والأبعد) نائب الفاعل مرفوع.

المعنى

كلّ موجود له أثر ويترتّب عليه غرض في نظام التكوين، فالموجودات كلّها كلمات الله وليس في كلماته كلمة مهملة من الذرة إلى الدرّة، وكلّ فرد من أفراد الإنسان عضو في عالم الكون وجزء مؤثّر في الاجتماع البشري أيّاً من كان من عامل وزارع وتاجر وعالم ووصيّ ونبيّ، فنظام الخلقة يقتضي ظهور ماله من الأثر بماله من الاستعداد والثمر، وينبغي أن يثمر كلّ موجود في محيط وجوده وكلّ إنسان في عشيرته وأقربائه، ولكن يشترط أن يكون المحيط مستقبلاً لذلك والأقرباء مستعدّون للاستفادة من هذا الفرد، فإن رفضوه وطردوه يهيّأ له مناخاً يثمر فيه ويؤثّر أثره.

وفي هذه الجملة إشارة وعتاب إلى قريش في مكّة حين ضيّعوا النبيّ صلى الله عليه وآله وطردوه ولم يستفيدوا من مقام نبوّته ولم ينصرُوه في بثّ دعوته، فأُتيح له من قبائل الأوس والخزرج الأبعداء أن ينصروه ويأزروه حتى بثّ دعوته واستكمل رسالته.

وإلى قريش وأتباعهم في المدينة حيث رفضوا ولايته وإمامته بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وتركوه فأُتيح له أنصار من الموالي وسائر العرب حتى بثّ دعوته وأظهر إمامته في الجمل وصفّين، بثّ تعاليمه العالية في الكوفة بين أظهر سائر الملل.

الترجمة

هر كه را نزديكانش به دور اندازند، بيگانگانش سر رسند و بنوازند.

هركه خويشان را ز دست دهند   بر سر دست، ديگران ببرند

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٥٧، وبحار الأنوار: ٧١/ ١٠٤ ح٦٥.

الرابعة عشرة من حكمه عليه السلام

(١٤) وَقالَ عليه السلام: «ما كُل مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ»[١].

اللغة

(فتن) يفتن فتنة ومفتوناً فلاناً: أضلّه، وفتناً فلاناً فلاناً عن رأيه: صدّه، فتن في دينه: مال عنه ـ المنجد. **(عاتب)** عتاباً ومعاتبة على كذا: لامه ـ المنجد.

المعنى

قال في الشرح: هذه الكلمة قالها عليٌّ عليه السلام لسعد بن أبي وقّاص ومحمّد بن مسلمة وعبد الله بن عمر لما امتنعوا من الخروج معه لحرب أصحاب الجمل ـ إلخ.

أقول: المفتون في لسان القرآن ومصطلح هذا الزمان هو الّذي مال عن عقيدته ورجع إلى الضلالة والكفر بعد إيمانه وإسلامه ويقال له: المرتدُّ الملّي وحكمه أن يعاتب ويستتاب، فإن تاب قبل توبته، والعتاب والملامة يوجّه إلى من يحتمل أن يؤثّر فيه العتاب ويرجع عن غيّه، ولكن أمثال هؤلاء الأكابر الّذين رجعوا عن ولايته وفتنوا عن نصرته ممن لا يؤثّر فيهم عتاب ولا خطاب، فهو عليه السلام آيس منهم، وجعلهم ممن ختم الله على سمعه وبصره.

الترجمة

هر گمراهى را، سرزنش به راه نياورد.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٧٦، ودستور معالم الحكم: ٢٢.

الخامسة عشرة من حكمه عليه السلام

(١٥) وَقالَ عليه السلام: «تَذِلُّ الأُمُورُ لِلْمَقادِيرِ حَتّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ»[١].

اللغة

(ذلَّ) ذُلّاً وذِلّاً البعير: سهل انقياده **(المقدار)** جمع مقادير **(الحتف)** جمع حتوف: الموت ـ المنجد.

المعنى

الإنسان مختار في أعماله وأفعاله، فصار مكلّفاً يثاب ويعاقب، وموظفاً يستحسن ويعاتب، ولكن أحاط به أُمور كثيرة لا يقدر على تغييرها ولا يتمكن من تغيير مسيرها، وهو مع ذلك لا يحيط علماً وخُبراً بما يترتّب على أعماله من نتائج ولا يتيسّر له تدبير كلّ الحوائج، فربما يهرب من عدوّ ويقع في الحبالة، وربما يتداوى بدواء فيزيده داء، فهو بماله من القدرة والمنعة كالعوبة في يد المقادير وكباحث حتفه بظلفه وإن كان حاذقاً في التدبير.

الترجمة

بشر در برابر قضا و قدر چنان منقاد است كه تدبير خود انسان باعث مرگ او مى شود.

قضا و قدر بر امورند حاكم　　　كه تدبير با مرگ گردد ملازم

(١) تحف العقول: ٢٢٣، والإرشاد: ١/ ٣٠٢.

السادسة عشرة من حكمه عليه السلام

(١٦) وَسُئِلَ عليه السلام ـ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»[١] ـ فَقَالَ عليه السلام: «إِنَّمَا قَالَ صلى الله عليه وآله ذٰلِكَ والدِّينُ قُلٌّ، فَأَمَّا الْآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ، وَضَرَبَ بِجِرانِهِ، فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ»[٢].

اللغة

(الشيب) بياض الشعر، (القلُّ) والقلّة مثل الذُّل والذلّة ـ صحاح. (النطاق) شقّة تلبسها المرأة وتشدّ وسطها ثمَّ ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة والأسفل ينجرّ إلى الأرض و (جران) البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره ـ صحاح.

الإعراب

(الشيب) مفعول، (ولا تشبّهوا) أمر من التشبّه من باب التفعّل، (والدين rg) جملة مبتدأ وخبر في محلِّ الحال، (والآن) ظرف متعلّق باختار، وجملة (وقد اتّسع نطاقه)، في محلِّ الحال من الدين، (امرؤ)، مبتدأ نكرة لعمومه أي كلّ امرء ولفظة (ما)، موصولة (اختار) جملة الصّلة والعائد محذوف وهي عطف على امرء، والخبر محذوف وهو مقرون أو ما يرادفه كقولهم: كلّ امرء وضيعته.

المعنى

أمره صلى الله عليه وآله بتغيير الشيب بالسّواد أو الحناء، ظاهره الوجوب لحكمة ذكره عليه السلام فقوله: فامرؤ وما اختار، إعلام لنسخه فإنه قد ينسخ السنّة كما ينسخ القرآن، والظاهر أنه على وجه الاستحباب فقوله: فامرؤ وما اختار، ترخيص لتركه فإنَّ الاستحباب مركب من الأمر وترخيص الترك ولا ينافي بقاء الحكم الاستحبابي زوال الحكمة التشريعيّة كما في وجوب أو استحباب غسل الجمعة المشرّعة لإزالة عفونة الإبط من الأعراب، ويشمل البريئون منها، فقول ابن ميثم في الشرح: إنّه عليه السلام جعله من المباح، مورد تأمّل فإنَّ الأخبار الواردة في فضل الخضاب واستحبابه مطلقاً غير قابلة للردّ والإنكار.

---

(١) تحف العقول: ١٣، وسائل الشيعة: ١/ ٤٠٣ ح١٥٦٥.

(٢) تحف العقول: ١٣، ووسائل الشيعة: ٢/ ٨٧ ح١٥٦٥.

الترجمة

از آن حضرت مقصود از قول رسول خدا (صلى الله عليه وآله) را پرسیدند که فرموده: "سپیدی موی پیری را بگردانید و خود را مانند یهود نسازید"، فرمود:

پیغمبر این دستور را فرمود در حالی که مسلمانان اندك و انگشت شمار بودند، ولی اکنون که دایره اسلام وسعت یافته و دین پابرجا شده است، هرکسی اختیار خود را دارد.

السابعة عشرة من حكمه عليه السلام

(١٧) وَقالَ عليه السلام: «في الَّذينَ اعْتَزَلوا الْقِتَالَ مَعَهُ: خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ»[١].

اللغة

(خذله) خذلاناً إذا ترك عونه ونصرته قال الأصمعي: إذا تخلّف الظّبي عن القطيع قيل: خذل ـ صحاح.

الإعراب

جملة، **(ولم ينصروا الباطل)**، في محلّ الحال من فاعل خذلوا.

المعنى

في الشرح المعتزلي قد سبق ذكر هؤلاء فيما تقدّم، وهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقّاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأسامة بن زيد، ومحمّد بن مسلمة، وأنس بن مالك، وجماعة غيرهم، ونقل عن شيخه أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لما دعاهم إلى القتال معه واعتذروا بما اعتذروا قال لهم: أتنكرون هذه البيعة؟ قالوا: لا لكنّا لا نقاتل، فقال: إذا بايعتم فقد قاتلتم قال: فسلموا بذلك من الذمّ لأنَّ إمامهم رضي عنهم انتهى[٢].

وغرّ بذلك ابن ميثم فقال: ويشبه أن يكون هذا إشارة إلى توسّط درجتهم في الضّلال، ويجري مجرى العذر لهم ـ إلخ.

أقول: هذه الجملة أبلغ تعبير في تعييرهم وتقبيحهم وحطّ درجتهم ومرجعها إلى أنَّ هؤلاء ممّن لا مبدأ لهم في الحياة ولم يوفّقوا لاتّخاذ عقيدة يجاهدون لها، فإنَّ الحياة المعنويّة للإنسان ـ عقيدة وجهاد ـ فمن لا عقيدة له بحقّ أو باطل كان مهملاً وملحقاً بالكائنات غير ذات الشعور، فمن اعتقد وجاهد دونه إن كان خطأً أفضل ممّن لا عقيدة له أصلاً.

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ٧/٢٠٦، والمعيار والمواعظ: ٥٢.

(٢) شرح النهج: ١٨/١١٥.

فظهور الفتن ونشوب الحروب بين المسلمين ناش عن اعتزال هؤلاء الخاذلين، حيث إنهم لو نصروا عليّاً عليه السلام يغلب على الباطل فيدمغه ولا يتجرّأ أمثال معاوية على القيام في وجهه والإيذان بحربه، ولو نصروا الباطل ربما صار عذراً لعليّ عليه السلام فتخلّى عن تصدّي الزعامة الّتي أكرهوه عليها كما في أيّام أبي بكر وعمر، فإنه لم يتصدّ للزعامة إلاّ بعد ضغط شديد من العامّة.

فاعتزال هؤلاء منقصة روحية وفقدان عقيدة وإيمان معنويّة لا عيب فوقه وسبب لبروز الحرب ونشوب القتال بين فئتي الحقّ والباطل، فأعتقد أنّ تحت هذه الجملة لهيباً حرّاقاً في قلبه اللطيف الرباني وجّهه على هؤلاء بهذه الجملة الموجزة.

الترجمة

درباره آنان كه از جهاد با وى كناره گرفتند فرمود: حق را واگزاردند و به باطل هم يارى نداند.

نه دنبال حق و نه جوياى باطل تو انسان نه اى، پيكرى هستى از گل

الثامنة عشرة من حكمه عليه السلام

(١٨) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ جَرَى في عِنَانِ أَمَلِهِ، عَثَرَ بِأَجَلِهِ»[1].

اللغة

(الأمل) الرّجاء، أمل يأمل أملاً وأمّل تأميلاً: رجاه ـ المنجد.

المعنى

فسّر اللّغويّون الأمل بالرّجاء، ولكن الأخبار مملوءة بذمّ الأمل ومدح الرّجاء، فيظهر أنه بينهما فرق بيّن من ناحية الأخلاق، وقد ذمَّ عليه السلام في هذه الجملة الأمل مطلقاً ولم يقيّده بطول الأمل كما في بعض الأخبار، فالأمل توقّع ما لا ينبغي ولم يحسن مآبه ولم يتهيّأ أسبابه، بخلاف الرّجاء فإنه توقّه ما ينبغي ويتيسّر، وشبّه عليه السلام الأمل بفرس شموس لا بدّ من ضبط عنانه وصدّه عن الجري إلى حيث يشاء، فمن ألقى عنانه وأرسله وجرى معه فحاله كحال من ركب فرساً شموساً فأرسل عنانه يركض حيث شاء، فلم يلبث أن يعثر أو يقع في بئر ويهلك راكبه.

الترجمة

هركه با آرزو هم عنان رود، به مرگ و نابودى رسد.

هركه با آرزو رود سركش ... مرگ گويدش اى فلان دركش

(١) وسائل الشيعة: ٢٠/ ٤٣٩ ح٢٥٨٣، وشرح مئة كلمة: ١٩٤.

التاسعة عشرة من حكمه عليه السلام

(١٩) وَقالَ عليه السلام: «أقيلُوا ذَوِي الْمُرُوءاتِ عَثَراتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إلاَّ وَيَد اللّهِ بِيَدِهِ[١] يَرْفَعُهُ»[٢].

اللغة

(أقلته) البيع إقالة وهو فسخه ـ صحاح ـ أقال أقالة الله عثرتك: أنهضك من سقوطك، ومنه الإقالة في البيع ـ المنجد.

(المروءة) كمال الرُّجولية ـ المنجد ـ **(العثرة)** جمع عثرات: السقطة ـ المنجد.

الإعراب

(عثراتهم) مفعول ثان لأقيلوا، **(عاثر)** فاعل يعثر وتنكيره لإفادة العموم **(ويد الله بيده)**، جملة مبتدأ وخبر يفسّره قوله: يرفعه.

المعنى

أصحاب المروءة محبوبون عند الله والنّاس لأنَّ المروءة خلق حسن وسماح وعفّة وخدمة وإعانة للنّاس.

قيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العفّة والحرفة، تعفّ عما حرّم الله وتحترف فيما أحلّ الله، وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إن كان لك خلق فلكُ مرُوءة[٣].

الترجمة

از لغزش مردان بزرگ در گذريد، هر كدام بلغزند خدا دست در دست آن را بر فرازد.

چشم از لغزش مردان تو بپوشان كه خدا   دست بر دست برآرد همه را تا به سها

---

(١) «يده بيد الله» في نسخة

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٨٧، وبحار الأنوار: ٧١/٤٠٥ ح٣.

(٣) نهج البلاغة: ١٨/١٢٩.

(٤) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٨/١٢٨، وأسد الغابة: ٤/٢٧٤، والإصابة: ٥/٥٤٦.

العشرون من حكمه عليه السلام

(٢٠) وَقالَ عليه السلام: «قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمانِ وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، فَانْتَهِزوا فُرَصَ الْخَيْرِ»(١).

اللغة

(الهيبة) المخافة، ضدّ الإنس خاب خيبة: لم يظفر بما طلب **(الحياء)** الحشمة، انقباض النفس تركه خوفاً من اللّوم - المنجد.

الإعراب

(الهيبة) نائب مناب الفاعل، و**(بالخيبة)** ظرف متعلق بقرنت، و**(الفرصة)** مبتدأ وجملة **(تمرّ)** خبرها، **(مرَّ السحاب)** مفعول مطلق للنوع.

المعنى

(الهيبة) والحياء صفتان عامتان ممدوحتان في محلّهما ومن أهلهما ومذمومتان في غير موقعهما، وكلامه عليه السلام هذا بيان للمذموم منهما، وذلك أنّه في الغالب تتولّد الهيبة من العجب فكثير من النّاس يهابون دخول أُمور تعدّ من وظائفهم وتوجب اكتساب المنافع لهم بسبب العجب فلم تقض حوائجهم ولا يصلون إلى مآربهم ولو كانت حقّاً، كما أنَّ الحياء في الشاب ناش عن نوع من الخمول والانكماش يحول دونهم ودون فوائدهم وحقوقهم وربما أداء ما يجب عليهم من أُمور الدِّين والسؤال عن واجباتهم، وكلتا الصفتين موجبتان لفوت الفرص الّتي ربما لا يمكن تداركها، فنبّه عليه السلام إلى معالجتهما وحفظ الفرص الّتي لو فاتت لا يمكن تداركها بسهولة وربما يتعذّر.

الترجمة

هيبت قرين نوميدى و خيبت است و حياء توأم با حرمان و بى نصيبى، فرصت به شتاب ابر از دست مى رود، پس فرصتهاى خوب را مغتنم شماريد.

هيبت نوميدى آرد، شرم زايد بى نصيبى

فرصت از دستت رود چون ابر، فرصت را به پا

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ٨٤ ح٢١٠٤٤، وعيون الحكم والمواعظ: ٦٩.

الواحدة والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢١) وَقالَ عليه السلام: «لَنا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِيناهُ، وَإِلاَّ رَكِبْنا أَعْجازَ الإِبِلِ وَإِنْ طالَ السُّرَى»[1]. قالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهٰذا الْقَوْلُ مِنْ لَطِيفِ الْكَلامِ وَفَصِيحِهِ، وَمَعْناهُ أَنّا إِنْ لَمْ نُعْطَ حَقَّنا كُنّا أَذِلاَّءَ، وَذٰلِكَ أَنَّ الرَّدِيفَ يَرْكَبُ عَجُزَ الْبَعِيرِ كَالْعَبْدِ وَالأَسِيرِ وَمَنْ يَجْرِي مَجْراهُما.

اللغة

(العجز) جمع أعجاز مؤخّر الشيء أو الجسم يقال: ركب أعجاز الإبل أي ركب الذّل والمشقة **(السّري)** سير اللّيل ـ المنجد.

الإعراب

(لنا) جار ومجرور متعلّق بفعل مقدّر خبر مقدّم لقول حق وهو مبتدأ نكرة جوّزه تقديم الخبر ظرفاً، و**(إلاّ)** تركيبيّة أي إن لا نعطاه شرط حذف منه فعله، وجملة **(ركبنا)** ـ إلخ ـ جزاؤه.

المعنى

قال في الشرح: هذا الفصل قد ذكره أبي عبيد الهروي في الجمع بين الغريبين وصورته: أنّ لنا حقّاً إن نعطاه نأخذه، وإن نُمنعهُ نركب أعجاز الإبل وإن طال السّرى ـ إلى أن قال: وهذا الكلام تزعم الإماميّة أنه قاله يوم السّقيفة أو في تلك الأيّام ويذهب أصحابنا إلى أنه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماع الجماعة لاختيار واحد من السّتة وأكثر أرباب السّير ينقلونه على هذا الوجه.

أقول: شأن ورود هذه الجملة كما ذكره يدلّ على أنّ مراده عليه السلام من هذه الجملة هو تحمّل المشقّة والصّبر الطائل إلى أوان ظهور الدولة الحقّة والحكومة الإسلاميّة المحقّة، وفيها إشارة وبشارة إلى ظهور الحجّة عجّل الله فرجه، وفي جملة **(وإن طال السّرى)** إشارة إلى أنّ دوران حكومة حكّام الجور مظلم، والعالم في أيام سلطتهم كالليل لا يهتدي فيها عموم البشر ولا يتنوّر البصائر بنور الحقّ والعدالة.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٢، وبحار الأنوار: ٢٩/ ٦٠٠ ح١٩.

الترجمة

برای ما - خاندان پيغمبر - حقّی است (حق است)، اگر به ما بدهندش چه بسيار خوب است و اگر نه، بايد سختی بكشيم و صبر كنيم و به دنبال آن برويم تا آن را به دست آريم، اگرچه اين شب روی به درازا كشد.

حقّی است برای ما بر امّت ... گر ز آن كه ادا شود به رأفت
بر آنكه دريغ آيد از آن ... رنجی است برای ما فراوان
سختی بكشيم بردباريم ... تا حق ز عدو به دست آريم

الثانية والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢٢) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

اللغة

و(**أبطأ**) ضدّ أسرع (**النسب**) مصدر جمع أنساب: القرابة ـ المنجد.

الإعراب

الباء في (**به**) للتعدية مثل ذهب به، لأنَّ أبطأ بنفسه لا يتعدّى.

المعنى

الإنسان كمسافر رحل من عالم الطبيعة إلى عالم القدس والحقيقة، ومن أسفل دركات الخسيسة الحيوانية إلى أعلى درجات الكمالات النفسانية، ومركبة في هذا السير العلوي والمعراج الرّوحي ليس إلاّ عمله، سواء كان عملاً نفسانياً كتحصيل المعارف الحقّة المعروفة بالحكمة العلمية، أو تحصيل ملكات أخلاقية فاضلة وهي المعروفة بالحكمة العملية، ويعبّر عنهما بجناحي العلم والعمل، فإن قصر الإنسان في هذين النوعين من العمل فقد أبطأ في سيره إلى الكمال ووقف في طريقه حتّى يرجع قهقرى إلى دركات الحيوانية ويسقط في أسفل ظلمات الطبيعة ولا يعاونه في هذا السير العلوي الحسب والمال، ولا النسب والجمال.

الترجمة

هركه كردارش او را از رفتار باز دارد، نسبش به شتاب واندارد.

هركه در كار و عمل، كند بود — نسبش تند و شتابان نبرد

(١) مستدرك الوسائل: ٣/ ٣٦٣ ح٣٧٨٨، وعيون الحكم والمواعظ: ٤٥٤.

الثالثة والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢٣) وَقالَ عليه السلام: «مِنْ كَفَّاراتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ وَالتَّنْفيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ»[1].

اللغة

(الكفارة) مؤنث الكفّار: ما يكفر به أي يغطّي به الإثم، ما كفّر به من صدقة أو صوم أو غيرهما **(الملهوف)** الحزين ذهب له مال أو فجع بحميم المظلوم ينادي ويستغيث **(نفّس)** عنه الكربة: لطفها وفرّجها ـ المنجد ـ.

الإعراب

(من كفارات الذّنوب) ـ إلخ ـ جار ومجرور متعلّق بفعل مقدَّر، والجملة خبر مقدّم، و**(إغاثة الملهوف)** مبتدأ مؤخر.

المعنى

هذه الحكمة تدلّ على أنَّ الذنوب قابلة للتكفير والتدارك وإن كانت كباراً وعظاماً، فإذا ارتكب الإنسان ذنباً لا يتعلّق بحقّ النّاس ثمَّ عمل خيراً كمن يغيث ملهوفاً أو يفرّج عن مكروب، يزول ذنبه ويغفر له.

الترجمة

یکی از کفارات گناهان بزرگ، دادرسی از بیچاره و کارگشایی از گرفتار بلا است.

کفاره گناه بزرگ تو، می شود ... گر درد مستمند و حزین را دوا کنی

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ٣٧٣ ح٢١٧٩٨، وبحار الأنوار: ٧٢/ ٢١

الرابعة والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢٤) وَقالَ عليه السلام: «يَا ابْنَ آدَمَ رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ، فَاحْذَرْهُ»[1].

اللغة

(آدم) أبو البشر وأصله بهمزتين لأنه افعل إلاّ أنّهم ليّنوا الثانية، وإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واواً وقلت: أوادم في الجمع (التتابع) الولاء ـ صحاح.

الإعراب

(يا ابن آدم)، منادى مضاف، ولفظة (آدم) غير منصرف (سبحانه) مصدر منصوب بفعل مقدَّر وجوباً، أي سبّحته سبحانه.

المعنى

يتوقّع الإنسان تعجيل عقوبة العصيان وقطع نعمة الله عنه، فإذا تأخّر ذلك اجترأ وغيرّ، وربما جحد وكفر، وقد حكى الله ذلك عن أهل النفاق في: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وهو غافل من أنَّ أشدَّ عقوبة على العاصي المجترىء الاستدراج، وهو أنه يعصي الله فيزيد في نعمه ليزداد طغياناً وإثماً، وهو عليه السلام في هذا الكلام حذَّر الإنسان من هذه الورطة والهلكة، وقال: أيها العاصي لا يغرّك تتابع النعم فاحذر من الله أن يكون ذلك مزيداً في هلاكك.

الترجمة

ای آدمیزاده، چون دیدی پروردگارت سبحانه نعمت پیاپی دهد و تو گناه پیاپی کنی، باید از خدا در حذر باشی.

چه اندر گناهی و نعمت پیاپی	زحق بر تو وارد شود کن حذر
خداوند از بهر اتمام حجت	به عاصی دهد نعمت بیشتر

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ٣٨٣ ح٨، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٣١٥ ح٣٩١٠.

الخامسة والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢٥) وَقالَ عليه السلام: «ما أَضْمَرَ أَحَدٌ شيئاً إِلاَّ ظَهَرَ في فَلَتَاتِ لِسانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»[١].

اللغة

(الفلتة) الأمر يقع من غير تروّ، حدث الأمر فلتة أي فجأة من غير تدبّر **(الصفحة)** من الشيء جمع صفحات: جانبه ووجهه ـ المنجد ـ.

الإعراب

(إلاّ ظهر في فلتات لسانه)، في حكم الاستثناء المنقطع.

المعنى

القلب محفظة للحقائق والأحزان ومخزن للأسرار، ولكلّ شيء ثقل بحسبه يبحث عنه العلم الطبيعي، ومن مهمّات هذا العلم العميق الدقيق تشخيص الأوزان الخاصّة بكلّ جسم أو غاز، وينظّمون لها فهارس مفصّلة تبين دستوراً لكلّ منها وللأسرار والحقائق ثقل يقع عبئها على القلوب، وكلّما كان السرّ أستر كان على القلب أثقل، فيضيق ويضغط حتّى يختلّ روحيّة الإنسان ويعرض له الاختلال ومن أهمّ مسائل علم النفس الحديث معالجة المبتلى به، وأحد طرقه المفيدة جلب اطمئنان المبتلى بحيث يطمئن أن يحدث بكلّ ما أضمر في قلبه من سرّه، ولعلّ الأمر بالاعتراف على الخطايا والمعاصي في حال المناجاة مع الله وفي أماكن مقدّسة كما عند الكعبة أو عرفات نوع من هذه المعالجة لضائقي القلوب بما أسرّوا فيها من سيئات يهتمّوا على سترها عن كلّ أحد، وإذا ضاق القلب بالسرّ يترشّح من اللّسان وإن كرهه الإنسان، وهو الّذي عبّر عنه بالفلتة، كما أنه يظهر على صفحة الوجه الوجدان الباطني الّذي هو أثر الأسرار الكامنة في القلب.

(١) مطلوب كل طالب: ٤٦، وشرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: ٦٣ ح٩٦.

الترجمة

هيچ كس رازى در درون نگيرد، جز آن كه از زبانش برآورد و از رخساره اش هويدا گردد.

راز درون هـــر چـــه بـــود گـــاه گـــاه	تـــيـــغ زبـــانـــش بـــه در آرد زچـــاه
صـــفـــحـــه رخـــســـاره چـــه يـــك آيـــنـــه	فـــاش كـــنـــنـــد راز دل از دود آن

السادسة والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢٦) وَقالَ عليه السلام: «إمْشِ بِدائِكَ ما مَشىٰ بِكَ»[1].

اللغة

(الدّاء) جمع أدواء: المرض والعلّة ـ المنجد ـ.

الإعراب

الباء في (بدائك)، للتعدية، ولفظة (ما)، اسميّة زمانيّة.

المعنى

يشير عليه السلام في هذه الجملة إلى الحذر من التّعجيل بمراجعة الطبيب عند ظهور الدّاء، لأنَّ المراجعة إلى الأطبّاء بنفسه مرض وعلّة خصوصاً في تلك العصور وفي تلك البيئة الّتي كانت صنعة الطبّ ابتدائية جدّاً، والأطباء الحذّاق، قليلون والمريض عندهم كآلة اختبار يجرّونه من دواء إلى دواء ومن معالجة إلى أخرى حتّى يبرأ بمصادفة دواء ناجع أو بكشف مرضه عن إصابة دواء مبرء، وربما يموت ويهلك طيلة اختبار الطبيب وما له من نصيب، على أنَّ لبعض الأمراض دورة وثورة في جسم الإنسان تزول بالمزاولة والمماشاة معه، ولعلّ كثيراً من نتائج المعالجات وخصوصاً في العصور القديمة الّتي كانت صنعة الطبّ على أساس التجربة والاستعلام من آثار المرض كأحوال النبض وألوان القارورة، يرجع إلى ذلك، وكان أثر معالجة الطبيب تقوية نفس المريض وإمراره على هذه الدورة والثورة برفق وهناء.

الترجمة

تا دردت با تو بسازد و از پايت نيندازد، با او بساز.

تـا كـه دردت ز پـا نـيـنـدازد تـو بـه هـمـراه او بـسـاز بـرو

(١) وسائل الشيعة: ٢/ ٤١٠ ح٢٤٩٧، وعيون الحكم والمواعظ: ٧٥.

السابعة والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢٧) وَقالَ عليه السلام: «أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ»[١].

اللغة

(زهَد) وزهِد وزهُد زهداً وزهادة في الشيء وعنه: رغب عنه وتركه ومنه الزهد في الدنيا أي تخلّى عنها للعبادة فهو زاهد ـ المنجد ـ.

المعنى

لكلّ شيء آفة وآفة العبودية الرّياء، وسمّي شركاً خفيّاً لأنه قلّما يخلو عنه الإنسان، والرِّياء التّظاهر بعمل شرعي جلباً لقلوب النّاس، ويدخل في كلّ عبادة ظاهرة وخصوصاً الزّهد والتظاهر بترك الدُّنيا ولذّاتها، فطال ما اتّخذه المراؤن أكبر وسيلة للنفوذ في قلوب الناس واستمالتهم، وهو وسيلة سهلة لا تحتاج إلى رياضة علميّة ولا عمليّة فقال عليه السلام: «أفضل الزّهد ترك التظاهر به عند النّاس»[٢].

الترجمة

بهترين اقسام زهد، نهان داشتن زهد است.

گر زهد نهان كنى ز مردم داری تو به زاهدان تقدّم

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١١٩، وبحار الأنوار: ٦٧/٣١٩ ح٣٤.

(٢) لم نجده بهذه الألفاظ.

الثامنة والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢٨) وَقالَ عليه السلام: «إِذَا كُنْتَ في إِدْبارٍ والْمَوْتُ في إِقْبالٍ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى»[١].

اللغة

(الإدبار) نقيض الإقبال ـ صحاح.

الإعراب

(في إدبار)، جار ومجرور متعلّق بمقدَّر، والجملة خبر **(كنت)**، و**(الإدبار)** و**(الإقبال)** اعتبرا ظرف لزمان الماضي والاستقبال.

المعنى

قد أشار عليه السلام في هذا الموجز من الكلام إلى سرعة مضيّ العمر والخروج من هذه الدُّنيا العارية، وأفاد أنّ الإنسان بين حركتين سريعتين نحو الموت:

١ ـ إدباره على هذه الدُّنيا وسفره عن هذه الحياة الماديّة، فإنه من يوم ولد من أُمّه كمن تجهّز راحلاً عن هذه الدّار، أنفاسه أقدام تقع للمسير، وأيامه منازل، ولياليه مراحل، فكلّ مسافر له استراحة مّا طيّ سفره ولكن الإنسان في الإدبار عن هذه الدار لا يستريح قيد ساعة ويديم سيره بكلّ تنفّس.

٢ ـ أنّ الموت أقبل نحو الإنسان يطلبه دائماً، فإنه عبارة عن اختلال شرائط الصّحة، والحياة أثر حادث يعرض للإنسان كالتصادم أو السقوط أو الحرق أو الغرق أو غير ذلك من الحوادث الموجبة للموت فجاة أو بأناة أو بزوال القوّة الغريزية الكامنة في الإنسان تنقص رويداً رويداً إلى أن يبيد ويحلّ الموت الطبيعي وبكلا الوجهين كان الموت إلى إقبال دائم وسريع نحو الإنسان.

الترجمة

چون تو را پشت به زندگى است و مرگ رو به تو، چه زود بر خورد خواهد شد.

چون تو را پشت به دنيا باشد　　　مرگ بهر تو مهيّا باشد

(١) روضة الواعظين: ٤٩.

التاسعة والعشرون من حكمه عليه السلام

(٢٩) وَقال عليه السلام: «الْحَذَرَ الْحَذَرَ، فَوَاللّهِ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كأنَّهُ قَدْ غَفَرَ»[١].

اللغة

(الحذر) حذِر حذراً الرجل: تحرّ زمنه (ستَرَ) ستراً الشيء: غطّاه ـ المنجد.

الإعراب

(الحذر)، مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً أي احذر الحذر.

المعنى

هذه الجملة إشارة إلى المنع من الاغترار بإمهال الله تعالى لعبده في ارتكاب الخطايا والمعاصي، فإنه تعالى بلطفه وعنايته يحفظ عبده عند ارتكاب الخطأ من أن يفضحه بين النّاس فيغطي معاصيه ويصون عرضه، وبهذه المناسبة شدّد في تحريم الغيبة وجعله أشدً من الزّنا، فإنّ العصيان ما دام مستوراً يحفظ المرتكب عن التجرّي، ويعدّه للتوبة والإنابة، وقد اهتمّ الله بستر المعصية كأنّه غفرها وعفا عنها، ولكن هذا الستر ليس غفراناً وعفواً، فعلى العبد أن يتدارك خطاياه بالتوبة والندم.

الترجمة

در حذر باش حذر، سوگند به خداوند كه پرده پوشى كند تا آن جا كه گويا آمرزيده باشد.

درحذر باش ز ستارى حق	توبه آور ز گناه اسبق
پرده پوش است خداوند كريم	تا برى ظنّ گذشت مطلق

(١) بحار الأنوار: ٧٥/٤٥٥، وبحار الأنوار: ٦/١٣٦ ح٣٧.

الثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣٠) وَسُئِلَ عليه السلام عَنِ الْإِيْمانِ، فَقالَ: «الْإِيْمانُ عَلىٰ أَرْبَعِ دَعائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ وَالْيَقينِ وَالْعَدْلِ وَالْجِهادِ. وَالصَّبْرُ مِنْها عَلىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ: فَمَنِ اشْتاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلاَعَنِ الشَّهَواتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّماتِ، وَمَنْ زَهِدَ في الدُّنْيا اسْتَهانَ بِالْمُصيباتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سارَعَ إِلَى الْخَيْراتِ. وَالْيَقينُ مِنْها عَلىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلىٰ تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلينَ: فَمَنْ تَبَصَّرَ في الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّما كانَ في الْأَوَّلين. وَالْعَدْلُ مِنْها عَلىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلىٰ غائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ، وَرَساخَةِ الْحِلْمِ، فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ في أَمْرِهِ وَعاشَ فِي النّاسِ حَميداً. وَالْجِهادُ مِنْها عَلىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَواطِنِ، وَشَنَئانِ الْفاسِقينَ، فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنينَ، وَمَنْ نَهىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنافِقينَ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَواطِنِ قَضىٰ ما عَلَيْهِ وَمَنْ شَنِيءَ الْفاسِقينَ وَغَضِبَ لِلّٰهِ غَضِبَ اللّٰهُ لَهُ وَأَرْضاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ»[1].

اللغة

(الدّعامة) جمع دعائم: عماد البيت، **(شفق)** شفقاً من الأمر: خاف **(ترقب)** انتظار، **(سلا)** عن الشيء: ذهل عن ذكره وهجره **(الشعبة)** الطائفة من الشيء **(الفطنة)** فطن في الأمر وبه وإليه: **(أدركه)**، فهمه وحذق فيه **(أوّل)** الكلام: فسّره وقدّره **(غاص)** على المعاني: بلغ غايته القصوى، **(غار)** غوراً: دقّق النظر فيه **(رسخ)** رسوخاً: ثبت في موضعه **(فرّط)** في الشيء قصّر وأظهر العجز فيه **(شنىء)** شنئاناً: أبغضه مع عداوة وسوء خلق ـ المنجد.

الإعراب

(على أربع دعائم)، جار ومجرور متعلّق بفعل مقدّر خبر لقوله: الإيمان على الصبر بدل الجزء من الكلّ لأربع دعائم، **(فمن اشتاق إلى الجنّة)** شرطيّة، وجملة **(سلا عن**

---
(١) بحار الأنوار: ٦٥/ ٣٤٨، ونهج السعادة: ١/ ٣٧٢.

الشهوات) جزاؤها، الإضافة في **(موعظة العبرة)** بيانيّة، الإضافة في **(غائض الفهم)** من إضافة الصفة إلى الموصوف، وفي **(غور العلم)** من إضافة المصدر إلى المفعول وفي **(رساخة الحلم)** من إضافة المصدر إلى الفاعل، وفي **(شنئان الفاسقين)** من إضافة المصدر إلى المفعول، لفظة (ما)، في قضى ما عليه موصولة، وجملة الظرف صلتها.

المعنى

روى هذا الحديث في الأصول من الكافي في باب صفة الإيمان بالإسناد الأوّل عن ابن محبوب، عن يعقوب السرّاج، عن جابر، عن أبي جعفر ﷺ ـ والإسناد الأوّل هو عليُّ بن إبراهيم، عن أبيه، ومحمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى وعدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد بن خالد جميعاً عن الحسن بن محبوب ـ إلخ.

قال المجلسي رحمه الله في شرحه: وهو صحيح وهو من تتمّة الخبر السابق، وهو مرويّ في الكتب الثلاثة بتغيير نشير إلى بعضه، قال في النّهج: سئل عليٌّ ﷺ عن الإيمان، فقال: الإيمان على أربع دعائم[1].

قال ابن الميثم: أما الإيمان فاعلم أنه أراد الإيمان الكامل، وذلك له أصل وله كمالات بها يتمُّ أصله، فأصله هو التصديق بوجود الصانع تعالى وماله من صفات الكمال ونعوت الجلال ـ إلخ.

أقول: الإسلام حقيقة مركّبة قولاً وفعلاً، أمّا بالنظر إلى القول فهو مركّب من الشهادتين: التوحيد والنبوّة كلمتي أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنَّ محمّداً رسول الله، وأمّا فعلاً فهو فروع الدّين المقررة فله سبعة أسهم كما في الحديث.

أمّا الإيمان فهو حقيقة بسيطة وعقيدة جازمة قلبيّة ونور يتشعشع من باطن الإنسان وينبسط على مشاعره وأعضائه، فله قوّة وضعف ويعتبر له بهذا النظر درجات أشير إلى أنها عشر درجات في بعض الأخبار.

ففي الكافي عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله ﷺ: «يا عبد العزيز الإيمان عشر درجات بمنزلة السّلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة فلا يقولنَّ صاحب الواحدة لصاحب الاثنين: لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشرة فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسّره فإنّ من كسّر مؤمناً فعليه جبره»[2].

---

(١) البحار: ٦٥/٣٤٨، ونهج البلاغة: ٤/٧ ح٣١. (٢) الكافي: ٢/٤٥، الخصال: ٤٤٨.

وما ذكره عليه السلام في هذا الحديث من الدعائم والشعب فهي باعتبار مباديه وآثاره وبسطه على المشاعر الإنسانية ووجدان الإنسان وأخلاقه، وبتعبير آخر فسّر عليه السّلام في هذا الكلام الإيمان من وجهته الأخلاقية والعلمية ووصفه توصيفاً بليغاً.

والظّاهر أنَّ السؤال ليس ما هو الإيمان؟ بل كيف الإيمان؟ أو على ما هو الإيمان؟ فأجاب عليه السلام بأنّ الإيمان على أربع دعائم، وظاهره أنَّ إقامة هذه الدعائم الأربعة شرط وجود الإيمان، ولا يمكن إقامته على ثلاثة منها أو اثنتين منها، وقوّة الإيمان وضعفه يقاس بقوَّة هذه الدعائم وضعفها، لا بتمامها ونقصانها.

فأوّل الدعائم الصبر، وهو المقاومة تجاه المكاره وتحمّل المشاق لنيل المقاصد ويبدأ من الاشتياق نحو المقصد الأعلى، والاشتياق يتضمّن فراق المحبوب ويستلزم تحمّل ألم وجده ربما يصل إلى مقام العشق والوله، فلا بدّ من الصّبر دون ذلك وأمّا الخوف والزهد والترقب الّذي فسّره بانتظار الموت والتهيّؤ له فآلام كلّها.

وفسّر الصبر في الاشتياق بأنَّ الشوق إلى الجنة وهو المقصد المتعارف لأهل الإيمان ملازم لمفارقة كلّ الشهوات المادّية والطبيعية ومزاولة الرياضات، فيحتاج إلى صبر ثابت وأكيد فهو أشدّ ألماً من الخوف والإشفاق الّذي يلازم اجتناب المحرّمات فحسب، لأنه ليس كلّ محرّم من الشهوات، كما أنّ كلّ الشهوات ليست من المحرّمات.

فالصّبر هو ما يعبّر عنه في لسان أرباب الحكمة بالعفّة واعتبروها أحد الأركان الأربعة لاستكمال النّفس وهي: الحكمة، والعفّة، والشّجاعة، والعدالة وفسّروا العدالة بأنها الإمساك عن الشره في فنون الشهوات المحسوسة وعدم الانقياد للشهوة وقهرها وتصريفها بحسب الرأي الصحيح ومقتضى الحكمة المذكورة، فالعفّة عند الحكماء صورة حاصلة للنفس الإنسانية بتعديل القوّة الشهوية وتقييدها بما حكم به العقل الصحيح وقرّره الشرع الصريح، ولكنّ الصبر على ما فسّره عليه السلام بين شعبة أعمّ وأتمّ ممّا ذكره الحكماء في هذا المقام.

وأمّا اليقين الّذي هو الحكمة المتعالية النظرية عند الفلاسفة، فيحتاج إلى فطنة بصيرة ونظر ثاقب في العواقب يخرق حجاب المادَّة وينفذ إلى ما وراء العالم المحسوس المحدود، ووجدان تيقّظ يتأثر من الأمور ودراسة لأحوال الأمم السالفة الناجية منها والهالكة، وهذه كلّها دروس أُلقيت في ضمن آيات القرآن الكريمة.

وقد رتّب عليه السلام هذه الأمور وجعلها درجات متتالية يصعد السالك فيها من درجة إلى درجة عليا، فمهما لم يتحصّل للإنسان فطنة بصيرة وقّادة لا يتبيّن له الحكمة ولا يقدر أن يقدر الموازين الصحيحة للحقائق والدلالة على حصول هذه الدرجة هي العبرة والتأثر عن أحوال

الماضين، فقوّة الإيمان وضعفه يدور مدار قوّة العقل وضعفه، فقد ورد في باب العقل والجهل أخبار كثيرة في ذلك نذكر شطراً منها:

١ ـ سيف بن عميرة عن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ن كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنّة»[١].

٢ ـ عن محمّد بن سليمان الديلمي، عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله كذا، فقال: كيف عقله؟ قلت: لا أدري، فقال: «إنَّ الثواب على قدر العقل، إنَّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة كثيرة الشجر ظاهرة الماء، وأنَّ ملكاً من الملائكة مرّ به فقال: يا ربِّ أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله ذلك فاستقلّه الملك، فأوحى الله إليه أن أصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسيّ فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك فلما أصبح قال له الملك: إنَّ مكانك لنزه وما يصلح إلاّ للعبادة، فقال له العابد: لمكاننا هذا عيبٌ، فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة فلو كان له حمار لرعيناه في هذا الموضع فإنّ هذا الحشيش يضيع، فقال له الملك: ليس لربك حمار، فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك إنما أُثيبه على قدر عقله»[٢].

كما أنَّ العدل يحتاج إلى فهم القوانين الصحيحة والإحاطة بحقائقها مقروناً بحسن إجرائها والدّقة في تطبيقها على مواردها، فلا بدّ من فهم غوّاص وعلم غوار للحقائق وأحكام قضائية زاهرة صريحة، وحلم ثابت في مقام إجرائها بين الخليقة، وقد أشار عليه السلام إلى شخصية قاض عادل وحاكم ربانيّ بأنه لا يقصّر في أموره ويعيش بين النّاس محمود الخصائل والفضائل، ونذكر هنا أخباراً في القاضي والقضاء:

١ ـ روي في الكافي في كتاب القضاء فِي باب أنَّ الحكومة إنما هي للإمام عن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «اتّقوا الحكومة فإنَّ الحكومة إنما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين لنبيّ أو وصيّ نبيّ»[٣].

٢ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لشريح: «يا شريح قد جلست

(١) الكافي: ١/ ١١ ح٦، وثواب الأعمال: ١٤.

(٢) الكافي: ١/ ١٢، والأمالي: ٥٠٤ ح٦٩٣.

(٣) الكافي: ٧/ ٤٠٦ ح٢، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ٥ ح٣٢٢٣.

مجلساً لا يجلسه إلاّ نبيٌّ أو وصيُّ نبيّ أو شقيّ»[(١)].

٣ ـ عن سعيد بن أبي خضيب البجلي قال: كنت مع ابن أبي ليلى مزامله حتّى جئنا إلى المدينة فبينا نحن في مسجد الرسول ﷺ إذ دخل جعفر بن محمّد فقلت لابن أبي ليلى: تقوم بنا إليه، قال: وما نصنع عنده؟ فقلت: نسائله ونحدّثه، فقال: قم، فقمنا إليه فساءلني عن نفسي وأهلي ثمّ قال: من هذا معك؟ فقلت: ابن أبي ليلى قاضي المسلمين، فقال: أنت ابن أبي ليلى قاضي المسلمين؟ فقال: نعم قال: تأخذ مال هذا فتعطيه هذا وتقتل وتفرّق بين المرء وزوجه لا تخاف في ذلك أحداً؟ قال: نعم، قال عليه السلام: فبأيّ شيء تقضي؟ قال: ما بلغني عن رسول الله ﷺ وعن عليّ وعن أبي بكر وعمر، قال: فبلغك من رسول الله أنه قال إنَّ عليّاً أقضاكم؟ قال: نعم، قال: فكيف تقضي بغير قضاء عليّ وقد بلغك هذا؟! ـ إلخ[(٢)].

والركن الرابع للإيمان الجهاد، فلا بدَّ للمؤمن أن يكون دائماً مشمّر الذّيل يجاهد في سبيل الحقّ ويكافح الجاهلين والمعاندين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصدق في المعارك وميادين النضال والمبارزة القائمة بين فئتي الحقّ والباطل في كلّ حال، ويحتاج المبارزة والنضال إلى وجدان حقّانيّ يبغض المنافق والفاسق فيقدر المؤمن أن يكافحه ويقوم في وجهه ويقاتله ويستأصله، فمن لم يبغض الباطل ويشنئه لا يقدر على دفعه بما يقتضيه الحال، فالأمر بالمعروف يقوي جامعة أهل الإيمان، كما أنّ النهي عن المنكر يهزم فئة الأعداء المنافقين الّذين هم أشدّ نكاية على أهل الإيمان من الكفّار المحاربين علناً في الميدان.

ونذكر هنا قصّة من صور الصدق في المواطن والمقاومة على وجه الباطل من الشرح لابن أبي الحديد ونترجمها في ذيل التّرجمة فإنها مفيدة جداً، قال الشارح المعتزلي في الجزء «١٨ ص١٤٤»:

وروى ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار» قال: بينما المنصور يطوف ليلاً بالبيت سمع قائلاً يقول: اللّهم إليك أشكو ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرَّجل رسولاً يدعوه، فصلّى ركعتين، واستلم الركن، وأقبل على المنصور وسلّم عليه بالخلافة، فقال المنصور: ما الّذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحقّ وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني، فقال يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من

(١) الكافي: ٧/٤٠٦ ح١، ومن لا يحضره الفقيه: ٣/ ٥ ح٣٢٢٢.

(٢) الكافي: ٧/٤٠٨ ح ٧، وتهذيب الأحكام: ٦/ ٢٢١ ح ٥٢١.

أصولها، وإلاّ احتجزت منك، واقتصرت على نفسي فلي فيها مشاغل، قال: أنت آمن على نفسك فقل، فقال: إنَّ الّذي دخله الطمع حتّى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغي والفساد لأنت، قال: ويحك، وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي، قال: ودخل أحد من الطمع ما دخلك إذ الله عزَّ وجلَّ استرعاك المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجباً من الجصّ والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجبة مع السّلاح، ثمَّ سجنت نفسك فيها منهم، وبعثت عمّالك في جباية الأموال وجمعها، وقويتهم بالسّلاح والرجال والكراع، وأمرت بأن لا يدخل عليك إلاّ فلان وفلان، نفر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف، ولا الجائع والفقير، ولا الضّعيف والعاري، ولا أحد ممن له في هذا المال حقّ، فما زال هؤلاء النفر الّذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك يحبون الأموال ويجمعونها ويحجبونها وقالوا: هذا رجل قد خان الله، فما لنا لا نخونه، وقد سخرنا فائتمروا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلاّ ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلاّ بغّضوه عندك وبغوه الغوائل، حتّى تسقط منزلته ويصغر قدره، فلمّا انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم النّاس وهابوهم وكان أوّل من صانعهم عمّا لك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثمَّ فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاؤك في سلطنتك وأنت غافل، فإن جاء متظلّم حيل بينه وبين دخول دارك، وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك وجدك وقد نهيت عن ذلك، ووقفت للنّاس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاءك المتظلم إليه أرسلوا إلى صاحب المظالم أن لا يرفع إليك قصّته، ولا يكشف لك حاله، فيجيبهم خوفاً منك، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه، ويلوذ به، ويستغيث إليه وهو يدفعه، ويعتلّ عليه، وإذا أجهد وأحرج وظهرت أنت لبعض شأنك صرخ بين يديك، فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر ولا تنكر، فما بقاء الإسلام على هذا.

فقد كنت أيام شبيبتي أسافر إلى الصّين، فقدمتها مرّة وقد أُصيب ملكها بسمعه، فبكى بكاءً شديداً، فحداه جلساؤه على الصبر، فقال: أما أني لست أبكي على البلية النازلة، ولكن أبكي للمظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته، ثمَّ قال: أما إذ ذهب سمعي فإنّ بصري لم يذهب، نادوا في النّاس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلاّ مظلوم، ثمَّ كان يركب الفيل طرفي نهاره ينظر هل يرى مظلوماً.

فهذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على شحّ نفسه، وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيّه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شحّ نفسك، فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله تعالى عبراً في الطّفل يسقط من بطن أمّه ما له على الأرض مال، وما من مال يومئذ

إلاّ ودونه يد شحيحة تحويه، فلا يزال الله يلطف بذلك الطفل حتّى تعظم رغبة النّاس إليه، لست بالّذي تعطي، ولكنَّ الله يعطي من يشاء ما يشاء.

وإذ قلت: إنّما أجمع المال لتشييد السلطان، فقد أراك الله عبراً في بني أُميّة ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذّهب والفضة وأعدّوا من الرّجال والسّلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد.

وإن قلت: أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية الّتي أنا فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلاّ منزلة لا تدرك إلاّ بخلاف ما أنت عليه، أُنظر هل تعاقب من عصاك بأشدّ من القتل؟ قال: لا، قال: فإنَّ الملك الّذي خولك ما خولك لا يعاقب من عصاه بالقتل، بل بالخلود في العذاب الأليم، وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبك وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك، وانظر هل يغني عنك ما شححت عليه من أمر الدُّنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب على ما منحك.

فبكى المنصور، وقال: ليتني لم أُخلق، ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ فقال: إنَّ للنّاس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم، ويرضون بقولهم، فاجعلهم بطانتك يرشدونك، وشاورهم في أمرك يسدّدوك قال: قد بعثت إليهم فهربوا، قال: نعم خافوا أن تحملهم على طريقك، ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانظر المظلوم واقمع الظالم، خذ الفيء والصدقات ممّا حلَّ وطاب، واقسمه بالحقّ والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويسعدوك على صلاح الأُمّة.

وجاء المؤذّنون فسلّموا عليه ونادوا بالصّلاة، فقام وصلّى وعاد إلى مجلسه فطلب الرّجل فلم يوجد[1].

(١) مواقف الشيعة: ٢/٢٤٩، وشرح نهج البلاغة: ١٨/١٤٧.

الترجمة

سؤال شد علی (عليه السلام) از ایمان، در پاسخ فرمود:

ایمان بر چهار پایه استوار است: بر صبر و یقین و عدالت و جهاد.

و از آن جمله صبر بر چهار شعبه است: بر اشتیاق و بیم و زهد و مراقبت. هرکس مشتاق بهشت است، از همه شهوات به دور است و هرکس از دوزخ بهراسد، از همه محرّمات برکنار است و هرکس در دنیا زهد ورزد، از هیچ مصیبت نلرزد و هرکس مراقب مرگ است به هر کار خیری بشتابد.

و از آن جمله یقین بر چهار شعبه است: بر بینایی هوش و عاقبت سنجی درست پندآموزی از عبرت و توجّه به روش گذشتگان. هرکه هوش بینا دارد، عاقبت سنجی او روشن است و هر کس به درستی عاقبت را سنجیده، عبرت آموخته و هرکه عبرت آموخته، گویا با گذشتگان بوده و تجربه اندوخته.

عدالت از آن جمله بر چهار شعبه است: فهم رسا و دانش موشکاف و عمیق و حکم شکوفان و درست و حلم ثابت و پابرجا. هر که فهم دارد، دانش موشکاف به دست آرد و هر که دانش موشکاف به دست آرد، از سرچشمه احکام درست سرشار باشد و هر کس حلم ورزد، در کار خود کوتاهی نکند، در میان مردم ستوده زندگی کند.

جهاد را چهار شعبه است: امر به معروف و نهی از منکر، صدق و وفا در میدان های مبارزه و نبرد و بدداشتن مردمان فاسق و فاسد. هرکه امر به معروف کند، پشت مومنان را نیرومند ساخته و هرکس به نهی از منکر بپردازد، بینی منافقان را به خاك مالیده و هرکس در میدان مبارزه به راه صدق و وفا رود، هرچه بر عهده او است انجام داده و هرکس فاسقان را بد دارد و برای خدا خشم آرد، خدا برای او خشم آرد و روز قیامت او را خوشنود سازد.

از علی شد سؤال از ایمان — گفت بر چار پایه باشد آن

صبر باشد یقین و عدل و جهاد — صبر را چار شعبه گشت عماد

شوق و اشفاق و زهد و خودپایی — که بیارد به مرد بینایی
هرکه شوق بهشتش اندر سر — باید از شهوتش برید نظر
هر که از نار بیم جان دارد — دست از هر حرام بردارد
هر که را زهد می شود پیشه — از مصائب ندارد اندیشه
هر که در انتظار مرگ بود — او شتابان به کار خیر رود
شد یقین را چهار شعبه ستون — هوشمندی و حکمتی موزون
پند عبرت مدار و رسم کهن — که بیاموزدش هزاران فن
هرکه باهوش و تیزبین گردد — حکمت روشنش قرین گردد
هرکه عبرت گرفت و پند گزید — وضع پیشینیان به خوبی دید
عدل بر چار شعبه شد ستوار — فهم غواص و دانش غوار
گل احکام و حلم پابرجا — که معطر شود از آن دلها
هرکه فهمد به غور علم رسد — وز تك علم حکم شرع برد
شخص با حلم کی کند تقصیر — بین مردم به زندگی است بصیر
چار شعبه جهاد را پایه است — امر معروف و نهی ناشایست
مردی اندر برابر دشمن — کینه جویی ز فاسقان ز من
هرکه را شیوه امر به معروف — پشت مؤمن قوی کند به وقوف
هرکه را نهی منکر است شعار — هر منافق از او به خاك دمار
هر که مردی کند به گاه نبرد — هر چه بر عهده دارد ایفا کرد
هر که با فاسقان بود دشمن — خشم کرد است در ره ذوالمنّ
خشم گیرد خدا به دشمن او — در قیامت از او شود دلجو

ترجمة القصة

ابن قتيبه در كتاب عيون الاخبارش چنين آورده، گويد:

منصور شبى در طواف خانه كعبه بود، گوينده اى را شنيد كه چنين مى ناليد:

بارخدايا به درگاه تو شكايت آرم از ظهور ستم و تباهى و از طمعى كه ميان مردم و حق سايه افكنده، منصور از طوافگاه به در آمد و در گوشه اى از مسجد بنشست و به دنبال آن مرد فرستاد و او را بار داد، آن مرد دو گانه بپرداخت و پس

از استلام حجر، نزد وی شتافت و سلام خلافت را تسلیم کرد.

منصور بدو گفت: این فریاد که از ظهور ستم و بیدادت از تو به گوشم رسید چه بود؟ و مقصودت از طمع کار حائل میان مردم و حق که بود؟ به خدا هر چه گوش دادم از درد و الم بیاگندی؛ گفت: یا امیرالمؤمنین، اگر بر جانم امان بخشی، از ریشه هرکارت آگه سازم و گرنه از اظهار حقیقت دریغ نمایم و خود را نگهدارم که با خود کارها دارم؛ منصور گفت: جان تو در امان است، هرچه داری بگو؛ در پاسخ گفت: آن که طمعش میان مردم و حق حائل است و از اصلاح ستم و تباهی مانع، خودت هستی؛ منصور گفت: وای بر تو، چگونه طمع به من درآید که همه سیم و زر جهان در دست دارم و هر ترش و شیرینم فراهم است؟ در پاسخ گفت: هیچ کس را چون تو طمع در نگرفته، خداوند عزّوجلّ تو را سرپرست جان و مال مسلمانان ساخته و تو از کارهای آنان به غفلت اندری و به چپاول اموالشان چیره و خودسر، در این میان پرده ها از گچ و آجر برآوردی و درهای آهنین بر آنها نهادی و دربانان مسلح برگماشتی و خویش را در درون آن زندانی ساختی و کارمندانت را به گردآوردن اموال و انباشتن آن گسیل نمودی و با اسلحه و دژبانان وسایل نقلیه نیرومندشان ساختی و دستور دادی جز فلان و فلان که نامبرده ای به حضورت نرسند و از پذیرش ستم دیده و درمانده و گرسنه و درویش و ضعیف و برهنه دریغ داری و اینان که حق در بیت المال دارند دور نگهداشتی.

همیشه آن چند نفر مخصوصانت که از همه رعیت برگزیده داشتی و حجاب از پیش آنان برداشتی، اموال را بگیرند و گرد کنند و انباشته و پس انداز خویش سازند؛ گویند: این مرد خود به خدا خائن است، چرا ما بدو خیانت نکنیم با این که مسخر او شدیم. اینان میان خود سازش کردند، نگذارند وضع مردم و احوال آنان به تو گوش زد شود، مگر آن چه را بخواهند و به سود خود دانند و هرکارگزاری از درت برآید و با آنان مخالفت آغازد، او را پیش تو مبغوض سازند و از در برانند و برای او پرونده بسازند تا از نظر بیفتد و خوار گردد، چون این وضع میان تو و آنان گوشزد همگان شده، مردم آنان را بزرگ شمارند و از آنها بهراسند و نخستین دسته ای که به سازش با آنها بشتابند، کارگزاران تو باشند که بدانها هدیه برند و رشوه دهند تا دست ستمشان بر سر رعایا باز باشد و سپس مردم

با نفوذ و ثروتمند از طبقه رعیت با آنها سازش کنند تا بر دیگران ستم نمایند و سراسر بلاد خدا پر از طمع و ستم و تباهی شود.

این چند نفر با تو شریك سلطنت شده و تو در غفلت اندری، اگر دادخواهی به درگاه آید، نگذارند بر تو درآید، اگر خواهد هنگام خروج از خانه ات به تو شکایت برد، مانع گماشتی به بهانه ای که برای مردم بازرس مظالم مقرر داشتی و چون متظلمی آید هم آنان به بازرسی ظالم فرستند که به شکایت او گوش ندهد و عرض حالش را به تو نرساند و بازرس از بیم آنان و ترس تو بپذیرد و پیوسته مظلوم بیچاره نزد او رفت و آمد کند و بدو پناه برد و استغاثه نماید و او امروز و فردا کند و بهانه بتراشد و چون به جان آید و تو بیرون آیی برابرت فریاد کشد و ناله سر دهد، دربانانت او را به سختی بزنند و برانند تا عبرت دیگران شود و تو به چشم بنگری و مانع نشوی، با این وضع چگونه مسلمانی بیاید.

داستانی در داستانی

من در روزگار جوانی به چین مسافرت می کردم، در یك سفری پادشاهشان به کری دچار شده بود و سخت می گریست، ندیمانش او را دلداری می دادند و به شکیبایی می کشانیدند، گفت: من از درد خود گریه ندارم، ولی بر مظلومان دربارم گریه می کنم که مینالند و آواز ناله شان را نمی شنوم، سپس گفت: اگر گوشم رفته، چشمم برجا است، میان مردم جار بزنید که جز مظلوم جامه سرخ نپوشد و هماره بامداد و پسین بر فیل سوار می شد و گردش می کرد تا مظلومی را به چشم خود بیند و دادخواهی کند.

این مردی است مشرك به خدا که با مشرکان چنین مهربان است و از خود دریغمند و نگران؛ تو مردی هستی خداپرست و از خاندان نبوت، مهر تو بر مسلمانان جلوی خودخواهیت را نباید بگیرد؟ اگر برای فرزندانت مال جمع می کنی، خدا به تو نموده است که کودکی از شکم مادر در افتد در روی زمین پشیزی ندارد و بر هر مالی دست بخیلی گذاشته است که نگهش دارد، ولی خدا پیوسته لطف خود را شامل حال کودك سازد تا مردم را بدو راغب کند، تو نیستی که عطا می کنی ولی خدا است که هر چه به هر که خواهد عطا می کند و اگر بگویی جمع مال برای تقویت سلطنت تو است، خدا برای تو وسیله عبرت از بنی امیه فراهم

کرده که جمع زر و سیم و آماده کردن ساز و برگ و لشکر و اسب و استر و شتر، در برابر اراده الهی به زوال ملکشان فایده نداشت و اگر بگویی جمع مال برای یك هدف عالی تر از مقامی است که داری، به خدا بالاتر از مقام تو مقامی هست، ولی ادراك آن میسر نیست، مگر از راهی که مخالفت راه تو (یعنی زهد و قطع طمع از دنیا).

تو نگاه کن آیا مخالف خود را به بدتر از کشتن مجازات توانی کرد؟ گفت نه؛ در پاسخ گفت: آن پادشاهی که به تو عطا کرده است آن چه عطا کرده، گنه کار را به کشتن شکنجه ندهد، بلکه با عذابی دردناك و مخلد، او به خوبی می داند چه در دل داری و در چه کاری چشمت به کجا است و دستت چه کار می کند و پایت به چه سوی می رود؛ بنگر که هر آن چه از دنیا را خاص خود کردی، چون از دستت گرفت چه فایده ای برایت دارد در موقعی که تو را پای حساب کشید.

منصور گریست و گفت: کاش آفریده نبودم، وای بر تو، چگونه چاره کار خود کنم؟ گفت: همه مردم را رهبرانی است که در دیانت خود بدانها پناهند و به گفتارشان رضا دهند، تو آنان را محرمان خود ساز تا راه به تو بنماید و در کارهایت با آنها مشورت کن؛ منصور گفت: من به دنبال آنان فرستادم، از من گریختند؛ گفت: آری، ترسیدند آنها را به راه خودت ببری، ولی در خانه ات را بازگذار و حجاب را بردار و هموار ساز، مظلوم را باش و ظالم را از بن برانداز و فی و صدقات از راه حلال و پاك بگیر و به حق و عدالت بر مستحقانش پخش کن، در این صورت من ضامنم که رهبران حق و مخلص نزد تو آیند و رد اصلاح کار اُمّت بر معاونت دهند.

مؤذّنان سررسیدند و سلامش دادند و اعلام به نماز کردند، برخواست، نماز گزارد و به جای خود برگشت و هرچه آن مرد را جستند نیافتند. پایان ترجمه قصّه.

از تأمل در این داستان مطالبی درك می شود که برای این زمان هم بی نتیجه نیست.

بقية الثلاثون من حكمه عليه السلام

«وَالْكُفْرُ عَلىٰ أَرْبَعِ دَعائِمَ: عَلَى التَّعَمُّقِ، وَالتَّنازُعِ، وَالزَّيْغِ وَالشِّقاقِ: فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنْ كَثُرَ نِزاعُهُ بِالْجَهْلِ دامَ عَماهُ عَنِ الْحَقِّ، وَمَنْ زاغَ ساءَت عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلالَةِ، وَمَنْ شاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَضاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ.

وَالشَّكُّ عَلىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى التَّماري، وَالْهَوْلِ، وَالتَّرَدُّدِ وَالْاِسْتِسْلامِ: فَمَنْ جَعَلَ الْمِراءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِح لَيْلُهُ، وَمَنْ هالَهُ ما بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيْهِ، وَمَنْ تَرَدَّدَ في الرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنابِكُ الشَّياطِين وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِما»[1].

قالَ الرَّضيُّ: وبعد هذا كلام تركنا ذكره خوف الإطالة والخروج عن الغرض المقصود في هذا الكتاب.

اللغة

(التعمّق) تعمّق في الأمر: بالغ فيه وتشدّد طالباً أقصى غاياته وفي كلامه تنطّع ـ أي تفصح فيه ـ **(التنازع)** تنازع القوم: اختلفوا **(الزيغ)** الميل عن الحق الشك **(الشقاق)** شاق شقاقاً ومشاقة: خالفه وعاداه **(الوعر)** المكان المخيف الوحش **(أعضل الأمر)** اشتدَّ واستغلق **(التماري)** ماري مراء ومماراة: جادل ونازع ولاجّ ـ المنجد ـ. **(الديدن)** الدأب والعادة **(النكوص)** الإحجام عن الشيء يقال: نكص على عقبيه أي رجع ـ صحاح ـ **(السُنبك)** جمع: سنابك طرف الحافر ـ المنجد.

الإعراب

(سكر سكر الضلالة) مصدر نوعيّ منصوب على أنه مفعول مطلق، **(طرقه)** فاعل **(وعُرت)** وهو فعل لازم، **(ديدناً)** مفعول ثان لقوله جعل، **(عقبيه)** تثنية عقب مجرور بحذف النون.

---

(١) نهج السعادة: ٣/ ٣٨٩، وروضة الواعظين: ٤٤.

المعنى

الإيمان نور يتشعشع في قلب الإنسان ويضيء على جميع حواسّه وأعضائه فيلمع من كلّ منها ما يقتضيه، فالعقل يتنوّر به ويفهم الحقائق الإلهية والمسائل الكونية، والوهم والخيال ينكمشان من الصور الزائغة والأباطيل، وأعضاء البدن تشتغل بالأعمال الخيرية الّتي تشع على الجامعة الإنسانية بالفوائد والسرور والراحة والازدهار ويتجلّى الإنسان في ضوئه ملكاً روحانياً سماويّاً وإن كان جثماناً أرضيّاً مادّياً وبيّن ﷺ سعة أفقه ومدّ أضوائه إلى ما وراء الحسّ والمادّة وما وراء أشعّة فوق بنفسجية.

فالكفر يقابله من جميع نواحيه لأنّ الكفر في الحقيقة فقدان هذا النّور الساطع وظلمات بعضها فوق بعض ولا امتياز في الظلمة والعدم إلاّ باعتبار درك ما يقابله من النّور، فالكفر بجميع دعائمه وشعبه إعدام ملكات يدرك من ناحية عدم النّور اللائق في محلّه كما يعين على فهم النّور الّذي يقابله، فلو لم يكن في العالم ظلمة أصلاً كان فهم الضوء والنور صعباً جدّاً لو لم يكن متعذّراً رأساً.

فتدعيم الكفر على هذه الدعائم وتشعبه بهذه الشعب عرضي باعتبار الملكات النورية الإيمانية، فالتعمق والتنازع والزيغ والشقاق، تقابل الصبر واليقين والعدل والجهاد الّتي هي دعائم الإيمان بوجه ما، فيقال:

المراد من التعمّق هنا عدم الثبات والاستقامة على ما هو مقتضى الفطرة من الاعتقاد بالصانع والانقياد له بالعبودية والطاعة الّذي عليه مدار دعوة الرّسل فالمتعمّقون هم المعاندون لدعوة الرُّسل والمقترحون عليهم ما لا ينبغي، كما أنَّ المشركين يواجهون النبيَّ ﷺ بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] أو بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ وكما أنَّ عامة المنكرين للمعاد وما يعرض للعباد بعد الموت يقولون: لم نر ميّتاً قام من مرقده معذّباً، وحكى عن نجز أحد كبار الألمان المنكر للمبدأ بأنه لو كان وجود لإله حيّ قادر كما اعتقده الإلهيّون أعلن نفسه بتعليق لوح مكتوب معلّق بين السّماء والأرض.

كما أنَّ التنازع ناش عن فقدان اليقين الموجب للاطمئنان والاعتماد على الحقيقة، فمن يؤمن بالله يهدأ قلبه ولكن لفاقد الإيمان قلب مظلم متزلزل دائماً بين صدره وحنجرته كما في الحديث، فيفور ويثور وينفث بالتّنازع في الحقّ مع أهله.

والزيغ يقابل العدل كملا، لأنَّ العدل استقامة في الفكر والتعقل والعمل لا ميل فيه ولا انحراف، ولكن الفاقد للعدل في تعقّله وتفكيره يميل قلبه المتزلزل إلى الباطل، وينحرف إلى الأباطيل.

والشقاق فتّ عضد الاجتماع بالضوضاء والجدل لأغراض شخصية أو قبلية باطلة، فيقابل الجهاد الّذي هو الاستقامة والنضال لأجل الحق وصيانة الملة والأمّة.

فالمتعمّق المعاند لا ينيب إلى الحقّ ولا يهتدي إلى سبيل الرّشد كرجال قريش المعاندين للنبيّ ﷺ والقرآن.

والجاهل المتنازع يتخبّط في عماه حتّى يدرك منيته قبل درك مناه.

والقلب الزائغ عن الحق متعاكس ومنكوس يدرك الحسنة سيئة فيتجنب منها والسيئة حسنة فيرغب إليها، ولا يلمس الحقيقة كالسكران.

ومن شاقّ الله فارق جماع الشعب والأمّة، فهو كالتائه في طريق وعر أينما يتوجّه يقابله عقبة صعبة كأداء وعقدة معقدة لا يهتدي لحلّها فضاق عليه المخرج ويقع دائماً في حرج.

والشاكُّ يماري الحق ويحس بهول ومخافة ويتردّد في طيِّ طريق السعادة فيرجع قهقرى إلى أسفل دركات الطبيعة، ويفقد شخصيته ويستسلم لجيوش الباطل فيقع تحت أقدام الشياطين، ويصير من الخاسرين الهالكين.

قوله: **(وبعد هذا كلام تركناه)** ورد في الكافي في باب دعائم الكفر وشعبه حديثٌ طويلٌ يظهر أنه تتمة الحديث الّذي أرسله المصنف رحمه الله وأشار إلى بقيته، وقطعه صاحب الكافي وقسّمه على باب صفة الإيمان وباب دعائم الكفر وباب صفة النّفاق والمنافق، ولكن المرويّ في باب دعائم الكفر يخالف مع ما روي في باب صفة الإيمان سنداً وما ذكره الرضي رحمه الله متناً، فقد رواه هنا عن عليِّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن عمر بن أُذينة، عن أبان بن أبي عياش، عن سُلَيم بن قيس الهلالي، عن أمير المؤمنين عليه السلام وعدَّ المجلسيُّ في شرحه السّند مختلفاً فيه من حيث الصّحة والضّعف.

قال عليه السلام: «بني الكفر على أربع دعائم: الفسق، والغلوّ، والشكّ، والشّبهة»[1].

والفسق على أربع شعب: على الجفاء، والعماء، والغفلة، والعتوّ، فمن جفا احتقر الخلق ومقت الفقهاء وأصرّ على الحنث العظيم، ومن عمي عن الحق نسي الذّكر واتّبع الظنّ وبارز خالقه وألحّ عليه الشيطان وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة ولا غفلة، ومن غفل جنى على نفسه وانقلب على ظهره وحسب غيّه رشداً وغرّته الأمانيُّ وأخذته الحسرة والندامة إذا قضي الأمر وانكشف عنه الغطاء وبدا له ما لم يكن يحتسب، ومن عتا عن أمر الله شكّ

(١) البحار: ٦٥/ ٣٨٣.

ومن شكَّ تعالى الله عليه فأذلّه بسلطان وصغّره بجلاله كما اغترَّ بربه الكريم وفرط في أمره.

والغلوّ على أربع شعب: على التعمّق بالرّأي، والتنازع فيه، والزّيغ والشقاق، فمن تعمّق لم ينب إلى الحقّ ولم يزدد إلاّ غرقاً في الغمرات ولم تنحسر عنه فتنة إلاّ غشيته أُخرى وانخرق دينه فهو في أمر مريج، ومن نازع في الرّأي وخاصم شهر بالعثل من طول اللّجاج، ومن زاغ قبحت عنده الحسنة وحسنت عند السيئة، ومن شاقّ اعورت عليه طرقه واعترض عليه أمره فضاق مخرجه إذ لم يتبع سبيل المؤمنين.

والشكُّ على أربع شعب: على المرية، والهوى، والتردّد، والاستسلام وهو قول الله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٥] وفي رواية أُخرى: على المرية، والهول من الحقّ، والتردّد، والاستسلام للجهل وأهله، فمن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه ومن امترى في الدّين تردّد في الرّيب وسبقه الأوَّلون من المؤمنين وأدركه الآخرون ووطئته سنابك الشيطان، ومن استسلم لهلكة الدُّنيا والآخرة هلك فيما بينهما، ومن نجا من ذلك فمن فضل اليقين ولم يخلق الله خلقاً أقلّ من اليقين.

والشبهة على أربع شعب: إعجاب بالزينة، وتسويل النّفس، وتأوّل العوج ولبس الحق بالباطل، وذلك بأنَّ الزينة تصدف عن البينة، وإنَّ تسويل النفس يقحم على الشهوة، وإنَّ العوج يميل بصاحبه ميلاً عظيماً، وإنَّ اللبس ظلمات بعضها فوق بعض، فذلك الكفر ودعائمه وشعبه»[1].

أقول: قد شرحنا وترجمنا هذا الحديث في شرح أُصول الكافي وترجمته «ج ٣» فمن أراد مزيد الاطلاع فليرجع هنالك.

الترجمة

در دنباله توصيف دعائم ايمان فرمود (عليه السلام):

كفر بر چهار ستون استوار است: بر تعمق و تنازع و كج دلى و تفرقه اندازى. هركه راه تعمق پيش گيرد، به سوى حق باز نگردد و هركه از روى نادانى ستيزه جويى را پيشه كند، چشم دلش هميشه از ديدار حق نابينا بماند و هركس دلى كج

(١) الكافي: ٢/٣٩٣، وتحف العقول: ١٦٧.

دارد نیکی را بد شمارد و بد کرداری را نیك پندارد و در مستی گمراهی به سر برد و هرکس تفرقه اندازد و تك روی پیشه سازد، به راه های سخت و ناشناخته و هراسناك افتد و کارها بر او پیچیده و غیرقابل حلّ گردد و در تنگنایی افتد که نتواند از آن بیرون آید.

شك بر چهار شعبه تقسیم شود: بر خودنمایی در بحث و بر هراس و دودلی و خودباختگی. هر کس مراء را شیوه خود ساخت، شب تارش به روز روشن مبدّل نشود و هرکس از آن چه در پیش دارد به هراس باشد، به عقب برگردد و از پیشروی بازماند و هرکس درباره حقیقت دودلی دارد و حس تشخیص ندارد، زیر سم شیاطین پایمال شود.

کفر بر چار پایه شد ستوار	بر تعمق، تنازع دشوار
کج دلی و شقاق در دنبال	بهر کفرند پایه در هر حال
هر که دارد تعمق اندر حق	نگراید به سوی حق مطلق
هر که از جهل پر نزاع بود	دائماً کوردل به سر ببرد
دل کج نیك را بدی بیند	ور بدی بهر نیك می چیند
مست گمراهی است و لایعقل	نیست او را شعوری اندر دل
هرکه تك رو شود جدا از خدا	راه سختی به پیش دارد، ها
کار او مشکل است و پیچیده	و اندرین تنگنا است رنجیده
شك، بر چار شعبه قائم شد	بر مراء و هراس و شد و نشد
چارمش را شمار استسلام	که نه امید ماند و نه مرام
هر که را شیوه شد مراء و جدال	شب او را نه پی نه صبح زوال
بهراسد از آن چه در پیش است	در عقب گرد پر ز تشویش است
ور به تردید و ریب تمکین است	پایمال سم شیاطین است

الحادية والثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣١) وَقالَ عليه السلام: «فاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ»[١].

اللغة

(فاعل) اسم فاعل مضاف إلى مفعوله وذي الإضافة اسمها لفظية فلا يفيد التعريف فإن اعتبر مبتدأ كان من باب الابتداء بالنكرة ولا يجوز الابتداء بالنكرة إلا لفائدة، فتأمل.

المعنى

الفعل من الفاعل كالثمرة من الشجرة والتمرة من النخلة والضوء من القمر فهو فرع على أصله وكونه أفضل، أوضح من أن يذكر ويفصّل، والظاهر أنَّ غرضه عليه السلام التنبيه على تقدير عمّال الخير بذاتهم وتشويقهم ليكثروا، والمبارزة مع عمّال الشرّ ومحوهم ليبادوا، أو تنبيه على نحو من الأُصول العلمية والوصول من المعلول إلى العلّة.

الترجمة

فاعل خير بهتر از خير است، فاعل شر ز شر بود بدتر.

هر كه نيكى كند به از نيك است   وان كه بد كرد بدتر است از بد

(١) تحف العقول: ٥٧، ووسائل الشيعة: ١٦/ ٢٩١ ح٢١٥٧٥.

الثانية والثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣٢) وَقالَ عليه السلام : «كُنْ سَمْحاً وَلاَ تَكُنْ مُبَذِّراً، وَكُنْ مُقَدِّراً وَلاَ تَكُنْ مُقَتِّراً»(١).

اللغة

(سمح) صار من أهل الجود فهو سمِحٌ، **(بذّر)** المال فرّقه إسرافاً وبدّده **(قتر)** على عياله: ضيّق عليهم في النّفقة ـ المنجد.

المعنى

قد تعرّض عليه السلام في هذه الحكمة إلى أهمّ مسائل تدبير المنزل وتنظيم المعاش، ووصّى بالسماحة والجود، بما يسعه المال الموجود، ولكن منع التبذير ولو في العطاء والإنفاق على ذوي الحاجة، فلو احتاج بنفسه أو بعياله إلى ما في يده فأعطاه لغيره فهو نوع من التبذير كما أنّه لو صرف ماله في ضيافة فكاهيّة كان من التبذير، والتقتير أن يضيّق على نفسه أو أهله في المعيشة بما يضرّ حالهم أو يخالف شأنهم مع سعته ويسره، كما هو عادة بعض الأثرياء حبّاً لجمع المال والادّخار.

الترجمة

بخشنده باش و ولخرج مباش، اندازه گير باش، ولى سخت گير و تنگ نظر مباش.

بخشنده باش، ليك ز تبذير دور باش   اندازه گير خرج، ولى كم بده مباش

---

(١) روضة الواعظين: ٣٨٤، ومستدرك سفينة البحار: ١/٣١١.

الثالثة والثلاون من حكمه عليه السلام

(٣٣) وَقالَ عليه السلام: «أشْرَفُ الْغِنى، تَرْكُ الْمُنى»[١].

المعنى

(المنى) جمع مُنية وهي توقّع ما لا يمكن وجوده أو يتعذّر تحصيله، وهي بنفسها حاجة شديدة وفقر مؤلم يتولّد منها حاجات كثيرة وشدائد مؤلمة غير يسيرة تمسّ بكرامة الإنسان وشرفه، فالمنى الشهوانية تجرّ الإنسان إلى الخضوع لربّات الجمال وتحمّل ما يكلّفنه بالغنج والدلال، والمنى في الجاه وتحصيل الرتب العالية تخضع الإنسان تجاه الرّجال الأنذال، ومنية جمع المال والادّخار تكلّف الإنسان بتحمل مشاق صعبة ماسّة بالشرف، فأشرف الغنى ترك الأمنيّات وملازمة القناعة والثبات.

الترجمة

باشرف ترين بى نيازى، ترك آرزو و آزمندى است.

بهترين بى نيازى هر كس   آن كه گويد به آرزو: كن بس

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٨٩، ومجمع البحرين: ٤/ ٢٤٠.

الرابعة والثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣٤) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمٰا يَكْرَهُونَ، قالُوا فيهِ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ»[1].

اللغة

(أسرع) إلى الأمر: بادر وعجّل، وبالأمر: بادر به ـ المنجد.

الإعراب

(إلى)، في إلى الناس رابطة بين المفعول والفعل، و(الباء) في بما يكرهون، للإلصاق.

المعنى

من أهمّ الأمور ملاحظة حال السامع والمأمور والمتّعظ في استعداده للتبليغ وتحمّل القوانين، والأخبار الملقاة إليه وخصوصاً إذا كان طرف الخطاب والأمر عامة الناس، فإن لا بدّ لنفوذ الكلام فيهم وإجراء الأوامر بينهم، وينبغي أن يكون ذلك الكلام أو الدستور ملائماً لطبعهم وموافقاً لأميالهم بوجه ما، فلو كان مؤلماً لهم مكروهاً في نظرهم يوجّهون سهام البهتان إلى القائل والأمر وإن كان حقا كما هو المعروف من حال النّاس تجاه الأنبياء والهداة والحكماء والدعاة وكأنه أشار إلى مالقيه من النّاس تجاه أوامره وبيانه للحقائق والقوانين الإلهيّة.

الترجمة

هر كه عجولانه چيزى را به مردم اظهار كند كه ناخواه آنها است، ندانسته هر سخنى درباره او بگويند.

هر كه آرد بهر مردم چيز ناخواهى شتابان   در پيش گويند نادانسته هر حرفى فراوان

(١) البحار: ٧٢/ ١٥١، وتاريخ دمشق: ٢٤/ ٣٣٧.

الخامسة والثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣٥) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ أطالَ الْأمَلَ، أساءَ الْعَمَلَ»[١].

المعنى

إنَّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل، أمّا اتّباع الهوى فيصدُّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسى الآخرة.

الترجمة

هر كه رشته آرزو را دراز كند، به كار بد آغاز كند.

هر كسى آرزو دراز كند — شيوه كار زشت، ساز كند

(١) شرح أُصول الكافي للمازندراني: ٩/ ٣٧٥، ووسائل الشيعة: ٢/ ٤٣٧ ح٢٥٧٧.

السادسة والثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣٦) وَقالَ عليه السلام: «وَقَدْ لَقِيَهُ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الشَّام دَهَاقِينُ الأَنْبَارِ فَتَرَجَّلُوا لَهُ وَاشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ عليه السلام: ما هٰذَا الَّذي صَنَعْتُمُوهُ؟ فَقَالُوا: خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا، فَقَالَ: وَاللّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهٰذَا أُمَرَاؤُكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ في دُنْيَاكُمْ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ في آخِرَتِكُمْ، وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الأَمانُ مِنَ النَّارِ»[1].

اللغة

(الدّهقان) معرَّب إن جعلت النون أصلية من قولهم تدهقن الرَّجل وله دهقنة موضع كذا صرفته لأنه فعلان، وإن جعلته من الدّهق لم تصرفه لأنّه فعلان و **(أنبار)** اسم بلد ـ صحاح. **(اشتدُّوا)** عدواً بين يديه، و **(شقّ)** على الشيء شقاً ومشقّةً ـ صحاح. **(الدّعة)** السكينة، الرّاحة وخفض العيش ـ المنجد.

الإعراب

(وقد لقيه عند مسيره) جملة حالية برابطة قد والواو، **(ما)** هذا الّذي ـ إلخ ـ لفظة ما إسمية استفهاميّة خبر مقدّم لهذا الّذي، **(ما أخسر المشقّة)**، بصيغة التعجّب، يفيد الاستعظام والتحسّر، ومثلها **(أربح الدّعة)** المعطوفة على أخسر.

المعنى

نهض الإسلام والقرآن بالبشر نهضة ديموقراطية عميقة مقرونة بالعلم والمعرفة، فرفع العرب من حضيض الجهالة فصاروا أُمّة عالمة ديموقراطاً بطبعهم المنزّه عن تشريفات ملوكية مصنوعة في الفارس والرّوم، وهذا هو سرُّ تقدّم المسلمين الجدد في القرون الأُولى الهجرية ونشر الإسلام في بلاد كفارس والرّوم المكبّلة بقيود التشريفات منذ قرون، فكان من شأن الإسلام تحرير النّاس عن هذه القيود الثّقيلة، وكان الإمام عليه السلام في هذا المضيق من الفرصة وعلى أُهبة سفر مهيب شاغل إلى مقصد هائل وهو معركة صفّين الدامية الهدّامة، يفتح مدرسة جديدة في محيط الإسلام ويبدأ تعليمات عالية إنسانيّة في هذه الجمل القصار الوجيزة

(١) وسائل الشيعة: ١٢/٢٢٨ ح١٦١٦٠، ونهج السعادة ٢/١٤٢.

نلخّصها في الأعداد التالية:

١ ـ التشريفات البلاطية بهذه الصّور مما لا ينتفع به الأُمراء نفعاً عقلانياً للدُّنيا أو الأخرة، فهي من اللهو الباطل الممقوت.

٢ ـ تحمّل هذه المشتقّات مبغوض عند الإسلام وموجب لعذاب الأخرة.

٣ ـ أخسر المشقّات ما يتبعها العقاب، وأربح الاستراحة الاشتغال بما فيه أمان من النار.

الترجمة

على (عليه السلام) به سوى شام سفر كرد و چون به شهر انبار رسيد - در كناره فرات - دهقانان انبار در برابر آن حضرت از مركب هاى خود پياده شدند و در جلوى او دويدند - و به اصطلاح پاكوبى كردند - على (عليه السلام) به آنها فرمود:

اين كار شما چه معنى دارد؟ در پاسخ گفتند: اين رسمى است كه بهوسيله آن امراء خود را تعظيم مى كنيم - اظهار احساسات - آن حضرت فرمود: به خدا اين كار براى امراء شما سودى ندارد و به راستى كه شما خود را بدين كار در دنيا رنج مى دهيد و در ديگر سراى بدان بدبخت مى شويد، وه چه بسيار زيانبار است رنجى كه عذابش در دنبال و چه بسيار سودمند است استراحتى كه قرين امان از دوزخ و وبال است.

كار مولا چه به پيكار كشيد ... در ره شام به انبار رسيد
بر على چشم دهاقين افتاد ... همه ناز شوق شعف در فرياد
مى دويدند به پيشش چالاك ... پاى كوبان همه اندر سر خاك
گفت مولا به دهاقين كه اين چيست؟ ... همه گفتند كه يك رسم شهى است
ما به پيش آمرا مى تازيم ... نرد تعظيم چنين مى بازيم
گفت: اين كار ندارد سودى ... كه تن خويش از آن فرسودى
خويش را رنجه به دنيا سازيد ... با شقاوت سوى عقبا تازيد
چه زيانبار بود آن سختى ... كه به دنبال كشد بدبختى
چه خوش آن راحت بى درد و وبال ... كه امان آورد از وزر و وبال

السابعة والثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣٧) وَقالَ عليه السلام لابْنِهِ الْحَسَنِ عليه السلام: «يا بُنَيَّ احْفَظْ عَنّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً لا يَضُرُّكَ ما عَمِلْتَ مَعَهُنَّ: إنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلْقِ.

يا بُنَيَّ إِيّاكَ وَمُصادَقَةَ الأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ وَإِيّاكَ وَمُصادَقَةَ الْبَخِيلِ فَإِنَّهُ يَبْعُدُ (يَقْعُدُ) عَنْكَ أَحْوَجَ ما تَكُونُ إِلَيْهِ وَإِيّاكَ وَمُصادَقَةَ الْفاجِرِ فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتّافِهِ، وَإِيّاكَ وَمُصادَقَةَ الْكَذّابِ فإِنَّهُ كَالسَّرابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ»[1].

اللغة

(الحُمق) والحُمُق: قلّة العقل.

الإعراب

(بنيّ)، منادى ابن مصغراً ومضافاً إلى ضمير المتكلّم، وفتحه لرفع التقاء الساكنين، **(ما تكون إليه عنك أحوج)**، **(عنك)** جار ومجرور متعلّق بيبعد فصل بينهما **(ما تكون إليه)**، وما مصدريّة زمانية، و**(أحوج)** خبر تكون، و**(العجب)** من ابن ميثم الشارح حيث جعل أحوج حالاً من ضمير عنك، فتدبّر.

المعنى

ذكر عليه السلام في هذه الجمل من الكلام فصلان: أحدهما في تدبير النّفس ومن أهمّ مسائل الحكمة العملية، والثاني في آداب المعاشرة وتدبير الاجتماع ولهذا فصّل أحدهما عن الآخر وقال: أربعاً وأربعاً.

عرّف وفور العقل بأنه أغنى العقل، والمقصود من غنى العقل أن يكون تعقل الإنسان مضيئاً يوضح له كافّة جوانب حياته وجميع نواحي حوائجه، فيهديه في كلّ شأن من الشؤون إلى ما هو صلاحه، ويحفظه عن ارتكاب ما يضرّه ولا يحتاج إلى من يكفّله ويحافظه كالقيّم

(١) وسائل الشيعة: ١٢/ ٣٤، وعيون الحكم والمواعظ: ٩٦.

عليه، ومن نواحي الحياة دركِ لزوم التعلّم عند العالم فيما كان جاهلاً، والرّجوع إلى المشير إذا كان الأمر عليه مبهماً، فلا يكون المراد من غنى العقل التفرّد بكلّ شيء والاستغناء عن التعليم والاستشارة، كيف؟ والنبيّ ﷺ مع كونه كلّ العقل وغير محتاج إلى المعلّم مأمور بالاستشارة مع أمته في الأُمور فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وتبيّن من ذلك أنَّ أكبر الفقر الحمق لأنَّ الأحمق لا يهتدي إلى أن يرجع إلى العالم فيما يجهل، وإلى المشاور فيما لا يفهم ولا يعقل.

والعجب يوجب الترفع وتوقع الاحترام من الأنام، فالمعجب يرى نفسه في مقام لا يرى معه غيره فيبتلي بالوحشة ويمنع ترفعه من الإنس والخلطة مع أبناء جنسه، فيزيد بذلك وحشته، فالعجب أوحش الوحشة.

والحسب هو الانتماء إلى بيت رفيع يختلف إليه النّاس ويحبّون ذويه فإذا كان الإنسان صاحب خلق حسن مع أبناء جنسه وبني نوعه يجتمعون إليه ويحبّونه.

والمصادقة رابطة وديّة بين الصديقين تقتضي المعاونة في الأُمور والمشاركة في دفع المحذور، فإذا كان الصّديق أحمقاً لا يميز النفع من الضرّ، ولا الخير من الشرّ ويجلبه رابطة الصّداقة إلى إيصال النفع إلى صديقه ولكن غباوته وحمقه يجرُّه إلى إيصال الضّرر إليه كما حكى في أسطورة: رجل يصادق دبّاً فنام واجتمع على وجهه الذّبان فأراد الدبّ دفعها فألقى على وجهه حجراً قتله به.

من أثر الصداقة الاعتماد على الصديق عند حدوث حاجة ماسّة تقتضي الاستعانة الماليّة أو العمليّة، ولكن إذا كان الصديق بخيلاً فربما يمنع إعانته أحوج ما يكون الصّديق، ولو لم يعتمد عليه فربما لجأ بقضاء حاجته إلى غيره ممّن كان يقضيها.

والفاجر المنهمك في الشهوة قد خرق ستر الحياء وخلع العفّة فلا يبالي بما يصدر منه ولو كان بيع صديقه بأبخس ثمن، فلا يصلح للصّداقة ويجب الحذر عنه وسلب الاعتماد عليه.

وأمّا الكذّاب فهو الّذي صار الكذب عادة له ويحكي عمّا لا واقع له فشبّهه ﷺ بالسّراب يتلألأ في البريّة كأنه ماء قريب المكان وكلّما أسرع نحوه العطشان يبعد عنه فلا يصل إليه أبداً، والكذّاب يعد الإنسان فيخلفه ويقرب إليه المقاصد ويجلب الإنسان نحوها، ولكن لا يصل الإنسان إلى تلك المقاصد.

الترجمة

به فرزندش حسن (عليه السلام) فرمود:

پسر جانم، چهار سفارش را از من نگهدار و چهار سفارش دیگر که تا آنها را به کار بندی زیان نبری: راستی که بالاتر از هر بی نیازی بی نیازی در خردمندی است و بزرگترین فقر و بی نوایی حماقت است، وحشتناك ترین همه وحشت ها، خودپسندی است و ارجمندترین حسب، خوشخویی.

پسر جانم، مبادا با احمق دوستی کنی که می خواهد به تو سود رساند، در عوض زیانت می رساند و مبادا با بخیل دوستی کنی که هنگام نیازمندی به وی، از تو روگردان می شود و مبادا با هرزه دوستی کنی که تو را به پشیزی می فروشد و مبادا با دروغ زن یار گردی که چون سراب است، دور را به تو نزدیك نشان می دهد و نزدیك را دور.

گفت علی با حسنش که ای پسر	چار سخن دار ز من در نظر
چار دیگر نیز فزایم تو را	تا که نیفتی تو به هر ماجرا
به ز خرد بهر تو سرمایه نیست	حمق سر حاجت و بی مایه گی است
عجب زهر وحشتی افزونتر است	خوشخویی از هر حسبی بهتر است
دست کش از دوستی احمقان	چون عوض نفع، دهندت زیان
دوست مگیری ز بخیلان که چون	بیندت اندر، به زیانی فزون
از بر تو دور شود همچو باد	دوستیت هیچ نیارد به یاد
دوستی هرزه مبادت نصیب	چون که فروشد به پشیزت، حبیب
هیچ به کذّاب مکن دوستی	همچو سراب است و تهی پوستی
دور نماید که به نزدیك تو است	و آن چه بر تواست کند دور چست

الثامنة والثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣٨) وَقالَ عليه السلام: «لاَ قُرْبَةَ بِالنَّوافِلِ إذا أَضَرَّتْ بِالْفَرائِضِ»[١].

اللغة

(النافلة) ج: النوافل ما تفعله ممّا لم يفرض ولم يجب عليك ـ المنجد.

الإعراب

(لا)، لنفي الجنس، **(وقربة)**، اسمه مبنيّة على الفتح لتضمن معنى من الجنسيّة والخبر محذوف وهو حاصل، بالنّوافل جار ومجرور متعلق بقربة، **(إذا)** ظرف زمان مضاف إلى جملة أضرّت بالفرائض.

المعنى

قال الشارح المعتزلي: فإن حمل على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثير من الفقهاء وهو مذهب الإماميّة وهو أنه لا يصحّ التنفّل ممّن عليه قضاء فريضة فاتته لا في الصّلاة ولا في غيرها، فأمّا الحجُّ فمتّفق عليه بين المسلمين ـ إلخ.

أقول: نسبة عدم جواز التنفّل لمن عليه فائتة إلى مذهب الإمامية محلّ إشكال، قال العلامة المجلسي رحمه الله في شرحه على فروع الكافي في باب التطوع في وقت الفريضة في شرح الحديث الأوّل من هذا الباب: واختلف الأصحاب في جواز التنفّل لمن عليه فريضة فقيل: بالمنع، وذهب ابن بابويه وابن الجنيد إلى الجواز انتهى.

والأقرب أن يقال: إنَّ كلامه عليه السلام يدلّ على نفي التقرّب والثواب في النوافل إذا أضرّت بالفرائض، لا على البطلان وعدم الصحّة، وبينهما فرق ظاهر وليس المقصود أنَّ إتيان النافلة صار سبباً تامّاً لترك الفريضة أو النقص فيها، بل المراد أنَّ التهيّأ للفريضة أهمّ، وحفظ كمالها ألزم، فمن اشتغل اللّيل بتلاوة القرآن أو النوافل وأتعب نفسه حتّى غلب عليه النّوم وفات عنه فريضة الصّبح، فلا ثواب له ولا قربة في نوافله.

---

(١) وسائل الشيعة: ٤/ ٢٨٦ ح٥١٧٦، والفصول المهمة في أصول الأئمة: ٢/ ٧٢ ح١٢٩٨.

الترجمة

نوافل موجب قربت نشوند، در صورتى كه مايه نقصان در فرايض باشند.

در نــوافــل قــربــت حــق را مــجــو گــر فــرايــض در ضــرر افــتــنــد زو

التاسعة والثلاثون من حكمه عليه السلام

(٣٩) وَقالَ عليه السلام: «لِسانُ الْعاقِلِ وَراءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الأحْمَقِ وَراءَ لِسانِهِ»[١].

الإعراب

(وراء)، منصوب على الظرفية مضاف إلى قلبه ومتعلّق بفعل مقدّر، والجملة خبر قوله: لسان العاقل.

المعنى

قال الرّضيُّ رحمه الله: وهذا من المعاني العجيبة الشريفة، والمراد به أنَّ العاقل لا يطلق لسانه إلاّ بعد مشاورة الرّويّة ومؤامرة الفكر، والأحمق تسبق حذفات لسانه وفلتات كلامه على مراجعة فكره ومماخضة رأيه، فكأنَّ لسان العاقل تابع لقلبه، وكأنَّ قلب الأحمق تابع للسانه، وروي عنه عليه السلام هذا الكلام بلفظ آخر وهو: «قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه»[٢].

(١) شرح أصول الكافي: ٨/ ٢٩٨ ح٤، ووسائل الشيعة: ١٥/ ٢٨١ ح٢٠٥١٨.

(٢) شرح مائة كلمة: ٨٣، وعيون الحكم والمواعظ: ٣٧١.

الترجمة

زبان خردمند دنبال دل او است و دل نابخرد دنبال زبان او است.

سید رضی (رحمه الله)، در شرح این جمله فرموده:

این بیان علی (علیه السلام)، از معانی مبتکر و شگفت آور و ارجمند است و مقصود این است که خردمند لب به سخن نگشاید و دم برنیاورد، مگر پس از این که در دل سخن خود را بسنجد و با عقل و خرد آن را در میان نهد و سفته کند، ولی نابخرد نسنجیده زبان پرانی کند و بی اختیار از چاك دهانش کلمات ناهموار بیرون ریزد و سخنش بر تدبیر و سنجش نظرش پیشی گیرد. به این نظر، گویا زبان خردمند دنبال دل او قرار دارد؛ اول فکر می کند و بعد سخن می گوید و گویا دل نابخرد و احمق در پس زبان او است که ناسنجیده سخن می گوید و این سخن به تعبیر دیگر هم از آن حضرت روایت شده که:

دل احمق در دهان او است و زبان خردمند در دل او است.

زبان خردمند اندر پس دل　　　از این رو نگوید سخن های باطل

سخنهای باطل ز احمق تراود　　　که پشت زبان قلب او هست کامل

الأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٠) وَقالَ عليه السلام ـ لِبَعْضِ أَصْحابِهِ في عِلَّةٍ اعْتَلَّها ـ: «جَعَلَ اللّهُ ما كانَ مِنْ شَكْواكَ حطّاً لِسَيِّئاتِكَ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لا أَجْرَ فيهِ، وَلٰكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئاتِ وَيَحُتُّها حَتَّ الْأَوْراقِ، وَإِنَّما الْأَجْرُ في الْقَوْلِ بِاللِّسانِ وَالْعَمَلِ بالأَيْدي وَالْأَقْدامِ، وَإِنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّريرَةِ الصّالِحَةِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ الْجَنَّةَ»[1].

قال الرَّضيُّ: وَأَقُولُ: صَدَقَ عليه السلام لِأَنَّهُ مِنْ قَبيلِ ما يُسْتَحَقُّ عَلَيْهِ الْعِوَضُ لِأَنَّ الْعِوَضَ يُسْتَحَقُّ عَلىٰ ما كانَ في مُقابَلَةِ فِعْلِ اللّهِ تَعالىٰ بِالْعَبْدِ مِنَ الْآلامِ وَالْأَمْراضِ وما يَجْري مَجْرىٰ ذٰلِكَ، وَالْأَجْرُ وَالثَّوابُ يُسْتَحَقّانِ عَلىٰ ما كانَ في مُقابَلَةِ فِعْلِ الْعَبْدِ فَبَيْنَهُما فَرْقٌ قَدْ بَيَّنَهُ عليه السلام كَما يَقْتَضيهِ عِلْمُهُ الثّاقِبُ، وَرَأْيُهُ الصّائِبُ.

اللغة

(الشكوى) الأمر أو العلّة ذكرهما أو توجّع منهما، **(حَطَّ)** حطّا وضعه أو تركه، **(حتّ)** حتّاً عن الشجر: أسقط ورقه وقشره **(السريرة)** جمع سرائر السرّ الّذي يكتم، ما يسرُّه الإنسان من أمره، النيّة يقال هو طيب السريرة أي سليم القلب صافي النيّة ـ المنجد.

الإعراب

(اعتلّها) افتعال من العلّة فاعله مستتر فيه، والضمير ترجع إلى العلّة منصوب على الحذف والإيصال أي اعتلَّ بها، **(من شكواك)** ظرف مستقرّ خبر كان، **(وحطاً)** مفعول ثاني لجعل، **(حتَّ الأوراق)** مفعول مطلق نوعي، في القول ظرف مستقرّ خبر الأجر، **(بصدق النيّة)** ظرف متعلّق بيدخل والباء للسببية، **(الجنّة)** مفعول ثان ليدخل.

المعنى

في كلامه عليه السلام نكات من مهمات مسائل علم الكلام:

منها استحقاق الأجر على العمل.

(١) مستدرك الوسائل: ٢/٥٩، ومكارم الأخلاق: ٣٥٩.

ومنها أنَّ الثواب بالاستحقاق أو بالتفضّل، ويظهر من كلامه هذا أنَّ ترتّب الثّواب على العمل بالاستحقاق لا بالتّفضّل لوجهين:

١ ـ أنه عليه السلام عبّر عن الثواب بالأجر، والأجر ما يستحقّه الأجير في مقابل عمله، ولا يطلق على ما يتفضّل به.

٢ ـ أنه عليه السلام حصر الأجر في العمل الإختياري الصادر من المكلّف سواء كان قولاً باللسان، أو عملاً بالأركان، أو نيّة بالجنان فإنَّ النوايا الحسنة أفعال قلبية اختيارية للإنسان، وقد عبّر عنها عليه السلام بصدق النيّة والسريرة الصالحة، والمقصود بالسريرة الصالحة القصد نحو عمل الخير، وليست النيّة والسريرة من قبيل الغرائز والميول الغير الاختياريّة، ويؤيّده الحديث المعروف: نيّة المؤمن خير من عمله ونيّة الكافر شرّ من عمله، والحديث المستفيض عن الرّسول صلى الله عليه وآله: لكلّ امرء ما نوى، بناء على أنَّ لفظة ما مصدرية والمقصود لكلّ امرء نيّته إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرٌّ.

ومنها مسألة الإحباط والتكفير، ومحصّلة أنَّ السيئة تقبل السّقوط بغير توبة بوسيلة عمل الخير أو غيره، والحسنة تسقط بوسيلة ارتكاب سيئة كالغيبة مثلاً أم لا وظاهر كلامه عليه السلام ثبوت التكفير للسّيئات، ولذا دعا لهذا المريض وطلب من الله العزيز أن يجعل مرضه حطّاً لسيئاته، ويظهر منه أنّ تأثير المرض في تكفير السيئة وحطّها ليس ذاتياً، بل المرض مقتضى لذلك ولا بدّ من تقويته بالابتهال إلى الله أو بحسن النيّة والسريرة كما أشار إليه عليه السلام في آخر كلامه.

ولكلّ من هذه المسائل الكلاميّة المندرجة في طيّ كلامه عليه السلام على إيجازه مباحث مفصّلة في الكتب الكلاميّة لا مجال لاستيفاء البحث حولها في هذا الشرح الوجيز، فمن أراد الاطلاع عليها فليطلبها من مظانّها.

وممّا ينبغي التوجّه إليه هنا أنَّ الأجر والثّواب مترادفان أم بينهما فرق استعمل الأجر في جزاء الأعمال الصالحة في آيات من القرآن المجيد أشهرها قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] كما استعمل لفظ الثّواب في هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ولكن لا يستعمل كلمة الثواب بمعنى الأُجرة في العرف، فكأنَّ الثواب يختصّ بالأمور المعنوية والأخرويّة.

وقد أشار الرضيُّ في شرح كلامه إلى مسألة كلامية رابعة، وهي: أنَّ كلّ ألم ومرض يعرض للعبد بفعل الله يستحقّ العبد عليه عوضاً من الله، وكلام الرّضي يزيد المقام إعضالاً،

فإنه إذا استحقّ العوض على المرض فهل هو إلاّ ترتب الثواب والأجر، فما الفرق بين عوض المرض وعوض فعل الطاعة، ويظهر من كلام الإمام عليه السلام أنّ الفرق بين المرض وفعل الطّاعة معنويّ، فالمرض لا أجر له وينحصر الأجر في الطاعة، ولكن كلام الشارح الرّضي يشعر بأنّ الفرق بينهما لفظي، وتنقيح الكلام يحتاج إلى بحث لا يسعه المقام.

الترجمة

به یکی از یارانش هنگام عیادت او درباره دردی که دچار شده بود، فرمود: خداوند آن چه را از آن می نالی جبران گناهانت سازد، راستی که بیماری به ذات خود ثوابی ندارد، ولی جبران گناهان می شود و به مانند برگ های خزانی آنها را فرومی ریزد و همانا ثواب در گفتار با زبان و کردار با دست ها و پاها است و به راستی که خداوند سبحانه به وسیله پندار نیك و نهاد پاك و شایسته، هرکدام از بنده های خود را خواهد به بهشت می برد.

رضی (رحمه الله) گوید: من می گویم: علی (علیه السلام) درست فرموده است:

راستی که بیماری خود به خود ثوابی ندارد، زیرا از قبیل اموری است که عوضی دارد، زیرا در برابر هر درد و بیماری و امثال آنها که خدا به بنده خود داده، بنده مستحق عوضی است، ولی استحقاق اجر و ثواب در برابر کار خود بنده است و میان این دو فرقی است که آن حضرت به علم ثاقب و رأی درست خویش بیان فرموده است.

علی گفت با یار بیمار خویش — خدایت ببخشد ز تیمار خویش
ندارد مرض اجر از سوء بخت — بریزد گناهان چه برگ از درخت
بود اجر در گفته های زبان — و یا کار با دست و پا ای فلان
خداوند سبحان برد در بهشت — هر آن بنده خواهد نکو سرنوشت
به پندار نیك و نهاد نکو — که رمز بهشت اند بی گفتگو

الحادية والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤١) وَقالَ عليه السلام ـ في ذِكْرِ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ: «يَرْحَمُ اللّٰهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرَتِّ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رٰاغِباً، وَهٰاجَرَ طائِعاً، وَقَنِعَ بِالْكَفٰافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللّٰهِ، وَعٰاشَ مُجٰاهِداً.

(*) طُوبىٰ لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعٰادَ، وَعَمِلَ لِلْحِسٰابِ، وَقَنِعَ بِالْكَفٰافِ وَرَضِيَ عَنِ اللّٰهِ»[1].

اللغة

(الطوبى): الغبطة والسعادة، الخير والخيرة، يقال: طوبى لك، أي لك الحظّ والعيش الطيب ـ المنجد.

الإعراب

الظّاهر أنّ (طوبى) مبتدأ والظّرفية وهي لمن ذكر ـ إلخ ـ خبره، أي السعادة لمن كان كذا، والجملة اسميّة خبريّة في مقام الدّعاء أو التحسّر باختلاف المقام أو التغبّط، ومقتضى المقام هو الأوّل، والظّاهر أنّ طوبى علم للجنس فتدبّر.

المعنى

كان خباب بن الأرت من أفذاذ أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وآله المخلصين والحاملين لأسرار الشّريعة الإسلاميّة، ممّن تلمسوا الحقيقة بقلوبهم وبلغوا الدّرجة القصوى من اليقين بالنسبة إلى معالم الدّين، ومن الّذين كانوا شهداء على النّاس وموازين للحق عند ظهور الخلاف، فكونه في صفّ أصحاب أمير المؤمنين مجاهداً معه في صفّين من الأدلّة القاطعة على أنّ عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه أينما دار فمثله في أصحابه عليه السلام مثل عمّار.

وقال الشّارح المعتزلي: وهو قديم الإسلام، قيل: إنّه كان سادس ستّة وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وهو معدود في المعذّبين في الله[2].

(*) في أكثر النسخ هذه هي الحكمة الثانية والأربعون، للفصل بينها وبين ما قبلها بجملة: وقال عليه السلام: ويظهر من الشارح أنها من تتمّة الحكمة الحادية والأربعين فتذكر ـ المصحح ـ.

(١) وسائل الشيعة: ٣/ ٢٥٤ ح٣٥٥٨، ومستدرك الوسائل: ٢/ ٣٦٩.

(٢) شرح النهج: ١٨/ ١٧١.

وفي التنقيح قال العلاّمة الطباطبائي رحمه الله: إنَّ فيه وفي سلمان وأبي ذر وعمّار أنزل الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى﴾ [الأنعام: ٥٢] ـ إلخ.

وعن الخصال عن عليّ عليه السلام «السّباق خمسة: فأنا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة، وصهيب سابق الرُّوم، وخباب سابق النبط»[١].

وفي حاشية التنقيح عن اليافعي في تاريخه أنَّ فضائل صهيب وسلمان وأبي ذر وخباب لا يحيط بها كتاب[٢].

وقد وصفه عليٌّ عليه السلام في هذا الوجيز من الكلام بما لا مزيد عليه، وأثبت له فضيلة الرغبة إلى الإسلام والطّوع على الهجرة، وصرف الحياة في الجهاد فناهيك بهذه الفضائل عن التتّبع للأقوال، وثناء سائر الرِّجال، والظّاهر أنَّ ما ذكره عليه السلام في الجمل التالية تغبّط على خباب عرضه على سائر الأصحاب وحثّهم بذلك على سلوك سيرته والاقتداء بطريقته.

ذكر ابن هشام في سيرته «ج١ ص٢١١ ط مصر في إسلام عمر بن الخطّاب»:

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر فيما بلغني أنَّ أُخته فاطمة بنت الخطّاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام من مكّة رجل من قومه من بني عدي بن كعب قد أسلم وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه وكان خباب بن الأرتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ـ إلخ انتهى.

وكفى بذلك دليلاً على أنَّ خباب أحد دعاة الإسلام السابقين الّذين يعاونون النّبيَّ في بثّ الدَّعوة الإسلامية أبان غربة الإسلام واضطهاده من أعدائه الألدّاء قال ابن أبي الحديد: إنّه أوّل من دفن بظهر الكوفة من الصحابة.

---

(١) الخصال: ٣١٢ ح٨٩، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٣٢٥ ح٢٣.
(٢) الخصال: ٣١٢ ح ٨٩، وبحار الأنوار: ٢٢/ ٣٢٥ ح ٢٣.

الترجمة

در مورد یادآوری از خباب بن ارت، فرمود:

خدای رحمت کند خباب بن ارت را که محققاً از شوق مسلمان شد و با طوع و رغبت راه هجرت پیش گرفت و زندگانی را به جهاد گذرانید، خوشا به حال کسی که در یاد معاد است و برای هنگام حساب قیامت کار می کند و به کفاف معیشت قناعت دارد و از خدا خشنود است.

علی یاد خباب می کرد و گفت — خدا رحمت آرد به بن ارت جفت
که از دل مسلمان شد و با شعف — به هجرت گرایید تا در نجف
نمود عمر خود صرف اندر جهاد — خوشا حال آن کو به یاد معاد
برای حساب خدا کارگر — قناعت منش راضی از دادگر

الثانية والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٢) وَقال عليه السلام: «لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هٰذا عَلىٰ أَنْ يُبْغِضَني ما أَبْغَضَني، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيا بِجَمّاتِها عَلَى الْمُنافِقِ عَلىٰ أَنْ يُحِبَّني ما أَحَبَّني، وذٰلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضىٰ عَلىٰ لِسانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ - صلى الله عليه وآله - أَنَّهُ قالَ: يا عَلِيُّ لا يُبْغِضُكَ مُؤمِنٌ، وَلا يُحِبُّكَ مُنافِقٌ»[١].

اللغة

(الخيشوم) أصل الأنف، **(الجمّات)** جمع جمّة وهو مجتمع الماء من الأرض ـ من شرح ابن ميثم.

الإعراب

(لو) حرف شرط لتعليق نفي على نفي ومفادها امتناع وجود الجزاء لامتناع وجود الشرط، أنّه قضي فانقضى، اسم أنَّ ضمير الشأن، **(وقُضي)** فعل مجهول ونائب الفاعل مستتر فيه يرجع إلى الشأن الّذي يستفاد من ضمير أنّه، أو جملة أنّه قال التّالية على سبيل التنازع بينه وبين قوله فانقضى، فيجعل الجملة نائب مناب فاعل قضي ويستتر ضمير الفاعل في قوله **(فانقضى)** يرجع إليه.

المعنى

كان عليٌّ عليه السلام صراط الحقّ، ومدار الحقيقة، وجوهر الإيمان، ومرآة صافية لتجلّي ما في قلوب النّاس فيه إذا واجهوه، والمسلمون عهدئذ مؤمن ومنافق وكان من مهامّ الأمور، تمييز المؤمن عن المنافق، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وآله يعرف المنافق بنور نبوّته ووحي الله، وقد عرفهم لبعض الصحابة أصحاب الأسرار النبويّة منهم عمّار بن ياسر، وكان عليٌّ عليه السلام مرآة صافية لتمييز المؤمن عن المنافق فصدر النّبي هذا التوقيع المقياس وجعل بغض وحبَّ عليّ مقياساً لتشخيص الإيمان والنّفاق.

قال الشارح المُعتزلي: وهذا الخبر مرويٌّ في الصحاح بغير هذا اللفظ: «لا يحبّك إلاّ مؤمن، ولا يبغضك إلاّ منافق»[٢].

---

(١) روضة الواعظين: ٢٩٥، والعمدة: ٢١٦ ح٣٣٥.

(٢) الخصال: ٥٥٨، والأمالي: ١٩٧ ح ٢٠٨.

أقول: ما دعاه إلى إسقاط لفظه يا علي من صدر الحديث.

الترجمة

فرمود: اگر با همين شمشيرم بينى مؤمن را از بين ببرم تا بلكه مرا دشمن دارد، دشمنم نمى دارد و اگر دنيا را با هر چه اندوخته دارد به كام منافق بريزم كه دوستم دارد، دوستم نمى دارد و اين به خاطر اين است كه امرى مقرّر شده و گذشته بر زبان پيغمبر اُمّى (ﷺ) كه فرموده: اى على! مؤمنت دشمن ندارد و منافقت دوست نگردد.

گفت على گر كه به شمشير من — بينى مؤمن ببرم تا به بن
بلكه شود دشمن و بد داردم — مى نشود دشمن و مى خواهدم
ور كه جهان را به همه گنج و سور — باز دهم من به منافق به زور
تا كه شود دوست من كى شود؟ — حكم قضا هست و چنين طى شود
گفته پيغمبر اُمّى است كو — بغض مرا هيچ ز مؤمن مجو
دوستى من ز منافق به دور — تا كه بپوشد تن او خاك گور

الثالثة والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٣) وَقالَ عليه السلام: «سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ»[١].

اللغة

(السيّيء) القبيح يقال هو سيّيء الظنّ أي لا يظنّ خيراً في النّاس، السيّئة ج: سيّئات مؤنث السيّيء، نقيض الحسنة: الخطيئة ـ المنجد.

الإعراب

(تسوءك) جملة فعليّة صفة لسيئة جوزت الابتداء بها.

المعنى

كلّ عمل يصدر من الفاعل المختار يبدأ من شعور قلبي يدعو إليه، ويتعقّب بوجدان باطني يترتّب عليه، وإنّما يوزن هذا العمل بهذا الشّعور الّذي دعا إليه وبهذا الوجدان الّذي ترتّب عليه، فمن استشعر تعظيم رجل فعمل عليه يعدُّ فعله تعظيماً وإن أخطأ في أداء الصنيعة أو كيفيّة الصنيعة، ومن أهان رجلاً ثمّ ندم وأعذر بجبران هذا التأثر الوجداني سوء عمله، فمن ارتكب سيئة بداعي شهوته أو طمعه ثمّ تأثر من عمل نفسه واستاء به فكأنه ندم وطلب العذر والعفو فتدارك سوء فعله ومن دخله العجب من حسنة أتى بها ورأى فيها نفسه فقد أزال إخلاصه وعمله لله تعالى فكأنّه استرجع عمله من الله وحوّله إلى نفسه الشيطانيّة وأبطله.

الترجمة

گناهت كه تو را بد آيد، به از كار نيكت كه خودبينى فزايد.

گناهى كه كردارش آزاردت   به از كار نيكى كه عجب آردت

---

(١) نهج السعادة: ٧/٢٣٨، وبحار الأنوار: ٦٩/٣١٦ ح٢٥.

الرابعة والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٤) وَقالَ عليه السلام: «قَدْرُ الرَّجُلِ عَلىٰ قَدْرِ همَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلىٰ قَدْرِ مُروَّتِهِ، وَشُجاعَتُهُ عَلىٰ قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلىٰ قَدْرِ غَيْرَتِهِ»[1].

اللغة

(الأنَفَة) هي عزّة النّفس، **(العفّة)** ترك الشهوات الدّنية، طهارة النفس **(غار)** الرّجل على امرأته من فلان وهي عليه من فلانة: أنف من الحمية وكره شركة الغير في حقّه بها ـ المنجد.

الإعراب

(على قدر همّته)، جار ومجرور متعلّق بفعل عام، والجملة خبر **(قدر الرّجل)** والظاهر أنَّ لفظة **(على)** بمعنى باء المقابلة، وقد صرّح في شرح التصريح بأنَّ أحد معانيها موافقة الباء.

المعنى

المقصود من القدر هو الاعتبار والوجاهة عند الله أو عند الناس على سبيل منع الخلوّ، والهمة توجّه النّفس وبذل الجهد في حصول غاية من الغايات المعنوية أو الماديّة، فمن اهتمّ في غرض معنوي إلهيّ وسلك طريقة التقرّب إلى الله فيساوي في الاعتبار والوجاهة بمقدار ما بذل الهمّة في هذا السبيل، كما أنه من اهتمَّ إلى تحصيل المال والجاه عند النّاس يساوي اعتباره عند أرباب الأحوال والعامّة ما بدل من الهمّة في هذا الطريق.

والصّدق في القول والعمل ميزان يوزن به الرّجولية ويعبّرون بها عنه وخصوصاً في مورد الوعد وإنجازه، فالمروءة والرُّجولية الّتي يتصف بها الإنسان فتصير مبدأً لتعاطي الأفعال الجميلة وموجباً لترك ما يعود إلى النقص توزن مع صدق الإنسان في أقواله ومواعيده.

والشجاعة ثوران الغضب للدّفاع عن الحقّ والحريم فتوزن مع الأنفة وعزّة النفس، فمن كان حقيراً في نفسه ولا يبالي على ما يراه من التعدّي في حقه وحريمه فلا إقدام له في الدّفاع، ولا يوصف بأنّه شجاع.

(١) وسائل الشيعة: ١٥/ ٢٥٢، ومستدرك الوسائل: ٨/ ٢٢٢ ح٩٣٠٧.

والغيرة نفرة الإنسان عن مشاركة غيره فيما اختصّ به من حريم أو وظيفة أو وطن بالنسبة إلى الأجانب، فالغيرة تعتبر مبدأ للدِّفاع تجاه تجاوز الأجنبيّ ولها مصاديق كثيرة باعتبار شتّى الأمور، وأكثر موارد استعمالها في الحريم والأقارب، والعفّة هو كفُّ النّفس عمّا يختصّ بالغير من الحقوق والحرمات وعفّة كلّ شخص وكفّه عن حريم غيره يوزن بغيرته بالنسبة إلى ما يختصُّ به نفسه وما يهتمُّ بحفظه وصيانته.

الترجمة

قدر هر مردی به اندازه همت او است، راستی و درستیش به اندازه مردانگی او است و دلیری هرکس برابر عزت منشی و پارسایی به اندازه غیرتمندی است.

قدر هر مردی تو هم اندازه دان با همتش　　صدق او را با مروّت چون دلیری عزتش

پارسائیش تو با غیرت بسنج و هوش دار　　هر که را عفّت نباشد نیست هرگز غیرتش

الخامسة والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٥) وَقالَ عليه السلام: «الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ بِإِجالَةِ الرَّأْيِ وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرارِ»[١].

اللغة

(بالحزم) ضبط الرّجل أمره وأخذه بالثقة، **(الإجالة)** الإدارة ـ صحاح.

الإعراب

بالحزم جار ومجرور وظرف مستقرّ خبر لقوله: **(الظفر)**، والباء للإلصاق أو الاستعانة.

المعنى

قد بيّن عليه السلام في هذه الجمل سبيل الظّفر بالمقاصد في ميادين النضال والمبارزة سواء كانت في المعارك الهائلة بين خصمين مع السّلاح والعتاد، أو في ميادين الحرب الباردة وبوسيلة التبليغ والإعداد.

وأفاد عليه السلام أنَّ مبدأ الظفر الأصلي هو كتمان الأسرار وضبطها وحفظها من مظان تطلع الخصم، وقد توجّه إلى هذه النكتة في هذه العصور الأخيرة الدُّول الكبرى وأسّسوا إدارات ضخمة هياؤا وسائل هامّة لحفظ أسرارها عن العدوّ وقاموا بوسائل هائلة من الرِّجال والأموال في طريق التجسّس عن أسرار الخصم وكشف برامجه وطلع في غضون هذه الأعمال ما لا يحصى من المكائد والتدابير الّتي أشغلت بعض ما ظهر منها كتباً عديدة ألّفت ونشرت في هذا الشأن.

(وإجالة الرأي) إشارة إلى طرح البرامج وإقامة حفلات الشور في شتّى متاحي النضال وعليه العمل والاعتماد في هذه الأعصار، ويصعب حفظ الأسرار وتحصينها إذا دارت بين أفراد عديدة يشتركون في المشاورات، ومن امتيازات الأُمم الرّاقية وفور الرّجال المحافظة للأسرار فيها، فكلٌّ شعب يفوز بوفر من أُولئك الرِّجال الأبطال في حفظ الأسرار مقرون بالظفر في مختلف الميادين، فبإجالة هؤلاء الرّجال آرائهم في شتّى نواحي المبارزة والقتال يتحصّل الحزم والنّظر الصّائب في العواقب، والحزم هو الأنظار الصائبة في عواقب الحوادث

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٤١ ح١٤، وميزان الحكمة: ١/ ٦٠٥.

وتنظيم الأمور بحيث تصل إلى المطلوب، ويحصل بها الغرض.

الترجمة

پیروزی به دوراندیشی است و دوراندیشی به رایزنی و رایزنی نیازمند رازداری است.

ز دوراندیشیت پیروزی آید ز شور رأی دور اندیشی آید
اگر خواهی ز شورت رأی صائب تو را کتمان راز خویش باید

السادسة والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٦) وَقال عليه السلام: «احْذَرُوا صَوْلَةَ ٱلْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ، وَٱللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ»[1].

اللغة

(الصولة): السطوة، القهر الجولة والحملة في الحرب، **(لؤم)** كان دنيء الأصل، شحيح النَّفس مهيناً فهو لئيم ج: لئام ـ المنجد.

الإعراب

(صولة الكريم) منصوب على الحذف والإيصال توسّعاً أي من صولة الكريم، **(إذا جاع)**، جملة ظرفيّة متعلّق باحذروا، وتقيد الأمر المستفاد منه.

المعنى

قد فسّر الشارحان قوله: احذروا صولة الكريم إذا جاع، على ثورته عند شدّة الحاجة والاضطرار، أو الضيم والامتهان، قال الشّارح المعتزلي: ليس يعني بالجوع والشبع ما يتعارفه النّاس، وإنّما المراد، احذروا صولة الكريم إذا ضيم وامتهن، وتبعه ابن ميثم فقال: وجوعه كناية عن شدّة حاجته، وذلك مستلزم لثوران حميته.

أقول: الشرح الّذي علّقاها على الجملة الأولى لا يستقيم لوجهين:

١ ـ أنَّ الصّولة عند الاضطرار والحاجة ليست مقصورة على الكريم ولا مدحاً له، بل الصّولة من اللئيم عند مسيس الحاجة والاضطرار أشدّ وأليق بالحذر.

٢ ـ أنَّ ثوران الحمية والغضب عند عدم التفات النّاس وطلب أمر كبير كما أفاده ابن ميثم لا يناسب مقام الكريم في نظره عليه السلام ولا يتبع عملاً للأنام بالنسبة إليه، فهل يكلّف النّاس بإشباعه ورفع حاجته، فالمقصود من هذه الحكمة الحذر من اللئيم إذا شبع وحصلت له قدرة وسلطة، فتشير إلى المثل السّائر: عبد ملك عبداً فأخذ النّاس تلداً.

والظاهر أنَّ المراد من الجوع معناه الحقيقي ويشير إلى خصلة معروفة عند كرام الأبطال

---

(١) بحار الأنوار: ٧١/١٧٨ ح١٩، وميزان الحكمة: ٣/٢٦٨٨.

في ميادين القتال في هذه الأعصار وهي: أنّهم إذا خاضوا حرباً هائلة أحسّوا منها بالخطر لا يأكلون شيئاً حذراً من أن يصابوا ببطونهم، ويظهر منهم ما يفضحهم ويشينهم، وقد نقل في ذلك قصّة عن بعض أيّام صفّين في شأن مالك الأشتر رضوان الله عليه حيث أفلت من يده قرناً فسئل عن ذلك فأجاب بأنّي ما أكلت شيئاً منذ يومين، فالمقصود الحذر من صولة البطل الكريم في المعركة إذا جاع ووطن نفسه على الموت أو الظّفر.

الترجمة

از حمله كريم در حذر باشيد، چون گرسنه به جنگ آيند و از لئيمان بهراسيد چون سير برآيند.

از حمله كريم حذر كن چه گرسنه است   ليك از لئيم چون كه شود سير الحذر

السابعة والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٧) وَقالَ عليه السلام: «قُلُوبُ الرِّجالِ وَحْشِيَّةٌ، فَمَنْ تَأَلَّفَها أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ»[1].

اللغة

(الوحش) الوحوش وهي حيوان البرّ، الواحد وحشيّ - صحاح.

المعنى

المعروف المتسالم عليه أنَّ الإنسان مدني بالطّبع وميال إلى الاجتماع والأنس، والأكثر على أنَّ إنسان على وزن فعلان ومأخوذ من أنس والإنسي ضدّ الوحشي، فلو شرح كلامه على وجه العموم كان المقصود أنَّ قلوب النّاس وحشيّة بناء على أنَّ ذكر الرّجال في المقام من باب التّغليب كما في الشرحين قال ابن ميثم: جعل الوحشة هنا أصليّة، وقال المعتزلي بعد نقل شعر عمارة بن عقيل وهي:

وما النفس إلاّ نطفة بقرارة إذا لم تكدّر كان صفواً غديرها

فيكادُ يخالف قول أمير المؤمنين عليه السلام في الأصل، لأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام جعل أصل طبيعة القلوب التوحش، وإنّما تستمال لأمر خارج - انتهى.

أقول: جعل التّوحش أصلاً في الإنسان مشكل لأنه مخالف لكونه مدني بالطبع، ولما يشاهد من استيناس الأطفال بمجرد التّلاقي بعضهم مع بعض فالظّاهر أنَّ المقصود من الرّجال العظماء من النّاس بحمل الألف واللّام على العهد الخارجي فتدبّر.

الترجمة

دل مردان رمنده است، هر كس آنها را رام كند به وى گرايند.

دل مردان رمنده چون آهو است هر كه رامش كند جهان با او است

---

(١) وسائل الشيعة: ١٢/ ١٥٨ ح١٥٩٤٢، وميزان الحكمة: ١/ ٩٤ ح١٠٧.

الثامنة والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٨) وَقالَ عليه السلام: «عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ»[١].

اللغة

(أسعده) الله جعله سعيداً **(الجدّ)** الحظّ ـ المنجد.

الإعراب

لفظة **(ما)**، اسمية ظرف زمان مبهم مضاف إلى جملة **(أسعدك جدّك)**.

المعنى

المقصود هو الحثُّ على معالجة العيوب وعدم الاغترار بالإخفاء والستر من النّاس، فإنّه إذا ارتكب الإنسان ما كان عيباً ومنقصة فلا يقدر على ستره إلاّ من طريق الحظّ والبخت الّذي ليس باختياره.

الترجمة

عيب نهان است تا بختت جنبان است.

عيب نهان است به يارى بخت   چون ثمر كرم زده بر درخت

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ٩٠ ح٩٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٢١٠.

التاسعة والأربعون من حكمه عليه السلام

(٤٩) وَقالَ عليه السلام: «أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ، أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ»[١].

المعنى

حثّ كلّ القادرين على الانتقام والعقوبة من المعتدّين، على العفو والصفح عن المذنبين في كلّ مورد يليق به، فإنَّ للعفو موارد لا يتعدّاها، ومواقع لا يتجاوزها فالعفو في الحقوق الخاصّة بالمقتدر، فإذا كان هناك حقوق تتعلّق بالله كالحدود المقرّرة لارتكاب بعض المعاصي أو بالناس فلا مورد للعفو وإنما يستحقّ العفو من تأدب بما حلّ عليه من النكال والأسر وظهر عنه آثار الندم والإنابة، وأما المصرّ على الخلاف الّذي يرجع إلى ذنبه بعد العفو فلا يستحقّه، وجعل (**أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة**) لأنَّ العفو مع كمال القدرة أدلّ على صفة الرأفة، وآثر في توبة المذنب ورجوعه إلى الحقّ.

الترجمة

سزاوارتر بگذشت، تواناتر بر عقوبت است.

هر كسى باشد تواناتر به كيفر از گناه   عفو از او شايسته تر بر مذنبان رو سياه

---

(١) الأمالي: ٧٣، ووسائل الشيعة: ١٢/ ١٧١ ح١٥٩٩١.

الخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٠) وَقالَ عليه السلام: «السَّخاءُ ما كانَ ابْتِداءً، فَأَمّا ما كانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَياءٌ وَتَذَمُّمٌ»(١).

اللغة

(السخاء): السخاوة: الجود، **(تذمّم)** منه: استنكف واستحيا ـ المنجد.

الإعراب

(السخاء) مبتدأ **(وما)** موصولة وضمير **(كان)** اسم ورابطة، **(وابتداء)** خبر كان من باب المبالغة ومن قبيل زيد عدل، ويمكن اعتبار كان تامّة فيكون ابتداء حالاً عن ضميره أي السخاء ما وجد مبتدأ به، وما في الجملة الثانية موصولة ومبتدأ، وحياء خبره زيد فيه الفاء باعتبار أن المبتدأ موصول.

المعنى

حقيقة الجود والسخاء بذل بلا عوض ولا رياء، فإذا كان للمبذول عوض ولو حكماً لا يسمّى سخاء وجوداً، فإذا سبقه السؤال يصير عوضاً عنه وثمناً لما بذله السائل من وجهه وعرضه طي سؤاله، أو عوضاً عما يطرأ على ردّ السائل من الذمّ والمنقصة.

وإذا النوال إلى السؤال قرنته ... رجح السؤال وخفّ كلُّ نوال

الترجمة

بخشش آن است كه آغاز شود و آن چه به دنبال خواهش است شرم و آبرو نگهدارى است.

بخشش آن است كه بى گفت و تقاضا باشد ... ورنه خود در عوض عرض تمنّا باشد

(١) شرح أصول الكافي: ٨/ ١٨٢، ووسائل الشيعة: ٩/ ٤٥٧ ح١٢٤٩١.

الحادية والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥١) وَقال عليه السلام: «لاَ غِنًى كَالْعَقْلِ، وَلاَ فَقْرَ كَالْجَهْلِ، وَلاَ مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ، وَلَا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ»(١).

اللغة

(الميراث): أصله موراث انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها ـ صحاح.

الإعراب

خبر لاء نفي الجنس محذوف، والمجرور مع جاره ظرف مستقر صفة لاسم لا مرفوعة محلاً.

المعنى

قد سبق مفاد الجملتين الأولتين في ضمن وصاياه لابنه الحسن عليه السلام في الحكمة السابعة والثلاثين **(والأدب)** هو التحلّي بمكارم الأخلاق كما فسّره ابن ميثم، وقد سبق الكلام فيه و**(المشاورة)** هي طلب الرّأي بالشور عمّن هو أهلها.

وروي الشارح المعتزلي عن كامل أبي العبّاس المبرّد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خمس من لم يكنّ فيه لم يكن فيه كثير مستمتع: العقلُ، والدِّين والأدب، والحياء، وحسن الخلق»(٢).

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، «ما قسم الله للعباد أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وفطر العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ـ أي قعوده أفضل من جهاد الجاهل ـ وما بعث الله رسولاً حتّى يستكمل العقل، وحتّى يكون عقله أفضل من عقول جميع أُمّته، وما يضمره في نفسه أفضل من اجتهاد جميع المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله تعالى حتى عقل عنه، ولا يبلغ جميع العابدين في

(١) نهج السعادة: ٨/ ١٩٣، وبحار الأنوار: ١/ ٩٥ ح٣٠.

(٢) كلمات الإمام الحسين: ٧٤٣ ح٨٩٥.

عباداتهم ما يبلغه العاقل والعقلاء هم أولوا الألباب الّذين قال الله تعالى عنهم: **﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾**»[1].

الترجمة

هيچ توانگرى چون خردمندى نيست و هيچ فقرى چون نادانى و هيچ ميرائى چون ادب و هيچ پشتيبانى چون كنگاش و مشورت.

چون خرد هيچ بى نيازى نيست | هم چنان جهل هم نيازى نيست
هيچ ميراث چون ادب نبود | پشتبانى چه مشورت نشود

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/١٨٦.

الثانية والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٢) وَقالَ عليه السلام : «الصَّبْرُ صَبْرانِ: صَبْرٌ عَلىٰ ما تَكْرَهُ، وصَبْرٌ عَمّا تُحِبُّ»[١].

الإعراب

(صبر على ما تكره)، بدل بعض من قوله عليه السلام : صبران، **(وصبر على ما تحبُّ)**، عطف عليه، ويمكن أن تعتبر الجملتان خبراً ثانياً لقوله: الصبر.

المعنى

قال ابن ميثم: التعدُّد في الصبر هنا تعدُّد وصفي، لأنَّ حقيقة الصبر في الموضعين واحدة على ما عرفت حقيقته.

أقول: فيه تأمل لأنَّ الصبر على ما تكره مقاومة للنّفس تجاه القوّة الغضبية، فحقيقته كفّ النّفس عن الثوران، والصّبر الناشىء عن المحبوب ناشئة عن القوَّة الشهويّة وحقيقته كفُّ النفس عن الانطلاق إليه واختلاف متعلّقه بلفظه على وعن يدلّ على اختلاف جوهره أو وصفه فقط، فتدبّر.

الترجمة

شكيبائى دو تا است: شكيبايى بر پيش آمد ناخواه و شكيبايى از دور دلخواه.

شكيبا باش چون ناخواه آيد   و يا دلخواه را جستن نشايد

(١) نهج السعادة: ٧/ ٢٨٥ ح١٥٣، وميزان الحكمة: ٢/ ١٥٦١ ح٢١٧٤.

الثالثة والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٣) وَقالَ عليه السلام: «الْغِنى في الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ في الْوَطَنِ غُرْبَةٌ»[١].

الإعراب

(في الغربة)، جار ومجرور متعلّق بالغنى، **(ووطن)** خبر الغنى.

المعنى

(الوطن) تربة مولد الإنسان ومنشأته وأوّل أرض مسَّ جلده ترابها ووجد فيه نفسه بعد ما لم يكن شيئاً مذكوراً وفتح عينيه على وجه الوالدين والأقارب، وتلمس الوداد والمواهب من أيدي الجيران والأحباب فكان يحبّه ويهواه ويتوقّع منه كلّما يريد ويشتهيه، **فقال عليه السلام**: إنَّ فوائد الوطن وما يتوقّع منه الإنسان يتحصّل من الغنى والثروة إذا تيسّر في أيٍّ بلد كان، ولكن إذا ابتلي الإنسان بالفقر فاتته مواهبه، وبعد عنه أقاربه، فيجد نفسه غريباً ولو كان في وطنه.

الترجمة

توانگرى در غربت وطن محسوب است و درويشى در وطن غربت و آواره گى است.

منعم به كوه و دشت و بيابان غريب نيست   بيچاره بينوا، كه غريب است در وطن

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٨٤، وبحار الأنوار: ٦٩/ ٥٣ ح٨٣.

الرابعة والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٤) وَقالَ عليه السلام: «اَلْقَناعَةُ مالٌ لاٰ يَنْفِدُ»[١].

وفي شرح المعتزلي هنا، قال الرَّضيُّ رحمه الله تعالى: وقد روي هذا الكلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله[٢].

اللغة

(القناعة) بالفتح الرّضا بالقسم **(نفد)** الشيء بالكسر نفاداً إذا فني - صحاح.

الإعراب

(مال)، خبر المبتدأ، ولا ينفد جملة فعليّة صفة له.

المعنى

(المال) متاع يصرفه الإنسان فيما يحتاج إليه من حوائجه وشهواته، وإذا قنع الإنسان بما تيسّر له من الحوائج وكفّ عن الزوائد مادّة وكيفيّة وضبط نفسه عن الاشتغال بما يخرج عن مقدار الكفاية ومبلغ الحاجة، فله مال لا ينفد.

الترجمة

قناعت ثروتى است بى پايان.

كنج افتادگى و گنج قناعت مالى است   كه به پايان نرسد هر چه از آن صرف كنى

(١) خصائص الأئمة: ١٢٥، وشرح أصول الكافي: ١/ ٢٤٧.

(٢) شرح النهج: ١٨/ ١٩٢.

الخامسة والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٥) وَقالَ عليه السلام: «أَلْمالُ مادَّةُ الشَّهَواتِ»(١).

المعنى

(الشهوة) هي تعاطي ما يلائم طبع الإنسان وغرائزه الحيوانيّة من مأكل وملبس وتمايل جنسي، وأقوى شهوات الإنسان حبُّ الجاه والسيطرة والتصدّي للحكم، وقهر بني نوعه، وكلّ هذه الشهوات تستمدُّ وتقوى بالمال والثروة حيث تحتاج إلى إعداد الأسباب والوسائل، والمال مسبّب الأسباب.

الترجمة

توانگرى سرمايه همه شهوت ها است.

اگر دولت بود، پيرى غمى نيست		كه شهرت نيست كان را درهمى نيست

(١) شرح أصول الكافي: ٨/ ٣٩٨ ح٣، وبحار الأنوار: ٦٩/ ٦٧ ح٢٨.

السادسة والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٦) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ حَذَّرَكَ، كَمَنْ بَشَّرَكَ»(١).

اللغة

(والحَذر): التحرّز، يقال **(بشّرته)** بمولود فأبشر إبشاراً أي سرَّ - صحاح.

الإعراب

(من)، موصولة ومبتدأ، **(وكمن)**، ظرف مستقرّ جملة خبر لها.

المعنى

البشارة إبلاغ يوجب السّرور ويتعقّب بإدراك ما يتمنّاه المسرور، ومن حذّر من خطر يستقبله ويهيّؤه للنجاة فقد أفاده ما يفيد البشارة من السّرور آجلاً ودرك المطلوب عاجلاً.

الترجمة

هر كس به تو اعلام از خطرى كند، چون كسى باشد كه به تو مژده اى دهد.

هر كه تو را بر حذر از شر كند — مژده اى آورده برايت به خبر

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٠، وبحار الأنوار: ٧١/١٧٨ ح١٩.

السابعة والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٧) وَقالَ عليه السلام: «اللِّسانُ سَبُعٌ، إنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ»[1].

اللغة

سَبَعَ الذئب الغنم أي فرسها، عَقَرَهُ أي جرحه فهو عقير ـ صحاح.

المعنى

قد ورد في مدح اللسان وذمّه أخبار عديدة وعبر كثيرة، وتعبيره هذا عليه السّلام أبلغ تعبير في ذمّه ولزوم المحافظة عليه، وأنه بطبعه سبع يصول ويجرح إذا خلّي عنانه.

الترجمة

زبان درّنده اى است، اگر رها باشد زخم زند.

زبــان در دهــان گــرگ درّنــده اى اســت مــهـارش بـزن ورنـه زخـمـنـده اى اسـت

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٢٩٠ ح٦٢، ومستدرك سفينة البحار: ٩/ ٢٤٩.

الثامنة والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٨) وَقالَ عليه السلام: «اَلْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اَللَّسْبَةِ»[١].

اللغة

(اللّسبة) بتقديم السين على الباء: اللّعقة، لدغ العقرب.

الإعراب

(حلوة اللّسبة)، خبر بعد خبر لقوله عليه السلام: (المرأة)، أو صفة للعقرب.

المعنى

شبّهت المرأة بالعقرب حيث إنَّ تماسَّ الرَّجل به خصوصاً في عنفوان الشباب وطغيان القوى الشهويّة معرض للآفات والبلايا الرّوحية والجسميّة، وتنفذ المرأة بجاذبيتها وفتانتها في وجود الرّجل وتنفث على قلبه وروحه سمّ العشق، وأيّ سمّ أضرّ منه وأوجع وآلم منه وأنقع، وإذا أحصيت وجدت المقتولين والمعتاهين بسمّ الحيات والعقارب معدودين في كلّ عصر ومصر، ولكن المقتولين روحاً ومعناً بسمّ فتنة المرأة غير محصور جداً، وكفى لك بذلك ما ترنّم به الشعراء في كلِّ زمان ومن أهل كلِّ لسان في أشعارهم ـ والشعر شعور الأمّة والشعب ـ من التأثر بلقاء المرأة الحسناء حتى قتلا وجرحاً للقلب والكبد، فبلغ شكواهم عنان السماء وملأ صريخهم أرجاء الفضاء، وقد أشار عليه السلام أنَّ هذا السمَّ الناقع حلو ولذيذ.

الترجمة

زن كژدمى است شيرين گزش.

زهـــر زن، زهـــر عـــقـــرب جـــرّار لـيـك شـيـريـن گـزد بـه وقـت شـكـار

(١) مستدرك الوسائل: ١٤/١٥٨ ح١٦٣٦٩، وبحار الأنوار: ١٠٠/٢٢٨ ح٣٠.

التاسعة والخمسون من حكمه عليه السلام

(٥٩) قال عليه السلام: «الشَّفيعُ جُنَاحُ الطَّالِبِ»[١].

المعنى

الشفاعة توسط من له جاه عند المراد في إنجاح حاجة المشفوع له، فكان المشفوع له يطير نحو ما قصده بوسيلة الشفيع، فشبّهه بجناح الطائر.

الترجمة

واسطه و شفيع، چون پر است براى جوينده حاجت.

(١) مطلوب كل طالب: ٢٠، وشرح مئة كلمة: ١٥١.

الستون من حكمه عليه السلام

(٦٠) وَقالَ عليه السلام: «أَهْلُ الدنْيا كَرَكْبٍ يُسٰارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيامٌ»[١].

الإعراب

(يسار بهم)، فعل مبنيّ للمفعول، و**(بهم)**، جارّ ومجرور متعلّق به، والباء للتعدية، وأُقيم مقام الفاعل، **(وهم نيام)**، مبتدأ وخبر، والجملة حالية عن الضمير في **(بهم)**، والمبتدأ بنفسه رابطة أيّدت بالواو.

المعنى

إذا يسار بالنائم لا يلتفت إلى ما يقطعه من الطريق ولا يتوجّه إلى قطع المسافات وطيّ المراحل، فما ينتبه إلاّ وهو واصل إلى المقصد، والمقصد من السير في الدُّنيا هو الوصول إلى الآخرة بالموت، وأهل الدُّنيا لا يلتفتون إلى ذلك، فيأخذهم الموت بغتة ويثيرهم من غفلتهم، والمراد من أهل الدُّنيا المشتغلون بها والنّاسون الموت والآخرة.

الترجمة

اهل دنيا چون كاروانى باشند كه در خواب آنان را به راه مى برند.

اهــل دنــيــا كــاروانــى لــيــك خــواب — مــى بــرنــد آنــهــا بــه عــقــبــى بــا شــتــاب

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٧١، وبحار الأنوار: ٧٠/١٢٨ ح١٣١.

الحادية والستون من حكمه عليه السلام

(٦١) وَقالَ عليه السلام: «فَقْدُ ٱلْأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ»[(١)].

المعنى

الوطن يفيد الإنسان من نواح شتّى يأويه في ظلّه ويسكنه في بيته ويدلّه على طرق معاشه، وأعظم فوائده الأنس مع الأحبة والأصدقاء والأخوان، فإذا فقد الإنسن أحبّته وأصدقاءه فكأنّه خرج عن وطنه المألوف، ووقع في وحشة وحتوف.

الترجمة

از دست دادن دوستان، آواره گى است.

هركه را دوستان ز دست برفت		همچو آواره اى است در صحرا

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٥٨، وبحار الأنوار: ٧١/١٧٨ ح١٩.

الثانية والستون من حكمه عليه السلام

(٦٢) وَقالَ عليه السلام: «فَوْتُ الْحاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِها إِلىٰ غَيْرِ أَهْلِها»[١].

الإعراب

(من طلبها)، متعلّق بأهون، ولفظة **(من)**، متمم **(أهون)** الدال على التفضيل، و**(إلى غير أهلها)**، متعلّق بطلبها وطلب منه أشهر من طلب إليه، وكأنَّ العدول **(من)** لفظة من إلى لفظة إلى يشعر بأنّه جر الحاجة إلى غير مظانّ حصولها.

المعنى

طالب الحاجة لا بدّ وأن يكون لأمر ديني أو دنيوي، فإذا كان المطلوب منه غير أهل لإنجاز الحاجة فطلب حاجة دينيّة منه غير مؤثّر لرفع الحاجة فإنّ المراد من غير الأهل كما هو المتبادر من لا يصلح لطلب الحاجة لمنقصة فيه من بخل أو لؤم، ومن يكون كذلك فلا يتحصّل منه حاجة دينيّة، وإن كان لأمر دنيوي فتحصيله ممّن لا أهل له متعسّر إلاّ بعد كدّ شديد يساوي كدّ فقد هذه الحاجة ففوت الحاجة وترك طلبها من غير أهلها أهون على أيّ حال.

الترجمة

از دست رفتن حاجت آسانتر است از آن كه از نااهل طلب شود.

فوت حاجت بسى است آسانتر   تا ز نااهل خواهى آن حاجت

---

(١) وسائل الشيعة: ٩/ ٤٤٢ ح١٢٤٤٦، ومستدرك الوسائل: ١٣/ ٥٧ ح١٤٧٣٨.

الثالثة والستون من حكمه عليه السلام

(٦٣) وَقالَ عليه السلام: «لاٰ تَسْتَحِ مِنْ إِعْطٰاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ ٱلْحِرمٰانَ أَقَلُّ مِنْهُ»[١].

الإعراب

(لا تستح)، استفعال من الحياء خفّف ياؤه، **(من إعطاء القليل)**، ظرف متعلّق به.

المعنى

العطاء وإن كان قليلاً خير من تركه رأساً، سواء كان مسبوقاً بالسؤال وإظهار الحاجة كما يشعر به لفظ الحرمان، أم كان ابتداء، وتعبيره عليه السلام بأنَّ الحرمان أقلّ، استعارة لطيفة في استعمال لفظة أقلّ حيث إنّ القلّة في العطية صارت سبباً لتركها استحاء، فيقول: إن كانت القلّة موجبة للحياء فتركها رأساً أولى بالحياء لأنّه يعتبر أقلّ منه.

الترجمة

از بخشش كم شرم مدار كه محروم ساختن، از آن هم كمتر است.

مكن شرم اگر بخششت كم بود   كه حرمان سائل از آن كمتر است

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٢٨، ومشكاة الأنوار: ٤٠٨.

الرابعة والستون من حكمه عليه السلام

(٦٤) وَقالَ عليه السلام: «اَلْعَفَافُ زينَةُ الْفَقْرِ ـ وزاد في شرح المعتزلي ـ: وَالشُّكْرُ زينَةُ الْغِنى»[١].

اللغة

(عفّ) عفافاً: كفّ وامتنع عما لا يحلّ أو لا يجمل ـ المنجد.

المعنى

العفاف كفّ النفس عن الشهوات والصبر على فوت الحاجات، والفقر يوجب عدم تناول ما يشتهيه الفقير وإن كان مباحاً وعادة الفقير أن يسأل النّاس لتحصيل حوائجه أو يشكو عندهم من فقره، ومقتضى العفاف ترك السؤال وإظهار الحاجة، وهو زينة للفقر كما أنَّ زينة الغنى الشكر، وهو صرف المال فيما ينبغي من حوائج نفسه، والإعانة لغيره.

الترجمة

خودداری و پارسایی، زیور فقر و نداری است و شکر و سپاسگذاری، زیور ثروتمندی.

زیور فقر، عفاف است ولی زیور از بهر غنی، شکر خدا است

(١) وسائل الشيعة: ٩/ ٤٤٢ ح١٢٤٤٦، وكنز الفوائد: ٤٠٨.

الخامسة والستون من حكمه عليه السلام

(٦٥) وَقالَ عليه السلام: «إِذا لَمْ يَكُنْ ما تُرِيدُ، فَلا تُبَلْ ما [كَيْفَ] كُنْتَ»[١].

اللغة

(بالى) مبالاة بالأمر: اهتمّ به واكترث له ـ المنجد.

الإعراب

(لا تبل ما كنت)، خطاب نهي عن بالي يبالي، والقياس أن تكون فلا تبال بحذف لام الفعل جزماً فقط ولكن حذف ألف المفاعلة على غير قياس كحذف النون من يك، ونقل الجزم إلى اللّام، **(وما)**، إسمية نكرة منعوتة بقوله: كنت أي شيء كنته، فهي مفعول لقوله لا تُبل.

المعنى

هي كلمة تسلية لمن يسعى نحو مقصود وغرض بحسب شخصيته، وقلّما يخلو عنه أيّ إنسان، فكلّ أحد يقصد هدفاً في حياته ويسعى للوصول إليه بحسب مقامه، وقلّما يصل الإنسان إلى ما يقصده ويريده، فإنّ أكثر النّاس يقصدون هدفاً لا يتهيّأ لهم أسبابه أو يقصّر همّتهم عن سلوك طريقه، فلا يكونون ما يريدون، فقال عليه السّلام: إذا لم تصل إلى هذا المقصد الّذي تريده لفقد الوسائل أو قصور الهمة أو وفور الموانع، فارض بما وصلت إليه من الأحوال، ولا تغتم بما فات منك من الآمال.

الترجمة

چون آنچه خواستى نشدى از آنچه هستى نگران مباش.

چون آنچه خواستى نشدت حاصل از تلاش — رو شكر كن مباد كه از بد، بتر شود

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/٣٤٥، وميزان الحكمة: ٢/١٠٩٢ ح١٥١٤.

السادسة والستون من حكمه عليه السلام

(٦٦) وَقالَ عليه السلام: «لاٰ تَرىٰ اَلْجاهِلَ إِلاّٰ مُفْرِطاً، أَوْ مُفَرِّطاً»[١].

اللغة

(أفرط) أعجل بالأمر، جاوز الحدّ من جانب الزيادة والكمال **(فرّط)** تركه ـ المنجد.

الإعراب

(لا ترى)، من باب علم، الجاهل، مفعوله الأوّل، والاستثناء مفرغ، و**(مفرطاً)** مفعول ثان.

المعنى

إقامة كلّ أمر في محلّه اللائق به من دون زيادة ونقصان هو الصراط المستقيم والعدل المأمور به، وهذه القاعدة عامة لكلّ شؤون الإنسان ممّا هو في داخل نفسه أو في أعضائه، وممّا هو خارج عنه يرتبط به من تدبير منزله والمعاشرة مع أهله وجيرانه والمعاملة مع الناس كافة، ورعاية العدالة في الأمور يحتاج إلى علم واسع ودقّة نظر عميق، فإذا كان الإنسان جاهلاً لا يقدر على رعاية العدالة والاستقامة في الأمور، فيتجاوز الحدَّ فيكون مفرطاً أو يقف دونه فيكون مفرِّطاً ومقصّراً.

الترجمة

نبينى نادان را جز اين كه از حد گزرانيده يا به سرحد نرسيده.

نادان نتواند به سر حد باشد يا كمتر از آن است و يا رد باشد

(١) القواعد الفقهية: ٢/ ١٥، وبحار الأنوار: ١/ ١٥٩ ح٣٥.

السابعة والستون من حكمه عليه السلام

(٦٧) وَقالَ عليه السلام: «إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ، نَقَصَ الْكَلامُ»(١).

الإعراب

(إذا)، ظرف زمان يجب إضافته إلى جملة فعليّة فهو معنىً مفعول فيه يقيد الفعل الواقع بعده يعد بمنزلة الجزاء.

المعنى

العقل قيّم على الأعضاء، وهي مندفعة بالإحساسات الشّهويّة والغضبيّة واللسان خطيب الحواس ينطلق بمالها من التأثّر الناشيء عن الشهوة أو الغضب وقلّما يخلو الإنسان منه فيريد أن يتكلّم دائماً بما يبيّن إحساسه، مضافاً إلى أنَّ شهوة الكلام غريزة مستقلّة في الإنسان، فإذا تمَّ العقل، وتسلّط على الحواس يمنع ممّا لا يفيد من الكلام، فينقص الكلام.

الترجمة

چون خرد كامل شود، سخن كم گردد.

مرد خردمند، سخن كم كند — تا كه گهى خويش چه ابكم كند

(١) شرح أصول الكافي: ٨/ ٣٢٦، ووسائل الشية: ١٢/ ١٩٢ ح١٦٠٥٨.

الثامنة والستون من حكمه عليه السلام

(٦٨) وَقالَ عليه السلام: «الدَّهْرُ يُخْلِقُ ٱلْأَبْدانِ، وِيُجَدِّدُ ٱلْآمالَ وَيُقَرِّبُ ٱلْمَنِيَّةَ، وَيُباعِدُ ٱلْأُمْنِيَّةَ، مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصِبَ، وَمَنْ فاتَهُ تَعِبَ»[١].

اللغة

(أخلق) الثوب: جعله باليا **(المنيّة)** ج منايا: الموت **(الأمنية)**: البغية ما يتمنّى **(نَصِبَ)** تعب وأعيا ـ المنجد.

الإعراب

(يخلق الأبدان)، جملة مبدوّة بالمضارع خبر المبتدأ، ويدلُّ على الاستمرار وهكذا الجمل التّالية المعطوفة عليها.

المعنى

فسّر الدهر بالنازلة والأمد المحدود والزمان الطويل، والظاهر أنَّ المقصود العرفي منه الزمان بما يحويه من الحوادث ويعبر عنه بالفارسية «روز گار» فالإسناد في قوله **(يخلق الأبدان)** وتواليها إسناد حقيقي، لأنَّ انكسار الأبدان وبليها معلول لهذه العوامل الزمنية من المرض والعمل والحوادث، وتأثر المشاعر والإحساسات، وكذلك تجديد الآمال وإقراب المنيّة وبعد الأماني، وكلّما دخل الإنسان في ما يقرب من الشيخوخة والهرم تكثر أمانيه على رغم بعدها، لأنه يمنع منها رويداً رويداً، والإنسان حريص على ما منع، ولو كان المقصود من الدّهر نفس الزمان المنصرم لا بدّ وأن يكون الإسناد في الجمل مجازياً على حدِّ قوله «أشاب الصغير وأفنى الكبير مرُّ الغداة وكرّ العشيّ» وهو خلاف الظاهر مضافاً إلى أنّه لا يوافق قوله عليه السلام: «من ظفر به نصب، ومن فاته تعب»[٢] لأنَّ نفس الزمان ليس شيئاً يظفر به أحد ويفوت عن غيره، أو كان الظفر به موجباً للنّصب فالمقصود من الدَّهر ما يحويه من النعم والأموال، والمواهب والآمال، فمن حصّلها نصب، وأعيا من حفظها وصرفها في مصارفها، ومن فاته تعب من فقدها وألم الحاجة إليها.

---

(١) ميزان الحكمة: ٢/١١٧٣ ح١٦٢٤، وبحار الأنوار: ٧٠/١٢٨ ح١٣١.

(٢) روضة الواعظين: ٤٣٤، ومشكاة الأنوار للطبرسي: ٢٠٧.

الترجمة

روزگار تن ها را فرسوده کند و آرزوها را تازه سازد و مرگ را نزدیك آرد و هوس ها را دور نماید، هرکه بدان دست یابد خسته شود و هرکه به دست نیاورد به رنج افتد.

روزگار است که فرسوده نماید تنها آرزوهای جدید آرد و مرگش ز قفا
دور سازد هوس و هرکه به دستش آرد خسته و هرکه نیارد رسدش رنج و عنا

التاسعة والستون من حكمه عليه السلام

(٦٩) وَقالَ عليه السلام : «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِماماً، فَلْيَبْدَأ[1] بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُها أَحَقُّ بِالْإِجْلالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ»[2].

اللغة

أم يؤمُّ إمامة وإماماً القوم وبالقوم: تقدَّمهم وكان لهم إماماً ـ الإمام للمذكّر والمؤنث ج أئمة: من يؤتمّ به أي يقتدي به، سيرة الرّجل صحيفة أعماله، كيفية سلوكه بين الناس ـ المنجد.

الإعراب

(إماماً)، ثاني مفعولي نصب، (قبل)، منصوب على الظرفية متعلّق بقوله: (فليبدأ بسيرته)، ظرف مستقرّ خبر لقوله وليكن، وأحقّ بالإجلال، خبر لقوله: ومعلّم نفسه.

المعنى

فيه تعريض على من تصدّى للإمامة وتقمّصها من غير حقّ، كما افتتح عليه السلام خطبته الشقشقية بقوله: «ولقد تقمّصها فلان» ـ إلخ، وفيه إشعار بأنَّ الإمامة منصب إلهيّ هيّأ الله لها رجال أدَّبهم بقدرته وإحاطته،وهذَّبهم بالفطرة وطهّرهم تطهيراً، لأنَّ المقصود من الإمام في كلامه هذا هو الرئيس الّذي يحكم في الناس، فمن لم يكن مستعداً لهذا المقام لا يقدر على تعليم نفسه ورفع نقصه إلى أن ينال هذه الدَّرجة القصوى والمرتبة العليا، وخصوصاً بالنّظر إلى مقام العلم الشامل المحيط العميق الّذي يلزم لمنصب كهذا، فإذا كان الرَّجل جاهلاً بذاته كيف يقدر على تعليم نفسه فإنَّ العلم الكسبي يحصل إمّا بموهبة من الله فيفيضه على قلوب الأنبياء والأوصياء، وإمّا بتحصيله من الأساتذة والعلماء، فكيف يقدر الإنسان على تعليم نفسه بشخصه، نعم تأديب السيرة وإصلاح الأخلاق والأعمال الّذي يعدّ من باب الحكمة

---

(١) «فعليه أن يبدأ» في نسخة.

(٢) نهج السعادة: ٨/ ٢٠١، ووسائل الشيعة: ١٦/ ١٥١، وكلمة التقوى: ٢/ ٣١٨.

العملية ممّا يمكن للإنسان أن يباشره بنفسه، فيحسن أخلاقه بالرّياضة ويزيل عنه الأخلاق السيّئة، ويخلّي ضميره عنها ويحلّيه بالأخلاق الحسنة والفضائل وأمّا العلم والمعرفة الخاصّة بمقام الإمامية فكيف يقدر عليه الإنسان بنفسه إذا لم يكن من عناية الله تعالى، ويؤيد ذلك قوله: (**ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال**) فإنّه تعريض بأنّ تصدّي غير الأهل للإمامة إنّما يكون لكسب الجاه والاعتبار عند الناس وجلب الإجلال والاحترام، وإذا تصدّى شخص لتعليم نفسه وتأديبها يكون أحق بالإجلال، اللّهمّ إلاّ أن يكون المراد من تعليم الاشتغال بالرّياضة وتصفية النفس بحيث يستعدّ للإفاضة كما أُشير إليه في بعض الأحاديث ويشعر به قوله عليه السلام: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»[1]، ومع هذا لا يخلو الكلام من تعريض على من ذكرنا.

الترجمة

هركه خود را پيشوا و رهبر مردم سازد، بايد پيش از آموختن به مردم، به آموزش خويش پردازد و بايد به روش و عمل خود ادب آموزد پيش از آن كه دستور ادب را با زبان به ديگران بياموزد، كسى كه خود را آموزد و ادب نمايد، به احترام سزاوارتر است از كسى كه آموزگار و مؤدّب مردم باشد.

هر كه خود را رهبر مردم كند — بايد اول رهبرى از خود كند
خود بياموزد وزان پس ديگران — با عمل تأديب سازد، نى زبان
هر كه خود آموخت و تأديب كرد — احترامش بيش از آن ديگر بود
كه دهد تأديب و آموزش به غير — چون كه او سوى خدا باشد به سير

(١) شرح أُصول الكافي للمازندراني: ٧٩/٢، ومصباح الشريعة: ١٦.

السبعون من حكمه عليه السلام

(٧٠) وَقال عليه السلام: «نَفَسُ ٱلْمَرْءِ، خُطَاهُ إِلىٰ أَجَلِهِ»[١].

اللغة

(النفس) مصدر ج: أنفاس **(الخطوة)** ج: خطى وخطوات: ما بين القدمين عند المشي ـ المنجد.

المعنى

التنفس شغل دائم للإنسان الحيّ لا يخلو منه في حال من الأحوال قياماً وقعوداً، ويقظة ونوماً، صحيحاً كان أم مريضاً، ومع ذلك كان ألذّ ما يتناوله من الحوائج وأروح وأخفّ، وقيل: صعوده يمدّ الحياة، ونزوله يفرح الذات، ولكنه خطوة نحو الممات.

الترجمة

هر دمى به سوى مرگ قدمى است.

هردم كه بر آورى تو، گامى بر داشته اى به سوى مردن

(١) بحار الأنوار: ٧٠/١٢٨ ح١٣١، وميزان الحكمة: ١/٢٨ ح١٩.

الحادية والسبعون من حكمه عليه السلام

(٧١) وَقالَ عليه السلام: «كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ»[١].

الإعراب

(منقض)، فاعل عن الانقضاء خبر ومنقوص ورفعه مستتر، وكذلك **(آتٍ)**.

المعنى

المقصود من المعدود عمر الإنسان من أشهره، وأيامه، وساعاته، ودقائقه وثوانيه، فإنه إذا عدّ بكلّ اعتبار ينقضي لا محالة، والمقصود من المتوقّع الموت الّذي يأتي بلا شبهة.

الترجمة

هرچه برشمرده می شود پایان می پذیرد و هرچه باید بیاید می آید.

عمر را چو بشمری آخر شود چون که آخر گشت مردن می رسد

(١) التفسير الصافي: ٣/ ٢٩٣، وميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٥٧ ح ٣٧٢٠.

الثانية والسبعون من حكمه عليه السلام

(٧٢) وَقالَ عليه السلام: «إِنَّ ٱلْأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ، أُعْتُبِرَ آخِرُها بأَوَّلِها»[١].

اللغة

(اشتبه) الأمر عليه: خفي والتبس ـ المنجد.

المعنى

الأمور المشتبهة هي الّتي لا يتّضح حقيقتها باعتبار العقل أو الشرع، كالمسافر يريد مقصداً معيناً فاشتبه عليه الطريق ولا يدري أنَّ سلوك الطريق الّذي يريد أن يمشي عليه يوصله إلى مقصده أم لا، وكمن يقصد أن يقتدي بإمام ولا يدري أنّه حقّ ومتابعته يوصله إلى الحق أم لا، فيقول عليه السلام: إذا اشتبه الأمر من أوَّل الدخول فيه فلا رجاء بوضوحه في نهايته، فلا بدّ من التوقف والبحث حتّى يتّضح ويكون الدُّخول فيه على بصيرة واطمئنان، والظاهر أنَّ المقصود أنّه إذا وقع خطأ في أوَّل أمر، يؤدّي إلى الخطأ في آخره.

الترجمة

به راستى كه اگر كارها از نخست دچار اشتباه و خطا شدند، پايان آنها با آغاز آنها سنجيده شوند.

خشت از اول گر نهد معمار كج تا ثريا مى رود ديوار كج

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٢٧ ح٢٥، ومستدرك سفينة البحار: ٧/ ٦٨.

الثالثة والسبعون من حكمه عليه السلام

(٧٣) ومن خبر ضرار بن ضمرة الضَّبابي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى اللّيل سدوله وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاءَ الحزين، ويقول:

«يا دُنْيا يا دُنْيا، إِلَيْكِ عَنِّي، أَبي تَعَرَّضْتِ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّفْتِ؟ لاٰ حانَ حينُكِ، هَيْهاتَ! غُرِّي غَيْري، لاٰ حاجَةَ لي فيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاٰثاً لاٰ رَجْعَةَ فيها، فَعَيْشُكِ قَصيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقيرٌ. آهِ مِنْ قِلَّةِ الزّادِ، وَطُولِ الطَّريقِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ»[1].

اللغة

(**السُّدل**) ج: أسدال وسدُول وأسدل: السّتر، يقال: أرخى الليل سدوله أي أرسل أستار ظلمته (**سلمته**) الحيّة: لدغته فهو سليم ج: سلمى ـ المنجد.

و (**التململ**) عدم الاستقرار من المرض كأنه على ملة، وهي الرّماد الحارّ (**لا حان حينك**) أي لا حضر وقتك، (**تشوّفت**) الجارية أي تزيّنت ـ صحاح.

الإعراب

(**وقد أرخى اللّيل سدوله**)، جملة حاليّة عن فاعل رأيته، وهو قائم يصلّي ـ إلخ حاليّة أُخرى عن المفعول الأوّل له وهو الضمير الثاني، (**قائم في محرابه**)، خبر هو، قابض، خبر ثان له، (**يتململ**) ـ إلخ، حال عنه، (**يا دنيا**)، من باب المنادى المعرفة (**لا حان حينك**)، دعاء عليها أي لا حضر وقتك كما تقول: لا كنت.

المعنى

(**ضرار بن ضمرة**) قال في التنقيح: من خلّص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حسن الحال، فصيح المقال، انتهى.

ونقل هذه الرّواية عن شرح المعتزلي بسند ثان فهو أوفى وأكمل قال:

---

(١) خصائص الأئمة للرضي: ٧١، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٤٤١.

وذكر أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب الاستيعاب، هذا الخبر، فقال: حدَّثنا عبد الله بن محمّد بن يوسف، قال: حدَّثنا يحيى بن مالك بن عائد، قال: حدَّثنا أبو الحسن محمّد بن محمّد بن مقلة البغدادي بمصر. وحدَّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد، قال: حدَّثنا العكلي، عن الحرمازي، عن رجل من همدان، قال: قال معاوية لضرار الضبائي: يا ضرار صف لي عليّاً، قال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنّه، قال: أمّا إذ لا بدَّ من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدُّنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشتها، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللّباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استفتيناه، ونحن والله مع تقريبه إيّانا وقربه منّا، لا نكاد نُكلّمه هيبة له، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجُومه، قابضاً على لحيته، يتململُ تململ السّليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقولُ: «يا دنيا غرِّي غيري، أبي تعرّضت؟ أم إليّ تشوّقت؟ هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير آه من قلّة الزاد، وبعد السّفر، ووحشة الطريق»، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا حسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها في حجرها[١].

أقول: من أخبث مكائد معاوية بعد تسلّطه على الكوفة وسيطرته على أصحاب أمير المؤمنين أن يجلبهم إلى الشّام بشتّى الوسائل من دعوة وديّة أو تهريب من ظلم عمّاله أو تهديد أو غير ذلك من الوسائل ثمَّ يحضرهم في حفلته الغاصّة بالرجال ويسألهم عن وصف عليّ عليه السلام حتّى يذكروا له عيباً بحضرة الناس ويتّهموه فيستفيد من كلامهم لتأييد سياسته.

وممّن وقع في حبالته ضرار بن ضمرة وكان من خواصّ عليّ ومن أهل الزهد والعبادة فأمره بتوصيف عليّ عليه السلام، وقد وصفه ضرار بهذا الوصف البالغ في الخطورة من نواح شتّى، معرضاً بذلك على معاوية وناصحاً وواعظاً له، ونشير إلى بعض ذكره رضوان الله عليه:

افتتح ضرار رضوان الله عليه توصيفه لعليّ عليه السلام بأنّه **(كان بعيد المدى)** أي عالي الهمّة ناظر إلى المعالي القدسيّة، وتارك للأهواء الخسيسة المادّية مع شدّة قواه المعنوية ونواياه الملكوتية، وكأنه إشارة إلى قوله تعالى في سورة النجم: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ٥] وهو وصف جبرئيل حامل الوحي إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله **(يقول: فصلاً)** أي ينطق بما هو الحقّ الصّريح، مأخوذاً من الوحي الصحيح وكأنه إشارة إلى قوله تعالى في سورة الطّارق: ﴿إنه

---

(١) شرح أصول الكافي: ٧/ ٢٠٣، والعمدة: ١٦.

لقول فصل وما هو بالهزل﴾ [طارق: ١٣] وكان يحكم بالعدل لا يخالطه جور وباطل، منبع ذخّار للعلم قولاً وعملاً وبحر ضخم للحكمة من كلِّ ناحية، زاهد في الدُّنيا متنفّر عنها، يطلب الخلوة والانعزال عن أهل الدُّنيا فيأوي إلى اللّيل ووحشته، هذه صفاته المعنوية العقليّة والوجدانيّة.

ثمَّ شرع في وصفه الظاهر فقال: يبكي ويسيل الدُّموع الغزيرة من خوف الله ومن ترحّمه على الضعفاء والفقراء، ويفتكر طويلاً في إصلاح الأمور.

ثمَّ وصفه عليه السلام في زيّه ولباسه ومأكله فقال: يعيش عيش الفقراء والمساكين حتّى يعجبه اللباس القصير والطعام الخشن لم يلاحظ لنفسه امتيازاً ولا مثارة وإمارة للرياسة، بل كان فيناً كأحدنا يجيب مسائلنا ويُفتينا، ولكن له هيبة معنوية في قلوبنا، ثمَّ يبين معاملته مع عموم الناس ورعايته للعدل الاجتماعي في هذه الفصول:

١ ـ يعظِّم أهل الدِّين فلا حرمة عنده إلاّ للدّين وأهله.

٢ ـ يقرّب المساكين ولا يلتفت إلى زبرجة الأغنياء والمثرين.

٣ ـ لا نفوذ فيه لأهل القوَّة والثروة فيستميلونه لأغراضهم، بل لا طمع لهم في ذلك.

٤ ـ لا يقطع رجاء الضعيف من عدله وأخذه له بحقّه وإن كان خصمه قويّاً ذا مال وجاه وثروة.

ثمَّ شرع بعد ذلك في بيان خوفه من الله وزهده في الدُّنيا وصوَّره لمعاوية بما لا مزيد عليه حتّى أثّر في هذه الصّخرة الصمّاء والقلب القاسي الأعمى فبكى.

وأظنُّ أنَّ بكاء معاوية لم يكن عن خوف من الله وإذعان للحقّ، بل كان كما يبكي الصبيُّ من ألم الإبرة إذا نفذت في جسمه حيث إنَّ كلَّ جملة ألقاها إليه هذا البطل المجاهد في فضيلة عليّ عليه السلام تكون أوقع من السّهم على قلبه وكبده فهو مع كمال تجلّده وتحلّمه الذي كان الركن الوثيق لسياسته العوجاء، لم يقدر على المقاومة تجاه هذه الضربات البطولية النافذة على قلبه القاسي، فلم يحر جواباً ولم يجترىء على إسكات القائل لما أخذ منه العهد ضمناً بقوله أو تعفيني، فتحلّم ألم هذه الرّميات المتتابعات حتى نفد صبره وشرع يبكي من الألم والغمّ الّذي دخله من مشاهدة هذا البطل الّذي يجاهده بسيف لسانه في عقر داره، وهو يرى نفسه متكئاً على سرير الملك والسّطوة، ثمَّ أخبره هذا البطل في آخر كلامه عن مقدار حبّه لعليّ عليه السلام وبغضه له حيث أجابه بأنَّ حزني على عليّ عليه السلام كحزن أمّ ذبح ولدها في حجرها، هذا تصريح بحبّه لعليّ عليه السلام بما لا مزيد عليه وتلويح لبغضه له، وهل قتل عليٌّ عليه السلام إلاّ بمخالفة معاوية معه وبكيده ومكره؟

الترجمة

متن كامل خبر به روايت مندرج در شرح معتزلى ترجمه مى شود:

معاويه به ضرار ضبابى گفت: اى ضرار، على را براى من وصف كن؛ در پاسخ گفت: يا اميرالمؤمنين مرا معاف دار؛ گفت: البته بايد او را وصف كنى؛ در پاسخ گفت: چون ناچارم مى گويم؛ به خدا والا همت بود، شديد القوى بود، صريح و قاطع سخن مى گفت، به دادگرى حكومت مى گرد، دانش از همه سويش فرومى ريخت و در پيرامونش حكمت گويا بود، از دنيا و شكوفاييش گريزان بود، به شب پرهراس انس داشت، اشكش فراوان، انديشه اش طولانى بود، جامه كوتاه درويشانه را خوش مى داشت و خوراك ناهموار را، در ميان جمع ما چون يكى از ما بود، هر پرسشى داشتيم جواب مى داد و چون از او فتوى مى خواستيم ما را آگاه مى كرد.

به خدا با اين كه ما را به خود بسيار نزديك مى كرد و با او همنشين بوديم، بسا كه از هيبت الهيه او جرئت سخن با او را نداشتيم. اهل دين را بزرگ مى داشت و مساكين را به خود نزديك مى كرد. هيچ نيرومندى طمع نداشت كه ناحقى به سوى خود از او بخواهد و هيچ بينوايى از دادگرى او نوميد نبود.

من خود گواهم كه در يكى از مواقفش وى را ديدم در حالى كه شب از نيمه گذشته و پرده هاى تاريكى خود را بر جهان گسترده بود و اخترانش در چاه مغرب فرو شده بودند، دست بر ريش داشت و چون مارگزيده بر خود پيچ و تاب مى خورد و به مانند مصيبت زده اى مى گريست و مى گفت: اى دنيا ديگرى را فريب بده، خود را به من عرضه مى دارى؟ براى من زيورنمايى و كرشمه مى كنى؟ هيهات هيهات، من تو را سه طلاقه كردم كه رجوع ندارد، عمرت كوتاه است و قدرت اندك، آه و افسوس از توشه كم و دورى سفر و راه پر خطر.

معاويه گريست و گفت: خدا ابوالحسن را رحمت كند، به خدا همچنين بود، اى ضرار اندوه تو بر وى چون است؟ گفت: چون اندوه مادرى كه فرزندش را در

دامنش سر بریده باشند.

علی را یکی یار همگام بود / ضرار بن ضمره ورا نام بود
بچرخید چرخ و کشاندش به زور / به درگاه بن حرب نیرنگ پور
از او خواست وصف علی را به جد / به پاسخ برآمد، یل و مستعد
بگفتا گواهم که خود دیدمش / به یك ایستگاهی و سنجیدمش
شب افکنده صد پرده نیلگون / سراسر جهان در سکوت و سکون
علی بر سر پا به محراب خویش / نظر سوی حق است پاکش به ریش
چنان در تلاطم که مارش زده / سرشکش رخ غمگسارش زده
به دنیا همی گفت از من به دور / مکن عرضه خود را به من ای شرور
کرشمه به من می فروشی برو / نیاید چنین روزت اندر گرو
به دوری زمن دیگری را فریب / نخواهم ز تو حاجت و نی نصیب
طلاق تو دادم سه بار و دیگر / ندارم رجوعی برایت به سر
که عیش تو کوتاه و قدرت زبون / تو را آرزو کوچك و سرنگون
صد افسوس زین توشه کم مرا / وزین راه پر طول و پر خم مرا
سفر بس دراز است و پر ترس و بیم / ورودم به درگاه حق بس عظیم

الرابعة والسبعون من حكمه عليه السلام

(٧٤) ومن كلام له عليه السلام: للسائل الشّامي لمّا سأله: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاءٍ من الله وقدرٍ؟ بعد كلام طويل هذا مختاره:

«وَيْحَكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لاَزِماً، وَقَدَراً حَاتِماً، وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، إِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً، وَكَلَّفَ يَسِيراً، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرَهاً، وَلَمْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِباً، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً، وَلاَ خَلَقَ السَّمٰوات وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً **﴿ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾** [ص: ٢٧][١]».

اللغة

(ويح): كلمة ترحّم وتوجّع وقد تأتي بمعنى المدح والتعجّب.. ونصبه بإضمار فعل كأنّك قلت ألزمه الله ويحاً (حتم) حتماً بالشيء: قضى (لعب) لعباً: فعل فعلاً بقصد اللّذّة أو التنزّه، فعل فعلاً لا يجدي عليه نفعاً ـ المنجد.

الإعراب

(بعد كلام)، ظرف متعلّق بقوله: ومن كلامه، **(ويحك)** منصوب بفعل مقدّر أي ألزم الله ويحك، **(تخييراً)** مفعول له، وكذلك تحذيراً، **(كثيراً)** مفعول ثان لأعطى والأوّل منه متروك، **(مغلوباً)** حال من ضمير يعص.

المعنى

روي الحديث في باب الجبر والقدر من الكافي بهذا اللفظ:

عليّ بن محمّد عن سهل بن زياد وإسحاق بن محمّد وغيرهما رفعوه قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفّين إذ أقبل شيخ فجثى بين يديه، ثمّ قال له: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال أمير المؤمنين

(١) أمالي المرتضى: ١/ ١٠٥. الطرائف: ٣٢٦.

عليه السلام: أجل يا شيخ ما علوتم تلعة ولا هبطم بطن واد إلاّ بقضاء من الله عزَّ وجلَّ وقدره، فقال له الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين فقال له: مه يا شيخ فوالله لقد عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليه مضطرِّين، فقال له الشيخ: وكيف لم نكن في شيء من حالاتنا مكرهين ولا إليه مضطرّين وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟ فقال له: وتظنُّ أنه كان قضاء حتماً وقدراً لازماً، أنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر من الله، وسقط معنى الوعد والوعيد فلم تكن لائمة للمذنب، ولا محمدة للمحسن، ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان، وخصماء الرّحمن، وحزب الشيطان، وقدريّة هذه الأُمّة ومجوسها.

إنَّ الله تبارك وتعالى كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يملّك مفوّضاً، ولم يخلق السّموات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النّبيين مبشّرين ومنذرين عبثاً، ذلك ظنُّ الّذين كفروا فويل للّذين كفروا من النار، فأنشأ الشيخ يقول:

أنت الإمام الّذي نرجو بطاعته ... يوم النجاة من الرحمن غفرانا
أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً ... جزاك ربّك بالإحسان[1] إحسانا

أقول: وقد ترى ما فيه الاختلاف بين ما ذكره الرضيُّ ـ رحمه الله ـ من هذا الحديث وما ورد في الكافي الشّريف، فلا بدّ وأن يكون أحد المضمونين منقولاً المعنى، وما اختاره الرضيُّ أوضح وأفصح ويحتمل تعدُّد الواقعة، وذكر الرضيُّ ـ رحمه الله ـ هذا السائل كان شامياً، ولكن لا إشعار في رواية الكافي بكونه شامياً ولعلَّ الرَّضيُّ أخذه من رواية أخرى وكتاب آخر عرف السائل بأنّه شامي، ولكن يشعر صدر الحديث بأنه من أهل الكوفة حيث قال: أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام، فتدبّر.

قال في شرح ابن ميثم: أمر عباده تخييراً، وتخييراً مصدر سدّ مسدَّ الحال، انتهى.

ولم يبيّن في كلامه ذا الحال، فإن جعله حالاً من المفعول وهو عباده، يكون المعنى أمر عباده حال كونهم مخيرين، ولا يستفاد من لفظة مخيرين المختارين إلاّ على تكلّف، ففيه تكلّفان: حمل المصدر على الصّفة، ثمَّ حمل تلك الصفة من باب إلى باب آخر، وإن جعله حالاً من الفاعل وهو الله فلم لم يجعله مفعولاً مطلقاً، كما في قوله: نهاهم تحذيراً، كما

(١) الكافي: ١/ ١٥٥ ح١، والبحار: ٥/ ١٣ ح١٩.

صرَّح به، ولا فرق بين جعله حالاً أو مفعولاً مطلقاً من جهة المعنى، فتدبّر.

قال في شرح المعتزلي: قد ذكر شيخنا أبو الحسين رحمه الله: هذا الخبر في كتاب الغرر، ورواه عن إصبغ بن نباته، انتهى[١].

والمتن الّذي ذكره مختلف مع متن حديث الكافي في موارد، فصدر مقالة عليّ عليه السلام فيه بقوله: «**والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة**»[٢] ولم يذكر فيه قوله: «**ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب**»[٣] وهذه الجملة من مشكلات هذا الحديث. وقد ذكر المجلسي رحمه الله في شرحه على الكافي وجوهاً خمسة في حلّه نذكر خلاصة منها هنا:

الأولى ـ أنه [يكون] متفرعاً على أنّه إذا بطل الثواب والعقاب بالجبر على التكليف فالمذنب صار أولى بالإحسان لنيله في هذه الدُّنيا إلى ملاذّه وشهواته والمحسن أسوأ حالاً منه لتحمّله مشاقّ التكليف والعبادات.

الثاني ـ أنّه لو كان المذنب مجبوراً على عمل السيّئة والمحسن على عمل الطاعة فالأولى الإحسان بالمذنب لتدارك جبره على الخلاف الواقع منه، وعقوبة المحسن ليساوي حاله مع المذنب ويراعي العدالة بينهما.

الثالث ـ ما قيل إنّه إنما كان المذنب أولى بالإحسان لأنّه لا يرضى بالذّنب كما يدلُّ عليه جبره، والمحسن أولى بالعقوبة لأنّه لا يرضى بالإحسان لدلالة الجبر عليه، ومن لا يرضى بالإحسان أولى بالعقوبة من الّذي يرضى به، ولا يخفى ما فيه.

الرابع ـ أنّه لما اقتضى ذات المذنب أن يحسن إليه في الدُّنيا بإحداث اللّذات فيه، فينبغي أن يكون في الآخرة أيضاً كذلك، لعدم تغير الذوات في النشأتين وإذا اقتضى ذات المحسن المشقة في الدُّنيا وإيلامه بالتكاليف الشاقة ففي الآخرة أيضاً ينبغي أن يكون كذلك.

الخامس ـ ما قيل: لعلّ وجه ذلك أنَّ المذنب بصدور القبائح والسيئات منه متألّم منكسر البال لظنه أنها وقعت منه باختياره، وقد كانت بجبر جابر وقهر قاهر فيستحقّ الإحسان، وأنَّ المحسن بفرحاته بصدور الحسنات عنه وزعمه أنه قد فعلها باختياره أولى بالعقوبة من المذنب.

قال المجلسي رحمه الله في سند الحديث: إنّه مرفوع، لكن رواه الصّدوق رحمه الله

(١) شرح النهج: ١٨/ ٢٢٧. (٢) المحاسن: ١/ ٢٦٢ ح٢٢٣، والكافي: ١/ ٢٨٢ ح١.
(٣) الكافي: ١/ ١٥٥ ح١، وبحار الأنوار: ٥/ ١٥.

في العيون بأسانيد عنه، ومذكور في رسالة أبي الحسن الثالث عليه السلام إلى أهل الأهواز، وسائر الكتب الحديثيّة والكلامية، وأشار المحقّق الطوسيُّ في التجريد إليه، ورواه العلامة في شرحه عن الأصبغ بن نباتة بأدنى تغيير.

أقول: هذا الحديث باعتبار تعرّضه لمسألة الجبر والاختيار والقضاء والقدر في أعمال العباد من مشكلات الأحاديث ويحتاج إلى شرح مفصّل، وتوضيح ينحلُّ به هذا المعضل، ولا مجال لهذا البحث في هذا الشرح الموجز، وقد بحثت عن هذه المسألة مفصلاً في شرح أُصول الكافي وترجمته بالفارسية المطبوعة في الجزء الأوّل، فمن أراد تحقيق المقام وتوضيح المرام فليرجع إليه، ونحن نترجم الحديث تماماً على متن رواه الشارح المعتزلي، لأنّا ترجمنا متن الكافي في شرحه.

الترجمة

اصبغ بن نباته گفت: پیرمردی در برابر علی (عليه السلام) ایستاد و گفت: به ما بگو که رفتن ما به شام به قضاء خدا و قدر بود؟ در پاسخ فرمود:

بدان خدا که دانه را می شکافد و جاندار می آفریند، ما گامی برنداشتیم و بر دری فرو نشدیم جز به قضاء خدا و قدر او؛ آن شیخ گفت: رنجی که بردم باید به حساب خدا بگذارم، هیچ ثوابی ندارم؛ علی فرمود: ای شیخ خاموش باش، محققاً خدا در این سفر به شما پاداش بزرگی عطا کرده، چه در رفتن و چه در برگشتن، شما در هیچ حالی واداشته نبودید و ناچار و بی اختیار نبودید؛ آن شیخ گفت: چگونه چنین نبودیم با این که قضا و قدر ما را سوق داده اند؟ حضرت فرمود: وای بر تو، شاید گمان می کنی قضاء لازم و قدر حتم و ملزمی در میان است! اگر چنین باشد، ثواب و عقاب و وعد و وعید و امر و نهی همه باطل و بیهوده گردند و گنهکار را سرزنش نباید و نیکوکار را آفرین نشاید و نیکوکار از بدکار سزاوارتر به مدح و تحسین نباشد، و بدکار سزاوارتر نباشد به مذمّت و نکوهش از نیکوکار، این گفتار بت پرستان و سپاه شیطان و گواهان ناحق و نابینایان از راه صواب است و آنان قدریه این امّت و گبران این امّت محسوب اند.

راستی که خداوند سبحان، فرمان داده برای مختار ساختن بندگان خود و

غدقن کرده برای برحذر داشتن و تکلیف آسانی فرموده، نافرمانی اش به معنی این نیست که در برابر بنده خود مغلوب شده است و از روی وادار کردن و اعمال زور اطاعت نمی شود، رسولان خود را بیهوده و عبث به سوی بندگانش گسیل نداشته و آسمانها و زمین و آن چه در آنها است بیهوده نیافریده - این است گمان آن کسانی که کافر شدند، وای از دوزخ بر کافران - آن شیخ گفت: پس قضا و قدری که ما بهوسیله آنها سفر کردیم چیستند؟ فرمود: این قضا و قدر به معنی امر و دستور خدا است، سپس این گفته خداوند سبحان را تلاوت فرمود که:

"وقضی ربك ان لا تعبدوا إلاّ إیاه" - پروردگارت فرمان داده که نپرستید جز او را - آن شیخ شادمانه برخواست و می گفت:

تویی آن امامی که با طاعتش	امید بهشت از خدا در سر است
زدودی تو هر شبهه از دین ما	جزای تو با حضرت داور است
چون که بگشت علی از صفین	غم صفین به دلش بُد سنگین
به ستمکار شکستی نرسید	فتنه ای سخت از آن گشت پدید
شیخی اندر بر او سخت ایستاد	که بگو رفتن شام ای استاد
به قضا بود و مقدُر ز خدا	یا به دلخواه بشر شد پیدا
گفت سوگند به خلاّقی حق	که قضا و قدرش بد ز سبق
هیچ گامی ننهادیم به راه	جز قضا و قدرش بُد همراه
شیخ گفتا که خدایا صبری	که نداریم از این راه اجری
گفت خاموش ایا شیخ دژم	که خدا داده ثوابی معظم
طی این راه به اکراه نبود	هر کس از میل خود این ره پیمود
شیخ گفتا که قضا ما را برد	گفت وه نیست قضا حتم ای گرد
ور نه بیهوده ثواب است و عقاب	نه بود امر و نه نهی و نه عذاب
نه خدا سرزنش مذنب کرد	نه ستایش ز نکوکار ای مرد
این بود گفته عبّاد وثن	گفته لشکر شیطان کهن
راستش حضرت سبحان فرمان	داده آزاد به دین خلق جهان
نهی کرد است به رسم تحذیر	کرده تکلیف ولی سهل و یسیر
از گنه چیره بر او کس نشده	به اطاعت کسی مکره نشده

نه عبث خیل رسل کرده گسیل — تا که باشند به مخلوق دلیل
آسمانها و زمین بیهُده نیست — در جهان بیهُده را نبود زیست
این گمان شیوه کفّار بود — که مکان همه در نار بود
شیخ گفتا چه قضا و قدری — کرده این راه به ماها سپری؟
گفت فرمان خدا و حکمش — دیگر ای شیخ زبان را در کش
گفته حق بود اندر قرآن — که "قضی ربك" رو خوش برخوان
شیخ فهمید و بشد شاد و سرود — چند شعری و علی را بستود

الخامسة والسبعون من حكمه عليه السلام

(٧٥) وَقالَ عليه السلام: «خُذِ ٱلحِكْمَةَ أَنَّى كانَتْ، فَإِنَ ٱلحِكْمَةَ تَكُونُ في صَدْرِ ٱلْمُنافِقِ فَتَلَجْلَجَ في صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلىٰ صَواحِبِها في صَدْرِ ٱلْمُؤْمِنِ»[١].

اللغة

(الحكمة) ج: حكم: الكلام الموافق لحق، الفلسفة، صواب الأمر وسداده **(تلجلج)** تردَّد في الكلام وفي صدره شيء تردّد ـ المنجد.

الإعراب

(أنّى كانت): أنّى ظرف زمان ومفعول فيه أي من أين كانت، وكانت تامة أي وجدت، فاعلها الضمير المستتر العائد إلى الحكمة، فتلجلج، أي تتلجلج مؤنث المضارع حذفت إحدى تائيه تخفيفاً وتدلّ على الاستمرار.

المعنى

الحكمة في لسان الكتاب والسنّة تطلق على قضايا حقيقية تزيد معرفة الإنسان بالمبدأ والمعاد، أو تهديه إلى عمل نافع للمعاش أو المعاد، وبهذا الاعتبار قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد فسّرت بعلم الشرايع، ومعالم كلّ شريعة حقة لا تخلو من أحد القسمين ومنبع الحكمة تعليم الأنبياء المتكى على الوحي من الله، أو ضوء عقلاني يفاض بعنايته تعالى على الخلائق، وحيث إنَّ المنافق يأخذ من تعليمات الأنبياء والأوصياء فتقع في يده كلمة حكمة، وربما استضاء عقله فتجدها ولكن لا يعتقد بها لأنّه منافق فلا تستقرّ الحكمة في قلبه، فكانت كخروف ضالّ عن قطيع الغنم يركض إلى هنا وهنا وتتلجلج في صدر المنافق ولا يقدر على كتمانها فينطق بها ويظهرها، فأمر المؤمن بأخذها وإلحاقها بالحكم المستقرَّة في صدره حتّى تسكن إلى صواحبها، فهو كردِّ الخروف الضالّ إلى قطيع الغنم فيسكن فيها ويطمئن إليها والمراد نفور قلب المنافق عن الحكمة ونفور الحكمة عنه، والتوصية بأنّه لا بدَّ وأن ينظر إلى

---

(١) نهج السعادة: ٧/ ٣٤٥، وميزان الحكمة: ١/ ٦٧١ ح٩١٧.

ما قال لا إلى من قال، فلا يترك الكلام الحق بحجّة أنه خرج من فم المنافق، ويشعر بتأكيد طلب العلم والحكمة من مظانها وإن وجد عند غير أهلها.

الترجمة

سخن درست و حکیمانه را از هر کس باشد دریافت کن، زیرا سخن حکمت در دل منافق هم هست و بدین سو و آن سو می چرخد تا از آن به در آید و خود را به یاران خود برساند که در سینه مؤمن جای دارند.

ز هر کس حکمت و پندی بیاموز چراغ معرفت در دل بیفروز
اگر گوینده بی ایمان شناسی ز پند و حکمتش چون در هراسی؟
بسا حکمت که در قلب منافق بود حیران و لرزان همچو وامق
بچرخد تا برآید از زبانش بر مؤمن رسد بر همکنانش

السادسة والسبعون من حكمه عليه السلام

(٧٦) وَقالَ عليه السلام: «اَلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ اَلْمُؤمِنِ فَخُذِ اَلْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفاقِ»[١].

اللغة

(الضالّة) ج: ضوالّ مؤنّث الضالّ: الشيء المفقود الّذي تسعى ورائه.

المعنى

عبّر عليه السلام عن الحكمة بالضالّة للمؤمن باعتبار أنَّ الإيمان مأوى الحكمة وينبغي أن يكون المؤمن هو الّذي جمع شوارد الحكم وحضنها من أن تقع في أيدي المنافقين فجعلوها وسيلة لترويج آرائهم الفاسدة وأغراضهم الباطلة، كما اتّفق في عصرنا هذا من تسلّط الكفار والمخالفين على فنون الحكمة الطبيعيّة، فسادوا بها وضلّوا وأضلّوا شباب الإسلام.

الترجمة

حكمت گمشده مؤمن است، حكمت را درياب گرچه از اهل نفاق باشد.

گمشده مؤمن بود حكمت بگير ورچه در دست منافق شد اسير

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٩٩ ح٥٧، ومستدرك سفينة البحار: ٢/ ٣٥٥.

السابعة والسبعون من حكمه عليه السلام

(٧٧) وَقالَ عليه السلام: «قيمَةُ كُلِّ ٱمْرِىءٍ مٰا يُحْسِنُهُ»[١].

قال الرَّضيُّ: وهذه الكلمة الّتي لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة.

المعنى

قيمة كلّ شيء باعتبار ما يترتّب عليه من الفوائد والآثار المرغوبة عند الله أو عند خلقه، ويلحظ في ذلك ما يتحمّل في تحصيله من مؤنات ومتاعب، وهي ما تبذل بإزاء المتاع عند العقلاء، ومن الأشياء ما لا يقوم لخسّته أو فقد الرغبة في بذل العوض بإزائه لوفوره وعدم الحاجة إلى شرائه كالماء في شطوط الأنهار، والتراب في البراري والقفار، أو لكرامته عند الله أو عند الناس كالإنسان، فإنه حرّ بالذات وقد ألقى الرقيّة منذ قرون في الجامعة البشرية.

فالتعبير بالقيمة في كلامه عليه السلام استعارة بتشبيه المرء بالنظر إلى كمالاته المعنويّة وصناعاته اليدويّة ومهارته في التعبيرات اللّسانية على المتاع، ونبّه إلى أنَّ اعتبار المرء يقاس بما يحسنه ويجيّده من صنعة أو زراعة أو تجارة أو غيرها فمن أراد أن يكون مرجعاً في أمر من الأُمور فلا بدّ وأن يتعب نفسه لتحصيل التخصّص في هذا الأمر.

وقد اهتمَّت الشعوب الراقية في القرون المعاصرة بهذه الحكمة القيمة فتوجّهوا إلى تقسيم فنون المعارف والعلوم والصناعات إلى شعب ضيقة، وفرضوا على المتعلّمين اختيار ما يناسب ذوقهم، والجدّ في تعلّمه وكسب التخصّص فيه.

فعصرنا عصر المتخصّصين في الفنون والصناعات، عصر العمل بهذه الحكمة القيمة والدستور الراقي، وقد ظلَّ المسلمون قروناً قلّما يلتفتوا إلى هذه الحكمة العلوية فيدخلون في كلّ شأن بأدنى ممارسة، فيختلّ الأمور، ولا ينالون بالمطلوب.

الترجمة

ارزش هر مردى همان است كه نيكو مى داند و مى تواند.

ارزش هر كس به كار خوب او است   اوستاديش به هر كارى نكو است

(١) عيون أخبار الرضا: ١/٥٨، والخصال: ٤٢٠.

الثامنة والسبعون بعد حكمه عليه السلام

(٧٨) وَقَالَ عليه السلام: «أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ ٱلإِبِلِ لَكَانَتْ لِذٰلِكَ أَهْلاً: لاٰ يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلاٰ يَخَافَنَّ إِلاَّ ذَنْبَهُ، وَلاٰ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لاٰ يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ لاٰ أَعْلَمُ، وَلاٰ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ ٱلْجَسَدِ، وَلاٰ خَيْرَ فِي جَسَدٍ لاٰ رَأْسَ مَعَهُ، وَلاٰ فِي إِيمَانٍ لاٰ صَبْرَ مَعَهُ»[١].

اللغة

(الإبط) ج: باطن الكتف، يذكّر ويؤنّث.

الإعراب

بخمس، أي بخمس وصايا حذف المميّز ونوّن العدد عوضاً عن المحذوف لو، استعيرت هنا لمعنى إن الشرطية بعناية أنَّ الشرط غير واقع عادة، لا يرجونَّ نهي غائب مؤكّد بالنون التأكيد الثقيلة، ويمكن أن يكون نفياً بمعنى النهي فيكون آكد وأبلغ وكذا في الجمل التالية، والمستثنى في هذه الجمل مفرغ، والمستثنى منصوب على أنه مفعول للفعل الواقع قبل إلاّ، لا يستحينَّ: استفعال من حيي اللفيف المقرون حذف إحدى يائيه تخفيفاً.

المعنى

أكّد عليه السلام التمسك بهذه الوصايا أو بالغ فيها بقوله[٢]: «لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً»[٣]، وقد أدرج في هذه الوصايا أهمّ ما يجب على كلّ أحد في رابطته مع المبدأ، وفي تدبير لنفسه، وأدبه في طريق العلم والمعرفة تعليماً وتعلّماً وفي مواجهته مع ما يحيط به من المكاره والألام، وما يجب عليه من أداء التكاليف ورعاية القوانين والأحكام.

فبدأ بلزوم التوجّه إلى الله في نيل كلّ خير ودرك كلّ المآرب، فيعتقد بأنه لا ينال بما يريد من الرزق والمنصب وكلّما يحتاج إليه إلاّ بفضل من الله وإن كان لحصول كلّ مقصد أسباب ووسائل، فهو مسبّب الأسباب ومجهّز الوسائل في كلّ باب فيلزم على العبد أن لا يرجو أيَّ شيء إلاّ من عنده، والرجاء يرجع إلى كلّ ما يطلبه ويدعوه إليه شهوته.

---

(١) ميزان الحكمة: ٢/١٠٤١ ح١٤٤٧، وشرح نهج البلاغة: ١٨/٢٣٢.

ويتلو القوة الشهوية الطالبة لدرك ما يلائم طبع الإنسان، القوّة الغضبية النافرة عن كلّ ما يخالف طبعه، ويتولّد منه الخوف من إصابة مكروه، أو فوت محبوب، فبقدر ما يدرك الإنسان شهواته يحيط به الخوف فقال عليه السلام: عدوُّ الإنسان نفسه الأمّارة، وكلّما يجرُّ إليه من المكاره يتولّد من ذنوبه ويكون كسب يده **﴿وما أصابتكم من مصيبة فبما قدمت أيديكم﴾** فيجب أن لا يخاف الإنسان إلاّ من ذنبه، فلو ترك الذّنوب، دفع عن نفسه المخاوف والعيوب.

ويصرّ عليه السلام في ترك الحياء من الاعتراف بالجهل على كلّ أحد في الجواب عن سؤال ما لا يعلمه، وهذا التأكيد والتعميم يرجع إلى من نصب نفسه علماً للناس يرجعون إليه ويستفتونه في أُمورهم وهو لا يعلم ويصعب عليه أن يعترف بجهله ويقول لا أدري.

وهم الّذين يصعب عليهم أن يتعلّموا ما لم يعلموا ليكونوا على هدى وبصيرة فيما يتصدُّونه من المنصب والموقف.

فالحياء من قول لا أدري ومن التعلّم فيما لا يدري من الحياء المذموم الّذي تقدَّم الكلام فيه.

ومن التأسّف أنَّ أكثر أهل العلم مغمورون في أمواج هذا البحر المظلم فإذا قاموا في المحراب أو استقرُّوا على المنبر ودعوا واعظاً أو صاروا مرجعاً للسؤال في أحكام الدّين يصعب عليهم أن يجيبوا بلا أدري، وأصعب منه أن يشتغلوا بعد ذلك بالتعليم، فتجد في غالب البلاد عدداً كثيراً منهم لا يجتمعون بعضهم مع بعض فيبحثون في العلوم والمسائل المرجوعة إليهم مع وجود الفرصة الكافية وذلك لأنه اعتراف ضمنيٌّ بالاشتغال بالتعلّم أو الاعتراف بأنّه لا أدري.

ثمَّ وصّى عليه السلام بالصّبر وجعله رأس الإيمان وحياته وبصيرته وقوامه، وجعل الصبر للإيمان كالرَّأس من الجسد، يشعر بأنّه من لا صبر له لا إيمان له، وأنَّ درجات الإيمان يقاس بدرجات الصبر.

الترجمة

فرمود: من پنج سفارش به شما دارم که اگر به دنبال آنها شتر برانید و برای آنها رنج سفرهای طولانی را بر خود هموار سازید، سزاوار آنند.

نباید هیچ کدام شما آمیدی داشته باشد جز به پروردگار خویش و نباید ترسی به خود راه دهد جز از گناه خویش. نباید هیچ کدام در برابر پرسش از آن چه نمی داند شرم کند که بگوید من نمی دانم و نه کسی که چیزی را نمی داند شرم کند از این که آن را بیاموزد. بر شما لازم است صبر و شکیبایی را پیشه خود سازید، زیرا صبر برای ایمان چون سر است برای تن، تنی که سر ندارد هیچ خیری و اثر حیاتی در آن نیست، ایمانی هم که صبر با آن نیست هیچ خیری و اثری ندارد.

علی گوید سفارش پنج دارم — که یک یک را براتان می شمارم
سزاوارند اگر دنبال آنها — شتر رانید اندر کوه و صحرا
مدار امید جز از پروردگارت — مترس از هیچ چیزی جز گناهت
اگر پرسندت و پاسخ ندانی — مکن شرم از جواب ناتوانی
اگر چیزی نمی دانی مکن شرم — که آموزیش از استاد، دلگرم
شما را صبر میباید مکرّر — که ایمان را چه سر باشد ز پیکر
تن بی سر ندارد خیر همراه — چه ایمانی که صبرش نیست همراه

التاسعة والسبعون من حكمه عليه السلام

(٧٩) وَقالَ عليه السلام لِرجُلٍ أفرط في الثَّناءِ عليه، وكان له متَّهماً: أَنَا دُونَ مٰا تَقُولُ، وَفَوْقَ مٰا في نَفْسِكَ[١].

الإعراب

(دون)، ظرف مستقرّ مضاف إلى ما تقول، والجملة خبر لقوله: **(أنا)**، ولفظة **(ما)** يجوز أن تكون مصدرية، ويجوز أن تكون أسمية نكرة أي دون شيء تقول، فتكون مبتدأ **(وتقول)** خبره باعتبار أنه جملة فعلية والرابط محذوف أي تقوله، ولفظة **(ما) في قوله: (ما في نفسك)** اسمية، **(وفي نفسك)**، ظرف مستقرّ خبر لها.

المعنى

كلامه هذا تواضع منه عليه السلام مقرون بكرامة ولوّية، وهي الأخبار عمّا في نفسه من النفاق وإرشاد إلى إنابته إلى الحقّ واتّباعه للصّدق.

الترجمة

به مردى كه در ستايش وى مبالغه كرد و نزد آن حضرت به بدخواهى و نفاق متهم بود فرمود:

من كمتر از آنم كه گويى و برتر از آنم كه دانى.

مردى على ستود و زبانى و بيش گفت	و اندر دلش ز كينه او زهر نيش سفت
فرمود: كمترم من از آنها كه گفته اى	بهتر از آن چه در دل تارت نهفته اى

(١) أمالي المرتضى: ١٩٨، ومناقب آل أبي طالب: ٢/ ١٠٤.

الثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٠) وَقالَ عليه السلام : «بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَىٰ عَدَداً، وَأَكْثَرُ وَلَداً»[1].

المعنى

قال المعتزلي في شرحه: قال شيخنا أبو عثمان: ليته لما ذكر الحكم ذكر علّته وقال ابن ميثم رحمه الله: لا أرى ذلك إلاّ للعناية الإلهيّة ببقاء النوع وحفظه وإقامته ـ إلخ.

أقول: هذا حكم يعلّل نفسه ومن القضايا الّتي برهانها معها ولكن لم يلتفت إليه هذا الشيخ، ولم يوضحه ابن ميثم واكتفى بكونه من عناية الله ونحن نعتقد بأنّ شيء من عنايته، ولكنَّ الكلام في شرح هذه العناية.

وكان نظره عليه السلام في هذه الحكمة إلى أصل انتخاب الأحسن الأصل الرابع من أصول فلسفة النشوء والارتقاء الّذي بحث فيه العلماء المعاصرون في أوروبا منذ قرون وافتخروا بكشفه كأنه أصل علميٌّ لم يهتد إليه الأوائل.

وحاصله أنَّ مواليد المادَّة بأجمعها في تنازع مستمرّ لعلل لا يقتضي المقام ذكرها، وهذا التنازع يؤدِّي إلى فناء الأرذل وبقاء الأحسن، وهذا هو سرُّ التطوّر الدائم في الكائنات، والأحسن الباقي هو بقية السيف الّتي وقعت في كلامه عليه السلام ومعنى كونها أبقى عدداً وأكثر ولداً، أنّه هذا الخارج من معركة التنازع أشدّ وأقوى، ويتولّد منه أكثر ممّا فنى في التنازع، وهنا بحث طويل لا يسع المقام الخوض فيه، والعاقل يكفيه الإشارة.

الترجمة

آن چه از دم شمشير به جا ماند، آبديده تر و پرثمرتر است.

آن كه از پيكار برجا مانده است پايدار است ثمر آورتر است

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١٩٦، وميزان الحكمة: ٢/١٣٣١ ح١٨٤٩.

الحادية والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨١) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ تَرَكَ قَوْلَ ـ لاَ أَدْري ـ أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ»[١].

اللغة

(أصابه): أدركه، **(المقتل)** ج: مقاتل: العضو الّذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم كالصدغ ـ المنجد.

الإعراب

(أصيبت مقاتله)، مبني للمفعول من الإصابة، ومقاتله نائب الفاعل.

المعنى

هذه الجملة دعاء بالهلاك على من لا يبالي من الفتوى بغير علم ومستند صحيح والجواب عن السؤال بغير علم ودليل معتمد.

الترجمة

هر كس نميدانم را فراموش كند، هلاك باد.

هر كه را ننگ از نميدانم　　　بر رگ زندگيش نشتر باد

(١) مينة المريد: ٢١٦ ح٣، وعيون الحكم والمراعظ: ٤٣٦.

الثانية والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٢) وَقالَ عليه السلام: «رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ ٱلْغُلَامِ»(١).

اللغة

(الشيخ): من استبان في السنّ وظهر عليه الشيب **(الغلام)** ج غلمان الطارّ الشارب ـ المنجد.

المعنى

سبب التقدُّم في الأمور أمران: البرنامج الصحيح، والعمل المجدّ وخصوصاً في المعارك والحروب فإنّ الظفر والنصر فيها يحتاج إلى هذين الأمرين، والأوَّل ينتج من الرأي الصحيح المستفاد من التجربة والعقل المتكامل والقوة، والجدّ في العمل ينتج إذا كان على منهاج مؤثر وإلاّ، فربما يكون إعمال القوَّة سبباً للهلاك وتأييداً للخصم، والرّأي المجرَّب غالباً رأي الشيوخ فقال عليه السلام: رأى الشيخ أحبّ إليّ من جلد الشّاب وقوّته.

الترجمة

رأى پيرمرد، محبوب تر است پيش من از چالاكى نوجوان.

و در اين معنى گفته شده:

به رايى، لشكرى را بشكنى پشت   به شمشير، از يكى تا ده توان كشت

---

(١) بحار الأنوار: ٧١/١٧٨ ح١٩، وميزان الحكمة: ٢/١٠٢٦ ح١٤٢٨.

الثالثة والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٣) وَقالَ عليه السلام: عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ، وَمَعَهُ ٱلْإِسْتِغْفارُ[١].

المعنى

قال الله تعالى: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا وهو الغفور الرحيم﴾** [الزمر: ٥٣] والقنوط هو قطع الرّجاء عن الله واليأس عن رحمته، وقد عدَّ من الكبائر الموبقة، لأنّه إذا وصل بؤس الإنسان إلى اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى فقد أنسدّ عليه باب العمل والرّجوع إلى الحقّ وأسلم نفسه للشيطان ووقع في الهلاك والخسران.

الترجمة

در شگفتم از كسى كه نوميد است و استغفار به همراه دارد.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٣١، وبحار الأنوار: ٧٥/٦٧ ح٩.

الرابعة والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٤) وحَكى عنه أبو جعفر محمَّد بن عليٍّ الباقر ـ عليه السلام ـ أنه قال:

«كانَ في الأرْضِ أمانانِ مِنْ عَذابِ اللّهِ وَقَدْ رُفِعَ أحَدُهُما فَدُونَكُمُ الآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ: أمّا الأمانُ الّذي رُفِعَ فَهُوَ رَسُول اللّهِ ـ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَأمّا الأمانُ الباقي فَالإسْتِغْفارُ»(١) قالَ اللّهُ تَعالىٰ: **﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهو يستغفرون﴾** [الأنفال: ؟] ـ.

قال الرَّضيُّ رحمه الله: وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط.

قال الشارح المعتزلي لي بعد نقل تفسير هذه الأية:

ثمَّ قال: **﴿وما لهم أن لا يعذبهم﴾** [الأنفال: ٣٤] أي ولأيِّ سبب لا يعذِّبهم الله مع وجود ما يقتضي العذاب وهو صدّهم المسلمين والرّسول عن البيت في عام الحديبيّة وهذا يدلّ على أنَّ ترتيب القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث، لأنَّ سورة الأنفال نزلت عقيب وقعة بدر في السّنة الثانية من الهجرة، وصدّ الرسول عن البيت كان في السّنة السادسة، فكيف يجعل آية نزلت في السّنة السادسة في سورة نزلت في السّنة الثانية، وفي القرآن كثير من ذلك وإنما رتّبه قوم من الصحابة في أيّام عثمان.

أقول: وفي كلامه موارد للنظر:

١ ـ ترتيب القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث، غير واضح المعنى ولا يلائم مع ما فرّعه عليه، ولعلَّ غرضه أنَّ ترتيب القرآن ليس على ترتيب النزول.

٢ ـ أنَّ صدَّ المسلمين عن البيت ممّا عزم عليه مشركو مكّة في صدر الهجرة، والأية تنددهم على هذه العزيمة، ولذا عبّر عنه بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرار، ويؤيّده الأيات التالية المتعرّضة لكيفيّة صلاتهم عند البيت وإنفاق أموالهم في الصدِّ عن سبيل الله.

٣ ـ قد صحّ أنَّ القرآن جمع ورتّب، سوره وآياته على هذا الترتيب الّذي بين أيدينا في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وختمه على النبيِّ جمع من الصحابة، وجمع القرآن في زمن عثمان إنّما كان من ناحية رسم الخط والإملاء وحصره في هذا الإملاء الّذي بين أيدينا، صيانة له عن دخول

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٢٧٥، والتفسير الصافي: ٢/ ٣٠٠.

التحريف فيه من هذه الناحية، والقول بمداخلة بعض الصحابة في ترتيب آيات القرآن تجرؤٌ على كلام الله الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الترجمة

امام پنجم محمّد بن على الباقر (عليه السلام) از آن حضرت روايت كرده كه مى فرمود:

در روى زمين دو پناه از عذاب خدا وجود داشت، يكى از آن دو برداشته شد، پس نگهداريد ديگرى را و بدان بچسبيد؛ اما آن پناهى كه برداشته شد، خود رسول خدا (صلى الله عليه وآله) بود و امّا آن پناهى كه باقى است استغفار است، خداى تعالى فرموده: "نباشد كه خدا آنان را عذاب كند در حالى كه تو ميان آنان باشى و نباشد كه خدا عذاب كننده آنها شود با اين كه آمرزش خواهند".

الخامسة والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٥) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ أَصْلَحَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللّهِ أَصْلَحَ اللّهُ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللّهُ لَهُ أَمْرَ دُنْياهُ، وَمَنْ كانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ واعِظٌ كانَ عَلَيْهِ مِنَ اللّهِ حافِظٌ»[1].

الإعراب

(ما)، في (ما بينه)، موصولة **(وبينه)** ظرف مستقرّ صلته، والموصول مفعول أصلح من نفسه، جار ومجرور متعلّق بقوله: **(واعظ)** قدّم مراعاة للسّجع، **(وله)** ظرف مستقرّ خبر كان، **(ومن الله)** متعلّق بحافظ.

المعنى

الرابطة بين العبد وربّه هي رابطة العبودية وإصلاح ما بين العبد والرَّب بأداء مايجب عليه من حقِّ الله وحسن الطاعة له، وقد أمن الله فيما أوجب على عبده جميع ما يلزم له من حسن المعاملة مع الناس وجلب مودّتهم له، فإصلاح ما بينه وبين الناس أثر لازم يترتّب على إصلاح ما بينه وبين ربّه، كما أنَّ إصلاح أمر الآخرة بإقامة الفرائض والتجنّب على كلِّ محرّم، أثره أداء وظيفة العبوديّة، فأصلح الله أمر دنيا ذلك العبد بكفالة رزقه وتحسين أحواله، ومن يعظ نفسه فهو شاغل بها مصلح لها دائماً ومراقب عليها، فكان في حفظ الله تعالى.

الترجمة

فرمود: هر كس ميان خود و خدا را درست كند، خدا ميان او و ساير مردم را درست مى نمايد و هركس كار آخرتش را درست كند، خدا كار دنياى او را درست مى كند و هر كس از خود پند گيرد، خداوند نگهدار او است.

هر كه اصلاح كند بين خداوند و خودش	خالق اصلاح كند بين وى و خلق جهان
هر كه اصلاح كند كار سراى ديگرش	كار دنياى وى اصلاح كند بارئ جان
هر كه را خويشتنش واعظ و پندآموز است	حافظ او است به هر حال خداى سبحان

(١) بحار الأنوار: ٣٦٧/٦٨٠ ح١٧، ومستدرك سفينة البحار: ١٥/٥.

السادسة والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٦) وَقالَ عليه السلام: «اَلْفَقيهُ كُلُّ اَلْفَقيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهمْ مِنْ رُوْحِ اَللّهِ، وَلَمْ يؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللّهِ»[1].

الإعراب

(كلُّ الفقيه)، بدل من قوله: الفقيه أو عطف بيان له، و**(من)** في قوله: من لم يقنّط الناس، موصولة وخبر المبتدأ.

المعنى

الفقيه في الاصطلاح هو العالم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلّتها التفصيلية ولكن المقصود منه في الكتاب والسنّة هو البصير بأحكام الإسلام والمتضلّع في علم الدّين وفهمه أُصولاً وفروعاً، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] خصوصاً على التفسير الأخر الّذي جعل المتفقّه المنذر هو النافر المجاهد المسافر باعتبار ما يراه في النفر والسفر من آيات الله ونزول النصر والظفر، فيفهم الإسلام ويعتقد به.

فيقول عليه السلام: إنَّ البصير بالدين ومقاصده التعليمية يفهم أنَّ أساس التربية والإصلاح للجاهل هو سلوكه بين الخوف والرَّجاء، والوعد والوعيد، فلو انقطع رجاه من رحمة الله وآيس من إفاضة نعم الله عليه واعتقد بأنه محروم من باب الله ومطرود من رحمته ولا طريق له إليه فيسدّ عليه باب التوبة والرّجوع ويلحق باتباع الشياطين، ويرتكب كلَّ ذنب يدعوه إليه شهوته أو غضبه، لأن داعي التجنّب عن ارتكاب المعاصي والاشتغال بالطاعات هو رجاء التقرّب إلى الله تعالى والفوز بالجنة والنعيم الأبدي، كما أنّه من رأى نفسه آمناً من مكر الله وعذابه، يزول عنه الخوف ويتجرّأ بارتكاب المعاصي، وإذا تدبّرت في آيات الكتاب العزيز والقرآن الشريف وجدته مملوء من الوعد والوعيد والتبشير والإنذار والتوصيف البليغ من الجنة والنار بهذا الاعتبار.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٥، وبحار الأنوار: ٢/ ٥٦ ح٣٤.

الترجمة

فقيه كامل كسى است كه مردم را از رحمت خدا نوميد نسازد و از فيض درگاهش مأيوس نكند و از عذاب او تأمين ندهد.

دانای دين كسی است كه نوميد می نكرد مردم ز درك رحمت پهناور خدا
مأيوس می نساخت ز فيض نسيم او تأمين می نداد گنهكار از بلا

السابعة والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٧) وَقال عليه السلام: «أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وَقَفَ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ»[1].

المعنى

العلم صورة حاصلة في الذهن ونور يشع على القلب فيكشف به الأشياء فينطق العالم ببيانه، ويؤثر في جوارحه وأركانه، وله درجات ومنازل فأوضح درجاته أن يقف على لسان العالم فيقول به ولا يعمل عليه، فهو حينئذ كالشجر بلا ثمر والهالك بلا أثر، والمخاطب بقوله عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ - ٣] وكفى بذلك لوماً وضعه، وقد ذمّ الله تعالى العالم بلا عمل بما لا مزيد عليه فقال عزّ من قائل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] فإذا عمل العالم بعلمه وظهر علمه في جوارحه وأركانه فقد بلغ إلى أعلى درجاته.

الترجمة

پست ترين دانش آن است كه تنها بر سر زبان است و والاترين دانش آن چه در اندام دانشمند عيان است.

علمى كه سر زبان بود پست بود ... آن علم بود كه، بر سر دست بود

و در همين معنا گفته است:

علمى بطلب كه به دل نور است ... سينه ز تجلّى او طور است

علمى كه مجادله را سبب است ... نورش ز چراغ ابى لهب است

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٥٦ ح٣٥، وميزان الحكمة ٣/ ٢٠٩٧.

الثامنة والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٨) وَقالَ عليه السلام : «إِنَّ هٰذِهِ ٱلْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمٰا تَمَلُّ ٱلْأَبْدٰانَ فَابْتَغُوا لَهٰا طَرٰائِفَ ٱلْحِكَمِ»[١].

اللغة

(ملّ) يملُّ ملالة عن الشيء: سئمه وضجر منه **(الطريف)** ج: طُرُف: الغريب النادر من الثمر ونحوه.. الحديث النادر المستحسن، إلى أن قال: الطريفة ج[٢]: طرائف مؤنث الطريف.

الإعراب

(كما تملُّ الأبدان): لفظة كما، مصدرية والجملة في محلّ المفعول المطلق النوعي لقوله: تملّ.

المعنى

سرّ التقدّم في جميع نواحي الحياة، وكسب المعالي والحسنات، هو نشاط القلب وتوجّهه نحو كلّ مقصد من المقاصد، فإذا نشط القلب ينفخ في كلّ القوى روح الانبعاث، وفي كلّ العضلات والأعضاء روح التحرك والعمل، وإذا كسل وملّ يتوقّف معمل وجود الإنسان عن الحركة ولا يقدر على أيّ عمل.

وقد توجّه أنظار أهل الصنعة وسائر حوائج الحياة إلى هذا السّر ودبّروا لإحياء نشاط العمّال والجيوش تدبيرات متنوّعة، واهتمّوا بالألعاب الرياضية، وحازت الصنائع الظريفة في المجتمع الإنساني محلاً رفيعاً، وذهب الناس باختلاف مذاهبهم وأحوالهم في هذا الميدان كلّ مذهب.

فأشار عليه السلام إلى هذا الموضوع وحدّد التوجّه إلى ما ينشط القلوب بما لا يفسدها من الفنون التافهة: كالموسيقى والمسكرات والألعاب الدنسة، وحصرها في الحكم الطّريفة، والمقصود منها ما كانت مفيدة ومعقولة لا تمسّ بكرامة الإنسان وشرفه العقلاني كالسبق

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١٥٢، وبحار الأنوار: ١/ ١٨٢ ح٧٨.

(٢) هذا اختصار لكلمة: جمع.

والرماية المشروعين، والمزاح المتعادل، والمعاشرة مع الأصدقاء والأحباب، واشتغال بالملذّات المباحة ونحو ذلك.

الترجمة

دلها خسته شوند به مانند تن ها، شما را باید که حکمت های تازه و دلنشین برای آنها بجویید.

دل شود خسته و فرسوده چه تن از کارش   حکمتی تازه بیاور که بکاهد بارش

التاسعة والثمانون من حكمه عليه السلام

(٨٩) وَقالَ عليه السلام: «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ» لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلىٰ فِتْنَةٍ، وَلٰكِنْ مَنِ اسْتَعٰاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّ اللّٰهَ سُبْحٰانَهُ يَقُولُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وَمَعْنىٰ ذٰلِكَ أَنَّهُ سُبْحٰانَهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْأَمْوٰالِ وَالْأَوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطُ لِرِزْقِهِ وَالرَّاضي بِقِسْمِهِ، وَإِنْ كٰانَ سُبْحٰانَهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلٰكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعٰالُ التي بِهٰا يُسْتَحَقُّ الثَّوٰابُ وَالْعِقٰابُ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنٰاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْميرَ الْمٰالِ وَيَكْرَهُ انْثِلاٰمَ الْحٰالِ»[1].

قالَ الرَّضيُّ: وهٰذا من غريب ما سمع منه في التفسير.

اللغة

(ثلم) الإناء: كسّره من حافّته فانثلم ـ المنجد.

(١) بحار الأنوار: ٩١/١٩٧ ح٦، وشرح نهج البلاغة: ١٨/٢٤٨.

الترجمة

فرمود: مبادا یکی از شماها در دعای خود بگوید: "بار خدایا، من به تو پناه می برم از فتنه"، زیرا هیچ کس نباشد جز این که در فتنه فرو رفته است، ولی هرکس طلب پناه از خدا می کند، باید از فتنه های گمراه کننده به خدا پناهنده شود، زیرا خدای سبحانه می فرماید: "و بدانید که همانا اموال و اولاد شماها فتنه اند" و مقصود از این سخن آن است که خدا بهوسیله دارایی ها و فرزندها مردم را می آزماید تا روشن شود چه کسی نسبت بدان چه خدا به او روزی کرده است خشمگین و نگران است و چه کسی به قسمت خدا خشنود و دلگرم است و اگرچه خداوند سبحانه داناتر است به هرکسی از خود او، ولی این آزمایش برای آن است که همه آن کارهایی که به سبب آنها مردم سزاوار ثواب و یا شکنجه و عقاب می شود پدیدار شوند، زیرا برخی مردم هستند که اولاد ذکور را دوست دارند و از دختران بدشان می آید و برخی هستند که دوست دارند دارایی را به ثمر برسانند و پر سود کنند و از گسیختگی حال خود کراهت دارند.

سید رضی (رحمه الله) فرموده است: این بیان حضرت از غرایب تفسیری است که از او شنیده شده.

مگو بار الها پناهم بده	زهر فتنه باشد ز که تا به مه
پناه آور از فتنه های مضلّ	که گمراه سازند و بیچاره دل
خدا مال و اولاد را فتنه خواند	کسی مال و اولاد از خود نراند
بدانها بشر آزمایش شوند	که از یکدیگر گوی سبقت برند
که ساخط ز راضی شود آشکار	به هرچیز دانا است پروردگار
ولی تا که کار ثواب و عقاب	هویدا ز مردم شود بی حجاب
چه برخی پسردوست و ز دخترش	بد آید که پرورده اندر برش
دگر مردمی مال جویند بیش	نخواهند درویشی وضع خویش

التسعون من حكمه عليه السلام

(٩٠) وَسئل عليه السلام عن الخير ما هو؟ فقال: «لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مالُكَ وَوَلَدُكَ، وَلٰكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ وَأَنْ تُباهِيَ النَّاسَ بِعِبادَةِ رَبِّكَ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللّهَ، وَإِنْ أَسأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللّهَ، وَلاٰ خَيْرَ في الدُّنْيا إِلاّ لِرَجُلَيْنِ: رَجُلٌ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدارَكُها بِالتَّوْبَةِ، وَرَجُلٌ يُسارِعُ في الْخَيْراتِ»[1].

(*) وَلاٰ يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوىٰ وَكَيْفَ يَقِل ما يُتَقَبَّلُ؟!

الإعراب

لا خير في الدُّنيا إلاّ لرجلين، **(في الدُّنيا)**، جارّ ومجرور متعلّق بقوله: خير والاستثناء مفرغ، ولرجلين في محلّ خبر لا النافية للجنس المحذوف وهو لأحد **(رجل أذنب)**، خبر لمبتدأ محذوف أي أحدهما رجل، و**(رجل يسارع)** عطف عليه.

المعنى

قد استعمل لفظ الخير في القرآن بمعنى الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

وقد نفى عليه السّلام في حكمته هذه أن يكون كثرة المال والولد خيراً على خلاف ما يعتقده عامّة الناس من أنَّ الخير في كثرة المال والولد ويجهدون في تحصيلهما وتكثيرهما بكلِّ وجه ممكن.

وهذا النفي قد يكون نفياً حقيقيّاً، والمقصود منه تخطئة الناس في هذا الاعتقاد وكثيراً ما يشتهر في العرف وعند العامّة أُموراً لا واقعية لها أصلاً، كالعنقاء وأكثر الأساطير الشائعة بين عامّة النّاس.

وإمّا أن يكون المراد من النفي نفي آثار الخير من كثرة الأموال والأولاد وأنها غير

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤١١، وبحار الأنوار: ١/١٣٨ ح٨٠.

(*) في بعض النسخ هذه حكمة أخرى لا تعلق لها بما قبلها ـ المصحح ـ.

مؤثرة في تحصيل السعادة المعنويّة.

وربما يكون المراد من هذه الجملة نفي الكمال كما في قوله عليه السلام: يا أشباه الرّجال ولا رجال.

الترجمة

پرسش شد از اینکه خیر چیست؟

فرمود: خیر این نیست که دارائی وفرزندت افزون شود، بلکه خیر وخوبی اینست که دانشت افزون شود وحلم وبردباریت بزرگ وثابت گردد، وبتوانی میان مردم بپرستش پروردگارت فخر ومباهات کنی، اگر کار نیك کردی خدارا سپاسگزاری نمائی، واگر کار بدی از تو سر زد از خدا آمرزش بجوئی.

در این دنیا خیری نیست مگر برای یکی از دو کس: مردي که مرتکب گناهانی‌شده است ولی پشیمانست وباتوبه وبرگشت بسوي‌حق آنها راجبران میکند و مردي که بکارهای خیر میشتابد، هیچ کار نیکی کم محسوب نیست در صورتیکه همراه تقوی وپرهیزکاری باشد، وچگونه میتوان کم شمرد آن عملی که پذیرفته وقبول درگاه حق شده است.

الحادية والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩١) وَقالَ عليه السلام: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاؤُوا بِهِ ثُمَّ تَلاَ عليه السلام: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨] ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ الله وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ، وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ**»[١].

اللغة

(**اللحمة**) بالضمّ: القرابة ـ صحاح.

المعنى

يشترك الإنسان مع سائر بني جلدته من الحيوانات من أمه، فله أب وأمّ بالولادة الطبيعية، ولكن يمتاز الإنسان عن أنواع الحيوان بولادة ثانية وهي باعتبار خروج روحه عن القوّة إلى الفعل بالتعليم والتربية، وبهذا الاعتبار يصير الإنسان جسماً ملكوتيّاً روحانيّاً روحه متعلّق بالملأ الأعلى وإن كان جثمانه في هذه الدُّنيا.

وكما أنَّ للإنسان باعتبار جسمه وطبيعته صلة بأُمّه وأبيه ويعبّر عنها بلحمة النسب، فله باعتبار روحه وحقيقته صلة بمعلّمه ومصدر ولادته الثانية وهم الأنبياء والرُّسل والأوصياء والأئمّة عليهم السلام.

وأمارة هذه الصلة الروحية والرابطة المعنويّة حسن الاتباع والإطاعة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّ أولى النّاس بمحمّد صلى الله عليه وآله من أطاع الله، وأشار إلى أنَّ استحقاقه للخلافة ليس باعتبار صلته الماديّة بالنبيّ صلى الله عليه وآله فقط، ولا تكون القرابة هي المناط التامّة لاستحقاق الخلافة كما ادَّعاه قريش والمخالفون، بل القرابة الروحيّة والصلة المعنويّة هي المناط في تصدّي مقام الولاية والخلافة.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٢/٣١٨، وبحار الأنوار: ١/١٨٣ ح٧٩.

الترجمة

فرمود: اولی تر مردم به پیغمبران - که سزاوار جانشینی آنها را دارند - کسانی هستند که به همه آنچه که انبیاء از جانب خدا آوردند داناتراند، سپس این آیه را خواند: "به راستی اولی از همه مردم به ابراهیم، هرآینه کسانی اند که از وی پیروی کردند و این پیغمبر و آن کسانی که به او گرویدند"، سپس فرمود: به راستی ولی و جانشین محمد (صلی الله علیه و آله) کسی است که خدا را اطاعت کند و اگرچه در خویشی از او دور باشد و به راستی دشمن محمد (صلی الله علیه و آله) کسی است که نافرمانی خدا کند و اگرچه خویشاوند نزدیك وی باشد.

هرکه داناتر بود بر کیش پاك انبیا — هست اولی تر بدانها از همه خلق خدا
پیرو امر خدا بی شك محمّد را ولی است — گرچه باشد در نژاد و درنیا از وی جدا
هرکه نافرمان حق شد دشمن آن حضرت است — گرچه باشد با پیمبر خویش و باشد زاقربا

الثانية والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩٢) وَقد سمع عليه السلام رجلاً من الحرورية يتهجّد ويقرأ فقال: نَوْمٌ عَلىٰ يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلٰاةٍ في شَكٍّ[١].

المعنى

قال في شرح ابن ميثم: و(**الحروريّة**) فرقة من الخوارج نسبوا إلى حروراء بمدّ وقصر قرية بالنهروان وكان أوّل اجتماعهم بها، و(**التهجّد**) السّهر في العبادة، انتهى.

أقول: الاختلاف الأُصولي للخوارج مع سائر الفرق ظهر في أمر الإمامة والخلافة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث إنَّ الإماميّة يعتقدون بأنها تثبت بالنصّ من النبيّ صلّى الله عليه وآله وعندهم نصوص متوافرة بل متواترة بأنَّ الإمام المنصوص عليه من النبيّ صلى الله عليه وآله هو عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام.

ولكن أصحاب السقيفة عقدوا الإمامة بالبيعة وادّعوا عليها إجماع الأُمّة وجعلوا ذلك أصلاً في إثباتها، فقالوا: تثبت الإمامة بالبيعة وإجماع أهل الحلّ والعقد من الأُمّة.

ولكن ظهرت فتن وأحداث في الإسلام تأثرت بها الخوارج فلم يثبت عندهم النصّ ولم يعتمدوا بالإجماع، فأنكروا أمر الإمامة وشكّوا في أمرهم، وأنهم يرجعون في أمورهم إلى من؟ فصاروا من الباغين والمخالفين على حكومة المسلمين، وأحدثوا حوادث صارت فصلاً مرعباً من تاريخ الإسلام وفتاً في عضد الإسلام القويّ، وكان الخوارج من عبّاد الأُمّة وقرّائها يقومون اللّيل ويصومون النّهار ولَكن لا معرفة لهم بالإمام، وبهذا النظر يقول عليه السلام: لا يقين لهم فلا تنفع صلاتهم وعباداتهم[٢].

الترجمة

آن حضرت شنيد يكى از خوارج حروريه در شب زنده دارى خود قرآن مى خواند، فرمود: خوابيدن با معرفت و يقين، به است از نماز خواندن در حال شك و ترديد.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٩٧، وبحار الأنوار: ٣٣/ ٣٥٧ ح٥٩١.

(٢) خصائص الأئمة للرضي: ٩٥، وكنز العمال: ٣/ ٨٠٠ ح٨٨٠١.

الثالثة والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩٣) وَقالَ عليه السلام: «اَعْقِلُوا اَلْخَبَرَ إِذا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعايَةٍ لا عَقْلَ رِوايَةٍ، فَإِنَّ رُواةَ اَلْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعاتَهُ قَلِيلٌ»(١).

اللغة

(رعى) يرعى رعياً ورعاية الأمر: نظر إلى ماذا يصير.

الإعراب

(عقل رعاية)، مفعول مطلق نوعي لاعقلوا.

المعنى

الخبر، حكاية عن واقعة أو رواية لكلام عن الغير، ومنه الأخبار المرويّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله والصحابة والمعصومين كما هو مصطلح علماء الفقه والحديث وكلّ خبر يحتمل الصدق والكذب، وقد كثر في الأخبار الجعل والافتراء حتّى في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وحتّى بالنسبة إليه صلى الله عليه وآله حتّى قال: «كثر عليّ الكذابة، فلا بدَّ من نقد الخبر وعرضه قبل كلّ شيء على مقياس عقليّ يعرف صدقه وكذبه ومغزاه والرّعاية جاءت بمعنى مراقبة النجوم أيضاً»(٢).

وبهذا المعنى يتضمّن قوله عليه السلام مزيد التدبّر في صدق الحديث والخبر كمن يترصّد النجوم طول السنة ليتعرّف حالاتها، فرواية الخبر سهل جدّاً، ولكن فهمه ودرايته صعب يحتاج إلى التأمّل والتدبّر سواء كان من حيث سنده وصحة صدوره، أو من حيث متنه ومفهومه، وقد روي في الكافي حديثاً بهذا المعنى نذكره هنا في باب ما أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بالنصيحة لأئمّة المسلمين:

عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن أبان بن عثمان، عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله خطب النّاس في مسجد الخيف فقال صلى الله عليه وآله: **«نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها من لم**

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٩٢، ومشكاة الأنوار: ٤٣٧.

(٢) الصراط المستقيم: ٣/١٥٦، وعوالي اللئالي: ١٨٧.

يسمعها فربَّ حامل فقه غير فقيه، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[1] ـ إلخ.

الترجمة

خبری كه شنيديد با عقل خود بسنجيد و به روايت آن ننگريد، زيرا راويان دانش بسيارند و ناظران در آن اندك.

چون شنيدی خبری از راوی ضوء انديشه در آن مى تابى
راوی علم و خبر بسيار است مرد انديشه در آن كمياب است

(١) بحار الأنوار: ٢/ ١٦٤، ومستدرك سفينة البحار: ٣/ ٨٣.

الرابعة والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩٤) وسَمع رجلاً يقول: «**إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**» فَقَال عَلَيْهِ السَّلامُ: «إِنَّ قَوْلَنَا - إِنَّا لِلَّهِ - إِقْرَارٌ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ، وَقَوْلَنَا - وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - إِقْرَارٌ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ[١]».

اللغة

(هَلك) هلكاً: مات - المنجد.

الإعراب

(رجلاً)، مفعول لقوله سمع على التوسع لأنَّ سمع يرتبط بالمفعول بواسطة من، **(ويقول)** جملة فعليّة حال من رجلاً، ويمكن جعله صفة له.

المعنى

قال في شرح المعتزلي: قوله: إنّا لله، اعتراف بأنّا مملوكون لله وعبيد له لأنَّ هذه اللّام لام التّمليك - إلخ[٢].

أقول: وفي كلامه موارد للنظر:

١ - الظاهر أنَّ ضمير قوله يرجع إلى علي عليه السلام فلا يستقيم ما ذكره بعده لأنَّ الجملة ليست قوله عليه السلام، وإن كان المقصود من قوله هو خصوص - إنا لله - فلا يستقيم أيضاً لأنّه محكيّ عن قول جميع القائلين.

٢ - إنَّ من معاني اللام الملك، وبينه وبين التمليك فرق جليّ.

٣ - المقصود من الرُّجوع إلى الله ليس خصوص النشور والقيامة، بل أعمّ منه وأتمّ، وهو الاستفاضة من حضرته في جميع مراحل الوجود وفي كلِّ حول وقوّة كما يشعر به قوله عليه السلام: إقرار على أنفسنا بالهلك، ويستفاد من قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٨٠، وميزان الحكمة: ٢/ ١٦٧٣.

(٢) شرح النهج: ١٨/ ٢٥٥.

الترجمة

از مردى شنيد كه مى گويد: "إنّا لله و إنّا إليه راجعون"، فرمود:
معنى "إنّالله" كه مى گوييم، اعتراف به آن است كه مملوك او هستيم و گفته ما "إنّا إليه راجعون"، اعتراف به آن است كه خود چيزى نيستيم.

الخامسة والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩٥) وَمدحه قومٌ في وَجهه فَقالَ عليه السلام: «أَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بي مِنْ نَفْسي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسي مِنْهُمْ، أَللَّهُمَّ ٱجْعَلْنا خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ، وَٱغْفِرْ لَنا ما لا يَعْلَمُونَ»(١).

المعنى

كلامه عليه السلام هذا إظهار كراهة عن مدحهم في وجهه وإعلام خضوع من شخصه لكسر سورة العجب الّذي يعرض غالباً لمن وقف هذا المقام لدى جمهور الأنام وتعليم للعموم تجاه هذا المدح المسموم وإن كان عليه السلام معصوماً من الذنوب ومبرّي من العيوب، على أنَّ العارف في مقام يعدّ كلَّ توجّه إلى غير الحق كذنب يستغفر منه ويتوب عنه.

الترجمة

مردمى روى در روى او را ستودند، فرمود:

بار خدايا تو به من از خودم داناترى و من به خود از اينان داناترم، بار خدايا مرا بهتر از آن كن كه پندارند و بيامرز براى ماها آن چه در نهان است و نمى دانند.

رو به رو مدح على را گفتند	در ستايش دُر معنى سُفتند
گفت يارب تو به من داناتر	از خودم هستى و من خود بهتر
از همه عالم نفس خويشم	بهر خود حازم و دور انديشم
در گذر ز آن چه نمى دانندش	در نهان است و نپندارندش

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ٢٩٥، ومستدرك سفينة البحار: ٩/ ٣٤٤.

السادسة والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩٦) وَقالَ عليه السلام: «لاٰ يَسْتَقِيمُ قَضٰاءَ الْحَوٰائِجِ إلاّ بِثَلاٰثٍ: بِاسْتِصْغٰارِهٰا لِتَعْظُمَ، وَبِاسْتِكْتٰامِهٰا لِتَظْهَرَ، وَبِتَعْجِيلِهٰا لِتَهْنُؤَ»[1].

الإعراب

(ثلاث): عدد مبهم يحتاج إلى التميز، ومميزه هنا محذوف عوض عنه التنوين وهو خصال أي بثلاث خصال، **(اللاّم)** في لتعظم ينبه للتعليل.

المعنى

قضاء الحاجة من أهمّ الفضائل البشرية والوظائف الإسلامية، وقد ورد أخبار كثيرة في الحثّ عليه يكاد يستشمّ منها رائحة الوجوب إذا كان طالب الحاجة مسلماً مؤمناً، وذكر له مثوبات كثيرة، وقد أشار عليه السلام في هذا الكلام إلى شروط كماله وترتب آثاره عليه في الدُّنيا والأخرة، فلكلّ عمل شروط من حيث الصحة أو القبول، وقوله عليه السلام: **(لا يستقيم)**، يفيد نفي الكمال إذا لم يستكمل هذه الخصال، وبيّن لهذه الخصال آثاراً يطلبها قاضي الحاجة طبعاً.

الأولى ـ يريد أن يكون عمله عظيماً عند الله أو عند الناس، فيقول: طريق الوصول إليه استصغار قضاء الحاجة من طرف القاضي فإنه يؤثّر في عظمته عند الله وعند الناس.

الثانية ـ يريد أن يظهر وينتشر عنه هذا الخير فيصير مشهوراً بالفضيلة فيقول: طريق الوصول إليه أن يستكتمه القاضي فيؤثّر في ظهوره ونشره بفضل من الله، أو حرص النّاس على فهم ما يكتم.

الثالثة ـ يريد أن تكون هنيئة على الطالب لتجلب محبّته ومحمدته، فيقول: طريق الوصول إليه أن يعجّلها.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٤٣، وبحار الأنوار: ٣١٨.

الترجمة

فرمود: برآوردن حوائج مردم درست نمی آید مگر با مراعات سه خصلت:

١ - آن را کم به حساب آوری و در نظر خود بزرگ نشماری تا آن که بزرگ و برازنده گردد.

٢ - قاضی حاجت آن را پنهان دارد و به رخ دیگران نکشد، تا خود آشکار و هویدا گردد.

٣ - هرچه زودتر آن را انجام دهد و طالب حاجت را منتظر نگذارد تا به او گوارا و دلنشین باشد.

انجام حوایج نبود کامل و راست جز با سه فضیلت که به باید آراست
کم گیری تا آن که بزرگش دانند داریش نهان که عیان شود بی کم و کاست
تعجیل کنی تا که گوارا باشد بر طالب حاجتی که آن حاجت خواست

السابعة والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩٧) وَقال عليه السلام: «يَأْتي عَلَى النَّاسِ زَمٰانٌ لاٰ يُقَرَّبُ فيهِ إلاَّ الْمٰاحِلُ وَلاٰ يُظَرَّفُ فيهِ إلاَّ الْفٰاجِرُ، وَلاٰ يُضَعَّفُ فيهِ إلاَّ الْمُنْصِفُ، يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فيهِ غُرْماً، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنّاً، وَالْعِبٰادَةَ اسْتِطالَةً عَلَى النَّاسِ! فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَكُونُ السُّلْطٰانُ بِمَشْوَرَةِ الْإِمٰاءِ[1] وَإمٰارَةِ الصِّبْيٰانِ وَتَدْبِيرِ الْخِصْيٰانِ»[2].

اللغة

(**محل**) محلا به إلى الأمير: سعى به إلى الأمير وكاده فهو ماحل، (**ظرف**) كان ذكيّاً وبارعاً. (**الغرم**) ما يلزم أداؤه من المال، ما يعطي من المال على كره (**استطال**) استطالة عليه: تفضّل وأنعم.

الإعراب

(**الماحل**)، مستثنى مفرغ نائب مناب الفاعل لقوله لا يقرّب، وكذلك (**الفاجر والمنصف**)، (**غرماً**)، مفعول ثان لقوله يعدّون، وضمير الفاعل يرجع إلى النّاس.

المعنى

هذه الحكمة تعدُّ من الأخبار عن المستقبل وهو نوع من الكرامة وقد بدأ هذا الزّمان في تاريخ الإسلام من عصر تسلّط بني أُميّة على الحكومة الإسلاميّة فإنهم بدأوا بتقريب السعاة والماحلين والهزل والأنذال إلى بلاطهم تأييداً لسلطانهم ودخلت النساء في أمر السّلطنة لجاهها ونفوذها، كأُمّ خالد بن يزيد تزوّجت مروان بعده وكانت لها سلطة في أمر الخلافة، وروي أنّه لما عزل مروان خالداً ابنه عن ولاية العهد وعقدها لبنيه غاظت عليه وأمر الجواري ليلة بخنقه في فراشه.

أو جمالها ودلالها على الخليفة ورجاله واشتدّت هذه المداخلة في دولة بني العبّاس كما يظهر من مطالعة تاريخ خيزران أُمّ الهادي وزبيدة زوجة هارون الرشيد وأُمّ الأمين.

---

(١) «النساء» في نسخة.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٥٥٤، وبحار الأنوار: ٦/٣١٥ ح٣٠.

ويعدّ في هذه العصور الفجرة من الرّجال الأكياس ويحوّل إليهم المناصب الجليلة كما صنعه معاوية بزياد بن أبيه، وابنه بابنه عبيد الله.

وإذا كان المدبّر والسائس من أهل الفجور فتضعيف أهل العدل والإنصاف من لوازمه، وإذا كان ساسة النّاس أهل الفجور والسعادة واضطهد أهل العدل والحقّ يزول الإيمان عن قلوب النّاس، فالزكاة الّتي يأخذها الحاكم يعدّ غرامة وتؤدّى على كراهة وغيظ فيفسد الأخلاق، ويخل الأمن والأمانة فيتوسل أهل الجاه لحفظ حرمهم باتخاذ المماليك الخصيان ويعتمدون إلى تدبيرهم لأمورها.

الترجمة

بر سر مردم دورانى آيد كه در آن دوره جز سخن چين را تقرُّبى به دست نيايد و جز مردم فاجر و هرزه را زيرك و با سياست نشمارند و جز مردم عدالتخواه و منصف زبون شمرده نشوند. مردم در اين دوره زكاتى را كه بپردازند وام به حساب آرند و به دلخواه پرداخت نكنند و در احسان به خويشاوندان خود بر آنها منّت نهند و در عبادت و پرستش خداوند بر مردم سرفرازى فروشند. در چنين دوره اى است كه سلطنت به مشورت با زنان باشد و فرمانروايى به كودكان رسد و تدبير امور به دست خايه كشيده ها صورت گيرد.

على گفت آيد زمانى دژم — كه باشد مسلمان گرفتار غم
تقرُّب نجويد به سوى شهان — به جز از سخن چين كژدم زبان
ندانند زيرك به جز فاجران — زبون مى ندانند جز منصفان
زكاتى كه مردم به حاكم دهند — شمارند زور و غرامت كشند
به احسان با خويش منت نهند — براى تسلّط عبادت كنند
در اين روزگاران بود سلطنت — به شور زنان پر از مفسدت
امارت به صبيان شود واگذار — به مردان بى خايه تدبير كار

الثامنة والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩٨) وَقالَ عليه السلام : «وَقَدْ رُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلَقٌ مَرْقُوعٌ، فَقِيلَ لَهُ في ذٰلِكَ، فَقَالَ: يَخْشَعُ لَهُ ٱلْقَلْبُ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ، وَيَقْتَدي بِهِ ٱلْمُؤْمِنُونَ»[١].

اللغة

(خلق) ج: أخلاق وخلقان: البالي للمذكر والمؤنث **(رقع)** رقعاً الثوب أصلحه بالرقاع ـ المنجد.

الإعراب

(فقيل له في ذلك)، الفاء للسببية.

المعنى

الظاهر أنَّ لبسه عليه السلام للإزار المرقوع، كان في أيام حكومته وزعامته الظاهريّة، وفي هذا العصر توسّع على المسلمين العيش، وحازوا أموالاً وغنائم كثيرة من الرُّوم والفرس، واعتادوا لبس الثياب الفاخرة والتجمّل بالزينة الظاهرة وخصوصاً الأُمراء منهم وأصحاب السّلطنة، ولما رئي عليه هذا الإزار الخلق المرقوع وقع في محلِّ العجب وعدّ إهانة بمقام المتصدّي له فأجاب عليه السلام : بأنّه رياضة للنفس، وتسلية للمؤمنين، وينبغي أن أكون أُسوة لأهل الإيمان في لبس الخلقان، لينكسر تسويل الشيطان.

(١) مكارم الأخلاق: ١١٤، وبحار الأنوار: ٤١/٥٩.

الترجمة

بر تن آن حضرت روپوش كهنه و وصله دارى ديده شد و دراين باره با وى سخنى گفته شد، حضرتش در پاسخ فرمود:

پوشيدن اين لباس كهنه، دل را خاشع مى سازد و نفس اماره را خوار مى كند و مؤمنان از آن سرمشق مى گيرند.

ديده شد اندر بر مولاى دين	پيشواى بر حق اهل يقين
يك رداى كهنه پرپينه اى	پر ز وصله جامه ديرينه اى
گفته شد با وى دراين باره سخن	گفت مولا زيور است اندر بدن
دل كند خاشع كند نفسم ذليل	تا نغرّد بر من اين رزمنده پيل
مؤمنان را شايد از آن پيروى	گر كه در راه اند همراه على

التاسعة والتسعون من حكمه عليه السلام

(٩٩) وَقالَ عليه السلام : إِنَّ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ عَدُوّانِ مُتَفاوِتانِ، وَسَبِيلانِ مُخْتَلِفانِ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيا وَتَوَلّاها أَبْغَضَ ٱلْآخِرَةَ وَعاداها، وَهُما بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ، وَماشٍ بَيْنَهُما كُلَّما قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ ٱلآخَرِ وَهُما بَعْدُ ضَرَّتانِ![١].

اللغة

(ضرّة) المرأة: امرأة زوجها، وهما ضرّتان ج: ضرائر.

الإعراب

(وماش بينهما)، مبتدأ وخبر رفع المبتدأ مقدّر لأنّه منقوص، والخبر ظرف مستقر، والجملة حاليّة، **(وهما)** مبتدأ **(وضرّتان)** خبره، و**(بعد)** ظرف مبني على الضم لحذف المضاف إليه المنويّ أي بعد كلّ ذلك.

المعنى

(الدّنيا) مؤنث الأدنى أي الدار الّتي هي أقرب إليك من الآخرة، وهي ما حولك من كلّ ما تعيش فيه ويعيش معك، وتحواك وتهواه، من نفسك وشهواتك ومالك وولدك وجارك ومعاشريك، فهي بالنسبة إليك مختلطة ومتجدّدة في كلّ حين، ومنصرفة على الدّوام ومنصرمة وفانية غدّارة فرّارة فتانة، والآخرة دارك بعد موتك إلى الأبد، فيقول عليه السلام : إنَّ دنياك وآخرتك لا تجتمعان معك كرفيقين مؤالفين معاضدين، بل هما عدوّان متفاوتان، فمن أحبَّ الدُّنيا أبغض الآخرة، ومن قرب إلى أحدهما بعد عن الآخر، وهما ضرَّتان لا يمكن إرضاؤهما معاً، فلا بدَّ أن تختار إحداهما وتخلّي عن الآخرة.

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ٣/٤٦٤، وميزان الحكمة: ٢/٩١١ ح١٢٤٩.

الترجمة

فرمود: به راستی دنیا و آخرت دو دشمن ناجور و دو راه مخالف یکدیگراند، هرکس دنیا را دوست دارد و دنبالش برود آخرت را دشمن داشته و با آن سر عداوت برداشته و این دو به مانند خاور و باختراند که یکی میان آنها در راه است و هر چه به یکی از آن ها نزدیك شود از دیگری دور شده و آن دو به مانند دو هبو هستند.

دنیا و آخرت چه دو دشمن برابرند — اندر خلاف هم به ره خویش اندرند
دنیا طلب که در پی آن است روز و شب — با آخرت چه دشمن خونی است در غضب
این دو چه مشرق اند و چه مغرب که راهور — نزدیك این چه شد از آن افتاده دورتر
با این همه بدان دو هبویند کینه خواه — دنبال آخرت رو و دنیای دون مخواه

المائة من حكمه عليه السلام

(١٠٠) وَعن نوف ٱلْبِكالِي، قالَ: رأيت أمير المؤمنين - عليه السلام - ذات ليلةٍ وقد خرج من فراشه فنظر في النجوم فقال لي:

«يا نَوْفُ أراقِدٌ أَنتَ أَمْ رامِقٌ؟ فَقُلْتُ: بَلْ رامِقٌ يا أَميرَ ٱلْمُؤْمِنينَ قالَ: يا نَوْفُ طُوبىٰ لِلزّاهِدينَ في الدُّنْيا الرّاغِبينَ في الآخِرَةِ، أُولٰئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا ٱلْأَرْضَ بِساطاً، وَتُرابَها فِراشاً، وَماءَها طيباً، وَٱلْقُرْآنَ شِعاراً، وَالدُّعاءَ دِثاراً، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيا قَرْضاً عَلىٰ مِنْهاجِ ٱلْمَسيحِ.

يا نَوْفُ إِنَّ داود - عليه السلام - قامَ في مِثْلِ هٰذِهِ السّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ فقال: إِنَّها ساعَةٌ لا يَدْعُو فيها عَبْدٌ إِلاّ ٱسْتُجيبَ لَهُ، إِلاّ أَنْ يَكُونَ عَشّاراً أَو عَريفاً، أَوْ شُرْطِيّاً، أَوْ صاحِبَ عَرْطَبَةٍ - وَهِيَ الطَّنْبُورُ - أَو صَاحِبَ كُوبَةٍ - وَهِيَ الطَّبْلُ. وَقَدْ قيلَ أَيْضاً إِنَّ ٱلْعَرْطَبَةَ ٱلطَّبْلُ، وَٱلْكُوبَةَ الطَّنْبُورُ[1] -».

اللغة

(**رقد**) رقداً: نام فهو راقد، (**رمقه**) رمقاً: أطال النظر إليه - المنجد (**شعار**): واجعل العافية شعاري أي مخالطة لجميع أعضائي غير مفارقة لها، من قولهم جعل الشيء شعاره ودثاره إذا خالطه ومارسه وزواله كثيراً، والمراد المداومة عليه ظاهراً وباطناً، ومنه حديث عليّ لأهل الكوفة: أنتم الشعار دون الدثار، والشعار بالكسر ما تحت الدثار من اللباس، وهو ما يلي شعر الجسد وقد يفتح - مجمع البحرين (**العريف**): القيّم بأمر القوم، النقيب وهو دون الرئيس - المنجد.

الإعراب

(**ذات ليلة**)، مفعول فيه، (**وقد خرج من فراشه**): جملة حالية، (**طوبى**) مبتدأ وهو علم جنس للسّعادة.

المعنى

(**نوف البكالي**) بفتح الباء نسبة إلى القبيلة، قال ثعلب: هو منسوب إلى قبيلة تدعى

(١) بحار الأنوار: ٦٦/٢٧٦، وتدوين القرآن: ٤٧٤.

بكالة قبيلة في همدان، وفي الرّجال الكبير، قال عبد الحميد بن أبي الحديد: إنّه إنما هو بكال بكسر الباء قبيلة من حمير فمنهم هذا الشخص وهو نوف بن فضالة صاحب عليّ عليه السلام، وقال ابن ميثم في شرحه: البكالي بكسر الباء منسوب إلى بكالة قرية من اليمن.

أقول: يستفاد من هذا الحديث أنّه كان من خواصّ علي عليه السلام والدّاخلين في خلواته، والحافظين لأسراره، والمخلصين في بابه، وقد ألقى إليه درساً نهائياً في الزهد والمعرفة والإيمان يليق بالفاني في الله والعارف الحقيقي بالله والمرتقى إلى درجة الأنبياء وأولياء الله كما يشعر بذلك تعريفه منهاج المسيح في طيّ كلامه، والإخبار بأنَّ داود النبي قام في مثل هذه الساعة من اللّيل فأعلمه بالوقت المخصوص الّذي يقوم أولياء الله وأنبياؤه متوجّهاً إلى باب الله، وناظراً إلى الحضرة القدسيّة.

قال ابن ميثم: وكان قيامه في النصف الأخير من اللّيل، وإنّما كان مظنة الإجابة لخلوّ النفس فيه عن الاشتغال بشواغل النهار المحسوسة ـ انتهى ـ وهو أعلم بما قال.

فقد ألقى عليه السلام في كلامه هذا درساً رهيباً، وفتح مكتباً لأُناس قلائل أمثال نوف ومن حذا حذوه مكتباً يشتغل في ظلام الليل في بحبوحة أمواج السكوت والصموت، ينظر الطّالب فيها إلى كتاب الكون، رامقاً بصره إلى نجوم السماء يرمقها في هذه الصفحة الخضراءِ، ويتفكّر في خلقها وخالقها، فيجذب إلى حظيرة القدس الإلهي، فيقرض الدُّنيا قرضاً على منهاج المسيح، فيصير الأرض بساطه وترابها فراشه، ومائها طيبة، ويجعل القرآن شعاراً، والدُّعاء دثاراً.

الترجمة

نوف بكالى گويد: به چشم خود على را در نيمه شبى ديدم كه از ميان بسترش بيرون شد و به ستاره نگريست و فرمود:

اى نوف خوابى يا بيدار؟ گفتم: بلكه نگران اخترانم يا اميرالمؤمنين؛ فرمود: اى نوف، خوشا به حال زاهدان در دنيا و مشتاقان به ديگر سرا، آنان مردمى باشند كه زمين را آسايشگاه خود دانسته و خاكش را بستر نموده و آبش را به جاى عطر به حساب آورده اند، قرآن را شعار دلنشين خود ساخته و نياز به درگاه خدا را شيوه هميشگى خود دانسته اند، سپس يكباره دل از دنيا كنده و رشته دوستى آن را بريده اند، به روش مسيح.

ای نوف، به راستی که داود مانند این ساعت از شب قیام کرد، پس فرمود:

راستی که این همان ساعت است که هیچ بنده ای در آن نیاز به درگاه بی نیاز نبرد جز آن که اجابت شود، مگر این که گمرکچی یا کدخدا یا دژخیم شهربانی یا طنبورزن، و یا طبّال باشد.

گفت حدیثی درست، نوف بکالی یار شباهنگ پایگاه معالی
نیمه شبی دیده ام بدید علی را بر شده از بسترش چه دز لئالی
داشت نظر سوی اختران شب افروز بود در اندیشه مقدّم و تالی
گفت به من خفته ای و یا که تو بیدار گفتمش ای میرمؤمنان نخفته فمالی؟
گفت که ای نوف خوش به حال کسانی دل ز جهان کرده اند یك سره خالی
زاهد دنیا شدند و طالب عقبی پشت به سافل نموده روی به عالی
کرده بساط گزین زمین خدا را بستری از خاك نرم کرده نهالی
طیب ز آب و شعار خویش ز قرآن ساخته و وز دعا حفاظ لیالی
دست ز دنیا بریده همچو مسیحا به هر عبادت به دست کرده مجالی
نوف در این وقت بد که حضرت داود کرد به درگاه حق قیام به حالی
گفت که این ساعت است خاص اجابت هرکه دعا کرد برد بهره عالی
گرکه نه عشار و کدخدا و نه شرطی است صاحب طنبور و طبل نیست به حالی

الحادية والمائة من حكمه عليه السلام

(١٠١) وَقالَ عليه السلام: «إِنَّ ٱللّٰهَ ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرائِضَ فَلا تُضَيِّعُوها وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلا تَعْتَدُوها، وَنَهاكُمْ عَنْ أَشْياءَ فَلا تَنْتَهِكُوها وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْياءَ وَلَمْ يَدَعْها نِسْياناً فَلا تَتَكَلَّفُوها»(١).

المعنى

قد قسّم عليه السلام ما يتوجّه إليه الأفكار من الأُمور الدينيّة إلى أربعة أقسام:

١ ـ **(الفرائض)** وهو جمع فريضة وفسّرت بالواجبات كالصلاة والصيام والزكاة والمقصود منه السهام الفروضة لكلٍّ واحد من الورثة، ويفسّر بالمقدَّرات الشرعية المقرّرة للورّاث، وهي مأخوذة من قوله تعالى في [النساء: ١١] بعد ذكر سهام جمع من الورّاث: ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ والظاهر أنَّ المقصود منها في كلامه عليه السلام هو المعنى الأوّل.

٢ ـ **(الحدود)** فسّره ابن ميثم بنهايات ما أباحه من نعمه ورخّص فيه، ولكن لفظة الحدود قد استعملت في غير واحد من الأيات في الأحكام المقرّرة في النكاح والطلاق ففي «سورة البقرة الآية ٢٢٩ ـ ٢٣٠» بعد ذكر حكم الطلاق: **﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾** وقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

وقد اصطلح عند الفقهاء استعماله في مقرَّرات الجنايات والقتل وأمثالهما فقالوا: كتاب الحدود، فما ذكره ابن ميثم يخالف المقصود من تلك اللفظة في القرآن والفقه.

والظاهر أنَّ المراد منها كلُّ الأحكام الشرعية المقرَّرة غير الواجبات والمحرَّمات من أحكام القضاء والطلاق والنكاح والإرث وغيرها، وهي أكثر الفقه جداً، وبهذا الاعتبار يمكن أن يدخل فيها المباحات ولكن لا يلائمه قوله: فلا تعتدوها، مضافاً إلى أنَّ ظاهر الحدود ينافي الإباحة، فإنّ المباح غير محدود.

٣ ـ ما نهاكم عنه من المحرّمات، وهي كثيرة جداً مبيّنة في الكتاب والسنّة.

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٢٦٠ ح١٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٤٠٢ ح٣١٩٠.

٤ ـ المسكوت عنها، فترك الله التعرّض لها رأساً فلم يبيّن لها حكماً أو لم ينزل فيها من الله بياناً وهذه الجملة تحتمل وجهين:

١ ـ أن يكون المقصود منها ما ترك الله بيان حكمه التكليفي فصار ممّا لا نصّ فيه، فيمكن أن يفسّر بالمباح بناء على أنَّ المباح كلا أو بعضاً ما حكم له عند الله أي لم يقرّر له من الله فريضة ولا حدّاً ولا نهياً، فالإباحة عدم الحكم.

وقد مال إلى هذا المعنى الشارح المعتزلي فقال في ضمن شرحه:

وقال بعض الصالحين لبعض الفقهاء لم تفرض مسائل لم تقل وأتعبت فيها فكرك. انتهى[1]، فكان كلامه هذا من أدلة القائلين بالإباحة فيما لا نصّ فيه بناء على أنَّ المراد من سكوت الله عدم البلاغ إلى العباد.

٢ ـ أن يكون المراد منه ما يرجع إلى الأُمور الإعتقاديّة كتفاصيل العلويات والجنة والنار وبدء الخلق والقضاء والقدر ونحوها ممّا توجّه إليه أفكار المسلمين في الصدر الأوّل لا سيما الشباب، والناشئة الإسلامية الجدد، وقد سئل عن النبيّ ﷺ أشياء ورد النهي عن السؤال منها، فقال عزّ من قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ في [المائدة: ١٠١].

الترجمة

فرمود: به راستى خدا واجباتى بر شما فرض كرده، آنها را ضايع نگذاريد و مقرّرات و حدودى وضع كرده، از آنها فراتر نرويد و از چيزهايى بازتان داشته و بر شما غدقن كرده، مرتكب آنها نشويد و از چيزهايى هم سكوت كرده و بيانى درباره آنها صادر نكرده و اين از روى فراموشى نبوده است، شما درباره آنها خود را به رنج نيندازيد.

مكن واجبات خداوند ضايع سر حدّ او باش مى باش تابع

مزن دست بر آن چه تحريم كرده مدران حريم خداوند صانع

خموشى گزيد است از بس مقاصد مرنجان تو خود را و مى باش قانع

(١) شرح النهج: ١٨/ ٢٦٧.

الثانية والمائة من حكمه عليه السلام

(١٠٢) وَقال عليه السلام: «لا يَتْرُكُ النّاسُ شَيْئاً مِن أَمْرِ دينِهِمْ لاِسْتِصْلاحِ دُنْياهُمْ إلاّ فَتَحَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ما هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ».

المعنى

هذه الحكمة تنظر إلى الجامعة والملّة، وإلى كلّ فرد منهم.

أمّا بالنظر الأوّل فباعتبار أنَّ الأُمّة الإسلامية من القرن الإسلامي إلى زماننا هذا غيّروا غير واحد من السنن والأحكام الدينيّة بحجّة أنّه لا يوافق مع الزمان ولا يناسب المقتضيات العصريّة، وبدء ذلك من عصر الصحابة الأوّلين وصار منشأً للبدعة في الدّين.

فمنه ما روي في غير واحد من الأخبار عن الفريقين بأنَّ عمر قال: متعتان كانتا محلّلتان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أحرّمهما وأعاقب عليهما[1].

ومنه ما حكي عن عثمان أنّه أخّر خطبة صلاة الجمعة من قبل ركعتيها إلى ما بعدهما.

ومنه تحويل عمر نوافل ليالي شهر رمضان الفرادى إلى الجماعة وتشريع صلاة التراويح.

وأمّا بالنظر الثاني فكثير من النّاس يتركون أمر دينهم لاستصلاح أمر دنياهم فلا يؤدّي الزكاة بحجّة الحاجة إليها لنفقته أو نفقة أهله فقال عليه السلام: إنَّ ترك أمر الدّين لاستصلاح أمر الدُّنيا توهّم باطل، ولا يرجع إلى طائل، لأنّه مفتاح ما هو أضرّ وأخسر.

الترجمة

فرمود: مردم هيچ چيز از امور دين خود را براى اصلاح كار دنيا وانتهند جز اين كه خداوند آن ها را به وضع زيان بارترى دچار مى سازد.

مكن وصله دنياى خود را به دينت كه گردد زيان كلان تر قرينت

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ١٠٧ ح٥، وميزان الحكمة: ٢/ ٩٠٦ ح١٢٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ٣٠/ ٦٣٧، ونهج السعادة: ١/ ٣٨٤.

الثالثة والمائة من حكمه عليه السلام

(١٠٣) وَقالَ عليه السلام: «رُبَّ عالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لا يَنْفَعُهُ»[١].

اللغة

(جهل) جهلاً وجهالة: حمق وجفا وغلظ ـ المنجد.

المعنى

العلم صورة حاصلة في الذهن، تصوّر أو تصديق، ويحصل منه قضايا حاكية عمّا وراءها تنطبق عليها تارة فهي صادقة، وتتخلّف عنها أُخرى فليست بصادقة والعلم بالمعارف الإلهية والأحكام الشرعيّة أو القوانين العرفيّة يدعو العالم بها إلى وظائف.

فقد يؤثّر في وجدان العالم فيحصل له وجدان يحمله على إجابة علمه وقد لا يتأثر من علمه فيصير صورة مجرّدة عن وجدان اعتقادي فيعمل العالم بدعوة غرائزه وشهواته على خلاف علمه فيكون عالماً بعقله، جاهلاً بوجدانه وعمله.

والجهل بهذا المعنى نوع من الحمق والجفاء والخشونة كما فسّر به الجهل في اللغة، فيجتمع مع العلم وإن كان الجهل بمعنى عدم العلم بالشيء لا يجتمع معه وهو تفسير آخر له، وبهذا الاعتبار عقد كتاب «المنجد» للفظ جهل فصلين وفسّره في كل منهما بأحد الوجهين.

فالمقصود من العالم هو العالم بالقضايا الدّينية عقلاً الجاهل بها وجداناً وعملاً والجهل بهذا المعنى يقتل العالم ويهلكه ويبعد أن يكون المراد منه العلم بما لا نفع فيه، كما فسّره به ابن ميثم، فتدبّر.

الترجمة

بسا عالمى كه جهلش او را كشته و دانشش با او است و از آن سودى نبرده.

بسا عالمى كشته جهل خويش نبسته از آن علم مرهم به ريش

(١) المكافئة: ٢٠ ح٢٠، وبحار الأنوار: ٢/ ١١٠ ح١٧.

الرابعة والمائة من حكمه عليه السلام

(١٠٤) وَقالَ عليه السلام: «لَقَدْ عُلِّقَ بِنِياطِ هٰذَا الْإِنْسانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ ما فيهِ وَذٰلِكَ ٱلْقَلْبُ، وَلَهُ مَوادٌّ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَأَضْدادٌ مِنْ خِلافِها: فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجاءُ أَذَلَّهُ الطَمَعُ، وَإِنْ هاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ ٱلْحِرْصُ وَإِنْ مَلَكَهُ ٱلْيأسُ قَتَلَهُ ٱلْأَسَفُ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ ٱلْغَيْظُ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضا نَسِيَ التَّحَفُّظَ، وإِنْ نالَهُ ٱلْخَوْفُ شَغَلَهُ ٱلْحَذَرُ، وَإِنْ اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْنُ اسْتَلَبَتْهُ ٱلْغِرَّةُ، وَإِنْ أَصابَتْهُ مُصيبَةٌ فَضَحَهُ ٱلْجَزَعُ، وَإِنْ أَفادَ مالاً أَطْغاهُ ٱلْغِنٰى، وَإِنْ عَضَّتْهُ ٱلْفاقَةُ شَغَلَهُ ٱلْبَلاءُ، وَإِنْ جَهَدَهُ ٱلْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ ٱلْبِطْنَةُ، فَكُلُّ تَقْصيرٍ بِهِ مُضِرٌّ، وَكُلُّ إِفْراطٍ لَهُ مُفْسِدٌ»[١].

اللغة

(النياط) ج: أنوطة ونوط: الفؤاد، معلق كلّ شيء، عرق غليظ متصل بالقلب فإذا قطع مات صاحبه **(البضعة)** القطعة من اللحم **(سنح)** عرض **(هاج)** ثار وتحرّك وانبعث **(الغرَّة)** الغفلة. **(عضّ)** عضاً أمسكه بأسنانه ـ المنجد **(كظّ)** فلان الطعام: ملأ بطنه حتّى لا يطيق النفس.

الإعراب

(بضعة)، نائب عن فاعل عُلّق، **(هي أعجب ما فيه)**، جملة وصفيّة أو حاليّة.

المعنى

أطلق القلب على معنيين:

الأوّل ـ لحم صنوبري تحت الرّئة يكون مركزاً للدّم الجاري في البدن وهو منبع الحياة والنشاط.

الثاني ـ قوّة شاعرة في باطن الإنسان ترتبط به الرُّوح مع الجسد على قول الحكماء الإلهيّين القائلين بأنَّ الرُّوح خارجة عن الجسم ومتعلّقة به ومدبّرة له ويسمّونه القلب الرحماني.

(١) نهج السعادة: ١/ ٥٥، ومواقف الشيعة: ١/ ٣٢٢.

والظاهر من كلامه عليه السلام أنّ الغرائز والقرائح البشريّة منبعثة من هذا القلب الصنوبري الّذي هو بضعة معلّقة بالنياط، ولم يصرّح في كلامه بما رآه عليه السلام حكمة أو مادة لنا، فإنّ الألفاظ التي وقعت في كلامه أكثرها يدلّ على الغرائز الحيوانية وعلى الرذائل الإنسانية، وهي: الرَّجاء، والطمع، والحرص، واليأس والأسف، والغضب، والغيظ، والرِّضا، والتحفظ، والحذر، والخوف، والأمن، والغرَّة والجزع، والطغيان، والغنى، والفاقة، والجوع، والضّعف، والشبع، والبطنة.

فمن بين هذه الألفاظ يطلق الرجاء، والتحفظ، والحذر، والخوف، على معاني محمودة في علم الأخلاق وفي الأخبار، وأمّا سائرها فتدلّ على معاني مذمومة وأخلاق غير محمودة عند الحكماء الأخلاقيّين.

على أنَّ المقصود من الرَّجاء والخوف والحذر في كلامه، ليس الرَّجاء برحمة الله وغفرانه، أو الخوف من الله، أو الحذر من عذاب الله، بل المقصود مطلق هذه الصفات الّتي تعرض للإنسان بأسباب شتّى، فلا تعد مطلق هذه الصفات محمودة ومعدودة من الفضائل.

وقد استخرج ابن ميثم في شرحه من كلامه عليه السلام مواداً للحكمة وأضداداً لها في طرفي التفريط والإفراط، فجعل الرَّجاء مثلاً مادّة من الحكمة، والطمع والحرص رذيلة الإفراط فيها، واليأس رذيلة التفريط فيها، واستخرج من لفظ الغضب فضيلة الشجاعة وكظم الغيظ وهكذا، ولا يخلو كلامه من التعسّف.

إلاّ أن يقال: إنَّ قوله عليه السلام في آخر كلامه **(فكلٌّ تقصير به مضرّ وكلّ إفراط له مفسد)** ضابطة كلّية لاستخراج الفضائل والرذائل والصفات المحمودة والمذمومة من هذه المواد الّتي بيّنها.

ويشبه كلامه هذا ما ورد في كتاب العقل والجهل من الكافي في رواية سماعة بن مهران قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبد الله: «اعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده تهتدوا»[1]، قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرّفتنا ـ إلخ.

وقد شرحت هذا الحديث الشريف شرحاً وافياً، فمن أراد الاطلاع فليرجع إلى ج١ ـ من شرحنا على الأصول من الكافي الشريف.

---

(١) مشكاة الأنوار: ٤٤١، وبحار الأنوار: ١/ ١٠٩ ح٧.

الترجمة

فرمود: محقق است که به بند دل این انسان، قطعه گوشتی آویخته است که شگفت انگیزترین هر آن چه در او هست می باشد و آن دل است و برای آن مایه هایی است از حکمت و اضدادی که مخالف حکمت هستند. اگر برای او امیدی رخ دهد، طمع وی را خوار سازد و اگر طمع وی را از جا برانگیزد، دچار آزی شود که نابودش سازد و اگر نومیدی او را فرا گیرد، افسوس او را بکشد و اگر خشم بر او عارض شود، غیظ و خلق تنگی بر او سخت بتازد و اگر به سعادت دلخوشی و رضا نایل گردد، خودداری و محافظه کاری را از یاد ببرد و اگر ترس و بیم به وی درآید، حذر و احتیاط او را به خود وا دارد، اگر امن و آسایش سایه بر سرش اندازد، غفلت او را از بن براندازد، اگر دچار سوگ و مصیبت گردد، بی تابی وی را رسوا کند و اگر مال و دارایی به دستش افتد، سرکشی ثروت به دامش کشد و اگر تنگدستی و نداری او را بگزد، بلا و گرفتاری مشغولش کند و اگر گرسنگی جانش را بفرساید، ناتوانی و سستی به زمینش نشاند و اگر شکم را پر کند و پر سیر گردد، نفسش در گلو بگیرد، هر کاهشی بدو زیان آور است و هر فزایشی تباه کننده است.

علی آن مرد فرزانه، بسفت این در حکیمانه
که بر بند دل انسان، بود یك گوشت آویزان
شگفت آورترین عضوی، ز هر چه هست اندر وی
همان قلب است کاندر آن، ز حکمت مایه ها پنهان
ولی هر گنج حکمت را، بود ضدّی ز پیش و پس
که می خواهد نگهداریش تدبیر از خود انسان
امید ار رخ دهد بر وی، طمع آید کند خوارش
طمع انگیزدش حرص آید و ویران کند بنیان
چه نومیدی ورا گیرد، کشد افسوس و آه او را
چه خشم آید بتازد غیظ تا آتش زند بر جان

خوشی مستش کند، تا آن که گردد بی خبر از خود
اگر ترسد حذر او را فرا گیرد چه یک زندان
اگر در امن باشد، غفلتش از بن براندازد
به گاه سوگ بی تابی ورا رسوا نماید هان
اگر مالی به دست آرد ز ثروت می شود سرکش
و گر درویش باشد آیدش صد درد بی درمان
گرسنه گر شود از ناتوانی بر زمین افتد
و گر پر خورد از نفخ شکم گیرد ورا خفقان
ز کاهش در زیان و، وز فزایش در تباهی شد
خداوندا تو این مشکل نما بر بندگان آسان

الخامسة والمائة من حكمه عليه السلام

(١٠٥) وَقال عليه السلام: «نَحْنُ النَّمْرُقَةُ الْوُسْطى، بِها يَلْحَقُ التّالي، وَإِلَيْها يَرْجِعُ الْغالي»[١].

اللغة

(النمرقة) الوسادة الصغيرة قال في مجمع البحرين: قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾ [الغاشية: ١٥] وهي الوسائد واحدتها النمرقة بكسر النون وفتحها، وفي حديث الأئمة: (نحن النمرقة الوسطى بنا يلحق التالي وإلينا يرجع الغالي)، استعار لفظ النمرقة بصفة الوسطى له ولأهل بيته باعتبار كونهم أئمة العدل يستند الخلق إليهم في تدبير معاشهم ومعادهم، ومن حق الإمام العادل أن يلحق به التالي المفرّط المقصّر في الدّين، ويرجع إليه الغالي المفرط المتجاوز في طلبه حدَّ العدل كما يستند على النمرقة المتوسطة من على جانبها انتهى.

قال في الشرح المعتزلي: ويجوز أن تكون لفظة الوسطى يراد بها الفضلى، يقال هذه هي الطريقة الوسطى، والخليقة الوسطى، أي الفضلى ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨] أي أفضلهم، انتهى.[٢]

الترجمة

ما تكيه گاه عادليم كه بايد پس افتادگان خود را بدان برسانند و پيشتازان بدان بازگردند.

ما تكيه گاه عادل و اندر ميانه ايم   از بهر پيشتاز و پس افتاده ملجأيم

(١) أمالي المفيد: ٤، وعيون الحكم والمواعظ: ٤٩٩.
(٢) شرح النهج: ١٨/ ٢٧٣.

السادسة والمائة من حكمه عليه السلام

(١٠٦) وَقالَ عليه السلام: «لا يُقيمُ أمرَ اللّهِ سُبْحانَهُ إلاّ مَنْ لا يُصانِعُ وَلا يُضارِعُ، وَلا يَتَّبِعُ ٱلْمَطامِعَ»(١).

اللغة

(صانعه): داهنه، داراه ورشاه ومنه المثل «من صانع بالمال لم يحتشم من طلب الحاجة» أي من رشا، وصانعه عن الشيء: خادعه، **(ضارعه)**: شابهه، تضارعا تشابها.

الإعراب

(من لا يصانع)، مستثنى مفرغ والموصول فاعل، قوله: **(لا يقيم)**، ومفعول **(يصانع ويضارع)** محذوف بقرينة العموم أي لا يصانع أحداً ولا يضارع النّاس أو متروك بتنزيل الفعل منزلة اللازم ويستفاد أيضاً منه العموم.

المعنى

ظاهر الشراح أنَّ المقصود في هذه الحكمة الوالي والخليفة والإمام فيقول عليه السّلام: إنَّ الحاكم إنّما يقيم أمر الله إذا اجتنب من المصانعة والمضارعة واتّباع المطامع.

قال الشارح المعتزلي: والمصانعة بذل الرشوة، فإن قلت: كان ينبغي أن يقول: من لا يصانع بالفتح، قلت: المفاعلة تدلّ على كون الفعل بين اثنين كالمضاربة والمقاتلة.

أقول: الإشكال وارد والجواب غير طارد، لأنّ دلالة المفاعلة على كون الفعل بين اثنين معناه أنَّ كلاًّ من الطرفين فاعل ومفعول، فالمراشاة معناه أنَّ كلاًّ منها أعطى الرّشوة وأخذها، والحاكم لا يعطي الرشوة على المحكوم فلا يستقيم الجواب، وإلاّ فكلٌّ فعل متعدّ يكون بين اثنين هما الفاعل والمفعول.

وقال ابن ميثم: والمضارعة مفاعلة من الضرع وهو الذلّة كأنَّ كلاً منهما يضرع للآخر.

أقول: لا معنى لمبادلة الذلّة بين الحاكم والرَّعية، ولم نقف في اللغة على استعمال

(١) بحار الأنوار: ١٠١/٢٧٢ ح٤، ونهج السعادة: ٨/٧٣.

ضارع من مادّة ضرع بمعنى الذلّة وإنما استعمل من هذه المادَّة تضرَّع واستضرع.

فالتحقيق أن يقال: إنَّ المصانعة في كلامه بمعنى لمداهنة والمخادعة والمقصود أنَّ إقامة أمر الله لا يوافق مع من كان مداهناً مع النّاس يبتغي إجابة شهواتهم وآرائهم الفاسدة، وقد حذَّر الله النبيَّ ﷺ عن ذلك بقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

ويستفيد منه المنع عن المداهنة مع مخالف الحقّ حتّى في أصعب المواقف وأحرجها، وكأنّه إشارة إلى الطعن في سيرة الشيخين، فإنَّ المداهنة ظاهرة فيها فقد داهن أبا بكر خالد بن الوليد في مقتل مالك بن نويرة أحد كبار المسلمين كما هو مثبت في التاريخ، وداهن عمر معاوية وسائر رجال بني أُميّة فسلّطهم على الشامات، وتحمّل منهم خلافات لم يتحمّلها من غيرهم.

والمقصود من المضارعة هو المشابهة، فإنَّ ضارع لم يجيء في اللغة إلاّ بهذا المعنى، وغرضه عليه السلام أنَّ الحاكم الحق لا يشابه مع الناس في سيرتهم وآدابهم المبنية على السنن التقليدية، أو الأهواء والأراء الشهويّة، فملازمة الحق يقطعه عن التشابه مع من في رتبته من النّاس، كما نقل في سيرته عليه السلام في أيام إمارته وتصدّيه لخصف نعله في معركة الجمل وتلبسه إزاراً خلقاً مرقوعاً عيب عليه فأقامه الحق الصريح لا يستقيم مع مشابهة النّاس في الأحوال والأزياء.

وكأنه طعن على سيرة الأمويين في حكومتهم، فإنهم مالوا إلى اتّباع أزياء وأحوال قياصرة الرّوم وحكامها في دولتهم استمالة للنّاس وإخضاعاً لهم على ما اعتادوا وقضاء لحوائجهم الشهويّة الهدّامة.

وبنى حجر هذا الأساس معاوية نفسه كما يظهر من ملاقاته مع عمر في سفره إلى الشام واستنكار عمر زيّه عليه واعتذاره بأنّا في بلد يدبّر الأُمراء أمر النّاس بهذا الزيّ، وقد أفرط في هذا التشابه المشؤوم، والتنصّر المذموم، يزيد بعده فصارت سيرة لسائر الولاة والأمراء، وهم بين معتدل ومفرط.

وأمّا قوله **(ولا يتّبع المطامع)** فإشارة إلى الطعن في حكومة عثمان المليئة بالمطامع الشخصيّة والقبليّة.

ويمكن أن يكون المقصود من إقامة أمر الله إطاعته مطلقاً فيشمل العموم فإنَّ كلَّ مسلم إذا أراد أن يقيم أمر الله المتوجّه إليه لا بدَّ وأن يجتنب هذه الخصال فلا يداهن مع مخالف الحق، ولا يخادع النّاس، ولا يشابه بالعصاة في أفعالهم وأحوالهم الخاصّة بهم، ولا يتّبع المطامع.

الترجمة

فرمود: فرمان خداوند سبحان برپا نتواند داشت، مگر کسی که سازش کار نباشد، تقلیدچی نباشد و دنبال طمع نرود.

فرمان خدا به پای نتواند داشت — جز آن که قدم به راه سازش نگذاشت
تقلید نکرد شیوه اهل گناه — دنبال مطامع نشد و خود را داشت

السابعة والمائة من حكمه عليه السلام

(١٠٧) وَقالَ عليه السلام: وقَد توفّى سهل بن حنيف ٱلأنصاري بالكوفة بعد مرجعه معه من صفين، وكان أحبّ النّاس إليه:

لَوْ أَحَبَّني جَبَلٌ لَتهافَتَ(١).

قال الرَّضى: وَمعنى ذٰلك أنَّ المحنة تغلظ عليه فتسرع المصائب إليه وَلا يفعل ذلك إلاّ بالأتقياءِ الأبرار والمصطفين الأخيار، وَهذا مثل قوله عليه السلام:

(١٠٨) «مَنْ أَحَبَّنا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْباباً»(٢).

وَقَد يؤول ذلك على معنىً آخر ليس هذا موضع ذكره.

اللغة

(تهافت) على الشيء: تساقط بتتابع. **(الجلباب)**: القميص أو الثوب الواسع ـ المنجد.

الإعراب

(لو)، حرف شرط يدلُّ على امتناع الشرط لامتناع الجزاء، وقد استعمل في هذا المقام بمعنى **(إن)** نظراً لعدم وقوع الشرط والجزاء.

المعنى

سهل بن حنيف من الأنصار المخلصين للنبيِّ والوصيِّ ومن السابقين الأوّلين الّذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار.

في الرجال الكبير قال: وفي خبر عقبة أنَّ الصادق عليه السلام قال: «أما بلغكم أنَّ رجلاً صلّى عليه عليٌّ عليه السلام فكبّر عليه خمساً حتّى صلّى عليه خمس صلوات وقال إنّه بدريٌّ عقبيٌّ أحديٌّ من النقباء الاثني عشر وله خمس مناقب فصلّى عليه لكلّ منقبة صلاة»(٣).

(١) بحار الأنوار: ٦٤/ ٢٤٧ ح٨٨، وميزان الحكمة: ١/ ٥٢٠.

(٢) بحار الأنوار: ٦٤/ ٢٤٧ ح٨٨، وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٢٧٥.

(٣) الدرجات الرفعية: ٣٩١، ومعجم رجال الحديث: ٩/ ٣٥٣.

وكفى في فضله أنّه مات على حبّ عليّ فرثاه عليه السلام بهذا الكلام المعجب العميق، ويعجبني أن أنقل عن الشارح المعتزلي ما نقله في شرح الحديث قال: قد ثبت أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال له: «**لا يحبّك إلاّ مؤمن، ولا يبغضك إلاّ منافق**»[1].

ونقل ابن ميثم في شرح الحديث ما يلي:

وقد ذكر ابن قتيبة هذا المعنى بعبارة أُخرى فقال: «من أحبّنا فليقصر على التعلّل من الدُّنيا والتقنع فيها» قال: وشبّه الصبر على الفقر بالجلباب لأنه يستر الفقر كما يستر الجلباب البدن، قال: ويشهد بصحّة هذا التأويل ما روي أنّه رأى قوماً على بابه، فقال: يا قنبر من هؤلاء؟ فقال: شيعتك يا أمير المؤمنين، فقال: ما لي لا أرى فيهم سيماء الشيعة، قال: وما سيماء الشيعة؟ قال: خمص البطون من الطوى، يبس الشفاه من الظمأ، عمش العيون من البكاء[2].

وقال أبو عبيد: إنّه لم يرد الفقر في الدنيا، ألا ترى أنَّ فيمن يحبّهم مثل ما في سائر النّاس من الغنى، وإنّما أراد الفقر يوم القيامة، وأخرج الكلام مخرج الوعظ والنصيحة والحثّ على الطاعات، فكأنه أراد من أحبّنا فليعد لفقره يوم القيامة ما يجبره من الثواب والتقرّب إلى الله تعالى والزلفة عنده.

قال السيّد المرتضى رحمه الله: والوجهان جميعاً حسنان وإن كان قول ابن قتيبة أحسن، فذلك معنى قول السيّد رضي الله عنه وقد يؤول ذلك على معنى آخر.

أقول: قوله: «لو يحبّني جبل إلخ» يحتمل وجهين:

١ ـ إنَّ محبّتي شعلة إلهية تلهب قلوب المحبّين وتذيب نفوسهم الأمارة وأنانيتهم بتتابع حتّى يفنوا في ذات الله ويبقوا ببقاء الله، فمتابعته عليه السلام طريق لعامة النّاس في الوصول إلى الجنة، ومحبّته طريقة للخواص في سلوك الطريق إلى الله إلى أقصى درجات المعرفة.

٢ ـ إنَّ محبّتي موجبة للتأثر من مصائبي الهدّامة، فتذيب قلوب أحبّائي وأبدانهم شيئاً فشيئاً حتّى يموتوا أسفاً.

(١) الخصال: ٥٥٨، والأمالي: ١٩٧ ح ٢٠٨.

(٢) الإرشاد المفيد: ١/ ٢٣٧، والأمالي الطوسي: ٢١٦ ح٣٧٧.

الترجمة

سهل بن حنيف انصاری پس از مراجعت از جبهه صفين در كوفه وفات كرد، او محبوبترین مردم بود، علی (عليه السلام) پس فرمود:

اگر كوهی مرا دوست دارد، خرده خرده از هم فرو ريزد.

رضی (رحمه الله) گويد: معنی اين كلام اين است كه محنت و بلا بر دوست من متراكم می شود و مصائب بر وی شتاب آرند و او را از پای درآرند و اين معامله نشود مگر با اتقياء و ابرار و برگزيدگان اخيار و اين همانند گفتار ديگر او است كه فرمود:

هركس ما خانواده را دوست دارد بايد روپوشی از درويشی برای خود آماده سازد.

و بسا كه برای اين گفتارش تأويل ديگر شده كه اينجا مناسب ذكر آن نيست.

سهل به حنيف چون ز صفين	برگشت به كوفه رفت از دست
محبوبترين مردمان بود	در نزد علی و رخت بربست
در مرثيه اش علی چنين گفت	گر كوه به مهر من كمر بست
از هم بگداخت در محبت	در آتش ابتلاء چه بنشست

التاسعة والمائة من حكمه عليه السلام

(١٠٩) وَقالَ عليه السلام: «لا مالَ أَعْوَدُ مِنَ ٱلْعَقْلِ، وَلا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ ٱلْعُجْبِ، وَلا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلا كَرَمَ كَالتَّقْوى، وَلا قَرِينَ كَحُسْنِ ٱلْخُلُقِ، وَلا ميراثَ كَالأَدَبِ، وَلا قائِدَ كَالتُّوفيقِ، وَلا تِجارَةَ كالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلا رِبْحَ كَالثَّوابِ، وَلا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ وَلا زُهْدَ كَالزُّهْدِ في ٱلْحَرامِ، وَلا عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ، وَلا عِبادَةَ كَأَداءِ ٱلْفَرائِضِ، وَلا إِيمانَ كَالحَياءِ وَالصَّبْرِ، وَلا حَسَبَ كَالتَّواضُعِ وَلا شَرَفَ كَالْعِلْمِ، [وَلا عِزَّ كَالْحِلْمِ] وَلا مُظاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ ٱلْمُشاوَرَةِ»[١].

اللغة

وسمّي المال مالاً لأنّه يميل من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا ـ مجمع البحرين ـ **(التقوى)**: الاسم من اتّقى: مخافة الله في العمل بطاعته ـ المنجد.

الإعراب

(لا)، في هذه الجمل نافية للجنس، وما بعدها اسمها مبنيٌّ على الفتح لتضمّنها معنى من الجنسية، وما بعده خبرها.

المعنى

(لا مال أعود من العقل) لأنّ فائدة المال صرفها لتحصيل الحوائج والوصول إلى الراحة والأمن من الأجل والعاجل، وهذه المقاصد إنّما تتيسّر بمعونة العقل، فإن كان صاحبها سفيهاً يصرف المال فيما يضرّه ويختلّ راحته وسعادته.

والعجب يوجب التكبر وطرد النّاس عن المعجب بنفسه فيتولّد منه الوحشة ويبقى المعجب في مقامه الموهوم غريباً لا أنيس له.

والكرامة شرف يحصل للإنسان من الانتساب إلى أصل رفيع، والتخلّق بأخلاق عالية، ولا خلق أعلى من التقوى وقد اعتبر الله تعالى الكرامة فيها فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) نهج السعادة: ١/ ٥٢، وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٢٧٦ ح١٠٩.

وحسن الخلق يوجب الألفة والأنس بالنّاس وجلب قلوبهم إلى صاحبه فلا قرين أوفق وأرفق منه.

والأدب هو التجلّي بالفضائل والتجنّب عن الرّذائل، فيوفق صاحبه لنيل المقاصد والوصول إلى المآرب فلا ميراث أنفع منه.

والتوفيق وهو جمع وسائل درك المطلوب وموافقة كلّما يدخل في النيل إلى المقاصد، فهو أحسن قائد ودليل للإنسان يدلّه على مقصده.

والعمل الصالح يصير ذخيرة ليوم المعاد، وهو يوم البؤس، والفاقة للعباد فلا تجارة أربح وأنفع منه، والأرباح في التجارات والمكاسب تزيد في الثروة والمال وهي تفنى أو تبقى بعد موت صاحبها، ولكن الثواب وهو الأجر الأخروي المترتب على العمل الصالح يلازم صاحبه ويوفى له في الآخرة.

والورع هو التوقّي عن ارتكاب الفواحش والتجنّب عن كلّ ما يضرّ بطهارة النفس ويوجب العقوبة من الله، والوقوف عند الشبهة وترك المشتبه أكمل الورع.

والزهد ترك المشتهيات من المباحات والمحرّمات، وترك الحرام أفضل الزّهد لأنّ المحرّمات أكثر ابتلاء وتركها أحوج إلى تحمّل المشقة والرياضة فإنّ الإنسان حريص على ما منع، والشيطان يوسوس فيها أكثر من غيرها.

والتفكّر استعمال العلم الحاصل في تحصيل ما يجهل، فهو أنفع من العلم وبعبارة أخرى التفكّر علم نامي يتولّد منه العلوم، فهو أشرف العلم.

والفرائض أهمّ ما كلّف بها الإنسان، وألزم ما يعمله في تحصيل الأغراض الروحانية، فلا عبادة مثلها، وفرضها دليل على ذلك، وفي هذه الجملة طعن على أناس يتركون الفريضة ويشتغلون بأعمال أخرى يحسبونها عبادة كالأوراد والمناسك المبتدعة أو المسنونة في الزيارات.

الحياء هو التحفظ عن إظهار ما لا ينبغي من القول والعمل عند الله وعند الناس والصبر هو المقاومة في مشقّة العبادة أو ترك المحرّم وأداء الوظيفة في تجاه العدوّ وكلاهما من أهمّ شعب الإيمان.

والتواضع يوجب جلب الاحترام والإكرام من النّاس فهو أحسن الحسب.

والعلم مصباح للهداية، ومقباس يضيء به صاحبه وما حوله، ويوجب توجّه النفوس الضالّة إليه، فلا شرف أفيد منه.

والمشورة مع أهلها توجب تقوية الإنسان في الوصول إلى مقصده، ونيل البرنامج الصحيح للعمل، فيعضد الإنسان أكثر من كلٍّ معين ومظاهر.

أقول: وفي شرح ابن أبي الحديد ورد بعد قوله عليه السلام: «**لا شرف كالعلم**» هذه الجملة «**ولا عزَّ كالحلم**»[١] فتكون ثمان عشرة كلمة، وورد فيه «لا زرع كالثواب» في مقام **(لا ربح كالثواب)** فراجع.

الترجمة

هيچ دارايى سودمندتر از خرد نيست، هيچ تنهايى هراس آورتر از خودبينى نيست، هيچ عقلى چون تدبير نباشد، هيچ ارجمندى به پايه پرهيزكارى نرسد، همدوشى چون خوشخويى نيست، ميراثى چون ادب نباشد، رهنمايى چون توفيق به دست نشود، تجارتى به مانند كار خير سودمند نيست، هيچ بهره اى چون ثواب آخرت نيست و هيچ پارسايى چون دست باز گرفتن از شبهه نباشد، هيچ زهدى چون زهد نسبت به حرام نيست و هيچ دانشى به مانند انديشه نيست، هيچ عبادتى به پايه انجام فرايض نرسد، هيچ ايمانى چون حياء و شكيبايى نيست و هيچ حسبى به مانند رعايت ادب و تواضع نيست. شرافتى چون دانش نباشد و پشتيبانى محكمتر از هم شورى نيست.

پندى ز على بشنو اى دل كه شوى روشن — چون او نبود در پند استاد و بزرگ فن
مالى نبود از عقل پر فايده تر هرگز — وحشت نبود بدتر از عجب به ما و من
عقلى نه چه تدبير است، ارجى نه چنان تقوى — يارى نه چه خلق خوش، ارثى چه ادب كردن
رهبر نه چنان توفيق، كسبى نه چه كار خير — ريحى چه ثواب اندر عقبى زيد ذوالمن
دست ار كشى از شبهه بهتر ورعى زان نيست — چون زهد حرام اى دل زهدى نبود متقن
علمى نه چه انديشه نسكى، چه ادا فرض — چون صبر وشكيبايى ايمان نبود ايمن
مانند تواضع نيست بهر تو حسب هرگز — چون علم شرف نبود، چون شور ظهير ايضاً

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٣١.

العاشرة والمائة من حكمه عليه السلام

(١١٠) وَقالَ عليه السلام: «إِذَا ٱسْتَوْلَى الصَّلاحُ عَلَى الزَّمانِ وَأَهْلِهِ، ثمَّ أساءَ رَجُلٌ ٱلظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ خَزْيَةٌ فَقَد ظَلَمَ، وَإِذَا ٱسْتَوْلَى ٱلْفَسادُ عَلَى الزَّمانِ وَأَهْلِهِ فأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ»[١].

اللغة

(الخزية): البليّة، الخصلة الّتي يخزي فيها الإنسان، **(غرّره)** تغريراً عرّضه للهلاك ـ المنجد ـ.

المعنى

(الزمان) في قول الحكماء مقدار حركة الفلك، وهو بذاته لا صالح ولا طالح ولا حسن ولا سيّىء، ويبحث عنه أنه موجود أو موهوم، ولكن باعتبار ما يمرّ عليه من الأوضاع وباعتبار أهله يعدّ أحد عوامل الإحسان والإساءة، فيذمّه قوم ويمدحه آخرون، ويكون صالحاً مرّة، وسيّئاً أُخرى، ويؤخذ منه ظاهر الحال والظاهر أحد الأدلّة عند علماء وفقهاء الملّة يستند إليه حيث لا دليل أدلّ، ولا أمارة أبين وأكمل.

وقد اعتمد عليه في كلامه هذا صلوات الله عليه فقال: إذا كان ظاهر حال الزمان وأهله الصلاح والعدل والأمانة والصدق، فسوء الظنّ من دون دليل ظلم ولكن إذا كان ظاهر حال الزمان وأهله الفساد والخيانة والغدر والخداعة، فحسن الظنّ من دون دليل غرر وخطر، وروي مكان خزية «حوبة» أي إثم.

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ١٩٧ ح١٨، وميزان الحكمة: ٢/ ١٧٨٧ ح٢٤٨١.

الترجمة

فرمود: چون خوبی و نیکی بر روزگار و مردمش حکمفرما شد، سپس کسی به دیگری بی آن که از او رسوایی و گناه بیند بدگمان باشد، به او ستم کرده است و اگر فساد و تباهی بر روزگار و مردمش حکمفرما باشد، خوش بینی به مرد ناشناخته مایه فریب و خطر است.

در روزگار نیك كه خوب اند اهل آن بدبین مباش بی سببی سوی دیگران
در روزگار بد كه تباه اند مردمش خوش بین مباش و خویش مینداز در زیان

الحادية عشرة والمائة من حكمه عليه السلام

(١١١) وَقيل له عليه السلام: «كيف تجدك يا أمير ٱلْمُؤمِنينَ؟ فقال عليه السلام: كَيْفَ يَكُونُ حالُ مَنْ يَفْنَى بِبَقائِهِ، ويَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ، وَيُؤْتَىٰ مِنْ مَأْمَنِهِ»(١).

الإعراب

(كيف)، اسم استفهام في محل المفعول الثاني، لقوله **(تجدك)**، قدِّم عليه لأنه لازم الصدر، والجملة في محلّ نائب الفاعل لكلمة **(قيل)** مجهول قال، و**(له)** ظرف متعلّق بقول الراوي **(قيل)**.

المعنى

(كيف تجدك) سؤال عن الحال واستدعاء لبيانه على مقتضى وجدان المسؤول عنه، فإنه أعرف بحال نفسه، وكأنَّ هذا السؤال أُلقي عليه بعد تصدِّيه للزعامة على الأُمّة، ولعلَّ غرض السائل اكتناه ما في قلبه من النيل بالإمارة وتصدِّي مقام الخلافة.

فأجاب عليه السلام بأنه لا ينبغي الاعتماد على هذه الدُّنيا في حال من الأحوال ولا مجال لإحساس السعادة والفرح على أيِّ حال، لأنَّ موجبات إحساس حسن الحال أُمور ثلاثة، ولكلّ منها تبعة محزنة:

١ ـ **(البقاء)** الذي هو بغية كلّ حيّ في هذه الدُّنيا عبارة عن مضيِّ العمر وانصرامه طيّ الدقائق والساعات والأيّام والشهور والسنين.

٢ ـ **(الصحّة)** الّتي عدَّت من النعم المجهولة ويبتغيها كلُّ الناس، ولكن الصحّة عبارة عن مزاج معتدل يعمل في الجهازات الجسميّة عمله، فيستهلك نشاط الجسم شيئاً فشيئاً، ويؤول لا محالة إلى نفاد قوَّته ومادَّته، ويتولّد منه السقم بانتهاء إحدى القوى.

٣ ـ الأمن والراحة في المأمن، وأين المأمن وقد قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ٩٠ ح٩٤، وميزان الحكمة: ٤/ ٢٨٨٤.

الترجمة

از آن حضرت پرسش شد كه خود را چگونه مى دانى؟ فرمود: چگونه است حال كسى كه به زيستن نيست مى شود و به تندرستى بيمار مى گردد و در پناهگاه امنش مرگ او مى رسد.

از علـى پـرسـيـده شـد چـونـى تـو چـون گـفـت چـون اسـت آن كه باشد بى سكون

نـيـسـتـيـش از زيـسـت و بـيـماريـش از كـمـون تـنـدرسـتـى رهـنـمـون

مـرگ آيـد بـر سـرش در مـأمـنـش گـويـدش بـرخـيـز از ايـنـجـا رو بـرون

الثانية عشرة بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١١٢) وَقالَ عليه السلام: «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فيهِ، وَمَا ٱبْتَلَى ٱللّٰهُ أَحَداً بِمِثْلِ الْإِمْلاَءِ لَهُ»(١).

اللغة

(المستدرج): المأخوذ بالغرّة **(الإملاء)**: الإمهال وتأخير المدّة.

الإعراب

(كم)، خبريّة وتشير إلى عدد مبهم يشعر بالكثرة، **(من مستدرج)**، تميز لها وبهذا الاعتبار يصحّ أن يكون مبتدأ، **(وبالإحسان إليه)** ظرف مستقرّ خبر له و**(مغرور ومفتون)** عطف على مستدرج.

المعنى

(الاستدراج)، تسامح من الله في عقوبة العاصي المتمرّد المصرّ على عصيانه تثبيتاً لاستحقاقه العذاب الأشدّ، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وربّما يقارن الاستدراج بمزيد من النعمة والإحسان فيغترُّ به العاصي ويزيد طغيانه وعصيانه، كما أنّه ربّما يكون الاستدراج بالستر والإخفاء لما ارتكبه من المعاصي، فيغترّ بذلك.

وقد يمتحن الإنسان بحسن الشهرة ومدح النّاس له واعتقادهم بأنّه محسن أو زاهد أو عابد فيدخله العجب والرياء من ناحية، ويتجرّأ على ارتكاب المعاصي من ناحية أخرى.

وقوله عليه السلام: **(وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له)** مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ٣٨٣ ح٨، وميزان الحكمة: ٤/ ٣٣١٥.

قال في مجمع البيان: نزلت في مشركي مكّة ـ إلى أن قال: ثمَّ بيّن سبحانه أنَّ إمهال الكفار لا ينفعهم إذا كان يؤدّي إلى العقاب، فقال: ولا يحسبنَّ، أي لا يظنَّ الّذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم، أي أنّ إطالتنا لأعمارهم وإمهالنا إيّاهم خير من القتل في سبيل الله ـ انتهى[1].

الترجمة

فرمود: بسا كسى كه به غفلت كشانده شود به وسيله احسان به وى و بسا فريفته بهوسيله نهان كردن گناهش و بسا شيفته و آزموده شده بهوسيله حسن شهرت و خدا هيچ كس را امتحان نكند به مانند اين كه به او مهلت دهد.

بسا كس كه مغرور احسان اوست — كه ستار بهر گناهان او است
و يا حسن شهرت فريبش دهد — به دام خلاف عظيمش كشد
خدا گركه مهلت به بدكار داد — در اين آزمايش به دامش نهاد

(١) مجمع البيان: ٢/٤٥٤.

الثالثة عشرة بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١١٣) وَقالَ عليه السلام: «هَلَكَ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ غالٍ، وَمُبْغِضٌ قالٍ»[١].

اللغة

يقال: **(غلا)** في الدِّين غلوّاً من باب قعد تصلّب وتشدّد حتّى تجاوز الحدَّ والمقدار، فالغالي من يقول في أهل البيت ما لا يقولون في أنفسهم، كمن يدَّعي فيهم النبوَّة، والأُلوهية، **(قال)** فاعل من قليته إذا بغضته ـ مجمع البحرين.

الإعراب

(فيَّ)، حرف الجرّ مع الضمير المجرور متعلّق، بقوله: **(هلك)**، **(ورجلان)** **فاعله** **(ومحبّ غال)**، بدل من الفاعل.

المعنى

ولاية عليّ والأئمة من أولاده المعصومين سلام الله عليهم من الواجب في أصل الدين وشرط لإيمان المؤمنين، وتوحيد الموحّدين، وهي متابعتهم الناشئة عن الحبّ ومعرفتهم بالخلافة عن النبيّ صلى الله عليه وآله والإمامة على الأُمّة، فمن اعتقد في عليّ عليه السلام فوق مقامه فهو محبٌّ غال متجاوز عن الحدّ، ومن أنكر إمامته بعد النبيّ صلى الله عليه وآله فهو مبغض قال حطّه عن رتبته.

الترجمة

فرمود: هلاك شدند درباره من دو مرد، يكى دوستى كه از حدّم گذرانيد و دوّم دشمنى كه از مقامم فروكشانيد.

علـى گـويـد دو كـس در مـن هـلاكـسـت ‏ ‏ ‏ يكى غالى، ديگر خصمى كه دل خست

---

(١) الغارات: ٢/ ٥٨٨ ح٤، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٢٩٥.

الرابعة عشرة بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١١٤) وَقالَ عليه السلام: «إِضاعَةُ ٱلْفُرْصَةِ غُصَّةٌ»[١].

اللغة

(**وطعاماً ذا غصّة**)، أي يغصّ به الخلق فلا يسوغ، و (**الغصّة**) الشجى في الحلق.

المعنى

وكأنّه إشارة إلى ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله اغتنم أربعاً قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك[٢].

الترجمة

فرمود: از دست دادن فرصت گلوگير است.

چه فرصت به دست آيد از كف مده   گلوگير و بيچاره خود را منه

(١) ميزان الحكمة: ٣/٢٣٩٩ ح٣١٨٩، وشرح نهج البلاغة: ١٨/٢٨٣.

(٢) الأمالي الطوسي: ٥٢٦، ومكارم الأخلاق: ٤٣٥.

الخامسة عشرة بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١١٥) وَقالَ عليه السلام: «مَثَلُ الدُّنيا كَمَثَلِ ٱلْحَيَّةِ، لَيِّنٌ مَسُّها وَالسُّمُّ النَّاقِعُ في جَوْفِها، يَهْوي إِلَيْهَا ٱلْغِرُّ ٱلْجاهِلُ، وَيَحْذَرُها ذو ٱللُّبِّ ٱلْعاقِلُ»(١).

اللغة

و (**سمٌّ ناقع**) أي بالغ وقيل: قاتل ـ مجمع البحرين.

الإعراب

(**مثل الدُّنيا**)، مبتدأ، (**وكمثل**)، ظرف مستقرّ خبره، ليّن مسّها، خبر مبتدأ محذوف أي هي (**ليّن مسّها**)، (**والسمُّ الناقع في جوفها**)، مبتدأ وخبر هو الظرفية والجملة حال عن ضمير الدُّنيا، وجملة ليّن مسّها بحكم عطف البيان عن الجملة السابقة متّصلة بها معنى، فلذا ترك العاطف بينهما.

المعنى

كلامه هذا بليغ في تمثل الدُّنيا على أبشع صوره، وأضرّ سيره، حيث إنها حيّة فما أوحشها وأخبثها، ولا يرغب في التقرُّب إليها إلاّ بمجرَّد المسّ من وراء جلدها اللّين إذا كان اللّامس أعمى لا يراها بنكرانها ووحشيتها، فإذا لا يقربها إلاّ الأعمى بالعين أو القلب بحيث جعل على بصره غشاوة التعامي عن درك الحقيقة، ويحذر عنه العاقل اللّبيب كلَّ الحذر لأنّه يدرك أنَّ التقرُّب منها انتحار بالعيان.

الترجمة

فرمود: دنيا مانند مارى است كه نرم سايش است و درونش آكنده از زهر قاتل: تنها گول نادانش خواستار است و خردمند دلدار از آن گريزان است.

دنيا چه مار گرزه كه نرم است سايشش	اما ز زهر كين بود آكنده باطنش
نادان گول را هوسش در سر است و بس	دلدار با خرد به حذر از كشاكشش

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٨٧.

السادسة عشرة بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١١٦) وَسئل عليه السلام عن قريش فقالَ: «أمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرَيْحانَةُ قُرَيْشٍ تُحِبُّ حَديثَ رِجالِهِمْ، وَالنِّكاح في نِسائِهِمْ، وَأمّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأبْعَدُها رَأياً، وَأمْنَعُها لِمَا وراءَ ظُهُورِها، وَأمّا نَحْنُ فَأبْذَلُ لِما في أيْدينا، وَأسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنا، وَهُمْ أكْثَرُ وَأمْكَرُ وَأنْكَرُ، وَنَحْنُ أفْصَحُ وَأنْصَحُ وَأصْبَحُ»[١].

المعنى

كانت العرب في الجاهليّة متمسكين بالعصبيّة أشدّ تمسّكاً، ويتفاخرون بالآباء والأمجاد، ويتكاثرون، فتفرَّقوا طبقات ومراتب، وتباغضوا وتعادوا بعضهم بعضاً حتّى صارت الحرب والعدوان شغلاً شاغلاً لهم، وتخلّصت قريش من بينهم اعتصاماً بأجداد الرّسول صلى الله عليه وآله، وبالبيت الحرام، فقرّرت الأشهر الحرم أربعة في كلِّ سنة يلوذ كلّ القبائل في ظلّ الأمن إلى الكعبة والحرم.

ولمّا بعث النبيّ صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين، ومصلحاً للبشر أجمعين دعاهم بالتوحيد ورفض العصبيّة، وشرع التمسّك بالأخوّة الإسلاميّة، ونزّل سورة في هذا الشأن: **﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾** [التكاثر: ١] وسعى الإسلام في المنع عن المفاخرات الجاهليّة بكلِّ جهد وعناء.

ولمّا دبَّ بنو أُميّة في حجر الإسلام وتمكّنوا من تدبير سياستها القبليّة المشؤومة المسمومة في قلب الجامعة الإسلاميّة رجعوا إلى إحياء هذه العادة الجاهليّة الّتي أماتها الإسلام، فأثاروا العصبيّات، وأشاعوا المفاخرات حتّى جرّت ذيلها إلى حضرة عليّ عليه السلام.

ولمّا سئل عن قريش وهم قبائل عديدة استخلص منهم هذه الثلاث: (**بنو مخزوم وبنو عبد شمس، وبنو هاشم**)، واقتصر على هذا البيان الوجيز ووصف بني مخزوم وهم أفخر قريش وأكثرهم مالاً وأوفرهم جمالاً، بما افتخروا به في جاهليتهم وهو أنهم «**ريحانة قريش**».

وهذا لقب اكتسبوه بين قريش بنفوذهم وثروتهم ورفاهيّتهم وتنعّم رجالهم ونسائهم.

---

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٣٢٨٠، وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٢٨٥ ح١٢٦.

وفسّره عليه السلام بما هو أشبه بالذمّ من المدح، فقال[1]: إنَّ لبّ هذا الوصف الافتخاري أنَّ رجال بني مخزوم حلو اللّسان، ومليح البيان، وأهل للمنادمة والأنس الأدبي تحبّ الحديث والمقاولة معهم، ونساءهم جميلة وصالحة للتعيش والنكاح، وأين هذا من المعالي الروحية والأداب الإسلامية الّتي وصف عليه السلام بها شيعته من أنهم: خُمص البطون، وذبل الشفاه، وما وصف بها المتقون في خطبة الهمام.

ووصف بني عبد الشمس «بأنهم أبعدها رأياً، وأمنعها لما وراء ظهورها» وقد فسّره ابن ميثم بأنهم جيّدو الرأي وأُولي حميّة، ولكن الظاهر أنَّ المقصود من بعد الرأي بعد نظرهم عن الإسلام والمعارف القرآنية، فإنهم حاربوا الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن إلى أن بلغت أرواحهم التراقي، ثمَّ أسلموا كُرهاً، وأنّى هذا من جودة الرأي.

والمقصود منع منه ما وراء ظهورهم حبّ الدُّنيا والوله بها مالاً وجاهاً، وكأنّه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهذا التمنع هو السبب الأكبر في مخالفتهم مع النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم والكيد على الإسلام أكثر من عشرين سنة، فدبّروا المؤامرات، وجهّزوا الجيوش، ووطدوا المعسكرات ليمنعوا ما وراء ظهورهم، وأنّ هذا من الحميّة والعفّة.

وقد كانت هند زوجة أبي سفيان حميم بني عبد شمس إحدى ذوات الأعلام في الجاهليّة.

وزوجها يرتكب الفاحشة حتّى مع ذوات الأزواج، وقصّتها في الفحشاء مع سميّة أمّ ابن زياد معروفة مشهورة، كيف: وبيتهم بين الأدعياء، ودعاتهم وحماتهم من الأدعياء.

ويؤيّد ذلك قوله عليه السلام: **(وهم أكثر وأمكر وأنكر)** وهل المراد من قوله: **(أمكر)**، إلاّ أنهم أعوان الشياطين، ومن قوله: **(أنكر)**، إلاّ أنهم من أهل المنكرات الّتي نهى الله عنها في غير موضع من القرآن الشريف.

ثمَّ وصف بني هاشم بأنّهم **(أفصح)** لأنَّ القرآن جرى على لسان النبيِّ الّذي افتخر بعده بجوامع كلمه **(وأنصح)** للأمّة لأنَّ منهم هداة الخلق وأئمّة الحق **(وأصبح)** لأنَّ وجوههم منوَّرة بعبادة الحقّ، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود.

وقد أطال الشارح المعتزلي كلامه في هذا المقام بذكر المفاخرات القبليّة المنكرة في الإسلام، وكأنّه استشمَّ من كلامه عليه السلام ما ذكرناه، فقال في أُخريات رواياته الشعريّة مشعراً بالعتاب عليه صلوات الله عليه:

وينبغي أن يقال في الجواب: إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقاراً لهم، ولا استصغاراً لشأنهم، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكثر همّه يوم المفاخرة أن يفاخر بني عبد شمس، لما بينه وبينهم.

أقول: وأنت ترى ما في هذا الكلام من التعسّف، وأين عليّ عليه السلام من هذه المفاخرات الجاهليّة وخصوصاً مع بني عبد شمس، وأين الثرى من الثريا والذّهب من الرغام؟!.

الترجمة

پرسيدندش از قريش، فرمود:

اما بنى مخزوم گل بوستان قريش اند، دوست دارى با مردان شان سخن كنى و زنانشان را جفت بگيرى.

و امّا بنى عبد شمس - بنى اميه تيره آنهايند - در راى دورتراند و در حفظ آن چه دارند كوشاترند.

و امّا ما - بنى هاشم - در آن چه داريم بخشنده تريم و در پيكار جانبازتر، آنان در شمار بيشترند و نيرنگ بازتر و زشت كردارتر و ما شيواتر و اندرزگوتر و زيباتر.

از علـى پرسش شد از وضع قريش — گفت بن مخزوم گل باشند و عيش
مردمى شيرين زبان و خوش سخن — از زنانشان جفت بايد خواستن
عبد شمسى هاش دور انديشتر — حافظان مال و منصب بيشتر
ما به بذل مال زانان در سبق — بيش از آنان پر دل و جانباز حق
اكثرند و امكرند و زشت تر — أفصحيم و أنصح خوش كيش تر

السابعة عشرة بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١١٧) وَقالَ عليه السلام: «شَتَّانَ ما بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ، وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ وَيَبْقَى أَجْرُهُ»[١].

الإعراب

(شتّان)، من أسماء الأفعال، ومعناها فعل الماضي وهو بعد، وما بعده اسميّة أو موصولة، والظرف مستقرّ صفة أو صلة أي **(شتّان)** شيء **(بين عملين)** أو الّذي **(بين عملين عمل)**، كبدل البعض عن الكلّ لقوله: **(عملين)**، **(وعمل)** الثاني معطوف عليه.

الترجمة

فرمود: بسيار دور است فاصله ميان دو كردار: كردارى كه كام بخشى اش مى رود و گناهش مى ماند و كردارى كه رنجش مى گذرد و ثوابش مى ماند.

ز هم دورند كردار بد و خوب — گناه و طاعت و مكروه و محبوب
يكى لذّت تمام كيفرش هست — يكى رنجش تمام اجر در دست

(١) ميزان الحكمة: ١/ ٢٠ ح٦.

الثامنة عشرة بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١١٨) وَتبع جنازةً فسمع رجلاً يضحك، فقال عليه السلام: «كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فيها عَلىٰ غَيْرِنا كُتِبَ، وَكَأَنَّ ٱلْحَقَّ فيها عَلىٰ غَيْرِنا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الذي نَرىٰ مِنَ الأَمْواتِ سَفْرٌ عَمَّا قليلٍ إِلَيْنا راجِعُونَ، نُبَوِّؤُهُمْ أَجْداثَهُمْ وَنأْكُلُ تُراثَهُمْ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ، [ثُمَّ] قَدْ نَسينا كُلَّ [واعِظٍ وَ] واعِظَةٍ وَرُمينا بِكُلِّ جائِحَةٍ!

(*) طُوبىٰ لِمَنْ ذَلَّ في نَفْسِهِ، وَطابَ كَسْبُهُ، وَصَلُحَتْ سَريرَتُهُ، وَحَسُنَتْ خَليقَتُهُ، وَأَنْفَقَ ٱلْفَضْلَ مِنْ مالِهِ، وَأَمْسَكَ ٱلْفَضْلَ مِنْ لِسانِهِ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلىٰ بِدْعَةٍ[1]»[2].

قالَ الرَّضيُّ: ومن النَّاس من ينسب هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

اللغة

(**بوّأت**) له منزلاً: اتّخذته، وأصله الرجوع (**الأجداث**): القبور واحدها جدث بالتحريك (**التراث**) بالضّم ما يخلفه الرجل لورثته (**الجائحة**) الأفة الّتي تهلك الثمار وتستأصلها، وكلّ مصيبة عظيمة.

الإعراب

(**رجلاً يضحك**): مفعول سمع على على التوسّع، (**ويضحك**) جملة حالية عنه، (**على غيرنا**)، ظرف متعلق بقوله: (**كتب**)، قدّم عليه لرعاية السّجع.

المعنى

(**الضّحك**) خاصّة لنوع الإنسان، وينشأ عن سرور صاعد القلب من تأثّر ناشيء عن نيل محبوب، أو تعجّب بالغ عن مشاهدة مناظر طيّبة، ويعرض هذه الحالة للأطفال والمجانين

(*) في بعض النسخ هذه حكمة أخرى مستقلة، للفصل بجملة وقال عليه السلام ـ المصحح.

(١) «البدعة» في نسخة.

(٢) بحار الأنوار: ٧٨/ ٢٦٨ ح٢٧، ونهج السعادة: ٣/ ٣٢٥.

أكثر من غيرهما، حتّى عدَّ كثرة الضّحك نوعاً من الجنون، لأنّه يدلّ على غفلة واغترار، تغلب على التفكر والاعتبار، والتوجّه إلى المبدأ والمعاد.

ومشاهدة مظاهر الموت من أوعظ المناظر وأهمّها للعبرة والتفكر في العواقب، وبهذا الاعتبار كان كثرة الضحك مكروهاً وممقوتاً عند الشرع والعقلاء الحكماء وخصوصاً في موارد تعدّ للتوجّه إلى المبدأ أو المعاد، كالمساجد، والمقابر وعند الجنائز، وفي تشييع الأموات.

مضافاً إلى أنَّ الضّحك خلف الجنازة نوع هتك للميّت وقلّة مبالاة بصاحب المصيبة وأولياء الميّت المقروحي الأكباد، والمحروقي القلوب.

وهذا الرجل قد بالغ في ضحكه حتّى أسمعه أمير المؤمنين عليه السلام فشرع في إرشاده وموعظته بهذه الجمل العاتبة القارعة، ونبّهه على سوء عمله، كأنه لا يعتقد بالموت ولا يعترف بالحقّ، وكأنّ الميّت مسافر يودّع أحبّاءه ثمَّ يرجع إليهم عن قريب.

ثمَّ بيّن كيف ينبغي أن يكون المسلم السعيد الناظر لما بعد موته، وعدَّ له سبع صفات أخلاقيّة وإيمانيّة:

١ ـ أن يذلّ نفسه الأمّارة الشريرة.

٢ ـ أن يكون كسبه الّذي يعيش في ظلّه طيّباً وحلالاً، ولا يأكل من حرام.

٣ ـ أن تكون سريرته صالحة نقيّة داعية إلى عمل الخير والصلاح.

٤ ـ أن تكون فطرته حسنة مائلة إلى اعتناق الحسنات، وكارهة لارتكاب السّيئات.

٥ ـ أن يكون سخيّاً ينفق فضل ماله ولا يكون بخيلاً يجمع الأموال ويدّخرها للوارث.

٦ ـ أن يكون صموتاً يحفظ لسانه عن فضول الكلام، والنطق بما لا يعنيه لدى الأنام.

٧ ـ أن يكون عاملاً بالسنّة، وتاركاً للبدعة.

الترجمة

علی (عليه السلام) دنبال جنازه می رفت و آواز خنده مردی را شنید، پس فرمود:

گویا مردن در این جهان سرنوشت دیگران است و رعایت حق وظیفه جز ما است و گویا این در گذشته ها که به چشم خود زیر خاك می کنیم، مسافرانی هستند که به زودی نزد ما برمی گردند، ما آنان را در گور می کنیم و ارث آنها را می خوریم مثل این که ما خود پس از آنها در این جهان جاویدانیم، هر پندآموزی را به دست فراموشی سپرده، با این که خود هدف هر بلا و حادثه هستیم.

خوشا به حال آن که نفس اماره را خوار کرد و کار و کسب پاکی به دست آورد و پاك نهاد و خوش فطرت بود، مازاد دارایی خود را انفاق کرد و زبانش را از فضولی نگهداشت و پیرو سنّت شد و از بدعت برکنار بود.

علی در پی مرده ای گوش کرد	که خندید مردی و بخروش کرد
مگر مرگ بنوشته بر دیگران	به جز ما است واجب حق بیکران
تو گویی که این مردگان از سفر	به ما باز گردند روزی دیگر
سپاریم در گورشان بی دریغ	بیازیم بر ارث شان دست و تیغ
که ماییم جاوید در جایشان	ز ما مرگ دیگر نگیرد نشان
فراموش کردیم هر وعظ و پند	بلاها کشیدندمان در کمند
خوشا آن که این نفس را خوار کرد	پی کسب روزی خود کار کرد
دلش پاك و خوش فطرت و نیك بود	ز مازاد دارایی احسان نمود
زبان از فضولی کشیده به زور	پی سنّت است و ز بدعت به دور

التاسعة عشرة بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١١٩) وَقالَ عليه السلام: «غَيْرَةُ ٱلْمَرْأَةِ كُفْرٌ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمانٌ»[١].

اللغة

غار يغار (غيرة) (الرَّجل) على امرأته من فلان هي عليه من فلانة: أنف من الحميّة وكره شركة الغير في حقّه بها، وهي كذلك.

المعنى

منع الرجل ونفوره عن شركة الغير في زوجته من الواجب عليه شرعاً وعقلاً فهو من الإيمان ووظيفة دينيّة، ولكن منع المرأة زوجها ونفورها عن الشركة مع زوجة أخرى مخالف لما قرّر في القرآن من تشريع تعدّد الزوجات، فيؤدّي إلى كفران النعمة بالنسبة إلى الزوج، وإلى استنكار أمر الدّين أحياناً فيوجب الكفر.

الترجمة

غيرتمندى مرد از ايمان است و غيرتمندى زن از كفران.

غيرت مرد جزء ايمان است   غيرت زن دليل كفران است

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/٢٣٤٣، وشرح نهج البلاغة: ١٨/٣١٢.

العشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٠) وَقالَ عليه السلام: «لَأَنْسُبَنَّ ٱلْإِسْلاٰمَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْها أَحَدٌ قَبْلي: ٱلْإِسْلاٰمُ هُوَ التَّسْليمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ ٱلْيَقينُ، وَٱلْيَقينُ هُوَ التَّصْديقُ وَالتَّصْديقُ هُوَ ٱلْإِقْرارُ، وَٱلْإِقْرارُ هُوَ ٱلْأَداءُ، وَٱلْأَداءُ هُوَ ٱلْعَمَلُ (الصَّالِحُ)»(١).

اللغة

(نسب) ينسب نسباً الرجل: وصفه وذكر نسبه.

الإعراب

(هو)، في هذه الجمل ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر جيء به لإفادة الحصر.

المعنى

قد ورد في كلامه عليه السلام ستّ جملٍ حملية، والقضيّة الحملية على أقسام:

١ ـ الحمل الأولى الذاتي، وهو حمل مفهوم على ذاته، كما تقول: الإنسان حيوان ناطق، أو تقول: الأسد أسد.

٢ ـ الحمل الشائع الصناعي، كما تقول: زيد إنسان، الإنسان حيوان الإنسان ضاحك، ومفاده اتّحاد الموضوع والمحمول وجوداً.

٣ ـ الحمل الادّعائي، وهو حمل محمول على موضوع بعناية ما من الشّبه بينهما، أو كون أحدهما سبباً للآخر، أو مسبّباً ولو بعيداً، كما تقول: زيد هو الأسد، أو زيد أبوه بعينه، والحمل في هذه الجمل ليس على نهج واحد، بل الحمل في بعضها ادّعائي، وفي بعضها حقيقي.

فنقول: الإسلام أطلق على معنيين:

الأوّل ـ ما يقابل الكفر، ويعتبر في الفقه موضوعاً لأحكام كثيرة، ويبحث عنه في علم الكلام، وهو عبارة عن الإقرار بالشهادتين والالتزام بما هو ضروريٌّ في دين الإسلام، أي

---

(١) ميزان الحكمة: ٤/٣٧١٧، وتفسير مجمع البيان: ٢/٢٥٩.

عدم الإنكار له.

الثاني ـ الانقياد لله تعالى كما ورد في القرآن: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

فعلى الأوّل فحمل الإسلام على التسليم من باب حمل الشيء على أثره الخاصّ، كقولنا: الإنسان ضاحك فإنّ الانقياد والتسليم لإطاعة أمر الله وأمر رسوله أثر للإسلام، ولا يجتمع الإسلام مع التمرُّد والطغيان، وإن يجتمع مع الخلاف والعصيان.

كما أنّ حمل اليقين على التسليم ادّعائي من باب حمل الشيء على معلوله فإنّ التسليم هو معلول اليقين كالحريق الّذي هو معلول النار، ولكن ليس هو هو ولا متّحداً معه وجوداً، فإنّ اليقين كيف نفساني، والتسليم فعل نفساني.

وحمل التصديق على اليقين حمل ذاتي، ولكن حمل الإقرار على التصديق من قبيل حمل الحاكي على المحكي، بناء على أنّ المقصود من الإقرار هو الإقرار باللّسان.

وحمل الأداء على الإقرار ادّعائي كحمل العمل على العلم، وحمل العمل الصالح على الأداء حمل شائع صناعي، لأنّ العمل الصالح مصداق لأداء ذمّة العبوديّة.

والمقصود من هذه الجمل توصيف الإسلام بصورته الكاملة، وبيان أنّ المسلم ينبغي أن يكون واجداً لهذه الصفات.

ولا ينظر إلى تنظيم قياس منطقي لينتج أنّ الإسلام هو العمل الصالح، ويستفاد منه أنّ العمل الصالح جزء من الإسلام كما استفاده الشارح المعتزلي فقال:

خلاصة هذا الفصل تقتضي صحّة مذهب أصحابنا المعتزلة في أنّ الإسلام والإيمان عبارتان عن معبر واحد، وأنّ العمل داخل في مفهوم هذه اللفظة انتهى.

كيف؟ وقد أدخل في الإسلام اليقين، ولو كان اليقين جزء من الإسلام لم يكن المنافق مسلماً، مع أنهم يعدُّون من المسلمين في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله والصحابة على وجه اليقين.

الترجمة

فرمود: من نژاد اسلام را چنان توصيف كنم كه هيچ كس پيش از من چنانش وصف نكرده است:

اسلام انقياد است و انقياد باور كردن است و باوركردن تصديق به درستى است و تصديق همان اقرار است و اقرار انجام وظيفه است و انجام وظيفه همان كار شايسته است.

على گفت اسلام دارد نسب	كه باشد براى مسلمان حسب
نسب بندم اسلام را من چنان	كه كس مى نگفته چنان پيش از آن
شد اسلام تسلمى و تسليم هم	يقين است و باشد يقين در قلم
همان باور و باور اقرار تست	ادا هست اقرار و كار درست

الحادية والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢١) وَقال عليه السلام: «عَجِبْتُ لِلْبَخيلِ يَسْتَعْجِلُ ٱلْفَقْرَ الَّذي مِنْهُ هَرَبَ، وَيَفُوتُهُ ٱلْغِنَى الَّذي إِيَّاهُ طَلَبَ، فَيَعِيشُ في الدُّنْيا عَيْشَ ٱلْفُقَراءِ وَيُحاسَبُ في ٱلْآخِرَةِ حِسابَ ٱلْأَغْنِياءِ، وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذي كانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً وَيَكُونُ غَداً جِيفَةً، وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ في ٱللّٰهِ وَهُوَ يَرىٰ خَلْقَ اللّٰهِ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرىٰ مَنْ يَمُوتُ[١] وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخرىٰ وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولىٰ وَعَجِبْتُ لِعامِرِ دارِ ٱلْفَناءِ وَتارِكِ ٱلْبَقاءِ»[٢].

المعنى

قد تعرَّض عليه السلام في هذا الكلام لأهمِّ ذمائم الأخلاق الّتي يكفي واحد منها لهلاك الإنسان وسلب السعادة المعنوية عنه، وهي البخل، والكبر، والشكُّ في الله، والغفلة عن الموت، وإنكار النشأة الأُخرى، وحبّ الدُّنيا.

وإذا تدبّرت فيها وجدتها جماع مفاسد الأخلاق وأُمّهات الرذائل، ولم يك يهلك أُمة من الأُمم، أو فرد من أفراد بني آدم إلاّ بها أو ببعضها، والمبارزة معها أو بعضها مادّة دعوة الأنبياء العظام، والرسل الكرام، كما يستفاد من حكايات القرآن المتعلّقة بشرح دعوتهم.

وقد تعرَّض عليه السلام بمعالجتها من طريق مبتكر، ووسيلة روحيّة عجيبة، فجعل يحلّلها تحليلاً جبرياً ويبيّن أنَّ الابتلاء بها خلاف البديهة وعدول عن الرويّة الإنسانيّة، والروحيّة البشريّة.

فشرع يسأل عن البخيل أنّه يبخل لماذا لدفع الفقر، أم لطلب الغنى، أم لسعة العيش في الدُّنيا، أم لسهولة الحساب في الأُخرى؟!

فيجيب: بأنّ البخل يضادّ هذه المقاصد أجمع.

ويدعو المتكبّر إلى النظر في مبدأ تكوينه ونهاية وجوده المادّي.

ويبيّن أنَّ الشك في الله ونسيان الموت وإنكار النشأة الأُخرى خلاف العيان والبديهة، وأنَّ حبَّ الدُّنيا وترك التوجّه إلى العقبى سفاهة معجبة.

(١) «الموتى» في نسخة.

(٢) بحار الأنوار: ٦٩/ ١٩٩ ح٢٨، وميزان الحكمة: ٣/ ١٨٢٢.

الترجمة

فرمود: در شگفتم از بخیل می شتابد به سوی فقری که از آن می هراسد و از دستش می رود آن بی نیازی که می جوید، در دنیا زندگی درویشان دارد و در آخرت محاسبه توانگران.

در شگفتم از متکبّر، دیروز نطفه پلیدی بوده و فردا مردار گندیده ای است «بزرگی کجا است؟»

در شگفتم از کسی که درباره خدا شك دارد، با این که آفریدگان بی شمار خدا را به چشم خود می نگرد.

در شگفتم از کسی که مرگ را فراموش کرده، با این که مرده ها را به چشم خود می بیند.

در شگفتم از کسی که زنده شدن در سرای دیگر را منکر است، با این که آفرینش این خانه نخست را به چشم خود دیده است.

و در شگفتم از کسی که آباد کننده دنیای فانی است و جهان پاینده را از دست هشته و از آن گذشته.

اندر شگفتم از بخیل کو می شتابد بی دلیل
به سوی فقری که از آن می هراسد چون ذلیل
در می رود از دست او آن ثروت دلبست او
تا عمر همچون فقرا می پرد از شصت او
و اندر سرای آخرت دارد حساب اغنیا
وای از این بخت بد و افسوس از این ماجرا
وز تکبرپیشه ها سر بر زده از نطفه ها
فردا یکایك مرده و گندیده همچون جیفه ها

وز آن که شک می آورد اندر خدا و بنگرد
خلق خدا را روز و شب با چشم خود هر جا بود
و از آنکه از یادش برد مرگ خودش در روز و شب
بیند همیشه مرده ها افتاده اند اندر تاب و تب
وز منکر بعث و نشور اندر قیامت یا به گور
با آنکه بیند دم به دم صد زنده آید در ظهور
وز آنکه کوشد تا کند آباد این دار فنا
لیکن ز دست خود نهد آبادی دار بقا

الثانية والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٢) وَقال عليه السلام: «مَنْ قَصَّرَ في ٱلْعَمَلِ ٱبْتُلِيَ بِالْهَمِّ، وَلاَ حاجَةَ لِلّهِ فيمَنْ لَيْسَ لِلّهِ في مالِهِ وَنَفْسِهِ نَصيبٌ»(١).

المعنى

اللام في قوله عليه السلام (في العمل) يحتمل وجهين:

١ ـ لام الجنس، فالمقصود أنَّ التقصير في كلِّ عمل للدُّنيا أو الأخرة موجب للهمِّ بالنسبة إليه، لأنَّ التقصير سبب لاختلال العمل ونقصانه، فلا يحصل منه الغرض المقصود، فيورث الهمَّ.

١ ـ لام العهد الخارجي، فيكون المقصود التقصير في العمل الشرعي، وترك أداء الوظيفة الدينية، فالابتلاء بالهم عقوبة مترتّبة عليه، فلا ربط له بالجملة التالية وقد جعلها في شرح المعتزلي جملة مستقلّة، وفصلها من هذه الجملة.

وقوله عليه السلام (**ليس لله في ماله ونفسه نصيب**) يمكن أن يكون كناية عن التعرُّض للبلاء والنقص في المال، أو النفس كما في بعض الأخبار من أنَّ الابتلاء لطف من الله بالنسبة إلى عباده.

الترجمة

هر كس در كردار خود كوتاهى كند گرفتار اندوه شود و خدا نياز به كسى ندارد كه وى را در مال و جانش بهره اى نيست.

هر كه باشد در عمل تقصيركار　　زندگانيش بود اندوهبار

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/٣١٧ ح١٢٣.

الثالثة والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٣) وَقالَ عليه السلام: «تَوَقُّوا الْبَرْدَ في أَوَّلِهِ، وَتَلَقَّوْهُ في آخِرِهِ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ في الأَبْدانِ كَفِعْلِهِ في الأَشْجارِ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ، وَآخِرُهُ يُورِقُ»(١).

اللغة

(توقّى) توقيا فلاناً: حذر وخافه، تجنّبه **(أورق)** الشجر: ظهر ورقه ـ المنجد.

الإعراب

(توقّوا البرد)، أمر من باب التفعّل، والبرد مفعوله، **(في أوّله)**، ظرف مستقرّ حال عن البرد، **(يحرق ويورق)** متروكاً المفعول، ونزّلا منزلة اللازم، ولم نجد في اللغة أورق متعدياً يفيد هذا المعنى المقصود في المقام.

المعنى

المستفاد من هذا الكلام دستور صحّي لزمن الانتقال من حرّ الصيف والخريف إلى برد الشتاء، فالبدن يعتاد الحرارة طيلة أيّام الحرّ، فإذ جاء البرد يؤثّر فيه ويسبّب أمراضاً كثيرة، فيلزم حينئذٍ توقّي البرد ودفعه بالوسائل المعدّة لذلك من اللّباس والمنزل الدافىء.

ولكن بعد مرور الشتاء وحلول فصل الربيع اعتاد البدن بالبرد واستعدّ لتحمّله، فالتعرُّض له وتلقّيه بتخفيف اللّباس والخروج إلى البساتين والمتنزّهات غير مضرّ، بل نافع للبدن موجب لنشاطه وتقويته وتجديد قواه، كما أشار إليه بأنّه يورق وينفخ روح الحياة في الأشجار.

وقد أعطى الله هذا الأثر الحيوي للربيع بوسيلة الأمطار النازلة من السماء كما أشار إليه في غير واحد من آي القرآن الشريفة مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

(١) بحار الأنوار: ٥٩/ ٢٧١ ح٦٨، وميزان الحكمة: ٢/ ١٧٢٧ ح٢٤٠٨.

الترجمة

فرمود: خود را نگهدارید از آغاز پیدایش سرما و در پایان با آن درآمیزید، زیرا با تن شما همان کند که با درختان می کند، آغازش خزان سوزنده است و پایانش برگ سبز پرورنده.

ز آغاز سرما نگهدار خویش ولی آخرش را بیاور به پیش
که سرما کند در بدن ها اثر چنانی که دارد اثر در شجر
در آغاز سوزد به باد خزان در انجام برگ آرد و ارغوان

الرابعة والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٤) وَقالَ عليه السلام: «عِظَمُ ٱلْخالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ ٱلْمَخْلُوقَ في عَيْنِكَ»[1].

المعنى

طوبى لمن فتح عين قلبه ونفذ بصيرته إلى ما وراء ما يرى ببصره، فيدرك خالق الأشياء، ومصوّر الصّور الحسناء، وموجد الأرض والسماء وما بينهما وما تحت الثّرى، فيدرك عظمة الله الّذي أوجدها، فكلّما أدرك من عظمة الخالق يدرك صغر المخلوق ويصل إلى حدّ من العرفان يضمحلّ فيه المخلوق ولا يرى إلاّ الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٩].

الترجمة

بزرگوارى آفريننده در پيش تو، آفريده ها را در چشمت كوچك مى نمايد.

آفريننده را بزرگ شمار		آفريده به چشمت آيد خوار

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ١٠٩ ح ١٣، ومستدرك سفينة البحار: ٧/ ٣٥١.

الخامسة والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٥) وَقالَ عليه السلام وَقد رجع من صفّين فأشرف على ٱلقبور بظاهر الكوفة:

«يا أَهْلَ الدِّيارِ الْمُوحِشَةِ، وَٱلْمَحالِّ ٱلْمُقْفِرَةِ، وَٱلْقُبُورِ ٱلْمُظْلِمَةِ يا أَهْلَ التُّربَةِ، يا أَهْلَ ٱلْغُرْبَةِ، يا أَهْلَ ٱلْوَحْدَةِ، يا أَهْلَ ٱلْوَحْشَةِ، أَنْتُمْ لَنا فَرَطٌ سابِقٌ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لاٰحِقٌ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ، وَأَمَّا الأَزْواجُ فَقَدْ نُكِحَتْ، وَأَمَّ ٱلْأَمْوالُ فَقَدْ قُسِمَتْ، هٰذا خَبَرُ ما عِنْدَنا فَما خَبَرُ ما عِنْدَكُمْ؟.

ثمَّ التفت إلى أصحابه فقال: أَما لَوْ أُذِنَ لَهُمْ في ٱلْكَلاٰمِ لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوىٰ»[١].

المعنى

قد رجع عليٌّ عليه السلام من صفّين وملء قلبه الأسف على ما جرى في هذه المعركة الدامية الرهيبة من سفك الدّماء وقتل الأبرياء الأتقياء بيد العصابة القاسطة الباغية أتباع معاوية، وزاد عليه قضية الحكمين وفتنة الخوارج بما يتفرس منها ما سيقع في المستقبل القريب من تشتت أصحابه وتفرُّق جمعه، فهجم على قلبه الشريف همومٌ كأداء.

فلمّا أشرف على القبور توجّه إلى الأموات وناداهم بهذه الكلمات ليخفّف عمّا يجول في صدره الشريف من الأسفات، ولينبّه أصحابه على ما هو آت ويعظهم بلسان الأموات لعلّه يعالج ما عرض لهم من الجهالات والشهوات، فيؤوبون إلى الحقّ والطاعة لتدارك ما فات، ولكن هيهات، هيهات.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٦١٩ ح٤٨٨، ونهج السعادة: ٦/٣٢٦.

الترجمة

چون از میدان نبرد صفّین باز گشت و در نزدیك کوفه به گورستان رسید، فرمود:

ای اهالی خانه های هراسناك و محلّه های بی آب و نان و گورهای تاریك، ای گرفتاران در زیر خاك، ایا اهالی غربت و آواره گی، ایا اهالی تنهایی و یگانگی، ایا اهالی بیم و هراس، شما پیش غراولان ما همه هستید که جلو رفتید و ما همه به دنبال شما در کوچیم و به شما خواهیم پیوست. "بدانید" خانه های شما نشیمن دیگران شد، همسران شما شوهر کردند، اموال شما همه تقسیم شد، این است خبری که ما برای شما داریم، آیا پیش شما چه خبری هست؟ سپس رو به یارانش کرد و فرمود: الا اگر اجازه سخن داشتند به شما گزارش می دادند که: بهترین توشه راه آخرت همان پرهیزکاری است.

چون علی برگشت از صفّین نزار — بر مقابر پشت کوفه رهگذار
رو به سوی اهل گورستان نمود — با زبانش عقده دل را گشود
گفت ای اهل دیار پر هراس — ای گرفتاران جای آس و پاس
گورتان تاریك و بر سر خاکتان — وحدت و وحشت شده هم چاکتان
پیش تازانی ز ما هستید و نك — ما به دنبال شما بی ریب و شك
خانه هاتان شد نشیمنگاه غیر — با زنانتان شوهران در گشت و سیر
مالتان بر وارثان قسمت شده — اعتبار و جاه بی قیمت شده
این گزارش نزد ما بهر شما است — چه گزارش از شماها بهر ما است؟
رو به یاران کرد و می فرمود اگر — رخصتی شان بود در پخش خبر
این گزارش بودشان اندر زمان — بهترین توشه است تقوی ای فلان

السادسة والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٦) وَقالَ عليه السلام: «وَقد سمع رجلاً يذمُّ الدُّنيا: أَيُّهَا ٱلذَّامُّ لِلدُّنْيَا ٱلْمُغْتَرُّ بِغُرورِهَا ٱلْمُنْخَدِعُ بِأَباطِيلِها! أَتغْتَرُّ بِالدُّنْيا ثُمَّ تَذُمُّها أَنْتَ ٱلْمُتَجَرِّمُ عَلَيْها؟ أَمْ هِيَ ٱلْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ؟ مَتَى ٱسْتَهْوَتْكَ؟ أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ؟ أَبِمَصارِعِ آبائِكَ مِنَ الْبِلىٰ؟ أَمْ بِمَضاجِعِ أُمَّهاتِكَ تَحْتَ ٱلثَّرىٰ؟ كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ؟ وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ؟ تَبْغِي لَهُمُ الشِّفاءَ وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ ٱلأَطِبَّاءَ، غَدَاةَ لا يُغْني عَنْهُمْ دَواؤُكَ، وَلا يُجْدي عَلَيْهِمْ بُكاؤُكَ، وَلَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفاقُكَ، وَلَمْ تَسْعَفْ بِطِلْبَتِكَ وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ! وَقَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيا نَفْسَكَ، وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ! إِنَّ الدُّنْيا دارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَها، وَدارُ عافِيَةٍ لِمَن فَهِمَ عَنْها، وَدارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْها، وَدارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِها مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ ٱللّهِ، وَمُصَلَّى مَلائِكَةِ ٱللّهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ ٱللّهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِياءِ ٱللّهِ، ٱكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا فِيهَا ٱلْجَنَّةَ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّها وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِها، وَنادَتْ بِفِراقِها، وَنَعَتْ نَفْسَها وَأَهْلَها، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلائِهَا ٱلْبَلاءَ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِها إِلَى السُّرُورِ؟! راحَتْ بِعافِيَةٍ وَٱبْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تَرْغيباً وَتَرْهيباً، وَتَخْويفاً وَتَحْذِيراً، فَذَمَّها رِجالٌ غَداةَ النَّدامَةِ، وَحَمِدَها آخَرُونَ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيا فَتَذَكَّرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا»[1].

اللغة

(تجرّم عليه): اتّهمه بجرم **(المصرع)**: مكان الصرع، صرع صرعاً: طرحه على الأرض **(ضجع)** وضع جنبه بالأرض **(المضجع)** ج: مضاجع: موضع الاضطجاع ـ المنجد ـ **(استهوتك)** طلبت أن تهويها **(مثّلت)**: صوّرت.

الإعراب

(فمن ذا يذمّها)، ذا موصولة بمعنى الذي، وجملة يذمّها صلة لها. **(راحت بعافية)**، الباء للإلصاق. ترهيباً **(وثلاث بعدها)** مفعول له لقوله: راحت وابتكرت وهل يجري فيها تنازع العاملين، موضع تأمّل، لأنّ هذه النتائج تحصل بالفعلين معاً، وهل يصحّ عمل عاملين في معمول واحد؟ فتدبّر.

---
(١) عيون الحكم والمواعظ: ١٤٤، وميزان الحكمة: ٤/٣٥٧٧.

المعنى

قد تعرّض عليه السلام في هذه الحكمة لأمور هامّة:

١ ـ نقد أدبيّ بالغ متوجّه إلى الشعراء والخطباء من أهل كلّ لسان فإنّ أشعارهم وخطاباتهم مليئة بذمّ الدّنيا والشكوى عنها بأرضها وسمائها وأفلاكها ونجومها وأقمارها، فقلّما يخلو شعر شاعر أو كلام خطيب من المذمّة للدّنيا بوجه مّا.

٢ ـ درس نافع وبليغ للتربية وفلسفة رشيقة لطور الاستفادة من الدُّنيا وما فيها، وبيّن عليه السلام أنَّ ما هو خارج عن وجود الإنسان ينعكس فيه على ما يطلبه ويبتغيه، فالأمور كيف ما كانت في جوهرها إنما ترتبط بالإنسان على ما يشكلها هو لنفسه.

فالمؤثر في حسن الأشياء وقبحها وذمّها ومدحها هو الإنسان فإنه يقدر أن يستفيد من كلّ شيء أحسن استفادة إذا نظر إليه بالتعقّل والتدبّر اللائق.

فالدُّنيا وما فيها كتاب تلقى دروساً نافعة للمتعلّم اللائق والطالب الشائق ولكن الكسل الرّاغب عن الإستفادة يمقتها ويعرض عنها ويذمّها كالطالب المدرسي اللّاهي الملاعب المعرض عن تحصيل الدروس المقرَّرة في المدارس والمكاتب، فإنه ينظر إلى الكتب الدرسية والتعليمات المدرسية نظر النفور والعداوة، ويحسبها عداوة لملاهيه ومانعة عما يشتهيه ويتّهمها بالجرم ويحكم عليها بالعقوبة.

كما أنَّ الجاهل ينظر إلى ما لا يدرك فائدته من مظاهر الطبيعة بنظر المقت والسخريّة، فيقول: لما هذه الجبال الوعرة الشاهقة، وهذه الصحاري القفرة المجدبة، وهذه الأبحر الرهيبة الواسعة، ولماذا؟! ولماذا؟!

ولكن العلم الحديث قد توجّه إلى اكتناه هذه الأمور وشرع بدرس كلّ من الكائنات من الذرّة إلى الدرّة، واكتشف فوائد قيّمة وآثاراً معجبة أودعها الله فيها.

٣ ـ تعرَّض لتحليل الدُّنيا وتجزئتها من ناحية دروس العظة والاعتبار بها وبما يجري فيها من الحوادث الجارية السارية إلى أبناء البشر جمعاء.

فيعاتب من ذمّه بقوله عليه السلام: متى طلبت منك الدُّنيا أن تحبّه وجعلت تخدع لك، مع أنها صوّرت لك من نفسها أبشع صور النفور والرَّدع عن التقرُّب بها.

فتعرَّض عليه السلام لأنكى مصائب الدُّنيا وأفجع حالة منها وهو النظر إلى قبور الأباء ومراقد الأمّهات تحت الثرى، وفي مرض الموت حين يتململون من الوجع ويلتمسون النجاة بكلّ

جزع، فيطلب الابن علاجهم ويركض وراء الطبيب والأدواء لشفائهم فلا يغني عنهم شيئاً.

ثمَّ نبّه عليه السلام على أنَّ ما يراه الإنسان من مرض الموت في أبيه وأُمّه وما يؤول حاله إليه من الهلاك والدفن تحت التراب مقدَّر له ومصوّر تجاه عينه بالنسبة إلى نفسه، وكفى بذلك عبرة لكلّ أحد.

ثمَّ بيّن طريق الاستفادة من الدُّنيا وأنها تعاون على السعادة في العقبى ومدحها بأوصاف حميدة عدة:

١ ـ دار صدق لمن صدقها.

٢ ـ دار عافية لمن فهم عنها.

٣ ـ دار غنى لمن تزوّد منها.

٤ ـ دار موعظة لمن اتّعظ بها.

٥ ـ مسجد أحبّاء الله، ومصلّى الملائكة، ومهبط الوحي، ومتجر الأولياء اكتسبوا فيها الرَّحمة، وربحوا فيها الجنّة.

ثمَّ اعتذرت عن الدُّنيا بأنها طلبت الفراق وأخبرت عن فنائها مع أهلها وصورت عذاب الأخرة وسرور الجنّة وقامت واعظة بليغة لأبنائها بحوادث العافية والفجيعة المتبدّلة ليلاً ونهاراً، وكفى بذلك وسيلة للترهيب عن الشرّ والترغيب إلى الخير والتخويف والتحذير عن ارتكاب المعاصي.

٤ ـ دواء نافع لرفع الكسل والإهمال العارض لكثير من الأشخاص وخصوصاً الشبّان في هذا الزمان فيفقدون نشاطهم ويقطعون رجاءهم عن الحياة ويتنفّرون من الدُّنيا حتّى يقدموا على الانتحار وقتل النفس.

وقد توجّه علماء علم النفس إلى نفخ روح النشاط والرَّجاء بالحياة في عروق هؤلاء وتوسّلوا بكلّ وسيلة تبليغيّة، وحكمته هذه من أحسن الوسائل وأنجع الأدواء لهذا الداء العضال، ويستشمُّ من التدبّر فيها الاعتماد بالنفس لكلّ شخص.

الترجمة

مردی در حضرتش دنیا را به باد نکوهش گرفت و چون شنید، چنین فرمود:

ای کسی که از دنیا نکوهش می کنی و بد می گویی، تو خود فریفته آنی و گول بی هودگی های آن دامن گیر تو است، تو خود فریفته دنیا شدی و دل بدان بستی، سپس از آن بد می گویی؟ عیبش میجویی؟ تو باید دنیا را مجرم شماری یا این که دنیا حق دارد تو را مجرم بداند؟ کی دنیا به تو اظهار عشق کرد و کی و کجا تو را فریفت و چه ناز و کرشمه ای با تو کرد؟

راستی تو را بهوسیله گورهای پوسیده پدرانت فریفت یا خوابگاه درون گور مادرانت؟ چقدر برای زندگی آنها در بستر مرگ دست و پا زدی و از آنها پرستاری کردی و دنبال بیمارستان و پزشك دویدی، در آن بامدادی که درمان تو دردی از آنها دوا نکرد و گریه و زاریت سودی بدانها نداد و شفقت و مهربانیت به درد آنها نخورد و نفعی برایشان نداشت، درخواست تو درباره نجات آنها به اجابت نرسید و با همه نیروی خود نتوانستی در برابر مرگ از آنها دفاع کنی، دنیا با همین مناظر آینده خودت را در برابرت مجسم کرد و قتلگاهت را به تو نشان داد.

راستی که دنیا محیط راستی است برای کسی که به راستی با آن درآید و خانه عافیت و آسایش است برای کسی که به خوبی آن را بفهمد، خانه بی نیازی و ثروت است برای کسی که از آن توشه برگیرد، خانه پند است برای کسی که بدان پند پذیرد، مسجد دوستان خدا است، محل نماز فرشته های خدا است، فرودگاه وحی خدا است، تجارتخانه اولیاء خدا است، در آن کسب رحمت نموده و بهشت را بهره و سود گرفتند.

کی است آن که نکوهشش می کند با این که دنیا است که خود اعلام جدایی کرده و فریاد مفارقت خود را بلند کرده است و خبر مرگ خود و اهل خود را منتشر ساخته، با بلاهای خود بلای دوزخ را مجسم کرده و با شادمانی خود شادمانی بهشت را پیش چشم آورده، شامگاهان آسایش آرد و بامدادان فاجعه و سوگ زاید برای این که بیم دهد و تشویق سازد و بترساند و اخطار حذر کند، مردمی در

فردای پشیمانی از کارهای خود آن را مذمّت کنند و نیکوکاران در روز قیامت آن را بستایند، زیرا دنیا به آنها یادآوری داد و آنها یادآور شدند و با آنها حدیث کرد و تصدیقش کردند و آنها را پند داد و پندپذیر شدند.

نیوشید علی ذمّ دنیا ز مردی بفرمود با وی تو دانی چه کردی؟
تو خوردی فریب جهان فریبا به بیهودگی هاش دلدادی آیا؟
تو او را به جزم و خطا در کشیدی؟ و یا جام جرمت ز دستش چشیدی؟
ز کی از تو دل برده دنیای زیبا؟ فریب تو کی داده است آن فریبا؟
فریبد به پوسیده گور نیایت؟ و یا مرقد خاکی مامهایت؟
ندیدی که در بستر مرگ آنان تلاشی نمودی براشان فراوان؟
برآوردی از آستین دست قدرت بجستی تو درمانشان را به همّت
پزشکان طلب کردی از بهر آنها نبردند سودی نه از تو نه زانها
نشد گریه های تو درمان دردی نه زان شفقت و مهر کاری تو کردی
اجابت نشد بهر آنها دعایت نکردی دفاعی از آنان به قوتّ
برایت مجسم نمود است دنیا سرانجام کار خودت را چه آنها
تو دنیا نگر خانه راستی بر آن کس که جوید در آن راستی
بود خانه عافیت بهر آن که فهمد چه بازی کند اندر آن
بود خانه بی نیازی هر کس که جوید در آن توشه روز واپس
بود خانه پند گر تو پذیری ز هر جنبشش می شود پندگیری
احبّاء حق راست پاکیزه مسجد برای ملائك مصلاً و معبد
بود مهبط وحی حق خدایش تجارت گه بیغش اولیایش
در آن کسب رحمت نمایند و غفران وز آن بهره گیرند مینوی رضوان
چه کس می نماید زدنیا نکوهش که اعلام تفریق کرد است و کوچش
خبر داده از مرگ خود با تبارش چه دشمن شماری تو او را چه یارش
مجسّم کند با بلایش بلا را به شادیش شادی نماید شما را
نمودی ز دوزخ نویدی ز جنّت نمایش دهد بر تو ای بی مروّت
نکوهش کنندش فردا کسانی که هستند نادم ز غفلت پرانی
ستایند او را دیگر مردمانی که پندش پذیرفته با شادمانی

السابعة والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٧) وَقالَ عليه السلام: «إِنَّ لِلّهِ مَلَكاً يُنَادي في كُلِّ يَوْمٍ: لِدوُا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ»[١].

الإعراب

(ينادي في كل يوم)، جملة فعلية مبدوّة، بالمضارع للدّلالة على الاستمرار وهي صفة لقوله: ملكاً، **(لدوا)**، فعل الأمر الحاضر من يلد خطاب لعامّة الوالدين من الإنسان والحيوان بل والنباتات والجمادات، فإنّ كلّ موجود مادّي زوج تركيبي متولّد من أصلين أو من أصول، وهذا هو معنى الكون والتّكوين ومآله إلى الفناء والفساد لا محالة لتصح القافية في جملة ـ عالم الكون والفساد ـ و**(اللّام)** في قوله: للموت، لام العاقبة.

الترجمة

فرمود: خدای تعالی فرشته ای دارد که آن را گماشته تا هر روز جار می کشد بزایید برای مردن و بسازید برای ویران شدن و گردآورید برای نیست شدن.

از بـرای خـدا فـرشـتـه یـکـی | کـه بـه هـر روز جـار مـی کـشـد عـلـنـی
بـچـه آریـد تـا بـمـیـرد، هـان | خـانـه سـازیـد تـا شـود ویـران
گـرد سـازیـد مـال بـهـر فـنـا | کـه بـقـا خـاص حـق بـود تـنـهـا

(١) عيون الحكم المواعظ: ١٦٠، وبحار الأنوار: ٧٩/ ١٨٠ ح٢٥.

الثامنة والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٨) وَقال عليه السلام: «الدُّنْيا دٰارُ مَمَرٍّ، لا[١] دٰارُ مَقَرٍّ، وَالنَّاسُ فيها رَجُلانِ: رَجُلٌ باعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَها، وَرَجُلٌ ابْتاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَها»[٢].

اللغة

(أوبقها): أهلكها. **(ابتاع)**: اشترى.

المعنى

(رجلان) في كلامه عبارة عن الجنس فيفيد العموم ويشمل النساء والرِّجال وبيع النّفس كناية عن تعويضها من متاع الدُّنيا الفاني باتّباع الشهوات النفسانيّة وابتياعها كناية عن تحريرها من القيود الطبيعيّة الظلمانيّة والغرائز الحيوانيّة ببذل الرياضة والتزكية الروحيّة.

الترجمة

فرمود: دنيا گذرگاهى است به پايگاه جاويد ديگر سراى و مردمش دو كس باشند: مردى كه خود را فروخته و نابودش ساخته و مردى كه خود را خريده و آزاد كرده.

گذرگاهى است اين دنياى چرخان — به سوى پايگاهى كش نه پايان
بشر در آن دو كس باشند ممتاز — ز همديگر جدا در عيش و سامان
يكى از خودفروشى گشته نابود — يكى خود را خريد و شد خرامان

(١) «إلى» في نسخة.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٣٠، وميزان الحكمة: ١/ ٥٨٣ ح٧٨٢.

التاسعة والعشرون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٢٩) وَقالَ عليه السلام: «لا يَكُونُ الصَّديقُ صَديقاً حَتَّى يَحْفَظَ أخاهُ في ثَلاثٍ: في نَكْبَتِهِ، وَغَيْبَتِهِ، وَوَفاتِهِ»[1].

اللغة

(النكبة) ج: نكبات: المصيبة ـ المنجد.

المعنى

قد بيّن عليه السلام في هذه الحكمة شرائط الصداقة الّتي ما أكثر مدّعيها وأقلّ الوفيّ فيها، وعلى ما ذكره لا يعرف صداقة الصديق بكمالها إلاّ بعد الموت فمالها؟ إلاّ أن يجعل الوفاء بالشرطين الأوّلين أمارة قطعيّة على الثالث.

الترجمة

فرمود: يار وفادار نيست تا برادر خود را در سه حال نگهدارد: در گاه سوگ و مصيبت، و در نهانى و غيبت و در وفات درگذشت.

مدان يار، يار وفادار خود | مگر در سه جا ديده غمخوار خود
به گاه بلا و به حفظ الغياب | به هنگام مردن كه كار تو شد

(١) بحار الأنوار: ٧١/١٦٣ ح٢٨، ومستدرك سفينة البحار: ١/٦٩.

الثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٠) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً: مَنْ أُعْطِيَ الدُّعاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإِجابَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الإِسْتِغْفارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيادَةَ»[١].

وَتصديق ذلك في كتاب الله تعالى، قال في الدُّعاء: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقال في الاستغفار: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠] وقال في الشُّكر: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال في التَّوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧].

(١) تدوين القرآن: ٤٧٦.

الترجمة

فرمود: هر که را چهار چیز دادند از چهار دیگرش دریغ ندارند: هرکس توفیق دعا یافت، از اجابت محروم نیست و هرکه توفیق توبه یافت، از پذیرش محروم نیست و هرکه توفیق پوزش و طلب آمرزش یافت، از آمرزش محروم نیست و هرکس به سپاس نعمت پرداخت، از فزونی نعمت محروم نیست.

و دلیل بر آن در کتاب خدا است، خدا درباره وی فرموده: "مرا بخوانید تا شما را اجابت کنم"(مؤمن/ ٦٠) و درباره استغفار فرموده: "هر که بد کند یا به خود ستم کند، سپس از خدا آمرزش خواهد، دریابد که خدا بسیار آمرزنده و مهربان است"(النساء/ ١١٠) و درباره شکر فرموده: "اگر مرا سپاس گزارید نعمت شما را افزون کنم"(ابراهیم/ ٧) و درباره توبه فرموده: "همانا پذیرش توبه بر خدا برای کسانی است که به نادانی کار بد کنند، سپس زود توبه کنند، آنان اند که خداوند توبه شان را بپذیرد و خدا دانا و حکیم است"(النساء/ ١٧).

فرمود علی که چار خصلت	بر هر که نصیب شد ز رحمت
محروم نشد ز چار دیگر	قرآن شریف را تو بنگر
توفیق دعاء هر کسی یافت	حق نور اجابتش عیان ساخت
هر کس که به توبه شد موفق	دارد ز قبول توبه رونق
هرکس طلبید باب غفران	محروم نشد ز مغفرت هان
هرکس که به شکر دست یابد	حق نعمت و عزّتش فزاید

الحادية والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣١) وَقالَ عليه السلام: «الصَّلاةُ قُرْبانُ كُلِّ تَقِيٍّ، وَالْحَجُّ جِهادُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكاةٌ وَزَكاةُ الْبَدَنِ الصِّيامُ، وَجِهادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ»(١).

اللغة

(قرب) قرباناً من الشيء: دنا منه ـ المنجد ـ (التبعّل) معاشرة البعل وصحبته.

المعنى

الهدف الغائي من العبادات ردع النفوس عن الشهوات والتوجّه إلى المادّيات وتوجيهها إلى حضرة القدس الإلهيّة، وحظيرة الأنس الربّانية، فروح العبادة التقرُّب إلى الله والانخلاع عن ظلمات الطبيعة الكامنة في الغرائز البشريّة.

وأكمل العبادات وعمودها الصّلاة فإنها شرعت لقيام العبد بين يدي ربّه والاشتغال بالمناجاة معه بنفسه من دون وسيط وحاجب، ولكنها تؤثر في التقرُّب باعتبار حضور القلب والتوجّه إلى الله بالعبودية والإخلاص وقطع النظر عن الناس والاتّقاء من كلّ ما يوجب التشويش والوسواس من الخنّاس، فالتقوى شرط جوهريٌّ لقبول العبادة وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] فتأثير الصّلاة في التقرُّب إليه تعالى مشروط بالتقوى.

والزكاة شرعت لتطهير المال عن الحقوق المتعلّقة به للفقراء والمصارف العامّة المعبّر عنها بسبيل الله وغير ذلك، فإخراجها موجب للبركة والنموّ، كما أنَّ تنمية الأشجار والاستثمار منها تحتاج إلى تطهيرها من الزوائد.

والصّوم تزكية للبدن تؤثّر في سلامته عن الأمراض المتولّدة من كثرة الأكل، وتنوّره برفع أستار الظلمة الملقاة إليه من عوارض البطنة المذهبة للفطنة.

والجهاد أشقّ العبادات، لما فيه من تكلّف المواجهة مع العدوّ والاستعراض للجرح والقتل، وقطع الرجاء من المال والأهل، ويشترك الحجُّ معه من نواح شتّى فكان الحجّ جهاد

(١) بحار الأنوار: ١٠/ ٩٩، وبحار الأنوار: ٧٥/ ٦٠ ح١٣٨.

الضعفاء المعافين أو المعذورين عن الجهاد.

وجهاد المرأة هو حسن المعاشرة مع زوجها وتحمّل المكاره المتوجّهة منه إليها من سوء القول والفعل، فربما يكون أقواله وأعماله جارحات القلوب، فصبر المرأة تجاهها تعدّ من الجهاد.

الترجمة

نماز وسيله تقرّب هر پرهيزكارى است و حج، جهاد هر ناتوانى است و براى هر چيزى زكاتى است و زكات تن سالم روزه است و جهاد زن، خوب شوهردارى كردن است.

نماز است قربان پرهيزكار — تو حج را جهاد ضعيفان شمار
زهر چيز بايد زكاتى دهند — زكات بدن روزه حق پسند
جهاد زنان در بر شوهر است — كه باشند خوش خوى شوهر پرست

الثانية والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٢) وَقال عليه السلام: «اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ، وَمَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جادَ بِالْعَطِيَّةِ»[١].

المعنى

قد ورد في أخبار كثيرة أنّ الرزق مقسوم ومقدّر من الله لكلّ أحد، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨] أي لا رازق غيره ولكن وصول هذا الرزق المقسوم مشروط بالتكسّب والاستنزال، وهو على قسمين:

١ ـ ما هو المتعارف بين النّاس من طلبه بالأشغال والمكاسب المتعارفة.

٢ ـ ما قرّر في الشرع من وسائل طلب الرزق ومنها بذل الصدقة للمستحقّ بقصد القربة، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ وقد قرّره الله تعالى من أرباح المزارعة الّتي تكون وسيلة ناجحة لطلب الرزق عند الناس فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

الترجمة

فرمود: روزى خود را بهوسيله صدقه دادن فرود آوريد.

گر تصدق به مستمند دهى روزيت ز آسمان فرود آيد

(١) بحار الأنوار: ٧٥/٦٨ ح١٣، ومستدرك سفينة البحار: ٦/٢٤٩.

الثالثة والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٣) وَقالَ عليه السلام: «تَنْزِلُ ٱلْمَعُونَةُ عَلىٰ قَدْرِ ٱلْمَؤُونَةِ»[١].

اللغة

(المؤونة) تهمز ولا تهمز وهي فعولة، وقال الفرّاء: هي مفعلة من الأين وهو التعب والشدّة ويقال: مفعلة من الأون وهو الخروج عن العدل لأنّه ثقل على الإنسان، كذا قال الجوهري ـ مجمع البحرين.

المعنى

الظاهر أنّ المراد من المؤونة المصارف المالية كما ورد في الحديث: **(الخمس بعد المؤونة)**[٢]، ومن يصرف مالاً أكثر على عياله أو غيرهم فيكسب منهم الإعانة على أموره، فكلّما كان المصرف أكثر كان جلب الإعانة بمقدارها، وإن كانت المؤونة في سبيل الله وعلى وجه التصدُّق تندرج في الحكمة السابقة، ويؤيّده لفظة: تنزل.

الترجمة

كمك به اندازه صرف مال نازل مى شود.

اندازه صرف مال وجاهت آيد ز خدا كمك برايت

(١) بحار الأنوار: ١٠١/ ٧٢ ح١٧، ومستدرك سفينة البحار: ٧/ ٤٨٥.

(٢) الكافي: ١/ ٥٤٧، ومن لا يحضره الفقيه: ٢/ ٤٢ ح ١٦٥٢.

الرابعة والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٤) وَقالَ عليه السلام: «ما عالَ امْرُؤٌ اقْتَصَدَ»[1].

اللغة

(عال) عيلاً وعيلة: افتقر.

المعنى

بيّن عليه السلام أنَّ الاقتصاد علاج للفقر والأعواز، ويطلق على معنيين:

١ ـ الاقتصار في المخارج على قدر المنافع، وتطبيق المصارف الماليّة على ما يحصل من الفائدة بالكسب وغيره.

٢ ـ السعي في تكثير الأرباح والفوائد بتوسيع العمل وتجويد الصناعة والمكاسب الأخر.

الترجمة

هركس اقتصاد پيشه كند، تنگ دست نشود.

هر كه دارد اقتصاد اندر معاش ره نيابد فقر و درويش به جاش

(١) بحار الأنوار: ٦٨/٣٤٧ ح١٤، ومستدرك سفينة البحار: ٨/٥٢٨.

الخامسة والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٥) وَقالَ عليه السلام: «قِلَّةُ ٱلْعِيالِ أَحَدُ ٱلْيَسارَيْنِ، وَالتَّوَدُّدُ نِصْفُ ٱلْعَقْلِ، وَٱلْهَمُّ نِصْفُ ٱلْهَرَمِ»[١].

اللغة

(اليسار) السهولة والغنى.

المعنى

(اليسر واليسار) هو سهولة المعاش لوجود الثروة والمال، فيقدر الموسر على إدرار مصارف النفقة على نفسه وعياله فيسهل عليه المعاش، ويقابله العسر وقلّة المال الموسر صفة للغنيّ كما أنَّ المعسر صفة للفقير.

وكما أنَّ سهولة المعاش تحصل بوجود المال كذلك تحصل بقلّة العيال ومن يلزم الإنفاق عليه، فإطلاق اليسار على قلّة العيال لا يبعد أن يكون على وجه الحقيقة، وقال ابن ميثم: إطلاق اليسار على قلّة العيال مجاز إطلاقاً لاسم المسبّب على السّبب، فتدبّر.

الترجمة

فرمود: كمى نانخواران يكى از دو نوع خوشگذرانى است و اظهار مهر به همكنان نيمى از خردمندى است و اندوهبارى نيمى از شكست پيرى است.

كم عيالى نيمى از ثروت بود	مهرورزى نيمى از عقلت بود
نيمى از پيرى است اندوه و غمت	شاهد آن است چهر در همت

(١) درر الأخبار: ٥٤، وكنز العمال: ٣/ ٤٩ ح٥٤٣٥.

السادسة والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٦) وَقالَ عليه السلام: «يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلىٰ قَدْرِ ٱلْمُصيبَةِ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلىٰ فَخِذِهِ عِنْدَ مُصيبَتِهِ حَبِطَ أَجْرُهُ[١]»[٢].

المعنى

(الصّبر)، هو المقاومة تجاه المكاره والبلايا قولاً وعملاً، فالصّابر يستقبل المصيبة مع طمأنينة ووقار ولا يجري على لسانه الشكوى من الله ولا يرتكب عملاً يدلّ على الجزع، وقد نهى عن أعمال مخزية جرت العادة بها عند المصيبة، كخمش الوجوه وجزّ الشعور، والويل والثبور، لأنَّ الله تعالى من فضله أعطى قوّة الاصطبار لعباده وينزل البلاء على مقدار ما أعطاه من الصّبر.

وقد ورد في الحديث: إنَّ الله أعطى المرأة صبر عشرة رجال، لأنها معرض للمكاره والبلايا أكثر من الرَّجل، منها الابتلاء بالدِّماء الثلاث والحمل والولادة ولزوم إطاعتها للزّوج في أُمور خاصّة، وهذا كلّه يحتاج إلى قوّة الصّبر وشدَّة الشكيمة.

وقد أشار عليه السلام إلى أنّ أقلَّ مراتب إظهار الجزع يوجب حبط أجر المصيبة كضرب اليد على الفخذين لإظهار التأسّف والتوجّع.

الترجمة

فرمود: شكيبايى به اندازه مصيبت عطا مى شود و هر كس هنگام مصيبت دستش را به ران هايش بكوبد و اظهار بى تابى كند، اجرش از ميان برود.

به قدر هر مصيبت صبر دادند	و زان بر ريش دل مرهم نهادند
مكن بى تابى و بر ران مزن دست	كه اجر خود برى با ضربت دست

---

(١) «عمله» في نسخة.

(٢) بحار الأنوار: ٧٩/١٣٥ ح١٩، وشرح نهج البلاغة: ١٨/٣٤٢.

السابعة والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٧) وَقال عليه السلام: «كَمْ مِنْ صائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيامِهِ إلاَّ ٱلْجُوعُ وَالظَّمأُ، وَكَمْ مِنْ قائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيامِهِ إلاَّ السَّهَرُ وَٱلْعَناءُ، [و] حَبَّذا نَوْمُ ٱلْاكْياسِ وَإِفْطارُهُمْ»[1].

اللغة

(سَهَرَ) سَهَراً: لم ينم ليلاً (الكياسة) تمكين النفس من استنباط ما هو أنفع فهو كيس ج: أكياس وكيسى ـ المنجد.

الإعراب

(الجوع) مستثنى مفرّغ وفي مقام اسم ليس مرفوعاً، (حبّذا) من أفعال المدح، وذا فاعله (ونوم الأكياس) المخصوص بالمدح خبر مبتدأ محذوف أي هو نوم الأكياس.

المعنى

التوجّه إلى الله تعالى مع الإخلاص روح العبادة، فمن لا يقارن عبادته بحضور القلب والإخلاص لا تؤثر في نفسه، فصلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر، ولا تقرّبه إلى حضرة الخالق الأكبر، وصومه لا يصير زكاة لبدنه ولا يكون جنّة له من النار، ويشترط في قبول العبادة شروط أُخر كالولاية والأكل الحلال والاجتناب عن شرب الخمر فإذا فقدت شرائط العبادة لم يبق منها إلاّ التعب والعناء، والسّهر والظمأ.

الترجمة

چه بسيار روزه دارى كه از روزه اش سودى ندارد جز گرسنگى و تشنگى و چه بسيار شب زنده دارى كه از شب زنده دارى اش بهره اى نبرد جز بى خوابى و رنج؛ وه چه خوب است خواب عارفان زيرك و هم افطارشان در روز.

چه بسيار كس روزه دارد ولى ... ندارد به جز جوع زان حاصلى
بسا كس كه شب زنده دار است ليك ... نه جز رنج و بى خوابى اش نائلى
خوشا خواب آن هوشمندان پاك ... كه افطار دارند و صاحبدلى

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٨٠، وبحار الأنوار: ٦٧/ ٢٨٣ ح٦.

الثامنة والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٨) وَقالَ عليه السلام: «سُوسُوا إِيمانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوالَكُمْ بِالزَّكاةِ، وَادْفَعُوا أَمْواجَ الْبَلاءِ بِالدُّعاءِ»(١).

اللغة

(ساس) القوم: دبّرهم، ساس الأمر: قام به ـ المنجد.

الإعراب

(سوسوا): جمع الأمر الحاضر من ساس يسوس، وإيمانكم مفعوله.

المعنى

الإيمان سراج القلب ونوره الّذي يتلألأ على المشاعر والحواسّ والأعضاء فيضيئها، وأمارة ضيائها أنها تعمل عملها اللائق بها، فتفهم الحق وتحسّ إحساساً إيمانياً، وتعمل بالخير وتدعو إليه، فلا بدّ من تدبيره والقيام بأمره وحفظه عن الضعف والانطفاء.

والإنفاق في سبيل الله والصدقة لله يزيده ضياءً ونوراً، وأداء الزكاة موجب لاستغناء الفقراء وعفافهم عن مدّ أيديهم إلى أموال أصحاب الزكاة، مضافاً إلى أنَّ أداء الزكاة يحصن المال بلطف من الله وحفظه عن التلف والسرقة والحرقة.

والدُّعاء إلى الله لدفع البلايا ورفعها من الدُّعاء المستجاب كما ورد في كثير من الأخبار ونصّ عليه الكتاب فقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

الترجمة

فرمود: ايمان خود را بهوسيله صدقه دادن حفظ كنيد و اموال خود را با پرداخت زكات نگهدارى نماييد و بيمه كنيد و امواج بلا را بهوسيله دعا از خود دور كنيد.

تصدّق كن از بهر ايمان خود زكاتت بده حفظ كن مال خود
بگردان تو موج بلا با دعا به درگاه حق بازگو حال خود

(١) بحار الأنوار: ٩٣/٢٢ ح٥٣، وشرح نهج البلاغة: ١٨/٣٤٥.

التاسعة والثلاثون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٣٩) وَقالَ عليه السلام: لكُميل بن زياد النخعي رحمه الله، قال كُميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبَّان فلمَّا أصحر تنفَّس الصعداء، ثمَّ قال:

«يا كُمَيْلُ إنَّ هٰذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُها أوْعاها، فَٱحْفَظْ عَنِّي ما أَقُولُ لَكَ:

اَلنَّاسُ ثَلاثَةٌ: فَعالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلىٰ سَبيلِ نَجاةٍ، وَهَمَجٌ رعاعٌ أتباعُ كُلِّ ناعِقٍ يَميلُونَ مَعَ كُلِّ ريحٍ، وَلَمْ يَسْتَضيئوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَأوا إِلىٰ رُكْنٍ وَثيقٍ.

يا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْمالِ، ٱلْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ ٱلْمالَ، وَٱلْمالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإِنْفاقِ، وَصَنيعُ ٱلْمالِ يَزُولُ بِزَوالِهِ.

يا كُمَيْلُ، ٱلْعِلْمُ دِينٌ يُدانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ ٱلإِنسانُ الطّاعَةَ في حَياتِهِ، وَجَميلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفاتِهِ، وَٱلْعِلْمُ حاكِمٌ وَٱلْمالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يا كُمَيْلُ، هَلَكَ خُزّانُ ٱلأَمْوالِ وَهُمْ أَحْياءٌ وَٱلْعُلَماءُ باقُونَ ما بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثالُهُمْ في ٱلْقُلُوبِ مَوْجودَةٌ، ها إِنَّ هٰهُنا لَعِلْماً جَمّاً - وأشار بيده إلىٰ صدره - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً، بَلىٰ أُصيبُ[1] لَقِناً غَيْرَ مأمُونٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدّينِ لِلدُّنْيا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللّهِ عَلىٰ عِبادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلىٰ أَوْلِيائِهِ، أَوْ مُنْقاداً لِحَمَلَةِ ٱلْحَقِّ لا بَصيرَةَ لَهُ في أَحْنائِهِ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ في قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ ألا لا ذا وَلا ذاكَ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ سَلِسَ ٱلْقِيادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالإِدِّخارِ، لَيْسا مِنْ رُعاةِ الدّينِ في شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِما ٱلأَنْعامُ السّائِمَةُ، كَذٰلِكَ يَمُوتُ ٱلْعِلْمُ بِمَوْتِ حامِليهِ.

اَللّٰهُمَّ بَلىٰ، لا تَخْلُو ٱلأَرْضُ مِنْ قائِمٍ للّهِ بِحُجَّةٍ: إِمّا ظاهِراً مَشْهُوراً أَوْ خائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللّهِ وَبَيِّناتُهُ، وَكَمْ ذا وَأَيْنَ أُولٰئِكَ؟ أُولٰئِكَ - وَاللّهِ - ٱلأَقَلُّونَ عَدَداً، وَٱلأَعْظَمُونَ[2] قَدْراً، يَحْفَظُ ٱللّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّناتِهِ حَتّى يُودِعُوها نُظَراءَهُمْ، وَيَزْرَعُوها في قُلُوبِ أَشْباهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ ٱلْعِلْمُ عَلىٰ حَقيقَةِ ٱلْبَصيرَةِ، وَباشَرُوا رَوْحَ ٱلْيَقينِ وَاسْتَلانُوا ما اسْتَوْعَرَهُ ٱلْمُتْرَفُونَ،

---

(١) «أصبتُ» في نسخة.

(٢) «عند الله» في نسخة.

وَأَنِسُوا بِمَا اَسْتَوْحَشَ مِنْهُ اَلْجاهِلُونَ وَصَحِبُوا الدُّنْيا بِأَبْدانٍ أَرْواحُها مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ[١] الأَعْلىٰ، أُولٰئِكَ خُلَفَاء اللّهِ في أَرْضِهِ، وَالدُّعاةُ إِلىٰ دينِهِ، آهْ آهْ شَوْقاً إِلىٰ رُؤْيَتِهِمْ، إِنْصَرِفْ يا كُمَيْلُ إِذا شِئْتَ[٢].

اللغة

(وعيت) العلم إذا حفظته، والوعاء بالفتح وقد يضمّ، والأوعاء بالهمز واحد الأوعية وهو الظرف، **(الجبان)** الصحراء، **(الصعداء)**: نوع من التنفّس يصعده المتلهّف والحزين، **(الهمج)** ذباب صغيرة كالبعوض، **(الرعاع)** كسحاب العوام والسفلة وأمثالهم، الواحد رعاعة.

(اللّقن): سريع الفهم، **(الأحناء)**: الجوانب، **(المنهوم باللّذة)** الحريص عليها، **(المغرم بالجمع)**: شديد المحبّة له، **(هجم)**: دخل بغتة **(استلان)** الشيء وجده ليّناً **(استوعر)** المكان أو الطريق: وجده وعراً.

الإعراب

(تنفّس الصعداء): الصعداء مفعول مطلق نوعي، **(أتباع كلّ ناعق)**، خبر بعد خبر، وجملة **(يميلون)**، صفة، **(ما بقي الدّهر)**: لفظة (ما)، مصدريّة زمانية، **(ها)**، حرف تنبيه، **(ههنا)**، ظرف مستقرّ خبر إنَّ قدّم على اسمها.

: جملة شرطية جوابها محذوف، ولو بمعنى إن، **(لا ذا ولا ذاك)**: **(لا)** نافية بمعنى ليس، **(وذا)** اسمها، وخبرها محذوف أي **(لاذا)** من حملة العلم الأحقاء **(ولا ذاك)** وهما المذكوران بعد أُصيب.

(أو منهوماً) عطف على لقناً، **(الأقلّون)** عدداً: خبر لمبتدأ محذوف أي هم الأقلّون **(آه)**، من أسماء الأصوات مبنية ولا محلّ لها من الإعراب كفواتح السور، **(شوقاً)** مفعول مطلق لفعل محذوف أي اشتاق شوقاً.

المعنى

كميل بن زياد من خواص عليّ عليه السلام ومن أصحاب سرّه لم يعرف كما هو حاله ولم

---

(١) «الملأ» في نسخة.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام: ٢/٩٦، والإرشاد ١/٢٢٨.

ينتشر عنه ترجمة تليق به فصار سرّاً في سرّ.

قال في الرجال الكبير: كميل بن زياد النخعي من خواصّهما، من أصحاب أمير المؤمنين من اليمن، كذا في ـ صه ـ نقلاً عنه، وعلّق عليه الوحيد البهبهاني في حاشيته: كميل هذا هو المنسوب إليه الدُّعاء المشهور، قتله الحجاج وكان أمير المؤمنين قد أخبره بأنّه سيقتله، وهو من أعاظم خواصّه ـ إلى أن قال: وفي النهج ما يدل على أنّه كان من ولاته على بعض نواحي العراق، انتهى.

ومعرّف مقام كميل دعاؤه المعروف الّذي سار وطار إلى جميع الأقطار وهو ذكر الأخيار في ليالي الجمعة بالإعلان والأسرار، وحديثه المشهور في بيان النفس وأصنافه، ذكره الشيخ البهائي قدّس سرُّه في كشكوله، وحديثه في السؤال عن الحقيقة وهو من غرائب الحديث، ولم أجد له سنداً وإن كان متنه عالياً ومن الأسرار الدقيقة في مراتب العرفان.

ومصاحبته هذا مع عليّ عليه السلام، وهو مشهور مستفيض بين الفريقين يقطع بصحته عنه عليه السلام ويستفاد منه مقام شامخ لكميل، حيث إنّه عليه السلام بنى مكتباً خاصّاً به في هذا الحديث، وقد ابتكر عليٌّ عليه السلام بناء المكاتب في الأمّة الإسلامية وشرع في درس شتّى العلوم من أدب وعرفان وفقه وتفسير وغيرها، فالطرق العلميّة الإسلاميّة كلّها ينتهي إليه بإذعان من الموافق والمخالف، فله مكتب عامّ في مسجد الكوفة يعلّم النّاس من أيّ مذهب ومسلك من صديق وعدوّ.

وله مكتب خاصٌّ بشيعته ومعتقديه وأحبّائه ومعتمديه، يشرح لهم فيها المعارف الحقّة والأُصول المحقّة لمذهب الإماميّة.

وهذا مكتب بناه لكميل بن زياد، مكتب خاص في خلوة عن الأجانب وضوضاء العامّة.

مكتب صحراوي تحت ظلّ السماء الصافية وعلى الأرض الطبيعية الخالية عن كلّ صنعة وفنّ بشرية، فلا تجد فيها إلاّ الحقّ والحقيقة، وصفحات كتاب الكون والطبيعة المؤلّف بيد القدرة الإلهيّة.

مكتب مشائي المظهر يمثّل سيرة أرسطا طاليس في تعليماته العالية لخواصّ تلاميذه.

مكتب إشراقي المخبر يمثّل سيرة أفلاطون في الكشف عن الحقائق عند زوايا الاعتزال عن الخلائق.

مكتب تربوي أخلاقي يوسم بالرّفض والسقوط أكثر طلاّب العلم وأصحاب الدعاوي

الطنانة الفارغة، ويشير إلى ما حكى عن فيثاغوروس من أنّه أسّس مكتباً أخلاقياً لطلاب العلم مقسوماً على صفوف معينة: صفٌّ للتربية بالحلم وصفٌّ للتربية بالعفّة إلى أن يصل الطالب بعد الفوز في هذه الصفوف إلى صفّ يعرض عليه أن يموت فيكفن ويجعل في تابوت ويدفن في سرداب إلى حين ما، وهو الامتحان النهائي فإن فاز في هذا الامتحان يدخل على الأستاذ فيثاغوروس في قاعة كتب أسرار علمه على جدرانه فيقول: يا ولد الأن طاب لك الاستفادة من هذه السطور العلميّة والأسرار العرفانيّة.

ولم يذكر في الحديث أنَّ إخراج كميل إلى الجبان كان تحت ستار اللّيل ولكن يظهر في التأمّل في تحصيل هذه الخلوة الروحانيّة أنّه كانت في اللّيل، فتدبّر.

ويا ليت أُرِّخت هذه المصاحبة وأنّها كانت قبل حرب صفّين أو بعدها، وإن كان يستشمّ من تنفّسه الصّعداء والتجائه إلى الصحراء أنها كانت بعد حرب صفين وظهور فتنة الخوارج وخذلان أهل الكوفة، فقد تشتغل من خلاله لوعات قلبه الشريف الآسف.

ويظهر أنَّ كميل جاهد في سبيل عقيدته وإيمانه حتّى قتل شهيداً، ومثل في حياته حياة الأحرار المناضلين ـ إنَّ الحياة عقيدة وجهاد ـ.

وقام عليه السلام في هذه الخلوة مقام أستاذ اجتماعي خبير بروحيّة الأمّة وحلّلها تحليلاً دقيقاً، وحصرها في ثلاث:

(العالم الرباني) الّذي كلّمه الله من وراء حجاب، يوحى إليه بكتاب، أو يرسل رسولاً إليه، ومن قام مقامه من الأوصياء الّذين تلقّوا علمهم عن الأنبياء تلقينا وقذفاً في القلوب.

(والمتعلّم) من هؤلاء الأنبياء والأوصياء على صحيح الرواية وطريق النجاة.

(والعامّة العمياء) يدورون كالذّباب هنا وهنا ويميلون مع كلّ ريح ويركضون وراء كلّ ناعق، قلوبهم مظلمة وهم على حيرة وشكّ في حياتهم.

ثمّ توجّه إلى مفاضلة دقيقة بين العلم والمال، وأتى بما لا مزيد عليه ترغيباً على طلب العلم، وتزهيداً عن جمع المال والادّخار.

ثمّ شرع في تنظيم برنامج أخلاقي لطلاّب العلم، وأسقط منهم أربعة أصناف رفضهم باتاً وأخرجهم من مكتبه الرّوحاني:

١ ـ **(اللّقن)** الغير المأمون عليه، وهو المنافق الّذي لا إيمان له بما يتعلّمه وكان علمه على لسانه لا يتجاوزه إلى قلبه، وغرضه من كسب العلم طلب الدُّنيا والتسلّط على العباد بتصدّي المناصب العالية والرتب الحكومية كأمثال طلحة والزبير ومعاوية في عصره، وهم

الأكثرون الذين تشكلوا في جبهة الجمل وصفين تجاه أمير المؤمنين، وفرّقوا ملّة الإسلام تفريقاً، واحتجّوا بما تعلّموه على عليّ عليه السلام وخدعوا العامّة الهمج وجرُّوهم إلى نعيقهم.

٢ ـ (**المنقاد**)، المعتقد الأحمق الّذي لا بصيرة له في تطبيق العلم على الحوادث فينقدح الشكّ في قلبه بتجدُّد الحوادث الّتي لا يستأنسها، وهم الخوارج الّذين ثاروا عليه بعد قضية الحكمين، وهم جلُّ أصحابه المجتهدون العبّاد، قوّام الليل الصائمون في النهار، ولكن المبتلون بنحو من الحمق ظهر فيما ارتكبوه بعد ظهورهم نشير إلى شطر منها:

أ ـ بعد مفارقتهم عنه عليه السلام كانوا يقتلون المسلمين ويغنمون أموالهم على عادة الغزو والغارة الّتي اعتادوا في الجاهليّة، فإنّ أكثرهم من بدو نجد.

ب ـ يحاكمون أُسراءهم ومن يلقونه بالسؤال عن عليّ عليه السلام أكافر أم مسلم؟ فلو قال المسؤول عنه: إنّه كافر رحّبوا به وصافحوه وأدخلوه معهم، ولو قال: إنه مسلم كفّروه وقتلوه فوراً، وهل هذا إلاّ حمق واضح.

ج ـ دخلوا نخيلة في ضواحي النهروان فأخذ أحدهم تمرة ضئيلة أسقطتها الريح من النخلة وأراد أن يأكلها فنهروه بحجّة أنّه مال غير مأذون عليه، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت ابن صحابي كبير مع زوجته الحبلى فقتلوه، وقتلوا زوجته الحبلى وهل هذا إلاّ الحمق.

(**والحمق**) خفّة ونقصان في التعقّل عبّر عنه عليه السلام بعدم البصيرة في جوانب العلم وعدم القدرة على تحليل القضايا، ولا ينافي كون صاحبه عالماً ومجتهداً ومرجعاً ومقلّداً، فإنّ أكثر الخوارج أفاضل العلماء المجتهدين الّذين أخذوا العلم عن النبيّ صلى الله عليه وآله وعن عليّ عليه السلام.

(**والعجب**) من ابن ميثم رحمه الله حيث حمل كلامه في الصف الثاني من طلاّب العلم على العوام المقلّدين فقال:

وأمّا الثاني ممن لا يصلح لحمله فهو المقلّد ـ إلخ.

٣ ـ من غلبت عليه الشهوة وخصوصاً الجنسية منها بحيث تجرُّه إلى مناظرها ومحالها، ولا يقدر أن يمنع شهوته، فصار سلس القياد له كبعير يمشي وراء من يجرُّه ولو كانت فارة البرّ، كأمثال مغيرة بن شعبة، فإنهم مقهورون لشهواتهم، ولا يؤثّر علمهم في ردعهم عنها.

وقد ثبت في كتب التاريخ أنه بعد أن صار عاملاً لعمر على الكوفة في سنين شيبته لم يملك نفسه أن فجر بأُمّ جميل ذات البعل على منظر جمع من الصحابة، ورفع إلى محكمة برئاسة عمر نفسه، ونجاه زياد بن أبيه أحد الشهود بإشارة من عمر رئيس المحكمة من أراد

التفصيل فليرجع إلى التاريخ.

٤ ـ **(الطالب للعلم)**، ولكن المغرم بالجمع والادّخار للأموال، فهو طالب الدِّينار والدرهم، وقد غلب عليه حبُّ الصفراء والبيضاء حتّى أنساه ما وراءه وتوجّه إلى أنَّ هذه الأوصاف على سبيل منع الخلوّ فربما يجتمع في طالب أكثر من واحدة منها.

ولمّا كانت نتيجة هذا التحليل الدقيق الاجتماعي من روحيّة الناس عموماً ومن أصناف طلاّب العلم الّذين يرجى أن يهتدى بهم هؤلاء الرعاع خصوصاً منفيّة وموجبة لليأس لقلّة العلماء الربانيّين والمتعلّمين على سبيل النجاة فيخاف من اندراس الحقّ ومحو العلم بموت حامليه بوجه مطلق.

استدرك في آخر كلامه بما أثبت بقاء العلم والعالم ودوام الحقّ والمعالم ولو فئة قليلة حتّى يظهر الحجّة القائم عجّل الله فرجه وتظهر حقيقة الإسلام على الدِّين كلّه ولو كره المشركون.

فقال عليه السلام: اللّهمَّ بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، وصرّح بأنهم الأقلّون عدداً، والأعظمون أجراً وقدراً، بهم يحفظ الله حججه وبيناته حتّى يودعوها نظراءهم، ثمَّ وصفهم بما وصفهم من العلم واليقين، وقرّر صريحاً ما عليه الإماميّة في أمر الدِّين.

والعجب من الشارح المعتزلي الظاهر من كلامه القطع بصدور هذا الحديث من فم أمير المؤمنين فقال في شرح قوله عليه السلام: **(بلى لا تخلو الأرض من قائم لله تعالى بحجّة)**[1] «ص٣٥١ ـ ج٨»: وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإماميّة، إلاّ أنَّ أصحابنا يحملونه على أنَّ المراد به الأبدال الّذين وردت الأخبار النبويّة عنهم ـ إلخ.

فياليت خلص نفسه من حبالة كيد كاده، واعترف بهذا الحقّ الصريح، وضرب أخبار الأبدال الموضوعة على الجدار، وفارق هؤلاء الأصحاب الضالّين الحائرين ولحق بأصحاب الحقّ واليقين.

---

(١) كتاب الأربعين: ٢١٧، وميزان الحكمة: ١/١١٨ ح١٤٠.

الترجمة

برای کمیل بن زیاد نخعی فرموده:

کمیل گوید: امیرالمؤمنین دستم را گرفت - خوشا به حالش - و مرا به بیابان کشید و چون به فضای صحرا رسید، آهی عمیق از دل برآورد و سپس فرمود:

ای کمیل، این دل ها خزانه هایی برای دانشند؛ بهترین دل، آن است که دانش گیرتر باشد. آن چه به تو می گویم از من به خاطر خود بسپار:

مردم سه دسته اند: عالم ربانی و آموزنده در راه نجات و حق و مردم عوام مگس منش که پیرو هر بانك خرانه اند، هر بادی بوزد آنها را به سوی خود کشد، پرتو دانش بر آنها نتابیده و به ستون پایدار تکیه ندارند.

ای کمیل دانش به از دارایی است، دانش تو را پاسبان است و تو باید پاسبان دارایی باشی، مال و دارایی با خرج کردن کاهش یابد ولی دانش بهوسیله صرف آن بیفزاید، آن که ساخته مال است با زوال مال از میان می رود.

ای کمیل، دانش تنها کیش بشر است و باید بدان پای بند بود، بهوسیله آن هر انسانی در دوران زندگانی خود شیوه فرمانبری به دست آرد و برای پس از مردنش ذکر خیری به جا گذارد، دانش حکمفرما است ولی مال فرمانگذار است. ای کمیل، گنج داران اموال و ثروت نابود شدند و دانشمندان زنده اند، دانشمندان تا روزگار برجا است پایدارند، اشخاصشان ناپدیدند ولی نمونه های علای آنان در دلها موجودند. به خود باش راستی که در اینجا (با دستش به سینه مبارکش اشاره کرد) دانش انبوه و ژرفی است، کاش حاملانی برای آن به دست می آوردم، آری شاگردانی در دست دارم ولی:

یکی زودآموز طوطی صنعتی است که مورد اطمینان نیست، دین را ابزار دنیا می سازد و به نعمت قدرت دانش بر بندگان خدا می ستازد و از آن شمشیری بر علیه اولیا خدا می سازد؛

و دیگری که منقاد و مطیع پیشوایان بر حق است، ولی به جوانب دانش بینا نیست و قدرت تحلیل و تجزیه آن را ندارد، آغاز يك شبهه او را می لرزاند و به شك می اندازد و از راه می برد، نه این به درد من می خورد و نه آن؛

سومی آزمند و حریص بر لذت های دنیا است و مهارش به دست شهوت و دلخواه بی جا است؛

و چهارمی پول پرست و شیفته اندوختن زر و سیم و دنبال پس انداز است. این دو هم به هیچ وجه دین نگهدار نیستند. مانندترین چیزی بدانها همان چهار پایان چرنده اند، چنین است که دانش با مرگ دانشمند مدفون می شود.

بارخدایا آری با این حال زمین از کسی که قیم حجت الهی است تهی نماند که مقتضیات زمان ظاهر و مشهور باشد و یا این که از نظر سوء پذیرش مردم ترسناك و در پس پرده نهان گردد، برای این که حجت ها و بیّنات خدا از میان نروند، اینان چنداند؟ و در کجایند؟ به خدا سوگند که شماری بس اندك و مقامی بس بزرگ دارند، بهوسیله آنان خداوند حجتها و نشانه های خود را نگهدارد تا آنها را به همکنان خود بسپارند و بذر دانش حق را در دل های همکنان خود بکارند (وصف آنان چنین است):

١ - امواج دانش آنها را تا ژرف بینش و درك حقایق آفرینش بکشاند.

٢ - جان یقین و ایمان به حقایق را با دل پاك خود لمس کنند.

٣ - آن چه را خوشگذران های هوسباز سخت و ناهموار شمارند، دلنشین و هنجار دانند.

٤ - بدان چه نادانان کوردل از آن در هراسند، انس و الفت دارند.

٥ - با تن های خاکی خود همراه دنیا هستند و جان هایشان به آسایشگاه بلند قدس آویخته است. آنان اند جانشینان خدا در روی زمینش و داعیان برحق دینش. آه و افسوس، چه اندازه شوق دیدارشان را بر دل دارم.

کمیل آن یار صاحب سرّ حیدر　　نسب دار از نخع، بر همکنان سر
بگفت از حال خود این داستان را　　ستایش گر امیر مؤمنان را

که دست من گرفت و برد صحرا ز آهش خیمه گاهی کرد برپا
در آن صحرای خلوت عقده بگشود ز درّ معرفت صحرا براندود
بگفتا ای کمیل از حال دلها بگویم با تو اسراری مهنّا
همه دل ها خزینه ی علم و دانش هر آن دل بیش گیرد پرستایش
به خاطر در سپار آنچه ات بگویم که من این راه را بهر تو پویم
همه مردم سه دسته، بیش و کم نیست در این تقسیم بر آنها ستم نیست
یکی خود عالم ربّانی آمد یکی شاگرد وی کو ناجی آمد
سوم آن توده نادان حیران مگس مانند در هر سوی پرّان
طرفداران هر بانك خرانه برد هر بادشان هر سوی لانه
نتابیده بر آنها نور دانش نباشد تکیه گاهی شان ز بینش
کمیلا، علم حق بهتر ز مال است دلیلش صاف چون آب زلال است
کند علمت تو را خود پاسبانی ولی بر مال تو چون پاسبانی
هزینه کاهد از هر مال و دانش ز آموزش به خود آرد فزایش
هر آنچه ساخته از مال باشد چه رفت از کف همه پامال باشد
کمیلا علم کیش حق انسان که انسان زان دهد انجام فرمان
چه عالم زنده شد فرمان گزار است چه میرد ذکر خیرش در شمار است
به هرجا علم حاکم بر جهان است ولیکن مال محکوم کسان است
کمیلا مالداران مرده باشند اگر چه زنده و اندر تلاش اند
ولی مردان دانش زنده هستند به دوران تا بود پاینده هستند
اگر اشخاص آنها ناپدیدانند مثل هاشان به دل ها آرمیدند
هلا در سینه ام علمی است انبوه که سنگینی کند بر آن چنان کوه
چه خوش بود ار که دانشجوی لایق به دست آوردمی در این خلایق
بلی باشند اندر پیش دستم کسانی بس ولی طرفی نبستم
یکی طوطی صفت آموزد از من ولی ایمن نه از نیرنگ و از فن
نماید علم دین ابزار دنیا کند گردن کشی بر پیر و برنا
از آن حجت به دست آرد چه روباه به ضد اولیاء الله، صد آه
یکی منقاد حق باشد ولیکن ندارد هوش و بینایی به هر فن

زهر پیشامدی در شبهه افتد ... ز شك و ریب فتنه از ره افتد
نه این را دوست می دارم نه آن را ... به دور انداز بهمان و فلان را
سوم شاگرد من لذت پرست است ... اسیر شهوت و بی قید و مست است
چهارم در پی جمع و پس انداز ... ز بهر دین نباشند این دو سرباز
همانندانند حیوان چرا را ... که باید برد آنها را به صحرا
چنین باشد که دانش رفته از دست ... چه دانشمند مرد و رخت بربست
خداوندا تو می دانی به حالی ... زمین از حجت حقت نیست خالی
چه ظاهر باشد و مشهور و منظور ... چه از بیم و هراس خلق مستور
برای آن که حجّتهای سبحان ... نماند باطل و بیهوده برهان
چه قدرند و کجا این رادمردان ... که عالم جسم و اینان اندر آن جان
به ذات حق که اینان کم شمارند ... اگرچه قدر و رتبت بیش دارند
نگهبانان حجتهای حقّند ... امین بینات و رتق و فتقند
چه دور خدمت آنان سرآید ... برای همکنانشان نوبت آید
که بسپارند اسرار امامت ... به همکاران خود نوبت به نوبت
ز دانش بر بصیرت یورش آرند ... به دل روح یقین در گردش آرند
پسندند آن چه مترفهای بدکیش ... از آن هستند اندر بیم و تشویش
بیارامند با روحی خرامان ... از آن چه می هراسد مرد نادان
در این دنیا است تنهاشان ولیکن ... به عرش آویخته جانهای روشن
خدا را در زمین وی خلیفه ... دعات ملت پاك حنیفه
دریغا از فراق روی آنان ... به دیدار همه مشتاقم از جان
کمیلا باز گرد اکنون دگر بس ... اگر خواهی که برگردی تو واپس

الأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٠) وَقالَ عليه السلام: «اَلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسانِهِ»(١).

اللغة

(خبأ) خبأ الشيء: ستره وأخفاه ـ المنجد.

الإعراب

(تحت) لسانه، ظرف متعلّق بقوله: مخبوء.

المعنى

قد امتاز الإنسان عن سائر الحيوانات بالعقل والإدراك، والتعقل نطق الروح الإنسانية وفصله الجوهري ولكنه لطيفة ربانية لا تدركها الحواسّ الظاهرة، وعلى رأي الحكماء جوهر مجرّد عن المادّة والمدّة لا يحويه زمان ولا مكان وأعطى الله الإنسان لساناً ناطقاً وقوّة للتكلّم والبيان ليكون ترجماناً لهذا الجوهر القدسي ومظهراً له، وأشار إليه في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾.

فالمرء بجوهره الإنساني هو الناطقة القدسيّة يستعدُّ تارة باللحوق إلى الملأ الأعلى والتخلّق بأخلاق الأنبياء، وتشقى مرّة بالنزول إلى دركات الشياطين وتتحوّل إلى صفحات كتاب الفجّار الّذي في سجّين، ويظهر حاله من كلامه، فهو مخبوء تحت لسانه.

الترجمة

مرد در زير زبان خود نهان است.

مرد از خزف ار طلاى كان است — در زير زبان خود نهان است

و خوش سروده:

تا مرد سخن نگفته باشد — عيب و هنرش نهفته باشد

---

(١) الإرشاد: ١/ ٣٠٠، ومعدن الجواهر: ٦٧.

الحادية والأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤١) وَقالَ عليه السلام: «هَلَكَ امْرُءٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ»[١].

المعنى

قدر الإنسان غال، ورتبته عالية، فهو أشرف المخلوقات، وزبدة الكائنات وخليفة الله في أرضه، قد أمر الله الملائكة المقرَّبين بالسجود لأبيه، وأنزل في كتابه آية التكريم بشأنه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وافتتح باسمه سورة الدّهر فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

فالمقصود من عرفانه نفسه حفظ رتبته الإنسانية بمتابعة الشرع والعمل بالحكمة والعقل وترك الشهوات واتّباع الشياطين الغواة، فلو جهل قدره وترك جوهره واتّبع بطنه وفرجه، فقد هلك، وقوله: **(هلك امرؤ)** يحتمل أن يكون جملة دعائيّة.

الترجمة

نابود باد مردى كه اندازه خود را نشناسد.

هر كس نشناخت قدر خود را در چاه هلاك سرنگون شد

(١) شرح مئة كلمة: ٥٩، وبحار الأنوار: ٧٢/٦٨ ح٧.

الثانية والأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٢) وَقالَ عليه السلام لِرجل سأله أن يعظه:

«لاَ تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو ٱلْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ[1]، وَيُرَجِّي التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فيها بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ إِنْ أُعْطِيَ مِنْها لَمْ يَشْبَعْ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْها لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ ما أُوتِيَ، وَيَبْتَغي الزِّيادَةَ فيما بَقِيَ، يَنْهَى وَلاَ يَنْتَهي، وَيَأْمُرُ بِما لاَ يأتي، يُحِبُّ الصَّالِحينَ وَلاَ يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ، وَيُبْغِضُ ٱلْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ، يَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُقيمُ عَلَىٰ ما يَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ لَهُ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نادِماً، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لاهِياً، يَعْجِبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ، إِنْ أَصابَهُ بَلاءٌ دَعا مُضْطَرّاً، وَإِنْ نالَهُ رَخاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرّاً، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلىٰ ما يَظُنُّ، وَلاَ يَغْلِبُها عَلىٰ ما يَسْتَيْقِنُ، يَخافُ عَلىٰ غَيْرِهِ بِأَدْنىٰ مِنْ ذَنْبِهِ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ، إِنِ اسْتَغْنىٰ بَطِرَ وَفُتِنَ، وَإِنِ افْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ، يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ، وَيُبالِغُ إِذَا سَأَلَ، إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ ٱلْمَعْصِيَةَ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ، وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ انْفَرَجَ عَنْ شَرائِطِ ٱلْمِلَّةِ، يَصِفُ ٱلْعِبْرَةَ وَلاَ يَعْتَبِرُ وَيُبالِغُ في ٱلْمَوْعِظَةِ وَلاَ يَتَّعِظُ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ، وَمِنَ ٱلْعَمَلِ مُقِلٌّ، يُنافِسُ فيما يَفْنىٰ، وَيُسامِحُ فيما يَبْقىٰ، يَرَى ٱلْغُنْمَ مَغْرَماً، وَٱلْغُرْمَ مَغْنَماً، يَخْشَى الْمَوْتَ وَلاَ يُبادِرُ الْفَوْتَ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ ما يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طاعَتِهِ ما يَحْقِرُهُ مِنْ طاعَةِ غَيْرِهِ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طاعِنٌ، وَلِنَفْسِهِ مُداهِنٌ، اللَّهْوُ مَعَ الْأَغْنِياءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَراءِ، يَحْكُمُ عَلىٰ غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ وَلاَ يَحْكُمُ عَلَيْها لِغَيْرِهِ، يُرْشِدُ غَيْرَهُ وَيُغْوي نَفْسَهُ، فَهُوَ يُطاعُ وَيَعْصي، وَيَسْتَوْفي وَلاَ يُوفي، وَيَخْشَى ٱلْخَلْقَ في غَيْرِ رَبِّهِ، وَلاَ يَخْشىٰ رَبَّهُ في خَلْقِهِ»[2].

قالَ الرَّضيُّ: وَلو لم يكن في هذا الكتاب إلاَّ هذا الكلام لكفى به موعظةً ناجعةً، وحكمةً بالغةً، وبصيرةً لمبصرٍ، وعبرةً لناظرٍ مفكّرٍ.

اللغة

(**أرجى**) الأمر: أخّره. (**بَطر**) بطراً: أخذته دهشة عند هجوم النعمة (**طغى**) بالنعمة أو

(١) «العمل» في نسخة.

(٢) بحار الأنوار: ٦٩/ ٢٠٠، ومستدرك سفينة البحار: ١٠/ ٣٨٣.

عندها فصرفها إلى غير وجهها ـ المنجد ـ **(عرته)** عرضت له **(يدلّ به)**: يثق به **(ينافس)**: يباري.

الإعراب

(ممّن يرجو)، لفظة من للتبعيض أو جنسية، ، الباء للسببية **(لاهياً)**، حال من فاعل أمن.

المعنى

الموعظة إرشاد للجاهل، وتنبيه للغافل، وتنشيط للكسل، وأهمّ ما قام به الأنبياء والأوصياء لإصلاح العباد وعمران البلاد، والغرض منه إعداد العقول، لتلقّي الأحكام والقوانين بالقبول، والإقبال عليها عن ظهر القلب.

وقد وصف الله تعالى القرآن بأنّه موعظة وشفاء لما في الصّدور فقال عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٨].

فالحكومات المتداولة بين الشعوب يضعون قوانين ويحملون عليها شعوبهم بالقهر، والنتائج المقصودة من هذه القوانين حفظ النظام والأمن في المجتمع، ولا يحتاج إلى تأثير في القلوب أو تزكية للأرواح، لأنَّ الأنظمة الاجتماعية في نظرهم كالأمور المكانيكيّة، ولا فرق في نظرهم بين صدور الأعمال من الماكينة الفاقدة للشعور أو الإنسان، فيبدلون من القوى الفاعلة البشرية بآلات إلكترونيّة، تعمل هذه الأعمال.

ولكنَّ الأنبياء والرسل والأوصياء يهتّمون بإصلاح القلوب والعقول ويعتبرون الأعمال بالنيّات والرغبات، وتعرُّضهم للقوانين بالنظر إلى حفظ النظام والأمن إنّما هو عرضيٌّ ومن باب المقدّمة.

فعمدة مهمة الشرائع الإلهية إصلاح القلوب وجلب الأنظار إلى المصالح والمفاسد، ليقدم النّاس على الأعمال بالطوع والرغبة، وعن الشوق والنيّة.

وبهذا النظر لا يتوسّل الأنبياء إلى القهر والإخضاع إلاّ من باب الدِّفاع وكانوا يتحمّلون مشاق الأذي في سبيل الدّعوة إلى طريق الهدى قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [قٓ: ٥٤].

وقد تصدَّى عليٌّ عليه السلام لموعظة كافة أهل الإسلام بمواعظ شافية كافية تشع أنوارها على القلوب طيلة القرون الماضية والغابرة، وقد تعرَّض في هذه الموعظة للإشارة إلى أُصول الرذائل الّتي تكون مرضاً للقلوب، ونبّه على معالجتها فنلخصها فيما يلي:

١ ـ الاغترار بسعة رحمة الله والطمع في ثواب الله بغير عمل فقال: **(لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل)**.

٢ ـ طول الآمال الموجبة لتأخير التوبة والإنابة وتدارك المعاصي.

٣ ـ التظاهر بالزهد مع الحرص على الدُّنيا وترك القناعة والشكر للنعم الحاضرة.

٤ ـ ترك العمل بما ينهى عنه ويأمر به وحبّ الصلحاء قولاً لا عملاً.

٥ ـ التذبذب في أمر الآخرة بالندامة مع السقم والغفلة في الصحّة والوفاة.

٦ ـ متابعة النّفس الأمّارة بالسوء، فيتبع الظن في هواها، ويترك اليقين فيما سواها.

٧ ـ البطر والافتتان بالغنى والثروة، والفشل مع الفقر والحاجة.

٨ ـ التقصير في العمل والمبالغة في السؤال والأمل.

٩ ـ اتباع الشهوة بإسلاف المعصية، والمماطلة في التوبة.

١٠ ـ عدم الصبر على الشدائد في العمل بوظائفه.

١١ ـ الوعظ من دون اتّعاظ وكثرة القول وقلّة العمل.

١٢ ـ المنافسة مع النّاس في أمر الدُّنيا والمسامحة في أمر الآخرة.

١٣ ـ احتساب غنيمة الآخرة غرامة.

١٤ ـ الخوف من الموت وعدم تدارك ما فات.

١٥ ـ العجب بنفسه الموجب لاستعظام معصية الغير واستقلال معصيته.

١٦ ـ حبّ الأغنياء وكره الفقراء.

١٧ ـ عدم الإنصاف فيحبّ أن يكون حاكماً غير محكوم، ومرشداً غير مسترشد ـ إلخ.

الترجمة

به مردی که از او پندی خواست فرمود:

آن کس مباش که: عمل ناکرده امید به ثواب آخرت دارد و به آرزوی دراز توبه را به تأخیر اندازد، آن که گفتار زاهدان دارد و کردار دنیا پرستان، اگرش دنیا دهند سیر نگردد و اگرش دریغ دارند قناعت نورزد، از شکر آنچه اش داده اند ناتوان است و به دنبال مابقی دوان، از بدی باز می دارد و خود باز نمی ایستد و به خوبی فرمان می دهد و خود به کار نمی بندد، خوبان را دوست دارد و به کردارشان نمی گراید و گنهکاران را دشمن است و خود در جرگه آنان می چرد.

از کثرت گناه مردن را نخواه است و بر گناه پابرجا است، اگر بیمار شود از بدکرداری پشیمانی کشد و اگر تندرست باشد در آسایشگاه غفلت به سر برد در حال عافیت به خود ببالد و در گرفتاری به نومیدی گراید، اگرش بلایی رسد با زاری دعا کند و چون روی آسایش بیند مغرورانه روی برتابد.

نفس امّاره اش به دنبال هوس های خود به گمان بر او غلبه کند و او نتواند با یقین به عواقب ناگوار بر نفس خود چیره گردد، به کمتر از گناه خود بر حال دیگری ترسان است و با گناه بیشتر خود به رحمت حق امیدوار.

اگر توانگر شد راه خوشگذرانی پیش گیرد و شیفته دنیا شود و اگر بی نوا شد نومید و سست گردد، در کردار خیر کوتاهی کند و در درخواست پاداش اصرار ورزد، اگر دلخواهی به او رخ دهد گناه را پیش فروش کند و توبه اش را به تأخیر افکند و اگر محنت و سختی بر او رو کند از سنن ملّی و دین خود دست بکشد.

موجبات عبرت را شرح دهد ولی خود عبرت نگیرد، در پند دیگران اصرار ورزد ولی خودش پند نپذیرد، در گفتار با اعتماد است، و در کردار کم کار، در تحصیل دنیای فانی سبقت جوید و در کار آخرت باقی مسامحه ورزد، غنیمت و بهره معنوی را زیان شمرد و زیان معنوی را غنیمت پندارد، از مرگ بترسد و فرصت جویی نکند.

اندك گناه دیگران را بزرگ شمارد و از خود را اندك به حساب آرد، طاعت

اندك خود را بیش از طاعت دیگران بداند، بر مردم طعن زند و خود سازشکار و سست انگار باشد، بازی با توانگران را دوست تر دارد از ذکر با درویشان، برای خودش برعلیه دیگران قضاوت کند و حق دیگران را بر خود تصدیق نکند، دیگران را راه نماید و خود را گمراه، خودش را مطاع خواهد و مرتکب گناه، حق خود را دریافت خواهد و پرداخت حق دیگران را نخواهد، درباره جز پروردگارش از مردم می ترسد ولی درباره همکاری موافقت با مردم و جلب نظر آنها از پروردگار خود نترسد.

رضی (رحمه الله) گوید: اگر در این کتاب جز همین کلام نبود، برای موعظت و پند دلنشین و حکمت رسا و بینایی هوشمند و عبرت خواننده اندیشمند بس بود.

از علی درخواست مردی موعظت — در جوابش شد پذیرا این سمت
گفت آن مردی مشو کامیدوار — بهر عقبایست خوش بی رنج کار
توبه از طول امل پس افکند — تا به وی مرگ و هلاکت در رسد
دم ز زهد و ترك و دنیا می زند — در عمل مشتاق سویش می دود
گر ز دنیایش نصیبی داده شد — زان نگردد سیر و خود دلداده شد
ور که دنیا بهر او گردد دریغ — نیست قانع بلکه دارد هوی و جیغ
عاجز است از شکر آنچه اش داده شد — لیك بر جلب فزون آماده شد
نهی از منکر کند مر غیر را — خود به منکر پوید و هر ماجرا
بهر کار خیر فرمان می دهد — لیك خود از آن کناری می کشد
دوست دارد صالحان را بی عمل — دشمن مذنب ولی خود هم دغل
مرگ را بد دارد از زور گناه — باز هم افتاده اندر قعر چاه
وقت بیماری پشیمان از بدی است — در بهی در لهو و غفلت کرده زیست
وقت آسایش بود خودبین و چست — چون گرفتار است شد نومید و سست
در بلا زاری کند وقت دعا — چون رها شد روی گرداند هلا
با گمانی نفس می تازد بر او — با یقین در پیش او بی آبرو
هست در بیم گناه دیگران — خود گرفتار گناهی بیش از آن
بیش از کارش به خود امیدوار — پرطمع بر رحمت پروردگار
از غنا سرمست و مفتون می شود — بینوا شد سست و موهون می شود

در عمل کوتاه و در درخواست چست گاه شهوت در گناه افتد درست
درگه محنت ز سنت های دین دور گردد ز آسمان تا بر زمین
واصف عبرت ولیکن ناپذیر واعظ است اما نباشد پندگیر
در سخن محکم ولیکن کم عمل پشت بر اندرز ما قلٌ و دلّ
در رقابت بهر دنیای دنی سست در کار ثواب و ماندنی

الثالثة والأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٣) وَقال عليه السلام: «لِكُلِّ امْرِىءٍ عاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ»[١].

الإعراب

(لكلّ امرىء)، جار ومجرور متعلّق بفعل عام خبر مقدّم، **(وعاقبة)**، مبتدأ مؤخر، **(وحلوة)**، صفة لها.

المعنى

من الأخلاق المضرَّة بالسعادة الدنيويّة والدينيّة، عدم التدبّر في العواقب وما يؤول إليه أمر الإنسان في هذه الدُّنيا وما بعدها، ويعبّر عن الغافل عن العاقبة بابن الوقت، وقد فشت هذه المفسدة في نفوس الشبّان في هذا الزّمان، وقد تعرَّض عليه السلام في هذه الحكمة لمعالجة هذه المفسدة، ونبّه على أنّه لكلِّ امرىء عاقبة، سواء كانت في الدُّنيا أو الأخرة، وهي حلوة أو مرّة، فلا بدّ أن يسعى كلّ أحد للعاقبة الحلوة ويحذر عن العاقبة المرّة.

الترجمة

براى هر كسى سرانجامى است شيرين يا تلخ.

سرانجامى است هر كس را به ناچار   كه شيرين است يا تلخ است، هشدار

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٦٧ ح١٧، وشرح نهج البلاغة ١٨/ ٣٦١.

الرابعة والأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٤) وَقالَ عليه السلام : «لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبارٌ، وَما أَدْبَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ»(١).

المعنى

حكمة بليغة تدلّ على سلب الاعتبار وعدم صحّة الاعتماد على ما هو خارج عن جوهر وجود الإنسان وحقيقته، ويشمل العوارض الداخلة في وجوده كالشباب والجمال، فضلاً عن الجاه والمال، فما ينبغي الاعتماد عليه هو الإيمان بالله تعالى والملكات الفاضلة النفسانيّة والأعمال الصالحة الإنسانيّة، فإنها لا تفارق الإنسان ولا تدبر عنه.

الترجمة

هر چه روى آورد به زودى درگذرد و آنچه درگذشت گويا هرگز نبوده است.

هر چه آيد مى رود از دست تو — مى نشايد بودنش دلبست تو

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٣٠، وشرح منهج البلاغة: ١٨/ ٣٦٣.

الخامسة والأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٥) وَقالَ عليه السلام: «لاٰ يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وَإِنْ طالَ بِهِ الزَّمانُ»[١].

المعنى

قد وقف علماء الاجتماع في هذه العصور إلى سرٍّ ما قاله عليه السلام، وأكّدوا القول بأنَّ أكبر وسائل الفوز بالمقاصد هو الاستقامة والاصطبار على ما في طريق تحصيلها من الشدّائد.

وقد قرَّره أحد كتاب الأمريكان في كتابه «نابليون هل» «سر الغني» بشرح كاف واف أثبت أنَّ الصبر مفتاح الظفر في الأمور.

الترجمة

پیروزی از دست صبور به در نرود گر چه دیر به دستش رسد و چه خوش سروده است:

صبر و ظفر هر دو دوستان قديم اند   بر اثر صبر نوبت ظفر آيد

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٤٣، وبحار الأنوار: ٦٨/ ٩٥ ح٦٠.

السادسة والأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٦) وَقالَ عليه السلام: «اَلرَّاضي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فيهِ مَعَهُمْ وَعَلىٰ كُلِّ داخِلٍ في باطِلٍ إِثْمانِ: إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ، وَإِثْمُ الرِّضا بِهِ»[١].

المعنى

كلّ عمل اختياريّ يصدر من الفاعل فإنّما هو تطبيق برنامج قلبيّ على سطح الفضاء الخارجي، فالعمل الاختياري يتحقّق في القلب قبل أن يظهر في الخارج وآلات الصورة القلبيّة للعمل تتركّب من تصوّره والميل به والتصميم والجزم على إيجاده خارجاً.

فالرِّضا بالعمل عنوان هذا الفعل القلبي الّذي هو ألصق بالفاعل من صورته الخارجيّة، وهو المناط في مدح الفاعل وذمّه والمكتوب في كتاب أعماله الّذي يؤتى بيمنه ويقال له: ﴿هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ [الحاقة: ٢٠] فيسعد بعيشة راضية أو يؤتى بشماله فيقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ فيصدر الفعل من الفاعل المختار مرّتين: مرَّة في قلبه وباطنه، ومرَّة أُخرى بيده في ظاهره، فعلى كلّ داخل في الباطل إثمان: إثم العمل وهو الصورة الخارجيّة له، وإثم الرِّضا وهو الصورة القلبيّة له.

والراضي بفعل قوم كالعامل معهم، لأنّه ارتكب فعلهم في المرحلة الباطنيّة وإن لم يخرجه إلى المرحلة الثانية الخارجية.

الترجمة

پسندكننده كردار مردمى، چون شريك در كار آنها است، بر هر كه در كار باطلى مداخله دارد دو گناه است: گناه كردار آن و گناه پسنديدن آن.

آن كه كار مردمى دارد پسند — آن چنان باشد كه همكارى كنند
هر كه در كار خلافى شد دخيل — دو گنه كرد است و بار او ثقيل
يك گنه از بهر كردارش بود — ديگر از بهر رضا بارش بود

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٦٤، وبحار الأنوار: ٩٧/٩٦ ح٧.

السابعة الأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٧) وَقالَ عليه السلام: «إعْتَصِمُوا بِالذِّمَمِ في أَوْتادِها»[١].

اللغة

(الذمّة) العهد وقيل: ما يجب أن يحفظ ويحمي، وعن أبي عبيدة: الذمّة التذمّم ممّن لا عهد له، وهو أن يلزم الإنسان نفسه ذماماً أي حقاً يوجّه إليه يجري مجرى المعاهدة من غير معاهدة، وفي النهاية: الذمّة والذّمام بمعنى العهد، والأمان والضّمان، والحرمة، والحقّ - مجمع البحرين.

المعنى

قال ابن ميثم: واستعار لفظ الأوتاد لشرائط العهود وأسباب أحكامها كأنّها أوتاد حافظة لها.

الترجمة

فرمود: پيمانها را با عمل به مقرّرات آنها محكم نگهداريد.

چه پيمان ببستى نگاهش بدار	بهر شرط كردى بمان پايدار

(١) بحار الأنوار: ٩٧/٤٧ ح٨، وميزان الحكمة: ١/٢١٨ ح٣٠٧.

الثامنة والأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٨) وَقالَ عليه السلام: «عَلَيْكُمْ بِطاعَةِ مَنْ لاٰ تُعْذَرُونَ بِجَهالَتِهِ»[١].

المعنى

المقصود (ممّن لا يعذر بجهالته) ما ذكر في الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩] فإنّ معرفة الله ومعرفة الرّسول والإمام واجبة على كلّ مسلم ومسلمة، ولا عذر له بجهالته، والمقصود معرفتهم بأنه مفترض الطاعة.

الترجمة

بر شما باد بفرمان بردن از كسى كه عذرى نداريد در نشناختن او.

به فرمان حق و رسول و وصى شو چه عذرى ندارى كه نشناختم شان

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٩٥ ح١، وميزان الحكمة: ١/ ١٢٠.

التاسعة والأربعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٤٩) وَقالَ عليه السلام: «قَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنِ اسْتَمَعْتُمْ»(١).

المعنى

قال الشارح المعتزلي: واعلم أنَّ الله تعالى قد نصب الأدلّة ومكّن المكلّف بما أكمل له من العقل من الهداية، فإذا ضلّ فمن قبل نفسه ـ انتهى.

فإبصار ما خلق الله من الآيات كاف للاعتبار والإيمان بالله تعالى، والقرآن شاف للهداية إلى رسل الله، ونداء الحقّ عال في كلّ مكان، وجار على كلّ لسان.

الترجمة

فرمود: اگر بينا باشيد به شما ره نموده شده است و وسايل رهنمايى براى شما فراهم است اگر به راه بياييد و اگر گوش شنوا داريد نداى حق بلند است.

گر ببينى ديدنى ها در برت   پرچم رهجوى بالاى سرت
گوش اگر دارى نداى حق شنو   كان بلند است از زمين تا ماه نو

(١) بحار الأنوار: ٥/ ٣٠٥ ح٢١. وميزان الحكمة: ١/ ٢٦٦ ح٣٥٨.

الخمسون بعد المائة من حكمه عليه‌السلام

(١٥٠) وَقالَ عليه‌السلام: «عاتِبْ أخاكَ بالْإحْسانِ إلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإنْعامِ عَلَيْهِ»[١].

المعنى

لا يخلو الصّديق وإن كان من أهل الأمانة من نقص في المعاشرة يستحقُّ به العتاب، أو سوء فعل يؤذي به الأحباب، فقال عليه‌السلام: الإحسان إليه أردع له من العتاب، والإنعام عليه أرفع لشرِّه وسوء عمله وأدبه كما قال الله تعالى: **﴿إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذين بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾** [السجدة؟: ٢٤؟] وهذا حكمة مع من يصدق عليه أنّه أخ وصديق، ولكن لا تشمل من هو أضلّ من الأنعام، كما قال الشاعر:

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضرّ كوضع السيف في موضع النّدى

الترجمة

با احسان دوستت را سرزنش كن و با بخشش بدرفتاريش را از خود بگردان.

به جاى گله كن تو احسان به دوست   ببخشش بگردان ز خود شرّ دوست

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ٧/ ٢٩٠، وميزان الحكمة: ١/ ٥٨.

الحادية والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥١) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهَمَةِ فَلاَ يَلُومَنَّ مَنْ أساءَ بِهِ الظَّنَّ»[1].

المعنى

ينبغي للمسلم أن يحفظ ظاهره من المساوىء والعيوب، لأنَّ ظاهر حال المسلم السّلامة من المآثم، وهو دليل عدالته وسبيل الاعتماد عليه وسبب حرمة غيبته وذكر معايبه، ولا ينبغي له أن يضع نفسه في مظانّ السّوء كالمعاشرة مع الفجّار، أو القعود على دكّة الخمّار، فإنّ يوجب التّهمة والعار.

الترجمة

هركه در تهمت گاه نشنيد بد گمانى مردم بيند و جز خود را سرزنش نبايد كرد.

هر كه بر دكّه ميخانه نشست — به گمان همه مى باشد مست
نكند سرزنش از بدبينان — كه سزاوار ملامت خودش است

(١) الإختصاص: ٢٢٦، وبحار الأنوار: ٧١/ ١٨٧ ح٧.

الثانية والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥٢) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ مَلَكَ ٱسْتَأْثَرَ، وَمَنِ ٱسْتَبَدَّ بِرأيِهِ هَلَكَ وَمَنْ شاوَرَ الرِّجالَ شارَكَها في عُقُولِها»(١).

اللغة

(استأثر) بالشيء على الغير: استبدّ به وخصّ به نفسه.

المعنى

أفتن الأُمور للنفوس وأكثرها إثارة لقوّة طلب الامتياز عن سائر النّاس هو الملك والسّلطنة حتّى شاع في المثل السائر «الملك عقيم» وقوله عليه السلام: **(من ملك استأثر)** مثل سائر يضرب لمن غلب على أمر فاختصّ به ومنعه غيره.

والاستبداد بالرأي معرض للخطأ، واستفزاز من يحوط بالمستبدّ على المخالفة معه والتدبير عليه والسعي لنقض رأيه وإظهار بطلانه، فينجرُّ الأمر إلى هلاك المستبدّ وخصوصاً في الحروب والمنازعات الجماعية الّتي تحتاج إلى الاستعانة والمدد من الغير.

والمشورة أساس لإجراء الأُمور وخصوصاً الأُمور العامة الّتي ترجع إلى أُمّة وشعب أو قبيلة وحيّ، وقد حثّ القرآن على الاستشارة في الأُمور حتّى بالنسبة إلى النّبي صلى الله عليه وآله المصون من الخطأ فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقرّر الشورى سيرة اجتماعية عامّة تامّة للمسلمين كإقام الصّلاة وسائر شعائر الدِّين فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

الترجمة

هر كه پادشاه شد خود خواه مى شود و هركس پابند راى خود شد به هلاكت مى رسد و هركس با مردان مشورت كرد شريك عقل آنان مى شود.

هر كه شد پادشاه خودخواه است هر كه خود راى گشت گمراه است

هر كه با مردمان كند شورى در خردشان شريك و در راه است

---

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ١٠٤ ح٣٨، ونهج السعادة: ٧/ ٢٧٦.

الثالثة والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥٣) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كانَتِ الْخِيَرَةُ بِيَدِهِ»[1].

اللغة

(الخيرة) بالكسر فالسكون من الاختيار ـ مجمع البحرين.

المعنى

كتمان الأسرار من آداب الأحرار، سواء كانت لنفسه فيكتمها عمّن سواه فإنّه إذا جاوز الشّفتين شاع، وإن كانت مستودعة فإشاعتها خيانة ظاهرة، وكلامه عليه السّلام راجع إلى سرّه نفسه.

الترجمة

هر كه رازش را نهان داشت اختيار را با خود نگه داشت.

هـــر كـــه رازش نـــهـــان كـــنـــد در دل اخـــتـــيـــار از كـــفـــش نـــشـــد زايـــل

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٣، وبحار الأنوار: ٧١/ ١٨٧.

الرابعة والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥٤) وَقالَ عليه السلام: «اَلْفَقْرُ الْمَوْتُ اَلأَكْبَرُ»[١].

المعنى

الموت على ضربين: موت اختياري أمر به في قوله عليه السلام: موتوا قبل أن تموتوا[٢]، ومرجعه إلى محو الآنيّة الماديّة ودحر النفس الأمّارة عن التّوجّه إلى ميولها الشهوانيّة ونفورها الغضبيّة إلى حيث تقبل إلى ما يخالفها من الرّياضات البدنيّة، وتكره اللذات النفسانيّة، كما استشمّ عليٌّ عليه السلام من وعاء الحلوى ريح سمِّ الحيّة وقيئها.

وموت طبيعيٌّ يعرض للإنسان فيفني جسمه بما فيه من الأهواء والأميال والأماني والأمال، وللفقر أكبر أثر في الإنسان من الناحيتين.

الترجمة

فرمود: درويشى بزرگترين مرگ است.

فقير ار بميرد توانگر شود   كه وارسته مرگ اكبر شود

(١) مشكاة الأنوار: ٢٢٨، وعوالي اللئالي: ١/٤٦.

(٢) شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: ٦، وبحار الأنوار: ٦٦/٣١٧.

الخامسة والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥٥) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ قَضىٰ حَقَّ مَنْ لاٰ يَقْضي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَدَهُ»[١].

المعنى

قد اضطرب في شرح كلامه عليه السلام هذا تفسير الشرّاح واختلف في قراءته.

قال ابن ميثم في شرحه: أراد قضاء الحقّ بين الإخوان، وإنّما كان كذلك لأنَّ قضاء الغير عنه لحقّ من لا يقضي حقّه لا يكون لوصول نفع منه ولا دفع مضرّة المرء ـ كذا في النسخة والظاهر عنه مكان المرء ـ لأنه هو أو ـ كذا في النسخة والظاهر مكان هو أو قضاه ـ خوفاً منه أو طمعاً فيه، وذلك صورة عبادة انتهى.

والظاهر أنّه قرأ عبده من الثلاثي المجرَّد، ومقصوده أنَّ قاضي الحقِّ عبد المقضي عنه التارك للحق على تشويش في تعبيره زاده غلط النسخة الّتي عندي.

وقال الشارح المعتزلي: عبّده بالتشديد، أي اتّخذه عبداً يقال: عبده واستعبده بمعنى واحد، والمعنى بهذا الكلام مدح من لا يقضى حقه ـ بصيغة المجهول والأولى التعبير بمدح قاضي الحق ـ أي من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنّه لم يفعل معه ذلك مكافاة له عن حقّ قضاه إيّاه، بل فعل ذلك إنعاماً مبتدأ فقد استعبده بذلك[٢].

أقول: ما ذكره الشارح المعتزلي أوضح لفظاً ومعنى، فتدبّر.

الترجمة

کسی که به حق دوست بیوفا وفا کند، او را رهین منّت و بند خود ساخته.

گر وفاداری به یار بیوفا بندگی اوست از بهرت سزا

---

(١) الاختصاص: ٢٤٣، وبحار الأنوار: ٧١/ ١٦٣ ح٢٨.

(٢) شرح النهج: ١٨/ ٣٨٨.

السادسة والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥٦) وَقالَ عليه السلام: «لاٰ طاعَةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الْخالِقِ»[١].

المعنى

قال ابن ميثم: وذلك كالوضوء بالماء المغصوب، والصلاة في الدار المغصوبة ويحمل النفي هنا على نفي جواز الطاعة كما هو المنقول عنه وعن أهل بيته عليهم السلام وعند الشافعي قد يصحّ الطاعة والنفي لفضيلتها ـ انتهى.

أقول: نفي جواز الطّاعة بهذا المعنى عبارة عن نفي الصحّة، والحكم بصحّة الطاعة وفسادها كالحكم بوجوب الطاعة وحرمة المعصية عقلي لا شرعي، فعلى هذا يحمل كلامه عليه السلام على الإرشاد، وهو مبني على عدم جواز اجتماع الأمر والنهي على ما يبحث عنه في علم الأُصول، فمنعه قوم، وجوّزه آخرون.

وعدم صحة الوضوء بالماء المغصوب أو الصلاة في المكان المغصوب مستفاد من دليل اشتراط الإباحة في ماء الوضوء ومكان المصلّي، ولا يصحُّ الاستدلال له بهذه العبارة، مع أنّه لفظة مخلوق زائدة على هذا المعنى.

والأولى حملها على نفي حكم شرعي تعلّق بعنوان الطاعة بالنسبة إلى المخلوق كوجوب طاعة الوالدين على الولد، والزوج على الزوجة في موارد مقرّرة، والسيّد على العبد، والمقصود نفي وجوبها إذا كانت معصية للخالق، كما إذا أمر الوالد ولده بترك الصلاة أو قتل النفس المحترمة.

وقد حمله الشارح المعتزلي على هذا المعنى فقال: هذه الكلمة قد رويت مرفوعة، وقد جاء في كلام أبي بكر: أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ـ انتهى[٢].

الترجمة

نشايد اطاعت مخلوق در عصيان خالق.

فرمان بنده در ره عصيان كردگار　　　زشت است و ناروا است مرآنرا فرو گذار

---

(١) شرح الأخبار: ١/١٤٦، وبحار الأنوار: ١٠/٢٢٧.

(٢) شرح النهج: ١٨/٣٨٩، وخلاصة عبقات الأنوار: ٣/١٨٣ ح ٥.

السابعة والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥٧) وَقالَ عليه السلام: «لاَ يُعَابُ الْمَرْأُ بِتَأْخيرِ حَقِّهِ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ ما لَيْسَ لَهُ»[١].

المعنى

حمل الشارح المعتزلي كلامه هذا على «جواب سائل سأله لم أخّرت المطالبة بحقّك من الإمامة» وأورد اعتراضاً، وأجاب عنه بأنّه لا بدّ من إضمار شيء في الكلام، قال: وتقديره: لا يعاب المرء بتأخير حقّه إذا كان هناك مانع عن طلبه.

أقول: لا حاجة إلى التقدير، فإنّ الحكم لم يتعلّق بتأخير المطالبة وإنّما تعلق بنفس التأخير، ولا يكون التأخير فعلاً لذي الحقّ حتّى يرد الاعتراض ويحتاج إلى الجواب، مع أنّ علياً عليه السلام يطلب حقّه منذ وفاة النبي صلى الله عليه وآله إلى أن توفي عليه السلام بحسب ما يتمكّن في كل وقت وزمان، وقد ورد احتجاجاته مع المخالفين في أيّام السقيفة وما بعدها إلى زمن قتل عثمان في كتب الفريقين بما لا مزيد عليه.

الترجمة

مرد را نكوهش نشايد كه حقّش به دست نيايد، همانا نكوهش آن را است كه دست به ناحق برآرد.

نكوهش نبايد بر آن كس كه حقش	ز دستش ربودند و تأخير شد
همانا نكوهش بر آن كس روا است	كه حق كسان برد و زان سير شد

---

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٨٠، وبحار الأنوار: ١٥/٣٠.

الثامنة والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥٨) وَقالَ عليه السلام: «اَلْإِعْجابُ يَمْنَعُ مِنَ اَلْإِزْدِيادِ»[١].

المعنى

قال الشارح المعتزلي: وأصل الإعجاب من حبّ الإنسان لنفسه، وقد قال عليه السّلام: «**حبّك الشيء يعمي ويصمّ**»[٢] ومن عمي وصمّ تعذّر عليه رؤية عيوبه وسماعها ـ انتهى.

أقول: الظاهر أنّ العجب المذموم الّذي عدّ من المهلكات ويمنع المعجب من الازدياد هو العجب بالفضائل النفسانيّة من العلم والزّهد والعبادة، لا العجب بالمال وما هو خارج عن وجود الإنسان، فإنّ الازدياد فيه غير مطلوب.

الترجمة

فرمود: خودبينى مانع از افزودن است.

(١) ميزان الحكمة: ٣/٢٥١٧.

(٢) البداية والنهاية: ١٢/٤٠٧، وسبل الهدى والرشاد: ٣/ ٣٤.

التاسعة والخمسون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٥٩) وَقالَ عليه السلام: «ٱلْأَمْرُ قَرِيبٌ، وَٱلْإِصْطِحَابُ قَلِيلٌ»[١].

اللغة

(اصطحبه): جعله في صحبته ـ المنجد.

المعنى

فسّر الأمر في قوله عليه السلام بالموت، ولكن فسّر الأمر في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ بيوم القيامة كما نقله في مجمع البيان عن الجبائي وابن عباس وفسّر قلّة الاصطحاب بقلّة مصاحبة أمور الدُّنيا وما فيها، ويمكن أن يكون المراد قلّة المصاحبة لأعمال الخير.

الترجمة

فرمود: امر الهى نزديك است و مصاحبت اندك.

(١) ميزان الحكمة: ٩١٨/٢ ح١٢٥٨.

الستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦٠) وَقالَ عليه السلام: «قَدْ أَضاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ»[1].

المعنى

قال الشارح المعتزلي: هذا الكلام جار مجرى المثل ـ انتهى.

فهو من الأمثال السائرة الجارية على لسانه عليه السلام، والمقصود منه وجود الدليل الباهر الظاهر على الحقّ وضوح طريق النجاة لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد.

الترجمة

فرمود: بامداد براى كسى كه دو چشم بينا دارد روشن است.

بـــامـــدادان روشـــن از بـــهـــر كـــســـى كـه دو چـشـمـش هـسـت بـيـنـا و درسـت

(١) بحار الأنوار: ٥/ ٣٠٥ ح٢٢، ومستدرك سفينة البحار: ١٤٨/٦.

الحادية والستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦١) وَقالَ عليه السلام: «تَرْكُ الذنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ»(١).

المعنى

ارتكاب الذنب مع العلم بعواقبه ينشأ من غلبة الشّهوة أو حدَّة الغضب أو الطمع وأمثالها من الرّذائل، أو من ضعف الإيمان والتذبذب في العقائد، وهذه العوامل الداعية على ارتكاب الذنب مانعة عن التوبة والرّجوع وتدارك ما فات، مضافاً إلى أنَّ طلب التوبة إطاعة أمر الله مع الإقدام على التدارك فهو أصعب من ترك الذَّنب رأساً بمراتب.

الترجمة

فرمود: ترك گناه آسان تر است از توبه و واخواه.

ترك گنه از توبه بود آسانتر ز آغاز بيا و از گناهت بگذر

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ٣٦٤ ح٩٦، وميزان الحكمة: ١/ ٣٤٤ ح٤٦٥.

الثانية والستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦٢) «كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ[١] أَكَلاٰتٍ»[٢].

المعنى

مثل سائر يضرب لمن يفرط في أمر بداعي الاستيفاء منه كما يريد فصار إفراطه سبباً لحرمانه منه رأساً، كمن أفرط في أكل طعام شهيّ هنيء فمرض ومات، أو مات من البطنة فيمنع من سائر الأكلات، أو يفرط في الدّلال على من يحبّه فيزجره فهجره رأساً.

الترجمة

فرمود: بسا خوراكى كه مانع خوراك ها است.

چه دستت رسد پر مخور تا بمانى   كه از خوردنت بعد از آن بازمانى

(١) «منعت» في نسخة

(٢) بحار الأنوار: ١٦٦/٧٠ ح٢٩، ومستدرك سفينة البحار: ١/ ١٥٩.

الثالثة والستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦٣) وَقالَ عليه السلام: «النَّاسُ أَعْداءُ ما جَهِلُوا»[١].

المعنى

الجهل ظلمات متراكمة في فضاء القلب بعضها فوق بعض، ومحيط الظّلمة منشأ الخصومة والعداوة والخوف والوحشة، فترى الأطفال وضعفاء العقول يخافون في ظلمة الليل ويتوهّمون كلّ ما يتراءى لهم سبعاً ضارياً، أو عدوّاً فاتكاً.

فالجاهل التائه في ظلمات جهلة يتوهّم كلّ ما لا يحيط به علماً عدوّاً أو مضرّاً له فيخاف منه ويحسبه منافياً لمقاصده، وقد كثرت الخصومات بين الشعوب والأفراد من ناحية الجهل والقصور في المعارف.

وقد تنبّه زعماء البشرية في هذه العصور لما أفاده عليه السلام في أسبق القرون والدهور فتوسّلوا إلى بسط العلم والمعرفة بين الشعوب لترتفع الخصومات ويحلّ السلم والتودُّد محلّ العداوة والشحناء والخصومات الّتي أثارت حروباً دامية شعواء تلفت فيها ألوف وملايين من أفراد البشر الأبرياء، وهدمت صوامع ومساجد وبلاداً عامرة وغلب عليها الخراب والدّمار.

الترجمة

مردم دشمن اند هرآنچه را ندانند.

مـردمـان دشـمـن انـد آن چـه نـدانـنـد　　　سـعـی نـمـايـنـد تـا ز خـويـش بـرانـنـد

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠/٨٦ ح٤٤٧، وجواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام: ٢/١٦٧ ح١٦٥.

الرابعة والستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦٤) وَقالَ عليه السلام: «مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْآراءِ عَرَفَ مَواقِعَ الْخَطأ»(١).

المعنى

لا يستحقُّ إطلاق الرأي على إظهار نظر إلاّ إذا كان صادراً من الخبير في موضوعه ونظر الخبير في رأيه مستند إلى دليل ووجه علمي، فإذا اختلفت الأراء في مسألة بين ذوي الخبرة كالفقهاء في الأحكام الشرعيّة، أو الصنّاع في الأُمور الصناعيّة، فلا بدَّ وأن يعتمد كلّ من أصحاب الآراء إلى دليل، فمن تصفّح أدلّتهم وتوجّه إلى وجوه آرائهم، يعرف بالتدبّر وإمعان النظر مواقع الخطأ، ويستخرج من بينها ما هو الصّواب.

الترجمة

فرمود: هر كس دليل آراء مختلفه را بررسى كند، مواضع خطاء آنها را مى فهمد.

هـــر كـــه روى آرد بـــه آراء از دلـــيـــل مـى شـنـاسـد آن چـه مـى بـاشـد عـلـيـل

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٤٠٤ ح١٧٥، وبحار الأنوار: ٧٤/ ٢٨٦.

الخامسة والستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦٥) وَقال عليه السلام: «مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ لِلّٰهِ قَوِيَ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ الْبَاطِلِ»[١].

اللغة

(الحدّة) ما تعتري الإنسان من النزق والغضب يقال: حدَّ يحدّ حدّاً إذا غضب ـ مجمع البحرين.

المعنى

كلّ شيء له وجه إلى الله وطرف إلى الطبيعة، فباعتبار وجهه الإلهي حسن ممدوح، فالغضب إذا ثار لله كان حسناً وصار من الإيمان ويعتزّ به الدّين ويشدّ به ظهر المؤمنين.

وقد روي في مجمع البحرين عن الباقر عليه السلام وقد سئل ما بال المؤمن أحدّ شيء؟ فقال[٢]: «لأنَّ عزّ القرآن في قلبه، ومحض الإيمان في صدره، وهو لله مطيع، ولرسوله مصدّق» ـ انتهى.

ولا بدّ للمجاهد في سبيل الله من سورة الغضب وجمرة حمية كاللّهب حتّى يقدر على الدفاع تجاه الأعداء الأشدّاء، وقوي على قتل الأبطال من المحاربين لله ورسوله.

الترجمة

فرمود: هركس براى خدا سرنيزه خشم و غضب خود را تيز كند، بر كشتار قهرمانان باطل نيرومند گردد و پيروز شود.

هركه بهر خدا به خشم آيد دل ابطال كفر بربايد

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٨، وبحار الأنوار: ٦٨/ ٣٦٣،

(٢) بحار الأنوار: ٦٤/ ٢٩٩ ح٢٤، وألف حديث في المؤمن: ٢٨٩ ح٨٧٨.

السادسة والستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦٦) وَقالَ عليه السلام: «إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فيهِ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمّا تَخافُ مِنْهُ»[١].

اللغة

(هاب) يهاب: خاف.

المعنى

كثيراً ما يعرض للإنسان أمرٌ يهابه لجبنه وجهله، كالطّفل يهاب من الدُّخول في بيت مظلم، أو السلوك في طريق لم يسلكه، وهذه الهيبة الناشئة عن الجبن تقع مانعة من التقدُّم في الأمور، فحثَّ عليه السلام إلى دفعها مشيراً إلى أنَّ تحمّل الخوف الحاصل من التردّد أعظم من الوقوع في الأمر المخوف منه.

وبالعمل بهذه الحكمة وفّق رجال الاكتشاف والتحقيق من نيل مفاخر عالميّة فتوغّلوا في بطون الغابات والصحاري في أفريقيا وشتّى البراري، وساحوا في البحار واقتحموا في الجزر النائية، فنالوا بما نالوا من النفوذ والثروة والشّهرة، وخدموا العلم والمعرفة العالميّة، فدفع هذا الوهم الناشىء من حسّ النفور منشأ الفوز والوصول إلى المعالي في شتّى الأُمور.

الترجمة

فرمود: چون از امرى نگرانى خود را در آن وارد ساز، زيرا خوددارى از ورود در آن اندوهى بزرگتر است.

چه ترسى ز امرى بينداز خويش در آن و به پيراى تشويش خويش
دو دل بودن و خود نگهداشتن بسى سخت تر مى كند قلب ريش

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٦٢ ح٦، وميزان الحكمة: ١/ ٨٣٢ ح١١٤٨.

السابعة والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٧) وَقال عليه السلام: «آلَةُ الرِّياسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ»[١].

المعنى

الرئاسة سواء كانت حقّاً إلهيّاً كرئاسة الأنبياء والأئمة على الأمّة، أو بشريّاً بالانتخاب أو القوّة، تحتاج إلى حلم عميق وسعة صدر، لأنَّ مرجعها إلى تدبير أمور النّاس وحلّ مشكلاتهم وفصل خصوماتهم وإجابتهم في شتّى مراجعاتهم.

مضافاً إلى أنَّ الرئاسة منشأ للتنافس وسبب لبروز المنازعات والحروب والمعارضات فلا بدَّ من تحمّلها والتدبير في الدّفاع عنها بما هو أهون وأنفع من صلح تارة وحرب أُخرى، ولين مرَّة وشدَّة مرّة أُخرى، ولا بدَّ فيها من بذل الأموال وتحمّل الأهوال، وانتظار سوء المآل، وكلّ هذه الأُمور الهامّة والخطوب الهائلة يحتاج إلى سعة الصّدر، فمن لا نصيب له منها فلا يحدثنّ نفسه بها.

الترجمة

فرمود: ابزار رياست و سرورى، سعه صدر و دريا دلى است.

وسعت صدر به بايد كه رياست به كف آيد ورنه از تنگدلى شغل رياست به سر آيد

(١) مستدرك سفينة البحار: ١١/٤، وميزان الحكمة: ١٠٠٨/٢ ح١٣٩٧.

الثامنة والستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦٨) وَقالَ عليه السلام: ٱزْجُرِ ٱلْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ[١].

اللغة

(**الزجرة**) الصّيحة بشدّة وانتهار، من زجرته زجراً من باب قتل: منعته ـ مجمع البحرين.

المعنى

من محاسن آداب التربية وتثبيت النظم في الاجتماع وتشويق الأفراد على أداء الوظيفة، التقدير من المحسنين والعاملين بوظيفتهم بإعطاء أجر عملهم ومزيدهم من الإحسان تجاه عيون المسيئين والعاملين على خلاف الوظائف، فإنّه أردع لهم من سوء فعلهم من الملامة والعقوبة.

الترجمة

بدكار را از بد كارى بران، بهوسيله پاداش دادن به نيكوكار.

تو بدكار را واكش از كار بد به پاداش بر محسن با خرد

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٧٥، وبحار الأنوار: ٧٢/ ٤٤ ح١٢.

التاسعة والستون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٦٩) وَقالَ عليه السلام: «أُحْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ»(١).

اللغة

(الحصاد) بالفتح والكسر قطع الزّرع، وحصدت الزَّرع وغيره من باب ضرب وقتل فهو محصود وحصيد ـ مجمع البحرين.

المعنى

قال الشارح المعتزلي: هذا يفسّر على وجهين:

١ ـ إنّه يريد: لا تضمر لأخيك سوءاً، فإنك لا تضمر ذلك إلاّ يضمر لك سوءاً لأنَّ القلوب يشعر بعضها ببعض، فإذا صفوت لواحد صفا لك.

٢ ـ أن يريد: لا تعظ النّاس ولا تنههم عن منكر إلاّ وأنت مقلع عنه، وقد سبق الكلام في كلا المعنيين.

أقول: بين القلوب روابط من ناحية الشعور الباطني اللاواعي فتكسب المحبّة والعداوة من حيث لا يلتفت إليه صاحبه.

الترجمة

فرمود: بدنهادى را از سينه ديگران، بهوسيله ريشه كنى آن از سينه خودت، درو كن.

نهاد بد از سينه ديگران   درو كن به تطهير سينه از آن

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٨٢، وبحار الأنوار: ٧٢/ ٢٢٢ ح١٠.

السبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٠) وَقالَ عليه السلام: «أَللَّجاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْيَ»[1].

اللغة

(سلّ) سلاً الشيء من الشيء: انتزعه وأخرجه برفق ـ المنجد.

المعنى

اللّجاجة هي الإصرار على الإنكار والتمرُّد تجاه أمر أو نهي أو اقتراح إصلاح نزاع ورفع خلاف، كلجاجة الطفل تجاه أمر الوالدين، أو الرعية المتمرّدة على الحاكم أو أحد المتداعيين تجاه طرح الإصلاح في المحاكم، وهي تذهب بالرأي الناجح من الأمر والمقترح، لأنّه لا يراه أهلاً للإحسان، وحسن التربية على أثر لجاجه، أو تسلّ رأي اللّجوج نفسه فلا يرجع إلى الصواب واتّخاذ الرأي المثاب وكلام الشراح غير واضح في هذا المقام، ولعلّ المراد أنّ اللّجاجة تخرج رأي الآمر والقاضي على ضرر اللّجوج المتمرّد.

الترجمة

فرمود: لجبازى راى را از نيام مى كشد.

لجاجت كشد تيغ راى از نيام برآرد دمار لجوجان خام

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٤١ ح١٤، وميزان الحكمة: ٢/ ١٠٢٥ ح١٤٢٦.

الحادية والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧١) وَقالَ عليه السلام: «اَلطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ»[(١)].

المعنى

(الرقّ) من لا يملك رزقه ولا يعتمد على نفسه في معاشه وينظر في أموره إلى مولاه، ومن تمكّن الطمع إلى الغير في قلبه ويريد أن يعيش من يد غيره كالسائل بالكفّ فيصير كرقّ لا رجاء في حرّيته وفي حياة سعيدة له يملك أمره بنفسه.

الترجمة

طمع ورزيدن خود باختن ابدى است.

به خود باش و روزى بخواه از خدا — كه طماع چون بنده اى بى نوا

(١) نهج السعادة: ٧/ ٤٣٣، وميزان الحكمة: ٢/ ١٧٤١. ح٢٤١٧.

الثانية والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٢) وَقالَ عليه السلام: «ثَمَرَةُ ٱلْحَزْمِ ٱلسَّلاَمَةُ، وَثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ[1] ٱلنَّدَامَةُ»[2].

المعنى

(**الحزم**) هو التفكّر في العواقب وما يترتّب على العمل من النتائج، فيحذر الحازم عمّا يؤدّي إلى الضّرر والهلاك، فشبّهه عليه السلام بشجرة ثمرتها السّلامة عن الآفات، (**والتفريط**) هو الإقدام على الأمور من غير رويّة وقطع النظر عمّا يترتّب عليه من البليّة، فهي كشجرة تثمر الندامة والأسف، ويتلف على الإنسان فوائد مالها من خلف.

الترجمة

فرمود: ميوه دورانديشى، تندرستى و خوشى است و ميوه ول انگارى پشيمانى و ناخوشى است.

ز دورانديشى آيد تندرستى ول انگارى پشيمانى و سستى

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٢٠٨، وميزان الحكمة: ١/ ٦٠٤.

(٢) في نزهة الناظر للحلواني: ٤٦ ح ١١، وثمرة العجز الندامة...

الثالثة والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٣) وَقالَ عليه السلام: «لاٰ خَيْرَ في الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ، كَمٰا أَنَّهُ لاٰ خَيْرَ في ٱلْقَوْلِ بِالْجَهْلِ»(١).

اللغة

(حكم) حُكماً قضى، حكم حكماً في البلاد تولّى إدارة شؤونها ـ المنجد.

المعنى

(الحكم) جاء بمعنى القضاء في فصل الخصومات، وله شرائط مقرّرة في الفقه وتعبيرات خاصّة ترجع إلى القاضي، وهكذا الأمر في القوانين العرفيّة، ولا يجوز الصّمت عن الحكم بعد تمام مقدّماته المقرّرة.

وجاء بمعنى الحكومة وتولّي إدارة شؤون البلاد، وليس من جنس القول وإن كان يلازمه.

فعلى قراءة كلامه بلفظ الحكم ينظر إلى مسائل القضاء، والمقصود الأمر بإصدار الحكم الحقّ إذا كان القاضي أهلاً له، والرّدع عن قضاء الجاهل الغير القابل للقضاوة.

ويمكن أن يقرأ عن الحِكَم جمعاً للحكمة فيكون مفهومه أعمّ وأتمّ.

الترجمة

فرمود: خموشى از بيان حق خوبى ندارد، چنان كه گفتار جاهلانه خوبى ندارد و خوش سروده است:

دو چيز تيره عقل است دم فرو بستن   به وقت گفتن و گفتن به وقت خاموشى

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٨١ ح٨٢، ونهج السعادة: ١/ ٥٣.

الرابعة والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٤) مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلاَّ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلاَلَةً[1].

المعنى

يظهر من الشرحين لابن ميثم والمعتزلي أنّهما حملا الدّعوة على الرّأي والحكم، فاستنتج منه ابن ميثم بطلان القول بالتصويب فقال: وهذا يستلزم بطلان كون كلّ مجتهد مصيباً إلخ. وخصّصه المعتزلي بالاختلاف في أصول الدين فقال: هذا عند أصحابنا مختص بالإختلاف في أصول الدين، ويدخل في فلك الإمامة لأنها من أصول الدين إلخ.

أقول: الظاهر من الدّعوة أن يكون إلى طريقة دينيّة ولاتّباع نبي أو إمام فلها مفهوم سياسي اجتماعي، ولا يجتمع دعوتان مختلفتان على الحقّ والهدى فكانت إحداهما ضلالة، لأنَّ النبوّة والإمامة الّتي كانت مرجعاً للحقِّ في عصر واحد لا تكون إلاّ واحدة سواء قلنا بالتصويب أو التخطئة، وسواء بالنظر إلى أُصول الدين أو فروعه.

وربّما تجتمع الدّعوتان على الضلالة، بل يمكن وجود دعاوي كثيرة ضالّة والمقصود نفي اجتماع دعوتين على الحقّ والهداية، فإذا عرفنا بالأدلّة القاطعة أنَّ دعوة عليّ في الجمل وصفّين حقٌّ وهداية، فلا بدّ من أن تكون دعوة مخالفية ضلالة وباطلة.

الترجمة

فرمود: دعوت به دو طريقه مخالف نگردد مگر اين كه يكى از آنها گمراهى و ناحق باشد.

گر رهنما دو كس شد و با هم مخالف اند   زان دو يكى به راه ضلال است در كمند

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٧٧، وميزان الحكمة: ١/ ٧٦٤ ح١٠٤٦.

الخامسة والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٥) وَقالَ عليه السلام: «ما شَكَكْتُ في الْحَقِّ مُذْ أُريتُهُ»[١].

الإعراب

(أُريته)، مبنيٌّ للمفعول من أرى يرى، والضمير الأول نائب الفاعل والهاء مفعوله الثاني أي أبصرت به.

المعنى

درك الحق واتّباعه تارة يكون بالتقليد، وتارة بالدَّليل القابل للتشكيك وتارة بالوجدان والشهود الّذي يعبّر عنه بالرؤية والإبصار على نحو المجاز كقوله عليه السّلام في جواب من سأله هل رأيت ربّك: «**كيف أعبد ربّاً لم أره**»[٢] تشبيهاً للرؤية الوجداني والقلبي برؤية العين الجسمي.

فالمقصود أني أدركت ولمست الحق بالوجدان والمشاهدة القلبيّة كأنّي رأيته ببصري ولا مجال للشك في إيماني، وقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «**يا علي لا ترجع كافراً بعد إيمان، ولا زانياً بعد إحصان**»[٣] وهذا كناية عن عصمته اللاّزمة لإمامته عليه السلام.

الترجمة

فرمود: از گاهى كه حق را به چشم من نمودند شكّى در آن به من عارض نشده.

تا كه ديدم حق به چشم خود عيان   شك نيامد در دلم از بهر آن

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٢٣٧، وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠٧.

(٢) بحار الأنوار: ٤/ ٥٤ ح٣٤، ونهج السعادة: ٣/ ٥٦ ح١٣.

(٣) بحار الأنوار: ٢٨/ ٧٧، وشرح نهج البلاغة: ٩/ ١٧٣.

السادسة والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٦) ما كَذَبْتُ وَلاَ كُذِّبْتُ، وَلاَ ضَلَلْتُ وَلاَ ضُلَّ بي[1].

الإعراب

(كُذِّبت)، مبني للمفعول عن باب التفعيل، والضمير نائب عن الفاعل أي أخبرت كاذباً، **(ولا ضلّ بي)**، مبني للمفعول عن ضلّ يضلّ، والمجرور نائب الفاعل لأنه مفعول بواسطة حرف الجرّ أي أضللت عن طريق الحقّ.

المعنى

قال الشارح المعتزلي: هذه كلمة قالها مراراً إحداهنَّ في وقعة النهروان.

أقول: استناده إلى هذه الكلمة في مورد إخباره عن قضية أخبره عنها النبيُّ صلّى الله عليه وآله، ويبعد عن تصديق المستمعين كما في إخباره عن قتل ذي الثّدية في وقعة نهروان، ولا يجده الفاحصون لاختفاء جثّته بين القتلى فأصرّ على الفحص عنه حتّى وجدوه كما أخبر به عليه السلام.

الترجمة

فرمود: من دروغ نگفتم و دروغ نياموختم و گمراه نشدم و به گمراهى افكنده نشدم.

علـى داناى اسرا نهانى	چنين فرمود با ياران جانى
نگفتم من دروغ و هم دروغى	نياوردم بدل از بى فروغى
نه گمراهم نه كس گمراه كردم	پيمبر هرچه گويم در سپردم

(١) الأمالي الطوسي: ٢٦١، ونهج السعادة: ١/٣١٦ ح١٠١.

السابعة والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٧) وَقالَ عليه السلام: «لِلظَّالِمِ ٱلْبَادي غَداً بِكَفِّهِ عَضَّةٌ»(١).

اللغة

(عضضت) اللقمة وبها وعليها بالأسنان عضّاً أمسكتها بالأسنان، قال في المصباح: وهو من باب تعب في الأكثر ـ مجمع البحرين.

المعنى

البادي بالظلم من شرعه من دون تعرُّض المظلوم له، وهو أشدّ عقوبة ممّن ظلم ظالمه انتقاماً، وربّما يتحمّل عقابه أيضاً، والمنتقم غير المقاصّ على وجه مشروع لأنّه ليس ظالماً وهذه الحكمة مقتبسة من قوله تعالى: ﴿يوم يعض الظالم على يديه﴾ [الفرقان: ٢٨].

قال الشارح المعتزلي: وإنّما قال **(البادي)** لأنَّ من انتصر بعد ظلمه فلا سبيل عليه ـ انتهى.

وقد عرفت ضعف هذا الكلام.

الترجمة

آن كه ستم را آغازد، فرداى قيامت كف خود از ندامت بگزد.

آن كه آغاز كند ظلم و ستم　　در قيامت بگزد كف ز ندم

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٣٢٠ ح٤٩، وميزان الحكمة: ٢/ ١٧٧٦ ح٢١.

الثامنة والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٨) وَقالَ عليه السلام: «الرَّحِيلُ وَشِيكٌ»[١].

اللغة

(وشك) يوشُك بضم الشين فيهما وشكاً أي سرع فهو وشيك أي سريع - مجمع البحرين.

المعنى

إنذار بسرعة زوال الدُّنيا والارتحال إلى دار العقبى، للتهيّؤ للموت قبل الفوت.

الترجمة

كوچ از دنيا شتابنده است چه خوش سروده:

خنك آن كس كه رفت و كار نساخت   كـوچ رحـلـت زدنـد و بـار نـسـاخـت

(١) ميزان الحكمة: ٤/٢٩٥٨، وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٧٠ ح١٥٤.

التاسعة والسبعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٧٩) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ»[١].

اللغة

(صفح) كلّ شيء وجهه وناحيته، وكذلك الصفحة ـ مجمع البحرين.

المعنى

قد تناقض كلام الشارحين في تفسير كلامه عليه السلام فقال ابن ميثم في شرحه: أي من تجرّد لنصرة الحقّ في مقابل كلّ أحد هلك عند جهلة النّاس لضعف الحقّ عندهم وغلبة حبِّ الباطل على نفوسهم إلخ.

وقال الشارح المعتزلي: قد تقدَّم تفسيرنا لهذه الكلمة في أوّل الكتاب ومعناها من نابذ الله وحاربه هلك، يقال لمن خالف وكاشف: قد أبدى صفحته.

أقول: ما ذكره المعتزلي أظهر في المقام، ويؤيّده قوله عليه السلام: هلك، على وجه الإطلاق.

الترجمة

هركس روبه روى حق ايستاد، هلاك و نابود شد.

هركه پر روى شد برابر حق گشت نابود در ره ناحق

---

(١) الارشاد المفيد: ١/ ٢٤٠، ونهج السعادة: ١/ ١٨٠.

الثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨٠) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَنْجِهِ الصَّبْرُ، أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ»[١].

الإعراب

(لم ينجه): من الإنجاء، والضمير مفعوله وسقطت ياؤه بالجزم.

المعنى

حثَّ عليه السلام على التمسّك بالصبر عند نزول البلاء وحدوث المصيبة وإن كانت عظيمة وكبيرة لأنَّ العدول من الصبر وإن كان مرّاً يستلزم الوقوع في الجزع وهو أمرّ وأنكى من الصبر لأدائه إلى الهلاك في الدُّنيا إذا أفرط فيه، والعذاب في الأخرة إن ارتكب ما يخالف الشرع كجزّ الشعر وخدش الوجه.

الترجمة

فرمود: هر كسى را شكيبايى نجات ندهد، بى تابيش نابود كند.

هر كه را صبر نجاتش ندهد　　از جزع خود به هلاكت برسد

(١) ميزان الحكمة: ٤/٣٢٦٢ ح٣٨٥٧، وشرح نهج البلاغة: ١٨٠/٤١٥.

الحادية والثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨١) وَقالَ عليه السلام: وَاعَجَبًا أَتَكُونُ الْخِلافَةُ بِالصَّحابَةِ[1] وَالْقَرابَةِ؟![2]

قالَ الرَّضيُّ رَحمه الله: وروي له شعرٌ في هذا المعنىٰ وهو:

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورىٰ مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ ... فَكَيْفَ بِهٰذا وَٱلْمُشِيرُونَ غُيَّبُ

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبىٰ حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ ... فَغَيْرُكَ أَوْلىٰ بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

المعنى

مقصوده من هذه الجملة الإنكار الشديد المقرون بالاستعجاب ممّا استندوا إليه في تصدّي الخلافة وتمسّك به أهل السنة وجعلوه أصلاً أصيلاً في أمر الإمامة وهما: الصّحابة والقرابة، وقد خطّأ عليه السلام كلا الأصلين معاً ولو مجتمعاً.

ونظره إلى أنّ الخلافة عن الرّسول والإمامة على الأمّة تحتاج إلى النصّ المنتسب إلى الوحي، لأنَّ الإمامة الحقة تحتاج إلى صفات معنوية لا يحيط بها علم النّاس ولا يمسّها نظر الانتخاب مهما كان دقيقاً وخالصاً، والشورى قد تكون كاشفاً عن النصّ ولكن يشترط فيه إجماع أهل الشورى الشامل لأهل بيت النبيّ المعصومين عليهم السّلام.

قال ابن ميثم: روي عنه هذا القول بعد بيعة عثمان ـ إلخ.

والأصحّ ما ذكره الشارح المعتزلي في هذا المقام قال: حديثه عليه السلام في النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه لأنَّ أبا بكر لما قال لعمر: امدد يدك، قال له عمر: أنت صاحب رسول الله في المواطن كلّها شدّتها ورخائها، فامدد أنت يدك ـ إلخ[3].

---

(١) «ولا تكون بالصحابة والقرابة» في نسخة.

(٢) كتاب الأربعين: ٢٧١، وحياة الإمام الرضا: ٥٦.

(٣) بحار الأنوار: ٢٩/ ٦١٠، وشرح النهج: ١٨/ ٤١٦.

الترجمة

فرمود: بسیار مایه شگفت است آیا خلافت پیغمبر بهوسیله هم صحبتی و خویشاوندی با آن حضرت است؟

سید رضی (رحمه الله) گوید: در این معنی شعری هم از آن حضرت روایت شده "خطاب به ابی بکر طبق گفته شارح معتزلی":

اگر به سبب شور و رای اصحاب، پیشوا و صاحب اختیار امر آنان شدی، چگونه می توان باور کرد و صحیح دانست با این که همه اهل شوری در بیعت سقیفه حاضر نبودند و اگر به دستاویز خویشی و هم نژادی، مدعیان دیگر را محکوم کردی، جز تو کسی هست که با پیغمبر خویشاوندتر و نزدیکتر است.

در شگفتم که خلافت ز نبی   به صحابت و قرابت باشد
باید از نص نبی ثابت کرد   آن که لایق به امامت باشد

در اینجا متن شرح ابن ابی الحدید ترجمه می شود:

گفتگوی آن حضرت در اینجا به نثر و نظم نامبرده با ابی بکر و عمر است.

اما جمله نثر راجع به عمر است، زیرا در سقیفه بنی ساعده چون ابی بکر به عمر گفت: دستت را بده تا با تو بیعت کنم، عمر پاسخ داد: تو همان یار رسول خدایی که در همه جا با او بودی چه در خوشی و چه در سختی، تو دستت را بده تا من با تو بیعت کنم.

علی (علیه السلام) می فرماید: اگر دلیل تو بر استحقاق خلافت این است که در همه مواطن هم صحبت رسول خدا بودی، باید خلافت را به کسی واگذاری که در همه جا با او بوده و به علاوه، خویشاوند نزدیك او هم هست.

و امام در آن شعر نظر به ابی بکر دارد، زیرا ابی بکر در سقیفه در برابر انصار چنین حجّت آورد: ما عترت رسول و نگهداران او هستیم که از او دفاع کردیم و چون با او بیعت شد در برابر مردم حجّت آورد که این بیعت از اهل حلّ و عقد

بوده است.

علی (عليه السلام) می فرماید: حجّتی که در برابر انصار آوردی و خود را از هم بستگان و از قوم رسول خدا نمودار کردی، جز تو کسی هست که به پیغمبر نزدیکتر است از تو و اما دلیل تو در برابر مردم که جماعت صحابه مرا انتخاب کردند و به خلافت من رضا دادند، جمع بسیاری از صحابه در سقیفه حاضر نبودند و در عقد خلافت تو شرکت نداشتند، پس چطور ثابت می شود؟

الثانية والثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨٢) وَقالَ عليه السلام: «إِنَّمَا ٱلْمَرْءُ في الدُّنْيا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فيهِ ٱلْمَنايا وَنَهْبٌ تُبادِرُهُ ٱلْمَصائِبُ، وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفي كُلِّ أُكْلَةٍ غُصَصٌ، وَلا يَنالُ ٱلْعَبْدُ نِعْمَةً إِلاَّ بِفِراقِ أُخرىٰ، وَلا يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ بِفِراقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، فَنَحْنُ أَعْوانُ ٱلْمَنُونِ، وَأَنْفُسُنا نُصْبُ ٱلْحُتُوفِ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو ٱلْبَقاءَ وَهٰذَا اللَّيْلُ وَالنَّهارُ لَمْ يَرْفَعا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً إِلاَّ أَسْرَعا ٱلْكَرَّةَ في هَدْمِ ما بَنَيا، وَتَفْريقِ ما جَمَعا؟!»(١)

اللغة

(**انتضلت**) سهماً من المنايا أي اخترت. و(**شرق**) بريقه إذا غصّ به من باب تعب والشرق: الغصّة، و(**الغصّة**): الشجي في الحلق والجمع غصص. و(**المنون**) المنيّة لأنها تقطع المدد وتنقص العدد (**الحتف**): الموت، والجمع حتوف ـ مجمع البحرين.

الإعراب

(**إلاّ بفراق أُخرى**) استثناء مفرّغ. آخر، غير منصرف. (**لم يرفعا من شيء وأسرعا**)، **الإسناد فيهما مجازي.**

المعنى

شبّه الإنسان بهدف لأنواع الموت، فيموت بما اختار الله له من الأسباب والمصائب تحوط به وتصول إليه، كمن يريد نهب متاع من يد صاحبه، وكلّ جرعة يشربه مصاحب مع كدورة تنغّصه عليه، ومع كلّ أكلة بليّة تعصر على حلقه كالشجي أو يريد أنّ الإنسان في كلّ جرعة معرض للشرق، وفي كلّ أكلة معرض للغصّة فلا يتهيّأ له شراب ولا طعام في هذه الدّنيا، ولا ينال نعمة إلاّ بفراق أُخرى، فإن وجد مالاً ابتلى بحفظه وفارق الرّاحة، وإن وجد أهلاً وولداناً ابتلي بالنفقة والحضانة وغيرهما من مفارقة نعم كثيرة، ولا يدرك يوماً من عمره إلاّ بانقضاء مثله منه، فيعين كلّ أحد على اقتراب منيّته.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٩٨، وبحار الأنوار: ٧٠/ ١٣٠ ح١٣٥.

الترجمة

همانا هر كس در اين دنيا نشانه تير اجل است و مصائب در يغماى او بر يكديگر سبقت جويند، با هر جرعه نوشى گلوگيرى است و با هر لقمه اى غصه اى وجود دارد، بنده را به هيچ نعمتى دست نرسد جز با مفارقت نعمت ديگر و به روزى از عمرش رو نكند جز با فراق روزى از مدّت عمر خود، ما ياوران مرگ خود باشيم و جان ما هدف نابودى ها است، از كجا اميد پايدارى داريم با اين كه همين شب و روزى كه بر ما مى گذرند چيزى را برنياورند جز اين كه شتابان بر آن بتازند و بنيادش را ويران سازند و جمعش را پراكنده نمايند.

هر كه بينى هدف تير اجل مى باشد — بهر يغماى مصائب چه محل مى باشد
جرعه اى نوش نباشد كه در آن نيشى نيست — لقمه اى نيست كه خالى ز خلل مى باشد
نعمتى در نرسد جز به فراق ديگرى — روز كايد بر ما كسر اجل مى باشد
ما همه ياور مرگيم كازان مى ترسيم — جان ماها هدف مرگ و زلل مى باشد

الثالثة والثمانون من حكمه عليه السلام

(١٨٣) وَقالَ عليه السلام: «يَا ابْنَ آدَمَ ما كَسَبْتَ فَوْقَ قُوتِكَ، فأَنْتَ فيه خَازِنٌ لِغَيْرِكَ»[١].

المعنى

المقصود من هذا الكلام ليس الاقتصار على الكسب والعمل بمجرّد تحصيل القوت والاشتغال بالبطالة والكسل كما هو أدب الدراويش، بل المقصود عدم ادّخار المال وجمعه ومنعه من ذوي الحقوق والمستحقين، بل صرفه في سبيل مصالح الملّة والدِّين.

فقد كان عليه السلام من أهل الكسب والعمل وتحصيل الثروة بالزرع وإحداث القنوات ولكن يصرف ما حصل في الإعانة على الفقراء وتحرير الرقاب، ويجعل قنواته وعيونه وقفاً على سبل الخير كما هو مكتوب في سيرته.

الترجمة

فرمود: اى آدميزاده هر آن چه بيش از خوراك خود به دست آرى براى ديگرانش چون خزينه دارى.

آن چه گرد آورد بنى آدم بيش از قوت خود در اين عالم
اندر آن گنج دار غير بود جز تأسف ز گنج خود نبرد

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٤٤ ح٢٨، ومستدرك سفينة البحار: ٩/ ٤٧٤.

الرابعة والثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨٤) وَقالَ عليه السلام: «إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبالاً وَإِدْباراً فَأْتُوها مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِها وَإِقْبالِها، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذا أُكْرِهَ عَمِيَ»(١).

المعنى

قد تعرَّض عليه السلام: في هذه الحكمة لأمر مهمّ في جلب العامة إلى العمل ونجاتها من البطالة والكسل، وهو أنّ العمل خصوصاً إذا كان شاقّاً ومداوماً يحتاج إلى رغبة القلب ونشاطه، فإنّه إذا اشتاق الإنسان إلى عمل واشتهاه قلبه يسهل عليه وإن كان شاقّاً.

وقد طبّق الإسلام هذا الأصل على إجراء دستوراته، فشرّع العبادة على أساس النظافة والطهارة، وعلى الاجتماع والألفة في كمال الاختصار والاقتصاد.

فبنى الإسلام على الجمعة والجماعة وشوّق النّاس إليها بهذه السياسة، وقرَّر الجهاد على كسب الغنيمة وتمليك ما للمقتول من الألبسة في الحرب للمقاتل، وسلّط المجاهدين على الأموال والإماء ونشطهم في حرب الأعداء ونفث في قلوب المؤمنين باعتناق حور العين عند الشهادة في سبيل نشر الدِّين، وقد اهتمَّ أرباب السّياسة في هذا العصر بتشويق النّاس إلى مقاصدهم باصطياد قلوبهم والمساعدة على شهواتهم بكلِّ وجه.

الترجمة

فرمود: راستی که دل ها را خواستی است، پیش آمدن و پس رفتنی است، از آنجا که خواست آنها است با آنها درآیید و پیش آمد آنها را بربایید، زیرا اگر بر دل فشار وارد شود و به ناخواه وادار گردد، کور و بی نور می شود و از کار می ماند.

دل بود منشأ نشاط و عمل	بازماند ز کار وقت کمل
دل از اقبال و خواستن شاد است	وز دل شاد خانه آباد است
بنگر تا که دل چه می خواهد	از چه راهی به پیش می آید
از همان راه و طرز دلخواهش	ببرو می نکن تو گمراهش
که شود دل ز زور و کره و فشار	کور و بینور و مانده و بیکار

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١٥٨، وفيض القدير شرح الجامع الصغير: ٤/٦٠٣ ح٥٩٦٦.

الخامسة والثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨٥) وَقالَ عليه السلام: «وَقَدْ مرَّ بِقَذِرٍ عَلىٰ مَزْبَلَةٍ: هَذٰا ما بَخِلَ بِهِ ٱلْبٰاخِلُونَ. وفي خَبرٍ آخر أَنَّهُ قالَ: هٰذٰا ما كُنْتُمْ تَتَنٰافَسُونَ فيهِ بِالْأَمسِ»[١].

الترجمة

بر مدفوعى گذر كرد كه در زباله گاهى بود فرمود:

اين است كه بخيلان بدان بخل ورزند، در روايت ديگرى است كه فرمود: اين است كه شما ديروز بر سرش رقابت داشتيد.

بر مزبله اى گذشت و بر آن قذرى فرمود: همين است كه هر مقتدرى

ورزيد بدان بخل و در انبانش كرد وز خواب و خوراك خود چنين خوارش كرد

اين است كه بر سرش رقابت كرديد دى بهر ربودنش سبقت بر هم جستيد

(١) مستدرك سفينة البحار: ٩/ ٤٧٤، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٧٠.

السادسة والثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨٦) وَقالَ عليه السلام: «لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظَكَ»[١].

المعنى

بذل المال بعوض يساويه أو أكثر منه لا يعدّ تلفاً وذهاباً للمال، وإذا ذهب المال في سبيل التجربة واكتسب به وعظاً أثّر في القلب أو تجربة تفيد في الحياة، فقد حصل بعوضه ما هو أنفع، فلا يعدّ هذا المال ضائعاً وتالفاً.

الترجمة

آن چه از مالت صرفت شده و پندت داده است، از دستت بيرون نشده.

مالى كه بدان پند خريدى برجاست   از پند توانى عوض آن را خواست

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ١٤٤ ح٢٨، ومستدرك سفينة البحار: ٩/ ٤٧٤.

السابعة والثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨٧) وَقالَ عليه السلام لَمّا سَمِعَ قَوْلَ الْخَوارِجِ ـ لا حُكْمَ إلاّ لِلّهِ ـ: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بِها باطِلٌ[(١)][(٢)].

المعنى

قول الخوارج: لا حكم إلاّ لله، مقتبس من قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] فهو حقّ إلاّ أنهم أرادوا بهذا الحكم البغي والطغيان على الإمام وفتّ عضد الحكومة الحقة، وإيجاد البلوى والفساد في صفّ أهل الحقّ ونصرة الباطل من حيث يشعرون ولا يشعرون.

الترجمة

چون شنيد كه خوارج فرياد مى كشند: "حكمى نيست جز از براى خدا"، فرمود: اين كلمه حق است، ولى مقصد باطلى از آن در نظر است.

(١) «الباطل» في نسخة

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢/٣٦٩، وبحار الأنوار: ٣٣/٣٥٧، ح٥٩٠.

الثامنة والثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨٨) وَقالَ عليه السلام في صفة الغوغاء: «هُمُ الَّذينَ إِذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا وَإِذٰا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا، وقيل: بل قالَ عليه السلام: هُمُ الَّذينَ إِذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا، فَقِيلَ: قَد عَرَفْنا مَضَرَّةَ اجْتِماعِهِمْ فَمٰا مَنْفَعَةُ افْتِراقِهِمْ؟ فقالَ: يَرجِعُ أَصْحٰابُ الْمِهَنِ إِلىٰ مِهَنِهِمْ فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ، كَرُجُوعِ الْبَنَّاءِ إِلىٰ بَنٰائِهِ، وَالنَّسَّاجِ إِلىٰ مَنْسَجِهِ، وَالْخَبَّازِ إِلىٰ مَخْبَزِهِ»[١].

اللغة

(المهنة): الحرفة والصناعة **(الغوغاء)**: الجراد حين يخف للطيران أو بعد ما ينبت جناحه، **(الكثير المختلط من النّاس)**، السفلة من النّاس والمتسرّعين إلى الشرّ والعامّة تستعمل الغوغاء للجلبة واللغط ـ المنجد.

الترجمة

درباره ازدحام و جنجال فرمود: آنان كسانى اند كه چون با هم گرد آيند غلبه كنند و پيروز شوند و چون پراكنده شوند شناخته نشوند.

و گفته اند كه درباره آنان فرمود: آنان همان كسانند كه چون گرد هم آيند زيان زنند و چون پراكنده شوند سود بخشند؛ گفته شد: ما زيان اجتماع آنها را دانسته ايم، آيا در پراكنده شدن آنان چه سودى است؟ فرمود: پيشه وران و صنعتگرانشان به سر كار خود برمى گردند و مردم از وجود آنان منتفع مى شوند، بنّاء به كار ساختمان برمى گردد و خياط به كارگاه دوخت و نانوا به كار پخت.

غوغا گران چه گرد هم آيند بى درنگ — پيروز مى شوند چه گردان به روز جنگ
ليكن به گاه تفرقه چون ابر ناپديد — گردند و كس نه گفت از آنها و نى شنيد
درگاه اجتماع زيانبار مى شوند — ليكن به گاه تفرقه باشند سودمند

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ٣٧/٨، وشرح نهج البلاغة: ١٨/١٩.

التاسعة والثمانون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٨٩) وَقَدْ أُتِيَ بِجان ومعه غوغاءُ فقالَ عليه السلام: «لاٰ مَرْحَباً بِوُجُوهٍ لاٰ تُرىٰ إلا عِنْدَ كُلّ سَوْأَةٍ»[١].

اللغة

(السّوأة): فعلة من السّوء.

الإعراب

(أتي بجان)، مبني للمفعول من أتاه به، (وجان) مجرور بباء التعدية أي مرتكب للجناية.

الترجمة

يك جنايتكارى را حضور او آوردند و غوغاگران و اوباش به دنبال او افتاده بودند، خطاب به آنها فرمود: خوش آمد نباشد بر مردى كه ديده نشوند مگر به هنگام هر پيش آمد بد و ناگوارى.

نبينى روى اوباش و اراذل كه در هر كوى مى گردند ول ول
مگر در سايه پيش آمد بد كه صف بندند دورش همچنان سد

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٤٤، وبحار الأنوار: ٦٧/١٢ ح١٣.

التسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٠) وَقال عليه السلام: «إِنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ، فَإِذَا جاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّ الْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ»[1].

المعنى

قد أحاط بكلِّ إنسان ما لا يحصى من الأخطار والمهالك ممّا يشعر به وممّا لا يشعر به ولا يخطر بباله، ولا يقدر أحد من حفظ نفسه عن تلك الأخطار في جميع ساعات اللّيل والنهار، حيث إنّه نائم في بعض الساعات وغافل في بعضها وخصوصاً الأطفال والسفهاء الّذين لا يشعرون بالمكاره والأخطار قبل إصابتها، وربّما لا يقدرون على دفعها إن شعروا بها، فمن الّذي يحفظهم عنها؟ وهل هو إلاّ الحافظين اللّذين وكّلهما ربّهم عليهم، ومن تدبّر في حال كثير من المصابين بالمهالك يعلم أنّهم إنّما أُوتوا من قبل قطع المحافظة، وعندي مشاهدات منها لا يسع المقام ذكرها.

الترجمة

فرمود: به راستی با هر فردی از افراد بشر دو فرشته است که نگهبان اويند و چون قضای الهی در رسد او را بدان وا نهند و از حفظش دست بکشند و راستی که عمر مقدّر خود سپر محکمی است در برابر مهالك.

خداوند نیرو ده دادگر گمارد دو حافظ برای بشر
فرشته دو باشند همراه او گذارند او را چه آيد قدر

(١) شرح الأخبار: ٢/ ٥ ح٣٨٤، وبحار الأنوار: ٥/ ١٤٠ ح٨.

الحادية والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩١) وَقالَ عليه السلام: «وقَد قالَ له طلحة والزُّبير: نبايعكَ علىٰ أنّا شُرَكاؤكَ في هٰذَا الأَمر: لا، وَلٰكِنَّكُما شَرِيكانِ في ٱلْقُوَّةِ وَٱلْاِسْتِعانَةِ، وَعَوْنانِ عَلىٰ ٱلْعَجْزِ وَٱلْأَوَدِ»[1].

اللغة

(الأود) آد أوداً الحمل: أثقله، والأمر: أضنكه وثقل عليه، **(الأود)**: الكدّ والتعب، الأود: الاعوجاج.

المعنى

الأمر في كلامه عليه السلام هو تصدّي منصب الإمامة، والشركة فيه ممنوع من وجهين:

١ ـ الإمامة أمر إلهيّ ونصب نبويٌّ، ولا معنى لشركة الغير المنصوص عليه معه في أمر الإمامة.

٢ ـ أنَّ الإمامة باعتبار أنّها رياسة على الأُمّة لا تقبل الشركة، لأنَّ حكم الإمامة هو الفصل النهائي للاختلاف في الأحكام، ومع شركة الغير فيها لا ينتهي الخلاف إلى الفصل القاطع، لا مكان اختلاف الشركاء أنفسهم، فلا فصل في البين.

(والأود) هنا بمعنى الثقل والضنك كما هو أحد معنييه، ويشعر به لفظة العون وليس بمعنى الاعوجاج لأنّه لا اعوجاج فيه عليه السلام، فتدبّر.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/٤٨ ح٣١، نهج السعادة: ٥/٢٢٥.

الترجمة

به طلحه و زبير كه به او عرض كردند ما با تو بيعت مى كنيم به شرط اين كه ما را با خود در امر خلافت شريك سازى، فرمود:

نه، ولى شما شريك در نيرو و يارى براى اجراء احكام و حفظ نظام مى شويد و ياور من مى شويد در ناتوانى و تحمّل كارهاى دشوار و در تنگناى حوادث.

زبير و طلحه با هم ساختند بر مولاى دين بشتافتند
كه بيعت مى كنيم اما بدين شرط كه شركتمان دهى اندر خلافت
على فرمود: نه، اما شريكيد به نيرومندى و در استعانت

الثانية والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٢) وَقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللّهَ الَّذي إِنْ قُلْتُمْ سَمِعَ وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ، وَبادِرُوا الْمَوْتَ الَّذي إِنْ هَرَبْتُمْ[1] أَدْرَكَكُمْ وَإِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ نَسيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ»[2].

المعنى

الحذر من قول ما لا ينبغي بإخفائه عن سمع من يؤاخذ عليه واستتار نيّة السوء يفيد تجاه الجاهل به، وقد نبّه عليه السلام على أنَّ الله يسمع أخفى النجوى ويعلم ما في ضمير الصامتين، وحذّر من قول ما لا يرضى به الله، ومن نيّة السّوء تجاه الله، كما نبّه على أنَّ الموت لا يفوت بالهرب والاستقامة والنسيان، فبادروه وتهيّأوا له.

الترجمة

فرمود: ايا مردم، بپرهيزيد از خشم خدايى كه اگر دم بزنيد مى شنود و اگر در دل بگيريد مى داند و سبقت جوييد به مرگ آن مرگى كه اگر بگريزيد به شما مى رسد و اگر به جاى خود بمانيد شما را مى گيرد و اگر فراموشش كنيد به ياد شما است.

فرمود على كه ايها الناس — تقوى ز خدا است شغل حساس
كو مى شنود هر آن چه گويید — داند كه به دل چه راه پوييد
آريد به مرگ شتابان — كز مرگ گريز نى در امكان
گر آن كه بريد مرگ از ياد — او ياد كند غمين و دلشاد

(١) «فيه» في نسخة.

(٢) مشكاة الأنوار: ٥٢٣، وبحار الأنوار: ٦٧/ ٢٨٣ ح٦.

الثالثة والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٣) وَقالَ عليه السلام: «لاٰ يُزْهِدَنَّكَ فِي ٱلْمَعْرُوفِ مَنْ لاٰ يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لاٰ يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضاعَ ٱلْكافِرُ، وَاللّٰهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ»[1].

المعنى

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] والمفهوم عامّ والمقصود منه بيان قلّة الشاكرين للمعروف، سواء كان بالنسبة إلى ذي المعروف الحق الحقيقي وهو الله تعالى فإنَّ كلَّ معروف ينتهي إليه ويتحقّق به، وسواء كان بالنسبة إلى ذي المعروف الظاهري المجازي الذي كان سبباً من الأسباب لمسبّب الأسباب في إيصال المعروف إلى النائلين به.

ومقصوده عليه السلام في هذه الحكمة الحثُّ على إسداء المعروف للشاكر والكافر والتنبيه على عدم حصره بالشاكر بظنِّ ضياع المعروف عنده وكفرانه له.

ونبّه على أنَّ المعروف لا يضيع فإن لم يؤدّ شكره من أعطيته، فقد أعدّ الله لأداء شكره غيره وإن لم يستمتع منه مع أنَّ الله تعالى هو الشاكر الحقيقي لكلِّ معروف وهو يحبُّ كلَّ محسن.

الترجمة

فرمود: ناسپاس و كفران در برابر احسانت تو را بدان بى رغبت نكند، بسا ديگرى كه از احسان تو بهره مند هم نشده، از تو قدردانى و سپاسگزارى كند و تو از قدردانى او استفاده ببرى بيش از ناسپاس و بى اعتنايى آن كه كفران احسان تو را كرده است و خدا است كه نيكوكاران را دوست مى دارد.

ناسپاسى و كفر بى خردان	نشود مانع تو از احسان
كه سپاس تو مى كند ديگرى	ور نبرد از وجود تو ثمرى
چه بسا شكر او بود بهتر	بهرت از ناسپاسى كافر
به حساب خدا بكن نيكى	كه خدا دوستدار هر نيكى

(١) بحار الأنوار: ٧١/ ٤١٧ ح٣٩، وميزان الحكمة: ٢/ ١٤٩٣ ح٢٠٧٩.

الرابعة والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٤) وَقالَ عليه السلام: «كُلُّ وِعاءٍ يَضيقُ بِمٰا جُعِلَ فيهِ إلاَّ وِعاءَ ٱلْعِلْمِ فَإنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ»[١].

المعنى

قال الشارح المعتزلي: هذا الكلام تحته سرّ عظيم ورمز إلى معنى شريف غامض ومنه أخذ مثبتوا النفس الناطقة الحجّة على قولهم، ومحصول ذلك أنَّ القوى الجسمانية تضيق وتتعب بتكرار أفاعيلها كقوَّة البصر، فإنّها تكلّ بتكرار النظر حتى تسقط من الأثر، وكذلك قوَّة السمع تكلّ بتكرار الأصوات، ولكنا وجدنا القوَّة العاقلة بالعكس من ذلك، فكلّما تكرَّرت المعقولات عليها ازدادت سعة وانبساطاً واستعداداً لإدراك أُمور أُخرى، وتكرار المعقولات عليها يشحذها ويصقلها فهي إذن مخالفة في هذا الحكم للقوى الجسمانيّة فليست منها، وإذا لم تكن منها فهي مجرَّدة وهي التي نسمّيها النفس الناطقة ـ انتهى ملخّصاً[٢].

أقول: مبنى هذا القول على أنّ صدور الأفعال الجسمانية يستلزم نقصان نشاط المادَّة وصرفها في العمل فتنفد رويداً رويداً إلى أن تضمحلّ، ولكن اكتشفوا في العصور الأخيرة الراديوم وجرَّبوه فوجدوه يزداد نشاطاً بالتشعشع، فتدبّر.

الترجمة

فرمود: هر ظرفى بدانچه در آن است تنگ مى شود جز ظرف دانش كه بهوسيله آن پهناور مى شود.

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٠٦٣، وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٢٥ ح٢٠١.

(٢) شرح النهج: ١٩/ ٢٥.

الخامسة والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٥) وَقالَ عليه السلام: «أَوَّلُ عِوَضِ ٱلْحَليمِ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصارُهُ عَلَى ٱلْجاهِلِ»[1].

المعنى

(**الحلم**) هو تحمّل ترك الأدب والحرمة من الجاهل قولاً أو فعلاً ممّا ليس بالحقوق المتعارفة، فإذا حلم الرَّجل تجاه جهل الجاهل وسفهه من سوء قوله أو فعله يقوم من اطّلع على ذلك من النّاس وكان بعيداً عن الحليم وغير عارف بحقّه على مقاومة السفيه وردعه عن عمله القبيح، فهذه باكورة ثمرات الحلم الّتي تحصل للحليم.

الترجمة

فرمود: نخست عوض حليم اين است كه مردم ياوران او باشند در برابر جاهل.

نخستين عوض از براى حليم بود يارى مردمان حكيم

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٤٢٧ ح٧٦، وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٢٦ ح٢٠٢.

السادسة والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٦) وَقالَ عليه السلام: «إنْ لَمْ تَكُنْ حَليماً فَتَحَلَّمْ، فَإنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إلاَّ أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ»(١).

المعنى

حصول الملكات الفاضلة النفسانية على وجهين:

١ ـ ما يكون موجوداً بالفطرة وجبلة في الخلقة، كالجود للحاتم أو العصمة للأنبياء والأوصياء المعصومين عليهم السلام.

٢ ـ ما يحصل بالاكتساب والرّياضة، وهذا هو الهدف والغاية للحكمة العملية وطريق كسب الملكات الفاضلة النفسانية هو التمرين عليها والتدريب بها، فالمقصود من التحلّم التشبّه بالحليم في تحمّل ما تكره، وهذا هو التمرين على صفة الحلم فإذا تكرّر وأُديم عليه تحصل ملكة الحلم، فهذا معنى قوله عليه السلام: **(أوشك أن يكون منهم)**.

الترجمة

فرمود: اگر در طبع خود بردبار نيستى خود را با بردبارى وادار، زيرا كم است كسى كه خود را همانند مردمى سازد جز اين كه ممكن است خرده خرده از جنس آنها گردد.

گر نباشى مرد صبر و بردبار	خويش را بنما تو مردى بردبار
هر كه خود مانده قومى كند	خرده خرده از همان مردم شود

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٤٠٥ ح١٦، ومستدرك سفينة البحار: ٢/ ٣٨٠.

السابعة والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٧) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْها خَسِرَ، وَمَنْ خافَ أَمِنَ، وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ»[١].

المعنى

من أهمّ المسائل في حياة الإنسان الماديّة والمعنويّة المحاسبة على أعماله ومعاشه ومعاده.

وقد نبّه الله في آيات من القرآن فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] فجعل الشمس والقمر المحسوسين لمحاسبة الأعمال وتنظيم البرامج للمعاش والأمور الماديّة، فمن لم يحاسب معاشه ويقاس نفعه على ضرّه في مكاسبه وخرجه على دخله في معاشه فقد خسر في أمر دنياه.

وجعل الشرائع مقاييس لحساب النفس والسّعادة الأُخروية، وبعث الأنبياء ونصب الأوصياء مصابيح في طريق هذه المحاسبة المعنويّة، وقرّر الوظائف والأحكام ميزاناً عدلاً للأنام في هذا المقام.

فمن لم يحاسب نفسه مع هذا الميزان فقد خسر، وإن حاسب نفسه وعرضها عليه يخاف من الله ويتدارك أمر آخرته فيأمن من العذاب وينظر إلى الدُّنيا وما فيها نظر العبرة، فتفتح عين بصيرته، ويفهم حقيقة حياته ويعلم ما ينجيه من الشقاوة ويصله إلى السعادة.

الترجمة

هركه خود را محاسبه كرده، بهره برد و هركه از آن غفلت ورزيد، زيان ديد. هركس بيم كرد، امنيّت يافت و هركس عبرت گرفت، بينا شد و هركه بينا شد، حق را فهميد و هركه حق را فهميد، دانشمند گرديد.

هركس برسد حساب خود را سودى ببرد ز زشت و زيبا
غافل ز حساب در زيان است خائف ز خداى در امان است

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ٢/ ٢٢٤ ح١٧٠٠، وبحار الأنوار، ٦٧/ ٧٣.

الثامنة والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٨) وَقال عليه السلام: «لَتَعْطِفَنَّ ٱلدُّنْيا عَلَيْنا بَعْدَ شِماسِها عَطْفَ الضَّرُوسِ عَلىٰ وَلَدِها، وَتلاٰ عَقيبَ ذٰلِكَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥]»[١].

اللغة

(شمس) شموساً وشماساً: امتنع وأبى، وله تنكّر وأبدى له العداوة وهمّ له بالشرّ - المنجد - (**الضّروس**) الناقة سيّئة الخلق تعضّ حالبها ليبقى لبنها لولدها وذلك لفرط شفقتها عليه.

المعنى

قال الشارح المعتزلي: والإماميّة تزعم أنّ ذلك وعد منه بالإمام الغائب الّذي يملك الأرض في آخر الزّمان، وأصحابنا يقولون: إنّه وعد بإمام يملك الأرض ويستولي على الممالك، ولا يلزم من ذلك أنّه لا بدّ أن يكون موجوداً وإن كان غائباً إلى أن يظهر بل يكفي في صحّة هذا الكلام أن يخلق في آخر الوقت، وبعض أصحابنا يقول: إنّه إشارة إلى ملك السّفاح والمنصور - إلخ.

أقول: نلفت نظر القراء الكرام إلى الاتفاق على صدور هذه الجملة منه عليه السلام، ودلالتها على اعتقاد الإماميّة قطعيّة أيضاً، لأنّ التعبير بلفظة علينا صريح في أهل البيت خصوصاً بقرينة الآية التي تلاها عليه السلام.

وبشاعة هذه التأويلات الّتي ذكرها ظاهرة وخصوصاً ما نقله عن بعض أصحابه من تطبيق كلامه على ملك السفّاح والمنصور العدوّ القاتل لبني عليّ عليه السلام بلا ترحّم وعطوفه.

بينا شود آن كه يافت عبرت فهميد و به علم يافت وصلت

الترجمة

فرمود: دنيا پس از روگردانى ها و چموشى هاى خود به ما رو آورد با همان مهربانى مادّه شتر - ناسازى كه شير را براى كره اش ذخيره كند - بر كره خود و دنبال آن اين آيه را

(١) بحار الأنوار: ٢٤/١٦٧ ح١٤، وبحار الأنوار: ٥١/٦٤ ح٦٦.

التاسعة والتسعون بعد المائة من حكمه عليه السلام

(١٩٩) وَقالَ عليه السلام: «اتَّقُوا اللّهَ تَقِيَّةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً، وَجَدَّ تَشْميراً، وَأَكْمَشَ في مَهَلٍ، وَبادَرَ عَنْ وَجَلٍ، وَنَظَرَ في كَرَّةِ الْمَوْئِلِ وَعاقِبَةِ الْمَصْدَرِ، وَمَغَبَّةِ الْمَرْجَعِ»[١].

اللغة

(**أكمش**): أسرع، (**المهل**): الإمهال، (**الكرّة**): الرَّجعة. (**الموئل**): المرجع (**المغبّة**): العاقبة ويقال: شمّر في أمره أي خفَّ وأسرع من التشمير في الأمر وهو السرعة فيه والخفّة - مجمع البحرين.

الإعراب

(**تقيّة من شمّر**)، مفعول مطلق نوعي مضاف إلى الموصول، (**تجريداً**) حال بمعنى مجرّداً، وكذلك (**تشميراً**) بمعنى مشمّراً، ويمكن أن يكونا مفعولاً له لما قبلهما.

المعنى

التقوى المحافظة عن الوقوع في الآلام والمكاره والسخط والعذاب، وينشأ من النظر في العاقبة وتشخيصها على وجه اليقين والهرب من الوقوع في المحذور وانتهاز الفرصة لذلك.

وقد بيّن عليه السلام في هذه الجمل كلّ هذه الأمور فحثَّ على التهيّؤ في الهرب بالتشمير والجدّ وانتهاز الفرصة لذلك والمبادرة إليه بالوجل والنظر في العواقب.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٣٦٠، وبحار الأنوار: ٦٧/ ٢٨٤ ح٦.

تلاوت كرد: "می خواهيم منّت نهيم بر آنان كه ضعيف شمرده شدند در روى زمين و آنان را ائمّه و وارث پيمبران سازم" (القصص/ ٥).

الترجمة

فرمود: از خدا بپرهيزيد چون كسى كه دامن به كمر زده و آماده شده و كوشش مردانه دارد و در سر فرصت مى شتابد و با هراس سبقت جسته و رسيد به آينده و سرانجام خود را درست سنجيده.

بترس از خدا همچو مردى دلير كه آماده گردد به پيكار شير
به فرصت شتاب آورد در كمين كند سبقت از بيم و از خشم كين
بسنجد سرانجام برگشت را درو كردن حاصل كشت را

المتمم للمائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٠) وَقالَ عليه السلام: «اَلْجُودُ حارِسُ ٱلْأَعْراضِ، وَٱلْحِلْمُ فِدامُ ٱلسَّفيهِ، وَٱلْعَفْوُ زَكاةُ ٱلظَّفَرِ، وَٱلسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ، وَٱلْإِسْتِشارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدايَةِ، وَقَدْ خاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنىٰ بِرَأْيِهِ، وَالصَّبْرُ يُناضِلُ ٱلْحِدْثانَ وَٱلْجَزَعُ مِنْ أَعْوانِ ٱلزَّمانِ، وَأَشْرَفُ ٱلْغِنىٰ تَرْكُ ٱلْمُنىٰ.

وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أسيرٍ عِنْدَ هَوىٰ أَميرٍ، وَمِنَ التَّوْفيقِ حِفْظُ ٱلتَّجْرِبَةِ وَٱلْمَوَدَّةُ قرابة مُسْتَفادَةٌ، وَلا تأْمَنَنَّ مَلُولاً»(١).

اللغة

(حرسه) حراسة: حفظه **(الفدام)**: ما يوضع في فم الإبريق ليصفّي ما فيه والخرقة الّتي يشدّ بها المجوسي فمه للحلم عن السفه باعتبار أنّه يسكته **(وسلوت)** عنه سلواً من باب قعد: صبرت عنه.

أصل المناضلة المراماة ثمّ اتّسع فيه فيقال: فلان يناضل عن فلان إذا تكلّم عنه بعذره، و**(مللته)** منه من باب تعب وملالة: سئمت وضجرت والفاعل ملول ـ مجمع البحرين.

الإعراب

(وكم من عقل أسير): كم خبريّة مبتدأ **(ومن عقل)** تميز له **(وأسير)** صفة للعقل **(عند هوى أمير)**، ظرف مستقر مضاف خبركم، **(ومن التوفيق)**، ظرف مستقرّ خبر حفظ التجربة قدّم عليه لرعاية السجع.

المعنى

قد جمع عليه السلام محاسن الأخلاق وفضائلها الّتي ترتبط بالاجتماع السّليم وتشكل النظام الحكيم في ثلاث عشرة كلمة كلّها قضايا قياساتها معها وساقتها على أسلوب حكيم تفيد الحكم والدليل عليه.

فحثّ على الجود بقوله: الجود حارس الأعراض فدلّ على أنّ العطاء والإنفاق لا

(١) بحار الأنوار: ٦٦/ ٤١٠ ح٢٥، وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٣١.

يكون بلا عوض بل يحصل به أثمن الأعواض وهو حفظ العرض والاحترام عن الهتك بالسبّ والغيبة عن الأراذل وذوي الفاقة.

وأشار إلى أنَّ الحلم يسكت السّفيه ويشدّ فمه عن مزيد لغوه وتهتّكه فهو فدام على فيه وسدّ لإظهار ما فيه.

والظفر أثمن مكتسب للبشر وأغلى فائدة حصلت له وينبغي إخراج الزكاة عنها وزكاته العفو عن المغلوب.

والغدر يوجب حرقة في القلب ولا يصلحها إلاّ السلوّ والاصطبار.

وأحسن دليل على حسن العواقب هو الشورى مع أهله، فكأنّه عين الوصول إلى المقصد.

ومن ترك الشور في أمره واستغنى برأيه عرض نفسه للخطر، وأوقعها في الضرر.

والحوادث مصطفة تجاه الإنسان ولا بدّ من الدّفاع والمبارزة معها بالصّبر.

فإنّ الجزع بنفسه عون على الزّمان في ظفر الحدثان على الإنسان.

ولا يمكن تحصيل المنى بالأموال الطائلة والثروة البالغة وما يتحصّل منها بها يتحمل الإنسان في سبيله جهوداً يكاد يندم من طلبها، فأشرف الغنى هو تركها.

والأمراء مستبدّون غالباً ويتبعون أهواءهم وشهواتهم فالعقول أسيرة في يدهم لا تقدر على ردعهم عن أهوائهم سواء كان عقلهم أنفسهم أو عقل من وقع تحت سلطانهم.

وحفظ التجارب والاعتبار عنها للمستقبل من التوفيق في طلب السعادة والخير ومن أهمّ أسبابه.

والمودّة المكتسبة من الأجانب تقوم مقام القرابة في الاستعانة وقضاء الحوائج حتّى يعبّر عن الصديق الوفيّ بالأخ وإذا كان ذا سنّ وشرف بالأب والأمّ.

والشخص الملول الّذي يضجر عن الأعمال لا يكون أميناً على الخدمة ولا على المال، لأنّه بكسالته وضجره عن العمل لا يؤدّي حق الخدمة ولا يحفظ المال ويرعاه.

الترجمة

فرمود: بخشش پاسبان آبرو است و بردباری پوزبند بی نخرد و گذشت زكات پیروزی است، خودداری و بردباری عوضی است از عهد شكنی و خیانت دیگران و مشورت كردن خود به مقصود راه یافتن است.

هركس خودسرانه كار نكند دچار خطر است، شكیبایی مبارزه با حوادث است و بی تابی خود كمك زمانه كجرو است، بهترین ثروت ترك آرزوها است، چه بسیار خردی كه اسیر هوسرانی امیری است، تجربه اندوزی خود توفیقی است و دوستی و مهربانی مردم قرابتی است كه به دست آمده، هرگز نباید زودرنج را امین خود كنی.

پاسبان آبرو كن، بخششت	بردباری پوزبند جاهبت
در گذشتت از ظفر باشد زكات	خودنگهداری عوض از بی وفات
مشورت كن تا به مقصودت رسی	خود سری باشد خطر بر هر كسی
صبر می باشد دفاع از حادثه	خود جزع یاری بود بر كارثه
گر توانی بگذری از آرزو	در كف آوردی غنا با آبرو
ای بسا عقلی كه در بند و اسیر	از هوسرانئ سوزان امیر
تجربه توفیق را پیشت كند	دوستی بیگانه را خویشت كند

الحادية بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠١) وَقالَ عليه السلام: «عُجْبُ ٱلْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ»[١].

المعنى

الإنسان مع صغر جثمانه يمثّل العالم الكبير بما فيه من الموافقات والمخالفات والأنداد والأضداد، والنور والظلمة، والصّحو والسحاب، فالعقل أشرق الكواكب في سماء وجود الإنسان يشرق على جميع حواسه وأعضائه كنجم ثاقب، ولكن العجب بالنفس عدوّه وحاسده، يمنع من نوره كالسحاب المظلم المانع من نور الشمس فيصير وجود الإنسان بسبب العجب مظلماً مدلهمّاً ينبعث منه من الوحشة والحذر والخوف والخطر.

زود رنجان را امين خود مگير بشنو اين اندرزها از راى پير

الترجمة

فرمود: خودبينى، يكى از حسودان خرد خود انسان است.

اگر خودبين شدى تاريك گردى حسود عقل تو خودبينى تو است

(١) مشكاة الأنوار: ٥٣٩، وبحار الأنوار: ٣١٧/٦٩ ح٢٥.

الثانية بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٢) وَقالَ عليه السلام: «أَغْضِ عَلَى ٱلْقَذىٰ وَإِلاَّ لَمْ تَرْضَ أَبَداً»(١).

اللغة

(الإغضاء): التغافل عن الشيء والإغضاء إدناء الجفون بعضها ببعض، ومنه قول القائل في مدح عليٍّ بن الحسين عليه السلام:

يغضي حياء ويغضى من مهابته فلا يكلّم إلاّ حين يبتسم

(القذا) بالفتح والقصر: ما يقع في العين والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك ـ مجمع البحرين.

المعنى

نبّه عليه السلام إلى أنَّ شؤون الحياة في هذه الدُّنيا مشوبة بالمكدّرات، سواء كان من الأولاد أو الزوجات أو الأحبّاء أو الأعداء، فلا يخلو أيّ إنسان ممّا يكدِّره ويخالف هواه وما اشتهاه، فلا بدّ من الإغضاء وصرف النظر عمّا يخالف مشتهاه ويخلق لنفسه رضا وراحة من الحياة، وإلاّ فلم يرض أبداً ولا يتهيّأ لأحد كلّ ما يرضاه ويتمنّاه.

الترجمة

فرمود: چشم بربند از خار و خاشاك جام زندگى، وگرنه هرگز دلپسند تو

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ١٥٦ ح٧٢، ونظم درر السمطين: ١٥٩.

الثالثة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٣) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ لانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصانُهُ»[1].

اللغة

(العود) ج: عيدان وأعواد: الخشب، الغصن بعد أن يقطع ـ المنجد.

المعنى

لين العود كناية عن قبول الانعطاف في إجراء الأمور، وحسن العشرة مع الأحبّاء والأصدقاء والوفود، فمن كان كذلك يرغب النّاس في صحبته وصحابته ويميلون إلى معاشرته، ويوادّونه فيكثر رفاقه وأنصاره وقد كنّى عن ذلك بقوله عليه السلام **(كثفت أغصانه)** أي التفّت حوله الأعوان والأصدقاء فيصير كشجرة كثيرة الغصن ملتفّة الفروع، وقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤].

نگردد.

چشم بربند از خس و خاشاك دهر ورنه باشد زندگيّت جام زهر

الترجمة

فرمود: هركس نرمش و گرايش دارد، دوستان و ياوران او فراوان اند.

هركه را سازش بود با مردمان دور او پر مى شود از ياوران

(١) مطلوب كل طالب: ٤٣، وشرح مئة كلمة: ٩١.

الرابعة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٤) وَقالَ عليه السلام: «ٱلْخِلاٰفُ يَهْدِمُ ٱلرَّأْيَ»(١).

المعنى

قلب الإنسان مرآة صقيلة إذا واجه الأُمور ونظر فيها ينطبع فيه حقائقها وينكشف لديه مآلها، وكشف الحقيقة والاهتداء إلى عواقب الأمور عبارة عن الرأي المنظور وإنّما سمّي النظرية والحكم في القضايا رأياً، لأنّه يراه ذو اللّب الصافي والفكر الثاقب، فإذا واجه الخلاف والاختلاف صار كمرآة أظلمها الصدى، فلا يصل إلى الحقّ والهدى.

ويمكن أن يكون المقصود أنّ الخلاف يمنع من العمل بالرّأي الصحيح فيهدمه بهذا الاعتبار، كما أنّه بعد وصول الخبر إلى الرّسول صلى الله عليه وآله بنزول جيش المشركين في أحد أعلن رأيه بالتحصّن في قلاع المدينة وعدم الخروج في ميدان أُحد للقتال معهم، ولكن خالفه جمع من أصحابه فهدموا رأيه صلوات الله عليه.

الترجمة

فرمود: مخالفت، راى را خرد مى كند.

چون خردمند مخالف بيند — راى خود را ز ميان برچيند

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٤١ ح١٤، وميزان الحكمة: ٢/ ١٠٢٥ ح١٤٢٦.

الخامسة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٥) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ نالَ اسْتَطالَ»[١].

المعنى

أصعب الوظائف حفظ العدل في الأمور في تقلّب الأحوال وتبدُّل حالات الرِّجال وخصوصاً لمن كان فقيراً فأغني، أو وضيعاً فصار رفيعاً، أو نال أمارة، ولا يقدر على ذلك إلاّ الأوحدي من الناس كالمعصومين أو المرتاضين المثقفين أو من تلاهم في التربية والدِّين، وقد أشار إلى العدول عن سبيل العدل لمن نال مالاً بعد الفقر وشرفاً بعد الضعة، وأمارة بعد العطلة بقوله: **(من نال استطال)** أي يصول على غيره ويتحكّم على النّاس بميله.

الترجمة

فرمود: هركس به نوايى رسد، دست درازى آغازد.

بينوا چون به خود نوايى ديد   دست افشاند هر گلى را چيد

---

(١) بحار الأنوار: ٣٥٧/٧٢.

السادسة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٦) وَقال عليه السلام: «في تَقَلُّبِ ٱلْأَحْوالِ عُلِمَ جَواهِرُ ٱلرِّجالِ»[١].

اللغة

(جوهر) كلّ شيء جبلّته المخلوق عليها يقال: جوهر الثوب جيّد ورديّ ونحو ذلك ـ مجمع البحرين.

الإعراب

(في تقلّب الأحوال)، ظرف مستقر خبر مقدّم، و**(علم)** مبتدأ مؤخّر، وهو مصدر من المبني للمفعول مضاف إلى النائب عن الفاعل، أي يعلم جواهر الرّجال في تقلّب الأحوال.

المعنى

الأحوال الطارئة على الإنسان مختلفة، منها موجبة للسرور، ومنها موجبة للألم والنفور، فمواجهة الإنسان مع كلّ حال تؤثّر فيه أثراً خاصّاً، والنفوس مختلفة تجاه هذه التأثّرات والانفعالات، فمنها ما تتأثّر من المناظر الشهوية أكثر ومنها ما تتعلّق بالأموال أكثر، ومنها ما تتوجّه إلى الجاه، فالتجربة محك لجوهر كلّ فرد من الأفراد، وتقلّب الأحوال بوتقة يذوب فيه جوهره ويخرج منها ذهباً أو فضة أو رصاصاً أو غيره، والنّاس معادن كمعادن الذّهب والفضّة.

الترجمة

فرمود: گوهر مردان، در آزمايشگاه ديگرگونى احوال معلوم مى شود.

---

(١) بحار الأنوار: ٧١/ ١٦٣ ح٢٨، ومستدرك سفينة البحار: ٢/ ١٤٤.

السابعة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٧) وَقالَ عليه السلام: «حَسَدُ ٱلصَّديقِ مِنْ سُقْمِ ٱلْمَوَدَّةِ»[1].

المعنى

الصّديق السّليم من يرى نفع الصّديق نفعه، وضرّه ضرّه، ونعمته نعمته، وعلى هذا المنوال، وهو الّذي قال عليٌّ عليه السلام لابنه الحسن: يا بنيّ ابذل نفسك ومالك لصديقك، فإذا كان الصديق بتلك المنزلة من صديقه فلا معنى لأن يحسده، لأنَّ الحسد تمنّي زوال نعمة المحسود، فإذا ظهر الحسد ممّن يدَّعي الصداقة والودّ يدلّ على خلل في صداقته ومودّته، وكذب في دعواه.

دگرگونى حال و وضع زمان   نشان مى دهد گوهر مردمان

الترجمة

فرمود، حسد بردن بر دوست، از نادرستى در مهر او است.

حسد بر دوست گر گردید پيدا   شود بيمارى مهرش هويدا

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٢٣٤، ومستدرك سفينة البحار: ٢/ ٢٨٧.

الثامنة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٨) وَقالَ عليه السلام: «أَكْثَرُ مَصَارِعِ ٱلْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ ٱلْمَطَامِعِ»[1].

المعنى

الحياة صراع مستمرٌّ وتنازع دائم بين النور والظلمة، وبين الخير والشرّ ومتى ينتهي هذا الصراع والتنازع؟ وإلى أين يستمرّ؟ وقد تمثّل عليه السلام في هذا الكلام تنازع ومعركة في عالم وجود الإنسان يقابل فيه العقل مع الطمع، فالعقل من عالم النّور، والطمع من عالم الظلمة، العقل بطل روحاني، والطمع عدوّ ظلمانيّ شيطاني فقام الطمع في هذا الميدان بالخداع وكمن للعقل بآرائه ما يشبه النّور، وعبّر عنه عليه السّلام بالبرق الساطع، من طغيان الطمع يراه الطّامع ماء وهو كسراب بقيعة، فتثور القوى الشهويّة في ضوء هذا البرق وتهجم على العقل في حصنه الحصين وتؤسره وتصرعه غالباً، وتغلب عليه بثورانه وهيجانه، فتستعبده وتسترقّه فيصير ذليلاً خاضعاً، وهذا من أبلغ التعبير في الحذر عن الانقياد للمطامع مهما كانت برّاقة شوّاقة.

الترجمة

کشتارگاه خردها، بيشتر در پرتو دروغين طمع ها است.

خرد را مكش با طمع اى پسر — مشو غرّه بر پرتو بى ثمر

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١١٦، وبحار الأنوار: ٧٠/ ١٧٠ ح٧.

التاسعة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٠٩) وَقالَ عليه السلام: «لَيسَ مِنَ ٱلعَدْلِ ٱلقَضاءُ عَلَى ٱلثِّقَةِ بِالظَّنِّ»[(١)].

المعنى

قال ابن ميثم: أي من كان عندك ثقة معروفاً بالأمانة فحكمك عليه بالخيانة عن ظنّ خروج عن العدل، وهو رذيلة الجور، وقال الشارح المعتزلي: هذا مثل قول أصحاب أصول الفقه: لا يجوز نسخ القرآن والسنّة المتواترة بخبر الواحد، لأنَّ المظنون لا يرفع المعلوم ـ إلخ.

أقول: والتفسيران متقاربان، والأظهر أنَّ هذه الجملة متضمنة لدستور قضائي والمقصود أنَّ القضاء يلزم أن يكون مستنداً إلى دليل علمي وتحقيق قطعي في مورد الحكم، ولا يصحّ الاعتماد على مجرَّد الظنّ في باب القضاء وصدور الحكم، فتدبّر.

الترجمة

فرمود: در شمار عدالت نيست كه در قضاوت اعتماد به مجرَّد گمان شود.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤١١، وبحار الأنوار: ٧١/ ١٦٤ ح٢٨.

العاشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٠) وَقال عليه السلام: «بِئْسَ الزَّادُ إِلَى ٱلْمَعَادِ، ٱلْعُدْوَانُ عَلَى ٱلْعِبَادِ»(١)

المعنى

الظلم على النّفس بارتكاب المعاصي الّتي لا تمسّ حقوق النّاس كشرب المسكر مثلاً أسهل توبة وأقرب إلى المغفرة، وقد وعد الله المغفرة على الظلم بالنفس فقال: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وأمّا إذا كان ظلماً وعدواناً على العباد كالغيبة وأكل مال النّاس بغير حقّ فلا توبة له إلاّ بأداء حقّ النّاس وتحصيل البراءة منهم، وإلاّ يبقى في الذمّة إلى يوم المعاد ويؤاخذ عنه فيكون بئس الزاد.

الترجمة

فرمود: بد توشه ای است ستم بر بندگان خدا برای روز جزا.

توشه ناگوار روز قیامت ستم و ظلم است به امت

(١) كنز الفوائد: ٥٧، رعيون الحكم والمواعظ: ١٩٣.

الحادية عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١١) وَقالَ: «مِنْ أَشْرَفِ أَفْعَالِ الْكَرِيم غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ»(١).

المعنى

من الأسماء الحسنى والصّفات العليا لله تعالى هو الستّار، ومفهومه الإغضاء عن معاصي العباد وإلقاء الستر عليها، وهذا من كرمه العميم، فكان أشرف أعمال الكريم أن يصرف النظر عن سوء الأدب أو العمل السيّىء الصادر عن الغير وعلمه، وقد شدّد الشرع الإسلامي في تحريم الغيبة وذكر عيوب النّاس وفرض على المسلمين الالتزام بهذه الكرامة لحفظ الأعراض، وصون الاجتماع عن التلاشي والانحطاط.

الترجمة

فرمود: يكى از كارهاى بسيار شرافتمندانه مردم بزرگ و ارجمند اين است كه از آن چه مى دانند خود را به غفلت مى زنند و ناديده مى گيرند و چشم برهم مى گذارند و مى گذرند.

اشرف كار كريمان اين است — كه ز دانسته خود در گذرند

(١) بحار الأنوار: ٧٢/٤٩ ح١٢، ومستدرك سفينة البحار: ٩/١٠٨.

الثانية عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٢) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ كَسَاهُ ٱلْحَيَاءُ ثَوْبَهُ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ»(١).

الإعراب

(ثوبه) مفعول ثان لقوله كساه على وجه التجريد كأنّه جرِّد من الحياء رجلاً كاسياً واعتبر نفس الحياء ثوباً باعتبار آخر.

المعنى

الحياء انفعال نفساني يمنع عن ارتكاب القبائح وتلمس العيوب، وهو من أشرف الغرائز البشرية إذا لم يتجاوز عن حدّه ويتبدّل بنوع من الخمول والغزلة عن التصدّي للأمور الحسنة كالمعاشرة مع النّاس وطلب المعاش، فيقول عليه السلام إنَّ الحياء ثوب غير مرئي يغطّي العيوب تارة بالاجتناب عن ارتكابها، وأخرى بالسكوت عن إشاعتها وذكرها والجدّ في استتارها.

الترجمة

فرمود: هركه را شرم بپوشاند، عيب او از مردم نهان ماند.

هـر كـه از شـرم جـامـه بـر تـن داشـت   چـشـم مـردم ز عـيـب خـود بـرداشـت

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٥٠، وبحار الأنوار: ٦٨/ ٣٣٧ ح٢٣.

الثالثة عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٣) وَقالَ عليه السلام: «بِكَثْرَةِ ٱلصَّمْتِ تَكُونُ ٱلْهَيْبَةُ، وَبِٱلنَّصَفَةِ يَكْثُرُ ٱلْمُواصِلُونَ، وَبِالْإِفْضالِ تَعْظُمُ ٱلْأَقْدارُ، وَبِالتَّواضِعِ تَتِمُّ ٱلنِّعْمَةُ، وَبِاحْتِمالِ ٱلْمُؤَنِ يَجِبُ ٱلسُّؤدَدُ، وَبِالسِّيرَةِ ٱلْعادِلَةِ يُقْهَرُ ٱلْمُناوىءُ، وَبِالْحِلْمِ عَنِ ٱلسَّفيهِ تَكْثُرُ ٱلْأَنْصارُ عَلَيْهِ»(١).

الإعراب

(بكثرة الصمت)، جار ومجرور وهو ظرف مستقر خبر لقوله تكون قدّم عليه للاهتمام به وبيان أنّه هو المقصود بالإفادة، وكذلك الحكمة في تقديم الجار على متعلّقه في سائر الجمل.

المعنى

قد نبّه عليه السلام في هذه الجمل على خصال عالية لذوي الشؤون السّامية من الأُمراء والقادة والسّادة، فإنهم أليق بهذه الخصال من العامّة والسوقة والأنذال وقد نظمها في سبع:

١ ـ الهيبة والحشمة في قلوب الناس بحيث لا يجترء أحد في التسابق عليه وقطع كلامه والازدراء به فيلزم عليه مراعاة الصمت وعدم النطق بما لا يعنيه وعدم التوغّل في الكلام مع معاشريه.

٢ ـ الإنصاف والعدل بينه وبين النّاس ورعاية الحقوق لذوي الحقوق، فيكثر المراجعة إليه والمواصلة له.

٣ ـ كثرة البذل والعطاء على ذوي الحاجة والاقتضاء، فيعظم قدره في الأنظار.

٤ ـ التواضع مع النّاس ومع المراجعين إليه يوجب تتميم نعمة قيادته وسيادته واستحكامها ودوامها.

٥ ـ الرّئاسة والسّيادة تستلزم تحمّل المؤنة والمصارف في طرق شتّى.

٦ ـ لا تخلو الرّئاسة والسودد من أعداء ألدّاء يناوؤن ويناضلون في التغلّب عليها،

---

(١) بحار الأنوار: ٦٦/ ٤١٠ ح١٢٦، وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٤٨.

وأقوى وسيلة في قهر المعارض هو التمسّك بسيرة عادلة تجلب قلوب العامّة وتدفع المناوىء.

٧ ـ من تصدّى للرئاسة والتقدُّم على الشعب لا بدّ له من مواجهة السفهاء لأنَّ عددهم ليس بقليل بين المرؤوسين، فلا بدَّ من أن يكون حليماً حتّى يكثر أنصاره.

الترجمة

فرمود: هرچه خاموشى بيشتر حشمت افزونتر و بهوسيله انصاف وابسته ها فزونى گيرند و با بذل و بخشش مقام بزرگ مى شود و با تواضع نعمت به كمال مى رسد و با تحمّل مخارج بزرگى و سيادت پابرجا مى گردد و با روش دادگرى و عدالت مخالف مقهور مى شود و بهوسيله بردبارى ياران فراوان به دست مى آيند.

حشمت ار خواهى بگو كمتر سخن — جمع كن ز انصاف گردت مرد و زن
بذل و بخشش رتبه ات بالا برد — وز تواضع نعمتت كامل شود
خرج گردن گير تا آقا شوى — با عدالت چيره شو بر مدّعى
بردبارى با سفيهان شيوه ساز — تا كه انصارت فزون گردند باز

الرابعة عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٤) وَقالَ عليه السلام: «اَلْعَجَبُ لِغَفْلَةِ اَلْحُسَّادِ عَنْ سَلاٰمَةِ الْأَجْسٰادِ»[١].

المعنى

وجّه ابن ميثم غفلة الحسّاد عن سلامة الأجساد وتوجّه حسدهم إلى المال والجاه، بأنّ سلامة الأجساد غير مشهودة فتكون مغفولاً عنها.

ووجّهها الشارح المعتزلي بأنّ ترك الحسد على سلامة الجسد ناشيء عن شركة الحاسد في هذه النعمة، وما يشارك الإنسان غيره فيه لا يحسده عليه، وقال في آخر كلامه: ويجوز أن يريد معنى آخر وهو تعجّبه من غفلة الحسّاد عن سلامة أنفسهم وعدم علاج حسدهم.

أقول: ويؤيّده الاعتبار فإنّ الحسد يذيب الجسد ويخلّ بسلامة الحاسد لأنّه أشبه بالحمى الدقيّة، وقد شاع بين النّاس ردع الحاسد بقولهم: اذهب ولازم الدّق، والحكاية عن الحاسد بأنّه ابتلى بالدقّ من النظر إلى نعمة رقيبه أو ندّه ويؤيّده ما يأتي في أواخر هذا الفصل من قوله عليه السلام: صحّة الجسد من قلّة الحسد[٢].

الترجمة

در شگفتم از غافل بودن حاسدان از تندرستى و سلامت ابدان.

در شگفتم كه حسودان خجل — مانده از نعمت صحت غافل

(١) مستدرك سفينة البحار: ٢/٢٨٨، وميزان الحكمة: ١/ ٦٣٠ ح٨٥٢.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠/٢٥٦ ح٢٨، ومستدرك سفينة البحار: ٢/٢٨٨.

الخامسة عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٥) وَقالَ عليه السلام: «اَلطَّامِعُ في وَثاقِ اَلذُّلِّ»[1].

اللغة

(الوثاق) بالفتح والكسر لغة وهو في الأصل حبل أو قيد يشدّ به الأسير والدّابة.

المعنى

توجّه الطامع إلى من يطمع نائله يرسم حبلاً غير مرئي جعله على عنقه وربط به على مورد الطمع، فكأنّه رقّ أو دابّة مربوطة بالرَّسن، وهذا معنى وثاق الذلّ.

الترجمة

فرمود: طمعكار در بند خوارى گرفتار است.

طمع كار پابند در خوارى است　　به زنجير خود در گرفتارى است

(١) مطلوب كل طالب: ٤١، وشرح كلمات أمير المؤمنين: ٥٨ ح٨٥.

السادسة عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٦) وَقالَ عليه السلام: «اَلْإِيْمانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرارٌ بِاللِّسانِ وَعَمَلٌ بِالْأَرْكانِ»[1].

أقول: وفي شرح المعتزلي المطبوع في مصر بدار الإحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركائه بعد قوله «وقال عليه السلام» ورد هذه الجملة: «وقد سئل عن الإيمان».

الترجمة

فرمود: ايمان شناخت با دل و اعتراف با زبان و كردار با اركان بدن است.
ابن ميثم اركان را به مساجد خمسه تفسير كرده است كه عبارت از پيشانى و دو كف دست و دو سر انگشت پاها است و ايمان مورد كلام را به ايمان كامل تفسير كرده است و شارح معتزلى، اين كلام را دليل بر مذهب معتزله دانسته كه عمل را جزء مفهوم ايمان دانند.

(١) الصراط المستقيم: ٢/١٧، ومستدرك سفينة البحار: ٧/٤٣٦.

السابعة عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٧) وَقالَ عليه السلام: «مَنْ أَصْبَحَ عَلَى الدُّنْيا حَزيناً فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضاءِ ٱللّهِ ساخِطاً، وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصيبَةً نَزَلَتْ بِهِ فَإِنَّما يَشْكُو رَبَّهُ، وَمَنْ أَتَىٰ غَنِيّاً فَتَواضَعَ[1] لِغِناهُ ذَهَبَ ثُلُثا دينِهِ، وَمَنْ قَرَأَ الْقُرآنَ فَماتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَهُوَ مِمَّنْ كانَ يَتَّخِذُ آياتِ اللّهِ هُزُواً، وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيا ٱلْتاطَ قَلْبُهُ[2] بِثَلاثٍ: هَمٌّ لا يُغِبُّهُ، وَحِرْصٌ لا يَتْرُكُهُ، وَأَمَلٌ لا يُدْرِكُهُ»[3].

اللغة

(لهج): وقد لهج بالشيءِ بالكسر يلهج لهجاً إذا أغرى به وأولع فيه من اللّهج بالشيء الوقوع فيه. وهذا الشيء لا يلتاط بقلبي أي لا يلصق به ـ مجمع البحرين **(أغبّ)** القوم: جاءهم يوماً وتركهم يوماً ـ المنجد.

الإعراب

(بثلاث)، اسم عدد حذف تميزه وعوّض عنه التنوين ثمَّ فسّر بعده، **(همّ لا يغبّه)** خبر مبتدأ محذوف.

المعنى

قد حذَّر عليه السلام في هذا الكلام من خمس خصال مذمومة هي أُمّهات الرذائل:

١ ـ الحزن على الدُّنيا لفوت منفعة أو تلف مال أو غيره من متاع الدُّنيا، فإنّه ناشىء عن حبِّ الدُّنيا، وهو رأس كلِّ خطيئة.

٢ ـ الشكوى من المصيبة عند النّاس على وجه الاعتراض بالله فيكون شكوى من الله عند خلقه، وهي خطأ عظيم مهلك.

٣ ـ التواضع للأغنياء طمعاً في مالهم وعطاياهم أو خضوعاً تجاه ما نالوه من دنياهم،

---

(١) «له» في نسخة.

(٢) «منها» في نسخة.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٤٦٢، وبحار الأنوار: ٧٠/ ١٣٠.

وهو يمسّ بكرامة البشرية، وإعراض عن الله إلى خلقه، فهو موبقة من الموبقات المهلكة.

٤ ـ من قرأ القرآن وهو يفهم معناه فلم يعمل به ولم يهتد بهداه حتّى استوجب من الله العقوبة ودخل النّار، فهو غير معتقد بالله واليوم الأخر، فكأن قرائته للقرآن وتظاهره به نوعاً من الاستهزاء بكلام الله، وهو كفر صريح وإن لم يظهر من فيه.

٥ ـ من أولع بحبّ الدُّنيا وكان عليها حريصاً بمالها وجاهها وسائر شهواتها فقد ابتلى بأمراض مزمنة لا يفارقها، وهي الهمُّ الدائم، والحرص الملازم، وآمال متلاطمة لا تدرك.

الترجمة

فرمود: هركس بر دنيا اندوه خورد، به تقاضاى خداوند خشم ورزيده و هركس از مصيبتى كه به وى وارد شود به خلق شكايت برد، محققاً از خداى خود شاكى است و هركس نزد توانگرى آيد و براى ثروتش بدو تواضع و كرنش كند، دوسوّم دينش از دستش رفته باشد و هركس قرآن خوانده و فهميده و مرده و به دوزخ رفته او از كسانى است كه عقيده نداشته و آيات خدا را بى مايه و مسخره پنداشته و هركس از دل دوستدار و فريفته دنيا است سه درد بر دلش بچسبد: اندوهى دايم و آرزى پيوسته و آرزويى ناشدنى.

هر كه بر دنيا بود اندوهبار / خشم كرده بر قضاى كردگار
از مصيبت گر برد شكوى به خلق / كرده شكوى از خداى در نزد خلق
هركه بر پاى توانگر سر نهد / از دو ثلث دين پاكش بگذرد
هركه قرآن خواند و داند كه چيست / ليك در دوزخ رود چون گشت نيست
از كسانى باشد آن بد عاقبت / كه به قرآن كرده استهزاء سمت
هركه بر دل حبّ دنيا نقش كرد / بر دل خود اين بلاها پخش كرد
همّ دائم، حرص لازم، آرزو / كه نيايد هرگز اندر دست او

الثامنة عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٨) وَقالَ عليه السلام: «كَفىٰ بِالْقَناعَةِ مُلْكاً، وَبِحُسْنِ ٱلْخُلْقِ نَعِيماً»[١].

المعنى

الملك يستلزم السّلطة ونفوذ الأمر والنهي على النّاس، وبهذا السبب كان ممّا يغتبط عليه ويجهد ويجاهد للوصول إليه، ومن قنع فقد تسلّط على نفسه وقام بأمره ونهيه فكان ملك مملكة نفسه، ومن حسن خلقه يتنعّم بماله أو بمال أصدقائه ولا يضيق عليه العيش ولا يتكدّر.

الترجمة

قناعت براى كامیابى از سلطنت بس است، و خوشخويى براى برخوردارى از نعمت و چه خوش سروده است:

كنج آسودگى و گنج قناعت ملكى است كه به شمشير ميسّر نشود سلطان را

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٤٥ ح٢، ومستدرك سفينة البحار: ٨/ ٦١٦.

التاسعة عشرة بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢١٩) وَسُئِلَ عن قول الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] فقال عليه السلام: هِيَ الْقَنَاعَةُ..

المعنى

قال الشارح المعتزلي: لا ريب أنّ الحياة الطيبة هي حياة الغنى، وقد بيّنا أنّ الغنى هو القنوع، لأنّ إذا كان الغنى عدم الحاجة فأغنى النّاس أقلّهم حاجة إلى النّاس، ولذا كان الله أغنى الأغنياء لأنه لا حاجة به إلى شيء[1].

الترجمة

پرسيدندش از قول خداى تعالى: "محققا ما به او زندگانى خوش مى دهيم" (النحل/ ٩٧)، در پاسخ فرمود: آن زندگى خوب، قناعت است.

(١) شرح النهج: ١٩/ ٥٥.

العشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢٠) وَقالَ عليه السلام: «شارِكُوا ٱلَّذي قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ، فإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغِنىٰ، وَأَجْدَرُ بِإِقْبالِ ٱلْحَظِّ عَلَيْهِ»[1].

المعنى

قد نبّه عليه السلام في هذه الحكمة العالية إلى أصل اقتصادي كبير قد جعلتها الأُمم الراقية والشعوب المتقدّمة في هذه العصور المشرقة بالعلم والازدهار أساساً لحياتها وبناء لمجتمعاتها، ألا وهو تأسيس الشركات والمعاونة يداً بيد للاسترباح من الكائنات، فإنّه من البديهي أنَّ اليد الواحدة قصيرة وأنَّ كلَّ فرد مستعدّ لنحو من العمل المثمر فإذا اشترك جمع في الإنتاج يتصدّى كلّ واحد منهم ما يكون مستعداً له ومتخصّصاً به، ويكثر العوامل المؤثرة، فيحصل ربح أكثر وفوائد لا تحصل من عمل شخص واحد، وقد أشار عليه السلام إلى أنَّ بعض النّاس أكثر رزقاً وأوفى حظاً في الحياة وبالشركة ينتفع من نصيبه وحظّه سائر الشركاء.

الترجمة

فرمود: با كسى كه روزى بدو روى آورده شركت كنيد، زيرا كه شركت با افراد روزى مند براى تحصيل ثروت شايسته تر است و براى به دست آوردن اقبال سزاوارتر.

بجوييد مردان روزى فراوان	به شركت درآييد در كسب آنان
كازين راه بهتر توان يافت ثروت	توان بخت را رام خود كرد آسان

(١) ميزان الحكمة: ٢/١٤٤٣ ح١٩٩٨، وبحار الأنوار: ١٠٠/٨٦ ح٢٠.

الحادية والعشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢١) وَقالَ عليه السلام: «في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]: ٱلْعَدْلُ: ٱلْإِنْصَافُ، وَالْإِحْسَانُ: ٱلتَّفَضُّلُ»[١].

المعنى

قال ابن ميثم: وهو تعريف لفظ بلفظ أوضح منه عند السائل.

وقال الشارح المعتزلي: هذا تفسير صحيح اتفق عليه المفسّرون كافة، وإنما دخل الندب تحت الأمر لأنَّ له صفة زائدة على حسنه، وليس كالمباح الّذي لا صفة له زائدة على حسنه ـ انتهى[٢].

أقول: تفسيره عليه السلام العدل بالإنصاف بيان لموضوع الأمر في الآية وأنها ناظرة إلى الحقوق والأموال والمعاملة بين النّاس بعضهم بعضاً، فالعدل أداء الحق وأخذ الحق سواء، والإحسان هو الأداء فوق حقّ الآخذ أو بدون حقّ له على المعطي، وحاصله الإنفاق بلا عوض معاملي.

ويمكن أن يقال: إنَّ الإحسان بمعنى التفضّل ليس مندوباً على الإطلاق بل يصحّ أن يكون واجباً كفائياً، فإنه لو ترك الإحسان مطلقاً يقع حياة جمع من النّاس في الخطر، كما أنّه يمكن أن يقال: إنَّ الإنفاق الواجب على الأقارب يكون من باب التفضّل الواجب.

الترجمة

در تفسير قول خداى تعالى: "به درستى كه خدا فرمان داده است به عدالت و احسان" (النحل/ ٩٠)، فرمود: عدل به معنى انصاف است و احسان به معنى تفضّل و انعام.

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ٧/ ١١٩، وميزان الحكمة: ٣/ ١٨٤٠ ح٢٥٤٧.

(٢) شرح النهج: ١٩/ ٥٨.

الثانية والعشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢٢) وَقالَ عليه السلام: مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ ٱلْقَصِيرَةِ، يُعْطَ بِالْيَدِ ٱلطَّوِيلَةِ. قالَ الرَّضيُّ رحمه الله: ومَعنى ذٰلك أنَّ ما ينفقه ٱلمرءُ من ماله في سبيل الخيْر والبرّ وإنْ كان يسيراً فإنَّ الله تعالىٰ يجعل الجزاء عليه عظيماً كثيراً، والْيدان ههٰنا عبارةٌ عن النِّعمتين، ففرق عليه السلام بين نعمة ٱلعبد ونَعمَة الرَّبِّ تعالى ذكره بالقصيرة والطَّويلة، فجعلَ تلك قصيرةً وهٰذه طويلةً لِإنَّ نعم ٱللّه أبداً تضعف علىٰ نعم المخلوقين أضعافاً كَثيرةً، إذ كانت نعمُ الله أصل النِّعم كُلِّها، فكُلُّ نعمةٍ إليها ترجع، وعَنها تُنزَعُ - نقل عن الشرح المعتزلي ج١٩ - طبع مصر.

أقول: وقد بين ذلك في آيات من القرآن كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١][1].

الترجمة

فرمود: هركه با دست كوتاه بدهد از دست بلندى عوض بستاند.

سيد رضى (رحمه الله) در شرح آن فرموده: يعنى هرچه مرد از مال خود در خيرات صرف كند و گرچه اندك باشد، خداوند پاداش بسيار و بزرگش بدهد و دو دست دهنده و عوض دهنده در اينجا عبارت از همان دو نعمت است كه داد و ستد شده و آن حضرت نعمت بنده را از نعمت خدا جدا كرده، اين را كوتاه و آن را بلند دانسته، زيرا نعم خدا هميشه چند برابر نعمت آفريدگان او است، زيرا نعم خدا اصل همه نعمت ها است و مرجع هر نعمتى بدان است و از آن است.

در را خدا به دست كوتاه — مى بخش تو قربة الى الله
وز دست بلند حق عوض گير — لاحول ولا قوة الا بالله

(١) بحار الأنوار: ٩٥/ ١٧٣، والغدير: ٨/ ٣٤٠.

الثالثة والعشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢٣) وقالَ عليه السلام لِابْنِهِ ٱلْحَسَن عليه السلام : «لاَ تَدْعُوَنَّ إِلىٰ مُبارَزَةٍ وَإِنْ دُعيتَ إِلَيْها فَأَجِبْ، فَإِنَّ ٱلدَّاعِيَ باغٍ وَٱلْباغي مَصْرُوعٌ»(١).

المعنى

المبارزة هي الدَّعوة إلى القتال وتنجرُّ بقتل أحد المقاتلين غالباً، وكانت مرسومة في المعارك القديمة الجارية بالأسلحة الباردة من السيف والسّنان والملاكمة وقد تقع بين اثنين متداعيين في أمر من الأمور، كفصل نهائي للخصومة والتنازع ويعبّر عنها بدوئل، فإن حمل كلامه على ميدان الجهاد فيكون كلامه إرشاداً إلى الحزم وعدم البدأة بالقتال مهما تأزّم الموقف كما كانت سيرته عليه السلام في الجمل وصفّين وإن حمل على المعنى الثاني أو الأعمّ منها ففيه غموض ويحتاج إلى التأمّل.

الترجمة

به فرزندش حسن (عليه السلام) فرمود: مبادا به جنگ پيشدستى كنى و هم نبرد را بخوانى و اگر بدان خوانده شدى اجابت كن، زيرا خواستار آن ياغى است و ستمكار و ياغى در هلاكت است، خطاب به فرزندش:

فرمود حسن مخوان مبارز	آغاز به جنگ نيست جايز
ور آن كه بدان شدى تو دعوت	بايد بكنى از آن اجابت
زيرا كه مبارز تو ياغى است	ياغى به هلاك خويش ساعى است

(١) بحار الأنوار: ٣٩/٩٧، وميزان الحكمة: ١/٥٦٤.

الرابعة والعشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢٤) وَقالَ عليه السلام: «خِيارُ خِصالِ ٱلنِّساءِ شِرارُ خِصالِ ٱلرِّجالِ: ٱلزَّهْوُ، وَٱلْجُبْنُ، وَٱلْبُخلُ، فَإِذا كانَتِ ٱلْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِها، وَإِذا كانَتْ بَخيلَةً حَفِظَتْ مالَها وَمالَ بَعْلِها، وَإِذا كانَتْ جَبانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَها»(١).

اللغة

(زهى) الرّجل علينا فهو مزهوّ إذا افتخر، وكذلك نخى فهو منخوّ من النخوة ولا يجوز زها إلاّ في لغة ضعيفة **(فرقت)**: خافت والفرق: الخوف.

المعنى

أهمّ الأوصاف الممدوحة والواجبة في المرأة العفاف والأمانة، لأنها في معرض شهوة الرجال الأجانب، وملتهب العشق والإحساس من كلّ جانب، ولأنّها صاحبة البيت وربّتها والمستودع مال الزوج عندها ومعروفة بالضعف لدى النّاس، فلا بدَّ لها مما يجبر هذه الأخطار المتوجهة إليها في النفس والمال فيحسن منها الزّهو والتكبّر بحيث يمنعها ذلك عن نظرها إلى الأجانب أو طمع الأجانب فيها، وهذا التمنّع يعدّ في الرَّجل تكبّراً مذموماً وفي المرأة تعفّفاً ممدوحاً.

كما أنّ إمساكها لما في يدها من الأموال وترك الإقدام على البذل والإفضال ممدوح وإن عدَّ من البخل أو الشحّ، لأنّ ذلك سدّ عن طمع الأجانب في نفسها وعن طمع الغاصبين والسارقين لما في يدها.

والجبن يعينها عن الخروج في الخلوات والسّفر في ظلمة اللّيالي والصحراوات فيفيدها من الناحيتين مضافاً إلى أنَّ هذه الصفات تأثرات ترتبط بالإحساس والإحساس في المرأة أقوى من الرَّجل.

---

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٢٨٧٤ ح٣٦٥٧، وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٦٥.

الترجمة

فرمود: بهترين خصال زنان بدترين خصال مردان است: تكبّر و ترس و بخل، چون زن با تكبّر باشد بيگانه را بر خود راه ندهد و چون بخيل باشد مال خودش و مال شوهرش را نگهدارى كند و چون ترسو باشد از هرچه بر او رخ دهد در هراس باشد.

آن چه در زن بود خجسته خصال	برشمر بدترين خصال رجال
چون تكبّر هراس و بخل دريغ	شرح آن را شنو به استعجال
زن با كبر خود نگهدار است	ندهد بر مراد غير مجال
ور كه باشد بخيل حفظ كند	مال خود را و شوى در هر حال
ور بترسد به خانه پابند است	چون هراسد ز سوء استقبال

الخامسة والعشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢٥) وَقيل له عليه السلام صف لنا ٱلعاقل، فقالَ: هُوَ ٱلَّذي يَضَعُ ٱلشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ، فقيلَ له: فصف لنا ٱلجاهل، فقالَ: قَدْ فَعَلْتُ.

قالَ الرَّضيُّ رحمه الله: يعني أنَّ ٱلجاهل هو الَّذي لا يضعُ الشَّيْءَ مواضعه، فَكَأَنَّ تَرك صفته صفةٌ له، إذا كان بخلاف وصف ٱلعاقل[1].

المعنى

الجهل تارة يقابل بالعقل كما اعتبره الكليني قدّس سرّه، فعنون صدر أُصوله في الكافي بقوله: كتاب العقل والجهل، وتارة يقابل بالعلم كما هو المتبادر المعروف وقد وصف عليه السلام العقل وحمل السؤال الثاني على ما يقابله فقال عليه السلام: قد وصفت الجهل المقابل للعقل بتوصيف العقل، فإذا كان العاقل من يضع الشيء مواضعه كان الجاهل من لا يضع الشيء مواضعه إمّا بترك وضعه أصلاً كمن ترك الصلاة رأساً، وإمّا بوضعه في غير موضعه كمن صلّى في الدار المغصوبة عالماً عامداً، والجهل المقابل للعقل بهذا المعنى غير الجهل المقابل للعلم، فإنّه ربّما يكون عالماً ويتعمّل عمل الخلاف.

وقد شرح المعتزلي هذا الكلام بما لا يناسب المقام، فيا ليت عقل ولم يضع الشيء غير موضعه.

الترجمة

به آن حضرت عرض شد: خردمند را براى ما وصف كن، در پاسخ فرمود:

خردمند آن كسى است كه هر چيزى را به جاى خود نهد، پس به او گفته شد؛ جاهل را براى ما وصف كن، در پاسخ فرمود: وصف كردم.

به على گفته شد كه عاقل كيست	گفت آن كس كه هر چه داند چيست
نهدش جاى خود كه مى شايد	و آن رهى را رود كه مى‌بايد
گفته شد وصف كن تو جاهل را	گفت وصف كردمش براى شما

(١) بحار الأنوار: ١/ ١٦٠ ح٢٦، وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٦٦.

السادسة والعشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢٦) وَقالَ عليه السلام: «وَٱللّٰهِ لَدُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَهْوَنُ في عَيْنِي مِنْ عِرَاقِ خِنْزِيرٍ في يَدِ مَجْذُومٍ»[١].

اللغة

(العرق) بالفتح فالسكون: العظم الّذي أخذ عنه اللحم، والجمع **(عراق)** بالضمّ وفي الحديث ثريد وعراق ـ مجمع البحرين.

المعنى

قال في الشرح المعتزلي: **(العراق)** جمع عرق وهو العظم عليه شيء من اللحم وهذا من الجموع النادرة نحو دخل ودخال وتوأم وتوآم.

أقول: وقد جاء عليه السلام في هذا الكلام من عجيب التمثيل والتشبيه الموجب لكمال النفرة والانزجار عن حلال الدُّنيا وما فيها من الحرام بما يقرب من حدِّ الإعجاز في الفصاحة والأسلوب.

الترجمة

فرمود: سوگند به خداوند هر آينه اين دنياى شما پست تر است نزد من از تيكه استخوان خوكى كه در دست بيمار گرفتار به خوره و جذام است.

فرمود على كه طرفه دنياى شما — اندر نظرم چه استخوانى است ز خوك
اندر كف مجذوم تهى گشته ز لحم — مى ليسد از آن نزار و خنگ مفلوك

(١) بحار الأنوار: ٤٠/٣٣٧ ح٢١، وميزان الحكمة: ٢/٨٩٩ ح٩.

السابعة والعشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢٧) وَقالَ عليه السلام: «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ التُّجّارِ وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبادَةُ الْأَحْرارِ»(١).

الإعراب

(رغبة)، مفعول له لقوله: عبدوا، **(والفاء)** في قوله: فتلك للتفريع، وكذلك الكلام في قوله: رهبة وشكراً.

المعنى

العبادة تستلزم المعرفة والإيمان بالله، وإلاّ فتكون صورة بلا معنى، ودرجات المعرفة متفاوتة، وقدنبّه عليه السلام على مراتبها في هذا الكلام وبين لها ثلاث درجات: معرفة الراغبين، ومعرفة الراهبين، ومعرفة الأحرار المتقين.

قال الشارح المعتزلي: هذا مقام جليل تتقاصر عنه قوى أكثر البشر وقلنا إنّ العبادة لرجاء الثواب تجارة ومعاوضة إلخ.

أقول: قوله، **(معاوضة)**، لا يستقيم لأنّه إن عبد على وجه المعاوضة لا يتحقق قصد القربة ولا الإخلاص فتبطل العبادة رأساً، وقوله عليه السلام: فتلك عبادة التجّار معناه قصد الاسترباح بالعمل لا معاوضة العمل مع الثواب.

الترجمة

فرمود: مردمى به اميد و شوق ثواب خدا را بپرستند، اين پرستش تاجرانه است و مردمى از بيم و هراس خدا را بپرستند، اين پرستش بنده ها است و به راستى مردمى خدا را بپرستند به پاس خداونديش، اين پرستش آزادگان است.

خدا را پرستند قومى به رغبت — بود اين عبادت به رسم تجارت
ديگر مردم از بيم حق مى پرستند — عبادت دليل است بر اين كه عبدند
پرستند جمعى ديگر بهر شكرش — ز احرار اين است رسم پرستش

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ١٤، وميزان الحكمة: ١/ ٥٨٣ ح٧٨١.

الثامنة والعشرون بعد المائتين من حكمه عليه السلام

(٢٢٨) وَقالَ عليه السلام: «اَلْمَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّها، وَشَرُّ ما فيها أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْها»(١).

المعنى

للرَّجل مواجهة وارتباط مع الشؤون الدنيوية الّتي تمسّ حياتها من نواح شتّى، فمواجهة مع المال، ومواجهة مع الأعمال، ومواجهة مع الأمراء، ومواجهة مع العمّال، ومواجهة مع الجيران والأقرباء والأولاد وهكذا.

وله في هذه المواجهات مشاكل ومصاعب، وسهولات ومرافق، وخيرات وشرور ترجع إلى سوء سيرة الرَّجل في الحياة أو حسنها، وإلى ما يقهره ويقدر له.

وأصعب هذه المواجهات هي المواجهة مع المرأة في شتّى شؤون الحياة وقد نبّه عليه السلام إلى أنَّ هذه المواجهة تكون شراً للرَّجل من جميع النواحي: إن كانت فتّانة تسلب لبّه، وإن كانت قبيحة تروع قلبه، إن كانت زوجة تكلفه نفقتها، وإن كان أجنبية تجرّه إلى الفجور والفضاحة، وإن كانت عدوّة تغلبه بالبهتان والزور حتّى يكون شرّ شرورها أنّها لا بدّ منها، ولا يمكن التخلّص عنها.

الترجمة

فرمود: زن همه بلا است و بدتر از خودش اين است كه از اين بلا گريزى نيست.

زن بلا باشد و بدتر زين بلا   آن كه بايست كشيد اين ابتلا

(١) بحار الأنوار: ١٠٠/٢٥٢ ح٥٣، وشرح نهج البلاغة: ١٩/٦٩.

محتوى الجزء الحادي والعشرون من كتاب منهاج البراعة شرح نهج البلاغة